



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



اشرافيية
عليه صلوات الله
عليه وآله

WWW. **Ghaemiyeh** .com
WWW. **Ghaemiyeh** .org
WWW. **Ghaemiyeh** .net
WWW. **Ghaemiyeh** .ir

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَجْلَدُ الْقُرْآنِ

الْقُرْآنِ

المجلد 1-1



دار الفکر للطباعة والنشر

بغداد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مختصر الميزان فى تفسير القرآن

كاتب:

محمد حسين طباطبايى

نشرت فى الطباعة:

سازمان حج و اوقاف امور خيريه - اسوه

رقمى الناشر:

مركز القائميئ باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٧٥	مختصر الميزان فى تفسير القرآن
٧٥	اشاره
٧٥	الجزء الاول
٧٥	اشاره
٧٧	بحث حول الأساليب التفسيريه المختلفه
٧٨	الأسلوب التفسيرى الصحيح
٧٩	الميزان فى تفسير القرآن
٨٠	مختصر الميزان فى تفسير القرآن
٨٦	مميزات هذا الكتاب
٩٦	مقدمه الميزان فى تفسير القرآن
١١٤	سوره الحمد و هى سبع آيات
١١٤	[سوره الفاتحه (١): الآيات ١ الى ٥]
١١٤	اشاره
١١٤	بيان:
١١٤	اشاره
١٢٢	بحث روائى:
١٢٤	بحث فلسفى:
١٢٧	[سوره الفاتحه (١): الآيات ٦ الى ٧]
١٢٧	اشاره
١٢٨	بيان:
١٣٨	بحث روائى:
١٤٢	بحث آخر روائى:
١٤٥	سوره البقره و هى مائتان و ست و ثمانون آيه

١٤٥ اشاره

١٤٥ [سوره البقره (٢): الآيات ١ الى ٥]

١٤٥ اشاره

١٤٥ بيان:

١٤٩ [سوره البقره (٢): الآيات ٦ الى ٧]

١٤٩ اشاره

١٥٠ بيان:

١٥١ [سوره البقره (٢): الآيات ٨ الى ٢٠]

١٥١ اشاره

١٥٢ بيان:

١٥٣ [سوره البقره (٢): الآيات ٢١ الى ٢٥]

١٥٣ اشاره

١٥٤ بيان:

١٥٧ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

١٥٧ اشاره

١٥٧ بيان:

١٥٩ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٨ الى ٢٩]

١٥٩ اشاره

١٥٩ بيان:

١٦١ [سوره البقره (٢): الآيات ٣٠ الى ٣٣]

١٦١ اشاره

١٦٢ بيان:

١٦٥ [سوره البقره (٢): آيه ٣٤]

١٦٥ اشاره

١٦٥ بيان:

١٦٧ [سوره البقره (٢): الآيات ٣٥ الى ٣٩]

١٦٧ اشاره

١٦٧ بيان:

١٧٦ [سوره البقره (٢): الآيات ٤٠ الى ٤٤]

١٧٦ اشاره

١٧٧ بيان:

١٧٧ [سوره البقره (٢): الآيات ٤٥ الى ٤٦]

١٧٧ اشاره

١٧٧ بيان:

١٧٩ [سوره البقره (٢): الآيات ٤٧ الى ٤٨]

١٧٩ اشاره

١٧٩ بيان:

١٨٣ [سوره البقره (٢): الآيات ٤٩ الى ٤١]

١٨٣ اشاره

١٨٥ بيان:

١٨٧ [سوره البقره (٢): آيه ٤٢]

١٨٧ اشاره

١٨٧ بيان:

١٨٨ [سوره البقره (٢): الآيات ٤٣ الى ٧٤]

١٨٨ اشاره

١٨٩ بيان:

١٩٤ [سوره البقره (٢): الآيات ٧٥ الى ٨٢]

١٩٤ اشاره

١٩٥ بيان:

١٩٧ [سوره البقره (٢): الآيات ٨٣ الى ٨٨]

١٩٧ اشاره

١٩٨ بيان:

٢٠١ [سوره البقره (٢): الآيات ٨٩ الى ٩٣]

٢٠١ اشاره

٢٠١ بيان:

٢٠٣ [سوره البقره (٢): الآيات ٩٤ الى ٩٩]

٢٠٣ اشاره

٢٠٣ بيان:

٢٠٧ [سوره البقره (٢): الآيات ١٠٠ الى ١٠١]

٢٠٧ اشاره

٢٠٧ بيان:

٢٠٨ [سوره البقره (٢): الآيات ١٠٢ الى ١٠٣]

٢٠٨ اشاره

٢٠٨ بيان:

٢١٣ [سوره البقره (٢): الآيات ١٠٤ الى ١٠٥]

٢١٣ اشاره

٢١٣ بيان:

٢١٦ [سوره البقره (٢): الآيات ١٠٦ الى ١٠٧]

٢١٦ اشاره

٢١٦ بيان:

٢١٩ [سوره البقره (٢): الآيات ١٠٨ الى ١١٥]

٢١٩ اشاره

٢٢٠ بيان:

٢٢٢ [سوره البقره (٢): الآيات ١١٦ الى ١١٧]

٢٢٢ اشاره

٢٢٢ بيان:

٢٢٤ [سوره البقره (٢): الآيات ١١٨ الى ١١٩]

٢٢٤ اشاره

٢٢٤ بيان:

٢٢٥ [سوره البقره (٢): الآيات ١٢٠ الى ١٢٣]

٢٢٥ اشاره

٢٢٦ بيان:

٢٢٧ [سوره البقره (٢): آيه ١٢٤]

٢٢٧ اشاره

٢٢٧ بيان:

٢٣٧ [سوره البقره (٢): الآيات ١٢٥ الى ١٢٩]

٢٣٧ اشاره

٢٣٨ بيان:

٢٤٢ [سوره البقره (٢): الآيات ١٣٠ الى ١٣٤]

٢٤٢ اشاره

٢٤٣ بيان:

٢٤٦ [سوره البقره (٢): الآيات ١٣٥ الى ١٤١]

٢٤٦ اشاره

٢٤٧ بيان:

٢٥٢ [سوره البقره (٢): الآيات ١٤٢ الى ١٥١]

٢٥٢ اشاره

٢٥٤ بيان:

٢٦٥ [سوره البقره (٢): آيه ١٥٢]

٢٦٥ اشاره

٢٦٥ بيان:

٢٦٧ [سوره البقره (٢): الآيات ١٥٣ الى ١٥٧]

٢٦٧ اشاره

٢٦٨ بيان:

٢٧٤ [سوره البقره (٢): آيه ١٥٨]

٢٧٤ اشارة

٢٧٤ بيان:

٢٧٤ [سوره البقره (٢): الآيات ١٥٩ الى ١٦٢]

٢٧٤ اشارة

٢٧٤ بيان:

٢٧٩ [سوره البقره (٢): الآيات ١٦٣ الى ١٦٧]

٢٧٩ اشارة

٢٨٠ بيان:

٢٩٠ [سوره البقره (٢): الآيات ١٦٨ الى ١٧١]

٢٩٠ اشارة

٢٩٠ بيان:

٢٩٣ [سوره البقره (٢): الآيات ١٧٢ الى ١٧٦]

٢٩٣ اشارة

٢٩٤ بيان:

٢٩٥ [سوره البقره (٢): آيه ١٧٧]

٢٩٥ اشارة

٢٩٦ بيان:

٢٩٧ [سوره البقره (٢): الآيات ١٧٨ الى ١٧٩]

٢٩٧ اشارة

٢٩٧ بيان:

٢٩٩ [سوره البقره (٢): الآيات ١٨٠ الى ١٨٢]

٢٩٩ اشارة

٢٩٩ بيان:

٣٠٠ [سوره البقره (٢): الآيات ١٨٣ الى ١٨٥]

٣٠٠ اشارة

٣٠١ بيان:

٣٠٨ [سوره البقره (٢): آيه ١٨٦]

٣٠٨ اشاره

٣٠٨ بيان:

٣٠٨ اشاره

٣١٣ بحث روائى:

٣٢٣ [سوره البقره (٢): آيه ١٨٧]

٣٢٣ اشاره

٣٢٣ بيان:

٣٢٧ [سوره البقره (٢): آيه ١٨٨]

٣٢٧ اشاره

٣٢٧ بيان:

٣٢٩ [سوره البقره (٢): آيه ١٨٩]

٣٢٩ اشاره

٣٢٩ بيان:

٣٣١ [سوره البقره (٢): الآيات ١٩٠ الى ١٩٥]

٣٣١ اشاره

٣٣٢ بيان:

٣٣٧ [سوره البقره (٢): الآيات ١٩٦ الى ٢٠٣]

٣٣٧ اشاره

٣٣٨ بيان:

٣٤٦ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٠٤ الى ٢٠٧]

٣٤٦ اشاره

٣٤٦ بيان:

٣٥٠ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٠٨ الى ٢١٠]

٣٥٠ اشاره

٣٥٠ بيان:

٣٥٤ [سوره البقره (٢): الآيات ٢١١ الى ٢١٢] -

٣٥٤ اشاره

٣٥٤ بيان:

٣٥٥ [سوره البقره (٢): آيه ٢١٣] -

٣٥٥ اشاره

٣٥٦ بيان:

٣٦١ [سوره البقره (٢): آيه ٢١٤] -

٣٦١ اشاره

٣٦١ بيان:

٣٦٣ [سوره البقره (٢): آيه ٢١٥] -

٣٦٣ اشاره

٣٦٤ بيان:

٣٦٥ [سوره البقره (٢): الآيات ٢١٦ الى ٢١٨] -

٣٦٥ اشاره

٣٦٥ بيان:

٣٦٩ [سوره البقره (٢): الآيات ٢١٩ الى ٢٢٠] -

٣٦٩ اشاره

٣٦٩ بيان:

٣٧٤ [سوره البقره (٢): آيه ٢٢١] -

٣٧٤ اشاره

٣٧٤ بيان:

٣٧٦ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٢٢ الى ٢٢٣] -

٣٧٦ اشاره

٣٧٦ بيان:

٣٨١ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٢٤ الى ٢٢٧] -

٣٨١ اشاره

٣٨١ بيان:

٣٨٤ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٢٨ الى ٢٤٢]

٣٨٤ اشاره

٣٨٧ بيان:

٤٠٣ [سوره البقره (٢): آيه ٢٤٣]

٤٠٣ اشاره

٤٠٣ بيان:

٤٠٤ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٤٤ الى ٢٥٢]

٤٠٤ اشاره

٤٠٦ بيان:

٤١٢ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٥٣ الى ٢٥٤]

٤١٢ اشاره

٤١٢ بيان:

٤١٦ [سوره البقره (٢): آيه ٢٥٥]

٤١٦ اشاره

٤١٦ بيان:

٤٢٦ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٥٦ الى ٢٥٧]

٤٢٦ اشاره

٤٢٦ بيان:

٤٣٢ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٥٨ الى ٢٦٠]

٤٣٢ اشاره

٤٣٣ بيان:

٤٤٦ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٦١ الى ٢٧٤]

٤٤٦ اشاره

٤٤٨ بيان:

٤٤٣ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٧٥ الى ٢٨١]

٤٦٣ اشاره

٤٦٤ بيان:

٤٧١ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٨٢ الى ٢٨٣]

٤٧١ اشاره

٤٧٢ بيان:

٤٧٣ [سوره البقره (٢): آيه ٢٨٤]

٤٧٣ اشاره

٤٧٣ بيان:

٤٧٤ [سوره البقره (٢): الآيات ٢٨٥ الى ٢٨٦]

٤٧٤ اشاره

٤٧٤ بيان:

٤٨٣ سوره آل عمران مدنيه و هي مائتا آيه -

٤٨٣ اشاره

٤٨٣ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١ الى ٦]

٤٨٣ اشاره

٤٨٣ بيان:

٤٩٠ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٧ الى ٩]

٤٩٠ اشاره

٤٩١ بيان:

٤٩٧ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٠ الى ١٨]

٤٩٧ اشاره

٤٩٨ بيان:

٥١١ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٩ الى ٢٥]

٥١١ اشاره

٥١٢ بيان:

٥١٨ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

٥١٨ اشاره

٥١٨ بيان:

٥٢٢ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٢٨ الى ٣٢]

٥٢٢ اشاره

٥٢٣ بيان:

٥٣١ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٣٣ الى ٣٤]

٥٣١ اشاره

٥٣١ بيان:

٥٣٢ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٣٥ الى ٤١]

٥٣٢ اشاره

٥٣٣ بيان:

٥٤٣ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٤٢ الى ٤٠]

٥٤٣ اشاره

٥٤٥ بيان:

٥٦٦ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٦١ الى ٦٣]

٥٦٦ اشاره

٥٦٦ بيان:

٥٦٦ اشاره

٥٧٠ بحث روائي:

٥٨٧ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٦٤ الى ٧٨]

٥٨٧ اشاره

٥٩٠ بيان:

٦٠٥ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٧٩ الى ٨٠]

٦٠٥ اشاره

٦٠٥ بيان:

٦١٠ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٨١ الى ٨٥]

٦١٠ اشاره

٦١١ بيان:

٦١٦ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٨٦ الى ٩١]

٦١٦ اشاره

٦١٦ بيان:

٦١٩ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٩٢ الى ٩٥]

٦١٩ اشاره

٦١٩ بيان:

٦٢٢ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٩٦ الى ٩٧]

٦٢٢ اشاره

٦٢٣ بيان:

٦٢٤ [سوره آل عمران (٣): الآيات ٩٨ الى ١٠١]

٦٢٤ اشاره

٦٢٧ بيان:

٦٢٨ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٠٢ الى ١١٠]

٦٢٨ اشاره

٦٢٩ بيان:

٦٣٨ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١١١ الى ١٢٠]

٦٣٨ اشاره

٦٣٩ بيان:

٦٤٤ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٢١ الى ١٢٩]

٦٤٤ اشاره

٦٤٥ بيان:

٦٥٠ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٣٠ الى ١٣٨]

٦٥٠ اشاره

٦٥١ بيان

- ٦٥٤ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٣٩ الى ١٤٨]
٦٥٤ اشاره
٦٥٥ بيان:
٦٦٢ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٤٩ الى ١٥٥]
٦٦٢ اشاره
٦٦٤ بيان:
٦٧٣ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٥٦ الى ١٦٤]
٦٧٣ اشاره
٦٧٤ بيان:
٦٧٨ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٦٥ الى ١٧١]
٦٧٨ اشاره
٦٧٩ بيان:
٦٨٣ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٧٢ الى ١٧٥]
٦٨٣ اشاره
٦٨٣ بيان:
٦٨٦ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٧٦ الى ١٨٠]
٦٨٦ اشاره
٦٨٧ بيان:
٦٨٩ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٨١ الى ١٨٩]
٦٨٩ اشاره
٦٩٠ بيان:
٦٩٢ [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٩٠ الى ١٩٩]
٦٩٢ اشاره
٦٩٣ بيان:
٦٩٦ [سوره آل عمران (٣): آيه ٢٠٠]
٦٩٦ اشاره

بيان: ٦٩٦

سوره النساء مدنيه و هى مائه و ست و سبعون آيه ٦٩٨

اشاره ٦٩٨

[سوره النساء (٤): آيه ١] ٦٩٨

اشاره ٦٩٨

بيان: ٦٩٨

[سوره النساء (٤): الآيات ٢ الى ٦] ٧٠٤

اشاره ٧٠٤

بيان: ٧٠٤

[سوره النساء (٤): الآيات ٧ الى ١٠] ٧١٢

اشاره ٧١٢

بيان: ٧١٢

[سوره النساء (٤): الآيات ١١ الى ١٤] ٧١٦

اشاره ٧١٦

بيان: ٧١٧

[سوره النساء (٤): الآيات ١٥ الى ١٦] ٧٢٣

اشاره ٧٢٣

بيان: ٧٢٣

[سوره النساء (٤): الآيات ١٧ الى ١٨] ٧٢٦

اشاره ٧٢٦

بيان: ٧٢٦

[سوره النساء (٤): الآيات ١٩ الى ٢٢] ٧٣٣

اشاره ٧٣٣

بيان: ٧٣٣

[سوره النساء (٤): الآيات ٢٣ الى ٢٨] ٧٣٧

اشاره ٧٣٧

٧٣٨ بيان:

٧٥٤ [سوره النساء (٤): الآيات ٢٩ الى ٣٠]

٧٥٤ اشاره

٧٥٤ بيان:

٧٥٧ [سوره النساء (٤): آيه ٣١]

٧٥٧ اشاره

٧٥٨ بيان:

٧٥٩ [سوره النساء (٤): الآيات ٣٢ الى ٣٥]

٧٥٩ اشاره

٧٦٠ بيان:

٧٦٧ [سوره النساء (٤): الآيات ٣٦ الى ٤٢]

٧٦٧ اشاره

٧٦٨ بيان:

٧٧٢ [سوره النساء (٤): آيه ٤٣]

٧٧٢ اشاره

٧٧٢ بيان:

٧٧٣ [سوره النساء (٤): الآيات ٤٤ الى ٥٨]

٧٧٣ اشاره

٧٧٥ بيان:

٧٩٧ [سوره النساء (٤): الآيات ٥٩ الى ٧٠]

٧٩٧ اشاره

٧٩٩ بيان:

٨١٠ [سوره النساء (٤): الآيات ٧١ الى ٧٦]

٨١٠ اشاره

٨١١ بيان:

٨١٥ [سوره النساء (٤): الآيات ٧٧ الى ٨٠]

٨١٥ اشارة

٨١٦ بيان:

٨١٩ [سوره النساء (٤): الآيات ٨١ الى ٨٤]

٨١٩ اشارة

٨١٩ بيان:

٨٢٥ [سوره النساء (٤): الآيات ٨٥ الى ٩١]

٨٢٥ اشارة

٨٢٧ بيان:

٨٢٩ [سوره النساء (٤): الآيات ٩٢ الى ٩٤]

٨٢٩ اشارة

٨٣٠ بيان:

٨٣٣ [سوره النساء (٤): الآيات ٩٥ الى ١٠٠]

٨٣٣ اشارة

٨٣٤ بيان:

٨٤٠ [سوره النساء (٤): الآيات ١٠١ الى ١٠٤]

٨٤٠ اشارة

٨٤١ بيان:

٨٤٥ [سوره النساء (٤): الآيات ١٠٥ الى ١٢٤]

٨٤٥ اشارة

٨٤٧ بيان:

٨٤٥ بيان:

٨٧٢ [سوره النساء (٤): آيه ١٣٥]

٨٧٢ اشارة

٨٧٢ بيان:

٨٧٤ [سوره النساء (٤): الآيات ١٣٦ الى ١٤٧]

٨٧٤ اشارة

بيان: ٨٧٦

[سوره النساء (٤): الآيات ١٤٨ الى ١٤٩] ٨٨٤

اشاره ٨٨٤

بيان: ٨٨٤

[سوره النساء (٤): الآيات ١٥٠ الى ١٥٢] ٨٨٦

اشاره ٨٨٦

بيان: ٨٨٦

[سوره النساء (٤): الآيات ١٥٣ الى ١٦٩] ٨٨٨

اشاره ٨٨٨

بيان: ٨٩٠

[سوره النساء (٤): الآيات ١٧٠ الى ١٧٥] ٩٠٢

اشاره ٩٠٢

بيان: ٩٠٣

[سوره النساء (٤): آيه ١٧٦] ٩٠٨

اشاره ٩٠٨

بيان: ٩٠٨

الجزء الثانى ٩١٠

اشاره ٩١٠

سوره المائده مدنيه و هى مائه و عشرون آيه ٩١٦

اشاره ٩١٦

[سوره المائده (٥): الآيات ١ الى ٣] ٩١٦

اشاره ٩١٦

بيان: ٩١٧

بحث روائى آخر: ٩٤٢

[سوره المائده (٥): الآيات ٤ الى ٥] ٩٥٢

اشاره ٩٥٢

٩٥٢ بيان:

٩٦٠ [سوره المائده (٥): الآيات ٦ الى ٧]

٩٦٠ اشاره

٩٦٠ بيان:

٩٧٢ [سوره المائده (٥): الآيات ٨ الى ١٤]

٩٧٢ اشاره

٩٧٣ بيان:

٩٧٩ [سوره المائده (٥): الآيات ١٥ الى ١٩]

٩٧٩ اشاره

٩٨٠ بيان:

٩٩٠ [سوره المائده (٥): الآيات ٢٠ الى ٢٦]

٩٩٠ اشاره

٩٩١ بيان:

٩٩٧ [سوره المائده (٥): الآيات ٢٧ الى ٣٢]

٩٩٧ اشاره

٩٩٨ بيان:

١٠٠٤ [سوره المائده (٥): الآيات ٣٣ الى ٤٠]

١٠٠٤ اشاره

١٠٠٥ بيان:

١٠٠٩ [سوره المائده (٥): الآيات ٤١ الى ٥٠]

١٠٠٩ اشاره

١٠١٢ بيان:

١٠٢٥ [سوره المائده (٥): الآيات ٥١ الى ٥٤]

١٠٢٥ اشاره

١٠٢٦ بيان:

١٠٣٢ [سوره المائده (٥): الآيات ٥٥ الى ٥٦]

١٠٣٢ اشارة

١٠٣٢ بيان:

١٠٤٤ بحث روائى:

١٠٥٦ [سوره المائده (٥): الآيات ٥٧ الى ٦٦]

١٠٥٦ اشارة

١٠٥٨ بيان:

١٠٦٩ [سوره المائده (٥): آيه ٦٧]

١٠٦٩ اشارة

١٠٦٩ بيان:

١٠٨٢ بحث روائى:

١٠٩٢ [سوره المائده (٥): الآيات ٦٨ الى ٨٦]

١٠٩٢ اشارة

١٠٩٤ بيان:

١١٠٨ [سوره المائده (٥): الآيات ٨٧ الى ٨٩]

١١٠٨ اشارة

١١٠٨ بيان:

١١١٣ [سوره المائده (٥): الآيات ٩٠ الى ٩٣]

١١١٣ اشارة

١١١٣ بيان:

١١١٩ [سوره المائده (٥): الآيات ٩٤ الى ٩٩]

١١١٩ اشارة

١١٢٠ بيان:

١١٢٦ [سوره المائده (٥): آيه ١٠٠]

١١٢٦ اشارة

١١٢٦ بيان:

١١٢٧ [سوره المائده (٥): الآيات ١٠١ الى ١٠٢]

١١٢٧ اشاره

١١٢٧ بيان:

١١٢٨ [سوره المائده (٥): الآيات ١٠٣ الى ١٠٤]

١١٢٨ اشاره

١١٢٩ بيان:

١١٣١ [سوره المائده (٥): آيه ١٠٥]

١١٣١ اشاره

١١٣٢ بيان:

١١٣٤ [سوره المائده (٥): الآيات ١٠٦ الى ١٠٩]

١١٣٤ اشاره

١١٣٥ بيان:

١١٤٣ [سوره المائده (٥): الآيات ١١٠ الى ١١١]

١١٤٣ اشاره

١١٤٤ بيان:

١١٤٦ [سوره المائده (٥): الآيات ١١٢ الى ١١٥]

١١٤٦ اشاره

١١٤٧ بيان:

١١٥٣ [سوره المائده (٥): الآيات ١١٦ الى ١٢٠]

١١٥٣ اشاره

١١٥٣ بيان:

١١٦٤ سوره الأنعام و هي سبع آيات

١١٦٤ اشاره

١١٦٤ [سوره الأنعام (٦): الآيات ١ الى ٣]

١١٦٤ اشاره

١١٦٤ بيان:

١١٧٢ [سوره الأنعام (٦): الآيات ٤ الى ١١]

١١٧٢ اشارة

١١٧٣ بيان:

١١٧٧ [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٢ الى ١٨]

١١٧٧ اشارة

١١٧٨ بيان:

١١٨٦ [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٩ الى ٢٠]

١١٨٦ اشارة

١١٨٧ بيان:

١١٩١ [سوره الأنعام (٦): الآيات ٢١ الى ٣٢]

١١٩١ اشارة

١١٩٢ بيان:

١٢٠٠ [سوره الأنعام (٦): الآيات ٣٣ الى ٣٦]

١٢٠٠ اشارة

١٢٠١ بيان:

١٢٠٦ [سوره الأنعام (٦): الآيات ٣٧ الى ٥٥]

١٢٠٦ اشارة

١٢٠٨ بيان:

١٢٢٦ [سوره الأنعام (٦): الآيات ٥٦ الى ٧٣]

١٢٢٦ اشارة

١٢٣٠ بيان:

١٢٥١ [سوره الأنعام (٦): الآيات ٧٤ الى ٨٣]

١٢٥١ اشارة

١٢٥٣ بيان:

١٢٧١ [سوره الأنعام (٦): الآيات ٨٤ الى ٩٠]

١٢٧١ اشارة

١٢٧٢ بيان:

- ١٢٨٠ [سوره الأنعام (٦): الآيات ٩١ الى ١٠٥]
١٢٨٠ اشاره
١٢٨٤ بيان:
١٣٠٠ [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٠٦ الى ١١٣]
١٣٠٠ اشاره
١٣٠١ بيان:
١٣٠٩ [سوره الأنعام (٦): الآيات ١١٤ الى ١٢١]
١٣٠٩ اشاره
١٣١٠ بيان:
١٣١٧ [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٢٢ الى ١٢٧]
١٣١٧ اشاره
١٣١٨ بيان:
١٣٢٤ [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٢٨ الى ١٣٥]
١٣٢٤ اشاره
١٣٢٧ بيان:
١٣٣٢ [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٣٦ الى ١٥٠]
١٣٣٢ اشاره
١٣٣٤ بيان:
١٣٤٢ [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٥١ الى ١٥٧]
١٣٤٢ اشاره
١٣٤٣ بيان:
١٣٥١ [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٥٨ الى ١٦٠]
١٣٥١ اشاره
١٣٥٢ بيان:
١٣٥٤ [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٦١ الى ١٦٥]
١٣٥٤ اشاره

بيان: ١٣٥٧

سوره الأعراف مكيه و هي مائتا و ستة آيه ١٣٦٠

اشاره ١٣٦٠

[سوره الأعراف (٧): الآيات ١ الى ٩] ١٣٦٠

اشاره ١٣٦٠

بيان: ١٣٦١

[سوره الأعراف (٧): الآيات ١٠ الى ٢٥] ١٣٦٦

اشاره ١٣٦٦

بيان: ١٣٦٨

[سوره الأعراف (٧): الآيات ٢٦ الى ٣٦] ١٣٧٧

اشاره ١٣٧٧

بيان: ١٣٧٨

[سوره الأعراف (٧): الآيات ٣٧ الى ٥٣] ١٣٨٩

اشاره ١٣٨٩

بيان: ١٣٩١

له سيمياء لا تشق على البصر ١٤٠٢

[سوره الأعراف (٧): الآيات ٥٤ الى ٥٨] ١٤١١

اشاره ١٤١١

بيان: ١٤١١

[سوره الأعراف (٧): الآيات ٥٩ الى ٦٤] ١٤١٨

اشاره ١٤١٨

بيان: ١٤١٩

[سوره الأعراف (٧): الآيات ٦٥ الى ٧٢] ١٤٢١

اشاره ١٤٢١

بيان: ١٤٢٢

[سوره الأعراف (٧): الآيات ٧٣ الى ٧٩] ١٤٢٦

١٤٢٤ - - - - - اشارة

١٤٢٧ - - - - - بيان:

١٤٢٩ - - - - - [سوره الاعراف (٧): الآيات ٨٠ الى ٨٤]

١٤٢٩ - - - - - اشارة

١٤٣٠ - - - - - بيان:

١٤٣٢ - - - - - [سوره الاعراف (٧): الآيات ٨٥ الى ٩٣]

١٤٣٢ - - - - - اشارة

١٤٣٣ - - - - - بيان:

١٤٤١ - - - - - [سوره الاعراف (٧): الآيات ٩٤ الى ١٠٢]

١٤٤١ - - - - - اشارة

١٤٤٢ - - - - - بيان:

١٤٥١ - - - - - [سوره الاعراف (٧): الآيات ١٠٣ الى ١٢٦]

١٤٥١ - - - - - اشارة

١٤٥٣ - - - - - بيان:

١٤٦٣ - - - - - [سوره الاعراف (٧): الآيات ١٢٧ الى ١٣٧]

١٤٦٣ - - - - - اشارة

١٤٦٤ - - - - - بيان:

١٤٧١ - - - - - [سوره الاعراف (٧): الآيات ١٣٨ الى ١٥٤]

١٤٧١ - - - - - اشارة

١٤٧٥ - - - - - بيان:

١٤٨٧ - - - - - [سوره الاعراف (٧): الآيات ١٥٥ الى ١٦٠]

١٤٨٧ - - - - - اشارة

١٤٨٨ - - - - - بيان:

١٥٠٦ - - - - - [سوره الاعراف (٧): الآيات ١٦١ الى ١٧١]

١٥٠٦ - - - - - اشارة

١٥٠٧ - - - - - بيان:

١٥١٤ ----- [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٧٢ الى ١٧٤]

١٥١٤ ----- اشاره

١٥١٤ ----- بيان:

١٥٢٠ ----- [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٧٥ الى ١٧٩]

١٥٢٠ ----- اشاره

١٥٢١ ----- بيان:

١٥٢٧ ----- [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٨٠ الى ١٨٦]

١٥٢٧ ----- اشاره

١٥٢٧ ----- بيان:

١٥٣٥ ----- [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٨٧ الى ١٨٨]

١٥٣٥ ----- اشاره

١٥٣٦ ----- بيان:

١٥٣٩ ----- [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٨٩ الى ١٩٨]

١٥٣٩ ----- اشاره

١٥٤٠ ----- بيان:

١٥٤٤ ----- [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٩٩ الى ٢٠٦]

١٥٤٤ ----- اشاره

١٥٤٥ ----- بيان:

١٥٥١ ----- سوره الأنفال مدنيه و هي خمس و سبعون آيه

١٥٥١ ----- اشاره

١٥٥١ ----- [سوره الأنفال (٨): الآيات ١ الى ٦]

١٥٥١ ----- اشاره

١٥٥٢ ----- بيان:

١٥٥٣ ----- و بئرى ذو حفرت و ذو طويت

١٥٦١ ----- [سوره الأنفال (٨): الآيات ٧ الى ١٤]

١٥٦١ ----- اشاره

بيان: ١٥٤٢

[سوره الأنفال (٨): الآيات ١٥ الى ٢٩] ١٥٤٤

اشاره ١٥٤٤

بيان: ١٥٤٨

[سوره الأنفال (٨): الآيات ٣٠ الى ٤٠] ١٥٨٢

اشاره ١٥٨٢

بيان: ١٥٨٣

[سوره الأنفال (٨): الآيات ٤١ الى ٥٤] ١٥٩٠

اشاره ١٥٩٠

بيان: ١٥٩٢

[سوره الأنفال (٨): الآيات ٥٥ الى ٦٦] ١٦٠٦

اشاره ١٦٠٦

بيان: ١٦٠٨

[سوره الأنفال (٨): الآيات ٦٧ الى ٧١] ١٦١٧

اشاره ١٦١٧

بيان: ١٦١٨

[سوره الأنفال (٨): الآيات ٧٢ الى ٧٥] ١٦١٩

اشاره ١٦١٩

بيان: ١٦٢٠

سوره التوبه مدنيه و هي مائه و تسع و عشرون آيه ١٦٢٣

اشاره ١٦٢٣

[سوره التوبه (٩): الآيات ١ الى ١٦] ١٦٢٣

اشاره ١٦٢٣

بيان: ١٦٢٥

[سوره التوبه (٩): الآيات ١٧ الى ٢٤] ١٦٣٩

اشاره ١٦٣٩

بيان: ----- ١٦٤٢

[سوره التوبه (٩): الآيات ٢٥ الى ٢٨] ----- ١٦٥١

اشاره ----- ١٦٥١

بيان: ----- ١٦٥١

[سوره التوبه (٩): الآيات ٢٩ الى ٣٥] ----- ١٦٥٦

اشاره ----- ١٦٥٦

بيان: ----- ١٦٥٧

[سوره التوبه (٩): الآيات ٣٦ الى ٣٧] ----- ١٦٦٥

اشاره ----- ١٦٦٥

بيان: ----- ١٦٦٥

[سوره التوبه (٩): الآيات ٣٨ الى ٤٨] ----- ١٦٧٢

اشاره ----- ١٦٧٢

بيان: ----- ١٦٧٣

[سوره التوبه (٩): الآيات ٤٩ الى ٦٣] ----- ١٦٨٨

اشاره ----- ١٦٨٨

بيان: ----- ١٦٩٠

[سوره التوبه (٩): الآيات ٦٤ الى ٧٤] ----- ١٧٠١

اشاره ----- ١٧٠١

بيان: ----- ١٧٠٣

[سوره التوبه (٩): الآيات ٧٥ الى ٨٠] ----- ١٧١٥

اشاره ----- ١٧١٥

بيان: ----- ١٧١٦

[سوره التوبه (٩): الآيات ٨١ الى ٩٦] ----- ١٧١٩

اشاره ----- ١٧١٩

بيان: ----- ١٧٢١

[سوره التوبه (٩): الآيات ٩٧ الى ١٠٦] ----- ١٧٢٨

١٧٢٨ اشاره

١٧٢٩ بيان:

١٧٣٧ [سوره التوبه (٩): الآيات ١٠٧ الى ١١٠]

١٧٣٧ اشاره

١٧٣٨ بيان:

١٧٤٠ [سوره التوبه (٩): الآيات ١١١ الى ١٢٣]

١٧٤٠ اشاره

١٧٤٣ بيان:

١٧٥٠ [سوره التوبه (٩): الآيات ١٢٤ الى ١٢٩]

١٧٥٠ اشاره

١٧٥٠ بيان:

١٧٥٥ الجزء الثالث

١٧٥٥ اشاره

١٧٦١ سوره يونس و هي مائه و تسع آيات

١٧٦١ اشاره

١٧٦١ [سوره يونس (١٠): الآيات ١ الى ١٠]

١٧٦١ اشاره

١٧٦٢ بيان:

١٧٧١ [سوره يونس (١٠): الآيات ١١ الى ١٤]

١٧٧١ اشاره

١٧٧٢ بيان:

١٧٧٣ [سوره يونس (١٠): الآيات ١٥ الى ٢٥]

١٧٧٣ اشاره

١٧٧٥ بيان:

١٧٨٦ [سوره يونس (١٠): الآيات ٢٦ الى ٣٠]

١٧٨٦ اشاره

بيان: ١٧٨٧

[سوره يونس (١٠): الآيات ٣١ الى ٣٦] ١٧٩٠

اشاره ١٧٩٠

بيان: ١٧٩١

[سوره يونس (١٠): الآيات ٣٧ الى ٤٥] ١٧٩٤

اشاره ١٧٩٤

بيان: ١٧٩٥

[سوره يونس (١٠): الآيات ٤٦ الى ٥٦] ١٧٩٩

اشاره ١٧٩٩

بيان: ١٨٠٠

[سوره يونس (١٠): الآيات ٥٧ الى ٧٠] ١٨٠٤

اشاره ١٨٠٤

بيان: ١٨٠٦

[سوره يونس (١٠): الآيات ٧١ الى ٧٤] ١٨١٧

اشاره ١٨١٧

بيان: ١٨١٨

[سوره يونس (١٠): الآيات ٧٥ الى ٩٣] ١٨٢٠

اشاره ١٨٢٠

بيان: ١٨٢٢

[سوره يونس (١٠): الآيات ٩٤ الى ١٠٣] ١٨٣٤

اشاره ١٨٣٤

بيان: ١٨٣٥

[سوره يونس (١٠): الآيات ١٠٤ الى ١٠٩] ١٨٤٢

اشاره ١٨٤٢

بيان: ١٨٤٢

سوره هود مكيه و هي مائه و ثلاث و عشرون آيه ١٨٤٦

اشاره ١٨٤٦

[سوره هود (١١): الآيات ١ الى ٤] ١٨٤٦

اشاره ١٨٤٦

بيان: ١٨٤٦

[سوره هود (١١): الآيات ٥ الى ١٦] ١٨٥١

اشاره ١٨٥١

بيان: ١٨٥٣

[سوره هود (١١): الآيات ١٧ الى ٢٤] ١٨٧٠

اشاره ١٨٧٠

بيان: ١٨٧١

[سوره هود (١١): الآيات ٢٥ الى ٣٥] ١٨٧٩

اشاره ١٨٧٩

بيان: ١٨٨٠

[سوره هود (١١): الآيات ٣٦ الى ٤٩] ١٨٩٦

اشاره ١٨٩٦

بيان: ١٨٩٨

[سوره هود (١١): الآيات ٥٠ الى ٦٠] ١٩١٤

اشاره ١٩١٤

بيان: ١٩١٦

[سوره هود (١١): الآيات ٦١ الى ٦٨] ١٩٢٤

اشاره ١٩٢٤

بيان: ١٩٢٥

[سوره هود (١١): الآيات ٦٩ الى ٧٦] ١٩٢٩

اشاره ١٩٢٩

بيان: ١٩٣٠

[سوره هود (١١): الآيات ٧٧ الى ٨٣] ١٩٣٦

١٩٣٦ اشارة

١٩٣٧ بيان:

١٩٤٤ [سوره هود (١١): الآيات ٨٤ الى ٩٥]

١٩٤٤ اشارة

١٩٤٤ بيان:

١٩٥٥ [سوره هود (١١): الآيات ٩٦ الى ٩٩]

١٩٥٥ اشارة

١٩٥٥ بيان:

١٩٥٨ [سوره هود (١١): الآيات ١٠٠ الى ١٠٨]

١٩٥٨ اشارة

١٩٥٩ بيان:

١٩٦٦ [سوره هود (١١): الآيات ١٠٩ الى ١١٩]

١٩٦٦ اشارة

١٩٦٧ بيان:

١٩٧٩ [سوره هود (١١): الآيات ١٢٠ الى ١٢٣]

١٩٧٩ اشارة

١٩٧٩ بيان:

١٩٨٢ سوره يوسف مكيه و هي مائه و احدى عشره آيه

١٩٨٢ اشارة

١٩٨٢ [سوره يوسف (١٢): الآيات ١ الى ٣]

١٩٨٢ اشارة

١٩٨٢ بيان:

١٩٨٦ [سوره يوسف (١٢): الآيات ٤ الى ٦]

١٩٨٦ اشارة

١٩٨٦ بيان:

١٩٩١ [سوره يوسف (١٢): الآيات ٧ الى ٢١]

اشاره ----- ١٩٩١

بيان: ----- ١٩٩٢

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٢٢ الى ٣٤] ----- ٢٠٠٩

اشاره ----- ٢٠٠٩

بيان: ----- ٢٠١١

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٣٥ الى ٤٢] ----- ٢٠٢٩

اشاره ----- ٢٠٢٩

بيان: ----- ٢٠٣٠

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٤٣ الى ٥٧] ----- ٢٠٤٠

اشاره ----- ٢٠٤٠

بيان: ----- ٢٠٤١

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٥٨ الى ٦٢] ----- ٢٠٥٤

اشاره ----- ٢٠٥٤

بيان: ----- ٢٠٥٥

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٦٣ الى ٨٢] ----- ٢٠٥٧

اشاره ----- ٢٠٥٧

بيان: ----- ٢٠٦١

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٨٣ الى ٩٢] ----- ٢٠٧٧

اشاره ----- ٢٠٧٧

بيان: ----- ٢٠٧٨

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٩٣ الى ١٠٢] ----- ٢٠٨٥

اشاره ----- ٢٠٨٥

بيان: ----- ٢٠٨٧

[سوره يوسف (١٢): الآيات ١٠٣ الى ١١١] ----- ٢٠٩٥

اشاره ----- ٢٠٩٥

بيان: ----- ٢٠٩٦

سوره الرعد مكيه و هي ثلاث و أربعون آيه ----- ٢١٠٣

اشاره ----- ٢١٠٣

[سوره الرعد (١٣): الآيات ١ الى ٤] ----- ٢١٠٣

اشاره ----- ٢١٠٣

بيان: ----- ٢١٠٤

[سوره الرعد (١٣): الآيات ٥ الى ٦] ----- ٢١١١

اشاره ----- ٢١١١

بيان: ----- ٢١١١

[سوره الرعد (١٣): الآيات ٧ الى ١٦] ----- ٢١١٦

اشاره ----- ٢١١٦

بيان: ----- ٢١١٧

[سوره الرعد (١٣): الآيات ١٧ الى ٢٤] ----- ٢١٣٠

اشاره ----- ٢١٣٠

بيان: ----- ٢١٣٢

[سوره الرعد (١٣): الآيات ٢٧ الى ٣٥] ----- ٢١٤٥

اشاره ----- ٢١٤٥

بيان: ----- ٢١٤٧

[سوره الرعد (١٣): الآيات ٣٦ الى ٤٢] ----- ٢١٥٩

اشاره ----- ٢١٥٩

بيان: ----- ٢١٦٠

[سوره الرعد (١٣): آيه ٤٣] ----- ٢١٦٨

اشاره ----- ٢١٦٨

بيان: ----- ٢١٦٨

سوره إبراهيم مكيه و هي اثنتان و خمسون آيه ----- ٢١٧٣

اشاره ----- ٢١٧٣

[سوره إبراهيم (١٤): الآيات ١ الى ٥] ----- ٢١٧٣

٢١٧٣ اشاره

٢١٧٤ بيان:

٢١٨٢ [سوره إبراهيم (١٤): الآيات ٦ الى ١٨]

٢١٨٢ اشاره

٢١٨٥ بيان:

٢١٩٦ [سوره إبراهيم (١٤): الآيات ١٩ الى ٣٤]

٢١٩٦ اشاره

٢١٩٨ بيان:

٢٢١٣ [سوره إبراهيم (١٤): الآيات ٣٥ الى ٤١]

٢٢١٣ اشاره

٢٢١٤ بيان:

٢٢٢١ [سوره إبراهيم (١٤): الآيات ٤٢ الى ٥٢]

٢٢٢١ اشاره

٢٢٢٢ بيان:

٢٢٣٠ سوره الحجر مكيه و هي تسع و تسعون آيه

٢٢٣٠ اشاره

٢٢٣٠ [سوره الحجر (١٥): الآيات ١ الى ٩]

٢٢٣٠ اشاره

٢٢٣١ بيان:

٢٢٣٦ [سوره الحجر (١٥): الآيات ١٠ الى ١٥]

٢٢٣٦ اشاره

٢٢٣٦ بيان:

٢٢٣٧ [سوره الحجر (١٥): الآيات ١٦ الى ٢٥]

٢٢٣٧ اشاره

٢٢٣٨ بيان:

٢٢٤٧ [سوره الحجر (١٥): الآيات ٢٦ الى ٤٨]

٢٢٤٧ اشاره

٢٢٤٨ بيان:

٢٢٤٤ [سوره الحجر (١٥): الآيات ٤٩ الى ٨٤]

٢٢٤٤ اشاره

٢٢٤٨ بيان:

٢٢٧٥ [سوره الحجر (١٥): الآيات ٨٥ الى ٩٩]

٢٢٧٥ اشاره

٢٢٧٤ بيان:

٢٢٨٣ سوره النحل مكيه و هي مائه و ثمان و عشرون آيه

٢٢٨٣ اشاره

٢٢٨٣ [سوره النحل (١٦): الآيات ١ الى ٢١]

٢٢٨٣ اشاره

٢٢٨٥ بيان:

٢٣٠٠ [سوره النحل (١٦): الآيات ٢٢ الى ٤٠]

٢٣٠٠ اشاره

٢٣٠٢ بيان:

٢٣١٩ [سوره النحل (١٦): الآيات ٤١ الى ٦٤]

٢٣١٩ اشاره

٢٣٢١ بيان:

٢٣٤٢ [سوره النحل (١٦): الآيات ٦٥ الى ٧٧]

٢٣٤٢ اشاره

٢٣٤٤ بيان:

٢٣٥٥ [سوره النحل (١٦): الآيات ٧٨ الى ٨٩]

٢٣٥٥ اشاره

٢٣٥٧ بيان:

٢٣٤٧ [سوره النحل (١٦): الآيات ٩٠ الى ١٠٥]

٢٣٤٧ - اشاره

٢٣٤٨ - بيان:

٢٣٨٣ - [سوره النحل (١٦): الآيات ١٠٦ الى ١١١]

٢٣٨٣ - اشاره

٢٣٨٤ - بيان:

٢٣٨٧ - [سوره النحل (١٦): الآيات ١١٢ الى ١٢٨]

٢٣٨٧ - اشاره

٢٣٨٩ - بيان:

٢٤٠٠ - سوره الإسراء مكيه و هي مائه و إحدى عشره آيه

٢٤٠٠ - اشاره

٢٤٠٠ - [سوره الإسراء (١٧): آيه ١]

٢٤٠٠ - اشاره

٢٤٠٠ - بيان:

٢٤٠٠ - اشاره

٢٤٠٣ - بحث روائى:

٢٤٣٢ - بحث آخر:

٢٤٣٣ - [سوره الإسراء (١٧): الآيات ٢ الى ٨]

٢٤٣٣ - اشاره

٢٤٣٤ - بيان:

٢٤٤٠ - [سوره الإسراء (١٧): الآيات ٩ الى ٢٢]

٢٤٤٠ - اشاره

٢٤٤١ - بيان:

٢٤٥٦ - [سوره الإسراء (١٧): الآيات ٢٣ الى ٣٩]

٢٤٥٦ - اشاره

٢٤٥٨ - بيان:

٢٤٤٨ - [سوره الإسراء (١٧): الآيات ٤٠ الى ٥٥]

٢٤٤٨ اشارة

٢٤٤٩ بيان:

٢٤٨٣ [سوره الإسراء (١٧): الآيات ٥٦ الى ٦٥]

٢٤٨٣ اشارة

٢٤٨٤ بيان:

٢٤٩٣ [سوره الإسراء (١٧): الآيات ٦٦ الى ٧٢]

٢٤٩٣ اشارة

٢٤٩٤ بيان:

٢٥٠١ [سوره الإسراء (١٧): الآيات ٧٣ الى ٨١]

٢٥٠١ اشارة

٢٥٠٢ بيان:

٢٥٠٧ [سوره الإسراء (١٧): الآيات ٨٢ الى ١٠٠]

٢٥٠٧ اشارة

٢٥٠٩ بيان:

٢٥٢٠ [سوره الإسراء (١٧): الآيات ١٠١ الى ١١١]

٢٥٢٠ اشارة

٢٥٢١ بيان:

٢٥٢٨ الجزء الرابع

٢٥٢٨ اشارة

٢٥٣٤ سوره الكهف مكيه و هي مائه و عشر آيات

٢٥٣٤ اشارة

٢٥٣٤ [سوره الكهف (١٨): الآيات ١ الى ٨]

٢٥٣٤ اشارة

٢٥٣٥ بيان:

٢٥٣٨ [سوره الكهف (١٨): الآيات ٩ الى ٢٦]

٢٥٣٨ اشارة

٢٥٤٢ ----- بيان:

٢٥٤٣ ----- [سوره الكهف (١٨): الآيات ٢٧ الى ٣١]

٢٥٤٣ ----- اشاره

٢٥٤٤ ----- بيان:

٢٥٤٧ ----- [سوره الكهف (١٨): الآيات ٣٢ الى ٤٦]

٢٥٤٧ ----- اشاره

٢٥٤٨ ----- بيان:

٢٥٧٧ ----- [سوره الكهف (١٨): الآيات ٤٧ الى ٥٩]

٢٥٧٧ ----- اشاره

٢٥٧٩ ----- بيان:

٢٥٨٩ ----- [سوره الكهف (١٨): الآيات ٦٠ الى ٨٢]

٢٥٨٩ ----- اشاره

٢٥٩١ ----- بيان:

٢٦٠١ ----- [سوره الكهف (١٨): الآيات ٨٣ الى ١٠٢]

٢٦٠١ ----- اشاره

٢٦٠٣ ----- بيان:

٢٦١٢ ----- [سوره الكهف (١٨): الآيات ١٠٣ الى ١٠٨]

٢٦١٢ ----- اشاره

٢٦١٢ ----- بيان:

٢٦١٤ ----- [سوره الكهف (١٨): آيه ١٠٩]

٢٦١٤ ----- اشاره

٢٦١٤ ----- بيان:

٢٦١٥ ----- [سوره الكهف (١٨): آيه ١١٠]

٢٦١٥ ----- اشاره

٢٦١٥ ----- بيان:

٢٦١٧ ----- سوره مريم مكيه و هي ثمان و تسعون آيه

٢٦١٧ اشارة

٢٦١٧ [سوره مريم (١٩): الآيات ١ الى ١٥]

٢٦١٧ اشارة

٢٦١٨ بيان:

٢٦٢٧ [سوره مريم (١٩): الآيات ١٦ الى ٤٠]

٢٦٢٧ اشارة

٢٦٣٠ بيان:

٢٦٤١ [سوره مريم (١٩): الآيات ٤١ الى ٥٠]

٢٦٤١ اشارة

٢٦٤٢ بيان:

٢٦٤٨ [سوره مريم (١٩): الآيات ٥١ الى ٥٧]

٢٦٤٨ اشارة

٢٦٤٨ بيان:

٢٦٥٠ [سوره مريم (١٩): الآيات ٥٨ الى ٦٣]

٢٦٥٠ اشارة

٢٦٥١ بيان:

٢٦٥٥ [سوره مريم (١٩): الآيات ٦٤ الى ٦٥]

٢٦٥٥ اشارة

٢٦٥٥ بيان:

٢٦٥٧ [سوره مريم (١٩): الآيات ٦٦ الى ٧٢]

٢٦٥٧ اشارة

٢٦٥٧ بيان:

٢٦٦٣ [سوره مريم (١٩): الآيات ٧٣ الى ٨٠]

٢٦٦٣ اشارة

٢٦٦٣ بيان:

٢٦٦٧ [سوره مريم (١٩): الآيات ٨١ الى ٩٦]

٢٦٤٧ اشاره

٢٦٤٨ بيان:

٢٦٧٣ [سوره مريم (١٩): الآيات ٩٧ الى ٩٨]

٢٦٧٣ اشاره

٢٦٧٣ بيان:

٢٦٧٥ سورة طه مكيه و هي مائه و خمس و ثلاثون آيه

٢٦٧٥ اشاره

٢٦٧٥ [سوره طه (٢٠): الآيات ١ الى ٨]

٢٦٧٥ اشاره

٢٦٧٦ بيان:

٢٦٨٢ [سوره طه (٢٠): الآيات ٩ الى ٤٨]

٢٦٨٢ اشاره

٢٦٨٦ بيان:

٢٧٠٣ [سوره طه (٢٠): الآيات ٤٩ الى ٧٩]

٢٧٠٣ اشاره

٢٧٠٥ بيان:

٢٧١٨ [سوره طه (٢٠): الآيات ٨٠ الى ٩٨]

٢٧١٨ اشاره

٢٧٢١ بيان:

٢٧٣١ [سوره طه (٢٠): الآيات ٩٩ الى ١١٤]

٢٧٣١ اشاره

٢٧٣٢ بيان:

٢٧٣٩ [سوره طه (٢٠): الآيات ١١٥ الى ١٢٦]

٢٧٣٩ اشاره

٢٧٤٠ بيان:

٢٧٤٨ [سوره طه (٢٠): الآيات ١٢٧ الى ١٣٥]

- ٢٧٤٨ اشاره
- ٢٧٤٩ بيان:
- ٢٧٥٥ سورة الأنبياء مكيه و هي مائه و اثنتا عشره آيه
- ٢٧٥٥ اشاره
- ٢٧٥٥ [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ١ الى ١٥]
- ٢٧٥٥ اشاره
- ٢٧٥٦ بيان:
- ٢٧٦٤ [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ١٦ الى ٣٣]
- ٢٧٦٤ اشاره
- ٢٧٦٦ بيان:
- ٢٧٨٠ [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٣٤ الى ٤٧]
- ٢٧٨٠ اشاره
- ٢٧٨١ بيان:
- ٢٧٨٩ [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٤٨ الى ٧٧]
- ٢٧٨٩ اشاره
- ٢٧٩١ بيان:
- ٢٨٠١ [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٧٨ الى ٩١]
- ٢٨٠١ اشاره
- ٢٨٠٤ بيان:
- ٢٨١١ [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٩٢ الى ١١٢]
- ٢٨١١ اشاره
- ٢٨١٤ بيان:
- ٢٨٢٥ سورة الحج مدنيه و هي ثمان و سبعون آيه
- ٢٨٢٥ اشاره
- ٢٨٢٥ [سوره الحج (٢٢): الآيات ١ الى ٢]
- ٢٨٢٥ اشاره

٢٨٢٥ بيان:

٢٨٢٧ [سوره الحج (٢٢): الآيات ٣ الى ١٦]

٢٨٢٧ اشاره

٢٨٢٩ بيان:

٢٨٣٩ [سوره الحج (٢٢): الآيات ١٧ الى ٢٤]

٢٨٣٩ اشاره

٢٨٤٠ بيان:

٢٨٤٥ [سوره الحج (٢٢): الآيات ٢٥ الى ٣٧]

٢٨٤٥ اشاره

٢٨٤٧ بيان:

٢٨٥٧ [سوره الحج (٢٢): الآيات ٣٨ الى ٥٧]

٢٨٥٧ اشاره

٢٨٥٩ بيان:

٢٨٧١ [سوره الحج (٢٢): الآيات ٥٨ الى ٦٦]

٢٨٧١ اشاره

٢٨٧٢ بيان:

٢٨٧٦ [سوره الحج (٢٢): الآيات ٦٧ الى ٧٨]

٢٨٧٦ اشاره

٢٨٧٩ بيان:

٢٨٨٩ سوره المؤمنون مكيه و هي مائه و ثمانى عشره آيه

٢٨٨٩ اشاره

٢٨٨٩ [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ١ الى ١١]

٢٨٨٩ اشاره

٢٨٩٠ بيان:

٢٨٩٦ [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ١٢ الى ٢٢]

٢٨٩٦ اشاره

٢٨٩٧ ----- بيان:

٢٩٠١ ----- [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٢٣ الى ٥٤]

٢٩٠١ ----- اشاره

٢٩٠٥ ----- بيان:

٢٩١٣ ----- [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٥٥ الى ٧٧]

٢٩١٣ ----- اشاره

٢٩١٥ ----- بيان:

٢٩٢٥ ----- [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٧٨ الى ٩٨]

٢٩٢٥ ----- اشاره

٢٩٢٧ ----- بيان:

٢٩٣٧ ----- [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٩٩ الى ١١٨]

٢٩٣٧ ----- اشاره

٢٩٣٩ ----- بيان:

٢٩٤٧ ----- سوره النور مدنيه و هي أربع و ستون آيه

٢٩٤٧ ----- اشاره

٢٩٤٧ ----- [سوره النور (٢٤): الآيات ١ الى ١٠]

٢٩٤٧ ----- اشاره

٢٩٤٨ ----- بيان:

٢٩٥٣ ----- [سوره النور (٢٤): الآيات ١١ الى ٢٦]

٢٩٥٣ ----- اشاره

٢٩٥٥ ----- بيان:

٢٩٦٢ ----- [سوره النور (٢٤): الآيات ٢٧ الى ٣٤]

٢٩٦٢ ----- اشاره

٢٩٦٤ ----- بيان:

٢٩٦٩ ----- [سوره النور (٢٤): الآيات ٣٥ الى ٤٦]

٢٩٦٩ ----- اشاره

٢٩٧١ بيان:

٢٩٩٠ [سوره النور (٢٤): الآيات ٤٧ الى ٥٧]

٢٩٩٠ اشاره

٢٩٩١ بيان:

٣٠٠١ [سوره النور (٢٤): الآيات ٥٨ الى ٦٤]

٣٠٠١ اشاره

٣٠٠٢ بيان:

٣٠٠٩ سوره الفرقان مكيه و هي سبع و سبعون آيه

٣٠٠٩ اشاره

٣٠٠٩ [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ١ الى ٣]

٣٠٠٩ اشاره

٣٠٠٩ بيان:

٣٠١٤ [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٤ الى ٢٠]

٣٠١٤ اشاره

٣٠١٦ بيان:

٣٠٢٨ [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٢١ الى ٣١]

٣٠٢٨ اشاره

٣٠٢٩ بيان:

٣٠٣٧ [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٣٢ الى ٤٠]

٣٠٣٧ اشاره

٣٠٣٧ بيان:

٣٠٤٣ [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٤١ الى ٦٢]

٣٠٤٣ اشاره

٣٠٤٥ بيان:

٣٠٥٨ [سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٦٣ الى ٧٧]

٣٠٥٨ اشاره

بيان: ٣٠٥٩

سوره الشعراء مكيه و هي مائتان و سبع و عشرون آيه ٣٠٦٧

اشاره ٣٠٦٧

[سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١ الى ٩] ٣٠٦٧

اشاره ٣٠٦٧

بيان: ٣٠٦٨

[سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٠ الى ٦٨] ٣٠٧١

اشاره ٣٠٧١

بيان: ٣٠٧٥

[سوره الشعراء (٢٦): الآيات ٦٩ الى ١٠٤] ٣٠٩٢

اشاره ٣٠٩٢

بيان: ٣٠٩٤

[سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٠٥ الى ١٢٢] ٣١٠٤

اشاره ٣١٠٤

بيان: ٣١٠٥

[سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٢٣ الى ١٤٠] ٣١٠٩

اشاره ٣١٠٩

بيان: ٣١١٠

[سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٤١ الى ١٥٩] ٣١١٣

اشاره ٣١١٣

بيان: ٣١١٤

[سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٦٠ الى ١٧٥] ٣١١٦

اشاره ٣١١٦

بيان: ٣١١٧

[سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٧٦ الى ١٩١] ٣١٢٠

اشاره ٣١٢٠

٣١٢١ بيان:

٣١٢٣ [سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٩٢ الى ٢٢٧]

٣١٢٣ اشاره

٣١٢٥ بيان:

٣١٣٨ سوره النمل مكيه و هي ثلاث و تسعون آيه

٣١٣٨ اشاره

٣١٣٨ [سوره النمل (٢٧): الآيات ١ الى ٦]

٣١٣٨ اشاره

٣١٣٨ بيان:

٣١٤٠ [سوره النمل (٢٧): الآيات ٧ الى ١٤]

٣١٤٠ اشاره

٣١٤١ بيان:

٣١٤٥ [سوره النمل (٢٧): الآيات ١٥ الى ٤٤]

٣١٤٥ اشاره

٣١٤٨ بيان:

٣١٤٤ [سوره النمل (٢٧): الآيات ٤٥ الى ٥٣]

٣١٤٤ اشاره

٣١٤٥ بيان:

٣١٤٧ [سوره النمل (٢٧): الآيات ٥٤ الى ٥٨]

٣١٤٧ اشاره

٣١٤٨ بيان:

٣١٤٩ [سوره النمل (٢٧): الآيات ٥٩ الى ٨١]

٣١٤٩ اشاره

٣١٧١ بيان:

٣١٨٠ [سوره النمل (٢٧): الآيات ٨٢ الى ٩٣]

٣١٨٠ اشاره

بيان: ٣١٨١

سوره القصص مكيه و هي ثمان و ثمانون آيه ٣١٩٢

اشاره ٣١٩٢

[سوره القصص (٢٨): الآيات ١ الى ١٤] ٣١٩٢

اشاره ٣١٩٢

بيان: ٣١٩٣

[سوره القصص (٢٨): الآيات ١٥ الى ٢١] ٣٢٠١

اشاره ٣٢٠١

بيان: ٣٢٠٢

[سوره القصص (٢٨): الآيات ٢٢ الى ٢٨] ٣٢٠٨

اشاره ٣٢٠٨

بيان: ٣٢٠٩

[سوره القصص (٢٨): الآيات ٢٩ الى ٤٢] ٣٢١٣

اشاره ٣٢١٣

بيان: ٣٢١٤

[سوره القصص (٢٨): الآيات ٤٣ الى ٥٦] ٣٢٢٣

اشاره ٣٢٢٣

بيان: ٣٢٢٤

[سوره القصص (٢٨): الآيات ٥٧ الى ٧٥] ٣٢٣١

اشاره ٣٢٣١

بيان: ٣٢٣٤

[سوره القصص (٢٨): الآيات ٧٦ الى ٨٤] ٣٢٤٦

اشاره ٣٢٤٦

بيان: ٣٢٤٧

[سوره القصص (٢٨): الآيات ٨٥ الى ٨٨] ٣٢٥٤

اشاره ٣٢٥٤

بيان: ٣٢٥٥

سوره العنكبوت مكيه و هي تسع و ستون آيه ٣٢٤٣

اشاره ٣٢٤٣

[سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ١ الى ١٣] ٣٢٤٣

اشاره ٣٢٤٣

بيان: ٣٢٤٤

[سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ١٤ الى ٤٠] ٣٢٧٤

اشاره ٣٢٧٤

بيان: ٣٢٧٨

[سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ٤١ الى ٥٥] ٣٢٩٣

اشاره ٣٢٩٣

بيان: ٣٢٩٤

[سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ٥٦ الى ٦٠] ٣٣٠٦

اشاره ٣٣٠٦

بيان: ٣٣٠٦

[سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ٦١ الى ٦٩] ٣٣٠٩

اشاره ٣٣٠٩

بيان: ٣٣١٠

الجزء الخامس ٣٣١٥

اشاره ٣٣١٥

سوره الروم مكيه و هي ستون آيه ٣٣٢١

اشاره ٣٣٢١

[سوره الروم (٣٠): الآيات ١ الى ١٩] ٣٣٢١

اشاره ٣٣٢١

بيان: ٣٣٢٣

[سوره الروم (٣٠): الآيات ٢٠ الى ٢٦] ٣٣٢٩

- ٣٣٣٥ [سوره الروم (٣٠): الآيات ٢٧ الى ٣٩]
- ٣٣٤٧ [سوره الروم (٣٠): الآيات ٤٠ الى ٤٧]
- ٣٣٥٣ [سوره الروم (٣٠): الآيات ٤٨ الى ٥٣]
- ٣٣٥٦ [سوره الروم (٣٠): الآيات ٥٤ الى ٦٠]
- ٣٣٦٠ سوره لقمان مكيه و هي أربع و ثلاثون آيه
- ٣٣٦٠ اشاره
- ٣٣٦٠ [سوره لقمان (٣١): الآيات ١ الى ١١]
- ٣٣٦٠ اشاره
- ٣٣٦١ بيان:
- ٣٣٦٥ [سوره لقمان (٣١): الآيات ١٢ الى ١٩]
- ٣٣٧١ [سوره لقمان (٣١): الآيات ٢٠ الى ٣٤]
- ٣٣٨٤ سوره السجده مكيه و هي ثلاثون آيه
- ٣٣٨٤ اشاره
- ٣٣٨٤ [سوره السجده (٣٢): الآيات ١ الى ١٤]
- ٣٣٨٤ اشاره
- ٣٣٨٥ بيان:
- ٣٣٩٧ [سوره السجده (٣٢): الآيات ١٥ الى ٣٠]
- ٣٤٠٥ سوره الأحزاب مدنيه و هي ثلاث و سبعون آيه
- ٣٤٠٥ اشاره
- ٣٤٠٥ [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ١ الى ٨]
- ٣٤٠٥ اشاره
- ٣٤٠٦ بيان:
- ٣٤١٣ [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٩ الى ٢٧]
- ٣٤٢٤ [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٢٨ الى ٣٥]
- ٣٤٢٤ اشاره
- ٣٤٣٦ بحث روائى:

٣٤٤٢ [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٣٦ الى ٤٠] -

٣٤٤٢ اشاره

٣٤٤٨ بحث روائى:

٣٤٥٠ [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٤١ الى ٤٨] -

٣٤٥٤ [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٤٩ الى ٦٢] -

٣٤٦٣ [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٦٣ الى ٧٣] -

٣٤٧٢ سوره سبأ مكيه و هى أربع و خمسون آيه

٣٤٧٢ اشاره

٣٤٧٢ [سوره سبأ (٣٤): الآيات ١ الى ٩] -

٣٤٧٢ اشاره

٣٤٧٣ بيان:

٣٤٧٨ [سوره سبأ (٣٤): الآيات ١٠ الى ٢١] -

٣٤٨٥ [سوره سبأ (٣٤): الآيات ٢٢ الى ٣٠] -

٣٤٩٣ [سوره سبأ (٣٤): الآيات ٣١ الى ٥٤] -

٣٥٠٩ سوره فاطر مكيه و هى خمس و أربعون آيه

٣٥٠٩ اشاره

٣٥٠٩ [سوره فاطر (٣٥): آيه ١] -

٣٥٠٩ اشاره

٣٥٠٩ بيان:

٣٥١٢ [سوره فاطر (٣٥): الآيات ٢ الى ٨] -

٣٥١٩ [سوره فاطر (٣٥): الآيات ٩ الى ١٤] -

٣٥٢٩ [سوره فاطر (٣٥): الآيات ١٥ الى ٢٦] -

٣٥٣٤ [سوره فاطر (٣٥): الآيات ٢٧ الى ٣٨] -

٣٥٤٣ [سوره فاطر (٣٥): الآيات ٣٩ الى ٤٥] -

٣٥٥٣ سوره يس مكيه و هى ثلاث و ثمانون آيه

٣٥٥٣ اشاره

٣٥٥٣ [سوره يس (٣٦): الآيات ١ الى ١٢]

٣٥٥٣ اشاره

٣٥٥٤ بيان:

٣٥٥٩ [سوره يس (٣٦): الآيات ١٣ الى ٣٢]

٣٥٧٠ [سوره يس (٣٦): الآيات ٣٣ الى ٤٧]

٣٥٨١ [سوره يس (٣٦): الآيات ٤٨ الى ٦٥]

٣٥٨٧ [سوره يس (٣٦): الآيات ٦٦ الى ٨٣]

٣٥٩٩ سوره الصافات مكيه و هي مائه و اثنان و ثمانون آيه

٣٥٩٩ اشاره

٣٥٩٩ [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١ الى ١١]

٣٥٩٩ اشاره

٣٦٠٠ بيان:

٣٦٠٥ [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١٢ الى ٧٠]

٣٦٢١ [سوره الصافات (٣٧): الآيات ٧١ الى ١١٣]

٣٦٣٢ [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١١٤ الى ١٣٢]

٣٦٣٥ [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١٣٣ الى ١٤٨]

٣٦٤٠ [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١٤٩ الى ١٨٢]

٣٦٥٠ سوره ص مكيه و هي ثمان و ثمانون آيه

٣٦٥٠ اشاره

٣٦٥٠ [سوره ص (٣٨): الآيات ١ الى ١٦]

٣٦٥٠ اشاره

٣٦٥١ بيان:

٣٦٥٦ [سوره ص (٣٨): الآيات ١٧ الى ٢٩]

٣٦٦٦ [سوره ص (٣٨): الآيات ٣٠ الى ٤٠]

٣٦٧٠ [سوره ص (٣٨): الآيات ٤١ الى ٤٨]

٣٦٧٥ [سوره ص (٣٨): الآيات ٤٩ الى ٦٤]

- ٣٦٨٠ [سوره ص (٣٨): الآيات ٤٥ الى ٨٨]
- ٣٦٨٨ سورة الزمر مكيه و هي خمس و سبعون آيه
- ٣٦٨٨ اشاره
- ٣٦٨٨ [سوره الزمر (٣٩): الآيات ١ الى ١٠]
- ٣٦٨٨ اشاره
- ٣٦٨٩ بيان:
- ٣٧٠١ [سوره الزمر (٣٩): الآيات ١١ الى ٢٠]
- ٣٧٠٧ [سوره الزمر (٣٩): الآيات ٢١ الى ٣٧]
- ٣٧١٦ [سوره الزمر (٣٩): الآيات ٣٨ الى ٥٢]
- ٣٧٢٩ [سوره الزمر (٣٩): الآيات ٥٣ الى ٦١]
- ٣٧٣٧ [سوره الزمر (٣٩): الآيات ٦٢ الى ٧٥]
- ٣٧٥١ سورة المؤمن مكيه و هي خمس و ثمانون آيه
- ٣٧٥١ اشاره
- ٣٧٥١ [سوره غافر (٤٠): الآيات ١ الى ٦]
- ٣٧٥١ اشاره
- ٣٧٥٢ بيان:
- ٣٧٥٦ [سوره غافر (٤٠): الآيات ٧ الى ١٢]
- ٣٧٦٤ [سوره غافر (٤٠): الآيات ١٣ الى ٢٠]
- ٣٧٧٠ [سوره غافر (٤٠): الآيات ٢١ الى ٥٤]
- ٣٧٨٨ [سوره غافر (٤٠): الآيات ٥٥ الى ٦٠]
- ٣٧٩٢ [سوره غافر (٤٠): الآيات ٦١ الى ٦٨]
- ٣٧٩٦ [سوره غافر (٤٠): الآيات ٦٩ الى ٧٨]
- ٣٨٠٢ [سوره غافر (٤٠): الآيات ٧٩ الى ٨٥]
- ٣٨٠٥ سورة فصلت مكيه و هي اربع و خمسون آيه
- ٣٨٠٥ اشاره
- ٣٨٠٥ [سوره فصلت (٤١): الآيات ١ الى ١٢]

- ٣٨٠٥ اشاره
- ٣٨٠٦ بيان:
- ٣٨١٧ [سوره فصلت (٤١): الآيات ١٣ الى ٢٥]
- ٣٨٢٧ [سوره فصلت (٤١): الآيات ٢٦ الى ٣٩]
- ٣٨٣٥ [سوره فصلت (٤١): الآيات ٤٠ الى ٥٤]
- ٣٨٤٨ سوره الشورى مكيه و هي ثلاث و خمسون آيه
- ٣٨٤٨ اشاره
- ٣٨٤٨ [سوره الشورى (٤٢): الآيات ١ الى ٦]
- ٣٨٤٨ اشاره
- ٣٨٤٩ بيان:
- ٣٨٥٦ [سوره الشورى (٤٢): الآيات ٧ الى ١٢]
- ٣٨٦٥ [سوره الشورى (٤٢): الآيات ١٣ الى ١٦]
- ٣٨٧٣ [سوره الشورى (٤٢): الآيات ١٧ الى ٢٦]
- ٣٨٧٣ اشاره
- ٣٨٨٧ بحث روائى:
- ٣٨٨٩ [سوره الشورى (٤٢): الآيات ٢٧ الى ٥٠]
- ٣٩٠٧ [سوره الشورى (٤٢): الآيات ٥١ الى ٥٣]
- ٣٩١٥ سوره الزخرف مكيه و هي تسع و ثمانون آيه
- ٣٩١٥ اشاره
- ٣٩١٥ [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ١ الى ١٤]
- ٣٩١٥ اشاره
- ٣٩١٦ بيان:
- ٣٩٢١ [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ١٥ الى ٢٥]
- ٣٩٢٧ [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٢٦ الى ٤٥]
- ٣٩٣٨ [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٤٦ الى ٥٦]
- ٣٩٤٢ [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٥٧ الى ٦٥]

- ٣٩٤٧ [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٦٦ الى ٧٨]
- ٣٩٥٢ [سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٧٩ الى ٨٩]
- ٣٩٥٧ سوره الدخان مكيه و هي تسع و خمسون آيه
- ٣٩٥٧ اشاره
- ٣٩٥٧ [سوره الدخان (٤٤): الآيات ١ الى ٨]
- ٣٩٥٧ اشاره
- ٣٩٥٧ بيان:
- ٣٩٦٢ [سوره الدخان (٤٤): الآيات ٩ الى ٣٣]
- ٣٩٦٩ [سوره الدخان (٤٤): الآيات ٣٤ الى ٥٩]
- ٣٩٧٨ سوره الجاثيه مكيه و هي سبع و ثلاثون آيه
- ٣٩٧٨ اشاره
- ٣٩٧٨ [سوره الجاثيه (٤٥): الآيات ١ الى ١٣]
- ٣٩٧٨ اشاره
- ٣٩٧٩ بيان:
- ٣٩٨٦ [سوره الجاثيه (٤٥): الآيات ١٤ الى ١٩]
- ٣٩٩٢ [سوره الجاثيه (٤٥): الآيات ٢٠ الى ٣٧]
- ٤٠٠٧ سوره الأحقاف مكيه و هي خمس و ثلاثون آيه
- ٤٠٠٧ اشاره
- ٤٠٠٧ [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ١ الى ١٤]
- ٤٠٠٧ اشاره
- ٤٠٠٨ بيان:
- ٤٠١٨ [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ١٥ الى ٢٠]
- ٤٠٢٦ [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ٢١ الى ٢٨]
- ٤٠٣١ [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ٢٩ الى ٣٥]
- ٤٠٣٦ سوره محمد مدنيه و هي ثمان و ثلاثون آيه
- ٤٠٣٦ اشاره

٤٠٣٦ [سوره محمد (٤٧): الآيات ١ الى ٦]

٤٠٣٦ اشاره

٤٠٣٧ بيان:

٤٠٤١ [سوره محمد (٤٧): الآيات ٧ الى ١٥]

٤٠٤٧ [سوره محمد (٤٧): الآيات ١٦ الى ٣٢]

٤٠٥٨ [سوره محمد (٤٧): الآيات ٣٣ الى ٣٨]

٤٠٦٣ سوره الفتح مدنيه و هي تسع و عشرون آيه

٤٠٦٣ اشاره

٤٠٦٣ [سوره الفتح (٤٨): الآيات ١ الى ٧]

٤٠٦٣ اشاره

٤٠٦٤ بيان:

٤٠٧١ [سوره الفتح (٤٨): الآيات ٨ الى ١٠]

٤٠٧٤ [سوره الفتح (٤٨): الآيات ١١ الى ١٧]

٤٠٨٠ [سوره الفتح (٤٨): الآيات ١٨ الى ٢٨]

٤٠٨٩ [سوره الفتح (٤٨): آيه ٢٩]

٤٠٩٣ الجزء السادس

٤٠٩٣ اشاره

٤٠٩٩ سوره الحجرات مدنيه و هي ثمان عشره آيه

٤٠٩٩ اشاره

٤٠٩٩ [سوره الحجرات (٤٩): الآيات ١ الى ١٠]

٤٠٩٩ اشاره

٤١٠٠ بيان:

٤١٠٨ [سوره الحجرات (٤٩): الآيات ١١ الى ١٨]

٤١٢٠ سوره قى مكيه و هي خمس و أربعون آيه

٤١٢٠ اشاره

٤١٢٠ [سوره قى (٥٠): الآيات ١ الى ١٤]

- ٤١٢٠ اشاره
- ٤١٢١ بيان:
- ٤١٢٧ [سوره ق (٥٠): الآيات ١٥ الى ٣٨]
- ٤١٤٠ [سوره ق (٥٠): الآيات ٣٩ الى ٤٥]
- ٤١٤٣ سوره الناريات مكيه و هي ستون آيه
- ٤١٤٣ اشاره
- ٤١٤٣ [سوره الناريات (٥١): الآيات ١ الى ١٩]
- ٤١٤٣ اشاره
- ٤١٤٤ بيان:
- ٤١٥١ [سوره الناريات (٥١): الآيات ٢٠ الى ٥١]
- ٤١٤٢ [سوره الناريات (٥١): الآيات ٥٢ الى ٦٠]
- ٤١٤٨ سوره الطور مكيه و هي تسع و أربعون آيه
- ٤١٤٨ اشاره
- ٤١٤٨ [سوره الطور (٥٢): الآيات ١ الى ١٠]
- ٤١٤٨ اشاره
- ٤١٤٩ بيان:
- ٤١٧١ [سوره الطور (٥٢): الآيات ١١ الى ٢٨]
- ٤١٧٩ [سوره الطور (٥٢): الآيات ٢٩ الى ٤٤]
- ٤١٨٥ [سوره الطور (٥٢): الآيات ٤٥ الى ٤٩]
- ٤١٨٨ سوره النجم مكيه و هي اثنان و ستون آيه
- ٤١٨٨ اشاره
- ٤١٨٨ [سوره النجم (٥٣): الآيات ١ الى ١٨]
- ٤١٨٨ اشاره
- ٤١٨٩ بيان:
- ٤١٨٩ اشاره
- ٤١٩٤ بحث روائى:

- ٤٢٠٠ [سوره النجم (٥٣): الآيات ١٩ الى ٣٢]
- ٤٢٠٩ [سوره النجم (٥٣): الآيات ٣٣ الى ٦٢]
- ٤٢١٨ سورة القمر مكيه و هي خمس و خمسون آيه
- ٤٢١٨ اشاره
- ٤٢١٨ [سوره القمر (٥٤): الآيات ١ الى ٨]
- ٤٢١٨ اشاره
- ٤٢١٩ بيان:
- ٤٢٢٣ [سوره القمر (٥٤): الآيات ٩ الى ٤٢]
- ٤٢٢٣ [سوره القمر (٥٤): الآيات ٤٣ الى ٥٥]
- ٤٢٤٠ سورة الرحمن مكيه أو مدنيه و هي ثمان و سبعون آيه
- ٤٢٤٠ اشاره
- ٤٢٤٠ [سوره الرحمن (٥٥): الآيات ١ الى ٣٠]
- ٤٢٤٠ اشاره
- ٤٢٤٢ بيان:
- ٤٢٥٢ [سوره الرحمن (٥٥): الآيات ٣١ الى ٧٨]
- ٤٢٤٤ سورة الواقعة مكيه و هي ست و تسعون آيه
- ٤٢٤٤ اشاره
- ٤٢٤٤ [سوره الواقعة (٥٦): الآيات ١ الى ١٠]
- ٤٢٤٤ اشاره
- ٤٢٤٥ بيان:
- ٤٢٤٧ [سوره الواقعة (٥٦): الآيات ١١ الى ٥٦]
- ٤٢٧٨ [سوره الواقعة (٥٦): الآيات ٥٧ الى ٩٦]
- ٤٢٩١ سورة الحديد مدنيه و هي تسع و عشرون آيه
- ٤٢٩١ اشاره
- ٤٢٩١ [سوره الحديد (٥٧): الآيات ١ الى ٦]
- ٤٢٩١ اشاره

- ٤٢٩٢ بيان:
- ٤٢٩٤ [سوره الحديد (٥٧): الآيات ٧ الى ١٥]
- ٤٣٠٧ [سوره الحديد (٥٧): الآيات ١٦ الى ٢٤]
- ٤٣١٧ [سوره الحديد (٥٧): الآيات ٢٥ الى ٢٩]
- ٤٣٢٤ سوره المجادله مدنيه و هي اثنتان و عشرون آيه
- ٤٣٢٤ اشاره
- ٤٣٢٤ [سوره المجادله (٥٨): الآيات ١ الى ٦]
- ٤٣٢٤ اشاره
- ٤٣٢٥ بيان:
- ٤٣٢٩ [سوره المجادله (٥٨): الآيات ٧ الى ١٣]
- ٤٣٣٨ [سوره المجادله (٥٨): الآيات ١٤ الى ٢٢]
- ٤٣٤٤ سوره الحشر مدنيه و هي أربع و عشرون آيه
- ٤٣٤٤ اشاره
- ٤٣٤٤ [سوره الحشر (٥٩): الآيات ١ الى ١٠]
- ٤٣٤٤ اشاره
- ٤٣٤٨ بيان:
- ٤٣٥٥ [سوره الحشر (٥٩): الآيات ١١ الى ١٧]
- ٤٣٦٠ [سوره الحشر (٥٩): الآيات ١٨ الى ٢٤]
- ٤٣٦٩ سوره الممتحنه مدنيه و هي ثلاث عشره آيه
- ٤٣٦٩ اشاره
- ٤٣٦٩ [سوره الممتحنه (٦٠): الآيات ١ الى ٩]
- ٤٣٦٩ اشاره
- ٤٣٧٠ بيان:
- ٤٣٨٠ [سوره الممتحنه (٦٠): الآيات ١٠ الى ١٣]
- ٤٣٨٦ سوره الصف مدنيه و هي أربع عشره آيه
- ٤٣٨٦ اشاره

٤٣٨٦ [سوره الصف (٦١): الآيات ١ الى ٩]

٤٣٨٦ اشاره

٤٣٨٧ بيان:

٤٣٩٨ [سوره الصف (٦١): الآيات ١٠ الى ١٤]

٤٤٠٢ سوره الجمعه مدنيه و هي إحدى عشره آيه

٤٤٠٢ اشاره

٤٤٠٢ [سوره الجمعه (٦٢): الآيات ١ الى ٨]

٤٤٠٢ اشاره

٤٤٠٣ بيان:

٤٤٠٩ [سوره الجمعه (٦٢): الآيات ٩ الى ١١]

٤٤١٢ سوره المنافقون مدنيه و هي إحدى عشره آيه

٤٤١٢ اشاره

٤٤١٢ [سوره المنافقون (٦٣): الآيات ١ الى ٨]

٤٤١٢ اشاره

٤٤١٣ بيان:

٤٤١٨ [سوره المنافقون (٦٣): الآيات ٩ الى ١١]

٤٤٢١ سوره التغابن مدنيه و هي ثمانى عشره آيه

٤٤٢١ اشاره

٤٤٢١ [سوره التغابن (٦٤): الآيات ١ الى ١٠]

٤٤٣٠ [سوره التغابن (٦٤): الآيات ١١ الى ١٨]

٤٤٣٨ سوره الطلاق مدنيه و هي اثنتا عشره آيه

٤٤٣٨ اشاره

٤٤٣٨ [سوره الطلاق (٦٥): الآيات ١ الى ٧]

٤٤٣٨ اشاره

٤٤٣٩ بيان:

٤٤٤٤ [سوره الطلاق (٦٥): الآيات ٨ الى ١٢]

- ٤٤٥٢ سورة التحريم مدنيه و هي اثنتا عشره آيه
- ٤٤٥٢ اشاره
- ٤٤٥٢ [سوره التحريم (٦٦): الآيات ١ الى ٩]
- ٤٤٥٢ اشاره
- ٤٤٥٣ بيان:
- ٤٤٦٢ [سوره التحريم (٦٦): الآيات ١٠ الى ١٢]
- ٤٤٦٧ سورة الملك مكيه و هي ثلاثون آيه
- ٤٤٦٧ اشاره
- ٤٤٦٧ [سوره الملك (٦٧): الآيات ١ الى ١٤]
- ٤٤٦٧ اشاره
- ٤٤٦٨ بيان:
- ٤٤٧٦ [سوره الملك (٦٧): الآيات ١٥ الى ٢٢]
- ٤٤٨١ [سوره الملك (٦٧): الآيات ٢٣ الى ٣٠]
- ٤٤٨٦ سورة القلم مكيه و هي اثنتان و خمسون آيه
- ٤٤٨٦ اشاره
- ٤٤٨٦ [سوره القلم (٦٨): الآيات ١ الى ٣٣]
- ٤٤٨٦ اشاره
- ٤٤٨٨ بيان:
- ٤٤٩٧ [سوره القلم (٦٨): الآيات ٣٤ الى ٥٢]
- ٤٥٠٧ سورة الحاقه مكيه و هي اثنتان و خمسون آيه
- ٤٥٠٧ اشاره
- ٤٥٠٧ [سوره الحاقه (٦٩): الآيات ١ الى ١٢]
- ٤٥٠٧ اشاره
- ٤٥٠٨ بيان:
- ٤٥١١ [سوره الحاقه (٦٩): الآيات ١٣ الى ٣٧]
- ٤٥١٧ [سوره الحاقه (٦٩): الآيات ٣٨ الى ٥٢]

- سوره المعارج مكيه و هي أربع و أربعون آيه - ٤٥٢٢
- اشاره - ٤٥٢٢
- [سوره المعارج (٧٠): الآيات ١ الى ١٨] - ٤٥٢٢
- اشاره - ٤٥٢٢
- بيان: - ٤٥٢٣
- [سوره المعارج (٧٠): الآيات ١٩ الى ٣٥] - ٤٥٢٩
- [سوره المعارج (٧٠): الآيات ٣٦ الى ٤٤] - ٤٥٣٢
- سوره نوح مكيه و هي ثمان و عشرون آيه - ٤٥٣٧
- اشاره - ٤٥٣٧
- [سوره نوح (٧١): الآيات ١ الى ٢٤] - ٤٥٣٧
- اشاره - ٤٥٣٧
- بيان: - ٤٥٣٩
- [سوره نوح (٧١): الآيات ٢٥ الى ٢٨] - ٤٥٤٦
- سوره الجن مكيه و هي ثمان و عشرون آيه - ٤٥٤٩
- اشاره - ٤٥٤٩
- [سوره الجن (٧٢): الآيات ١ الى ١٧] - ٤٥٤٩
- اشاره - ٤٥٤٩
- بيان: - ٤٥٥٠
- [سوره الجن (٧٢): الآيات ١٨ الى ٢٨] - ٤٥٥٨
- سوره المزمل مكيه و هي عشرون آيه - ٤٥٦٦
- اشاره - ٤٥٦٦
- [سوره المزمل (٧٣): الآيات ١ الى ١٩] - ٤٥٦٦
- اشاره - ٤٥٦٦
- بيان: - ٤٥٦٧
- [سوره المزمل (٧٣): آيه ٢٠] - ٤٥٧٧
- سوره المدثر مكيه و هي ست و خمسون آيه - ٤٥٨٢

٤٥٨٢ اشارة

٤٥٨٢ [سوره المدثر (٧٤): الآيات ١ الى ٧]

٤٥٨٢ اشارة

٤٥٨٢ بيان:

٤٥٨٦ [سوره المدثر (٧٤): الآيات ٨ الى ٣١]

٤٥٩٤ [سوره المدثر (٧٤): الآيات ٣٢ الى ٤٨]

٤٥٩٩ [سوره المدثر (٧٤): الآيات ٤٩ الى ٥٦]

٤٦٠٣ سوره القيامه مكيه و هي اربعون آيه

٤٦٠٣ اشارة

٤٦٠٣ [سوره القيامه (٧٥): الآيات ١ الى ١٥]

٤٦٠٣ اشارة

٤٦٠٤ بيان:

٤٦٠٨ [سوره القيامه (٧٥): الآيات ١٦ الى ٤٠]

٤٦١٦ سوره الدهر مدنيه و هي إحدى و ثلاثون آيه

٤٦١٦ اشارة

٤٦١٦ [سوره الإنسان (٧٦): الآيات ١ الى ٢٢]

٤٦١٦ اشارة

٤٦١٧ بيان:

٤٦١٧ اشارة

٤٦٢٨ بحث روائى:

٤٦٣٦ [سوره الإنسان (٧٦): الآيات ٢٣ الى ٣١]

٤٦٤٢ سوره المرسلات مكيه و هي خمسون آيه

٤٦٤٢ اشارة

٤٦٤٢ [سوره المرسلات (٧٧): الآيات ١ الى ١٥]

٤٦٤٢ اشارة

٤٦٤٣ بيان:

- ٤٦٤٨ [سوره المرسلات (٧٧): الآيات ١٦ الى ٥٠]
- ٤٦٥٧ سوره النبأ مكيه و هي أربعون آيه
- ٤٦٥٧ اشاره
- ٤٦٥٧ [سوره النبأ (٧٨): الآيات ١ الى ١٦]
- ٤٦٥٧ اشاره
- ٤٦٥٨ بيان:
- ٤٦٦٣ [سوره النبأ (٧٨): الآيات ١٧ الى ٤٠]
- ٤٦٧٤ سوره النازعات مكيه و هي ست و أربعون آيه
- ٤٦٧٤ اشاره
- ٤٦٧٤ [سوره النازعات (٧٩): الآيات ١ الى ٤١]
- ٤٦٧٤ اشاره
- ٤٦٧٦ بيان:
- ٤٦٨٩ [سوره النازعات (٧٩): الآيات ٤٢ الى ٤٦]
- ٤٦٩٣ سوره عبس مكيه و هي اثنان و اربعون آيه
- ٤٦٩٣ اشاره
- ٤٦٩٣ [سوره عبس (٨٠): الآيات ١ الى ١٦]
- ٤٦٩٣ اشاره
- ٤٦٩٤ بيان:
- ٤٦٩٨ [سوره عبس (٨٠): الآيات ١٧ الى ٤٢]
- ٤٧٠٦ سوره التكوير مكيه و هي تسع و عشرون آيه
- ٤٧٠٦ اشاره
- ٤٧٠٦ [سوره التكوير (٨١): الآيات ١ الى ١٤]
- ٤٧٠٦ اشاره
- ٤٧٠٧ بيان:
- ٤٧١٠ [سوره التكوير (٨١): الآيات ١٥ الى ٢٩]
- ٤٧١٦ سوره الانفطار مكيه و هي تسع عشره آيه

٤٧١٦ اشارة

٤٧١٦ [سوره الانفطار (٨٢): الآيات ١ الى ١٩]

٤٧١٦ اشارة

٤٧١٧ بيان:

٤٧٢٤ سوره المطففين مكيه أو مدنيه و هي ست و ثلاثون آيه

٤٧٢٤ اشارة

٤٧٢٤ [سوره المطففين (٨٣): الآيات ١ الى ٢١]

٤٧٢٤ اشارة

٤٧٢٥ بيان:

٤٧٣٠ [سوره المطففين (٨٣): الآيات ٢٢ الى ٣٤]

٤٧٣٥ سوره الانشقاق مكيه و هي خمس و عشرون آيه

٤٧٣٥ اشارة

٤٧٣٥ [سوره الانشقاق (٨٤): الآيات ١ الى ٢٥]

٤٧٣٥ اشارة

٤٧٣٦ بيان:

٤٧٤١ سوره البروج مكيه و هي اثنتان و عشرون آيه

٤٧٤١ اشارة

٤٧٤١ [سوره البروج (٨٥): الآيات ١ الى ٢٢]

٤٧٤١ اشارة

٤٧٤٢ بيان:

٤٧٤٩ سوره الطارق مكيه و هي سبع عشره آيه

٤٧٤٩ اشارة

٤٧٤٩ [سوره الطارق (٨٦): الآيات ١ الى ١٧]

٤٧٤٩ اشارة

٤٧٥٠ بيان:

٤٧٥٤ سوره الأعلى مكيه و هي تسع عشره آيه

٤٧٥٤ اشارة

٤٧٥٤ [سوره الأعلى (٨٧): الآيات ١ الى ١٩]

٤٧٥٤ اشارة

٤٧٥٥ بيان:

٤٧٦٢ سوره الغاشيه مكيه و هي ست و عشرون آيه

٤٧٦٢ اشارة

٤٧٦٢ [سوره الغاشيه (٨٨): الآيات ١ الى ٢٦]

٤٧٦٢ اشارة

٤٧٦٣ بيان:

٤٧٦٩ سوره الفجر مكيه و هي ثلاثون آيه

٤٧٦٩ اشارة

٤٧٦٩ [سوره الفجر (٨٩): الآيات ١ الى ٣٠]

٤٧٦٩ اشارة

٤٧٧١ بيان:

٤٧٨٠ سوره البلد مكيه و هي عشرون آيه

٤٧٨٠ اشارة

٤٧٨٠ [سوره البلد (٩٠): الآيات ١ الى ٢٠]

٤٧٨٠ اشارة

٤٧٨١ بيان:

٤٧٨٦ سوره الشمس مكيه و هي ست عشره آيه

٤٧٨٦ اشارة

٤٧٨٦ [سوره الشمس (٩١): الآيات ١ الى ١٥]

٤٧٨٦ اشارة

٤٧٨٧ بيان:

٤٧٩٢ سوره الليل مكيه و هي احدى و عشرون آيه

٤٧٩٢ اشارة

٤٧٩٢ [سوره الليل (٩٢): الآيات ١ الى ٢١]

٤٧٩٢ اشاره

٤٧٩٣ بيان:

٤٨٠٠ سورة الضحى مكيه أو مدنيه و هي احدى عشره آيه

٤٨٠٠ اشاره

٤٨٠٠ [سوره الضحى (٩٣): الآيات ١ الى ١١]

٤٨٠٠ اشاره

٤٨٠١ بيان:

٤٨٠٣ سورة ألم نشرح مكيه أو مدنيه و هي ثمان آيات

٤٨٠٣ اشاره

٤٨٠٣ [سوره الشرح (٩٤): الآيات ١ الى ٨]

٤٨٠٣ اشاره

٤٨٠٣ بيان:

٤٨٠٧ سورة التين مكيه و هي ثمان آيات

٤٨٠٧ اشاره

٤٨٠٧ [سوره التين (٩٥): الآيات ١ الى ٨]

٤٨٠٧ اشاره

٤٨٠٧ بيان:

٤٨١١ سورة العلق مكيه و هي تسع عشره آيه

٤٨١١ اشاره

٤٨١١ [سوره العلق (٩٦): الآيات ١ الى ١٩]

٤٨١١ اشاره

٤٨١٢ بيان:

٤٨١٧ سورة القدر مكيه و هي خمس آيات

٤٨١٧ اشاره

٤٨١٧ [سوره القدر (٩٧): الآيات ١ الى ٥]

٤٨١٧ اشاره

٤٨١٧ بيان:

٤٨٢١ سورة البينه مدنيه و هي ثمان آيات

٤٨٢١ اشاره

٤٨٢١ [سوره البينه (٩٨): الآيات ١ الى ٨]

٤٨٢١ اشاره

٤٨٢٢ بيان:

٤٨٢٨ سورة الزلزال مدنيه و هي ثمان آيات

٤٨٢٨ اشاره

٤٨٢٨ [سوره الزلزله (٩٩): الآيات ١ الى ٨]

٤٨٢٨ اشاره

٤٨٢٨ بيان:

٤٨٣٢ سورة العاديات مدنيه و هي إحدى عشره آيه

٤٨٣٢ اشاره

٤٨٣٢ [سوره العاديات (١٠٠): الآيات ١ الى ١١]

٤٨٣٢ اشاره

٤٨٣٣ بيان:

٤٨٣٤ سورة القارعه مكيه و هي إحدى عشره آيه

٤٨٣٤ اشاره

٤٨٣٤ [سوره القارعه (١٠١): الآيات ١ الى ١١]

٤٨٣٤ اشاره

٤٨٣٧ بيان:

٤٨٣٩ سورة التكاثر مكيه و هي ثمان آيات

٤٨٣٩ اشاره

٤٨٣٩ [سوره التكاثر (١٠٢): الآيات ١ الى ٨]

٤٨٣٩ اشاره

٤٨٣٩ ----- بيان:

٤٨٤٣ ----- سورة العصر مكيه و هي ثلاث آيات

٤٨٤٣ ----- اشاره

٤٨٤٣ ----- [سوره العصر (١٠٣): الآيات ١ الى ٣]

٤٨٤٣ ----- اشاره

٤٨٤٣ ----- بيان:

٤٨٤٧ ----- سورة الهمزه مكيه و هي تسع آيات

٤٨٤٧ ----- اشاره

٤٨٤٧ ----- [سوره الهمزه (١٠٤): الآيات ١ الى ٩]

٤٨٤٧ ----- اشاره

٤٨٤٨ ----- بيان:

٤٨٥١ ----- سورة الفيل مكيه و هي خمس آيات

٤٨٥١ ----- اشاره

٤٨٥١ ----- [سوره الفيل (١٠٥): الآيات ١ الى ٥]

٤٨٥١ ----- اشاره

٤٨٥١ ----- بيان:

٤٨٥٣ ----- سورة قريش مكيه و هي أربع آيات

٤٨٥٣ ----- اشاره

٤٨٥٣ ----- [سوره قريش (١٠٦): الآيات ١ الى ٤]

٤٨٥٣ ----- اشاره

٤٨٥٣ ----- بيان:

٤٨٥٧ ----- سورة الماعون مدنيه او مكيه و هي سبع آيات

٤٨٥٧ ----- اشاره

٤٨٥٧ ----- [سوره الماعون (١٠٧): الآيات ١ الى ٧]

٤٨٥٧ ----- اشاره

٤٨٥٧ ----- بيان:

- ٤٨٦٠ سورة الكوثر مكيه و هي ثلاث آيات
- ٤٨٦٠ اشاره
- ٤٨٦٠ [سوره الكوثر (١٠٨): الآيات ١ الى ٣]
- ٤٨٦٠ اشاره
- ٤٨٦٠ بيان:
- ٤٨٦٣ سورة الكافرون مكيه و هي ست آيات
- ٤٨٦٣ اشاره
- ٤٨٦٣ [سوره الكافرون (١٠٩): الآيات ١ الى ٦]
- ٤٨٦٣ اشاره
- ٤٨٦٣ بيان:
- ٤٨٦٦ سورة النصر مدنيه و هي ثلاث آيات
- ٤٨٦٦ اشاره
- ٤٨٦٦ [سوره النصر (١١٠): الآيات ١ الى ٣]
- ٤٨٦٦ اشاره
- ٤٨٦٦ بيان:
- ٤٨٦٩ سورة تبت مكيه و هي خمس آيات
- ٤٨٦٩ اشاره
- ٤٨٦٩ [سوره المسد (١١١): الآيات ١ الى ٥]
- ٤٨٦٩ اشاره
- ٤٨٦٩ بيان:
- ٤٨٧٣ سورة الإخلاص مكيه و هي أربع آيات
- ٤٨٧٣ اشاره
- ٤٨٧٣ [سوره الإخلاص (١١٢): الآيات ١ الى ٤]
- ٤٨٧٣ اشاره
- ٤٨٧٣ بيان:
- ٤٨٧٨ سورة الفلق مكيه و هي خمس آيات

٤٨٧٨ اشاره

٤٨٧٨ [سوره الفلق (١١٣): الآيات ١ الى ٥]

٤٨٧٨ اشاره

٤٨٧٨ بيان:

٤٨٨١ سورة الناس مدنيه و هي ست آيات

٤٨٨١ اشاره

٤٨٨١ [سوره الناس (١١٤): الآيات ١ الى ٦]

٤٨٨١ اشاره

٤٨٨١ بيان:

٤٨٨٥ تعريف مركز

سرشناسه : طباطبائي، محمدحسين، ۱۳۶۰ - ۱۲۴۱

عنوان قراردادى : [الميزان في تفسير القرآن. برگزیده]

عنوان و نام پديدآور : مختصر الميزان في تفسير القرآن / [محمدحسين الطباطبائي]؛ تاليف الياس كلانترى

مشخصات نشر : تهران: سازمان اوقاف و امور خيريه، انتشارات اسوه، ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهرى : ج ۶

شابك : ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۲-۱۵۰۰۰Xريال:(دوره)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۳-۰۸(ج.۱)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۴-۰۶(ج.۲)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۵-۰۵-۰۴(ج.۳)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۶-۰۲(ج.۴)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۷-۰۰(ج.۵)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۸-۰۹(ج.۶)

وضعيت فهرست نویسى : فهرست نویسى قبلى

يادداشت : عربى

عنوان ديگر : الميزان في تفسير القرآن. برگزیده

موضوع : تفاسير شيعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : كلانترى، الياس، ۱۳۳۰ - ، خلاصه كننده

شناسه افزوده : سازمان اوقاف و امور خيريه. انتشارات اسوه

رده بندى كنگره : BP۹۸/ط۲۵م۹۰۱۶ ۱۳۷۹

رده بندى ديويى : ۲۹۷/۱۷۲۶

شماره كتابشناسى ملى : م ۷۹-۵۸۷۹

ص : ۱

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين و صلى الله على سيدنا محمد و آله الطيبين الطاهرين.

إن الأسلوب المتخذ في القرآن الكريم هو بالصورة التي يشاهد، فيه جوانب متعددة من المعاني، بحيث يلاحظ منه سلسله من المعاني الظاهرية بمجرد مطالعته مطالعه بسيطه. ثم -و على أثر التدبر فيه و التدقيق في تراكيب الجمل و الآيات، لا سيما على أثر كشف صلات الآيات ببعضها يكتشف منها معاني أعمق و أوسع و أكثر من المعاني الأولى. و ان اكتشاف المعاني الجديده في القرآن باستعمال الأسلوب التفسيري الصحيح لا انتهاء له أبدا.

بناء على هذا فمن الممكن أن تكون الآيات القرآنيه موضع بحث و تفسير من جوانب و مستويات عديده. أى يمكن الاكتفاء بذكر المعاني الإجماليه و البدائيه للآيات في بحث تفسيري واحد، أو كتاب تفسير من أجل الاطلاع على معرفه اجماليه لمعاني الآيات، و يمكن أيضا المبادره الى بحث مفصل و استخراج معاني مفصّله و عميقه من الآيات بالاضافه إلى المعاني الإجماليه الأولى.

هذه القابليه بهذه الصوره هي إحدى مميزات القرآن الكريم، و لا يمكن لأى كتاب

آخر أن يكون بهذه المواصفات؛ لأن هذه الكيفيه من التركيب هي من العلم الالهي و قدرته اللامتناهييه.

بحث حول الأساليب التفسيريه المختلفه

لقد دوّنت تفاسير كثيره حول القرآن الكريم منذ نزوله حتى يومنا هذا، و وضعت معاني هذا الكتاب موضع بحث و تحقيق و تبين من جوانب و صور مختلفه. و قد ظهرت -الى جانب ذلك- أساليب مختلفه في التفسير و التحقيق و استخراج معاني الآيات و اختلاف اساليب التفسير و كتب تفسير القرآن يمكن أن يكون عدّه أسباب منها:

١- استعمال الأساليب الخاطئه الناقصه في تفسير آيات القرآن.

٢- استعمال الموازين و المقاييس المختلفه الناتجه عن مواقف المفسرين الفكرية و العلميه و العقائديه.

٣- عدم الاهتمام بالفروق القائمه بين كتاب الله و الكتب البشريه في المجالات المختلفه.

٤- القيام بتفسير القرآن من قبل غير أهل الفن و فاقدى القابليه و القدره الكافيه للتفسير.

٥- أسلوب القرآن الخاص الذي يحتوى على جوانب عديده من المعاني و المفاهيم اللامتناهييه الخاصه به و في تراكيبه الخاصه.

و بصوره عامه، يجب القول بأنه و إن كان استعمال الأساليب الخاطئه في تفسير القرآن، و وجود فاقدى الصلاحيات التفسيريه في هذا المجال، و استعمال المقاييس و الموازين الخاصه بالاشخاص في استنباط معاني الآيات قد أوجدت التفاسير المختلفه؛ فإن أسلوب القرآن الخاص أيضا يجب أن يعتبر -من بعض الجوانب- سببا في ظهور هذه الاختلافات.

إن اتساع معانى القرآن و مفاهيمه و كثرتها من جهة، و النظرات و المقاصد و القدرات و...المختلفه من جهة أخرى قد أدت إلى أن ينتبه كل واحد من المفسرين إلى عدد من معانى الآيات من بعض جوانبها، و عرضها باعتبارها معانى الآيات سواء كانت المعانى صحيحه، و التى يريدنا الله تعالى، أو محتمله و غير صحيحه.

الأسلوب التفسيري الصحيح

يوجد أسلوب تفسيري صحيح واحد فقط بين جميع الأساليب التفسيرية المختلفه، و هذا الأسلوب هو الذى يؤيده الله تعالى و نبى ١ الاسلام الكريم صلى الله عليه و آله و سلم، و هو عبارته عن تفسير القرآن بالقرآن. و أما غيره من الأساليب فغير صحيحه و غير جائزه و إن كان فى بعضها مزيج من الأسلوب الصحيح و غيره.

و بصوره عامه، فإن الكتاب النابع من علم الله تعالى يجب أن يكون أسلوب تفسيره و بيان مواضعه من جانب الله أيضا. و بالطبع فإن الأساليب الناتجه عن فكر الأشخاص و علمهم لا يمكن أن تكون مورد تأييد الله تعالى.

و من المحتمل أن يكون عدد من المفسرين قد غفلوا عن أصل الموضوع، و هو أن يكون أسلوب تفسير كلام الله مستنبطاً من نفس كلامه تعالى. و قد يكون البعض منهم قد انتبهوا الى أصل الموضوع، و لكنهم من الناحية العمليه ظنوا بأن أسلوبهم غير الصحيح هو الصحيح الجائز. و بالطبع فإن القله من المفسرين قد استعملوا-حسب إمكانهم و قدرتهم الأسلوب الصحيح.

و بالطبع فإن بيان هذا الأسلوب بصوره تامه يحتاج الى بحث مفصل، و قد أشير الى ذكره هنا فقط و قد أورد مؤلف كتاب «الميزان فى تفسير القرآن» بحثاً استدلالياً اجمالياً فى هذا المجال فى مقدمه كتابه.

(١) ليس هذا التعبير (نبى الاسلام) بعربى فصيح و لا شائعاً فى العرييه بل هو تعبير فارسى شائع فى الفارسيه و انما الفصيح منه النبى او نبى الله و كذلك فى الرسول.

إن كتاب «الميزان في تفسير القرآن» تأليف العالم الجليل الفقيه السعيد المرحوم العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي هو أكثر الكتب التفسيرية التي كتبت في العصر الحاضر أهميته وقيمه؛ والأسلوب المتخذ في هذا الكتاب هو عبارته عن «تفسير القرآن بالقرآن» وأن قوه الإدراك العظيمه، والاطلاعات الواسعه، والجهود المضمنيه، والضمير النير، والفكر الثاقب، وأهم من كل هذه العوامل، استخدام الأسلوب الفني «تفسير القرآن بالقرآن» قد أدت الى أن يوجد هذا البطل في عالم علم التفسير كتابا لا نظير له بين تفاسير القرآن حتى الآن.

أورد مؤلف «الميزان في تفسير القرآن» في مقدمه الكتاب بحثا إجماليا حول الأساليب التفسيرية المختلفه، وبعد تخطئه الأساليب غير الصحيحه المتداوله طيله التاريخ و إبطالها، بين الأسلوب التفسيري الصحيح، وقد استدلل على صحه ذلك بدلائل برهانيه دقيقه.

وقد بذل مؤلف هذا الكتاب الموفق القدير السعي الكثير في أن يتجنب -حسب الإمكان فرض نظره محدوده خاصه على تفسير آيات القرآن، وبغض النظر عن النظرات المحدوده الخاصه و بالاستعانه بالأسلوب التفسيري الصحيح، جعل الآيات القرآنيه موضع دراسه و تحقيق، واستخرج معانيها في الجوانب الممكنه.

وقد زعم أنه قد فسّر القرآن في هذا الكتاب بواسطه القرآن نفسه و في الواقع فإنه نجح في زعمه هذا، وأوجد هذا الكتاب التاريخي المبارك.

إن القرآن الكريم- كما أشير في بدايه هذه المقدمة- له جوانب مختلفه من المعاني، و من الممكن أن تكون موضع دراسه و تحقيق و بحث من نواح كثيره و قد اكتفى في تفسير الميزان بالبحث اللفظي العادي في بعض الآيات، و في بعضها الآخر بودر الى بحوث قرآنيه و علميه و كلاميه و فلسفيه و اجتماعيه و تاريخيه و روائيه و... مهمه جدا و مفصله، و قد جاءت الى جانب التفسير البسيط للآيات أحيانا، بحوث بصوره مستقله أحيانا أخرى، بحيث لا- يستفيد من بعض هذه البحوث سوى أهل الفن فحسب.

بناء على هذا، ففي خلال دراسه هذا الكتاب، تفرّر- بالنظر الى بحوثه القيمه المثمره و حاجه الجيل الصاعد الى التعرف على القرآن في المستويات المختلفه- أن ينظّم كتاب في فهرسه مواضيعه، و كذلك مختصر عن هذا الكتاب لتمهيد الطريق الى الاستفاده من بحوثه بصوره مفصله و منظّمه و منسّقه من قبل محققي العلوم القرآنيه، و كذلك الاستفاده من هذا الكتاب من قبل الذين لا يجدون سوى الفرصه من التعرف الإجمالي على معاني آيات القرآن بصوره مريحه.

فأخذت الخطوات- في البدايه- لتنظيم الدليل و الفهرست، و البحث عن موضوع الكتاب و مؤلفه سماحه العلامة الطباطبائي رحمه الله عليه، و الذي نال موافقته و رضاه.

و قد ترجم هذا الكتاب الى اللغه العربيه تحت عنوان «دليل الميزان في تفسير القرآن» ليتسنى لأبناء الضاد الاستفاده منه في النصّ العربى و ترجمه الفارسيه على السواء، و قد طبع كلاهما و صدرا إلى الأسواق، و أصبحا موضع استفاده المحققين و هواه التفسير و اقبالهم.

و خلال هذا العمل وضع التخطيط لاختصار هذا التفسير الذى هو هذا الكتاب الذى

بين يديك: «مختصر الميزان في تفسير القرآن» ثم تنسق بالأسلوب الذى سوف يتضح فى هذه المقدمة، و أعدّ للطبع.

و من أجل أن يتضح أسلوب العمل فى اختصار كتاب الميزان، يجب الاشارة الى بعض الجوانب المتخذة فى تفسير الميزان، و هذه الجوانب هى عبارته عن:

١- إن مؤلف كتاب الميزان غالبا ما يبادر فى البدايه الى البحث اللغوى حول المفردات بعد كتابه آيه أو آيات مثل:

قوله تعالى: «بكلمه منه اسمه المسيح عيسى بن مريم...» والكلمه و الكلم كالتمره و التمر جنس و فرد، و تطلق الكلمه على اللفظ الواحد الدال على المعنى و على الجملة سواء صحّ السكوت عليها، مثل: زيد قائم، أو لم يصحّ، مثل: إن كان زيد قائما، هذا بحسب اللغة. (آل عمران ٤٥).

٢- و قد كتب المؤلف بعد البحث اللغوى رأيه حول معانى الآيه موضوعه البحث غالبا، مثل:

قوله تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ...» الخطاب لعامة أهل الكتاب، و الدعوه فى قوله تعالى: «تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ...» بالحقيقه أنما هى الاجتماع على معنى الكلمه بالعمل به، و أنما تنسب الى الكلمه لتدل على كونها دائره بألستهم.... (آل عمران ٦٤).

٣- و يدون المؤلف غالبا-بعد بيان رأيه-آراء المفسرين الآخرين إن وجد حول الآيه، و يرى لها وجهها-تاره، و يردّها تاره اخرى، و قد يذكرها و لا يعلّق عليها، مثل:

و هذا الذى ذكرناه من انقطاع الاستثناء هو الأوفق بسياق الآيه...

و ربما يقال: إن الاستثناء متّصل، قوله بالباطل قيد توضيحي...

و هذا النحو من الاستعمال و ان كان جائزا معروفا عند أهل اللسان، إلا أنك قد عرفت أن

الأوفق لسياق الآيه هو انقطاع الاستثناء...

و ربما قيل: إنَّ المراد بالنهي المنع... (النساء ٢٩).

و مثل: قوله تعالى: «وَ يُطْعَمُونَ عَلَىٰ حُبِّهِ مَشَكِينًا وَ يَتِيمًا وَ أَسِيرًا» ضمير «عَلَىٰ حُبِّهِ» للطعام على ما هو الظاهر، و المراد بحبّه توقان النفس اليه لشده الحاجه، و يؤيد هذا المعنى قوله تعالى: «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ». (آل عمران ٩٢).

و قيل: الضمير لله سبحانه، أى يطعمون الطعام حبا لله، لا طمعا فى الثواب، و يدفعه أن قوله تعالى حكاية منهم: «إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ» يغنى عنه.

و يليه فى الضعف ما قيل: إنَّ الضمير للإطعام المفهوم من قوله: «وَ يُطْعَمُونَ» وجه الضعف أنه إن أريد بحب الإطعام حقيقه معناه، فليس فى حبّ الإطعام فى نفسه فضل حتى يمدحوا به، و إن أريد به كون الإطعام بطيب النفس و عدم التكلف، فهو خلاف الظاهر، و رجوع الضمير الى الطعام هو الظاهر. (الدهر ٨).

و مثل: «فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولَىٰ» الأخذ كناية عن التعذيب، و النكال التعذيب الذى يردع من رآه أو سمعه عن تعاطى مثله، و عذاب الآخرة نكال، حيث إن من شأنه أن يردع من سمعه عن تعاطى ما يؤدى اليه من المعصيه، كما أن عذاب الاستئصال فى الدنيا نكال.

و المعنى: فأخذ الله فرعون الى عذابه و نكاله نكال الآخرة و الأولى، و أما عذاب الدنيا فأغراقه و إغراق جنوده، و أما عذاب الآخرة فعذابه بعد الموت. فالمراد بالأولى و الآخرة الدنيا و الآخرة.

و قيل: المراد بالآخرة كلمه الآخرة: «أَنَا رَبُّكُمْ الْمَاعْلَىٰ» و بالأولى كلمته الأولى، قالها قبل ذلك: «مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي» فأخذه الله بهاتين الكلمتين و نكله نكالهما، و لا يخلو هذا المعنى من خفاء.

و لا یرد علیه ما قیل: إنَّ نزول هذه الآيات كان حيث لا صلاة أصلاً، و ذلك أنَّ تشريع الفرائض الخمس اليوميہ علی ما هی علیها اليوم، و إن كان فی ليله المعراج، و هی جميعاً عشر ركعات، ثمَّ زيد عليها سبع ركعات، إلاَّ- أنَّ أصل الصلاة كان منذ أوائل البعثة، كما يشهد به ذكرها فی هذه السوره و سورتي العلق و المزمل، و يدلُّ عليه الروايات.

و قيل: المراد بتطهير الثياب التخلُّق بالأخلاق الحميده و الملكات الفاضله.

و فی معنى تطهير الثياب أقوال أخر أغمضنا عن نقلها، لإمكان ارجاعها الى بعض ما تقدم من الوجوه، و أرجح الوجوه المتقدمه أولها و خامسها. (المدثر ٤/).

٤- بعد البحث فی تفسير عدد من الآيات كتبت بحوث قرآنيه و علميه و كلاميه و فلسفيه و اجتماعيه و تاريخيه و رواثيه و... مهمه و مفصله يمكن أن تكون لها صلہ ببحوث الآيات، بصوره مستقله عن البحث التفسيري فی فصل أو فصول مثل:

كلام فی أحكام الأعمال من حيث الجزاء. (البقره ٢١٦-٢١٨).

و مثل: كلام فی الإحسان و هدايته و الظلم و إضلاله. (البقره ٢٥٨-٢٦٠).

و مثل: كلام فی قدره الأنبياء و الأولياء، فلسفي و قرآني.

و مثل: كلام فی المجتمعات الحيوانيه. (الأنعام ٣٧-٥٥).

و مثل: الإعجاز و ماهيته؛ إعجاز القرآن؛ تحدّيه بالعلم؛ التحدّي بمن أنزل عليه القرآن؛ تحدّي القرآن بالإخبار عن الغيب؛ تحدّي القرآن بعدم الاختلاف فيه؛ التحدّي بالبلاغه؛ معنى الآيه المعجزه فی القرآن و ما يفسّر به حقيقتها؛ تصديق القرآن لقانون العليّه العامه؛ إثبات القرآن ما يخرق العاده؛ القرآن يسند ما أسند الى العله الماديه الى الله تعالى؛ القرآن يثبت تأثيراً في نفوس الأنبياء في الخوارق؛ القرآن كما يسند الخوارق الى تأثير النفوس، يسندها الى أمر اللّٰه تعالى؛ القرآن يسند المعجزه الى سبب غير مغلوب؛ القرآن يعدّ المعجزه برهاناً على صحه رساله، لا دليلاً عاماً.

و مثل: بدء تكوين الانسان، تركيبه من روح و بدن، شعوره الحقيقي، و ارتباطه بالأشياء، علومه العمليه، جريه على استخدام عنده ارتفاعاً، كونه مدنيا بالطبع، حدوث الاختلاف بين افراد الانسان، رفع الاختلاف بالدين، الاختلاف فى نفس الدين، الانسان بعد الدنيا. (البقره ٢١٣/).

و مثل: كلام فى المرابطه فى المجتمع الاسلامى: الانسان و الاجتماع، الانسان و نموه فى اجتماعه، الاسلام و عنايته بالاجتماع، اعتبار الاسلام رباطه الفرد و المجتمع، بما ذا يتكون و يعيش الاجتماع الاسلامى، منطلقان: منطق التعقل و منطق الاحساس، ما معنى ابتغاء الاجر عند الله و الاعراض عن غيره؟ ما معنى الحرية فى الاسلام؟ ما هو الطريق الى التحول و التكامل فى المجتمع الاسلامى؟ هل الاسلام بشريته يفى بإسعاد هذه الحياه الحاضره، من الذى يتقلد ولايه المجتمع فى الاسلام و ما سيرته؟ ثغر المملكه الاسلاميه هو الاعتقاد دون الحدود الطبيعيه او الاصطلاحيه، الاسلام اجتماعى بجميع شئونه، الدين الحق هو الغالب على الدنيا بالآخره.

و مثل: بحث علمى فى فصول ثلاثه: النكاح من مقاصد الطبيعه، استيلاء الذكور على الإناث، تعدد الزوجات.

و مثل: كلام فى الرق و الاستعباد، اعتبار العبوديه لله سبحانه، استعباد الانسان و اسبابه، سير الاستعباد فى التاريخ، ما الذى رآه الاسلام فى ذلك، ما هو السبيل الى الاستعباد، ما مقدار التحديد، الى م آل أمر الالغاء؟ (المائده ١١٦- / ١٢٠).

و مثل: كلام فى المجازاه و العفو فى فصول: ما معنى الجزاء؟ العفو و المغفره، للعفو مراتب، هل المؤاخذة أو المغفره تستلزم ذنباً، رباطه العمل و الجزاء، العمل يؤدي المرابطه الى النفس.

و مثل: كلام فى الأسماء الحسنى فى فصول: ما معنى الأسماء الحسنى؟ ما هو حد ما نصفه؟ الانقسامات التى لها، نسب الصفات و الأسماء إلينا، ما معنى الاسم الأعظم؟ عدد الأسماء الحسنى، هل الأسماء توقيفيه؟ (الأعراف ١٨٠-١٨٦).

مميزات هذا الكتاب

إن أسلوب عملنا فى اختصار «الميزان فى تفسير القرآن» يتضح بالنظر الى الإيضاحات التالى:

- ١- لم يصف فى هذا المختصر حتى كلمه واحده الى ما كتبه مؤلف الميزان.
- ٢- اختيرت آراء المؤلف فى معانى آيات القرآن بصوره اساسيه، الأ فى الموارد التى نقل المؤلف موضوعا عن الآخرين و قبله، و الذى يكون فى الحقيقه مطابقا لرأيه أو مبتنيا عليه.
- ٣- جىء بمقدمه تفسير الميزان التى توضح أسلوب المرحوم العلامة الطباطبائى التفسيرى بدون حذف فى هذا الكتاب.
- ٤- ان المواضيع المحذوفه هى فى الأساس عباره عن البحوث المستقله، العلميه و الكلاميه و الفلسفيه و الاجتماعيه، و التاريخيه، و الروائيه و... المدونه بعد التفسير اللفظى و العادى لبعض الآيات.
- ٥- يتوقف بيان الآيات على البحث الروائى فى بعض الموارد، و لذا فقد جىء بالبحث الروائى المنتخب فى هذا الكتاب.
- ٦- فى الموارد التى يبين فيها المؤلف رأيه الخاص بصوره مستقله بالنسبه لآيه من الآيات ثم يبادر الى نقل و دراسه آراء سائر المفسرين، اخترنا القسم الأول (رأى المؤلف نفسه) و حذفنا آراء الآخرين.

و أما فى الموارد التى يكون فيها البحث التفسىرى مزىجا من نقل آراء سائر المفسرين فقد أثبتنا جميع تلك الآراء.

٧- فى الموارد التى جاء المؤلف-بعد تفسير الآيه بأراء و تفاسير من سائر المفسرين أيضا، و يرى لتلك الآراء وجهها، و نقلها على الأقل و لم يرفضها أو لا يراها باطله، ففى مثل هذه الموارد اختير أكثرها، إلا فى الموارد التى لم نر ضروره فى اختيارها.

٨- إذا كان إيضاح معانى الآيه يتوقف أحيانا على جميع البحث التفسىرى فقد اخترنا جميع ذلك البحث و لم نحذف منه شيئا.

يوم مبعث رسول الله فى السابع و العشرين من شهر رجب سنه ثمان و اربعمائه بعد الألف من هجرته صلى الله عليه و آله و سلم

طهران-الياس كلانترى

ص: ١٢

الحمد لله الذى أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، و الصلاة على من جعله شاهداً و مبشراً و نذيراً، و داعياً الى الله بإذنه و سراجاً منيراً، و على آله الذين أذهب عنهم الرجس أهل البيت و طهرهم تطهيراً.

مقدمه: نعرّف فيها مسلك البحث عن معانى آيات القرآن الكريم فى هذا الكتاب بطريق الاختصار.

التفسير (و هو بيان معانى الآيات القرآنيه و الكشف عن مقاصدها و مداليلها) من أقدم الاشتغالات العلميه التى تعهد من المسلمين، فقد شرع تاريخ هذا النوع من البحث و التنقىير المسمى بالتفسير من عصر نزول القرآن كما يظهر من قوله تعالى و تقدس: **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَ يُزَكِّيْكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ الْآيَهُ؛ (البقره ١٥١).**

و قد كانت الطبقة الاولى من مفسرى المسلمين جماعه من الصحابه (و المراد بهم غير على عليه السلام، فإنّ له و للأئمه من ولده نبأ آخر سنتعرّض له) كابن عباس

و عبد الله ابن عمر و أبى و غيرهم اعتنوا بهذا الشأن، و كان البحث يومئذ لا يتجاوز عن بيان ما يرتبط، من الآيات بجهاتها الأدبيه و شأن النزول و قليل من الاستدلال بآيه على آيه و كذلك قليل من التفسير بالروايات المأثوره عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى القصص و معارف المبدإ و المعاد و غيرها.

و على هذا الوصف جرى الحال بين المفسرين من التابعين كمجاهد و قتاده و ابن أبى ليلى و الشعبى و السدى و غيرهم فى القرنين الأولين من الهجره، فإنهم لم يزيدوا على طريقه سلفهم من مفسرى الصحابه شيئاً غير أنهم زادوا من التفسير بالروايات، (و بينها روايات دسّها اليهود أو غيرهم)، فأوردوها فى القصص و المعارف الراجعه الى الخلقه كابتداء السماوات و تكوين الأرض و البحار و إرم شدّاد و عثرات الأنبياء و تحريف الكتاب و اشياء آخر من هذا النوع، و قد كان يوجد بعض ذلك فى المأثور عن الصحابه من التفسير و البحث.

ثم استوجب شيوع البحث الكلامى بعد النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى زمن الخلفاء باختلاط المسلمين بالفرق المختلفه من أمم البلاد المفتوحه بيد المسلمين و علماء الأديان و المذاهب المتفرقه من جهه.

و نقل فلسفه يونان الى العربيه فى السلطنه الأمويه أو آخر القرن الأول من الهجره، ثم فى عهد العباسيين، و انتشار البحث العقلى الفلسفى بين الباحثين من المسلمين من جهه أخرى ثانيه.

و ظهور التصوّف مقارنة لانتشار البحث الفلسفى و تمايل الناس الى نيل المعارف الدينيه من طريق المجاهده و الرياضه النفسانيه دون البحث اللفظى و العقلى من جهه أخرى ثالثه.

و بقاء جمع من الناس و هم أهل الحديث على التعبد المحض بالظواهر الدينيه من غير بحث إلا عن اللفظ بجهاتها الأديه من جهه أخرى رابعه.

ان اختلف الباحثون فى التفسير فى مسالكهم بعد ما عمل فيهم الانشعاب فى المذاهب ما عمل، و لم يبق بينهم جامع فى الرأى و النظر إلا- لفظ لا إله إلا الله و محمد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و اختلفوا فى معنى الأسماء و الصفات و الأفعال و السماوات و ما فيها و الأرض و ما عليها و القضاء و القدر و الجبر و التفويض و الثواب و العقاب و فى الموت و فى البرزخ و البعث و الجنة و النار، و بالجمله فى جميع ما تمسه الحقائق و المعارف الدينيه و لو بعض المس، فتفرقوا فى طريق البحث عن معانى الآيات، و كل يتحفظ على متن ما اتخذه من المذهب و الطريقه.

فأما المحدثون، فاقتصروا على التفسير بالروايه عن السلف من الصحابه و التابعين فساروا و جدوا فى السير حيث ما يسير بهم المأثور و وقفوا فيما لم يؤثر فيه شىء و لم يظهر المعنى ظهورا لا يحتاج الى البحث أخذا بقوله تعالى:

وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا الْآيَةُ؛ (آل عمران ٧).

و قد أخطئوا فى ذلك فان الله سبحانه لم يبطل حجه العقل فى كتابه، و كيف يعقل ذلك و حجتيه انما تثبت به! و لم يجعل حجتيه فى أقوال الصحابه و التابعين و انظارهم على اختلافها الفاحش، و لم يدع الى السفسطه بتسليم المتناقضات و المتنافيات من الاقوال، و لم يندب الا الى التدبر فى آياته، فرفع به أى اختلاف يترأى منها، و جعله هدى و نورا و تبيانا لكل شىء، فما بال النور يستنير بنور غيره! و ما شأن الهدى يهتدى بهدايه سواه! و كيف يتبين ما هو تبيان كل شىء بشىء دون نفسه!.

و اما المتكلمون فقد دعاهم الاقوال المذهبيه على اختلافها أن يسيروا فى التفسير على ما يوافق مذاهبهم باخذ ما وافق و تأويل ما خالف،على حسب ما يجوزه قول المذهب.

و اختيار المذاهب الخاصه و اتخاذ المسالك و الآراء المخصوصه و ان كان معلولا- لاختلاف الانظار العلميه أو لشيء آخر كالتقاليد و العصبيات القوميه،و ليس هاهنا محل الاشتغال بذلك،الا ان هذا الطريق من البحث أحرى به أن يسمى تطبيقا لا تفسيراً.

ففرّق بين ان يقول الباحث عن معنى آيه من الآيات: ما ذا يقول القرآن؟ أو يقول: ما ذا يجب ان نحمل عليه الآيه؟ فان القول الاول يوجب ان ينسى كل امر نظرى عند البحث،و ان يتكى على ما ليس بنظرى،و الثانى يوجب وضع النظريات فى المسأله و تسليمها و بناء البحث عليها.

و من المعلوم ان هذا النحو من البحث فى الكلام ليس بحثا عن معناه فى نفسه.

و أما الفلاسفه،فقد عرض لهم ما عرض للمتكلمين من المفسرين من الوقوع فى ورطه التطبيق و تأويل الآيات المخالفه بظاها للمسلّمات فى فنون الفلسفه بالمعنى الأعم اعنى: الرياضيات و الطبيعيات و الإلهيات و الحكمه العمليه، و خاصه المشائين،و قد تأولوا الآيات الوارده فى حقائق ما وراء الطبيعه و آيات الخلقه و حدوث السموات و الأرض و آيات البرزخ و آيات المعاد،حتى أنهم ارتكبوا التأويل فى الآيات التى لا- تلائم الفرضيات و الاصول الموضوعه التى نجدها فى العلم الطبيعى: من نظام الأفلاك الكليه و الجزئيه و ترتيب العناصر و الأحكام

الفلكيه و العنصريه إلى غير ذلك، مع انهم نصوا على أن هذه الأنظار مبتنيه على اصول موضوعه لا بينه و لا مبينه.

و أما المتصوفه، فإنهم لاشتغالهم بالسير فى باطن الخلقه و اعتنائهم بشأن الآيات الأنفسيه دون عالم الظاهر و آياته الآفاقيه اقتصروا فى بحثهم على التأويل، و رفضوا التنزيل، فاستلزم ذلك اجتراء الناس على التأويل، و تلفيق جمل شعريه و الاستدلال من كل شىء على كل شىء، حتى آل الأمر إلى تفسير الآيات بحساب الجمل و رد الكلمات إلى الزبر و البيئات و الحروف النورانيه و الظلمانيه إلى غير ذلك.

و من الواضح أن القرآن لم ينزل هدى للمتصوفه خاصه، و لا أن المخاطبين به هم أصحاب علم الاعداد و الأوفاق و الحروف، و لا أن معارفه مبنيه على أساس حساب الجمل الذى وضعه أهل التنجيم بعد نقل النجوم من اليونانيه و غيرها إلى العريبه.

نعم قد وردت روايات عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم و أئمه أهل البيت عليهم السلام كقولهم: ان للقرآن ظهرا و بطنا و لبطنه بطنا إلى سبعة ابطن أو إلى سبعين بطنا الحديث.

لكنهم عليهم السلام اعتبروا الظهر كما اعتبروا البطن، و اعتنوا بأمر التنزيل كما اعتنوا بشأن التأويل، و سنيين فى أوائل سوره آل عمران إن شاء الله: أن التأويل الذى يراد به المعنى المقصود الذى يخالف ظاهر الكلام من اللغات المستحدثه فى لسان المسلمين بعد نزول القرآن و انتشار الإسلام، و ان الذى يريده القرآن من لفظ التأويل فيما ورد فيه من الآيات ليس من قبيل المعنى و المفهوم.

وقد نشأ في هذه الأعصار مسلك جديد في التفسير و ذلك أن قوما من منتحلي الإسلام في أثر توغلهم في العلوم الطبيعيه و ما يشابهها المبتنيه على الحس و التجربه، و الاجتماعيه المبتنيه على تجربه الاحصاء، مالوا إلى مذهب الحسيين من فلاسفه الأروبه سابقا، أو إلى مذهب أصاله العمل (لا قيمه للإدراكات الا ترتب العمل عليها بمقدار يعينه الحاجه الحيويه بحكم الجبر).

فذكروا: ان المعارف الدينيه لا يمكن أن تخالف الطريق الذي تصدقه العلوم و هو أن: (لا أصاله في الوجود إلا للماده و خواصها المحسوسه) فما كان الدين يخبر عن وجوده مما يكذب العلوم ظاهره كالعرش و الكرسي و اللوح و القلم يجب أن يؤوّل تأويلا.

و ما يخبر عن وجوده مما لا تتعرض العلوم لذلك كحقائق المعاد يجب أن يوجه بالقوانين الماديه.

و ما يتكى عليه التشريع من الوحي و الملك و الشيطان و النبوه و الرساله و الامامه و غير ذلك، إنما هي امور روحيه، و الروح ماديه و نوع من الخواص الماديه، و التشريع نبوغ خاص اجتماعي يبنى قوانينه على الأفكار الصالحه، لغايه إيجاد الاجتماع الصالح الراقى.

ذكروا: أن الروايات، لوجود الخليط فيها لا تصلح للاعتماد عليها، إلا ما وافق الكتاب، و أما الكتاب فلا يجوز أن يبنى في تفسيره على الآراء و المذاهب السابقه المبتنيه على الاستدلال من طريق العقل الذي أبطله العلم بالبناء على الحس و التجربه، بل الواجب أن يستقل بما يعطيه القرآن من التفسير إلا ما بينه

هذه جمل ما ذكروه أو يستلزمه ما ذكروه، من اتباع طريق الحس و التجربة، فساقهم ذلك إلى هذا الطريق من التفسير، و لا كلام لنا هاهنا فى اصولهم العلميه و الفلسفيه التى اتخذوها اصولا و بنوا عليها ما بنوا.

و إنما الكلام فى أن ما لو ردوه على مسالك السلف من المفسرين (أن ذلك تطبيق و ليس بتفسير) و ارد بعينه على طريقتهم فى التفسير، و إن صرحوا أنه حق التفسير الذى يفسر به القرآن بالقرآن.

و لو كانوا لم يحملوا على القرآن فى تحصيل معانى آياته شيئا، فما بهم يأخذون الأنظار العلميه مسلمه لا- يجوز التعدى عنها؟ فهم لم يزيدوا على ما أفسده السلف اصلاحا.

و انت بالتأمل فى جميع هذه المسالك المنقوله فى التفسير تجد: ان الجميع مشتركه فى نقص و بئس النقص، و هو تحميل ما انتجته الابحاث العلميه أو الفلسفيه من خارج على مداليل الآيات، فتبدل به التفسير تطبيقا و سمي به التطبيق تفسيراً، و صارت بذلك حقائق من القرآن مجازات، و تنزيل عدّه من الآيات تاويلات.

و لازم ذلك (كما أو مانا إليه فى أوائل الكلام) أن يكون القرآن الذى يعرّف نفسه بأنه (هدى للعالمين و نور مبين و تبيان لكل شىء) مهدياً إليه بغيره و مستنيراً بغيره و مبيناً بغيره، فما هذا الغير! أو ما شأنه! أو بما ذا يهدى إليه! أو ما هو المرجع و الملجأ إذا اختلف فيه! أو قد اختلف و اشتد الخلاف.

و كيف كان فهذا الاختلاف لم يولده اختلاف النظر فى مفهوم (مفهوم اللفظ

المفرد أو الجملة بحسب اللغة و العرف العربي)الكلمات أو الآيات،فإنما هو كلام عربي مبين لا يتوقف فى فهمه عربى و لا غيره ممن هو عارف باللغه و اساليب الكلام العربى.

و ليس بين آيات القرآن(و هى بضع آلاف آيه)آيه واحده ذات اغلاق و تعقيد فى مفهومها بحيث يتحير الذهن فى فهم معناها،و كيف!و هو افصح الكلام و من شرط الفصاحه خلو الكلام عن الاغلاق و التعقيد،حتى أن الآيات المعدوده من متشابه القرآن كالأيات المنسوخه و غيرها،فى غايه الوضوح من جهه المفهوم، و إنما التشابه فى المراد منها و هو ظاهر.

و إنما الاختلاف كل الاختلاف فى المصداق الذى ينطبق عليه المفاهيم اللفظيه من مفردها و مركبها،و فى المدلول التصورى و التصديقى.

توضيحه:ان الانس و العاده(كما قيل)يوجبان لنا ان يسبق إلى أذهاننا عند استماع الألفاظ معانيها الماديه أو ما يتعلق بالماده فإن الماده هى التى يتقلب فيها ابداننا و قوانا المتعلقه بها ما دمننا فى الحياه الدنيويه،فإذا سمعنا الفاظ الحياه و العلم و القدره و السمع و البصر و الكلام و الإراده و الرضا و الغضب و الخلق و الأمر كان السابق إلى أذهاننا منها الوجودات الماديه لمفاهيمها.

و كذا اذا سمعنا الفاظ السماء و الأرض و اللوح و القلم و العرش و الكرسي و الملك و اجنحته و الشيطان و قبيله و خيله و رجله إلى غير ذلك،كان المتبادر إلى افهامنا مصاديقها الطبيعيه.

و إذا سمعنا:إن الله خلق العالم و فعل كذا و علم كذا و أراد أو يريد أو شاء أو يشاء كذا قدينا الفعل بالزمان حملا على المعهود عندنا.

و إذا سمعنا نحو قوله: وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ الْآيَةِ.

و قوله: لَا تَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا الْآيَةِ.

و قوله: وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ الْآيَةِ.

و قوله: وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ الْآيَةِ؛ قيدنا معنى الحضور بالمكان.

و إذا سمعنا نحو قوله: إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا الْآيَةِ.

أو قوله: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ الْآيَةِ.

أو قوله: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ الْآيَةِ؛ فهمنا: أن الجميع سنخ واحد من الاراده، لما إن الأمر على ذلك فيما عندنا، و على هذا القياس.

و هذا شأننا فى جميع الألفاظ المستعمله، و من حقنا ذلك، فإن الذى أوجب علينا وضع الفاظ إنما هى الحاجه الاجتماعيه إلى التفهيم و التفهم، و الاجتماع إنما تعلق به الانسان ليستكمل به فى الافعال المتعلقة بالماده و لواحقها، فوضعنا الألفاظ علائم لمسمياتها التى نريد منها غايات و اغراضا عائده الينا.

و كان ينبغى لنا ان نتنبه: أن المسميات الماديه محكومه بالتغير و التبدل بحسب تبدل الحوائج فى طريق التحول و التكامل كما ان السراج أول ما عمله الانسان كان اناء فيه فتيله و شىء من الدهن تشتعل به الفتيله للاستضاءه به فى الظلمه، ثم لم يزل يتكامل حتى بلغ اليوم إلى السراج الكهربائى و لم يبقى من اجزاء السراج المعمول أوّلا الموضوع بازائه لفظ السراج شىء و لا واحد.

و كذا الميزان المعمول أوّلا، و الميزان المعمول اليوم لتوزين ثقل الحراره مثلا.

و السلاح المتخذ سلاحاً أول يوم، و السلاح المعمول اليوم إلى غير ذلك.

فالمسميات بلغت في التغير إلى حيث فقدت جميع أجزائها السابقة ذاتاً و صفه و الاسم مع ذلك باق، و ليس إلا لأن المراد في التسميه إنما هو من الشيء غايته، لا شكله و صورته، فما دام غرض التوزين أو الاستضاءه أو الدفاع باقيا كان اسم الميزان و السراج و السلاح و غيرها باقيا على حاله.

فكان ينبغي لنا ان نتنبه أن المدار في صدق الاسم اشتمال المصداق على الغايه و الغرض، لا- جمود اللفظ على صورته واحده، فذلك مما لا مطمع فيه البتة، و لكن العاده و الانس منعانا ذلك، و هذا هو الذى دعا المقلده من أصحاب الحديث من الحشويه و المجسمه ان يجمدوا على ظواهر الآيات فى التفسير و ليس فى الحقيقه جموداً على الظواهر بل هو جمود على العاده و الانس فى تشخيص المصاديق.

لكن بين هذه الظواهر أنفسها أمور تبيّن: أن الاتكاء و الاعتماد على الانس و العاده فى فهم معانى الآيات يشوّش المقاصد منها و يختل به أمر الفهم كقوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ الْآيَة.

و قوله: لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ .

و قوله: سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ .

و هذا هو الذى دعا الناس أن لا يقتصروا على الفهم العادى و المصداق المأنوس به الذهن فى فهم معانى الآيات كما كان غرض الاجتناب عن الخطاء و الحصول على النتائج المجهوله هو الذى دعا الانسان إلى ان يتمسك بديل البحث العلمى، و أجاز ذلك للبحث ان يداخل فى فهم حقائق القرآن و تشخيص

مقاصده العاليه، و ذلك على احد وجهين، احدهما: ان بحث بحثا علميا أو فلسفيا أو غير ذلك عن مسئله من المسائل التي تتعرض له الآيه حتى نقف على الحق في المسأله، ثم نأتى بالآيه و نحملها عليه، و هذه طريقه يرتضيها البحث النظرى، غير ان القرآن لا يرتضيها كما عرفت، و ثانيهما: ان نفس القرآن بالقرآن و نستوضح معنى الآيه من نظيرتها بالتدبر المندوب إليه في نفس القرآن، و نشخص المصاديق و نعرفها بالخواص التي تعطيها الآيات، كما قال تعالى، **كَمَا قَالَ تَعَالَى وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ الْآيَةَ.**

و حاشا أن يكون القرآن تبيانا لكل شيء و لا يكون تبيانا لنفسه، و قال تعالى:

هُدًى لِّلنَّاسِ وَ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَ الْفُرْقَانِ الْآيَةَ.

و قال تعالى: **أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا الْآيَةَ.**

و كيف يكون القرآن هدى و بينه و فرقانا و نورا مبينا للناس في جميع ما يحتاجون و لا يكفيهم في احتياجهم إليه و هو اشد الاحتياج! و قال تعالى:

وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا الْآيَةَ؛ و اى جهاد اعظم من بذل الجهد في فهم كتابه! و اى سبيل اهدى إليه من القرآن!

و الآيات في هذا المعنى كثيره سنستفرغ الوسع فيها في بحث المحكم و المتشابه في اوائل سورة آل عمران.

ثم إن النبي صلى الله عليه و آله و سلم الذى علمه القرآن و جعله معلما لكتابه كما يقول تعالى:

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَيَّ قَلْبِكَ الْآيَةَ.

و يقول **وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ الْآيَةَ؛** و عترته و اهل بيته الذين اقامهم النبي صلى الله عليه و آله و سلم هذا المقام في الحديث المتفق عليه بين

الفريقين «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله وعترتي أهل بيتي و أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض». و صدّقه الله تعالى في علمهم بالقرآن، حيث قال عزّ من قائل: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**.

و قال: **إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ** الآية؛ و قد كانت طريقتهم في التعليم و التفسير هذه الطريقتين بعينها على ما وصل إلينا من اخبارهم في التفسير. و سنورد ما تيسر لنا مما نقل عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و ائمه أهل بيته في ضمن ابحاث روائيه في هذا الكتاب، و لا- يعثر المتتبع الباحث فيها على مورد واحد يستعان فيه على تفسير الآية بحجه نظريه عقليه، و لا فرضيه علميه.

و قد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ: «فاذا التبت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن فانه شافع مشفع و ما حل مصدق، من جعله امامه قاده الى الجنه، و من جعله خلفه ساقه الى النار، و هو الدليل يدل على خير سبيل، و هو كتاب تفصيل و بيان و تحصيل و هو الفصل ليس بالهزل، و له ظهر و بطن، فظاهره حكمه و باطنه علم، ظاهره انيق و باطنه عميق، له نجوم و على نجومه نجوم، لا- تحصي عجائبه و لا- تبلى غرائبيه فيه مصابيح الهدى و منار الحكمه، و دليل على المعروف لمن عرف النصفه، فليرجع رجل بصره، و ليبلغ الصفه نظره ينجو من عطب و يخلص من نشب، فإن التفكير حياه قلب البصير، كما يمشى المستتير في الظلمات بالنور، يحسن التخلص و يقل التربص». و قال على عليه السلام (يصف القرآن على ما في النهج): «ينطق بعضه ببعض و يشهد بعضه على بعض» الخطبه.

هذا هو الطريق المستقيم و الصراط السوى الذى سلكه معلموا القرآن و هدايته صلوات الله عليهم.

و سنضع ما تيسر لنا بعون الله سبحانه من الكلام على هذه الطريقه فى البحث عن الآيات الشريفه فى ضمن بيانات،قد اجتنبنا فيها عن أن نركن الى حجه نظريه فلسفيه أو إلى فرضيه علميه،أو الى مكاشفه عرفانيه.

و احترزنا فيها عن أن نضع الا نكته ادبيه يحتاج إليها فهم الاسلوب العربى أو مقدمه بديهيه أو عمليه لا يختلف فيها الافهام.

و قد تحصل من هذه البيانات الموضوعه على هذه الطريقه من البحث استفراغ الكلام فيما نذكره:

(١)المعارف المتعلقة باسماء الله سبحانه و صفاته من الحياه و العلم و القدره و السمع و البصر و الوحده و غيرها،و أما الذات فستطلع أن القرآن يراه غنيا عن البيان.

(٢)المعارف المتعلقة بافعاله تعالى من الخلق و الامر و الإراده و المشيه و الهدايه و الاضلال و القضاء و القدر و الجبر و التفويض و الرضا و السخط،الى غير ذلك من متفرقات الافعال.

(٣)المعارف المتعلقة بالوسائط الواقعه بينه و بين الانسان كالحجب و اللوح و القلم و العرش و الكرسي و البيت المعمور و السماء و الارض و الملائكه و الشياطين و الجن و غير ذلك.

(٤)المعارف المتعلقة بالانسان قبل الدنيا.

(٥)المعارف المتعلقة بالانسان فى الدنيا كمعرفه تاريخ نوعه و معرفه نفسه

و معرفه اصول اجتماعه و معرفه النبوه و الرساله و الوحي و الالهام و الكتاب و الدين و الشريعه و من هذا الباب مقامات الانبياء المستفاده من قصصهم المحكيه.

(٦)المعارف المتعلقة بالانسان بعد الدنيا،و هو البرزخ و المعاد.

(٧)المعارف المتعلقة بالاخلاق الانسانيه،و من هذا الباب ما يتعلق بمقامات الأولياء فى صراط العبوديه من الاسلام و الايمان و الإحسان و الإخبات و الإخلاص و غير ذلك.

و أما آيات الأحكام،فقد اجتنبنا تفصيل البيان فيها لرجوع ذلك الى الفقه.

و قد أفاد هذه الطريقه من البحث ارتفاع التأويل بمعنى الحمل على المعنى المخالف للظاهر من بين الآيات.

و أما التأويل بالمعنى الذى يثبتته القرآن فى مواضع من الآيات،فسترى أنه ليس من قبيل المعانى.

ثم وضعنا فى ذيل البيانات متفرقات من ابحاث روائيه نورد فيها ما تيسر لنا ايراده من الروايات المنقوله عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم و أئمه أهل البيت سلام الله عليهم أجمعين من طرق العامه و الخاصه،و أما الروايات الوارده عن مفسرى الصحابه و التابعين،فإنها على ما فيها من الخلط و التناقض لا حجه فيها على مسلم.

و سيطلع الباحث المتدبر فى الروايات المنقوله عنهم عليهم السلام،ان هذه الطريقه الحديثه التى بنيت عليها بيانات هذا الكتاب،أقدم الطرق المأثوره فى التفسير التى سلكها معلموه سلام الله عليهم.

ثم وضعنا ابحاثا مختلفه،فلسفيه و علميه و تاريخيه و اجتماعيه و أخلاقيه،

حسب ما تيسر لنا من البحث، وقد أثرنا في كل بحث قصر الكلام على المقدمات المسانخه له، من غير تعد عن طور البحث.

نسأل الله تعالى السداد و الرشاد فانه خير معين و هاد

الفقير إلى الله محمد حسين الطباطبائي

ص: ١٧

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ
(٥)

بيان:

اشاره

قوله تعالى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الناس ربما يعملون عملا أو يتدثون في عمل و يقرونه باسم عزيز من أعزتهم أو كبير من كبرائهم، ليكون عملهم ذاك مباركا بذلك متشرفا، أو ليكون ذكرى يذكرهم به، و مثل ذلك موجود أيضا في باب التسميه فربما يسمون المولود الجديد من الانسان، أو شيئا مما صنعوه أو عملوه كدار بنوها أو مؤسسه اسسوها باسم من يحبونه أو يعظمونه، ليبقى الاسم بقاء المسمى الجديد، و يبقى المسمى الأول نوع بقاء بقاء

الاسم كمن يسمى ولده باسم والده ليحيى بذلك ذكره فلا يزول ولا ينسى.

وقد جرى كلامه تعالى هذا المجرى، فابتدأ الكلام باسمه عز اسمه؛ ليكون ما يتضمنه من المعنى معلما باسمه مرتبطا به، و ليكون أدبا يؤدب به العباد فى الاعمال و الافعال و الأقوال، فيبتدءوا باسمه و يعلموا به، فيكون ما يعملونه معلما باسمه منعوتا بنعته تعالى مقصودا لاجله سبحانه فلا يكون العمل هالكا باطلا مبترا، لأنه باسم الله الذى لا سبيل للهلاك و البطلان إليه.

و ذلك أن الله سبحانه يبين فى مواضع من كلامه: أن ما ليس لوجهه الكريم هالك باطل، و أنه: سيقدم الى كل عمل عملوه مما ليس لوجهه الكريم، فيجعله هباء منثورا، و يحبط ما صنعوا و يبطل ما كانوا يعملون، و انه لا بقاء لشيء إلا وجهه الكريم فما عمل لوجهه الكريم و صنع باسمه هو الذى يبقى و لا يفنى، و كل أمر من الامور انما نصيبه من البقاء بقدر ما لله فيه نصيب، و هذا هو الذى يفيد ما رواه الفريقان عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم إنه قال: «كل امر ذى بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو ابتر الحديث». و الأبر هو المنقطع الآخر، فالأنسب ان متعلق الباء فى البسملة ابتدئ بالمعنى الذى ذكرناه فقد ابتدأ بها الكلام بما انه فعل من الأفعال، فلا محاله له وحده، و وحده الكلام بوحدته مدلوله و معناه، فلا محاله له معنى ذا وحده، و هو المعنى المقصود افهامه من إلقاء الكلام، و الغرض المحصل منه.

وقد ذكر الله سبحانه الغرض المحصل من كلامه الذى هو جملة القرآن اذ قال تعالى: **قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ الْآيَةَ؛ (المائدة ١٦).** الى غير ذلك من الآيات التى أفاد فيها: ان الغايه من كتابه و كلامه هدايه العباد، فالهدايه جملة هى المبتدئه باسم الله الرحمن الرحيم، فهو الله الذى إليه مرجع العباد، و هو الرحمن يبين لعباده سبيل رحمته العامه للمؤمن و الكافر، مما فيه خيرهم فى وجودهم و حياتهم، و هو الرحيم يبين لهم سبيل رحمته الخاصه بالمؤمنين و هو سعادته آخرتهم و لقاء ربهم و قد قال تعالى: **وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ**

شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ. (الأعراف ١٥٦). فهذا بالنسبة الى جملة القرآن.

ثم إنه سبحانه كرّر ذكر السوره فى كلامه كثيرا كقوله تعالى: فَأَتُوا بِسُورِهِ مِثْلَهُ (يونس ٣٨). و قوله: فَأَتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ (هود ١٣). و قوله تعالى: إِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً (التوبه ٨٦). و قوله: سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا (النور ١). فبان لنا من ذلك: أن لكل طائفه من هذه الطوائف من كلامه (التي فضّيلها قطعاً قطعاً، وسمى كل قطعه سورته) نوعاً من وحده التأليف و التمام، لا يوجد بين أبعاض من سورته و لا بين سورته و سورته، و من هنا نعلم: أن الأغراض و المقاصد المحصله من السور مختلفه، و أن كل واحده منها مسوقه لبيان معنى خاص و لغرض محصل لا تتم السوره إلا بتمامه، و على هذا فالبسملة فى مبتدأ كل سورته راجعه الى الغرض الخاص من تلك السوره.

فالبسملة فى سورته الحمد راجعه الى غرض السوره و المعنى المحصل منه، و الغرض الذى يدل عليه سرد الكلام فى هذه السوره هو حمد الله باظهار العبوديه له سبحانه بالافصاح عن العباده و الاستعانه و سؤال الهدايه، فهو كلام يتكلم به الله سبحانه نيابه عن العبد، ليكون متأدباً فى مقام اظهار العبوديه بما أدبه الله به.

و إظهار العبوديه من العبد هو العمل الذى يتلبس به العبد، و الأمر ذو البال الذى يقدم عليه، فالابتداء باسم الله سبحانه الرحمن الرحيم راجع إليه، فالمعنى باسمك أظهر لك العبوديه.

فمتعلق الباء فى بسملة الحمد الابتداء و يراد به تتميم الاخلاص فى مقام العبوديه بالتخاطب. و ربما يقال انه الاستعانه و لا بأس به و لكن الابتداء انسب لاشتمال السوره على الاستعانه صريحاً فى قوله تعالى: وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ .

و أما الاسم، فهو اللفظ الدال على المسمى مشتق من السمه بمعنى العلامه أو من السمو بمعنى الرفعه و كيف كان فالذى يعرفه منه اللغه و العرف هو اللفظ الدال و يستلزم ذلك أن يكون

غير المسمى، و أما الاسم بمعنى الذات مأخوذاً بوصف من أوصافه فهو من الأعيان لا من الألفاظ و هو مسمى الاسم بالمعنى الأول كما ان لفظ العالم (من اسماء الله تعالى) اسم يدل على مسماه و هو الذات مأخوذه بوصف العلم و هو بعينه اسم بالنسبه الى الذات الذى لا خبر عنه الا بوصف من اوصافه و نعت من نعوته و السبب فى ذلك أنهم وجدوا لفظ الاسم موضوعاً للدال على المسمى من الألفاظ، ثم وجدوا أن الأوصاف المأخوذه على وجه تحكى عن الذات و تدل عليه حال اللفظ المسمى بالاسم فى أنها تدل على ذوات خارجيه، فسموا هذه الاوصاف الداله على الذوات أيضاً أسماءً فانتج ذلك ان الاسم كما يكون أمراً لفظياً كذلك يكون أمراً عينياً، ثم وجدوا ان الدال على الذات القريب منه هو الاسم بالمعنى الثانى المأخوذ بالتحليل، و ان الاسم بالمعنى الأول إنما يدل على الذات بواسطته، و لذلك سمو الذى بالمعنى الثانى اسماً، و الذى بالمعنى الأول اسم الاسم، هذا و لكن هذا كله أمر أدى إليه التحليل النظرى و لا ينبغى أن يحمل على اللغه، فالاسم بحسب اللغه ما ذكرناه.

و قد شاع النزاع بين المتكلمين فى الصدر الأول من الاسلام فى أن الاسم عين المسمى أو غيره و طالت المشاجرات فيه، و لكن هذا النوع من المسائل قد اتضحت اليوم اتضاحاً يبلغ الى حد الضروره و لا يجوز الاشتغال بها بذكر ما قيل و ما يقال فيها و العنايه بابطال ما هو الباطل و إحقاق ما هو الحق فيها، فالصفح عن ذلك أولى.

و أما لفظ الجلاله، فالله أصله الإله، حذفت الهمزه لكثرة الاستعمال، و إله من أله الرجل يأله بمعنى عبد، او من أله الرجل أو و له الرجل أى تحير، فهو فعال بكسر الفاء بمعنى المفعول ككتاب بمعنى المكتوب سمي إلهاً لأنه معبود أو لأنه مما تحيرت فى ذاته العقول، و الظاهر انه علم بالغلبه، و قد كان مستعملاً دائراً فى الألسن قبل نزول القرآن يعرفه العرب الجاهلى كما يشعر به قوله تعالى: **وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (الزخرف ٨٧)**، و قوله تعالى: **فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَ هَذَا لِشُرَكَائِنَا (الأنعام ١٣٦)**.

و مما يدل على كونه علما انه يوصف بجميع الأسماء الحسنی و سائر أفعاله المأخوذه من تلك الأسماء من غير عكس، فيقال: الله الرحمن الرحيم و يقال: رحم الله و علم الله، و رزق الله، و لا يقع لفظ الجلاله صفة لشيء منها و لا يؤخذ منه ما يوصف به شيء منها.

و لما كان وجوده سبحانه، و هو إله كل شيء يهدى الى اتصافه بجميع الصفات الكمالیه كانت الجميع مدلولاً عليها به بالالتزام، و صح ما قيل ان لفظ الجلاله اسم للذات الواجب الوجود المستجمع لجميع صفات الكمال و إلا فهو علم بالغلبه لم تعمل فيه عنايه غير ما يدل عليه ماده إله.

و اما الوصفان: الرحمن الرحيم، فهما من الرحمه، و هى وصف انفعالى و تأثر خاص يلم بالقلب عند مشاهدته من يفقد أو يحتاج الى ما يتم به أمره فيبعث الانسان الى تميم نقصه و رفع حاجته، إلا ان هذا المعنى يرجع بحسب التحليل الى الإعطاء و الإفاضه لرفع الحاجه و بهذا المعنى يتصف سبحانه بالرحمه.

و الرحمن، فعلان صيغه مبالغه تدل على الكثره، و الرحيم فعيل صفة مشبّهه تدل على الثبات و البقاء و لذلك ناسب الرحمن ان يدل على الرحمه الكثيره المفاضه على المؤمن و الكافر و هو الرحمه العامه، و على هذا المعنى يستعمل كثيرا فى القرآن، قال تعالى: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (طه ٥). و قال: قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مِيدًا (مريم ٧٥). الى غير ذلك، و لذلك أيضا ناسب الرحيم أن يدل على النعمه الدائمه و الرحمه الثابته الباقية التى تقاض على المؤمن كما قال تعالى: وَ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (الأحزاب ٤٣).

و قال تعالى: إِنَّهُ بِهِمْ رُؤُفٌ رَحِيمٌ (التوبه ١١٧). الى غير ذلك، و لذلك قيل: ان الرحمن عامّ للمؤمن و الكافر و الرحيم خاص بالمؤمن.

و قوله تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ، الحمد على ما قيل: هو الثناء على الجميل الاختيارى و المدح أعم منه، يقال: حمدت فلانا أو مدحته لكرمته، و يقال: مدحت اللؤلؤ على صفائه و لا

يقال: حمدته على صفائه، واللام فيه للجنس أو الاستغراق و المآل هاهنا واحد.

و ذلك ان الله سبحانه يقول: ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (غافر ٦٢). فأفاد أن كل ما هو شيء فهو مخلوق لله سبحانه، وقال: الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (السجده ٧).

فأثبت الحسن لكل شيء مخلوق من جهة أنه مخلوق له منسوب اليه، فالحسن يدور مدار الخلق و بالعكس، فلا خلق إلا و هو حسن جميل باحسانه و لا حسن إلا و هو مخلوق له منسوب اليه، و قد قال تعالى: هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (الزمر ٢٤). و قال: وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ (طه ١١١). فانبا أنه لم يخلق ما خلق بقهر قاهر و لا يفعل ما فعل باجبار من مجبر بل خلقه عن علم و اختيار فما من شيء إلا و هو فعل جميل اختياري له فهذا من جهة الفعل، و أما من جهة الاسم فقد قال تعالى: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (طه ٨).

و قال تعالى: وَ لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ (الأعراف / ١٨٠). فهو تعالى جميل في اسمائه و جميل في أفعاله، و كل جميل منه.

فقد بان أنه تعالى محمود على جميل اسمائه و محمود على جميل أفعاله، و أنه ما من حمد يحمده حامد لأمر محمود إلا كان لله سبحانه حقيقه لأن الجميل الذي يتعلق به الحمد منه سبحانه، فله سبحانه جنس الحمد و له سبحانه كل حمد.

ثم ان الظاهر من السياق و بقرينه الالتفات الذي في قوله: إِيَّاكَ نَعْبُدُ الْآيَهُ؛ إن السوره من كلام العبد، و انه سبحانه في هذه السوره يلقن عبده حمد نفسه و ما ينبغي ان يتأدب به العبد عند نصب نفسه في مقام العبوديه، و هو الذي يؤيده قوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ .

و ذلك إن الحمد توصيف، و قد نزه سبحانه نفسه عن وصف الواصفين من عباده حيث قال: سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (الصافات ١٦٠). و الكلام مطلق غير مقيد، و لم يرد في كلامه تعالى ما يؤذن بحكايه الحمد عن غيره إلا ما حكاه عن عده من أنبيائه المخلصين، قال تعالى في خطابه لنوح عليه السلام: فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ (المؤمنون ٢٨). وقال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ (إبراهيم ٣٩). وقال تعالى لنبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِهِ مَوَاضِعٍ مِنْ كَلَامِهِ: وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ (النمل ٩٣). وقال تعالى حكاية عن داود و سليمان عليهما السلام:

وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ (النمل ١٥). وإلا- ما حكاها عن أهل الجنة وهم المطهرون من غل الصدور و لغو القول و التأثيم كقوله: وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (يونس ١٠).

و أما غير هذه الموارد فهو تعالى و ان حكى الحمد عن كثير من خلقه بل عن جميعهم، كقوله تعالى: وَ الْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ (الشورى ٥). و قوله: وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ (الرعد ١٣). و قوله: وَ إِن مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ (الإسراء ٤٤). إلا أنه سبحانه شفع الحمد في جميعها بالتسبيح بل جعل التسبيح هو الأصل في الحكاية و جعل الحمد معه، و ذلك أن غيره تعالى لا يحيط بجمال أفعاله و كمالها كما لا- يحيطون بجمال صفاته و أسمائه التي منها جمال الأفعال، قال تعالى: وَ لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (طه ١١٠). فما وصفوه به فقد أحاطوا به و صار محدودا بحدودهم مقدرا بقدر نيلهم منه، فلا يستقيم ما أثنوا به من ثناء إلا من بعد أن ينزهوه و يسبحوه عن ما حدوه و قدروه بفهامهم، قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (النحل ٧٤)، و أما المخلصون من عباده تعالى فقد جعل حمدهم حمده و وصفهم وصفه حيث جعلهم مخلصين له، فقد بان ان الذى يقتضيه أدب العبودية ان يحمد العبد ربه بما حمد به نفسه و لا يتعدى عنه، كما فى الحديث الذى رواه الفريقان عن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ «لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» الحديث؛ فقوله فى أول هذه السورة: الحمد لله، تاديب بادب عبودى ما كان للعبد ان يقوله لو لا ان الله تعالى قاله نيابه و تعليما لما ينبغى الثناء به.

و قوله تعالى: رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ. (و قرأ الاكثر ملك يوم الدين) فالرب هو المالك الذى يدبر امر مملوكه، ففيه معنى الملك، و معنى الملك

(الذى عندنا فى ظرف الاجتماع) هو نوع خاص من الاختصاص و هو نوع قيام شىء بشىء يوجب صحه التصرفات فيه، فقولنا العين الفلانيه ملكنا معنا: ان لها نوعا من القيام و الاختصاص بنا يصح معه تصرفاتنا فيها و لو لا ذلك لم تصح تلك التصرفات و هذا فى الاجتماع معنى وضعى اعتبارى غير حقيقى و هو مأخوذ من معنى آخر حقيقى نسميه ايضا ملكا، و هو نحو قيام اجزاء وجودنا و قوانا بنا فان لنا بصرا و سمعا و يدا و رجلا، و معنى هذا الملك انها فى وجودها قائمه بوجودنا غير مستقلة دوننا بل مستقلة باستقلالنا و لنا ان نتصرف فيها كيف شئنا و هذا هو الملك الحقيقى.

و الذى يمكن انتسابه اليه تعالى بحسب الحقيقه هو حقيقه الملك دون الملك الاعتبارى الذى يبطل ببطلان الاعتبار و الوضع، و من المعلوم ان الملك الحقيقى لا ينفك عن التدبير فان الشىء اذا افتقر فى وجوده الى شىء فلم يستقل عنه فى وجوده لم يستقل عنه فى آثار وجوده، فهو تعالى رب لما سواه لان الرب هو المالك المدبر و هو تعالى كذلك.

و اما الْعَالَمِينَ: فهو جمع العالم بفتح اللام بمعنى ما يعلم به كالقالب و الخاتم و الطابع بمعنى ما يقرب به و ما يختم به و ما يطبع به، يطلق على جميع الموجودات و على كل نوع مؤلف الافراد و الاجزاء منها كعالم الجماد و عالم النبات و عالم الحيوان و عالم الانسان و على كل صنف مجتمع الافراد ايضا كعالم العرب و عالم العجم و هذا المعنى هو الانسب لما يثول اليه هذه الاسماء الحسنى حتى ينتهى الى قوله مالك يوم الدين على ان يكون الدين و هو الجزاء يوم القيمة مختصا بالانسان أو الانس و الجن فيكون المراد بالعالمين عوالم الانس و الجن و جماعاتهم و يؤيده ورود هذا اللفظ بهذه العناية فى القرآن كقوله تعالى: وَ اضْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (آل عمران ٤٢). و قوله تعالى: لِيُكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (الفرقان ١)، و قوله تعالى:

أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (الأعراف ٨٠).

و اما مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ: فقد عرفت معنى المالك و هو المأخوذ من الملك بكسر

الميم، واما الملك و هو مأخوذ من الملك بضم الميم، فهو الذى يملك النظام القومى و تدبيرهم دون العين، و بعبارة اخرى يملك الامر و الحكم فيهم.

و قد ذكر لكل من القراءتين، ملك و مالك؛ وجوه من التأييد غير ان المعنيين من السلطنة ثابتان فى حقه تعالى، و الذى تعرفه اللغه و العرف ان الملك بضم الميم هو المنسوب الى الزمان يقال: ملك العصر الفلانى، و لا- يقال مالك العصر الفلانى الا بعنايه بعيده، و قد قال تعالى:

ملك يوم الدين فنسبه الى اليوم، و قال ايضا: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (غافر / ١٦).

بحث روائى:

فى العيون و المعانى عن الرضا عليه السّلام فى معنى قوله: بسم الله، قال عليه السّلام: يعنى أسم نفسى بسمه من سمات الله و هى العباده، قيل له: ما اسمه؟ قال: العلامه.

اقول: و هذا المعنى كالمتولد من المعنى الذى اشرنا اليه فى كون الباء للابتداء فان العبد اذا وسم عبادته باسم الله لزم ذلك ان يسم نفسه التى ينسب العباده إليها بسمه من سماته.

و فى التهذيب عن الصادق عليه السّلام، و فى العيون و تفسير العياشى عن الرضا عليه السّلام انها اقرب الى اسم الله الاعظم من ناظر العين الى بياضها.

اقول: و سيجىء معنى الروايه فى الكلام على اسم الاعظم.

و فى العيون عن امير المؤمنين عليه السّلام: انها من الفاتحه و ان رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم كان يقرئها و يعدّها آيه منها، و يقول فاتحه الكتاب هى السبع المثانى.

اقول: و روى من طرق اهل السنه و الجماعه نظير هذا المعنى فعن الدارقطنى عن ابى هريره قال: قال رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم: اذا قرأتم الحمد فاقراءوا بسم الله الرحمن الرحيم، فانها امّ القرآن و السبع المثانى، و بسم الله الرحمن الرحيم احدى آياتها.

و فى الخصال عن الصادق عليه السلام قال: ما لهم؟ قاتلهم الله عمدوا الى اعظم آيه فى كتاب الله فزعموا انها بدعه اذا اظهروها.

و عن الباقر عليه السلام: سرقوا اكرم آيه فى كتاب الله؛ بسم الله الرحمن الرحيم، و ينبغى الاتيان به عند افتتاح كل أمر عظيم أو صغير ليبارك فيه.

اقول: و الروايات عن أئمة أهل البيت فى هذا المعنى كثيرة، و هى جميعا تدل على ان البسملة جزء من كل سورة إلا- سورة البراءة، و فى روايات أهل السنه و الجماعة ما يدل على ذلك.

ففى صحيح مسلم عن أنس قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: انزل على آنفا سورة فقراً: بسم الله الرحمن الرحيم.

عن أبى داود عن ابن عباس (و قد صححوا سندها) قال: ان رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم كان لا يعرف فصل السوره، (و فى روايه انقضاء السوره) حتى ينزل عليه، بسم الله الرحمن الرحيم.

اقول: و روى هذا المعنى من طرق الخاصه عن الباقر عليه السلام.

و فى الكافى و التوحيد و المعانى و تفسير العياشى عن الصادق عليه السلام فى حديث: و الله إله كل شىء، الرحمن بجميع خلقه، الرحيم بالمؤمنين خاصه.

و روى عن الصادق عليه السلام: الرحمن اسم خاص بصفه عامه و الرحيم اسم عام بصفه خاصه.

اقول: قد ظهر مما مر وجه عموم الرحمن للمؤمن و الكافر و اختصاص الرحيم بالمؤمن، أما كون الرحمن اسماً خاصاً بصفه عامه و الرحيم اسماً عاماً بصفه خاصه فكانه يريد به أن الرحمن خاص بالدنيا و يعم الكافر و المؤمن و الرحيم عام للدنيا و الآخره و يخص المؤمنين، و بعبارته اخرى: الرحمن يختص بالافاضه التكوينية التى يعم المؤمن و الكافر، و الرحيم يعم التكوين و التشريع الذى بابه باب الهدايه و السعاده، و يختص بالمؤمنين لان الثبات و البقاء يختص بالنعم التى تفاض عليهم و العاقبه للتقوى.

و فى كشف الغمه عن الصادق عليه السّلام قال: فقد لابى عليه السّلام: بغله فقال لئن ردها الله علىّ لاحمدنه بمحامد يرضيها فما لبث أن أتى بها بسرجها و لجامها فلما استوى و ضم اليه ثيابه رفع رأسه الى السماء و قال الحمد لله و لم يزد، ثم قال ما تركت و لا ابقيت شيئاً جعلت أنواع المحامد لله عزّ و جل، فما من حمد الا و هو داخل فيها.

قلت: و فى العيون عن على عليه السلام انه سئل عن تفسيرها فقال: هو ان الله عزّ ف عباده بعض نعمه عليهم جملا اذ لا يقدرّون على معرفه جميعها بالتفصيل لانها اكثر من ان تحصى أو تعرف، فقال: قولوا الحمد لله على ما انعم به علينا.

اقول: يشير عليه السّلام الى ما مر من أن الحمد، من العبد و انما ذكره الله بالنيابه تأديبا و تعليما (١).

بحث فلسفى:

البراهين العقليه ناهضه على ان استقلال المعلول و كل شأن من شئونه انما هو بالعله، و ان كل ما له من كمال فهو من اطلاق وجود علته، فلو كان للحسن و الجمال حقيقه فى الوجود فكماله و استقلاله للواجب تعالى لانه العله التى ينتهى اليه جميع العلل، و الثناء و الحمد هو اظهار موجود ما بوجوده كمال موجود آخر و هو لا محاله علته، و اذا كان كل كمال ينتهى اليه تعالى فحقيقه كل ثناء و حمد تعود و تنتهى اليه تعالى، فالحمد لله رب العالمين.

قوله تعالى: **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** الآية؛ العبد هو المملوك من الانسان أو من كل ذى شعور بتجريد المعنى كما يعطيه قوله تعالى: **إِنْ كُنْ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا** (مريم ٩٣). و العباده مأخوذه منه و ربما تفرقت اشتقاقاتها أو المعانى المستعمله هى فيها لاختلاف الموارد، و ما ذكره الجوهرى فى الصحاح أن أصل العبوديه

ص: ٢٩

الخصوع فهو من باب الأخذ بلازم المعنى وإلا فالخصوع متعد باللام والعباده متعديه بنفسها.

و بالجمله فكأنّ العباده هي نصب العبد نفسه في مقام المملوكيه لربه و لذلك كانت العباده منافيه للاستكبار و غير منافيه للاشراك فمن الجائز ان يشترك ازيد من الواحد في ملك رقبه أو في عباده عبد، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَشْرِكُونَ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (غافر ١٦٠). و قال تعالى: وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (الكهف ١١٠). فعد الاشراك ممكنا و لذلك نهى عنه، و النهى لا يمكن الا عن ممكن مقدور بخلاف الاستكبار عن العباده فانه لا يجامعها.

و العبوديه انما يستقيم بين العبيد و مواليهم فيما يملكه الموالي منهم، و اما ما لا يتعلق به الملك من شئون وجود العبد ككونه ابن فلان أو ذا طول في قامته فلا يتعلق به عباده و لا عبوديه، لكن الله سبحانه في ملكه لعباده على خلاف هذا النعت فلا ملكه يشوبه ملك ممن سواه و لا ان العبد يتبع في نسبه اليه تعالى فيكون شيء منه مملوكا و شيء آخر غير مملوك، و لا تصرف من التصرفات فيه جائز و تصرف آخر غير جائز كما ان العبيد فيما بيننا شيء منهم مملوك و هو افعالهم الاختياريه و شيء غير مملوك و هو الاوصاف الاضطراريه، و بعض التصرفات فيهم جائز كالاستفاده من فعلهم و بعضها غير جائز كقتلهم من غير جرم مثلا، فهو تعالى مالك على الاطلاق من غير شرط و لا قيد و غيره مملوك على الاطلاق من غير شرط و لا قيد فهناك حصر من جهتين، الرب مقصور في المالكيه، و العبد مقصور في العبوديه، و هذه هي التي يدل عليه قوله: إِيَّاكَ نَعْبُدُ. حيث قدم المفعول و اطلقت العباده.

ثم ان الملك حيث كان متقوم الوجود بمالكة كما عرفت مما مر، فلا يكون حاجبا عن مالكة و لا يحجب عنه، فانك اذا نظرت الى دار زيد فان نظرت إليها من جهه انها دار امكنك ان تغفل عن زيد، و ان نظرت إليها بما انها ملك زيد لم يمكنك الغفله عن مالكةا و هو زيد.

و لكنك عرفت ان ما سواه تعالى ليس له الا المملوكيه فقط و هذه حقيقته فشىء منه فى الحقيقه لا يحجب عنه تعالى، و لا النظر اليه يجمع الغفله عنه تعالى، فله تعالى الحضور المطلق، قال سبحانه: أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرْيَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (السجده ٥٤/) و اذا كان كذلك فحق عبادته تعالى ان يكون عن حضور من الجانبين.

اما من جانب الرب عزّ و جل، فان يعبد عباده معبود حاضر و هو الموجب للالتفات (المأخوذ فى قوله تعالى إِيَّاكَ نَعْبُدُ) عن الغيبه الى الحضور.

اما من جانب الرب العبد، فان يكون عبادته عباده عبد حاضر من غير ان يغيب فى عبادته فيكون عبادته صورته فقط من غير معنى و جسدا من غير روح؛ أو يتبغض فيشتغل بربه و بغيره، اما ظاهرا و باطنا كالوثنيين فى عبادتهم لله و لاصنامهم معا، أو باطنا فقط كمن يشتغل فى عبادته بغيره تعالى بنحو الغايات و الاغراض؛ كأن يعبد الله و همّه فى غيره، أو يعبد الله طمعا فى جنه أو خوفا من نار فان ذلك كله من الشرك فى العباده الذى ورد عنه النهى، قال تعالى: فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (الزمر ٢/٢)، و قال تعالى: أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (الزمر ٣/٣).

فالعباده إنما تكون عباده حقيقه، اذا كان على خلوص من العبد و هو الحضور الذى ذكرناه، و قد ظهر انه انما يتم اذا لم يشتغل بغيره تعالى فى عمله فيكون قد اعطاه الشركه مع الله سبحانه فى عبادته و لم يتعلق قلبه فى عبادته رجاء أو خوفا هو الغايه فى عبادته كجنه أو نار فيكون عبادته له لا لوجه الله، و لم يشتغل بنفسه فيكون منافيا لمقام العبوديه التى لا تلائم الإنيه و الاستكبار، و كأن الإتيان بلفظ المتكلم مع الغير للايماء الى هذه النكته فان فيه هضمًا للنفس بالغاء تعينها و شخوصها و حدها المستلزم لنحو من الإنيه و الاستقلال بخلاف ادخالها

فى الجماعه و خلطها بسواد الناس فان فيه امحاء التعين و اعفاء الاثر فيؤمن به ذلك.

و قد ظهر من ذلك كله: ان اظهار العبوديه بقوله: **إِيَّاكَ نَعْبُدُ**؛ لا يشتمل على نقص من حيث المعنى و من حيث الاخلاص الا ما فى قوله: **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** من نسبه العبد العباده الى نفسه المشتمل بالاستلزام على دعوى الاستقلال فى الوجود و القدره و الاراده مع انه مملوك و المملوك لا يملك شيئاً، فكأنه تدورك ذلك بقوله تعالى: **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**، أى انما ننسب العباده الى انفسنا و ندعيه لنا مع الاستعانه بك لا مستقلين بذلك مدعين ذلك دونك، فقوله: **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**؛ لإبداء معنى واحد و هو العباده عن اخلاص، و يمكن ان يكون هذا هو الوجه فى اتحاد الاستعانه و العباده فى السياق الخطابى حيث قيل اياك نعبد و اياك نستعين من دون ان يقال: اياك نعبد اعنا و اهدنا الصراط المستقيم و اما تغيير السياق فى قوله: **إِهْدِنَا الصِّرَاطَ**..

الآيه. فسيجىء الكلام فيه إن شاء الله تعالى.

فقد بان بما مر من البيان فى قوله: **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**... الآية؛ الوجه فى الالتفات من الغيبه الى الحضور، و الوجه فى الحصر الذى يفيد تقديم المفعول، و الوجه فى اطلاق قوله:

نَعْبُدُ، و الوجه فى اختيار لفظ المتكلم مع الغير، و الوجه فى تعقيب الجملة الاولى بالثانيه، و الوجه فى تشريك الجملتين فى السياق، و قد ذكر المفسرون نكات اخرى فى اطراف ذلك من ارادها فليراجع كتبهم و هو الله سبحانه غريم لا يقضى دينه.

[سوره الفاتحه (١): الآيات ٦ الى ٧]

اشاره

إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)

ص: ٣٢

قوله تعالى: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ الخ؛ اما الهدايه فيظهر معناها فى ذيل الكلام على الصراط و اما الصراط فهو و الطريق و السبيل قريب المعنى، و قد وصف تعالى الصراط بالاستقامه ثم بين انه الصراط الذى يسلكه الذين انعم الله تعالى عليهم، فالصراط الذى من شأنه ذلك هو الذى سئل الهدايه اليه و هو بمعنى الغايه للعباده اى: ان العبد يسأل ربه ان تقع عبادته الخالصه فى هذا الصراط.

بيان ذلك: ان الله سبحانه قرر فى كلامه لنوع الانسان بل لجميع من سواه سيلا- يسلكون به اليه سبحانه فقال تعالى: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (الانشقاق/ ٦) و قال تعالى: وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (التغابن/ ٣)، و قال أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (الشورى/ ٥٣)، الى غير ذلك من الآيات و هى واضحه الدلاله على ان الجميع سالكو سبيل، و انهم سائرون الى الله سبحانه.

ثم بين: أن السبيل ليس سيلا واحدا ذا نعت واحد بل هو منشعب الى شعبتين منقسم الى طريقين، فقال: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَ أَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (يس/ ٦١).

فهناك طريق مستقيم و طريق آخر ورائه، و قال تعالى: فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسِّرْ تَجِيبُوا لِي وَ لِيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (البقره/ ١٨٦)، و قال تعالى: أَدْعُونِي أَجَبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ عَنِّي سَدِّدُوا أَعْيُنَهُمْ دَاخِرِينَ (غافر/ ٦٠)، فبين تعالى: انه قريب من عباده و ان الطريق الاقرب اليه تعالى طريق عبادته و دعائه، ثم قال تعالى فى وصف الذين لا يؤمنون: أُولَئِكَ يَتَّادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ (السجده/ ٤٤). فبين: ان غايه الذين لا يؤمنون فى مسيرهم و سبيلهم بعيد.

فتبين: ان السبيل الى الله سبيلان: سبيل قريب و هو سبيل المؤمنين و سبيل بعيد و هو سبيل غيرهم فهذا نحو اختلاف فى السبيل و هناك نحو آخر من الاختلاف، قال تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ (الأعراف ٤٠).** و لو لا- طروق من متطرق لم يكن للباب معنى فهناك طريق من السفلى الى العلو، و قال تعالى: **وَمَنْ يَخِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَد هَوَىٰ (طه ٨١).** و الهوى هو السقوط الى أسفل، فهناك طريق آخر أخذ فى السفاله و الانحدار، و قال تعالى: **وَمَنْ يَتَّبِدِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَد ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (البقره ١٠٨).** فعرف الضلال عن سواء السبيل بالشرك لمكان قوله: **فَقَد ضَلَّ**، و عند ذلك تقسم الناس فى طرقهم ثلاثه اقسام: من طريقه الى فوق و هم الذين يؤمنون بآيات الله و لا يستكبرون عن عبادته، و من طريقه الى السفلى و هم المغضوب عليهم، و من ضل الطريق و هو حيران فيه و هم الضالون، و ربما اشعر بهذا التقسيم قوله تعالى: **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ .**

و الصراط المستقيم لا- محاله ليس هو الطريقين الآخرين من الطرق الثلاث اعنى: طريق المغضوب عليهم و طريق الضالين فهو من الطريق الأول الذى هو طريق المؤمنين غير المستكبرين إلا ان قوله تعالى: **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (المجادله ١١).** يدل على ان نفس الطريق الأول ايضا يقع فيه انقسام.

و بيانه: ان كل ضلال فهو شرك كالعكس على ما عرفت من قوله تعالى: **وَمَنْ يَتَّبِدِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَد ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (البقره ١٠٨).** و فى هذا المعنى قوله تعالى: **أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَ أَنْ اعْبُدُونِي (١٠٨).** هذا صراطٌ مُسْتَقِيمٌ وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا (يس ٦٢). و القرآن بعد الشرك ظلما و بالعكس، كما يدل عليه قوله تعالى: **حَكَايَه عَنِ الشَّيْطَانِ لَمَّا قَضَى الْأَمْرَ: إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (إبراهيم ٢٢).** كما يعد الظلم ضلالا فى قوله تعالى: **الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ**

أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (الأنعام ٨٢). وهو ظاهر من ترتيب الاهتداء والامن من الضلال أو العذاب الذى يستتبعه الضلال، على ارتفاع الظلم و لبس الايمان به، وبالجملة الضلال و الشرك و الظلم امرها واحد و هى متلازمه مصداقا، وهذا هو المراد من قولنا: ان كل واحد منها معرّف بالآخر أو هو الآخر فالمراد المصداق دون المفهوم.

إذا عرفت هذا علمت ان الصراط المستقيم الذى هو صراط غير الضالين صراط لا يقع فيه شرك و لا ظلم البتة كما لا يقع فيه ضلال البتة، لا- فى باطن الجنان من كفر أو خطور لا يرضى به الله سبحانه، ولا فى ظاهر الجوارح و الاركان من فعل معصية أو قصور فى طاعه، و هذا هو حق التوحيد علما و عملا اذ لا ثالث لهما و ما ذا بعد الحق الا الضلال؟ و ينطبق على ذلك قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (الأنعام ٨٢)، و فيه تشبث للامن فى الطريق و وعد بالاهتداء التام بناء على ما ذكره: من كون اسم الفاعل حقيقه فى الاستقبال فليفهم فهذا نعت من نعوت الصراط المستقيم.

ثم انه تعالى عرف هؤلاء المنعم عليهم الذين نسب الصراط المستقيم اليهم بقوله تعالى:

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (النساء ٦٨). وقد وصف هذا الايمان و الاطاعه قبل هذه الآيه بقوله: فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا وَ لَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا (النساء / ٦٦). فوصفهم بالثبات التام قولا و فعلا و ظاهرا و باطنا على العبوديه لا يشذ منهم شاذ من هذه الجبهه و مع ذلك جعل هؤلاء المؤمنين تبعاً لاولئك المنعم عليهم و فى صف دون صفهم لمكان مع و لمكان قوله: وَ حَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا وَ لم يقل: فاولئك من الذين.

و نظير هذه الآيه قوله تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ

عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ (الحديد ١٩). و هذا هو الحاق المؤمنين بالشهداء و الصديقين فى الآخرة، لمكان قوله: عِنْدَ رَبِّهِمْ ، و قوله: لَهُمْ أَجْرُهُمْ .

فاولئك (و هم اصحاب الصراط المستقيم) أعلى قدرا و أرفع درجه و منزله من هؤلاء و هم المؤمنون الذين اخلصوا قلوبهم و اعمالهم من الضلال و الشرك و الظلم، فالتدبر فى هذه الآيات يوجب القطع بان هؤلاء المؤمنين و (شأنهم هذا الشأن) فيهم بقيه بعد، لو تمت فيهم كانوا من الذين انعم الله عليهم، و ارتقوا من منزله المصاحبه معهم الى درجه الدخول فيهم و لعلمهم نوع من العلم بالله، ذكره فى قوله تعالى: يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (المجادله ١١). فالصراط المستقيم أصحابه منعم عليهم بنعمه هى ارفع النعم قدرا، يربو على نعمه الايمان التام، و هذا ايضا نعت من نعوت الصراط المستقيم.

ثم انه تعالى على انه كرر فى كلامه ذكر الصراط و السبيل لم ينسب لنفسه ازيد من صراط مستقيم واحد، و عد لنفسه سبلا كثيره فقال عز من قائل: وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا (العنكبوت ٦٩). و كذا لم ينسب الصراط المستقيم الى احد من خلقه إلا ما فى هذه الآيه (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) الآيه؛ و لكنه نسب السبيل الى غيره من خلقه، فقال تعالى: قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ (يوسف ١٠٨). و قال تعالى: سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ (لقمان ١٥). و قال: سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ (النساء ١١٤)، و يعلم منها ان السبيل غير الصراط المستقيم فانه يختلف و يتعدد و يتكثر باختلاف المتعبدين السالكين سبيل العباده بخلاف الصراط المستقيم كما يشير اليه قوله تعالى: قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (المائده ١٦)، فعَدَّ السبيل كثيره و الصراط واحدا و هذا الصراط المستقيم اما هى السبيل الكثيره و اما انها تؤدى اليه باتصال بعضها الى بعض و اتحادها فيها.

و أيضا قال تعالى: وَمَنْ يُؤْمِنْ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (يوسف ١٠٦). فيبين ان من الشرك (و هو ضلال) ما يجتمع مع الايمان و هو سبيل، و منه يعلم ان السبيل يجامع الشرك، لكن الصراط المستقيم لا يجامع الضلال كما قال: و لا الضالين.

و التدبر فى هذه الآيات يعطى ان كل واحد من هذه السبل يجامع شيئا من النقص أو الامتياز، بخلاف الصراط المستقيم، و ان كلا منها هو الصراط المستقيم لكنه غير الآخر و يفارقه لكن الصراط المستقيم يتحد مع كل منها فى عين انه يتحد مع ما يخالفه، كما يستفاد من بعض الآيات المذكوره و غيرها كقوله: وَ أَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (يس ٦١).

و قوله تعالى: قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا (الأنعام / ١٦١). فسمى العباده صراطا مستقيما و سمى الدين صراطا مستقيما و هما مشتركان بين السبل جميعا، فمثل الصراط المستقيم بالنسبه الى سبل الله تعالى كمثل الروح بالنسبه الى البدن، فكما ان للبدن اطوارا فى حياته هو عند كل طور غيره عند طور آخر، كالصبي و الطفولي و الرهوق و الشباب و الكهوله و الشيب و الهرم لكن الروح هى الروح و هى متحده بها و البدن يمكن ان تطرأ عليه اطوار تنافى ما تحبه و تقتضيه الروح لو خلقت و نفسها بخلاف الروح فطره الله التى فطر الناس عليها و البدن مع ذلك هو الروح أعنى الانسان، فكذلك السبيل الى الله تعالى هو الصراط المستقيم إلا ان السبيل كسبيل المؤمنين و سبيل المنيين و سبيل المتبعين للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أو غير ذلك من سبل الله تعالى، ربما اتصلت به آفه من خارج أو نقص لكنهما لا يعرضان الصراط المستقيم كما عرفت ان الايمان و هو سبيل ربما يجامع الشرك و الضلال لكن لا يجتمع مع شىء من ذلك الصراط المستقيم، فللسبيل مراتب كثيره من جهه خلوصه و شوبه و قربه و بعده، و الجميع على الصراط المستقيم أو هى هو.

و قد بين الله سبحانه هذا المعنى، اعنى: اختلاف السبل الى الله مع كون الجميع من صراطه المستقيم فى مثل ضربه للحق و الباطل فى كلامه، فقال تعالى: أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

فَسَأَلَتْ أَوْدِيَةَ بِقَدْرِهَا فَاخْتَمَلَ السَّبِيلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (الرعد ١٧). فبين: ان القلوب و الافهام فى تلقى المعارف و الكمال مختلفه، مع كون الجميع متكئه منتهيه الى رزق سماوى واحد، و سيجىء تمام الكلام فى هذا المثل فى سورة الرعد، و بالجمله فهذا ايضا نعت من نعوت الصراط المستقيم.

و اذا تأملت ما تقدم من نعوت الصراط المستقيم تحصل لك ان الصراط المستقيم مهيمن على جميع السبل الى الله و الطرق الهاديه اليه تعالى، بمعنى ان السبيل الى الله إنما يكون سبيلا له موصلا إليه بمقدار يتضمنه من الصراط المستقيم حقيقه، مع كون الصراط المستقيم هاديا موصلا إليه مطلقا و من غير شرط و قيد، و لذلك سماه الله تعالى صراطا مستقيما، فان الصراط هو الواضح من الطريق، مأخوذ من سرطت سرطا اذا بلعت بلعا، كأنه يبلع سالكيه فلا يدعهم يخرجوا عنه و لا يدفعهم عن بطنه، و المستقيم هو الذى يريد ان يقوم على ساق فيتسلط على نفسه و ما لنفسه كالقائم الذى هو مسلط على أمره، و يرجع المعنى الى انه الذى لا يتغير أمره و لا يختلف شأنه فالصراط المستقيم ما لا يتخلف حكمه فى هدايته و ايصاله سالكيه الى غايته و مقصدهم قال تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (النساء ١٧٤). أى لا يتخلف امر هذه الهدايه، بل هى على حالها دائما، و قال تعالى: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأْتُمًا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ وَ هَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا (الأنعام ١٢٤). أى هذه طريقته التى لا يختلف و لا يتخلف، و قال تعالى: قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (الحجر ٤٢). أى هذه سنتى و طريقتى دائما من غير

مقابلاتها من الكفر و الشرك و الجحود و الطغيان و المعصية كذلك، قال سبحانه: **وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَ لِيُؤْفَفِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (الأحقاف ١٩).**

و هذا نظير المعارف الالهيه التي تتلقاها العقول من الله فانها مختلفه باختلاف الاستعدادات و متلونه بالوان القابليات على ما يفيد المثل المضروب في قوله تعالى: **أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا آيَهُ.**

و ثانيها: انه كما أن الصراط المستقيم مهيمن على جميع السبل، فكذلك اصحابه الذين مكنهم الله تعالى فيه و تولى امرهم و ولاهم امر هدايه عباده حيث قال: **وَ حَسَنَ أَوْلِيكَ رَفِيقًا (النساء ٧١).** و قال تعالى: **إِنَّمَا وَثَّقُكُمْ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ (المائدة ٥٥)** و الآية نازله في أمير المؤمنين على عليه السلام بالأخبار المتواتره و هو عليه السلام اول فاتح لهذا الباب من الامه و سيجىء تمام الكلام في الآية.

و ثالثها: إن الهدايه الى الصراط يتعين معناها بحسب تعين معناه، و توضيح ذلك ان الهدايه هي الدلاله على ما في الصحاح، و فيه ان تعديتها لمفعولين لغه اهل الحجاز، و غيرهم يعدونه الى المفعول الثاني الى، و قوله هو الظاهر، و ما قيل: ان الهدايه اذا تعدت الى المفعول الثاني بنفسها، فهي بمعنى الايصال الى المطلوب، و اذا تعدت بالى فبمعنى إراءه الطريق، مستدلا بنحو قوله تعالى: **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (القصص ٥٦).**

حيث إن هدايته بمعنى إراءه الطريق ثابتة فالمنفى غيرها و هو الايصال الى المطلوب قال تعالى:

وَ لَهْدِيَنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (النساء ٧٠). و قال تعالى: **وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (الشورى ٥٢).**

فالهدايه بالايصال الى المطلوب تتعدى الى المفعول الثاني بنفسها، و الهدايه باراءه الطريق بالى، و فيه ان النفى المذكور لحقيقه الهدايه التي هي قائمه بالله تعالى، لا نفى لها اصلا، و بعبارة اخرى هو نفى الكمال دون نفى الحقيقه مضافا الى انه منقوض بقوله تعالى حكايه عن مؤمن آل

وَلَهَدَيْتَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (النساء ٧٠). وقال تعالى: وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (الشورى ٥٢).

فالهدايه بالاىصال الى المطلوب تتعدى الى المفعول الثانى بنفسها، والهدايه باراءه الطريق بالى، وفيه ان النفى المذكور لحقيقه الهدايه التى هى قائمه بالله تعالى، لا نفى لها اصلا، وبعبارة اخرى هو نفى الكمال دون نفى الحقيقه مضافا الى انه منقوض بقوله تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (غافر ٣٨). فالحق انه لا يتفاوت معنى الهدايه باختلاف التعدييه، ومن الممكن ان يكون التعدييه الى المفعول الثانى من قبيل قولهم دخلت الدار.

و بالجمله فالهدايه هى الدلاله و إراءه الغايه باراءه الطريق و هى نحو اىصال الى المطلوب، و انما تكون من الله سبحانه، و سنته سنه الأسباب بإيجاد سبب ينكشف به المطلوب و يتحقق به وصول العبد الى غايته فى سيره، و قد بينه الله سبحانه بقوله: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ (الأنعام ١٢٥). و قوله: ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَ قُلُوبَهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ (الزمر ٢٣). و تعدييه قوله تلين يالى لتضمنين معنى مثل الميل و الاطمينان، فهو ايجاده تعالى و صفا فى القلب به يقبل ذكر الله و يميل و يطمئن اليه، و كما أن سبله تعالى مختلفه، فكذلك الهدايه تختلف باختلاف السبل التى تضاف اليه فلكل سبيل هدايه قبله تختص به.

و الى هذا الاختلاف يشير قوله تعالى: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (العنكبوت ٦٩). اذ فرق بين ان يجاهد العبد فى سبيل الله، و بين أن يجاهد فى الله، فالمجاهد فى الاول يريد سلامه السبيل و دفع العوائق عنه بخلاف المجاهد فى الثانى فانه إنما يريد وجه الله فيمده الله سبحانه بالهدايه الى سبيل دون سبيل بحسب استعداده الخاص به، و كذا يمده الله تعالى بالهدايه الى السبيل بعد السبيل حتى يختصه بنفسه جلّت عظمته.

و رابعها: ان الصراط المستقيم لما كان امرا محفوظا في سبيل الله تعالى على اختلاف مراتبها و درجاتها،صح ان يهدى الله الانسان اليه و هو مهدي فيهديه من الصراط الى الصراط،بمعنى أن يهديه الى سبيل من سبله ثم يزيد في هدايته فيهدى من ذلك السبيل الى ما هو فوقها درجه،كما أن قوله تعالى: اِهْدِنَا الصِّرَاطَ (و هو تعالى يحكيه عن هدايه بالعباده)من هذا القبيل،و لا يرد عليه:ان سؤال الهدايه ممن هو مهتد بالفعل سؤال لتحصيل الحاصل و هو محال و كذا ركوب الصراط بعد فرض ركوبه تحصيل للحاصل و لا يتعلق به سؤال،و الجواب ظاهر.

و كذا الايراد عليه: بأن شريعتنا أكمل و أوسع من جميع الجهات من شرائع الامم السابقه،فما معنى السؤال من الله سبحانه أن يهدينا الى صراط الذين أنعم الله عليهم منهم؟و ذلك ان كون شريعه أكمل من شريعه أمر،و كون المتمسك بشريعه اكمل من المتمسك بشريعه امر آخر ورائه،فان المؤمن المتعارف من مؤمنى شريعه محمد صلى الله عليه و آله و سلم (مع كون شريعته اكمل و أوسع)ليس بأكمل من نوح و ابراهيم عليهما السلام مع كون شريعتهما اقدم و أسبق،و ليس ذلك إلا ان حكم الشرائع و العمل بها غير حكم الولايه الحاصله من التمكن فيها و التخلق بها،فصاحب مقام التوحيد الخالص و ان كان من اهل الشرائع السابقه أكمل و أفضل ممن لم يتمكن من مقام التوحيد و لم تستقر حيوه المعرفه فى روحه و لم يتمكن نور الهدايه الالهيه من قلبه،و إن كان عاملا بالشريعه المحمديه صلى الله عليه و آله و سلم التى هى اكمل الشرائع و أوسعها،فمن الجائز أن يستهدى صاحب المقام الدانى من أهل الشريعه الكامله و يسأل الله الهدايه الى مقام صاحب المقام العالى من أهل الشريعه التى هى دونها.

و من أعجب ما ذكر فى هذا المقام،ما ذكره بعض المحققين من اهل التفسير جوابا عن هذه الشبهه:ان دين الله واحد و هو الاسلام،و المعارف الاصليه و هو التوحيد و النبوه و المعاد و ما يتفرع عليها من المعارف الكليه واحد فى الشرائع،و انما مزيه هذه الشريعه على ما سبقها من

الشرائع هي ان الاحكام الفرعيه فيها اوسع و اشمل لجميع شئون الحياه،فهى اكثر عنايه بحفظ مصالح العباد،على أن أساس هذه الشريعه موضوع على الاستدلال بجميع طرقها من الحكمه و الموعظه و الجدل الاحسن،ثم ان الدين و ان كان دينا واحدا و المعارف الكليه فى الجميع على السواء غير أنهم سلكوا سبيل ربهم قبل سلوكنا،و تقدموا فى ذلك علينا،فامرنا الله النظر فيما كانوا عليه و الاعتبار بما صاروا اليه هذا.

أقول:و هذا الكلام مبنى على اصول فى مسلك التفسير مخالفه للاصول التى يجب أن يبنى مسلك التفسير عليها،فانه مبنى على أن حقائق المعارف الاصليه واحده من حيث الواقع من غير اختلاف فى المراتب و الدرجات،و كذا سائر الكمالات الباطنيه المعنويه،فأفضل الأنبياء المقربين مع أحسن المؤمنين من حيث الوجود و كماله الخارجى التكوينى على حد سواء،و إنما التفاضل بحسب المقامات المجعوله بالجعل التشريعى من غير ان يتكى على تكوين،كما ان التفاضل بين الملك و الرعيه إنما هو بحسب المقام الجعلى الوضعى من غير تفاوت من حيث الوجود الإنسانى هذا.

و لهذا الأصل أصل آخر يبنى عليه،و هو القول بأصاله ماده و نفى الاصاله عما ورائها و التوقف فيه إلا فى الله سبحانه بطريق الاستثناء بالدليل،و قد وقع فى هذه الورطه من وقع، لاحد امرين:إما القول بالاكْتفاء بالحس اعتمادا على العلوم الماديه و إما إلغاء التدبر فى القرآن بالاكْتفاء بالتفسير بالفهم العامى.

و للكلام ذيل طويل سنورده فى بعض الابحاث العلميه الآتية إنشاء الله تعالى.

و خامسها:ان مزيه اصحاب الصراط المستقيم على غيرهم،و كذا صراطهم على سبيل غيرهم،إنما هو بالعلم لا العمل،فلهم من العلم بمقام ربهم ما ليس لغيرهم،اذ قد تبين مما مر:

ان العمل التام موجود فى بعض السبل التى دون صراطهم،فلا يبقى لمزيتهم إلا العلم،و اما ما هذا العلم؟و كيف هو؟فنبحث عنه إن شاء الله فى قوله تعالى: **أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ**

و يشعر بهذا المعنى قوله تعالى: يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (المجادله ١١)، وكذا قوله تعالى: إِلَيْهِ يَصِيغُ الْكَلِمَ الطَّيِّبَ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ (الملائكه ١٠)، فالذى يصعد اليه تعالى هو الكلم الطيب و هو الاعتقاد و العلم، و اما العمل الصالح فشأنه رفع الكلم الطيب و الامداد دون الصعود اليه تعالى، و سيجيء تمام البيان فى البحث عن الآية (١).

بحث روائى:

فى الكافى عن الصادق عليه السّلام فى معنى العباده قال: العباده ثلاثه: قوم عبدوا الله خوفا، فتلك عباده العبيد، و قوم عبدوا الله تبارك و تعالى طلب الثواب، فتلك عباده الاجراء، و قوم عبدوا الله عزّ و جل حبا، فتلك عباده الأحرار، و هى افضل العباده.

و فى نهج البلاغه: ان قوما عبدوا الله رغبه، فتلك عباده التجار، و ان قوما عبدوا الله رهبه فتلك عباده العبيد، و ان قوما عبدوا الله شكرا فتلك عباده الأحرار.

و فى العلل و المجالس و الخصال، عن الصادق عليه السّلام: ان الناس يعبدون الله على ثلاثه اوجه:

فطبقه يعبدونه رغبه فى ثوابه فتلك عباده الحرصاء و هو الطمع، و آخرون يعبدونه خوفا من النار فتلك عباده العبيد، و هى رهبه، و لكنى اعبيده حبا له عزّ و جل فتلك عباده الكرام، لقوله عزّ و جل: وَ هُمْ مِنْ فَرَعِ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ . و لقوله عزّ و جل: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ، فمن احب الله عزّ و جل احبه، و من احبه الله كان من الآمنين، و هذا مقام مكنون لا يمسه الا المطهرون.

ص: ٤٣

اقول: وقد تبين معنى الروايات مما مر من البيان، و توصيفهم عليهم السّلام عباده الأحرار تاره بالشكر و تاره بالحب، لكون مرجعها واحدا، فان الشكر وضع الشىء المنعم به فى محله، و العباده شكرها ان تكون لله الذى يستحقها لذاته، فيعبد الله لأنه الله، أى لأنه مستجمع لجميع صفات الجمال و الجلال بذاته، فهو الجميل بذاته المحبوب لذاته، فليس الحب إلا الميل الى الجمال، و الانجذاب نحوه، فقولنا فيه تعالى هو معبود لانه هو، و هو معبود لأنه جميل محبوب، و هو معبود لانه منعم مشكور بالعباده يرجع جميعها الى معنى واحد.

و روى بطريق عامى عن الصادق عليه السّلام فى قوله تعالى: **إِيَّاكَ نَعْبُدُ**.. الآية، يعنى: لا نريد منك غيرك و لا نعبدك بالعوض و البديل: كما يعبدك الجاهلون بك المغيبون عنك.

اقول: و الروايه تشير الى ما تقدم، من استلزام معنى العباده للحضور و للاخلاص الذى ينافى قصد البديل.

و فى تحف العقول عن الصادق عليه السّلام فى حديث: و من زعم انه يعبد بالصفه لا بالادراك فقد أحال على غائب، و من زعم انه يعبد الصفه و الموصوف فقد أبطل التوحيد لأن الصفه غير الموصوف، و من زعم انه يضيف الموصوف الى الصفه فقد صغر بالكبير، و ما قدروا الله حق قدره. الحديث.

و فى المعانى عن الصادق عليهما السّلام فى معنى قوله تعالى: **إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** يعنى ارشدنا الى لزوم الطريق المؤدى محبتك، و المبلغ الى جنتك، و المانع من أن نتبع اهواءنا فنعطب، او ان نأخذ بآرائنا فنهلك.

و فى المعانى ايضا عن على عليه السّلام فى الآية، يعنى، ادم لنا توفيقك الذى اطعناك به فى ماضى ايامنا، حتى نطيعك كذلك فى مستقبل اعمارنا.

اقول: و الروايتان وجهان مختلفان فى الجواب عن شبهه لزوم تحصيل الحاصل من سؤال الهدايه للمهدى، فالروايه الاولى ناظره الى الاختلاف مراتب الهدايه مصداقا و الثانيه الى

و فى المعانى أيضا عن على عليه السّلام: الصراط المستقيم فى الدنيا ما قصر عن الغلو، و ارتفع عن التقصير و استقام، و فى الآخرة طريق المؤمنين الى الجنة.

و فى المعانى أيضا عن على عليه السّلام فى معنى صراط الذين الآيه: اى: قولوا: اهدنا صراط الذين انعمت عليهم بالتوفيق لدينك و طاعتك، لا بالمال و الصحه، فانهم قد يكونون كفارا او فساقا، قال: و هم الذين قال الله: وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصُّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ، وَ حَسَنٌ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا .

و فى العيون عن الرضا عليه السّلام عن آباءه عن أمير المؤمنين عليه السّلام قال: لقد سمعت رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم يقول: قال الله عزّ و جل: قسمت فاتحه الكتاب بينى و بين عبدى فنصفها لى و نصفها لعبدى، و لعبدى ما سئل، اذا قال العبد: بسم الله الرحمن الرحيم قال الله جل جلاله بدأ عبدى باسمى و حق على ان اتمم له اموره، و ابارك له فى احواله، فاذا قال: الحمد لله رب العالمين، قال الله جل جلاله: حمدنى عبدى، و علم ان النعم التى له من عندى و ان البلايا التى دفعت عنه بتطولى، أشهدكم أنى اضيف له الى نعم الدنيا نعم الآخرة و أدفع عنه بلايا الآخرة كما دفعت عنه بلايا الدنيا، و اذا قال الرحمن الرحيم، قال الله جل جلاله: شهد لى عبدى انى الرحمن الرحيم اشهدكم لأوفرن من رحمتى حظه و لأجزلن من عطائى نصيبه، فاذا قال: مالك يوم الدين قال الله تعالى: أشهدكم، كما اعترف بأنى أنا المالك يوم الدين، لأسهلن يوم الحساب حسابه، و لا تقبلن حسناته و لأتجاوزن عن سيئاته، فاذا قال: إياك نعبد، قال الله عزّ و جل:

صدق عبدى، إياى يعبد اشهدكم لأثبته على عبادته ثوبا يغبطه كل من خالفه فى عبادته لى، فاذا قال: و إياك نستعين قال الله تعالى: نبى استعان عبدى و إلى التجأ، اشهدكم لأعينه على أمره، و لأغيثه فى شدائده و لأخذن بيده يوم نوائبه، فاذا قال: اهدنا الصراط المستقيم الى آخر السوره، قال الله عزّ و جل: هذا لعبدى و لعبدى ما سئل، و قد استجبت لعبدى و اعطيته

ما اقل و آمنته مما منه وجل.

اقول: و روى قريبا منه الصدوق فى العلل عن الرضا عليه السّلام، و الروايه كما ترى تفسر سوره الفاتحه فى الصلاه فهى تؤيد كما مر مرارا أن السوره كلام له سبحانه بالنيابه عن عبده فى ما يذكره فى مقام العباده و اظهار العبوديه من الثناء لربه و اظهار عبادته، فهى سوره موضوعه للعباده، و ليس فى القرآن سوره تناظرها فى شأنها و اعنى بذلك:

اولا: ان السوره بتمامها كلام تكلم به الله سبحانه فى مقام النيابه عن عبده فيما يقوله اذا وجه وجهه الى مقام الربوبيه و نصب نفسه فى مقام العبوديه.

و ثانيا: انها مقسمه قسمين، فنصف منها لله و نصف منها للعبد.

و ثالثا: انها مشتمله على جميع المعارف القرآنيه على ايجازها و اختصارها فان القرآن على سعته العجيبه فى معارفه الاصيليه و ما يتفرع عليها من الفروع من اخلاق و احكام فى العبادات و المعاملات و السياسات و الاجتماعيات و وعد و وعيد و قصص و عبر، يرجع جمل بياناتها الى التوحيد و النبوه و المعاد و فروعها، و الى هدايه العباد الى ما يصلح به اولاهم و عقابهم، و هذه السوره كما هو واضح تشتمل على جميعها فى أوجز لفظ و أوضح معنى.

و عليك ان تقيس ما يتجلى لك من جمال هذه السوره التى وضعها الله سبحانه فى صلاه المسلمين بما يضعه النصرى فى صلاتهم من الكلام الموجود فى انجيل متى: (٦-٩-١٣) و هو ما نذكره بلفظه العربى، «أبانا الذى فى السماوات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الارض، خبزنا كفافنا أعطنا اليوم، و اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين الينا، و لا تدخلنا فى تجربته و لكن نجنا من الشرير آمين».

تأمل فى المعانى التى تفيد الفاظ هذه الجمل بعنوان انها معارف سماويه، و ما يشتمل عليه من الادب العبودى، إنا تذكر أولا: أن اباهم (و هو الله تقديس اسمه) فى السماوات!! ثم تدعو فى حق الاب بتقدس اسمه و اتيان ملكوته و نفوذ مشيئته فى الارض كما هى نافذه فى السماء، و لكن

من الذى يستجيب هذا الدعاء الذى بشعارات الاحزاب السياسيه اشبه؟ ثم تسئل الله اعطاء خبز اليوم و مقابله المغفره بالمغفره، و جعل الاغماض عن الحق فى مقابل الاغماض، و ما ذا هو حقهم لو لم يجعل الله لهم حقا؟ و تسأله ان لا يمتحنهم بل ينجيهم من الشرير، و من المحال ذلك، فالدار دار الامتحان و الاستكمال و ما معنى النجاه لو لا الابتلاء و الامتحان؟ ثم اقض العجب مما ذكره بعض المستشرقين (1) من علماء الغرب و تبعه بعض المنتحلين: أن الاسلام لا يربو على غيره فى المعارف، فان جميع شرائع الله تدعو الى التوحيد و تصفيه النفوس بالخلق الفاضل و العمل الصالح، و إنما تتفاضل الأديان فى عراقه ثمراتها الاجتماعيه!!

بحث آخر روائى:

فى الفقيه و تفسير العياشى عن الصادق عليه السلام قال: الصراط المستقيم أمير المؤمنين عليه السلام.

و فى المعانى عن الصادق عليه السلام قال: هى الطريق الى معرفه الله، و هما صراطان صراط فى الدنيا و صراط فى الآخرة، فاما الصراط فى الدنيا فهو الامام المفترض الطاعة، من عرفه فى الدنيا و اقتدى بهداه مرّ على الصراط الذى هو جسر جهنم فى الآخرة، و من لم يعرفه فى الدنيا زلّت قدمه فى الآخرة فتردى فى نار جهنم.

و فى المعانى ايضا عن السجاد عليه السلام قال: «ليس بين الله و بين حجّته حجاب، و لا لله دون حجّته ستر، نحن ابواب الله و نحن الصراط المستقيم و نحن عيبه علمه، و نحن تراجمه و حيه و نحن أركان توحيده و نحن موضع سره.

و عن ابن شهر آشوب عن تفسير وكيع بن الجراح عن الثورى عن السيدى، عن اسباط و مجاهد، عن ابن عباس فى قوله تعالى: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، قال: قولوا معاشر العباد!

ص: ٤٧

و الروايات فى تطبيق الآيات القرآنيه عليهم عليهم السّلام او على اعدائهم اعنى: روايات الجرى، كثيره فى الأبواب المختلفه، و ربما تبلغ المئين، و نحن بعد هذا التنبيه العام نترك ايراد أكثرها فى الأبحاث الروائيه لخروجها عن الغرض فى الكتاب، إلا ما تعلق بها غرض فى البحث فليتذكر.

اشاره

بسم الله الرحمن الرحيم

[سوره البقره (٢): الآيات ١ الى ٥]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ
مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِمَّا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن
رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)

بيان:

لما كانت السوره نازله نجوما لم يجمعها غرض واحد إلا ان معظمها تنبئ عن غايه واحده محصله و هو بيان ان من حق عباده الله
سبحانه أن يؤمن عبده بكل ما أنزله بلسان رسله من

غير تفرقه بين وحى و وحى، ولا- بين رسول و رسول و لا- غير ذلك، ثم تقرير الكافرين و المنافين و ملائمه اهل الكتاب بما ابتدعه من التفرقه فى دين الله و التفريق بين رسله، ثم التلخص الى بيان عده من الاحكام كتحويل القبلة و احكام الحج و الارث و الصوم و غير ذلك.

قوله تعالى: الم، سيأتى بعض ما يتعلق من الكلام بالحروف المقطعه التى فى اوائل السور، فى اول سورة الشورى إن شاء الله، و كذلك الكلام فى معنى هدايه القرآن و معنى كونه كتابا.

و قوله تعالى: هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْحَقِّ؛ المتقون هم المؤمنون، و ليست التقوى من الاوصاف الخاصه لطبقه من طبقاتهم اعنى: لمرتبته من مراتب الايمان حتى تكون مقاما من مقاماته نظير الاحسان و الاخبات و الخلوص، بل هى صفه مجامعه لجميع مراتب الايمان اذا تلبس الايمان بلباس التحقق، و الدليل على ذلك انه تعالى لا يخص بتوصيفه طائفه خاصه من طوائف المؤمنين على اختلاف طبقاتهم و درجاتهم و الذى اخذه تعالى من الاوصاف المعرفه للتقوى فى هذه الآيات التسع عشره التى يبين فيها حال المؤمنين و الكفار و المنافقين، خمس صفات، و هى الايمان بالغيب، و اقامه الصلاه، و الانفاق مما رزق الله سبحانه، و الايمان بما انزله على انبيائه، و الايقان بالآخره، و قد وصفهم بانهم على هدى من ربهم فدل ذلك على ان تلبسهم بهذه الصفات الكريمه بسبب تلبسهم بلباس الهدايه من الله سبحانه، فهم انما صاروا متقين اولى هذه الصفات بهدايه منه تعالى، ثم وصف الكتاب بانه هدى لهؤلاء المتقين بقوله تعالى: ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ فعلمنا بذلك: ان الهدايه غير الهدايه، و ان هؤلاء و هم متقون محفوظون بهدايتين، هدايه اولى بها صاروا متقين، و هدايه ثانيه اكرمهم الله سبحانه بها بعد التقوى و بذلك صحت المقابله بين المتقين و بين الكفار و المنافقين، فانه سبحانه يجعلهم فى وصفهم بين ضلالين و عماءين، ضلال

اول هو الموجب لاوصافهم الخبيثه من الكفر والنفاق، و ضلال ثان يتأكد به ضلالهم الاول، و يتصفون به بعد تحقق الكفر و النفاق كما بقوله تعالى فى حق الكفار: خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً (البقره ٧)، فنسب الختم الى نفسه تعالى و الغشاوه الى انفسهم، و كما يقوله فى حق المنافقين: فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا (البقره / ١٠) فنسب المرض الاول اليهم و المرض الثانى الى نفسه على حد ما يستفاد من قوله تعالى:

يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦)، و قوله تعالى:

فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ (الصف ٥). و بالجمله المتقون واقعون بين هدايتين، كما ان الكفار و المنافقين واقعون بين ضلالين.

ثم ان الهدايه الثانيه لما كان بالقرآن فالهدايه الاولى قبل القرآن و بسبب سلامه الفطره، فان الفطره اذا سلمت لم تنفك من ان تتنبه شاهده لفرها و حاجتها الى امر خارج عنها، و كذا احتياج كل ما سواها مما يقع عليه حس او وهم او عقل الى امر خارج يقف دونه سلسله الحوائج، فهى مؤمنه مدعنه بوجود موجود غائب عن الحس منه يبدأ الجميع و اليه ينتهى و يعود، و انه كما لم يهمل دقيقه من دقائق ما يحتاج اليه الخلقه كذلك لا يهمل هدايه الناس الى ما ينجيهم من مهلكات الاعمال و الاخلاق، و هذا هو الاذعان بالتوحيد و النبوه و المعاد و هى اصول الدين، و يلزم ذلك استعمال الخضوع له سبحانه فى ربوبيته، و استعمال ما فى وسع الانسان من مال و جاه و علم و فضيله لإحياء هذا الامر و نشره، و هذان هما الصلاه و الانفاق.

و من هنا يعلم: ان الذى اخذه سبحانه من اوصافهم هو الذى يقضى به الفطره اذا سلمت و انه سبحانه و عدهم انه سيفيض عليهم امرا سماه هدايه، فهذه الاعمال الزاكيه منهم متوسطه بين هدايتين كما عرفت، هدايه سابقه و هدايه لاحقه، و بين الهدايتين يقع صدق الاعتقاد و صلاح العمل، و من الدليل على ان هذه الهدايه الثانيه من الله سبحانه فرع الاولى، آيات

كثيره كقوله تعالى: يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الآخِرَةِ (إبراهيم ٢٧). وقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمَنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ (الحديد ٢٨). وقوله تعالى: إِنَّ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُبَيِّنْ أقدَامَكُمْ (محمد صلى الله عليه و آله و سلم ٧). وقوله تعالى: وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (الصف ٧). وقوله تعالى: وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ (الصف ٥). الى غير ذلك من الآيات.

و الامر فى ضلال الكفار و المنافقين كما فى المتقين على ما سيأتى إن شاء الله.

و فى الآيات اشاره الى حيوه اخرى للانسان كامنه مستبطنه تحت هذه الحياه الدنيويه، و هى الحياه التى بها يعيش الانسان فى هذه الدار و بعد الموت و حين البعث، قال تعالى: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا (الأنعام ١٢٣) و سيأتى الكلام فيه إن شاء الله.

و قوله سبحانه: يُؤْمِنُونَ، الايمان تمكن الاعتقاد فى القلب ماخوذ من الامن كأن المؤمن يعطى لما امن به الامن من الريب و الشك و هو آفه الاعتقاد، و الايمان كما مر معنى ذو مراتب، اذ الازعان ربما يتعلق بالشىء نفسه فيترتب على اثره فقط و ربما يشتد بعض الاشتداد فيتعلق ببعض لوازمه، و ربما يتعلق بجميع لوازمه فيستنتج منه ان للمؤمنين طبقات على حسب طبقات الايمان.

و قوله سبحانه: بِالْغَيْبِ، الغيب خلاف الشهاده و ينطبق على ما لا يقع عليه الحس، و هو الله سبحانه و آياته الكبرى الغائبه عن حواسنا، و منها الوحى،

و قوله سبحانه: وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ، العدول فى خصوص الاذعان بالآخرة عن الايمان الى الايقان، كانه للاشاره الى أن التقوى لا تتم إلا مع اليقين بالآخرة الذى لا يجمع نسيانها، دون الايمان المجرد، فان الإنسان ربما يؤمن بشىء و يذهل عن بعض لوازمه فيأتى بما ينافيه، لكنه اذا كان على علم و ذكر من يوم يحاسب فيه على الخطير و السير من اعماله لا يقتحم معه الموبقات و لا يحوم حوم محارم الله سبحانه البتة قال تعالى: وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (ص ٢٦)، فبين تعالى: ان الضلال عن سبيل الله انما هو بنسيان يوم الحساب؛ فذكره و اليقين به ينتج التقوى.

و قوله تعالى: أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ، الهدايه كلها من الله سبحانه، لا- ينسب إلى غيره البتة الا- على نحو من المجاز كما سيأتى إن شاء الله، و لما وصفهم الله سبحانه بالهدايه و قد قال فى نعتها: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ (الأنعام ١٢٥)، و شرح الصدر سعته و هذا الشرح يدفع عنه كل ضيق و شح، و قد قال تعالى: وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (الحشر ٩)، عقب سبحانه هاهنا أيضا قوله: أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ بقوله: أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الآية (١)(٢).

[سوره البقره (٢): الآيات ٦ الى ٧]

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَ عَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)

ص: ٥٤

١- ١). البقره ١-٥: بحث فلسفى حول الادراكات الحسيه و البراهين العقلية.

٢- ٢) البقره ١-٥: بحث فلسفى فى العلم.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا، هؤلاء قوم ثبتوا على الكفر و تمكن الجحود من قلوبهم، و يدل على وصف حالهم بمساواه الإنذار و عدمه فيهم، و لا يبعد أن يكون المراد من هؤلاء الذين كفروا هم الكفار من صناديد قريش و كبراء مكة الذين عاندوا و لجأوا في أمر الدين و لم يألوا جهدا في ذلك و لم يؤمنوا حتى أفناهم الله عن آخرهم في بدر و غيره، و يؤيده أن هذا التعبير و هو قوله: سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، لا يمكن استطراده في حق جميع الكفار و إلا انسد باب الهداية و القرآن ينادى على خلافه، و أيضا هذا التعبير إنما وقع في سورة يس (و هي مكية) و في هذه السورة (و هي سورة البقره أول سورة نزلت في المدينة) نزلت و لم تقع غزوه بدر بعد، فالأشبه أن يكون المراد من الذين كفروا، هاهنا و في ساير الموارد من كلامه تعالى: كفار مكة في اول البعثة إلا- أن تقوم قرينه على خلافه، نظير ما سيأتى ان المراد من قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا، فيما أطلق في القرآن من غير قرينه هم السابقون الأولون من المسلمين، خصوا بهذا الخطاب تشريفا.

و قوله تعالى: خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ الخ؛ يشعر تغيير السياق: (حيث نسب الختم الى نفسه تعالى و الغشاوه اليهم انفسهم) بأن فيهم حجابا دون الحق في انفسهم و حجابا من الله تعالى عقيب كفرهم و فسوقهم، فأعمالهم متوسطة بين حجابين: من ذاتهم و من الله تعالى، و سيأتى بعض ما يتعلق بالمقام في قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا .

و اعلم ان الكفر كالايمان وصف قابل للشده و الضعف فله مراتب مختلفه الآثار

وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤْنَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدَّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَفُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَعَمَىٰ لَّا يَرُوجُونَ (١٨) أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَيْرَانَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)

قوله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِ، الْخُدْعَةَ نَوْعٌ مِنَ الْمَكْرِ، وَالشَّيْطَانُ هُوَ الشَّرِيرُ وَلِذَلِكَ سُمِّيَ إِبْلِيسَ شَيْطَانًا.

و في الآيات بيان حال المنافقين، و سيجيء إنشاء الله تفصيل القول فيهم في سورة المنافقين و غيرها.

قوله تعالى: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ۚ مَثَلٌ يَّمِثُ بِهِ حَالُهُمْ، أَنَّهُمْ كَالَّذِي وَقَعَ فِي ظَلْمِهِ عَمِيَاءٌ لَا يَتَمَيَّزُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ شَرٍّ وَلَا نَافِعٌ مِنْ ضَارٍّ فَتَسَبَّبَ لِرَفْعِهَا بِسَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ الْإِسْتِضَاءِ كَنَارٍ يُوقِدُهَا فَيَبْصُرُ بِهَا مَا حَوْلَهَا فَلَمَّا تَوَقَّدَتْ وَأَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا أَحْمَدُهَا اللَّهُ بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ كَرِيحٍ أَوْ مَطَرٍ أَوْ نَحْوَهُمَا فَبَقِيَ فِيهَا مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الظلمة تورط بين ظلمتين: ظلمه كان فيها و ظلمه الحيره و بطلان السبب.

و هذه حال المنافق، يظهر الايمان فيستفيد بعض فوائد الدين باشتراكه مع المؤمنين في مواريتهم و مناكحهم و غيرهما حتى اذا حان حين الموت و هو الحين الذى فيه تمام الاستفاده من الايمان ذهب الله بنوره و أبطل ما عمله و تركه فى ظلمه لا يدرك فيها شيئا و يقع بين الظلمه الاصيله و ما أوجده من الظلمه بفعاله.

و قوله تعالى: **أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ الْخَاصِيبِ**؛ الصيب هو المطر الغزير، و البرق معروف، و الرعد هو الصوت الحادث من السحاب عند الإبراق، و الصاعقه هى النازله من البروق.

و هذا مثل ثان يمثل به حال المنافقين فى إظهارهم الايمان، انهم كالذى أخذه صيب السماء و معه ظلمه تسلب عنه الابصار و التمييز، فالصيب يضطره الى الفرار و التخلص، و الظلمه تمنعه ذلك، و المهولات من الرعد و الصاعقه محيطه به فلا يجد مناصا من ان يستفيد بالبرق وضوئه و هو غير دائم و لا باق متصل كلما أضاء له مشى و اذا أظلم عليه قام.

و هذه حال المنافق فهو لا يحب الايمان و لا يجد بدا من اظهاره، و لعدم المواطاه بين قلبه و لسانه لا يستضىء له طريقه تمام الاستضاءه، فلا يزال يخطب خطبا بعد خطب و يعثر عثره بعد عثره فيمشى قليلا و يقف قليلا يفضحه الله بذلك و لو شاء لذهب بسمعه و بصره فيفتضح من اول يوم.

[سوره البقره (٢): الآيات ٢١ الى ٢٥]

اشاره

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَ السَّمَاءَ بِنَاءً وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَ أُنُوتَا بِهِ مُتَشَابِهًا وَ لَهُمْ فِيهَا أَنْهَارٌ مُطَهَّرَةٌ وَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)

و قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا اللَّهَ؛ لما بين سبحانه: حال الفرق الثلاث:

المتقين و الكافرين، و المنافقين، و ان المتقين على هدى من ربهم و القرآن هدى لهم، و ان الكافرين مختوم على قلوبهم؛ و على سمعهم و على أبصارهم غشاوه، و أن المنافقين مرضى و زادهم الله مرضا و هم صم بكم عمى (و ذلك فى تمام تسع عشره آيه) فرَّع تعالى على ذلك أن دعى الناس إلى عبادته و أن يلتحقوا بالمتقين دون الكافرين و المنافقين بهذه الآيات الخمس إلى قوله: خَالِدُونَ. و هذا السياق يعطى كون قوله: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ متعلقا بقوله:

اعْبُدُوا، دون قوله: خَلَقَكُمْ، و ان كان المعنى صحيحا على كلا التقديرين.

و قوله تعالى: فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ، الانداد جمع ند كمثل، وزنا و معنى و عدم تقييد قوله تعالى: و انتم تعلمون بقيد خاص و جعله حالا من قوله تعالى:

فَلَا تَجْعَلُوا، يفيد التأكيد البالغ في النهى بأن الإنسان و له علم ما كيفما كان لا يجوز له أن يتخذ لله سبحانه أندادا و الحال انه سبحانه هو الذى خلقهم و الذين من قبلهم ثم نظم النظام الكونى لرزقهم و بقائهم.

و قوله تعالى: فَآتُوا بِسُورِهِ مِنْ مِثْلِهِ أمر تعجيزى لإبانه إعجاز القرآن، و أنه كتاب منزل من عند الله لا ريب فيه، إعجازا باقيا بمر الدهور و توالى القرون و قد تكرر فى كلامه تعالى هذا التعجيز كقوله تعالى: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (الإسراء ٨٨)، و قوله تعالى:

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَ اذْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (هود ١٣). و على هذا فالضمير فى مثله عائد الى قوله تعالى: مِمَّا نَزَّلْنَا ، و يكون تعجيزا بالقرآن نفسه و بداعه أسلوبه و بيانه.

و يمكن أن يكون الضمير راجعا الى قوله: عَبَدْنَا، فيكون تعجيزا بالقرآن من حيث ان الذى جاء به رجل امى لم يتعلم من معلم و لم يتلق شيئا من هذه المعارف الغالية العاليه و البيانات البديعه المتقنه من أحد من الناس فيكون الآيه فى مساق قوله تعالى: قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (يونس / ١٦)، و قد ورد التفسيران معا فى بعض الأخبار.

و اعلم: ان هذه الآيه كظواهرها تعطى إعجاز أقصر سوره من القرآن كسوره الكوثر و سوره العصر مثلا، و ما ربما يحتمل من رجوع ضمير مثله الى نفس السوره كسوره البقره أو سوره يونس مثلا يأباه الفهم المستأنس بأساليب الكلام اذ من يرمى القرآن بأنه افتراء على الله تعالى إنما يرميه جميعا و لا يخصص قوله ذاك بسوره دون سوره، فلا معنى لرده بالتحدى بسوره البقره أو بسوره يونس لرجوع المعنى حينئذ الى مثل قولنا: و ان كنتم فى ريب من سوره الكوثر او الاخلاص مثلا فأتوا بسوره مثل سوره يونس و هو بين الاستهجان

هذا (١).

وقوله تعالى: فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ. سوق الآيات من أول السوره وإن كانت لبيان حال المتقين والكافرين و المنافقين (الطوائف الثلاث) جميعا لكنه سبحانه حيث جمعهم طرا في قوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ، ودعاهم الى عبادته تقسموا لا محاله الى مؤمن وغيره فإن هذه الدعوه لا تحتمل من حيث إيجابتها و عدمها غير القسمين: المؤمن والكافر و أما المنافق فإنما يتحقق بضم الظاهر الى الباطن، و اللسان الى القلب فكان هناك من جمع بين اللسان و القلب إيمانا أو كفرا و من اختلف لسانه و قلبه و هو المنافق، فلما ذكرنا (لعله) أسقط المنافقون من الذكر، و خصص بالمؤمنين و الكافرين و وضع الإيمان مكان التقوى.

ثم إن الوقود ما توقد به النار و قد نصت الآية على أن نفس الإنسان، فالإنسان وقود و موقود عليه، كما في قوله تعالى ايضا: ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (المؤمن ٧٢) وقوله تعالى:

نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (اللمزه ٧)، فالإنسان معدب بنار تقوده نفسه،

و هذه الجملة نظيره قوله تعالى: كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرِهِ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَ أُنُوا بِهِ مُتَشَابِهًا (البقره ٢٥)، ظاهره في أنه ليس للإنسان هناك إلا ما هيأه من هاهنا، كما عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم: «كما تعيشون تموتون و كما تموتون تبعثون» الحديث؛ و إن كان بين

ص: ٦١

١ - ١) البقره ٢١-٢٥: بحث مفصل حول: الاعجاز و ماهيته؛ اعجاز القرآن؛ وجوه اعجاز القرآن؛ تحديه بالعلم، التحدى بمن انزل عليه القرآن؛ تحدى القرآن بالاخبار عن الغيب؛ تحدى القرآن بعدم الاختلاف فيه؛ التحدى بالبلاغه؛ معنى الآيه المعجزه في القرآن و ما يفسر به حقيقتها؛ تصديق القرآن لقانون العليه العامه؛ اثبات القرآن ما يخرق للعادة؛ القرآن يسند ما أسند الى العله الماديه الى الله تعالى؛ القرآن يثبت تأثيرا في نفوس الانبياء في الخوارق؛ القرآن كما يسند الخوارق الى تأثير النفوس، يسندها الى امر الله تعالى؛ القرآن يسند المعجزه الى سبب غير مغلوب؛ القرآن يعد المعجزه برهانا على صحه رساله لا دليلا عاميا.

الفريقين فرق من حيث أن لأهل الجنة مزيدا عند ربهم. قال تعالى: لَّهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ (ق ٣٥).

و المراد بالحجاره فى قوله: وَقُودَهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ، الأصنام التى كانوا يعبدونها، و يشهد به قوله تعالى: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ الْآيَةَ (الأنبياء / ٩٨)، و الحصب هو الوقود.

و قوله تعالى: لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ، قرينه الأزواج تدل على أن المراد بالطهاره هى الطهاره من أنواع الأقدار و المكاره التى تمنع من تمام الالتيام و الالفه و الانس من الاقدار و المكاره الخلقية و الخلقية.

[سوره البقره (٢): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

إشاره

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَهُ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا - يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَهُ، الحيوان المعروف و هو من أصغر الحيوانات المحسوسه و هذه الآيه و التى بعدها نظيره ما فى سوره الرعد أَلَمْ يَعْلمْ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ

وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ. وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ (الرعد ١٩، ٢١، ٢٠).

و كيف كان فالآيه تشهد على أن من الضلال و العمى ما يلحق الإنسان عقيب أعماله السيئه غير الضلال و العمى الذى له فى نفسه و من نفسه حيث يقول تعالى: وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ، فقد جعل إضلاله فى تلو الفسق لا متقدما عليه هذا.

ثم إن الهدايه و الإضلال كلمتان جامعتان لجميع أنواع الكرامه و الخذلان التى ترد منه تعالى على عباده السعداء و الأشقياء، فإن الله تعالى وصف فى كلامه حال السعداء من عباده بأنه يحييهم حيوه طيبه، و يؤيدهم بروح الإيمان، و يخرجهم من الظلمات الى النور و يجعل لهم نورا يمشون به، و هو وليهم و لا- خوف عليهم و لا هم يحزنون، و هو معهم يستجيب لهم اذا دعوه و يذكركم اذا ذكروه، و الملائكه تنزل عليهم بالبشرى و السلام الى غير ذلك.

و وصف حال الأشقياء من عباده بأنه يضلهم و يخرجهم من النور الى الظلمات و يختم على قلوبهم، و على سمعهم و على أبصارهم غشاوه، و يطمس وجوههم على أدبارهم و يجعل فى أعناقهم أغلالا فهى الى الأذقان فهم مقمحون، و يجعل من بين أيديهم سدا من خلفهم سدا فيغشيهم فهم لا يبصرون، و يقيض لهم شياطين قرناء يضلونهم عن السبيل و يحسبون أنهم مهتدون، و يزينون لهم أعمالهم، و هم أولياهم، و يستدرجهم الله من حيث لا يشعرون، و يملى لهم أن كيده متين، و يمكر بهم و يمدهم فى طغيانهم يعمهون.

و قوله تعالى: إِلَّا الْفَاسِقِينَ، الفسق كما قيل من الألفاظ التى أبدع القرآن استعمالها فى معناها المعروف، مأخوذ من فسقت التمره اذا خرجت عن قشرها و جلدها و لذلك فسر بعده بقوله تعالى:

الأشقياء مثل المقرّبين و المخلصين و المخبتين و الصالحين و المطهّرين و غيرها، و مثل الظالمين و الفاسقين و الخاسرين و الغاوين و الضالّين و أمثالها أو صافاً مبتدله أو مأخوذه لمجرد تزيين اللفظ، فتضطرب بذلك قريحتك في فهم كلامه تعالى فتعطف الجميع على واد واحد، و تأخذه هجاء عامياً و حديثاً ساذجاً سوقياً بل هي أوصاف كاشفه عن حقائق روحيه و مقامات معنويه في صراطى السعادة و الشقاوه، كل واحد منها في نفسه مبدأ لآثار خاصه و منشأ لأحكام مخصوصه معينه، كما أن مراتب السنّ و خصوصيات القوى و أوضاع الخلقه في الإنسان كل منها منشأ لأحكام و آثار مخصوصه لا يمكننا أن نطلب واحدا منها من غير منشئه و محتده، و لئن تدبّرت في مواردنا من كلامه تعالى و أمعنت فيها وجدت صدق ما ادّعيناه (١)(٢)(٣).

[سوره البقره (٢): الآيات ٢٨ الى ٢٩]

اشاره

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أُمَّةً فَأَخْلَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)

بيان:

و قوله تعالى: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أُمَّةً فَأَخْلَاكُمْ. الآيه قريبه السياق من قوله

ص: ٦٤

١-١) البقره ٢٦-٢٧: بحث في الجبر و التفويض.

٢-٢) البقره ٢٦-٢٧: بحث روائى في الجبر و التفويض.

٣-٣) البقره ٢٦-٢٧: بحث فلسفى حول الافعال و اراده الانسان و كيفيه استنادها الى الله تعالى.

تعالى: **قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ** (المؤمن ١١)، وهذه من الآيات التي يستدل بها على وجود البرزخ بين الدنيا والآخرة، فإنها تشتمل على إمامتين، فلو كان إحداهما الموت الناقل من الدنيا لم يكن بد في تصوير الإمامته الثانية من فرض حياه بين الموتين و هو البرزخ، و هو استدلال تام اعتنى به في بعض الروايات ايضاً، وربما ذكر بعض المنكرين للبرزخ أن الآيتين أعنى قوله: **كَيْفَ تَكْفُرُونَ...**

الآيه، وقوله: **قَالُوا رَبَّنَا..** الآيه، متحدتا السياق، وقد اشتملتا على موتين و حياتين، فمدلولهما واحد، والآيه الأولى ظاهره في أن الموت الأول هو حال الإنسان قبل ولوج الروح في الحياه الدنيا، فالموت و الحياه الاوليان هما الموت قبل الحياه الدنيا و الحياه الدنيا، و الموت و الحياه الثانية هما الموت عن الدنيا و الحياه يوم البعث، و المراد بالمراتب في الآيه الثانية هو ما في الآيه الأولى، فلا معنى لدلالاتها على البرزخ، و هو خطأ فان الآيتين مختلفتان سياقاً اذ المأخوذ في الآيه الأولى موت واحد و إمامته لا يتحقق لها مصداق من دون سابقه حيوه بخلاف الموت، فالموت الأول في الآيه الأولى غير الإمامته الاولى في الآيه الثانية، فلامح في قوله تعالى: **أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ**، الإمامته الأولى هي التي بعد الدنيا و الإحياء الأول بعدها للبرزخ و الإمامته و الإحياء الثانية للآخره يوم البعث، و في قوله تعالى: **وَ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ** إنما يريد الموت قبل الحياه و هو موت و ليس بإمامته و الحياه هي الحياه الدنيا، و في قوله تعالى: **ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** حيث فصل بين الإحياء و الرجوع بلفظ ثم تأييد لما ذكرنا هذا.

قوله تعالى: **وَ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا**، بيان حقيقه الإنسان من حيث وجوده فهو وجود متحوّل متكامل يسير في مسير وجوده المتبدّل المتغير تدريجاً و يقطعه مرحله مرحله، فقد كان الإنسان قبل نشأته في الحياه الدنيا ميتاً ثم حيى بإحياء الله ثم يتحول بإمامته و إحياءه هكذا و قد قال سبحانه: **وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ**

مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ (السجده ٩/)، و قال تعالى: ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (المؤمنون ١٤/)، و قال تعالى: وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ. بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ. قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (السجده ١١/)، و قال تعالى: مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَ فِيهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (طه ٥٥/). و الآيات كما ترى (و سنزيدها توضيحا في محالها) تدلُّ على أن الإنسان جزء من الأرض غير مفارقتها و لا مباين معها، انفصل منها ثم شرع في التطور بأطواره حتى بلغ مرحله أنشئ فيها خلقا آخر، فهو المتحوّل خلقا آخر و المتكامل بهذا الكمال الجديد الحديث، ثم يأخذ ملك الموت هذا الإنسان من البدن نوع أخذ يستوفيه ثم يرجع الى الله سبحانه، فهذا صراط وجود الإنسان.

و قوله تعالى: فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، سيأتي الكلام في السماء في سورة حم السجده إن شاء الله تعالى.

[سوره البقره (٢): الآيات ٣٠ الى ٣٣]

إشارة

وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ أَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ الْحَمْدُ؛ سيأتى الكلام فى معنى القول منه تعالى و كذا القول من الملائكة و الشيطان إن شاء الله.

قوله تعالى: قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ، الى قوله:

وَنُقَدِّسُ لَكَ مَشْعَرًا بِأَنَّهُمْ أَنَّمَا فَهَمُوا وَقَوَعِ الْإِفْسَادِ وَ سَفْكَ الدِّمَاءِ مِنْ قَوْلِهِ سَبَّحَانَهُ: إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً، حيث أن الموجود الارضى بما انه مادى مركب من القوى الغضبيه و الشهويه، و الدار دار التراحم، محدوده الجهات، و افره المزاحمات، مركباتها فى معرض الانحلال، و انتظاماتها و اصلاحاتها فى مظنه الفساد و مصب البطلان، لا تتم الحياه فيها الا بالحياه النوعيه، و لا يكمل البقاء فيها الا بالاجتماع و التعاون، فلا تخلو من الفساد و سفك الدماء، ففهموا من هناك أن الخلافه المراده لا تقع فى الارض الا بكثره من الأفراد و نظام اجتماعى بينهم يفضى بالآخره الى الفساد و السفك، و الخلافه و هى قيام شىء مقام آخر لا- تتم إلا بكون الخليفه حاكيا للمستخلف فى جميع شئونه الوجوديه و آثاره و أحكامه و تدابيرها بما هو مستخلف، و الله سبحانه فى وجوده مسمى بالاسماء الحسنى متصف بالصفات العليا، من أوصاف الجمال و الجلال، منزه فى نفسه عن النقص و مقدس فى فعله عن الشر و الفساد جلت عظمتها، و الخليفه الارضى بما هو كذلك لا- يليق بالاستخلاف و لا- يحكى بوجوده المشوب كل نقص و شين الوجود الالهى المقدس المنزه عن جميع النقائص و كل الأعدام، فأين التراب و رب الأرباب، و هذا الكلام من الملائكه فى مقام تعرف ما جهلوه و استيضاح ما أشكل عليهم من أمر هذا الخليفه، و ليس من الاعتراض و الخصومه فى شىء، و الدليل على ذلك

قولهم فيما حكاه الله تعالى عنهم: انك أنت العليم الحكيم حيث صدر الجملة بأن التعليليه المشعره بتسلم مدخولها فافهم، فملخص قولهم يعود الى ان جعل الخلافة انما هو لأجل ان يحكى الخليفه مستخلفه بتسييحه بحمده و تقديسه له بوجوده، و الارضيه لا تدعه يفعل ذلك بل تجره الى الفساد و الشر، و الغايه من هذا الجعل و هى التسييح و التقديس بالمعنى الذى مرّ من الحكايه حاصله بتسييحنا بحمدك و تقديسنا لك، فنحن خلفائك أو فاجعلنا خلفاء لك، فما فائده جعل هذه الخلافة الارضيه لك؟ فرد الله سبحانه ذلك عليهم بقوله: **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا** .

و قوله تعالى: **وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ** ، مشعر بأن هذه الأسماء أو أن مسمياتها كانوا موجودات أحياء عقلاء، محجوبين تحت حجاب الغيب و أن العلم بأسمائهم كان غير نحو العلم الذى عندنا بأسماء الأشياء، و إلا كانت الملائكة بانباء آدم إياهم بها عالمين و صائرين مثل آدم مساوين معه، و لم يكن فى ذلك اكرام لآدم، و لا كرامه حيث علمه الله سبحانه أسماء و لم يعلمهم، و لو علمهم إياها كانوا مثل آدم أو أشرف منه، و لم يكن فى ذلك ما يقنعهم أو يبطل حجتهم، و أى حجه تتم فى أن يعلم الله تعالى رجالا- علم اللغه ثم يباهى به و يتم الحجه على ملائكة مكرمين لا يسبقونه بالقول و هم بأمره يعملون بأن هذا خليفتى و قابل لكرامتى دونكم؟ و يقول تعالى أنبئونى باللغات التى سوف يضعها الآدميون بينهم لإفهام و التفهيم إن كنتم صادقين فى دعويكم أو مسألتكم خلافتى، على أن كمال اللغه هو المعرفه بمقاصد القلوب و الملائكة لا تحتاج فيها الى التكلم، و انما تتلقى المقاصد من غير واسطه، فلهم كمال فوق كمال التكلم، و بالجملة فما حصل للملائكة من العلم بواسطه انباء آدم لهم بالأسماء هو غير ما حصل لآدم من حقيقه العلم بالأسماء بتعليم الله تعالى فأحد الأمرين كان ممكنا فى حق الملائكة و فى مقدرتهم دون الآخر، و آدم انما استحق الخلافة الإلهيه بالعلم و بالأسماء دون انبائها اذ الملائكة انما قالوا فى مقام الجواب: سبحانهك لا علم لنا

إلا ما علمتنا، فنفوا العلم.

و الاسماء فى قوله تعالى: وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا، جمع محلى باللام و هو يفيد العموم على ما صرحوا به، مضافا الى انه مؤكد بقوله: كُلَّهَا، فالمراد بها كل اسم يقع لمسمى و لا تقييد و لا عهد، ثم قوله: عَرَضَهُمْ، دال على كون كل اسم أى مسماه ذا حيوه و علم و هو مع ذلك تحت حجاب الغيب، غيب السموات و الارض. و اضافته الغيب الى السموات و الارض و ان امكن ان يكون فى بعض الموارد اضافته من، يفيد التبعض لكن المورد و هو مقام اظهار تمام قدرته تعالى و احاطته و عجز الملائكة و نقصهم يوجب كون اضافته الغيب الى السموات و الارض اضافته للام، يفيد أن الاسماء امور غائبه عن العالم السماوى و الارضى، خارج محيط الكون، و اذا تأملت هذه الجهات اعنى عموم الاسماء و كون مسمياتها أولى حياه و علم و كونها غيب السموات و الارض قضيت بانطباقها بالضروره على ما اشير اليه فى قوله تعالى: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (الحجر ٢١)، حيث أخبر سبحانه بأنه كل ما يقع عليه اسم شىء فله عنده تعالى خزائن مخزونه باقيه عنده غير نافده، و لا مقدره بقدر، و لا محدوده بحد، و أن القدر و الحد فى مرتبه الانزال و الخلق، و أن الكثره التى فى هذه الخزائن ليست من جنس الكثره العديده الملازمه للتقدير و التحديد بل تعدد المراتب و الدرجات، و سيجىء بعض الكلام فيها فى سوره الحجر إن شاء الله تعالى.

فتحصّل ان هؤلاء الذين عرضهم الله على الملائكة موجودات عاليه محفوظه عند الله تعالى، محجوبه بحجب الغيب، أنزل الله سبحانه كل اسم فى العالم بخيرها و بركتها و اشتق كل ما فى السموات و الارض من نورها و بهائها، و أنهم على كثرتهم و تعددهم لا يتعددون تعدد الأفراد، و لا يتفاوتون تفاوت الاشخاص، و انما يدور الأمر هناك مدار المراتب و الدرجات و نزول الاسم من عند هؤلاء انما هو بهذا القسم من النزول.

وقوله تعالى: **وَ أَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ** و **مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ** و كان هذان القسمان من الغيب النسبى الذى هو بعض السموات و الأرض، و لذلك قوبل به قوله: **أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ**، ليشمل قسمى الغيب أعنى الخارج عن العالم الارضى و السماوى و غير الخارج عنه.

وقوله تعالى: **كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**، تقييد الكتمان بقوله: **كُنْتُمْ**، مشعر بأن هناك امرا مكتوما فى خصوص آدم و جعل خلافته، و يمكن أن يستظهر ذلك من قوله تعالى فى الآيه التاليه: **فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**.

فيظهر أن ابليس كان كافرا قبل ذلك الحين، و أن إباطه عن السجده كان مرتبطا بذلك فقد كان أضمراه هذا.

و يظهر بذلك أن سجده الملائكه و إباء ابليس عنها كانت واقعه بين قوله تعالى: **قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** و بين قوله: **أَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ** و **مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**، و يظهر السر أيضا فى تبديل قوله: **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ثانيا بقوله: **إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ (١)**.

[سوره البقره (٢): آيه ٣٤]

إشارة

وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)

بيان:

وقوله تعالى: **اسْجُدُوا لِآدَمَ**، يستفاد منه جواز السجود لغير الله فى الجملة اذا كان تحية و تكرمه للغير و فيه خضوع لله تعالى بموافقه أمره، و نظيره قوله تعالى فى قصه

ص: ٧٠

(١- ١). البقره ٣٠-٣٣: بحث روائى حول الاسماء التى علمها الله لآدم عليه السلام.

يوسف عليه السلام: و رفع أبويه على العرش و خرّوا له سجدا قال: يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا (يوسف ١٠٠/١)، و ملخص القول في ذلك أنك قد عرفت في سورة الفاتحة أن العبادة هي نصب العبد نفسه في مقام العبودية و إتيان ما يثبت و يستثبت به ذلك فالفعل العبادي يجب أن يكون فيه صلاحية إظهار مولويّه المولى، أو عبديه العبد كالسجود و الركوع و القيام أمامه حينما يقعد، و المشى خلفه حينما يمشى و غير ذلك، و كلما زادت الصلاحيه المزبوره ازدادت العباده تعيّنًا للعبوديه، و أوضح الأفعال في الدلاله على عز المولويه و ذلك العبوديه السجده، لما فيها من الخور على الأرض، و وضع الجبهه عليها، و اما ما ربما ظنه بعض: من أن السجده عباده ذاتيه، فليس بشيء، فإن الذاتى لا يختلف و لا يتخلف. و هذا الفعل يمكن أن يصدر بعينه من فاعله بداع غير داع التعظيم و العباده كالسخرية و الاستهزاء فلا يكون عباده مع اشتماله على جميع ما يشتمل عليه و هو عباده نعم معنى العباده أوضح في السجده من غيرها، و اذا لم يكن عباده ذاتيه لم يكن لذاته مختصا بالله سبحانه، بناء على أن المعبود منحصر فيه تعالى، فلو كان هناك مانع لكان من جهه النهى الشرعى أو العقلى و الممنوع شرعا أو عقلا ليس إلا إعطاء الربويه لغيره تعالى، و أما تحيه الغير أو تكريمته من غير إعطاء الربويه، بل لمجرد التعارف و التحيه فحسب، فلا دليل على المنع من ذلك، لكن الذوق الدينى المتخذ من الاستيناس بظواهره يقضى باختصاص هذا الفعل به تعالى، و المنع عن استعماله فى غير موردته تعالى، و ان لم يقصد به إلا التحيه و التكرمه فقط، و أما المنع عن كل ما فيه إظهار الاخلاص لله، بإبراز المحبه لصالحى عباده أو لقبور أوليائه أو آثارهم فمما لم يقم عليه دليل عقلى أو نقلى أصلا، و سنعود الى البحث عن هذا الموضوع فى محل يناسبه إنشاء الله تعالى (١).

ص: ٧١

إشارة

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا يَخَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)

بيان:

قوله تعالى: وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ، على أن قصه سجود الملائكة لآدم تكررت في عدة مواضع من القرآن الكريم. لم يقع قصه الجنة إلا في ثلث مواضع:

احدهما: هاهنا من سوره البقره.

الثاني: في سوره الاعراف قال الله تعالى: وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ .

و الثالث: في سوره طه. قال الله تعالى: وَ لَقَدْ عٰهَدْنَا اِلٰى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ

عَزْمًا. وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى .

قوله تعالى: وَكُلًّا مِنْهَا رَغَدًا الرَّغْدَ الهناء و طيب العيش و أرغد القوم مواشيهم تركوها ترعى كيف شاءت، و قوم رغد، و نساء رغد، أى ذووا عيش رغيد.

و قوله تعالى: وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ و كأن النهى انما كان عن أكل الثمره و انما تعلق بالقرب من الشجره ايذانا بشده النهى و مبالغه فى التأكيد و يشهد بذلك قوله تعالى:

فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا (الأعراف ٢٢/).

و قوله تعالى: فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا (طه ١٢١/)، فكانت المخالفه بالأكل فهو المنهى عنه بقوله: وَلَا تَقْرَبَا .

قوله تعالى: فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ، من الظلم لا من الظلمه على ما احتمله بعضهم و قد اعترفا بظلمهما حيث قالوا على ما حكاه الله تعالى عنهما: رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا .

إلا أنه تعالى بدّل فى سوره طه هذه الكلمه أعنى قوله: فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ من قوله: فَتَشْقَى و الشقاء هو التعب ثم فسر التعب و فصله، فقال: إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَ لَا تَعْرِى وَ أَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَ لَا تَصْحَى الآيات.

قوله سبحانه: فَازْلَهَمَا الشَّيْطَانُ ، الظاهر من هذه الجمله كفظاؤها و إن لم يكن أزيد من وسوسه الشيطان لهما مثل ما يوسوس لنا(بنى آدم) على نحو القاء الوسوسه فى القلب من غير رؤيه الشخص.

لكن الظاهر من أمثال قوله تعالى فى سوره طه: فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِرَوْجِكَ يدل على أنه تعالى أراهما الشيطان و عرفهما إياه بالشخص و العين دون الوصف و كذا قوله تعالى حكايه عن الشيطان: يَا آدَمُ هَبْ أَدْبَاكَ عَلَى شَجَرِهِ الْخُلْدِ الآيه؛ حيث أتى بالكلام فى صوره حكايه الخطاب، و يدل ذلك على متكلم مشعور به.

و كذا قوله تعالى فى سورة الأعراف: **وَ قَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ** و القسم إنما يكون من مقاسم مشعور به.

و كذا قوله تعالى: **وَ نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهْكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عِدُوٌّ مُبِينٌ**، كل ذلك يدل على أنه كان يتراءى لهما و كانا يشاهدانه. و لو كان حالهما عليهما السلام مثل حالتنا من عدم المشاهدة حين الوسوسة لجاز لهما أن يقولوا: ربنا اننا لم نشعر و خلنا أن هذه الوسوس هي من أفكارنا من غير استشعار بحضوره، و لا قصد لمخالفه ما وصيتنا به من التحذير من وسوسته.

و بالجمله فهما كانا يشاهدانه و يعرفانه، و الأنبياء و هم المعصومون بعصمه الله كذلك يعرفونه و يشاهدونه حين تعرّضه بهم لو تعرض على ما وردت به الروايات فى نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و يحيى و ايوب و اسماعيل و محمد صلّى الله عليه و آله و سلّم و عليهم هذا.

و كذا ظاهر هذه الآيات كظاهر قوله تعالى: **مَا تَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ** حيث ينبىء عن كونهما معه لعنه الله بحيال الشجره فى الجنة، فقد كان دخل الجنة و صاحبهما و غرهما بوسوسته و لا- محذور فيه اذ لم تكن الجنة جنه الخلد حتى لا- يدخلها الشيطان، و الدليل على ذلك خروجهم جميعا من هذه الجنة.

و أما قوله تعالى خطابا لإبليس: **فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ** (الأعراف ١٣)، فيمكن أن يكون المراد به الخروج من الملائكه، أو الخروج من السماء من جهه كونها مقام قرب و تشریف.

قوله تعالى: **وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عِدُوٌّ** الآية؛ ظاهر السياق أنه خطاب لآدم و زوجته و إبليس و قد خص إبليس وحده بالخطاب فى سورة الأعراف حيث قال: **فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا** الآية؛ فقوله تعالى: **اهْبِطُوا** كالجمع بين الخطابين و حكاية عن قضاء قضى الله به العداوه بين إبليس لعنه الله و بين آدم و زوجته

و ذريتهما، وكذلك قضى به حياتهم فى الأرض و موتهم فيها و بعثهم منها.

و ذريه آدم مع آدم فى الحكم كما ربما يستشعر من ظاهر قوله: فِيهَا تَحْيَوْنَ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ الآيه؛ و كما سيأتى فى قوله تعالى: وَ لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ الآيه؛ من سوره الأعراف.

إن إسجاد الملائكة لآدم عليه السلام إنما كان من جهه أنه خليفه أَرْضَى، فكان المسجود له آدم عليه السلام و حكم السجده لجميع البشر، فكان إقامه آدم عليه السلام مقام المسجود له معنونا بعنوان الأنموذج و النائب.

و بالجملة يشبه أن تكون هذه القصة التى قصها الله تعالى من إسكان آدم و زوجته الجنة، ثم إهباطهما لأكل الشجره كالمثل يمثل به ما كان الإنسان فيه قبل نزوله الى الدنيا من السعاده و الكرامه بسكونه حظيره القدس، و منزل الرفعه و القرب، و دار نعمه و سروره، و انس و نور، و رفقاء طاهرين، و اخلاء روحانيين، و جوار رب العالمين.

ثم إنه يختار مكانه كل تعب و عناء و مكروه و ألم بالميل الى حيوه فانيه، و جيفه منتنه دانيه، ثم أنه لو رجع بعد ذلك الى ربه لأعادته الى دار كرامته و سعاده و لو لم يرجع اليه و أخلد الى الأرض و اتبع هواه فقد بدل نعمه الله كفرا و احل بنفسه دار البوار، جهنم يصلحها و بئس القرار.

قوله تعالى: فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ، التلقى هو التلقن، و هو أخذ الكلام مع فهم و فقه و هذا التلقى كان هو الطريق المسهل لآدم عليه السلام توبته.

و من ذلك يظهر أن التوبه توبتان: توبه من الله تعالى و هى الرجوع الى العبد بالرحمه، و توبه من العبد و هى الرجوع الى الله بالاستغفار و الانقلاع من المعصيه.

و توبه العبد، محفوفه بتوبتين من الله تعالى، فان العبد لا يستغنى عن ربه فى حال من الأحوال، فرجوعه عن المعصيه اليه يحتاج الى توفيقه تعالى و إعانتة و رحمته حتى يتحقق منه

التوبه، ثم تمس الحاجه الى قبوله تعالى و عنايته و رحمته، فتوبه العبد اذا قبلت كانت بين توبتين من الله كما يدل عليه قوله تعالى: **ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا** (التوبه ١١٩).

و قراءه نصب آدم و رفع كلمات تناسب هذه النكته، و إن كانت القراءه الاخرى (و هى قراءه رفع آدم و نصب كلمات) لا تنافيه ايضا.

و أما أن هذه الكلمات ما هى؟ فربما يحتمل انها هى ما يحكيه الله تعالى عنهما فى سوره الأعراف بقوله: **قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَ إِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** (الأعراف ٢٣)، إلا أن وقوع هذه الكلمات أعنى قوله: **قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا الْآيَةَ**؛ قبل قوله:

قُلْنَا اهْبِطُوا فِي سوره الأعراف و وقوع قوله: فَتَلَقَى آدَمُ الْآيَةَ؛ بعد قوله: **قُلْنَا اهْبِطُوا**، فى هذه السوره لا يساعد عليه.

لكن هاهنا شىء هو أنك عرفت فى صدر القصة أن الله تعالى حيث قال: **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**، قالت الملائكه: **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ الْآيَةَ**؛ و هو تعالى لم يرد عليهم دعواهم على الخليفه الأرضى بما رموه به و لم يجب عنه بشىء إلا أنه علم آدم الأسماء كلها.

و لو لا- أنه كان فيما صنعه تعالى من تعليم الأسماء ما يسد باب اعتراضهم ذلك لم ينقطع كلامهم و لا تمت الحجه عليهم قطعا. ففى جمله ما علمه الله تعالى آدم من الاسماء أمر ينفع العاصى اذا عصى و المذنب اذا أذنب، ففعل تلقيه من ربه كان متعلقا بشىء من تلك الأسماء فافهم ذلك.

و اعلم أن آدم عليه السلام و إن ظلم نفسه فى القائها الى شفا جرف الهلكه و منشعب طريقى السعاده أعنى الدنيا، فلو وقف فى مهبط فقد هلك، و لو رجع الى سعاده الأولى فقد أتعب نفسه و ظلمها، فهو عليه السلام ظالم لنفسه على كل تقدير، إلا أنه عليه السلام هيا لنفسه بنزوله درجه من السعاده و منزله من الكمال ما كان ينالها لو لم ينزل و كذلك ما كان ينالها لو نزل من غير

فمتى كان يمكنه أن يشاهد ما لنفسه من الفقر والمذله والمسكنه والحاجه والقصور و له فى كل ما يصيبه من التعب والعناء والكدر روح و راحه فى حظيره القدس و جوار رب العالمين، فله تعالى صفات من عفو و مغفره و توبه و ستر و فضل و رأفه و رحمه لا ينالها إلا المذنبون، و له فى أيام الدهر نفحات لا يرتاح بها إلا المتعزضون.

فهذه التوبه هى التى استدعت تشريع الطريق الذى يتوقع سلوكه و تنظيف المنزل الذى يرجى سكونه، فوراءها تشريع الدين و تقويم المله.

و يدل على ذلك ما تراه أن الله تعالى يكرر فى كلامه تقدم التوبه على الإيمان. قال تعالى:

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ (هود ١١٢)، و قَالَ: وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ (طه ٨٢)، الى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى. و هذا أول ما شرع من الدين لآدم عليه السلام و ذريته، أوجز الدين كله فى جملتين لا يزداد عليه شىء الى يوم القيامة.

و أنت اذا تدبرت هذه القصة (قصة الجنه) و خاصه ما وقع فى سوره طه وجدت أن المستفاد منها أن جريان القصة أوجب قضاءين منه تعالى فى آدم و ذريته، فأكل الشجره أوجب حكمه تعالى و قضائه بالهبوط و الاستقرار فى الأرض و الحياه فيها تلك الحياه الشقيه التى حذرا منها حين نهيا عن اقتراب الشجره هذا.

و أن التوبه ثانيا: تعقب قضاء و حكما ثانيا منه تعالى بإكرام آدم و ذريته بالهدايه الى العبوديه فالمقضى أولا كان نفس الحياه الأرضيه، ثم بالتوبه طيب الله تلك الحياه بأن ركب عليها الهدايه الى العبوديه، فتألفت الحياه من حيوه أرضيه، و حيوه سماويه.

و هذا هو المستفاد من تكرار الأمر بالهبوط فى هذه السوره حيث قال تعالى: وَقُلْنَا

اهْبُطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ الْآيَةَ؛ وَقَالَ تَعَالَى:

قُلْنَا اهْبُطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى الْآيَةَ.

و توسط التوبه بين الأمرين بالهبوط مشعر بأن التوبه وقعت و لما انفصلا من الجنه و إن لم يكونا أيضا فيها كاستقرارهما قبل ذلك.

يشعر بذلك أيضا قوله تعالى: **وَقُلْنَا لَهُمَا رَبُّهُمَا أَ لَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تَلْكُمَا الشَّجَرَةَ الْآيَةَ؛** بعد ما قال لهما: لا تقربا هذه الشجره فأتى بلفظه تلكما و هى إشاره الى البعيد بعد ما أتى بلفظه هذه و هى إشاره الى القريب و عبر بلفظه نادى و هى للبعيد بعد ما أتى بلفظه قال و هى للقريب فافهم.

و اعلم أن ظاهر قوله تعالى: **وَقُلْنَا اهْبُطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ الْآيَةَ؛** وقوله تعالى: **قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ الْآيَةَ؛** أن نحوه هذه الحياه بعد الهبوط تغاير نحوها فى الجنه قبل الهبوط، و ان هذه حيوه ممتزجه حقيقتها بحقيقه الارض ذات عناء و شقاء يلزمها أن يتكون الانسان فى الأرض ثم يعاد بالموت إليها ثم يخرج بالبعث منها.

فالحياه الارضيه تغاير حيوه الجنه فحياتها حيوه سماويه غير أرضيه.

و من هنا يمكن ان يجزم أن جنه آدم كانت فى السماء، و إن لم تكن جنه الآخره جنه الخلد التى لا يخرج منها من دخل فيها.

نعم: يبقى الكلام فى معنى السماء و لعلنا سنوفق لاستيفاء البحث منه، إن شاء الله تعالى.

بقى هنا شىء و هو القول فى خطيئه آدم فنقول ظاهر الآيات فى بادى النظر و إن كان تحقق المعصيه و الخطيئه منه عليه السلام كما قال تعالى: **فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ**، و قال تعالى: **وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ**، الآية، و كما اعترف به فيما حكاه الله عنهما: **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَ إِن لَّم تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ الْآيَةَ.**

لكن التدبير فى آيات القصه و الدقه فى النهى الوارد عن أكل الشجره يوجب القطع: بأن النهى المذكور لم يكن نهيا مولويا و انما هو نهى إرشادى يراد به الإرشاد و الهدايه الى ما فى مورد التكليف من الصلاح و الخير لا البعث و الإراده المولويه.

و يدل على ذلك اولاً: أنه تعالى فرّع على النهى فى هذه السوره و فى سوره الأعراف أنه ظلم حيث قال: لَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ثم بدله فى سوره طه من قوله: فتشقى مفرعاً إياه على ترك الجنه. و معنى الشقاء التعب ثم ذكر بعده كالتفسير له: إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَ لَا تَعْرِى، وَ أَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَ لَا تَصْحَى الْآيَات.

فأوضح أن المراد بالشقاء هو التعب الدنيوى، الذى تستتبعه هذه الحياه الأرضيه من جوع و عطش و عراء و غير ذلك.

فالتوقى من هذه الامور هو الموجب للنهى الكذائى لا جهه اخرى مولويه فالنهي إرشادى، و مخالفه النهى الإرشادى لا توجب معصيه مولويه، و تعدياً عن طور العبوديه و على هذا فالمراد بالظلم أيضاً فى ما ورد من الآيات ظلمهما على انفسهما فى القائهما فى التعب و التهلكه دون الظلم المذموم فى باب الربوبيه و العبوديه و هو ظاهر.

و ثانياً: أن التوبه، و هى الرجوع من البعد اذا استتبع القبول من جانب المولى أوجب كون الذنب كلا ذنب، و المعصيه كأنها لم تصدر، فيعامل مع العاصى التائب معامله المطيع المنقاد، و فى مورد فعله معامله الامتثال و الانقياد.

و لو كان النهى عن أكل الشجره مولويا و كانت التوبه توبه عن ذنب عبودى و رجوعاً عن مخالفه نهى مولوى كان اللازم رجوعهما الى الجنه مع انهما لم يرجعا.

و من هنا يعلم أن استتباع الأكل المنهى للخروج من الجنه كان استتباعاً ضرورياً تكوينياً، نظير استتباع السم للقتل و النار للإحراق، كما فى موارد التكاليف الإرشاديه لا استتباعاً من قبيل المجازاه المولويه فى التكاليف المولويه، كدخول النار لتارك الصلاه، و استحقاق الدم

و استیجاب البعد فی المخالفات العمومیه الاجتماعیه المولویه.

و ثالثاً: أن قوله تعالى: قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ الآيات.

و هو كلمه جامعہ لجميع التشريعات التفصيليه التي أنزلها الله تعالى في هذه الدنيا من طرق ملائكته و كتبه و رسله، يحكى عن اول تشريع شرع للانسان في هذه الدنيا التي هي دنيا آدم و ذريته، وقد وقع على ما يحكى الله تعالى بعد الأمر الثاني بالهبوط و من الواضح ان الأمر بالهبوط أمر تكويني متأخر عن الكون في الجنه و اقرار الخطيئه، فلم يكن حين مخالفه النهي و اقتراب الشجره لا دين مشروع و لا تكليف مولوى فلم يتحقق عند ذلك ذنب عبودي، و لا معصيه مولويه.

و لا ينافي ذلك كون خطاب اسجدوا للملائكه و لإبليس و هو قبل خطاب لا تقربا، خطابا مولويا لان المكلف غير المكلف.

فإن قلت: اذا كان النهي نهياً إرشادياً لا نهياً مولوياً فما معنى عدّه تعالى فعلهما ظلماً و عصياناً و غوايه؟

قلت: اما الظلم فقد مر أن المراد به ظلمهما لأنفسهما في جنب الله تعالى، و أما العصيان فهو لغه عدم الانفعال أو الانفعال بصعوبه كما يقال: كسرتة فانكسر و كسرتة فعصى، و العصيان و هو عدم الانفعال عن الأمر أو النهي كما يتحقق في مورد التكليف المولويه كذلك يتحقق في مورد الخطابات الإرشاديه.

و أما تعين المعصيه في هذه الأزمنه عندنا جماعه المسلمين في مخالفه مثل صل، أم صم، أو حج، أو لا تشرب الخمر، أو لا تزن و نحو ذلك فهو تعين بنحو الحقيقه الشرعيه أو المتشرعه لا يضر بعموم المعنى بحسب اللغه و العرف العام هذا.

و أما الغوايه فهو عدم اقتدار الإنسان مثلا على حفظ المقصد و تدبير نفسه فى معيسته بحيث يناسب المقصد و يلائمه.

و واضح أنه يختلف باختلاف الموارد من إرشاد و مولويه.

فإن قلت: فما معنى التوبه حينئذ و قولهما: «وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ؟» .

قلت: التوبه كما مر هى الرجوع، و الرجوع يختلف بحسب اختلاف موارد.

فكما يجوز للعبد المتمرد عن أمر سيده و إرادته أن يتوب اليه، فيرد اليه مقامه الزائل من القرب عنده كذلك يجوز للمريض الذى نهاه الطبيب نهيا إرشاديا عن أكل شىء معين من الفواكه و المأكولات و انما كان ذلك منه مراعاه لجانب سلامته و عافيته فلم ينته المريض عن نهيه فاقترفه فتضرر فأشرف على الهلاك.

يجوز ان يتوب الى الطبيب ليشير اليه بدواء يعيده الى سابق حاله و عافيته، فيذكر له ان ذلك محتاج الى تحمل التعب و المشقه و العناء و الرياضه خلال مده حتى يعود الى سلامه المزاج الأوليه بل الى اشرف منها و أحسن، هذا.

و أما المغفره و الرحمه و الخسران فالكلام فيها نظير الكلام فى نظائرها فى اختلاف بحسب اختلاف موارد، هذا (1).

[سوره البقره (٢): الآيات ٤٠ الى ٤٤]

إشاره

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيَّاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَ تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَ أَفِيْمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ إِزْكِعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) أ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَ فَلَآ تَعْقِلُونَ (٤٤)

ص: ٨١

١ - ١) البقره ٣٥-٣٩: بحث روائى حول جنه آدم و انها هل كانت جنه من جنان الدنيا ام من جنان الآخره؛ موضوع تكوين آدم عليه السلام فى التوراه؛ الشجره الملعونه؛ عصمه الانبياء عليهم السلام، كيفيه خروج آدم عليه السلام من الجنه؛ خلق حواء.

بيان:

قوله تعالى: وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي ، أصل العهد الحفاظ، و منه اشتقت معانيه كالعهد بمعنى الميثاق و اليمين و الوصيه و اللقاء و المنزل و نحو ذلك.

قوله تعالى: فَارْهَبُونِ ، الرهبه الخوف، و تقابل الرغبه.

قوله تعالى: وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ ، أى من بين أهل الكتاب، أو من بين قومكم ممن مضى و سيأتى، فإن كفار مكه كانوا قد سبقوهم الى الكفر به.

[سوره البقره (٢): الآيات ٤٥ الى ٤٦]

اشاره

وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ وَ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)

بيان:

قوله تعالى: وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ ، الاستعانه و هى طلب العون إنما يتم فيما لا يقوى الإنسان عليه وحده من المهمات و النوازل، و اذ لا معين فى الحقيقه إلا الله سبحانه

ص: ٨٢

فالعون على المهمات مقاومه الإنسان لها بالثبات و الاستقامه و الاتصال به تعالى بالانصراف إليه، و الاقبال عليه بنفسه، و هذا هو الصبر و الصلاه، و هما أحسن سبب على ذلك، فالصبر يصغر كل عظيمه نازله، و الاقبال على الله و الالتجاء إليه تستيقظ روح الايمان، و تتنبه: ان الإنسان متك على ركن لا ينهدم، و سبب لا ينفصم.

قوله تعالى: **وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ**، الضمير راجع الى الصلاه، و أما إرجاعه الى الاستعانه لتضمن قوله: **إِسْتَعِينُوا**، ذلك فينافيه ظاهرا قوله: **إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ**، فإن الخشوع لا يلائم الصبر كثير ملائمه، و الفرق بين الخشوع و الخضوع مع أن فى كليهما معنى التذلل و الانكسار أن الخضوع مختص بالجوارح و الخشوع بالقلب.

قوله تعالى: **الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ**. هذا المورد، أعنى مورد الاعتقاد بالآخره على أنه مورد اليقين لا- يفيد فيه الظن و الحسبان الذى لا يمنع النقيض، قال تعالى:

وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (البقره ٤/١)، و يمكن أن يكون الوجه فيه الأخذ بتحقيق الخشوع فان العلوم التدريجيه الحصول من أسباب تدريجيه تتدرج فيها النفس المدركه من تنبه و شك ثم ترجح أحد طرفى النقيض ثم انعدام الاحتمالات المخالفه شيئا فشيئا حتى يتم الإدراك الجازم و هو العلم، و هذا النوع من العلم اذا تعلق بأمر هائل موجب لاضطراب النفس و قلقها و خشوعها إنما تبتدى الخشوع الذى معه من حين شروع الرجحان قبل حصول الإدراك العلمى و تمامه، ففى وضع الظن موضع العلم إشاره الى أن الانسان لا يتوقف على زياده مؤونه على العلم أن تنبه بأن له ربًا يمكن ان يلاقيه و يرجع إليه و ذلك كقول الشاعر:

فقلت لهم ظنوا بألفى مذحج

سراتهم فى الفارسى المسرد

و إنما يخوف العدو باليقين لا بالشك و لكنه أمرهم بالظن لأن الظن يكفيهم فى الانقلاع عن المخالفه، بلا حاجه الى اليقين حتى يتكلف المهدد الى ايجاد اليقين فيهم بالتفهيم من غير اعتناء منه بشأنهم، و على هذا فالآيه قريبه المضمون من قوله تعالى: **فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ**

فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (الكهف ١١٠)، وهذا كله لو كان المراد باللقاء فى قوله تعالى: مُلَاقُوا رَبَّهُمْ، يوم البعث و لو كان المراد به ما سياتى تصويره فى سورة الأعراف إن شاء الله فلا محذور فيه أصلا.

[سورة البقره (٢): الآيات ٤٧ الى ٤٨]

اشاره

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)

بيان:

قوله تعالى: وَ اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي. الملك و السلطان الدنيوى بأنواعه و أقسامه و بجميع شئونه، و قواه المقننه الحاكمه و المجريه مبتنيه على حوائج الحياه، و غايتها رفع الحاجه حسب ما يساعد عليه العوامل الزمانيه و المكانيه، فربما بدّل متاع من متاع أو نفع من نفع أو حكم من حكم من غير ميزان كلى يضبط الحكم و يجرى ذلك فى باب المجازاه أيضا فإن الجرم و الجنايه عندهم يستتبع العقاب، و ربما بدل الحاكم العقاب لغرض يستدعى منه ذلك كان يلحّ المحكوم الذى يرجى عقابه على القاضى و يسترحمه أو يرتشيه فينحرف فى قضائه فيجزى أى يقضى فيه بخلاف الحق، أو يبعث المجرم شفيعا يتوسط بينه و بين الحاكم أو مجرى الحكم أو يعطى عدلا و بدلا اذا كانت حاجه الحاكم المرید للعقاب إليه أزيد و أكثر من الحاجه الى عقاب ذلك المجرم، أو يستنصر قومه فينصروه فيتخلص بذلك عن تبعه العقاب و نحو ذلك. تلك سنّه جاريه و عاده دائره بينهم، و كانت الملل القديمه من الوثنيين و غيرهم تعتقد أن

الحياء الآخريه نوع حياه دنيويه يطرد فيها قانون الأسباب و يحكم فيها ناموس التأثير و التأثير المادى الطبيعى، فيقدمون الى آلهتهم أنواع القرايين و الهدايا للصفح عن جرائمهم أو الإمداد فى حوائجهم، أو يستشفعون بها، أو يفسدون بشيء عن جريمه أو يستنصرون بنفس أو سلاح حتى أنهم كانوا يدفنون مع الأموات أنواع الزخرف و الزينه، ليكون معهم ما يتمتعون به فى آخرتهم، و من أنواع السلاح ما يدافعون به عن أنفسهم، و ربما ألدوا معه من الجوارى من يستأنس بها، و من الأبطال من يستنصر به الميت، و توجد اليوم فى المتاحف بين الآثار الارضيه عتائق كثيره من هذا القبيل، و يوجد عقائد متنوعه شبيهه بتلك العقائد بين الملل الإسلاميه على اختلاف السننهم و الوانهم، بقيت بينهم بالتوارث، ربما تلونت لونا بعد لون، جيلا بعد جيل، و قد أبطل القرآن جميع هذه الآراء الواهيه، و الاقاويل الكاذبه، فقد قال عز من قائل: **وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (الانفطار ١٩/)**، و قال: **وَ رَأُوا الْعَذَابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (البقره ١٦٦/)**، و قال: **وَ لَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ تَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَ مَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (الأنعام ٩٤/)**، و قال: **هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (يونس ٣٠/)**، الى غير ذلك من الآيات التى بين فيها: ان الموطن خال عن الأسباب الدنيويه، و بمعزل عن الارتباطات الطبيعيه، و هذا اصل يتفرع عليه بطلان كل واحد من تلك الأقاويل و الأوهام على طريق الإجمال، ثم فصل القول فى نفى واحد واحد منها و إبطاله فقال: **وَ اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ (البقره ٤٨/)**، و قال: **يَوْمَ لَا يَنْبَغُ فِيهِ، وَ لَا خُلَّةٌ، وَ لَا شَفَاعَةٌ (البقره ٢٥٤/)**، و قال:

يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا (الدخان ٤١/)، و قال: **يَوْمَ تُؤَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ (المؤمنون ٣٣/)**، و قال: **مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ**

مُسْتَسْلِمُونَ (الصافات ٢٦)، وقال: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَقُولُونَ لَهُمْ لَوْلَا شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُبْتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (يونس ١٨)، وقال: مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (المؤمن ١٨)، وقال: فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ (الشعراء ١٠١)، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة النافية لوقوع الشفاعة و تأثير الوسائط و الاسباب يوم القيامة هذا.

ثم إن القرآن مع ذلك لا ينفي الشفاعة من أصلها، بل يشبها بعض الإثبات، قال تعالى:

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالْمَاءَ وَالْمَاءَ فِي سِتِّهِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (السجده ٣)، وقال تعالى: لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ (الأنعام ٥١)، وقال تعالى: قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا (الزمر ٤٤)، وقال تعالى:

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ (البقره ٢٥٥)، وقال تعالى: إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتِّهِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ (يونس ٣)، وقال تعالى: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (الأنبياء ٢٨)، وقال: وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (الزخرف ٨٦)، وقال: لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (مريم ٨٧)، وقال تعالى: يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (طه ١١٠)، وقال تعالى: وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ (سبأ ٢٣)، وقال تعالى: وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (النجم ٢٦)، فهذه الآيات كما ترى بين ما يحكم باختصاص الشفاعة بالله عز اسمه كآيات الثلاثه

الأولى و بين ما يعممها لغيره تعالى باذنه و ارتضائه و نحو ذلك، و كيف كان فهي تثبت الشفاعة بلا ريب، غير ان بعضها تثبتها بنحو الاصاله لله وحده من غير شريك، و بعضها تثبتها لغيره باذنه و ارتضائه، و قد عرفت أن هناك آيات تنفيها فتكون النسبه بين هذه الآيات كالنسبه بين الآيات النافيه لعلم الغيب عن غيره، و اثباته له تعالى بالاختصاص و لغيره بارتضائه، قال تعالى: قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ (النمل ٦٥)، و قال تعالى: وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ (الأنعام ٥٩) و قال تعالى: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ (الجن ٢٧)، و كذلك الآيات الناطقه في التوفى و الخلق و الرزق و التأثير و الحكم و الملك و غير ذلك فانها شاعه في اسلوب القرآن، حيث ينفي كل كمال عن غيره تعالى، ثم يثبتة لنفسه، ثم يثبتة لغيره باذنه و مشيئته، فتفيد ان الموجودات غيرة تعالى لا تملك ما تملك من هذه الكمالات بنفسها و استقلالها، و إنما تملكها بتمليك الله لها إياها، حتى أن القرآن تثبت نوعا من المشيه في ما حكم فيه و قضى عليه بقضاء حتم، كقوله تعالى:

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي الدَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ، إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُودٍ (هود ١٠٨)، فقد علق الخلود بالمشيه و خاصه في خلود الجنه مع حكمه بأن العطاء غير مجدود، اشعارا بأن قضائه تعالى بالخلود لا يخرج الأمر من يده و لا يبطل سلطانه و ملكه عز سلطانه كما يدل على قوله: إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (هود ١٠٧)، و بالجمله لا إعطاء هناك يخرج الأمر من يده و يوجب له الفقر، و لا ممنوع يضطره الى حفظ ما ممنوعه و إبطال سلطانه تعالى.

و من هنا يظهر أن الآيات النافيه للشفاعه، إن كانت ناظره الى يوم القيامة فإنما تنفيها عن غيره تعالى بمعنى الاستقلال في الملك، و الآيات المشبهه تثبتها لله سبحانه بنحو الأصاله، و لغيره تعالى باذنه و تملكه، فالشفاعه ثابتة لغيره تعالى باذنه فلننظر ما ذا يفيد كلامه في معنى

الشفاعة و متعلقها؟ و فيمن تجرى؟ و ممن تصح؟ و متى تتحقق؟ و ما نسبتها الى العفو و المغفره منه تعالى؟ و نحو ذلك في أمور
(١)(٢)(٣)(٤).

[سوره البقره (٢): الآيات ٤٩ الى ٦١]

اشاره

وَ إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَدْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)
وَ إِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَ آغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠) وَ إِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ
بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَ إِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَ الْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
(٥٣) وَ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنِّي كُنْتُ مِنْكُمْ لَمَلِئًا مِمَّا تَعْبُدُونَ فَاتَّبِعُوا أَمْرِي وَ آذِنُوا لِإِخْوَتِكُمْ فِي دِينِهِمْ أَنْ يَخْرُجُوا إِلَىٰ
بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَهُمْ فَاتَّخَذُوا أَيْمَانًا مِنْهُ أَنْ يَخْرُجُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّهُ بَارِئٌ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ جَهَنَّمَ
بَارِئٌ لَكُمْ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) وَ إِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ
تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَ ظَلَلْنَا عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ مَا أَصْبَحَ أَنْ يَرَىٰ فَاذْكُرُوا اللَّهَ الَّذِي
طَبَّعَ عَلَيْكُمْ رِزْقَكُمْ وَ مَا ظَلَمُونَا وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧) وَ إِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَ
ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَ قُولُوا حِطَّةً نَعْفُرْكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ وَ سَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا
عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) وَ إِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ
إِثْنَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَ اشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَ لَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) وَ إِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ
نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَ فِثَائِهَا وَ فُومَهَا وَ عَدْسَهَا وَ بَصْلَهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي
هُوَ أَذْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ وَ ضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةَ وَ الْمَسِيكَتَهُ وَ بَاؤُ بِغَضَبِ اللَّهِ الَّذِي ذَلَّكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا
يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكُمْ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)

ص: ٨٨

١- ١). البقره ٤٧-٤٨: بحث حول الشفاعة؛ ما هي الشفاعة؟؛ اشكالات الشفاعة؛ فيمن تجرى الشفاعة؟؛ متى تنفع الشفاعة؟

٢- ٢). البقره ٤٧-٤٨: بحث روائي حول الشفاعة.

٣- ٣). البقره ٤٧-٤٨: بحث فلسفي حول النفس و سعادتها و شقاوتها.

٤- ٤). البقره ٤٧-٤٨: بحث اجتماعي حول القانون و ضمان تنفيذه و موضوع الجزاء و الشفاعة؛ طريقه الحكومات التي تلت زمن

الرسول الكريم صلى الله عليه و آله و سلم حول احكام الله تعالى.

قوله تعالى: وَ يَسْتَخِيئُونَ بِأَسْمَاءِكُمْ، أى يتركونهنّ احياء للخدمه من غير أن يقتلوهنّ كالأبناء فالاستحياء طلب الحياه و يمكن أن يكون المعنى و يفعلون ما يوجب زوال حيائهنّ من المنكرات، و معنى يسومونكم يؤلونكم.

قوله تعالى: وَ إِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ، الفرق مقابل الجمع كالفصل و الوصل، و الفرق فى البحر الشق و الباء للسببيه أو الملايسه أى فرقنا لإنجائكم البحر أو لملايستكم دخول البحر.

قوله تعالى: وَ إِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، و قصّ تعالى القصة فى سورة الأعراف بقوله: وَ وَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَ أَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِّمَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً (الأعراف ١٤٢/)، فعد المواعده فيها أربعين ليله إما للتغليب أو لأنه كانت العشره الأخيره بمواعده أخرى فالأربعون مجموع المواعدين كما وردت به الروايه.

قوله تعالى: فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ الْبَارِئُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحَسَنَىٰ كَمَا قَالَ تَعَالَى: هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ (الحشر ٢٤/)، وقع فى ثلاث مواضع من كلامه تعالى: اثنان منها فى هذه الآيه و لعله خصّ بالذكر هاهنا من بين الأسماء الملائمه معناه للمورد لأنه قريب المعنى من الخالق و الموجد، من براء يبرأ براء اذا فصل لأنه يفصل الخلق من العدم أو الانسان من الأرض، فكأنه تعالى يقول: هذه التوبه و قتلكم أنفسكم و إن كان أشق ما يكون من الأوامر لكن الله الذى أمركم بهذا الفناء و الزوال بالقتل هو الذى برأكم فالذى أحب وجودكم و هو خير لكم هو يحب الآن حلول القتل عليكم فهو خير لكم و كيف لا يحب خيركم

وقد برأكم، فاختيار لفظ البارئ باضافته اليهم في قوله: **إِلَىٰ بَارِئِكُمْ**، وقوله **عِنْدَ بَارِئِكُمْ** للاشعار بالاختصاص لإثاره المحبه.

وقوله تعالى: **ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ** ظاهر الآيه و ما تقدمها أن هذه الخطابات و ما وقع فيها من عد أنواع تعدياتهم و معاصيهم إنما نسبت الى الكل مع كونها صادرة عن البعض لكونهم جامعه ذات قومه واحده يرضى بعضهم بفعل بعض، و ينسب فعل بعضهم الى آخرين. لمكان الوحده الموجوده فيهم، فما كل بنى اسرائيل عبدوا العجل، و لا كلهم قتلوا الأنبياء الى غير ذلك من معاصيهم و على هذا فقوله تعالى: **فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ**، إنما يعنى به قتل البعض و هم الذين عبدوا العجل كما يدل على أيضا قوله تعالى: **إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ**، و قوله تعالى: **ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ** تتمه الحكايه من قول موسى كما هو الظاهر، و قوله تعالى: **فَتَابَ عَلَيْكُمْ** يدل على نزول التوبه و قبولها، و قد وردت الروايه أن التوبه نزلت و لما يقتل جميع المجرمين منهم.

و من هنا يظهر أن الأمر كان أمرا امتحانيا نظير ما وقع فى قصه رؤيا ابراهيم عليه السلام و ذبح اسماعيل: **يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا** (الصافات ١٠٥)، فقد ذكر موسى عليه السلام فتوبوا الى بارئكم و اقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم، و أمضى الله سبحانه قوله عليه السلام و جعل قتل البعض قتلا للكل و أنزل التوبه بقوله: **فَتَابَ عَلَيْكُمْ**.

قوله تعالى: **رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ**، الرجز العذاب.

قوله تعالى: **وَلَا تَعْتُوا**، العيث و العثى أشد الفساد.

قوله تعالى: **وَفِتْنَائِهَا وَ قَوْمِهَا**، القثاء الخيار و القوم الثوم او الحنطه.

قوله تعالى: **وَبَأُوْبِعْصِبٍ**، أى رجعوا.

قوله تعالى: **ذَلِكِ بَأْتُهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ**، تعليل لما تقدمه.

قوله تعالى: **ذَلِكِ بِمَا عَصَوْا**، تعليل للتعليل فعصيانهم و مداومتهم للاعتداء هو

الموجب لكفرهم بالآيات و قتلهم الأنبياء كما قال تعالى: ثُمَّ كَانَ لَعَابَهُ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوَأَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (الروم ١٠/١)، و في التعليل بالمعصيه وجه سيأتي في البحث الآتي.

[سوره البقره (٢): آيه ٦٢]

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)

بيان:

تكرار الإيمان ثانيا و هو الاتصاف بحقيقته كما يعطيه السياق يفيد أن المراد بالذين آمنوا في صدر الآيه هم المتصفون بالإيمان ظاهرا المتسمون بهذا الاسم فيكون محصّل المعنى أن الأسماء و التسمي بها مثل المؤمنين و اليهود و النصارى و الصابئين لا يوجب عند الله تعالى أجرا و لا أمنا من العذاب كقولهم: لا يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى، و إنما ملاك الامر و سبب الكرامه و السعاده حقيقه الإيمان بالله و اليوم الآخر و العمل الصالح، و لذلك لم يقل من آمن منهم يارجع الضمير الى الموصول اللازم في الصله لثلا يكون تقريرا للفائده في التسمي على ما يعطيه النظم كما لا يخفى و هذا مما تكررت فيه آيات القرآن أن السعاده و الكرامه تدور مدار العبوديه، فلا اسم من هذه الأسماء ينفع لمتسميه شيئا، و لا وصف من أوصاف الكمال يبقى لصاحبه و ينجيه إلا- مع لزوم العبوديه، الأنبياء و من دونهم فيه سواء، فقد قال تعالى في أنبيائه بعد ما وصفهم بكل وصف جميل: وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (الأنعام / ٨٨)، و قال تعالى في أصحاب نبيّه و من آمن معه مع ما ذكر من عظم شأنهم و علو قدرهم:

ص: ٩٢

وَعِدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (الفتح ٢٩)، فأتى بكلمه منهم و قال فى غيرهم ممن اوتى آيات الله تعالى: وَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَ لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ (الأعراف ١٧٦)، الى غير ذلك من الآيات الناصه على أن الكرامه بالحقيقه دون الظاهر (١).

[سوره البقره (٢): الآيات ٦٣ الى ٧٤]

اشاره

وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَ رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ أذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) وَ لَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَ مَا خَلْفَهَا وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَ تَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضَ وَلَا بُكْرَ عَوًا بَيْنَ ذَلِكَ فافعلوا مَا تُمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْئِهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَ إِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَ لَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا شَرِيهَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَ مَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَآذَرْتُمْ فِيهَا وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَ يُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَ إِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لِمَا يُتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَ إِنَّ مِنْهَا لِمَا يَشَّقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَ إِنَّ مِنْهَا لِمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشِيهِ اللَّهُ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)

ص: ٩٣

قوله تعالى: وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ، الطول هو الجبل كما بدله منه في قوله تعالى:

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ (الأعراف ١٧١)، و التثق هو الجذب و الاقتلاع، و سياق الآية حيث ذكر أخذ الميثاق أولا و الأمر بأخذ ما أوتوا و ذكر ما فيه أخيرا و وضع رفع الطور فوقهم بين الأمرين مع السكوت عن سبب الرفع و غايتها يدل على أنه كان لإرهابهم بعظمه القدره من دون أن يكون لإجبارهم و إكراههم على العمل بما أوتوه و إلا لم يكن لأخذ الميثاق وجه،فما ربما يقال: أن رفع الجبل فوقهم لو كان على ظاهره كان آيه معجزه

و أوجب إجبارهم و إكراههم على العمل. و قد قال سبحانه: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ (البقره / ٢٥٦)، و قال تعالى: أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (يونس / ٩٩)، غير وجيه فإن الآيه كما مر لا تدل على أزيد من الإخافه و الإرهاب و لو كان مجرد رفع الجبل فوق بنى اسرائيل إكراها لهم على الإيمان او العمل، لكان أغلب معجزات موسى موجب للإكراه، نعم هذا التأويل و صرف الآيه عن ظاهرها، و القول بأن بنى اسرائيل كانوا فى أصل الجبل فزلزل و زعزع حتى أظل رأسه عليهم، فظنوا أنه واقع بهم فعبر عنها برفعه فوقهم أو نتقه فوقهم، مبنى على أصل إنكار المعجزات و خوارق العادات، و قد مر الكلام فيها و لو جاز أمثال هذه التأويلات لم يبق للكلام ظهور، و لا لبلاغه الكلام و فصاحته أصل تتكى عليه و تقوم به.

قوله تعالى: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. لعل كلمه ترج و اللانزم فى الترجى صحته فى الكلام كان قائما بنفس المتكلم أو المخاطب أو بالمقام، كأن يكون المقام مقام رجاء و إن لم يكن للمتكلم و المخاطب رجاء فيه و هو لا يخلو عن شوب جهل بعاقبه الامر فالرجاء فى كلامه تعالى إما بملاحظه المخاطب أو بملاحظه المقام. و أما هو تعالى فيستحيل نسبه الرجال إليه لعلمه بعواقب الامور، كما نبه عليه الراغب فى مفرداته.

قوله تعالى: كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ أى صاغرين.

قوله تعالى: فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّأَيِّ عِبْرَةٍ يَّعْتَبِرُ بِهَا، و النكال هو ما يفعل من الإذلال و الإهانه بواحد ليعتبر به آخرون.

قوله تعالى: وَ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً الْخ؛ هذه قصه بقره بنى اسرائيل، و بها سميت السوره سوره البقره. و الأمر فى بيان القرآن لهذه القصة عجيب فان القصة فصل بعضها عن بعض حيث قال تعالى: وَ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِلَىٰ آخِرِهِ؛ ثم قال: وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ثم أنه أخرج فصل منها من وسطها و قدم

أولاً- و وضع صدر القصة و ذيلها ثانيا، ثم إن الكلام كان مع بنى اسرائيل فى الآيات السابقه بنحو الخطاب فانتقل بالالتفات الى الغيبه حيث قال: و اذ قال موسى لقومه ثم التفت الى الخطاب ثانيا بقوله: **وَ إِذِ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَآذَرْتُمْ فِيهَا** .

فقوله تعالى: **وَ إِذِ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ خُطَابًا لِّلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ** و هو كلام فى صورته قصه و انما هى مقدمه توضيحيه للخطاب التالى لم يذكر معها السبب الباعث على هذا الامر و الغايه المقصوده منها بل اطلقت إطلاقاً ليتنبه بذلك نفس السامع و تقف موقف التجسس، و تنشط اذا سمعت أصل القصة، و نالت الارتباط بين الكلامين، و لذلك لما سمعت بنو اسرائيل قوله: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً** تعجبوا من ذلك و لم يحملوه إلا على أن نبى الله موسى يستهزئ بهم لعدم وجود رابطة عندهم بين ذبح البقره و ما يسألونه من فصل الخصومه و الحصول على القاتل قالوا **أَتَتَّخِذُنَا هُزُوعًا وَ سَخِرِيهِ**.

و انما قالوا ذلك لفقدهم روح الإطاعه و السمع و استقرار ملكه الاستكبار و العتو فيهم، و قولهم: **إِنَّا لَا نَحْمُومُ حَوْلَ التَّقْلِيدِ وَ الْمَذْمُومِ**، و انما تؤمن بما نشاهده و نراه كما قالوا لموسى: **لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرًا** و انما وقعوا فيما وقعوا من جهه استقلالهم فى الحكم و القضاء فيما لهم ذلك، و فيما ليس لهم ذلك فحكموا بالمحسوس على المعقول فطالبوا معاينه الرب بالحس الباصر و قالوا: **يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ** **قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** (الأعراف ١٣٨)، و زعموا أن نبيهم موسى مثلهم يتهوس كتهوسهم، و يلعب كلعبهم، فرموه بالاستهزاء و السفه و الجهاله حتى رد عليهم، و قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، و انما استعاذ بالله و لم يخبر عن نفسه بأنه ليس بجاهل لأن ذلك منه عليه السلام أخذ بالعصمه الإلهيه التى لا تتخلف لا الحكمه الخلقيه التى ربما تتخلف.

و زعموا أن ليس للانسان أن يقبل قولاً- إلا- عن دليل، و هذا حق، لكنهم غلطوا فى زعمهم أن كل حكم يجب العثور على دليله تفصيلاً و لا يكفى فى ذلك الإجمال و من أجل ذلك طالبوا

تفصيل أوصاف البقره لحكمهم أن نوع البقر ليس فيه خاصه الأحياء فإن كان ولا بد فهو في فرد خاص منه يجب تعيينه بأوصاف كامله البيان و لذلك قالوا ادع لنا ربك بين لنا ما هي، و هذا تشديد منهم على أنفسهم من غير جهه فشدد الله عليهم، و قال موسى انه يقول إنها بقره لا فارض، أى ليست بمسنه انقطعت ولادتها و لا بكر أى لم تلد عوان بين ذلك، و العوان من النساء و البهائم ما هو في منتصف السن أى واقعه في السن بين ما ذكر من الفارض و البكر، ثم ترحم عليهم ربهم فوعظهم أن لا يلحوا في السؤال، و لا يشددوا على أنفسهم و يقنعوا بما بين لهم فقال: فافعلوا ما تؤمرون، لكنهم لم يرتدعوا بذلك بل قالوا ادع لنا ربك بين لنا ما لونها، قال إنه يقول انها بقره صفراء فاقع شديد الصفرة في صفاء لونها تسر الناظرين و تم بذلك وصف البقره بيانا، و اتضح أنها ما هي و ما لونها و هم مع ذلك لم يرضوا به، و أعادوا كلامهم الأول، من غير تحجب و انقباض و قالوا ادع لنا ربك بين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا و إنا إن شاء الله لمهتدون، فأجابهم ثانيا بتوضيح في ماهيتها و لونها و قال إنه يقول إنها بقره لا ذلول أى غير مدلل بالحرث و السقى تثير الأرض بالشيار و لا تسقى الحرث فلما تم عليهم البيان و لم يجدوا ما يسألونه قالوا الآن جئت بالحق قول من يعترف بالحقيقه بالإلزام و الحجه من غير أن يجد الى الرد سيلا، فيعترف بالحق اضطرارا، و يعتذر عن المبادره الى الإنكار بأن القول لم يكن مبينا من قبل، و لا بينا تاما. و الدليل على ذلك قوله تعالى: فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ.

قوله تعالى: وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا، شروع في أصل القصة و التدارؤ هو التدافع من الدرء بمعنى الدفع فقد كانوا قتلوا نفسا- و كل طائفه منهم يدفع الدم عن نفسها الى غيرها- و اراد الله سبحانه إظهار ما كتموه.

قوله تعالى: فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضِهَا، أول الضميرين راجع الى النفس باعتبار أنه قتيل، و ثانيهما الى البقره، و قد قيل: إن المراد بالقصة بيان أصل تشريع الحكم حتى ينطبق على الحكم المذكور في التوريه الذى نقلناه، و المراد بإحياء الموتى العثور

بوسيله تشريع هذا الحكم على دم المقتول، نظر ما ذكره تعالى بقوله: **وَ لَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** (البقره ١٧٩/)، من دون أن يكون هناك إحياء بنحو الإعجاز هذا، و أنت خبير بأن سياق الكلام و خاصه قوله تعالى: **فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى**، يأبى ذلك.

قوله تعالى: **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً** القسوه فى القلب بمنزله الصلابه فى الحجر و كلمه أو بمعنى بل، و المراد بكونها بمعنى بل انطباق معناه على موردها، و قد بين شده قسوه قلوبهم بقوله: **وَ إِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ**، و قوبل فيه بين الحجاره و الماء لكون الحجاره يضرب بها المثل فى الصلابه ككون الماء يضرب به المثل فى اللين فهذه الحجاره على كمال صلابتها يتفجر منها الأنهار على لين مائها و تشقق فيخرج منها الماء على لينه و صلابتها، و لا يصدر من قلوبهم حال يلائم الحق، و لا قول حق يلائم الكمال الواقع.

قوله تعالى: **وَ إِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**، و هبوط الحجاره ما نشاهد من انشقاق الصخور على قلل الجبال، و هبوط قطعات منها بواسطة قطعات منها بواسطة الزلازل، و صيروره الجمد الذى يتخللها فى فصل الشتاء ماء فى فصل الربيع الى غير ذلك، و عد هذا الهبوط المستند الى أسبابها الطبيعیه هبوطا من خشيه الله تعالى لأن جميع الأسباب منتهيه الى الله سبحانه فانفعال الحجاره فى هبوطها عن سببها الخاص بها انفعال عن أمر الله سبحانه اياها بالهبوط، و هى شاعره لأمر ربها شعورا تكوينيا، كما قال تعالى:

وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (الإسراء ٤٤/)، و قال تعالى: **كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ** (البقره ١١٦/)، و الانفعال الشعورى هو الخشيه فهى هابطه من خشيه الله تعالى، فالآيه جاريه مجرى قوله تعالى: **وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ الْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ** (الرعد ١٣/)، و قوله تعالى: **وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا**

وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (الرعد ١٥/١)، حيث عد صوت الرعد تسييحا بالحمد و عد الظلال ساجده لله سبحانه الى غير ذلك من الآيات التي جرى القول فيها مجرى التحليل كما لا يخفى.

و بالجمله فقولهُ: وَ إِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَغِيْبُ، بيان ثان لكون قلوبهم أفسى من الحجاره فإن الحجاره تخشى الله تعالى، فتهبط من خشيته، و قلوبهم لا تخشى الله تعالى و لا تهابه (١)(٢).

[سوره البقره (٢): الآيات ٧٥ الى ٨٢]

اشاره

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَا بِغَضٍ مِنْهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّا وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَنْحَابِ أَلَمْ يَخْلَفْنَا فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)

ص: ٩٩

١- ١). البقره ٦٣-٧٤: بحث فلسفى حول المعجزه و موضوع الرجوع من الفعل الى القوه؛ احياء الموتى؛ المسخ.

٢- ٢). البقره ٦٣-٧٤: بحث علمى و اخلاقى حول بنى اسرائيل، الانغمار فى الحياه الماديه، سبب عدم تأثير البحوث الاخلاقيه فى بعض الناس؛ موضوع التقليد.

السياق و خاصه ما فى ذيل الآيات يفيد أن اليهود عند الكفار، و خاصه كفار المدينه:

لقرب دارهم منهم كانوا يعرفون قبل البعثة ظهيرا لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ عندهم علم الدين وَ الكتاب، و لذلك كان الرجاء فى إيمانهم أكثر من غيرهم، و كان المتوقع أن يؤمنوا به أفواجا فيتأيد بذلك و يظهر نوره، و ينشر دعوته، و لما هاجر النبى الى المدينه و كان من أمرهم ما كان تبدل الرجاء قنوطا، و الطمع يأسا، و لذلك يقول سبحانه: أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ، الخ؛ يعنى أن كتمان الحقائق و تحريف الكلام من شيمهم، فلا ينبغى أن يستبعد نكولهم عما قالوا و نقضهم ما أبرموا.

قوله تعالى: أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ، فيه التفات من خطاب بنى اسرائيل الى خطاب النبى و الذين آمنوا و وضعهم موضع الغيبه و كان الوجه فيه أنه لما قصّ قصه البقره و عدل فيها من خطاب بنى اسرائيل الى غيبتهم لمكان التحريف الواقع فيها بحذفها من التوريه كما مر، اريد إتمام البيان بنحو الغيبه بالإشاره الى تحريفهم كتاب الله تعالى فصرف لذلك وجه

قوله تعالى: **وَ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِخِلَافِنَا** لا تقابل بين الشرطين و هما مدخولا اذا فى الموضوعين كما فى قوله تعالى: **وَ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا بِخِلَافِنَاهُمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ** (البقره ١٤)، بل المراد بيان موضعين آخرين من مواضع جرائمهم و جهالتهم.

احدهما: أنهم ينافقون فيظاهرون بالإيمان صونا لأنفسهم من الإيذاء و الطعن و القتل.

و ثانيهما: أنهم يريدون تعميمه الأمر و إبهامه على الله سبحانه العالم بسرهم و علانيتهم و ذلك أن العامه منهم، و هم أولو بساطه النفس ربما كانوا ينبسطون للمؤمنين، فيحدثونهم ببعض ما فى كتبهم من بشارات النبى أو ما ينفع المؤمنين فى تصديق النبوه، كما يلوح من لحن الخطاب فكان أوليائهم ينهونه معللا بأن ذلك مما فتح الله لهم، فلا ينبغي أن يفشى للمؤمنين، فيحاجوهم به عند ربهم كأنهم لو لم يحاجوهم به عند ربهم لم يطلع الله عليه فلم يؤاخذهم بذلك و لانزم ذلك أن الله تعالى إنما يعلم علانيه الأمر، دون سره و باطنه و هذا من الجهل بمكان، فرد الله سبحانه عليهم بقوله: **أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ** الآية؛ فإن هذا النوع من العلم -و هو ما يتعلق بظاهر الأمر دون باطنه- إنما هو العلم المنتهى الى الحس يفتقر الى بدن مادي مجهز بآلات مادية مقيد بقيود الزمان و المكان مولود لعلل اخرى مادية و ما هو كذلك مصنوع من العالم لا صانع العالم.

قوله تعالى: **وَ مِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّا**، الأسمى من يقرأ و لا يكتب منسوب الى الام لأن عطفه الام و شفقتها كانت تمنعها أن ترسل ولدها الى المعلم و تسلمه الى تربيته، فكان يكتبه بتربيه الأسمى، و الامانى جمع امنيه، و هى الأكاذيب، فمحصل المعنى انهم بين من يقرأ الكتاب و يكتبه فيحرفه و بين من لا يقرأ و لا يكتب و لا يعلم من الكتاب الا اكاذيب المحرفين.

وقوله تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، الآية في بديع نظمها تبندى أولا بالغيبه و تنتهى الى الخطاب حيث تقول: ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ، ثم إنها

تذكر أولاً الميثاق و هو أخذ للعهد، ولا يكون إلا بالقول، ثم تحكى ما أخذ عليه الميثاق فتبتدئ فيه بالخبر، حيث تقول: لا تعبدون إلا الله، وتختتم بالإنشاء حيث تقول و قولوا للناس حسناً، الخ. ولعل الوجه في ذلك كله أن الآيات المتعرضه لحال بنى إسرائيل لما بدئت بالخطاب لمكان اشتغالها على التقرير و التوبيخ و جرت عليه كان سياق الكلام فيها الخطاب ثم لما تبدل الخطاب بالغيبه بعد قصه البقره لنكته داعيه إليها كما مر حتى انتهت الى هذه الآيه، فبدئت أيضا بالغيبه لكن الميثاق حيث كان بالقول و بنى على حكايته حكى بالخطاب فقل:

لا- تعبدون إلا- الله، الخ؛ و هو نهى فى صورته الخبر. وإنما فعل ذلك دلالة على شدة الاهتمام به، كأن الناهى لا يشك فى عدم تحقق ما نهى عنه فى الخارج، و لا- يرتاب فى أن المكلف المأخوذ عليه الميثاق سوف لا ينتهى عن نهيه، فلا يوقع الفعل قطعاً و كذا قوله: وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَ ذَى الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ ، كل ذلك أمر فى صورته الخبر.

ثم إن الانتقال الى الخطاب من قبل الحكاياه أعطى فرصه للانتقال الى أصل الكلام، و هو خطاب بنى إسرائيل لمكان الاتصال فى قوله: وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ، الخ؛ و انتظم بذلك السياق.

قوله تعالى: وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، أمر او خبر بمعنى الامر و التقدير و احسنوا بالوالدين إحساناً، و ذى القربى و اليتامى و المساكين، أو التقدير: و تحسنون بالوالدين إحساناً، الخ؛ و قد رتب موارد الإحسان أخذاً من الأهم و الأقرب الى المهم و الأبعد فقرابه الانسان أقرب إليه من غيرهم، و الوالدان و هما الأصل الذى تتكى عليه و تقوم به شجره وجوده أقرب من غيرهما من الأرحام، و فى غير القرابه أيضا اليتامى احق بالإحسان لصغرهم و فقدهم من يقوم بأمرهم من المساكين. هذا و قوله: وَ الْيَتَامَى ، اليتيم من مات أبوه، و لا- يقال لمن مات أمه يتيم. و قيل اليتيم فى الإنسان إنما تكون من جهة الأب و فى غير الإنسان من سائر الحيوان من جهة الأم و قوله تعالى: وَ الْمَسَاكِينِ ، جمع مسكين و هو الفقير العادم

الدليل. وقوله تعالى: حُسَيْنًا مصدر بمعنى الصفه جىء به للمبالغه. و فى بعض القراءات حسنا، بفتح الحاء و السين صفه مشبهه. و المعنى قولوا للناس حسنا، و هو كناية عن حسن المعاشره مع الناس، كافرهم، و مؤمنهم و لا ينافى حكم القتال حتى تكون آيه القتال ناسخه له لأن مورد القتال غير مورد المعاشره فلا ينافى الأمر بحسن المعاشره كما أن القول الخشن فى مقام التأديب لا ينافى حسن المعاشره.

قوله تعالى: لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، خبر فى معنى الإنشاء نظير ما مر فى قوله: لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ، و السفك الصب.

قوله تعالى: تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ، التظاهر هو التعارف، و الظهير العون مأخوذ من الظهر لأن العون يلى ظهر الإنسان.

قوله تعالى: وَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ، الضمير للشأن و القصه كقوله تعالى: قل هو الله أحد.

قوله تعالى: أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ، أى ما هو الفرق بين الاخراج و الفديه حيث أخذتم بحكم الفديه و تركتم حكم الإخراج و هما جميعا فى الكتاب، أ فتؤمنون ببعض الكتاب و تكفرون ببعض.

قوله تعالى: وَ قَفَّيْنَا، التقفيه الاتباع و إتيان الواحد قفا الواحد.

قوله تعالى: وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ، سيأتى الكلام فيه فى سوره آل عمران.

قوله تعالى: وَ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ جمع أغلف من الغلاف أى قلوبنا محفوظه تحت لفائف و أستار و حجب، فهو نظير قوله تعالى: وَ قَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّهِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ (السجده ٥/٥)، و هو كناية عن عدم امكان استماع ما يدعون اليه.

إشارة

وَ لَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بئس ما اشترؤا به أنفسهم أنهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فإو بغضب على غضب و للكاشرين عذاب مهين (٩٠) و إذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا تؤمنون بما أنزل علينا و يكفرون بما وراءه و هو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبيل إن كنتم مؤمنين (٩١) و لقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده و أنتم ظالمون (٩٢) و إذ أخذنا ميثاقكم و رفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة و اسمعوا قالوا سمعنا و عصينا و أشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين (٩٣)

بيان:

قوله تعالى: وَ لَمَّا جَاءَهُمْ الخ؛ السياق يدل على أن هذا الكتاب هو القرآن.

وقوله: وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، على وقوع تعرض بهم من كفار العرب، وأنهم كانوا يستفتحون أى يطلبون الفتح عليهم ببعثه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وهجرته وأن ذلك الاستفتاح قد استمر منهم قبل الهجره، بحيث كان الكفار من العرب أيضا يعرفون ذلك منهم لمكان قوله: كَانُوا، وقوله: فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا، أى عرفوا أنه هو بانطباق ما كان عندهم من الأوصاف عليه كفروا.

وقوله تعالى: بِئْسَ مَا اشْتَرَوْا بِيَانٍ لسبب كفرهم بعد العلم وأن السبب الوحيد فى ذلك هو البغى والحسد، فقوله بغيا، مفعول مطلق نوعى. وقوله أن ينزل الله، متعلق به، وقوله تعالى: ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ أى رجعوا بمصاحبه أو بتلبس غضب بسبب كفرهم بالقرآن على غضب بسبب كفرهم بالتوراه من قبل، والمعنى أنهم كانوا قبل البعثه والهجره ظهيرا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ومستفتحا به وبالكتاب النازل عليه، ثم لما نزل بهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ونزل عليه القرآن وعرفوا أنه هو الذى كانوا يستفتحون به و ينتظرون قدومه هاج بهم الحسد، وأخذهم الاستكبار، فكفروا وأنكروا ما كانوا يذكرونه كما كانوا يكفرون بالتوراه من قبل، فكان ذلك منهم كفرا على كفر.

قوله تعالى: وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ، أى يظهر الكفر بما ورائه، وإلا فهم بالذى انزل إليهم وهو التوراه أيضا كافرون.

قوله تعالى: قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ، الفاء للتفريع، والسؤال متفرع على قولهم: تؤمن بما انزل علينا، أى لو كان قولكم: تؤمن بما أنزل علينا حقا و صدقا فلم تقتلون أنبياء الله، ولم كفرتم بموسى باتخاذ العجل، ولم قلتم عند أخذ الميثاق ورفع الطور: سمعنا وعصينا.

قوله تعالى: وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ، الإشراف هو السقى، والمراد بالعجل حب العجل، ووضع موضعه للمبالغه كأنهم قد أشربوا نفس العجل و به يتعلق قوله فى قلوبهم، ففى الكلام استعارتان أو استعاره و مجاز.

قوله تعالى: قُلْ بَشِّرْ مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ، بمنزله أخذ النتيجة مما أورد عليهم من قتل الأنبياء و الكفر بموسى، و الاستكبار بإعلام المعصيه، و فيه معنى الاستهزاء بهم (١).

[سوره البقره (٢): الآيات ٩٤ الى ٩٩]

اشاره

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَ لَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَ لَتَجِدَنَّهْم أَلْحَاصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاتِهِمْ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَ مَا هُوَ بِمُرْخِجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦) قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَ هُدًى وَ بُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَ مِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨) وَ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَ مَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩)

بيان:

قوله تعالى: قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الخ؛ لما كان قولهم: لن تمسنا النار إلا أياما معدوده، و قولهم: نؤمن بما أنزل علينا فى جواب ما قيل لهم: آمنوا بما أنزل الله يدلان بالالتزام على

ص: ١٠٨

(١-١). البقره ٨٩-٩٣: بحث روائى حول اليهود و تنبئهم بظهور نبي الاسلام صلى الله عليه و آله و سلم؛ القسم، الحق و الباطل.

دعواهم أنهم ناجون في الآخرة دون غيرهم و أن نجاتهم و سعادتهم فيها غير مشوبه بهلاك و شقاء لأنهم ليسوا بزعمهم بمعذبين إلا أياما معدوده و هي أيام عبادتهم للعجل، قابلهم الله تعالى خطابا بما يظهر به كذبهم في دعواهم و انهم يعلمون ذلك من غير تردد و ارتياب فقال تعالى لنبيه: قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ أَى سعادته تلك الدار فإن من ملك دارا فإنما يتصرف فيها بما يستحسنه و يحبه و يحل منها بأجمل ما يمكن و أسعده و قوله تعالى: عِنْدَ اللَّهِ أَى مستقرا عنده تعالى و بحكمه و إذنه، فهو كقوله تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (آل عمران ١٩)، و قوله تعالى: خَالِصَهُ أَى غير مشوبه بما تكرهونه من عذاب أو هوان لزعمكم أنكم لا تعذبون فيها إلا أياما معدوده، قوله تعالى: مِنْ دُونِ النَّاسِ و ذلك لزعمكم بطلان كل دين إلا دينكم، و قوله تعالى: فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ و هذا كقوله تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (الجمعه ١٦) و هذه مؤاخذه بلازم فطرى بين الأثر فى الخارج بحيث لا يقع فيه أدنى الشك و هو إن الإنسان بل كل موجود ذى شعور اذا خير بين الراحة و التعب اختار الراحة من غير تردد و تذبذب و اذا خير بين حيوه و عيشه مكدره مشوبه و أخرى خالصه صافيه اختار الخالصه الهنيئه قطعاً و لو فرض ابتلائه بما كان يميل عنه الى غيره من حيوه شقيه رديه أو عيشه منغصه لم يزل يتمنى الاخرى الطيبه الهنيئه فلا ينفك عن التحسر له فى قلبه و عن ذكره فى لسانه و عن السعى إليه فى عمله.

فلو كانوا صادقين فى دعواهم أن السعاده الخالصه الاخرويه لهم دون غيرهم من الناس و جب أن يتمنوه جنانا و لسانا و أركاناً و لن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم من قتل الأنبياء و الكفر بموسى و نقض المواثيق و الله عليم بالظالمين.

قوله تعالى: بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ كُنَايَه عن العمل فإن معظم العمل عند الحس يقع بواسطه اليد فيقدم بعد ذلك الى من ينتفع به أو يطلبه فيه عنايتان نسبة التقديم الى الأيدي

دون أصحاب الأيدي و عد كل فعل عملا للأيدي.

و بالجمله أعمال الإنسان و خاصه ما يستمر صدوره منه أحسن دليل على ما طوى عليه ضميره و ارتكز في باطنه و الأعمال الطالحه و الأفعال الخبيثه لا يكشف إلا عن طويه خبيثه تأبى أن تميل الى لقاء الله و الحلول في دار أوليائه.

قوله تعالى: وَ لَتَجِدَنَّهْم أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ، كالدليل المبين لقوله تعالى: و لن يتمنوه أبدا أى و يشهد على أنهم لن يتمنوا الموت، أنهم أحرص الناس على هذه الحياه الدنيا التى لا-حاجب و لا مانع عن تمنى الدار الآخره إلا الحرص عليها و الإخلاد إليها، و التنكير فى قوله تعالى: عَلَى حَيَاتِهِمَ للتحقير كما قال تعالى: وَ مَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (العنكبوت ٦٤).

قوله تعالى: وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الظاهر أنه عطف على الناس و المعنى و لتجدنهم أحرص من الذين أشركوا.

قوله تعالى: وَ مَا هُوَ بِمُزْخِرِجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ، الظاهر أن ما نافية و ضمير هو إما للشأن و القصة و أن يعمر مبتدأ خبره قوله: بِمُزْخِرِجِهِ أى بمبعده، و إما راجع الى ما يدل عليه قوله: يَوَدُّ أَحَدُهُمْ، أى و ما الذى يوده بمزخزحه من العذاب. و قوله تعالى:

أَنْ يُعَمَّرَ بيان له و معنى الآيه و لن يتمنوا الموت و أقسم لتجدنهم أحرص الناس على هذه الحياه الحقيقه الرديه الصارفه عن تلك الحياه السعيده الطيبه تجدهم أحرص على الحياه من الذين أشركوا الذين لا يرون بعثا و لا نشورا يود أحدهم لو يعمر أطول العمر و ليس أطول العمر بمبعده من العذاب لأن العمر و هو عمر بالأخره محدود منته الى أمد و أجل.

قوله تعالى: يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ، أى اطول العمر و أكثره، فالألف كناية عن الكثره و هو آخر مراتب العدد بحسب الوضع الافرادى عند العرب و الزائد عليه يعبر عنه بالتكرير و التركيب كعشره آلاف و مائه ألف و ألف ألف.

قوله تعالى: وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ، البصير من أسمائه الحسنی و معناه العلم بالمبصرات فهو من شعب اسم العليم.

قوله تعالى: قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ الخ؛ السياق يدل على أن الآية نزلت جوابا عما قالته اليهود و أنهم تأبوا و استتكفوا عن الإيمان بما أنزل على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و عللوه بأنهم عدو لجبريل النازل بالوحي إليه. و الشاهد على ذلك أن الله سبحانه يجيبهم فى القرآن و فى جبريل معا فى الآيتين و ما ورد من شأن النزول يؤيد ذلك فأجاب عن قولهم: إنا لا نؤمن بالقرآن لعداوتنا لجبريل النازل به اولا: أن جبريل إنما نزل به على قلبك بإذن الله لا من عند نفسه فعداوتهم لجبريل لا- ينبغى أن يوجب إعراضهم عن كلام نازل بإذن الله. و ثانيا: أن القرآن مصدق لما فى ايديهم من الكتاب الحق و لا معنى للإيمان بأمر و الكفر بما يصدقه. و ثالثا: أن القرآن هدى للمؤمنين به، رابعا: أنه بشرى و كيف يصح لعاقل أن ينحرف عن الهداية و يغمض عن البشرى و لو كان الآتى بذلك عدوا له.

و أجاب عن قولهم: إنا عدو جبريل أن جبريل ملك من الملائكة لا شأن له إلا امتثال ما أمره به الله سبحانه كميكال و سائر الملائكة و هم عباد مكرمون لا- يعصون الله فيما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون، و كذلك رسل الله لا شأن لهم إلا بالله و من الله سبحانه فبغضهم و استعدائهم بغض و استعداء لله و من كان عدو الله و ملائكته و رسله و جبريل و ميكال فإن الله عدو لهم، و إلى هذين الجوابين تشير الآيتان.

قوله تعالى: فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ، فيه التفات من التكلم الى الخطاب و كان الظاهر أن يقال على قلبى، لكن بدل من الخطاب للدلالة على أن القرآن كما لا- شأن فى إنزاله لجبريل و إنما هو مأمور مطيع كذلك لا شأن فى تلقيه و تبليغه لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إلا أن قلبه وعاء للوحي لا يملك منه شيئا و هو مأمور بالتبليغ.

قوله تعالى: عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ، فيه وضع الظاهر موضع المضمرة و النكته فيه الدلالة

على عله الحكم كانه قيل: فإن الله عدو لهم لأنهم كافرون و الله عدو للكافرين.

قوله تعالى: وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ، فيه دلالة على عله الكفر و أنه الفسق فهم لكفرهم فاسقون و لا يبعد أن يكون اللام فى قوله: الْفَاسِقُونَ للعهد الذكرى، و يكون ذلك إشاره الى ما مر فى أوائل السوره من قوله تعالى: وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، الآية.

و أما الكلام فى جبريل و كيفية تنزيله القرآن على قلب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و كذا الكلام فى ميكال و الملائكة فسيأتى فيما يناسبه من المحل إنشاء الله (١).

[سوره البقره (٢): الآيات ١٠٠ الى ١٠١]

إشاره

أَوْ كَلَّمَا عَاهِدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَ لَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)

بيان:

قوله تعالى: نَبَذَهُ، النبد الطرح.

قوله تعالى: وَ لَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ، المراد به رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لا كل رسول كان يأتيهم مصدقا لما معهم، لعدم دلالة قوله: وَ لَمَّا جَاءَهُمْ على الاستمرار بل إنما يدل على

ص: ١١٢

١- ١) البقره ٩٤-٩٩: بحث روائى حول ملاقيه عدد من اليهود مع الرسول الكريم صلى الله عليه و آله و سلم؛ كيفية نوم النبى صلى الله عليه و آله و سلم؛ كيفية ادراك النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى النوم.

الدفعة، والآيه تشير الى مخالفتهم للحق من حيث كتمانهم بشاره التوراه و عدم إيمانهم بمن يصدق ما معهم.

[سوره البقره (٢): الآيات ١٠٢ الى ١٠٣]

إشاره

وَ اتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَ مَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَ لَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَ مَا أُنزِلَ عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَ مَارُوتَ وَ مَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ وَ مَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَ لَا يَنْفَعُهُمْ وَ لَقَدْ عَلَّمُوا لِمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَ لَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)

بيان:

قوله تعالى: وَ اتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ السَّحْرِ؛ قد اختلف المفسرون في تفسير الآيه اختلافا عجبيا لا يكاد يوجد نظيره في آيه من آيات القرآن المجيد، فاختلّفوا في مرجع ضمير قوله: اتَّبِعُوا، أهم اليهود الذين كانوا في عهد سليمان، أو الذين في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو الجميع؟ و اختلفوا في قوله: تَتْلُوا، هل هو بمعنى تتبع الشياطين و تعمل به أو بمعنى تقرأ، أو بمعنى تكذب؟ و اختلفوا في قوله: الشَّيَاطِينُ، فقيل هم شياطين الجن و قيل شياطين

ص: ١١٣

الإنس وقيل هما معا، و اختلفوا فى قوله: عَلِيٌّ مُلْكُ سُلَيْمَانَ، فقيل معناه فى ملك سليمان، وقيل معناه فى عهد ملك سليمان و قيل معناه على ملك سليمان بحفظ ظاهر الاستعلاء فى معنى على، وقيل معناه على عهد ملك سليمان، و اختلفوا فى قوله: وَ لَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا، فقيل إنهم كفروا بما استخرجوه من السحر الى الناس وقيل إنهم كفروا بما نسبوه الى سليمان من السحر، وقيل إنهم سحروا فعبر عن السحر بالكفر، و اختلفوا فى قوله: يُعَلِّمُونَ الدَّاسَ السَّحَرَ، فقيل إنهم القوا السحر إليهم فتعلموه، وقيل إنهم دلوا الناس على استخراج السحر و كان مدفونا تحت كرسى سليمان فاستخرجوه و تعلموه، و اختلفوا فى قوله: وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ فَقِيلَ مَا مَوْصُولُهُ وَالْعَطْفُ عَلَى قَوْلِهِ: تَتْلُوهُ، وقيل ما موصوله و العطف على قوله: السَّحَرَ أى يعلمونهم ما أنزل على الملكين، وقيل ما نافية و الواو استينافية أى و لم ينزل على الملكين سحر كما يدعيه اليهود، و اختلفوا فى معنى الإنزال فقيل إنزال من السماء وقيل بل وجود الأرض و أعاليها، و اختلفوا فى قوله: الْمَلَكَيْنِ، فقيل كانا من الملائكة السماء، وقيل بل كانا إنسانين ملكين بكسر اللام أن قرأناه، بكسر اللام كما قرئ كذلك فى الشواذ، أو ملكين بفتح اللام أى صالحين، أو متظاهرين بالصلاح، إن قرأناه على ما قرأ به المشهور، و اختلفوا فى قوله: بَابِلَ، فقيل هى بابل العراق وقيل بابل دماوند، وقيل، من نصيبين الى رأس العين، و اختلفوا فى قوله: وَمَا يُعَلِّمَانِ، فقيل علم بمعناه الظاهر، وقيل علم بمعنى اعلم، و اختلفوا فى قوله: فَلَا تَكْفُرْ، فقيل لا تكفر بالعمل بالسحر، وقيل لا تكفر بتعلمه، وقيل بهما معا، و اختلفوا فى قوله:

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا، فقيل أى من هاروت و ماروت، وقيل أى من السحر و الكفر، وقيل بدلا مما علماه الملكان بالنهى الى فعله، و اختلفوا فى قوله: مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ، فقيل أى يوجدون به حبا و بغضا بينهما، وقيل إنهم يغرون أحد الزوجين و يحملونه على الكفر و الشرك فيفرق بينهما اختلاف المله و النحلة وقيل إنهم يسعون بينهما بالنميمة و الوشايه فيثول الى الفرقة، فهذه نبذه من الاختلاف فى تفسير كلمات ما يشتمل على القصة من الآيه و جملة،

و هناك اختلافات آخر فى الخارج من القصة فى ذيل الآيه و فى نفس القصة، و هل هى قصة واقعه أو بيان على سبيل التمثيل؟ أو غير ذلك؟ و اذا ضربت بعض الأرقام التى ذكرناها من الاحتمالات فى البعض الآخر، ارتقى الاحتمالات الى كميته عجيبه و هى ما يقرب من الف الف و مائتين و ستين الف احتمال!.

و هذا لعمر الله من عجائب نظم القرآن تتردد الآيه بين مذاهب و احتمالات تدهش العقول و تحير الألباب، و الكلام بعد متك على اريكه حسنه متجمل فى أجمل جماله متحل بحلى بلاغته و فصاحته و سيمر بك نظيره هذه الآيه و هى تعالى: أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً (هود ١٧).

و الذى ينبغى أن يقال: أن الآيه بسياقتها تتعرض لشأن آخر من شئون اليهود و هو تداول السحر بينهم، و أنهم كانوا يستندون فى أصله الى قصة معروفه أو قصتين معروفتين عندهم فيها ذكر من أمر سليمان النبى و الملكين بابل هاروت و ماروت، فالكلام معطوف على ما عندهم من القصة التى يزعمونها إلا- أن اليهود كما يذكره عنهم القرآن أهل تحريف و تغيير فى المعارف و الحقائق فلا- يؤمنون و لا- يؤمن من أمرهم أن يأتوا بالقصص التاريخيه محرفه مغيره على ما هو دأبهم فى المعارف يميلون كل حين الى ما يناسبه من منافعهم فى القول و الفعل و فيما يلوح من مطاوى جمل الآيه كفايه، و كيف كان فيلوح من الآيه أن اليهود كانوا يتناولون بينهم السحر ينسبونه الى سليمان زعما منهم أن سليمان عليه السلام انما ملك الملك و سخر الجن و الإنس و الوحش و الطير، و اتى بغرائب الامور و خوارقها بالسحر الذى هو بعض ما فى أيديهم، و ينسبون بعضه الآخر الى الملكين بابل هاروت و ماروت فرد عليهم القرآن بأن سليمان عليه السلام لم يكن يعمل بالسحر، كيف و السحر كفر بالله و تصرف فى الكون على خلاف ما وضع الله العاده عليه و أظهره على خيال الموجودات الحيه و حواسها؟ و لم يكفر سليمان عليه السلام و هو نبى معصوم، و هو قوله تعالى: وَ مَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَ لَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَ قَوْلُهُ

تعالى: وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ فسلیمان علیه السلام أعلى كعبا و أقدم ساحه من أن ينسب إليه السحر و الكفر و قد استعظم الله قدره في مواضع من كلامه في عده من السور المكيه النازله قبل هذه السوره كسوره الانعام و الانبياء و النمل و سوره (ص) و فيها أنه كان عبدا صالحا و نبيا مرسلآ آتاه الله العلم و الحكمه و وهب له من الملك ما لا ينبغي لأحد من بعده فلم يكن بساحر بل هو من القصص الخرافيه و الأساطير التي وضعتها الشياطين و تلوها و قرؤها على أوليائهم من الإنس و كفروا بإضلالهم الناس بتعليم السحر. و رد عليهم القرآن في الملكين ببابل هاروت و ماروت بأنه و إن انزل عليهما ذلك و لا ضير في ذلك لأنه فتنه و امتحان إلهي كما ألهم قلوب بني آدم وجوه الشر و الفساد فتنه و امتحانا و هو من القدر، فهما و إن أنزل عليهما السحر إلا أنهما ما كانا يعلمان من أحد إلا و يقولان له إنما نحن فتنه فلا تكفر باستعمال ما تتعلمه من السحر في غير مورد كإبطال السحر و الكشف عن بغى أهله و هم مع ذلك يتعلمون منهما ما يفسدون به اصلح ما وضعه الله في الطبيعه و العاده، فيفرون به بين المرء و زوجه ابتغاء للشر و الفساد و يتعلمون ما يضرهم و لا ينفعهم، فقله تعالى: وَ اتَّبَعُوا أَى اتبعت اليهود الذين بعد عهد سليمان بتوارث الخلف عن السلف ما تتلوا، أى تضع و تكذب الشياطين من الجن على ملك سليمان و الدليل على أن تتلوا بمعنى تكذب تعديه بعلى و على أن الشياطين هم الجن كون هؤلاء تحت تسخير سليمان و معذيين بعذابه، و بذلك كان عليه السلام يحبسهم عن الإفساد، قال تعالى: وَ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَ كُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (الأنبياء ٨٢)، و قال تعالى: فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (سبأ ١٤).

قوله تعالى: وَ مَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ، أى و الحال أن سليمان لم يسحر حتى يكفر و لكن الشياطين كفروا، و الحال انهم يضلون الناس و يعلمونه السحر.

قوله تعالى: وَ مَا أُنزِلَ، أى و اتبعت اليهود ما انزل بالإخطار و الإلهام على الملكين

ببابل هاروت و ماروت، والحال انهما ما يعلمان السحر من أحد حتى يحذراه العمل به و يقولوا انما نحن فتنه لكم و امتحان تمتحنون بنا بما نعلمكم فلا تكفروا باستعماله.

قوله تعالى: **فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا**، أى من الملكين و هما هاروت و ماروت، ما يفرقون به أى سحرا يفرقون بعمله و تأثيره بين المرء و زوجته.

قوله تعالى: **وَمَا هُمْ بِبَصَّارِينَ بِهِ مِنْ أَجْدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ**، دفع لما يسبق الى الوهم إنهم بذلك يفسدون أمر الصنع و التكوين و يسبقون تقدير الله و يبطلون أمره فدفعه بأن السحر نفسه من القدر لا يؤثر إلا بإذن الله فما هم بمعجزين، و انما قدم هذه الجملة على قوله:

وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ، لأن هذه الجملة أعنى: و يتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء و زوجته، و أحدهما مشتمله على ذكر التأثير، فأردفت بأن هذا التأثير بإذن الله.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ**، علموا ذلك بعقولهم لأن العقل لا يرتاب فى أن السحر أشأم منابع الفساد فى الاجتماع الإنسانى و علموا ذلك أيضا من قول موسى فإنه القائل: **وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى** (طه ٦٩).

قوله تعالى: **وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**، أى إنهم مع كونهم عالمين بكونه شرا لهم مفسدا لآخرتهم غير عالمين بذلك حيث لم يعملوا بما علموا فإن العلم اذا لم يهد حامله الى مستقيم الصراط كان ضلالا و جهلا لا علما، قال تعالى: **أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ** (الجاثية ٢٣).

فهؤلاء مع علمهم بالأمر ينبغى أن يتمنى المتمنى لهم العلم و الهداية.

قوله تعالى: **وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا الخ؛ أى اتبعوا الايمان و التقوى، بدل اتباع اساطير الشياطين، و الكفر بالسحر، و فيه دليل على أن الكفر بالسحر كفر فى مرتبه العمل كترك الزكاه، لا كفر فى مرتبه الاعتقاد، و لو كان السحر كفرا فى الاعتقاد لقال تعالى: **وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ الخ؛ و اقتصر على الايمان و لم يذكر التقوى فاليهود آمنوا و لكن لما لم يتقوا****

و لم يرعوا محارم الله، لم يعبا بإيمانهم فكانوا كافرين.

قوله تعالى: لَمُتُّوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، أى من المثوبات و المنافع التى يرومونها بالسحر و يقتنونها بالكفر هذا (١)(٢)(٣).

[سوره البقره (٢): الآيات ١٠٤ الى ١٠٥]

إشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَإِسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، أول مورد فى القرآن ورد فيه خطاب المؤمنين بلفظه يا أيها الذين آمنوا، و هو واقع فى القرآن خطابا فى نحو من خمسة و ثمانين موضعا و التعبير عن المؤمنين بلفظه الذين آمنوا بنحو الخطاب او بغير الخطاب مما يختص بهذه الأمة، و أما الامم السابقه فيعبر عنهم بلفظه القوم كقوله: قوم نوح و قوم هود و قوله: قَالَ يَا قَوْمِ

ص: ١١٨

١- ١). البقره ١٠٢-١٠٣: بحث روائى حول سليمان عليه السلام و وفاته؛ السحر؛ هاروت و ماروت و كوكب الزهره، موضوع صحه الروايات و سقمها.

٢- ٢). البقره ١٠٢-١٠٣: بحث فلسفى حول الاعمال الخارقه للعباده، تأثير العلم الجازم؛ احضار الارواح؛ قدره النفس، الفرق بين الاعمال الخارقه للعباده من قبل الناس العاديين و بين معاجز الأنبياء عليهم السلام.

٣- ٣). البقره ١٠٢-١٠٣: بحث علمى حول العلوم الغريبه مثل: السيميا، الليميا، الهيميا، الريميا؛ علم الاعداد و الاوافق؛ الخافيه، التنويم المغناطيسى؛ احضار الارواح.

أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَيَّ بَيْنَهُ الْآيَةَ؛ وقوله: اصحاب مدين و أصحاب الرس، و بني إسرائيل، و يا بني إسرائيل، فالتعبير بلفظه الذين آمنوا مما يختص التشرف به بهذه الامه، غير أن التدبير في كلامه تعالى يعطى أن التعبير بلفظه الذين آمنوا يراد به في كلامه تعالى غير ما يراد بلفظه المؤمنين كقوله تعالى: وَ تَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ (النور ٣١)، بحسب المصداق، قال تعالى: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (المؤمن ٧/٨)، فجعل استغفار الملائكة و حمله العرش أولاً للذين آمنوا ثم بدله ثانياً من قوله: لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا، و التوبه هي الرجوع، ثم علق دعائهم بالذين آمنوا و عطف عليهم آبائهم و ذرياتهم و لو كان هؤلاء المحكى عنهم بالذين آمنوا هم أهل الايمان برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، كيف ما كانوا، كان الذين آمنوا شاملاً للجميع من الآباء و الأبناء و الأزواج و لم يبق للعطف و التفرقه محل و كان الجميع في عرض واحد و وقعوا في صف واحد. و يستفاد هذا المعنى أيضاً من قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمِمَّا أَكْتَبْنَا لَهُمْ مِنْ شَيْءٍ كُلِّ امْرِيٍّ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ (الطور / ٢١)، فلو كان ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان مصداقاً للذين آمنوا في كلامه تعالى لم يبق لللاحق وجه، و لو كان قوله: وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ قرينه على اراده اشخاص خاصه من الذين آمنوا و هم كل جمع من المؤمنين بالنسبه الى ذريتهم، المؤمنين لم يبق لللاحق أيضاً وجه، و لا لقوله، و ما ألتناهم من عملهم من شيء، و وجه صحيح الا في الطبقة الأخيره التي لا ذريه بعدهم يتبعونهم بإيمان فهم يلحقون بأبائهم، و هذا و ان كان معنى معقولا الا أن سياق الآيه و هو سياق التشریف يأبى ذلك لعود المعنى على ذلك التقدير الى مثل معنى قولنا:

المؤمنون بعضهم من بعض أو بعضهم يلحق ببعض و هم جميعاً في صف واحد من غير شرافه

للبعض على البعض و لا للمتقدم على المتأخر فإن الملاك هو الإيمان و هو فى الجميع واحد و هذا مخالف لسياق الآيه الدال على نوع كرامه و تشریف للسابق بالحاق ذريته به،فقوله: وَ اتَّبَعْتَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيمَانٍ، قرينه على إرادته أشخاص خاصه بقوله: الَّذِينَ آمَنُوا، و هم السابقون الأولون فى الإيمان برسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم من المهاجرين و الأنصار فى يوم العسره فكلمه الذين آمنوا كلمه تشریف يراد بها هؤلاء،و يشعر بذلك أيضا قوله تعالى: لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ، الى أن قال:

وَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَ الْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ، الى ان قال: وَ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَ لِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَ لَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ (الحشر ١٠/١)،فلو كان مصداق قوله: لِلَّذِينَ آمَنُوا، عين مصداق قوله: الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ، كان من وضع الظاهر موضع المضممر من غير وجه ظاهر.

قوله تعالى: لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَ قُولُوا انظُرْنَا، أى بدلوا قول(راعنا)من قول (انظرنا)و لئن لم تفعلوا ذلك كان ذلك منكم كفرا و للكافرين عذاب أليم ففيه نهى شديد عن قول راعنا و هذه كلمه ذكرت آيه أخرى و بينت معناها فى الجمله و هى قوله تعالى: مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَ يَقُولُونَ سَمِعْنَا وَ عَصَيْنَا وَ اسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَ رَاعِنَا لِيَا بَالِيَسْتَتِهِمْ وَ طَغْنَا فى الَّذِينَ (النساء ٤٦/٤)،و منه يعلم ان اليهود كانت تريد بقوله للنبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم راعنا نحوا من معنى قوله: إِسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ و لذلك ورد النهى عن خطاب رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم بذلك و حينئذ ينطبق على ما نقل: أن المسلمين كانوا يخاطبون النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم بذلك اذا القى اليهم كلاما يقولون راعنا يا رسول الله-يريدون أمهلنا و انظرنا حتى نفهم ما تقول-و كانت اللفظه تفيد فى لغه اليهود معنى الشتم فاغتنم اليهود ذلك فكانوا يخاطبون النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم بذلك يظهر التآدب معه و هم يريدون الشتم و معناه عندهم اسمع لا اسمعت فنزل:من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه و يقولون سمعنا و عصينا و اسمع غير مسمع و راعنا،آيه؛و نهى الله المؤمنين عن الكلمه و أمرهم أن يقولوا ما فى معناه و هو انظرنا فقال: لا تقولوا راعنا و قولوا

انظرنا.

قوله تعالى: **وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ**، يريد المتمردين من هذا النهى و هذا أحد الموارد التى أطلق فيها الكفر على ترك التكليف الفرعيه.

قوله تعالى: **يَا يَهُودُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**، لو كان المراد بأهل الكتاب اليهود خاصة كما هو الظاهر لكون الخطابات السابقة مسوقه لهم فتوصيفهم بأهل الكتاب يفيد الإشاره الى العله، و هو أنهم لكونهم أهل كتاب ما يودون نزول الكتاب على المؤمنين لاستلزامه بطلان اختصاصهم بأهليه الكتاب مع أن ذلك ضنه منهم بما لا يملكونه، و معارضه مع الله سبحانه فى سعه رحمته و عظم فضله، و لو كان المراد عموم أهل الكتاب من اليهود و النصارى فهو تعميم بعد التخصيص لاشتراك الفريقين فى بعض الخصائل، و هم على غيظ من الإسلام، و ربما يؤيد هذا الوجه بعض الآيات اللاحقه كقوله تعالى: **وَقَالُوا لَنْ نَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى** (البقره ١١١)، و قوله تعالى: **وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ** (البقره ١١٣).

[سوره البقره (٢): الآيات ١٠٦ الى ١٠٧]

اشاره

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِخْهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** (١٠٧)

بيان:

قوله تعالى: **مَا نَنْسَخْ**، النسخ هو الإزاله، يقال: نسخت الشمس الظل اذا ازالته

ص: ١٢١

و ذهبت به، قال تعالى: ﴿مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ (الحج ٥١/)، ومنه أيضا قولهم: نسخت الكتاب اذا نقل من نسخه الى اخرى فكأن الكتاب اذهب به و أبدل مكانه و لذلك بدّل لفظ النسخ من التبديل في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا يَدُلُّنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النحل ١٠١/)، و كيف كان فالنسخ لا- يوجب زوال نفس الآية من الوجود و بطلان تحققها بل الحكم حيث علق بالوصف و هو الآية و العلامه مع ما يلحق بها من التعليل في الآية بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ، الخ؛ أفاد ذلك أن المراد بالنسخ هو اذهاب اثر الآية من حيث أنها آية، اعنى اذهاب كون الشيء آية و علامه مع حفظ أصله فبالنسخ يزول أثره من تكليف أو غيره مع بقاء أصله و هذا هو المستفاد من اقتران قوله: ﴿نُنسِخُهَا بِقَوْلِهِ: ﴿مَا نُنَسِخُ﴾، و الإنشاء إفعال من النسيان و هو الإذهاب عن العلم كما أن النسخ هو الإذهاب عن العين فيكون المعنى ما نذهب بآية عن العين أو عن العلم نأت بخير منها أو مثلها.

ثم أن كون الشيء آية يختلف باختلاف الأشياء و الحثيات و الجهات، فالبعض من القرآن آية لله سبحانه باعتبار عجز البشر عن اتيان مثله، و الأحكام و التكاليف الإلهيه آيات له تعالى باعتبار حصول التقوى و القرب بها منه تعالى، و الموجودات العينيه آيات له تعالى باعتبار كشفها بوجودها عن وجود صانعها و بخصوصيات وجودها عن خصوصيات صفاته و أسمائه سبحانه، و أنبياء الله و اوليائه تعالى آيات له تعالى باعتبار دعوتهم إليه بالقول و الفعل و هكذا، و لذلك كانت الآية تقبل الشده و الضعف قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (النجم ١٨/).

و من جهه اخرى الآيه ربما كانت في انها آية ذات جهه واحده و ربما كانت ذات جهات كثيره، و نسخها و إزالتها كما يتصور بجهته الواحده كاهلاكها كذلك يتصور ببعض جهاتها دون بعض اذا كانت ذات جهات كثيره، كآييه من القرآن تنسخ من حيث حكمها الشرعى و تبقى

من حيث بلاغتها وإعجازها ونحو ذلك.

قوله تعالى: **أَوْ تُنْسِيَهَا**، قرء بضم النون و كسر السين من الإنساء بمعنى الأذهاب عن العلم و الذكر و قد مر توضيحه، و هو الكلام مطلق او عام غير مختص برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بل غير شامل له أصلا لقوله تعالى: **سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسِي إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ (الأعلى ٧)**، و هي آية مكيه و آية النسخ مدنيه فلا يجوز عليه النسيان بعد قوله تعالى: **فَلَا تَنْسِي** و أما اشتماله على الاستثناء بقوله: **إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ** فهو على حد الاستثناء الواقع في قوله تعالى:

خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُودٍ (هود / ١٠٩)، جىء بها لإثبات بقاء القدره مع الفعل على تغيير الأمر، و لو كان الاستثناء مسوقا لبيان الوقوع فى الخارج لم يكن للامتنان بقوله: **فَلَا تَنْسِي** معنى، اذ كل ذى ذكر و حفظ من الإنسان و سائر الحيوان كذلك يذكر و ينسى و ذكره و نسيانه كلاهما منه تعالى و بمشيئته، و قد كان رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم كذلك قبل هذا الإقراء الامتنانى الموعود بقوله: **سَنُقَرِّئُكَ** يذكر بمشيئته الله و ينسى بمشيئته الله تعالى فليس معنى الاستثناء إلا إثبات إطلاق القدره أى سنقرئك فلا تنسى أبدا و الله مع ذلك قادر على إنسائك هذا. و قرء قوله: **نَسَاها** بفتح النون و الهمزه من نسيء نسيئا اذا أخر تأخيرا فيكون المعنى على هذا. ما نسخ من آيه بإزالتها أو تؤخرها بتأخير إظهارها نأت بخير منها أو مثلها و لا يوجب التصرف الإلهى بالتقديم و التأخير فى آياته فوت كمال أو مصلحه، و الدليل على أن المراد بيان أن التصرف الإلهى يكون دائما على الكمال و المصلحه هو قوله: **بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا** فإن الخيره إنما يكون فى كمال شىء موجود أو مصلحه حكم مجعول ففى ذلك يكون موجود مماثلا لآخر فى الخيره أو أزيد منه فى ذلك فافهم (١).

ص: ١٢٣

١-١) البقره ١٠٦-١٠٧: بحث روائى حول النسخ و الناسخ و المنسوخ.

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۚ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ
 الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسِيسًا ۚ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَفُوا ۚ وَاصْطَفُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهَ
 بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا
 تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۚ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١)
 بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ
 عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ
 بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا
 كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۚ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا
 فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)

قوله تعالى: أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ، سياق الآية يدل على أن بعض المسلمين - ممن آمن بالنبي - سئل النبي -سئل النبي امورا على حد سؤال اليهود نبيهم موسى عليه السلام و الله سبحانه وبخهم على ذلك في ضمن ما يوبخ اليهود بما فعلوا مع موسى و النبيين من بعده، و النقل يدل على ذلك.

قوله تعالى: سَوَاءَ السَّبِيلِ أَي مَسْتَوَى الطَّرِيقِ.

قوله تعالى: وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، نقل أنه حتى بن الأخطب و بعض من معه من متعصبى اليهود.

قوله تعالى: فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا، قالوا: إنها آية منسوخة بآية القتال.

قوله تعالى: حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ، فيه كما مر إيماء الى حكم سيشرعه الله تعالى في حقهم، و نظيره قوله تعالى: فِي الْآيَةِ الْآتِيَةِ أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ، مع قوله تعالى: إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا (التوبة / ٢٩)، و سيأتى الكلام فى معنى الأمر فى قوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي (الإسراء / ٨٥).

قوله تعالى: وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، شروع فى إلحاق النصارى باليهود تصريحاً و سوق الكلام فى بيان جرائمهم معاً.

قوله تعالى: بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ، هذه كرهه ثلثه عليهم فى بيان أن السعادة لا تدور مدار الاسم و لا كرامه لأحد على الله إلا بحقيقه الإيمان و العبودية. اوليها قوله: إِنَّ

الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا (البقره ٦٢/)، وثانيها، قوله تعالى: بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ (البقره ٨١/)، وثالثها، هذه الآية و استفاد من تطبيق الآيات تفسير الإيمان بإسلام الوجه الى الله و تفسير الإحسان بالعمل الصالح.

قوله تعالى: وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، أى و هم يعملون بما أوتوا من كتاب الله لا ينبغي لهم أن يقولوا ذلك و الكتاب يبين لهم الحق و الدليل على ذلك قوله: كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فالمراد بالذين لا- يعملون غير أهل الكتاب من الكفار و مشركى العرب قالوا: إن المسلمين ليسوا على شىء أو أن أهل الكتاب ليسوا على شىء.

قوله تعالى: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ، ظاهر السياق أن هؤلاء كفار مكه قبل الهجره فإن هذه الآيات نزلت فى اوائل ورود رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم المدينة.

قوله تعالى: أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ، يدل على مضى الواقعه و انقضائها لمكان قوله؛ كان، فينطبق على كفار قريش و فعالهم بمكه كما ورد به النقل أن المانعين كفار مكه، كانوا يمنعون المسلمين عن الصلاة فى المسجد الحرام و المساجد التى اتخذوها بفناء الكعبه.

قوله تعالى: وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ، المشرق و المغرب و كل جهه من الجهات حيث كانت فى لله بحقيقه الملك التى لا تقبل التبدل و الانتقال، لا كالمملك الذى بيننا معاشر أهل الاجتماع، حيث ان ملكه تعالى مستقر على ذات الشىء محيط بنفسه و أثره، لا- كملكنا المستقر على أثر الاشياء و منافعها، لا على ذاتها، و الملك لا يقوم من جهه انه ملك إلا بمالكة فالله سبحانه قائم على هذه الجهات محيط بها و هو معها، فالمتوجه الى شىء من الجهات متوجه إليه تعالى.

و لما كان المشرق و المغرب إضافيتين شملتسا ساير الجهات تقريبا اذ لا يبقى خارجا منهما إلا نقطتا الجنوب و الشمال الحقيقتان و لذلك لم يقيد إطلاق قوله فأينما، بهما بأن يقال: أينما تولوا

منهما فكأن الإنسان أينما ولى وجهه فهناك إما مشرق أو مغرب، فقوله: **وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ** بمنزله قولنا: ولله الجهات جميعا و إنما اخذ بهما لأن الجهات التي يقصدها الإنسان بوجهه إنما تتعين بشروق الشمس و غروبها و سائر الأجرام العلويه المنيره.

قوله تعالى: **فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**، فيه وضع عله الحكم فى الجزاء موضع الجزاء، و التقدير -و الله أعلم- فأينما تولوا جاز لكم ذلك فإن وجه الله هناك، و يدل على هذا التقدير تعليل الحكم قوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**، أى إن الله واسع الملك و الاحاطه عليم بقصودكم أينما توجهت، لا كالواحد من الإنسان أو سائر الخلق الجسمانى لا يتوجه إليه إلا إذا كان فى جهه خاصه، و لا أنه يعلم توجه القاصد إليه إلا من جهه خاصه كقدمه فقط، فالتوجه الى كل جهه توجه الى الله، معلوم له سبحانه.

و اعلم أن هذا توسعه فى القبله من حيث الجهه لا من حيث المكان، و الدليل عليه قوله:

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ.

[سوره البقره (٢): الآيات ١١٦ الى ١١٧]

اشاره

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِئَامًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦) **يَدْعِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** (١١٧)

بيان:

قوله تعالى: **وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِئَامًا** يعطى السياق، أن المراد بالقائلين بهذه المقاله هم اليهود و النصارى: اذ قالت اليهود: عزير ابن الله، و قالت النصارى: المسيح ابن الله، فإن

ص: ١٢٧

وجه الكلام مع أهل الكتاب، وإنما قال أهل الكتاب هذه الكلمة أعنى قولهم: اتخذ الله ولداً أول ما قالوها تشريفاً لأنبيائهم كما قالوا: نحن أبناء الله وأحبنا ثم تلبست بلباس الجسد والحقيقة فرد الله سبحانه عليهم في هاتين الآيتين فأضرب عن قولهم بقوله: **بَيِّنْ لَهُمْ فِي السَّمَاوَاتِ السُّخْرَى**؛ ويشتمل على برهانين ينفي كل منهما الولادة وتحقق الولد منه سبحانه، فإن اتخاذ الولد هو أن يجزى موجود طبعي بعض أجزاء وجوده، ويفصله عن نفسه فيصير به تربيته تدريجيه فرداً من نوعه مماثلاً لنفسه، وهو سبحانه منزّه عن المثل، بل كل شيء مما في السموات والأرض مملوك له، قائم الذات به، قانت ذليل عنده ذله وجوديه، فكيف يكون شيء من الأشياء ولداً له مماثلاً نوعياً بالنسبة إليه؟ وهو سبحانه بديع السموات والأرض، إنما يخلق ما يخلق على غير مثال سابق، فلا يشبه شيء من خلقه خلقاً سابقاً، ولا يشبه فعله فعل غيره في التقليد والتشبيه ولا في التدريج، والتوصل بالأسباب إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون من غير مثال سابق ولا تدريج، فكيف يمكن أن ينسب إليه اتخاذ الولد؟ وتحققه يحتاج إلى تربيته وتدريج، فقوله: **لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** كل له قانتون برهان تام، وقوله:

بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ برهان آخر تام، وهذا يستفاد من الآيتين:

اولاً: شمول حكم العبادة لجميع المخلوقات مما في السموات والأرض.

و ثانياً: إن فعله تعالى غير تدريجي، ويستدرج من هنا، إن كل موجود تدريجي فله وجه غير تدريجي، به يصدر عنه تعالى كما قال تعالى: **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** (يس ٨٢)، وقال تعالى: **وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصِيرِ** (القمر ٥٠)، وتفصيل القول في هذه الحقيقة القرآنية، سيأتي إنشاء الله في ذيل قوله: **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا** (يس ٨٢)، فانتظر.

قوله تعالى: **سُبْحَانَهُ** مصدر بمعنى التسبيح وهو لا يستعمل إلا مضافاً وهو مفعول

مطلق لفعل محذوف أى سبحته تسيحاً، فحذف الفعل و أضيف المصدر الى الضمير المفعول و أقيم مقامه، و فى الكلمه تأديب إلهى بالتنزيه فيما يذكر فيه ما لا يليق بساحه قدسه تعالى و تقدس.

قوله تعالى: كُلُّ لَهُ قَانُتُونَ، القنوت العباده و التذلل.

قوله تعالى: بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ، بداعه الشىء كونه لا يماثل غيره مما يعرف و يؤنس به.

قوله تعالى: فَيَكُونُ، تفریع على قول كن و ليس فى مورد الجزاء حتى يجزم (١).

[سوره البقره (٢): الآيات ١١٨ الى ١١٩]

إشاره

وَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْ لَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا وَ لَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)

بيان:

قوله تعالى: وَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ هم المشركون غير أهل الكتاب و يدل عليه المقابله السابقه فى قوله تعالى: وَ قَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ، وَ قَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، وَ هُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ، قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ، الآيه؛ ففى تلك الآيه الحق أهل الكتاب فى قولهم بالمشركين و الكفار من العرب، و فى هذه الآيه الحق

ص: ١٢٩

(١ - ١). البقره ١١٦-١١٧: بحث علمى و فلسفى حول افتراق الموجودات عن بعضها.

المشركين و الكفار بهم، فقال: وقال الذين لا يعلمون لو لا يكلمنا الله أو تأتينا، الآية؛ كذلك قال الذين من قبلهم -و هم أهل الكتاب و اليهود من بينهم- حيث اقترحوا بمثل هذه الأقاويل على نبي الله موسى عليه السلام، فهم و الكفار متشابهون في أفكارهم و آرائهم، يقول هؤلاء ما قاله أولئك و بالعكس، تشابهت قلوبهم.

قوله تعالى: قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ جواب عن قول الذين لا يعلمون، السخ؛ و المراد ان الآيات التي يطالبون بها مأتية مبينه، و لكن لا- ينتفع بها إلا قوم يوقنون بآيات الله، و أما هؤلاء الذين لا يعلمون، فقلوبهم محجوبه بحجاب الجهل، مؤفه بآفات العصبية و العناد، و ما تغنى الآيات عن قوم لا يعلمون. و من هنا يظهر وجه توصيفهم بعدم العلم، ثم أيد ذلك بتوجيه الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و الإشعار بأنه مرسل من عند الله بالحق بشيرا و نذيرا، فلتطب به نفسه، و ليعلم ان هؤلاء أصحاب الجحيم، مكتوب عليهم ذلك، لا مطمع في هدايتهم و نجاتهم.

قوله تعالى: وَلَا تُشِئْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ، يجرى مجرى قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (البقره ٦٤).

[سوره البقره (٢): الآيات ١٢٠ الى ١٢٣]

اشاره

وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آيَاتِهُم بِعَذَابِ اللَّهِ لَكُنَّ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣)

قوله تعالى: **وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ**، رجوع الى الطائفتين بعد الالتفات الى غيرهم، وهو بمنزله جمع أطراف الكلام على تفرقتها و تشتتها، فكأنه بعد هذه الخطابات و التوبيخات لهم يرجع الى رسوله و يقول له: هؤلاء ليسوا براضين عنك، حتى تتبع ملتهم التي ابتدعوها بأهوائهم و نظموا بأرائهم، ثم أمره بالرد عليهم بقوله: **قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ** أى ان الاتباع إنما هو لغرض الهدى و لا- هدى إلا- هدى الله و الحق الذى يجب أن يتبع و غيره- و هو ملتكم- ليس بالهدى، فهى أهوائكم ألستموها لباس الدين و سميتها باسم المله، ففى قوله: **قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ**، الخ؛ جعل الهدى كناية عن القرآن النازل، ثم اضيف الى الله فأفاد صحه الحصر فى قوله: **إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ** على طريق قصر القلب، و أفاد ذلك خلو ملتهم عن الهدى، و أفاد ذلك كونها أهواء لهم، و استلزم ذلك كون ما عند النبى عليما، و كون ما عندهم جهلا، و اتسع المكان لتعقيب الكلام بقوله: **وَلَنْ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** فانظر الى ما فى هذا الكلام من اصول البرهان العريقه، و وجوه البلاغه على إيجازه، و سلاسه البيان و صفائه.

قوله تعالى: **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ** يمكن أن تكون الجملة بقربنه الحصر المفهوم من قوله: **أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ** جوابا للسؤال المقدر الذى يسوق الذهن إليه قوله تعالى: **وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ**، الخ؛ و هو انهم اذا لم يكن مطمع فى إيمانهم، فمن ذا الذى يؤمن

منهم؟ و هل توجيه الدعوه إليهم باطل لغو؟ فأجيب بأن الذين آتيناهم الكتاب و الحال أنهم يتلونه حق تلاوته، أولئك يؤمنون بكتابتهم فيؤمنون بك، أو ان أولئك يؤمنون بالكتاب، كتاب الله المنزل أيما كان، أو ان أولئك يؤمنون بالكتاب الذى هو القرآن. و على هذا: فالقصر فى قوله: **أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ** قصر افراد و الضمير فى قوله: **بِهِ** على بعض التقادير لا يخلو عن استخدام المراد بالذين اتوا الكتاب قوم من اليهود و النصارى ليسوا متبعين للهوى من أهل الحق منهم، و بالكتاب التوراه و الإنجيل، و ان كان المراد بهم المؤمنين برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و بالكتاب القرآن، فالمعنى، ان الذين آتيناهم القرآن، و هم يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون بالقرآن، لا هؤلاء المتبعون لأهوائهم، فالقصر حينئذ قصر قلب.

قوله تعالى: **يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا، إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ ارجاع ختم الكلام الى بدئه، و آخره الى اوله، و عنده يختتم شطر من خطابات بنى اسرائيل.**

[سوره البقره (٢): آيه ١٢٤]

اشاره

وَ إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)

بيان:

فقوله تعالى: **وَ إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ** الخ؛ اشاره الى قصه اعطائه الإمامه و حباه بها، و القصه إنما وقعت فى أواخر عهد إبراهيم عليه السلام بعد كبره و تولد إسماعيل، و إسحاق له و إسكانه إسماعيل و أمه بمكه، كما تنبه به بعضهم ايضا، و الدليل على ذلك قوله عليه السلام على ما حكاه الله سبحانه بعد قوله تعالى له: **إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**، **وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي**، فإنه عليه السلام قبل مجيء الملائكه ببشاره إسماعيل، و إسحاق، ما كان يعلم و لا يظن أن سيكون له ذريه من بعده حتى أنه بعد ما بشرته الملائكه بالأولاد خاطبهم بما ظاهره اليأس و القنوط كما قال تعالى: **وَ تَبَتُّهُم**

عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ: إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ، قَالُوا: لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ، قَالَ أُبَشِّرُ مُنَى عَلَى أَنْ مَسْنَى الْكِبْرِ فِيمَ تُبَشِّرُونَ؟ قَالُوا، بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تُكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (الحجر ٥٥/)، وكذلك زوجته على ما حكاها الله تعالى في قصه بشارته أيضا اذ قال تعالى: وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ، فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، قَالَتْ، يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ، قَالُوا أَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، رَحِمَتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (هود ٧٣/)، وكلامهما كما ترى يلوح منه آثار اليأس والقنوط ولذلك قابلته الملائكة بنوع كلام فيه تسليتهما وتطيب أنفسهما فما كان هو ولا أهله يعلم أن سيرزق ذريته، وقول صلى الله عليه وآله وسلم: من ذريتي، بعد قوله تعالى: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا، قول من يعتقد لنفسه ذرية، وكيف يسع من له ادنى دربه بأدب الكلام وخاصة مثل إبراهيم الخليل في خطاب يخاطب به ربه الجليل أن يتفوه بما لا علم له به؟ ولو كان ذلك لكان من الواجب أن يقول: من ذريتي إن رزقتني ذرية أو ما يؤدي هذا المعنى فالقصه واقعه كما ذكرنا في أواخر عهد إبراهيم بعد البشاره.

على أن قوله تعالى: وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا، يدل على أن هذه الإمامه الموهوبه إنما كانت بعد ابتلائه بما ابتلاه الله به من الامتحانات وليست هذه الا أنواع البلاء التي ابتلى عليه السلام بها في حياته، وقد نص القرآن على أن من أوضحها بلاء قضيه ذبح إسماعيل، قال تعالى: قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ، الى ان قال: إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (الصافات ١٠٦/).

و القضيه انما وقعت في كبر إبراهيم، كما حكى الله تعالى عنه من قوله: الْحَمِيدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ، وَإِسْحَاقَ، إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (إبراهيم ٤١/).

و لنرجع الى الفاظ الآيه فقوله: وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ، الابتلاء و البلاء بمعنى واحد تقول:

ابتليته و بلوته بكذا، أى امتحنته و اختبرته، اذا قدمت اليه أمرا أو أوقعته في حدث فاخبرته

بذلك و استظهرت ما عنده من الصفات النفسانيه الكامنه عنده كالإطاعه و الشجاعه و السخاء و العفه و العلم و الوفاء أو مقابلاتها،و لذلك لا يكون الابتلاء إلا بعمل فإن الفعل هو الذى يظهر به الصفات الكامنه من الإنسان دون القول الذى يحتمل الصدق و الكذب قال تعالى: **إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ (ن ١٧)**، و قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ (البقره ٢٤٩)**.

فتعلق الابتلاء فى الآيه بالكلمات ان كان المراد بها الأقوال أنما هو من جهه تعلقها بالعمل و حكايتها عن العهود و الأوامر المتعلقة بالفعل كقوله تعالى: **وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسِينًا (البقره ٨٣)**، أى عاشروهم معاشره جميله و قوله: **بِكَلِمَاتٍ فَأَتَّمْتُهُنَّ،** الكلمات و هى جمع كلمه و إن أطلقت فى القرآن على العين الخارجى دون اللفظ و القول، كقوله تعالى: **بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ (آل عمران ٤٥)**، إلا أن ذلك بعنايه إطلاق القول كما قال تعالى:

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران ٥٩).

و جميع ما نسب إليه تعالى من الكلمه فى القرآن اريد بها القول كقوله تعالى: **وَلَا مَبْدَأَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ (الأنعام ٣٤)**، و قوله: **لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ (يونس ٩٦)**، و قوله:

يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ (الأنفال ٧)، و قوله: **إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (يونس ٩٦)**، و قوله: **وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ (الزمر ٧١)**، و قوله: **وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (المؤمن ٦)**، و قوله: **وَلَوْ لَا كَلِمَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَيَّ أَجَلٌ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ (الشورى ١٤)**، و قوله: **وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا (التوبه ٤١)**، و قوله: **قَالَ فَالْحَقُّ، وَ الْحَقُّ أَقُولُ (ص ٨٤)**، و قوله: **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (النحل ٤٠)**، فهذه و نظائرها أريد بها القول بعنايه أن القول توجيه ما يريد المتكلم إعلامه المخاطب ما عنده كما فى الأخبار أو لغرض تحميله عليه كما فى

الإنشاء و لذلك ربما تتصف في كلامه تعالى بالتمام كقوله تعالى: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ (الأنعام/١١٥)، وقوله تعالى: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسَيْنِ عَلِيَّ بِنِي إِسْرَائِيلَ (الأعراف/١٣٦)، كأن الكلمة اذا صدرت عن قائلها فهي ناقصة بعد، لم تتم، حتى تلبس لباس العمل و تعود صدقا.

و هذا لا ينافي كون قوله تعالى فعله، فإن الحقائق الواقعيه لها حكم، و للعنايات الكلاميه اللفظيه حكم آخر، فما يريد الله سبحانه إظهاره لواحد من أنبيائه، أو غيرهم بعد خفائه، أو يريد تحميله على أحد قول و كلام له لاشتماله على غرض القول و الكلام و تضمنه غايه الخبر و النبأ، و الأمر و النهي، و إطلاق القول و الكلمه على مثل ذلك شائع في الاستعمال اذا اشتمل على ما يؤديه القول و الكلمه، تقول: لأفعلن كذا و كذا، لقول قلته و كلمه قدمتها، و لم تقل قولاً، و لا قدمت كلمه، و إنما عزمت عزيمة لا تنقضها شفاعه شفيع أو وهن إرادته، و منه قول عنتره:

و قولي كلما جشأت و جاشت

مكانك تحمدي أو تستريحي

يريد بالقول توطين نفسه على الثبات و العزم، على لزومها مكانها لتفوز بالحمد إن قتل، و بالاستراحه إن غلب.

اذا عرفت ذلك ظهر لك أن المراد بقوله تعالى: بِكَلِمَاتٍ، قضايا ابتلى بها و عهود إلهيه اريدت منه، كابتلائه بالكواكب و الأصنام، و النار و الهجره و تضحيته بابنه و غير ذلك و لم يبين في الكلام ما هي الكلمات لأن الغرض غير متعلق بذلك، نعم قوله: قَالَ إِنِّي لَجَاعِعُكَ لِلدَّاسِ إِمَامًا، من حيث ترتيبه على الكلمات تدل على انها كانت أموراً تثبت بها لياقته عليه السلام لمقام الإمامه.

فهذه هي الكلمات و أما إتمامهن فإن كان الضمير في قوله تعالى: أتمهن راجعا الى إبراهيم كان معنى إتمامهن إتيانه عليه السلام ما أريد منه، و امثاله لما أمر به، و إن كان الضمير راجعا إليه تعالى

كما هو الظاهر كان المراد توفيقه لما اريد منه، و مساعدته على ذلك، و أما ما ذكره بعضهم: أن المراد بالكلمات قوله تعالى: قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا، الى آخر الآيات فمعنى لا ينبغي الركون اليه اذ لم يعهد في القرآن إطلاق الكلمات على جمل الكلام.

قوله تعالى: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا، أى مقتدى يقتدى بك الناس، و يتبعونك فى أقوالك و أفعالك، فالإمام هو الذى يقتدى و يأتى به الناس، و لذلك ذكره من المفسرين، أن المراد به النبوه، لأن النبى يقتدى به امتة فى دينهم، قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ، إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ (النساء ٦٣)، لكنه فى غايه السقوط.

اما اولاً: فلأن قوله: إِمَامًا، مفعول ثان لعامله الذى هو قوله: جَاعِلُكَ و اسم الفاعل لا يعمل اذا كان بمعنى الماضى، و انما يعمل اذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال فقوله، إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا، و وعد له عليه السلام بالإمامه فى ما سيأتى، مع أنه وحي لا يكون إلا مع نبوه، فقد كان عليه السلام نبياً قبل تقلده الإمامه، فليست الإمامه فى الآية بمعنى النبوه (ذكره بعض المفسرين).

و اما ثانياً: فلأننا بينا فى صدر الكلام: أن قصه الامامه، إنما كانت فى أواخر عهد إبراهيم عليه السلام بعد مجيء البشاره له بإسحاق و إسماعيل، و إنما جاءت الملائكه بالبشاره فى مسيرهم الى قوم لوط و إهلاكهم، و قد كان إبراهيم حينئذ نبياً مرسلًا، فقد كان نبياً قبل أن يكون إمامًا، فإمامته غير نبوته.

و منشأ هذا التفسير و ما يشابهه الابتذال الطارى على معانى الألفاظ الواقعه فى القرآن الشريف فى أنظار الناس من تكرر الاستعمال بمرور الزمن و من جمله تلك الألفاظ لفظ الإمامه، ففسره قوم: بالنبوه و التقدم و المطاعيه مطلقاً، و فسره آخرون بمعنى الخلافه أو الوصايه، أو الرئاسه فى امور الدين و الدنيا—و كل ذلك لم يكن فإن النبوه معناها: تحمّل النبأ من جانب الله، و الرساله معناها تحمّل التبليغ، و المطاعيه و الاطاعه قبول الإنسان ما يراه أو

يأمره غيره و هو من لوازم النبوه و الرساله، و الخلافه نحو من النياه، و كذلك الوصايه، و الرئاسه نحو من المطاعيه و هو مصدره الحكم فى الاجتماع و كل هذه المعانى غير معنى الإمامه التى هى كون الإنسان بحيث يقتدى به غيره بأن يطبق أفعاله و أقواله على أفعاله و أقواله بنحو التبعية، و لا- معنى لأن يقال لنبى من الأنبياء مفترض الطاعه إنى جاعلك للناس نبيا، أو مطاعا فيما تبلغه نبوتك، أو رئيسا تأمر و تنهى فى الدين، أو وصيا، أو خليفه فى الأرض تقضى بين الناس فى مرافعاتهم بحكم الله.

و ليست الإمامه تخالف الكلمات السابقه و تختص بموردها بمجرد العناية اللفظيه فقط، اذ لا يصح أن يقال لنبى-من لوازم نبوته كونه مطاعا بعد نبوته-إنى جاعلك مطاعا للناس بعد ما جعلتك كذلك، و لا يصح ان يقال له ما يؤول اليه معناه و ان اختلف بمجرد عنايه لفظيه، فإن المحذور هو المحذور، و هذه المواهب الإلهيه ليست مقصوره على مجرد المفاهيم اللفظيه، بل دونها حقائق من المعارف الحقيقيه، فلمعنى الإمامه حقيقه وراء هذه الحقائق.

و الذى نجده فى كلامه تعالى: إنه كلما تعرض لمعنى الإمامه تعرض معها للهدايه تعرض التفسير، قال تعالى فى قصص إبراهيم عليه السلام: وَ هَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ نَافِلَةً وَ كَلَّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا (الأنبياء ٧٣)، و قال سبحانه: وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (السجده ٢٤)، فوصفها بالهدايه وصف تعريف، ثم قيدها بالأمر، فبين أن الإمامه ليست مطلق الهدايه، بل هى الهدايه التى تقع بأمر الله، و هذا الأمر هو الذى بين حقيقته فى قوله: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ (يس ٨٣)، و قوله: وَ مَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (القمر ٥٠)، و سنين فى الآيتين ان الأمر الإلهى و هو الذى تسميه الآيه المذكوره بالملكوت وجه آخر للخلق، يواجهون به الله سبحانه، طاهر مطهر من قيود الزمان و المكان خال من التغير و التبديل و هو المراد بكلمه-كن-الذى ليس إلا-وجود الشىء العينى، و هو

قبال الخلق الذى هو وجه آخر من وجهى الأشياء، فيه التغير و التدريج و الانطباق على قوانين الحركة و الزمان، و ليكن هذا عندك على إجماله حتى يأتيك تفصيله إنشاء الله العزيز.

و بالجمله فالامام هاد يهدى بأمر ملكوتى يصاحبه، فالإمامه بحسب الباطن نحو ولايه للناس فى أعمالهم، و هدايتها إيصالها إياهم الى المطلوب بأمر الله دون مجرد إراءه الطريق الذى هو شأن النبى و الرسول و كل مؤمن يهدى الى الله سبحانه بالنصح و المواعظه الحسنه، قال تعالى: **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** (إبراهيم ٧٤)، و قال تعالى: **فِي مَثَلِ آلِ فِرْعَوْنَ، وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ** (المؤمن ٣٨)، و قال تعالى: **فَلَوْ لَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لَتَيَفَّتْهُوا فِي الدِّينِ وَ لَتُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** (التوبه ١٢٢)، و سيتضح لك هذا المعنى مزيد اتضاح.

ثم انه تعالى بين سبب موهبه الإمامه بقوله: **لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** الآيه؛ فبين ان الملاك فى ذلك صبرهم فى جنب الله- و قد أطلق الصبر فهو فى كل ما يتلى و يمتحن به عبد فى عبوديته، و كونهم قبل ذلك موقنين، و قد ذكر فى جمله قصص إبراهيم عليه السلام قوله **وَ كَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيُكُونَ مِنَ الْمُؤَقِنِينَ** (الأنعام ٧٥)، و الآيه كما ترى تعطى بظاهرها: أن إراءه الملكوت لإبراهيم كانت مقدمه لإفاضه اليقين عليه، و يتبين به أن اليقين لا ينفك عن مشاهده الملكوت كما هو ظاهر قوله تعالى: **كَأَلَا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ** (التكاثر ٦)، و قوله تعالى: **كَأَلَا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ**، **كَأَلَا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ** -الى أن قال- **كَأَلَا إِنَّ كِتَابَ الْمَاجِدِ لَفِي عِلِّيِّينَ، وَ مَا أَذْرَاكَ مَا عِلِّيُونَ** كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (المطففين ٢١)، و هذه الآيات تدل على أن المقربين هم الذين لا يحجبون عن ربهم بحجاب قلبى و هو المعصيه و الجهل و الريب و الشك، فهم أهل اليقين بالله، و هم يشهدون عليين كما يشهدون الجحيم.

و بالجمله فالإمام يجب أن يكون إنسانا ذا يقين مكشوفاً له عالم الملكوت-متحققاً بكلمات من الله سبحانه-وقد مرّ أن الملكوت هو الأمر الذى هو الوجه الباطن من وجهى هذا العالم، فقوله تعالى: يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا، يدل دلالة واضحة على أن كل ما يتعلق به أمر الهداية-وهو القلوب والأعمال-فالإمام باطنه و حقيقته، ووجهه الأمرى حاضر عنده غير غائب عنه، و من المعلوم أن القلوب والأعمال كسائر الأشياء فى كونها ذات وجهين، فالإمام يحضر عنده و يلحق به أعمال العباد، خيرها و شرّها، و هو المهيم على السيلين جميعاً، سبيل السعادة و سبيل الشقاوه. و قال تعالى أيضاً: يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ (الإسراء ٧١)، و سيجىء تفسيره بالإمام الحق دون كتاب الأعمال، على ما يظن من ظاهرها، فالإمام هو الذى يسوق الناس الى الله سبحانه يوم تبلى السرائر، كما أنه يسوقهم إليه فى ظاهر هذه الحياه الدنيا و باطنها، و الآيه مع ذلك تفيد أن الإمام لا يخلو عنه زمان من الأزمنه، و عصر من الأعصار، لمكان قوله تعالى: كُلُّ أَنَسٍ، على ما سيجىء فى تفسير الآيه من تقريبه.

ثم إن هذا المعنى أعنى الإمامه، على شرافته و عظمته، لا يقوم إلا بمن كان سعيد الذات بنفسه، اذ الذى ربّما تلبّس ذاته بالظلم و الشقاء، فإنما سعاده بهدايه من غيره، و قد قال الله تعالى: أَمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا- أَنْ يُهْدَى (يونس ٣٥)، و قد قوبل فى الآيه بين الهادى الى الحق و بين غير المهتدى إلا بغيره، أعنى المهتدى بغيره، و هذه المقابله تقتضى أن يكون الهادى الى الحق مهتدياً بنفسه، أن المهتدى بغيره لا يكون هادياً الى الحق البته.

و يستنتج من هنا أمران: أحدهما: أن الإمام يجب أن يكون معصوماً عن الضلال و المعصيه، و الا كان غير مهتد بنفسه، كما مرّ، كما يدل عليه أيضاً قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا هُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (الأنبياء ٧٣)، فأفعال الإمام خيرات يهتدى إليها لا بهدايه من غيره بل باهتداء من نفسه

بتأييد إلهي، و تسديد رباني و الدليل عليه قوله تعالى: **فَعَلَّ الْخَيْرَاتِ بِنَاءِ عَلِيٍّ أَنْ الْمَصْدَرِ الْمُضَافِ يَدُلُّ عَلَى الْوُقُوعِ**، ففرق بين مثل قولنا: **وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ أَنْ أَعْمَلُوا الْخَيْرَاتِ** فلا يدل على التحقيق و الوقوع، بخلاف قوله: **وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ** فهو يدل على أن ما فعلوه من الخيرات إنما هو بوحى باطنى و تأييد سماوى. الثانى: عكس الأمر الأول و هو أن من ليس بمعصوم فلا يكون إماما هاديا الى الحق البتة.

و بهذا البيان يظهر: ان المراد بالظالمين فى قوله تعالى: **قَالَ وَمَنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** مطلق من صدر عنه ظلم ما، من شرك أو معصيه، و ان كان منه فى برهه من عمره، ثم تاب و صلح.

و قد سئل بعض أساتيدنا رحمه الله عليه: عن تقريب دلالة الآية على عصمه الامام.

فأجاب: ان الناس بحسب القسمة العقلية على أربعة أقسام: من كان ظالما فى جميع عمره، و من لم يكن ظالما فى جميع عمره، و من هو ظالم فى أول عمره دون آخره، و من هو بالعكس هذا. و إبراهيم عليه السلام أجل شأننا من أن يسأل الإمامه للقسم الأول و الرابع من ذريته، فبقى قسما و قد نفى الله أحدهما، و هو الذى يكون ظالما فى أول عمره دون آخره، فبقى الآخر، و هو الذى يكون غير ظالم فى جميع عمره انتهى و قد ظهر مما تقدم من البيان أمور:

الأول: ان الامامه لمجعله.

الثانى: أن الإمام يجب أن يكون معصوما بعصمه إلهيه.

الثالث: أن الأرض و فيه الناس، لا تخلوا عن إمام حق.

الرابع: أن الإمام يجب أن يكون مؤيدا من عند الله تعالى.

الخامس: أن أعمال العباد غير محجوبه عن علم الإمام.

السادس: أنه يجب أن يكون عالما بجميع ما يحتاج اليه الناس فى امور معاشهم و معادهم.

السابع: أنه يستحيل أن يوجد فيهم من يفوقه فى فضائل النفس.

فهذه سبعة مسائل هي امهات مسائل الإمامه، تعطىها الآيه الشريفه بما ينضم إليها من الآيات و الله الهادى.

فان قلت: لو كانت الإمامه هي الهدايه بأمر الله تعالى، و هي الهدايه الى الحق الملازم مع الاهتداء بالذات كما استفيد من قوله تعالى: أَمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ الْآيَةُ؛ كان جميع الأنبياء أئمه قطعاً، لوضوح أن نبوه النبي لا يتم إلا باهتداء من جانب الله تعالى بالوحى، من غير أن يكون مكتسباً من الغير، بتعليم أو إرشاد و نحوهما، و حينئذ فموهبه النبوه تستلزم موهبه الإمامه، و عاد الإشكال الى أنفسكم.

قلت: الذى يتحصّل من البيان السابق المستفاد من الآيه أن الهدايه بالحق و هي الإمامه تستلزم الاهتداء بالحق، و أما العكس و هو أن يكون كل من اهتدى بالحق هادياً لغيره بالحق، حتى يكون كل نبي لاهتدائه بالذات إماماً، فلم يتبين بعد، و قد ذكر سبحانه هذا الاهتداء بالحق، من غير أن يقرنه بهدايه الغير بالحق فى قوله تعالى: وَ هَدَيْنَا لَهُ إِسْرَافًا وَ يَعْقُوبَ كَلَّامًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ، وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُليْمَانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَى وَ هَارُونَ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيَى وَ عِيسَى وَ إِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطًا وَ كَلَّامًا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ. وَ مِنْ آبَائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوَانِهِمْ وَ اجْتَبَيْنَاهُمْ وَ هَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النَّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقُصِّدْ وَ كَلَّمْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْبَدَهُ (الأنعام ٧٩)، و سياق الآيات كما ترى يعطى أن هذه الهدايه أمر ليس من شأنه أن يتغير و يتخلف، و أن هذه الهدايه لن ترتفع بعد رسول الله عن أمته، بل عن ذريه إبراهيم منهم خاصه، كما يدل عليه قوله تعالى: وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنِّي أَبْرَأءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ.

وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (الزخرف ١٨)، فأعلم قومه ببراءته فى الحال

و أخبرهم بهدأيته فى المستقبل، و هى الهدأيه بأمر الله حقا، لا الهدأيه التى يعطأها النظر و الاعتبار، فإنها كانت حاصله مدلولا عليها بقوله: إِنَّى براءٌ مما تعبدونَ إِلاَّ الذى فَطَرنى، ثم أخبر الله: أنه جعل هذه الهدأيه كلمه باقيه فى عقب إبراهيم، و هذا أحد الموارد التى أطلق القرآن الكلمه فيها على الأمر الخارجى دون القول، كقوله تعالى: وَ أَلزَمَهُمُ الْكَلِمَةَ التَّقْوَى وَ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا (الفتح ٢٦).

و قد تبين بما ذكر: أن الإمامه فى ولد إبراهيم بعده، و فى قوله تعالى: قَالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتَى. قَالَ لا يَنالُ عَهْدَى الظَّالِمِينَ إشاره الى ذلك، فإن إبراهيم عليه السلام إنما كان سئل الإمامه لبعض ذريته لا لجمعهم، فاجيب: بنفيها عن الظالمين من ولده، و ليس جميع ولده ظالمين بالضروره حتى يكون نفيها عن الظالمين نفيها لها عن الجميع، ففيه إجابته لما سأله مع بيان أنها عهد، و عهده تعالى لا ينال الظالمين.

قوله تعالى: لا يَنالُ عَهْدَى الظَّالِمِينَ، فى التعبير إشاره الى غايه بعد الظالمين عن ساحة العهد الإلهى، فهى من الاستعاره بالكنايه (١).

[سوره البقره (٢): الآيات ١٢٥ الى ١٢٩]

إشاره

وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْنًا وَ اتَّخَذُوا مِنْ مَقامِ إِبراهِيمَ مُصَلًّى وَ عَهَدْنَا إِلى إِبراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِى لِلطَّائِفِينَ وَ الْعَاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَ إِذْ قَالَ إِبراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَ أَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا. ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى عَذابِ الدَّارِ وَ بئسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ رَبُّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبُّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَ أَرِنَا مَناسِكَنا وَ تَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَ إِنعِثْ فِيهِمْ رَسُولًا. مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)

ص: ١٤٢

قوله تعالى: وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً، إشاره الى تشريع الحجّ و الأمن فى البيت، و المثابه هى المرجع، من تاب يثوب اذا رجع.

قوله تعالى: وَ اتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُضِيًّا كَأَنه عطف على قوله: جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً، بحسب المعنى، فإن قوله: جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً، لما كان إشاره الى التشريع كان المعنى و اذ قلنا للناس ثوبوا الى البيت و حجوا إليه، و اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، و ربما قيل إن الكلام على تقدير القول، و التقدير: و قلنا اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، و المصلى اسم مكان من الصلاه بمعنى الدعاء أى اتخذوا من مقامه عليه السلام مكانا للدعاء و الظاهر ان قوله: جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً، الخ؛ بمنزله التوطئه اشير به الى مناط تشريع الصلاه و لذا لم يقل: و صلوا، فى مقام ابراهيم، بل قال: و اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، فلم يعلق الامر بالصلاه فى المقام، بل علق على اتخاذ المصلى منه.

قوله تعالى: وَ عَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا، العهد هو الأمر و التطهير إما تخلص البيت لعباده الطائفين، و العاكفين، و المصلين، و نسكهم فيكون من

الاستعاره بالكنايه، وأصل المعنى: أن خلصا بيتي لعباده العباد، و ذلك تطهير و إما تنظيفه من الأقدار و الكثافات الطارئه من عدم مبالاة الناس و الركع السجود جمعا راعح و ساجد و كان المراد به المصلون.

قوله تعالى: وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا دَعَاءَ دَعَا بِهِ إِبْرَاهِيمُ يَسْأَلُ بِهِ الْأَمْنُ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ وَ الرِّزْقَ وَ قَدْ اجْتَبَى دَعْوَتَهُ، وَ حَاشَا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَنْقَلُ فِي كَلَامِهِ دَعَاءٌ لَا يَسْتَجِيبُهُ وَ لَا يَرُدُّهُ فِي كَلَامِهِ الْحَقِّ فَيَشْتَمِلُ كَلَامَهُ عَلَى هَجَاءٍ لِعَوْلِي بِهِ لِأَغْ جَاهِلٍ، وَ قَدْ قَالَ تَعَالَى: وَ الْحَقُّ أَقُولُ (ص ٨٤/١)، وَ قَالَ تَعَالَى: إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَضْلٌ وَ مَا هُوَ بِالْهَزْلِ (الطارق ١٤/١).

و قد نقل القرآن العظيم عن هذا النبي دعوات كثيرة دعا بها، و سألها ربه كدعائه لنفسه في بادئ أمره، و دعائه عند مهاجرته الى سوريه و دعائه و مسألته بقاء الذكر الخير، و دعائه لنفسه و ذريته و لوالديه و للمؤمنين و المؤمنات، و دعائه لأهل مكه بعد بناء البيت، و دعائه و مسألته بعثه النبي من ذريته، و من دعواته و مسائله التي تجم آماله و تشخص مجاهداته و مساعيه في جنب الله و فضائل نفسه المقدسه، و بالجمله تعرف موقعه و زلفاه من الله عز اسمه، و سائر قصصه و ما مدحه به ربه، يستنبط شرح حياته الشريفه، و ستعرض للميسور من ذلك في سوره الأنعام.

قوله تعالى: مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ، لما سئل عليه السلام لبلد مكه الأمن، ثم سئل لأهله أن يرزقوا من الثمرات، استشعر: أن الأهل سيكون منهم مؤمنون و كافرون، و دعائه للأهل بالرزق يعم الكافر و المؤمن، و قد تبرأ من الكافرين و ما يعبدونه، قال تعالى: فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ (التوبه ١١٤/١)، فشهد تعالى له بالبراءه و التبري عن كل عدو لله، حتى أبيه، و لذلك لما استشعر ما استشعره من عموم دعوته قيدها بقوله من آمن منهم - و هو يعلم أن رزقهم من الثمرات لا - يتم من دون شركه الكافرين، على ما يحكم به ناموس الحياه الدنيويه

الاجتماعيه-غير أنه خص مسأله-و الله أعلم بما يحكم لسائر عبادته، ويريد في حقهم، فاجيب عليه السلام بما يشمل المؤمن و الكافر، وفيه بيان أن المستجاب من دعوته ما يجرى على حكم العاده و قانون الطبيعه من غير خرق للعاده، و إبطال لظاهر حكم الطبيعه، و لم يقل: و ارزق من آمن من أهله من الثمرات لأن المطلوب استيهاب الكرامه للبلد لكرامه البيت المحرم، و لا- ثمره تحصل في واد غير ذى زرع، و وقع فيه البيت، و لو لا ذلك لم يعمر البلد، و لا وجد أهلا يسكنونه.

قوله تعالى: وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمْتِّعُهُ قَلِيلًا، قرء فامتعه من باب الإفعال و التفعيل و الامتاع و التمتع بمعنى واحد.

قوله تعالى: ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ الخ؛ فيه إشاره الى مزيد اكرام البيت و تطيب لنفس إبراهيم عليه السلام، كأنه قيل: ما سأله من اكرام البيت برزق المؤمنين من أهل هذا البلد استجبته و زياده، و لا- يغتر الكافر بذلك أن له كرامه على الله، و انما ذلك اكرام لهذا البلد، و اجابه لدعوتك بأزيد مما سأله، فسوق يضطر الى عذاب النار، و بس المصير.

قوله تعالى: وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْمَاعِيلُ، القواعد جمع قاعده و هى ما قعد من البناء على الارض، و استقر عليه الباقي، و رفع القواعد من المجاز بعد ما يوضع عليها منها، و نسبه الرفع المتعلق بالمجموع الى القواعد وحدها. و فى قوله تعالى: مِنَ الْبَيْتِ تلميح الى هذه العناية المجازيه.

قوله تعالى: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، دعاء لإبراهيم و اسماعيل، و ليس على تقدير القول، أو ما يشبهه، و المعنى يقولان: ربنا تقبل منا، الخ؛ بل هو فى الحقيقة حكاية المقول نفسه، فإن قوله: يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْمَاعِيلُ حكاية الحال الماضيه، فهما يمثلان بذلك تمثيلا كأنهما يشاهدان و هما مشتغلان بالرفع، و السامع يراهما على حالهما ذلك ثم يسمع دعائهما بألفاظهما من غير وساطه المتكلم المشير الى موقفهما

و عملهما، وهذا كثير في القرآن، وهو من أجمل السياقات القرآنيه- وكلها جميل- وفيه من تمثيل القصة و تقريبه الى الحس ما لا يوجد و لا شيء من نوع بداعته في التقبل بمثل القول و نحوه.

و في عدم ذكر متعلق التقبل- و هو بناء البيت- تواضع في مقام العبوديه، و استحغار لما عملا به و المعنى ربنا تقبل منا هذا العمل اليسير انك أنت السميع لدعوتنا، العليم بما نويناه في قلوبنا.

قوله تعالى: رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ، من البديهي أن الاسلام على ما تداول بيننا من لفظه، و يتبادر الى أذهاننا من معناه أول مراتب العبوديه، و به يمتاز المنتحل من غيره، و هو الأخذ بظاهر الاعتقادات و الأعمال الدينيه، أعم من الإيمان و النفاق، و ابراهيم عليه السّلام- و هو النبي الرسول أحد الخمسه أولى العزم، صاحب الملة الحنيفيه- أجل من أن يتصور في حقه أن لا يكون قد ناله الى هذا الحين، و كذا ابنه اسماعيل رسول الله و ذبيحه، أو يكونا قد نالا و لكن لم يعلما بذلك، أو يكونا علما بذلك و أرادا البقاء على ذلك، و هما في ما هما فيه من القربى و الزلفى، و المقام مقام الدعوه عند بناء البيت المحرم، و هما أعلم بمن يسألانه، و أنه من هو، و ما شأنه، على أن هذا الإسلام من الامور الاختياريه التي يتعلق بها الأمر و النهى كما قال تعالى: إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (البقره ١٣١/)، و لا معنى لنسبه ما هو كذلك الى الله سبحانه أو مسئله ما هو فعل اختياري للانسان من حيث هو كذلك من غير عنايه يصح معها ذلك (١).

قوله تعالى: وَ أَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَ تَبَّ عَلَيْنَا إِنْ كُنَّا أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، يدل على ما مر من معنى الإسلام أيضا، فإن المناسك جمع منسك بمعنى العباده، كما في قوله تعالى:

ص: ١٤٦

١- (١). البقره ١٢٥-١٢٩: بحث حول معنى الإسلام الذي اراده ابراهيم عليه السّلام من الله لذريته؛ الدعاء.

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا (الحج ٣٤)، أو بمعنى المتعبد، أعنى الفعل المأتى به عبادته وإضافه المصدر يفيد التحقق، فالمراد بمناسكتنا هى الأفعال العبادية الصادره منهما والأعمال التى يعملانها دون الأفعال، والأعمال التى يراد صدورها منهما، فليس قوله: أَرِنَا بِمَعْنَى عَلَّمْنَا أَوْ وَقَفْنَا، بل التسديد باراءه حقيقه الفعل الصادر منهما، كما أشرنا إليه فى قوله تعالى:

وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِيتَاءَ الزَّكَاةِ (الأنبياء ٧٣)، و سنبينه فى محله: ان هذا الوحي تسديد فى الفعل، لا تعليم للتكليف المطلوب، و كأنه إليه الإشارة بقوله تعالى: وَ اذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ، وَ إِسْحَاقَ، وَ يَعْقُوبَ، أُولَى الْأَيْدِي وَ الْأَبْصَارِ. إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (ص ٤٦).

فقد تبين ان المراد بالإسلام و البصيره فى العباده، غير المعنى الشائع المتعارف، و كذلك المراد بقوله تعالى: وَ تَبَّ عَلَيْنَا، لان إبراهيم و إسماعيل كانا نبيين معصومين بعصمه الله تعالى، لا يصدر عنهما ذنب حتى يصح توبتهما منه، كتوبتنا من المعاصى الصادره عنا.

قوله تعالى: رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ الخ؛ دعوه النبي عليه السلام و قد كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ يقول: «أنا دعوت ابراهيم» (١/٢).

[سوره البقره (٢): الآيات ١٣٠ الى ١٣٤]

إشارة

وَ مَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا- مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَ لَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَ وَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَ إِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ إِلَهُاً وَاحِداً وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)

ص: ١٤٧

١- ١). البقره ١٢٥-١٢٩: بحث روائى حول تطهير بيت الله، سفر ابراهيم الى مكه لمقابله اسماعيل عليه السلام بناء الكعبه: الحجر الاسود؛ معنى ان الشىء من الجنه او جهنم؛ شرف الانبياء و الامور المنسوبه لهم و الاماكن المقدسه كالكعبه و الحجر الاسود؛ معنى الامه.

٢- ٢). البقره ١٢٥-١٢٩: بحث علمى حول دوره كامله من السير العبودى الذى يسير به العبد من موطن نفسه الى قرب ربه...

قوله تعالى: وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ، الرغبة اذا عدت بمن أفادت معنى الإعراض و النفرة، و اذا عدت بفي أفادت: معنى الشوق و الميل، و سفه يأتي متعديا و لازما، و لذلك ذكر بعضهم أن قوله: نَفْسُهُ مفعول لقوله: سَفِهَهُ، و ذكر آخرون أنه تمييز لا مفعول، و المعنى على أى حال: إن الإعراض عن مله إبراهيم من حماقه النفس، و عدم تمييزها ما ينفعها مما يضرها و من هذه الآيه يستفاد معنى ما ورد فى الحديث أن العقل ما عبد به الرحمن.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا، الاصطفاء أخذ صفوه الشىء و تمييزه عن غيره اذا اختلطا، و ينطبق هذا المعنى بالنظر الى مقامات الولايه على خلوص العبوديه و هو أن يجرى العبد فى جميع شئونه على ما يقتضيه مملوكيته و عبوديته من التسليم الصرف لربه، و هو التحقق بالدين فى جميع الشئون فإن الدين لا يشمل إلا على مواد العبوديه فى امور

الدنيا والآخرة و تسليم ما يرضيه الله لعبده فى جميع اموره كما قال الله تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (آل عمران ١٩)، فظهر: أن مقام الاصطفاء هو مقام الإسلام بعينه و يشهد بذلك قوله تعالى: إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ الآية؛ فإن الظاهر أن الظرف متعلق بقوله: إِصْطَفَيْتَاهُ، فيكون المعنى أن اصطفاه إنما كان حين قال له ربه: أسلم:

فأسلم لله رب العالمين فقوله تعالى: إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ، قال أسلمت لرب العالمين، بمنزله التفسير لقوله: إِصْطَفَيْتَاهُ .

و فى الكلام التفات من التكلم الى الغيبه فى قوله: إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ، و لم يقل اذ قلنا له أسلم، و التفات آخر من الخطاب الى الغيبه فى المحكى من قول إبراهيم: قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، و لم يقل: قال أسلمت لك اما الاول، فالنكته فيه: الإشاره الى أنه كان سرا استسر به ربه اذ أسره إليه فيما خلى به معه فإن للسامع المخاطب اتصالا بالمتكلم فاذا غاب المتكلم عن صفه حضوره انقطع المخاطب عن مقامه و كان بينه و بين ما للمتكلم من الشأن و القصة ستر مضروب، فأفاد: أن القصة من مسامرات الانس و خصائص الخلوه.

و اما الثانى: فلأن قوله تعالى: إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ، يفيد معنى الاختصاص باللطف و الاسترسال فى المساره لكن أدب الحضور كان يقتضى من إبراهيم و هو عبد عليه طابع الذله و التواضع أن لا- يسترسل، و لا- يعد نفسه مختصا بكرامه القرب متشرفا بحظيره الانس، بل يراها واحدا من العبيد الأذلاء المربوبين، فيسلم لرب يستكين اليه جميع العالمين فيقول: أسلمت لرب العالمين.

و الإسلام و التسليم و الاستسلام بمعنى واحد، من السلم، و أحد الشئئين اذا كان بالنسبه الى الآخر بحال لا يعصيه و لا يدفعه فقد أسلم و سلم و استسلم له، قال تعالى: بَلِّغْ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ (البقره ١١٢)، و قال تعالى: وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ حَنِيفًا (الأنعام ٧٩)، و وجه الشىء ما يواجهك به، و هو بالنسبه إليه تعالى تمام

وجود الشيء، وإسلام الإنسان له تعالى هو وصف الانقياد والقبول منه لما يرد عليه من الله سبحانه من حكم تكويني، من قدر وقضاء، أو تشريعي من أمر أو نهى أو غير ذلك، ومن هنا كان له مراتب بحسب الواردات بمراتبها (١).

قوله تعالى: **وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**، الصلاح، هو اللياقة بوجه ربما نسب في كلامه إلى عمل الإنسان وربما نسب إلى نفسه وذاته، قال تعالى: **فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا** (الكهف ١١٠)، وقال تعالى: **وَ أَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَ إِمَائِكُمْ** (النور ٣٢).

و صلاح العمل وإن لم يرد به تفسير بين من كلامه تعالى غير أنه نسب إليه من الآثار ما يتضح به معناه.

فمنها: أنه صالح لوجه الله، قال تعالى: **صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ** (الرعد ٢٢)، وقال تعالى: **وَمَا تَنْفَقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ** (البقره ٢٧٢).

ومن هنا: أنه يرفع الكلم الطيب الصاعد إلى الله سبحانه قال تعالى: **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** (فاطر ١٠)، فيستفاد من هذه الآثار المنسوبة إليه: أن صلاح العمل معنى تهيئه ولياقته لأن يلبس لباس الكرامه ويكون عوناً وممداً لصعود الكلام الطيب إليه تعالى، قال تعالى: **وَ لَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ** (الحج ٣٧)، وقال تعالى:

كُلًّا نُمِدُّ هُوْلَاءِ وَ هُوْلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ، وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (الإسراء ٢٠)، فعطاؤه بمنزله الصوره، و صلاح العمل بمنزله الماده (٢).

قوله تعالى: **وَ وَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ، أَى وَصَى بِالْمَلَه.**

ص: ١٥٠

-
- ١-١). البقره ١٣٠-١٣٤: بحث حول مراتب الاسلام.
٢-٢) البقره ١٣٠-١٣٤: بحث في صلاح النفس والذات.

قوله تعالى: فَلَا تَمُوتُنَّ، النهى عن الموت و هو أمر غير اختياري للانسان، و التكليف إنما يتعلق بأمر اختياري انما هو لرجوعه الى أمر يتعلق بالاختيار، و التقدير احذروا أن يغالكم الموت فى غير حال الإسلام، أى داوموا و أزموا الإسلام لثلا يقع موتكم إلا فى هذا الحال، و فى الآيه إشاره الى أن الدين هو الإسلام كما قال تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (آل عمران ١٩).

قوله تعالى: وَ إِلَهَ آبَائِكِ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ، فى الكلام إطلاق لفظ الأب على الجدّ و العمّ و الوالد من غير مصحح للتغليب، و حجه فيما سياتى إنشاء الله تعالى فى خطاب إبراهيم لأزر بالأب.

قوله تعالى: إِلَهًا وَاحِدًا، فى هذا الإيجاز بعد الإطناب بقوله: إِلَهَكَ وَ إِلَهَ آبَائِكَ، الخ؛ دفع لإمكان إبهام اللفظ أن يكون إلهه غير إله آبائه على نحو ما يتخذة الوثنيون من الآلهه الكثيره.

قوله تعالى: وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ، بيان للعباده و أنها ليست عباده كيفما اتفقت بل عباده على نهج الإسلام و فى الكلام جمله أن دين إبراهيم هو الإسلام و الموروث منه فى بنى إبراهيم كإسحاق و يعقوب و إسماعيل، و فى بنى إسرائيل، و فى بنى إسماعيل من آل إبراهيم جميعا هو الإسلام لا غير، و هو الذى أتى به إبراهيم من ربه فلا حجه لأحد فى تركه و الدعوه الى غيره (١).

[سوره البقره (٢): الآيات ١٣٥ الى ١٤١]

إشارة

وَ قَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْنَا إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ وَ مَا أُوتِيَ مُوسَى وَ عِيسَى وَ مَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صَبَّغَهُ اللَّهُ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صَبْغَةً وَ نَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَ هُوَ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ وَ لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَ مَا اللَّهُ بِعَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)

ص: ١٥١

قوله تعالى: وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَاراً تَهْتَدُوا، لما بين تعالى أن الدين الحق الذى كان عليه أولاد إبراهيم من إسماعيل و إسحاق و يعقوب و أولاده كان هو الإسلام الذى كان عليه إبراهيم حنيفاً، استنتج من ذلك أن الاختلافات و الانشعابات التى يدعو إليها فرق المنتحلين من اليهود و النصارى، امور اخترعتها هوساتهم، و لعبت بها أيديهم لكونهم

فى شقاق،فتقطعوا بذلك طوائف و أحزابا دينيه،و صبغوا دين الله سبحانه-و هو دين التوحيد و دين الوحده،بصبغه الأهواء و الأغراض و المطامع،مع أن الدين واحد كما أن الإله المعبود بالدين واحد و هو دين إبراهيم،و به فليتمسك المسلمون و ليركوا شقاق أهل الكتاب.

فإن من طبيعه هذه الحياه الأرضيه الدنيويه التغير و التحول فى عين الجرى و الاستمرار كنفس الطبيعه التى هى كالماده لها و يوجب ذلك أن تتغير الرسوم و الآداب و الشعائر القوميه بين طوائف الملل و شعباتها،و ربما يوجب ذلك تغييرا و انحرافا فى المراسم الدينيه،و ربما يوجب دخول ما ليس من الدين فى الدين،أو خروج ما هو منه و الأغراض و الغايات الدنيويه ربما تحل محل الأغراض الدينيه الإلهيه(و هى بليه الدين)،و عند ذلك ينصبغ الدين بصبغه القوميه فيدعو الى هدف دون هدفه الأصيلى و يؤدب الناس غير أدبه الحقيقى،فلا يلبث حتى يعود المنكر(و هو ما ليس من الدين)معروفا يتعصب له الناس لموافقته هوساتهم و شهواتهم و المعروف منكرا ليس له حام يحميه و لا واق يقيه و يثول الأمر الى ما نشاهده اليوم من...

و بالجمله فقولته تعالى: **وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى**، إجمال تفصيل معناه و قالت اليهود كونوا هودا تهتدوا،و قالت النصارى كونوا نصارى تهتدوا،كل ذلك لتشعبهم و شقاقهم.

قوله تعالى: **قُلْ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءْنَا بِبُرْهَانٍ بَيِّنٍ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ إِلَّا لِأَن نُّبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهُ لَقَدْ جَاءَنَا بُرْهَانٌ مِّنْ رَبِّنَا وَلَٰكِن كَفَرْنَا بِهِ حَتَّىٰ كُنَّا كَالْعُرْشِ كَذِبًا**، جواب عن قولهم أى قل،بل نتبع مله إبراهيم حنيفا فإنها الملّه الواحده التى كان عليها جميع أنبيائكم،إبراهيم،فمن دونه،و ما كان صاحب هذه الملّه و هو إبراهيم من المشركين و لو كان فى ملته هذه الانشعابات،و هى الضمائم التى ضمها إليها المبتدعون،من الاختلافات لكان مشركا بذلك،فإن ما ليس من دين الله لا يدعو الى الله سبحانه،بل الى غيره و هو الشرك،

فهذا دين التوحيد الذى لا يشتمل على ما ليس من عند الله تعالى.

قوله تعالى: قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا، لما حكى ما يأمره به اليهود و النصارى من اتباع مذهبهم، ذكر ما هو عنده من الحق (و الحق يقول) و هو الشهادة على الإيمان بالله، و الإيمان بما عند الأنبياء، من غير فرق بينهم، و هو الإسلام و خص الإيمان بالله بالذكر و قدمه و أخرجه من بين ما انزل على الأنبياء لأن الإيمان بالله فطرى، لا يحتاج الى بينه النبوه، و دليل الرساله.

ثم ذكر سبحانه ما انزل إلينا و هو القرآن أن المعارف القرآنيه و ما انزل الى إبراهيم و اسماعيل و إسحاق و يعقوب، ثم ذكر ما أوتى موسى و عيسى و خصهما بالذكر لأن المخاطبه مع اليهود و النصارى و هم يدعون إليهما فقط ثم ذكر ما أوتى النبيون من ربهم، ليشمل الشهاده جميع الأنبياء فيستقيم قوله بعد ذلك: لا نفرق بين أحد منهم.

و اختلاف التعبير فى الكلام، حيث عبر عما عندنا و عند إبراهيم و إسحاق و يعقوب بالإنزال و عما عند موسى و عيسى و النبيين بالإيتاء و هو الإعطاء، لعل الوجه فيه أن الأصل فى التعبير هو الإيتاء، كما قال تعالى بعد ذكر إبراهيم، و من بعده، و من قبله من الأنبياء فى سورة الأنعام: أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النَّبُوَّةَ (الأنعام ٨٩)، لكن لفظ الإيتاء ليس بصريح فى الوحي و الإنزال كما قال تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ (لقمان ١٢)، و قال: وَ لَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النَّبُوَّةَ (الجاثية ١٦)، و لما كان كل من اليهود و النصارى يعدون إبراهيم و اسماعيل و إسحاق و يعقوب و الأسباط من أهل ملتهم، فاليهود من اليهود، و النصارى من النصارى، و اعتقادهم أن المله الحق من النصرانية، أو اليهوديه، هى ما أوتيه موسى و عيسى، فلو كان قيل: و ما أوتى إبراهيم و اسماعيل لم يكن بصريح فى كونهم بأشخاصهم صاحب مله بالوحي و الانزال و احتمال أن يكون ما أوتوه، هو الذى أوتيه موسى و عيسى عليهما السلام نسب إليهم بحكم التبعية كما نسب

إيتائه الى بنى إسرائيل، فلذلك خص إبراهيم و من عطف عليه باستعمال لفظ الإنزال، و أما النبيون قبل إبراهيم فليس لهم فيهم كلام حتى يوهم قوله: وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ شَيْئًا يَجِبُ دَفْعُهُ.

قوله تعالى: وَالْأَسْبَاطُ، الأسباط في بنى إسرائيل كالبائل في بنى إسماعيل و السبط كالقبيله الجماعه يجتمعون على أب واحد، و قد كانوا اثنتى عشره أسباطا أمما و كل واحده منهم تنتهى الى واحد من أولاد يعقوب و كانوا اثنتى عشر، فخلف كل واحد منهم أمه من الناس.

فإن كان المراد بالأسباط الامم و الأقوام فنسبه الإنزال إليهم لاشتمالهم على أنبياء من سبطهم، و إن كان المراد بالأسباط الأشخاص كانوا أنبياء أنزل اليهم الوحي و ليسوا بأخوه يوسف لعدم كونهم أنبياء، و نظير الآية قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ وَ عِيسَىٰ (النساء ١٦٣).

قوله تعالى: فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا، الإتيان بلفظ المثل مع كون أصل المعنى، فإن آمنوا بما آمنتم به، لقطع عرق الخصام و الجدل، فإنه لو قيل لهم أن آمنوا بما آمننا به أمكن أن يقولوا كما قالوا، بل تؤمن بما أنزل علينا و نكفر بما ورائه، لكن لو قيل لهم، إنا آمننا بما لا يشتمل إلا على الحق فآمنوا انتم بما يشتمل على الحق مثله، لم يجدوا طريقا للمراء و المكابره، فإن الذى بيدهم لا يشتمل على صفوه الحق.

قوله تعالى: فِي شِقَاقٍ، الشقاق النفاق و المنازعه و المشاجره و الافتراق.

قوله تعالى: فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ، و وعد لرسول الله بالنصره عليهم، و قد أنجز وعده و سيتم هذه النعمه للامه الإسلاميه اذا شاء، و اعلم: ان الآية معترضه بين الآيتين السابقيه و اللاحقه.

قوله تعالى: صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً، الصبغه بناء نوع من

الصبيغ أى هذا الإيمان المذكور صبغه إلهيه لنا، وهى أحسن الصبيغ لا صبغه اليهوديه و النصرانيه بالتفرق فى الدين، و عدم إقامته.

قوله تعالى: **وَ نَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ**، فى موضع الحال، و هو كيبان العله لقوله: **صَبَّغَهُ اللَّهُ وَ مَنْ أَحْسَنُ**.

قوله تعالى: **قُلْ أَسْتَجُوبُونَ لِي فِي اللَّهِ**، إنكار، لمحاجه أهل الكتاب، المسلمين فى الله سبحانه و قد بين وجه الإنكار، و كون محاجتهم لغوا و باطلا، بقوله و هو ربنا و ربكم و لنا أعمالنا و لكم أعمالكم و نحن له مخلصون، و بيانه: أن محاجه كل تابعين فى متبوعهما و مخصصتهما فيه انما تكون لأحد أمور ثلاثه: اما لاختصاص كل من التابعيه بمتبوع دون متبوع الآخر، فيريدان بالحاجه كل تفضيل متبوعه و ربه على الآخر، كالمحاجه بين وثنى و مسلم، و اما لكون كل واحد منهما أو احدهما يريد الاختصاص به، و ابطال نسبه رفيقه، او قربه او ما يشبه ذلك، بعد كون المتبوع واحدا، و اما لكون أحدهما ذا خصائص و خصال لا ينبغى أن ينتسب الى هذا المتبوع و فعاله ذاك الفعال، و خصال تلك الخصال لكونه موجبا، لهتكه او سقوطه او غير ذلك، فهذه علل المحاجه و المخاصمه بين كل تابعين، و المسلمون و أهل الكتاب انما يعبدون إليها واحدا، و أعمال كل من الطائفتين لا تزاحم الاخرى شيئا و المسلمون مخلصون فى دينهم لله، فلا سبب يمكن أن يتشبث به أهل الكتاب فى محاجتهم، و لذلك أنكر عليهم محاجتهم أولا ثم نفى واحدا واحدا من اسبابها الثلاثه، ثانيا.

قوله تعالى: **أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ إِلَى قَوْلِهِ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى**، و هو قول كل من الفريقين، ان ابراهيم و من ذكر بعده منهم، و لازم ذلك كونهم هودا أو نصارى أو قولهم صرّحوا انهم كانوا هودا أو نصارى، كما يفيد ظاهر قوله تعالى: **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَ مَا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** (آل عمران ٦٥).

قوله تعالى: **قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ**، فإن الله اخبرنا و اخبركم فى الكتاب أن

موسى و عيسى و كتابيهما بعد ابراهيم و من ذكر معه.

قوله تعالى: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ، أى كتم ما تحمل شهاده أن الله أخبر بكون تشريع اليهوديه أو النصرانيه بعد ابراهيم و من ذكر معه، فالشهاده المذكوره فى الآيه، شهاده تحمل، أو المعنى كتم شهاده الله على كون هؤلاء قبل التوراه و الانجيل، فالشهاده شهاده أداء، المتعين هو المعنى الأول.

قوله تعالى: تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ، أى ان الغور فى الأشخاص و أنهم ممن كانوا لا ينفع حالكم، و لا يضركم السكوت عن المحاجه و المجادله فيهم، و الواجب عليكم الاشتغال بما تسألون غدا عنه، و تكرار الآيه مرتين لكونهم يفرطون فى هذه المحاجه التى لا تنفع لحالهم شيئاً، و خصوصاً مع علمم بأن ابراهيم كان قبل اليهوديه و النصرانيه، و إلا فالبحث عن حال الأنبياء، و الرسل بما ينفع البحث فيه كمزايا رسالاتهم و فضائل نفوسهم الشريفه مما ندب الى القرآن حيث يقص قصصهم و يأمر بالتدبر فيها.

[سوره البقره (٢): الآيات ١٤٢ الى ١٥١]

اشاره

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا لَآهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسِيًّا لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَ مَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنُعَلِّمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَ إِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنْ اللَّهُ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣) فَذَرْنِي وَّجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَ إِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ مِمَّا اللَّهُ بَغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَ لَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا قِبْلَتَكَ وَ مَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتِهِمْ وَ مَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَ لَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَ إِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَعْلَمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ لَيَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧) وَ لِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيهِمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ إِنْهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَ مِمَّا اللَّهُ بَغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَ مِنَ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَ اِخْشَوْنِي وَ لَأَتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَ يَزَكِّيكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)

قوله تعالى: سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، هذا تمهيد ثانيا لما سيأمر تعالى به من اتخاذ الكعبة قبله و تعليم للجواب عما سيعترض به السفهاء من الناس و هم اليهود تعصبا لقبلتهم التي هي بيت المقدس و مشركوا العرب الراصدون لكل امر جديد يحتمل الجدل و الخصام، و قد مهد لذلك اولا بما ذكره الله تعالى من قصص ابراهيم و انواع كرامته على الله سبحانه و كرامه ابنه اسماعيل و دعوتهما للكعبة و مكة و للنبي و الأمة المسلمه و بنائهما البيت و الامر بتطهيره للعباده، و من المعلوم ان تحويل القبله من بيت المقدس الى الكعبة من اعظم الحوادث الدينيه و اهم التشريعات التي قوبل به الناس بعد هجره النبي الى المدينه و أخذ الاسلام في تحقيق اصوله و نشر معارفه و بث حقائقه، فما كانت اليهود و غيرهم تسكت و تستريح في مقابل هذا التشريع، لانهم كانوا يرون انه يبطل واحدا من اعظم مفاخرهم الدينيه و هو القبله و اتباع غيرهم لهم فيها و تقدمهم على من دونهم في هذا الشعار الدينى، على ان ذلك تقدم باهر في دين المسلمين، لجمعه و جوههم في عباداتهم و مناسكهم الدينيه الى نقطه واحده يخلصهم من تفرق الوجوه فى الظاهر و شتات الكلمه فى الباطن و استقبال الكعبة اشد تأثيرا و اقوى من امثال الطهاره و الدعاء و غيرهما فى نفوس المسلمين، عند اليهود و مشركى العرب و خاصه عند اليهود كما يشهد به قصصهم المقتصه فى القرآن، فقد كانوا امه لا يرون لغير المحسوس من عالم الطبيعه أصاله و لا لغير الحس وقعا، اذا جاءهم حكم من احكام الله معنوى قبلوه من غير تكلم عليه و اذا جاءهم امر من ربهم صورى متعلق بالمحسوس من الطبيعه كالقتال و الهجره و السجده و خضوع القول و غيرها قابلوه

بالانكار و قاوموا عليه و دونه أشد المقاومه.

و بالجمله فقد أخبر الله سبحانه عما سيعترضون به على تحويل القبله و علم رسوله ما ينبغي أن يجابوا و يقطع به قولهم.

قوله تعالى: سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ، أراد بهم اليهود و المشركين من العرب و لذلك عبر عنهم بالناس و إنما سفههم لعدم استقامه فطرتهم و ثقب رأيتهم في أمر التشريع، و السفاهه عدم استقامه العقل و تزلزل الرأي.

قوله تعالى: مَا وَلاَهُمْ، توليه الشيء أو المكان جعله قدام الوجه و أمامه كالاستقبال، قال تعالى فلنولينك قبله ترضيها، الآية، و التوليه عن الشيء صرف الوجه عنه كالاستدبار و نحوه، و المعنى ما الذى صرفهم أو صرف وجههم عن القبله التى كانوا عليها و هو بيت المقدس الذى كان يصلى اليه النبى و المسلمون أيام إقامته بمكه و عدّه شهور بعد هجرته إلى المدينه و إنما نسبوا القبله إلى المسلمين مع أن اليهود أقدم فى الصلاه إليها ليكون أوقع فى إيجاد التعجب و أوجب للاعتراض، و إنما قيل ما وليهم عن قبلتهم و لم يقل ما ولى النبى و المسلمين لما ذكرنا من الوجه، فلو قيل ما ولى النبى و المسلمين عن قبله اليهود لم يكن التعجب واقعا موقعه و كان الجواب عنه ظاهرا لكل سامع بأدنى تنبيه.

قوله تعالى: قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ، اقتصر من بين الجهات بهاتين لكونهما هما المعنيتين لسائر الجهات الأصلية و الفرعية كالشمال و الجنوب و ما بين كل جهتين من الجهات الأربعة الأصلية، و المشرق و المغرب جهتان إضافيتان تتعنان بشروق الشمس أو النجوم و غروبهما، يعمان جميع نقاط الأرض غير نقطتين موهومتين هما نقطتا الشمال و الجنوب الحقيقيتان، و لعل هذا هو الوجه فى وضع المشرق و المغرب موضع الجهات.

قوله تعالى: يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، تنكير الصراط لأن الصراط يختلف باختلاف الامم فى استعداداتها للهدايه إلى الكمال و السعاده.

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسِيًّا لْتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا، الظاهر أن المراد كما سنحول القبلة لكم لنهدينكم إلى صراط مستقيم كذلك جعلناكم أمه وسطا، وقيل إن المعنى و مثل هذا الجعل العجيب جعلناكم أمه وسطا (و هو كما ترى)، و أما المراد بكونهم أمه وسطا شهداء على الناس فالوسط هو المتخلل بين الطرفين لا إلى هذا الطرف ولا إلى ذاك الطرف، وهذه الامه بالنسبه إلى الناس -و هم أهل الكتاب و المشركون- على هذا الوصف فإن بعضهم -و هم المشركون و الوثنيون- إلى تقويه جانب الجسم محضا لا يريدون إلا الحياه الدنيا و الاستكمال بملاذها و زخارفها و زينتها، لا يرجون بعثا و لا نشورا، و لا يعثون بشيء من الفضائل المعنويه و الروحيه، و بعضهم كالتصارى إلى تقويه جانب الروح لا يدعون إلا إلى الرهبانيه و رفض الكمالات الجسميه التى أظهرها الله تعالى فى مظاهر هذه النشأه الماديه لتكون ذريعه كامله إلى نيل ما خلق لأجله الإنسان، فهؤلاء أصحاب الروح أبطلوا النتيجة بإبطال سببها و أولئك أصحاب الجسم أبطلوا النتيجة بالوقوف على سببها و الجمود عليها، لكن الله سبحانه جعل هذه الامه وسطا بأن جعل لهم دينا يهدى منتحليه إلى سواء الطريق وسط الطرفين لا إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء بل يقوى كلا من الجانبين -جانب الجسم و جانب الروح- على ما يليق به و يندب إلى جمع الفضيلتين فإن الإنسان مجموع الروح و الجسم لا -روح محضا و لا- جسم محضا، و محتاج فى حياته السعيده إلى جمع كلا الكمالين و السعادتين الماديه و المعنويه، فهذه الامه هى الوسط العدل الذى به يقاس و يوزن كل من طرفى الإفراط و التفريط فهى الشهيده على سائر الناس الواقعه فى الأطراف و النبى صلى الله عليه و آله و سلم و هو المثال الأكمل من هذه الامه -هو شهيد على نفس الأمه فهو صلى الله عليه و آله و سلم ميزان يوزن به حال الآحاد من الأمه، و الأمه ميزان يوزن به حال الناس و مرجع يرجع إليه طرفا الإفراط و التفريط، هذا ما قرره بعض المفسرين فى معنى الآية، و هو فى نفسه معنى صحيح لا يخلو عن دقه إلا أنه غير منطبق على لفظ الآية فإن كون الامه وسطا إنما

يصحح كونها مرجعا يرجع إليه الطرفان، و ميزانا يوزن به الجانبان لا كونها شاهده تشهد على الطرفين، أو يشاهد الطرفين، فلا تناسب بين الوسطية بذاك المعنى و الشهاده و هو ظاهر، على أنه لا وجه حينئذ للتعرض بكون رسول الله شهيدا على الامه إذ لا يترتب شهادة الرسول على الامه على جعل الامه وسطا، كما يترتب الغايه على المغيبي و الغرض على ذيه.

على أن هذه الشهاده المذكوره فى الآيه، حقيقه من الحقائق القرآنيه تكرر ذكرها فى كلامه سبحانه، و اللائح من موارد ذكرها معنى غير هذا المعنى، قال تعالى: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (النساء ٤١)، و قال تعالى: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (النحل ٨٤) و قال تعالى وَ وُضِعَ الْكِتَابُ وَ جِئَءَ بِالْبَشِيرِ وَ الشُّهَدَاءِ (الزمر ٦٩)، و الشهاده فيها مطلقه، و ظاهر الجميع على اطلاقها هو الشهاده على اعمال الامم، و على تبليغ الرسل أيضا، كما يومى إليه قوله تعالى:

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (الأعراف ٦)، و هذه الشهاده و إن كانت فى الآخره يوم القيمه لكن تحملها فى الدنيا على ما يعطيه قوله تعالى -حكاية عن عيسى عليه السلام-: وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِّمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (المائدة ١١٧) و قوله تعالى: وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (النساء ١٥٩)، و من الواضح أن هذه الحواس العاديه التى فىنا، و القوى المتعلقة بها منا لا- تتحمل إلا صور الأفعال و الأعمال فقط، و ذلك التحمل أيضا إنما يكون فى شىء يكون موجودا حاضرا عند الحس لا معدوما و لا غائبا عنه و أما حقائق الأعمال و المعانى النفسانيه من الكفر و الإيمان و الفوز و الخسران، و بالجمله كل خفى عن الحس و مستبطن عند الإنسان -و هى التى تكسب القلوب، و على يدور حساب رب العالمين يوم تبلى السرائر كما قال تعالى:

وَ لَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ (البقره ٢٢٥)، فهى مما ليس فى وسع الإنسان

إحصائها و الإحاطه بها و تشخيصها من الحاضرين فضلا عن الغائبين إلا رجل يتولى الله أمره و يكشف ذلك له بيده، و يمكن أن يستفاد ذلك من قوله تعالى: **وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ** (الزخرف ٨٦)، فإن عيسى داخل في المستثنى في هذه الآية قطعا- و قد شهد الله تعالى في حقه بأنه من الشهداء- كما مر في الآيتين السابقتين، فهو شهيد بالحق و عالم بالحقيقه.

و الحاصل أن هذه الشهاده ليست هي كون الامه على دين جامع للكمال الجسماني و الروحاني فإن ذلك على أنه ليس معنى الشهاده خلاف ظاهر الآيات الشريفه.

بل هي تحمل حقائق أعمال الناس في الدنيا من سعادته أو شقاءه، و رد و قبول، و انقياد و تمرد، و أداء ذلك في الآخره يوم يستشهد الله من كل شيء، حتى من أعضاء الإنسان، يوم يقول الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا.

و من المعلوم أن هذه الكرامه ليست تنالها جميع الامه، إذ ليست إلا- كرامه خاصه للأولياء الطاهرين منهم، و أما من دونهم من المتوسطين في السعاده، و العدول من أهل الإيمان فليس لهم ذلك، فضلا عن الأجلاف الجافيه، و الفراعنه الطاغيه من الامه، و ستعرف في قوله تعالى:

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصُّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (النساء ٦٩)، ان أقل ما يتصف به الشهداء- و هم شهداء الأعمال- أنهم تحت ولايه الله و نعمته و أصحاب الصراط المستقيم، و قد مر إجمالا في قوله تعالى: **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ** (فاتحه الكتاب ٧).

فالمراد بكون الامه شهيده أن هذه الشهاده فيهم، كما أن المراد بكون بنى إسرائيل فضلوا على العالمين، أن هذه الفضيله فيهم من غير أن يتصف به كل واحد منهم، بل نسب وصف البعض إلى الكل لكون البعث فيه و منه، فكون الامه شهيده هو أن فيهم من يشهد على الناس

و يشهد الرسول عليهم (١).

قوله تعالى: وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ، المراد بقوله لنعلم: اما علم الرسل و الانبياء مثلا، لان العظماء يتكلمون عنهم و عن اتباعهم، كقول الأمير، قتلنا فلانا و سجننا فلانا، و إنما قتله و سجنه اتباعه لأنفسه، و اما العلم العيني الفعلي منه تعالى الحاصل مع الخلقه و الایجاد، دون العلم قبل الایجاد.

و الانقلاب على العقبين كناية عن الاعراض، فان الانسان - هو منتصب على عقبيه - اذا انقلب من جهه الى جهه، انقلب على عقبيه، فجعل كنايه عن الاعراض نظير قوله: وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ (الأنفال ١٦)، و ظاهر الآيه انه دفع لما يختلج في صدور المؤمنين: من تغيير القبلة و نسخها، و من جهه الصلوات التي صلوها الى القبلة، ما شأنها؟

و يظهر من ذلك ان المراد بالقبلة التي كان رسول الله عليها، هو بيت المقدس الكعبه، فلا - دليل على جعل بيت المقدس قبله مرتين، و جعل الكعبه قبله مرتين، اذ لو كان المراد من القبلة في الآيه الكعبه كان لازم ذلك ما ذكر.

و بالجملة كان من المترقب ان يختلج في صدور المؤمنين: أولا، انه لما كان من المقدر ان يستقر القبلة بالآخره على الكعبه فما هو السبب، أولا: في جعل بيت المقدس قبله؟ فبين سبحانه ان هذه الاحكام و التشريعات ليست إلا لأجل مصالح تعود الى تربيته الناس و تكميلهم، و تمحيص المؤمنين من غيرهم، و تمييز المطيعين من العاصين، و المنقادين من المتمردين، و السبب الداعي الى جعل القبلة السابقه في حقهم أيضا هذا السبب بعينه، فالمراد بقوله الا - لنعلم من يتبع الرسول، الا لتمييز من يتبعك، و العدول من لفظ الخطاب الى

ص: ١٦٤

الغيبه لدخاله صفه الرساله فى هذا التميز، و المراد بجعل القبله السابقه: جعلها فى حق المسلمين، و ان كان المراد أصل جعل بيت المقدس قبله فالمراد مطلق الرسول، و الكلام على رسله من غير التفات، غير انه بعيد من الكلام بعض البعد.

و ثانيا: ان الصلوات التى كان المسلمون صلواها الى بيت المقدس كيف حالها، و قد صليت الى غير القبله؟ و الجواب: ان القبله قبله ما لم تنسخ، و ان الله سبحانه اذا نسخ حكما رفعه من حين النسخ، لا من أصله، لرأفته و رحمته بالمؤمنين، و هذا ما أشار اليه بقوله: **وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ بِالذَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ**. و الفرق بين الرأفه و الرحمه، و بعد اشتراكهما فى أصل المعنى، ان الرأفه يختص بالمبتلى المفتاق، و الرحمه أعم.

قوله تعالى: **قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا**، الآية تدل على ان رسول الله قبل نزول آيه القبله - و هى هذه الآية - كان يقلب وجهه فى آفاق السماء، و ان ذلك كان انتظارا منه، أو توقعا لنزول الوحي فى أمر القبله، لما كان يجب ان يكرمه الله تعالى بقبله تختص به، لا انه كان لا يرتضى بيت المقدس قبله، و حاشا رسول الله من ذلك، كما قال تعالى: **فلنولينك قبله ترضيها، فان الرضا بشىء لا يوجب السخط بخلافه بل اليهود على ما فى الروايات الوارده فى شأن نزول الآية كانوا يعيرون المسلمين فى تبعيه قبلتهم، و يتفاخرون بذلك عليهم، فحزن رسول الله ذلك، فخرج فى سواد الليل يقلب وجهه الى السماء ينتظر الوحي من الله سبحانه، و كشف همه فنزلت الآية، و لو نزلت على البقاء بالقبله السابقه لكانت حجه له صلى الله عليه و آله و سلم على اليهود، و ليس و لم يكن لرسول الله و لا للمسلمين عار فى استقبال قبلتهم، اذ ليس للعبد إلا الاطاعه و القبول، لكن نزلت قبله جديده، فقطع تعبيرهم و تفاخرهم، مضافا الى تعيين التكليف، فكانت حجه و رضى.**

قوله تعالى: **قَوْلٌ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ، الشطر البعض، و شطر المسجد الحرام هو الكعبه، و فى قوله تعالى**

شطر المسجد الحرام دون ان يقال: فول وجهك الكعبه، أو يقال: فول وجهك البيت الحرام، محاذاه للحكم فى القبلة السابقه، فانها كانت شطر المسجد الأقصى، و هى الصخره المعروفه هناك، فبدلت من شطر المسجد الحرام- و هى الكعبه- على ان اضافه الشطر الى المسجد، و توصيف المسجد بالحرام يعطى مزايا للحكم، تفوت لو قيل: الكعبه أو البيت الحرام.

و تخصيص رسول الله بالحكم أولا بقوله فول وجهك، ثم تعميم الحكم له و لغيره من المؤمنين بقوله و حيث ما كنتم يؤيد ان القبلة حولت، و رسول الله قائم يصلى فى المسجد -و المسلمون معه- فاختص الامر به، أولا فى شخص صلواته ثم عقب الحكم العام الشامل له و لغيره، و لجميع الأوقات و الأمكنه.

قوله تعالى: **وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ**، و ذلك لاشتمال كتابهم على صدق نبوه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، أو كون قبله هذا النبى الصادق هو شطر المسجد الحرام، و اياما كان فقوله: **أُوتُوا الْكِتَابَ**، يدل على اشتمال كتابهم على حقيقه هذا التشريع، اما مطابقه أو تضمنا، و ما الله بغافل عما يعملون من كتمان الحق، و احتكار ما عندهم من العلم.

قوله تعالى: **وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ**، تقرير لهم بالعناد و اللجاج، و ان إباءهم عن القبول ليس لخفاء الحق عليهم، و عدم تبيينه لهم، فانهم عالمون بأنه حق علما لا يخالطه شك، بل الباعث لهم على بث الاعتراض و إثارة الفتنة عنادهم فى الدين و جحودهم للحق، فلا- ينبغى لهم حجه، و لا- يقطع إنكارهم آيه، فلو أتيتهم بكل آيه ما تبعوا قبلك لعنادهم و جحودهم، و ما أنت بتابع قبلتهم، لانك على بينه من ربك، و يمكن أن يكون قوله: **و ما أنت نهيا فى صوره خبر، و ما بعضهم بتابع قبله بعض، و هم اليهود يستقبلون صخره بيت المقدس أينما كانوا، و النصارى يستقبلون المشرق أينما كانوا، فلا هذا البعض يقبل قبله ذاك البعض، و لا ذاك يقبل قبله هذا اتباعا للهوى.**

قوله تعالى: **وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعِيدٍ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**، تهديد للنبي، والمعنى متوجه الى امته، وإشاره الى انهم فى هذا التمرد إنما يتبعون أهوائهم و انهم بذلك ظالمون.

قوله تعالى: **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ** ، الضمير فى قوله يعرفونه، راجع الى رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم دون الكتاب، والدليل عليه تشبيه هذه المعرفة بمعرفة الابناء، فان ذلك إنما يحسن فى الانسان، ولا يقال فى الكتاب، ان فلانا يعرفه أو يعلمه، كما يعرف ابنه، على ان سياق الكلام- وهو فى رسول الله، و ما اوحى اليه من أمر القبله، اجنبى عن موضوع الكتاب الذى اوتيه أهل الكتاب، فالمعنى ان أهل الكتاب يعرفون رسول الله بما عندهم من بشارات الكتب كما يعرفون أبنائهم، و ان فريقا منهم ليكتمون الحق و هم يعلمون.

و على هذا ففى الكلام التفات من الحضور الى الغيبه فى قوله يعرفونه، فقد أخذ رسول الله غائباً، و وجه الخطاب الى المؤمنين بعد ما كان صَلَّى الله عليه و آله و سلم حاضراً، و الخطاب معه، و ذلك لتوضيح: ان امره صَلَّى الله عليه و آله و سلم واضح ظاهر عند أهل الكتاب، و مثل هذا النظم كمثل كلام من يكلم جماعه لكنه يخص واحدا منهم بالمخاطبه إظهاراً لفضله، فيخاطبه و يسمع غيره، فاذا بلغ الى ما يخص شخص المخاطب من الفضل و الكرامه، عدل عن خطابه الى مخاطبه الجماعه، ثم بعد الفراغ عن بيان فضله عدل ثانيا الى ما كان فيه أولاً من توجيه الخطاب إليه و بهذا يظهر نكته الالتفات.

قوله تعالى: **الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**، تأكيد للبيان السابق و تشديد فى النهى عن الامتراء، و هو الشك و الارتياب، و ظاهر الخطاب لرسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم و معناه للامه.

قوله تعالى: **وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيٌّ فَاسْتَبِقُوا الْحَيَاتِ**، الوجهه ما يتوجه

إليه كالمقبله، وهذا رجوع الى تلخيص البيان السابق، وتبديل له من بيان آخر يهدى الناس الى ترك تعقيب أمر القبلة، والاكثار من الكلام فيه، والمعنى ان كل قوم فلهم قبله مشرعه على حسب ما يقتضيه مصالحهم و ليس حكما تكوينيا ذاتيا لا يقبل التغيير و التحويل، فلا يهم لكم البحث و المشاجره فيه، فاتركوا ذلك و استبقوا الخيرات و سارعوا إليها بالاستباق، فان الله سيجمعكم الى يوم لا ريب فيه، و أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا ان الله على كل شيء قدير.

و اعلم ان الآيه كما انها قابله الانطباق على أمر القبلة لوقوعها بين آياتها كذلك تقبل الانطباق على أمر التكوين، و فيها اشاره الى القدر و القضاء، و جعل الاحكام و الآداب لتحقيقها و سيجيء تمام بيانه فيما يخص به من المقام إنشاء الله.

قوله تعالى: **وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ، ذكر بعض المفسرين أن المعنى و من أى مكان خرجت، و فى أى بقعه حللت فولّ وجهك و ذكر بعضهم أن المعنى و من حيث خرجت من البلاد، و يمكن أن يكون المراد بقوله و من حيث خرجت؛ مكة، التى خرج رسول الله صلى الله عليه و آله و سلمّ منها كما قال تعالى: **مِنْ قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ** (محمد ٣)، و يكون المعنى أن استقبال البيت حكم ثابت لك فى مكة و غيرها من البلاد و البقاع، و فى قوله و أنه للحق من ربك و ما الله بغافل عما تعملون تأكيد و تشديد.

قوله تعالى: **وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** ، تكرار الجملة الاولى بلفظها لعله للدلالة على ثبوت حكمها على أى حال، فهو كقول القائل، اتق الله اذا قمت و اتق الله اذا قعدت، و اتق الله اذا نطقت، و اتق الله اذا سكت، يريد: التزم التقوى عند كل واحده من هذه الأحوال و لتكن معك، و لو قيل اتق الله اذا قمت و اذا قعدت و اذا نطقت و اذا سكت فانت هذه النكته، و المعنى استقبال شطر المسجد الحرام من التى خرجت منها و حيث ما كنتم من الأرض فولّوا

وجوهكم شطره.

قوله تعالى: **لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاحْشَوْنِي**، بيان لفوائد ثلاث في هذا الحكم الذي فيه أشد التأكيد على ملازمه الامتثال و التحذّر عن الخلاف:

إحداها: أن اليهود كانوا يعلمون من كتبهم أن النبي الموعود تكون قبلته الكعبة دون بيت المقدس، كما قال تعالى: **وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم، الآية**، وفي ترك هذا الحكم الحجج لليهود على المسلمين بأن النبي ليس هو النبي الموعود لكن التزام هذا الحكم والعمل به يقطع حججهم إلا الذين ظلموا منهم، وهو استثناء منقطع، أي لكن الذين ظلموا منهم باتباع الأهواء لا ينقطعون بذلك فلا تخشوهم لأنهم ظالمون باتباع الأهواء، والله لا يهدى القوم الظالمين و اخشوني.

و ثانيها: أن ملازمه هذا الحكم يسوق المسلمين الى تمام النعمة عليهم بكمال دينهم، و سنبين معنى تمام النعمة في الكلام على قوله تعالى: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي** (المائدة/٤).

و ثالثها: رجاء الاهتداء الى الصراط المستقيم، وقد مرّ معنى الاهتداء في الكلام على معنى قوله تعالى: **إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** (فاتحه الكتاب/٦) [\(١\)\(٢\)](#).

قوله تعالى: **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ**، ظاهر الآية أن الكاف للتشبيه و ما مصدرية، فالمعنى: **أنعمنا عليكم بأن جعلنا لكم البيت الذي بناه إبراهيم، و دعا له بما دعا من الخيرات و البركات قبله**. كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا و يعلمكم الكتاب

ص: ١٦٩

١- ١). البقره ١٤٢-١٥١: بحث حول «تمام النعمة».

٢- ٢). البقره ١٤٢-١٥١: بحث روائي حول تغيير القبلة من بيت المقدس الى مكة؛ الآية «لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا»؛ الآمه الاسلاميه؛ القول و العمل و الايمان.

و الحكمه و يزكيكم مستجيبين لدعوه إبراهيم، اذ قال هو و ابنه إسماعيل ربنا و ابعث فيهم رسولا- منهم يتلو عليهم آياتك و يعلمهم الكتاب و الحكمه و يزكيهم، و فيهم امتنان عليهم بالإرسال كالامتنان يجعل الكعبه قبله، و من هنا يظهر أن المخاطب بقوله فيكم رسولا- منكم، هو الأمه المسلمه، و هو أولياء الدين من الامه خاصه بحسب الحقيقه، و المسلمون جميعا من آل إسماعيل - و هم عرب مضر- بحسب الظاهر، و جميع العرب بل جميع المسلمين بحسب الحكم.

قوله تعالى: **يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا**، ظاهره آيات القرآن لمكان قوله يتلو، فإن العنايه فى التلاوه الى اللفظ دون المعنى، و التركيزه هى التطهير، و هو إزالة الأدناس و القذرات، فيشمل إزالة الاعتقادات الفاسده كالشرك و الكفر، و إزالة الملكات الرذيله من الأخلاق كالكبر و الشح، و إزالة الأعمال و الأفعال الشنيعه كالقتل و الزنا و شرب الخمر و تعليم الكتاب و الحكمه، و تعليم ما لم يكونوا يعلمونه يشمل جميع المعارف الأصلية و الفرعية (١)(٢).

[سوره البقره (٢): آيه ١٥٢]

اشاره

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَ أَشْكُرُوا لِي وَ لَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)

بيان:

لما امتن الله تعالى على النبي و المسلمين، بإرسال النبي الكريم منهم إليهم نعمه لا تقدر بقدر

ص: ١٧٠

١- ١). البقره ١٤٢-١٥١: بحث علمى حول القبله؛ الجداول الموضوعه فى الزيجات لبيان عرض البلاد و طولها؛ الاشتباه المتقدمين فى تشخيص الطول و العرض كرامه باهره للنبي صلى الله عليه و آله و سلم فى محرابه المحفوظ فى مسجد بالمدينه؛ استخراج قبله بقاع الارض.

٢- ٢). البقره ١٤٢-١٥١: بحث اجتماعى فى الطبيعه الانسانيه و دورها فى تشكيل المجتمع الانسانى؛ التوجه العبادى الى الله سبحانه؛ آثار استقبال القبله بالنظر الى الفرد و الى المجتمع.

و منحه على منحه-و هو ذكر منه لهم-اذ لم ينسهم فى هدايتهم الى مستقيم الصراط،و سوقهم الى أقصى الكمال،و زياده على ذلك،و هو جعل القبلة،الذى فيه كمال دينهم،و توحيد عبادتهم،و تقويم فضيلتهم الدينيه و الاجتماعيه فرع على ذلك دعوتهم الى ذكره و شكره، ليذكرهم بنعمته على ذكرهم إياه بعبوديته و طاعته،و يزيدهم على شكرهم لنعمته و عدم كفرانهم،و قد قال تعالى: **وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا** (الكهف ٢٤). و قال تعالى: **لِيُنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ** (إبراهيم ٧)،و الآيتان جميعا نازلتان قبل آيات القبلة من سورة البقره.

ثم إن الذكر ربما قابل الغفله كقوله تعالى: **وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا** (الكهف ٢٨). و هى انتفاء العلم بالعلم،مع وجود أصل العلم،فالذكر خلافه،و هو العلم بالعلم،و ربما قابل النسيان و هو زوال صورته العلم عن خزانة الذهن،فالذكر خلافه،و منه قوله تعالى: **وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ الْآيَةَ**؛و هو حينئذ كالنسيان معنى ذو آثار و خواص تتفرع عليه،و لذلك ربما أطلق الذكر كالنسيان فى موارد تتحقق فى آثارهما و إن لم تتحقق أنفسهما،فإنك اذا لم تنصر صديقك-و أنت تعلم حاجته الى نصرك فقد نسيت،و الحال أنك تذكره،و كذلك الذكر.

و الظاهر أن إطلاق الذكر على اللفظى من هذا القبيل،فإن التكلم عن الشىء من آثار ذكره قلبا،قال تعالى: **قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا** (الكهف ٨٣).و نظائره كثيره،و لو كان الذكر اللفظى أيضا ذكرا حقيقه فهو من مراتب الذكر،لأنه مقصور عليه و منحصر فيه،و بالجملة:الذكر له مراتب كما قال تعالى: **أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ** (الرعد ٢٨)،و قال: **وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ** (الأعراف ٢٠٥)،و قال تعالى: **فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا** (البقره ٢٠٠)،فالشده إنما يتصف به المعنى دون اللفظ،و قال تعالى: **وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ**

عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (الكهف ٢٤)، و ذيل هذه الآيه تـدل على الأمر بـرجاء ما هو أعلى منزله مما هو فيه، فيقول المعنى الى أنك اذا تنزلت من مرتبه من ذكره الى مرتبه هي دونها، و هو النسيان، فاذكر ربك و ارج بذلك ما هو أقرب طريقا و أعلى منزله، فينتج أن الذكر القلبي ذو مراتب في نفسه، و بذلك يتبين صحه قول القائل: إن الذكر حضور المعنى عند النفس، فان الحضور ذو مراتب.

و لو كان لقوله تعالى: فَأذْكُرُونِي - و هو فعل متعلق بـياء المتكلم حقيقه من دون تجوز أفاد ذلك، أن للانسان سنخا آخر من العلم غير هذا العلم المعهود عندنا الذي هو حصول صوره المعلوم و مفهومه عند العالم، اذ كلما فرض من هذا القبيل فهو تحديد و توصيف للمعلوم من العالم، و قد تقدست ساحته سبحانه عن توصيف الواصفين، قال تعالى سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (الصافات ١٦٠)، و قال: وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (طه ١١٠)، و سيجيء بعض ما يتعلق بالمقام في الكلام على الآيتين إنشاء الله.

[سوره البقره (٢): الآيات ١٥٣ الى ١٥٧]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أحياءٌ وَ لَكِن لَّا تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَرَاتِ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ الآية، قد تقدم جملة من الكلام في الصبر و الصلاة في تفسير قوله: وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (البقره ١٤٥)، و الصبر: من أعظم الملكات و الأحوال التي يمدحها القرآن، و يكرر الأمر به حتى بلغ قريبا من سبعين موضعا من القرآن حتى قيل فيه: إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (لقمان ١٧)، و قيل: وَ مَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ مَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (فصلت ٣٥)، و قيل: إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (الزمر ١٠).

و الصلاة: من أعظم العبادات التي يحث عليها في القرآن حتى قيل فيها: إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ (العنكبوت ٤٥)، و ما أوصى الله في كتابه بوصايا إلا كانت الصلاة رأسها و أولها.

ثم وصف سبحانه الصبر بأن الله مع الصابرين المتصفين بالصبر، و إنما لم يصف الصلاة، كما في قوله تعالى: وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ وَ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ، الآية، لأن المقام في هذه الآيات، مقام ملاقات الأحوال، و مقارعة الأبطال، فالاهتمام بأمر الصبر أنسب بخلاف الآية السابقة، فلذلك قيل لا إن الله مع الصابرين، و هذه المعية غير المعية التي يدل عليه قوله تعالى: وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ (الحديد ٤)، فإنها معية الإحاطة و القيمومه، بخلاف المعية مع الصابرين، فإنها معية إعانه فالصبر مفتاح الفرج.

قوله تعالى: وَ لَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَ لَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ الآية، ربما يقال: إن الخطاب مع المؤمنين الذين آمنوا بالله و رسوله و اليوم

الآخر و أذعنوا بالحياه الآخره، و لا يتصور منهم القول ببطلان الإنسان بالموت، بعد ما أجابوا دعوه الحق و سمعوا شيئا كثيرا من الآيات الناطقه بالمعاد، مضافا الى أن الآيه إنما تثبت الحياه بعد الموت في جماعه مخصوصين، و هم الشهداء المقتولون في سبيل الله، في مقابل غيرهم من المؤمنين، و جميع الكفار، مع أن حكم الحياه بعد الموت عام شامل للجميع فالمراد بالحياه بقاء الاسم، و الذكر الجميل على مر الدهور، و بذلك فسره جمع من المفسرين.

و يردّه أولاً: أن كون هذه حيوه إنما هو في الوهم فقط دون الخارج، فهي حيوه تخيليه ليس لها في الحقيقه إلا الاسم، و مثل هذا الموضوع الوهمي لا يليق بكلامه، و هو تعالى يدعو الى الحق، و يقول: **فَمَا ذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ** (يونس ٣٢)، و أما الذي سأله إبراهيم في قوله: **وَ اجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ** (الشعراء ٨٤)، فإنما يريد به بقاء دعوته الحقه، و لسانه الصادق بعده، لا حسن ثنائه و جميل ذكره بعده فحسب.

و ثانيا: ان ذيل الآيه - و هو قوله تعالى: **وَ لَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ** - لا يناسب هذا المعنى، بل كان المناسب له أن يقال: بل أحياء ببقاء ذكرهم الجميل، و ثناء الناس عليهم بعدهم، لأنه المناسب لمقام التسليه و تطيب النفس.

و ثالثا: أن نظيره هذه الآيه - و هي تفسرها - و وصف حياتهم بعد القتل بما ينافي هذا المعنى، قال تعالى: **وَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** (آل عمران ١٩٦)، الى آخر الآيات و معلوم أن هذه الحياه حيوه خارجيه حقيقه ليست بتقديره.

و رابعا: ان الجهل بهذه الحياه التي بعد الموت ليس بكل البعيد من بعض المسلمين في اواسط عهد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فإن الذي هو نص غير قابل للتأويل انما هو البعث للقيمه، و اما ما بين الموت الى الحشر - و هي الحياه البرزخيه - فهي و ان كانت من جمله ما بينه القرآن

من المعارف الحقه، لكنها ليست من ضروريات القرآن، والمسلمون غير مجمعين عليه بكل ينكره بعضهم حتى اليوم ممن يعتقد كون النفس غير مجردة عن المادة و ان الانسان يبطل وجوده بالموت و انحلال التركيب، ثم يعيشه الله الى القضاء يوم القيمة، فيمكن ان يكون المراد بيان حيوة الشهداء فى البرزخ لمكان جهل بعض المؤمنين بذلك، و ان علم به آخرون.

فمعنى الآيه-و الله اعلم-ولا- تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله اموات، و لا- تعتقدوا فيهم الفناء و البطلان كما يفيد لفظ الموت عندكم، و مقابله مع الحياه، و كما يعين على هذا القول حواسكم فليسوا باموات بمعنى البطلان، بل احياء و لكن حواسكم لا تنال ذلك و لا- تشعر به، و إلقاء هذا القول على المؤمنين-مع انهم جميعا أو أكثرهم عالمون ببقاء حيوة الانسان بعد الموت، و عدم بطلان ذاته-انما هو لايقاظهم و تنبيههم بما هو معلوم عندهم، يرتفع بالالتفات اليه الحرج عن صدورهم، و الاضطراب و القلق عن قلوبهم اذا أصابتهم مصيبه القتل، فانه لا يبقى مع ذلك من آثار القتل عند اولياء القتل الا مفارقه فى ايام قلائل فى الدنيا و هو هين فى قبال مرضاه الله سبحانه و ما ناله القتل من الحياه الطيبه، و النعمه المقيمه، و رضوان من الله اكبر، و هذا نظير خطاب النبى بمثل قوله تعالى: **الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْفِرِينَ**، الآيه؛ مع انه صلى الله عليه و آله و سلم اول الموقنين بآيات ربه، و لكنه كلام كنى به عن وضوح المطلب، و ظهوره بحيث لا يقبل أى خطور نفسانى لخلافه (1).

قوله تعالى: **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ**، لما أمرهم الله بالاستعانه بالصبر و الصلاه، و نهاهم عن القول بموت من يقتل منهم فى سبيل الله بل هم احياء بين لهم السبب الذى من أجله خاطبهم بما

ص: ١٧٥

خاطب، و هو أنهم سيبتلون بما لا يتمهد لهم المعالى و لا يصفو لهم الأمر فى الحياه الشريفه، و الدين الحنيف إلا به، و هو الحرب و القتال، لا- يدور رحى النصر و الظفر على مرادهم إلا- أن يتحصنوا بهذين الحصنين و يتأيدوا بهاتين القوتين، و هما الصبر و الظفر، و يضيفوا الى ذلك ثالثا و هو خصله ما حفظها قوم إلا ظفروا بأقصى مرادهم و حازوا الغايه القصوى من كمالهم، و اشدت بأسهم و طابت نفسهم، و هو الإيمان بأن القتل منهم غير ميت و لا فقيد، و أن سعيهم بالمال و النفس غير ضائع و لا باطل، فإن قتلوا عدوهم فهم على الحياه، و قد أبادوا عدوهم و ما كان يريد من حكمه الجور و الباطل عليهم- و إن قتلهم عدوهم فهم على الحياه- و لم يتحكم الجور و الباطل عليهم، فلهم إحدى الحسنين على أى حال.

و عامه الشدائد التى يأتى بها هو الخوف و الجوع و نقص الأموال و الأنفس فذكرها الله تعالى، و أما الثمرات فالظاهر أنها الأولاد، فإن تأثير الحرب فى قله النسل بموت الرجال و الشبان أظهر من تأثيره فى نقص ثمرات الأشجار، و ربما قيل: إن المراد ثمرات النخيل، و هى التمر و المراد بالأموال غيرها و هى الدواب من الإبل و الغنم.

قوله تعالى: وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اعاد ذكر الصابرين لبشرهم اولاً، و يبين كيفيه الصبر بتعليم ما هو الصبر الجميل ثانياً، و يظهر به حق الامر الذى يقضى بوجوب الصبر- و هو ملكه تعالى للانسان- ثالثاً، و يبين جزائه العام- و هو الصلاه و الرحمه و الاهتداء- رابعاً.

فأمر تعالى نبيه اولاً بتبشيرهم، و لم يذكر متعلق البشاره لتفخيم امره فانها من الله سبحانه فلا تكون الا خيراً و جميلاً، و قد ضمنها رب العزه، ثم يبين ان الصابرين هم الذين يقولون: كذا و كذا عند إصابه المصيبه، و هى الواقعه التى تصيب الانسان، و لا يستعمل لفظ المصيبه الا فى النازله المكروهه، و من المعلوم ان ليس المراد بالقول مجرد التلفظ بالجمله من غير حضور معناها بالبال، و لا مجرد الاخطار من غير تحقق بحقيقه معناها، و هى ان الانسان مملوك لله

بحقيقه الملك، و ان مرجعه الى الله سبحانه و به يتحقق أحسن الصبر الذى يقطع منابت الجزع و الأسف، و يغسل رين الغفله (١).

قوله تعالى: **أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** الآية؛ التدبر فى الآيه يعطى أن الصلاه غير الرحمه بوجه، و يشهد به جمع الصلاه و إفراد الرحمه، و قد قال تعالى: **هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا** (الأحزاب ٤٣)، و الآيه تفيد كون قوله: **وَ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**، فى موقع العله لقوله: **هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ**، و المعنى انه انما يصلى عليكم، و كان من اللازم المترقب ذلك، لأن عاداته جرت على الرحمه بالمؤمنين، و أنتم مؤمنون فكان من شأنكم أن يصلى عليكم حتى يرحمكم، فنسبه الصلاه الى الرحمه نسبه المقدمه الى ذيهها و كالنسبه التى بين الالتفات و النظر، و التى بين الإلقاء فى النار و الإحراق مثلا، و هذا يناسب ما قيل فى معنى الصلاه: أنها الانعطاف و الميل، فالصلاه من الله سبحانه انعطاف الى العبد بالرحمه و من الملائكه انعطاف الى الإنسان بالتوسط فى إيصال الرحمه، و من المؤمنين رجوع و دعاء بالعبوديه و هذا لا ينافى كون الصلاه بنفسها رحمه و من مصاديقها، فإن الرحمه فى القرآن على ما يعطيه التدبر فى موارد هى العطيه المطلقه الإلهيه، و الموهبه العامه الربانيه، كما قال تعالى:

وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ (الأعراف ١٥٦)، و قال تعالى: **وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ** **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَأْ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ** (الأنعام / ١٣٣)، فالإذهاب لغناه و الاستخلاف و الإنشاء لرحمته، و هما جميعا يستندان الى رحمته كما يستندان الى غناه فكل خلق و أمر رحمه، كما أن كل خلق و أمر عطيه تحتاج الى غنى،

ص: ١٧٧

١ - ١). البقره ١٥٣-١٥٧: بحث فى الاخلاق؛ تهذيب الاخلاق و اكتساب الفاضله منها و المسالك المختلفه فيها؛ مسلک فى تهذيب الاخلاق مخصوص بالقرآن الكريم.

قال تعالى: **وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا** (الإسراء ٢٠/١)، و من عطيته الصلاة فهي أيضا من الرحمه غير أنها رحمه خاصه، و من هنا يمكن أن يوجه جمع الصلاة و أفراد الرحمه فى الآيه.

قوله تعالى: **وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**، كأنه بمنزله النتيجة لقوله: **أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ**، و لذلك جدّد اهتداءهم جملة ثانية مفصولة عن الأولى، و لم يقل:

صلوات من ربهم و رحمه و هدايه، و لم يقل: و أولئك هم المهديون بل ذكر قبولهم للهدايه بالتعبير بلفظ الاهتداء الذى هو فرع مترتب على الهدايه، فقد تبدو أن الرحمه هدايتهم إليه تعالى، و الصلوات كالمقدمات لهذه الهدايه و اهتدائهم نتيجة هذه الهدايه، فكل من الصلاة و الرحمه و الاهتداء غير الآخر و إن كان الجميع رحمه بنظر آخر.

فمثل هؤلاء المؤمنين فى ما يخبره الله من كرامته عليهم مثل صديقك تلقاه و هو يريد دارك، و يسأل عنها يريد النزول بك فتلقاه بالبشر و الكرامه، فتورده مستقيم الطريق و أنت معه تسيره، و لا تدعه يضل فى مسيره حتى تورده نزله من دارك و تعاهده فى الطريق بمأكله و مشربه، و ركوبه و سيره، و حفظه من كل مكروه يصيبه فجميع هذه الامور إكرام واحد لأنك إنما تريد إكرامه، و كل تعاهد تعاهد و إكرام خاص، و الهدايه غير الإكرام، و غير التعاهد، و هو مع ذلك إكرام فكل منها تعاهد، و كل منها هدايه و كل منها إكرام خاص، و الجميع إكرام.

فالإكرام الواحد العام بمنزله الرحمه، و التعاهدات فى كل حين بمنزله الصلوات، و النزول فى الدار بمنزله الاهتداء.

و الايتان بالجملة الاسميه فى قوله: **وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**، و الابتداء باسم الإشاره الدال على البعيد، و ضمير الفصل ثانيا و تعريف الخبر بلام الموصول فى قوله: **الْمُهْتَدُونَ** كل ذلك

اشاره

إِنَّ الصِّفَا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَيَّجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُدَا ح عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)

بيان:

فقوله تعالى: إِنَّ الصِّفَا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ -الى قوله- يَطَّوَّفَ بِهِمَا يشير الى كون المكانين معلّمين بعلامه الله سبحانه، يدلان بذلك عليه، و يذكر انه تعالى و اختصاصهما بكونهما من الشعائر دون بقيه الأشياء جميعا يدل على أن المراد بالشعائر ليست الشعائر التكوينية بل هما شعيرتان بجعله تعالى إياهما معبدين يعبد فيهما، فهما يذكران الله سبحانه، فكونهما شعيرتين يدل على أنه تعالى قد شرع فيهما عباده متعلقه بهما، و تفرع قوله:

فَمَنْ حَيَّجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُدَا ح عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا إِنَّمَا هُوَ لِلإِذَانِ بِأَصْلِ تَشْرِيحِ السَّعْيِ بَيْنَ الصِّفَا وَ الْمَرْوَةِ، لا- لإفاده الندب، و لو كان المراد إفاده الندب كان الأنسب بسياق الكلام أن يمدح التطوف، لا أن ينفي ذمه، فإن حاصل المعنى أنه لما كان الصِّفَا وَ الْمَرْوَةَ معبدتين

ص: ١٧٩

١- ١). البقره ١٥٣-١٥٧: بحث روائى فى البرزخ و حياه الروح بعد الموت.

٢- ٢). البقره ١٥٣-١٥٧: بحث فلسفى فى النفس؛ هل النفس مجردة عن المادة؟

٣- ٣). البقره ١٥٣-١٥٧: بحث اخلاقى فى علم الاخلاق (و هو الفن الباحث عن الملكات الانسانيه المتعلقه بقواه النباتيه و الحيوانيه و الانسانيه)؛ اصول الاخلاق الفاضله (العفه و الشجاعه و الحكمه و العداله) و فروعها؛ النظرية العجيبه التى ذهب إليها الاشتراكيون من الماديين و النظرية غير حديثه؛ الحسن و القبح مطلق و نسبى.

٤- ٤). البقره ١٥٣-١٥٧: بحث روائى فى الاحكام العقلية و الاحكام الشرعية.

و منسكين من معابد الله فلا يضركم أن تعبدوه فيهما، وهذا لسان التشريع، ولو كان المراد إفاده التذب كان الأنسب أن يفاد أن الصيفا و المروه لما كانا من شعائر الله فإن الله يحب السعى بينهما - وهو ظاهر - و التعبير بأمثال هذا القول الذي لا يفيد وحده الإلزام في مقام التشريع شائع في القرآن، كقوله تعالى في الجهاد: [□]ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ (الصف ١١)، و في الصوم وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ (البقره ١٨٤)، و في القصر فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ (النساء ١٠١).

قوله تعالى: وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ، [□]إن كان معطوفا على مدخول فاء التفرع في قوله تعالى: فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ، كان كالتعليل لتشريع التطوف بمعنى آخر أعم من العله الخاصه التي تبين بقوله: إِنَّ الصَّافَا وَ الْمَرْوَةَ، و كان المراد بالتطوع مطلق الإطاعه لا- الإطاعه المندوبه، و إن كان استينافا بالعطف الى اول الآيه كان مسوقا لإفاده محبوبه التطوف في نفسه ان كان المراد بتطوع الخير هو التطوف او مسوقا لإفاده محبوبه الحج و العمره ان كانا هما المراد بتطوع الخير هذا.

و الشاكر و العليم اسمان من اسماء الله الحسنی، و الشكر هو مقابله من احسن إليه إحسان المحسن بإظهار لسانا أو عملا كمن ينعم إليه المنعم بالمال فيجازيه بالثناء الجميل الدال على نعمته أو باستعمال المال في ما يرتضيه، و يكشف عن إنعامه، و الله سبحانه و إن كان محسنا قديم الإحسان و منه كل الإحسان لا يد لأحد عنده حتى يستوجهه الشكر إلا أنه جل ثنائه عد الأعمال الصالحه التي هي في الحقيقه إحسانه الى عباده إحسانا من العبد إليه، فجازاه بالشكر و الإحسان و هو إحسان على إحسان قال تعالى: هَيْلٌ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (الرحمن ٦٠)، و قال تعالى: إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَ كَانَ سَيِّئِكُمْ مَشْكُورًا (الدهر/ ٢٢)، فإطلاق الشاكر عليه تعالى على حقيقه معنى الكلمه من غير مجاز.

إشارة

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَفَرُوا وَكَفَرُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (١٦٢)

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ، الظاهر -و الله أعلم- أن المراد بالهدى ما تضمنه الدين الإلهي من المعارف والأحكام الذي يهدي تابعيه الى السعادة، وبالبيّنات الآيات والحجج التي هي بينات وأدلة وشواهد على الحق الذي هو الهدى، فالبيّنات في كلامه تعالى وصف خاصّ بالآيات النازله، وعلى هذا يكون المراد بالكتمان -و هو الإخفاء- أعم من كتمان أصل الآيه، وعدم إظهاره للناس، أو كتمان دلالاته بالتأويل أو صرف الدلالة بالتوجيه، كما كانت اليهود تصنع ببشارات النبوه ذلك فما يجهله الناس لا يظهره لهم، وما يعلم به الناس يؤوّلونه بصرفه عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ، أفاد أن كتمانهم إنما هو بعيد البيان والتبين للناس، لا لهم فقط، وذلك أن التبين لكل شخص شخص من أشخاص الناس أمر لا يحتمله

النظام الموجود المعهود في هذا العالم، لا- في الوحي فقط، بل في كل إعلام عمومي و تبين مطلق، بل إنما يكون باتصال الخبر الى بعض الناس من غير واسطه و الى بعض آخرين بواسطتهم، بتبليغ الحاضر الغائب، و العالم الجاهل، فالعالم يعد من وسائط البلوغ و أدواته، كاللسان و الكلام: فاذا بين الخبر للعالم المأخوذ عليه الميثاق بعلمه مع غيره من المشافهين فقد بين للناس، فكتمان العالم علمه هذا كتمان العلم عن الناس بعد البيان لهم و هو السبب الوحيد الذي عده الله سبحانه سببا لاختلاف الناس في الدين و تفرقهم في سبل الهدايه و الضلاله، و إلا- فالدين فطري تقبله الفطره و تخضع له القوه المميزه بعد ما بين لها، قال تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (الروم ٣٠)، فالدين فطري على الخلقه لا- يدفعه الفطره أبدا لو ظهر لها ظهورا ما بالصفاء من القلب، كما في الأنبياء، أو ببيان قولي، و لا محاله ينتهي هذا الثاني الى ذلك الأول فافهم ذلك.

و لذلك جمع في الآيه بين كون الدين فطريا على الخلقه و بين عدم العلم به فقال: فطره الله التي فطر الناس عليها، و قال: لكن أكثر الناس لا يعلمون، و قال تعالى: وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اِخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اِخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ (البقره ٢١٣)، فأفاد أن الاختلاف فيما يشتمل عليه الكتاب إنما هو ناش عن بغى العلماء الحاملين له، فالاختلافات الدينيه و الانحراف عن جاده الصواب معلول بغى العلماء بالإخفاء و التأويل و التحريف، و ظلمهم، حتى أن الله عرف الظلم بذلك يوم القيمه كما قال: فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجًا (الأعراف ٤٤)، و الآيات في هذا المعنى كثيره.

قوله تعالى: أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ، بيان لجزاء بغى الكاتمين لما أنزله الله من الآيات و الهدى، و هو اللعن من الله، و اللعن من كل لاعن، و قد كرر اللعن لأن

اللعن مختلف فإنه من الله التبعيد من الرحمه و السعاده و من اللاعنين سؤاله من الله، و قد أطلق اللعن منه و من اللاعنين و أطلق اللاعنين، و هو يدل على توجيه كل اللعن من كل لاعن إليهم و الاعتبار يساعد عليه فإن الذى يقصده لاعن بلعنه هو البعد عن السعاده، و لا سعاده بحسب الحقيقه، إلا السعاده الحقيقه الدينيه، و هذه السعاده لما كانت مسينه من جانب الله، مقبوله عند الفطره، فلا يحرم عنها محروم إلا بالرد و الجحود، و كل هذا الحرمان إنما هو لمن علم بها و جحدها عن علم دون من لا يعلم بها و لم تبين له، و قد أخذ الميثاق على العلماء أن يثوا علمهم و ينشروا ما عندهم من الآيات و الهدى، فإذا كتموه و كفوا عن بثه فقد جحدوه فأولئك يلعنهم لله و يلعنهم اللاعنون، و يشهد لما ذكرنا الآيه الآتيه: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَا تُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ -الى قوله- أَجْمَعِينَ، الآيه؛ فإن الظاهر أن قوله: إِنَّ للتعليل أو لتأكيد مضمون هذه الآيه، بتكرار ما هو فى مضمونها و معناها و هو قوله: الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَا تُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ .

قوله تعالى: إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ بَيَّنَّا الْآيَةَ لِقَوْمِهِ السَّابِقه، و المراد بتقييد توبتهم بالتبين أن يتبين أمرهم و يتظاهروا بالتوبه، و لازم ذلك أن يبينوا ما كتموه للناس و أنهم كانوا كاتمين و الا فلم يتوبوا بعد لأنهم كاتمون بعد بكتمان أنهم كانوا كاتمين.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَا تُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ، كناية عن إصرارهم على كفرهم و عنادهم و تعنتهم فى قبول الحق فإن من لا يدين بدين الحق لا لعناد و استكبار بل لعدم تبينه له ليس بكافر بحسب الحقيقه، بل مستضعف، أمره الى الله، و يشهد بذلك تقييد كفر للكافرين فى غالب الآيات و التكذيب و خاصه فى آيات هبوط آدم المشتمله على أول تشريع شرع لنوع الإنسان، قال تعالى: قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى -الى قوله- وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقره ٣٩)، فالمراد بالذين كفروا فى الآيه هم المكذبون المعاندون -و هم الكاتمون لما أنزل الله- و جازاهم الله تعالى بقوله: أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَ الْمَلَائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، و هذا حكم

من الله سبحانه أن يلحق بهم كل لعن لعن به ملك من الملائكة أو أحد من الناس جميعا من غير استثناء فهؤلاء سيبلهم سبيل الشيطان، اذ قال الله سبحانه فيه: **وَإِنَّ عَلَيْنَا لَلْأَلْفَنَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ** (الحجر ٣٥)، فجعل جميع اللعن عليه هؤلاء- وهم العلماء الكاتمون لعلمهم- شركاء الشيطان في اللعن العام المطلق و نظرائه فيه، فما أشد لحن هذه الآيه و أعظم أمرها! و سيجيء في الكلام على قوله تعالى: **لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ لَ الْخَبِيثِ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكَبُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ** (الأنفال ٣٧)، ما يتعلق بهذا المقام إنشاء الله العزيز.

قوله تعالى: **خَالِدِينَ فِيهَا**، أى فى اللعنه، و قوله: **لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْتَظَرُونَ**، فى تبديل السياق بوضع العذاب موضع اللعنه دلالة على أن اللعنه تتبدل عليهم عذابا.

[سوره البقره (٢): الآيات ١٦٣ الى ١٦٧]

اشاره

وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضْرِيْفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** (١٦٤) **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ** (١٦٥) **إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ** (١٦٦) **وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأْنَا مِنْكَ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ** (١٦٧)

قوله تعالى: **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**، قد مر معنى الإله في الكلام على البسملة من سورة الحمد في أول الكتاب، وأما الوحده فمفهومها من المفاهيم البديهية التي لا نحتاج في تصورها الى معرف يدلنا عليها، والشىء ربما يتصف بالوحده من حيث وصف من أوصافه، كرجل واحد، وعالم واحد، وشاعر واحد، فيدل به على أن الصفه التي فيه لا تقبل الشركه ولا تعرضها الكثره، فان الرجوليه التي في زيد مثلا- هو رجل واحد- ليست منقسمه بينه وبين غيره، بخلاف ما في زيد وعمرو مثلا- وهما رجلان- فانه منقسم بين اثنين كثير بهما، فزيد من جهة هذه الصفه- هي الرجوليه- واحد لا يقبل الكثره، وإن كان من جهة هذه الصفه و غيرها من الصفات كعلمه، وقدرته، وحياته، ونحوها ليس بواحد بل كثير حقيقه، واللّه سبحانه واحد، من جهة أن الصفه التي لا يشاركه فيها غيره، كالالوهيه فهو واحد في الالوهيه، لا يشاركه فيها غيره تعالى، والعلم والقدره والحياء، فله علم لا كالعلوم وقدره وحيوه لا كقدره غيره وحياته، وواحد من جهة أن الصفات التي له لا تتكثر ولا تتعدد إلا مفهوما فقط، فعلمه وقدرته وحياته جميعها شىء واحد هو ذاته، ليس شىء منها غير الآخر بل هو تعالى يعلم بقدرته و يقدر بحياته و حى بعلمه، لا كمثل غيره في تعدد الصفات عينا

و مفهومها، و ربما يتصف الشيء بالوحده من جهه ذاته، و هو عدم التكثر و التجزى فى الذات بذاته، فلا تتجزى الى جزء و جزء، و الى ذات و اسم و هكذا، و هذه الوحده هى المسماه بأحديه الذات، و يدل على هذا المعنى بلفظ أحد، الذى لا يقع فى الكلام من غير تقييد بالإضافه إلا اذا وقع فى حيز النفى أو النهى أو ما فى معناهما كقولنا ما جاءنى أحد، فيرتفع بذلك أصل الذات سواء كان واحداً أو كثيراً، لأن الوحده مأخوذه فى أصل الذات لا فى وصف من أوصافه بخلاف قولنا: ما جاءنى واحد فان هذا القول لا يكذب بمجىء اثنين أو أزيد لأن الوحده مأخوذه فى صفه الجائى و هو الرجوليه فى رجل واحد مثلاً فاحتفظ بهذا الإجمال حتى نشرحه تمام الشرح فى قوله تعالى: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (الإخلاص ١)، إنشاء الله تعالى.

قوله تعالى: لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، جىء به لتأكيد نصوصيه الجمله السابقه فى التوحيد و نفى كل توهم أو تأويل يمكن أن يتعلق بها، و النفى فيه نفى الجنس، و المراد بالإله ما يصدق عليه الإله حقيقه و واقعا، و حينئذ فيصح أن يكون الخبر المحذوف هو موجود أو كائن، أو نحوهما، و التقدير لا- إله بالحقيقه و الحق بموجود، و حيث كان لفظه الجلامه مرفوعاً لا- منصوباً فلفظ إلا- ليس للاستثناء، بل وصف بمعنى غير، و المعنى لا إله غير الله بموجود.

قوله تعالى: الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، قد مر الكلام فى معناهما فى تفسير البسملة من سوره الفاتحه و بذكر الاسمين يتم معنى الربوبيه، فإليه تعالى ينتهى كل عطيه عامه، بمقتضى رحمانيته، و كل عطيه خاصه واقعه فى طريق الهدايه و السعاده الاخرويه بمقتضى رحيمته.

قوله تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ السياق كما فى أول البيان يدل على أن الآيه مسوقه للدلاله و البرهنه على ما تضمنته الآيه السابقه أعنى قوله

كانت بالجاذبه العامه،و إفاضه النور و الحرارة و تحيى بذلك سنه الحركه العامه و الزمان العمومى،و هذا نظام عام دائم تحت قانون ثابت،حتى أن النسبيه العموميه القاصيه بالتغير فى قوانين الحركه فى العالم الجسمانى لا تتجافى عن الاعتراف بأن التغير العمومى أيضا محكوم قانون آخر ثابت فى التغير و التحول،ثم إن هذه الحركه و التحول العمومى تتصور فى كل جزء من أجزاء العالم بصوره خاصه كما بين الشمس التى لعالمنا مع منظومتها ثم تزيد ضيقا فى الدائره كما فى أرضنا مع ما يختص بها من الحوادث و الأجرام،كالقمر و الليل و النهار،و الرياح و السحب و الأمطار،ثم تضيق الدائره،كما فى المكونات الأرضيه:من المعادن و النبات و الحيوان و ساير التراكيب،ثم فى كل نوع من أنواعها،ثم تضيق الدائره حتى تصل النوبه الى العناصر،ثم الى الذرات،ثم الى أجزاء الذرات حتى تصل الى آخر ما انتهى الفحص العلمى الميسور للإنسان الى هذا اليوم،و هى الإلكترون،و البروتون،و يوجد هناك نظير المنظومات الشمسيه جرم مركزى و أشياء يدور حولها دوران الكواكب على مدارتها التى حول شمسها و سبحها فى أفلاكها.

ففى أى موقف من هذه المواقف وقف الإنسان شاهد نظاما عجيبا ذا تحولات و تغيرات، يحفظ بها أصل عالمه،و تحيى بها سنه إلهيه لا تنفذ عجائبه،و لا تنتهى غرائبه،لا استثناء فى جريها و إن كان واحدا،و لا اتفاق فى طيها و إن كان نادرا شاردا،لا يدرك ساحلها و لا يقطع مراحلها،و كلما ركبت عده منها أخذنا من الدقيق الى الجليل وجدتها لا تزيد على عالم واحد ذا نظام واحد،و تدبير متصل حتى ينتهى الأمر الى ما انتهى اليه توسع العلم الى اليوم بالحس المسلح و الارصاد الدقيقه،و كلما حللتها و جزيتها راجعا من الكل الى الجزء حتى تنتهى الى مثل المليكول وجدته لا تفقد من العالم الواحد شيئا ذا نظام واحد و تدبير متصل،على أن كل اثنين من هذه الموجودات متغاير الواحدين ذاتا و حكما شخصا.

فالعالم شىء واحد و التدبير متصل،و جميع الأجزاء مسخره تحت نظام واحد و إن كثرت

و اختلفت أحكامها، و عنت الوجوه للحى القيوم، فإنه العالم الموجد له و المدبر لأمره واحد (و هذا هو البرهان الثانى).

ثم إن الإنسان الذى هو موجود أرضى يحيى فى الأرض و يعيش فى الأرض ثم يموت و يرجع الى الأرض لا يفتقر فى شىء من وجوده و بقائه الى أزيد من هذا النظام الكلى الذى لمجموع هذا العالم المتصل تدبيره، الواحد نظامه، فهذه الأجرام العلويه فى إنارتها و تسخينها، و هذه الأرض فى اختلاف ليلها و نهارها و رياحها و سحبها و أمطارها و منافعها التى تجرى من قطر الى قطر من رزق و متاع هى التى تحتاج إليها الإنسان فى حاجته الماديه و تدبير وجوده و بقائه - و الله من ورائهم محيط - فإنها الموجد لها المدبر لأمرها هو إله الإنسان الموجد له و المدبر لأمره (و هذا هو البرهان الثالث).

ثم ان هذا الإله هو الذى يعطى كلا ما يحتاج اليه فى سعاده الوجوديه و ما يحتاج اليه فى سعاده فى غايته و آخرته لو كان له سعاده اخرويه غائيه فإن الآخره عقبى هذا الدار، و كيف يمكن أن يدبر عاقبه الأمر غير الذى يدبر نفس الأمر؟ (و هذا هو البرهان على الاسمين الرحمن الرحيم).

و عند هذا تم تعليل الآيه الاولى بالثانيه و فى تصدير الآيه بلفظه، إن؛ الداله على التعليل إشاره الى ذلك - و الله العالم -.

فقوله تعالى: **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**، إشاره الى ذوات الأجرام العلويه و الأرض بما تشتمل على تراكيبها من بدائع الخلق و عجائب الصنع، من صور تقوّم بها أسمائها، و مواد تتألف منها ذواتها، و تحول بعضها الى بعض، و نقص او زياده تطرئها، و تركب او تحلل يعرضها، كما قال: **أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَا نَاتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا** (الرعد ٤١)، و قال:

أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ (الأنبياء ٣٠).

قوله تعالى: وَ اِخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، و هو النقيصه و الزياده و الطول و القصر العارضان لهما من جهة اجتماع عاملين من العوامل الطبيعیه، و هي الحركه اليوميه التي للأرض على مركزها و هي ترسم الليل و النهار بمواجهه نصف الكره و أزيد بقليل دائما مع الشمس فتكتسب النور و تمص الحراه، و يسمى النهار، و استتار الشمس عن النصف الآخر و أنقص بقليل فيدخل تحت الظل المخروطي و تبقى مظلما و تسمى الليل، و لا يزالان يدوران حول الأرض، و العامل الآخر ميل سطح الدائره الاستوائيه أو المعدل عن سطح المدار الأرضي في الحركه الانتقاليه الى الشمال و الجنوب، و هو الذي يوجب ميل الشمس من المعدل الى الشمال أو الجنوب الراسم للفصول، و هذا يوجب استواء الليل و النهار في منطقه خط الاستواء و في القطبين، أما القطبان فلهما في كل سنه شمسيه تامه يوم و ليله واحده كل منهما يعدل نصف السنه، و الليل في قطب الشمال نهار في قطب الجنوب و بالعكس، و أما بقيه النقطه الاستوائيه فلها في كل سنه شمسيه ثلاثمائه و خمس و ستون ليلا و نهارا تقريبا، و النهار و الليل فيها متساويان، و أما بقيه المناطق فيختلف النهار و الليل فيها عددا و في الطول و القصر بحسب القرب من النقطه الاستوائيه و من القطبين، و هذا كله مشروح مبين في العلوم المربوطه بها.

و هذا الاختلاف هو الموجب لاختلاف ورود الضوء و الحراره، و هو الموجب لاختلاف العوامل الموجبه لاختلاف حدوث التراكيب الأرضيه و التحولات في كينونتها مما ينتفع باختلافها الإنسان انتفاعات مختلفه.

قوله تعالى: وَ الْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ، و الفلك هو السفينه يطلق على الواحد و الجمع، و الفلك و الفلكه كالتمر و التمره و المراد بما ينفع الناس المتاع و الرزق تنقلها من ساحل الى ساحل و من قطر من أقطار الأرض الى قطر آخر.

و في عد الفلك في طي الموجودات و الحوادث الطبيعیه التي لا دخل لاختيار الإنسان فيها

كالسماء والأرض و اختلاف الليل و النهار دلالة على أنها أيضا تنتهي مثلها الى صنع الله سبحانه في الطبيعه فان نسبه الفعل الى الإنسان بحسب الدقه لا تزيد على نسبه الفعل الى سبب من الأسباب الطبيعه، و الاختيار الذي يتبجح به الإنسان لا يجعله سببا تاما مستقلا غير مفتقر الى إرادته الله سبحانه و لا- يجعله أقل احتياجا اليه تعالى بالنسبه الى سائر الأسباب الطبيعه، فلا فرق من حيث الاحتياج الى إرادته الله سبحانه بين أن يفعل قوه طبيعه في ماده، فتوجد بالفعل و الانفعال و التحريك و التركيب و التحليل صورته من الصور كصوره الحجاره مثلا و بين أن يفعل الإنسان بالتحريك و التقريب و التباعد في الماده صورته من الصور كصوره السفينه مثلا في أن الجميع تنتهي الى صنع الله و ايجاده لا يستقل شيء مستغنيا عنه تعالى في ذاته و فعله.

فالفلك أيضا مثل سائر الموجودات الطبيعه تفتقر الى الإله في وجودها و تفتقر الى الإله في تدبير أمرها من غير فرق، و قد أشار تعالى الى هذه الحقيقه بقوله: وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمِمَّا تَعْمَلُونَ (الصفات ٩٦/)، حيث حكاها من إبراهيم فيما قاله لقومه في خصوص الأصنام التي اتخذوها آلهه فان من المعلوم أن الصنم ليس إلا موجودا صناعيا كالفلك التي تجرى في البحر، و قال تعالى: وَ لَهُ الْجَوَارِ الْمُنشآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (الرحمن ٢٤/)، فعددها ملكا لنفسه، و قال تعالى: وَ سَخَّرَ لَكُمْ الْفُلُكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ (إبراهيم ٣٢/)، فعد تدبير أمرها راجعا اليه (١).

قوله تعالى: وَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ، فان حقيقته عناصر مختلفه يحملها ماء البحار و غيره ثم يتكاثف بخارا متصاعدا حاملا للحراره حتى ينتهي الى زمهرير الهواء فيتبدل ماء متقاطرا على

ص: ١٩١

١-١). البقره ١٦٣-١٦٧: كلام في استناد مصنوعات الانسان إلى الله سبحانه.

صوره المطر أو يجمد ثانيا فيصير ثلجا أو بردا فينزل لثقله الى الأرض فتشربه و تحيي به أو تخزنه فيخرج على صورته ينابيع في الأرض بها حيوه كل شىء فالماء النازل من السماء حادث من الحوادث الوجوديه جار على نظام متقن غايه الإتقان من غير انتقاض و استثناء و يستند إليه انتشاء النبات و تكون الحيوان من كل نوع.

و هو من جهه تحدده بما يحفه من حوادث العالم طولا و عرضا تصير معها جميعا شيئا واحدا لا يستغنى عن موجد يوجد و عله تظهره فله إله واحد، و من جهه أنه مما يستند إليه وجود الإنسان حدوثا و بقاء يدل على كون إلهه هو إله الإنسان.

قوله تعالى: وَ تَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ، و هو توجيهها من جانب الى جانب بعوامل طبيعيه مختلفه، و الأغلب فيها أن الأشعه النوريه الواقعه على الهواء من الشمس تتبدل حراره فيه فيعرضه اللطافه و الخفه لأن الحراره من عواملها فلا يقدر على حمل ما يعلوه أو يجاوره من الهواء البارد الثقيل فينحدر عليه فيدفعه بشده فيجري الهواء اللطيف الى خلاف سمت الدفع و هو الريح، و من منافعه تلقيح النبات و دفع الكثافات البخاريه، و العفونات المتصاعده، و سوق السحب الماطره و غيرها، ففيه حيوه النبات و الحيوان و الإنسان.

و هو فى وجوده يدل على الإله و فى التيامه مع سائر الموجودات و اتحاده معها كما مر يدل على إله واحد للعالم، و فى وقوعه طريقا الى وجود الإنسان و بقاءه يدل على أن إله الإنسان و غيره واحد.

قوله تعالى: وَ السَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ، السحاب البخار المتكاثف الذى منه الأمطار و هو ضباب بالفتح ما لم ينفصل من الأرض فاذا انفصل و علا سمي سحابا و غيما و غماما و غير ذلك، و التسخير قهر الشىء و تذليله فى عمله، و السحاب مسخر مقهور فى سيره و إمطاره بالريح و البروده و غيرهما المسلطه عليه بإذن الله، و الكلام فى كون السحاب آيه نظير الكلام فى غيره مما عد معه.

واعلم: أن اختلاف الليل والنهار والماء النازل من السماء والرياح المصرفة والسحاب المسخر جعل الحوادث العامه التي منها تتألف نظام التكوين في الأرضيات من المركبات النباتيه والحيوانيه وغيرهما فهذه الآيه كالتفصيل بوجه لإجمال قوله تعالى: وَ بَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَانَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيُنْذِرَ (فصلت ١٠).

قوله تعالى: لَا يَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، العقل- وهو مصدر عقل يعقل- إدراك الشيء وفهمه التام، ومنه العقل اسم لما يميز به الإنسان بين الصلاح والفساد وبين الحق والباطل والصدق والكذب وهو نفس الإنسان المدرك وليس بقوه من قواه التي هي كالفروع للنفس كالقوه الحافظه والباصره وغيرهما.

قوله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا، الند كالمثل وزنا ومعنى، ولم يقل من يتخذ لله أندادا كما عبر بذلك في سائر الموارد كقوله تعالى: فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا (البقره ٢٢)، وقوله تعالى: وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا (إبراهيم ٣٠)، وغير ذلك لأن المقام مسبوق بالحصر في قوله: وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، الآيه، فكان من اتخذ لله أندادا قد نقض الحصر من غير مجوز واتخذ من يعلم أنه ليس بإله لها اتباعا للهوى وتهوينا لحكم عقله ولذلك نكره تحقيرا لشأنه، فقال ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا.

قوله تعالى: يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ، وفي التعبير بلفظ يحبونهم دلالة على أن المراد بالأنداد ليس هو الأصنام فقط بل يشمل الملائكه، وأفرادا من الإنسان الذين اتخذوهم أربابا من دون الله تعالى بل يعم كل مطاع من دون الله من غير أن يأذن الله في إطاعته كما يشهد به ما في ذيل الآيات من قوله: إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا (البقره ١٦٦)، وكما قال تعالى: وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ (آل عمران ٦٤) وقال تعالى: اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ (التوبه / ٣١)، وفي الآيه دليل على أن الحب يتعلق بالله تعالى حقيقه خلافا لمن قال: إن الحب- وهو

وصف شهوانى-يتعلق بالأجسام و الجسمانيات، ولا- يتعلق به سبحانه حقيقه و أن معنى ما ورد من الحب له الإطاعه بالایتمار بالأمر و الانتهاه عن النهى تجوزا كقوله تعالى: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ (آل عمران ٣١).

و الآيه حجه عليهم فإن قوله تعالى: أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ يدل على أن حبه تعالى يقبل الاشتداد، و هو فى المؤمنين أشد منه فى المتخذين لله اندادا، و لو كان المراد بالحب هو الإطاعه مجازا كان المعنى و الذين آمنوا أطوع لله و لم يستقم معنى التفضيل لأن طاعه غيرهم ليست بطاعه عند الله سبحانه فالمراد بالحب معناه الحقيقى (١).

قوله تعالى: وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ، ظاهر السياق أن قوله: إِذْ مفعول يرى، و ان قوله: أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ الى آخر الآيه؛ بيان للعذاب، و لو للتمنى. و المعنى ليتهم يرون فى الدنيا يوما يشاهدون فيه العذاب فيشاهدون أن القوه لله جميعا و قد أخطئوا فى إعطاء شىء منه لأندادهم و أن الله شديد فى عذابه، و اذاقته عاقبه هذا الخطأ فالمراد بالعذاب فى الآيه-على ما بينه ما يتلوه- مشاهدتهم الخطأ فى اتخاذهم اندادا يتوهم قوه فيه و مشاهده عاقبه هذا الخطأ و يؤيده الآيتان التاليتان: اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا فلم يصل من المتبوعين الى تابعيهم نفع كانوا يتوقعونه و رأوا العذاب و تقطعت بهم الأسباب فلم يبق تأثير لشيء دون الله، و قال الذين اتبعوا لو أن لنا كره، و هو تمنى الرجوع الى الدنيا فنتبرأ منهم أى من الأنداد المتبوعين فى الدنيا كما تبرءوا منا فى الآخره، كذلك يريهم الله أى الذين ظلموا باتخاذ الأنداد أعمالهم، و هى حبههم و اتباعهم لهم فى الدنيا حال كونها حسرات عليهم و ما هم بخارجين من النار.

قوله تعالى: وَ مَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ، فيه حجه على القائلين بانقطاع

ص: ١٩٤

إشاره

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ
وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مِمَّا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا
يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ
(١٧١)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالًا طَيِّبًا الى آخر الآيتين، الحلال مقابل الحرام الممنوع اقتحامه، والحل مقابل
الحرمة، والحل مقابل الحرم، والحل مقابل العقد، وهو في جميع موارد استعماله يعطى معنى حرية الشيء في فعله و أثره، و
الطيب-مقابل الخبيث-ما يلائم النفس و الشيء، كالطيب من القول لملائمته السمع،

ص: ١٩٥

١- ١). البقره ١٦٣-١٦٧: بحث روائي في توحيد الله سبحانه.

٢- ٢). البقره ١٦٣-١٦٧: بحث فلسفي في الحب؛ الحب تعلق وجودي و انجذاب خاص بين العله المكمله و بين المعلول
المستكمل؛ الحب ذو مراتب مختلفه من الشده و الضعف فانه رابطه وجوديه؛ ان الله سبحانه اهل للحب بأى وجهه فرضت.

٣- ٣). البقره ١٦٣-١٦٧: بحث فلسفي في انقطاع العذاب و الخلود.

و الطيب من العطر يلائم الشامه،و الطيب من المكان يلائم حال المتمكن فيه.و الخطوات بضم تين جمع خطوه،و هي ما بين القدمين للماشى،و قرء خطوات بفتح تين و هي جمع خطوه و هي المره،و خطوات الشيطان هي الامور التى نسبتة الى غرض الشيطان-و هو الإغواء بالشرك-نسبه خطوات الماشى الى مقصده و غرضه،فهى الامور التى هي مقدمات للشرك و البعد من الله سبحانه،و الأمر هو تحميل الأمر إرادته نفسه على المأمور ليأتى ما يريد،و الأمر من الشيطان وسوسته و تحميله ما يريد من الإنسان عليه باخطاره فى قلبه و تزيينه فى نظره و السوء ما ينافره الإنسان و يستقبحه بنظر الاجتماع فاذا جاوز حده و تعدى طوره كان فحشاء و لذلك سمى الزنا بالفحشاء و هو مصدر كالسراء و الضراء.

و قد عمم تعالى الخطاب لجميع الناس لأن الحكم الذى يقرعه سمعهم و بينه لهم مما يتلى به الكل،أما المشركون:فقد كان عندهم امور مما حرموه على أنفسهم افتراء على الله كما روى أن ثقيفا و خزاعه و بنى عامر بن صعصعه و بنى مدلج كانوا قد حرموا على أنفسهم أشياء من الحرث و الأنعام و البحيره و السائبه و الوصيله،هذا فى العرب،و فى غيرهم أيضا يوجد أشياء كثيره من هذا القبيل،و أما المؤمنون:فربما كان يبقى بعد الإسلام بينهم امور خرافيه طبق ناموس توارث الأخلاق و الآداب القوميه و السنن المنسوخه بنواسخ غير تدريجيّه كالأديان و القوانين و غيرهما فان كل طريقه جديده دينيه أو دنيويه اذا نزلت بدار قوم فانما تتوجه أول ما تتوجه الى اصول الطريقه القديمه و أعراقها فتقطعه فان دامت على حياتها و قوتها-و ذلك بحسن التربيّه و حسن القبول-أماتت الفروع و قطعت الأذنان و إلّا-فاختلطت بقايا من القديمه بالحديثه و التثمت بها و صارت كالمركب النباتى،ما هو بهذا و لا ذاك.

فقوله تعالى: **كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا**، يفيد الإباحه العامه من غير تقييد و اشتراط فيه إلا أن قوله: **وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**، الخ؛ يفيد: أن هاهنا امورا

تسمى خطوات الشيطان-متعلقه بهذا الأكل الحلال الطيب-إما كف عن الأكل اتباعا للشيطان،و إما إقدام عليه اتباعا للشيطان،ثم ذكر ضابط ما يتبع فيه الشيطان بأنه سوء و فحشاء،و قول ما لا يعلم على الله سبحانه و اذا كان الكف غير جائز إلا برضى من الله تعالى فالفعل أيضا كذلك فليس الأكل مما فى الأرض حلالا طيبا إلا أن يأذن الله تعالى و يشرعه و قد شرعه بهذه الآيه و نظائرها و لا يمنع عنه بنهى أو ردع كما سيأتى من قوله تعالى: **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ الْآيَةَ**؛فرجع معنى الآيه-و الله أعلم-الى نحو قولنا كلوا مما فى الأرض من نعم الله المخلوقه لكم فقد جعله الله لكم حلالا طيبا و لا تتركوا بعضا منها كفا و امتناعا فيكون سوء و فحشاء و قولنا بغير علم أى تشريعا ليس لكم ذلك و هو اتباع خطوات الشيطان.

قوله تعالى: **إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**،السوء و الفحشاء يكونان فى الفعل،و فى مقابله القول،و بذلك يظهر: أن ما يأمر به الشيطان ينحصر فى الفعل الذى هو سوء و فحشاء،و القول الذى هو قول بغير علم.

قوله تعالى: **وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا** ،الإلقاء الوجدان أى وجدنا عليه آباءنا،و الآيه تشهد بما استفدناه من الآيه السابقه فى معنى خطوات الشيطان.

قوله تعالى: **أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ** ،جواب عن قولهم،و بيانه أنه قول بغير علم و لا تبين،و ينافيه صريح العقل فان قولهم:بل نتبع ما ألقىنا عليه آباءنا،قول مطلق أى نتبع آباءنا على أى حال و على أى وصف كانوا،حتى لو لم يعلموا شيئا و لم يهتدوا و نقول ما فعلوه حق،و هذا هو القول بغير علم،و يؤدى الى القول بما لا- يقول به عاقل لو تنبه له و لو كانوا اتبعوا آباءهم فيما علموه و اهتدوا فيه و هم يعلمون:إنهم علموا و اهتدوا فيه لم يكن من قبيل الاهتداء بغير علم.

قوله تعالى: وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَ نِدَاءً، المثل هو الكلام السائر و المثل هو الوصف كقوله تعالى: أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (الفرقان ٩/٩)، و النعيق صوت الراعى لغنمه زجرا يقال: نعق الراعى بالغنم ينعق نعيقا اذا صاح بها زجرا، و النداء مصدر نادى ينادى مناداه، و هو أخص من الدعاء ففيه معنى الجهر بالصوت و نحوه بخلاف الدعاء، و المعنى -و الله أعلم- و مثلك فى دعاء الذين كفروا كمثل الذى ينعق من البهائم بما لا يسمع من نعيقه إلا دعاء و نداء ما، فينزجر بمجرد قرع الصوت سمعه من غير أن يعقل شيئا فهم صم لا يسمعون كلاما يفيدهم، و بكم لا يتكلمون بما يفيد معنى، و عمى لا يبصرون شيئا فهم لا يعقلون شيئا لأن الطرق المؤديه الى التعقل مسدوده عليهم (١).

[سوره البقره (٢): الآيات ١٧٢ الى ١٧٦]

إشارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِ تَشْكُرُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَ مَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٧٣) إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَ يُسْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لَا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَهَ بِالْهُدَى وَ الْعَذَابُ بِالْمَعْفَرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ الَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)

ص: ١٩٨

١- ١. البقره ١٦٨-١٧١: بحث اخلاقي و اجتماعي فى الآراء و العقائد؛ العقائد الخرافيه و دور الخيال فيها.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، خطاب خاص بالمؤمنين بعد الخطاب السابق للناس فهو من قبيل انتزاع الخطاب من الخطاب، كأنه انصراف عن خطاب جماعه ممن لا- يقبل النصح و لا- يصغى الى القول، و التفات الى من يستجيب الداعى لإيمانه به، و التفاوت الموجود بين الخطابين ناش من تفاوت المخاطبين، فان المؤمنين بالله لما كان يتوقع منهم القبول بدل قوله: ﴿مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ من قوله: ﴿طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، و كان ذلك وسيلة الى أن يطلب منهم الشكر لله وحده لكونهم موحدين لا يعبدون إلا الله سبحانه، و لذلك بعينه قيل: ما رزقناكم و لم يقل: ما رزقتم أو ما فى الأرض و نحوه، لما فيه من الإيماء أو الدلالة على كونه تعالى معروفًا لهم قريبا منهم حيننا رءوفا بهم، و الظاهر أن يكون قوله: ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، من قبيل إضافة الصفة الى الموصوف لا من قبيل قيام الصفة مقام الموصوف فان المعنى على الأول كلوا من رزقنا الذى كله طيب، و هو المناسب لمعنى التقرب و التحنن الذى يلوح من المقام، و المعنى على الثانى كلوا من طيب الرزق لا- من خبيثه، و هو بعيد المناسبه عن المقام الذى هو مقام رفع الحظر، و النهى عن الامتناع عن بعض ما رزقهم الله سبحانه تشريعا من عند أنفسهم و قولاً بغير علم.

قوله تعالى: ﴿وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، لم يقل و اشكروا لنا بل

اشكروا لله ليكون أدل على الأمر بالتوحيد و لذلك أيضا قيل: إن كنتم إياه تعبدون فدل على الحصر و القصر و لم يقل إن كنتم تعبدونه.

قوله تعالى: **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ مَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ**، الإهلال لغير الله هو الذبح لغيره كالأصنام.

قوله تعالى: **فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ**، أى غير ظالم و لا متجاوز حده، و هما حالان عاملهما الاضطرار فيكون المعنى فمن اضطر الى أكل شىء مما ذكر من المنهيات اضطرارا فى حال عدم بغيه و عدم عدوه فلا ذنب له فى الأكل، و أما لو اضطر فى حال البغى و العدو كأن يكونا هما الموجبين للاضطرار فلا يجوز له ذلك، و قوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**، دليل على أن التجوز تخفيف و رخصه منه تعالى للمؤمنين و إلا فمناط النهى موجود فى صورته الاضطرار أيضا.

قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ** ما أنزل الله من الكتاب، تعريض لأهل الكتاب اذ عندهم شىء كثير من المحللات الطيبه التى حرمها كبرائهم و رؤسائهم فى العبادات و غيرها- و عندهم الكتاب الذى لا يقضى فيه بالتحريم- و لم يكتموا ما كتموه إلا حفظا لما يدر عليهم من رزق الرئاسه و ابهه المقام و الجاه و المال.

و فى الآيه من الدلاله على تجسم الأعمال و تحقق نتائجها ما لا يخفى فإنه تعالى ذكر أولا أن اختيارهم الثمن القليل على ما أنزل الله هو أكل النار فى بطونهم ثم بدل اختيار الكتمان و أخذ الثمن على بيان ما أنزل الله فى الآيه التاليه من اختيار الضلاله على الهدى ثم من اختيار العذاب على المغفره ثم ختمها بقوله: **فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ**، و الذى كان منهم ظاهرا هو الإدامه للكتمان و البقاء عليها فافهم.

[سوره البقره (٢): آيه ١٧٧]

إشارة

لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ الْمَلَائِكَةِ وَ الْكِتَابِ وَ النَّبِيِّنَ وَ آتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسْكِينِ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ السَّائِلِينَ وَ فِي الرِّقَابِ وَ أَقَامَ الصَّلَاةَ وَ آتَى الزَّكَاةَ وَ الْمَوْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَ الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ حِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)

ص: ٢٠٠

قوله تعالى: لَيْسَ السِّرُّ أَنْ تُؤَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، البر بالكسر التوسع من الخير و الإحسان، و البر بالفتح صفة مشببه منه، و القبل بالكسر فالفتح الجبهه و منه القبله و هى النوع من الجبهه، و ذووا القربى الأقرباء، و اليتامى جمع يتيم و هو الذى لا- والده، و المساكين جمع مسكين و هو أسوأ حالا- من الفقير، و ابن السبيل المنقطع عن أهله، و الرقاب جمع رقبه و هى رقبه العبد، و البأساء مصدر كالبؤس و هو الشده و الفقر، و الضراء مصدر كالضر و هو أن يتضرر الإنسان بمرض أو جرح أو ذهاب مال أو موت ولد، و البأس شده الحرب.

قوله تعالى: وَ لَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ عَدَلَ عَنْ تَعْرِيفِ الْبِرِّ بِالْكَسْرِ إِلَى تَعْرِيفِ الْبِرِّ بِالْفَتْحِ لِيَكُونَ بَيَانًا وَ تَعْرِيفًا لِلرِّجَالِ مَعَ تَضَمُّنِهِ لشرح وصفهم و إيماء الى أنه لا أثر للمفهوم الخالى عن المصداق و لا فضل فيه، و هذا دأب القرآن فى جميع بياناته فانه يبين المقامات و يشرح الأحوال بتعريف رجالها من غير أن يقنع ببيان المفهوم فحسب.

و بالجمله قوله و لكن البر من آمن بالله و اليوم الآخر، تعريف للأبرار و بيان لحقيقه حالهم،

وقد عزّفهم أولاً في جميع المراتب الثلاث من الاعتقاد و الأعمال و الأخلاق بقوله: (مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ) و ثانياً بقوله: (أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا) و ثالثاً بقوله: (وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) .

قوله تعالى: وَ الصَّابِرِينَ فِي الْبُؤْسَاءِ، منصوب على المدح إعظاماً لأمر الصبر، و قد قيل إن الكلام إذا طال بذكر الوصف بعد الوصف فمذهبهم ان يعترضوا بين الأوصاف بالمدح و الذم، و اختلاف الإعراب بالرفع و النصب.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٧٨ الى ١٧٩]

إشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَ الْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَابْتِغَاءً بِالْمَعْرُوفِ وَ أَدَاءً إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بِعَدْوٍ ذِكِّكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَ لَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ، في توجيه الخطاب الى المؤمنين خاصة إشاره الى كون الحكم خاصاً بالمسلمين، و أما غيرهم من أهل الذمه و غيرهم فالآيه ساكتة عن ذلك.

و نسبة هذه الآيه الى قوله تعالى: أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ (المائدة ٤٨)، نسبة التفسير، فلا وجه لما ربما يقال، إن هذه الآيه ناسخة لتلك الآيه فلا يقتل حر بعبد و لا رجل بمرأه.

و بالجمله القصاص مصدر؛ يقاص؛ من قص أثره اذا تبعه و منه القصاص لمن يحدث بالآثار و الحكايات كأنه يتبع آثار الماضين فتسميه القصاص بالقصاص لما فيه من متابعه

الجانى فى جنايته فيوقع عليه مثل ما اوقعه على غيره.

قوله تعالى: **فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ**، المراد بالموصول القاتل، و العفو للقاتل إنما يكون فى حق القصاص فالمراد بالشىء هو الحق، و فى تنكيره تعميم للحكم أى أى حق كان سواء كان تمام الحق أو بعضه كما اذا تعدد أولياء الدم فعفى بعضهم حقه للقاتل فلا قصاص حينئذ بل الديه، و فى التعبير عن ولى الدم بالأخ إثاره لحس المحبه و الرأفه و تلويح الى أن العفو أحب.

قوله تعالى: **فَأَتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَدَاءً إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ**، مبتدأ خبره محذوف أى فعله أن يتبع القاتل فى مطالبه الديه بمصاحبه المعروف، من الاتباع و على القاتل أن يؤدى الديه الى أخيه ولى الدم بالإحسان من غير مماطله فيها إيذائه.

قوله تعالى: **ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ**، أى الحكم بانتقال القصاص الى الديه تخفيف من ربكم فلا يتغير فليس لولى الدم أن يقتص بعد العفو فيكون اعتداء فمن اعتدى فاققتص بعد العفو فله عذاب أليم.

قوله تعالى: **وَ لَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**، إشاره الى حكمه التشريع، و دفع ما ربما يتوهم من تشريع العفو و الديه و بيان المزيه و المصلحه التى فى العفو و هو نشر الرحمه و إثثار الرأفه ان العفو اقرب الى مصلحه الناس، و حاصله أن العفو و لو كان فيه ما فيه من التخفيف و الرحمه، لكن المصلحه العامه قائمه بالقصاص فإن الحياه لا يضمنها إلا القصاص دون العفو و الديه و لا كل شىء مما عداهم، يحكم بذلك الإنسان اذا كان ذا لب و قوله **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**، أى القتل و هو بمنزله التعليل لتشريع القصاص (1).

ص: ٢٠٣

إشاره

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٢)

بيان:

قوله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ، لسان الآيه لسان الوجوب فإن الكتابه يستعمل فى القرآن فى مورد القطع و اللزوم و يؤيده ما فى آخر الآيه من قوله حقا، فإن الحق أيضا كالكتابته يقتضى معنى اللزوم لكن تقييد الحق بقوله على المتقين، مما يوهن الدلاله على الوجوب و العزيمه فإن الأنسب بالوجوب أن يقال: حقا على المؤمنين، و كيف كان فقد قيل إن الآيه منسوخه بآيه الإرث، و لو كان كذلك فالمنسوخ هو الفرض دون الندب و أصل المحبوبيه، و لعل تقييد الحق بالمتقين فى الآيه لإفاده هذا الغرض.

و المراد بالخير المال، و كأنه المال المعتد به، دون اليسير الذى لا يعبأ به و المراد بالمعروف هو المعروف المتداول من الصنيعه و الإحسان.

قوله تعالى: فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ، ضمير إثمه راجع الى التبديل، و الباقي من الضمائر الى الوصيه بالمعروف، و هى مصدر يجوز فيه

الوجهان و إنما قال على الذين يدلونه، و لم يقل عليهم ليكون فيه دلالة على سبب الإثم و هو تبديل الوصيه بالمعروف و ليستقيم تفریع الآیه التاليه عليه.

قوله تعالى: **فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ**، الجنف هو الميل و الانحراف، و قيل: هو ميل القدمين الى الخارج كما أن الحنف بالحاء المهمله انحرافهما الى الداخل، و المراد على أى حال الميل الى الإثم بقريته الإثم، و الآيه تفریع على الآيه السابقه عليها، و المعنى (و الله أعلم) فإنما إثم التبديل على الذين يدلون الوصيه بالمعروف، و يتفرع عليه: ان من خاف من وصيه الموصى أن يكون وصيته بالإثم أو ماثلاً- اليه فأصلح بينهم برده الى ما لا إثم فيه فلا إثم عليه لأنه لم يبدل وصيته بالمعروف بل إنما بدل ما فيه إثم أو جنف.

[سوره البقره (٢): الآيات ١٨٣ الى ١٨٥]

إشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَ الْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَ مَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَ لِتَكْبِرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اه، الإتيان بهذا الخطاب لتذكيرهم بوصف فيهم و هو الايمان، يجب عليهم اذا التفتوا إليه أن يقبلوا ما يواجههم ربهم به من الحكم و إن كان على خلاف مشترياتهم و عاداتهم، و قد صدرت آيه القصاص بذلك أيضا لما سمعت أن النصارى كانوا يرون العفو دون القصاص و إن كان سائر الطوائف من الملمين و غيرهم يرون القصاص.

قوله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ اه، الكتابه معروفه المعنى و يكنى به عن الفرض و العزيمه و القضاء الحتم كقوله: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي (المجادله ٢١)، و قوله تعالى: وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَرَهُمْ (يس / ١٢)، و قوله تعالى: وَ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ (المائده ٤٥)، و الصيام و الصوم فى اللغه مصدران بمعنى الكف عن الفعل: كالصيام عن الأكل و الشرب و المباشره و الكلام و المشى و غير ذلك، و ربما يقال: انه الكف عما تشتهيه النفس و تتوق اليه خاصه ثم غلب استعماله فى الشرع فى الكف عن امور مخصوصه، من طلوع الفجر الى المغرب بالنيه، و المراد بالذين من قبلكم الامم الماضيه ممن سبق ظهور الاسلام من امم الانبياء كامه موسى و عيسى و غيرهم، فإن هذا المعنى هو المعهود من اطلاق هذه الكلمه فى القرآن أينما اطلقت، و ليس قوله: كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، فى مقام الاطلاق من حيث الاشخاص و لا من حيث التنظير فلا يدل على أن جميع امم الانبياء كان مكتوبا عليهم الصوم من غير استثناء و لا على أن الصوم المكتوب عليهم هو الصوم الذى كتب علينا من حيث الوقت و الخصوصيات و الأوصاف، فالتنظير فى الآيه إنما هو من حيث اصل الصوم و الكف لا من حيث خصوصياته.

و المراد بالذين من قبلكم، الامم من الملمين فى الجملة، و لم يعين القرآن من هم، غير أن ظاهر قوله: **كَمَا كَتَبَ**، أن هؤلاء من أهل الملة و قد فرض عليهم ذلك، و لا- يوجد فى التوراه و الانجيل الموجود عند اليهود و النصارى ما يدل على وجوب الصوم و فرضه، بل الكتابان إنما يمدحانه و يعظمان أمره، لكنهم يصومون أياما معدوده فى السنه الى اليوم بأشكال مختلفه:

كالصوم عن اللحم و الصوم عن اللبن و الصوم عن الأكل و الشرب، و فى القرآن قصه صوم زكريا عن الكلام و كذا صوم مريم عن الكلام.

قوله تعالى: **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**، كان أهل الاوثان يصومون لإرضاء آلهتهم أو لإطفاء نائره غضبها اذا أجرموا جرما أو عصوا معصيه، و اذا أرادوا إنجاح حاجه و هذا يجعل الصيام معامله و مبادله يعطى بها حاجه الرب ليقضى حاجه العبد أو يستحصل رضاه ليستحصل رضا العبد، و إن الله سبحانه أمتع جانبا من أن يتصور فى حقه فقر أو حاجه أو تأثر أو أذى، و بالجملة هو سبحانه برىء من كل نقص، فما تعطيه العبادات من الاثر الجميل، أى عباده كانت و أى أثر كان، إنما يرجع الى العبد دون الرب تعالى و تقدس، كما ان المعاصى أيضا كذلك، قال تعالى: **إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** (الإسراء/٧)، هذا هو الذى يشير اليه القرآن الكريم فى تعليمه بإرجاع آثار الطاعات و المعاصى الى الانسان الذى لا شأن له إلا الفقر و الحاجه، قال تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ** (فاطر/ ١٥) و يشير اليه فى خصوص الصيام بقوله: **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**، و كون التقوى مرجو الحصول بالصيام مما لا ريب فيه فإن كل إنسان يشعر بفطرته أن من أراد الاتصال بعالم الطهاره و الرفعه، و الارتقاء الى مدرجه الكمال و الروحانيه فأول ما يلزمه أن يتنزه عن الاسترسال فى استيفاء لذائذ الجسم و ينقبض عن الجماع فى شهوات البدن و يتقدس عن الاخلاص الى الارض، و بالجملة أن يتقى ما يبعده الاشتغال به عن الرب تبارك و تعالى فهذه تقوى إنما تحصل بالصوم و الكف عن الشهوات، و أقرب من ذلك و أمس لحال عموم الناس من أهل

الدنيا و أهل الآخرة ان يتقى ما يعم به البلوى من المشتبهات المباحه كالأكل و الشرب و المباشره حتى يحصل له التدرب على اتقاء المحرمات و اجتنابها، و تترى على ذلك إرادته فى الكف عن المعاصى و التقرب الى الله سبحانه، فإن من أجاب داعى الله فى المشتبهات المباحه و سمع و أطاع فهو فى محارم الله و معاصيه أسمع و أطوع.

قوله تعالى: أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ، منصوب على الظرفيه بتقدير، فى، و متعلق بقوله:

الصَّيَامِ، و قد مر أن تنكير أيام و اتصافه بالعدد للدلاله على تحقير التكليف من حيث الكلفه و المشقه تشجيعاً للمكلف، و قد مر ان قوله: شَهْرٌ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، الخ؛ بيان للأيام فالمراد بالأيام المعدودات شهر رمضان.

قوله تعالى: فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ، الفاء للتفريع و الجملة متفرعه على قوله: كُتِبَ عَلَيْكُمْ، و قوله: مَّعْدُودَاتٍ اه، أى إن الصيام مكتوب مفروض، و العدد مأخوذ فى الفرض، و كما لا يرفع اليد عن أصل الفرض كذلك لا يرفع اليد عن العدد، فلو عرض عارض يوجب ارتفاع الحكم الفرض عن الأيام المعدودات التى هى أيام شهر رمضان كعارض المرض و السفر، فإنه لا يرفع اليد عن صيام عده من أيام آخر خارج شهر رمضان تساوى ما فات المكلف من الصيام عدداً، و هذا هو الذى أشار تعالى إليه فى الآيه الثالثه بقوله: وَ لَتَكْمَلُوا الْعِدَّةَ، فقوله تعالى: أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ، كما يفيد معنى التحقير كما مرّ يفيد كون العدد ركناً مأخوذاً فى الفرض و الحكم.

ثم إن المرض خلاف الصحه و السفر مأخوذ من السفر بمعنى الكشف كأن المسافر ينكشف لسفره عن داره التى يأوى إليها و يكنّ فيها، و كأن قوله تعالى: أَوْ عَلَى سَفَرٍ، و لم يقل: مسافراً للإشارة الى اعتبار فعليه التلبس حالاً دون الماضى و المستقبل.

قوله تعالى: وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامٌ مِسْكِينٍ، الاطاقه كما ذكره بعضهم صرف تمام الطاقه فى الفعل، و لازمه وقوع الفعل بجهد و مشقه، و الفديه هى البدل

و هي هنا بدل مالى و هو طعام مسكين أى طعام يشبع مسكينا جائعا فى أوسط ما يطعم الانسان، و حكم الفديه أيضا فرض كحكم القضاء فى المريض و المسافر لمكان قوله: وَ عَلَى الَّذِينَ، الظاهر فى الوجوب التعيينى دون الرخصه و التخير.

قوله تعالى: فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، التطوع تفعل من الطوع مقابل الكره و هو إتيان الفعل بالرضا و الرغبة، و معنى باب التفعّل الاخذ و القبول فمعنى التطوع التلبس فى إتيان الفعل بالرضا و الرغبة من غير كره و استئثار سواء كان فعلا إلزاميا أو غير إلزامي، و اما اختصاص التطوع استعمالا بالمستحبات و المندوبات فمما حدث بعد نزول القرآن بين المسلمين بعنايه ان الفعل الذى يؤتى به بالطوع هو الندب و اما الواجب ففيه شوب كره لمكان الالزام الذى فيه.

و بالجمله التطوع كما قيل: لا دلالة فيه ماله و هيئه على الندب و على هذا فالفاء للتفريع و الجمله متفرعه على المحصل من معنى الكلام السابق، و المعنى و الله أعلم: الصوم مكتوب عليكم مرعا فيه خير كم و صلاحكم مع ما فيه من استقراركم فى صف الامم التى قبلكم، و التخفيف و التسهيل لكم فأتوا به طوعا لا كرها، فإن من أتى بالخير طوعا كان خيرا له من أن يأتي به كرها.

و من هنا يظهر: أن قوله: فمن تطوع خيرا من قبيل وضع السبب موضع المسبب أعنى وضع كون التطوع بمطلق الخير خيرا مكان كون التطوع بالصوم خيرا نظير قوله تعالى: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَمَا يَتَّبِعْهُمُ لَا يَكْذِبُونَكَ وَ لَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ أى فاصبر و لا تحزن فانهم لا يكذبونك.

قوله تعالى: وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، جمله متممه لسابقتها، و المعنى بحسب التقدير - كما مر -: تطوعوا بالصوم المكتوب عليكم فان التطوع بالخير خير و الصوم خير لكم، فالتطوع به خير على خير.

قوله تعالى: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى، شهر رمضان هو الشهر التاسع من الشهور القمرية العربية بين شعبان و شوال و لم يذكر اسم شيء من الشهور في القرآن الا شهر رمضان.

و النزول هو الورود على المحل من العلو، و الفرق بين الإنزال و التنزيل أن الإنزال دفعي و التنزيل تدريجي، و القرآن اسم للكتاب المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه و آله و سلم باعتبار كونه مقروءا كما قال تعالى: إِذَا جَعَلْتُمْ كُفْرَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (الزخرف ٣)، و يطلق على مجموع الكتاب و على أبعاضه.

و الآيه تدل على نزول القرآن في شهر رمضان، و قد قال تعالى: وَ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (الإسراء ١٠٦)، و هو ظاهر في نزوله تدريجا في مجموع مده الدعوه و هي ثلث و عشرون سنه تقريبا، و المتواتر من التاريخ يدل على ذلك، و لذلك ربما استشكل عليه بالتنافي بين الآيتين.

و الذى يعطيه التدبر في آيات الكتاب أمر آخر فإن الآيات الناطقه بنزول القرآن في شهر رمضان أو في ليله منه إنما عبرت عن ذلك بلفظ الإنزال الدال على الدفعه دون التنزيل كقوله تعالى: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ (البقره ١٨٥) و قوله تعالى: حم.

وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ (الدخان ٣)، و قوله تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (القدر ١)، و اعتبار الدفعه إما بلحاظ اعتبار المجموع في الكتاب او البعض النازل منه كقوله تعالى: كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ (يونس ٢٤)، فإن المطر إنما ينزل تدريجا لكن النظر هاهنا معطوف إلى أخذه مجموعا واحدا، و لذلك عبر عنه بالإنزال دون التنزيل، و كقوله تعالى: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ (ص ٢٩)، و إما لكون الكتاب ذا حقيقه أخرى وراء ما نفهمه بالفهم العادى الذى يقضى فيه بالتفرق و التفصيل و الانبساط و التدريج هو المصحح لكونه واحدا غير تدريجي و نازلا بالإنزال دون التنزيل.. و هذا

الاحتمال الثاني هو اللائح من الآيات الكريمة كقوله تعالى: **كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَمَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** (هود ١)، فإن هذا الاحكام مقابل التفصيل، والتفصيل هو جعله مفصلا فصلا و قطعه قطعه فالاحكام كونه بحيث لا يتفصل فيه جزء من جزء و لا يتميز بعض من بعض لرجوعه الى معنى واحد لا أجزاء و لا فصول فيه، والآيه ناطقه بأن هذا التفصيل المشاهد فى القرآن إنما طرى عليه بعد كونه محكما غير مفصل (١).

قوله تعالى: **هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**، الناس، و هم الطبقة الدانية من الانسان الذين سطح فهمهم المتوسط أنزل السطوح، يكثر إطلاق هذه الكلمه فى حقهم، كما قال تعالى: **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** (الروم ٣٠)، وقال تعالى: **وَتِلْكَ الْأُمَّةَ أَلْ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ** (العنكبوت ١٧٣)، وهؤلاء أهل التقليد لا- يسعهم تمييز الامور المعنويه بالبينه و البرهان، ولا- فرق الحق من الباطل بالحجه إلا- بمبين يبين لهم و هاد يهديهم، و القرآن هدى لهم و نعم الهدى، و أما الخاصه المستكملون فى ناحيتى العلم و العمل، المستعدون للاقتباس من أنوار الهدايه الالهيه و الركون الى فرقان الحق فالقرآن بينات و شواهد من الهدى و الفرقان فى حقهم فهو يهديهم اليه و يميز لهم الحق و يبين لهم كيف يميز، قال تعالى: **يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** (المائدة ١٦).

و من هنا يظهر وجه التقابل و البينات من الهدى، و هو التقابل بين العام و الخاص فالهدى لبعض و البينات من الهدى لبعض آخر.

قوله تعالى: **فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**، الشهاده هى الحضور مع تحمل

ص: ٢١١

العلم من جهته، وشهاده الشهر إنما هو ببلوغه و العلم به، و يكون بالبعض كما يكون بالكل.

و أما كون المراد بشهود الشهر رؤيه هلاله و كون الانسان بالحضر مقابل السفر فلا دليل عليه إلا من طريق الملازمه فى بعض الاوقات بحسب القرائن، و لا قرينه فى الآيه.

قوله تعالى: **فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** ، ايراد هذه الجملة فى الآيه ثانيا ليس من قبيل التكرار للتأكيد و نحوه لما عرفت أن الآيتين السابقتين مع ما تشتملان عليه مسوقتان للتوطئه و التمهيدي دون بيان الحكم و أن الحكم هو الذى بين فى الآيه الثالثه فلا تكرر.

قوله تعالى: **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ** ، كأنه بيان لمجموع حكم الاستثناء: و هو الافطار فى شهر رمضان لمكان نفي العسر، و صيام عده من أيام آخر لمكان وجوب اكمال العده، و اللام فى قوله: **لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ** ، للغايه، و هو عطف على قوله: **يُرِيدُ** ، لكونه مشتملا على معنى الغايه، و التقدير و انما أمرناكم بالافطار و القضاء لنخفف عنكم و لتكملوا العده، و لعل ايراد قوله: **وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ** هو الموجب لاسقاط معنى قوله: **وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ** ، عن هذه الآيه مع تفهم حكمه بنفى العسر و ذكره فى الآيه السابقه.

قوله تعالى: **وَ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ، ظاهر الجملتين على ما يشعر به لام الغايه (1) أنهما لبيان الغايه غايه اصل الصيام دون حكم الاستثناء فإن تقييد قوله: **شَهْرُ رَمَضَانَ** بقوله: **الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ** الى آخره مشعر بنوع من العليه و ارتباط فرض صيام شهر رمضان بنزول القرآن هدى للناس و بينات من الهدى و الفرقان فيعود معنى الغايه الى ان التلبس بالصوم لاطهار كبريائه تعالى بما نزل عليهم القرآن

ص: ٢١٢

(١-١). المراد بالغايه الغرض و هو اصطلاح (منه).

و اعلن ربوبيته و عبوديتهم، و شكر له بما هداهم الى الحق، و فرق لهم بكتابه بين الحق و الباطل. و لما كان الصوم انما يتصف بكونه شكرا لنعمه اذا كان مشتملا على حقيقه معنى الصوم و هو الاخلاص لله سبحانه فى التنزه عن الواث الطبيعه و الكف عن اعظم مشتريات النفس بخلاف اتصافه بالتكبير لله فإن صورته الصوم و الكف سواء اشتمل على اخلاص النيه أو لم يشتمل يدل على تكبيره تعالى و تعظيمه فرق بين التكبير و الشكر فقرن الشكر بكلمه الترجي دون التكبير فقال: و لتكبروا الله على ما هداكم و لعلكم تشكرون كما قال: فى اول الآيات: لعلكم تتقون (١).

[سوره البقره (٢): آيه ١٨٦]

اشاره

وَ إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)

بيان:

اشاره

قوله تعالى: وَ إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ، أحسن بيان لما اشتمل عليه من المضمون و أرق اسلوب و أجمله فقد وضع أساسه على التكلم وحده دون الغيبه و نحوها، و فيه دلالة على كمال العناية بالأمر، ثم قوله: عِبَادِي، و لم يقل: الناس و ما أشبهه يزيد فى هذه العناية، ثم حذف الواسطه فى الجواب حيث قال: فَإِنِّي قَرِيبٌ و لم يقل: فقل إنه قريب، ثم التأكيد بـان، ثم الاتيان بالصفه دون الفعل الدال على القرب ليدل على ثبوت القرب و دوامه، ثم الدلالة على تجدد الاجابه و استمرارها حيث أتى بالفعل المضارع الدال عليهما، ثم تقييده الجواب أعنى قوله: أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ بقوله: إِذَا دَعَانِ،

ص: ٢١٣

(١-١). البقره ١٨٣-١٨٥: بحث روائى فى الصوم.

و هذا القيد لا يزيد على قوله: دَعْوَةُ الدَّاعِ المقيد به شيئاً بل هو عينه، وفيه دلالة على أن دعوه الداع مجابه من غير شرط و قيد كقوله تعالى: اذْعُونِي اَسْتَجِبْ لَكُمْ (المؤمن ١٦٠)، فهذه سبع نكات في الآية تنبئ بالاهتمام في أمر استجابته الدعاء و العناية بها، مع كون الآية قد كرر فيها-على إيجازها-ضمير المتكلم سبع مرات، و هي الآية الوحيدة في القرآن على هذا الوصف.

و الدعاء و الدعوه توجيه نظر المدعو نحو الداعي، و السؤال جلب فائده أو درّ من المسئول يرفع به حاجه السائل بعد توجيه نظره، فالسؤال بمنزله الغايه من الدعاء و هو المعنى الجامع لجميع موارد السؤال كالسؤال لرفع الجهل و السؤال بمعنى الحساب و السؤال بمعنى الاستدرا و غيره.

ثم إن العبوديه كما مر سابقا هي المملوكيه و لا كل مملوكيه بل مملوكيه الانسان فالعبد هو من الانسان أو كل ذى عقل و شعور كما في الملك المنسوب اليه تعالى.

و ملكه تعالى يغاير ملك غيره مغايره الجدم مع الدعوى و الحقيقه مع المجاز فإنه تعالى يملك عباده ملكا طلقا محيطا بهم لا يستقلون دونه فى أنفسهم و لا ما يتبع أنفسهم من الصفات و الأفعال و ساير ما ينسب إليهم من الأزواج و الأولاد و المال و الجاه و غيرها، فكل ما يملكونه من جهه إضافته إليهم بنحو من الانحاء كما فى قولنا: نفسه، و بدنه، و سمعه، و بصره، و فعله، و أثره، و هي أقسام الملك بالطبع و الحقيقه و قولنا: زوجه و ماله و جاهه و حقه،-و هي أقسام الملك بالوضع و الاعتبار-إنما يملكونه بإذنه تعالى فى استقرار النسبه بينهم و بين ما يملكون اياما كان و تملكه فالله عز اسمه، هو الذى اضاف نفوسهم و اعيانهم اليهم و لو لم يشاء لم يصف فلم يكونوا من رأس، و هو الذى جعل لهم السمع و الابصار و الافئده، و هو الذى خلق كل شىء و قدره تقديرا.

فهو سبحانه الحائل بين الشىء و نفسه، و هو الحائل بين الشىء و بين كل ما يقارنه: من ولد او

زوج او صديق او مال او جاه او حق فهو اقرب الى خلقه من كل شىء مفروض فهو سبحانه قريب على الاطلاق كما قال تعالى: وَ نَحْنُ اقْرَبُ اِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (الواقعه / ٨٥)، وقال تعالى: وَ نَحْنُ اقْرَبُ اِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (ق / ١٦)، وقال تعالى: اِنَّ اللّٰهَ يَحْوِلُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ (الأنفال / ٢٤)، والقلب هو النفس المدركه.

و بالجمله فملكه سبحانه لعباده ملكا حقيقيا و كونهم عبادا له هو الموجب لكونه تعانى قريبا منهم على الاطلاق و اقرب اليهم من كل شىء عند القياس و هذا الملك الموجب لجواز كل تصرف شاء كيفما شاء من غير دافع و لا مانع يقضى ان الله سبحانه ان يجب اى دعاء دعا به احد من خلقه و يرفع بالاعطاء و التصرف حاجته التى سأله فيها فان الملك عام، و السلطان و الاحاطه واقعتان على جميع التقادير من غير تقييد بتقدير دون تقدير لا كما يقوله اليهود: ان الله لما خلق الاشياء و قدر التقادير تم الامر، و خرج زمام التصرف الجديد من يده بما حتمه من القضاء، فلا نسخ و لا بداء و لا استجابه لدعاء لان الامر مفروغ عنه، و لا كما يقوله جماعه من هذه الامه: ان لا صنع لله فى افعال عباده و هم القدرية الذين سماهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم مجوس هذه الامه فيما رواه الفريقان من قوله صلى الله عليه و آله و سلم: القدرية مجوس هذه الامه.

بل الملك لله سبحانه على الاطلاق و لا يملك شىء شيئا الا بتمليك منه سبحانه و اذن فما شائه و ملكه و اذن فى وقوعه، يقع، و ما لم يشاء و لم يملك و لم يأذن فيه لا يقع و ان بذل فى طريق وقوعه كل جهد و عنايه، قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ (فاطر / ١٥).

فقد تبين: ان قوله تعالى: وَ إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، كما يشتمل على الحكم اعنى اجابه الدعاء كذلك يشتمل على علله فكون الداعين عبادا لله تعالى هو الموجب لقربه منهم، و قربه منهم هو الموجب لاجابته المطلقه لدعائهم، و اطلاق الاجابه يستلزم اطلاق الدعاء فكل دعاء دعى به فانه مجيبه الا ان هاهنا امرا و هو انه تعالى

قيد قوله: أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ بِقَوْلِهِ إِذَا دَعَانِ، و هذا القيد غير الزائد على نفس المقيد بشيء يدل على اشتراط الحقيقة دون التجوز و الشبه، فان قولنا: اصغ الى قول الناصح اذا نصحك او اكرم العالم اذا كان عالما يدل على لزوم اتصافه بما يقتضيه حقيقته، فالناصح إذا قصد النصح بقوله فهو الذى يجب الاصغاء إلى قوله و العالم إذا تحقق بعلمه و عمل بما علم كان هو الذى يجب إكرامه فقوله تعالى إذا دعان، يدل على أن وعد الاجابه المطلقه، إنما هو إذا كان الداعى داعيا بحسب الحقيقة مريدا بحسب العلم الفطرى و الغريزى مواطئا لسانه قلبه، فإن حقيقه الدعاء و السؤال هو الذى يحمله القلب و يدعو به لسان الفطره، دون ما يأتى به اللسان الذى يدور كيفما أدير صدقا أو كذبا جدا أو هزلا حقيقه أو مجازا، و لذلك ترى أنه تعالى عد ما لا عمل للسان فيه سؤال قال تعالى: وَ اتَّأَكُم مِّنْ كُلِّ مَّاءٍ سَائِلُمُوهُ وَ إِنَّ تَعْرُدُوا نِعْمَتِ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (إبراهيم ٣٤)، فهم فيما لا يحصونها من النعم داعون سائلون و لم يسألوها بلسانهم الظاهر، بل بلسان فقرهم و استحقاقتهم لسانا فطريا وجوديا، و قال تعالى:

يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ كُلِّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (الرحمن ٢٩)، و دلالتة على ما ذكرنا أظهر و أوضح.

فالسؤال الفطرى من الله سبحانه لا يتخطى الاجابه، فما لا يستجاب من الدعاء و لا يصادف الاجابه فقد أحد أمرين و هما اللذان ذكرهما بقوله: دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ .

فإما أن يكون لم يتحقق هناك دعاء، و انما التبس الأمر على الداعى التباسا كان يدعو الانسان فيسأل ما لا يكون و هو جاهل بذلك أو ما لا يريد لو انكشف عليه حقيقه الامر مثل ان يدعو و يسأل شفاء المريض لا إحياء الميت، و لو كان استمكنه و دعا بحياته كما كان يسأله الانبياء لاعيدت حياته و لكنه على بأس من ذلك، أو يسأل ما لو علم بحقيقته لم يسأله فلا يستجاب له فيه.

و إما أن السؤال متحقق لكن لا من الله وحده كمن يسأل الله حاجه من حوائجه و قلبه

متعلق بالاسباب العاديه أو بامور وهميه توهمها كافيها في امره أو مؤثره في شأنه فلم يخلص الدعاء لله سبحانه فلم يسأل الله بالحقيقه فإن الله الذى يجيب الدعوات هو الذى لا شريك له فى أمره، لا من يعمل بشركه الاسباب و الاوهام، فهاتان الطائفتان من الدعاه السائلين لم يخلصوا الدعاء بالقلب و إن أخلصوه بلسانهم.

فهذا ملخص القول فى الدعاء على ما تفيده الآيه، و به يظهر معانى سائر الآيات النازله فى هذا الباب كقوله تعالى: قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْ لَا دُعَاؤُكُمْ (الفرقان ٧٧) و قوله تعالى:

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَ تَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (الأنعام ٤١)، و قوله تعالى: قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَ خُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (الأنعام ٦٤)، فالآيات داله على أن للانسان دعاء غريزيا و سؤالاً فطرياً يسأل به ربه، غير انه إذا كان فى رخاء و رفاه تعلقت نفسه بالاسباب فأشركها لربه، فالتبس عليه الامر و زعم أنه لا- يدعو ربه و لا- يسأل عنه، مع انه لا يسأل غيره فإنه على الفطره و لا تبديل لخلق الله تعالى، و لما وقع الشده و طارت الاسباب عن تأثيرها و فقدت الشركاء و الشفعاء تبين له ان لا منجج لحاجته و لا مجيب لمسألته إلا الله، فعاد إلى توحيدة الفطرى و نسى كل سبب من الاسباب، و وجه وجهه نحو الرب الكريم فكشف شدته و قضى حاجته و اظله بالرخاء، ثم إذا تلبس به ثانيا عاد الى ما كان عليه أولاً من الشرك و النسيان.

و كقوله تعالى: وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (المؤمن ٦٠)، و الآيه تدعو الى الدعاء و تعدد بالاجابه و تزيد على ذلك حيث تسمى الدعاء عباده بقولها: عن عبادتى أى عن دعائى، بل تجعل مطلق العباده دعاء حيث انها تشتمل الوعيد على ترك الدعاء بالنار و الوعيد بالنار انما هو على ترك

العبادة رأساً لا على ترك بعض اقسامه دون بعض فأصل العبادة دعاء فافهم ذلك.

و بذلك يظهر معنى آيات أخر من هذا الباب كقوله تعالى: فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (المؤمن ١٤)، وقوله تعالى: وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (الأعراف ٥٦)، وقوله تعالى: وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (الأنبياء ٩٠)، وقوله تعالى: ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (الأعراف ٥٥)، وقوله تعالى: إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا - إلى قوله - وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (مريم ٤)، وقوله تعالى: وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ (الشورى ٢٦)، إلى غير ذلك من الآيات المناسبة، وهي تشتمل على اركان الدعاء و آداب الداعي، وعمدتها الاخلاص فى دعائه تعالى و هو مواطات القلب اللسان و الانقطاع عن كل سبب دون الله و التعلق به تعالى، و يلحق به الخوف و الطمع و الرغبة و الرهبة و الخشوع و التضرع و الاصرار و الذكر و صالح العمل و الايمان و أدب الحضور و غير ذلك مما تشتمل عليه الروايات.

قوله تعالى: فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَ لِيُؤْمِنُوا بِى ، تفریع على ما يدل على الجملة السابقة عليه بالالتزام: ان الله تعالى قريب من عباده، لا يحول بينه و بين دعائهم شىء، و هو ذو عنايه بهم و بما يسألونه منه، فهو يدعوهم الى دعائه، و صفته هذه الصفه، فليستجيبوا له فى هذه الدعوه، و ليقبلوا اليه، و ليؤمنوا به فى هذا النعت، و ليقنوا بأنه قريب مجيب لعلهم يرشدون فى دعائه.

بحث روائى:

عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم فيما رواه الفريقان: الدعاء سلاح المؤمن، و فى عده الداعى فى الحديث القدسى: يا موسى سلنى كل ما تحتاج اليه حتى علف شاتك و ملح عجينك.

و فى المكارم عنه عليه السّلام الدعاء افضل من قراءه القرآن لان الله عزّ و جل قال: قُلْ لِمَا يَعْْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ، و روى ذلك عن الباقر و الصادق عليهما السّلام.

و فى عده الداعى فى روايه محمد بن عجلان عن محمد بن عبيد الله بن على بن الحسين عن ابن عمه الصادق عن آبائه عن النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: أوحى الله الى بعض انبيائه فى بعض وحيه:

و عزتى و جلالى لا - قطعن امل كل آمل امل غيرى بالاياس و لا كسونه ثوب المذله فى الناس و لأبعدنه من فرجى و فضلى، أ يأمل عبدى فى الشدائد غيرى، و الشدائد بيدى و يرجو سوائى و أنا الغنى الجواد، بيدى مفاتيح الابواب و هى مغلقة، و بابى مفتوح لمن دعانى؟ الحديث.

و فى عده الداعى ايضا عن النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم قال: قال الله: ما من مخلوق يعتصم بمخلوق دونى الا قطعت اسباب السموات و اسباب الارض من دونه فان سألتنى لم أعطه و ان دعانى لم أجبه، و ما من مخلوق يعتصم بى دون خلقى الا ضمنت السموات و الارض رزقه، فإن دعانى اجبته و ان سألتنى اعطيته و ان استغفرنى غفرت له.

اقول: و ما اشتمل عليه الحديثان هو الاخلاص فى الدعاء و ليس إبطالا لسببيه الاسباب الوجوديه التى جعلها الله تعالى وسائل متوسطه بين الاشياء و بين حوائجها الوجوديه لا عللا فياضه مستقله دون الله سبحانه، و للانسان شعور باطنى بذلك فانه يشعر بفطرته ان لحاجته سببا معطيا لا يتخلف عنه فعله، و يشعر ايضا ان كل ما يتوجه اليه من الاسباب الظاهريه يمكن ان يتخلف عنه اثره فهو يشعر بأن المبدأ الذى يبتدئ عنه كل امر، و الركن الذى يعتمد عليه و يركن اليه كل حاجه فى تحققها و وجودها غير هذه الاسباب و لا يزم ذلك ان لا يركن الركون التام الى شىء من هذه الاسباب بحيث ينقطع عن السبب الحقيقى و يعتصم بذلك السبب الظاهرى، و الانسان ينتقل الى هذه الحقيقه بأدنى توجه و التفات فإذا سئل او طلب شيئا من حوائجه فوقع ما طلبه كشف ذلك انه سئل ربه و اتصل حاجته، التى شعر بها بشعوره

الباطنى من طريق الاسباب الى ربه فاستفاض منه، و اذا طلب ذلك من سبب من الاسباب فليس ذلك من شعور فطرى باطنى و انما هو امر صوره له تخيله لعلل اوجبت هذا التخيل من غير شعور باطنى بالحاجه، و هذا من الموارد التى يخالف فيها الباطن الظاهر.

و نظير ذلك: ان الانسان كثيرا ما يحب شيئا و يهتم به حتى اذا وقع وجده ضارا بما هو أنفع منه و اهم و احب فترك الاول و أخذ بالثانى، و ربما هرب من شىء حتى اذا صادفه وجده أنفع و خيرا مما كان يتحفظ به فأخذ الاول و ترك الثانى، فالصبي المريض اذا عرض عليه الدواء المر امتنع من شربه و أخذ بالبكاء و هو يريد الصحة، فهو بشعوره الباطنى الفطرى يسأل الصحة فيسأل الدواء و ان كان بلسان قوله أو فعله يسأل خلافه، فلانسان فى حياته نظام بحسب الفهم الفطرى و الشعور الباطنى و له نظام آخر بحسب تخيله و النظام الفطرى لا- يقع فيه خطأ و لا- فى سيره خبط، و اما النظام التخيلى فكثيرا ما يقع فيه الخطاء و السهو، فربما سأل الانسان أو طلب بحسب الصوره الخياليه شيئا، و هو بهذا السؤال بعينه يسأل شيئا آخر أو خلافه، فعلى هذا ينبغى أن يقرر معنى الاحاديث، و هو اللائح من قول على عليه السلام فيما سيأتى: أن العطيه على قدر النيه؛ الحديث.

و فى عده الداعى عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم ادعوا الله و انتم موقنون بالاجابه.

و فى الحديث القدسى: أنا عند ظن عبدى بى، فلا يظن بى إلا خيرا.

اقول: و ذلك ان الدعاء مع اليأس أو التردد يكشف عن عدم السؤال فى الحقيقه كما مر، و قد ورد المنع عن الدعاء بما لا يكون.

و فى العده أيضا عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم: إفزعوا الى الله فى حوائجكم، و الجئوا اليه فى مللماتكم، و تضرعوا اليه و ادعوه، فإن الدعاء مخ العباده، و ما من مؤمن يدعوا الله الا استجاب فإما أن يعجله له فى الدنيا أو يؤجل له فى الآخره، و اما أن يكفر له من ذنوبه بقدر ما دعا ما لم يدع بمأثم.

و فى نهج البلاغه فى وصيه له عليه السّلام لابنه الحسين عليه السّلام: ثم جعل فى يديك مفاتيح خزائنه بما اذن لك فيه من مسأله فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمه و استمطرت شآبيب رحمته، فلا- يقنطنك إبطاء إجابته، فإن العطيه على قدر النيه، و ربما اخرت عنك الاجابه ليكون ذلك أعظم لا- جر السائل، و اجزل لعطاء الآمل، و ربما سألت الشىء فلا تؤتاه و اوتيت خيرا منه عاجلا- أو آجلا- أو صرف عنك لما هو خير لك، فلب أمر قد طلبته فيه هلاك دينك لو أوتيته، فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله، و ينفى عنك وباله، و المال لا يبقى لك و لا تبقى له.

اقول: قوله: فإن العطيه على قدر النيه يريد عليه السّلام به: ان الاستجابه تطابق الدعوه فما سأله السائل منه تعالى على حسب ما عقد عليه حقيقه ضميره و حملة ظهر قلبه هو الذى يؤتاه، لا ما كشف عنه قوله و أظهره لفظه، فإن اللفظ ربما لا يطابق المعنى المطلوب كل المطابقه كما مر بيانه فهى احسن جملة و اجمع كلمه لبيان الارتباط بين المسأله و الاجابه.

و قد بين عليه السّلام بها عده من الموارد التى يترأى فيها تخلف الاستجابه عن الدعوه ظاهرا كالإبطاء فى الاجابه، و تبديل المسئول عنه فى الدنيا بما هو خير منه فى الدنيا، أو بما هو خير منه فى الآخره، أو صرفه إلى شىء آخر أصلح منه بحال السائل، فإن السائل ربما يسأل النعمه الهنيهة و لو اوتيتها على الفور لم تكن هنيهة و على الرغبه فتبطن إجابته لأن السائل سأل النعمه الهنيهة فقد سأل الاجابه على بطؤ، و كذلك المؤمن المهتم بأمر دينه لو سأل ما فيه هلاك دينه و هو لا يعلم بذلك و يزعم ان فيه سعاده و انما سعاده فى آخرته فقد سأل فى الحقيقه لآخرته لا دنياه فيستجاب لذلك فيها لا فى الدنيا.

و فى عده الداعى عن الباقر عليه السّلام ما بسط عبد يده الى الله عزّ و جل إلا استحيى الله أن يردّها صفرا حتى يجعل فيها من فضله و رحمته ما يشاء، فإذا دعا أحدكم فلا يرد يده حتى يمسح بها على رأسه و وجهه، و فى خبر آخر على وجهه و صدره.

اقول: وقد روى في الدر المنثور ما يقرب من هذا المعنى عن عده من الصحابه كسلمان، و جابر، و عبد الله بن عمر، و أنس بن مالك، و ابن أبي مغيث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ في ثمانى روايات، و فى جميعها رفع اليدين فى الدعاء فلا معنى لانكار بعضهم رفع اليدين بالدعاء معللا بأنه من التجسيم إذ رفع اليدين إلى السماء ايماء الى أنه تعالى فيها-تعالى عن ذلك و تقدس-.

و هو قول فاسد، فإن حقيقه جميع العبادات البدنيه هى تنزيل المعنى القلبي و التوجه الباطنى إلى مواطن الصوره، و إظهار الحقائق المتعاليه عن الماده فى قالب التجسم، كما هو ظاهر فى الصلاه و الصوم و الحج و غير ذلك و أجزاءها و شرائطها، و لو لا ذلك لم يستقيم أمر العباده البدنيه، و منها الدعاء، و هو تمثيل التوجه القلبي و المسأله الباطنيه بمثل السؤال الذى نعهدده فيما بيننا من سؤال الفقير المسكين الدانى من الغنى المتعزز العالى حيث يرفع يديه بالبسط، و يسأل حاجته بالذله و الضراعه، و قد روى الشيخ فى المجالس و الأخبار مسندا عن محمد و زيد ابني على بن الحسين عن أبيهما عن جدهما الحسين عليه السلام عن النبي، و فى عده الداعى مرسلا أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ كان يرفع يديه إذا ابتهل و دعا كما يستطعم المسكين.

و فى البحار عن على عليه السلام أنه سمع رجلا يقول: اللهم إني أعوذ بك من الفتنه، قال عليه السلام: أراك تتعوذ من مالك و ولدك، يقول الله تعالى: **أَتَمَّا أَمْوَالِكُمْ وَ أَوْلَادِكُمْ فَتَنَّهُ وَ لَكِن قُل: اللهم إني أعوذ بك من مضلات الفتن.**

اقول: و هذا باب آخر فى تشخيص معنى اللفظ و له نظائر فى الروايات، و فيها: أن الحق فى معنى كل لفظ هو الذى ورد منه فى كلامه، و من هذا الباب ما ورد فى الروايات فى تفسير معنى الجزء و الكثير و غير ذلك.

و فى عده الداعى عن الصادق عليه السلام: إن الله لا يستجيب دعاء بظهر قلب ساه.

و فى العده أيضا عن على عليه السلام لا يقبل الله دعاء قلب لاه.

اقول: و فى هذا المعنى روايات أخر، و السر فيه عدم تحقق حقيقه الدعاء و المسأله فى

و فى دعوات الراوندى: فى التوراه يقول الله عزّ و جل للعبد: إنك متى ظلمت تدعونى على عبد من عبدى من أجل أنه ظلمك فلك من عبىدى من يدعو عليك من أجل أنك ظلمته فإن شئت أحببتك و أحبته فىك، و إن شئت أخرجتكم إلى يوم القيامة.

اقول: و ذلك أن من سأل شيئاً لنفسه فقد رضى به و رضى بعين هذا الرضا بكل ما يماثله من جميع الجهات، فإذا دعا على من ظلمه بالانتقام فقد دعا عليه لأجل ظلمه فهو راض بالانتقام من الظالم، و اذا كان هو نفسه ظالماً لغيره فقد دعا على نفسه بعين ما دعا لنفسه فإن رضى بالانتقام عن نفسه و لن يرضى أبداً عوقب بما يريد على غيره، و إن لم يرض بذلك لم يتحقق منه الدعاء حقيقه، قال تعالى: وَ يَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً (الاسراء ١١).

و فى عده الداعى قال رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم لاجبى ذر: يا أبا ذر أ لا اعلمك كلمات ينفعك الله عزّ و جل بهن؟ قلت بلى يا رسول الله، قال صلّى الله عليه و آله و سلّم: احفظ الله يحفظك الله، احفظ الله تجده امامك، تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشده، و إذا سألت فاسأل الله، و إذا استعنت فاستعن بالله، فقد جرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، و لو أن الخلق كلهم جهدوا على أن ينفعوك بما لم يكتبه الله لك ما قدروا عليه.

اقول: قوله صلّى الله عليه و آله و سلّم: تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشده: يعنى: ادع الله فى الرخاء و لا تنسه حتى يستجيب دعائك فى الشده و لا ينساك، و ذلك أن من نسى ربه فى الرخاء فقد أذعن بالاستقلال الاسباب فى الرخاء، ثم إذا دعا ربه فى الشده كان معنى عمله أنه يذعن بالربوبيه فى حال الشده و على تقديرها، و ليس تعالى على هذه الصفه بل هو رب فى كل حال و على جميع التقادير، فهو لم يدع ربه، و قد ورد هذا المعنى فى بعض الروايات بلسان آخر، فى مكارم الأخلاق عن الصادق عليه السلام قال عليه السلام: من تقدم فى الدعاء أستجيب له إذا نزل البلاء، و قيل:

صوت معروف، و لم يحجب عن السماء، و من لم يتقدم فى الدعاء لم يستجب له اذا نزل البلاء و قالت الملائكه: ان ذا الصوت لا نعرفه الحديث، و هو المستفاد من اطلاق قوله تعالى: نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ (التوبه ٦٧)، و لا- ينافى هذا ما ورد أن الدعاء لا يرد مع الانقطاع، فإن مطلق الشده غير الانقطاع التام.

و قوله صلى الله عليه و آله و سلم: و اذا سألت فاسأل الله و اذا استعنت فاستعن بالله، ارشاد الى التعلق بالله فى السؤال و الاستعانه بحسب الحقيقه فإن هذه الاسباب العاديه التى بين أيدينا انما سببيتها محدوده على قدر الله لها من الحد لا على ما يتراءى من استقلالها فى التأثير بل ليس لها الا الطريقه و الوساطه فى الإيصال، و الامر بيد الله تعالى، فإذا ن الواجب على العبد أن يتوجه فى حوائجه إلى جناب العزه و باب الكبرياء و لا يركن إلى سبب بعد سبب، و إن كان أبى الله أن يجرى الامور الا بأسبابها و هذه دعوته الى عدم الاعتماد على الاسباب الا بالله الذى أفاض عليها السببيه لا أنها هدايه الى الغاء الاسباب و الطلب من غير السبب فهو طمع فيما لا مطمع فيه، كيف و الداعى يريد ما يسأله بالقلب، و يسأل ما يريد باللسان و يستعين على ذلك بأركان وجوده و كل ذلك أسباب؟

و اعتبر ذلك بالإنسان حيث يفعل ما يفعل بأدواته البدنيه فيعطى ما يعطى بيده و يرى ما يرى ببصره و يسمع ما يسمع باذنه فمن يسأل ربه بإلغاء الأسباب كان كمن سأل الإنسان أن يناوله شيئاً من غير يد أو ينظر اليه من غير عين أو يستمع من غير أذن، و من ركن الى سبب من دون الله سبحانه و تعالى كان كمن تعلق قلبه بيده الانسان فى اعطائه أو بعينه فى نظرها أو باذنه فى سمعها و هو غافل معرض عن الإنسان الفاعل بذلك فى الحقيقه فهو غافل مغفل، و ليس ذلك تقييدا للقدرة الإلهيه غير المتناهيه و لا سلبا للاختيار الواجبى، كما أن الانحصار الذى ذكرناه فى الإنسان لا يوجب سلب القدره و الاختيار عنه، لكون التحديد راجعا بالحقيقه الى الفعل لا الى الفاعل، اذ من الضرورى أن الانسان قادر على المناوله و الرؤيه

و السمع لكن المناوله لا يكون الا باليد، و الرؤيه و السمع هما اللذان يكونان بالعين و الاذن لا مطلقا، كذلك الواجب تعالى قادر على الإطلاق غير أن خصوصيه الفعل يتوقف على توسط الاسباب فزيد مثلا و هو فعل لله هو الإنسان الذى ولده فلان و فلانه فى زمان كذا و مكان كذا و عند وجود شرائط كذا و ارتفاع موانع كذا، لو تخلف واحد من هذا العلل و الشرائط لم يكن هو هو، فهو فى ايجاده يتوقف على تحقق جميعها، و المتوقف هو الفعل دون الفاعل فافهم ذلك.

و قوله صلى الله عليه و آله و سلم: فقد جرى القلم بما هو كائن الى يوم القيامة، تفرع على قوله: و اذا سألت فاسأل الله، من قبيل تعقيب المعلول بالعله فهو بيان عله قوله: و اذا سألت، و سببه، و المعنى أن الحوادث مكتوبه مقدره من عند الله تعالى لا تأثير لسبب من الأسباب فيها حقيقه، فلا تسأل غيره تعالى و لا تستعن بغيره تعالى، و أما هو تعالى: فسلطانه دائم و ملكه ثابت و مشيته نافذه و كل يوم هو فى شأن، و لذلك عقب الجملة بقوله: و لو أن الخلق كلهم جهدوا؛ الخ.

و من أخبار الدعاء ما ورد عنهم مستفيضا ان الدعاء من القدر.

اقول: و فيه جواب ما استشكله اليهود و غيرهم على الدعاء: ان الحاجه المدعو لها اما ان تكون مقضيه مقدره أو لا، و هى على الاول واجبه و على الثانى ممتنع، و على أى حال لا معنى لتأثير الدعاء، و الجواب: أن فرض تقدير وجود الشئ لا يوجب استغناؤه عن أسباب وجوده، و الدعاء من أسباب وجود الشئ فمع الدعاء يتحقق سبب من أسباب الوجود فيتحقق المسبب عن سببه، و هذا هو المراد بقولهم: ان الدعاء من القدر، و فى هذا المعنى روايات أخر.

ففى البحار عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم لا يرد القضاء الا الدعاء.

و عن الصادق عليه السلام: الدعاء يرد القضاء بعد ما أبرم ابراما.

و عن أبى الحسن موسى عليه السلام: عليكم بالدعاء فإن الدعاء و الطلب الى الله عزّ و جل يرد

البلاء، وقد قدر و قضى فلم يبق الا امضائه فإذا دعى الله و سئل صرف البلاء صرفا.

و عن الصادق عليه السلام ان الدعاء يرد القضاء المبرم و قد أبرم ابراما فأكثر من الدعاء فإنه مفتاح كل رحمه و نجاح كل حاجه و لا ينال ما عند الله الا بالدعاء فإنه ليس من باب يكثر قرعه الا أو شك أن يفتح لصاحبه.

اقول: وفيها اشاره الى الإصرار و هو من محققات الدعاء، فان كثرة الاتيان بالقصد يوجب صفائه.

و عن اسماعيل بن همان عن أبي الحسن عليه السلام: دعوه العبد سرا دعوه واحده تعدل سبعين دعوه علانيه.

اقول: وفيها اشاره الى اخفاء الدعاء و اسراره فإنه أحفظ لاخلاص الطلب.

و في المكارم عن الصادق عليه السلام: لا يزال الدعاء محجوبا حتى يصلى على محمد و آل محمد.

و عن الصادق عليه السلام أيضا، من قَدَّم أربعين من المؤمنين ثم دعا أستجيب له.

و عن الصادق عليه السلام أيضا- و قد قال له رجل من اصحابه انى لأجد آيتين فى كتاب الله اطلبهما فلا اجدهما- قال: فقال: و ما هما؟ قلت: ادعوني استجب لكم فندعوه فلا- نرى اجابه، قال افترى الله اخلف وعده؟ قلت: لا، قال: فمه؟ قلت: لا- ادرى قال: لكنى أخبرك من أطاع الله فيما امر به ثم دعاه من جهه الدعاء اجابه، قلت: و ما جهه الدعاء؟ قال: تبدأ فتحمد الله و تمجده و تذكر نعمه عليك فتشكره ثم تصلى على محمد و آله ثم تذكر ذنوبك فتقر بها، ثم تستغفر منها فهذه جهه الدعاء، ثم قال: و ما الآيه الاخرى؟ قلت: و ما أنفقتم من شىء فهو يخلفه و أرانى أنفق و لا أرى خلفا، قال: افترى الله اخلف وعده؟ قلت: لا، قال: فمه؟ قلت: لا ادرى، قال: لو أن أحدكم اكتسب المال من حله و أنفق فى حقه لم ينفق درهمه الا اخلف الله عليه.

اقول: و الوجه فى هذه الاحاديث الواردة فى آداب الدعاء ظاهره فإنها تقرب العبد من

و فى الدر المنثور عن ابن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ان الله اذا اراد ان يستجيب لعبده اذن له فى الدعاء.

و عن ابن عمر ايضا عنه صلى الله عليه وآله وسلم من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له ابواب الرحمه، و فى روايه من فتح له فى الدعاء منكم فتحت له ابواب الجنه.

اقول: و هذه المعنى مروى من طرق ائمه اهل البيت ايضا: من أعطى الدعاء أعطى الاجابه، و معناه واضح مما مر.

و فى الدر المنثور ايضا عن معاذ بن جبل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لو عرفتم الله حق معرفته لزالتم لدعائكم الجبال.

اقول: و ذلك ان الجهل بمقام الحق و سلطان الربوبيه و الركون الى الاسباب يوجب الاذعان بحقيقه التأثير للاسباب و قصر المعلومات على عللها المعهوده و اسبابها العاديه حتى ان الانسان ربما زال عن الاذعان بحقيقه التأثير للأسباب لكن يبقى الاذعان بتعين الطرق و وساطه الاسباب المتوسطه فإننا نرى ان الحركه و السير يوجب الاقتراب من المقصد ثم اذا زال منا الاعتقاد بحقيقه تأثير السير فى الاقتراب اعتقدنا بان السير واسطه و الله سبحانه و تعالى هو المؤثر هناك لكن يبقى الاعتقاد بتعين الوساطه و انه لو لا السير لم يكن قرب و لا اقتراب، و بالجمله ان المسببات لا تتخلف عن اسبابها و ان لم يكن للأسباب الا الوساطه دون التأثير، و هذا هو الذى لا يصدق العلم بمقام الله سبحانه فإنه لا يلائم السلطنه التامه الالهيه، و هذا التوهم هو الذى اوجب ان نعتقد استحاله تخلف المسببات عن اسبابها العاديه كالثقل و الانجذاب عن الجسم، و القرب عن الحركه، و الشيع عن الاكل، و الرى عن الشرب، و هكذا، و قد مر فى البحث عن الاعجاز ان ناموس العليه و المعلوليه، و بعبارة أخرى توسط الاسباب بين الله سبحانه و بين مسبباتها حق لا مناص عنه لكنه لا يوجب قصر الحوادث على اسبابها

العاديه بل البحث العقلي النظرى، و الكتاب و السنه تثبت اصل التوسط و تبطل الانحصار، نعم المحالات العقليه لا مطمع فيها.

اذا عرفت هذا علمت: ان العلم بالله يوجب الازعان بان ما ليس بمحال ذاتى من كل ما تحيله العاده فإن الدعاء مستجاب فيه كما ان العمده من معجزات الانبياء راجعه الى استجابته الدعوه.

و فى تفسير العياشى عن الصادق عليه السلام فى قوله تعالى: فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَ لِيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ انى اقدر ان اعطيهم ما يسألونى.

و فى المجمع، قال: و روى عن ابى عبد الله صلى الله عليه و آله و سلم انه قال: و ليؤمنوا بى اى و ليتحققوا انى قادر على اعطائهم ما سألوه لعلهم يرشدون، اى لعلهم يصيبون الحق، اى يهتدون اليه.

[سوره البقره (٢): آيه ١٨٧]

اشاره

أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٍ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)

بيان:

قوله تعالى: أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ، الاحلال بمعنى

ص: ٢٢٨

الاجازة، وأصله من الحل مقابل العقد، والرفث هو التصريح بما يكتفى عنه مما يستقبح ذكره، من الألفاظ التي لا تخلو عنها مباشرة النساء، وقد كنى به هاهنا عن عمل الجماع وهو من أدب القرآن الكريم وكذا سائر الألفاظ المستعملة فيه في القرآن كالمباشرة والدخول والمس واللمس والأتیان والقرب كلها ألفاظ مستعملة على طريق التكنية، وكذا لفظ الوطء والجماع وغيرهما المستعملة في غير القرآن ألفاظ كناية وإن أخرج كثرة الاستعمال بعضها من حد الكناية إلى التصريح، كما أن اللفظ الفرج والغائط بمعناهما المعروف اليوم من هذا القبيل، وتعديه الرفث يالئ لتضمينه معنى الإفشاء على ما قبيل.

قوله تعالى: هُنَّ لِيَاسٍ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِيَاسٍ لَهُنَّ، الظاهر من اللباس معناه المعروف وهو ما يستر به الإنسان بدنه، والجملتان من قبيل الاستعارة فإن كلا من الزوجين يمنع صاحبه عن اتباع الفجور وإشاعته بين أفراد النوع فكان كل منهما لصاحبه لباساً يوارى به سواته ويستر به عورته.

وهذه استعاره لطيفة، وتزيد لطفاً بانضمامها إلى قوله: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيِّمِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ، فإن الإنسان يستر عورته عن غيره باللباس، وأما نفس اللباس فلا يستر عنه فكذا كل من الزوجين يتقى به صاحبه عن الرفث إلى غيره، وأما الرفث إليه فلا لأنه لباس المتصل بنفسه المباشر له.

قوله تعالى: عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ، الاختيان والخيانة بمعنى، وفيه معنى النقص على ما قيل، وفي قوله: أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ، دلالة على معنى الاستمرار، فتدل الآية على أن هذه الخيانة كانت دائره مستمره بين المسلمين منذ شرع حكم الصيام فكانوا يعصون الله تعالى سرا بالخيانة لأنفسهم، ولو لم تكن هذه الخيانة منهم معصية لم ينزل التوبه والعفو، وهما وإن لم يكونا صريحين في سبق المعصية لكنهما، وخاصة إذا اجتمعا، ظاهر في ذلك.

و على هذا فالآية داله على ان حكم الصيام كان قبل نزول الآية حرمة الجماع فى ليله الصيام، و الآية بنزولها شرعت الحليه و نسخت الحرمة كما ذكره جمع من المفسرين، و يشعر به أو يدل عليه قوله: أَحِلَّ لَكُمْ، و قوله: كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ، و قوله: فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَ عَفَا عَنْكُمْ، و قوله: فَالْمَانَ بَاشِرُوهُنَّ، اذ لو لا حرمة سابقه كان حق الكلام ان يقال: فلا جناح عليكم ان تباشروهن أو ما يؤدى هذا المعنى، و هو ظاهر.

قوله تعالى: فَالْمَانَ بَاشِرُوهُنَّ وَ ابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ، أمر واقع بعد الحضر فيدل على الجواز، و قد سبقه قوله تعالى فى أول الآية: احل لكم و المعنى فمن الآن تجوز لكم مباشرتهن، و الابتغاء هو الطلب، و المراد بابتغاء ما كتب الله هو طلب الولد الذى كتب الله سبحانه ذلك على النوع الانسانى من طريق المباشرة، و فطرم على طلبه بما أودع فيهم من شهوة النكاح و المباشرة، و سخرهم بذلك على هذا العمل فهم يطلبون بذلك ما كتب الله لهم و إن لم يقصدوا ظاهرا إلا ركوب الشهوة و نيل اللذة كما انه تعالى كتب لهم بقاء الحياه و النمو بالاكل و الشرب و هو المطلوب الفطرى و ان لم يقصدوا بالاكل و الشرب إلا الحصول على لذة الذوق و الشبع و الرى، فإنما هو تسخير إلهى.

و اما ما قيل: ان المراد بما كتب الله لهم الحل و الرخصة فإن الله يحب ان يؤخذ برخصه كما يحب ان يؤخذ بعزائمه، فيبعده: ان الكتابه فى كلامه غير معهوده فى مورد الحليه و الرخصه.

قوله تعالى: وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ، الفجر فجران، فجر أول يسمى بالكاذب لبطلانه بعد مكث قليل و بذنب السرحان لمشابهته ذنب الذئب اذا شاله، و عمود شعاعى يظهر فى آخر الليل فى ناحيه الافق الشرقى اذا بلغت فاصله الشمس من دائره الافق الى ثمانيه عشر درجه تحت الافق، ثم يبطل بالاعتراض فيكون معترضا مستطيلا على الأفق كالخيط الابيض الممدود عليه و هو الفجر الثانى، و يسمى الفجر الصادق لصدقه فيما يحكيه و يخبر به من قدوم النهار و اتصاله

بطلوع الشمس.

و من هنا يعلم ان المراد بالخيط الابيض هو الفجر الصادق، و ان كلمه من، بيانيه و ان قوله تعالى: حتى يتبين لكم الخيط الاسود من قبيل الاستعاره بتشبيهه البياض المعترض على الافق من الفجر، المجاور لما يمتد معترضا معه من سواد الليل بخيط أبيض يتبين من الخيط الاسود.

و من هنا يعلم أيضا: ان المراد هو التحديد بأول حين من طلوع الفجر الصادق فان ارتفاع شعاع بياض النهار يبطل الخيطين فلا خيط ابيض و لا خيط اسود.

قوله تعالى: ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ، لما دل التحديد بالفجر على وجوب الصيام الى الليل بعد تبينه استغنى عن ذكره ايثارا للايجاز بل تعرض لتحديده بإتمامه الى الليل، و في قوله: أَتَمُّوا دلالة على انه واحد بسيط و عبادته واحده تامه من غير ان تكون مركبه من أمور عديده كل واحد منها عبادته واحده، و هذا هو الفرق بين التمام و الكمال حيث ان الاول انتهاء وجود ما لا يتألف من اجزاء ذوات آثار و الثانى انتهاء وجود ما لكل من اجزائه اثر مستقل وحده، قال تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي (المائدة/ ٣)، فإن الدين مجموع الصلاة و الصوم و الحج و غيرها التى لكل منها اثر مستقل به، بخلاف النعمة على ما سيجىء بيانه إنشاء الله فى الكلام على الآيه.

قوله تعالى: وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ، العكوف و الاعتكاف هو اللزوم و الاعتكاف بالمكان الاقامه فيه ملازما له.

و الاعتكاف عبادته خاصه من احكامها لزوم المسجد و عدم الخروج منه الا لعذر و الصيام معه، و لذلك صح ان يتوهم جوار مباشره النساء فى ليالى الاعتكاف فى المسجد بتشريع جواز الرفث ليله الصيام فدفع هذا الدخل بقوله: وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ .

ص: ٢٣١

قوله تعالى: تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا، أصل الحد هو المنع و اليه يرجع جميع استعمالاته و اشتقاقاته كحد السيف و حد الفجور و حد الدار و الحديد الى غير ذلك، و النهى عن القرب من الحدود كناية عن عدم اقترافها و التعدى إليها، أى لا تقتربوا هذه المعاصى التى هى الاكل و الشرب و المباشرة او لا تتعدوا عن هذه الاحكام و الحرمات الإلهيه التى بينها لكم و هى احكام الصوم بإضاعتها و ترك التقوى فيها.

[سوره البقره (٢): آيه ١٨٨]

اشاره

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكْمِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)

بيان:

قوله تعالى: وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ، المراد بالاكل الاخذ أو مطلق التصرف مجازاً، و المصحح لهذا الاطلاق المجازى كون الاكل أقرب الافعال الطبيعیه التى يحتاج الانسان الى فعلها و أقدمها فالانسان أول ما ينشأ وجوده يدرك حاجته الى التغذى ثم ينتقل منه الى غيره من الحوائج الطبيعیه كاللباس و المسكن و النكاح و نحو ذلك، فهو أول تصرف يستشعر به من نفسه، و لذلك كان تسميه التصرف و الاخذ، و خاصه فى مورد الاموال، أكلا لا يختص باللغه العربيه بل يعم سائر اللغات.

و المال ما يتعلق به الرغبات من الملك، كأنه مأخوذ من الميل لكونه ما يميل اليه القلب، و البين هو الفصل الذى يضاف الى شيئين فأزيد، و الباطل يقابل الحق الذى هو الامر الثابت بنحو من الثبوت.

و فى تقييد الحكم، أعنى قوله: وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ، بقوله: بَيْنَكُمْ، دلالة على ان جميع الاموال لجميع الناس و إنما قسمه الله تعالى بينهم تقسيماً حقا بوضع قوانين عادله تعدل الملك

ص: ٢٣٢

تعديلاً حقا يقطع منابت الفساد لا يتعداه تصرف من متصرف إلا كان باطلاً، فالآية كالشارحه لإطلاق قوله تعالى: خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً و في إضافته الاموال الى الناس إمضاء منه لما استقر عليه بناء المجتمع الانساني من اعتبار أصل الملك و احترامه في الجملة من لدن استكن هذا النوع على بساط الارض على ما يذكره النقل و التاريخ، و قد ذكر هذا الاصل في القرآن بلفظ الملك و المال و لام الملك و الاستخلاف و غيرها في مزيد من مائه مورد و لا حاجة الى إيرادها في هذا الموضوع، و كذا بطريق الاستلزام في آيات تدل على تشريع البيع و التجاره و نحوهما في بضعه مواضع كقوله تعالى: وَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ (البقره ٢٧٥)، و قوله تعالى: لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ (النساء / ٢٩)، و قوله تعالى: تِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا (التوبه ٢٤)، و غيرها، و السنه المتواتره تؤيده.

قوله تعالى: وَ تُدَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكْمِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً، الإدلاء هو ارسال الدلو في البئر لنرح الماء كنى به عن مطلق تقريب المال الى الحكم ليحكموا كما يريد الراسي، و هو كناية لطيفه تشير الى استبطن حكمهم المطلوب بالرشوه الممثل لحال الماء الذي في البئر بالنسبه الى من يريد، و الفريق هو القطعه المفروقه المعزوله من الشئ، و الجملة معطوفه على قوله: تَأْكُلُوا، فالفعل مجزوم بالنهي، و يمكن ان يكون الواو بمعنى مع و الفعل منصوباً بأن المقدره، و التقدير مع ان تأكلوا فتكون الآية بجملتها كلاماً واحداً مسوقاً لغرض واحد، و هو النهي عن تصالح الراسي و المرتشي على أكل أموال الناس بوضعها بينهما و تقسيمها لانفسهما بأخذ الحاكم ما تدلى به منها اليه و اخذ الراسي فريقاً آخر منها بالإثم و هما يعلمان ان ذلك باطل غير حق (١).

ص: ٢٣٣

اشاره

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)

بيان:

قوله تعالى: يَسْأَلُونَكَ -الى قوله- لِلنَّاسِ، الاهله جمع هلال و يسمى القمر هلالا اول الشهر القمري اذا خرج من تحت شعاع الشمس الليله الاولى و الثانيه كما قيل، و قال بعضهم الليالى الثلاثه الاول، و قال بعضهم حتى يتحجر، و التحجر ان يستدير بخطه دقيقه، و قال بعضهم: حتى يبهر نوره ظلمه الليل و ذلك فى الليله السابعه ثم يسمى قمرا و يسمى فى الرابعه عشر بدرا، و اسمه العام عند العرب الزبرقان.

و الهلال مأخوذ من استهل الصبى اذا بكى عند الولاده أو صاح، و من قولهم: أهل القوم بالحج اذا رفعوا أصواتهم بالتلبيه، سمي به لاین الناس يهلون بذكره اذا رأوا. و المواقيت جمع ميقات و هو الوقت المضروب للفعل، و يطلق ايضا: على المكان المعين للفعل كميقات أهل الشام و ميقات أهل اليمن، و المراد هاهنا الاول.

و فى قوله تعالى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ، و ان لم يشرح ان السؤال فى امرها عما ذا؟ عن حقيقه القمر و سبب تشكلاتها المختلفه فى صور الهلال و القمر و البدر كما قيل، أو عن حقيقه الهلال فقط، الظاهر بعد المحاق فى اول الشهر القمري كما ذكره بعضهم، أو عن غير ذلك.

و لكن اتيان الهلال فى السؤال بصوره الجمع حيث قيل: يسألونك عن الاهله دليل على ان

السؤال لم يكن عن ماهية القمر و اختلاف تشكيلاته اذ لو كان كذلك لكان الانسب ان يقال:

يسألونك عن القمر لا عن الالهه،و ايضا لو كان السؤال عن حقيقه الهلال و سبب تشكله الخاص كان الانسب ان يقال:يسألونك عن الهلال اذ لا غرض حينئذ يتعلق بالجمع،ففى اتيان الالهه بصيغه الجمع دلالة على ان السؤال انما كان عن السبب أو الفائده فى ظهور القمر هلالا بعد هلال و رسمه الشهور القمرية،و عبر عن ذلك بالالهه لانها هى المحققه لذلك فاجيب بالفائده.

و يستفاد ذلك من خصوص الجواب:قل هى مواقيت للناس و الحج،فإن المواقيت و هى الازمان المضروبه للافعال،و الاعمال انما هى الشهور دون الالهه التى ليست بأزمنه و انما هى أشكال و صور فى القمر.

قوله تعالى: وَ لَيْسَ الْبُرِّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا -الى قوله- مِنْ أَبْوَابِهَا، ثبت بالنقل ان جماعه من العرب الجاهلى كانوا اذا أحرموا للحج لم يدخلوا بيوتهم عند الحاجه من الباب بل اتخذوا نقبا من ظهورها و دخلوا منه فنهى عن ذلك الاسلام و امرهم بدخول البيوت من ابوابها،و نزول الآيه يقبل الانطباق على هذا الشأن،و بذلك يصح الاعتماد على ما نقل من شأن نزول الآيه على ما سيأتى نقله.

و لو لا ذلك لامكن ان يقال:ان قوله: وَ لَيْسَ الْبُرِّ الى آخره؛ كناية عن النهى عن امتثال الاوامر الالهيه و العمل بالاحكام المشرعه فى الدين إلا على الوجه الذى شرعت عليه،فلا يجوز الحج فى غير أشهره،و لا الصيام فى غير شهر رمضان و هكذا و كانت الجملة على هذا متمما لاول الآيه،و كان المعنى:ان هذه الشهور أوقات مضروبه لاعمال شرعت فيها و لا يجوز التعدى بها عنها الى غيرها كالحج فى غير أشهره،و الصوم فى غير شهر رمضان و هكذا فكانت الآيه مشتمله على بيان حكم واحد.

و على التقدير الاول الذى يؤيده النقل فنفى البر عن إتيان البيوت من ظهورها يدل على ان

العمل المذكور لم يكن مما امضاه الدين و إلا لم يكن معنى لنفى كونه برا فانما كان ذلك عاده سيئه جاهليه فنفى الله تعالى كونه من البر، و أثبت ان البر هو التقوى، و كان الظاهر ان يقال: و لكن البر هو التقوى، و انما عدل الى قوله: **وَ لَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى**، اشعاراً بان الكمال انما هو فى الانصاف بالتقوى و هو المقصود دون المفهوم الخالى كما مر نظيره فى قوله تعالى: **لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ**، الآية.

و الامر فى قوله تعالى: **وَ أَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا**، ليس امراً مولوياً و إنما هو إرشاد الى حسن إتيان البيوت من أبوابها لما فيه من الجرى على العاده المألوفه المستحسنه الموافقه للغرض العقلانى فى بناء البيوت و وضع الباب مدخلا و مخرجا فيها، فإن الكلام واقع موقع الردع عن عاده سيئه لا وجه لها إلا خرق العاده الجاربه الموافقه للغرض العقلانى، فلا يدل على أزيد من الهدايه الى طريق الصواب من غير إيجاب، نعم الدخول من غير الباب بمقصد أنه من الدين بدعه محرمة.

قوله تعالى: **وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**، قد عرفت فى أول السوره ان التقوى من الصفات التى يجامع جميع مراتب الايمان و مقامات الكمال، و من المعلوم ان جميع المقامات لا يستوجب الفلاح و السعاده كما يستوجب المقامات الاخيره التى تنفى عن صاحبها الشرك و الضلال و إنما تهدى الفلاح و تبشر بالسعاده، و لذلك قال تعالى: **وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**، فأتى بكلمه الترجى، و يمكن ان يكون المراد بالتقوى امتثال هذا الامر الخاص الموجود فى الآية و ترك ما ذمه من إتيان البيوت من ظهورها.

[سوره البقره (٢): الآيات ١٩٠ الى ١٩٥]

إشارة

وَ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَ لَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَ أَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَ الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَ لَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَ قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَ الْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) وَ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَ أَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥)

ص: ٢٣٦

قوله تعالى: وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ، القتال محاولة الرجل قتل من يحاول قتله، و كونه في سبيل الله إنما هو لكون الغرض منه إقامة الدين و إعلاء كلمه التوحيد، فهو عباده يقصد بها وجه الله تعالى دون الاستيلاء على أموال الناس و أعراضهم فإنما هو في الإسلام دفاع يحفظ به حق الانسانيه المشروعه عند الفطره السليمه كما سنبينه، فان الدفاع محدود بالذات، و التعدي خروج عن الحد، و لذلك عقبه بقوله تعالى: وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ .

قوله تعالى: وَلَا تَعْتَدُوا الْخَيْلَ؛ الاعتداء هو الخروج عن الحد، يقال عدا و اعتدى اذا جاوز وحده، والنهي عن الاعتداء مطلق يراد به كل ما يصدق عليه أنه اعتداء كالقتال قبل أن يدعى الى الحق، والابتداء بالقتال، وقتل النساء و الصبيان، وعدم الانتهاء الى العدو، وغير ذلك مما بينه السنه النبويه.

قوله تعالى: وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ -الى قوله- مِنَ الْقَتْلِ، يقال ثقف ثقافه أى وجد و ادرك فمعنى الآية معنى قوله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ (التوبه ٦/٦)، و الفتنه هو ما يقع به اختبار حال الشىء، و لذلك يطلق على نفس الامتحان و الابتداء و على ما يلزمه غالبا و هو الشده و العذاب على ما يستعقبه كالضلال و الشرك، و قد استعمل فى القرآن الشريف فى جميع هذه المعانى، و المراد به فى الآية الشرك بالله و رسوله بالزجر و العذاب كما كان يفعله المشركون بمكه بالمؤمنين بعد هجره رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و قبلها.

فالمعنى شددوا على المشركين بمكه كل التشديد بقتلهم حيث وجدوا حتى ينجر ذلك الى خروجهم من ديارهم و جلائهم من أرضهم كما فعلوا بكم ذلك، و ما فعلوه أشد فإن ذلك منهم كان فتنه و الفتنه أشد من القتل لان فى القتل انقطاع الحياه الدنيا، و فى الفتنه انقطاع الحياتين و انهدام الدارين.

قوله تعالى: وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ الْخَيْلُ؛ فيه نهى عن القتال عند المسجد الحرام حفظا لحرمة ما حفظوه، و الضمير فى قوله: فِيهِ راجع الى المكان المدلول عليه بقوله عند المسجد.

قوله تعالى: فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، الانتهاء الامتناع و الكف، و المراد به الانتهاء عن مطلق القتال عند المسجد الحرام دون الانتهاء عن مطلق القتال بطاعه الدين و قبول الإسلام فإن ذلك هو المراد بقوله ثانيا: فان انتهوا فلا عدوان، و أما هذا الانتهاء

فهو قيد راجع الى أقرب الجمل اليه و هو قوله: **وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ**، و على هذا فكل من الجملتين اعنى قوله تعالى: **فَإِنْ ائْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ**، و قوله تعالى: **فَإِنْ ائْتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ**، قيد لم يتصل به من الكلام من غير تكرار.

و فى قوله تعالى: **فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**، وضع السبب موضع المسبب إعطاء لعله الحكم، و المعنى **فَإِنْ ائْتَهُوا** فان الله غفور رحيم.

قوله تعالى: **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**، تحديد لأمد القتال كما مر ذكره، و الفتنه فى لسان هذه الآيات هو الشرك باتخاذ الاصنام كما كان يفعل و يكره عليه المشركون بمكته، و يدل عليه قوله تعالى: **وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**، و الآيه نظيره لقوله تعالى: **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاغْلُظْوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَ نِعْمَ النَّصِيرُ** (الأنفال ٤٠)، و فى الآيه دلالة على وجوب الدعوه قبل القتال فان قبلت فلا- قتال و ان ردت فلا- ولايه الا لله و نعم المولى و نعم النصير، ينصر عباده المؤمنين، و من المعلوم أن القتال إنما هو ليكون الدين لله، و لا معنى لقتال هذا شأنه و غايته إلا عن دعوه الى الدين الحق و هو الدين الذى يستقر على التوحيد.

قوله تعالى: **فَإِنْ ائْتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ**، أى **فَإِنْ ائْتَهُوا** عن الفتنه و آمنوا بما آمنتتم به فلا تقاتلوهم فلا عدوان إلا على الظالمين، فهو من وضع السبب موضع المسبب كما مر نظيره فى قوله تعالى: **فَإِنْ ائْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**، الآيه؛ فالآيه كقوله تعالى: **فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ** (التوبه ١٢).

قوله تعالى: **الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَ الْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ**، الحرمات جمع حرمه و هى ما يحرم هتكه و يجب تعظيمه و رعايه جانبه، و الحرمات: حرمه الشهر الحرام و حرمه الحرم و حرمه المسجد الحرام، و المعنى أنهم لو هتكوا حرمه الشهر الحرام بالقتال فيه،

وقد هتكوا حين صدوا النبي و أصحابه عن الحج عام الحديبيه و رموهم بالسهم و الحجاره جاز للمؤمنين أن يقاتلوهم فيه و ليس بهتك،فانما يجاهدون في سبيل الله و يمثلون أمره في إعلاء كلمته و لو هتكوا حرمه الحرم و المسجد الحرام بالقتال فيه و عنده جاز للمؤمنين معاملتهم بالمثل،فقوله: **الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ** بيان خاص عقب بيان عام يشمل جميع الحرمات و أعم من هذا البيان العام قوله تعالى عقيب: **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم**،فالمعنى أن الله سبحانه إنما شرع القصاص في الشهر الحرام لأنه شرع القصاص في جميع الحرمات و إنما شرع القصاص في الحرمات لأنه شرع جواز الاعتداء بالمثل.

ثم ندبهم الى ملازمه طريقه الاحتياط في الاعتداء لأن فيه استعمالا للشده و البأس و السطوه و سائر القوى الداعيه الى الطغيان و الانحراف عن جاده الاعتدال و الله سبحانه و تعالى لا يحب المعتدين،و هم أحوج الى محبه الله تعالى و ولايته و نصره فقال تعالى: **و اتقوا الله و اعلموا أن الله مع المتقين.**

و أما أمره تعالى بالاعتداء مع انه لا يحب المعتدين فإن الاعتداء مذموم اذا لم يكن في مقابله اعتداء و أما اذا كان في مقابله الاعتداء فليس إلاّ تعالىا عن ذل الهوان و ارتقاء عن حضيض الاستعباد و الظلم و الضيم،كالتكبر مع المتكبر،و الجهر بالسوء لمن ظلم.

و قوله تعالى: **وَ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**، أمر بانفاق المال لإقامه القتال في سبيل الله و الكلام في تقييد الإنفاق هاهنا بكونه في سبيل الله نظير تقييد القتال في اول الآيات بكونه في سبيل الله، كما مر،و الباء في قوله: **بِأَيْدِيكُمْ** زائده للتأكيد،و المعنى: **و لا تلقوا أيديكم الى التهلكه كناية عن النهي عن إبطال القوه و الاستطاعه و القدره فان اليد مظهر لذلك،و ربما يقال: ان الباء للسببيه و مفعول لا تلقوا محذوف،و المعنى:**

لا تلقوا أنفسكم بأيدي أنفسكم الى التهلكه،و التهلكه و الهلاك واحد و هو مصير الإنسان

بحيث لا يدري أين هو، وهو على وزن تفعله بضم العين ليس في اللغة مصدر على هذا الوزن غيره.

و الكلام مطلق أريد به النهى عن كل ما يوجب الهلاك من إفراط و تفريط كما أن البخل و الإمساك عن إنفاق المال عند القتال يوجب بطلان القوه و ذهاب القدره، و فيه هلاك العده بظهور العدو عليهم، و كما أن التبذير بانفاق جميع المال يوجب الفقر و المسكنه المؤديين الى انحطاط الحياه و بطلان المروه.

ثم ختم سبحانه و تعالى الكلام بالاحسان فقال: **وَ أَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** و ليس المراد بالاحسان الكف عن القتال أو الرأفه فى قتل أعداء الدين و ما يشبههما بل الاحسان هو الاتيان بالفعل على وجه حسن بالقتال فى مورد القتال، و الكف فى مورد الكف، و الشده فى مورد الشده، و العفو فى مورد العفو، فدفع الظالم بما يستحقه إحسان على الانسانيه باستيفاء حقها المشروع لها، و دفاع عن الدين المصلح لشأنها كما أن الكف عن التجاوز فى استيفاء الحق المشروع بما لا ينبغى إحسان آخر، و محبه الله سبحانه و تعالى هو الغرض الأقصى من الدين، و هو الواجب على كل متدين بالدين أن يجلبها من ربه بالاتباع، قال تعالى: **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** (آل عمران ٣١)، و قد بدأت الآيات الشريفه - و هى الآيات القتال - بالنهى عن الاعتداء و ان الله لا يحب المعتدين و ختمت بالأمر بالاحسان و أن الله يحب المحسنين، و فى ذلك من وجوه الحلاوه ما لا يخفى **(١)(٢)(٣)**.

ص: ٢٤١

١-١. البقره ١٩٥-١٩٠: بحث فى الجهاد الذى يأمر به القرآن.

٢-٢. البقره ١٩٥-١٩٠: بحث اجتماعى حق الدفاع الفطرى و سبب الحروب.

٣-٣. البقره ١٩٥-١٩٠: بحث روائى فى القتال؛ الفتنة فى الدين.

وَ اتَّمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلُقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا
أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفَدَيْتِهِ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ
يَجِدْ فَصِيَامًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا
تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ
رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ
أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ
أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ
فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ
مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)

قوله تعالى: **وَ اتَّمُوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ** ، تمام الشيء هو الجزء الذى بانضمامه الى سائر أجزاء الشيء يكون الشيء هو هو، و يترتب عليه آثاره المطلوبه منه فالإتمام هو ضم تمام الشيء اليه بعد الشروع فى بعض أجزائه، و الكمال هو حال أو وصف أو أمر اذا وجد الشيء ترتب عليه من الأثر بعد تمامه ما لا يترتب عليه لو لا الكمال، فانضمام أجزاء الانسان بعضها الى بعض هو تمامه، و كونه إنسانا عالما أو شجاعا أو عفيفا كماله، و ربما يستعمل التمام مقام الكمال بالاستعاره بدعوى كون الوصف الزائد على الشيء داخلا فيه اهتماما بأمره و شأنه، و المراد بإتمام الحج و العمره هو المعنى الاول الحقيقى، و الدليل عليه قوله تعالى بعده: **فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى**، فإن ذلك تفريع على التمام بمعنى إيصال العمل الى آخر أجزائه و ضمه الى أجزائه المأتى بها بعد الشروع و لا معنى يصح تفريعه على الاتمام بمعنى الاكمال و هو ظاهر.

و الحج هو العمل المعروف بين المسلمين الذى شرعه إبراهيم الخليل عليه السلام و كان بعده بين العرب ثم أمضاه الله سبحانه لهذه الأمة شريعته باقيه الى يوم القيامة.

و يتبدى هذا العمل بالاحرام و الوقوف فى العرفات ثم المشعر الحرام، و فيها التضحية بمنى و رمى الجمرات الثلاث و الطواف و صلاته و السعى بين الصفا و المروه، و فيها أمور مفروضة أخرى، و هو على ثلاثة أقسام: حج الافراد، و حج القرآن، و حج التمتع الذى شرعه الله فى آخر عهد رسول الله.

و العمره عمل آخر و هو زياره البيت بالاحرام من أحد المواقيت و الطواف و صلاته و السعى بين الصفا و المروه و التقصير، و هما أعنى الحج، و العمره عبادتان لا يتمان إلا لوجه الله و يدل عليه قوله تعالى: **وَ اتَّمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ، الْآيَهُ.**

قوله تعالى: **فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَ لَا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ** الخ؛ الاحصار هو الحبس، و المنع، و المراد الممنوعه عن الاتمام بسبب مرض أو عدو بعد الشروع بالاحرام و الاستيسار صيروره الشئ يسيرا غير عسير كأنه يجلب اليسر لنفسه، و الهدى هو ما يقدمه الانسان من النعم الى غيره أو الى محل للتقرب به، و اصله من الهديه بمعنى التحفه أو من الهدى بمعنى الهدايه التى هى السوق الى المقصود، و الهدى و الهديه كالتمر و التمره، و المراد به ما يسوقه الانسان للتضحية به فى حجه من النعم.

قوله تعالى: **فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ** الخ؛ الفاء للتفريع، و تفريع هذا الحكم على النهى عن حلق الرأس يدل على ان المراد بالمرض هو خصوص المرض الذى يتضرر فيه من ترك الشعر على الرأس من غير حلق، و الاثيان بقوله: **أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ** بلفظه أو الترديد يدل على ان المراد بالاذى ما كان من غير طريق المرض كالهوام فهو كناية عن التأذى من الهوام كالقمل على الرأس، فهذان الامران يجوزان الحلق مع الفديه بشئ من الخصال الثلاث: التى هى الصيام، و الصدقه، و النسك.

و قد وردت السنه ان الصيام ثلاثة أيام، و ان الصدقه إطعام ستة مساكين، و ان النسك شاه.

قوله تعالى: فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ، تفرّيع على الاحصار، أى اذا أمنتُم المانع من مرض أو عدو أو غير ذلك فمن تمتع بالعمرة الى الحج، أى تمتع بسبب العمرة من حيث ختمها و الاحلال الى زمان الالهلال بالحج فما استيسر من الهدى، فالبراء للسبب، و سببه العمرة للتمتع بما كان لا يجوز له فى حال الاحرام كالنساء و الصيد و نحوهما من جهة تمامها بالاحلال.

قوله تعالى: فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَيْدِي، ظاهر الآية ان ذلك نسك، لا جبران لما فات منه من الالهلال بالحج من الميقات فإن ذلك امر يحتاج الى زياده مؤونه فى فهمه من الآية كما هو ظاهر.

قوله تعالى: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَّةً يَوْمَ ثَلَاثِهِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَ سَبْعِهِ إِذَا رَجَعْتُمْ، جعل الحج ظرفاً للصيام باعتبار اتحاده مع زمان الاشتغال به و مكانه، فالزمان الذى يعد زماناً للحج، و هو من زمان إحرام الحج الى الرجوع، زمان الصيام ثلاثة أيام، و لذلك وردت الروايات عن أئمة أهل البيت ان وقت الصيام قبل يوم الاضحى أو بعد ايام التشريق لمن لم يقدر على الصيام قبله و إلا فعند الرجوع الى وطنه، و ظرف السبعة إنما هو بعد الرجوع فإن ذلك هو الظاهر من قوله: إِذَا رَجَعْتُمْ، و لم يقل حين الرجوع على ان الالتفات من الغيبة الى الحضور فى قوله إِذَا رَجَعْتُمْ لا يخلو عن إشعار بذلك.

قوله تعالى: تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ، أى الثلاثة و السبعة عشره كامله و فى جعل السبعة مكمله للعشره دلالة على أن لكل من الثلاثة و السبعة حكماً مستقلاً آخر على ما مر من معنى التمام و الكمال فى أول الآية فالثلاثة عمل تام فى نفسه، و إنما تتوقف على السبعة فى كمالها لا تمامها.

قوله تعالى: ذَلِكُمْ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، أى الحكم المتقدم ذكره و هو التمتع بالعمرة الى الحج لغير الحاضر، و هو الذى بينه و بين المسجد الحرام

أكثر من اثني عشر ميلا على ما فسرتة السنه، و أهل الرجل خاصته: من زوجته و عياله، و التعبير عن النائي البعيد بأن لا يكون اهله حاضري المسجد الحرام من اللطف التعبيرات، و فيه إيماء الى حكمه التشريع و هو التخفيف و التسهيل، فإن المسافر من البلاد النائية للحج، و هو عمل لا يخلو من الكد و مقاسات التعب و و عثاء الطريق، لا يخلو عن الحاجه الى السكن و الراحة، و الانسان إنما يسكن و يستريح عند أهله، و ليس للنائي أهل عند المسجد الحرام، فبدله الله سبحانه من التمتع بالعمرة الى الحج و الاهلال بالحج من المسجد الحرام من غير ان يسير ثانيا الى الميقات.

و قد عرفت: أن الجملة الداله على تشريع المتعه إنما هي هذه الجملة أعنى قوله: [□] ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ، الخ؛ دون قوله: [□] فَمَنْ تَمَعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ، و هو كلام مطلق غير مقيد بوقت دون وقت و لا شخص دون شخص و لا حال دون حال.

قوله تعالى: [□] وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ، التشديد البالغ في هذا التذليل مع أن صدر الكلام لم يشتمل على أزيد من تشريع حكم في الحج ينبئ عن أن المخاطبين كان المترقب من حالهم إنكار الحكم أو التوقف في قبوله كذلك كان الامر فإن الحج خاصه من بين الاحكام المشرعه في الدين كان موجودا بينهم من عصر إبراهيم الخليل معروفا عندهم معمولا به فيهم قد أنسته نفوسهم و ألفتهم قلوبهم و قد أمضاه الاسلام على ما كان تقريبا الى آخر عهد النبي فلم يكن تغيير وضعه أمرا هينا سهل القبول عندهم و لذلك قابله بالانكار و كان ذلك غير واقع في نفوس كثير منهم على ما يظهر من الروايات، و لذلك اضطرب النبي صلى الله عليه و آله و سلم الى أن يخطبهم فيبين لهم أن الحكم لله يحكم ما يشاء، و أنه حكم عام لا يستثنى فيه أحد من نبي أو أمه فهذا هو الموجب للتشديد الذي في آخر الآيه بالأمر بالتقوى و التحذير عن عقاب الله سبحانه.

قوله تعالى: [□] الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ -الى قوله-

فِي الْحَجِّ، أَى زَمَانِ الْحَجِّ أَشْهُرَ مَعْلُومَاتٍ عِنْدَ الْقَوْمِ وَ قَدْ بَيَّنَّتْهُ السَّنَةُ وَ هِيَ: شَوَالٌ وَ ذُو الْقَعْدَةِ وَ ذُو الْحِجَّةِ.

وَ كُونَ زَمَانِ الْحَجِّ مِنْ ذَى الْحِجَّةِ بَعْضُ هَذَا الشَّهْرِ دُونَ كُلِّهِ لَا يَنَافَى عِنْدَهُ شَهْرًا لِلْحَجِّ فَإِنَّهُ مِنْ قَبِيلِ قَوْلِنَا: زَمَانٌ مُجِئِي الْيَكِّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مَعَ أَنَّ الْمَجِئِءَ إِنَّمَا هُوَ فِي بَعْضِهِ دُونَ جَمِيعِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: **وَ مَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَغْلَمُهُ اللَّهُ**، تَذَكَّرَهُ بِأَنَّ الْأَعْمَالَ غَيْرَ غَائِبَةٍ عَنْهُ تَعَالَى، وَ دَعَا إِلَى التَّقْوَى لِثَلَاثِ مَشْتَبِهَاتٍ بِطَاعَةِ اللَّهِ رُوحَ الْحُضُورِ وَ مَعْنَى الْعَمَلِ، وَ هَذَا دَأْبُ الْقُرْآنِ يَبِينُ أَصُولَ الْمَعَارِفِ وَ يَقْصُ الْقِصَصَ وَ ذَكَرَ الشَّرَائِعَ وَ يَشْفَعُ الْبَيَانَ فِي جَمِيعِهَا بِالْعِظَةِ وَ الْوَصِيَّةِ لِثَلَاثِ مَشَارِقِ الْعِلْمِ الْعَمَلِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ مِنْ غَيْرِ عَمَلٍ لَا قِيمَةَ لَهُ فِي الْإِسْلَامِ، وَ لِذَلِكَ خَتَمَ هَذِهِ الدَّعْوَةَ بِقَوْلِهِ: وَ اتَّقُونِي يَا أَوْلَى الْأَلْبَابِ، بِالْعَدُولِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكْلِيمِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ الْإِهْتِمَامِ وَ الْإِقْتِرَابِ وَ التَّعِينِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: **لَيْسَ عَلَيْكُمْ حُجٌّ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ**، هُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَ ذَرُوا الْبَيْعَ** إِلَى أَنْ قَالَ: **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ** (الجمعة ١٠/١)، فَبَدَلَ الْبَيْعَ بِالِابْتِغَاءِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ فَهُوَ هُوَ، وَ لِذَلِكَ فَسَّرَتْ السُّنَنُ الْإِبْتِغَاءَ مِنَ الْفَضْلِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْبَيْعِ فَدَلَّتْ الْآيَةَ عَلَى إِبَاحَةِ الْبَيْعِ إِثْنَاءَ الْحَجِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: **فَإِذَا أَفْضَيْتُمْ مِنْ عَرَافَاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ**، الْإِفَاضَةُ هِيَ الصَّدُورُ عَنِ الْمَكَانِ جَمَاعَةً فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى وَقُوفِ عَرَافَاتٍ كَمَا تَدُلُّ عَلَى الْوُقُوفِ بِالْمَشْعَرِ الْحَرَامِ، وَ هِيَ الْمَزْدَلْفَةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: **وَ اذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ الْخَيْءَ أَى وَ اذْكُرُوهُ ذَكَرًا يَمِثِّلُ هِدَايَتَهُ إِيَّاكُمْ وَ انكُمْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ هِدَايَتِهِ إِيَّاكُمْ لِمَنْ الضَّالِّينَ.**

قَوْلُهُ تَعَالَى: **ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ**، ظَاهِرُهُ إِجَابَةُ الْإِفَاضَةِ عَلَى

ما كان من دأب الناس و الحاق المخاطبين فى هذا الشأن بهم فينطبق على ما نقل ان قريشا و حلفائها و هم الحمس كانوا لا يقفون بعرفات بل بالمزدلفه و كانوا يقولون: نحن اهل حرم الله لا- نفارق الحرم فأمرهم الله سبحانه بالافاضه من حيث افاض الناس و هو عرفات.

و على هذا فذكر هذا الحكم بعد قوله: فاذا أفضت من عرفات، بتم الداله على التأخير اعتبار للترتيب المذكور، و الكلام بمنزله الاستدراك، و المعنى ان أحكام الحج هى التى ذكرت غير انه يجب عليكم فى الافاضه ان تفيضوا من عرفات لا من المزدلفه، و ربما قيل: إن فى الآيتين تقديمًا و تأخيرًا فى التأليف، و الترتيب: ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، فاذا أفضت من عرفات.

قوله تعالى: فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ - الى قوله- ذِكْرًا، دعوه الى ذكر الله و البلاغ فيه بأن يذكره الناس كذكره آباءه و أشد منه لان نعمته فى حقه و هى نعمه الهدايه كما ذكره بقوله تعالى: وَ اذْكُرُوا كَمَا هَدَاكُمْ اَعْظَمَ مِنْ حَقِّ آبَائِهِ عَلَيْهِ، و قد قيل: إن العرب كانت فى الجاهليه اذا فرغت من الحج مكثت حينًا فى منى فكانوا يتفاخرون بالآباء بالنظم و النثر فبدله الله تعالى من ذكره كذكرهم أو أشد من ذكرهم، و أو فى قوله أو أشد ذكرًا، للاضراب فتفيد معنى بل، و قد وصف الذكر بالشده و هو امر يقبل الشده فى الكيفيه كما يقبل الكثره فى الكميه، قال تعالى: اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (الأحزاب ٤١)، و قال تعالى: وَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا (الأحزاب ٣٥)، فإن الذكر بحسب الحقيقه ليس مقصورًا فى اللفظ، بل هو امر يتعلق بالحضور القلبي و اللفظ حاك عنه، فيمكن ان يتصف بالكثره من حيث الموارد بأن يذكر الله سبحانه فى غالب الحالات كما قال تعالى: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِي مَآ وَ قُعُودًا وَ عَلِيًّا جُنُوبِهِمْ (آل عمران ١٩١)، و ان يتصف بالشده فى مورد من الموارد، و لما كان المورد المستفاد من قوله تعالى: فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ، موردًا يستوجب التلهى عنه تعالى و نسيانه كان الانسب توصيف الذكر الذى أمر به فيه بالشده دون الكثره كما هو ظاهر.

قوله تعالى: فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا نَسُخْ؛ تفرّيع على قوله تعالى: فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ، و الناس مطلق، فالمراد به أفراد الانسان أعم من الكافر الذى لا يذكر إلا آبائه أى لا يتغى إلا المفاخر الدنيويه و لا يطلب إلا الدنيا و لا شغل له بالآخرة، و من المؤمن الذى لا يريد إلا ما عند الله سبحانه، و لو أراد من الدنيا شيئا لم يرد إلا ما يرتضيه له ربه، و على هذا فالمراد بالقول و الدعاء ما هو سؤال بلسان الحال دون المقال، و يكون معنى الآية أن من الناس من لا يريد إلا الدنيا و لا نصيب له فى الآخرة و منهم من لا يريد إلا ما يرتضيه له ربه سواء فى الدنيا أو فى الآخرة و لهؤلاء نصيب فى الآخرة.

قوله تعالى: وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ، اسم من أسماء الله الحسنى، و إطلاقه يدل على شموله للدنيا و الآخرة معا، فالحساب جار، كلما عمل عبد شيئا من الحسنات أو غيرها آتاه الله الجزاء جزاء وفاقا.

فالمحصل من معنى قوله: فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ، الى آخر الآيات، أن اذكروا الله تعالى فإن الناس على طائفتين: منهم من يريد الدنيا فلا يذكر غيرها و لا نصيب له فى الآخرة، و منهم من يريد ما عند الله مما يرتضيه له و له نصيب من الآخرة و الله سريع الحساب يسرع فى حساب ما يريده عبده فعطيه كما يريد، فكونوا من أهل النصيب بذكر الله و لا تكونوا ممن لا خلاق له بتركه ذكر ربه فتكونوا قانطين آيسين.

قوله تعالى: وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ، الايام المعدودات هى ايام التشريق و هى اليوم الحادى عشر و الثانى عشر و الثالث عشر من ذى الحجه، و الدليل على ان هذه الايام بعد العشره من ذى الحجه ذكر الحكم بعد الفراغ عن ذكر أعمال الحج، و الدليل على كونها ثلاثه ايام قوله تعالى: فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ، النسخ؛ فإن التعجل فى يومين إنما يكون اذا كانت الايام ثلاثه، يوم ينفر فيه، و يومان يتعجل فيهما فهى ثلاثه، و قد فسرت فى الروايات بذلك أيضا.

قوله تعالى: فَيَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى، لا- نافية للجنس فقوله: فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ فِي الموضوعين ينفي جنس الا-ثم عن الحاج و لم يقيد بشيء أصلاً، و لو كان المراد لا إثم عليه في التعجل أو في التأخر لكان من اللازم تقييده به، فالمعنى أن من اتم عمل الحج فهو مغفور لا- ذنب له سواء تعجل في يومين أو تأخر، و من هنا يظهر: ان الآيه ليست في مقام بيان التخيير بين التأخر و التعجل للناسك، بل المراد بيان كون الذنوب مغفوره للناسك على أى حال.

و اما قوله: لِمَنِ اتَّقَى، فليس بيانا للتعجل و التأخر و إلا لكان حق الكلام ان يقال: على من اتقى، بل الظاهر ان قوله: لِمَنِ اتَّقَى نظير قوله تعالى: ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، والآيه، و المراد ان هذا الحكم لم اتقى و اما من لم يتق فليس له، من اللازم ان يكون هذه التقوى تقوى مما نهى الله سبحانه عنه في الحج و اختصه به فيئول المعنى ان الحكم إنما هو لمن اتقى تروك الاحرام أو بعضها أما من لم يتق فيجب ان يقيم بمنى و يذكر الله في ايام معدودات، و قد ورد هذا المعنى في بعض ما روى عن أئمة اهل البيت كما سيجيء إنشاء الله.

قوله تعالى: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ، امر بالتقوى في خاتمه الكلام و تذكير بالحرش و البعث فإن التقوى لا تتم و المعصيه لا- تجتنب إلا مع ذكر يوم الجزاء، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَصِفُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (ص / ٢٦).

و في اختيار لفظ الحرش في قوله تعالى: أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ، مع ما في نسك الحج من حرش الناس و جمعهم لطف ظاهر، و إشعار بأن الناسك ينبغي ان يذكر بهذا الجمع و الافاضه يوما يحشر الله سبحانه الناس لا يغادر منهم أحدا (١).

ص: ٢٥٠

إشارة

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَيْهِ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسِدَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسِبْهُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمُهَادُّ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧)

بيان:

قوله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ اعجبه الشيء أى راقه و سره، وقوله: فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، متعلق بقوله: يُعْجِبُكَ، أى ان الاعجاب فى الدنيا من جهة ان هذه الحياه نوع حياه لا تحكم الا على الظاهر، و اما الباطن و السريره فتحت الستر و وراء الحجاب، لا- يشاهده الإنسان و هو متعلق الحياه بالدنيا الا ان يستكشف شيئا من امر الباطن من طريق الآثار و يناسبه ما يتلوه: من قوله تعالى: وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَيْهِ مَا فِي قَلْبِهِ، و المعنى انه يتكلم بما يعجبك كلامه، من ما يشير به الى رعايه جانب الحق، و العنايه بصلاح الخلق، و تقدم الدين و الامه و هو اشد الخصماء للحق خصومه، و قوله: أَلَدُّ، افعل من لد لدودا اذا اشتد خصومه، و الخصام جمع خصم كصعب و صعاب و كعب و كعاب، و قيل: الخصام مصدر، و معنى ألد الخصام اشد خصومه.

قوله تعالى: وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا السَّعْيُ؛ التولى هو تملك الولايه و السلطان، و يؤيده قوله تعالى في الآيه التاليه: أخذته العزه بالإثم، الدال على ان له عزه مكتسبه بالاثم الذى يأثم به قلبه غير الموافق للسانه، و السعى هو العمل و الاسراع فى المشى، فالمعنى و اذا تمكن هذا المنافق الشديد الخصومه من العمل و أوتى سلطانا و تولى امر الناس سعى فى الارض ليفسد فيها، و يمكن ان يكون التولى بمعنى الاعراض عن المخاطبه و المواجهه، اى اذا خرج من عندك كانت غيبه مخالفه لحضوره، و تبدل ما كان يظهره من طلب الصلاح و الخير الى السعى فى الأرض لاجل الفساد و الافساد.

قوله تعالى: وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ، ظاهره انه بيان لقوله تعالى: لِيُفْسِدَ فِيهَا أَي يفسد فيها بإهلاك الحرث و النسل، و لما كان قوام النوع الانسانى من حيث الحياه و البقاء بالتغذى و التوليد فهما الركنا القويما اللذان لا غناء عنهما للنوع فى حال: اما التوليد فظاهر، و اما التغذى فانما يركن الانسان فيه الى الحيوان و النبات، و الحيوان يركن الى النبات، فالنبات هو الأصل و يستحفظ بالحرث و هو تربيته النبات، فلذلك علق الفساد على الحرث و النسل فالمعنى انه يفسد فى الارض بإفناء الانسان و اباده هذا النوع بإهلاك الحرث و النسل.

قوله تعالى: وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ، المراد بالفساد ليس ما هو فساد فى الكون و الوجود (الفساد التكويني) فإن النشأ نشأ الكون و الفساد، و عالم التنازع فى البقاء و لا- كون إلا- بفساد، و لا- حياه إلا- بموت، و هما متعانقان فى هذا الوجود الطبيعى فى النشأ الطبيعى، و حاشا ان يبغض الله سبحانه ما هو مقدره و قاضيه.

و انما هو الفساد المتعلق بالتشريع فإن الله انما شرع ما شرعه من الدين ليصلح به اعمال عباده فيصلح اخلاقهم و ملكات نفوسهم فيعتدل بذلك حال الانسانيه و الجامعه البشريه، و عند ذلك تسعد حياتهم فى الدنيا و حياتهم فى الآخره على ما سيجىء بيانه فى قوله تعالى:

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً .

فهذا الذى يخالف ظاهر قوله باطن قلبه اذا سعى فى الارض بالفساد فإنما يفسد بما ظاهره الاصلاح بتحريف الكلمه عن موضعها، و تغيير حكم الله عما هو عليه، و التصرف فى الثاليف الدينيه، بما يودى الى فساد الاخلاق و اختلاف الكلمه، و فى ذلك موت الدين، و فناء الانسانيه، و فساد الدنيا، و قد صدق هذه الآيات ما جرى عليه التاريخ من ولايه رجال و ركوبهم اكتاف هذه الامه الاسلاميه، و تصرفهم فى امر الدين و الدنيا بما لم يستعقب للدين الا وبالا، و للمسلمين الا انحطاط، و للامه الا اختلاف، فلم يلبث الدين حتى صار لعبه لكل لا لعب، و لا- الانسانيه الا خطفه لكل خاطف، فنتيجه هذا السعى فساد الارض، و ذلك بهلاك الدين اولاً، و هلاك الانسانيه ثانياً، و لهذا فسر قوله و يهلك الحرث و النسل فى بعض الروايات بهلاك الدين و الانسانيه كما يأتى إن شاء الله.

قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسِبْنَاهُ جَهَنَّمَ وَ لَبِئْسَ الْمِهَادُ، العزه معروفه، و المهاده الوطاء، و الظاهر ان قوله: بِالْإِثْمِ متعلق بالعزه، و المعنى انه اذا أمر بتقوى الله اخذته العزه الظاهره التى اكتسبها بالاثم و النفاق المستبطن فى نفسه، و ذلك ان العزه المطلقه انما هى من الله سبحانه كما قال تعالى: تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ (آل عمران ٢٦)، و قال تعالى: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ (المنافقين ٨)، و قال تعالى: أَيْتَبَّغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (النساء ١٣٩).

و حاشا ان ينسب تعالى شيئا الى نفسه و يختصه بإعطائه ثم يستعقب اثماً أو شراً فهذه العزه انما هى عزه يحسبها الجاهل بحقيقه الامر عزه بحسب ظاهر الحياه الدنيا لا عزه حقيقه اعطاها الله سبحانه لصاحبها.

و اما قوله تعالى: بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَ شِقَاقِكُمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَ لَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ (ص ٢)، فليس من قبيل التسميه و الامضاء لكون العزه نكره مع

تعقيب الآيه بقوله: كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ، الخ؛ فهي هناك عزه صوريه غير باقيه و لا أصله.

قوله تعالى: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ الخ؛ مقابلته مع قوله تعالى: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ، الخ؛ يفيد ان الوصف مقابل الوصف أى كما ان المراد من قوله: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ، بيان ان هناك رجلا- معتزا بإثمه معجبا بنفسه متظاهرا بالاصلاح مضمرا للنفاق لا يعود منه الى حال الدين و الانسانيه الا الفساد و الهلاك كذلك المراد من قوله: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ، الخ؛ بيان ان هناك رجلا آخر باع نفسه من الله سبحانه لا يريد الا ما اراده الله تعالى لا هوى له فى نفسه و لا اعتزاز له الا بربه و لا ابتغاء له الا لمرضات الله تعالى، فيصلح به امر الدين و الدنيا، و يحيى به الحق، و يطيب به عيش الانسانيه، و يدر به ضرع الاسلام، و بذلك يظهر ارتباط الذيل بالصدر أعنى قوله تعالى: وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ، بما قبله، فإن وجود إنسان هذه صفته من رأفه الله سبحانه بعباده اذ لو لا- رجال هذه صفاتهم بين الناس فى مقابل رجال آخرين صفتهم ما ذكر من النفاق و الافساد لانهدمت أركان الدين، و لم تستقر من بناء الصلاح و الرشاد لبنة على لبنة، لكن الله سبحانه لا يزال يزهد ذاك الباطل بهذا الحق و يتدارك إفساد أعدائه بإصلاح أوليائه كما قال تعالى: وَ لَوْ لَا- دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ (البقره ٢٥١)، و قال تعالى: وَ لَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَ بِيَعُ وَ صِيْلَوَاتُ وَ مَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا (الحج ٤٠)، و قال تعالى: فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (الانعام ٨٩)، فالفساد الطارى على الدين و الدنيا من قبل عده ممن لا هوى له إلا فى نفسه لا يمكن سد ثلمته إلا بالصلاح الفائض من قبل آخرين ممن باع نفسه من الله سبحانه، و لا هوى له إلا من ربه، و إصلاح الارض و من عليها، و قد ذكر هذه المعامله الربيه عند الله بقوله تعالى:

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمَّا لَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَ وَعِدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا

بِئْسَ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ (التوبه ١١١)، الى غير ذلك من الآيات.

[سوره البقره (٢): الآيات ٢٠٨ الى ٢١٠]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ
الْبَيِّنَاتُ فَاغْلُظُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) هِيلَ يَنْظُرُونَ إِلَّا- أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ
تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً، السلم و الاسلام و التسليم واحده، و كافه كلمه تأكيد بمعنى جميعا، و لما
كان الخطاب للمؤمنين و قد أمروا بالدخول في السلم كافه، فهو امر متعلق بالمجموع و بكل واحد من اجزائه، فيجب ذلك على
كل مؤمن، و يجب على الجميع ايضا ان لا- يختلفوا في ذلك و يسلموا الامر لله و لرسوله صلى الله عليه و آله و سلم، و ايضا
الخطاب للمؤمنين خاصه فالسلم المدعو اليه هو التسليم لله سبحانه بعد الايمان به فيجب على المؤمنين ان يسلموا الامر اليه، و لا
يدعوا لانفسهم صلاحا باستبداد من الرأى، و لا- يضعوا لانفسهم من عند انفسهم طريقا يسلكونه من دون ان يبينه الله و
رسوله، فما هلك قوم إلا باتباع الهوى و القول بغير العلم، و لم يسلب حق الحياه و سعاده الجد عن قوم إلا عن اختلاف.

قوله تعالى: فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ، الزله هي العثره،

و المعنى فإن لم تدخلوا فى السلم كاهه و زلتم-و الزله هى اتباع خطوات الشيطان-فاعلموا ان الله عزيز غير مغلوب فى امره،حكيم لا يتعدى عما تقتضيه حكمته من القضاء فى شأنكم فيقضى فيكم ما تقتضيه حكمته،و يجريه فيكم من غير ان يمنع عنه مانع.

قوله تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا- أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ الْخ؛الظلل جمع ظله و هى ما يستظل به،و ظاهر الآيه ان الملائكه عطف على لفظ الجلاله،و فى الآيه التفات من الخطاب الى الغيبه و تبديل خطابهم بخطاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بالاعراض عن مخاطبتهم بأن هؤلاء حالهم حال من ينتظر ما اوعدناهم به من القضاء على طبق ما يختارونه من اتباع خطوات الشيطان و الاختلاف و التمزق،و ذلك بأن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام و الملائكه،و يقضى الامر حيث لا يشعرون،او بحيث لا يعبأ بهم و بما يقعون فيه من الهلاك، و الى الله ترجع الامور،فلا مفر من حكمه و قضائه،فالسباق يقتضى ان يكون قوله: هَلْ يَنْظُرُونَ،هو الوعيد الذى اوعدهم به فى قوله تعالى فى الآيه السابقه فاعلموا ان الله عزيز حكيم.

ثم إن من الضرورى الثابت بالضروره من الكتاب و السنه ان الله سبحانه و تعالى لا يوصف بصفه الاجسام،و لا ينعت بنعوت الممكنات مما يقضى بالحدوث،و يلزم الفقر و الحاجه و النقص،فقد قال تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (الشورى ١١)،و قال تعالى: وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ (فاطر ١٥)،و قال تعالى: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (الزمر ٦٢)،الى غير ذلك من الآيات،و هى آيات محكمات ترجع إليها متشابهات القرآن،فما ورد من الآيات و ظاهرها إسناد شىء من الصفات او الافعال الحادثه اليه تعالى ينبغى ان يرجع إليها،و يفهم منها معنى من المعانى لا ينافى صفاته العليا و اسمائه الحسنى تبارك و تعالى،فالآيات المشتمله على نسبه المجيء او الاتيان اليه تعالى كقوله تعالى: وَ جَاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَيِّفًا صَيِّفًا (الفجر ٢٢)، و قوله تعالى: فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا (الحشر ٢)،و قوله تعالى: فَأَتَى اللَّهُ

بُيِّنَ لَهُمْ مِنَ الْقَوَائِدِ (النحل ٢٦)، كل ذلك يراد فيها معنى يلائم ساحه قدسه تقديست اسمائه كالإحاطه و نحوها و لو مجازاً، و على هذا فالمراد بالإتيان فى قوله تعالى: أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ الْإِحْطَاءَ بِهِمْ للقضاء فى حقهم.

على أنا نجده سبحانه و تعالى فى موارد من كلامه اذا سلب نسبه من النسب و فعلا من الأفعال عن استقلال الاسباب و وساطه الاوساط فربما نسبها الى نفسه و ربما نسبها الى امره كقوله تعالى: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ (الزمر ٤٢)، و قوله تعالى: يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكَ الْمَوْتِ (السجده ١١)، و قوله تعالى: تَوَفَّيْتَهُ رُسُلَنَا (الأنعام ٦١)، فنسب التوفى تارة الى نفسه، و تارة الى الملائكة ثم قال تعالى فى أمر الملائكة: بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (الأنبياء ٢٧)، و كذلك قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ (يونس ٩٣)، و قوله تعالى: فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ (المؤمن ٧٨)، و كما فى هذه الآية: ان يأتهم الله فى ظلل من الغمام، الآية، و قوله تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ (النحل ٣٣).

و هذا يوجب صحه تقدير الأمر فى موارد على نسبه تشتمل أمور اليه لا- تلائم كبرياء ذاته تعالى نظير: جاء ربك، و يأتهم الله، فالتقدير جاء أمر ربك و يأتهم أمر الله.

فهذا هو الذى يوجب البحث الساذج فى معنى هذه النسب على ما يراه جمهور المفسرين لكن التدبر فى كلامه تعالى يعطى لهذه النسب معنى أرق و ألطف من ذلك، و ذلك أن أمثال قوله تعالى: وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ (فاطر ١٥)، و قوله تعالى: الْعَزِيزُ الْوَهَّابِ (ص ٩)، و قوله تعالى: أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَقَّهُ ثُمَّ هَدَى (طه ٥٠)، تفيد أنه تعالى واجد لما يعطيه من الخلقه و شئونها و أطوارها، ملء بما يهبه و وجود به و ان كانت أفهامنا من جهة اعتيادها بالماده و أحكامها الجسمانيه يصعب عليها تصور كيفيه اتصافه تعالى ببعض ما يفيض على خلقه من الصفات و نسبته اليه تعالى، لكن هذه المعانى اذا جردت عن قيود الماده و اوصاف الحدثان لم يكن فى نسبته اليه تعالى محذور فالنقص و الحاجه هو الملاك فى سلب معنى من المعانى عنه

تعالى، فإذا لم يصاحب المعنى نقصا و حاجه لتجريدته عنه صح اسناده اليه تعالى بل وجب ذلك لأن كل ما يقع عليه اسم شىء فهو منه تعالى بوجه على ما يليق بكبريائه و عظمته.

فالمجىء و الإتيان الذى هو عندنا قطع الجسم مسافه بينه و بين جسم آخر بالحركه و اقترابه منه اذا جرد عن خصوصيه الماده كان هو حصول القرب، و ارتفاع المانع و الحاجز بين شيئين من جهه من الجهات، و حينئذ صح إسناده اليه تعالى حقيقه من غير مجاز: فإتيانه تعالى اليهم ارتفاع الموانع بينهم و بين قضائه فيهم، و هذه من الحقائق القرآنيه التى لم يوفق الابحاث البرهانيه لنيله إلا بعد إمعان فى السير، و ركوبها كل سهل و وعر، و إثبات التشكيك فى الحقيقه الوجوديه الاصيله.

و كيف كان فهذه الآيه تتضمن الوعيد الذى ينبئ عنه قوله سبحانه فى الآيه السابقه: إن الله عزيز حكيم، و من الممكن أن يكون وعيدا بما سيستقبل القوم فى الآخره يوم القيامه كما هو ظاهر قوله تعالى فى نظير الآيه: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ (النحل ٣٣)، و من الممكن أن يكون وعيدا بأمر متوقع الحصول فى الدنيا كما يظهر بالرجوع الى ما فى سوره يونس بعد قوله تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُيُولٌ (يونس ٤٧)، و ما فى سوره الروم بعد قوله تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (الروم ٣٠)، و ما فى سوره الانبياء و غيرها على أن الآخره آجله هذه العاجله و ظهور تام لما فى هذه الدنيا، و من الممكن أيضا أن يكون وعيدا بما سيقع فى الدنيا و الآخره معا، و كيف كان فقوله فى ظلل من الغمام يشتمل من المعنى على ما يناسب مورده.

قوله تعالى: وَ قَضَى الْأَمْرَ إِلَى اللَّهِ تُزْجَعُ الْأُمُورُ، السكوت عن ذكر فاعل القضاء، و هو الله سبحانه كما يدل عليه قوله: وَ إِلَى اللَّهِ تُزْجَعُ الْأُمُورُ، لإظهار الكبرياء على ما

يفعله الاعظام فى الإخبار عن وقوع احكامهم و صدور أوامرهم و هو كثير فى القرآن (١).

[سوره البقره (٢): الآيات ٢١١ الى ٢١٢]

إشاره

سَلِّ بِنَى إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيْنَهُ وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١) زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا
الْحَيَاءَ الدُّنْيَا وَ يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ اللَّهُ يَزُوقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢)

بيان:

قوله تعالى: سَلِّ بِنَى إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيْنَهُ وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، الآيه من الوعيد بأخذ المخالفين اخذ عزيز مقتدر.

يقول: هذه بنو إسرائيل فى مرآكم و منظركم و هى الامه التى آتاهم الله الكتاب و الحكم و النبوه و الملك، و رزقهم من الطيبات، و فضّلهم على العالمين، سلّمهم كم آتيناهم من آيه بينه؟ و انظر فى امرهم من اين بدئوا و إلى اين كان مصيرهم؟ حرّفوا الكلم عن مواضعه، و وضعوا فى قبال الله و كتابه و آياته أمورا من عند انفسهم بغيا بعد العلم، فعاقبهم الله أشد العقاب بما حل فيهم من اتخاذ الانداد، و الاختلاف و تشتت الآراء، و أكل بعضهم بعضا، و ذهاب السوود، و فناء السعاده، و عذاب الذله و المسكنه فى الدنيا، و لعذاب الآخره اخزى و هم لا ينصرون.

ص: ٢٥٩

و هذه هى السنه الجاريه من الله سبحانه: من يبدل نعمه و اخرجها الى غير مجراها فإن الله يعاقبه، و الله شديد العقاب، و على هذا فقولہ: وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ إِلَى قَوْلِهِ الْعِقَابِ مِنْ قَبْلِ وَضْعِ الْكَلِمِ الْمَوْضِعِ الْجَزْئِيِّ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْحُكْمِ، سنه جاريه.

قوله تعالى: زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، فى موضوع التعليل، و إن الملا-ك فى ذلك تزين الحياه الدنيا لهم فانها اذا زينت لانسان دعته الى هوى النفس و شهواتها، و أنس كل حق و حقيقه، فلا- يريد الانسان إلا- نيلها: من جاه و مقام و مال و زينه، فلا يلبث دون ان يستخدم كل شىء لاجلها و فى سبيلها، و من ذلك الدين فىأخذ الدين و سيله يتوسل بها الى التميزات و التعينات، فينقلب الدين الى تميز الزعماء و الرؤساء و ما يلائم سوددهم و رئاستهم، و تقرب التبعه و المقلده المرءوسين و ما يجلب به تماثل رؤسائهم و ساداتهم كما نشاهده فى أمتنا اليوم، و كنا شاهدناه فى بنى اسرائيل من قبل، و ظاهر الكفر فى القرآن هو الستر أعم من ان يكون كفرا اصطلاحيا أو كفرا مطلقا فى مقابل الايمان المطلق فتزين الحياه الدنيا لا- يختص بالكفار اصطلاحا بل كل من ستر حقيقه من الحقائق الدينيه، و غير نعمه دينيه فهو كافر زينت له الحياه الدنيا فليتها لشديد العقاب.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ اتَّقَوْا قَوْمَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْخ؛ تبديل الايمان بالتقوى فى هذه الجملة لكون الايمان لا ينفع وحده لو لا العمل.

[سوره البقره (٢): آيه ٢١٣]

اشاره

كَانَ الْدَّاسُ أُمَّهُ وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اِخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اِخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اِخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣)

ص: ٢٦٠

الآيه تبين السبب فى تشريع أصل الدين و تكليف النوع الانسانى به، و سبب وقوع الاختلاف فيه ببيان: ان الانسان - و هو نوع مفطور على الاجتماع و التعاون - كان فى أول اجتماعه امه واحده، ثم ظهر فيه بحسب الفطره الاختلاف فى اقتناء المزايا الحيويه، فاستدعى ذلك وضع قوانين ترفع الاختلافات الطارئه، و المشاجرات فى لوازم الحياه فألبست القوانين الموضوعه لباس الدين، و شفعت بالتبشير و الانذار: بالثواب و العقاب، و أصلحت بالعبادات المنذوبه إليها ببعث النبيين، و إرسال المرسلين، ثم اختلفوا فى معارف الدين أو أمور المبدأ و المعاد، فاختل بذلك أمر الوحده الدينيه، و ظهرت الشعوب و الاحزاب، و تبع ذلك الاختلاف فى غيره، و لم يكن هذا الاختلاف الثانى إلا بغيا من الذين أوتوا الكتاب، و ظلما و عتوا منهم بعد ما تبين لهم أصوله و معارفه، و تمت عليهم الحججه، فالاختلاف اختلافان:

اختلاف فى أمر الدين مستند الى بغى الباغين دون فطرتهم و غريزتهم، و اختلاف فى أمر الدنيا و هو فطرى و سبب لتشريع الدين، ثم هدى الله سبحانه المؤمنين الى الحق المختلف فيه بإذنه، و الله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم.

فالدين الالهى هو السبب الوحيد لسعاده هذا النوع الانسانى، و المصلح لامر حياته، يصلح الفطره بالفطره و يعدل قواها المختلفه عند طغيانها، و ينظم للانسان سلك حياته الدنيويه و الاخروييه، و الماديه و المعنويه، فهذا إجمال تاريخ حياه هذا النوع (الحياه الاجتماعيه و الدينيه) على ما تعطيه هذه الآيه الشريفه.

و قد اکتفت فی تفصیل ذلك بما تفيده متفرقات الآيات القرآنيه النازله فی شئون مختلفه (١).

قوله تعالى: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً، الناس معروف و هو الافراد المجتمعون من الانسان، و الامه هي الجماعه من الناس، و ربما يطلق على الواحد كما في قوله تعالى: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ (النحل ١٢٠/)، و ربما يطلق على زمان معتد به كقوله تعالى:

وَ اذْكَرَ بَعْدَ أُمَّهِ (يوسف ٤٥/)، أي بعد سنين و قوله تعالى: وَ لَئِنْ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَيَّ أُمَّهُ مَعْدُودَةٍ (هود ٨/)، و ربما يطلق على المله و الدين كما قال بعضهم في قوله تعالى:

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (المؤمنون ٥٢/)، و في قوله تعالى: إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (الأنبياء ٩٢/)، و أصل الكلمه من أم يأم اذا قصد فأطلق لذلك على الجماعه لكن لا على كل جماعه، بل على جماعه كانت ذات مقصد واحد و بغيه واحده هي رابطة الوحده بينها، و هو المصحح لاطلاقها على الواحد و على سائر معانيها اذا أطلقت.

و كيف كان فظاهر الآيه يدل على أن هذا النوع قد مر عليهم في حياتهم زمان كانوا على الاتحاد و الاتفاق، و على السداجه و البساطه، لا اختلاف بينهم بالمشاجره و المدافعه في أمور الحياه، و لا اختلاف في المذاهب و الآراء، و الدليل على نفى الاختلاف قوله تعالى:

فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ فَقَدِ رَتَبَ بَعَثَ الْأَنْبِيَاءَ وَ حَكَمَ الْكِتَابَ فِي مَوْرَدِ الْاِخْتِلَافِ عَلَى كَوْنِهِمْ أُمَّةً وَاحِدَةً فَالْاِخْتِلَافُ فِي أُمُورِ الْحَيَاةِ نَاشٍ بَعْدَ الْاِتِّحَادِ وَ الْوَحْدَةِ، وَ الدَّلِيلُ عَلَى نَفْيِ الْاِخْتِلَافِ الثَّانِي قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ، فَالْاِخْتِلَافُ فِي الدِّينِ إِنَّمَا نَشَأُ مِنْ قَبْلِ حَمَلِهِ الْكِتَابَ بَعْدَ

ص: ٢٤٢

١- ١). البقره ٢١٣: بحث في بدء تكوين الانسان؛ تركبه من روح و بدن؛ شعوره الحقيقي و ارتباطه بالاشياء؛ علومه العمليه؛ جريه على استخدام غيره انتفاعا؛ كونه مدنيا بالطبع؛ حدوث الاختلاف بين افراد الانسان؛ رفع الاختلاف بالدين؛ الاختلاف في نفس الدين، الانسان بعد الدنيا.

قوله تعالى: فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ الخ؛ عبر تعالى بالبعث دون الارسال و ما فى معناه لان هذه الوحده المخبر عنها من حال الانسان الأولى حال خمود و سكوت، و هو يناسب البعث الذى هو الاقامه عن نوم أو قطن و نحو ذلك، و هذه النكته لعلها هى الموجه للتعبير عن هؤلاء المبعوثين بالنبيين دون ان يعبر بالمرسلين أو الرسل، على ان البعث و انزال الكتاب كما تقدم بيانه حقيقتهما بيان الحق للناس و تنبيههم بحقيقه أمر وجودهم و حياتهم، و إنبائهم انهم مخلوقون لربهم، و هو الله الذى لا إله إلا هو، و أنهم سالكون كادحون الى الله مبعوثون ليوم عظيم، واقفون فى منزل من منازل السير، لا حقيقه له إلا اللعب و الغرور، فيجب ان يراعوا ذلك فى هذه الحياه و أفعالها، و ان يجعلوا نصب اعينهم انهم من أين، و فى أين، و إلى أين، و هذا المعنى أنسب بلفظ النبى الذى معناه: من استقر عنده النبأ دون الرسول، و لذلك عبر بالنبيين، و فى اسناد بعث النبيين الى الله سبحانه دلالة على عصمه الانبياء فى تلقيهم الوحي و تبليغهم الرساله الى الناس و سيجىء زياده توضيح لهذا فى آخر البيان، و أما التبشير و الانذار أى الوعد برحمه الله من رضوانه و الجنه لمن آمن و اتقى، و الوعيد لعذاب الله سبحانه من سخطه و النار لمن كذب و عصى فهما امس مراتب الدعوه بحال الانسان المتوسط الحال، و إن كان بعض الصالحين من عباده و أوليائه لا تتعلق نفوسهم بغير ربهم من ثواب أو عقاب.

قوله تعالى: وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اِخْتَلَفُوا فِيهِ، الكتاب فعال بمعنى المكتوب، و الكتاب بحسب المتعارف من اطلاقه و ان استلزم كتابه بالقلم لكن لكون العهود و الفرامين المفترضه انما يبرم بالكتابه غالبا شاع اطلاقه على كل حكم مفروض واجب الاتباع أو كل بيان بل كل معنى لا يقبل النقض فى إبرامه، و قد كثر استعماله بهذا المعنى فى القرآن، و بهذا المعنى سمي القرآن كتابا و هو كلام الهى، قال تعالى:

كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ (ص ٢٩)، وقال تعالى: إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (النساء ١٠٣)، وفي قوله تعالى فيما اختلفوا فيه، دلالة على ان المعنى: كان الناس امه واحده فاختلفوا فبعث الله، الخ؛ كما مر.

و اللام فى الكتاب اما للجنس و اما للعهد الذهني و المراد به كتاب نوح عليه السلام لقوله تعالى:

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى (الشورى ١٣)، فإن الآية فى مقام الامتنان و تبين ان الشريعة النازله على هذه الامه جامعه لمتفرقات جميع الشرائع السابقه النازله على الانبياء السالفين مع ما يختص بوحيه النبى صلى الله عليه و آله و سلم فالشريعة مختصه بهؤلاء الانبياء العظام: نوح و ابراهيم و موسى و عيسى و محمد صلى الله عليه و آله و سلم.

و لما كان قوله تعالى: وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفوا فيه، الآية يدل على ان الشرع إنما كان بالكتاب دلت الآيتان بالانضمام:

أولاً: على ان لنوح عليه السلام كتابا متضمنا لشريعة، و انه المراد بقوله تعالى: وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفوا فيه، إما وحده أو مع غيره من الكتب بناء على كون اللام للعهد أو الجنس.

و ثانياً: ان كتاب نوح أول كتاب سماوى متضمن للشريعة، اذ لو كان قبله كتاب لكان قبله شريعة حاكمه و لذكرها الله تعالى فى قوله: شَرَعَ لَكُمْ، الآية.

و ثالثاً: ان هذا العهد الذى يشير تعالى اليه بقوله: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً، الآية؛ كان قبل بعثه نوح عليه السلام و قد حكم فيه كتابه عليه السلام.

قوله تعالى: وَمَا اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم، قد مر أن المراد به الاختلاف الواقع فى نفس الدين من حملته، و حيث كان الدين من الفطره كما يدل عليه قوله تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ

النَّاسَ عَلَيْهَا (الروم ٣٠/)، نسب الله سبحانه الاختلاف الواقع فيه الى البغى.

و فى قوله تعالى: إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ، دلالة على ان المراد بالجملة هو الإشارة الى الاصل فى ظهور الاختلاف الدينى فى الكتاب لا أن كل من انحرف عن الصراط المستقيم أو تدين بغير الدين يكون باغيا و إن كان ضالاً عن الصراط السوى، فإن الله سبحانه لا يعذر الباغى، و قد عذر من اشتبه عليه الامر و لم يجد حيله و لم يهتد سبيلاً، قال تعالى: إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلُمُونَ النَّاسَ وَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (الشورى ٤٢/)، و قال تعالى: وَ آخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَ آخِرًا سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ - الى أن قال:- وَ آخِرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (التوبة ١٠٦/)، و قال تعالى: إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ وَ الْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (النساء ٩٩/).

على أن الفطره لا- تنافى الغفله و الشبهه، و لكن تنافى التعمد و البغى، و لذلك خص البغى بالعلماء و من استبانته له الآيات الإلهيه، قال تعالى: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقره ٣٩/)، و الآيات فى هذا المعنى كثيره، و قد قيد الكفر فى جميعها بتكذيب آيات الله ثم أوقع عليه الوعيد، و بالجملة فالمراد بالآيه أن هذا الاختلاف ينتهى الى بغى حمله الكتاب من بعد علم.

قوله تعالى: فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، بيان لما اختلف فيه و هو الحق الذى كان الكتاب نزل بمصاحبه، كما دل عليه قوله تعالى: وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ، و عند ذلك عنت الهدايه الإلهيه بشأن الاختلافين معا: الاختلاف فى شأن الحياه، و الاختلاف فى الحق و المعارف الإلهيه الذى كان عامله الاصلى بغى حمله الكتاب، و فى تقييد الهدايه بقوله تعالى: يَأْذِنُهُ دَلَالَهُ عَلَى أَنْ هُدَايَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُؤَلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ تَكُنْ

إلزاماً منهم، وإيجاباً على الله تعالى أن يهديهم لإيمانهم، فإن الله سبحانه لا يحكم عليه حاكم، ولا يوجب عليه موجب إلا ما أوجبه على نفسه، بل كانت الهدايه بإذنه تعالى و لو شاء لم يأذن و لم يهد، و على هذا فقوله تعالى: وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، بمنزله التعليل لقوله بإذنه، و المعنى إنما هداهم الله بإذنه لان له أن يهديهم و ليس مضطراً موجبا على الهدايه فى مورد أحدا، بل يهدى من يشاء، و قد شاء أن يهدى الذين آمنوا الى صراط مستقيم (١)(٢)(٣).

[سوره البقره (٢): آيه ٢١٤]

اشاره

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتِمُ الْبَاسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ زُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)

بيان

قوله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ، تثبيت لما تدل عليه الآيات السابقة، و هو ان الدين نوع هدايه من الله سبحانه للناس الى ما فيه سعادتهم فى الدنيا و الآخره، و نعمه حباهم الله بها، فمن الواجب ان يسلموا له و لا يتبعوا خطوات الشيطان، و لا يلقوا فيه الاختلاف، و لا يجعلوا الدواء داء، و لا يبدلوا نعمه الله سبحانه كفرا و نقمه من اتباع الهوى، و ابتغاء زخرف الدنيا و حطامها فيحل عليهم غضب من ربهم كما حل بنى إسرائيل حيث

ص: ٢٦٦

١-١). البقره ٢١٣: كلام فى عصمه الانبياء.

٢-٢). البقره ٢١٣: كلام فى النبوه.

٣-٣). البقره ٢١٣: بحث فلسفى فى النبوه: بحث اجتماعى فى النبوه.

بدلوا نعمه الله من بعد ما جاءتهم، فإن المحنة دائمة، و الفتنة قائمه، و لن ينال أحد من الناس سعادته الدين و قرب رب العالمين إلا بالثبات و التسليم.

و كلمه أم منقطعه تفيد الاضراب، و المعنى على ما قيل: بل أحسبتم ان تدخلوا الجنة، الخ؛ و الخلاف فى أم المنقطعه معروف، و الحق ان ام لإفاده الترديد، و أن الدلاله على معنى الاضراب من حيث انطباق معنى الاضراب على المورد، لا- انها دلالة وضعيه، فالمعنى فى المورد مثلاً: هل انقطعتم بما أمرناكم من التسليم بعد الايمان و الثبات على نعمه الدين، و الاتفاق و الاتحاد فيه أم لا بل حسبتم أن تدخلوا الجنة، الخ.

قوله تعالى: **وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ**، المثل بكسر الميم فسكون الثاء، و المثل بفتح الميم و الثاء كالشبهه و الشبهه، و المراد به ما يمثل الشيء و يحضره و يشخصه عند السامع، و منه المثل بفتحيتين، و هو الجمله أو القصة التى تفيد استحضر معنى مطلوب فى ذهن السامع بنحو الاستعاره التمثيليه كما قال تعالى: **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** (الجمعه ٥/٥)، و منه أيضا المثل بمعنى الصفه كقوله تعالى: **أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ** (الفرقان ٩/٩)، و إنما قالوا له صلى الله عليه و آله و سلم: مجنون و ساحر و كذاب و نحو ذلك، و حيث انه تعالى يبين المثل الذى ذكره بقوله: **مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَ الضَّرَاءُ**، الخ؛ فالمراد به المعنى الاول.

قوله تعالى: **مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَ الضَّرَاءُ**، الى آخره لما اشتد شوق المخاطب ليفهم تفصيل الاجمال الذى دل عليه بقوله: **وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ**، بين ذلك بقوله: **مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَ الضَّرَاءُ**، و البأساء هو الشده المتوجهه الى الانسان فى خارج نفسه كالجمال و الجاه و الاهل و الامن الذى يحتاج إليه فى حياته، و الضراء هى الشده التى تصيب الانسان فى نفسه كالجرح و القتل و المرض، و الزلزله و الزلزال معروف و اصله من زل بمعنى عشر، كررت اللفظه للدلاله على التكرار كان الارض مثلاً تحدث لها بالزلزله عشره بعد عشره، و هو كصر و صرصر،

و صل صلصل، و كب و كبكب، و الزلزال فى الآيه كنايه عن الاضطراب و الادهاش.

قوله تعالى: **حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ**، قرء بنصب يقول، و الجمله على هذا فى محل الغايه لما سبقها، و قرء برفع يقول و الجمله على هذا الحكايه الماضيه، و المعنيان و إن كانا جميعا صحيحين لكن الثانى أنسب للسياق، فإن كون الجمله غايه يعلل بها قوله: **وَزُلْزِلُوا** لا يناسب السياق كل المناسبه.

قوله تعالى: **مَتَى نَضْرِبُ اللَّهُ الظَّاهِرَ أَنَّهُ مَقُولٌ قَوْلِ الرَّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ**، و لا ضمير فى ان يتفوه الرسول بمثل هذا الكلام استدعاء و طلبا للنصر الذى وعد به الله سبحانه رسوله **وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ** كما قال تعالى: **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (الصافات ١٧٢)**، و قال تعالى: **كَتَبَ اللَّهُ لِمَآ غَلَبْنَا أَنَا وَرُسُلِي (المجادله / ٢١)**، و قد قال تعالى أيضا: **حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا (يوسف ١١٠)**، و هو أشد لحنا من هذه الآيه.

و الظاهر أيضا أن قوله تعالى: **أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** مقول له تعالى لا تتمه لقول الرسول و الذين آمنوا معه...

و الآيه (كما مرت اليه الاشاره سابقا) تدل على دوام أمر الابتلاء و الامتحان و جريانه فى هذه الامه كما جرى فى الامم السابقه.

و تدل أيضا على اتحاد الوصف و المثل بتكرر الحوادث الماضيه غابرا، و هو الذى يسمى بتكرر التاريخ و عوده.

[سوره البقره (٢): آيه ٢١٥]

اشاره

يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَإِنَّ السَّبِيلَ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)

ص: ٢٦٨

قوله تعالى: **يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ**، قل: ما أنفقتُم من خير، قالوا: إن الآية واقعته على أسلوب الحكمة، فإنهم إنما سألوا عن جنس ما ينفقون و نوعه، و كان هذا السؤال كاللغو لمكان ظهور ما يقع به الانفاق و هو المال على أقسامه، و كان الاحق بالسؤال إنما هو من ينفق له: صرف الجواب الى التعرض بحاله و بيان أنواعه ليكون تنبيها لهم بحق السؤال.

و الذى ذكره وجه بليغ غير أنهم تركوا شيئا، و هو أن الآية مع ذلك متعرضه لبيان جنس ما ينفقونه، فإنها تعرضت لذلك: أولا بقولها: من خير، إجمالا و ثانيا بقولها: و ما فعلوا من خير فإن الله به عليهم، ففى الآية دلالة على ان الذى ينفق به هو المال كائنا ما كان، من قليل أو كثير، و ان ذلك فعل خير و الله به عليهم، لكنهم كان عليهم ان يسألوا عن من ينفقون لهم و يعرفوه، و هم: الوالدان و الاقربون و اليتامى و المساكين و ابن السبيل.

قوله تعالى: **وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**، فى تبديل الانفاق من فعل الخير هاهنا كتبديل المال من الخير فى أول الآية إيماء الى أن الانفاق و ان كان مندوبا اليه من قليل المال و كثيره، غير انه ينبغى ان يكون خيرا يتعلق به الرغبه و تقع عليه المحبه كما قال تعالى: **لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** (آل عمران ٩٢)، و كما قال تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ** (البقره ٢٦٧).

و ايماء الى ان الانفاق ينبغى ان لا يكون على نحو العشر كالانفاق بالمن و الاذى كما قال تعالى: **ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى** (البقره ٢٦٢)، و قوله تعالى: **وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ** (البقره ٢١٩).

إشارة

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ فِيهِ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَزِيدُواكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اشْتَرَطُوا وَ مَنْ يَزِدْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)

بيان:

قوله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ، الكتابه كما مر مرارا ظاهره فى الفرض اذا كان الكلام مسوقا لبيان التشريع، وفى القضاء الحتم اذا كان فى التكوين فالآيه تدل على فرض القتال على كافه المؤمنين لكون الخطاب متوجها اليهم إلا من أخرجه الدليل مثل قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الْمَاعِمِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَاعِزِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ (النور/ ٦١)، وغير ذلك من الآيات و الادله.

و لم يظهر فاعل كتب لكون الجملة مذيّله بقوله: وَ هُوَ كَرَهُ لَكُمْ وَ هُوَ لَا- يناسب إظهار الفاعل صوتا لمقامه عن الهتك، و حفظا لاسمه عن الاستخفاف أن يقع الكتابه المنسوبه اليه صريحا موردا لكراهه المؤمنين.

و الكره بضم الكاف المشقه التي يدر كها الانسان من نفسه طبعاً أو غير ذلك، و الكره بفتح الكاف: المشقه التي تحمل عليه من خارج كأن يجبره إنسان آخر على فعل ما يكرهه، قال تعالى: لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرِهًا (النساء ١٩)، و قال تعالى: فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ انْتِ يَا طَوْعاً أَوْ كَرْهًا (فصلت ١١)، و كون القتال المكتوب كرها للمؤمنين إما لان القتال لكونه متضمنا لفناء النفوس و تعب الابدان و المضار الماليه و ارتفاع الامن و الرخصه و الرفاهيه، و غير ذلك مما يستكرهه الانسان في حياته الاجتماعيه لا محاله كان كرها و شاق للمؤمنين بالطبع، فإن الله سبحانه و إن مدح المؤمنين في كتابه بما مدح، و ذكر ان فيهم رجالا صادقين في إيمانهم مفلحين في سعيهم، لكنه مع ذلك عاتب طائفه منهم بما في قلوبهم من الزيغ و الزلل، و هو ظاهر بالرجوع الى الآيات النازله في غزوه بدر و أحد و الخندق و غيرها، و معلوم ان من الجائر أن ينسب الكراهه و الثاقل الى قوم فيهم كاره و غير كاره و اكثرهم كارهون، فهذا وجه.

قوله تعالى: وَ عَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ، قد مر فيما مر ان أمثال عسى و لعل في كلامه تعالى مستعمل في معنى الترجى، و ليس من الواجب قيام صفه الرجاء بنفس المتكلم بل يكفي قيامها بالمخاطب أو بمقام التخاطب، فالله سبحانه إنما يقول: عسى ان يكون كذا لا لأنه يرجوه، تعالى عن ذلك، بل ليرجوه المخاطب أو السامع.

و تكرر عسى في الآيه لكون المؤمنين كارهين للحرب، محيين للسلم، فأرشدهم الله سبحانه على خطأهم في الامرين جميعا، بيان ذلك: أنه لو قيل: عسى ان تكرهوا شيئا و هو خير لكم أو تحبوا شيئا و هو شر لكم، كان معناه أنه لا عبره بكرهكم و حبكم فإنهما ربما

يخطئان الواقع، و مثل هذا الكلام إنما يلقي الى من اخطأ خطأ واحدا كمن يكره لقاء زيد فقط، و أما من اخطأ خطاءين كان يكره المعاشره و المخالطه و يحب الاعتزال، فالذى تقتضيه البلاغه ان يشار الى خطأه فى الامرين جميعا، فيقال له: لا فى كرهك أصبت، و لا فى حبك اهتديت، عسى ان تكره شيئا و هو خير لك و عسى ان تحب شيئا و هو شر لك لانك جاهل لا تقدر ان تهتدى بنفسك الى حقيقه الامر، و لما كان المؤمنون مع كرههم للقتال محيين للمسلم كما يشعر به ايضا قوله تعالى سابقا: أم حسبتم ان تدخلوا الجنة و لما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم، نبههم الله بالخطأين بالجملتين المستقلتين و هما: عسى ان تکرهوا، و عسى ان تحبوا.

قوله تعالى: **وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**، تتميم لبيان خطأهم، فإنه تعالى درج فى بيان ذلك إرفاقا فأذهانهم، فأخذ أولا بإبداء احتمال خطأهم فى كراهتهم للقتال بقوله:

عَسَى أَنْ تَكْرَهُوا، فلما اعتدلت أذهانهم بحصول الشك فيها، و زوال صفة الجهل المركب كثر عليهم ثانيا بأن هذا الحكم الذى كرهتموه أنتم إنما شرعه الله الذى لا يجهل شيئا من حقائق الامور، و الذى ترونه مستند الى نفوسكم التى لا تعلم شيئا إلا ما علمها الله إياه و كشف عن حقيقته، فعليكم ان تسلموا اليه سبحانه الأمر.

و الآيه فى إثبات العلم له تعالى على الاطلاق و نفي العلم عن غيره على الاطلاق تطابق سائر الآيات الداله على هذا المعنى كقوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ** (آل عمران / ٥)، و قوله تعالى: **وَ لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ** (البقره ٢٥٥)، و قد سبق بعض الكلام فى القتال فى قوله: **وَ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ** (البقره ١٩٠).

قوله تعالى: **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ**، الآية؛ تشتمل على المنع عن القتال فى الشهر الحرام و ذمه بأنه صد عن سبيل الله و كفر، و اشتغالها مع ذلك على ان إخراج أهل المسجد الحرام منه أكبر عند الله، و ان الفتنه أكبر من القتل، يؤذن بوقوع حادثه هى الموجه للسؤال و ان هناك قتلا، و انه إنما وقع خطأ لقوله تعالى فى آخر الآيات: **إِنَّ الَّذِينَ**

آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْلِيَّكَ يَزُجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ الْآيَةَ؛ فهذه قرائن على وقوع قتل في الكفار خطأ من المؤمنين في الشهر الحرام في قتال واقع بينهم، و طعن الكفار به، ففيه تصديق لما ورد في الروايات في قصة عبد الله بن جحش و أصحابه.

قوله تعالى: قُلْ قَدْ آتَىٰ فِيهِ كَبِيرٌ وَ صِيدٌ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، الصّد هو المنع و الصرف، و المراد بسبيل الله العبادة و النسك و خاصه الحج، و الظاهر ان ضمير به راجع الى السبيل فيكون كفرا في العمل دون الاعتقاد، و المسجد الحرام عطف على سبيل الله اي صد عن سبيل الله و عن المسجد الحرام.

و الآية تدل على حرمة القتال في الشهر الحرام، و قد قيل: إنها منسوخة بقوله تعالى:

فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ (التوبة ١٦)، و ليس بصواب، و قد مر بعض الكلام في ذلك في تفسير آيات القتال.

قوله تعالى: وَ إِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَ الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ، أي و الذي فعله المشركون من إخراج رسول الله و المؤمنين من المهاجرين، و هم أهل المسجد الحرام، منه أكبر من القتال، و ما فتنوا به المؤمنين من الزجر و الدعوة الى الكفر أكبر من القتل، فلا يحق للمشركين ان يطعنوا المؤمنين و قد فعلوا ما هو أكبر مما طعنوا به، و لم يكن المؤمنين فيما اصابوه منهم إلا راجين رحمته الله و الله غفور رحيم.

قوله تعالى: وَ لَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ الى آخر الآية؛ حتى للتعليل أي ليردوكم.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَزِدْكَ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ الْخ؛ تهديد للمرتد بحبط العمل و خلود النار (١)(٢).

ص: ٢٧٣

١- ١). البقره ٢١٦-٢١٨: كلام في الحبط.

٢- ٢). البقره ٢١٦-٢١٨: كلام في احكام الاعمال من حيث الجزاء.

إشارة

يَسْتُلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْتُلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْتُلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِضْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ
تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتَكُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)

بيان:

قوله تعالى: يَسْتُلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، الخمر على ما يستفاد من اللغة هو كل مائع معمول للسكر، والاصل في معناه الستر، وسمى به لانه يستر العقل ولا يدعه يميز الحسن من القبح والخير من الشر، ويقال: لما تغطى به المرأه رأسها الخمار، ويقال: خمرت الإناء اذا غطيت رأسها، ويقال: أخمرت العجين اذا أدخلت فيه الخمير، وسميت الخميره خميره لأنها تعجن أولاً ثم تغطى و تخمر من قبل، وقد كانت العرب لا تعرف من اقسامه إلا الخمر المعمول من العنب و التمر و الشعير، ثم زاد الناس فى اقسامه تدريجا فصارت اليوم أنواعا كثيره ذات مراتب بحسب درجات السكر، وجميع خمر.

والميسر لغه هو القمار و يسمى المقامر ياسرا و الاصل فى معناه السهوله سمي به لسهوله اقتناء مال الغير به من غير تعب الكسب و العمل، و قد كان اكثر استعماله عند العرب فى نوع خاص من القمار، و هو الضرب بالقداح و هى السهام، و تسمى أيضا: الازلام و الاقلام.

قوله تعالى: **قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ**، وقرء إثم كثير بالثاء المثلثة، والاثم يقارب الذنب وما يشبهه معنى و هو حال فى الشىء أو فى العقل يبطئ الانسان عن نيل الخيرات فهو الذنب الذى يستتبع الشقاء و الحرمان فى أمور أخرى و يفسد سعادته الحياه فى جهاتها الاخرى و هذان على هذه الصفه.

أما شرب الخمر فمضراته الطيبه و آثاره السيئه فى المعده و الامعاء و الكبد و الرئه و سلسله الاعصاب و الشرائين و القلب و الحواس كالبصره و الذائقه و غيرها مما الف فيه تأليفات من حذاق الاطباء قديما و حديثا، و لهم فى ذلك إحصاءات عجيبيه تكشف عن كثره المبتلين بأنواع الامراض المهلكه التى يستتبعها هذا السم المهلك.

و أما مضراته الخلقية: من تشويه الخلق و تأديته الانسان الى الفحش، و الاضرار و الجنايات، و القتل، و إفشاء السر، و هتك الحرمات، و إبطال جميع القوانين و النواميس الانسانيه التى بنيت عليها أساس سعادته الحياه، و خاصه ناموس العفه فى الاعراض و النفوس و الاموال، فلا عاصم من سكران لا يدري ما يقول و لا يشعر بما يفعل، و قل ما يتفق جنايه من هذه الجنايات التى قد ملأت الدنيا و نغصت عيشه الانسان إلا و للخمر فيها صنع مستقيما أو غير مستقيم.

و أما مضرته فى الادراك و سلبه العقل و تصرفه الغير المنتظم فى أفكار الانسان و تغييره مجرى الادراك حين السكر و بعد الصحو فمما لا ينكره منكر و ذلك أعظم ما فيه من الاثم و الفساد، و منه ينشأ جميع المفاسد الأخر.

و الشريعة الاسلاميه كما مرت اليه الاشاره وضعت أساس أحكامها على التحفظ على العقل السليم، و نهت عن الفعل المبطل لعمل العقل أشد النهى كالخمر، و الميسر، و الغش، و الكذب، و غير ذلك، من اشد الافعال المبطله لحكومته العقل على سلامه هو شرب الخمر من بين الافعال و قول الكذب و الزور من بين الاقوال.

فهذه الاعمال أعني:الاعمال المبطله لحكومته العقل و على رأسها السياسات المبتنيه على السكر و الكذب هي التي تهدد الانسانيه،و تهدم بنيان السعاده و لا تأتي بثمره عامه الا و هي امر من سابقتها،و كلما زاد الحمل ثقلا و أعجز حامله زيد في الثقل رجاء لقرده،فخاب السعي،و خسر العمل،و لو لم يكن لهذه المحججه البيضاء و الشريعه الغراء الا البناء على العقل و المنع عما يفسده من اتباع الهوى لكفاها فخرا،و للكلام تتمه سنتعرض لها في سورة المائده إن شاء الله.

و لم يزل الناس بقريحتهم الحيوانيه يميلون الى لذائذ الشهوه فيشبع بينهم الاعمال الشهوانيه اسرع من شيوع الحق و الحقيقه،و انعقدت العادات على تناولها و شق تركها و الجرى على نواميس السعاده الانسانيه،و لذلك ان الله سبحانه شرع فيهم ما شرع من الاحكام على سبيل التدريج،و كلفهم بالرفق و الامهال.

و من جمله تلك العادات الشائعه شرب الخمر فقد أخذ في تحريمه بالتدريج على ما يعطيه التدبر في الآيات المربوطه به فقد نزلت أربع مرات:

إحداها:قوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ (الأعراف/٣٣)،و الآيه مكيه حرم فيها الإثم صريحا،و في الخمر اثم غير انه لم يبين ان الاثم ما هو ان في الخمر اثم كبير.

و لعل ذلك انما كان نوعا من الارقاق و التسهيل لما في السكوت عن البيان من الاغماض كما يشعر به ايضا قوله تعالى: وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سِكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا (النحل/٦٧)،و الآيه أيضا مكيه،و كأن الناس لم يكونوا متنبهين بما فيه من الحرمة الكبيره حتى نزلت قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى (النساء/٤٣)،و الآيه مدنيه و هي تمتع الناس بعض المنع عن الشرب و السكر في افضل الحالات و في افضل الاماكن و هي الصلاه في المسجد.

و الاعتبار و سياق الآيه الشريفه يأبى ان تنزل بعد آيه البقره و آيتى المائده فإنهما تدلان على النهى المطلق، و لا معنى للنهى الخاص بعد ورود النهى المطلق، على أنه ينافى التدرىج المفهوم من هذه الآيات فإن التدرىج سلوك من الاسهل الى الاشق لا بالعكس.

ثم نزلت آيه البقره أعنى قوله تعالى: يَسْبِغُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَ هذه الآيه بعد آيه النساء كما مر بيانه و تشتمل الآيه على التحريم لدلالاتها القطعيه على الإثم فى الخمر «فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ» و تقدم نزول آيه الاعراف المكيه الصريحه فى تحريم الاثم.

و النفع خلاف الضرر و يطلقان على الامور المطلوبه لغيرها أو المكروهه لغيرها كما ان الخير و الشر يطلقان على الامور المطلوبه لذاتها أو المكروهه لذاتها، و المراد بالمنافع فيها ما يقصده الناس بهما من الاستفادات الماليه بالبيع و الشرى و العمل و التفكه و التلهى، و لما قوبل ثانيا بين الاثم و المنافع بالكبر أوجب ذلك إفراد المنافع و الغاء جهه الكثره فيها فإن العدد لا تأثير له فى الكبر فقليل: و اثمها اكبر من نفعهما و لم يقل من منافعهما.

قوله تعالى: وَ يَسْبِغُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ، العفو على ما ذكره الراغب قصد الشىء لتناوله ثم أوجب لحوق العنايات المختلفه الكلاميه به مجيئه لمعاني مختلفه كالعفو بمعنى المغفره و العفو بمعنى إمحاء الاثر و العفو بمعنى التوسط فى الانفاق، و هذا هو المقصود فى المقام، و الله العالم.

و الكلام فى مطابقه الجواب للسؤال فى هذه الآيه نظير ما مر فى قوله تعالى: يَسْبِغُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَ الْأَقْرَبِينَ، الآيه.

قوله تعالى: يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ -الى قوله- فى الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ، الظرف أعنى قوله تعالى: فى الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ، متعلق بقوله: تَتَفَكَّرُونَ و ليس بظرف له، و المعنى لعلمكم تتفكرون فى امر الدارين و ما يرتبط بكم فى حقيقتهما، و ان الدنيا دار خلقها الله لكم لتحيا فيها و تكسبوا

ما ينفعكم من مقركم و هو الدار الآخرة التي ترجعون فيه الى ربكم فيجازيكم بأعمالكم التي عملتموها في الدنيا.

قوله تعالى: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ، في الآية اشعار بل دلالة على نوع من التخفيف و التسهيل حيث أجازت المخالطة لليتامى، ثم قيل و لو شاء الله لأعتكم، و هذا يكشف عن تشديد سابق من الله تعالى في امر اليتامى يوجب التشويش و الاضطراب في قلوب المسلمين، حتى دعاهم على السؤال عن أمر اليتامى، و الامر على ذلك، فإن هاهنا آيات شديده اللحن في امر اليتامى كقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَ سَيَصِيلُونَ سَاجِدًا (النساء ١٠)، و قوله تعالى: وَ آتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَ لَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (النساء ٢)، فالظاهر ان الآية نازله بعد آيات سورة النساء، و بذلك يتأيد ما سننقله من سبب نزول الآية في البحث الروائي، و في قوله تعالى: قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ، حيث نكر الاصلاح، دلالة على ان المرضى عند الله سبحانه نوع من الاصلاح لا كل إصلاح و لو كان إصلاحا في ظاهر الامر فقط، فالتنكير في قوله تعالى: إِصْلَاحٌ لِإِفَادَةِ التَّنْوِيعِ فالمراد به الاصلاح بحسب الحقيقة لا بحسب الصورة، و يشعر به قوله تعالى -ذيلًا-: و الله يعلم المفسد من المصلح.

قوله تعالى: وَ إِنَّ تَخَالُطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ، إشاره الى المساواه المجعوله بين المؤمنين جميعا بإلغاء جميع الصفات المميزه التي هي المصادر لبروز أنواع الفساد بين الناس في اجتماعهم من الاستعباد و الاستضعاف و الاستدلال و الاستكبار و أنواع البغى و الظلم، و بذلك يحصل التوازن بين اثقال الاجتماع، و المعادله بين اليتيم الضعيف و الولي القوي، و بين الغنى المثرى و الفقير المعدم، و كذا كل ناقص و تام، و قد قال تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ (الحجرات ١٠).

قوله تعالى: وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ تعديده يعلم بمن كأنها لمكان تضمينه معنى يميز، والعنت هو الكلفه و المشقه.

[سوره البقره (٢): آيه ٢٢١]

اشاره

وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَاللَّامَةُ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَاعْبُدُوا مُؤْمِنِينَ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا، قَالَ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ: (٢٢١)

بيان:

قوله تعالى: وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ، قَالَ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ:

أصل النكاح للعقد ثم استعير للجماع، ومحال ان يكون في الأصل للجماع ثم استعير للعقد لأن أسماء الجماع، كلها كنيات، لاستقباحهم ذكره، كاستقباح تعاطيه، ومحال أن يستعير من لا يقصد فحشا اسم ما يستفظونه لما يستحسنونه، انتهى، وهو جيد غير أنه يجب أن يراد بالعقد علقه الزوجيه دون العقد اللفظي المعهود.

قوله تعالى: وَاللَّامَةُ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا، الظاهر أن المراد بالأمه المؤمنه المملوكه التي تقابل الحره وقد كان الناس يستذلون الإماء و يعيرون من تزوج بهن، فتقييد الأمه بكونها مؤمنه، وإطلاق المشركه مع ما كان عليه الناس من استحقار أمر الإماء و استذلالهن، و التحرز عن التزوج بهن يدل على ان المراد أن المؤمنه و ان كان أمه خير من المشركه و ان كانت حره ذات حسب و نسب و مال مما يعجب الانسان

ص: ٢٧٩

قوله تعالى: **وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا** وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ **الْخ**؛ الكلام فيه كالكلام فى الجملة السابقه.

قوله تعالى: **أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ**، اشاره الى حكمه الحكم بالتحريم، و هو ان المشركين لا اعتقادهم بالباطل، و سلوكهم سبيل الضلال رسخت فيهم الملكات الرذيله المزينه للكفر و الفسوق، و المعنيه عن أبصار طريق الحق و الحقيقه، فأثبتت فى قولهم و فى فعلهم الدعوه الى الشرك، و الدلاله الى البوار، و السلوك بالأخره الى النار فهم يدعون الى النار، و المؤمنون-بخلافهم-بسلوكهم سبيل الايمان، و تلبسهم بلباس التقوى يدعون بقولهم و فعلهم الى الجنه و المغفره بإذن الله حيث أذن فى دعوتهم الى الايمان، و اهتدائهم الى الفوز و الصلاح المؤدى الى الجنه و المغفره.

و كان حق الكلام أن يقال: و هؤلاء يدعون الى الجنه، الخ؛ ففيه استخلاف عن المؤمنين و دلالة على ان المؤمنين فى دعوتهم بل فى مطلق شئونهم الوجوديه الى ربهم، لا يستقلون فى شىء من الامور دون ربهم تبارك و تعالى و هو وليهم كما قال سبحانه: **وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ** (آل عمران ٦٨).

و فى الآيه وجه آخر: و هو ان يكون المراد بالدعوه الى الجنه و المغفره هو الحكم المشرع فى صدر الآيه بقوله تعالى: **وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَنَّ**، الخ؛ فان جعل الحكم لغرض ردع المؤمنين عن الاختلاط فى العشره مع من لا يزيد القرب منه و الانس به إلا البعد من الله سبحانه، و حثهم بمخالطه من فى مخالطته التقرب من الله سبحانه و ذكر آياته و مراقبه امره و نهيه دعوه من الله الى الجنه، و يؤيد هذا الوجه تذييل هذه الجملة بقوله تعالى: **وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**، و يمكن ان يراد بالدعوه الاعم من الوجهين، و لا يخلو حينئذ السياق عن لطف فافهم.

إشارة

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لَأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣)

بيان:

قوله تعالى: وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ الخ؛ المحيض مصدر كالحيض، يقال: حاضت المرأة تحيض حياضا وحيضا اذا نزلت طبيعتها الدم المعروف ذا الصفات المعهودة المختصه بالنساء، و لذلك يقال هي حائض كما يقال: هي حامل.

و الاذى هو الضرر على ما قيل، لكنه لا يخلو عن نظر، فإن لو كان هو الضرر بعينه لصح مقابله مع النفع كما ان الضرر مقابل النفع وليس بصحيح، يقال: دواء مضر و ضار، و لو قيل دواء موزد أفاد معنى آخر، و ايضا قال تعالى: لَمَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا- أَذَىٰ (آل عمران ١١١)، و لو قيل لن يضروكم إِلَّا ضررا لفسد الكلام، و ايضا كونه بمعنى الضرر غير ظاهر في امثال قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ (الأحزاب ٥٧)، و قوله تعالى: لِمَ تُؤْذُونِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ (الصف ٥)، الظاهر ان الاذى هو الطارئ على الشىء غير الملائم لطبعه فينطبق عليه معنى الضرر بوجه.

و تسميه المحيض اذى على هذا المعنى لكون هذا الدم المستند الى عاده النساء حاصلًا من

عمل خاص من طبعها يؤثر به في مزاج الدم الطبيعي الذي يحصله جهاز التغذية فيفسد مقدارا منه عن الحال الطبيعي و ينزله الى الرحم لتطهيره او لتغذيته الجنين او لتهيئته اللبن للإرضاع، و اما على قولهم: ان الاذى هو الضرر فقد قيل: ان المراد بالمحيض اتيان النساء في حال الحيض، و المعنى: يسألونك عن اتيانهن في هذه الحال فاجيب بأنه ضرر و هو كذلك فقد ذكر الاطباء ان الطبيعه مشتغله في حال الطمث بتطهير الرحم و اعداده للحمل، و الوقاع يختل به نظام هذا العمل فيضر بنتائج هذا العمل الطبيعي من الحمل و غيره.

قوله تعالى: **فَاعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي المَحِيضِ وَ لَا تَقْرُبُوهُنَّ**، الاعتزال هو أخذ العزله التجنب عن المخالطه و المعاشره، يقال: عزلت نصيبه اذا ميزته و وضعتة في جانب بالتفريق بينه و بين سائر الانصباء، و القرب مقابل البعد يتعدى بنفسه و بمن، و المراد بالاعتزال ترك الإتيان من محل الدم على ما سنبين.

و قد كان للناس في أمر المحيض مذاهب شتى: فكانت اليهود تشدد في أمره، و يفارق النساء في المحيض في المأكل و المشرب و المجلس و المضجع، و في التوراه أحكام شديده في أمرهن في المحيض، و أمر من قرب منهن في المجلس و المضجع و المس و غير ذلك، و أما النصارى فلم يكن عندهم ما يمنع الاجتماع بهن أو الاقتراب منهن بوجه، و اما المشركون من العرب فلم يكن عندهم شيء من ذلك غير ان العرب القاطنين بالمدينه و حوايلها سرى فيهم بعض آداب اليهود في امر المحيض و التشديد في امر معاشرتهم في هذا الحال، و غيرهم ربما كانوا يستحبون اتيان النساء في المحيض و يعتقدون ان الولد المرزوق حينئذ يصير سفاحا ولوعا في سفك الدماء و ذلك من الصفات المستحسنه عند العشائر من البدويين.

و كيف كان فقوله تعالى: **فَاعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي المَحِيضِ**، و ان كان ظاهره الامر بمطلق الاعتزال على ما قالت به اليهود، و يؤكد قوله تعالى ثانيا: **وَ لَا تَقْرُبُوهُنَّ**، إلا ان قوله تعالى اخيرا **فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ** - و من المعلوم انه محل الدم - قرينه على ان قوله: **فَاعْتَرَلُوا**

وَلَا تَقْرَبُوا، واقعان موقع الكنايه لا التصريح، والمراد به الإتيان من محل الدم فقط لا مطلق المخالطه و المعاشره و لا مطلق التمتع والاستلذاذ.

فالإسلام قد اخذ في امر المحيض طريقا وسطا بين التشديد التام الذى عليه اليهود و الإهمال المطلق الذى عليه النصارى، و هو المنع عن اتيان محل الدم و الاذن فيما دونه و فى قوله تعالى فى المحيض، وضع الظاهر موضع المضمرة و كان الظاهر أن يقال:فاعتزلوا النساء فيه و الوجه فيه ان المحيض الأول اريد به المعنى المصدرى و الثانى زمان الحيض الثانى غير الاول، و لا يفيد معناه تبديله من الضمير الراجع الى غير معناه.

قوله تعالى: حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ، الطهاره و تقابلها النجاسه-من المعانى الدائره فى مله الإسلام ذات أحكام و خواص مجعوله فيها تشتمل على شطر عظيم من المسائل الدينيه، و قد صار اللفظان بكثره الاستعمال من الحقائق الشرعيه أو المتشرعه على ما اصطلح عليه فى فن الاصول (١).

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ، التوبه هى الرجوع الى الله سبحانه و التطهر هو الأخذ بالطهاره و قبولها فهو انقلاص عن القذاره و رجوع الى الأصل الذى هو الطهاره فالمعنيان يتصادقان فى مورد أوامر الله سبحانه و نواهيته، و خاصه فى مورد الطهاره و النجاسه فالإيمان بأمر من أوامره تعالى و الانتهاء عن كل ما نهى عنه تطهر عن قذاره المخالفه و المفسده، و توبه و رجوع إليه عز شأنه، و لمكان هذه المناسبه علل تعالى ما ذكره من الحكم بقوله: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ، فإن من اللازم أن ينطبق ما ذكره من العله على كل ما ذكره من الحكم، أعنى قوله تعالى: فَاعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ، و قوله: فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ، و الآية أعنى قوله: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ، مطلقه غير مقيده

ص: ٢٨٣

فتشمل جميع مراتب التوبه و الطهاره كما مر بيانه، ولا يبعد استفاده المبالغه من قوله تعالى:

الْمُتَطَهِّرِينَ، كما جىء بصيغته المبالغه فى قوله: التَّوَابِينَ، فينتج استفاده الكثره فى التوبه و الطهاره من حيث النوع و من حيث العدد جميعا، أعنى: إن الله يحب جميع أنواع التوبه سواء كانت بالاستغفار أو بامثال كل أمر و نهى من تكاليفه أو باتخاذ كل اعتقاد من الاعتقادات الحقه، و يحب جميع أنواع التطهر سواء كان بالاغتسال و الوضوء و الغسل أو التطهر بالاعمال الصالحه أو العلوم الحقه، و يحب تكرار التوبه و تكرار التطهر.

قوله تعالى: نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ، الحرت مصدر بمعنى الزراعه و يطلق كالزراعه على الارض التى يعمل فيها الحرت و الزراعه، و أنى من اسماء الشرط يستعمل فى الزمان كمتى، و ربما استعمل فى المكان أيضا، قال تعالى: يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ (آل عمران ٣٧)، فإن كان بمعنى المكان كان المعنى من أى محل شئتم، و إن كان بمعنى الزمان كان المعنى فى أى زمان شئتم، و كيف كان يفيد الاطلاق بحسب معناه و خاصه من حيث تقييده بقوله: شِئْتُمْ، و هذا هو الذى يمنع الأمر أعنى قوله تعالى: فَأْتُوا حَرْثَكُمْ، أن يدل على الوجوب اذ لا معنى لإيجاب فعل مع إرجاعه الى اختيار المكلف و مشيته.

ثم إن تقديم قوله تعالى: نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ، على هذا الحكم و كذا التعبير عن النساء ثانيا بالحرت لا يخلو عن الدلاله على أن المراد التوسع فى إتيان النساء من حيث المكان أو الزمان الذى يقصدن منه دون المكان الذى يقصدن منه، فإن كان الإطلاق من حيث المكان فلا- تعرض للآيه للإطلاق الزمانى و لا تعارض له مع قوله تعالى فى الآيه السابقه: فاعتزلوا النساء فى المحيض و لا- تقربوهن حتى يطهرن، الآيه، و إن كان من حيث الزمان فهو مقيد بآيه المحيض، و الدليل عليه اشتمال آيه المحيض على ما يأبى معه أن ينسخه آيه الحرت، و هو دلاله آيه المحيض على أن المحيض أذى و أنه السبب لتشريع حرمة إتيانهن فى المحيض أذى دائما،

و دلالتها أيضا على أن تحريم الإتيان في المحيض نوع تطهير من القذاره و الله سبحانه يحب التطهر دائما، و يمتن على عباده بتطهيرهم كما قال تعالى: **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ (المائدة ٦).**

و من المعلوم أن هذا اللسان لا يقبل التقييد بمثل قوله تعالى: **نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ**، المشتمل أولا على التوسعه، و هو سبب كان موجودا مع سبب التحريم و عند تشريعه و لم يؤثر شيئا فلا يتصور تأثيره بعد استقرار التشريع و ثانيا على مثل التذييل الذى هو قوله تعالى: **وَ قَدَّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**، و من هذا البيان يظهر: أن آيه الحرث لا تصلح لنسخ آيه المحيض سواء تقدمت عليها نزولا أو تأخرت.

فمحصل معنى الآية: أن نسبه النساء الى المجتمع الإنسانى نسبه الحرث الى الإنسان فكما أن الحرث يحتاج اليه لبقاء البذور و تحصيل ما يتغذى به من الزاد لحفظ الحياه و إبقائها كذلك النساء يحتاج اليهن النوع فى بقاء النسل و دوام النوع لأن الله سبحانه جعل تكون الانسان و تصور مادته بصورته فى طباع أرحامهن، ثم جعل طبيعه الرجال و فيهم بعض الماده الاصلية مائله منعطفه إليهن، و جعل بين الفريقين موده و رحمه، و اذا كان كذلك كان الغرض التكوينى من هذا الجعل هو تقديم الوسيله لبقاء النوع فلا معنى لتقييد هذا العمل بوقت دون وقت، أو محل دون محل اذا كان مما يؤدى الى ذلك الغرض و لم يزاحم أمرا آخر واجبا فى نفسه لا يجوز إهماله، و بما ذكرنا يظهر معنى قوله تعالى و قدموا لانفسكم.

قوله تعالى: **وَ قَدَّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**، قد ظهر: ان المراد من قوله: **قَدَّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ** و خطاب الرجال أو مجموع الرجال و النساء بذلك الحث على إبقاء النوع بالتناكح و التناسل، و الله سبحانه لا يريد من نوع الانسان و بقاءه إلا حياه دينه و ظهور توحيده و عبادته بتقواهم العام، قال تعالى: **وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (الذاريات ٥٦)**، فلو أمرهم بشىء مما يرتبط بحياتهم و بقائهم

فإنما يريد توصلهم بذلك الى عباده ربهم لا إخلادهم الى الارض و انهماكهم فى شهوات البطن و الفرج، و تيههم فى أوديه الغى و الغفله.

فالمراد بقوله: قَدَّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ و إن كان هو الاستيلاء و تقدمه أفراد جديدى الوجود و التكون الى المجتمع الانسانى الذى لا يزال يفقد أفرادا بالموت و الفناء، و ينقص عدده بمرور الدهر لكن لا- لمطلوبيتهم فى نفسه بل للتوصل به الى ابقاء ذكر الله سبحانه ببقاء النسل و حدوث أفراد صالحين ذوى أعمال صالحه تعود مثوباتها و خيراتها الى انفسهم و الى صالحى آبائهم المتسبين إليهم كما قال تعالى: وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَرَهُمْ (يس ١٢) (١).

[سوره البقره (٢): الآيات ٢٢٤ الى ٢٢٧]

اشاره

وَ لَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَ تَتَّقُوا وَ تَصِيَلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَ لَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَؤُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) وَ إِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)

بيان:

قوله تعالى: وَ لَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا الى آخر الآيه؛

ص: ٢٨٦

العرضه بالضم من العرض و هو كإراءه الشيء للشيء حتى يرى صلوحه لما يريد و يقصده كعرض المال للبيع و عرض المنزل للنزول و عرض الغذاء للأكل، و منه ما يقال المهدف: إنه عرضه للسهم، و للفتاه الصالحه للازدواج انها عرضه للنكاح، و للدابه المعده للسفر إنها عرضه للسفر و هذا هو الاصل فى معناها، و اما العرضه بمعنى المانع المعرض فى الطريق و كذلك العرضه بمعنى ما ينصب ليكون معرضا لتوارد الواردات و تواليها فى الورد كالمهدف للسهم حتى يفيد كثره العوارض الى غير ذلك من معانيها فهى مما لحقها من موارد استعمالها غير دخيله فى اصل المعنى.

و الايمان جمع يمين بمعنى الحلف مأخوذه من اليمين بمعنى الجارحه لكونهم يضربون بها فى الحلف و العهد و البيعه و نحو ذلك فاشتق من آله العمل اسم للعمل، للملازمه بينها كما يشتق من العمل اسم لآله العمل كالسبابه للاصبع التى يسب بها و معنى الآيه (و الله اعلم): و لا- تجعلوا الله عرضه تتعلق بها ايمانكم التى عقدتموها بحلفكم ان لا تبروا و تتقوا و تصلحوا بين الناس فإن الله سبحانه لا يرضى ان يجعل اسمه ذريعه للامتناع عما امر به من البر و التقوى و الاصلاح بين الناس، و يؤيد هذا المعنى ما ورد من سبب نزول الآيه على ما سننقله فى البحث الروائى إنشاء الله.

قوله تعالى: لا- يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ اللغو من الافعال ما لا يستتبع أثرا، و أثر الشيء يختلف باختلاف جهاته و متعلقاته، فللميمين أثر من حيث انه لفظ، و اثر من حيث انه مؤكد للكلام، و اثر من حيث انه عقد و اثر من حيث حنثه و مخالفه مؤداه، و هكذا إلا أن المقابله فى الآيه بين عدم المؤاخذه على لغو اليمين و بين المؤاخذه على ما كسبته القلوب و خاصه من حيث اليمين تدل على أن المراد بلغو اليمين ما لا يؤثر فى قصد الحالف، و هو اليمين الذى لا يعقد صاحبه على شيء من قول: لا و الله و بلى و الله.

و الكسب هو اجتلاب المنافع بالعمل بضعه أو حرفه أو نحوهما و اصله فى اقتناء ما يرتفع به حوائج الانسان الماديه ثم استعير لكل ما يجتلبه الانسان بعمل من اعماله من خير او شر ككسب المدح و الفخر و حسن الذكر بحسن الخلق و الخدمات النوعيه و كسب الخلق الحسن و العلم النافع و الفضيله بالاعمال المناسبه لها، و كسب اللوم و الذم، و اللعن و الطعن، و الذنوب و الآثام، و نحوها بالأعمال المستتبعه لذلك، فهذا هو المعنى الكسب و الاكتساب، و قد قيل فى الفرق بينهما أن الاكتساب اجتلاب الإنسان المنفعه لنفسه، و الكسب أعم مما يكون لنفسه او غيره مثل كسب العبد لسيدته و كسب الولي للمولى عليه و نحو ذلك.

و كيف كان فالكاسب و المكتسب هو الإنسان لا غير (١).

قوله تعالى: لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ الشَّخَايَءَ؛ الايلاء من الاليه بمعنى الحلف، و غلب فى الشرع فى حلف الزوج أن لا يأتى زوجته غضبا و اضرازا، و هو المراد فى الآيه، و التربص هو الانتظار، و الفء هو الرجوع.

و الظاهر أن تعديه الايلاء بمن لتضمينه معنى الابتعاد و نحوه فيفيد وقوع الحلف على الاجتناب عن المباشره، و يشعر به تحديد التربص بالاربعه أشهر فإنها الامد المضروب للمباشره الواجبه شرعا، و منه يعلم أن المراد بالعزم على الطلاق العزم مع ايقاعه، و يشعر به أيضا تذييله بقوله تعالى: فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، فإن السمع انما يتعلق بالطلاق الواقع لا بالعزم عليه.

و فى قوله تعالى: فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، دلالة على أن الايلاء لا عقاب عليه على تقدير الفء. و اما الكفارته فهى حكم شرعى لا يقبل المغفره، قال تعالى: لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ
الآيه

ص: ٢٨٨

فالمعنى ان من آلى من امراته يتربص له الحاكم اربعة اشهر فإن رجع الى حق الزوجيه و هو المباشره و كفر و باشر فلا عقاب عليه و ان عزم الطلاق و اوقعه فهو المخلص الآخرو، والله سميع عليم.

[سوره البقره (٢): الآيات ٢٢٨ الى ٢٤٢]

اشاره

وَ الْمَطْلَقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ
بُعُولَتَهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ لِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
(٢٢٨) الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِنْ سَاكَبْتُمْ فِي الْمَعْرُوفِ أَوْ تَسَوَّعْتَ فِي الْبُحْثَانِ وَ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا
حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوهَا وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ
فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا
أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) وَ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِيهِنَّ كُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
سَرَحوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ لَا تُمْسِيهِنَّ كُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتِدُوا وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَ لَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَ أذْكُرُوا نِعْمَتَ
اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ مَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَ الْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) وَ إِذَا طَلَّقْتُمُ
النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ زَوْجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ
الْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَرْكَى لَكُمْ وَ أَطْهَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) وَ الْوَالِدَاتُ يُرْضَيْنَ مِنْ أَوْلَادِهِنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ
أَنْ يُتِمَّ الرِّضَاعَةَ وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارُّ وَالِدُهُ بِوَالِدِهَا وَ لَا مَوْلُودٌ لَهُ
بِوَالِدِهِ وَ عَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِضَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَ تَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ
يَذُرُونَ أَوْلَادًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ اللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتُمْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنَّكُمْ سَتَذَكَّرُوهُنَّ وَ لَكِنْ
لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَ لَا تَعْرُضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ
فَاحْذَرُوهُ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفَرَّضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَ مَتَّعُوهُنَّ
عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَ عَلَى الْمُفْتِرِ قَدْرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَ قَدْ
فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَ لَا تَسْأُوا الْفَضْلَ
بَيْنَكُمْ إِنْ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧) حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَ قُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ
رُكْبَانًا فَإِذَا أُمِيتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مِمَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩) وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذُرُونَ أَوْلَادًا وَ صِيَّةً لَهُمْ لَأَرْوَاهُمْ
مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠) وَ
لِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢)

قوله تعالى: وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ، اصل الطلاق التخليه عن وثاق و تقييد ثم استعير لتخليه المرأه عن حباله النكاح و قيد الزوجيه ثم صار حقيقه فى ذلك بكثره الاستعمال.

و التربص هو الانتظار و الحبس، و قد قيد بقوله تعالى: بِأَنْفُسِهِنَّ، ليدل على معنى التمكين من الرجال فيفيد معنى العده اعنى عده الطلاق، و هو حبس المرأه نفسها عن الازدواج تحذرا عن اختلاط المياه، و يزيد على معنى العده الاشاره الى حكمه التشريع، و هو التحفظ عن اختلاط المياه و فساد الانساب، و لا يلزم اطراد الحكمه فى جميع الموارد فإن القوانين و الاحكام إنما تدور مدار المصالح و الحكم الغالبه دون العامه، فقوله تعالى يتربصن بأنفسهن بمنزله قولنا:

يعتد دن احترازا من اختلاط المياه و فساد النسل بتمكين الرجال من أنفسهن، و الجملة خبر أريد به الانشاء تأكيدا.

و القروء جمع القراء، و هو لفظ يطلق على الطهر و الحيض معا، فهو على ما قيل من الاضداد، غير ان الاصل فى ماده قرء هو الجمع لكن لا كل جمع بل الجمع الذى يتلوه الصرْف و التحويل و نحوه، و على هذا فالأظهر ان يكون معناه الطهر لكونه حاله جمع الدم ثم استعمل فى الحيض لكونه حاله قذفه بعد الجمع، و بهذه العنايه اطلق على الجمع بين الحروف للدلاله على معنى القراءه، و قد صرح أهل اللغه بكون معناه هو الجمع، و يشعر بأن الاصل فى ماده قرء الجمع، قوله تعالى: لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ

(القيامة ١٨)، و قوله تعالى: وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ (الإسراء / ١٠٦)، حيث عبر تعالى في الآيتين بالقرآن، و لم يعبر بالكتاب أو الفرقان أو ما يشبههما، و به سمى القرآن قرآنا.

قال الراغب في مفرداته: و القرء في الحقيقة اسم للدخول في الحيض عن طهر و لما كان اسما جامعا للأمرين: الطهر و الحيض المتعقب له أطلق على كل واحد لأن كل اسم موضوع لمعنيين معا يطلق على كل واحد منهما اذا انفرد، كالمائده للخوان و الطعام، ثم قد يسمى كل واحد منهما بانفراده به، و ليس القرء اسما للطهر مجردا و لا للحيض مجردا، بدليل ان الطاهر التي لم تر أثر الدم لا يقال لها: ذات قرء، و كذا الحائض التي استمر بها الدم لا يقال لها: ذلك، انتهى.

قوله تعالى: وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ، المراد به تحريم كتمان المطلقة الدم او الولد استعجالا في خروج العده أو إضرارها بالزوج في رجوعه و نحو ذلك، و في تقييده بقوله: إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ مع عدم اشتراط اصل الحكم بالايمان نوع ترغيب و حث لمطاوعه الحكم و التثبت عليه لما في هذا التقييد من الاشاره الى ان هذا الحكم من لوازم الايمان بالله و اليوم الآخر الذي عليه بناء الشريعة الاسلاميه فلا استغناء في الاسلام عن هذا الحكم، و هذا نظير قولنا: أحسن معاشره الناس ان أردت خيرا، و قولنا للمريض: عليك بالحميه إن أردت الشفاء و البرء.

قوله تعالى: وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا، البعوله جمع البعل و هو الذكر من الزوجين ما داما زوجين و قد استشعر منه معنى الاستعلاء و القوه و الثبات في الشدائد لما ان الرجل كذلك بالنسبه الى المرأه ثم جعل اصلا يشق منه الالفاظ بهذا المعنى فقيل لراكب الدابه بعلاها، و للأرض المستعليه بعل، و للصنم بعل، و للنخل اذا عظم بعل و نحو ذلك.

و الضمير فى بعولتهن للمطلقات إلا- ان الحكم خاص بالرجعيات دون مطلق المطلقات الاعم منها و من البائئات، و المشار اليه بذلك التربص الذى هو بمعنى العده، و التقييد بقوله ان ارادوا اصلاحا، للدلاله على وجوب ان يكون الرجوع لغرض الاصلاح لا لغرض الاضرار المنهى عنه بعد بقوله: **وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا**، الآيه.

و لفظ أحق اسم تفضيل حقه ان يتحقق معناه دائما مع مفضل عليه كأن يكون للزوج الاول حق فى المطلقه و لسائر الخطاب حق، و الزوج الاول احق بها لسبق الزوجيه، غير ان الرد المذكور لا يتحقق معنا الآ مع الزوج الاول.

و من هنا يظهر: ان فى الآيه تقديرا لطيفا بحسب المعنى، و المعنى و بعولتهن أحق بهن من غيرهم، و يحصل ذلك بالرد و الرجوع فى ايام العده، و هذه الأحقيه انما تتحقق فى الرجعيات دون البائئات التى لا- رجوع فيها، و هذه هى القرينه على ان الحكم مخصوص بالرجعيات، لا- ان ضمير بعولتهن راجع الى بعض المطلقات بنحو الاستخدام أو ما أشبه ذلك، و الآيه خاصه محكم المدخول بهن من ذوات الحيض غير الحوامل، و اما غير المدخول بها و الصغيره و اليائسه و الحامل فلحكمتها آيات أخر.

قوله تعالى: **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ**، المعروف هو الذى يعرفه الناس بالذوق المكتسب من نوع الحياه الاجتماعيه المتداوله بينهم، و قد كرر سبحانه المعروف فى هذه الآيات فذكره فى اثنى عشر موضعا اهتماما بأن يجرى هذا العمل اعنى الطلاق و ما يلحق به على سنن الفطره و السلامه، فالمعروف تتضمن هدايه العقل، و حكم الشرع، و فضيله الخلق الحسن و سنن الادب.

قوله تعالى: **الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَشْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**، المره بمعنى الدفعه مأخوذه من المرور للدلاله على الواحد من الفعل كما ان الدفعه و الكره و النزله مثلها وزنا و معنى و اعتبارا.

والتسريح أصله الإطلاق في الرعى مأخوذ من سرحت الأبل وهو أن ترعيه للسرحة، وهو شجر له ثمر يريعه الإبل، وقد استعير في الآيه لإطلاق المطلقة بمعنى عدم الرجوع إليها في العده، والتخليه عنها حتى تنقضى عدتها على ما سيجي.

و المراد بالطلاق في قوله تعالى: **الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ**، والطلاق الذي يجوز فيه الرجعه و لذا أردفه بقوله بعد: **فإمساك**، الخ؛ و اما الثالث فالطلاق الذي يدل عليه قوله تعالى: **فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ**، الآيه.

و المراد بتسريحها بإحسان ظاهرا التخليه بينها و بين البينونه و تركها بعد كل من التطليقتين الاوليين حتى تبين بانقضاء العده و إن كان الأظهر انه التطليقه الثالثه كما هو ظاهر الإطلاق في تفريع قوله: **فَإِمْسَاكٌ**، الخ؛ و على هذا فيكون قوله تعالى بعد: **فَإِنْ طَلَّقَهَا**، الخ؛ بيانا تفصيليا للتسريح بعد البيان الإجمالي.

قوله تعالى: **إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ**، الخوف هو الغلبه على ظنهما ان لا يقيما حدود الله، و هي أوامره و نواهيه من الواجبات و المحرمات في الدين، و ذلك إنما يكون بتباعد أخلاقهما و ما يستوجه حوائجهما و التباعد المتولد بينهما من ذلك.

قوله تعالى: **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ**، العدول عن التثنيه الى الجمع في قوله: **خِفْتُمْ**، كانه للاشاره الى لزوم ان يكون الخوف خوفا يعرفه العرف و العاده، لا ما ربما يحصل بالتهوس و التلهي أو بالوسوسه و نحوها، و لذلك عدل أيضا عن الإضمار فليل ألا يقيما حدود الله، و لم يقل **فَإِنْ خِفْتُمْ** ذلك لمكان اللبس.

و أما نفى الجناح عنهما مع ان النهي في قوله: **وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا**، الخ؛ إنما تعلق بالزوج فلأن حرمه الأخذ على الزوج توجب حرمه الاعطاء على الزوجه من باب الإعانه على الاثم و العدوان إلا في طلاق الخلع فيجوز توافقهما على الطلاق مع الفديه، فلا جناح على الزوج ان يأخذ الفديه، و لا جناح على الزوجه ان تعطى الفديه و تعين على الأخذ فلا جناح عليهما فيما

قوله تعالى: تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ الْخ؛ المشار اليه هي المعارف المذكوره في الآيتين و هي احكام فقهييه مشوبه بمسائل اخلاقيه، و أخرى علميه مبتنيه على معارف اصلية، و الاعتداء و التعدى هو التجاوز.

قوله تعالى: فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ الى آخر الآيه، بيان لحكم التطليقه الثالثه و هو الحرمة حتى تنكح زوجا غيره، و قد نفى الحل عن نفس الزوجه مع ان المحرم إنما هو عقدها أو وطئها ليدل به على تعلق الحرمة بهما جميعا، و ليشعر قوله تعالى: حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ، على العقد و الوطء جميعا، فإن طلقها الزوج الثانى فلا جناح عليهما أى على المرأه و الزوج الامول ان يتراجعا الى الزوجيه بالعقد بالتوافق من الجانبين، و هو التراجع، و ليس بالرجوع الذى كان حقا للزوج فى التطليقتين الاوليين، و ذلك إن ظنا ان يقيما حدود الله.

و وضع الظاهر موضع فى قوله تعالى: وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ، لأن المراد بالحدود غير الحدود.

و فى الآيه من عجب الایجاز ما يبهت العقل، فإن الكلام على قصره مشتمل على أربعة عشر ضميرا مع اختلاف مراجعها و اختلاطها من غير ان يوجب تعقيدا فى الكلام، و لا إغلاقا فى الفهم.

قوله تعالى: وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ - الى قوله - لَتَعْتَدُوا، المراد ببلوغ الاجل الاشراف على انقضاء العده فإن البلوغ كما يستعمل فى الوصول الى الغايه كذلك يستعمل فى الاقتراب منها، و الدليل على ان المراد به ذلك قوله تعالى: فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سِرِّهُنَّ بِمَعْرُوفٍ، اذ لا معنى للامساک و لا التسريح بعد انقضاء العده: و فى قوله تعالى: وَ لَا تُمَسِّكُوهُنَّ ضَرَارًا لَتَعْتَدُوا، نهى عن الرجوع بقصد المضاره كما نهى عن التسريح بالأخذ من المهر فى غير الخلع.

قوله تعالى: وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَا يَرْجِعْ إِلَى اللَّهِ لِمَسَاكٍ فَتُنَفَّسَهُ إِلَىٰ آخِرِ آيَاتِهِ؛ إشاره الى حكمه النهى عن الامساك للمضاره فإن الترويج لتتميم سعادته الحياه، ولا يتم ذلك إلا بسكون كل من الزوجين الى الآخر وإعانتته فى رفع حوائج الغرائز، والامساك خاصه رجوع الى الاتصال والاجتماع بعد الانفصال والافتراق، وفيه جمع الشمل بعد شتاته، وأين ذلك من الرجوع بقصد المضاره.

فمن يفعل ذلك أى امسك ضرار فقد ظلم نفسه حيث حملها على الانحراف عن الطريق التى تهدى إليها فطرته الانسانيه.

على انه اتخذ آيات الله هزوا يستهزئ بها فإن الله سبحانه لم يشرع ما شرعه لهم من الاحكام تشريعا جامدا يقتصر فيه على اجرام الافعال أخذها وإعطاء وإمساكا وتسريحا وغير ذلك، بل بناها على مصالح عامه يصلح بها فاسد الاجتماع، ويتم بها سعادته الحياه الانسانيه، وخلطها بأخلاق فاضله تتربى بها النفوس، وتطهرها الأرواح، وتصفو بها المعارف العالیه: من التوحيد والولايه و سائر الاعتقادات الزاكيه، فمن اقتصر فى دينه على ظواهر الاحكام و نبذ غيرها وراء ظهره فقد اتخذ آيات الله هزوا.

و المراد بالنعمة فى قوله تعالى: وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، نعمه الدين أو حقيقه الدين و هى السعاده التى تنال بالعمل بشرائع الدين كسعاده الحياه المختصه بتألف الزوجين، فإن الله تعالى سمي السعاده الدينيه نعمه كما فى قوله تعالى: وَ اَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي (المائدہ ٣)، وقوله تعالى: وَ لِيُبَيِّنَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ (المائدہ ٦)، وقوله تعالى: فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا (آل عمران ١٠٣).

و على هذا يكون قوله تعالى بعده: و ما أنزل عليكم من الكتاب و الحكمة يعظكم به، كالمفسر لهذه النعمه، و يكون المراد بالكتاب و الحكمة ظاهر الشريعه و باطنها أعنى أحكامها و حكمها.

و يمكن أن يكون المراد بالنعمة مطلق النعم الإلهية، التكوينية و غيرها فيكون المعنى:

اذكروا حقيقه معنى حياتكم و خاصه المزايا و محاسن التألف و السكونه بين الزوجين و ما بينه الله تعالى لكم بلسان الوعظ من المعارف المتعلقة بها فى ظاهر الأحكام و حكمها فإنكم إن تأملتم ذلك أو شكك أن تلزموا صراط السعاده، و لا تفسدوا كمال حياتكم و نعمه وجودكم، و اتقوا الله و لتوجه نفوسكم الى أن الله بكل شىء عليم، حتى لا - يخالف ظاهركم باطنكم، و لا تجتروا على الله بهدم باطن الدين فى صورته تعمير ظاهره.

قوله تعالى: **وَ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُمُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ**، العضل المنع، و الظاهر أن الخطاب فى قوله:

فَلَا تَعْضُمُوهُنَّ، لاولياتهن و من يجرى مجراهم ممن لا يسعهن مخالفته، و المراد بأزواجهن، الأزواج قبل الطلاق، فالآيه تدل على نهى الاولياء و من يجرى مجراهم عن منع المرأة أن تنكح زوجها ثانيا بعد انقضاء العده سخطا و لجاجا كما يتفق كثيرا، و لا دلالة فى ذلك على أن العقد لا يصح إلا بولى.

و المراد بقوله تعالى: **فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ**، انقضاء العده، فإن العده لو لم تنقض لم يكن لاحد من الاولياء و غيرهم ان يمنع ذلك و بعولتهن احق بردهن فى ذلك. على أن قوله تعالى: **أَنْ يَنْكِحَنَّ**، دون ان يقال: يرجعن و نحوه ينافى ذلك.

قوله تعالى: **ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ**، هذا كقوله فيما مر: و لا يحل لهن ان يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن إن كن يؤمن بالله و اليوم الآخر، الآيه، و إنما خص الموردان من بين الموارد بالتقييد بالإيمان بالله و اليوم الآخر، و هو التوحيد، لان دين التوحيد يدعو الى الاتحاد دون الافتراق، و يقضى بالوصل دون الفصل.

و فى قوله تعالى: **ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ**، التفات الى خطاب المفرد من خطاب الجمع ثم التفات عن خطاب المفرد الى خطاب الجمع، و الاصل فى هذا الكلام خطاب المجموع اعنى

خطاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَآمَتَهُ جَمِيعًا لَكِنْ رُبَّمَا التَفَتَ إِلَى خُطَابِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَحَدَهُ فِي غَيْرِ جِهَاتِ الْأَحْكَامِ كَقَوْلِهِ: تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَقَوْلِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، وَقَوْلِهِ:

وَ بَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكِ، وَ قَوْلِهِ: ذَلِكِ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، حَفْظًا لِقَوَامِ الْخُطَابِ، وَ رِعَايَةً لِحَالِ مَنْ هُوَ رَكْنٌ فِي هَذِهِ الْمَخَاطَبِ وَ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ هُوَ الْمَخَاطَبُ بِالْكَلامِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ، وَ غَيْرِهِ فَخَاطَبَ بِوَسِطَتِهِ، وَ أَمَّا الْخُطَابَاتُ الْمَشْتَمَلَةُ عَلَى الْأَحْكَامِ فَجَمِيعُهَا مُوجَّهَةٌ نَحْوَ الْمَجْمُوعِ، وَ يَرْجِعُ حَقِيقَةُ هَذَا النُّوعِ مِنَ الْإِلْتِفَاتِ الْكَلَامِيَّةِ إِلَى تَوْسِعَةِ الْخُطَابِ بَعْدَ تَضْيِيقِهِ وَ تَضْيِيقِهِ بَعْدَ تَوْسِعَتِهِ فَلْيَتَدَبَّرْ فِيهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَ أَطْهَرُ، الزَّكَاةُ هِيَ النَّمُو الصَّالِحِ الطَّيِّبِ، وَ قَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِي مَعْنَى الطَّهَارَةِ، وَ الْمَشَارُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ذَلِكُمْ عَدَمُ الْمَنْعِ عَنِ رَجُوعِهِنَّ إِلَى زَوَاجِهِنَّ، أَوْ نَفْسِ رَجُوعِهِنَّ إِلَى زَوَاجِهِنَّ، وَ الْمَالُ وَاحِدٌ، وَ ذَلِكُمْ أَنْ فِيهِ رَجُوعًا مِنَ الْإِنْتِلَامِ وَ الْإِنْفِصَالِ إِلَى الْإِلْتِيَامِ وَ الْإِتِّصَالِ، وَ تَقْوِيَةُ لُغْرِيْزِهِ التَّوْحِيدِ فِي النُّفُوسِ فَيَنْمُو عَلَى ذَلِكَ جَمِيعُ الْفَضَائِلِ الدِّينِيَّةِ، وَ فِيهِ تَرْبِيَةٌ لِمَلَكَةِ الْعِفَّةِ وَ الْحَيَاءِ فِيهِنَّ وَ هُوَ اسْتِرْلَاهُنَّ وَ إِطْهَارُ لِنُفُوسِهِنَّ، وَ مِنْ جِهَةِ أُخْرَى فِيهِ حَفْظُ قُلُوبِهِنَّ عَنِ الْوُقُوعِ عَلَى الْإِجَانِبِ إِذَا مَنَعْنَ عَنِ نِكَاحِ زَوَاجِهِنَّ.

وَ الْإِسْلَامُ دِينُ الزَّكَاةِ وَ الطَّهَارَةِ وَ الْعِلْمِ، قَالَ تَعَالَى: وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ (آلِ عِمْرَانَ ١٦٤)، وَ قَالَ تَعَالَى: وَ لَكِنْ يُرِيدُ لِئَطْهَرَكُمْ (المائدة ٧).

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، أَيِ إِلَّا مَا يَعْلَمُكُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ (آلِ عِمْرَانَ ١٦٤)، وَ قَالَ تَعَالَى: وَ لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ (البقرة ٢٥٥)، فَلَا تَنَافَى بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، الْآيَةُ أَيِ يَعْلَمُونَ بِتَعْلِيمِ اللَّهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ الْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ. الْوَالِدَاتُ هُنَّ الْإِمَهَاتُ، وَ إِذَا عَدِلَ عَنِ الْإِمَهَاتِ إِلَى الْوَالِدَاتِ لِأَنَّ الْإِمَهَاتُ أَعْمُ مِنَ

الوالده كما ان الاب اعم من الوالد و الابن اعم من الولد، والحكم فى الآيه مشروع فى خصوص مورد الوالده و الولد و المولود له، و اما تبديل الوالد بالمولود له، ففيه اشاره الى حكمه التشريع فإن الوالد لما كان مولودا للوالد ملحقا به فى معظم أحكام حياته لا- فى جميعها كما سيجىء بيانها فى آيه التحريم من سورة النساء إنشاء الله كان عليه ان يقوم بمصالح حياته و لوازم تربيته، و منها كسوه أمه التى ترضعه، و نفقتها، و كان على أمه أن لا تضار والده لان الولد مولود له.

قوله تعالى: **وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْرَهُمَا**، المراد بالمولود له هو الوالد كما مر، و الرزق و الكسوه هما النفقه و اللباس، و قد نزلهما الله تعالى على المعروف و هو المتعارف من حالهما، و قد علل ذلك بحكم عام آخر رافع للحرَج، و هو قوله تعالى: **لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْرَهُمَا**، و قد فرغ عليه حكيم آخرين، احدهما: حق الحضانه و الارضاع الذى للزوجه و ما اشبهه فلا يحق للزوج ان يحول بين الوالده و ولدها بمنعها عن حضانتها أو رؤيته أو ما أشبه ذلك فإن ذلك مضاره و حرج عليها، و ثانيهما: نفى مضاره الزوجه للزوج بولده بأن تمنعه عن الرؤيه و نحو ذلك، و ذلك قوله تعالى: لا تضار والده بولدها و لا- مولود له بولده، و النكته فى وضع الظاهر موضع الضمير أعنى فى قوله: **بِوَالِدِهِ** دون ان يقول به رفع التناقض المتوهم، فإنه لو قيل: لا مولود له به رجح الضمير الى قوله ولدها و كان ظاهر المعنى: لا مولود له بولد المرأ فأوهم التناقض لان إسناد الولاده الى الرجل يناقض إسنادها الى المرأ، ففى الجملة مراعاة لحكم التشريع و التكوين معا أى إن الولد لهما معا تكوينا فهو ولده و ولدها، و له فحسب تشريعا لانه مولود له.

قوله تعالى: **وَ عَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ**، ظاهر الآيه: ان الذى جعل على الوالد من الكسوه و النفقه فهو مجعول على وارثه إن مات، و قد قيل فى معنى الآيه أشياء أخر لا

يوافق ظاهرها، وقد تركنا ذكرها لانها بالبحث الفقهي أمس فلتطلب من هناك، و الذي ذكرناه هو الموافق لمذهب أئمه أهل البيت فيما نقل عنهم من الاخبار، و هو الموافق أيضا لظاهر الآيه.

قوله تعالى: فَإِنْ أَرَادَ فِضَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَ تَشَاوُرٍ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ الفصال: الفطام، و التشاور: الاجتماع على المشوره، و الكلام تفریع على الحق المجعول للزوجه و نفی الحرج عن البین، فالحضانه و الرضاع ليس واجبا عليها غير قابل التغيير، بل هو حق يمكنها أن تتركه.

فمن الجائز ان يتراضيا بالتشاور على فصال الولد من غير جناح عليهما و لا بأس، و كذا من الجائز ان يسترضع الزوج لولده من غير الزوجه الوالده اذا ردت الولد اليه بالامتناع عن ارضاعه، او لعله أخرى من انقطاع لبن او مرض و نحوه اذا سلم لها ما تستحقها تسليما بالمعروف بحيث لا يزاحم في جميع ذلك حقها، و هو قوله تعالى: وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ .

قوله تعالى: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، أمر بالتقوى و ان يكون هذا التقوى بإصلاح صوره هذه الاعمال، فإنها أمور مرتبطه بالظاهر من صورته و لذلك قال تعالى: و اعلموا ان الله بما تعملون بصير، و هذا بخلاف ما في ذيل قوله تعالى السابق: و اذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن، الآيه؛ من قوله تعالى: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، فان تلك الآيه مشتمله على قوله تعالى: وَ لَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لْتَعْتَدُوا، و المضاره ربما عادت الى النيه من غير ظهور في صورته العمل إلا بحسب الأثر بعد.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذُرُونَ أَرْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْرًا، التوفى هو الاماته، يقال: توفاه الله اذا اماته فهو متوفى بصيغه اسم المفعول، و يذرون مثل يدعون بمعنى يتركون و لا ماضى لهما من مادتهما، و المراد بال عشر الايام

حذفت لدلاله الكلام عليه.

قوله تعالى: فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ، المراد ببلوغ الأجل انقضاء العده، وقوله: فَلَا جُنَاحَ، الخ؛ كناية عن إعطاء الاختيار لهن في افعالهن فإن اخترن لأنفسهن الازدواج فلهن ذلك، وليس لقرابه الميت منعهن عن شيء من ذلك استنادا الى بعض العادات المبنيه على الجهالة والعمى أو الشح والحسد فإن لهن حقا في ذلك معروفا في الشرع وليس لأحد ان ينهى عن المعروف.

قوله تعالى: وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ، لما كان الكلام مشتملا على تشريع عده الوفاء و على تشريع حق الازدواج لهن بعدها، و كان كل ذلك تشخيصا للأعمال مستندا الى خبره الالهيه كان الانسب تعليله بأن الله خبير بالأعمال مشخص للمحظور منها عن المباح، فعليه أن يترصد في مورد و أن يختار ما شئت لأنفسهن في مورد آخر، و لذا ذيل الكلام بقول: و الله بما تعملون خبير.

قوله تعالى: لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ، التعريض هو الميل بالكلام الى جانب ليفهم المخاطب أمرا مقصودا للمتكلم لا- يريد التصريح به، من العرض بمعنى الجانب فهو خلاف التصريح. و الفرق بين التعريض و الكنايه ان للكلام الذى فيه التعريض معنى مقصودا غير ما اعترض به كقول المخاطب للمرأة: إني حسن المعاشره و احب النساء، اى لو تزوجت بى سعدت بطيب العيش و صرت محبوبه، بخلاف الكنايه اذ لا- يقصد فى الكنايه غير المكنى عنه كقولك: فلان كثير الرماد تريد انه سخي.

و الخطبه بكسر الخاء من الخطب بمعنى التكلم و المراجعة فى الكلام، يقال: خطب المرأة خطبه بالكسر اذا كلمها فى أمر التزوج بها فهو خاطب و لا يقال: خطيب و يقال خطب القوم خطبه بضم الخاء اذا كلمهم، و خاصه فى الوعظ فهو خاطب من الخطباء و خطيب من الخطباء.

و الاكنان من الكن بالفتح بمعنى الستر لكن يختص الاكنان بما يستر فى النفس كما قال: او اكنتم فى انفسكم، و الكن بما يستر بشىء من الاجسام كمحفظة او ثوب او بيت، قال تعالى:

كَانَتْهُمْ بَيْنُضْ مَكْنُونٍ (الصافات ٤٩)، و قال تعالى: كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (الواقعه ٢٣)، و المراد بالآيه نفى البأس عن التعريض فى الخطبه او إخفاء أمور فى القلب فى امرها.

قوله تعالى: عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَيَتَذَكَّرُونََهُنَّ، فى مورد التعليل لئفى الجناح عن الخطبه و التعريض فيها، و المعنى: ان ذكركم إياهن امر مطبوع فى طباعكم و الله لا ينهى عن امر تقضى به غريزتكم الفطريه و نوع خلقتكم، بل يجوزه، و هذا من الموارد الظاهره فى ان دين الاسلام مبنى على اساس الفطره.

قوله تعالى: وَ لَا تَغْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، العزم عقد القلب على الفعل و تثبيت الحكم بحيث لا يبقى فيه وهن فى تأثيره الا- ان يبطل من رأس، و العقده من العقد بمعنى الشد. و فى الكلام تشبيه علقه الزوجيه بالعقده التى يعقد بها أحد الخيطين بالآخر بحيث يصيران واحدا بالاتصال، كأن حباله النكاح تصير الزوجين واحدا متصلا، ثم فى تعليق عقده النكاح بالعزم الذى هو امر قلبى اشاره الى ان سنخ هذه العقده و العلقه أمر قائم بالنيه و الاعتقاد فإنها من الاعتبارات العقلانيه التى لا موطن لها إلا- ظرف الاعتقاد و الإدراك، نظير الملك و سائر الحقوق الاجتماعيه العقلانيه كما مر بيانه فى ذيل قوله تعالى: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً (البقره ٢١٣)، فى الآيه استعاره و كنايه، و المراد بالكتاب هو المكتوب أى المفروض من الحكم و هو التربص الذى فرضه الله على المعتدات.

فمعنى الآيه: و لا تجروا عقد النكاح حتى تنقضى عدتهن، و هذه الآيه تكشف أن الكلام فيها و فى الآيه السابقه عليها أعنى قوله تعالى: لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ

الآية إنما هو في خطبه المعتدات و في عقدهن، و على هذا فاللام في قوله: **النِّسَاءِ** للعهد دون الجنس و غيره.

قوله تعالى: **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ** الخ؛ إيراد ما ذكر من صفاته تعالى في الآية، اعنى العلم و المغفرة و الحكم يدل على أن الامور المذكوره في الآيتين و هى خطبه المعتدات و التعريض لهن و مواعدتهن سرا من موارد الهلكات لا يرتضيها الله سبحانه كل الارتضاء و إن كان قد أجاز ما أجازها منها.

قوله تعالى: **لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ** **إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ** **لَمْ تَمْسُوهُنَّ** **أَوْ تَفْرِضُوا لِهِنَّ فَرِيضَةً**، المس كناية عن المواقعه، و المراد بفرض الفريضة تسميه المهر، و المعنى: ان عدم مس الزوجه لا يمنع عن صحه الطلاق و كذا عدم ذكر المهر.

قوله تعالى: **وَ مَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ** **وَ عَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرَهُ** **مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ**، التمتع إعطاء ما يتمتع به، و المتاع و المتعه ما يتمتع به، و متاعا مفعول مطلق لقوله تعالى: **وَ مَتَّعُوهُنَّ**، اعترض بينهما قوله تعالى: **عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ** **وَ عَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرَهُ**، و الموسع اسم فاعل من أوسع اذا كان على سعه من المال و كأنه من الافعال المتعديه التى كثر استعمالها مع حذف المفعول اختصارا حتى صار يفيد ثبوت أصل المعنى فصار لازما و المقتر اسم فاعل من أقر اذا كان على ضيق من المعاش، و القدر بفتح الدال و سكونها بمعنى واحد.

و معنى الآية: يجب عليكم ان تمتعوا المطلقات عن غير فرض فريضة متاعا بالمعروف و إنما يجب على الموسع قدره أى ما يناسب حاله و يتقدر به وضعه من التمتع، و على المقتر قدره من التمتع، و هذا يختص بالمطلقه غير المفروضه لها التى لم يسم مهرها، و الدليل على أن هذا التمتع المذكور مختص بها و لا يعم المطلقة المفروضه لها التى لم يدخل بها ما فى الآية التاليه من بيان حكمها.

قوله تعالى: حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ، أى حق الحكم حقا على المحسنين، و ظاهر الجملة و ان كان كون الوصف اعنى الاحسان دخيلا فى الحكم، و حيث ليس الاحسان واجبا استلزم كون الحكم استحبابيا غير وجوبى، إلا- ان النصوص من طرق اهل البيت تفسر الحكم بالوجوب، و لعل الوجه فيه ما مر من قوله تعالى: الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ الآيه فأوجب الاحسان على المسرحين و هم المطلقون فهم المحسنون، و قد حق الحكم فى هذه الآيه على المحسنين و هم المطلقون، و الله اعلم.

قوله تعالى: وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ الْخ؛ أى و ان وقعتم الطلاق قبل الدخول بهن و قد فرضتم لهن فريضه و سميتم المهر فيجب عليكم تأديه نصف ما فرضتم من المهر الى أن يعفون هؤلاء المطلقات او يعفو الذى بيده عقده النكاح من وليهن فيسقط النصف المذكور ايضا، أو الزوج فان عقده النكاح بيده أيضا، فلا- يجب على الزوجه المطلقة رد نصف المهر الذى أخذت، و العفو على أى حال أقرب للتقوى لان من أعرض عن حقه الثابت شرعا فهو على الاعراض عما ليس له بحق من محارم الله سبحانه اقوى و اقدر.

قوله تعالى: وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ الْخ؛ الفضل هو الزيادة كالفضول غير ان الفضل هو الزيادة فى المكارم و المحامد و الفضول هو الزيادة غير المحموده على ما قيل، و فى الكلام ذكر الفضل الذى ينبغى ان يؤثره الانسان فى مجتمع الحياه فيتفاضل به البعض على بعض، و المراد به الترغيب فى الإحسان و الفضل بالعفو عن الحقوق و التسهيل و التخفيف من الزوج للزوجه و بالعكس، و النكته فى قوله تعالى: إن الله على كل شىء بصير، كالنكته فيما مر فى ذيل قوله تعالى: وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ، الآيه.

قوله تعالى: حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ الى آخر الآيه؛ حفظ الشىء ضبطه و هو فى المعانى أعنى حفظ النفس لما تستحضره أو تدركه من المعانى أغلب،

و الوسطى مؤنث الأوسط، و الصلاة الوسطى هى الواقعه فى وسطها، و لا يظهر من كلامه تعالى ما هو المراد من الصلاة الوسطى، و إنما تفسيره السنه، و سيجىء ما ورد من الروايات فى تعيينه.

و اللام فى قوله تعالى: قَوْمُوا لِلَّهِ، للغايه، و القيام بأمر كناية عن تقلده و التلبس بفعله، و القنوت هو الخضوع بالطاعه، قال تعالى: كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ (البقره ١١٦)، و قال تعالى:

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَفْعَلْهُ لِيُحْيِىْكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ (البقره ١١٦)، فمحصل المعنى: تلبسوا بطاعه الله سبحانه بالخضوع مخلصين له و لأجله.

قوله تعالى: فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ عطف الشرط على الجملة السابقه يدل على تقدير شرط محذوف أى حافظوا إن لم تخافوا، و إن خفتم فقدروا المحافظه بقدر ما يمكن من الصلاه راجلين و قوفاً أو مشياً أو راكبين، و الرجال جمع راجل و الركبان جمع راكب، و هذه صلاه الخوف.

و الفاء فى قوله تعالى: فَإِذَا أَمِنْتُمْ، للتفريع أى ان المحافظه على الصلاه أمر غير ساقط من اصله بل إن لم تخافوا شيئاً و أمكنت لكم وجبت عليكم و إن تعسر عليكم فقدروها بقدر ما يمكن لكم، و إن زال عنكم الخوف بتجدد الأيمن ثانيا عاد الوجوب و وجب عليكم ذكر الله سبحانه.

و الكاف فى قوله تعالى: كَمَا عَلَّمَكُمُ، للتشبيه، و قوله: مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ من قبيل وضع العام موضع الخاص دلالة على الامتنان بسعه النعمه و التعليم، و المعنى على هذا: فاذكروا الله ذكراً يماثل ما علمكم من الصلاه المفروضه المكتوبه فى حال الأيمن فى ضمن ما علمكم من شرائع الدين.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَ صِيَّهُ لِأَزْوَاجِهِمْ .

وصيه مفعول مطلق لمقدر، و التقدير ليوصوا وصيه ينتفع به أزواجهم و يتمتعن متاعا الى

الحول بعد التوفى.

و تعريف الحول باللام لا يخلو عن دلالة على كون الآية نازله قبل تشريع عده الوفاه، أعنى الاربعه أشهره و عشره أيام فإن عرب الجاهليه كانت نسائهم يقعدن بعد موت أزواجهن حولا كاملا، فالآيه توصى بأن يوصى الأزواج لهن بمال يتمتعن به الى تمام الحول من غير إخراجهن من بيوتهن، غير ان هذا لما كان حقا لهن و الحق يجوز تركه كان لهن ان يطالبن به، و ان يتركنه فإن خرجن فلا جناح للورثه و من يجرى مجراهم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف، و هذا نظير ما أوصى الله به من حضره الموت ان يوصى للوالدين و الأقربين بالمعروف، قال تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (البقره ١٨٠). و مما ذكرنا يظهر ان الآية منسوخه بآيه عده الوفاه و آيه الميراث بالربع و الثمن.

قوله تعالى: وَ لِلْمُطَلَّاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ، الآية فى حق مطلق المطلقات، و تعليق ثبوت الحكم بوصف التقوى مشعر بالاستحباب.

قوله تعالى: كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، الأصل فى معنى العقل العقد و الامساک و به سمي إدراك الانسان إدراكا يعقد عليه عقلا، و ما أدركه عقلا، و القوه التى يزعم انها إحدى القوى التى يتصرف بها الإنسان يميز بها بين الخير و الشر و الحق و الباطل عقلا، و يقابله الجنون و السفه و الحمق و الجهل باعتبارات مختلفه.

و الألفاظ المستعمله فى القرآن الكريم فى أنواع الإدراك كثيره ربما بلغت العشرين، كالظن، و الحسبان، و الشعور، و الذكر، و العرفان، و الفهم، و الفقه، و الدرايه، و اليقين، و الفكر، و الرأى، و الزعم، و الحفظ، و الحكمه، و الخبره، و الشهاده، و العقل، و يلحق بها مثل القول،

ص: ٣٠٧

اشاره

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣)

بيان:

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ، الرؤيه هاهنا بمعنى العلم، عبر بذلك لدعوى ظهوره بحيث يعد فيه العلم رؤيه فهو كقوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ (إبراهيم ١٩)، وقوله تعالى: أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (نوح ١٥).

وقد ذكر الزمخشري ان لفظ ألم تر جرى مجرى المشل، يؤتى به فى مقام التعجيب فقولنا: ألم تر كذا وكذا معناه ألا تعجب لكذا وكذا، وحذر الموت مفعول له، ويمكن ان يكون مفعولا مطلقا و التقدير يحذرون الموت حذرا.

ص: ٣٠٨

- ١- ١). البقره ٢٢٨-٢٤٣: بحث فى معانى الالفاظ المستعمله فى القرآن الكريم فى انواع الادراك كالظن و الحسبان و الشعور و الذكر و العرفان و الفهم و الفقه و الدرايه و اليقين و الفكر و الرأى و الزعم و الحفظ و الحكمه و الخبره و الشهاده و العقل.
- ٢- ٢). البقره ٢٢٨-٢٤٣: بحث روائى فى الطلاق؛ الرضاعه؛ الصلاه الوسطى.
- ٣- ٣). البقره ٢٢٨-٢٤٣: بحث علمى فى: حياه المرأه فى الاعم غير المتمدنه؛ حياه المرأه فى الامم المتمدنه قبل الاسلام، حال المرأه عند العرب و محيط حياتهم (محيط نزول القرآن)؛ ما ذا ابدعه الاسلام فى امرها؛ حريه المرأه فى المدينه الغربيه.
- ٤- ٤). البقره ٢٢٨-٢٤٣: بحث علمى فى النكاح.

قوله تعالى: فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ، الامر تكويني و لا- ينافى كون موتهم واقعا عن مجرى طبيعي كما ورد في الروايات: ان ذلك كان بالطاعون، و إنما عبر بالامر، دون ان يقال: فاماتهم الله ثم أحياهم ليكون أدله على نفوذ قدره و غلبه الامر، فإن التعبير بالانشاء في التكوينية أقوى و أكد من التعبير الاخبار كما ان التعبير بصوره الاخبار الدال على الوقوع في التشريعات أقوى و أكد من الانشاء، و لا- يخلو قوله تعالى: ثُمَّ أَحْيَاهُمْ عن الدلالة على ان الله أحياهم ليعيشوا فعاشوا بعد حياتهم، اذ لو كان إحيائهم لعبره يعتبر بها غيرهم أو لاتمام حجه أو لبيان حقيقه لذكر ذلك على ما هو دأب القرآن في بلاغته كما في قصه أصحاب الكهف، على ان قوله تعالى بعد: إن الله لذو فضل على الناس، يشعر بذلك ايضا.

قوله تعالى: وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ، الاظهار في موضع الاضمار أعنى تكرار لفظ الناس ثانيا لما فيه من الدلالة على انخفاض سطح أفكارهم، على ان هؤلاء الذين تفضل الله عليهم بالاحياء طائفه خاصه، و ليس المراد كون الاكثر منهم بعينهم غير شاكرين بل الا- كثر من جميع الناس، و هذه الآيه لا تخلو عن مناسبه ما مع ما بعدها من الآيات المتعرضه لفرض القتال، لما في الجهاد من إحياء المله بعد موتها.

[سوره البقره (٢): الآيات ٢٤٤ الى ٢٥٢]

اشاره

وَ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَنْ ذَا الَّذِي يُفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَ اللَّهُ يَقْبِضُ وَ يَنْصُطُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ إِنَّا تَوَقَّعْنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلَ هَيْلٍ عَسِيٍّ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَ مَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ قَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَ أَبْنَانُنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَ قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَ لَمْ يُؤْتْ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَ زَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ وَ اللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَ قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ بَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَ آلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَ جُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةً عَلَبْتَ فَتَنَّهُ كَثِيرَةً يَا ذنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَ لَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَ جُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَ ثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَ انصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ يَا ذنِ اللَّهِ وَ قَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَ لَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَ لَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٥٢)

قوله تعالى: [□] وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْآيَةَ؛ فرض و إيجاب للجهاد، و قد قيده تعالى هاهنا و سائر المواضع من كلامه بكونه في سبيل الله لئلا يسبق الى الوهم و لا يستقر في الخيال ان هذه الوظيفة الدينية المهمة لإيجاد السلطه الدنيويه الجافه، و توسعه المملكه الصوريه، كما تخيله الباحثون اليوم في التقدم الاسلامي من الاجتماعيين و غيرهم، بل هو لتوسعه سلطه الدين التي فيها صلاح الناس في دنياهم و آخرتهم.

و في قوله تعالى: [□] وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، تحذير للمؤمنين في سيرهم هذا السير ان لا يخالفوا بالقول اذا أمر الله و رسوله بشيء، و لا- يضمروا نفاقا كما كان ذلك من بني إسرائيل حيث تكلموا في امر طالوت فقالوا: أنى يكون له الملك علينا، الخ؛ و حيث قالوا: لا طاقه لنا اليوم بجالوت و جنوده، و حيث فشلوا و تولوا لما كتب عليهم القتال و حيث شربوا من النهر بعد ما نهاهم طالوت عن شربه.

قوله تعالى: [□] مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً، القرض معروف و قد عد الله سبحانه ما ينفقونه في سبيله قرضا لنفسه لما مر انه للترغيب، و لانه إنفاق في سبيله، و لانه مما سيرد اليهم اضعافا مضاعفه.

و قد غير سياق الخطاب من الامر الى الاستفهام فقبل بعد قوله: [□] وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ: [□] مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا، و لم يقل: قاتلوا في سبيل الله و اقرضوا، لينشط بذلك ذهن المخاطب بالخروج من حيز الأمر غير الخالي من كلفه التكليف الى حيز الدعوه و الندب فيستريح بذلك و يتهيج.

قوله تعالى: وَاللَّهُ يَبْضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، القبض الأخذ بالشئ اليك و يقابله البسط، والبسط هو البسط قلب سينه صاداً لمجاورته حرف الاطباق و التفخيم و هو الطاء.

و ايراد صفاته الثلاث أعنى: كونه قابضاً و باسطاً و مرجعاً يرجعون اليه للإشعار بأن ما أنفقوه بإقراضه تعالى لا يعود باطلاً و لا يستبعد تضعيفه اضعافاً كثيرة فإن الله هو القابض الباسط، ينقص ما شاء، و يزيد ما شاء، و اليه يرجعون فيوفيهما ما أقرضوه أحسن التوفيه.

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى قَوْلِهِ: فِي سَبِيلِ اللَّهِ، الملاء كما قيل: الجماعة من الناس على رأى واحد، سميت بالملاء لكونها تملأ العيون عظمه و أبهه.

و قولهم لنبيهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله، على ما يعطيه السياق يدل على ان الملك المسمى بجالوت كان قد تملكهم، و سار فيهم بما افتقدوا به جميع شئون حياتهم المستقلة من الديار و الأولاد بعد ما كان الله أنجاهم من آل فرعون، يسومونهم سوء العذاب ببعثه موسى و ولايته و ولايه من بعده من أوصيائه، و بلغ من اشتداد الامر عليهم ما انتبه به الخامد من قواهم الباطنه، و عاد الى انفسهم العصبية الزائلة المضعفه فعند ذلك سأل الملاء منهم نبيهم ان يبعث لهم ملكاً ليرتفع به اختلاف الكلمه من بينهم و تتجمع به قواهم المتفرقه الساقطه عن التأثير، و يقاتلوا تحت امره في سبيل الله.

قوله تعالى: هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا، كان بنو إسرائيل سألوا نبيهم ان يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله و ليس ذلك للنبي بل الأمر في ذلك الى الله سبحانه، و لذلك ارجع نبيهم الامر في القتال و بعث الملك الى الله تعالى، و لم يصرح باسمه تعظيماً لأن الذى أجابهم به هو السؤال عن مخالفتهم و كانت مرجوه منهم ظاهره من حالهم بوحيه تعالى فتزه اسمه تعالى من التصريح به بل إنما أشار الى ان الامر منه و اليه تعالى بقوله: إِنْ كُتِبَ، و الكتابه و هى الفرض انما تكون من الله تعالى.

وقد كانت المخالفه والتوالى عن القتال مرجوا منهم لكنه أوردته بطريق الاستفهام ل يتم الحجه عليهم بإنكارهم فيما سيجيبون به من قولهم: وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

قوله تعالى: قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا، الإخراج من البلاد لما كان ملازما للتفرقه بينهم و بين أوطانهم المألوفه، ومنعهم عن التصرف فيها و التمتع بها، كنى به عن مطلق التصرف و التمتع، و لذلك نسب الإخراج الى الأبناء أيضا كما نسب الى البلاد.

قوله تعالى: فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ، تفريع على قوله نبيهم: هل عسيتم، الخ؛ و قولهم: و ما لنا ان لا- نقاتل، و فى قوله تعالى: و الله عليم بالظالمين، دلالة على ان قول نبيهم لهم: هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ان لا تقاتلوه، انما كان لوحى من الله سبحانه: انهم سيتولون عن القتال.

قوله تعالى: وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مِنْ الْمَالِ، فى جوابه عليه السلام هذا حيث نسب بعث الملك الى الله تنبيه بما فات منهم اذ قالوا لنبيهم ابعث لنا ملكا نقاتل و لم يقولوا: اسأل الله ان يبعث لنا ملكا و يكتب لنا القتال.

و بالجمله التصريح باسم طالوت هو الذى أوجب منهم الاعتراض على ملكه و ذلك لوجود صفتين فيه كانتا تنافيان عندهم الملك، و هما ما حكاهما الله تعالى من قولهم أنى يكون له الملك علينا و نحن احق بالملك منه، و من المعلوم ان قولهم هذا لنبيهم، و لم يستدلوا على كونهم احق بالملك منه بشىء يدل على ان دليله كان أمرا بينا لا يحتاج الى الذكر، و ليس إلا ان بيت النبوه و بيت الملك فى بنى إسرائيل و هما بيتان مفتخران بموهبه النبوه و الملك كانتا غير البيت الذى كان منه طالوت، و بعبارة أخرى لم يكن طالوت من بيت الملك و لا من بيت النبوه و لذلك اعترضوا على ملكه بأننا، و هم أهل بيت الملك أو الملك و النبوه معا، أحق بالملك منه لأن الله جعل الملك فينا فكيف يقبل الانتقال الى غيرنا، و هذا الكلام منهم من فروع قولهم بنفى

البداء و عدم جواز النسخ و التغيير حيث قالوا: يد الله مغلوله غلت أيديهم، و قد أجاب عنه نبيهم بقوله: إِنَّ اللَّهَ أَضْيَفُكُمْ فَهَذِهِ إِحْدَى الصِّفَتَيْنِ الْمَنَافِيَتَيْنِ لِلْمَلِكِ عِنْدَهُمْ، وَ الصَّفْهَ الثَّانِيَهُ مَا فِي قَوْلِهِمْ: وَ لَمْ يَأْتِ سَعَهُ مِنَ الْمَالِ وَ قَدْ كَانَ طَالُوتَ فَقِيرًا، وَ قَدْ أَجَابَ عَنْهُ نَبِيُّهُمْ بِقَوْلِهِ: وَ زَادَهُ بَسْطَهُ فِي الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ، الْخ.

قوله تعالى: قَالَ إِنَّ اللَّهَ أَضْيَفُكُمْ وَ زَادَهُ بَسْطَهُ فِي الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ، الاصطفاء و الاستصفاة الاختيار و أصله الصفو، و البسطه هي السعه و القدره، و هذان جوابان عن اعتراضهم.

قوله تعالى: وَ قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ، التابوت هو الصندوق، و هو على ما قيل فعلوت من التوب بمعنى الرجوع لأن الانسان يرجع الى الصندوق رجوعا بعد رجوع (١).

قوله تعالى: وَ بَقِيَّتُهُ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَ آلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ الْخ؛ آل الرجل خاصته من اهله و يدخل فيهم نفسه اذا اطلق، فآل موسى و آل هارون هم موسى و هارون و خاصتهما من اهلها، و قوله: تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ، حال عن التابوت، و في قوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ، كسياق صدر الآيه دلالة على أنهم سألوا نبيهم آيه على صدر ما أخبر به: ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا.

قوله تعالى: فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ - الى قوله - مِنْهُمْ، الفصل هاهنا مفارقة المكان كما في قوله تعالى: وَ لَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ (يوسف ٩٤)، و ربما استعمل بمعنى القطع و هو إيجاد المفارقة بين الشيئين كما قال تعالى:

وَ هُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (الأنعام ٥٧)، فالكلمه مما يتعدى و لا يتعدى.

ص: ٣١٤

و الجند المجتمع الغليظ من كل شيء و سمي العسكر جندا لتراكم الاشخاص فيه و غلظتهم، و فى جمع الجند فى الكلام دلالة على أنهم كانوا من الكثرة على حد يعتنى به و خاصه مع ما فيه المؤمنين من القله بعد جواز النهر و تفرق الناس، و نظير هذه النكته موجود فى قوله تعالى: فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ .

و فى مجموع الكلام إشاره الى حق الامر فى شأن بنى إسرائيل و إيفائهم بميثاق الله، فإنهم سألوا بعث الملك جميعا و شدوا الميثاق، و قد كانوا من الكثرة بحيث لما تولوا إلا قليلا منهم عن القتال كان ذلك القليل الباقي جنودا، و هذه الجنود أيضا لم تغن عنهم شيئا بل تخلفوا بشرب النهر و لم يبق إلا القليل من شائبه فشل و نفاق بينهم من جهه المغترفين، و مع ذلك كان النصر للذين آمنوا و صبروا مع ما كان عليه جنود طالوت من الكثره.

و الابتلاء الامتحان، و النهر مجرى الماء الفائض، و الاغتراف و الغرف رفع الشيء و تناوله، يقال: غرّف الماء غرّفه و اغترفه غرّفه اذا رفعه ليتناوله و يشربه.

و فى استثناء قوله تعالى: إِلَّا مَنْ اَعْتَرَفَ غُرْفَهُ بِيَدِهِ عَنِ مَطْلُقِ الشَّرْبِ دلالة على أنه كان المنهى عنه هو الشرب على حاله خاصه، و قد كان الظاهر أن يقال: فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي إِلَّا مَنْ اَعْتَرَفَ غُرْفَهُ بِيَدِهِ غَيْرَ أَنْ وَضَعَ قَوْلَهُ تَعَالَى: وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ، فى الكلام مع تبديل الشرب بالطعم و معناه الذوق أو جب تحولا فى الكلام من جهه المعنى اذ لو لم تضاف الجملة الثانيه كان مفاد الكلام أن جميع الجنود كانوا من طالوت، و الشرب يوجب انقطاع جمع منه و الاغتراف يوجب الانقطاع من المنقطع أى الاتصال و أما لو اضيفت الجملة الثانيه، أعنى قوله تعالى: وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي الى الجملة الاولى كان مفاد الكلام أن الامر غير مستقر بحسب الحقيقه بعد إلا بحسب الظاهر فالجنود فى الظاهر مع طالوت لكن لم يتحقق بعد أن الذين هم مع طالوت من هم، ثم النهر الذى سيبتليهم الله به سيحقق كلا الفريقين و يشخصهما فيعين به من ليس منه و هو من شرب من النهر، و يتعين به من هو منه و هو من لم يطعمه، و اذا

كان هذا هو المفاد من الكلام لم يفد قوله فى الاستثناء الا من اعترف غرفه بيده كون المغترفين من طالوت لان ذلك انما كان مفادا لو كان المذكور هناك الجملة الاولى فقط، واما مع وجود الجملتين فيتعين الطائفتان: اعنى الذين ليسوا منه و هم الشاربون، و الذين هم منه و هم غير الطاعمين، و من المعلوم ان الاخراج من الطائفة الاولى انما يوجب الخروج منها لا الدخول فى الثانية، و لازم ذلك ان الكلام يوجب وجود ثلاث طوائف: الذين ليسوا منه، و الذين هم منه، و المغترفون، و على هذا فالباقون معه بعد الجواز طائفتان: الذين هم منه، و الذين ليسوا من الخارجين، فجاز أن يختلف حالهم فى الصبر و الجزع و الاعتماد بالله و القلق و الاضطراب.

قوله تعالى: **فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ** الى آخر الآية؛ الفئه القطعه من الناس، و التدبر فى الآيات يعطى ان يكون القائلون: لا طاقه لنا، هم المغترفون، و المجيئون لهم هم الذين لم يطعموه اصلا، و الظن بقاء الله إما بمعنى اليقين به و اما كناية عن الخشوع.

و لم يقولوا: يمكن ان تغلب الفئه القليله الفئه الكثيره بإذن الله، بل قالوا: كم فئه، الخ؛ أخذنا بالواقع فى الاحتجاج بإراءه المصدق ليكون أقنع للخصم.

قوله تعالى: **وَلَمَّا بَرَزُوا لِجِبَالِ الْوَتِّ وَ جُنُودِهِ** الخ؛ البروز هو الظهور، و منه البراز و هو الظهور للحرب، و الافراغ صب نحو الماده السیاله فى القالب و المراد افاضه الله سبحانه الصبر عليهم على قدر ظرفيتهم فهو استعاره بالكناية لطيفه، و كذا تثبیت الاقدام كناية عن الثبات و عدم الفرار.

قوله تعالى: **فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ** الخ؛ الهزم الدفع.

قوله تعالى: **وَلَوْ لَا دَفَعَهُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ** الى آخر الآية؛ من المعلوم أن المراد بفساد الارض فساد من على الارض اى فساد الاجتماع الإنسانى و لو استتبع فساد الاجتماع فسادا فى أديم الأرض فإنما هو داخل فى الغرض بالتبع لا بالذات، و هذه حقيقه من

الحقائق العلميه ينبه لها القرآن (١).

قوله تعالى: تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ الْخَالِصَاتِ؛ كَالْخَاتَمِ يَخْتَمُ بِهَا الْكَلَامَ وَالْقِصَّةَ غَيْرَ أَنْ آخِرَ آيَاتِهِ: وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، لا يخلو عن ارتباط بالآيه التاليه (٢)(٣)(٤).

[سوره البقره (٢): الآيات ٢٥٣ الى ٢٥٤]

إشاره

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ الْخَالِصَاتِ؛ كَالْخَاتَمِ يَخْتَمُ بِهَا الْكَلَامَ وَالْقِصَّةَ غَيْرَ أَنْ آخِرَ آيَاتِهِ: وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، لا يخلو عن ارتباط بالآيه التاليه (٢)(٣)(٤).

بيان:

قوله تعالى: تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ الْخَالِصَاتِ؛ كَالْخَاتَمِ يَخْتَمُ بِهَا الْكَلَامَ وَالْقِصَّةَ غَيْرَ أَنْ آخِرَ آيَاتِهِ: وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، لا يخلو عن ارتباط بالآيه التاليه (٢)(٣)(٤).

ص: ٣١٧

- ١-١. البقره ٢٤٤-٢٥٢: بحث في: الدفع و الغلبه معنى الآيه؛ «لَوْ لَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ».
- ٢-٢. البقره ٢٤٤-٢٥٢: بحث روائى فى بنى اسرائيل بعد موت موسى و جالوت و طالوت.
- ٣-٣. البقره ٢٤٤-٢٥٢: بحث علمى و اجتماعى فى تنازع البقاء و الانتخاب الطبيعى و بقاء الامثل.
- ٤-٤. البقره ٢٤٤-٢٥٢: بحث فى التاريخ و ما يعنى به القرآن منه.

دلالة على التفضيل الإلهي الواقع بين الأنبياء عليهم السّلام ففيهم من هو أفضل و فيهم من هو مفضل عليه، و للجميع فضل فإن الرسالة في نفسها فضيلة و هي مشتركة بين الجميع، ففيما بين الرسل أيضا اختلاف في المقامات و تفاوت في الدرجات كما أن بين الذين بعدهم اختلافا على ما يدل عليه ذيل الآية إلا ان بين الاختلافيين فرقا، فإن الاختلاف بين الأنبياء اختلاف في المقامات و تفاضل في الدرجات مع اتحادهم في أصل الفضل و هو الرسالة، و اجتماعهم في مجمع الكمال و هو التوحيد، و هذا بخلاف الاختلاف الموجود بين امم الأنبياء بعدهم فإنه اختلاف بالايمان و الكفر، و النفي و الاثبات، و من المعلوم أن لا جامع في هذا النحو من الاختلاف، و لذلك فرق تعالى بينهما من حيث التعبير فسمى ما للانبيا تفضيلا و نسبة الى نفسه، و سمي ما عند الناس بالاختلاف و نسبة الى أنفسهم، فقال في مورد الرسل فضلنا، و في مورد أممهم اختلفوا.

و لما كان ذيل الآية متعرضا لمسألة القتال مرتبطا بها و الآيات المتقدمة على الآية أيضا راجعه الى القتال بالامر به و الاقتصاص فيه لم يكن مناص من كون هذه القطعة من الكلام أعنى قوله تعالى: **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا** الى قوله **بِرُوحِ الْقُدُسِ** مقدمه لتبيين ما في ذيل الآية من قوله: **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ**.

و على هذا فصدر الآية لبيان أن مقام الرسالة على اشتراكه بين الرسل عليهم السّلام مقام تنمو فيه الخيرات و البركات، و تنبع فيه الكمال و السعادة و درجات القربى و الزلفى كالتكليم الالهى و إيتاء البيئات و التأيد بروح القدس، و هذا المقام على ما فيه من الخير و الكمال لم يوجب ارتفاع القتال لاستناده الى اختلاف الناس أنفسهم.

قوله تعالى: **مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ**، في الجملتين التفات من الحضور الى الغيبة، و الوجه فيه و الله اعلم - ان الصفات الفاضله على قسمين: منها ما هو بحسب نفس مدلول الاسم يدل على الفضيله كآيات البيئات، و كالتأيد بروح القدس كما ذكر لعيسى عليه السلام فإن هذه الخصال بنفسها غالية سامية، و منها: ما ليس كذلك، و إنما يدل على

الفضيله و يستلزم المنقبه بواسطه الاضافه كالتكليم، فإنه لا يعد فى نفسه منقبه و فضيله إلا أن يضاف الى شىء فيكتسب منه البهاء و الفضل كإضافته الى الله عز اسمه، وكذا رفع الدرجات لا فضيله فيه بنفسه إلا ان يقال: رفع الله الدرجات مثلا فينسب الرفع الى الله، اذا عرفت هذا علمت: أن هذا هو الوجه فى الالتفات مثلا- فنسب الرفع الى الله، اذا عرفت هذا علمت: أن هذا هو الوجه فى الالتفات من الحضور الى الغيبه فى اثنتين من الجمل الثلاث حيث قال تعالى:

مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ، فحول وجه الكلام من التكلم الى الغيبه فى الجملتين الاوليين حتى اذا استوفى الغرض عاد الى وجه الكلام الاول و هو التكلم فقال تعالى: و آتينا عيسى بن مريم (١).

قوله تعالى: وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَ أَيْدِنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، رجوع الى أصل السياق و هو التكلم دون الغيبه كما مر.

و الوجه فى التصريح باسم عيسى مع عدم ذكر غيره من الرسل فى الآية: ان ما ذكره له عليه السلام من جهات التفضيل و هو إيتاء البيئات، و التأيد بروح القدس مشترك بين الرسل جميعا ليس مما يختص ببعضهم دون بعض، قال تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ (الحديد ٢٥)، و قال تعالى: يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا (النحل / ٢)، لكنهما فى عيسى بنحو خاص فجميع آياته كإحياء الموتى و خلق الطير بالنفخ و إبراء الأكمه و الأبرص؛ و الأخبار عن المغيبات كانت أمورا متكئه على الحياه مترشحه عن الروح، فلذلك نسبها الى عيسى عليه السلام و صرح باسمه اذ لو لا التصريح لم يدل على كونه فضيله خاصه كما لو قيل: و آتينا بعضهم البيئات و أيدناه بروح القدس، اذ البيئات و روح القدس كما عرفت مشتركه غير مختصه، فلا يستقيم نسبتها الى البعض بالاختصاص إلا مع التصريح باسمه ليعلم

ص: ٣١٩

انها فيه بنحو خاص غير مشترك تقريبا، على ان في اسم عيسى عليه السلام خاصه اخرى و آيه بينه و هي انه ابن مريم لا- أب له، قال تعالى: وَ جَعَلْنَاهَا وَ ابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (الأنبياء ٩١/)، فمجموع الابن و الام آيه بينه إلهيه و فضيله اختصاصيه اخرى.

قوله تعالى: وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ، العدول الى الغيبه ثانيا لان المقام مقام إظهار ان المشيه و الاراده الربانيه غير مغلوبه، و القدره غير باطله، فجميع الحوادث على طرفي إثباتها و نفيها غير خارجه عن السلطنه الالهيه، و بالجمله وصف الالهيه هي التي تنافى تقييد القدره و توجب إطلاق تعلقها بطرفي الايجاب و السلب فمست حاجه المقام الى اظهار هذه الصفه المتعاليه أعنى الالهيه للذكر فقيل: و لو شاء الله ما اقتتل، و لم يقل: و لو شئنا ما اقتتل، و هذا هو الوجه أيضا في قوله تعالى في ذيل الآيه: و لو شاء الله ما اقتتلوا، و قوله: وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، و هو الوجه أيضا في العدول عن الاضمار الى الاظهار.

قوله تعالى: وَ لَكِنَّ اِخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَ مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ، نسب الاختلاف اليهم لا- الى نفسه لانه تعالى ذكر في مواضع من كلامه: ان الاختلاف بالايمان و الكفر و سائر المعارف الاصليه الميينه في كتب الله النازله على انبيائه انما حدث بين الناس بالبغي، و حاشا ان ينتسب اليه سبحانه بغي أو ظلم.

قوله تعالى: وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، أى و لو شاء الله لم يؤثر الاختلاف في استدعاء القتال و لكن الله يفعل ما يريد و قد أراد ان يؤثر هذا الاختلاف في سوقه الناس الى الاقتتال جريا على سنه الاسباب.

و محصل معنى الآيه و الله العالم: ان الرسل التي ارسلوا الى الناس عباد لله مقربون عند ربهم، مرتفع عن الناس أفقهم و هم مفضل بعضهم على بعض على ما لهم من الاصل الواحد و المقام المشترك، فهذا حال الرسل و قد أتوا للناس بآيات بينات أظهروا بها الحق كل الاظهار

و بينوا طريق الهدايه اتم البيان، و كان لانزمه ان لا- ينساق الناس بعدهم الا الى الوحده و الالفه و المحبه فى دين الله من غير اختلاف و قتال لكن كان هناك سبب آخر أعقم هذا السبب، و هو الاختلاف عن بغى منهم و انشعابهم الى مؤمن و كافر، ثم التفرق بعد ذلك فى سائر شؤون الحياه و السعاده، و لو شاء الله لا عقم هذا السبب أعنى الاختلاف فلم يوجب الاقتتال و ما اقتتلوا، و لكن لم يشأ و أجرى هذا السبب كسائر الاسباب و العلل على سنه الاسباب التى أرادها الله فى عالم الصنع و اليجاد، و الله يفعل ما يريد.

و قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا الْخَيْرَ﴾ معناه واضح و فى ذيل الآيه دلالة على ان الاستنكاف عن الانفاق كفر و ظلم (١)(٢).

[سوره البقره (٢): آيه ٢٥٥]

اشاره

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)

بيان:

قوله تعالى: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، قد تقدم فى سوره الحمد بعض

ص: ٣٢١

١- ١). البقره ٢٥٣-٢٥٤ بحث روائى حول الآيه «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ»؛ كيفية تكليم الله لموسى عليه السلام.

٢- ٢) البقره ٢٥٣-٢٥٤ بحث فلسفى فى الكلام.

الكلام فى لفظ الجلاله، وانه سواء أخذ من آله الرجل بمعنى تاه و وله أو من آله بمعنى عبد فلازم معناه الذات المستجمع لجميع صفات الكمال على سبيل التلميح.

وقد تقدم بعض الكلام فى قوله تعالى: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فى قوله تعالى: وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ (البقره ١٦٣)، و ضمير هو و ان رجع الى اسم الجلاله لكن اسم الجلاله لما كان علما بالغلبه يدل على نفس الذات من حيث انه ذات و ان كان مشتملا على بعض المعانى الوصفيه التى يلمح باللام أو بالاطلاق إليها، فقوله: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، يدل على نفى حق الثبوت عن الآلهه التى تثبت من دون الله.

و اما اسم الحى فمعناه ذو الحياه الثابته على وزان سائر الصفات المشبهه فى دلالتها على الدوام و الثبات.

و الناس فى بادئ مطالعتهم لحال الموجودات وجدوها على قسمين: قسم منها لا يختلف حاله عند الحس ما دام وجوده ثابتا كالأحجار و سائر الجمادات، و قسم منها ربما تغيرت حاله و تعطلت قواه و أفعاله مع بقاء وجودها على ما كان عليه عند الحس، و ذلك كالانسان و سائر اقسام الحيوان و النبات فإننا ربما نجدها تعطلت قواها و مشاعرها و أفعالها ثم يطرأ عليها الفساد تدريجا، و بذلك أذعن الانسان بان هناك وراء الحواس امرا آخر هو المبدأ للاحاساسات و الادراكات العلميه و الأفعال المبتنيه على العلم و الاراده و هو المسمى بالحياه و يسمى بطلانه بالموت، فالحياه نحو وجود يترشح عنه العلم و القدره.

وقد ذكر الله سبحانه هذه الحياه فى كلامه ذكر تقرير لها، قال تعالى: اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (الحديد ١٧)، و قال تعالى: أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ (فصلت ٣٩)، و قال تعالى: وَ لَا يَشْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَ لَا الْأَمْوَاتُ (فاطر ٢٢)، و قال تعالى: وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا (الأنبياء ٣٠)، فهذه تشمل حياه أقسام الحى من الانسان و الحيوان و النبات.

و كذلك القول فى اقسام الحياه، قال تعالى: وَ رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنَّنُوا بِهَا (يونس ٧)، و قال تعالى: رَبَّنَا اٰمَنَّا اٰثْنَيْنِ وَ اٰحْيَيْنَا اٰثْنَيْنِ (المؤمن ١١)، و الاحياء ان المذكور ان يشتملان على حياتين: إحداهما: الحياه البرزخيه، و الثانيه: الحياه الآخره، فللحياه أقسام كما للحى أقسام.

و الله سبحانه مع ما يقرر هذه الحياه الدنيا بعدها فى مواضع كثيره من كلامه شيئا رديا هينا لا يعبأ بشأنه كقوله تعالى: وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (الرعد ٢٦)، و قوله تعالى: تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (النساء ٩٤)، و قوله تعالى: تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (الكهف ٢٨)، و قوله تعالى: وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ (الأنعام ٣٢)، و قوله تعالى: وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (الحديد ٢٠)، فوصف الحياه الدنيا بهذه الاوصاف فعدها متاعا و المتاع ما يقصد لغيره، و عدها عرضا و العرض ما يعترض ثم يزول، و عدها زينه و الزينه هو الجمال الذى يضم على الشىء ليقصد الشىء لاجله فيقع غير ما قصد و يقصد غير ما وقع، و عدها لهوا و اللهو ما يلهيك و يشغلك بنفسه عما يهملك، و عدها لعبا و اللب هو الفعل الذى يصدر لغايه خياليه لا حقيقيه، و عدها متاع الغرور و هو ما يغر به الانسان.

و يفسر جميع هذه الآيات و يوضحها قوله تعالى: وَ مَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (العنكبوت ٦٤)، يبين ان الحياه الدنيا إنما تسلب عنها حقيقه الحياه أى كمالها فى مقابل ما تثبت للحياه الآخره حقيقه الحياه و كمالها، و هى الحياه التى لا موت بعدها، قال تعالى: آمِنِينَ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى (الدخان ٥٦)، و قال تعالى: لَهُمْ مَا يَشَاؤُنَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ (ق ٣٥)، فلهم فى حياتهم الآخره أن لا يعتربهم الموت، و لا يعترضهم نقص فى العيش و تنغص، لكن الاول من الوصفين أعنى الامن هو الخاصه الحقيقه للحياه الضروريه له.

فالحياه الاخرويه هي الحياه بحسب الحقيقه لعدم إمكان طرو الموت عليها بخلاف الحياه الدنيا، لكن الله سبحانه مع ذلك أفاد في آيات آخر كثيره انه تعالى هو المفيض للحياه الحقيقه الاخرويه و المحيي للإنسان في الآخره، و بيده تعالى أزمه الامور، فأفاد ذلك ان الحياه الاخرويه أيضا مملوكه لا مالكه و مسخره لا مطلقه أعنى انها إنما ملكت خاصتها المذكوره بالله لا بنفسها.

و من هنا يظهر ان الحياه الحقيقه يجب ان تكون بحيث يستحيل طرو الموت عليها لذاتها و لا يتصور ذلك إلا بكون الحياه عين ذات الحي غير عارضه لها و لا طارئه عليها بتملك الغير و إفاضته، قال تعالى: **وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ** (الفرقان ٥٨)، و على هذا فالحياه الحقيقه هي الحياه الواجبه، و هي كون وجوده بحيث يعلم و يقدر بالذات.

و من هنا يعلم: ان القصر في قوله تعالى: **هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** قصر حقيقى غير إضافى، و ان حقيقه الحياه التى لا يشوبها موت و لا يعترها فناء و زوال هي حياته تعالى.

فالأوفق فيما نحن فيه من قوله تعالى: **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**؛ الآية؛ و كذا في قوله تعالى: **الْمَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** (آل عمران ١) ان يكون لفظ الحي خبرا بعد خبر فيفيد الحصر لان التقدير، الله الحي فالآيه تفيد ان الحياه لله محضا إلا ما أفاضه لغيره.

و اما اسم القيوم فهو على ما قيل: فيعول كالقيام فيعال من القيام وصف يدل على المبالغه و القيام هو حفظ الشىء و فعله و تدبيره و تربيته و مراقبه عليه و القدره عليه، كل ذلك مأخوذ من القيام بمعنى الانتصاب للملازمه العاديه بين الانتصاب و بين كل منها.

و قد اثبت الله تعالى اصل القيام بامور خلقه لنفسه في كلامه حيث قال تعالى: **أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ** (الرعد ٣٣)، و قال تعالى و هو أشمل من الآيه السابقه شهد الله أنه لا إله إلا هو و الملائكهُ و أولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزیز الحكيم (آل عمران ١٨)، فأفاد انه قائم على الموجودات بالعدل فلا يعطى و لا يمنع شيئا فى الوجود

(و ليس الوجود إلا- الاعطاء و المنع)الا- بالعدل بإعطاء كل شيء ما يستحقه ثم بين ان هذا القيام بالعدل مقتضى اسميه الكريمين:العزير الحكيم فبعزته يقوم على كل شيء و بحكمته يعدل فيه.

و بالجمله لما كان تعالى هو المبدأ الذى يتدى منه وجود كل شيء و أوصافه و آثاره لا مبدأ سواه الا و هو ينتهى اليه،فهو القائم على كل شيء من كل جهه بحقيقه القيام الذى لا يشوبه فتور و خلل،و ليس ذلك لغيره قط الا بإذنه بوجه،فليس له تعالى الا القيام من غير ضعف و فتور،و ليس لغيره الا ان يقوم به،فهناك حصران:حصر القيام عليه،و حصره على القيام،و أول الحصرين هو الذى يدل عليه كون القيوم فى الآيه خبرا بعد خبر لله(الله القيوم)، و الحصر الثانى هو الذى تدل عليه الجمله التاليه أعنى قوله: □ لا تأخذه سنه □ و لا نوم .

و قد ظهر من هذا البيان ان اسم القيوم ام الاءماء الاضافيه الثابته له تعالى جميعا و هى الاءماء التى تدل على معان خارجه عن الذات بوجه كالخالق و الرازق و المبدئ و المعيد و المحيى و المميت و الغفور و الرحيم و الودود و غيرها.

قوله تعالى: □ لا تأخذه سنه □ و لا نوم □،السنه بكسر السين الفتور الذى يأخذ الحيوان فى اول النوم،و النوم هو الركود الذى يأخذ حواس الحيوان لعوامل طبيعيه تحدث فى بدنه،و الرؤيا غيره و هى ما يشاهده النائم فى منامه.

و قد أورد على قوله: □ سنه □ و لا نوم □ انه على خلاف الترتيب الذى تقتضيه البلاغه فإن المقام مقام الترقى،و الترقى فى الاثبات انما هو من الاءضعف الى الاقوى كقولنا:فلان يقدر على حمل عشره أمانان بل عشرين،و فلان وجود بالمائات بل بالالوف و فى النفى بالعكس كما نقول:لا يقدر فلان على حمل عشرين و لا عشره،و لا وجود بالالوف و لا بالمائات،فكان ينبغى ان يقال:لا تأخذه نوم و لا سنه.

و الجواب:ان الترتيب المذكور لا يدور مدار الاثبات و النفى دائما كما يقال:فلان يجهد

حمل عشرين بل عشره ولا يصح العكس، بل المراد هو صحه الترقى و هي مختلفه بحسب الموارد، و لما كان أخذ النوم أقوى تأثيرا و أضر على القيوميه من السنه كان مقتضى ذلك ان ينفى تأثير السنه و أخذها أولا ثم يترقى الى نفى تأثير ما هو أقوى منه تأثيرا، و يعود معنى لا تأخذه سنه و لا نوم الى مثل قولنا: لا يؤثر فيه هذا العامل الضعيف بالفتور فى امره و لا ما هو أقوى منه.

قوله تعالى: لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ لما كانت القيوميه التامه التى له تعالى لا تتم إلا بأن يملك السماوات و الارض و ما فيهما بحقيقه الملك ذكره بعدهما، كما ان التوحيد التام فى الالوهيه لا يتم إلا بالقيوميه، و لذلك ألحقها بها ايضا.

و هاتان جملتان كل واحده منهما مقيده أو كالمقيد به بقيد فى معنى دفع الدخل، أعنى قوله تعالى: له ما فى السماوات و ما فى الارض، مع قوله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، و قوله تعالى: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، مع قوله تعالى: وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ .

فأما قوله تعالى: لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، فقد عرفت معنى ملكه تعالى (بالكسر) للموجودات و ملكه تعالى (بالضم) لها، و الملك بكسر الميم و هو قيام ذوات الموجودات و ما يتبعها من الاوصاف و الآثار بالله سبحانه هو الذى يدل عليه قوله تعالى: لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، فالجمله تدل على ملك الذات و ما يتبع الذات من نظام الآثار.

و قد تم بقوله: أَلْقِيَوْمٌ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ان السلطان المطلق فى الوجود لله سبحانه لا تصرف إلا- و هو له و منه، فيقع من ذلك فى الوهم انه اذا كان الامر على ذلك فهذه الاسباب و العلل الموجوده فى العالم ما شأنها؟ و كيف يتصور فيها و منا التأثير و لا تأثير إلا لله سبحانه؟

فاجيب بأن تصرف هذه العلل و الاسباب فى هذه الموجودات المعلوله توسط فى التصرف، و بعبارة اخرى شفاعة فى موارد المسيبات ياذن الله سبحانه، فإنما هى شفعاء، و الشفاعة- و هى بنحو توسط فى ايصال الخير أو دفع الشر، و تصرف ما من الشفيع فى امر المستشفع-انما تنافى السلطان الالهى و التصرف الربوبى المطلق اذا لم ينته الى اذن الله، و لم يعتمد على مشيه الله تعالى بل كانت مستقلة غير مرتبطة و ما من سبب من الاسباب و لا- عله من العلل الا و تأثيره بالله و نحو تصرفه ياذن الله، فتأثيره و تصرفه نحو من تأثيره و تصرفه تعالى فلا سلطان فى الوجود الا سلطانه و لا قيوميه الا قيوميته المطلقة عز سلطانه.

و على ما بيناه فالشفاعة هى التوسط المطلق فى عالم الاسباب و الوسائط أعم من الشفاعة التكوينية و هى توسط الاسباب فى التكوين، و الشفاعة التشريعية أعنى التوسط فى مرحله المجازاه التى تثبتها الكتاب و السنه فى يوم القيامة على ما تقدم البحث عنها فى قوله تعالى:

وَ اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا (البقره ٤٨)، و ذلك ان الجملة أعنى قوله تعالى: من ذا الذى يشفع عنده، مسبوقة بحديث القيوميه و الملك المطلق الشاملين للتكوين و التشريع معاً، بل المتماسين بالتكوين ظاهراً فلا موجب لتقيدهما بالقيوميه و السلطنه التشريعتين حتى يستقيم تذييل الكلام بالشفاعة المخصوصه بيوم القيامة.

فمساق هذه الآيه فى عموم الشفاعة مساق قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ (يونس ٣)، و قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا شَفِيعٍ (السجده ٤)، و قد عرفت فى البحث عن الشفاعة ان حدها كما ينطبق على الشفاعة التشريعيه كذلك ينطبق على السببيه التكوينية، فكل سبب من الاسباب يشفع عند الله لمسببيه بالتمسك بصفات فضله و جوده و رحمته لا يصال نعمه الوجود الى مسببيه، فنظام السببيه بعينه ينطبق على نظام

الشفاعه كما ينطبق على نظام الدعاء و المسأله، قال تعالى: يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (الرحمن ٢٩)، و قال تعالى: وَ آتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ (إبراهيم ٣٤)، و قد مر بيانه في تفسير قوله تعالى: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي (البقره / ١٨٦).

قوله تعالى: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ، سياق الجملة مع مسبوقتها بأمر الشفاعة يقرب من سياق قوله تعالى:

بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْتَبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَ هُمْ مِنْ حَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ (الأنبياء ٢٨)، فالظاهر ان ضمير الجمع الغائب راجع الى الشفعاء الذي تدل عليه الجملة السابقه معنى فعلمه تعالى بما بين ايديهم و ما خلفهم كناية عن كمال احاطته بهم، فلا يقدرون بواسطه هذه الشفاعة و التوسط المأذون فيه على انفاذ امر لا يريد الله سبحانه و لا- يرضى به فى ملكه، و لا يقدر غيرهم ايضا ان يستفيد سوءا من شفاعتهم و وساطتهم فيدخل فى ملكه تعالى فيفعل فيه ما لم يقدره.

و الى نظير هذا المعنى يدل قوله تعالى: وَ مَا نَنْتَرِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَ مَا خَلْفَنَا وَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ وَ مَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (مريم ٦٤)، و قوله تعالى: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسِّرُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَ أَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (الجن ٢٨)، فإن الآيات تبين إحاطته تعالى بالملائكة و الانبياء لثلا يقع منهم ما لم يردده، و لا ينتزلوا إلا بأمره، و لا يبلغوا إلا ما يشاؤه. و على ما بيناه فالمراد بما بين أيديهم: ما هو حاضر مشهود معهم، و بما خلفهم: ما هو غائب عنهم بعيد منهم كالمستقبل من حالهم، و يثول المعنى الى الشهاده و الغيب.

و بالجملة قوله: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، كناية عن إحاطته تعالى بما هو حاضر

معهم موجود عندهم و بما هو غائب عنهم آت خلفهم، و لذلك عقبه بقوله تعالى: **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ**، تبينا
لتمام الاحاطه الربويه و السلطه الالهيه اى إنه تعالى عالم محيط بهم و بعلمهم و هم لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء.

و لا ينافى إرجاع ضمير الجمع المذكور العاقل و هو قوله «هم» فى المواضع الثلاث الى الشفعاء ما قدمناه من ان الشفاعة أعم من
السببيه التكوينية و التشريعيه، و أن الشفعاء هم مطلق العلل و الاسباب، و ذلك لأن الشفاعة و الوساطه و التسبيح و التحميد لما
كان المعهود من حالها انها من أعمال أرباب الشعور و العقل شاع التعبير عنها بما يخص أولى العقل من العبارة.

و على ذلك جرى ديدن القرآن فى بياناته كقوله تعالى: **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**
(الأسراء/٤٤)، و قوله تعالى: **ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَ هِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ انثبيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**
(فصلت/١١)، الى غير ذلك من الآيات.

و بالجمله قوله: **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ**، يفيد معنى تمام التدبير و كماله، فإن من كمال التدبير أن يجهل
المدبر (بالفتح) بما يريده المدبر (بالكسر) من شأنه و مستقبل أمره لئلا يحتال فى التخلص عما يكرهه من أمر التدبير فيفسد على
المدبر (بالكسر) تدبيره، كجماعه مسيرين على خلاف مشتاهم و مرادهم فيبالغ فى التعميه عليهم حتى لا يدروا من أين سيروا، و
فى أين نزلوا، و إلى أين يقصد بهم.

فيبين تعالى بهذه الجملة ان التدبير له و بعلمه بروابط الاشياء التى هو الجاعل لها، و بقيه الاسباب و العلل و خاصه أولو العلم منها
و إن كان لها تصرف و علم لكن ما عندهم من العلم الذى ينتفعون به و يستفيدون منه فإنما هو من علمه تعالى و بمشيئته و
إرادته، فهو من شئون العلم الالهى، و ما تصرفوا به فهو من شئون التصرف الالهى و انحاء تدبيره، فلا يسع لمقدم منهم أن يقدم
على خلاف ما يريده الله سبحانه من التدبير الجارى فى مملكته إلا و هو بعض

و فى قوله تعالى: **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ**، على تقدير ان يراد بالعلم المعنى المصدرى أو معنى اسم المصدر لا المعلوم دلالة على ان العلم كله لله و لا يوجد من العلم عند عالم إلا و هو شىء من علمه تعالى، ونظيره ما يظهر من كلامه تعالى من اختصاص القدره و العزه و الحياه بالله تعالى، قال تعالى: **وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** (البقره ١٦٥)، و قال تعالى: **أَيَّبْتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** (النساء / ١٣٩)، و قال تعالى: **هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** (المؤمن ١٦٥)، و يمكن ان يستدل على ما ذكرناه من انحصار العلم بالله تعالى بقوله: **إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** (يوسف ٨٣)، و قوله تعالى: **وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** (آل عمران ٦٦)، الى غير ذلك من الآيات، و فى تبديل العلم بالإحاطه فى قوله: **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ**، لطف ظاهر.

قوله تعالى: **وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**، الكرسي معروف و سمي به لتراكم بعض اجزائه بالصنائه على بعض، و ربما كنى بالكرسي عن الملك فيقال: كرسي الملك، و يراد منطقته نفوذه و متسع قدرته.

و كيف كان فالجمل السابقه على هذه الجملة أعنى قوله: **لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**، الخ؛ تفيد ان المراد بسعه الكرسي احاطه مقام السلطنه الالهيه، فيتعين للكرسي من المعنى: انه المقام الربوبى الذى يقوم به ما فى السموات و الارض من حيث انها مملوكة مدبره معلومه، فهو من مراتب العلم، و يتعين للسعه من المعنى: انها حفظ كل شىء مما فى السموات و الارض بذاته و آثاره، و لذلك ذيله بقوله: **وَلَا يُؤْدُهُ حِفْظُهُمَا**.

قوله تعالى: **وَلَا يُؤْدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**، يقال: آده يؤده أودا اذا ثقل عليه و اجهده و اتعبه، و الظاهر ان مرجع الضمير فى يؤده، هو الكرسي و إن جاز رجوعه اليه تعالى، و نفى الأود و التعب عن حفظ السموات و الارض فى ذيل الكلام ليناسب ما افتتح

به من نفى السنه و النوم فى القيوميه على ما فى السموات و الارض.

و محصل ما تفيده الآيه من المعنى: ان الله لا إله إلا هو له كل الحياه و له القيوميه المطلقه من غير ضعف و لا فتور، و لذلك وقع التعليل بالاسمين الكريمين: العلى العظيم فإنه تعالى لعلوه لا تناله أيدي المخلوقات فيوجبوا بذلك ضعفا فى وجوده و فتورا فى أمره، و لعظمته لا- يجهده كثره الخلق و لا- يطيقه عظمه السموات و الارض، و جمله: هو العلى العظيم، لا تخلو عن الدلاله على الحصر، و هذا الحصر إما حقيقى كما هو الحق، فإن العلو و العظمه من الكمال و حقيقه كل كمال له تعالى، و اما دعوى لمسييس الحاجه اليه فى مقام التعليل ليختص العلو و العظمه به تعالى دعوى، فيسقط السموات و الارض عن العلو و العظمه فى قبال علوه و عظمته تعالى (١).

[سوره البقره (٢): الآيات ٢٥٦ الى ٢٥٧]

اشاره

□ لا إكراه فى الدين قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) □
□ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ □
□ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)

بيان:

□ قوله تعالى: لا إكراه فى الدين قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ، الاكراه هو

ص: ٣٣١

الاجبار و الحمل على الفعل من غير رضى، و الرشد بالضم و الضميتين: إصابه وجه الامر و محجه الطريق و يقابله الغى، فهما أعم من الهدى و الضلال، فإنهما إصابه الطريق الموصل و عدمها على ما قيل، و الظاهر ان استعمال الرشد فى اصابه محجه الطريق من باب الانطباق على المصداق، فإن اصابه وجه الامر من سالك الطريق ان يركب المحجه و سواء السبيل، فلزومه الطريق من مصاديق اصابه وجه الامر، فالحق ان معنى الرشد و الهدى معنيان مختلفان ينطبق أحدهما بعنايه خاصه على مصاديق الآخر و هو ظاهر، قال تعالى: فَإِنْ أَنْسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا (النساء ٦٤)، و قال تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ (الأنبياء ٥١)، و كذلك القول فى الغى و الضلال، و لذلك ذكرنا سابقا: ان الضلال هو العدول عن الطريق مع ذكر الغايه و المقصد، و الغى هو العدول مع نسيان الغايه فلا يدري الانسان الغوى ما ذا يريد و ما ذا يقصد.

و فى قوله تعالى: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ، نفى الدين الاجبارى، لما أن الدين و هو سلسله من المعارف العلميه التى تتبعها أخرى عمليه يجمعها أنها اعتقادات، و الاعتقاد و الايمان من الامور القليه التى لا يحكم فيها الا-كراه و الاجبار، فإن الاكراه انما يؤثر فى الاعمال الظاهريه و الافعال و الحركات البدنيه الماديه، و أما الاعتقاد القلبى فله علل و أسباب اخرى قلبيه من سنخ الاعتقاد و الادراك، و من المحال أن ينتج الجهل علما، أو تولد المقدمات غير العلميه تصديقا علميا، فقوله: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ، ان كان قضيه اخباريه حاكيه عن حال التكوين انتج حكما دينيا بنفى الاكراه على الدين و الاعتقاد، و ان كان حكما انشائيا تشريعا كما يشهد به ما عقبه تعالى من قوله: قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ، كان نهيا عن الحمل على الاعتقاد و الايمان كرها، و هو نهى متك على حقيقه تكوينيه، و هى التى مر بيانها أن الاكراه انما يعمل و يؤثر فى مرحله الافعال البدنيه دون الاعتقادات القليه.

و قد بين تعالى هذا الحكم بقوله: قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ، و هو فى مقام التعليل فإن الإكراه

والاجبار إنما يركن إليه الأمر الحكيم و المرئى العاقل فى الامور المهمه التى لا- سبيل الى بيان وجه الحق فيها لبساطه فهم المأمور و رداءه ذهن المحكوم، أو لاسباب وجهات اخرى، فيتسبب الحاكم فى حكمه بالا-كراه أو الامر بالتقليد و نحوه، و أما الامور المهمه التى تبين وجه الخير و الشر فيها، و قرر وجه الجزاء الذى يلحق فعلها و تركها فلا حاجه فيها الى الاكراه، بل للانسان أن يختار لنفسه ما شاء من طرفى الفعل و عاقبتى الثواب و العقاب، و الدين لما انكشفت حقائقه و اتضح طريقه بالبيانات الإلهيه الموضحة بالسنة النبويه فقد تبين أن الدين رشد و الرشده فى اتباعه، و الغى فى تركه و الرغبه عنه، و على هذا لا موجب لان يكره أحد أحدا على الدين.

و هذه احدى الآيات الداله على أن الاسلام لم يبتن على السيف و الدم، و لم يفت بالاكراه و العنوه على خلاف ما زعمه عدّه من الباحثين من المنتحلين و غيرهم أن الاسلام دين السيف و استدلوا عليه: بالجهد الذى هو أحد أركان هذا الدين.

و قد تقدم الجواب عنه فى ضمن البحث عن آيات القتال و ذكرنا هناك أن القتال الذى ندب اليه الاسلام ليس لغايه احراز التقدم و بسط الدين بالقوه و الاكراه، بل لاحياء الحق و الدفاع عن أنفس متاع للفطره و هو التوحيد، و أما بعد انبساط التوحيد بين الناس و خضوعهم لدين النبوه و لو بالتهود و التنصر فلا نزاع لمسلم مع موحد و لا جدال، فالاشكال ناش عن عدم التدبر.

و يظهر مما تقدم أن الآيه أعنى قوله: [□] لا إكراه فى الدين غير منسوخه بآيه السيف كما ذكره بعضهم.

و من الشواهد على أن الآيه غير منسوخه التعليل الذى فيها أعنى قوله: [□] قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ، فإن الناسخ ما لم ينسخه عليه الحكم لم ينسخ نفس الحكم، فإن الحكم باق ببقاء سببه، و معلوم أن تبين الرشده من الغى فى أمر الاسلام امر غير قابل للارتفاع بمثل آيه السيف، فإن

قوله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ مَثَلًا أَوْ قَوْلَهُ: وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْآيَةَ لَا يُؤْثِرَانِ فِي ظَهْرِ حَقِيهِ الدِّينِ شَيْئًا حَتَّى يَنْسَخَا حَكْمًا مَعْلُولًا لِهَذَا الظَّهْرِ.

و بعبارة اخرى الآيه تعلق قوله: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ بظهور الحق، و هو معنى لا يختلف حاله قبل نزول حكم القتال و بعد نزوله، فهو ثابت على كل حال، فهو غير منسوخ.

قوله تعالى: فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ الَّتِي خَلَا بِهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ لَيْسَ لَهُ خَوْفٌ مِنَ اللَّهِ كَمَا يَخَوْفُكَ النَّاسُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ. قوله تعالى: فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ الخ؛ الطاغوت هو الطغيان و التجاوز عن الحد و لا يخلو عن مبالغه فى المعنى كالملكوت و الجبروت، و يستعمل فيما يحصل به الطغيان كأقسام المعبودات من دون الله كالاصنام و الشياطين و الجن و ائمه الضلال من الانسان و كل متبوع لا يرضى الله سبحانه باتباعه، و يستوى فيه المذكر و المؤنث و المفرد و التثنيه و الجمع.

و إنما قدم الكفر على الايمان فى قوله: فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ، ليوافق الترتيب الذى يناسبه الفعل الواقع فى الجزاء أعنى الاستمساك بالعروه الوثقى، لانه الاستمساك بشيء إنما يكون بترك كل شيء و الأخذ بالعروه، فهناك ترك ثم أخذ، فقدم الكفر و هو ترك على الايمان و هو اخذ ليوافق ذلك، و الاستمساك هو الاخذ و الامساك بشده، و العروه: ما يؤخذ به من الشيء كعروه الدلو و عروه الاناء، و العروه هى كل ما له أصل من النبات و ما لا يسقط ورقه، و أصل الباب التعلق يقال: عراه و اعتره اى تعلق به.

و الكلام أعنى قوله: فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ، موضوع على الاستعاره للدلاله على أن الايمان بالنسبه الى السعاده بمنزله عروه الاناء بالنسبه الى الاناء و ما فيه، فكما لا يكون الاخذ أخذًا مطمئنًا حتى يقبض على العروه كذلك السعاده الحقيقيه لا يستقر أمرها و لا يرجى نيلها إلا أن يؤمن الانسان بالله و يكفر بالطاغوت.

قوله تعالى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، الانقسام: الانقطاع و الانكسار، و الجملة فى موضع الحال من العروه تؤكد معنى العروه الوثقى، ثم عقبه بقوله: وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ،

لكون الايمان و الكفر متعلقا بالقلب و اللسان.

□
قوله تعالى: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قد مر شرط من الكلام فى معنى إخراجهم من النور الى الظلمات، و قد بينا هناك أن هذا الإخراج و ما يشاكله من المعانى امور حقيقيه غير مجازيه خلافا لما توهمه كثير من المفسرين و سائر الباحثين أنها معان مجازيه يراد بها الاعمال الظاهريه من الحركات و السكنات البدنيه، و ما يترتب عليها من الغايات الحسنه و السيئه، فالنور مثلا هو الاعتقاد الحق بما يرتفع به ظلمه الجهل و حيره الشك و اضطراب القلب، و النور هو صالح العمل من حيث أن رشده بين، و أثره فى السعاده جلى، كما ان النور الحقيقى على هذه الصفات. و الظلمه هو الجهل فى الاعتقاد و الشبهه و الريبه و طالح العمل، كل ذلك بالاستعاره. و الإخراج من الظلمه الى النور الذى ينسب الى الله تعالى كالإخراج من النور الى الظلمات الذى ينسب الى الطاغوت نفس هذه الاعمال و العقائد، فليس وراء هذه الاعمال و العقائد، لا فعل من الله تعالى و غيره كالإخراج مثلا و لا أثر لفعل الله تعالى و غيره كالنور و الظلمه و غيرهما، هذا ما ذكره قوم من المفسرين و الباحثين.

و ذكر آخرون: ان الله يفعل فعلا- كالا- إخراج من الظلمات الى النور و إعطاء الحياه و السعده و الرحمه و ما يشاكلها و يترتب على فعله تعالى آثار كالنور و الظلمه و الروح و الرحمه و نزول الملائكه، لا ينالها أفهامنا و لا يسعها مشاعرنا، غير أنا نؤمن بحسب ما أخبر به الله- و هو يقول الحق- بأن هذه الامور موجوده و أنها أفعال له تعالى و إن لم نحط بها خبرا، و لازم هذا القول أيضا كالقول السابق أن يكون هذه الالفاظ أعنى أمثال النور و الظلمه و الإخراج و نحوها مستعمله على المجاز بالاستعاره، و إنما الفرق بين القولين أن مصاديق النور و الظلمه و نحوهما على القول الأول نفس أعمالنا و عقائدنا، و على القول الثانى امور خارجه عن أعمالنا و عقائدنا لا سبيل لنا الى فهمها، و لا طريق الى نيلها و الوقوف عليها.

و القولاين جميعا خارجان عن صراط الاستقامه كالمفرط و المفرط، و الحق في ذلك أن هذه الامور التي أخبر الله سبحانه بإيجادها و فعلها عند الطاعه و المعصيه إنما هي امور حقيقه واقعيه من غير تجوز غير أنها لا تفارق أعمالنا و عقائدنا بل هي لوازمها التي في باطنها، و قد مر الكلام في ذلك، و هذا لا ينافي كون قوله تعالى: يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، و قوله تعالى: يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ، كناية عن هدايه الله سبحانه و إضلال الطاغوت، لما تقدم في بحث الكلام أن النزاع في مقامين: أحدهما كون النور و الظلمه و ما شابههما ذا حقيقه في هذه النشأه أو مجرد تشبيه لا حقيقه له، و ثانيهما: أنه على تقدير تسليم أن لها حقائق و واقعيات هل استعمال اللفظ كالنور مثلا في الحقيقه التي هي حقيقه الهدايه حقيقه أو مجاز؟ و على أى حال فالجملتان أعني: قوله تعالى: يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، و قوله تعالى: يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ، كنايةتان عن الهدايه و الاضلال، و إلا لزم أن يكون لكل من المؤمن و الكافر نور و ظلمه معا، فإن لزم إخراج المؤمن من الظلمه الى النور أن يكون قبل الايمان في ظلمه و بالعكس في الكافر، فعامه المؤمنين و الكفار - و هم الذين عاشوا مؤمنين فقط أو عاشوا كفارا فقط - اذا بلغوا مقام التكليف فإن آمنوا خرجوا من الظلمات الى النور، و إن كفروا خرجوا من النور الى الظلمات، فهم قبل ذلك في نور و ظلمه معا و هذا كما ترى.

لكن يمكن أن يقال: إن الانسان بحسب خلقتة على نور الفطره، هو نور إجمالي يقبل التفصيل، و أما بالنسبه الى المعارف الحقه و الاعمال الصالحه تفصيلا فهو في ظلمه بعد لعدم تبين أمره، و النور و الظلمه بهذا المعنى لا يتنافيان و لا يمتنع اجتماعهما، و المؤمن بإيمانه يخرج من هذه الظلمه الى نور المعارف و الطاعات تفصيلا، و الكافر بكفره يخرج من نور الفطره الى ظلمات الكفر و المعاصي التفصيليه، و الايمان بالنور مفردا و بالظلمات جمعا في قوله تعالى: يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، و قوله تعالى: يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى

الظلمات، للإشارة إلى ان الحق واحد لا اختلاف فيه كما ان الباطل متشتت مختلف لا وحده فيه، قال تعالى: وَ أَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ (الأنعام ١٥٣).

[سوره البقره (٢): الآيات ٢٥٨ الى ٢٦٠]

أشاره

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَ شَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَ انظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَ لِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَ انظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَ لَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصِرْ بِهِنَّ لِإِيكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ، المحاجه إلقاء الحجه قبال الحجه لإثبات المدعى أو لإبطال ما يقابله، و اصل الحجه هو القصد، غلب استعماله فيما يقصد به اثبات دعوى من الدعاوى، وقوله: فِي رَبِّهِ متعلق بحاج، و الضمير لإبراهيم كما يشعر به قوله تعالى فيما بعد: قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، و هذا الذي حاج إبراهيم عليه السلام في ربه هو الملك الذي كان يعاصره و هو نمرود من ملوك بابل على ما يذكره التاريخ و الروايه.

و بالتأمل في سياق الآية، و الذي جرى عليه الامر عند الناس و لا يزال يجرى عليه يعلم معنى هذه المحاجه التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية، و الموضوع الذي وقعت فيه محاجتهما (١).

قوله تعالى: أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ، ظاهر السياق: انه من قبيل قول القائل: أساء الى فلان لاني احسنت اليه يريد: ان احسانى اليه كان يستدعى ان يحسن الى لكنه بدل الاحسان من الإساءه فأساء إلى، و قولهم: و اتق شر من احسنت اليه، قال الشاعر:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر

و حسن فعل كما يجزى سنمار

فالجمله أعنى قوله: أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ بتقدير لام التعليل و هى من قبيل وضع الشىء موضع ضده للشكوى و الاستعداد و نحوه، فإن عدوان نمرود و طغيانه في هذه المحاجه كان ينبغى ان يعلل بضد انعام الله عليه بالملك، لكن لما لم يتحقق من الله في حقه الا الإحسان اليه و ايتائه الملك فوضع في موضع العله فدل على كفرانه لنعمه الله فهو بوجه كقوله تعالى:

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا (القصص ٨) فهذه نكته في ذكر ايتائه

ص: ٣٣٨

و هناك نكته اخرى و هي:الدلاله على رداءه دعواه من رأس،و ذلك انه انما كان يدعى هذه الدعوى لملك آتاه الله تعالى من غير ان يملكه لنفسه،فهو انما كان نمرود الملك ذا السلطه و السطوه بنعمه من ربه،و أما هو في نفسه فلم يكن الا واحدا من سواد الناس لا- يعرف له وصف،و لا- يشار اليه بنعت،و لهذا لم يذكر اسمه و عبر عنه بقوله: الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ، دلالة على حقاره شخصه و حسه أمره.

و اما نسبه ملكه الى ايتاء الله تعالى فقد مر في المباحث السابقة:انه لا محذور فيه،فإن الملك و هو نوع سلطنه منبسطه على الامه كسائر انواع السلطنه و قدره نعمه من الله و فضل يؤتیه من يشاء،و قد أودع في فطره الإنسان معرفته،و الرغبة فيه،فإن وضعه في موضعه كان نعمه و سعادته،قال تعالى: وَ ابْتِغِ فِيهَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ (القصص ٧٧)،و ان عدا طوره و انحرف به عن الصراط كان في حقه نقمه و بوارا،قال تعالى: أَلَمْ تَرِ إِلَى الَّذِينَ يَدَّٰلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ (إبراهيم ٢٨)،و قد مر بيان ان لكل شىء نسبه اليه تعالى على ما يليق بساحه قدسه تعالى و تقدر من جهة الحسن الذى فيه دون جهة القبح و المساءه.

قوله تعالى: قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ ،الحياه و الموت و إن كانا يوجدان في غير جنس الحيوان ايضا كالنبات،و قد صدقه القرآن كما مر بيانه في تفسير آيه الكرسي،لكن مراده عليه السلام منهما اما خصوص الحياه و الممات الحيوانيين أو الاعم الشامل له لإطلاق اللفظ،و الدليل على ذلك قول نمرود:أنا أحيى و أميت،فإن هذا الذى ادعاه لنفسه لم يكن من قبيل إحياء النبات بالحرث و الغرس مثلا،و لا احياء الحيوان بالسفاد و التوليد مثلا، فإن ذلك و أشباهه كان لا يختص به بل يوجد في غيره من أفراد الانسان،و هذا يؤيد ما وردت به الروايات:انه أمر بإحضار رجلين ممن كان في سجنه فأطلق احدهما و قتل الآخر،و قال

عند ذلك:أنا أحيى و أميت.

و انما أخذ عليه السّلام فى حجته الاحياء و الاماته لانهما أمران ليس للطبيعه الفاعله للحياه فيهما صنع، و خاصه الحياه التى فى الحيوان حيث تستتبع الشعور و الاراده و هما أمران غير ماديين قطعاً، و كذا الموت المقابل لها، و الحجه على ما فيها من السطوع و الوضوح لم تنجح فى حقهم، لـان انحطاطهم فى الفكر و خبطهم فى التعقل كان فوق ما كان يظنه عليه السّلام فى حقهم، فلم يفهموا من الاحياء و الاماته إلا- المعنى المجازى الشامل لمثل الاطلاق و القتل، فقال نمرود: انا أحيى و أميت و صدقه من حضره، و من سياق هذه المحاجه يمكن أن يحسد المتأمل ما بلغ اليه الانحطاط الفكرى يومئذ فى المعارف و المعنويات، و لا ينافى ذلك الارتقاء الحضارى و التقدم المدنى الذى يدل عليه الآثار و الرسوم الباقية من بابل كده و مصر الفراعنه و غيرهما، فإن المدنيه الماديه أمر و التقدم فى معنويات المعارف أمر آخر، و فى ارتقاء الدنيا الحاضره فى مدنيّتها و انحطاطها فى الاخلاق و المعارف المعنويه ما تسقط به هذه الشبهه.

و من هنا يظهر: وجه عدم أخذه عليه السّلام فى حجته مسئله احتياج العالم بأسره الى الصانع الفاطر للسموات و الارض كما اخذ به فى استبصار نفسه فى بادى أمره على ما يحكيه الله عنه بقوله: **إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا** و **مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** (الأنعام ٧٩)، فإن القوم على اعترافهم بذلك بفطرتهم اجمالاً- كانوا أنزل سطحاً من ان يعقلوه على ما ينبغى ان يعقل عليه بحيث ينجح احتجاجه و يتضح مراده عليه السّلام، و ناهيك فى ذلك ما فهموه من قوله: **رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ** .

قوله تعالى: **قَالَ أَنَا أَحْيِي وَ أُمِيتُ**، أى فأنا ربك الذى وصفته بأنه يحيى و يميت.

قوله تعالى: **فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ**، لما ايس عليه السّلام من مضى احتجاجه بأن ربه الذى يحيى و يميت، لسوء فهم الخصم و تمويهه و تليسه الامر على من حضر عندهما عدل عن بيان ما هو مراده من الاحياء

و الاماتة الي حجه أخرى، إلا- انه بنى هذه الحجة الثانية على دعوى الخصم فى الحجة الاولى كما يدل عليه التفريع بالفاء فى قوله: فَإِنَّ اللَّهَ، الخ؛ والمعنى: إن كان الامر كما تقول: انك ربي و من شأن الرب ان يتصرف فى تدبير امر هذا النظام الكونى فالله سبحانه يتصرف فى الشمس ياتيانها من المشرق فتصرف انت ياتيانها من المغرب حتى يتضح انك رب كما ان الله رب كل شىء أو انك الرب فوق الارباب فبهت الذى كفر، و انما فرع الحجة على ما تقدمها لثلا يظن ان الحجة الاولى تمت لنمرود و انتجت ما ادعاه، و لذلك ايضا قال: فإن الله و لم يقل: فإن ربي لأن الخصم استفاد من قوله: ربي سوء و طبقه على نفسه بالمغالطة فأتى عليه السلام ثانيا بلفظه الجلاله ليكون مصونا عن مثل التطبيق السابق! و قد مر بيان ان نمرود ما كان يسعه ان يتفوه فى مقابل هذه الحجة بشىء دون ان يبهت فيسكت.

قوله تعالى: وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، ظاهر السياق انه تعليل لقوله فبهت الذى كفر فبهته هو عدم هدايه الله سبحانه إياه لا كفره، و بعبارة اخرى معناه ان الله لم يهده فبهت لذلك و لو هداه لغلب على ابراهيم فى الحجة لا انه لم يهده فكفر لذلك و ذلك لان العناية فى المقام متوجهة الى محاجته ابراهيم عليه السلام لا الى كفره و هو ظاهر.

و من هنا يظهر: ان فى الوصف إشعارا بالعليه أعنى: ان السبب لعدم هدايه الله الظالمين هو ظلمهم كما هو كذلك فى سائر موارد هذه الجملة من كلامه تعالى كقوله: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وَ هُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلَامِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (الصف ٧)، و قوله: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (الجمعه ٥)، و نظير الظلم الفسق فى قوله تعالى: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ (الصف ٥).

و بالجملة الظلم و هو الانحراف عن صراط العدل و العدول عما ينبغى من العمل الى غير ما ينبغى موجب لعدم الاهتداء الى الغايه المقصوده، و مؤد الى الخيبه و الخسران بالآخره، و هذه

من الحقائق الناصعه التي ذكرها القرآن الشريف و أكد القول فيها في آيات كثيرة (١).

قوله تعالى: أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، الخاويه هي الخاليه يقال: خوت الدار تخوى خواء اذا خلت، و العروش جمع العرش و هو ما يعمل مثل السقف للكرم قائما على أعمده، قال تعالى: جَدَاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَ غَيْرِ مَّعْرُوشَاتٍ (الأنعام/١٤١)، و من هنا أطلق على سقف البيت العرش، لكن بينهما فرقا، فإن السقف هو ما يقوم من السطح على الجدران و العرش هو السقف مع الاركان التي يعتمد عليها كهيئه عرش الكرم، و لذا صح أن يقال في الديار أنها خاليه على عروشها و لا يصح أن يقال: خاليه على سقفها.

قوله تعالى: قَالَ أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّاهُ، أى أنى يحيى الله أهل هذه القرية ففيه مجاز كما فى قوله تعالى: وَ شِئْلِ الْقَرْيَةِ (يوسف/٨٢).

و إنما قال هذا القول استعظاما للأمر و لقدرة الله سبحانه من غير استبعاد يؤدى الى الانكار أو ينشأ منه، و الدليل على ذلك قوله على ما حكى الله تعالى عنه فى آخر القصة: أعلم أن الله على كل شىء قدير و لم يقل: الآن كما فى ما يماثله من قوله تعالى حكاية عن امرأه العزيز:

الآن حَصَّصَ الْحَقُّ (يوسف/٥١)، و سيجىء توضيحه قريبا.

على أن الرجل نبى مكلم و آيه مبعوثه الى الناس و الانبياء معصومون حاشاهم عن الشك و الارتياب فى البعث الذى هو أحد اصول الدين.

قوله تعالى: فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ، ظاهره توفيه بقبض روحه و إبقائه على هذا الحال مائه عام ثم إحيائه برد روحه إليه.

قوله تعالى: قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ

ص: ٣٤٢

١- ١). البقره ٢٥٨-٢٦٠ كلام فى الاحسان و هدايته و الظلم و اضلاله.

للإمام، اللبث هو المكث و ترديد الجواب بين اليوم و بعض اليوم يدل على اختلاف وقت إمامته و إحيائه كأوائل النهار و أواخره، فحسب الموت و الحياه نوما و انتباها، ثم شاهد اختلاف وقتيهما فتردد فى تخلل الليله بين الوقتين و عدم تخللها فقال يوما (لو تخللت الليله) أو بعض يوم (لو لم تتخلل) قال: بل لبثت مائه عام.

قوله تعالى: فَأَنْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَ شَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ -الى قوله- لَحْمًا، سياق هذه الجمل فى أمره عجيب فقد كرر فيها قوله: انظر ثلاث مرات و كان الظاهر أن يكتفى بواحد منها، و ذكر فيها أمر الطعام و الشراب و الحمار و الظاهر السابق الى الذهن أنه لم يكن الى ذكرها حاجه، و جىء بقوله: وَ لِنَجْعَلَمَكَ مَتَخَلِّلاً فى الكلام و كان الظاهر أن يتأخر عن جمله: و انظر الى العظام، على ان بيانه ما استعظمه هذا المار بالقريه- و هو احياء الموتى بعد طول المده و عروض كل تغير عليها- قد حصل بإحيائه نفسه بعد الموت فما الموجب لان يؤمر ثانيا بالنظر الى العظام؟ لكن التدبر فى أطراف الآيه الشريفه يوضح خصوصيات القصة إيضاحا ينحل به العقده و تنجلي الشبهه المذكوره (1).

قوله تعالى: فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، رجوع منه بعد التبين الى علمه الذى كان معه قبل التبين، كأنه عليه السلام لما خطر بباله خاطر الذى ذكره بقوله: أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ أَقْنَعُ نفسه بما عنده من العلم بالقدره المطلقه ثم لما بين الله له الامر ببيان إشهاد و عيان رجوع الى نفسه و صدق ما اعتمد عليه من العلم، و قال لم تزل تنصح لى و لا تخوننى فى هدايتك و تقويمك و ليس ما لا تزال نفسى تعتمد عليه من كون القدره المطلقه جهلا، بل علم يليق بالاعتماد عليه.

و هذا أمر كثير النظائر فكثيرا ما يكون للإنسان علم بشىء ثم يخطر بباله و يهجمس فى نفسه

ص: ٣٤٣

تلبس الحياه، و يرجع محصله الى السؤال عن السبب و كيفيه تأثيره، و هذا بوجه هو الذى يسميه الله سبحانه بملكوت الاشياء فى قوله عز من قائل: **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (يس ٨٣).**

و انما سأل ابراهيم عليه السلام عن الكيفيه بالمعنى الثانى دون المعنى الاول: أما أولا: فلأنه قال:

كيف تحيى الموتى، بضم التاء من الاحياء فسأل عن كيفيه الاحياء الذى هو فعل ناعت لله تعالى و هو سبب حياه الحى بأمره، و لم يقل: كيف تحيى الموتى، بفتح التاء من الحياه حتى يكون سؤالاً- عن كيفيه تجمع الاجزاء و عودها الى صورتها الاولى و قبولها الحياه، و لو كان السؤال عن الكيفيه بالمعنى الثانى لكان من الواجب أن يرد على الصوره الثانيه، و اما ثانياً:

فلأنه لو كان سؤاله عن كيفيه قبول الاجزاء للحياه لم يكن لاجراء الامر بيد ابراهيم وجه، و لكفى فى ذلك أن يريد الله احياء شىء من الحيوان بعد موته، و اما ثالثاً: فلأنه كان اللازم على ذلك أن يختم الكلام بمثل أن يقال: و اعلم ان الله على كل شىء قدير لا- بقوله: **وَ اعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**، على ما هو المعهود من دأب القرآن الكريم فإن المناسب للسؤال المذكور هو صفه القدره دون صفتى العزه و الحكمه فإن العزه و الحكمه- و هما وجدان الذات كل ما تفقده و تستحقه الاشياء و احكامه فى امره- انما ترتبطان بإفاضه الحياه لا استفاضه ماده لها فافهم ذلك (١).

قوله تعالى: **قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنُ قَالاَ بَلَىٰ وَ لَكِن لَّيَطْمَئِنُّ قَلْبِي**، بلى كلمه يرد به النفى و لذلك ينقلب به النفى إثباتاً كقوله تعالى **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ (الأعراف ١٧٢)** و لو قالوا نعم لكان كفراً، و الطمأنينه و الاطمينان سكون النفس بعد انزعاجها و اضطرابها، و هو مأخوذ من قولهم: اطمأنت الارض و ارض مطمئنه اذا كانت فيه انخفاض يستقر فيها

ص: ٣٤٥

فقد ظهر: أن وجود الخطورات المنافية للعقائد اليقينية لا ينافي الإيمان و التصديق دائما، غير أنها تؤذى النفس، و تسلب السكون و القرار منها، و لا يزول وجود هذه الخواطر إلا بالحس أو المشاهده، و لذلك قيل: إن للمعانيه أثرا لا يوجب مع العلم، و قد أخبر الله تعالى موسى فى الميقات بضلال قومه بعباده العجل فلم يوجب ذلك ظهور غضبه حتى اذا جاءهم و شاهدتهم و عاين أمرهم غضب و ألقى الألواح و أخذ برأس أخيه يجره اليه.

و قد ظهر من هنا و مما مر سابقا أن ابراهيم عليه السلام ما كان يسأل المشاهده بالحس الذى يتعلق بقبول أجزاء الموتى الحياه بعد فقدها، بل انما كان يسأل مشاهده فعل الله سبحانه و أمره فى إحياء الموتى، و ليس ذلك بمحسوس و ان كان لا ينفك عن الامر المحسوس الذى هو قبول الأجزاء الماديه للحياه بالاجتماع و التصور بصوره الحى، فهو عليه السلام انما كان يسأل حق اليقين.

قوله تعالى: **قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَهُ مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا**، صرهن بضم الصاد على إحدى القراءتين من صار يصور اذا قطع أو امال، أو بكسر الصاد على القراءه الأخرى من صار يصير بأحد المعنيين، و قرائن الكلام يدل على إرادته معنى القطع، و تعديته يالى تدل على تضمين معنى الإماله. فالمعنى: اقطعهن ممبلا اليك أو أملهن قاطعا إياهن على الخلاف فى التضمين من حيث التقدير.

و كيف كان فقوله تعالى: **فَخُذْ أَرْبَعَهُ مِنَ الطَّيْرِ**، الخ؛ جواب عن ما سأله ابراهيم عليه السلام بقوله: **رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ**، و من المعلوم و جوب مطابقه الجواب للسؤال، فبلاغه الكلام و حكمه المتكلم يمنعان عن اشتمال الكلام على ما هو لغو زائد لا يترتب على وجوده فائده عائده الى الغرض المقصود من الكلام و خاصه القرآن الذى هو خير كلام القاه خير متكلم الى خير سامع واع، و ليست القصه على تلك البساطه التى تتراءى منها فى بادية

النظر، و لو كان كذلك لتم الجواب بإحياء ميت ما كيف كان، و لكان الزائد على ذلك لغوا مستغنى عنه و ليس كذلك، و لقد أخذ فيها قيود و خصوصيات زائده على أصل المعنى، فاعتبر في ما أريد إحيائه أن يكون طيرا، و ان يكون حيا، و ان يكون ذا عدد أربعة، و ان يقتل و يخلط و يمزج أجزائها، و ان يفرق الاجزاء المختلطة أبعاضا ثم يوضع كل بعض في مكان بعيد من الآخر كقله هذا الجبل و ذاك الجبل، و أن يكون الإحياء بيد ابراهيم عليه السلام (نفس السائل) بدعوته إياهن، و ان يجتمع الجميع عنده.

فهذه كما ترى خصوصيات زائده في القصة، هي لا محاله دخيله في المعنى المقصود افادته، و قد ذكروا لها وجوها من النكات لا تزيد الباحث الا عجباً (يعلم صحه ما ذكرناه بالرجوع الى مفصلات التفاسير).

و كيف كان فهذه الخصوصيات لا- بد ان تكون مرتبطة بالسؤال، و الذي يوجد في السؤال -و هو قوله: رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى- أمران.

أحدهما: ما اشتمل عليه قوله: تُحْيِي و هو ان المسئول مشاهده الإحياء من حيث انه وصف لله سبحانه لا- من حيث انه وصف لأجزاء المادة الحامله للحياه.

و ثانيهما: ما اشتمل عليه لفظ الموتى من معنى الجمع فإنه خصوصيه زائده.

أما الاول: فيرتبط به في الجواب أجزاء هذا الامر بيد ابراهيم نفسه حيث يقول: فخذ، فصرهن، ثم اجعل، بصيغه الامر و يقول ثم ادعهن يأتينك، فإنه تعالى جعل إتيانهن سعيا و هو الحياه مرتبطا متفرعا على الدعوه، فهذه الدعوه هي السبب الذي يفيض عنه حياه ما أريد إحيائه، و لا إحياء إلا بأمر الله، فدعوه ابراهيم إياهن بأمر الله، قد كانت متصله نحو اتصال بأمر الله الذي منه تترشح حياه الاحياء، و عند ذلك شاهده ابراهيم و رأى كيفيه فيضان الامر بالحياه، و لو كانت دعوه ابراهيم إياهن غير متصله بأمر الله الذي هو ان يقول لشيء أراده: كن فيكون، كمثلا أقوالنا غير المتصله إلا بالتخيل كان هو أيضا كمثلا اذ قلنا لشيء كن فلا

يكون، فلا تأثير جزافي في الوجود.

و اما الثانى:فقوله كيف تحيى الموتى تدل على ان لكثرة الاموات و تعددها دخلا- فى السؤال، و ليس إلا ان الاجساد بموتها و تبدد أجزائها و تغير صورها و تحول أحوالها تفقد حاله التميز و الارتباط الذى بينها فتضل فى ظلمه الفناء و البوار، و تصير كالأحاديث المنسيه لا خبر عنها فى خارج و لا ذهن فكيف تحيط بها القوه المحييه و لا محاط فى الواقع.

و هذا هو الذى أورده فرعون على موسى عليه السّلام و أجاب عنه موسى بالعلم كما حكاه الله تعالى بقوله قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ (طه ٥١).

و بالجملة فأجابه الله تعالى بأن أمره بأن يأخذ أربعة من الطير(و لعل اختيار الطير لكون هذا العمل فيها أسهل و أقل زمانا) فيشاهد حياتها و يرى اختلاف اشخاصها و صورها، و يعرفها معرفه تامه أولا- ثم يقتلها و يخلط أجزائها خلطا دقيقا ثم يجعل ذلك ابعاضا، و كل بعض منها على جبل لتفقد التميز و التشخص، و تزول المعرفه، ثم يدعوهن يأتينه سعيا، فإنه يشاهد حينئذ ان التميز و التصور بصوره الحياه كل ذلك تابع للدعوه التى تتعلق بأنفسها، أى إن أجسادها تابعه لانفسها لا بالعكس، فإن البدن فرع تابع للروح لا بالعكس، بل نسبه البدن الى الروح بوجه نسبه الظل الى الشاخص، فاذا وجد الشاخص تبع وجوده وجود الظل و الى أى حال تحول الشاخص أو أجزائه تبعه فيه الظل حتى اذا انعدم تبعه فى الانعدام، و الله سبحانه اذا أوجد حيا من الاحياء، أو أعاد الحياه الى أجزاء مسبوقة بالحياه فإنما يتعلق بإيجاده بالروح الواجده للحياه أولا ثم يتبعه أجزاء المادة بروابط محفوظه عند الله سبحانه لا نحيط بها علما فيتعين الجسد بتعين الروح من غير فصل و لا مانع و بذلك يشعر قوله تعالى: ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَا تُبَّيْنَكَ سَعِيًّا أى مسرعات مستعجلات.

و هذا هو الذى يستفاد من قوله تعالى: وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ

بَيْلٌ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (السجده ١١/١)، وقد مر بعض الكلام في الآيه في البحث عن تجرد النفس و سيأتي تفصيل الكلام في محله إنشاء الله.

فقوله تعالى: فَخَذُّوا رَبَعَهُ مِنَ الطَّيْرِ انما امر بذلك ليعرفها فلا يشك فيها عند إعادته الحياه إليها و لا ينكرها، و ليرى ما هي عليه من الاختلاف و التميز أولاً و زوالهما ثانياً، و قوله:

فَصَبَّرْنَاهُ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا أَى اذبحهن و بدد أجزاءهن و اخلطها ثم فرقها على الجبال الموجوده هناك لتباعده الاجزاء و هي غير متميزه، و هذا من الشواهد على ان القصه انما وقعت بعد مهاجره ابراهيم من أرض بابل الى سوره فإن أرض بابل لا جبل بها، و قوله ثم ادعهن، أى ادع الطيور يا طاوس و يا فلان و يا فلان، و يمكن ان يستفاد ذلك مضافاً الى دلالة ضمير «هن» الراجعه الى الطيور من قوله: أَدْعُهُنَّ، فإن الدعوه لو كانت لأجزاء الطيور دون أنفسها كان الانسب ان يقال: ثم نادهن فإنها كانت على جبال بعيده عن موقفه عليه السّلام و اللفظ المستعمل فى البعيد خاصه هو النداء دون الدعاء، و قوله: يَا تِينَكَ سَعِيًّا، أى يتجسدن و اتصفن بالاتيان و الاسراع اليك.

قوله تعالى: وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، أى عزيز لا- يفقد شيئاً بزواله عنه، حكيم لا- يفعل شيئاً الا- من طريقه اللائق به، فيوجد الاجساد بإحضار الأرواح و ايجادها دون العكس.

و فى قوله تعالى: وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، الخ؛ دون ان يقال ان الله، الخ؛ دلالة على أن الخطور القلبي الذى كان ابراهيم يسأل ربه المشاهده ليظمن قلبه من ناحيته كان راجعا الى حقيقه معنى الاسمين: العزيز الحكيم، فأفاده الله سبحانه بهذا الجواب العلم بحقيقتهما (1).

ص: ٣٥٠

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤١) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٤٢) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِمَّنْ صَدَقَهُ يُتْبِعُهُمُ الْآذَى وَاللَّهُ عِنْدَ حَلِيمٍ (٢٤٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْمَأْذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَمَّ كَهُ صِدْقًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٤٤) وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثِيئًا مِمَّنْ أَنْفَسَتْ لَهُمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بَرْبُوهَا أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٤٥) أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصْحَابُهَا أَكْبَرُ وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٤٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّنْ طَبَّاتٍ مِمَّا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عِنْدَ حَمِيدٍ (٢٤٧) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٨) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٤٩) وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٥٠) إِنْ تَبَدَّلُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَ يُكْفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٥١) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرِ يُوْفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٥٢) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْئَلُونَ فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْيَاءً مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِحْفَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٥٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٥٤)

قوله تعالى: **مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةِ الْخَبثِ؛ المراد بسبيل الله كل أمر ينتهي الى مرضاته سبحانه لغرض ديني فعل الفعل لأجله، فإن الكلمه فى الآيه مطلقه، و ان كانت الآيه مسبوقة بآيات ذكر فيها القتال فى سبيل الله، و كانت كلمه، فى سبيل الله، مقارنه للجهد فى غير واحد من الآيات، فإن ذلك لا يوجب التخصيص و هو ظاهر.**

قوله تعالى: **أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٍ، السنبل معروف و هو على فعل، قيل الأصل فى معنى مادته الستر سمي به لانه يستر الحبات التى تشتمل عليها فى الأغلفه.**

و من اسخف الإشكال ما أورد على الآيه أنه تمثيل بما لا تحقق له فى الخارج و هو اشتمال السنبله على مائه حبه، و فيه أن المثل كما عرفت لا يشترط فيه تحقق مضمونه فى الخارج فالامثال التخلييه اكثر من ان تعد و تحصى، على ان اشتمال السنبله على مائه حبه و إنبات الحبه الواحده سبعمائه حبه ليس بعزيز الوجود.

قوله تعالى: وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ، أى يزيد على سبعمائه لمن يشاء فهو الواسع لا مانع من جوده و لا محدد لفضله كما قال تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً (البقره ٢٤٥/)، فأطلق الكثره و لم يقيدها بعدد معين.

قوله تعالى: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى الْخ؛ الاتباع للحقوق و اللاحاق، قال تعالى: فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (الشعراء ٦٠/) أى لحقوهم، و قال تعالى: وَ أَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً (القصص / ٤٢)، أى ألحقناهم، و المن هو ذكر ما ينغص المعروف كقول المنعم للمنع عليه: أنعمت عليك بكذا و كذا و نحو ذلك، و الاصل فى معناه على ما قيل القطع، و منه قوله تعالى: لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (فصلت ٨/)، أى غير مقطوع، و الاذى الضرر العاجل أو الضرر اليسير، و الخوف توقع الضرر، و الحزن الغم الذى يغلظ على النفس من مكروه واقع أو كالواقع.

قوله تعالى: قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صِدْقَةٍ الْخ؛ المعروف من القول ما لا- ينكره الناس بحسب العاده، و يختلف باختلاف الموارد، و الاصل فى معنى المغفره هو الستر، و الغنى مقابل الحاجه و الفقر، و الحلم السكوت عند المكروه من قول أو فعل.

و ترجيح القول المعروف و المغفره على صدقه يتبعها اذى ثم المقابله يشهد بأن المراد بالقول المعروف الدعاء أو لفظ آخر جميل عند رد السائل اذا لم يتكلم بما يسوء المسئول عنه، و الستر و الصفح اذا شفح سؤاله بما يسوؤه و هما خير من صدقه يتبعها اذى، فإن اذى المنفق للمنفق عليه يدل على عظم إنفاقه و المال الذى أنفقه فى عينه، و تأثره عما يسوؤه من السؤال، و هما علتان يجب أن تراحا عن نفس المؤمن، فإن المؤمن متخلق بأخلاق الله، و الله سبحانه غنى لا- يكبر عنده ما أنعم و جاد به، حلیم لا يتعجل فى المؤاخذه على السيئه، و لا يغضب عند كل جهاله، و هذا معنى ختم الآيه بقوله: وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ .

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ الخ؛ تدل الآيه على حبط الصدقه بلحوق المن و الأذى، و ربما يستدل بها على حبط كل معصيه أو الكبيره خاصه لما يسبقها من الطاعات، و لا دلالة فى الآيه على غير المن و الأذى بالنسبه الى الصدقه و قد تقدم إشباع الكلام فى الحبط.

قوله تعالى: كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ، لما كان الخطاب للمؤمنين، و المرائى غير مؤمن كما ذكره الله سبحانه لانه لا يقصد بأعماله وجه الله لم يعلق النهى بالرياء كما علقه على المن و الأذى، بل انما شبه المتصدق الذى يتبع صدقته بالمن و الأذى بالمرائى فى بطلان الصدقه، مع أن عمل المرائى باطل من رأس و عمل المانّ و المؤذى وقع أولا صحيحا ثم عرضه البطلان.

و اتحاد سياق الافعال فى قوله: يُنْفِقُ مَالَهُ، و قوله: وَلَا يُؤْمِنُ مِنْ دُونِ أَنْ يُقَالَ: و لم يؤمن يدل على أن المراد من عدم ايمان المرائى فى الإنفاق بالله و اليوم الآخر عدم ايمانه بدعوه الإنفاق الذى يدعو إليها الله سبحانه، و يعد عليه جزيل الثواب، اذ لو كان يؤمن بالداعى فى دعوته هذه، و بيوم القيامه الظاهر فيه الجزاء لقصده فى فعله وجه الله، و أحب و اختار جزيل الثواب، و لم يقصد به رياء الناس، فليس المراد من عدم ايمان المرائى عدم ايمانه بالله سبحانه رأسا.

و يظهر من الآيه: ان الرياء فى عمل يستلزم عدم الايمان بالله و اليوم الآخر فيه.

قوله تعالى: فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ ثَرَابٌ الى آخر الآيه؛ الضمير فى قوله:

فَمَثَلُهُ راجع الى الذى ينفق ماله رياء الناس و المثل له، و الصفوان و الصفا الحجر الأملس و كذا الصلد، و الوايل: المطر الغزير الشديد الوقع.

و الضمير فى قوله: لَا يَقْدِرُونَ راجع الى الذى ينفق رياء لأنه فى معنى الجمع، و الجملة تبين وجه الشبه و هو الجامع بين المشبه و المشبه به، و قوله تعالى: وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الْكَافِرِينَ بِيَانٍ لِلْحُكْمِ بِوَجْهِ عَامٍ وَهُوَ أَنَّ الْمَرَاتِي فِي رِيَائِهِ مِنْ مَصَادِيقِ الْكَافِرِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ، وَلِذَلِكَ أَفَادَ مَعْنَى التَّعْلِيلِ.

و خِلاصُهُ مَعْنَى الْمَثَلِ: أَنَّ حَالَ الْمَرَاتِي فِي إِتْفَاقِهِ رِئَاءً وَ فِي تَرْتِبِ الثَّوَابِ عَلَيْهِ كَحَالِ الْحِجْرِ الْأَمْلَسِ الَّذِي عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ التُّرَابِ إِذَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ وَابِلَ الْمَطْرِ، فَإِنَّ الْمَطْرَ وَ خِصَصَهُ وَابِلُهُ هُوَ السَّبَبُ الْبَارِزُ لِحَيَاةِ الْأَرْضِ وَ اخْضِرَارِهَا وَ تَزِينِهَا بِزِينَةِ النَّبَاتِ، إِلَّا أَنَّ التُّرَابَ إِذَا وَقَعَ عَلَى الصَّفْوَانِ الصَّلْدِ لَا يَسْتَقِرُّ فِي مَكَانِهِ عِنْدَ نَزْوِ الْوَابِلِ بَلْ يَغْسِلُهُ الْوَابِلُ وَ يَبْقَى الصَّلْدُ الَّذِي لَا يَجْذِبُ الْمَاءَ، وَ لَا يَتْرَبِي فِيهِ بَذَرُ لِنَبَاتٍ، فَالْوَابِلُ وَ إِنْ كَانَ مِنْ أَظْهَرِ أَسْبَابِ الْحَيَاةِ وَ النَّمُوِّ وَ كَذَا التُّرَابِ لَكِنْ كَوْنُ الْمَحَلِّ صُلْدًا يَبْطُلُ عَمَلُ هَذَيْنِ السَّبَبَيْنِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ النَقْصُ وَ الْقُصُورُ مِنْ جَانِبِهِمَا فَهَذَا حَالُ الصَّلْدِ.

وَ هَذَا حَالُ الْمَرَاتِي فَإِنَّهُ لَمَّا لَمْ يَقْصِدْ مِنْ عَمَلِهِ وَجْهَ اللَّهِ لَمْ يَتْرَبْ عَلَى عَمَلِهِ ثَوَابٌ وَ إِنْ كَانَ الْعَمَلُ كَالْإِتْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْبَارِزَةِ لِتَرْتِبِ الثَّوَابِ، فَإِنَّهُ مَسْلُوبُ الْإِسْتِعْدَادِ لَا يَقْبَلُ قَلْبُهُ الرَّحْمَةَ وَ الْكِرَامَةَ.

وَ قَدْ ظَهَرَ مِنَ الْآيَةِ: أَنَّ قَبُولَ الْعَمَلِ يَحْتَاجُ إِلَى نِيَّةِ الْإِخْلَاصِ وَ قِصْدِ وَجْهِ اللَّهِ، وَ قَدْ رَوَى الْفَرِيقَانِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: أَنَّهُ قَالَ: إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَ تَثْبِيئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، ابْتِغَاءَ الْمَرْضَاهِ هُوَ طَلْبُ الرِّضَا، وَ يَعُودُ إِلَى إِرَادَةِ وَجْهِ اللَّهِ، فَإِنَّ وَجْهَ الشَّيْءِ هُوَ مَا يُوَاجِهُكَ وَ يَسْتَقْبِلُكَ بِهِ، وَ وَجْهَهُ تَعَالَى بِالنَّسْبَةِ إِلَى عَبْدِهِ الَّذِي أَمَرَهُ بِشَيْءٍ وَ إِرَادَهُ مِنْهُ هُوَ رِضَاؤُهُ عَنِ فِعْلِهِ وَ امْتِثَالِهِ، فَإِنَّ الْأَمْرَ يَسْتَقْبَلُ الْأُمُورَ أَوَّلًا بِالْأَمْرِ فَإِذَا امْتَثَلَ اسْتَقْبَلَهُ بِالرِّضَا عَنْهُ، فَمَرْضَاهُ اللَّهُ عَنِ الْعَبْدِ الْمَكْلُوفِ بِتَكْلِيفٍ هُوَ وَجْهُهُ إِلَيْهِ، فَابْتِغَاءَ مَرْضَاهُ اللَّهُ هُوَ إِرَادَةُ وَجْهِهِ عَزَّ وَ جَلَّ.

وَ أَمَّا قَوْلُهُ: وَ تَثْبِيئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ التَّصَدِيقَ وَ الْيَقِينَ. وَ قِيلَ: هُوَ

التثبت اى يتثبتون اين يضعون اموالهم، وقيل: هو التثبت فى الانفاق فإن كان لله امضى، و ان كان خالطه شىء من الرياء امسك، و قيل: التثبيت توطين النفس على طاعه الله تعالى، وقيل:

هو تمكين الله. و انت خبير بأن شيئا من الاقوال لا ينطبق على الآيه إلا بتكلف.

و الذى ينبغى ان يقال- و الله العالم- فى المقام: هو ان الله سبحانه لما اطلق القول اولا فى مدح الانفاق فى سبيل الله، و ان له عند الله عظيم الاجر اعترضه ان استثنى منه نوعين من الانفاق لا يرتضيهما الله سبحانه، و لا يترتب عليهما الثواب، و هما الانفاق رياء الموجب لعدم صحه العمل من رأس و الانفاق الذى يتبعه من أو أدى فإنه يبطل بهما و ان انعقد اولا صحيحا، و ليس يعرض البطلان، لهذين النوعين الا- من جهه عدم ابتغاء مرضاه الله فيه من رأس، أو لزوال النفس عن هذه النيه اعنى ابتغاء المرضاه ثانيا بعد ما كانت عليها اولا، فأراد فى هذه الآيه بيان حال الخاصه من أهل الانفاق الخالصه بعد استثناء المرئين و اهل المن و الاذى، و هم الذين ينفقون اموالهم ابتغاء وجه الله ثم يقرون انفسهم على الثبات على هذه النيه الطاهره الناميه من غير ان يتبعوها بما يبطل العمل و يفسده.

و من هنا يظهر ان المراد بابتغاء مرضاه الله ان لا يقصد بالعمل رياء و نحوه مما يجعل النيه غير خالصه لوجه الله، و بقوله تثبिता من انفسهم تثبیت الانسان نفسه على ما نواه من النيه الخالصه، و هو تثبیت ناش من النفس واقع على النفس. فقوله تثبिता تميز و كلمه من نشويه و قوله انفسهم فى معنى الفاعل، و ما فى معنى المفعول مقدر. و التقدير تثبिता من انفسهم لانفسهم، أو مفعول مطلق لفعل من مادته.

قوله تعالى: كَمَثَلِ جَنِّ بَرَبُوهٖ اَصَابَهَا وَاِبِلٌ اِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الاصل فى ماده ربا الزيادة، و الربوه بالحركات الثلاث فى الرء الارض الجيده التى تزيد و تعلقو فى نموها، و الاكل بضمين ما يؤكل من الشىء و الواحده أكله. و الطل اضعف المطر القليل الأثر.

و الغرض من المثل ان الانفاق الذى أريد به وجه الله لا يتخلف عن اثرها الحسن البته، فإن

العنايه الالهيه واقعه عليه متعلقه به لانحفاظ اتصاله بالله سبحانه و ان كانت مراتب العنايه مختلفه لاختلاف درجات النيه فى الخلوص، و اختلاف وزن الاعمال باختلافها، كما ان الجنه التى فى الربوه اذا اصابها المطر لم تلبث دون ان تؤتى أكلها ايتاء جيدا البته و إن كان إيتائها مختلفا فى الجوده باختلاف المطر النازل عليه من وابل و طل.

و لوجود هذا الاختلاف ذيل الكلام بقوله: **وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** أى لا يشتبه عليه امر الثواب، و لا يختلط عليه ثواب الاعمال المختلفه فيعطى ثواب هذا لذاك و ثواب ذاك لهذا.

قوله تعالى: **أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ** الخ؛ الود هو الحب و فيه معنى التمنى، و الجنه: الشجر الكثير الملتف كالبستان سميت بذلك لانها تجن الارض و تسترها و تقيها من ضوء الشمس و نحوه، و لذلك صح ان يقال: تجرى من تحتها الانهار، و لو كانت هى الارض بما لها من الشجر مثلا لم يصح ذلك لافادته خلاف المقصود، و لذلك قال تعالى فى مثل الربوه و هى الارض المعموره: **رَبُّوهُ ذَاتِ قَرَارٍ وَ مَعِينٍ** (المؤمنون ٥٠/١)، و كرر فى كلامه قوله: **جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** فجعل المعين (و هو الماء) فيها لا جاريا تحتها.

و من فى قوله: **مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ** للتبيين و يفيد معنى الغلبه دون الاستيعاب، فإن الجنه و البستان و ما هو من هذا القبيل إنما يضاف الى الجنس الغالب فيقال جنه العنب أو جنه من أعناب اذا كان الغالب فيها الكرم و هى لا- تخلو مع ذلك من شجر شتى، و لذلك قال تعالى ثانيا:

له فيها من كل الثمرات.

و الكبر كبر السن و هو الشيخوخه، و الذريه الاولاد، و الضعفاء جمع الضعيف، و قد جمع تعالى فى المثل بين إصابه الكبر و وجود الذريه الضعفاء لتثبيت مسيس الحاجه القطعيه الى الجنه المذكوره مع فقدان باقى الاسباب التى يتوصل إليها فى حفظ سعادته الحياه و تأمين المعيشه، فإن صاحب الجنه لو فرض شابا قويا لأمكنه ان يستريح الى قوه يمينه لو أصيبت

جنته بمصيبه، و لو فرض شيخا هرما من غير ذريه ضعفاء لم يسؤ حاله تلك المساءه لانه لا يرى لنفسه إلا أياما قلائل لا يبطئ عليه زوالها و انقضائها، و لو فرض ذا كبر و له اولاد أقوياء يقدرّون على العمل و اكتساب المعيشه امكنهم ان يقتاتوا بما يكتسبون، و ان يستغنوا عنها بوجه! لكن اذا اجتمع هناك الكبر و الذريه الضعفاء، و احترقت الجنه انقطعت الاسباب عنهم عند ذلك، فلا صاحب الجنه يمكنه ان يعيد لنفسه الشباب و القوه أو الايام الخاليه حتى يهيئ لنفسه نظير ما كان قد هيأها، و لا لذريته قوه على ذلك، و لا لهم رجاء ان ترجع الجنه بعد الاحتراق الى ما كانت عليه من النضاره و الاثمار.

و الاعصار الغبار الذى يلتف على نفسه بين السماء و الارض كما يلتف الثوب على نفسه عند العصر.

و هذا مثل ضربه الله للذين ينفقون أموالهم ثم يتبعونه منا و أذى فيحبط عملهم و لا سبيل لهم الى إعادة العمل الباطل الى حال صحته و استقامته، و انطباق المثل على الممثل ظاهر، و رجا منهم التفكير لان امثال هذه الأفاعيل المفسده للأعمال انما تصدر من الناس و معهم حالات نفسانيه كحب المال و الجاه و الكبر و العجب و الشح، لا تدع للانسان مجال الثبت و التفكير و تميز النافع من الضار، و لو تفكروا لتبصروا.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ الخ؛ التيمم هو القصد و التعمد، و الخبيث ضد الطيب، و قوله: مِنْهُ متعلق بالخبيث، و قوله: تُنْفِقُونَ حال من فاعل لا- تيمموا، قوله: وَ لَسْتُمْ بِأَخْدِيهِ حال من فاعل تنفقون، و عامله الفعل، و قوله ان تغمضوا فيه فى تأويل المصدر، و اللام مقدر على ما قيل و التقدير إلا لاغماضكم فيه، أو المقدر باء المصاحبه و التقدير إلا بمصاحبه الاغماض.

و معنى الآيه ظاهر، و إنما بين تعالى كيفيه مال الانفاق، و انه ينبغى ان يكون من طيب المال لا من خبيثه الذى لا يأخذه المنفق إلا بإغماض، فإنه لا يتصف بوصف الجود و السخاء، بل

يتصور بصورة التخلص، فلا- يفيد حبا للصنيعه و المعروف و لا كمالا للنفس، و لذلك ختمها بقوله: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ
أى راقبوا فى إنفاقكم غناه و حمده فهو فى عين غناه يحمد إنفاقكم الحسن فأنفقوا من طيب المال، أو انه غنى محمود لا ينبغي
ان تواجهوه بما لا يليق بجلاله جل جلاله.

قوله تعالى: الشَّيْطَانُ يُعِدُّكُمْ لِلْفَقْرِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ إقامه للحجه على ان اختيار خبيث المال للانفاق ليس بخير للمنفقين
بخلاف اختيار طيبه فإنه خير لهم، ففى النهى مصلحه أمرهم كما ان فى المنهى عنه مفسده لهم، و ليس إمساكهم عن انفاق طيب
المال و بذله إلا لما يرونه مؤثرا فى قوام المال و الثروه فتقبض نفوسهم عن الاقدام الى بذله بخلاف خبيثه فإنه لا قيمه له يعنى
بها فلا بأس بإنفاقه، و هذا من تسويل الشيطان يخوف أوليائه من الفقر، مع ان البذل و ذهاب المال و الانفاق فى سبيل الله و ابتغاء
مرضاته مثل البذل فى المعاملات لا يخلو عن العوض و الربح كما مر، مع ان الذى يغنى و يقنى هو الله سبحانه دون المال، قال
تعالى:

وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَ أَقْنَىٰ (النجم ٤٨).

و بالجملة لما كان إمساكهم عن بذل طيب المال خوفا من الفقر خطأ نبه عليه بقوله:

الشيطان يعدكم الفكر، غير انه وضع السبب موضع المسبب، أعنى انه وضع وعد الشيطان موضع خوف انفسهم ليدل على انه
خوف مضر لهم فإن الشيطان لا يأمر إلا بالباطل و الضلال إما ابتداء و من غير واسطه، و إما بالآخره و بواسطه ما يظهر منه انه حق.

و لما كان من الممكن ان يتوهم ان هذا الخوف حق و إن كان من ناحيه الشيطان دفع ذلك بإتباع قوله: الشَّيْطَانُ يُعِدُّكُمْ لِلْفَقْرِ
بقوله: وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ أولاً، فإن هذا الامسك و التثاقل منهم يهين فى نفوسهم ملكه الامسك و سجيته البخل، فيؤدى الى رد
أوامر الله المتعلقة بأموالهم و هو الكفر بالله العظيم، و يؤدى الى إلقاء أرباب الحاجه فى تهلكه الاعسار و الفقر و المسكنه التى
فيه تلف النفوس و انهتك الاعراض و كل جنايه و فحشاء، قال تعالى:

وَ مِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ فَاعْتَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ إِلَى ان قَالَ: الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (التوبه / ٧٩).

ثم ياتباعه بقوله: وَ اللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَ فَضْلًا وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ثانيًا، فإن الله قد بين للمؤمنين: ان هناك حقا و ضلالا لا ثالث لهما، و ان الحق و هو الطريق المستقيم هو من الله سبحانه، و ان الضلال من الشيطان، قال تعالى: فَمَّا ذَا بَعِدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ (يونس ٣٢)، و قال تعالى: قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ (يونس ٣٥)، و قال تعالى في الشيطان: إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (القصص ١٥)، و الآيات جميعا مكيه، و بالجمله نبه تعالى بقوله: وَ اللَّهُ يَعِدُكُمْ ، بأن هذا الخاطر الذي يخطر ببالكم من جهه الخوف ضلال من الفكر فإن مغفره الله الزيادة التي ذكرها في الآيات السابقه انما هما في البذل من طيبات المال.

فقوله تعالى: وَ اللَّهُ يَعِدُكُمْ، الخ؛ نظير قوله: الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ، الخ؛ من قبيل وضع السبب موضع المسبب، و فيه القاء المقابله بين وعد الله سبحانه الواسع العليم و وعد الشيطان، لينظر المنفقون في امر الواعدين و يختاروا ما هو اصلح لبالهم منهما.

فحاصل حجه الآيه: ان اختياركم الخبيث على الطيب انما هو لخوف الفقر، و الجهل بما يستتبعه هذا الانفاق، أما خوف الفقر فهو القاء، شيطاني، و لا يريد الشيطان بكم الا الضلال و الفحشاء فلا يجوز ان تتبعوه، و اما ما يستتبعه هذا الانفاق فهو الزيادة و المغفره اللتان ذكرتا لكم في الآيات السابقه، و هو استتباع بالحق لان الذي يعدكم استتباع الانفاق لهذه المغفره و الزيادة هو الله سبحانه و وعده حق، و هو واسع يسعه ان يعطى ما وعده من المغفره و الزيادة و عليم لا يجهل شيئا و لا حالا من شىء فوعده و وعده عن علم.

قوله تعالى: يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ، الايتاء هو الاعطاء، والحكمه بكسر الحاء على فعله بناء نوع يدل على نوع المعنى فمعناه النوع من الإحكام و الإتيان أو نوع من الامر المحكم المتقن الذى لا يوجد فيه ثلمه و لا فتور، و غلب استعماله فى المعلومات العقلية الحقه الصادقه التى لا تقبل البطلان و الكذب البته.

و الجمله تدل على ان البيان الذى بين الله به حال الانفاق بجمع علله و أسبابه و ما يستتبعه من الاثر الصالح فى حقيقه حياه الانسان هو من الحكمه، فالحكمه هى القضايا الحقه المطابقه للواقع من حيث اشتمالها بنحو على سعادته الانسان كالمعارف الحقه الالهيه فى المبدأ و المعاد، و المعارف التى تشرح حقائق العالم الطبيعى من جهه مساسها بسعادته الانسان كالحقائق الفطريه التى هى أساس التشريعات الدينيه.

قوله تعالى: وَ مَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا، المعنى ظاهر، و قد أبهم فاعل الايتاء مع ان الجمله السابقه عليه تدل على انه الله تبارك و تعالى ليدل الكلام على ان الحكمه بنفسها منشأ الخير الكثير فالتلبس بها يتضمن الخير الكثير، لا من جهه انتساب اتيانه اليه تعالى، فإن مجرد انتساب الايتان لا يوجب ذلك كإيتاء المال، قال تعالى فى قارون:

وَ آتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَثَرًا ۚ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوتُ بِالْعِضِيِّ بِهِ أُولَى الْقُوَّةِ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ (القصص / ٧٦)؛ و انما نسب إليها الخير الكثير دون الخير مطلقاً، مع ما عليه الحكمه من ارتفاع الشأن و نفاسه الامر لان الامر مختوم بعنايه الله و توفيقه، و امر السعاده مراعى بالعاقبه و الخاتمه.

قوله تعالى: وَ مِمَّا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ، اللب هو العقل لانه فى الانسان بمنزله اللب من القشر، و على هذا المعنى استعمل فى القرآن، و كأن لفظ العقل بمعناه المعروف اليوم من الاسماء المستحدثه بالغلبه و لذلك لم يستعمل فى القرآن و إنما استعمل منه الافعال مثل يعقلون.

و التذكر هو الانتقال من النتيجة الى مقدماتها، أو من الشئ الى نتائجها، و الآيه تدل

على أن اقتناص الحكمه يتوقف على التذکر، وأن التذکر يتوقف على العقل، فلا حكمه لمن لا عقل له. وقد مر بعض الكلام في العقل عند البحث عن ألفاظ الإدراك المستعمله في القرآن الكريم.

قوله تعالى: وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ، أى ما دعاكم الله سبحانه اليه أو دعوتكم أنفسكم اليه بإيجابه عليها بالنذر من بذل المال فلا يخفى على الله يثيب من أطاعه و يؤاخذ من ظلم، ففيه إيماء الى التهديد، و يؤكد قوله تعالى: وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ.

و فى هذه الجملة أعنى قوله: وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ، دلالة اولاه على أن المراد بالظلم هو الظلم على الفقراء و المساكين فى الإمساك عن الإنفاق عليهم، و حبس حقوقهم المالىة، لا الظلم بمعنى مطلق المعصيه فإن فى مطلق المعصيه أنصارا و مكفريات و شفعاء كالتوبه، و الاجتناب عن الكبائر، و شفعاء يوم القيامة اذا كان من حقوق الله تعالى، قال تعالى: لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا الى ان قال: وَ أَنْبِئُوا إِلَهِكُمْ رَبَّكُمْ (الزمر ٥٤)، و قال تعالى: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ (النساء ٣١)، و قال تعالى: وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى (الأنبياء ٢٨).

و من هنا يظهر: وجه اتيان الانصار بصيغه الجمع فإن فى مورد مطلق الظلم أنصارا.

و ثانيا: أن هذا الظلم و هو ترك الإنفاق لا- يقبل التكفير و لو كان من الصغائر لقبه فهو من الكبائر، و أنه لا يقبل التوبه، و يتأيد بذلك ما وردت به الروايات: أن التوبه فى حقوق الناس غير مقبوله إلا برد الحق الى مستحقه، و أنه لا يقبل الشفاعة يوم القيامة كما يدل عليه قوله تعالى: إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ الى أن قال: فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (المدثر / ٤٨).

و ثالثاً: أن هذا الظالم غير مرتضى عند الله إذ لا شفاعه إلا لمن ارتضى الله دينه كما مر بيانه فى بحث الشفاعه، و من هنا تظهر النكته فى قوله تعالى: يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ، حيث أتى بالمرضاة و لم يقل ابتغاء وجه الله.

و رابعاً: أن الامتناع من أصل انفاق المال على الفقراء مع وجودهم و احتياجهم من الكبائر الموبقه، و قد عد تعالى الامتناع عن بعض أقسامه كالزكاة شركاً بالله و كفراً بالآخره، قال تعالى: وَيَلِّ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (فصلت ٧)، و السوره مكيه و لم تكن شرعت الزكاة المعروفه عند نزولها.

قوله تعالى: إِنَّ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ الخ؛ الابداء هو الاظهار، و الصدقات جمع صدقه، و هى مطلق الانفاق فى سبيل الله أعم من الواجب و المندوب و ربما يقال: إن الاصل فى معناها الانفاق المندوب.

و قد مدح الله سبحانه كلا من شقى التريد، لكون كل واحد من الشقين ذا آثار صالحه، فأما اظهار الصدقه فإن فيه دعوه عمليه الى المعروف، و تشويقاً للناس الى البذل و الانفاق، و تطيباً لنفوس الفقراء و المساكين حيث يشاهدون أن فى المجتمع رجالاً رحماء بحالهم، و أموالاً - موضوعه لرفع حوائجهم، مدخره ليوم يؤسهم فيؤدى الى زوال اليأس و القنوط عن نفوسهم، و حصول النشاط لهم فى أعمالهم، و اعتقاد وحده العمل و الكسب بينهم و بين الاغنياء المثرين، و فى ذلك كل الخير، و أما اخفائها فإنه حينئذ يكون أبعد من الرياء و المن و الأذى، و فيه حفظ لنفوس المحتاجين عن الخزى و المذله، و صون لماء و جوههم عن الابتذال، و كلاءه لظاهر كرامتهم، فصدقه العلن أكثر نتاجاً، و صدقه السر أخلص طهاره.

و لما كان بناء الدين على الاخلاص و كان العمل كلما قرب من الاخلاص كان أقرب من الفضيله رجح سبحانه جانب صدقه السر فقال: و ان تخفوها و تعطوها الفقراء فهو خير لكم فإن كلمه خير أفعل التفضيل، و الله تعالى خير بأعمال عباده لا يخطئ فى تمييز الخير من

غيره، و هو قوله تعالى: **وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** .

قوله تعالى: **لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**، فى الكلام التفات عن خطاب المؤمنين الى خطاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و كأن ما كان يشاهده رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم من فعال المؤمنين فى صدقاتهم من اختلاف السجايا بالإخلاص من بعضهم و المن و الأذى و الثاقل فى إنفاق طيب المال من بعض مع كونهم مؤمنين أوجد فى نفسه الشريفة و جدا و حزنا فسلاه الله تعالى بالتنبيه على أن أمر هذا الايمان الموجود فيهم و الهدى الذى لهم إنما هو الى الله تعالى يهدى من يشاء الى الايمان و الى درجاته، و ليس يستند الى النبى لا وجوده و لا بقائه حتى يكون عليه حفظه، و يشتق من زواله أو ضعفه، أو يسوؤه ما آل إليه الكلام فى هذه الآيات من التهديد و الإيعاد و الخشونه.

و الشاهد على ما ذكرناه قوله تعالى: **هُدَاهُمْ**، بالتعبير بالمصدر المضاف الظاهر فى تحقق التلبس، على أن هذا المعنى أعنى فى استناد الهدايه الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم و إسناده الى الله سبحانه حيث وقع فى القرآن و وقع فى مقام تسليه النبى و تطيب قلبه.

فالجمله أعنى قوله: **لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** جمله معترضه اعترضت فى الكلام لتطيب قلب النبى بقطع خطاب المؤمنين و الإقبال عليه صلى الله عليه و آله، نظير الاعتراض الواقع فى قوله تعالى: **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ الآيات**، (القيمه ١٧)؛ فلما تم الاعتراض عاد الى الأصل فى الكلام من خطاب المؤمنين.

قوله تعالى: **وَ مَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَ مَا تَنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ إِلَى آخِر الآيه**؛ رجوع الى خطاب المؤمنين بسياق خال عن التبشير و الإنذار و التحنن و التغيظ معا، فإن ذلك مقتضى معنى قوله تعالى: **وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** كما لا يخفى. فقصر الكلام على الدعوه الخاليه بالدلاله على أن ساحه المتكلم الداعى منزله عن الانتفاع بما

يتعب هذه الدعوه من المنافع، وإنما يعود نفعه الى المدعوين، فما تنفقوا من خير فلا أنفسكم لكن لا مطلقا بل فى حال لا تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، فقوله: **وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ** حال، من ضمير الخطاب و عامله متعلق الظرف أعنى قوله: **فَلَا تُنْفِسُكُمْ** .

و لما أمكن ان يتوهم ان هذا النفع العائد الى أنفسهم ببذل المال مجرد اسم لا مسمى له فى الخارج، و ليس حقيقته إلا تبديل الحقيقه من الوهم عقب الكلام بقوله: **وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ**، فبين ان نفع هذا الانفاق المندوب و هو ما يترتب عليه من مثوبه الدنيا و الآخره ليس امرا وهميا، بل هو أمر حقيقى واقعى سيوفيه الله تعالى اليكم من غير ان يظلمكم بفقد أو نقص.

و إبهام الفاعل فى قوله: **يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ**، لما تقدم أن السياق سياق الدعوه فطوى، ذكر الفاعل ليكون الكلام ابلغ فى النصح و انتفاء غرض الانتفاع من الفاعل كأنه كلام لا متكلم له، فلو كان هناك نفع فلسامع لا غير.

قوله تعالى: **لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ** الى آخر الآية؛ الحصر هو المنع و الحبس، و الأصل فى معناه التضيق، قال الراغب فى المفردات: و الحصر و الاحصار المنع من طريق البيت، فالاحصار يقال: فى المنع الظاهر كالعدو، و المنع الباطن كالمرض، و الحصر لا يقال، إلا فى المنع الباطن، فقوله تعالى: **فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَحْمُولٌ عَلَى الْأَمْرَيْنِ** و كذلك قوله: **لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**، و قوله عزّ و جل: **أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ**، أى ضاقت بالبخل و الجبن، انتهى. و التعفف التلبس بالعفه، و السيماء العلامه، و الالحاف هو الالحاح فى السؤال.

و فى الآية بيان مصرف الصدقات، و هو أفضل المصروف، و هم الفقراء الذين منعوا فى سبيل الله و حبسوا فيه بتأديه عوامل و اسباب الى ذلك: اما عدو اخذ مالهم من السترو اللباس أو منعهم التعيش بالخروج الى الاكتساب أو مرض أو اشتغال بما لا يسعهم معه الاشتغال

بالكسب كطالب العلم و غير ذلك.

و فى قوله تعالى يحسبهم الجاهل اى الجاهل بحالهم اغنياء من التعفف دلالة على انهم غير متظاهرين بالفقر إلا ما لا سبيل لهم الى ستره من علائم الفقر و المسكنه من بشره أو لباس خلق أو نحوهما.

و من هنا يظهر: ان المراد بقوله: لا يَسْتَيْلُونَ النَّاسَ إِخْفًا أَنَّهُمْ لا- يسألون الناس اصلاً حتى ينجر الى الالحاف و الاصرار فى السؤال، فإن السؤال أول مره يجوز للنفس الجزع من مراره الفقر فيسرع إليها ان لا تصبرونهم بالسؤال فى كل موقف، و الالحاف على كل أحد، كذا قيل، و لا يبعد ان يكون المراد نفي الالحاف لا اصل السؤال، و يكون المراد بالالحاف ما يزيد على القدر الواجب من إظهار الحاجة، فإن مسمى الاظهار عند الحاجة المبرمه لا بأس به بل ربما صار واجبا، و الزائد عليه و هو الالحاف هو المذموم.

و فى قوله تعالى: تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ دون ان يقال تعرفونهم نوع صون لجاههم و حفظ لسترهم الذى تستروا به تعففا من الانهتاك فإن كونهم معروفين بالفقر عند كل أحد لا يخلو من هوان امرهم و ظهور ذلهم. و أما معرفه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بحالهم بتوسمه من سيماهم، و هو نبيهم المبعوث اليهم الرؤوف الحنين بهم فليس فيه كسر لشأنهم، و لا ذهاب كرامتهم، و هذا- و الله أعلم- هو السر فى الالتفات عن خطاب المجموع الى خطاب المفرد.

قوله تعالى: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ السر و العلانية متقابلان و هما حالان من ينفقون و التقدير مسرين و معلنين، و استيفاء الازمنه و الاحوال فى الانفاق للدلالة على اهتمام المنفقين فى استيفاء الثواب، و إمعانهم فى ابتغاء مرضاه الله، و إرادته وجهه، و لذلك تدلى الله سبحانه منهم فوعدهم وعدا حسنا بلسان الرأفة و التلطف

فقال: لهم أجرهم عند ربهم، الخ (١).

[سوره البقره (٢): الآيات ٢٧٥ الى ٢٨١]

اشاره

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ
وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥)
يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا
الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنِ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَ
إِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ
نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)

ص: ٣٦٨

١- ١). البقره ٢٦١-٢٧٤ بحث روائى فى الانفاق و الصدقه و الحكمه.

قوله تعالى: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ، الخبط هو المشى على غير استواء، يقال خبط البعير إذا اختل جهه مشيه، وللإنسان في حياته طريق مستقيم لا ينحرف عنه، فإنه لا محاله ذو أفعال و حركات في طريق حياته بحسب المحيط الذى يعيش فيه، وهذه الافعال محفوظه النظام بأحكام اعتقاديه عقلانيه وضعها و نظمها الإنسان ثم طبق عليها أفعاله الانفراديه و الاجتماعيه، فهو يقصد الاكل اذا جاع، و يقصد الشرب اذا عطش، و الفراش اذا اشتهى النكاح، و الاستراحه اذا تعب، و الاستظلال اذا أراد السكن و هكذا، و ينبسط لامور و ينقبض عن اخرى فى معاشرته، و يريد كل مقدمه عند اراده ذيهها، و اذا طلب مسببا مال الى جهه سببه.

و هذه الافعال على هذه الاعتقادات مرتبطه متحده نحو اتحاد متلائمه غير متناقضه و مجموعها طريق حياته (١).

قوله تعالى: ذَلِكُمْ بِمَا أَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا، قد تقدم الوجه فى تشبيه البيع بالربا دون العكس بأن يقال: إنما الربا مثل البيع فإن من استقر به الخبط و الاختلال كان واقفا فى موقف خارج عن العاده المستقيمه، و المعروف عند العقلاء و المنكر عندهم سيان عنده، فاذا أمرته بترك ما يأتيه من المنكر و الرجوع الى المعروف أجابك- لو أجاب- أن

ص: ٣٦٩

الذى تأمرنى به كالى تنهانى عنه لا مزيه له عليه، و لو قال: ان الذى تنهانى عنه كالى تأمرنى به كان عاقلا غير مختل الادراك فإن معنى هذا القول: أنه يسلم أن الذى يؤمر به أصل ذو مزيه يجب اتباعه لكنه يدعى ان الذى ينهى عنه ذو مزيه مثله، و لم يكن معنى كلامه إبطال المزيه و إهماله كما يراه الممسوس، و هذا هو قول المرابى المستقر فى نفسه الخبط: إنما البيع مثل الربا، و لو أنه قال: ان الربا مثل البيع لكان رادا على الله جاحدا للشريعه لا خابطا كالممسوس.

و الظاهر ان قوله تعالى: ذَلِكْ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا حكاية لحالهم الناطق بذلك و ان لم يكونوا قالوا ذلك بألسنتهم، و هذا السياق أعنى حكاية الحال بالقول، معروف عند الناس.

قوله تعالى: وَ أَحْيَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبَا، جملة مستأنفه بناء على ان الجملة الفعلية المصدره بالماضى لو كانت حالا- لوجب تصديرها بقدم. يقال: جاءنى زيد و قد ضرب عمرا، و لا يلائم كونها حالا ما يفيد أول الكلام من المعنى، فإن الحال قيد لزمان عامله و ظرف لتحققه، فلو كانت حالا- لأفادت: أن تخبطهم لقولهم انما البيع مثل الربا انما هو فى حال أحل الله البيع و حرم الربا عليهم، مع ان الامر على خلافه فهم خابطون بعد تشريع هذه الحليه و الحرمة و قبل تشريعهما، فالجملة ليست حالیه و انما هى مستأنفه.

و هذه المستأنفه غير متضمنه للتشريع الابتدائى على ما تقدم أن الآيات ظاهره فى سيق أصل تشريع الحرمة، بل بانيه على ما تدل عليها آيه آل عمران: أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (آل عمران ١٣٠) فالجملة أعنى قوله: وَ أَحْيَلَّ اللَّهُ، الخ؛ لا- تدل على إنشاء الحكم، بل على الإخبار عن حكم سابق و توطئه لتفرع قوله بعدها: فمن جاءه موعظه من ربه، الخ؛ هذا ما ينساق اليه ظاهر الآيه الشريفه.

قوله تعالى: **فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ**، تفرغ على قوله: **وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ**، الخ؛ والكلام غير مقيد بالربا، فهو حكم كلي وضع في مورد جزئي للدلالة على كونه مصداقا من مصاديقه يلحقه حكمه، والمعنى ان ما ذكرناه لكم في امر الربا موعظه جاءكم من ربكم و من جاءه موعظه، الخ؛ فان انتهيتم فلکم ما سلف و أمرکم الى الله. و من هنا يظهر: ان المراد من مجيء الموعظه بلوغ الحكم الذي شرعه الله تعالى، و من الانتهاء التوبه و ترك الفعل المنهى عنه انتهاءً عن نهيه تعالى، و من كون ما سلف لهم عدم انعطاف الحكم و شموله لما قبل زمان بلوغه، و من قوله: **فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ**، انه لا يتحتم عليهم العذاب الخالد الذي يدل عليه قوله: **وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**، فهم منتفعون فيما اسلفوا بالتخلص من هذه المهلكه، و يبقى عليهم: ان امرهم الى الله فربما اطلقهم في بعض الاحكام، و ربما وضع عليهم ما يتدارك به ما فوتوه.

و اعلم: ان أمر الآيه عجيب، فان قوله: **فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ** مع ما يشتمل عليه من التسهيل و التشديد حكم غير خاص بالربا، بل عام يشمل جميع الكبائر الموبقه، و القوم قد قصرُوا في البحث عن معناها حيث اقتصرُوا بالبحث عن مورد الربا خاصه من حيث العفو عما سلف منه، و رجوع الامر الى الله فيمن انتهى، و خلود العذاب لمن عاد اليه بعد مجيء الموعظه، هذا كله ما تراه من العموم في الآيه.

و أما قوله: **وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**، فوقع العود في هذه الجملة في مقابل الانتهاء الواقع في الجملة السابقة يدل على ان المراد به العود الذي يجمع عدم الانتهاء، و يلازم ذلك الإصرار على الذنب و عدم القبول للحكم و هذا هو الكفر أو الرده باطنا و لو لم يتلفظ في لسانه بما يدل على ذلك، فإن من عاد الى ذنب و لم ينته عنه و لو بالندم فهو غير مسلم للحكم تحقيقا و لا يفلح ابدا. فالترديد في الآيه بحسب الحقيقه بين تسليم الحكم الذي لا يخلو عن البناء على عدم المخالفه و بين الإصرار الذي لا يخلو غالبا عن

عدم التسليم المستوجب للخلود على ما عرفت.

و من هنا يظهر الجواب عن استدلال المعتزله بالآيه على خلود مرتكب الكبيره فى العذاب. فان الآيه و ان دلت على خلود مرتكب الكبيره بل مطلق من اقترف المعصيه فى العذاب لكن دلالتها مقصوره على الارتكاب مع عدم تسليم الحكم و لا محذور فيه.

قوله تعالى: **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ** الخ؛ المحق نقصان الشئ حالا بعد حال، و وقوعه فى طريق الفناء و الزوال تدريجا، و الإرباء الإنماء، و الأثيم الحامل للإثم، و قد مر معنى الاثم.

و قد قوبل فى الآيه بين إرباء الصدقات و محق الربا، و قد تقدم ان إرباء الصدقات و إنمائها لا يختص بالآخره بل هى خاصه لها عامه تشمل الدنيا كما تشمل الآخره فمحق الربا ايضا كذلك لا محاله.

فكما أن من خاصه الصدقات أنها تنمى المال إنماء يلزمها ذلك لزوما قهريا لا ينفك عنها من حيث أنها تنشر الرحمه و تورث المحبه و حسن التفاهم و تألف القلوب و تبسط الامن و الحفظ، و تصرف القلوب عن ان تهتم بالغضب و الاختلاس و الإفساد و السرقة، و تدعو الى الاتحاد و المساعده و المعاونه، و تنسد بذلك أغلب طرق الفساد و الفناء الطارئه على المال، و يعين جميع ذلك على نماء المال و دره أضعافا مضاعفه.

كذلك الربا من خاصته انه يمحق المال و يفنيه تدريجا من حيث انه ينشر القوه و الخساره، و يورث البغض و العداوه و سوء الظن، و يفسد الامن و الحفظ، و يهيج النفوس على الانتقام بأى وسيله أمكنت من قول أو فعل مباشره أو تسييبا، و تدعوا الى التفرق و الاختلاف، و تفتح بذلك أغلب طرق الفساد و أبواب الزوال على المال، و قلما يسلم المال عن آفه تصيبه، أو بليه تعمه.

و كل ذلك لأن هذين الامرين أعنى الصدقه و الربا مربوطان مما سان بحياه طبقه الفقراء

والمعوزين وقد هاجت بسبب الحاجه الضروريه احساساتهم الباطنيه، واستعدت للدفاع عن حقوق الحياه نفوسهم المنكوبه المستذله، وهموا بالمقابله بالغما ما بلغت، فان أحسن اليهم بالصنيعه و المعروف بلا عوض - والحال هذه - وقعت احساساتهم على المقابله بالإحسان و حسن النيه و أثرت الاثر الجميل، و إن أسىء اليهم باعمال القسوه و الخشونه و إذهاب المال و العرض و النفس قابلوها بالانتقام و النكايه بأى وسيله، و قلما يسلم من تبعات هذه الهمم المهلكه أحد من المرابين على ما يذكره كل أحد مما شاهد من اخبار آكلى الربا من ذهاب اموالهم و خراب بيوتهم و خسران مساعيهم (1).

قوله تعالى: وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ، تعليل لمحق الربا بوجه كلى، و المعنى ان آكل الربا كثير الكفر لكفره بنعم كثيره من نعم الله لستره على الطرق الفطريه فى الحياه الانسانيه، و هى طرق المعاملات الفطريه، و كفره بأحكام كثيره فى العبادات و المعاملات المشروعه، فإنه بصرف مال الربا فى مأكله و مشربه و ملبسه و مسكنه يبطل كثيرا من عباداته بفقدان شرائط مأخوذه فيها، و باستعماله فيما بيده من المال الربوى يبطل كثيرا من معاملات، و يضمّن غيره، و يغضب مال غيره فى موارد كثيره، و باستعمال الطمع و الحرص فى اموال الناس و الخشونه و القسوه فى استيفاء ما يعده لنفسه حقا يفسد كثيرا من اصول الاخلاق و الفضائل و فروعها، و هو اثم مستقر فى نفسه الإثم فالله سبحانه لا يحبه لأن الله لا يحب كل كفار أثيم.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ الخ؛ تعليل يبين به ثواب المتصدقين و المنتهين عما نهى الله عنه من أكل الربا بوجه عام ينطبق على المورد انطباقا.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ، خطاب للمؤمنين و أمر لهم بتقوى الله و هو توطئه لما يتعقبه من الامر بقوله و ذروا

ص: ٣٧٣

ما بقى من الربا، و هو يدل على انه كان من المؤمنين فى عهد نزول الآيات من يأخذ الربا، و له بقايا منه فى ذمه الناس من الربا فأمر بتركها، و هدد فى ذلك بما سيأتى من قوله: فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ، الآية.

و هذا يؤيد ما سنقله من الروايه فى سبب نزول الآية فى البحث الروائى الآتى.

و فى تقييد الكلام بقوله: إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إشارة الى ان تركه من لوازم الايمان، و تأكيد لم تقدم من قوله: وَ مَنْ عَادَ، الخ؛ و قوله: وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ، الخ.

قوله تعالى: فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ، الاذن كالعلم وزنا و معنى، و قرء فأذنوا بالامر من الايدان، و الباء فى قوله بحرب لتضمينه معنى اليقين و نحوه، و المعنى: أيقنوا بحرب أو أعلموا انفسكم باليقين بحرب من الله و رسوله، و تنكير الحرب لإفاده التعظيم أو التنويع، و نسبه الحرب الى الله و رسوله لكونه مرتبطا بالحكم الذى لله سبحانه فيه سهم بالجعل و التشريع و لرسوله فيه سهم بالتبليغ، و لو كان لله وحده لكان امرا تكوينيا، و اما رسوله فلا يستقل فى امر دون الله سبحانه قال تعالى: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ (آل عمران ١٢٨).

و الحرب من الله و رسوله فى حكم من الاحكام مع من لا يسلمه هو تحميل الحكم على من رده من المسلمين بالقتال كما يدل عليه قوله تعالى: فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ (الحجرات ٩)، على ان الله تعالى صنعا آخر فى الدفاع عن حكمه و هو محاربه إياهم من طريق الفطره و هو تهيج الفطره العامه على خلافهم، و هى التى تقطع انفسهم، و تخرب ديارهم، و تعفى آثارهم، قال تعالى: وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا مَرَّيْنَاهُمْ فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (الإسراء ١٦).

قوله تعالى: وَإِنْ تَبُنُّمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ، كلمه و ان تبتم، تؤيد ما مر ان الخطاب فى الآية لبعض المؤمنين ممن كان يأخذ الربا و له بقايا

على مدينه و معامليه، و قوله: فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوَالِكُمْ أى أصول أموالكم الخالصه من الربا لا- تظلمون بأخذ الربا و لا- تظلمون بالتعدى الى رءوس أموالكم، و فى الآيه دلاله على إمضاء اصل الملك أولا، و على كون أخذ الربا ظلما كما تقدم ثانيا، و على إمضاء اصناف المعاملات حيث عبر بقوله رءوس أموالكم و المال إنما يكون رأسا اذا صرف فى وجوه المعاملات و أصناف الكسب ثالثا.

قوله تعالى: وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرِهِ فَنُظِرْهُ إِلَىٰ مَيْسَرِهِ، لفظه كان تامه أى اذا وجد ذو عسره، و النظره المهله، و الميسره اليسار، و التمكن مقابل العسره أى اذا وجد غريم من غرمائكم لا يتمكن من أداء دينه الحال فانظروه و امهلوه حتى يكون متمكنا ذا يسار فيؤدى دينه. و الآيه و إن كانت مطلقه غير مقيده لكنها منطبقه على مورد الربا، فإنهم كانوا اذا حل أجل الدين يطالبونه من المدين فيقول المدين لغريمه زد فى أجلى كذا مده أزيدك فى الثمن بنسبه كذا، و الآيه تنهى عن هذه الزيادة الربويه و يأمر بالانظار.

قوله تعالى: وَ أَنْ تَصِيَّدُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، أى و إن تضعوا الدين عن المعسر فتصدقوا به عليه فهو خير لكم إن كنتم تعلمون فإنكم حينئذ قد بدلتم ما تقصدونه من الزيادة من طريق الربا الممحق من الزيادة من طريق الصدقه الرايبه حقا.

قوله تعالى: وَ اتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ الْخ؛ فيه تذييل لآيات الربا بما تشتمل عليه من الحكم و الجزاء بتذكير عام بيوم القيامة ببعض أوصافه الذى يناسب المقام، و يهيب ذكره النفوس لتقوى الله تعالى و الورع عن محارمه فى حقوق الناس التى تتكى عليه الحياه، و هو ان أمامكم يوما ترجعون فيه الى الله فتوفى كل نفس ما كسبت و هم لا يظلمون.

و اما معنى هذا الرجوع مع كوننا غير غائبين عن الله، و معنى هذه التوفيه فسيجىء الكلام فيه فى تفسير سوره الأنعام إنشاء الله تعالى.

و قد قيل: إن هذه الآيه: و اتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت و هم

لا- يظلمون، آخر آيه نزلت على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وسيجيء ما يدل عليه من الروايات في البحث الروائي التالي (١)(٢)(٣).

[سوره البقره (٢): الآيات ٢٨٢ الى ٢٨٣]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلَا يَكْتُبُ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَزْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)

ص: ٣٧٦

١-١. البقره ٢٧٥-٢٨١: بحث روائي في الربا.

٢-٢. البقره ٢٧٥-٢٨١: بحث علمي في: المال؛ البيع و الربا؛ نتائج الرأسماليه المشتموه، السبب في شيوع الشيوعيه.

٣-٣. البقره ٢٧٥-٢٨١: بحث علمي في الدرهم و الدينار و الذهب و الفضة.

قوله تعالى: إِذَا تَدَايَيْتُمُ الْخَيْتَانِ، مديانه بعضهم بعضا، و الاملال و الاملاء إلقاء الرجل للكاتب ما يكتبه، و البخس هو النقص و الحيف و السأمة هي الملال، و المضاره مفاعله من الضرر و يستعمل لما بين الاثنين و غيره. و الفسوق هو الخروج عن الطاعة. و الرهان، و قرء فرهن بضمتين و كلاهما جمع الرهن بمعنى المرهون.

و الاظهار الواقع فى موقع الاضمار فى قوله تعالى: فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ، لرفع اللبس برجوع الضمير الى الكاتب السابق ذكره. و الضمير البارز فى قوله: أَنْ يُبْلَغَ هُوَ فَلْيُمْلَأْ وَثِيَّهُ، فائدته تشريك من عليه الحق مع وليه، فإن هذه الصورة تغاير الصورتين الأوليين بأن الولي فى الصورتين الأوليين هو المسئول بالامر المستقل فيه بخلاف هذه الصورة فإن الذى عليه الحق يشارك الولي فى العمل فكأنه قيل: ما يستطيعه من العمل فعليه ذلك و ما لا يستطيعه هو فعلى وليه.

و قوله: أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا، على تقدير حذر أن تضل إحداهما، و فى قوله: إِحْدَاهُمَا الْآخَرَى وَضَع الظاهر موضع المضمرة، و النكته فيه اختلاف معنى اللفظ فى الموضوعين، فالمراد من الاول إحداهما لا- على التعيين، و من الثانى إحداهما بعد ضلال الاخرى، فالمعنيان مختلفان.

و قوله: وَ اتَّقُوا أَمْرَ بِالتَّقْوَى فيما ساقه الله اليهم فى هذه الآيه من الامر و النهى، و أما قوله:

وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، فكلام مستأنف مسوق في مقام الامتنان، كقوله تعالى في آيه الإِثْر: يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا (النساء ١٧٦)، فالمراد به الامتنان بتعليم شرائع الدين و مسائل الحلال و الحرام.

و ما قيل: إن قوله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ يدل على أن التقوى سبب للتعليم الإلهي، فيه أن و ان كان حقا يدل عليه الكتاب و السنه، لكن هذه الآيه بمعزل عن الدلاله عليه لمكان واو العطف، على أن هذا المعنى لا يلائم سياق الآيه و ارتباط ذيلها بصدرها.

و يؤيد ما ذكرنا تكرار لفظ الجلاله ثانيا فإنه لو لا كون قوله و يعلمكم الله، كلاما مستأنفا كان مقتضى السياق ان يقال: يعلمكم بإضمار الفاعل، ففي قوله تعالى: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، أظهر الاسم اولاً- و ثانيا لوقوعه في كلامين مستقلين، و أظهر ثالثا ليدل به على التعليل، كأنه قيل: هو بكل شيء عليم لأنه الله.

و اعلم: ان الآيتين تدلان على ما يقرب من عشرين حكما من أصول أحكام الدين و الرهن و غيرهما، و الاخبار فيها و فيما يتعلق بها كثيره لكن البحث عنها راجع الى الفقه، و لذلك آثرنا الإغماض عن ذلك فمن أراد البحث عنها فعليه بمطانه من الفقه.

[سوره البقره (٢): آيه ٢٨٤]

اشاره

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٢٨٤)

بيان:

قوله تعالى: لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ ، كلام يدل على ملكه تعالى

ص: ٣٧٨

لعالم الخلق مما فى السموات و الارض، و هو توطئه لقوله بعده: و إن تبدوا ما فى انفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله، أى إن له ما فى السموات و الارض و من جملتها أنتم و أعمالكم و ما اكتسبتها نفوسكم، فهو محيط بكم مهيم على اعمالكم لا يتفاوت عنده كون أعمالكم باديه ظاهره، او خافيه مستوره فيحاسبكم عليها.

و ربما استظهر من الآيه: كون السماء مسانخا لأعمال القلوب و صفات النفس فما فى النفوس هو مما فى السموات، و لله ما فى السموات كما ان ما فى النفوس اذا أبدى بعمل الجوارح كان مما فى الارض، و لله ما فى الارض فما انطوى فى النفوس سواء أبدى أو أظهر مملوك لله محاط له سيتصرف فيه بالمحاسبه.

قوله تعالى: **وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ** ، الابداء هو الإظهار مقابل الاخفاء، و معنى ما فى أنفسكم ما استقر فى أنفسكم على ما يعرفه أهل العرف و اللغه من معناه، و لا- مستقر فى النفس إلا- الملكات و الصفات من الفضائل و الرذائل كالإيمان و الكفر و الحب و البغض و العزم و غيرها فإنها هى التى تقبل الاظهار و الاخفاء. أما إظهارها فإنما تتم بأفعال مناسبة لها تصدر من طريق الجوارح يدركها الحس و يحكم العقل بوجود تلك المصادر النفسيه المسانخه لها، اذ لو لا تلك الصفات و الملكات النفسانيه من إرادته و كراهه و إيمان و كفر و حب و بغض و غير ذلك لم تصدر هذه الافعال، فبصدور الافعال يظهر للعقل وجود ما هو منشأها. و أما إخفائها فبالكف عن فعل ما يدل على وجودها فى النفس.

و بالجمله ظاهر قوله: **فِي أَنْفُسِكُمْ** ، الثبوت و الاستقرار فى النفس، و لا يعنى بهذا الاستقرار التمكن فى النفس بحيث يمتنع الزوال كالملكات الراسخه، بل ثبوتاً تاماً يعتد به فى صدور الفعل كما يشعر به قوله: **إِنْ تُبْدُوا** و قوله: **أَوْ تُخْفُوهُ** فان الوصفين يدلان على ان ما فى النفس بحيث يمكن ان يكون منشأ للظهور او غير منشأ له و هو الخفاء، و هذه الصفات يمكن ان

تكون كذلك سواء كانت أحوالا او ملكات، و أما الخطورات و الهواجس النفسانيه الطارقه على النفس من غير إرادته من الانسان و كذلك التصورات الساذجه التي لا تصديق معها كتصور صور المعاصي من غير نزوع و عزم فلفظ الآيه غير شامل لها البتة لأنها كما عرفت غير مستقره في النفس، و لا منشأ لصدور الافعال.

فتحصل: أن الآيه إنما تدل على الاحوال و الملكات النفسانيه التي هي مصادر الافعال من الطاعات و المعاصي، و أن الله سبحانه و تعالى يحاسب الانسان بها، فتكون الآيه في مساق قوله تعالى: لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ و لَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبَكُمْ (البقره / ٢٢٥)، و قوله تعالى: فَإِنَّهُ آتِمُّ قَلْبَهُ (البقره / ٢٨٣)، و قوله تعالى: إِنَّ السَّمْعَ و الْبَصِيرَ و الْفؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عِنْدَهُ مَسْئُولًا (الإسراء / ٣٦)، فجميع هذه الآيات داله على أن للقلوب و هي النفوس أحوالا- و أوصافا يحاسب الانسان بها، و كذا قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا و الْمَآخِرَةِ (النور / ٩)، فانها ظاهره في ان العذاب إنما هو على الحب الذي هو أمر قلبي، هذا.

فهذا ظاهر الآيه و يجب أن يعلم: أن الآيه إنما تدل على المحاسبه بما في النفوس سواء أظهر أو أخفى، و أما كون الجزاء في صورتى الإخفاء و الاظهار على حد سواء، و بعبارة اخرى كون الجزاء دائرا مدار العزم سواء فعل أو لم يفعل و سواء صادف الفعل الواقع المقصود او لم يصادف كما في صورته التجري مثلا فالآيه غير ناظره الى ذلك.

قوله تعالى: فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ و يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ و اللَّهُ عَلِيمٌ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الترديد في التفریع بين المغفره و العذاب لا يخلو من الاشعار بأن المراد بما في النفوس هي الصفات و الاحوال النفسانيه السيئه، و ان كانت المغفره ربما استعملت في القرآن في غير مورد المعاصي أيضا لكنه استعمال كالنادر يحتاج الى ثبوت القرائن الخاصه. و قوله: إِنَّ اللَّهَ تَعْلِيلٌ رَاجِعٌ إِلَى مَضْمُونِ الْجُمْلَةِ الْأَخِيرَةِ، او الى مدلول الآيه بتمامها.

إشارة

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِكْرَامًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)

بيان:

قوله تعالى: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ، تصديق لايمان الرسول و المؤمنين، و إما أفرد رسول الله عنهم بالايمن بما أنزل اليه من ربه ثم ألحقهم به تشريفا له، و هذا دأب القرآن في الموارد التي تناسب التشریف أن يكرم النبي بإفراده و تقديم ذكره ثم اتباع ذلك بذكر المؤمنين كقوله تعالى: فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (الفتح ٢٦)، و قوله تعالى: يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا (التحریم / ٨).

قوله تعالى: كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، تفصيل للإجمال الذي تدل عليه الجملة السابقة، فان ما أنزل الى رسول الله يدعو الى الايمان و تصديق الكتب و الرسل و الملائكة الذين هم عباد مكرمون، فمن آمن بما أنزل على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقد آمن

بجميع ذلك، كل على ما يليق به.

قوله تعالى: **لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ**، حكاية لقولهم من دون توسط لفظ القول، وقد مر في قوله تعالى: **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** (البقره ١٢٧/)، النكته العامه فى هذا النحو من الحكايه، و أنه من أجمل السياقات القرآنيه، و النكته المختصه بالمقام مضافا الى أن فيه تمثيلا- لحالهم وقالهم أن هذا الكلام إنما هو كلام منتزع من خصوص حالهم فى الايمان بما أنزل الله تعالى، فهم لم يقولوه إلا- بلسان حالهم، و ان كانوا قالوه فقد قاله كل منهم وحده و فى نفسه، و أما تكلمهم به لسانا واحدا فليس الا بلسان الحال.

و من عجيب أمر السياق فى هذه الآيه ما جمع بين قولين محكيين منهم مع التفرقه فى نحو الحكايه أعنى قوله تعالى: **لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**، الخ؛ حيث حكى البعض من غير توسط القول و البعض الآخر بتوسطه، و هما جميعا من قول المؤمنين فى اجابه دعوه الداعى.

و الوجه فى هذه التفرقه أن قولهم: **لَا نُفَرِّقُ**، الخ؛ مقول لهم بلسان حالهم بخلاف قولهم:

سمعنا و أطعنا.

و قد بدأ تعالى بالإخبار عن حال كل واحد منهم على نعت الافراد فقال: **كل آمن بالله** ثم عدل الى الجمع فقال: **لا نفرق بين أحد الى آخر الآيتين**، لأن الذى جرى من هذه الامور فى أهل الكتاب كان على نعت الجمع كما أن اليهود فرقت بين موسى و بين عيسى و محمد، و النصرارى فرقت بين موسى و عيسى، و بين محمد فانشعبا شعبا و تحزبوا أحزابا و قد كان الله تعالى خلقهم امه واحده على الفطره، و كذلك المؤاخذه و الحمل و التحميل الواقع عليهم إنما وقعت على جماعتهم، و كذلك ما وقع فى آخر الآيه من سؤال النصره على الكافرين، كل ذلك أمر مرتبط بالجماعه دون الفرد، بخلاف الايمان فإنه أمر قائم بالفرد حقيقه.

ص: ٣٨٢

قوله تعالى: وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، قولهم سمعنا و أطعنا، إنشاء و ليس باخبار و هو كناية عن الاجابه إيماننا بالقلب و عملا- بالجوارح، فإن السمع يكنى به لغه عن القبول و الاذعان، و الاطاعه تستعمل فى الانقياد بالعمل فمجموع السمع و الاطاعه يتم به أمر الايمان.

و قولهم سمعنا و أطعنا إيفاء لتمام ما على العبد من حق الربوبيه فى دعوتها. و هذا تمام الحق الذى جعله الله سبحانه لنفسه على عبده: أن يسمع ليطيع، و هو العباده كما قال تعالى: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (الذاريات / ٥٧)، و قال تعالى: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي (يس / ٦١).

و قد جعل سبحانه فى قبال هذا الحق الذى جعله لنفسه على عبده حقا آخر لعبده على نفسه و هو المغفره التى لا يستغنى عنه فى سعاده نفسه أحد: الانبياء و الرسول فمن دونهم فوعدهم ان يغفر لهم ان أطاعوه بالعبوديه كما ذكره اول ما شرع الشريعه لآدم و ولده فقال:

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا يَخَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (البقره ٣٨)، و ليس الا المغفره.

و القوم لما قالوا: سمعنا و أطعنا و هو الاجابه بالسمع و الطاعه المطلقين من غير تقييد فأوفوا الربوبيه حقها سأله تعالى حقهم الذى جعله لهم و هو المغفره فقالوا عقيب قولهم سمعنا و أعطنا: غفرانك ربنا و إليك المصير، و المغفره و الغفران: الستر، و يرجع مغفرته تعالى الى دفع العذاب و هو ستر على نواقص مرحله العبوديه، و يظهر عند مصير العبد الى ربه، و لذلك عقبوا قولهم: غفرانك ربنا بقولهم: و إليك المصير.

قوله تعالى: لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ، الوسع هو الجده و الطاقه، و الاصل فى الوسع هو السعه المكانيه ثم يتخيل لقدره

الانسان شبه الظرفيه لما يصدر عنه من الافعال الاختياريه،فما يقدر عليه الانسان من الاعمال كأنه تسعه قدرته،و ما لا يقدر عليه لا تسعه فانطبق عليه معنى الطاقه،ثم سميت الطاقه وسعا فليل:وسع الانسان أى طاقته و ظرفيه قدرته.

و قد عرفت:أن تمام حق الله تعالى على عبده:ان يسمع و يطيع،و من البين أن الانسان إما يقول:«سمعا»فيما يمكن ان تقبله نفسه بالفهم،و أما لا- يقبل الفهم فلا- معنى لاجابته بالسمع و القبول.و من البين أيضا ان الانسان انما يقول:«طاعه»فيما يقبل مطاوعه الجوارح و أدوات العمل،فإن الاطاعه هى مطاوعه الانسان و تأثر قواه و أعضائه عن تأثير الأمر المؤثر مثلا، و أما ما لا يقبل المطاوعه كأن يؤمر الانسان ان يسمع ببصره،او يحل بجسمه أزيد من مكان واحد،او يتولد من أبويه مره ثانيه فلا يقبل إطاعه و لا يتعلق بذلك تكليف مولوى،فإجابته داعى الحق بالسمع و الطاعه لا تتحقق الا فى ما هو اختيارى للإنسان تتعلق به قدرته،و هو الذى يكسب به الانسان لنفسه ما ينفعه أو يضره،فالكسب نعم الدليل على أن ما كسبه الانسان إما وجدته و تلبس به من طريق الوسع و الطاقه.

فظهر مما ذكرنا ان قوله: **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ** ،كلام جار على سنه الله الجاريه بين عباده:ان لا يكلفهم ما ليس فى وسعهم من الايمان بما هو فوق فهمهم و الإطاعه لما هو فوق طاقه قواهم، و هى ايضا السنه الجاريه عند العقلاء و ذوى الشعور من خلقه،و هو كلام ينطبق معناه على ما يتضمنه قوله حكاية عن الرسول و المؤمنين:سمعنا و أطعنا من غير زياده و لا نقيصه.

و الجملة أعنى قوله: **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا** ،متعلقه المضمون بما تقدمها و ما تأخر عنها من الجمل المسروده فى الآيتين.

أما بالنسبه الى ما تقدمها فإنها تفيد:أن الله لا يكلف عباده بأزيد مما يمكنهم فيه السمع و الطاعه و هو ما فى وسعهم ان يأتوا به.

و أما بالنسبه الى ما تأخر عنها فإنها تفيد أن ما سأله النبي و المؤمنون من عدم المؤاخذه

على الخطأ و النسيان، و عدم حمل الإصر عليهم، و عدم تحميلهم ما لا طاقة لهم به، كل ذلك و إن كانت أموراً حرجية لكنها ليست من التكليف بما ليس في الوسع، فإن الذي يمكن أن يحمل عليهم مما لا طاقة لهم به ليس من قبيل التكليف، بل من قبيل جزاء التمرد و المعصية، و أما المؤاخذة على الخطأ و النسيان فإنهما و ان كانتا بنفسهما غير اختياريين لكنهما اختياريان من طريق مقدماتهما. فمن الممكن ان يمنع عنهما مانع بالمنع عن مقدماتهما او بإيجاب التحفظ عنهما، و خاصه اذا كان ابتلاء الإنسان بهما مستندا الى سوء الاختيار، و مثل الكلام في حمل الاصر فإنه اذا استند الى التشديد على الانسان جزاء لتمرده عن التكليف السهله بتبديلها مما يشق عليه و يحترج منه، فإن ذلك ليس من التكليف المنفى عنه تعالى غير الجائر عند العقل، لأنها مما اختاره الانسان لنفسه بسوء اختياره فلا محذور في توجيهه اليه.

قوله تعالى: رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، لما قالوا في مقام اجابه الدعوه سمعنا و أطعنا و هو قول ينبيء عن الاجابه المطلقه من غير تقييد ثم التفتوا الى ما عليه وجودهم من الضعف و الفتور، و التفتوا أيضا الى ما آل اليه امر الذين كانوا من قبلهم و قد كانوا أمما أمثالهم استرحموا ربهم و سألوه ان لا يعاملهم معاملة من كان قبلهم من المؤاخذة و الحمل و التحميل لانهم علموا بما علمهم الله ان لا حول و لا قوه إلا بالله، و ان لا عاصم من الله إلا رحمته.

و النبي صلى الله عليه و آله و سلم و إن كان معصوما من الخطأ و النسيان لكنه إنما يعتصم بعصمه الله و يسان به تعالى فصح له ان يسأل ربه ما لا يأمنه من نفسه، و يدخل نفسه لذلك في زمره المؤمنين.

قوله تعالى: رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا، الاصر هو الثقل على ما قيل، و قيل هو حبس الشيء بقهره، و هو قريب من المعنى الاول فإن في الحبس حمل الشيء على ما يكرهه و يثقل عليه.

و المراد بالذين من قبلنا: هم أهل الكتاب و خاصه اليهود على ما تشير السوره الى كثير من

قصصهم، و على ما يشير اليه قوله تعالى: وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ (الأعراف ١٥٧).

قوله تعالى: رَبَّنَا وَ لَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، المراد بما لا طاقة لنا به ليس هو التكليف الابتدائي بما لا يطاق، اذ قد عرفت ان العقل لا يجوزه أبدا، و ان كلامه تعالى أعنى ما حكاه بقوله: وَ قَالُوا سَيَمْعُنَا وَ أُطْعَمُنَا يدل على خلافه بل المراد به جزاء السيئات الواصلة اليهم من تكليف شاق لا يتحمل عاده، أو عذاب نازل، أو رجز مصيب كالمسخ و نحوه.

قوله تعالى: وَ اغْفُ عَنَّا وَ اغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا، العفو محو أثر الشيء، و المغفرة ستره، و الرحمة معروفه، و أما بحسب المصداق فاعتبار المعانى اللغويه يوجب ان يكون سوق الجمل الثلاث من قبيل التدرج من الفرع الى الاصل، و بعبارة أخرى من الاخص فائده الى الاعم، فعليها يكون العفو منه تعالى هو إذهاب اثر الذنب و إمحائه كالعقاب المكتوب على المذنب، و المغفرة هى إذهاب ما فى النفس من هيئه الذنب و الستر عليه، و الرحمة هى العطيه الالهيه التى هى ساتره على الذنب و هيئته.

و عطف هذه الثلاثه أعنى قوله: وَ اغْفُ عَنَّا وَ اغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا على قوله: رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا على ما للجميع من السياق و النظم يشعر: بأن المراد من العفو و المغفرة و الرحمة ما يتعلق بذنوبهم من جهه الخطأ و النسيان و نحوها. و منه يظهر ان المراد بهذه المغفرة المسئوله هاهنا غير الغفران المذكور فى قوله: غُفِرَ لَكَ رَبَّنَا فإنه مغفرة مطلقه فى مقابله الاجابه المطلقه على ما تقدم، و هذه مغفرة خاصه فى مقابل الذنب عن نسيان أو خطأ، فسؤال المغفرة غير مكرر.

و قد كرر لفظ الرب فى هذه الادعيه أربع مرات لبعث صفه الرحمة بالايماء و التلويح الى صفه العبوديه فإن ذكر الربوبيه يخطر بالبال صفه العبوديه و المذله.

قوله تعالى: أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، استئناف و دعاء مستقل، و المولى هو الناصر لكن لا كل ناصر بل الناصر الذى يتولى أمر المنصور فإنه من الولاية بمعنى تولى الامر، و لما كان تعالى وليا للمؤمنين فهو موليتهم فيما يحتاجون فيه الى نصره، قال تعالى: وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (آل عمران ٦٨)، و قال تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (محمد ١١).

و هذا الدعاء منهم يدل على انهم ما كان لهم بعد السمع و الطاعة لأصل الدين هم إلا فى إقامته و نشره و الجهاد لإعلان كلمه الحق، و تحصيل اتفاق كلمه الامم عليه، قال تعالى: قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (يوسف ١٠٨)، فالدعوه الى دين التوحيد هو سبيل الدين و هو الذى يتعقب الجهاد و القتال و الامر بالمعروف و النهى عن المنكر و سائر أقسام الدعوه و الانذار، كل ذلك لحسم ماده الاختلاف من بين هذا النوع، و يشير الى ما به من الاهميه فى نظر شارع الدين قوله تعالى:

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَىٰ وَ عِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ (الشورى ١٣)، فقولهم انت مولانا فانصرنا يدل على جعلهم الدعوه العامه فى الدين أول ما يسبق الى أذهانهم بعد عقد القلب على السمع و الطاعة، و الله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَ
أَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ
(٤) إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْمَأْرُضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ (٦)

غرض السوره دعوه المؤمنين الى توحيد الكلمه في الدين و الصبر و الثبات في حمايه حماه

بتنبيههم بما هم عليه من دقه الموقف لمواجهتهم أعداء كاليهود و النصارى و المشركين و قد جمعوا جمعهم و عزموا عزمهم على إطفاء نور الله تعالى بأيديهم و بأفواههم.

و يشبه أن تكون هذه السوره نازله دفعه واحده، فإن آياتها- و هى مائتا آيه-ظاهره الاتساق و الانتظام من أولها الى آخرها، متناسبه آياتها، مرتبطه أغراضها.

و لذلك كان مما يترجح فى النظر أن تكون السوره إنما نزلت على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و قد استقر له الأمر بعض الاستقرار و لما يتم استقراره، فإن فيها ذكر غزوه أحد، و فيها ذكر المباهله مع نصارى نجران، و ذكرنا من أمر اليهود، و حثنا على المشركين، و دعوه الى الصبر و المصابره و المرابطه، و جميع ذلك يؤيد أن السوره نزلت أيام كان المسلمون مبتلين بالدفاع عن حمى الدين بعامة قواهم و جميع أركانهم، فمن جانب كانوا يقاومون الفشل و الفتور الذين يدبان فى داخل جماعتهم بفتنه اليهود و النصارى، و يحاجونهم و يجاوبونهم، و من جانب كانوا يقاتلون المشركين، و يعيشون فى حال الحرب و انسلاخ الأمن، فقد كان الاسلام فى هذه الأيام قد انتشر صيته فثارت الدنيا عليه من اليهود و النصارى و مشركى العرب، و وراء ذلك الروم و العجم و غيرهم.

و الله سبحانه يذكر المؤمنين فى هذه السوره من حقائق دينه الذى هداهم به ما يطيب به نفوسهم، و يزول به رين الشبهات و الوسوس الشيطانيه و تسويلات أهل الكتاب عن قلوبهم، و يبين لهم: أن الله سبحانه لم يغفل عن تدبير ملكه، و لم يعجزه خلقه، و إنما اختار دينه و هدى جمعا من عباده اليه على طريقه العاده الجاريه، و السنه الدائمه، و هى سنه العلل و الأسباب، فالمؤمن و الكافر جاريان على سنه الأسباب، فيوم للكافر و يوم للمؤمن، فالدار دار الامتحان، و اليوم يوم العمل، و الجزاء غدا.

قوله تعالى: **لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**، قد مرّ الكلام فيه فى تفسير آيه الكرسي، و تحصل من هناك أن المراد به بيان قيامه تعالى أتم القيام على أمر الإيجاد و التدبير،

فنظام الموجودات بأعيانها و آثارها تحت قيمومه الله لا مجرد قيمومه التأثير كالقيمومه فى الأسباب الطبيعىه الفاقده للشعور بل قيمومه حياه تستلزم العلم و القدره؛ فالعلم الإلهى نافذ فيها لا يخفى عليه شىء منها، و القدره مهيمنه عليها لا يقع منها إلا ما شاء وقوعه و أذن فيه، و لذلك عقبه بقوله بعد آيتين: إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض و لا فى السماء هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء.

قوله تعالى: نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، قد مر أن التنزيل يدل على التدرىج كما أن الإنزال يدل على الدفعه.

و ربما ينقض ذلك بقوله: لَوْ لَا نَزَّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ جُمْلَةً وَاحِدَةً (الفرقان ٣٢)، و بقوله تعالى: أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً (المائدة ١١٢)، و قوله تعالى: لَوْ لَا نَزَّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ (الأنعام ٣٧)، و قوله تعالى: قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً (الأنعام ٣٧)، و لذلك ذكر بعض المفسرين: أن الأولى أن يقال: إن معنى نزل عليك الكتاب: أنزله إنزالا بعد إنزال دفعا للنقض.

و الجواب: أن المراد بالتدرىج فى النزول ليس هو تخلل زمان معتد به بين نزول كل جزء من اجزاء الشىء و بين جزئه الآخر بل الأشياء المركبه التى توجد بوجود أجزائها لوجودها نسبه الى مجموع الاجزاء و بذلك يصير الشىء أمرا واحدا غير منقسم، و التعبير عنه من هذه الجهه بالنزول كقوله تعالى: أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً (الرعد ١٧)، و هو الغيث. و نسبته من حيث وجوده بوجود أجزائه واحدا بعد واحد سواء تخلل بينهما زمان معتد به أو لم يتخلل و هو التدرىج، و التعبير عنه بالتنزيل كقوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ (الشورى / ٢٨).

و من هنا يظهر: أن الآيات المذكوره للنقض غير ناقضه فإن المراد بقوله لو لا نزل عليه القرآن جمله واحده الآية: أن ينزل عليه القرآن آيه بعد آيه فى زمان متصل واحد من غير

تخلل زمان معتد به كما كان عليه الأمر في نزول القرآن في الشئون و الحوادث و الأوقات المختلفه، و بذلك يظهر الجواب عن بقيه الآيات المذكوره.

و أما ما ذكره البعض المزبور فهو على أنه استحسان غير جائز في اللغة البتة، لا يدفع شيئاً من النقص بالآيات المذكوره، بل هي بحالها و هو ظاهر.

و قد جرى كلامه تعالى ان يعبر عن إفاضه الكتاب على النبي صلى الله عليه و آله و سلم بالتنزيل و النزول، و النزول يستلزم مقاما أو مكانا عاليا رفيعا يخرج منه الشئ نوعا من الخروج و يقصد مقاما أو مكانا آخر أسفل فيستقر فيه، و قد وصف نفسه تعالت ذاته بالعلو و رفعه الدرجات و قد وصف كتابه أنه من عنده، قال تعالى: **إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ** (الشورى ٥١)، و قال تعالى:

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ (البقره ٨٩)، فصح بذلك استعمال لفظ النزول في مورد استقرار الوحي في قلب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و قد ذكروا أن الحق هو الخبر من حيث إن بحذائه خارجا ثابتا كما ان الصدق هو الخبر من حيث إنه مطابق للخارج، و على هذا فإطلاق الحق على الأعيان الخارجيه و الامور الواقعيه كما يطلق على الله سبحانه: أنه حق، و على الحقائق الخارجيه أنها حقه إنما هو من جهه أن كلا- منها حق من جهه الخبر عنها، و كيف كان فالمراد بالحق في الآيه: الامر الثابت الذي لا يقبل البطلان.

و الظاهر أن الباء في قوله: **بِالْحَقِّ** للمصاحبه و المعنى: نزل عليك الكتاب تنزيلا يصاحب الحق و لا يفارقه، فيوجب مصاحبه الحق ان لا يطرأ عليه و لا يخالطه باطل فهو في أمن من جهه ظهور الباطل عليه، ففي قوله: **نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ** استعاره بالكنايه، و قد قيل في معنى الباء وجوه أخر لا يخلو عن سقم.

و التصديق من الصدق يقال: صدقت مقالا كذا أى قررته على الصدق و اعترفت بكونه صدقا و صدقت فلانا أى اعترفت بصدقه فيما يخبر به.

و المراد مما بين يديه التوراه و الانجيل كما قال تعالى: **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى** الى ان

قال: وَ آتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى إِلَى أَنْ قَالَ: وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ الْآيَةَ (المائدة ٤٨/)، و الكلام لا يخلو عن دلالة على أن ما بأيدي اليهود و النصارى من التوراه و الانجيل لا يخلو عن بعض ما أنزله الله على موسى و عيسى عليهما السلام، و إن كانا لا يخلوان عن السقط و التحريف، فإن الدائر بينهم فى عصر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم هو التوراه الموجوده اليوم و الانجيل الأربعة المشهوره، فالقرآن يصدق التوراه و الانجيل الموجودين، لكن فى الجملة لا بالجملة لمكان الآيات الناطقه بالتحريف و السقط فيهما، قال تعالى: وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى أَنْ قَالَ: وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ إِلَى أَنْ قَالَ: وَ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِذَا نَصَرْنَا رَأَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ الْآيَةَ (المائدة ١٤/).

قوله تعالى: وَ أَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلِ هُدًى لِلدَّاسِ، التوراه كلمه عبرانيه بمعنى الشريعة، و الانجيل لفظ يونانى، و قيل فارسى الأصل معناه البشاره، و سيجىء استيفاء البحث عن الكتابين فى قوله تعالى: إِذَا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ الْآيَاتِ (المائدة ٤٤/).

و مما أصر عليه القرآن تسميه كتاب عيسى عليه السلام بالإنجيل بصيغه الافراد و القول بأنه نازل من عند الله سبحانه، مع ان الأنجيل كثيره، و المعروفه منها أعنى الأنجيل الأربعة كانت موجوده قبل نزول القرآن و فى عهده، و هى التى ينسب تأليفها الى لوقا و مرقس و متى و يوحنا، و لا يخلو ما ذكرناه من أفراد الاسم و التوصيف بالنزول عن دلالة على التحريف و الإسقاط، و كيف كان لا يخلو ذكر التوراه و الانجيل فى هذه الآيه و فى أول السوره من التعريض لليهود و النصارى على ما سيدكره من أمرهم و قصص تولد عيسى و نبوته و رفعه.

قوله تعالى: وَ أَنْزَلَ الْفُرْقَانَ، الفرقان ما يفرق به بين الحق و الباطل على ما فى الصحاح، و اللفظ بمادته يدل على الأعم من ذلك، و هو كل ما يفرق به بين شىء و شىء. قال

تعالى: يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ (الأنفال ٤١)، وقال تعالى: يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا (الأنفال ٢٩). وإذا كان الفرق المطلوب عند الله فيما يرجع الى معنى الهدايه هو الفرق بين الحق و الباطل فى العقائد و المعارف و بين وظيفه العبد و ما ليس بوظيفه له بالنسبه الى الأعمال الصادره عنه فى الحياه الدنيا انطبق معناه على مطلق المعارف الأصلية و الفرعيه التى أنزلها الله تعالى على أنبيائه بالوحي، أعم من الكتاب و غيره. قال تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَ هَارُونَ الْفُرْقَانَ (الأنبياء ٤٨)، وقال تعالى: وَ إِذِ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ الْفُرْقَانَ (البقره ٥٣)، وقال تعالى: تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَيَّ عَبْدِهِ لِيُكَونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (الفرقان ١).

و قد عبر تعالى عن هذا المعنى بالميزان فى قوله: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَ أَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَ الْمِيزَانَ لِيُقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ (الحديد ٢٥). و هو فى وزان قوله: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ (البقره ٢١٣). فالميزان كالفرقان هو الدين الذى يحكم بين الناس بالعدل مع ما ينضم اليه من المعارف و وظائف العبوديه، و الله أعلم.

و قيل: المراد بالفرقان القرآن. و قيل: الدلاله الفاصله بين الحق و الباطل. و قيل: الحججه القاطعه لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم على من حازه فى أمر عيسى. و قيل: النصر. و قيل: العقل. و الوجه ما قدمناه.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ - الى قوله - ذُو انْتِقَامٍ، الانتقام على ما قيل مجازاه المسىء على إساءته، و ليس من لازم المعنى أن يكون للتشفى، فإن ذلك من لوازم الانتقامات التى بيننا حيث إن إساءه المسىء يوجب منقصه و ضررا فى جانبنا فتندارك ذلك بالمجازاه الشديده التى توجب تشفى قلوبنا، و أما هو تعالى فأعز ساحة من أن ينتفع أو يتضرر بشىء من أعمال عباده، لكنه وعد - له الوعد الحق - أن سيقضى بين عباده بالحق إن خيرا

فخيرا و إن شرافرا. قال تعالى: وَ اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ (المؤمن ٢٠)، و قال تعالى:

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (النجم ٣١). كيف و هو عزيز على الإطلاق منبع الجانب من أن ينتهك محارمه. و قد قيل إن الأصل فى معنى العزه الامتناع.

و قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، من حيث إطلاق العذاب و عدم تقييده بالآخره أو يوم القيمه ربما تضمن الوعيد بالعذاب فى الدنيا كما فى الآخره. و هذا من الحقائق القرآنيه التى ربما قصر الباحثون فى استيفاء البحث عنه و ليس ذلك إلا لكوننا لا نعد شيئا عذابا إلا اذا اشتمل على شىء من الآلام الجسمانيه، أو نقص أو فساد فى النعم الماديه كذهاب الأموال و موت الأعزه و نقاهه الأبدان، مع أن الذى يعطيه القرآن بتعليمه أمر وراء ذلك (١).

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ الخ؛ قد علل تعالى عذاب الذين كفروا بآياته بأنه عزيز ذو انتقام لكن لما كان هذا التعليل لا يخلو عن حاجه الى ضميمه تنضم إليه ليتم المطلوب فإن العزيز ذا الانتقام يمكن أن يخفى عليه كفر بعض من كفر بنعمته فلا يبادر بالعذاب و الانتقام، فعقب لذلك الكلام بقوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ، فبين أنه عزيز لا يخفى عليه شىء ظاهر على الحواس و لا- غائب عنها، و من الممكن أن يكون المراد مما فى الارض و ما فى السماء الأعمال الظاهره القائمه بالجوارح و الخفيه الكامنه فى القلوب على حد ما نبهنا عليه فى قوله تعالى: لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ الْآيَه (البقره ٢٨٤).

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ، التصوير إلقاء

ص: ٣٩٤

(١- ١). آل عمران ١-٦: كلام فى معنى العذاب فى القرآن.

الصورة على الشيء و الصورة تعم ما له ظل كالمثال و ما لا ظل له. و الأرحام جمع رحم و هو مستقر الجنين من الإناث.

قوله تعالى: لا إله إلا هو العزيز الحكيم، فيه عود الى ما بدئ به الكلام في الآيات من التوحيد، و هو بمنزله تلخيص الدليل للتأكيد.

فإن هذه الامور المذكوره أعنى: هدايه الخلق بعد ايجادهم، و إنزال الكتاب و الفرقان، و إتقان التدبير بتعذيب الكافرين امور لا بد أن تستند الى إله يدبرها و اذ لا إله إلا الله تعالى شأنه فهو الذى يهدى الناس و هو الذى ينزل الكتاب و الفرقان، و هو يعذب الكافرين بآياته، و إنما يفعل ما يفعل من الهدايه و الإنزال و الانتقام و التقدير بعزته و حكمته (١).

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٧ الى ٩]

اشاره

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَنْ يَعْلَمْ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ (٩)

ص: ٣٩٥

١-١). آل عمران ١-٦: بحث روائي في: وفد نجران، مناظره الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم مع وفد نجران حول النبي عيسى عليه السلام؛ تكوين الانسان.

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ، عبر تعالى بالإِنزال دون التنزيل لأن المقصود بيان أوصاف مجموع الكتاب النازل و خواصه، و هو أنه مشتمل على آيات محكمه و آخر متشابهه ترجع الى المحكمات و تبين بها، فالكتاب مأخوذ بهذا النظر أمرا واحدا من غير نظر الى تعدد و تكثر، فناسب استعمال الإِنزال دون التنزيل.

قوله تعالى: مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، ماده حكم تفيد معنى كون الشىء بحيث يمنع ورود ما يفسده أو يبعضه أو يخل أمره عليه، و منه الإحكام و التحكيم، و الحكم بمعنى القضاء، و الحكمه بمعنى المعرفه التامه و العلم الجازم النافعه، و الحكمه بفتح الحاء لزمان الفرس، ففى الجميع شىء من معنى المنع و الإيقان، و ربما قيل: إن ماده تدل على معنى المنع مع إصلاح.

و المراد هاهنا من إحكام المحكمات إيقان هذه الآيات من حيث عدم وجود التشابه فيها كالمتشابهات، فإنه تعالى و إن وصف كتابه بإحكام الآيات فى قوله: كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَضَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ نَحِيْبٍ (هود ١)، لكن اشتمال الآيه على ذكر التفصيل بعد الإحكام دليل على أن المراد بالإحكام حال من حالات الكتاب كان عليها قبل النزول و هى كونه واحدا لم يطرأ عليه التجزى و التبعض بعد بتكثر الآيات، فهو إيقانه قبل وجود التبعض، فهذا الإحكام وصف لتمام الكتاب، بخلاف وصف الإحكام و الإيقان الذى لبعض آياته بالنسبه الى بعض آخر من جهه امتناعها عن التشابه فى المراد (١).

قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ

و ابتغاء تَأْوِيلِهِ، الزيف هو الميل عن الاستقامه، و يلزمه اضطراب القلب و قلقه بقريته ما يقابله في ذيل الآيه من قوله: وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، فَإِنَّ الْآيَةَ تَصِفُ حَالَ النَّاسِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى تَلْقَى الْقُرْآنَ بِمَحْكَمِهِ وَ مُتَشَابِهِهِ، وَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ زَائِعُ الْقَلْبِ وَ مَائِلُهُ وَ مُضْطَرِبُهُ فَهُوَ يَتَّبِعُ الْمُتَشَابِهَ ابْتِغَاءً لِلْفِتْنَةِ وَ التَّأْوِيلِ، وَ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ رَاسِخُ الْعِلْمِ مُسْتَقِرُّ الْقَلْبِ يَأْخُذُ بِالْمَحْكَمِ وَ يُؤْمِنُ بِالْمُتَشَابِهِ وَ لَا يَتَّبِعُهُ، وَ يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ لَا يَزِيغَ قَلْبَهُ بَعْدَ الْهُدَايَةِ.

و من هنا يظهر: أن المراد باتباع المتشابه اتباعه عملا- لا- إيمانا، و ان هذا الاتباع المذموم اتباع للمتشابه من غير ارجاعه الى المحكم، اذ على هذا التقدير يصير الاتباع اتباعا للمحكم و لا ذم فيه.

و المراد بابتغاء الفتنة طلب إضلال الناس، فإن الفتنة تقارب الاضلال في المعنى، يقول تعالى: يريدون باتباع المتشابه إضلال الناس في آيات الله سبحانه، و أمرا آخر هو أعظم من ذلك، و هو الحصول و الوقوف على تأويل القرآن و ما أخذ أحكام الحلال و الحرام حتى يستغنوا عن اتباع محكمات الدين فينتسخ بذلك دين الله من أصله.

و التأويل من الاول و هو الرجوع، فتأويل المتشابه هو المرجع الذي يرجع إليه، و تأويل القرآن هو المأخذ الذي يأخذ منه معارفه (1).

قوله تعالى: وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، ظاهر الكلام رجوع الضمير الى ما تشابه، لقربه كما هو الظاهر أيضا في قوله: وَ ابْتِغَاءً تَأْوِيلَهُ، و قد عرفت أن ذلك لا- يستلزم كون التأويل مقصورا على الآيات المتشابهه. و من الممكن أيضا رجوع الضمير الى الكتاب كالضمير في قوله: مَا تَشَابَهَ مِنْهُ .

و ظاهر الحصر كون العلم بالتأويل مقصورا عليه سبحانه، و أما قوله: وَ الرَّاسِخُونَ فِي

ص: ٣٩٧

الْعِلْمُ، فظاهر الكلام أن الواو للاستيناف بمعنى كونه طرفا للترديد الذى يدل عليه قوله فى صدر الآيه: فأما الذين فى قلوبهم زيغ، والمعنى: أن الناس فى الأخذ بالكتاب قسمان: فمنهم من يتبع ما تشابه منه و منهم من يقول اذا تشابه عليه شىء منه: آمننا به كل من عند ربنا، وإنما اختلفا لاختلافهم من جهة زيغ القلب و رسوخ العلم.

على أنه لو كان الواو للعطف، و كان المراد بالعطف تشريك الراسخين فى العلم بالتأويل كان منهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ هو أفضلهم و كيف يتصور أن ينزل القرآن على قلبه و هو لا يدرى ما يريد به، و من دأب القرآن اذا ذكر الامه أو وصف أمر جماعه و فيهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أن يفرد بالذكر أولا- و يميزه بالشخص تشريفا له و تعظيما لأمره ثم يذكرهم جميعا كقوله تعالى:

□
آمِينَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ (البقره ٢٨٥)، و قوله تعالى: □ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (التوبه ٢٦)، و قوله تعالى: □ لَكِنَّ الرَّسُولَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (التوبه ٨٨)، و قوله تعالى: □ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا (آل عمران ٦٨)، و قوله تعالى: □ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (التحریم ٨)، الى غير ذلك، فلو كان المراد بقوله: □ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، إنهم عالمون بالتأويل- و رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ منهم قطعا- كان حق الكلام كما عرفت أن يقال: و ما يعلم تأويله إلا الله و رسوله و الراسخون فى العلم، هذا و إن أمكن أن يقال: إن قوله فى صدر الآيه: هو الذى أنزل عليك الكتاب، الخ؛ يدل على كون النبى عالما بالكتاب فلا حاجه الى ذكره ثانيا.

فالظاهر أن العلم بالتأويل مقصور فى الآيه عليه تعالى، و لا ينافى ذلك ورود الاستثناء عليه كما أن الآيات داله على انحصار علم الغيب عليه تعالى مع ورود الاستثناء عليه كما فى قوله تعالى: □ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ (الجن / ٢٧)، و لا- ينافيه أيضا: كون المستثنى الراسخين فى العلم بعينهم، اذ لا منافاه بين أن تدل هذه الآيه على شأن من شئون الراسخين فى العلم، و هو الوقوف عند شبهه و الإيمان و التسليم فى

مقابل الزائغين قلبا و بين أن تدل آيات أخر على أنهم أو بعضا منهم عالمون بحقيقه القرآن و تأويل آياته على ما سيجىء بيانه.

قوله تعالى: **وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا**، الرسوخ هو أشد الثبات، و وقوع الراسخين فى العلم فى مقابله الذين فى قلوبهم زيغ ثم توصيفهم بأنهم يقولون آمنا به كل من عند ربنا يدل على تمام تعريفهم، و هو أن لهم علما بالله و بآياته لا يدخله ريب و شك، فما حصل لهم من العلم بالمحكمات ثابت لا يتزلزل، و هم يؤمنون به و يتبعونه أى يعلمون به و اذا وردت عليهم آيه متشابهه لم يوجب تشابهها اضطراب قلوبهم فيما عندهم من العلم الراسخ بل آمنوا بها و توقفوا عن اتباعها عملا.

و فى قولهم: آمنا به كل من عند ربنا ذكر الدليل و النتيجة معا فإن كون المحكم و المتشابه جميعا من عند الله تعالى يوجب الايمان بالكل: محكمه و متشابهه، و وضوح المراد فى المحكم يوجب اتباعه عملا، و التوقف فى المتشابه من غير رده لأنه من عند الله و لا- يجوز اتباع ما ينافى المحكم من معانيه المتشابهه لسطوع البيان فى المحكم فيجب أن يتبع من معانيه المحتمل ما يوافق معنى المحكم، و هذا بعينه إرجاع المتشابه الى المحكم فقوله: **كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا** بمنزله الدليل على الأمرين جميعا، أعنى: الايمان و العمل فى المحكم، و الايمان فقط فى المتشابه و الرجوع فى العمل الى المحكم.

قوله تعالى: **وَ مَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**، التذكر هو الانتقال الى دليل الشىء لاستنتاجه، و لما كان قولهم: كل من عند ربنا كما مر استدلالا منهم و انتقالا لما يدل على فعلهم سماه الله تعالى تذكرا و مدحهم به.

و الألباب جمع لب و هو العقل الزكى الخالص من الشوائب، و قد مدحهم الله تعالى مدحا جميلا فى موارد من كلامه، و عرفهم بأنهم أهل الايمان بالله و الإنابه اليه و اتباع أحسن القول، ثم وصفهم بأنهم على ذكر من ربهم دائما فأعقب ذلك أنهم أهل التذكر أى الانتقال الى المعارف

الحقه بالدليل و أهل الحكمة و المعرفة، قال تعالى: وَ الَّذِينَ اخْتَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَ أُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (الزمر ١٨/)، و قال تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولَى الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَ قُعُودًا وَ عَلَيَّ جُنُوبِهِمْ (آل عمران ١٩١/)، و هذا الذكر الدائم و ما يتبعه من التذلل و الخضوع هو الإنابة الموجهة لتذكرهم بآيات الله و انتقالهم الى المعارف الحقه كما قال تعالى: وَ مَا يَتَذَكَّرْ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (غافر ١٣/)، و قد قال وَ مَا يَذَكَّرْ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ (البقره ٢٦٩/)، (آل عمران ٧/).

قوله تعالى: رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَ هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ، و هذا من آثار رسوخهم في العلم فإنهم لما علموا بمقام ربهم، و عقلوا عن الله سبحانه أيقنوا أن الملك لله وحده، و أنهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً فمن الجائز أن يزيغ قلوبهم بعد رسوخ العلم فالتجئوا الى ربهم، و سألوه أن لا يزيغ قلوبهم بعد اذ هداهم، و أن يهب لهم من لدنه رحمه تبقى لهم هذه النعمه، و يعينهم على السير في صراط الهدايه، و السلوك في مراتب القرب.

و أما سؤال أن يهبهم رحمه بعد سؤال أن لا يزيغ قلوبهم فلأن عدم إزاغه القلب لا يستلزم بقاء الرسوخ في العلم فمن الجائز أن لا يزاغ قلوبهم و ينتزع عنها العلم فتبقى سدى مهمله لا سعداء بالعلم و لا أشقياء بالازاغه بل في حال الجهل و الاستضعاف، و هم في حاجه مبرمه الى ما هم عليه من العلم، و مع ذلك لا تقف حاجتهم في ما هم عليه من الموقف بل هم سائرو طريق يحتاجون فيه الى أنواع من الرحمه لا يعلمها و لا يحصيها إلا الله سبحانه، و هم مستشعرون بحاجتهم هذه، و الدليل عليه قولهم بعد: ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه.

فقولهم: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا، استعاذه من نزول الزيغ الى قلوبهم و إزاحته

العلم الراسخ الذى فيها، و قولهم: و هب لنا من لدنك رحمه إنك أنت الوهاب استمطار لسحاب الرحمه حتى تدوم بها حياه قلوبهم، و تنكير الرحمه، و توصيفها بكونها من لدنه إظهار منهم الجهل بشأن هذه الرحمه، و أنها كيف ينبغي أن تكون غير أنهم يعلمون أنه لو لا رحمه من ربهم و لو لا كونها من لدنه لم يتم لهم أمر.

و فى الاستعاذه من الزيغ الى الله محضا و استيهاب الرحمه من لدنه محضا دلالة على أنهم يرون تمام الملك لله محضا من غير توجه الى أمر الأسباب.

قوله تعالى: رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ، هذا منهم بمنزله التعليل لسؤال الرحمه، و ذلك لعلمهم بأن إقامه نظام الخلقه و دعوه الدين و كدح الإنسان فى مسير وجوده كل ذلك مقدمه لجمعهم الى يوم القيامه الذى لا يغنى فيه و لا ينصر أحد إلا بالرحمه كما قال تعالى: إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ (الدخان ٤٢)، و لذلك سألوا رحمه من ربهم و فوضوا تعيينها و تشخيصها اليه لينفعهم فى أمرهم.

و قد وصفوا هذا اليوم بأنه لا ريب فيه لنتجه بذلك كمال اهتمامهم بالسؤال و الدعاء، و عللوا هذا التوصيف أيضا بقولهم: إن الله لا يخلف الميعاد لأن شأنهم الرسوخ فى العلم، و لا يرسخ العلم بشيء و لا يستقر تصديق إلا مع العلم بعلته المنتجه، و عله عدم ارتيابهم فى تحقق هذا اليوم هو ميعاد الله سبحانه به فذكروه (١)(٢)(٣).

ص: ٤٠١

- ١ - ١. آل عمران ٧-٩: كلام تفصيلي فى المحكم و المتشابه و التأويل (المحكم و المتشابه، ما معنى كون المحكمات ام الكتاب؟ ما معنى التأويل؟ هل يعلم تأويل القرآن غير الله سبحانه؟ ما هو السبب فى اشمال الكتاب على المتشابه).
- ٢ - ٢. آل عمران ٧-٩: بحث روائى فى: المحكم و المتشابه؛ الراسخون فى العلم.
- ٣ - ٣. آل عمران ٧-٩: بحث روائى فى تفسير القرآن.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتُّغْلِبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ إِتَفَتَا فَتَهُ تَفَاتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣) زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَتُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَُمُ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَفِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧) شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، أَعْنَى عَنْهُ مَالُهُ مِنْ فُلَانٍ أَى أَعْطَاهُ الْغِنَى وَ رَفَعَ حَاجَتَهُ فَلَا حَاجَةَ بِهِ إِلَيْهِ وَ الْإِنْسَانَ فِي بَادِي تَكُونُهُ وَ شَعُورُهُ يَرَى نَفْسَهُ مُحْتَاجَةً إِلَى الْخَارِجِ مِنْهُ، وَ هَذَا أَوَّلُ عِلْمِهِ الْفَطْرِي إِلَى اِحْتِيَاجِهِ إِلَى الصَّانِعِ الْمُدَبِّرِ ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا تَوَسَّطَ فِي الْأَسْبَابِ وَ أَحْسَسَ بِحَوَائِجِهِ بَدَأَ بِإِحْسَاسِ الْحَاجَةِ إِلَى كِمَالِهِ الْبَدْنِيِّ الْبِنَاتِيِّ وَ هُوَ الْغِذَاءُ وَ الْوَلَدُ، ثُمَّ عَرَفَتْ لَهُ نَفْسُهُ سَائِرَ الْكِمَالَاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ، وَ هِيَ الَّتِي يَزِينُهَا لَهُ الْخِيَالُ مِنْ زَخَارِفِ الدُّنْيَا مِنْ زِينَةِ الْمَلْبَسِ وَ الْمَسْكَنِ وَ الْمُنْكَحِ وَ غَيْرِ ذَلِكَ، وَ عِنْدَئِذٍ يَتَبَدَّلُ طَلْبُ الْغِذَاءِ إِلَى طَلْبِ الْمَالِ الَّذِي يَظُنُّهُ مِفْتَاحًا لِحُلِّ جَمِيعِ مَشْكَلاتِ الْحَيَاةِ لِأَنَّ الْعَادَةَ الْغَالِبَةَ تَجْرِي عَلَى ذَلِكَ فَيَظُنُّ أَنَّ سَعَادَةَ حَيَاتِهِ فِي الْمَالِ وَ الْوَلَدِ بَعْدَ مَا كَانَ يَظُنُّ أَنَّ ضَامِنَ سَعَادَتِهِ هُوَ الْغِذَاءُ وَ الْوَلَدُ، ثُمَّ انْكَبَبَ نَفْسَهُ عَلَى مَشْتَهَاتِهِ، وَ قَصَرَ هَمَّهُ عَلَى الْأَسْبَابِ يُوْجِبُ أَنْ يَقِفَ قَلْبُهُ عِنْدَ الْأَسْبَابِ، وَ يُعْطَى لَهَا الْاِسْتِقْلَالَ، وَ حِينَئِذٍ يَنْسَى رَبَّهُ، وَ يَتَشَبَّثُ بِذَيْلِ الْمَالِ وَ الْوَلَدِ، وَ فِي هَذَا الْجَهْلِ هَلَاكُهُ فَإِنَّهُ يَسْتَرُّهُ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَ يَكْفُرُ بِهَا، وَ قَدْ التَّبَسَّ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فَإِنَّ رَبَّهُ هُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا يَسْتَعْنِي عَنْهُ شَيْءٌ بِحَالٍ وَ لَا يَغْنَى عَنْهُ شَيْءٌ بِحَالٍ.

قوله تعالى: وَ أُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ، الْوَقُودُ بِفَتْحِ الْوَاوِ مَا تَوَقَّدَ بِهِ النَّارُ وَ تَشْتَعَلُ، وَ الْآيَةُ جَارِيَةٌ مَجْرَى قَوْلِهِ تَعَالَى: فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ (البقره / ٢٤)، وَ قَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ (الأنبياء / ٩٨)، وَ قَدْ مَرَّ بَعْضُ الْكَلَامِ فِي مَعْنَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقْرَةِ.

والايتان بالجمله الاسميه، و الابتداء باسم الإشارة، و كونه دالا على البعد و توسط ضمير الفصل، و إضافه الوقود الى النار دون أن يقال وقود، كل ذلك يؤكد ظهور الكلام في الحصر، و لازمه كون المكذبين من الكفار هم الأصل في عذاب النار و إيقاد جهنم، و أن غيرهم إنما يحترقون بنارهم؛ و يتأيد بذلك ما سيأتى بيانه في قوله تعالى: لِيُمَيِّزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْآيَةِ (الأنفال/٣٧).

قوله تعالى: كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ الى آخر الآيه؛ الدأب على ما ذكره هو السير المستمر، قال تعالى: وَ سَيَخْرَ لَكُمْ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ دَائِبَيْنِ (إبراهيم/٣٣)، و منه تسميه العاده دأبا لأنه سير مستمر، و هذا المعنى هو المراد في الآيه.

و قوله كَذَّابِ، متعلق بمقدر يدل عليه قوله في الآيه السابقه: لن تغنى عنهم، و يفسر الدأب قوله: كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا و هو في موضع الحال؛ و تقدير الكلام كما مرت اليه الإشارة: إن الذين كفروا كذبوا بآياتنا و استمروا عليها دائبين فزعموا أن في أموالهم و أولادهم غنى لهم من الله كذاب آل فرعون و من قبلهم و قد كذبوا بآياتنا.

و قوله تعالى: فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، ظاهر الباء أنها تفيد السببيه، يقال:

أخذته بذنبه أى بسبب ذنبه لكن مقتضى المحاذاه التى بين الآيتين؛ و قياسه حال هؤلاء الذين كفروا فى دأبهم على آل فرعون و الذين من قبلهم فى دأبهم أن يكون البناء للآله، فإنه ذكر فى الذين كفروا أنهم و قود النار تشتعل عليهم أنفسهم و يعذبون بها فكذلك آل فرعون و من قبلهم إنما أخذوا بذنوبهم و كان العذاب الذى حل بساحتهم هو عين الذنوب التى اذنبوها، و كان مكرهم هو الحائق بهم، و ظلمهم عائدا اليهم، قال تعالى: وَ لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ (فاطر/٤٣)، و قال تعالى: وَ مَا ظَلَمُونَا وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (البقره/٥٧).

فالمعنى -و الله أعلم- أن آل فرعون كانوا دائبين على دأب هؤلاء الذين كفروا فى الكفر

و تكذيب الآيات، ولا ريب في هذا الخبر فإننا كنا حاضرين شاهدين و قد كذبوا بآياتنا نحن فأخذناهم.

□
و أما قوله: فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ، فهو رجوع بعد استيفاء المقصود الى الأصل في الكلام و هو اسلوب الغيبة، و فيه مع ذلك إرجاع الحكم الى مقام اللوحيه القائمه بجميع شئون العالم و المهيمنه على كل ما دق و جل، و لذلك كرر لفظ الجلاله ثانيا في قوله و الله شديد العقاب، و لم يقل: و هو شديد العقاب للدلاله على أن كفرهم و تكذيبهم هذا منازعه و محاربه مع من له جلال اللوحيه و يهون عليه أخذ المذنب بذنبه، و هو شديد العقاب لأنه الله جل اسمه.

قوله تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتٌّ تَعْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ الى آخر الآيه؛ الحشر هو اخراج الجماعه عن مقرهم بالازعاج، و لا يستعمل في الواحد، قال تعالى: وَ حَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (الكهف ٤٧)، و المهاد هو الفراش، و ظاهر السياق أن المراد بالذين كفروا هم المشركون كما انه ظاهر الآيه السابقه: إن الذين كفروا لن تغني عنهم، الخ؛ دون اليهود، و هذا هو الأنسب لاتصال الآيتين حيث تذكر هذه الآيه الغلبه عليهم و حشرهم الى جهنم و قد أشارت الآيه السابقه الى تقويهم و تعززهم بالاموال و الأولاد.

□
قوله تعالى: قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَفَتَا؛ ظاهر السياق أن يكون الخطاب للذين كفروا، و الكلام من تتمه قول النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم: ستغلبون و تحشرون، الخ؛ و من الممكن أن يكون خطابا للمؤمنين بدعوتهم الى الاعتبار و التفكير بما من الله عليهم يوم بدر حيث أيدهم بنصره تأييدا عجيبا بالتصرف في إبصار العيون، و على هذا يكون الكلام مشتملا على نوع من الالتفات بتوسعه خطاب رسول الله صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم في قوله قُلْ لِلَّذِينَ بتوجيهه اليه و الى من معه من المؤمنين؛ لكن السياق - كما عرفت - للأول أنسب.

و الآيه - بما تشتمل عليه من قصه التقاء الفئتين و نصره تعالى للفئه المقاتله في سبيل الله - و ان لم تتعرض بتشخيص القصه و تسميه الوقعه غير أنها قابله الانطباق على وقعه بدر،

و السوره نازله بعدها بل و بعد احد.

فمحصل معنى الآيه: أنكم أيها المشركون لو كنتم من اولى الأبصار و البصائر لكفاكم فى الاعتبار و الدلاله على أن الغلبه للحق و أن الله يؤيد بنصره من يشاء و لا يغلب بمال و لا ولد ما رأيتموه يوم بدر فقد كان المؤمنون مقاتلين فى سبيل الله سبحانه، و قد كانوا فته قليله مستذلين لا- يبلغون ثلث الفئه الكافره، و لا- يقاسون بهم قوه، كانوا ثلاثمائه و ثلاثه عشر رجلا ليس لهم إلا سته أدرع و ثمانيه سيوف و فرسان، و كان جيش المشركين قريبا من ألف مقاتل لهم من العده و القوه و الخيل و الجمال و الهيئه ما لا يقدر بقدر، فنصر الله المؤمنين على قتلهم و ذلتهم على أعدائه و كثرهم فى أعينهم فكانوا يرونهم مثليهم رأى العين، و أيدهم الملائكه فلم ينفع المشركين ما كانوا يتعززون به من أموال و أولاد و لم يغنهم جمعهم و لا كثرتهم و قوتهم من الله شيئا.

و قد ذكر الله سبحانه دأب آل فرعون و الذين من قبلهم فى تكذيب آيات الله و أخذهم بذنوبهم فى سوره الأنفال عند ذكر القصه مرتين كما ذكره هاهنا بعينه.

و فى موعظتهم بتذكير وقعه بدر إيماء الى أن المراد بالغلبه فى الآيات السابقه الغلبه بالقتل و الإباده، فى آياته تهديد بالقتال.

قوله تعالى: **فِنَّهُ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ**، لم يقل و أُخْرَى فى سبيل الشيطان أو فى سبيل الطاغوت و نحو ذلك لأن الكلام غير مسوق للمقايسه بين السبيلين بل لبيان أن لا- غنى من الله تعالى، و أن الغلبه له فالمقابله بالحقيقه بين الايمان بالله و الجهاد فى سبيله و بين الكفر به تعالى.

و الظاهر من السياق أن الضميرين فى قوله يرونهم مثليهم راجعان الى قوله: **فِنَّهُ تَقَاتِلُ**، أى الفئه الكافره يرون المؤمنين مثلى المؤمنين فهم يرونهم ستمائه و سته و عشرين و لقد كانوا ثلاثمائه و ثلاثه عشر رجلا، و أما احتمال اختلاف الضميرين مرجعا بأن يكون المعنى: يرون

المؤمنين مثلى عدد الكافرين فبعيد عن اللفظ، و هو ظاهر.

قوله تعالى: **وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ**، إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار، التأيد من الأيد و هو القوه، و المراد بالأبصار قيل: هو العيون الظاهرية لكون الآيه مشتمله على التصرف في رؤيه العيون، و قيل: هو البصائر لأن العبره إنما تكون بالبصيره القلبيه دون البصر الظاهري، و الأمر هين، فإن الله سبحانه في كلامه يعدد من لا يعتبر بالعبر و المثالات أعمى، و يذكر أن العين يجب أن تبصر و تميز الحق من الباطل و في ذلك دعوى أن الحق الذى يدعو اليه ظاهر متجسد محسوس يجب أن يبصره البصر الظاهر، و أن البصيره و البصر في مورد المعارف الإلهيه واحد (بنوع من الاستعاره) لنهايه ظهورها و وضوحها، و الآيات في ذلك كثيره جدا، و من أحسنها دلاله على ما ذكرنا قوله تعالى: **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** (الحج ١٧٤)، أى أن الأبصار إنما هي في القلوب دون الرؤوس، و قوله تعالى: **وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا** (الأعراف ١٧٩)، و الآيه في مقام التعجب، و قوله تعالى: **وَ جَعَلَ عَلَيَّ بَصِيرَهُ غِشَاوَةً** (الجاثيه ٢٣)، الى غير ذلك من الآيات، فالمراد بالأبصار فيما نحن فيه هو العيون الظاهرية بدعوى أنها هي التى تعتبر و تفهم فهو من الاستعاره بالكنايه، و النكته فيه ظهور المعنى كأنه بالغ حد الحس، و يزيد في لطفه أن المورد يتضمن التصرف في رؤيه العين الظاهره.

و ظاهر قوله: **إِنَّ فِي ذَلِكَ**، الخ؛ أنه تتمه لكلامه تعالى الذى يخاطب به النبى صلى الله عليه و آله و سلم و ليس تتمه لقول النبى المدلول عليه بقوله: **قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا، الخ؛** و الدليل عليه الكاف في قوله: **ذَلِكَ**، فإنه خطاب للنبى صلى الله عليه و آله و سلم، و في هذا العدول الى الخطاب الخاص بالنبى صلى الله عليه و آله و سلم إيماء الى قله فهمهم و عمى قلوبهم أن يعتبروا بأمثال هذه العبر.

قوله تعالى: **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ الخ؛** الآيه و ما يتلوها بمنزله البيان و شرح حقيقه الحال لما تقدم من قوله تعالى **آنفا: إن الذين كفروا لن تغنى عنهم**

أموالهم و لا أولادهم من الله شيئاً، الخ؛ إذ يظهر منه أنهم يعتقدون الاستغناء بالأموال و الأولاد من الله سبحانه فالآية تبين أن سبب ذلك أنهم انكبوا على حب هذه المشتريات و انقطعوا إليها عن ما يهمهم من أمر الآخرة، و قد اشتبه عليهم الأمر فإن ذلك متاع الحياه الدنيا، ليس لها الا انها مقدمه لنيل ما عند الله من حسن المآب مع أنهم غير مبدعين فى هذا الحب و الاشتها و لا مبتكرون بل مسخرون بالتسخير الإلهى بتعزيز أصل هذا الحب فيهم ليم لهم الحياه الأرضيه فلو لا ذلك لم يستقم أمر النوع الإنسانى فى حياته و بقاءه بحسب ما قدره الله سبحانه من أمرهم حيث قال: **وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ** (البقره ٣٦).

و إنما قدر لهم ذلك ليتخذوها وسيله الى الدار الآخرة و يأخذوا من متاع هذه ما يتمتعون به فى تلك لا لينظروا الى ما فى الدنيا من زخرفها و زينتها بعين الاستقلال و ينسوا بها ما ورائها، و يأخذوا الطريق مكان المقصد فى عين أنهم سائرون الى ربهم، قال تعالى: **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ إِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا** (الكهف / ٨).

إلا أن هؤلاء المغفلين أخذوا هذه الوسائل الظاهره الإلهيه التى هى مقدمات و ذرائع الى رضوان الله سبحانه امورا مستقلة فى نفسها محبوبه لذاتها و زعموا أنها تغنى عنهم من الله شيئاً فصارت نغمه عليهم بعد ما كانت نعمه و وبالا بعد ما كانت مثوبه مقربه. قال تعالى: **إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَ أَزْيَّتْ وَ ظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ إِلَىٰ أَنْ قَالَ: وَ يَوْمَ نَخْشِرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ إِلَىٰ أَنْ قَالَ: وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** (يونس ٣٠)؛ تشير الآيات الى أمر الحياه و زينتها بيده تعالى لا ولى لها دونه لكن الإنسان باغتراره بظاهاها يظن أن أمرها اليه، و أنه قادر على تدبيرها و تنظيمها

فيتخذ لنفسه فيها شركاء-كالأصنام و ما بمعناها من المال و الولد و غيرهما،إن الله سيوقفه على زلته فيذهب هذه الزينه،و يزيل الروابط التي بينه و بين شركائه،و عند ذلك يضل عن الإنسان ما افتراه على الله من شريك في التأثير و يظهر له معنى ما علمه في الدنيا و حقيقته،و رد الى الله مولاه الحق.

و هذا التزين أعنى:ظهور الدنيا للإنسان بزينه الاستقلال و جمال الغايه و المقصد لا- يستند الى الله سبحانه فإن الرب العليم الحكيم أ منع ساحة من أن يدبر خلقه بتدبير لا يبلغ به غايته الصالحه،و قد قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ بِالْبَلِّغِ أَمْرِهِ (الطلاق/٣)،و قال تعالى: وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ (يوسف/٢١)،بل إن استند وإنما يستند الى الشيطان قال تعالى: وَ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (الأنعام/٤٣)،و قال تعالى: وَ إِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ (الأنفال/٤٨).

نعم لله سبحانه الإذن في ذلك لitem أمر الفتنه،و تستقيم التريه كما قال تعالى: أ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (العنكبوت/٤)،و على هذا الإذن يمكن أن يحمل قوله تعالى: كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ (الأنعام/١٠٨)،و إن أمكن أيضا أن يحمل على ما مر من معنى التزين المنسوب إليه تعالى في قوله تعالى: إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (الكهف / ٧) (١).

قوله تعالى: ذَلِكُمْ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، أى هذه الشهوات امور يتمتع بها لإقامه هذه الحياه التي هي أقرب الحياتين منكم(و هما الحياه الدنيا و الحياه الاخرى)،و الحياه

ص: ٤٠٩

الدنيا وكذا المتاع الذى يتمتع به لها أمر فان دأثر ليس لها عاقبه باقيه صالحه، وصلاح العقبى و حسن المآب إنما هو عند الله سبحانه و هو قوله تعالى: وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ .

قوله تعالى: قُلْ أَ أُتْبِكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَمَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَاتٌ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ الآيه مسوقه لبيان قوله: وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ و قد وضع فيها محل هذه الشهوات الفانيه الباطله امور هى خير للانسان لكونها باقيه و حسنه حقيقه من غير بطلان، و هى امور مجانسه لهذه الشهوات فى ما يريده الانسان من خواصها و آثارها غير أنها خاليه عن القبح و الفساد غير صارفه للانسان عن ما هو خير منها، و هى الجنه و مطهرات الأزواج و رضوان الله تعالى.

و قد اختلفت الأزواج بالذكر مع كون ذكر الجنه كالمشتمل عليها لكون الوقاع أعظم اللذائذ الجسميه عند الانسان، و لذلك أيضا قدم ذكر النساء فى قوله: مِنَ النِّسَاءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ، الخ.

و أما الرضوان بكسر الراء و ضمها فهو الرضا، و هو أن يلائم الأمر الواقع نفس صاحبه من غير أن يمتنع منه و يدافعه، و يقابله السخط.

و قد تكرر فى القرآن ذكر رضى الله سبحانه، و هو منه تعالى كما يتصور بالنسبه الى فعل عبادته فى باب الطاعه كذلك يتصور بالنسبه الى غير باب الطاعه كالأوصاف و الأحوال و غير ذلك إلا- أن جل الموارد التى ذكر فيها أو كلها من قبيل الرضا بالطاعه، و لذلك ربما قوبل بينه و بين رضا العبد فرضاه عن عبده لطاعته، و رضى العبد عنه لجزائه الحسن أو لحكمه كقوله تعالى: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ (البينه ٨/)، و قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (الفجر ٢٨/)، و قوله تعالى: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ الْآيَةِ (البراءه ١٠٠/).

و ذكر الرضوان هاهنا أعنى فى عداد ما هو خير للناس من مشتبهات الحياه الدنيا يدل على أنه نفسه من مشتبهات الإنسان أو يستلزم أمرا هو كذلك؛ ولذلك عنى بذكره فى مقابل الجنات و الأزواج فى هذه الآيه، وكذلك فى مقابل الفضل و المغفره و الرحمه فى قوله: فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْواناً (المائده ٢)، و قوله: وَ مَغْفِرَةً مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً (الحديد ٢٩)، و قوله:

بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوانٍ (البراءه ٢١).

و لعل الذى يكشف عن هذا الذى أبهمته هذه الآيه هو التدبير فى المعنى الذى ذكرناه و فى قوله تعالى: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، الآيه؛ و قوله: رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً، الآيه؛ حيث علق رضاه بأنفسهم، و الرضا عن أنفسهم غير الرضا عن أفعالهم فيعود المعنى الى أنه لا يمنعهم عن نفسه فيما يسألونه فيقول الى معنى قوله: لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا (ق ٣٥)، فى رضوان الله عن الانسان المشيه المطلقه للانسان.

و من هنا يظهر: أن الرضوان فى هذه الآيه قوبل به من الشهوات المذكوره فى الآيه السابقه أن الإنسان يحسب أنه لو اقتناها و خاصه القناطر المقنطره من بينها افادته إطلاق المشيه و أعطته سعه القدره فله ما يشاء، و عنده ما يريد. و قد اشتبه عليه الأمر فإنما يتم ذلك برضا الله الذى اليه أمر كل شىء.

قوله تعالى: وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ لما تحصل من هذه الآيه و التى قبلها: أن الله أعد للانسان فى كلتا الدارين (الدنيا و الآخره) نعماً يتنعم بها و مآرب اخرى مما تلتذ به نفسه كالأزواج، و ما يؤكل و يشرب، و الملك و نحوها، و هى متشابهه فى الدارين غير أن ما فى الدنيا مشترك بين الكافر و المؤمن مبدول لهما معا و ما فى الآخره مختص بالمؤمن لا يشاركه فيها الكفار كان المقام مظنه سؤال الفرق فى ذلك، و بلفظ آخر سؤال وجه المصلحه فى اختصاص المؤمن بنعم الآخره أجاب عنه بقوله: وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ، و معناه: أن هذا الفرق الذى فرق الله به بين المؤمن و الكافر ليس مبني على العبث و الجراف تعالى عن ذلك بل إن فى

الفريقين أمرا هو المستدعى لهذا الفرق و الله بصير بهم يرى ما فيهم من الفرق و هو التقوى فى المؤمن دون الكافر، وقد وصف هذا التقوى و عرفه بما يلحق بهذه الآيه من قوله: الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا، إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ و ملخصه: أنهم يظهرون فافتهم الى ربهم و عدم استغنائهم عنه، و يصدقون ذلك بالعمل الصالح و لكن الكافر يستغنى عن ربه بشهوات الدنيا و ينسى آخرته و عاقبه أمره (١).

قوله تعالى: الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ وصف للمتقين المدلول عليهم بقوله فى الآيه السابقه: للذين اتقوا، فوصفهم أنهم يقولون ربنا و فيه إظهار للعبودية بذكره تعالى بالربوبية و استرحام منه تعالى فيما يسألونه بقولهم: إننا آمننا، و الجملة ليست فى مقام الامتنان عليه تعالى فان المن منه تعالى بالإيمان كما قال تعالى: بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ (الحجرات ١٧). بل استنجاز لما وعد الله تعالى عباده أنه يغفر لمن آمن منهم، قال تعالى: وَ آمَنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ (الأحقاف / ٣١)، و لذلك فرعوا عليه قولهم: فاعفر لنا ذنوبنا، بفاء التفریع. و فى تأكيد قولهم بان دلاله على صدقهم و ثباتهم فى إيمانهم.

و المغفره للذنوب لا يستلزم التخلص من العذاب بمعنى أن الوقايه من عذاب النار فضل من الله سبحانه بالنسبه الى من آمن به و عبده من غير استحقاق من العبد يثبت له حقا على الله سبحانه أن يجيره من عذاب النار، أو ينعمه بالجنه فإن الايمان و الاطاعه أيضا من نعمه و لا يملك غيره تعالى منه شيئا الا ما جعله على نفسه من حق، و من الحق الذى جعل على نفسه لعباده أن يغفر لهم و يقيهم عذاب النار ان آمنوا به، قال تعالى: وَ آمَنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ

ص: ٤١٢

١- ١). آل عمران ٢٦-٢٧: بحث فى اللذائذ الدنيويه و الآخرويّه؛ القصد من اللذائذ الآخرويّه؛ حقيقه الانسان الوجوديه.

ذُنُوبِكُمْ وَ يُجِزُّكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (الأحقاف ٣١).

و ربما استفيد من بعض الآيات أن الوقايه من عذاب النار هو المغفره و الجنه كقوله تعالى:

هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ مَسَاكِينًا طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ (الصف ١٢)، فإن في الآيتين الاخيرتين تفصيل لما اجمل في الآيه الاولى من قوله: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ، و هذا معنى دقيق سنشرحه في مورد يناسبه ان وفقنا له.

قوله تعالى: الصَّابِرِينَ وَ الصَّادِقِينَ الى آخر الآيه؛ وصفهم بخمس خصال لا- يشذ منها تقوى من متق، فالصبر لسبقه على بقيه الخصال و إطلاقه يشمل أقسام الصبر، و هى ثلاث: صبر على الطاعه، و صبر عن المعصيه، و صبر عند المصيبه.

و الصدق و إن كان بحسب تحليل حقيقته هو مطابقه ظاهر الإنسان من قول و فعل لباطنه لكنه بهذا المعنى يشتمل جميع الفضائل الباقية كالصبر و القنوت و غيرهما و ليس بمراد فالمراد به (و الله أعلم) الصدق فى القول فحسب.

و القنوت هو الخضوع لله سبحانه و يشمل العبادات و أقسام النسك، و الإنفاق هو بذل المال لمن يستحق البذل، و الاستغفار بالأسحار يستلزم قيام آخر الليل و الاستغفار فيه، و السنه تفسره بصلاه الليل و الاستغفار فى قنوت الوتر، و قد ذكر الله أنه سبيل الإنسان الى ربه كما فى سورتى المزمّل و الدهر من قوله تعالى بعد ذكر قيام الليل و التهجد به: إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (المزمّل ١٩)، (الدهر ٢٩).

قوله تعالى: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلَائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ، أصل الشهاده هو المعاينه أعنى: تحمل العلم عن حضور و حس ثم استعمل فى أدائها و إظهار الشاهد ما تحمله من العلم ثم صار كالمشترك بين التحمل و التأديه بعنايه وحده

الغرض فإن التحمل يكون غالبا لحفظ الحق و الواقع من أن يبطل بنزاع أو تغلب أو نسيان أو خفاء فكانت الشهادة تحفظا على الحق و الواقع، فبهذه العناية كان التحمل و التأديبه كلاهما شهادة أى حفظا و إقامة للحق، و القسط هو العدل.

و لما كانت الآيات السابقة أعنى قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، الى قوله: وَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ، تبين: أن الله سبحانه لا- إله غيره و لا يغنى عنه شىء، و أن ما يحسبه الإنسان مغنيا عنه و يركن إليه فى حياته ليس إلا زينه و إلا متاعا خلقه الله ليتمتع به فى سبيل ما هو خير منه و لا ينال الى بتقوى الله تعالى، و بعبارة أخرى:

هذه النعم التى يحن إليها الإنسان مشتركه فى الدنيا بين الكافر و المؤمن مختصه فى الآخرة بالمؤمن أقام الشهادة فى هذه الآيه على أن هذا الذى بينته الآيات حق لا ينبغى أن يرتاب فيه.

فشهد(و هو الله عز اسمه)على أنه لا إله إلا هو و اذ ليس هناك إله غيره فليس هناك أحد يغنى منه شيئا من مال أو ولد أو غير ذلك من زينه الحياه أو أى سبب من الأسباب اذ لو أغنى شىء من هذه منه شيئا لكان إليها دونه أو معتمدا الى إله دونه منتهيا اليه و لا إله غيره.

شهد بهذه الشهادة و هو قائم بالقسط فى فعله، حاكم بالعدل فى خلقه اذ دبر أمر العالم بخلق الأسباب و المسببات و القاء الروابط بينها، و جعل الكل راجعا اليه بالسير و الكدح و التكامل و ركوب طبق عن طبق، و وضع فى مسير هذا المقصد نعمًا لينتفع منها الإنسان فى عاجله لآجله و فى طريقه لمقصده لا ليركن اليه و يستقر عنده فالله يشهد بذلك و هو شاهد عدل.

و من لطيف الأمر أن عدله يشهد على نفسه و على وحدته فى الوهيته أى إن عدله ثابت بنفسه و مثبت لوحدانيته، بيان ذلك: أنا إنما نعتبر فى الشاهد العدالة ليكون جاريا على مستوى طريق الحياه ملازما لصراط الفطره من غير أن يميل الى إفراط أو تفريط فيضع الفعل فى غير موضعه فتكون شهادته مأمونه عن الكذب و الزور فملازمه الصدق و المجاراه مع

صراط التكوين يوجب عداله الإنسان فنفس النظام الحاكم فى العالم و الجارى بين أجزاءه الذى هو فعله سبحانه هو العدل محضاً.

و نحن فى جميع الوقائع التى لا ترضى بها نفوسنا من الحوادث الكونيه أو نجدها على خلاف ما نميل إليه و نطمع فيه ثم نعترض عليها و نناقش فيها إنما نذكر فى الاعتراض على ما يظهر لنا من حكم عقولنا أو تميل إليه غرائزنا، و جميع ذلك مأخوذه من نظام الكون ثم نبحت عنها فيظهر سبب الحادته فتسقط الشبهه أو نعجز عن الحصول على السبب فلا يقع فى أيدينا إلا الجهل بالسبب أى عدم العلم دون العلم بالعدم، فنظام الكون (و هو فعل الله سبحانه) هو العدل فافهم ذلك.

و لو كان هناك إله يغنى منه فى شىء من الامور لم يكن نظام التكوين عدلاً مطلقاً بل كان فعل كل إله عدلاً بالنسبه إليه و فى دائره قضائه و عمله!

و بالجملة فالله سبحانه يشهد، و هو شاهد عدل، على أنه لا إله إلا هو يشهد لذلك بكلامه و هو قوله: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، على ما هو ظاهر الآيه الشريفه، فالآيه فى إشتمالها على شهادته تعالى للتوحيد نظيره قوله تعالى: لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً (النساء ١٦٦).

و الملائكه يشهدون بأنه لا إله إلا هو، فإن الله يخبر فى آيات مكيه نازله قبل هذه الآيات بأنهم عباد مكرمون لا يعصون ربهم و يعملون بأمره و يسبحونه و فى تسييحهم شهاده أن لا إله غيره، قال تعالى: بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (الأنبياء / ٢٧)، و قال تعالى: وَ الْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ (الشورى ٥).

و أولو العلم يشهدون أنه لا إله إلا هو يشاهدون من آياته الآفاقيه و الأنفسيه و قد ملأت مشاعرهم و رسخت فى عقولهم.

قوله تعالى: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، الجملة كالمعترضه الدخيله فى الكلام

لاستيفاء حتى معترض يفوت لو لا ذكره مع عدم كونه مقصودا في الكلام أصاله، و من أدب القرآن أن يظهر تعظيم الله جل شأنه في موارد يذكر أمره ذكرا يخطر منه بالبال ما لا- يليق بساحه كبريائه كقوله تعالى: **قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ** (يونس ٦٨)، فقوله: سبحانه قصد به التعظيم في مقام يحكى فيه قول لا يلائم حقه تعالى، و نظيره بوجه قوله تعالى:

وَ قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمُ الْآيَةَ (المائدة ٦٤).

و بالجمله لما اشتمل أول الآيه على شهاده الله و الملائكه و اولى العلم-بنفى الشريك كان من حق الله سبحانه على من يحكى و يخبر عن هذه الشهاده أعنى المتكلم (و هو فى الآيه هو الله سبحانه) و على من يسمع ذلك أن يوحد الله بنفى الشريك عنه فيقول: لا- إله إلا- هو. نظير ذلك قوله تعالى فى قصه الإفك: **وَ لَوْ لَا إِذِ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (النور ١٦)**، فإن من حقه تعالى عليهم أن اذا سمعوا بهتاننا و أرادوا تنزيه من بهت عليه أن ينزهوا الله قبله فإنه تعالى أحق من يجب تنزيهه.

فموضع قوله: لا- إله إلا- هو العزيز الحكيم موضع الثناء عليه تعالى لاستيفاء حق تعظيمه و لذا تمم بالاسمين العزيز الحكيم، و لو كان فى محل النتيجة من الشهاده لكان حق الكلام أن يتمم بوصفى الوحده و القيام بالقسط، فهو تعالى حقيق بالتوحيد اذا ذكرت الشهاده المذكوره على وحدانيته لأنه المتفرد بالعزه التى يمنع جانبه أن يستدل بوجود شريك له فى مقام الالوهيه، و المتوحد بالحكمه التى تمنع غيره أن ينقض أمره فى خلقه أو ينفذ فى خلال تدبيره و ما نظمه من أمر العالم فيفسد عليه ما أراده.

و قد تبين بما مر من البيان وجه تكرار كلمه التوحيد فى الآيه، و كذا وجه تسميها بالاسمين:

العزيز الحكيم، و الله العالم.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٩ الى ٢٥]

إشاره

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَ مَنْ يَكْفُرْ بآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنْ اتَّبَعَنِ وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ الْبَلَاغُ وَ اللَّهُ بِصِيرٍ بِالْجِبَادِ (٢٠) إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ يَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥)

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ، قد مر معنى الإسلام بحسب اللغة

ص: ٤١٧

و كأن هذا المعنى هو المراد هاهنا بقريته ما يذكره من اختلاف أهل الكتاب بعد العلم بغيا بينهم فيكون المعنى: إن الدين عند الله سبحانه واحد لا اختلاف فيه لم يأمر عباده إلا به، ولم يبين لهم فيما أنزله من الكتاب على أنبيائه إلا إياه، ولم ينصب الآيات الداله إلا له و هو الإسلام الذى هو التسليم للحق الذى هو حق الاعتقاد و حق العمل، و بعبارة اخرى هو التسليم للبيان الصادر عن مقام الربوبية فى المعارف و الأحكام، و هو و إن اختلف كما و كيفا فى شرائع أنبيائه و رسله على ما يحكيه الله سبحانه فى كتابه غير أنه ليس فى الحقيقه إلاّ - أمرا واحدا، و إنما اختلاف الشرائع بالكمال و النقص دون التضاد و التنافى، و التفاضل بينها بالدرجات، و يجمع الجميع أنها تسليم و إطاعه لله سبحانه فيما يريد من عباده على لسان رسله.

فهذا هو الدين الذى أراده الله من عباده و بينه لهم، و لآزمه أن يأخذ الانسان بما تبين له من معارفه حق التبين، و يقف عند الشبهات و قوف التسليم من غير تصرف فيها من عند نفسه و أما اختلاف أهل الكتاب من اليهود و النصارى فى الدين مع نزول الكتاب الإلهى عليهم، و بيانه تعالى لما هو عنده دين و هو الإسلام له فلم يكن عن جهل منهم بحقيقه الأمر و كون الدين واحدا بل كانوا عالمين بذلك، و انما حملهم على ذلك بغيمهم و ظلمهم من غير عذر و ذلك كفر منهم بآيات الله المبينه لهم حق الأمر و حقيقته لا - بالله فإنهم يعترفون به، و من يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب، يحاسبه سريعا فى دنياه و آخرته: أما فى الدنيا فبالخزى و سلب سعادته الحياه عنه، و أما فى الآخرة فبالإيم عذاب النار.

و الدليل على عموم سرعه الحساب للدنيا و الآخرة قوله تعالى بعد آيتين: أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا و آخره و ما لهم من نصيرين.

قوله تعالى: فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ؛ الضمير فى حاجوك راجع الى أهل الكتاب و هو ظاهر و المراد به محتاجتهم فى أمر الاختلاف بأن يقولوا:

أن اختلافنا ليس لبغى منا بعد البيان بل إنما هو شىء ساقنا اليه عقولنا و أفهامنا و اجتهادنا فى

تحصيل العلم بحقائق الدين من غير أن ندع التسليم لجانب الحق سبحانه و أن ما تراه و تدعو اليه يا محمد من هذا القبيل، أو يقولوا ما يشابه ذلك، و الدليل على ذلك قوله: فقل: أَسْلِمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ، و قوله: وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَسْلِمْتُمْ، فإن الجملتين حجه سقت لقطع خصامهم و حجاجهم لا إعراض عن المحاجه معهم.

و معناها مع حفظ ارتباطها بما قبلها: إن الدين عند الله الإسلام لا يختلف فيه كتب الله و لا يرتاب فيه سليم العقل، و يتفرع عليه أن لا حجه عليك في إسلامك و أنت مسلم، فإن حاجوك في أمر الدين فقل: أسلمت وجهي لله و من اتبعن فهذا هو الدين و لا حجه بعد الدين في أمر الدين ثم سلهم: أ أسلموا فإن أسلموا فقد اهتدوا و ليقبلوا ما أنزل الله عليك و على من قبلك و لا حجه عليهم و لا مخاصمه بعد ذلك بينكم، و إن تولوا فلا تخصمهم و لا تحاجهم فلا ينبغى الخصام في أمر ضرورى، و هو إن الدين هو التسليم لله سبحانه، و ما عليك إلا البلاغ.

و قد أشرك سبحانه في الآيه بين أهل الكتاب و الاميين بقوله: وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَسْلِمْتُمْ، لكون الدين مشتركاً بينهم و إن اختلفوا في التوحيد و التشريك.

و قد علق الإسلام على الوجه- و هو ما يستقبلك من الشىء أو الوجه بالمعنى الأخص لكون إسلام الوجه لاشتماله على معظم الحواس و المشاعر إسلاماً لجميع البدن- ليدل على معنى الإقبال و الخضوع لأمر الرب تعالى، و عطف قوله: وَ مَنْ اتَّبَعَنِي حَفِظًا لِمَقَامِ التَّبَعِيهِ وَ تَشْرِيفًا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

قوله تعالى: وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَسْلِمْتُمْ الى آخر الآيه؛ المراد بالاميين المشركين سموا بذلك لتسميه من وضع في مقابلهم بأهل الكتاب، و كذا كان أهل الكتاب يسمونهم كما حكاه تعالى من قوله: لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ (آل عمران/ ٧٥)، و الامى هو الذى لا يكتب و لا يقرأ.

و فى قوله تعالى: وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ دلالة

اولا:على النهى عن المراء و الإلحاح فى المحاجه فإن المحاجه مع من ينكر الضرورى لا تكون إلا مراء و لجاجا فى البحث.

و ثانيا:على أن الحكم فى حق الناس و الأمر مطلقا الى الله سبحانه،و ليس للنبي صلى الله عليه و آله و سلم إلا أنه رسول مبلغ لا حاكم مسيطر كما قال تعالى: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ (آل عمران/ ١٢٨)،و قال تعالى: لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (الغاشيه/٢٣).

و ثالثا:على تهديد أهل الكتاب و المشركين فإن ختم الكلام بقوله: وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ، بعد قوله: فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ لَا يَخْلُو مِنْ ذَلِكَ،و يدل على ذلك ما وقع من التهديد فى نظير الآيه، و هو قوله تعالى: قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ إِلَى أَنْ قَالَ: وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (البقره/ ١٣٧)،تذكر الآيه أن أهل الكتاب إن تولوا عن الإسلام فهم مصرون على الخلاف ثم يهددهم بما يسلى به النبي و يطيب نفسه،فالآيه أعنى قوله: وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ، كناية عن الأمر بتخليه ما بينهم و بين ربهم،و إرجاع أمرهم اليه،و هو بصير بعباده يحكم فيهم بما تقتضيه حالهم و يسأله لسان استعدادهم.

و من هنا يظهر:أن ما ذكره بعض المفسرين،أن فى الآيه دليلا على حريه الاعتقاد فى أمر الدين و أن لا إكراه فيه ليس بوجيه فإن الآيه كما عرفت مسوقه لغير ذلك.

و فى قوله: بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ حيث أخذ عنوان العبوديه و لم يقل:بصير بهم أو بصير بالناس و نحو ذلك إشعار بأن حكمه نافذ فيهم ماض عليهم فإنهم عباده و مربوطون له أسلموا أو تولوا.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِالْآيَاتِ اللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛الكلام فى الآيه و إن كان مسوقا سوق الاستيناف لكنه مع ذلك لا يخلو عن إشعار و بيان للتهديد الذى يشعر به آخر الآيه السابقه فإن مضمونها منطبق على أهل الكتاب و خاصه اليهود.

و قوله: يَكْفُرُونَ،و يقتلون،فى موضعين للاستمرار و يدلان على كون الكفر بآيات

اللّه و هو الكفر بعد البيان بغيا، و قتل الأنبياء و هو قتل من غير حق، و قتل الذين يدعون الى القسط و العدل و ينهون عن الظلم و البغى دأبا و عادته جاريه فيما بينهم كما يشتمل عليه تاريخ اليهود، فقد قتلوا جمعا كثيرا و جما غفيرا من أنبيائهم و عبادهم الآمرين بالمعروف و الناهين عن المنكر و كذا النصارى جروا مجراهم.

و قوله: فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ تصريح بشمول الغضب و نزول السخط، و ليس هو العذاب الاخرى فحسب بدليل قوله تعالى عقيب الآيه: أولئك الذين حبّطت أعمالهم فى الدنيا و الآخرة، الخ؛ فهم مبشرون بالعذاب الدنيوى و الاخرى معا، أما الاخرى فأليم عذاب النار، و أما الدنيوى فهو ما لقوه من التقتيل و الإجلاء و ذهاب الأموال و الأنفس، و ما سخط الله عليهم بإلقاء العداوه و البغضاء بينهم الى يوم القيامة على ما تصرح به آيات الكتاب العزيز.

و فى قوله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْمَآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ، دلالة اولاه: على حبط عمل من قتل رجلا من جهه أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر و ثانيا: على عدم شمول الشفاعة له يوم القيامة لقوله: وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ يومى الى تسجيل البغى على أهل الكتاب حسب ما نسبه الله تعالى اليهم و أنهم يبغون باتخاذ الخلاف و إيجاد اختلاف الكلمه فى الدين فإنهم اذا دعوا الى حكم الكتاب كتاب الله بينهم لم يسلموا له و تولوا و أعرضوا عنه و ليس ذلك إلا باغترارهم بقولهم لن تمسنا، الخ؛ و بما افتروه على الله فى دينهم.

و المراد بالذين اوتوا نصيبا من الكتاب أهل الكتاب و إما لم يقل: اوتوا الكتاب، و قيل:

اوتوا نصيبا من الكتاب ليدل على أن الذى فى أيديهم من الكتاب ليس إلا نصيبا منه دون جميعه لأن تحريفهم له و تغييرهم و تصرفهم فى كتاب الله أذهب كثيرا من أجزاءه كما يومى اليه

قوله فى آخر الآيه التاليه: و غرهم فى دينهم ما كانوا يفترون، و كيف كان فالمراد-و الله أعلم- أنهم يتولون عن حكم كتاب الله اعترازا بما قالوا و اغترارا بما وضعوه من عند أنفسهم و استغناء به عن الكتاب.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ الْخ؛ معناه واضح، و اغترارهم بفريتهم التى افترتها أنفسهم مع أن الإنسان لا ينخدع عن نفسه مع العلم بأنها خدعه باطله إنما هو لكون المغرورين غير المفترين؛ و على هذا فنسبه الافتراء الذى توسل إليها سابقوهم الى هؤلاء المغرورين من اللاحقين لكونهم امه واحده يرضى بعضهم بفعال بعض.

و إما لأن الاغترار بغرور النفس و الغرور بالفريه الباطله مع العلم بكونها فريه باطله و ذكر المغرور أنه هو الذى افترى ما يغتر به من الفريه ليس من أهل الكتاب و من اليهود خاصه ببعيد، و قد حكى الله عنهم مثل بل ما هو أعجب من ذلك حيث قال تعالى: وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغَضٍ مِنْهُمْ إِلَى بَعْضِ قَالُوا أَ تَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ (البقره ٧٧).

قوله تعالى: فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِلَى آخر الآيه؛ مدخول كيف مقدر يدل على الكلام مثل يصنعون و نحوه، و فى الآيه إيعاد لهؤلاء الذين تولوا اذا دعوا الى كتاب الله ليحكم بينهم و هم معرضون غير أنه لما اريد بيان أنهم غير معجزين لله سبحانه اخذ فى الكلام من حالهم يوم القيامه و هم مستسلمون يومئذ ما يضاهى حالهم فى الدنيا عند الدعوه الى حكم كتاب الله و هم غير مسلمين له مستكبرون عنه، و لهذا اخذ بالمحاذاه بين الكلامين، و عبر عن ما يجرى عليهم يوم القيامه بمثل قوله: إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، الخ؛ دون أن يقال: اذا أحييناهم أو بعثناهم أو ما يماثل ذلك.

و المعنى-و الله أعلم- أنهم يتولون و يعرضون اذا دعوا الى كتاب الله ليحكم بينهم اغترارا بما افتروه فى دينهم و استكبارا عن الحق فكيف يصنعون اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه و هو يوم

يظلمون، و إذا كان كذلك كان الواجب عليهم أن لا- يتولوا و يعرضوا مظهرين بذلك أنهم معجزون لله غالبون على أمره فإن القدره كله لله و ما هي إلا أيام مهله و فتنه.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

اشاره

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ تُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)

بيان:

قوله تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ، أمر بالالتجاء الى الله تعالى الذي بيده الخير على الإطلاق و له القدره المطلقه ليتخلص من هذه الدعاوى الوهميه التي نشبت في قلوب المنافقين و المتمردين من الحق من المشركين و أهل الكتاب فضلوا و هلكوا بما قدره لأنفسهم من الملك و العزه و الغنى من الله سبحانه، و يعرض الملتجى نفسه على إفاضه مفيض الخير و الرازق لمن يشاء بغير حساب.

قوله تعالى: تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ؛ الملك باطلاقه شامل لكل ملك حقا أو باطلا عدلا أو جورا فان الملك (كما تقدم بيانه في قوله: أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ، الآية؛ (البقره ٢٥٨/)) في نفسه موهبه من مواهب الله و نعمه يصلح لأن يترتب عليه آثار حسنه في المجتمع الإنساني و قد جبل الله النفوس على حبه و الرغبة فيه، و الملك

الذى تقلده غير أهله ليس بمذموم من حيث إنه ملك، وإنما المذموم إما تقلد من لا يليق بتقلده كمن تقلده جورا و غصبا، وإما سيرته الخبيثة مع قدرته على حسن السير، ويرجع هذا الثانى أيضا بوجه الى الأول.

قوله تعالى: **وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ**؛ العز كون الشىء بحيث يصعب مناله؛ ولذا يقال للشىء النادر الوجود أنه عزيز الوجود أى صعب المنال، ويقال عزيز القوم لمن يصعب قهره و الغلبه عليه من بينهم فهو صعب المنال بالقهر و الغلبه، و صعب المنال من حيث مقامه فيهم و وجدانه كل ما لهم من غير عكس ثم استعمل فى كل صعوبه كما يقال: يعز على كذا. قال تعالى: **عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ** (التوبه ١٢٨/)، أى صعب عليه. و استعمل فى كل غلبه كما يقال. من عزَّ بَرَّ أى من غلب سلب، قال تعالى: **«وَعَزَّيْنِي فِي الْخِطَابِ»**، ص-٢٣، أى غلبنى، و الأصل فى معناه ما مر.

و يقابله الذل و هو سهوله المنال بقهر محقق أو مفروض. قال تعالى: **وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ** (البقره ٦١/)، و قال تعالى: **وَ اخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ** (الإسراء ٢٤/)، و قال تعالى: **أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** (المائده ٥٤/).

و العزه من لوازم الملك على الإطلاق، و كل من سواه اذا تملك شيئا فهو تعالى خوله ذلك و ملكه، و إن ملك على قوم فهو تعالى آتاه ذلك فكانت العزه له تعالى محضا و ما عنده غيره منها فانما هو بايتائه و إفضاله. قال تعالى: **أَيَّتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** (النساء / ١٣٩)، و قال تعالى: **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** (المنافقون ٨/). و هذه هى العزه الحقيقيه و أما غيرها فانما هى ذل فى صورته عز. قال تعالى: **بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَ شِقَاقِهِ** (ص ٢/). و لذا أردفه بقوله: **كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَ لَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ** (ص ٣/).

و للذل بالمقابله ما يقابل العز من الحكم فكل شىء غيره تعالى ذليل فى نفسه إلا من أعزه الله تعالى (تعز من تشاء و تذلل من تشاء).

قوله تعالى: بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلِيمٌ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ الأصل فى معنى الخير هو الانتخاب و إنما نسمى الشىء خيرا لأننا نقيسه الى شىء آخر نريد أن نختار أحدهما فنتنخبه فهو خير و لا نختار إلا لكونه متضمنا لما نريده و نقصده فما نريده هو الخير بالحقيقه، و إن كنا أردناه أيضا لشىء آخر فذلك الآخر هو الخير بالحقيقه، و غيره خير من جهته، فالخير بالحقيقه هو المطلوب لنفسه يسمى خيرا لكونه هو المطلوب اذا قيس الى غيره، و هو المنتخب من بين الأشياء اذا أردنا واحدا منها و ترددنا فى اختياره من بينها.

فالشىء كما عرفت إنما يسمى خيرا لكونه منتخبا اذا قيس الى شىء آخر مؤثرا بالنسبه الى ذلك الآخر ففى معناه نسبه الى الغير و لذا قيل: إنه صيغه التفضيل و أصله أخير. و ليس بأفعل التفضيل، و إنما يقبل انطباق معنى التفضيل على مورده فيتعلق بغيره كما يتعلق أفعل التفضيل؛ يقال: زيد أفضل من عمرو، و زيد أفضلهما، و يقال: زيد خير من عمرو، و زيد خيرهما.

و لو كان خير صيغه التفضيل لجرى فيه ما يجرى عليه، و يقال أفضل و أفاضل و فضلى و فضليات، و لا يجرى ذلك فى خير بل يقال: خير و خيره و أخيار و خيرات كما يقال: شيخ و شيخه و أشياخ و شيخات فهو صفة مشبهه.

و لعل الوجه فى جميع ذلك اعتبار ما فى ماده الخير من معنى الانتخاب فلم يطلق اطلاق الاسم عليه تعالى صونا لساحته تعالى أن يقاس الى غيره بنحو الإطلاق و قد عنت الوجوه لجنابه؛ و أما التسميه عند الإضافه و النسبه، و كذا التوصيف فى الموارد المقتضيه لذلك فلا محذور فيه.

قوله تعالى: إِنَّكَ عَلِيمٌ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فى مقام التعليل لكون الخير بيده تعالى فإن القدره المطلقه على كل شىء توجب أن لا يقدر أحد على شىء إلا بإقداره تعالى إياه على

ذلك، ولو قدر أحد على شيء من غير أن تستند قدرته إلى إقداره تعالى كان مقدوره من هذه الجبهه خارجا عن سعه قدرته تعالى فلم يكن قديرا على كل شيء؛ و إذا كانت لقدرته هذه السعه كان كل خير مفروض مقدورا عليه له تعالى؛ و كان أيضا كل خير أفاضه غيره منسوبا إليه مفاضاً عن يديه فهو له أيضا فجنس الخير الذي لا يشذ منه شاذ بيده، وهذا هو الحصر الذي يدل عليه قوله تعالى: **بِيَدِكَ الْخَيْرُ** .

قوله تعالى: **تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ**؛ الولوج هو الدخول، و الظاهر كما ذكره أن المراد من إيلاج الليل في النهار، و إيلاج النهار في الليل ما هو المشاهد من اختلاف الليل و النهار في عرض السنه بحسب اختلاف عروض البقاع و الأمكنه على بسيط الأرض، و اختلاف ميول الشمس فتأخذ الأيام في الطول و الليالي في القصر و هو ولوج النهار في الليل بعد انتهاء الليالي في الطول من أول الشتاء الى أول الصيف ثم يأخذ الليالي في الطول و الأيام في القصر و هو ولوج الليل في النهار بعد انتهاء النهار في الطول من أول الصيف الى أول الشتاء، كل ذلك في البقاع الشماليه، و الأمر في البقاع الجنوبيه على عكس الشماليه منها، فالطول في جانب قصر في الجانب الآخر فهو تعالى يولج الليل في النهار و النهار في الليل دائما، أما الاستواء في خط الاستواء و القطبين فإنما بحسب الحس و أما في الحقيقه فحكم التغيير دائم و شامل.

قوله تعالى: **وَ تَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تَخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ** و ذلك إخراج المؤمن من صلب الكافر، و إخراج الكافر من صلب المؤمن فإنه تعالى سمى الإيمان حيوه و نورا، و الكفر موتا و ظلمه كما قال تعالى: **أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا** (الأنعام ١٢٢)، و يمكن أن يراد الأعم من ذلك و من خلق الأحياء كالنبات و الحيوان من الأرض العديمه الشعور و إعادته الأحياء الى الأرض بإماتتها فإن كلامه تعالى كالصريح في أنه يبذل الميت الى الحي و الحي الى الميت الى

الميت، قال تعالى: ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكِ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعِيدٌ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (المؤمنون ١٥)، الى غيرها من الآيات.

قوله تعالى: وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ، المقابله المذكوره آنفا تعطى أن يكون قوله: وَ تَرْزُقُ، الخ؛ بيانا لما سبقه من إيتاء الملك و العز و الإيلاج و غيره، فالعطف عطف تفسير فيكون من قبيل بيان الخاص من الحكم بما هو أعم منه كما أن قوله: بِيَدِكَ الْخَيْرُ، بالنسبه الى ما سبقه من هذا القبيل؛ و المعنى: إنك متصرف في خلقك بهذه التصرفات لأنك ترزق من تشاء بغير حساب (١)(٢)(٣)(٤).

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٢٨ الى ٣٢]

إشارة

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)

ص: ٤٢٧

١-١). آل عمران ٢٦-٢٧: بحث في معنى الرزق في القرآن.

٢-٢). آل عمران ٢٦-٢٧: بحث روائي في: معنى ايتاء الملك و انواعه؛ حكمومه بنى اميه؛ الآيه «تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ»؛ معنى الرزق.

٣-٣). آل عمران ٢٦-٢٧: بحث علمي في الحكمومه (الملك).

٤-٤). آل عمران ٢٦-٢٧: بحث فلسفي في: العليه؛ استناد الافعال الى الله سبحانه.

قوله تعالى: لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ الأولياء جمع الولي من الولاية و هي في الأصل ملك تدبير أمر الشيء فولى الصغير أو المجنون أو المعتوه هو الذى يملك تدبير امورهم و امور أموالهم فالمال لهم و تدبير أمره لوليهم، ثم استعمل و كثر استعماله فى مورد الحب لكونه يستلزم غالبا تصرف كل من المتحابين فى امور الآخر لإفضائه الى التقرب و التأثير عن اراده المحبوب و سائر شئونه الروحيه فلا يخلو الحب عن تصرف المحبوب فى امور المحب فى حياته.

فاتخاذ الكافرين أولياء هو الامتزاج الروحى بهم بحيث يودى الى مطاوعتهم و التأثير منهم فى الأخلاق و سائر شئون الحياه و تصرفهم فى ذلك؛ و يدل على ذلك تقييد هذا النهى بقوله:

مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ،فان فيه دلالة على ايثار حبههم على حب المؤمنين، و القاء أزمه الحياه اليهم دون المؤمنين، و فيه الركون اليهم و الاتصال بهم و الانفصال عن المؤمنين.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ؛ أى و من يتخذهم أولياء من دون المؤمنين، و إنما بدل من لفظ عام للإشعار بنهايه نفره المتكلم منه حتى أنه لا يتلفظ به الا بلفظ عام كالتكنيه عن القبائح، و هو شائع فى اللسان؛ و لذلك أيضا لم يقول: و من يفعل ذلك من المؤمنين كأن فيه صونا للمؤمنين من أن ينسب اليهم مثل هذا الفعل.

و من في قوله: مِنَ اللَّهِ، لا ابتداء، و يفيد في أمثال هذا المقام معنى التحزب أى ليس من حزب الله فى شىء كما قال تعالى: وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (المائدة ٥٦)، و كما فيما حكاه عن ابراهيم عليه السلام من قوله: فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي (إبراهيم ٣٦)، أى من حزبي، و كيف كان فالمعنى و الله أعلم: ليس من حزب الله مستقرا فى شىء من الأحوال و الآثار.

قوله تعالى: إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً، الاتقاء فى الأصل أخذ الوقايه للخوف ثم ربما استعمل بمعنى الخوف استعمالا للمسبب فى مورد السبب و لعل التقيه فى المورد من هذا القبيل.

و الاستثناء منقطع فإن التقرب من الغير خوفا بإظهار آثار التولى ظاهرا من غير عقد القلب على الحب و الولايه ليس من التولى فى شىء لأن الخوف و الحب أمران قليبان متباينان و متنافيان أثرا فى القلب فكيف يمكن اتحادهما؟ فاستثناء الاتقاء استثناء منقطع.

و فى الآيه دلالة ظاهره على الرخصه فى التقيه على ما روى عن أمه أهل البيت عليهم السلام كما تدل عليه الآيه النازله فى قصه عمار و أبويه ياسر و سميه و هي قوله تعالى: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (النحل ١٠٦).

و بالجمله الكتاب و السنه متطابقان فى جوازها فى الجملة، و الاعتبار العقلى يؤكده اذ لا بغيه للدين، و لا هم لشارعه إلا ظهور الحق و حياته، و ربما يترتب على التقيه و المجاراه مع أعداء الدين و مخالفي الحق من حفظ مصلحه الدين و حيوه الحق ما لا يترتب على تركها، و إنكار ذلك مكابره و تعسف، و سنستوفى الكلام فيها فى البحث الروائى التالى، و فى الكلام على قوله تعالى: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ (النحل / ١٠٦).

قوله تعالى: وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ، التحذير تفعيل من الحذر وهو الاحتراز من أمر مخيف وقد حذر الله عباده من عذابه كما قال تعالى: إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (الإسراء ٥٧)، وحذر من المنافقين وفتنه الكفار فقال: هُمْ الْعِيدُ فَأَحْذَرَهُمْ (المنافقين ٤)، وقال: وَاحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ (المائدة ٤٩)، وحذرهم من نفسه كما في هذه الآيه وما يأتي بعد آيتين، وليس ذلك إلا للدلالة على أن الله سبحانه نفسه هو المخوف الواجب الاحتراز في هذه المعصيه، أى ليس بين هذا المجرم وبينه تعالى شىء مخوف آخر حتى يتقى عنه بشىء أو يتحصن منه بحصن، وإنما هو الله الذى لا-عاصم منه، ولا أن بينه وبين الله سبحانه أمر مرجو فى دفع الشر عنه من ولى ولا شفيع، ففى الكلام أشد التهديد، ويزيد فى اشتداده تكراره مرتين فى مقام واحد ويؤكد تذييله أولاً بقوله: وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ، و ثانياً بقوله: وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ على ما سيحىء من بيانه.

و من جهه اخرى: يظهر من مطاوى هذه الآيه و سائر الآيات الناهيه عن اتخاذ غير المؤمنين أولياء أنه خروج عن زى العبوديه، و رفض لولايه الله سبحانه، و دخول فى حزب أعدائه لإفساد أمر الدين؛ و بالجمله هو طغيان و إفساد لنظام الدين الذى هو أشد و أضر بحال الدين من كفر الكافرين و شرك المشركين فإن العدو الظاهر عداوته المباين طريقته مدفوع عن الحومه سهل الانتقاء و الحذر؛ و أما الصديق و الحميم اذا استأنس مع الأعداء و دب فيه أخلاقهم و سننهم فلا يلبث فعالة إلا أن يذهب بالحومه و أهلها من حيث لا يشعرون، و هو الهلاك الذى لا رجاء للحياه و البقاء معه.

و فى قوله: وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ، دلالة على أن لا مفر لكم منه و لا صارف له؛ ففيه تأكيد التهديد السابق عليه.

و الآيات أعنى قوله تعالى: لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ، الآيه؛ و ما يتبعها من الآيات من ملاحم القرآن، و سيحىء بيانه إنشاء الله فى سوره المائده.

قوله تعالى: قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ، الآيه؛ نظيره قوله تعالى: وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ (البقره ٢٨٤/)، غير أنه لما كان الأنسب بحال العلم أن يتعلق بالمخفى بخلاف الحساب فإن الأنسب له أن يتعلق بالبادى الظاهر قدم ذكر الإخفاء فى هذه الآيه على ذكر الأداء، وجرى بالعكس منه فى آيه البقره كما قيل.

وقد أمر فى الآيه رسوله بإبلاغ هذه الحقيقه - وهو علمه بما تخفيه أنفسهم أو تبديه - من دون أن يباشره بنفسه كسابق الكلام، وليس ذلك إلا ترفعا عن مخاطبه من يستشعر من حاله أنه سيخالف ما وصاه كما مر ما يشبه ذلك فى قوله: وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ .

وفى قوله تعالى: وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مضاهاه لما مر من آيه البقره و قد مر الكلام فيه.

قوله تعالى: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ، الظاهر من اتصال السياق أنه من تتمه القول فى الآيه السابقه الذى أمر به النبى صلى الله عليه وآله وسلم؛ والظرف متعلق بمقدر أى و اذكر يوم تجد، أو متعلق بقوله: يُعَلِّمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ، و لا - ضير فى تعليق علمه تعالى بما سنشاهده من أحوال يوم القيامة فإن هذا اليوم ظرف لعلمه تعالى بالنسبه الى ظهور الأمر لنا لا بالنسبه الى تحققه منه تعالى، وذلك كظهور ملكه وقدرته وقوته فى اليوم، قال تعالى: يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (المؤمن ١٦/)، وقال: لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ (هود ٤٣/)، وقال:

وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (البقره ١٦٥/)، وقال:

وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (الانفطار ١٩/)، اذ من المعلوم أن الله سبحانه له كل الملك والقدره والقوه والأمر دائما-قبل القيامة وفيها و بعدها- وإنما اختص يوم القيامة بظهور هذه الامور لنا معاشر الخلائق ظهورا لا ريب فيه.

و من ذلك يظهر أن تعلق الظرف بقوله: يَعلِّمُهُ اللهُ، لا يفيد تأخر علمه تعالى بسرائر عبادته من خير أو شر الى يوم القيامة.

على أن فى قوله تعالى: مُخَضَّرًا، دون أن يقول: حاضرًا دلالة على ذلك فإن الإحضار إنما يتم فيما هو موجود غائب فالأعمال موجودة محفوظة عن البطلان يحضرها الله تعالى لخلقه يوم القيامة، و لا حافظ لها إلا الله سبحانه، قال تعالى: وَ رَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (سبأ/ ٢١)، و قال: وَ عِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (ق ٤).

و قوله: تَجِدُ، من الوجدان خلافاً للفقدان، و من قوله: مِنْ خَيْرٍ و مِنْ سُوءٍ للبيان، و التنكير للتعميم، أى تجد كل ما عملت من الخير و إن قل و كذا من السوء و قوله: وَ مَا عَمِلْتَ مِنْ سُوءٍ، معطوف على قوله ما عملت من خير على ما هو ظاهر السياق و الآية من الآيات الدالة على تجسم الأعمال، و قد مر البحث عنها فى سورة البقرة.

قوله تعالى: تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَ بَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا، الظاهر أنه خبر لمبتدأ محذوف و هو الضمير الراجع الى النفس، و لو للتمنى، و قد كثر دخوله فى القرآن على أن المفتوحه المشدده، فلا يعبا بما قيل من عدم جوازه و تأويل ما ورد فيه ذلك من الموارد.

و الأمد يفيد معنى الفاصله الزمانيه؛ قال الراغب فى مفردات القرآن: الأمد و الأبد يتقاربان، لكن الأبد عباره عن مداه الزمان التى ليس لها حد محدود، و لا يتقيد، لا يقال: أمد كذا، و الأمد مداه لها حد مجهول اذا اطلق، و قد ينحصر نحو أن يقال: أمد كذا، كما يقال: زمان كذا، و الفرق بين الزمان و الأمد، أن الأمد يقال باعتبار الغايه، و الزمان عام فى المبدأ و الغايه، و لذا قال بعضهم: الأمد و المدى يتقاربان، انتهى.

و فى قوله: تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَ بَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا، دلالة على أن حضور سيئ العمل يسوء النفس كما يشعر بالمقابلة بأن حضور خير العمل يسرها، و إنما تود الفاصله الزمانيه بينها و بينه دون أن تود أنه لم يكن من أصله لما يشاهد من بقاءه بحفظ الله فلا يسعها إلا أن تحب بعده و عدم

(البينه ٥/٥)، و قال تعالى: فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (المؤمن / ١٤)، الى غير ذلك من الآيات (١).

قوله تعالى: وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، الرحمة الواسعة الإلهية و ما عنده من الفيوضات المعنوية و الصورية غير المتناهية غير موقفه على شخص أو صنف من أشخاص عباده و أصنافهم، و لا استثناء هناك يحكم على إطلاق إفاضته، و لا سبيل يلزمه على الإمساك إلا حرمان من جهة عدم استعداد المستفيض المحروم أو مانع أبداه بسوء اختياره، قال تعالى: وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (الإسراء ٢٠).

و الذنوب هي المانعة من نيل ما عنده من كرامه القرب و الزلفى و جميع الأمور التي هي من توابعها كالجنه و ما فيها، و إزاله رينها عن قلب الإنسان و مغفرتها و سترها عليه هي المفتاح الوحيد لانفتاح باب السعادة و الدخول فى دار الكرامه، و لذلك عقب قوله: يُحِبُّكُمْ اللَّهُ بقوله:

وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، فإن الحب كما تقدم يجذب المحب الى المحبوب، و كما كان حب العبد لربه يستدعى منه التقرب بالإخلاص له و قصر العبودية فيه كذلك حبه تعالى لعبده يستدعى قربه من العبد، و كشفه حجب البعد و سبحات الغيبه، و لا حجاب إلا الذنب فيستدعى ذلك مغفره الذنوب، و أما ما بعده من الكرامه و الإفاضه فالجود كاف فيه كما تقدم آنفا.

و التأمل فى قوله تعالى: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِنَا لَمَحْجُوبُونَ (المطففين ١٥)، مع قوله تعالى فى هذه الآية: يُحِبُّكُمْ اللَّهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ كاف فى تأييد ما ذكرناه.

قوله تعالى: قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ اه، لما كانت الآيه السابقه تدعو الى اتباع الرسول، و الاتباع و هو اقتفاء الأثر لا يتم إلا مع كون المتبع (اسم مفعول) سالك سبيل،

ص: ٤٣٤

و السبيل الذى يسلكه النبى صلى الله عليه و آله و سلم إنما هو الصراط المستقيم الذى هو لله سبحانه، و هو الشريعة التى شرعها لنبيه و افترض طاعته فيه كرر ثانيا فى هذه الآيه معنى اتباع النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى قالب الإطاعه إشعارا بأن سبيل الإخلاص الذى هو سبيل النبى هو بعينه مجموع أوامر و نواه و دعوه و إرشاد فيكون اتباع الرسول فى سلوك سبيله هو إطاعه الله و رسوله فى الشريعة المشرعه. و لعل ذكره تعالى مع الرسول للإشعار بأن الأمر واحد، و ذكر الرسول معه سبحانه لان الكلام فى اتباعه.

و من هنا يظهر عدم استقامه ما ذكره بعضهم فى الآيه: أن المعنى: أطيعوا الله فى كتابه و الرسول فى سنته.

و ذلك أنه مناف لما يلوح من المقام من أن قوله: قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ، الخ؛ كالمبين لقوله: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي، على أن الآيه مشعره بكون إطاعه الله و إطاعه الرسول واحده، و لذا لم يكرر الأمر، و لو كان مورد الإطاعه مختلفا فى الله و رسوله لكان الأنسب أن يقال: أطيعوا الله و أطيعوا الرسول كما فى قوله تعالى: أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ (النساء ٥٩)، كما لا يخفى.

و اعلم أن الكلام فى هذه الآيه من حيث إطلاقها و من حيث انطباقها على المورد نظير الكلام فى الآيه السابقه.

قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ، فيه دلالة على كفر المتولى عن هذا الأمر كما يدل على ذلك سائر آيات النهى عن تولى الكفار و فيه أيضا إشعار بكون هذه الآيه كالمبينه لسابقتها حيث ختمت بنفى الحب عن الكافرين بأمر الإطاعه، و قد كانت الآيه الاولى متضمنه لإثبات الحب للمؤمنين المنقادين لأمر الاتباع فافهم ذلك (١).

ص: ٤٣٥

إشارة

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَ نُوحًا وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ وَ آلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَ نُوحًا الى آخر الآيه؛ الاصطفاء كما مر بيانه في قوله تعالى: لَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا (البقره ١٣٠/)، أخذ صفوه الشيء و تخليصه مما يكدره فهو قريب من معنى الاختيار، و ينطبق من مقامات الولايه على مقام الإسلام، و هو جرى العبد في مجرى التسليم المحض لأمر ربه فيما يرتضيه له.

لكن ذلك غير الاصطفاء على العالمين، و لو كان المراد بالاصطفاء هنا ذاك الاصطفاء لكان الأنسب أن يقال: من العالمين، و أفاد اختصاص الإسلام بهم و اختل معنى الكلام، فالاصطفاء على العالمين، نوع اختيار و تقديم لهم عليهم في أمر أو امور لا يشاركهم فيه أو فيها غيرهم.

و من الدليل على ما ذكرناه من اختلاف الاصطفاء قوله تعالى: وَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (آل عمران ٤٢/)، حيث فرّق بين الاصطفاءين فالاصطفاء غير الاصطفاء.

قوله تعالى: ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، الذريه في الأصل صغار الأولاد على ما ذكروا ثم استعملت في مطلق الأولاد، و هو المعنى المراد في الآيه؛ و هي منصوبه عطف بيان.

و في قوله: بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ دلالة على أن كل بعض فرض منها يبتدئ و ينتهى من البعض

الآخر و اليه. و لازمه كون المجموع متشابه الأجزاء لا- يفترق البعض من البعض في أوصافه و حالاته، و اذا كان الكلام في اصطفائهم أفاد ذلك أنهم ذريه لا يفترقون في صفات الفضيله التي اصطفاهم الله لأجلها على العالمين اذ لا جزاف و لا لعب في الأفعال الإلهيه، و منها الاصطفاء الذي هو منشأ خيرات هامه في العالم.

قوله تعالى: وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، أى سمع بأقوالهم الداله على باطن ضمائرهم، عليم بباطن ضمائرهم و ما فى قلوبهم فالجمله بمنزله التعليل لاصطفائهم، كما أن قوله: ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، بمنزله التعليل لشمول موهبه الاصطفاء لهؤلاء الجماعه، فالمحصل من الكلام: ان الله اصطفى هؤلاء على العالمين، و إنما سرى الاصطفاء الى جميعهم لأنهم ذريه متشابهه الأفراد، بعضهم يرجع الى البعض فى تسليم القلوب و ثبات القول بالحق، و إما أنعم عليهم بالاصطفاء على العالمين لأنه سمع عليم يسمع أقوالهم و يعلم ما فى قلوبهم.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٣٥ الى ٤١]

اشاره

إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْمُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسِينًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَ أَذْكَرَ رَبِّكَ كَثِيرًا وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكَارِ (٤١)

قوله تعالى: إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ؛ النذر إيجاب الإنسان على نفسه ما ليس بواجب. والتحرير هو الإطلاق عن وثاق، ومنه تحرير العبد عن الرقيه، وتحرير الكتاب كأنه إطلاق للمعاني عن محفظه الذهن والفكر. والتقبل هو القبول عن رغبه ورضى كتقبل الهديه و تقبل الدعاء و نحو ذلك.

و في قوله: قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي، دلالة على أنها إنما قالت هذا القول حينما كانت حاملا، وأن حملها كان من عمران، ولا يخلو الكلام من إشعار بأن زوجها عمران لم يكن حيا عندئذ و إلا لم يكن لها أن تستقل بتحرير ما في بطنها هذا الاستقلال كما يدل عليه أيضا ما سيأتي من قوله تعالى: وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذِ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ

الآية (آل عمران ٤٤)، على ما سيحيى من البيان.

و من المعلوم أن تحرير الاب أو الام للولد ليس تحريرا عن الرقيه و إنما هو تحرير عن قيد الولايه التى للوالدين على الولد من حيث تربيته و استعماله فى مقاصدهما و افتراض طاعتهما فبالتحريم يخرج من تسلط أبويه عليه فى استخدامه، و اذا كان التحريم منذورا لله سبحانه يدخل فى ولايه الله يعبده و يخدمه؛ أى يخدم فى البيع و الكنائس و الأماكن المختصه بعبادته تعالى فى زمان كان فيه تحت ولايه الأبوين لو لا- التحريم؛ و قد قيل: إنهم كانوا يحرون الولد لله فكان الأبوان لا يستعملانه فى منافعهما: و لا يصرفانه فى حوائجهما بل كان يجعل فى الكنسيه يكنسها و يخدمها لا يبرح حتى يبلغ الحلم ثم يخير بين الإقامه و الرواح فإن أحب أن يقيم أقام، و إن احب الرواح ذهب لشأنه.

و فى الكلام دلالة على أنها كانت تعتقد أن ما فى بطنها ذكر لا اناث حيث إنها تناجى ربها عن جزم و قطع من غير اشتراط و تعليق حيث تقول: نذرت لك ما فى بطنى محررا من غير أن تقول مثلا إن كان ذكرا و نحو ذلك.

و ليس تذكير قوله: مُحَرَّرًا، من جهه كونه حالا عن ما الموصوله التى يستوى فيه المذكر و المؤنث اذ لو كانت نذرت تحير ما فى بطنها سواء كان ذكرا أو انثى لم يكن وجه لما قالتها تحزنا و تحسرا لما وضعتها: رب إنى وضعتها انثى؛ و لا وجه ظاهر لقوله تعالى: وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى؛ على ما سيحيى بيانه.

و فى حكايته تعالى لما قالتها عن جزم دلالة على أن اعتقادها ذلك لم يكن عن جزاف أو اعتمادا على بعض القرائن الحدسيه التى تسبق الى أذهان النسوان بتجارب و نحوه فكل ذلك ظن، و الظن لا يغنى من الحق شيئا، و كلامه تعالى لا يشتمل على باطل إلا مع إبطاله، و قد قال تعالى: اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَ مَا نَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَ مَا تَزِدُّهُمُ الرَّعْدُ (الرعد ٨)، و قال تعالى:

عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ (لقمان ٣٤)، فجعل العلم بما فى

الأرحام من الغيب المختص به تعالى، وقال تعالى: **لِلْعَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَيَّ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ (الجن ٢٧/)**، فجعل علم غيره بالغيب منتهيها الى الوحي فحكايته عنها الجزم في القول فيما يختص علمه بالله سبحانه يدل على أن علمها بذكوره ما في بطنها كان ينتهي بوجه الى الوحي، ولذلك لما تبينت أن الولد انثى لم تأس عن ولد ذكر فقالت ثانيا عن جزم و قطع:

و إنى اعينها بك و ذريتها من الشيطان الرجيم، الآية؛ فأثبتت لها ذريه و لا سبيل الى العلم به ظاهرا.

و مفعول قولها: فتقبل منى، و إن كان محذوفا محتملا لأن يكون هو.

نذرها من حيث إنه عمل صالح أو يكون هو ولدها المحرر لكن قوله تعالى: **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ**، لا يخلو عن إشعار أو دلالة على كون مرادها هو قبول الولد المحرر.

قوله تعالى: **فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ**؛ فى وضع الضمير المؤنث موضع ما فى بطنها إيجاز لطيف، و المعنى فلما وضعت ما فى بطنها و تبينت أنه انثى قالت:

رب إنى وضعتها انثى، و هو خبر اريد به التحسر و التحزن دون الإخبار و هو ظاهر.

قوله تعالى: **وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ**، جملتان معترضتان و هما جميعا مقولتان له تعالى لا لامرأه عمران، و لا أن الثانيه مقوله لها و الاولى مقوله لله.

أما الاولى فهى ظاهره لكن لما كانت قولها: رب إنى وضعتها انثى، مسوقا لإظهار التحسر كان ظاهر قوله: **وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ**، أنه مسوق لبيان أنا نعلم أنها انثى لكننا أردنا بذلك إنجاز ما كانت تتمناه بأحسن وجه و أرضى طريق، و لو كانت تعلم ما أردناه من جعل ما فى بطنها انثى لم تتحسر و لم تحزن ذاك التحسر و التحزن و الحال أن الذكر الذى كانت ترجوه لم يكن ممكنا أن يصير مثل هذا الانثى التى وهبناها لها، و يترتب عليه ما يترتب على خلق هذه الانثى فإن غايه أمره أن يصير مثل عيسى نبيا مبرئا للأكمه و الأبرص و محييا للموتى لكن هذه

الانثى ستم به كلمه الله و تلد ولدا بغير أب، و تجعل هى و ابنها آيه للعالمين، و يكلم الناس فى المهده، و يكون روحا و كلمه من الله، مثله عند الله كمثل آدم الى غير ذلك من الآيات الباهره فى خلق هذه الانثى الطاهره المباركه و خلق ابنها عيسى عليهما السلام.

و من هنا يظهر: أن قوله: **وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى**، مقول له تعالى لا لامراه عمران، و لو كان مقولا لها لكان حق الكلام ان يقال: و ليس الانثى كالذكر لا- بالعكس و هو ظاهر فإن من كان يرجو شيئا شريفا أو مقاما عاليا ثم رزق ما هو أخس منه و أردأ إنما يقول عند التحسر: ليس هذا الذى وجدته هو الذى كنت أطلبه و أبتغيه أو ليس ما رزقته كالذى كنت أرجوه، و لا يقول: ليس ما كنت أرجوه كهذا الذى رزقته البته، و ظهر من ذلك أن اللام فى الذكر و الانثى معا أو فى الانثى فقط للعهد.

و قد أخذ أكثر المفسرين قوله: **وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى**، تتمه قول امراه عمران، و تكلفوا فى توجيه تقديم الذكر على الانثى بما لا يرجع الى محصل، من أراده فليرجع الى كتبهم.

قوله تعالى: **وَ إِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَ إِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَ ذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**؛ معنى مريم فى لغتهم العابده و الخادمه على ما قيل، و منه يعلم وجه مبادرتها الى تسميه المولوده عند الوضع، و وجه ذكره تعالى لتسميتها بذلك فإنها لما أيست من كون الولد ذكرا محررا للعباده و خدمه الكنيسه بادرت الى هذه التسميه و أعدتها بالتسميه للعباده و الخدمه. فقولها: **وَ إِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ** بمنزله أن تقول: **إِنِّي جَعَلْتُ مَا وَضَعْتُهَا مَحْرَرَةً لَكَ**، و الدليل على كون هذا القول منها فى معنى النذر قوله تعالى: **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أُنَبِّئُهَا بُرَاتًا حَسَنًا**، الآية.

ثم أعادتها و ذريتها بالله من الشيطان الرجيم ليستقيم لها العباده و الخدمه و يطابق اسمها المسمى.

و الكلام فى قولها: **وَ ذُرِّيَّتَهَا**، من حيث أنه قول مطلق من شرط و قيد لا يصح ان تفوه به فى

حضره التخاطب ممن لا- علم له به مع أن مستقبل حال الإنسان من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله سبحانه؛ نظير الكلام فى قولها: رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا، على ما تقدم بيانه فليس إلا أنها كانت تعلم أن سترزق من عمران ولدا ذكرا صالحا ثم لما حملت و توفى عمران لم تشك أن ما فى بطنها هو ذلك الولد الموعود، ثم لما وضعتها و بان لها خطأ حدسها أيقنت أنها سترزق ذلك الولد من نسل هذه البنت المولوده فحولت نذرهما من الابن الى البنت، و سميتها مريم (العابده، الخادمه) و أعادتها و ذريتها بالله من الشيطان الرجيم هذا ما يعطيه التدبر فى كلامه تعالى.

قوله تعالى: فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أُنَبِّئُهَا بُرَاتًا حَسِينًا؛ القبول اذا قيد بالحسن كان بحسب المعنى هو التقبل الذى معناه القبول عن الرضا، فالكلام فى معنى قولنا:

فتقبلها ربها تقبلا فإنما حلل القبول الى القبول الحسن ليدل على أن حسن القبول مقصود فى الكلام، و لما فى التصريح بحسن القبول من التشريف البارز.

و حيث قوبل بهاتين الجملتين أعنى قوله: فَتَقَبَّلَهَا الى قوله: حَسَنًا، الجملتان فى قولها:

وَ إِنِّي سَمَّيْتُهَا الى قولها: الرَّجِيمِ كان مقتضى الانطباق أن يكون قوله: فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ، قبولاً لقولها و إنى سميتها مريم، و قوله: وَ أُنَبِّئُهَا بُرَاتًا حَسِينًا، قبولاً و إجابته لقولها: و إنى اعيدها بك و ذريتها من الشيطان الرجيم، فالمراد بتقبلها بقبول حسن ليس هو القبول بمعنى قبول تقرب امرأه عمران بالنذر، و إعطاء الثواب الاخرى لعملها فإن القبول إنما نسب الى مريم لا الى النذر و هو ظاهر بل قبول البنت بما أنها مسماه بمريم و محرره فيعود معناه الى اصطفاؤها (و قد مر أن معنى الاصطفاء هو التسليم التام لله سبحانه) فافهم ذلك.

و المراد بإنباتها نباتا حسنا إعطاء الرشد و الزكاه لها و لذريتها، و إفاضه الحياه لها و لمن ينمو منها من الذريه حيوه لا يمسه نفث الشيطان و رجس تسويله و وسوسته، و هو الطهاره.

و هذان أعنى القبول الحسن الراجع الى الاصطفاء، و النبات الحسن الراجع الى التطهير هما اللذان يشير اليهما قوله تعالى فى ذيل هذه الآيات: وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ، والآيه و سنوضحه بيانا إنشاء الله العزيز.

فقد تبين أن اصطفاء مريم و تطهيرها إنما هما استجاباه لدعوه امها كما أن اصطفائها على نساء العالمين فى ولاده عيسى عليه السلام، و كونها و ابنها آيه للعالمين تصديق لقوله تعالى: وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى .

قوله تعالى: وَ كَفَّلَهَا زَكَرِيَّا، و إنما كفّلها بإصابه القرعه حيث اختصموا فى تكفلها ثم تراضوا بينهم بالقرعه فأصابت القرعه زكريا كما يدل عليه قوله تعالى: وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ، الآيه.

قوله تعالى: كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَ جَدَّ عِنْدَهَا رِزْقًا نَحًّا؛ المحراب المكان المخصوص بالعباده من المسجد و البيت، قال الراغب: و محراب المسجد، قيل: سُمى بذلك لأنه موضع محاربه الشيطان و الهوى، و قيل: سُمى بذلك لكون حق الإنسان فيه أن يكون حريبا (أى سليبا) من أشغال الدنيا و من توزع خاطر، و قيل الأصل فيه أن محراب البيت صدر المجلس ثم اتخذت المساجد فسمى صدره به و قيل: بل المحراب أصله فى المسجد و هو اسم خص به صدر المجلس فسمى صدر البيت محرابا تشبيها بمحراب المسجد، و كأن هذا أصح، قال عزّ و جل: يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَ تَمَاثِيلَ، انتهى.

و ذكر بعضهم أن المحراب هنا هو ما يعبر عنه أهل الكتاب بالمذبح، و هو مقصوره فى مقدم المعبد، لها باب يصعد اليه بسلم ذى درجات قليلة، و يكون من فيه محجوبا عن من فى المعبد.

أقول: و اليه ينتهى اتخاذ المقصوره فى الإسلام.

و فى تنكير قوله: رِزْقًا، إشعار بكونه رزقا غير معهود كما قيل: إنه كان يجد عندها فاكهه

الشتاء فى الصيف، و فاكهه الصيف فى الشتاء، و يؤيده أنه لو كان من الزرق المعهود، و كان تنكيره يفيد أنه ما كان يجد محرابها خاليا من الرزق بل كان عندها رزق ما دائما لم يقنع زكريا بقولها: هو من عند الله إن الله يرزق، الخ؛ فى جواب قوله: يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا، لإمكان أن يكون يأتيها بعض الناس ممن كان يختلف الى المسجد لغرض حسن أو سيئ.

على أن قوله تعالى: هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ، الخ؛ يدل على أن زكريا تلقى وجود هذا الرزق عندها كرامه إلهيه خارقه فأوجب ذلك أن يسأل الله أن يهب له من لدنه ذريه طيبه، فقد كان الرزق رزقا يدل بوجوده على كونه كرامه من الله سبحانه لمريم الطاهره، و مما يشعر بذلك قوله تعالى: قَالَ يَا مَرْيَمُ، الخ؛ على ما سيجىء من البيان.

و قوله: قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ، الخ؛ فصل الكلام من غير أن يعطف على قوله: وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا، يدل على أنه عليه السلام إنما قال لها ذلك مره واحده فأجابت بما قنع به و استيقن أن ذلك كرامه لها و هنالك دعا و سأل ربه ذريه طيبه.

قوله تعالى: هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً، الخ؛ طيب الشىء ملائمته لصاحبه فيما يريد لأجله، فالبلد الطيب ما يلائم حيوه أهله من حيث الماء و الهواء و الرزق و نحو ذلك، قال تعالى: وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ لِبَاتِهِ يَأْذِنَ رَبِّهِ (الأعراف ٥٨)، و العيشه الطيبه و الحياه الطيبه ما يلائم بعض أجزائها بعضا و يسكن إليها قلب صاحبها و منه الطيب للعطر الزكى فالذريه الطيبه هو الولد الصالح لأبيه مثلا الذى يلائم من حيث صفاته و أفعاله ما عند أبيه من الرجاء و الامنيه فقول زكريا عليه السلام: رب هب لى من لدنك ذريه طيبه، لما كان الباعث له عليه ما شاهد من أمر مريم و خصوص كرامتها على الله و امتلاء قلبه من شأنها لم يملك من نفسه دون أن يسأل الله أن يهب له مثلها خطرا و كرامه، فكون ذريته طيبه أن يكون لها ما لمريم من الكرامه عند الله و الشخصيه فى نفسها، و لذلك استجيب فى عين ما سأل من الله، و وهب له يحيى و هو أشبه

الأنبياء يعيسى عليهما السلام، و أجمع الناس لما عند عيسى و أمه مريم الصديقه من صفات الكمال و الكرامه، و من هنا ما سماه تعالى يحيى و جعله مصدقا بكلمه من الله و سيذا و حصورا و نيبا من الصالحين، و هذه أقرب ما يمكن أن يشابه بها إنسان مريم و ابنه عيسى عليهما السلام على ما سنينه ان شاء الله تعالى.

قوله تعالى: فَنادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَ هُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ ضمائر الغيبه و الخطاب لذكريا، و البشرى و الإخبار و التبشير الإخبار بما يفرح الإنسان بوجوده.

و قوله: أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ، دليل على أن تسميته يحيى إنما هو من جانب الله سبحانه كما تدل عليه نظائر هذه الآيات في سورة مريم، قال تعالى: يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (مريم ٧٧).

و تسميته يحيى و كون التسميه من عند الله سبحانه في بدء ما بشر به زكريا قبل تولد يحيى و خلقه يؤيد ما ذكرناه آنفا: أن الذى طلبه زكريا من ربه أن يرزقه ولدا يكون شأنه شأن مريم، و قد كانت مريم هى و ابنها عيسى عليهما السلام آيه واحده كما قال تعالى: وَ جَعَلْنَاهَا وَ ابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (الأنبياء ٩١).

فروعى فى يحيى عليه السلام ما روعى فيهما من عند الله سبحانه، و قد روعى فى عيسى عليه السلام كمال ما روعى فى مريم، فالمرعى فى يحيى هو الشبه التام و المحاذاه الكامله مع عيسى عليهما السلام فيما يمكن ذلك، و لعيسى فى ذلك كله التقدم التام لأن وجوده كان مقدرا قبل استجابته دعوه زكريا عليه السلام فى حق يحيى، و لذلك سبقه عيسى فى كونه من اولى العزم صاحب شريعته و كتاب و غير ذلك لكنهما تشابها و تشابه أمرهما فيما يمكن.

و فى قوله: مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ دَلَالَهُ عَلَى كونه من دعاه عيسى فالكلمه هو عيسى المسيح كما ذكره تعالى فى ذيل هذه الآيات فى بشاره الروح لمريم.

و السيد هو الذى يتولى أمر سواد الناس و جماعتهم فى أمر حياتهم و معاشهم أو فى فضيله من الفضائل المحموده عندهم ثم غلب استعماله فى شريف القوم لما أن التولى المذكور يستلزم شرفا بالحكم أو المال أو فضيله اخرى.

و الحصور هو الذى لا يأتى النساء، و المراد بذلك فى الآيه بقريته السياق الممتنع عن ذلك للإعراض عن مشتبهات النفس زهدا.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ انى يَكُونُ لى غُلامٌ وَ قد بَلَغَنِى الكِبَرُ وَ امرأتى عاقراً استنهام تعجيب و استعمال لحقيقه الحال لا استبعاد و استعظام مع تصريح البشاره بذلك و أن الله سبحانه سيرزقه ما سأله من الولد مع أنه ذكر هذه الوصفين اللذين جعلهما منشأ للتعجب و الاستعلام فى ضمن مسأله على ما فى سوره مريم حيث قال رَبِّ انى وَ هُنَّ العُظْمُ مِنى وَ اشتعل الرأسُ شيباً وَ لَم أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيّاً وَ انى خَفْتُ المَوالى مِنَ ورائى وَ كَانتِ امرأتى عاقراً فَهَبْ لى مِن لَدُنكَ وَلِيّاً (مريم ٥).

لكن المقام يمثل معنى آخر فكأنه عليه السلام لما انقلب حالا من مشاهده أمر مريم و تذكر انقطاع عقبه لم يشعر إلا و قد سأل ربه ما سأل و قد ذكر فى دعائه ما له سهم وافر فى تأثره و تحزنه و هو بلوغ الكبر، و كون امرأته عاقرا، فلما استجيبت دعوته و بشر بالولد كأنه صحا و أفاق مما كان عليه من الحال، و أخذ يتعجب من ذلك و هو بالغ الكبر و امرأته عاقرا، فصار ما كان يثير على وجهه غبار اليأس و سيماء الحزن يغيره الى نظره التعجب المشوب بالسرور.

على أن ذكر نواقص الأمر بعد البشاره بقضاء أصل الحاجه و استعمال كيفية رفع واحد واحد منها إنما هو طلب تفهم خصوصيات الإفاضه و الإنعام التذاذا بالنعمة الفائضه بعد النعمة نظير ما وقع فى بشرى إبراهيم بالذريه، قال تعالى: وَ بَنَيْنَاهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ إنا مِنْكُمْ وَ جُلُونا قالوا لا تَوجَلْ إنا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ قال

أَشْرَتْهُ نِيَّ عَلِيٍّ أَنْ مَسَّنِيَ الْكَبِيرُ فَبِعَمِّ تَبَشَّرُونَ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ قَالُوا مَنْ يَقْنُطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (الحجر ٥٦/)، فذكر في جواب نهى الملائكة إياه عن القنوط أن استفهامه لم يكن عن قنوط كيف و هو غير ضال و القنوط ضلاله، بل السيد اذا أقبل على عبده إقبالا- يؤذن بالقرب و الانس و الكرامه أوجب ذلك انبساطا من العبد و ابتهاجا يستدعى تلذذه من كل حديث، و تمتعه في كل باب.

و في قوله: وَقَدْ بَلَّغَنِي الْكَبِيرُ مِنْ مَرَاعَاهِ الْأَدَبِ مَا لَا يَخْفَى فَإِنَّهُ كَنَاهِهِ عَنْ أَنَّهُ لَا يَجِدُ مِنْ نَفْسِهِ شَهْوَةَ النِّكَاحِ لِبُلُوغِ الشَّيْخُوخَةِ وَ الْهَرَمِ. و قد اجتمعت في امرأته الكبر و العقر معا.

قوله تعالى: قَالَا كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، فاعل قال و إن كان هو الله سبحانه سواء كان من غير وساطة الملائكة و حيا أو بواسطة الملائكة الذين كانوا ينادونه فالقول على اى حال قوله تعالى لكن الظاهر أنه منسوب إليه تعالى بواسطة لملك فالقائل هو الملك و قد نسب إليه تعالى لأنه بأمره، و الدليل على ذلك قوله تعالى في سورة مريم في القصه: قَالَا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (مريم ٩/).

و انه يظهر اولاً: أنه سمع الصوت من حيث كان يسمعه أولاً. و ثانياً: أن قوله: كَذَلِكَ، خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير: الأمر كذلك أى الذى بشرت به من الموهبه هو كذلك كائن لا- محاله، و فيه إشاره الى كونه من القضاء المحتوم الذى لا ريب في وقوعه نظير ما ذكره الروح في جواب مريم على ما حكاها الله تعالى: قَالَا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ -الى أن قال:- وَ كَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (مريم ٢١/)، و ثالثاً: أن قوله: اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ كلام مفصول في مقام التعليل لمضمون قوله: كَذَلِكَ اه.

قوله تعالى: قَالَا رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ

إلا- رمزاً الى آخر الآيه؛قال في المجمع:الرمز الإيماء بالشفقتين،وقد يستعمل في الإيماء بالحاجب و العين و اليد،و الأول أغلب،انتهى،و العشى الطرف المؤخر من النهار،و كأنه مأخوذ من العشوه و هى الظلمه الطارئه فى العين المانع عن الإبصار فأخذوا ذلك وصفا للوقت لرواحه الى الظلمه،و الإيكار صدر النهار و الطرف المقدم منه،و الأصل فى معناه الاستعجال (١)(٢)(٣).

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٤٢ الى ٦٠]

إشارة

وَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَ اسْجُدِي وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَلِكَ مِنْ أَمْرِ الْعِيبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَ جِيهًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمَقَرَّبِينَ (٤٥) وَ يُكَلِّمُ الذَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا وَ مِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمَسَّ مِنِّي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ (٤٨) وَ رَسُولًا- إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبْرِي الْأَكْمَةَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أَتَّبِعُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩) وَ مَصِدْقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ لِأَحْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١) فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ إِشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رَافِعُكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ جَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيهِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذُّهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦) وَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠)

ص: ٤٤٨

١- ١. آل عمران ٣٥-٤١: بحث فى سؤال زكريا ربه أن يجعل له آيه...

٢- ٢. آل عمران ٣٥-٤١: كلام فى الخواطر الملكيه و الشيطانيه و ما يلحق بها من التكليم.

٣- ٣. آل عمران ٣٥-٤١: بحث روائى فى ولاده مريم؛دعاء زكريا فى طلب الذريه.

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ؛ الجملة معطوفه على قوله: إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ، فتكون شرحا مثله لاصطفاء آل عمران المشتمل عليه قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى، الآية.

و فى الآية دليل على كون مريم محدثه تكلمها الملائكه و هى تسمع كلامهم كما يدل عليه أيضا قوله فى سورة مريم: فأرسلنا اليه روحنا فتمثل لها بشرا سويا، الى آخر الآيات؛ و سيأتى الكلام فى المحدث.

و قد تقدم فى قوله تعالى: فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ؛ الآية: أن ذلك بيان لاستجابته دعوه ام مريم: و إنى سميتها مريم: و إنى اعيزها بك و ذريتها من الشيطان الرجيم، الآية؛ و أن قول الملائكه لمريم: إن الله اصطفاك و طهرتك إخبار لها بما لها عند الله سبحانه من الكرامه و المنزله فارجع الى هناك.

فاصطفأوها تقبلها لعباده الله، و تطهيرها اعتصامها بعصمه الله فهى مصطفاه معصومه؛ و ربما قيل: إن المراد من تطهيرها جعلها بتولا لا تحيض فيتها لها بذلك أن لا تضطر الى

الخروج من الكنيسه، ولا بأس به غير أن الذى ذكرناه هو الأوفق بسياق الآيات.

قوله تعالى: وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ قد تقدم فى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لِيُؤْتِيَهُنَّ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ أن الاصطفاء المتعدى بعلى يفيد معنى التقدم، وأنه غير الاصطفاء المطلق الذى يفيد معنى التسليم؛ وعلى هذا فاصطفأؤها على نساء العالمين تقديم لها عليهن.

و هل هذا التقديم تقديم من جميع الجهات أو من بعضها؟ ظاهر قوله تعالى فيما بعد الآية: اذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك، الآية؛ وقوله تعالى: وَالتى أَحْصَيْتِ نَفْسَهُنَّ فَزَجَّهُنَّ فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (الأنبياء ٩١)، وقوله تعالى: وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْتِ نَفْسَهُنَّ فَزَجَّهُنَّ فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الْقَانِتِينَ (التحریم ١٢)؛ حيث لم تشتمل عمما تختص بها من بين النساء إلا على شأنها العجيب فى ولاده المسيح عليه السلام أن هذا هو وجه اصطفاؤها و تقديمها على النساء من العالمين.

و أما ما اشتملت عليه الآيات فى قصتها من التطهير و التصديق بكلمات الله و كتبه، و القنوت و كونها محدثه فهى امور لا تختص بها بل يوجد فى غيرها، و أما ما قيل: إنها مصطفاه على نساء عالمى عصرها فإطلاق الآية يدفعه.

قوله تعالى: يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ؛ القنوت هو لزوم الطاعه عن خضوع على ما قيل، و السجده معروفه. و الركوع هو الانحناء أو مطلق التذلل.

و لما كان النداء يوجب تلفيت نظر المنادى (اسم مفعول) و توجيه فهمه نحو المنادى (اسم فاعل) كان تكرار النداء فى المقام بمنزله أن يقال لها: إن لك عندنا نبأ بعد نبأ فاستمعى لهما و أصغى اليهما: أحدهما ما أكرمك الله به من منزله و هو مالك عند الله، و الثانى ما يلزمك من وظيفه العبوديه بالمحاذاه، و هو ما لله سبحانه عندك، فيكون هذا إيفاء للعبوديه و شكرا

للمنزله فيقول معنى الكلام الى كون قوله: يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي، الخ؛ بمنزله التفرع لقوله: يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ، الخ؛ أى اذا كان كذلك فاقنتى و اسجدى و اركعى مع الراكعين، و لا يبعد أن يكون كل واحده من الخصال الثلاثه المذكوره فى هذه الآيه فرعا لواحد من الخصال الثلاثه المذكوره فى الآيه السابقه، و إن لم يخل عن خفاء فلي تأمل.

قوله تعالى: ذَلِكَ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ؛ عدّه من أنباء الغيب نظير ما عدت قصه يوسف عليه السّلام من أنباء الغيب التى توحى الى رسول الله؛ قال تعالى: ذَلِكَ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَمَدِّيهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ (يوسف ١٠٢)، و أما ما يوجد من ذلك عند أهل الكتاب فلا عبره به لعدم سلامته من تحريف المحرفين كما أن كثيرا من الخصوصيات المقتضه فى قصص زكريا غير موجوده فى كتب العهدين على ما وصفه الله فى القرآن.

و يؤيد هذا الوجه قوله تعالى فى ذيل الآيه: و ما كنت لديهم اذ يلقون، الخ.

على أن النبی صلی الله عليه و آله و سلّم و قومه كانوا اميين غير عالمين بهذه القصص و لا أنهم قرءوها فى الكتب كما ذكره تعالى بعد سرد قصه نوح: تِلْكَ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا (هود ٤٩)، و الوجه الأول أوفق بسياق الآيه.

قوله تعالى: وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ الخ؛ القلم فتحتين القدح الذى يضرب به القرعه، و يسمى سهما أيضا، و جمعه أقلام، فقوله: يُلقُونَ أَقْلَامَهُمْ أى يضربون بسهامهم ليعينوا بالقرعه أيهم يكفل مريم.

و فى هذه الجملة دلالة على أن الاختصام الذى يدل عليه قوله: وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ إنما هو اختصاصهم و تشاحهم فى كفاله مريم، و أنهم لم يتناها حتى تراضوا بالاقتراع بينهم فضربوا بالقرعه فخرج السهم لزكريا فكفلها بدليل قوله: وَ كَفَّلَهَا زَكَرِيَّا، الآيه.

قوله تعالى: إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ الْخَيْرَ؛ الظاهر أن هذه البشارة هي التي يشتمل عليها قوله تعالى في موضع آخر: فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا الآيات (مريم ١٩/)، فتكون البشارة المنسوبة الى الملائكة هاهنا هي المنسوبة الى الروح فقط هناك.

وقد قيل في وجهه أن المراد بالملائكة هو جبرئيل، عبر بالجمع عن الواحد تعظيما لامر كما يقال: سافر فلان فركب الدواب وركب السفن، وإنما ركب دابه واحده و سفينه واحده، و يقال: قال له الناس كذا، وإما قاله واحد و هكذا، ونظيره الآية قوله في قصه زكريا السابقة:

فنادته الملائكة ثم قوله: قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، الآية.

و ربما قيل: إن جبرئيل كان معه غيره فاشتركوها في نداءها.

و الذى يعطيه التدبر في الآيات التي تذكر شأن الملائكة أن بين الملائكة تقدما و تأخرا من حيث مقام القرب، و أن للمتأخر التبعية المحضه لأوامر المتقدم بحيث يكون فعل المتأخر رتبة، عين فعل المتقدم، و قوله عين قوله نظير ما نشاهده و ندعن به من كون أفعال قوانا و أعضائنا عين أفعالنا من غير تعدد فيه تقول: رأته عيناي و سمعته اذناي، و رأيته و سمعته، و يقال فعلته جوارحي و كتبه يدي و رسمته أناملي و فعلته أنا و كتبه أنا، و كذلك فعل المتبوع من الملائكة فعل التابعين له المؤتمرين لأمره بعينه، و قوله قولهم من غير اختلاف، و بالعكس كما أن فعل الجميع فعل الله سبحانه و قولهم قوله، كما قال تعالى: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا (الزمر / ٤٢)، فنسب التوفى الى نفسه، و قال: قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (السجده ١١/)، فنسبه الى ملك الموت و قال: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا (الأنعام ٦١/)، فنسبه الى جمع من الملائكة.

و نظيره قوله تعالى: إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ (النساء ١٦٣/)، و قوله: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ

عَلَى قَلْبِكَ (الشعراء/١٩٤)، و قوله: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ (البقره/٩٧)، و قوله: كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كَرَامٍ بَرَرَةٍ (عبس/١٦).

فظهر أن بشاره جبريل هي عين بشاره من هو تحت أمره من جماعه الملائكه و هو من سادات الملائكه و مقربيههم على ما يدل عليه قوله تعالى: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ (التكوير/٢١)، و سيأتي زياده توضيح لهذا الكلام في سورة فاطر إن شاء الله تعالى.

و يؤيد ما ذكرناه قوله تعالى في الآيه التاليه: قال كذلك الله يفعل ما يشاء، فإن ظاهره أن القائل هو الله سبحانه مع أنه نسب هذا القول في سورة مريم في القصة الى الروح، قال تعالى:

قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَعْجًا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ الْآيَاتِ (مريم/٢١).

و في تكلم الملائكه و الروح مع مريم دلالة على كونها محدثه بل قوله تعالى في سورة مريم في القصة بعينها: فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (مريم/١٧)، يدل على معاينتها الملك زياده على سماعها صوته، و سيجيء تمام الكلام في المعنى في البحث الرائي الآتى إنشاء الله.

قوله تعالى: بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ؛ قد مر البحث في معنى كلامه تعالى في تفسير قوله: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ (البقره/٢٥٣).

و الكلمه و الكلم كالتمره و التمر جنس و فرد و تطلق الكلمه على اللفظ الواحد الدال على المعنى، و على الجملة سواء صح السكوت عليها مثل زيد قائم أو لم يصح مثل إن كان زيد قائما، هذا بحسب اللغه، و أما بحسب ما يصطلح عليه القرآن أعنى الكلمه المنسوبه الى الله تعالى فهي الذى يظهر به ما أراده الله تعالى من أمر نحو كلمه الإيجاد و هو قوله تعالى لشيء أراده: كن، أو كلمه الوحي و الإلهام و نحو ذلك.

و أما المراد بالكلمه فقد قيل: إن المراد به المسيح عليه السّلام من جهه أن من اسبقه من الأنبياء أو خصوص أنبياء بنى إسرائيل بشروا به بعنوان أنه منجى بنى إسرائيل؛ قال فى نظير المورد هذه كلمتى التى كنت أقولها، و نظيره قوله تعالى فى ظهور موسى عليه السّلام: وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسَيْنِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا (الأعراف ١٣٧/)، و فيه أن ذلك و إن كان ربما ساعده كتب العهدين لكن القرآن الكريم خال عن ذلك بل القرآن يعد عيسى بن مريم مبشرا لا مبشرا به، على أن سياق قوله: اسْمُهُ الْمَسِيحُ لا يناسبه فإن الكلمه على هذا ظهور عيسى الخبر به قبلا لا نفس عيسى، و ظاهر قوله: اسْمُهُ الْمَسِيحُ، أنا لمسيح اسم الكلمه لا اسم من تقدمت فى حقه الكلمه.

و ربما قيل: إن المراد به عيسى عليه السّلام لإيضاحه مراده تعالى بالتوراه، و بيانه تحريفات اليهود و ما اختلفوا فيه من امور الدين كما حكى الله تعالى عنه ذلك فيما يخاطب به بنى إسرائيل: وَ لَأَبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ (الزخرف ٦٣/)، و فيه أنه نكته تصحح هذا التعبير لكنها خاليه عما يساعدها من القرائن.

و ربما قيل: إن المراد بكلمه منه البشاره نفسها، و هى الإخبار بحملها بعيسى و ولادته فمعنى قوله: يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ: يبشرك ببشاره هى أنك ستلدين عيسى من غير مس بشر، و فيه أن سيقال الذيل أعنى قوله: اسْمُهُ الْمَسِيحُ، لا يلائمه و هو ظاهر.

و ربما قيل: إن المراد به عيسى عليه السّلام من جهه كونه كلمه الإيجاد أعنى قوله: كُنْ و إنما اختص عيسى عليه السّلام بذلك مع كون كل إنسان بكل شىء موجودا بكلمه كن التكوينييه لأن سائر الأفراد من الإنسان يجرى ولادتهم على مجرى الأسباب العاديه المألوفه فى العلوق من ورود ماء الرجل على نطفه الإناث، و عمل العوامل المقارنه فى ذلك، و لذلك يسند العلوق اليه كما يسند سائر المسببات الى أسبابها، و لما لم يجر علوق عيسى هذا المجرى و فقد بعض الأسباب العاديه التدريجييه كان وجوده بمجرد كلمه التكوين من غير تخلل الأسباب العاديه فكان نفس الكلمه كما يؤيده قوله تعالى: وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ (النساء ١٧١/)، و قوله تعالى فى آخر هذه الآيات: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الآيه؛ و هذا أحسن الوجوه.

و المسيح هو الممسوح سمي به عيسى عليه السلام لأنه كان مسيحا باليمين و البركه أو لأنه مسح بالتطهير من الذنوب، أو مسح بدهن بورك فيه و كانت الأنبياء يمسحون به أو لأن جبرائيل مسحه بجناحه حين ولادته ليكون عوده من الشيطان، أو لأنه كان يمسح رءوس اليتامى، أو لأنه كان يمسح عن الأعمى بيده فيبصر، أو لأنه كان لا يمسح ذا عاهه بيده إلا براء، فهذه وجوه ذكرها في تسميته بالمسيح.

و تقييد عيسى بابن مريم مع كون الخطاب في الآية لمريم للتنبيه على أنه مخلوق من غير أب، و يكون معروفا بهذا النعت، و أن مريم شريته في هذه الآية كما قال تعالى: **وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ** (الأنبياء ٩١).

قوله تعالى: **وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ**، الوجهه هي المقبوليه، و كونه عليه السلام مقبولا في الدنيا مما لا خفاء فيه، و كذا في الآخرة بنص القرآن.

و معنى المقربين ظاهر فهو مقرب عند الله داخل في صف الأولياء و المقربين من الملائكه من حيث التقريب كما ذكره تعالى بقوله: **لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَ لَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** (النساء ١٧٢)، و قد عرف تعالى معنى التقريب بقوله: **إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ أَلَى أَنْ قَالَ: - وَ كُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً - أَلَى أَنْ قَالَ: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ** (الواقعه / ١١)، و الآية كما ترى تدل على أن هذا التقرب و هو تقرب الى الله سبحانه حقيقته سبق الإنسان سائر أفراد نوعه في سلوك طريق العود الى الله الذى سلوكه مكتوب على كل إنسان بل كل شىء، قال تعالى: **يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ** (الانشقاق / ٦)، و قال تعالى: **أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ** (الشورى ٥٣).

و أنت اذا تأملت كون المقربين صفه الأفراد من الإنسان و صفه الأفراد من الملائكه علمت أنه لا يلزم أن يكون مقاما اكتسابيا فإن الملائكه لا- يحرزون ما أحرزوه فى المقام عند الله سبحانه بالكسب فلعله مقام تناله المقربون من الملائكه بهبه إلهيه و المقربون من الإنسان بالعمل.

و قوله وجيها في الدنيا و الآخرة، حال، و كذا ما عطف عليه من قوله: **وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ** ، و يكلم اه، و من الصالحين، و يكلمه اه، رسولا اه.

قوله تعالى: وَ يُكَلِّمُ الذَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا، المهدي ما يهيا للصبي من الفراش، و الكهل من الكهولة و هو ما بين الشباب و الشيخوخه، و هو ما يكون الإنسان فيه رجلا تاما قويا، و لذا قيل: الكهل من وخطه الشيب أى خالطه، و ربما قيل: إن الكهل من بلغ أربعاً و ثلاثين.

و كيف كان ففيه دلالة على أنه سيعيش حتى يبلغ سن الكهولة ففيه بشاره اخرى لمريم.

و فى التصريح بذلك مع دلالة الأناجيل على أنه لم يعيش فى الأرض أكثر من ثلاثه و ثلاثين سنة نظر ينبغى أن يمعن فيه، و لذا ربما قيل: إن تكليمه للناس كهلا إنما هو بعد نزوله من السماء فإنه لم يمكث فى الأرض ما يبلغ به سن الكهولة، و ربما قيل: إن الذى يعطيه التاريخ بعد التثبت أن عيسى عليه السلام عاش نحواً من أربع و ستين سنة خلافا لما يظهر من الأناجيل.

و الذى يظهر من سياق قوله: فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا، أنه لا يبلغ سن الشيخوخه، و إنما ينتهى الى سن الكهولة؛ و على هذا فقد أخذ فى البيان كلامه فى طرفى عمره: الصبى و الكهولة.

قوله تعالى: قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمَسَّ مِنِّي بَشَرٌ، خطابها لربها مع كون المكلّم إياها الروح المتمثل ببناء على ما تقدم أن خطاب الملائكة و خطاب الروح و كلامهم كلام الله سبحانه فقد كانت تعلم أن الذى يكلمها هو الله سبحانه و إن كان الخطاب متوجها إليها من جهة الروح المتمثل أو الملائكة و لذلك خاطبت ربها.

و يمكن أن يكون الكلام من قبيل قوله تعالى: قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (المؤمنون ٩٩)، فهو من الاستغاثة المعترضه فى الكلام.

قوله سبحانه: قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ قد مرت الإشاره الى أن تطبيق هذا الجواب بما فى سورة مريم من قوله: قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلذَّاسِ وَ رَحْمَةً مِّنَّا وَ كَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (مريم/ ٢١)، يفيد أن يكون قوله هاهنا: كذلك كلاما تاما تقديره: الأمر كذلك و معناه أن الذى بشرت به أمر مقضى لا مرد له.

و أما التعجب من هذا الأمر فإنما يصح لو كان هذا الأمر مما لا يقدر عليه الله سبحانه أو يشق: أما قدره فإن قدرته غير محدوده يفعل ما يشاء، و أما صعوبته و مشقته فإن العسر

و الصعوبه إنما يتصور اذا كان الأمر مما يتوسل إليه بالأسباب فكلما كثرت المقدمات و الأسباب و عزت و بعد منالها اشتد الأمر صعوبه، و الله سبحانه لا يخلق ما يخلق بالأسباب بل اذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون.

فقد ظهر أن قوله: كَذَلِكَ كَلام تام أريد به رفع اضطراب مريم و تردد نفسها، و قوله: اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، رفع العجز الذى يوهمه التعجب، و قوله: إِذَا قَضَىٰ، رفع لتوهم العسر و الصعوبه.

قوله تعالى: وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ، اللام فى الكتاب و الحكمة للجنس. و قد مر أن الكتاب هو الوحي الرفع لاختلافات الناس؛ و الحكمة هى المعرفة النافعه المتعلقة بالاعتقاد أو العمل، و على هذا فعطف التوراه و الإنجيل على الكتاب و الحكمة مع كونهما كتابين مشتملين على الحكمة من قبيل ذكر الفرد بعد الجنس لأهميه فى اختصاصه بالذكر، و ليست لام الكتاب لاستغراق لقوله تعالى: وَ لَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا (الزخرف ٦٣)، و قد مر بيانه.

و أما التوراه فالذى يريد القرآن منها هو الذى نزله الله على موسى عليه السلام فى الميقات فى ألواح على ما يقصه الله سبحانه فى سوره الأعراف؛ و أما الذى عند اليهود من الأسفار فهم معترفون بانقطاع اتصال السند ما بين بختنصر من ملوك بابل و كورش من ملوك الفرس، غير أن القرآن يصدق أن التوراه الموجود بأيديهم فى زمن النبى صلى الله عليه و آله و سلم غير مخالفه للتوراه الأصل بالكلية و إن لعبت بها يد التحريف؛ و دلالة آيات القرآن على ذلك واضحه.

و أما الإنجيل و معناه البشاره فالقرآن يدل على أنه كان كتابا واحدا نازلا على عيسى فهو الوحي المختص به، قال تعالى: وَ أَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلِ هُدَىٰ لِلنَّاسِ (آل عمران / ٤)، و أما هذه الأناجيل المنسوبه الى متى و مرقس و لوقا و يوحنا فهى كتب مؤلفه بعده عليه السلام.

و يدل أيضا على أن الأحكام إنما هى فى التوراه، و أن الانجيل لا تشتمل إلا على بعض النواسخ كقوله فى هذه الآيات: مصدقا لما بين يدي من التوراه و لأحل لكم بعض الذى حرم عليكم، الآية؛ و قوله: وَ آتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ

وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ وَ لِيُحَكِّمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ (المائدة ٤٧/)، ولا يبعد أن يستفاد من الآيه أن فيه بعض الأحكام الإثباتيه.

و يدل أيضا على أن الإنجيل مشتمل على البشاره بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ كالتوراه، قال تعالى:

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنجِيلِ (الأعراف ١٥٧/).

قوله تعالى: وَ رَسُولًا إِلَيَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ ظاهره أنه عليه السَّلام كان مبعوثا الى بنى إسرائيل خاصه كما هو اللائح من الآيات فى حق موسى عليه السَّلام، وقد مر فى الكلام على النبوه فى ذيل قوله تعالى: كَانَ الدَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ الآيه (البقره ٢١٣/)، أن عيسى عليه السَّلام كموسى من أولى العزم و هم مبعوثون الى أهل الدنيا كافه.

لكن العقده تنحل بما ذكرناه هناك فى الفرق بين الرسول و النبي أن النبوه هى منصب البعث و التبليغ، و الرساله هى السفاره الخاصه التى تستتبع الحكم و القضاء بالحق بين الناس؛ إما بالبقاء و النعمه، أو بالهلاك كما يفيدته قوله تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ (يونس ٤٧/).

و بعباره اخرى النبي هو الإنسان المبعوث لبيان الدين للناس، و الرسول هو المبعوث لاداء بيان خاص يستتبع رده الهلاك و قبوله البقاء و السعاده كما يؤيده بل يدل عليه ما حكاه الله سبحانه من مخطابات الرسل لأممهم كنوح و هود و صالح و شعيب و غيرهم عليهم السَّلام.

و على ذلك شواهد من القرآن الكريم كرساله موسى الى فرعون، قال تعالى: إِذْ هَبْتَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (طه ٢٤/)، و إيمان السحره لموسى و ظهور قبل إيمانهم و لم يكونوا من بنى إسرائيل، قال تعالى: قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَىٰ (طه ٧٠/)، و دعوه قوم فرعون، قال تعالى: وَ لَقَدْ فَتَنَّا قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (الدخان ١٧/)، و نظير ذلك ما كان من أمر إيمان الناس بعسى فلقد آمن به عليه السَّلام قبل بعثه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و الروم و أمم عظيمه من الغربيين كالإفرنج و النمسا و البروس و إنجلترا و أمم من الشرقيين كنجران و هم جميعهم ليسوا من بنى إسرائيل؛ و القرآن لم يخص -فيما يذكر فيه النصارى- نصارى بنى

إسرائيل خاصة بالذكر بل يعمم مدحه أو ذمه الجميع.

قوله تعالى: **أَنْتَى قَدْ جِئْتَكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنْتَى أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْنِ -الى قوله-** **وَ أَخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ**، الخلق جمع أجزاء الشىء، وفيه نسبة الخلق الى غيره تعالى كما يشعر به أيضا قوله تعالى: **فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** (المؤمنون ١٤).

و الأكمه هو الذى يولد مطموس العين؛ و قد يقال لمن تذهب عينه، قال: كمهت عيناه حتى ابيضتا؛ قاله الراغب، و الأبرص من كان به برص و هو مرض جلدى معروف.

و فى قوله: **وَ أَخِي الْمَوْتَى** حيث علق الإحياء بالموتى و هو جمع دلالة لا أقل من الإشعار بالكثرة و التعدد.

و كذا قوله: **بِإِذْنِ اللَّهِ**، سيق للدلالة على أن صدور هذه الآيات المعجزه منه عليه السّلام مستند الى الله تعالى من غير أن يستقل عيسى عليه السّلام بشىء من ذلك، و إنما كرر تكرارا يشعر بالإصرار لما كان من المترقب أن يضل فيه الناس فيعتقدوا بالوهيته استدلالا بالآيات المعجزه الصادره عنه عليه السّلام، و لذا كان يقيد كل آيه يخبر بها عن نفسه مما يمكن أن يضلوا به كالخلق و إحياء الموتى بإذن الله ثم ختم الكلام بقوله: **إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ**.

و ظاهر قوله: **أَنْتَى أَخْلَقْتُ لَكُمْ**، الخ؛ أن هذه الآيات كانت تصدر عنه صدورا خارجيا لا. أن الكلام مسوق لمجرد الاحتجاج و التحدى، و لو كان مجرد قول لقطع العذر و إتمام الحجه لكان من حق الكلام أن يقيد بقيد يفيد ذلك كقولنا: إن سألتم أو أردتم أو نحو ذلك.

قوله تعالى: **وَ أُتْبِتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ**، و هذا إخبار بالغيب المختص بالله تعالى، و من خصه من رسله بالوحى؛ و هو آيه اخرى و إخبار بغيب صريح التحقق لا يتطرق اليه الشك و الريب فإن الإنسان لا يشك عادة فيما أكله و لا فيما ادخره فى بيته.

و إنما لم يقيد هذه الآيه بإذن الله مع أن الآيه لا تتحقق إلا بإذن منه تعالى كما قال: **وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ** (المؤمن ٧٨)، لأن هذه الآيه عبر عنها بالإنباء و هو كلام قائم بعيسى عليه السّلام بعد فعلا له فلا يليق أن يسند الى ساحه القدس بخلاف الآيتين السابقتين أعنى الخلق و الإحياء فإنها فعل الله بالحقيقه و لا ينسبان الى غيره إلا بإذنه.

على أن الآيتين المذكورتين ليستا كالإنباء فإن الضلاله الى الناس فيهما أسرع منه في الإنباء فإن القلوب الساذجه تقبل الوهيه خالق الطير و محبى الموتى بأدنى وسوسه و مغلطه بخلاف الوهيه من يخبر بالمغيبات فإنها لا- تذعن باختصاص الغيب بالله سبحانه بل تعتقده أمرا مبتذلا جازي النيل لكل مرتاض أو كاهن مشعبذ فكان من الواجب عند مخاطبتهم أن يقيد الآيتين المذكورتين بالإذن دون الأخيره، وكذا الإبرار فيكفى فيها مجرد ذكر أنها آيه من الله، و خاصه اذا لقي الخطاب الى قوم يدعون أنهم مؤمنون، ولذلك ذيل الكلام بقوله: **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ** أى إن كنتم صادقين فى دعويكم الإيمان.

قوله تعالى: **وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَ لِأَحْلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**، عطف على قوله: **وَ رَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ**، و كون المعطوف مبني على التكلم مع كون المعطوف عليه مبني على الغيبه أعنى كون عيسى عليه السلام فى قوله: **وَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**، متكلماً و فى قوله: **وَ رَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ**، غائبا ليس مما يضر بالعطف بعد تفسيره قوله: **وَ رَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ**، بقول عيسى: **أنى قد جئتكم، فإن وجه الكلام يتبدل بذلك من الغيبه الى الحضور فيستقيم به العطف.**

و تصديقه للتوراه التى بين يديه إنما هو تصديق لما علمه الله من التوراه على ما تفيده الآيه السابقه، و هو التوراه الأصل النازل على موسى عليهما السلام فلا دلاله لكونه مصدقا للتوراه التى فى زمانه على كونها غير محرفه كما لا دلاله لتصديق نبينا محمد صلى الله عليه و آله و سلم للتوراه التى بين يديه على كونها غير محرفه.

قوله تعالى: **وَ لِأَحْلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**، فإن الله تعالى كان حرم عليهم بعض الطيبات، قال تعالى: **فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمُ الْآيَةَ (النساء ١٦٠).**

و الكلام لا يخلو عن دلاله عن إمضائه عليه السلام لأحكام التوراه إلا ما نسخه الله تعالى بيده من الأحكام الشاقه المكتوبه على اليهود؛ ولذا قيل: ان الإنجيل غير مشتمل على الشريعة، و قوله: **وَ لِأَحْلَ**، معطوف على قوله: **بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ**، و اللام للغايه، و المعنى: قد جئتكم لأنسخ

بعض الأحكام المحرمة المكتوبه عليكم.

قوله تعالى: وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ؛ الظاهر أنه لبيان أن قوله: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ، متفرع على إتيان الآيه لا- على إحلال لمحرّمات فهو لدفع الوهم، ويمكن أن يكون هو مراد من قال: إن إعادته الجملة للتفرقه بين ما قبلها و ما بعدها فإن مجرد التفرقه ليست من المزايا فى الكلام.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ، فيه قطع لعذر من اعتقد الوهيته لتفرسه عليه السّلام ذلك منهم أو لعلمه بذلك بالوحي كما ذكرنا نظير ذلك فى تقييد قوله: فَيَكُونُ طَيْرًا، و قوله: وَأُخِي الْمَوْتَى، بقوله: بِإِذْنِ اللَّهِ لكن الظاهر من قوله تعالى فيما يحكى قول عيسى عليه السّلام:

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ (المائدة ١١٧)، أن ذلك كان بأمر من ربه و وحي منه.

قوله تعالى: فَلَمَّا أَحَسَّ عَيْسَىٰ مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؛ لما كانت البشاره التى بشر بها مريم مشتمله على جمل قصص عيسى عليه السّلام من حين حملة الى حين رسالته و دعوته اقتصر عليها اقتصاصا إيجازا فى الكلام و فرع عليها تتمه الجملة من قصته و هو انتخابه حواريبه و مكر قومه به و مكر الله بهم فى تطهيره منهم و توفيه و رفعه اليه، و هو تمام القصة.

و قد اعتبر فى القصة المقدار الذى يهّم إلقائه الى النصارى حين نزول الآيات، و هم نصارى نجران: الوفد الذين أتوا المدينه للبحث و الاحتجاج، و لذلك اسقط منها بعض الخصوصيات التى تشتمل عليه قصصه المذكوره فى سائر السور القرآنيه كسوره النساء و المائده و الأنبياء و الزخرف و الصف.

و قد قيد الأنصار فى قوله: مَنْ أَنْصَارِي بقوله: إِلَى اللَّهِ لِيتم به معنى التشويق و التحريض الذى سيق لأجله هذا الاستفهام نظير قوله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا (البقره ٢٤٥).

و الظرف متعلق بقوله: أَنْصَارِي، بتضمين النصره معنى السلوك و الذهاب أو ما يشابههما كما حكى عن إبراهيم عليه السّلام من قوله: إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّهْدِينِ (الصافات ٩٩).

قوله تعالى: **قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ أَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**؛ حوارى الإنسان من اختص به من الناس، وقيل أصله من الحور و هو شدة البياض؛ و لم يستعمل القرآن هذا اللفظ إلا فى خواص عيسى عليه السلام من أصحابه.

و قولهم: **آمَنَّا بِاللَّهِ**، بمنزل التفسير لقولهم: **نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ** و هذا مما يؤيد كون قوله: **أَنْصَارِي** الى الله جاريا مجرى التضمين كما مر فإنه يفيد معنى السلوك فى الطريق الى الله، و الإيمان طريق.

و هل هذا أول إيمانهم بعيسى عليه السلام؟ ربما استفيد من قوله تعالى: **كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْخَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ** **قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ (الصف / ١٤)**، أنه إيمان بعد إيمان، و لا ضير فيه كما يظهر بالرجوع الى ما أوضحناه من كون الإيمان و الإسلام ذوى مراتب مختلفه بعضها فوق بعض.

بل ربما دل قوله تعالى: **وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَ أَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (المائدة ١١١)**، أن إجابتهم إنما كانت بوحى من الله تعالى إليهم، و أنهم كانوا أنبياء فيكون الإيمان الذى أجابوه به هو الإيمان بعد الإيمان.

على أن قولهم: **و أشهد بأننا مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت و أتبعنا الرسول**، و هذا الإسلام هو التسليم المطلق لجميع ما يريد الله تعالى منهم و فيهم -يدل أيضا على ذلك فإن هذا الإسلام لا يتأتى إلا من خلص المؤمنين لا من كل من شهد بالتوحيد و التوبه مجرد شهادته، بيان ذلك أنه قد مر فى البحث عن مراتب الإيمان و الإسلام: أن كل مرتبه من الإيمان تسبقها مرتبه من مراتب الإسلام كما يدل عليه قولهم: **آمنا بالله و أشهد بأننا مسلمون**، حيث أتوا فى الإيمان بالفعل و فى الإسلام بالصفه فأول مراتب الإسلام هو التسليم و الشهاده على أصل الدين إجمالا، و يتلوه الإذعان القلبي بهذه الشهاده الصوريه فى الجملة، و يتلوه (و هو المرتبه الثانيه من الإسلام) التسليم القلبي لمعنى الإيمان و ينقطع عنده السخط و الاعتراض الباطنى بالنسبه الى جميع ما يأمر به الله و رسوله و هو الاتباع العملى فى الدين، و يتلوه (و هو المرتبه الثانيه من الإيمان) خلوص العمل و استقرار وصف العبوديه فى جميع الأعمال و الأفعال، و يتلوه (و هو المرتبه الثالثه من الإسلام) التسليم لمحبه الله و إرادته تعالى فلا يحب و لا يريد شيئا إلا بالله، و لا

يقع هناك إلا ما أحبه الله و أراداه و لا خبر عن محبه العبد و إرادته في نفسه، و يتلوه (و هو المرتبه الثالثه من الإيمان) شيوع هذا التسليم العبودى في جميع الأعمال.

قوله تعالى: رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ، مقول قول الحواريين حذف القول من اللفظ للدلاله على حكاية نفس الواقعه و هو من الأساليب اللطيفه في القرآن الكريم، و قد مر بيانه، و قد سألوهم أن يكتبهم من الشاهدين، و فرّعوا ذلك على إيمانهم و إسلامهم جميعا لأنّ تبليغ الرسول رسالته إنما يتحقق ببيانه ما أنزله الله عليه قولا و فعلا، أى بتعليمه معالم الدين و عمله بها، فالشهاده على التبليغ إنما يكون بتعلمها من الرسول و اتباعه عملا حتى يشاهد أنه عامل بما يدعو اليه لا يتخطاه و لا يتعداه.

و الظاهر أن هذه الشهاده هي التي يومي إليها قوله تعالى: فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (الأعراف ٦)، و هي الشهاده على التبليغ، و أما قوله تعالى: وَ إِذَا سَجَعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْ الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (المائدہ ٨٣)، فهو شهاده على حقيقه رساله الرسول دون البليغ، و الله أعلم.

قوله تعالى: وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ، الماكرون هم بنو إسرائيل، بقريته قوله: فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ ، و قد مر الكلام في معنى المكر المنسوب اليه تعالى في ذيل قوله: وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦).

قوله تعالى: إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ، التوفى أخذ الشيء أخذًا تامًا، و لذا يستعمل في الموت لأن الله يأخذ عند الموت نفس الإنسان من بدنه قال تعالى: تَوَفَّيْتُهُ رُسُلَنَا (الأنعام ٦١)، أى أماتته، و قال تعالى: وَ قَالُوا أَ إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَ أَنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ -الى أن قال:- قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (السجده ١١)، و قال تعالى: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرَى (الزمر ٤٢)، و التأمل في الآيتين الأخيرتين يعطى أن التوفى لم يستعمل في القرآن بمعنى الموت بل بعنايه الأخذ و الحفظ، و بعباره اخرى إنما استعمل التوفى بما في حين الموت من الأخذ للداله على أن نفس الإنسان لا يبطل و لا يفنى بالموت الذي

يظن الجاهل أنه فناء و بطلان بل الله تعالى يحفظها حتى يبعثها بالرجوع إليه، وإلا فهو سبحانه يعبر في الموارد التي لا تجرى فيه هذه العناية بلفظ الموت دون التوفى كما في قوله تعالى: **وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ** (آل عمران ١٤٤/)، وقوله تعالى: **لَا يُفْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا** (فاطر ٣٦/)، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة جدا حتى ما ورد في عيسى عليه السلام بنفسه كقوله: **وَ السَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا** (مريم ٣٣/)، وقوله: **وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا** (النساء ١٥٩/)، فمن هذه الجبهة لا صراحه للتوفى في الموت.

على أن قوله تعالى في رد دعوى اليهود: **وَ قَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَ مَا قَتَلُوهُ وَ مَا صَالَبُوهُ وَ لَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَ إِنْ الَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِمَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَ مِمَّا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا** (النساء ١٥٩/)، يؤيد ذلك فإن اليهود كانت تدعى أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم عليه السلام و كذلك كانت تظن النصارى: أن اليهود قتلت عيسى بن مريم عليه السلام بالصلب غير أنهم كانوا يزعمون أن الله سبحانه رفعه بعد قتله من قبره الى السماء على ما في الأناجيل، و الآيات كما ترى تكذب قصه القتل و الصلب صريحا.

و الذى يعطيه ظاهر قوله: **وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا** (النساء ١٥٩/)، هو أن اليهود كانوا يظنون أن الله سبحانه رفعه بعد قتله من قبره الى السماء على ما في الأناجيل، و الآيات كما ترى تكذب قصه القتل و الصلب صريحا. آخر سورة النساء.

قوله تعالى: **وَ رَفَعْنَاكَ إِلَيْنَا وَ مَطَهَّرْنَاكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**، الرفع خلاف الوضع، و الطهاره خلاف القذاره، و قد مر الكلام فى معنى الطهاره.

و حيث قيد الرفع بقوله: **إِلَيْنَا**، أفاد ذلك أن المراد بالرفع الرفع المعنوى دون الرفع الصوى اذ لا مكان له تعالى من سنخ الأمكنه الجسمانيه التى تتعاورها الأجسام و الجسمانيات بالحلول فيها، و القرب و البعد منها، فهو من قبيل قوله تعالى فى ذيل الآيه: **ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ**، و خاصه

لو كان المراد بالتوفى هو القبض لظهور أن المراد حينئذ هو رفع الدرجة و القرب من الله سبحانه، نظير ما ذكره تعالى في حق المقتولين في سبيله: أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ (آل عمران / ١٦٩)، و ما ذكره في حق إدريس عليه السلام: وَ رَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (مريم / ٥٧).

و ربما يقال: إن المراد برفعه إليه رفعه بروحه و جسده حيا الى السماء على ما يشعر به ظاهر القرآن الشريف أن السماء أى الجسمانية هى مقام القرب من الله سبحانه، و محل نزول البركات، و مسكن الملائكة المكرمين، و لعلنا نوفق للبحث عن معنى السماء فيما سيأتى إنشاء الله تعالى.

و التطهير من الكافرين حيث أتبع به الرفع الى الله سبحانه أفاد معنى التطهير المعنوى دون الظاهرى الصورى، فهو إبعاده من الكفار و صونه عن مخالطتهم و الوقوع فى مجتمعهم المتقدر بقذاره الكفر و الجحود.

قوله تعالى: وَ جَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، و عد منه تعالى له عليه السلام أنه سيفوق متبعى عيسى عليه السلام على مخالفه الكافرين بنبوته، و أن تفوقهم هذا سيدوم الى يوم القيامة، و إنما ذكر تعالى فى تعريف هؤلاء الفائقين على غيرهم أن الفائقين هم الذين اتبعوه و أن غيرهم هم الذين كفروا من غير أن يقول هم بنو إسرائيل أو اليهود المنتحلون بشريعه موسى عليه السلام أو غير ذلك.

غير أنه تعالى لما أخذ الكفر فى تعريف مخالفه ظهر منه أن المراد باتباعه هو الاتباع على الحق أعنى الاتباع المرضى لله سبحانه فيكون الذين اتبعوه هم أتباعه المستقيمون من النصارى قبل ظهور الاسلام و نسخه دين عيسى، و المسلمون بعد ظهور الإسلام فإنهم هم أتباعه على الحق، و على هذا فالمراد بالتفوق هو التفوق بحسب الحجه دون السلطنه و السيطرة، فمحصل معنى الجملة: أن متبعيك من النصارى و المسلمين ستفوق حجتهم على حجه الكافرين بك من اليهود الى يوم القيامة، هذا ما ذكره و ارتضاه المفسرون فى معنى الآية.

و الذى أراه أن الآية لا تساعد عليه لا بلفظها و لا بمعناها فإن ظاهر قوله إني متوفيك و رافعك إني و مطهرك من الذين كفروا و جاعل الذين اتبعوك، أنه إخبار عن المستقبل و أنه سيتحقق فيما يستقبل حال التكلم توف و رفع و تطهير و جعل على أن قوله: وَ جَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ ، و عد

حسن و بشرى، و ما هذا شأنه لا يكون إلا فى ما سياتى، و من المعلوم أن ليست حجه متبعى عيسى عليه السّلام إلا حجه عيسى نفسه، و هى التى ذكرها الله تعالى فى ضمن آيات البشاره أعنى بشاره مريم، و هذه الحجج حجج فائقه حين حضور عيسى قبل الرفع، و بعد رفع عيسى بل كانت قبل رفعه عليه السّلام أقطع لعذر الكفار و منبت خصومتهم، و أوضح فى رفع شبههم، فما معنى وعده عليه السّلام أنه ستفوق حجه متبعيه على حجه مخالفه؟ ثم ما معنى تقييد هذه الغلبه و التفوق بقوله: **إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**، مع أن الحججه فى غلبتها لا تقبل التقييد بوقت و لا يوم على أن تفوق الحججه على الحججه باق على حاله يوم القيامة على ما يخبر به القرآن فى ضمن أخبار القيامة.

فالمراد جعل النصارى- و هم الذين اتبع أسلافهم عيسى عليه السّلام- فوق اليهود و هم الذين كفروا بعيسى عليه السّلام و مكروا به، و الغرض فى المقام بيان نزول السخط الإلهى على اليهود، و حلول المكر بهم، و تشديد العذاب على امتهم، و لا- ينافى ما ذكرناه كون المراد بالاتباع هو الاتباع على الحق كما استظهرناه فى أول الكلام كما لا يخفى.

و يؤيد هذا المعنى تغيير الاسلوب فى الآيه الآتية أعنى قوله: **وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**، اذ لو كان المراد بالذين اتبعوا هم أهل الحق و النجاه من النصارى و المسلمين فقط كان الأنسب أن يقال: و أما الذين اتبعوك فيوفيهم اجورهم من غير تغيير للسياق كما لا يخفى.

و هاهنا وجه آخر و هو أن يكون المراد بالذين اتبعوا هم النصارى و المسلمون قاطبه و تكون الآيه مخبره عن كون اليهود تحت إذلال من يدعن لزوم اتباع عيسى الى يوم القيامة؛ و التقريب عين التقريب، و هذا أحسن الوجوه فى توجيه الآيه عند التدبر.

قوله تعالى: **ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**؛ و قد جمع سبحانه فى هذا الخطاب بين عيسى و بين الذين اتبعوه و الذين كفروا به، و هذا مآل أمرهم يوم القيامة، و بذلك يختم أمر عيسى و خبره من حين البشاره به الى آخر أمره و نبأه.

قوله تعالى: **فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذُّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ**، ظاهره أنه متفرع على قوله: **فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ**، تفرع التفصيل على الإجمال فيكون بياناً للحكم الإلهى فى يوم القيامة بالعذاب لليهود الذين كفروا و توفيه الأجر للمؤمنين.

لكن اشتمال التفریع على قوله: فِي الدُّنْيَا، يدل على كونه متفرعا على مجموع قوله: وَ لِّجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ، الخ؛ فيدل على أن نتيجة هذا الجعل و الرجوع تشديد العذاب عليهم في الدنيا بيد الذين فوقهم الله تعالى عليهم، و في الآخرة بالنار، و ما لهم في ذلك من ناصرين.

و هذا أحد الشواهد على أن المراد بالتفويق في الآية السابقة هو التسليط بالسيطره و القوه دون التأيد بالحجه.

و في قوله: وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ دلالة على نفى الشفاعة المانعه عن حلول العذاب بساحتهم، و هو حتم القضاء كما تقدم.

قوله تعالى: وَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ؛ و هذا وعد حسن بالجزاء الخير للذين اتبعوا إلا أن مجرد صدق الاتباع لما لم يستلزم استحقاق جزيل الثواب لأن الاتباع كما عرفت وصف صادق على الامه بمجرد تحققه و صدوره عن عده من أفرادها و حينئذ إنما يؤثر الأثر الجميل و الثواب الجزيل بالنسبه الى من تلبس به شخصا دون من انتسب اليه اسما فلذلك بدل الذين اتبعوك من مثل قوله: الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، ليستقيم المعنى فإن السعاده و العاقبه الحسينى تدور مدار الحقيقه دون الاسم كما يدل عليه قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (البقره ٦٢).

فهذا أجر الذين آمنوا و عملوا الصالحات من الذين اتبعوا عيسى عليه السلام أن الله يوفيههم اجورهم، و أما غيرهم فليس لهم من ذلك شىء، و قد اشير الى ذلك فى الآية بقوله: وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .

و من هنا يظهر السر فى ختم الآية-و هى آيه الرحمه و الجنه-بمثل قوله: وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ

الظَّالِمِينَ مع أن المعهود في آيات الرحمة و النعمة أن تختم بأسماء الرحمة و المغفرة أو بمدح حال من نزلت في حقه الآية نظير قوله تعالى: وَ كُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسَيْنِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (الحديد ١٠)، و قوله تعالى: إِنَّ تَقْرُضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسِناً يَضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (التغابن ١٧)، و قوله تعالى: وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التغابن ٩)، و قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (الجاثية ٣٠)، الى غير ذلك من الآيات.

فقوله: وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ مسوق لبيان حال الطائفة الاخرى ممن انتسب الى عيسى عليه السلام بالاتباع و هم غير الذين آمنوا و عملوا الصالحات.

قوله تعالى: ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَ الدُّكْرِ الْحَكِيمِ إشاره الى اختتام القصة. و المراد بالذكر الحكيم القرآن الذى هو ذكر لله محكم من حيث آياته و بياناته، لا يدخله باطل، و لا يلج فيه هزل.

قوله تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، تلخيص لموضع الحاجة مما ذكره من قصه عيسى فى تولده تفصيلاً، و الإيجاز بعد الإطناب- و خاصة فى مورد الاحتجاج و الاستدلال- من مزايا الكلام؛ و الآيات نازله فى الاحتجاج و متعرضه لشأن وفد النصرارى نصرارى نجران فكان من الأنسب ان يوجز البيان فى خلقته بعد الإطناب فى قصته ليدل على أن كيفية ولادته لا تدل على أزيد من كونه بشرا مخلوقا نظير آدم عليهما السلام فليس من الجائر أن يقال فيه أزيد و أعظم مما قيل فى آدم، و هو أنه بشر خلقه الله من غير أب.

فمعنى الآية: أن مثل عيسى عند الله أى وصفه الحاصل عنده تعالى أى ما يعلمه الله تعالى من كيفية خلق عيسى الجارى بيده أن كيفية خلقه يضاهى كيفية خلق آدم، و كيفية خلقه أنه

جمع أجزائه من تراب ثم قال له كن فتكون تكونا بشريا من غير أب.

فالبيان بحسب الحقيقه منحل الى حجتين تفي كل واحده منهما على وحدتها بنفى الالوهيه عن المسيح عليه السلام.

إحداهما: أن عيسى مخلوق لله -على ما يعلمه الله و لا يضل في علمه- خلقه بشر و إن فقد الأب و من كان كذلك كان عبدا لا ربا.

و ثانيهما: أن خلقته لا- تزيد على خلقه آدم فلو اقتضى سنخ خلقه أن يقال بالوهيته بوجه لاقتضى خلق آدم ذلك مع أنهم لا يقولون بها فيه فوجب أن لا يقولوا بها في عيسى عليه السلام أيضا لمكان المماثله.

قوله تعالى: **الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** تأكيد لمضمون الآيه السابقه بعد تأكيده بأن و نحوه نظير تأكيد تفصيل القصة بقوله: **ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَ الذُّكْرِ الْحَكِيمِ**، الآيه؛ و فيه تطيب لنفس رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بأنه على الحق، و تشجيع له في المحاجه.

و هذا أعنى قوله: **الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ** من أبداع البيانات القرآنيه حيث قيد الحق بمن الداله على الابتداء دون غيره بأن يقال: الحق مع ربك لما فيه من شائبه الشرك و نسبه العجز اليه تعالى بحسب الحقيقه.

و ذلك أن هذه الأقاويل الحقه و القضايا النفس الأمريه الثابته كائنه ما كانت و ان كانت ضروريه غير ممكنه التغير عما هي عليه كقولنا: الأربعة زوج، و الواحد نصف الاثنين، و نحو ذلك إلا أن الإنسان إنما يقتنصها من الخارج الواقع في الوجود و الوجود كله منه تعالى، فالحق كله منه تعالى كما أن الخير كله منه، و لذلك كان تعالى لا يسأل عما يفعل و هم يسألون، فإن فعل غيره إنما يصاحب الحق اذا كان حقا، و أما فعله تعالى فهو الوجود الذي ليس الحق إلا

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٤١ الى ٤٣]

اشاره

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَابْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٤١) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٣)

بيان:

اشاره

قوله تعالى: فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ، الفاء للتفريع، و هو تفريع المباهله على التعليم الإلهي بالبيان البالغ في أمر عيسى بن مريم عليهما السلام مع ما أكده في ختمه بقوله: الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ. و الضمير في قوله: فيه راجع الى عيسى أو الى الحق المذكور في الآية السابقة.

و قد كان البيان السابق منه تعالى مع كونه بيانا إلهيا لا يرتاب فيه مشتملا على البرهان الساطع الذي يدل عليه قوله: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ، الآية، فالعلم الحاصل فيه علم من جهة البرهان أيضا، و لذلك كان يشمل أثره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ غيره من كل سامع فلو

ص: ٤٧١

١ - ١). آل عمران ٤٢-٤٠: بحث روائي في: استناد مريم؛ فاطمه الزهراء عليها السلام؛ خير نساء الجنة؛ بعثه عيسى عليه السلام و حياته.

٢ - ٢). آل عمران ٤٢-٤٠: بحث روائي في معنى المحدث.

فرض تردد من نفس السامع المحاج من جهة كون البيان وحيا إلهيا لم يجز الارتياب فيه من جهة كونه برهانا يناله العقل السليم، ولعله لذلك قيل: من بعد ما جاءك من العلم و لم يقل: من بعد ما بيناه لهم.

و هاهنا نكته اخرى و هي أن في تذكيره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بالعلم تطيبا لنفسه الشريفه أنه غالب بإذن الله، و أن ربه ناصره و غير خاذله البته.

قوله تعالى: فَقُلْ نَدْعُوا أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ، المتكلم مع الغير في قوله: نَدْعُوا، غيره في قوله: أَبْنَاءَنَا وَ نِسَاءَنَا وَ أَنْفُسَنَا فإنه في الأول مجموع المتخاصمين من جانب الإسلام و النصرانية، و في الثاني و ما يلحق به من جانب الإسلام، و لذا كان الكلام في معنى قولنا: ندع الأبناء و النساء و الأنفس فنَدَعُو نحن أبنائنا و نسائنا و أنفسنا و تدعون أنتم أبنائكم و نسائكم و أنفسكم، ففي الكلام إيجاز لطيف.

و المباهله و الملاعنه و إن كانت بحسب الظاهر كالمحاجه بين رسول الله و بين رجال النصارى لكن عممت الدعوه للأبناء و النساء ليكون أدل على اطمينان الداعى بصدق دعوه و كونه على الحق لما أودعه الله سبحانه في قلب الانسان من محبتهم و الشفقة عليهم فتراه يقيهم بنفسه، و يركب الأهوال و المخاطرات دونهم، و في سبيل حمايتهم و الغيره عليهم و الذب عنهم، و لذلك بعينه قدم الأبناء على النساء لأن محبه الإنسان بالنسبه اليهم أشد و أدوم.

قوله تعالى: ثُمَّ نَبْتَهِلُ فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ، الابتهاال من البهله بالفتح و الضم و هي اللعنه؛ هذا أصله ثم كثر استعماله في الدعاء و المسأله اذا كان مع إصرار و إلحاح.

و قوله: فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ، كالبيان للابتهاال، و قد قيل: فنجعل، و لم يقل، فنسأل إشاره الى كونها دعوه غير مردوده حيث يمتاز بها الحق من الباطل على طريق التوقف و الابتناء.

و قوله: الْكَاذِبِينَ مسوق سوق العهد دون الاستغراق أو الجنس اذ ليس المراد جعل اللعنه

على كل كاذب أو على جنس الكاذب بل على الكاذبين الواقعيين في أحد طرفي المحاجه الواقعه بينه صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم و بين النصارى حيث قال صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم: إن الله لا إله غيره و إن عيسى عبده و رسوله، و قالوا: إن عيسى هو الله أو إنه ابن الله أو إن الله ثالث ثالثه.

و على هذا فمن الواضح أن لو كانت الدعوى و المباهله عليها بين النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم و بين النصارى أعنى كون أحد الطرفين مفردا و الطرف الآخر جمعا كان من الواجب التعبير عنه بلفظ يقبل الانطباق على المفرد و الجمع معا كقولنا: فنجعل لعنه الله على من كان كاذبا بالكلام يدل على تحقق كاذبين بوصف الجمع في أحد طرفي المحاجه و المباهله على أى حال: إما في جانب النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم و إما في جانب النصارى، و هذا يعطى أن يكون الحاضرون للمباهله شركاء في الدعوى فإن الكذب لا يكون إلا في دعوى فلمن حضر مع رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم، و هم على و فاطمه و الحسنان عليهم السّلام شركه في الدعوى و الدعوه مع رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم و هذا من أفضل المناقب التى خص الله به أهل بيت نبيه عليهم السّلام كما خصهم باسم الأنفس و النساء و الأبناء لرسوله صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم من بين رجال الامه و نسائهم و أبنائهم (1).

قوله تعالى: **إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصُّ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ**؛ هذا إشاره الى ما تقدم من قصص عيسى عليه السلام؛ و الكلام مشتمل على قصر القلب أى ما قصصناه هو الحق دون ما تدعيه النصارى من أمر عيسى.

و فى الإتيان بيان و اللام و ضمير الفصل تأكيد بالغ لتطبيب نفس رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم و تشجيعة فى أمر المباهله بإيقاظ صفه يقينه و بصيرته و وثوقه بالوحى الذى أنزله الله سبحانه اليه، و يتعقبه التأكيد الثانى بإيراد الحقيقه بلازمها و هو قوله: **وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ** فإن هذه الجملة لازمه كون القصص المذكور حقا.

ص: ٤٧٣

قوله تعالى: وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ معطوف على أول الآيه؛ وهو بما فيه من التأكيد البالغ تطيب آخر و تشجيع لنفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الله لا يعجز عن نصره الحق و تأييده، و لا- أنه يغفل أو يلهو عن ذلك بإهمال أو جهل فإنه هو العزيز (فلا يعجز عما أراد) الحكيم (فلا يجهل و لا يهمل) لا ما عملته أو هام خصماء الحق من إله غير الله سبحانه.

و من هنا يظهر وجه الآيتان بالاسمين: العزيز الحكيم، و أن الكلام مسوق لقصر القلب أو الأفراد.

□
قوله تعالى: فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ؛ لما كان الغرض من المحاجه و كذا المباهله بحسب الحقيقه هو إظهار الحق لم يكن يعقل التولى عن الطريق لمريد الغرض و المقصد فلو كانوا أرادوا بذلك إظهار الحق و هم يعلمون أن الله سبحانه و لى الحق لا يرضى بزهوره و دحوضه لم يتولوا عنها فإن تولوا فإنما هو لكونهم لا يريدون بالمحاجه ظهور الحق بل الغلبه الظاهريه و الاحتفاظ على ما فى أيديهم من حاضر الوضع، و السنه التى استحكمت عليه عادتهم، فهم إنما يريدون ما تزينه لهم أهوائهم و هوساتهم من شكل الحياه، لا الحياه الصالحه التى تنطبق على الحق و السعاده فهم لا يريدون إصلاحا بل إفساد الدنيا بإفساد الحياه السعيده فإن تولوا فإنما هو لأنهم مفسدون.

و من هنا يظهر أن الجزاء وضع فيه السبب مكان المسبب أعنى الإفساد مكان عدم إرادته ظهور الحق.

و قد ضمن الجزاء وصف العلم حيث قيل: فإن الله عليم، ثم اكد بأن ليدل على أن هذه الصفه متحققه فى نفوسهم ناشبه فى قلوبهم فيشعر بأنهم سيتولون عن المباهله لا محاله، و قد

بحث روائى:

فى تفسير القمى عن الصادق عليه السلام: أن نصارى نجران لما وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان سيدهم الأهمم والعاقب والسيد، وحضرت صلاتهم فأقبلوا يضربون الناقوس و صلوا، فقال أصحاب رسول الله: يا رسول الله هذا فى مسجدك؟ فقال: دعوهم فلما فرغوا دنوا من رسول الله فقالوا الى ما تدعو؟ فقال: الى شهاده أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله، وأن عيسى عبد مخلوق يأكل ويشرب ويحدث، قالوا: فمن أبوه؟ فنزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: قل لهم: ما تقولون فى آدم، أ كان عبدا مخلوقا يأكل ويشرب ويحدث وينكح؟ فسألهم النبى، فقالوا نعم: قال فمن أبوه؟ فبهتوا فأنزل الله: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب، الآية؛ وقوله: فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ - الى قوله:- فَتَجْعَلِ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ، فقال رسول الله: فبأهلونى فإن كنت صادقا أنزلت اللعنه عليكم، وان كنت كاذبا أنزلت على فقالوا أنصفت فتواعدوا للمباهله فلما رجعوا الى منازلهم قال رؤسائهم السيد والعاقب والأهمم ان باهلنا بقومه باهلناه فإنه ليس نبيا، وإن باهلنا باهل بيته خاصة لم نباهله فإنه لا يقدم الى أهل بيته إلا وهو صادق فلما أصبحوا جاءوا الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعهم أمير المؤمنين وفاطمه والحسن والحسين فقال النصارى: من هؤلاء؟ فقيل لهم هذا ابن عمه ووصيه وختنه على بن أبى طالب، وهذا ابنته فاطمه، وهذا ابنه الحسن والحسين ففرقوا فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نعطيك الرضا فاعفنا من المباهله فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الجزيه وانصرفوا.

ص: ٤٧٥

و فى العيون بإسناده عن الريان بن الصلت عن الرضا عليه السّلام فى حديثه مع المأمون و العلماء فى الفرق بين العتره و الامه، و فضل العتره على الامه، و فيه قالت العلماء: هل فسر الله الاصطفاء فى كتابه؟ فقال الرضا عليه السّلام: فسر الاصطفاء فى الظاهر سوى الباطن فى اثنى عشر موضعا و ذكر المواضع من القرآن، و قال فيها: و أما الثالثه حين ميز الله الطاهرين من خلقه، و أمر نبيه بالمباهله بهم فى آيه الابتهاال فقال عزّ و جل فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم، قالت العلماء: عنى به نفسه، قال أبو الحسن: غلطتم إنما عنى به على بن أبى طالب؛ و مما يدل على ذلك قول النبى: لينتهين بنو وليعه أو لأبعثن اليهم رجلا كنفسى يعنى على بن أبى طالب، و عنى بالأبناء الحسن و الحسين، و عنى بالنساء فاطمه فهذه خصوصيه لا يتقدمهم فيها أحد، و فضل لا يلحقهم فيه بشر، و شرف لا يسبقهم اليه خلق اذ جعل نفس على كنفسه؛ الحديث.

و عنه بإسناده الى موسى بن جعفر عليهما السّلام فى حديث له مع الرشيد، قال الرشيد له: كيف قلت: إنا ذريه النبى، و النبى لم يعقب، و إنما العقب للذكر لا للأنثى، و أنتم ولد البنت و لا يكون له عقب. فقلت: أسأله بحق القرابه و القبر و من فيه إلا ما أعفانى عن هذه المسأله، فقال: تخبرنى بحجتكم فيه يا ولد على و أنت يا موسى يعسو بهم و إمام زمانهم، كذا أنهى إلى، و لست أعفيك فى كل ما أسألك عنه حق تأتيني فيه بحجه من كتاب الله، و أنتم تدعون معشر ولد على أنه لا يسقط عنكم منه شىء لا ألف و لا واو إلا تأويله عندكم، و احتججتم بقوله عزّ و جل: ما فرطنا فى الكتاب من شىء، و قد استغنيتم عن رأى العلماء و قياسهم.

فقلت: تأذن لى فى الجواب؟ فقال: هات، قلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم و من ذريته داود و سليمان و أيوب و يوسف و موسى و هارون و كذلك نجزى المحسنين و زكريا و يحيى و عيسى و إيلياس، من أبو عيسى يا أمير المؤمنين؟ فقال: ليس له أب فقلت: إنما ألحقه بذرارى الأنبياء من طريق مريم، و كذلك ألحقنا الله تعالى بذرارى النبى من

أمنا فاطمه، أزيدك يا أمير المؤمنين؟ قال: هات، قلت: قول الله عزّ وجل: فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم ونسائنا ونسائكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين، ولم يدع أحد أنه أدخل النبي تحت الكساء عند المباهله مع النصارى إلاّ علي بن أبي طالب و فاطمه و الحسن و الحسين فكان تأويل قوله: أبنائنا الحسن و الحسين، و نساءنا فاطمه، و أنفسنا علي بن أبي طالب.

و فى سؤالات المأمون عن الرضا عليه السّلام: قال المأمون: ما الدليل على خلافه جدك علي بن أبي طالب؟ قال: آيه أنفسنا قال: لو لا نسائنا قال لو لا أبنائنا.

أقول: قوله: آيه أنفسنا يريد أن الله جعل نفس علي كنفس نبيه صلّى الله عليه و آله و سلّم و قوله: لو لا نسائنا معناه: أن كلمه نسائنا فى الآيه دليل على أن المراد بالأنفس الرجال فلا فضيله فيه حينئذ، و قوله: لو لا أبنائنا معناه أن وجود أبنائنا فيها يدل على خلافه فإن المراد بالأنفس لو كان هو الرجال لم يكن مورد لذكر الأبناء.

و فى تفسير العياشى بإسناده عن حريز عن أبي عبد الله عليه السّلام، قال: إن أمير المؤمنين عليه السّلام سئل عن فضائله فذكر بعضها ثم قالوا له زدنا فقال إن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم أتاه حبران من أحبار النصارى من أهل نجران فتكلما فى أمر عيسى فأنزل الله هذه الآيه: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، إلى آخر الآيه؛ فدخل رسول الله فأخذ بيد علي و الحسن و الحسين و فاطمه ثم خرج و رفع كفه الى السماء، و فرج بين أصابعه، و دعاهم الى المباهله، قال: و قال أبو جعفر عليهما السّلام و إن كذلك المباهله يشبك يده فى يده يرفعهما الى السماء فلما رآه الحبران قال أحدهما لصاحبه: و الله لئن كان نبيا لنهلكن و إن كان غير نبى كفانا قومه فكفا و انصرفا.

أقول: و هذا المعنى أو ما يقرب منه مروى فى روايات أخر من طرق الشيعة و فى جميعها أن الذين أتى بهم النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم للمباهله هم علي و فاطمه و الحسنان فقد رواه الشيخ فى أماليه بإسناده عن عامر بن سعد عن أبيه؛ و رواه أيضا فيه بإسناده عن عبد الرحمن بن كثير عن

الصادق عليه السّلام، ورواه فيه أيضا بإسناده عن سالم ابن أبي الجعد يرفعه إلى أبي ذر رضوان الله عليه، ورواه أيضا فيه بإسناده عن ربيعة ابن ناقد عن علي عليه السّلام، ورواه المفيد في كتاب الاختصاص بإسناده عن محمد بن الزبيرقان عن موسى بن جعفر عليهما السّلام، ورواه أيضا فيه عن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جده، ورواه العياشي في تفسيره عن محمد بن سعيد الاردني عن موسى بن محمد بن الرضا عن أخيه، ورواه أيضا عن أبي جعفر الأحول عن الصادق عليه السّلام، ورواه أيضا فيه في روايه اخرى عن الأحول عنه عليه السّلام، و عن المنذر عن علي عليه السّلام، ورواه أيضا فيه بإسناده عن عامر بن سعد، ورواه الفرات في تفسيره معننا عن أبي جعفر و عن أبي رافع و الشعبي و علي عليه السّلام و شهر بن حوشب، ورواه في روضه الواعظين و في إعلام الوري، و في الخرائج و غيرها.

و في تفسير الثعلبي عن مجاهد و الكلبي: أنه صَلَّى الله عليه و آله و سلّم لما دعاهم الى المباهله قالوا: حتى نرجع و ننظر فلما تخالوا قالوا للعاقب- و كان ذا رأيهم- يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: و الله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمدا نبى مرسل، و لقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم؛ و الله ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم، و لا نبت صغيرهم و لئن فعلتم لنهلكن فإن أبيتتم إلاّ إلف دينكم، و الإقامة على ما أنتم عليه فوادعوا الرجل و انصرفوا الى بلادكم.

فأتوا رسول الله و قد غدا محتضنا بالحسين آخذا بيد الحسن و فاطمه تمشى خلفه، و علي خلفها و هو يقول: اذا أنا دعوت فأمنوا، فقال اسقف نجران، يا معشر النصارى إنى لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلا- من مكانه لأزاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا، و لا- يبقى على وجه الأرض نصرانى الى يوم القيامة، فقالوا: يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك، و أن نترك على دينك و نثبت على ديننا، قال: فاذا أبيتتم المباهله فأسلموا، يكن لكم ما للمسلمين، و عليكم ما عليهم فأبوا، قال: فإنى اناجزكم، فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقه و لكن نصالحك على أن لا- تغزونا، و لا- تخيفنا، و لا- تردنا عن ديننا على أن تؤدى اليك كل عام ألفى حله: ألف في صفر،

و ألف فى رجب و ثلاثين درعا عاديه من حديد فصالحهم على ذلك.

و قال: و الذى نفسى بيده إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران و لو لاعنوا لمسخوا قرده و خنازير، و لاضطرم عليهم الوادى ناراً، و لاستأصل الله نجران و أهله حتى الطير على رءوس الشجر، و لما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا.

أقول: و روى القصة: قريبا منه فى كتاب المغازى عن ابن إسحاق، و رواه أيضا المالكى فى الفصول المهمه عن المفسرين قريبا منه، و رواه الحموى عن ابن جريح قريبا منه.

و قوله: ألف فى صفر المراد به المحرم و هو أول السنه عند العرب و قد كان يسمى صفرا فى الجاهليه فيقال صفر الأول و صفر الثانى و قد كانت العرب تنسى فى الصفر الأول ثم أقر الإسلام الحرمة فى الصفر الأول فسمى لذلك بشهر الله المحرم ثم اشتهر بالمحرم.

و فى صحيح مسلم عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبىه قال: أمر معاويه بن أبى سفيان سعدا فقال: ما يمنعك أن تسب أبأ تراب، قال أما ما ذكرت ثلاث قالهن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فلن أسبه، لأن يكون لى واحده منهن أحب الى من حمر النعم، سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يقول حين خلفه فى بعض مغازيه فقال له على: يا رسول الله خلفتنى مع النساء و الصبيان؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: أ ما ترضى أن تكون منى بمنزله هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى؟ و سمعته يقول يوم خيبر: لاعطين الرايه غدا رجلا يحب الله و رسوله، و يحبه الله و رسوله، قال: فتناولنا لها، فقال: أدعوا لى عليا فأتى به أرمم العين فبصق فى عينيه و دفع الرايه إليه ففتح الله على يده. و لما نزلت هذه الآيه: قل تعالوا ندع أبناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم ثم نبتهل، دعا رسول الله عليا و فاطمه و حسنا و حسينا و قال:

اللهم هؤلاء أهل بيتى.

أقول: و رواه الترمذى فى صحيحه، و رواه أبو المؤيد الموفق بن أحمد فى كتاب فضائل على، و رواه أيضا أبو نعيم فى الحليه عن عامر بن سعد عن أبىه، و رواه الحموينى فى كتاب فرائد

و فى حليه الأولياء لأبى نعيم بإسناده عن عامر بن أبى وقاص عن أبىه قال: لما نزلت هذه الآيه دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليا و فاطمه و حسنا و حسيننا فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتى.

و فيه بإسناده عن الشعبى عن جابر قال: قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العاقب و الطيب فدعاهما الى الإسلام فقالا: أسلمنا يا محمد فقال: كذبتما إن شئتما أخبرتكما ما يمنعكما من الإسلام فقالا: فهات الينا، قال: حب الصليب و شرب الخمر و أكل لحم الخنزير، قال جابر:

فدعاهما الى الملاعنه فواعدها الى أن يفداه بالغداه فغدا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و أخذ بيد على و الحسن و الحسين و فاطمه فأرسل اليهما فأبيا أن يجيباه و أقرّا له، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و الذى بعثنى بالحق لو فعلا لأمطر عليهما الوادى نارا قال جابر: فيهم نزلت: ندع أبنائنا و أبنائكم، قال جابر: أنفسنا و أنفسكم رسول الله و على، و أبنائنا الحسن و الحسين، و نساءنا فاطمه.

أقول: و رواه ابن المغازلى فى مناقبه بإسناده عن الشعبى عن جابر، و رواه أيضا الحموينى فى فرائد السمطين بإسناده عنه، و رواه المالكى فى الفصول المهمه مرسلا عنه، و رواه أيضا عن أبى داود الطيالسى عن شعبه الشعبى مرسلا، و رواه فى الدر المنثور عن الحاكم و صححه و عن ابن مردويه و أبى نعيم فى الدلائل عن جابر.

و فى الدر المنثور أخرج أبو نعيم فى الدلائل من طريق الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس:

أن وفد نجران من النصارى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و هم أربعة عشر رجلا من أشرافهم منهم السيد و هو الكبير، و العاقب و هو الذى يكون بعده و صاحب رأيهم ثم ساق القصة نحو مما مر.

و فيه أيضا أخرج البيهقى فى الدلائل من طريق سلمه بن عبد يشوع عن أبىه عن جده: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كتب الى أهل نجران قبل أن ينزل عليه طس سليمان: بسم الله إله إبراهيم

و إسحاق و يعقوب من محمد رسول الله الى اسقف نجران و أهل نجران إن أسلمتم فإنى أحمد اليكم الله إله إبراهيم و إسحاق و يعقوب، أما بعد فإنى أدعوكم الى عباده الله من عباده العباد، و أدعوكم الى ولايه من الله من ولايه العباد فإن أبيتم فالجزيه، و إن أبيتم فقد آذنتكم بالحرب و السلام، فلما قرأ الاسقف الكتاب فضع به و دعر ذعرا شديدا، فبعث الى رجل من أهل نجران يقال له: شرحبيل بن وداعه فدفع اليه كتاب النبي صلى الله عليه و آله و سلم فقرأه، فقال له الاسقف: ما رأيك؟ فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم فى ذريه إسماعيل من النبوه فما يؤمن أن يكون هذا الرجل؟ ليس لى فى النبوه رأى، لو كان رأى من أمر الدنيا أشرت عليك فيه، و جهدت لك، فبعث الاسقف الى واحد بعد واحد من أهل نجران فكلهم قالوا مثل قول شرحبيل فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعه، و عبد الله بن شرحبيل و جبار بن فيض فيأتونهم بخبر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم.

فانطلق الوفد حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فسألهم و سألوهم فلم نزل به و بهم المسأله حتى قالوا له: ما تقول فى عيسى بن مريم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ما عندى فيه شىء يومى هذا فأقيموا حتى اخبركم بما يقال فى عيسى صبح الغد، فأنزل الله هذه الآيه: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب- الى قوله: -فنجعل لعنه الله على الكاذبين، فأبوا أن يقرؤا بذلك، فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم الغد بعد ما أخبرهم الخبر أقبل مشتملا على الحسن و الحسين فى خميله له و فاطمه تمشى خلف ظهره للملاعنه، و له يومئذ عده نسوه، فقال شرحبيل لصاحبيه: إنى أرى أمرا مقبلا إن كان هذا الرجل نبيا مرسلًا فلاعناه لا- يبقى على وجه الأرض منا شعر و لا ظفر إلا هلك فقالا له: ما رأيك؟ فقال: رأيت أن الحكمة فإنى أرى رجلا لا يحكم شططا أبدا، فقالا له: أنت و ذلك، فتلقي شرحبيل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقال: إنى قد رأيت خيرا من ملاعنتك، قال: و ما هو؟ قال حكمك اليوم الى الليل و ليلتك الى الصباح فمهما حكمت فينا فهو جائز، فرجع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و لم يلاعنهم، و صالحهم على الجزيه.

و فيه أخرج ابن جرير عن علباء بن أحمر اليشكري، قال: لما نزلت هذه الآية: **فَقُلْ لِلْعَالَمِينَ إِنِّي وَاٰلِيَآئِيٓكُمْ سَالِمُونَ**، أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى علي وفاطمة وبنيهما الحسن والحسين، ودعا اليهود ليلاعنهم، فقال شاب من اليهود: ويحكم أليس عهدتم بالأمس إخوانكم الذين مسخوا قرده وخنازير؟ لا تلاعنوا فانتهاوا.

أقول: والرواية تؤيد أن يكون الضمير في قوله تعالى: **فَمَنْ حَرَّجَكُ فِيهِ**، راجعا إلى الحق في قوله: **الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ**، فبذلك حكم المباهله لغير خصوص عيسى بن مريم عليه السلام، وتكون حينئذ هذه قصة أخرى واقعه بعد قصه دعوه وفد نجران إلى المباهله على ما تقصه الأخبار الكثيرة المتظافره المنقوله أكثرها فيما تقدم.

وقال ابن طاوس في كتاب سعد السعود رأيت في كتاب تفسير ما نزل من القرآن في النبي وأهل بيته تأليف محمد بن العباس بن مروان: أنه روى خبر المباهله من أحد وخمسين طريقا عن سماه من الصحابة وغيرهم، وعد منهم الحسن بن علي عليهما السلام وعثمان بن عفان وسعد بن أبي وقاص وبكر بن سمال وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عباس وأبا رافع مولى النبي وجابر بن عبد الله والبراء بن عازب وأنس بن مالك.

وروى ذلك في المناقب عن عدة من الرواه والمفسرين وكذا السيوطي في الدر المنثور.

ومن عجيب الكلام ما ذكره بعض المفسرين حيث قال: إن الروايات متفق على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم اختار للمباهله عليا وفاطمة ولديهما، ويحملون كلمة نساءنا على فاطمه، وكلمة أنفسنا على علي فقط، ومصادر هذه الروايات الشيعة، ومقصدهم منها معروف؛ وقد اجتهدوا في ترويجها ما استطاعوا حتى راجت على كثير من أهل السنة، ولكن واضعيها لم يحسنوا تطبيقها على الآية فإن كلمة نساءنا لا يقولها العربي ويريد بها بنته لا سيما إذا كان له أزواج ولا يفهم هذا من لغتهم. وأبعد من ذلك أن يراد بأنفسنا على، ثم إن وفد نجران الذين قالوا: إن الآية نزلت فيهم لم يكن معهم نساءهم وأولادهم، وكل ما يفهم من الآية أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يدعو

المحاجين و المجادلين فى عيسى من أهل الكتاب الى الاجتماع رجالا- و نساء و أطفالا و يجمع هو المؤمنين رجالا و نساء و أطفالا، و يتهلون الى الله تعالى بأن يلعن الكاذب فيما يقول عن عيسى.

و هذا الطلب يدل على قوه يقين صاحبه، و ثقته بما يقول كما يدل امتناع من دعوا الى ذلك من أهل الكتاب سواء كانوا نصارى نجران أو غيرهم على امترائهم فى حجاجهم و مماراتهم فيما يقولون، و زلزالهم فيما يعتقدون، و كونهم على غير بينه و لا يقين، و أنى لمن يؤمن بالله أن يرضى بأن يجتمع هذا الجمع من الناس المحقين و المبطلين فى صعيد واحد متوجهين الى الله فى طلب لعنه و إبعاده من رحمته؟ و أى جرأه على الله و استهزاء بقدرته و عظمته أقوى من هذا؟

قال: أما كون النبى صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين كانوا على يقين مما يعتقدون فى عيسى عليه السلام فحسبنا فى بيانه قوله تعالى: **مَنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ، فَالْعِلْمِ،** فالحلم فى هذه المسائل الاعتقادية لا يراد به إلا اليقين، و فى قوله: **نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ** «الخ» و جهان:

أحدهما: أن كل فريق يدعو الآخر فأنتم تدعون أبناءنا، و نحن ندعو أبناءكم؛ و هكذا الباقي.

و ثانيهما: أن كل فريق يدعو أهله فنحن المسلمون ندعو أبناءنا و نساتنا و أنفسنا؛ و أنتم كذلك.

و لا- إشكال فى وجه من وجهى التوزيع فى دعوه الأ-نفس، و إنما الإشكال فيه على قول الشيعة، و من شايعهم على القول بالتخصيص، انتهى.

أقول: و هذا الكلام- و أحسب أن الناظر فيه يكاد يتهمنا فى نسبته الى مثله، و اللبيب لا يرضى بإيداعه و أمثاله فى الزبر العلميه- إنما أوردناه على وهنه و سقوطه ليعلم أن النزعه و العصبية الى أين يورد صاحبه من سقوط الفهم و رداءه النظر فيهدم كل ما بنى عليه و يبنى كل ما هدمه و لا يبالي، و لأن الشر يجب أن يعلم ليجنب عنه.

و الكلام فى مقامين: أحدهما: دلالة الآيه على أفضله على عليه السلام، و هو بحث كلامى خارج عن الغرض الموضوع له هذا الكتاب؛ و هو النظر فى معانى الآيات القرآنيه.

و ثانيهما: البحث عما ذكره هذا القائل من حيث تعلقه بمدلول آيه المباهله، و الروايات الوارده فى ما جرى بين النبى صلى الله عليه و آله و سلم و بين وفد نجران؛ و هذا بحث تفسيرى داخل فى غرضنا.

و قد عرفت ما تدل عليه الآيه، و أن الذى نقلناه من الأخبار المتكثرة المتظافره هو الذى يطابق مدلول الآيه، و بالتأمل فى ذلك يتضح وجوه الفساد فى هذه الحججه المختلفه و النظر الواهى الذى لا يرجع الى محصل، و هاك تفصيلها:

منها: أن قوله: و مصادر هذه الروايات الشيعه-الى قوله- و قد اجتهدوا فى ترويجها ما استطاعوا حتى راجت على كثير من أهل السنه، بعد قوله: إن الروايات متفقه، ليت شعرى أى روايات يعنى بهذا القول؟ أ مراده هذه الروايات المتظافره التى أجمعت على نقلها و عدم طرحها المحدثون، و ليست بالواحد و الاثنتين و الثلاث أطبق على نقلها و تلقيها بالقبول أهل الحديث، و أثبتها أرباب الجوامع فى جوامعهم، و منهم مسلم فى صحيحه و الترمذى فى صحيحه و أيدها أهل التاريخ.

ثم أطبق المفسرون على إيرادها و إيداعها فى تفاسيرهم من غير اعتراض أو ارتياب، و فيهم جمع من أهل الحديث و التاريخ كالطبرى و أبى الفداء بن كثير و السيوطى و غيرهم ثم من الذى يعنيه من الشيعه المصادر لهذه الروايات؟ أ يريد بهم الذين تنتهى إليهم سلاسل الأسناد فى الروايات أعنى سعد بن أبى وقاص و جابر بن عبد الله و عبد الله بن عباس و غيرهم من الصحابه؟ أو التابعين الذين نقلوا عنهم بالأخذ و الروايه كأبى صالح و الكلبي و السدى و الشعبى و غيرهم، و أنهم تشيعوا لنقلهم ما لا يرتضيه بهواه فهؤلاء و أمثالهم و نظرائهم هم الوسائط فى نقل السنه، و مع رفضهم لا تبقى سنه مذكوره و لا سيره مأثوره، و كيف يسع لمسلم أو باحث حتى ممن لا ينتحل بالإسلام أن يبطل السنه ثم يروم أن يطلع على تفاصيل

ما جاء به النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم من تعليم و تشريع و القرآن ناطق بحججه قول النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم و سيرته، و ناطق ببقاء الدين على حياته، و لو جاز بطلان السنه من رأس لم يبق للقرآن أثر و لا لإنزاله ثمر.

أو أنه يريد أن الشيعة دسوا هذه الأحاديث في جوامع الحديث و كتب التاريخ، فيعود محذور سقوط السنه، و بطلان الشريعة بل يكون البلوى أعم و الفساد أتم.

و منها: قوله: و يحملون كلمه نساءنا على فاطمه، و كلمه أنفسنا على عليّ فقط، مراده به أنهم يقولون بأن كلمه نساءنا أطلقت و اريدت بها فاطمه و كذا المراد بكلمه أنفسنا عليّ فقط، و كأنه فهمه مما يشتمل عليه بعض الروايات السابقه: قال جابر: نساءنا فاطمه و أنفسنا على الخير، و قد أساء الفهم فليس المراد في الآية بلفظ نساءنا فاطمه، و بلفظ أنفسنا على بل المراد أنه صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم اذ لم يأت في مقام الامتثال إلاّ بها و به كشف ذلك أنها هي المصداق الفرد لنساءنا، و أنه هو المصداق الوحيد لأنفسنا و أنهما مصداق أبناؤنا، و كان المراد بالأبناء و النساء و الأنفس في الآية هو الأهل فهم أهل بيت رسول الله و خاصته كما ورد في بعض الروايات بعد ذكر إتيانه صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم بهم أنه قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فإن معنى الجملة: أنى لم أجد من أدعوه غير هؤلاء.

و يدل على ما ذكرناه من المراد ما وقع في بعض الروايات: أنفسنا و أنفسكم رسول الله و عليّ، فإن اللفظ صريح في أن المقصود بيان المصداق دون معنى اللفظ.

و منها: قوله: و لكن واضعها لم يحسنوا تطبيقها على الآية فإن كلمه نساءنا لا يقولها العربى و يريد بها بنته لا سيما اذا كان له أزواج و لا يفهم هذا من لغتهم، و أبعد من ذلك أن يراد بأنفسنا على، و هذا المعنى العجيب الذى توهمه هو الذى أوجب أن يطرح هذه الروايات على كثرتها ثم يطعن على روايتها و كل من تلقاها بالقبول، و يرميهم بما ذكره و قد كان من الواجب عليه أن يتنبه لموقفه من تفسير الكتاب، و يذكر هؤلاء الجم الغفير من أئمه البلاغه و أساتيد البيان،

و قد أوردوها فى تفسيرهم و سائر مؤلفاتهم من غير أى تردد أو اعتراض.

فهذا صاحب الكشاف- وهو الذى ربما خطأ أئمه القراءه فى قراءتهم- يقول فى ذيل تفسير الآيه: و فيه دليل لا شىء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السّلام و فيه برهان واضح على صحه نبوه النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم لأنه لم يرو أحد من موافق و لا مخالف: أنهم أجابوا الى ذلك، انتهى.

فكيف خفى على هؤلاء العظماء أبطال البلاغه و فرسان الأدب أن هذه الأخبار على كثرتها و تكررها فى جوامع الحديث تنسب الى القرآن أنه يغلط فى بيانه فيطلق النساء (و هو جمع) فى مورد نفس واحده؟.

لا و عمرى، و إنما التبس الأمر على هذا القائل و اشتبه عنده المفهوم بالمصداق فتوهم: أن الله عز اسمه لو قال لنبىه صلّى الله عليه و آله و سلّم: فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا و أبنائكم، الخ؛ و صح أن المحاجين عند نزول الآيه وفد نجران و هم أربعة عشر رجلا على ما فى بعض الروايات ليس عندهم نساء و لا أبناء؛ و صح أيضا أن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم خرج الى مباحلتهم و ليس معه إلاّ على و فاطمه و الحسنان كان لازم ذلك أن معنى من حاج وفد نجران، و معنى نساءنا المرأه الواحده، و معنى أنفسنا النفس الواحده، و بقى نسائكم و أبنائكم لا معنى لهما اذ لم يكن مع الوفد نساء و لا أبناء!.

و كان عليه أن يضيف الى ذلك لزوم استعمال الأبناء و هو جمع فى التثنيه و هو أشنع من استعمال الجمع فى المفرد فإن استعمال الجمع فى المفرد ربما وجد فى كلام المولدين و إن لم يوجد فى العربيه الأصليه إلاّ فى التكلم لغرض التعظيم لكن استعمال الجمع فى المثنى مما لا مجوز له أصلا.

فهذا هو الذى دعاه الى طرح الروايات و رميها بالوضع، و ليس الأمر كما توهمه.

توضيح ذلك أن الكلام البليغ إنما يتبع فيه ما يقتضيه المقام من كشف ما يهّم كشفه فربما كان المقام مقام التخاطب بين متخاطبين أو قبيلين ينكر أو يجهل كل منهما حال صاحبه فيوضع

الكلام على ما يقتضيه الطبع و العاده فيؤتى فى التعبير بما يناسب ذلك فأحد القبيلين المتخاصمين اذا أراد أن يخبر صاحبه أن الخصومه و الدفاع قائمه بجميع أشخاص قبيله من ذكور و اناث و صغير و كبير فإنما يقول:نخاصمكم أو نقاتلكم بالرجال و الطعائن و الأولاد فيضع الكلام على ما تقتضيه الطبع و العاده فإن العاده تقتضى أن يكون للقبيل من الناس نساء و أولاد و الغرض متعلق بأن يبين للخصم أنهم يد واحده على من يخاصمهم و يخاصمونه،و لو قيل:نخاصمكم أو نقاتلكم بالرجال و النساء و ابنين لنا كان إخبارا بأمر زائد على مقتضى المقام محتاجا الى عناية زائده و تعرفا الى الخصم لنكته زائده.

و أما عند المتعارفين و الأصدقاء و الأئخله فربما يوضع الكلام على مقتضى الطبع و العاده فيقال فى الدعوه للضيافه و الاحتفال:سنقرئكم بأنفسنا و نساتنا و أطفالنا،و ربما يسترسل فى التعرف فيقال:سنخدمكم بالرجال و البنات و السبطين الصبيين؛و نحو ذلك.

فللطبع و العاده و ظاهر الحال حكم،و لواقع الأمر و خارج العين حكم،و ربما يختلفان،فمن بنى كلامه على حكاية ما يعلم من ظاهر حاله،و يقضى به الطبع و العاده فيه ثم بدا حقيقه حاله و واقع أمره على خلاف ما حكاه من ظاهر حاله لم يكن غالطا فى كلامه،و لا كاذبا فى خبره، و لا لاغيا هازلا فى قوله.

و الآيه جاريه على هذا المجرى فقوله.فقل تعالوا ندع أبناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم،الخ؛اريد به على ما تقدم:أدعهم الى أن تحضر أنت و خاصتك من أهلك الذين يشاركونك فى الدعوى و العلم،و يحضروا بخاصتهم من أهليهم،ثم وضع الكلام على ما يعطيه ظاهر الحال أن لرسول الله فى أهله رجالا و نساء و أبناء و لهم فى أهليهم رجال و نساء و أبناء فهذا مقتضى ظاهر الحال،و حكم الطبع و العاده فيه و فيهم،أما واقع الأمر و حقيقته فهو أنه لم يكن له صلى الله عليه و آله و سلم من الرجال و النساء و البنين إلا- نفس و بنت و ابنان،و لم يكن لهم إلا- رجال من غير نساء و لا أبناء،و لذلك لما أتاهم برجل و امرأه و ولدين لم يجبهوه بالتلحين و التكذيب،

ولا- أنهم اعتذروا عن الحضور بأنك أمرت بإحضار النساء والأبناء وليس عندنا نساء ولا أبناء، ولا أن من قصت عليه القصة رماها بالوضع والتمويه.

و من هنا يظهر فساد ما أورده بقوله: ثم وفد نجران الذين قالوا إن الآية نزلت فيهم لم يكن معهم نساء ولا أبناء.

و منها: قوله: وكل ما يفهم من الآية أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يدعو المحاجين والمجادلين في عيسى من أهل الكتاب الى الاجتماع رجالا و نساء و أطفالا، و يجمع هو المؤمنين رجالا و نساء و أطفالا، و يتهلون الى الله بأن يلعن الكاذب فيما يقول عن عيسى- الى قوله- و أنى لمن يؤمن بالله أن يرضى أن يجتمع مثل هذا الجمع من الناس المحقين و المبطلين في صعيد واحد متوجهين الى الله تعالى في طلب لعنه و إبعاده من رحمته؟ و أى جرأه على الله و استهزاء بقدرته و عظمته أقوى من هذا؟

و ملخصه أن الآية تدعو الفريقين الى الاجتماع بأنفسهم و نسائهم و ذراريهم في صعيد واحد ثم الابتهاال بالملاعنه، و ينبغى أن يستبان ما هذا الاجتماع المدعو اليه؟

أ هو اجتماع الفريقين كافه أعنى المؤمنين بأجمعهم و هم يومئذ (1) عرب ربيعه و مضر جلهم أو كلهم من اليمن و الحجاز و العراق و غيرها، و النصارى و هم أهل نجران من اليمن و نصارى الشام و سواحل البحر الابيض و أهل الروم و الإفرنج و الإنجليز و النمسا و غيرهم.

و هؤلاء الجماهير فى مشارق الأرض و مغاربها تربو نفوسهم بالرجال و النساء و الذرارى يومئذ على الملائين بعد الملائين، و لا يشك ذو لب أن من المتعذر اجتماعهم فى صعيد واحد فالأسباب العاديه تأبى ذلك بجميع أركانها، و لازم ذلك أن يندب القرآن الناس الى المحال،

ص: ٤٨٨

١- ١). و هو سنه تسع على ما ذكره بعض المؤرخين أو عشر على ما ذكره آخرون و إن لم يخل جميعا عن الاشكال على ما سيجىء فى البحث الروائى عن الآيات التالیه لهذه الآيات.

و ينيط ظهور حجته، و تبين الحق الذى يدعيه على ما لا يكون البتة، و كان ذلك عذرا (و نعم العذر) للنصارى فى عدم إجابتهم دعوه النبى صلى الله عليه و آله و سلم الى المباهله، و كان ذلك أضر لدعواه منه لدعواهم.

أم هو اجتماع الحاضرين من الفريقين و من فى حكمهم أعنى المؤمنين من أهل المدينة و ما والاها، و أهل نجران و من والاها، و هذا و إن كان أقل و أخف شناعه من الوجه السابق لكنه من حيث استحاله التحقق و امتناع الوقوع كسابقه فمن الذى كان يسعه يومئذ أن يجمع أهل المدينة و نجران قاطبه حتى النساء و الذرارى منهم فى صعيد للملاعه، و هل هذه الدعوه إلاّ تعليقا بالمحال، و اعترافا بأن الحق متعذر الظهور.

أم هو اجتماع المتلبسين بالخصام و الجدال من الفريقين أعنى النبى صلى الله عليه و آله و سلم و الحاضرين عنده من المؤمنين، و وفد نجران من النصارى، و يرد عليه حينئذ ما أورده بقوله: «ثم إن وفد نجران الذين قالوا: إن الآيه نزلت فيهم لم يكن معهم نساءهم و أولادهم، و كان ذلك وقوعا فيما ذكره من المحذور».

و منها: قوله: أما كون النبى صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين كانوا على يقين مما يعتقدون فى عيسى عليه السلام فحسبنا فى بيانه قوله تعالى: **مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَالْعِلْمِ** فى هذه المسائل الاعتقادية لا يراد به إلاّ اليقين.

أقول: أما كون العلم فيها بمعنى اليقين فهو حق و أما كون الآيه داله على كون المؤمنين على يقين من أمر عيسى عليه السلام فليت شعرى من أين له إثبات ذلك؟ و الآيه غير متعرضه بلفظها (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك، الخ؛ إلاّ لشأن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و مقام التخاطب أيضا لا يشمل غيره صلى الله عليه و آله و سلم من المؤمنين فإن الوفد من النصارى ما كان لهم هم إلاّ المحاجه و الخصام مع النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و لم يكن لهم هوى فى لقاء المؤمنين، و لا كلموهم بكلمه، و لا كلمهم المؤمنون بكلمه.

نعم لو دلت الآية على حصول العلم لأحد غير النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لدل فيمن جيء به للمباهلة على ما استفدناه من قوله تعالى: مِنَ الْكَاذِبِينَ فيما تقدم.

بل القرآن يدل على عدم عموم العلم واليقين لجميع المؤمنين حيث يقول تعالى: وَمِمَّنْ يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (يوسف ١٠٦)، فوصفهم بالشرك وكيف يجتمع الشرك مع اليقين، ويقول تعالى: وَإِذْ يَقُولُ الْمُفَقُّونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (الأحزاب ١٢)، ويقول تعالى: وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَيِّتِ فَأَوْلى لَهُمْ طَاعَهُ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَمَوْ صَدَقُوا اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ -الى أن قال:- أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ (محمد ٢٣)، فاليقين لا يتحقق به إلا بعض اولى البصيره من متبعي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَشِدُّ لِمَتِّ وَجْهِي لِلَّهِ وَمِنْ أَتْبَعِنِ (آل عمران ٢٠)، وقال تعالى: قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي (يوسف ١٠٨).

ومنها: قوله: وفي قوله نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ، الخ؛ وجهان: أحدهما: أن كل فريق يدعو الآخر، الخ؛ وقد عرفت فساد وجهه الأول وعدم انطباقه على لفظ الآية اذ قد عرفت أن الغرض كان مستوفى حاصلًا لو قيل: تعالوا نبتهل فنجعل لعنه الله على الكاذبين، وإنما زيد عليه قوله: نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ، ليدل على لزوم إحضار كل من الفريقين عند المباهله أعز الأشياء عنده وأحبها اليه وهو الأبناء والنساء والأنفس (الأهل والخاصه)، وهذا إنما يتم لو كان معنى الآية: ندعو نحن أبناءنا ونساءنا وأنفسنا وتدعون أنتم أبناءكم ونساءكم وأنفسكم، ثم نبتهل، وأما لو كان المعنى ندعو نحن أبناءكم ونساءكم وأنفسكم وتدعون أنتم أبناءنا ونساءنا وأنفسنا ثم نبتهل بطل الغرض المذكور.

على أن هذا المعنى فى نفسه مما لا يرتضيه الطبع السليم فما معنى تسليط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم النصارى على أبنائه و نساؤه، و سؤاله أن يسلطوه على ذراريهم و نسايتهم ليتداعوا فيتم الحضور و المباهله مع تأتي ذلك بدعوه كل فريق أهل نفسه لها؟

على أن هذا المعنى يحتاج فى فهمه من الآيه الى فهم معنى التسليط و ما يشابهه- كما تقدم- منها، و أنى لنا فهمه؟ فالحق أن هذا الوجه ساقط، و أن الوجه الآخر و هو أن يكون المراد دعوه كل أهل نفسه هو المتعين.

و منها: قوله: و لا- إشكال فى وجه من وجهى التوزيع فى دعوه الأنفس، و إنما الإشكال فى على قول الشيعة و من شايعهم على القول بالتخصيص، يريد بالإشكال ما اورد على الآيه من لزوم دعوه الإنسان نفسه، و هذا الإشكال غير مرتبط بشىء من الوجهين أصلا و إنما هو إشكال على القول بكون المراد بأنفسنا هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما يحكى عن بعض المناظرات المذهبية حيث ادعى أحد الخصمين أن المراد بأنفسنا، رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأورد عليه بلزوم دعوه الإنسان نفسه و هو باطل تشير اليه الروايه الثانيه المنقوله عن العيون فيما تقدم.

و من هنا يظهر سقوط قوله: إنما الإشكال فى على قول الشيعة فإن قولهم على ما قدمنا: أن المراد بأنفسنا هو الرجال من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، و هم بحسب المصداق رسول الله و على عليهما الصلاه و السلام، و لا إشكال فى دعوه بعضهم بعضا.

فلا إشكال عليهم حتى على ما نسبه إليهم بزعمه: أن معنى أنفسنا على فإنه لا إشكال فى دعوه النبى صلى الله عليه وآله وسلم عليا عليه السلام.

و قال تلميذه فى المنار بعد الإشاره الى الروايات: و أخرج ابن عساكر عن جعفر ابن محمد عن أبيه فقلُّ نَعَالُوا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَ كُمْ الْآيَةَ؛ قال: فجاء بأبى بكر و ولده، و عمر و ولده، و عثمان و ولده. قال: و الظاهر أن الكلام فى جماعه المؤمنين.

ثم قال بعد نقل كلام أستاذه المنقول سابقا: و فى الآيه ما ترى من الحكم بمشاركه النساء

للرجال في الاجتماع للمباراة القومية و المناضله الدينيه، و هو مبنى على اعتبار المرأه كالرجل حتى في الامور العامه إلا ما استثني منها الى آخر ما أظن به من الكلام.

أقول: أما ما ذكره من الروايه فهى روايه شاذه تخالف جميع روايات الآيه على كثرتها و اشتهاها و قد أعرض عن هذه الروايه المفسرون، و هى مع ذلك تشتمل على ما لا يطابق الواقع، و هو جعله لكل من المذكورين فيه ولدا. و لا ولد يومئذ لجميعهم البته.

و كأنه يريد بقوله: و الظاهر أن الكلام فى جماعه المؤمنين، أن يستظهر من الروايه الدلاله على أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أحضر جميع المؤمنين و أولادهم فيكون قوله: فجاء بأبى بكر و ولده، الخ؛ كناية عن إحضاره عامه المؤمنين، و كأنه يريد به تأييد شيخه فيما ذكره من المعنى. و أنت ترى ما عليه الروايه من الشذوذ و الإعراض و المتن ثم فى الدلاله على ما ذكره من المعنى.

و أما ما ذكره من دلاله الآيه على مشاركه النساء الرجال فى الحقوق العامه فلو تم ما ذكره دل على مشاركه الأطفال أيضا، و فى هذا وحده كفايه فى بطلان ما ذكره.

و قد قدمنا الكلام فى اشتراكهن معهم عند الكلام على آيات الطلاق فى الجزء الثانى من الكتاب و سيأتى شطر فى ما يناسبه من المورد من غير حاجه الى مثل ما استفاده من الآيه.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٦٤ الى ٧٨]

إشارة

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَ مَا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَآ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَ لَا نَصْرَانِيًّا وَ لَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨) وَ دَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَ مَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ أَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ أَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ جَهِ النَّهَارِ وَ أَكْفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَ لَا تَتُومِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ أَلْهَدَى اللَّهُ إِلَى شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ مِنْ دُونِهِ إِلَهٌ لِيُؤْتِيَ مَا يَشَاءُ مِنْ غَيْرِ حِسَابٍ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤) وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ فَايَمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَ اتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ أَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لَا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَ مَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ

عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)

ص: ٤٩٢

قوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، الخطاب لعامة أهل الكتاب، و الدعوه فى قوله: تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ «إلخ» بالحقيقه إنما هى الى الاجتماع على معنى الكلمه بالعمل به، و إنما تنسب الى الكلمه لتدل على كونها دائره بألستهم كقولنا اتفقت كلمه القوم على كذا فيفيد معنى الإذعان و الاعتراف و النشر و الإشاعه.فالمعنى:

تعالوا نأخذ بهذه الكلمه متعاونين متعاضدين فى نشرها و العمل بما توجهه.

و السواء فى الأصل مصدر، و يستعمل وصفا بمعنى مساوى الطرفين، و سواء بيننا و بينكم أى مساو من حيث الأخذ و العمل بما توجهه، و على هذا فتوصيف الكلمه بالسواء توصيف بحال المتعلق و هو الأخذ و العمل، و قد عرفت أن العمل إنما يتعلق بمعنى الكلمه لا نفسها كما أن تعليق الاجتماع أيضا على المعنى لا يخلو من عنايه مجازيه فى الكلام ووجه من لطائف

العنايات:نسبه الاجتماع الى المعنى ثم وضع الكلمه مكان المعنى ثم توصيف الكلمه بالسواء!

قوله تعالى: **أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ** **وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا** **وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا** **مِنْ دُونِ اللَّهِ**، تفسير للكلمه السواء؛و هي التى يوجبها الإسلام لله.

و المراد بقوله: **أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ**، نفى عباده غير الله لا- إثبات عباده الله تعالى على ما مرت الإشارة اليه فى معنى كلمه الإخلاص (لا إله إلا الله): أن لازم كون إلا الله،بدلا لا استثناء كون الكلام مسوقا لبيان نفى الشريك دون إثبات الإله،فإن القرآن يأخذ إثبات وجود الإله و حقيقته مفروغا عنه.

و لما كان الكلام مسوقا لنفى الشريك فى العباده و لا ينحسم به ماده الشرك اللازم من اعتقاد النبوه و التثليث و نحو ذلك أردفه بقوله: **وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا** **وَلَا يَتَّخِذُ**، الخ؛فإن تسميه العباده بعباده الله لا تصير العباده عباده لله سبحانه ما لم يخلص الاعتقاد و لم يتجرد الضمير من الاعتقادات و الآراء المولوده من أصل الشرك لأن العباده حينئذ إنما تكون عباده إله له شريك،و العباده التى يعبد بها أحد الشريكين و إن خص باسمه و وجه نحوه ليست إلا نابتة منبت التشريك لأنها لا تعدو أن تكون سهما يسهم له و حظا يقسم له من بين الشريكين أو الشركاء ففهيها بعينها نحو عباده للغير (1).

و هذا الذى يدعو اليه النبى بأمر الله سبحانه،و هو الذى يدل عليه قوله: **أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ** **وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا** **وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا** **مِنْ دُونِ اللَّهِ**، هو الذى يجمع غرض النبوه فى السيره التى كانت الأنبياء تدعو إليها و تبسطها على المجتمع الإنسانى.

قوله تعالى: **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** استشهاد،بأنهم(و هم

ص: ٤٩٥

(١- ١). آل عمران ٦٤-٧٨:بحث فى كيفية بسط التساوى فى حقوق الحياه و الحريره فى الاراده الصالحه و العمل الصالح.

النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم و من اتبعه)على الدين المرضى عند الله تعالى و هو الإسلام،قال إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (آل عمران:١٩)،فينقطع بذلك خصامهم و حجاجهم اذ لا حجه على الحق و أهله.

و فيه إشاره الى أن التوحيد فى العباده من لوازم الإسلام.

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ ۚ الظاهر أنه مقول القول الواقع فى الآية السابقة، و كذا ما يأتى بعد أربع آيات فىكون مقولا- لرسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم و إن كان ظاهر سياق قوله:بعد آيتين: إِنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا، الآية؛أن يكون الخطاب من الله لا من رسوله بإذنه.

و محاجتهم فى إبراهيم عليه السَّلام بضم كل طائفه إياه الى نفسها يشبه أن تكون أولا- بالمحاجه لإظهار المحقيه كأن تقول اليهود:إن إبراهيم عليه السَّلام الذى أثنى الله عليه فى كتابه منا فتقول النصارى:إن إبراهيم كان على الحق،و قد ظهر الحق بظهور عيسى معه،ثم تتبدل الى اللجاج و العصبية فتدعى اليهود أنه كان يهوديا،و تدعى النصارى أنه كان نصرانيا،و من المعلوم أن اليهوديه و النصرانيه إنما نشأتا جميعا بعد نزول التوراه و الإنجيل و قد نزلا جميعا بعد إبراهيم عليه السَّلام فكيف يمكن أن يكون عليه السَّلام يهوديا بمعنى المتحل بالدين الذى يختص بموسى عليه السَّلام، و لا نصرانيا بمعنى المتعبد بشريعته عيسى عليه السَّلام،فلو قيل فى إبراهيم شىء لوجب أن يقال:إنه كان على الحق حيفا من الباطل الى الحق مسلما لله سبحانه،و هذه الآيات فى مساق قوله تعالى: أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى، قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ (البقره ١٤٠).

قوله تعالى: ﴿يَا أَتَّكُمْ هُوَ لَاءِ ۚ حَاجَّكُمْ فِيْمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيْمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ۚ الآية؛الآيه تثبت لهم علما فى المحاجه التى وقعت بينهم،و تنفى علما و تثبته لله تعالى،و لذلك ذكر المفسرون:أن المعنى:أنكم حاججتم:فى إبراهيم عليه السَّلام و لكم

به

علم ما، كالعالم بوجوده و نبوته، فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم و هو كونه يهوديا أو نصرانيا و الله يعلم و أنتم لا تعلمون، أو أن المراد بالعلم علم ما بعيسى و خبره، و المعنى أنكم تحتاجون في عيسى و لكم بخبره علم فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم و هو كون إبراهيم يهوديا أو نصرانيا، هذا ما ذكروه.

و أنت تعلم أن شيئا من الوجهين لا- ينطبق على ظاهر سياق الآية: أما الأول فلأنه لم تقع لهم محاجه في وجود إبراهيم و نبوته، و أما الثانى فلأن المحاجه التى وقعت منهم في عيسى لم يكونوا فيها على الصواب بل كانوا مخطئين في خبره كاذبين في دعواهم فيه فكيف يمكن أن يسمى محاجه فيما لهم له علم؛ و كلامه تعالى على أى حال يثبت منهم محاجه فيما لهم به علم كما يثبت لهم محاجه فيما ليس لهم به علم، فما هذه المحاجه التى هى فيما لهم به علم؟ على أن ظاهر الآية أن هاتين إنما جرتا جميعا فيما بين أهل الكتاب أنفسهم لا بينهم و بين المسلمين و إلا كان المسلمون على الباطل في الحجاج الذى أهل الكتاب فيه على علم؛ و هو ظاهر.

و الذى ينبغى ان يقال- و الله العالم- ان من المعلوم أن المحاجه كانت جاريه بين اليهود و النصرارى في جميع موارد الاختلاف التى كانت بينهم، و عمدته ذلك نبوه عيسى عليه السلام و ما كانت تقوله النصرارى في حقه (إنه الله، أو ابنه، أو التثليث) فكانت النصرارى تحاج اليهود في بعثته و نبوته و هم على علم منه، و كانت اليهود تحاج النصرارى، و تبطل الوهيته و نبوته و التثليث و هم على علم منه فهذه محاجتهم فيما لهم به علم، و اما محاجتهم فيما ليس لهم به علم فمحاجتهم في أمر إبراهيم أنه كان يهوديا أو نصرانيا.

و ليس المراد بجهلهم به جهلهم بنزول التوراه و الإنجيل بعده و هو ظاهر، و لا- ذهولهم عن أن السابق لا يكون تابعا للاحق فإنه خلاف ما يدل عليه قوله تعالى: أَفَلَا تَعْقِلُونَ، فإنه يدل على أن الأمر يكفى فيه أدنى تنبيه، فهم عالمون بأنه كان سابقا على التوراه و الإنجيل لكنهم ذاهلون عن مقتضى علمهم و هو أنه لا يكون حينئذ يهوديا و لا نصرانيا بل على دين الله الذى

هو الإسلام لله.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا إِلَىٰ آخِرِ آيَةٍ﴾؛ قد مر تفسيره فيما مر، وقد قيل: إن اليهود والنصارى كما كانوا يدعون أن إبراهيم عليه السلام منهم وعلى دينهم كذلك عرب الجاهلية من الوثنية كانت تدعى أنهم على الدين الحنيف دين إبراهيم عليه السلام حتى كان أهل الكتاب يسمونهم الحنفاء، ويدعون بالحنيفيه الوثنيه.

ولما وصف الله سبحانه إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَ لَكِنْ كَانَ حَنِيفًا﴾، ووجب بيانه حتى لا يتوهم منه الوثنيه فلذلك أردفه بقوله: ﴿مُشْرِكًا﴾ وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، أى كان على الدين المرضى عند الله تعالى وهو الإسلام وما كان من المشركين كعرب الجاهلية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآيه فى موضع التعليل للكلام السابق و بيان للحق فى المقام و المعنى - و الله العالم - أن هذا النبى المعظم إبراهيم لو أخذت النسبه بينه و بين من بعده من المنتحلين و غيرهم لكان الحق أن لا يعد تابعا لمن بعده بل يعتبر الأولويه به و الأقربيه منه، و الأقرب من النبى الذى له شرع و كتاب هم الذين يشاركونه فى اتباع الحق، و التلبس بالدين الذى جاء به، و الأولوى بهذا المعنى بإبراهيم عليه السلام هذا النبى و الذين آمنوا لأنهم على الإسلام الذى اصطفى الله به إبراهيم و كذا كل من اتبعه دون من يكفر بآيات الله و يلبس الحق بالباطل.

و فى قوله لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ تعريض لأهل الكتاب من اليهود و النصارى بنحو الكنايه أى لستم أولى بإبراهيم لعدم اتباعكم إياه فى إسلامه لله.

و فى قوله: و هذا النبى و الذين آمنوا أفراد للنبى عليه السلام و من اتبعه من المؤمنين من الذين اتبعوا إبراهيم إجلالا للنبى و صونا لمقامه أن يطلق عليه الاتباع كما يستشعر ذلك - مثل قوله تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ﴾ (الأنعام ٩٠)، حيث لم يقل: فبهم اقتده.

و قد تمم التعليل و البيان بقوله: ﴿وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فإن ولايه إبراهيم (ولى الله)، من ولايه

اللّٰهُ، و اللّٰهُ ولىّ المؤمنين دون غيرهم الكافرين بآياته اللابسين الحق بالباطل.

قوله تعالى: **وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضْمَلُونَ لَوْ يُضْمَلُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ** **وَمَا يَشْعُرُونَ**؛ الطائفة الجماعة من الناس، و كأن الأصل فيه أن الناس و خاصه العرب كانوا أولا يعيشون شعوبا و قبائل بدويين يطوفون صيفا و شتاء بماشيتهم فى طلب الماء و الكلاء، و كانوا يطوفون و هم جماعه تحذرا من الغيله و الغاره فكان يقال لهم جماعه طائفه، ثم اقتصر على ذكر الوصف (الطائفه) للدلاله على الجماعه.

و أما كون أهل الكتاب لا يضلون إلا أنفسهم فإن أول الفضائل الإنسانيه الميل الى الحق و اتباعه فحب صرف الناس عن الحق الى الباطل من جهه أنه من أحوال النفس و أخلاقها رذيله نفسانيه-و بثست الرذيله-و إثم من آثامها و معاصيها و بغيها بغير حق، و ما ذا بعد الحق إلا الضلال فحبهم لإضلال المؤمنين و هم على الحق إضلال بعينه لأنفسهم من حيث لا يشعرون.

و كذا لو تمكنوا من بعضهم بإلقاء الشبهات فأضلوه بذلك فإنما يضلون أولا أنفسهم لأن الإنسان لا يفعل شيئا من خير أو شر إلا لنفسه كما قال تعالى: **مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا** **وَ مَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** (حم السجده ٤٦)، و أما ضلال من ضل بإضلالهم فليس بتأثير منهم بل هو بسوء فعال الضال الغاوى و شآمه إرادته بإذن من اللّٰهُ، قال تعالى:

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلَا نُنْفِئُهُمْ يَمْهَدُونَ (الروم ٤٤)، و قال تعالى:

وَ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (الشورى ٣١)، و قد مر شطر من الكلام فى خواص الأعمال فى الكلام على قوله تعالى: **حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ** (البقره/ ٢١٧)، فى الجزء الثانى من الكتاب.

و هذا الذى ذكرناه من المعارف القرآنيه التى يفيدها التوحيد الأفعالى الذى يتفرع على

شمول حكم الربوبيه و الملك، و به يوجه ما يفيدہ قوله تعالى: **وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ** و **مَا يَشْعُرُونَ**، من الحصر.

قوله تعالى: **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ**، قد مر أن الكفر بآيات الله غير الكفر بالله تعالى، و أن الكفر بالله هو الالتزام بنفى التوحيد صريحا كالوثنيه و الدهريه، و الكفر بآيات الله إنكار شىء من المعارف الإلهيه بعد ورود البيان و وضوح الحق، و أهل الكتاب لا ينكرون أن للعالم إلها واحدا، و إنما ينكرون امورا من الحقائق بينتها لهم الكتب السماويه المنزله عليهم و على غيرهم كتبوه النبى صلى الله عليه و آله و سلم و كون عيسى عبدا لله و رسولا منه، و أن إبراهيم ليس يهودى و لا نصرانى، و أن يد الله مبسوطه، و أن الله غنى؛ الي غير ذلك، فأهل الكتاب فى لسان القرآن كافرون بآيات الله غير كافرين بالله، و لا ينافية قوله تعالى: **قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ** (التوبه ٢٩)، حيث نفى الإيمان عنهم صريحا، و ليس إلا الكفر و ذلك أن ذكر عدم تحريمهم للحرام و عدم تدينهم بدين الحق فى الآيه يشهد بأن المراد من توصيفهم بعدم الإيمان هو التوصيف بلازم الحال فلازم حالهم من الكفر بآيات الله عدم الإيمان بالله و اليوم الآخر و إن لم يشعروا به، و ليس بالكفر الصريح.

و فى قوله تعالى: **وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ** -و الشهاده هو الحضور و العلم عن حس- دلالة على أن المراد بكفرهم بآيات الله إنكارهم كون النبى صلى الله عليه و آله و سلم هو النبى الموعود الذى بشر به التوراه و الإنجيل مع مشاهدتهم انطباق الآيات و العلام المذكوره فيهما عليه.

و من هنا يظهر فساد ما ذكره بعضهم: أن لفظ الآيات عام شامل لجميع الآيات و لا وجه لتخصيصه بآيات النبوه بل المراد كفرهم بجميع الآيات الحقه و الوجه فى فساده ظاهر.

قوله تعالى: **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ** الى آخر الآيه؛ اللبس بفتح اللام إلقاء الشبهه و التمويه أى تظهرون الحق فى صوره الباطل.

و فى قوله: وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ دلاله أو تلويح على أن المراد باللبس و الكتمان ما هو فى المعارف الدينيه غير ما يشاهد من الآيات كالأيات التى حرفوها أو كتموها أو فسروها بغير ما يراد منها.

و هاتان الآيتان أعنى قوله: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ -الى قوله: وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ -تممه لقوله تعالى: وَ دَّتْ طَائِفَةٌ الْآيَةَ؛ و على هذا فعتاب الجميع بفعال البعض بنسبته إليهم من جهة اتحادهم فى العنصر و النسل و الصفه، و رضاء البعض بفعال البعض و هو كثير الورد فى القرآن.

قوله تعالى: وَ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ المراد بوجه النهار بقريته مقابلته بآخره هو أوله فإن وجه الشىء ما يبدو و يظهر به لغيره و هو فى النهار أوله، و سياق قولهم يكشف عن نزول وحي على النبی صلی الله عليه و آله و سلم فى وجه النهار يوافق ما عليه أهل الكتاب و آخر فى آخره يخالف ما هم عليه فإنما هو الذى دعاهم الى أن يقولوا هذا القول.

و على هذا فقوله: بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا أريد به شىء خاص من وحي القرآن يوافق ما عند أهل الكتاب، و قوله: وَجْهَ النَّهَارِ منصوب على الظرفيه و متعلق بقوله: أُنزِلَ، لا بقوله:

آمنوا(صيغه الأمر)لأنه أقرب، و قوله: وَ أَكْفُرُوا آخِرَهُ فى معنى و كفروا بما أنزل فى آخره فيكون من وضع الظرف موضع المظروف بالمجاز العقلى نظير قوله تعالى: بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ (سبأ ٣٣).

و بذلك يتأيد ما ورد فى سبب النزول عن أئمة أهل البيت: أن هذه كلمه قالتها اليهود حين تغيير القبلة حيث صلى رسول الله صلاه الصبح الى بيت المقدس و هو قبله اليهود، ثم حولت القبلة فى صلاه الظهر نحو الكعبه فقالت طائفه من اليهود: آمنوا بما أنزل على الذين آمنوا وجه النهار يريدون استقبال بيت المقدس، و اكفروا آخره يريدون استقبال الكعبه. و يؤيده قولهم

بعده على ما حكاه الله: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، أى لا تثقوا بمن لا يتبع دينكم بالإيمان به ففتشوا عنده شيئاً من أسراركم و البشارات التى عندكم و كان من علائم النبى صلى الله عليه و آله و سلم أنه يحول القبلة الى الكعبة.

قوله تعالى: وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ الخ؛ الذى يعطيه السياق هو أن تكون هذه الجملة من قول أهل الكتاب تتمه لقولهم: آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا، و كذا قوله تعالى: أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ، و يكون قوله قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ جملة معترضه هو جواب الله سبحانه عن مجموع ما تقدم من كلامهم أعنى قولهم: آمنوا بما انزل الى قوله: دِينَكُمْ، على ما يفيدته تغيير السياق، و كذا قوله تعالى: قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ، جوابه تعالى عن قولهم: أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ الى آخره؛ هذا هو الذى يقتضيه ارتباط أجزاء الكلام و اتساق المعانى فى الآيتين أولاً، و ما تناظر الآيتين من الآيات الحاكية لأقوال اليهود فى الجدل و الكيد ثانياً.

و المعنى -و الله أعلم- أن طائفة من أهل الكتاب -و هم اليهود- قالت أى قال بعضهم لبعض: صدقوا النبى و المؤمنى فى صلاتهم وجه النهار الى بيت المقدس و لا تصدقوهم فى صلاتهم الى الكعبة آخر النهار، و لا تثقوا فى الحديث بغيركم فيخبروا المؤمنى أن من شواهد نبوه النبى الموعود تحويل القبلة الى الكعبة فإن فى تصديقكم أمر الكعبة و إفشائكم ما تعلمونه من كونها من امارات صدق الدعوه محذور أن يؤتى المؤمنون مثل ما اوتيتم من القبلة فيذهب به سوددكم و يبطل تقدمكم فى أمر القبلة، و محذور أن يقيموا عليكم الحججه عند ربكم أنكم كنتم عالمين بأمر القبلة الجديده شاهدين على حقيقته ثم لم تؤمنوا.

فأجاب الله تعالى عن قولهم فى الإيمان بما فى وجه النهار و الكفر فى آخره و أمرهم بكتمان أمر القبلة لئلا يهتدى المؤمنون الى الحق بأن الهدى الذى يحتاج اليه المؤمنون الذى هو حق الهدى إنما هو هدى الله دون هداكم، فالؤمنون فى غنى عن ذلك فإن شتمم فاتبعوا و إن شتمم فاكفروا

و إن شئتم فأفسوا و إن شئتم فاكتموا.

و أجاب تعالى عما ذكروه من مخافه أن يؤتى أحد مثل ما اوتوا أو يحاجوهم عند ربهم بأن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء لا بيدكم حتى تحبسوه لأنفسكم و تمنعوا منه غيركم، و أما حديث الكتمان مخافه المحاجه فقد أعرض عن جوابه لظهور بطلانه كما فعل كذلك في قوله تعالى في هذا المعنى بعينه: وَ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغَضٍ مِّنْهُمْ إِلَىٰ بَعْضِ قُلُوبِهِمْ تَحِيَّاتُهُمْ فَمَا فَتَّحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُخَيِّبَ أَجُوبَكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (البقره ٧٧)، فقوله: أَوْ لَا يَعْلَمُونَ، إيدان بأن هذا القول بعد ما علموا أن الله لا يتفاوت فيه السر و العلانيه كلام منهم لا يستوى على تعقل صحيح، و ليس جوابا لمكان الواو في قوله: أَوْ لَا يَعْلَمُونَ .

قوله تعالى: قُلْ إِنَّ الْفُضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ، الفضل هو الزائد عن الاقتصاد، و يستعمل في المحمود كما أن الفضول يستعمل في المذموم، قال الراغب: و كل عطيه لا تلزم من يعطى يقال لها فضل نحو قوله: وَ سِئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ - ذلك فضل الله - ذو الفضل العظيم، و على هذا قوله: قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ - و لو لا فضل الله - انتهى.

و على هذا فقوله: إِنَّ الْفُضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ، من قبيل الإيجاز بالقناعه بكبرى البيان القياسى؛ و التقدير: قل إن هذا الإنزال و الإيتاء الإلهى الذى تحتالون فى تخصيصه بأنفسكم بالتظاهر على الإيمان و الكفر، و الإيضاء بالكتمان أمر لا نستوجه معاشر الناس على الله تعالى بل هو من الفضل، و الفضل بيد الله الذى له الملك و له الحكم فله أن يؤتیه من يشاء و الله واسع عليم.

قوله تعالى: يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ، فلما كان الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء و كان واسعا عليهما أمكن أن يختص بعض عباده ببعض نعمه فإن له أن يتصرف فى ملكه كيف يشاء، و ليس اذا لم يكن ممنوع التصرف فى فضله و إيتائه عباده

أن يجب عليه أن يؤتى كل فضله كل أحد فإن هذا أيضا نوع ممنوعه في التصرف بل له أن يختص بفضله من يشاء.

□
و قد ختم الكلام بقوله: وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ و هو بمنزله التعليل لجميع المعانى السابقه فإن لازم عظمه الفضل على الإطلاق أن يكون بيده يؤتیه من يشاء،و أن يكون واسعا في فضله؛و أن يكون عليما بحال عباده و ما هو اللائق بحالهم من الفضل،و أن يكون له أن يختص بفضله من يشاء.

□
و في تبديل الفضل بالرحمه في قوله: يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ، دلالة على أن الفضل و هو العطيته غير الواجبه من شعب الرحمه،قال تعالى: وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ (الأعراف / ١٥٦)،و قال وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مَن أَحَدٍ أَبَدًا (النور ٢١)، و قال تعالى: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ (الإسراء / ١٠٠).

□
قوله تعالى: وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنٍ إِن تَأْمَنَّهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ -إلى قوله:

سَبِيلٌ إشاره الى اختلافهم في حفظ الأمانات و اليهود اختلافا فاحشا آخذنا بطرفي التضاد و أن هذا و إن كان في نفسه رذيله قوميه ضاره إلا- أنه ناش بينهم فاش في جماعتهم من رذيله اخرى اعتقاديه و هي ما يشتمل عليه قولهم: ليس علينا في الاميين سبيل،فانهم كانوا يسمون أنفسهم بأهل الكتاب،و غيرهم بالاميين فقولهم: ليس علينا في الاميين سبيل معناه نفى أن يكون لغير إسرائيلى على إسرائيلى سبيل،و قد أسندوا الكلمه الى الدين،و الدليل عليه قوله تعالى: وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ بَلَى، الخ.

فقد كانوا يزعمون- كما أنهم اليوم على زعمهم-أنهم هم المخصوصون بالكرامه الإلهيه لا تعدوهم الى غيرهم بما أن الله سبحانه جعل فيهم نبوه و كتابا و ملكا فلهم السيادة و التقدم على غيرهم،و استنتجوا من ذلك أن الحقوق المشرعه عندهم اللانزمه المراعاة عليهم كحرمة أخذ

الرباء و أكل مال الغير: و هضم حقوق الناس إنما هي بينهم معاشر أهل الكتاب فالمحرم هو أكل مال الإسرائيلي على مثله، و المحظور هضم حقوق يهودى على أهل ملته، و بالجمله إنما السبيل على أهل الكتاب لأهل الكتاب، و أما غير أهل الكتاب فلا سبيل له على أهل الكتاب فلهم أن يحكموا فى غيرهم ما شاءوا و يفعلوا فى من دونهم ما أرادوا، و هذا يؤدى الى معاملتهم مع غيرهم معامله الحيوان العجم كائنا من كان.

و القنطار و الدينار معروفان، و المقابله بينهما-على ما فيها من المحسنات البديعيه-و المقام مقام يذكر فيه الأمانه تفيد أنه كنى بهما عن الكثير و القليل، و المراد أن منهم من لا يخون الأمانه و إن كثرت و ثقلت قيمتها، و منهم من يخونها و إن قلت و خفت.

و كذا الخطاب الموضوع فى الكلام بقوله: **إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ**، غير متوجه الى مخاطب معين بل هو للتكنيه عن أى مخاطب يمكن أن يخاطب بهذا الكلام للإشعار بأن الحكم عام غير مقصور على واحد دون واحد، و الكلام فى معنى قولنا: إن يأمنه مؤتمن أى مؤتمن كان بقنطار يؤده اليه.

و ما فى قوله: **إِلَّا مِمَّا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا**، مصدرية على ما قيل، و التقدير **إِلَّا**- أن تدوم قائما عليه، و ذكر القيام عليه للدلاله على الإلحاح و الاستعجال فإن قيام المطالب على ساقه عند المطالبه من غير قعود دليل على ذلك، و ربما قيل: إن ما ظرفيه، و ليس بشىء.

و قوله: **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنَ سَبِيلٌ**، ظاهر السياق أن ذلك إشاره الى مجموع المضمون المأخوذ من سابق القول أى كون بعضهم يؤدى الأمانه و إن كانت خطيره مهمه، و بعضهم لا- يؤديها و إن كانت حقيره لا يعبأ بها إنما هو لقولهم، ليس علينا فى الاميين سبيل فأوجب ذلك اختلافا بينهم فى الصفات الروحيه كحفظ الأمانات و الاتقاء عن تضييع حقوق الناس، و الاغترار بالكرامه مع أنهم يعلمون أن الله لم يسن لهم ذلك فى الكتاب و لا رضى بمثل هذه الأفعال منهم.

قوله تعالى: وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ إبطال لدعواهم أنه ليس علينا فى الاميين سبيل، و دليل على أنهم كانوا ينسبون ذلك الى الوحي السماوى و التشريع الدينى كما مر.

قوله تعالى: بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَ اتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، رد لكلامهم و إثبات لما نفوه بقولهم: ليس علينا فى الاميين سبيل؛ و إيفاء العهد تميمه بالتحفظ من العذر و النقص؛ و التوفيه بالبدل و الإيعاء و افياء؛ و الاستيفاء الأخذ و التناول و افياء.

و المراد بالعهد ما أخذ الله الميثاق عليه من عباده أن يؤمنوا به و يعبدوه على ما يشعر به قوله فى الآيه التاليه: إن الذين يشتركون بعهد الله و ايمانهم ثمنا قليلا، أو مطلق العهد الذى منه عهد الله تعالى.

و قوله: فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ من قبيل وضع الكبرى موضع الصغرى إيثارا للإيجاز، و التقدير فإن الله يحبه لأنه متق و الله يحب المتقين، و المراد أن كرامه الله لعباده المتقين حبه لهم لا ما زعمتموه من نفى السبيل.

فمفاد الكلام ان الكرامه الإلهيه ليست بذاك المبتذل السهل التناول حتى ينالها كل من انتسب اليه انتسابا أو يحسبها كل محتال أو مختال كرامه جنسيه أو قوميه بل يشترط فى نيلها الوفاء بعهد الله و ميثاقه و التقوى فى الدين فاذا تمت الشرائط حصلت الكرامه و هى المحبه و الولايه الإلهيه التى لا تعدو عباده المتقين، و أثرها النصره الإلهيه، و الحياه السعيده التى تعمر الدنيا و تصلح بال أهلها، و ترفع درجات الآخره.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَشْرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ أَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا تَعْلِيلٌ لِلْحُكْمِ الْمَذْكُورِ فى الآيه السابقه، و المعنى أن الكرامه الإلهيه خاصه بمن أوفى بعهدده و اتقى لأن غيرهم - و هم الذين يشتركون بعهد الله و ايمانهم ثمنا قليلا- لا كرامه لهم.

و لما كان نقض عهد الله و ترك التقوى إنما هو للتمتع بزخارف الدنيا و إيثار شهوات الأولى

على الاخرى كان فيه وضع متاع الدنيا موضع إيفاء العهد و التقوى، و تبادل العهد به، و لذلك شبه عملهم ذلك بالمعامله فجعل عهد الله مبيعا يشتري بالمتاع، و سمي متاع الدنيا و هو قليل بالثمن القليل، و الاشرء هو البيع فقيل: يشترون بعهد الله و ايمانهم ثمنا قليلا، أى يبدلون العهد و الايمان من متاع الدنيا.

قوله تعالى: **أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛** الخلاق النصيب، و التزكيه هى الإنماء نمووا صالحا، و لما كان الوصف المأخوذ فى بيان هذه الطائفه من الناس مقابلا للوصف المأخوذ فى الطائفه الاخرى المذكوره فى قوله: **مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَ اتَّقَىٰ**، ثم كانت التبعات المذكوره لوصفهم امورا سلبيه أفاد ذلك:

أولاً: أن الإتيان فى الإشاره بلفظ أولئك الدال على البعد لإفاده بعد هؤلاء من ساحه القرب كما أن الموفون بعهدهم المتقون مقربون لمكان حب الله تعالى لهم.

و ثانياً: أن آثار محبه الله سبحانه هى الخلاق فى الآخره، و التكليم و النظر يوم القيامه، و التزكيه و المغفره، و هى رفع أليم العذاب. و الخصال التى ذكرها الله تعالى لهؤلاء الناقضين لعهد الله و ايمانهم امور ثلاثه:

أحدها: أنهم لا نصيب لهم فى الآخره، و المراد بالآخره هى الدار الآخره (من قيام الوصف مقام الموصوف) و يعنى بها الحياه التى بعد الموت كما أن المراد بالدنيا هى الدار الدنيا و هى الحياه الدنيا قبل الموت.

و نفى النصيب عنهم فى الآخره لاختيارهم نصيب الدنيا عليه، و من هنا يظهر أن المراد بالثمن القليل هو الدنيا، و إنما فسرناه فيما تقدم بمتاع الدنيا لمكان توصيفه تعالى إياه بالقليل، و قد وصف به متاع الدنيا فى قوله -عز من قائل- **قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ** (النساء/٧٧)، على أن متاع الدنيا هو الدنيا.

و ثانياً: أن الله لا يكلمهم و لا ينظر إليهم يوم القيامه، و قد حوذى به المحبه الإلهيه للمتقين

من حيث إن الحب يوجب تزود المحب من المحبوب بالاسترسال بالنظر و التكليم عند الحضور و الوصال، و اذ لا يجبهم الله فلا يكلمهم و لا- ينظر إليهم يوم القيامة و هو يوم الإحضار و الحضور، و التدرج من التكليم الى النظر لوجود القوه و الضعف بينهما فإن الاسترسال فى التكليم أكثر منه فى النظر فكأنه قيل: لا نشرفهم لا كثيرا و لا قليلا.

و ثالثها: أن الله لا يزيكهم و لهم عذاب أليم، و إطلاق الكلام يفيد أن المراد بهما ما يعم التركيه و العذاب فى الدنيا و الآخرة.

قوله تعالى: **وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ**، اللّٰئى هو قتل الحبل، ولى الرأس و اللسان إمالتهما. قال تعالى: **لَوْوَا رُؤُوسَهُمْ** (المنافقون ٥/٥)، و قال تعالى: **لَيَأْتِيَنَّاهُمْ** (النساء ٤٦/٤٦)، و الظاهر أن المراد بذلك أنهم يقرءون ما افتروه من الحديث على الله سبحانه بألحان يقرءون بها الكتاب تليسا على الناس ليحسبوه من الكتاب و ما هو من الكتاب.

و تكرار لفظ الكتاب ثلاث مرات فى الكلام لدفع اللبس فإن المراد بالكتاب الأول هو الذى كتبه بأيديهم و نسبوه الى الله سبحانه، و بالثانى الكتاب الذى أنزله الله تعالى بالوحى، و بالثالث هو الثانى كرر لفظه لدفع اللبس و للإشارة الى أن الكتاب بما أنه كتاب الله أرفع منزله من أن يشتمل على مثل تلك المفتريات، و ذلك لما فى لفظ الكتاب من معنى الوصف المشعر بالعليه.

و نظيره تكرار لفظ الجلاله فى قوله: **وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ**، فالمعنى و ما هو من عند الله الذى هو إله حقا لا يقول إلا الحق، قال تعالى: **وَ الْحَقُّ أَقُولُ** (ص / ٨٤).

و أما قوله: **وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ** تكذيب بعد تكذيب لنسبتهم ما اختلقوه من الوحى الى الله سبحانه فإنهم كانوا يلبسون الأمر على الناس بلحن القول فأبطله

اللَّهِ بِقَوْلِهِ: وَمَا هُوَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ، وَثَانِيًا بِقَوْلِهِ: وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ، وَزَادَ فِي الْفَائِدَةِ أَوْلَا أَنَّ الْكَذِبَ مِنْ دَابِّهِمْ وَدِيدِنِهِمْ، وَثَانِيًا أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ كَذِبًا صَادِرًا عَنْهُمْ بِالتَّبَاسِ مِنَ الْأَمْرِ عَلَيْهِمْ بَلْ هُمْ عَالِمُونَ بِهِ مُتَعَمِدُونَ فِيهِ (١).

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٧٩ الى ٨٠]

إشارة

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّائِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)

بيان:

قوله تعالى: مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ، البشَرُ مرادف للإنسان، ويطلق على الواحد والكثير فالإنسان الواحد بشر كما أن الجماعة منه بشر.

وقوله: مَا كَانَ لِبَشَرٍ، اللام للملك أي لا يملك ذلك أي ليس له بحق كقوله تعالى:

مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا (النور/١٦)، وقوله: وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ (آل عمران/١٦١).

ص: ٥٠٩

١ - ١). آل عمران ٦٤-٧٨: بحث روائي حول: الآيه «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ...»؛ دعوه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لاهل الكتاب؛ كتب رسول الله الى الملوك و الامراء.

وقوله تعالى: أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ، اسم كان إلا- أنه توطئه لما يتبعه من قوله: ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ، و ذكر هذه التوطئه مع صحه المعنى بدونها ظاهرا يفيد وجها آخر لمعنى قوله: مَا كَانَ لِبَشَرٍ، فإنه لو قيل: ما كان لبشر أن يقول للناس، كان معناه أنه لم يشرع له الحق وإن أمكن أن يقول ذلك فسقا و عتوا، ولكنه اذا قيل: ما كان لبشر أن يؤتیه الله الكتاب و الحكم و النبوه، ثم يقول: كان معناه أن إيتاء الله له العلم و الفقه بما عنده و تربيته له بتربيته ربانيه لا يدعه أن يعدو طور العبوديه، و لا يوسع له أن يتصرف فيما لا- يملكه و لا يحق له كما يحكيه تعالى عن عيسى عليه السلام في قوله: وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ (المائدة ١١٦).

و من هنا تظهر النكتة في قوله: أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ، الخ؛ دون أن يقال: مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ، الخ؛ فإن العباره الثانيه تفيد معنى أصل التشريع كما تقدم بخلاف قوله: أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ، الخ؛ فإنه يفيد أن ذلك غير ممكن البتة أى أن التربيته الربانيه و الهدايه الالهيه لا- تتخلف عن مقصدها كما قال تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُولَاءِ (يعنى قوم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم) فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (الأنعام ٨٩).

فمحصل المعنى أنه لا يسع لبشر أن يجمع بين هذه النعم الالهيه و بين دعوه الناس الى عباده نفسه بأن يؤتى الكتاب و الحكم و النبوه ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله، فالآيه بحسب السياق بوجه كقوله تعالى: لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ -الى أن قال:- وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَ لَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا (النساء ١٧٣)، فإن المستفاد من الآيه: أن المسيح و كذا الملائكه المقربون أجل شأننا و أرفع قدرا أن يستنكفوا عن عباده الله فإن

الاستنكاف عن عبادته يستوجب أليم العذاب، و حاشا أن يعذب الله كرام أنبيائه و مقربى ملائكته.

قوله تعالى: **وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّائِينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلَّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ** الربانى منسوب الى الرب، زيد عليه الألف و النون للدلاله على التفخيم كما يقال لحيانى لكثير اللحيه و نحو ذلك، فمعنى الربانى شديد الاختصاص بالرب و كثير الاشتغال بعبوديته و عبادته، و الباء فى قوله: **بِمَا كُنْتُمْ**، للسببيه، و ما مصدرية، و الكلام بتقدير القول و المعنى، و لكن يقول: كونوا ربانيين بسبب تعليمكم الكتاب للناس و دراستكم إياه فيما بينكم.

و الدراسه أخص من التعليم فإنه يستعمل غالبا فيما يتعلم عن الكتاب بقراءته، قال الراغب: درس الدار بقى أثرها، و بقاء الأثر يقتضى انمحائه فى نفسه، فلذلك فسر الدروس بالانمحاء، و كذا درس الكتاب، و درست العلم تناولت أثره بالحفظ، لما كان تناول ذلك بمداوه القراءه عبر عن إدامه القراءه بالحفظ، قال تعالى: و درسوا ما فيه، و قال: بما كنتم تعلمون الكتاب و بما كنتم تدرسون، و ما آتيناهم من كتب يدرسونها انتهى.

و محصل الكلام أن البشر الذى هذا شأنه إنما يدعوكم الى التلبس بالإيمان و اليقين بما فى الكتاب الذى تعلمونه و تدرسونه من اصول المعارف الإلهيه، و الاتصاف و التحقق بالملكات و الأخلاق الفاضله التى يشتمل عليها، و العمل بالصالحات التى تدعون الناس إليها حتى تنقطعوا بذلك الى ربكم، و تكونوا به علماء ربانيين.

و قوله: **بِمَا كُنْتُمْ**، حيث اشتمل على الماضى الدال على التحقق لا- يخلو عن دلالة ما على أن الكلام فى الآيه مسوق للتعريض بالنصارى من أهل الكتاب فى قولهم: إن عيسى أخبرهم بأنه ابنه و كلمته على الخلاف فى تفسير البنوه، و ذلك أن بنى إسرائيل هم الذين كان فى أيديهم كتاب سماوى يعلمونه و يدرسونه و قد اختلفوا فيه اختلافا يصاحب التغيير

والتحريف، و ما بعث عيسى عليه السلام إلا ليبين لهم بعض ما اختلفوا فيه، و ليحل بعض الذى حرم عليهم، و بالجمله ليدعوهم الى القيام بالواجب من وظائف التعليم و التدريس و هو أن يكونوا ربانيين فى تعليمهم و دراستهم كتاب الله سبحانه.

و الآيه و إن لم تأب الانطباق على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بوجه فقد كانت لدعوته أيضا مساس بأهل الكتاب الذين كانوا يعلمون و يدرسون كتاب الله لكن عيسى عليه السلام أسبق انطباقا عليه، و كانت رسالته خاصة ببني إسرائيل بخلاف رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم.

و أما سائر الأنبياء العظام من اولى العزم و الكتاب: كنوح و إبراهيم و موسى فمضمون الآيه لا ينطبق عليهم و هو ظاهر.

قوله تعالى: **وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا** عطف على قوله يقول: على القراءه المشهوره التى هى نصب يأمركم، و هذا كما كان طائفه من أهل الكتاب كالصابئين يعبدون الملائكه و يسندون ذلك الى الدعوه الدينيه، و كعرب الجاهليه حيث كانوا يقولون إن الملائكه بنات الله، و هم يدعون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام، هذا فى اتخاذ الملائكه أربابا.

و أما اتخاذ النبيين أربابا فكقول اليهود: عزيز ابن الله على ما حكاه القرآن و لم يجوز لهم موسى عليه السلام ذلك، و لا وقع فى التوراه إلا توحيد الرب و لو جوز لهم ذلك لكان أمرا به حاشاه من ذلك.

و قد اختلفت الآيتان: أعنى قوله: **ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي** مِنْ دُونِ اللَّهِ و قوله:

وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا من جهتين فى سياقهما: الاولى: أن المأمور فى الاولى (ثم يقول للناس) الناس، و فى الثانيه هم المخاطبون بالآيه، و الثانيه: أن المأمور به فى الأولى العبوديه له و فى الثانيه اتخاذ أربابا.

أما الاولى فحيث كان الكلام مسوقا للتعريض بالنصارى فى عبادتهم لعيسى، و قولهم

بألوهيته صريحا مسندين ذلك الى دعوته كان ذلك نسبه منهم إليه أنه قال: كونوا عبادا لى بخلاف اتخاذ الملائكه و النبيين أربابا بالمعنى الذى قيل فى غير عيسى فإنه يضاد الألوهيه بلازمه لا بصريحه فلذلك قيل: أربابا، و لم يقل: آلهه.

و أما الثانيه فالوجه فيه أن التعبيرين كليهما (كونوا عبادا لى-يأمركم أن تتخذوا) أمر لو تعلق بأحد تعلق بهؤلاء الذين يخاطبون بهذه الآيات من أهل الكتاب و العرب لكن التعبير لما وقع فى الآيه الأولى بالقول، و القول يقضى بالمشافهه و لم يكن الحاضرون فى زمن نزول الآيه حاضرين اذ ذاك لا جرم قيل: ثم يقول للناس، و لم يقل: ثم يقول لكم؛ و هذا بخلاف لفظ الأمر المستعمل فى الآيه الثانيه فإنه لا يستلزم شفاها بل يتم مع الغيبه فإن الأمر المتعلق بالأسلاف متعلق بالأخلاف مع حفظ الوحده القوميه، و أما القول فهو لإفادته بحسب الانصراف إسماع الصوت يقضى بالمشافهه و الحضور إلا أن يعنى به مجرد معنى التفهيم.

و على هذا فالأصل فى سياق هذه الآيات الحضور و خطاب الجمع؛ كما جرى عليه قوله تعالى: أو يأمركم، الى آخر الآيه.

قوله تعالى: أَيْأَمْرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعِيدٌ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ظاهر الخطاب أنه متعلق بجميع المنتحلين بالنبوه من أهل الكتاب أو المدعين للانتساب الى الانبياء كما كانت عرب الجاهليه تزعم أنهم حنفاء و الكلام موضوع على الفرض و التقدير فالمعنى أنكم على تقدير إجابتكم هذا البشر الذى اوتى الكتاب و الحكم و النبوه تكونون مسلمين لله متحلين بحليه الإسلام مصبوغين بصبغته فكيف يمكنه أن يأمركم بالكفر و يضلكم عن السبيل الذى هداكم إليه ياذن الله سبحانه.

و من هنا يظهر أن المراد بالإسلام هو دين التوحيد الذى هو دين الله عند جميع الأنبياء على ما يدل عليه أيضا احتفاف الآيات بهذا المعنى من الإسلام أعنى قوله تعالى من قبل: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (آل عمران ١٩)، و قوله تعالى من بعد: أَلَمْ يَكُنْ دِينًا اللَّهُ يَتَّبِعُونَ

-الى أن قال- وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (آل عمران ٨٥) (١)(٢).

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٨١ الى ٨٥]

إشارة

وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَ أَقْرَرْتُمْ
وَ أَخَذْتُمْ عَلَيَّ ذَلِكَمْ إِيصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ
(٨٢) أَ فَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنزِلَ عَلَيْنَا
وَ مَا أُنزِلَ عَلَيَّ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطَ وَ مَا أُوتِيَ مُوسَى وَ عِيسَى وَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)

ص: ٥١٤

١- ١). آل عمران ٧٩-٨٠: بحث في قصة عيسى عليه السلام في فصول (ما هي قصة عيسى و أمه في القرآن، منزله عيسى عند الله و موقفه في نفسه، ما الذي قاله عيسى عليه السلام و ما الذي قيل فيه؟ احتجاج القرآن على مذهب التثليث، المسيح من الشفعاء عند الله و ليس بفاد، من اين نشأ هذه الآراء.

٢- ٢). آل عمران ٧٩-٨٠: بحث تاريخي في: قصة التوراه الحاضره؛ قصة المسيح و الانجيل.

قوله تعالى: وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، الآيه تنبئ عن ميثاق مأخوذ، وقد أخذ الله هذا الميثاق للنبیین كما يدل عليه قوله تعالى: ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ، الخ؛ كما أنه تعالى أخذه من النبیین على ما يدل عليه قوله: أَوْفَرَزْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَيَّ ذَلِكُمْ إِصْرِي، الخ؛ وقوله بعد: قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ، الى آخر الآيه؛ فالميثاق ميثاق مأخوذ للنبیین و مأخوذ منهم و إن كان مأخوذاً من غيرهم أيضاً بواسطتهم.

و على هذا فمن الجائز أن يراد بقوله تعالى: مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ الميثاق المأخوذ منهم أو المأخوذ لهم و الميثاق واحد، و بعبارة اخرى يجوز أن يراد بالنبیین، المأخوذ لهم الميثاق و المأخوذ منهم الميثاق إلا أن سياق قوله تعالى: مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يُوْتِيَهُ اللَّهُ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ فِي اتِّصَالِهِ بِهذه الآيه يؤيد كون المراد بالنبیین هم الذين أخذ منهم الميثاق فإن وحده السياق تعطى أن المراد: أن النبیین بعد ما آتاهم الله الكتاب و الحكم و النبوه لا يتأتى لهم أن يدعوا الى الشريك و كيف يتأتى لهم ذلك؟ و قد أخذ منهم الميثاق على الإيمان و النصره لغيرهم من النبیین الذين يدعون الى توحيد الله سبحانه، فالأنسب أن يبدأ بذكر الميثاق من حيث أخذه من النبیین.

وقوله: لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، القراءه المشهوره، و هى قراءه غير حمزه بفتح اللام و التخفيف فى «لَمَّا» و عليها فما موصوله و آتيتكم، -و قرأ آتيناكم- صلته، و الضمير محذوف، يدل عليه قوله: مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، و الموصول مبتدأ خبره قوله: لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، الخ؛ و اللام فى لما ابتدائية، و فى لتؤمنن به لام القسم، و المجموع بيان للميثاق المأخوذ، و المعنى: للذى آتيتكموه من كتاب و حكمه ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم آمنتم به

و نصرتموه البته.

و يمكن أن يكون ما شرطيه و جزاؤها قوله لتؤمنن به، و المعنى مهما آتيتكم من كتاب و حكمه ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به و لتنصرنه؛ و هذا أحسن لأن دخول اللام المحذوف قسمها فى الجزاء أشهر، و المعنى عليه أسلس و أوضح، و الشرط فى موارد المواثيق أعرف، و أما قراءه كسر اللام فى «لما» فاللام فيها للتعليل و ما موصوله، و الترجيح لقراءه الفتح.

و الخطاب فى قوله: آتَيْتُكُمْ، و قوله: جَاءَكُمْ، و إن كان بحسب النظر البدوى للنبيين لكن قوله بعد: أ أَفْرَزْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَيَّ ذَلِكُمْ إِصْرِي، قرينه على أن الخطاب للنبيين و اممهم جميعا أى ان الخطاب مختص بهم و حكمه شامل لهم و لاممهم جميعا فعلى الامم أن يؤمنوا و ينصروا كما على النبيين أن يؤمنوا و ينصروا.

و ظاهر قوله: ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ، التراخى الزمانى أى أن على النبي السابق أن يؤمن و ينصر النبي اللاحق، و أما ما يظهر من قوله: قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ، الخ؛ أن الميثاق مأخوذ من كل من السابق و اللاحق للآخر، و أن على اللاحق أن يؤمن و ينصر السابق كالعكس فإنما هو أمر يشعر به فحوى الخطاب دون لفظ الآيه كما سيجىء إن شاء الله العزيز.

و قوله: لَتُؤْمِنَنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ، الضمير الأول و إن كان من الجائر أن يرجع الى الرسول كالضمير الثانى اذ لا ضمير فى إيمان نبي لنسبى آخر، قال تعالى: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ الْآيَةَ (البقره ٢٨٥)، لكن الظاهر من قوله: قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَ مَا أُنزِلَ عَلَيَّ إِِبْرَاهِيمَ، الخ؛ رجوعه الى ما أوتوا من كتاب و حكمه، و رجوع الضمير الثانى الى الرسول، و المعنى لتؤمنن بما آتيتكم من كتاب و حكمه و لتنصرن الرسول الذى جاءكم مصدقا لما معكم.

قوله تعالى: قَالَ أ أَفْرَزْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَيَّ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَفْرَزْنَا،

ص: ٥١٦

الاستفهام للتقرير، والإقرار معروف، والإصر هو العهد، وهو مفعول أخذتم، وأخذ العهد يستلزم مأخوذاً منه غير الآخذ وليس إلا أمم الأنبياء، فالمعنى أقررتم أنتم بالميثاق، وأخذتم على ذلكم عهدى من أممكم قالوا: أقرنا.

قوله تعالى: **قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ**، ظاهر الشهادة كما مر أن يكون على الغير فهي شهادة من الأنبياء و أممهم جميعاً، ويشهد لذلك كما مر قوله: **قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ**، ويشهد لذلك السياق أيضاً، فإن الآيات مسوقة للاحتجاج على أهل الكتاب فى تركهم إجابته دعوه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما أنها تحتج عليهم فى ما نسبوه الى عيسى و موسى عليهما السلام و غيرهما كما يدل عليه قوله تعالى: **أَفَعَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَتَعُونَ**، وغيره.

و ربما يقال: إن المراد بقوله: **فَاشْهَدُوا**، شهادة بعض الأنبياء على بعض كما يقال: إن المخاطبين بقوله: **فَاشْهَدُوا**، هم الملائكة دون الأنبياء.

و المعنيان و إن كانا جائزين فى نفسهما غير أن اللفظ غير ظاهر فى شىء منهما بغير قرينه، و قد عرفت أن القرينه على الخلاف.

و من اللطائف الواقعة فى الآيه أن الميثاق مأخوذ من النبيين للرسول على ما يعطيه قوله: **وَ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ** -الى قوله- **ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ**، و قد مر فى ذيل قوله تعالى: **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً** (البقره ٢١٣)، الفرق بين النبوه و الرساله و أن الرسول أخص مصداقا من النبى.

فعلى ظاهر ما يفيد اللفظ يكون الميثاق مأخوذاً من مقام النبوه لمقام الرساله من غير دلالة على العكس.

و بذلك يمكن المناقشه فيما ذكر بعضهم أن المحصل من معنى الآيه أن الميثاق مأخوذ من عامه النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً، و يأمر بعضهم بالإيمان ببعض، أى إن الدين واحد يدعو اليه جميع الأنبياء، و هو ظاهر.

فمحصل معنى الآيه على ما مر: أن الله أخذ الميثاق من الأنبياء و امهم أن لو آتاهم الله الكتاب و الحكمه و جاءهم رسول مصدق لما معهم ليؤمنن بما آتاهم و ينصرن الرسول و ذلك من الأنبياء تصديق من المتأخر للمتقدم و المعاصر، و بشاره من المتقدم بالتأخر و توصيه الامه، و من الامه الإيمان و التصديق و النصرة، و لازم ذلك وحده الدين الإلهي.

قوله تعالى: **فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ نَحْ**؛ تأكيد للميثاق المأخوذ المذكور، و المعنى واضح.

قوله تعالى: **أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ**، تفریع على الآيه السابقه المتضمنه لأخذ ميثاق النبيين، و المعنى فاذا كان دين الله واحدا و هو الذى أخذ عليه الميثاق من عامه النبيين و امهم و كان على المتقدم من الأنبياء و الامم أن يبشروا بالرسول المتأخر و يؤمنوا بما عنده و يصدقوه فما ذا يقصده هؤلاء معاشر أهل الكتاب و قد كفروا بك و ظاهر حالهم أنهم يبغون الدين فهل يبغون غير الإسلام الذى هو دين الله الوحيد؟ و لذلك لا يصدقونك و لا يتمسكون بدين الإسلام مع أنه كان يجب عليهم الاعتصام بالإسلام لأنه الدين الذى يبتنى على الفطره؛ و كذلك يجب أن يكون الدين، و الدليل عليه أن من فى السموات و الأرض من اولى العقل و الشعور مسلمون لله فى مقام التكوين فيجب أن يسلموا عليه فى مقام التشريع.

قوله تعالى: **وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً**، هذا الإسلام الذى يعم من فى السموات و الأرض و منهم أهل الكتاب الذين يذكر أنهم غير مسلمين، و لفظ أسلم صيغه ماض ظاهره المضى و التحقق لا محاله و هو التسليم التكويني لأمر الله دون الإسلام بمعنى الخضوع العبودي، و يؤيده أو يدل عليه قوله طوعا و كرها.

و على هذا فقوله: **وَ لَهُ أَسْلَمَ**، من قبيل الاكتفاء بذكر الدليل و السبب عن ذكر المدلول و المسبب؛ و تقدير الكلام: أ فغير الإسلام يبغون؟ و هو دين الله لأن من فى السموات و الأرض

الإثبات من الميثاق المأخوذ، وفيه تأكيد لوجوب الجرى على الميثاق (١).

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٨٦ الى ٩١]

أشاره

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْنَهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ إِزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفْرًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١)

بيان:

قوله تعالى: كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، الاستفهام يفيد الاستبعاد والإنكار، والمراد به استحاله الهدايه، وقد ختم الآيه بقوله: وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، وقد مر في نظير هذه الجملة أن الوصف مشعر بالعليه أى لا يهديهم مع وجود هذا

ص: ٥٢٠

(١- ١). آل عمران ٨١-٨٥: بحث روائى فى ان الله اخذ الميثاق على الانبياء...

الوصف فيهم، و ذلك لا ينافي هدايته لهم على تقدير رجوعهم و توبتهم منه.

و أما قوله: وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَشَهَادَتُهُمْ هُوَ مَشَاهِدَتُهُمْ أَنَّ آيَاتِ النَّبِيِّ الَّتِي عِنْدَهُمْ مَنْطِقُهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كَمَا يَفِيدُهُ قَوْلُهُ:

وَ جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ، وَ إِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِمْ أَهْلُ الرَّدَّةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَشَهَادَتُهُمْ هِيَ إِقْرَارُهُمْ بِالرَّسَالَةِ لَا إِقْرَارًا صُورِيًا مَبْنِيًا عَلَى الْجِهَالَةِ وَ الْحَمِيَةِ وَ نَحْوَهُمَا بَلْ إِقْرَارًا مُسْتَنَدًا إِلَى ظَهْوَرِ الْأَمْرِ كَمَا يَفِيدُهُ قَوْلُهُ: وَ جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ .

وَ كَيْفَ كَانَ الْأَمْرُ فَانْضِمَامُ قَوْلِهِ: وَ شَهِدُوا، الْخ؛ إِلَى أَوَّلِ الْكَلَامِ يَفِيدُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكَفْرِ هُوَ الْكَفْرُ بَعْدَ ظَهْوَرِ الْحَقِّ وَ تَمَامِ الْحُجَّةِ فَيَكُونُ كَفْرًا عَنِ عِنَادِ مَعَ الْحَقِّ وَ لَجَاجِ مَعَ أَهْلِهِ وَ هُوَ الْبَغْيُ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ الظُّلْمُ الَّذِي لَا يَهْتَدِي صَاحِبُهُ إِلَى النِّجَاحِ وَ الْفَلَاحِ.

وَ قَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ: وَ شَهِدُوا، الْخ؛ إِنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: إِيمَانِهِمْ لِمَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى الْفِعْلِ، وَ التَّقْدِيرُ كَفَرُوا بَعْدَ أَنْ آمَنُوا وَ شَهِدُوا، الْخ؛ أَوْ أَنَّ الْوَاوَ لِلْحَالِ؛ وَ الْجُمْلَةُ حَالِيَةٌ بِتَّقْدِيرِ «قَدْ».

قَوْلُهُ تَعَالَى: أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ أَنْ عَلَيهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ - إِلَى قَوْلِهِ: - وَ لَا هُمْ يُنظَرُونَ، قَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِي مَعْنَى عَوْدِ جَمِيعِ اللَّعْنَةِ عَلَيْهِمْ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (البقرة ١٥٩).

قَوْلُهُ تَعَالَى: إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ أَصْلَحُوا الْخ؛ أَيِ دَخَلُوا فِي الصَّلَاحِ، وَ الْمُرَادُ بِهِ كَوْنُ تَوْبَتِهِمْ نَصُوحًا تَغْسِلُ عَنْهُمْ دَرَنَ الْكُفْرِ وَ تَطْهَرُ بَاطِنَهُمْ بِالْإِيمَانِ، وَ أَمَّا الْإِتْيَانُ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَهُوَ وَ إِنْ كَانَ مِمَّا يَتَفَرَّعُ عَلَى ذَلِكَ وَ يَلْزِمُهُ غَيْرَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَقْصُومٍ لِهَذِهِ التَّوْبَةِ وَ لَا رُكْنًا مِنْهَا؛ وَ لَا فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَيْهِ.

وَ فِي قَوْلِهِ: فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَضَعُ الْعَلَّةِ مَوْضِعَ الْمَعْلُولِ وَ التَّقْدِيرُ فَيَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ وَ يَرْحَمُهُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛

تعليل لما يشتمل عليه قوله أولا: كيف يهدى الله قوما كفروا، السخ؛ و هو من قبيل التعليل بتطبيق الكلى العام على الفرد الخاص، و المعنى أن الذى يكفر بعد ظهور الحق و تمام الحججه عليه، و لا يتوب بعده توبه مصلحه إنما هو أحد رجلين إما كافر يكفر ثم يزيد كفرا فيطغى، و لا سبيل للصالح اليه فهذا لا يهديه الله و لا يقبل توبته لأنه لا يرجع بالحقيقه بل هو منغمر فى الضلال، و لا مطمع فى اهتدائه.

و إما كافر يموت على كفره و عناده من غير توبه يتوبها فلا يهديه الله فى الآخره بأن يدخله الجنه اذ لم يرجع الى ربه و لا بدل لذلك حتى يفتدى به، و لا شفيع و لا ناصر حتى يشفع له أو ينصره.

و من هنا يظهر أن قوله: **وَ أُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ** باشتماله على اسميه الجملة، و الإشاره البعيده فى أولئك، و ضمير الفصل، و الاسميه و اللام فى الخبر يدل على تأكد الضلال فيهم بحيث لا ترجى هدايتهم.

و كذا يظهر أن المراد بقوله: **وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** نفى انتفاعهم بالشفعاء الذين هم الناصرون يوم القيامة فإن الإتيان بصيغه الجمع يدل على تحقق ناصرين يوم القيامة كما مر نظيره فى الاستدلال على الشفاعة بقوله تعالى: فما لنا من شافعين، الآية؛ فى مبحث الشفاعة (آيه ٤٨ من سوره البقره) فارجع إليه.

و قد اشتملت الآيه الثانيه على ذكر نفى الفداء و الناصرين لكونهما كالبدل، و البدل إنما يكون من فائت يفوت الإنسان، و قد فاتتهم التوبه فى الدنيا و لا بدل لها يحل محلها فى الآخره.

و من هنا يظهر أن قوله: **وَ مَا تَوَا وَ هُمْ كُفَّارٌ** فى معنى: و فاتتهم التوبه فلا ينتقض هذا البيان الظاهر فى الحصر بما ذكره الله تعالى فى قوله: **وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَ لَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ** **أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** (النساء ١٨)، فإن المراد بحضور الموت ظهور آثار الآخره و انقطاع الدنيا؛ و تفوت

عند ذلك التوبه.

و الملاء فى قوله: ملء الأرض ذهباً مقدار ما يسعه الإناء من شىء، فاعتبر الأرض إناء يملأه الذهب فالجمله من قبيل الاستعاره التخيليه و الاستعاره بالكنايه.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٩٢ الى ٩٥]

إشاره

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَ مِمَّا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢) كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِيَنبِى إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)

بيان:

قوله تعالى: لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ، النيل هو الوصول، و البر هو التوسع فى فعل الخير، قال الراغب: البر خلاف البحر، و تصور منه التوسع فاشتق منه البر أى التوسع فى فعل الخير، انتهى.

و مراده من فعل الخير أعم مما هو فعل القلب كالاتقاد الحق و النيه الطاهره أو فعل الجوارح كالعباده لله و الإنفاق فى سبيل الله تعالى، و قد اشتمل على القسمين جميعا قوله تعالى:

ص: ٥٢٣

و كذا يدل قوله تعالى بعد: قل صدق الله فاتبعوا مله إبراهيم حنيفاً، أنهم كانوا يجعلون ما ينكرونه (من حليه كل الطعام عليهم قبل التوراه، و كون التحريم إنما نزل عليهم لظلمهم بنسخ الحل بالحرمة) وسيله الى إلقاء الشبهه على المسلمين، و الاعتراض على ما كان يخبر به رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عن ربه أن دينه هو مله إبراهيم الحنيف، و هى مله فطريه لا- إفراط فيها و لا تفريط، كيف؟ و هم كانوا يقولون: إن إبراهيم كان يهودياً على شريعته التوراه، فكيف يمكن أن تشتمل ملته على حليه ما حرمتها التوراه، و النسخ غير جائز؟

فقد تبين أن الآيه إنما تتعرض لدفع شبهه أوردتها اليهود، و يظهر من عدم تعرض الآيه لنقل الشبهه عنهم كما يجرى عليه القرآن فى غالب الموارد كقوله تعالى: **وَ قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ (المائدة ٦٤/)**، و قوله: **وَ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً (البقره/ ٨٠)**، و قوله: **وَ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ (البقره ٨٨/)**، الى غير ذلك من الآيات الكثيره.

و كذا قوله تعالى بعد عده آيات: **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصِيدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ - الى أن قال -: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (آل عمران ١٠٠/)**.

و بالجملة يظهر من ذلك أنها كانت شبهه تلقيه اليهود لا على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بل على المؤمنين فى ضمن ما كانوا يتلاقون و يتحاورون.

قوله تعالى: **قُلْ فَاتُوا بِالْتَّورَاهِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ** أى حتى يتبين أن أى الفريقين على الحق، أنا أم أنتم، و هذا إلقاء جواب منه تعالى على نبيه صلى الله عليه و آله و سلم.

قوله تعالى: **فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**، ظاهره أنه كلام لله سبحانه يخاطب به نبيه صلى الله عليه و آله و سلم، و على هذا ففيه تطيب لنفس النبى صلى الله عليه و آله و سلم بأن أعدائه من اليهود هم الظالمون بعد هذا البيان لافتراءهم الكذب على

اللّه، و تعريض لليهود، و الكلام يجرى مجرى الكنايه.

و أما احتمال كون الكلام من تتمه كلام النبي صلى الله عليه و آله و سلم فلا يلائمه ظاهر إفراد خطاب الإشاره فى قوله: مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، و على هذا أيضا يجرى الكلام مجرى الكنايه و الستر على الخصم المغلوب ليقع الكلام موقعه من القبول كما فى قوله تعالى: إنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلالٍ مبين (سبأ ٢٤/١)، و المشار اليه بذلك هو البيان و الحجّه.

و إنما قال: من بعد ذلك مع أن المفترى ظالم على أى حال لأن الظلم لا يتحقق قبل التبين كما قيل، و القصر فى قوله: فأولئك هم الظالمون قصر قلب على أى حال.

قوله تعالى: قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا؛ أى فاذا كان الحق معى فيما أخبرتكم به و دعوتكم اليه فاتبعوا دينى و اعترفوا بحليه لحم الإبل و غيره من الطيبات التى أحلها الله، و إنما كان حرما عليكم عقوبه لاعتدائكم و ظلمكم كما أخبر تعالى به.

فقوله: فَاتَّبِعُوا، الخ؛ كالكنايه عن اتباع دينه، و إنما لم يذكره بعينه لأنهم كانوا معترفين بمله إبراهيم، ليكون إشاره الى كون ما يدعو اليه من الدين حنيفا فطريا لأن الفطره لا تمنع الإنسان من أكل الطيبات من اللحوم و سائر الرزق.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٩٦ الى ٩٧]

إشاره

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَ هُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)

ص: ٥٢٦

قوله تعالى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِنَكَّةَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الْبَيْتَ مَعْرُوفٌ؛ وَ الْمَرَادُ بِوَضْعِ الْبَيْتِ لِلنَّاسِ وَضَعَهُ لِعِبَادَتِهِمْ وَ هُوَ أَنْ يَجْعَلُوهُ ذَرِيعَةً يَتَوَسَّلُونَ بِهِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ يَسْتَعَانُونَ بِهَا بِأَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ فِيهِ، وَ بِقَصْدِهِ وَ الْمَسِيرِ إِلَيْهِ وَ غَيْرِ ذَلِكَ؛ وَ الدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ مَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الْكَلَامُ مِنْ كَوْنِهِ مَبَارَكًا وَ هَدًى لِلْعَالَمِينَ وَ غَيْرِ ذَلِكَ، وَ يَشْعُرُ بِهِ التَّعْبِيرُ عَنِ الْكَعْبَةِ بِالَّذِي بِنَكَّةَ فَإِنَّ فِيهِ تَلْوِيحًا إِلَى اِزْدِحَامِ النَّاسِ عِنْدَهُ فِي الطَّوَافِ وَ الصَّلَاةِ وَ غَيْرِهِمَا مِنَ الْعِبَادَاتِ وَ الْمَنَاسِكِ، وَ أَمَّا كَوْنُهُ أَوَّلَ بَيْتٍ بَنِيَ عَلَى الْأَرْضِ وَ وَضِعَ لِنَتْنَفَعُ بِهِ النَّاسُ فَلَا دَلَالَةَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ.

وَ الْمَرَادُ بِبِنَكَّةَ أَرْضَ الْبَيْتِ سَمِيَتْ بِكَهْ لِاِزْدِحَامِ النَّاسِ فِيهَا، وَ رُبَّمَا قِيلَ إِنَّ بِنَكَّةَ هِيَ مَكَّةُ، وَ إِنَّهُ مِنْ تَبْدِيلِ الْمِيمِ بَاءً كَمَا فِي قَوْلِهِمْ: لَا زَبَّ وَ رَاتَمَ وَ رَاتَبَ وَ نَحْوَ ذَلِكَ، وَ قِيلَ: هُوَ اسْمٌ لِلْحَرَمِ، وَ قِيلَ: الْمَسْجِدِ، وَ قِيلَ: الْمَطَافِ.

وَ الْمَبَارَكَةُ مَفَاعَلَةٌ مِنَ الْبِرَكَةِ وَ هِيَ الْخَيْرُ الْكَثِيرُ، فَالْمَبَارَكَةُ إِفَاضَةٌ الْخَيْرِ الْكَثِيرِ عَلَيْهِ وَ جَعَلَهُ فِيهِ، وَ هِيَ وَ إِنْ كَانَتْ تَشْمَلُ الْبَرَكَاتِ الدُّنْيَوِيَّةَ وَ الْآخِرَوِيَّةَ، إِلَّا أَنْ ظَاهِرٌ مَقَابَلَتُهَا مَعَ قَوْلِهِ:

هُدًى لِلْعَالَمِينَ أَنْ الْمَرَادُ بِهَا إِفَاضَةُ الْبَرَكَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَ عَمَدَتُهَا وَ فُورُ الْأَرْزَاقِ وَ تَوَفُّرُ الْهَمَمِ وَ السُّدُوعَى إِلَى عَمْرَانِهِ بِالْحَجِّ إِلَيْهِ وَ الْحُضُورِ عِنْدَهُ وَ الْإِحْتِرَامِ لَهُ وَ إِكْرَامِهِ فَيُؤَوَّلُ الْمَعْنَى إِلَى مَا يَتَضَمَّنُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي دَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (إِبْرَاهِيمَ ٣٧).

وَ كَوْنُهُ هَدًى هُوَ إِرَاءَتُهُ لِلنَّاسِ سَعَادَةً آخِرَتِهِمْ، وَ إِيْصَالُهُ إِلَيْهِمْ إِلَى الْكِرَامَةِ وَ الْقُرْبِ وَ الزَّلْفَى بِمَا وَضَعَهُ اللَّهُ لِلْعِبَادَةِ، وَ بِمَا شَرَعَ عِنْدَهُ مِنْ أَقْسَامِ الطَّاعَاتِ وَ النَّسَكِ، وَ لَمْ يَزَلْ مِنْذُ بِنَاةِ إِبْرَاهِيمَ

قوله تعالى: فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ، الآيات و إن وصفت بالبينات، و أفاد ذلك تخصصا ما فى الموصوف إلا إنها مع ذلك لا- تخرج عن الإبهام، و المقام مقام بيان مزايا البيت و مفاخره التى بها يتقدم على غيره فى الشرف و لا يناسب ذلك إلا الإتيان ببيان واضح، و الوصف بما لا غبار عليه بالإبهام و الإجمال، و هذا من الشواهد على كون قوله: مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ، الى آخر الآيه؛ بيانا لقوله: آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فالآيات هى:

مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ، و تقرير الأمن فيه، و إيجاب حجه على الناس المستطيعين.

لكن لا كما يترأى من بعض التفاسير من كون الجمل الثلاث بدلا أو عطف بيان من قوله:

آيَاتٌ لوضوح أن ذلك يحتاج الى رجوع الكلام بحسب التقدير الى مثل قولنا: هى مقام إبراهيم، و الأمن لمن دخله، و حجه لمن استطاع اليه سبيلا، و فى ذلك إرجاع قوله: وَ مَنْ دَخَلَهُ، سواء كان إنشاء أو إخبارا الى المفرد بتقدير أن و إرجاع قوله: وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ، و هى جملة إنشائية الى خبريه ثم عطفه على الجملة السابقة و تأويلها الى المفرد بذلك أو بتقدير أن فيها أيضا، و كل ذلك مما لا يساعد عليه الكلام البته.

و إنما سيقت هذه الجمل الثلاث أعنى قوله: مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ، الخ؛ كل لغرض خاص من إخبار أو إنشاء حكم ثم تتبين بها الآيات فتعطى فائده البيان كما يقال: فلان رجل شريف هو ابن فلان و يقرى الضيف و يجب علينا أن نتبعه.

قوله تعالى: مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ مبتدأ لخبر محذوف و التقدير فيه مقام إبراهيم، و هو الحجر الذى عليه أثر قدمى إبراهيم الخليل عليه السلام، و قد استفاض النقل بأن الحجر مدفون فى المكان الذى يدعى اليوم بمقام إبراهيم على حافه المطاف حيال الملتزم، و قد أشار اليه أبو طالب عم النبي فى قصيدته اللاميه:

و موطئ ابراهيم فى الصخر رطبه

على قدميه حافيا غير ناعل

و ربما يفهم من قوله: مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ أن البيت أو فى البيت موضع قيام إبراهيم بعباده الله سبحانه.

ويمكن أن يكون تقدير الكلام: هى مقام إبراهيم و الأمن و الحج ثم وضع قوله: وَ مَنْ دَخَلَهُ ، و قوله: وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ ، و هما جملتان مشتملتان على حكم إنشائي موضع الخبرين، و هذا من أعاجيب اسلوب القرآن حيث يستخدم الكلام المسوق لغرض فى سبيل غرض آخر فيضعه موضعه لينتقل منه إليه فيفيد فائدتين، و يحفظ الجهتين كحكاية الكلام فى موضع الإخبار كقوله: كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ (البقره ٢٨٥/)، و كما مر فى قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ الْآيَةَ (البقره ٢٥٨/)، و قوله: أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ الْآيَةَ (البقره ٢٥٩/)، و قد بينا النكته فى ذلك فى تفسير الثانية، و كما فى قوله تعالى: يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَ لَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (الشعراء ٨٩/)، و كما فى قوله تعالى: وَ لَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ الْآيَةَ (البقره ١٧٧/)، حيث وضع صاحب البر مكان البر، و كما فى قوله تعالى: وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ الْآيَةَ (البقره ١٧١/)، و مثله غالب الأمثال الواردة فى القرآن الكريم.

و على هذا فوزان قوله: فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ -الى قوله- عَنِ الْعَالَمِينَ فى التردد بين الإنشاء و الإخبار، ووزان قوله: وَ أَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَ عَذَابٍ أَلِيمٍ أَرْكُضُ بِرَجُلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَ شَرَابٌ وَ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرًا لِقَوْمٍ لِأُولَى الْأَلْبَابِ وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَ لَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (ص ٤٤/).

قوله تعالى: وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مِنَ اسْتِطَاعٍ إِلَيْهِ سَبِيلًا، الحج بالكسر (و قرئ بالفتح) هو القصد ثم اختص استعماله بقصد البيت على نهج مخصوص بينه

الشرع، و قوله: سَبِيلًا تَمَيِّزُ مِنْ قَوْلِهِ: اسْتِطَاعَ .

و الآية تتضمن تشريع الحج إمضاء لما شرع لإبراهيم عليه السلام كما يدل عليه قوله تعالى حكاية لما خوطب به إبراهيم: وَ أذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ الْآيَةَ (الحج ٢٧/٢٧)، و من هنا يظهر أن وزن قوله: وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ الْخ؛ ووزان قوله تعالى: وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا في كونه إخبارا عن تشريع سابق و إن كان من الممكن أن يكون إنشاء على نحو الإمضاء لكن الأظهر من السياق هو الأول كما لا يخفى.

قوله تعالى: وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ، الكفر هاهنا من الكفر بالفروع نظير الكفر بترك الصلاة و الزكاة فالمراد بالكفر الترك. و الكلام من قبيل وضع المسبب أو الأثر مقام السبب أو المنشأ كما أن قوله: فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ، الخ؛ من قبيل وضع العلة موضع المعلول، و التقدير: و من ترك الحج فلا يضر الله شيئا فإن الله غني عن العالمين (١)(٢).

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٩٨ الى ١٠١]

اشاره

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبِعُونَهَا عَوَجًا وَ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعِيدَ إِيْمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١)

ص: ٥٣٠

١- ١). آل عمران ٩٦-٩٧: بحث روائي في: مكة؛ المسجد الحرام؛ الحج.

٢- ٢). آل عمران ٩٦-٩٧: بحث تاريخي في: بناء الكعبة؛ تاريخ الكعبة؛ شكل الكعبة؛ كسوه الكعبة؛ منزله الكعبة؛ ولايه الكعبة.

قوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ الخ؛ المراد بالآيات بقرينه وحده السياق حليه الطعام قبل نزول التوراه، وكون القبلة هي الكعبه فى الإسلام.

قوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ الخ -الى قوله:-

عَوَجًا، الصد الصرف، وقوله: تَبْغُونَهَا أى تطلبون السبيل، وقوله: عَوَجًا: العوج المعطوف المحرف، والمراد طلب سبيل الله معوجا من غير استقامه.

قوله تعالى: وَ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ، أى تعلمون أن الطعام كان حلا قبل نزول التوراه و أن من خصائص النبوه تحويل القبلة الى الكعبه، و قد حاذى فى عداهم شهداء فى هذه الآيه ما فى الآيه السابقه من عد نفسه تعالى شهيدا على فعلهم و كفرهم، و فيه من اللطف ما لا يخفى فهم شهداء على حقيه ما ينكرونه و الله شهيد على إنكارهم و كفرهم. و لما نسب الشهاده اليهم فى هذه الآيه أبدل ما ذيل به الآيه السابقه أعنى قوله: وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ من قوله فى ذيل هذه الآيه: و ما الله بغافر عما تعملون فأفاد ذلك أنهم شهداء على الحقيه، و الله سبحانه شهيد على الجميع.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا -الى قوله:- وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ، المراد بالفريق كما تقدم هم اليهود أو فريق منهم، وقوله تعالى: وَ أَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ أى يمكنكم أن تعتصموا بالحق الذى يظهر لكم بالإنصات الى آيات الله و التدبر فيها ثم الرجوع فيما خفى عليكم منها لقله التدبر أو الرجوع ابتداء الى رسوله الذى هو فيكم غير محتجب عنكم و لا- بعيد منكم، و استظهار الحق بالرجوع اليه ثم إبطال شبه القتها اليهود إليكم

و التمسك بآيات الله و برسوله و الاعتصام بهما اعتصام بالله؛ و من يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم.

فالمراد بالكفر فى قوله: وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ، الكفر بعد الايمان، و قوله: وَ أَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ، كناية من إمكان الاعتصام فى الاجتناب عن الكفر بآيات الله و برسوله، و قوله: وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ، بمنزله الكبرى الكليه لذلك و المراد بالهدايه الى صراط مستقيم الاهتداء الى إيمان ثابت و هو الصراط الذى لا يختلف و لا يتخلف أمره، و يجمع سالكيه فى مستواه و لا يدعهم يخرجون عن الطريق فيضلوا.

و فى تحقيق الماضى فى قوله: فَقَدْ هُدِيَ، مع حذف الفاعل دلالة على تحقق الفعل من غير شعور بفاعله.

و يتبين من الآيه أن الكتاب و السنه كافيان فى الدلالة على كل حق يمكن أن يضل فيه.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٠٢ الى ١١٠]

إشارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَ لَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لَا تَفَرَّقُوا وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَ كُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَ لَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اختلفوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَ أَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلماً لِلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩) كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، قد مر فيما مر أن التقوى و هو نوع من الاحتراز اذا كان تقوى الله سبحانه كان تجنباً و تحرزاً من عذابه كما قال تعالى:

فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ (البقره ٢٤)، و ذلك إنما يتحقق بالجري على ما يريد و يرتضيه فهو امثال أوامره تعالى، و الانتهاء عن نواهيها، و الشكر لنعمه، و الصبر عند بلائه، و يرجع الاخيران جميعاً الى الشكر بمعنى وضع الشيء موضعه و بالجملة تقوى الله

سبحانه أن يطاع ولا يعصى و يخضع له فيما أعطى أو منع.

لكنه اذا أخذ التقوى حق التقوى الذى لا- يشوبه باطل فاسد من سنخه كان محض العبوديه التى لا- تشوبها إنيه و غفله، و هى الطاعه من غير معصيه، و الشكر من غير كفر، و الذكر من غير نسيان، و هو الإسلام الحق أعنى الدرجه العليا من درجاته؛ و على هذا يرجع معنى قوله: **وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** الى نحو قولنا: و دوموا على هذه الحال (حق التقوى) حتى تموتوا.

و هذا المعنى غير ما يستفاد من قوله تعالى: **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتِطَعْتُمْ** (التغابن ١٦)، فإن هذه الآيه فى معنى أن لا تدرؤا التقوى فى شىء مما تستطيعونه غير أن الاستطاعه تختلف باختلاف قوى الأشخاص و أفهامهم و هممهم، و لا ريب أن حق التقوى بالمعنى الذى ذكرناه ليس فى وسع كثير من الناس، فإن فى هذا المسير الباطنى مواقف و معاهد و مخاطر لا يعقلها إلا العالمون، و دقائق و لطائف لا- يتنبه لها إلا- المخلصون، فرب مرحله من مراحل التقوى لا يصدق الفهم العامى بكونها مما تستطيعه النفس الإنسانيه فيجزم بكونها غير مستطاعه و إن كان أهل التقوى الحقه خلفوها وراء ظهورهم، و أقبلوا بهممهم على ما هو أشق و أصعب.

فقوله: **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتِطَعْتُمْ**، الآيه؛ كلام يتلقاه الأفهام المختلفه بمعان مختلفه على حسب ما يطبقه كل فهم على ما يستطيعه صاحبه ثم يكون ذلك وسيله ليفهم من هذه الآيه أعنى قوله: **اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَ لَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** أن المراد أن يقعوا فى صراط حق التقوى، و يقصدوا نيل هذا المقام و الشخوص و المثول فيه، و ذلك نظير الاهتداء الى الصراط المستقيم الذى لا يتمكن منه إلا الأوحديون، و مع ذلك يدعى اليه جميع الناس، فيكون محصل الآيتين: (اتقوا الله حق تقاته- فاتقوا الله ما استطعتم) أن يندب جميع الناس و يدعوا الى حق التقوى ثم يؤمروا بالسير الى هذا المقصد ما قدرؤا و استطاعوا، و ينتج ذلك أن يقع الجميع فى صراط التقوى إلا أنهم فى مراحل مختلفه، و على درجات مختلفه على طبق ما عندهم من

الأفهام و الهمم، و على ما يفاض عليهم من توفيق الله و تأييده و تسديده، فهذا ما يعطيه التدبر فى معنى الآيتين.

و منه يظهر: أن الآيتين غير مختلفتين بحسب المضمون، و لا أن الآية الاولى أعنى قوله:

إَتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، الآية؛ اريد بها عين ما اريد من قوله: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتِطَعْتُمْ، الآية؛ بل الآية الاولى تدعو الى المقصد و الثانيه تبين كيفية السلوك.

قوله تعالى: وَ لَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ الموت من الامور التكوينية التى هى خارجه عن حومه اختيارنا، و لذلك يكون الأمر و النهى المتعلقان به و بأمثاله أمرا و نهيا تكوينيين كقوله فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا (البقره ٢٤٣/)، و قوله: أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس ٨٢/)، إلا- أنه ربما يجعل الأمر غير الاختيارى مضافا الى أمر اختيارى فيتركبان بنحو و ينسب المركب الى الاختيار فيتأتى الأمر و النهى الاعتبارى حينئذ كقوله تعالى: فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْفِرِينَ (البقره ١٤٧/)، و قوله: وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (هود ٤٢/)، و قوله: وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (التوبه ١١٩/)، و غير ذلك، فإن أصل الكون لازم تكوينى للإنسان لا أثر لاختياره فيه لكنه بارتباطه بأمر اختيارى كالامتراء و الكفر و التزام الصدق مثلا يعد أمرا اختياريا فيؤمر به و ينهى عنه أمرا و نهيا مولويين.

و بالجمله النهى عن الموت إلا مع الإسلام إنما هو لمكان عدده اختياريا و يرجع بالآخره الى الكنايه عن لزوم التزام الإسلام فى جميع الحالات حتى يقع الموت فى واحده من هذه الحالات، فيكون الميت مات فى حال الإسلام.

قوله تعالى: وَ اغْتَصَبَ مُوَا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَ لَا تَفَرَّقُوا، ذكر سبحانه فيما مر من قوله: وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ، الآية؛ أن التمسك بآيات الله و برسوله (الكتاب و السنه) اعتصام بالله مأمون معه المتمسك المعتصم، مضمون له الهدى، و التمسك بذيل الرسول تمسك بذيل الكتاب فإن الكتاب هو الذى يأمر

بذلك فى مثل قوله: وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (الحشر ٧).

وقد بدل فى هذه الآيه الاعتصام المندوب إليه فى تلك الآيه بالاعتصام بحبل الله فأنتج ذلك أن حبل الله هو الكتاب المنزل من عند الله، وهو الذى يصل ما بين العبد و الرب و يربط السماء بالأرض، وإن شئت قلت: إن حبل الله هو القرآن و النبى صلى الله عليه و آله و سلم فقد عرفت أن مآل الجميع واحد.

و القرآن و إن لم يدع إلا- الى حق التقوى و الإسلام الثابت لكن غرض هذه الآيه غير غرض الآيه السابقه الأمره بحق التقوى و الموت على الإسلام فإن الآيه السابقه تتعرض لحكم الفرد، و هذه الآيه تتعرض لحكم الجماعه المجتمعه و الدليل عليه قوله: «جَمِيعاً» و قوله «وَلَا تَنْفَرُوا» فالآيات تأمر المجتمع الإسلامى بالاعتصام بالكتاب و السنه كما تأمر الفرد بذلك.

قوله تعالى: وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا جملة اذ كنتم، بيان لما ذكر من النعمه، و عليه يعطف قوله:

وَ كُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرِهِ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا .

و الأمر بذكر هذه النعمه مبنى على ما عليه دأب القرآن أن يضع تعليمه على بيان العلل و الأسباب، و يدعو الى الخير و الهدى من وجهه من غير أن يأمر بالتقليد العامى المعمى، و حاشا التعليم الإلهى أن يهدى الناس الى السعاده و هى العلم النافع و العمل الصالح ثم يأمر بالوقوع فى تيه التقليد و ظلمه الجهل.

لكن يجب أن لا يشتبه الأمر و لا يختلط الحال على المتدبر الباحث، فالله سبحانه يعلم الناس حقيقه سعادتهم، و يعلم الوجه فيها ليتصروا بارتباط الحقائق بعضها ببعض، و أن الجميع فائضه من منبع التوحيد مع وجوب إسلامهم لله لأنه الله رب العالمين و اعتصامهم بحبله لأنه حبل الله رب العالمين كما يومى اليه ما فى آخر الآيات من قوله: تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا

عَلَيْكَ، الْآيَاتَانِ.

قوله تعالى: وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرِهِ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا، شفا الحفرة طرفها الذى يشرف على السقوط فيها من كان به.

و المراد من النار إن كان نار الآخرة، فالمراد بكونهم على شفا حفرتها أنهم كانوا كافرين ليس بينهم وبين الوقوع فيها إلا الموت الذى هو أقرب الى الإنسان من سواد العين الى بياضها فأنقذهم الله منها بالإيمان.

و إن كان المراد بيان حالهم فى مجتمعهم الفاسد الذى كانوا فيه قبل إيمانهم و تألف قلوبهم، و كان المراد بالنار هى الحروب و المنازعات- و هو من الاستعمالات الشائعه بطريق الاستعاره- فالمقصود أن المجتمع الذى بنى على تشتت القلوب و اختلاف المقاصد و الأهواء، و لا محاله لا يسير مثل هذا المجتمع بدليل واحد يهديهم الى غايه واحده بل بأدله شتى تختلف باختلاف الميول الشخصيه و التحكمات الفرديه اللاغيه التى تهديهم الى أشد الخلاف و الاختلاف- يشرفهم الى أرداد التنازع، و يهددهم دائما بالقتال و النزال، و يعددهم الفناء و الزوال، و هى النار التى لا- تبقى و لا تذر على حفرة الجهاله التى لا منجى و لا مخلص للساقط فيها.

فهؤلاء و هم طائفه من المسلمين كانوا قد آمنوا قبل نزول الآيه بعد كفرهم، و هم المخاطبون الأقربون بهذه الآيات لم يكونوا يعيشون مدى حياتهم قبل الإسلام إلا- فى حال تهددهم الحروب و المقاتلات أنا بعد آن، فلا أمن و لا راحه و لا فراغ، و لم يكونوا يفقهون ما حقيقه الأمن العام الذى يعم المجتمع بجميع جهاتها من جاه و مال و عرض و نفس و غير ذلك.

ثم لما اجتمعوا على الاعتصام بحبل الله، و لاحت لهم آيات السعاده، و ذاقوا شيئاً من حلاوه النعم و جدوا صدق ما يذكرهم به الله من هناء النعمه و لذيذ السعاده فكان الخطاب أوقع فى نفوسهم و نفوس غيرهم.

ص: ٥٣٧

ولذلك بنى الكلام ووضعت الدعوه على أساس المشاهده و الوجدان دون مجرد التقدير و الفرض فليس العيان كالبيان، ولا التجارب كالفرض و التقدير، ولذلك بعينه أشار فى التحذير الآتى فى قوله: [□] وَ لَا تُكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اختلفُوا، الخ؛ الى حال من قبلهم فإن مآل حالهم بمرأى و مسمع من المؤمنين فعليهم أن يعتبروا بهم و بما آل اليه أمرهم فلا يجرؤا مجراهم و لا يسلكوا مسلكهم.

ثم نبههم الله على خصوصيه هذا البيان فقال: كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون.

قوله تعالى: [□] وَ لَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ الخ؛ التجربه القطعيه تدل على أن المعلومات التى يهيئها الإنسان لنفسه فى حياته-و لا يهيئ و لا يدخر لنفسه إلا ما ينتفع به-من أى طريق هيأها و بأى وجه ادخرها تزول عنه اذا لم يذكرها و لم يدم على تكرارها بالعمل، و لا نشك أن العمل فى جميع شئونه يدور مدار العلم يقوى بقوته، و يضعف بضعفه [□] و يصلح بصلاحه، و يفسد بفساده، و قد مثل الله سبحانه حالهما فى قوله: [□] اَلْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ لِبَاتِهِ يَأْذَنَ رَبِّهِ وَ الَّذِى خَبَثَ لَآ يَخْرِجُ اِلَّا نَكَدًا الْآيَه (الأعراف ٥٨).

و لا نشك أن العلم و العمل متعاكسان فى التأثير فالعلم أقوى داع الى العمل و العمل الواقع المشهود أقوى معلم يعلم الإنسان.

و هذا الذى ذكر هو الذى يدعو المجتمع الصالح الذى عندهم العلم النافع و العمل الصالح أن يتحفظوا على معرفتهم و ثقافتهم، و أن يردوا المتخلف عن طريق الخير المعروف عندهم إليه، و أن لا يدعوا المائل عن طريق الخير المعروف و هو الواقع فى مهبط الشر المنكر عندهم أن يقع فى مهلكه الشر و ينهوه عنه.

و هذه هى الدعوه بالتعليم و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و هى التى يذكرها الله فى هذه الآيه بقوله: [□] يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ .

و من هنا يظهر السر في تعبيره تعالى عن الخير و الشر بالمعروف و المنكر فإن الكلام مبنى على ما في الآية السابقه من قوله: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، الخ؛ و من المعلوم أن المجتمع الذي هذا شأنه يكون المعروف فيه هو الخير، و المنكر فيه هو الشر، و لو لا العبره بهذه النكته لكان الوجه في تسميه الخير و الشر بالمعروف و المنكر كون الخير و الشر معروفا و منكرا بحسب نظر الدين لا بحسب العمل الخارجي.

و أما قوله وَ لَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ فَقَدْ قِيلَ: إن «من» للتبعيض بناء على أن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و كذا الدعوه من الواجبات الكفائيه.

و ربما قيل: إن «من» بيانيه و المراد منه و لتكونوا بهذا الاجتماع الصالح امه يدعون الى الخير فيجري الكلام على هذا مجرى قولنا: ليكن لي منك صديق أى كن صديقا لي. و الظاهر أن المراد بكون «من» بيانيه كونها نشؤيه ابتدائيه.

و الذي ينبغي أن يقال: أن البحث في كون من تبعيضيه أو بيانيه لا يرجع الى ثمره محصله فإن الدعوه و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر امور لو وجبت لكانت بحسب طبعها واجبات كفائيه اذ لا معنى للدعوه و الأمر و النهي المذكورات بعد حصول الغرض فلو فرضت الامه بأجمعهم داعيه الى الخير أمره بالمعروف ناهيه عن المنكر كان معناه أن فيهم من يقوم بهذه الوظائف فالأمر قائم على أى حال، و الخطاب إن كان للبعض فهو ذاك، و إن كان للكل كان أيضا باعتبار البعض، و بعباره اخرى المسئول بها الكل و المثاب بها البعض، و لذلك عقبه بقوله: وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ فالظاهر أن من تبعيضيه، و هو الظاهر من مثل هذا التركيب في لسان المحاورين و لا يصار الى غيره إلا بدليل.

و اعلم أن هذه الموضوعات الثلاثه أعنى الدعوه و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ذوات أبحاث تفسيريه طويله عميقه ستعرض لها في موضع آخر يناسبها إنشاء الله تعالى. و كذا ما يتعلق بها من الأبحاث العلميه و النفسيه و الاجتماعيه.

قوله تعالى: وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ. لا يبعد أن يكون قوله: مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ متعلقا بقوله: وَاخْتَلَفُوا فقط وحينئذ كان المراد بالاختلاف التفرق من حيث الاعتقاد، بالتفرق الاختلاف و التشتت من حيث الأبدان و قدم التفرق على الاختلاف لأنه كالمقدمه المؤديه إليه لأن القوم مهما كانوا مجتمعين متواصلين اتصلت عقائد بعضهم ببعض واتحدت بالتماس و التفاعل، و حفظهم ذلك من الاختلاف فاذا تفرقوا و انقطع بعضهم عن بعض أدهم ذلك الى اختلاف المشارب و المسالك، و لم يلبثوا دون أن يستقل أفكارهم و آرائهم بعضها عن بعض، و برز فيهم الفرقة، و انشق عصا الوحده فكأنه تعالى يقول: و لا تكونوا كالذين تفرقوا بالأبدان أولا، و خرجوا من الجماعه، و أفضاهم ذلك الى اختلاف العقائد و الآراء أخيرا.

قوله تعالى: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ الى آخر الآيتين؛ لما كان المقام مقام الكفر بالنعمة و هو نظير الخيانه مما يوجب حسه الانفعال و الخجل ذكر سبحانه من بين أنواع عذاب الآخره ما يناسبها بحسب التمثيل و هو سواد الوجه الذى يكنى به فى الدنيا عن الانفعال و الخجل و نحوهما كما يشعر أو يدل على ذلك قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ .

و كذا ذكر من ثواب الشاكرين لهذه النعمه ما يناسب الشكر و هو بياض الوجه المكنى به فى الدنيا عن الارتضاء و الرضا.

قوله تعالى: تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ، الظرف متعلق بقوله:

تَتْلُوهَا، و المراد كون التلاوه تلاوه حق من غير أن يكون باطلا شيطانيا، أو متعلق بالآيات باستشمام معنى الوصف فيه أو مستقر متعلق بمقدر، و المعنى أن هذه الآيات الكاشفه عن ما يصنع الله بالطائفتين: الكافرين و الشاكرين مصاحبه للحق من غير أن تجرى على نحو الباطل و الظلم، و هذا الوجه أوفق لما يتعقبه من قوله: وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا .

قوله تعالى: وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ، تنكير الظلم و هو فى سياق النفى يفيد الاستغراق، و ظاهر قوله: لِلْعَالَمِينَ و هو جمع محلى باللام أن يفيد الاستغراق، و المعنى على هذا أن الله لا يريد ظلماً أى ظلم فرض لجميع العالمين، و كافه الجماعات، و هو كذلك فإنما التفرق بين الناس أمر يعود أثره المشئوم الى جميع العالمين و كافه الناس.

قوله تعالى: وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ، لما ذكر أن الله لا يريد الظلم علل ذلك بما يزول معه توهم صدور الظلم فذكر أن الله تعالى يملك جميع الأشياء من جميع الجهات فله أن يتصرف فيها كيف يشاء فلا يتصور فى حقه التصرف فيما لا يملكه حتى يكون ظلماً و تعدياً.

على أن الشخص إنما ينحو الظلم اذا كان له حاجة لا يتمكن من رفعها إلا بالتعدى على ما لا يملكه، و الله الغنى الذى له ما فى السموات و الأرض هذا ما قرره بعضهم لكنه لا يلائم ظاهر الآيه فإن هذا الجواب يبتنى بالحقيقه على غناه تعالى دون ملكه، و المذكور فى الآيه هو الملك دون الغنى، و كيف كان فملكه دليل أنه تعالى ليس بظالم.

و هناك دليل آخر و هو أن مرجع جميع الامور أيا ما كانت اليه تعالى فليس لغيره تعالى من الأمر شىء حتى يسلبه الله عنه و ينتزعه من يده و يجرى فيه إرادته نفسه فيكون بذلك ظالماً، و هذا هو الذى يشير اليه قوله: وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

و الوجهان كما ترى متلازمان أحدهما مبنى على أن كل شىء له تعالى و الثانى مبنى على أن شيئاً من الامور ليس لغيره تعالى .

قوله تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلدَّاسِ، المراد بإخراج الامه للناس (و الله أعلم) إظهارها لهم، و مزيه هذه اللفظه (الإخراج) أن فيها إشعاراً بالحدوث و التكون قال تعالى: الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (الأعلى ١٤)، و الخطاب للمؤمنين فيكون قرينه على أن المراد بالناس عامه البشر و الفعل أعنى قوله: كُنْتُمْ منسلخ عن الزمان-على ما قيل-

و الامه إنما تطلق على الجماعه و الفرد لكونهم ذوى هدف و مقصد يؤمرونه و يقصدونه، و ذكر الايمان بالله بعد الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر من قبيل ذلك الكل بعد الجزء أو الأصل بعد الفرع.

فمعنى الآيه أنكم معاشر المسلمين خير امه أظهرها الله للناس بهدايتها لأنكم على الجماعه تؤمنون بالله و تأتون بفريضتى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و من المعلوم أن انبساط هذا التشريف على جميع الامه لكون البعض متصفين بحقيقه الايمان و القيام بحق الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر هذا محصل ما ذكروه فى المقام (١).

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١١١ الى ١٢٠]

إشارة

لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أذىً وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمْ الْأَذبَارُ ثُمَّ لَا يُنصِرُونَ (١١١) ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسِيكَنَهُ ذِكْرَكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢) لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْتَجِدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يُؤْمِنُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ أُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَ مَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا - أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهُ وَ مَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَ دُؤماً مَا عَيْتُمْ قَدْ يَدَّتِ الْبُغْضَاءُ مِنْ أَقْوَاحِهِمْ وَ مَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَ لَا يُحِبُّونَكُمْ وَ تَوَمَّنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَ إِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَ إِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنَا مِلَ مِنَ الْعَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِعَيْظِكُمْ إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمَسَّحْتُمْ بِحَسَنَةٍ تَسُوهُمْ وَ إِنْ تَصَّ بِكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَ إِنْ تَصَبَّرُوا وَ تَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنْ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)

ص: ٥٤٢

١- ١). آل عمران ١٠٢-١١٠: بحث روائى حول: الآيه «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ»؛ القرآن المجيد؛ حديث الثقلين؛ حال الامه بعد النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

بيان:

قوله تعالى: لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذَى الْخَيْلِ الْأُذَى مَا يَصِلُ إِلَى الْحَيَّوَانِ مِنَ الضَّرَرِ: إما فى نفسه أو جسمه أو تبعاته دنيويا كان أو اخرويا على ما ذكره الراغب مفردات القرآن.

ص: ٥٤٣

قوله تعالى: **ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيَنْ مَا تُقْفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلِ مِنَ النَّاسِ**، الذلّه بناء نوع من الذل، والذل بالضم ما كان عن قهر، وبالكسر ما كان عن تصعب و شماس على ما ذكره الراغب، ومعناه العام حال الانكسار و المطاوعه، و يقابله العز و هو الامتناع.

و قوله: **تُقْفُوا** أى وجدوا، و الحبل السبب الذى يوجب التمسك به العصمه؛ و قد استعير لكل ما يوجب نوعا من الأمان و العصمه و الوقايه كالعهد و الذمه و الأمان، و المراد (و الله أعلم): أن الذله مضروبه عليهم كضرب السكه على الفاز أو كضرب الخيمه على الإنسان فهم مكتوب عليهم أو مسلط عليهم الذله إلا بحبل و سبب من الله، و حبل و سبب من الناس.

و قد كرر لفظ الحبل بإضافته الى الله و الى الناس لاختلاف المعنى بالإضافه فانه من الله القضاء و الحكم تكويننا أو تشريعا، و من الناس البناء و العمل.

و المراد بضرب الذله عليهم القضاء التشريعى بذلتهم، و الدليل على ذلك قوله: **أَيَنْ مَا تُقْفُوا** فإن ظاهر معناه أينما وجدهم المؤمنون أى تسلطوا عليهم، و هو إنما يناسب الذله التشريعيه التى من آثارها الجزيه.

فيؤول معنى الآية الى أنهم أذلاء بحسب حكم الشرع الإسلامى إلا أن يدخلوا تحت الذمه أو أمان من الناس بنحو من الأنحاء.

قوله تعالى: **وَ بِمَاؤُ بَغَضِبٍ مِنَ اللَّهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسِيكَةُ**، بءوا أى اتخذوا مباءه و مكانا، أو رجعوا، و المسكنه أشد الفقر، و الظاهر أن المسكنه أن لا يجد الإنسان سييلا الى النجاه و الخلاص عما يهدده من فقر أو أى عدم، و على هذا فيتلاءم معنى الآية صدرا و ذيلا.

قوله تعالى: **ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ**؛ و المعنى أنهم عصوا و كانوا قبل

ذلك يستمرون على الاعتداء.

قوله تعالى: لَيْسُوا سَوَاءً -الى قوله:- بِالْمُتَّقِينَ، السواء مصدر اريد به معنى الوصف أى ليسوا مستويين فى الوصف و الحكم فإن منهم امه قائمه يتلون آيات الله، الخ؛ و من هنا يظهر أن قوله: مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، الخ؛ فى مقام التعليل يبين به وجه عدم استواء أهل الكتاب.

و قد اختلف فى قوله: قَائِمَةٌ فَقِيلَ: أى ثابته على أمر الله، وقيل: أى عادله، وقيل: أى ذو امه قائمه أى ذو طريقه مستقيمه، و الحق أن اللفظ مطلق يحتمل الجميع غير أن ذكر الكتاب و ذكر أعمالهم الصالحة يعين أن المراد هو القيام على الإيمان و الطاعة.

و الآناء جمع إني بكسر الهمزة أو فتحها، وقيل: إنو و هو الوقت.

و المسارعة المبادره و هى مفاعله من السرعة قال فى المجمع: و الفرق بين السرعة و العجله أن السرعة هى التقدم فيما يجوز أن يتقدم فيه، و هى محموده، و ضدها الإبطاء، و هو مذموم، و العجله هى التقدم فيما لا ينبغى أن يتقدم فيه و هى مذمومه، و ضدها الأناه و هى محموده، انتهى، و الظاهر أن السرعة فى الأصل وصف للحركة، و العجله وصف للمتحرك.

و الخيرات مطلق الأعمال الصالحة من عباده أو إنفاق أو عدل أو قضاء حاجه، و هو جمع محلى باللام؛ و معناه الاستغراق، و يكثر إطلاقه على الخيرات المالىه كما أن الخير يكثر إطلاقه على المال.

و قد عد الله سبحانه لهم جمل مهمات الصالحات، و هى الإيمان، و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و المسارعه فى كل خير، ثم وصفهم بأنهم صالحون فهم أهل الصراط المستقيم و زملاء النبيين و الصديقين و الشهداء لقوله تعالى: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ (الحمد ٧)، و قوله تعالى: فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصُّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ الْآيَه (النساء ٦٩)،

قيل: المراد بهؤلاء الممدوحين عبد الله بن سلام و أصحابه.

قوله تعالى: وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ، من الكفران مقابل الشكر أى يشكر الله لهم فيرده اليهم من غير ضيعه كما قال تعالى: وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (البقره ١٥٨/)، وقال: وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ - الى أن قال- وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ (البقره ٢٧٢/).

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ، ظاهر وحده السياق أن المراد بهؤلاء،الذين كفروا هم الطائفه الاخرى من أهل الكتاب الذين لم يستجيبوا دعوه النبوه، و كانوا يوطئون على الإسلام،و لا يألون جهدا فى إطفاء نوره.

و ربما قيل: إن الآيه ناظره الى حال المشركين فتكون التوطئه لما سيشير اليه من قصه أحد لكن لا يلائمه ما سيأتى من قوله: وَ تُوْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا، الخ؛فإن ذلك بيان لحال اليهود مع المسلمين دون حال المشركين،و من هناك يظهر أن اتصال السياق لم ينقطع بعد.

و ربما جمع بعض المفسرين بين حمل هذه الآيه على المشركين و حمل تلك على اليهود،و هو خطأ.

قوله تعالى: مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الآيه؛الصر البرد الشديد،و إنما قيد الممثل بقوله: فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ليدل على أنهم منقطعون عن الدار الآخرة فلا يتعلق إنفاقهم إلا بهذه الحياه،و قيد حرث القوم بقوله: ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ليحسن ارتباطه بقوله بعده: وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ .

و محصل الكلام أن إنفاقهم فى هذه الحياه و هم يريدون به إصلاح شأنهم و نيل مقاصدهم الفاسده لا يثمر لهم إلا الشقاء،و فساد ما يريدونه و يحسبونه سعادته لأنفسهم كالريح التى فيها صر تهلك حرث الظالمين،و ليس ذلك إلا ظلما منهم لأنفسهم فإن العمل الفاسد لا يأتى إلا

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ الْآيَةَ؛ سميت الوليجه بطانه و هي ما يلي البدن من الثوب و هي خلاف الظهاره لكونها تطلع على باطن الإنسان و ما يضمه و يستسره، و قوله: لَا يَأْلُونَكُمْ أَي لَا يَقْصِرُونَ فِيكُمْ، و قوله: خَجَالًا أَي شِراً و فسادا، و منه الخبل للجنون لأنه فساد العقل، و قوله: وَدُّوا مَا عَتَّتُمْ، ما مصدرية أي ودوا و أحبوا عنتكم و شدة ضرركم، و قوله: قَدْ بَيَدَتِ الْبُغْضَاءُ مِنْ أَقْوَاهِهِمْ أريد به ظهور البغضاء و العداوه من لحن قولهم و فلتات لسانهم ففيه استعاره لطيفه و كنايه، و لم يبين ما فى صدورهم بل أبهم قوله: وَ مَا تُخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ لِلْإِيمَاءِ إِلَى أَنَّهُ لَا يُوصَفُ لِتَنوعِهِ و عظمته و به يتأكد قوله: أَكْبَرُ .

قوله تعالى: هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ الْآيَةَ؛ الظاهر أن اولاء اسم إشاره و لفظه ها للتنبيه، و قد تخلل لفظه أنتم بين ها و اولاء، و المعنى أنتم هؤلاء على حد قولهم: زيد هذا و هند هذه كذا و كذا.

و قوله: وَ تُوْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ، اللام للجنس أي و أنتم تؤمنون بجميع الكتب السماويه النازله من عند الله: كتابهم و كتابكم، و هم لا- يؤمنون بكتابكم، و قوله، و اذا لقولكم قالوا آمنا، أي إنهم منافقون، و قوله: وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ الْعَضُّ هُوَ الْأَخْذُ بِالْأَسْنَانِ مَعَ ضَغْطٍ، و الْأَنَامِلُ جَمْعُ أَنْمَلَةٍ وَ هِيَ طَرَفُ الْإِصْبَعِ. و الغيظ هو الحنق، و عض الْأَنَامِلُ عَلَى شَيْءٍ مِثْلٍ يَضْرِبُ لِلتَّحَسُّرِ وَ التَّأْسَفِ غَضْبًا وَ حَنْقًا.

و قوله: قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ دَعَاءٌ عَلَيْهِمْ فِي صُورِهِ الْأَمْرِ وَ بِذَلِكَ تَتَّصِلُ الْجُمْلَةُ بِقَوْلِهِ: إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَي اللَّهُمَّ امْتَنِّمْ بِغَيْظِهِمْ إِنَّكَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَي الْقُلُوبِ أَي النُّفُوسِ.

قوله تعالى: إِنَّ تَمَسَّنْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ، المساءه خلاف السرور، و فى الآيه

دلاله على أن الأمن من كيدهم مشروط بالصبر والتقوى.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٢١ الى ١٢٩]

اشاره

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصِيرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ فَيُنقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩)

ص: ٥٤٨

قوله تعالى: وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ إِذْ ظُرِفَ مُتَعَلِّقًا بِمُحْذَوِّفٍ كَاذِكْرٍ وَنَحْوِهِ؛ وَغَدَوْتَ مِنَ الْغَدْوِ وَهُوَ الْخُرُوجُ غَدَاهُ، وَالتَّبَوُّهُ تَهْيِئَةُ الْمَكَانِ لِلْغَيْرِ أَوْ إِسْكَانُهُ وَإِطَانُهُ الْمَكَانَ؛ وَالمَقَاعِدُ جَمْعٌ؛ وَأَهْلُ الرَّجْلِ - كَمَا ذَكَرَهُ الرَّاعِبُ - مَنْ يَجْمَعُهُ وَإِيَاهُمْ نَسَبٌ أَوْ بَيْتٌ أَوْ غَيْرُهُمَا كَدِينٍ أَوْ بَلَدٍ أَوْ صِنَاعَةٍ؛ يُقَالُ: أَهْلُ الرَّجْلِ لِرُجُلِهِ وَلِمَنْ فِي بَيْتِهِ مِنْ زَوْجِهِ وَوَلَدٍ وَخَادِمٍ وَغَيْرِهِمْ، وَلِلْمُنْتَسِبِينَ إِلَيْهِ مِنْ عَشِيرَتِهِ وَعُتْرَتِهِ، وَيُقَالُ:

أَهْلُ بَلَدٍ كَذَا لِقَاطِنِيهِ؛ وَأَهْلُ دِينٍ كَذَا لِمُنْتَحِلِيهِ؛ وَأَهْلُ صِنَاعَةٍ كَذَا لِصِنَاعَتِهَا وَآسَاتِيدِهَا، وَيَسْتَوِي فِيهِ الْمَذْكَرُ وَالمُؤنثُ وَالمُفْرَدُ وَالجَمْعُ، وَيَخْتَصُ اسْتِعْمَالُهُ بِالْإِنْسَانِ فَأَهْلُ الشَّيْءِ خَاصَتُهُ مِنَ الْإِنْسَانِ.

وَالمُرَادُ بِأَهْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خَاصَتُهُ وَهُمْ جَمْعٌ، وَلَيْسَ المُرَادُ بِهِ هَاهُنَا شَخْصٌ وَاحِدٌ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ إِذْ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: خَرَجْتَ مِنْ خَاصَتِكَ وَ مِنْ جَمَاعَتِكَ وَلا - يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: خَرَجْتَ مِنْ زَوْجَتِكَ وَخَرَجْتَ مِنْ أُمَّكَ؛ وَلِذَا التَّجَا بَعْضُ المُفَسِّرِينَ إِلَى تَقْدِيرِ فِي الْآيَةِ فَقَالَ: إِنَّ التَّقْدِيرَ: خَرَجْتَ مِنْ بَيْتِ أَهْلِكَ، لِمَا قَسَرَ الْأَهْلَ بِالمُفْرَدِ، وَلا دَلِيلَ يَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ الْكَلَامِ.

وَ سِيَاقُ الْآيَاتِ مَبْنَى عَلَى خُطَابِ الجَمْعِ وَهُوَ خُطَابُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَاتُ السَّابِقَةُ وَالْلاحِقَةُ فِي قَوْلِهِ: وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ، التَّنْفَاتُ مِنْ خُطَابِهِمْ إِلَى خُطَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَكَأَنَّ الوَجْهَ فِيهِ مَا يُلَوِّحُ مِنَ آيَاتِ القِصَّةِ مِنْ لِحْنِ العِتَابِ فَإِنَّهَا لا - تَخْلُو مِنْ شَائِبَةِ اللُّومِ وَالعِتَابِ وَالأَسْفِ عَلَى مَا جَرَى وَظَهَرَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الفِشْلِ وَالوَهْنِ فِي العَزِيمَةِ وَالقِتَالِ، وَلِذَلِكَ أَعْرَضَ عَنْ مَخَاطَبَتِهِمْ فِي تَضَاعِيفِ القِصَّةِ وَعَدَلَ إِلَى خُطَابِ النَبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَخْصُ بِهِ فَقَالَ: وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ، وَقَالَ: إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ،

وقال: ليس لك من الأمر شيء، وقال: قل إن الأمر كله بيد الله، وقال: فيما رحمه من الله لنت لهم و لو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك فاعف عنهم، وقال: ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا الآيه.

فغير خطاب الجمع في هذه الموارد الى خطاب المفرد، وهي موارد تحبس المتكلم الجارى في كلامه عن الجرى فيه لما تغيظه و تهيج وجده، بخلاف مثل قوله في ضمن الآيات: و ما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم، وقوله: وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ، لأن العتاب فيهما بخطاب الجمع أوقع دون خطاب المفرد، و بخلاف مثل قوله في ضمن الآيات: لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا- منهم الآيه؛ لأن الامتنان ببعثه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ مع أخذه غائبا أوقع و أشد تأثيرا في النفوس، و أبعد من الوهم و الخطور، فتدبر في الآيات تجد صحه ما ذكرناه.

و معنى الآيه: و اذكر اذ خرجت بالغداه من أهلك تهيب للمؤمنين مقاعد للقتال أو تسكنهم و توقفهم فيها و الله سميع لما قيل هناك، عليهم بما أضمرته قلوبهم، و المستفاد من قوله:

وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ، قرب المعركة من داره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ فيتعين بذلك أن الآيتين ناظرتان الى غزوه أحد فتتصل الآيتان بالآيات الآتية النازله في شأن أحد لانطباق المضامين على وقائع هذه الغزوه، و به يظهر ضعف ما قيل: إن الآيتين في غزوه بدر؛ و كذا ما قيل: إنهما في غزوه الأحزاب، و الوجه ظاهر.

□
قوله تعالى: وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أى سميع يسمع ما قيل هناك، عليهم يعلم ما كان مضمرا في قلوبكم، و فيه دلالة على كلام جرى هناك بينهم، و امور أضمرها في قلوبهم، و الظاهر أن قوله: إِذْ هَمَّتْ، متعلق بالوصفين.

□ □ □
قوله تعالى: إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَ اللَّهُ وَ لِيَهُمَا □ □ □ □ □
□ □ □ □ □
قوله تعالى: إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَ اللَّهُ وَ لِيَهُمَا □ □ □ □ □
□ □ □ □ □
قوله تعالى: إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَ اللَّهُ وَ لِيَهُمَا □ □ □ □ □
□ □ □ □ □

وقوله: وَاللَّهُ وَرِيَّهُمَا، حال و العامل فيه قوله: هَمَّتْ، و الكلام مسوق للعتاب و اللوم؛ و كذا قوله: وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ، و المعنى: أنهما همتا بالفشل مع أن الله وليهما و لا ينبغي لمؤمن أن يفشل و هو يرى أن الله وليه، و مع أن المؤمنين ينبغي أن يكلوا أمرهم الى الله و من يتوكل على الله فهو حسبه.

وقوله تعالى: وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ الى آخر الآيه؛ ظاهر السياق أن تكون الآيه مسوقه سوق الشاهد لتتميم العتاب و تأكيده فتكون تؤدى معنى الحال كقوله:

وَ اللَّهُ وَرِيَّهُمَا، و المعنى: و ما كان ينبغي أن يظهر منكم الهم بالفشل و قد نصركم الله بدير و أنتم أذله، و ليس من البعيد أن يكون كلاما مستقلا سيق مساق الامتنان بذكر نصر عجيب من الله بإنزال الملائكة لإمدادهم و نصرهم يوم بدر.

و لما ذكر تعالى نصره إياهم يوم بدر و قابل ذلك بما هم عليه من الحال- و من المعلوم أن كل من اعتر فإنما يعتر بنصر الله و عونه فليس للإنسان من قبل نفسه إلا الفقر و الذله- و لذلك قال: و أنتم أذله.

و من هنا يعلم أن قوله: وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ لا- ينافى أمثال قوله تعالى: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ (المنافقون ٨/٨) فإن عزتهم إنما هي بعزه الله، قال تعالى: فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (النساء ١٣٩/١) و ذلك بنصر الله المؤمنين كما قال تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَتْتَهُمُ مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (الروم ٤٧/٤) فإذا كان الحال هذا الحال فلو اعتبر حال المؤمنين من حيث أنفسهم لم يكن لهم إلا الذله.

على أن واجهه حال المؤمنين أيضا يوم بدر كانت تقضى بكونهم أذله قبال ما كان عليه المشركون من القوه و الشوكه و الزينه، و لا ضير فى إضافه الذله النسبيه الى الأعزه و قد أضافها الله سبحانه الى قوم مدحهم كل المدح حيث قال: فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ الْآيَةَ (المائدة ٥٤).

قوله تعالى: إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ الْإِمْدَادُ مِنَ الْمَدِّ وَهُوَ إِيصَالُ الْمَدِّدِ عَلَى نَعْتِ الْإِتِّصَالِ.

قوله تعالى: بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فُورِهِمْ هَذَا، بلى كلمه تصديق و الفور و الفوران: الغليان يقال: فار القدر اذا غلا و جاش، ثم استعير للسرعه و العجله فاستعمل في الأمر الذي لا ريث فيه و لا مهله فمعنى من فورهم هذا من ساعتهم هذه.

و الظاهر أن مصداق الآيه هو يوم بدر، وإنما هو وعد على الشرط و هو ما يتضمنه قوله: إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فُورِهِمْ هَذَا.

و أما ما يظهر من بعض المفسرين أنه وعد بإنزال الملائكه إن جاءوهم بعد فورهم هذا يعنى يوم بدر بأن يكون المراد من فورهم هذا هو يوم بدر لا- فى يوم بدر، و كذا ما يظهر من بعض آخر أنه وعد بإنزالهم فى سائر الغزوات بعد بدر كاحد و حنين و الأحزاب فمما لا دليل عليه من لفظ الآيه.

أما يوم أحد فلا- محل لاستفاده نزول الملائكه فيه من الآيات و هو ظاهر، و أما يوم الأحزاب و يوم حنين فالقرآن و إن كان يصرح بنزول الملائكه فيهما فقد قال فى قصه الأحزاب: إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا (الأحزاب ٩) و قال وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ «الى أن قال»: وَ أَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا (التوبه ٢٦) إلا أن لفظ هذه الآيه:

بلى إن تصبروا و تتقوا و يأتوكم من فورهم هذا، قاصر عن إفاده عموم الوعد.

و أما نزول ثلاثه آلاف يوم بدر فلا ينافى قوله تعالى فى سوره الأنفال: فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ (الأنفال ٩) لمكان قوله: مُرَدِّينَ أى متبعين لآخرين و هم الألفان الباقيان المكملان للعدد على ما ذكر فى هذه الآيات.

قوله تعالى: وَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ، الضمير راجع الى الإمداد، و لفظه

عند ظرف يفيد معنى الحضور، وقد كان أولاً مستعملاً في القرب و الحضور المكانية المختص بالأجسام ثم توسع فاستعمل في القرب الزماني ثم في مطلق القرب و الحضور المعنوي كيفما كان، وقد استعمل في القرآن في مختلف الفنون.

و الذى يفيد فى هذا المقام أعنى قوله: **وَ مَا النَّصِيرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** بالنظر الى ما سبقه من قوله: **وَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَ لِتَطْمَئِنَّنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ** به هو المقام الربوبى الذى ينتهى اليه كل أمر و حكم، و لا- يكفى عنه و لا- يستقل دونه شىء من الأسباب؛ فالمعنى: أن الملائكة الممددين ليس لهم من أمر النصر شىء بل هم أسباب ظاهريه يجلبون لكم البشرى و طمأنينه القلب، و إنما حقيقه النصر من الله سبحانه لا يغنى عنه شىء، و هو الله الذى ينتهى اليه كل أمر، العزيز الذى لا يغلب، الحكيم الذى لا يجهل.

قوله تعالى: **لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ** الى آخر الآيات؛ اللام متعلق بقوله: **وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ**، و قطع الطرف كناية عن تقليل عدتهم و تضعيف قوتهم بالقتل و الأسر كما وقع يوم بدر فقتل من المشركين سبعون و اسر سبعون، و الكبت هو الإخزاء و الإغاظه.

و قوله: **لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ** معترضه، و فائدتها بيان أن الأمر فى القبط و الكبت لله، و ليس للنبي صلى الله عليه و آله و سلم فيه صنع حتى يمدحوه و يستحسنوا تدبيره اذا ظفروا على عدوهم و نالوا منه، و يلوموه و يوبخوه اذا دارت الدائرة عليهم و يهنوا و يحزنوا كما كان ذلك منهم يوم أحد على ما حكاه الله تعالى.

و قوله: **أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ** معطوف على قوله: **لِيَقْطَعَ**، و الكلام متصل، و قوله: **وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ**، بيان لرجوع أمر التوبه و المغفره الى الله تعالى؛ و المعنى: أن هذا التدبير المتقن منه تعالى إنما هو ليقطع طرفاً من المشركين بالقتل و الأسر أو ليخزيهم و يخيبهم فى سعيهم أو ليتوب عليهم أو ليعذبهم، أما القبط و الكبت فلأن الأمر اليه لا إليك حتى تمدح أو

تذم؛ و أما التوبه و العذاب فلأن الله هو المالك لكل شىء فيغفر لمن يشاء، و يعذب من يشاء، و مع ذلك فإن مغفرته و رحمته تسبقان عذابه و غضبه فهو الغفور الرحيم.

و إنما أخذنا قوله: وَ لِلَّهِ مَمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مِمَّا فِي الْأَرْضِ، فى موضع التعليل للفقرتين الأخيرتين أعنى قوله: أَوْ يُتُوبَ اه، لما فى ذيله من اختصاص البيان بهما أعنى قوله: يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ (١).

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٣٠ الى ١٣٨]

إشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَ اتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَ سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَ الْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَ الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَتَعَفَوْا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ (١٣٦) قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدًى وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨)

ص: ٥٥٤

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِ الْثَلَاثِ؛ قَدْ مَرَّ سَابِقًا وَجْهٌ إِطْلَاقُ الْأَكْلِ وَإِرَادَةُ الْأَخْذِ، وَقَوْلُهُ: أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً يَشِيرُ إِلَى الْوَصْفِ الْغَالِبِ فِي الرِّبَا فَإِنَّهُ بِحَسَبِ الطَّبَعِ يَتَضَاعَفُ فَيَصِيرُ الْمَالُ أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً بِإِنْفَادِ مَالِ الْغَيْرِ وَضَمِّهِ إِلَى رَأْسِ الْمَالِ الرَّبْوِيِّ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَ اتَّقُوا الدَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾، إِشَارَةٌ إِلَى كُفْرِ آكْلِ الرِّبَا كَمَا مَرَّ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي آيَاتِ الرِّبَا: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (البقرة ٢٧٦).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾، الْمَسَارِعَةُ هِيَ الْإِسْتِدَادُ فِي السَّرْعَةِ وَهِيَ مَمْدُوحَةٌ فِي الْخَيْرَاتِ، وَمَذْمُومَةٌ فِي الشَّرُورِ.

وَ قَدْ قُورِنَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْمَغْفِرَةُ بِالْجَنَّةِ فِي غَالِبِ الْمَوَارِدِ، وَ لَيْسَ إِلَّا لِأَنَّ الْجَنَّةَ دَارُ طَهَارَةٍ لَا يَدْخُلُ فِيهَا قَذَارَاتُ الْمَعَاصِي وَ الذُّنُوبِ وَ أَدْرَانِهَا، وَ لَا مِنْ تَقَدَّرَ بِهَا إِلَّا بَعْدَ الْمَغْفِرَةِ وَ الْإِزَالَةِ.

وَ الْمَغْفِرَةُ وَ الْجَنَّةُ الْمَذْكُورَتَانِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَحَاذِيَانِ مَا فِي الْآيَتَيْنِ التَّالِيَتَيْنِ؛ أَمَّا الْمَغْفِرَةُ فَتَحَاذِي مَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ وَ أَمَّا الْجَنَّةُ فَتَحَاذِي مَا فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ﴾.

و أما قوله: جَنَّهُ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، فالمراد بالعرض السعه و هو استعمال شائع، و كأن التعبير كناية عن بلوغها في السعه غايتها أو ما لا يحدها الوهم البشرى، و له معنى آخر سنشير اليه في البحث الروائي الآتى.

و قوله: أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ كالتوطئه لذكر ما يذكره بعد من أوصاف المتقين؛ فإن الغرض هو بيان الأوصاف التى ترتبط بحال المؤمنين فى المقام أعنى عند نزول هذه الآيات و قد نزلت بعد غزوه أحد و قد جرى عليهم و منهم ما جرى من الضعف و الوهن و المخالفه، و هم مع ذلك مشرفون على غزوات أخر مثلها، و حوادث تشابهها، و بهم حاجه الى الاتحاد و الاتفاق و التلاؤم.

قوله تعالى: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ السراء و الضراء ما يسر الإنسان و ما يسوؤه أو اليسر و العسر، و الكظم فى الأصل هو شد رأس القربه بعد ملئها فاستعير للإنسان اذا امتلأ حزنا أو غضبا، و الغيظ هيجان الطبع للانتقام بمشاهده كثره ما لا يرتضيه، بخلاف الغضب فهو إرادته الانتقام أو المجازاه، و لذلك يقال:

غضب الله و لا يقال: اغتاظ.

و فى قوله: وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، إشاره الى أن ما ذكره من الأوصاف معرف لهم، و إنما هو معرف للمحسنين فى جنب الناس بالإحسان اليهم، و أما فى جنب الله فمعرفهم ما فى قوله تعالى: وَبَشِّرِ لِلْمُحْسِنِينَ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (الأحقاف ١٣) بل هذا الإحسان المذكور فى هذه الآيات هو المحتد للمذكور فى قوله: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، الآيه؛ فإن الإنفاق و نحوه اذا لم يكن لوجه الله لم يكن له منزله عند الله سبحانه على ما يدل عليه قوله تعالى فيما سبق من الآيات: مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، الآيه؛ و غيره.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ -الى قوله-: وَنِعْمَ

أَجْرُ الْعَامِلِينَ الْفَاحِشَةَ مَا تَتَّضِعْنَ الْفَحْشَ وَالْقَيْحَ مِنَ الْأَفْعَالِ، وَشَاعَ اسْتِعْمَالُهُ فِي الزُّنَا، فَالْمُرَادُ بِالظُّلْمِ بِقَرِينِهِ الْمَقَابِلَةَ سَائِرَ الْمَعَاصِي الْكَبِيرَةِ وَالصَّغِيرَةِ، أَوْ خُصُوصَ الصَّغَائِرِ عَلَى تَقْدِيرِ أَنْ يَرَادَ بِالْفَاحِشَةِ الْمُنْكَرَ مِنَ الْمَعَاصِي وَهِيَ الْكِبَائِرُ، وَفِي قَوْلِهِ: ذَكَرُوا اللَّهَ، الْخ؛ دَلَالُهُ عَلَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ فِي الْاسْتِغْفَارِ أَنْ يَدْعُوا إِلَيْهِ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى دُونَ مَجْرَدِ التَّلْفِظِ بِاعْتِيَادِ وَنَحْوِهِ، وَقَوْلِهِ: وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ تَشْوِيقٌ وَإِقَاطٌ لِقَرِيحِهِ اللَّوَاذِ وَالِاتِّجَاءِ فِي الْإِنْسَانِ.

وَقَوْلِهِ: وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَيَّ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ، إِنَّمَا قِيدَ بِهِ الْاسْتِغْفَارَ لِأَنَّهُ يورثُ فِي النَّفْسِ هَيْئَةً لَا يَنْفَعُ مَعَهُ ذِكْرَ مَقَامِ الرَّبِّ تَعَالَى وَهِيَ الْاسْتِهَانَةُ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَعَدَمُ الْمُبَالَاهِ بِهَتَكِ حَرَمَاتِهِ، وَالِاسْتِكْبَارَ عَلَيْهِ تَعَالَى، وَ لَا تَبْقَى مَعَهُ عِبُودِيَّةٌ وَ لَا يَنْفَعُ مَعَهُ ذِكْرٌ، وَ لِذَلِكَ بَعَيْنُهُ قِيدَهُ بِقَوْلِهِ: وَهُمْ يَعْلَمُونَ، وَ هَذِهِ قَرِينَةٌ عَلَى كَوْنِ الظُّلْمِ فِي صَدْرِ الْآيَةِ يَشْمَلُ الصَّغَائِرَ أَيْضًا، وَ ذَلِكَ أَنْ الْإِصْرَارَ عَلَى الذَّنْبِ يَسْتَوْجِبُ الْاسْتِهَانَةَ بِأَمْرِ اللَّهِ وَ التَّحْقِيرَ لِمَقَامِهِ سِوَاءِ كَوْنِ الذَّنْبِ الْمَذْكُورِ مِنَ الصَّغَائِرِ أَوْ الْكِبَائِرِ، فَقَوْلُهُ: مَا فَعَلُوا أَعْمَ مِنَ الْكَبِيرَةِ، وَ الْمُرَادُ بِمَا فَعَلُوا هُوَ الَّذِي ذَكَرَ فِي صَدْرِ الْآيَةِ، وَ إِذْ لَيْسَتْ الصَّغِيرَةُ فَاحِشَةً فَهُوَ ظَلَمَ النَّفْسَ لَا مَحَالَةَ.

وَقَوْلُهُ: أُولَئِكَ جَزَأُوهُمْ مَغْفِرَةً بَيَانٌ لِأَجْرِهِمُ الْجَزِيلِ، وَ مَا ذَكَرَهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ عَيْنُ مَا أَمَرَ بِالْمَسَارَعَةِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: وَ سَارِعُوا إِلَيَّ مَغْفِرَةً مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ، الْخ؛ وَ مِنْ ذَلِكَ يَعْلَمُ أَنَّ الْأَمْرَ إِنَّمَا كَانَ بِالْمَسَارَعَةِ إِلَى الْإِنْفَاقِ وَ كَظْمِ الْغِيظِ وَ الْعَفْوِ عَنِ النَّاسِ وَ الْاسْتِغْفَارِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا، السُّنَنُ جَمْعُ سَنَةٍ وَ هِيَ الطَّرِيقَةُ الْمَسْلُوكَةُ فِي الْمَجْتَمَعِ، وَ الْأَمْرُ بِالسَّيْرِ فِي الْأَرْضِ لِمَكَانِ الْإِعْتِبَارِ بِآثَارِ الْمَاضِينَ مِنَ الْأُمَمِ الْغَابِرَةِ، وَ الْمَلُوكِ وَ الْفِرَاعِنِ الطَّاعِيَةِ حَيْثُ لَمْ يَنْفَعَهُمْ شَوَاهِقُ قُصُورِهِمْ، وَ لَا - ذَخَائِرُ كُنُوزِهِمْ، وَ لَا عُرُوشَهُمْ وَ لَا جَمُوعَهُمْ، وَ قَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ أَحَادِيثَ يَعْتَبَرُ بِهَا الْمَعْتَبَرُونَ، وَ يَتَفَكَّهُ بِهَا

و أما حفظ آثارهم و كلاءه تماثيلهم و الجهد فى الكشف عن عظمتهم و مجدهم الظاهر الدينوى الذى فى أيامهم فمما لا يعنى به القرآن، فإنما هى الوثنيه التى لا تزال تظهر كل حين فى لباس؛ و سنبحث إن شاء الله فى هذا المعنى فى بحث مستقل نحلل فيه معنى الوثنيه.

قوله تعالى: هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ الْآيَةِ؛ التقسيم باعتبار التأثير فهو بلاغ و إبانه لبعض و هدى و موعظه لآخرين (١).

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٣٩ الى ١٤٨]

إشاره

و لَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ فَوْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَوْحٌ مِثْلُهُ وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَلَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَ لِيَمَحَّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَ أَنْتُمْ تُنظَرُونَ (١٤٣) وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَ مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ سَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَ كَمَا يُنِىُّ قَاتِلَ مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ مَا ضَعُفُوا وَ مَا اسْتَكَانُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَ مَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَ إِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَ تَبَّتْ أَعْقَابُنَا وَ أُنصِرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَ حَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)

قوله تعالى: وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ الوهن: هو الضعف فى خلق أو خلق على ما ذكره الراغب، والمراد به هنا ضعفهم من حيث العزيمة والاهتمام على اقامه الدين و قتال أعدائه، والحزن خلاف الفرح وإنما يعرض الإنسان بفقده شيئاً يملكه مما يحبه أو أمراً يقدر نفسه مالكة له.

وفى قوله تعالى: وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِثْلُهُ، دلالة على أن سبب وهنهم و حزنهم ما شاهدوه من إصابه القرح إياهم، واستعلاء الكفار عليهم، فإن المشركين و إن لم ينالوا كل الغلبة و الظفر على المؤمنين و لم تختتم الوقعة على الانهزام التام من المؤمنين لكن الذى أصاب المؤمنين كان أشد و أوجع و هو

شهاده سبعين من سراتهم و شجعانهم، و وقوع ما وقع فى عقر دارهم فكان هذا سبب و هنتهم و حزنهم، و وقوع قوله: وَ أَنْتُمْ الْأَعْلُونَ
، الخ؛ موقع التعليل هو الوجه فى كون هذين النهيين نهيا عن وهن و حزن واقعين لا مقدرين و لا متوقعين.

و قد اطلق قوله: الْأَعْلُونَ من غير تقييد و لكن اشترط بالإيمان فمحصل المعنى: لا ينبغي لكم أن تهنوا فى عزمكم، و لا أن تحزنوا
لما فاتكم من لظفر على أعدائكم، و الانتصار منهم إن كان فيكم الإيمان، فإن الإيمان أمر يستصحب علاءكم البتة اذ هو يلازم
التقوى و الصبر و فيهما ملاك الفتح و الظفر، و أما القرع الذى أصابكم فليستتم بمتفردين فيه بل القوم - و هم المشركون - قد
أصابهم مثله فلم يسبقوكم فى شىء حتى يوجب ذلك و هنتكم و حزنكم.

و اشتراط علوهم بالإيمان مع كون الخطاب للذين آمنوا إنما هو للإشارة الى أن الجماعة و إن كانوا لا يفقدون الإيمان إلا أنهم
غير عاملين بما يقتضيه من الصفات كالصبر و التقوى و إلا لأثر أثره.

و هذا حال كل جماعه مختلفه الحال فى الإيمان فيهم المؤمن حقا و الضعيف إيمانا و المريض قلبا، و يكون مثل هذا الكلام
تنشيطا لى نفس مؤمنهم، و عظه لى ضعيفهم و عتابا و تانيا لمريضهم.

قوله تعالى: إِنَّ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ الْقَرْح - بفتح القاف - الأثر من الجراحه من شىء يصيبه من خارج، و القرع -
بالضم - أثرها من داخل كالبره و نحوها - قاله الراغب - و كأنه كناية عما أصابهم يوم أحد بفرض مجموع المسلمين شخصا واحدا
أصابه جراحه من عدوه و هو قتل من قتل منهم، و جراحه من جرح منهم، و فوت النصر و الفتح بعد ما أطلا عليهم.

و هذه الجملة أعنى قوله: إِنَّ يَمْسَسْكُمْ ، الخ؛ و ما بعدها من الجمل المتسقه الى قوله: وَ يَمْحَقَ

الْكَافِرِينَ فِي مَوْضِعِ التَّعْلِيلِ - كما مر - لقوله: وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا، الخ؛ كما أن قوله: وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ تَعْلِيلٌ آخِرٌ.

و الفرق بين النوعين من التعليل أن الأول أعنى قوله: وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ، الخ؛ تعليل من طريق التخطئه لظنهم، فإنهم إنما وهنوا و حزنوا لما ظنوا علاء المشركين عليهم فخطأهم الله بأن ملاك العلاء معكم إن كنتم مؤمنين لا مع المشركين، وقد قال تعالى: وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (الروم ٤٧).

و أما الثانى فمن طريق بيان حال الفريقين - المؤمنين و المشركين - أو بيان الحكم و المصالح التى ترجع الى أصل واحد و هو السنه الإلهيه الجاريه بمداوله الأيام بين الناس.

قوله تعالى: وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ اليوم هو المقدار المعتد به من الزمان اللازم لحدوث الحوادث فيختلف باختلاف الحوادث، و قد شاع استعماله فيما بين طلوع الشمس و غروبها، و ربما استعمل فى الملك و السلطنه و القهر و نحوها بعلاقه الظرف و المظروف، فيقال يوم جماعه كذا و يوم آل فلان أى تقدمهم و حكومتهم على غيرهم، و قد يقال لنفس الزمان الذى وقع فيه ذلك، و المراد بالايام فى الآيه هو هذا المعنى. و المداوله جعل الشىء يتناوله واحد بعد آخر. فالمعنى: أن السنه الإلهيه جرت على مداوله الأيام بين الناس من غير أن توقف على قوم و يذهب عنها قوم لمصالح عامه تتبع هذه السنه لا تحيط أفهامكم إلا ببعضها دون جميعها.

قوله تعالى: وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ الخ؛ عطف على محذوف حذف التلويح على أنه مما لا تحيط به الأفهام و لا تدركه العقول إلا من بعض جهاتها، و الذى ينفع المؤمنين العلم به هو ما ذكره بقوله: وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ، الخ؛ و بقوله: وَ لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الْكَافِرِينَ .

أما قوله: وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا، فالمراد به ظهور إيمان المؤمنين بعد بطونه

و خفائه، فإن علمه تعالى بالحوادث و الأشياء فى الخارج عين وجودها فيه فإن الأشياء معلومه له تعالى بنفس وجودها لا بصورة مأخوذه منها نظير علومنا و إدراكاتنا و هو ظاهر، و لازم ذلك أن يكون إرادته تعالى العلم بشىء هى إرادته تحققه و ظهوره و حيث قال: و ليعلم الله الذين آمنوا، فأخذ وجودهم محققا أفاد ذلك إرادته ظهور إيمانهم، و اذا كان ذلك على سنه الأسباب و المسببات لم يكن بد من وقوع امور توجب ظهور إيمان المؤمن بعد خفائه فافهم ذلك.

و أما قوله: وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ، فالشهداء الشهداء الأعمال و أما الشهداء بمعنى المقتولين فى معركة القتال فلا يعهد استعماله فى القرآن، و إنما هو من الألفاظ المستحدثة الاسلاميه، كما مر فى قوله تعالى: وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ (البقره/ ١٤٣)، على أن قوله: وَ يَتَّخِذَ، أيضا لا يلائم الشهداء بمعنى المقتولين فى المعركة كثير ملاءمه، فلا يقال: اتخذ الله فلانا مقتولا فى سبيله و شهيدا كما يقال: اتخذ الله ابراهيم خليلا، و اتخذ الله موسى كليما، و اتخذ الله النبى شهيدا يشهد على امته يوم القيامة.

و قد غير السياق فقال: و يتخذ منكم شهداء، و لم يقل: و يتخذهم شهداء لأن الشهاده و إن اضيفت الى الامامه فى قوله: وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ (البقره ١٤٣/)، إلا أنها من قبيل وصف البعض المضاف الى الكل، و الشهداء بعض الامه دون كلهم، و قد مر بيان ذلك فى سورة البقره، و يمكن أن يتأيد هذا الذى ذكرناه بقوله بعد: و الله لا يحب الظالمين.

و أما قوله: وَ لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الْكَافِرِينَ فَالتمحيص هو تخليص الشىء من الشوائب الخارجيه، و المحق إنفاد الشىء تدريجا و إزالته شيئا فشيئا، و هذا التمحيص من حكم مداوله الأيام و مصالحها، و هو غير العلم بالذين آمنوا الذى هو أيضا من حكم مداوله الأيام، فإن تمييز المؤمن من غير المؤمن أمر و تخليص إيمانه بعد التمييز من شوائب

الكفر و النفاق و الفسوق أمر آخر، و لذلك قول بالحق للكافرين، فالله سبحانه يزيل أجزاء الكفر و نحوه من المؤمن شيئا فشيئا حتى لا يبقى إلا إيمانه، فيكون خالصا لله، و يبىد أجزاء الكفر و الشرك و الكيد من الكافر شيئا فشيئا حتى لا يبقى شيء.

شرح سبحانه-بعد بيان أن الأيام دول متداوله لغرض الامتحان و الابتلاء-في ملامتهم في حسابان هذا النظر الباطل و بيان حقيقته الحال فقال: أم حسبتم، الى آخر الآيات.

قوله تعالى: **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛** و هذا أعنى ظنهم أن يدخلوا الجنة من غير أن يمتحنوا لازم الظن المذكور آنفا، و هو أنهم لما كانوا على الحق و الحق لا يغلب عليه فأمر الظفر و الغلبة اليهم، لن ينهزموا و لن يغلبوا أبدا، و من المعلوم أن لازم هذا الظن أن يكون كل من آمن بالنبي و لحق بجماعه المؤمنين سعيدا في دنياه بالغلبة و الغنيمه، و سعيدا في آخرته بالمغفرة و الجنة، و يبطل الفرق بين ظاهر الإيمان و حقيقته و يرتفع التمايز بين الدرجات، فإيمان المجاهد و إيمان المجاهد الصابر واحد، و من تمنى خيرا ففعله اذا حان حينه كان كمن تمنى خيرا ثم تولى اذا أصابه.

و على هذا فقوله: **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا، الخ؛** من قبيل وضع المسبب موضع السبب أى حسبتم أن الدوله مكتوبه لكم فأنتم لا تبتلون بل تدخلون الجنة من غير أن يتميز المستحق لها منكم من غير المستحق، و صاحب الدرجه الرفيعه منكم من غيره؟

و أما قوله تعالى: **وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ الْآئِيهِ؛** ففيه تثبيت أن ظنهم ذاك كان فاسدا فإنهم كانوا يتمنون الموت قبل حضور الغزوه حتى اذا حضرت و رأوه رأى العين لم يقدموا و لم يتناولوا ما كانوا يتمنون، بل فشلوا و تولوا عن القتال؛ فهل كان من الجائر أن يدخلوا الجنة بمجرد هذا التمنى من غير أن يمتحنوا أو يمحصوا؟ أو لم يكن من الواجب أن يختبروا؟.

و بهذا يظهر أن فى الكلام تقديرا، و المعنى: فقد رأيتموه و أنتم تنظرون فلم تقدموا عليه،

و يمكن أن يكون قوله: تَنْظُرُونَ كناية عن عدم إقدامهم أى تكتفون بمجرد النظر من غير إقدام، وفيه عتاب و توبيخ (١).

قوله تعالى: **وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ** الموت زهاق الروح و بطلان حياه البدن، و القتل هو الموت اذا كان مستندا الى سبب عمدى أو نحوه، و الموت و القتل اذا افترقا كان الموت أعم من القتل، و اذا اجتمعا كان الموت هو ما يحتف الأنف و القتل خلافه.

و انقلب على عقبيه أى رجع، قال الراغب: و رجع على عقبيه اذا انثنى راجعا، و انقلب على عقبيه نحو رجع على حافرتة، و نحو ارتدا على آثارهما قصصا، و قولهم رجع عوده الى بدئه، انتهى.

و حيث جعل الانقلاب على الاعقاب جزاء للشرط الذى هو موت الرسول أو قتله أفاد ذلك أن المراد به الرجوع عن الدين دون التولى عن القتال اذا لا ارتباط للفرار من الزحف بموت النبى صلى الله عليه و آله و سلم أو قتله، و إنما النسبه و الرابطه بين موته أو قتله و بين الرجوع الى الكفر بعد الإيمان.

و يدل على أن المراد به الرجوع عن الدين ما ذكره تعالى فى قوله: **وَ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ**، الى آخر الآيات؛ على أن نظير ما وقع فى أحد من فرارهم من الزحف و توليهم عن القتال تحقق فى غيره كغزوه حنين و خيبر و غيرهما و لم يخاطبهم الله بمثل هذا الخطاب و لا عبر عن توليهم عن القتال بمثل هذه الكلمه قال تعالى:

وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثَرْتُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَ ضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (التوبه ٢٥)، فالحق أن المراد بالانقلاب على الأعقاب الرجوع

ص: ٥٦٤

فمحصل معنى الآيه على ما فيها من سياق العتاب و التوبيخ: أن محمدا صلى الله عليه و آله و سلم ليس إلا رسولا من الله مثل سائر الرسل، ليس شأنه إلا تبليغ رساله ربه لا يملك من الأمر شيئا، وإنما الأمر لله و الدين دينه باق ببقائه، فما معنى اتكاء إيمانكم على حياته حيث يظهر منكم أن لو مات أو قتل تركتم القيام بالدين، و رجعتم الى أعقابكم القهقرى و اتخذتم الغوايه بعد الهدايه؟ (١).

قوله تعالى: وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا الْخ؛ تعريض لهم فى قولهم عن إخوانهم المقتولين ما يشير اليه قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَقُتِلُوا، الْآيَه؛ و قول طائفه منهم: لو كان لنا من لأمر شىء ما قتلنا هاهنا، الْآيَه؛ و هؤلاء من المؤمنين غير المنافقين الذين تركوا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و قعدوا عن القتال.

فهذا القول منهم لازمه أن لا يكون موت النفوس بإذن من الله و سنه محكمه تصدر عن قضاء مبرم، و لازمه بطلان الملك الإلهى و التدبير المتقن الربانى و سيجىء إن شاء الله الكلام فى معنى كتابه الآجال فى أول سورة الأنعام.

و لما كان لازم هذا القول ممن قال به أنه آمن لظنه أن الأمر لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و للمؤمنين فقد أراد الدنيا كما مر بينه و من اجتنب هذا فقد أراد الآخره فقال تعالى: و من يرد ثواب الدنيا نؤته منها و من يرد ثواب الآخره نؤته منها، و إنما قال: نؤته منها و لم يقل: نؤتها لأن الإراده ربما لا توافق تمام الأسباب المؤديه الى تمام مراده فلا يرزق تمام ما أراد، و لكنها لا تخلو من موافقه ما للأسباب فى الجمه دائما فإن وافق الجميع رزق الجميع و إن وافق البعض رزق البعض فحسب؛

ص: ٥٦٥

قال الله تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْرِفُ فِيهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا، (الإسراء: ١٩) وقال تعالى: وَ أَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (النجم/ ٣٩).

ثم خص الشاكرين بالذكر بإخراجهم من الطائفتين فقال: وَ سَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ و ليس إلا لأنهم يريدون إلا وجه الله لا يشتغلون بدنيا ولا آخره كما تقدم.

قوله تعالى: وَ كَآئِنٌ مِنْ نَبِيِّ قَاتَل مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ الى آخر الآيات؛ كآين كلمة تكثير و كلمه «مِنْ» بيانيه و الربيون جمع ربي و هو كالرباني من اختص بربه تعالى فلم يشتغل بغيره، و قيل: المراد به الالوف و الربى الألف، و الاستكانه هي التضرع.

و في الآيه موعظه و اعتبار مشوب بعتاب و تشويق للمؤمنين أن يأتوا بهؤلاء الربيين فيؤتيهم الله ثواب الدنيا و حسن ثواب الآخرة كما آتاهم، و يحبهم لإحسانهم كما أحبهم لذلك.

و قد حكى الله من فعلهم و قولهم ما للمؤمنين أن يعتبروا به و يجعلوه شعارا لهم حتى لا يبتلوا بما ابتلوا به يوم أحد من الفعل و القول غير المرضيين لله تعالى و حتى يجمع الله لهم ثواب الدنيا و الآخرة كما جمع لاولئك الربيين.

و قد وصف ثواب الآخرة بالحسن دون الدنيا إشاره الى ارتفاع منزلتها و قدرها بالنسبه إليها.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٤٩ الى ١٥٥]

إشارة

إِيَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) يَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَ هُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَيَنْلِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَ مَا وَاهُمُ النَّارُ وَ بَشَسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَ تَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَ لَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَ لَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَ الرِّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ فَأَرْآبِكُمْ غَمًّا بَغَمًّا لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَ لَا مَا أَصَابَكُمْ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نَاعَسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنْكُمْ وَ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنْ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَ لَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ لا يبعد أن يستفاد من السياق أن الكفار كانوا أيام نزول الآيات بعد غزوه أحد يلقون إلى المؤمنين في صورة النصح- ما يثبطهم عن القتال، و يلقى التنازع و التفرقة و تشتت الكلمه و اختلافها بينهم، و ربما أيده ما في آخر هذه الآيات من قوله: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ «إلى أن قال»: ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَ خَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ الْآيَات (١٧٣-١٧٥).

و ربما قيل: إن الآية إشارة إلى قوله اليهود و المنافقين يوم أحد: «إن محمدا قد قتل فارجعوا إلى عشائركم»؛ و ليس بشيء.

ثم لما بين أن إطاعتهم للذين كفروا و الميل إلى ولايتهم يهديهم إلى الخسران الذي هو رجوعهم إلى أعقابهم كافرين أضرب عنه بقوله: بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَ هُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ .

قوله تعالى: سَنُنَلِّقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ الْخُبْرَ؛ و وعد جميل للمؤمنين بأنهم سينصرون بالرعب، و لقد كان رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يذكره فيما حباه الله تعالى و خصه به من بين الأنبياء على ما رواه الفريقان.

و قوله: بِمَا أَشْرَكُوا، معناه: اتخذوا له ما ليس معه برهان شريكاً، و مما يكرره القرآن أن ليس لإثبات الشريك لله سلطان، و من إثبات الشريك نفى الصانع و إسناد التأثير و التدبير إلى غيره كالدهر و المادة.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ الْحَسَنَ

-بالفتح-:القتل على وجه الاستيصال.

و لقد اتفقت الروايات و ضبطه التاريخ في قصه غزوه أحد أن المؤمنين غلبوهم و ظهوروا عليهم في أول الأمر و وضعوا فيهم السيوف و شرعوا في نهب أموالهم حتى اذا خلى الرماه مكانهم في المكن حمل خالد بن الوليد فيمن معه على عبد الله بن جبير و من بقى معه من الرماه فقتلوهم، و حملوا على المؤمنين من ورائهم، و تراجع المشركون عن هزيمتهم و وضعوا السيوف في أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و قتلوا منهم سبعين ثم هزموهم أشد هزيمه.

فقوله تعالى: **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعِدَّهُ**، تثبیت صدق وعده بالنصر بشرط التقوى و الصبر؛ وقوله: **إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ**، يقبل الانطباق على ما رزقهم في أول الأمر من الظهور على عدوهم يوم أحد، وقوله: **حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَ تَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ**، ينطبق على ما صنعه الرماه حيث تنازعوا فيما بينهم في ترك مراكزهم و اللحق بمن مع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لنيل الغنيمه ففشلوا و تنازعوا في الأمر و عصوا أمر النبي بأن لا يتركوا مراكزهم على أى حال، و على هذا فلا بد من تفسير الفشل بضعف الرأى، و أما كونه بمعنى الجبن فلا ينطبق عليهم اذ لم يكن ذلك منهم جبناً بل طمعا في الغنيمه، و لو كان الفشل بمعنى الجبن كان منطبقا على حال جميع القوم و يكون على هذا «**تُمْ**» في قوله: **تُمْ صَدَقَكُم**، مفيد للتراخي الرتبى دون الزمانى.

و يدل لفظ التنازع على أن الكل لم يكونوا مجمعين على الفشل و المعصيه بل كان بعضهم يصر على الإطاعه و البقاء على الائتثار و لذا قال تعالى بعده: **منكم من يريد الدنيا و منكم من يريد الآخره.**

قوله تعالى: **تُمْ صَدَقَكُم عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ**، أى كفكم عن المشركين بعد ظهور الفشل و التنازع و المعصيه، و بالجملة بعد وقوع الاختلاف بينكم ليمتحنكم و يختبر إيمانكم و صبركم في الله اذ الاختلاف في القلوب هو أقوى العوامل المقتضيه لبسط الابتلاء لىتميز

المؤمن من المنافق، والمؤمن الراسخ في إيمانه الثابت على عزمته من المتلون السريع الزوال، ومع ذلك فإن الله سبحانه عفا عنهم بفضلهم كما قال: ولقد عفا عنكم.

قوله تعالى: إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ الإصعاد هو الذهاب والإبعاد في الأرض بخلاف الصعود فهو الارتقاء الى مكان عال يقال: أصعد في جانب البر أى ذهب فيه بعيداً، وصعد في السلم أى ارتقى، وقيل: إن الإصعاد ربما استعمل بمعنى الصعود.

والظرف متعلق بمقدر أى اذكروا اذ تصعدون، أو بقوله: صَيْرَفَكُمْ، أو بقوله لِيَبْتَلِيَكُمْ، -على ما قيل- وقوله: وَلَا تَلْوُونَ، من اللى بمعنى الالتفات و المل قال فى المجمع: ولا يستعمل إلا فى النفى لا يقال: لويت على كذا، انتهى.

وقوله: وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ، الأخرى مقابل الاولى و كون الرسول يدعو و هو فى أخراهم يدل على أنهم تفرقوا عنه صلى الله عليه وآله وسلم وهم سواد ممتد على طوائف أوليهم مبتعدون عنه صلى الله عليه وآله وسلم و أخراهم بقرب منه، و هو يدعوهم من غير أن يلتفت اليه لا-اولاهم ولا- أخراهم فتركوه صلى الله عليه وآله وسلم بين جموع المشركين و هم يصعدون فرارا من القتل.

نعم قوله تعالى قبيل هذا: وسيجزى الله الشاكرين-وقد مر تفسيره-يدل على أن منهم من لم يتزلزل في عزمته و لم ينهزم لا فى أول الانهزام، ولا بعد شيوخ خبر قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ما يدل عليه قوله: أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ، الآية.

و مما يدل عليه قوله: وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ أن خبر قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما انتشر بينهم بعد انهزامهم و إصعادهم.

قوله تعالى: فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمِّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ الخ؛ أى جازاكم غما بغم ليصرفكم عن لحزن على كذا، وهذا الغم الذى اثبوا به كيفما كان هو نعمه منه تعالى بدليل قوله: لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ، فإن الله

تعالى ذم في كتابه هذا الحزن كما قال: لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ (الحديد ٢٣) فهذا الغم الذي يصرفهم عن ذاك الحزن المذموم نعمه و موهبه فيكون هو الغم الطارى عليهم من جهه الندامه على ما وقع منهم و التحسر على ما فاتهم من النصر بسبب الفشل، و يكون حينئذ الغم الثانى فى قوله: بَغَمٌ، الغم الآتى من قبل الحزن المذكور، و الباء للبدليه، و المعنى: جازاكم غما بالندامه و الحسره على فوت النصر بدل غم بالحزن على ما فاتكم و ما أصابكم.

و من الجائز أن يكون قوله: فَأَذَابُكُمْ مضمنا معنى الإبدال فيكون المعنى: فأبدلكم غم الحزن من غم الندامه و الحسره ماثيا لكم، فينعكس المعنى فى الغمين بالنسبه الى المعنى السابق.

و على كل من المعنيين يكون قوله: فَأَذَابُكُمْ، تفريعا على قوله: وَ لَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ، و يتصل به ما بعده أعنى قوله: ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ، أحسن اتصال، و الترتيب: أنه عفا عنكم فأثابكم غما بغم ليصونكم عن الحزن الذى لا يرتضيه لكم ثم أنزل عليكم من بعد الغم امنه نعاسا.

و هاهنا وجه آخر يساعده ظهور السياق فى تفريع قوله: فَأَذَابُكُمْ، على ما يتصل به بمعنى أن يكون الغم هو ما يتضمنه قوله: إِذْ تُصِيبُ الْجُنُودَ، و المراد بقوله: بَغَمٌ هو ما أدى اليه التنازع و المعصيه و هو إشراف المشركين عليهم من ورائهم، و الباء للسببيه و هذا معنى حسن، و على هذا يكون المراد بقوله: لِكَيْلَا تَحْزَنُوا، الخ؛ نيين لكم حقيقه الأمر لئلا تحزنوا، كما فى قوله تعالى: مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ الْآيَه (الحديد ٢٣).

فهذا ما يستقيم به نظم الآيه و اتساق الجمل المتعاقبه، و للمفسرين احتمالات كثيره فى الآيه من حيث ما عطف عليه قوله: فَأَذَابُكُمْ، و من حيث معنى الغم الأول و الثانى و معنى الباء و معنى قوله: لِكَيْلَا، ليست من الاستقامه على شىء، و لا جدوى فى نقلها و البحث عنها.

و على ما احتملناه من أحد معنيين يكون المراد مما فات في قوله: لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَيَّ مَا فَاتَكُمْ هو الغلبه و الغنيمه، و مما أصاب ما أصاب القوم من القتل و الجرح.

قوله تعالى: ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنًا نَعَسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ الْأَمْنَةَ بِالتَّحْرِيكِ الْأَمْنِ، و النعاس ما يتقدم النوم من الفتور و هو نوم خفيف، و نعاسا بدل من أمني للملازمه عاده، و ربما احتمل أن يكون أمني جمع آمن كطالب و طلبه، و هو حينئذ حال من ضمير عليكم، و نعاسا مفعول قوله: أَنْزَلَ، و الغشيان: الإحاطه.

و الآيه تدل على أن هذا النعاس النازل إنما غشى طائفه من القوم، و لم يعم الجميع بدليل قوله: طَائِفَةً مِنْكُمْ، و هؤلاء هم الذين رجعوا الى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بعد الانهزام و الإصعاد لما ندموا و تحسروا، و حاشا أن يعفو الله عنهم عفو رحمه و هم في حال الفرار عن الزحف و هو من كبائر المعاصي و الآثام و قد قال: و لقد عفا عنكم و الله ذو فضل على المؤمنين، و حاشا أن تشمل عنايته تعالى على مقترف الفحشاء و المنكر حين يقترف من قبل أن يتوب و قد عنى في حقهم حين أثابهم غما بغم لكيلا يحزنوا فيتقدر قلوبهم بما لا يرتضيه الله سبحانه على ما مر بيانه.

فهؤلاء بعض القوم و هم النادمون على ما فعلوا الرجوعون الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ المحترفون به، و كأن ذلك إنما كان حين فارق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ جموع المشركين و عاد الى الشعب، و إن كان عودهم اليه تدريجا بعد العلم بأنه لم يقتل.

و أما البعض الآخر من القوم فهم الذين يذكروهم الله بقوله: وَ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ .

قوله تعالى: وَ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ هَذِهِ طَائِفَةٌ أُخْرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ نَعْنَى بِكُونِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ غَيْرُ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ أُخِيرًا بِقَوْلِهِ: وَ لِيُعْلَمَ الَّذِينَ ذَاقُوا وَ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَا، الآيه؛ و هم الذين فارقوا جماعه المؤمنين من أول الأمر قبل القتال و اتخذوا هؤلاء المنافقون لهم شأن آخر سينبئ

اللّٰه بذلك.

و هؤلاء الطائفه الثانيه الموصوفون بأنهم قد أهتمهم أنفسهم لم يكرمهم اللّٰه بما أكرم به الطائفه الاولى من العفو و إثابه الغم ثم الأمنه و النعاس بل وكلهم الى أنفسهم فأهتمهم أنفسهم و نسوا كل شىء دونها.

و قد ذكر اللّٰه تعالى من أوصافهم وصفين اثنين و إن كان أحدهما من لوازم الآخر و فروعه، فذكر أنهم أهتمهم أنفسهم؛ و ليس معناه أنهم يريدون سعادته أنفسهم بمعناها الحقيقى فإن المؤمنين أيضا لا يريدون إلا سعادته أنفسهم فالإنسان بل كل ذى همامه و إرادته لا يريد إلا نفسه البتة، بل المراد: أن ليس لهم هم إلا حفظ حياتهم الدنيا و عدم الوقوع فى شبكه القتل فهم لا يريدون بدين أو غيره إلا إمتاع أنفسهم فى الدنيا و إنما ينتحلون بالدين ظنا منهم أنه عامل غير مغلوب، و أن اللّٰه لا يرضى بظهور أعدائه عليه، و إن كانت الأسباب الظاهريه لهم فهؤلاء يستدرون الدين ما در لهم، و إن انقلب الأمر و لم يسعدهم الجسد انقلبوا على أعقابهم القهقرى.

قوله تعالى: [□]يُظُنُّونَ بِاللّٰهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ [□]الى قوله: «لِلّٰهِ» أى ظنوا باللّٰه أمرا ليس بحق بل هو من ظنون الجاهليه فهم يصفونه بوصف ليس بحق بل من الأوصاف التى كان يصفه بها أهل الجاهليه، و هذا الظن أيا ما كان هو شىء يناسبه و يلازمه قولهم: هل لنا من الأمر من شىء، و يكشف عنه ما أمر النبى صلى اللّٰه عليه و آله و سلم أن يجيبهم به، و هو قوله: قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلّٰهِ فظاهر هذا الجواب أنهم كانوا يظنون أن بعض الأمر لهم و لذا لما غلبوا و فشا فيهم القتل تشككوا فقالوا: هل لنا من الأمر من شىء.

و بذلك يظهر أن الأمر الذى كانوا يرونه لأنفسهم هو الظهور و الغلبه، و إنما كانوا يظنونه لأنفسهم من جهه إسلامهم فهم قد كانوا يظنون أن الدين الحق لا يغلب و لا يغلب المتدين به لما أن على اللّٰه أن ينصره من غير قيد و شرط و قد وعدهم به.

ص: ٥٧٣

و هذا هو الظن بغير الحق، الذى هو ظن الجاهليه فإن وثنيه الجاهليه كانت تعتقد أن الله تعالى خالق كل شىء و أن لكل صنف من أصناف الحوادث كالرزق و الحياه و الموت و العشق و الحرب و غيرها، و كذا لكل نوع من الأنواع الكونيه كالإنسان و الأرض و البحار و غيرها ربا يدبر أمرها لا- يغلب على إرادته، و كانوا يعبدون هؤلاء الأرباب ليدروا لهم الرزق، و يجلبوا لهم السعاده، و يقوهم من الشرور و البلايا، و الله سبحانه كالمملك العظيم يفوض كل صنف من أصناف رعيته و كل شطر من أقطار ملكه الى وال تام الاختيار له أن يفعل ما يشاؤه فى منطقه نفوذه و حوزة ولايته.

و اذا ظن الظان أن الدين الحق لا يصير مغلوبا فى ظاهر تقدمه و النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم- و هو أول من يتحملة من ربه و يحمل أثقاله- لا يقهر فى ظاهر دعوته أو أنه لا يقتل أو لا يموت فقد ظن بالله غير الحق ظن الجاهليه فاتخذ لله أندادا، و جعل النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم ربا و ثنيا مفوضا اليه أمر الغلبه و الغنيمه، مع أن الله سبحانه واحد لا شريك له، اليه يرجع الأمر كله و ليس لأحد من الأمر شىء، و لذلك لما قال تعالى فيما تقدم من الآيات: ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين، قطع الكلام بالاعتراض فقال- يخاطب نبيه-: ليس لك من الأمر شىء لئلا يتوهم أن له صَلَّى الله عليه و آله و سلم دخلا فى قطع أو كبت، و الله سبحانه هو الذى وضع سنه الأسباب و المسببات، فما كان سببه أقوى كان وقوعه أرجح سواء فى ذلك الحق و الباطل، و الخير و الشر، و الهدايه و الضلاله، و العدل و الظلم؛ و لا فرق فيه بين المؤمن و الكافر، و المحبوب و المبعوض، و محمد و أبى سفيان.

نعم لله سبحانه عنايه خاصه بدينه و بأوليائه يجرى نظام الكون بسببها جريا ينجر الى ظهور الدين و تمهد الأرض لأوليائه و العاقبه للمتقين.

و أمر النبوه و الدعوه ليس بمستثنى من هذه السنه الجاريه، و لذلك كلما توافقت الأسباب العاديه على تقدم هذا الدين و ظهور المؤمنين كبعض غزوات النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم كان ذلك، و حيث لم

يتوافق الأسباب كتحقق نفاق أو معصية الأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أو فشل أو جزع كانت الغلبة و الظهور للمشركين على المؤمنين، وكذلك الحال في أمر سائر الأنبياء مع الناس فإن أعداد الأنبياء لكونهم أهل الدنيا، وقصرهم مساعيهم في عمارة الدنيا، وبسط القدره، وتشديد القوه، و جمع الجموع كانت الغلبة الظاهريه و الظهور لهم على الأنبياء، فمن مقتول كزكريا، و مذبوح كيحیی، و مشرد كعیسی الى غير ذلك.

نعم اذا توقف ظهور الحق بحقانيته على انتقاض نظام العاده دون السنه الواقعيه و بعباره اخرى دار أمر الحق بين الحياه و الموت كان على الله سبحانه أن يقيم صلب الدين و لا يدمعه تدحض حجته، و قد مر شطر من هذا البحث في القول على الإعجاز في الجزء الأول من الكتاب، و في الكلام على أحكام الأعمال في الجزء الثاني منه.

و لارجع الى ما كنا فيه: فقول هؤلاء الطائفة الذين أهمتهم أنفسهم: هل لنا من الأمر من شيء، تشكك في حقيه الدين و قد أدرجوا في هيكله روح الوثنيه على ما مر بيانه، فأمر سبحانه نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يجيبهم فقال: قل إن الأمر كله لله، و قد خاطب نبيه قبل ذلك بقوله:

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ فَبين بذلك أن مله الفطره و دين التوحيد هو الذي لا يملك فيه الأمر إلا الله جل شأنه، و باقى الأشياء و منها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ليست بمؤثره شيئاً بل هي في حيطه الأسباب و المسببات و السنه الإلهيه التي تؤدي الى جريان ناموس الابتلاء و الامتحان.

قوله تعالى: يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ الْخِ، و هذا توصيف لهم بما هو أشد من قولهم: هل لنا من الأمر من شيء، فإنه كان تشكيكا في صوره السؤال، و هذا أعنى قولهم: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا ترجيح في هيئته الاستدلال، و لذلك أبدوا قولهم الأول للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و أخفوا قولهم الثاني لاشتماله على ترجيح الكفر على الإسلام.

فأمر الله تعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يجيبهم فقال: قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم

القتل الى مضاجعهم و لبيتلى الله ما فى صدوركم و ليمحص ما فى قلوبكم، فبين لهم:

اولاً: أن قتل من قتل منكم فى المعركة ليس لعدم كونكم على الحق، وعدم كون الأمر لكم على ما ترعمون بل لان القضاء الإلهى و هو الذى لا مناص من نفوذه و مضيه جرى على أن يضطجع هؤلاء المقتولون فى هذه المضاجع، فلو لم تكونوا خرجتم الى القتال لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم، فلا مفر من الأجل المسمى الذى لا تستأخرون عنه ساعه و لا تستقدمون.

و ثانياً: أن سنه الله جرت على عموم الابتلاء و التمحيص و هى واقعه بهم و بكم لا محاله، فلم يكن بد من خروجكم و وقوع هذا القتال حتى يحل المقتولون محلهم و ينالوا درجاتهم، و تحلوا أنتم محلكم فيتعين لكم أحد جانبي السعاده و الشقاوه بامتحان ما فى صدوركم من الأفكار، و تخليص ما فى قلوبكم من الإيمان و الشرك.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا اسْتَزَلَّ الشَّيْطَانُ إِيَّاهُمْ إِرَادَتَهُ وَقُوْعُهُمْ فِي الزَّلَّةِ، و لم يرد ذلك منهم إلا بسبب بعض ما كسبوا فى نفوسهم و من أعمالهم فإن السيئات يهدى بعضها الى بعض فإنها مبنيه على متابعه هوى النفس، و هو النفس للشىء هو لما يشاكلة.

و أما احتمال كون الباء للآله و كون ما كسبوا عين توليهم يوم الالتقاء فبعيد من ظاهر اللفظ فإن ظاهر «مَا كَسَبُوا» تقدم الكسب على التولى و الاستزلال.

و كيف كان فظاهر الآيه أن بعض ما قدموا من الذنوب و الآثام مكن الشيطان أن أغواهم بالتولى و الفرار، و من هنا يظهر أن احتمال كون الآيه ناظره الى نداء الشيطان يوم أحد بقتل النبى صلى الله عليه و آله و سلم على ما فى بعض الروايات ليس بشىء اذا لا دلالة عليه من جهة اللفظ.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ هذا العفو هو عن الذين تولوا، المذكورين فى صدر الآيه، و الآيه مطلقه تشمل جميع من تولى يومئذ فتعم الطائفتين

جميعا أعنى الطائفة التى غشيهىم النعاس و الطائفة التى أهمتهم أنفسهم، و الطائفتان مختلفتان بالتكريم بإكرام الله و عدمه، و لكونهما مختلفتين لم يذكر مع هذا العفو الشامل لهما معا جهات الإكرام التى اشتمل عليها العفو المتعلق بالطائفة الاولى على ما تقدم بيانه.

و من هنا يظهر أن هذا العفو المذكور فى هذه الآيه غير العفو المذكور فى قوله: **وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ**، و من الدليل على اختلاف العفوين ما فى الآيتين من اختلاف اللحن ففرق واضح بين قوله تعالى: **وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ** و **اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** حيث إنه كلام مشعر بالفضل و الرأفة و قد سماهم مؤمنين ثم ذكر إثابتهم بما بغم لكيلا يحزنوا ثم إنزاله عليهم أمناه نعاسا، و بين قوله تعالى: **وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ** إن الله غفور حلیم حيث ذكر العفو و سكت عن جميع ما أكرم الطائفة الاولى به ثم ختم الكلام بذكر حلمه و هو أن لا يعجل فى العقوبه و العفو الذى مع الحلم إغماض مع استبطان سخط.

فان قلت: إنما سوى بين الطائفتين من سوى بينهما لمكان ورود العفو عنهما جميعا.

قلت: معنى العفو مختلف فى الموردین بحسب المصداق و إن صدق على الجميع مفهوم العفو على حد سواء، و لا دليل على كون العفو و المغفره و ما يشابههما فى جميع الموارد سنخا واحدا، و قد بينا وجه الاختلاف (١).

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٥٦ الى ١٦٤]

إشارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحِبُّ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِيَأْتِيَنَّكُمْ اللَّهُ بِخَيْرٍ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْغَالِبِينَ (١٥٩) إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَمِمَّا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُعَلِّقَ مِنْ بَعْضِ مَا يَأْتِي بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانِ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبُنْسِ الْمَصِيرِ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤)

ص: ٥٧٧

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا الخ؛ المراد بهؤلاء

الذين كفروا ما هو ظاهر اللفظ أعنى الكافرين دون المنافقين- كما قيل- لأن النفاق بما هو نفاق ليس منشأ لهذا القول- وإن كان المنافقون يقولون ذلك- وإنما منشؤه الكفر فيجب أن ينسب الى الكافرين.

و الضرب في الأرض كناية عن المسافره، و غزى جمع غاز كطالب و طلب و ضارب و ضرب، و قوله: لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسِيرَةً ، أى ليعذبهم بها فهو من قبيل وضع المغيا موضع الغايه، و قوله: وَ اللَّهُ يُحْيِي وَ يُمِيتُ ، بيان لحقيقه الأمر التى أخطأ فيها الكافرون القائلون: لو كانوا، و هذا الموت يشمل الموت حتف الأنف و القتل كما هو مقتضى إطلاق الموت وحده على ما تقدم، و قوله: وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ فى موضع التعليل للنهى فى قوله: لَا تَكُونُوا، الخ.

و قوله: مَا مَاتُوا وَ مَا قُتِلُوا قدم فيه الموت على القتل ليكون النشر على ترتيب الف فى قوله: إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى ، و لأن الموت أمر جار على الطبع و العاده المألوفه بخلاف القتل فإنه أمر استثنائى فقدم ما هو المألوف على غيره.

و محصل الآيه نهى المؤمنين أن يكونوا كالكافرين فيقولوا لمن مات منهم فى خارج بلده أو قومه، و فيمن قتل منهم فى غزاه: لو كانوا عندنا ما ماتوا و ما قتلوا فإن هذا القول يسوق الإنسان الى عذاب قلبى و نقمه إلهيه و هو الحسره الملقاه فى قلوبهم، مع أنه من الجهل فإن القرب و البعد منهم ليس بمحىي و مميت بل الإحياء و الإماتة من الشئون المختصه بالله وحده لا شريك له فليتقوا الله و لا يكونوا مثلهم فإن الله بما يعملون بصير.

قوله تعالى: وَ لئن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ الظاهر أن المراد مما يجمعون هو المال و ما يلحق به الذى هو عمدته البغيه فى الحياه الدنيا.

و قد قدم القتل هاهنا على الموت لأن القتل فى سبيل الله أقرب من المغفره بالنسبه الى الموت فهذه النكته هى الموجه لتقديم القتل على الموت، و لذلك عاد فى الآيه التاليه: و لئن

متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون الى الترتيب الطبيعي بتقديم الموت على القتل لفقد هذه النكته الزائده.

قوله تعالى: [□]فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ [□]الى آخر الآيه،الفظ هو الجافى القسى،و غلظ القلب كناية عن عدم رفته و رأفته،و الانفضاض التفرق.

و فى الآيه التفات عن خطابهم الى خطاب رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سَلَّمَ،و أصل المعنى:فقد لان لكم رسولنا برحمه منا،و لذلك أمرناه أن يعفو عنكم و يستغفر لكم و يشاوركم فى الأمر و أن يتوكل علينا اذا عزم.

و نكته الالتفات ما تقدم فى أول آيات الغزوه أن الكلام فيه شوب عتاب و توبيخ،و لذلك اشتمل على بعض الإعراض فى ما يناسبه من الموارد و منها هذا المورد الذى يتعرض فيه لبيان حال من أحوالهم لها مساس بالاعتراض على النبي صَلَّى الله عليه و آله و سَلَّمَ فإن تحزنهم لقتل منهم ربما دلهم على المناقشه فى فعل النبي صَلَّى الله عليه و آله و سَلَّمَ،و رمية بأنه أوردتهم مورد القتل و الاستيصال، فأعرض الله تعالى عن مخاطبتهم و التفت الى نبيه صَلَّى الله عليه و آله و سَلَّمَ فخاطبه بقوله: [□]فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ .

و الكلام متفرع على كلام آخر يدل عليه السياق،و التقدير:و اذا كان حالهم ما تراه من التشبه بالذين كفروا و التحسر على قتلاهم فبرحمه منا لنت لهم و إلا لانفضوا من حولك.و الله أعلم.

و قوله: [□]فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شاورَهُمْ [□]فى الأمر إنما سيق ليكون إمضاء لسيرته صَلَّى الله عليه و آله و سَلَّمَ فإنه كذلك كان يفعل،و قد شاورهم فى أمر القتال قبيل يوم أحد،و فيه إشعار بأنه إنما يفعل ما يؤمر و الله سبحانه عن فعله راض.

و قد أمر الله تعالى نبيه صَلَّى الله عليه و آله و سَلَّمَ أن يعفو عنهم فلا يرتب على فعالهم أثر المعصيه،و أن يستغفر فيسأل الله أن يغفر لهم-و هو تعالى فاعله لا محاله-و اللفظ و إن كان مطلقا لا يختص بالمورد

غير أنه لا- يشمل موارد الحدود الشرعيه و ما يناظرها و إلا لغى التشريع، على أن تعقيبه بقوله: **وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ لَا يَخْلُو عَنِ الْإِشْعَارِ** بأن هذين الأمرين إنما هما في ظرف الولاية و تدبير الامور العامه مما يجرى فيه المشاوره معهم.

و قوله: **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**، و اذا أحببك كان وليا و ناصرا لك غير خاذلك، و لذا عقب الآية بهذا المعنى و دعا المؤمنين أيضا الى التوكل فقال: **إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ** و إن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ثم أمرهم بالتوكل بوضع سببه موضعه فقال: **و عَلَى اللَّهِ فليتوكل المؤمنون** أى لإيمانهم بالله الذى لا ناصر و لا معين إلا هو.

قوله تعالى: **وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغَلَّ**، الغل هو الخيانه، قد مر فى قوله تعالى: **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ خَائِنًا** (آل عمران ٧٩)، ان هذا السياق معناه تنزيه ساحه النبى عن السوء و الفحشاء بطهارته، و المعنى: حاشا أن يغل و يخون النبى ربه أو الناس (و هو أيضا من الخيانه لله) و الحال أن الخائن يلقى ربه بخيانه ثم توفى نفسه ما كسبت.

ثم ذكر أن رمى النبى بالخيانه قياس جائر مع الفارق فإنه متبع رضوان الله لا يعدو رضى ربه، و الخائن باء بسخط عظيم من الله و مأواه جهنم و بئس المصير، و هذا هو المراد بقوله: **أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ**، الآية.

و يمكن أن يكون المراد به التعريض للمؤمنين بأن هذه الأحوال من التعرض لسخط الله، و الله يدعوكم بهذه المواعظ الى رضوانه، و ما هما سواء.

ثم ذكر أن هذه الطوائف من المتبعين لرضوان الله و البائين بسخط من الله درجات مختلفه، و الله بصير بالأعمال فلا تزعموا أنه يفوته الحقيير من الخير أو شرفتسامحوا فى اتباع رضوانه أو البوء بسخطه.

قوله تعالى: **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**، فى الآيه التفات آخر من خطاب

المؤمنين الى تنزيلهم منزله الغيبه، وقد مر الوجه العام في هذه الموارد من الالتفات و الوجه الخاص بما هاهنا أن الآيه مسوقه سوق الامتتان و المَنَّ على المؤمنين لصفه إيمانهم و لذا قيل: على المؤمنين، و لا يفيد غير الوصف حتى لو قيل: الذين آمنوا، لأن المشعر بالعليه-على ما قيل- هو الوصف أو أنه الكامل في هذا الإشعار، و المعنى ظاهر.

و في الآيه أبحاث أخر سيأتي شطر منها في المواضع المناسبه لها إن شاء الله العزيز.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٦٥ الى ١٧١]

إشاره

أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَ مَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنْعِيمِ الْجَمْعَانِ فَيَا ذُنَّ اللَّهَ وَ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِهِمْ وَقَعِدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) وَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)

قوله تعالى: **أَوَلَمَّا أَصَابْتُمُ مِصْرَهُ قَدْ أَصَيْتُمْ مِثْلَيْهَا**، لما نهاهم أن يكونوا كالذين كفروا في التحزن لقتلاهم و التحسر عليهم ببيان أن أمر الحياه و الموت الى الله وحده لا إليهم حتى يدورا مدار قربهم و بعدهم و خروجهم الى القتال أو قعودهم عنه رجوع ثانيا الى بيان سببه القريب على ما جرت عليه سنه الأسباب، فبين أن سببه إنما هو المعصيه الواقعه يوم احد منهم و هو معصيه الرماه بتخليه مراكزهم، و معصيه من تولى منهم عن القتال بعد ذلك، و بالجمله سببه معصيتهم الرسول - و هو قائدهم - و فشلهم و تنازعهم في الأمر و ذلك سبب للانهازم بحسب سنه الطبيعه و العاده.

فالآيه في معنى قوله: **أَتَدْرُونَ مِنْ أَيْنَ أَصَابْتُمُ مِصْرَهُ قَدْ أَصَيْتُمْ مِثْلَيْهَا**؟ إنما أصابتكم من عند أنفسكم و هو إفسادكم سبب الفتح و الظفر بأيديكم و مخالفتكم قائدكم و فشلكم و اختلاف كلمتكم.

و قد وصفت المصيه بقوله: **قَدْ أَصَبْتُمُ مِثْلَيْهَا** و هو إشاره الى مقايسه ما أصابهم الكفار يوم أحد، و هو قتل سبعين رجلا منهم بما أصابوا الكفار يوم بدر و هو مثلا السبعين فإنهم قتلوا منهم يوم بدر سبعين رجلا و أسروا سبعين رجلا.

و في هذا التوصيف تسكين لطيش قلوبهم و تحقير للمصيه فإنهم اصيبوا من أعدائهم بنصف ما أصابوهم فلا ينبغي لهم أن يحزنوا أو يجزعوا.

و قيل: إن معنى الآية: إنكم أنفسكم اخترتم هذه المصيه، و ذلك أنهم اختاروا الفداء من

الأسرى يوم بدر، و كان الحكم فيهم القتل، و شرط عليهم أنكم إن قبلتم الفداء قتل منكم فى القابل بعدتهم فقالوا: رضينا فإننا نأخذ الفداء و ننتفع به، و اذا قتل منا فيما بعد كنا شهداء.

و يؤيد هذا الوجه بل يدل عليه ما ذيل به الآيه أعنى قوله: إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ اذ لا تلائم هذه فقره الوجه السابق البتة إلا بتعسف، و سيجىء روايته عن أئمة أهل البيت عليهم السّلام فى البحث الروائى الآتى.

قوله تعالى: وَ مَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقِيّ الْجُمُعَانِ الى آخر الآيتين؛ الآيه الاولى تؤيد ما تقدم أن المراد بقوله: قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ، اختيارهم الفداء من أسرى يوم بدر، و شرطهم على أنفسهم لله ما شرطوا لإصابه هذه المصيبة بإذن الله، و أما الوجه الأول المذكور و هو أن المعنى أن سبب إصابه المصيبة القريب هو مخالفتكم فلا تلاؤم ظاهرا بينه و بين نسبه المصيبة الى إذن الله و هو ظاهر.

فعلى ما ذكرنا يكون ذكر استناد إصابه المصيبة الى إذن الله بمنزله البيان لقوله: هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ، و ليكون توطئه لانضمام قوله: وَ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ، و بانضمامه يتمهد الطريق للتعرض لحال المنافقين و ما تكلموا به و جوابه و بيان حقيقه هذا الموت الذى هو القتل فى سبيل الله.

و قوله: أَوْ اذْفَعُوا أى لو لم تقاتلوا فى سبيل الله فادفعوا عن حريمكم و أنفسكم و قوله: هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، اللام بمعنى الى فهذا حالهم بالنسبه الى الكفر الصريح، و أما النفاق فقد واقعه بفعلهم ذلك.

و قوله: «يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ» ، ذكر الأفواه للتأكيد، و للتقابل بينها و بين القلوب.

قوله تعالى: الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعِدُوا لَوِ اطَّاعُونَا مَا قُتِلُوا ، المراد بإخوانهم إخوانهم فى النسب و هم القتلى، و إنما ذكر اخوتهم لهم ليكون مع انضمام قوله: وَقَعِدُوا

أوقع تعبير و تأنيب عليهم فإنهم قعدوا عن إمداد إخوانهم حتى أصابهم ما أصابهم من القتل الذريع، وقوله: قُلْ فَادْرَأُوا جِوَابَ عَنْ قَوْلِهِمْ ذَاكَ؛ وَالدَّرءُ: الدَّفْعُ.

قوله تعالى: وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا الْآيَةَ؛ فِي الْآيَةِ التَّفَاتِ عَنْ خُطَابِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى خُطَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَالْوَجْهَ فِيهِ مَا تَكَرَّرَ ذِكْرُهُ فِي تَضَاعِيفِ هَذِهِ الْآيَاتِ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْخُطَابُ تَمَمَهُ الْخُطَابُ فِي قَوْلِهِ: قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

و المراد بالموت بطلان الشعور و الفعل، و لذا ذكرهما في قوله: بَلْ أَحْيَاءٌ، الخ؛ حيث ذكر الارتزاق و هو فعل، و الفرح الاستبشار و معهما شعور.

قوله تعالى: فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ الْآيَةَ؛ الْفَرَحُ ضِدُّ الْحُزْنِ، وَ الْبَشَارَةُ وَ الْبُشْرَى مَا يَسْرُكُ مِنَ الْخَبْرِ وَ الْاسْتَبْشَارُ طَلَبُ السَّرُورِ بِالْبُشْرَى، وَ الْمَعْنَى: أَنَّهُمْ فَرِحُوا بِمَا وَجَدُوهُ مِنَ الْفَضْلِ الْإِلَهِيِّ الْحَاضِرِ الْمَشْهُودِ عِنْدَهُمْ، وَ يَطْلُبُونَ السَّرُورَ بِمَا يَأْتِيهِمْ مِنَ الْبُشْرَى بِحَسَنِ حَالٍ مِنْ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَنْ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

من ذلك يظهر أولاً أن هؤلاء المقتولين في سبيل الله يأتهم و يتصل بهم أخبار خيار المؤمنين الباقين بعدهم في الدنيا.

و ثانياً أن هذه البشرى هي ثواب أعمال المؤمنين و هو أن لا خوف عليهم و لا هم يحزنون و ليس ذلك إلا بمشاهدتهم هذا الثواب في دارهم التي هم فيها مقيمون فإنما شأنهم المشاهدة دون الاستدلال ففي الآية دلالة على بقاء الإنسان بعد الموت ما بينه و بين يوم القيامة، و قد فصلنا القول فيه في الكلام على نشأ البرزخ في ذيل قوله تعالى: وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ الْآيَةَ (البقره ١٥٤).

قوله تعالى: يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلِ الْآيَةِ؛ هَذَا الْاسْتَبْشَارُ أَعْمٌ مِنَ الْاسْتَبْشَارِ بِحَالٍ غَيْرِهِمْ وَ بَحَارِ أَنْفُسِهِمْ وَ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ،

فإنه بإطلاقه شامل للجميع، ولعل هذه هي النكته في تكرار الاستبشار و كذا تكرار الفضل فتدبر في الآية.

وقد نكر الفضل و النعمه و أبهم الرزق في الآيات ليذهب ذهن السامع فيها كل مذهب ممكن؛ ولذا أبهم الخوف و الحزن ليدل في سياق النفي على العموم.

و التدبر في الآيات يعطى أنها في صدد بيان أجر المؤمنين أولاً، و أن هذه الأجر رزقهم عند الله سبحانه ثانياً، و أن هذا الرزق نعمه من الله و فضل ثالثاً، و أن الذى يشخص هذه النعمه و الفضل هو أنهم لا خوف عليهم و لا هم يحزنون رابعاً.

و هذه الجملة أعنى قوله: **أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** كلمه عجيبه كلما أمعنت في تدبرها زاد في اتساع معناها على لطف ورقه و سهوله بيان، و أول ما يلوح من معناها أن الخوف و الحزن مرفوعان عنهم، و الخوف إنما يكون من أمر ممكن محتمل يوجب انتفاء شىء من سعادته الإنسان التى يقدر نفسه واجده لها، و كذا الحزن إنما يكون من جهة أمر واقع يوجب ذلك؛ فالبليه أو كل محذور إنما يخاف منها اذا لم يقع بعد فاذا وقعت زال الخوف و عرض الحزن فلا خوف بعد الوقوع و لا حزن قبله.

فارتفاع مطلق الخوف عن الإنسان إنما يكون اذا لم يكن ما عنده من وجوه النعم في معرض الزوال، و ارتفاع مطلق الحزن إنما يتيسر له اذا لم يفقد شيئاً من أنواع سعادته لا ابتداء و لا بعد الوجدان، فرفعه تعالى مطلق الخوف و الحزن عن الإنسان معناه أن يفيض عليه كل ما يمكنه أن يتنعم به و يستلذه، و أن لا يكون ذلك في معرض الزوال، و هذا هو خلود السعاده للإنسان و خلوده فيها.

و من هنا يتضح أن نفي الخوف و الحزن هو بعينه ارتزاق الإنسان عند الله فهو سبحانه يقول: **وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ (آل عمران ١٩٨)**، و يقول **وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بِأَقْبَرُ (النحل ٩٦)** فالآيتان تدلان على أن ما عند الله نعمه باقيه لا يشوبها نقمه و لا يعرضها فناء.

و يتضح أيضا أن نفيهما هو بعينها هو بعينه إثبات النعمة و الفضل و هو العطيته لكن تقدم في أوائل الكتاب و سيجيء في قوله تعالى: مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ (النساء ٦٩)، أن النعمة اذا اطلقت في عرف القرآن فهي الولاية الإلهيه، و على ذلك فالمعنى: أن الله يتولى أمرهم و يخصصهم بعطيته منه.

و أما احتمال أن يكون المراد بالفضل الموهبه الزائده على استحقاقهم بالعمل، و النعمة ما بحذائه فلا يلائمه قوله: وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ الْأَجْرَ يُؤْذَنُ بِالْإِسْتِحْقَاقِ، و قد عرفت أن هذه الفقرات أعنى قوله: عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ و قوله: فَرِحِينَ بِمَا آخَرُوا؛ قوله: وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ مآلها الى حقيقه واحده.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٧٢ الى ١٧٥]

إشارة

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسِهِمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذِكُّمُ الشَّيْطَانِ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)

بيان:

قوله تعالى: الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ الْآيَةَ؛ الاستجابة و الإجابة بمعنى

واحد- كما قيل -و هي أن تسأل شيئا فتجاب بالقبول.

و لعل ذكر الله و الرسول مع جواز الاكتفاء فى المقام بذكر أحد اللفظين إنما هو لكونهم فى وقعه أحد عصوا الله و الرسول، فأما هو تعالى فقد عصوه بالفرار و التولى و قد نهاهم الله عنه و أمر بالجهاد، و أما الرسول فقد عصوه بمخالفه أمره الذى أصدره على الرماه بلزوم مراكزهم و حين كانوا يصعدون و هو يدعوهم فى أخراهم فلم يجيبوا دعوته، فلما استجابوا فى هذه الوقعه وضع فيها بحذاء تلك الوقعه استجابتهم لله و الرسول.

و قوله: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ، قصر الوعد على بعض أفراد المستجيبين لأن الاستجابة فعل ظاهرى لا يلازم حقيقة الإحسان و التقوى الذين عليهما مدار الأجر العظيم، و هذا من عجب مراقبة القرآن فى بيانه حيث لا يشغله شأن عن شأن، و من هنا يتبين أن هؤلاء الجماعه ما كانوا خالصين لله فى أمره بل كان فيهم من لم يكن محسناً متقياً يستحق عظيم الأجر من الله سبحانه؛ و ربما يقال: إن «من» فى قوله: «مِنْهُمْ» بيانيه كما قيل مثله فى قوله تعالى: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ -الى أن قال:- وَ عَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْرًا عَظِيمًا (الفتح ٢٩)، و هو تأول بما يدفعه السياق.

و يتبين أيضا أن ما يمدحهم به الله سبحانه فى قوله: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ، إلى آخر الآيات؛ من قبيل وصف البعض المنسوب إلى الكل بعنايه لفظيه.

قوله تعالى: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ الْآيَةَ؛ الناس هو الأفراد من الإنسان من حيث عدم أخذ ما يتميز به بعضهم من بعض، و الناس الأول غير الثانى، فإن الثانى هو العدو الذى كان يجمع الجموع، و أما الأول فهم الخاذلون المثبطون الذى كانوا يقولون ما يقولون ليخذلوا المؤمنين عن الخروج إلى قتال المشركين، فالناس الثانى اريد به المشركون، و الناس الأول أيديهم على المؤمنين و عيونهم فيهم، و ظاهر الآيه كونهم عده

و جماعه لا واحدا، و هذا يؤيد كون الآيات نازله فى قصه خروج النبى صلى الله عليه و آله و سلم فىمن بقى من أصحابه بعد أحد فى أثر المشركين دون قصه بدر الصغرى، و سيجىء القستان فى البحث الروائى الآتى.

و قوله: **قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ**، أى جمعوا جمعهم لقتالكم ثانيا (و الله أعلم).

و قوله: **فَرَّادَهُمْ إِيْمَانًا**، و ذلك لما فى طبع الإنسان أنه إذا نهى عما يريد و يعزم عليه، فإن لم يحسن الظن بمن ينهاه كان ذلك إغراء فأوجب انتباه قواه و اشتدت بذلك عزمته، و كلما أصر عليه بالمنع أصر على المضى على ما يريد و يقصده، و هذا إذا كان الممنوع يرى نفسه محققا معذورا فى فعالة أشد تأثيرا من غيره، و لذا كان المؤمنون كلما لامهم فى أمر الله لائم أو منعهم مانع زادوا قوه فى إيمانهم و شده فى عزمهم و بأسهم.

و يمكن أن يكون زياده إيمانهم لتأييد أمثال هذه الأخبار ما عندهم من خبر الوحي أنهم سيؤذون فى جنب الله حتى يتم أمرهم بإذن الله و قد وعدهم النصر و لا يكون نصر إلا فى نزال و قتال.

و قوله: **وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ** أى كافينا الله و أصل الحسب من الحساب لأن الكفايه بحساب الحاجه، و هذا اكتفاء بالله بحسب الإيمان دون الأسباب الخارجيه الجارويه فى السنه الإلهيه و الوكيل هو الذى يدبر الأمر عن الانسان، فمضمون الآيه يرجع الى معنى قوله:

وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ (الطلاق ٣)، و لذلك عقب قوله:

وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ بقوله: **فَمَا تَقَلُّبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَ فَضْلِ لَمْ يَمَسْسِ لَهُمْ سُوءٌ، السخ؛** ليكون تصديقا لوعده تعالى، ثم حمدهم إذ اتبعوا رضوانه فقال: **وَ اتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١).**

ص: ٥٨٩

قوله تعالى: ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُحَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ الْآيَةَ؛ ظاهر الآيه أن الإشاره إلى الناس الذين قالوا لهم ما قالوا، فيكون هذا من الموارد التي اطلق فيها القرآن الشيطان على الإنسان كما يظهر ذلك من قوله: مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّهِ وَالنَّاسِ (الناس ١٦)، ويؤيده قوله تعالى بعد ذلك: فلا تخافوهم أى الناس القائلين لكم ما قالوا لأن ذلكم الشيطان؛ و سنبحث فى هذا المعنى بما يكشف القناع عن وجه حقيقته إن شاء الله تعالى (١).

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٧٦ الى ١٨٠]

اشاره

وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨) مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ إِن تُوْمِنُوا وَ تَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَنْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)

ص: ٥٩٠

قوله تعالى: **وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِلَىٰ آخِرِ الْأَيَّهِ؛ تَسْلِيهِ وَرَفَعٍ لِلْحَزَنِ بَيَانِ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ فَإِنْ مَسَارَعَتَهُمْ فِي الْكُفْرِ وَتَظَاهَرَهُمْ عَلَىٰ إِطْفَاءِ نُورِ اللَّهِ وَغَلَبَتَهُمُ الظَّاهِرَةُ أحياناً ربما أوجبت أن يحزن المؤمن كأنهم غلبوا الله سبحانه في إرادته إعلاء كلمه الحق لكنه إذا تدبر في قضيه الامتحان العام استيقن أن الله هو الغالب و أنهم جميعاً واقعون في سبيل الغايات يوجهون إليها ليتم لهم الهداياه التكوينية و التشريعيه إلى غايات أمرهم فالكافر يوجه به بواسطة إشباعه بالعافيه و النعمه و القدره - و هو الاستدراج و المكر الإلهي - إلى آخر ما يمكنه أن يركبه من الطغيان و المعصيه، و المؤمن لا - يزل يحك به محك الامتحان ليخلص ما في باطنه من الإيمان المشوب بغيره، فيخلص لله أو يخلص شركه فيهبط في مهبط غيره من أولياء الطاغوت و أئمه الكفر.**

فمعنى الآية: لا يحزنك الذين يسرعون و لا يزال يشتد سرعتهم في الكفر فإنك إن تحزن فإنما تحزن لما تظن أنهم يضررون الله بذلك و ليس كذلك فهم لا يضررون الله شيئاً لأنهم مسخرون لله يسلك بهم في سير حياتهم إلى حيث لا يبقى لهم حظ في الآخرة (و هو آخر حدهم في الكفر) و لهم عذاب أليم فقوله: **لَا يَحْزُنُكَ**، أمر إرشادي، و قوله: **إِنَّهُمْ**، الخ؛ تعليل للنهي، و قوله: **يُرِيدُ اللَّهُ**، الخ؛ تعليل و بيان لعدم ضررهم.

ثم ذكر تعالى نفى ضرر جميع الكافرين بالنسبه إليه أعم من المسارعين في الكفر و غيرهم، و هو كالبيان الكلي بعد البيان الجزئي يضح أن يعلل به النهي (لا يحزنك) و أن يعلل به علقته

(إنهم لن يضروا، الخ) لأنه أعم يعلل به الأخص، و المعنى: و إنما قلنا إن هؤلاء المسارعين لا يضرون الله شيئا لأن الكافرين جميعا لا يضرونه شيئا.

قوله تعالى: **وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**، لما طيب نفس نبيه في مسارعه الكفار في كفرهم أن ذلك في الحقيقة تسخير إلهي لهم لينساقوا إلى حيث لا يبقى لهم حظ في الآخرة عطف الكلام إلى الكفار أنفسهم، فيبين أنه لا ينبغي لهم أن يفرحوا بما يجدونه من الإملاء و الإمهال الإلهي فإن ذلك سوق لهم بالاستدراج إلى زيادة الإثم، و وراء ذلك عذاب مهين ليس معه إلا الهوان، كل ذلك بمقتضى سنه التكميل.

قوله تعالى: **مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ** الخ؛ ثم عطف الكلام إلى المؤمنين فيبين أن سنه الابتلاء جاريه فيهم لئتم تكميلهم أيضا فيخلص المؤمن الخالص من غيره، و يتميز الخبيث من الطيب.

و لما أمكن أن يتوهم أن هناك طريقا آخر إلى تمييز الخبيث من الطيب و هو أن يطلعهم على الخبثاء حتى يتميزوا منهم فلا يقاسوا جميع المحن و البلياء التي يقاسونها بسبب اختلاط المنافقين و الذين في قلوبهم مرض بهم فدفع هذا الوهم بأن علم الغيب مما استأثر الله به نفسه فلا يطلع عليه أحدا إلا من اجتبى من رسله فإنه ربما أطلععه عليه بالوحي، و ذلك قوله تعالى:

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ .

ثم ذكر أنه لما لم يكن من الابتلاء و التكميل محيد فآمنوا بالله و رسله حتى تنسلخوا في سلك الطيبين دون الخبثاء، غير أن الإيمان وحده لا يكفي في بقاء طيب الحياه حتى يتم الأجر إلا بعمل صالح يرفع الإيمان إلى الله و يحفظ طيبه، و لذلك قال أولا: **فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُلِهِ** ثم تممه ثانيا بقوله: **وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ .**

قوله تعالى: **وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ** بما آتاهم الله من فضله الآية؛ لما بين حال إملاء الكافرين و كان الحال في البخل بالمال و عدم إنفاقه في سبيل الله مثله، فإن

البخيل فرح فخور بما يجمعه من المال عطف تعالى الكلام إليهم و بين أنه شر لهم، وفي التعبير عن المال بقوله: **بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ** مِنْ فَضْلِهِ إشعار بوجه لومهم و ذمهم، وقوله: **سَيُطَوَّقُونَ**، الخ؛ في مقام التعليل لكون البخل شراً لهم، وقوله: **وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ**، الظاهر أنه حال من يوم القيامة، وكذا قوله: **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**.

و يحتمل على أن يكون قوله: **وَلِلَّهِ مِيرَاثُ حَالاً** من فاعل قوله يبخلون، وقوله: **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ حَالاً** منه أيضاً أو جملة مستأنفة.

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٨١ إلى ١٨٩]

إشارة

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَفَتَلَهُمُ اللَّهُ الْآيَاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَاهَدَ إِلَيْنَا أَلَّا نؤمنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ الْأَرْضُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَ بِالذِّى قُتِلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) إِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَ الزُّبُرِ وَ الْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَ إِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْرِحَ عَنِ النَّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُزُورِ (١٨٥) لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ وَ لَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أذىً كَثِيراً وَ إِنْ نَصَبَرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦) وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَ اشْتَرَوْا بِهِ تَمَنَّا قَلِيلاً فَبَشِّرْ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَ يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبْهُمْ بِمَفَازِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)

قوله تعالى: لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ الْقائلون هم اليهود بقريته ما في ذيل الكلام من حديث قتلهم الأنبياء وغير ذلك.

و إنما قالوا ذلك لما سمعوا أمثال قوله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا الْآيه (البقره ٢٤٥) و يشهد بذلك بعض الشهاده اتصاله بالآيه السابقه: و لا يحسن الذين يبخلون، الآيه.

أو أنهم قالوا ذلك لما رأوا فقر عامه المؤمنين و فاقتهم، فقالوا ذلك تعريضا بأن ربهم لو كان غنيا لغار لهم و أغناهم فليس إلا فقيرا و نحن أغنياء.

قوله تعالى: سَيَنْكُتُ الْمَالُ قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ الْآيه؛ المراد بالكتابه الحفظ و التثبيت أو الكتابه فى صحائف أعمالهم، و المآل واحد، و المراد بقتل الأنبياء بغير حق القتل على العرفان و العمد دون السهو و الخطأ و الجهاله، و قد قارن الله قولهم هذا

بقتلهم الأنبياء لكونه قولاً عظيماً، وقوله: عَذَابَ الْحَرِيقِ، الحريق النار أو اللهب وقيل: هو بمعنى المحرق.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ لِلآيَةِ؛ أى بما قدمتم أمامكم من العمل ونسب إلى الأيدي لأنها آله التقديم غالباً، وقوله: وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ عطف على قوله:

بِمَا قَدَّمْتُمْ، و تعليل للكتابه و العذاب، فلو لم يكن ذلك الحفظ و الجزاء لكان إهمالاً لأمر نظام الأعمال و فى ذلك ظلم كثير بكثره الأعمال فيكون ظلاماً لعباده تعالى عن ذلك.

قوله تعالى: الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَاهَدَ إِلَيْنَا الْآيَةَ؛ نعت للذين قبله و العهد هو الأمر، و القربان ما يتقرب به من النعم و غيره، و أكل النار كناية عن إحراقها، و المراد بقوله: قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي، أمثال زكريا و يحيى من أنبياء بنى إسرائيل المقتولين بأيديهم.

قوله تعالى: فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الْآيَةَ؛ تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم فى تكذيبهم له؛ و الزبر جمع زبور و هو كتاب الحكم و المواعظ، و قد اريد بالزبر و الكتاب المنير مثل كتاب نوح و صحف إبراهيم و التوراه و الإنجيل.

قوله تعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، الآيه تتضمن الوعد للمصدق و الوعيد للمكذب و قد بدأ فيها بالحكم العام المقضى فى حق كل ذى نفس، و التوفيه هو الإعطاء الكامل، و قد استدلت بعضهم بالآيه على ثبوت البرزخ لدلالاتها على سبق بعض الإعطاء و أن الذى فى يوم القيامة هو الإعطاء الكامل، و هو استدلال حسن، و الزحزحه هو الإبعاد، و أصله تكرار الجذب بعجله، و الفوز الظفر بالبعيه، و الغرور مصدر غر أو هو جمع غار.

قوله تعالى: لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ الْآيَةَ؛ الإبلاء الاختبار، بعد ما ذكر سبحانه جريان البلاء و الإبلاء على المؤمنين، ثم ذكر قول اليهود و هو مما من شأنه أن يوهن عزم المؤمنين أخبرهم بأن هذا الإبلاء الإلهي و الأقاويل الموزيه من أهل الكتاب و المشركين ستكرر على المؤمنين، و يكثر استقبالها إياهم و قرعها سمعهم فعليهم أن يصبروا و يتقوا حتى

يعصمهم ربهم من الزلل و الفشل، و يكونوا أرباب عزم و إرادة، و هذا إخبار قبل الوقوع ليستعدوا لذلك استعدادهم، و يوطنوا عليه أنفسهم.

و قد وضع فى قوله: وَ لَتَسْمَعَنَّ إِلَى قَوْلِهِ: أَدَى كَثِيرًا، الأذى الكثير موضع القول و هو من قبيل وضع الأثر موضع المؤثر مجازاً.

قوله تعالى: وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ، النبذ الطرح، و نبذه وراء ظهره كالمثل و يراد به الترك و عدم الاعتناء كما أن قولهم: جعله نصب عينيه كالمثل يراد به الأخذ و اللزوم.

قوله تعالى: لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ، أى بما أنعم عليهم من المال و لازمه حب المال و البخل به، و المفازة النجاه و إنما هلك هؤلاء لأن قلوبهم تعلقت بالباطل فلا ولايه للحق عليهم.

ثم ذكر تعالى حديث ملكه للسموات و الأرض، و قدرته على كل شىء، و هذان الوصفان يصلحان لتعليل مضامين جميع ما تقدم من الآيات.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٩٠ الى ١٩٩]

إشارة

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجِبْ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَمَّا كَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَمَّا دَخَلْتَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥) لَا يَغْرُنْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمُ وَبَسَّ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩)

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، كأن المراد بالخلق كيفية وجودها و آثارها و أفعالها من حركة و سكون و تغير و تحول فيكون خلق السموات و الأرض

ص: ٥٩٧

و اختلاف الليل و النهار مشتملا على معظم الآيات المحسوسه و قد تقدم بيانها فى سورة البقره و تقدم أيضا معنى اولى الألباب.

قوله تعالى: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا نَّحْوَهُ أَي يذكرون الله فى جميع حالاتهم من القيام و القعود و الاضطجاع، و قد مر البحث فى معنى الذكر و التفكير، و محصل معنى الآيتين أن النظر فى آيات السموات و الأرض و اختلاف الليل و النهار أورثهم ذكرا دائما لله فلا ينسونه فى حال، و تفكروا فى خلق السموات و الأرض يتذكرون به أن الله سيبعثهم للجزاء فيسألون عندئذ رحمته و يستنجزون وعده.

قوله تعالى: رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا، إِنَّمَا قِيلَ «هَذَا» مع كون المشار إليه جمعا و مؤنثا إذ الغرض لا يتعلق بتمييز أشخاصها و أسمائها، و الجميع فى أنها خلق واحد، و هذا نظير ما حكى الله تعالى من قول إبراهيم: فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ (الأنعام ٧٨)، لعدم علمه بعد بحقيقتها و اسمها سوى أنها شىء.

و الباطل ما ليس له غايه يتعلق به الغرض قال تعالى: فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَ أَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ (الرعد ١٧) و لذلك لما نفوا البطالين عن الخلق لاح لهم أن الله سيحشر الناس للجزاء، و أنه تعالى سيجزى هناك الظالمين جزاء خزى و هو النار، و لا راد يرد مصلحه العقاب و إلا لبطل الخلقه، و هذا معنى قولهم: فقنا عذاب النار ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيتة و ما للظالمين من أنصار.

قوله تعالى: رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا، المراد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و قوله: أَنْ آمَنُوا، بيان للنداء و أن تفسيريه، و لما ذكروا إيمانهم بالنادى و هو الرسول و هو يخبرهم بامور عن الله تعالى يحذرهم من بعضها كالذنوب و السيئات و الموت على الكفر و الذنب، و يرغبهم فى بعضها كالمغفره و الرحمه و تفاصيل الجنة التى وعد الله عباده المؤمنين الأبرار بها سألوها ربهم أن يغفر لهم و يكفر عن سيئاتهم و يتوفاهم مع الأبرار و سألوه أن ينجزهم ما وعدهم من الجنة و الرحمه

على ما ضمنه لهم الرسول يا ذن الله فقالوا: فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، الخ؛ فقوله تعالى: عَلَيَّ رُسُلِكَ أَي حَمَلْتَهُ عَلَى رِسْلِكَ وَ ضَمَنَهُ عَلَيْكَ الرِّسْلَ، وقوله: وَلَا تُخْزِنَا، أَي يَخْلَافُ الْوَعْدَ، ولذا عقبه بقوله: إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ .

وقد تبين من الآيات أنهم إنما حصلوا الاعتقاد بالله و اليوم الآخر و بأن لله رسلا بالنظر في الآيات و أما تفاصيل ما جاء به النبي فمن طريق الإيمان بالرسول فهم على الفطره فيما يحكم به الفطره، و على السمع و الطاعه فيما فيه ذلك.

قوله تعالى: فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ الخ؛ التعبير بالرب و إضافته اليهم يدل على ثوران الرحمه الإلهيه و يدل عليه أيضا التعميم الذى فى قوله: أَنَّى لَا أَضِيعُ عَمَلًا عَامِلٍ مِنْكُمْ ، فلا فرق عنده تعالى بين عمل و عمل، و لا بين عامل و عامل.

و على هذا فقوله تعالى فى مقام التفريع: فالذين هاجروا و اخرجوا من ديارهم و اودوا، الخ؛ فى مقام تفصيل صالحات الأعمال لتثبيت ثوابها، و الواو للتفصيل دون الجمع حتى يكون لبيان ثواب المستشهدين من المهاجرين فقط.

و الآيه مع ذلك لا تفصل إلا الأعمال التى تندب إليها هذه السوره و تبالغ فى التحريص و الترغيب فيها، و هو إيتار الدين على الوطن و تحمل الأذى فى سبيل الله و الجهاد.

و الظاهر أن المراد بالمهاجره ما يشتمل المهاجره عن الشرك و العشيره و الوطن لإطلاق اللفظ، و لمقابله قوله: وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ، و هو هجره خاصه، و لقوله بعده: لا- كفرن عنهم سيئاتهم، فإن ظاهر السيئات فى القرآن صغائر المعاصى فهم هاجروا الكبائر بالاجتناب و التوبه، فالمهاجره المذكوره أعم فافهم ذلك.

قوله تعالى: لَا يَغْرُنْكَ تَقَلُّبُ الخ؛ هذا دفع الدخل و التقدير: هذا حال أبرار المؤمنين و هذا أجرهم، و أما ما ترى فيه الكفار من رفاه الحال و ترف الحياه و در المعاش فلا يغرنك ذلك (الخطاب للنبي و المقصود به الناس) لأنه متاع قليل لا دوام له.

قوله تعالى: لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ الخ؛ النزول ما يعد للنازل من طعام و شراب و غيرهما، و المراد بهم الأبرار بدليل ما فى آخر الآيه، و هذا يؤيد ما ذكرناه من أن الآيه السابقه دفع دخل.

قوله تعالى: وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الخ؛ المراد أنهم مشاركون للمؤمنين فى حسن الثواب، و الغرض منه أن السعاده الاخرويه ليست جنسيه حتى يمنع منها أهل الكتاب و إن آمنوا بل الأمر دائر مدار الإيمان بالله و برسله فلو آمنوا كانوا هم و المؤمنون سواء.

و قد نفى عن هؤلاء الممدوحين من أهل الكتاب ما ذمهم الله به فى سوابق الآيات و هو التفريق بين رسل الله، و كتمان ما اخذ ميثاقهم لبيانه اشتراء بآيات الله ثمنا قليلا (١)(٢).

[سوره آل عمران (٣): آيه ٢٠٠]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صَابِرُوا وَ رَابِطُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صَابِرُوا وَ رَابِطُوا الخ؛ الأوامر مطلقه فالصبر يراد به الصبر على الشدائد، و الصبر فى طاعه الله، و الصبر عن معصيته؛ و على أى حال هو الصبر من الفرد بقرينه ما يقابله.

و المصابره هى التصبر و تحمل الأذى جماعه باعتماد صبر البعض على صبر آخرين فيتقوى الحال و يشتد الوصف و يتضاعف تأثيره، و هذا أمر محسوس فى تأثير الفرد إذا اعتبرت

ص: ٦٠٠

١-١). آل عمران ١٩٠-١٩٩: بحث فلسفى و مقايسه بين الرجل و المرأه.

٢-٢). آل عمران ١٩٠-١٩٩: بحث روائى فى: التفكر؛ الهجره.

شخصيته في حال الانفراد، و في حال الاجتماع و التعاون بإيصال القوى بعضها ببعض و سنبحث فيه إن شاء الله بحثا مستوفى في محله.

قوله تعالى: **وَ رَابِطُوا أَعْمَ مَعْنَى مِنَ الْمَصَابِرِهِ وَ هِيَ إِجَادَةُ الْجَمَاعَةِ، الْارْتِبَاطُ بَيْنَ قَوَاهِمِ وَأَفْعَالِهِمْ فِي جَمِيعِ شُؤْنِ حَيَاتِهِمُ الدِّينِيَّةِ أَعْمَ مِنْ حَالِ الشَّدَةِ وَ حَالِ الرِّخَاءِ وَ لَمَّا كَانَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ نَيْلَ حَقِيقَةِ السَّعَادَةِ الْمَقْصُودَةِ لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ -وَ إِلَّا فَلَا يَتِمُّ بِهَا إِلَّا بَعْضُ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَ لَيْسَتْ بِحَقِيقَةِ السَّعَادَةِ -عَقِبَ هَذِهِ الْأَمْرَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** يعنى الفلاح التام الحقيقى (١).

ص: ٦٠١

١ - ١). آل عمران ٢٠٠: كلام في المرابطه في المجتمع الانسان و الاجتماع، الانسان و نموه في اجتماعه، الاسلام و عنايته بالاجتماع، اعتبار الاسلام رابطة الفرد و المجتمع، هل تقبل سنه الاسلام الاجتماعيه الاجراء و البقاء؟ بما ذا يتكون و يعيش الاجتماع الاسلامي؟ منطقتان: منطق التعقل و منطق الاحساس؛ ما معنى ابتغاء الاجر عند الله و الاعراض عن غيره؟ ما معنى الحرية في الاسلام؟ ما هو الطريق الى التحول و التكامل في المجتمع الاسلامي؟ هل الاسلام بشريته يفي باسعاد هذه الحياه الحاضره؟ من الذى يتقلد ولايه المجتمع في الاسلام و ما سيرته؟ ثغر المملكه الاسلاميه هو الاعتقاد دون الحدود الطبيعيه او الاصطلاحيه، الاسلام اجتماعي بجميع شؤنه، الدين الحق هو الغالب على الدنيا بالآخره.

اشاره

بسم الله الرحمن الرحيم

[سوره النساء (٤): آيه ١]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ -الى قوله- وَنِسَاءً يريد دعوتهم الى تقوى ربهم فى أمر أنفسهم و هم ناس متحدون فى الحقيقه الإنسانيه من غير اختلاف فيها بين الرجل منهم و المرأه و الصغير و الكبير و العاجز و القوى حتى لا يجحف الرجل منهم بالمرأه و لا يظلم كبيرهم الصغير فى مجتمعهم الذى هداهم الله اليه لتتميم سعادتهم و الأحكام و القوانين المعموله بينهم التى ألهمهم إياها لتسهيل طريق حياتهم، و حفظ وجودهم و بقائهم فرادى و مجتمعين.

و من هناك تظهر نكته توجيه الخطاب الى الناس دون المؤمنين خاصه و كذا تعليق التقوى بربهم دون أن يقال: اتقوا الله و نحوه فإن الوصف الذى ذكروا به أعنى قوله: الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، الخ؛ يعم جميع الناس من غير أن يختص بالمؤمنين، و هو من أوصاف الربوبية التى تتكفل أمر التدبير و التكميل لا من شئون الالوهيه.

و أما قوله تعالى: الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، الخ؛ فالنفس على ما يستفاد من اللغه عين الشىء يقال: جاءنى فلان نفسه و عينه و إن كان منشأ تعين الكلمتين - النفس و العين - لهذا المعنى (ما به الشىء شىء) مختلفا، و نفس الإنسان هو ما به الإنسان إنسان، و هو مجموع روح الإنسان و جسمه فى هذه الحياه الدنيا و الروح و حدها فى الحياه البرزخيه على ما تحقق فيما تقدم من البحث فى قوله تعالى: وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ الْآيَةُ (البقره ١٥٤).

و ظاهر السياق أن المراد بالنفس الواحده آدم عليه السلام، و من زوجها زوجته، و هما أبوا هذا النسل الموجود الذى نحن منه و إليهما ننتهى جميعا على ما هو ظاهر القرآن الكريم كما فى قوله تعالى: خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا (الزمر ٦)، و قوله تعالى: يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ (الأعراف ٢٧)، و قوله تعالى:

حكايه عن إبليس لئن أخرجتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً (الإسراء / ٦٢).

و أما قوله: وَ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا فقد قال الراغب: يقال لكل واحد من القرينين من الذكر و الانثى فى الحيوانات المتزاوجه: زوج، و لكل قرينين فيها و فى غيرها: زوج كالخف و النعل، و لكل ما يقترن بآخر مماثلا له أو مضادا: زوج، الى أن قال: و زوجه لغه رديئه، انتهى.

و ظاهر الجمله أعنى قوله: وَ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا أنها بيان لكون زوجها من نوعها بالتمثيل

و أن هؤلاء الأفراد المبتوثين مرجعهم جميعا الى فردين متماثلين متشابهين فلفظه من نشوئيه و الآيه فى مساق قوله تعالى: وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً (الروم ٢١)، و قوله تعالى: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنِينَ وَ حَفَظَهُ (النحل ٧٢)، و قوله تعالى: فَأَطْرُقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْمَأْرُضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَ مِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ (الشورى ١١)، و نظيرها قوله: وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ (الذاريات ٤٩)، فما فى بعض التفاسير: أن المراد بالآيه كون هذه النفس مشتقه منها و خلقها من بعضها وفاقا لما فى بعض الأخبار: أن الله خلق زوجه آدم من ضلع من أضلاعه مما لا دليل عليه من الآيه.

و أما قوله: وَ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَ نِسَاءً، البث هو التفريق بالإثارة و نحوها قال تعالى: فَكَانَتْ هَبَاءً مُتَّبَثًا (الواقعه ٦)، و منه بث الغم و لذلك ربما يطلق البث و يراد به الغم لأنه مبثوث بيته الإنسان بالطبع، قال تعالى: قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ (يوسف ٨٦)، أى غمى و حزنى.

و ظاهر الآيه أن النسل الموجود من الإنسان ينتهى الى آدم و زوجته من غير أن يشاركهما فيه غيرهما حيث قال: و بث منهما رجالا كثيرا و نساء، و لم يقل: منهما و من غيرهما، و يتفرع عليه أمران:

احدهما: أن المراد بقوله: رِجَالًا كَثِيرًا وَ نِسَاءً أفراد البشر من ذريتهما بلا واسطه أو مع واسطه فكأنه قيل: و بثكم منها أيها الناس.

و ثانيهما: أن الأزواج فى الطبقة الاولى بعد آدم و زوجته أعنى فى أولادهما بلا واسطه إنما وقع بين الإخوه و الأخوات (ازدواج البنين بالبنات) اذ الذكور و الاناث كانا منحصرين فيهم يومئذ، و لا ضير فيه فإنه حكم تشريعى راجع الى الله سبحانه فله أن يبيحه يوما

و يحرمه آخر، قال تعالى: وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ (الرعد ٤١/)، وقال: إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ (يوسف ٤٠/)، وقال: وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (الكهف ٢٦/)، وقال: وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (القصص ٧٠/).

قوله تعالى: وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ الْمُرَادُ بِالتَّسَاءُلِ سؤَالُ بَعْضِ النَّاسِ بَعْضًا بِاللَّهِ، يَقُولُ أَحَدُهُمْ لِصَاحِبِهِ: أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا هُوَ إِقْسَامٌ بِهِ تَعَالَى، وَالتَّسَاءُلُ بِاللَّهِ كُنْيَاةٌ عَنْ كَوْنِهِ تَعَالَى مَعْظَمًا عِنْدَهُمْ مَحْبُوبًا لَدَيْهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَقْسِمُ بِشَيْءٍ يَعِظُهُ وَيُحِبُّهُ.

و أما قوله: وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ الْمُرَادُ بِالتَّسَاءُلِ سؤَالُ بَعْضِ النَّاسِ بَعْضًا بِاللَّهِ، يَقُولُ أَحَدُهُمْ لِصَاحِبِهِ: أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا هُوَ إِقْسَامٌ بِهِ تَعَالَى، وَالتَّسَاءُلُ بِاللَّهِ كُنْيَاةٌ عَنْ كَوْنِهِ تَعَالَى مَعْظَمًا عِنْدَهُمْ مَحْبُوبًا لَدَيْهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَقْسِمُ بِشَيْءٍ يَعِظُهُ وَيُحِبُّهُ.

و أما قوله: وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ الْمُرَادُ بِالتَّسَاءُلِ سؤَالُ بَعْضِ النَّاسِ بَعْضًا بِاللَّهِ، يَقُولُ أَحَدُهُمْ لِصَاحِبِهِ: أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا هُوَ إِقْسَامٌ بِهِ تَعَالَى، وَالتَّسَاءُلُ بِاللَّهِ كُنْيَاةٌ عَنْ كَوْنِهِ تَعَالَى مَعْظَمًا عِنْدَهُمْ مَحْبُوبًا لَدَيْهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَقْسِمُ بِشَيْءٍ يَعِظُهُ وَيُحِبُّهُ.

و أما نسبه التقوى الى الأرحام كنسبته إليه تعالى فلا ضير فيها بعد انتهاء الأرحام الى صنعه و خلقه تعالى، و قد نسب التقوى فى كلامه تعالى الى غيره كما فى قوله: وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ (البقره ٢٨١/)، و قوله: وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (آل عمران ١٣١/) و قوله: وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً

و كيف كان فهذا الشطر من الكلام بمنزله التقييد بعد الإطلاق و التضييق بعد التوسعه بالنسبه الى الشطر السابق عليه أعنى قوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا إِلَى قَوْلِهِ: وَ نِسَاءً، فإن محصل معنى الشطر الأول: أن اتقوا الله من جهة ربوبيته لكم، و من جهة خلقه و جعله إياكم -معاشر أفراد الإنسان- من سنخ واحد محفوظ فيكم و مادته محفوظة متكثره بتكثركم، و ذلك هو النوعيه الجوهرية الإنسانية، و محصل معنى هذا الشطر: أن اتقوا الله من جهة عظمته و عزته عندكم (و ذلك من شئون الربوبية و فروعها) و اتقوا الوحده الرحميه التي خلقها بينكم (و الرحم شعبه من شعب الوحده و السنخيه الساريه بين أفراد الإنسان).

و من هنا يظهر وجه تكرار الأمر بالتقوى و إعادته ثانيا في الجملة الثانيه فإن الجملة الثانيه الحقيقه تكرار للجملة الاولى مع زياده فائده و هي إفاده الاهتمام التام بأمر الأرحام.

و الرحم فى الأصل رحم المرأه و هى العضو الداخلى منها المعبأ لتربيته النطفه وليدا، ثم استعير للقرابه بعلاقه الظرف و المظروف لكون الأقرباء مشتركين فى الخروج من رحم واحده، فالرحم هو القريب و الأرحام الأقرباء، و قد اعتنى القرآن الشريف بأمر الرحم كما اعتنى بأمر القوم و الامه، فإن الرحم مجتمع صغير كما أن القوم مجتمع كبير، و قد اعتنى القرآن بأمر المجتمع و عدّه حقيقه ذات خواص و آثار كما اعتنى بأمر الفرد من الإنسان و عدّه حقيقه ذات خواص و آثار تستمد من الوجود، قال تعالى: وَ هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُورَاتٌ وَ هَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَباً وَ صِهْراً وَ كَانَ رَبُّكَ قَدِيراً (الفرقان ٥٤)، و قال تعالى: وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا (الحجرات ١٣)، و قال تعالى: وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ (الأحزاب ٦)، و قال تعالى: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تَقَطُّعُوا أَرْحَامَكُمْ (محمد ٢٢)، و قال تعالى:

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِنَّ (النساء ٩)، الى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا الرقيب الحفيظ و المراقبه المحافظه، و كأنه مأخوذ من الرقبه بعنايه أنهم كانوا يحفظون رقاب عبيدهم، أو أن الرقيب كان يتطلع على من كان يرقبه برفع رقبته و مد عنقه، و ليس الرقوب مطلق الحفظ بل هو الحفظ على أعمال المرقوب من حركاته و سكناته لإصلاح موارد الخلل و الفساد أو ضبطها، فكأنه حفظ الشيء مع العنايه به علما و شهودا و لذا يستعمل بمعنى الحراسه و الانتظار و المحاذره و الرصد، و الله سبحانه رقيب لأنه يحفظ على العباد أعمالهم ليجزيهم بها، قال تعالى:

وَ رَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ (سبأ ٢١)، و قال: اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (الشورى ١٦)، و قال: فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ (الفجر ١٤).

و فى تعليق الأمر بالتقوى فى الوحده الانسانيه الساريه بين أفراده و حفظ آثارها اللازمه لها، بكونه تعالى رقيباً أعظم التحذير و التخويف بالمخالفه، و بالتدبر فيه يظهر ارتباط الآيات المتعرضه لأمر البغى و الظلم و الفساد فى الأرض و الطغيان و غير ذلك، و ما وقع فيها من التهديد و الإنذار، بهذا الغرض الإلهى و هو وقايه الوحده الإنسانيه من الفساد و السقوط (١)(٢)(٣)(٤)(٥).

ص: ٦٠٧

- ١-١. النساء ١: كلام فى عمر النوع الانسانى و الانسان الاول.
- ٢-٢. النساء ١: كلام فى ان النسل الحاضر ينتهى الى آدم و زوجته.
- ٣-٣. النساء ١: كلام فى ان الانسان نوع مستقل غير متحول من نوع آخر.
- ٤-٤. النساء ١: كلام فى تناسل الطبقة الثانيه من الانسان.
- ٥-٥. النساء ١: بحث روائى فى خلق آدم و حواء؛ كيفيه تزويج اولاد آدم؛ صلته الرحم؛ الغضب.

إشارة

وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا الْاٰخِيٰثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوْا اَمْوَالَهُمْ اِلَىٰ اَمْوَالِكُمْ اِنَّهٗ كَانَ حُوبًا كَبِيْرًا (٢) وَ اِنْ خِفْتُمْ اَلَّا تُقْسِطُوْا فِى الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوْا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَشْنٰى وَ ثَلَاثٌ وَ رُبَاعٌ فَاِنْ خِفْتُمْ اَلَّا تَعْدِلُوْا فَوَاحِدَةً اَوْ مَا مَلَكَتْ اَيْمَانُكُمْ ذٰلِكَ اٰذَنٰى اَلَّا تَعُوْلُوْا (٣) وَ اٰتُوا النِّسَاءَ صِدْقَاتِهِنَّ نِحْلَهٗ فَاِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوْهُ هٰنِئًا مَّرِيْنًا (٤) وَ لَا تُوْتُوْا السُّفَهَاءَ اَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللّٰهُ لَكُمْ فِىْهَا وَ اَرْزُقُوْهُمْ فِيْهَا وَ اَكْسُوْهُمْ وَ قُوْلُوْا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوْفًا (٥) وَ اٰتِلُوْا الْيَتَامَىٰ حَتّٰى اِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَاِنْ اَنْتُمْ مِنْهُمْ رُّشْدًا فَادْفَعُوْا اِلَيْهِمْ اَمْوَالَهُمْ وَ لَا تَأْكُلُوْهَا اِسْرَافًا وَ بَدَارًا اَنْ يَكْبُرُوْا وَ مَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَغْفِرْ وَ مَنْ كَانَ فَقِيْرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوْفِ فَاِذَا دَفَعْتُمْ اِلَيْهِمْ اَمْوَالَهُمْ فَاَشْهَدُوْا عَلَيْهِمْ وَ كَفٰى بِاللّٰهِ حَسِيْبًا (٦)

بيان:

بيان: (١)(٢)

قوله تعالى: وَ اٰتُوا الْيَتَامَىٰ اَمْوَالَهُمْ اِلَىٰ اَمْوَالِكُمْ؛ أمر بإيتاء اليتامى أموالهم

ص: ٦٠٨

١- ١). النساء ٢-٦: كلام فى الجاهليه الاولى.

٢- ٢). النساء ٢-٦: بحث فى كيفية ظهور الدعوه الاسلاميه.

و هو توطئه للجملتين اللا-حقتين: و لا- تبدلوا، الخ؛ أو الجملتان كالمفسر لهذه الجملة غير أن التعليل الذى فى آخر الآيه لكونه راجعا الى الجملتين أو الجملة الأخيره يؤيد أن الجملة الاولى موضوعه فى الكلام تمهيدا للنهى الذى فى الجملتين اللاحقتين.

و أصل النهى عن التصرف المضار فى أموال اليتامى كما تقدم بيانه توطئه و تمهيد لما سيذكر من أحكام الإرث، و لما سيذكر فى الآيه التاليه من حكم التزوج.

و أما قوله تعالى: **وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَيْثَ بِالْطَّيِّبِ أَى لَا تَتَّبِعُوا الْخَيْثَ** من أموالكم من الطيب من أموالهم بأن يكون لهم عندكم مال طيب فتعزله لأنفسكم و تردوا إليهم ما يعادله من ردى أموالكم. و يمكن أن يكون المراد: لا تبدلوا أكل الحرام من أكل الحلال- كما قيل- لكن المعنى الأول أظهر فإن الظاهر أن كلا- من الجملتين أعنى قوله: **وَلَا تَتَّبِعُوا**، الخ؛ و قوله: **وَلَا تَأْكُلُوا**، الخ؛ بيان لنوع خاص من التصرف غير الجائز و قوله: **وَأَتُوا الْيَتَامَى**، الخ؛ تمهيد لبيانها معا، و أما قوله: **إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا** الحوب الاثم مصدر و اسم مصدر.

قوله تعالى: **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ** قد مرت الإشاره فيما مر الى أن أهل الجاهليه من العرب- و كانوا لا- يخلون فى غالب الأوقات عن الحروب و المقاتل و الغيله و الغاره و كان يكثر فيهم حوادث القتل- كان يكثر فيهم الأيتام، و كانت الصناديد و الأقوياء منهم يأخذون إليهم يتامى النساء و أموالهن فيتزوجون بهن و يأكلون أموالهن الى أموالهم ثم لا يقسطون فيهن و ربما أخرجوهن بعد أكل مالهن فيصرن عاطلات ذوات مسكنه لا مال لهن يرتزقن به و لا راغب فيهن فيتزوج بهن و ينفق عليهن، و قد شدد القرآن الكريم النكير على هذا الدأب الخبيث و الظلم الفاحش، و أكد النهى عن ظلم اليتامى و أكل أموالهم كقوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا** و **سَيَصِفُونَ سَعِيرًا** (النساء ١٠)، و قوله تعالى: **وَأَتُوا**

الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (النساء ٢/٢)، فأعقب ذلك أن المسلمين أشفقوا على أنفسهم- كما قيل- و خافوا خوفا شديدا حتى أخرجوا اليتامى من ديارهم خوفا من الابتلاء بأموالهم و التفريط فى حقهم، و من أمسك يتيما عنده أفرز حظه من الطعام و الشراب و كان اذا فضل من غذائهم شىء لم يدنوا منه حتى يبقى و يفسد فاصبحوا متخرجين من ذلك و سألوا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عن ذلك و شكوا إليه فنزل: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمُ الْإِنَّا اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (البقره ٢٢٠/٢) فأجاز لهم أن يؤوؤهم و يمسكؤهم إصلاحا لشأنهم و إن يخالطؤهم فإنهم إخوانهم فجلي عنهم و فرج همهم.

إذا تأملت فى ذلك ثم رجعت الى قوله تعالى: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِسُوا، الخ؛ و هو واقع عقيب قوله: وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ، الآية؛ اتضح لك أن الآية واقعه موقع الترقى بالنسبه الى النهى الواقع فى الآية السابقه و المعنى- و الله أعلم:- اتقوا أمر اليتامى، و لا تبدلوا خبيث أموالكم من طيب أموالهم، و لا تأكلوا أموالهم الى أموالكم حتى أنكم إن خفتم أن لا تقسطوا فى اليتيمات منهم و لم تطب نفوسكم أن تنكحوهن و تتزوجوا بهن فدعوهن و انكحوا نساء غيرهن ما طاب لكم مثنى و ثلاث و رباع.

فالشرطيه أعنى قوله: إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِسُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ، فى معنى قولنا إن لم تطب لكم اليتامى للخوف من عدم القسط فلا- تنكحوهن و انكحوا نساء غيرهن فقوله: فَانكِسُوا ساد مسد الجزاء الحقيقى، و قوله: مَا طَابَ لَكُمْ، يعنى عن ذكر وصف النساء أعنى لفظ غيرهن؛ و قد قيل: ما طاب لكم و لم يقل: من طاب لكم إشاره الى العدد الذى سيفصله بقوله: مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ، الخ؛ و وضع قوله: إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا موضع عدم طيب النفس من وضع السبب موضع المسبب مع الإشعار بالمسبب فى الجزاء بقوله: مَا

طَابَ لَكُمْ، هذا.

قوله تعالى: **مُثْنِي** وَ **ثُلَاثٌ** وَ **رُبَاعٌ** بناء مفعول و فعال في الأعداد تدلان على تكرار المادة فمعنى مثني و ثلاث و رباع اثنتين اثنتين و أربعا أربعا، و لما كان الخطاب متوجها الى أفراد الناس و قد جرى بواو التفصيل بين مثني و ثلاث و رباع الدال على التخيير أفاد الكلام أن لكل واحد من المؤمنين أن يتخذ لنفسه زوجتين أو ثلاثا أو ربعا فيصرن بالإضافه الى الجميع مثني و ثلاث و رباع.

و بذلك و بقرينه قوله بعد: **و إن خفتن أن لا تعدلوا فواحدن أو ما ملكت أيمانكم** و كذا آيه المحصنات بجميع ذلك يدفع أن يكون المراد بالآيه أن تنكح الاثنتان بعقد واحد أو الثلاث بعقد واحد مثلا، أو يكون المراد أن تنكح الاثنتان معا ثم الاثنتان معا و هكذا، و كذا في الثلاث و الأربع، أو يكون المراد اشتراك أزيد من رجل واحد في الزوجه الواحده مثلا فهذه احتمالات لا تحتملها الآيه.

على أن الضروره قاضيه أن الإسلام لا ينفذ الجمع بين أزيد من أربع نسوه أو اشتراك أزيد من رجل في زوجه واحد.

و كذا يدفع بذلك احتمال أن يكون الواو للجمع فيكون في الكلام تجويز الجمع بين تسع نسوه لأن مجموع الاثنتين و الثلاث و الأربع تسع، و قد ذكر في المجمع: أن الجمع بهذا المعنى غير محتمل البتة فإن من قال: دخل القوم البلد مثني و ثلاث و رباع لم يلزم منه اجتماع الأعداد فيكون دخولهم تسعه تسعه، و لأن لهذا العدد لفظا موضوعا و هو تسع فالعدول عنه الى مثني و ثلاث و رباع نوع من العي - جل كلامه عن ذلك و تقدس -.

قوله تعالى: **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً** أي فانكحوا واحدن لا أزيد، و قد علقه تعالى على الخوف من ذلك دون العلم لأن العلم في هذه الامور - لتسويل النفس فيها أثر بين - لا يحصل غالبا فتفوت المصلحه.

ص: ٦١١

قوله تعالى: **أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** و هي الإماء فمن خاف أن لا يقسط فيهن فعليه أن ينكح واحده، وإن أحب أن يزيد في العدد فعليه بالإماء إذ لم يشرّع القسم في الإماء.

و من هنا يظهر أن ليس المراد بالتحضيض على الإماء بتجوزيز الظلم و التعدى عليهن فإن الله لا يحب الظالمين و ليس بظلام للعبيد بل لما لم يشرّع القسم فيهن فأمر العدل فيهن أسهل؛ و لهذه النكته بعينها كان المراد بذكر ملك اليمين الاكتفاء باتخاذهن و إتيانهن بملك اليمين دون نكاحهن بما يبلغ العدد أو يكثر عليه فإن مسأله نكاحهن سيتعرض لها في ما سيجيء من قوله: **وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيِّئَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ** الآية (النساء ٢٥).

قوله تعالى: **ذَلِكَ أَذُنِي أَلَّا تَعُولُوا** العول هو الميل أى هذه الطريقه على ما شرعت أقرب من أن لا تميلوا عن العدل و لا تتعدوا عليهن في حقوقهن، و ربما قيل: إن العول بمعنى الثقل و هو بعيد لفظاً و معنى.

و في ذكر الجملة التي تتضمن حكمه التشريع دلالة على أن أساس التشريع في أحكام النكاح على القسط و نفى العول و الإجحاف في الحقوق.

قوله تعالى: **وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً** الصدقه بضم الدال و فتحها و الصداق هو المهر، و النحلة هي العطيه من غير مئامنه.

و في إضافة الصداقات الى ضميرهن دلالة على أن الحكم بوجود الإيتاء مبنى على المتداول بين الناس في سنن الازدواج من تخصيص شيء من المال أو أى شيء له قيمه مهرا لهن كأنه يقابل به البضع مقابله الثمن المبيع فإن المتداول بين الناس أن يكون الطالب الداعي للازدواج هو الرجل على ما سيأتى في البحث العلمى التالى، و هو الخطبه كما أن المشتري يذهب بالثمن الى البائع ليأخذ سلعته، و كيف كان ففي الآية إمضاء هذه العاده الجاربه عند الناس.

و لعل إمكان توهم عدم جواز تصرف الزوج في المهر أصلا حتى برضى من الزوجه هو

الموجب للإتيان بالشرط في قوله: فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكَلُوهُ هَيِّنًا مَرِيئًا مع ما في اشتراط الأكل بطيب النفس من تأكيد الجملة السابقه المشتمله على الحكم، والدلاله على أن الحكم وضعى لا تكليفى.

و الهناء سهوه الهضم و قبول لطبع و يستعمل فى الطعام، و المرىء من الرى و هو فى الشراب كالهنىء فى الطعام غير أن الهناء يستعمل فى الطعام و الشراب معا؛ فاذا قيل: هنيئا مريئا اختص الهناء بالطعام و الرى بالشراب.

قوله تعالى: وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فِيهَا مَأْسِكًا فَكَلُوا مِنْهَا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَأَنْتُمْ سَاهِبُونَ شأنه أن لا يخف و منه الزمام السفیه أى كثير الاضطراب و ثوب سفیه أى ردىء النسج ثم غلب فى خفه النفس و اختلف باختلاف الأغراض و المقاصد فليل سفیه لخفيف الرأى فى الامور الدنيويه و سفیه للفساق غير المبالى فى أمر دينه و هكذا.

و ظاهر ما يترأى من الآيه أنه نهى عن الإكثار فى الإنفاق على السفهاء و إعطائهم من المال أزيد من حاجاتهم الضروريه فى الارتزاق، غير أن وقوع الآيه فى سياق الكلام فى أموال اليتامى التى يتولى أمر إدارتها و إنمائها الأولياء قرينه معينه على كون المراد بالسفهاء هم السفهاء من اليتامى، و أن المراد بقوله: أَمْوَالِكُمْ، فى الحقيقه أموالهم اضيف الى الأولياء بنوع من العنايه كما يشهد به أيضا قوله بعد: و ارزقوهم فيها و اكسوهم، و إن كان و لا بد من دلالة الآيه على أمر سائر السفهاء غير اليتامى، فالمراد بالسفهاء ما يعم اليتيم و غير اليتيم لكن الأول أرجح (١).

و كيف كان فلو كان المراد بالسفهاء سفهاء اليتامى، فالمراد بقوله: أَمْوَالِكُمْ، أموال اليتامى

ص: ٦١٣

(١-١). النساء ٢-٦: كلام فى ان جميع المال لجميع الناس.

و إنما اضيفت الى الأولياء المخاطبين بعنايه أن مجموع المال و الثروه الموجوده فى الدنيا لمجموع أهلها و إنما اختص بعض أفراد المجتمع ببعض منه و آخر بآخر للصالح العام الذى يبتنى عليه أصل الملك و الاختصاص فيجب أن يتحقق الناس بهذه الحقيقه و يعلموا أنهم مجتمع واحد و المال كله لمجتمعهم، و على كل واحد منهم أن يكأه و يتحفظ به و لا يدعه يضيع بتبذير نفوس سفيهه، و تدبير كل من لا يحسن التدبير كالصغير و المجنون، و هذا من حيث الإضافه كقوله تعالى: **وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيَاتِكُمْ (النساء ٢٥)**، و من المعلوم أن المراد بالفتيات ليس الإماء اللاتى يملكها من يريد النكاح.

قوله تعالى: **وَ ابْتُلُوا التَّامَةَ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ** - الى قوله - **أَمْوَالَهُمْ** الابتلاء الامتحان و المراد من بلوغ النكاح بلوغ أوانه ففيه مجاز عقلى و الإيناس المشاهده و فيه شوب من معنى الالفه فإن مادته الانس، و الرشد خلاف الغى و هو الاهتداء الى مقاصد الحياه، و دفع مال اليتيم اليه كناية عن إعطائه إياه و إقباضه له كأن الولى يدفعه اليه و يعده من نفسه فهو على ابتداله كنايه لطيفه.

و قوله: **حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ**، متعلق بقوله: **وَ ابْتُلُوا**، ففيه دلالة ما على الاستمرار بأن يشرع الولى فى ابتلائه من أول ما يأخذ فى التمييز و يصلح للابتلاء حتى ينتهى الى أوان النكاح و يبلغ مبلغ الرجال، و من طبع هذا الحكم ذلك فإن إيناس الرشد لا يحصل بابتلاء الصبى فى واقعه أو واقعتين بل يجب تكراره الى أن يحصل الإيناس و يتمشى بالطبع فى مده مديده حتى يبلغ الرهاق ثم النكاح.

و قوله: **فَإِنْ آنَسْتُمْ**، الخ؛ تفريع على قوله: **وَ ابْتُلُوا** و المعنى: و امتحنوهم فإن آنستم منهم الرشد فادفعوا اليهم أموالهم؛ و الكلام يؤذن بأن بلوغ النكاح بمنزله المقتضى لدفع المال الى اليتيم و استقلاله بالتصرف فى مال نفسه و الرشد شرط لنفوذ التصرف؛ و قد فصل الإسلام

النظر في أمر البلوغ من الإنسان فاكتمى في أمر العبادات و أمثال الحدود و الديات بمجرد السن الشرعى الذى هو سن النكاح و اشترط فى نفوذ التصرفات الماليه و الأقرارير و نحوها مما تفصيل بيانه فى الفقه مع بلوغ النكاح الرشد، و ذلك من لطائف سلوكه فى مرحله التشريع فإن اهمال أمر الرشد و إلغاءه فى التصرفات الماليه و نحوها مما يختل به نظام الحياه الاجتماعيه فى قبيل الأيتام و يكون نفوذ تصرفاتهم و أقراريرهم مفضيا الى غرور الأفراد الفاسده إياهم و إخراج جميع وسائل الحياه من أيديهم بأدنى وسيله بالكلمات المزيفه و المواعيد الكاذبه و المعاملات الغريره الى ذلك فالرشد لا محيص من اشتراطه فى هذا النوع من الامور، و أمثال العبادات فعدم الحاجه فيها الى الاشتراط ظاهر، و كذا أمثال الحدود و الديات فإن ادراك قبح هذه الجنايات و المعاصى و فهم وجوب الكف عنها لا يحتاج فيه الى الرشد بل الإنسان يقوى على تفهم ذلك قبله و لا يختلف حاله فى ذلك قبل الرشد و بعده.

قوله تعالى: **وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِبْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا**؛ الإسراف هو التعدى عن الاعتدال فى العمل، و البدار هو المبادره الى الشىء و قوله و بدارا أن يكبروا فى معنى حذر أن يكبروا فلا يدعوكم أن تأكلوا، و حذف النفى أو ما فى معناه قبل أن و أن قياسى على ما ذكره النحاه قال تعالى: **يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا** (النساء ١٧٦) أى لئلا تضلوا أو حذر أن تضلوا.

و أما قوله تعالى: **فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ** فتشريع للاستشهاد عند الدفع تحكيما للأمر و رفعا لغائله الخلاف و النزاع فمن الممكن أن يدعى اليتيم بعد الرشد و أخذ المال من الولى عليه؛ ثم ذيل الجميع بقوله تعالى: **وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا**، ربطا للحكم بمنشئه الأولى أعنى محتد كل حكم من أسمائه و صفاته تعالى فإنه تعالى لما كان حسيبا لم يكن ليخلى أحكام عبادته من غير حساب دقيق و هو تشريعه المحكم، و تتميما للتربيه الدينيه الإسلاميه فإن الإسلام يأخذ فى تربيه الناس على أساس التوحيد اذ الإشهاد و إن كان

رافعا غالبا للخلاف و النزاع لكن ربما تخلف عنه لانحراف من الشهود فى عدالتهم أو غير ذلك من متفرقات العوامل لكن السبب المعنوى العالى القوى هو تقوى الله الذى كفى به حسيا فلو جعل الولى و الشهود و اليتيم الذى دفع اليه المال هذا المعنى نصب أعينهم لم يقع هناك اختلاف و لا نزاع البتة (١)(٢)(٣).

[سوره النساء (٤): الآيات ٧ الى ١٠]

اشاره

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧) وَ إِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَازِرُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٨) وَ لِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَ لِيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَ سَيَصْلُونَ سَعِيرًا (١٠)

بيان:

قوله تعالى: لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ الآية؛ النصيب

ص: ٤١٦

١- ١). النساء ٢-٦: بحث روائى فى تعدد الزوجات.

٢- ٢). النساء ٢-٦: بحث علمى فى فصول؛ النكاح من مقاصد الطبيعه؛ استيلاء الذكور على الاناث؛ تعدد الزوجات.

٣- ٣). النساء ٢-٦: بحث علمى فى تعدد زوجات النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

هو الحظ و السهم، و أصله من النصب بمعنى الإقامة لأن كل سهم عند القسمة ينصب على حدته حتى لا يختلط بغيره، و التركة ما بقى من مال الميت بعده كأنه يتركة و يرتحل فاستعماله الأصلي استعمال استعارى ثم ابتذل، و الأقربون هم القرابه الأذنون، و اختيار هذا اللفظ على مثل الأقرباء و اولى القربى و نحوهما لا- يخلو من دلالة على أن الملا-ك في الإرث أقربيه الميت من الوارث على ما سيجىء البحث عنه فى قوله تعالى: **أَبَاؤُكُمْ وَ أُمَّهَاتُكُمْ وَ أَوْلَادُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا** (النساء ١١)، و الفرض قطع الشىء الصلب و إفراز بعضه من بعض، و لذا يستعمل فى معنى الوجوب لكون إتيانه و امتثال الأمر به مقطوعا معينا من غير تردد، و النصب المفروض هو المقطوع المعين.

و فى الآيه إعطاء للحكم الكلى و تشريع لسنه حديثه غير مألوفه فى أذهان المكلفين، فإن حكم الوراثة على النحو المشروع فى الإسلام لم يكن قبل ذلك مسبوقا بالمثل و قد كانت العادات و الرسوم على تحريم عده من الوراثة عادت بين الناس كالطبيعه الثانيه تثير النفوس و تحرك العواطف الكاذبه لو قرع بخلافها أسماعهم.

و قد مهد له فى الإسلام أولا بتحكيم الحب فى الله و الإيثار الدينى بين المؤمنين فعقد الاخوه بين المؤمنين ثم جعل التوارث بين الأخوين، و انتسخ بذلك الرسم السابق فى التوارث، و انقلع المؤمنون من الأنفه و العصبية القديمه ثم لما اشتد عظم الدين، و قام صلبه شرع التوارث بين اولى الأرحام فى حين كان هناك عده كافيه من المؤمنين يلبون لهذا التشريع أحسن التلبيه.

و بهذه المقدمه يظهر أن المقام مقام التصريح و رفع كل لبس متوهم بضرب القاعده الكليه بقوله: **لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ** **الْوَالِدَانِ وَ الْأَقْرَبُونَ**، فالحكم مطلق غير مقيد بحال أو وصف أو غير ذلك أصلا، كما أن موضوعه أعنى الرجال عام غير مخصص بشىء متصل فالصغار ذووا نصيب كالكبار.

ثم قال: و للنساء نصيب مما ترك الوالدان و الأقربون و هو كسابقه عام من غير شائبه تخصيص فيعم جميع النساء من غير تخصيص أو تقييد، و قد أظهر في قوله مما ترك الوالدان و الأقربون مع أن المقام مقام الإضمار إيفاء لحق التصريح و التنصيص، ثم قال: مما قل منه أو أكثر زياده في التوضيح و أن لا مجال للمسامحه في شىء منه لقله و حقاؤه، ثم قال: نصيبا، الخ؛ و هو حال من النصيب لما فيه من المعنى المصدرى، و هو بحسب المعنى تأكيد على تأكيد و زياده في التنصيص على أن السهام مقطوعه معينه لا تقبل الاختلاط و الإبهام.

و قد استدل بالآيه على عموم حكم الإرث لتركه النبي صلى الله عليه و آله و سلم و غيره، و على بطلان التعصيب فى الفرائض.

قوله تعالى: **وَ إِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ** الخ؛ ظاهر الآيه أن المراد من حضورهم القسمة أن يشهدوا قسمة التركة حينما يأخذ الورثه فى اقتسامها لا ما ذكره بعضهم أن المراد حضورهم عند الميت حينما يوصى و نحو ذلك، و هو ظاهر.

و على هذا فالمراد من اولى القربى الفقراء منهم، و يشهد بذلك أيضا ذكرهم مع اليتامى و المساكين، و لحن قوله: **فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ** وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا، الظاهر فى الاسترحام و الاسترفاق، و يكون الخطاب حينئذ لأولياء الميت و الورثه.

قوله تعالى: **وَ لِيُخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّهُمْ ذِيَّ عِمَاقٍ** الخ أفوا عليهم الآيه؛ الخشيه التأثر القلبي مما يخاف نزوله مع شائبه تعظيم و إكبار، و سداد القول و سدده كونه صوابا مستقيما.

و لا- يبعد أن تكون الآيه متعلقه نحو تعلق بقوله: **لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ**، الآيه؛ لاشتماله على إرث الأيتام الصغار بعمومه فتكون مسوقه سوق التهديد لمن يسلك مسلك تحريم صغار الورثه من الإرث، و يكون حينئذ قوله: **وَ لِيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا** كناية عن اتخاذ طريقه التحريم و العمل بها و هضم حقوق الأيتام الصغار، و الكنايه بالقول عن الفعل للملازمه بينهما غالبا شائع فى

اللسان كقوله تعالى: وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا الآية (البقره ٨٣)، و يؤيده توصيف القول بالسديد دون المعروف و اللين و نحوهما فإن ظاهر السداد فى القول كونه قابلاً للاعتقاد و العمل به لا قابلاً لأن يحفظ به كرامه الناس و حرمتهم.

و أما قوله: فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَ لْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا فقد تقدم أن الظاهر أن المراد بالقول هو الجرى العملى و من الممكن أن يراد به الرأى (١).

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا الآية؛ يقال: أكله و أكله فى بطنه و هما بمعنى واحد غير أن التعبير الثانى أصرح و الآية كسابقتها متعلقه المضمون بقوله: لِلرَّجَالِ نَصِيبٌ، الآية؛ و هى تخويف و ردع للناس عن هضم حقوق اليتامى فى الإرث.

و الآية مما يدل على تجسم الأعمال على ما مر فى الجزء الأول من هذا الكتاب فى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا (البقره ٢٦) و لعل هذا مراد من قال من المفسرين أن قوله: إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا، كلام على الحقيقة دون المجاز و على هذا لا يرد عليه ما أورده بعض المفسرين: أن قوله: يَأْكُلُونَ يريد به الحال دون الاستقبال بقرينه عطف قوله: وَ سَيَصِلُونَ سَعِيرًا عليه و هو فعل دخل عليه حرف الاستقبال فلو كان المراد به حقيقة الأكل - و وقته يوم القيامة - لكان من اللازم أن يقال: سَيَأْكُلُونَ فى بطونهم ناراً و سيصلون سعيراً فالحق أن المراد به المعنى المجازى، و أنهم فى أكل مال اليتيم كمن يأكل فى بطنه ناراً انتهى ملخصاً و هو غفله عن معنى تجسم الأعمال.

و أما قوله: وَ سَيَصِلُونَ سَعِيرًا فهو إشارة الى العذاب الأخرى، و السعير من أسماء نار الآخرة يقال صلى النار يصلها صلى و صلوا أى احترق بها و قاسى عذابها.

ص: ٦١٩

(١-١). النساء ٧-١٠: كلام فى انعكاس العمل على صاحبه.

إشاره

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلِأُمَّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمَّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوَصِّي بِهَا أَوْ دَيْنٍ أَوْ دَيْنِ آبَائِكُمْ وَأَبْنَاؤِكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَ لَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلِكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَ لَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ تُوَصَّونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَ لَهَا أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوَصِّي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَ لَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤)

قوله تعالى: يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ الإيضاء و التوصيه هو العهد و الأمر، و قال الراغب فى مفردات القرآن: الوصيه: التقدم الى الغير بما يعمل به مقترنا بوعظ، انتهى.

و فى العدول عن لفظ الأبناء الى الأولاد دلالة على أن حكم السهم و السهمين مخصوص بما ولده الميت بلا واسطه، و أما أولاد الأولاد فنازلا- فحكمهم حكم من يتصلون به فلبنت الابن سهمان و لابن البنت سهم واحد اذا لم يكن هناك من يتقدم على مرتبتهم كما أن الحكم فى أولاد الإخوه و الأخوات حكم من يتصلون به، و أما لفظ الابن فلا يقضى بنفى الواسطه كما أن الأب أعم من الوالد.

و أما قوله تعالى فى ذيل الآيه: أَبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فسيجىء أن هناك عناية خاصه تستوجب اختيار لفظ الأبناء على الأولاد.

و أما قوله: لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ففى انتخاب هذا التعبير إشعار بإبطال ما كانت عليه الجاهليه من منع توريث النساء فكأنه جعل إرث الانثى مقررا معروفا و أخبر بأن للذكر مثله مرتين أو جعله هو الأصل فى التشريع و جعل إرث الذكر محمولا عليه يعرف بالإضافة إليه، و لو لا ذلك لقال: للأنثى نصف حظ الذكر و اذ لا يفيد هذا المعنى و لا يلتئم السياق معه- كما ترى- هذا ما ذكره بعض العلماء و لا بأس به، و ربما أيد ذلك بأن الآيه لا تتعرض بنحو التصريح مستقلا إلا لسهام النساء و إن صرحت بشيء من سهام الرجال فمع ذكر سهامهن معه كما فى الآيه التاليه و الآيه التى فى آخر السوره.

و بالجمله قوله: لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فى محل التفسير لقوله: يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ،

و اللام في الذكْرِ و الْأُنثِيَيْنِ لتعريف الجنس أى إن جنس الذكر يعادل في السهم أنثيين، و هذا إنما يكون إذا كان هناك في الوراثة ذكر و انثى معا فللذكر ضعفا الانثى سهما و لم يقل: للذكر مثل حظى الانثى أو مثلا حظ الانثى ليدل الكلام على سهم الانثيين إذا انفردتا بإيثار الإيجاز على ما سيجىء.

و على أى حال إذا تركت الورثة من الذكور و الإناث كان لكل ذكر سهمان و لكل انثى سهم الى أى مبلغ بلغ عددهم.

قوله تعالى: فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ظاهر وقوع هذا الكلام بعد قوله: «لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ» أنه على تقدير معطوف عليه محذوف كأن قيل:

هذا إذا كانوا نساء و رجالا فإن كن نساء، الخ؛ و هو شائع فى الاستعمال و منه قوله تعالى:

وَ اتَّمُوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ (البقره ١٩٦/)، و قوله:

أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ (البقره ١٨٤/).

و الضمير فى كن راجع الى الأولاد فى قوله: فى أولادكم و تأنيث الضمير لتأنيث الخبر، و الضمير فى قوله: ترك راجع الى الميت المعلوم من سياق الكلام.

قوله تعالى: وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النُّصْفُ الضمير الى الولد المفهوم من السياق و تأنيثه باعتبار الخبر و المراد بالنصف نصف ما ترك فاللام عوض عن المضاف اليه.

و لم يذكر سهم الأنثيين فإنه مفهوم من قوله: لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فإن ذكرا و انثى إذا اجتمعا كان سهم الانثى الثلث للآيه و سهم الذكر الثلثين و هو حظ الانثيين فحظ الانثيين الثلثان فهذا المقدار مفهوم من الكلام إجمالا و ليس فى نفسه متعينا للفهم اذ لا ينافى ما لو كان قيل بعده: و إن كانتا اثنتين فلهما النصف أو الجميع مثلا لكن يعينه السكوت عن ذكر هذا السهم و التصريح الذى فى قوله: فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ، فإنه يشعر بالتعمد فى ترك ذكر حظ الانثيين.

على أن كون حظهما الثلثين هو الذى عمل به النبى صلى الله عليه وآله وسلم وجرى العمل عليه منذ عهده صلى الله عليه وآله وسلم الى عهدنا بين علماء الامه سوى ما نقل من الخلاف عن ابن عباس.

قوله تعالى: وَ لِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّسُ -الى قوله- فَلَأُمَّهُ الشُّدُّسُ فى عطف الأبوين فى الحكم على الأولاد دلالة على أن الأبوين يشاركان الاولاد فى طبقتهم، وقوله: وَ وَرَثَةُ أَبَوَاهُ، أى انحصر الوارث فيهما، و فى قوله: فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ، الخ؛ بعد قوله: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَ وَرَثَةُ أَبَوَاهُ، دلالة على أن الإخوة واقعه فى طبقه ثانيه لا حقه لطبقه الأبناء و البنات لا ترث مع وجودهم غير أن الإخوة تحجب الام عن الثلث.

قوله تعالى: مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ ذَيْنِ أَمَا الوصيه فهى التى تندب إليها قوله: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ الَّتِي لَهُ (البقره / ١٨٠) و لا ينافى تقدمها فى الآيه على الدين ما ورد فى السنه أن الدين مقدم على الوصيه لأن الكلام ربما يقدم فيه غير الأهم على الأهم لأن الأهم لمكانته و قوه ثبوته ربما لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه غيره من التأكيد و التشديد، و منه التقديم، و على هذا فقوله: أَوْ ذَيْنِ فى مقام الاضراب و الترقى طبعاً.

و بذلك يظهر وجه توصيف الوصيه بقوله: يُوصِي بِهَا ففيه دلالة على التأكيد، و لا يخلو مع ذلك من الإشعار بلزوم إكرام الميت و مراعاة حرمة فيما وصى به كما قال تعالى: فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ (البقره ١٨١).

قوله تعالى: أَبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا الْخَطَابَ للورثه أعنى لعامه المكلفين من حيث إنهم يرثون أمواتهم، و هو كلام ملقى للإيماء إلى سر اختلاف السهام فى وراثه الآباء و الأبناء و نوع تعليم لهم خوطبوا به بلسان «لَا تَدْرُونَ» و أمثال هذه التعبيرات شائعه فى اللسان.

على أنه لو كان الخطاب لغير الورثه أعنى للناس من جهة أنهم سيموتون و يرثون

آباءهم و أبناءهم لم يكن وجه لقوله: أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَإِنَّ الظاهر أن المراد بالانتفاع هو الانتفاع بالمال الموروث و هو إنما يعود الى الورثه دون الميت.

و تقديم الآباء على الأبناء يشعر بكون الآباء أقرب نفعاً من الأبناء، كما فى قوله تعالى: إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ (البقره ١٥٨/١) و قد مرت الروايه عن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أَنه قال:

أبدأ بما بدأ الله، الحديث.

و الأمر على ذلك بالنظر الى آثار الرحم و اعتبار العواطف الإنسانيه فإن الإنسان أرأف بولده منه بوالديه و هو يرى بقاء ولده بقاء لنفسه دون بقاء والديه فأباء الإنسان أقوى ارتباطاً و أمس وجوداً به من أبنائه، و اذا بنى الانتفاع الإرثى على هذا الاصل كان لازمه أن يذهب الإنسان اذا ورث أباه مثلاً بسهم أزيد منه اذا ورث ابنه مثلاً و إن كان ربما يسبق الى الذهن البدوى أن يكون الأمر بالعكس.

و هذه الآيه أعنى قوله: أَبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُم أَقْرَبُ لَكُمْ، نفعاً من الشواهد على أنه تعالى بنى حكم الارث على أساس تكوينى خارجى كسائر الأحكام الفطريه الاسلاميه.

على أن الآيات المطلقه القرآنيه الناظره الى أصل التشريع أيضاً كقوله: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ (الروم / ٣٠) تدل على ذلك، و كيف يتصور مع وجود أمثال هذه الآيات أن يرد فى الشريعه أحكام إلزاميه و فرائض غير متغيره و ليس لها أصل فى التكوين فى الجمله.

و ربما يمكن أن يستشم من الآيه أعنى قوله: أَبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ، الخ؛ تقدم أولاد الأولاد على الأجداد و الجدات فإن الأجداد و الجدات لا يرثون مع وجود الأولاد و أولاد الأولاد.

قوله تعالى: فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ الخ؛ الظاهر أنه منصوب بفعل مقدر و التقدير خذوا أو ألزموا و نحو ذلك و تأكيد بالغ أن هذه السهام المذكوره قدمت إليكم و هى مفرزه معينه لا

كالتقليد بالنسبة الى المبدأ منه كالسدس و الربع و الثلث من المجموع دون مثل النصف و الثلثين، و لذا قال تعالى: السدس مما ترك؛ و قال: فلأئمه الثلث؛ و قال: لكم الربع بالقطع عن الإضافة فى جميع ذلك؛ و قال: و لكم نصف ما ترك؛ و قال: فلهن ثلثا ما ترك بالإضافة؛ و قال:

فلها النصف أى نصف ما ترك فاللام عوض عن المضاف اليه.

قوله تعالى: **وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ أَوْ امْرَأَةٌ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛** أصل الكلاله مصدر بمعنى الإحاطه، و منه الإكليل لإحاطته بالرأس و منه الكل-بضم الكاف- لإحاطته بالأجزاء، و منه الكل-بفتح الكاف-لنوع إحاطه منه ثقيله على من هو كلّ عليه، قال الراغب: الكلاله اسم لما عدا الولد و الوالد من الورثه، قال: و روى أن النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم سئل عن الكلاله فقال: من مات و ليس له ولد و لا-والد فجعله اسما للميت، و كلاله-القولين صحيح فإن الكلاله مصدر يجمع الوارث و الموروث جميعا، انتهى.

اقول: و على هذا فلا-مانع من كون كان ناقصه و رجل اسمها و يورث وصفا للرجل و كلاله خبرها و المعنى: و إن كان الميت كلاله للوارث ليس أباه و لا-ابنا. و يمكن أن يكون كان تامه و رجل يورث فاعله و كلاله مصدرا وضع موضع الحال، و يؤول المعنى أيضا الى كون الميت كلاله للورثه، و قال الزجاج على ما نقل عنه: من قرأ يورث-بكسر الراء-فكلاله مفعول، و من قرأ يورث-بفتح الراء-فكلاله منصوب على الحال.

و قوله: **غَيْرَ مُضَارٍّ** منصوب على الحال، و المضارّه هو الإضرار و ظاهره أن المراد به الإضرار بالدين من قبل الميت كأن يعتمل بالدين للإضرار بالورثه و تحريمهم الإرث، أو المراد المضارّه بالدين كما ذكروا بالوصيه بما يزيد على ثلث المال.

قوله تعالى: **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ** الحد هو الحاجز بين الشيئين الذى يمنع اختلاط أحدهما بالآخر و ارتفاع التمايز بينهما كحد الدار و البستان، و المراد بها أحكام الارث و الفرائض المبينه، و قد عظم الله أمرها بما ذكر فى الآيتين من الثواب على إطاعه

[سوره النساء (٤): الآيات ١٥ الى ١٦]

اشاره

وَ اللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَهُ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَ الَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنَّ تَابَا وَ أَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا (١٦)

بيان:

قوله تعالى: وَ اللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ -الى قوله- مِنْكُمْ يقال: أتاه و أتى به أى فعله، و الفاحشه من الفحش و هو الشناعه فهى الطريقه الشنيعه، و قد شاع استعمالها فى الزنا، و قد اطلقت فى القرآن على اللواط أو عليه و على السحق معا فى قوله تعالى: إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (العنكبوت ٢٨).

و الظاهر أن المراد بها هاهنا الزنا على ما ذكره جمهور المفسرين، و روى أن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ ذكر عند نزول آيه الجلد أن الجلد هو السبيل الذى جعله الله لهن اذا زنين، و يشهد بذلك ظهور الآيه فى أن هذا الحكم سينسخ حيث يقول تعالى: أو يجعل الله لهن سبيلا، و لم ينقل أن السحق

ص: ٦٢٧

١- ١). النساء ١١-١٤: كلام فى الارث على وجه كلى.

٢- ٢). النساء ١١-١٤: بحث روائى فى الارث.

٣- ٣). النساء ١١-١٤: بحث علمى فى فصول (ظهور الارث، ظهور الارث، تحول الارث تدريجيا، الوراثه بين الامم المتمدنه، ما ذا صنع الاسلام و الظرف هذا الظرف؟ علام استقر حال النساء و اليتامى فى الاسلام؟ قوانين الارث الحديثه؟ مقياسه هذه السنن بعضها الى بعض، الوصيه).

نسخ حده بشيء آخر، ولا أن هذا الحد اجرى على أحد من اللاتي يأتينه و قوله: أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ ، يشهد بأن العدد من الرجال.

قوله تعالى: فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ رتب الإمساك و هو الحبس المخلد على الشهادة لا على أصل تحقق الفاحشه و إن علم به اذا لم يشهد عليه الشهود و هو من منن الله سبحانه على الامه من حيث السماح و الإغماض.

و الحكم هو الحبس الدائم بقرينه الغايه المذكوره فى الكلام أعنى قوله: حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ، غير أنه لم يعبر عنه بالحبس و السجن بل بالإمساك لهن فى البيوت، و هذا أيضا من واضح التسهيل و السماح بالإغماض، و قوله: حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا، أى طريقا الى التخلص من الإمساك الدائم و النجاه منه.

و فى التريديد إشعار بأن من المرجو أن ينسخ هذا الحكم، و هذا كان فإن حكم الجلد نسخه فإن من الضرورى أن الحكم الجارى على الزانيات فى أواخر عهد النبى صلى الله عليه و آله و سلم و المعمول به بعده بين المسلمين هو الجلد دون الإمساك فى البيوت فالآيه على تقدير دلالتها على حكم الزانيات منسوخه بآيه الجلد و السبيل المذكور فيها هو الجلد بلا ريب.

قوله تعالى: وَ الذَّانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا، الآيتان متناسبتان مضمونا و الضمير فى قوله: يَأْتِيَانَهَا، راجع الى الفاحشه قطعاً، و هذا يؤيد كون الآيتين جميعاً مسوقتين لبيان حكم الزنا، و على ذلك فالآيه الثانيه متممه الحكم فى الاولى فإن الاولى لم تتعرض إلا للنساء من الحكم، و الثانيه تبين الحكم فيهما معا و هو الإيذاء فيتحصل من مجموع الآيتين حكم الزانى و الزانيه معا و هو إيذاءهما و إمساك النساء فى البيوت.

لكن لا- يلائم ذلك قوله تعالى بعد: فإن تابا و اصلحا فاعرضوا عنهما، فإنه لا يلائم الحبس المخلد فلا بد أن يقال: إن المراد بالإعراض الإعراض عن الإيذاء دون الحبس فهو بحاله.

و لهذا ربما قيل تبعا لما ورد فى بعض الروايات (و سنقلها) إن الآيه الاولى لبيان حكم الزنا

فى الثيب؁ و الثانبه مسوقه لحكم الأبكار و إن المراد بالإبذاء هو الحبس فى الأبكار ثم تخليه سيبلهن مع التوبه و الإصلا؁؛ لكن ببقى أولا الوجه فى تخصيص الاولى بالثيبات و الثانبه بالأبكار من غير دليل يدل عليه من جهه اللفظ؁ و ثانيا وجه تخصيص الزانبه بالذكر فى الآيه الاولى؁ و ذكرهما معا فى الآيه الثانبه: «وَ الذَّانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ» .

و من الممكن أن يقال فى معنى الآيتين نظرا الى الظاهر السابق الى الذهن من الآيتين؁ و القرائن المحفوف بها الكلام؁ و ما تقدم من الإشكال فيما ذكروه من المعنى -و الله أعلم-: أن الآيه متضمنه لبيان حكم زنا المحصنات ذوات الأزواج؁ و يدل عليه تخصيص الآيه النساء بالذكر دون الرجال؁ و إطلاق النساء على الأزواج شائع فى اللسان و خاصه اذا اضيفت الى الرجال كما فى قوله: نِسَائِكُمْ؛ قال تعالى: وَ آتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَهُ (النساء ٤) و قال تعالى: مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ (النساء ٢٣).

و على هذا فقد كان الحكم الأولى المؤجل لهن الإمساك فى البيوت ثم شرع لهن الرجم؁ و ليس نسخا للكتاب بالسنه على ما استدل به الجبائى فإن النسخ إنما هو رفع الحكم الظاهر بحسب الدليل فى التأيد؁ و هذا حكم مقرون بما يشعر بأنه مؤجل سينقطع بانقطاعه و هو قوله: أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا لظهوره فى أن هناك حكما سيطع عليهن؁ و لو سمي هذا نسخا لم يكن به بأس فإنه غير متضمن لما يلزم نسخ الكتاب بالسنه من الفساد فإن القرآن نفسه مشعر بأن الحكم سيرتفع بانقطاع أمده؁ و النبى صلى الله عليه و آله و سلم مبين لمرادات القرآن الكريم.

و الآيه الثانبه متضمنه لحكم الزنا من غير إحصان و هو الإبذاء سواء كان المراد به الحبس أو الضرب بالنعال أو التعبير بالقول أو غير ذلك؁ و الآيه على هذا منسوخه بآيه الجلد من سوره النور؁ و أما ما ورد من الروايه فى كون الآيه متضمنه لحكم الأبكار فمن الآحاد و هى مع

ذلك مرسله ضعيفه بالإرسال، و الله أعلم هذا و لا يخلو مع ذلك من وهن (١).

قوله تعالى: فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضُوا عَنْهُمَا الخ؛ تقييد التوبه بالإصلاح لتحقيق حقيقه التوبه، و تبين أنها ليست مجرد لفظ أو حاله مندفعه.

[سوره النساء (٤): الآيات ١٧ الى ١٨]

إشاره

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِيمَانَ وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)

بيان:

قوله تعالى: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ التوبه هي الرجوع، و هي رجوع من العبد الى الله سبحانه بالندامه و الانصراف عن الإعراض عن العبوديه، و رجوع من الله الى العبد رحمه بتوفيقه للرجوع الى ربه أو بغفران ذنبه، و قد مر مرارا أن توبه واحده من العبد محفوفه بتوبتين من الله سبحانه على ما يفيداه القرآن الكريم.

و ذلك أن التوبه من العبد حسنه تحتاج الى قوه و الحسنات من الله، و القوه لله جميعا فمن الله توفيق الأسباب حتى يتمكن العبد من التوبه و يتمشى له الانصراف عن التوغل فى غمرات

ص: ٦٣٠

البعد و الرجوع الى ربه اذا وفق للتوبه و الرجوع احتاج فى التطهر من هذه الألوأث، و زوال هذه القذارات، و الورد و الاستقرار فى ساحه القرب الى رجوع آخر من ربه اليه بالرحمه و الحنان و العفو و المغفره.

و هذان الرجوعان من الله سبحانه هما التوبتان الحافتان لتوبه العبد و رجوعه قال تعالى:

ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا (التوبه ١١٨) و هذه هى التوبه الاولى، و قال تعالى: فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ (البقره ١٦٠) و هذه هى التوبه الثانيه، و بين التوبتين منه تعالى توبه العبد كما سمعت.

و أما قوله: عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ، لفظه على و اللام تفيدان معنى النفع و الضرر كما فى قولنا: دارت الدائره لزيد على عمرو، و كان السباق لفلان على فلان، و وجه إفاده على و اللام معنى الضرر و النفع أن على تفيد معنى الاستعلاء، و اللام معنى الملك و الاستحقاق، و لازم ذلك أن المعانى المتعلقه بطرفين ينتفع بها أحدهما و يتضرر بها الآخر كالحرب و القتال و النزاع و نحوها فيكون أحدهما الغالب و الآخر المغلوب ينطبق على الغالب منهما معنى الملك و على المغلوب معنى الاستعلاء، و كذا ما أشبه ذلك كمعنى التأثير بين المتأثر و المؤثر، و معنى العهد و الوعد بين المتعهد و المتعهد له، و الواعد و الموعد له و هكذا، فظهر أن كون على و اللام لمعنى الضرر و النفع إنما هو أمر طار من ناحيه مورد الاستعمال لا من ناحيه معنى اللفظ.

و لما كان نجاح التوبه إنما هو لوعده وعدة الله عباده فأوجبها بحبسه على نفسه لهم قال هاهنا: إنما التوبه على الله للذين يعملون السوء بجهاله فيجب عليه تعالى قبول التوبه لعباده لكن لا- على أن لغيره أن يوجب عليه شيئاً أو يكلفه سواء سمي ذلك الغير بالعقل أو نفس الأمر أو الواقع أو الحق أو شيئاً آخر، تعالى عن ذلك و تقدر بل على أنه تعالى وعد عباده أن يقبل توبه التائب منهم و هو لا يخلف الميعاد، فهذا معنى وجوب قبول التوبه على الله فيما يجب، و هو أيضاً معنى كل ما يجب على الله من الفعل.

و ظاهر الآيه أولا أنها لبيان أمر التوبه التي لله أعنى رجوعه تعالى بالرحمه الى عبده دون توبه العبد و إن تبين بذلك أمر توبه العبد بطريق اللزوم فإن توبه الله سبحانه اذا تمت شرائطها لم ينفك ذلك من تمام شرائط توبه العبد، و هذا أعنى كون الآيه فى مقام بيان توبه الله سبحانه لا يحتاج الى مزيد توضيح.

و ثانيا: أنها تبين أمر التوبه أعم مما اذا تاب العبد من الشرك و الكفر بالإيمان أو تاب من المعصيه الى الطاعه بعد الإيمان فإن القرآن يسمى الأمرين جميعا بالتوبه قال تعالى: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ (المؤمن ٧) يريد: للذين آمنوا بقرينه أول الكلام فسمى الإيمان توبه، و قال تعالى: ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ (التوبه / ١١٨).

و الدليل على أن المراد هى التوبه أعم من أن تكون من الشرك أو المعصيه التعميم الموجود فى الآيه التاليه: و ليست التوبه، الخ؛ فإنها تتعرض لحال الكافر و المؤمن معا، و على هذا فالمراد بقوله: يَعْمَلُونَ السُّوءَ ما يعم حال المؤمن و الكافر معا فالكافر كالمؤمن الفاسق ممن يعمل السوء بجهاله إما لأن الكفر من عمل القلب، و العمل أعم من عمل القلب و الجوارح، أو لأن الكفر لا- يخلو من أعمال سيئه من الجوارح فالمراد من الذين يعملون السوء بجهاله الكافر و الفاسق اذا لم يكونا معاندين فى الكفر و المعصيه.

و أما قوله تعالى: بِجَهَالَةٍ فالجهل يقابل العلم بحسب الذات غير أن الناس لما شاهدوا من أنفسهم أنهم يعملون كلا من أعمالهم الجاربه عن علم و إرادته، و أن الإراده إنما تكون عن حب ما و شوق ما سواء كان الفعل مما ينبغى أن يفعل بحسب نظر العقلاء فى المجتمع أو مما لا- ينبغى أن يفعل لكن من له عقل مميز فى المجتمع عندهم لا- يقدم على السيئه المذمومه عند العقلاء فأذعنوا بأن من اقترف هذه السيئات المذمومه لهوى نفسانى و داعيه شهويه أو غضبيه خفى

عليه وجه العلم، و غاب عنه عقله المميز الحاكم في الحسن و القبيح و الممدوح و المذموم، و ظهر عليه الهوى و عندئذ يسمى حاله في علمه و إرادته «بِجَهَالِهِ» في عرفهم و إن كان بالنظر الدقيق نوعا من العلم لكن لما لم يؤثر ما عنده من العلم بوجه قبح الفعل و ذمه في ردعه عن الوقوع في القبح و الشناعه الحق بالعدم فكان هو جاهلا عندهم حتى أنهم يسمون الإنسان الشاب الحدث السن قليل التجربة جاهلا لغلبه الهوى و ظهور العواطف و الإحساسات النيئه على نفسه، و لذلك أيضا تراهم لا يسمون حال مقترف السيئات اذا لم يفعل في اقرار السيئه عن الهوى و العاطفه جهاله بل يسمونها عنادا و عمدا و غير ذلك.

فتبين بذلك أن الجهاله في باب الأعمال إتيان العمل عن الهوى و ظهور الشهوه و الغضب من غير عناد مع الحق، و من خواص هذا الفعل الصادر عن جهاله أن اذا سكنت ثوره القوى و خمد لهيب الشهوه أو الغضب باقرار للسيئه أو بحلول مانع أو بمرور زمان أو ضعف القوى بشيب أو مزاج عاد الإنسان الى العلم و زالت الجهاله، و بانت الندامه بخلاف الفعل الصادر عن عناد و تعمد و نحو ذلك فإن سبب صدوره لما لم يكن طغيان شىء من القوى و العواطف و الأميال النفسانيه بل أمرا يسمى عندهم بخبث الذات و ردائه الفطره لا- يزول بزوال طغيان القوى و الأميال سريرا أو بطيئا بل دام نوعا بدوام الحياه من غير أن يلحقه ندامه من قريب إلا أن يشاء الله.

نعم ربما يتفق أن يرجع المعاند اللجوج عن عناده و لجاجه و استعلائه على الحق فيتواضع للحق و يدخل في ذل العبوديه فيكشف ذلك عندهم عن أن عناده كان عن جهاله، و في الحقيقه كل معصيه جهاله من الإنسان، و على هذا لا يبقى للمعاند مصداق إلا من لا يرجع عن سوء عمله الى آخر عهده بالحياه و العافيه.

و من هنا يظهر معنى قوله تعالى: ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ أَى إن عامل السوء بجهاله لا- يقيم عاكفا على طريقته ملازما لها مدى حياته من غير رجاء في عدوله الى التقوى و العمل الصالح

كما يدوم عليه المعاند اللجوج بل يرجع عن عمله من قريب فالمراد بالقریب العهد القريب أو الزمان القريب و هو قبل ظهور آيات الآخرة و قدوم الموت.

و كل معاند لجوج فى عمله اذا شاهد ما يسوؤه من جزاء عمله و وبال فعله ألزمته نفسه على الندامه و التبرى من فعله لكنه بحسب الحقيقه ليس بنادم عن طبعه و هدايه فطرته بل إنما هى حيله يحتالها نفسه الشريره للتخلص من وبال الفعل، و الدليل عليه أنه اذا اتفق تخلصه من الوبال المخصوص عاد ثانيا الى ما كان عليه من سيئات الأعمال قال تعالى: **وَ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (الأنعام ٢٨).**

و الدليل على أن المراد بالقریب فى الآيه هو ما قبل ظهور آيه الموت قوله تعالى فى الآيه التاليه: و ليست التوبه الى قوله: **قَالَ إِنِّي تَبْتُ الْآنَ .**

و على هذا يكون قوله: **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ** كناية عن المساهله المفضيه الى فوت الفرصه.

و بالجمله يعود المعنى الى أن الله سبحانه إنما يقبل توبه المذنب العاصى اذا لم يقترف المعصيه استكبارا على الله بحيث يبطل منه روح الرجوع و التذلل لله، و لم يتساهل و يتسامح فى أمر التوبه تساهلا يؤدي الى فوت الفرصه بحضور الموت.

و يمكن أن يكون قوله: **بِجَهَالِهِ** قيذا توضيحيا، و يكون المعنى: للذين يعملون السوء و لا- يكون ذلك إلا- عن جهل منهم فإنه مخاطره بالنفس و تعرض لعذاب أليم، أو لا يكون ذلك إلا عن جهل منهم بكنه المعصيه و ما يترتب عليها من المحذور، و لازمه كون قوله: **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ** إشاره الى ما قبل الموت لا كناية عن المساهله فى أمر التوبه فإن من يأتى بالمعصيه استكبارا و لا يخضع لسطان الربوبيه يخرج على هذا الفرض بقوله: **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ** لا بقوله: **بِجَهَالِهِ** و على هذا لا يمكن الكناية بقوله: **ثُمَّ يَتُوبُونَ** عن التكاهل و التوانى فافهم ذلك، و لعل الوجه الأول أوفق لظاهر الآيه.

قوله تعالى: فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا الإتيان باسم الإشارة الموضوع للبعيد لا يخلو من إشاره الى ترفع قدرهم و تعظيم أمرهم كما يدل قوله: يَعْمَلُونَ الشُّوَاءَ بِجَهَالَةٍ عَلَى الْمَسَاهِلَةِ فِي إِحْصَاءِ مَعَاصِيهِمْ عَلَى خِلَافِ مَا فِي آيَةِ الثَّانِيَةِ:

و ليست التوبه للذين يعملون السيئات، الخ.

و قد اختير لختم الكلام قوله: وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا دون أن يقال: و كان الله غفورا رحيمًا للدلاله على أن فتح باب التوبه إنما هو لعلمه تعالى بحال العباد و ما يؤددهم إليه ضعفهم و جهالتهم، و لحكمته المقتضيه لوضع ما يحتاج إليه إتقان النظام و إصلاح الامور و هو تعالى لعلمه و حكمته لا يغره ظواهر الأحوال بل يختبر القلوب، و لا يستزله مكر و لا خديعه فعلى التائب من العباد أن يتوب حق التوبه حتى يجيبه الله حق الإجابة.

قوله تعالى: وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ الخ؛ فى عدم إعادته قوله:

عَلَى اللَّهِ مَع كَوْنِهِ مَقْصُودًا مَا لَا يَخْفَى مِنَ التَّلْوِيحِ إِلَى انْقِطَاعِ الرَّحْمَةِ الْخَاصَةِ وَالْعَنَاءِ الْإِلَهِيِّ عَنْهُمْ كَمَا أَنَّ إِيرَادَ السَّيِّئَاتِ بِلَفْظِ الْجَمْعِ يَدُلُّ عَلَى الْعَنَاءِ بِإِحْصَاءِ سَيِّئَاتِهِمْ وَحِفْظِهَا عَلَيْهِمْ كَمَا تَقَدَّمتُ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ.

و تقييد قوله: يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ بقوله: حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ الْمَفِيدُ لِاسْتِمْرَارِ الْفِعْلِ إِمَّا لِأَنَّ الْمَسَاهِلَةَ فِي الْمَبَادِرَةِ إِلَى التَّوْبَةِ وَتَسْوِيفِهَا فِي نَفْسِهِ مَعْصِيَهُ مُسْتَمِرَّهُ مُتَكَرِّرَهُ، أَوْ لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْمَدَاوِمَةِ عَلَى الْفِعْلِ، أَوْ لِأَنَّ الْمَسَاهِلَةَ فِي أَمْرِ التَّوْبَةِ لَا تَخْلُو غَالِبًا عَنِ تَكَرُّرِ مَعَاصٍ مِجَانِسَةٍ لِلْمَعْصِيَةِ الصَّادِرَةِ أَوْ مُشَابِهَةٍ لَهَا.

و فى قوله: حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ دون أن يقال: حتى اذا جاءهم الموت دلالة على الاستهانه بالأمر و الاستحقار له أى حتى يكون أمر التوبه هينا هذا الهوان سهلا هذه السهولة حتى يعمل الناس ما يهوونه و يختاروا ما يشاءونه و لا يباليون و كلما عرض لأحدهم عارض الموت قال: إنى تبت الآن فتندفع مخاطر الذنوب و مهلكه مخالفه الأمر الإلهي بمجرد لفظ يردده

أَلَسْتَهُمْ أَوْ خَطُورٍ يَخْطُرُ بِأَلَهُمْ فِي آخِرِ الْأَمْرِ.

و من هنا يظهر معنى قوله: قَالَ إِنِّي تُبْتُ بِقَوْلِهِ: أَلَمْ أَنْ يَفِيدَ أَنْ حُضُورَ الْمَوْتِ وَ مَشَاهِدَهُ هَذَا الْقَائِلِ سُلْطَانَ الْآخِرِ هُمَا الْمَوْجِبَانِ لَهُ أَنْ يَقُولَ تَبْتُ سِوَاءَ ذِكْرِهِ أَوْ لَمْ يَذْكُرْهُ فَالْمَعْنَى: إِنِّي تَائِبٌ لِمَا شَاهَدْتُ الْمَوْتَ الْحَقَّ وَ الْجَزَاءَ الْحَقَّ، وَ قَدْ قَالَ تَعَالَى فِي نَظِيرِهِ حَاكِيًا عَنِ الْمَجْرِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: وَ لَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَ سَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (السجده ١٢).

فهذه توبه لا- تقبل من صاحبها لأن اليأس من الحياه الدنيا و هول المطلع هما اللذان أجبراه على أن يندم على فعله و يعزم على الرجوع الى ربه و لات حين رجوع حيث لا حياه دنيويه و لا خيره عمليه.

قوله تعالى: وَ لَا- الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ هَذَا مُصَدِّقٌ آخِرٌ لِعَدَمِ قَبُولِ التَّوْبَةِ وَ هُوَ الْإِنْسَانُ يَتِمَادِي فِي الْكُفْرِ ثُمَّ يَمُوتُ وَ هُوَ كَافِرٌ فَإِنَّ اللَّهَ لَا- يَتُوبُ عَلَيْهِ فَإِنَّ إِيْمَانَهُ وَ هُوَ تَوْبَتَهُ لَا- يَنْفَعُهُ يَوْمَئِذٍ، وَ قَدْ تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنْ الْكُفْرَ لَا- نَجَاةَ مَعَهُ بَعْدَ الْمَوْتِ؛ وَ أَنَّهُمْ لَا- يَجَابُونَ وَ إِنْ سَأَلُوا، قَالَ تَعَالَى: إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ بَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ أَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَ الْمَلَائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَ لَا هُمْ يُنظَرُونَ (البقره ١٦٢)، وَ قَالَ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقِيلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَ لَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (آل عمران ٩١)، وَ نَفَى النَّاصِرِينَ نَفَى لِلشَّفَاعَةِ فِي حَقِّهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْآيَةِ فِي الْجِزَاءِ الثَّلَاثِ مِنَ الْكِتَابِ.

و تقييد الجملة بقوله: وَ هُمْ كُفَّارٌ يدل على التوبه للعاصي المؤمن اذا مات على المعصيه من غير استكبار و لا تساهل فإن التوبه من العبد بمعنى رجوعه الى عبوديه اختياريه و إن ارتفع موضوعها بالموت كما تقدم لكن التوبه منه تعالى بمعنى الرجوع بالمغفره و الرحمه يمكن أن

يتحقق بعد الموت لشفاعه الشافعين، و هذا فى نفسه من الشواهد على أن المراد بالآيتين بيان حال توبه الله سبحانه لعباده لا بيان حال توبه العبد الى الله إلا بالتبع.

قوله تعالى: **أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** اسم الاشاره يدل على بعدهم من ساحه القرب و التشریف، و الاعتاد: و الإعداد أو الوعد (١).

[سوره النساء (٤): الآيات ١٩ الى ٢٢]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَ عَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ يَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) وَ إِنْ أَرَدْتُمْ إِسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَ آتَيْتُمْ إِخْدَانَهُمْ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَ تَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا (٢٠) وَ كَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَ أَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٢١) وَ لَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَ مَقْتًا وَ سَاءَ سَبِيلًا (٢٢)

بيان:

قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ** -الى قوله- **كَرِهًا** كان أهل

ص: ٦٣٧

الجاهلية-على ما فى التاريخ و الروايه-يعدون نساء الموتى من التركه-اذا لم تكن المرأه أما للوارث-فيرثونهن مع التركه فكان أحد الوراث يلقى ثوبا على زوجه الميت و يرثها فإن شاء تزوج بها من غير مهر بل بالوراثه و إن كره نكاحها حبسها عنده فإن شاء زوجها من غيره فانتفع بمهرها،و إن شاء عضلها و منها انكاح و حبسها حتى تموت فيرثها إن كان لها مال.

و الآيه و إن كان ظاهرها أنها تنهى عن سنه دائره بينهم،و هى التى ذكرناها من إرث النساء فتكون مسوقه للردع عن هذه السنه لسيئه على ما ذكره بعض المفسرين إلا أن قوله فى ذيل الجملة: «كُرْهًا» لا يلائم ذلك سواء أخذ قيدا توضيحيا أو احترازيا.

فإنه لو كان قيدا توضيحيا أفاد أن هذه الوراثه تقع دائما على كره من النساء و ليس كذلك، و هو ظاهر،و لو كان قيدا احترازيا أفاد أن النهى إنما هو اذا كانت الوراثه على كره من النساء دون ما اذا كان على رضى منهن،و ليس كذلك.

نعم الكره أمر متحقق فى العضل عن الازدواج طمعا فى ميراثهن دائما أو غالبا بعد القبض عليهن بالإرث فالظاهر أن الآيه فى مقام الردع عن هذا الإرث على كره و أما نكاحهن بالإرث فالمتعرض للنهى عنه قوله تعالى فيما سيأتى: و لا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء،الآيه؛ و أما تزويجهن من الغير و الذهاب بمهرهن فينهى عنه مثل قوله تعالى: وَ لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْتُمْ لَهُنَّ (النساء/٣٢)،و يدل على الجميع قوله تعالى: فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيْمَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ (البقره/٢٣٤).

و أما قوله بعد:و لا تعضلوهن لتذهبوا،الخ؛فهو غير هذا العضل عن الازدواج للذهاب بالمال إرثا لما فى تذييله بقوله: لِيَتَذَهَّبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ من الدلاله على أن المراد به الذهاب ببعض المهر الذى آتاه الزوج العاضل دون المال الذى امتلكته من غير طريق هذا المهر.و بالجملة الآيه تنهى عن وراثه أموال النساء كرها منهن دون وراثه أنفسهن فإضافه الإرث الى النساء إنما هى بتقدير الأموال أو يكون مجازا عقليا.

قوله تعالى: وَلَا تَعْضَلُوهُنَّ لِتَذَهَبُوا -الى قوله- مُبَيَّنَّهٖ إِمَّا مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ:

تَرْتُثُوا وَالتَّقْدِيرُ: وَلَا أَنْ تَعْضَلُوهُنَّ وَإِمَّا نَهَى مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: لَا يَحِلُّ لَكُمْ لِكَوْنِهِ فِي مَعْنَى النِّهْيِ. وَالعَضْلُ هُوَ المَنْعُ وَالتَّضْيِيقُ وَالتَّشْدِيدُ. وَالفَاحِشَةُ الطَّرِيقَةُ الشَّنِيعَةُ كَثُرَ اسْتِعْمَالُهَا فِي الزَّنا. وَالمِيبِنَةُ المَتَبِينَةُ، وَقد نَقَلَ عَن سِيبَوِيهِ أَنَّ أَبَانَ وَاسْتَبَانَ وَبَيْنَ وَتَبَيَّنَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، تَعَدَّى وَ لَا تَعَدَّى يُقَالُ: أَبَانَ الشَّيْءَ وَ اسْتَبَانَ وَ بَيْنَ وَ تَبَيَّنَ وَ يُقَالُ: أَبَنْتَ الشَّيْءَ وَ اسْتَبَنْتَهُ وَ بَيْنْتَهُ وَ تَبَيَّنْتَهُ.

قوله تعالى: وَ عَاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوفِ إِلَى آخِرِ الآيَةِ؛ المَعْرُوفُ هُوَ الأَمْرُ الَّذِي يَعْرِفُهُ النَّاسُ فِي مَجْتَمَعِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْكُرُوهُ وَ يَجْهَلُوهُ، وَ حَيْثُ قِيدَ بِهِ الأَمْرُ بِالمَعَاشِرَةِ كَانَ المَعْنَى الأَمْرَ بِمَعَاشِرَتِهِنَّ المَعَاشِرَةَ المَعْرُوفَةَ بَيْنَ هؤُلَاءِ المَأْمُورِينَ.

وَ المَعَاشِرَةُ الَّتِي يَعْرِفُهَا الرِّجَالُ وَ يَتَعَارَفُونَهَا بَيْنَهُمْ أَنَّ الوَاحِدَ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقُومٌ لِلْمَجْتَمَعِ يَسَاوِي سَائِرَ الأَجْزَاءِ فِي تَكْوِينِهِ المَجْتَمَعِ الإِنْسَانِي لِغَرَضِ التَّعَاوُنِ وَ التَّعَاوُذِ العَمُومِي النَّوعِي فَيَتَوَجَّهُ عَلَى كُلِّ مِنْهُمْ مِنَ التَّكْلِيفِ أَنْ يَسْعَى بِمَا فِي وَسْعِهِ مِنَ السَّعْيِ فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ المَجْتَمَعُ فَيَقْتَنِي مَا يَنْتَفِعُ بِهِ فَيُعْطِي مَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ وَ يَأْخُذُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَلَوْ عَوَمَلَ مَعَ وَاحِدٍ مِنَ الأَجْزَاءِ المَجْتَمَعِ غَيْرِ هَذِهِ المَعَامِلَةِ، وَ لَيْسَ إِلاَّ- أَنْ يَضْطَهْدُ بِإِبْطَالِ اسْتِقْلَالِهِ فِي الجِزْئِيَّةِ فَيُؤْخَذُ تَابِعًا يَنْتَفِعُ بِهِ وَ لَا يَنْتَفِعُ هُوَ بِشَيْءٍ يَحَازِيهِ، وَ هَذَا هُوَ الاسْتِثْنَاءُ.

وَ قد بَيَّنَّ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ أَنَّ النَّاسَ جَمِيعًا-رِجَالًا وَ نِسَاءً-فُرُوعٌ أَصْلٌ وَاحِدٌ إِنْشَائِي، وَ أَجْزَاءٌ وَ أَعْضَاءٌ لِطَبِيعِهِ وَاحِدَةٍ بَشَرِيَّةٍ، وَ المَجْتَمَعُ فِي تَكْوِينِهِ مَحْتَاجٌ إِلَى هؤُلَاءِ كَمَا هُوَ مَحْتَاجٌ إِلَى أَوْلَادِهِ عَلَى حَدِّ سِوَاءِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ (النساء ٢٥).

وَ لَا يَنَافِي ذَلِكَ إِخْتِصَاصُ كُلِّ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ بِخَصْلَةٍ تَخْتَصُّ بِهِ كإِخْتِصَاصِ الرِّجَالِ بِالشَّدَّةِ وَ القُوَّةِ نَوْعًا، وَ إِخْتِصَاصِ النِّسَاءِ بِالرِّقَّةِ وَ العَاطْفَةِ فَإِنَّ الطَّبِيعَةَ الإِنْسَانِيَّةَ فِي حَيَاتِهَا التَّكْوِينِيَّةَ وَ الإِجْتِمَاعِيَّةَ جَمِيعًا تَحْتَاجُ إِلَى بَرُوزِ الشَّدَّةِ وَ ظُهُورِ القُوَّةِ كَمَا تَحْتَاجُ إِلَى سَرِيانِ المَوَدَّةِ وَ الرِّحْمَةِ،

و الخصلتان جميعا مظهرا الجذب و الدفع العامين فى المجتمع الإنسانى.

فالطائفتان متعادلتان وزنا و أثرا كما أن أفراد طائفة الرجال متساويه فى الوزن و التأثير فى هذه البنيه المكونه مع اختلافهم فى شئونهم الطبيعیه و الاجتماعیه من قوه و ضعف، و علم و جهل، و كياسه و بلاده، و صغر و كبر، و رئاسه و مرءوسیه، و مخدومیه و خادمیه، و شرف و خسه و غير ذلك.

و أما قوله تعالى: فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ يَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا فَهُوَ من قبيل إظهار الأمر المعلوم فى صوره المشكوك المحتمل اتقاء من تيقظ غريزه التعصب فى المخاطب نظير قوله تعالى: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرِمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (سبأ ٢٥).

قوله تعالى: وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ الاستبدال استفعال بمعنى طلب البدل، و كأنه بمعنى إقامه زوج مقام زوج أو هو من قبيل التضمنين بمعنى إقامه امرأه مقام أخرى بالاستبدال، و لذلك جمع بين قوله، أردتم و بين قوله: اسْتِبْدَالَ، الخ؛ مع كون الاستبدال مشتقلا على معنى الإيراده و الطلب، و على هذا فالمعنى: و إن أردتم أن تقيموا زوجا مقام أخرى بالاستبدال.

و البهتان ما بهت الإنسان أى جعله متحيرا، و يغلب استعماله فى الكذب من القول و هو فى الأصل مصدر، و قد استعمل فى الآيه فى الفعل الذى هو الأخذ من المهر، و هو فى الآيه حال من الأخذ و كذا قوله: إِنَّمَا، و الاستفهام إنكارى.

و المعنى: إن أردتم أن تطلقوا بعض أزواجكم و تتزوجوا بأخرى مكانها فلا تأخذوا من الصداق الذى آتيتموها شيئا و إن كان ما آتيتموها مالا كثيرا، و ما تأخذونه قليلا جدا.

قوله تعالى: وَ كَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛

الاستفهام للتعجب، والإفضاء هو الاتصال بالماسه، وأصله الفضاء بمعنى السعه.

و لما كان هذا الأخذ إنما هو بالبغي و الظلم، و مورده مورد الاتصال و الاتحاد أوجب ذلك صحه التعجب حيث إن الزوجين يصيران بسبب ما أوجه الازدواج من الإفضاء و الاقتراب كشخص واحد، و من العجيب أن يظلم شخص واحد نفسه و يؤذيها أو يؤذى بعض أجزائه بعضاً.

و أما قوله وَ أَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا فالظاهر أن المراد بالميثاق الغليظ هو العلقه التي أبرمها الرجل بالعقد و نحوه، و من لوازمها الصداق الذي يسمى عند النكاح و تستحقه المرأه من الرجل (١).

[سوره النساء (٤): الآيات ٢٣ الى ٢٨]

اشاره

حَرَّمْتُ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتِكُمْ وَ بَنَاتِكُمْ وَ أَخَوَاتِكُمْ وَ عَمَّاتِكُمْ وَ خَالَاتِكُمْ وَ بَنَاتُ الْأَخِ وَ بَنَاتُ الْأُخْتِ وَ أُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَ أَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرِّضَاعِ وَ أُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَ رَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَ حَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَضْلَابِكُمْ وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٣) وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ أَجَلَ لَكُمْ مِنْهُنَّ مَا كَانَ فِي أَرْوَاحِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصَنَاتٍ بَدَلًا مِنْهُنَّ فَإِذَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهَا تَرْضَاهُنَّ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤) وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فُتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَ آتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَ لَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَ أَنْ تَضْرَبُوا خَظْرًا لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥) يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيبَ الَّتِي فِي قُلُوبِكُمْ وَ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا (٢٨)

ص: ٦٤١

(١-١). النساء ١٩-٢٢: بحث روائي حول: التقاليد الجاهليه في المرأه التي يموت زوجها، الامر بحسن معامله النساء.

بيان:

قوله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ هَؤُلَاءِ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ
بحسب النسب و هي

ص: ٦٤٢

سبعة أصناف، و الام من اتصل إليها نسب الإنسان بالولادة كمن ولدته من غير واسطه أو بواسطه، كوالده الأب أو الام فصاعده، و البنت من اتصل نسبها بالإنسان بسبب ولادتها منه كالمولوده من صلبه بلا واسطه، و كبنت الابن و البنت فنازله، و الاخت من اتصل نسبها بالإنسان من جهه ولادتهما معها من الأب أو الام أو منهما جميعا بلا واسطه، و العمه اخت الأب و كذا اخت الجد من جهه الأب أو الام، و الخاله اخت الام، و كذا اخت الجده من جهه الأب أو الام.

و المراد بتحريم الامهات و ما يتلوها من الأصناف حرمه نكاحهن على ما يفيد الإطلاق من مناسبه الحكم و الموضوع، كما فى قوله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ (المائده ٣) أى أكلهما، و قوله تعالى: فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ (المائده ٢٦) أى سكنى الأرض، و هذا مجاز عقلى شائع، هذا.

و لكنه لا يلائم ما سيأتى من قوله تعالى: «إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» فإنه استثناء من الوطاء دون علقه النكاح على ما سيجىء، و كذا قوله تعالى: أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصَيْنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ على ما سيجىء، فالحق أن المقدر هو ما يفيد معنى الوطاء دون علقه النكاح، و إنما لم يصرح تأدبا و صونا للسان على ما هو دأب كلامه تعالى.

و اختصاص الخطاب بالرجال دون أن يقال: حرم عليهن أبناهن، الخ؛ أو يقال مثلا: لا نكاح بين المرأه و ولدها، الخ؛ لما أن المطلب و الخطبه بحسب الطبع إنما يقع من جانب الرجال فحسب.

و توجيه الخطاب الى الجمع مع تعليق الحرمة بالجمع كالامهات و البنات، الخ؛ تفيد الاستغراق فى التوزيع، أى حرمت على كل رجل منكم أمه و بنته، اذ لا معنى لتحريم المجموع على المجموع، و لا لتحريم كل ام و بنت لكل رجل مثلا على كل رجل لأوله الى تحريم أصل النكاح، فمآل الآيه الى أن كل رجل يحرم عليه نكاح أمه و بنته و اخته، الخ.

قوله تعالى: وَ أُمَّهَاتِكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُم وَ أَخَوَاتِكُم مِّن الرِّضَاعِ شُرُوع فِي بِيَان المَحْرَمَات بِالسَّبَب، وَ هِيَ سَبْع سِت مِنْهَا مَا فِي هَذِهِ الآيَةِ، وَ سَابَعْتَهَا مَا يَتَضَمَّنُهُ قَوْلُهُ:

وَ لَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّن النِّسَاءِ، الآيَةَ.

وَ الآيَةَ بِسِيَاقِهَا تَدُلُّ عَلَى جَعْلِ الامُومَةِ وَ البَنُوهِ بَيْنَ المَرَأَةِ وَ مَنْ أَرْضَعْتَهُ وَ كَذَا الاخُوهِ بَيْنَ الرِّجْلِ وَ اخْتِهِ مِنَ الرِّضَاعِ حَيْثُ ارْسَلِ الكَلَامَ فِيهَا إِرْسَالِ المَسْلَمِ فَالرِّضَاعُ تَكُونُ الرُّوَابِطُ النِّسَبِيَّةُ بِحَسَبِ التَّشْرِيْعِ، وَ هَذَا مِمَّا يَخْتَصُّ بِالشَّرِيْعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ عَلَى مَا سَتَجِيءُ الإِشَارَةُ إِلَيْهِ.

وَ قَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فِيهَا رِوَاةُ الفَرِيقَانِ أَنَّهُ قَالَ: إِنْ لَمْ يَحْرَمْ مِنَ الرِّضَاعِ مَا حَرَّمَ مِنَ النِّسَبِ وَ لَازِمُهُ أَنْ تَنْتَشِرَ الحَرَمَةُ بِالرِّضَاعِ فِيمَا يَحَادِثُ مَحْرَمَاتِ النِّسَبِ مِنَ الأَصْنَافِ، وَ هِيَ الأُمُّ وَ البِنْتُ وَ الاخْتُ وَ العَمَّةُ وَ الخَالَةُ وَ بِنْتُ الأَخِ وَ بِنْتُ الاخْتِ، سَبْعَةُ أَصْنَافٍ.

وَ أَمَّا مَا بِهِ يَتَحَقَّقُ الرِّضَاعُ وَ مَا لَهُ فِي نَشْرِهِ الحَرَمَةَ مِنَ الشَّرَائِطِ مِنْ حَيْثُ الكَمِّ وَ الكَيْفِ وَ المَدَّةِ وَ مَا يَلْحَقُ بِهَا مِنَ الأحْكَامِ فَهُوَ مِمَّا يَتَبَيَّنُ فِي الفِقْهِ، وَ البَحْثُ فِيهِ خَارِجٌ عَنِ وَضْعِ هَذَا الكِتَابِ، وَ أَمَّا قَوْلُهُ: وَ أَخَوَاتِكُم مِّن الرِّضَاعِ فَالْمُرَادُ بِهِ الأَخَوَاتُ المَلْحَقَةُ بِالرِّجْلِ مِنْ جِهَةِ إِرْضَاعِ أُمِّهَا بِلَبَنِ أَبِيهِ وَ هَكَذَا.

قوله تعالى: وَ أُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ سِوَاءَ كَانَتِ النِّسَاءُ أَى الأَزْوَاجِ مَدْخُولًا بِهِنَّ أَوْ غَيْرِ مَدْخُولٍ بِهِنَّ فَإِنَّ النِّسَاءَ إِذَا أُضِيفَتْ إِلَى الرِّجَالِ دَلَّتْ عَلَى مَطْلُوقِ الأَزْوَاجِ، وَ الدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ التَّقْيِيدُ الآتِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ، الآيَةَ.

قوله تعالى: وَ رَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ - إِلَى قَوْلِهِ - فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمُ الرِّبَائِبُ جَمْعُ الرِّبِيْبَةِ وَ هِيَ بِنْتُ زَوْجِ الرِّجْلِ مِنْ غَيْرِهِ لِأَنَّ تَدْبِيرَ أَمْرٍ مَعَ المَرَأَةِ مِنَ الوَلَدِ إِلَى زَوْجِهَا فَهُوَ الَّذِي يَرْبِيهَا وَ يَرْبِيهَا فِي العَادَةِ الغَالِبَةُ وَ إِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ دَائِمًا.

وَ كَذَلِكَ كَوْنُ الرِّبِيْبَةِ فِي حِجْرِ الزَّوْجِ أَمْرٌ مَبْنِيٌّ عَلَى الغَالِبِ وَ إِنْ لَمْ يَجْرِ الأَمْرُ عَلَيْهِ دَائِمًا،

و لذلك قيل: إن قوله: اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ قيد مبنى على الغالب فالربيبه محرمه سواء كانت في حجر زوج امها أو لم يكن، فالقيد توضيحي لا احترازي.

و من الممكن أن يقال: إن قوله: اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ، إشاره الى ما يستفاد من حكمه تشريع الحرمة في محرمات النسب و السبب على ما سيجيء البحث عنه، و هو الاختلاط الواقع المستقر بين الرجل و بين هؤلاء الأصناف من النساء و المصاحبه الغالبه بين هؤلاء في المنازل و البيوت فلو لا- حكم الحرمة المؤبده لم يكن الاحتراز من وقوع الفحشاء بمجرد تحريم الزنا (على ما سيجيء بيانه).

فيكون قوله: «اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ» مشيرا الى أن الربائب لكونهن غالبا في حجوركم و في صحابتكم تشارك سائر الأصناف في الاشتمال على ملاك التحريم و حكمته.

و كيفما كان ليس قوله: اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ قيذا احترازيا يتقيد به التحريم حتى تحل الربيه لرابها اذا لم تكن في حجره كال بنت الكبيره يتزوج الرجل بامها، و الدليل على ذلك المفهوم المصرح به في قوله تعالى: فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ حيث ذكر فيه ارتفاع قيد الدخول لكون الدخول دخيلا في التحريم، و لو كان الكون في الحجور مثله لكان من اللازم ذكره، و هو ظاهر.

و قوله: فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أى في أن تنكحوهن حذف إيثارا للاختصار لدلاله السياق عليه.

قوله تعالى: وَ حَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمُ الْحَلَائِلُ جمع حليله قال في المجمع: و الحلائل جمع الحليله، و هى بمعنى محلله مشتقه من الحلال و الذكر حليل، و جمعه أحله كعزيز و أعزه سميا بذلك لأن كل واحده منهما يحل له مباشره صاحبه، و قيل هو من الحلول لأن كل واحد منهما يحال صاحبه أى يحل معه فى الفراش، انتهى.

و المراد بالأبناء من اتصل بالإنسان بولاده سواء كان ذلك بلا واسطه أو بواسطه ابن أو

بنت، وتقييده بقوله «الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ» احتراز عن حليله من يدعى ابنا بالتبني دون الولاده.

قوله تعالى: «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» المراد به بيان تحريم نكاح اخت الزوجه ما دامت الزوجه حيه باقيه تحت حباله الزوجيه فهو أوجز عباره و أحسنها فى تأديه المراد، و إطلاق الكلام ينصرف الى الجمع بينهما فى النكاح فى زمان واحد، فلا مانع من أن ينكح الرجل إحدى الاختين ثم يتزوج بالآخرى بعد طلاق الاولى أو موتها، و من الدليل عليه السيره القطعيه بين المسلمين المتصله بزمان النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

و أما قوله: «إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» فهو كتنظيره المتقدم فى قوله «وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» ناظر الى ما كان معمولاً به بين عرب الجاهليه من الجمع بين الاختين، و المراد به بيان العفو عما سلف من عملهم بالجمع بين الاختين قبل نزول هذه الآيه دون ما لو كان شىء من ذلك فى زمان النزول بنكاح سابق فإن الآيه تدل على منعه لأنه جمع بين الاختين بالفعل كما يدل عليه أيضا ما تقدم نقله من أسباب نزول قوله «وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ» الآيه؛ حيث فرق النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بعد نزول الآيه بين الأبناء و بين نساء آبائهم مع كون النكاح قبل نزول الآيه.

و رفع التحريم- و هو الجواز- عن نكاح سالف لا يتلى به بالفعل، و العفو عنه من حيث نفس العمل المنقضى و إن كان لغوا لا أثر له لكنه لا يخلو عن الفائده من حيث آثار العمل الباقيه بعده كطهاره المولد و اعتبار القرابه مع الاستيلاء و نحو ذلك.

و بعباره اخرى لا- معنى لتوجيه الحرمة أو الإباحه الى نكاح سابق قد جمع بين الاختين اذا ماتتا مثلا أو ماتت إحداهما أو حل الطلاق بهما أو بإحداهما لكن يصح رفع الإلغاء و التحريم عن مثل هذا النكاح باعتبار ما استتبعه من الأولاد من حيث الحكم بطهاره مولدهم، و وجود القرابه بينهم و بين آبائهم المولدين لهم و سائر قرابات الآباء، المؤثر ذلك فى الإرث و النكاح

و غير ذلك.

و على هذا فقوله «إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» استثناء من الحكم باعتبار آثاره الشرعيه لا باعتبار أصل تعلقه بعمل قد انقضى قبل التشريع، و من هنا يظهر أن الاستثناء متصل لا منقطع كما ذكره المفسرون.

و يمكن أن يرجع الاستثناء الى جميع الفقرات المذكوره فى الآيه من غير أن يختص بقوله «وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ» فإن العرب و إن كانت لا ترتكب من هذه المحرمات إلا الجمع بين الاختين، و لم تكن تقترف نكاح الامهات و البنات و سائر ما ذكرت فى الآيه إلا أن هناك امما كانت تنكح أقسام المحارم كالفرس و الروم و سائر الامم المتمدنه و غير المتمدنه يوم نزول الآيات على اختلافهم فيه، و الإسلام يعتبر صحه نكاح الامم غير المسلمه الدائر بينهم على مذاهيبهم فيحكم بطهاره مولدهم، و يعتبر صحه قرابتهم بعد الدخول فى دين الحق، هذا، لكن الوجه الأول أظهر.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا تعليل راجع الى الاستثناء، و هو من الموارد التى تعلق فيها المغفره بآثار الأعمال فى الخارج دون الذنوب و المعاصى.

قوله تعالى: وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ الْمُحْصَنَاتُ بفتح الصاد اسم مفعول من الإحصان و هو المنع، و منه الحصن الحصين أى المنيع يقال: أحصنت المرأة اذا عفت فحفظت نفسها و امتنعت عن الفجور، قال تعالى: أَلَّتْىَ أَخْصَنَتْ فَرْجَهَا (التحریم ١٢) أى عفت و يقال: أحصنت المرأة-بالبناء للفاعل و المفعول-اذا تزوجت فأحصن زوجها أو تزوج إياها من غير زوجها، و يقال: أحصنت المرأة اذا كانت حره فمنعها ذلك من أن يمتلك الغير بضعتها أو منعها ذلك من الزنا لأن ذلك كان فاشيا فى الإماماء.

و الظاهر أن المراد بالمحصنات فى الآيه هو المعنى الثانى أى المتزوجات دون الأول و الثالث لأن الممنوع المحرم فى غير الأصناف الأربعة عشر المعدوده فى الآيتين هو نكاح المزوجات

فحسب فلا منع من غيرها من النساء سواء كانت عفيفه أو غيرها، وسواء كانت حره أو مملوكه فلا وجه لأن يراد بالمحصنات فى الآيه العفائف مع عدم اختصاص حكم المنع بالعفائف ثم يرتكب تقييد الآيه بالتزويج، أو حمل اللفظ على إرادته الحرائر مع كون الحكم فى الإمام أيضا مثلهن ثم ارتكاب التقييد بالتزويج فإن ذلك أمر لا يرتضيه الطبع السليم.

فالمراد بالمحصنات من النساء المزوجات و هى التى تحت حباله التزويج، و هو عطف على موضع امهاتكم، و المعنى: و حرمت عليكم كل مزوجه من النساء ما دامت مزوجه ذات بعل.

و على هذا يكون قوله «إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» رفعا لحكم المنع عن محصنات الإمام على ما ورد فى السنه أن لمولى الأيمه المزوجه أن يحول بين مملوكته و زوجها ثم ينالها عن استبراء ثم يردّها الى زوجها.

قوله تعالى: كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أَى أَلْزَمُوا حَكْمَ اللَّهِ الْمَكْتُوبَ الْمُقْضَى عَلَيْكُمْ و قد ذكر المفسرون أن قوله «كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» منصوب مفعولا مطلقا لفعل مقدر، و التقدير: كتب الله كتابا عليكم ثم حذف الفعل و اضيف المصدر الى فاعله و اقيم مقامه، و لم يأخذوا لفظ عليكم سم فعل لما ذكره النحويون أنه ضعيف العمل ما يتقدم معموله عليه؛ هذا.

قوله تعالى: وَ أَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ظَاهِرُ التَّعْبِيرِ بِمَا الظَّاهِرُ فِي غَيْرِ أَوْلَى الْعَقْلِ، و كذا الإشاره بذلكم الدال على المفرد المذكور، و كذا قوله بعده: أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ، أن يكون المراد بالموصول و اسم الإشاره هو المقدر فى قوله: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَمْهَاتُكُمْ، المتعلق به التحريم من الوطاء و النيل أو ما هو من هذا القبيل، و المعنى: و احل لكم من نيلهن ما هو غير ما ذكر لكم، و هو النيل بالنكاح فى غير من عد من الأصناف الخمسه عشر أو بملك اليمين، و حينئذ يستقيم بدليه قوله: أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ، من قوله: وَ أَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ كُلِّ الاستقامه.

قوله تعالى: «أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصَيْنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ» بدل أو عطف بيان من قوله «مَا وَرَاءَ ذَلِكَ» يتبين به الطريق المشروع فى نيل النساء و مباشرتهن، و ذلك أن الذى يشملته قوله «وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ» من المصداق ثلاثه:النكاح و ملك اليمين و السفاح و هو الزنا فيبين بقوله «أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ» الخ؛المنع عن السفاح و قصر الحل فى النكاح و ملك اليمين ثم اعتبر الابتغاء بالأموال و هو فى النكاح المهر و الاجره-ركن من أركانه-و فى ملك اليمين الثمن-و هو الطريق الغالب فى تملك الإمام-فيؤول معنى الآية الى مثل قولنا:احل لكم فيما سوى الأصناف المعدوده أن تطلبوا مباشره النساء و نيلهن بإنفاق أموالكم فى اجره المنكوحات من النساء نكاحا من غير سفاح أو انفاقها فى ثمن الجوارى و الإماء.

و من هنا يظهر أن المراد بالإحصان فى قوله «مُحْصَيْنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ» إحصان العفه دون إحصان التزويج و إحصان الحرية فإن المراد بابتغاء الأموال فى الآية أعم مما يتعلق بالنكاح أو بملك اليمين و لا دليل على قصرها فى النكاح حتى يحمل الإحصان على إحصان التزويج، و ليس المراد بإحصان العفه الاحتراز عن مباشره النساء حتى ينافى المورد بل ما يقابل السفاح أعنى التعدى الى الفحشاء بأى وجه كان بقصر النفس فى ما أحل الله،و كفها عما حرم الله فى الطرق العاديه فى التمتع المباشرى الذى اودع النزوع اليه فى جبله الانسان و فطرته.

قوله تعالى: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً كَأَنَّ الضمير فى قوله: «بِهِ» راجع الى ما يدل على قوله: «وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ» و هو النيل أو ما يؤدى معناه»،فيكون «مَا» للتوقيت،و قوله «مِنْهُنَّ» متعلقا بقوله: «اسْتَمْتَعْتُمْ» و المعنى:مهما استمتعتم بالنيل منهن فآتوهن اجورهن فريضه.

و يمكن أن يكون ما موصوله،و استمتعتم صله لها،و ضمير به راجعا الى الموصول و قوله «مِنْهُنَّ» بيانا للموصول،و المعنى:و من استمتعتم به من النساء،الخ.

و الجمله أعنى قوله: **فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ**، الخ؛ تفریع لما تقدمها من الكلام-لمكان الفاء-تفریع البعض على الكل أو تفریع الجزئى على الكلى بلا- شك فإن ما تقدم من الكلام أعنى قوله «**أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصَيْنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ**» كما تقدم بيانه شامل لما فى النكاح و ملك اليمين، فتفریع قوله: **فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ** عليه يكون من تفریع الجزء على الكل أو تفریع بعض الأقسام الجزئيه على المقسم الكلى.

و هذا النوع من التفریع كثير الورد فى كلامه تعالى كقوله عزّ من قائل: **أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ** الآية (البقره ١٨٤) وقوله: **فَإِذَا أَمْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ** الآية (البقره ١٩٦) وقوله: **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ** (البقره ٢٥٦) الى غير ذلك.

و المراد بالاستمتاع المذكور فى الآية نكاح المتعه بلا شك فإن الآية مدنيه نازله فى سوره النساء فى النصف الأول من عهد النبى صلى الله عليه و آله و سلم بعد الهجره على ما يشهد به معظم آياتها، و هذا النكاح أعنى نكاح المتعه كانت دائره بينهم معموله عندهم فى هذه البرهه من الزمان من غير شك- و قد أطبقت الأخبار على تسلم ذلك- سواء كان الإسلام هو المشرع لذلك أو لم يكن فأصل وجوده بينهم بمرأى من النبى و مسمع منه لا- شك فيه، و كان اسمه هذا الاسم و لا يعبر عنه إلا بهذا اللفظ فلا مناص من كون قوله «**فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ**» محمولاً عليه مفهوماً منه هذا المعنى كما أن سائر السنن و العادات و الرسوم الدائره بينهم فى عهد النزول بأسمائها المعروفه المعهوده كلما نزلت آيه متعرضه لحكم متعلق بشىء من تلك الأسماء بامضاء أو رد أو أوامر أو نهى لم يكن بد من حمل الأسماء الوارده فيها على معانيها المسماه بها من غير أن تحمل على معانيها اللغويه الأصلية.

و ذلك كالحج و البيع و الربا و الربح و الغنيمه و سائر ما هو من هذا القبيل فلم يمكن لأحد أن يدعى أن المراد بحج البيت قصده، و هكذا، كذلك ما أتى به النبى صلى الله عليه و آله و سلم من الموضوعات

الشرعيه ثم شاع الاستعمال حتى عرفت بأساميه الشرعيه كالصلاه و الصوم و الزكاه و حج التمتع و غير ذلك لا مجال بعد تحقق التسميه لحمل ألفاظها الواقعه فى القرآن الكريم على معانيها اللغويه الأصليه بعد تحقق الحقيقه الشرعيه أو المتشرعيه فيها.

فمن المتعين أن يحمل الاستمتاع المذكور فى الآيه على نكاح المتعه لدورانه بهذا الاسم عندهم يوم نزول الآيه سواء قلنا بنسخ نكاح المتعه بعد ذلك بكتاب أو سنه أو لم نقل فإنما هو أمر آخر.

و جملة الأمر أن المفهوم من الآيه حكم نكاح المتعه، وهو المنقول عن القدماء من مفسرى الصحابه و التابعين كابن عباس و ابن مسعود و ابى بن كعب و قتاده و مجاهد و السدى و ابن جبير و الحسن و غيرهم، و هو مذهب أئمه أهل البيت عليهم السلام (١).

قوله تعالى: وَ مَنْ لَمْ يَسِدِّطْغِ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ، الطول الغنى و الزياده فى القدره، و كلا المعنيين يلائمان الآيه، و المراد بالمحصنات الحرائر بقرينه مقابلته بالفتيات، و هذا بعينه يشهد على أن ليس المراد بها العفائف، و إلا لم تقابل بالفتيات بل بها و بغير العفائف، و ليس المراد بها ذوات الأزواج اذ لا يقع عليها العقد و لا المسلمات و إلا لاستغنى عن التقييد بالمؤمنات.

و المراد بقوله «فَمِنْ مَلِكٍ أَيْمَانُكُمْ» ما ملكته أيمان المؤمنين غير من يريد الأزواج و إلا فتزوج الإنسان بملك يمين نفسه باطل غير مشروع، و قد نسب ملك اليمين الى المؤمنين و فيهم المرید للتزويج بعد الجميع واحدا غير مختلف لاتحادهم فى الدين، و اتحاد مصالحهم و منافعهم كأنهم شخص واحد.

و فى تقييد المحصنات و كذا الفتيات بالمؤمنات إشاره الى عدم جواز تزوج غير المؤمنات

ص: ٦٥١

(١ - ١). النساء ٢٣-٢٨: بحث فى متعه النساء.

من كتابيه و مشركه، و لهذا الكلام تمه ستمر بك إن شاء الله العزيز في أوائل سورة المائدة.

و محصل معنى الآية أن من لم يقدر منكم على أن ينكح الحرائر المؤمنات لعدم قدرته على تحمل أثقال المهر و النفقه فله أن ينكح من الفتيات المؤمنات من غير أن يتخرج من فقدان قدره على الحرائر، و يعرض نفسه على خطرات الفحشاء و معترض الشقاء.

فالمراد بهذا النكاح الدائم، و الآية في سياق التنزل أى إن لم يمكنكم كذا فيمكنكم كذا، و إنما قصر الكلام في صورته التنزل على بعض أفراد المنزل عنه أعنى على النكاح الدائم الذى هو بعض أفراد النكاح الجائر لكون النكاح الجائر لكون النكاح الدائم هو المتعارف المتعين بالطبع في نظر الإنسان المرید تأسيس البيت و إيجاد النسل و تخليف الولد، و نكاح المتعه تسهيل ديني خفف الله به عن عباده لمصلحه سد طريق الفحشاء، و قطع منابت الفساد.

قوله تعالى: **وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ** لما كان الإيمان المأخوذ في متعلق الحكم أمراً قلبياً لا سبيل الى العلم بحقيقته بحسب الأسباب، و ربما أوهم تعليقا بالمتعذر أو المتعسر، و أوجب تخرج المكلفين منه، بين تعالى أنه هو العالم بإيمان عباده المؤمنين و هو كنايه عن أنهم إنما كلفوا الجرى على الأسباب الظاهرية الداله على الإيمان كالشهادتين و الدخول في جماعه المسلمين و الإتيان بالوظائف العامه الدينيه، فظاهر الإيمان هو الملاك دون باطنه.

و في هدايه هؤلاء المكلفين غير المستطيعين الى الازدواج بالإماء نقص و قصور آخر في الوقوع موقع التأثير و القبول، و هو أن عامه الناس يرون لطبقه المملوكين من العبيد و الإماء هوانا في الأمر و حسه في الشأن و نوع ذله و انكسار فيوجب ذلك انقباضهم و جماع نفوسهم من الاختلاط بهم و المعاشره معهم و خاصه بالازدواج الذى هو اشتراك حيوى و امتزاج باللحم و الدم.

فأشار سبحانه بقوله: «بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ» الى حقيقه صريحه يندفع بالتأمل فيها هذا

التوهم الفاسد فالرقيق إنسان كما أن الحر إنسان لا يتميزان في ما به يصير الإنسان واجدا لشئون الإنسانية، وإنما يفترقان بسلسله من أحكام موضوعه يستقيم بها المجتمع الإنساني في إنتاجه سعادة الناس، ولا عبره بهذه التميزات عند الله، والذي به العبره هو التقوى الذى به الكرامه عند الله، فلا- ينبغى للمؤمنين أن يفعلوا عن أمثال هذه الخطرات الوهميه التى تبعدهم عن حقائق المعارف المتضمنه سعادتهم و فلاحهم، فإن الخروج عن مستوى الطريق المستقيم، وإن كان حقيرا فى بادى أمره لكنه لا يزال يبعد الإنسان من صراط الهدايه حتى يورده أوديه الهلكه.

و من هنا يظهر أن الترتيب الواقع فى صدر الآيه فى صورته الاشتراط و التنزل، أعنى قوله:

وَمَنْ لَمْ يَشْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، إنما هو جرى فى الكلام على مجرى الطبع و العاده، و ليس إلزاما للمؤمنين على الترتيب بمعنى أن يتوقف جواز نكاح الأمه على فقدان الاستطاعه على نكاح الحره بل لكون الناس بحسب طباعهم سالكين هذا المسلك خاطبهم أن لو لم يقدروا على نكاح الحرائر فلهم أن يقدموا على نكاح الفتيات من غير انقباض، و نبه مع ذلك على أن الحر و الرق من نوع واحد بعض أفراده يرجع الى بعض.

قوله تعالى: فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ إِلَى قوله أَخْذَانِ المراد بالمحصنات العفائف فإن ذوات البعوله لا يقع عليهن نكاح، و المراد بالمسافحات ما يقال متخذات الأخدان، و الأخدان جمع خدن بكسر الخاء و هو الصديق، يستوى فيه المذكر و المؤنث المفرد و الجمع، و إنما اتى به بصيغته الجمع للدلاله على الكثره نصا، فمن يأخذ صديقا للفحشاء لا يقع بالواحد و الاثنى فيه لأن النفس لا تقف على حد إذا اطيعت فيما تهواه.

و بالنظر إلى هذه المقابله قال من قال: إن المراد بالسفاح الزنا جهرا و باتخاذ الخدن الزنا سرا و قد كان اتخاذ الخدن متداولاً عند العرب حتى عند الأحرار و الحرائر لا يعاب به مع ذمهم

فقوله: فَأَنْكَحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ إرشاد إلى نكاح الفتيان مشروطاً بأن يكون بإذن مواليهن فإن زمام امرهن إنما هو بيد الموالى لا غير و إنما عبر عنهم بقوله أَهْلِهِنَّ جرياً على ما يقتضيه قوله قبل: بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فالفتاه واحده من اهل بيت مولاها و مولاها أهلها.

و المراد بإتيانهن اجورهن بالمعروف توفيتهن مهور نكاحهن و اتيان الأ-جور إياهن إعطاؤها مواليهن، و قد أرشد إلى الإعطاء بالمعروف عن غير بخس و مماطله و إذاء.

قوله تعالى: فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفٌ مَّا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ قرئ احصن بضم الهمزة بالبناء للمفعول و بفتح الهمزة بالبناء للفاعل، و هو الأرجح.

الإحصان فى الآيه إن كان هو إحصان الأزواج كان أخذه فى الشرط المجرى كونه مورد لكلام فى ما تقدم ازدواجهن، و ذلك أن الأمه تعذب نصف عذاب الحره اذا زنت سواء كانت محصنه بالأزواج أو لا من غير أن يؤثر الإحصان فيها شيئاً زائداً.

و أما اذا كان إحصان الإسلام كما قيل -و يؤيده قراءه فتح الهمزة- تم المعنى من غير مثنونه زائده، و كان عليهن اذا زنين نصف عذاب الحرائر سواء كن ذوات بعوله أو لا.

و المراد بالعذاب هو الجلد دون الرجم لأن الرجم لا يقبل الانتصاف و هو الشاهد على أن المراد بالمحصنات الحرائر غير ذوات الأزواج المذكوره فى صدر الآيه. و اللام للعهد فمعنى الآيه بالجملة أن الفتيات المؤمنات اذا أتين بفاحشه و هو الزنا فعليهن نصف حد المحصنات غير ذوات الأزواج، و هو جلد خمسين سوطاً.

و من الممكن أن يكون المراد بالإحصان إحصان العفه، و تقريره أن الجوارى يومئذ لم يكن لهن الاشتغال بكل ما تهواه أنفسهن من الأعمال بما لهن من اتباع أوامر مواليهن و خاصه فى

الفاحشه و الفجور و كانت الفاحشه فيهن-لو اتفقت-بأمر من مواليهن فى سبيل الاستغلال بهن و الاستدرار من عرضهن كما يشعر به النهى الوارد فى قوله تعالى: وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا (النور/٣٣). فالتماسهن الفجور و اشتغالهن بالفحشاء باتخاذها عاده و مكسبا كان فيما كان يأمر مواليهن من دون أن يسع لهن الاستنكاف و التمرد، و اذا لم يكرهن الموالي على الفجور فالمؤمنات منهن على ظاهر تقوى الإسلام، و عفه الإيمان، و حينئذ إن أتت بفاحشه فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب، و هو قوله تعالى: فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ، الخ.

و من هنا يظهر أن لا- مفهوم لهذه الشرطيه على هذا المعنى و ذلك أنهن اذا لم يحصن و لم يعففن كن مكرهات من قبل مواليهن مؤتمرات لأمرهم كما لا- مفهوم لقوله تعالى: وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا (النور/٣٣) حيث إنهن إن لم يردن التحصن لم يكن موضوع لإكراههن من قبل الموالي لرضاهن بذلك فافهم.

قوله تعالى: ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ الْعَنَتَ الْجَهْدَ وَ الشَّدَةَ وَ الْهَلَكَ، و كأن المراد به الزنا الذى هو نتيجة وقوع الإنسان فى مشقه الشبق و جهد شهوه النكاح و فيه هلاك الإنسان. و الاشاره على ما قيل: الى نكاح الجوارى المذكور فى الآيه، و عليه فمعنى قوله «وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ» أن تصبروا عن نكاح الإماء أو عن الزنا خير لكم. و يمكن أن يكون ذلك إشاره الى وجوب نكاح الاماء أو وجوب مطلب النكاح لو استفيد شىء منهما من سابق سياق الآيه و الله أعلم.

و كيف كان فكون الصبر خيرا إن كان المراد هو الصبر عن نكاح الإماء إنما هو لما فيه من حقوق مواليهن و فى أولادهن على ما فصل فى الفقه، و إن كان المراد بالصبر عن الزنا إنما هو لما فيه الصبر من تهذيب النفس و تهيئه ملكه التقوى فيها بترك اتباع هواها فى الزنا من غير ازدواج أو معه، و الله غفور رحيم يمحو بمغفرته آثار خطرات السوء عن نفوس المتقين من

عباده و يرحمهم برحمته.

□
قوله تعالى: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ بيان و إشاره الى غايه تشريع ما سبق من الأحكام فى الآيات الثلاث و المصالح التى تترتب عليها اذا عمل بها فقوله: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ أى أحكام دينه مما فيه صلاح دنياكم و عقباكم، و ما فى ذلك من المعارف و الحكم و على هذا فمعمول قوله: لِيُبَيِّنَ محذوف للدلاله على فخامه أمره و عظم شأنه، و يمكن أن يكون قوله: لِيُبَيِّنَ لَكُمْ، و قوله: وَ يَهْدِيكُمْ مَتَازِعِينَ فى قوله؛ سُنَّ الَّذِينَ .

قوله تعالى: وَ يَهْدِيكُمْ سُنَّ الَّذِينَ مِنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أى طرق حياه السابقين من الأنبياء و الامم الصالحه، الجارين فى الحياه الدنيا على مرضاه الله، الحائزين به سعادته الدنيا و الآخرة، و المراد بسننهم على هذا المعنى سننهم فى الجملة لا سننهم بتفاصيلها و جميع خصوصياتها فلا يرد عليه أن من احكامهم ما تنسخه هذه الآيات بعينها كازدواج الإخوه بالاخوات فى سنه آدم، و الجمع بين الاختين: فى سنه يعقوب عليه السلام، و قد جمع عليه السلام بين الاختين ليا ام يهودا و راحيل ام يوسف على ما فى بعض الأخبار، هذا.

□
قوله تعالى: وَ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ التوبه المذكوره هو رجوعه الى عبده بالنعمة و الرحمه، و تشريع الشريعة، و بيان الحقيقه، و الهدايه الى طريق الاستقامه كل ذلك توبه منه سبحانه كما أن قبول توبه العبد و رفع آثار المعصيه توبه.

□
و تذييل الكلام بقوله: وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ليكون راجعا الى جميع فقرات الآيه، و لو كان المراد رجوعه الى آخر الفقرات لكان الأنسب ظاهرا أن يقال: و الله غفور رحيم.

□
قوله تعالى: وَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدُ الَّذِينَ الْخ؛ كأن تكرر ذكر توبته للمؤمنين للدلاله على أن قوله: وَ يُرِيدُ الَّذِينَ يُتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا إنما يقابل من الفقرات الثلاث فى الآيه السابقه فقره الأخيره فقط، اذ لو ضم قوله: وَ يُرِيدُ الَّذِينَ، الى الآيه السابقه من غير تكرر قوله: وَ اللَّهُ يُرِيدُ، الخ؛ أفاد المقابله فى معنى جميع

الامم السابقة من ذلك كما يدل عليه قوله: رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا (البقره ٢٨٦)، وقوله: هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ (الحج ٧٨) (١)(٢)(٣)(٤).

[سوره النساء (٤): الآيات ٢٩ الى ٣٠]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠)

بيان:

في الآيه شبه اتصال بما سبقتها حيث إنها تتضمن النهي عن أكل المال بالباطل و كانت الآيات السابقة متضمنه للنهي عن أكل مهور النساء بالعضل و التعدى ففي الآيه انتقال من الخصوص الى العموم.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ -الى قوله- مِنْكُمْ الْأَكْل معروف و هو إنفاد ما يمكن أن يتغذى به التقامه و بلعه مثلاً، و لما فيه من معنى التسلط و الإنفاد يقال: أكلت النار الحطب شبه فيه إعدام النار الحطب بإحراقه بإنفاد الأكل الغذاء

ص: ٤٥٨

١- ١). النساء ٢٣-٢٨: بحث روائى فى: الزواج؛ المحارم.

٢- ٢). ٢٣-٢٨: بحث روائى فى متعه النساء.

٣- ٣). ٢٣-٢٨: بحث علمى فى رابطه النسب.

٤- ٤). ٢٣-٢٨: بحث علمى فى النكاح و الزواج؛ قوانين الزواج فى الاسلام؛ سبب تحريم الزنا.

بالتناول و البلع، و يقال أيضا: أكل فلان المال أى تصرف فيه بالتسلط عليه، و ذلك بعنايه أن العمده فى تصرف الانسان فى الأشياء هو التغذى بها لأنه أشد ما يحتاج إليه الإنسان فى بقائه و أمسه منه، و لذلك سمي التصرف أكلا لكن لا كل تصرف بل التصرف عن تسلط يقطع تسلط الغير على المال بالتملك و نحوه كأنه ينفده ببسط سلطته عليه و التصرف فيه كما ينفد الأكل الغذاء بالأكل.

و الباطل من الأفعال ما لا يشتمل على غرض صحيح عقلائي، و التجاره هى التصرف فى رأس المال طلبا للربح على ما ذكره الراغب فى مفرداته قال: و ليس فى كلامهم تاء بعدها جيم غير هذا اللفظ انتهى، فتنطبق على المعامله بالبيع و الشرى.

و فى تقييد قوله: «لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ» بقوله: «بَيْنَكُمْ» الدال على نوع تجمع منهم على المال و وقوعه فى وسطهم إشعار أو دلالة بكون الأكل المنهى عنه بنحو إدارته فيما بينهم و نقله من واحد الى آخر بالتعاون و التداول، فتفيد الجملة أعنى قوله: لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ، بعد تقييدها بقوله: بِالْبَاطِلِ النهى عن المعاملات الناقله التى لا تسوق المجتمع الى سعادته و نجاحه بل تضرها و تجرأ الى الفساد و الهلاك، و هى المعاملات الباطله فى نظر الدين كالربا و القمار و البيوع الغريره كالبيع بالحصاه و النواه و ما أشبه ذلك.

و على هذا فالاستثناء الواقع فى قوله: إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ، استثناء منقطع جىء به لدفع الدخل فإنه لما نهى عن أكل المال بالباطل - و نوع المعاملات الدائره فى المجتمع الفاسد التى يتحقق بها النقل و الانتقال المالى كالربويات و الغرريات و القمار و أضرارها باطله بنظر الشرع - كان من الجائز أن يتوهم أن ذلك يوجب انهدام أركان المجتمع و تلاشى أجزائها و فيه هلاك الناس فاجيب عن ذلك بذكر نوع معامله فى وسعها أن تنظم شتات المجتمع، و تقيم صلبه، و تحفظه على استقامته، و هى التجاره عن تراض و معامله صحيحه رافعه لحاجه المجتمع، و ذلك نظير قوله تعالى: يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ

(الشعراء/٨٩) فإنه لما نفى النفع عن المال و البنين يوم القيامة أمكن أن يتوهم أن لا نجاح يومئذ و لا فلاح فإن معظم ما ينتفع به الانسان إنما هو المال و البنون فاذا سقطا عن التأثير لم يبق إلا اليأس و الخيبة فأجيب أن هناك أمرا آخر نافعا كل النفع و إن لم يكن من جنس المال و البنين و هو القلب السليم.

و هذا الذى ذكرناه من انقطاع الاستثناء هو الأوفق بسياق الآيه و كون قوله: بِالْبَاطِلِ قيدا أصليا فى الكلام نظير قوله تعالى: وَ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَ تَدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ (البقره ١٨٨) و على هذا لا تخصص الآيه بسائر المعاملات الصحيحه و الامور المشروعه غير التجاره مما يوجب التملك و يبيح التصرف فى المال كالهبة و الصلح و الجعالة و كالإمهار و الإرث و نحوها.

قوله تعالى: وَ لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ظاهر الجمله أنها نهى عن قتل الإنسان نفسه لكن مقارنتها قوله: لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم، حيث إن ظاهره أخذ مجموع المؤمنين كنفس واحده لها مال يجب أن تأكلها من غير طريق الباطل ربما أشعرت أو دلت على أن المراد بالأنفس جميع نفوس المجتمع الدينى المأخوذ كنفس واحده نفس كل بعض هى نفس الآخر فيكون فى مثل هذا المجتمع نفس الإنسان نفسه و نفس غيره أيضا نفسه فلو قتل نفسه أو غيره فقد قتل نفسه، و بهذه العناية تكون الجمله أعنى قوله: وَ لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ مطلقه تشمل الانتحار-الذى هو قتل الإنسان نفسه-و قتل الإنسان غيره من المؤمنين.

و ربما أمكن أن يستفاد من دليل الآيه أعنى قوله: إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا أن المراد من قتل النفس المنهى عنه ما يشمل إلقاء الإنسان نفسه فى مخاطره القتل و التسبب الى هلاك نفسه المؤدى الى قتله، و ذلك أن تعليل النهى عن قتل النفس بالرحمه لهذا المعنى أوفق و أنسب كما لا يخفى، و يزيد على هذا معنى الآيه عموما و اتساعا، و هذه الملائمه بعينها تؤيد كون قوله: إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا تعليلا لقوله: وَ لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ فقط.

قوله تعالى: وَ مَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَ ظُلْمًا الْآيَةَ؛العدوان مطلق التجاوز سواء كان جائزاً ممدوحاً أو محظوراً مذموماً قال تعالى: فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (البقره ١٩٣/١)، وقال تعالى: وَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوَىٰ وَ لَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ (المائدہ ٢/٢)، فهو أعم مورداً من الظلم، و معناه في الآية تعدى الحدود التي حدها الله تعالى، و الاصلاء بالنار: الاحراق بها.

و في الآية من حيث اشتغالها على قوله: «ذَلِكَ» التفات عن خطاب المؤمنين الى خطاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ تلويحاً الى أن من فعل ذلك منهم -و هم نفس واحده و النفس الواحد لا- ينبغي لها أن تريد هلاكك نفسها-فليس من المؤمنين، فلا- يخاطب في مجازاته المؤمنون، و إنما يخاطب فيها الرسول المخاطب في شأن المؤمنين و غيرهم، و لذلك بنى الكلام على العموم فقيل: وَ مَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَ ظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ، و لم يقل: و من يفعل ذلك منكم.

و ذيل الآية أعنى قوله. وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا يُؤيد أن يكون المشار إليه بقوله: ذلك هو النهي عن قتل الأنفس بناء على كون قوله: إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ناظراً الى تعليل النهي عن القتل فقط لما من المناسبه التامه بين الذيلين، فإن الظاهر أن المعنى هو أن الله تعالى إنما ينهاكم عن قتل أنفسكم رحمه بكم و رأفه، و إلا فمجازاته لمن قتل النفس بإصلائه النار عليه يسير غير عسير، و مع ذلك فعود التعليل و كذا التهديد الى مجموع الفقرتين في الآية الاولى أعنى النهي عن أكل المال بالباطل و النهي عن قتل النفس لا ضير فيه.

[سوره النساء (٤): آيه ٣١]

اشاره

إِنْ تَجَنَّبْتُمْ كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفَرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (٣١)

ص: ٦٦١

قوله تعالى: **إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ - أَلِي قَوْلِهِ - سَيِّئَاتِكُمْ** الاجتناب أصله من الجنب و هو الجارحه بنى منها الفعل على الاستعاره، فإن الإنسان اذا أراد شيئاً استقبله بوجهه و مقاديم بدنه، و اذا أعرض عنه و تركه وليه بجنبه فاجتنبه، فالاجتناب هو الترك، قال الراغب: و هو أبلغ من الترك، انتهى؛ و ليس إلا لأنه مبنى على الاستعاره، و من هذا الباب الجانب و الجنبه و الأجنبى.

و التكفير من الكفر و هو الستر و قد شاع استعماله فى القرآن فى العفو عن السيئات و الكبائر جمع كبيره و صف وضع موضع الموصوف كالمعاصى و نحوها، و الكبر معنى إضافى لا يتحقق إلا بالقياس الى صغر، و من هنا كان المستفاد من قوله: **كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ** أن هناك من المعاصى المنهى عنها ما هى صغيره، فيتبين من الآية: **اولاً**: أن المعاصى قسماً: صغيره و كبيره، و **ثانياً**:

أن السيئات هى الصغائر لما فيها من دلالة المقابله على ذلك.

نعم العصيان و التمرد كيفما كان كبير و أمر عظيم بالنظر الى ضعف المخلوق المربوب فى جنب الله عظم سلطانه غير أن القياس فى هذا الاعتبار إنما هو بين الإنسان و ربه لا- بين معصيه و معصيه فلا منافاه بين كون معصيه كبيره باعتبار و بين كون بعض المعاصى صغيره باعتبار آخر.

و كبر المعصيه إنما يتحقق بأهميه النهى عنها اذا قيس الى النهى المتعلق بغيرها و لا يخلو قوله تعالى: **مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ**، من إشعار أو دلالة على ذلك، و الدليل على أهميه النهى تشديد الخطاب بإصرار فيه أو تهديد بعذاب من النار و نحو ذلك.

قوله تعالى: **وَ نُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا** المدخل بضم الميم و فتح الخاء اسم مكان

و المراد منه الجنة أو مقام القرب من الله سبحانه و إن كان مرجعها واحدا (١).

[سوره النساء (٤): الآيات ٣٢ الى ٣٥]

اشاره

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ وَ سَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢) وَ لِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَ الْأَقْرَبُونَ وَ الَّذِينَ عَقَدْتُمْ أَيْمَانَكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣) الرَّجَالُ قَوَامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَ بِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَ اللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَ أَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَ اضْرِبُوهُنَّ فَإِنِ اطَّعْتُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا (٣٤) وَ إِنِ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنِ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥)

ص: ٦٦٣

١- ١). النساء ٣١: كلام في الكبائر و الصغائر و تكفير السيئات.

قوله تعالى: **وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ** التمنى قول الانسان: ليت كذا كان كذا، و الظاهر أن تسميه القول بذلك من باب توصيف اللفظ بصفه المعنى، و إنما التمنى إنشاء نحو تعلق من النفس نظير تعلق الحب بما تراه متعذرا أو كالمتعذر سواء أظهر ذلك بلفظ أو لم يظهر.

و ظاهر الآيه أنه مسوقه للنهى عن تمنى فضل و زياده موجوده ثابتة بين الناس، و أنه ناش عن تلبس بعض طائفتى الرجال و النساء بهذا الفضل، و أنه ينبغى الإعراض عن التعلق بمن له الفضل، و التعلق بالله بالسؤال من الفضل الذى عنده تعالى، و بهذا يتعين أن المراد بالفضل هو المزيه التى رزقها الله تعالى كلاً- من طائفتى الرجال و النساء بتشريع الأحكام التى شرعت فى خصوص ما يتعلق بالطائفتين كليهما كمزيه الرجال على النساء فى عدد الزوجات، و زياده السهم فى الميراث، و مزيه النساء على الرجال فى وجوب جعل المهر لهن، و وجوب نفقتهن على الرجال.

فالنهى عن تمنى هذه المزيه التى اختص بها صاحبها إنما هو لقطع شجره الشر و الفساد من أصلها فإن هذه المزايما مما تتعلق به النفس الإنسانية لما أودعه الله فى النفوس من حبها و السعى لها لعمارها هذه الدار، فيظهر الأمر أولاً فى صورته التمنى فاذا تكرر تبدل حسداً مستبطناً فاذا أديم عليه فاستقر فى القلب سرى الى مقام العمل و الفعل الخارجى ثم اذا انضمن بعض هذه النفوس الى بعض كان ذلك بلوى يفسد الأرض، و يهلك الحرث و النسل.

و من هنا يظهر أن النهى عن التمنى نهى إرشادى يعود مصلحته الى مصلحه حفظ الأحكام المشرعه المذكوره، و ليس بنهى مولوى.

و فى نسبه الفضل الى فعل الله سبحانه، و التعبير بقوله: **بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ** إيقاظ لصفه

كان غالباً بما هو زائد لا حاجة للمنعن إليه سمي فضلاً، و لما صرف الله تعالى وجوه الناس عن العناية بما أوتى أرباب الفضل من الفضل و الرغبة فيه، و كان حب المزايا الحيويه بل التفرد بها و التقدم فيها و الاستعلاء من فطريات الإنسان لا يسلب عنه حيناً صرفهم تعالى الى نفسه، و وجه وجوههم نحو فضله، و أمره أن يعرضوا عما فى أيدي الناس، و يقبلوا الى جنبه، و يسألوا من فضله فإن الفضل بيد الله، و هو الذى أعطى كل ذى فضل فضله فله أن يعطيكم ما تريدون به و تفضلون بذلك على غيركم ممن ترغبون فيما عنده، و تتمنون ما أعطيه.

و قد أبهم هذا الفضل الذى يجب أن يسأل منه بدخول لفظه «مِنْ» عليه، و فيه من الفائدة أولاً: التعليم بأدب الدعاء و المسأله من جنبه تعالى فإن الأليق بالإنسان المبني على الجهل بما ينفعه و يضره بحسب الواقع اذا سأل ربه العالم بحقيقه ما ينفع خلقه و ما يضرهم، القادر على كل شىء أن يسأله الخير فيما تتوق نفسه إليه، و لا- يطنب فى تشخيص ما يسأله منه و تعيين الطريق الى وصوله، فكثيراً ما رأينا من كانت تتوق نفسه الى حاجه من الحوائج الخاصه كمال أو ولد أو جاه و منزله أو صحه و عافيه و كان يلح فى الدعاء و المسأله لأجلها لا- يريد سواها ثم لما استجيب دعاؤه، و أعطى مسأله كان فى ذلك هلاكه و خيبه سعيه فى الحياه.

و ثانياً: الإشاره الى أن يكون المسئول ما لا يبطل به الحكمه الإلهيه فى هذا الفضل الذى قرره الله تعالى بتشريع أو تكوين، فمن الواجب أن يسألوا شيئاً من فضل الله الذى اختص به غيرهم فلو سأل الرجال ما للنساء من الفضل أو بالعكس ثم أعطاهم الله ذلك بطلت الحكمه و فسدت الأحكام و القوانين المشرعه فافهم.

فينبغى للإنسان اذا دعا الله سبحانه عند ما ضاقت نفسه لحاجه أن لا يسأله ما فى أيدي الناس مما يرفع حاجته بل يسأله مما عنده و اذا سأله مما عنده أن لا يعلم لربه الخبير بحاله طريق الوصول الى حاجته بل يسأله أن يرفع حاجته بما يعلمه خيراً من عنده.

و أما قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا فتعليل للنهى فى صدر الآيه أى

لا تتمنوا ما أعطاه الله من فضله من أعطاه إن الله بكل شيء عليم لا يجهل طريق المصلحه و لا يخطئ في حكمه (١).

قوله تعالى: وَ لِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَ الْأَقْرَبُونَ الْآيَةَ؛ الموالى جمع مولى، و هو الولى و إن كثر استعماله فى بعض المصاديق من الولايه كالمولى لسيد العبد لولايته عليه، و المولى للناصر لولايته على أمر المنصور، و المولى لابن العم لولايته على نكاح بنت عمه، و لا- يبعد أن يكون فى الأصل مصدرا ميميا أو اسم مكان اريد به الشخص المتلبس به بوجه كما نطق اليوم الحكومه و المحكمه و نريد بها الحاكم.

و العقد مقابل الحل، و اليمين مقابل اليسار، و اليمين اليد اليمنى، و اليمين الحلف و له غير ذلك من المعانى.

و وقوع الآيه مع قوله قبل: و لا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض، فى سياق واحد، و اشتمالها على التوصيه بإعطاء كل ذى نصيب نصيبه، و أن الله جعل لكل موالى مما ترك الوالدان و الأقربون يؤيد أن تكون الآيه أعنى قوله: وَ لِكُلِّ جَعَلْنَا، الخ؛ بضميمه الآيه السابقه تلخيصا للأحكام و الأوامر التى فى آيات الإرث، و وصيه إجماليه لما فيها من الشرائع التفصيليه كما كان قوله قبل آيات الإرث: للرجال نصيب مما ترك الوالدان و الأقربون، الآيه؛ تشريعا إجماليا كضرب القاعده فى باب الإرث تعود إليه تفاصيل أحكام الإرث.

و لازلزم ذلك أن ينطبق من اجمل ذكره من الوراثة و المورثين على من ذكر منهم تفصيلا فى آيات الإرث، فالمراد بالموالى جميع من ذكر و ارثا فيها من الأولاد و الأبوين و الإخوه و الأخوات و غيرهم.

و المراد بالأصناف الثلاث المذكورين فى الآيه بقوله: الْوَالِدَانِ وَ الْأَقْرَبُونَ وَ الَّذِينَ عَقَدَتْ

ص: ٦٦٧

أَيُّمَانِكُمُ الْأَصْنَافَ الْمَذْكُورَةَ فِي آيَاتِ الْإِرْثِ، وَهُمْ ثَلَاثَةٌ: الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالزَّوْجَانِ فَيَنْطَبِقُ قَوْلُهُ: «وَالَّذِينَ عَقَدْتُمْ أَيْمَانَكُمْ عَلَى الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ».

فقوله: «وَلِكُلِّ» أَي وَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ ذَكَرًا أَوْ اُنْثَى، جَعَلْنَا مَوَالِيَّ أَي أَوْلِيَاءَ فِي الْوَرَاثَةِ يَرِثُونَ مَا تَرَكَتُمْ مِنَ الْمَالِ، وَقَوْلُهُ مِمَّا تَرَكَ، مِنْ فِيهِ لِلابْتِدَاءِ مُتَعَلِّقٌ بِالْمَوَالِي كَأَنَّ الْوَلَايَةَ نَشَأَتْ مِنَ الْمَالِ، أَوْ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ أَي يَرِثُونَ أَوْ يُؤْتُونَ مِمَّا تَرَكَ، وَ مَا تَرَكَ هُوَ الْمَالُ الَّذِي تَرَكَهُ الْمَيِّتُ الْمُورِثُ الَّذِي هُوَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ نَسَبًا وَالزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ.

وَإِطْلَاقُ «الَّذِينَ عَقَدْتُمْ أَيْمَانَكُمْ» عَلَى الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ إِطْلَاقٌ كِنَائِي فَقَدْ كَانَ دَأْبُهُمْ فِي الْمَعَاقِدَاتِ وَالْمَعَاهِدَاتِ أَنْ يَصَافِحُوا فَكَانَ أَيْمَانُهُمُ الَّتِي يَصَافِحُونَ بِهَا هِيَ الَّتِي عَقَدَتِ الْعُقُودَ، وَ أَبْرَمَتِ الْعُهُودَ فَالْمُرَادُ: الَّذِينَ أَوْجَدْتُمْ بِالْعَقْدِ سَبَبِيَّةَ الْإِزْدِوَاجِ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ.

وَ قَوْلُهُ: فَآتَوْهُمْ نَصَبًا بَيْنَهُمُ الضَّمِيرُ لِلْمَوَالِي، وَ الْمُرَادُ بِالنَّصِيبِ مَا بَيْنَ فِي آيَاتِ الْإِرْثِ، وَ الْفَاءُ لِلتَّفْرِيعِ، وَ الْجُمْلَةُ مُتَفَرِّعَةٌ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ»، ثُمَّ أَكَّدَ حُكْمَهُ بِإِيْتَاءِ نَصِيبِهِمْ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا».

وَ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ مَعْنَى الْآيَةِ أَقْرَبُ الْمَعَانِي الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي تَفْسِيرِهَا، وَ رُبَّمَا ذَكَرُوا أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمَوَالِي الْعَصَبَةَ دُونَ الْوَرِثَةِ الَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِالْمِيرَاثِ، وَ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ بِخِلَافِ الْوَرِثَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ الْقِيمَ هُوَ الَّذِي يَقُومُ بِأَمْرٍ غَيْرِهِ، وَ الْقَوَامُ وَالْقِيَامُ مِبَالِغَةٌ مِنْهُ».

وَ الْمُرَادُ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ هُوَ مَا يَفْضَلُ وَ يَزِيدُ فِيهِ الرِّجَالُ بِحَسَبِ الطَّبَعِ عَلَى النِّسَاءِ، وَ هُوَ زِيَادَةُ قُوَّةِ التَّعْقُلِ فِيهِمْ، وَ مَا يَتَفَرَّعُ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ الْبَأْسِ وَ الْقُوَّةِ وَ الطَّاقَةِ عَلَى الشَّدَائِدِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَ نَحْوِهَا فَإِنَّ حَيَاةَ النِّسَاءِ حَيَاةَ إِحْسَاسِيَّةٍ عَاطْفِيَّةٍ مَبْنِيَّةٍ عَلَى الرِّقَّةِ

و اللطافه،و المراد بما أنفقوا من أموالهم ما أنفقوه فى مهورهن و نفقاتهن.

و عموم هذه العله يعطى أن الحكم المبني عليها أعنى قوله: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ» غير مقصور على الأزواج بأن يختص القواميه بالرجل على زوجته بل الحكم مجعول لقبيل الرجال على قبيل النساء فى الجهات العامه التى ترتبط بها حياه القبيلين جميعا فالجهات العامه الاجتماعيه التى ترتبط بفضل الرجال كجهتى الحكومه و القضاء مثلا-الذين يتوقف عليهما حياه المجتمع،و إنما يقومان بالتعقل الذى هو فى الرجال بالطبع أزيد منه فى النساء،و كذا الدفاع الحربى الذى يرتبط بالشده و قوه التعقل كل ذلك مما يقوم به الرجال على النساء.

و على هذا فقوله: الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ذو إطلاق تام،و أما قوله بعد:فالصالحات قانتات،الخ؛الظاهر فى الاختصاص بما بين الرجل و زوجته على ما سيأتى فهو فرع من فروع هذا الحكم المطلق و جزئى من جزئياته مستخرج منه من غير أن يتقيد به إطلاقه.

قوله تعالى: فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ المراد بالصالح معناه اللغوى،و هو ما يعبر عنه بلياقه النفس.و القنوت هو دوام الطاعه و الخضوع.

و مقابلتها لقوله: وَ اللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ،الخ؛تفيد أن المراد بالصالحات الزوجات الصالحات،و أن هذا الحكم مضروب على النساء فى حال الازدواج لا مطلقا،و أن قوله:

قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ-الذى هو إعطاء للأمر فى صوره التوصيف أى ليقنتن و ليحفظن-حكم مربوط بشئون الزوجيه و المعاشره المنزليه،و هذا مع ذلك حكم يتبع فى سعته و ضيقه علتة أعنى قيمومه الرجل على المرأه قيمومه زوجيه فعليها أن تقنت له و تحفظه فيما يرجع الى ما بينهما من شئون الزوجيه.

قوله تعالى: وَ اللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ،النشوز العصيان و الاستكبار عن الطاعه،و المراد بخوف النشوز ظهور آياته و علائمه،و لعل التفريع على خوف

النشوز دون نفسه لمراعاة حال العظه من بين العلاجات الثلاث المذكوره فإن الوعظ كما أن له محلا مع تحقق العصيان كذلك له محل مع بدو آثار العصيان و علائمه.

و الامور الثلاثة أعنى ما يدل عليه قوله: «فَعِظُوهُنَّ وَ اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَ اضْرِبُوهُنَّ» و ان ذكرت معا و عطف بعضها على بعض بالواو فهى امور مترتبه تدريجيه:

فالموعظه، فإن لم تنجح فالهجره، فإن لم تنفع فالضرب؛ و يدل على كون المراد بها التدرىج فيها أنها بحسب الطبع و سائر للزجر مختلفه آخذه من الضعف الى الشده بحسب الترتيب المأخوذ فى الكلام، فالترتيب مفهوم من السياق دون الواو.

و ظاهر قوله: وَ اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ أن تكون الهجره مع حفظ المضاجعه كالاستدبار و ترك الملاعبه و نحوها، و إن أمكن أن يراد بمثل الكلام ترك المضاجعه لكنه بعيد، و ربما تأيد المعنى الأول بإتيان المضاجع بلفظ الجمع فإن المعنى الثانى لا حاجه فيه الى إفاده كثره المضجع ظاهرا.

قوله تعالى: فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا الخ؛ أى لا تتخذوا عليهن عله تعتلون بها فى إيذائهن من إطاعتهن لكم، ثم علل هذا النهى بقوله: إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ، و هو إيذان لهم أن مقام ربهم على كبير فلا يغرنهم ما يجدونه من القوه و الشده فى أنفسهم فيظلموهن بالاستعلاء و الاستكبار عليهن.

قوله تعالى: وَ إِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا الشقاق بينونه و العداوه، و قد قرر الله سبحانه بعث الحكيمين ليكون أبعد من الجور و التحكم، و قوله: إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا أى إن يرد الزوجان نوعا من الإصلاح من غير عناد و لجاج فى الاختلاف، فإن سلب الاختيار من أنفسهما و إلقاء زمام الأمر الى الحكيمين المرضيين يوجب وفاق البين (١).

ص : ٦٧٠

قوله تعالى: وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا هذا هو التوحيد غير أن المراد به التوحيد العملي، وهو إتيان الأعمال الحسنه- ومنها الإحسان الذي هو مورد الكلام- طلبا لمرضاه الله وابتغاء لثواب الآخرة دون اتباع الهوى و الشرك به.

و الدليل على ذلك أنه تعالى عقب هذا الكلام أعنى قوله: وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، و علله بقوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا، و ذكر أنه البخيل بماله و المنفق لرثاء الناس، فهم الذين يشركون بالله و لا يعبدونه وحده، ثم قال: و ما ذا عليهم لو آمنوا بالله و اليوم الآخر و أنفقوا، و ظهر بذلك أن شركهم عدم إيمانهم باليوم الآخر، و قال تعالى: وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (ص ٢٦)، فبين أن الضلال باتباع الهوى- و كل شرك ضلال- إنما هو بنسيان يوم الحساب، ثم قال: أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ (الجاثية ٢٣) فبين أن اتباع الهوى عباده له و شرك به.

فتبين بذلك كله أن التوحيد العملي أن يعمل الإنسان ابتغاء مثوبه الله و هو على ذكر من يوم الحساب الذي فيه ظهور المثوبات و العقوبات، و أن الشرك فى العمل أن ينسى اليوم الآخر- و لو آمن به لم ينسه- و أن يعمل عمله لا لطلب مثوبه بل لما يزينه له هواه من التعلق بالمال أو حمد الناس و نحو ذلك، فقد أشخص هذا الإنسان هواه تجاه ربه، و أشرك به.

فالمراد بعباده الله و الإخلاص له أن يكون طلبا لمرضاته، و ابتغاء لمثوبته لا لاتباع الهوى.

قوله تعالى: وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا -الى قوله- أَيْمَانُكُمْ الظاهر أن قوله: إِحْسَانًا مفعول مطلق لفعل مقدر، تقديره: و أحسنوا بالوالدين إحسانا، و الإحسان يتعدى بالباء و الى

معا يقال: أحسنت به و أحسنت إليه، و قوله: وَ بَعْدَى الْقُرْبَى، هو و ما بعده معطوف على بِالْوَالِدَيْنِ، و ذو القربى القرابه، و قوله: وَ الْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَ الْجَارِ الْجُنْبِ قرينه المقابله فى الوصف تعطى أن يكون المراد بالجار ذى القربى الجار القريب دارا، و بالجار الجنب- و هو الأ-جنبى-الجار البعيد دارا، و قد روى عن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: تحديد الجوار بأربعين ذراعاً، و فى روايه: أربعون داراً، و لعل الروائتين ناظرتان الى الجار ذى القربى و الجار الجنب.

و قوله: وَ الصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ هو الذى يصاحبك ملازماً لجنبك، و هو بمفهومه يعم مصاحب السفر من رفقته الطريق و مصاحب الحضر و المنزل و غيرهم، و قوله: وَ ابْنِ السَّبِيلِ هو الذى لا- يعرف من حاله إلا أنه سالك سبيل كأنه ليس له من يتسبب إليه إلا السبيل فهو ابنه، و أما كونه فقيراً ذا مسكنه عادماً لزيد أو راحله فكأنه خارج من مفهوم اللفظ، و قوله: وَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ المراد به العبيد و الإماء بقرينه عده فى عداد من يحسن إليهم، و قد كثر التعبير عنهم بما ملكته الأيمان دون من ملكته.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً المختار التائه المتبختر المسخر لخياله، و منه الخيل للفرس لأنه يتبختر فى مشيته، و الفخور كثير الفخر، و الوصفان أعنى الاختيال و كثره الفخر من لوازم التعلق بالمال و الجاه، و الإفراط فى حبهما، و لذلك لم يكن الله ليحب المختال الفخور لتعلق قلبه بغيره تعالى، و ما ذكره تعالى فى تفسيره بقوله: الَّذِينَ يَبْخُلُونَ، الخ؛ و قوله: وَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ، الخ؛ يبين كون الطائفتين معروضتين للخيلاء و الفخر: فالطائفه الاولى متعلقه القلب بالمال، و الثانيه بالجاه و إن كان بين الجاه و المال تلازم فى الجمله.

و كان من طبع الكلام أن يشتغل بذكر أعمالهما من البخل و الكتمان و غيرهما لكن بدأ بالوصفين ليدل على السبب فى عدم الحب كما لا يخفى.

قوله تعالى: الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ الآيه؛ أمرهم الناس

بالبخل إنما هو بسيرتهم الفاسده و عملهم به سواه أمروا به لفظا أو سكتوا فإن هذه الطائفه لكونهم اولى ثروه و مال يتقرب إليهم الناس و يخضعون لهم لما فى طباع الناس من الطبع ففعلهم أمر و زاجر كقولهم، و أما كتمانهم ما آتاهم الله من فضله فهو تظاهروهم الفاقد المعدم للمال لتأذيتهم من سؤال الناس ما فى أيديهم، و خوفهم على أنفسهم لو منعوا و خشيتهم من توجه النفوس الى أموالهم، و المراد بالكافرين الساترون لنعمه الله التى أنعم بها، و منه الكافر المعروف لستره على الحق بإنكاره.

قوله تعالى: **وَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ الخ؛ أى لمراءاتهم، و فى الآيه دلالة على أن الرئاء فى الإنفاق -أو هو مطلقا- شرك بالله كاشف عن عدم الإيمان به لاعتماد المرائى على نفوس الناس و استحسانهم فعله، و شرك من جهه العمل لأن المرائى لا يريد بعمله ثواب الآخرة، و إنما يريد ما يرجوه من نتائج إنفاقه فى الدنيا، و على أن المرائى قرين الشيطان و ساء قرينا.**

قوله تعالى: **وَ مَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا الْآيَةَ؛ استفهام للتأسف أو التعجب، و فى الآيه دلالة على أن الاستنكاف عن الإنفاق فى سبيل الله ناش من فقدان التلبس بالإيمان بالله و باليوم الآخر حقيقه و إن تلبس به ظاهرا.**

و قوله: **وَ كَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا** تمهيدا لما فى الآيه التاليه من البيان، و الأمس لهذه الجملة بحسب المعنى أن تكون حالا.

قوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ الْآيَةَ؛ المثقال هو الزنه، و الذره هو الصغير من النمل الأحمر، أو هو الواحد من البهات المبتوث فى الهواء الذى لا يكاد يرى صغرا.**

و قوله: **مِثْقَالَ ذَرَّةٍ** نائب مناب المفعول المطلق أى لا يظلم ظلما يعدل مثقال ذره وزنا.

و قوله: **وَ إِنَّ تَكُ حَسِينَةً**، قرئ برفع حسنه و بنصبها فعلى تقدير الرفع كان تامه، و على تقدير النصب تقديره: و إن تكن المثقال المذكور حسنه يضاعفها، و تأنيث الضمير فى قوله: **إِنَّ**

تَكَّ إما من جهة تأنيث الخبر أو لكسب المثقال التأنيث بالإضافة الى ذره.

و السياق يفيد أن تكون الآية بمنزلة التعليل للاستفهام السابق، و التقدير: و من الأسف عليهم ان لم يؤمنوا و لم ينفقوا فإنهم لو آمنوا و أنفقوا و الله عليهم بهم لم يكن الله ليظلمهم فى مثقال ذره أنفقوها بالإهمال و ترك الجزاء، و إن تك حسنه يضاعفها. و الله أعلم.

قوله تعالى: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ آيَةٍ؛ قد تقدم بعض الكلام فى معنى الشهادة على الأعمال فى تفسير قوله تعالى: لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ (البقره ١٤٣/١) من الجزء الأول من هذا الكتاب، و سيجىء بعض آخر فى محله المناسب له.

قوله تعالى: يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ آيَةٍ؛ نسبه المعصية الى الرسول يشهد أن المراد بها معصية أوامره صلى الله عليه و آله و سلم الصادره عن مقام ولايته لا معصية الله تعالى فى أحكام الشريعة، و قوله: لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ كُنَايَه عن الموت بمعنى بطلان الوجود نظير قوله تعالى: وَ يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (النبا ٤٠/١).

و قوله: وَ لَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ظَاهِرَ السِّيَاقِ أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى مَوْضِعِ قَوْلِهِ:

يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ فائدته الدلاله بوجه على ما يعلل به تمنيهم الموت، و هو أنهم بارزون يومئذ لله لا يخفى عليه منهم شىء لظهور حالهم عليه تعالى بحضور أعمالهم، و شهادة أعضائهم و شهاده الأنبياء و الملائكه و غيرهم عليهم، و الله من ورائهم محيط فيودون عند ذلك أن لو لم يكونوا و ليس لهم أن يكتموه تعالى حديثا مع ما يشاهدون من ظهور مساوى أعمالهم و قبائح أفعالهم.

و أما قوله تعالى: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ (المجادله ١٨/١) فسيجىء إن شاء الله تعالى أن ذلك إنما هو لإيجاب ملكه الكذب التى حصلوها فى الدنيا لا للإخفاء و كتمان الحديث يوم لا يخفى على الله منهم شىء.

إشارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسِسُوا خُوفًا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا (٤٣)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا -الى قوله- مَا تَقُولُونَ المراد بالصلاة المسجد، والدليل عليه قوله: وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ، والمقتضى لهذا التجويز قوله حتى تعلموا ما تقولون اذ لو قيل: لا تقربوا المسجد و أنتم سكارى لم يستقم تعليله بقوله: «حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ» أو أفاد التعليل معنى آخر غير مقصود مع أن المقصود إفاده أنكم في حال الصلاة تواجهون مقام العظمة والكبرياء وتخاطبون رب العالمين فلا يصلح لكم أن تسكروا و تبطلوا عقولكم برجس الخمر فلا تعلموا ما تقولون، وهذا المعنى كما ترى- يناسب النهى عن اقتراب الصلاة لكن الصلاة لما كانت أكثر ما تقع تقع في المسجد جماعه-على السنه- و كان من القصد أن تذكر أحكام الجنب في دخوله المسجد أوجز في المقال و سبك الكلام على ما ترى.

و على هذا فقوله: حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ في مقام التعليل للنهى عن شرب الخمر بحيث يبقى سكرها الى حال دخول الصلاة أى نهيناكم عنه لغايه أن تعلموا ما تقولون و ليس غايه للحكم بمعنى أن لا تقربوا الى أن تعلموا ما تقولون فاذا علمتم ما تقولون فلا بأس.

قوله تعالى: وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ سِيَأْتِي الْكَلَامَ فِي آيَةٍ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ (المائدة: ٦).

[سورة النساء (٤): الآيات ٤٤ إلى ٥٨]

إشارة

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَهَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضَلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطُعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلُ أَن نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ يَلِ اللَّهُ يَزَكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) أَنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا (٥٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدَا لَهُمْ فِيهَا أَنْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨)

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ الْآيَةَ؛ قد تقدم في الكلام على الآيات (٣٦-٤٢) أنها مرتبطة بعض الارتباط بهذه الآيات، وقد سمعت القول في نزول تلك الآيات في حق اليهود.

و بالجمله يلوح من هذه الآيات أن اليهود كانوا يلقون الى المؤمنين الموده و يظهرون لهم النصح فيفتنونهم بذلك، و يأمرونهم بالبخل و الإمساك عن الإنفاق ليمنعوا بذلك سعيهم عن النجاح، و جدهم في التقدم و التعالى، و هذا لازم كون تلك الآيات نازله في حق اليهود أو في حق من كان يسار اليهود و يصادقهم ثم تنحرف عن الحق بتحريفهم، و يميل الى حيث يميلونه فيبخل ثم يأمر بالبخل.

و هذا هو الذي يستفاد من قوله: وَ يُرِيدُونَ أَنْ تَضَلُّوا السَّبِيلَ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ، الى آخر الآيه.

فمعنى الآيتين -و الله أعلم- أن ما نبينه لكم تصديق ما بيناه لكم من حال الممسك عن الإنفاق في سبيل الله بالاختيال و الفخر و البخل و الرئاء أنك ترى اليهود الذين اوتوا نصيبا من الكتاب أى حظا منه لا جميعه كما يدعون لأنفسهم يشترون الضلاله و يختارونه على الهدى، و يريدون أن تضلوا السبيل فإنهم و إن لقوكم ببشر الوجه، و ظهروا لكم فى زى الصلاح، و اتصلوا بكم اتصال الأولياء الناصرين فذكروا لكم ما ربما استحسنته طباعكم، و استصوبته قلوبكم لكنهم ما يريدون إلا ضلالكم عن السبيل كما اختاروا لأنفسهم الضلاله، و الله أعلم منكم بأعدائكم، و هم أعداؤكم فلا يغرنكم ظاهر ما تشاهدون من حالهم فإياكم أن تطيعوا أمرهم أو تصغوا الى أقوالهم المزوقه و إلقاء آتهم المزخرفه و أنتم تقدرتون أنهم أولياءكم و أنصاركم، فأنتم لا تحتاجون الى ولايتهم الكاذبه، و نصرتهم المرجوه و كفى بالله وليا، و كفى

بالله نصيراً؛ فأى حاجه مع ولايته و نصرته الى ولايتهم و نصرتهم.

قوله تعالى: مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ إِلَى قَوْلِهِ - فِي الدِّينِ «مِنْ» فِي قَوْلِهِ: مِنَ الَّذِينَ، بيانيه، و هو بيان لقوله في الآيه السابقه: الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ، أو لقوله: بِأَعْيُنِكُمْ، و ربما قيل: إن قوله: مِنَ الَّذِينَ هَادُوا خبر لمبتدأ محذوف و هو الموصوف المحذوف لقوله يحرفون الكلم، و التقدير: من الذين هادوا قوم يحرفون، أو من الذين هادوا من يحرفون؛ قالوا: و حذف الموصوف شائع كقول ذى الرمه:

فظلوا و منهم دمه سابق له

و آخر يشنى دمه العين بالمهل

يريد: و منهم قوم دمه، أو و منهم من دمه.

و قد وصف الله تعالى هذه الطائفه بتحريف الكلم عن مواضعه، و ذلك إما بتغيير مواضع الألفاظ بالتقديم و التأخير و الإسقاط و الزيادة كما ينسب الى التوراه و الموجوده، و إما بتفسير ما ورد عن موسى عليه السّلام فى التوراه و عن سائر الأنبياء بغير ما قصد منه من المعنى الحق كما أولو ما ورد فى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم من بشارات التوراه، و من قبل أولو ما ورد فى المسيح عليه السّلام من البشاره، و قالوا: إن الموعود لم يجرى بعد، و هم ينتظرون قدومه الى اليوم.

و من الممكن أن يكون المراد بتحريف الكلم عن مواضعه ما سيذكره تعالى بقوله: وَ يَقُولُونَ سَمِعْنَا وَ عَصَيْنَا، فتكون هذه الجملة معطوفه على قوله: يُحَرِّفُونَ، و يكون المراد حينئذ من تحريف الكلم عن مواضعه استعمال القول بوضعه فى غير المحل الذى ينبغى أن يوضع فيه، فقول القائل: سمعنا من حقه أن يوضع فى موضع الطاعه فيقال: سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا لا أن يقال: سمعنا و عصينا، أو يوضع: سمعنا موضع التهكم و الاستهزاء، و كذا قول القائل: اسمع ينبغى أن يقال فيه: اسمع أسمعك الله لا أن يقال: اسمع غير مسمع أى لا أسمعك الله و راعنا، و هو يفيد فى لغه اليهود معنى اسم غير مسمع.

و قوله: لَيَّا بِاللَّسِنَتِهِمْ وَ طَعْنَا فِي الدِّينِ أصل اللى الفتل أى يميلون بألسنتهم

فيظهورون الباطل من كلامهم في صورته الحق، والإزراء والإهانة في صور التأدب والاحترام فإن المؤمنين كانوا يخاطبون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين ما كانوا يكلمونه بقولهم: راعنا يا رسول الله، ومعناه: انظرنا و اسمع منا حتى نوفي غرضنا من كلامنا، فاغتنمت اليهود ذلك فكانوا يخاطبون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقولهم: راعنا وهم يريدون به ما عندهم من المعنى المستهجن غير الحرى بمقامه صلى الله عليه وآله وسلم فذموا به في هذه الآية، وهو قوله تعالى: «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ» ثم فسره بقوله: «وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْتَ غَيْرَ مُسْمِعٍ» ثم عطف عليه كعطف التفسير قوله: «وَرَاعِنَا» ثم ذكر أن هذا الفعل المذموم منهم لى بالألسن، وطعن في الدين فقال: «لَيَّا بِاللُّسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ» والمصدران في موضع الحال و التقدير: لاوين بألسنتهم، وطاعين في الدين.

قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْتَ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ كَوْنُ هَذَا الْقَوْلِ مِنْهُمْ وَهُوَ مُشْتَمَلٌ عَلَى أَدَبِ الدِّينِ، وَالْخُضُوعِ لِلْحَقِّ خَيْرًا وَأَقْوَمَ مِمَّا قَالُوهُ» (مع اشتماله على اللى و الطعن المذمومين و لا خير فيه و لا قوام) مبنى على مقايسه الأثر الحق الذى فى هذا الكلام الحق على ما يظنونه من الأثر فى كلامهم و إن لم يكن له ذلك بحسب الحقيقة، فالمقايسه بين الأثر الحق و بين الأثر المظنون حقا، والمعنى: أنهم لو قالوا: سمعنا و أطعنا، لكان فيه من الخير و القوام أكثر مما يقدرون فى أنفسهم لهذا اللى و الطعن فالكلام يجرى مجرى قوله تعالى: «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكَوْكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (الجمعه ١١)».

قوله تعالى: «وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا» تأيس السامعين من أن تقول اليهود سمعنا و أطعنا فإنه كلمه إيمان و هؤلاء ملعونون لا يوفقون للإيمان، و لذلك قيل: لو أنهم قالوا، الدال على التمنى المشعر بالاستحاله.

و الظاهر أن الباء فى قوله: «بِكُفْرِهِمْ» للسببيه دون الآيه، فإن الكفر يمكن أن يزاح

بالإيمان فهو لا- يوجب بما هو كفر لعنه تمنع عن الإيمان منعاً قاطعاً لكنهم لما كفروا(و سيشرح الله تعالى في آخر السوره حال كفرهم)لعنهم الله بسبب ذلك لعنا ألزم الكفر عليهم إلزاماً لا يؤمنون بذلك إلا قليلاً فافهم ذلك.

و أما قوله: **فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا** فقد قيل: إن «قَلِيلًا» حال، و التقدير: إلا و هم قليل أى لا يؤمنون إلا فى حال هم قليل، و ربما قيل: إن «قَلِيلًا» صفة لموصوف محذوف، و التقدير: فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً، و هذا الوجه كسابقه لا بأس به لكن يجب أن يزداد فيه أن اتصاف الإيمان بالقله إنما هو من قبيل الوصف بحال المتعلق أى إيماناً المؤمن به قليل.

قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا الْحَقَّ؛ الطمس محو أثر الشىء، و الوجه ما يستقبلك من الشىء و يظهر منه، و هو من الانسان الجانب المقدم الظاهر من الرأس و ما يستقبلك منه، و يستعمل فى الامور المعنويه كما فى الامور الحسيه، و الأدبار جمع دبر بضمين و هو القفا، و المراد بأصحاب السبب قوم من اليهود كانوا يعدون فى السبب فلعنهم الله و مسخهم، قال تعالى: **وَ سَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَ يَوْمَ لَا يَسْتَوْنَ لَا تَأْتِيهِمْ (الأعراف ١٦٣)،** و قال تعالى: **وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَ مَا خَلْفَهَا (البقره ٦٦).****

و قد كانت الآيات السابقه- كما عرفت- متعرضه لحال اليهود أو لحال طائفه من اليهود، و انجر القول الى أنهم بإزاء ما خانوا الله و رسوله، و أفسدوا صالح دينهم ابتلوا بلعنه من الله لحق جمعهم، و سلبهم التوفيق للإيمان إلا- قليلاً- فعم الخطاب لجميع أهل الكتاب- على ما يفيداه قوله: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ** - و دعاهم الى الإيمان بالكتاب الذى نزله مصداقاً لما معهم، و أوعدهم بالسخط الذى يلحقهم لو تمردوا و استكبروا من غير عذر من طمس أو لعن يتبعانهم اتباعاً لا ريب فيه.

و ذلك ما ذكره بقوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدُّهَا عَلَيَّ أَذْبَارَها، فطمس الوجوه محو هذه الوجوه التي يتوجه بها البشر نحو مقاصدها الحيويه مما فيه سعادته الإنسان المرتقبه و المرجوه لكن لا المحو يوجب فناء الوجوه و زوالها و بطلان آثارها بل محوا يوجب ارتداد تلك الوجوه على أذبارها فهي تقصد مقاصدها على الفطره التي فطر عليها لكن لما كانت منصوبه الى الاقفيه و مردوده على الأذبار لا تقصد إلا ما خلفته وراءها، و لا تمشى إليه إلا القهقري.

و هذا الإنسان- و هو بالطبع و الفطره متوجه نحو ما يراه خيرا و سعادته لنفسه- كلما توجه الى ما يراه خيرا لنفسه، و صلاحا لدينه أو لدنياه لم ينل إلا شرا و فسادا، و كلما بالغ في التقدم زاد في التأخر، و ليس يفلح أبدا.

و أما لعنهم كلعن أصحاب السبب فظاهره المسخ على ما تقدم من آيات أصحاب السبب التي تخبر عن مسخهم قرده.

و على هذا فلفظه «أَوْ» في قوله: أَوْ نَلْعَنَهُمْ، على ظاهرها من إفاده الترديد، و الفرق بين الوعيدين أن الأول أعنى الطمس يوجب تغيير مقاصد المغضوب عليهم من غير تغيير الخلقه إلا في بعض كفياتها، و الثاني أعنى اللعن كلعن أصحاب السبب يوجب تغيير المقصد بتغيير الخلقه الإنسانيه الى خلقه حيوانيّه كالقرده.

فهؤلاء إن تمردوا عن الامتثال- و سوف يتمردون على ما تفيده خاتمه الآية- كان لهم إحدى سخطتين: إما طمس الوجوه، و إما اللعن كلعن أصحاب السبب لكن الآية تدل على أن هذه السخطه لا تعمهم جميعهم حيث قال: «وُجُوهًا» فأتى بالجمع المنكر، و لو كان هو الجميع لم ينكر، و لتكبير الوجوه و عدم تعيينه نكته اخرى هي أن المقام لما كان مقام الإيعاد و التهديد، و هو إبعاد للجماعه بشر لا يلحق إلا ببعضهم كان إبهام الأفراد الذين يقع عليهم السخط الإلهي أوقع في الإنذار و التخويف لأن وصفهم على إبهامه يقبل الانطباق على كل

واحد واحد من القوم فلا- يأمن أحدهم أن يمسه هذا العذاب البئيس، وهذه الصنائه شائعه في اللسان في مقام التهديد و التخويف.

و في قوله تعالى: أو نلعنهم، حيث أرجع فيه ضمير «هم» الموضوع لاولى العقل الى قوله:

«وَجُوهًا» كما هو الظاهر تلويحا أو تصريحاً بأن المراد بالوجوه الأشخاص من حيث استقبالهم مقاصدهم، و بذلك يضعف احتمال أن يكون المراد بطمس الوجوه وردّها على أديبارها تحويل وجوه الأبدان الى الأفقيه كما قال به بعضهم، و يقوى بذلك احتمال أن المراد من تحويل الوجوه الى الأدبار تحويل النفوس من حال استقامه الفكر، و إدراك الواقعيات على واقعياتها الى حال الاعوجاج و الانحطاط الفكرى بحيث لا يشاهد حقا إلاّ أعرض عنه و اشمأز منه، و لا باطلا إلاّ مال إليه و تولع به.

و هذا نوع من التصرف الإلهى مقتا و نقمه نظير ما يدل عليه قوله تعالى: وَ نَقَلْبُ أَفْنَدَتَهُمْ وَ أَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (الأنعام ١١٠).

فتبين مما مر أن المراد بطمس الوجوه فى الآيه نوع تصرف إلهى فى النفوس يوجب تغيير طباعها من مطاوعه الحق و تجنب الباطل الى اتباع الباطل و الاحتراز عن الحق فى باب الإيمان بالله و آياته كما يؤيده صدر الآيه: آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس، الخ؛ و كذا تبين أن المراد باللعن المذكور فيها المسخ.

قوله تعالى: وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا- إشاره الى أن الأمر لا- محاله واقع، و قد وقع على ما ذكره الله فى كتابه من لعنهم و إنزال السخط عليهم، و إلقاء العداوه و البغضاء بينهم الى يوم القيامة، و غير ذلك من آيات كثيره.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ظاهر السياق أن الآيه فى مقام التعليل للحكم المذكور فى الآيه السابقه أعنى قوله: آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس، الخ؛ فيعود المعنى الى مثل قولنا: فإنكم إن لم تؤمنوا

به كنتم بذلك مشركين، و الله لا- يغفر أن يشرك به فيحل عليكم غضبه و عقوبته فيطمس وجوهكم بردها على أديارها أو يلعنكم فنتيجته عدم المغفرة هذه ترتب آثار الشرك الدنيويه من طمس أو لعن عليه.

و هذا هو الفرق بين مضمون هذه الآيه، و قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (النساء ١١٦)، فإن هذه الآيه (آيه ٤٨)، تهدد بآثار الشرك الدنيويه، و تلك (آيه ١١٦)، تهدد بآثاره الاخرويه، و ذلك بحسب الانطباق على المورد و إن كانتا بحسب الإطلاق كلتاها شاملتين لجميع الآثار.

و مغفرته سبحانه و عدم مغفرته لا- يقع شىء منهما وقوعا جزافيا بل على وفق الحكمة، و هو العزيز الحكيم؛ فأما عدم مغفرته للشرك فإن الخلقه إنما ثبتت على ما فيها من الرحمه على أساس العبوديه و الربوبيه، قال تعالى: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (الذاريات ٥٦)، و لا- عبوديه مع شرك؛ و أما مغفرته لسائر المعاصي و الذنوب التي دون الشرك فشفاعه من جعل له الشفاعه من الأنبياء و الأولياء و الملائكه و الأعمال الصالحه على ما مر تفصيله في بحث الشفاعه في الجزء الأول من هذا الكتاب.

و أما التوبه فالآيه غير متعرضه لشأنها من حيث خصوص مورد الآيه لأن موردها عدم الإيمان و لا توبه معه، على أن التوبه يغفر معها جميع الذنوب حتى الشرك، قال تعالى: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَ أَنْيْبُوا إِلَيَّ رَبُّكُمْ (الزمر ٥٤).

و المراد بالشرك في الآيه ما يعم الكفر لا محاله فإن الكافر أيضا لا يغفر له البتة و إن لم يصدق عليه المشرك بعنوان التسميه بناء على أن أهل الكتاب لا- يسمون في القرآن مشركين و إن كان كفرهم بالقرآن و بما جاء به النبي شركا منهم أشركوا به (راجع تفسير آيه ٢٢١ من البقره)، و اذا لم يؤمن أهل الكتاب بما نزل الله مصدقا لما معهم فقد كفروا به، و أشركوا ما في

أيديهم بالله سبحانه فإنه شيء لا يريد الله على الصفه التي أخذوه بها فالمؤمن بموسى عليه السلام اذا كفر بالمسيح عليه السلام فقد كفر بالله و أشرك به موسى؛ ولعل ما ذكرناه هو النكته لقوله تعالى: أَنْ يُشْرَكَ بِهِ دُونَ أَنْ يَقُولَ: الْمَشْرِكُ أَوْ الْمَشْرِكِينَ.

وقوله تعالى: لِمَنْ يَشَاءُ تَقْيِيدَ لِلْكَلامِ لِدَفْعِ تَوْهَمِ أَنْ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ تَأْثِيرًا فِيهِ تَعَالَى يُوْجِبُ بِهِ عَلَيْهِ الْمَغْفِرَةَ فَيُحْكَمُ عَلَيْهِ تَعَالَى حَاكِمًا أَوْ يَقْهَرُهُ قَاهِرًا، وَتَعْلِيْقُ الْأُمُورِ الثَّابِتَةِ فِي الْقُرْآنِ عَلَى الْمَشِيئَةِ كَثِيرٌ وَالْوَجْهُ فِي كُلِّهَا أَوْ جُلِّهَا دَفْعُ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ التَّوْهَمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ (هود/ ١٠٨).

على أن من الحكمه أن لا يغفر لكل مذنب ذنبه و إلا لغى الأمر و النهى، و بطل التشريع، و فسد أمر التربيه الإلهيه، و إليه الإشاره بقوله: لِمَنْ يَشَاءُ، و من هنا يظهر أن كل واحد من المعاصي لا بد أن لا يغفر بعض أفراده و إلا لغى النهى عنه، و هذا لا ينافي عموم لسان آيات أسباب المغفره فإن الكلام في الوقوع دون الوعد على وجه الإطلاق، و من المعاصي ما يصدر عن لا يغفر له بشرک و نحوه.

فمعنى الآيه أنه تعالى لا يغفر الشرك من كافر و لا مشرك، و يغفر سائر الذنوب دون الشرك بشفاعه شافع من عباده أو عمل صالح، و ليس هو تعالى مقهورا أن يغفر كل ذنب من هذه الذنوب لكل مذنب بل له أن يغفر و له أن لا يغفر؛ كل ذلك لحكمه.

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُرْكُونَ أَنْفُسَهُمْ قَالِ الرَّاغِبِ: أَصْلُ الزَّكَاةِ النَّمُو الْحَاصِلُ مِنْ بَرَكَهَ اللَّهِ تَعَالَى - أَلَى أَنْ قَالَ -: وَتَرْكِيهِ الْإِنْسَانَ نَفْسَهُ ضَرْبَانِ: أَحَدُهُمَا: بِالْفِعْلِ وَهُوَ مَحْمُودٌ، وَإِلَيْهِ قَصْدُ بَقَوْلِهِ: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى، وَالثَّانِي بِالْقَوْلِ كَتَرْكِيهِ لِعَدْلِ غَيْرِهِ، وَذَلِكَ مَذْمُومٌ أَنْ يَفْعَلَ الْإِنْسَانُ بِنَفْسِهِ، وَقَدْ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ فَقَالَ: لَا تَزَكُوا أَنْفُسَكُمْ، وَنَهَيْهِ عَنِ ذَلِكَ تَأْدِيبٌ لِقَبْحِ مَدْحِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ عَقْلًا وَشَرْعًا، وَلِهَذَا قِيلَ لِحَكِيمٍ: مَا الَّذِي لَا يَحْسَنُ وَ إِنْ

كان حقا؟ فقال: مدح الرجل نفسه، انتهى كلامه.

و لما كانت الآيه فى ضمن الآيات المسروده للتعرض لحال أهل الكتاب الظاهر أن هؤلاء المزكين لأنفسهم هم أهل الكتاب أو بعضهم، و لم يوصفوا بأهل الكتاب لأن العلماء بالله و آياته لا ينبغي لهم أن يتلبسوا بأمثال هذه الرذائل فالإصرار عليها انسلاخ عن الكتاب و علمه.

و يؤيده ما حكاه الله تعالى عن اليهود من قوله: نَحْنُ أُنْبَاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاءُهُ (المائده ١٨/) و قولهم: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً (البقره ٨٠/) و زعمهم الولا-يه كما فى قوله تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ (الجمعه ١٦)، فالآيه تبنى عن اليهود، و فيها استشهاد لما تقدم ذكره فى الآيات السابقه من استكبارهم عن الخضوع للحق و اتباعه، و الإيمان بآيات الله سبحانه، و استقرار اللعن الإلهى فيهم، و أن ذلك من لوازم إعجابهم بأنفسهم و تركيتهم لها.

قوله تعالى: يَبْلُغُ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَ لَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا- إضراب عن تركيتهم لأنفسهم، و ورد لهم فيما زكوه، و بيان أن ذلك من شئون الربوبيه يختص به تعالى فإن الإنسان و إن أمكن أن يتصف بفضائل، و يتلبس بأنواع الشرف و السوود المعنوى غير أن اعتناءه بذلك و اعتماده عليه لا- يتم إلا- بإعطائه لنفسه استغناء و استقلالاً و هو فى معنى دعوى الالوهيه و الشركه مع رب العالمين، و أين الإنسان الفقير الذى لا- يملك لنفسه ضرا أو نفعاً و لا- موتاً و لا حياه و الاستغناء عن الله سبحانه فى خير أو فضيله؟ و الإنسان فى نفسه و فى جميع شئون نفسه، و الخير الذى يزعم أنه يملكه، و جميع أسباب ذلك الخير، مملوك لله سبحانه محضاً من غير استثناء، فما ذا يبقى للإنسان؟

و هذا الغرور و الإعجاب الذى يبعث الإنسان الى تركيه نفسه هو العجب الذى هو من أمهات الرذائل، ثم لا يلبث هذا الإنسان المغرور المعتمد على نفسه دون أن يمس غيره فيتولد

من رذيلته هذه رذيله اخرى، و هي رذيله التكبر و يتم تكبره في صورته الاستعلاء على غيره من عباد الله فيستعبد به عباد الله سبحانه، و يجرى به كل ظلم و بغى بغير حق و هتك محارم الله و بسط السلطه على دماء الناس و أعراضهم و أموالهم.

و هذا كله اذا كان الوصف وصفا فرديا و أما اذا تعدى الفرد و صار خلقا اجتماعيا و سيره قوميه فهو الخطر الذى فى هلاك النوع و فساد الأرض، و هو الذى يحكيه تعالى عن اليهود اذ قالوا: لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ (آل عمران ٧٥).

فما كان لبشر أن يذكر لنفسه من الفضيله ما يمدحها به سواء كان صادقا فيما يقول أو كاذبا لأنه لا يملك ذلك لنفسه لكن الله سبحانه لما كان هو المالك لما ملكه، و المعطى الفضل لمن يشاء و كيف يشاء كان له أن يزكى من شاء تزكيه عمليه بإعطاء الفضل و إفاضه النعمه، و أن يزكى من يشاء تزكيه قوليه يذكره بما يمدح به، و يشرفه بصفات الكمال كقوله فى آدم و نوح: إِنَّ اللَّهَ اضْيَطَفُنِي آدَمَ وَ نُوحًا (آل عمران ٢٣)، و قوله فى إبراهيم و إدريس: إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (مريم ٤١، ٥٦)، و قوله فى يعقوب: وَ إِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ (يوسف ٦٨)، و قوله فى يوسف: إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (يوسف ٢٤)، و قوله فى حق موسى: إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (مريم ٥١)، و قوله فى حق عيسى: وَ جِيهًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (آل عمران ٤٥)، و قوله فى سليمان و أيوب: نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (ص ٣٠، ٤٤)، و قوله فى محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: إِنَّ وَ لِيَّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (الأعراف ١٩٦)، و قوله: وَ إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (القلم ٤)، و كذا قوله تعالى فى حق عده من الأنبياء ذكرهم فى سور الأنعام و مريم و الأنبياء و الصافات و ص و غيرها.

و بالجملة فالتركيه لله سبحانه حق لا يشاركه فيه غيره اذ لا يصدر عن غيره إلا من ظلم و الى ظلم، و لا يصدر عنه تعالى إلا حقا و عدلا يقدر بقدره لا يفرط و لا يفرط، و لذا ذيل

قوله: بَلِ اللّٰهُ يُزَكِّي مَنْ يَّشَاءُ بِقَوْلِهِ-و هو فى معنى التعليل -: وَ لَا يُظَلِّمُونَ فَتِيلاً .

و قد تبين مما مر أن تركيته تعالى و إن كانت مطلقه تشمل التركيه العمليه و التركيه القويله لكنها تنطبق بحسب مورد الكلام على التركيه القويله.

قوله تعالى: وَ لَا يُظَلِّمُونَ فَتِيلاً- الفتيل فعيل بمعنى المفعول من الفتل و هو اللى قيل:المراد به ما يكون فى شق النواه، و قيل: هو ما فى بطن النواه، و قد ورد فى روايات عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام: أنه النقطة التى على النواه، و النقيير ما فى ظهرها، و القطمير قشرها، و قيل: هو ما فتلته بين إصبعيك من الوسخ، و كيف كان هو كناية عن الشىء الحقيق الذى لا يعتد به.

و قد بان بالآيه الشريفه أمران: أحدهما: أن ليس لصاحب الفضل أن يعجبه فضله و يمدح نفسه بل هو مما يختص به تعالى فإن ظاهر الآيه أن الله يختص به أن يزكى كل من جاز أن يتلبس بالتركيه فليس لغير صاحب الفضل أيضا أن يزكيه إلا بما زكاه الله به، و ينتج ذلك أن الفضائل هى التى مدحها الله و زكاهها فلا قدر لفضل لا يعرفه الدين و لا يسميه فضلا، و لا يستلزم ذلك أن تبطل آثار الفضائل عند الناس فلا يعرفوا لصاحب الفضل فضله، و لا يعظموا قدره بل هى شعائر الله و علائمه، و قد قال تعالى: وَ مَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللّٰهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (الحج ٣٢)، فعلى الجاهل أن يخضع للعالم و يعرف له قدره فإنه من اتباع الحق و قد قال تعالى: هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (الزمر ٩)، و إن لم يكن للعالم أن يتبجح بعلمه و يمدح نفسه، و الأمر فى جميع الفضائل الحقيقه الإنسانيه على هذا الحال.

و ثانيهما: أن ما ذكره بعض باحثينا، و اتبعوا فى ذلك ما ذكره المغاربه أن من الفضائل الإنسانيه الاعتماد بالنفس أمر لا يعرفه الدين، و لا يوافق مذاق القرآن، و الذى يراه القرآن فى ذلك هو الاعتماد بالله و التعزز بالله قال تعالى: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ

فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (آل عمران ١٧٣)، وقال: أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (البقره ١٦٥)، وقال: إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (يونس ٦٥)، الى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: أَنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ الخ؛ فتر كيتهم أنفسهم بنوه الله و حبه و ولايته و نحو ذلك افتراء على الله اذ لم يجعل الله لهم ذلك، على أن أصل التزكية افتراء و إن كانت عن صدق فإنه- كما تقدم بيانه- إسناد شريك الى الله و ليس له فى ملكه شريك قال تعالى: وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ (الإسراء ١١١).

و قوله: وَ كَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا أى لو لم يكن فى التزكية إلا أنه افتراء على الله لكفى فى كونه إثما مبينا، و التعبير بالإثم- و هو الفعل المذموم الذى يمنع الإنسان من نيل الخيرات و يبطئها- هو المناسب لهذه المعصية لكونه من اشراك الشرك و فروعه، يمنع نزول الرحمة، و كذا فى شرك الكفر الذى يمنع المغفره كما وقع فى الآيه السابقه: و من يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما بعد قوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ .

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ الْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ الْجِبْتِ وَ قِيلَ: و كل ما يعبد من دون الله سبحانه، و الطاغوت مصدر فى الأصل كالطغيان يستعمل كثيرا بمعنى الفاعل، و قيل: هو كل معبود من دون الله، و الآيه تكشف عن وقوع واقعه قضى فيها بعض أهل الكتاب للذين كفروا على الذين آمنوا بأن سبيل المشركين أهدى من سبيل المؤمنين، و ليس عند المؤمنين إلا- دين التوحيد المنزل فى القرآن المصدق لما عندهم، و لا عند المشركين إلا الإيمان بالجبت و الطاغوت فهذا القضاء اعتراف منهم بأن للمشركين نصيبا من الحق، و هو الإيمان بالجبت و الطاغوت الذى نسبه الله تعالى إليهم ثم لعنهم الله بقوله: أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ، الآيه.

و هذا يؤيد ما ورد فى أسباب النزول أن مشركى مكه طلبوا من أهل الكتاب أن يحكموا

بينهم و بين المؤمنين فيما ينتحلونه من الدين فقصوا لهم على المؤمنين، و سيأتى الروايه فى ذلك فى البحث الروائى الآتى.

و قد ذكر كونهم ذوى نصيب من الكتاب ليكون أوقع فى وقوع الدم و اللوم عليهم فإن إيمان علماء الكتاب و الطاغوت و قد بين لهم الكتاب أمرهما أشنع و أفظع.

قوله تعالى: أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ -الى قوله- نَقِيرًا النقر فعيل بمعنى المفعول و هو المقدار اليسير الذى يأخذه الطير من الأرض بنقر منقاره، و قد مر له معنى آخر فى قوله:

□
وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا، الآيه.

و قد ذكروا أن «أم» فى قوله: أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ، منقطعه و المعنى: بل ألهم نصيب من الملك، و الاستفهام إنكارى أى ليس لهم ذلك.

و قد جوز بعضهم أن تكون «أم» متصله، و قال: إن التقدير: أهم أولى بالنبوه أم لهم نصيب من الملك؟ و رد بأن حذف الهمزه إنما يجوز فى ضروره الشعر، و لا ضروره فى القرآن، و الظاهر أن أم متصله و أن الشق المحذوف ما يدل عليه الآيه السابقه، أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ، الآيه؛ و التقدير: ألهم كل ما حكموا به من حكم أم لهم نصيب من الملك أم يحسدون الناس؟ و على هذا تستقيم الشقوق و ترتب، و يتصل الكلام فى سوجه.

و المراد بالملك هو السلطنه على الامور الماديه و المعنويه فيشمل ملك النبوه و الولايه و الهدايه و ملك الرقاب و الثروه، و ذلك أنه هو الظاهر من سياق الجمل السابقه و اللاحقه فإن الآيه السابقه تومئ الى دعواهم أنهم يملكون القضاء و الحكم على المؤمنين، و هو مسانخ للملك على الفضائل المعنويه و ذيل الآيه «فَمَاذَا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا» يدل على ملك الماديات أو ما يشمل ذلك فالمراد به الأعم من ملك الماديات و المعنويات.

فيؤول معنى الآيه الى نحو قولنا: أم لهم نصيب من الملك الذى أنعم الله به على نبيه بالنبوه و الولايه و الهدايه و نحوه، و لو كان لهم ذلك لم يؤتوا الناس أقل القليل الذى لا يعتد به لبخلهم

و سوء سريرتهم، فالآية قريبه المضمون من قوله تعالى: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَيْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ (الإسراء ١٠٠).

قوله تعالى: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ هَذَا آخِرُ الشَّقِيقِ الثَّلَاثَةِ الْمَذْكُورَةِ، وَ وَجْهَ الْكَلَامِ إِلَى الْيَهُودِ جَوَابًا عَنْ قَضَائِهِمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ دِينَ الْمَشْرِكِينَ أَهْدَىٰ مِنْ دِينِهِمْ.

و المراد بالناس على ما يدل عليه هذا السياق هم الذين آمنوا، و بما آتاهم الله من فضله هو النبوه و الكتاب و المعارف الدينيه، غير أن ذيل الآية: فقد آتينا آل إبراهيم، الخ؛ يدل على أن هذا الذي اطلق عليه الناس من آل إبراهيم، فالمراد بالناس حينئذ هو النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و ما انبسط على غيره من هذا الفضل المذكور في الآية فهو من طريقه و ببركاته العالیه، و قد تقدم في تفسير قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَ نُوحًا وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْآيَةَ (آل عمران ٣٣)، أن آل إبراهيم هو النبي و آله.

و إطلاق الناس على المفرد لا ضمير فيه فإنه على نحو الكنايه كقولك لمن يتعرض لك و يؤذيك: لا تتعرض للناس، و ما لك و للناس؟ تريد نفسك أى لا تتعرض لى.

قوله تعالى: فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ الْجَمْلَةَ إِنَّا لَنَاسٍ لَهُمْ فِي حَسَدِهِمْ، وَ قَطَعَ لِرَجَائِهِمْ زَوَالَ هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَ انْقِطَاعَ هَذَا الْفَضْلِ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَىٰ آلَ إِبْرَاهِيمَ مِنْ فَضْلِهِ مَا أَعْطَىٰ، وَ آتَاهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ مَا آتَىٰ فَلْيَمُوتُوا بَغِيظِهِمْ فَلَنْ يَنْفَعَهُمُ الْحَسَدُ شَيْئًا.

و من هنا يظهر أن المراد بآل إبراهيم إما النبي و آله من أولاد إسماعيل أو مطلق آل إبراهيم من أولاد إسماعيل و إسحاق حتى يشمل النبي صلى الله عليه و آله و سلم الذى هو المحسود عند اليهود بالحقيقه، و ليس المراد بآل إبراهيم بنى إسرائيل من نسل إبراهيم فإن الكلام على هذا التقدير يعود تقريراً لليهود فى حسدهم النبي أو المؤمنين لمكان النبي صلى الله عليه و آله و سلم فيهم فيفسد معنى الجملة كما لا يخفى.

وقد ظهر أيضا كما تقدمت الإشارة إليه أن هذه الجملة: فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ، الخ؛ تدل على أن الناس المحسودين هم من آل إبراهيم، فيتأيد به أن المراد بالناس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و أما المؤمنون به فليسوا جميعا من ذرية إبراهيم، ولا كرامه لذريته من المؤمنين على غيرهم حتى يحمل الكلام عليهم، ولا يوجب مجرد الإيمان و اتباع مله إبراهيم تسميه المتبعين بأنهم آل إبراهيم، و كذا قوله تعالى: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الْآيَةَ (آل عمران ٦٨) لا يوجب تسميه الذين آمنوا بآل إبراهيم لمكان الأولويه فإن في الآية ذكرا من الذين اتبعوا إبراهيم، و ليسوا يسمون آل إبراهيم قطعا، فالمراد بآل إبراهيم النبي أو هو و آله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و إسماعيل جده و من في حذوه.

قوله تعالى: وَ آتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا قد تقدم أن مقتضى السياق أن يكون المراد بالملك ما يعم الملك المعنوى الذى منه النبوه و الولايه الحقيقيه على هدايه الناس و إرشادهم و يؤيده أن الله سبحانه لا يستعظم الملك الدنيوى لو لم ينته الى فضيله معنويه و منقبه دينيه، و يؤيد ذلك أيضا أن الله سبحانه لم يعد فيما عده من الفضل فى حق آل إبراهيم النبوه و الولايه اذ قال: فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب و الحكمة، فيقوى أن يكون النبوه و الولايه مندرجتين فى إطلاق قوله: وَ آتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا .

قوله تعالى: فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ الصَّدَّ الصَّرْفُ و قد قوبل الإيمان بالصد لأن اليهود ما كانوا ليقنعوا على مجرد عدم الإيمان بما أنزل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ دون أن يبذلوا مبلغ جهدهم فى صد الناس عن سبيل الله و الإيمان بما نزله من الكتاب، و ربما كان الصد بمعنى الإعراض و حينئذ يتم التقابل من غير عنايه زائده.

قوله تعالى: وَ كَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا تهديد لهم بسعير جهنم فى مقابل ما صدوا عن الإيمان بالكتاب و سعروا نار الفتنة على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و الذين آمنوا معه.

ثم بين تعالى كفايه جهنم فى أمره بقوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا، الى آخر الآيه؛ و هو بيان

فى صورته التعليل، ثم عقبه بقوله: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، الى آخر الآيه؛ ليتبين الفرق بين الطائفتين: مَنْ آمَنَ بِهِ، وَمَنْ صَدَّ عَنْهُ، و من يظهر أنهما فى قطبين متخالفين من سعادة الحياه الاخرى و شقائها: دخول الجنات و ظلها الظليل، و إحاطه سعر جهنم و الاصطلاء بالنار- أعاذنا الله- و معنى الآيتين واضح.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ظاهره الارتباط بالآيات السابقه عليها فإن البيان الإلهى فيها يدور حول حكم اليهود للمشركين بأنهم أهدى سبيلا من المؤمنين، و قد وصفهم الله تعالى فى أول بيانه بأنهم اوتوا نصيبا من الكتاب و الذى فى الكتاب هو تبين آيات الله و المعارف الإلهيه، و هى أمانات مأخوذه عليها الميثاق أن تبين للناس، و لا تكتم عن أهله.

و هذا الذى ذكر من القرائن يؤيد أن يكون المراد بالأمانات ما يعم الأمانات المالىه و غيرها من المعنويات كالعلوم و المعارف الحقه التى من حقها أن يبلغها حاملوها أهلها من الناس.

و بالجمله لما خانت اليهود الأمانات الإلهيه المودعه عندهم من العلم بمعارف التوحيد و آيات نبوه محمد صلى الله عليه و آله و سلم فكتموها و لم يظهرها فى واجب وقتها، ثم لم يقنعوا بذلك حتى جاروا فى الحكم بين المؤمنين و المشركين فحكموا للوثنيه على التوحيد فأل أمرهم فيه الى اللعن الإلهى و جر ذلك إياهم الى عذاب السعير فلما كان من أمرهم ما كان، غير سبحانه سياق الكلام من التكلم الى الغيبه فأمر الناس بتأديه الأمانات الى أهلها، و بالعدل فى الحكم فقال:

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ، الخ (١).

ص: ٦٩٤

و فى الفقيه ياسناده عن ثوير عن أبيه: أن عليا عليه السلام قال: ما فى القرآن آيه أحب إلى من قوله عزّ و جل: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ .

أقول: و رواه فى الدر المنثور عن الفريابى و الترمذى و حسنه عن على .

و فى الدر المنثور أخرج ابن جوير و ابن أبى حاتم عن ابن عمر قال لما نزلت: يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم الآية فقام رجل فقال: و الشرك يا نبي الله؟ فكره ذلك النبي صلى الله عليه و آله و سلم فقال: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ الآية .

و فيه أخرج ابن المنذر عن أبى مجاز قال: لما نزلت هذه الآية، يا عبادى الذين أسرفوا الآية قام النبي صلى الله عليه و آله و سلم على المنبر فتلاها على الناس فقام إليه رجل فقال: و الشرك بالله؟ فسكت -مرتين أو ثلاثا- فنزلت هذه الآية: إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء فاثبتت هذه فى الزمر، و اثبتت هذه فى النساء .

اقول: و قد عرفت فيما تقدم أن آيه الزمر ظاهره بحسب ما تتعقبه من الآيات فى المغفره بالتوبه، و لا ريب أن التوبه يغفر معها كل ذنب حتى الشرك، و أن آيه النساء موردها غير مورد التوبه فلا- تنافى بين الآيتين مضمونا حتى تكون إحداهما ناسخه أو مخصصه للآخرى .

و فى المجمع عن الكلبي فى الآية: نزلت فى المشركين وحشى و أصحابه، و ذلك أنه لما قتل حمزه، و كان قد جعل له على قتله أن يعتق فلم يوف له بذلك، فلما قدم مكه ندم على صنيعه هو و أصحابه فكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: أنا قد ندمنا على الذى صنعناه، و ليس يمنعنا عن الإسلام إلا أنا سمعناك تقول و أنت بمكه: و الذين لا يدعون مع الله إلها آخر و لا يقتلون النفس التى حرم الله إلا- بالحق و لا- يزنون الآيات، و قد دعونا مع الله إلها آخر، و قتلنا النفس التى حرم الله، و زينا، فلو لا هذه لا تبعناك فنزلت الآية: إلا من تاب و عمل عملا صالحا الآيتين فبعث بهما رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إلى وحشى و أصحابه، فلما قرأهما كتبوا إليه: أن هذا شرط شديد نخاف أن لا نعمل عملا صالحا فلا نكون من أهل هذه الآية فنزلت: إن الله لا يغفر الآية فبعث بها

إليهم فقرءوها فبعثوا إليه: إنا نخاف أن لا نكون من أهل مشيئته فنزلت: يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا فبعث بها إليهم فلما قرءوها دخل هو وأصحابه فى الإسلام، ورجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقبل منهم، ثم قال لوحشى أخبرنى كيف قتلت حمزه؟ فلما أخبره قال: ويحك غيب شخصك عنى فلحق وحشى:

بعد ذلك بالشام، و كان بها إلى أن مات.

اقول: وقد ذكر هذه الروايه الرازى فى تفسيره عن ابن عباس و التأملى فى موارد هذه الآيات التى تذكر الروايه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يراجع بها وحشيا لا يدع للمتأمل شكاً فى أن الروايه موضوعه قد أراد واضعها أن يقدر أن وحشيا وأصحابه مغفور لهم و إن ارتكبوا من المعاصى كل كبيره و صغيره فقد التقط آيات كثيره من مواضع مختلفه من القرآن فالاستثناء من موضع، والمستثنى من موضع من أن كلا منها واقعه فى محل محفوفه بأطراف لها معها ارتباط و اتصال، و للمجموع سياق لا يحتمل التقطيع و التفصيل فقطعها ثم رتبها و نضدها نضداً يناسب هذه المراجعه العجيبه بين النبى صلى الله عليه وآله وسلم و بين وحشى.

و لقد أجاد بعض المفسرين حيث قال بعد الإشاره إلى الروايه: كأنهم يثبتون أن الله سبحانه كان يداعب وحشيا!

فواضع الروايه لم يرد إلا- أن يشرف وحشيا بمغفره محتومه مختومه لا- يضره معها أى ذنب أذنب و أى فظيحه أتى بها، و عقب ذلك ارتفاع المجازاه على المعاصى، و لازمه ارتفاع التكليف عن البشر على ما يراه النصرانيه بل أشنع فإنهم إنما رفعوا التكليف بتفديه مثل عيسى المسيح، و هذا يرفعه اتباعاً لهوى وحشى.

و وحشى هذا هو عبد لابن مطعم قتل حمزه باحد ثم لحق مكة ثم أسلم بعد أخذ الطائف، و قال له النبى صلى الله عليه وآله وسلم: غيب شخصك عنى فلحق بالشام و سكن حمصاً و اشتغل فى عهد عمر بالكتابه فى الديوان، ثم اخرج منه لكونه يدمن الخمر، و قد جلد لذلك غير مره، ثم مات فى

خلافه عثمان، قتله الخمر على ما روى.

روى ابن عبد البر فى الاستيعاب بإسناده عن ابن اسحاق عن عبد الله بن الفضل عن سليمان بن يسار عن جعفر بن عمرو بن اميه الضمرى قال: خرجت أنا و عبد الله ابن عدى بن الخيار فمررنا بحمص و بها وحشى، فقلنا: لو أتيناها و سألناه عن قتله حمزه كيف قتله، فلقينا رجلا و نحن نسأله عنه فقال: إنه رجل قد غلبت عليه الخمر فإن تجداه صاحيا تجداه رجلا عربيا يحدثكما ما شئتما من حديث، و إن تجداه على غير ذلك فانصرفا عنه؛ قال: فأقبلنا حتى انتهينا إليه، الحديث، و فيه ذكر كيفية قتله حمزه يوم احد.

و فى المجمع روى مطرف بن شخير عن عمر بن الخطاب قال: كنا على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إذا مات الرجل منا على كبيره شهدنا بأنه من أهل النار حتى نزلت الآية فأمسكنا عن الشهادات.

و فى الدر المنثور أخرج ابن المنذر من طريق المعتمر بن سليمان عن سليمان بن عتبة البارقي قال: حدثنا إسماعيل بن ثوبان قال: شهدت فى المسجد قبل الداء الأعظم فسمعتهم يقولون: مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ وَ الْأَنْصَارُ: قَدْ أُوجِبَ لَهُ النَّارُ فَلَمَّا نَزَلَتْ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ قَالُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ، يصنع الله ما يشاء.

أقول: و روى ما يقرب من الروايتين عن ابن عمر بغير واحد من الطرق، و هذه الروايات لا تخلو من شىء فلا نظن بعامه أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أن يجهلوا أن هذه الآية: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ لَا تَزِيدُ فِي مضمونها على آيات الشفاعة شيئا كما تقدم بيانه، أو أن يغفلوا عن أن معظم آيات الشفاعة مكيه كقوله تعالى فى سورة الزخرف: وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (الزخرف ٨٦)، و مثلها آيات الشفاعة الواقعة فى سورة يونس، و الأنبياء، و طه، و السبأ، و النجم، و المدثر كلها آيات مكيه تثبت

الشفاعة على ما مر بيانه، وهي عامه لجميع الذنوب و مقيده في جانب المشفوع له بالدين المرضى و هو التوحيد و نفي الشريك و في جانب الله تعالى بالمشيئة، فمحصل مفادها شمول المغفرة لجميع الذنوب إلا الشرك على مشيئة من الله، و هذا بعينه مفاد هذه الآية: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ .

و أما الآيات التي توعد قاتل النفس المحترمه بغير حق. و آكل الربا، و قاطع الرحم بجزاء النار الخالد كقوله تعالى: وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ۗ فِيهَا آيَاتٌ لِلَّذِينَ يَنْتَظِرُونَ الْعَذَابَ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا فِيهَا خَالِدُونَ (البقره ٢٧٥)، و قوله في قاطع الرحم: أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (الرعد ٢٥)، و غير ذلك من الآيات فهذه الآيات إنما توعد بالشر و تنبئ عن جزاء النار، و أما كونه جزاء محتوما لا يقبل التغيير و الارتفاع فلا صراحه لها فيه.

و بالجمله لا يترجح آيه إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ عَلَى آيَاتِ الشَّفَاعَةِ بِأَمْرٍ زَائِدٍ فِي مَضْمُونِهَا يَمَهِّدُ لَهُمْ مَا ذَكَرُوهُ.

فليس يسعهم أن يفهموا من آيات الكبائر تحتم النار حتى يجوز لهم الشهادة على مرتكبها بالنار، و لا يسعهم أن يفهموا من آيه المغفرة إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ الخ؛ أمرا ليس يفتهم من آيات الشفاعة حتى يوجب لهم القول بنسخها أو تخصيصها أو تقييدها آيات الكبائر.

و يومئ إلى ذلك ما ورد في بعض هذه الروايات، و هو ما رواه في الدر المنثور عن ابن الضريس و أبي يعلى و ابن المنذر و ابن عدى بسند صحيح عن ابن عمر قال: كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من نبينا صلى الله عليه و آله و سلم: إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء؛ و قال: إنى ادخرت دعوتى شفاعتى لأهل الكبائر من امتى، فأمسكنا عن كثير مما كان فى أنفسنا ثم نطقنا بعد و رجونا.

فظاهر الروايه أن الذى فهموه من آيه المغفره فهموا مثل من حديث الشفاعة لكن يبقى عليه سؤال آخر، و هو أنه ما بالهم فهموا جواز مغفره الكبائر من حديث الشفاعة، و لم يكونوا يفهمونه من آيات الشفاعة المكيه على كثرتها و دلالتها و طول العهد؟ ما أدري!

و فى الدر المنثور فى قوله: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ إِلَى قَوْلِهِ: سَبِيْلًا أَخْرَجَ الْبَيْهَقِي فِي الدَّلَائِلِ وَ ابْنِ عَسَاكِر فِي تَارِيخِهِ عَنِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَمَّا كَانَ مِنْ أَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مَا كَانَ اعْتَرَلَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ وَ لَحِقَ بِمَكَّةَ وَ كَانَ بِهَا، وَ قَالَ: لَا أَعِينُ عَلَيْهِ وَ لَا آقَاتُهُ؛ فَقِيلَ لَهُ بِمَكَّةَ لَا يَا كَعْبُ أَدِينْنَا خَيْرَ أُمَّ دِينَ مُحَمَّدٍ وَ أَصْحَابِهِ؟ قَالَ: دِينَكُمْ خَيْرٌ وَ أَقْدَمُ، وَ دِينَ مُحَمَّدٍ حَدِيثٌ؛ فَتَزَلَّتْ فِيهِ: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ الْآيَةَ.

أقول: و فى سبب نزول الآيه روايات على وجوه مختلفه أسلمها ما أوردناه غير أن الجميع تشترك فى أصل القصة و هو أن بعضا من اليهود حكموا لقريش على النبي صلى الله عليه و آله و سلم بأن دينهم خير من دينه.

و فى تفسير البرهان فى قوله تعالى: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ الْآيَةَ عَنِ الشَّيْخِ فِي أَمَالِيهِ بِإِسْنَادِهِ عَنِ جَابِرِ بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ قَالَ: نَحْنُ النَّاسُ.

و فى الكافى بإسناده عن بريد عن الباقر عليه السّلام فى حديث: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» نَحْنُ النَّاسُ الْمَحْسُودُونَ، الْحَدِيثُ.

أقول: و هذا المعنى مروى عن أئمة أهل البيت عليهم السّلام مستفيضا بطرق كثيره مودعه فى جوامع الشيعة كالكافى و التهذيب و المعانى و البصائر و تفسيري القمى و العياشى و غيرها.

و فى معناها من طرق أهل السنه ما عن ابن المغازى يرفعه إلى محمد بن على الباقر عليهما السّلام فى قوله تعالى: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ قَالَ: نَحْنُ النَّاسُ وَ اللَّهُ.

و ما فى الدر المنثور عن ابن المنذر و الطبرانى من طريق عطاء عن ابن عباس فى قوله: «أَمْ

يَحْسُدُونَ النَّاسَ» قال: نحن الناس دون الناس، وقد روى فيه أيضا تفسير الناس برسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم عن عكرمه ومجاهد ومقاتل وأبي مالك؛ وقد مر فيما قدمناه من البيان: أن الظاهر كون المراد بالناس رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته ملحقون به.

و في تفسير العياشي عن حمران عن الباقر عليه السلام «فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ» قال:

النبوه، «وَالْحُكْمَةَ» قال: الفهم والقضاء، «مُلْكًا عَظِيمًا» قال: الطاعة.

أقول: المراد بالطاعة الطاعة المفترضة على ما ورد في سائر الأحاديث، والأخبار في هذه المعاني أيضا كثيرة، وفي بعضها تفسير الطاعة المفترضة بالإمامه والخلافه كما في الكافي بإسناده عن بريد عن الباقر عليه السلام.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا الْآيَةَ قال: الآيات أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام.

أقول: وهو من الحرى.

و في مجالس الشيخ بإسناده عن حفص بن غياث القاضي قال: كنت عند سعيد الجعافره جعفر بن محمد عليهما السلام لما قدمه المنصور فأتاه ابن أبي العوجاء وكان ملحدا فقال: ما تقول في هذه الآية: كَلَّمَا نَضَّ بَجْتُ جُلُودُهُمْ بِيَدِنَا هُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ؟ هب هذه الجلود عصت فعذبت فما بال الغير؟ قال أبو عبد الله عليه السلام: ويحك هي هي و هي غيرها، قال: أعقلني هذا القول، فقال له: أ رأيت لو أن رجلا- عمد إلى لبنة فكسرها ثم صب عليها الماء و جبلها ثم ردها إلى هيئتها الاولى ألم تكن هي هي و هي غيرها؟ فقال: بلى أمتع الله بك.

أقول: و رواه في الاحتجاج أيضا عن حفص بن غياث عنه عليه السلام، و القمي في تفسيره مرسلا؛ و يعود حقيقه الجواب إلى أن وحده المادة محفوظة بوحده الصورة فبدن الإنسان كأجزاء بدنه باق على وحدته ما دام الإنسان هو الانسان و إن تغير البدن بأى تغير حدث فيه.

و فى الفقيه قال: سئل الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ و جل لهم فيها أزواج مطهرة قال:

الأزواج المطهرة اللاتى لا يحضن ولا يحدثن.

و فى تفسير البرهان فى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ الْآيَةَ؛ عن محمد بن إبراهيم النعمانى بإسناده عن زراره عن أبى جعفر محمد بن على عليهما السلام قال: سألته عن قول الله عزّ و جل: إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل فقال: أمر الله الإمام أن يؤدى الأمانه إلى الإمام الذى بعده، ليس له أن يزويها عنه، أ لا تسمع قوله: وَ إِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ هم الحكام يا زراره، إنه خاطب بها الحكام.

أقول: و صدر الحديث مروي بطرق كثيره عنهم عليهم السلام، و ذيله يدل على أنه من باب الجرى، و أن الآيه نازله فى مطلق الحكم و إعطاء ذى الحق حقه فىنطبق على مثل ما تقدم سابقا.

[سوره النساء (٤): الآيات ٥٩ الى ٧٠]

إشارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَدَارَعْتُمْ فَبِشَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَ مَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّحِكُمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَ يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَ تَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ عِظْهُمْ وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) وَ لَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَ أَشَدَّ تَنْبِيئًا (٦٦) وَ إِذَا لَاتْتِنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَ لَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨) وَ مَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)

ص: ٧٠١

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ لما فرغ من الندب الى عباده الله وحده لا شريك له و بث الإحسان بين طبقات المؤمنين و ذم من يعيب هذا الطريق المحمود أو صد عنه صدودا عاد الى أصل المقصود بلسان آخر يتفرع عليه فروع أخر، بها يستحكم أساس المجتمع الإسلامى و هو التحضيض و الترغيب فى أخذهم بالائتلاف و الاتفاق، و رفع كل تنازع واقع بالرد الى الله و رسوله.

و لا ينبغى أن يرتاب فى أن قوله: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ، جملة سيقت تمهيدا و توطئه للأمر برد الأمر الى الله و رسوله عند ظهور التنازع، و إن كان مضمون الجملة أساس جميع الشرائع و الأحكام الإلهيه.

فإن ذلك ظاهر تفریع قوله: فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ، ثم العود بعد العود الى هذا المعنى بقوله: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ، الخ؛ و قوله: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ، الخ؛ و قوله: فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، الخ.

و لا ينبغى أن يرتاب فى أن الله سبحانه لا يريد بإطاعته إلا اطاعته فى ما يوحيه لنا من طريق رسوله من المعارف و الشرائع، و أما رسوله صلى الله عليه و آله و سلم فله حيثتان: إحداهما: حيثه التشريع بما يوحيه اليه ربه من غير كتاب، و هو ما يبينه للناس من تفاصيل ما يشتمل على إجماله الكتاب و ما يتعلق و يرتبط بها كما قال تعالى: وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (النحل ٤٤/)، و الثانية: ما يراه من صواب الرأى و هو الذى يرتبط بولايته الحكومه و القضاء قال تعالى: لِنَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ (النساء ١٠٥/)، و هذا هو الرأى الذى كان يحكم به على ظواهر قوانين القضاء بين الناس، و هو الذى كان صلى الله عليه و آله و سلم يحكم به فى عزائم الامور، و كان الله سبحانه أمره فى اتخاذ الرأى بالمشاورة فقال: وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ

فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ (آل عمران ١٥٩/)، فاشركهم به في المشاوره و وحده في العزم.

إذا عرفت هذا علمت أن لإطاعه الرسول معنى و لإطاعه الله سبحانه معنى آخر و إن كان إطاعه الرسول إطاعه الله بالحقيقه لأن الله هو المشرع لوجوب إطاعته كما قال: وَمِمَّا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ فعلى الناس أن يطيعوا الرسول فيما بينه بالوحي، و فيما يراه من الرأى.

و هذا المعنى (و الله أعلم) هو الموجب لتكرار الأمر بالطاعه في قوله: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ ، لا- ما ذكره المفسرون: أن التكرار للتأكيد فإن القصد لو كان متعلقا بالتأكيد كان ترك التكرار كما لو قيل: و أطيعوا الله و الرسول أدل عليه و أقرب منه فإنه كان يفيد أن إطاعه الرسول عين إطاعه الله سبحانه و أن الإطاعتين واحده، و ما كل تكرار يفيد التأكيد.

و أما اولو الأمر فهم- كائنين من كانوا- لا نصيب لهم من الوحي، و إنما شأنهم الرأى الذى يستصوبونه فلهم افتراض الطاعه نظير ما للرسول فى رأيههم و قولهم، و لذلك لما ذكر وجوب الرد و التسليم عند المشاجرهم لم يذكرهم بل خص الله و الرسول فقال: فإن تنازعتم فى شىء فردوه الى الله و الرسول إن كنتم تؤمنون بالله و اليوم الآخر، و ذلك أن المخاطبين بهذا الرد هم المؤمنون المخاطبون بقوله فى صدر الآيه: يا أيها الذين آمنوا، و التنازع بلا ريب، و لا يجوز أن يفرض تنازعهم مع اولى الأمر مع افتراض طاعتهم بل هذا التنازع هو ما يقع بين المؤمنين أنفسهم، و ليس فى أمر الرأى بل من حيث حكم الله فى القضييه المتنازع فيها بقرينه الآيات التالیه الذامه لمن يرجع الى حكم الطاغوت دون حكم الله و رسوله، و هذا الحكم يجب الرجوع فيه الى أحكام الدين المبينه المقرره فى الكتاب و السنه، و الكتاب و السنه حجتان قاطعتان فى الأمر لمن يسعه فهم الحكم منهما، و قول اولى الأمر فى أن الكتاب و السنه يحكمان بكذا أيضا حجه قاطعه فإن الآيه تقرر افتراض الطاعه من غير أى قيد أو شرط، و الجميع

و من هنا يظهر أن ليس لاولى الامر هؤلاء- كائنين من كانوا- أن يضعوا حكما جديدا، و لا أن ينسخوا حكما ثابتا فى الكتاب و السنه، و إلا لم يكن لوجوب ارجاع موارد التنازع الى الكتاب و السنه و الرد الى الله و الرسول معنى على ما يدل عليه قوله: **وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا** (الأحزاب ٣٦)، فقضاء الله هو التشريع و قضاء رسوله إما ذلك و إما الأعم، و إنما الذى لهم أن يروا رأيهم فى موارد نفوذ الولاية، و أن يكشفوا عن حكم الله و رسوله فى القضايا و الموضوعات العامه (١).

قوله تعالى: **فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ تَفْرِيعٌ عَلَى الْحَصْرِ الْمُسْتَفَادِ مِنَ الْمُرَادِ فَإِنْ قَوْلُهُ: أَطِيعُوا اللَّهَ، الْحَيْثُ أَوْجِبَ طَاعَهُ اللَّهُ وَ رَسُولَهُ، وَ هَذِهِ الطَّاعَةُ إِنَّمَا هِيَ فِي الْمَوَادِّ الدِّينِيَّةِ الَّتِي تَتَكَفَّلُ رَفْعُ كُلِّ اخْتِلَافٍ مَفْرُوضٍ، وَ كُلِّ حَاجَةٍ مُمْكِنَةٍ لَمْ يَبْقَ مُرَادٌ تَمَسُّ الْحَاجَةَ الرَّجُوعَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ، وَ كَانَ مَعْنَى الْكَلَامِ: أَطِيعُوا اللَّهَ، وَ لَا تَطِيعُوا الطَّاغُوتَ، وَ هُوَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْحَصْرِ.**

و توجه الخطاب الى المؤمنين كاشف عن أن المراد بالتنازع هو تنازعهم بينهم لا- تنازع مفروض بينهم و بين اولى الأمر، و لا تنازع مفروض بين اولى الأمر فإن الأول أعنى التنازع بينهم و بين اولى الأمر لا يلائم افتراض طاعه اولى الأمر عليهم، و كذا الثانى أعنى التنازع بين اولى الأمر فإن افتراض الطاعه لا يلائم التنازع الذى أحد طرفيه على الباطل، على أنه لا يناسب كون الخطاب متوجها الى المؤمنين فى قوله: **فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ .**

و لفظ الشيء و إن كان يعم كل حكم و أمر من الله و رسوله و اولى الأمر كائنا ما كان لكن

قوله بعد ذلك: فردوه الى الله و الرسول يدل على أن المفروض هو النزاع فى شىء ليس لأولى الأمر الاستقلال و الاستبداد فيه من أوامرهم فى دائره ولا يتهم كأمرهم بنفر أو حرب أو صلح أو غير ذلك، اذ لا معنى لإيجاب الرد الى الله و الرسول فى هذه الموارد مع فرض طاعتهم فيها.

فالآيه تدل على وجوب الرد فى نفس الأحكام الدينيه التى ليس لأحد أن يحكم فيها بإنفاذ أو نسخ إلا الله و رسوله، والآيه كالصريح فى أنه ليس لأحد أن يتصرف فى حكم دينى شرعه الله و رسوله، و اولو الأمر و من دونهم فى ذلك سواء.

□
و قوله: **إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ**، تشديد فى الحكم و إشاره الى أن مخالفته إنما تنتشى من فساد فى مرحله الإيمان فالحكم يرتبط به ارتباطاً فالمخالفه تكشف عن التظاهر بصفه الإيمان بالله و رسوله، و استبطان الكفر، و هو النفاق كما تدل على الآيات التاليه.

□
و قوله: **ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا** أى الرد عند التنازع أو إطاعه الله و رسوله و أولى الأمر، و التأويل هو المصلحه الواقعيه التى تنشأ منها الحكم ثم تترتب على العمل و قد تقدم البحث عن معناه فى ذيل قوله تعالى: **وَ ابْتَغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ** (آل عمران ٧) فى الجزء الثالث من الكتاب.

قوله تعالى: **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ** الى آخر الآيه؛ الزعم هو الاعتقاد بكذا سواء طابق الواقع أم لا، بخلاف العلم فإنه الاعتقاد المطابق للواقع، و لكون الزعم يستعمل فى الاعتقاد فى موارد لا يطابق الواقع ربما يظن أن عدم مطابقه الواقع مأخوذ فى مفهومه و ليس كذلك، و الطاغوت مصدر بمعنى الطغيان كالرهبوت و الجبروت و الملكوت غير أنه ربما يطلق و يراد به اسم الفاعل مبالغه يقال: طغى الماء اذا تعدى ظرفه لوفوره و كثرته، و كان استعماله فى الإنسان أولاً على نحو الاستعاره ثم ابتدل فلحق بالحقيقه و هو خروج الإنسان عن طوره الذى حده له العقل أو الشرع، فالطاغوت هو الظالم الجبار، و المتمرد عن وظائف عبوديه الله استعلاء عليه تعالى و هكذا، و إليه يعود ما

قيل: إن الطاغوت كل معبود من دون الله.

و قوله: **بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ**، بمنزله أن يقال: بما أنزل الله على رسله، ولم يقل:

آمنوا بك و بالذين من قبلك لأن الكلام فى وجوب الرد الى كتاب الله و حكمه و بذلك يظهر أن المراد بقوله «وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ» الأمر فى الكتب السماويه و الوحي النازل على الأنبياء:

محمد و من قبله صلى الله عليه و آله و عليهم.

و قوله: **أَلَمْ تَرَ، السخ؛ الكلام بمنزله دفع الدخل كأنه قيل: ما وجه ذكر قوله: أطيعوا الله و أطيعوا الرسول، السخ؟** فقيل: أ لم تر الى تخلفهم من الطاعه حيث يريدون التحاكم الى الطاغوت؟ و الاستفهام للتأسف و المعنى: من الأسف ما رأيت أن بعض الناس، و هم معتقدون أنهم مؤمنون بما أنزل إليك من الكتاب و الى سائر الأنبياء و الكتب السماويه إنما انزلت لتحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، و قد بينه الله تعالى لهم بقوله: **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفُوا فِيهِ (البقره ٢١٣/)** يتحاكمون عند التنازع الى الطاغوت و هم أهل الطغيان و المتمردون عن دين الله المتعدون على الحق، و قد امروا فى هذه الكتب أن يكفروا بالطاغوت، و كفى فى منع التحاكم إليهم أنه إلغاء لكتب الله و إبطال لشرائعه.

و فى قوله **وَ يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا**، دلالة على أن تحاكمهم إنما هو بإلقاء الشيطان و إغوائه، و الوجهه فيه الضلال البعيد.

قوله تعالى: **وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ تعالوا بحسب الأصل أمر من تعالى و هو الارتفاع، و صد عنه يصد صدودا أى أعرض، و قوله: **إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ**، بمنزله أن يقال: الى حكم الله و من يحكم به، و فى قوله: **يَصِيدُونَ عَنْكَ**، إنما خص الرسول بالإعراض مع أن الذى دعوا اليه هو الكتاب و الرسول معا لا الرسول وحده لأن الأسف إنما هو من فعل الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل الله فهم ليسوا بكافرين حتى**

يتجاهروا بالإعراض عن كتاب الله بل منافقون بالحقيقه يتظاهرون بالإيمان بما أنزل الله لكنهم يعرضون عن رسوله.

و من هنا يظهر أن الفرق بين الله و رسوله بتسليم حكم الله و التوقف في حكم الرسول نفاق البته.

قوله تعالى: فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ الْخ؛ إِيذَانٌ بِأَنَّ هَذَا الْإِعْرَاضَ وَالْإِنصِرَافَ عَنِ حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالْإِقْبَالَ إِلَى غَيْرِهِ وَهُوَ حُكْمُ الطَّاعُونَ سَيَعْقِبُ مُصِيبَهُ تَصْيِيهِمْ لَا سَبَبَ لَهَا إِلَّا هَذَا الْإِعْرَاضَ عَنِ حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالتَّحَاكُمَ إِلَى الطَّاعُونَ، وَقَوْلُهُ:

ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ اه، حكاية لمعذرتهم أنهم ما كانوا يريدون بركونهم الى حكم الطاغوت سوء، والمعنى -والله أعلم-: فإذا كان حالهم هذا الحال كيف صنعهم اذا أصابهم بفعالهم هذا وباله السيئ ثم جاءوك يخلفون بالله قائلين ما أردنا بالتحاكم الى غير الكتاب و الرسول إلا الإحسان و التوفيق و قطع المشاجره بين الخصوم؟

قوله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمُ الْخ؛ تكذيب لقولهم فيما اعتذروا به، و لم يذكر حال ما في قلوبهم، و أنه ضمير فاسد لدلاله قوله «فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَ عَظَّمَهُمْ» على ذلك اذ لو كان ما في قلوبهم غير فاسد كان قولهم صدقا و حقا و لا- يؤمر بالإعراض عن قول الحق و يصدق في قوله.

و قوله: وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا أَى قَوْلًا يَبْلُغُ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا تَرِيدُ أَنْ يَقِفُوا عَلَيْهِ وَ يَفْقَهُوا مِنْ مَفَاسِدِ هَذَا الصَّنِيعِ، وَ أَنَّهُ نِفَاقٌ لَوْ ظَهَرَ نَزَلَ بِهِمُ الْوَيْلُ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى.

قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ، رد مطلق لجميع ما تقدمت حكايته من هؤلاء المنافقين من التحاكم الى الطاغوت، و الإعراض عن الرسول، و الحلف و الاعتذار بالإحسان و التوفيق. فكل ذلك مخالفه للرسول بوجه سواء كانت مصاحبه لعذر يعتذر به أم لا، و قد أوجب الله طاعته من غير قيد و شرط فإنه لم يرسله إلا

ليطاع ياذن الله، و ليس لأحد أن يتخيل أن المتبع من الطاعة طاعه الله، وإنما الرسول بشر ممن خلق إنما يطاع لحيازه الصلاح فإذا أحرز صلاح من دون طاعته فلا- بأس بالاستبداد في إحرازه، وترك الرسول في جانب، وإلا كان إشراكا بالله، و عباده لرسوله معه، وربما كان يلوح ذلك في أمور يكلمون فيها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ يقول قائلهم له إذا عزم عليهم في مهمه: أ بأمر من الله أم منك؟

فذكر الله سبحانه أن وجوب طاعه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وجوب مطلق، و ليست إلا طاعه الله فإنها بإذنه نظير ما يفيد قوله تعالى: مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ الْآيَةَ (النساء ٨٠).

ثم ذكر أنهم لو رجعوا الى الله و رسوله بالتوبه حين ما خالفوا الرسول بالإعراض لكان خيرا لهم من أن يحلفوا بالله، و يلقوا أعدارا غير موجهه لا تنفع و لا ترضى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لأن الله سبحانه يخبره بحقيقه الأمر، و ذلك قوله: وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

قوله تعالى: فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ الْخ؛ الشجر- بسكون الجيم- و الشجور: الاختلاط يقال: شجر شجرا و شجورا أى اختلط، و منه التشاجر و المشاجره كأن الدعوى أو الأقوال اختلط بعضها مع بعض، و منه قيل للشجر: شجر لا اختلاط غصونها بعضها مع بعض، و الحرج الضيق.

و ظاهر السياق في بدء النظر أنه رد لزعم المنافقين أنهم آمنوا بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ مع تحاكمهم الى الطاغوت فالمعنى: فليس كما يزعمون أنهم يؤمنون مع تحاكمهم الى الطاغوت بل لا يؤمنون حتى يحكموك، الخ.

لكن شمول حكم الغايه أعنى قوله: حَتَّى يُحَكِّمُوكَ، الخ؛ لغير المنافقين، و كذا قوله بعد ذلك «وَ لَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ» الى قوله «مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ» يؤيد أن الرد لا- يختص بالمنافقين بل يعمهم و غيرهم من جهة أن ظاهر حالهم أنهم يزعمون أن مجرد تصديق ما انزل

من عند الله بما يتضمنه من المعارف والأحكام إيمان بالله ورسوله وبما جاء به من عند ربه حقيقه، وليس كذلك بل الإيمان تسليم تام باطنا وظاهرا فكيف يتأتى لمؤمن حقا أن لا يسلم للرسول حكما في الظاهر بأن يعرض عنه ويخالفه، أو في باطن نفسه بأن يتحرج عن حكم الرسول اذا خالف هوى نفسه، وقد قال الله تعالى لرسوله: لَتَتَّحَكَمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ (النساء ١٠٥).

فلو تحرج متحرج بما قضى به النبي صلى الله عليه وآله وسلم فمن حكم الله تحرج لأنه الذي شرفه بافتراض الطاعة و نفوذ الحكم.

و اذا كانوا سلموا حكم الرسول، ولم يتحرج قلوبهم منه كانوا مسلمين لحكم الله قطعا سواء في ذلك حكمه التشريعي و التكويني، وهذا موقف من مواقف الإيمان يتلبس فيه المؤمن بعده من صفات الفضيله أوضحتها: التسليم لأمر الله، و يسقط فيه التحرج و الاعتراض و الرد من لسان المؤمن و قلبه، و قد أطلق في الآيه التسليم إطلاقا.

و من هنا يظهر أن قوله: فَلَا وَ رَبِّكَ، الى آخر الآيه، و إن كان مقصورا على التسليم لحكم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بحسب اللفظ لأن مورد الآيات هو تحاكمهم الى غير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع وجوب رجوعهم إليه إلا أن المعنى عام لحكم الله و رسوله جميعا، و لحكم التشريع و التكوين جميعا كما عرفت.

بل المعنى يعم الحكم بمعنى قضاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و كل سيره سار بها أو عمل عمل به لأن الأثر مشترك فكل ما ينسب بوجه الى الله و رسوله بأى نحو كان لا- يتأتى لمؤمن بالله حق إيمانه أن يردده أو يعترض عليه أو يمله أو يسوأه بوجه من وجوه المساءه فكل ذلك شرك على مراتبه، و قد قال تعالى: وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (يوسف ١٠٦).

قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ - الى قوله - مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ قد تقدم في قوله: وَ لَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (آيه ٤٦ من السوره)، ان

هذا التركيب يدل على أن الحكم للهيئة الاجتماعية من الأفراد و هو المجتمع، و أن الاستثناء لدفع توهم استغراق الحكم و استيعابه لجميع الأفراد، و لذلك كان هذا الاستثناء أشبه بالمنفصل منه بالمتصل أو هو برزخ بين الاستثناءين: المتصل و المنفصل لكونه ذا جنبتين.

على هذا فقوله «مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ» و ارد مورد الإخبار عن حال الجملة المجتمعه أنهم لا- يمثلون الأحكام و التكاليف الحرجيه الشاقه التي تماس ما يتعلق به قلوبهم تعلق الحب الشديد كنفسهم و ديارهم، و استثناء القليل لدفع التوهم.

فالمعنى: وَ لَوْ أَنَا كَتَبْنَا أَى فرضنا عليهم قتل أنفسهم و الخروج من ديارهم و أوطانهم المألوفه لهم ما فعلوه أى لم يمثلوا أمرنا، ثم لما استشعر أن قوله: «مَا فَعَلُوهُ يُوهِمُ أَنْ لَيْسَ فِيهِمْ مَنْ هُوَ مُؤْمِنٌ حَقًّا مُسْلِمٌ لِحُكْمِ اللَّهِ حَقِيقَةً دَفَعَ ذَلِكَ بَاسْتِثْنَاءِ الْقَلِيلِ مِنْهُمْ، وَ لَمْ يَكُنْ يَشْمَلُهُ الْحُكْمُ حَقِيقَةً لِأَنَّ الْإِخْبَارَ عَنِ حَالِ الْمَجْتَمَعِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مَجْتَمِعٌ وَ لَمْ تَكُنِ الْأَفْرَادُ دَاخِلَةً فِيهِ إِلَّا بِتَبَعِ الْجُمْلَةِ.

و من هنا يظهر أن المراد قتل الجملة الجملة و خروج الجملة و جلاؤهم من جملته ديارهم كالبلده و القرية دون قتل كل واحد نفسه، و خروجه من داره كما فى قوله تعالى: فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ (البقره ٥٤)، فإن المقصود بالخطاب هو الجماعه دون الأفراد.

قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا فى تبديل الكتابه فى قوله: وَ لَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ، بالوعظ فى قوله: «مَا يُوعَظُونَ بِهِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّ هَذِهِ الْأَحْكَامَ الظَاهِرَةَ فِي صُورَةِ الْأَمْرِ وَ الْفَرْضِ لَيْسَتْ إِلَّا- إِشَارَاتٌ إِلَىٰ مَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ وَ سَعَادَتُهُمْ فَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ مَوَاعِظٌ وَ نَصَائِحٌ يَرَادُ بِهَا خَيْرُهُمْ وَ صَلَاحُهُمْ.

و قوله: لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ أَى فى جميع ما يتعلق بهم من اولاهم و اخراهم، و ذلك أن خير الآخرة لا- ينفك من خير الدنيا بل يستتبعه، و قوله «وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا» أَى لنفوسهم و قلوبهم بالإيمان لأن الكلام فيه، قال تعالى: يُبَيِّنُ اللَّهُ لِّلَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ الْآيَةَ

قوله تعالى: وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا أَي حِينَ تَثَبَتُوا بِالْإِيمَانِ الثَّابِتِ؛ وَ الْكَلَامِ فِي إِبْهَامِ قَوْلِهِ «أَجْرًا عَظِيمًا» كَالْكَلَامِ فِي إِطْلَاقِ قَوْلِهِ «لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ».

قوله تعالى: وَ لَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا قَدْ مَضَى الْكَلَامُ فِي مَعْنَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي ذِيلِ قَوْلِهِ: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (الحمد ٦)، فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنَ الْكِتَابِ.

قوله تعالى: وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ - إِلَى قَوْلِهِ - وَ حَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا جَمَعَ بَيْنَ اللَّهِ وَ الرَّسُولِ فِي هَذَا الْوَعْدِ الْحَسَنِ مَعَ كَوْنِ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ مُتَعَرِّضَةً لِإِطَاعَةِ الرَّسُولِ وَ التَّسْلِيمِ لِحُكْمِهِ وَ قَضَائِهِ، لِتَخْلُلَ ذِكْرَهُ تَعَالَى بَيْنَهُمَا فِي قَوْلِهِ: وَ لَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ الْخِطَابَ؛ فَالطَّاعَةِ الْمَفْتَرَضَةَ طَاعَتَهُ تَعَالَى وَ طَاعَةَ رَسُولِهِ، وَ قَدْ بَدَأَ الْكَلَامَ عَلَى هَذَا النِّحْوِ فِي قَوْلِهِ: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ، الْآيَةَ.

وَ قَوْلِهِ: فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، يَدُلُّ عَلَى اللَّحُوقِ دُونَ الصِّيُورِ فَهَؤُلَاءِ مُلْحَقُونَ بِجَمَاعَةِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ، وَ هُمْ أَصْحَابُ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي لَمْ يَنْسَبْ فِي كَلَامِهِ تَعَالَى إِلَى غَيْرِهِ إِلَّا إِلَى هَذِهِ الْجَمَاعَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ (الحمد ٧)، وَ بِالْجُمْلَةِ فَهَمُ مُلْحَقُونَ بِهِمْ غَيْرُ صَائِرِينَ مِنْهُمْ كَمَا لَا يَخْلُو قَوْلُهُ «وَ حَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا» مِنْ تَلْوِيحِ إِلَيْهِ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ هِيَ الْوَلَايَةُ.

وَ أَمَّا هَؤُلَاءِ الطَّوَائِفِ الْأَرْبَعِ أَعْنَى النَّبِيِّينَ وَ الصَّادِقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ فَالنَّبِيُّونَ هُمُ أَصْحَابُ الْوَحْيِ الَّذِينَ عِنْدَهُمْ نُبَأُ الْغَيْبِ، وَ لَا خَبْرَهُ لَنَا مِنْ حَالِهِمْ بِأَزِيدٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ حَيْثُ الْآثَارُ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالشُّهَدَاءِ شُهَدَاءُ الْأَعْمَالِ فِيمَا يُطْلَقُ مِنْ لَفْظِ الشَّهِيدِ فِي الْقُرْآنِ دُونَ الْمُسْتَشْهِدِينَ فِي مَعْرَكَةِ الْقِتَالِ، وَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالصَّالِحِينَ هُمُ أَهْلُ الْبَلِيَاةِ بِنِعْمِ اللَّهِ.

و أما الصديقون فالذى يدل عليه لفظه هو أنه مبالغه من الصدق، و من الصدق ما هو فى القول، و منه ما هو فى الفعل، و صدق الفعل هو مطابقته للقول لأنه حاك عن الاعتقاد فاذا صدق فى حكايته كان حاكيا لما فى الضمير من غير تخلف، و صدق القول طابقتة لما فى الواقع، و حيث كان القول نفسه من الفعل بوجه كان الصادق فى فعله لا يخبر إلا عما يعلم صدقه و أنه حق، ففى قوله الصدق الخبرى و المخبرى جميعا.

فالصديق الذى لا يكذب أصلا هو الذى لا يفعل إلا ما يراه حقا من غير اتباع لهوى النفس، و لا يقول إلا ما يرى أنه حق، و لا يرى شيئا إلا ما هو حق فهو يشاهد حقائق الأشياء، و يقول الحق، و يفعل الحق.

و على ذلك فيترتب المراتب فالنيبون و هم الساده، ثم الصديقون و هم شهداء الحقائق و الأعمال، و الشهداء و هم شهداء الأعمال، و الصالحون و هم المتهيبون للكرامه الإلهيه.

و قوله تعالى: وَ حَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا أى من حيث الرفاقه فهو تمييز، قيل: و لذلك لم يجمع، و قيل: المعنى: حسن كل واحد منهم رفيقا، و هو حال نظير قوله: ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا (الحج ٥).

قوله تعالى: ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا «ذَلِكَ» و إتيانه بصيغه الإشاره الداله على البعيد و دخول اللام فى الخبر يدل على تفخيم أمر هذا الفضل كأنه كل الفضل، و ختم الآيه بالعلم لكون الكلام فى درجات الإيمان التى لا سبيل الى تشخيصها إلا العلم الإلهي.

و اعلم أن فى هذه الآيات الشريفه موارد عديده من الالتفات الكلامي متشابك بعضها مع بعض فقد أخذ المؤمنون فى صدر الآيات مخاطبين ثم فى قوله «وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ» كما مر غائبين، و كذلك أخذ تعالى نفسه فى مقام الغيبه فى صدر الآيات فى قوله: أَطِيعُوا اللَّهَ، الآيه؛ ثم

في مقام المتكلم مع الغير في قوله: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ، الآية؛ ثم الغيبة في قوله: يَا ذَنْ لِّلَّهِ، الآية؛ ثم المتكلم مع الغير في قوله: وَ لَوْ أَنَا كَتَبْنَا، الآية؛ ثم الغيبة في قوله: وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ، الآية.

و كذلك الرسول اخذ غائبا في صدر الآيات في قوله: وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ، الآية، ثم مخاطبا في قوله: ذَلِكَ خَيْرٌ، الآية؛ ثم غائبا في قوله: وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ الرَّسُولُ، الآية؛ ثم مخاطبا في قوله: فَلَا وَ رَبِّكَ، الآية؛ ثم غائبا في قوله: وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ، الآية؛ ثم مخاطبا في قوله: وَ حَسُنَ أُولَئِكَ، الآية، فهذه عشر موارد من الالتفات الكلامي و النكات المختصة بكل مورد مورد ظاهره للمتدبر (١).

[سورة النساء (٤): الآيات ٧١ الى ٧٦]

إشارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا بِلِبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَ مَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَ مَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ وَ الْوِلْدَانَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَ اجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَ اجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)

ص: ٧١٤

١ - ١). النساء ٥٩-٧٠: بحث روائي في: اولى الامر؛ اولو الامر هم على عليه السلام و الائمة المعصومون عليهم السلام مرافقه المؤمنين مع النبيين في الجنة.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثَبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا بالحذر بالكسر فالسكون ما يحذر به و هو آله الحذر كالسلاح، و ربما قيل: إنه مصدر كالحذر بفتححتين، و النفر هو السير الى جهة مقصوده، و أصله الفزع، فالنفر من محل السير فزع عنه و الى محل السير فزع إليه، و الثبات جمع ثبه، و هى الجماعه على تفرقه، فالثبات الجماعه بعد الجماعه بحيث تتفصل ثانيه عن اولى، و ثالثه عن ثانيه، و يؤيد ذلك مقابله قوله «فَانفِرُوا ثَبَاتٍ» قوله «أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا» .

و التفریع فى قوله: فَانفِرُوا ثَبَاتٍ، على قوله: خُذُوا حِذْرَكُمْ، بظاهره يؤيد كون المراد بالحذر ما به الحذر على أن يكون كناية عن التهيؤ التام للخروج الى الجهاد و يكون المعنى:

خذوا أسلحتكم أى أعدوا للخروج و اخرجوا الى عدوكم فرقه فرقه (سرايا) أو اخرجوا إليهم جميعا(عسكرا).

و من المعلوم أن التهيؤ و الإعداد يختلف باختلاف عدو العدو و قوته فالترديد فى قوله: أَوْ

انْفِرُوا، ليس تخييرا فى كيفية الخروج و إنما الترديد بحسب تردد العدو من حيث العده و القوه أى اذا كان عددهم قليلا فثبه، و إن كان كثيرا فجميعا.

فيؤول المعنى- و خاصه ملاحظه الآيه التاليه: و إن منكم لبطئن- الى نهيههم عن أن يضعوا أسلحتهم، و ينسلخوا عن الجدد و بذل الجهد فى أمر الجهاد فيموت عزمهم و يفتقد نشاطهم فى إقامه أعلام الحق، و يتكاسلوا أو يتبطئوا أو يتشبثوا فى قتال أعداء الله، و تطهير الأرض من قذارتهم.

قوله تعالى: وَ إِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْطِئَنَّ، قيل: إن اللام الاولى لام الابتداء لدخولها على اسم إن، و اللام الثانيه لام القسم لدخولها على الخبر و هى جمله فعليه مؤكده بنون التأكيد الثقيله، و التبطئه و الإبطاء بمعنى، و هو التأخير فى العمل.

و قوله «وَ إِنَّ مِنْكُمْ» يدل على أن هؤلاء من المؤمنين المخاطبين فى صدر الآيه بقوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، على ما هو ظاهر كلمه «مِنْكُمْ» كما يدل عليه ما سيأتى من قوله: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ، فإن الظاهر أن هؤلاء أيضا كانوا من المؤمنين، مع قوله تعالى بعد ذلك:

فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس، و قوله: وَ إِنَّ تَصَّ بِهِمْ حَسْبَهُ، الخ؛ و كذا قوله: فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ، و قوله: وَ مَا لَكُمْ لَّا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، و قوله: الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كل ذلك تحريص و استنهاض للمؤمنين و فيهم هؤلاء المبطئون على ما يلوح إليه اتصال الآيات.

على أنه ليس فى الآيات ما يدل بظاهره على أن هؤلاء المبطئين من المنافقين الذين لم يؤمنوا إلا بظاهر من القول، مع أن فى بعض ما حكى الله عنهم دلالة ما على إيمانهم فى الجملة كقوله تعالى: فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا، و قوله تعالى: رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ، الخ.

قوله تعالى: فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ أَى من قتل أو جرح «قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ

لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا» حتى ابتلى بمثل ما ابتلى به المؤمنون.

قوله تعالى: **وَ لَئِنْ أَصَابَكُمْ فُضْلٌ مِّنَ اللَّهِ مِن قَبِيلٍ غَنِمَهُ الْحَرْبُ وَ نَحْوَهَا، وَ الْفَضْلُ هُوَ الْمَالُ وَ مَا يَمِثَلُهُ، وَ قَوْلُهُ: لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ ،** تشبيهه و تمثيل لحالهم فإنهم مؤمنون، و المسلمون يد واحده يربط بعضهم ببعض أقوى الروابط، و هو الإيمان بالله و آياته الذى يحكم على جميع الروابط الأخر من نسب أو ولايه أو بيعه أو موده لكنهم لضعف إيمانهم لا- يرون لأنفسهم أذى ربط يربطهم بالمؤمنين فيتمنون الكون معهم و الحضور فى جهادهم كما يتمنى الأجنبى فضلا ناله أجنبى فيقول أحدهم: يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما، و من علائم ضعف إيمانهم إكبارهم أمر هذه الغنائم، و عددهم حيازه الفضل و المال فوزا عظيما، و كل مصيبه أصابت المؤمنين فى سبيل الله من قتل أو جرح أو تعب نقمه.

قوله تعالى: **فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ قَالِ فِي الْمَجْمَعِ: يَقَالُ شَرَيْتُ أَى بَعْتُ، وَ اشْتَرَيْتُ أَى ابْتَعْتُ،** فالمراد بقوله يشرون الحياه الدنيا بالآخره أى يبيعون حياتهم الدنيا و يبدلونها الآخره.

و الآيه تفريع على ما تقدم من الحث على الجهاد، و ذم من يبطئ فى الخروج إليه ففيها تجديد للحث على القتال فى سبيل الله بتذكير أن هؤلاء جميعا مؤمنون، قد شروا بإسلامهم لله تعالى الحياه الدنيا بالآخره كما قال: **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ (التوبه ١١١/)**، ثم صرح على فائده القتال الحسنه و أنها الأجر العظيم على أى حال بقوله: **وَ مَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، الْخ.**

فبين أن أمر المقاتل فى سبيل الله ينتهى الى إحدى عاقبتين محمودتين: أن يقتل فى سبيل الله، أو يغلب عدو الله، و له على أى حال أجر عظيم، و لم يذكر ثالث الاحتمالين - هو الانهزام - تلويحا الى أن المقاتل فى سبيل الله لا ينهزم.

و قدم القتل على الغلبه لأن ثوابه أجزل و أثبت فإن المقاتل الغالب على عدو الله و إن كان يكتب له الأجر العظيم إلا أنه على خطر الحبط باقتراف بعض الأعمال الموجبه لحبط الأعمال الصالحه، و استتباع السيئه بعد الحسنه بخلاف القتل اذ لا حياه بعده إلا حياه الآخره فالمقتول فى سبيل الله يستوفى أجره العظيم حتما، و أما الغالب فى سبيل الله فأمره مراعى فى استيفاء أجره.

قوله تعالى: **وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ الْخ**؛ عطف على موضع لفظ الجلاله، و الآيه تشتمل على حث و تحريض آخر على القتال فى لفظ الاستفهام بتذكير أن قتالكم قتال فى سبيل الله سبحانه، و هو الذى لا بغيه لكم فى حياتكم السعيده إلا رضوانه، و لا سعادته أسعد من قربه، و فى سبيل المستضعفين من رجالكم و نساءكم و ولدانكم.

و هؤلاء المستضعفون الذين هم أبعاضهم و أفلاذهم مؤمنون بالله سبحانه بدليل قوله:

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا، الْخ؛ و هم مع ذلك مذللون معذبون يستصرخون و يستغيثون بقولهم: ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، و قد أطلق الظلم، و لم يقل: الظالم أهلها على أنفسهم، و فيه إشعار بأنهم كانوا يظلمونهم بأنواع التعذيب و الإيذاء و كذلك كان الأمر.

و قد عبر عن استغاثتهم و استنصارهم بأجمل لفظ و أحسن عباره فلم يحك عنهم أنهم يقولون: يا للرجال، يا للسراه، يا قوماه، يا عشيرتاه بل حكى أنهم يدعون ربهم و يستغيثون بمولاهم الحق فيقولون: ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ثم يشيرون الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم و الى من معه من المؤمنين المجاهدين بقولهم: و اجعل لنا من لدنك وليا و اجعل لنا من لدنك نصيرا، فهم يتمنون وليا، و يتمنون نصيرا لكن لا يرضون دون أن يسألوا ربهم الولي و النصير (1).

ص: ٧١٨

قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ -الى قوله- الطَّاغُوتِ مَقَائِسُهُ بَيْنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ جِهَةٍ وَصَفِ قَاتِلِهِمْ، وَبِعِبَارِهِ أُخْرَى مِنْ جِهَةٍ نَبِهَ كُلَّ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ فِي قِتَالِهِمْ لِيَعْلَمَ بِذَلِكَ شَرَفَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْكُفَّارِ فِي طَرِيقَتِهِمْ وَ أَنَّ سَبِيلَ الْمُؤْمِنِينَ يَنْتَهِي إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَيَعْتَمِدُ عَلَيْهِ بِخِلَافِ سَبِيلِ الْكُفَّارِ لِيَكُونَ ذَلِكَ مُحْرَضًا آخِرًا لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِهِمْ.

قوله تعالى: فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ قَوَّعَهُمْ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ خَارِجُونَ عَنْ وِلَايَةِ اللَّهِ فَلَا مَوْلَى لَهُمْ إِلَّا وَلَى الشِّرْكِ وَ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَ هُوَ الشَّيْطَانُ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ، وَ هُمْ أَوْلِيَائِهِ.

وَ إِنَّمَا اسْتَضَعَفَ كَيْدَ الشَّيْطَانِ لِأَنَّهُ سَبِيلَ الطَّاغُوتِ الَّذِي يَقَابِلُ سَبِيلَ اللَّهِ، وَ الْقُوَّةُ لِلَّهِ جَمِيعًا فَلَا يَبْقَى لِسَبِيلِ الطَّاغُوتِ الَّذِي هُوَ مَكِيدُ الشَّيْطَانِ إِلَّا الضَّعْفُ، وَ لِذَلِكَ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ بَيَانَ ضَعْفِ سَبِيلِهِمْ، وَ شَجَعَهُمْ عَلَى قِتَالِهِمْ، وَ لَا يَنَافِي ضَعْفَ كَيْدِ الشَّيْطَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ قُوَّتَهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ، وَ هُوَ ظَاهِرٌ.

[سورة النساء (٤): الآيات ٧٧ الى ٨٠]

إشارة

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظَلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصَبِّهُمُ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ فَمَا لَهُؤَلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠)

ص: ٧١٩

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ -الى قوله- أَوْ أَشَدَّ حَشِيَّةً كَفَّ الأيدي كناية عن الإمساك عن القتال لكون القتل الذى يقع فيه من عمل الأيدي، وهذا الكلام يدل على أن المؤمنين كانوا فى ابتداء أمرهم يشقّ عليهم ما يشاهدونه من تعدى الكفار و بغيهم عليهم فيصعب عليهم أن يصبروا على ذلك و لا- يقابله بسلّ السيوف فأمرهم الله بالكفّ عن ذلك، و إقامة شعائر الدين من صلاه و زكاه ليشند عظم الدين و يقوم صلبه فيأذن الله لهم فى جهاد أعدائه، و لو لا ذلك لانفسخ هيكل الدين، و انهدمت أركانه، و تلاشت أجزاءه.

ففى الآيات لومهم على أنهم هم الذين كانوا يستعجلون فى قتال الكفار، و لا يصبرون على الإمساك و تحمّل الأذى حين لم يكن لهم من العده و القوه ما يكفيهم للقاء عدوّهم فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون العدو و هم ناس مثلهم كخشية الله أو أشد خشية.

قوله تعالى: وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ الخ؛ ظاهره أنه عطف على قوله «إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ» الخ؛ و خاصه بالنظر الى تغيير السياق من الفعل المضارع (يخشون الناس) الى الماضى (قالوا) فالقائل بهذا القول هم الذين كانوا يتوقون للقتال، و يستصعبون الصبر

فامروا بكف أيديهم.

و من الجائر أن يكون قولهم «رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْ لَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ» محكياً عن لسان حالهم كما أن من الجائر أن يكونوا قائلين ذلك بلسانهم الظاهر فان القرآن يستعمل من هذا العنايات كل نوع.

و توصيف الأجل الذى هو أجل الموت حتف الأنف بالقرب ليس المراد به أن يسألوا التخلص عن القتل، و العيش زمانا يسيرا بل ذلك تلويح منهم بأنهم لو عاشوا من غير قتل حتى يموتوا حتف أنفسهم لم يكن ذلك إلا عيشا يسيرا و أجلا قريبا فما لله- سبحانه- لا- يرضى لهم أن يعيشوا هذه العيشه اليسيره حتى يتلهم بالقتل، و يعجل لهم الموت؟ و هذا الكلام صادر منهم لتعلق نفوسهم بهذه الحياه الدنيا التى هى فى تعليم القرآن متاع قليل يتمتع به ثم ينقضى سريعا و يعفى أثره، و دونه الحياه الآخره التى هى الحياه الباقيه الحقيقه فهى خير، و لذلك أجيب عنهم بقوله «قُلْ»؛ الخ.

قوله تعالى: قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ الخ؛ أمر للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يجيب هؤلاء الضعفاء بما يوضح لهم خطأ رأيهم فى ترجيح العيش الدنيوى اليسير على كرامه الجهاد و القتل فى سبيل الله تعالى، و محصله أنهم ينبغى أن يكونوا متقين فى إيمانهم، و الحياه الدنيا هى متاع يتمتع به قليل اذا قيس الى الآخره، و الآخره خير لمن اتقى فينبغى لهم أن يختاروا الآخره التى هى خير على متاع الدنيا القليل لأنهم مؤمنون و على صراط التقوى، و لا- يبقى لهم إلا- أن يخافوا أن يحيف الله عليهم و يظلمهم فيختاروا لذلك ما بأيديهم من المتاع على ما يوعدون من الخير، و ليس لهم ذلك فإن الله لا يظلمهم فتىلا.

و قد ظهر بهذا البيان أن قوله «لِمَنِ اتَّقَىٰ» من قبيل وضع الصفه موضع الموصوف للدلاله على سبب الحكم، و دعوى انطباقه على المورد، و التقدير- و الله أعلم-: و الآخره خير لكم لأنكم ينبغى أن تكونوا لإيمانكم أهل تقوى، و التقوى سبب للفوز بخير الآخره فقوله «لِمَنِ

و الذله و المسكنه و الفتنه كل ذلك يعود الى الإنسان لا إليه سبحانه فالآيه قريبه مضمونا من قوله تعالى: ذَلِكُمْ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكَمْغَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعْزِرُوا مَا بَأْنَفْسِهِمْ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (الأنفال ٥٣/٥٣)، و لا ينافى ذلك رجوع جميع الحسنات و السيئات بنظر كلي آخر إليه تعالى كما سيجيء بيانه.

قوله تعالى: وَ أَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا أَيْ لَا سَمَهُ لَكَ مِنْ عِنْدِنَا إِلَّا أَنْكَ رَسُولٌ وَظِفْتِكَ الْبَلَاغُ، وَ شَأْنُكَ الرَّسَالَهُ لَا شَأْنَ لَكَ سِوَاهَا وَ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ حَتَّى تُؤْثِرَ فِي مَيْمَنِهِ أَوْ مَشَأْمِهِ، أَوْ تُجْرَى إِلَى النَّاسِ السَّيِّئَاتِ، وَ تُدْفَعُ عَنْهُمْ الْحَسَنَاتِ، وَ فِيهِ رَدٌ تَعْمِيضِي لِقَوْلِهِ أَوْلَئِكَ الْمُتَطَيِّرِينَ فِي السَّيِّئَاتِ «هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ» تَشْوُماً بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ثُمَّ أَيْدِ ذَلِكُمْ بِقَوْلِهِ «وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا» .

قوله تعالى: مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، استئناف فيه تأكيد و تثبيت لقوله في الآيه السابقه «وَ أَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا»، و بمنزله التعليل كحلّمه أَيْ مَا أَنْتَ إِلَّا رَسُولًا مِمَّنْ مِنْ يَطْعُكَ بِمَا أَنْتَ رَسُولٌ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَ مِنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا.

و من هنا يظهر أن قوله «مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ»، من قبيل وضع الصفه موضع الموصوف للإشعار بعلة الحكم نظير ما تقدم في قوله: وَ الْآخِرَهُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَ لَا تُظَلِّمُونَ فَتِيلاً وَ عَلَى هَذَا فَالسياق جار على استقامه من غير التفات من الخطاب في قوله «وَ أَرْسَلْنَاكَ» ، الى الغيبه في قوله «مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ»، ثم الى الخطاب في قوله «فَمَا أَرْسَلْنَاكَ» (١)(٢).

ص: ٧٢٤

١- ١). النساء: ٧٧-٨٠. كلام في استناد الحسنات و السيئات اليه تعالى.

٢- ٢). النساء: ٧٧-٨٠ بحث روائي في: في جماعه من المنافقين لم يحضروا الجهاد؛ ابتلاء المؤمن في الدنيا و مكافأته في الآخرة؛ حبّ على عليه السلام.

إشاره

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبْتَغُونَ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١) أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣) فَفَاتِنًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا (٨٤)

بيان:

قوله تعالى: وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ الخ؛ «طَاعَةٌ» مرفوع على الخبرية على ما قيل، و التقدير: أمرنا طاعه أى نطيعك طاعه، و البروز الظهور و الخروج، و التبيت من البيت، و معناه إحكام الأمر و تدبيره ليلا، و الضمير فى «تَقُولُ» راجع الى «طَائِفَةٌ» أو الى النبي صلى الله عليه و آله و سلم.

و المعنى -و الله أعلم-: و يقول هؤلاء مجيبين لك فيما تدعوهم إليه من الجهاد: أمرنا طاعه،

فاذا أخرجوا من عندك دبروا ليلاً أمراً غير ما أجابوك به و قالوا لك، أو غير ما قلته أنت لهم، و هو كناية عن عقدهم النيه على مخالفه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ.

ثم أمر الله رسوله بالأعراض عنهم و التوكل فى الامر و العزيمه فقال «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً» و لا دليل فى الآيه على كون المحكى عنهم هم المنافقين كما ذكره بعضهم بل الأمر بالنظر الى اتصال السياق على خلاف ذلك.

قوله تعالى: أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ الْآيَةَ؛ تحضيض فى صورته الاستفهام. التدبر هو أخذ الشيء بعد الشيء، و هو فى مورد الآيه التأمل فى الآيه عقيب الآيه أو التأمل بعد التأمل فى الآيه لكن لما كان الغرض بيان أن القرآن لا اختلاف فيه، و ذلك إنما يكون بين أزيد من آيه واحده كان المعنى الاول أعنى التأمل فى الآيه هو العمده و إن كان ذلك لا ينفى المعنى الثانى أيضاً.

فالمراد ترغيبهم أن يتدبروا فى الآيات القرآنيه، و يراجعوا فى كل حكم نازل أو حكمه مبينه أو قصه أو عظه أو غير ذلك جميع الآيات المرتبطه به مما نزلت مكيتها و مدنيته، و محكمها و متشابهها، و يضموا البعض الى البعض حتى يظهر لهم أنه لا اختلاف بينها، فالآيات يصدق قديمها حديثها، و يشهد بعضها على بعض من غير أن يكون بينها أى اختلاف مفروض: لا اختلاف التناقض بأن ينفى بعضها بعضاً أو يتدافعا، و لا- اختلاف التفاوت بأن يتفاوت الآيتان من حيث تشابه البيان أو متانته المعانى و المقاصد بكون البعض أحكم بنيانا و أشد ركنا من بعض كتابا متشابهها مثانى تقشعر منه الجلود. فارتفاع هذه الاختلافات من القرآن يهديهم الى أنه كتاب منزل من الله، و ليس من عند غيره اذ لو كان من عند غيره لم يسلم من كثره الاختلاف، و ذلك أن غيره تعالى من هذه الموجودات الكونيه- و لا- سيما الإنسان الذى يرتاب أهل الريب أنه من كلامه- كلها موضوعه بحسب الكينونه الوجوديه و طبيعه الكون على التحرك و التغير و التكامل فما من واحد منها إلا أن امتداد زمان وجوده مختلف

ما من إنسان إلا و هو يرى كل يوم أنه أعقل من أمس، و أن ما ينشئه من عمل أو صنعه أو ما أشبه ذلك أو يدبره من رأى أو نظر أو نحوهما أخيرا أحكم و أمتن مما أتى به أولا حتى العمل الواحد الذى فيه شىء من الامتداد الوجودى كالكتاب يكتبه الكاتب، و الشعر يقوله الشاعر، و الخطبه يخطبها الخطيب، و هكذا يوجد عند الإمعان آخره خيرا من أوله، و بعضه أفضل من بعض.

فالواحد من الإنسان لا يسلم فى نفسه و ما يأتى به من العمل من الاختلاف، و ليس هو بالواحد و الاثنين من التفاوت و التناقض بل الاختلاف الكثير، و هذا ناموس كلى جار فى الانسان و ما دونه من الكائنات الواقعه تحت سيطره التحول و التكامل العامين لا ترى واحدا من هذه الموجودات يبقى آنين متوالين على حال واحد بل لا يزال يختلف ذاته و أحواله.

و من هنا يظهر وجه التقييد بالكثير فى قوله «اِخْتِلَافًا كَثِيرًا» فالوصف وصف توضيحي لا احترازي، و المعنى: لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا، و كان ذلك الاختلاف كثيرا على حد الاختلاف الكثير الذى فى كل ما هو من عند غير الله، و ليس المعنى أن المرفوع من القرآن هو الاختلاف الكثير دون اليسير.

و بالجملة لا يلبث المتدبرون أن يشاهد أن القرآن كتاب يداخل جميع الشئون المرتبطه بالانسانيه من معارف المبدأ و المعاد و الخلق و الإيجاد، ثم الفضائل العامه الإنسانيه، ثم القوانين الاجتماعيه و الفرديه الحاكمه فى النوع حكومه لا يشذ منها دقيق و لا جليل، ثم القصص و العبر و المواعظ بيان دعا الى مثلها أهل الدنيا، و آيات نازله نجوما فى مده تعدل ثلاثا و عشرين سنه على اختلاف الأحوال من ليل و نهار، و من حضر و سفر، و من حرب و سلم، و من ضراء و سراء، و من شده و رخاء، فلم يختلف حاله فى بلاغته الخارقه المعجزه، و لا فى معارفه العاليه و حكمه الساميه، و لا فى قوانيئه الاجتماعيه و الفرديه، بل ينعطف آخره الى ما قر عليه أوله،

و ترجع تفاصيله و فروعها الى ما ثبت فيه أعراقه و أصوله، يعود تفاصيل شرائعه و حكمه بالتحليل إلى حاق التوحيد الخالص و ينقلب توحيده الخالص بالتركيب الى أعيان ما أفاده من التفاصيل، هذا شأن القرآن.

و الإنسان المتدبر فيه هذا التدبر يقضى بشعوره الحى، و قضائه الجبلى أن المتكلم بهذا الكلام ليس ممن يحكم فيه مرور الأيام و التحوّل و التكامل العاملان فى الأكوان بل هو الله الواحد القهار.

و قد تبين من الآيه (أولاً): أن القرآن مما يناله الفهم العادى. و (ثانياً): أن الآيات القرآنيه يفسر بعضها بعضاً. و (ثالثاً): أن القرآن كتاب لا يقبل نسخاً و لا إبطالاً و لا تكميلاً و لا تهذيباً، و لا أى حاكم يحكم عليه أبداً، و ذلك أن ما يقبل شيئاً منها لا مناص من كونه يقبل نوعاً من التحوّل و التغيير بالضروره، و إذا كان القرآن لا يقبل الاختلاف فليس يقبل التحول و التغيير فليس يقبل نسخاً و لا إبطالاً و لا غير ذلك، و لازم ذلك أن الشريعه الإسلاميه مستمره الى يوم القيامه.

قوله تعالى: **وَ إِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ الْإِذَاعَةَ** هى النشر و الإشاعه، و فى الآيه نوع ذمّ و تعبير لهم فى شأن هذه الإذاعه، و فى قوله فى ذيل الآيه «**وَلَوْ لَا فَضَّلُ اللَّهُ**» الخ؛ دلالة على أن المؤمنين كانوا على خطر الضلال من جهه هذه الإذاعه، و ليس إلا- خطر مخالفه الرسول فإن الكلام فى هذه الآيات موضوع فى ذلك، و يؤيد ذلك ما فى الآيه التالیه من أمر الرسول بالقتال و لوبقى وحده بلا ناصر.

و يظهر به أن الأمر الذى جاءهم من الأمن أو الخوف كان بعض الأراجيف التى كانت تأتى بها أيدي الكفار و رسلهم المبعوثون لإيجاد النفاق و الخلاف بين المؤمنين فكان الضعفاء من المؤمنين يذيعونه من غير تدبر و تبصير فيوجب ذلك وهنا فى عزيمه المؤمنين، غير أن الله سبحانه وقاهم من اتباع هؤلاء الشياطين الجائين بتلك الأخبار لاختراء المؤمنين.

وقوله تعالى: وَ لَوْ رُدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ لَمْ يَذْكُرْ هَاهُنَا الرَّدَّ إِلَى اللَّهِ كَمَا ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ: فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ الْآيَةَ (النساء ٥٩)؛ لأن الرد المذكور هناك هو رد الحكم الشرعي المتنازع فيه، ولا صنع فيه لغير الله ورسوله.

و أما الرد المذكور هاهنا فهو رد الخبر الشائع بين الناس من أمن أو خوف، ولا معنى لرده الى الله و كتابه، بل الصنع فيه للرسول و لاولى الأمر منهم، لو رد إليهم أمكنهم أن يستنبطوه و يذكروا للرادين صحته أو سقمه، و صدقه أو كذبه.

فالمراد بالعلم التمييز تمييز الحق من الباطل، و الصدق من الكذب على حد قوله تعالى:

لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ (المائدة ٩٤)، و قوله: وَ لِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لِيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (العنكبوت ١١).

و الاستنباط استخراج القول من حال الإبهام الى مرحلة التمييز و المعرفة، و أصله من النبط (محرکه)، و هو أول ما يخرج من ماء البئر، و على هذا يمكن أن يكون الاستنباط وصفا للرسول و أولى الأمر بمعنى أنهم يحققون الأمر فيحصلون على الحق و الصدق و أن يكون وصفا لهؤلاء الرادين لو ردوا فإنهم يعملون حق الامر و صدقه بإنباء الرسول و أولى الامر لهم.

فيعود معنى الآية إن كان المراد بالذين يستنبطونه منهم الرسول و أولى الامر كما هو الظاهر من الآية: لعلمه من أراد الاستنباط من الرسول و أولى الامر أى اذا استصوبه المسئولون و رأوه موافقا للصلاح، و إن كان المراد بهم الرادين: لعلمه الذين يستفسرونه و يبالغون فى الحصول على أصل الخبر من هؤلاء الرادين.

و أما أولى الأمر فى قوله: وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ «فالمراد بهم هو المراد بأولى الامر فى قوله أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ (النساء ٥٩) على ما تقدم من اختلاف

المفسرين فى تفسيره وقد تقدم أن اصول الاقوال فى ذلك ترجع الى خمسة، غير أن الذى استفدناه من المعنى أظهر فى هذه الآية (١).

قوله تعالى: **وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَآتَبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا** قد تقدم أن الأظهر كون الآيات مشيره الى قصه بدر الصغرى، وبعث أبى سفيان نعيم بن مسعود الأشجعى الى المدينة لسط الخوف و الوحشه بين الناس و اخزائهم فى الخروج الى بدر فالمراد باتباع الشيطان التصديق بما جاء به من النبأ، و اتباعه فى التخلف عن الخروج الى بدر.

و بذلك يظهر استقامه معنى الاستثناء من غير حاجه الى تكلف أو تمحل فإن نعيما كان يخبرهم أن أبا سفيان جمع الجموع و جهز الجيوش فاخشوهم و لا تلقوا بأنفسكم الى حياض القتل الذريع، و قد أثر ذلك فى قلوب الناس فتعللوا عن الخروج الى موعدهم ببدر، و لم يسلم من ذلك إلا النبى صلى الله عليه و آله و سلم و بعض خاصته و هو المراد بقوله تعالى: **«إِلَّا قَلِيلًا»**، فقد كان الناس تزلزلوا إلا القليل منهم ثم لحقوا بذلك القليل و ساروا.

و هذا الذى استظهرناه من معنى الاستثناء هو الذى يؤيده ما مر ذكره من القراءين، على ما فيه من الاستقامه.

و قوله تعالى: **فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ التَّكْلِيفَ مِنَ الْكُلْفِ** بمعنى المشقه لما فيه من تحميل المشقه على المكلف، و التنكيل من النكال، و هو على ما فى المجمع: ما يمتنع به من الفساد خوفا من مثله من العذاب فهو عقاب المتخلف لئلا يعود الى مثله و ليعتبر به غيره من المكلفين.

و الفاء فى قوله **«فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»**، للتفريع و الامر بالقتال متفرع على المتحصل من

ص: ٧٣٠

مضامين الآيات السابقة. وهو ثاقل القوم في الخروج الى العدو و تبطئتهم في ذلك، و يدل عليه ما يتلوه من الجمل أعنى قوله «لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ» الخ؛ فإن المعنى: فإذا كانوا يتثاقلون في أمر الجهاد و يكرهون القتال فقاتل أنت يا رسول الله بنفسك، و لا يشق عليك تثاقلهم و مخالفتهم لأمر الله سبحانه فإن تكليف غيرك لا يتوجه إليك، و إنما يتوجه إليك تكليف نفسك لا تكليفهم، و إنما عليك في غيرك أن تحرضهم فقاتل و حرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا. و قوله «لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ» أى لا تكلف أنت شيئاً إلا عمل نفسك فالاستثناء بتقدير مضاف.

و قوله: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ الْخَطِيئَةَ أَنْ «عَسَى» تدل على الرجاء أعم من أن يكون ذلك الرجاء قائماً بنفس المتكلم أو المخاطب أو بمقام التخاطب فلا حاجة الى ما ذكره من أن «عَسَى» من الله حتم.

و فى الآيه دلالة على زياده تعبير من الله سبحانه للمتثاقلين من الناس حيث أدى تثاقلهم الى أن أمر الله نبيه بالقيام بالقتال بنفسه، و أن يعرض عن المتثاقلين و لا يلح عليهم بالإجابة و يخليهم و شأنهم، و لا يضيق بذلك صدره فليس عليه إلا تكليف نفسه و تحريض المؤمنين أطاع من أطاع، و عصى من عصى.

[سورة النساء (٤): الآيات ٨٥ الى ٩١]

إشارة

مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَبًا (٨٥) وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّهِ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَضْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧) فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَ تَرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَرَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَآلَقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا رُدُّوا إِلَى الْآفْتِنَةِ أَنْ يَلْقَوُا فِيهَا سَبِيلًا فَإِنْ لَمْ يَعْزِلُوا عَنْهَا فَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (٩١)

قوله تعالى: مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا، النصيب والكفل بمعنى واحد، و لما كانت الشفاعة نوع توسط لترميم نقيصه أو لحيازه مزيه و نحو ذلك كانت لها نوع سببيه لإصلاح شأن فلها شيء من التبعة و المثوبه المتعلقين بما لأجله الشفاعة، و هو مقصد الشفيح و المشفوع له فالشفيح ذو نصيب من الخير أو الشر المترتب على الشفاعة، و هو قوله تعالى: «مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً» الخ؛.

و فى ذكر هذه الحقيقه تذكره للمؤمنين، و تنبيه لهم أن يتيقظوا عند الشفاعة لما يشفعون له، و يجتنبوا إن كان المشفوع لأجله مما فيه شر و فساد كالشفاعة للمنافقين من المشركين أن لا يقاتلوا، فإن فى ترك الفساد القليل على حاله، و إمهاله فى أن ينمو و يعظم فسادا معقبا لا يقوم له شيء، و يهلك به الحرث و النسل فالآيه فى معنى النهى عن الشفاعة السيئه و هى شفاعة أهل الظلم و الطغيان و النفاق و الشرك المفسدين فى الارض.

قوله تعالى: وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّهِ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا (الآيه)؛ أمر بالتحيه قبال التحيه بما يزيد عليها أو يماثلها، و هو حكم عام لكل تحيه حىي بها، غير أن مورد الآيات هو تحيه السلم و الصلح التى تلقى المسلمين على ما يظهر من الآيات التالیه.

قوله تعالى: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (الآيه)؛ معنى الآيه ظاهر، و هى بمنزله التعليل لما تشتمل عليه الآيتان السابقتان من المضمون كأنه قيل: خذوا بما كلفكم الله فى أمر الشفاعة الحسنه و السيئه، و لا تبطلوا تحيه من يحييكم بالإعراض و الرد فإن أمامكم يوما يجمعكم الله فيه و يجازيكم على إجابته ما دعاكم إليه و رده.

قوله تعالى: فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ (الآيه)؛ الفئه الطائفه، و الإركاس الرد.

و الآيه بما لها من المضمون كأنها متفرعه على ما تقدم من التوطئه و التمهيد أعنى قوله «مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً» (الآيه)؛ و المعنى: فإذا كانت الشفاعه السيئه تعطى لصاحبها كفلا من مساءتها فما لكم أيها المؤمنون تفرقتم فى أمر المنافقين فئتين، و تحزبتم حزبين: فئه ترى قتالهم، و فئه تشفع لهم و تحرض على ترك قتالهم، و الإغماض عن شجره الفساد التى تنمو بنمائهم، و تثمر برشدهم، و الله ردهم الى الضلال بعد خروجهم منه جزاء بما كسبوا من سيئات الأعمال، أ تريدون بشفاعتكم أن تهدوا هؤلاء الذين أضلهم الله؟ و من يضل الله فما له من سبيل الى الهدى.

□
و فى قوله: «وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا» التفات من خطاب المؤمنين الى خطاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إشاره الى أن من يشفع لهم من المؤمنين لا يتفهم حقيقه هذا الكلام حق التفهم، و لو فقه لم يشفع فى حقهم فأعرض عن مخاطبتهم به و ألقى الى من هو بين واضح عنده و هو النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

□
قوله تعالى: «وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً الْخ»؛ هو بمنزله البيان لقوله «وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ»، و المعنى: أنهم كفروا و زادوا عليه أنهم دوا و أحبوا أن تكفروا مثلهم فتستوا.

ثم نهاهم عن ولايتهم إلا أن يهاجروا فى سبيل الله فإن تولوا فليس عليكم فيهم إلا أخذهم و قتلهم حيث وجدتموهم، و الاجتناب عن ولايتهم و نصرتهم، و فى قوله «فَإِنْ تَوَلَّوْا»، دلالة على أن على المؤمنين أن يكلفوهم بالمهاجره فإن أجابوا فليوالوهم، و إن تولوا فيقتلوهم.

□
قوله تعالى: «إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاؤُكُمْ حِصْرًا صُدُّوا عَنْهُمْ اسْتَشْنَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ مِنْ قَوْلِهِ «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ»، طائفتين: (إحداهما) الذين يصلون، الخ؛ أى بينهم و بين أهل الميثاق ما يوصلهم بهم من حلف و نحوه، و (الثانيه) الذين يتخرجون من مقاتله المسلمين و مقاتله قومهم لقتلهم أو

لعوامل آخر، فيعتزلون المؤمنين و يلقون إليهم السلم لا للمؤمنين و لا عليهم بوجه، فهاتان الطائفتان مستثنون من الحكم المذكور، و قوله «حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ»، أى ضاقت.

قوله تعالى: سَيَجِدُونَ آخِرِينَ، إخبار بأنه سيواجهكم قوم آخرون ربما شابهوا الطائفة الثانية من الطائفتين المستثنيتين حيث إنهم يريدون أن يأمنوكم و يأمنوا قومهم غير أن الله سبحانه يخبر أنهم منافقون غير مأمونين فى مواعدتهم و موادعتهم، و لذا بدل الشرطين المثبتين فى حق غيرهم أعنى قوله: «فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَ أَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ» و بالشرط المنفى أعنى قوله «فَإِنْ لَمْ يَعِزُّوْكُمْ وَ يُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ وَ يَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ» الخ؛ و هذا فى معنى تنبيه المؤمنين على أن يكونوا على حذر منهم، و معنى الآيه ظاهر (١)(٢).

[سوره النساء (٤): الآيات ٩٢ الى ٩٤]

إشاره

وَ مَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوًّا لَكُمْ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ إِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيًّا مِنْ شَهْرَيْنِ مُتَابِعِينَ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢) وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَ لَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)

ص: ٧٣٥

١-١). النساء ٨٥-٩١: فى معنى التحية.

٢-٢). النساء ٨٥-٩١: بحث روائى فى: السلام و التحية، العطسه.

قوله تعالى: وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً -الى قوله- يَصَدَّقُوا التحريم جعل المملوك حراً، والرقبة هي العنق شاع استعمالها فى النفس المملوكه مجازاً، والديه ما يعطى من المال عوضاً عن النفس أو العضو أو غيرهما، والمعنى: من قتل مؤمناً بقتل الخطأ وجب عليه تحرير نفس مملوكه مؤمنه، وإعطاء ديه يسلمها الى أهل المقتول إلا أن يتصدق أولياء القتيل بالديه على معطيها و يعفوا عنها فلا تجب الديه.

قوله تعالى: فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ، الضمير يرجع الى المؤمن المقتول، والقوم العدو هم الكفار المحاربون، والمعنى: إن كان المقتول خطأ مؤمناً وأهله كفار محاربون لا يرثون وجب التحرير ولا ديه اذ لا يرث الكافر المحارب من المؤمن شيئاً.

قوله تعالى: وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ، الضمير فى «كَانَ» يعود الى المؤمن المقتول أيضاً على ما يفيدده السياق، والميثاق مطلق العهد أعم من الذمه و كل عهد، والمعنى: وإن كان المؤمن المقتول من قوم بينكم وبينهم عهد وجبت الديه و تحرير الرقبه، وقد قدم ذكر الديه تأكيداً فى مراعاة جانب الميثاق.

قوله تعالى: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ، أى من لم يستطع التحرير-لأنه هو الأقرب بحسب اللفظ-وجب عليه صيام شهرين متتابعين.

قوله تعالى: تَوْبَهُ مِنَ اللَّهِ الْخ؛ أى هذا الحكم وهو إيجاب الصيام توبه و عطف رحمه من الله لفاقد الرقبه، و ينطبق على التخفيف فالحكم تخفيف من الله فى حق غير المستطيع، و يمكن أن يكون قوله «تَوْبَهُ» قيّدا راجعا الى جميع ما ذكر فى الآيه من الكفاره أعنى قوله «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» الخ؛ و المعنى: أن جعل الكفاره للقاتل خطأ توبه و عنايه من الله للقاتل فيما لحقه من درن هذا الفعل قطعاً. و ليتحفّظ على نفسه فى عدم المحاباه فى المبادره الى القتل نظير قوله تعالى: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ» (البقره ١٧٩/).

و كذا هو توبه من الله للمجتمع و عنايه لهم حيث يزيد به فى أحرارهم واحد بعد ما فقدوا واحدا، و يرمّم ما ورد على أهل المقتول من الضرر المالى بالديه المسلّمه.

و من هنا يظهر أن الاسلام يرى الحرية حياه و الاسترقاق نوعا من القتل، و يرى المتوسط من منافع وجود الفرد هو الديه الكامله. و سنوضح هذا المعنى فى ما سيأتى من المباحث.

و أما تشخيص معنى الخطأ و العمد و التحرير و الديه و أهل القتل و الميثاق و غيره المذكورات فى الآيه فعلى السنّه. من أراد الوقوف عليها فليراجع الفقه.

قوله تعالى: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ، التعميد هو القصد الى الفعل بعنوانه الذى له، و حيث ان الفعل الاختيارى لا يخلو من قصد العنوان و كان من الجائر أن يكون لفعل أكثر من عنوان واحد أمكن ان يكون فعل واحد عمديا من جهه خطأيا من أخرى فالرامى الى شبح و هو يزعم انه من الصيد و هو فى الواقع انسان اذا قتله كان متعمدا الى الصيد خاطئا فى قتل الانسان، و كذا اذا ضرب إنسانا بالعصى قاصدا تأديبه فقتلته الضربه كان القتل قتل خطأ، و على هذا فمن مؤمنا متعمدا هو الذى يقصد بفعله قتل المؤمن عن علم بأنه قتل و ان المقتول مؤمن.

و قد أغلظ الله سبحانه و تعالى فى وعيد قاتل المؤمن متعمدا بالنار الخالده غير أنك عرفت فى الكلام على قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ (النساء ٤٨/). ان تلك

الآية، وكذا قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً (الزمر ٥٣) تصلحان لتقييد هذه الآية فهذه الآية توعده بالنار الخالده لكنها ليست بصريحه في الحتم فيمكن العفو بتوبه أو شفاعه.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا الضرب هو السير في الأرض و المسافره، و تقييده بسبيل الله يدل على أن المراد به هو الخروج للجهاد، و التبين هو التمييز و المراد به التمييز بين المؤمن و الكافر بقريته قوله «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا» و المراد بإلقاء السلام إلقاء التحية تحية أهل الايمان، و قرء «لمن ألقى اليكم السلم» بفتح اللام و هو الاستسلام.

و المراد بابتغاء عرض الحياه الدنيا طلب المال و الغنيمه، و قوله «فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ» جمع مغنم و هو الغنيمه أى ما عند الله من المغانم أفضل من مغنم الدنيا الذى يريدونه لكثرتها و بقائها فهى التى يجب عليكم أن تؤثروها.

قوله تعالى: كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا الخ؛ أى على هذا الوصف. و هو ابتغاء عرض الحياه الدنيا-كنتم من قبل ان تؤمنوا فمن الله عليكم بالايمان الصارف لكم عن ابتغاء عرض الحياه الدنيا الى ما عند الله من المغانم الكثيره فاذا كان كذلك فيجب عليكم ان تتبينوا، و فى تكرار الأمر بالتبين تأكيد فى الحكم.

و الآية مع اشتمالها على العظه و نوع من التوبيخ لا تصرح بكون هذا القتل الذى ظاهرها وقوعه قتل مؤمن متعمدا، فالظاهر انه كان قتل خطأ من بعض المؤمنين لبعض من ألقى السلم من المشركين لعدم وثوق القاتل بكونه مؤمنا حقيقه بزعم أنه انما يظهر الايمان خوفا على نفسه، و الآية توبخه بأن الاسلام انما يعتبر بالظاهر، و يحل أمر القلوب الى اللطيف الخبير.

و على هذا فقوله «تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» موضوع فى الكلام على اقتضاء الحال، أى

حالكم فى قتل من يظهر لكم الايمان من غير اعتناء بامرہ و تبين فى شأنه حال من يريد المال و الغنيمه فيقتل المؤمن المتظاهر بالايمان بأدنى ما يعتذر به من غير أن يكون من موجه العذر، و هذا هو الحال الذى كان عليه المؤمنون قبل ايمانهم لا يبتغون الا الدنيا فإذا أنعم الله عليهم بالايمان، و من عليهم بالاسلام كان الواجب عليهم ان يتبينوا فيما يصنعون و لا ينقادوا لأخلاق الجاهليه و ما بقى فيهم من اثارها (١).

[سوره النساء (٤): الآيات ٩٥ الى ١٠٠]

اشاره

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسَيْنِيَّ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦) إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسَعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٩) وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاجِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠)

ص: ٧٣٩

قوله تعالى: «لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ - إلى قوله - وَأَنْفُسِهِمْ الضَّررُ هُوَ النِّقْصَانُ فِي الوجودِ المانع من القيام بأمر الجهاد و القتال كالعَمى و العرج و المرض، و المراد بالجهاد بالأموال إنفاقها في سبيل الله للظفر على أعداء الدين، و بالأنفس القتال.

و قوله «وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسَيْنِيَّ»، يدل على أن المراد بهؤلاء القاعدين هم التاركون للخروج إلى القتال عند ما لا حاجة إلى خروجهم لخروج غيرهم على حد الكفاية فالكلام مسوق لترغيب الناس و تحريضهم على القيام بأمر الجهاد و التسابق فيه و المسارعة إليه.

و من الدليل على ذلك أن الله سبحانه استثنى أولى الضرر ثم حكم بعدم الاستواء مع أن أولى الضرر كالقاعدين في عدم مساواتهم المجاهدين في سبيل الله و إن قلنا: إن الله سبحانه يتدارك ضررهم بتبائهم الصالحة فلا شك أن الجهاد و الشهادة أو الغلبة على عدو الله من الفضائل التي فضل بها المجاهدون في سبيل الله على غيرهم، و بالجملة ففي الكلام تحضيض للمؤمنين و تهييج لهم، و إيقاظ لروح إيمانهم لاستباق الخير و الفضيلة.

قوله تعالى: فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً الْجمله في مقام التعليل لقوله «لَا يَسْتَوِي»، و لذا لم توصل بعطف و نحوه، و الدرجة هي المنزلة، و الدرجات المنزلة بعد المنزلة، و قوله «وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسَيْنِيَّ» أي وعد الله كلا

من القاعدين و المجاهدين، أو كلا من القاعدين غير أولى الضرر و القاعدين أولى الضرر و المجاهدين الحسنى، و الحسنى وصف محذوف الموصوف أى العاقبه الحسنى أو المثوبه الحسنى أو ما يشابه ذلك، و الجملة مسوقه لدفع الدخل فإن القاعد من المؤمنين ربما أمكنه أن يتوهم من قوله «لَا يَسْتَوِي -ألى قوله- دَرَجَةٌ» أنه صفر الكفّ لا فائده تعود إليه من ايمانه و سائر أعماله فدفع ذلك بقوله «وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى» .

قوله تعالى: وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً هذا التفضيل بمنزله البيان و الشرح لإجمال التفضيل المذكور أولاً، و يفيد مع ذلك فائده أخرى، و هى الإشارة الى أنه لا ينبغى للمؤمنين أن يقنعوا بالوعد الحسن الذى يتضمّنه قوله «وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى» فيتكاسلوا فى الجهاد فى سبيل الله و الواجب من السعى فى إعلاء كلمه الحق و إزهاق الباطل فإن فضل المجاهدين على القاعدين بما لا يستهان به من درجات المغفره و الرحمه.

و أمر الآيه فى سباقها عجيب، أما أولاً: فلأنها قيدت المجاهدين (أولاً) بقوله «فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ» و (ثانياً) بقوله «بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ» و (ثالثاً) أوردته من غير تقييد.

و أما ثانياً: فلأنها ذكرت فى التفضيل (أولاً) أنها درجه، و (ثانياً) أنها درجات منه.

و الضمير فى قوله «مِنْهُ» لعله راجع الى الله سبحانه، و يؤيده قوله «وَ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً» بناء على كونه بياناً للدرجات، و المغفره و الرحمه من الله، و يمكن رجوع الضمير الى الأجر المذكور قبلاً.

و قوله: وَ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً ظاهره كونه بياناً للدرجات فإن الدرجات و هى المنازل من الله سبحانه أياما كانت فهى مصداق المغفره و الرحمه، و قد علمت فى بعض المباحث السابقه أن الرحمه -و هى الإفاضه الإلهيه للنعمه- تتوقف على إزاله الحاجب و رفع المانع من التلبس بها، و هى المغفره، و لازمه أن كل مرتبه من مراتب النعم، و كل درجه و منزله رفيعه

مغفره بالنسبه الى المرتبه التي بعدها، و الدرجه التي فوقها، فصح بذلك أن الدرجات الاخرويه كائنه ما كانت مغفره و رحمه من الله سبحانه، و غالب ما تذكر الرحمه و ما يشابهها في القرآن تذكر معها المغفره كقوله: مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (المائدة ٩) و قوله: وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (الأنفال ٤)، و قوله: مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (هود ١١)، و قوله: وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانٌ (الحديد ٢٠)، و قوله: وَ اغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا (البقره ٢٨٦) الى غير ذلك من الآيات.

ثم ختم الآيه بقوله «وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» و مناسبه الاسميين مع مضمون الآيه ظاهره لا سيما بعد قوله في ذيلها (و مغفره و رحمه).

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ لَفِظٌ «تَوَفَّاهُمْ» صيغه ماض أو صيغه مستقبل—و الأصل تتوفاهم حذف إحدى التاءين من اللفظ تخفيفاً— نظير قوله تعالى: الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ شَوْءٍ (النحل ٢٨).

و المراد بالظلم كما تؤيده الآيه النظيره هو ظلمهم لأنفسهم بالاعراض عن دين الله و ترك إقامه شعائره من جهه الوقوع في بلاد الشرك و التوسط بين الكافرين حيث لا وسيله يتوسل بها الي تعلم معارف الدين، و القيام بما تندب إليه من وظائف العبوديه، و هذا هو الذي يدل عليه السياق في قوله «قَالُوا فِيْمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ» الى آخر الآيات الثلاث.

و قد فسّر الله سبحانه الظالمين (إذا أطلق) في قوله: لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجًا (الأعراف ٤٥، هود ١٩)، و محصّل الآيتين تفسير الظلم بالاعراض عن دين الله و طلبه عوجاً و محرّفاً، و ينطبق على ما يظهر من الآيه التي نحن فيها.

قوله تعالى: قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ أَي فِيمَاذَا كُنْتُمْ مِنَ الدِّينِ، وكلمة «م» هي ما الاستفهامية حذفت عنها الألف تخفيفاً.

و في الآيه دلالة في الجملة على ما تسميه الأخبار بسؤال القبر، وهو سؤال الملائكة عن دين الميت بعد حلول الموت كما يدل عليه أيضا قوله تعالى: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءِ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَاذْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا الْآيَات (النحل ٣٠).

قوله تعالى: قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَأَسِعَتْ فَتُهَاجِرُوا فِيهَا كَانَ سُؤَالَ الْمَلَائِكَةِ (فِيمَا كُنْتُمْ) سُؤَالَ عَنِ الْحَالِ الَّذِي كَانُوا يَعِيشُونَ فِيهِ مِنَ الدِّينِ، ولم يكن هؤلاء المسئولون على حال يعتد به من جهة الدين فأجابوا بوضع السبب موضع المسبب وهو أنهم كانوا يعيشون في أرض لا- يتمكنون فيها من التلبس بالدين لكون أهل الأرض مشركين أقوىاء فاستضعفهم فحالوا بينهم وبين الأخذ بشرائع الدين والعمل بها.

ولما كان هذا الذي ذكروه من الاستضعاف- لو كانوا صادقين فيه- إنما حل بهم من حيث إخلادهم إلى أرض الشرك، وكان استضعافهم من جهة تسلط المشركين على الأرض التي ذكروها، ولم تكن لهم سلطه على غيرها من الأرض فلم يكونوا مستضعفين على أي حال بل في حال لهم أن يغيروه بالخروج والمهاجرة كذبتهم الملائكة في دعوى الاستضعاف بأن الأرض أرض الله كانت أوسع مما وقعوا فيه ولزموه، وكان يمكنهم أن يخرجوا من حومه الاستضعاف بالمهاجرة، فهم لم يكونوا بمستضعفين حقيقة لوجود قدرتهم على الخروج من قيد الاستضعاف، وإنما اختاروا هذا الحال بسوء اختيارهم.

فقوله: أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَأَسِعَتْ فَتُهَاجِرُوا فِيهَا الاستفهام فيه للتوبيخ كما

فى قوله «فِيمَ كُنْتُمْ» و يمكن أن يكون أول الاستفهامين للتقرير كما هو ظاهر ما مر نقله من آيات سورة النحل لكون السؤال فيها عن الظالمين و المتقين جميعا، و ثانى الاستفهامين للتوبيخ على أى حال.

و قد أضافت الملائكة الى الله، و لا يخلو من إيماء الله أن الله سبحانه هيا فى أرضه سعه أولا ثم دعاهم الى الايمان و العمل كما يشعر به أيضا قوله بعد آيتين «وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَ سَعَةً» (الآيه).

و وصف الأرض بالسعه هو الموجب للتعبير عن الهجره بقوله «فَتَهَاجَرُوا فِيهَا» أى تهاجروا من بعضها الى بعضها، و لو لا فرض السعه لكان يقال: فتهاجروا منها. ثم حكم الله فى حقهم بعد إيراد المساءله بقوله «فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا» .

قوله تعالى: إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ، الاستثناء منقطع، و فى إطلاق المستضعفين على هؤلاء بالتفسير الذى فسره به دلالة على أن الظالمين المذكورين لم يكونوا مستضعفين لتمكنهم من رفع قيد الاستضعاف عن أنفسهم و إنما الاستضعاف وصف هؤلاء المذكورين فى هذه الآيه، و فى تفصيل بيانهم بالرجال و النساء و الولدان إيضاح للحكم الإلهى و رفع اللبس. و قوله «لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا» الحيله كأنها بناء نوع من الحيلولة ثم استعملت استعمال الآله فهى ما يتوسل به الى الحيلولة بين شىء و شىء أو حال للحصول على شىء أو حال آخر، و غلب استعماله فى ما يكون على خفيه، و فى الامور المذمومه، و فى مادتها على أى حال معنى التغير على ما ذكره الراغب فى مفرداته.

و المعنى: لا يستطيعون و لا يتمكنون أن يحتالوا لصرف ما يتوجه إليهم من استضعاف المشركين عن أنفسهم، و لا يهتدون سبيلا يتخلصون بها عنهم فالمراد من السبيل على ما يفيد السباق أعم من السبيل الحسى كطريق المدينة لمن يريد المهاجرة إليها من مسلمى مكة،

و السبيل المعنوى و هو كل ما يخلصهم من أيدي المشركين، و استضعافهم لهم بالعذاب و الفتنه (١).

قوله تعالى: فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ، هؤلاء و ان لم يكسبوا سيئه لمعذوريتهم فى جهلهم لكننا بيّنا سابقا أن أمر الانسان يدور بين السعاده و الشقاوه و كفى فى شقائه أن لا يجوز لنفسه سعاده، فالانسان لا غنى له فى نفسه عن العفو الالهى الذى يعفى به أثر الشقاء سواء كان صالحا أو طالحا أو لم يكن، و لذلك ذكر الله سبحانه رجاء عفوهم.

و إنما اختير ذكر رجاء عفوهم ثم عقب ذلك بقوله «وَ كَانَ اللَّهُ عَفُورًا غَفُورًا» اللائح منه شمول العفو لهم لكونهم مذكورين فى صوره الاستثناء من الظالمين الذين أوعدوا بأن مأواهم جهنم و ساءت مصيرا.

قوله تعالى: وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغِمًا كَثِيرًا وَسِعَةً قَالَ الرَّغَبُ: الرغام (بفتح الراء) التراب الرقيق، و رغم أنف فلان رغما وقع فى الرغام، و ارغمه غيره، و يعبر بذلك عن السخط كقول الشاعر:

إذا رغمت تلك الأنوف لم أرضها

و لم أطلب العتبي و لكن أزيدها

فمقابلة بالإرضاء مما ينبه على دلالة على الإسقاط، و على هذا قيل: أرغم الله أنفه، و أرغمه أسخطه، و ارغمه ساخطه، و تجاهدا على ان يرغم أحدهما الآخر ثم يستعار المرغمه للمنازعه قال الله تعالى «يَجِدُ فِي الْأَرْضِ مُرَاغِمًا كَثِيرًا» أى مذهبا يذهب إليه اذا رأى منكرا يلزمه ان يغضب منه كقولك: غضبت الى فلان من كذا و رغمت إليه (انتهى).

فالمعنى: و من يهاجر فى سبيل الله، أى طلبا لمرضاته فى التلبس بالدين علما عملا يجد فى الارض مواضع كثيره كلما منعه مانع فى بعضها من اقامه دين الله استراح الى بعض آخر

ص: ٧٤٥

بالحجره إليه لإرغام المانع و اسخاطه أو لمنازعته المانع و مساخطه، و يجد سعه فى الارض.

و قد قال تعالى فى سابق الآيات «أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَأَسِعَهُ» ، و لازم التفریع علیه أن یقال:

و من یهاجر یجد فى الارض سعه الا أنه لما زید قوله «مُرَاعِمًا كَثِيرًا» و هو من لوازم سعه الارض لمن یرید سلوك سبیل الله قیدت المهاجره أيضا بكونها فى سبیل الله لینطبق على الغرض من الكلام، و هو موعظه المؤمنین القاطنین فى دار الشرك و تهیجهم و تشجیعهم على المهاجره و تطیب نفوسهم.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ السَّخِّ الْمُهَاجِرِ إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ كُنَايَه عَنْ الْمُهَاجِرِ إِلَى أَرْضِ الْإِسْلَامِ الَّتِي يَتِمَكَّنُ فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَ سُنَّةِ رَسُولِهِ، وَ الْعَمَلِ بِهِ.

و ادراك الموت استعاره بالكنايه عن وقوعه أو مفاجأته فان الإدراك هو سعى اللاحق بالسير الى السابق ثم وصوله اليه، و كذا وقوع الأجر على الله استعاره بالكنايه عن لزوم الأجر و الثواب له تعالى و اخذه ذلك فى عهده، فهناك اجر جميل و ثواب جزيل سيوافى به العبد لا محاله، و الله سبحانه يوافيه بألوهيته التى لا يعزها شىء و لا يعجزها شىء و لا يمتنع عليها ما أرادته، و لا تخلف الميعاد. و ختم الكلام بقوله «وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» تأكيداً للوعد الجميل بلزوم توفيه الأجر و الثواب (١)(٢).

[سوره النساء (٤): الآيات ١٠١ الى ١٠٤]

إشارة

وَ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (١٠١) وَ إِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا آسِيحتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَ لَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصِيبُوا فَلْيُصِيبُوا مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ آسِيحتَهُمْ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَعَفَّلُونَ عَنْ آسِيحتِكُمْ وَ أَمْتَعْتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَهُ وَاحِدَةً وَ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا آسِيحتَكُمْ وَ خُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وَ قَعُودًا وَ عَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (١٠٣) وَ لَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَ تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤)

ص: ٧٤٦

١- ١). بحث فى: اقامه المؤمنین فى دار الايمان و دار الشرك، الهجره الى دار الايمان.

٢- ٢). النساء ٩٥-١٠٠: بحث روائى فى: المنافقين؛ الهجره الى دار الايمان؛ المستضعفين.

بيان:

قوله تعالى: وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ الْجَنَاحِ الْإِثْمِ وَالْحَرَجِ وَالْعُدُولِ، وَالْقَصْرُ النِّقْصُ مِنَ الصَّلَاةِ، قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: فِي قِصْرِ الصَّلَاةِ ثَلَاثُ لُغَاتٍ: قَصَرْتُ الصَّلَاةَ أَقْصَرْتُهَا وَهِيَ لُغَةُ الْقُرْآنِ، وَقَصَّرْتُهَا تَقْصِيرًا، أَقْصَرْتُهَا أَقْصَارًا.

ص: ٧٤٧

والمعنى: اذا سافرتم فلا مانع من حرج و اثم ان تنقصوا شيئا من الصلاة، و نفى الجناح الظاهر وحده في الجواز لا ينافي وروده في السياق للوجوب كما في قوله تعالى: إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا (البقره ١٥٨/١) مع كون الطواف واجبا، و ذلك ان المقام مقام التشريع، و يكفى فيه مجرد الكشف عن جعل الحكم من غير حاجه الى استيفاء جميع جهات الحكم و خصوصياته، و نظير الآيه بوجه قوله تعالى: وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ (البقره ١٨٤/١).

قوله تعالى: إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا، الفتنه و ان كانت ذات معان كثيره مختلفه لكن المعهود من اطلاقها في القرآن في خصوص الكفار و المشركين التعذيب من قتل أو ضرب و نحوهما، و قرائن الكلام أيضا تؤيد ذلك فالمعنى: ان خفتم ان يعذبوكم بالحمله و القتل.

و الجملة قيد لقوله «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ»، و تفيد ان بدء تشريع القصر في الصلاة انما كان عند خوف الفتنه، و لا ينافي ذلك ان يعم التشريع ثانيا جميع صور السفر الشرعى و ان لم يجمع الخوف فإنما الكتاب بين قسما منه، و السنه بينت شموله لجميع الصور كما سيأتى في الروايات.

قوله تعالى: وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ - الى قوله - وَ لِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ الآيه؛ تذكر كيفيه صلاه الخوف، و توجه الخطاب الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بفرضه اماما في صلاه الخوف، و هذا من قبيل البيان بإيراد المثال ليكون أوضح في عين أنه اوجز و اجمل.

فالمراد بقوله: فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ هو الصلاه جماعه، و المراد بقوله «فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكُمْ» قيامهم في الصلاه مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بنحو الايتمام، و هم المأمورون بأخذ الأسلحه، و المراد بقوله «فَإِذَا سَجَدُوا» الخ؛ اذا سجدوا و اتموا الصلاه ليكون هؤلاء بعد اتمام سجدتهم من وراء القوم، و كذا المراد بقوله «وَ لِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ» ان تأخذ الطائفه الثانيه

المصلي مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حذرهم و اسلحتهم.

و المعنى-الله اعلم:-و اذا كنت انت يا رسول الله فيهم و الحال حال الخوف فأقمت لهم الصلاة اى صليتهم جماعه فأممتهم فيها،فلا يدخلوا فى الصلاة جميعا بل لتقم طائفه منهم معك بالاقتراء بك و ليأخذوا معهم اسلحتهم،و من المعلوم ان الطائفه الاخرى يحرسونهم و امتعتهم فاذا سجد المصلون معك و فرغوا من الصلاة فليكونوا وراءكم يحرسونكم و الأمتعه و لتأت طائفه اخرى لم يصلوا فليصلوا معك،و ليأخذ هؤلاء المصلون ايضا كالطائفه الاولى المصليه حذرهم و اسلحتهم.

و توصيف الطائفه بالأخرى،و ارجاع ضمير الجمع المذكور إليها رعايه تاره لجانب اللفظ و اخرى لجانب المعنى،كما قيل.و فى قوله تعالى: «وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَّهُمْ» نوع من الاستعاره لطيف،و هو جعل الحذر آله للدفاع نظير السلاح حيث نسب اليه الأخذ الذى نسب الى الأسلحه،كما قيل.

قوله تعالى: وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ -الى قوله- وَأَحَدَهُ فِي مَقَامِ التَّعْلِيلِ لِلْحَكْمِ الْمَشْرَعِ،و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِلَىٰ آخِرِ آيَةٍ.تخفيف آخر و هو انهم ان كانوا يتأذون من مطر ينزل عليهم أو كان بعضهم مرضى فلا مانع من ان يضعوا اسلحتهم لكن يجب عليهم مع ذلك ان يأخذوا حذرهم،و لا يغفلوا عن الذين كفروا فهم مهتمون بهم.

قوله تعالى: فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِي مَآءٍ وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمُ الْقِيَامِ وَالْقُعُودِ جَمْعَانِ أَوْ مَصْدَرَانِ،و هما حالان و كذا قوله «وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ» و هو كناية عن الذكر المستمر المستوعب لجميع الأحوال.

قوله تعالى: فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ الخ؛المراد بالاطمئنان الاستقرار، و حيث قوبل به قوله «وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ» ،على ما يؤيده السياق كان الظاهر أن المراد به

الرجع الى الأوطان، على هذا فالمراد بإقامه الصلاة إتمامها فإن التعبير عن صلاة الخوف بالقصر من الصلاة يلوح الى ذلك.

قوله تعالى: إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا الكتابه كناية عن الفرض و الايجاب كقوله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ (البقره ١٨٣) و الموقوت من وقت كذا أى جعلت له وقتا فظاهر اللفظ ان الصلاة فريضة موقته منجمه تؤدى فى أوقاتها و نجومها.

و الظاهر ان الوقت فى الصلاة كناية عن الثبات و عدم التغير باطلاق الملزوم على لازمه فالمراد بكونها كتابا موقوتا أنها مفروضه ثابتة غير متغيره أصلا فالصلاة لا تسقط بحال، و ذلك ان إبقاء لفظ الموقوت على بادى ظهوره لا يلائم ما سبقه من المضمون اذ لا-حاجه تمس الى التعرض لكون الصلاة عباده ذات أوقات معينه مع أن قوله «إِنَّ الصَّلَاةَ»، فى مقام التعليل لقوله «فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ» فالظاهر أن المراد بكونها موقوته كونها ثابتة لا تسقط بحال، و لا تتغير و لا تتبدل الى شىء آخر كالصوم الى الفديه مثلا.

قوله تعالى: وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ، الوهن الضعف، و الابتغاء الطلب، و الألم مقابل اللذه، و قوله «و تَزُجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَزُجُونَ» حال من ضمير الجمع الغائب، و المعنى:

أن حال الفريقين فى ان كلا منهما يألم واحد، فلسستم أسوأ حالا من اعدائكم، بل انتم أرفه منهم و أسعد حيث ان لكم رجاء الفتح و الظفر و المغفره من ربكم الذى هو وليكم، و اما اعدائكم فلا مولى لهم و لا رجاء لهم من جانب يطيب نفوسهم، و ينشطهم فى عملهم. و يسوقهم الى مبتغاهم، و كان الله عليما بالمصالح، حكيمًا متقنا فى امره و نهيه (١).

ص : ٧٥٠

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مِمَّا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا (١٠٩) وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١١٠) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَزِمْ بِهٖ بَرِيئًا فَصَدِّحْتُمْ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا (١١٢) وَلَا فَضْلَ لِلَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةً مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصِدْقِهِ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِضْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ لَهُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَاضَّةٌ لَهُمْ وَلَأُمْتِيئَةٌهُمْ وَلَأَمْرٌ لَهُمْ فَلْيَتَّخِذِ الشَّيْطَانُ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خَسِيرًا مُبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢) لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (١٢٦)

قوله تعالى: إِذَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ظاهر الحكم بين الناس هو القضاء بينهم في مخاصماتهم و منازعاتهم مما يرجع الى الامور القضائيه و رفع الاختلافات بالحكم، وقد جعل الله تعالى الحكم بين الناس غاية لانزال الكتاب فينطبق مضمون الآيه على ما يتضمّنه قوله تعالى: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ (البقره ٢١٣) وقد مرّ تفصيل القول فيه.

فهذه الآيه (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ) الخ؛ في خصوص موردها نظيره تلك الآيه (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً)، في عمومها، و تزيد عليها في أنها تدلّ على جعل حق الحكم لرسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم و الحجية لرأيه و نظره فإن الحكم و هو القطع في القضاء و فصل الخصومه لا ينفكّ عن اعمال نظر من القاضى الحاكم و اظهار عقيدته منه مضافا الى ما عنده من العلم بالأحكام العامّة و القوانين الكليه في موارد الخصومه فإنّ العلم بكليات الأحكام و حقوق الناس أمر، و القطع

و الحكم بانطباق مورد النزاع على بعضها دون بعض أمر آخر.

فالمراد بالإراءه فى قوله «لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ» إيجاد الرأى و تعريف الحكم لا تعليم الأحكام و الشرائع كما احتمله بعضهم.

و مضمون الآيه على ما يعطيه السياق أن الله أنزل إليك الكتاب و علمك أحكامه و شرائعه و حكمه لتضيف إليها ما أوجد لك من الرأى و عرّفك من الحكم فتحكم بين الناس، و ترفع بذلك اختلافاتهم.

قوله تعالى: «وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً» عطف على ما تقدّمه من الجملة الخبرية لكونها فى معنى الإنشاء كأنه قيل: فاحكم بينهم و لا تكن للخائنين خصيماً. و الخصيم هو الذى يدافع عن الدعوى و ما فى حكمها، و فيه نهيه صلى الله عليه و آله و سلم عن أن يكون خصيماً للخائنين على من يطالبهم بحقوقه فيدافع عن الخائنين و يبطل حقوق المحقّين من أهل الدعوى.

و ربما أمكن أن يستفاد من عطف قوله «وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ» على ما تقدمه و هو أمره صلى الله عليه و آله و سلم أمراً مطلقاً بالحكم أنّ المراد بالخيانة مطلق التعدى على حقوق الغير ممن لا- ينبغى منه ذلك لا- خصوص الخيانة للودائع و إن كان ربما عطف الخاص على العام لعنايه ما بشأنه لكن المورد كالحالى عن العنايه، و سيجىء لهذا الكلام تتمه.

قوله تعالى: «وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً الظاهر أن الاستغفار هاهنا هو أن يطلب من الله سبحانه الستر على ما فى طبع الإنسان من إمكان هضم الحقوق و الميل الى الهوى و مغفره ذلك، و قد مر مرارا أن العفو و المغفرة يستعملان فى كلامه تعالى فى شؤون مختلفه يجمعها جامع الذنب، و هو التباعد من الحق بوجه. فالمعنى- و الله أعلم-: و لا تكن للخائنين خصيماً و لا تمل إليهم، و اطلب من الله سبحانه أن يوفّقك لذلك و يستر على نفسك أن تميل الى الدفاع عن خيانتهم و يتسلط عليك هوى النفس. و الدليل على إرادته ذلك ما فى ذيل الآيات الكريمه «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضَمُّوكَ وَ

يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُدُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ آيَةَ تَنْصُرَ عَلَىٰ أَنَّهُمْ لَا يَضُرُّونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَإِنْ بَدَلُوا غَايَةَ جَهْدِهِمْ فِي تَحْرِيكِ عَوَاطِفِهِ إِلَىٰ إِثَارِ الْبَاطِلِ وَإِظْهَارِهِ عَلَىٰ الْحَقِّ فَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي أَمْنٍ إِلَهِيٍّ مِنَ الضَّرْرِ، وَاللَّهُ يَعِصِمُهُ فَهُوَ لَا- يَجُورُ فِي حُكْمِهِ وَلَا يَمِيلُ إِلَىٰ الْجُورِ، وَلَا يَتَّبِعُ الْهَوَىٰ، وَمِنَ الْجُورِ وَالْمِيلُ إِلَىٰ الْهَوَىٰ الْمَذْمُومُ أَنْ يَفْرُقَ فِي حُكْمِهِ بَيْنَ قَوِيٍّ وَضَعِيفٍ، أَوْ صَدِيقٍ وَعَدُوٍّ، أَوْ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ ذَمِيٍّ، أَوْ قَرِيبٍ وَبَعِيدٍ، فَامْرَهُ بِأَنْ يَسْتَغْفِرَ لَيْسَ لِمَنْ يَصُدُّ ذَنْبَ ذِي وَبَالٍ وَتَبِعَهُ مِنْهُ، وَلَا- لِإِشْرَافِهِ عَلَىٰ مَا لَا- يَحْمَدُ مِنْهُ بَلْ لِيَسْأَلَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَظْهَرَ عَلَىٰ هَوَىٰ النَّفْسِ، وَلَا رَيْبَ فِي حَاجَتِهِ فِي ذَلِكَ إِلَىٰ رَبِّهِ وَعَدَمِ اسْتِغْنَائِهِ عَنْهُ وَإِنْ كَانَ عَلَىٰ عِصْمَتِهِ، فَإِنَّ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ.

وَهَذِهِ الْعِصْمَةُ مِدَارُ عَمَلِهَا مَا يَعِدُ طَاعَهُ وَمَعْصِيَتَهُ، وَمَا يَحْمَدُ أَوْ يَذَمُّ عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْمَالِ لَا مَا هُوَ الْوَاقِعُ الْخَارِجِيُّ، وَبِعِبَارِهِ أُخْرَى الْآيَاتِ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي أَمْنٍ مِنْ اتِّبَاعِ الْهَوَىٰ، وَالْمِيلِ إِلَىٰ الْبَاطِلِ، وَأَمَّا أَنْ الَّذِي يَحْكُمُ وَيَقْضِي بِهِ بِمَا شَرَعَهُ مِنَ الْقَوَاعِدِ وَقَوَانِينِ الْقَضَاءِ الظَّاهِرِيَّةِ كَقَوْلِهِ «الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدْعَى وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ» وَنَحْوِ ذَلِكَ يَصَادَفُ دَائِمًا مَا هُوَ الْحَقُّ فِي الْوَاقِعِ فَيَنْتِجُ دَائِمًا غَلْبَةَ الْمَحْقُوقِ، وَمَغْلُوبِيَّةَ الْمَبْطُلِ فِي دَعْوَاهِ، فَالْآيَاتُ لَا- تَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ أَصْلًا، وَلَا- أَنْ الْقَوَانِينِ الظَّاهِرِيَّةِ فِي اسْتِطَاعَتِهَا أَنْ تَهْدِيَ إِلَىٰ ذَلِكَ قَطْعًا فَإِنَّهَا أَمَارَاتٌ مُمَيِّزَةٌ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ غَالِبًا لَا دَائِمًا، وَلَا مَعْنَى لِمَنْ لَاسْتِزَامِ الْغَالِبِ الدَّائِمِ وَهُوَ ظَاهِرٌ.

وَمِمَّا تَقَدَّمَ يَظْهَرُ مَا فِي كَلَامِ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ حَيْثُ ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى «وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ»[□]، أَنَّهُ أَمْرٌ بِالِاسْتِغْفَارِ عَمَّا هَمَّ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ الدَّفَاعِ وَالذَّبِّ عَنْ هَذَا الْخَائِنِ الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ، وَقَدْ سَأَلَهُ قَوْمُهُ أَنْ يَدْفَعُ عَنْهُ وَيَكُونَ خَصِيمًا لَهُ عَلَى يَهُودِيٍّ. وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا الْقَدْرَ أَيْضًا تَأْثِيرٌ مِنْهُمْ بِأَثَرِ مَذْمُومٍ، وَقَدْ نَفَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كُلَّ ضَرَرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ»[□]، قِيلَ: إِنْ نَسَبَهُ الْخِيَانَةَ إِلَى النَّفْسِ لِكُونَ وَبِالْهَا رَاجِعًا إِلَيْهَا، أَوْ بَعْدَ كُلِّ مَعْصِيَةٍ خِيَانَتِهِ لِلنَّفْسِ كَمَا عَدَّ ظَلَمًا لَهَا، وَقَدْ قَالَ

تعالى: عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ (البقره ١٨٧).

و يمكن أن يستفاد من الآيه بمعونه ما يدل عليه القرآن من أن المؤمنين كنفس واحده، و أن مال الواحد منهم مال لجميعهم يجب على الجميع حفظه و صونه عن الضيعه و التلف، كون تعدى بعضهم على بعض بسرقة و نحوها اختيانا لأنفسهم.

و فى قوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا» دلالة على استمرار هؤلاء الخائنين فى خيانتهم، و يؤكد قوله «أَثِيمًا» فإن الأ-ثيم أكد فى المعنى من الآ-ثم و هو صفه مشبهه تدل على الثبوت. على أن قوله «يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ» لا- تخلو عن دلالة على الاستمرار، و كذا قوله «لِلْخَائِنِينَ» حيث عبر بالوصف و لم يعبر بمثل قولنا: للذين خانوا، كما عبر بذلك فى قوله:

فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ (الأنفال ٧١).

فمن هذه القرائن و أمثاله يظهر أن معنى الآيه-بالنظر الى مورد النزول-: و لا تكن خصيما لهؤلاء، و لا تجادل عنهم فإنهم مصرون على الخيانه مبالغون فيها ثابتون على الإثم، و الله لا يحب من كان خَوَّانًا أَثِيمًا. و هذا يؤيد ما ورد فى أسباب النزول من نزول الآيات فى أبى طعمه بن الابرقت. كما سيجىء.

و معنى الآيه-مع قطع النظر عن المورد-: و لا- تدافع فى قضائك عن المصرين على الخيانه المستمرين عليها، فإن الله لا يحب الخوان الأ-ثيم، و كما انه تعالى لا- يحب كثير الخيانه لا يحب قليلها، و لو أمكن أن يحب قليلها أمكن أن يحب كثيرها، و اذا كان كذلك فالله ينهى أن يدافع عن قليل الخيانه كما ينهى عن أن يدافع عن كثيرها، و أما من خان فى أمر ثم نازع فى أمر آخر و هو محق فى نزاعه، فالدفاع عنه دفاع غير محذور و لا ممنوع منه، و لا ينهى عنه قوله: وَ لَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (الآيه).

قوله تعالى: يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَ لَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ، و هذا ايضا من الشواهد على ما قدمناه من الآيات (١٠٥-١٢٦) جميعا ذات سياق واحد، نازله فى قصه

واحد، وهي التي يشير إليها قوله «وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَزِمِ بِهِ بَرِيئًا» (الآية)؛ وذلك ان الاستخفاء انما يناسب الأعمال التي يمكن ان يرمى بها الغير كالسرقه و امثال ذلك فيتأيد به ان الذي تشير اليه هذه الآية و ما تقدمها من الآيات هو الذي يشير اليه قوله «وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَزِمِ بِهِ» (الآية).

و الاستخفاء من الله أمر غير مقدور اذ لا يخف على الله شيء في الأرض و لا في السماء فطرفه المقابل له أعنى عدم الاستخفاء أيضا أمر اضطرارى غير مقدور، و اذا كان غير مقدور لم يتعلق به لوم و لا- تعبير كما هو ظاهر الآية. لكن الظاهر أن الاستخفاء كناية عن الاستحياء و لذلك قيد قوله «وَلَا يَسْتَتْفُونَ مِنَ اللَّهِ» (أولا) بقوله «وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ» فدل على أنهم كانوا يدبرون الحيله ليلا- للتبري من هذه الخيانه المذمومه، و يبيئون في ذلك قولا- لا- يرضى به الله سبحانه، ثم قيده (ثانيا) بقوله «وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا» و دل على إحاطته تعالى بهم في جميع الأحوال و منها حال الجرم الذي أجرموه، و التقييد بهذين القيدين أعنى قوله «وَهُوَ مَعَهُمْ»، و قوله «وَكَانَ اللَّهُ»، تقييد بالعام بعد الخاص، و هو في الحقيقة تعلييل لعدم استخفائهم من الله بعله خاصه ثم باخرى عامه.

قوله تعالى: هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (الآية)؛ بيان لعدم الجدوى في الجدل عنهم، و أنهم لا ينتفعون بذلك في صوره الاستفهام و المراد أن الجدل عنهم لو نفعهم فإنما ينفعهم في الحياه الدنيا، و لا قدر لها عند الله، و أما الحياه الاخرويه التي لها عظيم القدر عند الله أو ظرف الدفاع فيها يوم القيامة فلا مدافع هناك عن الخائنين و لا مجادل عنهم بل لا وكيل لهم يومئذ يتكفل تدبير امورهم و إصلاح شئونهم.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ (الآية)؛ في ترغيب و حث لأولئك الخائنين أن يرجعوا الى ربهم بالاستغفار، و الظاهر أن الترديد بين السوء و ظلم النفس، و التدرج من السوء الى الظلم لكون المراد بالسوء التعدي على الغير، و بالظلم

التعدى على النفس، أو أن السوء أهون من الظلم كالمعصيه الصغيره بالنسبه الى الكبيره، و الله أعلم.

و هذه الآيه و الآيتان بعدها جميعا كلام مسوق لغرض واحد، و هو بيان أمر الإثم الذى يكسبه الإنسان بعمله، يتكفل كل واحده من الآيات الثلاث بيان جهه من جهاته، فالآيه الاولى تبين أن المعصيه التى يقترفها الانسان فيتأثر بتبعاتها نفسه، و تكتب فى كتاب أعماله، للعبد أن يتوب الى الله منها و يستغفره فلو فعل ذلك وجد الله عفورا رحيمًا.

و الآيه الثانيه تذكر الانسان أن الإثم الذى يكسبه إنما يكسبه على نفسه و ليس بالذى يمكن أن يتخطاه و يلحق غيره برمى أو افتراء و نحو ذلك.

و الآيه الثالثه توضح أن الخطيئه أو الاثم الذى يكسبه الانسان لو رمى به بريئا غيره كان الرمى به إثما آخر وراء أصل الخطيئه أو الاثم.

قوله تعالى: وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا قد تقدم أن الآيه مرتبطه مضمونا بالآيه التاليه المتعرضه للرمى بالخطيئه و الاثم فهذه كالمقدمه لتلك، و على هذا فقوله «فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ» مسوق لقصر التعيين، و فى الآيه عظه لمن يكسب الإثم ثم يرمى به بريئا غيره. و المعنى -و الله أعلم-: أنه يجب على من يكسب إثما أن يتذكر أن ما يكسبه من الإثم فإنما يكسبه على نفسه لا على غيره، و أنه هو الذى فعله لا غيره و إن رماه به أو تعهد له من أن يحمل إثمه و كان الله عليما يعلم أنه فعل هذا الكاسب، و أنه الذى فعله لا غيره المرمى به، حكيما لا يؤاخذ بالإثم إلا آثمه، و بالوزر غير وازرتها كما قال تعالى: لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (البقره ٢٨٦)، و قال وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (الأنعام ١٦٤)، و قال: وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَ لْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَ مَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (العنكبوت ١٢).

قوله تعالى: وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَزِمْ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا، قال الراغب في المفردات: إن من أراد شيئاً فاتفق منه غيره يقال:

أخطأ و إن وقع منه كما أراده يقال: أصاب، و قد يقال لمن فعل فعلاً لا يحسن أو أراد إرادته لا تجمل: إنه أخطأ. و لهذا يقال: أصاب الخطأ، و أخطأ الصواب، و أصاب الصواب، و أخطأ الخطأ. و هذه اللفظه مشتركة كما ترى، متردده بين معان يجب لمن يتحرى الحقائق أن يتأملها.

قال: و الخطيئة و السيئة تتقاربان لكن الخطيئة أكثر ما تقال فيما لا يكون مقصوداً إليه في نفسه بل يكون القصد سبباً لتولد ذلك الفعل منه كمن يرمى صيداً فأصاب إنساناً، أو شرب مسكراً فجنى جنايته في سكره، و السبب سببان: سبب محذور فعله كشرب المسكر و ما يتولد عنه من الخطأ غير متجاف عنه، و سبب غير محذور كرمى الصيد، قال تعالى: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَ قَالَ تَعَالَى «وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا» فالخطيئة هاهنا هي التي لا تكون عن قصد إلى فعلها (انتهى).

و أظن أن الخطيئة من الأوصاف التي استغنى عن موصوفاتها بكثرة الاستعمال كالمصيبة و الرزية و السليقة و نحوها، و وزن فعيل يدل على اختزان الحدث و استقراره، فالخطيئة هي العمل الذي اخترن و استقر فيه الخطأ، و الخطأ الفعل الواقع الذي لا يقصده الإنسان كقتل الخطأ، هذا في الأصل، ثم وسع إلى ما لا ينبغي للإنسان أن يقصده لو كانت نفسه على سلامتها الفطرية، فكل معصية و أثر معصية من مصاديق الخطأ على هذا التوسع، و الخطيئة هي العمل أو أثر العمل الذي لم يقصده الإنسان (و لا يعد حينئذ معصية) أو لم يكن ينبغي أن يقصده (و يعد حينئذ معصية أو وبال معصية).

و لكن الله سبحانه لما نسبها في قوله «وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً» إلى الكسب كان المراد بها الخطيئة التي هي المعصية، فالمراد بالخطيئة في الآية هي التي تكون عن قصد إلى فعلها و إن كان

من شأنها أن لا يقصد إليها.

وقوله تعالى: **وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ** (الى آخر الآية)؛ السياق يدل على أن المراد بهمهم بإضلال النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو همهم أن يرضوه بالدفاع عن الذين سماهم الله تعالى في صدر الآيات بالخائنين و الجدال عنهم و على هذا فالمراد بهذه الطائفة أيضا هم الذين عدل الله سبحانه الى خطابهم بقوله **«هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»** (الآية)؛ و ينطبق على قوم أبى طعمه على ما سيجيء.

و أما قوله **«وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ»** فالمراد به بقرينه قوله بعده **«وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ»**، أن إضلال هؤلاء لا يتعدى أنفسهم و لا يتجاوزهم إليك، فهم الضالون بما هموا لأنه معصيه و كل معصيه ضلال.

و لهذا الكلام معنى آخر تقدمت الإشارة إليه في الكلام على قوله: **«وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ»** (آل عمران ٦٩) في الجزء الثالث من هذا الكتاب، لكنه لا يناسب هذا المقام.

و أما قوله **«وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ»** **«وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ»** **«وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ»**، ففيه نفى إضرارهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفيا مطلقا غير أن ظاهر السياق أنه مقيد بقوله **«وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ»**، على ان يكون جملة حاله عن الضمير في قوله **«يَضُرُّونَكَ»** و إن كان الأغلّب مقارنة الجملة الفعلية المصدره بالماضى بقى على ما ذكره النحاه، و على هذا فالكلام مسوق لنفى إضرار الناس مطلقا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في علم أو عمل.

قوله تعالى: **«وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ»**، ظاهر الكلام كما أشرنا إليه انه فى مقام التعليل لقوله **«وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ»** أو لمجموع قوله **«وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ»** و كيف كان فهذا الإنزال

والتعليم هو المانع من تأثيرهم في إضلاله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فهو الملاك في عصمته (١).

قوله تعالى: وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا امتنان على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

قوله تعالى: لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصِدْقِهِ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ قَالَ الرَّاعِبِيُّ: وَنَاجِيَتُهُ أَيْ سَارِرَتُهُ وَأَصْلُهُ أَنْ تَخْلُوَ بِهِ فِي نَجْوَاهُ مِنَ الْأَرْضِ (انتهى) فالنجوى المساره في الحديث، وربما أطلق على نفس المتناجين قال تعالى:

وَإِذْ هُمْ نَجْوَى (الاسراء ٤٧) أى متناجون.

و في الكلام أعنى قوله «لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ» عود الى ما تقدم من قوله تعالى: إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ (الآية)؛ بناء على اتصال الآيات و قد عمم البيان لمطلق المساره في القول سواء كان ذلك بطريق التبييت أو بغيره لأن الحكم المذكور و هو انتفاء الخير فيه إنما هو لمطلق المساره و إن لم تكن على نحو التبييت، و نظيره قوله «وَمَنْ يُشَاقِقِ» ، دون أن يقول: و من ينج للمشاقه، لأن الحكم المذكور لمطلق المشاقه أعم من أن يكون نجوى أولاً.

و ظاهر الاستثناء أنه منقطع، و المعنى: لكن من أمر بكذا و كذا فيه ففيما أمر به شيء من الخير، و قد سمي دعوه النجوى الى الخير أمراً و ذلك من قبيل الاستعارة، و قد عد تعالى هذا الخير الذي يأمر به النجوى ثلاثة: الصدقه، و المعروف، و الاصلاح بين الناس. و لعل أفراد الصدقه عن المعروف مع كونها من أفرادها لكونها الفرد الكامل في الاحتياج الى النجوى بالطبع، و هو كذلك غالباً.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ، تفصيل لحال النجوى بيان آخر من حيث التبعه من المثوبه و العقوبه ليتبين به وجه الخير فيما هو خير من النجوى، و عدم

ص: ٧٤١

و محصّيه أن فاعل النجوى على قسمين: (أحدهما) من يفعل ذلك ابتغاء مرضاه الله، ولا محاله ينطبق على ما يدعو الى معروف أو إصلاح بين الناس تقرّبا الى الله، وسوف يشبهه الله سبحانه بعظيم الأجر، و(ثانيهما) أن يفعل ذلك لمشاقه الرسول و اتخاذ طريق غير طريق المؤمنين و سبيلهم، و جزاؤه الإملاء و الاستدراج الإلهي ثم إصلاء جهنم و ساءت مصيرا.

قوله تعالى: وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، المشاقّه من الشق و هو القطعه المبانه من الشىء فالمشاقّه و الشقاق كونك فى شق غير شق صاحبك، و هو كناية عن المخالفه، فالمراد بمشاقه الرسول بعد تبين الهدى مخالفته و عدم إطاعته، و على هذا فقولهُ «وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ» بيان آخر لمشاقّه الرسول، و المراد بسبيل المؤمنين إطاعه الرسول فإن طاعته طاعه الله، قال تعالى: مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ (النساء ٨٠).

فسبيل المؤمنين بما هم مجتمعون على الايمان هو الاجتماع على طاعه الله و رسوله- وإن شئت فقل على طاعه رسوله- فإن ذلك هو الحافظ لوحده سبيلهم كما قال تعالى: وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ وَ مَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَ لَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَ لَا تَفَرَّقُوا (آل عمران ١٠٣) و قد تقدّم الكلام فى الآيه فى الجزء الثالث من هذا الكتاب، و قال تعالى: وَ أَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّأَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (الأنعام ١٥٣) و اذا كان سبيله سبيل التقوى، و المؤمنون هم المدعوون إليه فسبيلهم مجتمعين سبيل التعاون على التقوى كما قال تعالى:

وَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوَىٰ وَ لَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ (المائدة ٢) و الآيه- كما ترى- تنهى عن معصيه الله و شق عصا الاجتماع الاسلامى، و هو ما ذكرناه من معنى سبيل

فمعنى الآية أعنى قوله «وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ» ، يعود الى معنى قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبَرِّ وَالتَّقْوَىٰ (المجادله/٩).

وقوله «نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّى» ، أى نجره على ما جرى عليه، ونساعده على ما تلبس به من اتباع غير سبيل المؤمنين كما قال تعالى: كَلَّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (الإسراء/٢٠).

وقوله «وَنُضِلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا» عطفه بالواو يدل على أن الجميع أى توليته ما تولى و إصلاحه جهنم أمر واحد إلهى بعض أجزائه دنيوى و هو توليته ما تولى، وبعضها أخروى و هو إصلاحه جهنم و ساءت مصيرا.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ (الى آخر الآية)؛ ظاهر الآية أنها فى مقام التعليل لقوله فى الآية السابقة «نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَ نُضِلِّهِ جَهَنَّمَ» ، بناء على اتصال الآيات فالآية تدل على أن مشاقه الرسول شرك بالله العظيم، وإن الله لا يغفر أن يشرك به، وربما استفيد ذلك من قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَ سَيُحِيطُ أَعْمَالُهُمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (محمد/٣٤) فإن ظاهر الآية الثالثة أنها تعليل لما فى الآية الثانية من الأمر بطاعه الله و طاعه رسوله فيكون الخروج عن طاعه الله و طاعه رسوله كفرا لا يغفر أبدا، و هو الشرك.

والمقام يعطى أن إلحاق قوله «وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» بقوله «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» إنما هو لتتميم البيان، وإفاده عظمه هذه المعصية المشثومه أعنى مشاقه الرسول،

و قد تقدم بعض الكلام فى الآيه فى آخر الجزء الرابع من هذا الكتاب.

قوله تعالى: **إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا** الأناث جمع أنثى يقال: أنث الحديد أنثا أى انفعل و لان، و أنث المكان أسرع فى الانبات و جاد، ففيه معنى الانفعال و التأثر، و بذلك سميت الانثى من الحيوان أنثى و قد سميت الأصنام و كل معبود من دون الله إناثا لكونها قابلات منفعلات ليس فى وسعها أن تفعل شيئا مما يتوقعه عباده منها- كم قيل- قال تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَ لَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ **إِنْ يَسْأَلُهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا** لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَ الْمَطْلُوبِ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ **إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** (الحج / ٧٤) و قال: **وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ وَ لَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا وَ لَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَ لَا حَيَاةً وَ لَا نُشُورًا** (الفرقان / ٣).

فالظاهر أن المراد بالانوثه الانفعال المحض الذى هو شأن المخلوق اذا قيس الى الخالق عز اسمه، و هذا الوجه أولى مما قيل: إن المراد هو اللات و العزى و منات الثالثه و نحوها، و قد كان لكل حى صنم يسمونه أنثى بنى فلان إما لتأنيث أسمائها أو لأنها كانت جمادات و الجمادات تؤنث فى اللفظ.

و وجه الأولويه أن ذلك لا يلائم الحصر الواقع فى قوله **«إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا»** كثير ملاءمه، و بين من يدعى من دون الله من هو ذكر غير أنثى كعيسى المسيح و برهما و بوذا.

قوله تعالى: **وَ إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا** المرید هو العارى من كل خير أو مطلق العارى، قال البيضاوى: المارد و المرید الذى لا يعلق بخير، و أصل التركيب للملامسه، و منه صرح ممرّد، و غلام أمرّد، و شجره مرداء للتى تناثر ورقها (انتهى).

و الظاهر أن الجملة بيان للجملة السابقه فإن الدعوه كناية عن العباده لكون العباده إنما نشأت بين الناس للدعوه على الحاجه، و قد سمى الله تعالى الطاعه عباده قال تعالى: **أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَ أَنْ اعْبُدُونِي** (يس /

٦١) فيؤول معنى الجملة الى أن عبادتهم لكل معبود من دون الله عباده و دعوه منهم للشيطان المرید لكونها طاعه له.

قوله تعالى: لَعَنَهُ اللَّهُ اللعن هو الابعاد عن الرحمه، و هو وصف ثان لشيطان و بمنزله التعليل للوصف الأول.

قوله تعالى: وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا كأنه إشاره الى ما حكاه الله تعالى عنه من قوله: فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (ص ٨٣) و فى قوله «مِنْ عِبَادِكَ» تقرير أنهم مع ذلك عباده لا ينسلخون عن هذا الشأن، و هو ربهم يحكم فيهم بما شاء.

قوله تعالى: وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ وَ لَأَمْتِنَنَّاهُمْ (الى آخر الآيه)؛ التبتيل هو الشق، و ينطبق على ما نقل: أن عرب الجاهليه كانت تشق آذان البهائم و السوائب لتحريم لحومها.

و هذه الامور المعدوده جميعها ضلال فذكر الاضلال معها من قبيل ذكر العام ثم ذكر بعض أفراده لعنايه خاصه به، يقول: لأضلنهم بالاشتغال بعباده غير الله و اقتراف المعاصي، و لأغرنهم بالاشتغال بالآمال و الأمانى التى تصرفهم عن الاشتغال بواجب شأنهم و ما يهتمهم من أمرهم، و لأمرنهم بشق آذان الأنعام و تحريم ما أحل الله سبحانه، و لأمرنهم بتغيير خلق الله و ينطبق على مثل الاخصاء و أنواع المثلثه و اللواط و السحق.

و ليس من البعيد أن يكون المراد بتغيير خلق الله الخروج عن حكم الفطره و ترك الدين الحنيف، قال تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ (الروم ٣٠).

ثم عد تعالى دعوه الشيطان و هى طاعته فيما يأمر به اتخاذا له و ليا فقال «وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرًا مُبِينًا» و لم يقل: و من يكن الشيطان له و ليا اشعارا بما تشعر به الآيات السابقه أن الولي هو الله، و لا و لايه لغيره على شىء و ان اتخذته و ليا.

قوله تعالى: يَعِدُّهُمْ وَيُؤْمِنُهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ظاهر السياق أنه تعليل لقوله في الآية السابقة «فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا» و أى خسران أبين من خسران من يبدل السعادة الحقيقية و كمال الخلقه بالمواعيد الكاذبه و الأمانى الموهومه، قال تعالى:

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعِهِ يَخْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَ وَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (النور ٣٩).

أما المواعيد فهى الوسوس الشيطانية بلا واسطه، و أما الأمانى فهى المتفرعه على وسوسه مما يستلذه الوهم من المتخيلات، و لذلك قال «وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا» فعد الوعد غرورا دون التمنيه على ما لا يخفى.

ثم بين عاقبه حالهم بقوله «أُولَئِكَ مَاؤَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ لَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا» أى معدلا و مفر من «حاص» اذا عدل.

ثم ذكر ما يقابل حالهم و هو حال المؤمنين تتيما للبيان فقال تعالى «وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ» (الى آخر الآية) و فى الآيات التفات من سياق التكلم مع الغير الى الغيبه، و الوجه العام فيه الإيماء الى جلاله المقام و عظمته بوضع لفظ الجلاله موضع ضمير المتكلم مع الغير فيما يحتاج الى هذا الاشعار حتى اذا استوفى الغرض رجع الى سابق السياق الذى كان هو الاصل، و ذلك فى قوله «سَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ» و فى ذلك نكته أخرى، و هى الإيماء الى قرب الحضور و عدم احتجابه تعالى عن عباده المؤمنين و هو وليهم.

قوله تعالى: وَغِيَدَ اللَّهُ حَقًّا وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا فيه مقابله لما ذكر فى وعد الشيطان أنه ليس إلا غرورا فكان وعد الله حقا، و قوله صدقا.

قوله تعالى: لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَ لَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ عود الى بدء الكلام و بمنزله النتيجة المحصله الملخصه من تفصيل الكلام، و ذلك أنه يتحصل من المحكى من أعمال بعض المؤمنين و أقوالهم، و إلحاحهم على النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن يراعى جانبهم، و يعاضدهم

و يساعدهم على غيرهم فيما يقع بينهم من النزاع و المشاجره أنهم يرون أن لهم بإيمانهم كرامه على الله سبحانه و حقا على النبي صلى الله عليه و آله و سلم يجب به على الله و رسوله مراعاة جانبهم، و تغليب جهتهم على غيرهم على الحق كانوا أو على الباطل، عدلا كان الحكم أو ظلما على حد ما يراه أتباع أئمة الضلال، و حواشى رؤساء الجور و بطائنتهم و أذنانهم، فالواحد منهم يمتن على متبوعه و رئيسه فى عين أنه يخضع له و يطيعه، و يرى أن له عليه كرامه تلتزمه على مراعاة جانبه و تقديمه على غيره تحكما.

و كذا كان يراه أهل الكتاب على ما حكاه الله تعالى فى كتابه عنهم قال تعالى: **وَ قَالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ** (المائدة/١٨)، و قال تعالى: **وَ قَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا** (البقره/١٣٥)، و قال تعالى: **قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ** (آل عمران/٧٥).

فرد الله على هذه الطائفة من المؤمنين فى مزعمتهم، و أتبعهم بأهل الكتاب و سمى هذه المزاعم بالأمانى استعاره لأنها كالأمانى ليست إلا صورا خياليه ملذه لا أثر لها فى الأعيان فقال: ليس بأمانىكم معاشر المسلمين أو معشر طائفه من المسلمين و لا بأمانى أهل الكتاب بل الأمر يدور مدار العمل إن خيرا فخير و إن شرا فشر، و قدّم ذكر السيئه على الحسنه لان عمدته خطئهم كانت فيها.

قوله تعالى: **مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَ لَا نَصِيراً جِئَءَ فِي الْكَلَامِ** بالفصل من غير وصل لانه فى موضع الجواب عن سؤال مقدر، تقديره: اذا لم يكن الدخول فى حمى الاسلام و الايمان يجر للانسان كل خير، و يحفظ منافعه فى الحياه، و كذا اليهوديه و النصرانيه فما هو السبيل؟ و الى ما ذا ينجر حال الانسان؟ فقيل «مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَ لَا نَصِيراً وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ» الخ.

وقوله «مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ» مطلق يشمل الجزاء الدنيوى الذى تقرره الشريعة الاسلاميه كالقصاص للجاني، و القطع للشارق، و الجلد أو الرجم للزانى الى غير ذلك من أحكام السياسات و غيرها و يشمل الجزاء الاخرى الذى أوعده الله تعالى فى كتابه، و بلسان نبيه.

و هذا التعميم هو المناسب لمورد الآيات الكريمة و المنطبق عليه، و قد ورد فى سبب النزول أن الآيات نزلت فى سرقة ارتكبتها بعض، و رمى بها يهوديا أو مسلما ثم أحووا على النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن يقضى على المتهم.

وقوله «وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا» يشمل الولي و النصير فى صرف الجزاء السيئ عنه فى الدنيا كالنبى صلى الله عليه و آله و سلم أو ولي الأمر و كالتقرب منهما و كرامه الاسلام و الدين، فالجزاء المشرّع من عند الله لا يصرفه عن عامل السوء صارف، و يشمل الولي و النصير الصارف عنه سوء الجزاء فى الآخرة إلا ما تشمله الآيه التاليه.

قوله تعالى: «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ فِيهَا شَيْئًا هَذَا هُوَ الشَّقِ الثَّانِي الْمَتَضَمِّنُ لِحُجَّتِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَهُوَ الْجَنَّةُ، غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ شَرْطٌ فِيهِ شَرْطًا يَوْجِبُ تَضْيِيقًا فِي فِعْلِيهِ الْجَزَاءِ وَ عَمَمٌ فِيهِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى تَوْجِبُ السَّعَةَ.

فشرط فى المجازاه بالجنه أن يكون الآتى بالعمل الصالح مؤمنا اذ الجزاء الحسن إنما هو بإزاء العمل الصالح و لا- عمل للكافر، قال تعالى: «وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (الأنعام ٨٨/»، و قال تعالى: «أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا (الكهف ١٠٥/).

قال تعالى: «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ» فأتى بمن التبعضيه، و هو توسعه فى الوعد بالجنه، و لو قيل: و من يعمل الصالحات-و المقام مقام الدقه فى الجزاء- أفاد أن الجنه لمن آمن

و عمل كل عمل صالح، لكن الفضل الإلهي عمم الجزء الحسن لمن آمن و أتى ببعض الصالحات فهو يتداركه فيما بقي من الصالحات أو اقترف من المعاصي بتوبه أو شفاعه كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (النساء ١١٦) و قد تقدم تفصيل الكلام في التوبه و في قوله تعالى: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ (النساء ١٧) في الجزء الرابع، و في الشفاعه في قوله تعالى: وَ اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا (البقره ٤٨) في الجزء الأول من هذا الكتاب.

و قال تعالى «مَنْ ذَكَرَ أَوْ أُذُنِي» فعمم الحكم للذكر و الانثى من غير فرق أصلا خلافا لما كانت تزعمه القدماء من أهل الملل و النحل كالهند و مصر و سائر الوثنيين أن النساء لا عمل لهن و لا ثواب لحسناتهن، و ما كان يظهر من اليهوديه و النصرانيه أن الكرامه و العزه للرجال، و أن النساء أذلاء عند الله نواقص في الخلقه خاسرات في الأجر و المثوبه، و العرب لا تعدو فيهن هذه العقائد فسوى الله تعالى بين القبيلين بقوله «مَنْ ذَكَرَ أَوْ أُذُنِي».

و لعل هذا هو السر في تعقيب قوله «فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ» بقوله «وَلَا يُظَلَّمُونَ نَقِيرًا» لتدل الجملة الأولى على أن النساء ذوات نصيب في المثوبه كالرجال، و الجملة الثانيه على أن لا فرق بينهما فيها من حيث الزيادة و النقصه كما قال تعالى: فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُذُنٍ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ (آل عمران ١٩٥).

قوله تعالى: وَ مَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُّحْسِنٌ (الى آخر الآيه) كأنه دفع لدخل مقدر، تقديره: أنه اذا لم يكن لإسلام المسلم أو لإيمان أهل الكتاب تأثير في جلب الخير إليه و حفظ منافعه و بالجملة اذا كان الإيمان بالله و آياته لا يعدل شيئا و يستوى وجوده و عدمه فما هو كرامه الاسلام؟ و ما هي مزيه الإيمان؟

فأجيب بأن كرامه الدين أمر لا يشوبه ريب، و لا يداخله شك و لا يخفى حسنه على ذى لبّ و هو قوله «وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا»، حيث قرر بالاستفهام على طريق إرسال المسلم فإن

قوله تعالى: وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ قَالَ الرَّاعِبُ:

الفتيا و الفتوى الجواب عما يشكل من الأحكام، و يقال: استفتيته فأفتاني بكذا(انتهى).

و المحصّل من موارد استعماله أنه جواب الانسان عن الامور المشكله بما يراه باجتهاد من نظره أو هو نفس ما يراه فيما يشكل بحسب النظر البدائي الساذج كما يفيدُه نسبة الفتوى إليه تعالى.

و الآيه و ان احتملت معانى شتى مختلفه بالنظر الى ما ذكره من مختلف الوجوه فى تركيب ما يتولها من قوله «وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ» الخ؛ الا أن ضم الآيه الى الآيات الناظره فى أمر النساء فى أول السوره يشهد بأن هذه الآيه انما انزلت بعد تلك.

و لازم ذلك أن يكون استفتاءهم فى النساء فى عامّه ما أحدثه الاسلام و أبدعه من أحكامهنّ مما لم يكن معهودا معروفا عندهم فى الجاهليه، و ليس الا- ما يتعلق بحقوق النساء فى الارث و الازدواج دون أحكام يتامهن و غير ذلك مما يختص بطائفه منهن دون جميعهن فان هذا المعنى انما يتكفله قوله «وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ» الخ؛ فالاستفتاء إنما كان فى ما يعم النساء بما هن نساء من أحكام الارث.

و على هذا فالمراد بما أفتاه الله فيهن فى قوله «قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ» ما بينه تعالى فى آيات أول السوره، و يفيد الكلام حينئذ ارجاع أمر الفتوى الى الله سبحانه و صرفه عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و المعنى: يسألونك ان تفتيهم فى امرهن قل: الفتوى الى الله و قد أفتاكم فيهن بما أفتى فيما انزل من آيات اول السوره.

قوله تعالى: وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ -الى قوله- وَالْمُشْتَصِّعِينَ مِنَ الْوَالِدَانِ تَقَدَّمَ أن ظاهر السياق أن حكم يتامى النساء

والمستضعفين من الولدان إنما تعرض له لآتصاله بحكم النساء كما وقع في آيات صدر السوره لا لكونه داخلا فيما استفتوا عنهن، وأنهم إنما استفتوا في النساء فحسب.

و لآزمه أن يكون قوله «وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ» معطوفا على الضمير المجرور في قوله «فِيهِنَّ» على ما جوزه الفراء و إن منع عنه جمهور النحاه، و على هذا يكون المرات من قوله «مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَأَمَىٰ النَّسَاءِ» الخ؛ الأحكام و المعانى التى تتضمنها الآيات النازله فى يتامى النساء و الولدان، المودعه فى أول السوره. و التلاوه كما يطلق على اللفظ يطلق على المعنى اذا كان تحت اللفظ، و المعنى: قل الله يفتيكم فى الأحكام التى تتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء.

و أما قوله: «اللاتى لا تؤتونهن ما كتبت لهنّ و تزعبون أن تنكحوهنّ فوصف ليتامى النساء، و فيه إشاره الى نوع حرمانهنّ، الذى هو السبب لتشريع ما شرع الله تعالى لهن من الأحكام فألغى السنّه الجائره الجاربه عليهن، و رفع الحرج بذلك عنهن، و ذلك انهم كانوا يأخذون إليهم يتامى النساء و أموالهن فإن كانت ذات جمال و حسن تزوجوا بها فاستمتعوا من جمالها و مالها، و إن كانت شوهاء دميمه لم يتزوجوا بها و عضلوهما عن التزوج بالغير طمعا فى مالها.

و من هنا يظهر (أولا): أن المراد بقوله «مَا كُتِبَ لَهُنَّ» هو الكتابه التكوينيّه و هو التقدير الإلهى فإن الصنع و الإيجاد هو الذى يحدّ للإنسان سبيل الحياه فيعين له أن يتزوج اذا بلغ مبلغه، و أن يتصرّف حرا فى ماله من المال و القنيه، فمنعه من الازدواج و التصرف فى مال نفسه منع له مما كتب الله له فى خلقه هذه الخلقه.

و (ثانيا): أن الجارّ المحذوف فى قوله «أَنْ تَنْكَحُوهُنَّ» هو لفظه «عن» و المراد الرغبه عن نكاحهن، و الإعراض عنهن لا الرغبه فى نكاحهن فإن التعرّض لذكر الرغبه عنهن هو الأنسب للإشاره الى حرمانهن على ما يدل عليه قوله قبله «لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ» ، و قوله

بعده «وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوَالِدَانِ» .

و أما قوله: وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوَالِدَانِ فمعطوف على قوله «يَتَامَى النِّسَاءِ» وقد كانوا يستضعفون الولدان من اليتامى، و يحرمونهم من الإرث معتذرين بأنهم لا يركبون الخيل، و لا يدفعون عن الحریم.

قوله تعالى: وَ أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ معطوف على محل قوله «فِيهِنَّ» و المعنى: قل الله يفتيكم أن تقوموا لليتامى بالقسط، و هذا بمنزله الإضراب عن الحكم الخاص الى ما هو أعم منه أعنى الانتقال من حكم بعض يتامى النساء و الولدان الى حكم مطلق اليتيم فى ماله و غير ماله.

قوله تعالى: وَ مَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا تذكره لهم بأن ما عزم الله عليهم فى النساء و فى اليتامى من الأحكام فيه خيرهم، و أن الله عليم به لتكون ترغيباً لهم فى العمل به لأن خيرهم فيه، و تحذيراً عن مخالفه لأن الله عليم بما يعملون.

قوله تعالى: وَ إِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَغْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا، حكم خارج عما استفتوا فيه لكنه متّصل به بالمناسبه نظير الحكم المذكور فى الآيه التاليه «وَ لَنْ تَشْتَطِبُوهَا أَنْ تَعْدِلُوا» .

و إنما اعتبر خوف النشوز و الإعراض دون نفس تحققهما لأن الصلح يتحقق موضوعه من حين تحقق العلائم و الآثار المعقبه للخوف، و السياق يدل على أن المراد بالصلح هو الصلح بغض المرأة عن بعض حقوقها فى الزوجيه أو جميعها لجلب الانس و الألفه و الموافقه، و التحفظ عن وقوع المفارقة، و الصلح خير.

و قوله: وَ أَحْضَرَتِ الْأَنْفُسَ الشُّحَّ الشح هو البخل، معناه: أن الشح من الغرائز النفسانيه التى جبلها الله عليها لتحفظ به منافعها، و تصونها عن الضيعه، فما لكل نفس من الشح هو حاضر عندها، فالمرأه تبخل بمالها من الحقوق فى الزوجيه كالكسوه و النفقه

و الفراش و الوقاع، و الرجل يبخل بالموافقه و الميل اذا احب المفارقه، و كره المعاشره، و لا جناح عليهما حينئذ ان يصلحا ما بينهما ياغماض احدهما أو كليهما عن بعض حقوقه.

ثم قال تعالى «وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» و هو موعظه للرجال ان لا يتعدوا طريق الاحسان و التقوى و ليتذكروا ان الله خبير بما يعملونه، و لا يحيفوا في المعاشره، و لا يكرهوهنّ على الغاء حقوقهن الحقه و ان كان لهن ذلك.

قوله تعالى: «وَلَنْ تَشِيءَ تَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَ لَوْ حَرَضْتُمْ بِيَانِ الْحُكْمِ الْعَدْلَ بَيْنَ النِّسَاءِ الَّذِي شَرَعَ لِهِنَّ عَلَى الرِّجَالِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي أَوَّلِ السُّورَةِ: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ (النساء ٣٤)» و كذا يومية اليه قوله في الآيه السابقه «وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا» الخ؛ فإنه لا يخلو من شوب تهديد، و هو يوجب الحيره في تشخيص حقيقه العدل بينهما، و العدل هو الوسط بين الافراط و التفريط، و من الصعب المستصعب تشخيصه، و خاصه من حيث تعلق القلوب تعلق الحب بهن فإن الحب القلبي مما لا يتطرق اليه الاختيار دائما.

فبين تعالى أن العدل بين النساء بحقيقه معناه، و هو اتخاذ حاق الوسط حقيقه مما لا يستطاع للإنسان و لو حرص عليه، و انما الذي يجب على الرجل ان لا يميل كل الميل الى احد الطرفين و خاصه طرف التفريط فيذر المرأه كالمعلقه لا هي ذات زوج فتستفيد من زوجها، و لا هي أرمله فتزوج أو تذهب لشأنها.

فالواجب على الرجل من العدل بين النساء أن يسوى بينهما عملا بإيتائهن حقوقهن من غير تطرف، و المندوب عليه أن يحسن إليهن و لا يظهر الكراهه لمعاشرتهم و لا يسىء إليهن خلقا، و كذا كانت سيره رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم.

و هذا الذيل أعنى قوله «فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ» هو الدليل على ان ليس المراد بقوله «وَلَنْ تَشِيءَ تَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَ لَوْ حَرَضْتُمْ» نفى مطلق العدل حتى ينتج

بانضمامه الى قوله تعالى «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً» (الآيه) إلغاء تعدد الأزواج في الاسلام كما قيل.

و ذلك أن الذيل يدل على أن المنفى هو العدل الحقيقي الواقعي من غير تطرف أصلا بلزوم حاق الوسط حقيقه، و أن المشرع هو العدل التقريبي عملا من غير تحرج.

على أن السنه النبويه و رواج الأمر بمرأى و مسمع من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و السيره المتصله بين المسلمين يدفع هذا التوهم.

على أن صرف قوله تعالى فى أول آيه تعدد الأزواج: فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَ ثُلَاثَ وَ رُبَاعَ (النساء/٣) الى مجرد الفرض العقلى الخالى عن المصداق ليس إلا تعميمه يجعل عنها كلامه سبحانه.

ثم قوله: وَ إِنْ تَضَلُّوا فَانظُرُوا إِلَى اللَّهِ كَمَا كَانَ غُفُورًا رَحِيمًا تأكيد و ترغيب للرجال فى الإصلاح عند بروز امارات الكراهه و الخلاف بيان أنه من التقوى، و التقوى يستتبع المغفره و الرحمه، و هذا بعد قوله «وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ»، و قوله «وَ إِنْ تَحْسَبُوا وَ تَتَّقُوا» ، تأكيد على تأكيد.

قوله تعالى: وَ إِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ، أى و إن تفرق الرجل و المرأه بطلاق يغن الله كلا منهما بسعته، و الإغناء بقريته المقام إغناء فى جميع ما يتعلق بالازدواج من الايتلاف و الاستيناس و المس و كسوه الزوجه و نفقتها فإن الله لم يخلق أحد هذين الزوجين للآخر حتى لو تفرقا لم يوجد للواحد منهما زوج مدى حياته بل هذه السنه سنه فطريه فاشيه بين أفراد هذا النوع يميل إليها كل فرد بحسب فطرته.

و قوله: وَ كَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ تعليلا للحكم المذكور فى قوله «يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ» .

قوله تعالى: وَ لَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ إِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا

اللَّهِ، تأكيد في دعوتهم الى مراعاة صفه التقوى في جميع مراحل المعاشرة الزوجيه، و في كل حال، و أن في تركه كفرًا بنعمه الله بناء على أن التقوى الذي يحصل بطاعه الله ليس إلا شكرًا لأنعمه، أو أن ترك تقوى الله تعالى لا منشأ له إلا الكفر إما كفر ظاهر كما في الكفار و المشركين، أو كفر مستكن مستبطن كما في الفساق من المؤمنين.

و بهذا الذي بيناه يظهر معنى قوله «وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ»، أي إن لم تحفظوا ما وصينا به إياكم و الذين من قبلكم و أضعتم هذه الوصيه و لم تتقوا و هو كفر بالله، أو عن كفر بالله فإن ذلك لا يضر الله سبحانه إذ لا حاجة له إليكم و الى تقواكم، و له ما في السماوات و الارض، و كان الله غنيا حميدا.

فإن قلت: ما وجه تكرار قوله «لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ»؟ فقد أورد ثلاث مرات.

قلت: أما الأول فإنه تعليل لقوله «وَ كَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا»، و أما الثاني فإنه واقع موقع جواب الشرط في قوله «وَ إِنْ تَكْفُرُوا»، و التقدير: و إن تكفروا فإنه غني عنكم، و تعليل للجواب و قد ظهر في قوله «وَ كَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا».

و أما الثالث فإنه استيناف و تعليل بوجه لقوله «إِنْ يَشَأْ».

قوله تعالى: «وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا» قد مر بيان معنى ملكه تعالى مكررا، و هو تعالى و كيل يقوم بامور عباده و شئونهم و كفى به و كيلا لا يحتاج فيه الى اعتضاد و اسعاد، فلو لم يرتض أعمال قوم و أسخظه جريان الأمر بأيديهم أمكنه أن يذهب بهم و يأتي بآخرين، أو يؤخرهم و يقدم آخرين، و بهذا المعنى الذي يؤيده بل يدل عليه السياق يرتبط بما في هذه الآيه قوله في الآيه التاليه «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَهْلَهَا النَّاسُ».

قوله تعالى: «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَهْلَهَا النَّاسُ وَ يَأْتِ بآخَرِينَ»، السياق و هو

الدعوه الى ملازمه التقوى الذى أوصى الله به هذه الامه و من قبلهم من أهل الكتاب يدل على أن اظهار الاستغناء و عدم الحاجه المدلول عليه بقوله «إِنْ يَشَأْ»، إنما هو فى أمر التقوى.

و المعنى أن الله و صاكن جميعا بملازمه التقوى فاتقوه، و ان كفرتم فإنه غنى عنكم، و هو المالك لكل شىء المتصرف فيه كيفما شاء و لما شاء ان يشأ أن يعبد و يتقى و لم تقوموا بذلك حق القيام فهو قادر أن يؤخركم و يقدم آخرين يقومون لما يحبه و يرتضيه، و كان الله على ذلك قديرا.

و على هذا فالآيه ناظره الى تبديل الناس ان كانوا غير متقين بآخرين من الناس يتقون الله، و قد روى (١) أن الآيه لما نزلت ضرب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يده على ظهر سلمان و قال: انهم قوم هذا. و هو يؤيد هذا المعنى، و عليك بالتدبر فيه.

قوله تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا بيان آخر يوضح خطأ من يترك تقوى الله و يضيع وصيته بأنه ان فعل ذلك ابتغاء ثواب الدنيا و مغنمها فقد اشتبه عليه الأمر فإن ثواب الدنيا و الآخرة معا عند الله و بيده، فماله يقصر نظره باخس الأمرين و لا يطلب اشرفهما أو اياهما جميعا؟ كذا قيل.

و الأظهر أن يكون المراد -و الله أعلم- أن ثواب الدنيا و الآخرة و سعادتهما معا إنما هو عند الله سبحانه فليقترب إليه حتى من أراد ثواب الدنيا و سعادتها فإن السعاده لا توجد للإنسان فى غير تقوى الله الحاصل بدينه الذى شرعه له فليس الدين إلا طريق السعاده الحقيقيه، فكيف ينال نائل ثوابا من غير إيتائه تعالى و إفاضته من عنده و كان الله سميعا بصيرا (٢).

ص: ٧٧٨

١-١). أو ردها البيضاوى فى تفسيره.

٢-٢). النساء ١٢٧-١٣٤: بحث روائى فى: تقاليد الجاهليه حول حرمان النساء و الاطفال من الارث؛ نشوز الرجال؛ مراعاة العدالة بين النساء.

إشارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلِذَاتِ أَلْفِئَةٍ مِّنْكُمْ أَوْ لِوَالِدَيْكُمْ أَوْ لِلدِّينِ وَأَلْيَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا
فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُّوا أَوْ تَغْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانِ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ القسط هو العدل، والقيام بالقسط العمل به والتحفظ له، فالمراد بالقوامين بالقسط القائمون به أتم قيام وأكمل، من غير انعطاف وعدول عنه الى خلافه لعامل من هوى وعاطفه أو خوف أو طمع أو غير ذلك.

وهذه الصفة اقرب العوامل وأتم الأسباب لاتباع الحق وحفظه عن الضيعة، ومن فروعها ملازمه الصدق في أداء الشهادة والقيام بها.

ومن هنا يظهر ان الابتداء بهذه الصفة في هذه الآية المسوقة لبيان حكم الشهادة ثم ذكر صفة الشهادة من قبيل التدرج من الوصف العام الى بعض ما هو متفرع عليه كأنه قيل: كونوا شهداء لله، ولا يتيسر لكم ذلك إلا بعد أن تكونوا قوامين بالقسط فكونوا قوامين بالقسط حتى تكونوا شهداء لله.

وقوله: شُهَدَاءَ لِلَّهِ اللام فيه للغايه أى كونوا شهداء تكون شهادتكم لله كما قال تعالى: وَ أَفِيْمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ (الطلاق ٢) ومعنى كون الشهادة لله كونها اتباعا للحق ولأجل إظهاره وإحيائه كما يوضحه قوله «فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا» .

قوله تعالى: **وَلَوْ عَلِمَ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْمَأْقَرِينَ** أى و لو كانت على خلاف نفع أنفسكم أو والديكم أو أقربائكم فلا يحملنكم حب منافع أنفسكم أو حب الوالدين والأقربين أن تحرفوها أو تتركوها، فالمراد بكون الشهادة على النفس أو على الوالدين والأقربين أن يكون ما تحمله من الشهادة لو أدى مضراً بحاله أو بحال والديه وأقربيه سواء كان المتضرر هو المشهود عليه بلا- واسطه كما اذا تخاصم أبوه و إنسان آخر فشهد له على أبيه، أو يكون المتضرر مع الواسطه كما اذا تخاصم اثنان و كان الشاهد متحماً لاحدهما ما لو أذاه لتضرر به نفس الشاهد أيضا- كالمتخاصم الآخر-.

قوله تعالى: **إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا** إرجاع ضمير التثنيه الى الغنى و الفقير مع وجود «أو» التريدييه لكون المراد بالغنى و الفقير هو المفروض المجهول الذى يتكرر بحسب وقوع الوقائع و تكررها فيكون غنيا فى واقعه، و فقيرا فى اخرى، فالترديد بحسب فرض البيان و ما فى الخارج تعدد، كذا ذكره بعضهم، فالمعنى أن الله أولى بالغنى فى غناه، و بالفقير فى فقره: و المراد-و الله أعلم-: لا- يحملنكم غنى الغنى أن تميلوا عن الحق إليه، و لا فقر الفقير أن تراعوا حاله بالعدول عن الحق بل أقيموا الشهاده لله سبحانه ثم خلوا بينه و بين الغنى و الفقير فهو أولى بهما و أرحم بحالهما، و من رحمته أن جعل الحق هو المتبع واجب الاتباع، و القسط هو المندوب الى إقامته، و فى قيام القسط و ظهور الحق سعادته النوع التى يقوم بها صلب الغنى، و يصلح بها حال الفقير.

و الواحد منهما و إن انتفع بشهادته محرّفه أو متروكه فى شخص واقعه أو وقائع لكن ذلك لا يلبث دون أن يضعف الحق و يमित العدل، و فى ذلك قوه الباطل و حياه الجور و الظلم، و فى ذلك الداء العضال و هلاك الإنسانيه.

قوله تعالى: **فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا**، أى مخافه أن تعدلوا عن الحقّ و القسط باتباع الهوى و ترك الشهاده لله فقوله «أَنْ تَعْدِلُوا» مفعول لاجله و يمكن أن يكون مجرورا

بتقدير اللام متعلقا بالاتباع أى لأن تعدلوا.

قوله تعالى: وَإِنْ تُلُوتُوا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا اللى بالشهادة كناية عن تحريفها من لى اللسان. و الإعراض ترك الشهادة من رأس.

وقرى «و إن تلوا» بضم اللام و إسكان الواو من ولى و لايه، و المعنى: و إن وليتم أمر الشهادة و أتيتم بها أو أعرضتم فإن الله خير بأعمالكم يجازيكم بها.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٣٦ الى ١٤٧]

إشارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ إِذْ دَاوُا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَمَّا عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمُ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَمَّا تَرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رَسُولِهِ﴾ أمر المؤمنين بالايان ثانيا بقريانه التفصيل فى متعلق الايمان الثانى اعنى قوله «بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ» الخ؛ و ايضا بقريانه الإيعاد و التهديد على ترك الايمان بكل واحد من هذا التفصيل إنما هو امر ببسط المؤمنين إجمال إيمانهم على تفاصيل هذه الحقائق فإنها معارف مرتبطه بعضها ببعض، مستلزمه بعضها لبعض، فالله سبحانه لا- إله إلا- هو له الأسماء الحسنى و الصفات العليا، و هى الموجبه لأن يخلق خلقا و يهديهم الى ما يرشدهم و يسعدهم ثم يعثهم ليوم الجزاء، و لا- يتم ذلك إلا- بإرسال رسل مبشرين و منذرين، و إنزال كتب تحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، و تبين لهم معارف المبدأ و المعاد، و اصول الشرائع و الأحكام.

فالإيمان بواحد من حقائق هذه المعارف لا يتم الا مع الإيمان بجميعها من غير استثناء، و الرد لبعضها مع الأخذ ببعض آخر كفر لو اظهر، و نفاق لو كنتم و اخفى، و من النفاق ان يتخذ المؤمن مسيرا ينتهى به الى رد بعض ذلك، كأن يفارق مجتمع المؤمنين و يتقرب الى مجتمع الكفار و يواليهم، و يصدقهم فى بعض ما يرمون به الإيمان و أهله، أو يعترضوا أو يستهزءون به الحق و خاصته، و لذلك عقب تعالى هذه الآيه بالتعرض لحال المنافقين و وعيدهم بالعذاب الأليم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ لما كان الشطر الأول من الآيه اعنى قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ الى قوله- «مَنْ قَبْلُ» دعوه الى الجمع بين جميع ما ذكر فيه بدعوى ان اجزاء هذا المجموع مرتبطه غير مفارق بعضها بعضا كان هذا التفصيل ثانيا فى معنى الترديد و المعنى: و من يكفر بالله أو

الرسول و ظهور الآيات البينات، فهو رده عنادا و لجاجا، و الازدياد فيه لا يكون إلا مع استقرار العناد و العتو في قلوبهم، و تمكن الطغيان و الاستكبار في نفوسهم، و لا يتحقق الرجوع و التوبه ممن هذا حاله عادة.

هذا ما يقتضيه سياق الآية لو أخذت وحدها كما تقدم، لكن الآيات جميعا لا تخلو عن ظهور ما أو دلالة على كونها ذات سياق واحد متصلا بعضها ببعض، و على هذا التقدير يكون قوله «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا»، في مقام التعليل لقوله «وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ - إِلَى قَوْلِهِ - فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا» و يكون الآيتان ذواتى مصداق واحد أى إن من يكفر بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر هو الذى آمن ثم كفر ثم آمن ثم كفر ثم ازداد كفرا، و يكون أيضا هو من المنافقين الذين تعرّض تعالى لهم فى قوله بعد «بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» إلى آخر الآيات.

قوله تعالى: بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْحَيْهَةَ؛ تهديد للمنافقين، و قد وصفهم بموالاه الكافرين دون المؤمنين، و هذا وصف اعم مصداقا من المنافقين الذين لم يؤمن قلوبهم، و انما يتظاهرون بالايمان فإن طائفه من المؤمنين لا يزالون مبتلين بموالاه الكفار، و الانقطاع عن جماعه المؤمنين، و الاتصال بهم باطنا و اتخاذ الوليجه منهم حتى فى زمن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم.

و هذا يؤيد بعض التأييد أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين طائفه من المؤمنين يتخذون الكافرين اولياء من دون المؤمنين، و يؤيده ظاهر قوله فى الآية اللاحقه «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ - إِلَى قَوْلِهِ - إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ» فإن ذلك تقرير لتهديد المنافقين، و الخطاب فيه للمؤمنين، و يؤيده ايضا ما سيصف تعالى حالهم فى نفاقهم بقوله «وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا» فأثبت لهم شيئا من ذكر الله تعالى، و هو بعيد الانطباق على المنافقين الذين لم يؤمنوا بقلوبهم قط.

قوله تعالى: أَلَيْسَ لَكَ عِزَّةٌ مِّمَّنْ تَشَاءُ وَتُنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ (آل عمران ٢٦).

قوله تعالى: وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ -إلى قوله- مِثْلَهُمْ يريد ما نزله في سورة الانعام: وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (الأنعام ٦٨) فإن سورة الأنعام مكيهه، و سورة النساء مدنيه.

و يستفاد من اشاره الآيه الى آيه الأنعام ان بعض الخطابات القرآنيه وجه الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصه، و المراد بها ما يعم الامه.

و قوله: إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ تعليل للنهى اى بما نهيناكم لأنكم اذا قعدتم معهم -و الحال هذه- تكونون مثلهم، و قوله «إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ» .

قوله تعالى: الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ لُكْمٌ فَتَحَّ مِنَ اللَّهِ التَّرَبُّصُ:

الانتظار. و الاستحواذ: الغلبه و التسلط، و هذا وصف آخر لهؤلاء المنافقين فإنهم انما حفظوا رابطته الاتصال بالفريقين جميعا: المؤمنين و الكافرين، يستدرون الطائفتين و يستفيدون ممن حسن حاله منهما، فإن كان للمؤمنين فتح قالوا: انا كنا معكم فليكن لنا سهم مما أوتيتموه من غنيمه و نحوها، و ان كان للكافرين نصيب قالوا: لم نغلبكم و منعكم من المؤمنين؟ اى من الايمان بما آمنوا به و الاتصال بهم فلنا سهم مما أوتيتموه من النصيب أو منه عليكم حيث جررنا إليكم النصيب.

قوله تعالى: فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا الْخَطَابِ لِلْمُؤْمِنِينَ و إن كان ساريا الى المنافقين و الكافرين جميعا، و أما

قوله «وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ» فمعناه أن الحكم يومئذ للمؤمنين على الكافرين، و لن ينعكس الأمر أبداً، وفيه إياس للمنافقين، أى ليأس هؤلاء المنافقون فالغلبه للمؤمنين على الكافرين بالأخره.

و يمكن أن يكون نفى السبيل أعم من النشاطين: الدنيا والآخرة، فإن المؤمنين غالبون بإذن الله دائماً ما داموا ملتزمين بلوازم إيمانهم، قال تعالى: وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (آل عمران ١٣٩).

قوله تعالى: إِنَّ الْمُتَدَابِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ المخادعه هي الإكثار أو التشديد في الخدعه بناء على أن زياده المباني تدل على زياده المعاني.

وقوله «وَهُوَ خَادِعُهُمْ» في موضع الحال أى يخادعون الله في حال هو يخدعهم و يؤول المعنى الى أن هؤلاء يريدون بأعمالهم الصادره عن النفاق من إظهار الإيمان، و الاقتراب من المؤمنين، و الحضور في محاضرهم و مشاهدتهم أن يخادعوا الله أى النبى صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين فيستدرّوا منهم بظاهر ايمانهم و أعمالهم من غير حقيقه، و لا يدرون أن هذا الذى خلى بينهم و بين هذه الأعمال و لم يمنعهم منها هو الله سبحانه، و هو خدعه منه لهم و مجازاه لهم بسوء نياتهم و خباثه أعمالهم، فخدعتهم له بعينها خدعته لهم.

قوله تعالى: وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالٍ يُرَآؤُنَ النَّاسَ وَ لَا يُذْكَرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا هذا وصف آخر من أوصافهم و هو القيام الى الصلاه-اذا قاموا إليها-كسالى يراءون الناس، و الصلاه أفضل عباده يذكر فيها الله، و لو كانت قلوبهم متعلقه بربهم مؤمنه به لم يأخذهم الكسل و التوانى فى التوجه إليه و ذكره، و لم يعملوا عملهم لمرءاه الناس، و لذكروا الله تعالى كثيراً على ما هو شأن تعلق القلب و اشتغال البال.

قوله تعالى: مُذْذِيذِينَ بَيْنَ ذَاتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، قال فى المجمع: يقال: ذبذبت فذبذب أى حركته فتحرك فهر كتحريك شىء معلق (انتهى). فكون

الشيء مذنباً ان يتردد بين جانبيين من غير تعلق بشيء منهما، وهذا نعت المنافقين، يتذبذبون بين ذلك-اي الذى ذكر من الايمان و الكفر-لا الى هؤلاء اى لا الى المؤمنين فقط كالمؤمنين بالحقيقه، و لا الى الكفار فقط كالكافرين محضاً.

□
و قوله: وَ مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا فى مقام التعليل لما سبقه من حديث الذذبذبه، فسبب ترددهم بين الجانبيين من غير تعلق بأحدهما ان الله اضلهم عن السبيل فلا سبيل لهم يردونه.

و لهذه العله بعينها قيل «مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ» و لم يقل: متذبذبين اى القهر الالهى هو الذى يجر لهم هذا النوع من التحريك الذى لا ينتهى الى غايه ثابتة مطمئنه.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ (الى آخر الآيتين) السلطان هو الحجه، و الدرک بفتحيتين -و قد يسكن الراء-قال الراغب: الدرک كالدرج لكن الدرج يقال اعتباراً بالصعود، و الدرک اعتباراً بالحدور، و لهذا قيل: درجات الجنه و دركات النار، و لتصور الحدور فى النار سميت هاويه (انتهى).

و الآيه- كما ترى- تنهى المؤمنين عن الاتصال بولايه الكفار و ترك ولايه المؤمنين، ثم الآيه الثانيه تعلل ذلك بالوعيد الشديد المتوجه الى المنافقين، و ليس الا ان الله سبحانه يعد هذا الصنيع نفاقاً يحذر المؤمنون من الوقوع فيه.

و السياق يدل على ان قوله «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا»، كالتتيجه المستنتجه مما تقدم أو الفرع المتفرع عليه، و هذا كالصريح فى ان الآيات السابقه انما تتعرض لحال مرضى القلوب و ضعفاء الايمان من المؤمنين و يسميهم المنافقين، و لا أقل من شمولها لهم، ثم يعظ المؤمنين ان لا يقربوا هذا الحمى و لا يتعرضوا لسخط الله، و لا يجعلوا الله تعالى على انفسهم حجه واضحه فيضلهم و يخدعهم و يذبذبهم فى الحياه الدنيا، ثم يجمع بينهم و بين الكافرين فى جهنم جميعاً، ثم يسكنهم فى اسفل درك من النار، و يقطع بينهم و بين كل نصير ينصرهم،

و شفيع يشفع لهم.

و يظهر من الآيتين اولاً: الاضلال و الخدعه و كل سخط الهى من هذا القبيل إنما عن حجه واضحه تعطيه أعمال العباد، فهى إجزاء على طريق المقابله و المجازاه، و حاشا الجنب الإلهى أن يبدأهم بالشر و الشقوه من غير تقدم ما يوجب ذلك من قبلهم، فقوله «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا»؟ يجرى مجرى قوله: «وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ» (البقره ٢٦).

و ثانياً: أن فى النار لأهلها مراتب تختلف فى السفاله، و لا محاله يشتد بحسبها عذابهم يسميها الله تعالى بالدركات.

قوله تعالى: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ اسْتِثْنَاءً مِنَ الْوَعِيدِ الَّذِي ذَكَرَ فِي الْمُنَافِقِينَ بِقَوْلِهِ «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ» (الآيه)؛ و لازم ذلك خروجهم من جماعه المنافقين، و لحوقهم بصف المؤمنين، و لذلك ذيل الاستثناء بذكر كونهم مع المؤمنين، و ذكر ثواب المؤمنين جميعاً فقال تعالى «فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَ سَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا» .

و قد وصف الله هؤلاء الذين استثناهم من المنافقين بأوصاف عديده ثقيله، و ليست تنبت اصول النفاق و أعراقه إلا بها، فذكر التوبه و هى الرجوع الى الله تعالى، و لا ينفع الرجوع و التوب وحده حتى يصلحوا كل ما فسد منهم من نفس و عمل، و لا ينفع الإصلاح إلا- أن يعتصموا بالله أى يتبعوا كتابه و سنه نبيه صلى الله عليه و آله و سلم اذ لا سبيل الى الله إلا ما عينه و ما سوى ذلك فهو سبيل الشيطان.

و لا ينفع الاعتصام المذكور إلا اذا أخلصوا دينهم- و هو الذى فيه الاعتصام- لله، فإن الشرك ظلم لا يعفى عنه و لا يغفر، فاذا تابوا الى الله و أصلحوا كل فاسد منهم و اعتصموا بالله و أخلصوا دينهم لله كانوا عند ذلك مؤمنين لا يشوب إيمانهم شرك، فأمنوا النفاق و اهدوا قال تعالى: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ»

ص: ٧٨٩

و يظهر من سياق الآيه أن المراد بالمؤمنين هم المؤمنون محضاً المخلصون للإيمان، وقد عرفهم الله تعالى بأنهم الذين تابوا و أصلحوا و اعتصموا بالله و أخلصوا دينهم لله، و هذه الصفات تتضمن تفاصيل جميع ما عده الله تعالى فى كتابه من صفاتهم و نعوتهم كقوله تعالى: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صِلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ الى آخر الآيات (المؤمنون ٣)؛ و قوله تعالى: وَ عِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْمَأْرُضِ هَوْنًا وَ إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَيِّئًا مَا وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجْدًا وَ قِيَامًا الْآيَات (الفرقان ٦٤)؛ و قوله:

فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (النساء ٦٥).

فهذا هو مراد القرآن بالمؤمنين اذا أطلق اللفظ إطلاقاً من غير قرينه تدل على خلافه.

و قد قال تعالى «فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ» و لم يقل: فأولئك من المؤمنين لانهم بتحقيق هذه الأوصاف فيهم أول تحققها يلحقون بهم، و لن يكونوا منهم حتى تستمر فيهم الأوصاف على استقرارها، فافهم ذلك.

قوله تعالى: مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ، ظاهره أنه خطاب للمؤمنين، لأن الكلام جار على خطابهم و إنما يخاطبون بهذا الخطاب مع الغض عن إيمانهم و فرضهم كالعارى عنه على ما هو شأن مثل هذا الخطاب.

و هو كناية عن عدم حاجته تعالى الى عذابهم، و أنهم لو لم يستوجبوا العذاب بتركهم الشكر و الإيمان لم يكن من قبله تعالى ما يوجب عذابهم، لأنه لا ينتفع بعذابهم حتى يؤثره، و لا يستنصر بوجودهم حتى يدفعه عن نفسه بعذابهم، فالمعنى: لا موجب لعذابكم إن شكرتم نعمه الله بأداء واجب حقه و آمنت به و كان الله شاكراً لمن شكره و آمن به، عليماً لا يجهل مورده.

و فى الآيه دلالة على أن العذاب الشامل لأهله إنما هو من قبلهم لا من قبله، و كذا كل ما يستوجب العذاب من ضلال أو شرك أو معصيه، و لو كان شىء من ذلك من قبله تعالى لكان العذاب الذى يستتبعه أيضا من قبله لأن المسبب يستند الى من استند اليه السبب (١).

[سوره النساء (٤): الآيات ١٤٨ الى ١٤٩]

اشاره

لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَ كَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) إِنَّ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَغْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا قَدِيرًا (١٤٩)

بيان:

قوله تعالى: لا- يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا- مَنْ ظَلَمَ، قال الراغب فى ماده «الْجَهْرُ» يقال لظهور الشىء بإفراط لحاسه البصر أو حاسه السمع، أما البصر فنحو رأيتة جهارا، قال الله تعالى «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً» «أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً»- الى أن قال- و أما السمع فمنه قوله تعالى «سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ» .

و السوء من القول كل كلام يسوء من قيل فيه كالدعاء عليه، و شتمه بما فيه من المساوى و العيوب و بما ليس فيه، فكل ذلك لا يحب الله الجهر به و إظهاره، و من المعلوم أنه تعالى منزّه من الحب و البغض على حد ما يوجد فىنا معشر الإنسان و ما يجانسنا من الحيوان، إلا- أنه لما كان الأمر و النهى عندنا بحسب الطبع صادرين عن حب و بغض كنى بهما عن الإراده و الكراهه و عن الأمر و النهى.

ص: ٧٩١

(١- ١). النساء ١٣٦-١٤٧: بحث روائى فى: الايمان و الكفر؛ النهى عن الخدعه؛ المنافقين؛ الاخلاص لله تعالى و نتائجه.

فقوله «لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ» كناية عن الكراهة التشريعية أعم من التحريم والإعانة.

□
و قوله «إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ» استثناء منقطع أى لكن من ظلم لا- بأس بأن يجهر بالسوء من القول فيمن ظلمه من حيث ظلم، وهذه هي القرينة على أنه إنما يجوز له الجهر بالسوء من القول بين فيه ما ظلمه، ويظهر مساوئه التي فيه مما ظلمه به، وأما التعدى الى غيره مما ليس فيه، أو ما لا يرتبط بظلمه فلا دليل على جواز الجهر به من الآية.

و المفسرون و إن اختلفوا فى تفسير السوء من القول فمن قائل أنه الدعاء عليه، و من قائل أنه ذكر ظلمه و ما تعدى به عليه و غير ذلك إلا أن الجميع مشمول لإطلاق الآية، فلا موجب لتخصيص الكلام ببعضها.

□ □
و قوله «وَ كَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً» فى مقام التأكيد للنهى المستفاد من قوله «لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ» أى لا- ينبغى الجهر بالسوء من القول من غير المظلوم فإن الله سميع يسمع القول عليم يعلم به.

□ □
قوله تعالى: «إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا» الآية لا- تخلو عن ارتباط بما قبلها فإنها تشمل إظهار الخير من القول شكراً لنعمة أنعمها منعم على الإنسان، و تشمل العفو عن السوء و الظلم فلا يجهر على الظالم بالسوء من القول.

فإبداء الخير إظهاره سواء كان فعلاً- كإظهار الإنفاق على مستحقه و كذا كل معروف لما فيه من إعلاء كلمه الدين و تشويق الناس الى المعروف، أو كان قولاً كإظهار الشكر على المنعم و ذكره بجميل القول لما فيه من حسن التقدير و تشويق أهل النعمة.

□ □
و إخفاء الخير منصرفه إخفاء فعل المعروف ليكون أبعد من الرئاء و أقرب الى الخلوص كما قال: «إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعْمًا هِيَ وَ إِنْ تُخَفُّوهُا وَ تُؤْتُوهُا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ يُكْفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ» (البقره ٢٧١/).

و العفو عن السوء هو الستر عليه قولاً- بأن لا- يذكر ظالمه بظلمه، و لا- يذهب بماء وجهه عند الناس، و لا يجهر عليه بالسوء من القول، و فعلاً- بأن لا- يواجهه بما يقابل ما أساء به، و لا ينتقم عنه فيما يجوز له ذلك كما قال تعالى: **فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ (البقره ١٩٤)**.

و قوله «فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا» سبب أقيم مقام المسبب و التقدير: إن تعفوا عن سوء فقد اتصفتكم بصفه من صفات الله الكماله- و هو العفو على قدره- فإن الله ذو عفو على قدرته، فالجزاء جزاء بالنسبه الى بعض الشروط، و أما إبداء الخير و إخفاؤه أى إيتاؤه على أى حال فهو أيضا من صفاته تعالى بما أنه الله تعالى، و يمكن أن يلوح إليه الكلام.

[سوره النساء (٤): الآيات ١٥٠ الى ١٥٢]

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَاعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا رَحِيمًا (١٥٢)

بيان:

قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ**، هؤلاء أهل الكتاب من اليهود و النصارى فاليهود تؤمن بموسى و تكفر بيسى و محمد، و النصارى تؤمن بموسى و عيسى و تكفر بمحمد صلى الله عليهم اجمعين، و هؤلاء على زعمهم لا يكفرون بالله و ببعض رسله،

و إنما يكفرون ببعض الرسل، وقد أطلق الله عليهم أنهم كافرون بالله و رسله جميعا، و لذلك احتيج الى بيان المراد من إطلاق قوله «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ» .

□
و لذلك عطف على قوله «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ» ، قوله «وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ» بعطف التفسير و نفس المعطوف أيضا بعضه بعضه، فهم كافرون بالله و رسله لأنهم بقولهم «نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ» يريدون أن يفرقوا بين الله و رسله فيؤمنون بالله و بعض رسله، و يكفروا ببعض رسله مع كونه رسولا من الله، و الرد عليه رد على الله تعالى.

□
ثم بين ذلك بيان آخر بالعطف عليه عطف التفسير فقال: «وَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا» أى سبيلا متوسطا بين الإيمان بالله و رسله جميعا و الكفر بالله و رسله جميعا، و هو الإيمان ببعض و الكفر ببعض، و لا سبيل الى الله إلا الايمان به و برسله جميعا فإن الرسول بما أنه رسول ليس له من نفسه شيء و لا له من الأمر شيء، فالإيمان به إيمان بالله و الكفر به كفر بالله محضا. فالكفر ببعض و الإيمان بالبعض و بالله ليس إلا تفرقه بين الله و بين رسله، و إعطاء الاستقلال للرسول فيكون الإيمان به غير مرتبط بالإيمان بالله، و الكفر به غير مرتبط بالكفر به فيكون طرفا لا وسطا، و كيف يصح فرض الرسالة ممن لا يرتبط بالإيمان به و الكفر به بالإيمان بالله و الكفر به؟

فمن البين الذى لا مريه فيه أن الإيمان بمن هذا شأنه و الخضوع له شرك بالله العظيم، و لذلك ترى أنه تعالى بعد وصفهم بأنهم يريدون بالإيمان ببعض الرسل و الكفر بالبعض أن يفرقوا بين الله و رسله و يريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا- ذكر أنهم كافرون بذلك حقا فقال «أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا» ثم أوعدهم فقال «وَ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا» .

□
قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَ لَمْ يَفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، لما كفر

أولئك المفترقين بين الله ورسله، و ذكر أنهم كفرون بالله ورسله ذكر من يقابلهم بالإيمان بالله ورسله على سبيل عدم التفرقة تميماً للأقسام.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٥٣ الى ١٦٩]

إشارة

يَسْبُغُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَذُكِرُوا سَالُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ
بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ
بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤) فَمَا نَقِضْتَهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَ
كَفَرْتُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلْتُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَ
قَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَ
إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْ لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا
حَكِيمًا (١٥٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا
عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّوا وَقَدْ نُهِوا عَنْهُ وَأَكَلِهِمْ أَمْوَالَ الدَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَ
أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ
الْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢) إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا
إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَ
سُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقِصُّهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا
(١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا
أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا
بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ
ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩)

قوله تعالى: يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ، أهل الكتاب هم اليهود والنصارى على ما هو المعهود فى عرف القرآن فى أمثال هذه الموارد، و عليه فالسائل هو الطائفتان جميعا دون اليهود فحسب.

و لا ينافيه كون المظالم و الجرائم المعدوده فى ضمن الآيات مختصه باليهود كسؤال الرؤيه، و اتخاذ العجل، و نقض الميثاق عند رفع الطور و الأمر بالسجده و النهى عن العدو فى السبت و غير ذلك.

فإن الطائفتين ترجعان الى أصل واحد و هو شعب إسرائيل بعث إليهم موسى و عيسى عليهما السلام و إن انتشرت دعوه عيسى بعد رفعه فى غير بنى إسرائيل كالروم و العرب و الحبشه و مصر و غيرهم، و ما قوم عيسى بأقل ظلما لعيسى من اليهود لموسى عليهم السلام.

و لعد الطائفتين جميعا ذا أصل واحد يخص اليهود بالذكر فيما يخصهم من الجزاء حيث قال «فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ» و لذلك أيضا عد عيسى بين الرسل المذكورين بعد كما عد موسى عليه السلام بينهم و لو كان وجه الكلام الى اليهود فقط لم يصح ذلك، و لذلك أيضا قيل بعد هذه الآيات «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا

و بالجمله السائل هم أهل الكتاب جميعا و وجه الكلام معهم لاشتراكهم فى الخصيصه القوميه و هو التحكم و القول بغير الحق و المجازفه و عدم التقيد بالعهود و المواثيق، و الكلام جار معهم فيما اشتركوا فاذا اختص منهم طائفه بشىء خص الكلام به.

و الذى سألوه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم هو أن ينزل عليهم كتابا من السماء، و لم يسألوه ما سألوه قبل نزول القرآن و تلاوه عليهم كيف و القصه إنما وقعت فى المدينه و قد بلغهم من القرآن ما نزل بمكه و شطر مما نزل بالمدينه؟ بل هم ما كانوا يقنعون به دليلا- للنبوه، و لا- يعدونه كتابا سماويا مع أن القرآن نزل فيما نزل مشقعا بالتحدى و دعوى الإعجاز كما فى سور: أسرى، و يونس، و هود، و البقره النازله جميعا قبل سوره النساء.

فسؤالهم تنزيل الكتاب من السماء بعد ما كانوا يشاهدونه من أمر القرآن لم يكن إلا سؤالا جزافيا لا يصدر إلا ممن لا يخضع للحق و لا ينقاد للحقيقه و إنما يلغو و يهدو بما قدمته له أيدي الأهواء من غير أن يتقيد بقيد أو يثبت على أساس، نظير ما كانت تتحكم به قريش مع نزول القرآن، و ظهور دعوته فتقول على ما حكاه الله سبحانه عنهم: لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ (يونس ٢٠) أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ (الإسراء ٩٣).

و لهذا الذى ذكرناه أجاب الله سبحانه عن مسألتهم (أولا) بأنهم قوم متمادون فى الجهاله و الضلاله لا يابون عن أنواع الظلم و إن عظمت، و الكفر و الجحود و إن جاء البينه، و عن نقض المواثيق و إن غلظت و غير ذلك من الكذب و البهتان و أى ظلم، و من هذا شأنه لا يصلح لإجابته ما سأله و الإقبال على ما اقترحه.

و(ثانيا) أن الكتاب الذى أنزله الله و هو القرآن مقارن لشهاده الله سبحانه و ملائكته و هو الذى يفصح عن التحدى بعد التحدى بآياته الكريمه.

فقال تعالى في جوابهم أولا «فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ» أى مما سألوكم من تنزيل كتاب من السماء إليهم «فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرَةً» أى إراءه عيان نعاينه بأبصارنا، وهذه غايه ما يبلغه البشر من الجهاله و الهذر و الطغيان «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ» و القصة المذكوره فى سورة البقره (آيه ٥٥-٥٦) و سورة الأعراف (آيه ١٥٥).

ثم قال تعالى: «ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ» و هذه عباده الصنم بعد ظهور بطلانه أو بيان أن الله سبحانه منزه عن شائبه الجسميه و الحدوث، و هو من أفضح الجهالات البشريه «فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ وَ آتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا» و قد أمرهم موسى فى ذلك أن يتوبوا الى بارئهم فيقتلوا أنفسهم فأخذوا فيه فعفا الله عنهم و لما يتم التقتيل و لما يقتل الجميع، و هو المراد بالعفو، و أتى موسى عليه السلام سلطانا مبينا حيث سلطه عليهم و على السامرى و عجله، و القصة المذكوره فى سورة البقره (آيه ٥٤).

ثم قال تعالى: «وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ» و هو الميثاق الذى أخذه الله منهم ثم رفع فوقهم الطور، و القصة المذكوره مرتين فى سورة البقره (آيه ٦٣-٩٣).

ثم قال تعالى: «وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا» و القصتان المذكورتان فى سورة البقره (آيه: ٥٨-٦٥) و سورة الأعراف (١٦١-١٦٣) و ليس من البعيد أن يكون الميثاق المذكور راجعا الى القصتين و الى غيرهما فإن القرآن يذكر أخذ الميثاق منهم متكررا كقوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ الْآيَةَ (البقره ٨٣)»؛ و قوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (البقره ٨٤)».

قوله تعالى: «فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ»، الفاء للتفريع و المجرور متعلق بما سيأتى بعد عدة آيات- يذكر فيها جرائمهم- من قوله «حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ» و الآيات مسوقه لبيان ما جازاهم الله به و خيم الجزاء الدينوى و الاخروى، و فيها ذكر بعض ما لم يذكر من سننهم السيئه أولا.

و قوله «فَمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ» تلخيص لما ذكر منهم من نقض الميثاق و لما لم يذكر من الميثاق المأخوذه منهم.

و قوله «وَ كُفِّرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ» تلخيص لأنواع من الكفر كفروا بها في زمن موسى عليه السلام و بعده قص القرآن كثيرا منها، و من جملتها الموردان المذكوران في صدر الآيات أعنى قوله «فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً»، و قوله «ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ» و إنما قدما في الصدر، و آخرها في هذه الآية لأن المقامين مختلفان فيختلف مقتضاهما فإن صدر الآيات متعرض لسؤالهم تنزيل كتاب من السماء، و ذكر سؤالهم أكبر من ذلك و عبادتهم العجل أنسب به و ألصق، و هذه الآية و ما بعدها متعرضه لمجازاتهم في قبال أعمالهم بعد ما كانوا أجابوا دعوه الحق و ذكر أسباب ذلك، و الابتداء بذكر نقض الميثاق أنسب في هذا المقام و أقرب.

و قوله «وَ قَتَلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ» يعنى بهم زكريا و يحيى و غيرهما ممن ذكر القرآن قتلهم إجمالا من غير تسميه.

و قوله «وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبِنَا غُلْفٌ» جمع أغلف أى في أغشيه تمنعها عن استماع الدعوه النبويه، و قبول الحق لو دعيت إليه، و هذه كلمه ذكروها يريدون بها ردّ الدعوه، و إسناد عدم إجابتهم للدعوه الى الله سبحانه كأنهم كانوا يدعون أنهم خلقوا غلف القلوب، أو أنهم جعلوا بالنسبه الى دعوه غير موسى كذلك من غير استناد ذلك الى اختيارهم و صنعهم.

و لذلك ردّ الله سبحانه عليهم بقوله «بَلِ طَبَعِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ سُلُوفًا يَكْفُرُ بِهَا» فَيُنُونَ إِلَّا قَلِيلًا» فبين أن إباء قلوبهم عن استماع الدعوه الحقه مستند الى صنع الله لكن لا كما يدعون أنهم لا صنع لهم في ذلك بل إنما فعل ذلك بهم في مقابل كفرهم و جحودهم للحق، و كان أثر ذلك أن هذا القوم لا يؤمنون إلا قليل منهم.

و قد تقدم الكلام في هذا الاستثناء، و أن هذه النقمه الإلهيه إنما نزلت بهم بقوميتهم

و مجتمعهم، فالمجموع من حيث المجموع مكتوب عليهم النقمه، و مطبوع على قلوبهم محال لهم أن يؤمنوا بأجمعهم، و لا ينافى ذلك إيمان البعض القليل منهم.

قوله تعالى: وَ بِكُفْرِهِمْ وَ قَوْلِهِمْ عَلَيَّ مَرْيَمُ بُهْتَانًا عَظِيمًا وَ هُوَ قَذَفَهَا عَلَيْهَا السَّيْلَامَ فِي وِلَادَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ هُوَ كَفَرَ وَ بَهْتَانَ مَعًا وَ قَدْ كَلَّمَهُمْ عِيسَى فِي أَوَّلِ وِلَادَتِهِ وَ قَالَ: إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا (مريم ٣٠).

قوله تعالى: وَ قَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَ مَا قَتَلُوهُ وَ مَا صَلَّبُوهُ وَ لَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ قَدْ تَقَدَّمَ فِي قِصَصِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّيْلَامَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ أَنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي كَيْفِيَةِ قَتْلِهِ صَلْبًا وَ غَيْرَ صَلْبٍ فَلَعَلَّ حِكَايَتَهُ تَعَالَى عَنْهُمْ دَعَايَ قَتْلِهِ أَوَّلًا ثُمَّ ذَكَرَ الْقَتْلَ وَ الصَّلْبَ مَعًا فِي مَقَامِ الرَّدِّ وَ النِّفْيِ لِيَبَانَ النِّفْيُ التَّمَامَ بِحَيْثُ لَا يَشُوبُهُ رَيْبٌ فَإِنَّ الصَّلْبَ لِكُونِهِ نَوْعًا خَاصًّا فِي تَعْذِيبِ الْمَجْرِمِينَ لَا يَلْزَمُ الْقَتْلَ دَائِمًا، وَ لَا يَتْبَادِرُ إِلَى الذَّهْنِ عِنْدَ إِطْلَاقِ الْقَتْلِ، وَ قَدْ اخْتَلَفَ فِي كَيْفِيَةِ قَتْلِهِ فَمَجْرَدُ نِفْيِ الْقَتْلِ رُبَّمَا أَمَكَّنَ أَنْ يَتَأَوَّلَ فِيهِ بِأَنَّهُمْ مَا قَتَلُوهُ قَتْلًا عَادِيًّا، وَ لَا يَنَافِي ذَلِكَ أَنْ يَكُونُوا قَتَلُوهُ صَلْبًا فَلِذَلِكَ ذَكَرَ تَعَالَى بَعْدَ قَوْلِهِ «وَ مَا قَتَلُوهُ» قَوْلَهُ «وَ مَا صَلَّبُوهُ» لِيُؤدِيَ الْكَلَامَ حَقَّهُ مِنَ الصَّرَاحِ، وَ يَنْصُ عَلَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَتُوفَ بِأَيْدِيهِمْ لَا صَلْبًا وَ لَا غَيْرَ مَصْلُوبًا، بَلْ شَبَّهَ لَهُمْ أَمْرَهُ فَأَخَذُوا غَيْرَ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّيْلَامَ مَكَانَ الْمَسِيحِ فَقَتَلُوهُ أَوْ صَلَّبُوهُ، وَ لَيْسَ مِنَ الْبَعِيدِ عَادَهُ، فَإِنَّ الْقَتْلَ فِي أَمْثَالِ تِلْكَ الْاجْتِمَاعَاتِ الِهْمَجِيَّةِ وَ الِهْجَمَةِ وَ الْغَوْغَاءِ رُبَّمَا أَخْطَأَ الْمَجْرِمُ الْحَقِيقِيَّ إِلَى غَيْرِهِ وَ قَدْ قَتَلَ الْجُنْدِيُّونَ مِنَ الرُّومِيِّينَ، وَ لَيْسَ لَهُمْ مَعْرِفَةٌ بِحَالِهِ عَلَى نَحْوِ الْكَمَالِ فَمِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَأْخُذُوا مَكَانَهُ غَيْرَهُ، وَ مَعَ ذَلِكَ فَقَدْ وَرَدَتْ رَوَايَاتُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَلْقَى شَبَّهُهُ عَلَى غَيْرِهِ فَأَخَذَ وَ قَتَلَ مَكَانَهُ.

و قوله: وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ أَى اخْتَلَفُوا فِي عِيسَى أَوْ فِي قَتْلِهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ أَى فِي جَهْلِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى أَمْرِهِ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا الْبَيِّنَاتُ الظَّنُّ وَ هُوَ التَّخْمِينُ أَوْ رَجْحَانٌ مَا بِحَسَبِ مَا أَخَذَهُ بَعْضُهُمْ مِنْ أَفْوَاهِ بَعْضٍ.

وقوله: وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا أى ما قتلوه قتل يقين أو ما قتلوه أخبرك خبر يقين، و ربما قيل: إن الضمير فى قوله «وَمَا قَتَلُوهُ» راجع الى العلم أى ما قتلوا العلم يقينا. و قتل العلم لغه تمحيضه و تخليصه من الشك و الريب، و ربما قيل: إن الضمير يعود الى الظن أى ما مَحَضُوا ظنهم و ما تثبتوا فيه، و هذا المعنى على تقدير ثبوته معنى غريب لا يحمل عليه لفظ القرآن.

قوله تعالى: بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا و قد قص الله سبحانه هذه القصة فى سورة آل عمران فقال: إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ارْقُطْ إِلَى الْأَرْضِ وَرَأْسُكَ وَالْأَرْضُ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (آل عمران ٥٥) فذكر التوفى ثم الرفع.

قوله تعالى: وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا. «إِنْ» نافية و المبتدأ محذوف يدل عليه الكلام فى سياق النفي، و التقدير: و إن أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن، و الضمير فى قوله «بِهِ» و قوله «يَكُونُ» راجع الى عيسى، و أما الضمير فى قوله «قَبْلَ مَوْتِهِ» ففيه خلاف.

و الذى ينبغى التدبر و الإمعان فيه هو أن وقوع قوله «و يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا» فى سياق قوله «وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا» ظاهر فى أن عيسى شهيد على جميعهم يوم القيامة كما أن جميعهم يؤمنون به قبل الموت، و قد حكى سبحانه قول عيسى فى خصوص هذه الشهادة على وجه خاص، فقال عنه: وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (المائدة ١١٧).

فقصير عليه السلام شهادته فى أيام حياته فيهم قبل توفيه، و هذه الآية أعنى قوله «وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا» الخ؛ تدل على شهادته على جميع من يؤمن به فلو كان المؤمن به هو الجميع كان لازمه أن لا يتوفى إلا بعد الجميع، و هذا ينتج المعنى الثانى، و هو كونه عليه السلام حيا بعد، و يعود إليهم ثانيا حتى يؤمنوا به. نهايه الأمر أن يقال: إن من لا يدرك منهم رجوعه إليهم ثانيا يؤمن به عند

موته، و من أدرك ذلك آمن به إيماناً اضطراراً أو اختياراً.

على أن الأنسب بوقوع هذه الآية «وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ» ، فيما وقع فيه من السياق أعنى بعد قوله تعالى «وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ -إلى أن قال- بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا» أن تكون الآية في مقام بيان أنه لم يمت وأنه حتى بعد اذ لا يتعلق ببيان إيمانهم الاضطرارى وشهادته عليهم في غير هذه الصورة غرض ظاهر.

فهذا الذى ذكرناه يؤيد كون المراد بإيمانهم به قبل الموت إيمانهم جميعاً به قبل موته عليه السلام.

و بالجمله، الذى يفيد التديير فى سياق الآيات و ما ينضم إليها من الآيات المربوطه بها هو أن عيسى عليه السلام لم يتوفى بقتل أو صلب و لا بالموت حتف الأنف على نحو ما نعرفه من مصداقه - كما تقدمت الإشارة إليه - وقد تكلمنا بما تيسر لنا من الكلام فى قوله تعالى: يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ كُنْ صَادِقًا لِلَّذِينَ هَدَى اللَّهُ بَأْسَمَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ سَلِّمُوا لِي وَأَخْبِرُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا كُنْتُمْ تُكْفِرُونَ (آل عمران ٥٥) فى الجزء الثالث من هذا الكتاب.

قوله تعالى: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ الْفَاءَ لِلتَّفْرِيعِ، وقد نكر لفظ الظلم و كأنه للدلاله على تفخيم أمره أو للإبهام، اذ لا يتعلق على تشخيصه غرض مهم و هو بدل مما تقدم ذكره من فجائعهم غير أنه ليس بدل الكل من الكل كما ربما قيل، بل بدل البعض من الكل، فإنه تعالى جعل هذا الظلم منهم سبباً لتحريم الطيبات عليهم، و لم تحرم عليهم إلا فى شريعته موسى المنزله فى التوراه، و بها تختتم شريعته موسى، و قد ذكر فيما ذكر من فجائعهم و مظالمهم أمور جرت و وقعت بعد ذلك كالبهتان على مريم و غير ذلك.

فالمراد بالظلم بعض ما ذكر من مظالمهم الفجيعه فهو السبب لتحريم ما حرم عليهم من الطيبات بعد إحلالها.

ثم ضم الى ذلك قوله «وَبَصَدَّهُمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا» و هو إعراضهم المتكرر عن سبيل الله

«وَ أَخَذِهِمُ الرِّبَا وَ قَدْ نُهِوا عَنْهُ وَ أَكَلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ» .

قوله تعالى: وَ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا معطوف على قوله «حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ» فقد استوجبوا بمظالمهم من الله جزاءين: جزاء دنيوى عام و هو تحريم الطيبات، و جزاء أخروى خاص بالكافرين منهم و هو العذاب الأليم.

قوله تعالى: لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَ مَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ اسْتِثْنَاءً وَ اسْتِدْرَاكًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، «وَ الرَّاسِخُونَ» و ما عطف عليه مبتدأ و «يُؤْمِنُونَ» خبره، و قوله «مِنْهُمْ» متعلق بالراسخون و «مِنْ» فيه تبعيضيّه.

و الظاهر أن «الْمُؤْمِنُونَ» يشارك «الرَّاسِخُونَ» فى تعلق قوله «مِنْهُمْ» به معنى و المعنى:

لكن الراسخون فى العلم و المؤمنون بالحقيقه من أهل الكتاب يؤمنون بك و بما أنزل من قبلك، و يؤيده التعليل الآتى فى قوله «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَلِمًا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ» الخ؛ فإن ظاهر الآيه كما سيأتى بيان أنهم آمنوا بك لما وجدوا أن نبوتك و الوحي الذى أكرمناك به يماثل الوحي الذى جاءهم به الماضون السابقون من أنبياء الله: نوح و النبيون من بعده، و الأنبياء من آل إبراهيم، و آل يعقوب، و آخرون ممن لم نقصصهم عليك من غير فرق.

و هذا المعنى - كما ترى - أنسب بالمؤمنين من أهل الكتاب أن يوصفوا به دون المؤمنين من العرب الذين وصفهم الله سبحانه بقوله: لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (يس / ٦).

و قوله «وَ الْمُتَّقِينَ الصَّلَاةَ» معطوف على «الرَّاسِخُونَ» و منصوب على المدح، و مثله فى العطف قوله «وَ الْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ» و قوله «وَ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» مبتدأ خبره قوله «أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ عَظِيمًا» و لو كان قوله «وَ الْمُتَّقِينَ الصَّلَاةَ» مرفوعا كما نقل عن مصحف ابن مسعود كان هو ما عطف عليه مبتدأ خبره قوله «أُولَئِكَ» .

و بالجمله قوله «لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» استثناء من أهل الكتاب من حيث لازم سؤالهم

النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم أن ينزل عليهم كتابا من السماء كما تقدم أن لازم سؤالهم ذلك أن لا يكفى ما جاءهم النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم من الكتاب و الحكمه المصدقين لما أنزل من قبله من آيات الله على أنبيائه و رسله، فى دعوتهم الى الحق و إثباته، مع أنه صَلَّى الله عليه و آله و سلم لم يأتهم إلا مثل ما أتاهم به من قبله من الأنبياء، و لم يعيش فيهم و لم يعاشرهم إلا بما عاشوا به و عاشروا به كما قال تعالى: قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِّنَ الرُّسُلِ (الأحقاف ٩) و قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسَدِّمُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ -الى أن قال- لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (الأنبياء ١٠).

فذكر الله سبحانه فى فصل من القول: إن هؤلاء السائلين و هم أهل الكتاب ليست عندهم سجيته اتباع الحق و لا ثبات و لا عزم و لا رأى، و كم من آيه بينه ظلموها، و دعوه حق صدوا عنها، إلا أن الراسخين فى العلم منهم لما كان عندهم ثبات على علمهم و ما وضح من الحق لديهم، و كذا المؤمنون حقيقه منهم لما كان عندهم سجيته اتباع الحق يؤمنون بما أنزل إليك و ما أنزل من قبلك لما وجدوا أن الذى نزل إليك من الوحي يماثل ما نزل من قبلك على سائر النبيين: نوح و من بعده.

و من هنا يظهر (أولا) وجه توصيف من اتبع النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم من أهل الكتاب بالراسخين فى العلم و المؤمنين، فإن الآيات السابقه تقص عنهم أنهم غير راسخين فيما علموا غير مستقرين على شىء من الحق و إن استوثق منهم بأغلظ المواثيق، و أنهم غير مؤمنين بآيات الله صادون عنها و إن جاءتهم البيئات، فهؤلاء الذين استثناهم الله راسخون فى العلم أو مؤمنون حقيقه.

و (ثانيا) وجه ذكر ما أنزل قبلا- مع القرآن فى قوله «يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ» لأن المقام مقام نفى الفرق بين القبيلين.

و (ثالثا) أن قوله فى الآيه التاليه «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا» الخ؛ فى مقام التعليل لإيمان هؤلاء المستثنين.

قوله تعالى: **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ فِي مَقَامِ التَّعْلِيلِ لِقَوْلِهِ «يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ»** كما عرفت
أنفساً. ومحصيل المعنى -والله أعلم- أنهم آمنوا بما أنزل إليك لأننا لم نؤتك أمراً مبتدعاً يختص من الدعاوى والجهات بما لا
يوجد عنك غيرك من الأنبياء السابقين، بل الأمر على نهج واحد لا اختلاف فيه، فإننا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبين
من بعده، ونوح أول نبي جاء بكتاب وشريعته، وكما أوحينا إلى إبراهيم ومن بعده من آله، وهم يعرفونهم ويعرفون كيفية
بعثتهم ودعوتهم، فمنهم من أوتى بكتاب كداود أوتى زبوراً وهو وحى نبوى، وموسى أوتى التكليم وهو وحى نبوى، وغيرهما
كإسماعيل وإسحاق ويعقوب أرسلوا بغير كتاب، وذلك أيضاً عن وحى نبوى.

ويجمع الجميع أنهم رسل مبشرون بثواب الله منذرون بعذابهن، أرسلهم الله لإتمام الحجج على الناس ببيان ما ينفعهم وما
يضرهم في أخراهم وديانهم لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

قوله تعالى: **وَ الْأَشْيَاطِ تَقَدَّمُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَشْيَاطِ (آل عمران / ٨٤)** أنهم أنبياء من ذرية يعقوب أو من أسباط بنى
إسرائيل.

قوله تعالى: **وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا قِيلَ إِنَّهُ بِمَعْنَى الْمَكْتُوبِ مِنْ قَوْلِهِمْ: زَبْرَهُ أَيْ كَتَبَهُ فَالزَّبُورُ بِمَعْنَى الْمَزْبُورِ.**

قوله تعالى: **رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ** أحوال ثلاثة أو الأول حال والأخير ان وصفان له. وقد تقدم استيفاء البحث عن معنى إرسال
الرسول وتمام الحجج من الله على الناس، وأن العقل لا يغنى وحده عن بعثه الأنبياء بالشرائع الإلهية فى الكلام على قوله تعالى:
كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً (البقرة ٢١٣) فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

قوله تعالى: **وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** و إذا كانت له العزه المطلقه و الحكمه المطلقه استحال أن يغلبه أحد بحجه بل له الحججه
البالغه، قال تعالى: **قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ**

قوله تعالى: لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ، استدراك آخر في معنى الاستثناء المنقطع من الرد المتعلق بسؤالهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تنزيل كتاب إليهم من السماء، فإن الذي ذكر الله تعالى في رد سؤالهم بقوله «فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ» (الى آخر الآيات)؛ لآزم معناه أن سؤالهم مردود إليهم، لأن ما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بوحى من ربه لا- يغير نوعا ما جاء به سائر النبيين من الوحي، فمن ادعى أنه مؤمن بما جاءوا به فعليه أن يؤمن بما جاء به من غير فرق.

ثم استدرك عنه بأن الله مع ذلك يشهد بما أنزل على نبيه و الملائكة يشهدون و كفى بالله شهيدا.

و متن شهادته قوله «أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ» فإن مجرد النزول لا- يكفى فى المدعى، لأن من أقسام النزول النزول بوحى من الشياطين، بأن يفسد الشيطان أمر الهدايه الإلهيه فيضع سبيلا- باطلا مكان سبيل الله الحق، أو يخلط فيدخل شيئا من الباطل فى الوحي الإلهي الحق فيختلط الأمر، كما يشير الى نفيه بقوله: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتٍ رَبِّهِمْ وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَ أَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (الجن ٢٨) و قال تعالى: وَ إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ (الأنعام ١٢١).

و بالجملة فالشهادة على مجرد النزول أو الإنزال لا يخرج الدعوى عن حال الإبهام، لكن تقييده بقوله «بِعِلْمِهِ» يوضح المراد كل الوضوح، و يفيد أن الله سبحانه أنزله الى رسوله و هو يعلم ما ذا ينزل، و يحيط به و يحفظه من كيد الشياطين.

و اذا كانت الشهادة على الإنزال، و الإنزال إنما هو بواسطة الملائكة كما يدل عليه قوله تعالى: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ (البقره ٩٧) و قال تعالى فى وصف هذا

الملك المكرم: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ (التكوير ٢١) فدل على تحت أمره ملائكة اخرى وهم الذين ذكره اذ قال: كَلَّا- إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَيِّفَةٍ كَرَامٍ بَرَزَهُ (عبس ١٦).

و بالجمله لكون الملائكة وسائط في الإنزال فهم أيضا شهداء كما أنه تعالى شهيد و كفى بالله شهيدا.

و الدليل على شهادته تعالى ما أنزله في كتابه من آيات التحدى كقوله تعالى: قُلْ لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا (الإسراء ٨٨) و قوله: أ فلا يتدبرون القرآن و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (النساء ٨٢)، و قوله: فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ (يونس ٣٨).

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا لَمَا ذَكَرَ تَعَالَى الْحُجَّةَ الْبَالِغَةَ فِي رِسَالِهِ نَبِيهِ وَ نَزَلَ كِتَابَهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، و أنه من سنخ الوحي الذي اوحى الى النبيين من قبله و أنه مقرون بشهادته و شهادته ملائكته و كفى به شهيدا حقق ضلال من كفر به و أعرض عنه كائنا من كان من أهل الكتاب.

و في الآيه تبديل الكتاب الذي كان الكلام في نزوله من عند الله بسبيل الله حيث قال «وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» و فيه إيجاز لطيف كأنه قيل: إن الذين كفروا و صدوا عن هذا الكتاب و الوحي الذي يتضمنه فقد كفروا و صدوا عن سبيل الله، و الذين كفروا و صدوا عن سبيل الله، الخ.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ الْخُ؛ تحقيق و تثبيت آخر مقامه التأكيد من الآيه السابقه، و على هذا يكون المراد بالظلم هو الصد عن سبيل الله كما هو ظاهر.

و يمكن أن يكون الآيه فى مقام التعليل بالنسبه الى الآيه السابقه، يبين فيها وجه ضلالهم البعيد، و المعنى ظاهر (١).

[سوره النساء (٤): الآيات ١٧٠ الى ١٧٥]

اشاره

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ثَلَاثَةٌ إِنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ مِنْهُ وَفَضْلِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (١٧٥)

ص: ٨٠٩

(١ - ١). النساء ١٥٣-١٦٩: بحث روائى فى: نزول عيسى عليه السلام عند ظهور المهدي عليه السلام.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ، خطاب عام لأهل الكتاب و غيرهم من الناس كافة، متفرع على ما مر من البيان لأهل الكتاب، وإنما عمم الخطاب لصلاحه المدعو إليه و هو الإيمان بالرسول كذلك لعموم الرسالة.

و قوله «خَيْرًا لَكُمْ» حال من الإيمان و هي حال لازمه أى حال كون الإيمان من صفته اللازمه أنه خير لكم.

و قوله «وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ»، أى إِنْ تَكْفُرُوا لم يزد كفركم عليكم شيئاً، و لا ينقص من الله سبحانه شيئاً، فإن كل شىء مما فى السماوات و الارض لله فمن المحال ان يسلب منه تعالى شىء من ملكه فإن فى طباع كل شىء مما فى السماوات و الأرض أنه لله لا- شريك له فكونه موجودا و كونه مملوكا شىء واحد بعينه، فكيف يمكن أن ينزع من ملكه تعالى شىء و هو شىء؟

و الآيه من الكلمات الجامعه التى كلما أمعت فى تدبرها أفادت زياده لطف فى معناها، و سعه عجيبه فى تبيانها، فإحاطه ملكه تعالى على الاشياء و آثارها تعطى فى الكفر و الإيمان و الطاعة و المعصيه معانى لطيفه، فعليك بزياده التدبر فيها.

قوله تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَ لَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، ظاهر الخطاب بقرينه ما يذكر فيه من أمر المسيح عليه السلام أنه خطاب للنصارى، و انما خوطبوا بأهل الكتاب- و هو وصف مشترك- اشعاراً بأن تسميهم بأهل الكتاب يقتضى أن

لا يتجاوزوا حدود ما أنزله الله و بينه في كتبه، و مما بينه أن لا يقولوا عليه الا الحق.

و ربما أمكن أن يكون خطابا لليهود و النصارى جميعا، فإن اليهود أيضا كالنصارى في غلوهم في الدين، و قولهم على الله غير الحق، كما قال تعالى: وَ قَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ (التوبة ٣٠)، و قال تعالى: اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ (التوبة/ ٣١)، و قال تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ -الى أن قال- وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ (آل عمران ٦٤).

و على هذا فقوله «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ» الخ؛ تخصيص في الخطاب بعد التعميم أخذًا بتكليف طائفه من المخاطبين بما يخص بهم.

هذا، لكن يبعده أن ظاهر السياق كون قوله «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ» ، تعليلا لقوله «لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ» ، و لازمه اختصاص الخطاب بالنصارى و قوله «إِنَّمَا الْمَسِيحُ» أى المبارك «عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» تصريح بالاسم و اسم الام ليكون أبعده من التفسير و التأويل بأى معنى مغاير، و ليكون دليلا على كونه انسانا مخلوقا كأى انسان ذى ام. «كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ» تفسير لمعنى الكلمه، فإنه كلمه «كن» التى ألقيت الى مريم البتول، لم يعمل فى تكونه الاسباب العاديه كالنكاح و الالب، قال تعالى: إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران ٤٧) فكل شىء كلمه له تعالى غير أن سائر الاشياء مختلطة بالاسباب العاديه، و الذى اختص لاجله عيسى عليه السلام بوقوع اسم الكلمه هو فقدانه بعض الاسباب العاديه فى تولده «وَ رُوحٌ مِنْهُ» و الروح من الامر، قال تعالى: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي (الإسراء ٨٥) و لما كان عيسى عليه السلام كلمه «كن» التكوينية و هى أمر فهو روح.

و قد تقدم البحث عن الآيه فى الكلام على خلقه المسيح فى الجزء الثالث من هذا الكتاب.

قوله تعالى: فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَا تَقُولُوا ثَلَاثَهُ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ تَفْرِيعَ عَلَى صَدْرِ الْكَلَامِ بِمَا أَنَّهُ مَعْلَلٌ بِقَوْلِهِ: «إِنَّمَا الْمَسِيحُ» الخ؛ أى فاذا كان كذلك

وجب عليكم الإيمان على هذا النحو، و هو أن يكون إيماننا بالله بالربوبية و لرسله- و منهم عيسى- بالرساله، و لا تقولوا ثلاثه انتهوا حال كون الانتهاء أو حال كون الإيمان بالله و رسله و نفى الثلاثه خيرا لكم.

و الثلاثه هم الاقانيم الثلاثه: الاب و الابن و روح القدس، و قد تقدم البحث عن ذلك في الآيات النازله في أمر المسيح عليه السلام من سوره آل عمران.

قوله تعالى: سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، السبحان مفعول مطلق مقدر الفعل، يتعلق به قوله «أَنْ يَكُونَ»، و هو منصوب بنزع الخافض، و التقدير: اسبحه تسيححا و انزهه تنزيها من أن يكون له ولد، و الجملة اعتراض مأتى به للتعظيم.

و قوله «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» حال أو جملة استئناف، و هو على أى حال احتجاج على نفى الولد عنه سبحانه، فإن الولد كيفما فرض هو الذى يماثل المولد فى سنخ ذاته متكونا منه، و اذا كان كل ما فى السماوات و الارض مملوكا فى أصل ذاته و آثاره لله تعالى و هو القيوم لكل شىء و وحده فلا يماثله شىء من هذه الاشياء فلا ولد له.

و المقام مقام التعميم لكل ما فى الوجود غير الله عز اسمه و لازم هذا أن يكون قوله «مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» تعبيرا كنائيا عن جميع ما سوى الله سبحانه اذ نفس السماوات و الارض مشموله لهذه الحجة، و ليست مما فى السماوات و الارض بل هى نفسها.

ثم لما كان ما فى الآيه من امر و نهى هدايه عامه لهم الى ما هو خير لهم فى دنياهم و اخرهم ذيل الكلام بقوله «وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا» اى وليا لشئونكم، مدبرا لاموركم، يهديكم الى ما هو خير لكم و يدعوكم الى صراط مستقيم.

قوله تعالى: لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ احتجاج آخر على نفى الوهيه المسيح عليه السلام مطلقا سواء فرض كونه ولدا أو أنه

ثالث ثلاثة، فإن المسيح عبد لله لن يستنكف أبدا عن عبادته، وهذا مما لا ينكره النصارى، و الأناجيل الدائرة عندهم صريحه في أنه كان يعبد الله تعالى، ولا معنى لعباده الولد الذى هو سنخ إله ولا لعباده الشىء لنفسه ولا لعباده أحد الثلاثة لثالثها الذى ينطبق وجوده على كل منها، وقد تقدم الكلام على هذا البرهان فى مباحث المسيح عليه السلام.

وقوله «وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ» تعميم للكلام على الملائكة لجريان الحجة بعينها فيهم، وقد قال جماعه من المشركين - كمشركى العرب - بكونهم بنات الله، فالجمله استطراديه.

والتعبير فى الآيه أعنى قوله «لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ» عن عيسى عليه السلام بالمسيح، وكذا توصيف الملائكة بالمقربين مشعر بالعليه لما فيهما من معنى الوصف، أى إن عيسى لن يستنكف عن عبادته وكيف يستنكف وهو مسيح مبارك؟ ولا الملائكة وهم مقربون؟ ولو رجي فيهم أن يستنكفوا لم يبارك الله فى هذا ولا قرب هؤلاء، وقد وصف الله المسيح أيضا بأن مقرب فى قوله: وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (آل عمران ٤٥).

قوله تعالى: وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا حال من المسيح و الملائكة و هو فى موضع التعليل أى و كيف يستنكف المسيح و الملائكة المقربون عن عبادته و الحال أن الذين يستنكفون عن عبادته و يستكبرون من عباده من الانس و الجن و الملائكة يحشرون إليه جميعا، فيجزون حسب أعمالهم، و المسيح و الملائكة يعلمون ذلك و يؤمنون به و يتقونه.

و من الدليل على أن قوله «وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ» الخ؛ فى معنى أن المسيح و الملائكة المقربين عالمون بأن المستنكفين يحشرون اليه قوله «وَيَسْتَكْبِرْ» إنما قيد به قوله «وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ» لأن مجرد الاستنكاف لا يوجب السخط الإلهى اذا لم يكن عن استكبار كما فى الجهلاء و المستضعفين، و أما المسيح و الملائكة فان استنكافهم لا يكون إلا عن استكبار

لكونهم عالمين بمقام ربهم، ولذلك اکتفى بذكر الاستنكاف فحسب فيهم، فيكون معنى تعليل هذا بقوله «وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ»، أنهم عالمون بأن من يستنكف عن عبادته، الخ.

وقوله «جَمِيعاً» أى صالحا و طالحا و هذا هو المصحح للتفضيل الذى يتلوه من قوله «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» الخ.

قوله تعالى: وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا[□] التعرض لنفى الولى و النصير مقابله لما قيل به من الوهيه المسيح و الملائكه.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا[□] قال الراغب: البرهان بيان للحجه، و هو فعلان مثل الرجحان و الثنيان. و قال بعضهم: هو مصدر بره يبره اذا ابيض. انتهى، فهو على أى حال مصدر. و ربما استعمل بمعنى الفاعل كما اذا اطلق على نفس الدليل و الحججه.

و المراد بالنور هو القرآن لا- محاله بقريته قوله «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ» و يمكن أن يراد بالبرهان أيضا ذلك، و الجملتان اذا تؤكد إحداهما الاخرى.

و يمكن أن يراد به النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و يؤيده وقوع الآيه فى ذيل الآيات المبينه لصدق النبى فى رسالته، و نزول القرآن من عند الله تعالى، و كون الآيه تفريرا لذلك و يؤيده أيضا قوله تعالى فى الآيه التاليه «وَاعْتَصِمُوا بِهِ» لما تقدم فى الكلام على قوله: وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (آل عمران ١٠١) أن المراد بالاعتصام الأخذ بكتاب الله و الانبعا لرسوله صلى الله عليه و آله و سلم.

قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ[□]، بيان لثواب من أتبع برهان ربه و النور النازل من عنده.

و الآيه كأنها منتزعه من الآيه السابقه المبينه لثواب الذين آمنوا و عملوا الصالحات أعنى

قوله «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ»، و لعله لذلك لم يذكر هاهنا جزاء المتخلف من تبعه البرهان و النور، لأنه بعينه ما ذكر في الآيه السابقه، فلا- حازه الى تكراره ثانيا بعد الإشعار بأن جزاء المتبعين هاهنا جزاء المتبعين هنالك، و ليس هناك إلا فريقان: المتبعون و المتخلفون.

و على هذا فقوله في هذه الآيه «فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ» يحاذى قوله في تلك الآيه «فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ» و هو الجنه، و أيضا قوله في هذه الآيه «وَفَضْلٍ» يحاذى قوله في تلك الآيه «وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» و أما قوله «وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا» فهو من آثار ما ذكر فيها من الاعتصام بالله كما في قوله: «وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (آل عمران ١٠١).

[سوره النساء (٤): آيه ١٧٦]

اشاره

يَسِيْرَتَفْتُوْنَكَ قُلِ اللّٰهُ يُفْتِيْكُمْ فِي الْكَلٰلَةِ اِنْ اِمْرُوْهُ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَّلَدٌ وَّ لَهُ اُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَّهُوَ يَرِيْهَا اِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَّلَدٌ فَاِنْ كَانَتَا اِثْنَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَاِنْ كَانُوْا اِخْوَةً رِّجَالًا وَّنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْاُنثٰىيْنِ يَبِيْنُ اللّٰهُ لَكُمْ اَنْ تَصِلُوْا وَّ اللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ (١٧٦)

بيان:

قوله تعالى: يَسِيْرَتَفْتُوْنَكَ قُلِ اللّٰهُ يُفْتِيْكُمْ فِي الْكَلٰلَةِ اِنْ اِمْرُوْهُ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَّلَدٌ، قد تقدم الكلام في معنى الاستفتاء و الإفتاء و معين الكلاله في الآيات السابقه من السوره.

و قوله «لَيْسَ لَهُ وَوَدَّ» ظاهره الأعم من الذكر و الانثى على ما يفيدہ إطلاق الولد وحده.

و قال فى المجمع: فمعناه: ليس له ولد و لا والد، و إنما أضممرنا فيه الوالد للإجماع، انتهى. و لو كان لأحد الأبوين وجود لم تخل الآيه من ذكر سهمه فالمفروض عدمهما.

و قوله «وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَ هُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَوَدَّ» سهم الاخت من أخيها، و الأخ من اخته، و منه يظهر سهم الاخت من اختها و الأخ من أخيه، و لو كان للفرضين الأخيرين فريضه اخرى لذكرت.

على أن قوله «وَهُوَ يَرِثُهَا» فى معنى قولنا: لو انعكس الامر- أى كان الأخ مكان الاخت- لذهب بالجميع، و على أن قوله «فَإِنْ كَانَتْ أُخْتَيْنِ فَلَهُمَا التُّلْثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَ إِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَ نِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ» و هو سهم الاختين، و سهم الإخوه لم يقيد فيهما الميت بكونه رجلاً أو امرأه فلا دخل لذكور الميت و انوثته فى السهام.

و الذى صرحت به الآيه من السهام سهم الاخت الواحده، و الأخ الواحد، و الاختين، و الإخوه المختلطه من الرجال و النساء، و من ذلك يعلم سهام باقى الفروض: منها: الاخوان، يذهبان بجميع المال و يقتسمان بالسويه يعلم ذلك من ذهاب الاخ الواحد بالجميع، و منها الاخ الواحد مع اخت واحد، و يصدق عليهما الإخوه كما تقدم فى أول السوره فيشملة «وَ إِنْ كَانُوا إِخْوَةً» على أن السنه مبينه لجميع ذلك.

و السهام المذكوره تختص بما اذا كان هناك كلاله الاب وحده، أو كلاله الابوين وحده، و أما اذا اجتمعا كالاخت لابوين مع الاخت لاب لم ترث الاخت لاب. و قد تقدم ذكره فى الكلام على آيات أول السوره.

قوله تعالى: يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا، أى حذر أن تضلوا أو لثلاثا تضلوا، و هو شائع فى الكلام، قال عمرو بن كلثوم:

فَعَجَّلْنَا الْقُرَى أَنْ تَشْتَمُونَا

الجزء الثاني

اشاره

ص: ١

اشاره

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

[سوره المائدہ (۵): الآيات ۱ الى ۳]

اشاره

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ
وَ اَنْتُمْ حُرْمٌ اِنَّ اللّٰهَ یَحْكُمُ مَا یُرِیدُ (۱) یَا اَیُّهَا الَّذِیْنَ اٰمَنُوا اَوْفُوا بِالْعُقُودِ اُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِیْمَةُ الْاَنْعَامِ اِلَّا مَا یُنْتَلٰی عَلَیْكُمْ غَیْرَ مُحَلّٰی الصَّیْدِ
الْبَیْتِ الْحَرَامِ یَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْوَانًا وَ اِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَ لَا یَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ اَنْ صَدُّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ اَنْ
تَعْتَدُوا وَ تَعَاوَنُوا عَلَی الْبِرِّ وَ التَّقْوٰی وَ لَا تَعَاوَنُوا عَلَی الْاِثْمِ وَ الْعُدُوٰنِ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ اِنَّ اللّٰهَ شَدِیْدُ الْعِقَابِ (۲) حُرِّمَتْ عَلَیْكُمْ الْمَیْتَةُ وَ
الْدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِزْرِیْرِ وَ مَا اُھِلَّ لِغَیْرِ اللّٰهِ بِهٖ وَ الْمُنْخَنِقَةُ وَ الْمُوقُوْذَةُ وَ الْمُتَرَدِّیَةُ وَ النَّطِیْحَةُ وَ مَا اَكَلَ السَّبْعُ اِلَّا مَا ذَكَّیْتُمْ وَ مَا ذُبِحَ عَلَی
النُّصَبِ وَ اَنْ تَسْتَفْسِمُوا بِالْاَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسَقُ الْیَوْمَ الَّذِیْنَ كَفَرُوا مِنْ دِیْنِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْیَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِیْنَكُمْ وَ
اَتَمَمْتُ عَلَیْكُمْ نِعْمَتِیْ وَ رَضِیْتُ لَكُمْ الْاِسْلَامَ دِیْنًا فَمَنْ اَضْطَرَّ فِیْ مَخْمَصِهٖ غَیْرَ مُتَّجَانِفٍ لِاِثْمٍ فَاِنَّ اللّٰهَ غَفُوْرٌ رَّحِیْمٌ (۳)

ص: ۷

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ العقود جمع عقد و هو شدّ أحد شيئين بالآخر نوع شدّ يصعب معه انفصال أحدهما عن الآخر، كعقد الجبل و الخيط بآخر من مثله، و لازمه التزام أحدهما الآخر، و عدم انفكاكه عنه، و قد كان معتبرا عندهم فى الامور المحسوسه أولا ثم استعير فعَمّم للامور المعنويه كعقود المعاملات الدائره بينهم من بيع أو إجاره أو غير ذلك، و كجميع العهود و المواثيق فاطلقت عليها الكلمه لثبوت أثر المعنى الذى عرفت أنه اللزوم و الالتزام فيها.

و لما كان العقد-و هو العهد-يقع على جميع المواثيق الدينيه التى أخذها الله من عباده من أركان و أجزاء كالتوحيد و سائر المعارف الأصلية و الاعمال العباديه و الأحكام المشروعه تأسيسا أو امضاء، و منها عقود المعاملات و غير ذلك، و كان لفظ العقود أيضا جمعا محلى باللام لا جرم كان الأوجه حمل العقود فى الآيه على ما يعمّ كل ما يصدق عليه أنه عقد (1).

قوله تعالى: أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ الخ؛ الإحلال هو الإباحه و البهيمة اسم لكل ذى اربع من دواب البر و البحر على ما فى المجمع، و على هذا

ص: ٨:

فإضافه البهيمة الى الأنعام من قبيل إضافه النوع الى أصنافه كقولنا: نوع الإنسان و جنس الحيوان، وقيل: البهيمة جنس الأنعام، و عليه
فالإضافه لاسميه. و كيف كان فقوله: «أَحَلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ» أى الأزواج الثمانية أى أكل لحومها، وقوله: «إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ»
إشاره الى ما سيأتى من قوله: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَ مَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ» الآية.

و قوله: «غَيْرَ مُحَلِّي الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرْمٌ» حال من ضمير الخطاب فى قوله: «أَحَلَّتْ لَكُمْ» و مفاده حرمة هذا الذى أحل اذا كان
اصطياده فى حال الإحرام، كالوحشى من الطباء و البقر و الحمر اذا صيدت، و ربما قيل: إنه حال من قوله: «أَوْفُوا» أو حال من ضمير
الخطاب فى قوله: «يُتْلَى عَلَيْكُمْ» و الصيد مصدر بمعنى المفعول، كما أن الحرم بضمين جمع الحرام بمعنى المحرم اسم فاعل.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَ لَا الْهَدْيَ وَ لَا الْقَلَائِدَ وَ لَا آمِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَعُونَ فَضْلًا
مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْوَانًا خَطَابٌ مُجَدِّدٌ لِلْمُؤْمِنِينَ يَفِيدُ شِدَّةَ الْعِنَايَةِ بِحُرْمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى.

و الإحلال هو الإباحه الملازمه لعدم المبالاه بالحرمة و المنزله، و يتعين معناه بحسب ما أضيف إليه: فإحلال شعائر الله عدم
احترامها و تركها، و إحلال الشهر الحرام عدم حفظ حرمة و القتال فيه، و هكذا.

و الشعائر جمع شعيره و هى العلامه، و كأن المراد بها أعلام الحج و مناسكه. و الشهر الحرام ما حرمه الله من شهور السنه القمرية
و هى: المحرم و رجب و ذو القعدة و ذو الحجه. و الهدى ما يساق للحج من الغنم و البقر و الإبل. و القلائد جمع قلاده، و هى ما
يقلد به الهدى فى عنقه من نعل و نحوه ليعلم أنه هدى للحج فلا يتعرض له. و الآمين جمع آم اسم فاعل من أم اذا قصد، و المراد
به القاصدون لزياره البيت الحرام. و قوله: «يَنْتَعُونَ فَضْلًا»، حال من «آمِينَ»

حقوق الناس الحقه بسلب الأمن من نفوسهم أو أعراضهم أو أموالهم وقد مر شطر من الكلام في هذا المعنى في ذيل قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا الْآيَةَ، (آل عمران ٢٠٠)؛ في الجزء الرابع من هذا الكتاب.

ثم أكد سبحانه نهيهِ عن الاجتماع على الإثم والعدوان بقوله: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» و هو في الحقيقة تأكيد على تأكيد.

قوله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَ مَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ هذه الأربعة المذكوره فيما نزل من القرآن قبل هذه السوره كسورتي الأنعام و النحل و هما مكيتان، و سوره البقره و هي أول سوره مفصله نازله بالمدينه قال تعالى: قُلْ لَا أَحَدٌ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (الأنعام / ١٤٥) و قال تعالى: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ مَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (البقره ١٧٣).

و الآيات جميعا- كما ترى- تحرم هذه الأربعة المذكوره في صدر هذه الآيه و تماثل الآيه أيضا في الاستثناء الواقع في ذيلها بقوله: «فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصِهِ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» فأيه المائده بالنسبه الى هذه المعاني المشتركه بينها و بين تلك مؤكده لتلك الآيات.

بل النهى عنها و خاصه عن الثلاثه الاول اعنى الميته و الدم و لحم الخنزير أسبق تشريعا من نزول سورتي الأنعام و النحل المكيتين، فإن آيه الأنعام تعلق تحريم الثلاثه أو خصوص لحم الخنزير بأنه رجس، فتدلل على تحريم أكل الرجز، و قد قال تعالى في سوره المدثر- و هي من السور النازله في أول البعثه-: وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ (المدثر ٥).

و كذلك ما عدّه تعالى بقوله: «وَ الْمُنْخَنِقَهُ وَ الْمُوقُودَةَ وَ الْمُتَرَدِّيَةَ وَ النَّطِيحَةَ وَ مَا أَكَلَ السَّبْعُ»

جميعا من مصاديق الميتة بدليل قوله: «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» فإنما ذكرت في الآية لنوع عناية بتوضيح أفراد الميتة و مزيد بيان للمحرمات من الأطعمه من غير أن تتضمن الآية فيها على تشريع حديث.

و كذلك ما عدّه الله تعالى بقوله: «وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ» فإنهما وإن كانا أول ما ذكرا ذكرا في هذه السوره لكنه تعالى علل تحريمهما أو تحريم الثانى منهما-على احتمال ضعيف-بالفسق، وقد حرم الفسق في آيه الأنعام، و كذا قوله: «غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ» يدل على تحريم ما ذكر في الآية لكونه إثمًا، وقد دلت آيه البقره على تحريم الاثم، و قال تعالى أيضا: وَ ذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَ بَاطِنَهُ (الأنعام ١٢٠/)، و قال تعالى: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ وَ الْإِثْمَ (الأعراف ٣٣/).

فقد اتضح و بان أن الآية لا تشتمل فيما عدته من المحرمات على أمر جديد غير مسبق بالتحريم فيما تقدم عليها من الآيات المكيه أو المدنيه المتضمنه تعداد محرمات الأطعمه من اللحوم و نحوها.

قوله تعالى: وَ الْمُنْخَنَقَهُ وَ الْمُوقُودَةَ وَ الْمُتَرَدِّيَةَ وَ النَّطِيحَةَ وَ مَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ المنخنقه هي البهيمة التي تموت بالخنق، و هو أعم من أن يكون عن اتفاق أو بعمل عامل اختيارا، و من أن يكون بأى آله و وسيله كانت كحبل يشد على عنقها و يسد بضغطة مجرى تنفسها، أو يادخال رأسها بين خشبتين، كما كانت هذه الطريقه و أمثالها دائره بينهم في الجاهليه.

و الموقوده هي التي تضرب حتى تموت، و المترديه هي التي تردت أى سقطت من مكان عال كشاهق جبل أو بئر و نحوهما.

و النطيحة هي التي ماتت عن نطح نطحها به غيرها، و ما أكل السبع هي التي أكلها أى أكل من لحمها السبع فإن الأكل يتعلق بالمأكول سواء أفنى جميعه أو بعضه و السبع هو الوحش

الضاري كالأسد و الذئب و النمر و نحوها.

و قوله: «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» استثناء لما يقبل التذكية بمعنى فرى الأوداج الاربعه منها كما اذا كانت فيها بقيه من الحياه يدل عليها مثل حركه ذنب أو أثر تنفس و نحو ذلك، و الاستثناء كما ذكرنا آنفا متعلق بجميع ما يقبله من المعدودات من دون أن يتقيد بالتعلق بالأخير من غير دليل عليه.

و هذه الامور الخمسه أعنى المنخقه و الموقوذه و المترديه و النطичه و ما أكل السبع كل ذلك من أفراد الميتة و مصاديقها، بمعنى أن المترديه أو النطичه مثلا إنما تحرمان اذا ماتتا بالتردى و النطح، و الدليل على ذلك قوله: «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» فإن من البديهي أنهما لا تؤكلان ما دامت الروح في جثمانهما، و إنما تؤكلان بعد زهوقها و حينئذ فيما أن تذكيا أولا، و قد استثنى الله سبحانه التذكية فلم يبق للحرمة إلا- اذا ماتتا عن ترد أو نطح من غير تذكية، و أما لو تردت شاه-مثلا- في بئر ثم أخرجت سليمة مستقيمته الحال فعاشت قليلا أو كثيرا ثم ماتت حتف أنفها أو ذكيت بذبح فلا تطلق عليها المترديه، يدل على ذلك السياق فإن المذكورات فيها ما اذا هلكت، و استند هلاكها الى الوصف الذي ذكر لها كالانخاق و الوقود و التردى و النطح.

و الوجه في تخصيص هذه المصاديق من الميتة بالذكر رفع ما ربما يسبق الى الوهم أنها ليست ميتة بناء على أنها أفراد نادره منها، و الذهن يسبق غالبا الى الفرد الشائع، و هو ما اذا ماتت بمرض و نحوه من غير أن يكون لمفاجأه سبب من خارج، فصرح تعالى بهذه الأفراد و المصاديق النادره بأسمائها حتى يرتفع اللبس و تتضح الحرمة.

و قوله تعالى: «وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ» قال الرغاب في المفردات: نصب الشيء وضعه وضعاً ناتئاً كنصب الرمح و البناء و الحجر، و النصيب الحجره تنصب على الشيء، و جمعه نصائب و نصب، و كان للعرب حجاره تعبدها و تذبح عليها قال: كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفِضُونَ (المعارج ٤٣)، قال: «وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ» و قد يقال في جمعه: أنصاب قال:

وَ الْأَنْصَابُ وَ الْأَزْلَامُ وَ النَّصْبُ وَ النَّصْبُ:التعب.

فالمراد من النهى عن أكل لحوم ما ذبح على النصب أن يستنّ بسنن الجاهليه فى ذلك، فإنهم كانوا نصبوا حول الكعبه أحجارا يقدسونها و يذبحون عليها، و كان من سنن الوثنيه.

قوله تعالى: وَ أَنْ تَشْتَقِيَهُمُ بِالْأَزْلَامِ وَ الْأَزْلَامُ هِيَ الْقِدَاحُ، وَ الْأَسْتِقْسَامُ بِالْقِدَاحِ أَنْ يَأْخُذَ جُزُورًا أَوْ بِهَيْمَةٍ أُخْرَى - عَلَى سَهَامٍ ثُمَّ يَضْرِبُ بِالْقِدَاحِ فِي تَشْخِيسٍ مِنْ لَهُ سَهْمٌ مِمَّنْ لَا سَهْمَ لَهُ، وَ فِي تَشْخِيسِ نَفْسِ السَّهَامِ الْمُخْتَلَفِ وَ هُوَ الْمَيْسِرُ، وَ قَدْ مَرَّ شَرْحُهُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ الْآيَةِ (البقره ٢١٩)؛ فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

قال الراغب: القسم إفراد النصب يقال: قسمت كذا قسما و قسمه، و قسمه الميراث و قسمه الغنيمه تفريقهما على أربابهما، قال: لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (الحجر ٤٤) «وَ بُنِيَتْ أَنْ الْمَاءَ قَسَمَهُ بَيْنَهُمْ» وَ اسْتَقْسَمْتَهُ سَأَلْتَهُ أَنْ يَقْسَمَ، ثُمَّ قَدْ اسْتَعْمَلَ فِي مَعْنَى قَسَمَ قَالَ:

«وَ أَنْ تَشْتَقِيَهُمُ بِالْأَزْلَامِ»، وَ مَا ذَكَرَهُ مِنْ كَوْنِ اسْتَقْسَمَ بِمَعْنَى قَسَمَ إِنَّمَا هُوَ بِحَسَبِ الْأَنْطَبَاقِ مُصَدِّقًا، وَ الْمَعْنَى بِالْحَقِيقَةِ طَلَبُ الْقِسْمَةِ بِالْأَزْلَامِ الَّتِي هِيَ آيَاتُ هَذَا الْفِعْلِ، فَاسْتَعْمَالَ الْآيَةِ طَلَبُ لِحْصُولِ الْفِعْلِ الْمُرْتَبِّ عَلَيْهِا فَيَصْدُقُ الْأَسْتِفْعَالُ. فَالمراد بالاستقسام بالأزلام المنهى عنه على ظاهر السياق هو ضرب القداح على الجزور و نحوه للذهاب بما فى لحمه من النصب.

و قوله: «ذَلِكُمْ فِتْنٌ» يحتمل الاشاره الى جميع المذكورات، و الاشاره الى الأخيرين المذكورين بعد قوله: «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» لِحيلولة الاستثناء، و الاشاره الى الأخير و لعل الأوسط خير الثلاثة.

قوله تعالى: الْيَوْمَ يَنسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ أَمْرَ الْآيَةِ فى حلولها محلها ثم فى دلالتها عجيب، فإنك اذا تأملت صدر الآيه أعنى قوله تعالى:

«حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ -الى قوله:- ذَلِكُمْ فَسُقُ» و أضفت إليه ذيلها أعنى قوله: «فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصِهِ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» وجدته كلاما تاما غير متوقف فى تمام معناه و إفادته المراد منه الى شىء من قوله: «الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ» الخ؛ أصلا، و ألفيته آيه كامله مماثله لما تقدم عليها فى النزول من الآيات الواقعه فى سور الأنعام و النحل و البقره المبينه لمحرمت الطعام، فى سورة البقره: «إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» و يماثله ما فى سورتي الأنعام و النحل.

و ينتج ذلك أن قوله: «الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا» الخ؛ كلام معترض موضوع فى وسط هذه الآيه غير متوقف عليه لفظ الآيه فى دلالتها و بيانها، سواء قلنا: إن الآيه نازله فى وسط الآيه فتخللت بينها من أول ما نزلت، أو قلنا: إن النبى صلى الله عليه و آله و سلم هو الذى أمر كتّاب الوحى بوضع الآيه فى هذا الموضع مع انفصال الآيتين و اختلافهما نزولا. أو قلنا: إنها موضوعه فى موضعها الذى هى فيه عند التأليف من غير أن تصاحبها نزولا، فإن شيئا من هذه الاحتمالات لا يؤثر أثرا فيما ذكرناه من كون هذا الكلام المتخلل متعرضا اذا قيس الى صدر الآيه و ذيلها.

و يؤيد ذلك أن جل الروايات الوارده فى سبب النزول- لو لم يكن كلها، و هى أخبار جمّه- يخص قوله: «الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا» الخ؛ بالذكر من غير أن يتعرض لأصل الآيه أعنى قوله: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ»، أصلا، و هذا يؤيد أيضا نزول قوله: «الْيَوْمَ يَنْسَى» الخ؛ نزولا مستقلا منفصلا عن الصدر و الذيل، و أن وقوع الآيه فى وسط الآيه مستند الى تأليف النبى صلى الله عليه و آله و سلم أو الى تأليف المؤلفين بعده.

و يؤيده ما رواه فى الدر المنثور عن عبد بن حميد عن الشعبي قال: نزل على النبى صلى الله عليه و آله و سلم هذه الآيه- و هو بعرفه- «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» و كان اذا أعجبه آيات جعلهن صدر السوره، قال: و كان جبرئيل يعلمه كيف ينسك.

ثم إن هاتين الجملتين أعنى قوله: «الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ» وقوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» متقاربتان مضمونا، مرتبطتان مفهوما بلا- ريب، لظهور ما بين يأس الكفار من دين المسلمين و بين إكمال دين المسلمين من الارتباط القريب، وقبول المضمونين لأن يمتزجا فيتركبا مضمونا واحدا مرتبط الأجزاء، متصل الأطراف بعضها ببعض، مضافا الى ما بين الجملتين من الاتحاد فى السياق.

و يؤيد ذلك ما نرى أن السلف و الخلف من مفسرى الصحابه و التابعين و المتأخرين الى يومنا هذا أخذوا الجملتين متصلتين يتم بعضهما بعضا، وليس ذلك إلا لأنهم فهموا من هاتين الجملتين ذلك، و بنوا على نزولهما معا، و اجتماعهما من حيث الدلالة على مدلول واحد.

و ينتج ذلك أن هذه الآيه المعترضه أعنى قوله: «الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ -الى قوله: - وَ رَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا» كلام واحد متصل بعض أجزائه ببعض مسوق لغرض واحد قائم بمجموع الجملتين من غير تشتت سواء قلنا بارتباطه بالآيه المحيطه بها أو لم نقل، فإن ذلك لا يؤثر البتة فى كون هذا المجموع كلاما واحدا معترضا لا كلامين ذوى غرضين، و أن اليوم المتكرر فى قوله: «الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا»، و فى قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»، أريد به يوم واحد يبس فيه الكفار و أكمل فيه الدين.

ثم ما المراد بهذا اليوم الواقع فى قوله تعالى: «الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ»؟ فهل المراد به زمان ظهور الاسلام ببعثه النبى صلى الله عليه و آله و سلم و دعوته فيكون المراد أن الله أنزل إليكم الإسلام، و أكمل لكم الدين و أتم عليكم النعمه و يأس منكم الكفار؟

لا- سبيل الى ذلك لأن ظاهر السياق أنه كان لهم دين كان الكفار يطمعون فى إبطاله أو تغييره، و كان المسلمون يخشونهم على دينهم فأياس الله الكافرين مما طمعوا فيه و آمن المسلمين و أنه كان ناقصا فأكمله الله و أتم نعمته عليهم، و لم يكن لهم قبل الاسلام دين حتى يطمع فيه الكفار أو يكمله الله و يتم نعمته عليهم.

على أن لازم ما ذكر من المعنى أن يتقدم قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ» ،على قوله: «الْيَوْمَ يَتَسَّ الدِّينَ كَفَرُوا» ،حتى يستقيم الكلام فى نظمه.

أو أن المراد باليوم هو ما بعد فتح مكة حيث أبطل الله فيه كيد مشركى قريش و أذهب شوكتهم،و هدم فيه بنیان دينهم،و كسر أصنامهم،فانقطع رجاؤهم أن يقوموا على ساق، و يضادوا الاسلام و يمانعوا نفوذ أمره و انتشار صيته؟

لا سبيل الى ذلك أيضا فإن الآيه تدل على إكمال الدين و إتمام النعمه و لما يكمل الدين بفتح مكة-و كان فى السنه الثامنه من الهجره-فكم من فريضه نزلت بعد ذلك،و كم من حلال أو حرام شرع فيما بينه و بين رحله النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

على أن قوله: «الدِّينَ كَفَرُوا» يعم جميع مشركى العرب و لم يكونوا جميعا آيسين من دين المسلمين،و من الدليل عليه أن كثيرا من المعارضات و الموائيق على عدم التعرض كانت باقيه بعد على اعتبارها و احترامها،و كانوا يحجون حجه الجاهليه على سنن المشركين،و كانت النساء يحججن عاريات مكشوفات العوره حتى بعث رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عليا عليه السلام بآيات البراءه فأبطل بقايا رسوم الجاهليه.

أو أن المراد باليوم ما بعد نزول البراءه من الزمان حيث انبسط الاسلام على جزيره العرب تقريبا،و عفت آثار الشرك،و ماتت سنن الجاهليه فما كان المسلمون يرون فى معاهد الدين و مناسك الحج أحدا من المشركين،وصفا لهم الأمر،و أبدلهم الله بعد خوفهم أمنا يعبدونه و لا يشركون به شيئا؟

لا سبيل الى ذلك فإن مشركى العرب و إن أسوا من دين المسلمين بعد نزول آيات البراءه و طى بساط الشرك من الجزيره و إعفاء رسوم الجاهليه إلا- أن الدين لم يكمل بعد،و قد نزلت فرائض و أحكام بعد ذلك،و منها ما فى هذه السوره:(سوره المائده)،و قد اتفقوا على نزولها فى آخر عهد النبى صلى الله عليه و آله و سلم،و فيها شىء كثير من أحكام الحلال و الحرام و الحدود

فتحصّل أنه لا- سبيل الى احتمال أن يكون المراد باليوم فى الآيه معناه الواسع مما يناسب مفاد الآيه بحسب بادئ النظر كزمان ظهور الدعوه الاسلاميه أو ما بعد فتح مكه من الزمان، أو ما بعد نزول آيات البراءه فلا سبيل إلا أن يقال: ان المراد باليوم يوم نزول الآيه نفسها، و هو يوم نزول السوره إن كان قوله: «الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا»، معترضا مرتبطا بحسب المعنى بالآيه المحيطه بها، أو بعد نزول سوره المائده فى أواخر عهد النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و ذلك لمكان قوله تعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ» .

فهل المراد باليوم يوم فتح مكه بعينه؟ أو يوم نزول البراءه بعينه؟ يكفى فى فساد ما تقدم من الإشكالات الوارده على الاحتمال الثانى و الثالث المتقدمين.

أو أن المراد باليوم هو يوم عرفه من حجه الوداع كما ذكره كثير من المفسرين و به ورد بعض الروايات؟ فما المراد من يأس الذين كفروا يومئذ من دين المسلمين فإن كان المراد باليأس من الدين يأس مشركى قريش من الظهور على دين المسلمين فقد كان ذلك يوم الفتح عام ثمانيه لا يوم عرفه من السنه العاشره، و إن كان المراد يأس مشركى العرب من ذلك فقد كان ذلك عند نزول البراءه و هو فى السنه التاسعه من الهجره، و إن كان المراد به يأس جميع الكفار الشامل لليهود و النصرارى و المجوس و غيرهم- و ذلك الذى يقتضيه إطلاق قوله:

«الَّذِينَ كَفَرُوا» -فهؤلاء لم يكونوا آيسين من الظهور على المسلمين بعد، و لما يظهر للإسلام قوه و شوكة و غلبه فى خارج جزيره العرب اليوم.

و من جهه أخرى يجب أن نتأمل فيما لهذا اليوم- و هو يوم عرفه تاسع ذى الحجه سنه عشر من الهجره- من الشأن الذى يناسب قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي» فى الآيه.

فربما أمكن أن يقال: إن المراد به إكمال أمر الحج بحضور النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بنفسه فيه، و تعليمه

الناس تعليماً عملياً مشفوعاً بالقول.

لكن فيه أن مجرد تعليمه الناس مناسك حجهم - وقد أمرهم بحج التمتع و لم يلبث دون أن صار مهجوراً، وقد تقدمه تشريع أركان الدين من صلاه و صوم و حج و زكاه و جهاد و غير ذلك - لا يصح أن يسمى إكمالاً للدين، و كيف يصح أن يسمى تعليم شيء من واجبات الدين إكمالاً لذلك الواجب فضلاً عن أن يسمى تعليم واجب من واجبات الدين لمجموع الدين؟

على أن هذا الاحتمال يوجب انقطاع رباطه الفقيه الاولي أعنى قوله: «الْيَوْمَ يَنْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ» بهذه الفقيه أعنى قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» و أى ربط لياس الكفار عن الدين بتعليم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم حج التمتع للناس؟

و ربما أمكن أن يقال: إن المراد به إكمال الدين بنزول بقايا الحلال و الحرام فى هذا اليوم فى سورة المائدة، فلا حلال بعده و لا حرام، و بإكمال الدين استولى اليأس على قلوب الكفار، و لاحت آثاره على وجوههم.

لكن يجب أن نتبصر فى تمييز هؤلاء الكفار الذين عبر عنهم فى الآية بقوله: «الَّذِينَ كَفَرُوا» على هذا التقدير و أنهم من هم؟ فإن أريد بهم كفار العرب فقد كان الإسلام عمهم يومئذ و لم يكن فيهم من يتظاهر بغير الإسلام و هو الإسلام حقيقة، فمن هم الكفار الأيسون؟

و إن أريد بهم الكفار من غيرهم كسائر العرب من الامم و الأجيال فقد عرفنا أننا لم يكونوا آيسين يومئذ من الظهور على المسلمين.

ثم نتبصر فى أمر انسداد باب التشريع بنزول سورة المائدة و انقضاء يوم عرفه فقد وردت روايات كثيرة لا يستهان بها عدداً بنزول أحكام و فرائض بعد اليوم كما فى آيه الصيف (1) و آيات الربا، حتى أنه روى عن عمر أنه قال فى خطبه خطبها: من آخر القرآن نزولاً آيه

ص: ١٩

١- ١). و هى آيه الكلاله المذكوره فى آخر سورة النساء.

الربا، وإنه مات رسول الله و لم يبينه لنا، فدعوا ما يريكم الى ما لا يريكم، الحديث. و روى البخارى فى الصحيح عن ابن عباس قال: آخر آيه نزلت على النبي صلى الله عليه و آله و سلم آيه الربا، الى غير ذلك من الروايات.

و ليس للباحث أن يضعف الروايات فيقدم الآيه عليها، لأن الآيه ليست بصريحه و لا ظاهره فى كون المراد باليوم فيها هذا اليوم بعينه و إنما هو وجه محتمل يتوقف فى تعينه على انتفاء كل احتمال ينافيه، و هذه الاخبار لا تقصر عن الاحتمال المجرد عن السند.

أو يقال: إن المراد بإكمال الدين خلوص البيت الحرام لهم، و إجلاء المشركين عنه حتى حجه المسلمون و هم لا يخالطهم المشركون.

و فيه: أنه قد كان صفا الأمر للمسلمين فيما ذكر قبل ذلك بسنه، فما معنى تقييده باليوم فى قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»؟ على أنه لو سلم كون هذا الخلوص إتماما للنعمه لم يسلم كونه إكمالاً للدين، و أى معنى لتسميه خلوص البيت إكمالاً للدين، و ليس الدين إلا- مجموعه من عقائد و أحكام، و ليس إكماله إلا- أن يضاف الى عدد أجزائها و أبعاضها عدد؟ و أما صفاء الجو لإجرائها، و ارتفاع الموانع و المزاحمات عن العمل بها فليس يسمى إكمالاً للدين البتة.

على أن إشكال يأس الكفار عن الدين على حاله.

و يمكن أن يقال: إن المراد من إكمال الدين بيان هذه المحرمات بيانا تفصيليا ليأخذ به المسلمون، و يجتنبوا و لا يخشوا الكفار فى ذلك لأنهم قد يسوا من دينهم بإعزاز الله المسلمين، و إظهار دينهم و تغليبهم على الكفار.

توضيح ذلك أن حكمه الاكتفاء فى صدر الإسلام بذكر المحرمات الاربعه أعنى الميتة و الدم و لحم الخنزير و ما أهل لغير الله به الواقعه فى بعض السور المكيه و ترك تفصيل ما يندرج فيها مما كرهه الاسلام للمسلمين من سائر ما ذكر فى هذه الآيه الى ما بعد فتح مكه إنما هى التدرج فى تحريم هذه الخبائث و التشديد فيها كما كان التدرج فى تحريم الخمر لثلاثين نفر

العرب من الاسلام، ولا يروا فيه حرجا يرجون به رجوع من آمن فقرائهم و هم أكثر السابقين الأولين.

جاء هذا التفصيل للمحرمات بعد قوه الاسلام، و توسعه الله على أهله و إعزازهم، و بعد أن يؤس المشركون بذلك من نفور أهله منه، و زال طمعهم فى الظهور عليهم، و إزاله دينهم بالقوه القاهره، فكان المؤمنون أجدر بهم لا يبالوهم بالمداراه، و لا يخافوهم على دينهم و على أنفسهم.

فالمراد باليوم يوم عرفه من عام حجه الوداع، و هو اليوم الذى نزلت فيه هذه الآيه المبينه لما بقى من الاحكام التى أبطل بها الاسلام بقايا مهانه الجاهليه و خبائثها و أوهامها، و المبشره بظهور المسلمين على المشركين ظهورا تاما لا مطمع لهم فى زواله، و لا حاجه معه الى شىء من مداراتهم أو الخوف من عاقبه أمرهم.

فالله سبحانه يخبرهم فى الآيه أن الكفار أنفسهم قد يؤسوا من زوال دينهم و أنه ينبغى لهم - و قد بدلهم بضعفهم قوه، و بخوفهم أمنا، و بفرهم غنى - أن لا يخشوا غيره تعالى، و ينتهوا عن تفاصيل ما نهى الله عنه فى الآيه فيها كمال دينهم. كذا ذكره بعضهم بتلخيص ما فى النقل.

و فيه: أن هذا القائل أراد الجمع بين عده من الاحتمالات المذكوره ليدفع بكل احتمال ما يتوجه الى الاحتمال الآخر من الإشكال فتورّط بين المحاذير برمتها و أفسد لفظ الآيه و معناها جميعا.

فذهل عن أن المراد باليأس إن كان هو اليأس المستند الى ظهور الاسلام و قوته و هو ما كان بفتح مكه أو بنزول آيات البراءه لم يصح أن يقال يوم عرفه من السنه العاشره: «الْيَوْمَ يَبْسُ الدِّينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ» و قد كانوا يؤسوا قبل ذلك بسنه أو سنتين، و إنما اللفظ الوافى له أن يقال: قد يؤسوا كما عبر به القائل نفسه فى كلامه فى توضيح المعنى أو يقال: إنهم آيسون.

و ذهل عن أن هذا التدرج الذى ذكره فى محرمات الطعام، و قاس تحريمها بتحريم الخمر إن

أريد به التدرج من حيث تحريم بعض الافراد بعد بعض فقد عرفت أن الآيه لا تشتمل على أزيد مما تشتمل عليه آيات التحريم السابقة نزولاً على هذه الآيه أعنى آيات البقره و الانعام و النحل، و أن المنخنقه و الموقوده، الخ؛ من افراد ما ذكر فيها.

و إن أريد به التدرج من حيث البيان الإجمالى و التفصيلى خوفاً من امتناع الناس من القبول فى غير محله، فإن ما ذكر بالتصريح فى السور السابقه على المائده أعنى الميته و الدم و لحم الخنزير و ما أهل لغير الله به أغلب مصداقاً، و أكثر ابتلاءً، و أوقع فى قلوب الناس من أمثال المنخنقه و الموقوده و غيرها، و هى أمور نادره التحقق و شاذه الوجود، فما بال تلك الاربعه و هى أهم و أوقع و أكثر يصرح بتحريمها من غير خوف من ذلك ثم يتقى من ذكرها ما لا يعبأ بأمره بالاضافه إليها فيتدرج فى بيان حرمتها، و يخاف من التصريح بها؟

على أن ذلك لو سلم لم يكن إكمالاً للدين، و هل يصح ان يسمى تشريع الاحكام ديناً؟ و إبلاغها و بيانها إكمالاً للدين؟ و لو سلم فإنما ذلك إكمال لبعض الدين و إتمام لبعض النعمه لا- للكل و الجميع، و قد قال تعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي» فأطلق القوم من غير تقييد.

على أنه تعالى قد بين أحكاماً كثيره فى ايام كثيره، فما بال هذا الحكم فى هذا اليوم خص بالمزيه فسماه الله أو سمى بيانه تفصيلاً بإشمال الدين و إتمام النعمه؟

أو أن المراد بإكمال الدين إكماله بسد باب التشريع بعد هذه الآيه المبيته لتفصيل محرّمات الطعام، فما شأن الاحكام النازله ما بين نزول المائده و رحله النبي صلى الله عليه و آله و سلم؟ بل ما شأن سائر الاحكام النازله بعد هذه الآيه فى سوره المائده؟ تأمل فيه.

و بعد ذلك كله ما معنى قوله تعالى: «وَ رَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا» -و تقديره: اليوم رضيت، الخ؛- لو كان المراد بالكلام الامتنان بما ذكر فى الآيه من المحرمات يوم عرفه من السنه العاشره؟ و ما وجه اختصاص هذا اليوم بأن الله سبحانه رضى فيه الاسلام ديناً، و لا أمر

يختص به اليوم مما يناسب هذا الرضى؟.

و بعد ذلك كله يرد على هذا الوجه أكثر الاشكالات الواردة على الوجه السابقه أو ما يقرب منها مما تقدم بيانه، ولا نطيل بالإعاده.

أو أن المراد باليوم واحد من الايام التى بين عرفه و بين ورود النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم المدينه على بعض الوجوه المذكوره فى معنى يأس الكفار و معنى إكمال الدين.

و فيه من الإشكال ما يرد على غيره على التفصيل المتقدم.

فهذا شطر من البحث عن الآيه بحسب السير فيما قيل أو يمكن ان يقال فى توجيه معناها، و لنبحث عنها من طريق آخر يناسب طريق البحث الخاص بهذا الكتاب.

قوله: «الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ» -و اليأس يقابل الرجاء، و الدين إنما نزل من عند الله تدريجاً- يدل على ان الكفار قد كان لهم مطمع فى دين المسلمين و هو الاسلام، و كانوا يرجون زواله بنحو منذ عهد و زمان، و أن أمرهم ذلك كان يهدد الاسلام حيناً بعد حين، و كان الدين منهم على خطر يوماً بعد يوم، و أن ذلك كان من حقه ان يحذر منه و يخشاه المؤمنون.

فقوله: «فَلَا تَخْشَوْهُمْ»، تأمين منه سبحانه للمؤمنين مما كانوا منه على خطر، و من تسرّ به على خشيه، قال تعالى: وَذَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ (آل عمران ٦٩)، و قال تعالى: وَذَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (البقره ١٠٩).

و الكفار لم يكونوا يتربصون الدوائر بالمسلمين إلا لدينهم، و لم يكن يضيق صدورهم و ينصدع قلوبهم إلا من جهة ان الدين كان يذهب بسؤددهم و شرفهم و استرسالهم فى اقتراف كل ما تهواه طباعهم، و تألفه و تعتاد به نفوسهم، و يختم على تمتعهم بكل ما يشتهون بلا قيد

فقد كان الدين هو المبعوض عندهم دون اهل الدين الا- من جهة دينهم الحق فلم يكن في قصدهم اباده المسلمين و اِفاء جمعهم بل اِطفاء نور الله و تحكيم اركان الشرك المتزلزله المضطربه به، و ردّ المؤمنين كفارا كما مر في قوله: «لَوْ يَرُدُّوْكُمْ مِنْ بَعْدِ اِيْمَانِكُمْ كُفَّارًا» الآيه؛ قال تعالى:

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (الصف ٩).

و قد قال تعالى فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (المؤمن ١٤).

و لذلك لم يكن لهم همّ إلا- ان يقطعوا هذه الشجره الطيبه من أصلها، و يهدموا هذا البنيان الرفيع من أسسه بتفتين المؤمنين و تسريه النفاق في جماعتهم و بث الشبهه و الخرافات بينهم لإفساد دينهم.

و قد كانوا يأخذون بادئ الامر يفترّون عزيمة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَمٍ وَ يستمحقون همته في الدعوه الدينيه بالمال و الجاه، كما يشير اليه قوله تعالى: وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَ اضْبُرُوا عَلَيَّ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (ص ٦) أو بمخالطه أو مداهنه، كما يشير اليه قوله: وَ دُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (القلم ٩)، و قوله: وَ لَوْ لَا أَنْ تَبْتَاعَكَ لَعَدتْ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (الإسراء ٧٤)، و قوله: يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَ لَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (الكافرون ٣) على ما ورد في اسباب النزول.

و كان آخر ما يرجونه في زوال الدين، و موت الدعوه المحقه، أنه سيموت بموت هذا القائم بأمره و لا عقب له، فإنهم كانوا يرون أنه ملك في صوره النبوه، و سلطنه في لباس الدعوه و الرساله، فلو مات أو قتل لانقطع أثره و مات ذكره و ذكر دينه على ما هو المشهود عاده من حال السلاطين و الجابره أنهم مهما بلغ أمرهم من التعالي و التجبر و ركوب رقاب الناس فإن ذكرهم يموت بموتهم، و سننهم و قوانينهم الحاكمه بين الناس و عليهم تدفن معهم في قبورهم،

يشير الى رجائهم هذا قوله تعالى: إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (الكوثر ٣) على ما ورد في أسباب النزول.

فقد كان هذه و أمثالها أمانى تمكّن الرجاء من نفوسهم، و تطمعهم فى إطفاء نور الدين، و تزّين لأوهامهم ان هذه الدعوه الطاهره ليست الا- أحدىته ستكذبه المقادير و يقضى عليها و يعفو أثرها مرور الايام و الليالى، لكن ظهور الاسلام تدريجا على كل ما نازله من دين و أهله، و انتشار صيته، و اعتلاء كلمته بالشوكة و القوه قضى على هذه الأمانى فيئسوا من إفساد عزيمة النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و إيقاف همّته عند بعض ما كان يريد، و تطمئنه بمال أو جاه.

قوه الاسلام و شوكته أياستهم من جميع تلك الاسباب:- أسباب الرجاء- إلا واحدا، و هو أنه صلى الله عليه و آله و سلم مقطوع العقب لا ولد له تخلفه فى أمره، و يقوم على ما قام عليه من الدعوه الدينيه فسيموت دينه بموته، و ذلك أن من البديهي ان كمال الدين من جهه أحكامه و معارفه -و إن بلغ ما بلغ- لا يقوى بنفسه على حفظ نفسه، و أن سنه من السنن المحدثه و الأديان المتبعه لا- تبقى على نضارتها و صفائها لا- بنفسها و لا بانتشار صيتها و لا بكثرة المنتحلين بها، كما أنها لا تنمحي و لا تنطمس بقهر أو جبر أو تهديد أو فتنه أو عذاب أو غير ذلك إلا بموت حملتها و حفظتها و القائمين بتدبير أمرها.

و من جميع ما تقدم يظهر ان تمام يأس الكفار إنما كان يتحقق عند الاعتبار الصحيح بأن ينصب الله لهذا الدين من يقوم مقام النبي صلى الله عليه و آله و سلم فى حفظه و تدبير أمره، و إرشاد الامه القائمه به فيتعقب ذلك يأس الذين كفروا من دين المسلمين لما شاهدوا خروج الدين عن مرحله القيام بالحامل الشخصى الى مرحله القيام بالحامل النوعى، و يكون ذلك إكمالا للدين بتحويله من صفه الحدوث الى صفه البقاء، و إتماما لهذه النعمه، و ليس يبعد ان يكون قوله تعالى: وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

(البقره ١٠٩/١) باشماله على قوله: «حَتَّى يَأْتِيَ»، اشاره الى هذا المعنى.

و هذا يؤيد ما ورد من الروايات ان الآيه نزلت يوم غدیر خم، و هو اليوم الثامن عشر من ذى الحجه سنه عشر من الهجره فى أمر ولايه على عليه السلام، و على هذا فيرتبط الفقرتان أوضح الارتباط، و لا يرد عليه شيء من الإشكالات المتقدمه.

ثم إنك بعد ما عرفت معنى اليأس فى الآيه تعرف أن اليوم فى قوله: «الْيَوْمَ يَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ» ظرف متعلق بقوله: «يَيْسَ» و أن التقديم للدلاله على تفخيم أمر اليوم، و تعظيم شأنه، لما فيه من خروج الدين من مرحله القيام بالقيم الشخصى الى مرحله القيام بالقيم النوعى، و من صفه الظهور و الحدوث الى صفه البقاء و الدوام.

و لا- يقاس الآيه بما سيأتى من قوله: «الْيَوْمَ أُحِزَّ لَكُمْ الطِّيَّبَاتُ» الآيه؛ فإن سياق الآيتين مختلف فقوله: «الْيَوْمَ يَيْسَ»، فى سياق ال-اعتراض، و قوله: «الْيَوْمَ أُحِزَّ»، فى سياق الاستيناف، و الحكمان مختلفان: فحكم الآيه الاولى تكوينى مشتمل على البشرى من وجه و التحذير من وجه آخر، و حكم الثانيه تشريعى منبئ عن الامتنان. فقوله: «الْيَوْمَ يَيْسَ»، يدل على تعظيم أمر اليوم لاشتماله على خير عظيم الجدوى و هو يأس الذى كفروا من دين المؤمنين، و المراد بالذين كفروا- كما تقدمت الإشاره اليه- مطلق الكفار من الوثنيين و اليهود و النصرارى و غيرهم لمكان الإطلاق.

و أما قوله: «فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَ أَحْشَوْنِ فَإِنَّهُمْ» فالنهي إرشادى لا مولوى، معناه أن لا موجب للخشيه بعد يأس الذين كنتم فى معرض الخطر من قبلهم- و من المعلوم ان الانسان لا يهتم بأمر بعد تمام اليأس من الحصول عليه و لا يسعى الى ما يعلم ضلال سعيه فيه- فأنتم فى أمن من ناحيه الكفار، و لا ينبغى لكم مع ذلك الخشيه منهم على دينكم فلا تخشوهم و احشونى.

و من هنا يظهر أن المراد بقوله: «وَ أَحْشَوْنِ» بمقتضى السياق أن احشونى فيما كان عليكم ان

تخشوهم فيه لو لا بأسهم و هو الدين و نزعهم من أيديكم، و هذا نوع تهديد للمسلمين كما هو ظاهر، و لهذا لم نحمل الآية على الامتنان.

و يؤيد ما ذكرنا ان الخشية من الله سبحانه واجب على أى تقدير من غير ان يتعلق بوضع دون وضع، و شرط دون شرط، فلا وجه للإضراب من قوله: «فَلَا تَخْشَوْهُمْ» الى قوله:

«وَ احْشَوْنِ» لو لا أنها خشية خاصة فى مورد خاص.

و لا- تقاس الآية بقوله تعالى: «فَلَا تَخَافُوهُمْ وَ خَافُونِ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (آل عمران/ ١٧٥) لأن الامر بالخوف من الله فى تلك الآية مشروط بالإيمان، و الخطاب مولوى، و مفاده انه لا يجوز للمؤمنين ان يخافوا الكفار على أنفسهم بل يجب ان يخافوا الله سبحانه وحده.

فالآية تنهاهم عما ليس لهم بحق و هو الخوف منهم على أنفسهم سواء أمروا بالخوف من الله ام لا، و لذلك يعلل ثانيا الامر بالخوف من الله بقيد مشعر بالتعليل، و هو قوله: «إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» و هذا بخلاف قوله: «فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَ احْشَوْنِ» فإن خشيتهم هذه خشية منهم على دينهم، و ليست بمبغوضه لله سبحانه لرجوعها الى ابتغاء مرضاته بالحقيقه، بل إنما النهى عنها لكون السبب الداعى إليها- هو عدم بأس الكفار منه- قد ارتفع و سقط أثره فالنهي عنه إرشادى، فكذا الامر بخشية الله نفسه، و مفاد الكلام ان من الواجب أن تخشوا فى امر الدين، لكن سبب الخشية كان الى اليوم مع الكفار فكنتم تخشونهم لرجائهم فى دينكم و قد يسوا اليوم و انتقل السبب الى ما عند الله فاخشوه وحده. فافهم ذلك.

فالآية لمكان قوله: «فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَ احْشَوْنِ» لا تخلو عن تهديد و تحذير، لأن فيه أمرا بخشية خاصة دون الخشية العامه التى تجب على المؤمن على كل تقدير و فى جميع الاحوال، فلننظر فى خصوصيه هذه الخشية، و أنه ما هو السبب الموجب لوجوبها و الامر بها؟.

لا إشكال فى ان الفقرتين أعنى قوله: «الْيَوْمَ يَبَسُّ»، و قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي»، فى الآية مرتبطتان مسوقتان لغرض واحد، و قد تقدم بيانه، فالدين

الذى أكمله الله اليوم، و النعمة التى أتمها اليوم- و هما أمر واحد بحسب الحقيقة-هو الذى كان يطمع فيه الكفار و يخشاهم فيه المؤمنون فأياسهم الله منه و أكمله و أتمه، و نهاهم عن أن يخشوهم فيه، فالذى أمرهم بالخشية من نفسه فيه هو ذاك بعينه و هو أن ينزع الله الدين من ايديهم، و يسلبهم هذه النعمة الموهوبه.

و قد بين الله سبحانه ان لا سبب لسلب النعمة إلا الكفر بها، و هدد الكفور أشد التهديد، قال تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيَّرًا نِعْمَهُ أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (الأنفال ٥٣) و قال تعالى: وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (البقره ٢١١) و ضرب مثلا كلياً لنعمه و ما يؤول اليه أمر الكفر بها فقال وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَوْمًا كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (النحل ١١٢).

فالآيه أعنى قوله: «الْيَوْمَ يَيْسَ -الى قوله- دِينًا» تؤذن بأن دين المسلمين فى أمن من جهه الكفار، مصون من الخطر المتوجه من قبلهم، و أنه لا يتسرب اليه شىء من طوارق الفساد و الهلاك إلا من قبل المسلمين أنفسهم، و أن ذلك إنما يكون بكفرهم بهذه النعمة التامه، و رفضهم هذا الدين الكامل المرضى، و يومئذ يسلبهم الله نعمته و يغيرها الى النقمه، و يذيقهم لباس الجوع و الخوف، و قد فعلوا و فعل.

و من أراد الوقوف على مبلغ صدق هذه الآيه فى ملحمتها المستفاده من قوله: «فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ» فعليه ان يتأمل فيما استقر عليه حال العالم الاسلامى اليوم ثم يرجع القهقرى بتحليل الحوادث التاريخيه حتى يحصل على أصول القضايا و أعراقها.

و آيات الولايه فى القرآن ارتباط تام بما فى هذه الآيه، من التحذير و الإيعاد، و لم يحذر الله العباد عن نفسه فى كتابه إلا فى باب الولايه، فقال فيها مره بعد مره وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ (آل عمران ٢٨ و ٣٠) و تعقيب هذا البحث أزيد من هذا خروج عن طور الكتاب.

قوله تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا الْإِكْمَالُ وَالْإِتْمَامُ متقاربا المعنى، قال الراغب: كمال الشيء حصول ما هو الغرض منه. وقال: تمام الشيء انتهاؤه الى حد لا يحتاج الى شيء خارج عنه، والناقص ما يحتاج الى شيء خارج عنه.

و لك ان تحصل على تشخيص معنى اللفظين من طريق آخر، وهو ان آثار الاشياء التي لها آثار على ضربين. فضرب منها ما يترتب على الشيء عند وجود جميع اجزائه- إن كان له اجزاء- بحيث لو فقد شيئا من اجزائه أو شرائطه لم يترتب عليه ذلك الامر كالصوم فإنه يفسد اذا أخل بالإمساك في بعض النهار، ويسمى كون الشيء على هذا الوصف بالتمام، قال تعالى:

ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ (البقره ١٨٧/)، وقال: وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا (الأنعام ١١٥/).

و ضرب آخر: الأثر الذى يترتب على الشيء من غير توقف على حصول جميع اجزائه، بل أثر المجموع كمجموع آثار الاجزاء، فكلما وجد جزء ترتب عليه من الأثر ما هو بحسبه، و لو وجد الجميع ترتب عليه كل الأثر المطلوب منه، قال تعالى: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَ سَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ (البقره ١٩٦/). وقال: وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ (البقره ١٨٥/). فإن هذا العدد يترتب الأثر على بعضه كما يترتب على كله، و يقال: تم لفلان امره و كمل عقله، و لا يقال: تم عقله و كمل امره.

و أما الفرق بين الإكمال و التكميل، و كذا بين الاتمام و التتميم فإنما هو الفرق بين بابى الإفعال و التفعيل، و هو ان الإفعال بحسب الاصل يدل الدفعه و التفعيل على التدريج، و إن كان التوسع الكلامى أو التطور اللغوى ربما يتصرف فى البابين بتحويلهما الى ما يبعد من مجرى المجرى أو من أصلهما كالإحسان و التحسين، و الإصداق و التصديق، و الامداد و التمديد و الافراط و التفريط، و غير ذلك، فإنما هى معان طرأت بحسب خصوصيات الموارد ثم تمكنت

فى اللفظ بالاستعمال.

و ينتج ما تقدم ان قوله: «أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي» يفيد أن المراد بالدين هو مجموع المعارف و الاحكام المشرّعه و قد أضيف الى عددها اليوم شىء و أن النعمة أياما كانت امر معنوى واحد كأنه كان ناقصا غير ذى اثر فتمم و ترتب عليه الأثر المتوقع منه.

و النعمة بناء نوع و هى ما يلائم طبع الشىء من غير امتناعه منه، و الاشياء و إن كانت بحسب وقوعها فى نظام التدبير متصله مرتبطه متلائما بعضها مع بعض، و أكثرها أو جميعها نعم اذا أضيفت الى بعض آخر مفروض كما قال تعالى: «وَ إِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا» (إبراهيم ٣٤) و قال: «وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَ بَاطِنَةً» (لقمان ٢٠).

إلا انه تعالى وصف بعضها بالشر و الخمسه و اللعب و اللهو و أوصاف آخر غير ممدوحه كما قال: «وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ» (آل عمران ١٧٨)، و قال: «وَ مَا هَدَى الْهَيْبَةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوَ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ» (العنكبوت ٦٤)، و قال: «وَ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ بُئْسَ الْمِهَادُ» (آل عمران ١٩٧) الى غير ذلك.

و الآيات تدل على ان هذه الاشياء المعدوده نعمًا إنما تكون نعمه اذا وافقت الغرض الالهى من خلقها لأجل الانسان، فإنها إنما خلقت لتكون إمدادا إلهيا للانسان يتصرف فيها فى سبيل سعادته الحقيقيه، و هى القرب منه سبحانه بالعبوديه و الخضوع للربوبيه، قال تعالى: «وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» (الذاريات ٥٦).

فكل ما تصرف فيه الانسان للسلوك به الى حضره القرب من الله و ابتغاء مرضاته فهو نعمه، و إن انعكس الأمر عاد نقمه فى حقه، فالاشياء فى نفسها عزل، و إنما هى نعمه لاشتمالها على روح العبوديه، و دخولها من حيث التصرف المذكور تحت ولايه الله التى هى تدبير

الربوبية لشئون العبد، ولازمه أن النعمه بالحقيقه هي الولاية الإلهيه، و أن الشئ إنما يصير نعمه إذا كان مشتتملا على شئ منها، قال تعالى: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ (البقره ٢٥٧/)، و قال تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (محمد ١١/). و قال في حق رسوله: فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (النساء / ٦٥) الى غير ذلك.

فالاسلام و هو مجموع ما نزل من عند الله سبحانه ليعبده به عباده دين، و هو من جهه اشتماله- من حيث العمل به- على ولايه الله و ولايه رسوله و أولياء الأمر بعده نعمه.

و لا يتم ولايه الله سبحانه أى تدبيره بالدين لامور عباده إلا بولايه رسوله، و لا ولايه رسوله إلا بولايه أولى الأمر من بعده، و هى تدبيرهم لامور الامه الدينيه بإذن من الله، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ (النساء / ٥٩) و قد مر الكلام فى معنى الآيه، و قال: إِنَّمَا وَثَّيْتُكُمْ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ (المائده ٥٥/). و سيجىء الكلام فى معنى الآيه إن شاء الله تعالى.

مفصّل معنى الآيه: اليوم- و هو اليوم الذى يئس فيه الذين كفروا من دينكم- أكملت لكم مجموع المعارف الدينيه التى أنزلتها إليكم بفرض الولاية، و أتممت عليكم نعمتى و هى الولاية التى هى إداره أمور الدين و تدبيرها تدبيرا إلهيا، فإنها كانت الى اليوم ولايه الله و رسوله، و هى إنما تكفى ما دام الوحي ينزل، و لا تكفى لما بعد ذلك من زمان انقطاع الوحي، و لا رسول بين الناس يحمى دين الله و يذب عنه بل من الواجب أن ينصب من يقوم بذلك، و هو ولى الأمر بعد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم القيم على أمور الدين و الامه.

فالولاية مشروع و واحده، كانت ناقصه غير تامه حتى اذا تمت بنصب ولى الأمر بعد

و اذا كمل الدين فى تشريعه،و تمت نعمه الولايه فقد رضيت لكم من حيث الدين الاسلام الذى هو دين التوحيد الذى لا يعبد فيه إلا الله و لا يطاع فيه-و الطاعه عباده-إلا الله و من أمر بطاعته من رسول أو ولى.

فالآيه تنبئ عن أن المؤمنين اليوم فى أمن بعد خوفهم،و أن الله رضى لهم أن يتدينوا بالاسلام الذى هو دين التوحيد فعليهم أن يعبدوه و لا- يشركوا به شيئاً بطاعه غير الله أو من أمر بطاعته.و اذا تدبرت قوله تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسِّرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَ لَيُيَسِّرَنَّ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (النور ٥٥/٥٥) ثم طبقت فقرات الآيه على فقرات قوله تعالى: «الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ» الخ؛وجدت آيه سوره المائده من مصاديق إنجاز الوعد الذى يشتمل عليه آيه سوره النور على أن يكون قوله: «يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا» مسوقا سوق الغايه كما ربما يشعر به قوله: «وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» .

و سوره النور قبل المائده نزولا كما يدل عليه اشتمالها على قصه الإفك و آيه الجلد و آيه الحجاب و غير ذلك.

قوله تعالى: فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصِهِ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ المخمصه هى المجاعه،و التجانف هو التمايل من الجنف بالجيم و هو ميل القدمين الى الخارج مقابل الحنف بالحاء الذى هو ميلهما الى الداخل.

و فى سياق الآيه دلالة اولاه- على أن الحكم حكم ثانوى اضطرارى،و ثانيا على أن التجويز و الإباحه مقدر بمقدار يرتفع به الاضطرار و يسكن به ألم الجوع،و ثالثا على أن صفه المغفره و مثلها الرحمه كما تتعلق بالمعاصى المستوجهه للعقاب كذلك يصح أن تتعلق بمنشئها،و هو

الحكم الذى يستتبع مخالفته تحقق عنوان المعصية الذى يستتبع العقاب (١)(٢).

بحث روائى آخر:

فى غاية المرام: عن أبى المؤيد موفق بن احمد فى كتاب فضائل على، قال: أخبرنى سيد الحفاظ شهردار بن شيرويه بن شهردار الديلمى فيما كتب إلى من همدان، أخبرنا ابو الفتح عبدوس بن عبد الله بن عبدوس الهمدانى كتابه، حدثنا عبد الله بن إسحاق البغوى، حدثنا الحسين بن عليل الغنوى، حدثنا محمد بن عبد الرحمن الزراع، حدثنا قيس بن حفص، حدثنا على بن الحسين، حدثنا ابو هريره عن ابى سعيد الخدرى: إن النبى صَلَّى الله عليه وآله وسلم يوم دعا الناس الى غدیر خم أمر بما تحت الشجره من شوك فقم، و ذلك يوم الخميس يوم دعا الناس الى على و أخذ بضعه ثم رفعها حتى نظر الناس الى بياض إبطيه ثم لم يفترقا حتى نزلت هذه الآيه: الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم: الله أكبر على إكمال الدين و إتمام النعمه و رضا الرب برسالتى و الولاية لعلى، ثم قال: اللهم وال من والاه، و عاد من عاداه، و انصر من نصره، و اخذل من خذله.

و قال حسان بن ثابت: أ تَأْذَن لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ أَقُولَ آيَاتًا؟ قال: قل ينزله الله تعالى، فقال حسان بن ثابت:

يناديهم يوم الغدير نبيهم

بخم و أسمع بالنبى مناديا

بأنى مولاكم نعم و وليكم

فقالوا و لم يبدوا هناك التعاميا

إلهك مولانا و أنت و لنا

و لا تجدن فى الخلق للأمر عاصيا

ص: ٣٣

١- ١). المائده ٣-١: بحث علمى فى فصول ثلاثه (العقائد فى اكل اللحم، كيف امر بقتل الحيوان و الرحمه تأباه، لما ذا بنى الاسلام على التذكيه.

٢- ٢). المائده ٣-١: بحث روائى حول «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا»؛ شعائر الله آمين البيت الحرام؛ الحيوانات التى حرم اكلها.

فقال له قم يا علي فإنني

رضيتك من بعدى إماما و هاديا

و عن كتاب نزول القرآن فى أمير المؤمنين على بن أبى طالب للحافظ أبى نعيم رفعه إلى قيس بن الربيع، عن أبى هارون العبدى، عن أبى سعيد الخدرى مثله، و قال فى آخر الأبيات:

فمن كنت مولاه فهذا وليه

فكونوا له أنصار صدق مواليا

هناك دعا اللهم وال وليه

و كن للذى عادى عليا معاديا

و عن نزول القرآن أيضا يرفعه إلى على بن عامر عن أبى الحجاج عن الأعمش عن عضه قال: نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى على بن أبى طالب: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا .

و عن إبراهيم بن محمد الحموينى قال: أنبأنى الشيخ تاج الدين أبو طالب على بن الحسين ابن عثمان بن عبد الله الخازن، قال: أنبأنا الإمام برهان الدين ناصر بن أبى المكارم المطرزى إجازته، قال: أنبأنا الإمام أخطب خوارزم أبو المؤيد موفق بن أحمد المكى الخوارزمى، قال:

أنبأنى سيد الحفاظ فى ما كتب إلى من همدان، أنبأنا الرئيس أبو الفتح كتابه، حدثنا عبد الله بن إسحاق البغوى، أنبأنا الحسن بن عقيل الغنوى، أنبأنا محمد بن عبد الله الزّراع، أنبأنا قيس بن حفص قال: حدثنى على بن الحسين العبدى عن أبى هارون العبدى عن أبى سعيد الخدرى، و ذكر مثل الحديث الأول.

و عن الحموينى أيضا عن الحفاظ و أبو منصور شهردار بن شيرويه بن شهردار الديلمى، قال: أخبرنا الحسن بن أحمد بن الحسن الحداد المقرئ الحفاظ عن أحمد بن عبد الله بن أحمد، قال: أنبأنا محمد بن أحمد بن على، قال: أنبأنا محمد بن عثمان بن أبى شبيه، قال: أنبأنا يحيى الحمانى، قال: حدثنا قيس بن الربيع عن أبى هارون العبدى عن أبى سعيد الخدرى، و ذكر مثل الحديث الأول.

قال: قال الحموي عقيب هذا الحديث: هذا حديث له طرق كثيرة إلى أبي سعيد سعد بن مالك الخدري الأنصاري.

و عن المناقب الفاخره للسيد الرضى رحمه الله عن محمد بن إسحاق، عن أبي جعفر، عن أبيه عن جده قال: لما انصرف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ حَجَّةِ الْوُدَّاعِ نَزَلَ أَرْضًا يُقَالُ لَهُ: ضَوْجَانٌ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ فَلَمَّا نَزَلَتْ عَصَمْتَهُ مِنَ النَّاسِ نَادَى: الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ فَاجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقَالَ: مَنْ أَوْلَى مِنْكُمْ بِأَنْفُسِكُمْ: فَضَجُّوا بِأَجْمَعِهِمْ فَقَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَأَخَذَ بِيَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَقَالَ: مَنْ كُنْتَ مَوْلَاهُ فَعَلَى مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادَ مَنْ عَادَاهُ، وَأَنْصَرَ مَنْ أَنْصَرَهُ، وَأَخَذَ مَنْ أَخَذَهُ لِأَنَّهُ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، وَهُوَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي. وَكَانَتْ آخِرَ فَرِيضَتِهِ فَرَضَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أُمِّهِ مُحَمَّدٍ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَاتَّمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا.

قال ابو جعفر: فقبلوا من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كُلَّ مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْفَرَائِضِ فِي الصَّلَاةِ وَالصُّومِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ، وَصَدَقُوهُ عَلَى ذَلِكَ.

قال ابن إسحاق: قلت لأبي جعفر: ما كان ذلك؟ قال لتسع (١) عشره ليله خلت من ذى الحجة سنة عشره عند منصرفه من حجة الوداع، وكان بين ذلك وبين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مائة يوم و كان سمع (٢) رسول الله بغدير خم اثنا عشر.

و عن المناقب لابن المغازلي يرفعه إلى ابى هريره قال: من صام يوم ثمانية عشر من ذى

ص: ٣٥

١-١. سبع في نسخه البرهان.

٢-٢. سمى رسول الله بغدير خم اثنا عشر رجلا. نسخه البرهان.

الحججه كتب الله له صيامه ستين شهرا، و هو يوم غدیر خم، بها اخذ النبي بيعة على ابن ابى طالب، و قال: من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه و عاد من عاداه، و انصر من نصره، فقال له عمر بن الخطاب: بَخَّ بَخَّ لك يا ابن ابى طالب اصبحت مولاي و مولى كل مؤمن و مؤمنه، فأنزل الله تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ .

و عن المناقب لابن مردويه و كتاب سرقات الشعر للمرزباني عن ابى سعيد الخدرى مثل ما تقدم عن الخطيب.

اقول: و روى الحديثين فى الدر المنثور عن أبى سعيد و ابى هريره و وصف سندهما بالضعف. و قد روى بطرق كثيره تنتهى من الصحابه (لو دقق فيها) إلى عمر بن الخطاب و على بن أبى طالب و معاويه و سمره: ان الآيه نزلت يوم عرفه من حجه الوداع و كان يوم الجمعة، و المعتمد منها ما روى عن عمر فقد رواه عن الحميدى و عبد بن حميد و احمد البخارى و مسلم و الترمذى و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن حبان و البيهقى فى سننه عن طارق ابن شهاب عن عمر، و عن ابن راهويه فى مسنده و عبد بن حميد عن ابى العالى عن عمر، و عن ابن جرير عن قبيضة بن ابى ذؤيب عن عمر، و عن البزاز عن ابن عباس، و الظاهر أنه يروى عن عمر.

ثم أقول: أما ما ذكره من ضعف سنده الحديثين فلا يجديهِ فى ضعف المتن شيئا فقد أوضحنا فى البيان المتقدم أن مفاد الآيه الكريمة لا يلائم غير ذلك من جميع الاحتمالات و المعانى المذكوره فيها، فهاتان الروايتان و ما فى معناهما هى الموافقه للكتاب من بين جميع الروايات فهى المتعينه للأخذ.

على أن الأحاديث الداله على نزول الآيه فى مسأله الولايه - و هى تزيد على عشرين حديثا من طرق أهل السنه و الشيعه - مرتبطه بما ورد فى سبب نزول قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْآيَه، (المائده ٦٧)؛ و هى تربو على خمسه عشر

حديثا رواها الفريقان، وجميع مرتبط بحديث الغدير: «من كنت مولاه فعلى مولاه» وهو حديث متواتر مروى عن جم غفير من الصحابه، اعترف بتواتره جمع كثير من علماء الفريقين.

و من المتفق عليه أن ذلك كان فى منصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مكه إلى المدينه. وهذه الولاية (لو لم تحمل على الهزل و التهكم) فريضه من الفرائض كالتولى و التبرى اللذين نص عليهما القرآن فى آيات كثيره، و إذا كان كذلك لم يجر أن يتأخر جعلها عن نزول الآيه أعنى قوله: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ، فالآيه إنما نزلت بعد فرضها من الله سبحانه، و لا اعتماد على ما ينافى ذلك من الروايات لو كانت منافية.

و أما ما رواه من الروايه فقد عرفت ما ينبغى أن يقال فيها غير أن هاهنا أمرأ يجب التنبه له، و هو أن التدبر فى الآيتين الكريمتين: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَنْ يَبْلُغْ رِسَالَتَهُ الْآيَةُ؛ على ما سيجىء من بيان معناه، و قوله: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ الْآيَةُ؛ و الأحاديث الواردة من طرق الفريقين فيهما و روايات الغدير المتواتره، و كذا دراسته أوضاع المجتمع الاسلامى الداخليه فى أواخر عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و البحث العميق فيها يفيد القطع بأن أمر الولاية كان نازلا قبل يوم الغدير بأيام، و كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يتقى الناس فى إظهاره، و يخاف أن لا يتلقوه بالقبول أو يسيئوا القصد إليه فيختل أمر الدعوه، فكان لا يزال يؤخر تبليغه الناس من يوم إلى غد حتى نزل قوله: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ الْآيَةَ؛ فلم يمهل فى ذلك.

و على هذا فمن الجائز أن ينزل الله سبحانه معظم السوره و فيه قوله: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ الْآيَةَ؛ و ينزل معه أمر الولاية كل ذلك يوم عرفه فأخر النبى صلى الله عليه وآله وسلم بيان الولاية إلى غدير خم، و قد كان تلا آيتها يوم عرفه، و أما اشتمال بعض الروايات على نزولها يوم الغدير فليس من المستبعد أن يكون ذلك لتلاوته صلى الله عليه وآله وسلم الآيه مقارنة لتبليغ أمر الولاية لكونها فى

شأنها.

و على هذا فلا تنافى بين الروايات أعنى ما دل على نزول الآية فى امر الولاية، و ما دل على نزولها يوم عرفه كما روى عن عمر و على و معاوية و سمره، فإن التنافى إنما كان يتحقق لو دل أحد القبيلين على النزول يوم غدير خم، و الآخر على النزول على يوم عرفه.

و اما ما فى القبيل الثانى من الروايات أن الآية تدل على كمال الدين بالحج و ما أشبهه فهو من فهم الراوى لا ينطبق به الكتاب و لا بيان من النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم يعتمد عليه.

و ربما استفيد هذا الذى ذكرناه مما رواه العياشى فى تفسيره عن جعفر بن محمد بن محمد بن محمد الخزاعى عن ابيه قال: سمعت ابا عبد الله عليه السلام يقول لما نزل رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم عرفات يوم الجمعة أتاه جبرئيل فقال له: إن الله يقرئك السلام، و يقول لك: قل لا تمتك: اليوم أكملت دينكم بولايه على بن ابى طالب و اتممت عليكم نعمتى و رضيت لكم الاسلام دينا و لست أنزل عليكم بعد هذا، قد انزلت عليكم الصلاه و الزكاه و الصوم و الحج، و هى الخامسة، و لست اقبل عليكم بعد هذه الأربعة إلا بها.

على ان فيما نقل عن عمر من نزول الآية يوم عرفه إشكالا آخر، و هو أنها جميعا تذكر ان بعض اهل الكتاب - و فى بعضها انه كعب - قال لعمر: إن فى القرآن آيه لو نزلت مثلها علينا معشر اليهود لاتخذنا اليوم الذى نزلت فيه عيدا، و هى قوله: أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ الآية؛ فقال له عمر: و الله انى لأعلم اليوم و هو يوم عرفه من حجه الوداع.

و لفظ ما رواه ابن راهويه و عبد بن حميد عن أبى العالى هكذا: قال: كانوا عند عمر فذكروا هذه الآية، فقال رجل من اهل الكتاب: لو علمنا اى يوم نزلت هذه الآية لاتخذناه عيدا، فقال عمر الحمد لله الذى جعله لنا عيدا و اليوم الثانى، نزلت يوم عرفه و اليوم الثانى يوم النحر فأكمل لنا الأمر فعلمنا أن الامر بعد ذلك فى انتقاص.

و ما يتضمنه آخر الروايه مروى بشكل آخر فى الدر المنثور: عن ابى شيبه و ابن جرير

عن عنتره قال: لما نزلت اليومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ و ذلك يوم الحج الأكبر بكى عمر فقال له النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم ما بيكيك؟ قال: ابكاني أَنَا كُنَّا فِي زِيَادَةٍ مِنْ دِينِنَا فَأَمَّا إِذْ كَمَلْنَا فَإِنَّهُ لَمْ يَكْمَلْ شَيْءٌ قَطُّ إِلَّا نَقَصَ، فقال: صدقت.

و نظيره الروايه بوجه روايه أخرى رواها أيضا في الدر المنثور عن أحمد عن علقمه ابن عبد الله المزني قال: حدثني رجل قال: كنت في مجلس عمر بن الخطاب فقال عمر لرجل من القوم: كيف سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم ينعث الاسلام؟ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم يقول: إن الاسلام بدئ جذاعا ثم ثنيا ثم رباعيا ثم سدسيا ثم بازلا. قال عمر: فما بعد البزول إلا النقصان.

فهذه الروايات- كما ترى- تروم بيان أن معنى نزول الآية يوم عرفه إلفات نظر الناس إلى ما كانوا يشاهدونه من ظهور أمر الدين و استقلاله بمكة في الموسم، و تفسير إكمال الدين و إتمام النعمة بصفاء جو مكة و محوضه الأمر للمسلمين يومئذ فلا دين يعبد به يومئذ هناك إلا دينهم من غير أن يخشوا أعداءهم و يتحذروا منهم.

و بعبارة أخرى المراد بكمال الدين و تمام النعمة كمال ما بأيديهم يعملون به من غير أن يختلط بهم أعداؤهم أو يكلفوا بالتحذر منهم دون الدين بمعنى الشريعة المفعولة عند الله من المعارف و الاحكام، و كذا المراد بالاسلام ظاهر الاسلام الموجود بأيديهم في مقام العمل. و إن شئت فقل: المراد بالدين صورته الدين المشهوده من أعمالهم، و كذا في الاسلام، فان هذا المعنى هو الذي يقبل الانتقاص بعد الازدياد.

و أما كليات المعارف و الاحكام المشرعه من الله فلا يقبل الانتقاص بعد الازدياد الذي يشير اليه قوله في الروايه: «إنه لم يكمل شيء قط إلا نقص» فإن ذلك سنه كونه تجرى أيضا في التاريخ و الاجتماع بتبع الكون، و أما الدين فإنه غير محكوم بأمثال هذه السنن و النواميس إلا عند من قال: إن الدين سنه اجتماعيه متطورّه متغيره كسائر السنن الاجتماعيه.

إذ عرفت ذلك علمت أنه يرد عليه أولاً: أن ما ذكر من معنى كمال الدين لا يصدق عليه قوله تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ و قد مر بيانه.

و ثانياً: أنه كيف يمكن ان يعد الله سبحانه الدين بصورته التي كان يتراءى عليها كاملاً- و ينسبه إلى نفسه امتناناً بمجرد خلوّ الأرض من ظاهر المشركين، و كون المجتمع على ظاهر الاسلام فارغاً من أعدائهم المشركين، و فيهم من هو أشد من المشركين إضراراً و إفساداً، و هم المنافقون على ما كانوا عليه من المجتمعات السريه و التسرب في داخل المسلمين، و إفساد الحال، و تقلب الامور، و الدس في الدين، و إلقاء الشبه، فقد كان لهم نبأ عظيم تعرّض لذلك آيات جمّه من القرآن كسوره المنافقين و ما في سوره البقره و النساء و المائده و الأنفال و البراءه و الأحزاب و غيرها.

فليت شعري أين صار جمعهم؟ و كيف خمدت أنفاسهم؟ و على أي طريق بطل كيدهم و زهق باطلهم؟ و كيف يصح مع وجودهم أن يمتن الله يومئذ على المسلمين بإكمال ظاهر دينهم، و إتمام ظاهر النعمه عليهم، و الرضا بظاهر الاسلام بمجرد أن دفع من مكه أعداءهم من المسلمين، و المنافقون أعدى منهم و أعظم خطراً و أمر أثاراً! و تصديق ذلك قوله تعالى يخاطب نبيه فيهم: هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمُ (المنافقون ٤).

و كيف يمتن الله سبحانه و يصف بالكمال ظاهر دين هذا باطنه، أو يذكر نعمه بالتمام و هي مشوبه بالنقمه، أو يخبر برضاه صورته إسلام هذا معناه! و قد قال تعالى وَ مَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (الكهف ٥١). و قال في المنافقين: -و لم يرد إلا دينهم- فَإِنْ تَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (البراءه ٩٦). و الآيه بعد هذا كله مطلقه لم تقيّد شيئاً من الإكمال و الاتمام و الرضا و لا الدين و الاسلام و النعمه بوجهه دون وجهه.

فإن قلت: الآيه- كما تقدمت الاشاره إليه- إنجاز للوعد الذي يشتمل عليه قوله تعالى:

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ

مِنْ قِبَلِهِمْ وَ لِيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَ لِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أُمَّنًا يُعْبُدُونَنِي لِأَيْسُرَ كُونَ بِي شَيْئًا الْآيَةَ، (النور ٥٥/).

فالآيه كما ترى-تعددهم بتمكين دينهم المرضى لهم، و يحاذى ذلك من هذه الآيه قوله:

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ قَوْلُهُ: وَ رَضَيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فالمراد بأكملهم المرضى تمكينه لهم أى تخليصه من مزاحمه المشركين، و أما المنافقون فشأنهم شأن آخر غير المزاحمه، و هذا هو المعنى الذى تشير إليه روايات نزولها يوم عرفه، و يذكر القوم ان المراد به تخليص الأعمال الدينيه و العاملين بها من المسلمين من مزاحمه المشركين.

قلت: كون آيه: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ، من مصاديق إنجاز ما وعد فى قوله: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا الْآيَةَ؛ و كذا كون قوله فى هذه الآيه: أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، محاذيا لقوله: وَ لِيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ، فى تلك الآيه و مفيدا معناه كل ذلك لا ريب فيه.

إلا أن آيه سوره النور تبدأ بقوله: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ هم طائفه خاصه من المسلمين ظاهر أعمالهم يوافق باطنها، و ما فى مرتبه أعمالهم من الدين يحاذى و ينطبق على ما عند الله سبحانه من الدين المشرّع، فتمكين دينهم المرضى لله سبحانه لهم إكمال ما فى علم الله و إرادته من الدين المرضى بإفراغه فى قالب التشريع، و جمع اجزائه عندهم بالإنزال ليعبدوه بذلك بعد إياس الذين كفروا من دينهم.

و هذا ما ذكرناه: أن معنى إكمال الدين إكمال ما فى علم الله من حيث تشريع الفرائض فلا فريضه مشرّعه بعد نزول الآيه لا تخليص أعمالهم و خاصه حجّهم من اعمال المشركين و حجّهم، بحيث لا تختلط أعمالهم بأعمالهم. و بعبارة أخرى يكون معنى إكمال الدين رفعه إلى أعلى مدارج الترقى حتى لا يقبل الانتقاص بعد الازدياد.

و فى تفسير القمى قال: حدثنى ابى، عن صفوان بن يحيى، عن العلاء، عن محمد بن مسلم عن ابى جعفر عليه السّلام قال: آخر فريضه أنزلها الولايه ثم لم ينزل بعدها فريضه ثم أنزل: الْيَوْمَ

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ بِكَرَاعِ الْغَمِيمِ، فَأَقَامَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْجَحْفَةِ فَلَمْ يَنْزَلْ بَعْدَهَا فَرِيضَهُ.

أقول: وروى هذا المعنى الطبرسي في المجمع عن الإمامين: الباقر و الصادق عليهما السّلام و رواه العياشي في تفسيره عن زراره عن الباقر عليه السّلام.

و في أمالي الشيخ بإسناده، عن محمد، عن أبيه أبي عبد الله عليه السّلام، عن علي أمير المؤمنين عليه السّلام قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يقول: بناء الإسلام على خمس خصال: على الشهادتين، و القرينتين. قيل له: أما الشهادتان فقد عرفنا فما القرينتان؟ قال: الصلاة و الزكاة فإنه لا تقبل إحداهما إلا بالأخرى، و الصيام و حج بيت الله من استطاع إليه سبيلاً، و ختم ذلك بالولاية فأنزل الله عزّ و جل: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا**.

و في روضه الواعظين للفتال، ابن الفارسي عن أبي جعفر عليه السّلام و ذكر قصه خروج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ للحج ثم نصبه علياً للولاية عند منصرفه إلى المدينة و نزول الآيه، و فيه خطبه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يوم الغدير و هي خطبه طويله جدا.

أقول: وروى مثله الطبرسي في الاحتجاج بإسناد متصل عن الحضرمي عن أبي جعفر الباقر عليه السّلام، و روى نزول الآيه في الولاية أيضا الكليني في الكافي و الصدوق في العيون جميعا مسندا عن عبد العزيز بن مسلم عن الرضا عليه السّلام، و روى نزولها فيها أيضا الشيخ في أماليه بإسناده عن ابن أبي عمير عن المفضل بن عمر عن الصادق عن جده أمير المؤمنين عليه السّلام، و روى ذلك أيضا الطبرسي في المجمع بإسناده عن أبي هارون العبدى عن ابى سعيد الخدرى، و روى ذلك الشيخ في أماليه بإسناده عن إسحاق بن إسماعيل النيسابورى عن الصادق عن آبائه عن الحسن بن علي عليهم السّلام و قد تركنا إيراد الروايات على طولها إيثارا للاختصار فمن أراد فليراجع محالها و الله الهادى.

اشاره

يَسْئَلُونَكَ ۖذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلُ أْحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَ مَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَ أذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (۴) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَ طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَ لَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (۵)

بيان:

قوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ ۖذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلُ أْحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ سؤال مطلق أوجب عنه بجواب عام مطلق فيه إعطاء الضابط الكلى الذى يميز الحلال من الحرام، وهو أن يكون ما يقصد التصرف فيه بما يعهد فى مثله من التصرفات أمرا طيبا، وإطلاق الطيب أيضا من غير تقييده بشىء يوجب أن يكون المعترف فى تشخيص طيبه استطابه الأفهام المتعارفه ذلك كما يستطاب عند الأفهام العاديه فهو طيب، و جميع ما هو طيب حلال.

و إنما نزلنا الحليه و الطيب على المتعارف المعهود لمكان أن الإطلاق لا يشمل غيره على ما بين فى فن الاصول.

قوله تعالى: ﴿مَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ قِيلَ: إن الكلام معطوف على موضع الطيبات أى و أحل لكم ما علمتم من الجوارح أى صيد ما علمتم من الجوارح، فالكلام بتقدير مضاف محذوف اختصارا للدلالة السياق عليه.

و الظاهر أن الجملة معطوفة على موضع الجملة الاولى. و ﴿مَا عَلَّمْتُمْ﴾ شرطيه و جزاؤها قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ﴾ من غير حاجة الى تكلف التقدير.

و الجوارح جمع جارحه و هى التى تكسب الصيد من الطير و السباع كالصقر و البازى و الكلاب و الفهود، و قوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ حال، و أصل التكليل تعليم الكلاب و تربيتها للصيد أو اتخاذ كلاب الصيد و إرسالها لذلك، و تقييد الجملة بالتكليب لا يخلو من دلالة على كون الحكم مختصا بكلب الصيد لا يعدوه الى غيره من الجوارح.

و قوله: ﴿مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ﴾ التقييد بالظرف للدلالة على أن الحل محدود بصوره صيدها لصاحبها لا لنفسها.

و قوله: ﴿وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ تتميم لشرائط الحل و أن يكون الصيد مع كونه مصطادا بالجوارح و من طريق التكليل و الإمساك على الصائد مذكورا عليه اسم الله تعالى.

و محصل المعنى أن الجوارح المعلمه بالتكليب-أى كلاب الصيد-إذا كانت معلمه و اصطادت لكم شيئا من الوحش الذى يحل أكله بالتذكية و قد سميت عليه فكلوا منه إذا قتلته دون أن تصلوا إليه فذلك تذكية له، و أما دون القتل فالتذكية بالذبح و الإهلال به لله يغنى عن هذا الحكم.

ثم ذيل الكلام بقوله: ﴿وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إشعارا بلزوم اتقاء الله فيه حتى لا يكون الاضطهاد إسرافا فى القتل، و لا عن تله و تجبر كما فى صيد اللهو و نحوه فإن الله سريع الحساب يجازى سيئه الظلم و العدوان فى الدنيا قبل الآخرة، و لا يسلك أمثال هذه المظالم

و العدوانات بالاغتيال و الفك بالحيوان العجم إلا الى عاقبه سوآى على ما شاهدنا كثيرا.

قوله تعالى: **الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَ طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ** إعادته ذكر حل الطيبات مع ذكره فى الآيه السابقه، و تصديره بقوله:

«الْيَوْمَ» للدلاله على الامتنان منه تعالى على المؤمنين بإحلال طعام أهل الكتاب و المحصنات من نسائهم للمؤمنين.

و كأن ضم قوله: «**أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ**» الى قوله: «**وَ طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**» الخ؛ من قبيل ضم المقطوع به الى المشكوك فيه لإيجاد الطمأنينه فى نفس المخاطب و إزاله ما فيه من القلق و الاضطراب كقول السيد لخادمه: لك جميع ما ملكته و زياده هى كذا و كذا فإنه اذا ارتاب فى تحقق ما يعده سيده من الإعطاء شفع ما يشك فيه بما يقطع به ليزول عن نفسه أذى الريب الى راحه العلم، و من هذا الباب بوجه قوله تعالى: **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَ زِيَادَةٌ** (يونس ٢٦/) و قوله تعالى: **لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ** (ق ٣٥).

فكان نفوس المؤمنين لا تسكن عن اضطراب الريب فى أمر حل طعام أهل الكتاب لهم بعد ما ما كانوا يشاهدون التشديد التام فى معاشرتهم و مخالطتهم و مساسهم و ولايتهم حتى ضم الى حديث حل طعامهم أمر حل الطيبات بقول مطلق، ففهموا منه أن طعامهم من سنخ سائر الطيبات المحلله فسكن بذلك طيش نفوسهم، و اطمأنت قلوبهم و كذلك القول فى قوله:

«**وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ**» .

و أما قوله: «**وَ طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ**» فالظاهر أنه كلام واحد ذو مفاد واحد، اذ من المعلوم أن قوله: «**وَ طَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ**» ليس فى مقام تشريع حكم الحل لأهل الكتاب، و توجيه التكليف إليهم و إن قلنا بكون الكفار مكلفين بالفروع الدينيه كالأصول، فإنهم غير مؤمنين بالله و رسوله و بما جاء به رسوله و لا هم يسمعون و لا هم يقبلون، و ليس من دأب القرآن أن يوجه خطابا أو يذكر حكما اذا استظهر من المقام أن

الخطاب معه يكون لغوا و التكليم معه يذهب سدى. اللهم إلا اذا أصلح ذلك بشيء من فنون التكليم كالاتفات من خطاب الناس الى خطاب النبي و نحو ذلك كقوله: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ (آل عمران ٦٤) و قوله: قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (الإسراء ٩٣) الى غير ذلك من الآيات.

و بالجمله ليس المراد بقوله: «و طَعَامُ الَّذِينَ» ، بيان حل طعام أهل الكتاب للمسلمين حكما مستقلا و حل طعام المسلمين لأهل الكتاب حكما مستقلا آخر، بل بيان حكم واحد و هو ثبوت الحل و ارتفاع الحرمة عن الطعام، فلا منع فى البين حتى يتعلق بأحد الطرفين نظير قوله تعالى: فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ (الممتحنه ١٠) أى لا حل فى البين حتى يتعلق بأحد الطرفين.

ثم إن الطعام بحسب أصل اللغة كل ما يقتات به و يطعم لكن قيل: إن المراد به البر و سائر الحبوب ففى لسان العرب: و أهل الحجاز اذا أطلقوا اللفظ بالطعام عنوا به البر خاصة. قال:

و قال الخليل: العالى فى كلام العرب أن الطعام هو البر خاصة، انتهى. و هو الذى يظهر من كلام ابن الأثير فى النهايه، و لهذا ورد فى أكثر الروايات المرويه عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام: أن المراد بالطعام فى الآيه هو البر و سائر الحبوب إلا ما فى بعض الروايات مما يظهر به معنى آخر و سيجىء الكلام فيه فى البحث الروائى الآتى.

و على أى حال لا يشمل هذا الحل ما لا يقبل التذكيه من طعامهم كالحم الخنزير، أو يقبلها من ذبائحهم لكنهم لم يذكوها كالذى لم يهل به لله، و لم يذك تذكيه إسلاميه فإن الله سبحانه عد هذه المحرمات المذكوره فى آيات التحريم - و هى الآى الأربع التى فى سور البقره و المائده و الأنعام و النحل - رجسا و فسقا و إثما كما بيناه فيما مر، و حاشاه سبحانه أن يحل ما سماه رجسا أو فسقا أو إثما امتنانا بمثل قوله: «الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ» .

على أن هذه المحرمات بعينها واقعه قبيل هذه الآيه فى نفس السوره، و ليس لأحد أن يقول

فى مثل المورد بالنسخ و هو ظاهر، و خاصه فى مثل سورة المائده التى ورد فيها أنها ناسخه غير منسوخه.

قوله تعالى: وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ، الإيتان فى متعلق الحكم بالوصف أعنى ما فى قوله: «الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» من غير أن يقال: من اليهود و النصارى مثلا أو يقال: من أهل الكتاب، لا يخلو من إشعار بالعليه، و اللسان لسان الامتنان، و المقام مقام التخفيف و التسهيل، فالمعنى: إنا نمتن عليكم بالتخفيف و التسهيل فى رفع حرمه الازدواج بين رجالكم و المحصنات من نساء أهل الكتاب لكونهم أقرب إليكم من سائر الطوائف غير المسلمه، و هم أوتوا الكتاب و أذعنوا بالتوحيد و الرساله بخلاف المشركين و الوثنيين المنكرين للنبوه، و يشعر بما ذكرنا أيضا تقييد قوله: «أُوتُوا الْكِتَابَ» بقوله: «مِنْ قَبْلِكُمْ» فإن فيه إشعارا واضحا بالخط و المزج و التشريك.

و كيف كان لما كانت الآيه واقعه موقع الامتنان و التخفيف لم تقبل النسخ بمثل قوله تعالى:

وَ لَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ (البقره ٢٢١/) و قوله تعالى: وَ لَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ (المتحنه ١٠/) و هو ظاهر.

على أن الآيه الاولى واقعه فى سورة البقره، و هى أول سورة مفضّله نزلت بالمدينه قبل المائده: و كذا الآيه الثانيه واقعه فى سورة الممتحنه، و قد نزلت بالمدينه قبل الفتح، فهى أيضا قبل المائده نزولا، و لا وجه لنسخ السابق للاحق مضافا الى ما ورد: أن المائده آخر ما نزلت على النبى صلى الله عليه و آله و سلم فنسخت ما قبلها، و لم ينسخها شىء.

على أن قد عرفت فى الكلام على قوله تعالى: وَ لَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ الآيه (البقره ٢٢١/)؛ فى الجزء الثانى من الكتاب أن الآيتين أعنى آيه البقره و آيه الممتحنه أجنبيتان من الدلاله على حرمه نكاح الكتائبه.

و لو قيل بدلاله آيه الممتحنه بوجه على التحريم كما يدل على سبق المنع الشرعى ورود آيه المائده فى مقام الامتنان و التخفيف- و لا- امتنان و لا- تخفيف لو لم يسبق منع- كانت آيه المائده هى الناسخه لآيه الممتحنه لا بالعكس لأن النسخ شأن المتأخر، و سيأتى فى البحث الروائى كلام فى الآيه الثانيه.

ثم المراد بالمحصنات فى الآيه: العفائف و هو أحد معانى الإحصان، و ذلك أن قوله «و الْمُحْصِنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الْمُحْصِنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ»، يدل على أن المراد بالمحصنات غير ذوات الأزواج و هو ظاهر، ثم الجمع بين المحصنات من أهل الكتاب و المؤمنات على ما مر من توضيح معناها يقضى بأن المراد بالمحصنات فى الموضوعين معنى واحد، و ليس هو الإحصان بمعنى الاسلام لمكان قوله: و المحصنات من الذين أوتوا الكتاب، و ليس المراد بالمحصنات الحرائر فإن الامتنان المفهوم من الآيه لا يلائم تخصيص الحل بالحرائر دون الإماء، فلم يبق من معانى الإحصان إلا العفء فتعين أن المراد بالمحصنات العفائف.

و بعد ذلك كله إنما تصرّح الآيه بتشريع حل المحصنات من أهل الكتاب للمؤمنين من غير تقييد بدوام أو انقطاع إلا ما ذكره من اشتراط الأجر و كون التمتع بنحو الإحصان لا بنحو المسافحه و اتخاذ الأخذان، فينتج أن الذى أحل للمؤمنين منهن أن يكون على طريق النكاح عن مهر و أجر دون السفاح، من غير شرط آخر من نكاح دوام أو انقطاع، و قد تقدم فى قوله تعالى: فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ (النساء ٢٤) فى الجزء الرابع من الكتاب أن المتعه نكاح كالنكاح الدائم، و للبحث بقايا تطلب من علم الفقه.

قوله تعالى: إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَ لَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ الآيه فى مساق قوله تعالى فى آيات محرمات النكاح: وَ أَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ (النساء ٢٤). و الجملة قرينه على

كون المراد بالآيه بيان حليته التروّج بالمحصنات من أهل الكتاب من غير شمول منها لملك اليمين.

قوله تعالى: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ الْكُفْرَ فِي الْأَصْلِ هُوَ السُّتْرُ فَتَحَقَّقْ مَفْهُومَهُ يَتَوَقَّفُ عَلَى أَمْرٍ ثَابِتٍ يَقَعُ عَلَيْهِ السُّتْرُ كَمَا أَنَّ الْحِجَابَ لَا يَكُونُ حِجَابًا إِلَّا إِذَا كَانَ هُنَاكَ مَحْجُوبٌ فَالْكُفْرُ يَسْتَدْعِي مَكْفُورًا بِهِ ثَابِتًا كَالْكُفْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَالْكُفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَالْكُفْرِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاليَوْمِ الْآخِرِ.

فالكفر بالإيمان يقتضى وجود إيمان ثابت، وليس المراد به المعنى المصدري من الإيمان بل معنى اسم المصدر وهو الأثر الحاصل والصفه الثابته فى قلب المؤمن أعنى الاعتقادات الحقه التى هى منشأ الأعمال الصالحه، فيثول معنى الكفر بالإيمان الى ترك العمل بما يعلم أنه حق كتولى المشركين، والاختلاط بهم، والشركه فى أعمالهم مع العلم بحقيه الإسلام، و ترك الأركان الدينيه من الصلاه و الزكاه و الصوم و الحج مع العلم بثبوتها أركاناً للدين.

فهذا هو المراد من الكفر بالإيمان لكن هاهنا نكته و هى أن الكفر لما كان سترا و ستر الامور الثابته لا يصدق بحسب ما يسبق الى الذهن إلا مع المداومه و المزاوله فالكفر بالإيمان إنما يصدق اذا ترك الانسان العمل بما يقتضيه إيمانه، و يتعلق به علمه، و دام عليه، و أما اذا ستر مَرّه أو مرتين من غير أن يدوم عليه فلا يصدق عليه الكفر و إنما هو فسق أتى به.

و من هنا يظهر أن المراد بقوله: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ» هو المداومه و الاستمرار عليه و إن كان عبّر بالفعل دون الوصف. فتارك الاتباع لما حق عنده من الحق، و ثبت عنده من أركان الدين كافر بالإيمان، حابط العمل كما قال تعالى: «فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ» .

فالأيه تنطبق على قوله تعالى: «وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (الأعراف ١٤٧) فوصفهم باتخاذ

سبيل الغي و ترك سبيل الرشده بعد رؤيتهما و هى العلم بهما ثم بَدَل ذلك بتوصيفهم بتكذيب الآيات، و الآيه إنما تكون آيه بعد العلم بدلائلها، ثم فسره بتكذيب الآخرة لما أن الآخرة لو لم تكذب منع العلم بها عن ترك الحق، ثم أخبر بحبط أعمالهم.

و نظير ذلك قوله تعالى: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَ لِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (الكهف ١٠٥) و انطباق الآيات على مورد الكفر بالإيمان بالمعنى الذى تقدم بيانه ظاهر.

و بالتأمل فيما ذكرنا يظهر وجه اتصال الجملة أعنى قوله: «وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ»، بما قبله فالجملة متممه للبيان السابق، و هى فى مقام التحذير عن الخطر الذى يمكن ان يتوجه الى المؤمنين بالتساهل فى أمر الله، و الاسترسال مع الكفار فإن الله سبحانه إنما أحل طعام أهل الكتاب و المحصنات من نساءهم للمؤمنين ليكون ذلك تسهيلاً و تخفيفاً منه لهم، و ذريعه الى انتشار كلمه التقوى، و سرايه الأخلاق الطاهره الاسلاميه من المسلمين المتخلفين بها الى غيرهم، فيكون داعيه الى العلم النافع، و باعته نحو العمل الصالح.

فهذا هو الغرض من التشريع لا لأن يتخذ ذلك وسيله الى السقوط فى مهابط الهوى، و الإصعاد فى أوديه الهوسات، و الاسترسال فى حبهن و الغرام بهن، و التولّ فى جمالهن، فيكن قدوه تتسلط بذلك أخلاقهن و أخلاق قومهن على أخلاق المسلمين، و يغلب فسادهن على صلاحهم، ثم يكون البلوى و يرجع المؤمنون الى أعقابهم القهقرى، و مآل ذلك عود هذه المنه الالهيه فتنه و محنه مهلكه، و صيروره هذا التخفيف الذى هو نعمه نقمه.

فحذّر الله المؤمنين بعد بيان حليته طعامهم و المحصنات من نساءهم أن لا يسترسلا فى التمتع بهذه النعمه استرسالاً يؤدى الى الكفر بالإيمان، و ترك أركان الدين، و الإعراض عن

الحق فإن ذلك يوجب حبط العمل، و ينجر الى خسران السعى فى الآخره (١).

[سوره المائده (٥): الآيات ٦ الى ٧]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَمَا طَهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ۗ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦) وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّتِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧)

بيان

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ الْقِيَامِ إِذَا عَدَى بِإِلَى رَبِّمَا كُنَى بِهِ عَنِ إِرَادَةِ الشَّيْءِ الْمَذْكُورِ لِلْمَلَاذِمَةِ وَالْقُرْآنِ بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ إِرَادَةَ الشَّيْءِ لَا تَنْفَكُ عَنِ الْحَرَكَةِ إِلَيْهِ، وَإِذَا فَرَضَ الْإِنْسَانُ مَثَلًا قَاعِدًا لِأَنَّهُ حَالٌ سَكُونُهُ وَلا يَزِمُ سَبَابَتَهُ عَادَتَهُ، وَفَرَضَ الشَّيْءَ الْمُرَادَ فَعَلًا مُتَعَارَفًا يَتَحَرَّكُ إِلَيْهِ عَادَةً كَانَتْ مِمَّا يَحْتَاجُ فِي اتِّبَانِهِ إِلَى الْقِيَامِ غَالِبًا، فَأَخَذَ الْإِنْسَانُ فِي تَرْكِ السَّكُونِ وَالِانْتِصَابِ لِإِدْرَاكِ الْعَمَلِ هُوَ الْقِيَامُ إِلَى الْفِعْلِ، وَهُوَ يَلْزَمُ الْإِرَادَةَ.

ص: ٥١

(١- ١). المائده ٤-٥: بحث روائى فى صيد الكلاب؛ التعليم؛ الاطعمه المحلله و المحرمه، طعام أهل الكتاب، نکاح الكتايه.

و نظيره قوله تعالى: وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ (النساء ١٠٢) أى أردت أن تقيم لهم الصلاة. و عكسه من وجه قوله تعالى: وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا (النساء ٢٠) أى إذا طلقتم زوجا تزوجتم باخرى، فوضعت إرادته الفعل و طلبه مقام القيام به.

و بالجمله الآيه تدل على اشتراط الصلاة بما تذكره من الغسل و المسح أعنى الوضوء، و لو تم لها إطلاق لدل على اشتراط كل صلاة بوضوء مع الغض عن قوله: «وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا» لكن الآيات المشرعه قلما يتم لها الإطلاق من جميع الجهات. على أنه يمكن أن يكون قوله الآتى: «وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ» مفسرا لهذا الاشتراط على ما سيجىء من الكلام.

هذا هو المقدار الذى يمكن أن يبحث عنه فى تفسير الآيه، و الزائد عليه مما أطنب فيه المفسرون بحث فقهي خارج عن صناعه التفسير.

قوله تعالى: فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ الغسل بفتح الغين إمرار الماء على الشىء، و يكون غالبا لغرض التنظيف و إزالة الوسخ و الدرن و الوجه ما يستقبلك من الشىء، و غلب فى الجانب المقبل من رأس الإنسان مثلا، و هو الجانب الذى فيه العين و الأنف و الفم، و يعين بالظهور عند المشافهه، و قد فسر فى الروايات المنقوله عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام بما بين قصاص الشعر من الناصيه و آخر الذقن طولاً و ما دارت عليه الإبهام و الوسطى و السبابه، و هناك تحديدات آخر ذكرها المفسرون و الفقهاء.

و الأيدى جمع يد و هى العضو الخاص الذى به القبض و البسط و البطش و غير ذلك، و هو ما بين المنكب و أطراف الأصابع، و إذا كانت العناية فى الأعضاء بالمقاصد التى يقصدها الإنسان منها كالقبض و البسط فى اليد مثلا، و كان المعظم من مقاصد اليد تحصل بما دون المرفق الى أطراف الأصابع سمي أيضا باليد، و لذلك بعينه ما سمي ما دون الزند الى أطراف الأصابع فصار اللفظ بذلك مشركا أو كالمشرك بين الكل و الأبعاض.

و هذا الاشتراك هو الموجب لذكر القرينه المعينه اذا أريد به أحد المعانى، و لذلك قيد تعالى قوله: «وَ أَيْدِيكُمْ» بقوله: «إِلَى الْمِرْفَاقِ» ليتعين أن المراد غسل اليد التى تنتهى الى المرفاق، ثم القرينه أفادت أن المراد به القطعه من العضو التى فيها الكف، و كذا فسرتها السنه. و الذى يفيد الاستعمال فى لفظه «الى» أنها لا تنتهى الفعل الذى لا- يخلو من امتداد الحركه، و أما دخول مدخول «الى» فى حكم ما قبله أو عدم دخوله فأمر خارج عن معنى الحرف، فشمول حكم الغسل للمرفاق لا يستند الى لفظه «الى» بل الى ما بينه السنه من الحكم.

و أما قوله تعالى: «لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ» فهو من قبيل تضمين الاكل معنى الضم و نحوه مما يتعدى بـالى لا- أن لفظه «الى» هنالك بمعنى مع.

و قد تبين بما مر أن قوله: «إِلَى الْمِرْفَاقِ» قيد لقوله: «أَيْدِيكُمْ» فيكون الغسل المتعلق بها مطلقا غير مقيد بالغايه يمكن أن يبدأ فيه من المرفق الى أطراف الاصابع و هو الذى يأتى به الإنسان طبعا اذا غسل يده فى غير حال الوضوء من سائر الاحوال أو يبدأ من أطراف الاصابع و يختتم بالمرفق، لكن الاخبار الوارده من طرق أئمه أهل البيت عليهم السلام تفتى بالنحو الأول دون الثانى.

قوله تعالى: «وَ امْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَ أَرْجُلِكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ الْمَسْحِ: إمرار اليد أو كل عضو لا مس على الشىء بالمباشره، يقال مسحت الشىء و مسحت بالشىء، فإذا عدى بنفسه أفاد الاستيعاب، و اذا عدى بالباء دل على المسح ببعضه من غير استيعاب و إحاطه.

فقوله: «وَ امْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ» يدل على مسح بعض الرأس فى الجملة، و أما أنه أى بعض من الرأس فمما هو خارج من مدلول الآيه، و المتكفل لبيانه السنه، و قد صح أنه جانب الناصيه من الرأس.

و أما قوله: «وَ أَرْجُلِكُمْ» فقد قرء بالجـر، و هو لا محاله بالعطف على رء و سكم. و ربما قال القائل: إن الجر للاتباع، كقوله: وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ (الأنبياء ٣٠) و هو خطأ فإن الاتباع على ما ذكره لغه رديئه لا يحمل عليها كلام الله تعالى. و أما قوله: «كُلُّ شَيْءٍ حَيٍّ» فإنما جعل هناك بمعنى الخلق، و ليس من الاتباع فى شىء.

على أن الاتباع- كما قيل- إنما ثبت فيما ثبت فى صورته اتصال التابع و المتبوع كما قيل فى قولهم: جحر ضب خرب، بجر الخرب اتباعا لا فى مثل المورد مما يفضل العاطف بين الكلمتين.

و قرء: و أرجلكم- بالنصب و أنت اذا تلقيت الكلام مخلى الذهن غير مشوب الفهم لم يلبث دون أن تقضى أن «أَرْجُلِكُمْ» معطوف على موضع «بِرؤسِكُمْ» و هو النصب، و فهمت من الكلام وجوب غسل الوجه و اليدين، و مسح الرأس و الرجلين، و لم يخطر ببالك أن ترد «وَ أَرْجُلِكُمْ» الى «وُجُوهُكُمْ» فى أول الآيه مع انقطاع الحكم فى قوله: «فَاغْسِلُوا وُجُوهُكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ» بحكم آخر و هو قوله: «و امسحوا بوجوهكم»، فان الطبع السليم يأبى عن حمل الكلام البليغ على ذلك، و كيف يرضى طبع متكلم بليغ أن يقول مثلا: قبلت وجه زيد و رأسه و مسحت بكتفه و يده بنصب يد عطفا على «وجه زيد» مع انقطاع الكلام الأول، و صلاحية قوله: «يده» لأن يعطف على محل المجرور المتصل به، و هو أمر جائز دائر كثير الورد فى كلامهم.

و على ذلك وردت الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السّلام و أما الروايات من طرق أهل السّنة فإنها و إن كانت غير ناظره الى تفسير لفظ الآيه، و إنما تحكى عمل النبى صلّى الله عليه و آله و سلم و فتوى بعض الصحابه، لكنها مختلفه: منها ما يوجب مسح الرجلين، و منها ما يوجب غسلهما.

و قد رجح الجمهور منهم أخبار الغسل على أخبار المسح، و لا- كلام لنا معهم فهذا المقام لأنه بحث فقهي راجع الى علم الفقه، خارج عن صناعه التفسير.

لكنهم مع ذلك حاولوا تطبيق الآيه على ما ذهبوا إليه من الحكم الفقهي بتوجيهات مختلفه ذكروها فى المقام، والآيه لا تحتمل شيئاً منها إلا مع ردها من أوج بلاغتها الى مهبط الرداءه.

و أما قوله تعالى: «إِلَى الْكَعْبَيْنِ» فالكعب هو العظم الناتىء فى ظهر القدم. و ربما قيل: إن الكعب هو العظم الناتىء فى مفصل الساق و القدم، و هما كعبان فى كل قدم فى المفصل.

قوله تعالى: «وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَمَا طَهَّرُوا الْجَنْبَ فِي الْأَصْلِ» مصدر غلب عليه الاستعمال بمعنى اسم الفاعل، و لذلك يستوى فيه المذكر و المؤنث و المفرد و غيره، يقال: رجل جنب و امرأه جنب و رجلاؤن أو امرأتان جنب، و رجال أو نساء جنب، و اختص الاستعمال بمعنى المصدر للجنباه.

و الجملة أعنى قوله: «وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَمَا طَهَّرُوا» معطوفه على قوله: «فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ» لأن الآيه مسوقه لبيان اشتراط الصلاه بالطهاره فالتقدير: و تطهروا إن كنتم جنباً، فيؤول الى تقدير شرط الخلاف فى جانب الوضوء و تقدير الكلام: فاغسلوا ووجهكم و أيديكم و امسحوا براءوسكم و أرجلكم إن لم تكونوا جنباً و إن كنتم جنباً فاطهروا و يستفاد من ذلك أن تشريع الوضوء إنما هو فى حال عدم جنباه، و أما عند جنباه فالغسل فحسب كما دلت عليه الأخبار.

و قد بين الحكم بعينه فى آيه النساء بقوله: «وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا» فهذه الآيه تزيد على تلك الآيه بيانا بتسميه الاغتسال تطهراً، و هذا غير الطهاره الحاصله بالغسل، فانها أثر مترتب، و هذا نفس الفعل الذى هو الاغتسال و قد سمي تطهراً كما يسمى غسل أو ساخ البدن بالماء تنظفاً.

و يستفاد من ذلك ما ورد فى بعض الأخبار من قوله عليه السلام: «ما جرى عليه الماء فقد طهر».

قوله تعالى: «وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا شُرُوعَ فِي بِيَانِ حُكْمِ مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ»

حتى يغسل أو يغتسل.

و الذى ذكر من الموارد و عدّ بالترديد ليس بعضها يقابل بعضا مقابله حقيقيه،فان المرض و السفر ليسا بنفسهما يوجبان حدثا مستدعيا للطهاره بالوضوء أو الغسل بل إنما يوجبانه اذا أحدث المكلف معهما حدثا صغيرا أو كبيرا،فالشقان الأخيران لا يقابلان الأولين بل كل من الأولين كالمنقسم الى الاخيرين،و لذلك احتمل بعضهم أن يكون «أو» فى قوله: «أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ»،بمعنى الواو كما سيجىء،على أن العذر لا ينحصر فى المرض و السفر بل له مصاديق أخر.

لكن الله سبحانه ذكر المرض و السفر و هما مظنه عدم التمكن من الماء غالبا،و ذكر المجىء من الغائط و ملامسه النساء و فقدان الماء معهما اتفاقى،و من جهة أخرى-و هى عكس الوجهه الاولى-عروض المرض و السفر للإنسان بالنظر إلى بنيته الطبيعیه أمر اتفاقى بخلاف التردد الى الغائط و ملامسه النساء فإنهما من حاجه الطبيعه:أحدهما يوجب الحدث الاصغر الذى يرتفع بالوضوء،و الآخر الحدث الاكبر الذى يرتفع بالغسل.

فهذه الموارد الاربع موارد يبتلى الإنسان ببعضها اتفاقا و ببعضها طبعاً.و هى تصاحب فقدان الماء غالبا كالمرض و السفر أو اتفاقا كالتخلى و المباشرة اذا انضم إليها عدم وجدان الماء فالحكم هو التيمم.

و على هذا يكون عدم وجدان الماء كناية عن عدم القدره على الاستعمال.كُنِيَ به عنه لان الغالب هو استناد عدم القدره الى عدم الوجدان،و لازم ذلك أن يكون عدم الوجدان قيذا لجميع الامور الاربعه المذكوره حتى المرض.

و قد تبين بما قدمناه اولاً:أن المراد بالمرض فى قوله: «كُنْتُمْ مَرْضَى» هو المرض الذى يتخرج معه الإنسان من استعمال الماء و يتضرر به على ما يعطيه التقييد بقوله: «فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً» و يفيدُه أيضا سياق الكلام فى الآيه.

و ثانيا: أن قوله: «أَوْ عَلَيَّ سَفَرٌ» شق برأسه يبتلى به الإنسان اتفاقا، و يغلب عليه فيه فقدان الماء، فليس بمقييد بقوله: «أَوْ لَجَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ» الخ؛ بل هو معطوف على قوله:

«فَاغْسِلُوا» و التقدير: إذا قمتم الى الصلاه و كنتم على سفر و لم تجدوا ماء فتييموا، فحال هذا الفرض في إطلاقه و عدم تقيده بوقوع أحد الحديثين حال المعطوف عليه أعنى قوله: «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا» الخ؛ فكما لم يحتج الى التقييد ابتداء لم يحتج اليه ثانيا عند العطف.

و ثالثا: أن قوله: «أَوْ لَجَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ» شق آخر مستقلا و ليس كما قيل: إن «أو» فيه بمعنى الواو كقوله تعالى: «وَأَرْسَلْنَا إِلَى آلِ آلِيهِ أَلْفَ أَوْ يَزِيدُونَ» (الصفافات ١٤٧/) لما عرفت من عدم الحاجه الى ذلك. على أن «أو» في الآيه المستشهد بها ليس إلا بمعناها الحقيقي، و إنما الترديد راجع الى كون المقام مقاما يتردد فيه بالطبع لا لجهل في المتكلم كما يقال بمثله في الترجي و التمنى الواقعين في القرآن كقوله: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (البقره ٢١/)، و قوله:

«لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» (البقره ١٠٢/).

و حكم هذه الجملة في العطف حكم سابقتها، و التقدير: إذا قمتم الى الصلاه و كان جاء أحد منكم من الغائط و لم تجدوا ماء فتييموا.

و ليس من البعيد أن يستفاد من ذلك عدم وجوب اعاده التيمم أو الوضوء لمن لم تنتقض طهارته بالحدث الأصغر إن كان على طهاره بناء على مفهوم الشرط فيتأيد به من الروايات ما يدل على عدم وجوب التطهر لمن كان على طهاره.

و في قوله تعالى: «أَوْ لَجَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ» من الأدب البارع ما لا يخفى للمتدبر حيث كنى عن المراد بالمجيء من الغائط، و الغائط هو المكان المنخفض من الأرض و كانوا يقصدونه لقضاء الحاجه ليتستروا به من الناس تأدبا، و استعمال الغائط في معناه المعروف اليوم استعمال مستحدث من قبيل الكنايات المبتدله كما أن لفظ العذره كذلك، و الأصل في معناها عتبه الباب سميت بها لأنهم كانوا يخلون ما اجتمع في كنيف البيت فيها على

ما ذكره الجوهرى فى الصحاح.

و لم يقل: أو جئتم من الغائط لما فيه من تعيين المنسوب إليه، وكذا لم يقل: أو جاء أحدكم من الغائط لما فيه من الإضافة التى فيها شوب التعيين بل بالغ فى الإبهام فقال: «أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ» رعايه لجانب الأدب.

و رابعا: أن قوله: «أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ» كسابقه شق من الشقوق المفروضة مستقل و حكمه فى العطف و المعنى حكم سابقه، و هو كناية عن الجماع أدا صوتنا للسان من التصريح بما تأبى الطباع عن التصريح به.

فإن قلت: لو كان كذلك كان التعبير بمثل ما عبر به عنه سابقا بقوله: «وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا» أولى لكونه أبلغ فى رعايه الأدب.

قلت: نعم لكنه كان يفوت نكته مرعيه فى الكلام، و هى الدلالة على كون الامر مما يقتضيه طبيعه كما تقدم بيانه، و التعبير بالجنابه فاقد للإشعار بهذه النكته.

و ظهر أيضا فسا ما نسب الى بعضهم: أن المراد بملامسه النساء هو الملامسه حقيقه بنحو التصريح من غير أن تكون كناية عن الجماع. وجه فساده أن سياق الآيه لا يلائمه، و إنما يلائم الكناية فإن الله سبحانه ابتدأ فى كلامه ببيان حكم الحدث الاصغر بالوضوء و حكم الجنابه بالغسل فى الحال العادى، و هو حال وجدان الماء، ثم انتقل الكلام الى بيان الحكم فى الحال غير العادى، و هو حال فقدان الماء فبين فيه حال بدل الوضوء و هو التيمم فكان الاخرى و الانسب بالطبع أن يذكر حال بدل الغسل أيضا، و هو قرين الوضوء، و قد ذكر ما يمكن أن ينطبق عليه، و هو قوله: «أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ» على سبيل الكناية، فالمراد به ذلك لا محاله، و لا وجه لتخصيص الكلام ببيان حكم بدل الوضوء و هو أحد القرينين، و إهمال حكم بدل القرين الآخر و هو الغسل رأسا.

و خامسا: يظهر بما تقدم فساد ما أورد على الآيه من الإشكالات: فمنها أن ذكر المرض

و السفر مستدرک، فانهما انما یوجبان التیمم بانضمام احد الشقین الآخرین و هو الحدث و الملامسه، مع أنهما یوجبانہ و لو لم یکن معهما مرض أو سفر فذكر الآخرین یغنی عن ذکر الأولین. و الجواب أن ذکر الشقین الآخرین لیس لغرض انضمامهما الی أحد الأولین بل کل من الأربعه شق مستقل مذکور لغرض خاص به یفوت بحذفه من الکلام علی ما تقدم بیانہ.

و منها: أن الشق الثانی و هو قوله: «أَوْ عَلَيَّ سَفَرٍ» مستدرک و ذلك بمثل ما وجّه به الإشکال السابق غیر المرض لما کان عذره الموجب للانتقال الی البدل هو عدم التمكن من استعمال الماء الموجود لا عدم وجدان الماء کان من اللازم أن یقدر له ذلك فی الکلام، و لا یغنی عن ذكره ذکر الشقین الآخرین مع عدم وجدان الماء، و نتیجه هذا الوجه کون السفر مستدرک فقط.

و الجواب أن عدم الوجدان فی الآیه کنایه عن عدم التمكن من استعمال الماء أعم من صورہ وجدانہ أو فقدانہ كما تقدم.

و منها: أن قوله: «فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً» یغنی عن ذکر جمیع الشقوق، و لو قیل مکان قوله: «وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ» الخ؛ «و ان لم تجدوا ماء» لکان أوجز و أبین، و الجواب: أن فیہ اضاعه لما تقدم من النکات.

و منها: أن لو قیل: و ان لم تقدروا علی الماء أو ما یفید معناه کان أولى، لشموله عذر المرض مضافا الی عذر غیره. و الجواب: انه افید بالکنایه، و هی ابلغ.

قوله تعالی: فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ التيمم هو القصد، و الصعيد هو وجه الأرض، و توصيفه بالطيب-و الطيب فی الشیء كونه علی حال یقتضیه طبعه- للإشاره الی اشتراط كونه علی حاله الأصلي كالتراب و الأحجار العادیه دون ما خرج من الأرضیه بطبخ أو نضج أو غیر ذلك من عوامل التغير كالجص و النوره و الخزف و المواد المعدنيه، قال تعالی: وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ بِبَاتِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا (الأعراف ٥٨) و من ذلك يستفاد الشروط التي اخذت السنه فی

الصعيد الذى يتيمم به.

و ربما يقال: ان المراد بالطيب الطهاره، فيدل على اشتراط الطهاره فى الصعيد.

وقوله: «فَأَمْسِيحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ» ينطبق ما ذكره فى التيمم للمسح على ما ذكره فى الوضوء للغسل، فالتيمم فى الحقيقه وضوء أسقطت فيه المسحتان: مسح الرأس و مسح الرجلين، و ابدلت فيه الغسلتان: غسله الوجه و اليدين الى المرفقين بالمسحتين، و ابدل الماء بالتراب تخفيفا.

و هذا يشعر بأن العضوين فى التيمم هما العضوان فى الوضوء، و لما عبّر تعالى بالمسح المتعدى بالباء دل ذلك على أن المعتبر فى التيمم هو مسح بعض عضوى الغسل فى الوضوء أعنى بعض الوجه، و بعض اليد الى المرفق، و ينطبق على ما ورد من طرق أئمه أهل البيت عليهم السلام من تحديد الممسوح من الوجه بما بين الجبينين و الممسوح من اليد بما دون الزند منها.

و بذلك يظهر فساد ما ذكره بعضهم من تحديد اليد بما دون الإبطين. و ما ذكره آخرون أن المعتبر من اليد فى التيمم عين ما اعتبر فى الوضوء و هو ما دون المرفق، و ذلك أنه لا يلائم المسح المتعدى بالباء الدال على مرور الماسح ببعض الممسوح.

و«من» فى قوله: «مِنْهُ» كأنها ابتدائية و المراد ان يكون المسح بالوجه و اليدين مبتدأ من الصعيد، و قد بينته السنّه بأنه بضرب اليدين على الصعيد و مسحهما بالوجه و اليدين.

و يظهر من بعضهم: أن«من» هاهنا تبعيضية فتفيد أن يكون فى اليدين بعد الضرب بقيه من الصعيد كغبار و نحوه بمسح الوجه و اليدين و استنتج منه وجوب كون الصعيد المضروب عليه مشتملا على شىء من الغبار يمسح منه بالوجه و اليدين فلا يصح التيمم على حجر املس لم يتعلق به غبار، و الظاهر ما قدمناه- و الله أعلم- و ما استنتجه من الحكم لا يختص بما احتمله.

وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ دُخُولَ «من» عَلَى مَفْعُولٍ «مَا يُرِيدُ» لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ، فَلَا حَكْمَ يَرَادُ بِهِ الْحَرَجُ بَيْنَ الْأَحْكَامِ الدِّينِيَّةِ أَصْلًا، وَ لِذَلِكَ عُلِقَ النَّفْيُ عَلَى إِرَادَةِ الْجَعْلِ دُونَ نَفْسِ الْحَرَجِ.

و الحرج حرجان: حرج يعرض ملاك الحكم و مصلحته المطلوبه، و يصدر الحكم حينئذ حرجيا بذاته لتبعيه ملاكه كما لو حرم الالتذاذ من الغذاء لغرض حصول ملكه الزهد، فالحكم حرجي من رأس، و حرج يعرض الحكم من خارج عن أسباب اتفاقه فيكون بعض أفراد حرجيا و يسقط الحكم حينئذ في تلك الأفراد الحرجيه لا في غيرها مما لا حرج فيه، كمن يتخرج عن القيام في الصلاة لمرض يضره معه ذلك، و يسقط حينئذ وجوب القيام عنه لا عن غيره ممن يستطيعه.

و إضرابه تعالى بقوله: ﴿وَ لَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾، عن قوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ يدل على أن المراد بالآيه نفى الحرج الذى فى الملاك أى إن الأحكام التى يجعلها عليكم ليست بحرجيه شرعت لغرض الحرج، و ذلك لأن معنى الكلام أن مرادنا بهذه الأحكام المجعوله تطهيركم و إتمام النعمه و هو الملاك، لا أن نشق عليكم و نحزجكم، و لذلك لما وجدنا الوضوء و الغسل حرجيين عليكم عند فقدان الماء انتقلنا من إيجاب الوضوء و الغسل الى إيجاب التيمم الذى هو فى وسعكم، و لم يبطل حكم الطهاره من رأس لإرادته تطهيركم و إتمام النعمه عليكم لعلكم تشكرون.

قوله تعالى: ﴿وَ لَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لازم ما تقدم من معنى نفى إرادته الحرج أن يكون المراد بقوله: ﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ أن تشريع الوضوء و الغسل و التيمم إنما هو حصول الطهاره فيكم لكونها أسبابا لذلك، و هذه الطهاره اياما كانت ليست بطهاره عن الخبث بل هى طهاره معنويه حاصله بأحد هذه الأعمال الثلاثه، و هى التى تشترط بها الصلاه فى الحقيقه.

نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَ كُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرِهِ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا (آل عمران ١٠٣).

أو أن الإسلام بحقيقته هو المراد بالنعمة، فإنه أم النعم ترتضع منها كل نعمة كما تقدم بيانه، و غير مخفى عليك ان المراد بكون النعمة هي الإسلام بحقيقته أو الولايه إنما هو تعيين المصداق دون تشخيص مفهوم اللفظ، فإن المفهوم هو الذى يشخصه اللغه، و لا كلام لنا فيه.

ثم ذكرهم نفسه و أنه عالم بخفايا زوايا القلوب، فأمرهم بالتقوى بقوله: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» (١).

[سوره المائده (٥): الآيات ٨ الى ١٤]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) وَ عِدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسِيطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ بَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَ آتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَ عَزَرْتُمْ وَّهُمْ وَ أَفْرَضْتُمُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا لَمَا كَفَرْنَا عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ لَمَّا دَخَلْنَاكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَ لَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِذَا نَصَبْنَا لَكَ آيَاتِنَا فَاعْرِضْنَا بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةَ وَ الْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ سَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤)

ص: ٦٣

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا الْآيَةَ نَظِيرَهُ الْآيَةَ الَّتِي فِي سُورَةِ النِّسَاءِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (النساء ١٣٥).

و إنما الفرق بين الآيتين ان آيه النساء فى مقام النهى عن الانحراف عن العدل فى الشهاده لاتباع الهوى بأن يهوى الشاهد المشهود له لقرابه و نحوها، فيشهد له بما ينتفع به على خلاف الحق، و هذه الآيه-أعنى آيه المائده-فى مقام الردع عن الانحراف عن العدل فى الشهاده لشتان و بغض من الشاهد للمشهود عليه، فيقيم الشهاده عليه يريد بها نوع انتقام منه و دحض لحقه.

و هذا الاختلاف فى غرض البيان هو الذى أوجب اختلاف القيود فى الآيتين: فقال فى آيه النساء: «كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ» و فى آيه المائده: «كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ» .

و ذلك أن الغرض فى آيه المائده لما كان هو الردع عن الظلم فى الشهاده لسابق عداوه من الشاهد للمشهود عليه قيد الشهاده بالقسط، فأمر بالعدل فى الشهاده و أن لا- يشتمل على ظلم حتى على العدو بخلاف الشهاده لأحد بغير الحق لسابق حب و هوى، فإنها لا تعد ظلما فى الشهاده و انحرافا عن العدل و إن كانت فى الحقيقه لا تخلو عن ظلم و حيف، و لذلك أمر فى آيه المائده بالشهادة بالقسط، و فرّعه على الأمر بالقيام لله، و أمر فى آيه النساء بالشهادة لله أى أن لا يتبع فيها الهوى، و فرّعه على الامر بالقيام بالقسط.

و لذلك أيضا فرّع فى آيه المائده على الامر بالشهادة بالقسط قوله: «اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَ اتَّقُوا اللَّهَ» فدعا الى العدل، و عدّه ذريعه الى حصول التقوى، و عكس الامر فى آيه النساء ففرّع على الأمر بالشهادة لله قوله: «فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا» فنهى عن اتباع الهوى و ترك التقوى، و عدّه وسيله سيئه الى ترك العدل.

ثم حذر فى الآيتين جميعا فى ترك التقوى تحذيرا واحدا فقال فى آيه النساء: «وَ إِنْ تَلُؤُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» أى إن لم تتقوا، و قال فى آيه المائده: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» و أما معنى قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ، الخ؛ فقد ظهر فى الكلام على الآيات

قوله تعالى: اَعْدِلُوا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوَى، الضمير راجع الى العدل المدلول عليه بقوله: «اعْدِلُوا» و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ الجملة الثانيه أعنى قوله: «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ»، إنشاء للوعد الذى أخبر عنه بقوله: «وَعَدَ اللَّهُ»، وهذا كما قيل: أكد بيانا من قوله: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (الفتح ٢٩/١) لما قيل: إنه لكونه خبرا بعد خبر، فإن ذلك خطأ، بل لكونه تصريحاً بإنشاء الوعد من غير أن يدل عليه ضمناً، كما به سورة الفتح.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ قَالَ الرغب: الجحيمه شدة تأجج النار و منه الجحيم، والآيه تشتمل على نفس الوعيد، و تقابل قوله تعالى فى الآيه السابقه: «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ».

و تقييد الكفر بتكذيب الآيات للاحتراز عن الكفر الذى لا يقارن تكذيب الآيات الداله، و لا ينتهى الى إنكار الحق مع العلم بكونه حقاً كما فى صورته الاستضعاف، فإن أمره الى الله إن يشأ يغفره و إن يشأ يعذب عليه فهاتان الآيتان وعد جميل للذين آمنوا و عملوا الصالحات، و إبعاد شديد للذين كفروا و كذبوا بآيات الله، و بين المرحلتين مراحل متوسطه و منازل متخلله أبهم الله سبحانه أمرها و عقباها.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسِيطُوا السُّخ؛ هذا المضمون يقبل الانطباق على وقائع متعدده مختلفه وقعت بين الكفار و المسلمين كغزوات بدر و أحد و الأحزاب و غير ذلك، فالظاهر أن المراد به مطلق ما هم به المشركون من قتل المؤمنين و إمحاء أثر الاسلام و دين التوحيد.

قوله تعالى: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ امر بالتقوى و التوكل

على الله، والمراد بالحقيقه النهى و التحذير الشديد عن ترك التقوى و ترك التوكل على الله سبحانه،و الدليل على ذلك ما سرده تعالى من قصه اخذ الميثاق من بنى اسرائيل و من الذين قالوا انا نصارى،ثم نقض الطائفتين الميثاق الإلهى و ابتلاء الله اياهم باللعن و تقسيه القلوب، و نسيان حظ من دينهم،و اغراء العداوه و البغضاء بينهم الى يوم القيامه.

و لم يذكر القصة إلا ليستشهد بها على المؤمنين،و يجعلها نصب أعينهم ليعتبروا بها و يتبها بأن اليهود و النصارى إنما ابتلوا بما ابتلوا به لنسيانهم ميثاق الله سبحانه و لم يكن إلا ميثاقا بالاسلام لله،و اثقوه بالسمع و الطاعه،و كان لازم ذلك أن يتقوا مخالفه ربهم و أن يتوكلوا عليه فى أمور دينهم أى يتخذوه و كيلا- فيها يختارون ما يختاره لهم،و يتركون ما يكرهه لهم،و طريقه طاعه رسلهم بالايمان بهم،و ترك متابعه غير الله و رسله،ممن يدعو الى نفسه و الخضوع لأمره من الجابره و الطغاه و غيرهم حتى الاحبار و الرهبان فلا طاعه إلا لله أو من امر بطاعته.

لكنهم نبذوه وراءهم ظهريا فابعدوا من رحمه الله و حزفوا الكلم عن مواضعه و فسروها بغير ما أريد بها فأوجب ذلك أن نسوا حظا من الدين و لم يكن إلا حظا و سهما يرتحل بارتحاله عنهم كل خير و سعاده و أفسد ذلك ما بقى بأيديهم من الدين،فإن الدين مجموع من معارف و أحكام مرتبط بعضها ببعض يفسد بعضه بعضا سيما الأركان و الاصول،و ذلك كمن يصلى لكن لا لوجه الله،أو ينفق لا لمرضاه الله،أو يقاتل لا لإعلاء كلمه الحق.فلا ما بقى فى أيديهم نفعهم،إذا كان محرّفا فاسدا،و لا ما نسوه من الدين أمكنهم أن يستغنوا عنه،و لا غنى عن الدين و لا سيما اصوله و أركانه.

فمن هنا يعلم ان المقام يقتضى أن يحذّر المؤمنون عن مخالفه التقوى و ترك التوكل على الله بذكر هذه القصة و دعوتهم الى الاعتبار بها.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ**

نَقِيْباً الْآيَةِ؛ قَالَ الرَّاغِبُ: النَّقْبُ فِي الْحَائِطِ وَالْجِلْدِ كَالثَّقْبِ فِي الْخَشْبِ. قَالَ: وَالنَّقِيبُ الْبَاحِثُ عَنِ الْقَوْمِ وَعَنْ أَحْوَالِهِمْ، وَجَمْعُهُ نَقَبَاءٌ.

وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يَقْصُصُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذِهِ الْأَمَةِ مَا جَرَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ إِحْكَامِ دِينِهِمْ وَتَثْبِيتِ أَمْرِهِمْ بِأَخْذِ الْمِيثَاقِ، وَبَعْثِ النَّقَبَاءِ، وَإِبْلَاحِ الْبَيَانِ، وَإِتْمَامِ الْحُجَّةِ ثُمَّ مَا قَابَلُوهُ بِهِ مِنْ نَقْضِ الْمِيثَاقِ، وَمَا قَابَلَهُمْ بِهِ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مِنَ اللَّعْنِ وَتَقْسِيهِ الْقُلُوبِ، الْخ؛ فَقَالَ: «وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ» وَهُوَ الَّذِي يَذْكُرُهُ كَثِيرًا كَثِيرًا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَغَيْرِهَا: «وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا» وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ رُؤَسَاءُ الْأَسْبَاطِ الْإِثْنَى عَشَرَ، كَانُوا كَالْوَلَاةِ عَلَيْهِمْ يَتَوَلَّوْنَ أُمُورَهُمْ فَنَسَبْتَهُمْ إِلَى أَسْبَاطِهِمْ بِوَجْهِ كَنْسَبِهِ أَوْلَى الْأَمْرِ إِلَى الْأَفْرَادِ فِي هَذِهِ الْأَمَةِ لَهُمُ الْمَرْجِعُ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَلْتَقُونَ وَحْيًا، وَلَا يَشْرَعُونَ شَرِيعَةً، وَإِنَّمَا ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ «وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ» إِيْذَانٌ بِالْحِفْظِ وَالْمِرَاقَبَةِ فَيَتَفَرَّعُ عَلَيْهِ أَنْ يَنْصِرَهُمْ إِنْ أَطَاعُوهُ وَيَخْذَلَهُمْ إِنْ عَصَوْهُ وَلِذَلِكَ ذَكَرَ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا فَقَالَ: «لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ» وَالتَّعْزِيزُ هُوَ النَّصْرُ مَعَ التَّعْظِيمِ، وَالْمُرَادُ بِالرَّسْلِ مَا سَيَسْتَقْبِلُهُمْ بَعَثْتَهُ وَدَعْوَتَهُ كَعِيسَى وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَسَائِرٍ مِنْ بَعَثَهُ اللَّهُ بَيْنَ مُوسَى وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ «وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا» وَهُوَ الْإِنْفَاقُ الْمُنْدُوبُ دُونَ الزَّكَاةِ الْوَاجِبَةِ «لَا تُكْفِرَنَّ عَنْكُمْ سِيئَاتِكُمْ وَأَلَّا تَدْخُلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» فَهَذَا مَا يَرْجِعُ إِلَى جَمِيلِ الْوَعْدِ. ثُمَّ قَالَ: «فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ».

قَوْلُهُ تَعَالَى: فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً، ذَكَرَ تَعَالَى جَزَاءَ الْكُفْرِ بِالْمِيثَاقِ الْمَذْكُورِ ضَلَالِ سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَهُوَ ذَكَرَ إِجْمَالِيًّا يَفْصَلُهُ مَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ أَنْوَاعِ النِّقْمِ الَّتِي نَسَبَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بَعْضَهَا إِلَى نَفْسِهِ كَاللَّعْنِ وَتَقْسِيهِ الْقُلُوبِ مِمَّا تَسْتَقِيمُ فِيهِ النَّسْبَةُ، وَبَعْضَهَا إِلَى أَنْفُسِهِمْ مِمَّا وَقَعَ بِاخْتِيَارِهِمْ كَالَّذِي يَعْنِي بِقَوْلِهِ: «وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ» فَهَذَا كُلُّهُ جَزَاؤُهُمْ بِمَا كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الَّتِي عَلَى رَأْسِهَا الْمِيثَاقُ الْمَأْخُوذُ مِنْهُمْ، أَوْ

جزاء كفرهم بالميثاق خاصة فإن سواء السبيل الذى ضلوه هو سبيل السعادة التى بها عماره دنياهم و آخراهم.

فقوله: «فَمَا نَقَضَ لَهُمْ مِيثَاقَهُمْ» الظاهر أنه هو الكفر الذى توعد الله عليه فى الآيه السابقه، و لفظه «ما» فى قوله: «فَمَا» للتأكيد، و يفيد الإبهام لغرض التعظيم أو التحقير أو غيرهما، و المعنى: فبنقض ما منهم لميثاقهم «لَعَنَاهُمْ» و اللعن هو الإبعاد من الرحمه «وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً» و قسوه القلب مأخوذ من قسوه الحجاره و هى صلابتها و القسى من القلوب ما لا يخشع لحق و لا يتأثر برحمه، قال تعالى: أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (الحديد ١٦).

و بالجملة عقب قسوه قلوبهم أنهم عادوا «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ» بتفسيرها بما لا يرضى به الله سبحانه و بإسقاط أو زياده أو تغيير، فكل ذلك من التحريف، و أفصاهم ذلك أن فاتهم حقائق ناصعه من الدين «وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ» و لم يكن إلا حطا من الاصول التى تدور على مدارها السعادة، و لا يقوم مقامها إلا ما يسجل عليهم الشقوه اللازمه كقولهم بالتشبيه، و خاتمه نبوه موسى، و دوام شريعه التوراه، و بطلان النسخ و البداء الى غير ذلك.

«وَ لَا تَرَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ» أى على طائفه خائنه منهم، أو على خيانه منهم «إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» و قد تقدم مرارا ان استثناء القليل منهم لا ينافى ثبوت اللعن و العذاب للجماعه التى هى الشعب و الامه.

قوله تعالى: وَ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ أَرَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعَزَّيْنَا، قال الرغب: غرى بكذا أى لهج به و لصق، و أصل ذلك من الغراء و هو ما يلصق به، و أغريت فلانا بكذا نحو ألهمت به.

و قد كان المسيح عيسى بن مريم نبى رحمه يدعو الناس الى الصلح و السلم، و يندبهم الى

الإشراف على الآخرة، والإعراض عن ملاذ الدنيا وزخارفها، وبنهاهم عن التكالب لأجل هذا العرض الأدنى فلما نسوا حظا مما ذكروا به أثبت الله سبحانه في قلوبهم مكان السلم والصلح حربا، وبدل المؤاخاه والمواودة التي ندبوا إليها معاده ومباغضه كما يقول «فَسُوا حَظًا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» .

وهذه العداوة والبغضاء اللتان ذكرهما الله تعالى صارتا من الملكات الراسخه المرتكزه بين هؤلاء الامم المسيحيه و كالنار الآخرة التي لا مناص لهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق.

ولم يزل منذ رفع عيسى بن مريم عليه السلام، واختلف حواريوه والددعاه السائحون من تلامذتهم فيما بينهم نشب الاختلاف فيما بينهم، ولم يزل ينمو ويكثر حتى تبدل الى الحروب والمقاتلات والغارات وأنواع الشرد والطرده وغير ذلك حتى انتهى الى حروب عالميه كبرى تهدد الأرض بالخراب والإنسانيه بالفناء والانقراض.

كل ذلك من تبدل النعمه بنقمه، وإنتاج السعى ضلالا («وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» .

[سورة المائده (٥): الآيات ١٥ الى ١٩]

إشارة

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩)

قوله تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ أَمَا بَيَّانَهُ كَثِيرًا كَانُوا يَخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ فَكَيَّانَهُ آيَاتِ النَّبِيِّ وَبَشَارَاتِهَا كَمَا يَشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ الْآيَةَ (الأعراف ١٥٧)؛ وقوله تعالى:

يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الْآيَةَ (البقره ١٤٦) وقوله: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ -الى قوله- ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ الْآيَةَ (الفتح ٢٩) و كَيَّانَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ حَكَمَ الرَّجُلَ الَّذِي كَتَمُوهُ وَ كَابَرُوا فِيهِ الْحَقَّ عَلَى مَا يَشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي مَا سَيَأْتِي: لَا يَخْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ الْآيَاتِ (المائدة ٤١)؛ و هذا

الحكم أعنى حكم الرجم موجود الآن فى الإصحاح الثانى و العشرين من سفر التثنيه من التوراه الدائره بينهم.

و أما عفوه عن كثير فهو تركه كثيرا مما كانوا يخفونه من الكتاب، و يشهد بذلك الاختلاف الموجود فى الكتابين، كاشتغال التوراه على امور فى التوحيد و النبوه لا يصح استنادها اليه تعالى كالتجسم و الحلول فى المكان و نحو ذلك، و ما لا يجوز العقل نسبه الى الأنبياء الكرام من أنواع الكفر و الفجور و الزلات، و كفقدان التوراه ذكر المعاد من رأس و لا يقوم دين على ساق إلا بمعاد، و كاشتغال ما عندهم من الأنجيل و لا سيما إنجيل يوحنا على عقائد الوثنيه.

قوله تعالى: **قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتَابٌ مُبِينٌ** ظاهر قوله: **«قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ»** كون هذا الجائى قائما به تعالى نحو قيام كقيام البيان أو الكلام بالمبين و المتكلم و هذا يؤيد كون المراد بالنور هو القرآن، و على هذا فيكون قوله: **«وَ كِتَابٌ مُبِينٌ»** معطوفا عليه عطفا تفسيرا، و المراد بالنور و الكتاب المبين جميعا القرآن، و قد سمي الله تعالى القرآن نورا فى موارد من كلامه كقوله تعالى: **وَ اتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ (الأعراف ١٥٧)** و قوله:

فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِي أُنزِلْنَا (التغابن ٨) و قوله: **وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (النساء ١٧٤)**.

و من المحتمل أن يكون المراد بالنور النبى صلى الله عليه و آله و سلم على ما ربما أفاده صدر الكلام فى الآيه، و قد عدده الله تعالى نورا فى قوله: **وَ سِرَاجًا مُبِينًا (الأحزاب ٤٦)**.

قوله تعالى: **يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ** الباء فى قوله:

«به» للاله و الضمير عائد الى الكتاب أو الى النور سواء أريد به النبى صلى الله عليه و آله و سلم أو القرآن فمال الجميع واحد فإن النبى صلى الله عليه و آله و سلم أحد الأسباب الظاهريه فى مرحله الهدايه، و كذا القرآن و حقيقه الهدايه قائمه به قال تعالى: **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (القصص ٥٦)**، و قال: **وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ**

وَلَا الْإِيمَانُ وَ لَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (الشورى / ٥٣) والآيات كما ترى تنسب الهداية الى القرآن و الى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم في عين أنها ترجعها الى الله سبحانه فهو الهادي حقيقه و غيره سبب ظاهري مسخر لإحياء أمر الهدايه.

و قد قيد تعالى قوله: «يَهْدِي بِهِ اللَّهُ» بقوله: «مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ» و يؤول الى اشتراط فعليه الهدايه الإلهيه باتباع رضوانه، فالمراد بالهدايه هو الإيصال الى المطلوب، و هو أن يورده الله تعالى سبيلا من سبل السلام أو جميع السبل أو أكثرها واحدا بعد آخر.

و قد أطلق تعالى السلام فهو السلامه و التخلص من كل شقاء يختل به أمر سعادته الحياه في دنيا أو آخره، فيوافق ما وصف القرآن الإسلام لله و الإيمان و التقوى بالفلاح و الفوز و الأمن و نحو ذلك، و قد تقدم في الكلام على قوله تعالى: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (الحمد ٦) في الجزء الأول من الكتاب أن الله سبحانه بحسب اختلاف حال السائرين من عباده سبلا كثيره تتحد الجميع في طريق واحد منسوب اليه تعالى يسميه في كلامه بالصرراط المستقيم قال تعالى: وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (العنكبوت ٦٩)، و قال تعالى: وَ أَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنِ سَبِيلِهِ (الأنعام ١٥٣). فدل على أن له سبلا كثيره لكن الجميع تتحد في الإيصال الى كرامته تعالى من غير أن تفرق سالكيها و يبين كل سبيل سالكيه عن سالكي غيره من السبل كما هو شأن غير صراطه تعالى من السبل.

فمعنى الآية -و الله تعالى-: يهدي الله سبحانه و يورد بسبب كتابه أو بسبب نبيه من اتبع رضاه سبلا من شأنها أنه يسلم من سار فيها من شقاء الحياه الدنيا و الآخره، و كل ما تتكدر به العيشه السعيده.

فأمر الهدايه الى السلام و السعاده يدور مدار اتباع رضوان الله، و قد قال تعالى:

وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ (الزمر ٧)، وقال: فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (التوبة ٩٦) ويتوقف بالأخره على اجتناب سبيل الظلم والانحراف في سلك الظالمين، وقد نفى الله سبحانه عنهم هدايته و آيسهم من نيل هذه الكرامه الإلهيه بقوله: وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (الجمعه ٥) فالآيه أعنى قوله: «يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ» تجرى بوجه مجرى قوله: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (الأنعام ٨٢).

قوله تعالى: وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ فِي جَمْعِ الظُّلُمَاتِ وَإِفْرَادِ النُّورِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ طَرِيقَ الْحَقِّ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا تَفْرُقَ وَإِنْ تَعَدَّدَتْ بِحَسَبِ الْمَقَامَاتِ وَالْمَوَاقِفِ بِخِلَافِ طَرِيقِ الْبَاطِلِ.

و الإخراج من الظلمات الى النور اذا نسب الى غيره تعالى كنى أو كتاب فمعنى إذنه تعالى فيه إجازته و رضاه كما قال تعالى: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ (إبراهيم ١) فقتيد إخراجهم إياهم من الظلمات الى النور بإذن ربهم ليخرج بذلك عن الاستقلال فى السببيه فإن السبب الحقيقى لذلك هو الله سبحانه و قال: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ (إبراهيم ٥) فلم يقيده بالإذن لاشتمال الأمر على معناه.

و اذا نسب ذلك الى الله تعالى فمعنى إخراجهم بإذنه إخراجهم بعلمه و قد جاء الاذن بمعنى العلم يقال: أذن به أى علم به، و من هذا الباب قوله تعالى: وَ أذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ (التوبة ٣) فَقُلْ أَذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ (الأنبياء ١٠٩)، و قوله: وَ أذُنٌ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ (الحج ٢٧) الى غيرها من الآيات.

و أما قوله تعالى: «و يَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» فقد أعيد فيه لفظ الهدايه لحيلولة قوله:

«و يُخْرِجُهُمْ» ، بين قوله: «يَهْدِي بِهِ اللَّهُ» ، و بين هذه الجملة، و لأن الصراط المستقيم كما تقدم

بيانه فى سورة الفاتحه طريق مهيمن على الطرق كلها فالهدايه اليه أيضا هدايه مهيمنه على سائر أقسام الهدايه التى تتعلق بالسبل الجزئيه.

و لا ينافى تنكير قوله: «صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» كون المراد به هو الصراط المستقيم الوحيد الذى نسبه الله تعالى فى كلامه الى نفسه-إلا فى سورة الفاتحه-لأن قرينه المقام تدل على ذلك، وإنما التنكير لتعظيم شأنه و تفخيم أمره.

قوله تعالى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ هؤلاء إحدى الطوائف الثلاثة التى تقدم نقل أقوالهم فى سورة آل عمران، و هى القائله باتحاد الله سبحانه بالمسيح فهو إله بشر بعينه، و يمكن تطبيق الجملة أعنى قولهم: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ» على القول بالبنوه و على القول بثالث ثلاثة أيضا غير أن ظاهر الجملة هو حصول العينيه بالاتحاد.

قوله تعالى: قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً الآية؛ هذا برهان على إبطال قولهم: من جهه مناقضه بعضه بعضا لأنهم لما وضعوا أن المسيح مع كونه إلهيا بشر كما وصفوه بأنه ابن مريم جوزوا له ما يجوز على أى بشر مفروض من سكان هذه الارض، و هم جميعا كسائر أجزاء السماوات و الارض و ما بينهما مملوكون لله تعالى مسخرون تحت ملكه و سلطانه، فله تعالى أن يتصرف فيهم بما أراد، و أن يحكم لهم أو عليهم كيفما شاء، فله أن يهلك المسيح كماله أن يهلك أمه و من فى الأرض على حد سواء من غير مزيه للمسيح على غيره، و كيف يجوز الهلاك على الله سبحانه؟! فوضعهم أن المسيح بشر يبطل وضعهم أنه هو الله سبحانه للمناقضه.

فقوله: «فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً» كناية عن نفي المانع مطلقا فملك شىء من الله هو السلطنه عليه تعالى فى بعض ما يرجع اليه، و لازمها انقطاع سلطنته عن ذلك الشىء، و هو أن يكون سبب من الأسباب يستقل فى التأثير فى شىء بحيث يمانع تأثيره تعالى أو يغلب عليه فيه، و لا

ملك إلا لله وحده لا شريك له إلا ما ملك غيره تمليكاً لا يبطل ملكه و سلطانه.

وقوله: «إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» إنما قيد المسيح بقوله: «ابْنُ مَرْيَمَ» للدلالة على كونه بشراً تاماً واقعا تحت التأثير الربوبي كسائر البشر، و لذلك بعينه عطف عليه «أمه» لكونه مسانخه له من دون ريب، و عطف عليه «مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» لكون الحكم في الجميع على حد سواء.

و من هنا يظهر أن في هذا التقييد و العطف تلويحا الى برهان الإمكان، و محصله أن المسيح يماثل غيره من أفراد البشر كامه و سائر من في الأرض فيجوز عليه ما يجوز عليهم لأن حكم الامثال فيما يجوز فيما لا يجوز واحد، و يجوز على غيره أن يقع تحت حكم الهلاك فيجوز عليه ذلك و لا مانع هناك يمنع، و لو كان هو الله سبحانه لما جاز عليه ذلك.

وقوله: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» في مقام التعليل للجمله السابقه، و التصريح بقوله: «وَمَا بَيْنَهُمَا» مع أن القرآن كثيرا ما يعبر عن عالم الخلقه بالسموات و الارض فقط إنما هو ليكون الكلام أقرب من التصريح، و أسلم من ورود التوهمات و الشبهات فليس لمتوهم أن يتوهم أنه إنما ذكر السموات و الارض و لم يذكر ما بينهما، و مورد الكلام مما بينهما.

و تقديم الخبر أعنى قوله «و لله» للدلالة على الحصر، و بذلك يتم البيان، و المعنى: كيف يمكن أن يمنع مانع من إرادته تعالى إهلاك المسيح و غيره و وقوع ما أراده من ذلك، و الملك و السلطنه المطلقه في السموات و الأرض و ما بينهما لله تعالى لا ملك لأحد سواه؟ فلا مانع من نفوذ حكمه و مضى أمره.

وقوله: «يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» في مقام التعليل للجمله السابقه عليه أعنى قوله: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» فإن الملك -بضم الميم- و هو نوع سلطنه و مالكيه على سلطنه الناس و ما يملكونه إنما يتقوم بشمول القدره و نفوذ المشيئه، و لله سبحانه ذلك في جميع السموات و الارض و ما بينهما، فله القدره على كل شيء و هو يخلق ما يشاء من

الأشياء فله الملك المطلق فى السماوات و الارض و ما بينهما فخلقه ما يشاء و قدرته على كل شىء هو البرهان على ملكه كما أن ملكه هو البرهان على أن له أن يريد إهلاك الجميع ثم يمضى إرادته لو أراد، و هو البرهان على أنه لا يشاركه أحد منهم فى ألوهيته.

و أما البرهان على نفوذ مشيئته و شمول قدرته فهو أنه الله عز اسمه، و لعله لذلك كرر لفظ الجلاله فى الآيه مرات فقد آل فرض الألوهيه فى شىء الى أنه لا شريك له فى ألوهيته.

قوله تعالى: **وَ قَالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ لَا رَيْبَ أَنَّهُمْ لَم يَكُونُوا يَدْعُونَ الْبَنُوهُ الْحَقِيقِيهِ كَمَا يَدْعِيهِ مَعْظَمُ النَّصَارَى لِلْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامِ فَلَا يَهُودَ كَانَتْ تَدْعِي ذَلِكَ حَقِيقَهُ وَ لَا النَّصَارَى، وَ إِنَّمَا كَانُوا يَطْلُقُونَهَا عَلَى أَنفُسِهِمْ إِطْلَاقًا تَشْرِيفِيًّا بِنَوْعٍ مِنَ التَّجَوُّزِ، وَ قَدْ وَرَدَ فِي كِتَابِهِمُ الْمُقَدَّسِ هَذَا الْإِطْلَاقُ كَثِيرًا كَمَا فِي حَقِّ آدَمَ (١) وَ يَعْقُوبَ (٢) وَ دَاوُدَ (٣) وَ أَقْوَامَ (٤) عِيسَى (٥) وَ أَطْلَقَ (٦) أَيْضًا عَلَى صَلْحَاءِ الْمُؤْمِنِينَ.**

و كيف كان فإنما اريد بالابناء أنهم من الله سبحانه بمنزله الابناء من الاب، فهم بمنزله أبناء الملك بالنسبه إليه المنحازين عن الرعيه المخصوصين بخصيصه القرب المقتضيه أن لا يعامل معهم معامله الرعيه كأنهم مستثنون عن إجراء القوانين و الاحكام المجراه بين الناس لأن تعلقهم بعرش الملك لا يلائم مجازاتهم بما يجازى به غيرهم و لا إيقافهم موقفا توقف فيه سائر الرعيه، فلا يستهان بهم كما يستهان بغيرهم فكل ذلك لما تتعقبه علقه النسب من علقه الحب

ص: ٧٧

-
- ١-١. آيه ٣٨ من الاصحاح الثالث من انجيل لوقا.
 - ٢-٢. آيه ٢٢ من الاصحاح الرابع من سفر الخروج من التوراه.
 - ٣-٣. آيه ٧ من المزمور ٢ من مزامير داود.
 - ٤-٤. آيه ٩ من الاصحاح ٣١ من نبوه أرميا.
 - ٥-٥. آيه ٩ من الاصحاح ٥ إنجيل متى، و فى غيره من الاناجيل.
 - ٦-٦. موارد كثيره من الاناجيل و ملحقاتها.

فالمراد بهذه البنوه الاختصاص و التقرب، و يكون عطف قوله: «وَ أَحِبَّاءُهُ» على قوله «أَبْنَاءُ اللَّهِ» كعطف التفسير و ليس به حقيقه، و غرضهم من دعوى هذا الاختصاص و المحبوبيه إثبات لازمه و هو أنه لا سبيل الى تعذيبهم و عقوبتهم فلن يصيروا إلا الى النعمه و الكرامه لأن تعذيبه تعالى إياهم يناقض ما خصهم به من المزيه، و جباهم به من الكرامه.

و الدليل عليه ما ورد فى الرد عليهم من قوله تعالى: «يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ»، اذ لو لا أنهم كانوا يريدون بقولهم: «نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاءُهُ» أنه لا سبيل الى عذابهم و إن لم يستجيبوا الدعوه الحقه لم يكن وجه لذكر هذه الجملة: «يغفر»، ردا عليهم و لا لقوه له: «يَلْ أُنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ» موقع حسن مناسب فمعنى قولهم: «نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاءُهُ» أنا خاصه الله و محبوبوه لا سبيل له تعالى الى تعذيبنا و إن فعلنا ما فعلنا، و تركنا ما تركنا لأن انتفاء السبيل وقوع الا من التام من كل مكروه و محذور هو لازم معنى الاختصاص و الحب.

قوله تعالى: قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ أمر نبيه بالاحتجاج عليهم و رد دعوهم بالحجه، و تلك حجتان: إحداهما: النقض عليهم بالتعذيب الواقع عليهم، و ثانيتهما:

معارضتهم بحجه تنتج نقيض دعوهم.

و محصل الحجه الاولى التى يشتمل عليها قوله: «فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ» أنه لو صحت دعوكم أنكم أبناء الله و أحبائه مأمونون من التعذيب الالهى لا سبيل إليه فيكم لكنتم مأمونين من كل عذاب اخروى أو دنيوى فما هذا العذاب الواقع عليكم المستمر فيكم بسبب ذنوبكم؟ فأما اليهود فلم تزل تذب ذنوبا كقتلهم أنبياءهم و الصالحين من شعبهم و تفجر بنقض المواثيق الالهيه المأخوذه منهم، و تحريف الكلم عن مواضعه و كتمان آيات الله و الكفر بها و كل طغيان و اعتداء، و تذوق وبال أمرها نكالا عليها من مسخ بعضهم و ضرب الذله و المسكنه على آخرين، و تسلط الظالمين عليهم يقتلون أنفسهم و يهتكون أعراضهم

و يخزبون بلادهم، و ما لهم من العيش إلا عيشه الحرص الذى لا هو حى فيرجى و لا ميت فينسى (١).

و فى الآيه أعنى قوله: «قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ» وجه آخر و هو أن يكون المراد بالعذاب الاخرى، و المضارع (يُعَذِّبُكُمْ) بمعنى الاستقبال دون الاستمرار كما فى الوجه السابق فإن أهل الكتاب معترفون بالعذاب بحذاء ذنوبهم فى الجملة: أما اليهود فقد نقل القرآن عنهم قولهم: لَنْ تَمَسَّنَا الذَّارُّ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً (البقره ٨٠) و أما النصارى فإنهم و إن قالوا بالفداء لمغفره الذنوب لكنه إثبات فى نفسه للذنوب و العذاب الذى أصاب المسيح بالصلب و الأناجيل مع ذلك تثبت ذنوبا كالزنا و نحوه، و الكنيسه كانت تثبته عملا بما كانت تصدره من صكوك المغفره. هذا. لكن الوجه هو الاول.

قوله تعالى: يَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ حجه ثانيه مسوقه على نحو المعارضه محصيه لها: أن النظر فى حقيقتكم يؤدى الى بطلان دعواكم أنكم أبناء الله و أحباؤه، فإنكم بشر من جملة من خلقه الله من بشر أو غيره لا تمازون عن سائر من خلقه الله منهم، و لا يزيد أحد من الخلقه من السماوات و الارض و ما بينهما على أنه مخلوق لله الذى هو المليك الحاكم فيه و فى غيره بما شاء و كيفما شاء و يصير الى ربه المليك الحاكم فيه و فى غيره، و اذا كان كذلك كان لله سبحانه أن يغفر لمن شاء منهم، و يعذب من شاء منهم من غير أن تمنعه مزيه أو كرامه أو غير ذلك من ان يريد فى شىء ما يريده من مغفره أو عذاب أو يقطع سبيله قاطع أو يضرب دونه حجاب يحجبه عن نفوذ المشيئه و مضى الحكم.

فقوله: «بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ» بمنزله إحدى مقدمات الحججه، و قوله: «وَ لِلَّهِ مُلْكُ

ص: ٧٩

١- ١). المائده ١٥-١٩: كلام فى الابتلاءات و العذاب النازل على أهل الكتاب.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» مقدمه أخرى و قوله: «وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ» مقدمه ثالثه، و قوله:

«يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ» بمنزله نتيجة البيان التي تناقض دعواهم: أنه لا سبيل الى تعذيبهم.

قوله تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ قال الراغب: الفتور سكون بعد حدّه، و لين بعد شدّه، و ضعف بعد قوه قال تعالى:

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ» أى سكون خال عن مجيء رسول الله.

و الآيه خطاب ثان لأهل الكتاب متمم للخطاب السابق فإن الآيه الاولى بينت لهم أن الله ارسل اليهم رسولا ايده بكتاب مبين يهدى بإذن الله الى كل خير و سعاده، و هذه الآيه تبين ان ذلك البيان الإلهي إنما هو لإتمام الحججه عليهم ان يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير.

و بهذا البيان يتأيد ان يكون متعلق الفعل (يبين لكم) فى هذه الآيه هو الذى فى الآيه السابقه، و التقدير: يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب اى ان هذا الدين الذى تدعون اليه هو بعينه دينكم الذى كنتم تدينون به مصدقا لما معكم و الذى يرى فيه من موارد الاختلاف فإنما هو بيان لما أخفيتموه من معارف الدين التى بيتهه الكتب الالهيه، و لازم هذا الوجه ان يكون قوله: يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم من قبيل إعاده عين الخطاب السابق لضم بعض الكلام المفصول عن الخطاب السابق المتعلق به و هو قوله: «أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا» الخ؛ اليه و انما جوز ذلك وقوع الفصل الطويل بين المتعلق و المتعلق به و هو شائع فى اللسان.

و يمكن ان يكون خطابا مستأنفا و الفعل (يبين لكم) انما حذف متعلقه.

للدلاله على العموم أى يبين لكم جميع ما يحتاج الى البيان، أو لتفخيم أمره أى يبين لكم

أمرا عظيما تحتاجون الى بيانه، وقوله: «عَلَىٰ قَتْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ» لا يخلو عن إشعار أو دلالة على هذه الحاجه فإن المعنى: يبين لكم ما مست حاجتكم الى بيانه و الزمان خال من الرسل حتى يبينوا لكم ذلك.

و قوله: «أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ»، متعلق بقوله: «فَقَدْ جَاءَكُمْ» بتقدير:

حذر أن تقولوا، أو لئلا تقولوا.

و قوله: «وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» كأنه لدفع الدخول فإن اليهود كانت لا ترى جواز تشريع شريعته بعد شريعته التوراه لذهابهم الى امتناع النسخ و البداء فرد الله سبحانه مزعمتهم بأنها تنافى عموم القدره، وقد تقدم الكلام فى النسخ فى تفسير قوله تعالى: مَا نُنسخُ مِنْ آيَةٍ الْآيَةِ (البقره ١٠٦)؛ فى الجزء الأول من الكتاب (١)(٢)(٣).

[سوره المائده (٥): الآيات ٢٠ الى ٢٦]

إشارة

وَ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَ جَعَلَ لَكُم مَّلُوكًا وَ اتَّأَمَّكُمْ مِمَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَ لَا تَرْتَدُوا عَلَيَّ أَدْبَارِكُمْ فَتَقْلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ وَ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَ عَلَى اللَّهِ فِتْوَاكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَ أَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)

ص: ٨١

١-١. المائده ١٥-١٩: كلامه فى طريق التفكير الذى يهدى اليه القرآن و هو بحث مختلف.

٢-٢. المائده ١٥-١٩: بحث فى تاريخ التفكير الاسلامى و الطريق الذى سلكته الامه الاسلاميه.

٣-٣. المائده ١٥-١٩: بحث روائى فى: كتمان اليهود حكم الرجم فى عهد النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ الّٰى آخِرَ الْآيَةِ؛ الْآيَاتِ النَّازِلَةِ فِي قِصَصِ مُوسَىٰ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ -دَعَاهُ مُوسَىٰ إِيَاهُمْ إِلَىٰ دُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ- إِنَّمَا كَانَتْ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ، كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ «وَجَعَلْنَاكُمْ مَلُوكًا» يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ أَيْضًا.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ: «وَإِذْ تَأْتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ» عَلَىٰ سَبْقِ عَدَّةٍ مِنَ الْآيَاتِ النَّازِلَةِ عَلَيْهِمْ كَالْمَنِّ وَالسَّلْوَىٰ وَانْفِجَارِ الْعَيُونِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَإِظْلَالِ الْغَمَامِ.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ: «الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» الْمُتَكَرِّرِ مَرَّتَيْنِ عَلَىٰ تَحَقُّقِ الْمَخَالَفَةِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ مِنْهُمْ قَبْلَ الْقِصَّةِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ حَتَّىٰ عَادُوا بِذَلِكَ مُتَلَبِّسِينَ بِصِفَةِ الْفَسَقِ.

فهذه قرائن تدل على وقوع القصة أعنى قصه التيه فى الشطر الأخير من زمان مكث موسى عليه السلام فيهم بعد أن بعثه الله تعالى إليهم و أن غالب القصص المقتصه فى القرآن عنهم إنما وقعت قبل ذلك.

فقول موسى لهم: «اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» أريد به مجموع النعم التي أنعم الله بها عليهم و جباهم بها، و إنما بدأ بذلك مقدمه لما سيندبهم إليه من دخول الأرض المقدسه فذكرهم نعم ربهم لينشطوا بذلك لاستزاده النعمه و استتمامها فإن الله قد كان أنعم عليهم بعثه موسى و هذه يتهم الى دينه، و نجاتهم من آل فرعون، و إنزال التوراه، و تشريع الشريعة فلم يبق لهم من تمام النعمه إلا أن يمتلكوا أرضا مقدسه يستقلون فيها بالقطن و السؤدد.

و قد قسم النعمه التي ذكرهم بها ثلاثه أقسام حين التفصيل فقال: «إِذْ جَعَلْنَا فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ» و هم الأنبياء الذين فى عمود نسبهم كإبراهيم و إسحاق و يعقوب و من بعدهم من الأنبياء، أو خصوص الأنبياء من بنى إسرائيل كيوسف او الاسباط و موسى و هارون، و النبوه نعمه أخرى.

ثم قال: «وَجَعَلْنَاكُمْ مَلُوكًا» أى مستقلين بأنفسكم خارجين من ذل استرقاق الفراعنه و تحكم الجبابره، و ليس الملك إلا من استقل فى أمر نفسه و أهله و ماله، و قد كان بنو إسرائيل فى زمن موسى يسيرون بسنه اجتماعيه هى أحسن السنن و هى سنه التوحيد التي تأمرهم بطاعه الله و رسوله، و العدل التام فى مجتمعهم، و عدم الاعتداء على غيرهم من الامم من غير ان يتأمر عليهم بعضهم أو يختلف طبقاتهم اختلافًا يخل به امر المجتمع، و ما عليهم إلا موسى و هو نبي غير سائر سيره ملك أو رئيس عشيره يستعلى عليهم بغير الحق.

و يمكن أن يكون المراد بالملك مجرد ركوز الحكم عند بعض الجماعه فيشمل سنه الشيخوخه، و يكون على هذا موسى عليه السلام ملكا و بعده يوشع النبي و قد كان يوسف ملكا من قبل، و ينتهى الى الملوك المعروفين طالوت و داود و سليمان و غيرهم. هذا، و يرد على هذا الوجه

أيضا ما يرد على سابقه.

ثم قال: «وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ» و هي العنايات و الألفاظ الإلهيه التي اقترنت بآيات باهره قيمه بتعديل حياتهم لو استقاموا على ما قالوا، و داموا على ما واثقوا، و هي الآيات البينات التي أحاطت بهم من كل جانب أيام كانوا بمصر، و بعد اذ نجاهم الله من فرعون و قومه، فلم يتوافر و يتواتر من الآيات المعجزات و البراهين الساطعات و النعم التي يتنعم بها في الحياه على امه من الامم الماضيه المتقدمه على عهد موسى ما توافرت و تواترت على بنى اسرائيل.

قوله تعالى: يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتُدُّوا عَلَيَّ ادِّبَارِكُمْ فَتَنْفَلُوا خَاسِرِينَ أمرهم بدخول الأرض المقدسه، و كان يستنبط من حالهم التمرد و التأبى عن القبول، و لذلك أكد أمره بالنهي عن الارتداد و ذكر استتباعه الخسران. و الدليل على أنه كان يستنبط منهم الرد توصيفه اياهم بالفاسقين بعد ردهم، فإن الردّ و هو فسق واحد لا يصح اطلاق «الفاسقين» عليهم الدالّ على نوع من الاستمرار و التكرّر.

و قد وصف الأرض بالمقدسه، و قد فسروه بالمطهره من الشرك لسكون الأنبياء و المؤمنين فيها، و لم يرد في القرآن الكريم ما يفسر هذه الكلمه. و الذي يمكن أن يستفاد منه ما يقرب من هذا المعنى قوله تعالى: إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ (الإسراء 1) و قوله:

وَ أَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا (الأعراف 137) و ليست المباركه في الارض الا جعل الخير الكثير فيها، و من الخير الكثير اقامه الدين و اذهاب قذاره الشرك.

و قوله: «كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ» ظاهر الآيات أن المراد به قضاء توطنهم فيها، و لا ينافيه قوله في آخرها: «فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً» بل يؤكد أن قوله: «كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ» كلام مجمل

أبهم فيه ذكر الوقت و حتى الاشخاص، فإن الخطاب للامة من غير تعرض لحال الافراد و الاشخاص، كما قيل: ان السامعين لهذا الخطاب الحاضرين المكلفين به ماتوا و فنوا عن آخرهم فى التيه، و لم يدخل الارض المقدسه الا أبناءهم و أبناء آبائهم مع يوشع بن نون، و بالجملة لا يخلو قوله: «فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً» عن اشعار بأنها مكتوبه لهم بعد ذلك.

و هذه الكتابه هى التى يدل عليها قوله تعالى: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ (القصص ٦) و قد كان موسى عليه السلام يرجو لهم ذلك بشرط الاستعانه بالله و الصبر حيث يقول قال موسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِنَا وَ مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (الأعراف ١٢٩).

و هذا هو الذى يخبر تعالى عن انجازه بقوله: وَ أَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسَيْنِ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا (الأعراف ١٣٧) فدللت الآية على أن استيلاءهم على الارض المقدسه و توطنهم فيها كانت كلمه الهيه و كتابا و قضاء مقضيا مشرطا بالصبر على الطاعة و عن المعصيه، و فى مرّ الحوادث.

قوله تعالى: قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ قال الرغب: أصل الجبر إصلاح الشىء بضرب من القهر يقال: جبرته فانجبر و اجتبر. قال: و قد يقال الجبر تاره فى الإصلاح المجرى نحو قول على رضى الله عنه: يا جابر كل كسير و يا مسهل كل عسير، و منه قولهم للخبز: جابر بن حبه، و تاره فى القهر المجرى نحو قوله عليه السلام: لا جبر و لا تفويض، قال: و الإيجاب فى الاصل حمل

الغير على أن يجبر الآخر لكن تعورف فى الإكراه المجرى فقيل: أجبرته على كذا كقولك:

أكرهته. قال: والجبر فى صفه الإنسان يقال لمن يجبر نقيضه بادعاء منزله من التعالى لا يستحقها، وهذا لا يقال إلا على طريق الدم كقوله عزّ وجلّ وَ خَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وقوله تعالى: وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وقوله عزّ وجلّ «إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ» قال: ولتصوّر القهر بالعلو على الاقران قيل: نخله جباره و ناقة جباره انتهى موضع الحاجة.

فظهر أن المراد بالجبارين هم أولو السطوة و القوه من الذين يجبرون الناس على ما يريدون.

وقوله: «وَ إِذَا لَمْ نَدْخُلْهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا» اشتراط منهم خروج القوم الجبارين فى دخول الارض، و حقيقته الرد لأمر موسى و إن وعدوه ثانياً الدخول على الشرط بقولهم «فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ» .

قوله تعالى: قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا الى آخر الآية؛ ظاهر السياق أن المراد بالمخافه مخافه الله سبحانه و أن هناك رجالا- كانوا يخافون الله أن يعصوا أمره و أمر نبيه، و منهم هذا الرجلان اللذان قالوا ما قالوا، و أنهما كانا يختصان من بين اولئك الذين يخافون بأن الله أنعم عليهما، و قد مر فى موارد تقدمت من الكتاب أن النعمه اذا اطلقت فى عرف القرآن يراد بها الولايه الالهيه فهما كانا من أولياء الله تعالى، و هذا فى نفسه قرينه على أن المراد بالمخافه مخافه الله سبحانه فإن أولياء الله لا يخشون غيره قال تعالى: أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (يونس ٦٢).

و يمكن أن يكون متعلق «أنعم» المحذوف أعنى المنعم به هو الخوف، فيكون المراد أن الله أنعم عليهما بمخافته، و يكون حذف مفعول «يخافون» للاكتفاء بذكره فى قوله: «أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا» اذ من المعلوم أن مخافتهما لم يكن من اولئك القوم الجبارين و الالم يدعوا بنى اسرائيل الى الدخول بقولهما «ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ» .

و قوله: «ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبِلَادَ» لعل المراد به أول بلد من بلاد أولئك الجبابرة يلي بنى إسرائيل، وقد كان على ما يقال: أريحاء، وهذا استعمال شائع أو المراد باب البلده.

و قوله: «فَمَا إِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَابْتَئِزُوا مِنْكُمْ غَالِبُونَ» وعد منهما لهم بالفتح و الظفر على العدو، وإنما أخبرا إخبارا بتيا اتكالا منهما بما ذكره موسى عليه السلام أن الله كتب لهم تلك الأرض لإيمانهما بصدق أخباره، أو أنهما عرفا ذلك بنور الولاية الالهيه. وقد ذكر المعظم من مفسرى الفريقين: أن الرجلين هما يوشع بن نون و كالب بن يوفنا و هما من نقيب بنى إسرائيل الاثنى عشر.

ثم دعواهم الى التوكل على ربهم بقولهما «وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» لأن الله سبحانه كافي من توكل عليه، وفيه تطيب لنفوسهم و تشجيع لهم.

قوله تعالى: «قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا الْآيَةُ» تكررهم قولهم «إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا» ثانيا لايئاس موسى عليه السلام من أن يصر على دعوته فيعود الى الدعوه بعد الدعوه.

قوله تعالى: «قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَ أَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» السياق يدل على أن قوله: «إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَ أَخِي» كناية عن نفى قدره على حمل غير نفسه و أخيه على ما أتاهم به من الدعوه. فإنه انما كان فى مقدرته حمل نفسه على امضاء ما دعا اليه و حمل أخيه هارون و قد كان نبيا مرسلا و خليفه له فى حياته لا يتمرد عن أمر الله سبحانه. أو أن المراد أنه ليس له قدره الا على نفسه و لا لأخيه قدره الا كذلك.

قوله تعالى: «قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» الضمير فى قوله «فإنها» راجعه الى الارض المقدسه، و المراد بالتحريم التكوينى و هو القضاء، و التيه التحير، و اللام فى «الأرض» للعهد، و قوله «فلا تأس» نهى من الاسى و هو الحزن، و قد أمضى الله تعالى قول موسى عليه السلام حيث

وصفهم في دعائه بالفاسقين.

و المعنى: أن الارض المقدسه أى دخولها و تملكها محرمه عليهم، أى قضينا أن لا يوفقوا لدخولها أربعين سنه يسرون فيها فى الارض متحيرين لا هم مدنيون يستريحون الى بلد من البلاد، ولا هم بدويون يعيشون عيشه القبائل و البدوين، فلا تحزن على القوم الفاسقين من نزول هذه النقمه عليهم لانهم فاسقون لا ينبغى أن يحزن عليهم اذا أذيقوا وبال أمرهم (١).

[سوره المائده (٥): الآيات ٢٧ الى ٣٢]

إشاره

وَ أَتٰل عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرَ قَالَ لَأَفْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ
(٢٧) لئن بسطت إلى يدك لتفتلني ما أنا ببالسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين (٢٨) إنى أريد أن تبوء يا ثمى
وَ إِنَّمَا فَتُكُونَ مِنَ أصحابِ النَّارِ وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَفَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ
اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارَى سَوْأَهُ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارَى سَوْأَهُ أَخِي
فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ
جَمِيعًا وَ مَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُشْرِفُونَ (٣٢)

ص: ٨٨

١-١). المائده ٢٠-٢٦: بحث روائى فى: بنى اسرائيل و الارض المقدسه، موت موسى عليه السلام فى التيه.

قوله تعالى: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ الْآيَةَ؛ التلاوه من التلو و هى القراءه سميت بها لان القارئ للنبيأ يأتى ببعض اجزائه فى تلو بعض آخر.و النبأ هو الخبر اذا كان ذا جدوى و نفع.و القربان ما يتقرب به الى الله سبحانه أو الى غيره،و هو فى الاصل مصدر لا- يثنى و لا- يجمع.و التقبل هو القبول بزياده عنايه و اهتمام بالمقبول و الضمير فى قوله «عَلَيْهِمْ» لأهل الكتاب لما مر من كونهم هم المقصودين فى سرد الكلام و المراد بهذا المسمى بآدم هو آدم الذى يذكر القرآن أنه ابو البشر.

و قوله: «إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ» ظاهر السياق أن كل واحد منهما قدّم الى الربّ تعالى شيئاً يتقرب به «و إنما لم يثنّ لفظ القربان لكونه فى الأصل مصدرا لا يثنى و لا يجمع.

و قوله: «قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» القائل الأول هو القاتل و الثانى هو المقتول،و سياق الكلام يدل على أنهما علما تقبل قربان أحدهما و عدم تقبله من الآخر،و أما أنهما من أين علما ذلك؟ أو بأى طريق استدلوا عليه؟ فالآيه ساكتة عن ذلك.

فقوله «إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» مسوق لقصر الافراد للدلاله على ان التقبل لا يشمل قربان التقى و غير التقى جميعا،أو لقصر القلب كأن القاتل كان يزعم انه سيتقبل قربانه دون

قربان المقتول زعما منه ان الأمر لا يدور مدار التقوى أو أن الله سبحانه غير عالم بحقيقه الحال، يمكن أن يشتهه عليه الامر كما ربما يشتهه على الانسان.

قوله تعالى: لئن بسطت إلي يدي لآتيتنني ما أنا بباسط يدي إليك الخ؛ اللام للقسم، و بسط اليد اليه كناية عن الاخذ بمقدمات القتل و اعمال اسبابه، و قد اتى فى جواب الشرط بالنفى الوارد على الجملة الاسميه، و بالصفه (ببساط) دون الفعل و اكد النفي بالباء ثم الكلام بالقسم، كل ذلك للدلاله على انه بمراحل من البعد من اراده قتل اخيه، لا يهم به و لا يخطر بباله.

و اكد ذلك كله بتعليل ما ادعاه من قوله: «ما أنا بباسط يدي» الخ؛ بقوله: «إني أخاف الله رب العالمين» فإن ذكر المتقين لربهم و هو الله رب العالمين الذى يجازى فى كل اثم بما يتعقبه من العذاب ينبه فى نفوسهم غريزه الخوف من الله تعالى، و لا يخليهم و ان يرتكبوا ظلما يوردهم مورد الهلكه.

ثم ذكر تأويل قوله: «لئن بسطت إلي يدي لآتيتنني ما أنا بباسط يدي» الخ؛ بمعنى حقيقه هذا الذى أخبر به، و محصيه له أن الامر على هذا التقدير يدور بين أن يقتل هو أخاه فيكون هو الظالم الحامل للآثم الداخلى فى النار، أو يقتله أخوه فيكون هو كذلك، و ليس يختار قتل أخيه الظالم على سعادته نفسه و ليس بظالم، بل يختار أن يشقى أخوه الظالم بقتله و يسعد هو و ليس بظالم، و هذا هو المراد بقوله: «إني أريد» الخ؛ كنى بالإرادته عن الاختيار على تقدير دوران الأمر.

فآليه فى كونها تأويلا لقوله «لئن بسطت إلي يدي» الخ؛ كالذى وقع فى قصه موسى و صاحبه حين قتل غلاما لقياه فاعترض عليه موسى بقوله: أقتلت نفسا زكية بغير نفس لصد جئت شيئا نكرا فنبأه صاحبه بتأويل ما فعل بقوله: و أمّا الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا و كفرا فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاه و أقرب رحما

قوله تعالى: «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ الدَّارِ»، أى ترجع بإثمي وإثمك كما فسره بعضهم، وقال الرغب في مفرداته: أصل البواء مساواه الأجزاء في المكان خلاف النبوه الذى هو منافاه الأجزاء يقال: مكان بواء اذا لم يكن نابئاً بنازله، وبوّأت له مكاناً: سوّيته فتبوءاً-الى أن قال-وقوله: «إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك أى تقيم بهذه الحاله (١)».

قوله تعالى: «فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ» قال الراغب في مفرداته: الطوع الانقياد و يضادّه الكره، والطاعه مثله لكن أكثر ما يقال فى الايتمار لما أمر و الارتسام فيما رسم، وقوله: «فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ» نحو أَسَمَحَتْ لَهُ قَرِينَتَهُ و انقادت له و سوّلت، و طوّعت أبلغ من أطاعت و طوعت له نفسه بإزاء قولهم: «تأبّت عن كذا نفسه» انتهى ملخصاً. و ليس مراده أن طوعت مضمّن معنى انقادت أو سولت بل يريد ان التطويح يدل على التدرّج كالإطاعه على الدفعه، كما هو الغالب فى بابى الإفعال و التفعيل فالتطويح فى الآيه اقتراب تدرّجى للنفس من الفعل بوسوسه بعد وسوسه و همامه بعد همامه تنقاد لها حتى تتم لها الطاعه الكامله فالمعنى: انقادت له نفسه و أطاعت امره إياها بقتل أخيه طاعه تدرّجيه، فقوله «قَتَلَ أَخِيهِ» من وضع المأمور به موضع الأمر كقولهم: أطاع كذا فى موضع: أطاع الأمر بكذا.

و ربما قيل: إن قوله: «طوعت بمعنى زينت فقوله «قَتَلَ أَخِيهِ» مفعول به، و قيل: بمعنى طاعته أى طاعته له نفسه فى قتل أخيه، فالقتل منصوب بنزع الخافض، و معنى الآيه ظاهر.

ص: ٩١

(١-١). المائده ٢٧-٣٢: كلام فى معنى قول ابن آدم لآخيه «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ» .

و ربما استفيد من قوله: «فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ» أنه إنما قتله ليلاً، وفيه كما قيل: أن أصبح - وهو مقابل أمسى - وإن كان بحسب أصل معناه يفيد ذلك لكن عرف العرب يستعمله بمعنى صار من غير رعايه أصل اشتقاقه، وفي القرآن شيء كثير من هذا القبيل كقوله فَأَصْبَحَ بِحُجَّتِهِمْ نِعْمَتِي إِخْوَانًا (آل عمران ١٠٣/) وقوله: فَيُضِضُ بِحُجْوَةِ عَلِيٍّ مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (المائدة ٥٢/) فلا سبيل أى إثبات إرادته المعنى الأصلي في المقام.

قوله تعالى: فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَهُ أَخِيهِ الْبَحْثَ طَلَبَ الشَّيْءِ فِي التَّرَابِ ثم يقال: بحثت عن الأمر بحثاً كذا في المجمع. و الموارد:

الستر، و منه التوارى للستر، و وراء لما خلف الشيء. و السوأة ما يتكرهه الإنسان. و الويل الهلاك. و يا ويلتا كلمة تقال عند الهلكة، و العجز مقابل الاستطاعة.

و الآية بسياقها تدل على أن القاتل قد كان بقى زماناً على تحير من أمره، و كان يحذر أن يعلم به غيره، و لا يدرى كيف الحيله الى أن لا يظفروا بجسده حتى بعث الله الغراب، و لو كان بعث الغراب و بحثه و قتله أخاره متقاربين لم يكن وجه لقوله «يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ» (١)(٢).

قوله تعالى: مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا فِي الْمَجْمَعِ: الاجل في اللغة الجنايه، انتهى. و قال الراغب في المفردات: الاجل الجنايه التي يخاف منها آجلا، فكل أجل جنايه و ليس كل جنايه آجلا.

يقال: فعلت ذلك من أجله، انتهى. ثم استعمل للتعليل، يقال: فعلته من أجل كذا أى إن كذا

ص: ٩٢

(١ - ١). المائدة ٢٧-٣٢: كلام في ان ابن آدم تعلم من الغراب كيف يورى سوأه اخيه.

(٢ - ٢). المائدة ٢٧-٣٢: كلام في معنى الاحساس و التفكير.

سبب فعلى، و لعل استعمال الكلمه فى التعليل ابتداءً أولاً فى مورد الجنايه و الجريره كقولنا:

أساء فلان و من أجل ذلك أدبته بالضرب أى إن ضربى ناش من جنايته و جريرته التى هى إساءته أو من جنايه هى إساءته، ثم أرسلت كلمه تعليل فقيل: أزورك من أجل حبى لك و لاجل حبى لك.

و ظاهر السياق أن الاشاره بقوله: «مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ» الى نبأ آدم المذكور فى الآيات السابقه اى إن وقوع تلك الحادثه الفجيعه كان سبباً لكتابتنا على بنى إسرائيل كذا و كذا، و ربما قيل: إن قوله: «مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ» متعلق بقوله فى الآيه السابقه: «فَأَضَى بِحِمْيَرَ النَّادِمِينَ» أى كان ذلك سبباً لندامته، و هذا القول و إن كان فى نفسه غير بعيد كما فى قوله تعالى: كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى الْآيَه (البقره ٢٢٠)؛ إلا أن لازم ذلك كون قوله: «كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ» الخ؛ مفتتح الكلام و المعهود من السياقات القرآنيه أن يؤتى فى مثل ذلك بواو الاستيناف كما فى آيه البقره المذكوره آنفاً و غيرها.

و أما وجه الإشاره فى قوله: «مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ» الى قصه ابنى آدم فهو أن القصه تدل على أن من طباع هذا النوع الإنسانى أن يحمله اتباع الهوى و الحسد الذى هو الخنق للناس بما ليس فى اختيارهم أن يحمله أو هن شىء على منازعه الربوبيه و إبطال غرض الخلقه بقتل أحدهم أخاه من نوعه و حتى شقيقه لأبيه و أمه.

و أما قوله: «أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا» استثنى سبحانه قتل النفس بالنفس و هو القود و القصاص و هو قوله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ (البقره ١٧٨) و قتل النفس بالفساد فى الارض، و ذلك قوله فى الآيه التاليه «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا» الآيه.

و أما المنزله التى يدل عليها قوله «فَكَأَنَّمَا» الخ؛ فقد تقدم بيانه أن الفرد من الانسان من حيث حقيقته المحموله له التى تحيا و تموت انما يحمل الانسانيه التى هى حقيقه واحده فى جميع

الأفراد و البعض و الكل، و الفرد الواحد و الأفراد الكثيرون فيه واحد، و لازم هذا المعنى أن يكون قتل النفس الواحده بمنزله قتل نوع الانسان و بالعكس احياء النفس الواحده بمنزله احياء الناس جميعا، و هو الذى تفيده الآيه الشريفه.

و أما قوله تعالى: «وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا» فالكلام فيه كالكلام فى الجملة السابقه، و المراد بالاحياء ما يعد فى عرف العقلاء احياء كإنقاذ الغريق و إطلاق الأسير، و قد عد الله تعالى فى كلامه الهدايه الى الحق احياء قال تعالى: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ (الأنعام ١٢٢) فمن دل نفسا الى الايمان فقد أحيها.

و أما قوله تعالى: «وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ» فهو معطوف على صدر الآيه أى و لقد جاءتهم رسلنا بالبينات يحذرونهم القتل و كل ما يلحق به من وجوه الفساد فى الارض.

و أما قوله تعالى: «ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعِدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمْ يُسْرِفُونَ» فهو متمم للكلام، بانضمامه إليه يستنتج الغرض المطلوب من البيان، و هو ظهور أنهم قوم مفسدون مصرون على استكبارهم و عتوهم فلقد بينا لهم منزله القتل و جاءتهم رسلنا فيها و فى غيرها بالبينات، و بينوا لهم و حذروهم مع ذلك لم ينتهوا عن إصرارهم على العتو و الاستكبار فأسرفوا فى الارض قديما و لا يزالون يسرفون.

و الإسراف الخرج عن القصد و تجاوز الحد فى كل فعل يفعله الإنسان، و إن كان يغلب عليه الاستعمال فى مورد الإنفاق كقوله تعالى: وَ الَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (الفرقان ٦٧) على ما ذكره الراغب فى المفردات (١)(٢).

ص: ٩٤

١-١). المائده ٢٧-٣٢: بحث روائى فى: ابنى آدم و قتل احدهما الآخر؛ مجازات القاتل فى الآخره؛ قتل الانسان و احياءه.

٢-٢). المائده ٢٧-٣٢، بحث علمى و تطبيق بين القرآن و التوراه حول ابنى آدم.

اشاره

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (۳۳) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۴) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۳۵) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۳۶) يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (۳۷) وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۳۸) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۹) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴۰)

قوله تعالى: **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا . «فَسَادًا»** مصدر وضع موضع الحال، و محاربه الله و إن كانت بعد استحاله معناها الحقيقي و تعين إرادته المعنى المجازى منها ذات معنى و سيع يصدق على مخالفه كل حكم من الأحكام الشرعية و كل ظلم و إسراف لكن ضم الرسول إليه يهدى الى ان المراد بها بعض ما للرسول فيه دخل، فيكون كالمتعين ان يراد بها ما يرجع الى إبطال اثر ما للرسول عليه و لايه من جانب الله سبحانه كمحاربه الكفار مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و اخلال قطاع الطريق بالأمن العام الذى بسطه بولايته على الارض، و تعقب الجملة بقوله: **«وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا»** يشخص المعنى المراد و هو الافساد فى الأرض بالاخلال بالأمن و قطع الطريق دون مطلق المحاربه مع المسلمين، على ان الضروره قاضيه بأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم لم يعامل المحاربين من الكفار بعد الظهور عليهم و الظفر بهم هذه المعامله من القتل و الصلب و المثلث و النفي.

على ان الاستثناء فى الآيه التاليه قرينه على كون المراد بالمحاربه هو الافساد المذكور فانه ظاهر فى ان التوبه انما هى من المحاربه دون الشرك و نحوه.

فالمراد بالمحاربه و الافساد على ما هو الظاهر هو الاخلال بالامن العام، و الامن العام انما يختل بايجاد الخوف العام و حلوله محله، و لا يكون بحسب الطبع و العاده إلا باستعمال السلاح المهدد بالقتل طبعاً و لهذا ورد فيما ورد من السنه تفسير الفساد فى الارض بشهر السيف و نحوه، و سيجىء فى البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: **أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا** الخ؛ التقتيل و التصليب و التقطيع تفعيل من القتل و الصلب و القطع يفيد شدة فى معنى المجرد أو زياده فيه، و لفظه «أو» إنما تدل على

الترديد المقابل للجمع، واما الترتيب أو التخيير بين أطراف التريد فإنما يستفاد احدهما من قرينه خارجيه حاله أو مقالیه فالآیه غير خاليه عن الاجمال من هذه الجبهه. وإنما تبينها السنه و سيجىء ان المروى عن ائمه اهل البيت عليهم السلام ان الحدود الاربعه مترتبه بحسب درجات الافساد كمن شهر سيفاً فقتل النفس و أخذ المال أو قتل فقط أو أخذ المال فقط أو شهر سيفاً فقط على ما سيأتى فى البحث الروائى التالى ان شاء الله.

و أما قوله: **أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ** فالمراد بكونه من خلاف أن يأخذ القطع كلا- من اليد و الرجل من جانب مخالف لجانب الاخرى كاليد اليمنى و الرجل اليسرى، وهذا هو القرينه على كون المراد بقطع الأيدي و الأرجل قطع بعضها دون الجميع أى إحدى اليدين و إحدى الرجلين مع مراعاة مخالفه الجانب.

و أما قوله: **أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ** فالنفي هو الطرد و التغييب و فسر فى السنه بطرده من بلد الى بلد.

و فى الآيه أبحاث آخر ففقيهه تطلب من كتب الفقه.

قوله تعالى: **ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** الخزى هو الفضيحه، و المعنى ظاهر. و قد استدل بالآيه على أن جريان الحد على المجرم لا يستلزم ارتفاع عذاب الآخره، و هو حق فى الجمله.

قوله تعالى: **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ** الخ؛ و أما بعد القبض عليهم و قيام البيئه فإن الحد غير ساقط، و أما قوله تعالى: **«فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»** فهو كناية عن رفع الحد عنهم، و الآيه من موارد تعلق المغفره بغير الأمر الاخرى.

قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** الخ؛ قال الراغب فى المفردات: الوسيله التوصل الى الشىء برغبه، و هى أخص من الوسيله لتضمنها لمعنى الرغبه، قال تعالى: **وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**، و حقيقه الوسيله الى الله تعالى مراعاة سبيله

بالعلم و العباده، و تحرى مكارم الشريعه، و هى كالتقربه، و اذ كانت نوعا من التوصل و ليس إلا توصلا و اتصالا معنويا بما يوصل بين العبد و ربه و يربط هذا بذاك، و لا رابط يربط العبد بربه إلا ذله العبوديه، فالوسيله هى التحقق بحقيقه العبوديه و توجيه وجه المسكنه و الفقر الى جنبه تعالى، فهذه هى الوسيله الرابطه، و أما العلم و العمل فإنما هما من لوازمها و أدواتها كما هو ظاهر إلا أن يطلق العلم و العمل على نفس هذه الحاله.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ ظاهره- كما تقدمت الإشارة إليه- أن يكون تعليلا لمضمون الآية السابقه، و المحصل أنه يجب عليكم أن تتقوا الله و تبتغوا إليه الوسيله و تجاهدوا فى سبيله فإن ذلك أمر يهكم فى صرف عذاب أليم مقيم عن انفسكم، و لا بدل له يحل محله فإن الذين كفروا فلم يتقوا الله و لم يبتغوا إليه الوسيله و لم يجاهدوا فى سبيله لو انهم ملكوا ما فى الارض جميعا- و هو اقصى ما يتمناه ابن آدم من الملك الدنيوى عاده- ثم زيد عليه مثله ليكون لهم ضعفا ما فى الارض ثم ارادوا ان يفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم و لهم عذاب اليم يريدون ان يخرجوا من النار و هى العذاب و ما هم بخارجين منها لانه عذاب خالد مقيم عليهم لا يفارقهم ابدا.

و فى الآية إشارة اولا الى ان العذاب هو الاصل القريب من الإنسان و انما يصرف عنه الإيمان و التقوى كما يشير إليه قوله تعالى: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا- وَارِدُهُمَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا (مريم ٧٢) و كذا قوله: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (العصر ٣).

و ثانيا: أن الفطره الأصلية الإنسانية و هى التى تتألم من النار غير باطله فيهم و لا منتفيه عنهم و إلا لم يتألموا و لم يتعذبوا بها و لم يريدوا الخروج منها.

قوله تعالى: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا الْآيَةَ؛ الواو للاستيناف و الكلام فى مقام التفصيل فهو فى معنى «و السارق و السارقة» الخ؛ و لذلك دخل الفاء فى

الخبر أعنى قوله: «فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا» لأنه في معنى جواب أما، كذا قيل.

و أما استعمال الجمع في قوله «أَيْدِيَهُمَا» مع أن المراد هو المثنى فقد قيل: إنه استعمال شائع، و الوجه فيه: أن بعض الأعضاء أو أكثرها في الإنسان مزدوجه كالقرنين و العينين و الاذنين و اليدين و الرجلين و القدمين، و اذا أضيفت هذه الى المثنى صارت أربعا و لها لفظ الجمع كأعينهما و أيديهما و أرجلهما و نحو ذلك ثم اطرده الجمع في الكلام اذا أضيف عضو الى المثنى و إن لم يكن العضو من المزدوجات كقولهم: ملأت ظهورهما و بطونهما ضربا، قال تعالى: «إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا» (التحریم ١٤) و اليد ما دون المنكب و المراد بها في الآية اليمين بتفسير السنه، و يصدق قطع اليد بفصل بعض أجزائها أو جميعها عن البدن بآله قطاعه.

قوله: «جَزَاءٌ بِمَا كَسَبْتُمْ نَكَالًا مِنْ اللَّهِ» الظاهر أنه في موضع الحال من القطع المفهوم من قوله «فَاقْطَعُوا» أي حال كون القطع جزاء بما كسبا نكالا من الله، و النكال هو العقوبة التي يعاقب بها المجرم لينتهي عن إجرامه، و يعتبر بها غيره من الناس.

و هذا المعنى أعنى كون القطع نكالا- هو المصحح لأن يتفرع عليه قوله: «فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ اصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ، الخ؛ أي لما كان القطع نكالا- يراد به رجوع المنكول به عن معصيته فمن تاب من بعد ظلمه توبه ثم أصلح و لم يحم حول السرقة- و هذا أمر يستثبت به معنى التوبه- فإن الله يتوب عليه و يرجع اليه بالمغفره و الرحمه لأن الله غفور رحيم، قال تعالى:

«مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ وَ كَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا» (النساء ١٤٧).

و في الآيه أبحاث آخر كثيره فقيهه للطالب أن يراجع فيها كتب الفقه.

قوله تعالى: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» الآية في موضع التعليل لما ذكر في الآية السابقه من قبول توبه السارق و السارقه اذا تابا و أصلحا من بعد ظلمهما فإن الله سبحانه لما كان له ملك السموات و الأرض، و للملك أن يحكم في مملكته و رعيته بما أحبّ و أراد من عذاب أو رحمه كان له تعالى أن يعذب من يشاء و يغفر لمن يشاء

على حسب الحكمة و المصلحه فيعذب السارق و السارقه إن لم يتوبا، و يغفر لهما إن تابا.

و قوله: «وَ اللَّهُ عَلِيٌّ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» في موضع التعليل لقوله «لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» فإن الملك (بضم الميم) من شئون قدره كما أن الملك (بكسر الميم) من فروع الخلق و الإيجاد اعنى القيمومه الإلهيه.

بيان ذلك: ان الله تعالى خالق الأشياء و موجدها فما من شيء إلا و ما له من نفسه و آثار نفسه لله سبحانه، هو المعطى لما اعطى و المانع لما منع، فله ان يتصرف في كل شيء، و هذا هو الملك (بكسر الميم) قال تعالى: قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (الرعد ١٦)، و قال:

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ (البقره / ٢٥٥) و هو تعالى مع ذلك قادر على اى تصرف شاء و اراد اذ كلما فرض من شيء فهو منه فله مضى الحكم و نفوذ الاراده و هو الملك (بضم الميم) و السلطنه على كل شيء فهو تعالى مالك لانه قيوم على كل شيء، و ملك لانه قادر غير عاجز و لا ممنوع من نفوذ مشيئته و إرادته (١).

[سوره المائده (٥): الآيات ٤١ الى ٥٠]

اشاره

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَالُونَ لِلشَّحْتِ فَإِنْ جَاؤَكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَ إِنْ تَعْرَضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يُضَيِّقَ شَيْئاً وَ إِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَ كَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ مَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِذَا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَ الرُّبَابِيُّونَ وَ الْأَجْبَارُ بِمَا اسْتِخْفَفُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَ كَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَ إِخْشَاؤِنِ وَ لَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمناً قَلِيلاً وَ مَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) وَ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَ الْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَ الْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَ الْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَ السِّنَّ بِالسِّنِّ وَ الْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَ مَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) وَ قَفَيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَ آتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَ هُدًى وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَ لِيُحْكَمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَ مَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَ مُهَيِّمناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مَنَاجِجاً وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَكِنْ لِيُنزلُكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَ أَنْ أُحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَ إِخْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصَيِّبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَ إِنْ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَ فَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)

١-١). المائده ٣٣-٤٠: بحث روائى فى جزاء الذين يحاربون الله ورسوله و يسعون فى الارض فسادا؛ قطع يد السارق.

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ، تسليته للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَتَطْيِيبَ لِنَفْسِهِ مِمَّا لَقِيَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ فِي الْآيَةِ، وَهُمْ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ أَيْ يَمْشُونَ فِيهِ الْمَشِيَةَ السَّرِيعَةَ، وَيَسِيرُونَ فِيهِ السَّيْرَ الْحَثِيثَ، تَظْهَرُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ مَوْجِبَاتُ الْكُفْرِ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى فَهَمَّ كَافِرُونَ مُسَارِعُونَ فِي كُفْرِهِمْ، وَالْمُسَارِعَةُ فِي الْكُفْرِ غَيْرُ الْمُسَارِعَةِ إِلَى الْكُفْرِ.

وَقَوْلُهُ: مَنْ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ بَيَانٌ لَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ

يسارعون في الكفر أى من المنافقين، و في وضع هذا الوصف موضع الموصوف إشاره الى عله النهى كما ان الأخذ بالوصف السابق اعنى قوله: «الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ» للإشاره الى عله المنهى عنه، و المعنى -و الله أعلم-: لا يحزنك هؤلاء بسبب مسارعتهم في الكفر فانهم انما آمنوا بألسنتهم لا بقلوبهم و ما أولئك بالمؤمنين، و كذلك اليهود الذين جاءوك و قالوا ما قولوا.

و قوله: «وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا عَظْفَ عَلَى قَوْلِهِ: «مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا» الخ؛ على ما يفيد السياق، و ليس من الاستيناف في شيء، و على هذا فقوله «سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ» خبر لمبتدأ محذوف أى هم سماعون، الخ.

و هذه الجملة المتسقة بيان حال الذين هادوا، و أما المنافقون المذكورون في صدر الآية فحالهم لا يوافق هذه الأوصاف كما هو ظاهر.

فهؤلاء المذكورون من اليهود هم سماعون للكذب أى يكثرون من سماع الكذب مع العلم بأنه كذب، و إلا لم يكن صفه ذم، و هم كثير السمع لقوم آخرين لم يأتوك، يقبلون منهم كل ما ألقوه اليهم و يطيعونهم في كل ما أرادوه منهم، و اختلاف معنى السمع هو الذى أوجب تكرار قوله: «سَمَاعُونَ» فإن الأول يفيد معنى الإصغاء و الثانيه معنى القبول.

و قوله: «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ» أى من بعد استقرارها فى مستقرها و الجملة صفه لقوله «لِقَوْمٍ آخِرِينَ» و كذا قوله: «يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا» .

و يتحصل من المجموع أن عده من اليهود ابتلوا بواقعه دينيه فيما بينهم، لها حكم إلهى عندهم لكن علماءهم غيروا الحكم بعد ثبوته ثم بعثوا طائفه منهم الى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و أمرهم أن يحكموه فى الواقعه فإن حكم بما أنبأهم علماءهم من الحكم المحرف فليأخذوه و إن حكم بغير ذلك فليحذروا.

و قوله: «وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» الظاهر أنه معترضه يبين بها أنهم فى

أمرهم هذا مفتونون بفتنه إلهيه، فلتطب نفس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّ الْأَمْرَ مِنَ اللَّهِ وَإِلَيْهِ وَلَيْسَ يَمْلِكُ مِنْهُ تَعَالَى شَيْءٌ فِي دَلِكِ، وَ لَا مَوْجِبَ لِلتَّحْزَنِ فِي مَا لَا سَبِيلَ إِلَى التَّخْلِصِ مِنْهُ.

و قوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ» فقلوبهم باقية على قذارتها الأولى لما تكرر منهم من الفسق بعد الفسق فأضلهم الله به، و ما يضل به إلا الفاسقين.

و قوله: «لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» إيعاد لهم بالخزي في الدنيا و قد فعل بهم، و بالعذاب العظيم في الآخرة.

قوله تعالى: سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ قَالَ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ:

السحت القشر الذى يستأصل، قال تعالى: «فَيَسْحَتُكُمْ بِعَذَابٍ» و قرئ: فيسحتكم (أى بفتح الياء) يقال: سحته و أسحته، و منه السحت للمحذور الذى يلزم صاحبه العار كأنه يسحت دينه و مروءته، قال تعالى: «أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ» أى لما يسحت دينهم، و قال عليه السلام كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به، و سمي الرشوه سحتا. انتهى.

فكل مال اكتسب من حرام فهو سحت، و السياق يدل على أن المراد بالسحت فى الآية هو الرشا و يتبين من إيراد هذا الوصف فى المقام أن علماءهم الذين بعثوا طائفه منهم الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كانوا قد أخذوا فى الواقعه رشوه لتحرير حكم الله فقد كان الحكم مما يمكن أن يتضرر به بعضه فسد الباب بالرشوه، فأخذوا الرشوه و غيروا حكم الله تعالى.

و من هنا يظهر أن قوله تعالى: «سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ» باعتبار المجموع و صف لمجموع القوم، و أما بحسب التوزيع فقوله «سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ» و صف لقوله «الَّذِينَ هَادُوا» و هم المبعوثون الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و من فى حكمهم من التابعين، و قوله: «أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ» و صف لقوم آخرين، و المحصل أن اليهود منهم علماء يأكلون الرشوى، و عامه مقلدون سماعون لأكاذيبهم.

قوله تعالى: فَإِنْ جَاؤُكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛

تخير للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بين أن يحكم بينهم إذا حكموه أو يعرض عنهم، و من المعلوم أن اختيار أحد الأمرين لم يكن يصدر منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلا لمصلحه داعيه فيؤول الى إرجاع الأمر الى نظر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و رأيه.

ثم قرر تعالى هذا التخير بأنه ليس عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ضرر لو ترك الحكم فيهم و أعرض عنهم، و بين له أنه لو حكم بينهم فليس له أن يحكم إلا بالقسط و العدل.

فيعود المضمون بالأخره الى أن الله سبحانه لا يرضى أن يجرى بينهم إلا حكمه فإما أن يجرى فيهم ذلك أو يهمل أمرهم فلا يجرى من قبله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حكم آخر.

قوله تعالى: وَ كَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ مَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ تعجيب من فعالهم أنهم أمه ذات كتاب و شريعه و هم منكرون لنبوتك و كتابك و شريعتك ثم يتولون بواقعه في كتابهم حكم الله فيها، ثم يتولون بعد ما عندهم التوراه فيها حكم الله و الحال أن أولئك المبتعدين من الكتاب و حكمه ليسوا بالذين يؤمنون بذلك.

و على هذا المعنى فقوله «ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ» أى عن حكم الواقعه مع كون التوراه عندهم و فيها حكم الله، و قوله: «وَ مَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ» أى بالذين يؤمنون بالتوراه و حكمها، فهم تحولوا من الإيمان بها و بحكمها الى الكفر.

و يمكن أن يفهم من قوله: «ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ»، التولى عما حكم به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و من قوله: «وَ مَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ» نفى الإيمان بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و سلم على ما كان يظهر من رجوعهم اليه و تحكيمهم إياه، أو نفى الإيمان بالتوراه و بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جميعا، لكن ما تقدم من المعنى أنسب السياق الآيات.

و فى الآيه تصديق ما للتوراه التى عند اليهود اليوم، و هى التى جمعها لهم عزراء ياذن «كورش» ملك إيران بعد ما فتح بابل، و أطلق بنى اسرائيل من أسر البابليين و أذن لهم فى

الرجوع الى فلسطين و تعمير الهيكل، و هى التى كانت بيدهم فى زمن النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و هى التى بيدهم اليوم، فالقرآن يصدق أن فيها حكم الله، و هو أيضا يذكر أن فيها تحريفا و تغييرا.

و يستنتج من الجميع: أن التوراه الموجوده الدائره بينهم اليوم فيها شىء من التوراه الأصلية النازله على موسى عليه السلام و أمور حرفت و غيرت اما زياده أو نقصان أو تغيير لفظ أو محل أو غير ذلك، و هذا هو الذى يراه القرآن فى أمر التوراه، و البحث الوافى عنها أيضا يهدى الى ذلك.

قوله تعالى: **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ السَّخ؛** بمنزله التعليل لما ذكر فى الآيه السابقه، و هى و ما بعدها من الآيات تبين أن الله سبحانه شرع لهذه الامم على اختلاف عهودهم شرائع، و أودعها فى كتب انزلها اليهم ليهدوا بها و يتبصروا بسببها، و يرجعوا إليها فيما اختلفوا فيه، و امر الأنبياء و العلماء منهم ان يحكموا بها، و يتحفظوا عليها و يقوها من التغيير و التحريف، و لا يطلبوا فى الحكم ثمنا ليس الا قليلا، و لا يخافوا فيها الا الله سبحانه و لا يخشوا غيره.

و أكد ذلك عليهم و حذرهم اتباع الهوى، و تفتين أبناء الدنيا، و إنما شرع من الأحكام مختلفا باختلاف الامم و الأزمان ليتم الامتحان الإلهى فإن استعداد الأزمان مختلف بمرور الدهور، و لا يستكمل المختلفان فى الاستعداد شده و ضعفا بمكمل واحد من التريبه العلميه و العمليه على و تيره واحده.

فقوله **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ** أى شىء من الهدايه يهتدى بها، و شىء من النور يتبصر به من المعارف و الأحكام على حسب حال بنى إسرائيل، و مبلغ استعدادهم، و قد بين الله سبحانه فى كتابه عامه أخلاقهم، و خصوصيات أحوال شعبيهم و مبلغ فهمهم، فلم ينزل اليهم من الهدايه إلا - بعضها و من النور إلا بعضه لسبق عهدهم و قدمه أمتهم، و قلله استعدادهم، قال تعالى: **وَ كَتَبْنَا لَهُ فِي التَّوْرَةِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ**

وقوله: يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا إنما وصف النبيين بالإسلام وهو التسليم لله، الذي هو الدين عند الله سبحانه للإشارة إلى أن الدين واحد، وهو الإسلام لله و عدم الاستنكاف عن عبادته، ليس لمؤمن بالله- وهو مسلم له- أن يستكبر عن قبول شيء من أحكامه و شرائعه.

وقوله: «وَالرَّبَّائِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ» أى و يحكم بها الربانيون و هم العلماء المنقطعون إلى الله علما و عملاء أو الذين اليهم تربية الناس بعلومهم بناء على اشتقاق اللفظ من الرب أو الترييه، و الأحبار و هم الخبراء من علمائهم يحكمون بما أمرهم الله به و أرادهم الله به و يحفظوه من كتاب الله، و كانوا من جهة حفظهم له و تحملهم إياه شهداء عليه لا يتطرق إليه تغيير و تحريف لحفظهم له فى قلوبهم، فقوله «وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ» بمنزلة النتيجة لقوله «بِمَا اسْتَحْفَظُوا» الخ؛ أى أمروا بحفظه فكانوا حافظين له بشهادتهم عليه.

و أما قوله تعالى: فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَ اِخْشَوُا اللَّهَ وَ لَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا فهو متفرع على قوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا»، أى لما كانت التوراه منزله من عندنا مشتمله على شريعته يقضى بها النبيون و الربانيون و الأحبار بينكم فلا تكتموا شيئا منها و لا- تغيروها خوفا أو طمعا، أما خوفا فبأن تخشوا الناس و تنسوا ربكم بل الله فإخشوا حتى لا تخشوا الناس، و أما طمعا فبأن تشتروا بآيات الله ثمنا قليلا هو مال أو جاه دنيوى زائل باطل.

و يمكن أن يكون متفرعا على قوله: «بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ» بحسب المعنى لأنه فى معنى أخذ الميثاق على الحفظ أى أخذنا منهم الميثاق على حفظ الكتاب و أشهدناهم عليه أن لا يغيروه و لا يخشوا فى إظهاره غيرى، و لا يشتروا بآياتى ثمنا قليلا، قال

تعالى: وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا (آل عمران ١٨٧) وقال تعالى: فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْمَآذِنِ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (الأعراف ١٧٠).

و هذا المعنى الثانى لعله أنسب و أوفق لما يتلوه من التأكيد و التشديد بقوله «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ»

قوله تعالى: وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ -الى قوله- وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ وَالسِّيَاقُ وَخَاصَهُ بِالنَّظَرِ إِلَى قَوْلِهِ: «وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ» يدل على أن المراد به بيان حكم القصاص فى أقسام الجنائيات من القتل و القطع و الجرح، فالمقابلة الواقعة فى قوله:

«النَّفْسُ بِالنَّفْسِ» و غيره إنما وقعت بين المقتص له و المقتص به و المراد به أن النفس تعادل النفس فى باب القصاص، و العين تقابل العين و الأنف الأنف و هكذا و الباء للمقابلة كما فى قولك: بعث هذا بهذا.

فيؤول معنى الجمل المتسقة الى ان النفس تقتل بالنفس، و العين تفتق بالعين و الانف تجدع بالانف، و الاذن تصلم بالاذن، و السن تقطع بالسن و الجروح ذوات قصاص، و بالجمله إن كلا من النفس و اعضاء الانسان مقتص بمثله.

و لعل هذا هو مراد من قدر فى قوله: «النَّفْسُ بِالنَّفْسِ» ان النفس مقتصه أو مقتوله بالنفس و هكذا و إلا -فالتقدير بمعزل عن الحاجة، و الجمل تامه من دونه و الظرف لغو.

و الآيه لا تخلو من إشعار بأن هذا الحكم غير الحكم الذى حكموا فيه النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و تذكره الآيات السابقه فإن السياق قد تجدد بقوله «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ» .

و الحكم موجود فى التوراه الدائره على ما سيجىء نقله فى البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: **فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ** أى فمن عفى من أولياء القصاص كولى المقتول أو نفس المجنى عليه و المجروح عن الجانى، و وهبه ما يملكه من القصاص فهو أى العفو كفاره لذنوب المتصدق أو كفاره عن الجانى فى جنايته.

و الظاهر من السياق ان الكلام فى تقدير قولنا: **فإن تصدق به من له القصاص فهو كفاره له**، و ان لم يتصدق فليحكم صاحب الحكم بما انزله الله من القصاص، و من لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون.

قوله تعالى: **وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ** جعل الشىء خلف الشىء و هو مأخوذ من القفا، و الآثار جمع أثر و هو ما يحصل من الشىء مما يدل عليه، و يغلب استعماله فى الشكل الحاصل من القدم ممن يضرب فى الأرض، و الضمير فى «آثارهم» للأنبياء.

فقوله: **«وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ»** استعاره بالكنايه أريد بها الدلاله على أنه سلك به عليه السلام المسلك الذى سلكه من قبله من الأنبياء، و هو طريق الدعوه الى التوحيد و الإسلام لله.

و قوله: **«مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ»** تبين لما تقدمه من الجملة و إشاره الى أن دعوه عيسى هى دعوه موسى عليهما السلام من غير بينونه بينهما أصلا.

قوله تعالى: **وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ** الخ؛ سياق الآيات من جهه تعرضها لحال شريعته موسى و عيسى و محمد صلى الله

عليه وآله وعليهما ونزولها في حق كتبهم يقضى بانطباق بعضها على بعض (١).

وقوله تعالى: وَهُدًى وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ قد مر توضيحه، والآيه تدل على أن في الإنجيل النازل على المسيح عنايه خاصه بالتقوى في الدين مضافا الى ما يشتمل عليه التوراه من المعارف الاعتقاديه و الاحكام العمليه، و التوراه الدائره بينهم اليوم و إن لم يصدقها القرآن كل التصديق، وكذا الأناجيل الاربعه المنسوبه الى متى و مرقس و لوقا و يوحنا و إن كانت غير ما يذكره القرآن من الانجيل النازل على المسيح نفسه لكنها مع ذلك كله تصدق هذا المعنى كما سيجيء إن شاء الله الاشاره إليه.

وقوله تعالى: وَ لِيُحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ الْحَقُّ؛ وقد أنزل فيه تصديق التوراه في شرائعها إلا ما استثنى من الاحكام المنسوخه التي ذكرت في الانجيل النازل على عيسى عليه السلام، فان الانجيل لما صدق التوراه فيما شرعته، و أحل بعض ما حرم فيها كان العمل بما في التوراه في غير ما أحلها الانجيل من المحرمات عملا بما أنزل الله في الانجيل، و هو ظاهر.

و أما قوله: «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» فهو تشديد في الامر المدلول عليه بقوله «وَلِيُحْكُمَ»، و قد كرر الله سبحانه هذه الكلمه للتشديد ثلاث مرات: مرتين في أمر اليهود و مره في أمر النصارى باختلاف يسير فقال «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ، فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» فسجل عليهم الكفر و الظلم و الفسق.

وقوله تعالى: وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَ مُهَيِّمًا عَلَيْهِ هَيْمَنَةَ الشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ - على ما يتحصل من معناها - كون الشيء ذا

ص: ١١٠

سلطه على الشيء في حفظه و مراقبته و انواع التصرف فيه، و هذا حال القرآن الذى وصفه الله تعالى بأنه تبيان كل شيء بالنسبه الى ما بين يديه من الكتب السماويه: يحفظ منها الاصول الثابته غير المتغيره و ينسخ منها ما ينبغى ان ينسخ من الفروع التى يمكن أن يتطرق إليها التغير و التبديل حتى يناسب حال الانسان بحسب سلوكه صراط الترقى و التكامل بمرور الزمان قال تعالى: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ (الإسراء ٩) و قال ﴿ مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِخُهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ (البقره ١٠٦) و قال الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (الأعراف ١٥٧).

فهذه الجملة أعنى قوله: «وَأَوْ مُهْمِنًا عَلَيْهِ» متممه لقول «و مصدقا لما بين يديه من الكتاب» تتميم إيضاح اذ لولاها لأمكن ان يتوهم من تصديق القرآن للتوراه و الإنجيل أنه يصدق ما فيهما من الشرائع و الاحكام تصديق إبقاء من غير تغيير و تبديل لكن توصيفه بالهيمنه يبين ان تصديقه لها تصديق أنها معارف و شرائع حقه من عند الله و لله ان يتصرف منها فيما يشاء بالنسخ و التكميل كما يشير إليه قوله ذيلًا: «و لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَكِنْ لِنَبِّؤُكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ» .

فقول «مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» معناه تقرير ما فيها من المعارف و الأحكام بما يناسب حال هذه الامه فلا ينافيه ما تطرق إليها من النسخ و التكميل و الزيادة كما كان المسيح عليه السلام أو انجيله مصدقا للتوراه مع إحلاله بعض ما فيها من المحرمات كما حكاه الله عنه فى قوله: وَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَ لِأَحَلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ (آل عمران ٥٠).

قوله تعالى: فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ

الْحَقُّ أى اذا كانت الشريعة النازله إليك المودعه فى الكتاب حقا و هو حق فيما وافق ما بين يديه من الكتب و حق فيما خالفه لكونه مهيمنا عليه فليس لك الا أن تحكم بين أهل الكتاب - كما يؤيده ظاهر الآيات السابقه- أو بين الناس- كما تؤيده الآيات اللاحقه- بما أنزل الله إليك و لا تتبع أهواءهم بالاعراض و العدول عما جاءك من الحق.

و من هنا يظهر جواز أن يراد بقوله «فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ» الحكم بين أهل الكتاب أو الحكم بين الناس، لكن تبعد المعنى الاول حاجته الى تقدير كقولنا فاحكم بينهم ان حكمت، فان الله سبحانه لم يوجب عليه صلى الله عليه و آله و سلم الحكم بينهم بل خيره بين الحكم و الاعراض بقوله «فَإِنْ جَاؤُكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ» الآية؛ على ان الله سبحانه ذكر المنافقين مع اليهود فى اول الآيات فلا موجب لاختصاص اليهود برجوع الضمير إليهم لسبق الذكر و قد ذكر معهم غيرهم، فالأنسب أن يرجع الضمير الى الناس لدلاله المقام.

و يظهر ايضا ان قوله: «عَمَّا جَاءَكَ» متعلق بقوله «وَلَا تَتَّبِعْ» بإشراجه معنى العدول أو الاعراض.

قوله تعالى: لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهَا جَاءَ قَالَ الراغب فى المفردات:

الشرع نهج الطريق الواضح يقال: شرعت له طريقا و الشرع مصدر ثم جعل اسما للطريق النهج ف قيل له: شرع و شرع و شرعه، و استعير ذلك للطريقه الالهيه قال «شِرْعَةً وَ مِنْهَا جَاءَ» -الى ان قال- قال بعضهم: سميت الشريعة شريعة تشبيها بشريعة الماء انتهى.

و لعل الشريعة بالمعنى الثانى مأخوذ من المعنى الاول لوضوح طريق الماء عندهم بكثره الورود و الصدور و قال: النهج (بالفتح فالسكون): الطريق الواضح، و نهج الأمر و أنهج وضح، و منهج الطريق و منهاجه (1).

ص: ١١٢

(١-١). المائده ٤١-٥٠: كلام فى معنى الشريعة و الفرق بينها و بين الدين و المله فى عرف القرآن.

قوله تعالى: **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً** وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ **بِإِنشَاءِ** بيان لسبب اختلاف الشرائع، وليس المراد بجعلهم أمة واحدة الجعل التكويني بمعنى النوعية الواحدة فإن الناس أفراد نوع واحد يعيشون على نسق واحد كما يدل عليه قوله تعالى: **وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ** (الزخرف ١٣٣).

فمعنى الآية-والله أعلم-: لكل أمة جعلنا منكم (جعلنا تشريعياً) شرعه و منهاجا و لو شاء الله لأخذكم أمة واحدة و شرع لكم شريعته واحدة، و لكن جعل لكم شرائع مختلفة ليمتحنكم فيما آتاكم من النعم المختلفة، و اختلاف النعم كان يستدعي اختلاف الامتحان الذي هو عنوان التكاليف و الاحكام المجعولة فلا محاله ألقى الاختلاف بين الشرائع.

و هذه الامم المختلفة هي أمم نوح و ابراهيم و موسى و عيسى و محمد صلى الله عليه و آله و عليهم كما يدل عليه ما يمتن الله به على هذه الامة بقوله **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى** (الشورى ١٣).

قوله تعالى: **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا** الخ؛ الاستباق أخذ السبق، و المرجع مصدر ميمي من الرجوع، و الكلام متفرع على قوله: **«لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مَنَاجِزًا»** بما له من لازم المعنى أى و جعلنا هذه الشريعة الحقة المهيمنة على سائر الشرائع شريعة لكم، و فيه خيركم و صلاحكم لا- محاله فاستبقوا الخيرات و هى الأحكام و التكاليف، و لا تشتغلوا بأمر هذه الاختلافات التى بينكم و بين غيركم فإن مرجعكم جميعاً الى ربكم تعالى **فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**، و يحكم بينكم حكماً فصلاً، و يقضى قضاء عدلاً.

قوله تعالى: **وَ أَنْ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ**، هذا الصدر يتحد مع ما فى الآية السابقة من قوله: **«فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ»**، ثم يختلفان فيما

فرع على كل منهما، و يعلم منه أن التكرار لحيازه هذه الفائده فالآيه الاولى تأمر بالحكم بما أنزل الله و تحذر اتباع أهواء الناس لان هذا الذى أنزله الله هو الشريعة المجموعه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و لامته فالواجب عليهم أن يستبقوا هذه الخيرات، و الآيه الثانيه تأمر بالحكم بما أنزل الله، و تحذر اتباع أهواء الناس و تبين أن توليهم ان تولوا عما أنزل الله كاشف عن اضلال الهى لهم لفسقهم و قد قال الله تعالى يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦).

و قوله: «وَ اخِذْهُمْ أَنْ يَفْتَنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ» امره تعالى نبيه بالحذر عن فتنهم مع كونه صلى الله عليه و آله و سلم معصوما بعصمه الله انما هو من جهه ان قوه العصمه لا توجب بطلان الاختيار و سقوط التكاليف المبنيه عليه فإنها من سنخ الملكات العلميه، و العلوم و الادراكات لا- تخرج القوى العامله و المحركه فى الاعضاء و الاعضاء الحامله لها عن استواء نسبه الفعل و الترك إليها.

و قوله: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاَعْلَمُ أَنَّكُمْ يَأْتِيهِمْ غِيَابٌ مِمَّا كَفَرْتُمْ» بيان لامر اضلالهم اثر فسقهم كما تقدم، و فيه رجوع الى بدء الكلام فى هذه الآيات «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ» الخ؛ ففيه تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و تطيب لنفسه، و تعليم له ما لا- يدب معه الحزن فى قلبه، و هكذا فعل الله سبحانه فى جل الموارد التى نهى فيها النبي صلى الله عليه و آله و سلم عن ان يحزن عن توليهم عن الدعوه الحقه و استنكافهم عن قبول ما يرشدهم الى سبيل الرشاد و الفلاح فبين له صلى الله عليه و آله و سلم انهم ليسوا بمعجزين لله فى ملكه و لا غالبين عليه بل الله غالب على امره، و هو الذى يضلهم بسبب فسقهم، و يزيغ قلوبهم عن زيغ منهم، و يجعل الرجس عليهم بسلب توفيقه عنهم و استدراجه إياهم، قال تعالى: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ» (الأنفال ٥٩) و اذا كان الأمر الى الله سبحانه، و هو الذى يذب عن ساحه دينه الطاهره كل رجس نجس فلم يفته شىء مما أراده و لا وجه للحزن اذا لم يكن فائت.

وقوله: «وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ» في محل التعليل لقوله «أَتَمَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ» الخ؛ على ما تقدم بيانه.

قوله تعالى: «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ» تفريع بنحو الاستفهام على ما بين في الآيه السابقه من توليهم مع كون ما يتولون عنه هو حكم الله النازل اليهم و الحق الذي علموا أنه حق، و يمكن أن يكون في مقام النتيجة اللازمه لما بين في جميع الآيات السابقه.

و المعنى: و اذا كانت هذه الأحكام و الشرائع حقه نازله من عند الله و لم يكن وراءها حكم حق لا يكون دونها الا حكم الجاهليه الناشئه عن اتباع الهوى فهؤلاء الذين يتولون عن الحكم الحق ما ذا يريدون بتوليهم و ليس هناك الا حكم الجاهليه؟ أ فحكم الجاهليه يبغون و الحال أنه ليس أحد أحسن حكما من الله لهؤلاء المدعين للإيمان؟

فقوله «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ» استفهام توبيخي، و قوله: «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا» استفهام انكارى أى لا أحد أحسن حكما من الله، و انما يتبع الحكم لحسنه، و قوله: «لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» فى أخذ وصف اليقين تعريض لهم بأنهم ان صدقوا فى دعواهم الايمان بالله فهم يوقنون بآياته، و الذين يوقنون بآيات الله ينكرون أن يكون أحد أحسن حكما من الله سبحانه (١).

[سوره المائده (٥): الآيات ٥١ الى ٥٤]

إشارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضِيعَ بُحُونًا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)

ص: ١١٥

١ - ١). المائده ٤١-٥٠: بحث روائى فى حكم الرجم فى التوراه؛ مباحثه ابن صوريا اليهودى مع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و اسلامه؛ القصاص و الديه فى التوراه و القرآن؛ الربانيون؛ حكم الله و حكم الجاهليه.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: الْاِتِّخَاذُ هُوَ الْاِعْتِمَادُ عَلَى الشَّيْءِ لِإِعْدَادِهِ لِأَمْرٍ، وَهُوَ افْتِعَالٌ مِنَ الْأَخْذِ، وَأَصْلُهُ الْاِتِّخَاذُ فَأَبْدَلَتْ الْهَمْزُ تَاءً، وَأَدْغَمَتْهَا فِي التَّاءِ الَّتِي بَعْدَهَا وَمِثْلَهُ الْاِتِّخَاذُ مِنَ الْوَعْدِ، وَالْأَخْذُ يَكُونُ عَلَى وَجْهِ تَقْوِيلٍ: أَخَذَ الْكِتَابَ إِذَا تَنَاوَلَهُ، وَأَخَذَ الْقَرِيبَانَ إِذَا تَقَبَّلَهُ، وَأَخَذَهُ اللَّهُ مَنْ مَأْمَنَهُ إِذَا أَهْلَكَهُ، وَأَصْلُهُ جَوَّازُ الشَّيْءِ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ.

انتهى.

وَقَالَ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ: الْوَلَاءُ وَالتَّوَالَى أَنْ يَحْصَلَ شَيْئَانِ فَصَاعِدًا حَصُولًا لَيْسَ بَيْنَهُمَا مَا لَيْسَ مِنْهُمَا، وَيَسْتَعَارُ ذَلِكَ لِلْقُرْبِ مِنْ حَيْثُ الْمَكَانِ، وَمِنْ حَيْثُ النِّسْبَةِ وَمِنْ حَيْثُ الدِّينِ، وَمِنْ حَيْثُ الصِّدَاقِ وَالنَّصْرَةِ وَالْاِعْتِقَادِ (انْتَهَى مَوْضِعَ الْحَاجَةِ) وَسَيَأْتِي اسْتِيفَاءُ الْبَحْثِ فِي

و بالجمله الولاية نوع اقتراب من الشىء يوجب ارتفاع الموانع و الحجب بينهما من حيث ما اقترب منه لاجله فإن كان من جهة التقوى و الانتصار فالولى هو الناصر الذى لا يمنعه عن نصره من اقتراب منه شىء، و إن كان من جهة الالتيام فى المعاشرة و المحبة التى هى الانجذاب الروحى فالولى هو المحبوب الذى لا يملك الإنسان نفسه دون أن ينفعل عن إرادته، و يعطيه فيما يهواه، و ان كان من جهة النسب فالولى هو الذى يرثه مثلا من غير مانع يمنعه، و إن كان من جهة الطاعة فالولى هو الذى يحكم فى أمره بما يشاء.

و لم يقيد الله سبحانه فى قوله: «لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ» الولاية بشىء من الخصوصيات و القيود فهى مطلقه غير أن قوله تعالى فى الآيه التاليه: «فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ»، يدل على أن المراد بالولاية نوع من القرب و الاتصال يناسب هذا الذى اعتدروا به بقولهم «نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ» و هى الدوله تدور عليهم، و كما أن الدائره من الجائز أن تصيبهم من غير اليهود و النصارى فيتأيدوا بنصره الطائفتين بأخذهما أولياء النصره كذلك يجوز أن تصيبهم من نفس اليهود و النصارى فينجوا منها باتخاذهما أولياء المحبه و الخلطه.

و الولاية بمعنى قرب المحبه و الخلطه تجمع الفائدتين جميعا أعنى فائده النصره و الامتراج الروحى فهو المراد بالآيه، و سيجىء ما فى القيود و الصفات المأخوذه فى الآيه الاخيره «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ»، من الدلاله على أن المراد بالولاية هاهنا ولاية المحبه لا غير (١).

و ربما أمكن أن يستفاد من قوله: «بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» معنى آخر، و هو أن لا تتخذوهم

(١-١). المائده ٥١-٥٤: بحث فى معنى الولاية فى الآيه «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ...» .

أولياء لأنكم إنما تتخذونهم أولياء لتنتصروا ببعضهم الذى هم أولياؤكم على البعض الآخر، ولا ينفعكم ذلك فإن بعضهم أولياء بعض فليسوا ينصرونكم على أنفسهم.

قوله تعالى: وَمَنْ يَتَّخِذْهُمْ مِنْكُمْ فَرِيضَةً مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ التولى اتخاذ الولي، و«من» تبعيضية والمعنى أن من يتخذهم منكم أولياء فإنه بعضهم، وهذا إلحاق تنزيلي يصير به بعض المؤمنين بعضا من اليهود والنصارى، ويثول الأمر الى أن الإيمان حقيقته ذات مراتب مختلفة من حيث الشوب والخلوص، والكدره والصفاء كما يستفاد ذلك من الآيات القرآنيه قال تعالى: وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (يوسف ١٠٦) وهذا الشوب والكدر هو الذى يعبر تعالى عنه بمرض القلوب فيما سيأتى من قوله: «فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ» .

فهؤلاء الموالون لاولئك أقوام عداهم الله تعالى من اليهود والنصارى و إن كانوا من المؤمنين ظاهرا، وأقل ما فى ذلك أنهم غير سالكين سبيل الهدايه الذى هو الإيمان بل سالكو سبيل اتخذه اولئك سبيلا يسوقه الى حيث يسوقهم و ينتهى به الى حيث ينتهى بهم.

ولذلك علل الله سبحانه لحوقه بهم بقوله «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» فالكلام فى معنى: أن هذا الذى يتولاهم منكم هو منهم غير سالك سبيلكم لان سبيل الإيمان هو سبيل الهدايه الإلهيه، وهذا المتولى لهم ظالم مثلهم، والله لا يهدى القوم الظالمين.

والآيه- كما ترى- تشتمل على أصل التنزيل أعنى تنزيل من تولاهم من المؤمنين منزلتهم من غير تعرض لشيء من آثاره الفرعيه، واللفظ و إن لم يتقيد بقيد لكنه لما كان من قبيل بيان الملاك- نظير قوله: وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ (البقره ١٨٤) وقوله: إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ (العنكبوت ٤٥) الى غير ذلك- لم يكن إلا مهملا يحتاج التمسك به فى اثبات حكم فرعى الى بيان السنه، والمرجع فى البحث عن ذلك فن الفقه.

قوله تعالى: فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ تَفْرِيعَ عَلَى قَوْلِهِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» فمن عدم شمول الهداية الالهيه لحالهم -و هو الضلال- مسارعتهم فيهم و اعتذارهم في ذلك بما لا يسمع من القول، وقد قال تعالى:

«يُسَارِعُونَ فِيهِمْ» و لم يقل: يسارعون اليهم، فهم منهم و حالون في الضلال محلهم، فهؤلاء يسارعون فيهم لا لخشيته اصابه دائره عليهم فليسوا يخافون ذلك، و انما هي معذره يختلقونها لانفسهم لدفع ما يتوجه اليهم من ناحيه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و المؤمنين من اللوم و التوبيخ بل انما يحملهم على تلك المسارعه توليهم أولئك (اليهود و النصارى).

و لما كان من شأن كل ظلم و باطل أن يزهد يوما و يظهر للملأ فضيحته، و ينقطع رجاء من توسل الى أغراض باطله بوسائل صورتها صورته الحق كما قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» كان من المرجو قطعا أن يأتي الله بفتح أو أمر من عنده فيندموا على فعالهم، و يظهر للمؤمنين كذبهم فيما كانوا يظهرونه.

قوله تعالى: فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ لفظه «عسى» و إن كان في كلامه تعالى للترجي كسائر الكلام- على ما قدمنا أنه للترجي العائد الى السامع أو الى المقام- لكن القرينه قائمه على أنه مما سيقع قطعا فإن الكلام مسوق لتقرير ما ذكره بقوله «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» و تثبت صدقه، فما يشتمل عليه واقع لا محاله.

و الذي ذكره الله تعالى من الفتح- و قد ردد بينه و بين أمر من عنده غير بين المصداق بل التردد بينه و بين أمر مجهول لنا- لعله يؤيد كون اللام في «الفتح» للجنس لا- للعهد حتى يكون المراد به فتح مكة المعهود بوعد وقوعه في مثل قوله تعالى: إِنَّ الَّذِي فَرضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ (الفصص ٨٥/) و قوله: لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ (الفتح ٢٧/) و غير ذلك.

قوله تعالى: وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ و قرء «يُقُولُ» بالنصب عطفًا على قوله: «فَيُضَيِّحُوا» و هى أرجح لكونها أوفق بالسياق فإن ندامتهم على ما أسروه فى أنفسهم و قول المؤمنين «أَهْؤُلَاءِ» الخ؛ جميعًا تقريع لهم بعاقبه توليهم و مسارعتهم فى اليهود و النصارى، و قوله: «هؤُلاءِ» إشارة الى اليهود و النصارى، و قوله: «معكم» خطاب للذين فى قلوبهم مرض و يمكن العكس، و كذا الضمير فى قوله: «حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا»، يمكن رجوعه الى اليهود و النصارى، و الى الذين فى قلوبهم مرض.

لكن الظاهر من السياق أن الخطاب للذين فى قلوبهم مرض، و الإشارة الى اليهود و النصارى، و قوله: «حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ»، كالجواب لسؤال مقدر، و المعنى: و عسى أن يأتى الله بالفتح أو أمر من عنده فيقول الذين آمنوا لهؤلاء الضعفاء الإيمان عند حلول السخط الإلهى بهم: أ هؤُلاءِ اليهود و النصارى هم الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أى أيمانهم التى بالغوا و جهدوا فيها جهدا أنهم لمعكم فلما ذالوا- ينفعونكم؟! ثم كأنه سئل فقليل: فإلى م انتهى أمر هؤُلاءِ الموالين؟ فقليل فى جوابه: حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين (١).

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَزِدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ارْتَدَّ عَنْ دِينِهِ رَجَعُ عَنْهُ، و هو فى اصطلاح أهل الدين الرجوع من الإيمان الى الكفر سواء كان إيمانه مسبقًا بكفر آخر كالكافر يؤمن ثم يرتد أو لم يكن، و هما المسميان بالارتداد الملى و الفطرى (حقيقه شرعيه أو متشرعيه).

ربما يسبق الى الذهن أن المراد بالارتداد فى الآية هو ما اصطلاح عليه أهل الدين، و يكون الآية على هذا غير متصله بما قبلها، و إنما هى آيه مستقلة تحكى عن نحو استغناء من الله سبحانه عن إيمان طائفه من المؤمنين بإيمان آخرين.

ص: ١٢٠

لكن التدبر فى الآيه و ما تقدم عليها من الآيات يدفع هذا الاحتمال فإن الآيه على هذا تذكر المؤمنين بقدره الله سبحانه على أن يعبد فى أرضه، و أنه سوف يأتى بأقوام لا- يرتدون عن دينه بل يلزمون كقوله تعالى: فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (الأنعام/٨٩) أو كقوله تعالى: وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (آل عمران/٩٧) و قوله تعالى: إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (إبراهيم/٨) (١).

قوله تعالى: أَذَلَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَهُ عَلَى الْكَافِرِينَ الْأَذَلُّ وَالْأَعْرَهُ جمعاً الدليل و العزيز، و هما كنيستان عن خفضهم الجناح للمؤمنين تعظيماً لله الذى هو وليهم و هم أولياؤه، و عن ترفعهم من الاعتناء بما عند الكافرين من العزه الكاذبه التى لا يعبأ بأمرها الدين كما أدب بذلك نبيه فى قوله: لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (الحجر/٨٨). و لعل تعديه «أذله» بعلى لتضمينه معنى الحنان أو الحنو كما قيل.

قوله تعالى: يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ أَمَا قَوْلُهُ:

«يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» فقد اختص بالذكر من بين مناقبهم الجمه لكون الحاجه تمس إليه فى المقام لبيان أن الله ينتصر لدينه بهم، و أما قوله: «وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ» فالظاهر أنه حال متعلق بالجمل المتقدمه لا بالجمله الأخيره فقط- و إن كانت هى المتيقنه فى أمثال هذه التركيبات- و ذلك لأن نصره الدين بالجهاد فى سبيل الله كما يزاحمها لومه اللائمين الذين يحذرونهم تضييع الاموال و إتلاف النفوس و تحمل الشدائد و المكاره كذلك التذلل للمؤمنين و التعزز على الكافرين و عندهم من زخارف الدنيا و مبتغيات الشهوه، و أمتعته الحياه ما ليس

ص: ١٢١

عند المؤمنين هما مما يمانعه لومه اللائم، وفي الآيه ملحمه غيبه سنبحت عنها في كلام مختلط من القرآن والحديث ان شاء الله تعالى (١)(٢).

[سوره المائده (٥): الآيات ٥٥ الى ٥٦]

اشاره

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)

بيان:

الآيتان- كما ترى- موضوعتان بين آيات تنهى عن ولاية أهل الكتاب والكفار، ولذلك رام جماعه من مفسرى القوم إشراكهما مع ما قبلهما وما بعدهما من حيث السياق، وجعل الجميع ذات سياق واحد يقصد به بيان وظيفه المؤمنين فى أمر ولاية الأشخاص ولاية النصره، والنهى عن ولاية اليهود والنصارى والكفار، وقصر الولاية فى الله سبحانه ورسوله والمؤمنين الذين يقيمون الصلاه ويؤتون الزكاه وهم راعون، وهؤلاء هم المؤمنون حقا فيخرج بذلك المنافقون والذين فى قلوبهم مرض، وبقى على وجوب الولاية المؤمنون حقا، وتكون الآيه داله على مثل ما يدل عليه مجموع قوله تعالى: وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (آل عمران ٦٨/١)، وقوله تعالى: النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ (الأحزاب ٦/١)،

ص: ١٢٢

١- (١). المائده ٥١-٥٤: بحث روائى حول الآيه «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ...؛ ولاية على عليه السلام.

٢- (٢). المائده ٥١-٥٤: كلام وبحث مختلط من القرآن والحديث حول الخطابات القرآنيه؛ نتائج التمرد على اوامر القرآن؛ سبب تغيير النعم الالهيه؛ اشراط الساعه؛ ملاحم آخر الزمان.

و قوله تعالى فى المؤمنین: أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ (الأنفال ٧٢)، و قوله تعالى:

و الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ الْآيَه (التوبه ٧١)؛ فمحصّل الآيه جعل ولايه النصره لله و لرسوله و المؤمنین على المؤمنین.

نعم يبقى هناك إشكال الجملة الحاليه التى يتعقبها قوله: «و يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ» و هى قوله:

«وَهُمْ رَاكِعُونَ» و يرتفع الإشكال بحمل الركوع على معناه المجازى و هو مطلق الخضوع لله سبحانه أو انحطاط الحال لفقر و نحوه، و يعود معنى الآيه الى أنه ليس أولياؤكم اليهود و النصارى و المنافقين بل أولياؤكم الله و رسوله و المؤمنون الذين يقيمون الصلاه و يؤتون الزكاه، و هم فى جميع هذه الأحوال خاضعون لساحه الربوبيه بالسمع و الطاعه، أو أنهم يؤتون الزكاه و هم فقراء معسرون هذا.

لكن التدبر و استيفاء النظر فى الآيتين و ما يحقهما من آيات ثم فى أمر السوره يعطى خلاف ما ذكره، و أول ما يفسد من كلامهم ما ذكره من أمر وحده سياق الآيات، و ان غرض الآيات التعرض لأمر ولايه النصره، و تمييز الحق منها من غير الحق فإن السوره و إن كان من المسلم نزلها فى آخر عهد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فى حجه الوداع لكن من المسلم أيضا أن جميع آياتها لم تنزل دفعه واحده ففى خلالها آيات لا شبهه فى نزلها قبل ذلك، و مضامينها تشهد بذلك، و ما ورد فيها من أسباب النزول يؤيده فليس مجرد وقوع الآيه بعد الآيه أو قبل الآيه يدل على وحده السياق، و لا أن بعض المناسبه بين آيه و آيه يدل على نزلها معا دفعه واحده أو اتحادهما فى السياق.

على أن الآيات السابقه أعنى قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» الخ؛ تنهى المؤمنین عن ولايه اليهود و النصارى، و تعبير المنافقين و الذين فى قلوبهم مرض بالمسارعه اليهم و رعايه جانبهم من غير أن يرتبط الكلام بمخاطبه اليهود و النصارى و إسماعهم الحديث بوجه بخلاف الآيات التاليه أعنى قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَ لَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ الْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ، الخ؛ فإنها تنهى عن ولايتهم و تتعرض لحالهم بالأمر بمخاطبتهم ثم يعيبرهم بالنفاق و الفسق فالغرض فى القبيلين من الآيات السابقه و اللاحقه مختلف، و معه كيف يتحد السياق؟!

على أنك قد عرفت فى البحث عن الآيات السابقه أعنى قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ» الآيات؛ أن ولايه النصره لا تلائم سياقها، و أن خصوصيات الآيات و العقود المأخوذه فيها و خاصه قوله: «بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» و قوله:

«وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» لا تناسبها فإن عقد ولايه النصره و اشتراطها بين قومين لا يوجب صيروره أحدهما الآخر و لحوقه به، و لا أنه يصح تعليل النهى عن هذا العقد بأن القوم الفلانى بعضهم أولياء بعض بخلاف عقد ولايه الموده التى توجب الامتزاج النفسى و الروحى بين الطرفين، و تبيح لأحدهما التصرف الروحى و الجسمى فى شئون الآخر الحيويه و تقارب الجماعتين فى الأخلاق و الأعمال الذى يذهب بالخصائص القوميه.

على أنه ليس من الجائر أن يعدّ النبى صلّى الله عليه و آله و سلم وليا للمؤمنين بمعنى ولايه النصره بخلاف العكس فإن هذه النصره التى يعتنى بأمرها الله سبحانه، و يذكرها القرآن الكريم فى كثير من آياته هى النصره فى الدين و حينئذ يصح أن يقال: إن الدين لله بمعنى أنه جاعله و شارع شرائعه فيندب النبى صلّى الله عليه و آله و سلم أو المؤمنون أو هما جميعا الى نصرته أو يدعوا أنصارا لله فى ما شرّعه من الدين كقوله تعالى: قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ (الصف ١٤)، و قوله تعالى: إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ (محمد ٧)، و قوله تعالى: وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ -الى أن قال- لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ (آل عمران ٨١)، الى غير ذلك من الآيات الكثيره.

و يصح أن يقال: إن الدين للنبي صلّى الله عليه و آله و سلم بمعنى أنه الداعى اليه و المبلّغ له مثلا؛ أو إن الدين لله و لرسوله بمعنى التشريع و الهدايه فيدعى الناس الى النصره، أو يمدح المؤمنون بالنصره كقوله

تعالى: وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ (الأعراف ١٥٧/)، و قوله تعالى: وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ (الحشر ٨/)، و قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا (الأنفال ٧٢/)، الى غير ذلك من الآيات.

و يصح أن يقال: إن الدين للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ للمؤمنين جميعاً، بمعنى أنهم المكلفون بشرائعه العاملون به فيذكر أن الله سبحانه و ليهم و ناصرهم كقوله تعالى: وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ (الحج ٤٠/)، و قوله تعالى: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (غافر ٥١/)، و قوله تعالى: وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (الروم ٤٧/)، الى غير ذلك من الآيات.

لكن لا يصح أن يفرد الدين بوجه للمؤمنين خاصة، و يجعلوا أصلاً فيه و النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بمعزل عن ذلك، ثم يعدّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ ناصرهم فيما لهم، اذ ما من كرامه دينيه إلا هو مشاركهم فيها أحسن مشاركه، و مساهمهم أفضل سهام؛ و لذلك لا نجد القرآن يعد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ ناصرهم للمؤمنين و لا في آيه واحده، و حاشا ساحه الكلام الإلهي أن يساهل في رعايه أدبه البارِع.

و هذا من أقوى الدليل على أن المراد بما نسب الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ من الولايه في القرآن هو ولايه التصرف أو الحب و الموده كقوله تعالى: النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ (الأحزاب ٦/)، و قوله تعالى: إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الْآيَه؛ فإن الخطاب للمؤمنين، و لا معنى لعد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ ولياً لهم ولايه النصره كما عرفت.

فقد ظهر أن الآيتين أعنى قوله تعالى: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ» الى آخر الآيتين لا تشاركان السياق السابق عليهما لو فرض أنه متعرض لحال ولايه النصره، و لا- يغرنك قوله تعالى في آخر الآيه الثانيه: «فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ»، فإن الغلبه كما تناسب الولايه بمعنى النصره، كذلك تناسب ولايه التصرف و كذا ولايه المحبه و الموده، و الغلبه الدينيه التي هي آخر بغيه أهل الدين تتحصل باتصال المؤمنين بالله و رسوله بأى وسيله تمت و حصلت، و قد

قرع الله سبحانه أسماعهم ذلك بصريح وعده حيث قال كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي (المجادله ٢١)، وقال وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (الصافات ١٧٣).

على أن الروايات متكاثره من طرق الشيعة و أهل السنه على أن الآيتين نازلتان في أمير المؤمنين على عليه السلام لما تصدق بخاتمه و هو في الصلاة، فالآيتان خاصتان غير عامتين، و سيجيء نقل جل ما ورد من الروايات في ذلك في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

و لو صح الإعراض في تفسير آيه بالأسباب المأثوره عن مثل هذه الروايات على تكاثرها و تراكمها لم يصح الركون الى شىء من أسباب النزول المأثوره في شىء من آيات القرآن و هو ظاهر، فلا- و جل لحمل الآيتين على إرادته و لايه المؤمنين بعضهم لبعض يجعلها عامه.

نعم استشكلوا في الروايات- و لم يكن ينبغي أن يستشكل فيها مع ما فيها من الكثره البالغه-أولا: بأنها تنافي سياق الآيات الظاهر في و لايه النصره كما تقدمت الإشاره اليه؛ و ثانيا: أن لازمها إطلاق الجمع و إرادته الواحد فإن المراد بالذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة، الخ؛ على هذا التقدير هو على و لا يساعده اللغه، و ثالثا: أن لازمها كون المراد بالزكاه هو التصديق بالخاتم، و لا يسمى ذلك زكاه.

قالوا: فالمتعين أن تؤخذ الآيه عامه، و تكون مسوقه لمثل قصر القلب أو الأفراد فقد كان المنافقون يسارعون الى و لايه أهل الكتاب و يؤكدونها، فنهى الله عن ذلك و ذكر أن أولياءهم إنما هم الله و رسوله و المؤمنون حقا دون أهل الكتاب و المنافقين.

و لا- يبقى إلا- مخالفه هذا المعنى لظاهر قوله: «وَهُمْ رَاكِعُونَ» و يندفع بحمل الركوع على معناه المجازى، و هو الخضوع لله أو الفقر و رثائه الحال، هذا ما استشكلوه.

لكن التدبر في الآيه و ما يناظرها من الآيات يوجب سقوط الوجوه المذكوره جميعا:

أما وقوع الآيه فى سياق ولايه النصره، و لزوم حملها على إرادته ذلك فقد عرفت أن الآيات غير مسوقه لهذا الغرض أصلا، و لو فرض سرد الآيات السابقه على هذه الآيه لبيان أمر ولايه النصره لم تشاركها الآيه فى هذا الغرض.

و أما حديث لزوم إطلاق الجمع و إرادته الواحد فى قوله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا» الخ؛ فقد عرفت فى الكلام على آيه المباهله فى الجزء الثالث من هذا الكتاب تفصيل الجواب عنه، و أنه فرق بين إطلاق لفظ الجمع و إرادته الواحد و استعماله فيه، و بين إعطاء حكم كلى أو الإخبار بمعرف جمعى فى لفظ الجمع لينطبق على من يصح أن ينطبق عليه، ثم لا يكون المصداق الذى يصح أن ينطبق عليه إلا واحدا فردا و اللغه تأبى عن قبول الأول دون الثانى على شيوعه فى الاستعمالات.

و ليت شعرى ما ذا يقولون فى مثل قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ -الى أن قال- تَبَيَّرُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ الآيه (الممتحنه / ١)، و قد صح أن المراد به خاطب بن أبى بلتعنه فى مكاتبتة قريشا؟ و قوله تعالى: يَقُولُونَ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ (المنافقون ٨/)، و قد صح أن القائل به عبد الله بن أبى بن سلول؟ و قوله تعالى: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ (البقره ٢١٥/) و السائل عنه واحد؟ و قوله تعالى: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً (البقره ٢٧٤/) و قد ورد أن المنفق كان عليا أو أبا بكر؟ الى غير ذلك من الموارد الكثيره.

و أعجب من الجميع قوله تعالى: «يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ» و القائل هو عبد الله بن أبى، على ما رووا فى سبب نزوله و تلقوه بالقبول، و الآيه واقعه بين الآيات المبحوث عنها نفسها.

فإن قيل: إن هذه الموارد لا تخلو عن اناس كانوا يرون رأيهم أو يرضون بفعالهم فعبر الله تعالى عنهم و عمن يلحق بهم بصيغته الجمع. قيل: إن محصله جواز ذلك فى اللغه لنكنه مجوزه

فليجر الآيه أعنى قوله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ» هذا المجرى، و لتكن النكته هي الإشارة الى أن أنواع الكرامات الدينيه-و منها الولايه المذكوره فى الآيه-ليست موقوفه على بعض المؤمنين دون بعض وقفا جزافيا، و إنما يتبع التقدم فى الإخلاص و العمل لا غير.

على أن جل الناقلين لهذه الأخبار هم صحابه النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و التابعون المتصلون بهم زمانا و هم من زمرة العرب العرباء الذين لم تفسد لغتهم و لم تختلط ألسنتهم، و لو كان هذا النحو من الاستعمال لا تبيحه اللغة و لا يعهده أهلها لم تقبله طباعهم، و لكانوا أحق باستشكاله و الاعتراض عليه، و لم يؤثر من أحد منهم ذلك.

و أما قولهم: إن الصدقه بالخاتم لا تسمى زكاه، فيدفعه أن تعين لفظ الزكاه فى معناها المصطلح إنما تحقق فى عرف المشرعه بعد نزول القرآن بوجوبها و تشريعها فى الدين، و أما الذى تعطيه اللغة فهو أعم من الزكاه المصطلحه فى عرف المشرعه و يساوق عند الإطلاق أو عند مقابله الصلاه إنفاق المال لوجه الله كما يظهر مما وقع فيما حكاه الله عن الأنبياء السالفين كقوله تعالى فى إبراهيم و إسحاق و يعقوب: وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ آتَاءَ الزَّكَاةِ (الأنبياء ٧٣)، و قوله تعالى فى إسماعيل: وَ كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ وَ كَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (مريم ٥٥) و قوله تعالى حكايه عن عيسى عليه السلام فى المهد: وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (مريم ٣١) و من المعلوم أن ليس فى شرائعهم الزكاه المالى بالمعنى الذى اصطلح عليه فى الإسلام.

و كذا قوله تعالى: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَرَكَى * وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (الأعلى ١٥) و قوله تعالى: الَّذِى يُؤْتِي مَالَهُ يَتَرَكَى (الليل ١٨) و قوله تعالى: الَّذِى لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (السجده ٧) و قوله تعالى: وَ الَّذِى هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (المؤمنون ٤) و غير ذلك من الآيات الواقعه فى السور المكيه و خاصه السور النازله فى أوائل

البعثه كسوره حم السجده و غيرها، و لم تكن شرعت الزكاه المصطلحه بعد؛ فليت شعري ما ذا كان يفهمه المسلمون من هذه الآيات فى لفظ الزكاه.

بل آيه الزكاه أعنى قوله تعالى: **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صِلَ لَاتَكَ سَاءَ كَنٌّ لَهُمْ** (التوبه ١٠٣) تدل على أن الزكاه من أفراد الصدقه، و إنما سميت زكاه لكون الصدقه مطهره مزكاه مطلقا، و قد غلب استعمالها فى الصدقه المصطلحه.

فتبين من جميع ما ذكرنا أنه لا مانع من تسميه مطلق الصدقه و الإنفاق فى سبيل الله زكاه، و تبين أيضا أن لا موجب لارتكاب خلاف الظاهر بحمل الركوع على معناه المجازى، و كذا ارتكاب التوجيه فى قوله: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا** حيث أتى باسم إن (وليكم) مفردا و بقوله **الَّذِينَ آمَنُوا** و هو خبر بالعطف بصيغه الجمع، هذا.

قوله تعالى: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا** قال الراغب فى المفردات:

الولاء (بفتح الواو) و التوالى أن يحصل شيان فصاعدا حصولا ليس بينهما ما ليس منهما، و يستعار ذلك للقرب من حيث المكان و من حيث النسبه و من حيث الصداقه و النصره و الاعتقاد، و الولايه النصره، و الولايه تولى الأمر، و قيل: الولايه و الولايه (بالفتح و الكسر) واحده نحو الدلاله و الدلاله و حقيقته تولى الأمر، و الولى و المولى يستعملان فى ذلك، كل واحد منهما يقال فى معنى الفاعل أى الموالى (بكسر اللام) و معنى المفعول أى الموالى (بفتح اللام) يقال للمؤمن: هو ولى الله عزّ و جل و لم يرد مولاه، و قد يقال: الله ولى المؤمنين و مولاهم.

قال: و قولهم: تولى اذا عدى بنفسه اقتضى معنى الولايه و حصوله فى أقرب المواضع منه يقال: و لیت سمعى كذا، و وليت عيني كذا، و وليت وجهى كذا أقبلت به عليه قال الله عزّ و جل **فَلَنَوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** و إذا عدى بعن لفظا أو تقديرا اقتضى معنى الإعراض و ترك قربه انتهى.

و الظاهر أن القر الكذائى المعبر عنه بالولاية، أول ما اعتبره الإنسان إنما اعتبره فى الأجسام و أمكنتها و أزمئتها ثم استعير لأقسام القرب المعنوية بالعكس مما ذكره لأن هذا هو المحصل من البحث فى حالات الإنسان الأوليه فالنظر فى أمر المحسوسات و الاشتغال بأمرها أقدم فى عيشه الإنسان من التفكير فى المعقولات و المعانى و أنحاء اعتبارها و التصرف فيها.

و اذا فرضت الولاية-و هى القرب الخاص-فى الامور المعنوية كان لازمها أن للولى ممن وليه ما ليس لغيره إلا بواسطته فكل ما كان من التصرف فى شئون من وليه مما يجوز أن يخلفه فيه غيره فإنما يخلفه الولى لا غيره كولى الميت، فإن التركة التى كان للميت أن يتصرف فيها بالملك فإن لوارثه الولى أن يتصرف فيها بولاية الوراثة، و لى الصغير يتصرف بولايته فى شئون الصغير المالىة بتدبير أمره، و لى النصره له أن يتصرف فى أمر المنصور من حيث تقويته فى الدفاع، و الله سبحانه و لى عباده يدبر أمرهم فى الدنيا و الآخرة لا ولى غيره، و هو ولى المؤمنين فى تدبير أمر دينهم بالهداية و الدعوة و التوفيق و النصره و غير ذلك، و النبى ولى المؤمنين من حيث إن له أن يحكم فيهم و لهم و عليهم بالتشريع و القضاء، و الحاكم ولى الناس بالحكم فيهم على مقدار سعه حكومته، و على هذا القياس سائر موارد الولاية كولاية العتق و الحلف و الجوار و الطلاق و ابن العم، و ولاية الحب و ولاية العهد و هكذا، و قوله: «يُولُونَ الْأَدْبَارَ» أى يجعلون أديبارهم تلى جهه الحرب و تدبر أمرها، و قوله: «تَوَلَّيْتُمْ» أى توليتم عن قبوله أى اتخذتم أنفسكم تلى جهه خلاف جهته بالإعراض عنه أو اتخذتم وجوهكم تلى خلاف جهته بالإعراض عنه؛ فالمحصل من معنى الولاية فى موارد استعمالها هو نحو من القرب يوجب نوعا من حق التصرف و مالكيه التدبير.

و قد اشتمل قوله تعالى: «إِنَّمَا وَتَّيَكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا» إلخ؛ من السياق على ما يدل على وحده ما فى معنى الولاية المذكوره فيه حيث تضمن العد فى قوله: «اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا» و أسند الجميع الى قوله: «وَ تَّيَكُمُ» و ظاهره كون الولاية فى الجميع بمعنى واحد.

و يؤيد ذلك أيضا قوله فى الآيه التالىة: «فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» حيث يشعر أو يدل على كون المتولين جميعا حزبا لله لكونهم تحت ولايته؛ فولايه الرسول و الذين آمنوا إنما هو من سنخ ولايه الله.

و قد ذكر الله سبحانه لنفسه من الولاية، الولاية التكوينية التى تصحح له التصرف فى كل شىء و تدبير أمر الخلق بما شاء و كيف شاء، قال تعالى: أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ (الشورى ٩) و قال مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (السجده ٤) و قال أَنْتَ وَلِيُّى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ (يوسف ١٠١) و قال فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ (الشورى ٤٤) و فى معنى هذه الآيات قوله: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (ق ١٦)، و قوله: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ (الأنفال ٢٤).

و ربما لحق بهذا الباب ولايه النصره التى ذكرها لنفسه فى قوله: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (محمد ١١) و قوله: فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ (التحریم ٤) و فى معنى ذلك قوله: وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (الروم ٤٧).

و ذكر تعالى أيضا لنفسه الولاية على المؤمنين فيما يرجع الى أمر دينهم من تشريع الشريعة و الهدايه و الإرشاد و التوفيق و نحو ذلك كقوله تعالى: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ (البقره ٢٥٧)، و قوله: وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (آل عمران ٦٨)، و قوله: وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (الجاثية ١٩)، و فى هذا المعنى قوله تعالى: وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَفَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (الأحزاب ٣٦).

فهذا ما ذكره الله تعالى من ولايه نفسه فى كلامه، و يرجع محصلها الى ولايه التكوين و ولايه التشريع، و إن شئت سميتها بالولاية الحقيقيه و الولاية الاعتباريه.

و قد ذكر الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه و آله و سلم من الولاية التى تخصه الولاية التشريعيه و هى القيام

بالتشريع و الدعوه و تربيته الامه و الحكم فيهم و القضاء في امرهم، قال تعالى: **الْأُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُنفُسِهِمْ (الأحزاب ٦/)**، و في معناه قوله تعالى: **إِذَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ (النساء ١٠٥/)**، و قوله: **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (الشورى ٥٢/)**، و قوله: **رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ (الجمعه ٢/)**، و قوله: **لِيُتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (النحل ٤٤/)**، و قوله: **أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ (النساء ٥٩/)**، و قوله: **وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ (الأحزاب ٣٦/)**، و قوله: **وَ أَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَ اخْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ (المائدة ٤٩/)**، و قد تقدم أن الله لم يذكر ولايه النصره عليه للامه.

و يجمع الجميع أن له صلى الله عليه و آله و سلم الولاية على الامه فى سوقهم الى الله و الحكم فيهم و القضاء عليهم فى جميع شئونهم فله عليهم الإطاعه المطلقه فترجع ولايته صلى الله عليه و آله و سلم الى ولايه الله سبحانه بالولاية التشريعيه، و معنى بذلك أن له صلى الله عليه و آله و سلم التقدم عليهم بافترض الطاعه لأن طاعته طاعه الله، فولايته ولايه الله كما يدل عليه بعض الآيات السابقه كقوله **أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ الْآيَهُ**؛ و قوله: **وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْرًا الْآيَهُ**؛ و غير ذلك.

و هذا المعنى من الولاية لله و رسوله هو الذى تذكره الآيه للذين آمنوا بعطفه على الله و رسوله فى قوله: **«إِنَّهُمْ وَ لِيُكْفِرُوا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا»** على ما عرفت من دلالة السياق على كون هذه الولاية ولايه واحده هى لله سبحانه بالاصاله و لرسوله و الذين آمنوا بالتبع و بإذن منه تعالى.

و لو كانت الولاية المنسوبة الى الله تعالى فى الآيه غير المنسوبة الى الذين آمنوا-و المقام مقام الالتباس- كان الأنسب أن تفرد ولايه اخرى للمؤمنين بالذكر رفعا للالتباس كما وقع

نظيره في نظيرها، قال تعالى: قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ (التوبه / ٦١)، فكرر لفظ الإيمان لما كان في كل من الموضوعين لمعنى غير الآخر، وقد تقدم نظيره في قوله تعالى: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ (النساء / ٥٩)، في الجزء السابق على هذا الجزء من الكتاب.

على أن لفظ «وَأَيُّكُمْ» أتى به مفردا وقد نسب الى الذين آمنوا و هو جمع، وقد وجهه المفسرون بكون الولاية ذات معنى واحد هو لله سبحانه على الاصاله و لغيره بالتبع.

وقد تبين من جميع ما مر أن القصر في قوله: «إِنَّمَا وَئِيكُمُ اللَّهُ» الخ؛ لقصر الإفراد كأن المخاطبين يظنون أن الولاية عامه للمذكورين في الآية و غيرهم فافرد المذكورون للقصر، و يمكن بوجه أن يحمل على قصر القلب.

قوله تعالى: الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ بيان للذين آمنوا المذكور سابقا، وقوله: «وَ هُمْ رَاكِعُونَ» حال من فاعل «يؤتون» و هو العامل فيه.

و الركوع هو الهيئة المخصوصه في الانسان، و منه الشيخ الراكع، و يطلق في عرف الشرع على الهيئة المخصوصه في العباده، قال تعالى: الرَّاٰكِعُونَ السَّاجِدُونَ (التوبه / ١١٢)، و هو ممثل للخضوع و التذلل لله، غير أنه لم يشرع في الإسلام في غير حال الصلاه بخلاف السجده.

و لكونه مشتملا على الخضوع و التذلل ربما استعير لمطلق التذلل و الخضوع أو الفقر و الإعسار الذي لا يخلو عادة عن التذلل للغير.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ، التولي هو الأخذ وليا، و «الَّذِينَ آمَنُوا» مفيد للعهد و المراد به المذكور في الآية السابقه (وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ) الخ؛ وقوله: «فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» واقع موقع الجزاء و ليس به بل هو من قبيل وضع الكبرى موضع النتيجة للدلاله على عله الحكم، و التقدير:

و من يتول فهو غالب لأنه من حزب الله و حزب الله هم الغالبون، فهو من قبيل الكنايه عن أنهم حزب الله.

و الحزب على ما ذكره الراغب جماعه فيها غلظ، و قد ذكر الله سبحانه حزبه في موضع آخر من كلامه قريب المضمون من هذا الموضع، و سميهم بالفلاح فقال لا- تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولِيَّكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَ أَيْدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ -الى أن قال- أُولِيَّكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا- إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (المجادله ٢٢).

و الفلاح الظفر و إدراك البغيه التي هي الغلبه و الاستيلاء على المراد، و هذه الغلبه و الفلاح هي التي وعدها الله المؤمنين في أحسن ما وعدهم به و بشرهم بنيله، قال تعالى: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (المؤمنون ١)، و الآيات في ذلك كثيره، و قد اطلق اللفظ في جميعها، فالمراد الغلبه المطلقه و الفلاح المطلق أي الظفر بالسعاده و الفوز بالحق و الغلبه على الشقاء، و إدحاض الباطل في الدنيا و الآخره، أما في الدنيا فبالحياء الطيبه التي توجد في مجتمع صالح من أولياء الله في أرض مطهره من أولياء الشيطان على تقوى و ورع، و أما في الآخره ففي جوار رب العالمين.

بحث روائي:

في الكافي عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عمر بن اذينه، عن زراره؛ و الفضيل بن يسار، و بكر بن أعين، و محمد بن مسلم، و بريد بن معاويه، و أبي الجارود، جميعا عن أبي جعفر عليه السلام قال: أمر الله عزّ و جل رسوله بولايه علي و أنزل عليه «إِنَّمَا وَثِيْقُكُمْ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ» و فرض من ولايه اولى الأمر فلم يدروا ما هي؟ فأمر الله محمدا صلى الله عليه و آله و سلم أن يفسر لهم الولايه كما فسر الصلاه

فلما أتاه ذلك من الله ضاق بذلك صدر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و تخوف أن يرتدوا عن دينهم و أن يكذبوه، فضاق صدره و راجع ربه عزَّ و جل فأوحى الله عزَّ و جل إليه يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ،فصدع بأمر الله عز ذكره، فقام بولاية علي عليه السلام يوم غدير خم فنادى: الصلاة جامعة، و أمر الناس أن يبلغ الشاهد الغائب.

قال عمر بن اذينة: قالوا جميعا غير أبي الجارود: قال أبو جعفر عليه السلام: و كانت الفريضة الاخرى، و كانت الولاية آخر الفرائض فأنزل الله عزَّ و جل الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ،قال أبو جعفر عليه السلام: يقول الله عزَّ و جل: لا- انزل عليكم بعد هذه فريضة قد أكملت لكم الفرائض.

و في البرهان و غايه المرام عن الصدوق بإسناده عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزَّ و جل «إِنَّمَا وَدَّعْتُمُ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا» ،قال: إن رهطا من اليهود أسلموا منهم عبد الله بن سلام و أسد و ثعلبه و ابن يامين و ابن صوريا فأتوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقالوا: يا نبي الله إن موسى أوصى الى يوشع بن نون، فمن وصيك يا رسول الله؟ و من ولينا بعدك؟ فنزلت هذه الآية «إِنَّمَا وَدَّعْتُمُ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ» .

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: قوموا فقاموا و أتوا المسجد فإذا سائل خارج فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: يا سائل هل أعطاك أحد شيئا؟ قال: نعم هذا الخاتم قال: من أعطاكه؟ قال: أعطانيه ذلك الرجل الذي يصلي؛ قال علي أي حال أعطاك؟ قال: كان راعيا فكبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و كبر أهل المسجد.

فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: علي وليكم بعدى قالوا: رضينا بالله ربا، و بمحمد نبيا، و بعلي ابن أبي

طالب وليا فأنزل الله عزّ وجل «وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» الحديث.

و فى تفسير القمى قال: حدثنى أبى، عن صفوان، عن أبان بن عثمان، عن أبى حمزه الثمالى، عن أبى جعفر عليه السلام: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالس و عنده قوم من اليهود فيهم عبد الله بن سلام إذ نزلت عليه هذه الآية فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى المسجد فاستقبله سائل فقال صلى الله عليه وآله وسلم: هل أعطاك أحد شيئا؟ قال: نعم ذلك المصلى، فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا هو على عليه السلام.

أقول: و رواه العياشى فى تفسيره عنه عليه السلام.

و فى أمالى الشيخ قال: حدثنا محمد بن محمد -يعنى المفيد- قال: حدثنى أبو الحسن على بن محمد الكاتب، قال: حدثنى الحسن بن على الزعفرانى، قال: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الثقفى، قال: حدثنا محمد بن على، قال: حدثنا العباس ابن عبد الله العنبرى، عن عبد الرحمن بن الأسود الكندى الشكرى، عن عون بن عبيد الله، عن أبيه عن جده أبى رافع قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوما و هو نائم و حيه فى جانب البيت فكرهت أن أقتلها و اوقظ النبى صلى الله عليه وآله وسلم فظننت أنه يوحى اليه فاضطجعت بينه و بين الحيه فقلت: إن كان منها سوء كان إلى دونه.

فكنت هنيهة فاستيقظ النبى صلى الله عليه وآله وسلم و هو يقرأ «إِنَّمَا وَدَّعْتُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا» -حتى أتى على آخر الآية- ثم قال: الحمد لله الذى أتم لعلى نعمته، و هنيهة له بفضل الله الذى آتاه، ثم قال لى: ما لك ها هنا؟ فأخبرته بخبر الحيه فقال لى: اقتلها ففعلت ثم قال لى: يا (أبا، ظ) رافع كيف أنت و قوم يقاتلون عليا و هو على الحق و هم على الباطل؟ جهادهم حقا لله عز اسمه فمن لم يستطع بقلبه، ليس وراءه شىء فقلت: يا رسول الله ادع الله لى إن أدركتهم أن يقوينى على قتالهم قال: فدعا النبى صلى الله عليه وآله وسلم و قال: إن لكل نبى أمينا، و إن أمينى أبو رافع.

قال: فلما بايع الناس عليا بعد عثمان، و سار طلحه و الزبير ذكرت قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم فبعت

دارى بالمدينه و أرضا لى بخبير و خرجت بنفسى و ولدى مع أمير المؤمنين عليه السلام لأستشهد بين يديه فلم أدرك معه حتى عاد من البصره، و خرجت معه الى صفين فقلت (فقاتلت، ظ) بين يديه بها و بالنهروان أيضا، و لم أزل معه حتى استشهد على عليه السلام، فرجعت الى المدينه و ليس لى بها دار و لا- أرض فأعطانى الحسن بن على عليه السلام أرضا بينبع، و قسم لى شطر دار أمير المؤمنين عليه السلام فنزلتها و عيالى.

و فى تفسير العياشى بإسناده عن الحسن بن زيد، عن أبيه زيد بن الحسن، عن جده قال:

سمعت عمار بن ياسر يقول: وقف لعلى بن أبى طالب سائل و هو راعى فى صلاه تطوع فنزع خاتمه فأعطاه السائل فأتى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فأعلم بذلك فنزل على النبى صلى الله عليه و آله و سلم هذه الآيه «إِنَّمَا وَتِيكُمُ اللَّهُ وَ رَسُوهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ» الى آخر الآيه؛ فقرأها رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم علينا ثم قال: من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه، و عاد من عاداه.

و فى تفسير العياشى، عن المفضل بن صالح، عن بعض أصحابه، عن أحدهما عليهما السلام قال:

قال: إنه لما نزلت هذه الآيه «إِنَّمَا وَتِيكُمُ اللَّهُ وَ رَسُوهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا» شق ذلك على النبى صلى الله عليه و آله و سلم و خشى أن تكذبه قريش فأنزل الله يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْآيَةَ؛ فقام بذلك يوم غدير خم.

و فيه عن أبى جميله عن بعض أصحابه عن أحدهما عليهما السلام قال: إن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال: إن الله أوحى إلى أن أحب أربعة: عليا و أبا ذر و سلمان و المقداد، فقلت: ألا- فما كان من كثره الناس أ ما كان أحد يعرف هذا الأمر؟ فقال: بلى ثلاثة قلت: هذه الآيات التى أنزلت «إِنَّمَا وَتِيكُمُ اللَّهُ وَ رَسُوهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا» و قوله: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ» ما كان أحد يسأل فيمن نزلت؟ فقال: من ثم أتاهم لم يكونوا يسألون.

و فى غايه المرام عن الصدوق بإسناده عن أبى سعيد الوراق عن أبيه عن جعفر بن محمد

عن أبيه عن جده في حديث مناشده على عليه السّلام لأبى بكر حين ولى أبو بكر الخلافة، و ذكر عليه السّلام فضائله لأبى بكر و النصوص عليه من رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم فكان فيما قال له:فانشدك بالله ألى الولاية من الله مع و لايه رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم فى آيه زكاه الخاتم أم لك؟قال:بل لك.

و فى مجالس الشيخ بإسناده الى أبى ذر فى حديث مناشده أمير المؤمنين عليه السّلام عثمان و الزبير و عبد الرحمن بن عوف و سعد بن أبى وقاص يوم الشورى و احتجاجه عليهم بما فيه من النصوص من رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم،و الكل منهم يصدقه عليه السّلام فيما يقوله فكان مما ذكره عليه السّلام:فهل فيكم أحد أتى الزكاه و هو راع فنزلت فيه «إِنَّمَا وَثِقُكُمْ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ» غيرى؟قالوا:لا.

و فى الاحتجاج فى رساله أبى الحسن الثالث على بن محمد الهادى عليه السّلام الى أهل الأهواز حين سأله عن الجبر و التفويض:

قال عليه السّلام:اجتمعت الامة قاطبه لا- اختلاف بينهم فى ذلك:أن القرآن حق لا- ريب فيه عند جميع فرقها فهم فى حاله الاجتماع عليه مصيبون،و على تصديق ما أنزل الله مهتدون لقول النبى صلّى الله عليه و آله و سلم«لا- تجتمع امتى على ضلاله»،فأخبر عليه السّلام:أن ما اجتمعت عليه الامة و لم يخالف بعضها بعضا هو الحق،فهذا معنى الحديث لا- ما تأوله الجاهلون،و لا- ما قاله المعاندون من إبطال حكم الكتاب،و اتباع أحكام الأحاديث المزورة،و الروايات المزخرفة،و اتباع الأهواء المردئه المهلكه التى تخالف نص الكتاب،و تحقيق الآيات الواضحات النيرات،و نحن نسأل الله أن يوفقنا للصلاه،و يهدينا الى الرشاد.

ثم قال عليه السّلام:فإذا شهد الكتاب بصدق خبر و تحقيقه فأنكرته طائفه من الامة عارضته بحديث من هذه الأحاديث المزوره،فصارت بإنكارها و دفعها الكتاب ضلالا،و أصح خبر مما عرف تحقيقه من الكتاب مثل الخبر المجمع عليه من رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم قال«إنى مستخلف فيكم خليفتين كتاب الله و عترتى.ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى و إنهما لن يفترقا حتى يردا

على الحوض» و اللفظه الاخرى عنه فى هذا المعنى بعينه قوله صلى الله عليه و آله و سلم «إنى تارك فىكم الثقلين:

كتاب الله و عترتى أهل بيتى، و إنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا».

وجدنا شواهد هذا الحديث نصا فى كتاب الله مثل قوله: «إِنَّمَا وَتِيكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ». ثم اتفقت روايات العلماء فى ذلك لأمير المؤمنين عليه السلام: أنه تصدق بخاتمه و هو راع فشكر الله ذلك له، و أنزل الآية فيه. ثم وجدنا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قد أبانه من أصحابه بهذه اللفظه «من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه و عاد من عاداه» و قوله صلى الله عليه و آله و سلم «على يقضى دينى، و ينجز موعدى، و هو خليفتى عليكم بعدى» و قوله صلى الله عليه و آله و سلم حين استخلفه على المدينة فقال: يا رسول الله: أ تخلفنى على النساء و الصبيان؟ فقال صلى الله عليه و آله و سلم: أ ما ترضى أن تكون منى بمنزله هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى؟

فعلمنا أن الكتاب شهد بتصديق هذه الأخبار، و تحقيق هذه الشواهد فيلزم الامه الإقرار بها اذا كانت هذه الأخبار وافقت القرآن فلما وجدنا ذلك موافقا لكتاب الله، و وجدنا كتاب الله موافقا لهذه الأخبار، و عليها دليلا كان الاقتداء فرضا لا يتعداه إلا أهل العناد و الفساد.

و فى الاحتجاج فى حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: قال المنافقون لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: هل بقى لربك علينا بعد الذى فرض علينا شىء آخر يفترضه فتذكر فتسكن أنفسنا الى أنه لم يبق غيره؟ فأنزل الله فى ذلك قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدِهِ يعنى الولايه فانزل الله «إِنَّمَا وَتِيكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ»، و ليس بين الامه خلاف أنه لم يؤت الزكاه يومئذ و هو راع غير رجل واحد، الحديث.

و فى الاختصاص للمفيد عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن القاسم بن محمد الجوهري، عن

الحسن بن أبى العلاء قال: قلت لأبى عبد الله عليه السلام: الأوصياء طاعتهم مفترضة؟ فقال: نعم، هم الذين قال الله «أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ» وَ هم الذين قال الله «إِنَّمَا وَدَّيْتُكُمْ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ» .

اقول: و رواه فى الكافى عن الحسين بن أبى العلاء عنه عليه السلام، و روى ما فى معناه عن أحمد بن عيسى عنه عليه السلام.

و إسناد نزول ما نزل فى على عليه السلام الى جميع الأئمة عليهم السلام لكونهم أهل بيت واحد، و أمرهم واحد.

و عن تفسير الثعلبى أخبرنا أبو الحسن محمد بن القاسم الفقيه قال: حدثنا عبد الله ابن أحمد الشعرانى قال: أخبرنا أبو على أحمد بن على بن رزىن قال: حدثنا المظفر بن الحسن الأنصارى قال: حدثنا السرى بن على الوراق قال: حدثنا يحيى بن عبد الحميد الجمانى عن قيس بن الربيع عن الأعمش، عن عبايه بن الربعى قال: حدثنا عبد الله بن عباس رضى الله عنه و هو جالس بشفير زمزم يقول: قال رسول الله: اذ أقبل رجل معتم بعمامه فجعل ابن عباس لا يقول «قال رسول الله» إلا و قال الرجل: قال رسول الله.

فقال له ابن عباس: سألتك بالله من أنت؟ قال: فكشف العمامه عن وجهه و قال: يا أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى و من لم يعرفنى فأنا جندب بن جناده البدرى أبو ذر الغفارى سمعت رسول الله بهاتين و إلا فصمتا، و رأيت بهاتين و إلا فعميتا يقول: على قائد البرره و قاتل الكفره، منصور من نصره، مخذول من خذله.

أما إنى صليت مع رسول الله يوما من الأيام صلاه الظهر فسأل سائل فى المسجد فلم يعطه أحد فرفع السائل يده الى السماء و قال: اللهم اشهد أنى سألت فى مسجد رسول الله فلم يعطنى أحد شيئا، و كان على راكعا فأوماً اليه بخنصره اليمنى، و كان يتختم فيها فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره، و ذلك بعين النبى صلى الله عليه و آله و سلم فلما فرغ من صلاته رفع رأسه الى السماء

وقال: اللهم موسى سألك فقال: رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقده من لساني يفقهوا قولي، واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي، اشدد به أزري، وأشركه في أمري. فأُنزلت عليه قرآنا ناطقا: سنشد عضدك بأخيك، ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا.

اللهم و أنا محمد نبيك و صفيك، اللهم و اشرح لي صدري و يسر لي أمري، واجعل لي وزيرا من أهلي عليا اشدد به ظهري.

قال أبو ذر: فما استتم رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم الكلمه حتى نزل عليه جبرئيل من عند الله تعالى فقال: يا محمد اقرأ قال: وما أقرأ قال: اقرأ: إنما وليكم الله و رسوله و الذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاه و هم راعون.

و عن الجمع بين الصحاح الستة لزرين من الجزء الثالث في تفسير سورة المائده قوله تعالى:

«إِنَّمَا وَتِيكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ» الآية؛ من صحيح النسائي عن ابن سلام: قال أتيت رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم فقلنا: إن قومنا حادونا لما صدقنا الله و رسوله، و أفسموا أن لا يكلمونا فأنزل الله تعالى «إِنَّمَا وَتِيكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاعُونَ» الآية.

ثم أذن بلال لصلاه الظهر فقام الناس يصلون فمن بين ساجد و راع و سائل اذ سائل يسأل، و أعطى على خاتمه و هو راع فاخبر السائل رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم فقرأ علينا رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم «إِنَّمَا وَتِيكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاعُونَ* وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهُ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» .

و عن مناقب ابن المغازلي الشافعي في تفسير قوله تعالى: «إِنَّمَا وَتِيكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ» الآية؛ قال: أخبرنا محمد بن أحمد بن عثمان قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن ابراهيم بن شاذان البزاز إذنا قال: حدثنا الحسن بن علي العدوي قال: حدثنا سلمه ابن شبيب قال: حدثنا عبد الرزاق

قال: أخبرنا مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ» قال: نزلت في علي.

و عنه قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن طاوان قال: أخبرنا أبو أحمد عمر بن عبد الله بن شوذب قال: حدثنا محمد بن أحمد العسكري الدقاق قال: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة قال: حدثنا عباده قال: حدثنا عمر بن ثابت عن محمد بن السائب عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: كان علي راکعاً فجاءه مسكين فأعطاه خاتمه فقال رسول الله: من أعطاك هذا؟ فقال: أعطاني هذا الراكع فأنزل الله هذه الآية «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا» الى آخر الآية.

و عنه قال: حدثنا أحمد بن محمد بن طاوان إذنا: أن أبا أحمد عمر بن عبد الله بن شوذب أخبرهم قال: حدثنا محمد بن جعفر بن محمد العسكري قال: حدثنا محمد بن عثمان قال:

حدثنا إبراهيم بن محمد بن ميمون قال: حدثنا علي بن عابس قال: دخلت أنا و أبو مريم علي عبد الله بن عطاء، قال أبو مريم: حدث علياً بالحديث الذي حدثتني عن أبي جعفر، قال: كنت عند أبي جعفر جالسا إذ مر عليه ابن عبد الله بن سلام قلت: جعلني الله فداك، هذا ابن الذي عنده علم الكتاب؟ قال: لا و لكنه صاحبكم علي بن أبي طالب الذي أنزلت فيه آيات من كتاب الله عز و جل «وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ، أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ، إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا» الآية.

و عن الخطيب الخوارزمي في جواب مكاتبه معاوية الى عمرو بن العاص قال عمرو بن العاص: لقد علمت يا معاوية ما أنزل في كتابه من الآيات المتلوات في فضائله التي لا- يشركه فيها أحد كقوله تعالى: «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ، إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ، أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ»، و قد قال الله تعالى: رَجُلًا صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ و قد قال الله تعالى لرسوله قُلْ لَا

أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى .

و عنه بإسناده الى أبي صالح عن ابن عباس قال: أقبل عبد الله بن سلام و معه نفر من قومه ممن قد آمن بالنبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم فقالوا: يا رسول الله إن منازلنا بعيدة، و ليس لنا مجلس و لا متحدث دون هذا المجلس، و إن قومنا لما رأونا قد آمننا بالله و رسوله و قد صدقناه رفضونا، و آلوا على أنفسهم أن لا يجالسونا و لا يناكحونا و لا يكلمونا، و قد شق ذلك علينا فقال لهم النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم «إِنَّمَا وَئِيكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ» .

ثم إن النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم خرج الى المسجد و الناس بين قائم و راکع، و بصر بسائل، فقال له النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم: هل أعطاك أحد شيئاً؟ قال: نعم خاتم من ذهب، فقال له النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم: من أعطاكه؟ فقال: ذلك القائم - و أوماً بيده الى على بن أبى طالب - فقال النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم: على أى حال أعطاك؟ قال: أعطانى و هو راکع، فكبر النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم ثم قرأ «وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْعَالِيُونَ» فأنشأ حسان بن ثابت يقول:

أبا حسن تفديك نفسى و مهجتى

و كل بطيء فى الهدى و مسارع

أ يذهب مدحى و المحبين ضائعا

و ما المدح فى ذات الإله بضائع؟

فأنت الذى أعطيت اذ كنت راکعا

فدتك نفوس القوم يا خير راکع

يخاتمك الميمون يا خير سيد

و يا خير شار ثم يا خير بائع

فأنزل فيك الله خير ولايه

و بينها فى محكمات الشرائع

و عن الحموينى بإسناده الى أبى هديه إبراهيم بن هديه قال: نبأنا أنس بن مالك: أن سائلا أتى المسجد و هو يقول: من يقرض الملى الوفى؟ و على راکع يقول بيده خلفه للسائل: أن اخلع الخاتم من يدي، قال: فقال النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم: يا عمر وجبت، قال: بأبى و امى يا رسول الله ما وجبت؟ قال صَلَّى الله عليه و آله و سلم: وجبت له الجنة، و الله ما خلعه من يده حتى خلعه من كل ذنب و من كل خطيئه.

و عنه بإسناده عن زيد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده قال: سمعت عمار بن ياسر -رضي الله عنه- يقول: وقف لعلي بن أبي طالب سائل وهو راکع في صلاة التطوع فنزع خاتمه و أعطاه السائل، فأتى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فأعلمه ذلك، فنزلت على النبي صلى الله عليه و آله و سلم هذه الآية «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ» فقرأها رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، ثم قال صلى الله عليه و آله و سلم: من كنت مولاه فعلى مولاه.

و عن الحافظ أبي نعيم عن أبي الزبير عن جابر -رضي الله عنه- قال: جاء عبد الله بن سلام و أتى معه قوم يشكون مجانبه الناس إياهم منذ أسلموا فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: ابغوا إلى سائلا فدخلنا المسجد فدنا سائل اليه فقال له: أعطاك أحد شيئا؟ قال: نعم مررت برجل راکع فأعطاني خاتمه، قال: فاذهب فأرني قال: فذهبنا فإذا على قائم، فقال: هذا؛ فنزلت «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» .

و عنه عن موسى بن قيس الحضرمي عن سلمه بن كهيل قال: تصدق على بخاتمه و هو راکع فنزلت! «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» الآية.

و عنه عن عوف بن عبيد بن أبي رافع عن أبيه عن جده قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و هو نائم اذ يوحى اليه و اذا حيه في جنب البيت فكرهت أن أدخلها و اوقظه فاضطجعت بينه و بين الحيه فإن كان شيء كان في دونه، فاستيقظ و هو يتلو هذه الآية «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» قال: الحمد لله فأتى الى جانبي فقال: ما اضطجعت هاهنا؟ قلت: لمكان هذه الحيه قال: قم إليها فاقتلها فقتلتها.

ثم أخذ بيدي فقال: يا أبا رافع سيكون بعدى قوم يقاتلون عليا حق على الله جهادهم، فمن لم يستطع جهادهم بيده فبلسانه، فمن لم يستطع بلسانه فبقبله ليس وراء ذلك.

أقول: و الروايات في نزول الآيتين في قصة التصديق بالخاتم كثيره أخرجنا عدة منها من كتاب غايه المرام للبحراني، و هي موجوده في الكتب المنقول عنها، و قد اقتصرنا على ما نقل

عليه من اختلاف اللحن في سرد القصة.

وقد اشترك في نقلها عدة من الصحابة كأبي ذر و ابن عباس و انس بن مالك و عمار و جابر و سلمه بن كهيل و أبي رافع و عمرو بن العاص، و علي و الحسين و كذا السجاد و الباقر و الصادق و الهادي و غيرهم من أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وقد اتفق على نقلها من غير رد أئمة التفسير المأثور كأحمد و النسائي و الطبري و الطبراني و عبد بن حميد و غيرهم من الحفاظ و أئمة الحديث و قد تسلم ورود الرواية المتكلمون، و أوردها الفقهاء في مسأله الفعل الكثير من بحث الصلاة، و في مسأله «هل تسمى صدقه التطوع زكاه» و لم يناقش في صحه انطباق الآيه على الروايه فحول الأدب من المفسرين كالزمخشري في الكشاف و أبي حيان في تفسيره، و لا الرواه النقله و هم أهل اللسان.

فلا- يعبا بما ذكره بعضهم: أن حديث نزول الآيه في قصه الخاتم موضوع مختلق، و قد أفرط بعضهم كشيخ الإسلام ابن تيميه فادعى إجماع العلماء على كون الروايه موضوع؟ و هي من عجيب دعاوى، و قد عرفت ما هو الحق في المقام في البيان المتقدم.

[سوره المائده (٥): الآيات ٥٧ الى ٦٦]

إشارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَ لَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ الْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُتُبَكُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَ إِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوعًا وَ لَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَ مَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنَازِيرَ وَ عَبِيدَ الطَّاغُوتِ أَوْلِيَةً شَرٌّ مَكَانًا وَ أَضَلُّ عَنِ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَ إِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَ الْعَيْدِ وَ انِ وَ أَكَلِهِمُ الشُّحْتَ لِبَسِّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْ لَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّائِيُّونَ وَ الْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ أَكَلِهِمُ الشُّحْتَ لِبَسِّ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣) وَ قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَ كُفْرًا وَ أَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَ الْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَ يَسْرِعُونَ فِي الْمَارِضِ فَسَادًا وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦)

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ الْهَزْؤَ مِزْحَ فِي خَفِيهِ، وَقَدْ يُقَالُ لِمَا هُوَ كَالْمِزْحِ (انتهى)، وقال: و لعب فلان اذا كان فعله غير قاصد به مقصدا صحيحا، يلعب لعبا، (انتهى)، و إنما يتخذ الشيء هزؤا و يستهزئ به اذا اتخذ على وصف لا يعتنى بأمره اعتنا جد لإظهار أنه مما لا ينبغي أن يلتفت اليه، و كذا الشيء يلعب به اذا كان مما لا يتخذ لواحد من الأغراض الصحيحة العقلانية إلا أن يتخذ لبعض الشئون غير الحقيقه فالهزء بالدين و اللعب به إنما هما لإظهار انه لا يعدل إلا- بعض الأغراض الباطله غير الصحيحه و غير الجديه، و لو قدروه دينا حقا أو قدروا أن مشرعه و الداعى اليه و المؤمنين به ذووا أقدام جد و صدق، و احترمو له و لهم مكانهم لما وضعوه ذاك الموضوع فاتخاذهم الذين هزؤا و لعبا قضاء منهم بأن ليس له من الواقعيه و المكانه الحقيقيه شيء إلا أن يؤخذ به ليمزح به أو ليلعب به لعبا.

و من هنا يظهر أولا: أن ذكر اتخاذهم الدين هزؤا و لعبا فى وصف من نهى عن ولايتهم إنما هو للإشاره الى عله النهى فإن الولايه التى من لوازمها الامتزاج الروحى و التصرف فى الشئون النفسيه و الاجتماعيه لا يلائم استهزاء الولي و لعبه بما يقدهس و ليه و يحترمه و يراه أعز من كل شيء حتى من نفسه فمن الواجب أن لا يتخذ من هذا شأنه وليا، و لا يلقى أزمه التصرف فى الروح و الجسم اليه.

و ثانيا: ما فى اتخاذ وصف الإيمان فى الخطاب فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من المناسبه لمقابلته بقوله «الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَ لَعِبًا» و كذلك ما فى إضافه الدين اليهم فى قوله: «دِينَكُمْ» .

و ثالثا: أن قوله: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ» بمنزله التأكيد لقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا

دِينَكُمْ هُزُؤًا وَ لَعِبًا» الخ؛ بتكراره بلفظ أعم و أشمل فإن المؤمن و هو الآخذ بعروه الإيمان لا معنى لأن يرضى بالهزاء و اللعب بما آمن به فهؤلاء إن كانوا متلبسين بالإيمان-أى كان الدين لهم ديناً-لم يكن لهم بد من تقوى الله فى أمرهم أى عدم اتخاذهم أولياء.

و من المحتمل أن يكون قوله: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ» إشاره الى ما ذكره تعالى من نحو قوله قبيل آيات: «وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» و المعنى: و اتقوا الله فى اتخاذهم أولياء إن لم تكونوا منهم، و المعنى الأول لعله أظهر.

قوله تعالى: «وَ إِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَ لَعِبًا الخ؛ تحقيق لما ذكر أنهم يتخذون دين الذين آمنوا هزوا و لعباً، و المراد بالنداء الى الصلاة الأذان المشروع فى الإسلام قبل الصلوات المفروضة اليوميه، و لم يذكر الأذان فى القرآن الكريم إلا فى هذا الموضع - كما قيل -.

و الضمير فى قوله: «اتَّخَذُوهَا» راجع الى الصلاة أو الى المصدر المفهوم من قوله: «إِذَا نَادَيْتُمْ» أعنى المناداه، و يجوز فى الضمير العائد الى المصدر التذكير و التأنيث، و قوله: «ذَلِكَ بِأَنَّهَمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ» تذييل يجرى مجرى الجواب عن فعلهم و بيان أن صدور هذا الفعل أعنى اتخاذ الصلاة أو الأذان هزوا و لعباً منهم إنما هو لكونهم قوما لا يعقلون فلا يسعهم أن يتحققوا ما فى هذه الأركان و الأعمال العباديه الدينيه من حقيقه العبوديه و فوائد القرب من الله، و جماع سعادته الحياه فى الدنيا و العقبى.

قوله تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قال الراغب فى مفردات القرآن: نَقَمْتُ الشَّيْءَ (بالكسر) و نَقَمْتَهُ (بالفتح) اذا أنكرته إما باللسان و إما بالعقوبه، قال تعالى: «وَ مَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ، وَ مَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ، هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا» الآية؛ و النقمه: العقوبه قال تعالى: «فَاتَّقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَفْتَاهُمْ فِي الْيَمِّ»، انتهى.

فمعنى قوله: «هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا» الخ؛ هل تنكرون أو تكرهون منا إلا هذا الذى تشاهدونه و هو أنا آمننا بالله و ما أنزله و أنكم فاسقون؟ نظير قول القائل: هل تكره منى إلا- أنى عفيف و أنك فاجر، و هل تنكر منى إلا أنى غنى و أنك فقير؟ الى غير ذلك من موارد المقابلة و الازدواج فالمعنى: هل تنكرون منا إلا أنا مؤمنون و أن أكثركم فاسقون.

و ربما قيل: إن قوله: «وَ أَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ» بتقديم لام التعليل و المعنى: هل تنقمون منا إلا لأن أكثركم فاسقون؟

و قوله: أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ فى معنى ما انزل الينا و اليكم، و لم ينسبه اليهم تعريضا بهم كأنهم اذا لم يفوا بما عاهدوا الله عليه و لم يعملوا بما تأمرهم به كتبهم فكتبهم لم تنزل اليهم و ليسوا بأهلها.

و محصل المعنى: أنا لا نفرق بين كتاب و كتاب مما أنزله الله على رسله فلا نفرق بين رسله، و فيه تعريض لهم أنهم يفرقون بين رسل الله و يقولون: نؤمن ببعض و نكفر ببعض كما كانوا يقولون: آمنوا بما أنزل على المؤمنين وجه النهار و اكفروا آخره، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُتَّخَذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا* أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (النساء ١٥١/).

قوله تعالى: قُلْ هَلْ أُبْتِكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ الى آخر الآيه؛ ذكروا أن هذا أمر منه تعالى لنبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن يخاطب اولئك المستهزئين اللاعبين بالدين على طريق التسليم أخذا بالنصفه فى التكليم ليلزمهم أنهم إن نقموا من المؤمنين إيمانهم بالله و ما أنزله على رسله فعليهم أن ينقموا أنفسهم لأنهم شر مكانا و أضل عن سواء السبيل لابتلائهم باللعن الإلهى و المسخ بالقردة و الخنازير و عباده الطاغوت فإذا لم ينقموا أنفسهم على ما فيهم من أسباب النقمه فليس لهم أن ينقموا من لم يبتل إلا بما هو دونه فى الشر، و هم

المؤمنون في إيمانهم على تقدير تسليم أن يكون إيمانهم بالله و كتبه شرا، و لن يكون شرا.

فالمراد بالمتوبه مطلق الجزاء، و لعلها استعيرت للعاقبه و الصفه اللازمه كما يستفاد من تقييد قوله: «بِشَرِّ مَنْ ذَلِكْ مَثُوبَهُ» بقوله «عِنْدَ اللَّهِ» فإن الذى عند الله هو أمر ثابت غير متغير و قد حكم به الله و أمر به، قال تعالى: «وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ بِأَقْبَلُ» (النحل ٩٦/١)، و قال تعالى: «لَا مُعْتَبَ لِحُكْمِهِ» (الرعد ٤١/١)، فهذه المتوبه مثوبه لازمه لكونه عند الله سبحانه.

و فى الكلام شبه قلب، فإن مقتضى استواء الكلام أن يقال: إن اللعن و المسخ و عباده الطاغوت شر من الإيمان بالله و كتبه و أشد ضلالا، دون ان يقال: إن من لعنه الله و جعل منهم القرده و الخنازير و عبد الطاغوت شر مكانا و أضل إلا بوضع الموصوف مكان الوصف، و هو شائع فى القرآن الكريم كقوله تعالى: «وَ لَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ» الآية.

و بالجملة فمحصل المعنى أن إيماننا بالله و ما أنزله على رسله إن كان شرا عندكم فأنا اخبركم بشر من ذلك يجب عليكم أن تنقموه و هو النعت الذى فيكم.

و ربما قيل: إن الإشاره بقوله «ذلك» الى جمع المؤمنين المدلول عليه بقوله «هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا» و على هذا فالكلام على استوائه من غير قلب، و المعنى هل انبئكم بمن هو شر من المؤمنين لتنقموهم؟ و هم أنتم أنفسكم، و قد ابتليتم باللعن و المسخ و عباده الطاغوت.

و ربما قيل: إن قوله: «مَنْ ذَلِكْ» إشاره الى المصدر المدلول عليه بقوله «هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا» أى هل أنبئكم بشر من نقتكم هذه متوبه و جزاء؟ هو ما ابتليتم به من اللعن و المسخ و غير ذلك.

قوله تعالى: «وَ إِذَا جَاءُكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ يَشِيرُ تَعَالَى إِلَى نِفَاقِ قُلُوبِهِمْ وَ إِضْمَارِهِمْ مَا لَا يَرْضِيهِ اللَّهُ سَبْحَانَهُ فِي لِقَائِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: وَ إِذَا جَاءُكُمْ قَالُوا آمَنَّا أَى أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ وَ الْحَالُ أَنَّهُمْ قَدْ دَخَلُوا عَلَيْكُمْ

مع الكفر وقد خرجوا من عندكم بالكفر أى هم على حاله واحده عند الدخول و الخروج و هو الكفر لم يتغير عنه و إنما يظهرون الإيمان إظهاراً، والحال أن الله يعلم ما كانوا يكتُمونه سابقاً من الغدر و المكر.

فقوله «وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ» فى معنى قولنا: لم يتغير حالهم فى الكفر، و الضمير فى قوله: «هُمْ قَدْ خَرَجُوا» جىء به للتأكيد، و إفاده تمييزهم فى الأمر و تثبيت الكفر فيهم.

و ربما قيل: إن المعنى أنهم متحولون فى أحوال الكفر المختلفه.

قوله تعالى: وَ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ الى آخر الآيه؛ الظاهر أن المراد بالإثم هو الخوض فى آيات الدين النازله على المؤمنين و القول فى معارف الدين بما يوجب الكفر و الفسوق على ما يشهد به ما فى الآيه التاليه من قوله: «عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ» .

و على هذا فالأمور الثلاثه أعنى الإثم و العدوان و أكل السحت تستوعب نماذج من فسوقهم فى القول و الفعل، فهم يقتربون الذنب فى القول و هو الإثم القولى، و الذنب فى الفعل و هو إما فيما بينهم و بين المؤمنين و هو التعدى عليهم، و إما عند أنفسهم كأكلهم السحت، و هو الربا و الرشوه و نحو ذلك ثم ذم ذلك منهم بقوله «لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» ثم أتبعه بتوبيخ الربانيين و الأحبار فى سكوتهم عنهم و عدم نهيهم عن ارتكاب هذه الموبقات من الآثام و المعاصى و هم عالمون بأنها معاص و ذنوب فقال «لَوْ لَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّائِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» .

و ربما أمكن أن يستفاد من قوله: «عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ» عند تطبيقه على ما فى الآيه السابقه «يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ» حيث ترك العدوان فى الآيه الثانيه أن الإثم و العدوان شىء واحد، و هو تعدى حدود الله سبحانه قولاً تجاه المعصيه الفعلية

التي انمذجها أكلهم السحت.

فيكون المراد بقوله «يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ» إراءه سيئه قوليه منهم و هي الإثم و العدوان، و سيئه اخرى فعليه منهم و هي أكلهم السحت.

و المسارعه مبالغه في معنى السرعة و هي ضد البطيء، و الفرق بين السرعة و العجله على ما يستفاد من موارد استعمال الكلمتين أن السرعة أمس بعمل الأعضاء و العجله بعمل القلب، نظير الفرق بين الخضوع و الخشوع، و الخوف و الخشيه، قال الراغب في المفردات: السرعة ضد البطيء، و يستعمل في الأجسام و الأفعال، يقال: سرع (بضم الراء) فهو سريع و أسرع فهو مسرع، و أسرعوا صارت إليهم سراعا نحو أبلدوا، و سارعوا و تسارعوا، انتهى.

قوله تعالى: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ» كانت اليهود لا ترى جواز النسخ في الأحكام الدينيه، و لذا كانت لا تقبل بنسخ التوراه و تعير المسلمين بنسخ الأحكام، و كذا كانت لا ترى جواز البداء في القضايا التكوينية على ما يتراءى من خلال الآيات القرآنيه كما تقدم الكلام فيه في تفسير قوله تعالى: «مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا آيَةٌ (البقره ١٠٦)» في الجزء الأول من هذا الكتاب و في موارد آخر.

و الآيه أعنى قوله تعالى: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ» تقبل الانطباق على قولهم هذا غير أن ظاهر قوله تعالى جوابا عنهم: «بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ» يأبى عن ذلك، و يدل على أنهم إنما تكلموا بهذه الكلمه الأثيمه في شىء من أمر الرزق إما في خصوص المؤمنين لما في عامتهم من الفقر الشامل و العسر و ضيق المعيشه، و أنهم إنما قالوا هذا القول استهزاء بالله سبحانه إيماء الى أنه لا يقدر على إغناء عباده المؤمنين به و إنجائهم من الفقر و المذله، لكن هذا الوجه لا يناسب وقوع الآيه في سوره المائده إن كانت نازله في مطاوى سائر آياتها فإن المسلمين كانوا يوم نزولها على خصب من العيش و سعه من الرزق و رفاهيه من

و إما أنهم إنما تفوهوا بذلك لما سمعوا أمثال قوله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا (البقره ٢٤٥/)، وقوله تعالى: وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا (المزمل ٢٠/)، فقالوا:

يد الله مغلوله لا يقدر على تحصيل ما ينفق في حوائجه لترويج دينه و إحياء دعوته. و قد قالوا ذلك سخرية و استهزاء على ما يظهر من بعض آخر مما ورد في أسباب النزول، و هذا الوجه أقرب الى النظر.

و كيف كان فهذه النسبه أعنى نسبه غل اليد و المغلوبه عند بعض الحوادث مما لا يباه تعليمهم الدينى و الآراء الموجده فى التوراه؛ فالتوراه تجوز أن يكون الامور معجزا لله سبحانه و صادا مانعا له من إنفاذ بعض ما يريد من مقاصده كالأقوياء من الانسان، يشهد بذلك ما تقصه من قصص الأنبياء كآدم و غيره.

فعندهم من وجوه الاعتقاد ما يبيح لهم أن ينسبوا إليه تعالى ما لا يناسب ساحه قدسه و كبرياء ذاته جلت عظمته و إن كانت الكلمه إنما صدرت منهم استهزاء فإن لكل فعل مبادئ فى الاعتقاد ينبعث إليه الانسان منا و يتجراً بها.

و أما قوله: «غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمَا قَالُوا» فهو دعاء عليهم بعذاب مشابه لما نسبوا إليه تعالى من النقص غير المناسب لساحه قدسه، و هو مغلوليه اليد و انسلاب القدره على ما يحبه و يشاؤه، و على هذا فقولهم «وَ لُعِنُوا بِمَا قَالُوا» عطف تفسير على قوله: «غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ» فإن مغلوليه أيديهم مصداق لعنه الله عليهم اذ القول من الله سبحانه فعل، و لعنه تعالى أحدا إنما هو تعذيبه بعذاب إما دنيوى أو أخروى فاللعن هو العذاب المساوى لغل أيديهم أو الأعم منه و من غيره.

و أما قوله: بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ فهو جواب عن قولهم «يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ» مضروب فى قالب الإضراب.

و الجملة أعنى قوله: «يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ» كناية عن ثبوت القدره، و هو شائع فى الاستعمال.

و إنما قيل «يَدَاهُ» بصيغه التشبيه مع كون اليهود إنما أتوا فى قولهم «يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ» بصيغه الإفراد ليدل على كمال القدره كما ربما يستفاد من نحو قوله تعالى: قَالَ يَا إِبْرَاهِيمُ مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبِرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (ص ٧٥) لما فيه من الإشعار أو الدلاله على إعمال كمال القدره، و نحو قولهم «لا يدين بهالك» فإن ذلك مبالغه فى نفى كل قدره و نعمه.

و ربما ذكروا ليد معانى مختلفه فى اللغه غير الجارحه كالقدره و القوه و النعمه و الملك و غير ذلك، لكن الحق أن اللفظه موضوعه فى الأصل للجارحه، و إنما استعملت فى غيرها من المعانى على نحو الاستعاره لكونها من الشئون المنتسبه الى الجارحه نوعاً من الانتساب كانتساب الإنفاق و الجود الى اليد من حيث بسطها، و انتساب الملك إليها من حيث التصرف و الوضع و الرفع و غير ذلك.

فما يثبت الكتاب و السنه لله سبحانه من اليد يختلف معناه باختلاف الموارد كقوله تعالى:

«يَبْلُغُ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ» الآية؛ و قوله: أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ (ص ٧٥) يراد به القدره و كمالها، و قوله: بِيَدِكَ الْخَيْرُ (آل عمران ٢٦)، و قوله: فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (يس ٨٣)، و قوله: تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ (الملك ١)، الى غير ذلك يراد بها الملك و السلطه، و قوله: لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ (الحجرات ١) يراد بها الحضور و نحوه.

و أما قوله: «يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ» فهو بيان لقوله «يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ» .

قوله تعالى: وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَ كُفْرًا هذه الجملة و ما يتولها الى آخر الآية كلام مسرود لتوضيح قوله: «وَ قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ»

عُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمَا قَالُوا» على ما يعطيه السياق.

فأما قوله: «وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ» الخ؛ فيشير الى أن اجترأهم على الله العظيم و تفوههم بمثل قولهم «يَدُ اللَّهِ مَعْلُومَةٌ» ليس من المستبعد منهم فإن القوم متلبسون بالاعتداء و الكفر من قديم أيامهم، و قد أورثهم ذلك البغى و الحسد، و لا يؤمن من هذه سجيته اذا رأى أن الله فضل غيره عليه بما لا يقدر قدره من النعمة أن يزداد طغيانا و كفرا (١).

قوله تعالى: «وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ضمير بينهم راجع الى اليهود على ما هو ظاهر وقوع الجملة فى سياق الكلام على اليهود خاصة و إن كانت الآيات بدأت الكلام فى أهل الكتاب عامه، و على هذا فالمراد بالعداوة و البغضاء بينهم ما يرجع الى الاختلاف فى المذاهب و الآراء، و قد أشار الله سبحانه اليه فى مواضع من كلامه كقوله «لَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ» الى أن قال - فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (الجاثية / ١٧) و غير ذلك من الآيات.

و العداوة كأن المراد بها البغض الذى يستصحب التعدى فى العمل، و البغضاء هو مطلق ما فى القلب من حاله النفار و إن لم يستعقب التعدى فى العمل فيفيد اجتماعهما معنى البغض الذى يوجب الظلم على الغير و البغض الذى يقصر عنه.

و فى قوله تعالى: «إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ما لا يخفى من الدلالة على بقاء امتهم الى آخر الدنيا.

قوله تعالى: «كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ» إيقاد النار إشعالها، و إطفأؤها إخمادها، و المعنى واضح، و من المحتمل أن يكون قوله: «كُلَّمَا أَوْقَدُوا» الخ؛ بيانا لقوله «وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ» الخ؛ فيعود المعنى الى أنه كلما أثاروا حربا على النبى صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين

ص: ١٥٥

أطفأها الله بإلقاء الاختلاف بينهم.

و الآيه على ما يدل عليه السياق تسجل عليهم خيبه المسعى فى إيقاد النيران التى يوقدونها على دين الله سبحانه، و على المسلمين بما أنهم مؤمنون بالله و آياته، و أما الحروب التى ربما أمكن أن يوقدوا نارها لا لأمر الدين الحق بل لسياسه أو تغلب جنسى أو ملى فهى خارجه عن مساق الآيه.

قوله تعالى: وَيَسْجُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ السعى هو السير السريع، و قوله: «فَسَادًا» مفعول له أى يجتهدون لإفساد الأرض، و الله لا يحب المفسدين فلا يخليهم و أن ينالوا ما أرادوه من فساد الأرض فيخيب سعيهم، و الله أعلم.

فهذه كله بيان لكونهم غلت أيديهم و لعنوا بما قالوا، حيث إنهم غير نائلين ما قصدوه من إثارة الحروب على النبى صلى الله عليه و آله و سلم و المسلمين، و ما اجتهدوا لأجله من فساد الأرض.

قوله تعالى: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ الخ؛ عود الى حال أهل الكتاب عامه كما كان بدأ الكلام فيهم عامه، و ختم الكلام بتخليص القول فى ما فاتهم من نعمه السعاده فى الآخره و الدنيا، و هى جنه النعيم و نعمه الحياه السعيده.

و المراد بالتقوى بعد الإيمان التورع عن محارم الله و اتقاء الذنوب التى تحتم السخط الإلهى و عذاب النار، و هى الشرك بالله و سائر الكبائر الموبقه التى أوعده الله عليها النار، فيكون المراد بالسيئات التى وعد الله سبحانه تكفيرها الصغائر من الذنوب، و ينطبق على قوله سبحانه:

إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (النساء / ٣١).

قوله تعالى: وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَمَا كَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ المراد بالتوراه و الإنجيل الكتابان السماويان اللذان يذكر القرآن أن الله أنزلهما على موسى و عيسى عليهما السلام دون ما بأيدي القوم من الكتب التى

يذكر أنه لعبت بها يد التحريف.

و الظاهر أن المراد بما أنزل إليهم من ربهم سائر الكتب المنسوبة الى الأنبياء الموجوده عندهم كمزامير داود الذى يسميه القرآن بالزبور، وغيره من الكتب.

فالظاهر أن المراد بما أنزل إليهم من ربهم بعد التوراه و الإنجيل سائر الكتب و أقسام الوحي المنزله على أنبياء بنى إسرائيل كزبور داود و غيره، و المراد بإقامه هذه الكتب حفظ العمل العام بما فيها من شرائع الله تعالى، و الاعتقاد بما بين الله تعالى فيها من معارف المبدأ و المعاد من غير أن يضرب عليها بحجب التحريف و الكتمان و الترك الصريح، فلو أقاموها هذه الإقامه لأكلوا من فوقهم و من تحت أرجلهم.

و أما قوله تعالى: «لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ» فالمراد بالأكل التنعم مطلقا سواء كان بالأكل كما فى مورد الأغذيه أو بغيره كما فى غيره، و استعمال الأكل فى مطلق التصرف و التنعم من غير مزاحم شائع فى اللغه.

و المراد من فوقهم هو السماء، و من تحت أرجلهم هو الأرض، فالجمله كناية عن تنعمهم بنعم السماء و الأرض و إحاطه برعاتها عليهم نظير ما وقع فى قوله تعالى: «وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا بِرَحْمَتِنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ، وَ لَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (الأعراف ٩٦)».

و الآيه من الدليل على أن الإيمان هذا النوع أعنى نوع الإنسان و أعماله الصالحه تأثيرا فى صلاح النظام الكونى من حيث ارتباطه بالنوع الإنسانى فلو صلح هذا النوع صلح نظام الدنيا من حيث إيفائه باللازم لحياه الإنسان السعيده من اندفاع النقم و وفور النعم.

قوله تعالى: «مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ» الاقتصاد أخذ القصد و هو التوسط فى الامور، فالامه المقتصده هى المعتدله فى أمر الدين و التسليم لأمر الله.

و الكلام مستأنف اريد به بيان حال جميع ما نسب إليهم من التعدى عن حدود الله و الكفر بآيات الله و نزول السخط و اللعن على جماعتهم أن ذلك كله إنما تلبس به أكثرهم، و هو المصحح لنسبه هذه الفظائع إليهم، و أن منهم امه معتدله ليست على هذا النعت، و هذا من نصفه الكلام الإلهى حيث لا يضيع حقا من الحقوق، و يراقب إحياء أمر الحق و إن كان قليلا (١).

[سوره المائده (٥): آيه ٦٧]

اشاره

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)

بيان:

معنى الآيه فى نفسها ظاهر فإنها تتضمن أمر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بالتبليغ فى صورته التهديد، و وعده صلى الله عليه و آله و سلم بالعصمه من الناس، غير أن التدبر فى الآيه من حيث وقوعها موقعها الذى وقعت فيه، و قد حففتها الآيات المتعرضه لحال أهل الكتاب و ذمهم و توبيخهم بما كانوا يتعاورونه من أقسام التعدى الى محارم الله و الكفر بآياته. و قد اتصلت بها من جانبيها الآيتان، أعنى قوله: «وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ» الآيه؛ و قوله تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ» الآيه.

ثم الإمعان فى التدبر فى نفس الآيه و ارتباط الجمل المنصوده فيها يزيد الإنسان عجباً على

ص: ١٥٨

فلو كانت الآية متصله بما قبلها و ما بعدها فى سياق واحد فى أمر أهل الكتاب لكان محصلها أمر النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أشد الأمر بتبليغ ما أنزله الله سبحانه فى أمر أهل الكتاب، و تعين بحسب السياق أن المراد بما انزل إليه من ربه هو ما يأمره بتبليغه فى قوله: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ» الآية.

و سياق الآية ياباه فإن قوله: «وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» يدل على أن هذا الحكم المنزل المأمور بتبليغه أمر مهم فيه مخافه الخطر على نفس النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أو على دين الله تعالى من حيث نجاح تبليغه، و لم يكن من شأن اليهود و لا النصارى فى عهد النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يتوجه اليه من ناحيتهم خطر يسوغ له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يمسك عن التبليغ أو يؤخره الى حين فيبلغ الأمر الى حيث يحتاج الى أن يعده الله بالعصمه منهم إن بلغ ما امر به فيهم حتى فى أوائل هجرته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الى المدينة و عنده حده اليهود و شدتهم حتى انتهى الى وقائع خبير و غيرها.

على أن الآية لا تتضمن أمرا شديدا و لا قولاً حادا، و قد تقدم عليه تبليغ ما هو أشد و أحد و أمر من ذلك على اليهود، و قد أمر النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بتبليغ ما هو أشد من ذلك كتبليغ التوحيد و نفى الوثنيه الى كفار قريش و مشركى العرب و هم أغلظ جانبا و أشد بطشا و أسفك للدماء، و أفتك من اليهود و سائر أهل الكتاب، و لم يهدده الله فى أمر تبليغهم و لا آمنه بالعصمه منهم.

على أن الآيات المتعرضه لحال أهل الكتاب معظم أجزاء سورة المائدة فهى نازله فيها قطعاً، و اليهود كانت عند نزول هذه السوره قد كسرت سورتهم، و خمدت نيرانهم، و شملتهم السخطه و اللعنه كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفالها الله فلا معنى لخوف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ منهم فى دين الله، و قد دخلوا يومئذ فى السلم فى حظيره الإسلام و قبلوا هم و النصارى الجزية، و لا معنى لتقريره تعالى له خوفه منهم و اضطرابه فى تبليغ أمر الله اليهم، و هو أمر قد بلغ اليهم ما هو أعظم منه، و قد وقف قبل هذا الموقف فيما هو أهول منه و أوحش.

فلا ينبغي الارتياح في أن الآيه لا تشارك الآيات السابقة عليها و اللاحقه لها في سياقها، و لا تتصل بها في سردها، و إنما هي آيه مفردة نزلت وحدها.

و الآيه تكشف عن أمر قد انزل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم (إما مجموع الدين أو بعض أجزائه) و كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم يخاف الناس من تبيغته و يؤخره الى حين يناسبه، و لو لا مخافته و إمساكه لم يحتج الى تهديده بقوله «وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ» كما وقع في آيات أول البعثة الخاليه عن التهديد كقوله تعالى: «إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ إِلَى آخِرِ سُورَةِ الْعَلَقِ، وَ قَوْلِهِ: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ (المدثر ٢/٢)، وَ قَوْلِهِ: فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوا وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (حم السجده ٦/٦) الى غير ذلك.

فهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم كان يخافهم و لم يكن مخافته من نفسه في جنب الله سبحانه فهو أجل من أن يستنكف عن تفديه نفسه أو يبخل في شيء من أمر الله بمهجته فهذا شيء تكذبه سيرته الشريفة و مظاهر حياته، على أن الله شهد في رسوله على خلاف ذلك كما قال تعالى: «مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا * الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَ كَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا

(الأحزاب ٣٩/٣٩)، و قد قال تعالى في أمثال هذه الفروض: «فَلَا تَخَافُوهُمْ وَ خَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (آل عمران ١٧٥/١٧٥)، و قد مدح الله سبحانه طائفه من عباده بأنهم لم يخشوا الناس في عين أن الناس خوفوهم فقال: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَ قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ (آل عمران ١٧٣/١٧٣).

و ليس من الجائز أن يقال: إنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم كان يخاف على نفسه أن يقتلوه فيبطل بذلك أثر الدعوه و ينقطع دابرها فكان يعوقه الى حين ليس فيه هذه المفسده فإن الله سبحانه يقول له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ (آل عمران ١٢٨/١٢٨)، لم يكن الله سبحانه يعجزه لو قتلوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم أن يحيى دعوته بأى وسيله من الوسائل شاء، و بأى سبب أراد.

نعم من الممكن أن يقدر لمعنى قوله: «وَاللَّهُ يَعْصِي مِمنَ النَّاسِ» أن يكون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يخاف الناس في أمر تبليغه أن يتهموه بما يفسد به الدعوه فسادا لا تنجح معه أبدا فقد كان أمثال هذا الرأي و الاجتهاد جائزا له مأذونا فيه من دون أن يرجع معنى الخوف الى نفسه بشيء.

□
و من هنا يظهر أن الآيه لم تنزل في بدء البعثه كما يراه بعض المفسرين إذ لا معنى حينئذ لقوله تعالى: «وَاللَّهُ يَعْصِي مِمنَ النَّاسِ» إلا أن يكون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يماطل في إنجاز التبليغ خوفا من الناس على نفسه أن يقتلوه فيحرم الحياه أو أن يقتلوه و يذهب التبليغ باطلا لا أثر له فإن ذلك كله لا سبيل الى احتماله.

على أن المراد بما أنزل اليه من ربه لو كان أصل الدين أو مجموعته في الآيه عاد معنى قوله:

«وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ» الى نحو قولنا: يا أيها الرسول بلغ الدين و إن لم تبلغ الدين فما بلغت الدين.

و أما جعله من قبيل قول أبي النجم:

أنا أبو النجم و شعري شعري

كما ذكره بعضهم أن معنى الآيه: و إن لم تبلغ الرسالة فقد لزمك شناعه القصور في التبليغ و الإهمال في المسارعه الى ائتمار ما أمرك به الله سبحانه، و أكده عليك كما أن معنى قول أبي النجم: أنى أنا أبو النجم و شعري شعري المعروف بالبلاغه المشهور بالبراعه.

فإن ذلك فاسد لأن هذه الصناعه الكلاميه إنما تصح في موارد العام و الخاص و المطلق و المقيد و نظائر ذلك فيفاد بهذا السياق اتحادهما كقول أبي النجم: شعري شعري أى لا ينبغي أن يتوهم على متوهم أن قريحتي كُلت أو أن الحوادث أعيتني أن أقول من الشعر ما كنت أقوله فشعري الذى أقوله اليوم هو شعري الذى كنت أقوله بالأمس.

و أما قوله تعالى: «وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ» فليس يجرى فيه مثل هذه العناية فإن

الرسالة التي هي مجموع الدين أو أصله على تقدير نزول الآية في أول البعثة أمر واحد غير مختلف ولا متغير حتى يصح أن يقال: إن لم تبلغ هذه الرسالة فما بلغت تلك الرسالة أو لم تبلغ أصل الرسالة فإن المفروض أنه أصل الرسالة التي هي مجموع المعارف الدينية.

فقد تبين أن الآية بسياقها لا تصلح أن تكون نازله في بدء البعثة و يكون المراد فيها بما أنزل الى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مجموع الدين أو أصله، و يتبين بذلك أنها لا تصلح أن تكون نازله في خصوص تبليغ مجموع الدين أو أصله في أى وقت آخر غير بدء البعثة فإن الإشكال إنما ينشأ من جهة لزوم اللغو في قوله تعالى: «وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ» كما مر.

على أن قوله: «إِنَّمَا أُتِيهَا الرُّسُولُ بَلَّغٌ مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» لا يلائم النزول في أى وقت آخر غير بدء البعثة على تقدير إرادته الرسالة بمجموع الدين أو أصله، وهو ظاهر.

على أن محذور دلالة قوله: «وَ اللَّهُ يَعْصِي مَمَرًا مِّنَ النَّاسِ» على أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان يخاف الناس في تبليغه على حاله.

فظهر أن ليس هذا الأمر الذى أنزل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأكد الآية تبليغه هو مجموع الدين أو أصله على جميع تقاديره المفروضه، فلنضع أنه بعض الدين، والمعنى: بلغ الحكم الذى أنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، الخ؛ و لازم هذا التقدير أن يكون المراد بالرسالة مجموع ما حملة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من الدين و رسالته، و إلا فالمحذور السابق و هو لزوم اللغو فى الكلام على حاله اذ لو كان المراد بقوله «رِسَالَتَهُ» الرسالة الخاصة بهذا الحكم كان المعنى: بلغ هذا الحكم و إن لم تبلغه فما بلغت، و هو لغو ظاهر.

فالمراد أن بلغ هذا الحكم و إن لم تبلغه فما بلغت أصل رسالته أو مجموعها، و هو معنى صحيح معقول، و حينئذ يرد الكلام نظير المورد الذى ورده قول أبى النجم «أنا أبو النجم و شعرى شعرى».

و أما كون هذا الحكم بحيث لو لم يبلغ فكأنما لم تبلغ الرسالة فإنما ذلك لكون المعارف

و الأحكام الدينيه مرتبطه بعضها ببعض بحيث لو أخل بأمر واحد منها أخل بجميعها و خاصه فى التبليغ لكمال الارتباط، و هذا التقدير و إن كان فى نفسه مما لا بأس به لكن ذيل الآيه و هو قوله: «وَ اللَّهُ يَعْصِي مَمَرًا مِّنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» لا يلائمه فإن هذا الذيل يكشف عن أنّ قوما كافرين من الناس هموا بمخالفه هذا الحكم النازل أو كان المترقب من حالهم أنهم سيخالفونه مخالفه شديده، و يتخذون أى تدبير يستطيعونه لإبطال هذه الدعوه و تركه سدى لا يؤثر أثرا و لا ينفع شيئا و قد وعد الله رسوله أن يعصمه منهم، و يبطل مكرهم، و لا يهديهم فى كيدهم.

و لا يستقم هذا المعنى مع أى حكم نازل فرض فإن المعارف و الأحكام الدينيه فى الإسلام ليست جميعا فى درجه واحده ففيها التى هى عمود الدين، و فيها الدعاء عند رؤيه الهلال، و فيها زنى المحصن و فيها النظر الى الأجنبية، و لا يصح فرض هذه المخافه من النبى صلى الله عليه و آله و سلم و الوعد بالعصمه من الله مع كل حكم حكم منها كيفما كان بل فى بعض الأحكام.

فليس استلزام عدم تبليغ هذا الحكم لعدم تبليغ غيره من الأحكام إلا لمكان أهميته و وقوعه من الأحكام فى موقع لو أهمل أمره كان ذلك فى الحقيقه إهمالا لأمر سائر الأحكام، و صيرورتها كالجسد العادم للروح التى بها الحياه الباقية و الحس و الحركه، و تكون الآيه حينئذ كاشفه عن أن الله سبحانه كان قد أمر رسوله صلى الله عليه و آله و سلم بحكم يتم به أمر الدين و يستوى به على عريشه القرار، و كان من المترقب أن يخالفه الناس و يقبلوا الأمر على النبى صلى الله عليه و آله و سلم بحيث تنهدم أركان ما بناه من بنیان الدين و تتلاشى أجزاءه، و كان النبى صلى الله عليه و آله و سلم يتفرس ذلك و يخافهم على دعوته فيؤخر تبليغه الى حين بعد حين ليجد له طرفا صالحا و جوا آمنا عسى أن تنجح فيه دعوته، و لا يخيب مسعاه فأمره الله تعالى بتبليغ عاجل، و بين له أهميه الحكم، و وعده أن يعصمه من الناس، و لا يهديهم فى كيدهم، و لا يدعهم يقبلوا له أمر الدعوه.

و إنما يتصور تقلب أمر الدعوه على النبى صلى الله عليه و آله و سلم و إبطال عمله بعد انتشار الدعوه

الإسلاميه لا من جانب المشركين و وثنيه العرب أو غيرهم كأن تكون الآيه نازله فى مكه قبل الهجره، و تكون مخافه النبى صلى الله عليه و آله و سلم من الناس من جهه افتراءهم عليه و اتهامهم إياه فى أمره كما حكاه الله سبحانه من قولهم مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ (الدخان ١٤/) و قولهم شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَبِّبَ الْمَنُونِ (الطور ٣٠/)، و قولهم سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (الذاريات ٥٢/) و قولهم: إِنَّ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (الإسراء ٤٧/) و قولهم إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (المدثر ٢٤/) و قولهم أَسْدَاطِئِرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلِّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا (الفرقان ٥/) و قولهم إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ (النحل ١٠٣/) و قولهم: أَنْ اْمَشُوا وَ اَصْبِرُوا عَلٰى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (ص ٦/) الى غير ذلك من أقاويلهم فيه صلى الله عليه و آله و سلم.

فهذه كلها ليست مما يوجب وهن قاعده الدين، و إنما تدل-إذا دلت-على اضطراب القوم فى أمرهم، و عدم استقامتهم فيه على أن هذه الافتراءات و المرامى لا-تختص بالنبى صلى الله عليه و آله و سلم حتى يضطرب عند تفرسها و يخاف وقوعها فسائر الأنبياء و الرسل يشاركونه فى الابتلاء-بهذه البلىا و المحن، و مواجهه هذه المكاره من جمله امهم كما حكاه الله تعالى عن نوح و من بعده من الأنبياء المذكورين فى القرآن.

بل إن كان شىء-و لا بد-فإنما يتصور بعد الهجره و استقرار أمر الدين فى المجتمع الإسلامى و المسلمون كالمعجون الخليط من صلحاء مؤمنين و قوم منافقين اولى قوه لا يستهان بأمرهم، و آخرين فى قلوبهم مرض و هم سماعون-كما نص عليه الكتاب العزيز-و هؤلاء كانوا يعاملون مع النبى صلى الله عليه و آله و سلم-فى عين أنهم آمنوا به واقعا أو ظاهرا-معامله الملوك، و مع دين الله معامله القوانين الوضعيه القوميه كما يشعر بذلك طوائف من آيات الكتاب قد تقدم تفسير بعضها فى الأجزاء السابقه من هذا الكتاب (١).

ص: ١٦٤

فكان من الممكن أن يكون تبليغ بعض الأحكام مما يوقع في الوهم انتفاع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بتشريعه وإجرائه يستوجب أن يقع في قلوبهم أنه ملك في صورة النبوه وقانون ملكي في هيئة الدين كما ربما وجد بعض شواهد ذلك في مطاوي كلمات بعضهم (١).

وهذه شبهه لو كانت وقعت هي أو ما يماثلها في قلوبهم أَلقت إلى الدين من الفساد والضيعة ما لا يدفعه أي قوة دافعه، ولا يصلحه أي تدبير مصلح فليس هذا الحكم النازل المأمور بتبليغه إلا حكما فيه توهم انتفاع للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، واختصاص له بمزيه من المزايا الحيويه لا يشاركه فيها غيره من سائر المسلمين، نظير ما في قصة زيد وتعدد الأزواج والاختصاص بخمس الغنائم ونظائر ذلك.

غير أن الخصائص إذا كانت مما لا- تمس فيه عامه المسلمين لم يكن من طبعها إثارة الشبهه في القلوب فإن الأزواج بزوجه المدعو ابنا مثلا لم يكن يختص به و الأزواج بأكثر من أربع نسوه لو كان تجويزه لنفسه عن هوى بغير إذن الله سبحانه لم يكن يمنعه أن يجوّز مثل ذلك لسائر المسلمين، وسيرته في إثارة المسلمين على نفسه في ما كان يأخذه لله ولنفسه من الأموال ونظائر هذه الامور لا تدع ريبا لمرتاب ولا يشتهه أمرها لمشتبه دون أن تزول الشبهه.

فقد ظهر من جميع ما تقدم أن الآيه تكشف عن حكم نازل فيه شوب انتفاع للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، واختصاصه بمزيه حيويه مطلوبه لغيره أيضا يوجب تبليغه والعمل به حرمان الناس عنه فكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يخاف إظهاره فأمره الله بتبليغه و شدد فيه، و وعدة العصمه من الناس و عدم هدايتهم في كيدهم إن كادوا فيه.

وهذا يؤيد ما وردت به النصوص من طرق الفريقين أن الآيه نزلت في أمر ولايه على عليه السلام، وان الله أمر بتبليغها وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يخاف أن يتهمونه في ابن عمه، و يؤخر تبليغها وقتا إلى

ص: ١٦٥

(١-١). كما يذكر عن أبي سفيان في كلمات قالها في مجلس عثمان حينما تم له أمر الخلافة.

وقت حتى نزلت الآيه فبلغها بغدير خم، وقال فيه: من كنت مولاه فهذا علي مولاه.

و كون ولايه امر الامه مما لا غنى للدين عنه ظاهر لا ستر عليه، وكيف يسوغ لمتوهم أن يتوهم أن الدين الذي يقرر بسعته لعامه البشر في عامه الأعصار و الأقطار جميع ما يتعلق بالمعارف الأصلية، و الاصول الخلقية، و الأحكام الفرعية العامه لجميع حركات الإنسان و سكناته، فرادى و مجتمعين على خلاف جميع القوانين العامه لا- يحتاج الى حافظ يحفظه حق الحفظ؟ أو ان الامه الإسلاميه و المجتمع الدينى مستثنى من بين جميع المجتمعات الإنسانيه مستغنيه عن وال يتولى أمرها و مدبر يدبرها و مجر يجريها؟ و بأى عذر يمكن أن يعتذر الى الباحث عن سيره النبى الاجتماعيه؟ حيث يرى أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان اذا خرج الى غزوه خلف مكانه رجلا يدير رحى المجتمع، و قد خلف عليا مكانه على المدينه عند مسيره الى تبوك فقال: يا رسول الله أ تخلفنى على النساء و الصبيان؟ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: اما ترضى ان تكون منى بمنزله هارون من موسى إلا انه لا نبي بعدى؟

و كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ينصب الولاة الحكام فى ما بيد المسلمين من البلاد كمكه و الطائف و اليمن و غيرها، و يؤمّر رجالا- على السرايا و الجيوش التى يبعثها الى الأطراف، و أى فرق بين زمان حياته و ما بعد مماته دون أن الحاجه الى ذلك بعد غيبته بالموت أشد، و الضروره اليه أمس ثم أمس.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ خَاطَبَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالرساله لكونها أنسب الصفات الى ما تتضمنه الآيه من الأمر بالتبليغ لحكم الله النازل فهو كالبرهان على وجوب التبليغ الذى تظهره الآيه و تفرعه سمع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فإن الرسول لا شأن له إلا تبليغ ما حمل من الرساله فتحمل الرساله يفرض عليه القيام بالتبليغ.

و لم يصرح باسم هذا الذى أنزل اليه من ربه بل عبر عنه بالنعته و أنه شىء أنزل اليه، إشعارا بتعظيمه و دلالة على أنه أمر ليس فيه لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ صنع، و لاله من أمره شىء

ليكون كبرهان آخر على عدم خيره منه صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم في كتمانته وتأخيره تبليغه، ويكون له عذرا في إظهاره على الناس، وتلويحها الي أنه صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم مصيب في ما تفرسه منهم و تخوف عليه، وإيماء الي أنه مما يجب أن يظهر من ناحيته صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم و بلسانه و بيانه.

قوله تعالى: **وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ** المراد بقوله «**رِسَالَتَهُ**» و قرئ «رسالاته» كما تقدم مجموع رسالات الله سبحانه التي حملها رسوله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم، وقد تقدم أن الكلام يفيد أهميه هذا الحكم المرموز اليه، وأن له من المكانه ما لو يبلغه كان كأن لم يبلغ شيئا من الرسالات التي حملها.

فالكلام موضوع في صورته التهديد، و حقيقته بيان أهميه الحكم، و أنه بحيث لو لم يصل الي الناس، و لم يراع حقه كان كأن لم يراع حق شيء من أجزاء الدين فقوله **«وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ»** جملة شرطيه سيقت لبيان أهميه الشرط وجودا و عدما لترتب الجزاء الأهم عليه وجودا و عدما.

و ليست شرطيه مسوقه على طبع الشرطيات الدائره عندنا فإننا نستعمل «إن» الشرطيه طبعاً فيما نجعل تحقق الجزاء للجهل بتحقيق الشرط، و حاشا ساحه النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم من أن يقدر القرآن في حقه احتمال ان يبلغ الحكم النازل عليه من ربه و أن لا يبلغ، و قد قال تعالى: **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** (الأنعام ١٢٤).

فالجمله أعنى قوله: **«وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ»** الخ؛ إنما تفيد التهديد بظاها و تفيد إعلامه عليه السلام و إعلام غيره ما لهذا الحكم من الأهميه، و أن الرسول معذور في تبليغه.

قوله تعالى: **وَ اللَّهُ يَعْصِي مُمْكٍ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** قال الراغب: العصم (بالفتح فالسكون) الإمساك و الاعتصام الاستمساك- الي أن قال- و العصام (بالكسر) ما يعتصم به أى يشد، و عصمه الأنبياء حفظه إياهم أولاً بما خصهم به من صفاء الجوهر، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسميه و النفسيه، ثم بالنصره و بتثيت أقدامهم، ثم

يُنزَلُ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَبِحِفْظِ قُلُوبِهِمْ وَبِالتَّوْفِيقِ قَالَ تَعَالَى: «وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» .

و العصمه شبه السوار، و المعصم موضعها من اليد، و قيل للبياض بالرسغ عصمه تشبيها، و ذلك كتسميه البياض بالرجل تحجيلا، و على هذا قيل: غراب أعصم، انتهى.

و ما ذكره من معنى عصمه الأنبياء حسن لا بأس به غير أنه لا ينطبق على الآية «وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» بل لو انطبق فإنما ينطبق على مثل قوله: «وَمَا يَصُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (النساء / ١١٣)» .

و أما قوله: «وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» فإن ظاهره أنها عصمه بمعنى الحفظ و الوقايه من شر الناس المتوجه الى نفس النبي الشريفه أو مقاصده الدينيه أو نجاح تبليغه و فلاح سعيه، و بالجمله المعنى المناسب لساحته المقدسه.

و كيف كان فالمتحصل من موارد استعمال الكلمه أنها بمعنى الإمساك و القبض فاستعماله فى معنى الحفظ من قبيل استعاره اللزم لملزومه فإن الحفظ يلزمه القبض.

و كان تعليق العصمه بالناس من دون بيان أن العصمه من أى شأن من شؤون الناس كتعدياتهم بالايذاء فى الجسم من قتل أو سم أو أى اغتيال، أو بالقول كالسب و الافتراء، أو بغير ذلك كتقليب الامور بنوع من المكر و الخديعه و المكيد و بالجمله السكوت عن تشخيص ما يعصم منه لإفاده نوع من التعميم، و لكن الذى لا يعدو عنه السياق هو شرهم الذى يوجب انقلاب الأمر على النبي صلى الله عليه و آله و سلم بحيث يسقط بذلك ما رفعه من أعلام الدين.

و الناس مطلق من وجد فيه معنى الإنسانيه من دون أن يعتبر شىء من خصوصياته الطبيعیه التكوينية كالمذكوره و الأنوثه أو غير الطبيعیه كالعلم و الفضل و الغنى و غير ذلك.

و لذلك قل ما ينطبق على غير الجماعه، و لذلك أيضا ربما دل على الفضلاء من الإنسان اذا كان الفضل روعى فيه وجود معنى الانسانيه كقوله تعالى: «إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ» أى

الذين وجد فيهم معنى الإنسانية، وهو ملاك درك الحق و تمييزه من الباطل.

و ربما كان دالا- على نوع من الخسه و سقوط الحال، و ذلك اذا كان الأمر الذى يتكلم فيه مما يحتاج الى اعتبار شىء من الفضائل الانسانيه التى اعتبرت زائده على أصل معنى النوع كقوله **وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** (الروم ٣٠) و كقولك: لا تنق بمواعيد الناس، و لا- تستظهر بسوادهم نظرا منك الى أن الوثوق و الاستظهار يجب أن يتعلقا بالفضلاء من الانسان ذوى ملكه الوفاء بالعهد و الثبات على العزيمه لا على من ليس له إلا مجرد صدق اسم الانسانيه، و ربما لم يفد شيئا من مدح أو ذم اذا تعلق الغرض بما لا- يزيد على أصل معنى الإنسانية كقوله تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** (الحجرات ١٣).

و لعل قوله: **«وَاللَّهُ يَعْصِي مُمْكًا مِنَ النَّاسِ»** أخذ فيه لفظ الناس اعتبارا بسواد الأفراد الذى فيه المؤمن و المنافق و الذى فى قلبه مرض، و قد اختلطوا من دون تمايزه، فاذا خيف خيف من عامته، و ربما أشعر به قول **«إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ»** فإن الجملة فى مقام التعليل لقوله **«وَاللَّهُ يَعْصِي مُمْكًا مِنَ النَّاسِ»** و قد تقدم أيضا أن الآيه نزلت بعد الهجره و ظهور شوكة الاسلام، و كان السواد الأعظم من الناس مسلمين بحسب الظاهر و إن كان فيهم المنافقون و غيرهم.

فالمراد بالقوم الكافرين قوم هم فى الناس مذكورى النعت ممحوى الاسم وعد الله سبحانه أن يبطل كيدهم و يعصم رسوله صلى الله عليه و آله و سلم من شرهم.

و الظاهر أيضا أن يكون المراد بالكفر الكفر بآيه من آيات الله و هو الحكم المراد بقوله **«مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ»**، كما فى قوله فى آيه الحج: **وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** (آل عمران ٩٧)، و أما الكفر بمعنى الاستكبار عن أصل الشهادتين فإنه مما لا يناسب مورد الآيه البتة إلا- على القول بكون المراد بقوله **«أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ»** مجموع رسالات الدين، و قد عرفت عدم استقامته.

و المراد بعدم هدايته تعالى هؤلاء القوم الكافرين عدم هدايته إياهم في كيدهم و مكرهم، و منعه الأسباب الجارية أن تنقاد لهم في سلوكهم الى ما يرومونه من الشر و الفساد نظير قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (المنافقون ٦/٦)، و قوله تعالى: وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (البقره ٢٥٨/٢٥٨)، و قد تقدم البحث عنه في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

و أما كون المراد بعدم الهدايه هو عدم الهدايه الى الإيمان فغير صحيح البتة لمنافاته أصل التبليغ و الدعوه فلا يستقيم أن يقال: ادعهم الى الله أو الى حكم الله و أنا لا أهديهم اليه إلا في مورد إتمام الحجه محضاً.

على أن الله سبحانه قد هدى و لا يزال يهدى كثيرين من الكفار بدليل العيان، و قد قال أيضاً وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (البقره ٢١٣/٢١٣).

فتبين أن المراد بعدم هدايه الكافرين عدم تخليتهم لinalوا ما يهيمون به من إبطال كلمه الحق و إطفاء نور الحكم المنزل فإن الكافرين و كذا الظالمين و الفاسقين يريدون بشآمه أنفسهم و ضلال رأيهم أن يبدلوا سنه الله الجارية في الخلقه و سياقه الأسباب السالكة الى مسبباتها و يغيروا مجارى الأسباب الحقه الظاهره عن سمه عصيان رب العالمين الى غايتهم الفاسده مقاصدهم الباطله الله رب العالمين لن يعجزه قواهم الصوريه التي لم يودعها فيهم و لم يقدرها في بناهم إلا هو.

فهم ربما تقدموا في مساعيهم أحياناً، و نالوا ما راموه أوينات و استعلوا و استقام أمرهم برهه لكنه لا يلبث دون أن يبطل أخيراً و ينقلب عليهم مكرهم و لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، و كذلك يضرب الله الحق و الباطل فأما الباطل فيذهب جفاء، و أما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

و على هذا فقوله «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» تفسير قوله: «وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» بالتصرف في سعه إطلاقه، و يكون المراد بالعصمه عصمته صلى الله عليه و آله و سلم من أن يناله الناس

بسوء دون أن ينال بغيته في تبليغ هذا الحكم و تقريره بين الامه كأن يقتلوه دون أن يبلغه أو يثوروا عليه و يقبلوا عليه الامور أو يتهموه بما یرتد به المؤمنون عن دينه، أو يكيدوا كيدا يميت هذا الحكم و يقبره بل الله يظهر كلمه الحق و يقيم الدين على ما شاء و أينما شاء و متى ما شاء و فيمن شاء، قال تعالى: **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ذَكِيمًا** (النساء ١٣٣).

و أما أخذ الآيه أعنى قوله: **«وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ»** بإطلاقه على ما فيه من السعه و الشمول فمما ينافيه القرآن و المأثور من الحديث و التاريخ القطعى، و قد نال صلى الله عليه و آله و سلم من امته أعم من كفارهم و مؤمنهم و منافقيهم من المصائب و المحن و أنواع الزجر و الأذى ما ليس فى وسع أحد أن يتحمله إلا نفسه الشريفه، و قد قال صلى الله عليه و آله و سلم - كما فى الحديث المشهور - ما اودى نبي مثل ما اوديت قط.

بحث روائى:

فى تفسير العياشى عن أبى صالح، عن ابن عباس و جابر بن عبد الله قالوا: أمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه و آله و سلم أن ينصب عليا علما فى الناس ليخبرهم بولايته فتخوف رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أن يقولوا: حابى (١) ابن عمه و أن يطعنوا (٢) فى ذلك عليه. قال: فأوحى الله اليه هذه الآيه **«إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ذَكِيمًا»** فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بولايته يوم غدير خم.

و فيه عن حنان بن سدير، عن أبيه عن أبى جعفر عليه السلام قال: لما نزل جبرئيل على عهد رسول

ص: ١٧١

١- ١. جاءنا، خ ل.

٢- ٢. يطغوا، خ ل.

اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي حُجَّةِ الْوُدَّاعِ بِإِعْلَانِ أَمْرِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ. قَالَ: فَمَكَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثًا حَتَّى أَتَى الْجَحْفَةَ فَلَمْ يَأْخُذْ بِيَدِهِ فَرَقَا مِنَ النَّاسِ.

فَلَمَّا نَزَلَ الْجَحْفَةَ يَوْمَ غَدِيرِ فِي مَكَانٍ يُقَالُ لَهُ «مَهْيَعُهُ» فَنَادَى: الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: مَنْ مِنْ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ؟ فَجَهَرُوا فَقَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ ثُمَّ قَالَ لَهُمُ الثَّانِيَةَ، فَقَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمُ الثَّلَاثَةَ، فَقَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ.

فَأَخَذَ بِيَدِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: مَنْ كُنْتَ مَوْلَاهُ فَعَلَى مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادَ مِنْ عَادَاهُ، وَانصُرْ مَنْ نَصَرَهُ، وَاخْذَلْ مَنْ خَذَلَهُ فَإِنَّهُ مِنِّي وَ أَنَا مِنْهُ، وَهُوَ مِنْنِي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي.

وَفِيهِ عَنْ أَبِي الْجَارُودِ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» قَالَ: فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِيَدِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِمَّنْ كَانَ قَبْلِي إِلَّا وَ قَدْ عَمِرَ ثُمَّ دَعَاهُ فَأَجَابَهُ، وَ أَوْشَكَ أَنْ أَدْعَى فَاجِيبُ، وَ أَنَا مُسْتَوِلٌ وَ أَنْتُمْ مُسْتَوِلُونَ فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ فَقَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَ نَصَحْتَ وَ أَدَيْتَ مَا عَلَيْكَ فَجَزَاكَ اللَّهُ أَفْضَلَ مَا جَزَى الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ.

ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ لِيَبْلُغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ أَوْصِي مِنْ آمَنَ بِي وَ صَدَقَنِي بِوَلَايَةِ عَلِيٍّ، أَلَا إِنْ وَ لَوَايَةَ عَلِيٍّ وَ لَوَايَةَ عَهْدِهِ إِلَى رَبِّي وَ أَمْرُنِي أَنْ أَبْلُغَكُمْ، ثُمَّ قَالَ: هَلْ سَمِعْتُمْ؟ -ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَقُولُهَا- فَقَالَ قَائِلٌ: قَدْ سَمِعْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ.

وَ فِي الْبَصَائِرِ بِإِسْنَادِهِ عَنِ الْفَضِيلِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ» قَالَ: هِيَ الْوَلَايَةُ.

أَقُولُ: وَ رَوَى نَزُولَ الْآيَةِ فِي أَمْرِ الْوَلَايَةِ وَ قِصَّةِ الْغَدِيرِ مَعَهُ الْكَلْبِيِّ فِي الْكَافِي بِإِسْنَادِهِ، عَنْ

أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السّلام في حديث طويل، وروى هذا المعنى الصدوق في المعاني بإسناده عن محمد بن الفيض بن المختار، عن أبيه عن أبي جعفر عليه السّلام في حديث طويل، ورواه العياشي أيضا عن أبي الجارود في حديث طويل، و بإسناده عن عمرو بن يزيد عن أبي عبد الله عليه السّلام مختصرا.

و عن تفسير الثعلبي قال: قال جعفر بن محمد: معنى قوله: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» في فضل علي، فلما نزلت هذه أخذ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بيد علي فقال: من كنت مولاه فعلى مولاه.

و عنه بإسناده عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في هذه الآية قال: نزلت في علي بن أبي طالب، أمر الله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَلِغَ فِيهِ فَأَخَذَ بِيَدِ عَلِيٍّ فَقَالَ: مَنْ كُنْتَ مَوْلَاهُ فَعَلِيَ مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادَ مَنْ عَادَاهُ.

و في تفسير البرهان، عن إبراهيم الثقفي بإسناده عن الخدري، و بريده الأسلمي و محمد بن علي: نزلت يوم الغدير في علي.

و من تفسير الثعلبي في معنى الآية قال: قال أبو جعفر محمد بن علي: معناه بلغ ما أنزل اليك من ربك في علي.

و في تفسير المنار عن تفسير الثعلبي: أن هذا القول من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في موالاه علي شاع و طار في البلاد فبلغ الحارث بن النعمان الفهري فأتى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ علي ناقتة، و كان بالأبطح فنزل و عقل ناقتة، و قال للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -و هو في ملأ- من أصحابه-: يا محمد أمرتنا من الله أن نشهد أن لا إله إلا الله و أنك رسول الله؛ فقبلنا منك- ثم ذكر سائر أركان الاسلام- ثم لم ترض بهذا حتى مددت بضبعي ابن عمك، و فضلته علينا، و قلت: «من كنت مولاه فعلى مولاه» فهذا منك أم من الله؟ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: و الله الذي لا إله إلا هو هو أمر الله، فولى الحارث يريد راحلته، و هو يقول: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجاره من السماء أو

فما وصل الى راحلته حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته و خرج من دبره، و أنزل الله تعالى: سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ الْحَدِيث.

أقول: قال فى المنار بعد نقل هذا الحديث ما لفظه: و هذه الروايه موضوعه، و سوره المعارج هذه مكيه، و ما حكاه الله من قول بعض كفار قريش (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك) كان تذكيرا بقوله قبل الهجره، و هذا التذكير فى سوره الأنفال، و قد نزلت بعد غزوه بدر قبل نزول المائده ببضع سنين، و ظاهر الروايه أن الحارث بن النعمان هذا كان مسلما فارتد و لم يعرف فى الصحابه، و الأبطح بمكه و النبى صلى الله عليه و آله و سلم لم يرجع من غدير خم الى مكه بل نزل فيه منصرفه من حجه الوداع الى المدينه، انتهى.

و أنت ترى ما فى كلامه من التحكم: أما قوله: [إن الروايه موضوعه، و سوره المعارج هذه مكيه]

فيقول فى ذلك على ما فى بعض الروايات عن ابن عباس و ابن الزبير أن سوره المعارج نزلت بمكه، و ليت شعرى ما هو المرجح لهذه الروايه على تلك الروايه، و الجميع آحاد؟ سلمنا أن سوره المعارج مكيه كما ربما تؤيده مضامين معظم آياته فما هو الدليل على أن جميع آياتها مكيه؟ فلتكن السوره مكيه، و الآيتان خاصه غير مكيتين كما أن سورتنا هذه أعنى سوره المائده مدنيه نازله فى آخر عهد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و قد وضعت فيها الآيه المبحوث عنها أعنى قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» الآيه؛ و هو كعده من المفسرين مصرون على أنها نزلت بمكه فى أول البعته، فاذا جاز وضع آيه مكيه (آيه: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ) فى سوره مدنيه (المائده) فليجز وضع آيه مدنيه (آيه: سَأَلَ سَائِلٌ) فى سوره مكيه (سوره المعارج).

و أما قوله: [و ما حكاه الله من قول بعض كفار قريش]

الى آخره، فهو فى التحكم كسابقه؛ فهب إن سوره الأنفال نزلت قبل المائده ببضع سنين فهل يمنع ذلك أن يوضع عند التأليف بعض

الآيات النازله بعدها فيها كما وضعت آيات الربا وآيه وَ اتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ (البقره ٢٨١)، وهى آخر ما نزل على النبى صَلَّى الله عليه وآله وسلم عندهم فى سورة البقره النازله فى أوائل الهجره وقد نزلت قبلها بيضع سنين.

ثم قوله: [إِنَّ آيَةَ وَ إِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ الْآيَةَ؛ تذكير لما قالوه قبل الهجره]

تحكم آخر من غير حجه لو لم يكن سياق الآيه حجه على خلافه فإن العارف بأساليب الكلام لا يكاد يرتاب فى أن هذا أعنى قوله: اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَقِطْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنًا بِعَذَابِ أَلِيمٍ لاشتماله على قوله: إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ بما فيه من اسم الإشاره و ضمير الفصل و الحق المحلى باللام و قوله: مِنْ عِنْدِكَ ليس كلام و ثنى مشرك يستهزئ بالحق و يسخر منه، وإنما هو كلام من أذعن بمقام الربوبيه، و يرى أن الامور الحقه تتعين من لدنه، و أن الشرائع مثلا تنزل من عنده، ثم إنه يتوقف فى أمر منسوب الى الله تعالى يدعى مدع أنه الحق لا غيره، و هو لا يتحمل ذلك و يتخرج منه فيدعو على نفسه دعاء منزجر ملول سئم الحياه.

و أما قوله: [و ظاهر الروايه أن الحارث بن النعمان هذا كان مسلما فارتد و لم يعرف فى الصحابه]

تحكم آخر؛ فهل يسع أحدا أن يدعى أنهم ضبطوا أسماء كل من رأى النبى صَلَّى الله عليه وآله وسلم و آمن به أو آمن به فارتد؟ و إن يكن شىء من ذلك فليكن هذا الخبر من ذلك القبيل.

و أما قوله: [و الأبطح بمكه و النبى صَلَّى الله عليه وآله وسلم لم يرجع من غدیر خم الى مكه]

فهو يشهد على أنه أخذ لفظ الأبطح اسما للمكان الخاص بمكه و لم يحمله على معناه العام و هو كل مكان ذى رمل، و لا دليل على ما حمله عليه بل الدليل على خلافه و هو القصة المسروده فى الروايه و غيرها، و ربما استفيد من مثل قوله:

نجوت و قد بل المرادى سيفه

من ابن أبى شيخ الأباطح طالب

أن مكه و ما والاها كانت تسمى الأباطح.

قال فى مراصد الاطلاع: أبطح بالفتح ثم السكون و فتح الطاء و الحاء المهمله كل مسيل فيه رقاق الحصى فهو أبطح، و قال ابن دريد: الأبطح و البطحاء السهل المنبسط على وجه الأرض، و قال أبو زيد: الأبطح أثر المسيل ضيقا كان أو واسعا، و الأبطح يضاف الى مكه و الى منى لأن مسافته منهما واحده، و ربما كان الى منى أقرب و هو المحصب، و هى خيف بنى كنانه، و قد قيل: إنه ذو طوى، و ليس به، انتهى.

على أن الروايه بعينها رواها غير الثعلبى و ليس فيه ذكر من الأبطح و هى ما يأتى من روايه المجمع من طريق الجمهور و غيرها.

و بعد هذا كله فالروايه من الآحاد، و ليست من المتواترات و لا- مما قامت على صحتها قرينه قطعيه، و قد عرفت من أبحاثنا المتقدمه أنا لا نعول على الآحاد فى غير الأحكام الفرعيه على طبق الميزان العام العقلانى الذى عليه بناء الإنسان فى حياته، و إنما المراد بالبحث الآنف بيان فساد ما استظهر به من الوجوه التى استنتج منها أنها موضوعه.

و فى المجمع: أخبرنا السيد أبو الحمد قال: حدثنا الحاكم أبو القاسم الحسكاني قال: أخبرنا أبو عبد الله الشيرازى قال: أخبرنا أبو بكر الجرجاني قال: أخبرنا أبو أحمد البصرى قال:

حدثنا محمد بن سهل قال: حدثنا زيد بن إسماعيل مولى الأنصار قال: حدثنا محمد بن أيوب الواسطى قال: حدثنا سفيان بن عيينه عن جعفر بن محمد الصادق عن آبائه قال: لما نصب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عليا يوم غدير خم قال: من كنت مولاه فهذا على مولاه، فقال (فطار، ظ) ذلك فى البلاد فقدم على النبى النعمان بن الحارث الفهرى فقال: أمرتنا من الله أن نشهد أن لا إله إلا الله، و أنك رسول الله، و أمرتنا بالجهد و بالحج و بالصوم و الصلاه و الزكاه فقبلنا، ثم لم ترض حتى نصبت هذا الغلام فقلت: من كنت مولاه فعلى مولاه فهذا شىء منك أو أمر من الله تعالى؟ فقال: بلى و الله الذى لا إله إلا هو إن هذا من الله.

فولى النعمان بن الحارث و هو يقول: اللهم إن كانت هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا

حجاره من السماء فرماه الله بحجر على رأسه فقتله، فأُنزل الله سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ .

أقول: وهذا المعنى مروى فى الكافى أيضا.

و عن كتاب نزول القرآن للحافظ أبى نعيم يرفعه الى على بن عامر، عن أبى الحجاج، عن الأعمش، عن عطيه قال: نزلت هذه الآيه على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى على بن أبى طالب «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» و قد قال الله تعالى الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا .

و عن الفصول المهمه للمالكى قال: روى الإمام أبو الحسن الواحدى فى كتابه المسمى بأسباب النزول رفعه بسنده الى أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: نزلت هذه الآيه «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» يوم غدير خم فى على ابن أبى طالب.

أقول: و رواه فى فتح القدير عن ابن أبى حاتم و ابن مردويه و ابن عساكر عن أبى سعيد الخدرى و كذلك فى الدر المنثور.

و قوله: «بغدير خم» هو بضم الخاء المعجمه و تشديد الميم مع التنوين اسم لغيطه على ثلاثه أميال من الجحفه عندها غدير مشهور يضاف الى الغيطه، هكذا ذكره الشيخ محيى الدين النووى.

و فى فتح القدير أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: كنا نقرأ على عهد رسول صلى الله عليه وآله وسلم:

«يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» إن عليا مولى المؤمنين و إن لم تفعل فما بلغت رسالته و الله يعصمك من الناس.

أقول: و هذه نبذه من الأخبار الداله على نزوله قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» الخ؛ فى حق على عليه السلام يوم غدير خم، و أما حديث الغدير أعنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم «من كنت مولاه فعلى مولاه» فهو حديث متواتر منقول من طرق الشيعة و أهل السنه بما يزيد على مائه طريق.

وقد روى عن جمع كثير من الصحابه منهم البراء بن عازب، وزيد بن أرقم، وأبو أيوب الأنصاري، وعمر بن الخطاب، وعلي بن ابي طالب، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، وبريده، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عباس، وأبو هريره، وجابر بن عبد الله، وأبو سعيد الخدري، وأنس بن مالك، وعمران بن الحصين، وابن أبي أوفى، وسعدانه، وامراه زيد بن أرقم.

وقد أجمع عليه أئمه أهل البيت عليهم السلام، وقد ناشد على عليه السلام الناس بالرحبه في الحديث فقام جماعه من الصحابه حضروا المجلس، فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقوله يوم الغدير.

وفي كثير من هذه الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: أيها الناس أستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى، قال: من كنت مولاه فعلى مولاه كما في عده من الأخبار التي رواها أحمد بن حنبل في مسنده أو رواها غيره، وقد افردت لإحصاء طرقها والبحث في متنها تأليف من أهل السنه والشيعة بحثوا فيها بما لا مزيد عليه.

وعن كتاب السمطين للحمويني بإسناده عن أبي هريره قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ليله اسرى بي الى السماء السابعة سمعت نداء من تحت العرش: إن عليا آيه الهدى، وحيب من يؤمن بي، بلغ عليا عليه السلام، فلما نزل النبي صلى الله عليه وآله وسلم من السماء أنسى ذلك فأنزل الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

وفي فتح القدير: أخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله قال: لما غزا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنى أنمار نزل ذات الرقيع بأعلى نخل فبينما هو جالس على رأس بئر قد دلى رجليه فقال الوارث من بنى النجار: لأقتلن محمدا، فقال له أصحابه: كيف تقتله؟ قال: أقول له: أعطنى سيفك فاذا أعطانيه قتلته به، فأتاه فقال: يا محمد أعطنى سيفك أشمه فأعطاه إياه فرعدت يده حتى سقط السيف من يده فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: حال الله بينك وبين ما تريد، فأنزل الله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا

الرَّسُولُ بَلَّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ» الآية.

أقول: ثم ذكر في فتح القدير أن ابن حبان أخرجه في صحيحه و أخرجه أيضا ابن مردويه عن أبي هريره نحو هذه القصة و لم يسم الرجل، و أخرج ابن جرير من حديث محمد بن كعب القرظي نحوه، و قصه غورث بن الحارث ثابتته في الصحيح، و هي معروفة مشهوره (انتهى)، و لكن الشأن تطبيق القصة على المحصل من معنى الآية، و لن تنطبق أبدا.

و في الدر المنثور و فتح القدير و غيرهما عن ابن مردويه و الضياء في المختاره عن ابن عباس:

أن رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم سئل: أى آيه انزلت من السماء أشد عليك؟ فقال: كنت بمنى أيام موسم فاجتمع مشركوا العرب و أفناء الناس فى الموسم فانزل على جبريل فقال «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ» الآية.

قال: فقامت عند العقبة فناديت: يا أيها الناس من ينصرنى على أن ابلي رساله ربي و له الجنة؟ أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله و أنا رسول الله إليكم تفلحوا و تنجحوا و لكم الجنة.

قال: فما بقي رجل و لا امرأة و لا صبي إلا يرمون بالتراب و الحجارة، و ييزقون فى وجهي و يقولون: كذاب صابئ فعرض على عارض فقال: يا محمد إن كنت رسول الله فقد آن لك أن تدعو عليهم كما دعا نوح على قومه بالهلاك، فقال النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون.

فجاء العباس عمه فأنقذهم منه و جردهم عنه.

أقول: الآية بتمامها لا ينطبق على هذه القصة على ما عرفت تفصيل القول فيه.

اللهم إلا- أن تحمل الروايه على نزول قطعه من الآية- و هي قوله: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» فى ذلك اليوم، و ظاهر الروايه يآباه، و نظيرها ما يأتى.

و فى الدر المنثور و فتح القدير: أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: لما نزلت «بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» قال: يا رب إنما أنا واحد كيف أصنع؟

يجتمع على اناس فنزلت «وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتَهُ» .

و فيها عن الحسن: أن رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم قال: إن الله بعثني برسالته فضقت بها ذرعا، و عرفت أن الناس مكذبي فوعدني لابلغن أو ليعذبني فأنزل «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» .

أقول: الروايتان على ما فيهما من القطع و الإرسال فيهما ما في سابقتهما، و نظيرتهما في هذا التشويش بعض ما ورد في أن رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم كان يحترس برجال فلما نزلت الآية فرقهم و قال عليه السلام: إن ربي و عدني أن يعصمني .

و في تفسير المنار: روى أهل التفسير المأثور و الترمذى و أبو الشيخ و الحاكم و أبو نعيم و البيهقى و الطبرانى عن بضعة رجال من الصحابة: أن النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم كان يحرس في مكة قبل نزول هذه الآية فلما نزلت ترك الحرس، و كان أبو طالب أول الناس اهتماما بحراسته، و حرسه العباس أيضا .

و فيه: و مما روى في ذلك عن جابر و ابن عباس أن النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم كان يحرس، و كان يرسل معه عمه أبو طالب كل يوم رجالا من بنى هاشم حتى نزلت الآية فقال: يا عم إن الله قد عصمني لا حاجة لى الى من يبعث .

أقول: و الروايتان - كما ترى - تدلان على ان الآية نزلت فى أواسط إقامة النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم بمكة و انه صَلَّى الله عليه وآله وسلم بلغ رسالته زمانا و اشتد عليه أمر إيذاء الناس و تكذيبهم حتى خاف على نفسه منهم فترك التبليغ و الدعوه فامر ثانيا بالتبليغ، و هدد من جانب الله سبحانه، و وعد بالعصمه، فاشتغل ثانيا بما كان يشتغل به اولاً، و هذا شىء يجلب عنه ساحة النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم .

و فى الدر المشهور و فتح القدير: أخرج عبد بن حميد و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقى كلاهما فى الدلائل عن عائشه قالت: كان رسول الله يحرس حتى نزلت «وَ اللَّهُ يَعْصِي مَمَّكَ مِنَ النَّاسِ» فأخرج رأسه من القبه

فقال: أيها الناس انصرفوا فقد عصمتي الله.

اقول: و الروايه - كما ترى - ظاهره في نزولها بالمدينه.

و في تفسير الطبرى عن ابن عباس فى قوله: «وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ» يعنى إن كتمت آيه أنزل اليك لم تبلغ رسالته.

اقول: إن كان المراد به آيه معينه أى حكم معين مما أنزل الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فله وجه صحه، و إن كان المراد به التهديد فى أى آيه فرضت أو حكم قدر فقد عرفت فيما تقدم أن الآيه لا تلائم بمضمونها.

[سورة المائده (٥): الآيات ٦٨ الى ٨٦]

إشارة

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسِيْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩) لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَرُسُلًا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كَلَّمْنَا بَعْضَهُمْ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثَةٌ وَمِمَّنْ مِنْهُ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَنِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَعْبُدُونَ مَنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) لِعَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١) لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَجَعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّمَا فَكُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَنَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦)

قوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ

وَ الْإِنْجِيلَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الْإِنْسَانُ يَجِدُ مِنْ نَفْسِهِ خَلَالَ أَعْمَالِهِ أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ إِعْمَالَ قُوَّةٍ وَ شَدَّهَ فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ، وَجِبَ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى مَسْتَوًى يَسْتَوِي عَلَيْهِ أَوْ يَتَّصِلَ بِهِ كَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَجْذِبَ أَوْ يَدْفَعُ أَوْ يَحْمِلَ أَوْ يَقِيمَ شَيْئًا ثَقِيلًا فَإِنَّهُ يَثْبِتُ قَدَمَيْهِ عَلَى الْأَرْضِ أَوْ لَا ثُمَّ يَصْنَعُ مَا شَاءَ لِمَا يَعْلَمُ أَنْ لَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ يَتَيَسَّرَ لَهُ مَا يَرِيدُ، وَ قَدْ بَحِثَ عَنْهُ فِي الْعُلُومِ الْمَرْبُوطَةِ بِهِ.

وَ إِذَا أُجْرِينَا هَذَا الْمَعْنَى فِي الْأُمُورِ الْمَعْنَوِيَّةِ كَأَفْعَالِ الْإِنْسَانِ الرَّوْحِيِّ أَوْ مَا يَتَعَلَّقُ مِنْ أَفْعَالِ الْجَوَارِحِ بِالْأُمُورِ النَّفْسِيَّةِ كَانَ ذَلِكَ مُنْتَجَا أَنْ صَدُورَ مَهَامِ الْأَفْعَالِ وَ عِظَائِمِ الْأَعْمَالِ يَتَوَقَّفُ عَلَى أَسْ مَعْنَوِيٍّ وَ مَبْنِيٍّ قُوَّةً نَفْسِيًّا كَتَوَقُّفِ جَلَائِلِ الْأُمُورِ عَلَى الصَّبْرِ وَ الثَّبَاتِ وَ عُلُوِّ الْهَمِّهِ وَ قُوَّةِ الْعِزْمَةِ وَ تَوَقُّفِ النَّجَاحِ فِي الْعِبُودِيَّةِ عَلَى حَقِّ التَّقْوَى وَ الْوَرَعِ عَنِ مَحَارِمِ اللَّهِ.

وَ مِنْ هُنَا يَظْهَرُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: «لَسِيْتُمْ عَلَيَّ شَيْءٌ» كُنَايَةٌ عَنِ عَدَمِ اعْتِمَادِهِمْ عَلَى شَيْءٍ يَثْبِتُ عَلَيْهِ أَقْدَامَهُمْ فَيَقْدِرُوا بِذَلِكَ عَلَى إِقَامَةِ التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ تَلْوِيحًا إِلَى أَنَّ دِينَ اللَّهِ وَ حُكْمَهُ لَهَا مِنَ الثَّقَلِ مَا لَا يَتَيَسَّرُ حَمْلُهُ لِلْإِنْسَانِ حَتَّى يَعْتَمِدَ عَلَى أَسَاسٍ ثَابِتٍ وَ لَا يُمْكِنُ إِقَامَتُهُ بِمَجْرَدِ هَوَىٍّ مِنْ نَفْسِهِ كَمَا يَشِيرُ تَعَالَى إِلَى ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِقَوْلِهِ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (المزمل ٥/٥)، وَ قَوْلَهُ: لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (الحشر ٢١/٢١)، وَ قَوْلَهُ: إِذَا عَرَضْنَا الْأُمَمَ لَهُ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَ أَشْفَقْنَ مِنْهَا الْآيَةَ (الأحزاب ٧٢/٧٢).

وَ قَالَ فِي أَمْرِ التَّوْرَةِ خُطَابًا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَخَذُّهَا بِقُوَّتِهِ وَ أَمَرَ قَوْمَهُ أَنْ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا (الأعراف ١٤٥/١٤٥)، وَ قَالَ خُطَابًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّتِهِ (البقرة ٦٣/٦٣) وَ قَالَ خُطَابًا لِيَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّتِهِ (مريم ١٢/١٢).

فَيَعُودُ الْمَعْنَى إِلَى أَنْكُمْ فَاقْدُوا الْعِمَادَ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْتَمِدُوا عَلَيْهِ فِي إِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ فِي كِتَابِهِ وَ هُوَ التَّقْوَى وَ الْإِنَابَةُ إِلَى اللَّهِ بِالرُّجُوعِ إِلَيْهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى وَ الْإِتِّصَالُ

به و الإيواء الى ركنه بل مستكبرون عن طاعته و متعدون حدوده.

و يظهر هذا المعنى من قوله تعالى خطابا لنبيه و المؤمنين: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى فجمع الدين كله فيما ذكره، ثم قال: أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ فبين أن ذلك كله يرجع الى إقامه الدين كلمه واحده من غير تفرق ثم قال: كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ وَ ذَلِكَ لَكِبْرِ الِاتِّفَاقِ وَ الِاسْتِقَامَةِ فِي اتِّبَاعِ الدِّينِ عَلَيْهِمْ، ثم قال: اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ فَأنبأ أن إقامه الدين لا يتيسر إلا بهدايه من الله، ولا يصلح لها إلا- المتصف بالإنابه التى هى الاتصال بالله و عدم الانقطاع عنه بالرجوع اليه مره بعد اخرى، ثم قال: وَ مَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ فَذكر أن السبب فى تفرقهم و عدم إقامتهم للدين هو بغيهم و تعديهم عن الوسط العدل المضروب لهم (الشورى ١٤).

و أما قوله تعالى: وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَ كُفْرًا فَقدم البحث عن معناه، و قوله: «فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» تسليه منه تعالى لنبيه صلى الله عليه و آله و سلم فى صورته النهى عن الأسى.

قوله تعالى: إِنَّ الدِّينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَادُوا وَ الصَّابِئُونَ وَ النَّصَارَى الآيه ظاهرها أن الصابئون عطف على «الَّذِينَ آمَنُوا» بحسب موضعه و جماعه من النحويين يمنعون العطف على اسم إن بالرفع قبل مضى الخبر، و الآيه حجه عليهم.

و الآيه فى مقام بيان أن لا- عبره فى باب السعاده بالأسماء و الألقاب كتسمى جمع بالمؤمنين و فرقه بالذين هادوا، و طائفه بالصابئين و آخرين بالنصارى، و إنما العبره بالإيمان بالله و اليوم الآخر و العمل الصالح، و قد تقدم البحث عن معنى الآيه فى تفسير سوره البقره الآيه ال ٦٢ فى الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا إِلَى آخِرِ

الآية؛ هذه الآية و ما بعدها الى عدة آيات تتعرض لحال أهل الكتاب كالحججه على ما يشتمل عليه قوله تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسِيُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ» الخ؛ فإن هذه الجرائم و الآثام لا تدع للانسان اتصالا بربه حتى يقيم كتب الله معتمدا عليه.

و يمكن أن يكون هذه الآيات كالمبينه لقوله «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَادُوا» الخ؛ و هو كالمبين لقوله: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسِيُمْ عَلَى شَيْءٍ» الآية؛ و المعنى ظاهر.

و قوله: «فَرِيقًا كَذَّبُوا وَ فَرِيقًا يَقْتُلُونَ» الظاهر أن كلمتي «فَرِيقًا» في الموضوعين مفعولان للفعلين بعدهما قدما عليهما للعنايه بأمرهما، و التقدير: كذبوا فريقا و يقتلون فريقا، و المجموع جواب قوله: «كُلَّمَا جَاءَهُمْ» الخ؛ و المعنى نحو من قولنا: كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم أساءوا و واجهته و إجابته و جعلوا الرسل الآتين فريقين: فريقا كذبوا و فريقا تقتلون.

قال في المجمع: فإن قيل: لم عطف المستقبل على الماضي يعني في قوله: «فَرِيقًا كَذَّبُوا وَ فَرِيقًا يَقْتُلُونَ»؟ فجوابه: ليدل على أن ذلك من شأنهم فيه معنى كذبوا و قتلوا و يكذبون و يقتلون مع أن قوله: «يَقْتُلُونَ» فاصله يجب أن يكون موافقا لرءوس الآي، انتهى.

قوله تعالى: وَ حَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَ صَمُّوا الخ؛ متمم للكلام في الآية السابقه، و الحسبان هو الظن، و الفتنة هي المحنة التي تغر الإنسان أو هي أعم من كل شر و بليه، و العمى هو عدم إِبصار الحق و عدم تمييز الخير من الشر، و الصمم عدم سماع العظه و عدم الإعباء بالنصيحه، و هذا العمى و الصمم معلولا- حسبانهم أن لا تكون فتنة، و الظاهر أن حسبانهم ذلك معلول ما قدروا لأنفسهم من الكرامه بكونهم من شعب إسرائيل و أنهم أبناء الله و أحبأوه فلا- يمسهم السوء و إن فعلوا ما فعلوا و ارتكبوا ما ارتكبوا.

فمعنى الآية- و الله أعلم- أنهم لمكان ما اعتقدوا لأنفسهم من كرامه اليهود ظنوا أن لا يصيبهم سوء أو لا يفتنون بما فعلوا فأعمى ذلك الظن و الحسبان أبصارهم عن إِبصار الحق، و أصم ذلك آذانهم عن سماع ما ينفعهم من دعوه أنبيائهم.

قوله تعالى: **ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ** التوبة من الله على عباده رجوعه تعالى بالرحمة اليهم، وهذا يدل على أن الله سبحانه قد كان بعدهم من رحمته وعنايته ولذلك أخذهم الحسبان المذكور و لزمهم العمى و الصمم، لكن الله سبحانه رجع اليهم ثانية بالتوبة فرفع هذا الحسبان عن قلوبهم، و العمى و الصمم عن أبصارهم و آذانهم، فعرفوا أنفسهم بأنهم عباد لا كرامه لهم على الله إلا بالتقوى، و أبصروا الحق و سمعوا عظه الله لهم بلسان أنبيائه فتبين لهم أن التسمية لا ينفع شيئا.

ثم عموا و صموا كثير منهم، و إسناد العمى و الصمم الى جمعهم أولا ثم الى كثير منهم - بإتيان كثير منهم بدلا من واو الجمع - أخذ بالنصفه فى الكلام بالدلالة على أن إسناد العمى و الصمم الى جمعهم من قبيل إسناد حكم البعض الى الكل، و الواقع أن المتصف بهاتين الصفتين كثير منهم لا كلهم أولا، و إيماء الى أن العمى و الصمم المذكورين أولا شملا جميعهم على ما يدل عليه المقابلة ثانيا، و أن التوبة الإلهية لم يبطل أثرها و لم تذهب سدى بالمره بل نجا بالتوبة بعضهم فلم يأخذهم العمى و الصمم اللاحقان أخيرا ثالثا.

ثم ختم تعالى الآيه بقوله **«وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ»** للدلالة على أن الله تعالى لا يغفله شىء، فغيره تعالى اذا أكرم قوما بكرامه ضرب ذلك على بصره بحجاب يمنعه أن يرى منهم السوء و المكروه، و ليس الله سبحانه على هذا النعت بل هو البصير لا يحجبه شىء عن شىء.

قوله تعالى: **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ** و هذا كالبيان لكون النصارى لم تنفعهم النصرانية و الانتساب الى المسيح عليه السلام عن تعلق الكفر بهم اذا أشركوا بالله و لم يؤمنوا به حق إيمانه حيث قالوا: إن الله هو المسيح بن مريم.

و النصارى و إن اختلفوا فى كيفية اشتمال المسيح بن مريم على جوهره الالوهيه بين قائل باشتقاق اقنوم المسيح و هو العلم من اقنوم الرب (تعالى) و هو الحياه، و ذلك الابوه و البنوه،

وقائل بأنه تعالى صار هو المسيح على نحو الانقلاب، وقائل بأنه حل فيه كما تقدم بيان ذلك تفصيلا في الكلام على عيسى بن مريم عليه السلام في تفسير سوره آل عمران في الجزء الثالث من الكتاب.

لكن الأقوال الثلاثة جميعا تقبل الانطباق على هذه الكلمه (إن الله المسيح ابن مريم) فالظاهر أن المراد بالذين تفوهوا بهذه الكلمه جميع النصارى الغالين في المسيح عليه السلام لا خصوص القائلين منهم بالانقلاب.

و توصيف المسيح بابن مريم لا- يخلو من دلالة أو إشعار بسبب كفرهم و هو نسبه الالوهيه الى انسان ابن انسان مخلوقين من تراب، و أين التراب و رب الأرباب؟!

قوله تعالى: **وَ قَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ** الى آخر الآيه؛ احتجاج على كفرهم و بطلان قولهم بقول المسيح عليه السلام نفسه؛ فإن قوله عليه السلام:

«اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ» يدل على أنه عبد مربوب مثلهم، وقوله: **«إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»** يدل على أن من يجعل لله شريكا في الوهيته فهو مشرك كافر محرم عليه الجنة.

و في قوله تعالى حكاية عنه عليه السلام: **«فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَا وَاهُ النَّارُ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ»** عناية بإبطال ما ينسبونه الى المسيح من حديث التفديه، و أنه عليه السلام باختياره الصلب فدى بنفسه عنهم فهم مغفور لهم مرفوع عنهم التكليف الإلهيه و مصيرهم الى الجنة و لا يمسون نارا كما تقدم نقل ذلك عنهم في تفسير سوره آل عمران في قصه عيسى عليه السلام فقضه التفديه و الصلب إنما سقت لهذا الغرض.

و ما تحكيه الآيه من قوله عليه السلام موجود في متفرقات الأبواب من الأناجيل كالأمر

بالتوحيد (١)، وإبطال عباده المشرك (٢)، والحكم بخلود الظالمين فى النار (٣).

قوله تعالى: لَمَّا كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ أَي أَحَدُ الثَّلَاثَةِ: الأب و الابن و الروح، أى هو ينطبق على كل واحد من الثلاثة، وهذا لازم قولهم: إن الأب إله، و الابن إله، و الروح إله، و هو ثلاثة، و هو واحد يضاؤون بذلك نظير قولنا: إن زيد بن عمرو إنسان، فهناك أمور ثلاثة هى: زيد و ابن عمرو و الإنسان، و هناك أمر واحد و هو المنعوت بهذه النعوت، و قد غفلوا عن أن هذه الكثرة إن كانت حقيقته غير اعتباريه أوجبت الكثرة فى المنعوت حقيقته، و أن المنعوت إن كان واحدا حقيقته أوجب ذلك أن تكون الكثرة اعتباريه غير حقيقته فالجمع بين هذه الكثرة العديديه و الواحده العديديه فى زيد المنعوت بحسب الحقيقه مما يستنكف العقل عن تعقله.

و لذا ربما ذكر بعض الدعاه من النصارى أن مسأله التثليث من المسائل المأثوره من مذاهب الأسلاف التى لا تقبل الحل بحسب الموازين العلميه، و لم يتنبه أن عليه أن يطالب الدليل على كل دعوى يقرع سمعه سواء كان من دعاوى الأسلاف أو من دعاوى الأخلاف.

قوله تعالى: وَمِمَّنْ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ رد منه تعالى لقولهم «إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ» بأن الله سبحانه لا يقبل بذاته المتعاليه الكثره بوجه من الوجوه فهو تعالى فى ذاته واحد، و اذا اتصف بصفاته الكريمه و أسمائه الحسنى لم يزد ذلك على ذاته الواحده شيئا، و لا الصفه اذا أضيفت الى الصفه أورت ذلك كثره و تعددا فهو تعالى احدى الذات لا ينقسم لا فى خارج و لا فى وهم و لا فى عقل.

فليس الله سبحانه بحث يتجزأ فى ذاته الى شىء و شىء قط، و لا أن ذاته بحيث يجوز أن

ص: ١٨٩

١-١. الاصحاح ١٢:٢٩ (انجيل مرقس).

٢-٢. الاصحاح ٦:٢٤ (انجيل متى).

٣-٣. الاصحاح ٢٥:٣١، ٥٠:١٣-٤٧ (انجيل متى ايضا).

يُضَافُ إِلَيْهِ شَيْءٌ فِيصِيرُ اثْنَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ، كَيْفَ؟ وَهُوَ تَعَالَى مَعَ هَذَا الشَّيْءِ الَّذِي تَرَادُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِ تَعَالَى فِي وَهْمٍ أَوْ فَرَضٍ أَوْ خَارِجٍ.

فَهُوَ تَعَالَى وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ لَكِنْ لَا بِالْوَحْدَةِ الْعَدَدِيَّةِ الَّتِي لِسَائِرِ الْأَشْيَاءِ الْمَتَكُونِ مِنْهَا الْكَثْرَاتُ، وَ لَا مَنَعُوتٍ بِكَثْرَتِهِ فِي ذَاتٍ أَوْ اسْمٍ، أَوْ صِفَةٍ، كَيْفَ؟ وَ هَذِهِ الْوَحْدَةُ الْعَدَدِيَّةُ وَ الْكَثْرَةُ الْمَتَأَلِّفَةُ مِنْهَا كِلْتَاهُمَا مِنْ آثَارِ صِنْعِهِ وَ إِيجَادِهِ فَكَيْفَ يَتَصَفَّ بِمَا هُوَ مِنْ صِنْعِهِ؟

وَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ» مِنَ التَّأَكِيدِ فِي إِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهِ حَيْثُ سَبَقَ الْكَلَامُ بِنَحْوِ النَّفْيِ وَ الْإِسْتِثْنَاءِ، ثُمَّ أُدْخِلَ «مِنْ» عَلَى النَّفْيِ لِإِفَادَةِ التَّأَكِيدِ الْإِسْتِغْرَاقِ، ثُمَّ جِيءَ بِالْمُسْتَشْنَى وَ هُوَ قَوْلُهُ: «إِلَهُ وَاحِدٌ» بِالتَّنْكِيرِ الْمَفِيدِ لِلتَّنْوِيحِ وَ لَوْ أُورِدَ مَعْرِفَهُ كَقَوْلِنَا «إِلَّا إِلَهُ الْوَاحِدِ» لَمْ يَفِدْ مَا يَرَامُ مِنْ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ.

فَالْمَعْنَى: لَيْسَ فِي الْوُجُودِ شَيْءٌ مِنْ جِنْسِ الْإِلَهِ أَصْلًا إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ نَوْعًا مِنَ الْوَحْدَةِ لَا يَقْبَلُ التَّعَدُّدَ أَصْلًا لَا تَعَدُّدَ الذَّاتِ وَ لَا تَعَدُّدَ الصِّفَاتِ، لَا خَارِجًا وَ لَا فَرَضًا، وَ لَوْ قِيلَ: وَ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ لَمْ يَدْفَعْ بِهِ قَوْلُ النَّصَارِيِّ (إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ) فَإِنَّهُمْ لَا يَنْكُرُونَ الْوَحْدَةَ فِيهِ تَعَالَى، وَ إِنَّمَا يَقُولُونَ: إِنَّهُ ذَاتٌ وَاحِدَةٌ لَهَا تَعْيِينٌ بِصِفَاتِهَا الثَّلَاثِ، وَ هِيَ وَاحِدَةٌ فِي عَيْنِ أَكْثَرِهِ حَقِيقَةً.

وَ لَا يَنْدَفِعُ مَا احْتَمَلُوهُ مِنَ الْمَعْنَى إِلَّا بِإِثْبَاتِ وَحْدِهِ لَا تَتَأَلَّفُ مِنْهُ كَثْرَةٌ أَصْلًا، وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَخَّاهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِقَوْلِهِ «وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ».

وَ هَذَا مِنْ لَطَائِفِ الْمَعَانِي الَّتِي يَلُوحُ إِلَيْهَا الْكِتَابُ الْإِلَهِيُّ فِي حَقِيقَتِهِ مَعْنَى التَّوْحِيدِ وَ سَنُغَوِّرُ فِي الْبَحْثِ الْمُسْتَوْفَى عَنْهُ فِي بَحْثِ قُرْآنِيٍّ خَاصٍّ ثُمَّ فِي بَحْثِ عَقْلِيٍّ وَ آخِرُ نَقْلِ إِيْفَاءٍ لِحَقِّهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ تَهْدِيدٌ لَهُمْ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ الْآخِرِيِّ الَّذِي هُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ».

وَ لَمَّا كَانَ الْقَوْلُ بِالتَّثْلِيثِ الَّذِي تَتَضَمَّنُهُ كَلِمَةُ «إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ» لَيْسَ فِي وَسْعِ عَقُولِ

عامه الناس أن تتعقله فأغلب النصارى يتلقونه قولاً مذهيباً مسلماً بلفظه من غير أن يعقلوا معناه، ولا أن يطمعوا في تعقله كما ليس في وسع العقل السليم أن يعقله عقلاً صحيحاً، وإنما يتعقل كتعقل الفروض المحاله كالإنسان اللاإنسان، والعدد الذي ليس بواحد ولا كثير ولا زوج ولا فرد فلذلك تتسلمه العامه تسلماً من غير بحث عن معناه، وإنما يعتقدون في النبوه والابوه شبه معنى التشريف فهؤلاء في الحقيقه ليسوا من أهل التثليث، وإنما يمضغون الكلمه مضغاً، و ينتمون إليها انتماء بخلاف غير العامه منهم و هم الذين ينسب الله سبحانه اليهم اختلاف المذاهب و يقرر أن ذلك بغيهم كما قال تعالى: **أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ -** الى أن قال - **وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ** (الشورى ١٤).

فالكفر الحقيقى الذى لا ينتهى الى استضعاف - هو الذى فيه إنكار التوحيد و التكذيب بآيات الله - إنما يتم فى بعضهم دون كلهم، وإنما أوعد الله بالنار الخالد الذين كفروا و كذبوا بآيات الله، قال **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (البقره ٣٩) الى غير ذلك من الآيات، وقد مر الكلام فى ذلك فى تفسير قوله تعالى: **إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ** الآية (النساء ٩٨).

و لعل هذا هو السر فى التبعيض الظاهر فى قوله: **«لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ»** أو أن المراد به الإشارة الى أن من النصارى من لا يقول بالتثليث، ولا يعتقد فى المسيح إلا - أنه عبد الله و رسوله، كما كانت على ذلك مسيحيو الحبشه و غيرها على ما ضبطه التاريخ فالمعنى: لئن لم ينته النصارى عما يقولون (نسبه قول بعض الجماعه الى جميعهم) ليمسن الذين كفروا منهم - وهم القائلون بالتثليث منهم - عذاب أليم.

و ربما وجهوا الكلام أعنى قوله: **«لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ»** بأنه من قبيل وضع الظاهر موضع المضمرة، و الأصل: ليمسنهم (انتهى)، و إنما عدل الى وضع الموصول وصلته مكانه ليدل على أن ذلك القول كفر بالله، و أن الكفر سبب العذاب الذى توعدهم به.

و هذا وجه لا- بأس به لو لا- أن الآيه مصدره بقوله «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ» و نظيره فى البعد قول بعض آخر: إن «من» فى قوله: «مِنْهُمْ» بيانيه فإنه قول من غير دليل.

أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ تحضيض على التوبه و الاستغفار، و تذكير بمغفره الله و رحمته، أو إنكار أو توبيخ.

قوله تعالى: يَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا- رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ رد لقولهم «إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ» أو لقولهم هذا و قولهم المحكى فى الآيه السابقه «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ» جميعا، و محصله اشتمال المسيح على جوهره الالوهيه، بأن المسيح لا يفارق سائر رسل الله الذين توفاهم الله من قبله كانوا بشرا مرسلين من غير أن يكونوا أربابا من دون الله سبحانه، و كذلك أمه مريم كانت صديقه تصدق بآيات الله تعالى و هى بشر، و قد كان هو و أمه جميعا يأكلان الطعام، و أكل الطعام مع ما يتعقبه مبنى على أساس الحاجه التى هو أول إماره من أمارات الإمكان و المصنوعيه فقد كان المسيح عليه السلام ممكنا متولدا من ممكن، و عبدا و رسولا مخلوقا من أمه كانا يعبدان الله، و يجريان فى سبيل الحاجه و الافتقار من دون أن يكون ربا.

و ما بيد القوم من كتب الإنجيل معترفه بذلك تصرح بكون مريم فتاه كانت تؤمن بالله و تعبه، و تصرح بأن عيسى تولد منها كالانسان من الإنسان، و تصرح بأن عيسى كان رسولا- من الله الى الناس كسائر الرسل و تصرح بأن عيسى و أمه مريم كانا يأكلان الطعام.

فهذه امور صرحت بها الأناجيل، و هى حجج على كونه عليه السلام عبدا رسولا.

و يمكن أن تكون الآيه مسوقه لنفى ألوهيه المسيح و أمه كليهما على ما يظهر من قوله تعالى:

أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ (المائدة ١١٦) أنه كان هناك من يقول بالوهيتها كالمسيح أو أن المراد به اتخاذها إلها كما ينسب الى أهل الكتاب أنهم اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون الله، و ذلك بالخضوع لها و لهم بما لا يخضع لبشر بمثله.

و كيف كان فالآية على هذا التقدير تنفى عن المسيح و أمه معا الالوهيه بأن المسيح كان رسولا كسائر الرسل، و أمه كانت صديقه، و هما معا كانا يأكلان الطعام، و ذلك كله ينافى الالوهيه.

و فى قوله تعالى: «قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ» حيث وصف الرسل بالخلو من قبله، و هو الموت تأكيد للحجه بكونه بشرا يجوز عليه الموت و الحياه كما جاز على الرسل من قبله.

قوله تعالى: «أَنْظُرْ كَيْفَ بُيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ» الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و هو فى مقام التعجيب أى تعجب من كيفيه بياننا لهم الآيات، و هو أوضح بيان لأظهر آيه فى بطلان دعواهم الوهيه المسيح، و كيفيه صرفهم عن تعقل هذه الآيات؛ فالى أى غايه يصرفون عنها، و لا تلتفت الى نتيجتها- و هى بطلان دعواهم- عقولهم؟

قوله تعالى: «قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» كان الخضوع لأمر الربوبيه إنما انتشر بين البشر فى أقدم عهوده، و خاصه بين العامه منهم- و عامتهم كانوا يعبدون الأصنام- طمعا فى أن يدفع الرب عنهم الشر و يوصل اليهم النفع كما يتحصل من الأبحاث التاريخيه، و أما عباده الله لأنه الله عز اسمه فلم يكن يعدو الخواص منهم كالأنبياء و الربانيين من اممهم.

قوله تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ» خطاب آخر للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بأمره أن يدعو أهل الكتاب الى عدم الغلو فى دينهم، و أهل الكتاب و خاصه النصارى مبتلون بذلك، و «الغالى» المتجاوز عن الحد بالإفراط، و يقابله «القالى» فى طرف التفريط.

قوله تعالى: «وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَ ضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ» ظاهر السياق أن المراد بهؤلاء القوم الذين نهوا عن اتباع أهوائهم هم المتبوعون المطاعون فى آرائهم و أوامرهم فيكون ضلالهم لمكان التزامهم بآرائهم؛ إضلالهم كثيرا هو اتباع غيرهم لهم، و ضلالهم عن سواء السبيل هو المتحصل لهم من ضلالهم

و إضلالهم، و هو ضلال على ضلال.

و كذلك ظاهر السياق أن المراد بهم هم الوثنيه و عبده الأصنام فإن ظاهر السياق أن الخطاب إنما هو لجميع أهل الكتاب لا للمعاصرين منهم للنبي صلى الله عليه و آله و سلم حتى يكون نهيا لمتأخريهم عن اتباع متقدميهم.

قوله تعالى: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ إخبار بأن الكافرين منهم ملعونون بلسان أنبيائهم، و فيه تعريض لهؤلاء الذين كفرهم الله في هذه الآيات من اليهود ملعونين بدعوه أنبيائهم أنفسهم، و ذلك بسبب عصيانهم لأنبيائهم، و هم كانوا مستمرين على الاعتداء و قوله: «كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ» الخ؛ بيان لقوله «وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ» .

قوله تعالى: تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الخ؛ و هذا من قبيل الاستشهاد بالحس على كونهم معتدين فإنهم لو قدروا دينهم حق قدره لزموه و لم يتعدوه، و لازم ذلك أن يتولوا أهل التوحيد و يتبرءوا من الذين كفروا لأن أعداء ما يقدره قوم أعداء لذلك القوم، فإذا تحابوا و توالوا دل ذلك على إعراض ذلك القوم و تركهم ما كانوا يقدرونه و يحترمونه، و صديق العدو عدو، ثم ذمهم الله تعالى بقوله «لَبِئْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُمْ أَنْفُسَهُمْ» و هو ولاية الكفار عن هوى النفس، و كان جزاؤه و وبالاه «أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ فِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ»، ففي الآيه وضع جزاء العمل و عاقبته موضع العمل كأن أنفسهم قدمت لهم جزاء العمل بتقديم نفس العمل.

وَ لَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ النَّبِيِّ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا لَهُمْ أَوْلِيَاءَ وَ لَكِن كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ أى و لو كان أهل الكتاب هؤلاء يؤمنون بالله و النبي محمد صلى الله عليه و آله و سلم و ما أنزل إليه، أو نبي أنفسهم كموسى مثلا و ما أنزل إليه كالتوراه مثلا ما اتخذوا أولئك الكفار أولياء لأن الإيمان يجب سائر الأسباب، و لكن كثيرا منهم فاسقون متمردون عن الإيمان.

قوله تعالى: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا - الى قوله - نَصَارَى لما بين سبحانه فى الآيات السابقة الرذائل المشتركة بين أهل الكتاب عامه، وبعض ما يختص ببعضهم كقول اليهود يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ وقول النصارى «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ» ختم الآيات بما يختص به كل من الطائفتين اذا قيس حالهم من المؤمنين ودينهم، و أضاف الى حالهم حال المشركين ليتم الكلام فى وقع الإسلام من قلوب الامم غير المسلمه من حيث قربهم و بعدهم من قبوله.

و يتم الكلام فى أن النصارى أقرب تلك الامم موده للمسلمين و اسمع لدعوتهم الحقه.

و إنما عددهم الله سبحانه أقرب موده للمسلمين لما وقع من إيمان طائفه منهم بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كما يدل عليه قوله فى الآيه التاليه: «وَ إِذَا سَأَلْتَهُمْ مَا نُزِّلَ إِلَيْكَ الرَّسُولِ» الخ؛ لكن لو كان إيمان طائفه تصحح هذه النسبه الى جميعهم كان من الواجب أن تعد اليهود و المشركون كمثل النصارى و ينسب اليهما نظير ما نسب اليهم لمكان إسلام طائفه من اليهود كعبد الله بن سلام و أصحابه، و إسلام عدده من مشركى العرب و هم عامه المسلمين اليوم فتخصيص النصارى بمثل قوله:

«وَ إِذَا سَأَلْتَهُمْ مَا نُزِّلَ إِلَيْكَ الرَّسُولِ» الخ؛ دون اليهود و المشركين يدل على حسن إقبالهم على الدعوه الإسلاميه و إجابته النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مع أنهم على خيار بين أن يقيموا على دينهم و يؤدوا الجزيه، و بين أن يقبلوا الإسلام، أو يحاربوا.

و من المعلوم أن قوله تعالى: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا» من قبيل بيان الضابط العام فى صورته خطاب خاص نظير ما مر فى الآيات السابقه «تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا» و «تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ» .

قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ القسيس معرب «كشيش» و الرهبان جمع الراهب و قد يكون مفردا، قال الرغب: الرهبه و الرهب مخافه مع تحرز-الى أن قال-و الترهب التعبد، و الرهبانيه غلو فى تحمل التعبد من

فرط الرهبه، قال تعالى: «وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا» و الرهبان يكون واحدا و جمعا فمن جعله واحدا جمعه على رهابين، انتهى.

علل تعالى ما ذكره من كون النصارى أقرب موده و آنس قلوبا للذين آمنوا بخصال ثلاث يفقدها غيرهم من اليهود و المشركين، و هى أن فيهم علماء و ان فيهم رهبانا و زهادا، و أنهم لا يستكبرون و ذلك مفتاح تهيئهم للسعاده.

قوله تعالى: «وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ السَّخِّ بِأَضْحَامٍ فَاضَتْ الْعَيْنُ بِالدَّمْعِ سَالٌ دَمْعَهَا بكَثْرَتِهِ، وَ«مِنْ» فِي قَوْلِهِ: «مِنَ الدَّمْعِ» لِلابْتِدَاءِ، وَ فِي قَوْلِهِ: «مِمَّا» لِلنَّشِوَاءِ، وَ فِي قَوْلِهِ: «مِنَ الْحَقِّ» بَيَانِيهِ.

قوله تعالى: «وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ السَّخِّ لَفْظُهُ «يُدْخِلُنَا» كَأَنَّهَا مُضْمَنَةٌ مَعْنَى الْجَعْلِ، وَ لِذَلِكَ عَدَى بِمَعٍ، وَ الْمَعْنَى: يَجْعَلُنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ مَدْخَلًا لَنَا فِيهِمْ.

و فى هذه الأفعال و الأقوال التى حكاها الله تعالى عنهم تصديق ما ذكره عنهم أنهم أقرب موده للذين آمنوا، و تحقيق أن فيهم العلم النافع و العمل الصالح و الخضوع للحق حيث كان فيهم قسيسون و رهبان و هم لا يستكبرون.

قوله تعالى: فَأَذَابَهُمُ اللَّهُ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ «وَالْإِثَابَةُ» الْمَجَازَةُ، وَ الْآيَةُ الْأُولَىٰ ذَكَرَ جَزَائِهِمْ، وَ الْآيَةُ الثَّانِيَةُ فِيهَا ذَكَرَ جَزَاءَ مَنْ خَالَفَهُمْ عَلَىٰ طَرِيقِ الْمَقَابَلَةِ اسْتِيفَاءً لِلْأَقْسَامِ (١)(٢)(٣)(٤).

ص: ١٩٦

- ١- ١). المائدة ٦٨-٨٦: بحث روائى فى: لعن بنى اسرائيل على لسان داود و عيسى بن مريم؛ مسخ جماعه من بنى اسرائيل؛ عيسى بن مريم عليه السلام؛ هجره جماعه من المسلمين الى الحبشه.
- ٢- ٢). المائدة ٦٨-٨٦: كلام فى معنى التوحيد فى القرآن.
- ٣- ٣). المائدة ٦٨-٨٦: بحث روائى فى التوحيد.
- ٤- ٤). المائدة ٦٨-٨٦: بحث تاريخى فى توحيد الصانع.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (۸۷) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (۸۸) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَّةً يَوْمَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۸۹)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ، قال الراغب في المفردات: الحرام الممنوع منه إما بتسخير إلهي، وإما بمنع قهري، وإما بمنع من جهة العقل أو جهة الشرع أو من جهة من يرتسم أمره، انتهى موضع الحاجة.

وقال أيضا: أصل الحل حل العقد، ومنه قوله عز وجل: وَاحْتُلِّ عُقْدَةٌ مِنْ لِسَانِي ، و حللت: نزلت، أصله من حل الأحمال عند النزول ثم جرد استعماله للنزول ف قيل: حل حلولا وأحله غيره، قال عز وجل: أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ، وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ، و يقال: حل الدين وجب أداؤه، والحله القوم النازلون وحى حلال مثله، والمحلّه مكان النزول، وعن حل العقده استعير قولهم: حل الشيء حلا قال الله تعالى «وَ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ

حَلَالًا طَيِّبًا، و قال تعالى: هَذَا حَلَالٌ وَ هَذَا حَرَامٌ، انتهى.

فالظاهر أن مقابله الحل الحرمة، وكذا التقابل بين الحل و الحرمة أو الإحرام من جهة تخيل العقد فى المنع الذى هو معنى الحرمة و غيرها ثم مقابله بالحل المستعار لمعنى الجواز و الإباحة، و اللفظان أعنى الحل و الحرمة من الحقائق العرفية قبل الإسلام دون الشرعية أو المتشريعة.

و الآيه أعنى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا﴾ الخ؛ تنهى المؤمنين عن تحريم ما أحل الله لهم، و تحريم ما أحل الله هو جعله حراما كما جعله الله تعالى حلالا و ذلك إما بتشريع قبال تشريع، و إما بالمنع أو الامتناع بأن يترك شيئا من المحللات بالامتناع عن إتيانه أو منع نفسه أو غيره من ذلك فإن ذلك كله تحريم و منه و منازعه لله سبحانه فى سلطانه و اعتداء عليه ينافى الايمان بالله و آياته، و لذلك صدر النهى بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فإن المعنى: لا تحرموا ما أحل الله لكم و قد آمنتكم به و سلمتم لأمره.

و يؤيده أيضا قوله فى ذيل الآيه التالية: ﴿وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

و إضافه قوله: «طَيِّبَاتٍ» الى قوله: ﴿مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ - مع أن الكلام تام بدونه - للإشاره الى تتميم سبب النهى فإن تحريم المؤمنين لما أحل الله لهم على أنه اعتداء منهم على الله فى سلطانه، و نقض لإيمانهم بالله و تسليمهم لأمره كذلك هو خروج منهم عن حكم الفطره، فإن الفطره تستطيب هذه المحللات من غير استخبات، و قد أخبر الله سبحانه عن ذلك فيما نعت به نبيه صلى الله عليه و آله و سلم و الشريعة التى جاء بها حيث قال الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ الْأَنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَ يَحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْجَبَائِثَ وَ يُضَعُّ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (الأعراف / ١٥٧).

فمحصل مفاد الآيه النهى عن تحريم ما أحله الله بالاجتناب عنه و الامتناع من الاقتراب منه فإنه يناقض الإيمان بالله و آياته و يخالف كون هذه المحللات طيبات لا خباثه فيها حتى يجتنب عنها لأجلها، و هو اعتداء و الله لا يحب المعتدين.

قوله تعالى: **وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** قد عرفت أن ظاهر السياق أن المراد بالاعتداء هو التحريم المذكور فى الجمله السابقه عليه فقوله **«وَلَا تَعْتَدُوا** يجرى مجرى التأكيد لقوله **«لَا تُحَرِّمُوا»** الخ.

قوله تعالى: **وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا** الى آخر الآيه؛ ظاهر العطف أعنى الانعطاف قوله: **«وَكُلُوا»** على قوله: **«لَا تُحَرِّمُوا»** أن يكون مفاد هذه الآيه بمنزله التكرار و التأكيد لمضمون الآيه السابقه، و يؤيده سياق صدر الآيه من حيث اشتماله على قوله:

«حَلالًا طَيِّبًا»، و هو يحاذى قوله فى الآيه السابقه: **«طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ»**، و كذا ذيلها من حيث المحاذاه الواقعه بين قوله فيه: **«وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ»** و قوله فى الآيه السابقه: **«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا»** و قد مر بيانه.

و على هذا فقوله: **«كلوا»** الخ؛ من قبيل ورود الأمر عقيب الحظر، و تخصيص قوله: **«كلوا»** بعد تعميم قوله: **«لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ»** الخ؛ إما تخصيص بحسب اللفظ فقط، و المراد بالأكل مطلق التصرف فيما رزقه الله تعالى من طيبات نعمه، سواء كان بالأكل بمعنى التغذى أو بسائر وجوه التصرف، و قد تقدم مرارا أن استعمال الأكل بمعنى مطلق التصرف استعمال شائع ذائع.

و إما أن يكون المراد- و من الممكن ذلك- الأكل بمعناه الحقيقى، و يكون سبب نزول الآيتين تحريم بعض المؤمنين فى زمن النزول المأكولات الطيبه على أنفسهم فتكون الآيتان نازلتين فى النهى عن ذلك، و قد عمم النهى فى الآيه الاولى للأكل و غيره إعطاء للقاعده الكليه لكون ملاك النهى يعم محللات الأكل و غيرها على حد سواء.

و قوله: **«مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ»** لازم ما استظهرناه من معنى الآيتين كونه مفعولا لقوله **«كلوا»**

و قوله: «حَلَالًا طَيِّبًا» حالين من الموصول و بذلك تتوافق الآيتان، و ربما قيل: إن قوله:

«حَلَالًا- طَيِّبًا» مفعول قوله: «كُلُوا» و قوله: «مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» متعلق بقوله «كُلُوا» أو حال من الحلال قدم عليه لكونه نكرة، أو كون قوله: «حَلَالًا» وصفا لمصدر محذوف، و التقدير:

رزقا حلالا طيبا الى غير ذلك.

قوله تعالى: «لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ اللَّغْوُ مَا لَا يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ أَثَرٌ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَ الْأَيْمَانُ جَمْعُ يَمِينٍ وَ هُوَ الْقَسْمُ وَ الْحَلْفُ؛ قَالَ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ: وَ الْيَمِينُ فِي الْحَلْفِ مُسْتَعَارٌ مِنَ الْيَدِ اعْتِبَارًا بِمَا يَفْعَلُهُ الْمُعَاهِدُ وَ الْمُحَالِفُ وَ غَيْرِهِ، قَالَ تَعَالَى: أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِاللَّعْنَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ أَفَسِيحُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ «لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ» انتهى، و التعقيد مبالغه في العقد و قرئ:

عقدتم بالتخفيف، و قوله: «فِي أَيْمَانِكُمْ» متعلق بقوله «لَا يُؤَاخِذُكُمْ» أو بقوله «بِاللَّغْوِ» و هو أقرب.

و التقابل الواقع بين قوله: «بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ» و قوله: «بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ» يعطى أن المراد باللغو في الأيمان ما لا يعقد عليه الحالف، و إنما يجرى على لسانه جريا لعاده اعتادها أو لغيرها و هو قوله-و خاصه في قبيل البيع و الشرى:- لا- و الله، بلى و الله، بخلاف ما عقد عليه عقدا بالالتزام بفعل أو ترك كقول القائل: و الله لأفعلن كذا، و الله لأتركن كذا.

و أما قوله: «وَ لَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ» فلا- يشمل إلا- اليمين الممضاه شرعا لمكان قوله في ذيل الآية: «وَ احْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ» فإنه لا- مناص عن شموله لهذه الأيمان بحسب إطلاق لفظه، و لا- معنى للأمر بحفظ الأيمان التي ألغى الله سبحانه اعتبارها فالمتعين أن اللغو من الأيمان في الآية ما لا عقد فيه، و ما عقد عليه هو اليمين الممضاه.

قوله تعالى: فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ -الى قوله- أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، الكفاره هي العمل الذي يستر به مساءه المعصيه بوجه، من الكفر بمعنى الستر، قال تعالى:

نُكْفِرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ (النساء ٣١)، قال الراغب: والكفار ما يغطي الاثم و منه كفاره اليمين، انتهى.

و قوله: «فَكَفَّارَتُهُ» تفریع على اليمين باعتبار مقدر هو نحو من قولنا: فان حنثتم فكفارته كذا، وذلك لأن في لفظ الكفار دلالة على معصية تتعلق به الكفار، وليست هذه المعصية هي نفس اليمين، ولو كان كذلك لم يورد في ذيل الآية قوله: «وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ» اذ لا معنى لحفظ ما فيه معصية فالكفار إنما تتعلق بحنث اليمين لا بنفسها.

و منه يظهر أن المؤاخذة المذكورة في قوله: «وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ» هي المؤاخذة على حنث اليمين لا على نفس إيقاعها، وإنما أضيفت الى اليمين لتعلق متعلقها-أعنى الحنث-بها، فقوله «فَكَفَّارَتُهُ» متفرع على الحنث لا المقدر لدلاله قوله: «يُؤَاخِذُكُمْ» الخ؛ عليه، ونظير هذا البيان جار في قوله: «ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ» و تقديره: اذا حلفتكم و حنثتم.

و قوله: «إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَوْ هَلِيكُمُ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَخْرِيرُ رَقَبَةٍ» خصال ثلاث يدل الترديد على تعيين إحداها عند الحنث من غير جمع، و يدل قوله بعده: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ» على كون الخصال المذكورة تخيريته من غير لزوم مراعاة الترتيب الواقع بينها في الذكر، و إلا لغي التفریع في قوله: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ» الخ؛ و كان المتعين بحسب اقتضاء السياق أن يقال: أو صيام ثلاثة أيام.

و في الآية أبحاث فرعية كثيرة مرجعها علم الفقه.

قوله تعالى: «ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ» تقدم أن الكلام في تقدير: اذا حلفتكم و حنثتم، و في قوله: «ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ» و كذا في قوله: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ» نوع التفات و رجوع من خطاب المؤمنين الى خطاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و لعل النكته فيه أن الجملتين جميعا من البيان الإلهي للناس إنما هو بوساطة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فكأن في ذلك حفظا لمقامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في بيان ما

أوحى إليه للناس كما قال تعالى: وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (النحل / ٤٤).

قوله تعالى: كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أى يبين لكم بواسطة نبيه أحكامه لعلكم تشكرونه بتعلمها و العمل بها (١).

[سوره المائده (٥): الآيات ٩٠ الى ٩٣]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعِدَاوَةَ وَالْبُغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصِيدَكُمُ عَنِ الذِّكْرِ اللَّهِ وَ عَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ إِخْذُوا بِمَا نَزَّلْنَا عَلَيْكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَّمْنَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغَ الْمُبِينُ (٩٢) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ قد تقدم

ص: ٢٠٢

١- (١). المائده ٨٧-٨٩: بحث روائى فى: النهى عن تحريم طيبات ما أحل الله؛ الايمان.

الكلام فى أول السوره فى معنى الخمر و الميسر و الأنصاب و الأزلام فالخمر ما يخمر العقل من كل مائع مسكر عمل بالتخمير، و الميسر هو القمار مطلقاً، و الأنصاب هى الأصنام أو الحجاره التى كانت تنصب لذبح القرابين عليها و كانت تحترم و يترك بها، و الأزلام هى الأقداح التى كانت يستقسم بها، و ربما كانت تطلق على السهام التى كانت يتفاهل بها عند ابتداء الامور و العزيمه عليها كالخروج الى سفر و نحوه لكن اللفظ قد وقع فى أول السوره للمعنى الأول لوقوعه بين محرمات الأكل فيتأيد بذلك كون المراد به هاهنا هو ذلك.

و أما قوله: رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فالرجس الشئ القذر على ما ذكره الراغب فى مفرداته فالرجاسه بالفتح كالنجاسه و القذاره هو الوصف الذى يتعد و ينتزه عن الشئ بسببه لتنفّر الطبع عنه.

و كون هذه المعدودات من الخمر و الميسر و الأنصاب و الأزلام رجسا هو اشتمالها على وصف لا- تستيح الفطره الإنسانيه الاقتراب منها لأجله، و ليس إلا أنها بحيث لا تشتمل على شئ مما فيه سعاده إنسانيه أصلا سعاده يمكن أن تصفو و تتخلص فى حين من الأحيان كما ربما أو ما إليه قوله تعالى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا لَأَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا (البقره ٢١٩)، حيث غلب الإثم على النفع و لم يستثن.

و لعله لذلك نسب هذه الأرجاس الى عمل الشيطان و لم يشرك له أحدا، ثم قال فى الآيه التاليه «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَ الْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ عَنِ الصَّلَاةِ» (١).

و أما قوله تعالى: فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ فتصريح بالنهى بعد بيان المفسده ليكون أوقع فى النفوس ثم ترج للفلاح على تقدير الاجتناب، و فيه أشد التأكيد للنهى لتثبيته

ص: ٢٠٣

ان لا رجاء لفلاح من لا يجتنب هذه الأرجاس.

قوله تعالى: **إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالبُغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ** الى آخر الآيه؛ قال الراغب في المفردات: العدو التجاوز و منافاه الائتنام فتاره يعتبر بالقلب فيقال له: العداوه و المعاداه، و تاره بالمشى فيقال له: العدو، و تاره في الإخلال بالعداله في المعامله فيقال له: العدوان و العدو قال **فَيَسْتَبُوا اللهَ عَدُوًّا بَغِيْرَ عِلْمٍ** و تاره بأجزاء المقر فيقال له: العدواء يقال: مكان ذو عدواء اى غير متلائم الأجزاء فمن المعاداه يقال: رجل عدو و قوم عدو قال **بَغْضًا كُمْ لِبَعْضٍ عَدُوًّا** و قد يجمع على عدى (بالكسر فالفتح) و اعداء قال **وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ**، انتهى.

و البغض و البغضاء خلاف الحب، و الصد الصرف، و الانتهاء قبول النهى و خلاف الابتداء.

ثم إن الآيه- كما تقدم- مسوقه بيانا لقوله «**مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**» أو لقوله «**رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**» اى إن حقيقه كون هذه الامور من عمل الشيطان أو رجسا من عمل الشيطان ان الشيطان لا بغيه له و لا غايه فى الخمر و الميسر- اللذين قيل: إنهما رجسان من عمله فقط- إلا ان يوقع بينكم العداوه و البغضاء بتجاوز حدودكم و بغض بعضكم بعضا، و ان يصرفكم عن ذكر الله و عن الصلاه فى هذه الامور جميعا اعنى الخمر و الميسر و الانصاب و الأزلام (1).

و أما قوله تعالى: **فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ** فهو استفهام توبيخى فيه دلالة ما على أن المسلمين لم يكونوا ينتهون عن المناهى السابقه على هذا النهى، و الآيه أعنى قوله: «**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ**» الخ؛ كالتفسير يفسر بها قوله: **يَسْتَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَ المَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا** **إِنَّكُمْ كَبِيرٌ وَ مَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَ إِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا** أى إن النفع الذى فرض فيهما مع الإثم ليس بحيث

ص: ٢٠٤

يمكن أن يفرز أحيانا من الإثم أو من الإثم الغالب عليه كالكذب الذى فيه إثم و نفع، و ربما افرز نفعه من إثمه كالكذب لمصلحه إصلاح ذات البين.

و ذلك لمكان الحصر فى قوله: «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعِدَاةَ وَ الْبَغْضَاءَ» الخ؛ بعد قوله: «رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» فالمعنى أنها لا تقع إلا رجسا من عمل الشيطان، و أن الشيطان لا يريد بها إلا إيقاع العداوه و البغضاء بينكم فى الخمر و الميسر و صدكم عن ذكر الله و عن الصلاة فلا يصاب لها مورد يخلص فيه النفع عن الإثم حتى تباح فيه، فافهم ذلك.

قوله تعالى: وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ اخِذُوا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ تأكيد للأمر السابق باجتناّب هذه الأرجاس أولا بالأمر بطاعه الله سبحانه و بيده أمر التشريع، و ثانيا بالأمر بطاعه الرسول و اليه الإجراء، و ثالثا بالتحذير صريحا.

ثم فى قوله: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ تأكيد فيه معنى التهديد و خاصه لاشتماله على قوله: «فَاعْلَمُوا» فإن فيه تلويحا الى أنكم إن توليتم و اقترتم هذه المعاصى فكأنكم ظننتم أنكم كابرتم النبى صلى الله عليه و آله و سلم فيه نهيه عنها و غلبتموه، و قد جهلتم أو نسيتم أنه رسول من قبلنا ليس له من الأمر شىء إلا- بلاغ مبين لما يوحى اليه و يؤمر بتبليغه، و إنما نازعتم ربكم فى ربوبيته.

قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا الى آخر الآيه؛ الطعم و الطعام هو التغذى، و يستعمل فى المأكول دون المشروب، و هو فى لسان المدنيين البر خاصه، و ربما جاء بمعنى الذوق، و يستعمل حيثئذ بمعنى الشرب كما يستعمل بمعنى الأكل قال تعالى: فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي (البقره ٢٤٩)، و فى بعض الروايات عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال فى ماء زمزم: إنه طعام طعم و شفاء سقم.

و الآيه لا تصلح بسياقها إلا أن تتصل بالآيات السابقه فتكون دفع دخل تتعرض لحال

المؤمنين ممن ابتلى بشرب الخمر قبل نزول التحريم أو قبل نزول هذه الآيات، وذلك أن قوله فيها: ﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾ مطلق غير مقيد بشيء مما يصلح لتقيده، والآية مسوقة لرفع الحظر عن هذا الطعام المطلق، وقد قيد رفع الحظر بقوله ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَبُوا﴾ والمتيقن من معنى هذا القيد- وقد ذكر فيه التقوى ثلاث مرات- هو التقوى الشديد الذي هو حق التقوى.

فالذي ينبغي أن يقال: إن الآيه في معنى الآيات السابقة عليها على ما هو ظاهر اتصالها بها، وهي متعرضه لحال من ابتلى من المسلمين بشرب الخمر و طعمها، أو بالطعم لشيء منها أو مما اقتناه باليسر أو من ذبيحه الأنصاب كأنهم سألوا بعد نزول التحريم الصريح عن حال من ابتلى بشرب الخمر، أو بها و غيرها مما ذكره الله تعالى في الآيه قبل نزول التحريم من إخوانهم الماضين أو الباقيين المسلمين لله سبحانه في حكمه.

فاجيب عن سؤالهم ان ليس عليهم جناح إن كانوا من الذين آمنوا و عملوا الصالحات إن كانوا جارين على صراط التقوى بالإيمان بالله و العمل الصالح ثم الإيمان بكل حكم نازل على النبي صلى الله عليه و آله و سلم ثم الإحسان بالعمل على طبق الحكم النازل.

و بذلك يتبين أن المراد بالموصول في قوله: ﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾ هو الخمر من حيث شربها أو جميع ما ذكر من الخمر و الميسر و الأنصاب و الأزلام حيث ما يصح أن يتعلق بها من معنى الطعم، و المعنى: ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما ذاقوه قبل نزول التحريم من خمر أو منها و من غيرها من المحرمات المذكوره.

و أما قوله: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَبُوا﴾ فظاهر قوله: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أنه إعادته لنفس الموضوع المذكور في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾ للدلاله على دخاله الوصف في الحكم الذي هو نفى الجناح كقوله تعالى في خطاب المؤمنين: ﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾

يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ (البقره ٢٣٢/)، وهو شائع في اللسان.

و ظاهر قوله: «ثُمَّ اتَّقُوا وَ آمَنُوا» اعتبار الإيمان بعد الإيمان، و ليس إلا الإيمان التفصيلي بكل حكم حكم مما جاء به الرسول من عند ربه من غير رد و امتناع، و لازمه التسليم للرسول فيما يأمر به و ينهى عنه قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمَنُوا بِرَسُولِهِ (الحديد / ٢٨)، و قال تعالى: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ -الى ان قال- فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (النساء ٦٥/)، و الآيات في هذا المعنى كثيرة.

و ظاهر قوله: «ثُمَّ اتَّقُوا وَ أَحْسَنُوا» إضافة الإحسان الى الإيمان بعد الإيمان اعتباراً، و الإحسان هو إتيان العمل على وجه حسنه من غير نيه فاسده كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (الكهف ٣٠/)، و قال الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (آل عمران ١٧٢/)، اى يكون استجابتهم ابتغاء لوجه الله و تسليماً لأمره لا لغرض آخر، و من الإحسان ما يتعدى الى الغير، و هو ان يوصل الى الغير ما يستحسنه، قال تعالى: وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (البقره ٨٣/)، و قال وَ أَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ (القصص / ٧٧).

و المناسب لمورد الآيه هو المعنى الأول من معنى الإحسان، و هو إتيان الفعل على وجه حسنه فإن التقوى الدينى لا يوفى حقه بمجرد الإيمان بالله و تصديق حقه دينه ما لم يؤمن تفصيلاً بكل واحد واحد من الأحكام المشرعه فى الدين فإن رد الواحد منها رد لأصل الدين، و لا أن الإيمان التفصيلي بكل واحد واحد يوفى به حق التقوى ما لم يحسن بالعمل بها و فى العمل بها بأن يجرى على ما يقتضيه الحكم من فعل أو ترك، و يكون هذا الجرى ناشئاً من الانقياد و الاتباع لا عن نيه نفاقه فمن الواجب على المتزود بزد التقوى أن يؤمن بالله و يعمل

صالحا، و ان يؤمن برسوله في جميع ما جاء به، و ان يجرى في جميع ذلك على نهج الاتباع و الإحسان (١).

[سوره المائده (٥): الآيات ٩٤ الى ٩٩]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُبْلُوَنَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرْمٌ وَ مَن قَتَلَهُ مِنكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكُمْ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَ مَن عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ وَ حُرْمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦) جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فِيمَا لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَ الْهَدْيَ وَ الْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٨) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا تَكْتُمُونَ (٩٩)

ص: ٢٠٨

١- ١). المائده ٩٠-٩٣: بحث روائى تحريم الخمر.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُبْلُوَنَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاكُمُ الْبَلَاءُ هُوَ الْامْتِحَانُ وَالْإِخْتِبَارُ، وَلَا مَقْسَمَ وَالنُّونَ الْمَشْدُدَةَ لِلتَّأْكِيدِ، وَقَوْلُهُ: بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ يَفِيدُ التَّحْقِيرَ لِيَكُونَ تَلْقِينَهُ لِلْمَخَاطِبِينَ عَوْنًا لَهُمْ عَلَى انْتِهَائِهِمْ إِلَى مَا سَيُوجِبُهُمْ مِنَ النَّهْيِ فِي الْآيَةِ الْآتِيَةِ، وَقَوْلُهُ: «تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاكُمُ» تَعْمِيمٌ لِلصَّيْدِ مِنْ حَيْثُ سَهُولَةُ الْإِصْطِيَادِ كَمَا فِي فِرَاقِ الطَّيْرِ وَصَغَارِ الْوَحْشِ وَالْبَيْضِ تَنَالَهَا الْأَيْدَى فَتَصْطَادُ بِسَهُولَةٍ، وَمِنْ حَيْثُ صَعُوبَةُ الْإِصْطِيَادِ كَكِبَارِ الْوَحْشِ لَا تَصْطَادُ عَادَةً إِلَّا بِالسَّلَاحِ.

وَمَا ظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّهَا مَسْوُوقَةٌ كَالْتَوَطُّئِ لِمَا يَنْزِلُ مِنَ الْحُكْمِ الْمَشْدُدِ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ، وَلِذَلِكَ عَقِبَ الْكَلَامِ بِقَوْلِهِ «لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ» فَإِنَّ فِيهِ إِشْعَارًا بِأَنَّ هُنَاكَ حُكْمًا مِنْ قَبِيلِ الْمَنْعِ وَالتَّحْرِيمِ ثُمَّ عَقِبَهُ بِقَوْلِهِ «فَمَنْ اعْتَدَىٰ بِغَدِّ ذَلِكِ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

قَوْلُهُ تَعَالَى: لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ لَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: لِيُبْلُوَنَكُمْ اللَّهُ لِيَعْلَمَ كَذَا كُنَايَةً عَنْ أَنَّهُ سَيَقْدِرُ كَذَا لِيَتَمَيَّزَ مِنْكُمْ مَنْ يَخَافُ اللَّهَ بِالْغَيْبِ عَمَّنْ لَا يَخَافُهُ لِأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْجَهْلُ حَتَّى يَرْفَعَهُ بِالْعِلْمِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْبَحْثُ الْمُسْتَوْفَى عَنْ مَعْنَى الْإِمْتِحَانِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ» الْآيَةَ (آلِ عِمْرَانَ ١٤٢) فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، وَتَقَدَّمَ أَيْضًا مَعْنَى آخِرِ لِهَذَا الْعِلْمِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ» فَالظَّرْفُ مُتَعَلِّقٌ بِالْخَوْفِ، وَمَعْنَى الْخَوْفِ بِالْغَيْبِ أَنَّ يَخَافُ الْإِنْسَانَ رَبَّهُ وَيَحْتَرِزُ مَا يَنْدِرُهُ بِهِ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ وَأَلِيمِ عِقَابِهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ فِي غَيْبِ مَنْ الْإِنْسَانُ لَا يَشَاهِدُ شَيْئًا مِنْهُ بظَاهِرِ مَشَاعِرِهِ، قَالَ تَعَالَى: «إِنَّمَا تُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ»

الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ (يس ١١)، و قال: وَ أَزْلَفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ، هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ، مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَ لَجَأَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (ق ٣٣)، و قال: الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (الأنبياء ٤٩).

و قوله: «فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ» أى تجاوز الحد الذى يحده الله بعد البلاء المذكور فله عذاب أليم.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرْمٌ الْخ؛ الحرم بضمين جمع الحرام صفة مشبهه، قال فى المجمع: و رجل حرام و محرم بمعنى، و حلال و محل كذلك، و أحرم الرجل دخل فى الشهر الحرام، و أحرم أيضا دخل فى الحرم، و أحرم أهل بالحج، و الحرم الإحرام، و منه الحديث: كنت أطيب النبی لحرمه، و أصل الباب المنع، و سميت النساء حرما لأنها تمنع، و المحروم، و منه الحديث: كنت أطيب النبی لحرمه، و أصل الباب المنع، و سميت النساء حرما لأنها تمنع، و المحروم الممنوع الرزق.

قال: و المثل و المثل و الشبه و الشبه واحد، قال: و النعم فى اللغة الإبل و البقر و الغنم، و إن انفردت الإبل قيل لها: نعم، و إن انفردت البقر و الغنم لم تسم نعمًا ذكره الزجاج.

قال: قال الفراء: العدل بفتح العين ما عادل الشىء من غير جنسه، و العدل بالكسر المثل تقول: عندى عدل (بالكسر) غلامك أو شاتك إذا كانت شاه تعدل شاه أو غلام يعدل غلاما فإذا أردت قيمته من غير جنسه فتحت و قلت: عدل، و قال البصريون: العدل و العدل فى معنى المثل كان من الجنس أو غير الجنس.

قال: و الوبال ثقل الشىء فى المكروه، و منه قولهم: طعام و بيل و ماء و بيل إذا كانا ثقيلين غير ناميين فى المال، و منه «فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً» أى ثقيلًا شديدًا، و يقال لخشب القصار:

و بيل من هذا، انتهى.

و قوله: لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرْمٌ نَهَى عن قتل الصيد لكن يفسره بعض

التفسير قوله بعد: «أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ» هذا من جهة الصيد، ويفسره من جهة معنى القتل قوله: «وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ» الخ؛ فقوله «مُتَعَمِّدًا» حال من قوله: «مَنْ قَتَلَهُ» و ظاهر التعمد ما يقابل الخطأ الذى هو القتل من غير أن يريد بفعله ذلك كمن يرمى الى هدف فأصاب صيدا، و لازمه وجوب الكفاره اذا كان قاصدا لقتل الصيد سواء كان على ذكر من إحرامه أو ناسيا أو ساهيا.

و قوله: فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ لظاهر معناه: فعليه جزاء ذلك الجزاء مثل ما قتل من الصيد، و ذلك الجزاء من النعم المماثلة لما قتله يحكم به أى بذلك الجزاء المماثل رجالان منكم ذوا عدل فى الدين حال كون الجزاء المذكور هديا يهدى به بالغ الكعبه ينحر أو يذبح فى الحرم بمكه أو بمنى على ما بينه السنه النبويه.

فقوله «جزاء» بالرفع مبتدأ لخبر محذوف يدل عليه الكلام، و قوله: «مِثْلُ مَا قَتَلَ» و قوله: «مِنْ النَّعْمِ» و قوله: «يَحْكُمُ بِهِ» الخ؛ أو صاف للجزاء، و قوله: «هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ» موصوف و صفه، و الهدى حال من الجزاء كما تقدم، هذا، و قد قيل: غير ذلك.

و قوله: «أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا» خصلتان اخريان من خصال كفاره قتل الصيد، و كلمه «أَوْ» لا يدل على أزيد من مطلق الترديد، و الشارح السنه، غير أن قوله: «أَوْ كَفَّارَةٌ» حيث سمي طعام المساكين كفاره ثم اعتبر ما يعادل الطعام من الصيام لا يخلو من إشعار بالترتيب بين الخصال.

و قوله: «لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ» اللام للغايه، و هى و مدخولها متعلق بقوله «فَجَزَاءٌ» فالكلام يدل على أن ذلك نوع مجازاه.

قوله تعالى: عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَ مَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ تعلق العفو بما سلف قرينه على أن المراد بما سلف هو ما تحقق من قتل الصيد قبل نزول الحكم

بنزول الآيه فإن تعلق العفو بما يتحقق حين نزول الآيه أو بعده يناقض جعل الحكم و هو ظاهر، فالجمله لدفع توهم شمول حكم الكفاره للحوادث السابقه على زمان النزول.

و الآيه من الدليل على جواز تعلق العفو بما ليس بمعصيه من الأفعال اذا كان من طبعها اقتضاء النهى المولوى لاشتمالها على المفسده، و أما قوله: «وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ» فظاهر العود تكرر الفعل، و هذا التكرر ليس تكرر ما سلف من الفعل بأن يكون المعنى: و من عاد الى مثل ما سلف منه من الفعل فينتقم الله منه لأنه حينئذ ينطبق على الفعل الذى يتعلق به الحكم فى قوله: «وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ» الخ؛ و يكون المراد بالانتقام هو الحكم بالكفاره، و هو حكم ثابت بالفعل لكن ظاهر قوله: «فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ» أنه إخبار عن أمر مستقبل لا عن حكم حال فعلى.

و هذا شاهد على أن المراد بالعود العود ثانيا الى فعل تعلق به الكفاره، و المراد بالانتقام العذاب الإلهى غير الكفاره المجعوله.

و على هذا فالآيه بصدرها و ذيلها تتعرض لجهات مسأله قتل الصيد، أما ما وقع منه قبل نزول الحكم فقد عفا الله عنه، و أما بعد جعل الحكم فمن قتله فعليه جزاء مثل ما قتل فى المره الاولى فإن عاد فينتقم الله منه و لا كفاره عليه، و على هذا يدل معظم الأخبار المرويه عن أئمه أهل البيت عليهم السلام فى تفسير الآيه.

و لو لا هذا المعنى كان كالمتعين حمل الانتقام فى قوله: «فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ» على ما يعم الحكم بوجوب الكفاره، و حمل العود على فعل ما يماثل ما سلف منهم من قتل الصيد أى و من عاد الى مثل ما كانوا عليه من قتل الصيد قبل هذا الحكم، أى و من قتل الصيد فينتقم الله منه أى يؤاخذه بإيجاب الكفاره، و هذا- كما ترى -معنى بعيد من اللفظ.

قوله تعالى: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارِهِ الى آخر الآيه؛ الآيات فى مقام بيان حكم الاصطياد من بحر أو بر، و هو الشاهد على أن متعلق الحل هو

الاصطياد في قوله: «أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ» دون أكله، وبهذه القرينه يتعين قوله: «وَطَعَامُهُ» في أن المراد به ما يؤكل دون المعنى المصدرى الذى هو الأكل و المراد بحل طعام البحر حل أكله فمحصل المراد من حل صيد البحر و طعامه جواز اصطياد حيوان البحر و حل أكل ما يؤخذ منهم.

و ما يؤخذ من طعام البحر و إن كان أعم مما يؤخذ منه صيدا كالعتيق من لحم الصيد أو ما قذفته البحر من ميتة حيوان و نحوه إلا أن الوارد من أخبار أئمة أهل البيت عليهم السّلام تفسيره بالمملوح و نحوه من عتيق الصيد، و قوله: «مَتَاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ» كأنه حال من صيد البحر و طعامه، و فيه شيء من معنى الامتنان.

و حيث كان الخطاب للمؤمنين من حيث كونهم محرمين كانت المقابلة بينهم و بين السياره فى قوه قولنا: متاعا للمحرمين و غيرهم.

و اعلم أن فى الآيات أبحاثا فرعيه كثيره معنونه فى الكتب الفقهيه من أرادها فليراجعها.

قوله تعالى: جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ^{فِي} مَا لِلنَّاسِ ^و الشَّهْرَ الْحَرَامَ ^{وَ} الْهُدَى ^{وَ} الْقُلُودَ ^{ظَاهِر} تَعْلِيْقَ الْكَلَامِ بِالْكَعْبَةِ ثُمَّ بَيَّانَهُ بِالْبَيْتِ بِأَنَّهُ بَيْتٌ حَرَامٌ، و كذا توصيف الشهر بالحرام ثم ذكر الهدى و القلائد اللذين يرتبط شأنهما بحرمه البيت، كل ذلك يدل على أن الملاك فيما يبين الله سبحانه فى هذه الآيه من الأمر إنما هو الحرمه.

و القيام ما يقوم به الشيء، قال الرغاب: و القيام و القوام اسم لما يقوم به الشيء أى يثبت كالعماد و السناد لما يعمد و يسند به كقوله: «وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ ^{فِي} مَا» أى جعلها مما يمسككم، و قوله: «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ^{فِي} مَا لِلنَّاسِ» أى قواما لهم يقوم به معاشهم و معادهم، قال الأصم: قائما لا ينسخ، و قرئ: قيما بمعنى قياما، انتهى.

فيرجع معنى قوله: «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ^{فِي} مَا لِلنَّاسِ» الى أنه تعالى جعل الكعبه بيتا حراما احترامه، و جعل بعض الشهور حراما، و وصل بينهما حكما كالحج فى ذى

الحججه الحرام، و جعل هناك امورا تناسب الحرمه كالهدى و القلائد كل ذلك لتعتمد عليه حياه الناس الاجتماعيه السعيده.

فإنه جعل البيت الحرام قبله يوجه اليه الناس و جوههم فى صلواتهم و يوجهون اليه ذبائحهم و أمواتهم، و يحترمونه فى سئى حالاتهم، فيتوحد بذلك جمعهم، و يجتمع به شملهم، و يحيى و يدوم به دينهم، و يحجون اليه من مختلف الاقطار و أفاصى الآفاق فيشهدون منافع لهم، و يسلكون به طرق العبوديه.

و يهدى باسمه و يذكره و النظر اليه و التقرب به و التوجه اليه العالمون، و قد بينه الله تعالى بوجه آخر قريب من هذا الوجه بقوله: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَ هُدًى لِّلْعَالَمِينَ** (آل عمران 96)، و قد أفاك فى الآيه فى الجزء الثالث من هذا الكتاب من الكلام ما يتنور به المقام.

و من هنا يظهر وجه اتصال قوله: **«ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا»** الى آخر الآيه؛ بما قبله، و المشار اليه بقوله **«ذَلِكَ»** إما نفس الحكم المبين فى الآيات السابقه الذى يوضح حكمه تشريعه قوله:

«جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فِيمَا لِلنَّاسِ» الخ؛ و إما بيان الحكم الموضح بقوله **«جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ»** الخ؛ المدلول عليه بالمقام.

و المعنى على التقدير الأول أن الله جعل البيت الحرام و الشهر الحرام قياما للناس و وضع ما يناسبهما من الأحكام لينتقلوا من حفظ حرمتها و العمل بالأحكام المشرعه فيهما الى أن الله عليهم بما فى السماوات و الأرض و ما يصلح شئونها، فشرع ما شرع لكم عن علم من غير أن يكون شئ من ذلك حكما خرافيا صادرا عن جهاله الوهم.

و المعنى على التقدير الثانى أنا بينا لكم هذه الحقيقه و هى جعل البيت الحرام و الشهر الحرام و ما يتبعهما من الأحكام قياما للناس لتعلموا أن الله عليهم بما فى السماوات و الأرض و ما يتبعها من الأحكام المصلحه لشئونها فلا تتوهموا أن هذه الأحكام المشرعه لاغيه من غير جدوى

أو أنها خرافات مختلفة.

قوله تعالى: **إِعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** إلى آخر الآيتين؛ تأكيد للبيان و تثبيت لموقع الأحكام المذكوره، و وعيد و وعد للمطيعين و العاصين، و فيه شائبه تهديد، و لذلك قدم توصيفه بشده العقاب على توصيفه بالمغفره و الرحمه، و لذلك أيضا أعقب الكلام بقوله **«مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ»** (١).

[سوره المائده (٥): آيه ١٠٠]

إشارة

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠)

بيان:

قوله تعالى: **قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ** كأن المراد بعدم استواء الخبيث و الطيب أن الطيب خير من الخبيث، و هو أمر بين فيكون الكلام مسوقا للكنايه، و ذلك أن الطيب بحسب طبعه و بقضاء من الفطره أعلى درجه و أسمى منزله من الخبيث؛ فلو فرض انعكاس الأمر و صيروره الخبيث خيرا من الطيب لعارض يعرضه كان من الواجب أن يتدرج الخبيث في الرقي و الصعود حتى يصل الى حد يحاذي الطيب في منزلته و يساويه ثم يتجاوزه فيفوقه فإذا نفى استواء الخبيث و الطيب كان ذلك أبلغ في نفى خيره الخبيث من الطيب.

و من هنا يظهر وجه تقديم الخبيث على الطيب، فإن الكلام مسوق لبيان أن كثره الخبيث لا تصيره خيرا من الطيب، و إنما يكون ذلك بارتفاع الخبيث من حضيض الرداءه و الخسه الى

ص: ٢١٥

أوج الكرامه و العزه حتى يساوى الطيب فى مكانته ثم يعلو عليه و لو قيل: لا- يستوى الطيب و الخبيث كانت العناية الكلاميه متعلقه ببيان أن الطيب لا يكون أردى و أخس من الخبيث، و كان من الواجب حينئذ أن يذكر بعده أمر قله الطيب مكان كثره الخبيث فافهم ذلك.

قوله تعالى: فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ تفرّيع على المثل المضروب فى صدر الآيه، و محصل المعنى أن التقوى لما كان متعلقه الشرائع الإلهيه التى تبنى هى أيضا على طيبات و خبائث تكوينيه فى رعايه أمرها سعادته الانسان و فلاحه على ما لا يرتاب فى ذلك ذو لب و عقل فيجب عليكم يا اولى الألباب أن تتقوا الله بالعمل بشرائعه لعلكم تفلحون.

[سوره المائده (٥): الآيات ١٠١ الى ١٠٢]

إشارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ الآيه؛ الإبداء الإظهار، و ساءه كذا خلاف سرّه.

و الآيه تنهى المؤمنين عن أن يسألوا عن أشياء إن تبدل لهم تسؤهم، و قد سكتت أولا عن المسئول من هو؟ غير أن قوله بعد: «وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّلَ لَكُمْ»، و كذا قوله فى الآيه التاليه: «قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ» يدل على أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم

مقصود بالسؤال مسؤل بمعنى أن الآيه سيقى للنهى عن سؤال النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن أشياء من شأنها كيت و كيت، وإن كانت العله المستفاده من الآيه الموجهه للنهى تفيد شمول النهى لغير مورد الغرض و هو أن يسأل الانسان و يفحص عن كل ما عفاه العفو الإلهى، و ضرب دون الاطلاع عليه بالأسباب العاديه و الطرق المألوفه سترافإن فى الاطلاع على حقيقه مثل هذه الامور مظنه الهلاك و الشقاء كمن تفحص عن يوم وفاته أو سبب هلاكه أو عمر أحبته و أعزته أو زوال ملكه و عزته، و ربما كان ما يطلع عليه هو السبب الذى يخترمه بالفناء أو يهدده بالشقاء.

قوله تعالى: قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ يقال: سأله و سأل عنه بمعنى، و«ثم» يفيد التراخى بحسب الرتبه الكلاميه دونه بحسب الزمان. و الباء فى قوله: «بها» متعلقه بقوله «كافرين» على ما هو ظاهر الآيه من كونها مسوقه للنهى عن السؤال عما يتعلق بقيود الأحكام و الشرائع المسكوت عنها عند التشريع؛ فالكفر كفر بالأحكام من جهه استلزامها تخرج النفوس عنها و تضيق القلوب من قبولها، و يمكن أن تكون الباء للسببيه و لا يخلو عن بعد.

و الآيه و إن أبهمت القوم المذكورين و لم يعرفهم لكن فى القرآن الكريم ما يمكن أن تنطبق عليه الآيه من القصص كقصه المائده من قصص النصرارى و قصص اخرى من قوم موسى و غيرهم.

[سوره المائده (٥): الآيات ١٠٣ الى ١٠٤]

اشاره

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيَّةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤)

قوله تعالى: مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيْلَةٍ وَلَا حَامٍ، هذه أصناف من الأنعام كان أهل الجاهلية يرون لها أحكاما مبنيه على الاحترام و نوع من التحرير، وقد نفى الله سبحانه أن يكون جعل من ذلك شيئا، فالجعل المنفى متعلق بأوصافها دون ذواتها فإن ذواتها مخلوقه لله سبحانه أن يكون جعل من ذلك شيئا، فالجعل المنفى متعلق بأوصافها دون ذواتها فإن ذواتها مخلوقه لله سبحانه من غير شك، وكذلك أوصافها من جهة أنها أوصاف فحسب، وإنما الذى تقبل الإسناد إليه تعالى و نفيه هي أوصافها من جهة كونها مصادر لأحكام كانوا يدعونها لها فهى التى تقبل الإسناد و نفيه، فنفى جعل البحيره و أخواتها فى الآيه نفى لمشروعيه الأحكام المنتسبه إليها المعروفه عندهم.

و هذا الأصناف الأربعة من الأنعام و إن اختلفوا فى معنى أسمائها و يتفرع عليه الاختلاف فى تشخيص أحكامها كما ستقف عليه، لكن من المسلم أن أحكامها مبنيه على نوع من تحريرها و الاحترام لها برعايه حالها، ثلاثه منها و هى البحيره و السائبه و الحامى من الإبل، و واحده و هى الوصيله من الشاه.

أما البحيره فى المجمع: أنها الناقه كانت اذا نتجت خمسه أبطن و كان آخرها ذكرا بحروا أذنها (أى شقوها شقا واسعا) و امتنعوا عن ركوبها و نحرها، و لا تطرد عن ماء و لا تمنع عن مرعى، فإذا لقيها المعبى لم تركبها، عن الزجاج.

و قيل: إنهم كانوا اذا نتجت الناقه خمسه أبطن نظروا فى البطن الخامس فإن كان ذكرا نحروه

فأكله الرجال و النساء جميعا، و إن كانت أنثى شقوا أذنها فتلك البحيره ثم لا يجز لها وبر، و لا يذكر لها اسم الله إن ذكيت، و لا حمل عليها، و حرم على النساء أن يذفن من لبنها شيئا، و لا أن ينتفعن بها، و كان لبنها و منافعها للرجال خاصه دون النساء حتى تموت فإذا ماتت اشتركت الرجال و النساء فى أكلها، عن ابن عباس، و قيل: إن البحيره بنت السائبه، عن محمد بن إسحاق.

و أما السائبه ففي المجمع أنها ما كانوا يسيبونه فإن الرجل اذا نذر القدوم من سفر أو البرء من عله أو ما أشبه ذلك قال: ناقتى سائبه فكانت كالبحيره فى أن لا ينتفع بها، و أن لا تخلى عن ماء و لا تمنع من مرعى، عن الزجاج، و هو قول علقمه.

قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَىٰ آخِرَ آيَةٍ فِي حِكَايَةِ دَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَىٰ الرَّسُولِ الَّذِي شَأْنُهُ الْبَلَاغُ فَقَطْ فَالدَّعْوَةُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَ هُوَ الصَّدَقُ الْخَالِي عَنْ الْفَرِيهِ، وَ الْعِلْمُ الْمَبْرِيُّ مِنَ الْجَهْلِ فَإِنَّ الْآيَةَ السَّابِقَةَ تَجْمَعُ الْاِفْتِرَاءَ وَ عَدَمَ التَّعْقُلِ فِي جَانِبِهِمْ فَلَا يَبْقَىٰ لِمَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ - أَعْنَى جَانِبِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ - إِلَّا الصَّدَقُ وَ الْعِلْمُ.

لكنهم ما دفعوه إلا بالتقليد حيث قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا، و التقليد و إن كان حقا فى بعض الأحيان و على بعض الشروط و هو رجوع الجاهل الى العالم، و هو مما استقر عليه سير المجتمع الإنسانى فى جميع أحكام الحياه التى لا يتيسر فيها للانسان أن يحصيل العلم بما يحتاج الى سلوكه من الطريق الحيوى، لكن تقليد الجاهل فى جهله بمعنى رجوع الجاهل الى جاهل آخر مثله مذموم فى سنه العقلاء كما يذم رجوع العالم الى عالم آخر بترك ما يستقلّ بعمله من نفسه و الأخذ بما يعلم غيره.

و لذلك رده تعالى بقوله «أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ» و مفاده أن العقل - لو كان هناك عقل - لا يبيح للانسان الرجوع الى من لا علم عنده و لا اهتداء فهذه سنّه الحياه لا تبيح سلوكك طريق لا تؤمن مخاطره، و لا يعلم وصفه لا بالاستقلال و لا باتباع من له به خبره.

و لعل إضافه قوله: «وَلَا يَهْتَدُونَ» الى قوله: «لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا» لتتميم قيود الكلام بحسب الحقيقه، فإن رجوع الجاهل الى مثله و إن كان مذموما لكنه إنما يذم اذا كان المستؤل المتبوع مثل السائل التابع فى جهله لا يمتاز عنه بشىء، و أما اذا كان المتبوع نفسه يسلك الطريق بهدايه عالم خبير به و دلالتة فهو مهتد فى سلوكه، و لا ذم على من اتبعه فى مسيره و قلده فى سلوك الطريق، فإن الأمر ينتهى الى العلم بالآخره كمن يتبع عالما بأمر الطريق ثم يتبعه آخر جاهل به.

و من هنا يتضح أن قوله: «أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا» غير كاف فى تمام الحججه عليهم لاحتمال أن يكون آباؤهم الذين اتبعوهم بالتقليد مهتدين بتقليد العلماء الهداه فلا يجرى فيهم حكم الذم، و لا تتم عليهم الحججه فدفع ذلك بأن آباءهم لا يعلمون شيئا و لا يهتدون، و لا مسوغ لاتباع من هذا حاله.

و لما تحصل من الآيه الاولى أعنى قوله: «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ» الخ؛ أنهم بين من لا يعقل شيئا و هم الأكثرون و من هو معاند مستكبر تحصل أنهم بمعزل من أهليه توجيه الخطاب و إلقاء الحججه و لذلك لم تلق اليهم الحججه فى الآيه الثانيه بنحو التخاطب بل سيق الكلام على خطاب غيرهم و الصفح عن مواجهم فقيل «أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ» .

و قد تقدم فى الجزء الأول من أجزاء هذا الكتاب بحث علمى أخلاقى فى معنى التقليد يمكنك أن تراجعہ.
و يتبين من الآيه أن الرجوع الى كتاب الله و الى رسوله-و هو الرجوع الى السنه-ليس من التقليد المذموم فى شىء.

[سوره المائده (٥): آيه ١٠٥]

إشارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ لَا تَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ لَفْظُهُ «عَلَيْكُمْ» اسم فعل بمعنى ألزموا، و«أَنْفُسِكُمْ» مفعوله.

و من المعلوم أن الضلال و الاهتداء - و هما معنيان متقابلان - إنما يتحققان في سلوك الطريق لا غير؛ فالملازم لمتن الطريق ينتهي الى ما ينتهي إليه الطريق، و هو الغايه المطلوبه التي يقصدها الإنسان السالك في سلوكه، أما اذا استهان بذلك و خرج عن مستوى الطريق فهو الضلال الذي تفوت به الغايه المقصوده فالآيه تقدر للانسان طريقا يسلكه و مقصدا يقصده غير أنه ربما لزم الطريق فاهتدى إليه أو فسق عنه فضلً و ليس هناك مقصد يقصده القاصد إلا الحياه السعيده، و العاقبه الحسنی بلا ريب لكنها مع ذلك تنطبق بأن الله سبحانه هو المرجع الذي يرجع اليه الجميع: المهتدى و الضال.

فالثواب الذي يريده الإنسان في مسيره بالفطره إنما هو عند الله سبحانه يناله المهتدون، و يحرم عنه الضلال، و لازم ذلك أن يكون جميع الطرق المسلوكة لأهل الهدايه و الطرق المسلوكة لأهل الضلال تنتهي الى الله سبحانه، و عنده سبحانه الغايه المقصوده و إن كانت تلك الطرق مختلفه في إيصال الإنسان الى البغيه و الفوز و الفلاح أو ضربه بالخيبه و الخسران، و كذلك في القريب و البعد كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمِلْإِلَيْهِ (الانشقاق ٦) و قال تعالى: أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (المجادله ٢٢) و قال تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ يَدُّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَ أَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ (إبراهيم ٢٨) و قال تعالى: فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَ لِيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (البقره ١٨٦) و قال تعالى:

وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يَنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ

بين تعالى فى هذه الآيات أن الجميع سائرون اليه سبحانه سيرا لا- مناص لهم عنه، غير أن طريق بعضهم قصير و فيه الرشد و الفلاح، و طريق آخرين طويل لا ينتهى الى سعادته، و لا يعود الى سالكه إلا الهلاك و البوار.

و بالجمله فالآيه تقدر للمؤمنين و غيرهم طريقين اثنين ينتهيان الى الله سبحانه، و تأمر المؤمنين بأن يشتغلوا بأنفسهم و ينصرفوا عن غيرهم و هم أهل الضلال من الناس و لا يقعون فيهم و لا يخافوا ضلالهم فإنما حسابهم على ربهم لا على المؤمنين و ليسوا بمسئولين عنهم حتى يهملهم أمرهم؛ فالآيه قريبه المضمون من قوله تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (الجاثيه ١٤) و نظيرها قوله تعالى: تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (البقره ١٣٤).

فعلى المؤمن أن يشتغل بما يهمل نفسه من سلوك سبيل الهدى، و لا يهزهزه ما يشاهده من ضلال الناس و شيوخ المعاصي بينهم و لا يشغله ذلك و لا يشتغل بهم فالحق حق و إن ترك و الباطل باطل و إن أخذ به كما قال تعالى: قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَ الطَّيِّبُ وَ لَوْ أَعْجَبَيْكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (المائد ١٠٠) و قال تعالى: وَ لَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ (حم السجده ٣٤).

فقوله تعالى: لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ بِنَاءً عَلَى مَا مَرَّ مَسُوقٌ سَوْقَ الْكِنَايَةِ أُرِيدَ بِهِ نَهْيُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ التَّأَثُّرِ مِنْ ضَلَالِ مَنْ ضَلَّ مِنَ النَّاسِ فَيَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ عَلَى تَرْكِ طَرِيقِ الْهَدَايَةِ كَأَن يَقُولُوا: إِنَّ الدُّنْيَا الْحَاضِرَةَ لَا- تَسَاعِدُ الدِّينَ وَ لَا- تَبِيحُ التَّنَحُّلَ بِالْمَعْنَوِيَّاتِ فَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ السَّنَنِ السَّادِجَةِ وَ قَدْ مَضَى زَمَنُهُ وَ انْقَرَضَ أَهْلُهُ، قَالَ تَعَالَى: وَ قَالُوا إِنَّ نَتَبِعَ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا (القصص ٥٧).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِينَ﴾؛ محصل مضمون الآيتين أن أحدهم إذا كان على سفر فأراد أن يوصى فعليه أن يشهد حين الوصيه شاهدين عدلين من المسلمين و إن لم يجد فشاهدين آخرين من غير المسلمين من أهل الكتاب فإن ارتاب أولياء الميت في أمر الوصيه يحبس الشاهدان بعد الصلاه فيقسمان بالله على صدقهما فيما يشهدان عليه و ترفع بذلك الخصومه، فإن اطلعوا على أن الشاهدين كذبا في شهادتهما أو خانا في الأمر فيوقف شاهدان آخران مقام الشاهدين الأولين فيشهدان على خلافهما و يقسمان بالله على ذلك.

فهذا ما تفيداه الآيتان بظاهرهما فقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خطاب للمؤمنين و الحكم مختص بهم «شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ» أى شهاده بينكم شهاده ذوى عدل منكم، ففى جانب الخبر مضاف مقدر، أو شهداء بينكم ذوا

عدل منكم، والمراد أن عدد الشهود اثنان فالمصدر-الشهادة-بمعنى اسم الفاعل كقولهم:

رجل عدل ورجلان عدل.

و حضور الموت كناية عن حضور داعى الوصيه فإن الناس بحسب الطبع لا يشتغلون بأمثال هذه الامور من غير حضور أمر يوجب الظن بالموت، وهو عادة المرض الشديد الذى يشرف الإنسان به على الموت.

و قوله: حِينَ الوَصِيَّةِ ظرف متعلق بالشهادة أى الشهادة حين الوصيه، والمراد بالعدل- وهو مصدر-الاستقامه فى الأمر، و قرينه المقام تعطى أن المراد به الاستقامه فى أمر الدين، و يتعين بذلك أن المراد بقوله: «مِنْكُمْ» و قوله: «مِنْ غَيْرِكُمْ» المسلمون و غير المسلمين، دون القرابه و العشيره فإن الله سبحانه قابل بين قوله: «أَتَدَّانِ» و قوله: «أَخْرَانِ»، ثم وصف الأول بقوله «ذَوَا عَدْلٍ» و قوله: «مِنْكُمْ» و لم يصف الثانى إلا- بقوله «مِنْ غَيْرِكُمْ» دون أن يصفه بالعداله، و الاتصاف بالاستقامه فى الدين و عدمه إنما يختلف فى المسلم و غير المسلم، و لا موجب لاعتبار العداله فى الشهود اذا كانوا قرابه أو من عشيره المشهود له و إلغائها اذا كان الشاهد أجنبيا.

و على هذا فقوله: أَوْ أَخْرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ترديد على سبيل الترتيب أى إن كان هناك نفر من المسلمين يستشهد اثنان منهم، و إن لم يكن إلا من غير المسلمين يستشهد باثنين منهم، كل ذلك بالاستفاده من قرينه المقام.

و هذه القرينه بعينها هى التى توجب أن يكون قوله: «إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ» قيدا متعلقا بقوله «أَوْ أَخْرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ» فإن المسلم لما كان بالطبع إنما يعيش فى مجتمع المسلمين لا تمس الحاجه فى الحضر عادة الى الاستشهاد بشهيد من غير المسلمين بخلاف حاله السفر و الضرب فى الأرض فإنها مظنه وقوع أمثال هذه الوقائع و الاضطراب و مسيس الحاجه الى الانتفاع من غير المسلم بشهاده أو غيرها.

و قرينه المقام اعنى المناسبه بين الحكم و الموضوع بالذوق المتخذ من كلامه تعالى تدل على أن المراد من غير المسلمين أهل الكتاب خاصه لأن كلامه تعالى لا يشرف المشركين بكرامه.

و قوله تعالى: تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ أَي تَوَقَّفُونَهُمَا، و الحبس الإيقاف، «فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ» أَي الشاهدان «إِنْ أَرْتَبْتُمْ» أَي شككتم فيما يظهره الوصى من أمر الوصيه أو المال الذى تعلقت به الوصيه أو فى كيفية الوصيه، و المقسم عليه هو قوله: «لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى» أَي لا نشتري بالشهاده للوصى فيما يدعيه ثمننا قليلا و لو كان ذا قربي، و اشتراء الثمن القليل بالشهاده أن ينحرف الشاهد فى شهادته عن الحق لغايه دنيويه من مال أو جاه أو عاطفه قرابه فيبذل شهادته بإزاء ثمن دنيوى، و هو الثمن القليل.

و قوله: «وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ أَي بالشهاده على خلاف الواقع «إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثِمِينَ» الحاملين للاثم، و الجملة معطوفه على قوله: «لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا» كعطف التفسير.

و إضافه الشهاده الى الله فى قوله: «شَهَادَةَ اللَّهِ» إما لأن الواقع يشهده الله سبحانه كما شهده الشاهدان فهو شهادته سبحانه كما هو شهادتهما و الله أحق بالملك فهو شهادته تعالى حقا و بالأصالة و شهادتهما تبعا، و قد قال تعالى: وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (النساء/٧٩) و قال تعالى:

وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ (البقره/٢٥٥).

و إما لأن الشهاده حق مجعول لله على عباده يجب عليهم أن يقيموها على وجهها من غير تحريف أو كتمان، و هذا كما يقال: دين الله، فينسب الدين إليه تعالى مع أن العباد هم المتلبسون به، قال تعالى: وَ أَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ (الطلاق/٣) و قال: وَ لَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ (البقره/٢٨٣).

و قوله: فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا العثور على الشيء الحصول عليه

و وجدانه، و هذه الآية بيان و تفصيل للحكم فى صورته ظهور خيانه الشاهدين و كذبهما فى شهادتهما.

و المراد باستحقاق الإثم الإجرام و الجنايه يقال: استحق الرجل أى أذنب، و استحق فلان إثما على فلان كناية عن إجرامه و جنايته عليه و لذا عدى بعلى فى قوله تعالى: ذيلًا: «اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ» أى أجرما و جنيا عليهم بالكذب و الخيانه، و أصل معنى قولنا: استحق الرجل طلب أن يحق و يثبت فيه الإثم أو العقوبه فاستعماله الكنائى من قبيل إطلاق الطلب و إرادته المطلوب و وضع الطريق موضع الغايه، و إنما ذكر الإثم فى قوله: «اسْتَحَقَّ إِثْمًا» بالبناء على ما تقدم فى قوله: «إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثْمِينَ» .

و قوله تعالى: فَآخِرَانِ يُقِيمَانِ مَقَامَهُمَا أى إن عشر على أن الشاهدين استحقا بالكذب و الخيانه فشاهدان آخران يقومان مقامهما فى اليمين على شهادتهما عليهما بالكذب و الخيانه.

و قوله: مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فى موضع الحال أى حال كون هذين الجديدين من الذين استحق عليهم أى أجرم و جنى عليهم الشاهدان الأولان اللذين هما الأوليان الأقربان بالميت من جهة الوصيه كما ذكره الرازى فى تفسيره، و المراد بالذين استحق عليهم الأوليان أولياء الميت، و حاصل المعنى أنه إن عشر على أن الشاهدين أجرما على أولياء الميت بالخيانه و الكذب فيقوم شاهدان آخران من أولياء الميت اللذين أجرم عليهم الشاهدان الأولان الأوليان بالموت قبل ظهور استحقاقهما للإثم.

هذا على قراءة «استحق» بالبناء للفاعل و هو قراءه عاصم على روايه حفص، و أما على قراءه الجمهور «استحق» بضم التاء و كسر الحاء بالبناء للمفعول فظاهر السياق أن يكون الأوليان مبتدأ خبره قوله: «فَآخِرَانِ يُقِيمَانِ» الخ؛ قدم عليه لتعلق العنايه به، و المعنى إن عشر على أنهما استحقا إثما فالأوليان بالميت هما آخران يقومان مقامهما من أوليائه المجرم

و فى قراءه عاصم من طريق أبى بكر و حمزه و خلف و يعقوب «الأولين» جمع الأول مقابل الآخر، و هو بظاهره بمعنى الأولياء و المقدمين، و وصف أو بدل من قوله: «الذين».

و قد فرع على قوله: «فَأَخْرَانِ يَقُومَانِ» الخ؛ تفريع الغايه على ذى الغايه قوله: «فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ» أى الشاهدان الآخران من أولياء الميت «لَشَهَادَتِنَا» بما يتضمن كذبهما و خيانتهما «أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا» أى من شهادته الشاهدين الأولين بما يدعيان من أمر الوصيه «وَمَا اعْتَدَيْنَا» عليهما بالشهاده على خلاف ما شهدا عليه «إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ».

قوله تعالى: ذَلِكْ أَذْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعِيدَ أَيْمَانِهِمُ الآيه؛ فى مقام بيان حكمه التشريع و هى أن هذا الحكم على التريب الذى قرره الله تعالى أحوط طريق الى حيازه الواقع فى المقام، و أقرب من أن لا يجوز الشاهدان فى شهادتهما و يخافا من أن يتغير الأمر عليهما برد شهادتهما بعد قبولهما.

ثم عقب تعالى القول بالموعظه و الإنذار فقال «وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اسْمَعُوا وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» و المعنى واضح.

قوله تعالى: يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا بِئِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ الآيه؛ لا تأبى الاتصال بما قبلها فإن ظاهر قوله تعالى فى ذيل الآيه السابقه: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اسْمَعُوا» الخ؛ و إن كان مطلقا لكنه بحسب الانطباق على المورد نهى عن الانحراف و الجور فى الشهاده و الاستهانه بأمر اليمين بالله فناسب أن يذكر فى المقام بما يجرى بينه سبحانه و بين رسله يوم القيامه و هم شهداء على اممهم و أفضل الشهداء، حيث يسألهم الله سبحانه عن الذى أجابهم به اممهم و هم أعلم الناس بأعمال اممهم و الشاهدون من عند الله عليهم فيجيبونه بقولهم «لَا عِلْمَ لَنَا بِئِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ».

فإذا كان الأمر على هذه الوتيره، و كان الله سبحانه هو العالم بكل شىء حق العلم فجدير

بالشهود أن يخافوا مقام ربهم: و لا- ينحرفوا عن الحق الذى رزقهم الله العلم به، و لا- يكتموا شهادته الله فيكونوا من الآ-ثمين و الظالمين و الفاسقين.

فقوله تعالى: يَوْمَ يَجْمَعُ الخ؛ ظرف متعلق بقوله فى الآيه السابقه «وَ اتَّقُوا اللَّهَ» الخ؛ و ذكر جمع الرسل دون أن يقال «يوم يقول الله للرسل» لمكان مناسبه مع جمع الشهداء للشهاده كما يشعر به قوله: «تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ» .

و أما نفيمهم العلم يومئذ عن أنفسهم بقولهم «لَا عِلْمَ لَنَا بِإِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» فإثباتهم جميع علوم الغيوب لله سبحانه على وجه الحصر يدل على أن المنفى ليس أصل العلم فإن ظاهر قولهم «إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» يدل على أنه لتعليل المنفى، و من المعلوم أن انحصار جميع علوم الغيب فى الله سبحانه لا يقتضى رفع كل علم عن غيره و خاصة اذا كان علما بالشهاده، و المسئول عنه أعنى كيفيه إجابه الناس لرسولهم من قبيل الشهاده دون الغيب.

فقولهم: لَا عِلْمَ لَنَا ليس نفيا لمطلق العلم بل لحق العلم الذى لا- يخلو عن التعلق بالغيب فإن من المعلوم أن العلم إنما يكشف لعالمه من الواقع على قدر ما يتعلق بأمر من حيث أسبابه و متعلقاته، و الواقع فى العين مرتبط بجميع أجزاء الخارج مما يتقدم على الأمر الواقع فى الخارج و ما يحيط به مما يصاحبه زمانا فالعلم بأمر من الامور الخارجيه بحقيقه معنى العلم لا يحصل إلا بالإحاطه بجميع أجزاء الوجود ثم بصانعه المتعالى من أن يحيط به شىء، و هذا أمر وراء الطاقه الإنسانيه.

فلم يرزق الإنسان من العلم فى هذا الكون الذى يبهته التفكير فى سعه ساحته، و تهوله النظره فى عظمه أجهامه و مجراته، و يطير لبه الغور فى متون ذراته، و يأخذ الدوار اذا أراد الجرى بين هاتين الغايتين إلا اليسير من العلم على قدر ما يحتاج اليه فى مسير حياته كالشمعه الصغيره يحملها طارق الليل المظلم لا ينتفع من نورها إلا أن يميز ما يضع عليه قدمه من الأرض.

فما يتعلق به علم الإنسان ناشب بوجوده متعلق بواقعيته بأطراف ثم بأطراف أطراف، و هكذا كل ذلك في غيب من إدراك الإنسان فلا يتعلق العلم بحقيقته معنى الكلمه بشيء إلا اذا كان متعلقا بجميع الغيوب في الوجود، ولا يسع ذلك لمخلوق محدود مقدر إنسانا أو غيره إلا لله الواحد القهار الذى عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، قال الله تعالى: **وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** (البقره ٢١٦) فدل على أن من طبع الإنسان الجهل فلا يرزق من العلم إلا محدودا مقدرًا كما قال تعالى: **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ** (الحجر ٢١) و هو قوله عليه السلام حيث سئل عن عله احتجاب الله عن خلقه فقال: لأنه بناهم بنيه على الجهل، و قال تعالى: **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ** (البقره ٢٥٥) فدل على أن العلم كله لله، و إنما يحيط منه الإنسان بما شاء الله، و قال تعالى: **وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** (الإسراء ٨٥) فدل على أن هناك علما كثيرا لم يؤت الإنسان إلا قليلا منه.

فإذن حقيقته الأمر أن العلم حق العلم لا يوجد عند غير الله سبحانه، و إذا كان يوم القيامة يوما يظهر فيه الأشياء بحقائقها على ما تفيد الآيات الواصفه لأمره فلا مجال فيه إلا للكلام الحق كما قال تعالى: **لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا، ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ** (النبا ٣٩) كان من الجواب الحق اذا ما سئل الرسل ف قيل لهم **«مَاذَا أُجِبْتُمْ»** أن يجيبوا بنفى العلم عن أنفسهم لكونه من الغيب، و يشبهه لربهم سبحانه بقولهم **لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**.

و هذا الجواب منهم عليهم السلام نحو خضوع لحضره العظمه و الكبرياء و اعتراف بحاجتهم الذاتيه و بطلانهم الحقيقى قبال مولاهم الحق رعايه لأدب الحضور و إظهارا لحقيقه الأمر، و ليس جوابا نهائيا لا جواب بعد البته:

أما أولا- فلأن الله سبحانه جعلهم شهداء على امهم كما ذكره في قوله: **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا** (النساء ٤١) و قال: **وَ وَضِعَ الْكِتَابُ وَ جِئَءَ**

بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ (الزمر ٦٩) ولا معنى لجعلهم شهداء إلا لشهدوا على اممهم يوم القيامة بما هو حق الشهاده يومئذ، فلا محاله هم سيشهدون يومئذ كما قدر الله ذلك فقولهم يومئذ لا - عِلْمٌ لَنَا جَرَى عَلَى الْأَدْبِ الْعِبَادِي قِبَالَ الْمَلِكِ الْحَقِّ الَّذِي لَهُ الْأَمْرُ وَالْمَلِكِ يَوْمئِذٍ، وبيان لحقيقه الحال و هو أنه هو يملك العلم لذاته و لا يملك غيره إلا ما ملكه، و لا ضير أن يجيبوا بعد هذا الجواب بما لهم من العلم الموهوب المتعلق بأحوال اممهم، و هذا مما يؤيد ما قدمناه فى البحث عن قوله تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ الْآيَةِ (البقره ١٤٣) فى الجزء الأول من هذا الكتاب: أن هذا العلم و الشهاده ليسا من نوع العلم و الشهاده المعروفين عندنا و أنهما من العلم المخصوص بالله الموهوب لطائفه من عباده المكرمين.

و أما ثانيا فلأن الله سبحانه أثبت العلم لطائفه من مقربى عباده يوم القيامة على ما له من الشأن، قال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ (الروم ٥٦) و قال تعالى: وَعَلَى الْمَاعِرِافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كَلِمًا بَسِيْمًا هُمْ (الأعراف ٤٦) و قال تعالى: وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (الزخرف ٨٧) و عيسى بن مريم عليه السلام ممن تعمه الآيه و هو رسول فهو ممن يشهد بالحق و هم يعلمون، و قال تعالى: وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (الفرقان ٣١) و المراد بالرسول رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و الذى تحكيه الآيه من قوله هو بعينه جواب لما تشتمل عليه هذه الآيه من السؤال أعنى قوله تعالى: فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ فظهر أن قول الرسل عليهم السلام «لا علم لنا» ليس جوابا نهائيا كما تقدم.

و أما ثالثا فلأن القرآن يذكر السؤال عن المرسلين و المرسل إليهم جميعا كما قال تعالى:

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (الأعراف ٦) ثم ذكر عن الامم المرسل اليهم جوابات كثيره عن سؤالات كثيره، و الجواب يستلزم العلم كما أن السؤال يقرره، و قال

أَيْضاً فِيهِمْ: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق / ٢٢) وَقَالَ أَيْضاً: وَ لَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (السجده ١٢) / إلى غير ذلك من الآيات الكثيره، و إذا كانت الامم - وخاصة المجرمون منهم - على علم في هذا اليوم فكيف يتصور أن يعدمه الرسل الكرام عليهم السلام فالمصير إلى ما قدمناه (١)(٢)(٣)(٤).

[سوره المائده (٥): الآيات ١١٠ إلى ١١١]

اشاره

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْمَكْمُومَ وَالْمَبْرُصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَإِشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (١١١)

ص: ٢٣٢

١-١. المائده ١٠٥: كلام في معنى الشهاده.

٢-٢. المائده ١٠٥: كلام في العداله.

٣-٣. المائده ١٠٥: كلام في اليمين.

٤-٤. المائده ١٠٥: بحث روائى فى: الوصيه؛ الشهاده؛ معنى الآية «لَا عِلْمَ لَنَا بِإِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» .

قوله تعالى: إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ -الى قوله- وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي الْآيَةِ تعدّ عدة من الآيات الباهرة الظاهرة بيده عليه السلام إلا أنها تمتن بها عليه و على أمه جميعا، و هى مذكوره بهذا اللفظ تقريبا فيما يحكيه تعالى من تحديث الملائكه مريم عند بشارتها بعيسى عليه السلام فى سورة آل عمران، قال تعالى: إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ -الى أن قال- وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهَلًا -الى أن قال- وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ رَسُولًا -إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ الْآيَاتِ (٤٥-٥٠).

و التأمل فى سياق الآيات يوضح الوجه فى عدّ ما ذكره من الآيات المختصه ظاهرا بالمسيح نعمه عليه و على والدته جميعا كما تشعر به آيات آل عمران فإن البشاره إنما تكون بنعمه، و الأمر على ذلك فإن ما اختص به المسيح عليه السلام من آيه و موهبه كالولاده من غير أب و التأييد بروح القدس و خلق الطير و إبراء الأكمه و الأبرص و إحياء الموتى بإذن الله سبحانه فهى بعينها كرامه لمريم كما أنها كرامه لعيسى عليها السلام فهما معا منعمان بالنعمه الإلهيه كما قال تعالى: نعمتى التى أنعمت عليك و على والدتك.

و الى ذلك يشير تعالى بقوله وَ جَعَلْنَاهَا وَ ابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (الأنبياء ٩١) حيث عدّهما معا آيه واحده لا آيتين.

و قوله: إِذْ أَيْدُتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ الظاهر أن التأييد بروح القدس هو السبب المهيئ له لتكليم الناس فى المهده، و لذلك وصل قوله: تُكَلِّمُ النَّاسَ من غير أن يفصله بالعطف الى الجملة السابقه إشعارا بأن التأييد و التكليم معا أمر واحد مؤلف

من سبب

ص: ٢٣٣

و مسبب، و اكتفى فى موارد من كلامه بذكر أحد الأمرين عن الآخر كقوله فى آيات آل عمران المنقوله آنفا: تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهَلًا، و قوله: وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبُيُوتَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ (البقره ٢٥٣/).

على أنه لو كان المراد بتأييده بروح القدس مسأله الوحي بوساطه الروح لم يختص بعيسى بن مريم عليه السّلام و شاركه فيها سائر الرسل مع أن الآيه تأبى ذلك بسياقها.

و قوله: وَ إِذْ عَلَّمْتِكَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَسْتَفَادَ مِنْهُ أَنَّهُ عَلَيْهِ السّلام إنما تلقى علم ذلك كله بتلق واحد عن أمر إلهى واحد من غير تدريج و تعدد كما أنه أيضا ظاهر جمع الجميع و تصديرها بإذ من غير تكرار لها.

و كذلك قوله: وَ إِذْ تَخَلَّقْتَ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ظاهر السياق من جهه عدم تكرار لفظه «إذ» أن خلق الطير و إبراء الأكمه و الأبرص كانا متقارنين زمانا، و أن تذييل خلق الطير بذكر الإذن من غير أن يكتفى بالإذن المذكور فى آخر الجملة إنما هو لعظمه أمر الخلق بإفاضه الحياه فتعلقت العناية به فاختص بذكر الإذن بعده من غير أن ينتظر فيه آخر الكلام صونا لقلوب السامعين من أن يخطر فيها أن غيره تعالى يستقل دونه بإفاضه الحياه أو تلبث فيها هذه الخطره و لو لحظات يسيره، و الله أعلم.

و قوله: وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي إِخْرَاجَ الْمَوْتَى كناية عن إحيائها، و فيه عنايه ظاهره بأن الإحياء الذى جرى على يديه عليه السّلام كان إحياء لموتى مقبورين بإفاضه الحياه عليهم و إخراجهم من قبورهم الى حياه دنيويه، و فى اللفظ دلالة على الكثره، و قد تقدم فى الكلام على آيات آل عمران بقيه ما يتعلق بهذه الآيات من الكلام فراجع ذلك.

قوله تعالى: وَ إِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ فيه دلالة على أنهم قصدوه بشر فكفهم الله عن ذلك فينطبق على ما ذكره الله فى سورة آل عمران فى قصصه عليه السّلام

بقوله وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ .

قوله تعالى: وَ إِذِ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ الْآيَةَ؛ الْآيَةَ مِنْطَبِقَهُ عَلَى آيَاتِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ بِقَوْلِهِ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ أَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (آل عمران ٥٢).

و من هنا يظهر أن هذا الإيمان الذى ذكره فى الآيه بقوله «وَ إِذِ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمَنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا» الْآيَةَ؛ غير إيمانهم الأول به عليه السَّلام فإن ظاهر قوله فى آيه آل عمران: فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ أَنَّهُ كَانَ فِي أَوَاخِرِ أَيَّامِ دَعْوَتِهِ وَ قَدْ كَانَ الْحَوَارِيُّونَ وَ هُمُ السَّابِقُونَ الْأَوْلُونَ فِي الْإِيمَانِ بِهِ مُلَازِمِينَ لَهُ.

على أن ظاهر قوله فى آيه آل عمران: قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ أَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ أَنَّ الدَّعْوَةَ إِنَّمَا سَيِّقَتْ لِأَخْذِ الْمِيثَاقِ عَلَى نَصْرِهِ دِينَ اللَّهِ لَا أَسْلَ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ، لِأَنَّكَ خَتَمَ الْآيَةَ بِقَوْلِهِمْ «وَ أَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» وَ هُوَ التَّسْلِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ بِإِقَامَةِ دَعْوَتِهِ وَ تَحْمِلِ الْأَذَى فِي جَنْبِهِ، وَ كُلِّ ذَلِكَ بَعْدَ أَسْلِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ طَبْعًا.

فتبين أن المراد بقوله «وَ إِذِ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ» الخ؛ قصه أخذ الميثاق من الحواريين، و فى الآيه ابحاث آخر مرت فى تفسير سورة آل عمران (١).

[سورة المائدة (٥): الآيات ١١٢ الى ١١٥]

إشارة

إِذِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَ تَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَ نَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَ آخِرِنَا وَ آيَةً مِنْكَ وَ أَرْزُقْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)

ص: ٢٣٥

قوله تعالى: إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ «إِذْ» ظرف متعلق بمقدر و التقدير: اذكر اذ قال، الخ؛ أو ما يقرب منه، و ذهب بعضهم الى أنه متعلق بقوله في الآية السابقة «قَالُوا آمَنَّا» الخ؛ أى قال الحواريون: آمنا بالله و أشهد بأننا مسلمون فى وقت قالوا فيه لعيسى «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ» و المراد أنهم ما كانوا على صدق فى دعواهم، و لا على جد فى إسهادهم عيسى عليه السلام على إسلامهم له.

و فيه أنه مخالف لظاهر السياق، و كيف يكون إيمانهم غير خالص؟ و قد ذكر الله أنه هو أوحى اليهم أن آمنوا بى و برسولى، و هو تعالى يمتن بذلك على عيسى عليه السلام؛ على أنه لا وجه حينئذ للإظهار فى قوله: «إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ» الخ.

و«المائدة» الخوان اذا كان فيه طعام، قال الراغب: و المائدة الطبق الذى عليه الطعام، و يقال لكل واحد منهما مائدة، و يقال: مادنى يميدنى أى أطعمنى، انتهى.

و متن السؤال الذى حكى عنهم فى الآية و هو قولهم «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا

مَا تَدَّهَ مِنَ السَّمَاءِ» بحسب ظاهر ما يتبادر من معناه مما يستعبد العقل صدورَه عن الحواريين و هم أصحاب المسيح و تلامذته و أخصاؤه الملازمون له المقتبسون من أنوار علومه و معارفه المتبعون آدابه و آثاره، و الإيمان بأدنى مراتبه ينبه الإنسان على أن الله سبحانه على كل شيء قدير، و لا يجوز عليه العجز و لا يغلبه العجز؛ فكيف جاز أن يستفهموا رسولهم عن استطاعه ربه على إنزال مائده من السماء.

و لذلك قرأ الكسائي من السبعة «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ» بناء المضارعه و نصب «رَبُّكَ» على المفعوليه أى هل تستطيع أنت أن تسأل ربك، فحذف الفعل الناصب للمفعول و اقيم «تستطيع» مقامه، أو أنه مفعول لفعل محذوف فقط.

و قد اختلف المفسرون فى توجيهه على بناء من أكثرهم على أن المراد به غير ما يتبادر من ظاهره من الشك فى قدره الله سبحانه لتزاهه ساحتهم من هذا الجهل السخيف.

و أوجه ما يمكن أن يقال هو أن الاستطاعه فى الآيه كناية عن اقتضاء المصلحه و وقوع الإذن كما أن الإمكان و القدره و القوه يكنى بها عن ذلك كما يقال «لا يقدر الملك أن يصغى الى كل ذى حاجه» بمعنى أن مصلحه الملك تمنعه من ذلك و إلا فمطلق الإصغاء مقدور له، و يقال «لا يستطيع الغنى أن يعطى كل سائل» أى مصلحه حفظ المال لا تقتضيه، و يقال «لا يمكن للعالم أن يبث كل ما يعلمه» أى يمنعه عن ذلك مصلحه الدين أو مصلحه الناس و النظام الدائر بينهم، و يقول أحدنا لصاحبه «هل تستطيع أن تروح معى الى فلان»؟ و إنما السؤال عن الاستطاعه بحسب الحكمه و المصلحه لا بحسب أصل القدره على الذهاب، هذا.

قوله تعالى: قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ توبيخ منه عليه السلام لهم لما يشتمل عليه ظاهر كلامهم من الاستفهام عن استطاعه ربه على إنزال المائده فإن كلامهم مريب على أى حال.

و أما على ما قدمناه من أن الأصل في مؤاخذتهم الذى يترتب عليه الوعيد الشديد فى آخر الآيات هو أنهم سألوا آيه حيث لا حاجه إليها و اقترحوا بما فى معنى العبث بآيات الله سبحانه، ثم تعبيرهم بما يتبادر من ظاهره كونهم كأنهم لم يعقدوا قلوبهم على القدره الربويه فوجه توبيخه عليه السلام لهم بقوله «اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ» أظهر.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَ نَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ السياق ظاهر فى أن قولهم هذا عذر اعتذروا به للتخلص من توبيخه عليه السلام و ما ذكروه ظاهر التعلق باقتراحهم الآيه بنزول المائده دون ما يظهر من قولهم: هل يستطيع ربك ان ينزل، من المعنى الموهم للشك فى إطلاق القدره، و هذا ايضا احد الشواهد على ان ملاك المؤاخذة فى المقام هو انهم سألوا آيه على آيه من غير حاجه إليها.

و أما قولهم «نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا» الخ؛ فقد عدوا فى بيان غرضهم من اقتراح الآيه امورا أربعه:

أحدها: الأكل و كأن مرادهم بذكره أنهم ما أرادوا به اللعب بآيات الله بل أرادوا أن يأكلوا منها، و هو غرض عقلائي، و قد تقدم أن هذا القول منهم كالتسليم لاستحقاقهم التوبيخ من عيسى عليه السلام و الوعيد الشديد من الله لمن يكفر منهم بآيه المائده.

و ذكر بعضهم: أن المراد بذكر الأكل إبانة أنهم فى حاجه شديده الى الطعام و لا يجدون ما يسد حاجتهم. و ذكر آخرون أن المراد: نريد أن نتبركه بأكله. و أنت تعلم أن المعنى الذى قرر فى كل من هذين الوجهين أمر لا يدل عليه مجرد ذكر الأكل، و لو كان مرادهم ذلك و هو أمر يدفع به التوبيخ لكان مقتضى مقام الاعتذار التصريح بذكره، و حيث لم يذكر شىء من ذلك مع حاجه المقام الى ذكره لو كان مرادا فليس المراد بالأكل إلا مطلق معناه من حيث إنه غرض عقلائي هو أحد أجزاء غرضهم فى اقتراح نزول المائده.

الثانى: اطمئنان القلب و هو سكونه باندفاع الخطورات المنافيه للخلوص و الحضور.

و الثالث: العلم بأنه عليه السّلام قد صدقهم فيما بلغهم عن ربه، و المراد بالعلم حينئذ هو العلم اليقيني الذى يحصل فى القلب بعد ارتفاع الخطورات و الوسواس النفسانيه عنه، أو العلم بأنه قد صدقهم فيما وعدهم من ثمرات الإيمان كاستجابة الدعاء كما ذكره بعضهم، لكن يبعده أن الحواريين ما كانوا يسألون إنزال المائده من السماء إلا بدعاء عيسى عليه السّلام و مسألته، و بالجمله بإعجاز منه عليه السّلام و قد كانوا رأوا منه عليه السّلام آيات كثيره فإنه عليه السّلام لم يزل فى حياته قرينا لآيات إلهيه كبرى، و لم يرسل الى قومه و لم يدعهم دعوه إلا- مع آيات ربه فلم يزلوا يرون ثمرات إيمانه من استجابة الدعاء إن كان المراد الثمره التى هى استجابة دعائه عليه السّلام، و إن كان المراد الثمره التى هى استجابة دعائهم أنفسهم فإنهم لم يسألوا نزول الآيه بدعاء أنفسهم، و لم تنزل إلا بدعاء عيسى عليه السّلام.

الرابع: أن يكونوا عليها من الشاهدين عند ما يحتاج الى الشهاده كالشهادة عند المنكرين، و الشهاده عند الله يوم القيامة، فالمراد بها مطلق الشهاده، و يمكن أن يكون المراد مجرد الشهاده عند الله سبحانه كما وقع فى بعض قولهم الذى حكاه الله تعالى اذ قال: رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (آل عمران ٥٣).

فقد تحصل أنهم- فيما اعتذروا به- ضموا امورا جميله مرضيه الى غرضهم الآخر الذى هو الأكل من المائده السماويه ليحسموا به ماده الحزازة عن اقتراحهم الآيه بعد مشاهدته الآيات الكافيه فأجابهم عيسى عليه السّلام الى مسألتهم بعد الإصرار.

قوله تعالى: قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَ آخِرِنَا وَ آيَةً مِنْكَ وَ ارزُقْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ خلط عليه السّلام نفسه بهم فى سؤال المائده، و بدأ بنداء ربه بلفظ عام فقال «اللَّهُمَّ رَبَّنَا» و قد كانوا قالوا له «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ» ليوافق النداء الدعاء.

وقد توحد هذا الدعاء من بين جميع الأدعية و المسائل المحكية فى القرآن عن الانبياء عليهم السلام بأن صدر «باللهم ربنا» وغيره من أدعيتهم مصدر بلفظ «رب» أو «ربنا» وليس إلا لدقه المورد و هول المطلع، نعم يوجد فى أقسام الثناء المحكية نظير هذا التصدير كقوله: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ (النمل ٥٩/) وقوله: قُلِ اللَّهُمَّ مَا لَكَ الْمُلْكُ (آل عمران ٢٦/) وقوله: قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (الزمر ٤٤/).

ثم ذكر عليه السلام عنوانا لهذه المائدة النازله هو الغرض له ولأصحابه من سؤال نزولها و هو أن تنزل فتكون عيداً له ولجميع امته، و لم يكن الحواريون ذكروا فيما اقترحوه أنهم يريدون عيداً يخصون به لكنه عليه السلام عنون ما سأله بعنوان عام و قلبه فى قالب حسن ليخرج عن كونه سؤالاً للآيه مع وجود آيات كبرى إلهيه بين أيديهم و تحت مشاهدتهم، و يكون سؤالاً مرضياً عند الله غير مصادم لمقام العزه و الكبرياء فإن العيد من شأنه أن يجمع الكلمه، و يجدد حياه المله، و ينشط نفوس العائدين، و يعلن كلما عاد عظمه الدين.

و لذلك قال: «عِيداً لَأَوْلِنَا وَ آخِرِنَا» أى أول جماعتنا من الامه و آخر من يلحق بهم -على ما يدل عليه السياق- فإن العيد من العود و لا يكون عيداً إلا اذا عاد حيناً بعد حين، و فى الخلف بعد السلف من غير تحديد.

و هذا العيد مما اختص به قوم عيسى عليه السلام كما اختصوا بنوع هذه الآيه النازله على ما تقدم بيانه.

و قوله: «وَ آيَةٌ مِنْكَ» لما قدم مسأله العيد و هى مسأله حسنه جميله لا عتاب عليها عقبها بكونها آيه منه تعالى كأنه من الفائده الزائده المترتبه على الغرض الأصلى غير مقصوده وحدها حتى يتعلق بها عتاب أو سخط، و إلا فلو كانت مقصوده وحدها من حيث كونها آيه لم تخل مسألتها من نتيجته غير مطلوبه فإن جميع المزايا الحسنه التى كان يمكن أن يراد بها كانت ممكنه الحصول بالآيات المشهوده كل يوم منه عليه السلام للحواريين

وغيرهم.

وقوله: «وَ ارزُقْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» وهذه فائده اخرى عدها مترتبه على ما سأله من العيد من غير أن تكون مقصوده بالذات، و قد كان الحواريون ذكروه مطلوباً بالذات حيث قالوا «تُرِيدُ أَنْ تَأْكَلَ مِنْهَا» فذكروه مطلوباً لذاته و قدموه على غيره، لكنه عليه السلام عده غير مطلوب بالذات و أخره عن الجميع و أبدل لفظ الأكل من لفظ الرزق فأردفه بقوله «وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» .

قوله تعالى: قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزَّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعِيدٌ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ قرأ أهل المدينة و الشام و عاصم «مُنَزَّلُهَا» بالتشديد و الباقر «مُنَزَّلُهَا» بالتخفيف-على ما فى المجمع-و التخفيف اوفق لأن الإنزال هو الدال على النزول الدفعى، و كذلك نزلت المائده، و أما التنزيل فاستعماله الشائع إنما هو فى النزول التدريجى كما تقدم كرارا.

وقوله تعالى: «إِنِّي مُنَزَّلُهَا عَلَيْكُمْ» وعد صريح بالإنزال و خاصه بالنظر الى الإتيان به فى هيئه اسم الفاعل دون الفعل، و لازم ذلك أن المائده قد نزلت عليهم.

و من هنا يظهر ان المراد بالعالمين عالمو جميع الامم لا عالمو زمانهم فإن ذلك مرتبطا بمن يمتازون عنهم من الناس و هم جميع الامم لا اهل زمان عيسى عليه السلام خاصه من امم الأرض.

و من هناك يظهر ايضا ان قوله: «فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ» و إن كان وعيدا شديدا بعذاب بئس لكن الكلام غير ناظر الى كون العذاب فوق جميع العذابات و العقوبات فى الشده و الألم، و إنما هو مسوق لبيان انفراد العذاب فى بابه، و اختصاصهم من بين الامم به (1).

ص: ٢٤١

(١- ١). المائده ١١٢-١١٥: بحث روائى فى: نزول المائده على المسيح عليه السلام و اصحابه.

اشاره

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (۱۱۶) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۱۱۷) إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَا تُعَذِّبْهُمْ عَذَابَكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۱۱۸) قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۱۹) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۲۰)

بیان:

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ «إِذْ» ظرف متعلق بمحذوف يدل عليه المقام، والمراد به يوم

القيامه لقوله تعالى فيها: «قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ» و قول عيسى عليه السلام فيها:

«وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ» .

و قد عبرت الآيه عن مريم بالامومه فقيل «اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلَهَيْنِ» دون ان يقال «اتخذوني و مريم إلهين» للدلاله على عمدته حجتهم فى الالوهيه و هو ولادته منها بغير أب، فالبنوه و الامومه الكذائيتين هما الأصل فى ذلك بالتعبير به و بامه أدل و أبلغ من التعبير بعيسى و مريم.

و«دون» كلمه تستعمل بحسب المآل فى معنى الغير، قال الراغب: يقال للقاصر عن الشىء «دون» قال بعضهم: هو مقلوب من الدنو، و الأدون الدنى، و قوله تعالى: لا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ أى من لم يبلغ منزلتكم فى الديانه، و قيل: فى القرابه، و قوله: وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ أى ما كان أقل من ذلك، و قيل: ما سوى ذلك، و المعنيان متلازمان، و قوله:

«أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ» أى غير الله، انتهى (١).

قوله تعالى: قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّهِ إِلَى آخِرِ الآيه؛ هذه الآيه و التى تتلوها جواب المسيح عيسى بن مريم عليه السلام عما سئل عنه و قد أتى عليه السلام فيه بأدب عجيب:

فبدأ بتسيحه تعالى لما فاجأه أن سمع ذكر ما لا يليق نسبته الى ساحه الجلال و العظمه و هو اتخاذ الناس إلهين من دون الله شريكين له سبحانه فمن أدب العبوديه أن يسبح العبد ربه اذا سمع ما لا- ينبغى أن يسمع فيه تعالى أو ما يخطر بالبال تصور ذلك، و عليه جرى التأديب الإلهى فى كلامه كقوله: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ (الأنبياء ٢٦) و قوله:

وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ (النحل ٥٧).

ثم عاد الى نفى ما استفهم عن انتسابه إليه، و هو أن يكون قد قال للناس اتخذوني و أمى

ص: ٢٤٣

إلهين من دون الله، ولم ينفه بنفسه بل بنفى سببه مبالغه في التنزيه فلو قال: «لم أقل ذلك أ و لم أفعل» لكان فيه إيمان الى إمكان وقوعه منه لكنه لم يفعل، لكن اذا نفاه بنفى سببه فقال: «مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ» كان ذلك نفيا لما يتوقف عليه ذلك القول، و هو أن يكون له أن يقول ذلك حقا فنفي هذا الحق نفى ما يتفرع عليه بنحو أبلغ نظير اذا قال المولى لعبده: لم فعلت ما لم آمرك أن تفعله؟ فإن أجاب العبد بقوله «لم أفعل» كان نفيا لما هو في مظنه الوقوع، و إن قال: «أنا أعجز من ذلك» كان نفيا بنفى السبب و هو القدره، و إنكارا لأصل إمكانه فضلا عن الوقوع.

و قوله: «مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ» إن كان لفظ «يَكُونُ» ناقصه فاسمها قوله: «أَنْ أَقُولَ» و خبرها قوله: «لِي» و اللام للملك، و المعنى: ما أملك ما لم أملكه و ليس من حقي القول بغير حق، و إن كانت تامه فلفظ «لِي» متعلق بها و قوله: «أَنْ أَقُولَ» الخ؛ فاعلها، و المعنى: ما يقع لي القول بغير حق، و الأول من الوجهين أقرب، و على أى حال يفيد الكلام نفى الفعل بنفى سببه.

و قوله عليه السّلام: «إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ» نفى آخر للقول المستفهم عنه لا- نفيا لنفسه بنفسه بل بنفى لازمه فإن لازم وقوع هذا القول أن يعلم به الله لأنه الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض و لا في السماء و هو القائم على كل نفس بما كسبت، المحيط بكل شيء.

و هذا الكلام منه عليه السّلام يتضمن أولا فائده إلقاء القول مع الدليل من غير أن يكتفى بالدعوى المجردة؛ و ثانيا الإشعار بأن الذي كان يعتبره في أفعاله و أقواله هو علم الله سبحانه من غير أن يعبا بغيره من خلقه علموا أو جهلوا، فلا شأن له معهم.

و بلفظ آخر السؤال إنما يصح طبعا في ما كان مظنه الجهل فيراد به نفى الجهل و إفاده العلم، إما لنفس السائل اذا كان هو الجاهل بواقع الأمر، أو لغيره اذا كان السائل عالما و أراد أن يعلم غيره بما يعلم هو من واقع الأمر كما يحمل عليه نوع السؤال الواقع في كلامه تعالى، و قوله عليه السّلام

فى الجواب فى مثل المقام «إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ» إرجاع للأمر الى علمه تعالى و إشعار أنه لا يعتبر شيئاً فى أفعاله و أقواله غير علمه تعالى.

ثم أشار بقوله «تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَ لَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» ليكون تنزيها لعلمه تعالى عن مخالطه الجهل إياه، و هو و إن كان ثناء أيضا فى نفسه لكنه غير مقصود لأن المقام ليس بمقام الثناء بل مقام التبرى عن انتساب ما نسب اليه.

فقوله عليه السلام «تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي» توضيح لنفوذ العلم الذى ذكره فى قوله: «إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ» و بيان أن علمه تعالى بأعمالنا و هو الملك الحق يومئذ ليس من قبيل علم الملوك منا بأحوال رعيته بارتفاع أخبار المملكة إليه ليعلم بشىء و يجهل بشىء، و يستحضر حال بعض و يغفل عن حال بعض، بل هو سبحانه لطيف خبير بكل شىء و منها نفس عيسى بن مريم بخصوصه.

و مع ذلك لم يستوف حق البيان فى وصف علمه تعالى فإنه سبحانه يعلم كل شىء، لا كعلم أحدنا بحال الآخر و علم الآخر بحاله، بل يعلم ما يعلم بالإحاطه به من غير أن يحيط به شىء و لا- يحيطون به علما فهو تعالى إله غير محدود و كل من سواه محدود مقدر لا يتعدى طور نفسه المحدود، و لذلك ضم عليه السلام الى الجملة جمله اخرى فقال: «تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَ لَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ».

أما قوله: «إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» فيه بيان العله لقوله «تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي» الخ؛ و فيه استيفاء حق البيان من جهه اخرى و هو رفع توهم أن حكم العلم فى قوله: «تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَ لَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ» مقصور بما بينه و بين ربه لا يطرد فى كل شىء فبين بقوله «إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» أن العلم التام بجميع الغيوب منحصر فيه فما كان عند شىء من الأشياء و هو غيب عن غيره فهو معلوم لله سبحانه و هو محيط به.

و لازم ذلك أن لا يعلم شىء من الأشياء بغيبه تعالى و لا بغيبه غيره الذى هو تعالى عالم به

لأنه مخلوق محدود لا- يتعدى طور نفسه فهو علام جميع الغيوب، ولا- يعلم شىء غيره تعالى بشىء من الغيوب لا الكل ولا البعض.

على أنه لو أحيط من غيبه تعالى بشىء فإن أحاط تعالى به لم يكن هذا المحيط محيطاً حقيقه بل محاطاً له تعالى ملكه الله بمشيئته أن يحيط بشىء من ملكه من غير أن يخرج بذلك من ملكه كما قال تعالى: **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ** (البقره ٢٥٥).

و إن لم يحط سبحانه تعالى بما أحاط به كان مضروباً بحد فكان مخلوقاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قوله تعالى: **مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ** لما نفى عليه السلام القول المسئول عنه عن نفسه بسمى سببه أولاً نفاه ببيان وظيفته التي لم يتعدها ثانياً فقال: **«مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ»** الخ؛ وأتى فيه بالحصص بطريق النفي والإثبات ليدل على الجواب بنفى ما سئل عنه وهو القول **«اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ»**.

و فسر ما أمره به ربه من القول بقوله **«أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ»** ثم وصف الله سبحانه بقوله **«رَبِّي وَرَبَّكُمْ»** لثلاث بقى أدنى شائبه من الوهم فى أنه عبد رسول يدعو الى الله ربه و رب جميع الناس وحده لا شريك له.

و على هذه الصراحه كان يسلك عيسى بن مريم عليه السلام فى دعوته ما دعاهم الى التوحيد على ما يحكى عنه القرآن الشريف، قال تعالى حكاية عنه: **إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ** هذا صراط مستقيم (الزخرف ٦٤) وقال: **وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ** هذا صراط مستقيم (مريم ٣٦).

قوله تعالى: **وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً** دُمتُ فيهم فلما توفيتنى كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ثم ذكر عليه السلام وظيفته الثانيه من جانب الله سبحانه و هو الشهاده على أعمال أمته كما قال تعالى: **وَ يَوْمَ الْقِيَامِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً**

يقول عليه السّلام ما كان لى من الوظيفة فيهم إلا- الرساله إليهم و الشهاده على أعمالهم: أما رساله فقد أديتها على أصرح ما يمكن، و أما الشهاده فقد كنت عليها ما دمت فيهم، و لم أتعد ما رسمت لى من الوظيفة فأنا براء من أن أكون القى إليهم أن اتخذونى و امى إلهين من دون الله.

و قوله: **فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ** الرقاب هو الحفظ، و المراد به فى المقام بدلاله السياق هو الحفظ على الأعمال، و كأنه أبدال الشهيد من الرقيب احترازا عن تكرار اللفظ بالنظر الى قوله بعد: «وَأَنْتَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»، و لا نكته تستدعى الإتيان بلفظ «الشهيد» ثانيا بالخصوص.

و اللفظ أعنى قوله: «كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ» يدل على الحصر، و لازمه أنه تعالى كان شهيدا ما دام عيسى عليه السّلام شهيدا و شهيدا بعده؛ فشهادته عليه السّلام كانت وسطه فى الشهاده لا شهاده مستقلة على حد سائر التدبيرات الإلهيه التى و كل عليها بعض عباده ثم هو على كل شىء و وكيل كالرزق و الإحياء و الإمامه و الحفظ و الدعوه و الهدايه و غيرها، و الآيات الشريفه فى ذلك كثيره لا حاجه الى إيرادها.

و لذلك عقب عليه السّلام قوله: «فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ» بقوله: «وَأَنْتَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» ليدل بذلك على أن الشهاده على أعمال امته التى كان يتصداها ما دام فيهم كانت حصه يسيره من الشهاده العامه المطلقه التى هى شهاده الله سبحانه على شىء فإنه تعالى شهيد على أعيان الأشياء و على أفعالها التى منها أعمال عباده التى منها أعمال امه عيسى ما دام فيهم و بعد توفيه، و هو تعالى شهيد مع الشهداء و شهيد بدونهم.

و من هنا يظهر أن الحصر صادق فى حقه تعالى مع قيام الشهداء على شهادتهم فإنه عليه السّلام حصر الشهاده بعد توفيه فى الله سبحانه مع أن لله بعده شهداء من عباده و رسله و هو عليه السّلام يعلم ذلك.

و من الدليل على ذلك بشارته عليه السلام بمجىء النبي صلى الله عليه وآله وسلم - على ما يحكيه القرآن - بقوله يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصادقاً لما بين يدي من التوراه و مبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد (الصف ٦) و قد نص القرآن على كون النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الشهداء قال تعالى:

وَ جِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (النساء ٤١).

على أن الله سبحانه حكى عنه هذا الحصر «فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ» و لم يرد به بالإبطال فالله سبحانه هو الشهيد لا غير مع وجود كل شهيد أى إن حقيقه الشهاده هى لله سبحانه كما أن حقيقه كل كمال و خير هو لله سبحانه، و أن ما يملكه غيره من كمال أو خير أو حسن فإنما هو بتمليكه تعالى من غير أن يستلزم هذا التمليك انزاله تعالى عن الملك و لا زوال ملكه و بطلانه، و عليك بالتدبر فى أطراف ما ذكرناه.

فبان بما أورده من بيان حاله المحكى عنه فى الآيتين أنه برىء مما قاله الناس فى حقه و أن لا عهده عليه فيما فعلوه، و لذلك ختم عليه السلام كلامه بقوله «إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ» الى آخر الآيه.

قوله تعالى: «إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» لما انضح بما أقام عليه السلام من الحجج أن لم يكن له من الوظيفه بالنسبه الى الناس إلا أداء الرساله و القيام بأمر الشهاده، و أنه لم يشتغل فيهم إلا بذلك و لم يتعد الى ما ليس له بحق فهو غير مسئول عما تفوهوا به من كلمه الكفر، بان أنه عليه السلام بمعزل عن الحكم الإلهي المتعلق بهم فيما بينهم و بين ربهم، و لذلك استأنف الكلام ثانيا فقال من غير وصل و تفرع: «إِنْ تُعَذِّبُهُمْ» الخ.

فالآيه كالصالحه لأن يوضع موضع البيان السابق، و مفادها أنه لا عهده على فيما وقعوا فيه من الشرك الشنيع، و لم اداخل أمرهم فى شىء حتى اشارهم فيما بينك و بينهم من الحكم عليهم بما شئت فهم و حكمك فى حقهم بما أردت، و هم و صنعك فيهم بما صنعت، إن تعذبهم بما حكمت فيمن أشرك بك بدخول النار فإنهم عبادك، و إليك تدبير أمرهم، و لك أن تسخط عليهم به

لأنك المولى الحق والى المولى أمر عباده، وإن تغفر لهم يامحاء أثر هذا الظلم العظيم فإنك أنت العزيز الحكيم لك حق العزه والحكمه، وللعزيز (و هو الذى له من الجده و القدره ما ليس لغيره) ولا سيما اذا كان حكيما (لا يقدم على أمر إلا اذا كان مما ينبغى أن يقدم عليه) أن يغفر الظلم العظيم فإن العزه والحكمه اذا اعتنقتا فى فاعل لم تدعا قدره تقوم عليه ولا مغمضه فى ما قضى به من أمر.

و بما تقدم من البيان ظهر أولا: أن قوله: «فَمَا تَهُمُ عِبَادُكَ» بمنزله أن يقال: «فإنك مولا هم الحق» على ما هو دأب القرآن من ذكر أسماء الله بعد ذكر أفعاله كما فى آخر الآيه.

و ثانيا: أن قوله: «فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» ليس مسوقا للحصر بل الإتيان بضمير الفصل و إدخال اللام فى الخبر للتأكيد، و يؤول معناه الى أن عزتك و حكمتك مما لا يداخله ريب فلا مجال للاعتراض عليك إن غفرت لهم.

و ثالثا: أن المقام (مقام المشافهه بين عيسى بن مريم عليه السلام و ربه) لما كان مقام ظهور العظمه الإلهيه التى لا يقوم لها شىء كان مقتضاه أن يراعى فيه جانب ذله العبوديه للغايه بالتحرز عن الدلال و الاسترسال و التجنب عن مداخله فى الأمر بدعاء أو سؤال، و لذلك قال عليه السلام «وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَاِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» و لم يقل «فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» لأن سطوع آيه العظمه و السطوه الإلهيه القاهره الغالبه على كل شىء لا يدع للعبد إلا أن يلتجئ اليه بماله من ذله العبوديه و مسكنه الرقيه و المملوكيه المطلقه، و الاسترسال عند ذلك ذنب عظيم.

و أما قول إبراهيم عليه السلام لربه فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (إبراهيم ٣٦) فإنه من مقام الدعاء و للعبد أن يثير فيه ناشئه الرحمه الإلهيه بما استطاع.

قوله تعالى: قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ تقرير لصدق عيسى بن مريم عليه السلام على طريق التكنيه فإنه لم يصرح بشخصه و إنما المقام هو الذى يفيد ذلك.

و المراد بهذا الصدق من الصادقين صدقهم فى الدنيا فإنه تعالى يعقب هذه الجملة بقوله

«لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» الخ؛ و من البين أنه بيان لجزاء صدقهم عند الله سبحانه فهو النفع الذي يعود اليهم من جهه الصدق، و الأعمال و الأحوال الاخرويه- و منها صدق أهل الآخره- لا يترتب عليها أثر النفع بمعنى الجزاء و بلفظ آخر: الأعمال و الأحوال الاخرويه لا- يترتب عليها جزاء كما يترتب على الأعمال و الأحوال الدنيويه؛ اذ لا تكليف فى الآخره، و الجزاء من فروع التكليف، و إنما الآخره دار حساب و جزاء كما أن الدنيا دار عمل و تكليف، قال تعالى: يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (إبراهيم ٤١) و قال: الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (الجاثيه ٢٨) و قال تعالى: إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (المؤمن ٣٩).

و الذى ذكره عيسى عليه السلام من حاله فى الدنيا مشتمل على قول و فعل و قد قرره الله على الصدق فالصدق الذى ذكر فى الآيه يشمل الصدق فى الفعل كما يشمل الصدق فى القول؛ فالصادقون فى الدنيا فى قولهم و فعلهم ينتفعون يوم القيامة بصدقهم، لهم الجنات الموعوده و هم الراضون المرضيون الفائزون بعظيم الفوز.

على أن الصدق فى القول يستلزم الصدق فى الفعل-بمعنى الصراحه و تنزه العمل عن سمه النفاق- و ينتهى به الى الصلاح، و قد روى أن رجلا من أهل البدو استوصى النبى صلى الله عليه و آله و سلم فوصاه أن لا يكذب ثم ذكر الرجل أن رعايه ما وصى به كفه عن عامه المعاصى اذ ما من معصيه عرضت إلا ذكر أنه لو اقترحها ثم سئل عنها وجب عليه أن يعترف بها على نفسه و بخر بها الناس فلم يقترفها مخافه ذلك.

قوله تعالى: لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ رضى الله عنهم بما قدموا اليه من الصدق، و رضوا عن الله بما آتاهم من الثواب.

و قد علق رضاه بهم أنفسهم لا بأعمالهم كما فى قوله تعالى: وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا (طه/

١٠٩) وقوله: وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ (الزمر ٧) وبين القسمين من الرضى فرق فإن رضاك عن شيء هو أن لا تدفعه بكراهه و من الممكن أن يأتي عدوك بفعل ترضاه و أنت تسخط على نفسه، و أن يأتي صديقك الذى تحبه يفعل لا ترضاه.

فقوله «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ» يدل على أن الله يرضى عن أنفسهم، و من المعلوم أن الرضى لا يتعلق بأنفسهم ما لم يحصل غرضه جل ذكره من خلقهم، و قد قال تعالى: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (الذاريات ٥٦)، فالعبودية هو الغرض الإلهي من خلق الإنسان فالله سبحانه إنما يرضى عن نفس عبده إذا كان مثالا للعبودية أى أن يكون نفسه نفس عبد لله الذى هو رب كل شيء فلا يرى نفسه و لا شيئا غيره إلا مملوكا لله خاضعا لربوبيته لا يثوب الى ربه و لا يرجع إلا اليه كما قال تعالى فى سليمان و أيوب: نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (ص ٤٤) و هذا هو الرضى عنه.

و هذا من مقامات العبودية، و لا زمه طهاره النفس عن الكفر بمراتبه و عن الاتصاف بالفسق كما قال تعالى: وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ (الزمر ٧)، و قال تعالى: فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (التوبه ٩٦).

و من آثار هذا المقام أن العبودية إذا تمكنت من نفس العبد و رأى ما يقع عليه بصره و تبلغه بصيرته مملوكا لله خاضعا لأمره فإنه يرضى عن الله فإنه يجد أن كل ما آتاه الله فإنه آتاه من فضله من غير أن يتحتم عليه فهو جود و نعمه، و أن ما منعه فإنه منعه عن حكمه.

على أن الله سبحانه يذكر عنهم و هم فى الجنة بقوله لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ (النحل ٣١، الفرقان ١٦)، و من المعلوم أن الإنسان إذا وجد كل ما يشاءه لم يكن له إلا أن يرضى.

و هذا غاية السعاده الإنسانية بما هو عبد، و لذلك ختم الكلام بقوله «ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» .

قوله تعالى: لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الملك-بالكسر-سلطه خاصه على رقبه الأشياء و أثره نفوذ الإراده فيما يقدر عليه

المالك من التصرف فيها، والملك-بالضم-سلطه خاصه على النظام الموجود بين الأشياء و أثره نفوذ الإراده فيما يقدر عليه، و بعبارة ساذجه: الملك-بالكسر-متعلق بالفرد، و الملك -بالضم-متعلق بالجماعه.

و حيث كان الملك فى نفوذ الإراده بالفعل مقيدا أو متقوما بالقدره فإذا تمت القدره و أطلقت كان الملك ملكا مطلقا غير مقيد بشىء دون شىء و حال دون حال، و لبيان هذه النكته عقب تعالى قوله: «لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا فِيهِنَّ» بقوله «و هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» .

و اختتمت السوره بهذه الآيه الداله على الملك المطلق، و المناسبه ظاهره، فإن غرض السوره هو حث العباد و ترغيبهم على الوفاء بالعهود و المواثيق المأخوذه عليهم من جانب ربهم، و هو الملك على الإطلاق فلا يبقى لهم إلا- أنهم عباد مملوكون على الإطلاق ليس لهم فيما يأمرهم به و ينهاهم عنه إلا السمع و الطاعه، و لا فيما يأخذ منهم من العهود و المواثيق إلا الوفاء بها من غير نقض (١)(٢)(٣)(٤)(٥).

ص: ٢٥٢

١-١). المائده ١١٦-١٢٠: بحث روائى فى اسماء الله تعالى.

٢-٢). ١١٦-١٢٠: كلام فى معنى الأدب؛ الادب الذى ادب الله به انبياءه و رسله عليهم السلام نماذج من ادب الانبياء.

٣-٣). ١١٦-١٢٠: بحث روائى فى خلق الرسول الكريم صلى الله عليه و آله و سلم و ادبه الجميل.

٤-٤). ١١٦-١٢٠: كلام فى الرق و الاستعباد(اعتبار العبوديه لله سبحانه، استعباد الانسان و اسبابه، سير الاستعباد فى التاريخ، مال الذى رآه الاسلام فى ذلك، ما هو السبيل الى الاستعباد فى الاسلام، ما هى سيره الاسلام فى العبيد و الاماء، سير الاستعباد فى التاريخ).

٥-٥). ١١٦-١٢٠: كلام فى المجازات و العفو فى فصول(ما معنى الجزاء؟ العفو و المغفره، للعفو مراتب، هل المؤاخذه أو المغفره تستلزم ذنبا، رابطه العمل و الجزاء و العمل يؤدى رابطه الى النفس).

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سوره الأنعام (٦): الآيات ١ الى ٣]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّىٰ عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي
الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣)

بيان:

غرض السوره هو توحيدہ تعالیٰ بمعناه الأعم أعنى أن للإنسان ربا هو رب العالمين جميعا منه يبدأ كل شيء و إليه ينتهى و يعود كل شيء، أرسل رسلا مبشرين و منذرين يهدى بهم عباده المربوبين الى دينه الحق، و لذلك نزلت معظم آياتها فى صورہ الحجاج على

المشركين فى التوحيد و المعاد و النبوه، و اشتملت على إجمال الوظائف الشرعيه و المحرمات الدينيه.

و سياقها-على ما يعطيه التدبر-سياق واحد متصل لا دليل فيه على فصل يؤدى الى نزولها نجوما.

و هذا يدل على نزولها جمله واحده، و أنها مكيه فإن ذلك ظاهر سياقها الذى ووجه الكلام فى جلها أو كلها الى المشركين.

و قد اتفق المفسرون و الرواه على كونها مكيه إلا فى ست آيات روى عن بعضهم أنها مدنيه. و هى قوله تعالى: **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** (آيه ٩١) الى تمام ثلاث آيات، و قوله تعالى: **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ** (آيه ١٥١) الى تمام ثلاث آيات.

و قيل: إنها كلها مكيه إلا آيتان منها نزلتا بالمدينه، و هما قوله تعالى: **«قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ»** و التى بعدها.

و قيل: نزلت سوره الأنعام كلها بمكه إلا آيتين نزلتا بالمدينه فى رجل من اليهود، و هو الذى قال: **«مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَهُودِيٌّ»**.

و قيل: إنها كلها مكيه إلا آيه واحده نزلت بالمدينه، و هو قوله تعالى: **«وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ»** الآيه.

و هذه الأقوال لا دليل على شىء منها من جهة سياق اللفظ على ما تقدم من وحده السياق و اتصال آيات السوره، و سنيها بما نستطيعه، و قد ورد عن أئمه أهل البيت عليهم السلام و كذا عن أبى و عكرمه و قتاده: أنها نزلت جمله واحده بمكه.

قوله تعالى: **«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ افْتَتَحَ بِالنَّوْرِ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ كَالْمَقْدَمِ لَمَّا يَرَادُ بِيَانِهِ مِنْ مَعْنَى التَّوْحِيدِ، وَذَلِكَ بِتَضْمِينِ النَّوْرِ مَا هُوَ مُحْصَلُ غَرَضِ السُّورَةِ لِيَتَوَسَّلَ بِذَلِكَ إِلَى الْاِحْتِجَاجِ عَلَيْهِ تَفْصِيلاً، وَتَضْمِينِهِ:**

العجب منهم و لومهم على أن عدلوا به غيره و الامتراء فى وحدته ليكون كالتمهيد على ما سيورد من جمل الوعظ و الإنذار و التخويف.

و قد أشار فى هذا الثناء الموضوع فى الآيات الثلاث الى جمل ما تعتمد عليه الدعوة الدينيه فى المعارف الحقيقيه التى هى بمنزله المادة للشريعته، و تنحل الى نظمات ثلاث:

نظام الكون العام و هو الذى تشير إليه الآيه الاولى، و نظام الإنسان بحسب وجوده، و هو الذى تشتمل عليه الآيه الثانيه، و نظام العمل الإنسانى و هو الذى تومئ إليه الآيه الثالثه.

فالمتحصل من مجموع الآيات الثلاث هو الثناء عليه تعالى بما خلق العالم الكبير الذى يعيش فيه الإنسان، و بما خلق عالما صغيرا هو وجود الإنسان المحدود من حيث ابتدائه بالطين و من حيث انتهائه بالأجل المقضى، و بما علم سرّ الإنسان و جهره و ما يكسبه.

و ما فى الآيه الثالثه: **وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ فِي الْأَرْضِ**، بمنزله الإيضاح لمضمون الآيتين السابقتين، و التمهيد لبيان علمه بسرّ الإنسان و جهره و ما تكسبه نفسه.

فقوله **«خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَ النُّورَ»** إشاره الى نظام الكون العام الذى عليه تدبر الأشياء على كثرتها و تفرقتها فما عالمنا فى نظامه الجارى المحكم إلا عالم الأرض الذى يحيط به عالم السماوات على سعتها ثم يتصرف بها بالنور و الظلمات الذين عليهما يدور رحى العالم المشهود فى تحوله و تكامله فلا يزال يتولد شىء من شىء، و يتقلب شىء الى شىء، و يظهر واحد و يخفى آخر، و يتكون جديد و يفسد قديم، و ينتظم من تلاقى هذه الحركات المتنوعه على شتاتها الحركه العالميه الكبرى التى تحمل أثقال الأشياء، و تسير بها الى مستقرها.

و الجعل فى قوله: **«وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ»** الخ؛ بمعنى الخلق غير أن الخلق لما كان مأخوذا فى الأصل من خلق الثوب كان التركيب من أجزاء شتى مأخوذا فى معناه بخلاف الجعل، و لعل هذا هو السبب فى تخصيص الخلق بالسماوات و الأرض لما فيها من التركيب بخلاف الظلمه

و النور، و لذا خصا باستعمال الجعل. و الله أعلم.

و قد أتى بالظلمات بصيغه الجمع دون النور، و لعله لكون الظلمه متحققه بالقياس الى النور فإنها عدم النور فيما من شأنه أن يتنور فتكثر بحسب مراتب قربه من النور و بعده بخلاف النور فإنه أمر وجودى لا يتحقق بمقايسته الى الظلمه التى هى عدميه، و تكثيره تصورا بحسب قياسه التصورى الى الظلمه لا يوجب تعدده و تكثره حقيقه.

قوله تعالى: **ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** مسوق للتعجب المشوب بلوم أى إن الله سبحانه بخلقه السماوات و الأرض و جعله الظلمات و النور متوحداً باللوهيه متفرداً بالربوبيه لا يماثله شىء و لا يشاركه، و من العجب أن الذين كفروا مع اعترافهم بأن الخلق و التدبير لله بحقيقه معنى الملك دون الأصنام التى اتخذوها آلهه يعدلون بالله غيره من أصنامهم و يسوون به أوثانهم فيجعلون له أندادا تعادله بزعمهم فهم ملومون على ذلك.

و بذلك يظهر وجه الإتيان بـ **ثُمَّ** الدال على التأخير و التراخى فكأن المتكلم لما وصف تفرد الصنع و الإيجاد و توحده باللوهيه و الربوبيه ذكر مزعمه المشركين و أصحاب الأوثان أن هذه الحجاره و الأخشاب المعموله أصناما يعدلون بها رب العالمين فشغله التعجب زمانا و كفّه عن التكلم ثم جرى فى كلامه و أشار الى وجه سكوته، و أن حيره التعجب كان هو المانع عن جريه فى كلامه فقال: **الذين كفروا بربهم يعدلون.**

قوله تعالى: **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا** - يشير الى خلقه العالم الإنسانى الصغير بعد الإشاره الى خلق العالم الكبير فيبين أن الله سبحانه هو الذى خلق الإنسان و دبر أمره بضرب الأجل لبقائه الدنيوى ظاهرا فهو محدود الوجود بين الطين الذى بدأ منه خلق نوعه و إن كان بقاء نسله جاريا على سنّه الازدواج و الوقاع كما قال تعالى:

وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (السجده ٨).

و بين الأجل المقضى الذى يقارن الموت كما قال تعالى: **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا**

تُرْجَعُونَ (العنكبوت ٥٧) و من الممكن أن يراد بالأجل ما يقارن الرجوع الى الله سبحانه بالبعث فإن القرآن الكريم كأنه يعد الحياه البرزخيه من الدنيا كما يفيداه ظاهر قوله تعالى:

قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ، قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَسِئَلِ الْعَادِينَ، قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (المؤمنون ١١٤)، وقال أيضا: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ، لَمْ نَكُنْ لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ، وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبُعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبُعْثِ وَ لَكِن كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (الروم / ٥٦).

و قد أبهم أمر الأجل بإتيانه منكرا في قوله: «ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا» للدلاله على كونه مجهولا للإنسان لا سبيل له الى معرفه به بالتوسل الى العلوم العاديه.

قوله تعالى: وَ أَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ تسميه الأجل تعيينه فإن العاده جرت في العهود و الديون و نحو ذلك بذكر الأجل و هو المده المضروبه أو آخر المده باسمه، و هو الأجل المسمى، قال تعالى: إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ (البقره ٢٨٢) و هو الأجل بمعنى آخر المده المضروبه، و كذا قوله تعالى: مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ (العنكبوت ٥) و قال تعالى في قصه موسى و شعيب: قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ -إلى أن قال- قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ (القصص ٢٨) و هو الأجل بمعنى تمام المده المضروبه.

و الظاهر أن الأجل بمعنى آخر المده فرع الأجل بمعنى تمام المده استعمالا أى إنه استعمل كثيرا «الأجل المقضى» ثم حذف الوصف و اكتفى بالموصوف فأفاد الأجل معنى الأجل المقضى، قال الراغب في مفرداته: يقال للمده المضروبه لحياه الإنسان «أجل» فيقال: دنا أجله عباره عن دنو الموت، و أصله استيفاء الأجل، انتهى.

وكيف كان فظاهر كلامه تعالى أن المراد بالأجل و الأجل المسمى هو آخر مده الحياه لاتمام المده كما يفيدده قوله فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ الْآيَهُ.

فتبين بذلك أن الأجل أعلان: الأجل على إبهامه، و الأجل المسمى عند الله تعالى. و هذا هو الذى لا يقع فيه تغير لمكان تقييده بقوله «عنده» و قد قال تعالى: وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بِأَقْبِ (النحل ٩٦/١) و هو الأجل المحتوم الذى لا يتغير و لا يتبدل قال تعالى: إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْجِرُونَ (يونس ٤٩/١).

فنسبه الأجل المسمى الى الأجل غير المسمى نسبه المطلق المنجز الى المشروط المعلق فمن الممكن أن يتخلف المشروط المعلق عن التحقق لعدم تحقق شرطه الذى علق عليه بخلاف المطلق المنجز فإنه لا سبيل الى عدم تحققه البتة.

و التدبر فى الآيات السابقه منضمه الى قوله تعالى: لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (الرعد ٣٩/١) يفيد أن الأجل المسمى هو الذى وضع فى أم الكتاب، و غير المسمى من الأجل هو المكتوب فيما نسميه بلوح المحو و الإثبات، و سيأتى إن شاء الله تعالى أن أم الكتاب قابل الانطباق على الحوادث الثابته فى العين أى الحوادث من جهه استنادها الى الأسباب العامه التى لا تتخلف عن تأثيرها، و لوح المحو و الإثبات قابل الانطباق على الحوادث من جهه استنادها الى الأسباب الناقصه التى ربما نسميها بالمقتضيات التى يمكن اقترانها بموانع تمنع من تأثيرها.

و اعتبر ما ذكر من أمر السبب التام و الناقص بمثال إضاءة الشمس فإننا نعلم أن هذه الليله ستتنقضى بعد ساعات و تطلع علينا الشمس فتضىء وجه الأرض لكن يمكن أن يقارن ذلك بحيلولة سحابه أو حيلولة القمر أو أى مانع آخر فتمنع من الإضاءة، و أما اذا كانت الشمس فوق الافق و لم يتحقق أى مانع مفروض بين الأرض و بينها فإنها تضىء وجه الأرض لا محاله.

فطلوع الشمس وحده بالنسبه الى الإضاءة بمنزله لوح المحو و الإثبات، و طلوعها مع حلول وقته و عدم أى حائل مفروض بينها و بين الأرض بالنسبه الى الإضاءة بمنزله أم الكتاب المسمى باللوح المحفوظ.

فالتركيب الخاص الذى لبنيه هذا الشخص الإنسانى مع ما فى أركانه من الاقتضاء المحدود يقتضى أن يعمر العمر الطبيعى الذى ربما حدوده بمائه أو بمائه و عشرين سنه و هذا هو المكتوب فى لوح المحو و الإثبات مثلا غير أن لجميع أجزاء الكون ارتباطا و تأثيرا فى الوجود الإنسانى فربما تفاعلت الاسباب و الموانع التى لا- نحصيها تفاعلا- لا- نحيط به فأدى الى حلول أجله قبل أن ينقضى الأمد الطبيعى، و هو المسمى بالموت الاخرامى.

و بهذا يسهل تصور وقوع الحاجه بحسب ما نظم الله الوجود الى الأجل المسمى و غير المسمى جميعا، و أن الإبهام الذى بحسب الأجل غير المسمى لا ينافى التعيين بحسب الأجل المسمى، و أن الأجل غير المسمى و المسمى ربما توافقا و ربما تخالفا و الواقع حينئذ هو الأجل المسمى البته.

قوله تعالى: **ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ** من المربه بمعنى الشك و الريب، و قد وقع فى الآيه التفات من الغيبه الى الحضور، و كأن الوجه فيه أن الآيه الاولى تذكر خلقا و تدبيرا عاما ينتج من ذلك أن الكفار ما كان ينبغى لهم أن يعدلوا بالله سبحانه غيره، و كان يكفى فى ذلك ذكرهم بنحو الغيبه لكن الآيه الثانيه تذكر الخلق و التدبير الواقعين فى الإنسان خاصه فكان من الحرى الذى يهيج المتكلم المتعجب اللائم أن يواجههم بالخطاب و يلومهم بالتجبيه كأنه يقول:

هذا خلق السماوات و الأرض و جعل الظلمات و النور عذرناكم فى الغفله عن حكمه لكون ذلك أمرا عاما ربما أمكن الدهول عما يقتضيه فما عذركم أنتم فى امترائكم فيه و هو الذى خلقكم و قضى فيكم أجلا و أجل مسمى عنده؟.

قوله تعالى: **وَ هُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ فِي الْأَرْضِ** الآيتان السابقتان تذكران

الخلق و التدبير فى العوالم عامه و فى الإنسان خاصه، و يكفى ذلك فى التنبيه على أن الله سبحانه هو الإله الواحد الذى لا شريك له فى خلقه و تدبيره.

لكنهم مع ذلك أثبتوا آلهه أخرى و شفعاء مختلفه لوجوه التدبير المختلفه كإله الحياه و إله الرزق و إله البر و إله البحر و غير ذلك، و كذا للأنواع و الأقوام و الامم المتشتمته كإله السماء و إله هذه الطائفه و إله تلك الطائفه فنفى ذلك بقوله «وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ فِي الْأَرْضِ» .

فآليه نظيره قوله وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (الزخرف ٨٤) مفادها انبساط حكم ألوهيته تعالى فى السماوات و فى الأرض من غير تفاوت أو تحديد، و هى إيضاح لما تقدم و تمهيد لما يتلوها من الكلام.

قوله تعالى: يَغْلَمُ سِرْرَكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ السر و الجهر متقابلان و هما وصفان للأعمال، فسرهم ما عملوه سرا و جهرهم ما عملوه جهرا من غير ستر.

و أما ما يكسبون فهو الحال النفسانى الذى يكسبه الإنسان بعمله السرى و الجهرى من حسنه أو سيئه فالسر و الجهر المذكوران- كما عرفت- و وصفان صوريان لمتون الأعمال الخارجيه، و ما يكسبونه حال روحى معنوى قائم بالنفوس فهما مختلفان بالصوريه و المعنويه، و لعل اختلاف المعلومين من حيث نفسهما هو الموجب لتكرار ذكر العلم فى قوله: «يَغْلَمُ سِرْرَكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ» .

و الآيه كالتمهيد لما ستعرض له من أمر الرساله و المعاد فإن الله سبحانه لما كان عالما بما يأتى به الإنسان من عمل سرا أو جهرا، و كان عالما بما يكسبه لنفسه بعمله من خير أو شر، و كان إليه زمام التريه و التدبير كان له أن يرسل رسولا بدين يشرعه لهدايه الناس على الرغم مما يصرّ عليه الوثنيون من الاستغناء عن النبوه كما قال تعالى: إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (الليل / ١٢).

و كذا هو تعالى لما كان عالما بالأعمال و بتبعاتها فى نفس الإنسان كان عليه أن يحاسبهم فى

قوله تعالى: وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ إشاره الى أن سجيته الاستكبار رسخت في نفوسهم فأنتجت فيهم الإعراض عن الآيات الداله على الحق فلا يلتفتون الى آيه من الآيات من غير تفاوت بين آيه و آيه لأنهم كذبوا بالأصل المقصود الذي هو الحق، و هو

قوله تعالى: «فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ» .

قوله تعالى: فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَجَابٌ مِمَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ تخويف و إنذار فإن الذين يستهزءون به حق، و الحق يأبى إلا أن يظهر يوماً و يخرج من حد النبأ الى حد العيان قال تعالى: وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ (الشورى ٢٤/١)، و قال: يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَامِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (الصف ٩/١)، و قال فى مثل ضربه: كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَ أَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ (الرعد ١٧/١).

و من المعلوم أن الحق اذا ظهر لم يستوفى مساسه المؤمن و الكافر، و الخاضع و المستهزئ، قال تعالى: وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَ إِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَ أَبْصَرْتَهُمْ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ أَعْبَادِنَا يَسْتَفْجِلُونَ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (الصافات ١٧٧/١).

قوله تعالى: أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قال الراغب: القرن القوم المقترنون فى زمن واحد و جمعه قرون انتهى.

و قال أيضا: قال تعالى: وَ أَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً يُزِيلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَ أَصْلُهُ مِنَ الدَّر-بِالْفَتْحِ-وَ الدَّر-بِالْكَسْرِ-أى اللبن، و يستعار ذلك للمطر استعاره أسماء

الغير و أوصافه فقيل: لله درّه و درّ درّك، و منه استعير قولهم غسوق دره أى نفاق-بالفتح- انتهى.

و فى قوله تعالى: مَكَّنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ التُّفَاتِ مِنَ الْغَيْبِ إِلَى الْحُضُورِ، و الوجه فيه ظاهراً رفع اللبس من جهة مرجع الضمير فلو لا-الالتفات إلى الحضور فى قوله: «مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ» أو هم السياق رجوعه إلى ما يرجع إليه الضمير فى قوله: «مكنا لهم» و إلا فأصل السياق فى مفتاح السوره للغيبه، و قد تقدم الكلام فى الالتفات الواقع فى قوله: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ» .

و فى قوله فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ دَلَالَهُ عَلَى أَنْ لِلسَّيِّئَاتِ وَ الذُّنُوبِ دَخْلًا فِي الْبَلَايَا وَ الْمُحَنِّ الْعَامِهِ، و فى هذا المعنى و كذا فى معنى دخل الحسنات و الطاعات فى إفاضات النعم و نزول البركات آيات كثيره.

قوله تعالى: وَ لَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ إشاره إلى أن استكبارهم قد بلغ مبلغاً لا ينفع معه حتى لو أنزلنا كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم فناله حسهم بالبصر و السمع، و تأيد بعض حسهم ببعض فإنهم قائلون حينئذ لا محاله: هذا سحر مبين، فلا ينبغي أن يعبا باللغو من قولهم وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ (الإسراء ٩٣).

و قد نكر الكتاب فى قوله: «كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ» لأن هذا الكتاب نزل نوع تنزيل لا يقبل إلا التنزيل نجوماً و تدريجاً، و قيده بكونه فى قرطاس ليكون أقرب إلى ما اقترحوه، و أبعد مما يختلج فى صدورهم أن الآيات النازله على النبي صلى الله عليه و آله و سلم من منشآت نفسه من غير أن ينزل به الروح الأمين على ما يذكره الله سبحانه نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (الشعراء ١٩٥).

قوله تعالى: وَ قَالُوا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَ لَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ

لَا يُنظَرُونَ قَوْلَهُمْ «لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ» تحضيضاً للتعجيز، وقد أخبرهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بما كان يتلو عليهم من آيات الله النازلة عليه أن الذي جاء به إليه ملك كريم نازل من عند الله كقوله تعالى: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ (كورت ٢١/٢١) إلى غيرها من الآيات.

قوله تعالى: وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَ لَلْبَشِيَئَاتِ عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ اللبس بالفتح الستر بساير لما يجب ستره لقبحه أو لحاجته إلى ذلك، واللبس بالضم التغطية على الحق، وكان المعنى استعاري والأصل واحد.

قال الراغب في المفردات: لبس الثوب استتر به و ألبسه غيره- إلى أن قال- وأصل اللبس (بضم اللام) ستر الشيء و يقال ذلك في المعاني يقال: لبست عليه أمره قال: و للبسنا عليه ما يلبسون و قال: و لا تلبسوا الحق بالباطل، لم تلبسوا الحق بالباطل، الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم، و يقال: في الأمر لبسه أي التباس، انتهى.

و معمول يلبسون محذوف، و ربما استفيد من ذلك العموم و التقدير يلبس الكفار على أنفسهم أعم من لبس البعض على نفسه، و لبس البعض على البعض الآخر.

أما لبسهم على غيرهم فكما يلبس علماء سوء الحق بالباطل لجهله مقلديهم و كما يلبس الطواغيت المتبعون لضعفه أتباعهم الحق بالباطل كقول فرعون فيما حكي الله لقومه يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَ فَلَآ تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لَآ يَكَادُ بِهَيْنٍ، فَلَوْ لَآ- أَلْقَى عَلَيْهِ سُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ، فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَّاعُوهُ (الزخرف ٥٤/٥٤) و قوله مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَ مَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (المؤمن ٢٩/٢٩).

و أما لبسهم على أنفسهم فهو بتخييلهم إلى أنفسهم أن الحق باطل و أن الباطل حق ثم تماديهم على الباطل فإن الإنسان و إن كان يميز الحق من الباطل فطره الله التي فطر الناس

عليها، و كان تلهم نفسه فجورها و تقواها غير أن تقويته جانب الهوى و تأييده روح الشهوه و الغضب من نفسه توّلد في نفسه ملكه الاستكبار عن الحق، و الاستعلاء على الحقيقه فتجذب نفسه إليه، و تغتر بعمله، و لا تدعه يلتفت الى الحق و يسمع دعوته، و عند ذاك يزين له عمله، و يلبس الحق بالباطل و هو يعلم كما قال تعالى: أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلَى بَصِيرِهِ غِشَاوَةً (الجاثية ٢٣) و قال: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (الكهف ١٠٤).

و هذا هو المصحح لتصوير ضلال الإنسان في أمر مع علمه به فلا- يرد عليه أن لبس الإنسان على نفسه الحق بالباطل إقدام منه على الضرر المقطوع و هو غير معقول.

على أنا لو تعمقنا في أحوالنا أنفسنا ثم أخذنا بالنصفه عثرنا على عادات سوء نقضى بمساءتها لكننا لسنا نتركها لرسوخ العاده و ليس ذلك إلا من الضلال على علم، و لبس الحق بالباطل على النفس و التلهي باللذه الخياليه و التوله إليها عن التثبت على الحق و العمل به، أعاننا الله تعالى على مرضاته.

و على أى حال فقوله تعالى: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا» الخ؛ الجواب عن مسألتهم نزول الملك ليكون نذيرا فيؤمنوا به.

و محصله أن الدار دار اختيار لا تتم فيها للإنسان سعادته الحقيقه إلا بسلوكه مسلك الاختيار، و اكتسابه لنفسه أو على نفسه ما ينفعه في سعادته أو يضره، و سلوك أى الطريقين رضى لنفسه أمضى الله سبحانه له ذلك (١).

قوله تعالى: وَ لَقَدْ اسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ، الحيق الحلول

ص: ٢٦٥

و الإصابه، و فى مفردات الراغب: قيل و أصله حق فقلب نحو زل و زال، و قد قرئ «فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ» فأزالهما، و على هذا ذمه و ذامه، انتهى.

و قد كان استهزاءؤهم بالرسل بالاستهزاء بالعذاب الذى كانوا يندرونهم بتزوله و حلوله فحاق بهم عين ما استهزاءوا به، و فى الآيه الاولى تطيب لنفس النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و إنذار للمشركين، و فى الآيه الثانيه أمر بالاعتبار و عظه.

[سوره الأنعام (٦): الآيات ١٢ الى ١٨]

إشاره

قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَهُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفِيَامِهِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَ لَهُ مَا سَيَكُنْ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُضَيِّرْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦) وَ إِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨)

قوله تعالى: «قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ شُرُوعُ قُلُّهُ عَلَى الْمَعَادِ، وَمَحْصَلُهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَالِكُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَمِيعًا لَهُ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِيهَا كَيْفَ شَاءَ وَأَرَادَ، وَقَدْ اتَّصَفَ سُبْحَانَهُ بِصِفَةِ الرَّحْمَةِ وَهِيَ رَفْعُ حَاجَةِ كُلِّ مُحْتَاجٍ وَإِيصَالُ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى مَا يَسْتَحِقُّهُ وَإِفَاضَتُهُ عَلَيْهِ وَعَدَهُ مِنْ عِبَادِهِ وَمِنْهُمْ الْإِنْسَانُ صَالِحُونَ لِحَيَاةِ خَالِدِهِ مُسْتَعِدُونَ لِأَنْ يَسْعُدُوا فِيهَا فَهُوَ بِمَقْتَضَى مَلِكِهِ وَرَحْمَتِهِ سَيَتَصَرَّفُ فِيهِمْ بِحُشْرِهِمْ وَإِعْطَائِهِمْ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ الْبَتَّةَ.

فقوله تعالى: «قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» الخ؛ يتضمن إحدى مقدمات الحجج وقوله: «كَتَبَ عَلَيَّ نَفْسِي الرَّحْمَةَ» يتضمن مقدمه أخرى، وقوله: «وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» الخ؛ مقدمه أخرى ثالثة بمنزله الجزء من الحجج.

فقوله تعالى: «قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» الخ؛ يأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَسْأَلَهُمْ عَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ التَّصَرُّفُ فِيهَا بِمَا شَاءَ مِنْ غَيْرِ مَانِعٍ يَمْنَعُهُ، وَهُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ لِأَنَّ غَيْرَهُ حَتَّى الْأَصْنَامُ وَأَرْبَابُ الْأَصْنَامِ الَّتِي يَدْعُوهَا الْمُشْرِكُونَ هِيَ كَسَائِرُ الْخَلْقِ يَنْتَهَى خَلْقُهَا وَأَمْرُهَا إِلَيْهِ تَعَالَى فَهُوَ الْمَالِكُ لِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَمِيعًا.

وَلِكُونَ الْمَسْئُولَ عَنْهُ مَعْلُومًا بَيْنَنَا عِنْدَ السَّائِلِ وَالْمَسْئُولِ جَمِيعًا وَالْخَصْمَ مُعْتَرِفًا بِهِ لَمْ يَحْتَاجْ إِلَى صُدُورِ الْجَوَابِ عَنِ الْخَصْمِ وَاعْتِرَافِهِ بِهِ بِلِسَانِهِ، وَأَمْرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَذْكَرَ هُوَ الْجَوَابَ وَيَتَكْفَلُ ذَلِكَ لِتَمِّمِ الْحِجَّةَ مِنْ غَيْرِ انْتِظَارِ مَا لَجُوبِهِمْ.

وَالسُّؤَالُ عَنِ الْخَصْمِ، وَمُبَاشَرَةُ السَّائِلِ بِنَفْسِهِ الْجَوَابَ كِلَاهِمَا مِنَ السَّلَاقِقِ الْبَدِيعَةِ الدَّائِرَةِ فِي سِرِّ الْحِجْجِ، يَقُولُ الْمُنْعَمُ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ فَكَفَرَ بِنِعْمَتِهِ: مَنْ الَّذِي أَطْعَمَكَ وَسَقَاكَ وَكَسَاكَ؟ أَنَا الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ بِكَ وَمَنْ بِهَا عَلَيْكَ وَأَنْتَ تَجَازِينِي بِالْكَفْرِ.

و بالجمله ثبت بهذا السؤال و الجواب أن الله سبحانه هو المالك على الإطلاق فله التصرف فيها بما شاء من إحياء و رزق و إيماته و بعث بعد الموت من غير أن يمنعه من ذلك مانع كدقه في العمل و موت و غيبه و اختلال و غير ذلك. و بهذا تمت إحدى مقدمات الحجج فألحقها المقدمه الاخرى و هي قوله: كتب على نفسه الرحمه.

قوله تعالى: كَتَبَ عَلَيَّ نَفْسِي الرِّحْمَةَ الْكِتَابَةَ هو الإثبات و القضاء الحتم، و اذ كانت الرحمه- و هي إفاضه النعمه على مستحقها و إيصال الشئ الى سعادته التي تليق به- من صفاته تعالى الفعلية صح أن ينسب الى كتابته تعالى، و المعنى: أوجب على نفسه الرحمه و إفاضه النعم و إنزال الخير لمن يستحقه.

قوله تعالى: وَ لَهُ مَا سَيَكُنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ السكون في الليل و النهار هو الوقوع في ظرف هذا العالم الطبيعي الذي يدبر أمره بالليل و النهار، و يجرى نظامه بغشيان النور الساكب من شمس مضيئه، و عمل التحولات النوريه فيه بالقرب و البعد و الكثره و القله و الحضور و الغيبه و المسامته و غيرها.

فالليل و النهار هما المهد العام يربى فيه العناصر الكليه و مواليدها تربيته تسوق كل جزء من أجزائها و كل شخص من أشخاصها الى غايته التي قدرت له، و تكملها روحا و جسما (1).

و الآيه أعنى قوله: «وَ لَهُ مَا سَيَكُنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ» الخ؛ كإحدى مقدمات الحجج المبيته بالآيه السابقه فإن الحجج على المعاد و إن تمت بقوله: «قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَيَّ نَفْسِي الرِّحْمَةَ» لكن النظر الابتدائي الساذج ربما غفل عن كون ملكه تعالى للأشياء مستلزما لعلمه بها و سمعه بما يسمع منها كالأصوات و الأقوال.

و لذلك نبه عليه بتكرار ملك السموات و الأرض، و تفريع السمع و العلم عليه فقال: «وَ لَهُ

ص: ٢٤٨

(١-١). الانعام ١٢-١٨: بحث في مالكيه الله تعالى لمخلوقاته.

مَا سَيَكُنْ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ - وهو فى معنى قوله: «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» فكانت هذه الآيه لذلك بمنزله مقدمه متممه للحجه المسروده فى الآيه السابقه.

و الآيه-على أنا لم نستوف حقاها و لن يستوفى-من أرق الآيات القرآنيه معنى و أدقها إشاره و حجه، و أبلغها منطقا.

قوله تعالى: قُلْ أَعْتَبِرُوا اللَّهَ أَلَّا تَتَّخِذُوا لِيَأْتِيَنَّكُمْ فَطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ شُرُوعِ فِي الْاِحْتِجَاجِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ تَعَالَى وَ أَنْ لَا شَرِيكَ لَهُ.

و الذى يتحصل من تاريخ الوثنيه و اتخاذ الأصنام و الآلهه أنهم كانوا إنما دانوا بذلك و خضعوا للآلهه لأحد أمرين: إما أنهم وجدوا أنفسهم فى حاجه الى أسباب كثيره فى إبقاء الحياه كالتغذى بالطعام و اللباس و المسكن و الأزواج و الأولاد و العشيره و نحو ذلك، و عمدتها الطعام الذى حاجه الإنسان إليه أشد من حاجته الى غيره بحسب النظر الساذج، و قد اعتقدوا أن لكل صنف من أصناف هذه الحوائج تعلقا بسبب هو الذى وجود لهم بالتمتع من وسيله رفع تلك الحاجه كالسبب الذى يمطر السماء فينبت المرعى و الكلاء لدوابهم و يمنح بالخصب لأنفسهم، و السبب الذى يدبّر أمر السهل و الجبل أو يلقى بالمحبه و الألفه أو إليه أمر البحر و السفائن الجاربه فيها.

ثم وجدوا أن قوتهم لا تنفى بالتسلط على تلك الحاجه أو الحوائج الضروريه فاضطروا الى الخضوع الى السبب المربوط بحاجتهم و اتخاذها لها ثم عبادته.

و إما لأنهم وجدوا هذا الإنسان الأعزل غرضا لسهام الحوادث محصورا بمكاره و شرور عامه عظيمه لا يقاومها كالسيل و الزلزله و الطوفان و القحط و الوباء، و بيلايا و محن أخرى جزئيه لا يحصيها كالأمرض و الأوجاع و السقوط و الفقر و العقم و العدو و الحاسد و الشائى و غير ذلك، ثم وضعوا لها أسبابا قاهره هى المرسله لها إليهم، و القاصمه بها ظهورهم، و المكدره لصفوه عيشهم، و هى مخلوقات علويه كأرباب الأنواع و أرواح الكواكب و الأجرام

العلويه فاتخذوها آلهه خوفا من سخطهم و عذابهم، و عبدوهمما ليستميلوها بالعباده و يرضوها بالخضوع و الاستكانه فيخلصوا بذلك عن المكاره و الرزايا و يأمنوا شرورها و المضار النازله منها إليهم.

و الآيه أعنى قوله: «قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ اتَّخِذُ وَلِيًّا» الخ؛ و الآيات التاليه لها تحتج على المشركين بقلب حجتيهم بعينهما إليهم أى تسلم أصل الحججه و تعدّها حقه لكن تبين أن لازمها أن يعبد الله سبحانه وحده، و ينفى عنه كل شريك موضوع.

فقوله تعالى: «قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ اتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لَا يُطْعَمُ» إشارة الى الحججه من المسلك الأول، و هو مسلك الرجاء أن يعبد الإله لأنه منعم فيكون عبادته شكرا لانعامه سببا لمزيده.

أمر سبحانه نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم أن يبين لهم فى صوره الاستفهام و السؤال أن الله سبحانه وحده هو الولي للنعمة التي يتنعم بها الانسان و غيره لأنه هو الرازق الذي لا يحتاج الى أن يرزقه غيره يطعم و لا يطعم، و الدليل عليه أنه تعالى هو الذي فطر السموات و الأرض، و أخرجها من ظلمه العدم الى نور الوجود، و أنعم عليها بنعمه التحقق و الثبوت، ثم أفاض عليها بنعم لا يحصيها إلا- هو لإبقاء وجود، و منها الإطعام للإنسان و غيره فإن جميع هذه النعم المعده لبقاء وجود الانسان و غيره، و الأسباب التي تسوق تلك النعم الى محال الاستحقاق كل ذلك ينتهى الى فطره و إيجاد الأشياء و الأسباب و مسبباتها جميعا من صنعه.

فإليه سبحانه يرجع الرزق الذي من أهم مظاهره عند الإنسان الإطعام فيجب أن يعبد الله وحده لأنه هو الذي يطعمنا من غير حاجه الى إطعام من غيره.

ثم أمر سبحانه بعد تمام الحججه نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم أن يذكر لهم ما يؤيد به هذه الحججه العقليه، و هو أن الله أمره من طريق الوحي أن يجرى فى اتخاذ الإله على الطريق الذي يهدى إليه العقل و هو التوحيد، و نهاه صريحا أن يتخطاه الى أن يلحق بالمشركين فقال: «قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ

مَنْ أَسْلَمَ» ثم قال: «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» .

بقي هنا أمران:

أحدهما: أن قوله: «أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ» إن كان المراد أول من أسلم من بينكم فهو ظاهر فقد أسلم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قبل امته، وإن كان المراد به أول من أسلم من غير تقييد كما هو ظاهر الإطلاق كانت أوليته في ذلك بحسب المرتبة دون الزمان.

وثانيهما: أن نتيجة الحجج لما كانت هي العبودية وهي نوع خضوع و تسليم كان استعمال لفظه الإسلام في المقام أولى من لفظه الإيمان لما فيه من الدلالة على غرض العبادة، وهو الخضوع.

وقوله تعالى: قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ وهذا هو المسلك الثاني من المسلكين اللذين تقدم أن المشركين تعلقوا بهما في اتخاذ الآلهة، وهو أن عبادة آلهتهم يؤمنهم من شمول سخطها و نزول عذابها.

وقد أخذ سبحانه في الحجج أخوف ما يجب أن يخاف منه من أنواع العذاب و أمره و هو عذاب الساعة التي ثقلت في السماوات و الأرض كما أخذ في الحجج الأولى أخرج ما يحتاج إليه الإنسان بحسب بادئ النظر من النعم، وهو الإطعام.

وقد قيل: «إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي» دون أن يقال: إن أشركت بربي إشارة إلى ما في قوله تعالى في الآية السابقة: «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» من نهيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن الشرك فأدت الآية أن من الواجب على عقلا أن أعبد الله وحده لأومن مما أخاف من عذاب يوم عظيم، وهذا الذي دل عليه العقل دلني عليه للوحي من ربي.

وبهذا تناظر هذه الآية السابقة من جهة إقامة الحجج العقلية أولا ثم تأييده بالوحي من الله سبحانه فافهم ذلك، وهذا من لطائف إيجاز القرآن الكريم فقد اكتفى في إفاده هذا المعنى على سعة بمجرد وضع قوله: «عَصَيْتُ» موضع أشركت.

وقوله تعالى: مَنْ يُضْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ الْخ؛ المعنى ظاهر الآيه متممه للحجه المسروده فى الآيه السابقه فظاهر الآيه السابقه بحسب النظر البسيط إقامه النبى صَلَّى الله عليه وآله وسلم الحجه فى وجوب التوحيد على نفسه بأن الله نهاه عن الشرك فيجب عليه توحيدَه ليؤمن عذاب الآخره.

فيلوح لنظر المغفل غير المتدبر أن يرد عليه الحجه بأن النهى لما كان مختصا بك كما تدعيه يختص الخوف ثم وجوب التوحيد أيضا بك فلا تقتضى الحجه وجوب التوحيد و نفى الشريك على غيرك، وتصير الحجه عليك لا على غيرك.

فأفاد بقوله: مَنْ يُضْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ أَنْ عذابه مشرف على الجميع محيط بالكل لا مخلص عنه إلا برحمته فعلى كل إنسان أن يخاف من عذاب يومئذ على نفسه ما يخافه النبى صَلَّى الله عليه وآله وسلم على نفسه فالحجه عامه قائمه على جميع الناس لا خاصه به صَلَّى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قد كانت الحجتان المذكورتان فى الآيات السابقه أخذتا أنموذجا مما يرجوه الإنسان و هو الإطعام و أنموذجا مما يخافه و هو عذاب يوم القيامة، و تمتا بهما البيان، و لم تتعرضا لسائر أنواع الضر و أقسام الخير التى يمس الله سبحانه بهما الإنسان، و الكل من الله عز اسمه.

فالآيه توضح بالتصريح أن هناك من الضر ما هو غير عذاب يوم القيامة يمس الله سبحانه به الانسان يجب أن يتوجه إليه تعالى فى كشفه، و أن من الخير ما يمس الله به الانسان و لا راد لفضله و لا مانع يمنع من إفاضته لقدرته على كل شىء، و رجاء الخير يوجب على الانسان أن يتخذ سبحانه إلها معبودا.

و لما أمكن أن يتوهم أن كونه تعالى يمس الانسان بضر أو بخير إنما يقتضى أن يتخذ معبودا،

و الخصم لا ينكر ذلك (١). و أما قصر الالوهيه و المعبوديه فيه تعالى فلا لأن ما اتخذوه من الآلهه هى أسباب متوسطه و شفعاء أقوياء لها تأثيرات فى الكون من شر أو خير يوجب على الانسان أن يتقرب إليها خوفا من شرها أو رجاء لخيرها.

دفعه بأن الله سبحانه هو القاهر فوق عباده لا يفوقه منهم أحد و لا يعادله فهم أنفسهم تحت قهره، و كذا أفعالهم و آثارهم لا يعملون عملا من خير أو شر إلا بإذنه و مشيته غير مستقلين بأمر البته و لا يملكون لأنفسهم ضرا و لا نفعا و لا غير ذلك، فما يطلع من أفق ذواتهم من أثر خيرا أو شرا ينتهى الى أمره و مشيته و اذنه يستند اليه على ما يليق بساحه قدسه و عزته من الاستناد.

فالآيتان جميعا تتممان معنى واحدا، و هو أن ما يصيب الانسان من خير أو شر فمن الله على ما يليق بساحته من الانتساب، فالله سبحانه هو المتوحد بالالوهيه، و المتفرد بالمعبوديه لا إله غيره، و لا معبود سواه.

و قد عبّر عن إصابه الضر و الخير بالمس الدال على الحقاره فى قوله: «إِنْ يَمْسَسْكَ» و «وَ إِنْ يَمْسَسْكَ» ليدل به على أن ما يصيب الانسان من ضر أو من خير شىء يسير مما تحمله القدره غير المتناهيه التى لا يقوم لها شىء، و لا يطيقها و لا يتحملها مخلوق محدود.

و كأن قوله تعالى فى جانب الخير: «فَهُوَ عَلِيٌّ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» وضع موضع نحو من قولنا:

فلا مانع يمنعه، ليدل على أنه تعالى قدير على كل خير مفروض كما أنه قدير على كل ضر مفروض، و تنكشف به عله قوله: فلا كاشف له إلا هو اذ لو كشف غيره تعالى شيئا مما مس به من ضر دفع ذلك قدرته عليه، و كذلك قدرته على كل شىء تقتضى أن لا يقوى شىء على دفع

ص: ٢٧٣

١- ١). الخاصه من الوثنيه و ان كانوا يجوزون عبادته تعالى استنادا إلى أنه غير محدود الوجود لا يتعلق به التوجه العبادى لكن العامه منهم ربما عبده فى عرض سائر الآلهه كما يظهر من تلبيه مشركى مكه فى الحج: لبيك لا شريك لك الله شريكا هو لك تملكه و له ملك.

ما يمس به من خير.

و تخصيص ما يمس به من ضرر أو خير بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ في هذه الآية نظير التخصيص الواقع في قوله: «قُلْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» و يفيد قوله: «وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ» من التعميم نظير ما أفاد قوله: «مَنْ يُضِرَّهُ عَنَّا يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ» .

قوله تعالى: وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ القهر هو نوع من الغلبة، و هو أن يظهر شيء على شيء فيضطره الى مطاوعه أثر من الغالب يخالف ما للمغلوب من الأثر طبعاً أو بنحوه من الافتراض كالماء يظهر على النار فيقهرها على الخمود، و النار تقهر الماء فتبخره أو تجفف رطوبته. و اذ كانت الأسباب الكونية إنما أظهرها الله سبحانه لتكون وسائط في حدوث الحوادث فتضع آثارها في مسبباتها، و هي كائنه ما كانت مضطره الى مطاوعه ما يريده الله سبحانه فيها و بها، يصدق عليها عامه أنها مقهوره لله سبحانه فالله قاهر عليها.

فالقاهر من الأسماء التي تصدق عليه تعالى كما تصدق على غيره، غير أن بين قهره تعالى و قهر غيره فرقاً، و هو أن غيره تعالى من الأشياء إنما يقهر بعضها بعضاً و هما مجتمعان من جهة مرتبه وجودهما و درجه كونهما بمعنى أن النار تقهر الحطب على الاحتراق و الاشتعال، و هما معاً موجودان طبيعياً يقتضى أحدهما بالطبع خلاف ما يقتضيه الآخر لكن النار أقوى في تحميل أثرها على الحطب منه من النار فهي تظهر عليه في تأثيرها بأثرها فيه.

و الله سبحانه قاهر لا- كقهر النار الحطب، بل هو قاهر بالتفوق و الإحاطه على الإطلاق بمعنى أنا اذا نسبنا احراق جسم و إشعاله كالحطب مثلاً- إلى الله سبحانه فهو سبحانه قاهر عليه بالوجود المحدود الذي أوجده به، قاهر عليه بالخواص و الكيفيات التي أعطاه لها و عبأه بها بيده، قاهر عليه بالنار التي أوقدها لإحراقه و إشعاله، و هو المالك لجميع ما للنار من ذات و أثر، قاهر عليه بقطع عطيه المقاومه للحطب، و وضع الاحتراق و الاشتعال موضعه فلا

ص: ٢٧٤

مقاومه و لا تعصى و لا جموح و لا شبه ذلك قبال إرادته و مشيئته لكونها من أفق أعلى.

فهو تعالى قاهر على عباده لكنه فوقهم لا كقهر شيء شيئا و هما متزاملان. و قد صدق القرآن الكريم هذا البحث بنتيجته فذكره اسما له تعالى فى موضعين من هذه السوره و هما هذه الآيه و آيه (٦١).

و قيد الاسم فى كلا-الموضعين بقوله: «فَوْقَ عِبَادِهِ» و الغالب فى المحفوظ من موارد استعمال القهر هو أن يكون المغلوب من اولى العقل بخلاف الغلبه، و لذا فسّره الراغب بالتذيل، و الذله فى اولى العقل أظهر، و لا يمنع ذلك من صحه صدقه فى غير مورد اولى العقل بحسب الاستعمال أو بعنايه.

و الله سبحانه قاهر فوق عباده يمسهم بالضرر و بالخير و يذلهم لمطاوعته و قاهر فوق عباده فيما يفعلونه و يؤثرون به من أثر لأنه المالك لما ملكهم و القادر على ما عليه أقدرهم.

و لما نسب فى الآيتين إليه المس بالضرر و الخير، و قد ينسبان الى غيره، ميز مقامه من مقام غيره بقوله فى ذيل الآيه: «وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَيْرُ» فهو الحكيم لا يفعل ما يفعل جزافا و جهلا، الخير لا يخطئ و لا يغلط كغيره.

[سوره الأنعام (٦): الآيات ١٩ الى ٢٠]

إشاره

قُلْ أُمِّي شَيْءٌ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أِنَّكُمْ تَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠)

ص: ٢٧٥

قوله تعالى: قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ أَمْرٌ نَبِيهِ أَنْ يَسْأَلَهُمْ عَنْ أَكْبَرِ الْأَشْيَاءِ مِنْ حَيْثُ الشَّهَادَةُ، والشهادة هي تحمّل الخبر عن نوع من العيان كالإبصار ونحوه، وأداء ما تحمّل كذلك بالإخبار والإنباء، وإذا كان التحمّل والأداء - وخاصة التحمّل - مما يختلف بحسب إدراك المتحمّلين وبحسب وضوح الخبر الذى تحمّله المتحمّل، وبحسب قوه المؤدى بيانا وضعفه اختلافا فاحشا.

فليس المتحمّل الذى يغلب على مزاجه السهو والنسيان أو الغفلة كالذى يحفظ ما يعيه سمعه ويقع عليه بصره، وليس الصاحي كالسكران ولا الخبير الأخصائي بأمر كالأجنبي الأعزل.

وإذا كان الأمر على ذلك فلا يقع ريب فى أن الله سبحانه هو أكبر من كل شىء شهادة فإنه هو الذى أوجد كل ما دق وجل من الأشياء، وإليه ينتهى كل أمر وخلق، وهو المحيط بكل شىء ومع كل شىء لا يعزب عن علمه مثقال ذره فى السماوات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر لا يضل ولا ينسى.

ولكون الأمر بيننا لا يقع فيه شك لم يحتج الى إيراد الجواب فى اللفظ بأن يقال: قل الله أكبر شهادة، كما قيل: قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ (الأنعام ١٢) أو يقال:

سيقولون الله، كما قيل: قُلْ لِمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ (المؤمنون ٨٥).

على أن قوله: «قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ» يدل عليه ويسد مسده، وليس من البعيد أن يكون قوله: «شَهِيدٌ» خبرا لمبتدأ محذوف هو الضمير العائد الى الله، والتقدير: «قل الله هو شهيد بيني وبينكم» فتشتمل الجملة على جواب السؤال وعلى ما استؤنف من الكلام.

و قوله: «قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ» على أنه يشتمل على إخباره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بشهادة الله تعالى هو بنفسه شهادة لمكان قوله: «قُلِ» إذ أمره بأن يخبرهم بشهادته تعالى بالنبوه لا ينفك عن الشهادة بذلك، و على هذا فلا حاجة الى التشبث بأنواع ما وقع في القرآن الكريم من شهادة الله تعالى على نبوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و على نزول القرآن من عنده كقوله تعالى: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ (المنافقون) أو قوله: لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ (النساء ١٦٦) و غير ذلك من الآيات الداله على ذلك تصريحاً أو تلويحاً بلفظ الشهادة أو بغيره.

و تقييد شهادته تعالى بقوله: «بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ» يدل على توسطه تعالى بين طرفين متخاصمين هما النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و قومه، و النبي لم يعزل عنهم و لم يتميز منهم في جانب إلا- في دعوى النبوه و الرساله و دعوى نزول القرآن لكن نزول القرآن بالوحي قد ذكر بعد في قوله:

«وَ أَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنُ» فالمراد بشهادته تعالى بينه و بينهم شهادته بنبوته، و يؤيده أيضا قوله في الآيه التاليه: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ» على ما سيجيء إن شاء الله.

قوله تعالى: «وَ أَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ مِنْ مَقُولِ الْقَوْلِ وَ هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «اللَّهُ شَهِيدٌ» الخ؛ و جعل الإنذار غايه لنزول القرآن الكريم أخذ بمسلك الخوف في الدعوه النبويه، و هو الأوقع في أفهام عامه الناس فإن مسلك الرجاء و الوعد و إن كان أحد الطريقتين في الدعوه، و قد استعمله الكتاب العزيز في الجملة لكن رجاء الخير لا يبعث الى طلبه بعثا إلزاميا و إنما يورث شوقا و رغبه بخلاف الخوف لوجوب دفع الضرر المحتمل عقلا.

و لأن دعوه الإسلام إنما هي الى دين الفطره، و هو مخزون مكنوز في فطره الناس و إنما حجبهم عنه ما ابتلوا به من الشرك و المعصيه مما يوجب عليهم غلبه الشقوه و نزول السخط

الإلهى فالأقرب الى الحكمة و الحزم فى دعوتهم أن تبدأ بالإنداز، و لهذا كله ربما حصر شأن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم فى الإنداز كما فى قوله: **إِنْ أَنْتِ إِلَّا نَذِيرٌ** (فاطر ٢٣) و قوله: **وَ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ** (العنكبوت ٥٠).

هذا فى عامه الناس و أما الخاصه من عباد الله، و هم الذين يعبدونه حبا له لا خوفا من نار و لا طمعا فى جنه فانهم يتلقون من الدعوه بالخوف و الرجاء أمرا آخر فإنهم يتلقون من النار أنها دار بعد و سخط فيخافونها لذلك، و من الجنه أنها ساحه قرب و رضوان فيشتاقون إليها لذلك.

و ظاهر قوله: **«لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ»** أنه خطاب لمشركى مكه أو لقريش أو للعرب عامه إلا أن التقابل بين ضمير الخطاب و بين من بلغ -و المراد بمن بلغ هو من لم يشافهه النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بالدعوه فى زمن حياته أو بعد- يدل على أن المراد بالمخاطبين فى قوله: **«لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ»** هم الذين شافههم النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بالدعوه ممن تقدم دعاؤه على نزول الآيه أو قارنه أو تأخر عنه.

فقوله: **«وَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ»** يدل على عموم رسالته عليه السّلام بالقرآن لكل من سمعه منه أو سمعه من غيره الى يوم القيامة، و إن شئت فقل: تدل الآيه على كون القرآن الكريم حجه من الله و كتابا له ينطق بالحق على أهل الدنيا من لدن نزوله الى يوم القيامة.

و قد قيل: **«لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ»** و لم يقل: **«لأنذركم بقراءته فالقرآن حجه على من سمع لفظه و عرف معناه و اهتدى الى مقاصده، أو فسر له لفظه و قرع سمعه بمضامينه فليس من شرط كتاب مكتوب الى قوم أن يكون بلسانهم بل أن تقوم عليهم حجته و تشملهم مضامينه، و قد دعا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بكتابه الى مصر و الحبشه و الروم و إيران و لسانهم غير لسان القرآن، و قد كان فيمن آمن به فى حياته و قبل إيمانهم سلمان الفارسى و بلال الحبشى و صهيب الرومى و عدده من اليهود و لسانهم عبرى هذا كله مما لا ريب فيه.**

قوله تعالى: أَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنْ مَعَ اللَّهِ إِلَهَهُ أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ لما ذكر شهادة الله و هو أكبر شهادته على رسالته و لم يرسل إلا ليدعوهم الى دين التوحيد، و ليس لأحد بعد شهادة الله سبحانه على أن لا شريك له فى ألوهيته أن يشهد أن مع الله آلهة أمر نبيه أن يسألهم سؤال متعجب منكر: هل يشهدون بتعدد الآلهة، و هذا هو الذى يدل عليه تأكيد المسئول عنه بأن و اللام، كأن النفس لا تقبل أن يشهدوا به بعد أن سمعوا شهادة الله تعالى.

ثم أمره أن يخالفهم فى الشهادة فىنفى عن نفسه الشهادة بما شهدوا به فقال: «قُلْ لَا أَشْهَدُ» أى بما شهدتم به بقربينه المقام، ثم قال: «قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَ إِنِّى بَرِّىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ» و هو شهادة على وحدانيته تعالى، و البراءة مما يدعون له من شركاء.

قوله تعالى: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ و هذا إخبار عما شهد به الله سبحانه فى الكتب المنزلة على أهل الكتاب، و علمه علماء أهل الكتاب مما عندهم من كتب الأنبياء من البشارة بعد البشارة بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم و وصفه بما لا يعتريه شك و لا يطراً عليه ريب.

فهم بما استحضروا من نعته صلى الله عليه و آله و سلم يعرفونه بعينه كما يعرفون أبناءهم، قال تعالى: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ (الأعراف / ١٥٧) و قال تعالى: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا يَتَّبِعُونَ فُضُلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ (الفتح ٢٩)، و قال تعالى: أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (الشعراء ١٩٧).

و لما كان بعض علمائهم يكتمون ما عندهم من بشاراته و نعوته صلى الله عليه و آله و سلم و يستنكفون عن الإيمان به بين الله تعالى خسراهم فى أمرهم فقال: «الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» .

و قد تقدم بعض الكلام فى تفسير الآيه من سوره البقره (آيه ١٤٦) و بينا هناك وجه الالتفات من الحضور الى الغيبه و سيأتى تمام الكلام فى سوره الأعراف (آيه ١٥٦) إن شاء الله تعالى (١).

[سوره الأنعام (٦): الآيات ٢١ الى ٣٢]

إشارة

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْصِحُ الظَّالِمُونَ (٢١) وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا
أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى
أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَ جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَ إِنْ
يَرَوْا كَلِمًا آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ
يَتَأَوَّنَ عَنْهُ وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ (٢٦) وَ لَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى الدَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَ لَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبَّنَا وَ
نَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلِ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَ قَالُوا إِنْ هِيَ
إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَ مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَ لَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَ رَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ
بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَ هُمْ
يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ إِلَّا لِسَاءَ مَا يَزُرُونَ (٣١) وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهُوَ وَ لَلدَّارِ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلَآ
تَعْقِلُونَ (٣٢)

ص: ٢٨٠

قوله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ الظلم من أشنع الذنوب بل التحليل الدقيق يقضى أن سائر الذنوب إنما هي شنيعه مذمومه بمقدار ما فيها من معنى الظلم، وهو الانحراف و الخروج عن الوسط العدل.

و الظلم كما يكبر و يصغر من جهه خصوصيات من صدر عنه الظلم كذلك يختلف حاله بالكبر و الصغر من جهه من وقع عليه الظلم أو أريد إيقاعه عليه فكلما جل موقعه و عظم شأنه كان الظلم أكبر و أعظم، و لا أعز قدرا و أكرم ساحه من الله سبحانه و لا من آياته الداله عليه، فلا أظلم ممن ظلم هذه الساحه المنزهه أو ما ينتسب إليها بوجه، و لا يظلم إلا نفسه.

و قد صدق الله سبحانه هذه النظره العقليه بقوله: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ

كَذَّبَ بِآيَاتِهِ» أما افتراء الكذب عليه تعالى فإثبات الشريك له، ولا شريك له، أو دعوى النبوه أو نسبه حكم إليه كذبا وابتداعا، و
أما تكذيب آياته الداله عليه فكتكذيب النبي الصادق في دعواه المقارنه للآيات الإلهيه أو إنكار الدين الحق، و منه إنكار الصانع
أصلا.

و الآيه تنطبق على المشركين، و هم أهل الأوثان الذين إليهم وجه الاحتجاج من جهة أنهم أثبتوا لله سبحانه شركاء بعنوان أنهم
شفعاء مصادر امور في الكون، و إليهم ينتهى تدبير شئون العالم مستقلين بذلك، و من جهة أنهم أنكروا آياته تعالى الداله على
النبوه و المعاد.

و ربما الحق بعضهم بذلك القائلين بجواز شفاعه النبي صلى الله عليه و آله و سلم أو الطاهرين من ذريته أو الأولياء الكرام من
امته ففضى بكون الاستشفاع بهم فى شىء من حوائج الدنيا أو الآخره شركا تشمله الآيه و ما يناظرها من الآيات الشريفه.

و كأنه خفى عليهم أنه تعالى أثبت الشفاعه اذا قارنت الإذن فى كلامه من غير أن يقيد به بدنيا أو آخره، فقال عز من قائل: مَنْ ذَا
الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ (البقره ٢٥٥).

على أنه تعالى قال: وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (الزخرف ٨٦) فأثبت الشفاعه
حقا للعلماء الشهداء بالحق، و القدر المتيقن منهم الأنبياء و منهم النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و قد أثبت الله سبحانه شهادته
بقوله: وَ جِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (النساء ٤١) و نص على علمه حيث قال: وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ (النحل ٨٩)، و
قال: نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ (الشعراء ١٩٤) و هل يعقل نزول الكتاب الذى هو تبيان كل شىء على قلب من غير علم
به، أو بعثه تعالى إياه شهيدا و ليس بشهيد بالحق؟ و قال الله تعالى: لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ (البقره ١٤٣)، و قال: وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ
شُهَدَاءَ (آل عمران ١٤٠)، و قال تعالى: وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَ مَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (العنكبوت ٤٣) فأثبت فى هذه الامه
شهداء علماء و لا يثبت إلا الحق.

وقال تعالى فى أهل بيته عليهم السلام: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** (الأحزاب ٣٣) فبين أنهم مطهرون بتطهيره، ثم قال: **إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ، لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ** (الواقعه ٧٩) فعدهم العلماء بالقرآن الذى هو تبيان كل شىء و المطهرون هم القدر المتيقن من هذه الامه فى الشهاده بالحق التى لا سبيل للغو و التأثيم إليها، و قد أشبعنا الكلام فى معنى الشفاعة فى الجزء الأول من الكتاب فليراجع.

قوله تعالى: **إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** الفلاح و الفوز و النجاح و الظفر و السعاده ألفاظ قريبه المعنى، و لهذا فسر الراغب الفلاح بإدراك البغيه الذى هو معنى السعاده تقريبا، قال فى المفردات: الفلح: الشق، و قيل الحديد بالحديد يفلح أى يشق، و الفلاح الأكار لذلك و الفلاح الظفر و إدراك البغيه، و ذلك ضربان دنيوى و أخروى:

فالدنيوى الظفر بالسعادات التى تطيب بها حياه الدنيا و هو البقاء و الغنى و العز و إياه قصد الشاعر بقوله:

أفلح بما شئت فقد يدرك

بالضعف و قد يخدع الأريب

و فلاح اخروى، و ذلك أربعة أشياء: بقاء بلا- فناء، و غنى بلا- فقر، و عز بلا ذل، و علم بلا جهل. انتهى، فمن الممكن أن يقال: إن الفلاح هو السعاده سميت به لأن فيها الظفر و إدراك البغيه بشق الموانع الحائله دون المطلوب.

و هذا معنى جامع ينطبق على موارد الاستعمال كقوله: **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ** (المؤمنون / ١)، و قوله: **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا** (الشمس ٩)، و قوله: **إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ** (المؤمنون ١١٧) الى غير ذلك من الموارد.

فقوله: **«إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ»** - و قد أخذ الظلم و صفا-معناه أن الظالمين لا يدركون بغيتهم التى تشبثوا لأجل إدراكها بما تشبثوا به فإن الظلم لا يهدى الظالم الى ما يبتغيه من

قوله تعالى: وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً الى آخر الآيتين، الظرف متعلق بمقدر و التقدير: و اذكر يوم، الخ؛ و قد تعلق العنايه فى الكلام بقوله «جَمِيعاً» للدلاله على أن العلم و القدره لا يتخلفان عن أحد منهم، فالله سبحانه محيط بجميعهم علما و قدره سيحسبهم يحشرهم و لا يغادر منهم أحدا.

و الجملة فى مقام بيان قوله: «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» كانه لما قيل «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» سئل فقيل: و كيف ذلك؟ فقيل: لأن الله سيحشرهم و يسألهم عن شركائهم فيضلون عنهم و يفقدونهم فينكرون شركهم و يقسمون لذلك بالله كذبا، و لو أفلح هؤلاء الظالمون فى اتخاذهم لله شركاء لم يضل عنهم شركاؤهم، و لم يكذبوا على أنفسهم بل وجدوهم على ما ادعوا من الشركه و الشفاعة و نالوا شفاعتهم.

و قوله: «ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ» الخ؛ قيل: المراد بالفتنه الجواب أى لم يكن جوابهم إلا أن أقسموا بالله على أنهم ما كانوا مشركين، و قيل: الكلام على تقدير مضاف و المراد: لم تكن عاقبه افتتانهم بالأوثان إلا أن قالوا، الخ؛ و قيل: المراد بالفتنه المعذره، و لكل من الوجوه وجه.

قوله تعالى: أُنظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ بيان. لمحل الاستشهاد فيما قص من حالهم يوم القيامه، و المراد أنهم سيكذبون على أنفسهم و يفقدون ما افتروا به، و لو أفلحوا فى ظلمهم و سعدوا فيما طلبوا لم ينجر أمرهم الى فقد ذلك و إنكاره على أنفسهم.

أما كذبهم على أنفسهم فلأنهم لما أقسموا بالله أنهم ما كانوا مشركين أنكروا ما ادعوه فى

الدنيا من أن الله سبحانه شركاء، وهم كانوا يصرون عليه و يعرضون فيه عن كل حجه واضحه و آيه بينه ظلما و عتوا، و هذا كذب منهم على أنفسهم.

و أما ضلال ما كانوا يفترونه عنهم فلأن اليوم يوم ينجلي فيه عيانا أن الأمر و الملك و القوه لله جميعا ليس لغيره من شىء إلا ذل العبوديه، و الفقر و الحاجه من غير أى استقلال قال تعالى: وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (البقره ١٦٥)، و قال: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (المؤمن ١٦) و قال: يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا، وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (الانفطار ١٩).

فيشاهدون عندئذ مشاهده عيان أن الالهيه لله وحده لا شريك له، و يظهر لهم أوثانهم و شركاؤهم و هم لا يملكون ضرا و لا نفعا لأنفسهم و لا لغيرهم، و وجدوا الأوصاف التى أثبتوها لهم من الربوبيه و الشفاعة و غيرهما انما هى لله وحده، و قد كان اشتبه عليهم الأمر فتوهموها لغيره و ضل عنهم ما كانوا يفترون.

و بالتدبر فى هذه الآيات يظهر أن المراد بضلال ما افتروا به هو ظهور حقيقه شركائهم فاقده لوصف الشركه و الشفاعة و تبيينهم أن ما ظهر لهم من ذلك فى الدنيا لم يكن إلا ظهورا سرايبا كما قال تعالى: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ (النور ٣٩).

قوله تعالى: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَشْتُمِعُ إِلَيْكَ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ لأنه جمع كن بكسر الكاف و هو الغطاء الذى يكن فيه الشىء و يغطى، و الوقر هو الثقل فى السمع، و الأساطير جمع اسطوره بمعنى الكذب و المين على ما نقل عن المبرد، و كأنه أصله السطر و هو الصنف من الكتابه أو الشجر أو الناس غلب استعماله فيما جمع و نظم و رتب من الأخبار الكاذبه.

و كان ظاهر السياق أن يقال: يقولون إن هذا إلا أساطير الأولين، و لعل الإظهار للإشعار بالسبب فى هذا الرمى و هو الكفر.

قوله تعالى: وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ينهون عنه أى عن أتباعه، و النأى الابتعاد، و القصر فى قوله: «وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ» من قصر القلب فإنهم كانوا يحسبون أن النهى عنه و النأى عنه إهلاك له و إبطال الدعوه الإلهيه، و أبى الله إلا أن يتم نوره فهم هم الهالكون من حيث لا يشعرون.

قوله تعالى: وَ لَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِينَ. بيان لعاقبه جحودهم و إصرارهم على الكفر و الإعراض عن آيات الله تعالى.

و قوله: يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَ لَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا الخ؛ على قراءه النصب فى «نكذب» و «نكون» تمن منهم للرجوع الى الدنيا و الانسلاك فى سلك المؤمنين ليخلصوا به من عذاب النار يوم القيامه، و هذا القول منهم نظير إنكارهم الشرك بالله و حلفهم بالله على ذلك كذبا من باب ظهور ملكاتهم النفسانيه يوم القيامه فإنهم قد اعتادوا التمنى فيما لا سبيل لهم الى حيازته من الخيرات و المنافع الفائتة عنهم، و خاصه اذا كان فوتها مستندا الى سوء اختيارهم و قصور تدبيرهم فى العمل، و نظيره أيضا ما سيجىء من تحصرهم على ما فرطوا فى أمر الساعه.

على أن التمنى يصح فى المحالات المتعذره كما يصح فى الممكنات المتعسره كتمنى رجوع الأيام الخاليه و غير ذلك قال الشاعر:

ليت و هل ينفع شيئا ليت

ليت الشباب بوع فاشترت

و قوله: بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلِ الْخِ؛ ظاهر الكلام أن مرجع الضمائر أعنى ضمائر «لَهُمْ» و «كَانُوا» و «يُخْفُونَ» واحد و هو المشركون السابق ذكرهم، و أن المراد بالقبل هو الدنيا فالمعنى أنه ظهر لهؤلاء المشركين حين وقفوا على النار ما كانوا هم أنفسهم يخفونه فى الدنيا فبعثهم ظهور ذلك على أن تمنوا الرد الى الدنيا، و الإيمان بآيات الله، و الدخول فى جماعه المؤمنين.

و لم يبذلهم إلا النار التي وقفوا عليها يوم القيامة فقد كانوا أخفوها في الدنيا بالكفر و الستر للحق و التغطية عليه بعد ظهوره لهم كما يشير إليه نحو قوله تعالى: لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَ كَيْفَ بَصُرْتُمْ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق ٢٢).

و أما نفس الحق الذي كفروا به في الدنيا مع ظهوره لهم فهو كان بادئا لهم من قبل و السياق يأبى أن يكون مجرد ظهور الحق لهم مع الغضب عن ظهور النار و هول يوم القيامة باعنا لهم على هذا التمني.

و قوله: وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَي فِي قَوْلِهِمْ «يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَ لَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا» الخ؛ و التمني و إن كان إنشاء لا يقع فيه الصدق و الكذب إلا أنهم لما قالوا «نُرَدُّ وَ لَا نُكَذِّبُ» أَي رَدْنَا اللَّهَ إِلَى الدُّنْيَا و لوردنا لم نكذب، و لم يقولوا: نعود و لا نكذب، كان كلامهم مضمنا للمسألة و الوعد أعنى مسألة الرد و وعد الإيمان و العمل الصالح كما صرح بذلك في قوله: وَ لَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (السجده ١٢) و قوله: وَ هُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ (فاطر ٣٧).

و بالجملة قولهم «يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَ لَا نُكَذِّبُ» الخ؛ في معنى قولهم ربنا ردنا الى الدنيا لا نكذب بآياتك و نكن من المؤمنين، و بهذا الاعتبار يحتمل الصدق و الكذب، و يصح عداهم كاذبين.

و ربما وجه نسبة الكذب إليهم في تمنيههم بأن المراد كذب الأمل و التمني و هو عدم تحققه خارجا كما يقال: كذبك أملك، لمن تمنى ما لا يدرك.

و ربما قيل: إن المراد كذبهم في سائر ما يخبرون به عن أنفسهم من إصابه الواقع و اعتقاد الحق، هو كما ترى.

قوله تعالى: وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ. ذكر لأنكارهم الصريح للحشر و ما يستتبعه يوم القيامة من الإشهاد و أخذ الاعتراف بما أنكروه، و الوثنيه

كانت تنكر المعاد كما حكى الله عنهم ذلك في كلامه غير مره، و قولهم بشفاعه الشركاء إنما كان في الامور الدينويه من جلب المنافع إليهم و دفع المضار و المخاوف عنهم.

فقوله: **وَ قَالُوا إِنَّ هِيَ الْخ؛ حكاية لإنكارهم أى ما الحياه إلا حياتنا الدنيا لا حياه بعدها، و ما نحن بمبعوثين بعد الممات، و قوله: «وَ لَوْ تَرَى إِذْ يُوقَفُوا»** كالجواب و هو بيان ما يستتبعه قولهم: ان هى إلا، الخ؛ للنبي صلى الله عليه و آله و سلم فى صورته التمنى لمكان قوله: **«وَ لَوْ تَرَى»** و هو أنهم سيصدقون بما جحدوه، و يعترفون بما أنكروه بقولهم **«وَ مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ»** اذ يوقفون على ربهم فيشاهدون عيانا هذا الموقف الذى اخبروا به فى الدنيا، و هو أنهم مبعوثون بعد الموت فيعترفون بذلك بعد ما أنكروه فى الدنيا.

و من هنا يظهر أن الله سبحانه فسر البعث فى قوله: **«وَ لَوْ تَرَى إِذْ يُوقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ»** بقاء الله، و يؤيده أيضا قوله فى الآيه التاليه **«قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ»** الخ؛ حيث بدل الحشر و البعث و القيامة المذكورات فى سابق الكلام لقاء ثم ذكر الساعه أى ساعه اللقاء.

و قوله: **«أَلَيْسَ هَذَا أَى أَلَيْسَ الْبَعثُ الَّذِى أَنْكَرْتُمُوهُ فِى الدُّنْيَا وَ هُوَ لِقَاءُ اللَّهِ بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَ رَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ»** به و تسترونه.

قوله تعالى: **«قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قَالَ فِى الْمَجْمَعِ: كل شىء أتى فجأه فقد بغت يقال: بغته الأمر يبعثه بغته انتهى، و قال الراغب فى المفردات: الحسر كشف الملبس عما عليه يقال: حسرت عن الذراع، و الحاسر من لا درع عليه و لا مغفر، و المحسره المكنسه-الى أن قال- و الحاسر المعيا لانكشاف قواه-الى أن قال- و الحسره الغم على ما فاته و الندم عليه كأنه انحسر عنه الجهل الذى حمله على ما ارتكبه أو انحسر قواه من فرط غم أو أدركه إعياء عن تدارك ما فرط منه. انتهى موضع الحاجه.**

و قال: الوزر (بفتح الحين) الملجأ الذى يلتجأ إليه من الجبل، قال: **«كَأَلَا وَ زَرَ إِلَى رَبِّكَ»**

يَوْمَ يَذُّقُ الْمُشْرِكُونَ) والوزر (بالكسر فالسكون) الثقل تشبيهاً بوزر الجبل، و يعبر بذلك عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل قال: «لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً» الآية كقوله: «وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ»، انتهى.

و الآية تبين تبعه اخرى من تبعات إنكارهم البعث و هو أن الساعه سيفاجهم فينادون بالحسره على تفریطهم فيها و يتمثل لهم أوزارهم و ذنوبهم و هم يحملونها على ظهورهم و هو أشق أحوال الإنسان و أردؤها إلا- ساء ما يزون و يحملونه من الثقل أو من الذنب أو من وبال الذنب.

و الآية أعنى قوله: «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ» بمنزله النتيجة المأخوذه من قوله:

«وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا» الى آخر الآيتين، و هى أنهم بتعويضهم راحه الآخره و روح لقاء الله من إنكار البعث و ما يستتبعه من أليم العذاب خسروا صفاقه.

قوله تعالى: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهُوَ وَ اللَّذَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ الخ؛» تتمه للكلام فيه بيان حال الحياتين: الدنيا و الآخره و المقايسه بينهما فالحياه الدنيا لعب و لهو ليس إلا فإنها تدور مدار سلسله من العقائد الاعتباريه و المقاصد الوهميه كما يدور عليه اللعب فهى لعب، ثم هى شاغله للإنسان عما يههمه من الحياه الاخرى الحقيقه الدائمه فهى لهو، و الحياه الآخره لكونها حقيقه ثابتة فهى خير و لا ينالها إلا المتقون فهى خير لهم (١).

[سوره الأنعام (٦): الآيات ٣٣ الى ٣٦]

إشارة

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَ لَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَ لَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبِّرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَ لَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَ إِنْ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اشْتِطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَأْيَهُ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تُكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥) إِنَّمَا يَشْتَجِبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ أَلْمُوتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦)

ص: ٢٨٩

(١- ١). الانعام ٢١-٣٢: بحث روائى فى: العفو؛ ابى طالب و دفاعه عن رسول الله.

قوله تعالى: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ «قَدْ» حرف تحقيق في الماضي، وتفيد في المضارع التقليل وربما استعملت فيه أيضا للتحقيق، وهو المراد في الآية، وحرزه كذا وأحزانه بمعنى واحد، وقد قرئ بكلا الوجهين.

وقوله: فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ قرئ بالتشديد من باب التفعيل، وبالتخفيف، والظاهر أن الفاء في قوله: «فَإِنَّهُمْ» للتفريع و كأن المعنى قد نعلم إن قولهم ليحزنك لكن لا ينبغي أن يحزنك ذلك فإنه ليس يعود تكذيبهم إليك لأنك لا تدعو إلا إلينا، وليس لك فيه إلا الرسالة بل هم يظلمون بذلك آياتنا ويجحدونها.

فما في هذه الآية مع قوله في آخر الآيات «ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ» في معنى قوله تعالى: وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (لقمان/ ٢٣) وقوله: فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون (يس/ ٧٦) وغير ذلك من

الآيات النازله فى تسليته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، هذا على قراءة التشديد.

و أما على قراءة التخفيف فالمعنى: لا تحزن فإنهم لا يظهرون عليك بإثبات كذبك فيما تدعو إليه، ولا يبطلون حججك بحجه و إنما يظلمون آيات الله بجحدها و إليه مرجعهم.

و قوله: **وَ لَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** كان ظاهر السياق أن يقال:

و لكنهم، فالعدول الى الظاهر للدلاله على أن الجحد منهم إنما هو عن ظلم منهم لا عن قصور و جهل و غير ذلك فليس إلا عتوا و بغيا و طغيانا و سيبعثهم الله ثم إليه يرجعون.

و لذلك وقع الالتفات فى الكلام من التكلم الى الغيبه فقيل «بِآيَاتِ اللَّهِ» و لم يقل: بآياتنا، للدلاله على أن ذلك منهم معارضة مع مقام الالوهيه و استعلاء عليه و هو المقام الذى لا يقوم له شىء.

قوله تعالى: **وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا** الى آخر الآيه؛ هدايه له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الى سبيل من تقدمه من الأنبياء، و هو سبيل الصبر فى ذاته الله، و قد قال تعالى: **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ** (الأنعام ٩٠).

و قوله: **حَتَّىٰ آتَاهُمْ نَصْرُنَا** بيان غايه حسنه لصبرهم، و إشاره الى الوعد الإلهى بالنصر، و فى قوله: **وَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ** تأكيد لما يشير إليه الكلام السابق من الوعد و حتم له، و إشاره الى ما ذكره بقوله **كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي** (المجادله ٢١)، و قوله: **وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ** (الصفات ١٧٢).

و وقوع المبدل فى قوله: «**لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ**» فى سياق النفى ينفى أى مبدل مفروض سواء كان من ناحيته تعالى بأن يتبدل مشيته فى خصوص كلمه بأن يمحوها بعد إثباتها أو ينقضها بعد إبرامها أو كان من ناحيه غيره تعالى بأن يظهر عليه و يقهره على خلاف ما شاء فيبدل ما أحكم و يغيره بوجه من الوجوه.

و من هنا يظهر أن هذه الكلمات التى أنبأ سبحانه عن كونها لا تقبل التبديل أمور خارجه

عن لوح المحو والإثبات، فكلمه الله وقوله وكذا وعده في عرف القرآن هو القضاء الحتم الذي لا مطمع في تغييره وتبديله، قال تعالى: **قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ** (ص ٨٤) وقال تعالى:

وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقُّ (الأحزاب ٤)، وقال تعالى: **أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ** (يونس ٥٥) وقال تعالى: **لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ** (الزمر ٢٠) وقد مر البحث المستوفى في معنى كلمات الله تعالى وما يرادفها من الألفاظ في عرف القرآن في ذيل قوله تعالى: **مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ** (البقره ٢٥٣).

وقوله في ذيل الآية: **«وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُزْسِيلِينَ»** تثبيت واستشهاد لقوله: **«وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ»** الح؛ ويمكن أن يستفاد منه أن هذه السوره نزلت بعد بعض السور المكيه التي تقص قصص الأنبياء كسوره الشعراء و مريم و أمثالهما، وهذه السور نزلت بعد أمثال سوره العلق و المدثر قطعا فتقع سوره الأنعام على هذا في الطبقة الثالثه من السوره النازله بمكّه قبل الهجره، والله أعلم.

قوله تعالى: **وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ** - إلى قوله - **فَتَأْتِيهِمْ بَأْيِهِ** قال الراغب: النفق الطريق النافذ و السرب في الأرض النافذ فيه قال: فإن استطعت أن تتبغى نفقا في الأرض، و منه نافقاء اليربوع، و قد نافق اليربوع و نفق، و منه النفاق و هو الدخول في الشرع من باب و الخروج عنه من باب، و على ذلك تبه بقوله: **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** أي الخارجون من الشرع، و جعل الله المنافقين شرا من الكافرين فقال: **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**، و نيفق السراويل معروف، انتهى.

وقال: السلم ما يتوصل به إلى الأمكنه العاليه فيرجى به السلامه ثم جعل اسما لكل ما يتوصل به إلى شيء رفيع كالسبب، قال تعالى: **أَمْ لَهُمْ سَلْمٌ يَسْتَعْمُونَ** به، و قال: **أَوْ سَلَمَا فِي السَّمَاءِ**، و قال الشاعر: **و لو نال أسباب السماء بسلم، انتهى.**

و جواب الشرط في الآية محذوف للعلم به، و التقدير كما قيل: **و إن استطعت أن تتبغى كذا**

و كذا فافعل.

و المراد بالآيه فى قوله تعالى: «فَتَيَأْتِيهِمْ بِآيَةٍ» الآيه التى تضطرهم الى الإيمان فى الخطاب أعنى قوله: «وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ» الخ؛ إنما ألقى الى النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من طريق القرآن الذى هو أفضل آيه إلهيه تدل على حقيقته دعوته، و يقرب إعجازه من فهمهم و هم بلغاء عقلاء فالمراد أنه لا- ينبغى أن يكبر و يشق عليك إعراضهم فى الدار دار الاختيار، و الدعوه الى الحق و قبولها جاريان على مجرى الاختيار، و إنك لا تقدر على الحصول على آيه توجب عليهم الإيمان و تلتزمهم على ذلك فإن الله سبحانه لم يرد منهم الإيمان إلا على اختيار منهم فلم يخلق آيه تجبر الناس على الإيمان و الطاعه، و لو شاء الله لآمن الناس جميعا فالتحق هؤلاء الكافرون بالمؤمنين بك فلا تبتئس و لا تجزع بإعراضهم فتكون من الجاهلين بالمعارف الإلهيه.

و أما ما احتمله بعضهم: أن المراد: فتأتيتهم بآيه هى أفضل من الآيه التى أرسلناك بها أى القرآن فلا تلائمها سياق الآيه و خاصه قوله: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى» فإنه ظاهر فى الاضطرار.

و من هنا يظهر أن المراد بالمشيه أن يشاء الله منهم الاهتداء الى الإيمان فيضطروا الى القبول فيبطل بذلك اختيارهم هذا ما يقتضيه ظاهر السياق من الآيه الشريفه.

لكنه سبحانه فيما يشابه الآيه من كلامه لم يبين عدم مشيته ذلك على لزوم الاضطرار كقوله تعالى: «وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا، وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ» (السجده ١٣) يشير تعالى بذلك الى نحو قوله: «قَالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقُّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ» (ص ٨٥) فبين تعالى أن عدم تحقق مشيته لهداهم جميعا إنما هو لقضائه ما قضى تجاه ما أقسم عليه إبليس أنه سيغويهم أجمعين إلا عباده منهم المخلصين.

ص: ٢٩٣

وقد أسند القضاء في موضع آخر الى غوايتهم قال تعالى في قصه آدم و ابليس: قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا جِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ، إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (الحجر ٤٣) و قد نسب ذلك إليهم إبليس أيضا فيما حكى الله سبحانه من كلامه لهم يوم القيامة: وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ -الى أن قال- إني كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ (إبراهيم ٢٢).

فآيات تبين أن المعاصي و منها الشرك تنتهي الى غوايه الإنسان و الغوايه تنتهي الى نفس الإنسان، و لا ينافي ذلك ما يظهر من آيات أخر أن الإنسان ليس له أن يشاء إلا أن يشاء الله منه المشيه كقوله تعالى: إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرُهُ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا، وَ مَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ (الإنسان ٣٠)، و قال تعالى: إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ، لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ، وَ مَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (التكوير ٢٩).

قوله تعالى: إِنَّهُمْ لَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ الآيه؛ كالبيان لقوله: «وَإِنْ كَانَ كُفْرٌ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ» الى آخر الآيه؛ فإن ملخصه انك لا تستطيع صرفهم عن هذا الإعراض، و الحصول على آيه تسوقهم الى الإيمان، فبين في هذه الآيه أنهم بمنزله الموتى لا شعور لهم و لا سمع حتى يشعروا بمعنى الدعوه الدينيه و يسمعوا دعوه الداعي و هو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

فهذه الهياكل المترعات من الناس صنفان: صنف منهم أحياء يسمعون، و إنما يستجيب الذين يسمعون، و صنف منهم أموات لا يسمعون و إن كانوا ظاهرا في صور الأحياء و هؤلاء يتوقف سمعهم الكلام على أن يبعثهم الله، و سوف يبعثهم فيسمعون ما لم يستطيعوا سماعه في الدنيا كما حكاه الله عنهم بقوله: وَ لَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَ سَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (السجده ١٢).

وَقَالُوا لَوْلَا نُنزِّلُ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا
 طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ
 فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ آتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أ
 غَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
 إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْ لَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ
 لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَخَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً
 فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَفُطِحَ دَابُّ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصَارَكُمْ وَ
 حَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصِيدُونَ (٤٦) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ آتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ
 بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ (٤٧) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَ أَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
 وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩) قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا أَعْلَمُ
 الْغَيْبَ وَ لَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَ النَّبْصِيرُ أَ فَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) وَ أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ
 يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَ لَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَ لَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَ الْعِشِيِّ
 يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ مَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَ كَذَلِكَ
 فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أ هَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) وَ إِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ
 سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤) وَ
 كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لَيْسَ لَهُمْ سَبِيلٌ الْمُجْرِمِينَ (٥٥)

قوله تعالى: وَقَالُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنزِلَ آيَةً مِنْ رَبِّهِ هِيَ آيَةٌ لِلَّذِينَ هَدَى اللَّهُ سَبِيلَهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. قوله تعالى: وَمَنْ يَدْعُ إِلَى الْفِتْنِ أُولَئِكَ يَفْجُرُونَ إِيَّاهُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ. قوله تعالى: وَمَنْ يَدْعُ إِلَى الْبِرْرِ أُولَئِكَ نَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي هُوَ عَالِمُ الْغُيُوبِ. قوله تعالى: وَمَنْ يَدْعُ إِلَى الْفِتْنِ أُولَئِكَ يَفْجُرُونَ إِيَّاهُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ. قوله تعالى: وَمَنْ يَدْعُ إِلَى الْبِرْرِ أُولَئِكَ نَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي هُوَ عَالِمُ الْغُيُوبِ. قوله تعالى: وَمَنْ يَدْعُ إِلَى الْفِتْنِ أُولَئِكَ يَفْجُرُونَ إِيَّاهُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ. قوله تعالى: وَمَنْ يَدْعُ إِلَى الْبِرْرِ أُولَئِكَ نَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي هُوَ عَالِمُ الْغُيُوبِ.

وقد حملهم التعصب لآلهتهم أن ينقطعوا عن الله سبحانه كأنه ليس بربهم، فقالوا: «لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ» ولم يقولوا: من ربنا أو من الله ونحوهما إزاء أمره وتأكيدا في تعجيزه أي لو كان ما يدعيه ويدعو إليه حقا فليغير له ربه الذي يدعو إليه و لينصره و لينزل عليه آية تدل على حقيقته دعواه.

و في قوله تعالى: نُزِّلَ وَ «ينزل» مشددين من التفعيل دلالة على أنهم اقترحوا آية تدريجية أو آيات كثيرة تنزل واحده بعد واحده كما يدل عليه ما حكى من اقتراحهم في موضع آخر من كلامه تعالى كقوله: وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا، أَوْ تُكُونَ لَكَ جَنَّةٌ - إلى أن قال - أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ الْآيَاتِ (الإسراء ٩٣)، و قوله: وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا (الفرقان ٢١) وقوله: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ

و روى عن ابن كثير أنه قرأ بالتخفيف.

قوله تعالى: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الدابة كل حيوان يدب على الأرض و قد كثر استعماله في الفرس، و الدب بالفتح و الدبيب هو المشى الخفيف.

و الطائر ما يسبح في الهواء بجناحيه، و جمعه الطير كالراكب و الركب، و الامة هي الجماعة من الناس يجمعهم مقصد واحد يقصدونه كدين واحد أو سنّه واحد أو زمان واحد أو مكان واحد، و الأصل في معناها، القصد يقال: أمّ يؤمّ اذا قصد، و الحشر جميع الناس يازعاج الى الحرب أو جلاء و نحوه من الامور الاجتماعيه.

و الظاهر أن توصيف الطائر بقوله: «يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ» محاذاه لتوصيف الدابة بقوله: «فِي الْأَرْضِ» فهو بمنزله قولنا: ما من حيوان أرضى و لا- هوائى، مع ما فى هذا التوصيف من نفي شبهه التجوّز فإن الطيران كثيرا ما يستعمل بمعنى سرعه الحركة كما أن الدبيب هو الحركة الخفيفه فكان من المحتمل أن يراد بالطيران حيث ذكر مع الدبيب الحركة السريعه فدفع ذلك بقوله: «يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ» (١).

و قوله تعالى: مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ جَمَلُهُ مَعْتَرُضُهُ، و ظاهرها أن المفرط فيه هو الكتاب، و لفظ «مِنْ شَيْءٍ» بيان للفرط الذى يقع التفريط به، و المعنى لا يوجد شىء تجب رعايه حاله و القيام بواجب حقه و بيان نعته فى الكتاب إلا و قد فعل من غير تفريط، فالكتاب تام كامل.

و المراد بالكتاب إن كان هو اللوح المحفوظ الذى يسميه الله سبحانه فى موارد من كلامه

ص: ٢٩٨

كتابا مكتوبا فيه كل شيء مما كان و ما يكون و ما هو كائن، كان المعنى أن هذه النظمات الامميه المماثله لنظام الانسانيه كان من الواجب فى عنايه الله سبحانه أن يبنى عليها خلقه الأنواع الحيوانيه فلا يعود خلقها عبثا و لا يذهب وجودها سدى، و لا تكون هذه الأنواع بمقدار ما لها من لياقه القبول ممنوعه من موهبه الكمال.

فآليه على هذا تفيد بنحو الخصوص ما يفيد بنحو العموم، قوله تعالى: **وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (الإسراء ٢٠)**، وقوله: **مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (هود ٥٢)**.

وقوله تعالى: **ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ** بيان لعموم الحشر لهم و أن حياتهم الموهوبه نوع حياه تستتبع الحشر الى الله كما أن الحياه الانسانيه كذلك، و لذلك أرجع الضمير المستعمل فى اولى الشعور و العقل، فقال: **«إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ»** إشاره الى أن أصل الملاك و هو الأمر الذى يدور عليه الرضا و السخط و الإثابه و المؤاخذه موجود فيهم.

وقد وقع فى الآيه التفات من الغيبه الى التكلم مع الغير ثم الى الغيبه بالنسبه إليه تعالى، و التدبر فيها يعطى أن الأصل فى السياق الغيبه و إنما تحول السياق فى قوله: **«مَا فَزَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ»** الى التكلم مع الغير لكون المعترضه خطابا خاصا بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم فلما فرغ منه رجع الى أصل السياق.

قوله تعالى: **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُومُوا وَ بُكِمُوا فِي الظُّلُمَاتِ الى آخر الآيه؛** يريد تعالى أن المكذبين لآياته محرمون من نعمه السمع و التكلم و البصر لكونهم فى ظلمات لا- يعمل فيها البصر فهم لصممهم لا يقدرّون على أن يسمعوا الكلام الحق و أن يستجيبوا و لبكهمم لا- يستطيعون أن يتكلموا بالقول الحق و يشهدوا بالتوحيد و الرساله، و لإحاطه الظلمات بهم لا يسعهم أن يبصروا طريق الحق فيتخذوه طريقا.

و فى قوله تعالى: **مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ الخ؛** دلالة على أن هذا الصمم و البكم

و الوقوع فى الظلمات إنما هى رجز وقع عليهم منه تعالى جزاء لتكذيبهم بآيات الله فإن الله سبحانه جعل إضلاله المنسوب إليه من قبيل الجزاء، كما فى قوله: وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦).

فتكذيب آيات الله غير مسبب عن كونهم صما بكما فى الظلمات بل الأمر بالعكس و على هذا فالمراد بالإضلال بحسب الانطباق على المورد هو جعلهم صما بكما فى الظلمات و المراد بمن شاء الله ضلاله هم الذين كذبوا بآياته.

و بالمقابل يظهر أن المراد بالجعل على صراط مستقيم هو أن يعطيه سمعا يسمع به فيجيب داعى الله بلسانه و يتبصر بالحق ببصره، و أن هذا جزاء من لا يكذب بآيات الله سبحانه فمن يشاء الله يضلله و لا يشاء إلا إضلال من يستحقه و من يشاء يجعله على صراط مستقيم و لا يشاء ذلك إلا لمن تعرّض لرحمته.

قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ لَفِظَ «أَرَأَيْتُمْ» بهمزه الاستفهام و صيغه المفرد المذكر الماضى من الرؤيه و ضمير الجمع المخاطب، أخذه أهل الأدب بمعنى أخبرنى، قال الراغب فى المفردات: و يجرى «أَرَأَيْتُمْ» مجرى أخبرنى فيدخل عليه الكاف و يترك التاء على حالته فى التشبيه و الجمع و التأنيث، و يسلط التغيير على الكاف دون التاء، قال تعالى: «أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِى قُلُّ أَرَأَيْتُمْ»، انتهى.

و فى الآيه تجديد احتجاج على المشركين، و إقامة حجه على بطلان شركهم من وجهه، و هو أنها تفرض عذابا آتيا من جانب الله أو إتيان الساعه إليهم ثم تفرض أنهم يدعون فى ذلك من يكشف العذاب عنهم على ما هو المغروز فى فطره الانسان أنه يتوجه بالمسأله اذا بلغت به الشده نحو من يقدر أن يكشفها عنه.

ثم تسألهم أنه من الذى تدعونه و تتوجهون إليه بالمسأله إن كنتم صادقين؟ أغير الله تدعون

من أصنامكم و أوثانكم التي سميتوها من عند أنفسكم آلهه أم إياه تدعون؟ و هيهات أن تدعوا غيره و أنتم تشهدون حينئذ أنها محكومہ بالأحكام الكونية مثلكم لا ينفعكم دعاؤها شيئا.

بل تنسون هؤلاء الشركاء المسمين آلهه لأن الانسان اذا أحاطت به البليه و هزته الهزاهز ينسى كل شيء دون نفسه إلا أن في نفسه رجاء أن ترتفع عنه البليه، و الرافع الذى يرفعها منه هو ربه، فتسبون شركاءكم و تدعون من يرفعها من دونهم و هو الله عز اسمه فيكشف الله سبحانه ما تدعون كشفه إن شاء أن يكشفه، و ليس هو تعالى بمحكوم على الاستجابه و لا مضطرا الى الكشف اذا دعى بل هو القادر على كل شيء فى كل حال.

فإذا كان الله سبحانه هو الرب القدير الذى لا ينساه الانسان و إن نسى كل شيء إلا نفسه و يضطر الى التوجه إليه بيعث من نفسه عند الشدائد القاصمه الحاطمه دون غيره من الشركاء المسمين آلهه فهو سبحانه هو رب الناس دونها.

فمعنى الآيه «قُلْ» يا محمد «أَرَأَيْتَكُمْ» أخبرونى «إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ» فرض إتيان عذاب من الله و لا ينكرونه، و فرض إتيان الساعه و لم يعبأ بإنكارهم لظهوره «أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ» لكشفه، و قد حكى الله فى كلامه عنهم سؤال كشف العذاب فى الدنيا و يوم القيامة جميعا لما أن ذلك من فطريات الانسان «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» و جئتم بالنصفه «بَلْ إِيَّاهُ» الله سبحانه دون غيره من أصنامكم «تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ» من العذاب «إِنْ شَاءَ» أن يكشفه كما كشف لقوم يونس، و ليس بمجبر و لا مضطرا الى القبول لقدرته الذاتيه «وَتَسْؤُونَ مَا تُشْرِكُونَ» من الأصنام و الأوثان على ما فى غريزه الانسان أن يشتغل عند إحاطه البليه به عن كل «شيء بنفسه، و لا يهتم إلا بنفسه لضيق المجال به أن يتلهى بما لا ينفعه، فاشتغاله و الحال هذه بدعاء الله سبحانه و نسيانه الأصنام أصرح حجه أنه تعالى هو الله لا إله غيره و لا معبود سواه.

و أما قوله تعالى: **وَ مَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ** فهو دعاؤهم في جهنم لكشف عذابها و تخفيفه عنهم، و من المعلوم أن الدعاء مع تحتم الحكم و فصل القضاء لا يتحقق بحقيقته فإن سؤال أن لا يبعث الله الخلق أو لا يعذب أهل جهنم فيها من الله سبحانه بمنزله أن يسأل الله سبحانه أن لا يكون هو الله سبحانه فإن من لوازم معنى الالوهية أن يرجع إليه الخلق على حسب أعمالهم، فلمثل هذه الأدعية صوره الدعاء فقط دون حقيقته معناها، و أما لو تحقق الدعاء بحقيقته بأن يدعى حقيقه و يتعلق ذلك الدعاء بالله حقيقه كما هو ظاهر قوله: **«أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ»** الآية؛ فإن ذلك لا يرد البتة، و الدعاء على هذا النعت لا يدع الكافر كافرا و لو حين الدعاء كما قال تعالى: **فَإِذَا رَكبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ** (العنكبوت ٦٥).

فما في قوله: **«وَ مَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ»** دعاء منهم و هم على الكفر فإن الثابت من ملكة الكفر لا يفارقهم في دار الجزاء و إن كان من الجائر أن يفارقهم في دار العمل بالتوبة و الإيمان.

فدعاؤهم لكشف العذاب عنهم يوم القيامة أو في جهنم ككذبهم على الله يوم القيامة بقولهم - كما حكى الله - و الله ربنا ما كنا مشركين، و لا ينفع اليوم كذب غير أنهم اعتادوا ذلك في الدنيا و رسخت رذيلتهم في نفوسهم فبرزت عنهم آثاره يوم تبلى السرائر، و نظير أكلهم و شربهم و خصامهم في النار، و لا غنى لهم في شيء من ذلك، كما قال تعالى: **تُشَقِّقُ مِنَ عَيْنِ آيِهِ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ لَا يُشْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ** (الغاشية ٧)، و قال تعالى: **ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتُمْ الضَّالُّونَ الْمُكذَّبُونَ لَا تَكُونُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمَّا أُلُوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارَبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارَبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ** (الواقعه ٥٥)، و قال تعالى: **إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ** (ص ٦٤)، فهذا كله من قبيل ظهور الملكات فيهم.

و ما قبل الآية يؤيد ما ذكرناه من أن دعاءهم ليس على حقيقته و هو قوله تعالى: **وَ قَالَ**

الَّذِينَ فِي الدَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ إِذْ دُعُوا رَبِّكُمْ يُخَفِّفُونَ عَذَابَ يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ، قَالُوا أَوْ لَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (المؤمن ٥٠)، فإن مسألتهم خزنة النار أن يدعوا الله لهم في تخفيف العذاب ظاهر في أنهم آيسون من استجابته دعائهم أنفسهم، والدعاء مع اليأس عن الاستجابته ليس دعاء و مسأله حقيقه اذ لا يتعلق الطلب بما لا يكون البته.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَا هُم بِالْبُؤْسِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ البأس و البؤس هو الشده و المكروه إلا أن البؤس يكثر استعماله في الحرب و نحوه و البأس و البؤس في غيره كالفقر و الجذب و القحط و نحوها، و الضر و الضراء هو سوء الحال فيما يرجع الى النفس كغم و جهل أو ما يرجع الى البدن كمرض و نقص بدني أو ما يرجع الى غيرها كسقوط جاه أو ذهاب مال، و لعل المقصود من الجمع بين البؤس و الضراء الدلاله على تحقق الشدائد في الخارج كالجذب و السيل و الزلزله، و ما يعود الى الناس من قبلها من سوء الحال كالخوف و الفقر و رثائه الحال.

و الضراعه هي المذله و التضرع التذلل و المراد به التذلل الى الله سبحانه لكشف ما نزل عليهم من نوازل الشده و الرزيه.

و الله سبحانه يذكر لنبيه صلى الله عليه و آله و سلم في هذه الآيه و ما يتلوها الى تمام أربع آيات سنّته في الامم التي من قبله اذ جاءتهم رسلهم بالبينات: أنه كان يرسل إليهم الرسل فيذكرونهم بتوحيد الله سبحانه و التضرع و إخلاص الإنابه إليه ثم يبتليهم بأنواع الشده و المحن و يأخذهم بالبؤس و الضراء و لكن بمقدار لا يلجئهم الى التضرع و لا يضطرهم الى الابتغال و الاستكانه لعلمهم يتضرعون إليه بحسن اختيارهم، و يلين قلوبهم فيعرضوا عن التزيينات الشيطانيه و عن الإخلاق الى الأسباب الظاهريه لكنهم لم يتضرعوا إليه بل أقسى الاشتغال بأعراض الدنيا قلوبهم و زين لهم الشيطان أعمالهم، و أنساهم ذلك ذكر الله.

فلما نسوا ذكر الله سبحانه فتح الله عليهم أبواب كل شيء و صب عليهم نعمه المتنوعه صبا حتى اذا فرحوا بما عندهم من النعم و اغتروا و استقلوا بأنفسهم من دون الله أخذهم الله بغته و من حيث لا يشعرون به فإذا هم آيسون من النجاه شاهدون سقوط ما عندهم من الأسباب فقطع دابر القوم الذين ظلموا و الحمد لله رب العالمين.

و هذه السنه سنه الاستدراج و المكر الذى لخصها الله تعالى فى قوله: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (الأعراف ١٨٣).

و بالتأمل فيما تقدم من تقرير معنى الآيه و التدبر فى سياقها يظهر أن الآيه لا تنافى سائر الآيات الناطقه بأن الإنسان مفطور على التوحيد ملجأ باقتضاء من فطرته و جبلته الى الإقرار به و التوجه إليه عند الانقطاع عن الأسباب الكونيه كما قال تعالى: وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلْمِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِمَّنْ يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (لقمان ٣٢).

و ذلك ان الآيه لا تريد من البأساء و الضراء إلا ما لا يبلغ من الشده و المهابه مبلغا يذهلون به عن كل سبب و ينسون به كل وسيله عاديه، و من الدليل على ذلك قوله فى الآيه: «لَعَلَّهُمْ يَنْضَرَّعُونَ» اذ لعل كلمه رجاء و لا رجاء مع الإلجاء و الاضطرار، و كذا قوله تعالى:

«وَ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» فإن ظاهره أنهم اغتروا بذلك و توسلوا فى رفع البأساء و الضراء الى أعمالهم التى عملوها بأيديهم و دبروها بتدابيرهم للغلبه على موانع الحياه و أصداد العيش فاشتغلوا بالأسباب الطبيعيه الملهيه إياهم عن التضرع الى الله سبحانه و الاعتصام به، كقوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ، فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ حَيْدَهُ وَ كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (المؤمن ٨٤)، فالآيه الاولى - كما ترى - تحكى عنهم نظير ما تحكيه الآيه التى نحن فيها من الإعراض عن التضرع و الاغترار بالأعمال، و الآيه الثانيه تحكى ما تحكيه الآيات الاخرى من التوحيد فى

قوله تعالى: فَلَوْ لَا إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسَيْنَا تَضَرَّعُوا وَ لَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمُ الْخ؛ «لولا» للتحضيض أو للنفي، و على أى حال تفيد فى المقام فائده النفى بدليل قوله: «وَ لَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ» و قسوه القلب مقابل لينه، و هو كون الإنسان لا يتأثر عن مشاهدته ما يؤثر فيه عادة أو عن استماع كلام شأنه التأثير.

و المعنى: فلم يتضرعوا حين مجيء البأس و لم يرجعوا الى ربهم بالتذلل بل أبت نفوسهم أن تتأثر عنه، و تلهوا بأعمالهم الشيطانية الصارفة لهم عن ذكر الله سبحانه، و أخلدوا الى الأسباب الظاهره التى كانوا يرون استقلالها فى إصلاح شأنهم.

قوله تعالى: فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ الْخ؛ المراد بفتح أبواب كل شىء إيتائهم من كل نعمه من النعم الدنيويه التى يتنافس فيها الناس للتمتع من مزايا الحياه من المال و البنين و صحه الأبدان و الرفاهيه و الخصب و الأمن و الطول و القوه، كل ذلك توفيراً من غير تقدير و منع كما أن خزانه المال اذا أعطى منها أحد بقدر و ميزان فتح بابها فاعطى ما أريد ثم سد، و أما اذا أريد الإعطاء من غير تقدير فتح بابها و لم يسد على وجه قاصده بالجمله كناية عن إيتائهم أنواع النعم من غير تقدير على ما يساعده المقام.

على أن فتح الباب إنما يناسب بحسب الطبع الحسنات و النعم و أما السيئات و النقم فإنما تتحقق بالمنع و يناسبها سد الباب كما يلح إليه قوله تعالى: مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَ مَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ (فاطر ٢).

و مبلسون من أبلس إبلاسا، قال الراغب: الإبلاس الحزن المعترض من شدة اليأس -الى أن قال- و لما كان المبلس كثيراً ما يلزم السكوت و ينسى ما يعنيه، قيل: أبلس فلان اذا سكت و اذا انقطعت حجته، انتهى. و على هذا المعنى المناسب لقوله: «فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ» أى خامدون منقطعون الحجه.

و معنى الآيه أنهم لما نسوا ما ذكروا به أو أعرضوا عنه آتيناهم من كل نعمه استدراجا حتى اذا تمت لهم النعم و فرحوا بما اوتوا منها أخذناهم فجأه فانخمدت أنفاسهم و لا حجه لهم لاستحقاقهم ذلك.

قوله تعالى: فَقَطَعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ دبر الشىء مقابل قبله و هما الجزءان:المقدم و المؤخر من الشىء و لذا يكنى بهما عن العضوين المخصوصين،و ربما توسع فيهما فاطلقا على ما يلى الجزء المقدم أو المؤخر فينفصلان عن الشىء،و قد اشتق منهما الأفعال بحسب المناسبه نحو أقبل و أدبر و قبل و دبر و تقبل و تدبر و استقبل و استدبر،و من ذلك اشتقاق دابر بمعنى ما يقع خلف الشىء و يليه من ورائه،و يقال:

أمس الدابر أى الواقع خلف اليوم كما يقال:عام قابل،و يطلق الدابر بهذا المعنى على أثر الشىء كدابر الإنسان على أخلافه و سائر آثاره،فقوله: «فَقَطَعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا» أى أن الهلاك استوعبهم فلم يبق منهم عينا و لا- أثرا أو أبادهم جميعا فلم يخلص منهم أحد كما قال تعالى: فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيهِ (الحاقه ٨/).

و وضع الظاهر موضع المضمرة فى قوله: «دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا» دون أن يقال:دابرهم للدلاله على سبب الحكم و هو الظلم الذى أفنى جمعهم و قطع دابرهم،و هو مع ذلك يمهد السبيل الى إيراد قوله: «وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» .

و من هذه الآيه بما تشتمل على وصفهم بالظلم و على حمده تعالى بربوبيته تتحصل الدلاله على أن اللوم و السوء فى جميع ما حل بهم من عذاب الاستئصال يرجع إليهم لأنهم القوم الذين ظلموا،و أنه لا- يعود إليه تعالى إلا الثناء الجميل لأنه لم يأت فى تدبير أمرهم إلا- بما تقتضيه الحكمة البالغه،و لم يسقهم فى سبيل ما انتهوا إليه إلا الى ما ارتضوه بسوء اختيارهم فقد تحقق أن الخزى و السوء على الكافرين،و أن الحمد لله رب العالمين.

قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصَارَكُمْ وَ أَبْصَارَكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛أخذ

السمع و الأبصار هو سلب قوتى السمع و الإبصار و هو الإصمام و الإعماء. و الختم على القلوب إغلاق بابها إغلاقاً لا يدخلها معه شىء من خارج حتى تتفكر فى أمرها، و تميز الواجب من الأعمال من غير: و الخير النافع منها من الشر الضار مع حفظ أصل الخاصية و هو صلاحية التعقل و إلا كان جنونا و خيلاً.

و إذا كان هؤلاء المشركون لا يسمعون حق القول فى الله سبحانه و لا يبصرون آياته الداله على أنه واحد لا شريك له فصارت قلوبهم لا يدخلها شىء من واردات السمع و البصر حتى تعرف بذلك الحق من الباطل أقام الحجة بذلك على إبطال مذهبهم فى أمر الإله تعالى و وحدته.

و ملخصها أن القول بثبوت شركاء لله يستلزم القول ببطلانه و ذلك أن القول بالشركاء لإثبات الشفاعة، و هى أن تشفع و تتوسط فى جلب المنافع و دفع المضار، و اذ كانت الشركاء شفعاء على الفرض كان لله سبحانه أن يفعل فى ملكه ما يشاء من غير مصادفه مانع يمانعه أو ضد يضاده فلو سلب الله عنكم سمعكم و أبصاركم و ختم على قلوبكم فعل ذلك و لم يعارضه أحد من شركائكم لأنها شفعاء متوسطة لا أضداد معارضة، و لو فعل ذلك و سلب ما سلب لم يقدر أحد منها أن يأتىكم به لأنها شفعاء و سائط لا مصادر للخلق و الإيجاد.

و اذا لم يقدر على إتياء نفع أو إذهاب ضرر فما معنى الوهيتها فليس الإله إلا من يوجد و يعدم و يتصرف فى الكون كيف شاء، و إنما اضطرت الفطره الانسانية الى الإقرار بأن للعالم إليها من جهة الحصول على مبدأ حوادث الخير و الشر التى تشاهدها فى الوجود، و إذا كان شىء لا يضر و لا ينفع فى جنب الحوادث شيئاً فليس تسميته إليها إلا لغوا من القول.

و قوله: **أُنظِرْ كَيْفَ نُصَيِّرُ الْآيَاتِ تُمْ هُمْ يَصْدِفُونَ** تصريف الآيات تحويلها الى نحو أفهامهم، و الصدوف الإعراض، يقال: صدف يصدف صدوفا اذا مال عن الشىء.

قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً إِلَىٰ آخِرِ آيَاتِهِ؛ الجهره الظهور التام الذى لا يقبل الارتباب و لذا قابلت البغته التى هى إتيان الشئ فجأه لا يظهر على من أتاه إلا بعد إتيانه و غشيانه فلا يترك له مجال التحذر.

و هذه حجه بين فيها على وجه العموم أن الظالمين على خطر من عذاب الله عذابا لا يتخطاهم، و لا يغلط فى إصابتهم بإصابه من سواهم، ثم بين أنهم هم الظالمون لفسقهم عن الدعوه الإلهيه و تكذيبهم بآيات الله تعالى.

و ذلك أن معنى العذاب ليس إلا- إصابه المجرم بما يسوؤه و يدمره من جزاء إجرامه و لا إجرام إلا مع ظلم، فلو أتاهم من قبل الله سبحانه عذاب لم يهلك به إلا الظالمون، فهذا ما يدل عليه الآيه ثم بين الآيتين التاليتين أنهم هم الظالمون.

قوله تعالى: وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ إِلَىٰ آخِرِ آيَاتِنَا؛ يبين بالآيتين أنهم هم الظالمون، و لا يهلك بعذاب الله إن أتاهم إلا هم لظلمهم.

و لذا غير سياق الكلام فوجه وجه البيان الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم ليكون هو المخبر عن شأن عذابه فيكون أقطع للعدر و جىء بلفظ المتكلم ليدل به على صدوره من ساحه العظمه و الكبرياء.

فكان ملخص المضمون أمره تعالى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن يقيم عليهم الحجه أن لو أتاهم عذاب الله لم يهلك إلا الضالمين منهم ثم يقول تعالى لرسوله: إنا نحن الملحقين إليك الحجه الآتين بالعذاب نخبرك أن إرسالنا الرسل إنما هو للتبشير و الإنذار فمن آمن و أصلح فلا عليه، و من كذب بآياتنا فهو الذى يمسه عذابنا لفسقه و خروجه عن طور العبوديه فليظنوا فى أمر أنفسهم من أى الفريقين هم؟.

و قد تقدم فى المباحث السابقه استيفاء البحث عن معنى الإيمان و الإصلاح و الفسق و معنى نفى الخوف و الحزن عن المؤمنين.

و قوله تعالى: قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لَا

أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ لَعَلَّ الْمَرَادَ بِخَزَائِنِ اللَّهِ مَا ذَكَرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ (الإسراء/١٠٠) وخزائن الرحمة هذه هي ما يكشف عن أثره، قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلدَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ (الآية فاطر/٢)؛ وهي فائضه الوجود التي تفيض من عنده تعالى على الأشياء من وجودها و آثار وجودها، وقد بين قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس/٨٢) أن مصدر هذا الأثر الفائض هو قوله، وهو كلمة «كن» الصادرة عن مقام العظمة والكبرياء، وهذا هو الذى يخبر عنه بلفظ آخر فى قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِمَقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (الحجر/٢١).

فالمراد بخزائن الله هو المقام الذى يعطى بالصدور عنه ما أريد من شىء من غير أن يفند بإعطاء وجود أو يعجزه بذل و سماحه، وهذا مما يختص بالله سبحانه، وأما غيره كائنا ما كان و من كان فهو محدود و ما عنده مقدر اذا بذل منه شيئا نقص بمقدار ما بذل، و ما هذا شأنه لم يقدر على إغناء أى فقير، و إرضاء أى طالب، و إجابة أى سؤال.

و أما قوله: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ فَإِنَّمَا أُرِيدُ بِالْعِلْمِ الْإِسْتِقْلَالَ بِهِ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمٍ بُوْحَى وَ ذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى يَثْبِتُ الْوَحَى فِي ذِيلِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ: «إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ»، و قد بين فى مواضع من كلامه أن بعض ما يوحى لرسله من الغيب، كقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ (الجن/٢٦)، و كقوله بعد سرد قصه يوسف:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف/١٠٢)، و قوله فى قصه مريم: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (آل عمران/٤٤)، و قوله بعد قصه نوح: ﴿تِلْكَ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ (هود/٤٩).

فالمراد بنفى علم الغيب نفى أن يكون مجهزا فى وجوده بحسب الطبع بما لا يخفى عليه معه ما لا سبيل للإنسان بحسب العاده الى العلم به من خفيات الامور كائنه ما كانت.

و أما قوله: **وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ** فهو كناية عن نفى آثار الملكيه من أنهم منزهون عن حوائج الحياه الماديه من أكل و شرب و نكاح و ما يلحق بذلك، و قد عبّر عنه فى مواضع اخرى بقوله: **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ (الكهف ١١٠)**، و إنما عبّر عن ذلك هاهنا بنفى الملكيه دون إثبات البشريه ليحاذى به ما كانوا يقترحونه عليه عليه السّلام بمثل قولهم:

مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ (الفرقان ٧).

فمعنى قوله: **«قُلْ لَا- أَقُولُ لَكُمْ»** الخ؛ قل: لم أدع فيما أدعوكم إليه و أبلغكمو أمرا وراء ما أنا عليه من متعارف حال الإنسان حتى تبكّتونى بالزامى بما تقترحونه منى فلم أدع أنى أملك خزائن الالوهيه حتى تقترحوا أن أفجّر أنهارا أو أخلق جنه أو بيتا من زخرف، و لا ادعيت أنى أعلم الغيب حتى أجيبكم عن كل ما هو مستور تحت أستار الغيوب كقيام الساعه و لا ادعيت أنى ملك حتى تعيبنى و تبطلوا قولى بأكل الطعام و المشى فى الاسواق للكسب.

قوله تعالى: **إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ** بيان لما يدعيه حقيقه بعد رد ما اتهموه به من الدعوى من جهه دعواه الرساله من الله إليهم أى ليس معنى قولى: إنى رسول الله إليكم أن عندى خزائن الله و لا- أنى أعلم الغيب و لا- أنى ملك بل أن الله يوحى الى بما يوحى.

و لم يثبتته فى صوره الدعوى بل قال **«إِنْ أَتَّبِعْ»** الخ؛ ليدل على كونه مأمورا بتبليغ ما يوحى إليه ليس له الا اتباع ذلك فكأنه لما قال: لا أقول لكم كذا و لا كذا و لا كذا قيل له: فإذا كان كذلك و كنت بشرا مثلنا و عاجزا كأحدنا لم تكن لك مزيه علينا فما ذا تريد منا؟ فقال: إن أتبع إلا ما يوحى إلى أن أبشركم و انذركم فأدعوكم إلى دين التوحيد.

قوله تعالى: **وَ أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَيَّ رَبَّهُمْ** الى آخر الآيه؛ الضمير فى «به» راجع الى القرآن و قد دل عليه قوله فى الآيه السابقه: **«إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ»**

إِلَى» و قوله: «لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ» حال و العامل فيه يخافون أو يحشرون.

و المراد بالخوف معناه المعروف دون العلم و ما فى معناه اذ لا دليل عليه بحسب ظاهر المعنى المتبادر من السياق، و الأمر بإنذار خصوص الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم لا- ينافى عموم الإنذار لهم و لغيرهم كما يدل عليه قوله فى الآيات السابقة: وَ أَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ (آيه ١٩) بل لما كان خوف الحشر الى الله معينا لنفوسهم على القبول و مقربا للدعوه الى أفهامهم أفاد تخصيص الأمر بالإنذار بهم و وصفهم هذا الوصف تأكيدا لدعوتهم و تحريضا له أن لا يسامح فى أمرهم و لا يضعهم موضع غيرهم بل يخصهم بمزيد عنايه بدعوتهم لأن موقفهم أقرب من الحق و إيمانهم أرجى فالآيه بضميمه سائر آيات الأمر بالإنذار العام تفيد من المعنى: أن أُنذر الناس عامه و لا سيما الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم.

و قوله: لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ نفى مطلق لولاياه غير الله و شفاعته فيقيدده الآيات الأخر المقيدة كقوله: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ (البقره ٢٥٥) و قوله: وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ (الأنبياء ٢٨) و قوله: وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (الزخرف ٨٦).

و إنما لم يستثن فى الآيه لأن الكلام يواجه به الوثنيون الذين كانوا يقولون بولايه الأوثان و شفاعتها، و لم يكونوا يقولون بذلك بالإذن و الجعل فإن الولايه و الشفاعه عن اذن يحتاج القول به الى العلم به، و العلم الى الوحي و النبوه، و هم لم يكونوا قائلين بالنبوه، و أما الذى أثبتوه من الولايه و الشفاعه فكأنه أمر متهى لأوليائهم و شركائهم بالضروره من طبعها لا بإذن من الله كأن أقوياء الوجود من الخليفه لها نوع من التصرف فى ضعفائه بالطبع و إن لم يأذن به الله سبحانه، و إن شئت قلت: لازمه أن يكون إيجادها إذنا اضطراريا فى التصرف فى ما دونها.

و بالجمله قيل «ما لهم من دونه ولى و لا شفيع» و لم يقل: إلا بإذنه لأن المشركين إنما قالوا إن الأوثان أولياء و شفعاء من غير تقييد فنفى ما ذكروه من الولى و الشفيع من دون الله محاذاه بالنفى لإثباتهم، و أما الاستثناء فهو و إن كان صحيحا كما وقع فى مواضع من كلامه تعالى لكن لا يتعلق به غرض هاهنا.

قوله تعالى: **وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** الى آخر الآيه؛ ظاهر السياق على ما يؤيده ما فى الآيه التاليه: **«وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ»** الخ؛ أن المشركين من قوله صلى الله عليه و آله و سلم اقترحوا عليه أن يطرد عن نفسه الضعفاء المؤمنين به فهناك الله تعالى فى هذه الآيه عن ذلك.

و ذلك منهم نظير ما اقترحه المستكبرون من سائر الامم من رسلهم أن يطردوا عن أنفسهم الضعفاء و الفقراء من المؤمنين استكبارا و تعززا، و قد حكى الله تعالى ذلك عن قوم نوح فيما حكاه من محاجته عليه السلام حجاجا يشبه ما فى هذه الآيات من الحجاج قال تعالى: **فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا** و **مَا تَرَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَ مَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْهِمْ** من فضل بيل نطنكهم كاذبين. **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَ آتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِي فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْ نُلْزِمُكُمْ هَا وَ أَنْتُمْ لَهُمْ كَارِهُونَ** -الى أن قال- **وَ مَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ** -الى أن قال- **وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَ لَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ** (هود ٣١).

و التطبيق بين هذه الآيات و الآيات التى نحن فيها يقضى أن يكون المراد بالذين يدعون ربهم بالغداة و العشى و يريدون وجهه هم المؤمنين، و إنما ذكر دعائهم بالغداة و العشى و هو صلاتهم أو مطلق دعائهم ربهم للدلالة على ارتباطهم بربهم بما لا يداخله غيره تعالى و ليوضح ما سيذكره من قوله: **«أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ»**.

وقوله: يُرِيدُونَ وَجْهَهُ أَي وجه الله، قال الراغب في مفرداته: أصل الوجه الجارحه قال: فاعسلوا وجوهكم و أيدىكم، و تغشى وجوههم النار، و لما كان الوجه أول ما يستقبلك و أشرف ما فى ظاهر البدن استعمل فى مستقبل كل شىء و فى أشرفه و مبدئه فقيل:

وجه كذا و وجه النهار، و ربما عبّر عن الذات بالوجه فى قول الله: و يبقى وجه ربك ذو الجلال و الإكرام، قيل: ذاته، و قيل: أراد بالوجه هاهنا التوجه الى الله بالأعمال الصالحة.

و قال: فأينما تولوا فثم وجه الله، كل شىء هالك إلا وجهه، يريدون وجه الله، إنما نطمعكم لوجه الله، قيل: إن الوجه فى كل هذا ذاته و يعنى بذلك كل شىء هالك إلا هو و كذا فى أخواته، و روى أنه قيل ذلك لأبى عبد الله بن الرضا فقال: سبحان الله لقد قالوا قولاً عظيماً إنما عنى الوجه الذى يؤتى منه و معناه: كل شىء من أعمال العباد هالك و باطل إلا ما أريد به الله، و على هذا الآيات الأخر، و على هذا قوله: يريدون وجهه، يريدون وجه الله، انتهى (١).

و قوله: فَتَطْرُدُهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ الدخول فى جماعه الظالمين متفرع على طردهم أى طرد الذين يدعون ربهم فنظم الكلام بحسب طبعه يقتضى أن يفرع قوله: «فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ» ، على قوله فى أول الآية: «وَأَلَّا تَطْرُدِ الَّذِينَ» السخ؛ إلا أن الكلام لما طال بتخلل جمل بين المتفرع و المتفرع عليه أعيد لفظ الطرد ثانيا فى صورته الفرع ليتفرع عليه قوله:

«فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ» بنحو الاتصال و يرتفع اللبس.

فلا- يرد عليه أن الكلام مشتمل على تفريع الشىء على نفسه فإن ملخصه: و لا- تطرد الذين يدعون ربهم فتطردهم، و ذلك أن إعادة الطرد ثانيا لإيصال الفرع أعنى قوله: «فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ» ، الى أصله كما عرفت.

قوله تعالى: وَ كَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا الى آخر الآية؛ الفتنة هى

ص: ٣١٣

الامتحان، و السياق يدل على أن الاستفهام فى قوله: «أَهُؤُلَاءِ مَنَ اللّٰهُ عَلَيَّهِمْ مِّنْ بَيْنِنَا» للتهكم و الاستهزاء، و معلوم أنهم لا يسخرون إلا ممن يستحقرون أمره و يستهينون موقعه من المجتمع، و لم يكن ذلك إلا لفرهم و مسكنتهم و انحطاط قدرهم عند الأقوياء و الكبرياء منهم.

فاللّٰه سبحانه يخبر نبيه أن هذا التفاوت و الاختلاف إنما هو محنه إلهيه يمتحن بها الناس ليميز به الكافرين من الشاكرين، فيقول أهل الكفران و الاستكبار فى الفقراء المؤمنين: أهُؤُلَاءِ الَّذِينَ مَنَّ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا فَإِنَّ السَّنَنَ الاجتماعيه عند الناس توصف بما عند المستن بها من الشرافه و الخسه، و كذا العمل يوزن بما لعامله من الوزن الاجتماعى فالطريقه المسلوكه عند الفقراء و الأذلاء و العبيد يستذلها الأغنياء و الأعزّه، و العمل الذى أتى به مسكين أو الكلام الذى تكلم به عبد أو أسير مستذلا لا يعتنى به أولو الطول و القوه.

فانتحال الفقراء و الاجراء و العبيد بالدين، و اعتناء النبى بهم و تقريبه إياهم من نفسه كالدليل عند الطغاه المستكبرين من أهل الاجتماع على هو ان أمر الدين و أنه دون أن يلتفت إليه من يعتنى بأمره من الشرفاء و الأعزّه.

و قوله تعالى: أَلَيْسَ اللّٰهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ جواب عن استهزائهم المبني على الاستبعاد، بقولهم: «أَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ مَنَّ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا» و محصله أن هؤلاء شاكرون لله دونهم و لذلك قدّم هؤلاء لمّنه و آخرهم فكنى سبحانه عن ذلك بأن الله أعلم بالشاكرين لنعتمه أى إنهم شاكرون، و من المسلم أن المنعم إنما يمتنّ و ينعم على من يشكر نعمته و قد سمي الله تعالى توحيداً و نفى الشريك عنه شكراً فى قوله حكايه يوسف عليه السّلام: مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكُمْ مِنْ فَضْلِ اللّٰهِ عَلَيْنَا وَ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (يوسف ٣٨).

فالآيه تبين أنهم بجهالتهم يبنون الكرامه و العزه على التقدّم فى زخارف الدنيا من مال و بنين و جاه، و لا قدر لها عند الله و لا كرامه، و إنما الأمر يدور مدار صفه الشكر و النعمه

بالحقيقه هي الولايه الالهيه.

قوله تعالى: وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ إِلَىٰ آخِرِ آيَةٍ، قد تقدم معنى السلام، والمراد بكتابه الرحمه على نفسه إيجابها على نفسه أى استحاله انفكاك فعله عن كونه معنونا بعنوان الرحمه، والإصلاح هو التلبس بالصلاح فهو لازم وإن كان بحسب الحقيقه متعديا وأصله إصلاح النفس أو إصلاح العمل.

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ تفصيل الآيات بقريه المقام شرح المعارف الالهيه و تخليصها من الإبهام و الاندماج، وقوله:

«وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ» اللام فيه للغايه، وهو معطوف على مقدر طوى عن ذكره تعظيما و تفخيما لأمره و هو شائع فى كلامه تعالى كقوله: وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا (آل عمران ١٤٠)، وقوله: وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (الآيه ٧٥).

فالمعنى: و كذلك نشرح و نميز المعارف الالهيه بعضها من بعض و نزيل ما يطرأ عليها من الإبهام لأغراض هامه منها أن تستبين سبيل المجرمين فيتجنبها الذين يؤمنون بآياتنا، و على هذا فالمراد بسبيل المجرمين السبيل التى يسلكها المجرمون قبال الآيات الناطقه بتوحيد الله سبحانه و المعارف الحقه التى تتعلق به و هى سبيل الجحود و العناد و الإعراض عن الآيات و كفران النعمه (١).

[سوره الأنعام (٦): الآيات ٥٦ الى ٧٣]

إشارة

قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَشْتَعِجُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقَّ وَ هُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَقَضِيَ الْأَمْرُ يُبْنَىٰ وَ يُنْكَرُ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَ يَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقِهِ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَ لَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَ لَا رَطْبٌ وَ لَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَ يُزِيلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَهُ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَ هُمْ لَا يُفْرَطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ إِلَّا لَهُ الْحُكْمُ وَ هُوَ أَسْرِعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢) قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلْمَاتِ الْبُرِّ وَ الْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَ خُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلْ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَ يَذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نَصِّرُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) وَ كَذَّبَ بِهِنَّ قَوْمُكَ وَ هُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦) لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧) وَ إِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَ إِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَعْرِدْ بَعِيدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَ مَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ لَكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩) وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَ لَهْوًا وَ عَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ

الَّذِينَ ذَكَرَ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلُّ قَدِيرٍ لَّا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ إِنَّهُ لَكُلٌّ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرٌ لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)

ص: ٣١٥

١ - ١). الانعام ٣٧-٥٥: بحث روائي في القدر؛ القدرية؛ اقتراح قريش على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي طَرْدِ الْعَبِيدِ وَالْفُقَرَاءِ.

قوله تعالى: قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ أمر بأن خبرهم بورود النهي عليه عن عباده شركائهم هو نهى عن عبادتهم بنوع من الكنايه ثم أشار الى ملاك النهي عنها بقوله: «قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ» و هو أن عبادتهم اتباع للهوى و قد نهى عنه ثم أشار بقول: «قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ» الى سبب الاستنكاف عن اتباع الهوى و هو الضلال و الخروج عن جماعه المهتدين و هم الذين اتصفوا بصفه قبول هدايه الله سبحانه، و عرفوا بذلك، فاتباع الهوى ينافى استقرار صفه الاهتداء فى نفس الإنسان، و يمانع إشراق نور التوحيد على قلبه إشراقا ثابتا ينتفع به.

و قد تلخص بذلك كله بيان تام معلن للنهى أو الانتهاء عن عباده أصنامهم، و هو أن فى عبادتها اتباعا للهوى، و فى اتباع الهوى الضلال و الخروج عن صف المهتدين بالهدايه الإلهيه.

قوله تعالى: قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ البينه هو الدلاله الواضحه من البيان و هو الوضوح، و الأصل فى معنى هذه ماده هو انعزال شىء عن شىء و انفصاله عنه بحيث لا- يتصلان و لا- يختلطان، و منه البين و البون و البيئونه و غير ذلك، قد سميت البينه بينه لأن الحق يبين بها عن الباطل فيتضح و يسهل الوقوف عليه من غير تعب و مثونه.

و المراد بمرجع الضمير فى قوله: «وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ» هو القرآن و ظاهر السياق أن يكون التكذيب إنما تعلق بالينه التى هو صلى الله عليه و آله و سلم عليها على ما هو ظاهر اتصال المعنى، و يؤيده قوله بعده: «مَا

عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ» الخ؛ فإن المحصل من الكلام مع انضمام هذا الذيل: أن الذي أيد الله به رسالتي من البيئات و هو القرآن تكذبون به، و الذي تقترحونه على و تستعجلون به من الآيات ليس فى اختيارى و لا مفوضا أمره إلى فليس بيننا ما نتوافق فيه لما أنى أوتيت ما لا تريدون و أنتم تريدون ما لم أوت.

فمن هنا يظهر أن الضمير المجرور فى قوله: «وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ» راجع الى السببه لكون المراد به القرآن، و أن قوله: «مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ» أريد به نفى التسلط على ما يستعجلون به بالتكنيه فإن الغالب فيما يقدر الإنسان عليه و خاصه فى باب الإعطاء و الإنفاق أن يكون ما يعطيه و ينفقه حاضرا عنده أو مذكورا لديه و تحت تسلطه ثم ينفق منه ما ينفق فقد أريد بقوله: «مَا عِنْدِي» نفى التسلط و القدره من باب نفى الملزوم بنفى اللازم.

□ □
و قوله: «إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ» الخ؛ بيان لسبب النفى، و لذلك جىء فيه بالنفى و الاستثناء المفيد للحصر ليدل بوقوع النفى على الجنس على أن ليس لغيره تعالى من سنخ الحكم شىء قط و أنه الى الله سبحانه فحسب (١)(٢).

قوله تعالى: قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقَضَيْتُ الْأَمْرَ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ الى آخر الآيه؛ أى لو قدرت على ما تقترحونه على من الآيه و الحال أنها بحيث اذا نزلت على رسول لم تنفك عن الحكم الفصل بينه و بين امته لقضى الأمر بينى و بينكم، و نجى بذلك أحد المتخاصمين المختلفين و عذب الآخر و أهلكت، و لم يعذب بذلك و لا يهلك إلا أنتم لأنكم ظالمون، و العذاب الإلهى إنما يأخذ الظالمين بظلمهم، و هو سبحانه أنزه ساحه من أن يشتهب عليه الأمر و لا يميز الظالمين من غيرهم فيعذبني دونكم.

ص: ٣١٩

١-١. الانعام ٥٦-٧٣: كلام فى معنى الحكم و انه لله وحده.

٢-٢. الانعام ٥٦-٧٣: كلام فى معنى حقيقه و حكمه تعالى.

ففى قوله تعالى: وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ نوع تكتيه و تعلييل أى إنكم أنتم المعذبون لأنكم ظالمون و العذاب الإلهى لا- يعدو الظالمين إلى غيرهم، و فى الجملة إشاره إلى ما تقدم من قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ (آيه ٤٧).

قوله تعالى: وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ إلى آخر الآيه؛ ذكروا فى وجه اتصال الآيه بما قبلها أن الآيه السابقه لما ختمت بقوله: «وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ» زاد الله سبحانه فى بيانه فذكر أن خزائن الغيب أو مفاتيح تلك الخزائن عنده سبحانه لا يعلمها إلا هو، و يعلم كل دقيق و جليل.

و هذا الوجه لا يتضح به معنى الحصر الذى يدل عليه قوله: «لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ» فالأولى أن يوجه الاتصال بما يشتمل عليه مجموع الآيتين السابقتين أعنى قوله: «قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي» - إلى قوله- «وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ» حيث يدل المجموع على أن ما كانوا يقترحونه من الآيه و ما يستتبعه من الحكم، الفصل و القضاء بينه و بينهم إنما هو عند الله لا سبيل إليه لغيره فهو العالم بذلك الحاكم به و لا يغلط فى حكمه الفصل و تعذيب الظالمين لأنه أعلم بهم فهو عالم بالغيب لا يشاركه فيه غيره، و عالم بكل ما جل و دق لا يضل و لا ينسى، ثم زاد ذلك بيانا بقوله: «وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ» الآيه فبين به اختصاصه تعالى بعلم الغيب و شمول علمه كل شىء، ثم تمم البيان بالآيات الثلاث التى تتلوها.

و بذلك تصوير الآيات جاريه مجرى ما سيقى إليه نظائرها فى مثل المورد كقوله تعالى فى قصه هود و قومه: قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفَّكُنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ (الأحقاف ٢٣).

ثم نقول: المفاتيح جمع مفتاح بفتح الميم و هو الخزينه، و ربما احتمل أن يكون جمع مفتاح بكسر الميم و هو المفتاح، و يؤيده ما قرئ شاذاً: «وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ» و مآل المعنيين واحد فإن

من عنده مفاتيح الخزائن هو عالم بما فيها قادر على التصرف فيها كيف شاء عادة كمن عنده نفس الخزائن إلا أن سائر كلامه تعالى فيما يشابه هذا المورد يؤيد المعنى الأول فإنه تعالى كرر في كلامه ذكر خزائنه و خزائن رحمته -و ذلك في سبعة مواضع -و لم يذكر لها مفاتيح في شيء من كلامه قال تعالى: أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ (الطور ٣٧) وقال: لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ (الأنعام ٥٠) وقال: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ (الحجر ٢١) وقال:

وَ لِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ (المنافقون ٧) وقال: أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ (ص ٩) فالأقرب أن يكون المراد بمفاتيح الغيب خزائنه.

و كيف كان فقوله: «وَ عِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ» مسوق لبيان انحصار العلم بالغيب فيه تعالى إما لأن خزائن الغيب لا يعلمها إلا الله، وإما لأن مفاتيح الغيب لا يعلمها غيره تعالى فلا سبيل لغيره الى تلك الخزائن اذ لا علم له بمفاتيحها التي يتوصل بها الى فتحها و التصرف فيها.

و صدر الآيه و إن أنبأ عن انحصار علم الغيب فيه تعالى لكن ذيلها لا يختص بعلم الغيب بل ينبئ عن شمول علمه تعالى بكل شيء أعم من أن يكون غيباً أو شهاده فإن كل رطب و يابس لا يختص بما يكون غيباً و هو ظاهر فالآيه بمجموعها بين شمول علمه تعالى لكل غيب و شهاده، غير أن صدرها يختص ببيان علمه بالغيوب، و ذيلها ينبئ عن علمه بكل شيء أعم من الغيب و الشهاده.

و من جهة اخرى صدر الآيه يتعرض للغيوب التي هي واقع في خزائن الغيب تحت أستار الخفاء و أفعال الإبهام، و قد ذكر الله سبحانه في قوله: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر ٢١) أن التي في خزائن الغيب عنده من الأشياء امور لا يحيط بها الحدود المشهوده في الأشياء، و لا يحصرها الأقدار المعهوده، و لا شك انها انما صارت غيوباً مخزوناً لما فيها من صفة الخروج عن حكم الحد و القدر فإننا لا نحيط علماً إلا بما هو محدود

و مقدر، و أما التي في خزائن الغيب من الأشياء فهي قبل النزول في منزل الشهود و الهبوط الى مهبط الحد و القدر، و بالجمله قبل أن يوجد بوجوده المقدر له غير محدوده مقدره مع كونها ثابتة نوعا من الثبوت عنده تعالى على ما تنطق به الآية (١).

فقوله تعالى: وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ راجع الى الغيب المطلق الذي لا سبيل لغيره تعالى إليه، و قوله: «لَا يَعْلَمُهَا» الخ؛ حال و هو يدل على أن مفاتيح الغيب من قبيل العلم غير أن هذا العلم من غير سنخ العلم الذي نتعارفه فإن الذي يتبادر الى أذهاننا من معنى العلم هو الصورة المأخوذة من الأشياء بعد وجودها و تقدرها بأقذارها و مفاتيح الغيب - كما تبين - علم بالأشياء و هي غير موجوده و لا مقدره بأقذارها الكونية أي علم غير متناه من غير انفعال من معلوم.

و قوله: وَ يَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَ الْبَحْرِ تعميم لعلمه بما يمكن أن يتعلق به علم غيره مما ربما يحضر بعضه عند بعض و ربما يغيب بعضه عن بعض، و إنما قدم ما في البر لانه أعرف عند المخاطبين من الناس.

و قوله: وَ مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقِهِ إِلَّا يَعْلَمُهَا اختص بالذكر لانه مما يصعب الإنسان حصول العلم به لان الكثره البالغه التي في أوراق الأشجار تعجز الإنسان أن يميز معها بعضها من بعض فيراقب كلا منها فيما يطراً عليه من الاحوال، و يتنبه على انتقاصها بالساقط منها اذا سقط.

و قوله: وَ لَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَ لَا رَطْبٌ وَ لَا يَابِسٌ الخ؛ معطوفات على قوله: «مِنْ وَرَقِهِ» على ظاهر السياق، و المراد بظلمات الارض بطونها المظلمه التي تستقر فيها الحبات فينمو منها ما ينمو و يفسد ما يفسد فالمعنى: و لا تسقط من حبه في

ص: ٣٢٢

بطون الأرض المظلمه و لا يسقط من رطب و لا من يابس أيا ما كان إلا يعلمها، و على هذا فقوله «إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ» بدل من قوله: «إِلَّا يَعْلَمُهَا» سد مسده، و تقديره إلا هو واقع مكتوب في كتاب مبين.

و توصيف الكتاب بالمبين إن كان بمعنى المظهر إنما هو لكونه يظهر لقارئه كل شيء على حقيقته ما هو عليه من غير أن يطرأ عليه إبهام التغير و التبديل و ستره الخفاء في شيء من نعوته، و إن كان المبين بمعنى الظاهر فهو ذلك أيضا لان الكتاب في الحقيقة هو المكتوب، و المكتوب هو المحكى عنه، و اذا كان ظاهرا لا ستره عليه و لا خفاء فيه فالكتاب كذلك.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ مَا جَزَّخْتُم بِالنَّهَارِ التوفى أخذ الشيء بتمامه، و يستعمله الله سبحانه في كلامه بمعنى أخذ الروح الحيه كما في حال الموت كما في قوله في الآية التاليه: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا» .

قد عد الإنامه توفيا كما عد الإماته توفيا على حد قوله: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْمَآئِئَةَ حِينَ مَوْتِهَا وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَدَامِهَا (الزمر ٤٣) لا اشتراكهما في انقطاع تصرف النفس في البدن كما أن البعث بمعنى الإيقاظ بعد النوم يشارك البعث بمعنى الإحياء بعد الموت في عود النفس الى تصرفها في البدن بعد الانقطاع، و في تقييد التوفى بالليل كالبعث بالنهار جرى على الغالب من أن الناس ينامون بالليل و يستيقظون بالنهار.

و في قوله تعالى: «يَتَوَفَّاكُم» دلالة على أن الروح تمام حقيقه الإنسان الذى يعبر عنه بأنا كما ربما يتخيل لنا أن الروح أحد جزئى الإنسان لاتمامه أو أنها هيئه أو صفه عارضه له، و أوضح منه دلالة قوله تعالى: وَ قَالُوا أَ إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَ إِنْ لَمْ يَخْلُقْ جَدِيدًا بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ، قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (السجده / ١١) فإن استبعاد الكفار مبنى على حقيقه الإنسان هو البدن الذى يتلاشى و يفسد بانحلال التركيب بالموت فيفضل فى الارض، و الجواب مبنى على كون حقيقته هو الروح (النفس) و اذ

كان ملك الموت يتوفاه و يقبضه فلا يفوت منه شيء.

وقوله: وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ الجرح هو الفعل بالجرحه و المراد به الكسب أى يعلم ما كسبتم بالنهار، والأنسب أن يكون الواو حالیه و الجملة حالاً من فاعل يتوفاكم، و يتصل حينئذ قوله: «ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ» بقوله: «وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ» الخ؛ من غير تدخل معنى أجنبي فإن الآيتين فى مقام شرح وقوع التدبير الإلهى بالإنسان فى حياته الدنيا و عند الموت و بعده حتى يرد الى ربه، و الأصل العمده من جمل الآيتين المسروده لبيان هذا المعنى قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ - أَي فى النهار - لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَ هُمْ لَا يُفْرَطُونَ. ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ» فهذا هو الأصل فى المقصود، و ما وراء ذلك مقصود بالتبع، و المعنى و هو الذى يتوفاكم بالليل و الحال أنه يعلم ما كسبتم فى النهار، ثم يبعثكم فى النهار، الخ.

قوله تعالى: ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى الخ؛ سمي الإيقاظ و التنبيه بعثاً محاذاه لتسميه الإنامه توفياً و جعل الغرض من البعث قضاء الأجل المسمى و هو الوقت المعلوم عند الله الذى لا يتخطاه حياه الإنسان الدنيويه كما قال: فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (الأعراف ٣٤).

و إنما جعل قضاء الأجل المسمى غايه لأنه تعالى أسرع الحسابين، و لو لا تحقق قضاء سابق لأخذهم بسيئات أعمالهم و وبال آثامهم، كما قال: وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِّبَ بَيْنَهُمْ (الشورى ١٤) و القضاء السابق هو الذى يشتمل عليه قوله تعالى فى قصه هبوط آدم عليه السلام: وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (الأعراف ٢٤).

فالمعنى أن الله يتوفاكم بالليل و الحال أنه يعلم ما كسبتم فى النهار من السيئات و غيرها لكن لا يمسك أرواحكم ليديم عليها الموت بل يبعثكم فى النهار بعد التوفى لتقضى آجالكم المسماه ثم

إليه مرجعكم بنزول الموت و الحشر فينبئكم بما كنتم تعملون.

قوله تعالى: وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ قد تقدم الكلام فيه في تفسير الآية (١٧) من السوره.

قوله تعالى: وَيُزِيلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةَ السَّخْرِ؛ اطلاق إرسال الحفظه من غير تقييد لا فى الإرسال و لا فى الحفظه ثم جعله مغنياً بمجىء الموت لا- يخلو عن دلالة على أن هؤلاء الحفظه المرسلين شأنهم حفظ الإنسان من كل بليه تتوجه إليه و مصيبه تتوخاه، و آفه تقصده فإن النشأه التى نحن فيها نشأه التفاعل و التضاحم، ما فيه من شىء إلا و هو مبتلى بمزاحمه غيره من شىء من جميع الجهات لان كلا من أجزاء هذا العالم الطبيعى بصدد الاستكمال و استزاده سهمه من الوجود، و لا يزيد فى شىء إلا و ينقص بنسبته من غيره فالاشياء دائماً فى حال التنازع و التغلب، و من أجزاء الإنسان الذى تركيب وجوده ألطف التراكيب الموجوده فيه و أدقها فيما نعلم فرقاؤه فى الوجود أكثر و أعداؤه فى الحياه أخطر فأرسل الله إليه من الملائكه حفظه تحفظه من طوارق الحدثان و عوادى البلايا و المصائب و لا يزالون يحفظونه من الهلاك حتى اذا جاء أجله خلوا بينه و بين البليه فأهلكته على ما فى الروايات.

و أما ما ذكره فى قوله: إِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (الانفطار / ١٢) فإنما يريد به الحفظه على الأعمال غير أن بعضهم أخذ الآيات مفسره لهذه الآيه، و الآيه و إن لم تأب هذا المعنى كل الإباء لكن قوله: «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ» الى آخر الآيه، كما تقدم يؤيد المعنى الأول.

و قوله: تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَ هُمْ لَا يُفْرَطُونَ الظاهر أن المراد من التفريط هو التساهل و التسامح فى إنفاذ الأمر الإلهى بالتوفى فإن الله سبحانه وصف ملائكته بأنهم يفعلون ما يؤمرون، و ذكر أن كل أمه رهن أجلهم فإذا جاء أجلهم لا- يستأخرون ساعه و لا يستقدمون فالملائكه المتصدون لأمر التوفى لا يقصرون عن الحد الواجب المحدود المكشوف

لهم من موت فلان في الساعه الفلانيه على الشرائط الكذائيه فهم لا يسامحون في توفى من أمروا بتوفيه و لا مقدار ذره فهم لا يفرطون.

و هل هذه الرسل هم الرسل المذكورون أولا حتى تكون الحفظه هم الموكلين على التوفى؟ الآيه ساكته عن ذلك إلا ما فيها من إشعار ضعيف بالوحده غير أن هؤلاء الرسل المأمورين بالتوفى كائنين من كانوا هم من أعوان ملك الموت لقوله تعالى: قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (السجده ١١).

و نسبه التوفى الى هؤلاء الرسل ثم الى ملك الموت في الآيه المحكيه آنفا ثم الى الله سبحانه في قوله: اللَّهُ يَتَوَفَّى النَّفْسَ (الزمر ٤٢) من قبيل التفنن في مراتب النسب فالله سبحانه ينتهي إليه كل أمر و هو المالك المتصرف على الإطلاق، و ملك الموت التوسل الى ما يفعله من قبض الأرواح بأعوانه الذين هم أسباب الفعل و وسائله و أدواته كالخط الذي يخطه القلم و ورائه اليد و وراءهما الإنسان الكاتب.

قوله تعالى: ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ إشارة الى رجوعهم الى الله سبحانه بالبعث بعد الموت، و توصيفه تعالى بأنه مولاهم الحق للدلاله على عله جميع ما تقدم من تصرفاته تعالى بالإينامه و الإيقاظ و التدبير و الإماتة و البعث، و فيه تحليل لمعنى المولى ثم إثبات حق المولويه له تعالى، فالمولى هو الذى يملك الرقبه فيكون من حقه جواز التصرف فيها كيفما شاء، و اذا كان له تعالى حقيقه الملك، و كان هو المتصرف بالإيجاد و التدبير و الإرجاع فهو المولى الحق الذى يثبت له معنى المولويه ثبوتا لا زوال له بوجه البتة.

و الحق من أسماء الله الحسنی لثبوته تعالى بذاته و صفاته ثبوتا لا يقبل الزوال و يمتنع عن التغير و الانتقال و الضمير فى «رُدُّوا» راجع الى الآحاد الذى يومئ إليه سابق الكلام من قوله: «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ» فإن حكم الموت يعم كل واحد و يجتمع به آحادهم نفس

الجماعه، و من هنا يظهر أن قوله: «ثُمَّ رُدُّوا» ليس من قبيل الالتفات من الخطاب السابق الى الغيبه.

قوله تعالى: «أَلَا لَهُ الْحُكْمُ الْخَالِقُ»؛ لما بيّن تعالى اختصاصه بمفتاح الغيب و علمه بالكتاب المبين الذى فيه كل شىء، و تدبيره للأمر خلقه من لدن وجدوا الى أن يرجعوا إليه تبين أن الحكم إليه لا الى غيره، و هو الذى ذكره فيما مر من قوله: «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» أعلن نتيجته بيانه فقال «أَلَا لَهُ الْحُكْمُ» ليكون منبها لهم مما غفلوا عنه.

و كذلك قوله: «وَهُوَ أَسْرِعُ الْحَاسِبِينَ» نتيجته أخرى لسابق البيان فإنه تبين به أنه تعالى لا يؤخر حساب أعمال الناس عن الوقت الصالح له، و إنما يتأخر ما يتأخر ليدرك الأجل الذى أجل له.

قوله تعالى: «قُلْ مَن يَنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ تَدْعُونَهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ»؛ كأن المراد بالتنجيه من ظلمات البر و البحر هو التخليص من الشدائد التى يبتلى بها الإنسان فى خلال الأسفار اذا ضرب فى الأرض أو ركب البحر كالبرد الشديد و الأمطار و الثلوج و قطاع الطريق و الطوفان و نحو ذلك، و أشق ما يكون ذلك على الإنسان فى الظلمات من ليل أو سحاب أو ريح تثير عجاج الأرض فيزيد فى اضطراب الإنسان و حيرته و ضلاله طريق الاحتيال لدفعه، و لذلك علق التنجيه على الظلمات، و كان أصل المعنى الاستفهام عن من ينجى الإنسان من الشدائد التى يبتلى بها فى أسفاره فى البر و البحر فاضيفت الشدائد الى البر و البحر بعنايه الظرفيه ثم أضيفت الى ظلمات البر و البحر لأن للظلمات تأثيرا تاما فى تشديد هذه المكاره، ثم حذفت الشدائد و أقيمت الظلمات مقامها فعلمت بالتنجيه عليها فقيل:

ينجيكم من ظلمات البر و البحر.

و إنما خصت الظلمات بالذكر و إن كان المنجى من كل مكروه و غم هو الله سبحانه كما يذكره فى الآيه التاليه لأن أسفار البر و البحر معروف عند الإنسان بالعناء و الوعناء و الكريهه.

والتضرع إظهار الضراعة و هو الذل و الخضوع على ما ذكره الراغب، و لذلك قوبل بالخفيه و هو الخفاء و الاستتار فالتضرع و الخفيه فى الدعاء هما الإعلان و الإسرار فيه، و الإنسان اذا نزلت به المصيبة يبتدىء فيدعو للنجاه بالإسرار و المناجاة ثم اذا اشتدت به و لاح بعض آثار اليأس و الانقطاع من الأسباب لا يبالي بمن حوله ممن يطلع على ذلته و استكاثته فيدعو بالتضرع و المناداه ففى ذكر التضرع و الخفيه إشاره الى أنه تعالى هو المنجى من مصائب البر و البحر شديدها و يسيرتها.

و فى قوله: لَيْسَ أَتَجَانًا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ إشاره الى أن الإنسان يضيف فى هذه الحاله التى يدعو لكشفها الى دعائه عهدا يقدمه الى ربه و وعدا يعده به أن لو كشف الله عنه ليكونن من الشاكرين و يرجع عن سابق كفره.

و أصل هذه العده مأخوذ من العاده الجاربه بين أفراد الإنسان بعضهم مع بعض فإن الواحد منا اذا أعيته المذاهب و أحاطت به البليه من مصيبه قاصمه أو فقر أو عدو و استغاث لكشف ما به من كرب الى أحد الأقوياء القادرين على كشفه بزعمه و عده بما يطيب به نفسه و يقوى باعث عزمته و فتوته، و ذلك بثناء جميل أو مال أو طاعه أو وفاء كل ذلك لما أن الأعمال الاجتماعيه التى تدور بيننا كلها معاملات قائمه بطرفين يعطى فيها الإنسان شيئاً و يأخذ شيئاً لأن الحاجه محيطه بالإنسان ليس له أن يعمل عملاً أو يؤثر أثراً إلا لنفع عائد الى نفسه، و مثله سائر أجزاء الكون.

لكن الله سبحانه أكرم ساحه أن تمسه حاجه أو يطرأ عليه منقصه لا يفعل فعلاً إلا ليعود نفعه الى غيره من خليقته فوجه التوحيد فى مقابله الإنسان له بوعده الشكر و الطاعه فى دعائه الفطرى هو أن الإنسان اذا نزلت به النازله، و انقطعت عنه الأسباب و غابت عن مسرح نظره وسائل الخلاص وجد أن الله سبحانه هو السبب الوحيد الذى يقدر على كشف ما به من غم، و أنه الذى يدبر أمره منذ خلقه و يدبر أمر كل سبب فوجد نفسه ظالماً مفرطاً فى جنب الله

سبحانه لا يستحق كشف الغم و رفع الحاجه من قبله تعالى لما كسبت يده من السيئات، و حملت نفسه من وبال الخطيئه فعندئذ يعد ربه الشكر و الطاعه ليصحح ذلك استحقاقه لاستجابته دعائه و كشف ضره.

و لذلك نجده أنه اذا نجى مما نزل به النائبه ذهب لوجهه ناسيا لما عهد به ربه و وعده من الشكر كما قال تعالى فى ذيل الآيه التاليه: «ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ» .

قوله تعالى: قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا[□] وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ[□] ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ قال الراغب فى مفرداته:الكرب الغم الشديد،قال تعالى: وَ نَجِّينَاهُ[□] وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ و الكربه كالغمه،و أصل ذلك من كرب الأرض بسكون الراء و هو قلبها بالحفر فالغم يثير النفس إثارة ذلك و قيل فى مثل:الكراب على البقر و ليس ذلك من قولهم:الكلاب على البقر، فى شىء،و يجوز أن يكون الكرب من كربت الشمس اذا دنت للمغيب،و قوله:إناء كربان أى قريب نحو قربان أى قريب من الملاء،أو من الكرب(بفتحتين)و هو عقد غليظ فى رشا الدلو، و قد يوصف الغم بأنه عقد على القلب يقال:أكربت الدلو،انتهى.

و قد أضيف فى هذه الآيه كل كرب الى ظلمات البر و البحر ليعم الجميع فإن إنسانا ما لا يخلو فى مدى حياته من شىء من الكروب و الغموم فالمسأله و الدعاء عام فيهم سواء أعلنوا به أو أسروا.

فملخص المراد بالآيه أنكم فى الشدائد النازله بكم فى ظلمات البر و البحر و غيرها اذا انقطعتم عن الأسباب الظاهره و أعيت بكم الحيل تشاهدون بالرجوع الى فطرتكم الإنسانيه أن الله سبحانه هو ربكم لا رب سواه و تجزمون أن عبادتكم لغيره ظلم و إثم و الشاهد على ذلك أنكم تدعون حيث تدعون حيث تضرعا و خفيه،و تعدونه أن تشكروه بعد ذلك و لا تكفروا به إن أنجاكم لكنكم بعد الإنجا تنقضون ميثاقكم الذى واثقتموه به و تستمرون على سابق كفركم، ففى الآيتين احتجاج على المشركين و توبيخ لهم على حنث اليمين و خلف الوعد.

قوله تعالى: قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ قال الراغب في المفردات: أصل البعث اثاره الشيء و توجيهه يقال:بعثته فانبعث، و يختلف البعث بحسب اختلاف ما علق به فبعثت البعير أثرته و سيرته، و قوله عزّ و جل:

وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ أَي يَخْرِجُهُمْ وَيَسِيرُهُمْ إِلَى الْقِيَامَةِ- إلى ان قال-فالبعث ضربان:بشرى كبعث البعير و بعث الانسان فى حاجه، و الهى و ذلك ضربان:أحدهما:ايجاد الاعيان و الاجناس و الانواع عن ليس و ذلك يختص به البارى تعالى و لم يقدر عليه احدا، و الثانى إحياء الموتى و قد خص بذلك بعض أوليائه كعيسى عليه السّلام و أمثاله،انتهى.

و بالجمله فى لفظه شىء من معنى الإقامه و الإنهاض، و بهذه العناية يستعمل فى التوجيه و الإرسال لأن التوجيه الى حاجه و الإرسال نحو قوم يكون بعد سكون و خمود غالباً، و على هذا فبعث العذاب لا يخلو من إشعار على أنه عذاب من شأنه أن يتوجه إليهم و يقع بهم، و إنما يمنع عن هذا الاقتضاء مانع كالإيمان و الطاعه، و للكلام تتمه سنوافيك.

و قال فى المجمع:لبست عليهم الأمر ألبسه اذا لم أبينه و خلطت بعضه ببعض و لبست الثوب ألبسه، و اللبس اختلاط الأمر و اختلاط الكلام، و لابست الأمر خالطته، و الشيع الفرق، و كل فرقه شيعه على حده، و شيعه فلان تبعته، و التشيع الاتباع على وجه التدين و الولاء،انتهى.

و على هذا فالمراد بقوله: «أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا» أن يضرب البعض البعض و يخلط حال كونهم شيعا و فرقا مختلفه.

فقوله: قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ظاهره إثبات القدره لله سبحانه على بعث العذاب عليهم من فوق أو من تحت، و القدره على الشىء لا تستلزم فعله، و هو أعنى إثبات القدره على الفعل الذى هو العذاب كاف فى الإخافه و الإنذار لكن المقام يعطى أن المراد ليس هو إثبات مجرد القدره بل لهم استحقاق لمثل هذا العذاب، و فى العذاب اقتضاء أن ينبعث عليهم إن لم يجتمعوا على الإيمان بالله

و آياته كما مر من استفادته ذلك من معنى البعث، و يؤيده قوله بعد: «لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ» فإنه تهديد صريح.

على أنه تعالى يهدد هذه الامه صريحا بالعذاب فى موارد مشابهه لهذه المورد من كلامه كقوله تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُومَهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ - الى أن قال- وَ يَسِّرْ تَنْبُوذَكَ أَحَقُّ هُوَ قَوْلُ إِي وَ رَبِّى إِنَّهُ لَحَقُّ وَ مِمَّا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ الْآيَاتِ (يونس ٤٧-٥٣) و قوله: إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُونِ، وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ الى آخر الآيات (الأنبياء ٩٣-٩٧) و قوله تعالى: فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً - الى أن قال- وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيْعاً الى آخر الآيات (الروم ٣٠-٤٥).

قوله تعالى: أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعاً وَ يُدِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ظاهره أنه أريد به التحزبات التى نشأت بعد النبى صلى الله عليه و آله و سلم، فأدى ذلك الى حدوث مذاهب متنوعه ألبست لباس العصبية و الحمية الجاهلية و استتبع حروبا و مقاتل يستبيح كل فريق من غيره كل حرمة و يطرده بمزعمته من حرمة الدين و بيضه الإسلام.

و على هذا فقوله: «أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعاً وَ يُدِيقَ» الخ؛ عذاب واحد لا عذابان و إن أمكن بوجه عد كل من إلقاء التفرق فى الكلمة و إذاقه البعض بأس بعض عذابا مستقلا برأسه فللتفرقه بين الامه أثر سوء آخر و هو طرؤ الضعف و نفاذ القوه و تبعض القدره لكن المأخوذ فى الآيه المعدود عذابا أعنى قوله: «وَ يُدِيقَ بَعْضَكُمْ» الخ؛ حينئذ بالنسبه الى مجرد إلقاء الاختلاف بمنزله المقيد بالنسبه الى المطلق، و لا يحسن مقابله المطلق بالمقيد إلا بعنايه زائده فى الكلام، على أن العطف بواو الجمع يؤيد ما ذكرناه.

فبالجملة معنى الآية: قل يا رسول الله مخاطبا لهم منذرا لهم عاقبه استنكافهم عن الاجتماع تحت لواء التوحيد و استماع دعوه الحق إن لشأنكم هذا عاقبه سيئه فى قدره الله سبحانه أن

يأخذكم بها و هو أن يبعث عليكم عذبا لا مفر لكم منه و لا ملاذ تلوذون به و هو العذاب من فوقكم أو من تحت أرجلكم، أو أن يضرب بعضكم ببعض فتكونوا شيعا و فرقا مختلفين متنازعين و متحاربين فيذيق بعضكم بأس بعض، ثم تمم البيان بقوله خطابا لنبية: انظر كيف نصرّف الآيات لعلهم يفقهون، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَ كَذَّبَ بِهٖ قَوْمُكَ وَ هُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ قوم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم هم قريش أو مضر أو عامه العرب و المستفاد من فحوى بعض كلامه تعالى في موارد آخر ان المراد بقومه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم هم العرب كقوله: وَ لَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ، فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهٖ مُؤْمِنِينَ، كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ، لَا يُؤْمِنُونَ بِهٖ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ، فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (الشعراء ٢٠٢/٢) و قوله: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ (إبراهيم ٤/٤).

و كيف كان فقوله: «وَ كَذَّبَ بِهٖ قَوْمُكَ وَ هُوَ الْحَقُّ» بمنزله التمهيد لتحقيق النبأ الذي يتضمنه الإنذار السابق كأن قيل: يا أيها الامه اجتمعوا في توحيد ربكم و اتفقوا في اتباع كلمه الحق و إلا هلا مؤمن يؤمنكم عذبا يأتيكم من فوق أو من تحت أو من اختلاف و تحزب يستتبع سيفا و سوطا من بعضكم على بعض، ثم خوطب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم فقيل: إن قومك كذبوا بذلك فليستعدوا لعذاب بيئس أو بأس شديد يذوقونه.

قوله تعالى: وَ إِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَيْثُ غَيْرِهِ ذَكَرَ الرَّاغِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ أَنَّ الْخَوْضَ هُوَ الشَّرُوعُ فِي الْمَاءِ وَ الْمَرُورُ فِيهِ، وَ يَسْتَعَارُ فِي الْأُمُورِ، وَ أَكْثَرُ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ وَرَدَ فِيهَا يَذْمُ الشَّرُوعَ فِيهِ، أَنْتَهَى.

و هو الدخول في باطل الحديث و التوغل فيه كذكر الآيات الحقه و الاستهزاء بها و الإطاله في ذلك.

و المراد بالإعراض عدم مشاركتهم فيما يخوضون فيه كالقيام عنهم و الخروج من بينهم أو ما

يشابه ذلك مما يتحقق به عدم المشاركة، وتقييد النهي بقوله: «حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ» للدلالة على أن المنهى عنه ليس مطلق مجالستهم و القعود معهم، و لو كان لغرض حق، و إنما المنهى عنه مجالستهم ما داموا مشتغلين بالخوض في آيات الله سبحانه.

و من هنا يظهر أن في الكلام نوعاً من إيجاز الحذف فإن تقدير الكلام: و إذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا يخوضون فيها فأعرض عنهم، الخ؛ فحذفت الجملة المماثلة للصلة استغناء بها عنها، و المعنى -و الله أعلم- و إذا رأيت أهل الخوض و الاستهزاء بآيات الله يجرون على خوضهم و استهزائهم بالآيات الإلهية فأعرض عنهم و لا تدخل في حلقهم حتى يخوضوا في حديث غيره فإذا دخلوا في حديث غيره فلا مانع يمنعك من مجالستهم، و الكلام و إن وقع في سياق الاحتجاج على المشركين لكن ما أشير إليه من الملا-ك يعممه فيشمل غيرهم كما يشملهم، و قد وقع في آخر الآية قوله: «فَلَا تَقْعُدُوا بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» فالخوض في آيات الله ظلم و الآية إنما نهت عن مشاركة الظالمين في ظلمهم، و قد ورد في مورد آخر من كلامه تعالى: إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ (النساء ١٤٠).

فقد تبين: أن الآية لا تأمر بالإعراض عن الخائضين في آيات الله تعالى بل إنما تأمر بالإعراض عنهم إذا كانوا يخوضون في آيات الله ما داموا مشتغلين به.

و الضمير في قوله: «غَيْرِهِ» راجع الى الحديث الذي يخاض فيه في آيات الله باعتبار أنه خوض و قد نهى عن الخوض في الآية.

قوله تعالى: وَ إِمَّا يُنَسِّبَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ و «ما» في قوله: «إِمَّا يُنَسِّبَنَّكَ» زائد يفيد نوعاً من التأكيد أو التقليل، و النون للتأكيد. و الأصل و إن ينسك، و الكلام في مقام التأكيد و التشديد للنهي أى حتى لو غفلت عن نهينا بما أنساكه الشيطان ثم ذكرت فلا تهاون في القيام عنهم و لا تلبث دون أن تقوم عنهم فإن الذين يتقون ليس لهم أى مشاركة للخائضين اللاعبين بآيات الله المستهزئين بها.

و الخطاب فى الآيه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم و المقصود غيره من الامه فقد تقدم فى البحث عن عصمه الأنبياء عليهم السلام ما ينفى وقوع هذا النوع من النسيان- و هو نسيان حكم إلهى و مخالفته عملاً بحيث يمكن الاحتجاج بفعله على غيره و التمسك به نفسه- عنهم عليهم السلام.

و يؤيد ذلك عطف الكلام فى الآيه التاليه الى المتقين من الامه حيث يقول: «وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ» الى آخر الآيه.

و أوضح منها دلالة قوله تعالى فى سورة النساء: «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (النساء ١٤٠)» فإن المراد فى الآيه و هى مدنيه بالحكم الذى نزل فى الكتاب هو ما فى هذه الآيه من سورة الأنعام و هى مكيه و لا آيه غيرها، و هى تذكر أن الحكم النازل سابقاً ووجه به الى المؤمنين، و لازمه أن يكون الخطاب الذى فى قوله: «وَ إِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا» الخ؛ موجهاً الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم و المقصود به غيره على حد قولهم: إياك أعنى و اسمعى يا جاره.

قوله تعالى: «وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ» الى آخر الآيه؛ يريد أن الذى يكتسبه هؤلاء الخائضون من الإثم لا يحمل الى على أنفسهم و لا يتعداهم الى غيرهم إلا أن يماثلوهم و يشاركوهم فى العمل أو يرضوا بعملهم فلا يحاسب بعمل إلا عامله و لكن نذكرهم ذكر لعلم يتقون، فإن الإنسان اذا حضر مجلسهم و إن أمكنه أن لا يجاريهم فيما يخوضون و لا يرضى بقلبه بعملهم و أمكن أن لا يعد حضوره عندهم إعانه لهم على ظلمهم تأييداً لهم فى قولهم لكن مشاهده الخلاف و معاينه المعصيه تهون أمر المعصيه عند النفس و تصغر الخطيئه فى عين المشاهد المعاین، و اذا هان أمرها أو شك أن يقع الإنسان فيها فإن للنفس فى كل معصيه هوى و من الواجب على المتقى بما عنده من التقوى و الورع عن محارم الله أن يجتنب مخالطه أهل الهتك و الاجترار على الله كما يجب على المبتلين بذلك الخائضين فى

آيات الله لئلا تهون عليه الجراه على الله و آياته فتقر به ذلك من المعصيه فيشرف على الهلكه، و من يحم حول الحمى أوشك أن يقع فيه.

قوله تعالى: وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَ لَهْوًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قال الراغب:

البسل ضم الشيء و منعه و لتضمنه لمعنى الضم استعير لتقطيب الوجه فقيل: هو باسل و مبتسل الوجه، و لتضمنه لمعنى المنع قيل للمحرم و المرتهن بسل، و قوله تعالى: وَ ذَكَرْ بِهِ أَنْ تُبْسِلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ، أى تحرّم الثواب، و الفرق بين الحرام و البسل أن الحرام عام فيما كان ممنوعاً منه بالحكم و القهر، و البسل هو الممنوع منه بالقهر قال عزّ و جل: «أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا» أى حرّموا الثواب، انتهى.

و قال فى المجمع: يقال: أبسلته بجريرته أى أسلمته، و المستبسل المستسلم الذى يعلم أنه لا يقدر على التخلص - إلى أن قال - قال الأخفش: تبسل أى تجازى، و قيل: تبسل أى ترهن و المعانى متقاربه، انتهى.

و المعنى «و اترك الذين اتخذوا دينهم لعباً و لهواً» عدّ تدينهم بما يدعوهم إليه هو أنفسهم لعباً و تلهيها بدينهم، و فيه فرض دين حق لهم و هو الذى دعتهم إليه فطرتهم فكان يجب عليهم أن يأخذوا به أخذ جد و يتحرزوا به عن الخلط و التحريف و لكنه اتخذوه لعباً و لهواً يقلبونه كيف شاءوا من حال إلى حال و يحولونه حسب ما يأمرهم به هوى أنفسهم من صورته إلى صورته.

ثم عطف على اتخاذهم الدين لعباً و لهواً قوله: «وَ عَزَّ تَهُمُ الْحَيَاءُ الدُّنْيَا» لما بينهما من الملازمه لأن الاسترسال فى التمتع من لذائذ الحياه الماديه و الجد فى اقتنائها يوجب الإعراض عن الجد فى الدين الحق و الهزل و اللعب به.

ثم قال: و ذكر به أى بالقرآن حذراً من أن تبسل أى تمنع نفس بسبب ما كسبت من السيئات أو تسلم نفس مع ما كسبت للمؤاخذة و العقاب، و تلك نفس ليس لها من دون الله

ولى ولا شفيع وإن تعدل كل عدل و تفد كل فديه لا يؤخذ منها لأن اليوم يوم الجزاء بالأعمال لا يوم البيع و الشرى اولئك الذين أبلوا و منعوا من ثواب الله أو أسلموا لعقابه لهم شراب من حميم و عذاب أليم بما كانوا يكفرون.

قوله تعالى: قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَ لَا يَنْفَعُنَا وَ لَا يَضُرُّنَا احتجاج على المشركين بنحو الاستفهام الإنكارى، وإنما ذكر من أوصاف شركائهم كونها لا تنفع و لا تضر لأن اتخاذ الآلهة- كما تقدم- كان مبنيًا على أحد الأساسين: الرجاء و الخوف و اذ كانت الشركاء لا تنفع و لا تضر فلا موجب لدعائها و عبادتها و التقرب منها.

قوله تعالى: وَ نَزَدْنَا عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعِيدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ -الى قوله- ائْتِنَا الاستهواء طلب الهوى و السقوط، و الرد على الأعقاب كناية عن الضلال و ترك الهدى فإن لازم الهداية الحقه الوقوع فى مستقيم الصراط و الشروع فى السير فيه فالارتداد على الأعقاب ترك السير فى الصراط و العود الى ما خلف من المسير و هو الضلال، و لذا قال: و نرد على أعقابنا بعد اذ هداانا الله فقيه الرد بكونه بعد الهداية الإلهيه.

و قوله: كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ الخ؛ تمثيل مثل به حال الانسان المتحير الذى لم يؤت بصيره فى أمره و عزيمه راسخه على سعادته فترك أحسن طريق و أقومه الى مقصده، و قد ركب قبله أصحاب له مهتدون به و بقى متحيرا بين شياطين يدعونه الى الردى و الهلاك، و أصحاب له مهتدين قد نزلوا فى منازلهم أو أشرفوا على الوصول يدعونه الى الهدى أن اثنتا فلا يدري ما يفعل و هو بين مهبط و مستوى؟.

قوله تعالى: قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ أى إن كان الأمر بين دوائر دعوه الله سبحانه و هى التى توافق الفطره و تسميه الفطره هدى الله، و بين دعوه الشياطين و هى التى فيها الهوى و اتخاذ الدين لعبا و لهوا فهدى الله هو الهدى الحقيقى دون غيره.

أما أن ما يوافق دعوه الفطره هو هدى الله فلا شك يعتريه لأن حق الهداية هو الذى ينطق

به الصنع والإيجاد الذى ليس إلا لله ولا نروم شيئا من دين أو اعتقاد إلا لابتغاء مطابقه الواقع و الواقع لله فلا يعدوه هدايه، و أما أن هدى الله هو الهدى الحقيقى الذى يجب أن يؤخذ به دون الدعوه الشيطانيه فظاهر أيضا لأن الله سبحانه هو الذى إليه أمرنا كله من جهه مبدئنا و منتهانا و ما نحتاج إليه فى دنيا أو آخره.

و قوله: **وَ أَمْرُنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** قال فى المجمع: تقول العرب: أمرتك لتفعل و أمرتك أن تفعل و أمرتك بان تفعل فمن قال: أمرتك بأن تفعل فالباء للإلصاق و المعنى وقع الأمر بهذا الفعل، و من قال: أمرتك أن تفعل حذف الجار، و من قال: أمرتك لتفعل فالمعنى أمرتك للفعل، و قال الزجاج: التقدير أمرنا كى نسلم.

و الجملة أعنى قوله: **«وَ أَمْرُنَا لِنُسَلِّمَ»** الخ؛ عطف تفسير لقوله: **«إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى»** فالأمر بالإسلام هو مصداق لهدى الله، و المعنى: أمرنا الله لنسلم له و إنما أبهم فاعل الفعل ليكون تمهيدا لوضع قوله: **«لِرَبِّ الْعَالَمِينَ»** موضع الضمير فيدل به على عله الأمر فالمعنى أمرنا من ناحيه الغيب أن نسلم لله لأنه رب العالمين جميعا ليس لها جميعا أو لكل بعض منها- كما تزعمه الوثنيه- رب آخر و لا أرباب آخر.

و ظاهر الآيه أن المراد بالإسلام هو تسليم عامه الامور إليه تعالى لا مجرد التشهد بالشهادتين، و هو ظاهر قوله: **«إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ»** (آل عمران ١٩) كما مر فى تفسير الآيه.

قوله تعالى: **«وَ أَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ اتَّقَوْهُ تَفَنَّنَ فِي سَرْدِ الْكَلَامِ بِأَخْذِ الْأَمْرِ بِمَعْنَى الْقَوْلِ وَ الْجَرَى فِي مَجْرَى هَذِهِ الْعِنَايَةِ كَأَنَّهُ قِيلَ: وَ قِيلَ لَنَا: أَنْ أَسْلَمُوا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَ أَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ اتَّقَوْهُ.»**

و قد أجمل تفاصيل الأعمال الدينيه ثانيا فى قوله: **«وَ اتَّقَوْهُ»** غير أنه صرح من بينها باسم الصلاه تعظيما لأمرها و اعتناء بشأنها و اهتمام القرآن الشريف بأمر الصلاه ظاهر لا شك فيه.

قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ فمن الواجب أن يسلم له و يتقى لأن الرجوع إليه، والحساب و الجزاء بيده.

قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ الى آخر الآيه؛ بضعه أسماء و أوصاف له سبحانه مذكوره أريد بذكرها بيان ما تقدم من القول و تعليله فإنه تعالى ذكر أن الهدى هداه ثم فسره نوع تفسير بالإسلام له و الصلاه و التقوى و هو تمام الدين ثم بين السبب فى كون هداه هو الهدى الذى لا يجوز التجافى عنه و هو أن حشر الجميع إليه ثم بينه أتم بيان بقوله: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ» الخ؛ فهذه أسماء و نعوت له تعالى لو انتفى واحد منها لم يتم البيان.

فقوله هُوَ الَّذِي خَلَقَ الخ؛ يريد به أن الخلقه جميعا فعله و إنما أتى به بالحق لا بالباطل، و الفعل اذا لم يكن باطلا لم يكن مندوحه من ثبوت الغايه له فلخلقه غايه و هو الرجوع إليه تعالى و هذا هو إحدى الحججتين اللتين ذكرهما فى قوله عز من قائل: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ (ص ٢٧) فخلقه السماوات و الأرض بخلقه حقه تؤدى الى أن الخلق يحشرون إليه.

و قوله: وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ السياق يدل على أن المراد بالمقول له هو يوم الحشر و إن كان كل موجود مخلوق على هذه الصفه كما قال تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس ٨٢) و يوم ظرف متعلق بالقول و المعنى: يوم يقول ليوم القيامة:

كن فيكون، و ربما قيل: إن المقول له هو الشئ و التقدير: يوم يقول لشئء كن فيكون، و ما ذكرناه أوفق للسياق.

و قوله: فَقَوْلُهُ الْحَقُّ تعليلا عللت به الجملة التى قبله، و الدليل عليه فصل الجملة، و الحق هو الثابت بحقيقه معنى الثبوت و هو الوجود الخارجى و الكون العينى و إذا كان قوله هو فعله و إيجاده كما يدل عليه قوله: وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ فقوله تعالى هو نفس الحق فلا

مردّ له ولا مبدل لكلماته قال تعالى: وَ الْحَقُّ أَقُولُ (ص ٨٤).

قوله تعالى: وَ لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ يريد به يوم القيامة قال تعالى:

يَوْمَ هُمْ بِبَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (المؤمن ١٦) والمراد بثبوت الملك له تعالى يوم النفخ مع أن له الملك دائما إنما هو ظهور ذلك بتقطع الأسباب و انبتات الروابط و الأنساب و قد تقدم شذور من البحث في ذلك فيما تقدم و سيجيء استيفاء البحث عنه و عن معنى الصور في الموضع المناسب لذلك إن شاء الله تعالى.

و قوله: عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ قد تقدم معناه، و هو اسم يتقوم بمعناه الحساب و الجزاء، و كذلك الاسمان: الحكيم و الخير فهو تعالى بعلمه بالغيب و الشهادة يعلم ظاهر الأشياء و باطنها فلا يخفى عليه ظاهر لظهوره و لا باطن لبطونه، و بحكمته يتقن تدبير الخليقة و يميز الواجب من الجزاء كما ينبغى فلا يظلم و لا يجازف، و بخبرته لا يفوت عنه دقيق لدقته و لا جليل لجلالته.

فهذه الأسماء و النعوت تبين بآتم البيان أن الجميع محشورون إليه و أن هداه هو الهدى و دين الفطره الذى أمر به هو الدين الحق فإنه تعالى خلق العالم لغايه مطلوبه أرادها منه و هو الرجوع إليه، و إذا كان يريد لها فسيقول لها كن فيكون لأن قوله حق لا مرد له، و يظهر اليوم أن الملك له لا سلطنه لشيء غيره على شيء، و عند ذلك يتميز بتمييزه من أطاعه ممن عصاه لأنه يعلم كل غيب و شهاده عن حكمه و خبره (١).

[سوره الأنعام (٦): الآيات ٧٤ الى ٨٣]

إشارة

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَضْيَانًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَ كَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ حَنِيفًا وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَ حَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَ تُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَ قَدْ هَدَانِ وَ لَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَ كَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَ لَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقِينَ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَ تِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)

ص: ٣٣٩

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ القراءات السبع في آزر بالفتح فيكون عطف بيان أو بدلا من أبيه و في بعض القراءات «آزر» بالضم و ظاهره أنه منادى مرفوع بالنداء، و التقدير: يا آزر أ اتخذ أصناما آلهه، و قد عد من القراءات «أ أزرأ اتخذ» مفتتحا بهمزه الاستفهام، و بعده «أزرا» بالنصب مصدر أزر يأزر بمعنى قوى و المعنى: و اذ قال إبراهيم لأبيه أ اتخذ أصناما للتقوى و الاعتضاد.

و قد اختلف المفسرون على القراءه الاولى المشهوره و الثانيه الشاذه في «آزر» أنه اسم علم لأبيه أو لقب أريد بمعناه المدح أو الذم بمعنى المعتضد أو بمعنى الأعرج أو المعوج أو غير ذلك و منشأ ذلك ما ورد في عدده روايات أن اسم أبيه «تارح» بالحاء المهمله أو المعجمه و يؤيده ما ضبطه التاريخ من اسم أبيه، و ما وقع في التوراه الموجوده أنه عليه السلام ابن تارح.

كما اختلفوا أن المراد بالأب هو الوالد أو العم أو الجد الامى أو الكبير المطاع و منشأ ذلك ايضا اختلاف الروايات فمنها ما يتضمن أنه كان والده و أن إبراهيم عليه السلام سيشفع له يوم القيامة و لكن لا- يشفع بل يمسخه الله ضبعا منتنا فيتبرأ منه إبراهيم، و منها ما يدل على أنه لم يكن والده، و أن والده كان موحدا غير مشرك، و ما يدل على أن آباء النبي صلى الله عليه و آله و سلم كانوا جميعا موحدين غير مشركين الى غير ذلك من الروايات، و قد اختلفت في سائر ما قص من أمر إبراهيم اختلافا عجيبا حتى اشتمل بعضها على نظائر ما ينسبه إليه العهد العتيق مما تنزهه عنه

قوله تعالى: أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ قال الراغب في المفردات: الصنم جثه متخذه من فضه أو نحاس أو خشب كانوا يعبدونها متقربين به الى الله تعالى و جمعه أصنام قال الله تعالى: أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً، لأكيدين أصنامكم، انتهى، و ما ذكره من اتخاذه من فضه أو نحاس أو خشب إنما هو من باب المثال لا ينحصر فيه اتخاذاها بل كان يتخذ من كل ما يمكن أن يمثل به تمثال من أقسام الفلزات و الحجاره و غيرها، و قد روى أن بنى حنيفه من اليمامه كانوا قد اتخذوا صنما من أقط، و ربما كانوا يتخذونه من الطين و ربما كان صوره مصوره.

و كيف كان فقد كانت الأصنام ربما يمثل بها موضوع اعتقادي غير محسوس كإله السماء و الأرض و إله العدل، و ربما يمثل بها موضوع محسوس كصنم الشمس و صنم القمر، و قد كانت من النوعين جميعا أصنام لقوم ابراهيم عليه السلام على ما تؤيده الآثار المكشوفه منهم في خرائب بابل و قد كانوا يعبدونها تقربا بها الى أربابها، و بأربابها الى الله سبحانه، و هذا انموذج بارز من سفه أحلام البشر أن يخضع أعلى حد الخضوع- و هو خضوع العبد للرب- لمثال مثل به موضوعا يستعظم أمره و يعظمه، و حقيقته منتهى درجه خضوع المصنوع المربوب لصانعه من صانع لمصنوع نفسه كان الواحد منهم يأخذ خشبه فينحت بيده منه صنما ثم ينصبه فيعبده و يتدلل له و يخضع و لذلك جىء بلفظه الأصنام في قوله المحكى: «أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً» نكره ليدل على هوان أمرها و حقارتها من جهه أنها مصنوعه لهم مخلوقه بأيديهم كما يشير إليه قوله عليه السلام لقومه فيما حكى الله: أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجُونَ (الصافات ٩٥) و من جهه أنها فاقده لأظهر صفات الربوبيه و هو العلم و القدره كما في قوله لابييه: إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا

يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (مريم ٤٢).

فقوله: «أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً» الخ؛ معناه: أ تتخذ أصناماً لا خطر في أمرها آلهه و الإله هو الذى فى أمره خطر عظيم إنى أراك و قومك فى ضلال مبين، و كيف لا يظهر هذا الضلال و هو عباده و تذلل عبودى من صانع فيه آثار العلم و القدره لمصنوعه الذى يفقد العلم و القدره.

و الذى تشتمل عليه الآيه أعنى قوله: «أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً» الخ؛ من الحجاج و إن كان بمنزله التلخيص لعدده احتجاجات واجه بها ابراهيم عليه السّلام أباه و قومه على ما حكى تفصيلها فى عدده مواضع من القرآن الكريم إلا أنه أول ما حاج به أباه و قومه فإن الذى حكاه الله سبحانه من محاجته هو حجاجه أباه و حجاجه قومه فى أمر الأصنام و حجاجهم فى ربوبيه الكوكب و القمر و الشمس و حجاجه الملك.

أما حجاجه فى ربوبيه الكوكب و القمر و الشمس فالآيات داله على كونه بعد الحجاج فى أمر الأصنام، و الاعتبار و التدبير يعطى أن يكون حجاجه الملك بعد ما ظهر أمره و شاع مخالفته لدين الوثنيه و الصابئه و كسر الأصنام، و أن يكون مبدأ أمره مخالفته أباه فى دينه و هو معه و عنده قبل أن يواجه الناس و يخالفهم فى نحلتهم فقد كان أول ما حاج به فى التوحيد هو ما حاج به أباه و قومه فى أمر الأصنام.

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلِكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الخ؛ ظاهر السياق أن تكون الإشاره بقوله: «كَذَلِكَ» الى ما تضمنته الآيه السابقه: «وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزرَ أ تَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنى أراك» الخ؛ أنه عليه السّلام ارى الحق فى ذلك، فالمعنى: على هذا المثل من الإراءه نرى ابراهيم ملك السماوات و الأرض.

و بمعونه هذه الإشاره و دلالة قوله فى الآيه التاليه: «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ» الداله على ارتباط ما بعده بما قبله يظهر أن قوله: «نُرَى» لحكاية الحال الماضيه كقوله تعالى: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ (القصص ٥).

فالمعنى: أننا أرينا إبراهيم ملكوت السماوات والأرض فبعثه ذلك أن حاج أباه وقومه في أمر الأصنام وكشف له ضلالهم، وكنا نمدّه بهذه العناية والموهبه وهى إراءه الملكوت وكان على هذه الحال حتى جنّ عليه الليل ورأى كوكبا.

وبذلك يظهر أن ما يتراءى من بعضهم: أن قوله: «وَكَذَلِكَ نُرى» الخ؛ كالمعتزضه لا يرتبط بما قبله ولا بما بعده، وكذا قول بعضهم: إن إراءه الملكوت أول ما ظهر من أمرها فى إبراهيم عليه السلام أنه لما جنّ عليه الليل رأى كوكبا، الخ؛ فاسد لا ينبغى أن يصار إليه.

وأما ملكوت السماوات والأرض فالملكوت هو الملك مصدر كالتاغوت والجبروت وإن كان أكد من حيث المعنى بالنسبه الى الملك كالتاغوت والجبروت بالنسبه الى الطغيان والجبر أو الجبران.

قوله تعالى: «وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤَقِّنِينَ اللام للتعليل، والجمله معطوفه على أخرى محذوفه والتقدير: ليكون كذا وكذا وليكون من الموقنين.

واليقين هو العلم الذى لا يشوبه شك بوجه من الوجوه، ولعل المراد به ان يكون على يقين بآيات الله على حد ما فى قوله: «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (السجده ٢٤)» وينتج ذلك اليقين بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا.

وفى معنى ذلك ما أنزله فى خصوص النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْآيَاتِنَا (الإسراء ١)» وقال: «مِمَّا زَاغَ الْبَصِيرُ وَمِمَّا طَغَى، لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (النجم ١٨)» وأما اليقين بذاته المتعاليه فالقرآن يجعله تعالى ان يتعلق به شك أو يحيط به علم وإنما يسلمه تسليما.

وقد ذكر فى كلامه تعالى من خواص العلم اليقيني بآياته تعالى انكشاف ما وراء ستر الحس من حقائق الكون على ما يشاء الله تعالى كما فى قوله: «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ، لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (التكاثر ٦)» وقوله: «كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلِّيْنِ، وَمَا أَذْرَاكَ مَا

عَلِيُونَ، كِتَابٌ مَرْقُومٌ، يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (المطففين ٢١).

قوله تعالى: فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قال الراغب في المفردات: أصل الجن (بفتح الجيم) ستر الشيء عن الحاسه يقال: جنه الليل و أجنه و جن عليه: فجنه ستره، و أجنه جعل له ما يجنه كقولك: قبرتة و أقبرته و سقيته و أسقيته، و جن عليه كذا ستر عليه قال عز و جل: فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا، انتهى.

فجن الليل إسداله الظلام لا مجرد ما يحصل بغروب الشمس.

و قوله: «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ» تفرّيع على ما تقدم من نفيه ألوهية الأصنام بما يرتبطان بقوله: «وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» و محصل المعنى على ذلك أننا كنا نريه الملكوت من الأشياء فأبطل الوهية الأصنام إذ ذاك، و دامت عليه الحال فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال كذا و كذا.

و قوله: رَأَى كَوْكَبًا كَانَ تَنْكِيرُ الْكَوْكَبِ إِنَّمَا هُوَ لِنَكْتِهِ رَاجِعُهُ إِلَى مَرَحَلَةِ الْإِخْبَارِ وَ التَّحَدُّثِ فَلَا غَرَضَ فِي الْكَلَامِ يَتَعَلَّقُ بِتَعْيِينِ هَذَا الْكَوْكَبِ وَ أَنَّهُ أَيْ كَوْكَبٌ كَانَ مِنَ السِّيَّارَاتِ أَوْ الثَّوَابِتِ لِأَنَّ الَّذِي أَخَذَهُ فِي الْحِجَاجِ يَجْرِي فِي أَيْ كَوْكَبٍ مِنَ الْكَوْكَبِ يَطْلُعُ وَ يَغْرُبُ لَا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَشَارَ إِلَى كَوْكَبٍ مَا مِنَ الْكَوْكَبِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمْتَازَ بِأَيِّ مُمَيِّزٍ مَفْرُوضٍ: أَمَا أَوَّلًا فَلَأَنَّ اللَّفْظَ لَا- يَسَاعِدُهُ فَلَا- يُقَالُ لِمَنْ أَشَارَ إِلَى كَوْكَبٍ بَيْنَ كَوْكَبٍ لَا تَحْصِي كَثْرَهُ فَقَالَ: هَذَا رَبِّي: إِنَّهُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي، وَ أَمَا ثَانِيًا فَلَأَنَّ ظَاهِرَ الْآيَاتِ أَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ قَوْمٌ يَعْبُدُونَ الْكَوْكَبَ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ وَ قَالَ فِيهِ مَا قَالَ، وَ الصَّابِثُونَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ أَيْ كَوْكَبٍ وَ لَا يَحْتَرِمُونَ إِلَّا السِّيَّارَاتِ.

و قوله تعالى: قَالَ هَذَا رَبِّي الْمَرَادُ بِالرَّبِّ هُوَ مَالِكُ الْأَشْيَاءِ الْمَرْبُوبِينَ، الْمَدْبُورَ لِأَمْرِهِمْ لَا الَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ أَوْجَدَ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَ مَا لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا فَإِنَّهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ الَّذِي لَيْسَ بِجِسْمٍ وَ لَا جِسْمَانِيٍّ وَ لَا يَحْوِيهِ مَكَانٌ وَ لَا يَقَعُ عَلَيْهِ إِشَارَةٌ، وَ الَّذِي يَظْهَرُ مِمَّا

حكى من كلام إبراهيم مع قومه فى أمر الأصنام ظهوراً لا- شك فيه أنه كان على بينه من ربه و له من العلم بالله و آياته ما لا يخفى عليه معه أن الله سبحانه أنزه ساحه من التجسم و التمثل و المحدوديه، قال تعالى حكاية عنه فى محاوره له مع أبيه: يَا أَبَتِ إِنَّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنى أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً الى آخر الآيات (مريم ٤٣).

قوله تعالى: فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْعَافِلِينَ الأفول الغروب و فيه إبطال ربوبيه الكوكب بعروض صفه الافول له فإن الكوكب الغارب ينقطع بغروبه ممن طلع عليه و لا يستقيم تدبير كوني مع الانقطاع.

على ان الربوبيه و المربوبيه بارتباط حقيقى بين الرب و المربوب و هو يؤدى الى حب المربوب لربه لإنجذابه التكويني إليه و تبعيته له، و لا- معنى لحب ما يفنى و يتغير عن جماله الذى كان الحب لأجله، و ما يشاهد من ان الانسان يحب كثيرا الجمال المعجل و الزينه الدائره فإنما هو لاستغراقه فيه من غير ان يلتفت الى فئائه و زواله فمن الواجب ان يكون الرب ثابت الوجود غير متغير الأحوال كهذه الزخارف المزوّقه التى تحيا و تموت و تثبت و تزول و تطلع و تغرب و تظهر و تخفى و تشب و تشيب و تنضر و تشين، و هذا وجه برهاني و ان كان ربما يتخيل انه بيان خطابى أو شعري فافهم ذلك.

و على أى حال فهو عليه السلام أبطل ربوبيه الكوكب بعروض الافول له إما بالتكنيه عن البطلان بأنه لا يحبه لأفوله لأن المربوبيه و العبوديه متقومه بالحب فليس يسع من لا يحب شيئاً أن يعبده و قد ورد فى المروى عن الصادق عليه السلام: «هل الدين إلا الحب»؟ و قد بينا ذلك فيما تقدم.

و إما لكون الحجه متقومه بعدم الحب و إنما ذكر الافول ليوجه به عدم حبه له المنافى للربوبيه لان الربوبيه و الالوهيه تلازمان المحبوبيه فما لا- يتعلق به الحب الغريزى الفطرى لفقدانه الجمال الباقى الثابت لا يستحق الربوبيه، و هذا الوجه هو الظاهر يتكئ عليه سياق الاحتجاج فى الآيه.

قوله تعالى: فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ البزوغ هو الطلوع تقدم الكلام في دلاله قوله: «فَلَمَّا رَأَى» الخ؛ على اتصال القضية بما قبلها، وقوله:

«هَذَا رَبِّي» على سبيل الافتراض أو المجازاة و المماشاه و التسليم نظير ما تقدم في الآيه السابقه.

و أما قوله بعد أفول القمر: لَيْتَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فهو موضوع وضع الكنايه فهو عليه السّلام أبطل ربوبيه الكوكب بما يعم كل غارب و لما غرب القمر ظهر عندئذ رأيه في أمر ربوبيته بما كان قد قاله قبل ذلك في الكوكب «لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ» فقوله: «لَيْتَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي» الخ؛ إشاره الى ان الوضع الذى ذكره فى القمر بقوله: «هَذَا رَبِّي» كان ضلالا لو دام و أصرّ عليه كان أحد اولئك الضالين القائلين بربوبيته و الوجه فى كونه ضلالا ما قاله فى الكوكب حيث عبّر بوصف لا يختص به بل يصدق فى مورده و كل مورد يشابهه.

قوله تعالى: فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ الْكَلَامِ فى دلاله اللفظ على الاتصال بما قبله لمكان قوله: «فَلَمَّا» و كون قوله: «هَذَا رَبِّي» مسوقا للافتراض أو التسليم كما تقدم فى الآيه السابقه.

و قد كان تكرر قوله: «هَذَا رَبِّي» فى القمر لما رآه بازغا بعد ما رأى الكوكب، و لذلك ضم قوله: «هَذَا أَكْبَرُ» الى قوله: «هَذَا رَبِّي» فى الشمس فى المره الثالثه ليكون بمنزله الاعتذار للعود الى فرض الربويه لها مع تبين خطاء افتراضه مره بعد مره.

و قد تقدمت الإشاره الى أن إشارته الى الشمس بلفظه «هَذَا» تشعر بأنه عليه السّلام ما كان يعرف من الشمس ما يعرفه أحدنا أنه جرم سماوى يطلع و يغرب بحسب ظاهر الحس فى كل يوم و ليله، و إليها تستند النهار و الليل و الفصول الأربعة السنويه الى غير ذلك من نعوتها.

فإن الإتيان فى الإشاره بلفظ المذكور هو الذى يستريح إليه من لا يميّز المشار إليه فى نوعه كما

تقول فيمن لا يح لك شبهه و أنت لا- تدرى أرجل أم امرأه: من هذا؟ ونظيره ما يقال في شبح لا يدرى أ من أولى العقل هو أولا- ما هذا؟ فلعله إنما كان ذلك من إبراهيم عليه السلام أول ما خرج من مختفى أخفى فيه الى أبيه و قومه، و لم يكن عهد مشاهد الدنيا الخارجه و المجتمع البشرى فرأى جرما هو كوكب و جرما هو القمر و جرما هو الشمس، و كلما شاهد واحدا منها- و لم يكن يشاهد إلا جرما مضيئا لامعا- قال: هذا ربي، على سبيل عدم المعرفة بحاله معرفه تامه كما سمعت.

و يؤيده بعض التأييد قوله: فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَإِنْ فِيهِ إِشْعَارًا بِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَكَثَ بَانِيًا عَلَى كَوْنِ الْكُوكَبِ رَبًّا حَتَّى شَاهَدَ غُرُوبَهُ فَحَكَمَ بِأَنَّ الْفِرْضَ بَاطِلٌ وَ أَنَّهُ لَيْسَ بِرَبِّ، وَ لَوْ كَانَ عَالِمًا بِأَنَّهُ سَيُغْرَبُ أَبْطَلَ رُبُوبِيَّتَهُ مَقَارِنًا لِفِرْضِ رُبُوبِيَّتِهِ كَمَا فَعَلَ ذَلِكَ فِي أَمْرِ الْأَصْنَامِ عَلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ لِأَبِيهِ: «أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» وَ قَوْلُهُ أَيْضًا: «يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَ لَا يُبْصِرُ وَ لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا» .

و إن أمكن أن يقال: إنه أراد بتأخير قوله: «لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ» الى أن يأفل ان يحاجهم بما وقع عليه الحس كما أراد بما فعل بالأصنام حيث جعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم أن يريهم عجز الأصنام و كونها أجسادا ميتة لا تدفع عن أنفسها الضر و الشر (1).

قوله تعالى: إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ذَكَرَ الرَّاغِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ: أَنَّ أَصْلَ الْفَطْرِ الشَّقُّ طَوْلًا يُقَالُ: فَطَرَ فُلَانٌ كَذَا فَطَرًا وَ أَفْطَرَ هُوَ فَطُورًا وَ انْفَطَرَ انْفِطَارًا قَالَ: هَلْ تَرَى مِنْ فَطُورِ أَى اخْتِلَالٍ وَ وَهِيَ فِيهِ، وَ ذَلِكَ قَدْ يَكُونُ عَلَى سَبِيلِ الْفَسَادِ، وَ قَدْ يَكُونُ عَلَى سَبِيلِ الصَّلَاحِ قَالَ: السَّمَاءُ مَنْفَطِرَةٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا.

ص: ٣٤٨

١ - ١). الانعام ٧٤-٨٣: بحث تفسيري في: تذكير الاشارة في قوله «هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ»؛ معنى قول ابراهيم عليه السلام «لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ»؛ احتجاج في رد عقايد المشركين.

و فطرت الشاه حلبتها بإصبعين، و فطرت العجين اذا عجنته فخبزته من وقته، و منه الفطره، و فطر الله الخلق و هو إيجاد الشىء و إبداعه على هيئته مترشحاً لفعل من الأفعال فقوله: فطره الله التى فطر الناس عليها إشاره منه تعالى الى ما فطر أى أبداع و ركز فى الناس من معرفته تعالى، و فطره الله هى ما ركز فيه من قوته على معرفه الإيمان و هو المشار إليه بقوله:

و لئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله، انتهى. و ذكر أيضاً: أن الحنف هو ميل عن الضلال الى الاستقامه و الجنف ميل عن الاستقامه الى الضلال قال: و سمّت العرب كل من حج أو اختتن حنيفاً تنبيهاً على أنه على دين إبراهيم عليه السلام و الأحنف من فى رجله ميل، قيل: سمي بذلك على التفاؤل و قيل: بل استعير للميل المجرد، انتهى.

لما تبرأ عليه السلام من شركهم و شركائهم بقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ﴾ الخ؛ و قد سلك إليه تدريجاً بإظهار عدم تعلق قلبه بالشريك حيث قال: لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ثم الإيمان الى كون عباده الشريك ضلالاً حيث قال: ﴿لَيْسَ لَكَ يَهْدِينِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ ثم التبرى الصريح من ذلك بقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ رجع الى توحيد التام فى الربوبية، و هو إثبات الربوبية و المعبودية للذى فطر السماوات و الأرض، و نفى الشرك عن نفسه فقال:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ .

فتوجيه الوجه كناية عن الإقبال الى الله سبحانه بالعباده فإن لازلزم العبودية و المربوبية أن يتعلق العبد المربوب بربه فى قوته و إرادته، و يدعوه و يرجع إليه فى جمع أعماله، و لا يكون دعاء و لا رجوع إلا بتوجيه الوجه و الإقبال إليه فكنتى بتوجيه الوجه عن العباده التى هى دعاء و رجوع.

و ذكر ربه و هو الله سبحانه الذى وجه وجهه إليه، بنعته الذى يخصه بلا نزاع فيه و هو فطر السماوات و الأرض، و جاء بالموصول و الصلته ليبدل على العهد فلا يشتبه الأمر على أحد منهم فقال: للذى فطر السماوات و الأرض أى إني أقبلت بعبادتي على من ينتهى إليه إيجاد كل شىء

و إبداعه، وهو الذى يشتهه و يشتهونه فوق الجميع.

ثم نفى غيره مما يدعونه شريكا بقوله: «حَنِيفًا» أى مائلا إليه عن غيره نافيا للشريك عنه، و أكده بقوله: «وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» فأفاد مجموع قوله: «إِنِّي وَجَّهْتُ» الخ؛ إثبات المعبودية لله تعالى و نفى الشريك عنه قريبا مما تفيده الكلمه الطيبه: لا إله إلا الله.

و اللام فى قوله: «لِلَّذِي» للغايه و تفيد معنى الی، و كثيرا ما تستعمل فى الغايه اللام كما تستعمل «الى» قال: أَسْلِمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ (البقره ١١٢/١) وَ مَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ (لقمان ٢٢/١).

و فى تخصيص فطر السماوات و الأرض من بين صفاته تعالى الخاصه و كذا من بين الألفاظ الداله على الخلقه كالبارى و الخالق و البديع إشاره الى ما يؤثره عليه السلام من دين الفطره و قد كرر توصيف هذا الدين فى القرآن الكريم بأنه دين ابراهيم الحنيف و دين الفطره أى الدين الذى بنيت معارفه و شرائعه على خلقه الإنسان و نوع وجوده الذى لا يقبل التبدل و التغير فإن الدين هو الطريقه المسلوكة التى يقصد بها الوصول الى السعاده الحقيقه و السعاده الحقيقه هى الغايه المطلوبه التى يطلبها الشىء حسب تركيب وجوده و تجهزه بوسائل الكمال طلبا خارجيا واقعيا، و حاشا أن يسعد الإنسان أو أى شىء آخر من الخلقه بأمر و لم يتهيأ بحسب خلقته له أو هيئ لخلافه كأن يسعد بترك التغذى أو النكاح أو ترك المعاشره و الاجتماع و قد جهز بخلافها، أو يسعد بالطيران كالطير أو بالحياه فى قعر البحار كالسمك و لم يجهز بما يوافق.

فالدين الحق هو الذى يوافق بنواميسه الفطره و حاشا ساحه الربوبيه أن يهدى الإنسان أو أى مخلوق آخر مكلف بالدين -إن كان- الى غايه سعيده مسعده و لا يوافق الخلقه أو لم يجهز بما يسلك به إليها فإنما الدين عند الله الإسلام و هو الخضوع لله بحسب ما يهدى إليه و يدل عليه صنعه و إيجاده.

قوله تعالى: وَ حَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَ تُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ. قَسَمَ تَعَالَى

حججه عليهم السّلام الى قسمين: أحدهما ما بدأ به هو فحاج الناس، و ثانيهما ما بدأ به الناس فكلموه به بعد ما تبرأ من آلهتهم، و هذا الذى تعرّض له فى الآيه و ما بعده هو القسم الثانى.

لم يذكر تعالى ما أوردوه عليه من الحججه لكنه لَوَح إليه بقوله حكاية عن إبراهيم عليه السّلام:

«وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ» فهو الاحتجاج لوجوب عباده آلهتهم من جهه الخوف و قد تقدم و سيجىء أن الذى بعثهم الى اتخاذ الآلهه و عبادتها أحد أمرين: الخوف من سخطها و قهرها بما لها من السلطه على حوادث العالم الأرضى، أو رجاء البركه و السعاده منها، و أشد الأمرين تأثيراً فى نفوسهم هو الأمر الأول أعنى الخوف و ذلك أن الناس بحسب الطباع يرون ما بأيديهم من النعمه و السعاده الماديه ملك أنفسهم إما مرهون جهدهم فى سلوك سبيل المعاش فى اقتناء الأموال و اكتساب المقام و الجاه أو مما ملّكهم إياه الجد الرفيع أو البخت السعيد كمن ورث مالا من مورّثه أو صادف كنزاً فتملّكه أو ساد قومه برئاسه أبيه.

فطريق الرجاء قليل التأثير فى وجوب العبوديه حتى أن المسلمين مع ما بأيديهم من التعليم الكامل الإلهى يتأثرون من الوعد و البشاره أقل مما يتأثرون من الوعيد و الإنذار، و لذلك بعينه نرى أن القرآن يذكر الإنذار من وظائف الأنبياء أكثر من ذكر التبشير، و كلا الأمرين من وظائفهم و الطرق التى يستعملونها فى الدعوه الدينيه.

و بالجمله اختار قوم إبراهيم عليه السّلام فى محاجتهم إياه عند ما كلموه فى أمر الآلهه سبيل الخوف فأرهبوه من قهر الآلهه و سخطها و وعظه بسلوك سبيلهم و لزوم طريقهم فى التقرب بالآلهه و رفض القول بربوبيه الله سبحانه، و إثباته فى المقام الذى أثبتوه فيه و هو أنه الذى ينتهى إليه الكل فحسب.

و لما وجد عليه السّلام كلامهم ينحل الى جزءين: الردع عن القول بربوبيه الله سبحانه و التحريض على القول بربوبيه آلهتهم احتج عليهم من الجهتين جميعاً لكن لا غنى للجهه الاولى عن الثانيه كما سيجىء.

و ما أورده فى الاحتجاج على حجاجهم فى الله سبحانه هو قوله: «أَتَحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ» أى إني واقع فى أمر مفروغ عنه و مهتد بهدايه ربي حيث آتاني العلم بما أراني من ملكوت السماوات و الأرض و ألهمني بذلك حجه أنفي بها ربوبيه غيره من الأصنام و الكواكب، و أنى لا استغنى عن رب يدبر أمرى فأنتج لى أنه هو الرب وحده لا شريك له، و اذ هداني إليه فأنا فى غنى عن الإصغاء الى حجتكم و البحث عن الربوبيه ثانيا فإن البحث إنما ينفع الطالب و لا طلب بعد الوصول الى الغايه.

هذا ما يعطيه ظاهر الآيه بالتبادر الى الذهن لكن هناك معنى أدق من ذلك يظهر بالتدبر و هو أن قوله: «وَقَدْ هَدَانِ» استدلال بنفس الهدايه لا- استغناء بالهدايه عن الاستدلال و تقريره: أن الله هداني بما علمنى من الحجه على نفي ربوبيه غيره و إثبات ربوبيته، و نفس هدايته دليل على أنه رب و لا- رب غيره فإن الهدايه الى الرب من جمله التدبير فهى شأن من هو رب، و لو لم يكن الله سبحانه هو ربي لم يكن ليهديني و لا قام بها الى الذى هو الرب لكن الله هو هداني فهو ربي.

و لم يكن لهم أن يقولوا: إن الذى علمك ما علمت و ألهمك الحجه هو بعض آلهتنا لأن الشىء لا يهدى الى ما يضره و يميت ذكره و يفسد أمره فاهتدأوه عليه السلام الى نفي ربوبيتها لا يصح أن ينسب إليها، هذا.

و لكن كان لهم أن يقولوا أو أنهم قالوا: إن ذلك من فعل بعض آلهتنا فعل بك ذلك قهرا و سخطا أبعدك عن القول بربوبيتها و لقنك هذه الحجج لما وجد من فساد رأيك و علّه نفسك نظير ما شافهت به عاد هودا عليه السلام لما دعاهم الى توحيد الله سبحانه و احتج عليهم بأن الله هو الذى يجب أن يرجى و يخاف، و أن آلهتهم لا- تنفع و لا- تضر فردوا عليه بأن بعض آلهتنا اعتراك بسوء قال تعالى فى قصتهم حكايه عن هود عليه السلام: «وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَ لَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ، قَالُوا يَا هُوْدُ -الى أن

قال- إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَ أَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ، مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (هود ٥٥).

فقوله عليه السلام: «وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ الْخ؛ ينفى هذه الشبهة و كما أنه ينفى هذه الشبهة فإنه حجه تامه تنفى ربوبيه شركائهم.

و محصيه: أنكم تدعونني الى القول بربوبيه شركائكم و رفض القول بربوبيه ربي بما تخافونني من ان تمسني شركاؤكم بسوء، و ترهبونني بإلقاء الشبهة فيما اهدت به، و إني لا أخاف ما تشركون به لأنها جميعا مخلوقات مدبره لا تملك نفعاً و لا ضراً و اذ لم اخفها سقطت حجتكم و ارتفعت شبهتكم.

و لو كنت خفتها لم يكن الخوف الحاصل في نفسي من صنع شركائكم لأنها لا تقدر على شيء بل كان من صنع ربي و كان هو الذي شاء ان اخاف شركاءكم ففختها فكان هذا الخوف دليلاً آخر على ربوبيته و آيه أخرى من آيات توحيده يوجب إخلاص العباد له لا دليلاً على ربوبيه شركائكم و حجه توجب عبادتها.

و الدليل على ان ذلك من ربي أنه وسع كل شيء علماً فهو يعلم كل ما يحدث و يجري من خير و شر في مملكته التي أوجدها لغايات صحيحة متقنه، و كيف يمكن ان يعلم في ملكه شيء ينفع أو يضر فيسكت و لا يستقبله بأحد امرين: إما المنع أو الإذن؟

فلو حصل في نفسي شيء من الخوف لكان بمشيئه من الله و اذن على ما يليق بساحه قدسه، و كان ذلك من التدبير الدال على ربوبيته و نفى ربوبيه غيره أ فلا تتذكرون و ترجعون الى ما تدركونه بعقولكم و تهدي إليه فطرتكم.

فهذا وجه في تقرير الحجه المودعه في قوله: «وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ» و على ذلك فقوله: «وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ» كالمتمم للحجه في قوله: «أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ» و هو مع ذلك حجه تامه في نفسه

لإبطال ربوبيه شركائهم بعدم الخوف منها، قوله: «إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا» كالكلام في الحججه على تقدير التسليم أى تحتجون على وجوب عبادتها بالخوف ولا خوف فى نفسى، و لو فرض خوف لكان دليلا على ربوبيه ربي لا على ربوبيه شركائكم فإنه عن مشيه من ربي، و قوله:

وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا بَيَانٌ وَ تَعْلِيلٌ لِكُونَ الْخَوْفِ الْمَفْرُوضِ مُسْتَنَدًا إِلَى مَشِيهِ رَبِّهِ فَإِنْ فَاطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَجْهَلُ مَا يَقَعُ فِي مَلِكِهِ فَلَا يَقَعُ إِلَّا بِإِذْنِ مَنْهُ فَهُوَ الَّذِي يَدْبُرُ أَمْرَهُ وَيَقُومُ بِرَبُوبِيَّتِهِ، وَقَوْلُهُ: «أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ» اسْتِفْهَامٌ تَوْبِيخِيٌّ وَإِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْحِجْجَةَ فَطْرِيَّةً، هَذَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ كَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَ لَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ كَرَّرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهِمُ بِحِجْجَةٍ أُخْرَى تَثْبِتُ الْمُنَاقَضَةَ بَيْنَ قَوْلِهِمْ وَ فَعْلِهِمْ وَ بَعْبَارِهِ أُخْرَى: حَالِهِمْ يَكْذِبُ مَقَالَهُمْ وَ مَحْضِيْلَهُ أَنْكُمْ تَأْمُرُونَنِي أَنْ أَخَافُ مَا لَا يَجِبُ أَنْ يَخَافَ مِنْهُ، وَ أَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَخَافُونَ مِنْ يَجِبُ أَنْ يَخَافَ مِنْهُ فَأَنَا أَوْلَى بِالْأَمْنِ مِنْكُمْ إِنْ عَصَيْتُمْ وَ لَمْ آتُمْ بِأَمْرٍ كَرِيمٍ.

أَمَا كُونَ مَا تَأْمُرُونَنِي بِخَوْفِهِ لَا يَجِبُ أَنْ يَخَافَ مِنْهُ فَلَأَنَّ الْأَصْنَامَ وَ أَرْبَابَهَا لَا دَلِيلَ عَلَى كُونِهَا مُسْتَقْلَةً بِالضَّرِّ وَ النِّفْعِ حَتَّى تَوْجِبَ الْخَوْفَ مِنْهَا، وَ أَمَا كُونِكُمْ لَا تَخَافُونَ مِنْ يَجِبُ أَنْ يَخَافَ مِنْهُ فَإِنَّكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَثْبَتَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ شُرَكَاءَ فِي الرُّبُوبِيَّةِ وَ لَمْ يَنْزِلِ اللَّهُ فِي ذَلِكَ عَلَيْكُمْ بَرَهَانًا يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَيْهِ فَإِنَّ الصَّنْعَ وَ الْإِبْجَادَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ فَلَهُ الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحُكْمُ فَلَوْ كَانَ اتَّخَذَ بَعْضَ مَخْلُوقَاتِهِ شَرِيكًا لِنَفْسِهِ يَوْجِبُ لَنَا بِذَلِكَ عِبَادَةَ شَرِيكِهِ كَانَ إِلَيْهِ لَا إِلَى غَيْرِهِ أَنْ يَبَيِّنَ لَنَا ذَلِكَ وَ يَكْشِفَ عَنَّا وَجْهَ الْحَقِيقَةِ فِيهِ، وَ الطَّرِيقَ فِيهِ أَنْ يَقَارَنَهُ بِعَلَائِمِ وَ آيَاتِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَهُ شَرِكَهَ فِي كَذَا وَ كَذَا، وَ ذَلِكَ إِمَّا وَحِيًّا أَوْ بَرَهَانًا يَتَكَيُّ عَلَى آثَارِ خَارِجِيَّةٍ، وَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ غَيْرٌ مَوْجُودٌ.

وَ عَلَى هَذَا التَّقْرِيرِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: «مَا أَشْرَكْتُمْ» مُقَيَّدٌ بِحَسَبِ مَا يَسْتَفَادُ مِنَ الْمَقَامِ بِمَا قَيَّدَ بِهِ

قوله: «أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا» و إنما ذكر هذا القيد عند ذكر عدم خوفهم من شركهم لأن الحجة الى ذكره هناك أحوج و هو ظاهر. و قوله: «فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» من تتمه الحجة، و المجموع برهان على مناقضتهم أنفسهم فى دعوته عليه السّلام الى أن يخاف آلهتهم فإنهم يأمرونه بالخوف فيما لا يجب و هم أنفسهم لا يخافون فيما يجب.

و بالبيان السابق يظهر ان وصف شركائهم بأن الله لم ينزل بها عليهم سلطانا افتراض استدعاه نوع الحجة التى وضعت فى الكلام لا- مفهوم له يثبت إمكان ان يأمر الله باتخاذ الشركاء آلهه يعبدون فهو بمنزله قولنا: لا دليل لكم على ما ادّعيتم، فى جواب من يخوفنا من وضوع خرافى يدعى أنه ربما ينفع و يضر، و لنا ان نبدل قولنا ذلك لو اردنا التكلم بلسان التوحيد بقولنا: ما أنزل الله على ذلك دليلا، و الكلام بحسب التحليل المنطقى يؤول الى قياس استثنائى استثنى فيها نقيض المقدم فى الشرطية لإنتاج نقيض التالى نحونا من قولنا: لو كان الله نزل بها عليكم سلطانا يدل على قدرتهم على الضرر لكان اتخاذكم الشركاء خوفا منها فى محله لكنه لم ينزل سلطانا فليس اتخاذكم الشركاء فى محله، و من المعلوم أن لا مفهوم فى هذا القياس فلا حاجة الى القول بأن التقييد بقوله: «لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا» للتهكم، أو للإشارة الى ان هذا وصف لازم لشركائهم على حد قوله تعالى: وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ (المؤمنون ١١٧) الى غير ذلك من التحويلات.

و الباء فى قوله: لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ للمعية أو السببيه و قد كنى عليه السّلام عنهم و عن نفسه بالفريقين و لم يقل: أنا و انتم أو ما يشابه ذلك ليكون أبعد من تحريك الحميه و تهيج العصبية كما قيل، و ليدل على تفرقهما و شقاق بينهما من جهة الاختلاف فى أصل الاصول و أم المعارف الحقيقية بحيث لا يأتلفان بعد ذلك فى شىء.

قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ سألهم فى الآيه السابقه فى ضمن ما أقامه من الحجة عنمن هو أحق بالأمن حيث

قال: «فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» ثم اجابهم عما سألتهم لكون الجواب واضحا لا- يختلف فيه الفريقان المتخاصمان و الجواب الذى هذا شأنه لا- بأس بأن يبادر السائل الى إيراد من غير ان ينتظر المسئول فإن المسئول لا يخالف السائل فى ذلك حتى يخاف منه الرد، وقد حكى الله تعالى اعترافهم بذلك فى قصه كسر الأصنام: قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسِئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ، فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ، ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (الأنبياء ٦٥).

هذا ما يقتضيه سياق الكلام ان تكون الآية من كلام إبراهيم عليه السلام و مقوله لقوله، و أما كونها من كلام قومه و جوابا محكيا عنهم، و كذا كونها من الله سبحانه من باب القضاء بين الطرفين المتخاصمين فما لا يساعد عليه السياق البتة.

و كيف كان فالكلام متضمن تأكيداً قويا من جهة اسنادات متعددة فى جمل اسميه و هى ما فى قوله: «لَهُمُ الْأَمْنُ» جملة اسميه هى خبر لقوله: «أُولَئِكَ» و المجموع جملة اسميه هى خبر لقوله: «الَّذِينَ آمَنُوا» الخ؛ و المجموعه جملة اسميه، و كذلك ما عطف على قوله: «لَهُمُ الْأَمْنُ» من قوله: «وَهُمْ مُهْتَدُونَ» فينتج أنه لا شك فى اختصاص الذين آمنوا و لم يستروا إيمانهم بظلم بالأمن و الاهتداء و لا ريب.

فقوله: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ» معناه اشتراط الإيمان فى إعطائه الأمن من كل ذنب و معصيه يفسد أثره بعدم الظلم غير أن هاهنا دقيقه و هى ان الذنب الاختيارى- كما استوفينا البحث عنه فى آخر الجزء السادس من الكتاب- أمر ذو مراتب مختلفه باختلاف الأفهام فمن الظلم ما هو معصيه اختياريه بالنسبه الى قوم و ليس بها عند آخرين. فالواقف فى منشعب طريقى الشرك و التوحيد مثلا و هو الذى يرى أن للعالم صناعا هو الذى فطر أجزائها و شق أرجائها و أمسك أرضها و سمائها، و يرى أنه نفسه و غيره مخلوقون مروبون مدبرون، و ان الحياه الإنسانيه الحقيقه إنما تسعد بالإيمان به و الخضوع له

فالظلم اللائح لهذا الإنسان هو الشرك بالله و الإيمان بغيره بالربوبيه كالأصنام و الكواكب و غيرها على ما يثبتة إبراهيم عليه السلام بقوله: «وَ كَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَ لَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا» فالإيمان الذى يؤثر أثره بالنسبه الى هذا الانسان انما يشترط فى إعطائه الأمن من الشقاء بأن لا يلبسه ظلم الشرك و معصيته.

و من طوى هذه المرحله فأمن بالله وحده فإنه يواجه من الظلم الكبائر من المعاصى كعقوق الوالدين و أكل مال اليتيم و قتل النفس المحترمه و الزنا و شرب الخمر فأيمانه فى تأثيره آثاره الحسنه يشترط باجتناى هذا النوع من الظلم، و قد وعده الله أن يكفر عنه السيئات و المعاصى الصغيره إن اجتنب كبائر ما ينهى عنه، قال تعالى: **إِنْ تَجْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا** (النساء ٣١) و فساد أثر هذا الإيمان هو الشقاء بعذاب هذه المعاصى و إن لم يكن عذابا خالدا غير منقطع الآخر كعذاب الشرك بل منقطعا إما بحلول أجله و إما بشفاعه و نحوها.

و من تزود هذا الزاد من التقوى و حصل شيئا من المعرفة بمقام ربه كان مسئولا باصناف من الظلم تبدو له بحسب درجه معرفته بربه كإتيان المكروهات و ترك المستحبات و التوغل فى المباحات، و فوق ذلك المعاصى فى مستوى الأخلاق الكريمة و الملكات الربانيه و وراء ذلك الذنوب التى تعترض سبيل الحب، و تحف بساط القرب، فالإيمان فى كل من هذه المراتب إنما يؤمن المتلبس به و يدفع عنه الشقاء اذا عرى عن ملابسه الظلم المناسب لتلك المرتبه.

فلقوله تعالى: **«الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بُظْلًا»** إطلاق من حيث الظلم لكنه إطلاق يختلف باختلاف مراتب الإيمان و إذا كان المقام مقام محاجه المشركين انطبق الظلم المنفى على ظلم الشرك فحسب و الأمن الذى يعطيه هذا الإيمان هو الأمن مما يخاف منه من الشقاء المؤبد و العذاب المخلد، و الآيه مع ذلك آيه مستقلة من حيث البيان مع قطع النظر عن خصوصيه

المورد تفيد أن الأمن و الاهتداء إنما يترتب على الإيمان بشرط انتفاء جميع انحاء الظلم الذى يلبسه و يستر أثره بالمعنى الذى تقدم بيانه.

و أما الإيمان المذكور فى الآيه ففيه إطلاق و المراد به الإيمان بالربوبية الصالح للتقيد بما يصلحه أو يفسده ثم اذا قيد بقوله: «و لَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ» أفاد الإيمان بربوبية الله سبحانه و رفض غيره من شركائهم فإن ابراهيم عليه السلام ذكر فيما تحكى عنه الآيه السابقه أن قولهم بربوبية شركائهم و إيمانهم بها مع كونها من خلق الله قول بما لا دليل لهم عليه من جانب الله و لا سلطان و أنهم بإيمانهم بشركائهم يتوقون شرا و يستأمنون شقاء ليس لها أن تدفعها لأنها لا تضر و لا تنفع، و أما هو عليه السلام فقد خاف و آمن بمن هو فاطره و هو المتصرف بالهدايه و المدبر الذى له فى كل أمر إرادته و مشيه لسعه علمه، ثم سألهم: أى الفريقين أحق بالأمن و الناجح بالإيمان بالرب، و لكل من الفريقين إيمان بالرب، و إن اختلفا من جهة الرب، و الذى آمنوا به بين مؤمن برب على ربوبيته دليل، و مؤمن برب لا دليل على ربوبيته بل الدليل على خلافه.

قوله تعالى: «و تِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأِ الْخَيْرِ» فى الإشارة بلفظ البعيد الى الحججه تفخيم و تعظيم لأمرها لكونها حججه قاطعه جاريه على صراط الفطره مأخوذه بمقدماتها منها.

و أما قوله: «نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ» فالدرجات- كما قيل- هى مراقى السلم ثم توسع فيها فاطلق على مراتب الكمال من المعنويات كالعلم و الايمان و الكرامه و الجاه و غير ذلك فرفعه تعالى من يشاء من عباده درجات من الرفع هو تخصيصه بكمالات معنويه و فضائل حقيقه فى الخيرات الكسبيه كالعلم و التقوى و غير الكسبيه كالنبوه و الرساله و الرزق و غيرها.

و الدرجات لكونها نكره فى سياق الايجاب مهمله غير مطلقه غير أن المتيقن من معناها بالنظر الى خصوص المورد هو درجات العلم و الهدايه فقد رفع الله ابراهيم عليه السلام بهدايته و إراءته ملكوت السماوات و الأرض و إبتائه اليقين و الحججه القاطعه، و الجميع من العلم، و قد

قال تعالى فى درجات العلم: يَزِفَعِ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (المجادله ١١).

ثم ختم الآيه بقوله: إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ لتثبيت أن ذلك كله كان بحكمه منه تعالى و علم كما أن الحجج التى آتاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المذكوره فى السوره قبل هذه الحججه من حكمته و علمه تعالى، و فى الكلام التفات من التكلم الى الغيبه لتطيب قلب النبى صلى الله عليه وآله وسلم و تثبيت المعارف المذكوره فيه (١)(٢).

[سوره الأنعام (٦): الآيات ٨٤ الى ٩٠]

إشاره

وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَ نُوْحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُليْمَانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَى وَ هَارُونَ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيَى وَ عِيسَى وَ إِليَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطًا وَ كَلَّا- فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَ مِنْ آبَائِهِمْ وَ ذُرِّيَّتِهِمْ وَ إِخْوَانِهِمْ وَ اجْتَبَيْنَاهُمْ وَ هَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ التَّوْبَةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ اِقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٩٠)

ص: ٣٥٩

-
- ١- ١). الانعام ٧٤-٨٣: بحث روائى فى: عصمه الانبياء؛ معنى قول ابراهيم عليه السلام «هَذَا رَبِّي»؛ التوحيد و الشرك.
- ٢- ٢). الانعام ٧٤-٨٣: كلام فى قصه ابراهيم عليه السلام و شخصيته و فيه ابحاث مختلفه قرآنيه و اخرى علميه و تاريخيه و غير ذلك «قصه ابراهيم عليه السلام فى القرآن؛ منزله ابراهيم عند الله و موقفه العبودى، ما تقصه التوراه الموجوده فى ابراهيم.

قوله تعالى: وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا إِسْحَاقَ هُوَ ابْنُ إِسْحَاقَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وقوله: «كُلًّا هَدَيْنَا» قَدَّمَ فِيهِ كَلَامًا لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْهَدَايَةَ الْإِلَهِيَّةَ تَعَلَّقَتْ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَعْدُودِينَ اسْتِقْلَالًا لَا أَنَّهَا تَعَلَّقَتْ بِبَعْضِهِمْ اسْتِقْلَالًا كَأِبْرَاهِيمَ وَبَغَيْرِهِ بِتَبَعِهِ، فَهُوَ بِمَنْزِلِهِ أَنْ يُقَالَ: هَدَيْنَا إِبْرَاهِيمَ وَهَدَيْنَا إِسْحَاقَ وَهَدَيْنَا يَعْقُوبَ. كَمَا قِيلَ.

قوله تعالى: وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ فِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ سِلْسِلَةَ الْهَدَايَةِ غَيْرَ مَنْقُوعَةٍ وَلَا مَبْتَدِئَةٍ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَلْ كَانَتْ الرَّحْمَةُ قَبْلَهُ شَامِلَةً لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله تعالى: وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ - إِلَى قَوْلِهِ - وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ الضَّمِيرُ فِي «ذُرِّيَّتِهِ» رَاجِعٌ إِلَى نُوحٍ ظَاهِرًا لِأَنَّهُ الْمَرْجِعُ الْقَرِيبُ لِفِظًا، وَلِأَنَّ فِي الْمَعْدُودِينَ مَنْ لَيْسَ هُوَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ مِثْلَ لُوطَ وَإِلْيَاسَ، عَلَى مَا قِيلَ.

وَرَبَّمَا قِيلَ: إِنْ الضَّمِيرُ يَعُودُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ ذَكَرَ لُوطَ وَإِلْيَاسَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مِنَ الذَّرِيَّةِ تَغْلِيْبًا قَالَ: وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْتُبَّوَّةَ وَالْكِتَابَ (العنكبوت ٢٧) أَوْ أَنَّ الْمُرَادَ بِالذَّرِيَّةِ هُمُ السَّبْتَةُ الْمَذْكُورُونَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دُونَ الْبَاقِينَ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: «وَزَكَرِيَّا» الْخ؛ وَقَوْلُهُ: «وَإِسْمَاعِيلَ» الْخ؛ فَمَعْطُوفَانِ عَلَى قَوْلِهِ: وَمِنْ «ذُرِّيَّتِهِ» عَلَى قَوْلِهِ: «دَاوُدَ» الْخ؛ وَهُوَ بَعِيدٌ مِنَ السِّيَاقِ.

و أما قوله: «وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» فالظاهر أن المراد بهذا الجزاء هو الهدايه الإلهيه المذكوره، و إليها الإشاره بقوله: «كَذَلِكَ» و الإتيان بلفظ الإشاره البعيده لتفخيم أمر هذه الهدايه فهو نظير قوله: كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (الرعد ١٧) و المعنى نجزي المحسنين على هذا المثال.

قوله تعالى: وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيَىٰ وَ عِيسَىٰ وَ إِبْرَاهِيمَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ تقدم الكلام في معنى الإحسان و الصلاح فيما سلف من المباحث و في ذكر عيسى بين المذكورين من ذريه نوح عليهما السلام و هو إنما يتصل به من جهة أمه مريم دلالة واضحه على أن القرآن الكريم يعتبر أولاد البنات و ذريتهن أولادا و ذريه حقيقه، و قد تقدم استفاده نظير ذلك من آيه الإرث و آيه محرمات النكاح، و للكلام تتمه ستوافيك في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: وَ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطًا وَ كَلَّا فَضَّلْنَا عَلَيَّ الْعَالَمِينَ الظاهر أن المراد بإسماعيل هو ابن ابراهيم أخو إسحاق عليهم السلام و قوله: «الْيَسَعَ» بفتح السين كأسد و قرئ «اللسيع» كالضيعم أحد أنبياء بنى إسرائيل ذكر الله اسمه مع إسماعيل عليهما السلام كما في قوله: وَ أَذْكَرَ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كَلًّا مِنَ الْأَخْيَارِ (ص ٤٨) و لم يذكر شيئاً من قصته في كلامه.

و أما قوله: وَ كَلَّا فَضَّلْنَا عَلَيَّ الْعَالَمِينَ فالعالم هو الجماعه من الناس كعالم العرب و عالم العجم و عالم الروم، و معنى تفضيلهم على العالمين تقديمهم بحسب المنزله على عالمى زمانهم لما أن الهدايه الخاصه الإلهيه أخذتهم بلا واسطه، و أما غيرهم فإنما تشملهم رحمه الهدايه بواسطتهم، و يمكن أن يكون المراد تفضيلهم بما أنهم طائفه مهديه بالهدايه الفطريه الإلهيه من غير واسطه على جميع العالمين من الناس سواء عاصروهم أو لم يعاصروهم فإن الهدايه الإلهيه من غير واسطه نعمه يتقدم بها من تلبس بها على من لم يتلبس، و قد شملت المذكورين من الأنبياء و من لحق بهم من آبائهم و ذرياتهم و إخوانهم فالمجتمع الحاصل منهم

مفضل على غيرهم جميعا بتفضيل إلهى.

و بالجمله الملاك فى أمر هذا التفضيل هو التلبس بتلك الهدايه الإلهيه التى لا واسطه فيها، و الأنبياء فضلوا على غيرهم بسبب التلبس بها فلو فرض تلبس من غيرهم بهذه الهدايه كالملائكه كما ربما يظهر من كلامه تعالى كالأئمه على ما تقدم فى البحث عن قوله تعالى: وَ إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ (البقره ١٢٤/) فى الجزء الأول من الكتاب فلا يفضل عليهم الأنبياء عليهم السلام من هذه الحيشه و إن أمكن أن يفضلوا عليهم من جهه اخرى غير جهه الهدايه.

قوله تعالى: وَ مِنْ آبَائِهِمْ وَ ذُرِّيَّتِهِمْ وَ إِخْوَانِهِمْ هذا التعبير يؤيد ما قدمناه أن المراد بيان اتصال سلسله الهدايه حيث أضاف الباقين الى المذكورين بأنهم متصلون بهم بابؤه أو بنؤه أو اخؤه.

قوله تعالى: وَ اجْتَبَيْنَاهُمْ وَ هَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ قال الراغب فى المفردات: يقال: جيت الماء فى الحوض جمعته و الحوض الجامع له جايه و جمعها «جواب» قال الله تعالى: و جفان كالجواب، و منه استعير جيت الخراج جبايه و منه قوله تعالى: يُجِبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ، و الاجتباء الجمع على طريق الاصطفاء قال عز و جل: فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ .

قال: و اجتباء الله العبد تخصيصه إياه بفيض إلهى يتحصل له منه أنواع من النعم بلا سعى من العبد، و ذلك للأنبياء و بعض ما يقارنهم من الصديقين و الشهداء كما قال تعالى: وَ كَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ، فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ وَ اجْتَبَيْنَاهُمْ وَ هَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ و قوله تعالى: ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَىٰ، و قال عز و جل: يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ، انتهى.

قوله تعالى: ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ الى آخر الآيه؛ يبين تعالى أن الذى ذكره من صفه الهدايه التى هدى بها المذكورين من أنبيائه هو المعرف لهداه الخاص به الذى يهدى به من يشاء من عباده.

فالهدى إنما يكون هدى-حق الهدى-إذا كان من الله سبحانه، والهدى إنما يكون هدى الله إذا أورد المتلبس به صراطا مستقيما اتفق على الورود فيه أصحاب الهدى و هم الأنبياء المكرمون عليهم السلام، و اتفق أجزاء ذلك الصراط في الدعوه الى كلمه التوحيد و إقامه دعوه الحق و الاتسام بسمه العبوديه و التقوى.

أما الطريق الذى يفرق فيه بين رسل الله فيؤمن فيه بعض و يكفر ببعض أو يفرق فيه بين أحكام الله و شرائعه فيؤخذ فيه ببعض و يترك بعض، و الطرق التى لا-تضمن سعادته حياه المجتمع الإنسانى أو يسوق الى بعض ما ليس فيه السعاده الإنسانيه فتلك هى الطرق التى لا مرضاه فيها لله سبحانه و قد انحرفت فيها عن شريعته الفطره الى مهابط الضلال و مزلق الأهواء، و الاهتداء إليها ليس اهتداء بهدى الله سبحانه.

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا (النساء ١٥١) و قال: أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ (البقره ٨٥) و قال:

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (القصص / ٥٠) يريد أن الطريق الذى فيه اتباع الهوى إنما هو ضلال لا يورد سالكه سعادته الحياه و ليس بهدى الله لأن فيه ظلما و الله سبحانه لم يجعل الظلم و لن يجعله مما يتوسل به الى سعادته و لا أن السعاده تنال بظلم.

و بالجملة هدى الله سبحانه من خاصته أنه لا يشتمل على ضلال و لا يجامع ضلالا بالتأديه إليه، و إنما هو الهدى محضا تتلوه السعاده محضه عطاء غير مجذوذ لكن لا على حد العطايا المعموله فيما بيننا التى ينقطع معها ملك المعطى (بالكسر) عن عطيته و ينتقل الى المعطى (بالفتح) فيحوزه على أى حال سواء شكر أو كفر.

بل هذه العطية الإلهية إنما تقوم على شريطه التوحيد و العبودية فلا كرامه لأحد عليه تعالى و لا أمن له منه الا بالعبودية محضا، و لذلك ذيل الكلام بقوله: «وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» و إنما ذكر الإشراك لأن محط البيان إنما هو التوحيد.

قوله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ الْإِسْهَارَهُ بِاللَّفْظِ الْمَفِيدِ لِلْبَعْدِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى عُلُوِّ شَأْنِهِمْ وَ رَفَعِهِ مَقَامَهُمْ، وَ الْمَرَادُ بِآيَاتِهِمُ الْكِتَابَ وَ غَيْرِهِ إِتْيَاءَ جَمْعِهِمْ ذَلِكَ بِوَصْفِ الْمَجْمُوعِ وَ إِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ لَمْ يَأْتُوا بِبَعْضِ الْمَذْكُورَاتِ كَمَا مَرَّ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ:

«وَ اجْتَبَيْنَاهُمْ وَ هَدَيْنَاهُمْ» فَإِنَّ الْكِتَابَ إِنَّمَا أُوتِيَهُ بَعْضُ الْأَنْبِيَاءِ كَنُوحٍ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وَ الْكِتَابَ إِذَا نَسَبَ فِي كَلَامِهِ تَعَالَى إِلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ نَوْعًا مِنَ النَّسْبِ بِرَادٍ بِهِ الصَّحْفِ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَى الشَّرَائِعِ وَ يَقْضَى بِهَا بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ» (البقرة ٢١٣) وَ قَوْلِهِ: «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ - إِلَى أَنْ قَالَ - وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَ مُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ» (المائدة ٤٨). إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَ الْحُكْمُ هُوَ إِقَاءُ النَّسْبِ التَّصْدِيقِيهِ بَيْنَ أَجْزَاءِ الْكَلَامِ كَقَوْلِنَا: فَلَانِ عَالِمٌ، وَ إِذَا كَانَ ذَلِكَ فِي الْأُمُورِ الْاجْتِمَاعِيَةِ وَ الْقَضَايَا الْعَمَلِيَةِ الَّتِي تَدُورُ بَيْنَ الْمَجْتَمَعِينَ عَدَنُوعِ النَّسْبِ حَكْمًا كَمَا تَسْمَى نَفْسُ الْقَضِيَةِ حَكْمًا كَمَا يُقَالُ: يُجِبُّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا وَ يَحْرَمَ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا أَوْ يَجُوزَ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا أَوْ أَحَبُّ أَوْ أَكْرَهُ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا فَتَسْمَى الْوَجُوبُ وَ الْحَرْمُ وَ الْجَوَازُ وَ الْاسْتِحْبَابُ وَ الْكِرَاهَةُ أَحْكَامًا كَمَا تَسْمَى الْقَضَايَا الْمَشْتَمَلَةَ عَلَيْهَا أَحْكَامًا، وَ لِأَهْلِ الْاجْتِمَاعِ أَحْكَامٌ أُخْرَى نَاشِئَةٌ مِنْ نَسْبٍ أُخْرَى كَالْمَلِكِ وَ الرَّئِيسِ وَ النَّبِيَّهِ وَ الْكِفَالَةِ وَ الْوَلَايَةِ وَ غَيْرِ ذَلِكَ.

وَ إِذَا قَصِدَ بِهِ الْمَعْنَى الْمَصْدَرِي أُرِيدَ بِهِ إِجْعَادُ الْحُكْمِ وَ جَعْلُهُ إِذَا بِحَسَبِ التَّشْرِيحِ وَ التَّقْنِينِ كَمَا

يجعل أهل التقنين أحكاماً صالحة ليجرى عليها الناس و يعملوا بها في مسير حياتهم لحفظ نظام مجتمعهم، وإما بحسب التشخيص و النظر كتشخيص القضاء و الحكام في المنازعات و الدعاوى أن المال لفلان و الحق مع فلان و كتشخيص أهل الفتيا في فتاواهم و قد يراد به إنفاذ الحكم كحكم الوالى و الملك على الناس بما يريدان في حوزة الولاية و الملك.

و الظاهر من الحكم فى الآيه بقريته ذكر الكتاب معه أن يكون المراد به معنى القضاء فيكون المراد من إيتاء الكتاب و الحكم إعطاء شرائع الدين و القضاء بحسبها بين الناس كما هو ظاهر عده من الآيات كقوله تعالى: **وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ** (البقره ٢١٣) و قوله: **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا** (المائده ٤٤) و قوله: **لِيَتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ** (النساء ١٠٥) و قوله:

وَ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ (الأنبياء ٧٨) و قوله: **يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** (ص ٢٦) الى غير ذلك من الآيات و هى كثيره، و إن كان مثل قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: **رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** (الشعراء ٨٣) لا يأبى بظاهره الحمل على المعنى الأعم.

و أما النبوه فقد تقدم فى تفسير قوله: **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ** الآيه (البقره ٢١٣) أن المراد بها التحقق بأنباء الغيب بعنايه خاصه إلهيه و هى الأنباء المتعلقة بما وراء الحس و المحسوس كوحدايته تعالى و الملائكه و اليوم الآخر.

و عد هذه الكرامات الثلاث التى أكرم الله سبحانه بها سلسله الأنبياء عليهم السلام أعنى الكتاب و الحكم و النبوه فى سياق الآيات الواصفه لهدها تعالى يدل على أنها من آثار هدايه الله و بها يتم العلم بالله تعالى و آياته فكأنه قيل: تلك الهدايه التى جمعنا عليها الأنبياء عليهم السلام و فضلناهم بها على العالمين هى التى توردهم صراطا مستقيما و تعلمهم الكتاب المشتمل على شرائعه،

و تسددهم و تنصيهم للحكم بين الناس، و تنبئهم أنباء الغيب (١)(٢).

قوله تعالى: فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ الضميران في قوله: «يَكْفُرُ بِهَا» و قوله: «وَكََلْنَا بِهَا» راجعان الى الهدى و يجوز فيه التذكير و التأنيث من جهة أنه هدايه، أو راجعان الى الكتاب و الحكم و النبوه التي هي من آثار الهدايه الالهيه، و لا يخلو أول الوجهين عن بعد، و المشار اليه بقوله: «هَؤُلَاءِ» الكافرون بالدعوه من قوم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و المتيقن منهم بحسب مورد الآيه كَقَمَارِ مَكَّة الَّذِينَ أَشَارَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِلَيْهِمْ بقوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (البقره ٦).

المعنى على الوجه الأول: فإن يكفر مشركو قومك بهدايتنا و هي طريقتنا فقد وَّكَلْنَا بِهَا من عبادنا من ليس يكفر بها، و الكفر و الايمان يتعلقان بالهدايه و خاصه اذا كانت بمعنى الطريقه كما ينسبان الى الله سبحانه و آياته قال تعالى: وَ أَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ (الجن ١٣) و قال: فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا يَحْوَفْ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (البقره ٣٨).

و على الوجه الثانى: فإن يكفر بالكتاب و الحكم و النبوه- و هي التي تشتمل على الطريقه الالهيه و الدعوه الدينيه- مشركو مكه فقد وَّكَلْنَا بِهَا قَوْمًا ليسوا بها بكافرين.

و الذى ينبغى أن يقال فى معنى الآيه أعنى قوله: «فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ» أن الآيات لما كانت تصف التوحيد الفطرى و الهدايه الإلهيه الطاهره من شوب الشرك بالله سبحانه، و تذكر أن الله سبحانه أكرم بهذه الهدايه سلسله متصله متحده من أنبيائه و اصطفاهم بها ذريه بعضها من بعض و اجتباهم و هداهم الى صراط مستقيم لا ضلال فيه و آتاهم الكتاب و الحكم و النبوه.

ص: ٣٦٦

١-١). الانعام ٨٤-٩٠: كلام فى معنى الكتاب فى القرآن.

٢-٢). الانعام ٨٤-٩٠: كلام فى معنى الحكم فى القرآن.

ثم فرع على ذلك قوله: «فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ» و سياقه سياق اعتزاز منه تعالى و تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و تطيب لنفسه لئلا- يوهنه الحزن و يفسخ عزيمته فى الدعوه الدينيه ما يشاهده من كفر قومه و استكبارهم و عمهم فى طغيانهم فمعناه أن لا تحزن بما تراه من كفرهم بهذه الهدايه الإلهيه و الطريقه التى تشتمل عليها الكتاب و الحكم و النبوه التى آتيناها سلسله المهديين من الأنبياء الكرام فإننا قد وكننا بها قوما ليسوا بها بكافرين فلا سبيل للضيعه و الزوال الى هذه الهدايه الإلهيه لانا وكنناهم بها و اعتمدنا عليهم فيها و أولئك غير كافرين بها البتة. فهؤلاء قوم لا يتصور فى حقهم كفر و لا يدخل فى قلوبهم شرك لان الله و كلهم بها و اعتمد عليهم فيها و حفظها بهم و لو جاز عليهم الشرك و أمكن فيهم التخلف كان الاعتماد عليهم فيها خطاء و ضلالا و الله سبحانه لا يضل و لا ينسى.

فالآيه تدل- و الله أعلم- على أن لله سبحانه فى كل زمان عبدا أو عابادا موكلين بالهدايه الإلهيه و الطريقه المستقيمه التى يتضمنها ما آتاه أنبياءه من الكتاب و الحكم و النبوه يحفظ الله بهم دينه عن الزوال و هدايته عن الانقراض، و لا سبيل للشرك و الظلم إليهم لاعتصامهم بعصمه إلهيه و هم أهل العصمه من الأنبياء الكرام و أوصيائهم عليهم السلام.

فالآيه خاصه بأهل العصمه و قصارى ما يمكن أن يتوسع به أن يلحق بهم الصالحون من المؤمنين ممن اعتصم بعصمه التقوى و الصلاح و محض الإيمان عن الشرك و الظلم، و خرج بذلك عن ولايه الشيطان قال تعالى: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (النحل ٩٩) إن صدق عليهم أن الله و كلهم بها و اعتمد عليهم فيها.

قوله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ عاد ثانيا الى تعريفهم بما فيه تعريف الهدى الإلهى فالهدى الإلهى لا يتخلف عن شأنه و أثره و هو الإيصال الى المطلوب قال تعالى: فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ (النحل ٣٧).

و قد أمر النبي صلى الله عليه و آله و سلم فى قوله: «فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ» بالافتداء- و هو الاتباع- بهداهم لا بهم

١ - ١). الانعام ٨٤-٩٠: بحث روائى فى: الياس و اليسع، الحسن عليه السّلام و الحسين عليه السّلام و هما ابنا رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم.

قوله تعالى: **وَ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِنْ شَيْءٍ قَدَرَ الشَّيْءَ وَ قَدْرَهُ بِالْتَّحْرِيكِ كَمِيَّتَهُ مِنْ عَظْمٍ أَوْ صَغُرٍ وَ نَحْوَهُمَا يُقَالُ: قَدَرْتُ الشَّيْءَ قَدْرًا وَ قَدَّرْتَهُ بِالْتَّشْدِيدِ تَقْدِيرًا إِذَا بَيَّنْتَ كَمِيَّةَ الشَّيْءِ وَ هُنْدَسْتَهُ الْمَحْسُوسَةَ ثُمَّ تَوَسَّعَ فِيهِ فَاسْتَعْمَلَ فِي الْمَعْنَى غَيْرِ الْمَحْسُوسَةِ فَقَبِلَ: قَدَرَ فَلَانَ عِنْدَ النَّاسِ وَ فِي الْمَجْتَمَعِ أَيْ عَظَمْتَهُ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ وَ وَزَنَهُ فِي مَجْتَمَعِهِمْ وَ قِيَمْتَهُ الْاجْتِمَاعِيَّةَ.**

و إذا كان تقدير الشيء و تحديده بحدود لا ينفك غالبا عن وصفه بأوصافه المبينه لحاله المستتبعه لعرفانه أطلق القدر و التقدير على الوصف و على المعرفة بحال الشيء-على نحو الاستعاره-فيقال قدر الشيء و قدره أى وصفه، و يقال: قدر الشيء و قدره أى عرفه، فاللغه تبيح هذه الاستعمالات جميعا.

و لما كان الله سبحانه لا يحيط بذاته المتعالیه حس و لا وهم و لا عقل و إنما يعرف معرفه ما بما يليق بساحه قدسه من الأوصاف و ينال من عظمته ما دلت عليه آياته و أفعاله صح استعمال القدر فيه تعالى بكل من المعانى السابقه فيقال: ما قدروا الله حق قدره أى ما عظموه بما يليق بساحته من العظمه أو ما وصفوه حق وصفه أو ما عرفوه حق معرفته، فالآيه بحسب نفسها تحتمل كلا من المعانى الثلاثه أو جميعها بطريق الالتزام لكن الأنسب بالنظر الى الآيات السابقه الواصفه لهديته تعالى أنبياءه المستعقبه لإيتائهم الكتاب و الحكم و النبوه، و عنايته الكامله بحفظ كلمه الحق و نعمه الهدايه بين الناس زمانا بعد زمان و جيلا بعد جيل أن تحمل على المعنى الأول فإن فى إنكار إنزال الوحي حطا لقدره تعالى و إخراجا له من منزله الربوبيه المعتنيه بشئون عباده و هدايتهم الى هدفهم من السعاده و الفلاح.

و يؤيد ذلك ما ورد من نظير اللفظ فى قوله تعالى: **وَ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الْأَرْضُ**

جَمِيعاً قَبَضَتْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (الزمر / ٦٧).

وقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ، مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (الحج ٧٤) أى وقوته وعزته وضعف غيره وذلكه تقتضيان أن لا يحط قدره ولا يسوى هو وما يدعون من دونه بتسميه الجميع آلهه وأربابا فالأنسب بالآيه هو المعنى الأول وإن لم يمتنع المعنيان الآخران، وأما تفسير «مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» بأن المراد: ما أعطوه من القدره ما هو حقها كما فسره بعضهم فأبعد المعانى المحتمله من مساق الآيه.

ولما قيد قوله تعالى: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» بالظرف الذى فى قوله: «إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشَرًا مِنْ شَيْءٍ» أفاد ذلك أن اجترأهم على الله سبحانه وعدم تقديرهم حق قدره إنما هو من حيث إنهم نفوا إنزال الوحي والكتاب منه تعالى على بشر فدل ذلك على أن من لوازم الالوهيه وخصائص الربوبيه أن ينزل الوحي والكتاب لغرض هدايه الناس الى مستقيم الصراط والفوز بسعاده الدنيا والآخره فهى الدعوى.

وبالجملة فالآيه أعنى قوله تعالى: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» تدل بما لها من الضمائم على أن من لوازم الالوهيه أن تهدي الإنسان الى مستقيم الصراط ومنزل السعاده بإنزال الكتاب والوحي على بعض أفرادها، وتستدل على ذلك بوجود بعض الكتب المنزله من الله فى طريق الهدايه أولاً، وبوجود ما يدل على تعاليم إلهيه بينهم لا ينالها الإنسان بما عنده من العقل الاجتماعى ثانياً.

قوله تعالى: قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا يَتَذَكَّرُونَ كَثِيراً كَثِيراً الدائره تجعلونه بصيغه الخطاب والمخاطبون به اليهود لا محاله، وقرئ «يجعلونه» بصيغه الغيبه، والمخاطب المسئول

عنه بقوله: «مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ» الخ؛ حينئذ اليهود أو مشركوا العرب على ما قيل، والمراد بجعل الكتاب قرطيس و هي جمع قرطاس إما جعله في قرطيس بالكتابة فيها، وإما جعله نفس القرطيس بما فيها من الكتابه فالصحائف و القرطيس تسمى كتابا كما تسمى الألفاظ المدلول عليها بالكتابة كتابا.

وقوله: «قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ» الخ؛ جواب عن قولهم المحكى بقوله تعالى: «إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشْرًا مِنْ شَيْءٍ» و الآية و إن لم تعين القائلين بهذا القول من هم؟ إلا أن الجواب بما فيه من الخصوصيه لا يدع ريبا في أن المخاطبين بهذا الجواب هم اليهود فالقائلون: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشْرًا مِنْ شَيْءٍ» هم اليهود أيضا، وذلك أن الآية تحتج على هؤلاء القائلين بكتاب موسى عليه السلام و المشركون لا يعترفون به و لا يقولون بنزوله من عند الله، وإنما القائلون به أهل الكتاب، و أيضا الآية تدمهم بأنهم يجعلونه قرطيس بيدونها و يخفون كثيرا، و هذا أيضا من خصائص اليهود على ما نسبه القرآن إليهم دون المشركين.

على أن قوله بعد ذلك: «وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لَا آبَاؤُكُمْ» على ظاهر معناه الساذج لا يصلح أن يخاطب به غير اليهود من المشركين أو المسلمين كما تقدم و سيجيء إن شاء الله تعالى (١).

قوله تعالى: «وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لَا آبَاؤُكُمْ» المراد بهذا العلم الذي علموه و لم يكونوا يعلمونه هم و لا آباؤهم ليس هو العلم العادي بالنافع و الضار في الحياه مما جهز الإنسان بالوسائل المؤديه إليه من حس و خيال و عقل فإن الكلام واقع في سياق الاحتجاج مربوط به و لا- رابطة بين حصول العلوم العاديه للإنسان من الطرق المودعه فيه و بين المدعى و هو أن من لوازم الالوهيه أن تهدي الانسان الى سعادته و تنزل على بعض

ص: ٣٧٣

(١-١). الانعام ٩١-١٠٥: بحث حول معنى الآية «إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشْرًا مِنْ شَيْءٍ».

و ليس المراد بها أن الله أفاض عليكم العلم بأشياء ما كان لكم من أنفسكم أن تعلموا كما يفيدته قوله تعالى: وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ (النحل ٧٨) وقوله: الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (العلق ٥)، فإن السياق كما عرفت ينافي ذلك.

فالمراد بالآية تعليم ما ليس في وسع الإنسان بحسب الطرق المألوفة عنده التي جهز بها أن ينال علمه، وليس إلا ما أوحاه الله سبحانه الى أنبيائه و حمله وحيه بكتاب أو بغير كتاب من المعارف الإلهية و الأحكام و الشرائع فإنها هي التي لا تسع الوسائل العادية التي عند عامه الإنسان أن تنالها.

و من هنا يظهر أن المخاطبين بهذا الكلام أعنى قوله: «وَ عَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا» الخ؛ ليسوا هم المشركين اذا لم يكن عندهم من معارف النبوه و الشرائع الإلهية شيء بين يعرفونه و يعترفون به و الذي كانوا ورثوه من بقايا آثار النبوه من أسلاف أجيالهم ما كانوا ليعترفوا به حتى يصح الاحتجاج به عليهم من غير بيان كاف، و قد وصفهم الله بالجهل في أمثال قوله: وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ (البقره ١١٨).

فالخطاب متوجه الى غير المشركين، و ليس بموجه الى المسلمين أما أولا؛ فلأن السياق سياق الاحتجاج، و لو كان الخطاب متوجها إليهم لكان اعتراضا في سياق الاحتجاج من غير نكته ظاهره.

و أما ثانيا؛ فلما فيه من تغيير مورد الخطاب، و العدول من خطاب المخاطبين بقوله: «مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ» الخ؛ الى خطابه غيرهم بقوله: «وَ عَلَّمْتُمْ» الخ؛ من غير قرينه ظاهره مع وقوع اللبس فالخطاب لغير المشركين و المسلمين و هم اليهود المخاطبون بصدر الآية.

قوله تعالى: قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ لما كان الجواب واضحا

بيننا لا يداخله ريب، والجواب الذى هذا شأنه يسوغ للمستدل السائل أن يتكلفه و لا ينتظر المسئول المحتج عليه، أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يتصدى هو الجواب فقال: «قُلِ اللَّهُ» أى الذى أنزل الكتاب الذى جاء به موسى و الذى علمكم ما لم تعلموا أنتم و لا آباؤكم هو الله.

و لما كان القول بأن الله لم ينزل على بشر شيئاً من لغو القول و هزله الذى لا يتفوه به إلا خائض لاعب بالحقائق و خاصه اذا كان القائل به من اليهود المعترفين بتوراه موسى و المباهين بالعلم و الكتاب أمره بأن يدعهم و شأنهم فقال: «تَمَّ ذَرْهُمُ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ» .

قوله تعالى: وَ هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا لما نبه على أن من لوازم الالوهيه أن ينزل الوحي على جماعه من البشر هم الأنبياء عليهم السلام، و أن هناك كتابا حقا كالتوراه التى جاء بها موسى، و امورا اخرى علمها البشر لا تنتهى إلا الى وحي إلهى و تعليم غيبى، ذكر أن هذا القرآن أيضا كتاب إلهى منزل من عنده على حد ما نزل سائر الكتب السماويه، و من الدليل على ذلك اشتماله على ما هو شأن كتاب سماوى نازل من عند الله سبحانه.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ نازلا لغايه إنذار أهل الأرض فالمؤمنون بالآخرة يؤمنون به لأنه يدعو الى أمن أخروى دائم و يحذرهم من عذاب خالد.

ثم عرف تعالى هؤلاء المؤمنين بالآخرة بما هو من أخص صفات المؤمنين و هو أنهم على صلاتهم و هى عبادتهم التى يذكرون فيها ربهم يحافظون، و هذه هى الصفه التى ختم الله به صفات المؤمنين التى وصفهم بها فى أول سوره المؤمنين اذ قال: الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (المؤمنون ٩/١)، كما بدأ بمعناها فى أولها فقال: الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (المؤمنون ٢/١).

و هذا هو الذى يؤيد أن المراد بالمحافظه فى هذه الآيه هو الخشوع فى الصلاه و هو نحو تذلل و تأثر باطنى عن العظمه الإلهيه عند الانتصاب فى مقام العبوديه لكن المعروف من تفسيره أن المراد بالمحافظه على الصلاه المحافظه على وقتها (1).

قوله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا - إلى قوله - مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَدَّ اللَّهُ سبحانه موارد ثلاثه من الظلم هى من أشد مراتبه التى لا يرتاب العقل العادى فى شناعتها و فظاعتها، و لذا أوردها فى سياق السؤال.

و الغرض من ذلك الدعوه الى النزول على حكم العقل السليم و الأخذ بالنصفه و خفض الجناح لصريح الحق فكأنه يقول: قل لهم: يجب على و عليكم أن لا نستكبر عن الحق و لا نستعلى على الله تعالى بارتكاب ما هو من أشد الظلم و أشنعه و هو الظلم فى جنب الله فكيف يصح لكم أن تفتروا على الله كذبا و تدعوا له شركاء تتخذونها شفعاء؟ و كيف يسوغ لى أن أدعى النبوه و أقول: أوحى إلى إن كنت لست بنبى يوحى إليه؟ و كيف يجوز لقائل أن يقول:

سانزل مثل ما أنزل الله، فيسخر بحكم الله و يستهزئ بآياته؟

و نتيجة هذه الدعوه أن ينقادوا لحكم النبوه فإنهم اذا اجتنبوا الافتراء على الله بالشرك، و كفى القائل «سَأَنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ» عن مقاله، و النبى صلى الله عليه و آله و سلم يصر على الوحى بقيت نبوته بلا معارض.

و افتراء الكذب على الله سبحانه و هو أول المظالم المعدوده و إن كان أعم بالنسبه الى دعوى الوحى اذا لم يوح إليه و هو ثانى المظالم المعدوده و لذا قيل: إن ذكر الثانى بعد الأول من باب ذكر الخاص بعد العام اعتناء بشأن الوحى و إعظاما لأمره، لكن التأمل فى سياق الكلام و وجهه الى المشركين يعطى أن المراد بالافتراء المذكور هو اتخاذ الشريك لله سبحانه، و إنما لم يصرح

ص: ٣٧٤

بذلك ليرتفع به غائله ذكر الخاص بعد العام لأن الغرض فى المقام- كما تقدم- هو الدعوه الى الأخذ بالنصفه و التجافى عن عصبية الجاهليه فلم يصرح بالمقصود و إنما أبهم إبهاما لئلا يتحرك بذلك عرق العصبية و لا يتنبه داعى النخوه.

فقوله: مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا و قوله: «أَوْ قَالَ أُوحَىٰ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ» متبائن من حيث المراد و إن كانا بحسب ظاهر ما يتراءى منهما أعم و أخص.

و يدل على ما ذكرنا ما فى ذيل الآيه من حديث التهديد بالعذاب و السؤال عن الشركاء و الشفعاء.

و أما ما قيل: إن قوله: «أَوْ قَالَ أُوحَىٰ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ» نزل فى مسيلمه حيث ادعى النبوه فسياق الآيات كما عرفت لا يلائمه بل ظاهره أن المراد به نفسه و إن كان الكلام مع الغض عن ذلك أعم.

على أن سورة الأنعام مكيه و دعواه النبوه من الحوادث التى وقعت بعد الهجره إلا- أن هؤلاء يرون أن الآيه مدنيه غير مكيه و سيأتى الكلام فى ذلك فى البحث الروائى التالى إن شاء الله.

و أما قوله: وَ مَنْ قَالَ سَاءَ أَنْزَلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فظاهره أنه حكاية قول واقع، و أن هناك من قال: سانزل مثل ما أنزل الله، و أنه إنما قاله استهزاء بالقرآن الكريم حيث نسبة الى الله سبحانه بالنزول ثم وعد الناس مثله بالإنزال، و لم يقل: سأقول مثل ما قاله محمد أو سأتيكم بمثل ما أتاكم به.

قوله تعالى: وَ لَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ الى آخر الآيه؛ الغمر أصله ستر الشىء و إزاله أثره و لذا يطلق الغمره على الماء الكثير الساتر لما تحته، و على الجهل المطبق، و على الشده التى تحيط بصاحبها و الغمرات الشدائد، و منه قوله تعالى: «فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ»، و الهون و الهوان الذله.

و بسط اليد معناه واضح غير أن المراد به معنى كئيب، و يختلف باختلاف الموارد فبسط الغنى يده جوده بماله و إحسانه لمن يستحقه، و بسط الملك يده إدارته أمور مملكته من غير أن يزاحمه مزاحم و بسط المأمور الغليظ الشديد يده على المجرم المأخوذ به هو نكاله و إيذاؤه بضر و زجر و نحوه.

فبسط الملائكة أيديهم هو شروعهم بتعذيب الظالمين، و ظاهر السياق أن الذى تفعله الملائكة بهؤلاء الظالمين هو الذى يترجم عنه قوله: «أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ» الخ؛ فهذه الجمل محكيه عن الملائكة لا- من قول الله سبحانه، و التقدير: يقول الملائكة لهم أخرجوا أنفسكم، الخ؛ فهم يعذبونهم بقبض أرواحهم قبضا يدوقونه به أليم العذاب و هذا عذابهم حين الموت و لما ينتقلوا من الدنيا الى ما وراءها و لهم عذاب بعد ذلك و لما تقم عليهم القيامة كما يشير إليه قوله تعالى: وَ مِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (المؤمنون/ ١٠٠).

و بذلك يظهر أن المراد باليوم فى قوله: «الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ» هو يوم الموت الذى يجزون فيه العذاب و هو البرزخ كما ظهر أن المراد بالظالمين هم المرتكبون لبعض المظالم الثلاثة التى عدها الله سبحانه من أشد الظلم أعنى افتراء الكذب على الله، و دعوى النبوه كذبا و الاستهزاء بآيات الله.

و يؤيد ذلك ما ذكره الله من أسباب عذابهم من الذنوب و هو قولهم على الله غير الحق كما هو شأن المفترى الكذب على الله بنسبه الشريك إليه أو بنسبه حكم تشريعى أو وحى كاذب إليه، و استكبارهم عن آيات الله كما هو شأن من كان يقول: «سَأَنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ» .

و كذلك قوله: «أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ» أمر تكوينى لأن الموت و الوفاه ليس فى قدره الإنسان كالحياه حتى يؤمر بذلك قال تعالى: وَ أَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَ أَحْيَا (النجم/٤٤) فالأمر تكوينى و الملائكة من أسبابه، و الكلمه مصوغه صوغ الاستعاره بالكنايه و الاستعاره

التخيليه كأن النفس الإنسانيه أمر داخل فى البدن و به حياته و بخروجه عن البدن طرو الموت و ذلك أن كلامه تعالى ظاهر فى أن النفس ليست من جنس البدن و لا من سنخ الأمور الماديه الجسمانيه و إنما لها سنخ آخر من الوجود يتحد مع البدن و يتعلق به نوعا من الاتحاد و التعلق غير مادى كما تقدم بيانه فى بحث علمى فى الجزء الأول من الكتاب و سيأتى فى مواضع تناسبه إن شاء الله. فالمراد بقوله: «أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ» قطع علقه أنفسهم من أبدانهم و هو الموت، و القول قول الملائكه على ما يعطيه السياق.

و المعنى: و ليتك ترى حين يقع هؤلاء الظالمون المذكورون فى شدائد الموت و سكراته و الملائكه آخذون فى تعذيبهم بالقبض الشديد العنيف لأرواحهم و إنبائهم بأنهم واقعون فى عالم الموت معذبون فيه بعذاب الهون و الذله جزاء لقولهم على الله غير الحق و لاستكبارهم عن آياته.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ ۚ الْفَرَادَىٰ جَمْعُ فَرْدٍ وَهُوَ الَّذِي انفصل عن اختلاط غيره نوعا من الاختلاط و يقابله الزوج و هو الذى يختلط بغيره بنحو و يقرب منهما بحسب المعنى الوتر و الشفع فالوتر ما لم ينضم الى غيره و الشفع ما انضم الى غيره، و التحويل إعطاء الخول أى المال و نحوه الذى يقوم الإنسان به بالتدبير و التصرف.

و المراد بالشفعاء الأرباب المعبودون من دون الله ليكونوا شفعاء عند الله فعادوا بذلك شركاء لله سبحانه فى خلقه، و الآيه تنبئ عن حقيقه الحياه الإنسانيه التى ستظهر له حينما يقدم على ربه بالتوفى فيشاهد حقيقه أمر نفسه و أنه مدبر بالتدبير الإلهى لا غير كما كان كذلك فى أول مره كونته الخلقه، و أن المزاعم التى انضمت الى حياته من التكثر بالأسباب و الاعتضاد و الانتصار بالأموال و الأولاد و الأزواج و العشائر و الجموع، و كذا الاستشفاع بالأرباب من دون الله المؤدى الى الإشراك كل ذلك مزاعم و أفكار باطله لا أثر لها فى ساحه

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى إلى آخر الآيه؛ الفلق هو الشق. لما انتهى الكلام فى الآيه السابقه الى نفي استقلال الأسباب فى تأثيرها، و بطلان كون أربابهم شفعاء من دون الله المؤدى الى كونهم شركاء لله صرف الكلام الى بيان أن هذه التى يشتغل بها الإنسان عن ربه ليست الا- مخلوقات لله مدبره بتدبيره، و لا- تؤثر أثرا و لا تعمل عملا فى اصلاح حياه الانسان و سوقه الى غايات خلقته الا بتقدير من الله و تدبير يدبره هو لا غير فهو تعالى الرب دون غيره.

فالله سبحانه هو يشق الحب و النوى فينبت منهما النبات و الشجر اللذين يرتزق الناس من حبه و ثمره، و هو يخرج الحى من الميت و الميت من الحى- و قد مر تفسير ذلك فى الكلام على الآيه ٢٧ من سوره آل عمران- ذلكم الله لا- غير فأنى تؤفكون و الى متى تصرفون من الحق الى الباطل.

قوله تعالى: فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا الى آخر الآيه؛ الإصباح بكسر الهمزه هو الصبح و هو فى الاصل مصدر، و السكن ما يسكن اليه، و الحسبان جمع حساب، و قيل: هو مصدر حسب حسابا و حسبانا. و قوله: «وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا» عطف على قوله: «فَالِقُ الْإِصْبَاحِ» و لا ضمير فى عطف الجملة الفعلية على الاسميه اذا اشتملت على معنى الفعل و قرئ: «و جاعل».

و فى فلق الصبح و جعل الليل سكنا يسكن فيه المتحركات عن حركاتها لتجديد القوى و دفع ما عرض لها من التعب و العى و الكلال من جهه حركاتها طول النهار، و جعل الشمس و القمر بما يظهر من الليل و النهار و الشهور و السنين من حركاتها فى ظاهر الحس حسبانا تقدير عجيب للحركات فى هذه النشأ المتغيره المتحوله ينتظم بذلك نظام المعاش الانسانى و يستقيم به أمر حياته، و لذلك ذيلها بقوله: «ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» فهو العزيز الذى لا

يقهره قاهر فيفسد عليه شيئا من تدبيره، والعليم الذى لا يجهل بشيء من مصالح مملكته حتى ينظمه نظما ربما يفسد من نفسه و لا يدوم بطبعه.

قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ المعنى واضح والمراد بتفصيل الآيات اما تفصيلها بحسب الجعل التكويني أو تفصيلها بحسب البيان اللفظي.

و لا تنافى بين اراده مصالح الانسان فى حياته و عيشته فى هذه النشأه مما يتراءى لظاهر الحس من حركات هذه الاجرام العظيمة العلويه و الكرات المتجاذبه السماويه، و بين كون كل من هذه الاجرام مرادا بإرادته إلهيه مستقله و مخلوقه بمشيئه تتعلق بنفسه و تخص شخصه فإن الجهات مختلفه، و تحقق بعض هذه الجهات لا يدع تحقق بعض آخر و الارتباط و الاتصال حاكم على جميع أجزاء العالم.

قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قرئ «مستقر» بفتح القاف و كسرهما و هو على القراءه الاولى اسم مكان بمعنى محل الاستقرار فيكون «مُسْتَوْدَعٌ» أيضا اسم مكان بمعنى محل الاستيداع و هو المكان الذى توضع فيه الوديعه. و قد وقع ذكر المستقر و المستودع فى قوله تعالى: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (هود ٦٤) و فى الكلام حذف و إيجاز، و التقدير: فمنكم من هو فى مستقر و منكم من هو فى مستودع، و على القراءه الثانيه و هى الرجحى «مستقر» اسم فاعل و يكون المستودع اسم مفعول لا محاله، و التقدير فمنكم مستقر و منكم مستودع لم يستقر بعد.

و الظاهر أن المراد بقوله: «وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ» انتهاء الذريه الإنسانيه على كثرتها و انتشارها الى آدم الذى يعده القرآن الكريم مبدأ للنسل الإنسانى الموجود، و أن المراد بالمستقر هو البعض الذى تلبس بالولاده من أفراد الإنسان فاستقر فى الأرض التى هى

المستقر لهذا النوع كما قال تعالى: **وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ** (البقره ٣٦)، والمراد بالمستودع من استودع في الأصلاب والأرحام و لم يولد بعد و سيولد بعد حين، فهذا هو المناسب لمقام بيان الآيه بإنشاء جميع الأفراد النوعيه من فرد واحد و من الممكن أن يؤخذ مستقر و مستودع مصدرين ميمين.

و قد عبر بلفظ الإنشاء دون الخلق و نحوه **وَ** هو ظاهر في الدفعه و ما في حكمه دون التدريج، و يؤيد هذا المعنى أيضا ما تقدم من قوله تعالى: **«وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا»** كما لا يخفى أى يعلم ما استقر منها في الأرض بفعليه التكون «و ما هو في طريق التكون مما لم يتكون بالفعل و لم يستقر في الأرض».

فالمعنى: و هو الذى أوجدكم معشر الأناسى من نفس واحده و عمر بكم الأرض الى حين فهى مشغوله بكم ما لم تنقضوا فلا يزال بعضكم مستقرا فيها و بعضكم مستودع في الأصلاب و الأرحام أو في الأصلاب فقط في طريق الاستقرار فيها.

قوله تعالى: **وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ السَّمَاءُ هِيَ جِهَةُ الْعُلُوِّ فَكَلِمَا عِلَاكُ وَ أَظْلُكُ فَهُوَ سَمَاءٌ، وَ الْمَرَادُ بِقَوْلِهِ: «فَأَخْرَجْنَا بِهِنَّ نَبَاتًا كُلَّ شَيْءٍ»** على ما قيل، فأخرجنا بالماء الذى أنزلناه من السماء النبات و النمو الذى فى كل شىء نام له قوه النبات من الكمون الى البروز، أى أنبتنا به كل شىء نباتى كالنجم و الشجر و الإنسان و سائر الحيوان.

و الخضر هو الأخضر و كأنه مخفف الخاضر، و تراكب الحب انعقاد بعضه فوق بعض كما فى السنبله، و الطلع أول ما يبدو من ثمر النخل، و القنوان جمع قنو و هو العذق بالكسر و هو من الثمر كالعنقود م العنب، و الدانيه أى القريبه، و المشتبه و غير المتشابهه المشاكل و غير المشاكل فى النوع و الشكل و غيرهما. و ينع الثمر نضجه.

قوله تعالى: **وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَ خَلَقَهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الْجِنُّ** إما مفعول لجعلوا و مفعوله الآخر شركاء أو بدل من شركاء، و قوله: **«وَ خَلَقَهُمْ»** كأنه حال و إن

منعه بعض النحاه و حجتهم غير واضحه. و كيف كان فالكلمه فى مقام ردهم، و المعنى و جعلوا له شركاء الجن و هو خلقهم و المخلوق لا يجوز أن يشارك خالقه فى مقامه.

و المراد بالجن الشياطين كما ينسب الى المجوس القول: بأهر من و يزدان. و نظيره ما عليه اليزيديه الذى يقولون بالوهيه إبليس (الملك طاوس - شاه بريان) أو الجن المعروف ببناء على ما نسب الى قريش أنهم كانوا يقولون: إن الله قد صاهر الجن فحدث بينهما الملائكه، و هذا أنسب بسياق قوله: «و جعلوا له شركاء الجن و خلفهم و خرقوا له بنين و بنات بغير علم» و على هذا فالبنون و البنات هم جميعا من الملائكه خرقوهم أى اختلقوهم و نسبوهم إليه افتراء عليه سبحانه و تعالى عما يشركون.

و لو كان المراد من هو أعم من الملائكه لم يبعد أن يكون المراد بهم ما يوجد فى سائر الملل غير الإسلام فالبرهمنيه و البوذيه يقولون بنظير ما قالته النصرارى من بنوه المسيح كما تقدم فى الجزء الثالث من الكتاب، و سائر الوثنيين القدماء كانوا يشبتون لله سبحانه بنين و بنات من الآلهه على ما يدل على الآثار المكتشفه، و مشركوا العرب كانوا يقولون: إن الملائكه بنات الله.

قوله تعالى: **يَدْعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** الى آخر الآيه؛ جواب عن قولهم بالبنين و البنات، و محصله أن لا سبيل لتحقق حقيقه الولد إلا اتخاذ صاحبه و لم يكن له تعالى صاحبه فأنى يكون له ولد؟

و أيضا هو تعالى الخالق لكل شىء و فاطره، و الولد هو الجزء من الشىء يربيه بنوع من اللقاح و جزء الشىء و المماثل له لا يكون مخلوقا له البته، و يجمع الجميع أنه تعالى بديع السماوات و الأرض الذى لا - يماثله شىء من أجزائها بوجه من الوجوه فكيف يكون له صاحبه يتزوج بها أو بنون و بنات يماثلونه فى النوع فهذا أمر يخبر به الله الذى لا سبيل للجهل إليه فهو بكل شىء عليم، و قد تقدم فى الكلام على قوله تعالى: **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْخ**

(آل عمران ٧٩)؛ فى الجزء الثالث من الكتاب ما ينفذ فى المقام.

قوله تعالى: **ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ الْجُمْلَةَ الْأُولَى أَعْنَى قَوْلِهِ: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ»** نتيجه متخذة من البيان المورء فى الآيات السابقة، و المعنى: اذا كان الأمر على ما ذكر فالله الذى وصفناه هو ربكم لا غير، و قوله: **«لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»** كالتصريح بالتوحيد الضمنى الذى تشتمل عليه الجملة السابقة، و هو مع ذلك يفيد معنى التعليل أى هو الرب ليس دونه رب لأنه الله الذى ليس دونه إله و كيف يكون غيره ربا و ليس بإله.

و قوله: **«خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ تَعْلِيلٌ لِقَوْلِهِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»** أى إنما انحصرت الألوهية فيه لأنه خالق كل شىء من غير استثناء فلا خالق غيره لشىء من الأشياء حتى يشاركه فى الألوهية، و كل شىء مخلوق له خاضع له بالعبودية فلا يعادله فيها.

و قوله: **«فَاعْبُدُوهُ»** متفرع كالتيجة على قوله: **«ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ»** أى اذا كان الله سبحانه هو ربكم لا غير فاعبدوه، و قوله: **«وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ»** أى هو القائم على كل شىء المدبر لأمره الناظم وجوده و حياته و اذا كان كذلك كان من الواجب أن يتقى فلا يتخذ له شريك بغير علم فالجملة كالتأكيد لقوله: **«فَاعْبُدُوهُ»** أى لا تستكفوا عن عبادته لأنه وكيل عليكم غير غافل عن نظام أعمالكم.

و أما قوله: **«لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ فَهُوَ لِدْفَعِ الدَّخْلِ الَّذِي يُوْهِمُهُ قَوْلُهُ: «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ»** بحسب ما تتلقاه أفهام المشركين الساذجة و الخطاب معهم، و هو أنه اذا صار و كيلا عليهم كان أمرا جسمانيا كسائر الجسمانيات التى تتصدى الأعمال الجسمانية فدفعه بأنه تعالى لا تدركه الأبصار لتعالیه عن الجسميه و لوازمها، و قوله: **«وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ»** دفع لما يسبق الى أذهان هؤلاء المشركين الذين اعتادوا بالتفكر المادى، و أدخلوا الى الحس و المحسوس و هو أنه تعالى اذا ارتفع عن تعلق الأبصار به خرج عن حيطه الحس و المحسوس

و بطل نوع الاتصال الوجودى الذى هو مناط الشعور و العلم، و انقطع عن مخلوقاته فلا يعلم بشىء كما لا يعلم به شىء، و لا يبصر شيئاً كما لا يبصره شىء فأجاب تعالى عنه بقوله: «وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ» ثم علل هذه الدعوى بقوله: «وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» و اللطيف هو الرقيق النافذ فى الشىء، و الخبير من له الخبره، فإذا كان تعالى محيطاً بكل شىء بحقيقته معنى الإحاطه كان شاهداً على كل شىء لا يفقده ظاهر شىء من الأشياء و لا باطنه، و هو مع ذلك ذو علم و خبره كان عالماً بظواهر الأشياء و بواطنها من غير أن يشغله شىء عن شىء أو يحتجب عنه شىء بشىء فهو تعالى يدرك البصر المبصر معاً، و البصر لا يدرك إلا المبصر.

و قد نسب إدراكه الى نفس الأبصار دون اولى الأبصار لأن الإدراك الموجود فيه تعالى ليس من قبيل إدراكاتنا الحسيه حتى يتعلق بظواهر الأشياء من أعراضها كالبصر مثلاً الذى يتعلق بالأضواء و الألوان و يدرك به القرب و البعد و العظم و الصغر و الحرکه و السكون بنحو بل الأعراض و موضوعاتها بظواهرها و بواطنها حاضره عنده مكشوفه له غير محجوبه عنه و لا غائبه فهو تعالى يجد الأبصار بحقائقها و ما عندها و ليست تناله.

ففى الآيتين من سطح البيان و سهوله الطريق و إيجاز القول ما يحير اللب و هما مع ذلك تهديان المتدبر فيهما الى أسرار دونها أستار (١).

قوله تعالى: قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا الْخَبْرُ؛ قال فى المجمع: البصيره البينه و الدلاله التى يبصر بها الشىء على ما هو به و البصائر جمعها انتهى. و قيل: البصيره للقلب كالبصر للعين، و الأصل فى الباب على أى حال هو الإدراك بحاسه البصر الذى يعد أقوى الإدراكات، و نيلاً من خارج الشىء المشهود، و الإصار و العمى فى الآيه هو العلم و الجهل أو الإيمان و الكفر توسعاً.

ص: ٣٨٥

و كأنه تعالى يشير بقوله: «قَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ» الى ما ذكره الآيات السابقه من الحجج الباهره على وحدانيته و انتفاء الشريك عنه، و المعنى أن هذه الحجج بصائر قد جاء تكلم من جانب الله بالوحي إلى، و الخطاب من قبل النبي صلى الله عليه و آله و سلم ثم ذكر للمخاطبين و هم المشركون أنهم على خيره من أمر أنفسهم إن شاءوا أبصروا بها و إن شاءوا عموا عنها غير أن الإبصار لأنفسهم و العمى عليها.

و من هنا يظهر أن المراد بالحفظ عليهم رجوع أمر نفوسهم و تدبير قلوبهم إليه فهو إنما ينفي كونه حفيظا عليهم تكويننا و إنما هو ناصح لهم. و الآيه كالمعترضه بين الآيات السابقه و الآيه اللاحقه، و هو خطاب منه تعالى عن لسان نبيه كالرسول يأتي بالرساله الى قوم فيؤديها إليهم و فى خلال ما يؤديه يكلمهم من نفسه بما يهيجهم للسمع و الطاعه و يحثهم على الانقياد بإظهار النصح و نفي الأغراض الفاسده عن نفسه.

قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ نُصَيِّرُكَ الْأَيَّاتِ وَ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ الخ؛ و قرئ: دارست بالخطابات و درست بالتأنيث و الغيبه، قيل: إن التصريف هو إجراء المعنى الدائر فى المعانى المتعاقبه ليجتمع فيه وجوه الفائده، و قوله: «دَرَسْتَ» من الدرس و هو التعلم و التعليم من طريق التلاوه، و على هذا المعنى قراءه دارست غير أن زياده المباني تدل على زياده المعانى و أما قراءه «دَرَسْتَ» بالتأنيث و الغيبه فهو من الدروس بمعنى تعقّى الأثر أى اندرست هذه الأقوال كقولهم: أساطير الأولين.

و المعنى: على هذا المثال نصرف الآيات و نحولها بيانا لغايات كثيره و منها أن يستكمل هؤلاء الأشفياء شقوتهم فيتهموك يا محمد بأنك تعلمتها من بعض أهل الكتاب أو يقولوا:

اندرست هذه الأقاويل و انقرض عهداها و لا نفع فيها اليوم، و لئبنيه لقوم يعلمون بتطهير قلوبهم و شرح صدورهم به، و هذا كقوله: وَ نُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ

[سوره الأنعام (٦): الآيات ١٠٦ الى ١١٣]

اشاره

اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧) وَلَا تَسْتَبُؤُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْتَبِؤا اللَّهَ عَدُوًّا بَغِيْرٍ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) وَلَوْ أَنَّمَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ (١١٢) وَ لِتَضْحَكُوا إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣)

ص: ٣٨٧

١ - ١. الانعام ٩١-١٠٥: بحث روائى فى: معنى الآيه «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ؛ عله تسميه النبى صلى الله عليه و آله و سلم امّيا؛ خلق آدم؛ الترويج بالليل؛ التوحيد.

قوله تعالى: إِنَّبَعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ أمر باتباع ما أوحى إليه من ربه من أمر التوحيد و أصول شرائع الدين من غير أن يصده ما يشاهده من استكبار المشركين عن الخضوع لكلمه الحق و الإعراض عن دعوه الدين.

و فى قوله: مِنْ رَبِّكَ المشعر بمزيد الاختصاص تلويح الى شمول العناية الخاصه الإلهيه إلا أن قوله: «مِنْ رَبِّكَ» لما كان ملحوقا بقوله: «وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ» و كان ذلك ربما يوهم أن المراد: اتبع الوحي و اعبد ربك، و اعرض عنهم يعبدوا أربابهم، و لا يخلو ذلك عن إمضاء لطريقتهم و شركهم قدم على قوله: «وَأَعْرِضْ» الخ؛ قوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» ليندفع به هذا الوهم، و يجلو معنى قوله: «وَأَعْرِضْ» الخ؛ و يأخذ موضعه.

فالمعنى: اتبع ما أوحى إليك من ربك الذى له العناية البالغه بك و الرحمه المشتمله عليك اذ خصك بوحيه و أيدك بروح الاتباع، و أعرض عن هؤلاء المشركين لا بأن تدعهم و ما يعبدون و تسكت راضيا بما يشركون فيكون ذلك إمضاء للوثنيه فإنما الإله واحد و هو ربك الذى يوحى إليك لا إله إلا هو بل أن تعرض عنهم فلا تجهد نفسك فى حملهم على التوحيد و لا

تتحمل شقا فوق طاقتك فإنما عليك البلاغ و لست عليهم بحفيظ و لا وكيل،إنما الحفيظ الوكيل هو الله و لم يشأ لهم التوحيد و لو شاء ما أشركوا لكنه تركهم و ضلالهم لأنهم أعرضوا عن الحق و استنكفوا عن الخضوع له.

قوله تعالى: **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ** تطيب لقلب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن لا يجد لشركهم و لا يحزن لخيبه المسعى فى دعوتهم فإنهم غير معجزين لله فيما أشركوا فإنما المشيه لله لو شاء ما أشركوا بل تلبسوا بالإيمان عن طوع و رغبه كما تلبس من وفق للإيمان،و ذلك أنهم استكبروا فى الأرض و استعلوا على الله و مكروا به و قد أهلكوا بذلك أنفسهم فرد الله مكرهم إليهم و حرمهم التوفيق للإيمان و الاهتداء اذ كما أن السنه الجاربه فى التكوين هى سنه الأسباب و قانون العليه و المعلوليه العام،و المشيه الإلهيه إنما تتعلق بالأشياء و تقع على الحوادث على وفقها فما تمت فيه العلل و الشرائط و ارتفعت عن وجوده الموانع كان هو الذى تتعلق بتحقيقه المشيه الإلهيه و إن كان الله سبحانه له فيه المشيه مطلقا إن لم يشأه لم يكن و إن شاء كان،كذلك السنه فى نظام التشريع و الهدايه هى سنه الأسباب فمن استرحم الله رحمه و من أعرض عن رحمته حرمه،و الهدايه بمعنى إراءه الطريق تعم الجميع فمن تعرض لهذه النفعه الإلهيه و لم يقطع طريق وصولها إليه بالفسق و الكفر و العناد شملته و أحيته بأطيب الحياه،و من اتبع هواه و عاند الحق و استعلى على الله و أخذ يمكن الله،و يستهزئ بآياته حرمه الله السعاده و أنزل الله عليه الشقوه و أضله على علم و طبع عليه بالكفر فلا ينجو أبدا.

و لو لا جريان المشيه الإلهيه على هذه السنه بطل نظام الأسباب و قانون العليه و المعلوليه و حلت الإراده الجزافيه محله و لغت المصالح و الحكم و الغايات،و أدى فساد هذا النظام الى فساد نظام التكوين لأن التشريع ينتهى بالآخره الى التكوين بوجه و ديب الفساد إليه يؤدى الى فساد أصله.

و هذا كما أن الله سبحانه لو اضطر المشركين على الإيمان و خرج بذلك النوع الإنساني عن منشعب طريقي الإيمان و الكفر، و سقط الاختيار الموهوب له و لازم بحسب الخلقه الإيمان، و استقر في أول وجوده على أريكه الكمال، و تساوى الجميع في القرب و الكرامه كان لازم ذلك بطلان نظام الدعوه و لغو التريبه و التكميل، و ارتفع الاختلاف بين الدرجات و أدى ذلك الى بطلان اختلاف الاستعدادات و الاعمال و الاحوال و الملكات و انقلب بذلك النظام الإنساني و ما يحيط به و يعمل فيه من نظام الوجود الى نظام آخر لا خبر فيه عن إنسان أو ما يشعر به فافهم ذلك.

فالمعنى: أعرض عنهم و لا يأخذك من جهه شركهم وجد و لا حزن فإن الله قادر أن يشاء منهم الإيمان فيؤمنوا كما شاء ذلك من المؤمنين فآمنوا. على أنك لست بمسئول عن أمرهم لا تكويننا و لا غير فلتطب نفسك.

قوله تعالى: **وَ لَا تَسْتَبُؤُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْتَبُؤُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ السَّبِّ مَعْرُوفٍ**، قال الراغب في المفردات: العدو التجاوز و منافاه الالتيام فتاره يعتبر بالقلب فيقال له: العداوه و المعاداه، و تاره بالمشى فيقال له العدو، و تاره في الإخلال بالعداله في المعامله فيقال له العدوان و العدو قال: فيسبوا الله عدوا بغير علم و تاره بأجزاء المقر فيقال له العدو يقال: مكان ذو عدواء أى غير متلائم الأجزاء. انتهى.

و الآيه تذكر أدبا دينيا تصان به كرامه مقدسات المجتمع الدينى و تتوقى ساحتها أن يتلوث بدرن الإهانه و الإزرء بشنيع القول و السب و الشتم و السخرية و نحوها فإن الإنسان مغرور على الدفاع عن كرامه ما يقده، و المقابله فى التعدى على ما يحسبه متعديا الى نفسه، و ربما حمله الغضب على الهجر و السب لما له عنده أعلى منزله العزه و الكرامه فلو سب المؤمنون آلهه المشركين حملتهم عصبية الجاهليه أن يعارضوا المؤمنين بسب ما له عندهم كرامه الالوهيه و هو الله عز اسمه ففى سب آلهتهم نوع تسبب الى ذكره تعالى ما لا يليق بساحه قدسه

و عموم التعليل المفهوم من قوله: «كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّهٍ عَمَلُهُمْ» يفيد عموم النهى لكل قم سيئ يؤدي الى ذكر شىء من المقدسات الدينيه بالسوء بأى وجه أدى.

قوله تعالى: كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّهٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ الزينه أمر جميل محبوب يضم الى الشىء ضمما يجلب الرغبه إليه و يحبه عند طالبه فيتحرك نحو الزينه و ينتهى الى الشىء المترين بها كاللباس المزين بهيئته الحسنه الذى يلبسه الإنسان لزيئته فيصان به بدنه عن الحر و البرد.

و قد أراد الله سبحانه أن يعيش الإنسان هذه العيشه الدنيويه ذات الشعب و الفروع و يديم حياته الأرضيه الخاصه به من طريق إعمال قواه الفعاله فيدرك ما ينفعه و ما يضره بحواسه الظاهره ثم يتصرف فيها بحواسه و قواه الباطنه ثم يتغذى بأكل أشياء و شرب أشياء و يهيج الى النكاح بأعمال خاصه و يلبس و يأوى و يجلب و يدفع و هكذا.

و له فى جميع هذه الأعمال و ما يتعلق بها لذائذ يقارنها و غايات حيويه ينتهى إليها و آخر ما ينتهى اليه الحياه السعيده الحقيقه التى خلق لها أو الحياه التى يظنها الحياه السعيده الحقيقه.

و هو إنما يقصد بما يعمله من عمل ما يتصل به من اللذه الماديه كلذه الطعام و الشراب و النكاح و غير ذلك أو اللذه الفكرية كلذه الدواء و لذه التقدم و الانس و المدح و الفخر و الذكر الخالد و الانتقام و الثروه و الأمن و غير ذلك مما لا يحصى.

و هذه اللذائذ أمور زينت بها هذه الأعمال و متعلقاتها، و قد سخر الله سبحانه بها الإنسان فهو يوقع الأفعال و يتوخى الأعمال لأجلها، و بتحققها يتحقق الغايات الإلهيه و الأغراض التكوينية كبقاء الشخص، و دوام النسل، و لو لا ما فى الأكل و الشرب و النكاح من اللذه المطلوبه لم يكن الإنسان ليتعب نفسه بهذه الحركات الشاقه المتعبه لجسمه و الثقيله على روحه فاختلف بذلك نظام الحياه، و فنى الشخص، و انقطع النسل فانقرض النوع، و بطلت حكمه

وقوله تعالى: **ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** يؤيد ما تقدم أن حكم التزيين عامّ شامل لجميع الاعمال الباطنيه كالإيمان والكفر والظاهرية كأعمال الجوارح الحسنه والسيئه فإن ظاهر الآيه أن الإنسان إنما يقصد هذه الاعمال و يوقعها لاجل ما يرغب فيه من زينت غافلا- عن الحقائق المستوره تحت هذه الزينات المضروب عليها بحجاب الغفله ثم اذا رجعوا الى ربهم نبأهم بحقيقته ما كانوا يعملونه، و عاينوا ما هم مصروفون عنه، أما أولياء الرحمن فوجدوا ما لم يكن يعلم مما أخفى لهم من قره أعين، و أما أولياء الشيطان فبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون فظهور حقائق الاعمال يوم القيامة لا يختص بأحد القبيلين من الحسنات و السيئات.

وقوله تعالى: **وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ** -الى قوله- **عِنْدَ اللَّهِ الْجَهْدُ بِفَتْحِ الْجِيمِ الطَّاقَةُ** و الإيمان جمع يمين و هى القسم، و جهد الإيمان أى ما تبلغه قدرتها و هو الطاقه، و المراد أنهم بالغوا فى القسم و أكدوه ما استطاعوا، و المراد بكون الآيات عند الله كونها فى ملكه و تحت سلطته لا ينالها أحد إلا بإذنه.

فالمعنى: و أقسموا بالله و بالغوا فيه لئن جاءتهم آياته تدل على صدق النبى صلى الله عليه و آله و سلم فيما يدعو إليه ليؤمنن بتلك الآيه- و هذا اقتراح منهم للآيه كناية- قل إنما الآيات عند الله و هو الذى يملكها و يحيط بها و ليس إلّى من أمرها شىء حتى أجيبكم إليها من تلقاء نفسى.

وقوله تعالى: **وَ مَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ** قرئ: لا يؤمنون بياء الغيبه و تاء الخطاب جميعا، و الخطاب على القراءه الاولى للمؤمنين بنوع من الالتفات، و على القراءه الثانيه للمشركين و الكلام من تتمه قول النبى صلى الله عليه و آله و سلم و هو ظاهر.

و الظاهر أن و ما في قوله: و ما يُشعِرُكُمْ للاستفهام، و المعنى: و ما هو الذى يفيد لكم العلم بواقع الأمر و هو أنهم لا يؤمنون اذا جاءتهم الآيات؟ فالكلام فى معنى قولنا:

هؤلاء يحلفون بالله لئن جاءتكم الآيات ليؤمنن بها فربما آمنتم و صدقتم بحلفهم و ليس لكم علم بأنهم اذا جاءتهم الآيات لا يؤمنون بها لأن الله لم يشأن إيمانهم فالكلام من الملاحم.

قوله تعالى: وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ الخ؛ ظاهر السياق أن الجملة عطف على قوله: «لَا يُؤْمِنُونَ» و هى بمنزلة التفسير لعدم إيمانهم، و المراد بقوله: «أَوَّلَ مَرَّةٍ» الدعوة الاولى قبل نزول الآيات قبال ما يتصور له من المره الثانيه التى هى الدعوة مع نزول الآيات.

و المعنى أنهم لا- يؤمنون لو نزلت عليهم الآيات، و ذلك أنا نقلب أفئدتهم فلا يعقلون بها كما ينبغى أن يعقلوه، و أبصارهم فلا يبصرون بها ما من حقهم أن يبصروه فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا بالقرآن أول مره من الدعوة قبل نزول هذه الآيات المفروضه و نذرهم فى طغيانهم يترددون و يتحIRON. هذا ما يقضى به ظاهر سياق الآيه.

قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ إِلَىٰ آخِرِ آيَةٍ؛ بيان آخر لقوله: «إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ» و أن قولهم: «لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا» دعوى كاذبه أجراهم عليها جهلهم بمقام ربهم فليس فى وسع الآيات التى يظنون أنها أسباب مستقلة فى إيجاد الإيمان فى قلوبهم و إقذارهم على التلبس به أن تودع فى نفوسهم الإيمان إلا بمشيئه الله.

فهذا السياق يدل على أن فى الكلام حذفاً و إيجازاً، و المعنى: و لو أننا أجبناهم فى مسألتهم و آتيناهم أعاجيب الآيات فنزلنا اليهم الملائكة فعابوهم، و أحيينا لهم الموتى فواجهوهم و كلموهم و أخبروهم بصدق ما يدعون اليه، و حشرنا و جمعنا عليهم كل شىء قبيلاً قبيلاً و صنفاً صنفاً، أو حشرنا عليهم كل شىء قبلاً و مواجهه فشهدوا لهم بلسان الحال أو القال، ما

كانوا ليؤمنوا و لم يؤثر شيء من ذلك في استجابتهم للإيمان إلا أن يشاء الله إيمانهم.

فلا يتم لهم الإيمان بشيء من الاسباب و العلل إلا بمشيئه الله فإن النظام الكونى على عرضه العريض و إن كان يجرى على طبق حكم السببيه و قانون العليه العام غير أن العلل و الاسباب مفتقره فى أنفسها متدليه الى ربها غير مستقله فى شيء من شئونها و مقتضياتها فلا يظهر لها حكم الا بمشيئه الله و لا يحيا لهم رسم الا بإذنه.

غير أن المشركين أكثرهم-و لعلهم غير العلماء الباغين منهم-يجهلون مقام ربهم و يتعلقون بالاسباب على أنها مستقله فى نفسها مستغنيه عن ربها فيظنون أن لو أتاهم سبب الايمان -و هو الآيه المقترحه- آمنوا و اتبعوا الحق و قد اختلط عليهم الامر بجهلهم فأخذوا هذه الأسباب الناقصه المفتقره الى مشيئه الله أسبابا مستقله تامه مستغنيه عنه.

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الشياطين جمع شيطان و هو فى اللغه الشيرير غلب استعماله فى إبليس الذى يصفه القرآن و ذريته، و الجن من الجن بالفتح و هو الاستتار، و هو فى عرف القرآن نوع من الموجودات ذوات الشعور و الإراده مستور عن حواسنا بحسب طبعها و هم غير الملائكه.

يذكر القرآن أن إبليس الشيطان من سنخهم. و الوحي هو القول الخفى بإشاره و نحوها، و الزخرف الزينه المزوقه أو الشىء المزوق فزخرف القول الكلام المزوق المموه الذى يشبه الحق و ليس به، و غرورا مفعول مطلق لفعل مقدر من جنسه أو مفعول له.

و المعنى: و مثل ما جعلنا لك جعلنا لكل نبي عدوا هم شياطين الإنس و الجن يشير بعضهم الى بعض-و كأن المراد وحي شياطين الجن بالوسوسه و النزغه الى شياطين الإنس و وحي بعض شياطين الإنس الى بعض آخر منهم بإسرار المكر و التسويل- بأقوال مزوقه و كلمات مموه يغرونهم بذلك غرورا أو لعورهم و إضلالهم بذلك.

و قوله: وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ يشير بذلك الى أن حكم المشيئه عام جار نافذ

فكما أن الآيات لا تؤثر في إيمانهم شيئا إلا بمشيئه الله كذلك معاداه الشياطين الأنبياء و وحيهم زخرف القول غرورا كل ذلك بإذن الله و لو شاء الله ما فعلوه و لم يوحوا ذلك فلم يكونوا عدوا للأنبياء، و بهذا المعنى يتصل هذه الآية بما قبلها لاشتراكهما في بيان توقّف الامور على المشيه.

و قوله: فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ تفرّيع على نفوذ الشميه أى اذا كانت هذه المعاداه و الإفساد بالوساوس كل ذلك بإذن الله و لم يكونوا بمعجزين لله فى مشيته النافذه الغالبه فلا يحزنك ما تشاهد من إخلالهم بالأمر و إفسادهم له بل اتركهم و ما يفترونه على الله من دعوى الشريك و نحوها.

فقوله: وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ فى معنى قوله فى صدر الآيات «وَ أَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا» .

و الكلام فى قوله تعالى: «وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ» الخ؛ حيث أسند ظاهرا جعلهم عدوا للأنبياء- و فيه التسبب الى الشر و البعث الى الشرك و المعصيه- الى الله سبحانه و هو منزّه من كل شر و سوء نظير الكلام فى إسناده تزيين الأعمال الى الله سبحانه فى قوله: «كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ» و قد تقدم الكلام فيه، و كذا الكلام فى ظاهر ما يفيد فى الآية التالىة: «وَ لَتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ» الخ؛ حيث جعل هذه المظالم و الآثام غايات إلهيه للدعوه الحقّه.

قوله تعالى: وَ لَتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ الى آخر الآيه؛ الاعتراف هو الاكتساب، و ضمير المفرد للوحى المذكور فى الآيه السابقه، و اللازم فى قوله «لَتَصْغَىٰ» للغايه و الجملة معطوفه على مقدر، و التقدير: فعلنا ما فعلنا و شئنا ما شئنا و لم نمنع عن و حى بعضهم لبعض زخرف القول غرورا لغايات مستوره و لتصغى و تجيب إليه أفئده الذين لا- يؤمنون بالآخيره و ليرضوه و ليكتسبوا ما هم مكتسبون لينالوا بذلك جميعا ما

يسألونه بلسان استعدادهم من شقاء الآخرة، فإن الله سبحانه يمد كلا من أهل السعادة و أهل الشقاء بما يتم به سيرهم الى منازلهم و يرزقهم ما يقترحونه بلسان استعدادهم قال تعالى:

كُلًّا نُمِدُّ هُوْلَاءِ وَ هُوْلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (الإسراء ٢٠/١).

[سوره الأنعام (٦): الآيات ١١٤ الى ١٢١]

إشارة

أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أُنْبَغَى حَكَمًا وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَ عَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) وَ إِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَصِلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧) فَكُلُوا مِنْهَا ذِكْرَ اسْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَ مَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُررْتُمْ إِلَيْهِ وَ إِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَ ذَرُوا ظَاهِرَ الْآثِمِ وَ بَاطِنَهُ إِنْ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْآثِمَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٢٠) وَ لَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ إِنَّهُ لَفَسِيْقٌ وَ إِنْ الشَّيَاطِينِ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)

ص: ٣٩٦

١- ١). الانعام ١٠٦-١١٣: بحث روائى فى: مشركى مكه و اقتراحهم على النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى ترك الدعوى الى التوحيد و جواب النبى صلى الله عليه و آله و سلم لهم؛ تقلب القلوب الابصار.

قوله تعالى: أَفَغَيْرَ اللَّهِ أُبْتَغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا قال في المجمع: الحكم والحاكم بمعنى واحد إلا أن الحكم أمدح لأن معناه من يستحق أن يتحاكم إليه فهو لا يقضى إلا بالحق وقد يحكم الحاكم بغير حق. قال: ومعنى التفصيل تبين المعاني بما ينفي التخليط المعنى للمعنى، وينفى أيضا التداخل الذي يوجب نقصان البيان عن المراد، انتهى.

وفي قوله: أَفَغَيْرَ اللَّهِ أُبْتَغَىٰ حَكَمًا تفريع على ما تقدم من البصائر التي جاءت من قبله تعالى، وقد ذكر قبل ذلك في القرآن أنه كتاب أنزله مبارك مصدق الذي بين يديه من التوراه والإنجيل، والمعنى: أغير الله من سائر من تدعون من الآلهة أو من ينتمى إليهم أطلب حكما يتبع حكمه وهو الذي أنزل عليكم هذا الكتاب وهو القرآن مفصلا متميذا بعض معارفه من بعض غير مختلط بعض أحكامه ببعض، ولا يستحق الحكم إلا من هو على هذه الصفة فالآية كقوله تعالى: وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (المؤمن ٢٠).

وقوله: أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ (يونس / ٣٥).

قوله تعالى: وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ رجوع الى خطاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بما يتأكد به يقينه ويزيد في ثبوت قدمه فيما ألقاه إلى المشركين من

الخطاب المشعر بأن الكتاب النازل إليه منزل من ربه بالحق ففي الكلام التفات، وهو بمنزله المعترضه ليزيد بذلك رسوخ قدمه و اطمئنان قلبه و ليعلم المشركون أنه على بصيره من أمره.

و قوله: بِإِلْحَاقٍ مَتَعَلِقٍ بِقَوْلِهِ: «مُنزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ» و كون التنزيل بالحق هو أن لا يكون بتنزيل الشياطين بالتسويل أو بطريق الكهان كما في قوله تعالى: هَلْ أُنبِئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلُ الشَّيَاطِينَ، نَزَّلُوا عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (الشعراء ٢٢٢) أو بتخليط الشياطين بعض الباطل بالوحى الإلهي، و قد أمن الله رسوله من ذلك بمثل قوله: عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا، لِيُعَلِّمَ أَنْ قَدْ أبلغوا رسالاتِ رَبِّهِمْ (الجن ٢٨).

قوله تعالى: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَ عِدْلًا لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ الكلمه - و هى ما دل على معنى تام أو غيره - ربما استعملت فى القرآن فى القول الحق الذى قاله الله عز من قائل من القضاء أو الوعد كما فى قوله: وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّتَ بَيْنَهُمْ (يونس ١٩) يشير الى قوله لآدم عند الهبوط وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (البقره ٣٦) و قوله تعالى: حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ (يونس ٩٦) يشير الى قوله تعالى لا إبليس: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (ص ٨٥) و قد فسرها فى موضع آخر بقوله: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (هود ١١٩) و كقوله تعالى: وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسَيْنِ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا (الأعراف ١٣٧) يشير الى ما وعدهم أنه سينجيهم من فرعون و يورثهم الأرض كما يشير إليه قوله: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (القصص ٥).

و ربما استعملت الكلمه فى العين الخارجى كالإنسان مثلا كقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُبْشِّرُكَ

بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ (آل عمران ٤٥) والعناية فيه أنه عليه السلام خرق عادة التدريج وخلق بكلمه إلهيه موجدته قال تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران ٥٩).

فظاهر سياق الآيات فيما نحن فيه يعطى أن يكون المراد بقوله: «وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا» كلمه الدعوه الإسلاميه و ما يلازمها من نبوه محمد صلى الله عليه و آله و سلم و نزول القرآن المهيمن على ما تقدم عليه من الكتب السماويه المشتمل على جوامع المعارف الإلهيه و كليات الشرائع الدينيه كما أشار إليه فيما حكى من دعاء إبراهيم عليه السلام عند بناء الكعبه رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ (البقره ١٢٩).

و أشار الى تقدم ذكره فى الكتب السماويه فى قوله: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ (الأعراف ١٥٧) و بذلك يشعر قوله فى الآيه السابقه: «وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَظُنُّونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ» و قوله الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ (البقره ١٤٦) الى غير من ذلك الآيات الكثيره.

فالمراد بتمام الكلمه-و الله أعلم-بلوغ هذه الكلمه أعنى ظهور الدعوه الإسلاميه بنبوه محمد صلى الله عليه و آله و سلم و نزول الكتاب المهيمن على جميع الكتب، مرتبه الثبوت و استقرارها فى مستقر التحقق بعد ما كانت تسير دهرا طويلا- فى مدارج التدريج بنبوه بعد نبوه و شريعته بعد شريعته فإن الآيات الكريمه داله على أن الشريعه الإسلاميه تتضمن جمل ما تقدمت عليه من الشرائع و تزيد عليها بما ليس فيها كقوله تعالى: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى (الشورى ١٣).

و بذلك يظهر معنى تمام الكلمه و أن المراد به انتهاء تدرج الشرائع من مراحل النقص الى مرحله الكمال، و مصداقه الدين المحمدي قال تعالى: وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (الصف / ٩).

و تمام هذه الكلمه الإلهيه صدقا هو أن يصدق القول بتحقيقها في الخارج بالصفه التي بين بها، و عدلا أن تتصف بالتقسيط على سواء فلا- يتخلف بعض أجزائه عن بعض و تزن الأشياء على النحو الذي من شأنها أن توزن به من غير إفسار أو حيف و ظلم، و لذلك بين هذين القيدين أعني «صِدْقًا وَ عَدْلًا» بقوله: «لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ» فإن الكلمه الإلهيه اذا لم تقبل تبديلا من مبدل سواء كان المبدل هو نفسه تعالى كأن ينقض ما قضى بتبدل إرادته أو يخلف ميعاده، أو كان المبدل غيره تعالى كأن يعجزه غيره و يقهره على خلاف ما يريد كانت كلمته صدقا تقع كما قال، و عدلا لا تنحرف عن حالها التي كانت عليها و صفها الذي و صفت به فالجمله أعني قوله: «لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ» بمنزله التعليل يعلل بها قوله: «صِدْقًا وَ عَدْلًا» .

و قوله تعالى: «وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» أي السميع المستجيب لما تدعونه بلسان حاجتكم، العليم بحقيقه ما عندكم من الحاجه، أو السميع بما يحدث في ملكه بواسطه الملائكه الرسل، و العليم بذلك من غير واسطه، أو السميع لأقوالكم، العليم بأفعالكم.

قوله تعالى: «وَ إِنْ تُطِغْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضَيِّعْ لُؤْكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الْخَرْصُ الْكُذْبُ وَ التَّخْمِينُ، وَ الْمَعْنَى الثَّانِي هُوَ الْأَنْسَبُ بِسِيَاقِ الْآيَةِ فَإِنَّ الْجُمْلَةَ أَعْنَى قَوْلِهِ: «وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ» وَ التِّي قَبْلَهَا أَعْنَى قَوْلِهِ: «إِنْ لَا يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ» وَ اقْعَتَانِ مَوْقِعِ التَّعْلِيلِ لِقَوْلِهِ: «وَ إِنْ تُطِغْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ» الخ؛ وَ اتْبَاعِ الظَّنِّ وَ الْقَوْلِ بِالْخَرْصِ وَ التَّخْمِينِ سَبِيحَانِ بِالطَّبَعِ لِلضَّلَالِ فِي الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَسُوغُ الْأَعْتِمَادَ فِيهَا إِلَّا عَلَى الْعِلْمِ وَ الْيَقِينِ كَالْمَعَارِفِ الرَّاجِعِ إِلَيْهِ تَعَالَى وَ الشَّرَائِعِ الْمَأْخُودَةِ مِنْ قَبْلِهِ.

و سير الإنسان و سلوكه الحيوى في الدنيا و إن كان لا يتم دون الركون الى الظن و الاستمداد من التخمين حتى أن الباحث عن علوم الإنسان الاعتباريه و العلل و الأسباب التي تدعوه الى

صوغه لها و تقلبيها فى قالب الاعتبار، و ارتباطها بشئونه الحيويه و أعماله و أحواله لا يكاد يجد مصداقا يركن الإنسان فيه الى العلم الخالص و اليقين المحض اللهم إلا بعض الكليات النظرية التى ينتهى إليها مما يضطر الى الإذعان بها و الاعتماد عليها.

إلا- أن ذلك كله فيما يقبل التقريب و التخمين من جزئيات الامور فى الحياه، و أما السعاده الإنسانيه التى فيه فوز هذا النوع و فلاحه، و الشقاء الذى يرتبط به الهلاك الأبدى و الخسران الدائم، و ما يتوقف عليه التبصر فيهما من النظر فى العالم و صانعه و الغرض من إيجاده و ما ينتهى إليه الأمر من البعث و النشور و ما يتعلق به من النبوه و الكتاب و الحكم فإن ذلك كله مما لا يقبل الركون الى الظن و التخمين و الله سبحانه لا يرتضى من عباده فى ذلك إلا العلم و اليقين، و الآيات فى ذلك كثيره جدا كقوله تعالى: **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ (الإسراء ٣٦).**

و من أوضحها دلالة هذه الآيه التى نحن فيها يبين فيها أن أكثر اهل الأرض لركونهم العام الى الظن و التخمين لا يجوز طاعتهم فيما يدعون إليه و يأمرؤن به فى سبيل الله و طريق عبوديته لأن الظن ليس مما يكشف به الحق الذى يستراح إليه فى أمر الربوبيه و العبوديه لملازمته الجهل بالواقع و عدم الاطمئنان إليه، و لا عبوديه مع الجهل بالرب و ما يريده من عبده.

فهذا هو الذى يقضى به العقل الصريح، و قد أمضاه الله سبحانه كما فى قوله فى الآيه التاليه فى معنى تعليل النهى عن الطاعة: **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** حيث علل الحكم بعلم الله دون حكم العقل، و قد جمع سبحانه بين الطريقتين جميعا فى قوله:

وَ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ الظَّنُّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً - وهذا أخذ بحكم العقل - **فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى (النجم ٣٠)** و فى ذيل الآيه استناد الى علم الله سبحانه و حكمه.

قوله تعالى: **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**

ذكروا أن «أَعْلَمُ» إذا لم يتم بمن ربما أفاد معنى التفضيل و ربما استعمل بمعنى الصفه خاليه عن التفضيل، و الآيه تحتمل المعنيين جميعا إن أريد حقيقه العلم بالضالين و المهتدين فهو لله سبحانه لا يشاركه فيها أحد حتى يفضل عليه، و إن أريد مطلق العلم أعم مما كان المتصف به متصفا بذاته أو كان اتصافه به يعطيه منه تعالى كان المتعين هو معنى التفضيل فإن لغيره تعالى علما بالضال و المهتدى قدر ما أفاضه الله عليه من العلم.

و تعدى أعلم بالباء فى قوله: «أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» يدل على أن قوله: «مَنْ يَضِلُّ» منصوب بنزع الخافض و التقدير: «أعلم بمن يضل» و يؤيده ما نقلناه آنفا من آيه سوره النجم.

قوله تعالى: فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ لما تمهّد ما قدّمه من البيان الذى هو حجه على أن الله سبحانه هو أحق بأن يطاع من غيره استنتج منه وجوب الأخذ بالحكم الذى شرّعه و هو الذى يدل عليه هذه الآيه، و وجوب رفض ما يبيحه غيره بهواه من غير علم و يجادل المؤمنين فيه بوحى الشياطين إليه، و هو الذى يدل عليه قوله:

«وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ» الى آخر الآيه.

و من هنا يظهر أن العناية الأصلية متعلقه بجملتين من بين الجمل المتسقه فى الآيه الى تمام أربع آيات، و سائر الجمل مقصوده بتبعها يبين بها ما يتوقف عليه المطلوب بجهاته فأصل الكلام: فكلوا مما ذكر اسم الله عليه و لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه أى فرّقوا بين المذكى و الميته فكلوا من هذه و لا تأكلوا من ذاك، و إن كان المشركون يجادلونكم فى أمر التفريق.

فقوله: فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ تفرّيع للحكم على البيان السابق، و لذا أردفه بقوله: «إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ» و المراد بما ذكر اسم الله عليه الذى يبيحه المذكاه.

قوله تعالى: وَمِمَّا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ الى آخر الآيه؛ بيان تفصيلى لإجمال التفرّيع الذى فى الآيه السابقه، و المعنى: أن الله فصل لكم ما حرّم عليكم و استثنى صوره الاضطرار و ليس فيما فصل لكم ما ذكر اسم الله عليه فلا بأس بأكله و إن كثيرا

ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين المتجاوزين عن حدوده و هؤلاء هم المشركون القائلون: لا فرق بين ما قتلتموه أنتم و ما قتل الله فكلوا الجميع أو دعوا الجميع.

و يظهر بما مر أن معنى قوله: «وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا» ما لكم من نفع في أن لا تأكلوا، و ما للاستفهام التعجيبى، و قيل: المعنى ليس لكم أن لا تأكلوا، و ما للنفي.

و يظهر من الآية أن محرّمات الأكل نزلت قبل سورة الأنعام و قد وقعت في سورة النحل من السور المكيه فهي نازله قبل الأنعام.

قوله تعالى: وَ ذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَ بَاطِنَهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ و إن كانت مطلقه بحسب المضمون تنهى عن عامه الإثم ظاهره و باطنه غير أن ارتباطها بالسياق المتصل الذى لسابقتها و لاحقتها يقضى بكونها تمهيدا للنهى الآتى فى قوله: «وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ» و لازم ذلك أن يكون الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه من مصاديق الإثم حتى يرتبط بالتمهيد السابق عليه فهو من الإثم الظاهر أو الباطن لكن التأكيد البليغ الذى فى قوله: «وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ» يفيد أنه من الإثم الباطن و إلا لم تكن حاجه الى تأكيده ذاك التأكيد الأكيد.

و قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ تعليل للنهى و إنذار بالجزاء السيئ.

قوله تعالى: وَ لَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ نهى هو زميل قوله «فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ» كما تقدم.

و قوله: وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ الى آخر الآية؛ بيان لوجه النهى و تثبيت له أما قوله: «وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ» فهو تعليل و التقدير: إنه لفسق و كل فسق يجب اجتنابه فالأكل مما لم يذكر اسم الله عليه واجب الاجتناب.

و أما قوله: وَ إِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَيْهِمْ أَوْلِيَاءَهُمْ لِيَجَادُواكُمْ فِيهِ رد ما كان المشركون يلقونه الى المؤمنين من الشبهه، و المراد بأولياء الشياطين هم المشركون، و معناه أن

ما يجادلكم به المشركون و هو قولهم: إنكم تأكلون مما قتلتم و لا تأكلون مما قتله الله يعنون الميتة، هو مما أوحاه إليهم الشياطين من باطل القول، و الفارق أن أكل الميتة فسق دون أكل المذكى، و أن الله حرم أكل الميتة و لم يحرم أكل المذكى فليس فيما حرمه الله ذكر ما ذكر اسم الله عليه.

و أما قوله: وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ فهو تهديد و تخويف بالخروج من الإيمان، و المعنى: إن أطعتم المشركين فى أكل الميتة الذى يدعونكم إليه صرتم مشركين مثلهم إما لأنكم استنتم بسننه المشركين، أو لأنكم بطاعتهم تكونوا أولياء لهم فتكونون منهم قال تعالى: وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ (المائدة ٥١).

و وقوع هذه الجملة أعنى قوله: «وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ» الخ؛ فى ذيل النهى عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه دون الأمر بأكل ما ذكر اسم الله عليه يدل على أن المشركين كانوا يريدون من المؤمنين بجدالهم أن لا يتركوا أكل الميتة لا أن يتركوا أكل المذكى.

[سوره الأنعام (٦): الآيات ١٢٢ الى ١٢٧]

إشارة

أَوْ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمًا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَ مَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَ إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلَ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سِيبَةَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤) فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَ هَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧)

قوله تعالى: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَتَّلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا الْآيَةُ واضحه المعنى و هى بحسب ما يسبق الى الفهم البسيط الساذج مثل مضروب لكل من المؤمن و الكافر يظهر بالتدبر فيه حقيقه حاله فى الهدى و الضلال.

فالإنسان قبل أن يمسه الهدى الإلهى كالميت المحروم من نعمه الحياه الذى لا حس له و لا حركه فإن آمن بربه إيماناً يرتضيه كان كمن أحياه الله بعد موته، و جعل له نوراً يدور معه حيث دار يبصر فى شعاعه خيره من شره و نفعه من ضره فيأخذ ما ينفعه و يدع ما يضره و هكذا يسير فى مسير الحياه.

و أما الكافر فهو كمن وقع فى ظلمات لا- مخرج له منها لا- مناص له عنها ظلمه الموت و ما بعد ذلك من ظلمات الجهل فى مرحله تمييز الخير من الشر و النافع من الضار، و نظير هذه الآيه فى معناها بوجه قوله تعالى: إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمُؤْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ (الأنعام/٣٦) و قال تعالى: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً (النحل / ٩٧).

ففى الكلام استعاره الموت للضلال و استعاره الحياه للإيمان أو الاهتداء و الإحياء للهدايه الى الايمان و النور للتبصر بالأعمال الصالحه،و الظلمه للجهل كل ذلك فى مستوى التفهيم و التفهيم العموميّين لما أن أهل هذا الطرف لا يرون للإنسان بما هو إنسان حياه وراء الحياه الحيوانيه التى هى المنشأ للشعور باللذائذ الماديه و الحركه الاراديه نحوها.

فهؤلاء يرون أن المؤمن و الكافر لا يختلفان فى هذه الموهبه و هى فيهما شرع سواء فلا محاله عد المؤمن حيا بحياه الايمان ذا نور يمشى به فى الناس،وعد الكافر ميتا بميته الضلال فى ظلمات لا مخرج منها ليس إلا مبتنيا على عنايه تخيليه و استعاره تمثليه يمثل بها حقيقه المعنى المقصود.

لكن التدبر فى أطراف الكلام و التأمل فيما يعرّفه القرآن الكريم يعطى لآيه معنى وراء هذا الذى يناله الفهم العامى فإن الله سبحانه ينسب للإنسان الالهى فى كلامه حياه خالده أبديه لا تنقطع بالموت الدنيوى هو فيها تحت ولايه الله محفوظ بكلاءته مصون بصيانتة لا يمسه نصب و لا لغوب،و لا مذلّه شقاء و لا تعب،مستغرب فى حب ربه مبتهج ببهجه القرب لا يرى إلا خيرا،و لا يوجه إلا سعاده و هو فى أمن و سلام لا خوف معه و لا خطر،و سعاده و بهجه و لذه لا نفاذ لها و لا نهايه لأمدها.

و من كان هذا شأنه فإنه يرى ما لا يراه الناس،و يسمع ما لا يسمعون،و يعقل ما لا يعقلونه،و يريد ما لا يريدونه و إن كانت ظواهر أعماله و صور حركاته و سكناته تحاكي أعمال غيره و حركاتهم سكناتهم و تشابها فله شعور و إراده فوق ما لغيره من الشعور و الإراده فعنده من الحياه التى هى منشأ الشعور و الإراده ما ليس عند غيره من الناس فللمؤمن مرتبه من الحياه ليست عند غيره.

فقوله: **أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ** أى ضالا- من حيث نفسه أو ضالا- كافرا قبل أن يؤمن بربه و هو نوع من الموت فأحييناه بحياه الإيمان أو الهدايه و المآل واحد-و جعلنا له

نورا أى علما متولدا من إيمانه كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِيما رواه الفريقان: «من عمل بما علم رزقه اللهُ علم ما لم يعلم أو علمه اللهُ ما لم يعلم». فإن روح الإيمان اذا تمكنت من نفس الإنسان و استقرت فيها حوّلت الآراء و الأعمال الى صور تناسبها و لا- تخالفها و كذلك سائر الملكات أعم من الفضائل و الرذائل اذا استقرت فى باطن الانسان لم تلبث دورا تحوّل آراءه و اعماله الى أشكال تحاكيها.

قوله تعالى: كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ظاهر سياق صدر الآيه أن يكون التشبيه فى قوله: «كَذَلِكَ» من قبيل تشبيه الفرع بالأصل بعنايه إعطاء القاعده الكليه كقوله تعالى: كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ و قوله: كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ (الرعد ١٧/أى اتخذ ما ذكرناه من المثل أصلا و قس عليه كل ما عثرت به من مثل مضروب فمعنى قوله: «كَذَلِكَ زُيِّنَ» الخ؛على هذا المثال المذكور أن الكافر لا- مخرج له من الظلمات، زين للكافرين أعمالهم فقد زينت لهم أعمالهم زينه تجذبهم إليها و تحبسهم و لا تدعهم يخرجوا منها الى فضاء السعاده و فسحه النور أبدا و الله لا يهدى القوم الظالمين.

قوله تعالى: وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا الى آخر الآيه؛ كأن المراد بالآيه أنا أحيينا جمعا و جعلنا لهم نورا يمشون به فى الناس، و آخرين لم نحيبهم فمكثوا فى الظلمات فهم غير خارجين منها و لا- أن أعمالهم المزينه تنفعهم و تخلصهم منها كذلك جعلنا فى كل قريه أكابر مجرميها ليمكروا فيها بالدعوه الدينيه و النبى و المؤمنين لكنه لا ينفعهم فإنهم فى ظلمات لا يبصرون بل إنما يمكرون بأنفسهم و لا يشعرون.

و على هذا فقوله: «كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» مسوق لبيان أن أعمالهم المزينه لهم لا تنفعهم فى استخلاصهم من الظلمات التى هم فيها، و قوله: «وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ» الخ؛ مسوق لبيان أن أعمالهم و مكرهم لا يضر غيرهم إنما و يقع مكرهم على أنفسهم و ما يشعرون لمكان ما غمرهم من الظلمه.

و الجعل في قوله: «جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارَ مُجْرِمِيهَا» كالجعل في قوله: «وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا» فالأنسب أنه بمعنى الخلق، والمعنى: خلقنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها و كون مكرهم غايه للخلقه و غرضاً للجعل نظير كون دخول النار غرضاً إلهياً في قوله: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ (الأعراف ١٧٩)» وقد مر الكلام في معنى ذلك في مواضع من هذا الكتاب. و إنما خص بالذكر أكابر مجرميها لأن المطلوب بيان رجوع المكر الى ماكره، و المكر بالله و آياته إنما يصدر منهم، و أما أصاغر المجرمين و هم العامه من الناس فإنما هم أتباع و أذئاب.

و أما قوله: «وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ فَذَلِكَ أَن الْمَكْرُ هُوَ الْعَمَلُ الَّذِي يَسْتَبْطِنُ شِرًا وَ ضِرًا يَعُودُ إِلَى الْمَمْكُورِ بِهِ فَيُفْسِدُ بِهِ غَرَضَهُ الْمَطْلُوبَ وَ يَضِلُّ بِهِ سَعِيهِ وَ يَبْطُلُ نَجَاحُ عَمَلِهِ، وَ لَا غَرَضَ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ فِي دَعْوَتِهِ الدِّينِيَّةِ، وَ لَا نَفْعَ فِيهَا إِلَّا مَا يَعُودُ إِلَى نَفْسِ الْمَدْعُودِينَ فَلَوْ مَكَرَ الْإِنْسَانُ مَكَرًا بِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ لَيُفْسِدُ بِذَلِكَ الْغَرَضَ مِنَ الدَّعْوَةِ وَ يَمْنَعُ عَنِ نَجَاحِ السَّعْيِ فِيهَا فَإِنَّمَا مَكَرَ بِنَفْسِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ. وَ اسْتَضَرَّ بِذَلِكَ هُوَ نَفْسَهُ دُونَ رَبِّهِ.

قوله تعالى: «وَ إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ - إِلَى قَوْلِهِ - رِسَالَتَهُ قَوْلِهِمْ: «لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ» يريدون به أن يؤتوا نفس الرساله بما لها من مواد الدعوه الدينيه دون مجرد المعارف الدينيه من أصول و فروع و إلا كان اللفظ المناسب له أن يقال: «مثل ما أوتى أنبياء الله» أو ما يشاكل ذلك كقولهم: لَوْ لَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ (البقره ١١٨) و قولهم: لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا (الفرقان ٢١).

فمرادهم أنا لن نؤمن حتى نوتى الرساله كما أوتيتها الرسل، و فيه شيء من الاستهزاء فإنهم ما كانوا قائلين بالرساله فهو بوجه نظير قولهم: لَوْ لَا - نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِيِّينَ عَظِيمٍ (الزخرف ٣١) كما أن جوابه نظير جوابه و هو قوله تعالى: أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ» .

و مما تقدم يظهر أن الضمير في قوله: «وَ إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا» الخ؛ عائذ الى «أَكْبَرُ مُجْرِمِيهَا» في الآيه السابقه، اذ لو رجع الى عامه المشركين لغى قولهم: «حَتَّى نُؤْتِيَ مَثَلًا مَّا أُوتِيَ رُسُلَ اللَّهِ» اذ لا معنى لرساله جميع الناس حيث لا أحد يرسلون إليه، و لم يقع قوله: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ» موقعه بل كان حق الجواب أنه لغو من القول كما عرفت.

و يؤيده الوعيد الذى فى ذيل الآيه: «سَيَصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ» حيث وصفهم بالإجرام و علل الوعيد بمكرهم، و لم ينسب المكر فى الآيه السابقه إلا الى أكابر مجرميها، و الصغار الهوان و الذله.

قوله تعالى: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ الشرح هو البسط و قد ذكر الراغب فى مفرداته أن أصله بسط اللحم و نحوه، و شرح الصدر الذى يعد فى الكلام و عاء للعلم و العرفان هو التوسعه فيه بحيث يسع ما يصادفه من المعارف الحقه و لا يدفع كلمه الحق اذا ألقيت إليه كما يدل عليه ما ذكر فى وصف الإضلال بالمقابله و هو قوله:

«يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا» الخ؛ فمن شرح الله صدره للإسلام و هو التسليم لله سبحانه فقد بسط صدره و وسعه لتسليم ما يستقبله من قبله تعالى من اعتقاد حق أو عمل دينى صالح فلا يلقى إليه قول حق إلا وعاه و لا عمل صالح إلا أخذ به و ليس إلا أن لعين بصيرته نورا يقع على الاعتقاد الحق فينوره أو العمل الصالح فيشرقه خلاف من عميت عين قلبه فلا يميز حقا من باطل و لا صدقا من كذب قال تعالى: فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (الحج ٤٦).

و قد بين تعالى شرح الصدر بهذا البيان فى قوله: أَمْ مَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ فوصفه فعرفه بأن صاحبه راكب نور من الله يشرق قدامه فى مسيره ثم عرفه بالمقابله بليته فى القلب يقبل به ذكر الله و لا يدفعه لقسوه ثم قال: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ

تَلِينَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (الزمر ٢٣) فذكر لين القلب الى ذكر الله و طوعه للحق و أفاد أن ذلك هو الهدى الإلهي الذي يهدي به من يشاء، و عند ذلك يرجع الآيتان أعني آيه الزمر و الآيه التي نحن فيها الى معنى واحد و هو أن الله سبحانه عند هدايته عبدا من عباده يبسط صدره فيسع كل اعتقاد حق و عمل صالح و يقبله بلين و لا يدفعه بقسوه و هو نوع من النور المعنوي الذي ينور القول الحق و العمل الصالح و ينصر صاحبه فيمسك بما نوره فهذا معرّف يعرف به الهدايه الإلهيه.

و من هنا يظهر أن الآيه أعني قوله: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ» بمزله بيان آخر لقوله: «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ» و التفریع الذي فی قوله: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ» الخ؛ من قبيل تفریع أحد البيانين على الآخر بدعوى أنه نتیجته كأن التصادق بين البيانين يجعل أحدهما نتیجه مترتبه و فرعا متفرعا على الآخر، و هو عنایه لطيفه.

و المعنى: فإذا كان من أحياء بعد ما كان ميتا على هذه الصفه و هى أنه على نور من ربه يستضيء به له واجب الاعتقاد و العمل فيأخذ به فمن يرد الله أن يهديه يوسع صدره لأن يسلم لربه و لا يستنكف عن عبادته فالاسلام نور من الله، و المسلمون لربهم على نور من ربهم.

قوله تعالى: «وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الْإِضْلَالُ مَقَابِلُ الْهُدَايَةِ، و لذا كان أثره مقابلا لأثرها و هو التضيق المقابل للشرح و التوسعه و أثره أن لا يسع ما يتوجه إليه من الحق و الصدق، و يتخرج عن دخولهما فيه، و لذا أردف كون الصدر ضيقا بكونه حرجا.

و الحرج على ما فى المجمع أضيق الضيق، و قال فى المفردات: أصل الحرج و الحراج مجتمع الشىء و تصور منه ضيق ما بينهما فقيل للضيق حرج و للإثم حرج. انتهى.

فقوله: حَرْجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ فِي محل التفسير لقوله: «ضَيِّقًا»

و إشاره الى أن ذلك نوع من الضيق يناظر بوجه التضيق و التحرج الذى يشاهد من الظروف و الأوعيه اذا أريد إدخال ما هو أعظم منها و وضعه فيها.

و قوله: كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ إعطاء ضابط كلى فى إضلال الذين لا- يؤمنون أنهم يفقدون حال التسليم لله و الانقياد للحق، و قد أطلق عدم الإيمان و إن كان مورد الآيات عدم الإيمان بالله سبحانه و هو الشرك به لكن الذى سبق من البيان فى الآيه يشمل عدم الإيمان بالله و هو الشرك، و عدم الإيمان بآيات الله و هو رد بعض ما أنزله الله من المعارف و الأحكام فقد دل على ذلك كله بقوله: «يَشْرَحُ صِدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ» الخ؛ و بقوله سابقا: «وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ» الخ؛ و قوله: «يَجْعَلُ صِدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا» الخ؛ و بقوله سابقا: «فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا» .

و قد سمي فى الآيه الضلال الذى يساوق عدم الإيمان رجسا و الرجس هو القدر غير أنه اعتبر فيه نوعا من الاستعلاء الدال عليه قوله: «عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ» كأن الرجس يعلوهم و يحيط بهم فيحول بينهم و بين غيرهم فيتنفّر منهم الطباع كما يتنفّر من الغذاء الملطخ بالقدر.

و قد استدل بالآيه على أن الهدى و الضلال من الله لا- صنع فيهما لغيره تعالى و هو خطأ فإن الآيه- كما عرفت- فى مقام بيان حقيقه الهدى و الضلال اللذين من الله و نوع تعريف لهما و تحديد لا فى مقام بيان انحصارهما فيه و انتفائهما عن غيره كما هو المدعى و هو ظاهر.

قوله تعالى: وَ هَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا إلى آخر الآيه، الاشاره الى ما تقدم بيانه فى الآيه السابقه من صنعه عن الهدايه و الاضلال و قد تقدم معنى الصراط و استقامته و قد بين تعالى فى الآيه عما ذكره من شرح الصدر للاسلام اذا اراد الهدايه و من جعل الصدر ضيقا حرجا عن اراده الاضلال هو صراطه المستقيم و سنته الجاربه التى لا تختلف و لا تتخلف فما من مؤمن إلا و هو منشرح الصدر للاسلام بالله و غير المؤمن بالعكس من ذلك.

ف قوله تعالى: وَ هَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا بيان ثان و تأكيد لكون المعرف المذكور فى الآيه السابقه معرفًا جامعًا مانعًا للهدايه و الضلاله ثم أكد سبحانه البيان بقوله «قد بينا الآيات لقوم يذكرون» أى إن القول حق بين عند من تذكر و رجع الى ما أودعه الله فى نفسه من المعارف الفطريه و العقائد الأوليه التى بتذكرها يهتدى الإنسان الى معرفه كل حق و تمييزه من الباطل، و البيان مع ذلك لله سبحانه فإنه هو الذى يهدى الإنسان الى النتيجة بعد هدايته الى الحجه.

قوله تعالى: لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ المراد بالسّلام هو معناه اللغوى-على ما يعطيه ظاهر السياق- هو التعرّى من الآفات الظاهره و الباطنه، و دار السّلام هى المحل الذى لا آفه تهدد من حل فيه من موت و عاهه و مرض و فقر و اى عدم و فقد آخر و غم و حزن، و هذه هى الجنه الموعوده و لا سيما بالنظر الى تقييده بقوله: «عِنْدَ رَبِّهِمْ» .

نعم اولياء الله تعالى يجدون فى هذه النشأه ما وعدهم الله من إسكانهم دار السّلام لأنهم يرون الملك لله فلا يملكون شيئًا حتى يخافوا فقده أو يحزنوا لفقده قال تعالى: أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (يونس ٦٢) و هم لا شغل لهم إلا بربهم خلوا به فى حياتهم فلهم دار السّلام عند ربهم-و هم قاطنون فى هذه الدنيا-و هو وليهم بما كانوا يعملون و هو سيرهم فى الحياه بنور الهدايه الإلهيه الذى جعله فى قلوبهم، و نور به أبصارهم و بصائرهم.

و رما قيل: المراد بالسّلام هو الله، و داره الجنه، و السياق يأباه و ضمائر الجمع فى الآيه راجعه الى القوم فى قوله: «لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ» - على ما قيل- لأنه أقرب المراجع لرجوعها إليها غير أن التدبر فى الآيات يؤيد رجوعها الى المهتدين بالهدايه المذكوره بما أن الكلام فيهم و الآيات مسوقه لبيان حسن صنع الله بهم فالوعد الحسن المذكور يجب أن يعود إليهم، و أما

القوم المتذكرون فإنما ذكروا و دخلوا في غرض الكلام بالتبع (١)(٢).

[سوره الأنعام (٦): الآيات ١٢٨ الى ١٣٥]

إشاره

و يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْرَهْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَ قَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْمَعْ بَعْضًا مَّا بِيَعُضُ وَ بَلَّغْنَا أَجَلَنَا
الَّذِي أَجَلْت لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَ كَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا
كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَ الْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَ يُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا
شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَ غَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ شَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى
بِظُلْمٍ وَ أَهْلَهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَ يَسْتَبْخِلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) إِنْ مَا تُوعَدُونَ لَاتٍ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤)
قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥)

ص: ٤١٣

١-١. الانعام ١٢٢-١٢٧: كلام في معنى الهدايه الالهيه.

٢-٢. الانعام ١٢٢-١٢٧: بحث روائي: معنى الحياه و الموت؛ القلب؛ شرح الصدر.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً لِّمَا مَعَشَرَ الْجِنِّ -الى قوله- أَجَلْتُمْ لَنَا يقال: أكثر من الشيء أو الفعل و استكثر منه اذا أتى بالكثير، و استكثر الجن من الإنس ليس من جهة أعيانهم فإن الآتى بأعيانهم فى الدنيا و المحضر لهم يوم القيامة هو الله سبحانه، و إنما للشياطين الاستكثر مما هم مسيطون عليه و هو إغواء الإنس من طريق ولايتهم عليهم و ليست بولايه إجبار و اضطرار بل من قبيل التعامل من الطرفين يتبع التابع المتبوع ابتغاء لما يرى فى اتباعه من الفائدة، و يتولى المتبوع أمر التابع ابتغاء لما يستدر من النفع فى ولايته عليه و إداره شئونه، فللجن نوع التذاذ من إغواء الإنس و الولايه عليهم، و للإنس نوع التذاذ من اتباع الوسوس و التسويلات ليستدروا بذلك اللذائذ الماديه و التمتع النفسانيه.

و هذا هو الذى يعترف به أولياء الجن من الإنس بقولهم: ربنا استمتع بعضنا ببعض فتمتعنا بوسوسهم و تسويلاتهم من متاع الدنيا و زخارفها، و تمتعوا منا بما كانت تشتتبه أنفسهم حتى آل أمرنا الى ما آل إليه.

و من هنا يظهر- كما يعطيه السياق- أن المراد بالأجل فى قولهم: «و بَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتُمْ لَنَا» الحد الذى قدر لوجودهم و الدرجه التى حصلت لهم من أعمالهم دون الوقت الذى ينتهى إليه أعمارهم و بعبارة اخرى آخر درجه نالوها من فعلية الوجود لا الساعه التى ينتهى إليها حياتهم فيرجع المعنى الى أن بعضنا استمتع ببعض بسوء اختياره و سيئ عمله فبلغنا بذلك السير الاختيارى ما قدرت لنا من الأجل، و هو أنا ظالمون كافرون.

فمعنى الآية: و يوم يحشرهم جميعاً لئتم أمر الحجاج عليهم فيقول للجن: يا معشر الجن قد استكثرتم من ولايه الإنس و إغوائهم، و قال أولياؤهم من الإنس فى الاعتراف بحقيقه الأمر:

ربنا استمتع بعضنا ببعض فاستمتعنا معشر الإنس من الجن بأن تمتعنا بزخارف الدنيا و ما

تهواه أنفسنا بتسويلا-تهم، و تمتع الجن منا باتباع ما كانوا يلقون إلينا من الوسوس و كنا على ذلك حتى بلغنا آخر ما بلغنا من فعلية الحياه الشقيه و درجه العمل.

فهذا اعتراف منهم بأن الأجل و إن كان بتأجيل الله سبحانه لكنهم إنما بلغوه بطيهم طريق تمتع البعض من البعض، و هو طريق سلكوه باختيارهم. و لا يبعد أن يستظهر من هنا أن المراد بالجن الشياطين الذين يوسوسون في صدور الناس من الجن.

قوله تعالى: قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ الخ؛ هذا جواب منه سبحانه و قضاء عليه، و متن ما قضى به قوله: «النَّارُ مَثْوَاكُمْ» الخ.

و المثوى اسم مكان من قولهم: ثوى يثوى ثواء أى أقام مع استقرار فقوله: النار مَثْوَاكُمْ أى مقامكم الذى تستقرون فيه من غير خروج و لذا أكده بقوله؟ «خَالِدِينَ فِيهَا» و قوله «إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ» استثناء يفيد أن قدره الإلهيه باقيه مع ذلك على ما كانت فله مع ذلك أن يخرجكم منها و إن كان لا يفعل.

ثم تمم الآيه بقوله: «إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» و هو يفيد تعليل البيان الواقع فى الآيه و الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم.

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فيه بيان أن جعله تعالى بعض الظالمين أولياء يجرى على الحقيقه المبينه فى الآيه السابقه، و هو أن التابع يستمتع المتبوع من طريق تسويله و إغوائه فيكسب بذلك الذنوب و الآثام حتى يجعل الله المتبوع وليا عليه و يدخل التابع فى ولايته.

و قوله: بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ الباء للسببيه أو المقابله، و هو يفيد أن هذه التوليه إنما هى بنحو المجازاه يجازى بها الظالمين فى قبال ما اكتسبوه من المظالم لا- توليه ابتدائيه من غير ذنب سابق نظير ما فى قوله: «يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا» و مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ» (البقره ٢٦). و قد التفت فى الآيه من الغيبه الى التكلم ليختص النبي صلى الله عليه و آله و سلم ببيان هذه

الحقيقه فإنهم غير لا-ثقين بتلقيها و إنما التفت الى التكلم لأن التكلم هو المناسب للمساره هذا و فى الآيات موارد آخر من الالتفات لا يخفى وجهها على المتدبر.

قوله تعالى: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ.

فى هذا الخطاب دفع دخل يمكن أن يتوجه الى الحججه السابقه المأخوذه من اعترافهم بأنهم إنما وقعوا فيما وقعوا فيه من ولايه الشياطين بسوء اختيارهم.

و هو أنهم و إن ابتلوا بذلك من طريق الاختيار لكنهم لم يكونوا يعلمون أن هذه المعاصى و التمتعات سوف توردهم مورد الهلكه و تسجل عليهم ولايه الظالمين و الشياطين و يخسرهم بالشقاء الذى لا سعادته بعده أبدا فهم كانوا على غفله من ذلك و إن كانوا على علم فى الجملة بمساءه أعمالهم و شناعه أفعالهم و مؤاخذه الغافل ظلم.

فدفعه الله سبحانه بهذا الخطاب الذى يسألهم فيه عن إتيان الرسل و ذكرهم آيات الله و إنذارهم بيوم الجمع و الحساب فلما شهدوا على أنفسهم بالكفر بما جاء به الرسل تمت الكلمه و لزمته الحججه.

فمعنى الآية: أنا نخاطبهم جميعا فنقول لهم: يا معشر الجن و الإنس أ لم يأتكم رسل منكم أرسلناهم إليكم يقصون عليكم آياتى التى تدل على الدين الحق، و يندرونكم لقاء يومكم هذا و هو يوم القيامة و أن الله سيوقفكم موقف المساءله فيحاسبكم على أعمالكم ثم يجازيكم بما عملتم إن خيرا فخييرا و إن شرا فشيئا فإذا سألناهم عن ذلك أجابونا و قالوا: شهدنا على أنفسنا أن الرسل أتونا و قصوا علينا آياتك، و أندرونا لقاء يومنا هذا، و شهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين بما جاء به الرسل رادين عليهم عن علم و ما كانوا غافلين.

قوله تعالى: ذَلِكْ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا غَافِلُونَ الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «ذَلِكْ» إِلَىٰ مَضمون ما تقدم من البيان- على ما يعطيه السياق- و قوله: «أَنْ لَمْ يَكُنْ» بتقدير لام التعليل فالمعنى أن الذى بيناه من إرسال الرسل و التذكير بالآيات و الإنذار

بيوم القيامة إنما هو لأن الله سبحانه ليس من سنته أن يهلك أهل القرى و يوردهم مورد السخط و العذاب و هم غافلون عما يريد منهم من الطاعة و يفعله بهم على تقدير المخالفه، و ذلك ظلم منه تعالى.

فهم و إن نزلوا منزل الشقاء بتأجيل الله سبحانه و قضائه و جعله بعضهم أولياء بعض لكنه تعالى لم يسلبهم القدره على الطاعة و لم يبطل منهم الاختيار فاختراروا الشرك و المعصيه ثم أرسل إليهم رسلا منهم يقصون عليهم آياته و يندرونهم لقاء يوم الحساب فكفروا بهم و مكثوا على بغيهم و عتوهم فجزاهم بولايه بعضهم بعضا و قضى عليهم بأن النار مثواهم فهم أنفسهم استدعوا الهلاك عن علم و إرادته، و لم يهلكهم الله و هم غافلون حتى يكون يظلمهم فهو الحكم العدل تبارك اسمه.

قوله تعالى: **وَ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ** متعلق الكلم محذوف و هو الضمير الراجع الى الطائفتين، و المعنى: و لكل طائفه من طائفتي الجن و الإنس درجات من أعمالهم فإن الأعمال مختلفه و باختلافها يختلف ما توجبه من الدرجات، و ما ربك بغافل عن أعمالهم.

قوله تعالى: **وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ** الى آخر الآيه؛ بيان عام لنفي الظلم عنه تعالى فى الخلقه.

و توضيحه: أن الظلم هو وضع الشىء فى غير موضعه الذى ينبغى أن يوضع عليه و بعبارته أخرى إبطال حق إنما يتحقق من الظلم بأخذ شىء أو تركه لأحد أمرين إما لحاجه منه إليه بوجه من الوجوه كأن يعود إليه أو الى من يهواه منه نفع أو يندفع عنه أو عما يعود إليه بذلك ضرر، و إما لا لحاجه منه إليه بل لشقوه باطنيه و قسوه نفسانيه لا يعبا بها بما يقاسيه المظلوم من المصيبه و يكابده من المحنه، ليس ذلك منه لحاجه بل من آثار الملكه المشومه.

و الله سبحانه منزه من هاتين الصفتين السيئتين فهو الغنى الذى لا تمسه حاجه و لا يعرضه

فقر، و ذو الرحمه المطلقه التي ينعم بها على كل شيء بما يليق بحاله فلا يظلم سبحانه أحدا، و هذا هو الذي يدل عليه قوله: «وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ» الخ؛ و معنى الآية: و ربك هو الذي يوصف بالغنى المطلق الذي لا فقر معه و لا حاجه، و بالرحمه المطلقه التي وسعت كل شيء و مقتضى ذلك أنه قادر على أن يذهبكم و يستخلف من بعدكم ما يشاء من الخلق برحمته و الشاهد عليه أنه أنشأكم برحمته من ذريه قوم آخرين أذهبهم بغناه عنهم.

و فى قوله: مَا يَشَاءُ دُونَ أَنْ يَقَالَ: مِنْ يَشَاءُ، إِبْهَامٌ لِلدَّلَالَةِ عَلَى سَعَةِ الْقَدْرَةِ.

قوله تعالى: إِنَّ مِمَّا تُوَعَّدُونَ لَمَاتٍ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ أَى الأمر الإلهى من البعث و الجزاء و هو الذى توعدون من طريق الوحى لآت البته و ما أنتم بمعجزين لله حتى تمنعوا شيئا من ذلك أن يتحقق فى الكلام تأكيد للوعد و الوعيد السابقين.

قوله تعالى: قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ المكانه هى المنزله و الحاله التى يستقر عليها الشيء، و عاقبه الشيء ما ينتهى إليه، و هى فى الأصل مصدر كالعقبى على ما قيل، و قولهم: كانت له عاقبه الدار كناية عن نجاحه فى سعيه و تمكنه مما قصده، و فى الآية انعطاف الى ما بدئ به الكلام، و هو قوله تعالى قبل عده آيات:

«اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ» .

و المعنى: قل للمشركين: يا قوم اعملوا على منزلتكم و حالتكم التى أنتم عليها من الشرك و الكفر- و فيه تهديد بالأمر- و دوموا على ما أنتم عليه من الظلم إنى عامل و مقيم على ما أنا عليه من الإيمان و الدعوه الى التوحيد فسوف تعلمون من يسعد و ينجح فى عمله، و أنا الناجح دونكم فإنكم ظالمون بشرككم و الظالمون لا يفلحون فى ظلمهم.

و ربما قيل: إن قوله: «إِنِّي عَامِلٌ» إخبار عن الله سبحانه أنه يعمل بما وعد به من البعث و الجزاء، و هو فاسد يدفعه سياق قوله: «فسوق تعلمون من تكون له عاقبه الدار».

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَ مَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَ كَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائِهِمْ لِئَزْجِدُوهُمْ وَ لِيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ مَا تَفْتُرُونَ (١٣٧) وَ قَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَ أَنْعَامٌ حَرَمَتْ طَهُورُهَا وَ أَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ إِسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتُرُونَ (١٣٨) وَ قَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِدُكُورِنَا وَ مُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَ إِنْ يَكُنْ مِنْتَهُ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَ صَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) فَذُحِرَتِ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ حَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠) وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جِبَاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرِّمَانَ مُتَشَابِهًا وَ غَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَ لَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَ مِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَ فَرَشٌ كُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢) ثُمَّ آتَيْنَاهُ آزْوَاجَ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْمَعْرِاثَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ تَبْنُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥) وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْعَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ طَهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَ إِذَا لَصَادِقُونَ (١٤٦) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَ لَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧) سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَ لَا آبَاؤُنَا وَ لَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلْمْ شُهَدَاءُ كُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)

قوله تعالى: وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الذرء الإيجاد على وجه الاختراع و كأن الأصل فى معناه الظهور، و الحرث الزرع، و قوله: «بزعمهم» فى قوله: «فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ» نوع من التنزيه كقوله: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ (الأنبياء ٢٦). و الزعم الاعتقاد و يستعمل غالبا فيما لا يطابق الواقع منه.

و قوله: وَ هَذَا لَشُرْكَائِنَا أَضَافَ الشُّرَكَاءَ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ أَثْبَتَوْهَا وَ اعْتَقَدُوا بِهَا نَظِيرَ أَثْمِهِ الْكُفْرَ وَ أئِمَّتِهِمْ وَ أَوْلِيَاؤَهُمْ، وَ قِيلَ: أَضَيَّفَتِ الشُّرَكَاءَ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَجْعَلُونَ بَعْضَ أَمْوَالِهِمْ لَهُمْ فَيَتَّخِذُونَهُمْ شُرَكَاءَ لِأَنْفُسِهِمْ.

و كيف كان فمجموع الجملتين أعنى قوله: «فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هَذَا لَشُرْكَائِنَا» من تفریع التفصیل على الإجمال يفسر به جعلهم لله نصيبا من خلقه، و فيه توطئه و تمهيد لتفریع حكم آخر عليه، و هو الذى يذكره فى قوله: «فَمَا كَانَ لَشُرْكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَ مَا كَانَ لِلَّهِ

فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شَرِّكَائِهِمْ» .

و إذا كان هذا الحكم على بطلانه من أصله و كونه افتراء على الله لا يخلو عن إزراء بساحته تعالى بتغليب جانب الأصنام على جانبه فبحه بقوله: «سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قرأ غير ابن عامر «زين» بفتح الزاى فعل معلوم، و «قتل» بنصب اللام مفعول «زَيْنَ» و هو مضاف إلى «أَوْلَادِهِمْ» بالجر و هو مفعول «قَتَلَ» اضيف إليه، و «شُرَكَائِهِمْ» فاعل «زَيْنَ» .

و المعنى أن الأصنام بما لها من الوقع فى قلوب المشركين و الحب الوهمى فى نفوسهم زينت لكثير من المشركين أن يقتلوا أولادهم و يجعلوهم قرابين يتقربون بذلك الى الآلهة كما يضبطه تاريخ قدماء الوثنيين و الصابئين، و هذا غير مسأله الواد الذى كانت بنو تميم من العرب يعملون به فإن المأخوذ فى سياق الآية الأولاد دون البنات خاصة.

قوله تعالى: وَ قَالُوا هَذِهِ أُنْعَامٌ وَ حَرَّتْ حِجْرٌ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الحجر بكسر الحاء المنع و يفسره قوله بعده: «لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ» أى هذه الأنعام و الحرث حرام إلا على من نشاء أن نأذن لهم، و روى: أنهم كانوا يقدمونها لآلهتهم و لا يحلون أكلها إلا لمن كان يخدم آلهتهم من الرجال دون النساء بزعمهم.

و قوله: وَ أُنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهُمْ أَى و قالوا: هذه أنعام حرمت ظهورها أو و لهم أنعام حرمت ظهورها، و هى السائبه و البحيره و الحامى التى نفاها الله تعالى فى قوله: مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَ لَا سَائِبَةٍ وَ لَا وَصِيلَةٍ وَ لَا حَامٍ وَ لَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (المائدة ١٠٣) و قيل: هى بعض هؤلاء على الخلاف السابق فى معناها فى تفسير آيه المائدة.

و قوله: وَ أُنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَى و لهم أنعام، الخ؛ و هى الأنعام

التي كانوا يهلون عليها بأصنامهم لا باسم الله، وقيل: هي التي كانوا لا يركبونها في الحج، وقيل: أنعام كانوا لا يذكرون اسم الله عليها ولا في شأن من شئونها، ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ، المراد بما في البطن أجنه البحائر والسيب، فقد كانوا يحلون بها إذا ولدت حيه للرجال دون النساء وإن ولدت ميتة أكله الرجال والنساء جميعا، وقيل: المراد بها الألبان، وقيل:

الأجنه والألبان جميعا.

و المراد بقوله: سَيَّيَجْزِيهِمْ وَصِيَّهُمْ سَيَجْزِيهِمْ نفس وصفهم فإنه يعود وبالاً- وعذابا عليهم ففيه نوع من العناية، وقيل: التقدير: سيجزيهم بوصفهم، وقيل: التقدير: سيجزيهم جزاء وصفهم، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ رَدَّ لِمَا حَكَىٰ عَنْهُمْ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمَفْتَرَاءِ وَ هِيَ قَتْلُ الْأَوْلَادِ وَ تَحْرِيمُ أَصْنَافٍ مِنَ الْأَنْعَامِ وَ الْحَرْثِ وَ ذَكَرَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْهُمْ خَسْرَانِ وَ ضَلَالٍ مِنْ غَيْرِ اهْتِدَاءِ.

وقد وصف قتل الأولاد بأنه سفه بغير علم، وكذلك بدل الأنعام والحرق من قوله ما رزقهم الله و وصف تحريمها بأنه افتراء على الله ليكون في ذلك تنبيه كالتعليل على خسرتهم في ذلك كأنه قيل: خسروا في قتلهم أولادهم لأنهم سفهوا به سفها بغير علم، وخسروا في تحريمهم أصنافا من الأنعام والحرق افتراء على الله لأنها من رزق الله وحاشاه تعالى أن يرزقهم شيئا ثم يحرمه عليهم.

ثم بين ضلالهم في تحريم الحرق والأنعام مع كونها من رزق الله بيانا تفصيليا بالاحتجاج من ناحية العقل و مصلحه معاش العباد بقوله: وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ إِلَىٰ تَمَامِ أَرْبَعِ آيَاتٍ؛ ثم من ناحية السمع و نزول الوحي بقوله: «قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ» إلى تمام الآية.

فيكون محصل الآيات الخمس أن تحريمهم أصنافا من الحرث و الأنعام ضلال منهم لا يساعدهم على ذلك حجه فلا العقل و رعايه مصلحه العباد يدلهم على ذلك، و لا الوحي النازل من الله سبحانه يهديهم إليه فهم فى خسران منه.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ -الى قوله- وَ غَيْرَ مُتَشَابِهٍ. الشجره المعروفه هى التى ترفع أغصانها بعضا على بعض بدعائم كالكرم و أصل العرش الرفع فالجنت المعروفه هى بساتين الكرم و نحوها، و الجنت غير المعروفه ما كانت أشجارها قائمه على أصولها من غير دعائم.

و قوله: وَ الزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ أَى ما يؤكل منه من الحبات كالحنطه و الشعير و العدس و الحمص.

و قوله: وَ الزَّيْتُونَ وَ الزُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَ غَيْرَ مُتَشَابِهٍ أَى متشابهه كل منها و غير متشابهه على ما يفيداه السياق، و التشابه بين الثمرتين باتحادهما فى الطعم أو الشكل أو اللون أو غير ذلك.

قوله تعالى: كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ الى آخر الآيه؛ الأمر للإباحه لوروده فى رفع الحظر الذى يدل عليه إنشاء الجنت و النخل و الزرع و غيرها، و السياق يدل على أن تقدير الكلام: و هو الذى أنشأ جنت و النخل و الزرع، الخ؛ و أمركم بأكل ثمر ما ذكر و أمركم بإيتاء حقه يوم حصاده، و نهاكم عن الإسراف. فأى دليل أدل من ذلك على إباحتها؟

و قوله: وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ أَى الحق الثابت فيه المتعلق به فالضمير راجع الى الثمر و أضيف إليه الحق لتعلقه به كما يضاف الحق أيضا الى الفقراء لارتباطه بهم و ربما احتمل رجوع الضمير الى الله كالضمير الذى بعده فى قوله: «إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» و إضافته إليه تعالى لانتسابه إليه بجعله.

و هذا إشاره الى جعل حق ما للفقراء فى الثمر من الحبوب و الفواكه يؤدى إليهم يوم الحصاد

يدل عليه العقل و يمضيه الشرع و ليس هو الزكاه المشرعه فى الإسلام اذ ليست فى بعض ما ذكر فى الآيه زكاه.على أن الآيه مكيه و حكم الزكاه مدنى.

نعم لا- يبعد أن يكون أصلاً لتشريعيها فإن أصول الشرائع النازله فى السور المدنيه نازله على وجه الإجمال و الإبهام فى السور المكيه كقوله تعالى بعد عده آيات عند تعداد كليات المحرمات: قُلْ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ رَبُّكُمْ -الى أن قال- وَ لَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ (الأنعام ١٥١/).

و قوله: وَ لَا تُشِيرُوا إِلَى الْخَبَائِثِ أَيْ لَا تَتَجَاوَزُوا الْحَدَّ الَّذِي يَصْلُحُ بِهِ مَعَاشِكُمْ بِالتَّصَرُّفِ فِيهِ فَلَا يَتَصَرَّفُ صَاحِبُ الْمَالِ مِنْكُمْ بِالإِسْرَافِ فِي أَكْلِهِ أَوْ التَّبْذِيرِ فِي بَذْلِهِ أَوْ وَضْعِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ وَ هَكَذَا، وَ لَا يَسْرِفُ الْفَقِيرُ الْآخِذُ بِتَضْيِيعِهِ وَ نَحْوَ ذَلِكَ، فَفِي الْكَلَامِ إِطْلَاقٌ، وَ الْخَطَابُ فِيهِ لِجَمِيعِ النَّاسِ.

قوله تعالى: وَ مِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَهُ وَ فَرْشًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الْحَمُولَةُ أَكْبَرُ الْأَنْعَامِ لِإِطَاقَتِهَا الْحَمْلَ، وَ الْفَرْشُ أَصَاغِرُهَا لِأَنَّهَا كَأَنَّهَا تَفْتَرِشُ عَلَى الْأَرْضِ أَوْ لِأَنَّهَا تَوَطَّأُ كَمَا يُوَطَّأُ الْفَرْشُ، وَ قَوْلُهُ: «كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» إِبَاحَةٌ لِلْأَكْلِ وَ إِمضَاءٌ لِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْعَقْلُ نَظِيرُ قَوْلِهِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ: «كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ» وَ قَوْلُهُ: «لَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» أَيْ لَا تَسِيرُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ الْمَشْرُوعِ إِبَاحَتَهُ بِاتِّبَاعِ الشَّيْطَانِ بِوَضْعِ قَدَمِكُمْ مَوْضِعَ قَدَمِهِ بِأَنْ تَحْرَمُوا مَا أَحَلَّهُ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْمُرَادَ بِاتِّبَاعِ خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ تَحْرِيمَ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

قوله تعالى: تَمَائِيَهُ أَرْوَاجٍ مِنَ الصَّانِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ تَفْصِيلٌ لِلْأَنْعَامِ بَعْدَ الْإِجْمَالِ وَ الْمُرَادُ بِهِ تَشْدِيدُ اللَّوْمِ وَ التَّوْبِيخِ عَلَيْهِمْ بِبَسْطِهِ عَلَى كُلِّ صُورَةٍ مِنَ الصُّورِ وَ الْوُجُوهِ، فَقَوْلُهُ: «تَمَائِيَهُ أَرْوَاجٍ» عَطْفٌ بَيَانٌ مِنْ «حَمُولَهُ وَ فَرْشًا» فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ.

و الأزواج جميع زوج، و يطلق الزوج على الواحد الذى يكون معه آخر و على الاثنين،

و أنواع الأنعام أربعه: الضأن و المعز و البقر و الإبل، و اذا لوحظت ذكرا و انثى كانت ثمانية أزواج.

و المعنى: أنشأ ثمانية أزواج من الضأن زوجين اثنين هما الذكر و الانثى و من المعز زوجين اثنين كالضأن قل الذكركين من الضأن و المعز حرم الله أم الانثيين منهما أم حرم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين من الضأن و المعز نبئوني ذلك بعلم إن كنتم صادقين.

قوله تعالى: وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ -الى قوله- الْأُنثَيْنِ معناه ظاهر مما مر، و قيل: المراد بالاثنين فى المواضع الأربعة من الآيتين الأهلى و الوحشى.

قوله تعالى: أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ هذا شق من ترديد حذف شقه الآخر على ما يدل عليه الكلام، و تقديره: أعلمتم ذلك من طريق الفكر كعقل أو سمع أم شاهدتم تحريم الله ذلك و شافهتموه فادعيتم ذلك.

و قوله: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا الْخ؛ تفریع على ما قبله باعتبار دلالة على انقطاعهم عن الجواب و على ذلك فمعناه: فمن أظلم منكم، و يكون قوله: «مِمَّنِ افْتَرَى» الْخ؛ كناية عن المشركين المخاطبين وضع موضع ضمير الخطاب الراجع إليهم ليدل به على سبب الحكم المفهوم من الاستفهام الإنكارى و التقدير: لا أظلم منكم لأنكم افتريتكم على الله كذبا لتضلوا الناس بغير علم، و اذ ظلمتم فإنكم لا تهتدون إن الله لا يهدى القوم الظالمين.

قوله تعالى: قُلْ لَا أَجِدُ فِي مِٔةٍ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ الْخ؛ معنى الآية ظاهر، و قد تقدم فى نظيره الآية من سورة المائدة آيه ٣، و فى سورة البقره آيه ١٧٣ ما ينفع فى المقام.

قوله تعالى: وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ الْخ؛ الظفر واحد الأظفار و هو العظم النابت على رءوس الأصابع، و الحوايا المباعر قال فى المجمع: موضع

الحوايا يحتمل أن يكون رفعا عطفا على الظهور و تقديره: أو ما حملت الحوايا، و يحتمل أن يكون نصبا عطفا على ما فى قوله: «إِلَّا مَا حَمَلَتْ» فأما قوله: «أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ» فَإِنَ مَا هَذِهِ مَعطوفه على ما الاول(انتهى) و الوجه الأول أقرب.

ثم قال: ذلك فى قوله-ذلك جزيناهم-يجوز أن يكون منصوب الموضع بأنه مفعول ثان لجزيناهم التقدير: جزيناهم ذلك بغيرهم، و لا يجوز أن يرفع بالابتداء لأنه يصير التقدير: ذلك جزيناهموه فيكون كقولهم: زيد ضربت أى ضربته، و هذا إنما يجوز فى ضروره الشعر. انتهى.

و الآيه كأنها فى مقام الاستدراك و دفع الدخل ببيان أن ما حرم الله على بنى إسرائيل من طيبات ما رزقهم إنما حرمه جزاء لغيرهم فلا ينافى ذلك كونه حلالا بحسب طبعه الأولى كما يشير الى ذلك قوله: كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ (آل عمران ٩٣) و قوله: فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَ بَصَدُّهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (النساء ١٦٠).

قوله تعالى: فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ الى آخر الآيه؛ معنى الآيه ظاهر، و فيها أمر بإنذارهم و تهديدهم إن كذبوا بالأس الإلهى الذى لا مرد له لكن لا بيان يسلط عليهم اليأس و القنوط بل بما يشوبه بعض الرجاء، و لذلك قدم عليه قوله: «رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ» .

قوله تعالى: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَ لَا آبَاؤُنَا وَ لَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ الْآيَه تذكر احتجاجهم بهذه الحجه ثم ترد عليهم بأنهم جاهلون بها و إنما يركنون فيها الى الظن و التخمين، و الكلمه كلمه حق وردت فى كثير من الآيات القرآنيه لكنها لا تنتج ما قصدوه منها.

فإنهم إنما احتجوا بها لإثبات أن شركهم و تحريمهم ما رزقهم الله بامضاء من الله سبحانه لا بأس عليهم فى ذلك فحجتهم أن الله لو شاء منا خلاف ما نحن عليه من الشرك و التحريم لكنا

مضطرين على ترك الشرك و التحريم فإذ لم يشأ كان ذلك إذنا في الشرك و التحريم فلا بأس بهذا الشرك و التحريم.

و هذه الحجة لا- تنتج هذه النتيجة و إنما تنتج أن الله سبحانه اذ لم يشأ منهم ذلك لم يوقعهم موقع الاضطرار و الإيجاب فهم مختارون في الشرك و الكف عنه و في التحريم و تركه فله تعالى أن يدعوهم الى الإيمان به و رفض الافتراض فله الحجة البالغة و لا حجة لهم في ذلك إلا اتباع الظن و التخمين.

قوله تعالى: قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ كَأَن الْفَاءِ الْاُولَى لِتَفْرِيعِ مَضْمُونِ الْجُمْلَةِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِمْ: «لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا» الخ؛ و الفاء الثانية للتعليل فيكون الكلام من قبيل قلب الحجة على الخصم بعد بيان مقتضاها.

و المعنى ان نتيجة الحجة قد التبت عليكم بجهلكم و اتباعكم الظن و حرصكم في المعارف الإلهية فحجتكم تدل على أن لا حجة لكم في دعوته إياكم الى رفض الشرك و ترك الافتراء عليه، و إن الحجة إنما هي لله عليكم فإنه لو شاء لهداكم أجمعين و أجبركم على الإيمان و ترك الشرك و التحريم، و اذ لم يجبركم على ذلك و أبقاكم على الاختيار فله أن يدعوكم الى ترك الشرك و التحريم.

و بعبارة أخرى: يتفرع على حجتكم أن الحجة لله عليكم لأنه لو شاء لأجبر على الإيمان فهداكم أجمعين، و لم يفعل بل جعلكم مختارين يجوز بذلك دعوتكم الى ما دعاكم إليه.

و قد بين تعالى في طائفه من الآيات السابقة أنه تعالى لم يضطر عباده على الإيمان و لم يشأ منهم ذلك بالمشيه التكوينية حتى يكونوا مجبرين عليه بل أذن لهم في خلافه و هذا الإذن الذي هو رفع المانع التكويني هو اختيار العباد و قدرتهم على جانبى الفعل و الترك، و هذا الإذن لا ينافى الأمر التشريعى بترك الشرك مثلا بل هو الأساس الذى يبتنى عليه الأمر و النهى.

قوله تعالى: قُلْ هَلَمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ هلّم شهداءكم أى هاتوا شهداءكم و هو اسم فعل يستوى فيه المفرد والمثنى و المجموع، و المراد بالشهادة شهادة الأداء و الإشارة بقوله: «هذا» إلى ما ذكر من المحرمات عندهم، و الخطاب خطاب تعجيزى أمر به الله سبحانه ليكشف به أنهم مفترون فى دعواهم أن الله حرم ذلك فهو كناية عن عدم التحريم.

و قوله: فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ فى معنى الترقى، و المعنى: لا شاهد فيهم يشهد بذلك فلا تحريم حتى أنهم لو شهدوا بالتحريم فلا تشهد معهم اذ لا تحريم و لا يعاب بشهادتهم فإنهم قوم يتبعون أهواءهم.

فقوله: وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا الخ؛ عطف تفسير لقوله: «فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ» أى أن شهادتك اتباع لأهوائهم كما أن شهادتهم من اتباع الأهواء و كيف لا؟ و هم قوم كذبوا بآيات الله الباهرة، و لا يؤمنون بالآخرة و يعدلون بربهم غيره من خلقه كالأوثان، و لا يجترئ على ذلك مع كمال البيان و سطوع البرهان إلا الذين يتبعون الأهواء (١).

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٥١ الى ١٥٧]

إشارة

قُلْ لِمَآلُوا أَتَلُّ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَ لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَنْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَ لَا تَقْرَبُوا أَمْوَالَهُمْ مِمَّا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ وَ لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَ صَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَ لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَ بَعِّدِ اللَّهُ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَ صَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَ أَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَ صَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَ هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَ إِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسِهِمْ لِعَافِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ صَدَفَ عَنْهَا سَئِئَرًا الَّذِينَ يُضِلُّونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُضِلُّونَ (١٥٧)

ص: ٤٢٩

بيان:

قوله تعالى: قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً قِيلَ: تعال مشتق من العلو و هو أمر بتقدير أن الأمر في مكان عال و إن لم يكن الأمر على ذلك

ص: ٤٣٠

بحسب الحقيقة، والتلاوه قريب المعنى من القراءة و قوله: «عَلَيْكُمْ» متعلق بقوله: «أَتْلُ» أو قوله: «حَرَّمَ» على طريق التنازع في المتعلق، وربما قيل: إن: «عَلَيْكُمْ» اسم فعل بمعنى خذوا و قوله: «أَلَا تَشْرِكُوا» معموله و النظم: عليكم أن لا- تشركوا به شيئا و بالوالدين إحسانا، الخ؛ و هو خلاف ما يسبق الى الذهن من السياق.

و لما كان قوله: «تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ» الخ؛ دعوه الى التلاوه وضع في الكلام عين ما جاء به الوحي في مورد المحرمات من النهي في بعضها و الأمر بالخلاف في بعضها الآخر فقال: «أَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» كما قال: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ» و «وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ» الخ؛ و قال: «وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا» كما قال: «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ» و «إِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا» الخ.

و قد قدم الشرك على سائر المحرمات لأنه الظلم العظيم الذي لا مطمع في المغفرة الإلهية معه قال: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (النساء ٤٨) و إليه ينتهي كل معصية كما ينتهي الى التوحيد بوجه كل حسنة.

قوله تعالى: وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا أى أحسنوا بالوالدين إحسانا، و فى المجمع: أى و أوصى بالوالدين إحسانا و يدل على ذلك أن فى «حرم كذا» معنى أوصى بتحريمه و أمر بتجنبه. انتهى.

و قد عدّ فى مواضع من القرآن الكريم إحسان الوالدين تاليا للتوحيد و نفى الشرك فامر به بعد الأمر بالتوحيد أو النهي عن الشرك به كقوله: وَ قَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (الإسراء ٢٣) و قوله: وَ إِذِ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ (لقمان ١٤) و غير ذلك من الآيات.

و يدل ذلك على أن عقوق الوالدين من أعظم الذنوب أو هو أعظمها بعد الشرك بالله العظيم، و الاعتبار يهدى الى ذلك فإن المجتمع الإنسانى الذى لا يتم للإنسان دونه حياه و لا

دين هو أمر وضعى اعتبارى لا يحفظه فى حدوثة و بقاءه إلا حب النسل الذى يتكى على رابطة الرحمه المتكونه فى البيت القائمه بالوالدين من جانب و بالأولاد من جانب آخر، و الأولاد إنما يحتاجون الى رحمتها و إحسانها فى زمان تتوق أنفسهما الى نحو الأولاد بحسب الطبع، و كفى به داعيا و محرضا لهما الى الإحسان إليهم بخلاف حاجتهم الى رأفه الأولاد و رحمتهم فإنها بالطبع يصادف كبرهما و يوم عجزهما عن الاستقلال بالقيام بواجب حياتهما و شباب الأولاد و قوتهم على ما يعينهم.

و جفاء الأولاد للوالدين و عقوقهم لهما يوم حاجتهما إليهم و رجائهما منهم و انتشار ذلك بين النوع يؤدى بالمقابل الى بطلان عاطفه التوليد و التربيه، و يدعو ذلك من جهه الى ترك التناسل و انقطاع النسل، و من جهه الى كراهيه تأسيس البيت و التكاهل فى تشكيل المجتمع الصغير، و الاستنكاف عن حفظ سمة الابوه و الامومه، و ينجر الى تكوّن طبقه من الذريه الإنسانيه لا قربه بينهم و لا أثر من رابطة الرحم فيهم، و يتلاشى عندئذ أجزاء المجتمع، و يتشتت شملهم، و يتفرق جمعهم، و يفسد أمرهم فسادا لا يصلحه قانون جار و لا سنه دائره، و يرتحل عنهم سعادته الدنيا و الآخرة، و سنقدم إليك بحثا ضافيا فى هذه الحقيقه الدينيه إن شاء الله.

قوله تعالى: **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ** الإملاق الإفلاس من المال و الزاد و منه التملق، و قد كان هذا كالسنه الجاريه بين العرب فى الجاهليه لتسرع الجذب و القحط الى بلادهم فكان الرجل اذا هدده الإفلاس بادر الى قتل أولاده تأنفا من أن يراهم على ذله العدم و الجوع.

و قد علل النهى بقوله: **«نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ»** أى إنما تقتلونهم مخافه أن لا تقدرُوا على القيام بأمر رزقهم و لستم برازقين لهم بل الله يرزقكم و إياهم جميعا فلا تقتلوهم.

قوله تعالى: **وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ الْفَوَاحِشِ** جميع

فاحشه و هي الأمر الشنيع المستقيح، وقد عدَّ الله منها في كلامه الزنا و اللواط و قذف المحصنات، و الظاهر أن المراد مما ظهر و مما بطن العلانيه و السر كالزنا العلني و اتخاذ الأخدان و الأخلاء سرا.

و في استباحه الفاحشه إبطال فحشها و شناعتها، و في ذلك شيوعها لأنها من أعظم ما تتوق إليه النفس الكارهه لأن يضرب عليها بالحرمان من ألد لذائذها و تحجب عن أعجب ما تتعلق به و تعزم به شهوتها، و في شيوعها انقطاع النسل و بطلان المجتمع البيتي و في بطلانه بطلان المجتمع الكبير الإنساني، و سوف نستوفي هذا البحث إن شاء الله فيما يناسبه من المحل.

و كذلك استباحه القتل و ما في تلوه من الفحشاء إبطال للأمن العام و في بطلانه انهدام بنيه المجتمع الإنساني و تبدد أركانه.

قوله تعالى: **وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ** أي حرم الله قتلها أو حرمة بالحرمة المشرعه لها التي تقيها و تحميها من الضيعه في دم أو حق، قيل: إنه تعالى أعاد ذكر القتل و إن كان داخلا في الفواحش تفخيما لشأنه و تعظيما لأمره، و نظيره الكلام في قتل الأولاد خشيه الإملاق اختص بالذكر عناية به، و قد كانت العرب يفعل ذلك بزعمهم أن خشيه الإملاق يبيح للوالد أن يقتل أولاده، و يصاب به ماء وجهه من الابتدال، و الابوه عندهم من أسباب الملك.

و قد استثنى الله تعالى من جهه قتل النفس المحترمه التي هي نفس المسلم و المعاهد قتلها بالحق و هو القتل بالقود و الحد الشرعي.

ثم أكد تحريم المذكورات في الآيه بقوله: **«ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»** سيجيء الوجه في تعليل هذه المناهى الخمس بقوله: **«لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»**.

قوله تعالى: **وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ** النهي عن القرب للدلاله على التعميم فلا يحل أكل ماله و لا استعماله و لا أي تصرف فيه إلا

بالطريقه التي هي أحسن الطرق المتصوره لحفظه، و يمتد هذا النهى و تدوم الحرمة الى أن يبلغ أشده فإذا بلغ أشده لم يكن يتيما قاصرا عن إداره ماله و كان هو المتصرف فى مال نفسه من غير حاجه بالطبع الى تدبير الولي لماله.

و من هنا يظهر أن المراد ببلوغه أشده هو البلوغ و الرشد كما يدل عليه أيضا قوله: وَ ابْتُلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَ لَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَ بِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا (النساء/٦).

و يظهر أيضا أنه ليس المراد بتحديد حرمة التصرف فى مال اليتيم بقوله: «حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ» رفع الحرمة بعد بلوغ الأشد و إباحه التصرف حينئذ بل المراد بيان الوقت الذى يصلح للاقتراب من ماله، و ارتفاع الموضوع بعده فإن الكلام فى معنى: و أصلحو مال اليتيم الذى لا يقدر على إصلاح ماله و إنمائه حتى يكبر و يقدر.

قوله تعالى: وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا الإيفاء بالقسط هو العمل بالعدل فيهما من غير بخس، و قوله: «لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» بمنزله دفع الدخل كأنه قيل: «إن الإيفاء بالقسط و الوقوع فى العدل الحقيقى الواقعى لا يمكن للنفس الإنسانية التى لا مناص لها عن أن تلتجئ فى أمثال هذه الامور إلى التقريب فاجيب بأنا لا نكلف نفسا إلا وسعها، و من الجائز أن يتعلق قوله: «لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» بالحكمين جميعا أعنى قوله: «وَ لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ» الخ؛ و قوله: «وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ» .

قوله تعالى: وَ إِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ذَكَرَ ذَى الْقُرْبَى وَ هُوَ الَّذى تدعو عاطفه القرابه و الرحم الى حفظ جانبه و صيانتته من وقوع الشر و الضرر فى نفسه و ماله يدل على أن المراد بالقول هو القول الذى يمكن أن يترتب عليه انتفاع الغير أو تضرره كما أن ذكر العدل فى القول يؤيد ذلك، و يدل على أن هناك ظلما، و إن القول متعلق ببعض الحقوق كالشهاده و القضاء و الفتوى و نحو ذلك.

فالمعنى: وراقبوا أقوالكم التي فيها نفع أو ضرر للناس واعدلوا فيها، ولا يحملنكم رحمه أو رأفه أو أى عاطفه على أن تراعوا جانب أحد فتحرفوا الكلام و تجاوزوا الحق فتشهدوا أو تقضوا بما فيه رعايه لجانب من تحبونه و إبطال حق من تكرهونه.

قال فى المجمع: و هذا من الأوامر البليغه التى يدخل فيها مع قله حروفها الأقرير و الشهادات، و الوصايا، و الفتاوى، و القضايا، و الأحكام، و المذاهب، و الأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر.

قوله تعالى: وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا قَالَ الرَّاعِبُ فى المفردات: العهد حفظ الشىء و مراعاته حالا- بعد حال. انتهى. و لذا يطلق على الفرامين و التكليف المشرعه و الوظائف المحوِّله و على العهد الذى هو الموثق و على النذر و اليمين.

و كثره استعماله فى القرآن الكريم فى الفرامين الإلهيه، و إضافته فى الآيه الى الله سبحانه، و مناسبه المورد و فيه بيان الأحكام و الوصايا الإلهيه العامه كل ذلك يؤيد أن يكون المراد بقوله: «وَ بِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا» التكليف الدينيه الإلهيه، و إن كان من الممكن أن يكون المراد بالعهد هو الميثاق المعقود بمثل قولنا: عاهدت الله على كذا و كذا، قال تعالى: وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (الإسراء ٣٤) فيكون إضافته الى الله نظير إضافه الشهاده إليه فى قوله:

وَ لَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ (المائد ١٠٦) للإشاره الى أن المعامله فيه معه سبحانه. ثم أكد التكليف المذكوره فى الآيه بقوله: «ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» .

قوله تعالى: وَ أَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ الى آخر الآيه، قرئ «وَ أَنْ» بفتح الهمزه و تشديد النون و تخفيفها و كأنه بالعطف على موضع قوله: «أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» و قرئ بكسر الهمزه على الاستئناف.

و الذى يعطيه سياق الآيات أن يكون مضمون هذه الآيه أحد الوصايا التى أمر النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أن يتلوها عليهم و يخبرهم بها حيث قيل: «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ»، و لازم ذلك

أن يكون قوله: «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ» مسوقا لا- لتعلق الغرض به بنفسه لأن كليات الدين قد تمت في الآيتين السابقتين عليه بل ليكون توطئه و تمهيدا لقوله بعده: «وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ» كما أن هذه الجملة بعينها كالتوطئه لقوله: «فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» فالمراد بالآيه ان لا تتفرقوا عن سبيله و لا تختلفوا فيه، فتكون الآيه مسوقه سوق قوله: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ (الشورى ١٣) فالأمر في الآيه بإقامه الدين هو ما وصى من الدين المشروع كأنه أعيد ليكون تمهيدا للنهي عن التفرق بالدين.

فالمعنى: و مما حرم ربكم عليكم و وصاكم به أن لا- تتبعوا السبل التي دون هذا الصراط المستقيم الذي لا- يقبل التخلف و الاختلاف و هى غير سبيل الله فإن اتباع السبل دونه يفرقكم عن سبيله فتختلفون فيه فتخرجون من الصراط المستقيم اذ الصراط المستقيم لا اختلاف بين أجزائه و لا بين سالكيه.

و مقتضى ظاهر السياق أن يكون المراد بقوله: «صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» صراط النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فإنه هو الذى يخاطب الناس بهذه التكاليف عن أمر من ربه اذ يقول: «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ» الخ؛ فهو المتكلم معهم المخاطب لهم، و لله سبحانه فى الآيات مقام الغيبه حتى فى ذيل هذه الآيه اذ يقول:

«فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ» و لا ضمير فى نسبه الصراط المستقيم الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقد نسب الصراط المستقيم الى جمع من عباده الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين فى قوله: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ (الحمد ٧).

قوله تعالى: ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، لما كان ما ذكره و وصى به من كليات الشرائع تكاليف مشرعه عامه لجميع ما أوتى الأنبياء من الدين، و هى أمور كلييه مجمله صحح ذلك الالتفات الى بيان أنه تعالى بعد ما

شرعها للجميع إجمالاً فصلها حيث اقتضت تفصيلها لموسى عليه السلام أولاً فيما أنزل عليه من الكتاب، وللنبي صلى الله عليه و آله و سلم ثانياً فيما أنزله عليه من كتاب مبارك فقال تعالى: «ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ» الخ.

فمعنى الآية: أنا بعد ما شرعنا من إجمال الشرائع الدينيه آتينا موسى الكتاب تماماً تتم به نقيصه من أحسن منهم من حيث الشرع الإجمالى و تفصيلاً يفصل به كل شىء من فروع هذه الشرائع الإجماليه مما يحتاج إليه بنو إسرائيل و هدى لعلمهم بقاء ربهم يؤمنون. هذا هو الذى يعطيه سياق الآية المتصل بسياق الآيات الثلاث السابقه.

فقوله: «ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ» رجوع الى السياق السابق الذى قبل قوله: «قُلْ نَعْلَمُ لَوْ أَنَّا أَتَيْنَا مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ» الآيات؛ و هو خطاب الله لنبيه صلى الله عليه و آله و سلم بصيغه المتكلم مع الغير، و قد افيد بالتأخير المستفاد من لفظه «ثُمَّ» أن هذا الكتاب إنما انزل ليكون تماماً و تفصيلاً للإجمال الذى فى تلك الشرائع العامه الكليه.

و قوله: «تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ يَبِينُ» أن إنزال الكتاب لتتم به نقيصه الذين أحسنوا من بنى إسرائيل فى العمل بهذه الشرائع الكليه العامه، و قد قال تعالى فى قصه موسى بعد نزول الكتاب: «و كَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَا خُذُوا بِأَحْسَنِهَا (الأعراف ١٤٥) و قال: «وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَ قُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَ سَتَرِيدُ الْمُحْسِنِينَ (البقره ٥٨)» و على هذا فالموصول فى قوله: «عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ» يفيد الجنس.

و قوله: «وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ» أى مما يحتاج إليه بنو إسرائيل أو ينتفع به غيرهم ممن بعدهم، و هدى يهتدى به و رحمه ينعمون بها. و قوله: «لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ» فيه إشاره الى أن بنى إسرائيل كانوا يتثاقلون أو يستنكفون عن الإيمان بقاء الله و اليوم الآخر، و مما يؤيده أن التوراه الحاضره التى يذكر القرآن أنها محرفه لا يوجد فيها ذكر من البعث يوم

القيامة، وقد ذكر بعض المؤرخين منهم أن شعب إسرائيل ما كانت تعتقد المعاد.

قوله تعالى: وَ هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ أى و هذا كتاب مبارك يشارك كتاب موسى فيما ذكرناه من الخصيصه فاتبعوه، الخ.

قوله تعالى: أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا الخ؛ «أَنْ تَقُولُوا» معناه كراهه أن تقولوا، أو لثلا تقولوا، و هو شائع فى الكلام، و هو متعلق بقوله فى الآيه السابقه: «أَنْزَلْنَاهُ» .

و قوله: «طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا» يراد به اليهود و النصرارى أنزل عليهما التوراه و الإنجيل، و أما كتب الأنبياء النازله قبلهما مما يذكره القرآن مثل كتاب نوح و كتاب إبراهيم عليهما السلام فلم يكن فيها تفصيل الشرائع و إن اشتملت على أصلها، و أما سائر ما ينسب الى الأنبياء عليهم السلام من الكتب كزبور داود عليه السلام و غيره فلم تكن فيها شرائع و لا لهم بها عهد.

و المعنى أنا أنزلناه القرآن كراهه أن تقولوا: إن الكتاب الإلهى المفصل لشرائعه إنما انزل على طائفتين من قبلنا هم اليهود و النصرارى و إنما كنا غافلين عن دراستهم و تلاوتهم، و لا بأس علينا مع الغفله.

قوله تعالى: أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ أى من الذين أنزل إليهم الكتاب قبلنا و قوله: «فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ» تفریع لقوليه: «أَنْ تَقُولُوا» «أَوْ تَقُولُوا» جميعا، و قد بدل الكتاب من البيئه ليدل به على ظهور حجه و وضوح دلالتة بحيث لا يبقى عذر لمعتذر و لا عله لمتعل، و الصدق الإعراض و معنى الآيه ظاهر.

[سوره الأنعام (٦): الآيات ١٥٨ الى ١٦٠]

اشاره

هَيْلٌ يَنْظُرُونَ إِلَّا- أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَضِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨) إِنَّ الَّذِينَ فَزَعُوا دِيْنَهُمْ وَ كَانُوا شَيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَالِهَا وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠)

قوله تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا- أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ استفهام إنكارى فى مقام لا تنفع فيه عظه و لا تنجح فيه دعوه فالامور المذكوره فى الآيه لا محاله امور لا تصحب إلا القضاء بينهم بالقسط و الحكم الفصل بإذهابهم و تطهير الأرض من رجسهم.

و لازم هذا السياق أن يكون المراد بإتيان الملائكه نزولهم بآيه العذاب كما يدل عليه قوله تعالى: وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الدُّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ، لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ (الحجر ٨).

و يكون المراد بإتيان الرب هو يوم اللقاء و هو الانكشاف التام لآيه التوحيد بحيث لا يبقى عليه ستر كما هو شأن يوم القيامة المختص بانكشاف الغطاء، و المصحح لإطلاق الإتيان على ذلك هو الظهور بعد الخفاء و الحضور بعد الغيبه جل شأنه عن الاتصاف بصفات الأجسام.

و ربما يقال: إن المراد إتيان أمر الرب و قد مرّ نظيره فى قوله تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا- أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْعَمَامِ (البقره ٢١٠) فى الجزء الثانى من الكتاب.

و يكون المراد بإتيان بعض آيات الرب إتيان آية تلازم تبدل نشأه الحياه عليهم بحيث لا سبيل الى العود الى فسحه الاختيار كآية الموت التى تبدل نشأه العمل نشأه الجزاء البرزخى أو تلازم استقرار ملكه الكفر و الجحود فى نفوسهم استقرارا لا يمكنهم معه الإذعان بالتوحيد و الإقبال بقلوبهم الى الحق إلا ما كان بلسانهم خوفا من شمول السخط و العذاب كما ربما دل عليه قوله تعالى: وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (النمل ٨٢).

و كذا قوله تعالى: وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (السجده ٢٩) فإن الظاهر أن المراد بالفتح هو الفتح للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بالقضاء بينه و بين أمته بالقسط كما حكاه الله تعالى عن شعيب عليه السلام فى قوله: رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (الأعراف ٨٩) و حكاه عن رسله فى قوله: وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (إبراهيم ١٥).

أو تلازم بأسا من الله تعالى لا مرد له و لا محيص عنه فيضطرهم الله الإيمان ليتقوا به أليم العذاب لكن لا ينفعهم ذلك فلا ينفع من الإيمان إلا ما كان عن اختيار كما يدل عليه قوله تعالى: فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ، فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (المؤمن ٨٥).

فهذه أعنى إتيان الملائكة أو إتيان الرب أو إتيان بعض آياته أمور تصاحب القضاء بينهم بالقسط و هم لكونهم لا تؤثر فيهم حجه و لا تنفعهم موعظه لا ينظرون إلا ذلك و إن ذهلوا عنه فإن الواقع أمامهم علموا أو جهلوا.

و ربما قيل: إن الاستفهام للتهكم، فإنهم كانوا يقترحون على النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن ينزل عليهم الملائكة أو يروا ربهم أو يأتيهم بآية كما أرسل الأولون فكأنه قيل: هؤلاء لا يريدون حجه

و إنما ينتظرون ما اقترحوه من الامور.

و هذا الوجه غير بعيد بالنسبه الى صدر الآيه لكن ذيلها أعنى قوله: «يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ» الخ؛ لا يلائمه تلك الملاءمه فإن التهكم لا يتعدى فيه الى بيان الحقائق و تفصيل الآثار.

قوله تعالى: يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ الى آخر الآيه؛ يشرح خاصه يوم ظهور هذه الآيات، و هى فى الحقيقه خاصه نفس الآيات و هى أن الإيمان لا ينفع نفسا لم تؤمن قبل ذلك اليوم إيمان طوع و اختيار أو آمنت قبله و لم تكن كسبت فى إيمانها خيرا و لم تعمل صالحا بل انهمكت فى السيئات و المعاصى اذ لا توبه لمثل هذا الإنسان، قال تعالى: وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ (النساء/ ١٨)، فالنفس التى لم تؤمن من قبل إيمان طوع و رضى أو آمنت بالله و كذبت بآيات الله و لم تعتن بشيء من شرائع الله و استرسلت فى المعاصى الموبقه و لم تكتسب شيئا من صالح العمل فيما كان عليها ذلك ثم شاهدت البأس الإلهى فحملها الاضطرار الى الإيمان لترد به بأس الله تعالى لم ينفعها ذلك، و لم يرد عنها بأسا و لا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

و فى قوله: لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ الْفصل بين الموصوف و الوصف بفاعل الفعل و هو إيمانها و كأنه للاحتراز عن الفصل الطويل بين الفعل و فاعله، و اجتماع: «فِي إِيْمَانِهَا» و «إِيْمَانُهَا» فى اللفظ.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ الخ؛ وجه الكلام السابق و إن كان مع المشركين و قد ابتلوا بتفريق الدين الحنيف، و كان أيضا لأهل الكتاب نصيب من الكلام و ربما لَوَحَ إليهم بعض التلويح و لازم ذلك أن ينطبق قوله «الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيْعًا» على المشركين بل عليهم و على اليهود و النصارى لاشتراك الجميع فى التفرق و الاختلاف فى الدين الإلهى.

لكن اتصال الكلام بالآيات المبينه للشرائع العامه الإلهيه التي تبتدئ بالنهي عن الشرك و تنتهى الى النهى عن التفرق عن سبيل الله يستدعى أن يكون قوله: «الَّذِينَ فَرقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شَرِيعاً» موضوعاً لبيان حال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم مع من كان هذا وصفه فالإتيان بصيغه الماضى فى قوله: «فَرَقُوا دِينَهُمْ» لبيان أصل التحقق سواء كان فى الماضى أو الحال أو المستقبل لا تحقق الفعل فى الزمان الماضى فحسب.

و من المعلوم أن تمييز النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و إخراجهم من أولئك المختلفين فى الدين المتفرقين شيعه شيعه كل شيعه يتبع إماماً يقودهم ليس إلا لأنه رسول يدعو الى كلمه الحق و دين التوحيد، و مثال كامل يمثل بوجوده الإسلام و يدعو بعمله إليه فيعود معنى قوله: «لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ» الى أنهم ليسوا على دينك الذى تدعو إليه، و لا على مستوى طريقك الذى تسلكه.

فمعنى الآيه أن الذين فرقوا دينهم بالاختلافات التى هى لا محاله ناشئه عن العلم-و ما اختلف الذين أتوه إلا- بغيا بينهم-و الانشعابات المذهبيه ليسوا على طريقتك التى بنيت على وحده الكلمه و نفى الفرقه إنما أمرهم فى هذا التفريق الى ربهم لا يماسك منهم شيء فينبئهم يوم القيامه بما كانوا يفعلون و يكشف لهم حقيقه أعمالهم التى هم رهنأؤها.

و قد تبين بما مر أن لا وجه لتخصيص الآيه بتبرئته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم من المشركين أو منهم و من اليهود و النصارى، أو من المختلفين بالمذاهب و البدع من هذه الامه فالآيه عامه تعم الجميع.

قوله تعالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ الآيه تامه فى نفسها تكشف عن منه إلهيه يمتن بها على عباده أنه يجازى الحسنه بعشر أمثالها، و لا يجازى السيئه إلا بمثلها أى يحسب الحسنه عشره و السيئه واحده و لا يظلم فى الإيفاء فلا ينقص من تلك و لا يزيد فى هذه، إن أمكن أن يزيد فى جزاء الحسنه فيزيد على العشر كما يدل عليه قوله: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَ اللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ

(البقره ٢٦١) و أمكن أن يعفو عن السيئه فلا يحسب حتى المثل الواحد.

لكنها أعنى الآيه باتصالها بما تقدمها و انتظامها معها فى سياق واحد تفيد معنى آخر كأنه قيل بعد سرد الكلام فى الآيات السابقه فى الاتفاق و الاجتماع على الحق و التفرق فيه: فهاتان خصلتان حسنه و سيئه يجزى فيهما ما يماثلهما و لا ظلم فإن الجزاء يماثل العمل فمن جاء بالحسنه فله مثلها و يضاعف له و من جاء بالسيئه و هى الاختلاف المنهى عنه فلا يجزى إلا سيئه مثلها و لا يطمعن فى الجزاء الحسن، و عاد المعنى الى نظير ما استفيد من قوله: وَ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا (الشورى ٤٠) أن المراد به بيان مماثله جزاء السيئه لها فى كونها سيئه لا يرغب فيها لا إثبات الوحده و نفى المضاعفه.

[سوره الأنعام (٦): الآيات ١٦١ الى ١٦٥]

إشاره

قُلْ إِنِّي هِدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صِدْقَاتِي وَ نُسُكِي وَ مَحْيَايَ وَ مَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَ بِذَلِكَ أُمُوتُ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أَعْبُدُوا رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَ لَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَ إِنَّهُ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)

ص: ٤٤٣

قوله تعالى: قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ القيم بالكسر فالفتح مخفف القيام وصف به الدين للمبالغه في قيامه على مصالح العباد، وقيل:

وصف بمعنى القيم على الأمر.

يأمر الله سبحانه أن يخبرهم بأن ربه الذي يدعو إليه هدايه بهدايه إلهيه الى صراط مستقيم و سبيل واضح قيم على سالكيه لا تخلف فيه و لا- اختلاف دينا قائما على مصالح الدنيا و الآخره أحسن القيام- لكونه مبنيًا على الفطره-مله إبراهيم حنيفًا مائلا عن التطرف بالشرك الى اعتدال التوحيد و ما كان من المشركين، و قد تقدم توضيح هذه المعاني في تفسير الآيات السابقه من السوره.

قوله تعالى: قُلْ إِنَّ صِدْقِي وَ نُسُكِي وَ مَحْيَايَ وَ مَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ -الى قوله- أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ النسك مطلق العباده، و كثر استعماله في الذبح أو الذبيحه تقربا الى الله سبحانه.

أمره صَلَّى الله عليه و آله و سلم ثانيا أن يخبرهم بأنه عامل بما هداه الله إليه متلبس به كما أنه مأمور بذلك ليكون أبعد من التهمه عندهم و أقرب الى تلقيهم بالقبول فإن من اماره الصدق أن يعمل الإنسان بما يندب إليه، و يطابق فعله قوله.

فقال: قل: إنني جعلت صلاتي و مطلق عبادتي- و اختصت الصلاه بالذكر استقلالًا لمزيد العناية بها منه تعالى- و محياي بجميع ما له من الشئون الراجعه إلى من أعمال و أوصاف و أفعال و تروك، و مماتي بجميع ما يعود إلى من اموره و هي الجهات التي ترجع منه الى الحياه- كما قال:

كما تعيشون تموتون- جعلتها كلها لله رب العالمين من غير أن أشرك به فيها أحدا فأنا عبد في جميع شئوني في حياتي و مماتي لله وحده و جهتي وجهي إليه لا أقصد شيئًا و لا أتركه إلا له و لا

أسير فى مسير حياتى و لا أراد مماتى إلا له فإنه رب العالمين، يملك الكل و يدبر أمرهم.

و قد أمرت بهذا النحو من العبوديه، و أنا أول المسلمين لله فيما أراد من العبوديه التامه فى كل باب وجهه.

قوله تعالى: [□] قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغَى رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ الخ؛ هذه الآيه و التى بعدها تشتملان على حجج ثلاث هى جوامع الحجج المذكوره فى السوره للتوحيد، و هى الحججه من طريق بدء الخلقه، و الحججه من طريق عودها، و الحججه من حال الإنسان و هو بينهما و بعباره أخرى الحججه من نشأه الحياه الدنيا و النشأه التى قبلها و التى بعدها.

فالحججه من طريق البدء ما فى قوله: [□] «أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغَى رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ» و من المعلوم أنه اذا كان رب كل شىء كان كل شىء مربوبا له فلا رب غيره على الإطلاق يصلح أن يعبد.

و الحججه من طريق العود ما يشتمل عليه قوله: [□] «وَ لَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا» [□] الى آخر الآيه، أى أن كل نفس لا تعمل عملا و لا تكسب شيئا إلا حمل عليها و لا تزر وازره و زر اخرى حتى يحمل ما اكتسبته نفس على غيرها ثم المرجع الى الله و إليه الجزاء بالكشف عن حقائق أعمال العباد، و اذا كان لا محيص عن الجزاء و هو المالك ليوم الدين فهو الذى تتعين عبادته لا غيره ممن لا يملك شيئا.

و الحججه من طريق النشأه الدنيا ما فى قوله: [□] «وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ» الخ؛ و محله أن هذا النظام العجيب الذى يحكم فى معاشكم فى الحياه الدنيا و هو مبنى على خلافتكم فى الأرض و اختلاف شئونكم بالكبر و الصغر و القوه و الضعف و الذكوريه و الانوثيه و الغنى و الفقر و الرئاسه و المرءوسيه و العلم و الجهل و غيرها و إن كان نظاما اعتباريا لكنه ناش من عمل التكوين منته إليه فالله سبحانه هو ناظمه، و إنما فعل ذلك لامتحانكم و ابتلائكم فهو الرب الذى يدبر أمر سعادتكم، و يوصل من أطاعه الى سعاده المقدره له و يذر الظالمين فيها جثيا، فهو الذى يحق عبادته.

وقد تبين بما مر أن مجموع الجملتين: «وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» سيق لإفاده معنى واحد وهو أن ما كسبته نفس يلزمها ولا يتعدها، وهو مفاد قوله:

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (المدثر ٣٨).

قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ الْخَلَائِفَ جمع خليفه أى يستخلف بعضهم بعضا أو استخلفكم لنفسه فى الأرض وقد مر كلام فى معنى هذه الخلافه فى تفسير قوله تعالى: إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (البقره ٣٠) فى الجزء الأول من الكتاب، و معنى الآيه ظاهر بما مر من البيان، وقد ختمت السور بالمغفره و الرحمه.

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سوره الأعراف (٧): الآيات ١ الى ٩]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَيْدِرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢)
اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٣) وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ
قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦)
فَلنَقُصِّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَ مَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ
فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩)

ص: ٤٤٧

السورة تشتمل من الغرض على مجموع ما تشتمل عليه السور المصدّره بالحروف المقطعه «الم» و السوره المصدّره بحرف «ص» فليكن على ذكر منك حتى نستوفى ما استيفأوه من البحث فى أول سوره حم عسق إن شاء الله تعالى عن الحروف المقطعه القرآنيه.

و السوره كأنها تجعل العهد الإلهى المأخوذ من الإنسان على أن يعبد الله و لا يشرك به شيئاً أصلاً يبحث عما آل إليه أمره بحسب مسير الإنسانى فى الامم و الأجيال فأكثرهم نقضوه و نسوه ثم اذا جاءتهم آيات مذكّره لهم أو أنبياء يدعونهم إليه كذبوا و ظلموا بها و لم يتذكر بها إلا الأقلون.

و ذلك أن العهد الإلهى الذى هو إجمال ما تتضمنه الدعوه الدينيه الإلهيه اذا نزل بالإنسان - و طبائع الناس مختلفه فى استعداد القبول و الرد- تحوّل لا محاله بحسب أماكن نزوله و الأوضاع و الأحوال و الشرائط الحافّه بنفوس الناس فأنجح فى بعض النفوس - و هى النفوس الطاهره الباقيه على أصل الفطره- الاهتداء الى الإيمان بالله و آياته، و فى آخرين و هم الأ-كثرون ذووا النفوس المخلده الى الأرض المستغرقه فى شهوات الدنيا خلاف ذلك من الكفر و العتوّ.

و استتبع ذلك ألطافاً إلهيه خاصه بالمؤمنين من توفيق و نصر و فتح فى الدنيا، و نجاه من النار و فوز بالجنه و أنواع نعيمها الخالد فى الآ-خره، و غضباً و لعناً نازلاً على الكافرين و عذاباً واقعا يهلك جمعهم، و يقطع نسلهم، و يخمد نارهم، و يجعلهم أحاديث و يمزقهم كل ممزق،

و لعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون.

فهذه هي سنة الله التي قد خلت في عباده و على ذلك ستجري، و الله يحكم لا معقب لحكمه و هو على صراط مستقيم.

فتفاصيل هذه السنه اذا وصفت لقوم ليدعوهم ذلك الى الإيمان بالله و آياته كان ذلك إنذارا لهم، و اذا وصفت لقوم مؤمنين و لهم علم بربهم فى الجملة و معرفه بمقامه الربوبى كان ذلك تذكيرا لهم بآيات الله و تعليما بما يلزمه من المعارف و هى معرفه الله و معرفه أسمائه الحسنى و صفاته العليا و سنته الجاربه فى الآخرة و الاولى و هذا هو الذى يلوح من قوله تعالى فى الآيه الثانيه من السوره: «لِتُنذِرَ بِهِ وَ ذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ» أن غرضها هو الإنذار و الذكرى.

و السوره على أنها مكيه-إلا آيات اختلف فيها-وجه الكلام فيها بحسب الطبع الى المشركين و طائفه قليله آمنوا بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم على ما يظهر من آيات أولها و آخرها إنذار لعامة الناس بما فيها من الحجج و الموعظه و العبره، و قصه آدم عليه السلام و إبليس و قصص نوح و هود و صالح و لوط و شعيب و موسى عليهم السلام، و هى ذكرى للمؤمنين تذكروهم ما يشتمل عليه إجمال إيمانهم من المعارف المتعلقة بالمبدأ و المعاد و الحقائق التى هى آيات إلهيه.

و السوره تتضمن طرفا عاليا من المعارف الإلهيه منها وصف إبليس و قبيله، و وصف الساعه و الميزان و الأعراف و عالم الذر و الميثاق و وصف الذاكرين لله، و ذكر العرش، و ذكر التجلى، و ذكر الأسماء الحسنى، و ذكر أن للقرآن تأويلا الى غير ذلك.

و هى تشتمل على ذكر إجمالى من الواجبات و المحرمات كقوله: قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ الْآيَه ٢٩، و قوله: إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّى الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ (الآيه ٣٣)، و قوله قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ (الآيه ٣٢) فنزولها قبل نزول سوره الأنعام التى فيها قوله: قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ الْآيَه (الأنعام ١٤٥)، فإن ظاهر الآيه أن الحكم بإباحه غير ما استثنى من المحرمات كان

نازلا قبل السوره فالإشاره بها الى ما فى هذه السوره.

على أن الأحكام و الشرائع المذكوره فى هذه السوره أوجز و أكثر إجمالاً مما ذكر فى سوره الأنعام فى قوله: «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ» الآيات؛ وذلك يؤيد كون هذه السوره قبل الأنعام نزولاً على ما هو المعهود من طريقه تشريع الأحكام فى الإسلام تدريجاً آخذاً من الإجمال الى التفصيل.

قوله تعالى: المص، كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَ ذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ تَنْكِيرَ الْكِتَابِ وَ تَوْصِيْفَهُ بِالْإِنْزَالِ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ فَاعِلِ الْإِنْزَالِ كُلِّ ذَلِكَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى التَّعْظِيمِ وَ يَتَخَصَّصُ وَصْفَ الْكِتَابِ وَ وَصْفَ فَاعِلِهِ بَعْضَ التَّخْصُّصِ بِمَا يَشْتَمَلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ» من التفریع كأنه قيل: هذا كتاب مبارك یقصر آیات الله أنزله إليك ربك فلا یكن فى صدرک حرج منه كما أنه لو كان كتاباً غیر الكتاب و ألقاه إليك ربك لكان من حقه أن یتخرج و یضیق منه صدرک لما فى تبلیغہ و دعوه الناس الى ما یشتمل علیه من الهدى من المشاق و المحن.

و قوله: «لِتُنذِرَ بِهِ» غايه للإنزال متعلقه به كقوله: «وَ ذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ» و تخصیص الذکرى بالمؤمنين دليل على أن الإنذار یعتمهم و غیرهم، فالمعنى: أنزل إليك الكتاب لتنذر به الناس و هو ذكرى للمؤمنين خاصه لأنهم یتذكرون بالآيات و المعارف الإلهیه المذکوره فیها مقام ربهم فیزید بذلك إيمانهم و تقرّ بها أعینهم، و أما عامه الناس فإن هذا الكتاب یؤثر فیهم أثر الإنذار بما یشتمل علیه من ذکر سخط الله و عقابه للظالمين فى الدار الآخرة، و فى الدنيا بعذاب الاستئصال كما تشرحه قصص الأمم السالفه.

قوله تعالى: إِنَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ لما ذكر لنبیه صلی الله علیه و آله و سلم أنه کتاب أنزل إليه لغرض الإنذار شرع فى الإنذار و رجع من خطابه صلی الله علیه و آله و سلم الى خطابهم فإن الإنذار من شأنه أن یكون بمخاطبه المنذرين -اسم

مفعول-وقد حصل الغرض من خطاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وخطابهم بالأمر باتباع ما أنزل إليهم من ربهم، وهو القرآن الأمر لهم بحق الاعتقاد وحق العمل أعنى الإيمان بالله وآياته و العمل الصالح الذين يأمر بهما الله سبحانه في كتابه و ينهى عن خلافهما، و الجملة أعنى قوله: «اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ» موضوعه وضع الكنايه كُنِيَ بها عن الدخول تحت ولايه الله سبحانه و الدليل عليه قوله: «وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ» حيث لم يقل في مقام المقابله: ولا تتبعوا غير ما أنزل إليكم.

و المعنى: ولا- تتبعوا غيره تعالى- و هم كثيرون- فيكونوا لكم أولياء من دون الله قليلا ما تذكرون، و لو تذكرتم لدرتتم أن الله تعالى هو ربكم لا رب لكم سواه فليس لكم من دونه أولياء.

قوله تعالى: وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا نِيْلًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ تذكير لهم بسنة الله الجارية في المشركين من الامم الماضية اذ اتخذوا من دون الله أولياء فأهلكهم الله بعذاب أنزله إليهم ليلا أو نهارا فاعترفوا بظلمهم.

و«البيات» التبيت و هو قصد العدو ليلا، و«القائلون» من القيلولة و هو النوم نصف النهار، و قوله: «بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ» و لم يقل ليلا أو نهارا كأنه للإشارة الى أخذ العذاب إياهم و هم آخذون في النوم آمنون مما كمن لهم من البأس الإلهي الشديد غافلون مغفلون.

قوله تعالى: فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ تتميم للتذكير يبين أن الإنسان بوجدانه و سرّه يشاهد الظلم من نفسه إن اتخذ من دون الله أولياء بالشرك، و أن السنة الإلهيه أن يأخذ منه الاعتراف بذلك ببأس العذاب إن لم يعترف به طوعا و لم يخضع لمقام الربوبيه فليعترف اختيارا و إلا فسيعترف اضطرارا.

قوله تعالى: فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ دل البيان السابق على أنهم مكلفون بتوحيد الله سبحانه موظفون برفض الأولياء من دونه غير مخلين

و ما فعلوا، و لا متروكون و ما شاءوا، فإذا كان كذلك فهم مسئولون عما أمروا به من الإيمان و العمل الصالح، و ما كلفوا به من القول الحق، و الفعل الحق و هذا الأمر و التكليف قائم بطرفين:

الرسول الذى جاءهم به و القوم الذين جاءهم، و لهذا فرع على ما تقدم من حديث إهلاك القرى و أخذ الاعتراف منهم بالظلم قوله: «فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ» .

قوله تعالى: فَلَنَقْصِنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَ مَا كُنَّا غَائِبِينَ دل البيان السابق على أنهم مريبون مدبرون فسياسلون عن أعمالهم ليجزوا بما عملوا، و هذا إنما يتم فيما إذا كان السائل على علم من أمر أعمالهم فإن المسئول لا يؤمن أن يكذب لجلب النفع الى نفسه و دفع الضرر عن نفسه فى مثل هذا الموقف الصعب الهائل الذى يهدده بالهلاك الخالد و الخسران المؤبد.

و لذلك فرع عليه قوله: «فَلَنَقْصِنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ» الخ؛ و قد نكر العلماء للاعتناء بشأنه و أنه علم لا يخطئ و لا يغلط، و لذلك أكده بعطف قوله: «وَ مَا كُنَّا غَائِبِينَ» عليه للدلالة على أنه كان شاهدا غير غائب، و إن وكل عليهم من الملائكة من يحفظ عليهم أعمالهم بالكتابة فإنه بكل شىء محيط.

قوله تعالى: وَ الْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الى آخر الآيتين الآيتان تخبران عن الوزن و هو توزيع الأعمال أو الناس العاملين من حيث عملهم، و الدليل عليه قوله تعالى: وَ نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ -الى أن قال- وَ كَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (الأنبياء ٤٧/)، حيث دل على أن هذا الوزن من شعب حساب الأعمال، و أوضح منه قوله: يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الزلزال ٨/)، حيث ذكر العمل و أضاف الثقل اليه خيرا و شرا.

و بالجمله الوزن إنما هو للعمل دون عامله فالآيه تثبت للعمل وزنا سواء كان خيرا أو شرا غير أن قوله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (الكهف ١٠٥)، يدل على أن الأعمال في صور الحبط-و قد تقدم الكلام فيه في الجزء الثاني من هذا الكتاب-لا وزن لها أصلا، ويبقى للوزن أعمال من لم تحبط أعماله (١)(٢).

[سوره الأعراف (٧): الآيات ١٠ الى ٢٥]

إشاره

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَمَّا تَبَيَّنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمَانِهِمْ وَ عَنْ شَمَائِلِهِمْ وَ لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ أَخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مُدْحُورًا لِمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) وَ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَ لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَ قَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَ قَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَ إِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥)

ص: ٤٥٣

١- ١). الاعراف ١-٩: كلام في وزن الاعمال يوم القيامة.

٢- ٢). الاعراف ١-٩: بحث روائي في: ميزان الاعمال يوم القيامة؛ تجسم الاعمال.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ» التمكين في الأرض هو الإسكان و الإيطان فيها أى جعلنا مكانكم الأرض، و يمكن أن يكون من التمكين بمعنى الإقدار و التسليط، و يؤيد المعنى الثانى أن هذه الآيات تحاذى بنحو ما فى سورة البقره من قصه آدم و إبليس و قد بدئت الآيات فيها بقوله: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا البقره (٢٩/)، و هو التسليط و التسخير.

غير أن هذه الآيات التى نحن فيها لما كانت تنتهى الى قوله: «وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مَسَاجِدٌ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ» كان المعنى الأول هو الأنسب و قوله: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ» الخ؛ كالإجمال لما تفضله الآيات التالیه الى آخر قصه الجنه.

و المعایش جمع معيشه و هى ما يعاش به من مطعم أو مشرب أو نحوهما، و الآيه فى مقام الامتنان عليهم بما أنعم الله عليهم من نعمه سكنى الأرض أو التسلط و الاستيلاء عليها، و جعل لهم فيها من أنواع ما يعيشون به، و لذلك ختم الكلام بقوله: «قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ» .

قوله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ صوره قصه تبتدىء من هذه الآيه الى تمام خمس عشره آيه يفصل فيها إجمال الآيه السابقه و تبين فيها العلل و الأسباب التى انتهت الى تمكين الإنسان فى الأرض المدلول عليه بقوله «وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ» .

و لذلك بدئ الكلام فى قوله: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ» الخ؛ بلام القسم، و لذلك ايضا سيقى القصتان أعنى قصه الأمر بالسجده، و قصه الجنه فى صوره قصه واحده من غير أن تفصل القصه الثانيه بما يدل على كونها قصه مستقله كل ذلك ليتخلص الى قوله: «قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ» الى آخر الآيتين؛ فينطبق التفصيل على إجمال

قوله: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ» الآية.

و قوله: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ» الخطاب فيه لعامه الآدميين و هو خطاب امتناني كما مر نظيره في الآيه السابقه لأن المضمون هو المضمون و إنما يختلفان بالإجمال و التفصيل.

و على هذا فالانتقال في الخطاب من العموم الى الخصوص أعنى قوله: «ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ» بعد قوله: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ» يفيد بيان حقيقتين: الأولى: أن السجده كانت من الملائكه لجميع بنى آدم أى للنشأه الإنسانيه و إن كان آدم عليه السلام هو القبله المنصوبه للسجده فهو عليه السلام فى أمر السجده كان مثالا- يمثل به الإنسانيه نائبا مناب أفراد الإنسان على كثرتهم لا مسجودا له من جهه شخصه كالكعبه المجعوله قبله يتوجه إليها فى العبادات، و تمثل بها ناحيه الربوبيه.

قوله تعالى: فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ أخبر تعالى عن سجود الملائكه جميعا كما يصرح به فى قوله: فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. (الحجر / ٣٠)، و استثنى منهم إبليس و قد علل عدم ائتماره بالأمر فى موضع آخر بقوله: كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَيْنَ رَبِّهِ (الكهف ٥٠)، و قد وصف الملائكه بمثل قوله: بَيْلٌ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (الأنبياء ٢٧)، و هو بظاهره يدل على أنه من غير نوع الملائكه.

و لهذا وقع الخلاف بينهم فى توجيه هذا الاستثناء: أ هو استثناء متصل بتغليب الملائكه لكونهم أكثره أو أشرف أو أنه استثناء منفصل و إنما أمر بأمر على حده غير الأمر المتوجه الى جمع الملائكه و إن كان ظاهر قوله: «مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ» أن الأمر لم يكن إلا واحدا و هو الذى وجهه الله الى الملائكه.

قوله تعالى: قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ يريد ما منعك أن تسجد كما وقع فى سوره ص من

قوله قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي (ص ٧٥)، و لذلك ربما قيل: إن «لا» زائده جيء بها للتأكيد كما في قوله: لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَيَّ شَيْءٌ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ (الحديد ٢٩).

و الظاهر أن «منع» مضمن نظير معنى حمل أو دعا، والمعنى: ما حملك أو ما دعاك على أن لا تسجد مانعا لك.

و قوله: «قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» يحكى عما أجاب به لعنه الله، و هو أول معصيته و أول معصيه عصي بها الله سبحانه فإن جميع المعاصي ترجع بحسب التحليل الى دعوى الإنسيه و منازعه الله سبحانه في كبريائه، و له رداء الكبرياء لا- شريك له فيه، فليس لعبد مخلوق أن يعتمد على ذاته و يقول: أنا قبال الإيتيه الإلهيه التي عنت له الوجود، و خضعت له الرقاب، و خشعت له الأصوات، و ذل له كل شيء.

و لو لم تنجذب نفسه الى نفسه، و لم يحتبس نظره في مشاهده إيتيه لم يتقيد باستقلال ذاته، و شاهد الإله القيوم فوقه فذلت له إيتيه ذله تنفى عنه كل استقلال و كبرياء فخضع للأمر الإلهي، و طاعته نفسه في الايتمار و الامتثال، و لم تنجذب نفسه الى ما كان يتراءى من كونه خيرا منه لأنه من النار و هو من الطين بل انجذبت نفسه الى الأمر الصادر عن مصدر العظمه و الكبرياء و منبع كل جمال و جلال.

و كان من الحرى إذا سمع قوله: «مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ» أن يأتي بما يطابقه من الجواب كأن يقول: منعى أنى خير منه لكنه أتى بقوله: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ» ليظهر به الإيتيه، و يفيد الثبات و الاستمرار، و يستفاد منه أيضا أن المانع له من السجده ما يرى لنفسه من الخيره فقوله: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ» أظهر و أكد في إفاده التكبر.

و من هنا يظهر أن هذا التكبر هو التكبر على الله سبحانه دون التكبر على آدم.

ثم إنه في قوله: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» استدل على كونه خيرا من

آدم بمبدأ خلقته و هو النار و أنها خير من الطين الذى خلق منه آدم، و قد صدق الله سبحانه ما ذكره من مبدأ خلقته حيث ذكر أنه كان من الجن، و أن الجن مخلوق من النار قال تعالى: **كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** (الكهف ٥٠/). و قال: **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صِلَالٍ مِنْ حَمِإٍ مَسْنُونٍ وَ الْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ** (الحجر ٢٧/). و قال أيضا: **خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ** (الرحمن ١٥/).

لكنه تعالى لم يصدقه فيما ذكره من خيريته منه فإنه تعالى و إن لم يرد عليه قوله: **«أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ»** الخ؛ فى هذه السورة إلا أنه بين فضل آدم عليه و على الملائكة فى حديث الخلافه الذى ذكره فى سورة البقره للملائكة (١).

قوله تعالى: **قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ** التكبر هو أخذ الإنسان مثلا الكبر لنفسه و ظهوره به على غيره فإن الكبر و الصغر من الامور الإضافيه، و يستعمل فى المعانى غالبا فإذا أظهر الإنسان بقول أو فعل أنه أكبر من غيره شرفا أو جاها أو نحو ذلك فقد تكبر عليه و عده صغيرا، و إذا كان لا شرف و لا كرامه لشيء على شيء إلا ما شرفه الله و كرمه كان التكبر صفه مذمومه فى غيره تعالى على الإطلاق اذ ليس لما سواه تعالى إلا الفقر و المذله فى أنفسهم من غير فرق بين شيء و شيء و لا كرامه إلا بالله من قبله، فليس لأحد من دون الله أن يتكبر على أحد، و إنما هو صفه خاصه بالله سبحانه فهو الكبير المتعال على الإطلاق فمن التكبر ما هو حق محمود و هو الذى لله عز اسمه أو ينتهى اليه بوجه كالتكبر على أعداء الله الذى هو فى الحقيقه اعتزاز بالله، و منه ما هو باطل مذموم و هو الذى يوجد عند غيره بدعوى الكبر لنفسه لا بالحق.

و «الصَّاغِرِينَ» جمع صاغر من الصغار و هو الهوان و الذله، و الصغار فى المعانى كالصغر فى

ص: ٤٥٨

الصور، وقوله: «فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ» تفسير و تأكيد لقوله: «فَاهْبِطْ مِنْهَا» لأن الهبوط خروج الشيء من مستقره نازلا فيدل ذلك على أن الهبوط المذكور إنما كان هبوطا معنويا لا نزولا من مكان جسماني الى مكان آخر، ويتأيد به ما تقدم أن مرجع الضمير في قوله: «منها» وقوله: «فيها» هو المنزلة دون السماء أو الجنة إلا أن يرجعا الى المنزلة بوجه.

و المعنى: قال الله تعالى: فتنزل عن منزلتك حيث لم تسجد لما أمرتك فإن هذه المنزلة منزلة التذلل و الانقياد لي فما يحق لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين أهل الهوان، وإنما أخذ بالصغار ليقابل به التكبر.

قوله تعالى: «قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»، قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ استمهال و إمهال، وقد فصل الله تعالى ذلك في موضع آخر بقوله: «قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (الحجر ٣٨)، (ص ٨١)، و منه يعلم أنه أمهل بالتهيؤ لا بالإطلاق الذي ذكره فلم يمهل الى يوم البعث بل ضرب الله لمهله أجالا دون ذلك و هو يوم الوقت المعلوم، و سيحيى الكلام فيه في سورة الحجر إنشاء الله تعالى.

فقوله تعالى: «إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ» إنما يدل على إجمال ما أمهل به، و فيه دلالة على أن هناك منظرين غيره.

و استمهاله الى يوم البعث يدل على أنه كان من همه أن يديم على إغواء هذا النوع في الدنيا و في البرزخ جميعا حتى تقوم القيامة فلم يجبه الله سبحانه الى ما استدعاه بل لعله أجابه الى ذلك الى آخر الدنيا دون البرزخ فلا سلطان له في البرزخ سلطان الإغواء و الوسوسة و إن كان ربما صحب الإنسان بعد موته في البرزخ مصاحبه الزوج و القرين كما يدل عليه ظاهر قوله تعالى: «وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَ إِنَّهُمْ لَيَصِيدُونَ النَّاسَ مِنَ الشَّيْبِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ

الْقَرِينُ وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُم فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (الزخرف ٣٩)، و ظاهر قوله: أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْوَاجَهُمْ (الصافات ٢٢).

قوله تعالى: قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لَأَنْتَبَهُنَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ الإغواء هو الإلقاء فى الغى و الغوى هو الضلال بوجه و الهلاك و الخيبة، و الجملة أعنى قوله: «أَغْوَيْتَنِي» و إن فسر بكل من هذه المعانى على اختلاف أنظار المفسرين غير أن قوله تعالى فى سورة الحجر فيما حكاه عنه: «قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْمَآرِضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» يؤيد أن مراده هو المعنى الأول، و الباء فى قوله: «فبما» للسببية أو المقابلة، و المعنى: فسبب إغوائك إياى أو فى مقابلة إغوائك إياى لأقعدن لهم، الخ؛ و قد أخطأ من قال: إنها للقسم و كأن القائل أراد أن يطبقه على قوله تعالى فى موضع آخر حكايه عنه: «قَالَ فِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (ص / ٨٢).

و قوله: «لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» أى لأجلسن لأجلهم على صراطك المستقيم و سبيلك السوى الذى يوصلهم إليك و ينتهى بهم الى سعادتهم لما أن الجميع سائرون إليك سالكون لا محاله مستقيم صراطك فالقعود على الصراط فالقعود على الصراط المستقيم كناية عن التزامه و الترصد لعابريه ليخرجهم منه.

و قوله: «ثُمَّ لَأَنْتَبَهُنَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنَ أَيْمَانِهِمْ وَ عَنَ شَمَائِلِهِمْ» بيان لما يصنعه بهم و قد كمن لهم قاعدا على الصراط المستقيم، و هو أنه يأتيهم من كل جانب من جوانبهم الأربعة.

و إذ كان الصراط المستقيم الذى كمن لهم قاعدا عليه أمرا معنويا كانت الجهات التى يأتيهم منها معنوية لا حسيه و الذى يستأنس من كلامه تعالى لتشخيص المراد بهذه الجهاد كقوله تعالى: يَعِدُّهُمْ وَيُؤْمِنُهُمْ وَ مَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (النساء ١٢٠)، و قوله إِنَّمَا

ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ (آل عمران ١٧٥) وقوله: وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ (البقره ١٦٨)، وقوله: الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ (البقره ٢٦٨) الى غير ذلك من الآيات الكثيره هو أن المراد مما بين أيديهم ما يستقبلهم من الحوادث أيام حياتهم مما يتعلق به الآمال و الأمانى من الامور التى تهواه النفوس و تستلذه الطباع، و مما يكرهه الإنسان و يخاف نزوله به كالفقر يخاف منه لو أنفق المال فى سبيل الله أو ذم الناس و لومهم لو ورد سبيلا من سبل الخير و الثواب.

و المراد بخلفهم ناحيه الأولاد و الأعقاب فلإنسان فيمن يخلفه بعده من الأولاد آمال و أمانى و مخاوف و مكاره فإنه يخيل إليه أنه يبقى ببقائهم فيسره ما يسرهم و يسوءه ما يسوؤهم فيجمع المال من حلاله و حرامه لأجلهم، و يعد لهم ما استطاع من قوه فيهلك نفسه فى سبيل حياتهم.

و المراد باليمين و هو الجانب القوى الميمون من الإنسان ناحيه سعادتهم و هو الدين و إتيانه من جانب اليمين أن يزين لهم المبالغه فى بعض الامور الدينيه، و التكلف بما لم يأمرهم به الله و هو الذى يسميه الله تعالى باتباع خطوات الشيطان.

و المراد بالشمال خلاف اليمين، و إتيانه منه أن يزين لهم الفحشاء و المنكر و يدعوهم إلى ارتكاب المعاصى و اقتراف الذنوب و اتباع الأهواء.

قوله تعالى: قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَيْدُومًا مَّيْدُحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ الْخ؛ المذموم من ذامه يذامه و يذيمه اذا عابه و ذمه، و المذحور من دحره اذا طرده و دفعه بهوان.

و قوله: «لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ» الخ؛ اللام للقسمة و جوابه هو قوله: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ» الخ؛ لما كان مورد كلام إبليس -و هو فى صورته التهديد بالانتقام- هو بنى آدم و أنه سيبتل غرض الخلقه فيهم و هو كونهم شاكرين أجابه تعالى بما يفعل بهم و به فقال: «لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ» محاذاه لكلامه ثم قال: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ» أى منك و منهم فأشركه فى الجزاء معهم.

وقد امتن تعالى في كلمته هذه التي لا بد أن تتم فلم يذكر جميع من تبعه بل أتى بقوله «مِنْكُمْ» وهو يفيد التبعض.

قوله تعالى: وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ خص بالخطاب آدم عليه السَّلام و ألحق به في الحكم زوجته، وقوله: «فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا» توسعه في إباحه التصرف إلا ما استثناء بقوله: «وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ» والظلم هو الظلم على النفس دون معصيه الأمر المولوى فإن الأمر إرشادى.

قوله تعالى: فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ الوسوسة هي الدعاء الى أمر بصوت خفى، و الموارد ستر الشيء بجعله وراء ما يستره، و السوات جمع السوءه و هي العضو الذى يسوء الإنسان إظهاره و الكشف عنه، و قوله: «مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ» الخ؛ أى إلا كراهه أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين.

و الملك و إن قرئ بفتح اللام إلا- أن فيه معنى الملك-بالضم فالسكون-و الدليل عليه قوله في موضع آخر: قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مَلِكٍ لَا يَبْلَىٰ (طه / ١٢٠).

و نقل في المجمع عن السيد المرتضى رحمه الله احتمال أن يكون المراد بقوله: «إِلَّا- أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ» الخ؛ أنه أوهمهما أن المنهى عن تناول الشجره الملائكه خاصه و الخالدون دونهما فيكون كما يقول أحدنا لغيره: ما نهيت عن كذا إلا أن تكون فلانا، و إنما يريد أن المنهى إنما هو فلان دونك، و هذا أوكد فى الشبهه و اللبس عليهما(انتهى). لكن آيه سوره طه المنقوله آنفا تدفعه.

قوله تعالى: وَقَسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ المقاسمه المبالغه فى القسم أى حلف لهما و أغلظ فى حلفه أنه لهما لمن الناصحين، و النصيح خلاف الغش.

قوله تعالى: فَذَلَّلَاهُمَا بِغُرُورٍ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ التذليه التقريب و الإيصال كما أن

التدلى الدنو والاسترسال، وكأنه من الاستعاره من دلوت الدلو أى أرسلتها، والغرور إظهار النصح مع إبطان الغش، والخصف الضم والجمع، ومنه خصف النعل.

و فى قوله: «وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَن تِلْكَ الشَّجَرَةِ» دلالة على أنهما عند توجه هذا الخطاب كانا فى مقام البعد من ربهما لأن النداء هو الدعاء من بعد، وكذا من الشجره بدليل قوله: «تِلْكَ الشَّجَرَةُ» بخلاف قول عند أول ورودهما الجنة: «وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ».

قوله تعالى: «قَالَ رَبُّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» هذا منهما نهايه التذلل والابتهاال، ولذلك لم يسألأ شيئا وإنما ذكر حاجتهما الى المغفره والرحمه و تهديد الخسران الدائم المطلق لهما حتى يشاء الله ما يشاء.

قوله تعالى: «قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ» كأن الخطاب لآدم وزوجه و إبليس، وعداوه بعضهم لبعض هو ما يشاهد من اختلاف طبائعهم، وهذا قضاء منه تعالى والقضاء الآخر قوله: «وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ» أى الى آخر الحياه الدنيويه، و ظاهر السياق أن الخطاب الثانى أيضا يشترك فيه الثلاثة.

قوله تعالى: «قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ» قضاء آخر يوجب تعلقهم بالأرض الى حين البعث، وليس من البعيد أن يختص هذا الخطاب بآدم وزوجه و بنيهما، لما فيه من الفصل بلفظه «قال» وقد مر تفصيل الكلام فى قصه الجنة فى سوره البقره فليراجعها من شاء (١)(٢)(٣).

ص: ٤٦٣

-
- ١-١. الاعراف ١٠-٢٥: كلام فى ابليس وعمله.
 - ٢-٢. الاعراف ١٠-٢٥: بحث عقلى و قرآنى فى: صورته مناظره جرت بين الملائكه و ابليس؛ الحكمه فى الخلق؛ الفائده فى التكليف؛ التكليف بالسجود لآدم؛ ما الفائده فى عقاب ابليس؛ لم سلط ابليس على اولاد آدم.
 - ٣-٣. الاعراف ١٠-٢٥: بحث روائى فى الشيطان وعمله.

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسٍ أَلْتَفَوَىٰ ذَلِكُمْ خَيْرٌ ذَلِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦)
 يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِذَا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَحَدَّثْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ (٣٠) يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْأُنْثَىٰ وَبَغْيَ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) يَا بَنِي آدَمَ إِذَا قَامَ عَلَيْكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يُقِصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦)

قوله تعالى: يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا للباس كل ما يصلح للباس و ستر البدن و غيره، و أصله مصدر يقال: لبس يلبس لبسا -بالكسر و الفتح- و لباسا، و الريش ما فيه الجمال مأخوذ من ريش الطائر لما فيه من أنواع الجمال و الزينه، و ربما يطلق على أثاث البيت و متاعه.

و كأن المراد من انزال اللباس و الريش عليهم خلقه لهم كما فى قوله تعالى: وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ (الحديد ٢٥)، و قوله: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ (الزمر ٦)، و قد قال تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر ٢١)، فقد أنزل الله اللباس و الريش بالخلق من غيب ما عنده الى عالم الشهاده و هو

و اللباس هو الذى يعمله الإنسان صالحا لأن يستعمله بالفعل دون المواد الأصلية من قطن أو صوف أو حرير أو غير ذلك مما يأخذه الإنسان فيضيف إليه أعمالا-صناعية من تصفيه و غزل و نسج و قطع و خياطه فيصير لباسا صالحا للباس فعد اللباس و الريش من خلق الله و هما من عمل الإنسان نظير ما فى قوله تعالى: **وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ** (الصافات / ٩٦)، من النسبه.

و لا فرق من جهه النظر فى التكوين بين نسبه ما عمله الإنسان الى الله سبحانه و ما عمله منته الى أسباب جمه أحدها الإنسان، و نسبه سائر ما عملته الطبائع و لها أسباب كثيره أحدها الفاعل كنبات الأرض و صفره الذهب و حلاوه العسل فإن جميع الأسباب بجميع ما فيها من القدره منتهيه إليه سبحانه و هو محيط بها.

و ليست الخلقه منتسبه الى الأشياء على وتيره واحده و إن كانت جميع مواردنا متفقه فى معنى الانتهاء إليه إلا- ما فيه معنى النقص و القبح و الشناعة من المعاصى و نحوها فحقيقتها فقدان الخلقه الحسنه أو مخالفه الأمر الإلهى، و ليست بمخلوقه له و إنما هى أوصاف نقص فى أعمال الإنسان مثلا- فى باطنه أو ظاهره، و قد تكررت الإشارة الى هذه الحقيقه فيما مر من أجزاء هذا الكتاب.

و توصيف اللباس بقوله: **«يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ»** للدلاله على أن المراد باللباس ما ترفع به حاجه الإنسان التى اضطرتة الى اتخاذ اللباس و هى موارد سوائه التى يسوؤه انكشافها و أما الريش فإنما يتخذة لجمال زائد على أصل الحاجه.

و فى الآيه امتنان بهدايه الإنسان الى اللباس و الريش و فيها- كما قيل- دلالة على إباحه لباس الزينه.

قوله تعالى: **وَ لِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكُ خَيْرٌ لِّى آخِرَ الْآيَةِ؛** انتقل سبحانه من ذكر

لباس الظاهر الذى يوارى سوات الإنسان فيتقى به أن يظهر منه ما يسوؤه ظهوره،الى لباس الباطن الذى يوارى السوات الباطنيه التى يسوء الإنسان ظهورها و هى رذائل المعاصى من الشرك و غيره،و هذا اللباس هو التقوى الذى أمر الله به.

و ذلك أن الذى يصيب الإنسان من ألم المساء و ذله الهوان من ظهور سواته روحى من سنخ واحد فى السواتين إلا أن ألم ظهور السوات الباطنيه أشد و أمر و أبقى فالمحاسب هو الله، و التبعه شقوه لازمه،و نار تطلع على الأفئده،و لذلك كان لباس التقوى خيرا من لباس الظاهر.

و للإشاره الى هذا المعنى و تتميم الفائدة عقب الكلام بقوله: «ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ» فاللباس الذى اهتدى إليه الإنسان ليرفع به حاجته الى مواره سواته التى يسوؤه ظهورها آيه إلهيه إن تأمله الإنسان و تبصر به تذكر أن له سوات باطنيه تسوؤه إن ظهرت و هى رذائل النفس،و سترها عليه أوجب و ألزم من ستر السوات الظاهريه بلباس الظاهر و اللباس الذى يسترها و يرفع حاجه الإنسان الضروريه هو لباس التقوى الذى أمر الله به و بينه بلسان أنبيائه.

قوله تعالى: «يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. الْكَلَامِ و إن كان مفصولا- عما قبله بتصديره بخطاب: «يَا بَنِي آدَمَ» إلا أنه بحسب المعنى من تتمه المفاد السابق،و لذا أعاد ذكر السوات ثانيا فيرجع المعنى الى أن لكم معاشر الأدميين سوات لا- يسترها إلا لباس التقوى الذى ألبسناكموه بحسب الفطره التى فطرناكم عليها فإياكم أن يفتنكم الشيطان فينزع عنكم ذلك كما نزع لباس أبويكم فى الجنه ليريهما سواتهما فإنا جعلنا الشياطين أولياء لمن تبعهم و لم يؤمن بآياتنا.

و من هنا يظهر أن ما صنعه إبليس بهما فى الجنه من نزع لباسهما ليريهما سواتهما كان مثالا لنزع لباس التقوى عن الأدميين بالفتنه و أن الإنسان فى جنه السعاده ما لم يفتن به فإذا افتتن

أخرجه الله منها.

وقوله: «إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ» تأكيد للنهي و بيان لدقه مسلكه و خفاء سر به دقه لا يميزه حس الإنسان و خفاء لا يقع عليه شعوره فإنه لا يرى إلا نفسه من غير أن يشعر أن وراءه من يأمر بالشر و يهديه الى الشقوه.

وقوله: «إِنَّمَا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ» تأكيداً آخر للنهي، و ليست ولايتهم و تصرفهم فى الإنسان إلا و لايه الفتنة و الغرور فإذا افتتن و اغتر بهم تصرفوا بما شاءوا و كما أرادوا كما قال تعالى مخاطباً لإبليس: «وَأَسْتَفْزِنُ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجُلِكَ وَ شَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ وَ عَدْتِهِمْ وَ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَ كَفَىٰ بِرَبِّكَ وَ كَيْلًا (الاسراء ٦٥)»، و قال: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (النحل ٩٩)، و قال: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (الحجر ٤٢).

و من الآيات بانضمامها الى آيتنا المبحوث عنها يظهر أن لا- و لايه لهم على المؤمنين و إن مسهم طائف منهم أحياناً، و أن لا سلطان له على المتوكلين من المؤمنين و هم الذين عدّهم الله عباداً له بقوله: «عِبَادِي» فلا و لايه له إلا على الذين لا يؤمنون.

و الظاهر أن المراد به عدم الإيمان بآيات الله بتكذيبها و هو أخص من وجه من عدم الإيمان بالله الذى هو الكفر بالله بشرك أو نفى، و ذلك لأن هذا الكفر هو المذكور فى الخطاب العام الذى فى ذيل القصة من سورة البقره حيث قال تعالى: قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى -الى أن قال- وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقره ٣٩)، و فى ذيل هذه الآيات من هذه السوره حيث قال: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (الأعراف ٣٦).

قوله تعالى: وَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَ جَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَ اللَّهُ آمَرْنَا بِهَا

الى آخر الآيه؛ رجوع من الخطاب العام لبني آدم الى خطاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خاصة ليتوسل به الى انتزاع خطابات خاصة يوجهها الى أمته كما جرى نظيره من الالتفات في الخطاب المتقدم يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا حيث قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لنظير الغرض.

قوله تعالى: قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لما نفت الآيه السابقه أن يأمر الله سبحانه بالفحشاء و ذكرت أن ذلك افتراء عليه و قول بغير علم لعدم انتهائه الى وحى ما أوحى به الله بادرت هذه الآيه إلى ذكر ما أمر به و هو لا محاله أمر يقابل ما استشنعته الآيه السابقه وعدته فحشاء لما فيه من بلوغ القبح و الإفراط و التفريط فقال: «قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ» الخ.

و القسط على ما ذكره الراغب هو النصيب بالعدل كالنصف و النصفه قال: «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ» وَ أَقِيمُوا الْوُزْنَ بِالْقِسْطِ» و القسط هو أن يأخذ قسط غيره، و ذلك جور و الإقساط أن يعطى قسط غيره، و ذلك إنصاف و لذلك قيل: قسط الرجل اذا جار و أقسط اذا عدل قال: «وَ أَمَّا الْقَائِمَةُ فَكَانُوا لِحُبِّهَا كَطَبًا» و قال «وَ أَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» انتهى كلامه.

فالمراد: قل أمر ربي بالنصيب العدل و لزوم وسط الاعتدال في الامور كلها و أن تجتنبوا جانبي الإفراط و التفريط فأقسطوا و أنبوا و أقرؤا نفوسكم عند كل معبد تعبدون الله فيه و ادعوه بإخلاص الدين له من غير أن تشرکوا بعبادته صنما أو أحدا من آباءكم و كبرائكم بالتقليد لهم و هذا هو القسط في العباده.

فقوله: «وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ» معطوف ظاهرا على مقول القول لأن معنى أمر ربي بالقسط: أقسطوا، فيكون التقدير: أقسطوا و أقيموا، الخ؛ و الوجه هو ما يتوجه به الى الشىء، و هو فى حال تمام النفس الإنسانية، و إقامتها عندها إيجاد القيام بالأمر لها أى إيفاؤه

و الإتيان به كما ينبغي تاما غير ناقص فيؤول معنى إقامه الوجه عند العباده الى الاشتغال بالعباده و الانقطاع عن غيرها.

فيفيد قوله: «وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ» اذا انضم إليه قوله: «وَأَدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» وجوب الانقطاع للعباده عن غيرها و لله سبحانه عن غيره كما عرفت و من الغير الذى يجب الانقطاع عنه الى الله سبحانه نفس العباده، و إنما العباده توجه لا متوجه إليها، و التوجه إليها يبطل معنى كونها عباده و توجهها الى الله فيجب أن لا يذكر الناسك فى نسكه إلا ربه و ينسى غيره.

قوله تعالى: كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ، فَرِيقًا هَدَىٰ وَ فَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ الى آخر الآيه. ظاهر السياق أن يكون قوله: «فَرِيقًا هَدَىٰ وَ فَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ» حالا- من فاعل «تَعُودُونَ» و يكون هو الوجه المشترك الذى شبه فيه العود بالبدء، و المعنى تعودون فريقين كما بدأكم فريقين نظير قوله تعالى: وَ لَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ (الأنعام ٩٤)، و المعنى لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مره فرادى.

فهذا هو الظاهر المستفاد من الكلام، و أما كون «فَرِيقًا هَدَىٰ» الخ؛ حالا لا يعدو عالمه، و وجه الشبه بين البدء و العود أمرا آخر غير المذكور ككونهم فرادى بدءا و عودا أو كون الخلق الأول و الثانى جميعا من تراب أو كون البعث مثل الإنشاء فى قدره الله الى غير ذلك مما احتملوه فوجوه بعيده عن دلالة الآيه، و أى فائده فى حذف وجه الشبه من الذكر و ذكر ما لا حاجه إليه مع وقوع اللبس، و سيجىء إن شاء الله توضيح ذلك.

و ظاهر البدء فى قوله: «بَدَأَكُمْ» أول خلقه الإنسان الدنيويه لا مجموع الحياه الدنيويه قبال الحياه الاخرويه فيكون البدء هو الحياه الدنيا و العود هو الحياه الاخرى فيكون المعنى كنتم فى الدنيا مخلوقين له هدى فريقا منكم و حقت الضلاله على فريق آخر كذلك تعودون كما

يؤول إليه قول من قال: «إن معنى الآية: تبعثون على ما متم عليه: المؤمن على إيمانه، والكافر على كفره».

و ذلك أن ظاهر البدء اذا نسب الى شىء ذى امتداد و استمرار بوجه أن يقع على أقدم أجزاء وجوده الممتد المستمر لا على الجميع، و الخطاب للناس فبدؤهم أول خلقه النوع الإنسانى و بدء ظهوره. على أن الآية من تتمه الآيات التى بين الله سبحانه فيها بدء إيجاده الإنسان بمثل قوله: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ» الخ؛ فالمراد به كيفية البدء التى قصها فى أول كلامه، و قد كان من القصة أن الله قال لإبليس لما رجمه:

أَخْرِجْ مِنْهَا مَيِّدُومًا مَيِّدُحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ و فيه قضاء أن ينقسم بنو آدم فريقين فريقا مهتدين على الصراط المستقيم، و فريقا ضالين حقا فهذا هو الذى بدأهم به و كذلك يعودون.

و أما قوله: «إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ» فهو تعليل لثبوت الضلالة و لزومها لهم فى قوله: «حققت عليهم الضلالة» كأن كلمه الضلال و الخسران صدرت من مصدر القضاء فى حقهم مشروطا بولايه الشيطان كما يذكره فى قوله: كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ (الحج ١٤).

فلما تولوا الشياطين فى الدنيا حقت عليهم الضلالة و لزمهم لزوما لا انفكاك بعده أبدا و هذا نظير ما يستفاد من قوله: وَ قَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمِّ قَدْحَلْتٍ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (حم السجده ٢٥).

و أما قوله: «وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ» فهو كعطف التفسير بالنسبه الى الجملة السابقه يفسر به معنى تحقق الضلالة و لزومها فإن الإنسان مهما ركب غير طريق الحق و اعتنق الباطل و هو يعترف بأنه من الباطل و لما ينس الحق أوشك أن يعود الى الحق الذى فارقه و كان مرجوا

أن ينتزع عن ضلاله الى الهدى أما اذا اعتقد حقيه الباطل الذى هو عليه، وحسب أنه على الهدى و هو فى ضلال فقد استقر فيه شيمه الغى و حقت عليه الضلاله و لا يرجى معه فلاح أبدا.

فقوله: «وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ» كالتفسير لتحقق الضلاله لكونه من لوازمه، وقد قال تعالى فى موضع آخر: قُلْ هَيْلٌ تُنْبِئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (الكهف ١٠٤/١)، و قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً (البقره ٧/٧).

فقوله: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» معناه فليس بعثكم بأشد من ابتداءكم.

و فيه: ما فى الوجه السابق على أنه تحكم من غير دليل.

و من قائل: إنه كلام مستأنف. و قد تقدم ذكره.

و من قائل: إنه متصل بما سبقه، و المعنى: أخلصوا لله فى حياتكم فإنكم تبعثون على متم عليه: المؤمن على إيمانه، و الكافر على كفره.

و فيه: أنه مبنى على كون المراد بالبده هو مجموع الحياه الدنيا فى قبال الحياه الآخرة ثم تشبيه بالعود و هو الحياه الآخرة بآخر الحياه الاولى المسماه بعثا، و الآيه- كما تقدم- بمعزل عن الدلاله على هذا المعنى.

قوله تعالى: يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ الى آخر الآيه؛ قال الراغب: السرف تجاوز الحد فى كل فعل يفعله الإنسان، و إن كان ذلك فى الإنفاق اشهر، انتهى.

أخذ الزينه عند كل مسجد هو التزين الجميل عند الحضور فى المسجد، و هو إنما يكون بالطبع للصلاه و الطواف و سائر ذكر الله فيرجع المعنى الى الأمر بالتزين الجميل للصلاه

و نحوها، ويشمل باطلاقه صلوات الأعياد و الجماعات اليومية و سائر وجوه العباده و الذكر.

و قوله: «و كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لَا تُسْرِفُوا» الخ؛ أمران إباحيان و نهى تحريمى معلل بقوله: «إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» و الجميع مأخوذه من قصه الجنة كما مرت الإشارة إليه، و هى كما تقدم خطابات عامه لا تختص بشرع دون شرع و لا بصنف من أصناف الناس دون صنف.

قوله تعالى: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ هذا من استخراج حكم خاص -بهذه الامه- من الحكم العام السابق عليه بنوع من الالتفات نظير ما تقدم فى قوله: «ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ» و قوله وَ إِذَا فَعَلُوا فَاحْشَهُ» الآية.

و الاستفهام إنكارى، و الزين يقابل الشين و هو ما يعاب به الإنسان فالزينة ما يرتفع به العيب و يذهب بنفوس النفوس، و الإخراج كناية عن الإظهار و استعاره تخيليه كأن الله سبحانه يلهامه و هدايته الإنسان من طريق الفطره الى إيجاد أنواع الزينه التى يستحسنها مجتمعه و يستدعى انجذاب نفوسهم إليه و ارتفاع نفرتهم و اشمئزازهم عنه يخرج لهم الزينه و قد كانت مخبئه خفيه فأظهرها لحواسهم (١)(٢).

قوله تعالى: قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ لا ريب أن الخطاب فى صدر الآية إما لخصوص الكفار أو يعمهم و المؤمنين جميعا كما يعمهم جميعا ما فى الآية السابقه من الخطاب بقوله: «يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لَا تُسْرِفُوا» و لازمه أن تكون الزينه و طيبات الرزق موضوعه على الشركه بين الناس جميعا، مؤمنهم و كافرهم.

ص: ٤٧٣

١- ١). الاعراف ٢٦-٣٦: كلام فى معنى اخراج زينه الله لعباده و الطيبات من الرزق.

٢- ٢). الاعراف ٢٦-٣٦: كلام فى جواب بعض المنصفين من النصارى الى دعاه النصارى الى دعاه النصرانية فى الطعن فى الإسلام.

فقوله: «قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا» الخ؛ مسوق لبيان ما خص الله سبحانه به المؤمنين من عباده من الكرامه و المزيه، و اذ قد اشتركوا في نعمه في الدنيا فهي خالصه لهم في الآخره، و لازم ذلك أن يكون قوله: «فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» متعلقا بقوله: «آمَنُوا» و قوله: «يَوْمَ الْقِيَامَةِ» متعلقا بما تعلق به قوله: «لِلَّذِينَ آمَنُوا» و هو قولنا كائنه أو ما يقرب منه، «و خالصه» حال عن الضمير المؤنث و قدمت على قوله: «يَوْمَ الْقِيَامَةِ» لتكون فاصله بين قوله: «فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» و «يَوْمَ الْقِيَامَةِ» و المعنى: قل هي للمؤمنين يوم القيامة و هي خالصه لهم لا يشاركهم فيها غيرهم كما شاركوهم في الدنيا فمن آمن في الدنيا ملك نعمها يوم القيامة.

و قد امتن الله تعالى في ذيل الآيه على أهل العلم بتفصيل البيان اذ قال: «كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» .

قوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ، قد تقدم البحث المستوفى عن مفردات الآيه فيما مر، و أن الفواحش هي المعاصي البالغه قبحا و شناعه كالزنا و اللواط و نحوهما، و الإثم هو الذنب الذي يستعقب انحطاط الإنسان في حياته و ذله و هوانا و سقوطا كشرب الخمر الذي يستعقب للإنسان تهلكه في جاهه و ماله و عرضه و نفسه و نحو ذلك، و البغى هو طلب الإنسان ما ليس له بحق كأنواع الظلم و التعدى على الناس و الاستيلاء غير المشروع عليهم، و وصفه بغير الحق من قبيل التوصيف باللازم نظير التقييد الذي في قوله: «مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا» .

و كان إلقاء الخطاب بإباحه الزينه و طيبات الرزق داعيا لنفس السامع الى أن يحصل على ما حرمه الله فألقى الله سبحانه في هذه الآيه جماع القول في ذلك، و لا يشذ عما ذكره شيء من المحرمات الدينيه، و هي تنقسم بوجه الى قسمين: ما يرجع الى الأفعال و هي الثلاثه الاول، و ما يرجع الى الأقوال و الاعتقادات و هو الأخيران، و القسم الأول منه ما يرجع الى الناس و هو البغى بغير الحق، و منه غيره و هو إما ذوق قبح و شناعه فالفاحشه، و إما غيره فالإثم،

و القسم الثانى إما شرك بالله أو افتراء على الله سبحانه.

قوله تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ هى حقيقه مستخرجه من قوله تعالى فى ذيل القصة: «قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ» نظير الأحكام الأخر المستخرجه منها المذكوره سابقا، و مفاده أن الامم و المجتمعات لها أعمال و آجال نظير ما للأفراد من الأعمار و الآجال.

و ربما استفيد من هذا التفریع و الاستخراج أن قوله تعالى فى ذيل القصة سابقا: «قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ» الخ؛ راجع الى حياه كل فرد و كل أمه أمه، و هى بعض عمر الإنسانيه العامه، و أن قوله قبله: «وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ» راجع الى حياه النوع الى حين و هو حين الانقراض أو البعث، و هذا هو عمر الإنسانيه العامه فى الدنيا.

قوله تعالى: يَا بَنِي آدَمَ إِذَا يَأْتَيْنَكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَفْضُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ. «إِذَا» أصله إن الشرطيه دخلت على ما، و فى شرطها النون الثقيله، و كأن ذلك يفيد أن الشرط محقق لا- محاله، و المراد بقص الآيات بيانها و تفصيلها لما فيه من معنى القطع و الإبانه عن مكن الخفاء.

و الآيه احدى الخطابات العامه المستخرجه من قصه الجنه المذكوره هاهنا و هى رابعها و آخرها يبين للناس التشريع الإلهى العام للدين باتباع الرساله و طريق الوحي، و الأصل المستخرج عنه هو مثل قوله فى سوره طه: قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَا بَنِيكُمْ مَنِى هُدًى الخ؛ فبين أن اتيان الهدى منه انما يكون بطريق الرساله (١)(٢).

ص: ٤٧٥

١ - ١). الاعراف ٢٦-٣٦: بحث روائى فى: سنن الجاهليه فى الطواف؛ تحريم ما احل الله؛ ان الله لا- يأمر بالفحشاء؛ ان الله جميل يحب الجمال.

٢ - ٢). الاعراف ٢٦-٣٦: بحث روائى مختلط بغيره فى كيفيه خلق الانسان؛ سعادته الانسان و شقاوته؛ معنى كون الطينه من الجنه أو النار؛ الماء العذب الفرات و الملح الاجاج؛ النور و الظلمه؛ فعل الله.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيْنَا أَنفُسُهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَّمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي الدَّارِ كُلِّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أَوْلَادُهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَ نَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) وَ نَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجًا وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥) وَ بَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَ عَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَ نَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَ هُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَ إِذَا صُيرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَ نَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ مَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا يَخُوفٌ عَلَيْكُمْ وَ لَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) وَ نَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَ لَعِبًا وَ غَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَ مَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١) وَ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِكِتَابٍ فَضَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هِدْيً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءٍ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣)

قوله تعالى: **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ** تفريع على ما تتضمنه الآيه السابقه من أعلام الشريعه العامه المبلغه بواسطه الرسل أى اذا كان الأمر على ذلك وقد أبلغ الله دينه العام جميع أولاد آدم و أخبر بما أعده من الجزاء للأخذ به و تركه فمن أظلم ممن استنكف عن ذلك إما بافتراء الكذب على الله، و نسبه دين إليه، و وضعه موضع ما أتى به الرسل من دين التوحيد، و قد أخبر الله أنهم وسائط بينه و بين خلقه فى تبليغهم دينه، و إما بالتكذيب لآياته الداله على وحدانيته و ما يتبعه من الشرائع.

و من هنا يظهر أن افتراء الكذب على الله و إن كان يعم كل بدعه فى الدين أصوله و فروعها غير أن المورد هو الشرك بالله باتخاذ آله دون الله، و يدل عليه ما سيأتى من قوله **«قَالُوا أَيَّنَ مَا**

كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ .

قوله تعالى: **أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ الْمُرَادِ بِالْكِتَابِ مَا قَضَىٰ وَ كَتَبَ أَنْ يَصِيبَ** الإنسان من مقدرات الحياه من عمر و معيشه و غنى و صحه و مال و ولد و غير ذلك، و الدليل عليه تقييده بقوله: **«حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا»** الخ؛ و المراد به أجل الموت، و من المعلوم أنه غايه للحياه الدنيا بجميع شئونها و مقارناتها.

و المراد بالنصيب من الكتاب السهم الذى يختص كل واحد منهم من مطلق ما كتب له و لغيره، و فى جعل النصيب من الكتاب هو الذى ينالهم، و الأمر منعكس بحسب الظاهر دلالة على أن النصيب الذى فرض للإنسان و قضى له من الله سبحانه لم يكن ليخطئه البتة و ما لم يفرض له لم يكن ليصيبه البتة.

و المعنى: أولئك الذين كذبوا على الله بالشرك أو كذبوا بآياته بالرد لجميع الدين أو شطر منه ينالهم نصيبهم من الكتاب، و نصيبهم ما قضى فى حقهم من الخير و الشر فى الحياه الدنيا حتى اذا قضوا أجلهم و جاءتهم رسلنا من الملائكه و هم ملك الموت و أعوانه نزلوا عليهم و هم يتوفونهم و يأخذون أرواحهم و نفوسهم من أبدانهم سألوهم و قالوا: أين ما كنتم تدعون من دون الله من الشركاء الذين كنتم تدعون أنهم شركاء الله فيكم و شفعاؤكم عنده؟ قالوا ضلوا عنا و إنما ضلت أوصافهم و نعوتهم، و شهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين بمعانيه حقيقه الأمر أن غير الله سبحانه لا ينفع و لا يضر شيئا، و قد أخطأوا فى نسبة ذلك الى أوليائهم.

و فى مضمون الآيه جهات من البحث تقدمت فى نظيره الآيه من سوره الأنعام و غيرها.

والمخاطبون بحسب سياق اللفظ هم بعض الكفار و هم الذين توفيت قبلهم أمم من الجن و الإنس إلا- أن الخطاب فى معنى: ادخلوا فيما دخل فيه سابقوكم و لا-حقوكم و إنما نظم الكلام هذا النظم ليتخلص به الى ذكر التخاصم الذى يقع بين متقدميهم و متأخريهم، و قد قال تعالى:

إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقُّ تَخَاصُّمِ أَهْلِ النَّارِ (ص ٦٤).

و فى الآيه دلالة على أن من الجن أمما يموتون بآجال خاصه قبل انتهاء أمد الدنيا على خلاف إبليس الباقى الى يوم الوقت المعلوم.

قوله تعالى: كَلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّهُ لَمَنَّا لَعْنَتْ أُخْتَهَا هَذَا من جملة خصامهم فى النار و هو لعن كل داخل من تقدم عليه فى الدخول، و اللعن هو الإبعاد من الرحمه و من كل خير و الاخت المثل.

قوله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا اذَّارُوا فِيهَا جَمِيعًا ۗ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ اذار كوا أى تدار كوا أى أدرك بعضهم بعضا اللاحقون السابقين أى اجتمعوا فى النار جميعا.

و المراد بالاولى و الاخرى اللتين تتخاصمان ما هو كذلك بحسب الرتبة أو بحسب الزمان فإن الاولى منهم مقاما و هم رؤساء الضلال، و أئمة الكفر المتبوعون أعانوا تابعيهم بإضلالهم على الضلال، و كذا الاولى منهم زمانا و هم الأسلاف المتقدمون أعانوا متأخريهم على ضلالتهم لأنهم هم الذين جروهم بفتح الباب لهم و تمهيد الطريق لسلوكهم.

و الضعف بالكسر فالسكون ما يكرر الشىء فضعف الواحد اثنان و ضعف الاثنان أربعة غير أنه ربما أريد به ما يوجب تكرار شىء آخر فقط كالاثنين يوجب بنفسه تكرار الواحد فضعف الواحد اثنان و ضعفه أربعة، و ربما أريد به ما يوجب التكرار بانضمامه الى شىء كالواحد يوجب تكرار واحد آخر بانضمامه إليه لأنهما يصيران بذلك اثنين فكل واحد من جزئى الاثنان ضعف و هما جميعا ضعفان نظير الزوج فالاثنان زوج و هما زوجان و على كلا الاعتبارين ورد استعماله فى كلامه تعالى، قال تعالى كما فى هذه الآيه: «فَأَتَيْهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا»

و قال تعالى: «ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ» .

و قوله: «قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا» الخ؛ نوع من الالتفات لطيف فى بابه فيه رجوع من مخاطبتهم بالمخاصمه الى مخاطبه الله سبحانه بالدعاء عليهم معللا بظلمهم فيفيد فائده التكنيه بالإشاره الى الملزوم و إفاده الملازمه، و فيه مع ذلك نوع من الإيجاز فإن فيه اكتفاء بمحاوره واحده عن محاورتين، و التقدير قالت أخراهم لاولاهم أنتم أشد ظلما منا لأنكم ضالون فى أنفسكم و قد أضللتونا فليعذبكم الله عذابا ضعفا من النار، ثم رجعوا الى ربهم بالدعاء عليهم و قالوا ربنا هؤلاء أضلونا فآتتهم عذابا، الخ؛ فأجابهم الله و قال لكل ضعف و لكن لا تعلمون، ثم أجابتهم أولاهم و قالوا: فما كان لكم علينا من فضل، الخ.

فمعنى الآيه: حَتَّى إِذَا أَذَارُكُوا و اجتمعوا بلحوق أخراهم لأولاهم «فِيهَا» أى فى النار تخاصموا «قَالَتْ أُخْرَاهُمْ» و هم اللاحقون مرتبه أو زمانا من التابعين «لِأَوْلَاهُمْ» و هم الملحقون المتبوعون من رؤسائهم و أئمتهم، و من آبائهم و الأجيال السابقه عليهم زمانا الممهدين لهم الطريق الى الضلال أنتم أضللتونا بإعانتكم عليه فلتعذبوا بأشد من عذابنا فسألوا ربهم ذلك و قالوا: «رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ» يكون ضعف عذابنا لأنهم ضلوا فى أنفسهم و أضلوا غيرهم بالإعانه «قال» الله سبحانه «لكل» من الاولى و الاخرى «ضعف من العذاب» أما أولاكم فإنهم ضلوا و أعانوكم على الضلال، و أما أنتم فإنكم ضللتهم و أعنتموهم على الإضلال باتباع أمرهم و إجابته دعوه الرؤساء منهم، و تكثير سواد السابقين منهم باللحوق بهم «وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ» فإن العذاب إنما يتحقق أو يتم فى مرحله الإدراك و العلم. و أنتم تشاهدونهم أمثال أنفسكم فى شمول العذاب و إحاطه النار فتتوهمون أن عذابهم مثل عذابكم و ليس كذلك بل لهم من العذاب ما لا طريق لكم الى إدراكه و الشعور به كما أنهم بالنسبه إليكم كذلك فما عندكم و عندهم من العذاب ضعف و لكن إحاطه العذاب شغلكم عن العلم بذلك.

و هذا خطاب إلهى مبنى على القهر و الإذلال فيه تعذيب لهم يسمعه أولاهم و أخراهم جميعا فتعود به أولاهم لأخراهم بالتهكم و تقول كما حكى الله: «قَالَتْ أُولَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ» بخفه العذاب «فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ» فى الدنيا من الذنوب و الآثام.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ السَّمِ هُوَ الثَّقَبُ وَ جمعه السموم، و الخياط و المخيط الإبره.

و الذى نفاه الله تعالى من تفتيح أبواب السماء مطلق فى نفسه الفتح لولوج أديعتهم و صعود أعمالهم و دخول أرواحهم غير أن تعقيبه بقوله: «وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ» الخ؛ كالتقريبه على أن المراد نفى أن يفتح بابها لدخولهم الجنة فإن ظاهر كلامه سبحانه أن الجنة فى السماء كما هو فى قوله: وَ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَ مَا تُوَعَّدُونَ (الذاريات ٢٢).

و قوله: حَتَّى يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ مِنَ التَّعْلِيقِ بِالْمَحَالِ و إنما يعلق الأمر بالمحال كناية عن عدم تحققه و إياسا من وجوده كما يقال: لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب و يبيض الفار، و قد قال تعالى فى موضع آخر فى هذا المعنى: وَ مَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (البقره ١٦٧)، و الآيه فى معنى تعليل مضمون الآيه السابقه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ الخ؛ جهنم اسم من أسماء نار الآخرة التى بها التعذيب، و قد قيل: إنه مأخوذ من قولهم: «بئر جهنم» أى بعيدة القعر و قيل: فارسى معرب، و «المهاد» اللطاء الذى يتفرش، و منه مهد الصبى و الغواشى جمع غاشيه و هى ما يغشى الشئ و يستره و منه غاشيه السرج.

و قد أفيد بقوله: «لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ» أنهم محاطون بالعذاب من تحتهم و من فوقهم، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا

الخ؛ الآيه و ما يتلوها لتتميم بيان حال الطائفتين الكفار و المؤمنين، و لتكون كالتوطئه لقوله الآتى «وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ الخ.

و قوله: «لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» مسوق للتخفيف و تقويه الرجاء فى قلوب المؤمنين فإن تقييد الإيمان بعمل الصالحات-و الصالحات جمع محلى باللام و هو يفيد الاستغراق-يفيد بظاهره لزوم العمل بجميع الصالحات حتى لا يشذ عنها شاذ، و ما أقل من وفق لذلك من طبقه أهل الإيمان و يسد ذلك باب الرجاء على أكثر المؤمنين فذكر الله سبحانه أن التكليف على قدر الوسع فمن عمل من الصالحات ما وسعه أن يعمله من غير أن يشق على نفسه و يتحمل ما لا طاقه له به بعد الإيمان بالله فهو من أهل هذه الآيه، و من أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

قوله تعالى: وَ نَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ الغل هو الحقد و ضغن القلوب و عداوتها، و فى مادتها معنى التوسط باللطف و الحيله و منه الغلاله و هى الثوب المتوسطة بين الدثار و الشعار، و غل الصدور من أعظم ما ينغص عيش الإنسان، و ما من إنسان يعاشر إنسانا و يأتلف به إلا و ائتلافه مشروط بأن يوافقه فيما يراه و يريده فإذا شاهد من حاله ما لا يرتضيه جأش صدره بالغل و راحت الألفه و نغصت العيشه فإذا ذهب الله سبحانه بغل الصدور لم يسؤ الإنسان ما يشاهده من أليفه على الإطلاق و هى اللذه الكبرى و فى قوله: «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ» إشاره الى أنهم ساكنون فى قصورها العالیه.

قوله تعالى: وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا -إلى قوله- بِالْحَقِّ فى نسبه التحميد إليهم دلالة على أن الله سبحانه يخلصهم لنفسه فلا يوجد عندهم اعتقاد باطل و لا- عمل سيئ كما قال تعالى: «لَا يَسْتَمْعُونَ فِيهَا لِغَوًّا وَ لَا تَأْتِيماً إِلَّا قِيلاً سَيِّئاً سَيِّئاً» الواقعة ٢٦، فيصح منهم تحميد الله سبحانه و يقع توصيفهم موقعه فليس توصيفه تعالى بحيث يصيب غرضه و يقع موقعه بذلك المبتذل حتى يناله كل نائل، قال تعالى: سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (الصفات ١٦٠)، وقد تقدم القول فى معنى الحمد و خصوصيه حمده تعالى فى تفسير سورة الحمد.

و فى قولهم: هِدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هِدَانَا اللَّهُ إِشَارَهُ إِلَى اخْتِصَاصِ الْهُدَايَةِ بِهِ تَعَالَى فَلَيْسَ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ.

و فى قولهم: لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ اعْتِرَافٍ بِحَقِيهِ مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِلِسَانِ أَنْبِيَائِهِ، وَهُوَ الَّذِى يَأْخُذُونَ الْاعْتِرَافَ بِهِ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ عَلَى مَا تَقْصُهُ الْآيَةُ التَّالِيَةُ، وَفِي هَذَا الْاعْتِرَافِ وَ سَائِرِ الْاعْتِرَافَاتِ الْمَأْخُذَةِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ قَبْلِ مَصْدَرِ الْعِظَمَةِ وَ الْكِبْرِيَاءِ ظُهُورُ مِنْهُ تَعَالَى بِالْقَهْرِ وَ تَمَامُ الرَّبُوبِيَّةِ، وَ يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ شُكْرًا، وَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ تَمَامًا لِلْحُجَّةِ.

وَ اعْتِرَافِ أَهْلِ الْمَجْمَعِ بِحَقِيهِ مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِوَسْطِهِ رَسَلُهُ هُوَ مِنْ الْحَقَائِقِ الْعَالِيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ وَ إِنْ كَانَ بِحَسَبِ سَادِجِ النَّظَرِ مَعْنَى بَسِيطًا مُبْتَدَلًا، وَ لَعَلْنَا نَوْفِقُ لَشَطْرٍ مِنَ الْبَحْثِ فِيهِ فِى ذَيْلِ الْكَلَامِ عَلَى هَذِهِ الْآيَاتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ نُودُوا أَنْ تَتَّكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ رِثْمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فِى الْإِشَارَةِ بِلَفْظِ الْبَعِيدِ-تَلَكُمُ-إِشَارَةٌ إِلَى رَفْعِهِ قَدْرَ الْجَنَّةِ وَ عُلُوِّ مَكَانِهَا فَإِنْ ظَاهَرَ السِّيَاقُ-كَمَا قِيلَ-أَنَّ النَّدَاءَ إِنَّمَا هُوَ حِينَ كُونِهِمْ فِى الْجَنَّةِ، وَ قَدْ جَعَلَتِ الْجَنَّةُ إِرْثًا لَهُمْ فِى قِبَالِ عَمَلِهِمْ وَ إِنَّمَا يَتَحَقَّقُ الْإِثْرُ فِيمَا إِذَا كَانَ هُنَاكَ مَالٌ أَوْ نَحْوُهُ مِمَّا يَنْتَفِعُ بِهِ وَ هُوَ فِى مَعْرُضِ انْتِفَاعِ شَخْصٍ ثُمَّ زَالَ عَنْهُ الشَّخْصُ فَبَقِيَ لغيرِهِ يُقَالُ: وَرِثَ فُلَانٌ أَبَاهُ أَيْ مَاتَ وَ تَرَكَ مَا لَبِقَى لَهُ، وَ الْعُلَمَاءُ وَرِثَةُ الْأَنْبِيَاءِ أَيْ مَخْتَصُونَ بِمَا تَرَكَوا لَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ، وَ يَرِثُ اللَّهُ الْأَرْضَ أَيْ إِنَّهُ كَانَ خَوْلَهُمْ مَا بَهَا مِنْ مَالٍ وَ نَحْوِهِ وَ سَوْفَ يَمُوتُونَ فَيَبْقَى لَهُ مَا خَوْلَهُمْ.

وَ عَلَى هَذَا فَكُونُ الْجَنَّةِ إِرْثًا لَهُمْ أَوْرُثُوهَا مَعْنَاهُ كُونُهَا خَلَقَتْ مَعْرُوضَهُ لِأَنَّ يَكْسِبُهَا بِالْعَمَلِ الْمُؤْمِنِ وَ الْكَافِرِ جَمِيعًا غَيْرَ أَنَّ الْكَافِرَ زَالَ عَنْهَا بِشْرِكِهِ وَ مَعَاصِيهِ فَتَرَكَهَا فَبَقِيَتْ لِلْمُؤْمِنِ فَهُوَ

الوارث لها بعمله، و لو لا عمله لم يرثها، قال تعالى: أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ (المؤمنون ١١).

وقال تعالى: حكاية عن أهل الجنة: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ (الزمر ٧٤).

قوله تعالى: وَ نَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ هذا في نفسه أخذ اعتراف من أصحاب النار بتوسط أصحاب الجنة و واقع موقع التهكم و السخرية يتهكم و يسخر به أصحاب الجنة من أصحاب النار. و الاستهزاء و السخرية إنما يكون من اللغو الباطل اذا لم يتعلق به غرض حق كالاستهزاء بالحق و أهله أما اذا كان لغرض المقابلة و المجاراة أو لغرض آخر حق من غير محذور فليس من قبيل اللغو الذي لا يصدر عن أهل الجنة قال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَيِّئُونَ مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسِيخْرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسِيخْرُ مِنْكُمْ كَلَّمَا تَسِيخْرُونَ (هود ٣٨)، و قال: إِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَ إِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ - الى أن قال - فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (المطففين ٣٤).

و أما الفرق بين قولهم: «مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا» و قولهم: «مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ» حيث ذكر المفعول في الوعد الأول دون الثاني فلعل ذلك للدلالة على نوع من التشريف فإن الظاهر أن المراد بما وعد الله جميع ما وعده من الثواب و العقاب لعامة الناس.

و هناك وجه آخر و هو أن متعلق اعتراف المؤمنين و إنكار الكفار من أمر المعاد مختلف في الدنيا فإن المؤمنين يثبتون البعث بجميع خصوصياته التي بينها الله لهم و وعدها إياهم، و أما الكفار المنكرون فإنهم ينكرون أصل البعث الذي اشترك في الوعد به المؤمنون و الكفار جميعاً، و لذلك احتج الله سبحانه و يتم الحجج عليهم بأصله دون خصوصياته كقوله تعالى:

وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَ رَبَّنَا (الأنعام ٣٠)،

وقوله: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَ رَبِّنَا (الأحقاف / ٣٤).

و على هذا فقولهُ: «أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا» اعتراف منهم بحقيه ما وعدهم الله و كانوا يدعونون به و يشهدون من جميع خصوصيات البعث بما قصهم الله فى الدنيا بلسان أنبيائه، و أما الكفار فقد كانوا ينكرون أصل البعث و العذاب، و هو مما يشتركون فيه هم و المؤمنون فلذا قيل: «فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا» و لم يقل ما وعدهم ربكم لأن الوعد بأصل البعث و العذاب لم يكن مختصا بهم.

و بذلك يظهر الجواب عما قيل: إن الوفاء بالوعد واجب دون الوفاء بالوعد على ما ذكره المتكلمون فما معنى أخذ الاعتراف بحقيه ما ذكره الله من عقاب الكفار و المجرمين و أندرهم به فى الدنيا، و ليس تحققه بلازم.

و ذلك أن الملاك فيما ذكره من الفرق أن الثواب حق العامل على ولى الثواب الذى بيده الأمر، و العقاب حق الولى المثيب على العامل، و من الجائز أن يصرف الشخص نظره عن أعمال حق نفسه لكن لا يجوز إبطال حق الغير فإنجاز الوعد واجب دون إنجاز الوعد، و هذا إنما يتم فى موارد الوعد الخاصه و مصاديقه فى الجملة، و أما عدم إنجاز أصل العقاب على الذنب و إبطال أساس المجازاه على التخلف فليس كذلك اذ فيه إبطال التشريع من أصله و إخلال النظام العام.

و ربما وجه الفرق فى قوله: «وَعَدْنَا رَبَّنَا» «وَعَدَ رَبُّكُمْ» بأن المراد بقوله: «وَعَدْنَا» ما وعد الله المتقين من خصوصيات ما يعاملهم به يوم القيامة، و بقوله: «وَعَدَ رَبُّكُمْ» عموم ما وعد به المؤمنين و الكفار من الثواب و العقاب يوم القيامة كالذى فى قوله: «يا بنى آدم فَإِذَا يُتَّبَعُ مِنْكُمْ مَنْ يَأْتِيكُمْ مِنْى هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدًى» الى آخر الآيتين؛ و من المعلوم أن هذا الوعد لا يختص بالكفار حتى يقال: وعدكم ربكم بل التعبير الحق وعد ربكم.

وفيه: أن أصل الفرق لا- بأس به لكنه لا- يقطع السؤال فللسائل أن يعود فيقول ما هو السبب الفارق في أن أصحاب الجنة لما أوردوا اعتراف أنفسهم اقتصروا بذكر ما يخصهم من أمور يوم القيامة، وأما إذا سألوا أصحاب النار سألوهم عن جميع ما وعد الله به المؤمنين والكفار؟ وبعبارة أخرى هناك ما يشترك فيه الطائفتان و ما يختص به كل منهما فما بالهم إذا اعترفوا هم أنفسهم اعترفوا بما يختص بأنفسهم و يسألون أصحاب النار الاعتراف بما يشترك فيه الجميع؟.

وربما وجه الفرق بأن المراد بقوله: ﴿مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ الذي وعده أصحاب الجنة من أنواع الثواب الجزيل فإن أصحاب النار يشاهدون ذلك كما يجدون ما بهم من أليم العقاب. و هو وجه سخييف على سخافته لا يعنى طائلا.

وقوله: ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ تفریع على تحقق الاعتراف من الطائفتين جميعا على حقيه ما وعده الله سبحانه، والأذان هو قوله: ﴿لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ و هو إعلام عام للفريقين -و الدليل عليه ظاهر قوله: ﴿بينهم﴾ بقضاء اللعنه و هى الإبعاد و الطرد من الرحمه الإلهيه على الظالمين و قد فسر الظالمين الذين ضربت عليهم باللعنه بقوله

﴿الَّذِينَ يَصِفُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَتَّبِعُونَهَا عِوَجًا وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ فهم الكافرون المنكرون للآخرة الذين يصدون عن سبيل الله محرفه منحرفه، و يصرفون غيرهم عن سلوك الصراط المستقيم فهؤلاء هم المعاندون للحق المنكرون للمعاد.

و هذا الوصف يشمل جميع المعاندين للحق الكافرين بالجزاء حتى المنكرين للصانع الذين لا يدينون بدين فإن الله سبحانه يذكر في كتابه أن دينه و سبيله الذى يهدى إليه و به هو سبيل الإنسانيه الذى تدعو إليه الفطره الإنسانيه و الخلقه خص بها الإنسان ليس وراءه إسلام و لا دين.

فالسبيل الذى يسلكه الإنسان فى حياته هو سبيل الله و صراطه و هو الدين الإلهى فإن

سلكه على استقامه ما تدعو إليه الفطره و هو الذى يسوقه الى سعادته كان هو الصراط المستقيم و الإسلام الذى هو الدين عند الله و سبيل الله الذى لا عوج فيه، و إن سلك غير ذلك سواء كان فيه إذعان بالوهيه و عبادته لمعبود كالممل و الأديان الباطله أو لم يكن فيه خضوع لشيء و عبادته لمعبود كالماديه المحضه فهو سلوكك يبعثون فيه سبيل الله عوجا و هو الإسلام محرفا عن وجهه، و نعمه الله التى بدلت كفرا، فافهم ذلك.

و قد أبهم الله هذا الذى يخبر عنه بقوله: «فَأَدِّنْ مُؤَدِّنٌ بَيْنَهُمْ» و لم يعرفه من هو؟ أ من الإنس أم من الجن أم من الملائكه؟ لكن الذى يقتضيه التدبر فى كلامه تعالى أن يكون هذا المؤذن من البشر لا من الجن و لا من الملائكه: أما الجن فلم يذكر فى شيء من تضاعيف كلامه تعالى أن يتصدى الجن شيئا من التوسط فى أمر الإنسان من لدن وروده فى عالم الآخره و هو حين نزول الموت الى أن يستقر فى جنه أو نار فيختم أمره فلا موجب لاحتمال كونه من الجن.

و أما الملائكه فإنهم وسائط لأمر الله و حملته لإرادته بأيديهم إنفاذ الأوامر الإلهيه، و بوساطتهم يجرى ما قضى به فى خلقه، و قد ذكر الله سبحانه أشياء من أمرهم و حكمهم فى عالم الموت و فى جنه الآخره و نارها كقولهم للظالمين حين القبض «أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ» الخ (الأنعام ٩٣)؛ و قولهم لأهل الجنه الجنه: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ الخ (النحل ٣٢)؛ و قول مالك لأهل النار: إِنَّكُمْ مَا كَثُرَ الخ (الزخرف ٧٧)؛ و نظائر ذلك.

و أما المحشر و هو حظيره البعث و السؤال و الشهاده و تطاير الكتب و الوزن و الحساب و الظرف الذى فيه الحكم الفصل فلم يذكر للملائكه فيه شيء من الحكم أو الأمر و النهى و لا لغيرهم صريحا إلا ما صرح تعالى به فى حق الإنسان.

كقوله تعالى فى أصحاب الأعراف فى ذيل هذه الآيات حكاية عنهم: «و نَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» و قولهم لجمع من المؤمنين هناك: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لَا

أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ» و هذا حكم و أمر و تأمين بإذن الله، و قوله تعالى فيما يصف يوم القيامة: قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَ الشُّوَاءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (النحل ٢٧) و قوله تعالى بعد ذكر سؤاله أهل الجمع عن مده لبثهم فى الأرض: وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبُعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبُعْثِ وَ لَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (الروم ٥٦).

فهذه جهات من تصدى الشئون، و القيام بالأمر يوم القيامة حبا لله الإنسان به دون الملائكة مضافا الى أمثال الشهادة و الشفاعة اللتين له.

فهذا كله يقرب إلى الذهن أن يكون هذا المؤذن من الإنسان دون الملائكة، و يأتي فى البحث الروائى ما له تعلق بالمقام.

قوله تعالى: وَ بَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَ عَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ الْحِجَابُ معروف و هو الستر المتخلل بين شيئين يستر أحدهما من الآخر.

و الأعراف أعالي الحجاب، و التلال من الرمل و العرف للديك و للفرس و هو الشعر فوق رقبتة و أعلى كل شىء فففيه معنى العلو على أى حال، و ذكر الحجاب قبل الأعراف، و ما ذكر بعده من إشرافهم على الجميع و ندائهم أهل الجنة و النار جميعا كل ذلك يؤيد أن يكون المراد بالأعراف أعالي الحجاب الذى بين الجنة و النار و هو المحل المشرف على الفريقين أهل الجنة و أهل النار جميعا.

و السيماء العلامة قال الراغب: السيماء و السيمياء العلامة، قال الشاعر:

له سيمياء لا تشق على البصر

و قال تعالى: «سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ» و قد سومته أى أعلمته، و مسومين أى معلمين (انتهى).

و الذى يعطيه التدبر فى معنى هذه الآية و ما يلحق بها من الآيات أن هذا الحجاب الذى ذكره الله تعالى إنما هو بين اصحاب الجنة و أصحاب النار فهما مرجع الضمير فى قوله «وَ بَيْنَهُمَا»

وقد أنبأنا الله سبحانه بمثل هذا المعنى عند ذكر محاوره بين المنافقين و المؤمنين يوم القيامة بقوله: يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمَ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (الحديد ١٣)، وإنما هو حجاب لكونه يفرق بين الطائفتين و يحجب إحداهما عن الأخرى لا أنه ثوب منسوج مخيط على هيئه خاصه معلق بين الجنة و النار.

ثم أخبر الله سبحانه أن على أعراف الحجاب و أعاليه رجالا مشرفين على الجانبين لارتفاع موضعهم يعرفون كلا من الطائفتين أصحاب الجنة و أصحاب النار بسيماهم و علامتهم التي تختص بهم.

و لا ريب فى أن السياق يفيد أن هؤلاء الرجال منحازون على الطائفتين متميزون من جماعتهم فهل ذلك لكونهم خارجين عن نوع الإنسان كالملائكة أو الجن مثلا، أو لكونهم خارجين عن أهل الجمع من حيث ما يتعلق بهم من السؤال و الحساب و سائر الشؤون الشبيهه بهما فيكون بذلك أهل الجمع منقسمين الى طوائف ثلاث: أصحاب الجنة، و أصحاب النار، و أصحاب الأعراف كما قسمهم الله فى الدنيا الى طوائف ثلاث: المؤمنين و الكفار و المستضعفين الذين لم تتم عليهم الحجة و قصرُوا عن بلوغ التكليف كضعفاء العقول من النساء و الأطفال غير البالغين و الشيخ الهرم الخرف و المجنون و السفیه و أضرابهم، أو لكونهم مرتفعين عن موقف أهل الجمع بمكانتهم؟

لا- ريب أن إطلاق لفظ «رجال» لا- يشمل الملائكة فإنهم لا- يتصفون بالرجولية و الانوثه كما يتصف به جنس الحيوان و إن قيل: إنهم ربما يظهرون فى شكل الرجال فإن ذلك لا يصحح الانتصاف و التسميه، على أنه لا دليل يدل عليه.

ثم إن التعبير بمثل قوله: «رِجَالٌ يَعْرِفُونَ» الخ؛ و خاصه بالتنكير يدل بحسب عرف اللغه على اعتناء تام بشأن الأفراد المقصودين باللفظ نظرا الى دلالة الرجل بحسب العاده على

الإنسان القوى في تعلقه و إرادته الشديد في قوامه.

و على ذلك يجرى ما يوجد في كلامه تعالى من مثل هذا التعبير كقوله تعالى: رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ (النور ٣٧)، و قوله: فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهُرُوا (التوبه ١٠٨)، و قوله: رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ (الأحزاب ٢٣)، و قوله:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ (يوسف ١٠٩) حتى في مثل قوله: مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعِدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (ص ٦٢)، و قوله: وَ أَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ (الجن ٦).

فالمراد برجال في الآيه أفراد تامون في إنسانيتهم لا محاله، و إن فرض أن فيهم أفرادا من النساء كان من التغليب (١).

قوله تعالى: وَ نَادَوْا أَصِحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَ هُمْ يَطْمَعُونَ المنادون هم الرجال الذين على الأعراف-على ما يعطيه السياق- و قوله «أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» يفسر ما نادوا به، و قوله: «لَمْ يَدْخُلُوهَا وَ هُمْ يَطْمَعُونَ» جملتان حالتان فجمله «لَمْ يَدْخُلُوهَا» من أصحاب الجنة، و جملة «وَ هُمْ يَطْمَعُونَ» حال آخر من أصحاب الجنة و المعنى: أن أصحاب الجنة نودوا و هم في حال لم يدخلوا الجنة بعد و هم يطمعون في أن يدخلوها؛ أو حال من ضمير الجمع في «لَمْ يَدْخُلُوهَا» و هو العامل فيه، و المعنى أن أصحاب الجنة نودوا بذلك و هم في الجنة لكنهم لم يدخلوا الجنة على طمع في دخولها لأن ما شاهدوه من أهوال الموقف و دقه الحساب كان أيأسهم من أن يفوزوا بدخول الجنة لكن قوله بعد «أَهْلَاءِ الَّذِينَ» الى آخر الآيه يؤيد أول الاحتمالين و أنهم إنما سلموا عليهم قبل دخولهم

ص: ٤٩١

١- ١). الاعراف ٣٧-٥٣: كلام في اصحاب الاعراف. الاعراف ٣٧-٥٣: بحث روائي في: سنن الجاهليه في الطواف، تحريم ما احل الله، ان الله لا يأمر بالفحشاء، ان الله جميل و يحب الجمال.

و أما احتمال أن تكون الجملتان حالين من ضمير الجمع في «نَادَوْا» فيوجب سقوط الجملة عن الإفاده كما هو ظاهر، وذلك لرجوع المعنى الى أن هؤلاء الرجال الذين هم على أعراف الحجاب بين الجنة و النار نادوا و هم لم يدخلوا.

و على من يميل إلى أن يجعل قوله: «لَمْ يَدْخُلُوها وَ هُمْ يَطْمَعُونَ» بيانا لحال أصحاب الأعراف أن يجعل قوله: «لَمْ يَدْخُلُوها» استثناء يخبّر عن حال أصحاب الأعراف أو صفه لرجال و التقدير: و على الأعراف رجال لم يدخلوها و هم يطمعون و اذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا...الخ؛ كما نقل عن الزمخشري في الكشف.

لكن يبعد الاستئناف أن اللازم حينئذ إظهار الفاعل في قوله: «لَمْ يَدْخُلُوها» دون إضماره لمكان اللبس كما فعل ذلك في قوله: «وَ نَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا» الخ؛ و يبعد الوصفية الفصل بين الموصوف و الصفه بقوله: «وَ نَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ» من غير ضروره موجه.

و هذا التقدير الذى تقدم أعنى رجوع معنى قوله: «لَمْ يَدْخُلُوها وَ هُمْ يَطْمَعُونَ وَ إِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ» الى آخر الآيه؛ الى قولنا: و على الأعراف رجال يطمعون فى دخول الجنة و يتعوذون من دخول النار-على ما زعموا-هو الذى مهد لهم الطريق و سواه للقول بأن أصحاب الأعراف رجال استوت حسناتهم و سيئاتهم فلم يترجح لهم أن يدخلوا الجنة أو النار فوقفوا على الأعراف!.

لكنك عرفت أن قوله: «لَمْ يَدْخُلُوها» الخ؛ حال أصحاب الجنة لا وصف أصحاب الأعراف، و أما قوله: «وَ إِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ» الخ؛ فسيأتى ما فى كونه بيانا أصحاب الأعراف من الكلام.

قوله تعالى: وَ إِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تَلَقَّاءُ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا

تَجْعَلُنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ التلقاء كاليان مصدر لقي يلقى ثم استعمل بمعنى جهه اللقاء، و ضمير الجمع فى قوله: «أَبْصَارُهُمْ» و قوله: «قَالُوا» عائد الى «رجال» والتعبير عن النظر الى أصحاب النار بصرف أبصارهم إليه كأن الوجه فيه أن الإنسان لا يحب إلقاء النظر الى ما يؤلمه النظر إليه و خاصة فى مثل المورد الذى يشاهد الناظر فيه أفضع الحال و أمر العذاب و أشقه الذى لا يطاق النظر إليه غير أن اضطراب النفس و قلق القلب ربما يفتح العين نحوه للنظر إليه كأن غيره هو الذى صرف نظره إليه و إن كان الإنسان لو خلى و طبعه لم يرغب فى النظر و لو بوجه نحوه، و لذا قيل: «وَ إِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ» الخ؛ و لم يقل و اذا نظروا إليه أو ما يفيد مفاده.

و معنى الآية: و اذا نظر أصحاب الأعراف أحيانا الى أصحاب النار تعوذوا بالله من أن يجعلهم مع أصحاب النار فيدخلهم النار، و قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين.

و ليس دعاؤهم هذا الدعاء دالا على سقوط منزلتهم، و خوفهم من دخول النار كما يدل على رجائهم دخول الجنة قوله: «وَ هُمْ يَطْمَعُونَ» و ذلك أن ذلك مما دعا به أولو العزم من الرسل و الأنبياء المكرمون و العباد الصالحون و كذا الملائكة المقربون فلا دلالة فيه و لو بالإشعار الضعيف على كون الداعى ذا سقوط فى حاله و حيره من أمره. هذا ما فسروا به الآية بإرجاع ضميرى الجمع الى «رجال».

لكنك خير بأن ذلك لا- يلائم الإظهار الذى فى مفتتح الآية التالیه فى قوله: «وَ نَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ» اذ الكلام فى هذه الآيات الأربيع حال جار فى أوصاف أصحاب الأعراف و أخبارهم كقوله: «يَعْرِفُونَ كُلًّا» الخ؛ و قوله: «وَ نَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ» الخ؛ و قوله «لَمْ يَدْخُلُوهَا» الخ؛ على احتمال، و قوله: «وَ إِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ» الخ؛ و ليس فى الكلام أى لبس و لا نكته ظاهره توجب العدول من الإضمار الذى هو الأصل فى المقام الى الإظهار بمثل قوله:

«وَ نَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ» .

فالظاهر أن ضميرى الجمع أعنى ما فى قوله: «أَبْصَارُهُمْ» وقوله: «قَالُوا» راجعان الى أصحاب الجنة، والجمله إخبار عن دعائهم اذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار كما أن الجمله السابقه بيان لطمعهم فى دخول الجنة، و كل ذلك قبل دخولهم الجنة.

قوله تعالى: وَ نَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ الى آخر الآيه؛ فى توصيف الرجال بقوله: «يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ» دلالة على أن سيماءهم كما يدلهم على أصل كونهم من أصحاب الجنة يدلهم على أمور آخر من خصوصيات أحوالهم، وقد مرت الإشارة إليه.

وقوله: «قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ» تقريع لهم و شماته، و كشف عن تقطع الأسباب الدينويه عنهم فقد كانوا يستكبرون عن الحق و يستدلونه و يغترون بجمعهم.

قوله تعالى: أَمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ الى آخر الآيه.

الإشارة الى أصحاب الجنة، والاستفهام للتقرير أى هؤلاء هم الذين كنتم تجزمون قولاً أنهم لا يصيبهم فيما يسلكونه من طريق العبوديه خير، وإصابه الخير هى نيله تعالى إياهم برحمه و وقوع النكره-برحمه- فى حيز النفس يفيد استغراق الشىء للجنس، و قد كانوا ينفون عن المؤمنين كل خير.

وقوله: أدخلوا الجنة لا- خوف عليكم و لا- أنتم تحزنون، أمر من أصحاب الأعراف للمؤمنين أن يدخلوا الجنة بعد تقرير حالهم بالاستفهام، و هذا هو الذى يفيد السيق (1).

قوله تعالى: وَ نَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا النِّخَالَ؛ الإفاضه من الفيض و هو سيلان الماء منصبا، قال تعالى: تَرَىٰ أَغْيَنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ أى يسيل دمعها منصبا، و عطف سائر ما رزقهم الله من النعم على الماء يدل على أن المراد بالإفاضه صب

ص: ٤٩٤

مطلق النعم أعم من المانع وغيره على نحو عموم المجاز، وربما قيل: إن الإفاضه حقيقه فى إعطاء النعمه الكثيره فيكون تعليقه على الماء وغيره حقيقه حينئذ.

و كيف كان ففى الآيه إشعار بعلو مكانه أهل الجنه بالنسبه الى مكان أهل النار.

و إنما أفرز الماء و هو من جمله ما رزقهم الله ثم قدم فى الذكر على سائر ما رزقهم الله لأن الحاجه الى بارد الماء أسبق الى الذهن طبعا بالنسبه الى غيره عند ما تحيط الحراره بالإنسان، و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَ لَعِبًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ اللهو ما يشغلك عما يهملك، و اللعب الفعل المأتى به لغايه خياليه غير حقيقه، و الغرور إظهار النصح و استبطان الغش، و النسيان يقابل الذكر، و ربما يستعار لترك الشىء و عدم الاعتناء بشأنه كالشىء المنسى، و على ذلك يجرى فى الآيه، و الجحد النفسى و الإنكار، و الآيه مسوقه لتفسير الكافرين، و يستفاد منها تفسيرات ثلاثه للكفر: أولها: أنه اتخاذا الإنسان دينه لهوا و لعبا و غرور الحياه الدنيا له، و الثانى: نسيان يوم اللقاء، و الثالث: الجحد بآيات الله، و لكل من التفاسير وجه.

و فى قوله تعالى: «الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَ لَعِبًا» دلالة على أن الإنسان لا- غنى له عن الدين على أى حال حتى من اشتغل باللهو و اللعب و محض حياته فيها محضا فإن الدين - كما تقدمت الإشارة إليه فى تفسير قوله: «الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجًا» الآيه - هو طريق الحياه الذى يسلكه الإنسان فى الدنيا، و لا محيص له عن سلوكه، و قد نظم الله سبحانه بحسب ما تهدى إليه الفطره الإنسانيه و دعت إليه، و هو دين الإنسان الذى يخصه و ينسب إليه، و هو الذى يهمل الإنسان و يسوقه الى غايه حقيقه هى سعادته حياته.

فحيث جرى عليه الإنسان و سلكه كان على دينه الذى هو دين الله الفطرى، و حيث اشتغل عنه الى غيره الذى يلهو عنه و لا يهديه إلا الى غايات خياليه و هى اللذائذ الماديه التى لا بقاء لها و لا نفع فيها يعود الى سعادته فقد اتخذا دينه لهوا و لعبا و غرته الحياه الدنيا بسراب

وقوله تعالى: فَالْيَوْمَ نُنَسِّهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا أَيُّ الْيَوْمِ نتركهم و لا نقوم بلوازم حياتهم السعيده كما تركوا يومهم هذا فلم يقوموا بما يجب أن يعملوا له و بما كانوا بآياتنا يجحدون و نظير الآية في جعل تكذيب الآيات سببا لنسيان الله له يوم القيامة قوله قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى (طه ١٢٦)، و قد بدل هناك الجحد نسيانا.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ الْآيَةِ؛ عود على بدء الكلام أعنى قوله في أول الآيات: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ» أي من أعظم من هؤلاء ظلما و لقد أتممنا عليهم الحججه و أقمنا لهم البيان فجئناهم بكتاب فصلناه و أنزلناه إليهم على علم منا بنزوله؟.

فقوله: «عَلَىٰ عِلْمٍ» متعلق بقوله: «لَقَدْ جِئْتَهُمْ» و الكلمه تتضمن احتجاجا على حقيه الكتاب و التقدير: و لقد جئناهم بكتاب حق: و كيف لا يكون حقا؟ و قد نزل على علم منا بما يشتمل عليه من المطالب.

وقوله: «هُدًى وَ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» أي هدى و إراءه طريق للجميع و رحمه للمؤمنين به خاصه؛ أو هدى و إيصالا- بالمطلوب للمؤمنين و رحمه لهم، و الأول أنسب بالمقام و هو مقام الاحتجاج.

قوله تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ الضمير في تأويله راجع الى الكتاب، و قد تقدم في تفسير قوله: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ الْآيَةِ (آل عمران ٧)؛ أن التأويل في عرف القرآن هو الحقيقه التي يعتمد عليها حكم أو خبر أو أي أمر ظاهر آخر اعتماد الظاهر على الباطن و المثل على المثل.

فقوله: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ» معناه هل ينتظر هؤلاء الذين يفترون على الله كذبا أو

يكذبون بآياته و قد تمت عليهم الحجه بالقرآن النازل عليهم، إلا حقيقه الأمر التى كانت هى الباعثه على سوق بياناته و تشريع أحكامه و الإنذار و التبشير الذين فيه؟ فلو لم ينتظروه لم يتركوا الأخذ بما فيه.

ثم يخبر تعالى عن حالهم فى يوم إتيان التأويل بقوله: يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه، الخ؛ أى اذا انكشفت حقيقه الأمر يوم القيامة يعترف التاركون له بحقيقه ما جاءت به الرسل من الشرائع التى أوجبوا العمل بها، و أخبروا أن الله سيبيعهم و يجازيهم عليها.

و اذ شاهدوا عند ذلك أنهم صفر الأيدى من الخير، هالكون بفساد أعمالهم سألوا أحد أمرين يصلح به ما فسد من أمرهم إما شفعا ينجونهم من الهلاك الذى أطل عليهم أو أنفسهم، بأن يردوا الى الدنيا فيعملوا صالحا غير الذى كانوا يعملونه من السيئات و ذلك قوله حكاية عنهم: «فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ»؟.

و قوله تعالى: «قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ» فصل فى معنى التعليل لما حكى عنهم من سؤال أحد أمرين: إما الشفعا و إما الرد الى الدنيا كأنه قيل: لما ذا يسألون هذا الذى يسألون؟ فقيل: «قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» فيما بدلوا دينهم لهوا و لعبا، و اختاروا الجحود على التسليم و قد زال عنهم الافتراءات المضله التى كانت تحجبهم عن ذلك فى الدنيا فبان لهم أنهم فى حاجه الى من يصلح لهم أعمالهم إما أنفسهم أو غيرهم ممن يشفع لهم.

و قد تقدم فى مبحث الشفاعة فى الجزء الأول من الكتاب أن فى قوله: «فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا» دلالة على أن هناك شفعا يشفعون للناس اذ قال: من شفعا، و لم يقل: من شفيع فيشفع لنا (1).

ص: ٤٩٧

١- ١). الاعراف ٣٧-٥٣: بحث روائى فى: عذاب القبر؛ كيفية قبض روح المؤمن و الكافر؛ كيفية الورود الى عالم البرزخ؛ اصحاب الاعراف.

إشاره

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَجِّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ لَبَّازِكُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) اُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِضْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِيَلْدَ مِمِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ لَبَّازَةً بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُضَرِّفُ الْأَيَّامَ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ سياتى البحث فى معنى السماء و الأيام الستة التى خلقتا فيها فى تفسير سوره حم السجده إن شاء الله.

قوله تعالى: ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ -الى قوله- بِأَمْرِهِ الاستواء الاعتدال

على الشيء و الاستقرار عليه، و ربما استعمل بمعنى التساوى، يقال: استوى زيد و عمرو أى تساوىا قال تعالى: «لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ»

و العرش ما يجلس عليه الملك و ربما كنى به عن مقام السلطنة، قال الراغب فى المفردات:

العرش فى الأصل شىء مسقف، و جمعه عروش قال: «و هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا» و منه قيل:

عرش الكرم و عرشها إذا جعلت له كهيته سقف. قال: و العرش شبه هودج للمرأه تشبيها فى الهيئه بعرش الكرم، و عرش البئر جعلت له عريشا، و سمي مجلس السلطان عرشا اعتبارا بعلوه. قال: و عرش الله ما لا يعلمه البشر على الحقيقه إلا بالاسم، و ليس كما يذهب إليه أوهام العامه فإنه لو كان كذلك لكان حاملا له -تعالى عن ذلك- لا محمولا و الله تعالى يقول: إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَ لَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، و قال قوم:

هو الفلك الأعلى و الكرسي فلك الكواكب، و استدل بما روى عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: ما السماوات السبع و الأرضون السبع فى جنب الكرسي إلا كحلقة ملقاه فى أرض فلاه و الكرسي عند العرش كذلك (انتهى).

قوله تعالى: أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ بَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الخلق هو التقدير بضم شىء الى شىء و إن استقر ثانيا فى عرف الدين و أهله فى معنى الإيجاد أو الإبداع على غير مثال سابق، و أما الأمر فيستعمل فى معنى الشأن و جمعه أمور، و مصدرا بمعنى يقرب من بعث الإنسان غيره نحو ما يريده يقال أمرته بكذا أمرا، و ليس من البعيد أن يكون هذا هو الأصل فى معنى اللفظ ثم يستعمل الأمر اسم مصدر بمعنى نتيجة الأمر و هو النظم المستقر فى جميع أفعال الأمور المنبسط على مظاهر حياته، فينطبق فى الإنسان على شأنه فى الحياه ثم يتوسع فيه فيستعمل بمعنى الشأن فى كل شىء فأمر كل شىء هو الشأن الذى يصلح له وجوده، و ينظم له تفاريق حركاته و سكناته و شتى أعماله و إراداته، يقال: أمر العبد الى مولاه، أى هو يدبر حياته و معاشه، و أمر المال الى مالكه، و أمر الإنسان الى ربه أى بيده تدبيره فى

ولا- يرد عليه أن الأمر بمعنى الشأن يجمع على «أمور» و بمعنى يقابل النهى على «أوامر» و هو ينافى رجوع أحدهما الى الآخر معنى!،فإن أمثال هذه التفننات كثيره فى اللغه يعثر عليها المتتبع الناقد فالأمر كالمتوسط بين من يملكه و بين من يملك منه كالمولى و العبد و يضاف الى كل منهما يقال: أمر العبد و أمر المولى،قال تعالى: وَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ (البقره ٢٧٥)،و قال: أَتَى أَمْرُ اللَّهِ (النحل ١).

و قد فسر سبحانه أمره الذى يملكه من الأشياء بقوله: **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (يس ٨٣)**،فبين أن أمره الذى يملكه من كل شىء سواء كان ذاتا أو صفه أو فعلا و أثرا هو قول كن و كلمه الإيجاد هو الوجود الذى يفيضه عليه فيوجد هو به،فإذا قال لشىء: كن فكان،فقد أفاض عليه ما وجد به من الوجود،و هذا الوجود الموهوب له نسبه الى الله سبحانه و هو بذاك الاعتبار أمره تعالى و كلمه «كن»الإلهيه،و له نسبه الى الشىء الموجود،و هو بذاك الاعتبار أمره الراجع الى ربه،و قد عبر عنه فى الآيه بقوله: «فَيَكُونُ» .

و قد ذكر تعالى لكل من النسبتين-و إن شئت فقل:للإيجاد المنسوب إليه تعالى و للوجود المنسوب الى الشىء-نعوتا و أحكاما مختلفه سنبحث عنها إن شاء الله فى محل يناسبه.

و الحاصل:أن الأمر هو الإيجاد سواء تعلق بذات الشىء أو بنظام صفاته و أفعاله فأمر ذوات الأشياء الى الله و أمر نظام وجودها الى الله لأنها لا تملك لنفسها شيئا البته،و الخلق هو الإيجاد عن تقدير و تأليف سواء كان ذلك بنحو ضم شىء الى شىء كضم أجزاء النطفه بعضها الى بعض و ضم نطفه الذكور الى نطفه الإناث ثم ضم الأجزاء الغذائيه إليها فى شرائط خاصه حتى يخلق بدن انسان مثلا،أم من غير أجزاء مؤلفه كتقدير ذات الشىء البسيط و ضم ماله من درجه الوجود وحده و ما له من الآثار و الروابط التى له مع غيره،فالأصول الأوليه مقدره

مخلوقه كما أن المركبات مقدره مخلوقه. قال الله تعالى: وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا (الفرقان ٢/)، وقال: الَّذِي أُعْطِيَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (طه ٥٠/)، وقال: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (الزمر ٦٢/)، فعمم خلقه كل شيء.

فقد اعتبر في معنى الخلق تقدير جهات وجود الشيء و تنظيمها سواء كانت متميزه منفصلا بعضها عن بعض أم لا بخلاف الأمر.

ولذا كان الخلق يقبل التدرج كما قال: «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ» بخلاف الأمر قال تعالى: وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (القمر ٥٠/)، ولذلك أيضا نسب في كلامه الى غيره الخلق كقوله: وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا (المائدة / ١١٠)، وقال فَبَارَكْ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (المؤمنون ١٤/).

و أما الأمر بهذا المعنى فلم ينسبه الى غيره بل خصه بنفسه، وجعله بينه وبين ما يريد حدوثه و كينوته كالروح الذي يحيى به الجسد.

انظر الى قوله تعالى: وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسِيرَاتٍ بِأَمْرِهِ وَقوله: وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ (الروم ٤٦/)، وقوله: يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ (النحل ٢/) وقوله:

وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (الأنبياء ٢٧/)، الى غير ذلك من الآيات تجد أنه تعالى يجعل ظهور هذه الأشياء بسببه أمره أو بمصاحبه أمره، فلخص أن الخلق و الأمر يرجعان بالأخره الى معنى واحد و إن كانا مختلفين بحسب الاعتبار.

فإذا انفرد كل من الخلق و الأمر صح أن يتعلق بكل شيء، كل بالعنايه الخاصه به، و إذا اجتمعا كان الخلق أحرى بأن يتعلق بالذوات لما أنها أوجدت بعد تقدير ذواتها و آثارها، و يتعلق الأمر بآثارها و النظام الجارى فيها بالتفاعل العام بينها لما أن الآثار هى التى قدرت للذوات و لا وجه لتقدير المقدر فافهم ذلك.

ولذلك قال تعالى: «أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ» فأتى بالعطف المشعر بالمغايره بوجهه و كأن

المراد بالخلق ما يتعلق من الإيجاد بذوات الأشياء، وبالامر ما يتعلق بآثارها والأوضاع الحاصله فيها و النظام الجارى بينها كما ميز بين الجهتين فى أول الآيه حيث قال: «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ» وهذا هو إيجاد الذوات: ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ وَهُوَ إِيجَادُ النَّظَامِ الْإِحْسَنِ بَيْنَهَا بِإِيقَاعِ الْأَمْرِ تَلْوِ الْأَمْرِ وَالْإِتْيَانِ بِالْوَأْحِدِ مِنْهُ بَعْدَ الْوَأْحِدِ.

و ما ربما يقال: إن العطف لا يقتضى المغايره، و لو اقتضى ذلك لدل فى قوله: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ (البقره ٩٨) على كون جبريل من غير جنس الملائكه! مدفوع بأن المراد مغايره ما و لو اعتبارا لقبح قولنا جاءنى زيد و زيد و رأيت عمرا و عمرا فلا- محيص عن مغايره ما و لو بحسب الاعتبار، و جبريل مع كونه من جنس الملائكه يغايره غيره بما له من المقام المعلوم و القوه و المكانه عند ذى العرش.

و قوله تعالى: «فَبَارَكِ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» أى كان ذا بركات ينزلها على مربوبيه من جميع من فى العالمين فهو ربهم (١).

قوله تعالى: أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ التضرع هو التذلل من الضراعه و هى الضعف و الذله. و الخفيه هى الاستتار، و ليس من البعيد أن يكون كناية عن التذلل جىء به لتأكيد التضرع فإن المتذلل يكاد يختفى من الصغار و الهوان.

الآيه السابقه: «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ» الآيه تذكر ربوبيته وحده لا شريك له من جهه أنه هو الخالق وحده، و إليه تدبير خلقه وحده؛ فتعقيبها بهاتين الآيتين بمنزله أخذ النتيجة من البيان، و هى الدعوه الى دعائه و عبوديته، و الحكم بأخذ دين يوافق ربوبيته تعالى و هى الربوبيه من غير شريك فى الخلق و لا فى التدبير.

ص: ٥٠٢

و لذلك عاد أولا الى دين العبوديه فقال: اُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَ خُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا
فأمر أن يدعوه بالتضرع و التذلل و أن يكون ذلك خفيه من غير المجاهره البعيده عن أدب العبوديه الخارجه عن زيها-بناء على
أن تكون الواو في «تَضَرُّعًا وَ خُفْيَةً» للجمع-أو أن يدعوه بالتضرع و الابتهاال الملازم عاده للجهر بوجه أو بالخفيه إخفاتا فإن
ذلك هو لازم العبوديه و من عدا ذلك فقد اعتدى عن طور العبوديه و إن الله لا يحب المعتدين.

و من الممكن أن يكون المراد بالتضرع و الخفيه:الجهر و السر و إنما وضع التضرع موضع الجهر لكون الجهر في الدعاء منافيا
لأدب العبوديه إلا أن يصاحب التضرع.

هذا فيما بينهم و بين الله،و أما فيما بينهم و بين الناس فإن لا يفسدوا في الأرض بعد إصلاحها فليس حقيقه الدين فيما يرجع الى
حقوق الناس إلا- أن يصلح شأنهم بارتفاع المظالم من بينهم و معاملتهم بما يعينهم على التقوى،و يقربهم من سعادته الحياه في
الدنيا و الآخره.

ثم كرر الدعوه إليه و أعاد البعث الى دعائه بالجمع بين الطريقتين الذين لم يزل البشر يعبد الرب أو الأرباب من أحدهما و هما
طريق الخوف و طريق الرجاء فإن قوما كانوا يتخذون الأرباب خوفا فيعبدونهم ليسلموا من شرورهم،و كان قوما يتخذون الأرباب
طمعا فيعبدونهم لينالوا خيرهم و بركتهم لكن العباده عن محض الخوف ربما ساق الإنسان الى اليأس و القنوط فدعاه الى ترك
العباده،و قد شوهد ذلك كثيرا،و العباده عن محض الطمع ربما قاد الى استرسال الوقاحه و زوال زى العبوديه فدعاه الى ترك
العباده،و قد شوهد أيضا كثيرا فجمع سبحانه بينهما و دعا الى الدعاء باستعمالهما معا فقال: «وَ ادْعُوهُ خَوْفًا وَ طَمَعًا» ليصلح كل
من الصفتين ما يمكن أن تفسده الاخرى،و في ذلك وقوع في مجرى الناموس العام الجارى في العالم أعنى ناموس الجذب و
الدفع.

و قد سمي الله سبحانه هذا الاعتدال في العباده و التجنب عن إفساد الأرض بعد إصلاحها

إحسانا و بشر المجيبين لدعوته بأنهم يكونون حينئذ محسنين فتقرب منهم رحمته إن رحمه الله قريب من المحسنين.

و لم يقل: «رحمه الله قريبه»، قيل: لأن الرحمه مصدر يستوى فيه الوجهان، وقيل: لأن المراد بالرحمه الإحسان، وقيل: لأن قريب فعيل بمعنى المفعول فيستوى فيه المذكر و المؤنث و نظيره قوله تعالى: لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (الشورى ١٧).

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِلَى آخِرِ الآيَةِ؛ و فى الآيه بيان لربوبيته تعالى من جهة العود كما أن فى قوله: «إِنَّ رَبُّكُمْ اللَّهُ» الآيه بيانا لها من جهة البدء.

و قوله: «بُشْرًا» و أصله البشر بضمبتين جمع بشير كالنذر جمع نذير، و المراد بالرحمه المطر، و قوله: «بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ» أى قدام المطر، و فيه استعاره تخيليه بتشبيه المطر بالإنسان الغائب الذى ينتظره أهله فيقدم و بين يديه بشير يبشر بقدومه.

و الإقلال الحمل، و السحاب و السحابه الغمام و الغمامه كتمر و تمره و كون السحاب ثقلا باعتبار حملة ثقل الماء، و قوله: «لِبَلَدٍ مَيِّتٍ» أى لأجل بلد ميت أو الى بلد ميت و الباقي ظاهر.

و الآيه تحتج بإحياء الأرض على جواز إحياء الموتى لأنهما من نوع واحد، و حكم الأمثال فيما يجوز و فيما لا يجوز واحد و ليس الأحياء الذين عرض لهم عارض الموت بمنعدين من أصلهم فإن أنفسهم و أرواحهم باقيه محفوظه و إن تغيرت أبدانهم، كما أن النبات يتغير ما على وجه الأرض منها و يبقى ما فى أصله من الروح الحيه على انعزال من النشوء و النماء ثم تعود إليه حياته الفعاله كذلك يخرج الله الموتى فما إحياء الموتى فى الحشر الكلى يوم البعث إلا كإحياء الأرض الميتة فى بعثه الجزئى العائد كل سنه، و للكلام ذيل سيوافيك فى محل آخر إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ إِلَى آخِرِ الآيَةِ؛ النكد

القليل. و الآيه بالنظر الى نفسها كالمثل العام المضروب لترتب الأعمال الصالحه و الآثار الحسنه على الذوات الطيبه الكريمه
كخلافها على خلافها كما تقدم فى قوله: كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ لكنها بانضمامها الى الآيه السابقه تفيد أن الناس و إن اختلفوا فى
قبول الرحمه فالاختلاف من قبلهم و الرحمه الإلهيه عامه مطلقه (١).

[سوره الأعراف (٧): الآيات ٥٩ الى ٦٤]

اشاره

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ
إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَالٌّ وَلَا لِي آلَاءٌ وَ لَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ
لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
(٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ أَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)

ص: ٥٠٥

قوله تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ بدأ الله سبحانه بقصته و هو أول رسول يذكر الله سبحانه تفصيل قصته في القرآن كما سيأتي تفصيل القول في قصته في سورة هود إن شاء الله تعالى.

و اللام في قوله: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا» للقسم جيء بها للتأكيد لأن وجه الكلام الى المشركين و هم ينكرون النبوه، و قوله: «فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» ناداهم بقوله: «يَا قَوْمِ» فأضافهم الى نفسه ليكون جريا على مقتضى النصح الذي سيخبرهم به عن نفسه، و دعاهم اول ما دعاهم الى توحيد الله تعالى فإن دعاهم الى عبادته، و أخبرهم بانتفاء كل إله غيره فيكون دعوه الى عباده الله وحده من غير أن يشرك به في عبادته غيره، و هو التوحيد.

ثم أنذرهم بقوله: «إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» و ظاهره يوم القيامة فيكون في ذلك دعوه الى أصليين من أصول الدين و هما التوحيد و المعاد، و أما الأصل الثالث و هو النبوه فيصرح به في قوله: «يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَالَّةٌ وَ لَكِنِّي رَسُولٌ» الآية.

على أن في نفس الدعوة و هي دعوه الى نوع من العباده لا- يعرفونها و كذا الإنذار بما لم يكونوا يعلمونه و هو عذاب القيامة إشعارا بالرساله من قبل من يدعو إليه، و من الشاهد على ذلك قوله في جوابهم: «أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ» فإنه يدل على تعجبهم من رسالته باستماع أول ما خاطبهم به من الدعوة و هو قوله: «يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» .

قوله تعالى: قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ الملاء هم أشرف القوم و خواصهم سموا به لأنهم يملئون القلوب هيبه و العيون جمالا و زينه، و إنما رموا

بالضلال المبين و أكدوه تأكيداً شديداً لأنهم لم يكونوا ليتوقعوا أن معترضا يعترض عليهم بالدعوه الى رفض آلهتهم و توجيه العباده الى الله سبحانه بالرساله و الإنذار فتعجبوا من ذلك فأكدوا ضلاله مدعين أن ذلك من بين الضلال تحقيقاً. و الرؤيه هي الرؤيه بحسب الفكر أعنى الحكم.

قوله تعالى: قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَالَّةٌ الْآيَةُ؛ أجابهم بنفى الضلال عن نفسه و الاستدراك بكونه رسولا من الله سبحانه، و ذكره بوصفه: «رَبُّ الْعَالَمِينَ» ليجمع له الربوبيه كلها قبال تقسيمهم إياها بين آلهتهم بتخصيص كل منها بشيء من شؤونها و أبوابها كربوبيه البحر و ربوبيه البر و ربوبيه الأرض و ربوبيه السماء و غير ذلك.

و قد جرد عليه السلام جوابه عن التأكيد للإشاره الى ظهور رسالته و عدم ضلالته تجاه إصرارهم بذلك و تأكيد دعواهم.

قوله تعالى: «أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَ أَنْصِيحُ لَكُمْ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» أخبرهم بأوصاف نفسه فيبين أنه يبلغهم رسالات ربه، و هذا شأن الرساله و مقتضاها القريب الضرورى، و فى جمع الرساله دلالة على كونها كثيره و أن له مقاصد أمره ربه أن يبلغها إياهم وراء التوحيد و المعاد فإنه نبي رسول من أولى العزم صاحب كتاب و شريعته.

ثم ذكر أنه ينصح لهم و هو عظاته بالإنذار و التبشير ليقربهم من طاعه ربههم و يبعدهم عن الاستكبار و الاستنكاف عن عبوديته كل ذلك بذكر ما عرف الله من بدء الخلقه و عودها و سننه تعالى الجاريه فيها، و لذا ذكر ثالثاً أنه يعلم من الله ما لا يعلمون كوقائع يوم القيامة من الثواب و العقاب و غير ذلك، و ما يستتبع الطاعه و المعصيه من رضاه تعالى و سخطه و وجوه نعمه و نقمه.

و من هنا يظهر أن الجمل الثلاث كل مسوق لغرض خاص أعنى قوله: «أَبْلَغُكُمْ» الآية

و «أَنْصَحُ لَكُمْ» و «أَعْلَمُ» الآيه و هي ثلاثه أوصاف متواليه لا كما قيل: إن الاوليان صفتان، و الثالثه جمله حالیه عن فاعل «وَأَنْصَحُ لَكُمْ» .

قوله تعالى: أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ استفهام إنكاري ينكر تعجبهم من دعواه الرساله و دعوته إياهم الى الدين الحق و المراد بالذكر ما يذكر به الله و هو المعارف الحقه التي أوحيت إليه، و قوله: «مِنْ رَبِّكُمْ» متعلق بمقدر أى ذكر كائن من ربكم.

و قوله: «لِيُنذِرَكُمْ» و «لِتَتَّقُوا» و «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» متعلقات بقوله: «جَاءَكُمْ» و المعنى لغرض أن ينذركم الرسول، و لتتقوا أنتم، و يؤدي ذلك الى رجاء أن تشملكم الرحمه الإلهيه فإن التقوى و إن كان يؤدي الى النجاه لكنها ليست بعله تامه، و قد اشتمل ما حكى من إجمال كلامه عليه السلام من معارف عاليه إلهيه.

قوله تعالى: فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ الْفُلِكِ السَّفِينَةِ يَسْتَعْمَلُ وَاحِدًا وَ جَمْعًا عَلَى مَا ذَكَرَهُ الرَّاعِبُ وَ يَذَكَرُ وَ يُؤْنِثُ كَمَا فِي الصَّحَاحِ وَ قَوْلُهُ: «قَوْمًا عَمِينَ» موصوف و صفه. و عمين جمع عمى كخشن صفه مشبهه من عمى يعمى، عمى كالأعمى إلا أن العمى يختص بعمى البصيره و الأعمى بعمى البصر، كما قيل، و معنى الآيه ظاهر.

[سوره الأعراف (٧): الآيات ٦٥ الى ٧٢]

إشارة

وَ إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَ إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَ لَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَ أَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَ أذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَ زَادْنَاكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصِيرَةً فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبِدَ اللَّهَ وَ خُدَّه وَ نَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَيَّمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٧١) فَأَنْجَيْنَاهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ قَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ مَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)

قوله تعالى: **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ إِلَىٰ آخِرِ آيَةٍ؛** الأخ و أصله أخو هو المشارك غيره فى الولاده تكويننا لمن ولده و غيره أب أو أم أو هما معا أو بحسب شرع إلهى كالأخ الرضاعى أو سنه اجتماعيه كالأخ بالدعاء على ما كان يراه أقوام فهذا أصله، ثم استعير لكل من ينتسب الى قوم أو بلده أو صنعه أو سجيته و نحو ذلك يقال: أخو بنى تميم و أخو يثرب و أخو الحياكه و أخو الكرم، و من هذا الباب قوله: **«وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ**

و الكلام فى قوله: «فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» كالكلام فى نظير الخطاب من القصة السابقه.فإن قلت:لم حذف العاطف من قوله: «قَالَ يَا قَوْمِ» و لم يقل:فقال كما فى قصة نوح؟قلت:هو على تقدير سؤال كأنه لما قال: «وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا» قيل:فما قال هود؟فاجيب و قيل:قال يا قوم اعبدوا الله الآيه.كذا قاله الزمخشري فى الكشاف.

و لا يجرى هذا الكلام فى قصة نوح لأنه أول قصه أوردت،و هذه القصة قصه بعد قصه يهياً فيها ذهن المخاطب للسؤال بعد ما وعى إجمال القصة و علم أن قصه الإرسال تتضمن دعوه وردا و قبولاً فكان بالحرى إذا سمع المخاطب قوله: «وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا» أن يسأل فيقول:

ما قال هود لقومه؟و جوابه قال لهم؛الخ.

قوله تعالى: قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛لما كان فى هذا الملاء من يؤمن بالله و يستر إيمانه كما سيأتى فى القصة بخلاف الملاء- من قوم نوح قال هاهنا فى قصة هود: قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ و قال فى قصة نوح: قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ كذا ذكره الزمخشري.و قوله تعالى حكاية عن قولهم: «إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَ إِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ» أكدوا كلامهم مره بعد مره لأنهم سمعوا منه مقالا ما كانوا ليتوقعوا صدوره من أحد، و قد أخذت آلهتهم موضعها من قلوبهم،و استقرت سنه الوثنيه بينهم استقرارا لا يجترئ معه أحد على أن يعترض عليها فتعجبوا من مقاله فردوه ردا عن تعجب،فجبهوه أولا بأن فيه سفاهه و هو خفه العقل التى تؤدى الى الخطأ فى الآراء،و ثانيا بأنهم يظنون بظن قوى جدا أنه من الكاذبين،و كأنهم يشيرون بالكاذبين الى أنبيائهم لأن الوثنيين ما كانوا ليذعنوا بالنبوه و قد جاءهم أنبياء قبل هود كما يذكره تعالى بقوله: وَ تِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ (هود٥٩/).

قوله تعالى: قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ كالكلام فى الآيه نظير الكلام فى نظيره

من قصه نوح غير أن عادا زادوا وقاحه على قوم نوح حيث إن أولئك رموا نوحا بالضلال فى الرأى و هؤلاء رموا هودا بالسفاهه لكن هودا لم يترك ما به من وقار النبوه، و لم ينس ما هو الواجب من أدب الدعوه الإلهيه فأجابهم بقوله: «يَا قَوْمِ» فأظهر عطوفته عليهم و حرصه على إنجائهم «لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَ لَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ» فجرى على تجريد الكلام من كل تأكيد و اكتفى بمجرد رد تهمتهم و إثبات ما كان يدعيه من الرساله للدلاله على ظهوره.

قوله تعالى: «أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَ أَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ» أى لا شأن لى بما أنى رسول إلا تبليغ رسالات ربي خالصا من شوب ما تظنون بى من كونى كاذبا فلست بغاش لكم فيما أريد أن أحملكم عليه، و لا خائن لما عندى من الحق بالتغيير و لا لما عندى من حقوقكم بالإضاعه، فما أريده منكم من التدين بدين التوحيد هو الذى أراه حقا، و هو الذى فيه نفعكم و خيركم، فإنما وصف نفسه بالأمين محاذاه لقولهم: «وَ إِنَّا لَنظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ» .

قوله تعالى: «أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ البصطه هى البسطه قلبت السين صادًا لمجاورتها الطاء و هو من حروف الإطباق كالصراط و السراط و الآلاء جمع ألى بفتح الهمزه و كسرهما بمعنى النعمه كأناء جمع أنى و إنى.

ثم أنكر عليه السّلام تعجبهم من رسالته إليهم نظير ما تقدم من نوح عليه السّلام و ذكّرهم نعم الله عليهم، و خص من بينها نعمتين ظاهرتين هما أن الله جعلهم خلفاء فى الأرض بعد نوح، و أن الله خصهم من بين الأقوام ببسطه الخلق و عظم الهيكل البدنى المستلزم لزياده الشده و القوه، و من هنا يظهر أنهم كانوا ذوى حضاره و تقدم، و صيت فى البأس و القوه و القدره. ثم أتبعهما بالإشاره الى سائر النعم بقوله تعالى: «فَاذْكُرُوا آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» .

قوله تعالى: «قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْجِبَ اللَّهَ وَ حَيْدَهُ وَ نَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا الْآيَةِ؛ فيه تعلق منهم بتقليد الآباء، و تعجيز هود مشوبا بنوع من الاستهزاء بما أنذرهم به من العذاب.

قوله تعالى: **قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ الرّجس و الرّجز هو الأمر الذى إذا وقع على الشىء أوجب ابتعاده أو الابتعاد عنه، ولذا يطلق على القاذوره لأن الإنسان يتنفر و يتبعد عنه، و على العذاب لأن المعذب -اسم مفعول- يتبعد عن يعذبه أو من الناس الآمنين من العذاب.**

أجابهم بأن إصرارهم على عباده الأوثان بتقليد آباءهم أوجب أن يحق عليهم البعد عن الله بالرجس و الغضب؛ ثم فرع عليه أن هددهم بما يستعجلون من العذاب، و أخبرهم بنزوله عليهم لا محاله، و كنى عن ذلك بأمرهم بالانتظار و اخبارهم بأنه مثلهم فى انتظار نزول العذاب فقال: **«فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ»** .

و أما قوله: **«أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ»** فهو رد لما استندوا إليه فى أولهيه آلهتهم و هو أنهم وجدوا آباءهم على عبادتها-و هم أكمل منهم و ممن فى طبقتهم كهود و أعقل فيجب عليهم أن يقلدوهم.

و محصله أنكم و آباءكم سواء فى أنكم جميعا أتيتم بأشياء ليس لكم على ما ادعيتم من صفتها و هى الألوهيه من سلطان و هو البرهان و الحجج القاطعه فلا يبقى لها من الألوهيه إلا الأسماء التى سميتوها بها إذ قلتم: **إله الخصب و إله الحرب و إله البحر و إله البر،** و ليس لهذه الأسماء مصاديق إلا فى أوهاكم، فهل تجادلوننى فى الأسماء، و للإنسان أن يسمى كل ما شاء بما شاء إذا لم يعتبر تحقق المعنى فى الخارج.

و قد تكرر فى القرآن الاستدلال على بطلان الوثنيه بهذا البيان: **«أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ»** و هو من أطف البيان و أرقه، و أبلغ الحجج و أقطعها إذ لو لم يأت الإنسان لما يدعيه من دعوى بحجه برهانيه لم يبق لما يدعيه من النعت إلا التسميه و التعبير، و من أبده الجهل أن يعتمد الإنسان على مثل هذا النعت الموهوم.

و هذا البيان يطرد و يجرى بالتحليل فى جميع الموارد التى يثق فيها الإنسان على غير الله

سبحانه من الأسباب، ويعطيها من الاستقلال ما يوجب تعلق قلبه بها و طاعته لها و تقربه منها فإن الله سبحانه عد في موارد من كلامه طاعه غيره و الركون الى من سواه عباده له قال أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي (يس / ٦١).

قوله تعالى: فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمِهِ مِنَّا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ تنكير الرحمه للدلاله على النوع أى بنوع من الرحمه و هى الرحمه التى تختص بالمؤمنين من النصره الموعوده لهم قال تعالى: إِذْ أَنْصَرْنَا رَسُولَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (المؤمن ٥١/٥١)، و قال: وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (الروم ٤٧/٤٧).

و قوله: «وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا» الآية كناية عن إهلاكهم و قطع نسلهم فإن الدابر هو الذى يلى الشىء من خلفه فربما وصف به الأمر السابق على الشىء كأمس الدابر، و ربما وصف به اللاحق كدابر القوم و هو الذى فى آخرهم فنسبه القطع الى الدابر بعنايه أن النسل اللاحق دابر متصل بالإنسان فى سبب ممتد، و إهلاك الإنسان كذلك كأنه قطع هذا السبب الموصول فيما بينه و بين نسله.

و سيأتى تفصيل البحث عن قصه هود عليه السلام فى تفسيره سورة هود إن شاء الله.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٧٣ الى ٧٩]

إشارة

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ (٧٣) وَ أَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَ بَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا وَ تَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَ لَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا عِفْوًا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسِلٌ مِنْ رَبِّي قَالُوا إِذْنا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَ قَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَهُ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ وَ لَكِنْ لَا تُجِبُونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)

قوله تعالى: وَإِلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ ثمود أمه قديمه من العرب سكنوا أرض اليمن بالأحقاف بعث الله إليهم «أَخَاهُمْ صَالِحًا» وهو منهم «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» دعاهم الى التوحيد و قد كانوا مشركين يعبدون الأصنام على النحو الذى دعا نوح و هود عليهما السلام قومهما المشركين.

وقوله: قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ أَى شاهد قاطع فى شهادته و بينه قوله بالإشارة الى نفس البينه «هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ» و هى الناقه التى أخرجها الله لهم من الجبل آيه لنبوته بدعائه عليه السلام، و هى العنايه فى إضافه الناقه الى الله سبحانه.

وقوله: فَذَرَوْهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ الْآيَةَ؛ تفرّيع على كون الناقة آية لله، و حكم لا يخلو عن تشديد عليهم يستتبع كلمه العذاب التي تفصل بين كل رسول و أمته قال تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (يونس/ ٤٧)، و في الآيه تلويح الى أنّ تخليتهم الناقة و شأنها في الأكل و السير في الأرض كانت مما يشق عليهم فكانوا يتخرجون من ذلك، و في قوله: «فِي أَرْضِ اللَّهِ» إيماء إليه فوصاهم و حذرهم أن يمنعوها من إطلاقها و يمسوها بسوء كالعقر و النحر فإن وبال ذلك عذاب أليم يأخذهم.

قوله تعالى: وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ آبَائِكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ دعاهم الى أن يذكروا نعم الله عليهم كما دعا هود عادا الى ذلك، و ذكرهم أن الله جعلهم خلفاء يخلفون أمما من قبلهم كعاد، و بوأهم من الأرض أى مكنهم فى منازلهم منها، يتخذون من سهولها -و السهل خلاف الجبل سمي به لسهوله قطعه- قصورا و هى الدور التي لها سور على ما قيل، و ينحتون الجبال بيوتا يأوون إليها و يسكنونها.

ثم جمع الجميع و لخصها فى قوله: «فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ» و أوردته فى صوره التفرّيع مع أنه إجمال للتفصيل الذى قبله بإيهام المغايره كأنه لما أمر بذكر النعم و عد من تفاصيل النعم أشياء كأنهم لا يعلمون بها قيل ثانيا: فإذا كان لله فيكم آلاء و نعم عظيمه أمثال التي ذكرت فاذكروا آلاء الله.

و أما قوله وَ لَا تَعْتُوا فِي الْمَآرِضِ مُفْسِدِينَ فمعطوف على قوله: «فَاذْكُرُوا» عطف اللازم على ملزومه، و فسر العثى بالفساد و فسر بالاضطراب و المبالغه. قال الراغب فى المفردات: العيث و العثى يتقاربان نحو جذب و جذب إلا أن العيث أكثر ما يقال فى الفساد الذى يدرك حسا، و العثى فيما يدرك حكما يقال: عثى عثيا، و على هذا «وَ لَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ». انتهى.

قوله تعالى: قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ

آمَنَ مِنْهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ دَلَّ سَبْحَانَهُ بَيَانُ قَوْلِهِ: «لِلَّذِينَ اسْتُضْغِفُوا» بِقَوْلِهِ: «لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ» عَلَى أَنَّ الْمُسْتَضْعِفِينَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا كَانُوا مِنَ الْمُسْتَضْعِفِينَ وَلَمْ يَكُنْ لِيُؤْمِنَ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَالْبَاقِي ظَاهِرٌ.

قَوْلُهُ: «فَعَقَرُوا الذَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ»؛ عَقَرَ النَّخْلَةَ قَطَعَهَا مِنْ أَصْلِهَا، وَعَقَرَ النَّاقَةَ نَحَرَهَا، وَعَقَرَ النَّاقَةَ أَيضًا قَطَعَ قَوَائِمَهَا، وَالْعَتُو هُوَ التَّمَرُّدُ وَالْإِمْتِنَاعُ وَضَمِنَ فِي الْآيَةِ مَعْنَى الْاسْتِكْبَارِ بِدَلِيلِ تَعْدِيتهِ بَعْنِ، وَالْبَاقِي ظَاهِرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ» إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ الرَّجْفَةُ هِيَ الْاضْطِرَابُ وَالْاهْتِرَازُ الشَّدِيدُ كَمَا فِي زَلْزَلَةِ الْأَرْضِ وَتَلَاطُمِ الْبَحْرِ، وَالْجَثُومُ فِي الْإِنْسَانِ وَالطَّيْرِ كَالْبُرُوكِ فِي الْبَعِيرِ.

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ هُنَا فِي سَبَبِ هَلَاكِهِمْ أَنَّهُ أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ، وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: «وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ» (هُودٌ ٦٧)، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ: «فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ» (حَمَّ السَّجْدَةِ ١٧)، وَالصَّوَاعِقُ السَّمَاوِيَّةُ لَا تَخْلُو عَنْ صَيْحِهِ هَائِلُهُ تَقَارِنُهَا، وَلَا يَنْفَكُ ذَلِكَ غَالِبًا عَنْ رَجْفِهِ الْأَرْضِ هِيَ نَتِيجَةُ الْاهْتِرَازِ الْجَوِيِّ الشَّدِيدِ إِلَى الْأَرْضِ، وَتَوْجِفُ مَنْ جِهَهُ أُخْرَى الْقُلُوبِ وَتَرْتَعِدُ الْأَرْكَانَ، فَالظَّاهِرُ أَنَّ عَذَابَهُمْ إِنَّمَا كَانَ بِصَاعِقِهِ سَمَاوِيَّةٍ اقْتَرَنَتْ صَيْحَهُ هَائِلُهُ وَرَجْفَهُ فِي الْأَرْضِ أَوْ فِي قُلُوبِهِمْ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ أَيْ فِي بِلَدِهِمْ جَاثِمِينَ سَاقِطِينَ عَلَى وُجُوهِهِمْ وَرُكْبِهِمْ.

وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ كَانَ مُرْتَبِطًا بِمَا كَفَرُوا وَظَلَمُوا آيَةَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَقْصُودًا بِهَا عَذَابَهُمْ عَذَابِ الْاسْتِثْصَالِ، وَلَا نَظَرَ فِي الْآيَةِ إِلَى كَيْفِيَّةِ حَدُوثِهَا، وَالْبَاقِي ظَاهِرٌ.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٨٠ إلى ٨٤]

إشاره

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِفُونَ (٨١) وَمِمَّا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)

قوله تعالى: وَ لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ ظاهره أنه من عطف القصة على القصة أى عطف قوله: «لوطاً» على «نوحاً» فى قوله فى القصة الاولى «لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا» فىكون التقدير و لقد أرسلنا لوطاً إذ قال لقومه، الخ؛ لكن المعهود من نظائر هذا النظم فى القرآن أن يكون بتقدير «اذكر» بدلاله السياق، و على ذلك فالتقدير:

و اذكر لوطا الذى أرسلناه إذ قال لقومه، الخ؛ و الظاهر أن تغيير السياق من جهة أن لوطاً من الأنبياء التابعين لشريعة إبراهيم عليهما السلام لا لشريعة نوح عليه السلام، و لذلك غير السياق فى بدء قصته عن السياق السابق فى قصص نوح و هود و صالح فغير السياق فى بدء قصته ثم رجع الى السياق فى قصة شعيب عليه السلام.

و قد كان لوط-على ما سيأتى إن شاء الله من تفصيل قصته فى سورة هود-مرسلاً الى أهل سدوم و غيره يدعوهم الى دين التوحيد و كانوا مشركين عبده أصنام.

و قوله: أَ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ يريد بالفاحشه اللواط بدليل قوله: «إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً» و فى قوله: «مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ» أى أحد من الامم و الجماعات

دلاله على أن تاريخ ظهور هذه الفاحشه الشنيعه تنتهى الى قوم لوط، و سياتى جل ما يتعلق به من الكلام فى تفصيل قصته فى سورة هود.

قوله تعالى: **إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ** الآية؛ إتيان الرجال كناية عن العمل بهم بذلك، وقوله: «شَهْوَةً» قرينه عليه، وقوله: «مِنْ دُونِ النِّسَاءِ» قرينه أخرى على ذلك، ويفيد مضافا الى ذلك أنهم كانوا قد تركوا سبيل النساء و اكتفوا بالرجال، و لتعديهم سبيل الفطره و الخلقه الى غيره عددهم متجاوزين مسرفين فقال: «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ» .

و لكون عملهم فاحشه مبتدعه لم يسبقهم إليها أحد من العالمين استفهم عن ذلك مقارنا ب«إن» المفيده للتحقيق فافاد التعجب و الاستغراب، و التقدير: «إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ» الآية.

قوله تعالى: **وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛** أى لم يكن عندهم جواب فهددوه بالإخراج من البلد فإن قولهم: «أَخْرَجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ» الآية؛ ليس جوابا عن قول لوط لهم: «أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ» الآية؛ فجواب الكلام فى ظرف المناظره إما إمضاؤه و الاعتراف بحقيقته و إما بيان وجه فسادة، و ليس فى قولهم:

«أَخْرَجُوهُمْ» الى آخر شىء من ذلك فوضع ما ليس بجواب فى موضع الجواب كناية عن عدم الجواب و دلاله على سفههم.

و قد استهانوا أمر لوط إذ قالوا: «أَخْرَجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ» الآية؛ أى أن القرية أى البلده لكم و هم نزلاء ليسوا منها و هم يتنزهون عما تأتونه و يتطهرون، و لا يهمنكم أمرهم فليسوا إلا أناسا لا عده لهم و لا شدة.

قوله تعالى: **فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ** فيه دلاله على أنه لم يكن آمن به إلا أهله، و قد قال تعالى فى موضع آخر: **فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** (الذاريات ٣٦).

وقوله: كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ أَى الماضين من القوم، وهو استعاره بالكناية عن الهلاك و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ذكر الإمطار فى مورد ترقب ذكر العذاب يدل على أن العذاب كان به و قد نكر المطر للدلالة على غرابه أمره و غزاره أثره، وقد فسره الله تعالى فى موضع آخر بقوله: وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ مُنْضُودٍ مُسْوَمَةٍ عِنْدَ رَبِّكَ وَ مَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعْدٍ (هود ٨٣).

وقوله: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ» توجيه خطاب الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم ليعتبر به هو و أمته.

[سوره الاعراف (٧): الآيات ٨٥ الى ٩٣]

اشاره

وَ إِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ وَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَ لَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَ أذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَ إِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَأَضْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَغْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)

قوله تعالى: وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا الْآيَةَ معطوف على القصة الاولى و هي قصة نوح عليه السّلام، وقد بنى عليه السّلام دعوته على أساس التوحيد كما بناها عليه من قبله من الرسل المذكورين في القصص المتقدمه.

و قوله: قَدْ جَاءَ تَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ يَدْلُ عَلَىٰ مَجِيئِهِ بِآيَةٍ تَدُلُّ عَلَىٰ رِسَالَتِهِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ لَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ وَ لَيْسَتْ هَذِهِ الْآيَةُ هِيَ آيَةُ الْعَذَابِ الَّتِي يَذْكُرُهَا اللَّهُ تَعَالَىٰ فِي آخِرِ قِصَّتِهِ فَإِنَّ عَامَهُ قَوْمَهُ مِنَ الْكُفَّارِ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا بَلْ كَانَ فِيهَا هَلَاكُهُمْ وَ لَا مَعْنَىٰ لِكُونَ آيَةٍ

العذاب آية للرسالة مبينه للدعوه.

على أنه يفرع قوله: «فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ» الآية؛ على مجيء الآية ظاهرا، وإنما يستقيم الدعوه الى العمل بالدين قبل نزول العذاب و تحقق الهلاك. و هو ظاهر.

و قد دعاهم أولا بعد التوحيد الذى هو أصل الدين الى إيفاء الكيل و الميزان و أن لا يبخسوا الناس أشياءهم فقد كان الإفساد فى المعاملات رائجا فيهم شائعا بينهم.

ثم دعاهم ثانيا بقوله: «وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا» الى الكف عن الإفساد فى الأرض بعد ما أصلحها الله بحسب طبعها، و الفطره الإنسانيه الداعيه الى اصلاحها كى ينتظم بذلك أمر الحياه السعيده، و الإفساد فى الأرض و ان كان بحسب اطلاق معناه يشمل جميع المعاصى و الذنوب مما يتعلق بحقوق الله أو بحقوق الناس كائنه ما كانت لكن مقابلته لما قبله و ما بعده يخصه-تقريبا-بالإفساد الذى يسلب الأمن العام فى الأموال و الأعراض و النفوس كقطع الطرق و نهب الأموال و هتك الأعراض و قتل النفوس المحترمه.

ثم علل دعوته الى الأمرين بقوله: «ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ» أما كون إيفاء الكيل و الميزان و عدم بخس الناس أشياءهم خيرا فلأن حياه الإنسان الاجتماعيه فى استقامتها مبنيه على المبادله بين الأفراد بإعطاء كل منهم ما يفضل من حاجته، و أخذ ما يعادله مما يتم به نقصه فى ضروريات الحياه و ما يتبعها، و هذا يحتاج الى أمن عام فى المعاملات تحفظ به أوصاف الأشياء و مقاديرها على ما هى عليه فمن يجوز لنفسه البخس فى أشياء الناس فهو يجوز ذلك لكل من هو مثله، و هو شيوعه، و إذا شاع البخس و الغش و الغرر من غير أن يؤمن حلول السم محل الشفاء و الردى مكان الجيد، و الخليط مكان الخالص، و بالأخره كل شىء محل كل شىء بأنواع الحيل و العلاجات كان فيه هلاك الأموال و النفوس جميعا.

و أما كون الكف عن إفساد الأرض خيرا لهم فلأن سلب الأمن العام يوقف رحي المجتمع الإنسانى عن حركتها من جميع الجهات و فى ذلك هلاك الحرث و النسل و فناء الإنسانيه.

فالمعنى: إيفاء الكيل و الميزان و عدم البخس و الكف عن الفساد فى الأرض خير لكم يظهر لكم خيريته إن كنتم مصدقين لقولى مؤمنين بى، أو المعنى: ذلكم خير لكم تعلمون أنه خير إن كنتم ذوى إيمان بالحق.

و ربما قيل: إن المعنى ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين بدعوتى فإن غير المؤمن لا ينتفع بسبب ما عنده من الكفر القاضى بشقائه و خسارانه و ضلال سعيه بهذه الخيرات الدنيويه بحسب الحقيقه لأن انتفاعه إنما هو انتفاع فى موطن خيالى و هو الحياه الدنيا التى هى لعب، و إن الدار الآخره لهى الحيوان لو كانوا يعلمون.

هذا كله على تقدير كون المشار إليه بقوله: «ذَلِكُمْ» هو إيفاء الكيل و ما بعده كما هو ظاهر السياق، و أما اخذ الإشاره الى جميع ما تقدم و جعل المراد بالإيمان هو الإيمان المصطلح دون الإيمان اللغوى كما احتمله بعضهم فهو أشبه باشتراط الشىء بنفسه لرجوع المعنى الى نحو قولنا إن كنتم مؤمنين فالعباده لله وحده بالإيمان به و إيفاء الكيل و الميزان و عدم الفساد فى الأرض خير لكم.

و يرد على الوجهين الأخيرين جميعاً أن ظاهر قوله: «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» ثبوت اتصافهم بالإيمان قبل حال الخطاب فإنه مقتضى تعليق الحكم بقوله: «كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» المؤلف من ماضى الكون الناقص و اسم الفاعل من الإيمان، المقتضى لاستقرار الصفه فيهم زماناً، و لا يخاطب بمثل هذا المعنى القوم الذين فيهم الكافر و المؤمن و المستكبر و المنقاد و لو كان كما يقولون لكان من حق الكلام أن يقال: ذلكم خير لكم إن آمنتم أو إن تؤمنوا فالظاهر أنه لا محيص من كون المراد بالإيمان غير الإيمان المصطلح.

قوله تعالى: «وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا أَلَا يَعْلَمُ السَّيِّئَاتِ أَنَّ «تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ» حالان من فاعل «لَا تَقْعُدُوا» و قوله: «و تَبْغُونَهَا» حال من فاعل «تَصُدُّونَ» .

ثم دعاهم ثالثا الى ترك التعرض لصراط الله المستقيم الذى هو الدين فإن فى الكلام تلويحا الى أنهم كانوا يقعدون على طريق المؤمنين بشعيب عليه السلام و يوعدونهم على إيمانهم به و الحضور عنده و الاستماع منه و إجراء العبادات الدينيه معه، و يصرفونهم عن التدين بدين الحق و السلوك فى طريقه التوحيد و هم يسلكون طريق الشرك، و يطلبون سبيل الله الذى هو دين الفطره عوجا.

و بالجمله كانوا يقطعون الطريق على الإيمان بكل ما يستطيعون من قوه و احتيال فنهاهم عن ذلك، و وصاهم أن يذكروا نعمه الله عليهم و يعتبروا بالنظر الى ما يعلمونه من تاريخ الامم الغابره، و ما آل إليه أمر المفسدين من عاقبه السوء.

فقوله: «وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ»، و انظروا كيف كان عاقبه المفسدين كلام مسوق سوق العظه و التوصيه و هو يقبل التعلق بجميع ما تقدم من الأوامر و النواهي فقوله: «وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ» أمر بتذكر تدرجهم من القله الى الكثره بازدياد النسل فإن ذلك من نعم الله العظيمه على هذا النوع الإنسانى لأن الإنسان لا يقدر على أن يعيش وحده من غير اجتماع إذ الغايه الشريفه و السعاده العاليه الإنسانيه التى يمتاز بها عن سائر الأنواع الحيوانيه و غيرها اقتضت أن تهب العناية الإلهيه له أدوات و قوى مختلفه و تركيبا وجوديا خاصا لا يستطيع أن يقوم بضروريات حوائجها العجيبه المتفننه وحده بل بالتعاوضد مع غيره فى تحصيل المأكل و المشرب و الملبس و المسكن و المنكح و غيرها تعاظدا فى الفكر و الإراده و العمل.

قوله تعالى: «وَ إِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ ثُمَّ دَعَاهُمْ رَابِعًا إِلَى الصَّبْرِ عَلَى تَقْدِيرِ وَقُوعِ الْاِخْتِلَافِ بَيْنَهُمْ بِالْإِيمَانِ وَ الْكُفْرِ فَإِنَّهُ كَانَ يُوَصِّيهُمْ جَمِيعًا قَبْلَ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ بِالْاِجْتِمَاعِ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَ كَأَنَّهُ أَحْسَنَ مِنْهُمْ أَنْ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَكُونُ الْبَتَّةَ، وَ أَنْ الْاِخْتِلَافَ كَائِنَ لَا مَحَالَهُ، وَ أَنْ الْمَلَأَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَوْمِهِ وَ هُمُ الَّذِينَ

كانوا يوعدون و يصدون عن سبيل الله سيأخذون في افساد الأرض و اىذاء المؤمنين و يوجب ذلك فى المؤمنين و هن عزيمتهم، و تسلط الناس على قلوبهم فأمرهم جميعا بالصبر و انتظار أمر الله فيهم ليحكم بينهم و هو خير الحاكمين.

فإن فى ذلك صلاح المجتمع، أما المؤمنون فلا يقعون فى الباس من الحياه الآمنه، و الاضطراب و الحيره من جهه دينهم، و أما الكفار فلا يقعون فى ندامه الإقدام من غير رؤيه و مفسده المظلمه على جهاله فحكم الله خير فاصل بين الطائفتين فهو خير الحاكمين لا يساهل فى حكم اذا حان حينه، و لا يجور فى حكم اذا ما حكم.

فقوله: «فَاصْبِرُوا» بالنسبه الى الكفار أمر ارشادى، و بالنسبه الى المؤمنين أمر مولوى أو ارشادى، و هو ارشاد الجميع الى ما يصلح حالهم.

قوله تعالى: **قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ الْآيَةَ**. لم يسترشد الملاء المستكبرون من قومه بما أرشدهم اليه من الصبر و انتظار الحكم الفصل فى ذلك من الله سبحانه بل بادروه بتهديده و تهديد المؤمنين بإخراجهم من أرضهم الا أن يرجعوا الى ملتهم بالارتداد عن دين التوحيد.

و فى تأكيدهم القول: «لَنُخْرِجَنَّكَ» و «لَتَعُوذَنَّ» بالقسم و نون التأكيد دلالة على قطعهم العزم على ذلك، و لذا بادر عليه السلام بعد استماع هذا القول منهم الى الاستفتاح من الله سبحانه.

قوله تعالى: **قَالَ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ، قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمُ الْآيَةَ؛** أجاب عليه السلام بكراهه العود فى ملتهم بدليل ما بعده من الجمل، و لازم ذلك اختيار الشق الآخر على تقدير الاضطرار الى أحدهما كما أخبروه.

و قد أجاب عليه السلام عن نفسه و عن المؤمنين به من قومه، و ذكر أنه و المؤمنين به جميعا كارهون للعود الى ملتهم فإن فى ذلك افتراء للكذب على الله سبحانه بنسبه الشركاء إليه، و ما يتبعها من الأحكام المفتراه فى دين الوثنيه فقوله: «قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا» الآية؛ بمنزله التعليل لقوله:

«أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ» .

و من أسخف الاستدلال الاحتجاج بقوله: «إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا» على أن شعيبا عليه السلام كان قبل نبوته مشركا وثنيا-حاشاه-وقد تقدم آنفا أنه يتكلم عن نفسه وعن المؤمنين به من قومه وقد كانوا كفارا مشركين قبل الإيمان به فأجابه الله من مله الشرك و هداهم بشعيب الى التوحيد فقول شعيب: «نَجَّانَا اللَّهُ» تكلم عن المجموع بنسبه وصف الجبل الى الكل،هذا لو كان المراد بالتنجيه الظاهريه من الشرك الفعلى و أما لو أريد بها التنجيه الحقيقه و هى الإخراج من كل ضلال محقق موجود أو مقدر مترقب كان شعيب-و هو لم يشرك بالله طرفه عين-و قومه-و هم كانوا مشركين قبل زمان إيمانهم بشعيب-جميعا من نجاهم الله من الشرك إذ لا يملك الإنسان لنفسه الهالكه ضرا و لا نفعا و ما أصابه من خير فهو من الله سبحانه.

و قوله: «وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا- أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا كَالْإِضْرَابِ وَ التَّرْقَى بِالْجَوَابِ الْقَاطِعِ كَأَنَّهُ قَالَ:نحن كارهون العود الى ملتكم لأن فيه افتراء على الله بل إن ذلك مما لا يكون البتة،و ذلك أن كراهه شىء إنما توجب تعسر التلبس به دون تعذره فأجاب عليه السلام ثانيا بتعذر العود بعد جوابه أولا بتعسره،و هو ما ذكرناه من الإضراب و الترقى.

و لما كان قوله: «وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا» فى معنى أن يقال:«لن نعود إليها أبدا»و القطع فى مثل هذه العزمات مما هو بعيد عن أدب النبوه فإنه فى معنى:لن نعود على أى تقدير فرض حتى لو شاء الله،و هو من الجهل بمقامه تعالى،استثنى مشيه الله سبحانه فقال «إِلَّا- أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا» فإن الإنسان كيفما كان جائز الخطأ فمن الجائز أن يخطئ بذنب فيعاقبه الله بسلب عنايته به فيطرده من دينه فيهلك على الضلال.

و فى الجمع بين الاسمين فى قوله: «اللَّهُ رَبُّنَا» إشاره الى أن الله الذى يحكم ما يشاء هو الذى يدبر أمرنا و هو إله و رب،على ما يقتضيه دين التوحيد لا كما يعلمه دين الوثنيه فإنه يسلم

الالوهيه لله ثم يفرز الربوبيه بمختلف شئونها بين الأوثان و يسميها رب البحر و رب البر و هكذا.

و قوله: وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا كالتعليل لتعقيب الكلام بالاستثناء كأنه قيل لما استثنيت بعد ما أطلقت الكلام و قطعت في العزم؟ فقال: لأنه وسع ربي كل شيء علما و لا- أحيط من علمه إلا بما شاء فمن الجائز أن يتعلق مشيئه بشيء غائب عن علمي سواء نى أو سرنى كأن يتعلق علمه بأنا سنخالفه فى بعض أوامره فيشاء عودنا الى ملتكم، و إن كنا اليوم كارهين له، و لعل هذا المعنى هو السبب فى تعقيب هذا القول بمثل قوله: «عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا» فإن من يتوكل على الله كان حسبه و صانه من شر ما يخاف.

و لما بلغ الكلام هذا المبلغ و قد أخبروهم بعزمهم على أحد الأمرين: الإخراج أو العود، و أخبرهم شعيب عليه السلام بالعزم القاطع على عدم العود الى ملتهم البتة التجأ عليه السلام الى ربه و استفتح بقوله عن نفسه و عن المؤمنين «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ» يسأل ربه أن يفتح بينهم أى بين شعيب و المؤمنين به، و بين المشركين من قومه، و هو الحكم الفصل فإن الفتح بين شيئين يستلزم إبعاد كل منهما عن صاحبه حتى لا يماس هذا ذاك و لا ذاك هذا دعا عليه السلام بالفتح و كنى به عن الحكم الفصل و هو الهلاك أو هو بمنزله و أبهم الخاسر من الراجح و الهالك من الناجى و هو يعلم أن الله سينصره و أن الخزى اليوم و السوء على الكافرين لكنه عليه السلام أخذ بالنصفه للحق و تأدب بإرجاع الأمر فى ذلك الى الله كما أتى بنظير ذلك فى قوله السابق: «فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ» .

و خير الحاكمين و خير الفاتحين اسمان من أسماء الله الحسنى، و قد تقدم البحث عن معنى الحكم فيما مر، و عن معنى الفتح آنفا، و سيجىء الكلام المستوفى فى الأسماء الحسنى فى تفسير قوله تعالى: وَ لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا (الآيه ١٨٠) من السوره إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِلَى آخِرِ آيَةٍ: هَذَا تَهْدِيدٌ

منهم لمن آمن بشعيب أو أراد أن يؤمن به و يكون من جملة الإيعاد و الصد اللذين كان شعيب ينهى عنهما بقوله: «وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصِدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» و يكون أفراد هذا بالذكر هاهنا من بين سائر أقوالهم ليكون كالتوطئه و التمهيد لما سيأتى من قولهم بعد ذكر هلاكهم: «الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ» .

و يحتمل أن يكون الاتباع بمعناه الظاهر العرفى و هو اقتفاء أثر الماشى على الطريق و السالك السبيل بأن يكون الملام المستكبرون لما اضطروه و من معه الى أحد الأمرين: الخروج من أرضهم أو العود فى ملتهم ثم سمعوه يرد عليهم العود الى ملتهم ردا قاطعا ثم يدعو بمثل قوله:

«رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ» لم يشكوا أنه سياتركهم و يهاجر الى أرض غير أرضهم، و يتبعه فى هذه المهاجرة المؤمنون به من القوم خاطبوا عند ذلك طائفه المؤمنين بقولهم: «لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ» فهددوهم و خوفوهم بالخسران إن تبعوه فى الخروج من أرضهم ليخرج شعيب وحده فإنهم إنما كانوا يعادونه إياه بالأصالة، و أما المؤمنون فإنما كانوا يبغضون من جهته و لأجله.

و على أى الوجهين كان فالآيه كالتوطئه و التمهيد للآيه الآتية: «الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ» كما تقدم الإشارة إليه.

قوله تعالى: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ أَصْبَحُوا أى صاروا أو دخلوا فى الصباح، و قد تقدم معنى الآيه فى نظيرتها من قصه صالح.

قوله تعالى: «الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ» قال الراغب فى المفردات: و غنى فى مكان كذا إذا طال مقامه فيه مستغنيا به عن غيره بغنى قال: كأن لم يغنوا فيها(انتهى). و«كأن» مخفف كأن خفف لدخوله الجملة الفعلية.

فقوله: «الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ» فيه تشبيه حال المكذبين من قومه بمن لم يطيخوا الإقامة فى أرضهم فإن أمثال هؤلاء يسهل زوالهم لعدم تعلقهم بها فى عشيره أو أهل أو

قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَىٰ آخِرِ آيَاتِهِ؛ قيل: البأساء في المال كالفقير، والضرء في النفس كالمرض، وقيل: يعنى بالبأساء ما نالهم من الشده في أنفسهم و بالضرء ما نالهم في أموالهم، وقيل: غير ذلك. وقيل: إن البأس و البأساء يكثر استعمالهما في الشده التي هي بالنكايه و التنكيل كما في قوله تعالى: وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا .

و لعل قوله بعد: «الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ» حيث أريد بهما ما يسوء الإنسان و ما يسره يكون قرينه على إرادته مطلق ما يسوء الإنسان من الشدائد من الضراء، و يكون قوله: «بِالْبَأْسَاءِ»

وَ الضَّرَاءِ» من ذكر العام بعد الخاص.

يذكر سبحانه أن السنه الإلهيه جرت على أنه كلما أرسل نبياً من الأنبياء الى قريه من القرى -و ما يرسلهم إليهم إلا ليهديهم سبيل الرشاد- ابتلاهم بشيء من الشدائد فى النفوس و الأموال رجاء أن يعثهم ذلك الى التضرع إليه سبحانه لئتم بذلك أمر دعوتهم الى الإيمان بالله و العمل الصالح.

فالاتلاءات و المحن نعم العون لدعوه الأنبياء فإن الإنسان ما دام على النعمه شغله ذلك عن التوجه الى من أنعمها عليه و استغنى بها، و إذا سلب النعمه أحس بالحاجه، و نزلت عليه الذله و المسكنه، و علاه الجزع، و هددته الفناء فيبعثه ذلك بحسب الفطره الى الالتجاء و التضرع الى من بيده سد خلته و دفع ذلته، و هو الله سبحانه و إن كان لا يشعر به و إذا نبه عليه كان من المرجو اهتداؤه الى الحق، قال تعالى: وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (حم السجده ٥١/).

قوله تعالى: ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ تبديل الشيء شيئاً وضع الشيء الثانى مكان الشيء الأول و السيئه و الحسنه معناهما ظاهر، و المراد بهما ما هما كالشده و الرخاء، و الخوف و الأمن، و الضراء و السراء كما يدل عليه قوله بعد: «قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَ السَّرَاءُ».

و قوله: حَتَّى عَفَوْا من العفو و فسر بالكثرة أى حتى كثروا أموالاً- و نفوساً بعد ما كان الله قللهم بالاتلاءات و المحن، و ليس- ببعيد و إن لم يذكروه- أن يكون من العفو بمعنى إمحاء الأثر كقوله:

ربع عفاه الدهر طولا فانمحي

قد كان من طول البلى أن يمسحاً

فيكون المراد أنهم محوا بالحسنه التى أوتوها آثار السيئه السابقه و قالوا: «قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَ السَّرَاءُ» أى أن الإنسان و هو فى عالم الطبيعه المتحوله المتغيره من حكم موقفه أن

يمسه الضراء و السراء، و تتعاقب عليه الحدثان مما يسوؤه أو يسره من غير أن يكون لذلك انتساب الى امتحان إلهي و نقمه ربانيه.

و من الممكن بالنظر الى هذا المعنى الثانى أن يكون قوله: «وَ قَالُوا» الخ؛ عطف تفسير لقوله: «عَفْوًا» و المراد أنهم محوا رسم الامتحان الإلهي بقولهم: إن الضراء و السراء إنما هما من عادات الدهر المتبادله المتداوله يداولنا بذلك كما كان يداول آباءنا كما قال تعالى وَ لَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً (حم السجده ٥٠/).

و«حتى» فى قوله: «حَتَّى عَفَوْا وَ قَالُوا» الآيه؛ للغايه، و المعنى: ثم آتيناهم النعم مكان النقم فاستغرقوا فيها الى أن نسوا ما كانوا عليه فى حال الشده و قالوا: إن هذه الحسنات و تلك السيئات من عاده الدهر فانتهى بهم إرسال الشده ثم الرخاء الى هذه الغايه، و كان ينبغى لهم أن يتذكروا عند ذلك و يهتدوا الى مزيد الشكر بعد التضرع لكنهم غيروا الأمر فوضعوا هذه الغايه مكان تلك الغايه التى رضىها لهم ربهم فطبع الله بذلك على قلوبهم فلا يسمعون كلمه الحق.

و لعل قوله: الضَّرَاءُ وَ السَّرَاءُ قدم فيه الضراء على السراء ليحاذى ما فى قوله تعالى: «ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ» من الترتيب.

و فى قوله: فَأَخَذْنَا هُمْ بِعُقَّتِهِمْ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ تلويح الى جهل الأنساب بجريان الأمر الإلهي، و لذا كان الأخذ بعفته و فجأه من غير أن يشعروا به، و هم يظنون أنهم عالمون بمجارى الامور، و خصوصيات الأسباب، لهم أن يتقوا ما يهددهم من أسباب الهلاك بوسائل دافعه يهديهم إليها العلم، قال تعالى: فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ (المؤمن ٨٣/).

قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ إِلَى

آخر الآيه؛ البركات أنواع الخير الكثير ربما يتلى الإنسان بفقده كالأمن و الرخاء و الصحة و المال و الأولاد و غير ذلك.

و قوله: لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ فِيهِ اسْتِعَارَهُ بِالْكِنَايَةِ بِالْكِنَايَةِ فَقَدْ شَبِهَتْ الْبَرَكَاتُ بِمَجَارِي تَجْرِي مِنْهَا عَلَيْهِمْ كُلِّ مَا يَتَنَعَمُونَ بِهِ مِنْ نِعْمِ اللَّهِ لَكِنَّمَا سَدَّتْ دُونَهُمْ فَلَا يَجْرِي عَلَيْهِمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَكِنَّمَا لَوْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ فَجَرَى عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَاتُ السَّمَاءِ مِنَ الْأَمْطَارِ وَ الثَّلُوجِ وَ الْحَرِّ وَ الْبَرْدِ وَ غَيْرِ ذَلِكَ كُلِّ فِي مَوْجِعِهِ وَ بِالْمَقْدَارِ النَّافِعِ مِنْهُ، وَ بَرَكَاتُ الْأَرْضِ مِنَ النَّبَاتِ وَ الْفَوَاكِهِ وَ الْأَمْنِ وَ غَيْرِهَا فِي الْكَلَامِ اسْتِعَارَهُ الْمَجَارِي لِلْبَرَكَاتِ ثُمَّ ذَكَرَ بَعْضَ لَوَازِمِهِ وَ آثَارِهِ وَ هُوَ الْفَتْحُ لِلْمُسْتَعَارِ لَهُ.

و فى قوله: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا الْآيَةَ دَلَالَهُ عَلَى أَنَّ افْتِتَاحَ ابْوَابِ الْبَرَكَاتِ مَسْبَبٌ لِإِيمَانِ أَهْلِ الْقُرَى جَمِيعًا وَ تَقْوَاهُمْ أَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ آثَارِ إِيمَانِ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ وَ تَقْوَاهُ لَا إِيمَانَ الْبَعْضِ وَ تَقْوَاهُ فَإِنَّ إِيمَانَ الْبَعْضِ وَ تَقْوَاهُ لَا يَنْفَكُ عَنِ كُفْرِ الْبَعْضِ الْآخَرِ وَ فَسَقِهِ، وَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَرْتَفِعُ سَبَبُ الْفَسَادِ وَ هُوَ ظَاهِرٌ.

و فى قوله: وَ لَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ دَلَالَهُ عَلَى أَنَّ الْأَخْذَ بِعِنْوَانِ الْمَجَازَاهِ وَ قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْبَيَانِ الْمَذْكُورِ أَنَّمَا مَا يَتَّبِعُ بِهِ كَيْفِيَّةَ ذَلِكَ، وَ أَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ أَعْمَالِ الْإِنْسَانِ تَرَدُّدٌ إِلَيْهِ.

قوله تعالى: أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا لِيَلْتَأْتُوا وَ هُمْ نَائِمُونَ الْبِيَاتِ وَ التَّيْبِيتِ قَصْدُ الْعَدُوِّ لَيْلًا، وَ هُوَ مِنَ الْمَكْرِ لِأَنَّ اللَّيْلَ سَكَنٌ يَسْكُنُ فِيهِ الْإِنْسَانُ وَ يَمِيلُ بِالطَّبَعِ إِلَى أَنْ يَسْتَرِيحَ وَ يَنْقَطِعَ عَنِ غَيْرِهِ بِالنَّوْمِ وَ السَّكُونِ.

و قد فرع مضمون الآيه على ما قبله أى إذا كان هذا حال أهل القرى أنهم يغترون بما تحت حسهم عما وراءه فيفجئون و يأخذهم العذاب بغتته و هم لا يشعرون فهل آمنوا أن يأتيهم عذاب الله ليلا و هم فى حال النوم، و قد عمدتهم الغفلة؟.

قوله تعالى: أَوْ أَمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ الضحى صدر النهار حين تنبسط الشمس، والمراد باللعب الأعمال التي يشتغلون بها لرفع حوائج الحياة الدنيا و التمتع من مزايا الشهوات، وهي إذا لم تكن فى سبيل السعادة الحقيقية، و طلب الحق كانت لعبا، فقوله: «وَهُمْ يَلْعَبُونَ» كناية عن العمل للدنيا وربما قيل: إنه استعاره أى يشتغلون بما لا نفع فيه كأنهم يلعبون، وليس ببعيد أن يكون قوله فى الآية السابقة: «وَهُمْ نَائِمُونَ» كناية عن الغفلة. و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يُأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ مكر به مكرأ أى مسه بالضرر أو بما ينتهى الى الضرر و هو لا يشعر و هو إنما يصح منه تعالى إذا كان على نحو المجازاه كأن يأتى الإنسان بالمعصية فيؤاخذة الله بالعذاب من حيث لا يشعر أو يفعل به ما يسوقه الى العذاب و هو لا- يشعر، و أما المكر الابتدائى من غير تحقق معصية سابقه فمما يمتنع عليه تعالى و قد مرت الإشارة إليه كرارا.

و ما أطف قوله تعالى: «أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ» و«أَوْ أَمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ» ثم قوله: «أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ»، و الثالث- و هو الذى فى هذه الآية- جمع و تلخيص للإنكارين السابقين فى الآيتين، و قد أظهر فى الآيتين جميعا من غير أن يقول فى الثانية: أو أمنوا، الخ؛ ليعود الضمير فى الآية الثالثة الى من فى الآيتين جميعا كأنه أخذ أهل القرى و هم نائمون غير أهل القرى و هم يلعبون.

و قوله: فَلَا- يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا- الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ و ذلك لأنه تعالى بين فى الآيتين الاوليين أن الأمن من مكر الله نفسه مكر إلهى يتعقبه العذاب الإلهى فالآمنون من مكر الله خاسرون لأنهم ممكور بهم بهذا الأمن بعينه.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الظاهر أن فاعل قوله: «يهد» ضمير راجع الى ما أجمله من قصص أهل القرى، و قوله «لِلَّذِينَ يَرْتُونَ» مفعوله عدى إليه باللام لتضمينه معنى التبيين، و المعنى: أو لم يبين ما تلوناه من قصص

أهل القرى للذين يرثون الأرض من بعد أهلها هاديا لهم، وقوله: «أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَيِّبُنَاهُمْ» الآية مفعول «يهد» والمراد بالذين يرثون الأرض من بعد أهلها الأخلاف الذين ورثوا الأرض من أسلافهم.

و محصل المعنى: أو لم يتبين أخلاف هؤلاء الذين ذكرنا أنا آخذناهم بمعاصيهم بعد ما امتحناهم ثم طبعنا على قلوبهم فلم يستطيعوا أن يسمعوا مواعد أنبيائهم أنا لو نشاء لأصنابهم بذنوبهم من غير أن يمنعا منهم مانع أو يتقوا بأسنا بشيء.

و ربما قيل: إن قوله: «يهد» منزل منزله اللازم و المعنى: أو لم يفعل بهم الهدايه أن لو نشاء أصنابهم بذنوبهم، و نظيره قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ (الم السجده ٢٦).

و أما قوله: «وَ نَطَّبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ» فمعطوف على قوله: «أَصَيِّبُنَاهُمْ» لأن الماضي هاهنا فى معنى المستقبل، و المعنى أو لم يهد لهم أو لو نشاء نطبع، الخ؛ و قيل جمله معترضه تذييليه، و فى الآية وجوه و أقوال آخر خاليه عن الجدوى.

قوله تعالى: تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَبْنَائِهَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ تلخيص ثان لقصصهم المقصوده سابقا بعد التلخيص الذى مر فى قوله: «وَ مَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ» الى آخر الآيتين أو الآيات الثلاث.

و الفرق بين التلخيصين أن الأول تلخيص من جهه صنم الله من أخذهم بالبأساء و الضراء ثم تبديل السيئه حسنه ثم الأخذ بغته و هم لا يشعرون، و الثانى تلخيص من جهه حالهم فى أنفسهم قبال الدعوه الإلهيه، و هو أنهم و إن جاءتهم رسلهم بالبينات لكنهم لم يؤمنوا لتكذيبهم من قبل و ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل، و هذا من طبع الله على قلوبهم.

و قوله: «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ظَاهِرِ الْآيَةِ أَنْ قَوْلَهُ: «بِمَا» متعلق بقوله: «لِيُؤْمِنُوا» و لازم ذلك أن تكون «ما» موصوله و يؤيده قوله تعالى فى موضع

آخر: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ (يونس ٧٤) فإنه أظهر في كون «ما» موصوله لمكان ضمير «به» و يؤول المعنى الى أنهم كذبوا بما دعوا إليه أولا ثم لم يؤمنوا به عند الدعوه النبويه ثانيا.

و يؤيده ظاهر قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فإن هذا التركيب يدل على نفى التهيؤ القبلي يقال:

ما كنت لآتى فلانا، و ما كنت لا كرم فلانا و قد فعل كذا أى لم يكن من شأنى كذا و لم أكن بمتهيئ لكذا، و فى التنزيل: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ (آل عمران ١٧٩)، أى كان فى إرادته التمييز من قبل. و قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (النساء ١٣٧).

و يؤيده أيضا قوله فى الآيه التاليه: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ فإن ظاهر السياق أن هذه الآيه معطوفه عطف تفسير على قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ فيتبين بها أنهم كانوا عهد إليهم بعهد ففسقوا عنه و كذبوا به حين عهد إليهم ثم إذا جاءتهم الرسل بالبينات كذبوهم و لم يؤمنوا بهم، و ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل.

و الآيه أعنى قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ مذيله بقوله: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ فدل ذلك على أن ما وصفه من مجيء الرسل بالبينات و عدم إيمانهم لتكذيبهم بذلك قلا هو من مصاديق الطبع المذكور، و حقيقته أن الله ثبت التكذيب فى قلوبهم و مكنه من نفوسهم حتى إذا جاءتهم الرسل بالبينات لم يكن محل لقبول دعوتهم لكون المحل مشغولا بضده.

فتنطبق هاتان الآيتان بحسب المعنى على الآيتين الاوليين أعنى قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا﴾ الى آخر الآيتين؛ حيث تصفان سنه الله أنه يرسل آيات داله على حقيه أصول الدعوه من التوحيد و غيره بأخذهم بالبأساء و الضراء ثم تبديل السيئه حسنه ثم يطبع على قلوبهم جزاء لجرمهم.

و على هذا فالمعنى فى الآيه: لقد جاءتهم رسالهم بالبينات لكنهم لما لم يؤمنوا بالآيات المرسله إليهم الداعيه لهم الى التضرع الى الله و الشكر لإحسانه بل شكوا فيها بل حملوها على عاده الدهر و تصريف الأيام و تقليبها الإنسان من حال الى حال فكذبوا بهذه الآيات، و استقر التكذيب فى قلوبهم فلما دعاهم الأنبياء الى الدين الحق لم يؤمنوا بما كانوا يدعون إليه من الحق و بما كانوا يذكرونهم بها من الآيات لأنهم كذبوا بها من قبل و ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل فإن الله عز و جل طبع على قلوبهم فهم لا يسمعون.

فعدم إيمانهم أثر الطبع الإلهى، و الطبع أثر تكذيبهم بدلاله الابتلاء بالبأساء و الضراء ثم تبديل السيئه حسنه ثانيا، و من الدليل عليه قوله: «و لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (يونس ١٣/١)، و قوله: «ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ -يعنى نوحا- رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (يونس ٧٤/٧٤)، و على هذا فقوله: «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ» تفريع على قوله: «و لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ»، و المراد بما كذبوا به الآيات البينات التى ذكرتهم بها الأنبياء من آيات الآفاق و الانفس و ما جاءوا به من الآيات المعجزه فالجميع آياته، و المراد بتكذيبهم بها من قبل، تكذيبهم بها من حيث دلالة عقولهم بمشاهدتها أنهم مربوبون لله لا رب سواه، و بعدم إيمانهم ثانيا عدم إيمانهم بها حين يذكروهم بها الانبياء.

فالمعنى فما كانوا ليؤمنوا بما يذكروهم به و يأتى به الأنبياء من الآيات التى كذبوا بها حين ذكرتهم بها عقولهم، و أرسلها الله إليهم ليذكروا و يتضرعوا إليه و يشكروا له.

و على هذا فالمراد بالعهد فى قوله فى الآيه التاليه: «وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ» هو العهد الذى عهده الله سبحانه إليهم من طريق العقل بلسان الآيات: أن لا يعبدوا إلا إياه، و المراد بالفسق خروجهم عن ذلك العهد بعدم الوفاء به.

ولهذا العهد تحقق سابق على هذا التحقق وهو أن الله سبحانه أخذه بعينه منهم حين خلقهم و سواهم بخلق أبيهم آدم و تسويته ثم جعله مثالا للإنسانية العامة فاسجد له الملائكة و أدخله الجنة ثم عهد إليه حين أمر بهبوطه الأرض أن يعبدته هو و ذريته و لا يشركوا به شيئا.

و قد قدر الله سبحانه هنالك ما قدر فهدى بحسب تقديره قوما و لم يهد آخرين ثم اذا وردوا الدنيا و أخذوا فى سيرهم فى مسير الحياة اهتدى الأولون، و فسق عن عهده الآخرون حتى طبع الله على قلوبهم و حقت عليهم الضلالة فى الدنيا بعد أعمالهم السيئة كما تقدم بيانه فى تفسير قوله: **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَىٰ وَ فَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ** (الآية ٣٠ من السورة).

فمعنى الآية على هذا: فما كانوا ليؤمنوا عند دعوه الأنبياء بما كذبوا به و لم يقبلوه عند أخذ العهد الأول، و ما وجدنا لأكثرهم من وفاء فى الدنيا بالعهد الذى عهدناه هناك و إن وجدنا أكثرهم لفاسقين خارجين عن حكم ذلك العهد.

فهذا معنى لكنه غير مناف للمعنى السابق فإن أحد المعنيين فى طول الآخر و ليسا بمتعارضين فإن تعيين طريق الإنسان و غايته من سعاده و شقاوه بحسب القدر لا ينافى إمكان سعاده و شقاوته فى الدنيا، و إناطه تحقق كل منهما باختياره ذلك و انتخابه.

و فيه: أنه معنى صحيح فى نفسه غير أنه من البطن دون الظهر الذى عليه يدور التفسير، و الدليل عليه قوله بعده: **« كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ »** فإنه يصرح بأن عدم إيمانهم كذلك إنما كان بالطبع على قلوبهم، و إن الله طبع على قلوبهم بتكذيبهم السابق فلم يؤمنوا به عند الدعوه اللاحقه، و الطبع لا يكون ابتدائيا فى الدنيا بل لجرم سابق فيها، و هذا أحسن شاهد على أن هذا التكذيب الذى أورث لهم الطبع على قلوبهم كان فى الدنيا ثم الطبع أوجب لهم أن لا يؤمنوا بما كذبوا به من قبل.

و فى هذا المعنى آيات أخر تدل على أن الطبع و الختم الإلهى إنما هو عن جرم سابق

دنيوى، و ليس مجرد سبق التّكذيب فى الميثاق ينتج الطبع الابتدائى فى الدنيا فإنه مما لا يليق به سبحانه البتة، و قد قال: يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦).

قوله تعالى: «وَ مَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ» الى آخر الآيه، قال فى المجمع: من عهد أى من وفاء بعهد كما يقال: فلان لا عهد له أى لا- وفاء له بالعهد، و ليس يحافظ للعهد (انتهى). و من الجائز أن يراد بالعهد عهد الله الذى عهده إليهم من ناحيه آياته أو عهدهم الذى عاهدوا الله عليه أن يعبدوه و لا يشركوا به شيئاً و من ناحيه حاجه أنفسهم و دلالة عقولهم، و قد ظهر معنى الآيه مما تقدم.

[سوره الاعراف (٧): الآيات ١٠٣ الى ١٢٦]

اشاره

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَ قَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَ أَخَاهُ وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَا تُوتَكُ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَ جَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لِمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْفَىٰ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ (١١٦) وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَعُلبُوا هُنَالِكَ وَ انْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَ أَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُومٌ فِيهِ الَّذِينَ لِيَدِيهِمْ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصِيبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَ مَا نَنْفَعُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)

قوله تعالى: **ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ**؛ في تغيير السياق في أول القصة دلالة على تجدد الاهتمام بأمر موسى عليه السلام فإنه من أولى العزم صاحب كتاب و شريعته، وقد ورد الدين ببعثته في مرحلة جديدة من التفصيل بعد المرحلتين اللتين قطعتهما ببعثته نوح و إبراهيم عليهما السلام، و في لفظ الآيات شىء من الإشارة الى تبدل المراحل فقد قال تعالى أولاً: **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا فَجَرَىٰ عَلَىٰ سَبِيلِ اللَّهِ** و صالِحاً كانا على شريعته نوح؛ ثم غير السياق فقال: **وَ لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ لِأَنْ لُوطًا مِنْ أَهْلِ الْمَرْحَلَةِ الثَّانِيَةِ فِي الدِّينِ وَ هِيَ مَرْحَلَةُ شَرِيْعَةِ إِبْرَاهِيمَ، وَ كَانَ لُوطٌ عَلَىٰ شَرِيْعَتِهِ** ثم عاد الى السياق السابق في بدء قصة شعيب، ثم غير السياق في بدء قصة موسى بقوله: **«ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ»** لأنه ثالث أولى العزم صاحب كتاب جديد و شريعته جديدة، و دين الله و شرائعه و إن كان واحداً لا- تناقض فيه و لا- تنافى غير أنه مختلف بالإجمال و التفصيل و الكمال و زيادته بحسب تقدم البشر تدريجياً من النقص الى الكمال، و اشتداد استعداده لقبول المعارف الإلهية عصراً بعد عصر الى أن ينتهي الى موقف علمي هي أعلى المواقف فيختتم عند ذلك الرسالة و النبوه، و يستقر الكتاب و الشريعة استقراراً لا مطمع بعده في كتاب جديد أو شريعته جديدة و لا يبقى للبشر بعد ذلك إلا التدرج في الكمال من حيث انتشار الدين و انبساطه على المجتمع البشري و استيعابه لهم، و إلا التقدم من جهة التحقق بحقائق المعارف، و الترقى في مراقى العلم و العمل التي يدعو إليها الكتاب، و يحرض عليها الشريعة و الأرض لله يورثها من يشاء

من عباده و العاقبه للمتقين.

فقوله تعالى: «ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا» الى آخر الآيه؛ إجمال لقصه موسى عليه السلام ثم يؤخذ في التفصيل من قوله: «وَ قَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ الْآيَةُ وَ إِنَا وَ إِن كُنَا نَسْمَىٰ هَذِهِ الْقِصَصَ بِقِصَّةِ مُوسَىٰ وَ قِصَّةِ نُوحٍ وَ قِصَّةِ هُودٍ وَ هَكَذَا فَإِنَّهَا بِحَسَبِ مَا سَرَدْتَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ قِصَصَ الْأُمَّمِ وَ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ هَؤُلَاءِ الرُّسُلَ الْكِرَامَ يَذْكُرُ فِيهَا حَالَهُمْ فِيمَا وَاجَهُوا بِهِ رِسْلَ اللَّهِ مِنَ الْإِنكَارِ وَ الرَّدِّ، وَ مَا آلَ إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ مِنْ نَزْوِلِ الْعَذَابِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي أَفْنَىٰ جَمْعَهُمْ، وَ قَطَعَ دَابْرَهُمْ وَ لَذَلِكَ تَرَىٰ أَنْ عَامَهُ الْقِصَصِ الْمَذْكُورِهِ مَخْتَوْمَهُ بِذِكْرِ نَزْوِلِ الْعَذَابِ وَ هَلَاكِ الْقَوْمِ.

و لا تنس ما قدمناه في مفتتح الكلام أن الغرض منها بيان حال الناس في قبول العهد الإلهي المأخوذ منهم جميعا ليكون إنذارا للناس عامه و ذكرى للمؤمنين خاصة، و أنه الغرض الجامع بين ما في سور «الم» و ما في سورة «ص» من الغرض و هو الإنذار و الذكرى.

فقوله: «ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ» أى من بعد من ذكروا من الأنبياء و هم نوح و هود و صالح و لوط و شعيب عليهم السلام «مُوسَىٰ وَ هَارُونَ إِلَيَّ فِرْعَوْنُ وَ مَلَائِهِ» أى الى ملك مصر و الأشراف الذين حولته، و «فِرْعَوْنُ» لقب كان يطلق على ملوك مصر كالخديو كما كان يلقب بقيصر و كسرى و فغفور ملوك الروم و إيران و الصين، و لم يصرح القرآن الكريم باسم هذا الفرعون الذى أرسل إليه موسى فأغرقه الله بيده.

و قوله: «بِآيَاتِنَا» الظاهر أن المراد بها ما أتى به في أول الدعوه من إلقاء العصا فإذا هي ثعبان، و إخراج يده من جيبه فإذا هي بيضاء، و الآيات التى أرسلها الله إليهم بعد ذلك من الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع و الدم آيات مفصلات، و لم ينقل القرآن الكريم لنبي من الأنبياء من الآيات الكثيره ما نقله عن موسى عليه السلام.

و قوله: «فَظَلَمُوا بِهَا» أى بالآيات التى أرسل بها على ما سيذكره الله سبحانه في خلال

القصة، و ظلم كل شىء بحسبه، و ظلم الآيات إنما هو التكذيب بها و الإنكار لها.

و قوله: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ» ذكر عاقبه الإفساد فى الاعتبار بأمرهم لأنهم كانوا يفسدون فى الأرض و يستضعفون بنى إسرائيل، و قد كان فى متن دعوه موسى حين ألقاها الى فرعون «فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ» و فى سورة طه: فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَا تُعَذِّبْهُمْ (طه ٤٧).

قوله تعالى: وَ قَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ شروع فى تفصيل قصه الدعوه كما تقدمت الإشارة إليه، و قد عرف نفسه بالرساله ليكون تمهيدا لذكر ما أرسل لأجله، و ذكره تعالى باسمه رب العالمين أنسب ما يتصور فى مقابله الوثنيين الذين لا يرون إلا أن لكل قوم أو لكل شأن من شئون العالم و طرف من أطرافه ربا على حده.

قوله تعالى: حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ الى آخر الآيه؛ تأكيد لصدقه فى رسالته أى أنا حرى بأن أقول قول الحق و لا- أنسب الى الله فى رسالتي منه إليك شيئا من الباطل لم يأمرنى به الله سبحانه، و قوله: «قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ» فى موضع التعليل بالنسبه الى جميع ما تقدم أو بالنسبه الى قوله: «إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» لأنه هو الأصل الذى يتفرع عليه غيره.

و لعل تعديه «حقيق» بعلی من جهه تضمينه معنى حريص أى حريص على كذا حقيقا به، و المعروف فى اللغه تعديه حقيق بمعنى حرى بالباء يقال: فلان حقيق بالإكرام أى حرى به لائق.

و قرئ «حَقِيقٌ عَلَىٰ» بتشديد الباء و الحقيق على هذا مأخوذ من حق عليه كذا أى وجب، و المعنى واجب على أن لا أقول على الله إلا الحق فالحقيق خبر و مبتداه قوله: أن لا أقول، الآيه و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

الشرط في صدر الآية أعنى قوله: «إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ» يتضمن صدقه عليه السّلام فإنه إذا كان جائيا بآيه واقعه فقد صدق في إخباره بأنه قد جاء بآيه لكن الشرط في ذيل الآية تعريض يومئ به الى أنه ما يعتقد بصدقه في إخباره بوجود آيه معه، فكأنه قال: إن كنت جئت بآيه فأت بها و ما أظنك تصدق في قولك، فلا تكرر في الشرط.

قوله تعالى: فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُجْبَانٌ مُّبِينٌ الفاء جوابيه كما قيل أى فأجابه بإلقاء عصاه، وهذه هي فاء التفریع و الجواب مستفاد من خصوصيه المورد. و الثعبان الحيه العظيمة و لا تنافى بين وصفه ها هنا بالثعبان المبین و بين ما فى موضع آخر من قوله تعالى:

فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَرُ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَى مُدَبِّرًا لَمْ يَعْقِبْ (القصص ٣١)، و الجان هي الحيه الصغيره لاختلاف القصتين كما قيل فإن ذكر الجان إنما جاء فى قصه ليله الطور و قد قال تعالى فيها فى موضع آخر: فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسِيءُ (طه ٢٠)، و أما ذكر الثعبان فقد جاء فى قصه إتيانه لفرعون بالآيات حين سأله ذلك.

قوله تعالى: وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ أى نزع يده من جيبيه على ما يدل عليه قوله تعالى: وَ اضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ (طه ٢٢)، و قوله: أَسْلُوكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ (القصص ٣٢).

و الأخبار و إن وردت فيها أن يده عليه السّلام كانت تضيء كالشمس الطالعه عند إرادته الإعجاز بها لكن الآيات لا نقص أزيد من أنها كانت تخرج بيضاء للناظرين إلا- أن كونها آيه معجزه تدل على أنها كانت تبيض ابيضاضا لا يشك الناظرون فى أنها حاله خارقه للعادة.

قوله تعالى: قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ لم يذكر تعالى ما قاله فرعون عند ذلك، و إنما الذى ذكر محاوره الملا بعضهم بعضا كأنهم فى مجلس مشاوره يذاكر بعضهم بعضا و يشير بعضهم الى ما يراه و يصوبه آخرون فيقدمون ما صوبوه من رأى الى فرعون ليعمل به فهم لما تشاوروا فى أمر موسى و ما شاهدوه من آياته المعجزه قالوا: إن

هذا لساحر عليم، وإذا كان ساحرا غير صادق فيما يذكره من رساله الله سبحانه فإنما يتوسل بهذه الوسيله الى نجاه بنى إسرائيل و استقلالهم فى أمرهم ليتأيد بهم ثم يخرجكم من أرضكم و يذهب بطريقتكم المثلى فما ذا تأمرون به فى إبطال كيده، و إخماد ناره التى أوقدها؟ أ من الواجب مثلا أن يقتل أو يصلب أو يسجن أو يعارض بساحر مثله؟.

فاستصوبوا آخر الآراء، و قدموه الى فرعون أن أرجه و أخاه و ابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم.

و من ذلك يظهر أن قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ حكاية ما قاله بعض الملائكة لبعض و قوله ﴿قَالُوا أَرْجِه﴾، الخ، حكاية ما قدموه من رأى الجميع الى فرعون و قد اتفقوا عليه، و قد حكى الله سبحانه فى موضع آخر من كلامه هذا القول بعينه من فرعون يخاطب به ملاه قال تعالى:

﴿قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَا تُوَكُّ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ (الشعراء ٣٧).

و يظهر مما فى الموضعين أنهم إنما شاوروا حول ما قاله فرعون ثم صوبوه و رأوا أن يجيبه بسحر مثل سحره، و قد حكى الله أيضا هذا القول عن فرعون يخاطب به موسى حتى بالذى أشار إليه الملائكة من معارضة سحره بسحر آخر مثله إذ قال: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ (طه ٥٨)، و لعل ذلك محصل ما خرج من مشاورتهم حول ما قاله فرعون بعد ما قدم الى فرعون مخاطب به موسى من قبل نفسه.

و للملائكة جلسه مشاوره أخرى أيضا بعد قدوم السحره الى فرعون ناجى فيها بعضهم بعضا بمثل ما فى هذه الآيات قال تعالى: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَاسْتَرُؤُوا النَّجْوَى قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ أَعْيُنٌ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَ يُدْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى﴾ (طه ٦٣).

فتبين أن أصل الكلام لفرعون ألقاه إليهم ليتشاوروا فيه و يروا رأيهم فيما يفعل به فرعون فتشاوروا و صدقوا قوله و أشاروا بالإرجاء و جمع السحره للمعارضه فقبله ثم ذكره لموسى ثم

اجتمعوا للمشاوره و المناجاه ثانيا بعد مجيء السحره و اتفقوا أن يجتمعوا عليه و يعارضوه بكل ما يقدرون عليه من السحر صفا واحدا.

قوله: يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ أَى يريد أن يتأيد بنى إسرائيل فيتملك مصر، و يبطل استقلالكم و يخرجكم من أرضكم، و كثيرا ما كان يتفق فى الأعصار السابقه أن يهجم قوم على قوم فيتغلبوا عليهم فيشغلوا أرضهم و يملكوا ديارهم فيخرجوهم منها و يشردوهم فى الأرض.

قوله تعالى: قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ الى آخر الآيه التاليه؛ أوجه بسكون الهاء أمر من الإرجاء بمعنى التأخير و الهاء للسكت أى أخره و أخاه و لا- تعجل لهما بشر كالقتل و نحوه حتى ترمى بظلم أو قسوه و نحوهما بل ابعث فى المدائن من جنودك حاشرين يجمعون السحره فيأتوك بهم ثم عارض سحر موسى بسحر السحره.

و قرئ: أوجه بكسر الجيم و الهاء و أصله أوجه قلبت الهمزه ياء ثم حذفت، و الهاء ضمير راجع الى موسى، و أخوه هو هارون عليهما السلام.

قوله تعالى: وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِلَىٰ آخِرِ آيَةِ التَّالِيَةِ أَى فأرسل حاشرين فحشروهم و جاء السحره كل ذلك محذوف للإيجاز.

و قولهم: «إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا» سؤال للأجر جىء به فى صورته الخبر للتأكيد، و إفاده الطلب الانشائي فى صورته الإخبار شائع، و يمكن أن يكون استفهاما بحذف أدواته، و يؤيده قراءه ابن عامر «إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا»

و قوله: «قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ» إجابته لمسئولهم مع زياده وعدهم بالتقريب.

قوله تعالى: قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ خيروه بين أن يكون هو الملقى بعصاه، و بين أن يكونوا هم الملقيين لما أعدوه من الحبال و العصى

و هذا التخيير في مقام استعدادوا لمقابلته، و لا محاله يفيد التخيير في الابتداء بالإلقاء فمعناه إن شئت ألق عصاك أولا و إن شئت ألقينا حبالنا و عصينا أولا.

و فيه نوع من التجلد لدلالته على أنهم لا- يبالون بأمره سواء ألقى قبلهم أو بعدهم فلا- يهابونه على أى حال لو ثوقهم بأنهم هم الغالبون، و لا يخلو التخيير مع ذلك مع نوع من التأدب.

قوله تعالى: **قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، السحر هاهنا نوع تصرف في حاسه الإنسان بإدراك أشياء لا حقيقه لها في الخارج، و قد تقدم الكلام فيه في تفسير قوله: وَ اتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُوِّمَ (البقره ١٠٢//) في الجزء الأول من الكتاب، و الاسترهاب بالإخافه، و معنى الآيه ظاهر، و قد عد الله فيها سحرهم عظيما.**

قوله تعالى: **وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ،** أن تفسيريته و اللقف و اللقفان تناول الشىء بسرعته، و الإفك هو صرف الشىء عن وجهه و لذا يطلق على الكذب، و فى الآيه وجوه من الإيجاز ظاهره، و التقدير: و أوحينا الى موسى بعد ما ألقوا أن ألق عصاك فألقاها فإذا هي حيه و إذا هي تلقف ما يأفكون.

و قوله: **فَوَقَعَ الْحَقُّ فِيهِ اسْتِعَارَهُ بِالْكِنَايَةِ بِتَشْبِيهِ الْحَقِّ بِشَيْءٍ كَأَنَّهُ مَعْلُوقٌ لَا يَعْلَمُ عَاقِبَةَ حَالِهِ أَيْ يَسْتَقِرُّ فِي الْأَرْضِ بِالْوُقُوعِ عَلَيْهَا وَ التَّمَكُّنُ فِيهَا أَمْ لَا؟ فَوُقِعَ وَ اسْتَقَرَّ «وَ بَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» مِنَ السَّحْرِ.**

قوله تعالى: **فَعُلِّبُوا هُنَالِكَ وَ انْقَلَبُوا صَاغِرِينَ أَيْ غَلِبَ فِرْعَوْنُ وَ اصْحَابَهُ «هُنَالِكَ» أَيْ فِي ذَلِكَ الْمَجْمَعِ الْعَظِيمِ الَّذِي تَهَاجَمَ عَلَيْهِمْ فِيهِ النَّاسُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فَفِي لَفْظِ «هُنَالِكَ» إِشَارَةٌ إِلَى ذَلِكَ وَ هُوَ لِلْبُعِيدِ، «وَ انْقَلَبُوا صَاغِرِينَ» أَيْ عَادُوا وَ صَارُوا أَذْلَاءَ مَهَانِينَ.**

قوله تعالى: **وَ أَلْقَى السَّحْرَهُ سَاجِدِينَ، قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ**

مُوسَىٰ وَ هَارُونَ أَبَهُم فاعل الإلقاء فى قوله: «وَ أَلْقَى السَّحْرَهُ سَاجِدِينَ» و هو معلوم فى إن السحره هم الذين ألقوا بأنفسهم الى الأرض ساجدين، و ذلك للإشاره الى كما تأثير آيه موسى فيهم و إدهاشها إياهم فلم يشعروا بأنفسهم حين ما شاهدوا عظمه الآيه و ظهورها عليهم إلا و هم ملقون ساجدون فلم يدروا من الذى أوقع بهم ذلك.

فاضطرتهم الآيه الى الخور على الأرض ساجدين، و الإيمان برب العالمين الذى اتخذه موسى و هارون، و فى ذكر موسى و هارون دلالة على الإيمان بهما مع الإيمان برب العالمين.

و ربما قيل: إن بيانهم رب العالمين برب موسى و هارون لدفع توهم أن يكون إيمانهم لفرعون فإنه كان يدعى أنه رب العالمين فلما بينوه بقوله: «رَبِّ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ» و لم يأخذا فرعون ربا اندفع ذلك التوهم، و لا يخلو عن خفاء فإن الوثنيه ما كانت تقول برب العالمين بحقيقه معناه بمعنى من يملك العالمين و يدبر أمر جميع أجزائها بالاستقامه بل قسموا أجزاء العالم و شئونها بين أرباب شتى، و إنما أعطوا الله سبحانه مقام إله الآلهه و رب الأرباب لا رب الأرباب و مربوبيها.

و الذى ادعاه فرعون لنفسه على ما حكاه الله من قوله: أَنَا رَبُّكُمْ الْمَعْلَىٰ (النازعات ٢٤)، إنما هو العلو من جهه القيام بحاجه الناس - و هم أهل مصر خاصه - عن قرب و اتصال لا من جهه القيام بربوبيه جميع العالمين، و مع ذلك كله قد أحاطت الخرافات على الوثنيه بحيث لا يستبعد أن يتفوهوا بكون فرعون رب العالمين و إن خالف أصول مذاههم قطعا.

قوله تعالى: قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ الى آخر الآيتين؛ خاطبهم فرعون بقوله: «آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ» تأنفا و استكبارا، و هو إخبار يفيد بحسب المقام و الإنكار و التوبيخ، و من الجائر أن يكون استفهاما إنكاريا أو توبيخيا محذوف الأداء.

وقوله: إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ الْآيَةَ؛ يتهمهم بالمواطأه و المواضعه فى المدينه يريد أنهم لما اجتمعوا فى مدينته بعد ما حشرهم الحاشرون من مدائن مختلفه شتى فجاءوا بهم اليه و لقوا موسى أجمعوا على أن يمكروا بفرعون و أصحابه فيتسلطوا على المدينه فيخرجوا منها أهلها، و ذلك لأنهم لم يشاهدوا موسى قبل ذلك فلو كانوا تواطئوا على شىء فقد كان ذلك بعد اجتماعهم فى مدينته.

أنكر عليهم إيمانهم بقوله: «آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ» ثم اتهمهم بأنهم تواطئوا جميعا على المكر ليخرجوا أهل المدينه منها بقوله: «إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ» الخ؛ ليثبت لهم جرم الإفساد فى الأرض المبيح له سياستهم و تنكيلهم بأشد العقوبات.

ثم هددهم بقوله: «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» ثم بينه و فصله بقوله:

«لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ» فهددهم تهديدا أكيدا أولا بقطع الأيدي الأرجل من خلاف و هو أن يقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو اليد اليسرى مع الرجل اليمنى و بالجمله قطع كل من اليد و الرجل من خلاف الجهه التى قطعت منها الاخرى.

و ثانيا بالصلب و هو شد المجرم بعد تعذيبه على خشبه و رفع الخشبه بإثبات جانبه على الأرض ليشاهده الناس فيكون لهم عبره، و قد تقدم تفصيل بيانه فى قصص المسيح عليه السلام فى تفسير سوره آل عمران.

قوله تعالى: قَالُوا إِنَّا إِلٰهِ رَبِّنَا مُنْفَلِبُونَ الى آخر الآيات؛ جواب السحره و هم القائلون هذا المقال و قد قابلوه بما يبطل به كيده، و تنقطع به حجته، و هو أنك تهددنا بالعذاب قبال ما تنقم منا من الإيمان بربنا ظنا منك أن ذلك شر لنا من جهه انقطاع حياتنا به و ما نقاسيه من ألم العذاب، و ليس ذلك شرا فإننا نرجع الى ربنا، و نحيا عنده بحياه القرب السعيده، و لم نجترم إلا ما تعده أنت لنا جرما و هو إيماننا بربنا فما دوننا إلا الخير.

و هذا معنى قوله: قَالُوا إِنَّا إِلٰهِ رَبِّنَا مُنْفَلِبُونَ و هو إيمان منهم بالمعاد «وَمَا تَنْقِمُ

مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا» و عدوا أمر العصا-على الظاهر-آيات كثيرة لاشتماله على جهات كل منها آية كصيرورتها ثعبانا، و لقفها حبالهم و عصيهم واحدا بعد واحد، و رجوعها الى حالتها الاولى.

و النقم هو الكراهه و البغض يقال:نقم منه كذا ينقم من باب ضرب و علم:إذا كرهه و أبغض.

ثم أخذتهم الجذبه الإلهيه من غير أن يذعروا مما هددهم به،و استغاثوا بربهم على ما عزم به من تعذيبهم و قتلهم فسألوه تعالى قائلين: «رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا -على ما يريد أن يوقع بنا من العذاب الشديد- وَ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ» إن قتلنا.

و فى إطلاق الإفراغ على إعطاء الصبر استعاره بالكنايه فشبهوا نفوسهم بالآنيه،و الصبر بالماء،و إعطاءه بإفراغ الإناء بالماء و هو صبه فيه حتى يغمره،و إنما سألوا ذلك ليفيض الله عليهم من الصبر ما لا يجزعون به عند نزول أى عذاب و ألم ينزل بهم.

و قد جاءوا بالعجب العجاب فى مشافهتهم هذه مع فرعون و هو الجبار العنيد الذى ينادى «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى» و يعبده ملك مصر فلم يذعروهم ما شاهدوا من قدرته و سطوته فأعربوا عن حجتهم بقلوب مطمئنه،و نفوس كريمه،و عزم راسخ،و إيمان ثابت،و علم عزيز،و قول بليغ؛و إن تدبرت ما حكاه الله سبحانه من مشافهتهم و محاورتهم فرعون فى موقفهم هذا فى هذه السوره و فى سورتي طه و الشعراء أُرشدك ما فى خلال كلامهم من الحجج البالغه الى علوم جمه،و حالات روحيه شريفه،و أخلاق كريمه،و لولا محذور الخروج عن طور هذا الكتاب لأوردنا شذره منها فى هذا المقام فليتنظر الى حين (1).

ص: ٥٤٩

إشارة

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ قَالَ سَيُنْفِثُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسِيَتَحِي نِسَاءَهُمْ وَإِذَا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عِدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّهُمْ طَائِفَةٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَلَمَّا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجْلِ هُمْ بِالْعَوَةِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسَيْنِي عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَ دَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)

قوله تعالى: وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ هذا إغراء منهم لفرعون و تحريض له أن يقتل موسى و قومه، و لذلك رد فرعون قولهم بأنه لا يهمننا قتلهم فإننا فوقهم قاهرون على أي حال بل سنعيد عليهم سابق عذابنا فنقتل أبناءهم و نستحيى نساءهم، و لو كان ما سألوا مطلق تعذيبهم غير القتل لم يقع قوله: «وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ» موقعه ذلك الوقوع.

و قوله: وَيَذَرَكُ وَآلِهَتَكَ تأكيد لتحريضهم إياه على قتلهم، و المعنى أن موسى يتركك و آلهتك فلا يعبدكم مع ما يفسد هو و قومه في الأرض، و فيه دلالة على أن فرعون كما كان يدعى الالهيه، و يستعبد الناس لنفسه كان يعبد آلهه أخرى، و هو كذلك و التاريخ يثبت نظائر لذلك في الامم السالفه، و قد نقل: أن عظماء البيوت و سادات القوم في الروم و ممالك

أخرى غيرها كان يعبدهم مرءوسوهم من بيتهم و عشائرههم و هم أنفسهم كانوا يعبدون آباءهم الأولين و أصناما أخرى غيرهم كما يعبدهم ضعفاؤهم، و أيضا بين الأرباب التي تعبدها الوثنيه ما هو رب لغيره من الأرباب أو رب لرب آخر كربييه الأب و الام للابن و غير ذلك.

إلا أن قوله لقومه فيما حكاه الله سبحانه: أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى (النازعات ٢٤)، و قوله:

مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (القصص ٣٨)، ظاهر في أنه كان لا يتخذ لنفسه ربا، و كان يأمر قومه أن لا يعبدوا إلا إياه، و لذلك قال بعضهم: إنه كان دهريا لا يعترف بصانع، و يأمر قومه بترك عباده الآلهه مطلقا، و قصر العباده فيه، و لذلك قرأ بعضهم -على ما قيل - «و إلهتك» بكسر الهمزه و فتح اللام و إثبات الألف بعدها كالعباده وزنا و معنى.

لكن الأوجه أنه كان يريد بقوله: مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي نفى إله يخص قومه القبطيين يملكهم و يدبر أمورهم غير نفسه كما هو المعهود من عقائد الوثنيين أن لكل صنف من أصناف الخلائق كالسماء و الأرض و البر و البحر و قوم كذا، أو من أصناف الحوادث و الامور كالسلم و الحرب و الحب و الجمال ربا على حده، و إنما كانوا يعبدون من بينها ما يهتمهم عبادته كعباده سكان سواحل البحار رب البحر و الطوفان.

فمعنى كلامه أنى أنا ربكم معاشر القبطيين لا ما اتخذه موسى و هو يدعى أنه ربكم أرسله إليكم، و يؤيده ما ذكرناه ما احتف به من القرينه بقوله: مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي، فإنه تعالى يقول: وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (القصص ٣٨)، فظاهرها أنه كان يشك في كونه إلهها لموسى، و أن معنى قوله: مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي نفى العلم بوجود إله غيره لا العلم بعدم وجود إله غيره، و بالجمله فكلامه لا ينفى إلهها غيره.

وقوله تعالى: **قَالَ سَيَنُقْتَلُ أَوْنَاءَهُمْ وَنَسِيَتَحِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ** وعد منه للملا من قومه أن يعيد الى بنى إسرائيل تعذيبه السابق و هو قتل أبنائهم و استحياء نساءهم و استبقاؤهن للخدمه، و عقبه بقوله: **«وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ»** و هو تطيب قلوبهم و إسكان ما فى نفوسهم من الاضطراب و الطيش.

قوله تعالى: **قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْبِتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا** الى آخر الآيه؛ و هذا من موسى عليه السلام بعث لبنى إسرائيل و استنهاض لهم على الاستعانه بالله على مقصدهم و هو التخلص من إساره آل فرعون و استعبادهم ثم بعث على الصبر على شدائد يهددهم بها فرعون من ألوان العذاب، و الصبر هو رائد الخير و فرط كل فرج؛ ثم علل ذلك بقوله: **«إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ»**.

و محصله أن فرعون لا يملك الأرض حتى يمنحها من يشاء، و يمنع من التمتع بها من يشاء بل هى لله يورثها من يشاء، و قد جرت السنه الإلهيه أن يخص بحسن العقابه من يتقيه من عباده فإن استعنتم بالله و صبرتم فى ذات الله على ما يهددكم من الشدائد- و هو التقوى- أورثكم الأرض التى ترونها فى أيدى آل فرعون.

و لذلك عقب قوله: **«إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ»** الآيه بقوله: **«وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»** العاقبه ما يعقب الشىء كالبادئه لما يبدأ بالشىء، و كون العاقبه مطلقا للمتقين من جهه أن السنه الإلهيه تقضى بذلك و ذلك أنه تعالى نظم الكون نظما يؤدى كل نوع الى غايه وجوده و سعاده التى خلق لأجلها فإن جرى على صراطه الذى ركب عليه، و لم يخرج عن خط مسيره الذى خط له بلغ غايه سعاده لا محاله، و الإنسان الذى هو أحد هذه الأنواع أيضا حاله هذا الحال إن جرى على صراطه الذى رسمته له الفطره و اتقى الخروج عنه و التعدى منه الى غير سبيل الله بالكفر بآياته و الإفساد فى أرضه هداه الله الى عاقبه الحسنه، و أحياء الحياه الطيبه، و أرشده الى كل خير يبتغيه.

قوله تعالى: قَالُوا أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِينَا وَ مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا الْإِنْيَانِ وَ الْمَجِيءِ فِي الْآيَةِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَ الْاِخْتِلَافِ فِي التَّعْبِيرِ لِلتَّفَنِّ، وَ مَا قِيلَ إِنْ الْمَعْنَى مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِينَا بِالْآيَاتِ وَ مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا لَا دَلِيلَ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ التَّقْدِيرِ. عَلَى أَنْ غَرَضَهُمْ إِظْهَارُ أَنْ مَجِيءَ مُوسَى وَ قَدْ وَعَدُوا أَنَّ اللَّهَ يَنْجِيهِمْ بِيَدِهِ مِنْ مَصِيبِهِ الْإِسَارَةِ وَ هَاوِيَةِ الْمَذَلَّةِ لَمْ يُوَثِّرْ أَثَرُهُ فَإِنَّ الْأَذَى الَّذِي كَانُوا يَحْمِلُونَهُ وَ يُؤْذُونَ بِهِ عَلَى حَالِهِ، وَ لَا تَعْلُقُ لْغَرَضَهُمْ بِأَنَّهُ أَتَاهُمْ بِالْآيَاتِ الْبَتَّةِ.

وَ هَذَا الْكَلَامُ شَكْوَى مِنْهُمْ يَبْتُونَهَا إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله تعالى: قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ وَ هَذَا جَوَابٌ مِنْ مُوسَى عَنْ قَوْلِهِمْ: «أَوْذِينَا» الْخ؛ يَسْلِيهِمْ بِهِ وَ يَعْزِيهِمْ بِالرَّجَاءِ، وَ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ تَكَرَّرَ لِقَوْلِهِ السَّابِقِ: «إِسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ» الْآيَةَ؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ: مَا أَمَرْتُمْ بِهِ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ فِي سَبِيلِ مَقْصَدِكُمْ كَلِمَةً حَيْثُ ثَابِتُهُ فَإِنْ عَمَلْتُمْ بِهَا كَانَ مِنَ الْمَرْجُوِّ أَنْ يَهْلِكَ اللَّهُ عَدُوَّكُمْ، وَ لَا يَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ بِإِيرَائِكُمْ إِيَّاهَا وَ لَا يَصْطَفِيكُمْ بِالْاِسْتِخْلَافِ اصْطِفَاءً جَزَافًا، وَ لَا يَكْرِمُكُمْ إِكْرَامًا مُطْلَقًا مِنْ غَيْرِ شَرْطٍ وَ لَا قَيْدٍ بَلْ لِيَمْتَحِنَكُمْ بِهَذَا الْمَلِكِ وَ يَبْتَلِيَكُمْ بِهَذَا التَّسْلِيطِ وَ الْاِسْتِخْلَافِ فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، قَالَ تَعَالَى:

وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيُعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ (آل عمران ١٤٠).

وَ هَذَا مِمَّا يَخْطِئُ بِهِ الْقُرْآنُ مَا يَعْتَقِدُهُ الْيَهُودُ مِنْ كِرَامَتِهِمْ عَلَى اللَّهِ كِرَامَةً لَا تَقْبَلُ عِزْلًا، وَ لَا تَحْتَمِلُ شَرْطًا وَ لَا قَيْدًا، وَ التَّوْرَاهُ تَعْدُ شَعْبَ إِسْرَائِيلَ شَعْبَ اللَّهِ الَّذِي لَهُمُ الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ كَأَنَّهُمْ مَلَكُوهَا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مَلَكًا لَا يَقْبَلُ نَقْلًا وَ لَا إِقَالَه.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ السَّنُونَ جَمَعَ سَنَهُ وَ هِيَ الْقَحْطُ وَ الْجَدْبُ، وَ كَانَ أَصْلُهُ سَنَهُ الْقَحْطِ ثُمَّ قِيلَ: السَّنَةُ إِشَارَةٌ إِلَيْهَا ثُمَّ كَثُرَ الْاِسْتِعْمَالُ حَتَّى تَعَيَّنَتِ السَّنَةُ لِمَعْنَى الْقَحْطِ وَ الْجَدْبِ.

و الله سبحانه يذكر في الآيه-و يقسم- أنه أخذ آل فرعون و هم قومه المختصون به من القبطين بالقحوط المعدده و نقص من الثمرات لعلهم يذكرون.

و هما نوعان من الآيات التي أرسلها الله الى آل فرعون، و ظاهر السياق أنه أرسل ما أرسل منهما فصلا فصلا، و لذا جمع السنين و لا يصدق الجمع إلا مع الفصل بين سنه و سنه. على

أنه يقول: «فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ» الآيه؛ و ظاهره الحسنه التي بعد السيئه ثم السيئه التي بعد هذه الحسنه.

قوله تعالى: «فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ» الآيه؛ كانوا اذا جاءهم الخصب و وفور النعمه و سعه الرزق بعد ارتفاع السنه و نقص الثمرات قالوا: «لَنَا هَذِهِ» يريدون به الاختصاص و إنما قلنا: إنهم كانوا يقولون ذلك بعد ارتفاع السنه و نقص الثمرات لأن الإنسان بحسب الطبع لا ينتقل الى ذكر النعمه بما هي نعمه، و لا يتنبه لقدرها إلا بعد مشاهدته النقمه التي هي خلافها، و لا داعي يدعو آل فرعون الى ذكر النعمه الحسنه و تخصيصها بأنفسهم لو لا أنهم رأوا خلافها وعدوه أمرا بدعا لم يكونوا رأوه قبل ذلك فاطيروا بموسى و من معه ثم اذا بدلت السيئه حسنه عدوها لأنفسهم فالتطير عند السيئه بحسب الوقوع قبل قولهم فى الحسنه: لنا هذه و إن كان الأمر بحسب الطبع على خلاف ذلك بمعنى أنهم لو لم يزعموا و لم يرتكز فى نفوسهم من اعتيادهم بالرفاهيه و وفور النعمه و الخصب أنهم مخصوصون بذلك يملكونه لم يتطيروا بموسى عند نزول المصيبه عليهم فإن من لم تروحه الراحه و العافيه لا يتخرج عن خلافهما.

و لعل هذا هو الوجه فى تقديمه تعالى اغترارهم بالنعمه قبل تطيرهم عند النقمه ثم ذكر الحسنه بكلمه «اذا» و السيئه بلفظه «إن» حيث قال: «فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَ إِن تَصَبَّ بِهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَ مَنْ مَعَهُ» فقد جعل مجيء الحسنه كالأصل الثابت فذكره بإذا و التعريف بلام الجنس، ثم ذكر إصابه السيئه بطريق الشرط، و نكر السيئه ليدل على ندرتها

و كونها اتفقيه.

و التطير مشتق من الطير باعتبار اشتماله على نسبه من النسب، و هى نسبه التشؤم فإنهم كانوا يتشأمون ببعض الطيور كالغراب فاشتق منه ما يفيد معنى التشؤم و هو التطير و معناه التشؤم بالطير حتى سمي مطلق النصيب أو النصيب من الشر و الشأمه طائرا.

فقوله تعالى: «أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» معناه أن نصيبهم من الشر و الشؤم الذى يحق به أن يسمى نصيب الشر و هو العذاب، هو عند الله، و لكن أكثرهم لا يعلمون لظنهم أن ما تجنيه أيديهم يفوت و يزول و لا يحفظ عليهم.

قوله تعالى: «وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسِيَ حَرْنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ مَهْمَا مِنْ أَسْمَاءِ الشَّرْطِ مَعْنَاهُ أَى شَىءٍ، و قولهم هذا إياس منهم لموسى من أن يؤمنوا به و إن أتى بأى آيه و فى قولهم: «مِنْ آيَةٍ لِنَسِيَ حَرْنَا بِهَا» استهزاء به حيث سموها آيه و جعلوا غرضه منها أن يسحرهم أى إنك تأتينا بالسحر و تسميها آيه.

قوله تعالى: «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَ الْجُرَادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفَادِعَ وَ الدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ الْآيَةُ: الطوفان على ما قاله الراغب - كل حادثه تحيط بالإنسان، و صار متعارفا فى الماء المتناهى فى الكثره، و فى المجمع: أنه السيل الذى يعم بتغريقه الأرض و هو مأخوذ من الطوف فيها(انتهى).

و القمل بالضم و التشديد قيل: كبار القردان، و قيل: صغار الذباب و بالفتح فالسكون معروف، و الجراد و الضفادع و الدم معروفه.

و التفصيل تفريق الشىء الى أجزاء مفصوله منفصله بعضها عن بعض، و لازم ذلك تميز كل بعض و ظهوره فى نفسه فقوله: «آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ» يدل على أنها أرسلت إليهم لا مجتمعها و دفعه بل متفرقه منفصله بعضها عن بعض ظاهره فى أنها آيات إلهيه مقصوده غير اتفقيه و لا جزافيه.

و من الدليل على كون المفصلات بهذا المعنى قوله فى الآيه التاليه: «وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا» الآيه؛ الظاهر أن الآيه كانت تأتيهم عن إخبار من موسى و إنذار ثم اذا نزلت بهم و دهمتهم التجئوا إليه فسألوه أن يدعو لهم لتكشف عنهم، و أعطوه عهدا إن كشفت عنهم آمنوا به و أرسلوا معه بنى إسرائيل فلما كشفت نكثوا و نقضوا و على هذا القياس.

قوله تعالى: «وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ إِلَى آخِرِ الآيه؛ الرجز هو العذاب و يعنى به العذاب الذى كانت تشتمل عليه كل واحده من الآيات المفصلات فإنها آيات عذاب و نكال و قوله: «بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ» على ما يؤيده المقام أى بما التزم عندك أن لا يرد دعاءك فيما تسأله، و اللام عندئذ للقسم، و المعنى ادع لنا ربك بالعهد الذى له عندك.

و قوله: لَيْسَ كَشَفَتْ عَنَّا الرِّجْزَ لِنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ هو ما عاهدوا به موسى لكشف الرجز عنهم.

قوله تعالى: فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ النكث نقض العهد، و قوله: «إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوهِ» متعلق بقوله: «كَشَفْنَا» و هو يدل على أنه كان يضم الى معاهده أجل مضروب كأن يقول موسى عليه السلام إن الله سيرفع العذاب عنكم بشرط أن تؤمنوا و ترسلوا معى بنى اسرائيل الى أجل كذا، أو يقول آل فرعون ما يشابه هذا المعنى فلما كشف العذاب عنهم و حل الأجل المضروب نكثوا و نقضوا عهدهم الذى عاهدوا الله و عاهدوا موسى عليه. و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ الْبَحْرِ، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا إِلَى آخِرِ الآيه. الظاهر أن المراد بالأرض أرض الشام و فلسطين و يؤيده أو يدل عليه قوله بعد: «الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا» فإن الله سبحانه لم يذكر بالبركه غير الأرض

المقدسه التي هي نواحي فلسطين إلا- ما وصف به الكعبه المباركه، والمعنى: أورثنا بنى إسرائيل و هم المستضعفون الأرض المقدسه بمشارقتها و مغاربيها، و انما ذكرهم بوصفهم فقال: القوم الذين كانوا يستضعفون ليدل على عجب صنعه تعالى في رفع الوضيع، و تقويه المستضعف، و تملكه من الأرض ما لا يقدر على مثله عاده الا كل قوى ذو أعضاد و أنصار.

و قوله: وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسَيْنَى الْآيَه؛ يريد به ما قضاه في حقهم أنه سيورثهم الأرض و يهلك عدوهم، و اليه اشاره موسى عليه السلام في قوله لهم و هو يسليهم و يؤكد رجاءهم: «عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ» و يشير سبحانه اليه في قوله: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (القصص ٥/)، و تمام الكلمه خروجها من مرحله القوه الى مرحله الفعلية، و علل ذلك بصبرهم.

و قوله: وَ دَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ الْآيَه؛ أى أهلكتنا ما كانوا يصنعونه و ما كانوا يسقفونه من القصور و الأبنيه و ما كانوا يعرشونه من الكرم و غيره (١).

[سوره الاعراف (٧): الآيات ١٣٨ الى ١٥٤]

اشاره

وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبٌ مِمَّا هُمْ فِيهِ وَ بَاطِلٌ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١) وَ وَاَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَ أَنْتَمْنَا بِهَا بِعَشْرِ فَتَمٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَ لَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَظُنُّكَ إِلَهًا قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَ لَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَاكَ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسَى صِدْقًا فَلَمَّا آفَقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَ بَكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَ كَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِحَسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ إِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧) وَ اتَّخَذَ قَوْمٌ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَ لَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَ كَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَ لَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَ يُغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ أَلْقَى الْأَلْوَابِ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنْ الْقَوْمِ اسْتَضَعُّوْنِي وَ كَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تَشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءُ وَ لَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ ادْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابِ وَ فِي نُسخِهَا هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِزُبُهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)

١-١). الاعراف ١٢٧-١٣٧: بحث روائي في ما ارسل الله على قوم فرعون.

قوله تعالى: وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ آتِيهِ الْعُكُوفُ الْإِقْبَالَ عَلَى الشَّيْءِ وَ مَلَازِمَتَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّعْظِيمِ. ذكره الراغب في المفردات، وقولهم «اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ» أى كما لهم آلهه مجعوله.

كان بنو إسرائيل على شريعته جدهم إبراهيم عليه السّلام، وقد خلا فيهم من الأنبياء إسحاق و يعقوب و يوسف، وهم على دين التوحيد الذى لا يعبد فيه إلا الله سبحانه وحده لا شريك له المتعالى عن أن يكون جسما أو جسمانيا يعرض له شكل أو قدر غير أن بنى إسرائيل كما يستفاد من قصصهم كانوا قوما ماديين حسيين يجرون فى حياتهم على أصاله الحس و لا يعتنون بما وراء الحس إلا اعتناء تشريفيا من غير أصاله و لا حقيقه، وقد مكثوا تحت إساره القبط سنين متطاوله، وهم يعبدون الأوثان فتأثرت من ذلك أرواحهم و إن كانت العصبية القومية تحفظ لهم دين آبائهم بوجه.

و لذلك كان جلهم لا- يتصورون من الله سبحانه إلا- أنه جسم من الأجسام بل جوهر ألوهى يشاكل الإنسان كما هو الظاهر المستفاد من التوراه الدائره اليوم، و كلما كان موسى يقرب الحق من أذهانهم حولوه الى أشكال و تماثيل يتوهمون له تعالى، لهذه العله لما شاهدوا فى مسيرهم قوما يعكفون على أصنام لهم استحسنا مثل ذلك لأنفسهم فسألوا موسى عليه السّلام أن يجعل لهم إلها كما لهم آلهه يعكفون عليها.

فلم يجد موسى عليه السّلام بدا من أن يتنزل فى بيان توحيد الله سبحانه الى ما يقارب أفهامهم على قصورها فلامهم أولا على جهلهم بمقام ربهم مع وضوح أن طريق الوثنيه طريق باطل هالك

ثم عرف لهم ربهم بالصفه، و أنه لا يقبل صنما و لا يحد بمثال كما سيجيء.

قوله تعالى: **إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا بَدَأَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** المتبر من التبار و هو الهلاك، و المراد بقوله: **«مَا هُمْ فِيهِ»** سبيلهم الذى يسلكونه و هو عباده الأصنام و المراد بقوله: **«مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»** أعمالهم العباديه، و المعنى أن هؤلاء الوثنيه طريقتهم هالكه و أعمالهم باطله فلا يحق أن يميل إليه إنسان عاقل لأن الغرض من عباده الله سبحانه أن يهتدى به الإنسان الى سعادته دائمه و خير باق.

قوله تعالى: **قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ** «أَبْغِيكُمْ» أى أطلب لكم و أتمس، يعرف ربهم و يصفه لهم، و قوله: **«أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا»** فيه تأسيس أن كل إله أبغيه لكم بجعل أو صنع فإنما هو غير الله سبحانه، و الذى يجب عليكم أن تعبدوا الله ربكم بصفه الربوبيه التى هى تفضيله إياكم على العالمين.

فكأنهم قالوا: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهه فقال: كيف أتمس لكم ربا مصنوعا و هو غير الله ربكم، و إذا كان غيره فعبادته متبره باطله؟ فقالوا: فكيف نعبده و لا نراه و لا سبيل لنا إلى ما لا نشاهده؟ كما يقوله عبده الأصنام. فقال: اعبدوه بما تعرفونه من صفته فإنه فضلكم على سائر الامم بآياته الباهره و دينه الحق و إنجائكم من فرعون و عمله، فالآيه- كما ترى- ألطف بيان و أوجز برهان يجلى عن الحق الصريح للأذهان الضعيفه التعقل.

قوله تعالى: **وَ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ سَامَهُ الْعَذَابِ يَسُومُهُ** أى حملة ذلك على طريق الإذلال، و الثقيل الإكثار فى القتل و الاستحياء الاستبقاء للخدمه و قد تقدم، و الظاهر أن قوله: **«وَ فِي ذَلِكُمْ»** إشاره إلى ما ذكر من سوء تعذيب آل فرعون لهم.

و الآيه خطاب امتنانى للموجودين من أخلافهم حين النزول يمتن الله فيها عليهم بما من به على آبائهم فى زمن فرعون كما قيل، و الأنسب بالسياق أن يكون خطابا لأصحاب موسى

بعينهم مسوقا سوق التعجب إذا نسوا عظيم نعمه الله عليهم إذ أنجاهم من تلك البليه العظيمه، و نظيره في الغيبه قوله تعالى فيما سيأتى: «أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا» .

قوله تعالى: «وَأَعِدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ المِيقَاتِ قَرِيبِ الْمَعْنَى مِنَ الْوَقْتِ، قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: الْفَرْقُ بَيْنَ الْمِيقَاتِ وَالْوَقْتِ أَنَّ الْمِيقَاتِ مَا قَدَرَ لِيَعْمَلَ فِيهِ عَمَلٌ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَالْوَقْتُ وَقْتُ الشَّيْءِ وَ قَدْرُهُ، وَ لِذَلِكَ قِيلَ: مَوَاقِيتُ الْحَجِّ وَ هِيَ الْمَوَاضِعُ الَّتِي قَدَرْتَ لِلْإِحْرَامِ فِيهَا(انتهى).

و قد ذكر الله سبحانه المواعده و أخذ أصلها ثلاثين ليله ثم أتمها بعشر ليال آخر ثم ذكر الفذلکه و هي أربعون، و أما الذى ذكره فى موضع آخر إذ قال: «وَأَعِدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً (البقره ٥١)» فهو المجموع المتحصل من المواعدين أعنى أن آيه البقره تدل على أن مجموع الأربعين كان عن مواعده، و آيه الأعراف على أن ما فى آيه البقره مجموع المواعدين.

و بالجملة يعود المعنى إلى أنه تعالى وعده ثلاثين ليله للتقريب و التكليم ثم وعده عشرا آخر لإتمام ذلك فتم مِيقَاتِ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، و لعله ذكر الليالى دون الأيام-مع أن موسى مكث فى الطور الأربعين بأيامها و لياليها، و المتعارف فى ذكر المواقيت و الأزمنه ذكر الأيام دون الليالى-لأن المِيقَاتِ كان للتقرب الى الله سبحانه و مناجاته و ذكره، و ذلك أخص بالليل و أنسب لما فيه من اجتماع الحواس عن التفرق و زياده تهيؤ النفس للانس و قد كان من بركات هذا المِيقَاتِ نزول التوراه.

و هذا كما يشير إلى مثله قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا -إلى أن قال- إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَ أَقْوَمُ قِيلًا إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (المزمل ٧)»، و قوله تعالى: «وَ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي» إنما قاله حين ما كان يفارقهم للمِيقَاتِ، و الدليل على ذلك قوله: «اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي» فإن الاستخلاف لا يكون إلا فى غيبه. و إنما عبر بلفظ «قَوْمِي» دون بنى إسرائيل لتجرى القصة على سياق

سائر القصص المذكوره فى هذه السوره فقد حكى فيها عن لفظ نوح و هود و صالح و غيرهم: يا قوم يا قوم، و على ذلك أجريت هذه القصة فعبر فيها عن بنى إسرائيل فى بضعه مواضع بلفظ القوم، و قد عبر عنهم فى سوره طه بنى إسرائيل.

و أما قوله لأخيه ثانيا: «وَ أَصِيحْ وَ لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ» فهو أمر له بالإصلاح و أن لا يتبع سبيل أهل الفساد، و هارون نبى مرسل معصوم لا تصدر عنه المعصيه، و لا يتأتى منه اتباع أهل الفساد فى دينهم، و موسى عليه السلام أعلم بحال أخيه فليس مراده نهيه عن الكفر و المعصيه بل أن لا يتبع فى إداره أمور قومه ما يشير إليه و يستصوبه المفسدون من القوم أيام خلافته ما دام موسى غائبا.

و من الدليل عليه قوله: «وَ أَصِيحْ» فإنه يدل على أن المراد بقوله: «وَ لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ» أن يصلح أمرهم و لا يسير فيهم سيره هى سبيل المفسدين الذى يستحسنونه و يشيرون إليه بذلك.

و من هنا يتأيد أنه كان فى قومه يومئذ جمع من المفسدين يفسدون و يقلبون عليه الامور و يتربصون به الدوائر فنهى موسى أخاه أن يتبع سبيلهم فيشوشوا عليه الأمر و يكيّدوا و يمكروا به فيتفرق جمع بنى إسرائيل و يتشتت شملهم بعد تلك المحن و الأذى التى كابدها فى إحياء كلمه الاتحاد بينهم.

قوله تعالى: «وَ لَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَ لَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَاكَ» الآية؛ التجلى مطاوعه التجليه من الجلاء بمعنى الظهور، والدك هو أشد الدق، و جعله دكا أى مدكوكا و الخرور هو السقوط، و الصعقه هى الموت أو الغشيه بجمود الحواس و بطلان إدراكها، و الإفاقه الرجوع إلى حال سلامه العقل و الحواس يقال: أفاق من غشيته أى رجع إلى حال استقامه الشعور و الإدراك.

و معنى الآيه على ما استفاد من ظاهر نظمها أنه «لَمَّا لَجَّاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا» الذى وقتناه له «وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ» بكلامه «قَالَ» أى موسى «رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ» أى أرني نفسك انظر إليك أى مكنى من النظر إليك حتى انظر إليك و أراك فإن الرؤيه فرع النظر، و النظر فرع التمكين من الرؤيه و التمكين منها، «قَالَ» الله تعالى لموسى: «لَنْ نَرَاكَ أَبَدًا» وَ لَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ» و كان جبلا بحياله مشهودا له أشبه إليه بلام العهد الحضورى: «وَ لَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ وَ أَطَاقَ رُؤْيِي فَاعْلَمْ أَنَّكَ تَطْبِقُ النَّظَرَ إِلَى وَ رُؤْيِي «فَلَمَّا تَجَلَّى» وَ ظَهَرَ «رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ» بتجليه «دَكَّا» مذكوكا متلاشيا فى الجو أو سائحا «وَ خَرَّ مُوسَى صِعْقًا» ميتا أو مغشيا عليه من هول ما رأى «فَلَمَّا أَفَاقَ» قَالَ «سُبْحَانَكَ تَبَّتْ إِلَيْكَ» رجعت إليك مما اقترحت عليه «وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ» بأنك لا ترى. هذا ظاهر ألفاظ الآيه.

و الذى يعطيه التدبر فيها أن حديث الرؤيه و النظر الذى وقع فى الآيه اذا عرضناه على الفهم العامى المتعارف حمله على رؤيه العين و نظر الإبصار، و لا- نشك و لن نشك أن الرؤيه و الإبصار يحتاج الى عمل طبيعى فى جهاز الإبصار يهيبى للباصر صورته مماثله لصوره الجسم المبصر فى شكله و لونه.

و بالجمله هذا الذى نسميه الإبصار الطبيعى يحتاج الى ماده جسميه فى المبصر و الباصر جميعا، و هذا لا شك فيه.

قوله تعالى: «قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَ بِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ» المراد باصطفاء الاختيار على وجه التصفيه، و لذلك عدى الى الناس بعلى، و المراد بالرسالات هو ما حمل من الأوامر و النواهي الإلهيه من المعارف و الحكم و الشرائع ليبلغه الناس سواء كان التحميل بواسطه ملك أو بتكليم بلا واسطه ملك فهى غير الكلام و إن حملت بكلام فإن الكلام أمر، و المعانى التى يتلقاها السامع منه أمر آخر.

و المراد بالكلام هو ما شافه به الله سبحانه من غير واسطه ملك و بعباره أخرى هو ما يكشف به عن مكنون الغيب، و اما أن يكون من نوع الكلام الدائر بيننا معاشر الإنسان فلا فإن الكلام عندنا هو أنا نصطلح و نتعهد فيما بيننا على تخصيص صوت مخصوص من الأصوات لمعنى من المعانى لينتقل ذهن السامع الى ذلك المعنى ثم نتوسل عند إرادته تفهيمه الى إيجاد تموج خاص فى الهواء يتدى منا و ينتهى الى السامع لننقل به ما فى ضميرنا الى ضمير السامع المخاطب و التكلم بهذا الوجه يستلزم التجسم فى المتكلم و الله سبحانه منزه عنه، و مجرد إيجاد الصوت و تمويج الهواء بإيجاد أسباب الصوت فى مكان لا يدل على كون المعانى التى ينتقل إليها الذهن مقصوده لله سبحانه ما لم تكشف الإرادة بأمر آخر وراء نفس الصوت كما أن من أوجد منا بدق أو ضرب أو نحوهما صوتا يدل على معنى لم نحكم بإرادته ذلك ما لم يكشف من حاله أو مقاله قبلا أنه قاصد لمعنى ما يوجد من الأصوات.

و ما كلم به الله سبحانه موسى عليه السلام مما حكاه القرآن الشريف خال عن سؤال الدليل عن كونه كلامه، و على كونه تعالى مريدا لمعناه فلم يسأل موسى ربه حين سمع النداء من جانب الطور الأيمن من الشجرة: هل هذا منك يا رب؟ و هل أنت مرید معناه؟ بل أيقن بذلك إيقانا، و نظير الكلام جار فى سائر أقسام الوحي غير الكلام.

و هذا يكشف كشافا قطعيا عن ارتباط خاص من السامع بإرادته مصدر الكلام و الوحي يوجب الانتقال الى المعنى المقصود و إلا فمجرد صدور صوت له معنى مفهوم فى اللغة منه تعالى لا يستلزم صحه الانتساب إليه تعالى و لا كونه كلامه كيف؟ و جميع الألفاظ الصادره من المتكلمين بما أنها أصوات تنتهى إليه تعالى و ليست كلاما له تعالى بل المتكلم بها غيره، و كثيرا ما يحدث من تصادم الأجسام المختلفه أصوات ذوات معان فى اللغة و لا نعهده كلاما له تعالى.

و بالجمله تكليمه تعالى هو إيجاد اتصالا و ارتباطا خاصا بين مخاطبه و بين الغيب ينتقل به

بمشاهده بعض مخلوقاته الى معنى مراد، و لا نمنع مقارنة ذلك بأصوات يوجدتها الله تعالى فى خارج أو سمع أو غير ذلك، و قد تقدم بعض الكلام فى الكلام فيما تقدم. و سيأتى منه تتمه فى تفسير سورة الشورى إن شاء الله تعالى.

و كيف كان فقوله تعالى: «قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ» الآية. و ارد فى مورد الامتان و موعظه لموسى عليه السلام أن يكتفى بما اصطفاه الله به من رسالاته و كلامه و يشكره و لا يستزيد.

قوله تعالى: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ» الآية؛ اللوح صحيفه معده للكتابة فيه لأنه يلوح و يظهر بما فيه من الخط و أصله من لاح البرق اذا لمع.

و قوله: «مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» من فيه للتبويض كما يؤيده السياق اللاحق، و قوله «مَوْعِظَةً» الظاهر أنه بيان لكل شىء، و يعطف عليه قوله: «وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ» و تنكير قوله: «تَفْصِيلًا» لإفاده الإبهام و التبويض، و يؤول المعنى الى مثل قولنا: و كتبنا لموسى فى الألواح و هى التوراه النازله مختارات من كل شىء و نعى بذلك أنا كتبنا له موعظه و تفصيلا ما و تشريحا ما لكل شىء حسب ما يحتاج إليها قومه فى الاعتقاد و العمل.

ففى الكلام دلالة على أن التوراه لم تستكمل جميع ما تمس به حاجه البشر من المعارف و الشرائع، و هو كذلك كما يدل عليه أيضا قوله تعالى بعد ذكر التوراه و الإنجيل: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَ مُهَيِّمًا عَلَيْهِ» (المائدة/٤٨)، و قد تقدم تفسيره.

قوله: «فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا عَطْفٌ تَفْرِيعٌ عَلَى قَوْلِهِ «وَ كَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ» الآية؛ لأنه مشعر بمعنى القول، و التقدير: و قلنا إنا كتبنا لك فى الألواح من كل شىء فخذها بقوه.

و الأخذ بالقوه كناية عن الأخذ بالجد و الحزم فإن من يجد و يحزم فى أمر يستعمل ما عنده

من القوه فيه حذرا أن يفوته فالأخذ بالقوه لازم الأخذ بالجد و الحزم كنى به عنه.

وقوله: «وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا أُخْدُوا بِأَحْسَنِهَا الظاهر أن الضمير في «بِأَحْسَنِهَا» راجع الى الأشياء المدلول عليها بقوله قبلا: «مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» من المواعظ و تفاصيل الآداب و الشرائع و الأخذ بالأحسن كناية عن ملازمه الحسن فى الامور و اتباعه و اختياره فإن من يهتم بأمر الحسن فى الامور اذا وجد سيئا و حسنا اختار الحسن الجميل، و اذا وجد حسنا و أحسن منه اضطره حب الجمال الى اختيار الأحسن و تقديمه عن الحسن فالأخذ بأحسن الامور لانزم حب الجمال و ملازمه الحسن فكنى به عنه، و المعنى: و أمر قومك يجتنبوا السيئات و يلازموا ما تهدى إليه التوراه من الحسنات، و نظير الآية فى التكنيه قوله تعالى: الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَالِدُونَ (الزمر ١٨).

وقوله: «سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ» ظاهر السياق أن المراد بهؤلاء الفاسقين هم الذين يفسقون بعدم ائتمار قوله: «وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا أُخْدُوا بِأَحْسَنِهَا» على ما تقدم من معناه من ملازمه طريق الإحسان فى الامور و اتباع الحق و الرشده فإن من فسق عن الطريق صرفه الله عن الصراط المستقيم الى تتبع السيئات و الميل عن الرشده الى الغى كما يفصله فى الآية التاليه فكانت عاقبه أمره خسرانا و آل أمره الى الهلاك.

و على هذا فما فى الآية التاليه: «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ» الآية؛ تفسير أو كالتفسير لقوله «سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ» و قيل المراد بدار الفاسقين جهنم، و فى الكلام تهديد و تحذير، و قيل المراد بها منازل فرعون و قومه بمصر، و قيل: منازل عاد و ثمود، و قيل المراد دار العمالقه و غيرهم بالشام و أن الله سيدخلهم فيها فيرونها، و قيل: المراد سيجيئكم قوم فساق تكون الدوله لهم عليكم.

قوله تعالى: «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ»

وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا الْآيَةَ؛ تقييد التكبر في الأرض بغير الحق مع أن التكبر فيها لا يكون إلا بغير الحق كتقييد البغى في الأرض بغير الحق للتوضيح لا للاحتراز و يراد به الدلالة على وجه الذم في العمل و أن التكبر كالبغى مذموم لكونه بغير الحق.

و أما ما قيل: إن القيد احترازي للدلالة على أن المراد هو التكبر المذموم دون التكبر الممدوح كالتكبر على أعداء الله و التكبر على المتكبر، و هو تكبر بالحق ففيه أن المذكور في الآية ليس مطلق التكبر بل التكبر في الأرض، و هو الاستعلاء على عباد الله و استدلالهم و التغلب عليهم، و هذا لا يكون إلا بغير الحق.

و قوله: وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا عطف على قوله: «يَتَكَبَّرُونَ» و بيان لأحد أوصافهم و هو الإصرار على الكفر و التكذيب.

و كذا قوله: وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا الْآيَةَ؛ و تكرار الجملتين المثبتة و المنفية بجميع خصوصياتهما للدلالة على اعتنائهم الشديد و مراقبتهم الدقيقه على مخالفه سبيل الرشد و اتباع سبيل الغي بحيث لا يعذرون بخطأ و لا يحتمل في حقهم جهل أو اشتباه.

و قوله: ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ تعليل لما تحقق فيهم من رذائل الصفات أى إنما جروا على ما جروا بسبب تكذيبهم لآياتنا و غفلتهم عنها، و من المحتمل أن يكون تعليلا لقوله تعالى: «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ» .

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ معنى الآية ظاهر و يتحصل منها:

أولاً: أن الجزاء هو نفس العمل و قد تقدم توضيحه كرارا في أبحاثنا السابقة.

و ثانياً: أن الحبط من الجزاء فإن الجزاء بالعمل و اذا كان العمل حابطا فإحباطه هو الجزاء، و الحبط إنما يتعلق بالأعمال التي فيها جهه حسن فتكون نتيجة إحباط الحسنات ممن له

حسنت و سيئات أن يجزى بسيئاته جزء سيئا و يجزى بحسناته بإحباطها فيتمحض له الجزء السيئ.

و يمكن أن تنزل الآية على معنى آخر و هو أن يكون المراد بالجزاء،الجزاء الحسن و قوله «هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» كناية عن أنهم لا يثابون بشيء اذ لا عمل من الأعمال الصالحة عندهم لمكان الحبط قال تعالى: وَ قَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا (الفرقان ٢٣/)،و الدليل على كون المراد بالجزاء هو الثواب أن هذا الجزء هو جزء الأعمال المذكوره فى الآية قبلا،و المراد بها بقرينه ذكر الحبط هى الأعمال الصالحه.

قوله تعالى: وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ،الحلى على فعول جمع حلى كالثدى جمع ثدى،و هو ما يتحلى و يتزين به من ذهب أو فضه أو نحوهما،و العجل ولد البقره،و الخوار صوت البقره خاصه،و فى قوله تعالى: «جَسَدًا لَهُ خُورٌ» -و هو بيان للعجل-دلاله على أنه كان غير ذى حياه و إنما وجدوا عنده خوارا كخوار البقر.

و الآية و ما بعده تذكر قصه عباده بنى إسرائيل العجل بعد ما ذهب موسى الى ميقات ربه و استبطنوا رجوعه إليهم،فكادهم السامرى و أخذ من حليهم فصاغ لهم عجلا- من ذهب له خوار كخوار العجل و ذكر لهم أنه إليهم و إله موسى فسجدوا له و اتخذوه إلهاء،و قد فصل الله سبحانه القصة فى سوره طه تفصيلا،و الذى ذكره فى هذه الآيات من هذه السوره لا يستغنى عما هناك،و هو يؤيد نزول سوره طه قبل سوره الأعراف.

و كيف كان فقوله: «وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا» معناه اتخذ قوم موسى من بعد ذهابه لميقات ربه قبل أن يرجع فإنه سيدكر رجوعه إليهم غضبان-عجلا فعبدوه، و كان هذا العجل الذى اتخذوه «جَسَدًا لَهُ خُورٌ» ثم ذمهم الله سبحانه بأنهم لم يعبتوا بما هو ظاهر جلى بين عند العقل فى أول نظرتة أنه لو كان هو الله سبحانه لكلمهم و لهداهم السبيل

فقال تعالى: «أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا» .

و إنما ذكر من صفاته المنافية للالوهيه عدم تكليمه إياهم و عدم هدايته لهم و سكت عن سائر ما فيه كالجسميه و كونه مصنوعا و محدودا ذا مكان و زمان و شكل الى غير ذلك مع أن الجميع ينافى الالوهيه لأن هاتين الصفتين أعنى التكليم و الهدايه من أوضح ما تستلزمه الالوهيه من الصفات عند من يتخذ شيئا إلها اذ من الواجب أن يعبد به بما يرتضيه و يسلك إليه من طريق يوصل إليه، و لا- يعلم ذلك إلا- من قبل الإله بوجه فهو الذى يجب أن يهديه الى طريق عبادته بنوع من التكليم و التفهيم، و قد رأوا أنه لا يكلمهم و لا يهديهم سبيلا.

على أنهم عهدوا من موسى أن الله سبحانه يكلمه و يهديه، و يكلمهم و يهديهم بواسطته، و قد قالوا حين أخرج السامرى لهم العجل: هَذَا إِلَهُكُمْ وَ إِلَهُ مُوسَى (طه ٨٨)، فلو كان العجل هو الذى أوماً إليه السامرى لكلمهم و هداهم سبيلا.

و بالجمله فقد كان من الواضح البين عند عقولهم لو عقلوا أنه ليس هو، و لذلك أردفه بقوله: «اتَّخَذُوهُ وَ كَانُوا ظَالِمِينَ» . كأنه قيل: فلم اتخذوه و أمره بذاك الواضح، فقيل: «اتَّخَذُوهُ وَ كَانُوا ظَالِمِينَ» .

قوله تعالى: وَ لَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قال فى المجمع: معنى «سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ» وقع البلاء فى أيديهم أى وجدوه وجدان من يده فيه يقال ذلك للنادم عند ما يجده مما كان خفى عليه، و يقال: سقط فى يده، و أسقط فى يده و بغير ألف أفصح، و قيل: معناه صار الذى يضر به ملقى فى يده انتهى.

قوله تعالى: وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضًّا بِأَن أَسِئَمَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الأسف بكسر السين صفه مشبهه من الأسف و هو شدة الغضب و الحزن و الخلافه القيام بالأمر بعد غيره، و العجله طلب الشىء و تحريره قبل أوانه على ما ذكره الراغب يقال: عجلت أمرا كذا أى طلبته قبل أوانه الذى له بحسب الطبع فمعنى الآية: و لما رجع موسى الى قومه و هو فى حال

غضب و أسف لما أخبره الله تعالى لدى الرجوع بأن قومه ضلوا بعباده العجل بعده فوبخهم و ذمهم بما صنعوا و قال:بئسما خلفتموني من بعدى أعجلتم أمر ربكم و طلبتموه قبل بلوغ أجله،و هو أمر من بيده خيركم و صلاحكم و لا يجرى أمرا إلا على ما يقتضيه حكمته البالغه، و لا يؤثر فيه عجله غيره و لا طلبه و لا رضاه إلا بما شاء،و الظاهر أن المراد بأمر ربهم أمره الذى لأجله واعد موسى لميقاته،و هو نزول التوراه.

قوله تعالى: **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِإِخِي وَ أَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ الْآيَةَ**؛دعاء منه عليه السّلام و قد تقدم فى الكلام على المغفره فى آخر الجزء السادس من الكتاب أن المغفره أعم موردا من المعصيه.

قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَّهُمْ عَصَبٌ مِنْ رَبِّهِمُ الْآيَةَ**؛ تنكير الغضب و كذا الذله للإشعار بعظمتها و قد أبهم الله سبحانه ما سينالهم من غضبه و ذله الحياه فلم يبين ما هما فمن المحتمل أن تكون الإشاره بذلك الى ما جرى عليهم بعد ذلك من تحريق العجل المعبود و نسفه فى اليم نسفا و طرد السامرى و قتل جمع منهم،أو أن يكون المراد به ما ضرب الله على قومهم من الذله و المسكنه و القتل و الإباده و الإساره،و يمكن أن يكون المراد بالغضب هو عذاب الآخره فيجمع لهم بذلك هوان الآخره و ذله الدنيا.

و كيف كان فذيل الآيه: **«وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ»** بظاهره يدل على أن ذلك أعنى نيل غضب الرب سبحانه و ذله الحياه الدنيا سنه جاريه إلهيه فى المفتريين على الله و هذا الذى يدل عليه الآيه يهدى إليه الأبحاث العقليه أيضا كما مر مرارا.

قوله تعالى: **وَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** ضمير «مِنْ بَعْدِهَا» الأول راجع الى السيئات،و الثانى الى التوبه،و معنى الآيه ظاهر.

و الآيه و إن كانت فى نفسها عامه لكنها بالنظر الى المورد بمنزله الاستثناء من الذين اتخذوا

العجل المذكورين في الآيه السابقه فالتوبه اذا تحققت بحقيقه معناها في آيه سيئا كانت لم يمنع من قبولها مانع كما تقدم في تفسير قوله تعالى: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ الْآيَةَ (النساء ١٧).

و هذه الآيه و التي قبلها معترضتان في القصة، و وجه الخطاب فيهما الى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و الدليل على ذلك قوله في الآيه الاولى: «وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ» و في الآيه الثانيه: «إِنَّ رَبَّكَ» الآيه و ظاهر السياق أن الكلام فيهما جار على حكاية الحال الماضيه بدليل قوله «سَيُنَالُهُمْ غَضَبٌ» .

قوله تعالى: وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ الْآيَةَ؛ الرهبه هي خوف مع تحرز: و الباقي ظاهر (١)(٢).

[سوره الاعراف (٧): الآيات ١٥٥ الى ١٦٠]

اشاره

وَ اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَ إِيَّايَ أَ تَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الشُّرَكَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنِ شَاءَ وَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَ أُكْتُبُ لَنَا فِي هَذِهِ الْأَلْيَامِ حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَا أُمَّهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَ يَحْرِمُ عَلَيْهِمُ الْحَبَائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِمَاتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) وَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعدِلُونَ (١٥٩) وَ قَطَعْنَا هُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَ ظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ مَا ظَلَمُونَا وَ لَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠)

ص: ٥٧٣

١-١. الاعراف ١٣٨-١٥٤: بحث روائي في: ميقات موسى عليه السلام؛ مسأله رويه الله؛ تجلي سبحانه للجبل.

٢-٢. الاعراف ١٣٨-١٥٤: بحث روائي في: الرؤيا القلبيه؛ معرفه الله سبحانه.

قوله تعالى: وَ اخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا أُو۟ىٰ اٰخْتَارَ مِنْ قَوْمِهِ

و الآيه تدل على أن الله سبحانه عين لهم ميقاتا فحضره منهم سبعون رجلا اختارهم موسى من القوم، و لا يكون ذلك إلا لأمر ما عظيم لكن الله سبحانه لم يبين هاهنا ما هو الغايه المقصوده من حضورهم غير أنه ذكر أنهم أخذتهم الرجفه و لم تأخذهم إلا لظلم عظيم ارتكبوه حتى أدى بهم الى الهلاك بدليل قول موسى عليه السلام: «رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَ إِيَّايَ أَ تَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا» فيظهر من هنا أن الرجفه أهلكتهم.

و يتأيد بذلك أن هذه القصة هي التي يشير سبحانه إليها بقوله: وَ إِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (البقره ١٥٦)، و بقوله: يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ (النساء ١٥٣).

و من ذلك يظهر أن المراد بالرجفه التي أخذتهم في الميقات رجفه الصاعقه لا رجفه في أبدانهم كما احتمله بعض المفسرين و لا- ضير في ذلك فقد تقدم نظير التعبير في قصه قوم صالح حيث قال تعالى: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ (الأعراف ٧٨)، و قال فيهم: فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ (حم السجده ١٧).

و في آيه النساء المنقوله آنفا إشعار بأن سؤالهم الرؤيه كان مربوطا بنزول الكتاب و أن اتخاذ العجل كان بعد ذلك فكأنهم حضروا الميقات لنزول التوراه، و أنهم إنما سألوا الرؤيه ليكونوا على يقين من كونها كتابا سماويا نازلا من عند الله، و يؤيد ذلك ان الظاهر أن هؤلاء المختارين كانوا مؤمنين بأصل دعوه موسى، و إنما أرادوا بقولهم: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً تعليق إيمانهم به من جهه نزول التوراه عليه على الرؤيه.

و بهذا كله يتأيد أن هذه القصة جزء من قصه الميقات و نزول التوراه، و أن موسى عليه السلام لما

أراد الحضور لميقات ربه و نزول التوراه اختار هؤلاء السبعين فذهبوا معه الى الطور و لم يقنعوا بتكليم الله كليمه، و سألوا الرؤيه فأخذتهم الصاعقه فماتوا ثم أحياهم الله بدعوه موسى، ثم كلم الله موسى و سأل الرؤيه و كان ما كان، و مما كان اتخاذ بنى إسرائيل العجل بعد غيبتهم و ذهابهم لميقات الله، و قد وقع هذا المعنى فى بعض الأخبار المأثوره عن أئمه أهل البيت عليهم السلام كما سيجىء إن شاء الله.

و على أى حال العنايه فى هذه القصة ببيان ظلمهم و نزول العذاب عليهم و دعاء موسى لهم لا بيان كون هذه القصة جزءا من القصة السابقه لو كان جزءا، و لا مغايرتها لها لو كانت مغايره فلا دلالة فى اللفظ تنبه على شىء من ذلك.

و أما قوله: بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ و قد كان الصادر منهم قولاً لا فعلاً فالوجه فى ذلك أن المؤاخذه إنما هو على المعصيه، و المعصيه تعد عملاً و فعلاً- و إن كانت من قبيل الأقوال كما قال تعالى: إِنَّهَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (التحریم ٧)، فإنه شامل لقول كلمه الكفر و الكذب و الافتراء و نحو ذلك بلا ريب، و الظاهر أنهم عذبوا بما كان يستلزمه قولهم من سوء الأدب و العناد و الاستهانه بمقام ربهم.

على أن ظاهر تلك الأقوال جميعاً أنهم إنما عذبوا بالرجفه قبال ما قالوه دون ما فعلوه فالإشكال على تقدير وروده مشترك بين جميع الأقوال فالأقرب كون القصة جزءاً من سابقتها كما تقدم.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَ إِيَّائِى - الى قوله- مَنْ تَشَاءُ يريد عليه السلام بذلك أن يسأل ربه أن يحييهم خوفاً من أن يتهمه بنو إسرائيل فيخرجوا به عن الدين، و يبطل بذلك دعوته من أصلها فهذا هو الذى يبتغيه غير أن المقام و الحال يمنعانه من ذلك فهذا هو عليه السلام واقع أمام معصيه موبقه من قومه صرعتهم و غضب إلهى شديد أحاط بهم حتى أهلكهم.

و لذلك أخذ يمهد الكلام رويدا و يسترحم ربه بجمل من الشاء حتى يهيج الرحمه على الغضب، و يثير الحنان و الرأفه الإلهيه ثم يتخلص الى مسألته و ذكر حاجته فى جو خال من موانع الإجابه.

«قَالَ» مبتدئا باسم الربوبيه المهيجه للرحمه: «رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ» فالأمر الى مشيتك، و لو أهلكتهم من قبل «وَ إِيَّايَ» لم يتجه من قومى الى تهمة فى هلا-كهم، ثم ذكر أنه ليس من شأن رحمة و سنه ربوبيته أن يؤاخذ قوما بفعل سفاهتهم فقال فى صورته الاستفهام تأدبا «أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الشُّفَهَاءُ مِنَّا»؟ ثم أكد القول بقوله: «إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ» و امتحانك «تُضِلُّ بِهَا» أى بالفتنه «مَنْ تَشَاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ» أى أن هذا المورد أحد موارد امتحانك و ابتلائك العام الذى تبتلى به عبادك و تجريه عليهم ليضل من ضل و يهتدى من اهتدى، و ليس من سنتك أن تهلك كل من افتتن بفتنتك فانحرف عن سوى صراطك.

و بالجمله أنت الذى سبقت رحمتك غضبك ليس من دأبك أن تستعجل المسيئين من عبادك بالعقوبه أو تعاقبهم بما فعل سفاؤهم، و أنت الذى أرسلتنى الى قومى و وعدتنى أن تنصرنى فى نجاح دعوتى، و هلاك هؤلاء المصعوقين يجلب على التهمه من قومى.

قوله تعالى: أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الغَافِرِينَ شروع منه عليه السلام فى الدعاء بعد ما قدمه من الشاء، و بدأه بقوله: «أَنْتَ وَلِيْنَا» و ختمه بقوله: «وَ أَنْتَ خَيْرُ الغَافِرِينَ» ليقع ما يسأله بين صفتى ولايه الله الخاصه به، و مغفرته التى هى خير مغفره ثم سأل حاجته بقوله: «فَاعْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا» لأنه خير حاجه يرتضى الله من عباده أن يسألوها عنه، و لم يصرح بخصوص حاجته التى بعثته الى الدعاء، و هى إحياء السبعين الذين أهلكهم الله تذلا و استحياء.

و حاجه هذه مندرجه فى قوله: «فَاعْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا» لا محاله فإن الله سبحانه يذكر فى آيه سوره البقره أنه بعثهم بعد موتهم، و لم يكن ليحييهم بعد ما أهلكهم إلا بشفاعه موسى عليه السلام و لم

يذكر من دعائه المرتبط بحالهم إلا هذا الدعاء فهو إنما سأله ذلك تلويحاً بقوله «فَاغْفِرْ لَنَا» الخ؛ كما تقدم لا تصريحاً.

قوله تعالى: «وَ اكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ أَي رَجَعْنَا إِلَيْكَ مِنْ هَادٍ يَهُودٍ إِذَا رَجَعُ، وَ هُوَ أَعْنَى قَوْلِهِ: «إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ» تعليل لهذا الفصل من الدعاء سأل فيه أن يكتب الله أى يقضى لهم بحسنه فى الدنيا و حسنه فى الآخرة و المراد بالحسنه لا محاله الحياه و العيشه الحسنه فإن الرجوع إلى الله أى سلوك طريقته و التزام سبيل فطرته يهدى الإنسان الى حياه طيبه و عيشه حسنه فى الدنيا و الآخرة جميعاً، و هذا هو الوجه فيما ذكرنا أن قوله: «إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ» تعليل لهذا الفصل من دعائه فإن الحياه الطيبه من آثار الرجوع إلى الله، و هى شىء من شأنه أن يرزقوه-لو رزقوا- فى مستقبل أمرهم، و هو المناسب للكتابه و القضاء، و أما الفصل الأول من الدعاء أعنى قوله: «فَاغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا» الخ؛ فتكفى فى تعليقه الجمل السابقه عليه، و ما احتف به من قوله: «أَنْتَ وَ لِيْنَا» و قوله: «وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ» و لا يتعلق بقوله: «إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ» فافهم ذلك.

قوله تعالى: «قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ هَذَا جَوَابٌ مِنْهُ سَبْحَانَهُ لِمُوسَى، وَ فِيهِ مُحَاذَاهُ لِمَا قَدَّمَهُ مُوسَى قَبْلَ مَسْأَلَتِهِ مِنْ قَوْلِهِ: «رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِنِّي أَى»، وَ قَدْ قَيَّدَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ إِصَابَهُ عَذَابِهِ بِقَوْلِهِ: «مَنْ أَشَاءُ» دُونَ سَعَةِ رَحْمَتِهِ لِأَنَّ الْعَذَابَ إِنَّمَا يَنْشَأُ مِنْ اقْتِضَاءِ مَنْ قَبْلَ الْمَعْدِيِّينَ لَا مِنْ قَبْلِهِ سَبْحَانَهُ، قَالَ تَعَالَى مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ (النساء ١٤٧) وَ قَالَ: لَيْسَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَيْسَ كَفَرْتُمْ إِنْ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (إبراهيم ٧) فَلَا يَعَذَّبُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِاقْتِضَاءِ مَنْ رَبُّوِيَّتِهِ وَ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَعَذَّبَ كُلَّ أَحَدٍ بَلْ إِنَّمَا يَعَذَّبُ بَعْضَ مَنْ تَعَلَّقَتْ بِهِ مَشِيَّتُهُ فَلَا تَتَعَلَّقُ مَشِيَّتُهُ إِلَّا بِعَذَابٍ مِنْ كَفَرُوا نَعْمَهُ فَالْعَذَابُ إِنَّمَا هُوَ بِاقْتِضَاءِ مَنْ قَبْلَ الْمَعْدِيِّينَ لِكُفْرِهِمْ لَا مِنْ قَبْلِهِ.

على أن كلامه سبحانه يعطى أن العذاب إنما حقيقته فقدان الرحمه، و النقمه عدم بذل

النعمه، و لا- يتحقق ذلك إلا- لعدم استعداد المعذب بواسطه الكفران و الذنب لإفاضه النعمه عليه و شمول الرحمه له، فسبب العذاب فى الحقيقه عدم وجود سبب الرحمه.

و أما سعه الرحمه و إفاضه النعمه فمن المعلوم أنه من مقتضيات الالهيه و لوازم صفه الربوبيه فما من موجود مخلوق إلا و وجود نعمه لنفسه و لكثير ممن دونه لارتباط أجزاء الخلقه، و كل ما عنده من خير أو شر نعمه إما لنفسه و لغيره كالكفه و الثروه و غيرهما التى يستفيد منها الإنسان و غيره، و إما لغيره اذا كان نغمه بالنسبه إليه كالعاهات و الآفات و البلايا يستضر بها شىء و ينتفع أشياء و على هذا فالرحمه الإلهيه واسعه كل شىء فعلا لا شأنًا، و لا يختص بمؤمن و لا كافر و لا ذى شعور و لا غيره و لا دنيا و لا آخره، و المشيئه لازمه لها.

نعم تحقق العذاب و النقمه فى بعض الموارد- و هو معنى قياسى- يوجب أن يتحقق هناك رحمه تقابلها و تقاس إليها فإن حرمان البعض من النعمه التى أنعم الله بها على بعض آخر اذا كان عذابا كان ما يجده البعض الآخر رحمه تقابل هذا العذاب، و كذا نزول ما يتألم به و يؤذى على بعض كالعقوبات الدنيويه و الأخرويّه اذا كان عذابا كان الأمن و السلامه التى يجدها البعض الآخر رحمه بالنسبه إليه و تقابله، و إن كانت الرحمه المطلقه بالمعنى الذى تقدم بيانه بشملها جميعا.

فهناك رحمه إلهيه عامه يتنعم بها المؤمن و الكافر و البرّ و الفاجر و ذو الشعور و غير ذى الشعور فيوجدون بها و يرزقون بها فى أول وجودهم ثم فى مسيره الوجود ما داموا سالكين سبيل البقاء، و رحمه إلهيه خاصه و هى العطيّه الهنيئه التى وجود بها الله سبحانه فى مقابل الإيمان و العبوديه، و تختص لا محاله بالمؤمنين الصالحين من عباده من حياه طيبه نورانيه فى الدنيا، و جنه و رضوان فى الآخره و لا نصيب فيها للكافرين و المجرمين، و يقابل الرحمه الخاصه عذاب و هو اللاملثم الذى يصيب الكافرين و المجرمين من جهه كفرهم و جرمهم فى الدنيا كعذاب الاستئصال و المعيشه الضنك و فى الآخره من النار و آلامها، و لا يقابل الرحمه العامه شىء من

العذاب اذ كل ما يصدق عليه اسم شىء فهو من مصاديق الرحمة العامه لنفسه أو لغيره، وكونه رحمه هي المقصوده فى الخلقه، و ليس وراء الشىء شىء.

إذا تحقق هذا تبين أن قوله تعالى: «عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ» بيان لخصوص العذاب و عموم الرحمه، و إنما قابل بين العذاب و الرحمة العامه مع عدم تقابلهما لأن ذكر الرحمة العامه توطئه و تمهيد لما سيذكره من صيرورتها رحمه خاصه فى حق المتقين من المؤمنين.

و قد اتضح بما تقدم أن سعه الرحمة ليست سعه شأئيه و أن قوله: «و رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ» ليس مقيدا بالمشيئه المقدره بل من لوازم سعه الرحمة الفعلية كما تقدم، و ذلك لأن الظاهر من الآيه أن المراد بالرحمة العامه و هي تسع كل شىء بالفعل و قد شاء الله ذلك فلزمتها فلا محل لتقدير «إن شئت» خلافا لظاهر كلام جمع من المفسرين.

قوله تعالى: «فَسَأَلْتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» تفريع على قوله: «عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَ رَحْمَتِي» الآيه؛ أى لازم و جوب إصابه العذاب بعض الناس و سعه الرحمة لكل شىء أن أوجب الرحمة على البعض الباقي، و هم الذين يتقون و يؤتون الزكاه الآيه.

و قد ذكر سبحانه الذين تنالهم الرحمة بأوصاف عامه و هي التقوى و إيتاء الزكاه و الإيمان بآيات الله من غير أن يقتديهم بما يخص قومه كقولنا: للذين يتقون منكم و نحو ذلك لأن ذلك مقتضى عموم البيان فى قوله: «عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ» الآيه و البيان العام ينتج نتيجة عامه.

و اذا قوبلت مسأله موسى بالآيه كانت الآيه بمنزله المقيده لها فإنه عليه السلام سأل الحسنه و الرحمة لقومه ثم عللها بقوله: «إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ» فكان معنى ذلك مسأله الرحمة لكل من هاد و رجع منهم بأن يكتب الله حسنه الدنيا و الآخرة لمجرد هودهم و عودهم إليه فكان فيما أجابه

اللّٰه به أنه سيكتب رحمته للذين آمنوا و اتقوا فكانه قال: اكتب رحمتك لمن هاد إليك منا، فأجابه الله أن سأكتب رحمتي لمن هاد و اتقى و آمن بآياتي فكان في ذلك تقييد لمسأله.

و لا ضير في ذلك فإنه سبحانه هو الهادي لأنبيائه و رسله المعلم لهم يعلم كلمه أن يقيد مسأله بالتقوى و هو الورع عن محارمه و بالإيمان بآياته و هو التسليم لأنبيائه و للأحكام النازله إليهم، و لا يطلق اليهود و هو الرجوع الى الله بالإيمان به، فهذا تصرف في دعاء موسى بتقييده كما تصرف تعالى في دعاء إبراهيم بالتقييد في قوله: قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (البقره ١٢٤/)، و بالتعميم و الإطلاق في قوله فيما يحكى من دعائه لأهل مكه: وَ ارزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَ بئسَ المصيرُ (البقره ١٢٦/)، فقد تبين أولا أن الآيه تتضمن استجابته تعالى لدعاء موسى: «وَ اكتب لنا في هذه الدنيا حسنة و في الآخرة» بتقييد ما له فمن العجيب ما ذكره بعضهم: أن الآيه بسياقها تدل على أن الله سبحانه رد دعوه موسى و لم يستجبها، و كذا قول بعضهم: إن موسى عليه السلام دعا لقومه فاستجاب الله في حق أمه محمد صلى الله عليه و آله و سلم بناء على بيانيه قوله: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ» الآيه؛ لقوله: «الَّذِينَ يَتَّقُونَ» الآيه و سيجىء.

و ثانيا: أنه تعالى استجاب ما اشتمل عليه الفصل الأول من دعائه فإنه تعالى لم يرده، و حاشا أن يحكى الله في كلامه دعاء لاغيا غير مستجاب، و قوله: «فَسَأَلْتُهَا لِلَّذِينَ» الآيه فإنه يحاذى ما سأله عليه السلام من الحسنه المستمره الباقية في الدنيا و الآخرة لقومه، و أما طلب المغفره لذنب دفعى صدر عنهم بقولهم: «أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً» فلا يحاذيه قوله: «فَسَأَلْتُهَا» الآيه؛ بوجه، فسكوته تعالى عن رد دعوته دليل إجابتها كما في سائر الموارد التى تشابهه فى القرآن.

و يلوّح الى استجابته دعوته لهم بالمغفره قوله فى القصة فى موضع آخر: ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ

بَعْدَ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (البقره ٥٦) فمن البعيد المستبعد أن يحييهم الله بعد إهلاكهم و لم يغفر لهم ذنبهم الذي أهلکوا به.

و على أى حال معنى الآيه «فَسَأَكْتُبُهَا» أى سأكتب رحمتى و أقضيها و أوجبها استعيرت الكتابه للإيجاب لأن الكتابه أثبت و أحكم «لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ» و يجتنبون المعاصى و ترك الواجبات «وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ» و هى الحق المالى أو مطلق الإنفاق فى سبيل الله الذى ينمو به المال، و يصلح به مفسد الاجتماع، و يتم به نواقصه، و ربما قيل: إن المراد بها زكاه النفس و طهارتها، و إيتاء الزكاه إصلاح أخلاق النفس. و ليس بشىء.

«وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» أى يسلمون لما جاءتهم من عند الله من الآيات و العلامات سواء كانت آيات معجزه كمعجزات موسى و عيسى و محمد عليه السلام و عليهم، أو أحكاما سماويه كشرائع موسى و أوامره و شرائع غيره من الأنبياء، أو الأنبياء أنفسهم أو علامات صدق الأنبياء كعلائم محمد صلى الله عليه و آله و سلم التى ذكرها الله تعالى لهم فى كتاب موسى و عيسى عليهما السلام فكل ذلك آيات له تعالى يجب عليهم و على غيرهم أن يؤمنوا بها و يسلموا لها، و لا يكذبوا بها.

و فى الآيه التفات من سياق التكلم مع الغير الى الغيبه فإنه قال أولا: «وَ اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا». ثم قال: «قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ» الآيه و كأن النكته فيه إظهار ماله سبحانه من العناية الخاصه باستجابته دعاء الداعين من عباده فيقبل عليهم هو تعالى من غير أن يشاركه فيه غيره و لو بالتوسط فإن التكلم بلفظ المتكلم مع الغير لإظهار العظمه لمكان أن العظماء يتكلمون عنهم و عن أتباعهم فإذا أريد إظهار عناية خاصه بالمخاطب أو بالخطاب تكلم بلفظ المتكلم وحده.

و على هذا جرى كلامه تعالى فاختر سياق المتكلم وحده المناسب المناجاه و المسارّه فيما حكى من أدعيه أنبيائه و أوليائه و استجابته لهم فى كلامه كأدعيه نوح و إبراهيم و دعاء موسى ليله الطور، و أدعيه سائر الصالحين و استجابته لهم، و لم يعدل عن سياق المتكلم وحده إلا

و أما قوله: «وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» و ما فيه من العدول من التكلم وحده-السياق السابق-الى التكلم مع الغير فالظاهر أن النكته فيه إيجاد الاتصال بين هذه الآيه و الآيه التاليه التى هى نوع من البيان لهذه الجملة أعنى قوله: «وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» فإن الآيه التاليه -كما سيجىء-بمتمزله المعترضه من النتيجة المأخوذه فى ضمن الكلام الجارى،و سياقها سياق خارج عن سياق هذه القطعه المتعرضه للمشافهه و المناجاه بين موسى و بينه تعالى راجع الى السياق الأصلى السابق الذى هو سياق المتكلم مع الغير.

فبتبديل «و الذين هم بآياتى يؤمنون» الى قوله: «وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» يتصل الآيه التاليه بسابقتها فى السياق بنحو لطيف فافهم ذلك و تدبر فيه فإنه من عجب السياقات القرآنيه.

قوله تعالى: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ -الى قوله- كَانَتْ عَلَيْهِمْ. قال الراغب فى المفردات:

الإصر عقد الشىء و حبسه بقهره يقال:أصرته فهو مأصور،و المأصر و المأصر-بفتح الصاد و كسرهما-محبس السفينه،قال تعالى:و يضع عنهم إصرهم أى الأمور التى تثبطهم و تقيدهم عن الخيرات،و عن الوصول الى الثوابات،و على ذلك:و لا- تحمل علينا إصرا،و قيل ثقلا و تحقيقه ما ذكرت.(انتهى)و الأغلال جمع غل و هو ما يقيد به.

و قوله: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ» الآيه بحسب ظاهر السياق بيان لقوله «وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» و يؤيده ما هو ظاهر الآيه أن كونه صلى الله عليه و آله و سلم رسولا نبيا أميا و يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر،و يحل لهم الطيبات و يحرم عليهم الخبائث،و يضع عنهم إصرهم و الأغلال التى كانت عليهم كل ذلك من أمارات النبوه الخاتميه و آياتها المذكوره لهم فى التوراه و الإنجيل فمن الإيمان بآيات الله الذى شرطه الله تعالى لهم فى كلامه:أن يؤمنوا بالآيات المذكوره لهم أمارات لنبوه محمد صلى الله عليه و آله و سلم.

غير أن من المسلم الذي لا- مريه فيه أن الرحمه التي وعد الله كتابته لليهود بشرط التقوى و الإيمان بآيات الله ليست بحيث تختص بالذين آمنوا منهم بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و يحرم عنها صالحو بني إسرائيل من لدن أجاب الله دعوه موسى عليه السلام الى أن بعث الله محمدا صلى الله عليه و آله و سلم فآمن به شرذمه قليله من اليهود، فإن ذلك مما لا ينبغي توهمه أصلا. فبين موسى و عيسى عليهما السلام، و كذا بعد عيسى عليه السلام ممن آمن به من بني إسرائيل جم غفير من المؤمنين الذين آمنوا بالدعوه الإلهيه فقبل الله منهم إيمانهم و وعدهم بالخير، و الكلام الإلهي بذلك ناطق فكيف يمكن أن تقصر الرحمه الإلهيه المبسوطه على بني إسرائيل في جماعه قليله منهم آمنوا بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم.

فقله: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ» الآية؛ و إن كان بيانا لقله: «وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» إلا- أنه ليس بيانا مساويا في السعه و الضيق لمبيته بل بيان مستخرج من مبيته انترع منه، و خص بالذكر ليستفاد منه فيما هو الغرض من سوق الكلام، و هو بيان حقيقه الدعوه المحمديه، و لزوم إجابته لها و تلبيتهم لداعيها.

و لذلك في القرآن الكريم نظائر من حيث التضييق و التوسعه في البيان كما قال تعالى حاكيا عن إبليس: «فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» الآية؛ ثم قال في موضع آخر حاكيا عنه لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ وَ لَأَمْلِيَنَّهُمْ وَ لَأَمُرَّنَّهُمْ فَلْيَلَيَّتْكُنَّ أَذَانَ الْأُنْعَامِ وَ لَأَمُرَّنَّهُمْ فَلْيَغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ (النساء ١١٩) فإن القول الثاني المحكى عن إبليس مستخرج من عموم قوله المحكى أولا: لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ .

و قال تعالى في أول هذه السوره: وَ لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ - الى أن قال- يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ الْآيَه؛ و قد تقدم أن ذلك من قبيل استخراج الخطاب من الخطاب لغرض التعميم الى غير ذلك من النظائر.

فيؤول معنى بيانيه قلله: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ» الى استخراج بيان من بيان للتطبيق على مورد الحاجه كأنه قيل: فإذا كان المكتوب من رحمه الله لبني إسرائيل قد كتب للذين

يتقون و يؤتون الزكاه و الذين هم بآياتنا يؤمنون فمصداقه اليوم-يوم بعث محمد صَلَّى الله عليه و آله و سلم-هم الذين يتبعونه من بنى إسرائيل لأنهم الذين اتقوا و أتوا الزكاه و هم الذين آمنوا بآياتنا فإنهم آمنوا بموسى و عيسى و محمد صَلَّى الله عليه و آله و سلم و هم آياتنا، و آمنوا بمعجزات هؤلاء الرسل و ما نزل عليهم من الشرائع و الأحكام و هى آياتنا، و آمنوا بما ذكرنا لهم فى التوراه و الإنجيل من أمارات نبوه محمد صَلَّى الله عليه و آله و سلم و علامات ظهوره و دعوته، و هى آياتنا.

ثم قوله: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ» الآية أخذ فيه «يَتَّبِعُونَ» موضع يؤمنون، و هو من أحسن التعبير لأن الإيمان بآيات الله سبحانه كأنيائه و شرائعهم إنما هو بالتسليم و الطاعه فاختر لفظ الاتباع للدلاله على أن الإيمان بمعنى الاعتقاد المجرد لا يغنى شيئاً فإن ترك التسليم و الطاعه عملاً تكذيب بآيات الله و إن كان هناك اعتقاد بأنه حق.

و ذكره صَلَّى الله عليه و آله و سلم بهذه الأوصاف الثلاث: الرسول النبى الامى، و لم يجتمع له فى موضع من كلامه تعالى إلا فى هذه الآية و الآية التاليه، مع قوله تعالى بعده: «الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ» تدل على أنه صَلَّى الله عليه و آله و سلم كان مذكوراً فيهما معرّفًا بهذه الأوصاف الثلاث.

و لو لا أن الغرض من توصيفه بهذه الثلاث هو تعريفه بما كانوا يعرفونه به من النعوت المذكوره له فى كتابيهم لما كانت لذكر الثلاث «الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ» و خاصه الصفه الثالثه نكته ظاهره.

و كذلك ظاهر الآية يدل أو يشعر بأن قوله: يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر الى آخر الامور الخمسه التى وصفه صَلَّى الله عليه و آله و سلم بها فى الآية من علائمه المذكوره فى الكتابين، و هى مع ذلك من مختصات النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم و سلم بها فى الآية من علائمه المذكوره فى الكتابين، و هى مع ذلك من مختصات النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم و ملته البيضاء فإن الأمم الصالحه و إن كانوا يقومون بوظيفه الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر كما ذكره تعالى من أهل الكتاب فى قوله: لَيْسُوا سِوَاءٍ مِنْ أَهْلِ

الْكِتَابِ أُمَّةً قَائِمَةً - إِلَى أَنْ قَالَ - وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (آل عمران ١١٤).

و كذلك تحليل الطيبات و تحريم الخبائث فى الجملة من جملة الفطريات التى أجمع عليها الأديان الإلهيه، و قد قال تعالى: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ (الأعراف ٣٢).

و كذلك وضع الإصر و الأغلال و إن كان مما يوجد فى الجملة فى شريعته عيسى عليه السلام كما يدل عليه قوله فيما حكى الله عنه فى القرآن الكريم: وَ مَصِّدَقًا لِلَّهِ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَ لِأَحْلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ (آل عمران ٥٠) و يشعر به قوله خطابا لبني إسرائيل: قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ (الزخرف ٦٣).

إلا أنه لا يرتاب ذو ريب فى أن الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه و آله و سلم بكتاب من عند الله مصدق لما بين يديه من الكتب السماويه - هو دين الإسلام - هو الدين الوحيد الذى نفخ فى جثمان الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر كل ما يسعه من روح الحياه، و بلغ به من حد الدعوه الخاليه الى درجه الجهاد فى سبيل الله بالأموال و النفوس، و هو الدين الوحيد الذى أحصى جميع ما يتعلق به حياه الإنسان من الشئون و الأعمال ثم قسمها الى طيبات فأحلها، و الى خبائث فحرمها، و لا يعادله فى تفصيل القوانين المشرعه أى شريعته دينيه و قانون اجتماعى، و هو الدين الذى نسخ جميع الأحكام الشاقه الموضوعه على أهل الكتاب و اليهود خاصة، و ما تكلفها علماؤهم، و ابتدعها أجهالهم و رهبانهم من الأحكام المبتدعه.

فقد اختص الإسلام بكمال هذه الامور الخمسه و إن كانت توجد فى غير نماذج من ذلك.

على أن كمال هذه الامور الخمسه فى هذه المله البيضاء أصدق شاهد و أبين بينه على صدق الناهض بدعوتها صلى الله عليه و آله و سلم، و لو لم تكن تذكر أمارات له فى الكتابين فإن شريعته كمال شريعته الكليم و المسيح عليه السلام و هل يطلب من شريعته حقّه إلا عرفانها المعروف و إنكارها المنكر،

و تحليلها الطبيات، و تحريمها الخبائث، و إلغاؤها كل إصر و غل؟ و هى تفاصيل الحق الذى يدعو إليه الشرائع الإلهيه فليعترف أهل التوراه و الإنجيل أن الشريعه التى تتضمن كمال هذه الأمور بتفاصيلها هى عين شريعتهم فى مرحله كامله.

و بهذا البيان يظهر أن قوله تعالى: «يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ» الآيه يفيد بمجموعه معنى تصديقه لما فى كتابيهم من شرائع الله تعالى كانه قيل مصدقا لما بين يديه كما فى قوله تعالى: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» (البقره ١٠١/١) و قوله: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ» (البقره ٨٩/١) يريد مجيء النبى صلى الله عليه و آله و سلم بكمال ما فى كتابهم من الشريعه مصدقا له ثم كفرهم به و هم يعلمون أنه المذكور فى كتبهم المبشر به بلسان أنبيائهم كما حكى سبحانه عن المسيح فى قوله: «يَا بَنَى إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ» (الصف ٦/١).

و سنبحث عن بشاراته عليه السلام الواقعه فى كتبهم المقدسه بما تيسر من البحث إن شاء الله العزيز.

غير أنه تعالى لم يقل: مصدقا لما بين يديه بدل قوله: «يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ» الآيه لأن وجه الكلام الى جميع الناس دون أهل الكتاب خاصه، و لذا أمر نبيه صلى الله عليه و آله و سلم فى الآيه التاليه بقوله:

«قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا» و لم يقتيد الكلام فى قوله: «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ» الخ؛ بما يختص به بأهل الكتاب.

قوله تعالى: «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّوهُ وَ نَصَّيْرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الى آخر الآيه؛ التعزير النصره مع التعظيم، و المراد بالنور النازل معه القرآن الكريم ذكر نعت النوريه ليدل به على أنه ينير طريق لا حياه، و يضىء الصراط الذى يسلكه الإنسان الى موقف

و فى قوله: «أُنزِلَ مَعَهُ» و لم يقل: أنزل عليه أو أنزل إليه و«مع» تدل على المصاحبه و المقارنه تلويح الى معنى الإمارة و الشهادة التى ذكرناها كأنه قيل: و اتبعوا النور الذى أنزل عليه و هو بما يحتوى عليه من كمال الشرائع السابقة، و يظهره بالإضاءة شاهد على صدقه، و أماره أنه هو الذى وعد به أنبياءهم، و ذكر لهم فى كتبهم فقوله: «مَعَهُ» حال من نائب فاعل «أُنزِلَ». و قد وقع نظيره فى قوله تعالى: فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ (البقره ٢١٣).

و قوله: «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّوهُ وَ نَصَّوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ» الآية؛ بمنزله التفسير لقوله فى صدر الآية «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ» و أن المراد باتباعه حقيقه اتباع كتاب الله المشتمل على شرائعه، و أن الذى له عليه السلام من معنى الاتباع هو الإيمان بنبوته و رسالته من غير تكذيب به، و احترامه بالتسليم له و نصرته فيما عزم عليه من سيرته.

و الكلام أعنى قوله: «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ» الآية نتيجة متفرعه على قوله فى صدر الآية «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ» الآية؛ بناء على ما قدمناه من أنه بيان خاص مستخرج من قوله «وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» الذى هو بيان عام، و المعنى اذا كان اتباع الرسول بهذه الأوصاف و النعوت هو من الإيمان بآياتنا الذى شرطناه على بنى إسرائيل فى قبول دعوه موسى لهم ببسط الرحمه فى الدنيا و الآخرة و فيه الفلاح بكتابه الحسنه فى الدنيا و الآخرة فالذين آمنوا به-الى آخر ما شرط الله-أولئك هم المفلحون.

قوله تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا -إلى قوله- وَ يُمِيتُ لِمَا لَاحَ مِنَ الْأَوْصَافِ التى وصف بها نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن عنده كمال الدين الذى به حياه الناس الطيبه فى أى مكان فرضوا و فى أى زمان قدّر وجودهم، و لا حاجه للناس فى طيب حياتهم الى أزيد من أن يؤمروا بالمعروف، و ينهوا عن المنكر، و تحلل لهم الطيبات، و تحرّم

عليهم الخبائث، و يوضع عنهم إصرهم و الأغلال التي عليهم أمر نبيهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم أن يعلن بنوته الناس جميعا من غير أن تختص بقوم دون قوم فقال: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً» .

و قوله: الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ صفات وصف الله بها، و هي بمجموعها بمنزله تعليل يبين بها إمكان الرسالة من الله في نفسها أولا و إمكان عمومها لجميع الناس ثانيا فيرتفع به استيحاش بنى إسرائيل أن يرسل إليهم من غير شعبيهم و خاصة من الاميين و هم شعب الله و من مزاعمهم أنه ليس عليهم فى الاميين سبيل، و هم خاصة الله و أبناؤه و أحباؤه، و به يزول استبعاد غير العرب من جهة العصبية القومية أن يرسل إليهم رسول عربى.

و ذلك أن الله الذى اتخذه رسولا هو الذى له ملك السماوات و الأرض و السلطنة العامه عليها، و لا إله غيره حتى يملك شيئا منها فله أن يحكم بما يشاء من غير أن يمنع عن حكمه مانع يزاحمه أو تعوق إرادته إرادته غيره فله أن يتخذ رسولا الى عباده و أن يرسل رسوله الى بعض عباده أو الى جميعهم كيف شاء.

و هو الذى له الإحياء و الإماتة فله أن يحيى قوما أو الناس جميعا بحياه طيبه سعيده و السعاده و الهدى من الحياه كما أن الشقاوه و الضلاله موت، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (الأنفال ٢٤)، و قال: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ (الأنعام ١٢٢)، و قال: إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ، وَ الْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ (الأنعام ٣٦).

قوله تعالى: فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الى آخر الآيه تفريع على ما تقدم أى اذا كان الحال هذا الحال فآمنوا بى فإنى ذاك الرسول النبى الامى الذى بشر به فى التوراه و الإنجيل، و أنا أو من بالله و لا أكفر به و أو من بكلماته و هى ما قضى به من الشرائع

النازله على و على الأنبياء السالفين، و اتبعونى لعلكم تفلحون.

هذا ما يقتضيه السياق، و منه يعلم وجه الالتفات من التكلم الى الغيبه فى قوله «وَ رَسُوْلِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي» الآية فإن الظاهر من السياق أن هذه الآية ذيل الآية السابقه، و هما جميعا من كلام النبي صلى الله عليه و آله و سلم.

و وجه الالتفات - كما ظهر مما تقدم - أن يدل بالأوصاف الموضوعه مكان ضمير المتكلم على تعليل الأمر فى قوله: «فَأْمِنُوا» و قوله: «وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» .

و المراد بالاهتداء الاهتداء الى السعاده الآخره التى هى رضوان الله و الجنه لا الاهتداء الى سبيل الحق فإن الإيمان بالله و رسوله و اتباع رسوله بنفسه اهتداء، فيرجع معنى قوله «لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» الى معنى قوله فى الآية السابقه فى نتيجته الإيمان و الاتباع «أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» .

قوله تعالى: وَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٍ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَْعِيدُونَ وَ هَذَا مِنْ نَصْفِهِ الْقُرْآنَ مَدْحٍ مِنْ يَسْتَحِقُّ الْمَدْحَ، و حمد صالح أعمالهم بعد ما قرعهم بما صدر عنهم من السيئات فالمراد أنهم ليسوا جميعا على ما وصفنا من مخالفه الله و رسوله، و التزام الضلال و الظلم بل منهم أمه يهدون الناس بالحق و بالحق يعدلون فيما بينهم فالباء فى قوله: «بِالْحَقِّ» لآله و تحتمل الملايسه.

و على هذا فالآيه من الموارد التى نسبت الهدايه فيها الى غيره تعالى و غير الأنبياء و الأئمه كما فى قوله حكايه عن مؤمن آل فرعون و لم يكن بنبي ظاهرا: وَ قَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (المؤمن ٣٨).

و لا يبعد أن يكون المراد بهذه الأمه من قوم موسى عليه السلام الأنبياء و الأئمه الذين نشئوا فيهم بعد موسى و قد وصفهم الله فى كلامهم بالهدايه كقوله تعالى: وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (الم السجده ٢٤) و غيره من الآيات و ذلك أن الآية أعنى

قوله: «أُمَّهُ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ» لو حملت على حقيقته معناها من الهدايه بالحق و العدل بالحق لم يتيسر لغير النبي و الإمام أن يتلبس بذلك و قد تقدم كلام في الهدايه في تفسير قوله:

□ قال إني جاعلك للناس إماماً (البقره ١٢٤/) و قوله: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ (الأنعام ١٢٥/). و غيرهما من الآيات.

قوله تعالى: وَ قَطَّعْنَا لَهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيطًا أُمَّماً الى آخر الآيه؛ السبب بحسب اللغه ولد الولد أو ولد البنت. و الجمع أسباط، و هو في بنى إسرائيل بمعنى قوم خاص، فالسبب عندهم بالمنزله القبيله عند العرب. و قد نقل عن ابن الحاجب أن أسباطا في الآيه بدل من العدد لا تمييز و إلا لكانوا ستة و ثلاثين سبباً على إرادته أقل الجمع من «أَسْبَابًا» و تمييز العدد محذوف للدلاله عليه بقوله: «أَسْبَابًا» و التقدير و قَطَّعْنَا لَهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ فَرَقَهُمْ بِأَسْبَابٍ هَذَا. و ربما قيل: إنه تمييز لكونه بمعنى المفرد و المعنى اثنتى عشره جماعه مثلاً.

و قوله: وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ الْآيَةَ الْانْبِجَاسِ هُوَ الْانْفِجَارُ وَ قِيلَ الْانْبِجَاسُ خُرُوجُ الْمَاءِ بِقَلْبِهِ، وَ الْانْفِجَارُ خُرُوجُهُ بِكَتْفِهِ، وَ ظَاهِرٌ مِنْ قَوْلِهِ: «فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ» أن العيون كانت بعدد الأسباط و أن كل سبط اختصوا بعين من العيون، و أن ذلك كانت عن مشاجره بينهم و منافسه، و هو يؤيد ما في الروايات من قصتها. و باقى الآيه ظاهر.

و قد عدَّ الله سبحانه في هذه الآيات من معجزات موسى عليه السَّلام و آياته: الثعبان و اليد البيضاء، و سنى آل فرعون و نقص ثمراتهم، و الطوفان، و الجراد، و القمل، و الضفادع، و الدم، و فلق البحر، و إهلاك السبعين، و إحياءهم، و انبجاس العيون من الحجر بضرب العصا، و التظليل بالغمام، و إنزال المنّ و السلوى، و نثق الجبل فوقهم كأنه ظلّه. و يمكنك أن تضيف إليها التكليم و نزول التوراه، و مسح بعضهم قرده خاسئين. و سيجىء تفصيل البحث في قصته عليه السَّلام

وَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ اُسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَ كُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَ قُولُوا حِطَّةً وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلُمُونَ (١٦٢) وَ سَيَّلْنَا عَنْ الْقَرْيَةِ الْمِطْرَ كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْبُدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعَاءً وَ يَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَ إِذْ قَالَتْ أُمُّهُ مِنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّايَ رَبُّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِقَابٍ بَيِّنٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفِيئَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧) وَ قَطَعْنَا هَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِنْهُمْ الْأَصْلِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَ بَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَ السَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَ دَرَسُوا مَا فِيهِ وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضَعُ فِي عُقُوبِ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَ ظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ ادْخُلُوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)

قوله تعالى: وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ الی آخر الآيتين؛ القرية هی التي كانت فی الأرض المقدسه أمرؤا بدخولها و قتال أهلها من العمالقه و إخراجهم منها فتمردوا عن الأمر، و ردوا على موسى عليه السلام فابتلوا بالتيه، و القصة مذكوره فی سوره المائده آیه ۲۰-۲۶.

و قوله: وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا الایه تقدم الكلام فی نظيره من سوره البقره آیه: ۵۸-۵۹، و قوله: «سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ» فی موضع الجواب عن سؤال مقدر كأنه لما قال: «نَعْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ» قيل: ثم ما ذا فقال: «سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ» .

قوله تعالى: وَ سَيُنَلِّهُمُ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ أَى اسأل بنى إسرائيل عن حال أهل القرية: «الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ» أَى قريه منه مشرفه عليه من حضر الأمر إذا أشرف عليه و شهدة «إِذْ يَعْدُونَ» و يتجاوزون حدود ما أمر الله به فى أمر «السَّبْتِ» و تعظيمه و ترك الصيد فيه «إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيَتَانُهُمْ» و السمك الذى فى ناحيتهم «يَوْمَ سَيَأْتِيهِمْ شُرْعًا» جمع شارع و هو الظاهر البين «وَأَيُّومَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ» أَى إن تجاوزهم عن حدود ما أمر به الله كان إذ كانت الحيتان تأتيتهم شرعاً يوم منعوا من الصيد و أمروا بالسبت، و أمّا إذا مضى اليوم و أبيض لهم الصيد و ذلك غير يوم السبت فكان لا تأتيتهم الحيتان و كان ذلك من بلاء الله و أبيض لهم الصيد و ذلك غير يوم السبت فكان لا تأتيتهم الحيتان و كان ذلك من بلاء الله و امتحانه ابتلاهم بذلك لشيوع الفسق بينهم فبعثهم الحرض على صيدها على مخالفه أمر الله سبحانه، و لم يمنعهم تقوى عن التعدى، و لذلك قال: «كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ» أَى نمتحنهم «بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» .

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَتْ أُمُّهُ مِنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ إنما قالت هذه الامه ما قالت، لامة اخرى منهم كانت تعظمهم و تنهاهم عن مخالفه أمر الله فى السبت.

فالتقدير: «و إذ قالت أمه منهم لامة اخرى كانت تعظمهم» حذف للإيجاز و ظاهر كلامهم «لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مَعِدِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا» أنهم كانوا أهل تقوى يجتنبون مخالفه الأمر إلا أنهم تركوا نهيمهم عن المنكر فخالطوهم و عاشروهم و لو كان هؤلاء اللائيمون من المتعدين الفاسقين لوعظهم أولئك الملمومون، و لم يجيبوهم بمثل قولهم: معذره الى ربكم، الخ؛ و أن المتعدين طغوا فى تعديهم و تجاهروا فى فسقهم فلم يكونوا لينتهوا بنهى ظاهرا غير أن الامه التى كانت تعظمهم لم يأسوا من تأثير العظه فيهم، و كانوا يرجون منهم الانتهاء لو استمروا فى عظمتهم، و لا- أقل من انتهاء بعضهم و لو بعض الانتهاء، و ليكون ذلك معذره منهم

الى الله سبحانه بإظهار أنهم غير موافقين لهم فى فسقهم منزجرون عن طغيانهم بالتمرد.

و لذلك أجابوا عن قولهم: «لِمَ تَعْظُونَ» الخ؛ بقولهم «مَعِيدَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» أى إنما نعظهم ليكون ذلك عذرا الى ربكم، ولأننا نرجو منهم أن يتقوا هذا العمل.

و فى قولهم: «إِلَىٰ رَبِّكُمْ» حيث أضافوا الرب الى اللائمين و لم يقولوا: الى ربنا إشاره الى أن التكليف بالعظه ليس مختصا بنا بل أنتم أيضا مثلنا يجب عليكم أن تعظوهم لأن ربكم لمكان ربوبيته يجب أن يعتذر إليه، و يبذل الجهد فى فراغ الذمه من تكاليفه و الوظائف التى أحالها الى عباده، و أنتم مربوبون له كما نحن مربوبون فعليكم من التكاليف ما هو علينا.

قوله تعالى: «فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ المراد بنسيانهم ما ذكروا انقطاع تأثير الذكر فى نفوسهم و إن كانوا ذاكرين لنفس التذكر حقيقه فإنما الأخذ الإلهى مسبب عن الاستهانه بأمره و الإعراض عن ذكره، بل حقيقه النسيان بحسب الطبع مانع عن فعليه التكليف و حلول العقوبه.

فالإنسان يطوف عليه طائف من توفيق الله يذكره بتكاليف هامه إلهيه ثم إن استقام و ثبت، و إن ترك الاستقامه و لم يزجره زاجر باطنى و لا-ردعه رادع نفسانى عدا حدود الله بالمعصيه غير أنه فى بادئ أمره يتألم تألما باطنيا و يتخرج تخرجاً قلبيا من ذلك ثم اذا عاد إليها ثانيا من غير توبه زادت صوره المعصيه فى نفسه تمكنا، و ضعف أثر التذكير و هان أمره، و كلما عاد إليها و تكررت منه المخالفه زادت تلك قوه و هذه ضعفا حتى يزول أثر التذكير من أصله، ساوى وجوده عدمه فلحق بالنسيان فى عدم التأثير، و هو المراد بقوله «فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا» أى زال أثره كأنه منسى زائل، الصورة عن النفس.

و فى الآيه دلالة على أن الناجين كانوا هم الناهين عن السوء فقط، و قد أخذ الله الباقين، و هم الذين يعدون فى السبب و الذين قالوا: «لِمَ تَعْظُونَ» الخ.

و فيه دلالة على أن اللائمين كانوا مشاركين للعادين فى ظلمهم و فسقهم حيث تركوا عظمتهم

و لم يهجرهم.

و فى الآيه دلاله على سنّه إلهيه عامه، و هى أن عدم ردع الظالمين عن ظلمهم بمنع، و عظه إن لم يمكن المنع أو هجره إن لم تمكن العظه أو بطل تأثيرها، مشاركه معهم فى ظلمهم، و أن الأخذ الإلهى الشديد كما يرصد الظالمين كذلك يرصد مشاركيهم فى ظلمهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ الْعَتُو الْمُبَالِغَةُ فِي الْمَعْصِيَةِ وَ الْقِرْدَةُ جَمْعُ الْقِرْدِ وَ هُوَ الْحَيَوَانُ الْمَعْرُوفُ، وَ الْخَاسِئُ الطَّرِيدُ الْبَعِيدُ مِنْ خَسَا الْكَلْبِ إِذَا بَعُدَ.

و قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أى عن ترك ما نهوا عنه فإن العتو إنما يكون عن ترك المنهيات لا عن نفسها، و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفِيئَةِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ تَأَذَّنَ وَ أَذِنَ بِمَعْنَى أَعْلَمَ، وَ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ: «لِيُبْعَثَنَّ» لِلْقِسْمِ، وَ الْمَعْنَى: وَ إِذْ أَذِنَ رَبُّكَ أَنْ تَقْسَمَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَى هَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ بَعَثًا يَدُونَ عَلَيْهِمْ مَا دَامَتِ الدُّنْيَا مِنْ يَذِيقَهُمْ وَ يُؤَلِّمُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ.

و قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ معناه أن من عقابه ما يسرع الى الناس كعقاب الطاغى لطغيانه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ - إِلَى أَنْ قَالَ - إِنَّ رَبَّكَ لَبَالِغُ الْمَضَادِ (الفجر ١٤)﴾ و الدليل على ما فسرنا به قوله بعده: ﴿وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فإن الظاهر أنه لم يؤت به إلا للدلالة على أنه تعالى ليس بسرير العقاب دائما و إلا فمضمون الآية ليس مما يناسب التذليل باسمى الغفور و الرحيم لتمحضه فى معنى المؤاخذه و الانتقام فمعنى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أنه تعالى غفور للذنوب رحيم بعباده لكنه اذا قضى لبعض عباده بالعقاب لاستيجابهم ذلك بطغيان و عتو و نحو ذلك فسرعان ما يتبعهم اذا لا مانع يمنع عنه و لا عائق يعوقه.

ص: ٥٩٦

و لعل هذا هو معنى قول بعضهم: إن معنى قوله: «إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ» سريع العقاب لمن شاء أن يعاقبه في الدنيا، وإن كان الأنسب أن يقال: إن ذلك معنى قوله: «إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ»، و يرتفع به ما يمكن أن يتوهم أن كونه تعالى سريع العقاب ينافي كونه حليما لا يسرع الى المؤاخذة.

قوله تعالى: «وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ» الى آخر الآية؛ قال: في المجمع: دون في موضع الرفع بالابتداء، ولكنه جاء منصوبا لتمكنه في الظرفية، ومثله على قول أبي الحسن: «لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ» هو في موضع الرفع فجاء منصوبا لهذا المعنى، وكذلك في قوله: «يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ» بين في موضع رفع لقيامه مقام الفاعل، وإن شئت كان التقدير: و منهم جماعه دون ذلك فحذف الموصوف و قامت صفته مقامه. انتهى.

و المراد بالحسنات و السيئات نعماء الدنيا و ضرءاءها و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ» الى آخر الآية، العرض ما لا- ثبات له، و منه قوله تعالى: «عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (النساء/٩٤)» أى ما لا ثبات له من شئونها، و المراد بعرض هذا الأدنى عرض هذه الحياه الدنيا و الدار العاجله غير أنه أشير إليها بلفظ التذكير لأخذها شيئا ليس له من الخصوصيات إلا أن يشار إليه تجاهلا بخصوصياتها تحقيرا لشأنها كأنها لا يخص بنعت من النعوت يرغب فيها، و قد تقدم نظيره فى قول إبراهيم عليه السلام على ما حكاه الله: «هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ (الأنعام/٧٨)» يريد الشمس.

و قوله: «وَيَقُولُونَ سَيُعَذِّبُنَا» قول جزافى لهم قالوه، و لا معول لهم فيه إلا الاغترار بشعبهم الذى سمّوه شعب الله كما سموا أنفسهم أبناء الله و أحببائه، و لم يقولوا ذلك لوعده النفس بالتوبه لأن ذلك قيد لا يدل عليه الكلام، و لا أنهم قالوا ذلك رجاء للمغفره الإلهيه فإن للرجاء آثارا لا تلائم هذه المشيئه اذ رجاء الخير لا ينفك عن خوف الشر الذى يقابله و كما أن الرجاء يستدعى شيئا من ثبات النفس و طيبها كذلك الخوف يوجب قلق النفس و اضطرابها

و مساءتها فأيه الرجاء الصادق توسط النفس بين سكون و اضطراب، و جذب و دفع، و مسره و مساءه، و أما من توغل في شهوات نفسه و انغمر في لذائذ الدنيا من غير أن يتذكر بعقوبه ما يجنيه و يتقرفه ثم اذا رده رادع من نفسه أو غيره بما أوعده الله الظالمين، و ذكره شيئاً من سوء عاقبه المجرمين قال: إن الله غفور رحيم يتخلص به من اللوم، و يخلص به الى صافى لذائذه الدنيه فليس ما يتظاهر به رجاء صادقاً بل أمنيه نفسانيه كاذبه، و تسويل شيطاني موبق فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً و لا يشرك بعباده ربه أحداً.

و قوله: «وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَى لَمْ يَقْنَعُوا بِمَا أَخَذُوهُ مِنْ الْعَرَضِ بِمَرَّةٍ حَتَّى يَكُونَ تَرْكُهُمْ ذَلِكَ وَ رَجوعُهُمْ إِلَى اتِّقَاءِ مَحَارِمِ اللَّهِ نَحْوًا مِنَ التَّوْبَةِ، وَ قَوْلُهُمْ: «سَيُغْفَرُ لَنَا» نَوْعًا مِنَ الرَّجَاءِ يَتَلَبَّسُ بِهِ النَّائِبُونَ بَلْ كَلِمًا وَجَدُوا شَيْئًا مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا أَخَذُوهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرِاقِبُوا اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ فَالْجَمْلَةُ أَعْنَى قَوْلِهِ: «وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ» فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي وَصْفِهِمْ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ (المائدة: ٧٩).

و قوله: «وَ دَرَسُوا فِيهِ كَأَنَّ الْوَاوَ لِلْحَالِ، وَ الْجَمْلَةُ حَالٌ عَنْ ضَمِيرٍ «عَلَيْهِمْ» وَ قِيلَ الْجَمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى قَوْلِهِ: «وَرِثُوا الْكِتَابَ» فِي صَدْرِ الْآيَةِ، وَ لَا يَخْلُو مِنْ بَعْدِ.

و المعنى: «فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ» أَى مِنْ بَعْدِ هَؤُلَاءِ الْأَسْلَافِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ حَالِهِمْ فِي تَقْوَى اللَّهِ وَ اجْتِنَابِ مَحَارِمِهِ مَا وَصَفَ: «خَلَفُ وَرِثُوا الْكِتَابَ» وَ تَحَمَّلُوا مَا فِيهِ مِنَ الْمَعَارِفِ وَ الْأَحْكَامِ وَ الْمَوَاعِظِ وَ الْعِبَرِ، وَ كَانَ لَازِمَهُ أَنْ يَتَّقُوا وَ يَخْتَارُوا الدَّارَ الْآخِرَةَ، وَ يَتْرَكُوا أَعْرَاضَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الصَّارِفَةَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الثَّوَابِ الدَّائِمِ «يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذْنَى» وَ يَنْكَبُونَ عَلَى اللَّذَائِذِ الْفَانِيَةِ الْعَاجِلَةِ، وَ لَا يَبَالُونَ بِالْمَعْصِيَةِ وَ إِنْ كَثُرَتْ «وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا» قَوْلًا بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ لَا يَرْجِعُونَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ بِالْمَرَّةِ وَ الْمَرَّتَيْنِ بَلْ هُمْ عَلَى قَصْدِ الْعُودِ إِلَيْهَا كَلِمًا أَمْكَنَ «وَ إِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ» وَ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَمَّا اقْتَرَفُوهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ.

«أَلَمْ يُوْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ» وَ هُوَ الْمِيثَاقُ الْمَأْخُودُ عَلَيْهِمْ عِنْدَ حَمْلِهِمْ إِيَّاهُ «أَنْ لَا

يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ» و الحال أنهم درسوا ما فيه، و علموا بذلك أن قولهم: «سَيُغْفَرُ لَنَا» قول بغير الحق ليس لهم أن يتفوهوا به، و هو يجزئهم على معاصي الله و هدم أركان دينه. «و» الحال أن «الذَّارُ الْآخِرَهُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ» لدوام ثوابها و أمنها من كل مكروه «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» .

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُضِلِّينَ قال في المجمع: أمسك و مسك و تمسك و استمسك بالشىء بمعنى واحد أى اعتصم به انتهى.

و تخصيص إقامه الصلاه بالذكر من بين سائر أجزاء الدين لشرفها و كونها ركنا من الدين يحفظ بها ذكر الله و الخضوع الى مقامه الذى هو بمنزله الروح الحيه فى هيكل الشرائع الدينيه.

و الآيه تعدد التمسك بالكتاب اصلاحا و الإصلاح يقابل الإفساد و هو الإفساد فى الأرض أو إفساد المجتمع البشرى فيها، و لا تفسد الأرض و لا المجتمع البشرى إلا بإفساد طريقه الفطره التى فطر الله الناس عليها، و الدين الذى يشتمل عليه الكتاب الإلهى النازل فى عصر من الأعصار هو المتضمن لطرق الفطره بحسب ما يستدعيه استعداد أهله فإن الله سبحانه يذكر فى كلامه أن الدين القيم الذى يقوم بحوائج الحياه هى الفطره التى فطر الناس عليها، و الخلقه التى لا حقيقه لهم وراءها قال: فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (الروم ٣٠) ثم قال: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (آل عمران ١٩) و الإسلام هو التسليم لله سبحانه فى سنته الجاربه فى تكوينه المبتنيه عليها تشريعه.

و الآيه أعنى قوله: «وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ» الآيه فى نفسها عامه مستقله لكنها بحسب دخولها فى سياق الكلام فى بنى إسرائيل معنيه بشأنهم، و المراد بالكتاب بهذا النظر التوراه أو هى و الإنجيل.

قوله تعالى: وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَايَاهُ؛ النطق قلع الشيء من أصله، والظلمه هي الغمامه، وما يستظل بها من نحو السقف، والباقي ظاهر.

والآيه تقصّ رفع الطور فوق رءوس بنى إسرائيل، وقد تقدمت هذه القصة مكرره فى سورتي البقره والنساء (١).

[سوره الاعراف (٧): الآيات ١٧٢ الى ١٧٤]

اشاره

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)

بيان:

قوله تعالى: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَخَذَ الشىء من الشىء يوجب انفصال المأخوذ من المأخوذ منه واستقلاله دونه بنحو من الأنحاء، وهو يختلف باختلاف العنايات المتعلقة بها والاعتبارات المأخوذه فيها كأخذ اللقمه من الطعام و أخذ الجرعه من ماء القدح و هو نوع من الأخذ، و أخذ المال و الأثاث من زيد الغاصب أو الجواد أو البائع أو

ص: ٦٠٠

١-١). الاعراف ١٦١-١٧١: بحث روائى فى طائفه من بنى اسرائيل و موضوع صيد الحيتان؛ نزول العذاب الالهى على بنى اسرائيل و نجاه الناهين عن المنكر؛ نزول التوراه و عدم ايمان بنى اسرائيل.

المعير و هو نوع آخر، أو أنواع مختلفه اخرى، و كأخذ العلم من العالم و أخذ الالهيه من المجلس و أخذ الحظ من لقاء الصديق و هو نوع و أخذ الولد من والده للتربيه و هو نوع الى غير ذلك.

فمجرد ذكر الأخذ من الشيء لا يوضح نوعه إلا ببيان زائد، و لذلك أضاف الله سبحانه إلى قوله: «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ» الدال على تفريقهم و تفصيل بعضهم من بعض، قوله «مِنْ ظُهُورِهِمْ» ليدل على نوع الفصل و الأخذ، و هو أخذ بعض الماده منها بحيث لا- تنقص الماده المأخوذه منها بحسب صورتها و لا- تنقلب عن تمامها و استقلالها ثم تكميل الجزء المأخوذ شيئاً تاماً مستقلاً من نوع المأخوذ منه فيؤخذ الولد من ظهر من يلبده و يولده، و قد كان جزء ثم يجعل بعد الأخذ و الفصل إنساناً تاماً مستقلاً من والديه بعد ما كان جزء منهما.

ثم يؤخذ من ظهر هذا المأخوذ مأخوذ آخر و على هذه الوتيره حتى يتم الأخذ و ينفصل كل جزء عما كان جزء منه، و يتفرق الأناسى و ينتشر الأفراد و قد استقل كل منهم عن سواه و يكون لكل واحد منهم نفس مستقلة لها ما لها و عليها ما عليها، فهذا مفاد قوله «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» و لو قال: أخذ ربك من بنى آدم ذريتهم أو نشرهم و نحو ذلك بقى المعنى على إبهامه.

و قوله: «وَ أَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» ينبئ عن فعل آخر إلهى تعلق بهم بعد ما أخذ بعضهم من بعض و فصل بين كل واحد منهم و غيره و هو إشهدهم على أنفسهم، و الإشهد على الشيء هو إحضار الشاهد عنده و إراءته حقيقته ليتحملة علماً تحملاً- شهودياً فإشهدهم على أنفسهم هو إراءتهم حقيقه أنفسهم ليتحملوا ما اريد تحملهم من أمرها ثم يؤدوا ما تحملوه اذا سئلوا.

و للنفس فى كل ذى نفس جهات من التعلق و الارتباط بغيرها يمكن أن يستشهد الإنسان على بعضها دون بعض غير أن قوله: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» يوضح ما أشهدوا لأجله و اريد شهادتهم عليه، و هو أن يشهدوا ربوبيته سبحانه لهم فيؤدوها عند المسأله.

فالإنسان و إن بلغ من الكبر و الخيلاء ما بلغ، و غرته مساعده الأسباب ما غرته و استهوته لا يسعه أن ينكر أنه لا يملك وجود نفسه و لا يستقل بتدبير أمره، و لو ملك نفسه لوقاها مما يكرهه من الموت و سائر آلام الحياه و مصائبها، و لو استقل بتدبير أمره لم يفتقر إلى الخضوع قبال الأسباب الكونيه، و الوسائل التي يرى لنفسه أنه يسودها و يحكم فيها ثم هي كالإنسان في الحاجه الى ما وراءها، و الانقياد الى حاكم غائب عنها يحكم فيها لها أو عليها، و ليس الى الإنسان أن يسد خلتها و يرفع حاجتها.

فالحاجه الى رب-مالك مدبر-حقيقه الإنسان، و الفقر مكتوب على نفسه، و الضعف مطبوع على ناصيته، لا- يخفى ذلك على إنسان له أدنى الشعور الإنساني، و العالم و الجاهل و الصغير و الكبير و الشريف الوضيع في ذلك سواء.

فالإنسان في أى منزل من منازل الإنسانيه نزل يشاهد من نفسه أن له ربا يملكه و يدبر أمره، و كيف لا يشاهد ربه و هو يشاهد حاجته الذاتيه؟ و كيف يتصور وقوع الشعور بالحاجه من غير شعور بالذى يحتاج إليه؟ فقله: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» بيان ما أشهد عليه، و قوله: «قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا» اعتراف منهم بوقوع الشهاده و ما شهدوه، و لذا قيل: إن الآيه تشير الى ما يشاهده الإنسان في حياته الدنيا أنه محتاج في جميع جهات حياته من وجوه و ما يتعلق به وجوده من اللوازم و الأحكام، و معنى الآيه أنا خلقنا بنى آدم في الأرض و فرقناهم و ميزنا بعضهم من بعض بالتناسل و التوالد، و أوقفناهم على احتياجاتهم و مربوبيتهم لنا فاعترفوا بذلك قائلين: بلى شهدنا أنك ربنا.

و على هذا يكون قولهم: «بَلَىٰ شَهِدْنَا» من قبيل القول بلسان الحال أو إسناد اللانزم القول الى القائل بالملزوم حيث اعترفوا بحاجاتهم و لزمه الاعتراف بمن يحتاجون إليه، و الفرق بين لسان الحال، و القول بلانزم القول: أن الأول انكشاف المعنى عن الشيء لدلاله صفه من صفاته و حال من أحواله عليه سواء شعر به أم لا كما تفصح آثار الديار الخربه عن حال ساكنيها،

و كيف لعب الدهر بهم؟ و عدت عاديه الأيام عليهم؟ فأسكنت اجراسهم و أخدمت أنفاسهم، و كما يتكلم سيماء البائس المسكين عن فقره و مسكنته و سوء حاله. و الثانى انكشاف المعنى عن القائل لقوله بما يستلزمه أو تكلمه بما يدل عليه بالالتزام.

فعلى أحد هذين النوعين من القول أعنى القول بلسان الحال و القول بالاستلزام يحمل اعترافهم المحكى بقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ و الأول أقرب و أنسب فإنه لا يكتفى فى مقام الشهاده إلا بالصريح منها المدلول عليه بالمطابقه دون الالتزام.

و من المعلوم أن هذه الشهاده على أى نحو تحققت فهى من سنخ الاستشهاد المذكور فى قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فالظاهر أنه قد استوفى الجواب بعين اللسان الذى سألهم به، و لذلك كان هناك نحو ثالث يمكن أن يحمل عليه هذه المسأله و المجاوبه فإن الكلام الإلهى يكشف به عن المقاصد الإلهيه بالفعل، و الإيجاد كلام حقيقى - و إن كان بنحو التحليل - كما تقدم مرارا فى مباحثنا السابقه فليكن هنا قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ و قولهم: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ من ذاك القبيل، و سيجىء للكلام تتمه.

و كيف كان فقوله: ﴿وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ﴾ الآيه يدل على تفصيل بنى آدم بعضهم من بعض، و إشهاد كل واحد منهم على نفسه، و أخذ الاعتراف على الربوبيه منه، و يدل ذيل الآيه و ما يتلوه أعنى قوله: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ على الغرض من هذا الأخذ و الإشهاد.

و هو على ما يفيد السباق إبطال حجتين للعباد على الله و بيان أنه لو لا هذا الأخذ و الإشهاد و أخذ الميثاق على انحصار الربوبيه كان للعباد أن يتمسكوا يوم القيامه بإحدى حجتيهم يدفعون بها تمام الحجه عليهم فى شركهم بالله و القضاء بالنار، على ذلك من الله سبحانه.

و التدبر فى الآيتين و قد عطفت إحدى الحجتين على الأخرى بأو الترديديه، و بنيت الحجتان جميعا على العلم اللازم للإشهاد، و نقلتا جميعا عن بنى آدم المأخوذين المفرقين يعطى أن الحجتين كل واحده منهما مبنيه على تقدير من تقديرى عدم الإشهاد كذلك.

و المراد أنا أخذنا ذريتهم من ظهورهم و أشهدناهم على أنفسهم فاعترفوا ربوبيتنا فتمت لنا الحجه عليهم يوم القيامه، و لو لم نفعل هذا و لم نشهد كل فرد منهم على نفسه بعد أخذه فإن كنا أهملنا الإشهاد من رأس فلم يشهد أحد نفسه و أن الله ربه، و لم يعلم به لأقاموا جميعا الحجه علينا يوم القيامه بأنهم كانوا غافلين فى الدنيا عن ربوبيتنا، و لا تكليف على غافل و لا مؤاخذه، و هو قوله تعالى: «أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ» .

و إن كنا لم نهمل أمر الإشهاد من رأس، و أشهدنا بعضهم على أنفسهم دون بعض بأن أشهدنا الآباء على هذا الأمر الهام العظيم دون ذرياتهم ثم أشرك الجميع كان شرك الآباء شركا عن علم بأن الله هو الرب لا رب غيره فكانت معصيه منهم، و أما الذريه فإنما كان شركهم بمجرد التقليد فيما لا سبيل لهم الى العلم به لا إجمالا و لا تفصيلا، و متابعه عمليه محضه لآبائهم فكان آباؤهم هم المشركون بالله العاصون فى شركهم لعلمهم بحقيقه الأمر، و قد قادوا ذريتهم الضعاف فى سبيل شركهم بتربيتهم عليه و تلقينهم ذلك، و لا سبيل لهم الى العلم بحقيقه الأمر و إدراك ضلال آبائهم و إضلالهم إياهم، فكانت الحجه لهؤلاء الذريه على الله يوم القيامه لأن الذين أشركوا أو عصوا بذلك و أبطلوا الحق هم الآباء فهم المستحقين للمؤاخذه، و الفعل فعلهم، و أما الذريه فلم يعرفوا حقا حتى يؤمروا به فيعصوا بمخالفته فهم لم يعصوا شيئا و لم يبطلوا حقا، و حينئذ لم تتم حجه على الذريه فلم تتم الحجه على جميع بنى آدم، و هذا معنى

رجعنا الى الآيه:

قوله: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ أَى و اذكر لأهل الكتاب فى تميم البيان السابق أو و اذكر للناس فى بيان ما نزلت السوره لأجل بيانه و هو أن لله عهدا على الإنسان و هو سائله عنه و أن أكثر الناس لا يفون به و قد تمت عليهم الحجه.

أذكر لهم موطننا قبل الدنيا أخذ فيه ربك «مِن بَنَى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» فما من أحد منهم إلا استقل من غيره و تميز منه فاجتمعوا هناك جميعا و هم فرادى فأراهم ذواتهم المتعلقة بربهم «وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ» فلم يحتجوا عنه و عاينوا أنه ربهم كما أن كل شىء بفطرته يجد ربه من نفسه من غير أن يحتج عنه، و هو ظاهر الآيات القرآنيه كقوله وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (الإسراء ٤٤).

«أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» و هو خطاب حقيقى لهم لا- بيان حال و تكليم إلهى لهم فإنهم يفهمون مما يشاهدون أن الله سبحانه يريد به منهم الاعتراف و إعطاء الموثق، و لا نعى بالكلام إلا ما يلحق للدلاله به على معنى مراد، و كذا الكلام فى قوله: «قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا»

و قوله: أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ الخطاب للمخاطبين بقوله: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» القائلين: «بَلَىٰ شَهِدْنَا» فهم هناك يعاينون الإشهاد و التكليم من الله و التكلم بالاعتراف من أنفسهم، و إن كانوا فى نشأه الدنيا على غفله مما عدا المعرفه بالاستدلال، ثم اذا كان يوم البعث و انطوى بساط الدنيا، و انمحت هذه الشواغل و الحجب عادوا الى مشاهدتهم و معاينتهم، و ذكروا ما جرى بينهم و بين ربهم.

و يحتمل أن يكون الخطاب راجعا إلينا معاشر المخاطبين بالآيات أى إنما فعلنا بنى آدم

ص: ٦٠٥

ذلك حذر أن تقولوا أيها الناس يوم القيامة كذا وكذا، والأول أقرب و يؤيده قراءه «أن يقولوا» بلفظ الغيبه.

و قوله: أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ هَذِهِ حجه الناس إن فرض الإشهاد و أخذ الميثاق من الآباء خاصه دون الذريه كما أن قوله: «أَنْ تَقُولُوا» الخ؛ حجه الناس إن ترك الجميع فلم يقع إشهاد و لا أخذ ميثاق من أحد منهم.

و من المعلوم أن لو فرض ترك الإشهاد و أخذ الميثاق فى تلك النشأه كان لازمه عدم تحقق المعرفه بالربوبيه فى هذه النشأه اذ لا- حجاب بينهم و بين ربهم فى تلك النشأه فلو فرض هناك علم منهم كان ذلك إشهادا و أخذ ميثاق، و أما هذه النشأه فالعلم فيها من وراء الحجاب و هو المعرفه من طريق الاستدلال.

فلو لم يقع هناك بالنسبه الى الذريه إشهاد و أخذ ميثاق كان لازمه فى هذه النشأه أن لا يكون لهم سبيل إلى معرفه الربوبيه فيها أصلا، و حينئذ لم يقع منهم معصيه شرك بل كان ذلك فعل آباءهم، و ليس لهم إلا التبعية العمليه لآبائهم و النشوء على شركهم من غير علم فصح لهم أن يقولوا: إنما أشرك آباؤنا من قبل و كنا ذريه من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون.

قوله تعالى: وَ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ تفصيل الآيات تفریق بعضها و تمييزه من بعض ليتبين بذلك مدلول كل منها و لا تختلط وجود دلالتها، و قوله «وَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» عطف على مقدر، و التقدير: لغايات عاليه كذا و كذا و لعلهم يرجعون من الباطل الى الحق (١).

[سوره الاعراف (٧): الآيات ١٧٥ الى ١٧٩]

إشارة

وَ أُتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَ لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْمَآرِضِ وَ اتَّبَعَ هِيَاةَ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتَرَّكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكُمْ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ أَنْفُسِهِمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَ مَنْ يَضِللْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) وَ لَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَآ يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَآ يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ آذَانٌ لَآ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْإِنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)

ص: ٦٠٦

قوله تعالى: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ مَعْنَى إِيْتَاءِ الْآيَاتِ عَلَى مَا يَعْطِيهِ السِّيَاقُ التَّلْبَسُ مِنَ الْآيَاتِ الْإِنْفُسِيَّةِ وَالْكَرَامَاتِ الْخَاصَةِ الْبَاطِنِيَّةِ بِمَا يَتَنَوَّرُ بِهِ طَرِيقَ مَعْرِفَةِ اللَّهِ لَهُ، وَيُنْكَشَفُ لَهُ مَا لَا يَبْقَى لَهُ مَعَهُ رَيْبٌ فِي الْحَقِّ وَالْإِنْسِلَاحِ خُرُوجِ الشَّيْءِ وَاتْتِرَاعِهِ مِنْ جِلْدِهِ، وَهُوَ كِنَايَةٌ اسْتِعْرَابِيَّةٌ عَنْ أَنَّ الْآيَاتِ كَانَتْ لَزِمَتْهَا لَزُومُ الْجِلْدِ فَخَرَجَ مِنْهَا الْخَبْثُ فِي ذَاتِهِ، وَالْإِتْبَاعُ كَالْتَّبَعِ وَالْإِتْبَاعُ التَّعْقِيبُ وَاقْتِفَاءُ الْأَثْرِ يُقَالُ: تَبِعَ وَاتَّبَعَ وَاتَّبَعَهُ، وَالْإِتْبَاعُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَالْغِي وَالْغَوَايِهُ هِيَ الضَّلَالُ، كَأَنَّهُ لَخُرُوجِ مِنَ الطَّرِيقِ لِلْقَصُورِ عَنْ حِفْظِ الْمَقْصِدِ الَّذِي يُوَصِّلُ إِلَيْهِ الطَّرِيقَ فِيهِ نَسْيَانِ الْمَقْصِدِ وَالْغَايَةِ،

فالمتحير في أمره و هو في الطريق غوى، والخارج عن الطريق و هو ذاك لمقصده ضال، و هو الأنسب لمورد الآيه فإن صاحب النبأ بعد ما انسلخ عن آيات الله و أتبعه الشيطان غاب عنه سبيل الرشد فلم يتمكن من إنجاء نفسه عن ورطه الهلاك، و ربما استعمل كل من الغوايه و الضلاله في معنى واحد. و هو الخروج عن الطريق الموصل إلى الغايه.

و قد اختلف المفسرون في تعيين من هو صاحب النبأ في هذه الآيه على أقوال مختلفه سنشير الى جلها أو كلها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله.

و الآيه- كما ترى- أبهمت اسمه و اقتصرت على الإشاره الى إجمال قصته لكنها مع ذلك ظاهره في أنه نبأ واقع لا مجرد تمثيل فلا وقع لقول من قال: إنها مجرد تمثيل من غير نبأ واقع.

و المعنى: «وَ اتُّلُّ عَلَيْهِمْ» أى على بنى إسرائيل أو على الناس خبرا عن أمر عظيم و هو «نَبَأًا» الرجل «الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا» و كشفنا لباطنه عن علائم و آثار إلهيه عظام يتنور له بها حق الأمر «فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا» و رفضها بعد لزومها «فَأَتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ» فلم يقو على إنجاء نفسه من الهلاك.

قوله تعالى: «وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا» وَ لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ الْآيَةَ؛ الإخلاق اللزوم على الدوام، و الإخلاق الى الأرض اللصوق بها، و هو كناية عن الميل الى التمتع بالملاذ الدنيويه و التزامها، و اللهث من الكلب أن يدلح لسانه من العطش.

فقوله: «وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا» أى لو شئنا لرفعناه بتلك الآيات و قربناه إلينا لأن فى القرب الى الله ارتفاعا عن حضيض هذه الدنيا التى هى بمالها من اشتغال الإنسان بنفسها عن الله و آياته أسفل سافلين، و رفعه بتلك الآيات بما أنها أسباب إلهيه ظاهره تفيد اهتداء من تلبس بها لكنها لا تحتم السعاده للإنسان لأن تمام تأثيرها فى ذلك منوط بمشيئه الله، و الله سبحانه لا يشاء ذلك لمن أعرض عنه و أقبل الى غيرها. و هى الحياه الأرضيه اللاهيه عن الله و دار كرامته فإن الإعراض عن الله سبحانه و تكذيب آياته ظلم، و قد حق القول منه سبحانه أنه لا

يهدى القوم الظالمين، وأن الذين كفروا و كذبوا بآياته أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

و لذلك عقب تعالى قوله: «وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا» بقوله: «لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ» فالتقدير: لكننا لم نشأ ذلك لأنه أخلد الى الأرض و اتبع هواه و كان ذلك موردا لإضلالنا لا- لهدايتنا كما قال تعالى: وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (إبراهيم ٢٧).

و قوله: فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ أى إنه ذو هذه السجية لا يتركها سواء زجرته و منعه أو تركته و «تَحْمِلُ» من الحمله لا من الحمل «ذلك مثل الذين كذبوا بآياتنا» فالتكذيب منهم سجيته و هيئته نفسانيه خبيثه لازمه فلا تزال آياتنا تتكرر على حواسهم و يتكرر التكذيب بها منهم «فَأَقْصَىٰ صِ الْأَقْصَىٰ» و هو مصدر أى اقصى قصصا أو اسم مصدر أى اقصى القصة «لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» فينقادوا للحق و ينتزعوا عن الباطل.

قوله تعالى: سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ أَنْفُسِهِمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ذم لهم من حيث وصفهم، و إعلام لهم أنهم لا يضرون شيئا فى تكذيب آياته بل ذلك ظلم منهم لأنفسهم اذ يستنصر بذلك غيرهم.

قوله تعالى: مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَ مَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ اللام فى «الْمُهْتَدِى» و «الْخَاسِرُونَ» يفيد الكمال دون الحصر ظاهرا، و مفاد الآيه أن مجرد الاهتداء الى شىء لا ينفع شيئا و لا يؤثر أثر الاهتداء إلا اذا كانت معه هدايه الله سبحانه فهى التى يكمل بها الاهتداء، و تتحتم معها السعادة، و كذلك مجرد الضلال لا يضر ضررا قطعيا إلا بانضمام إضلال الله سبحانه إليه فعند ذلك يتم أثره، و يتحتم الخسران.

فمجرد اتصال الإنسان بأسباب السعادة كظاهر الإيمان و التقوى و تلبسه بذلك لا يورده مورد النجاه، و كذلك اتصاله و تلبسه بأسباب الضلال لا يورده مورد الهلاك و الخسران إلا أن يشاء الله ذلك فيهدى بمشيئته من هدى، و يضل بها من أضل.

فيثول المعنى الى أن الهدايه إنما تكون هدايه حقيقه تترتب عليها آثارها اذا كان لله فيها مشيه،و إلا فهي صوره هدايه و ليست بها حقيقه،و كذلك الأمر في الإضلال،و إن شئت فقل:

إن الكلام يدل على حصر الهدايه الحقيقه في الله سبحانه،و كذلك الإضلال و لا يضل به إلا الفاسقين.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِلَىٰ آخِرِ الْأَيَّهِ؛ الذرء هو الخلق،و قد عرف الله سبحانه جهنم غايه لخلق كثير من الجن و الإنس،و لا ينافي ذلك ما عرف في موضع آخر أن الغايه لخلق الخلق هي الرحمه و هي الجنه في الآخره كقوله تعالى: **إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَ لِمَذَلِكِ خَلَقَهُمْ (هود ١١٩)** فإن الغرض يختلف معناه بحسب كمال الفعل و نهايه الفعل التي ينتهي إليها.**

بيان ذلك أن النجار إذا أراد أن يصنع بابا عمد إلى أخشاب يهيئها له ثم هندسه فيها ثم شرع في النشر و النحت و الخرط حتى أتم الباب فكمال غرضه من إيقاع الفعل على تلك الخشبات هو حصول الباب لا غير،هذا من جهه و من جهه اخرى هو يعلم من أول الأمر أن جميع أجزاء تلك الخشبات ليست تصلح لأن تكون أجزاء للباب فإن للباب هيئه خاصه لا تجماع هيئه الخشبات،و لا بد في تغيير هيئتها من ضيعة بعض الأجزاء لخروجها عن هندسه العمل فصيوره هذه الأبعاد فضله يرمى بها داخله في قصد الصانع مراده له بإرادته تسمى قصدا ضروريا فللنجار في صنع الباب بالنسبه إلى الأخشاب التي بين يديه نوعان من الغايه:

أحدهما الغايه الكماليه و هي أن يصنع منها بابا،و الثاني الغايه التابعه و هي أن يصنع بعضها بابا و يجعل بعضها فضله لا ينتفع بها و ضيعة يرمى بها،و ذلك لعدم استعدادها لتلبس صوره الباب.

و كذا الزارع يزرع أرضا ليحصد قمحا فلا يخلص لذلك الى يوم الحصاد إلا بعض ما صرفه من البذر،و يذهب غيره سدى يضيع في الأرض أو تفسده الهوام أو يخصفه المواشى و الجميع

مقصوده للزراع من وجهه، والمحصول من القمح مقصود من وجه آخر.

وقد تعلق المشيه الإلهيه أن يخلق من الأرض إنسانا سويا يعبده و يدخل بذلك فى رحمته، و اختلاف الاستعدادات المكتسبه من الحياه الدنيويه على ما لها من مختلف التأثيرات لا يدع كل فرد من أفراد هذا النوع أن يجرى فى مجراه الحقيقى و يسلك سبيل النجاه إلا- من وفق له، و عند ذلك تختلف الغايات و صحح أن لله سبحانه غايه فى خلقه الإنسان مثلا و هو أن يشملهم برحمته و يدخلهم جنته، و صحح أن لله غايه فى أهل الخسران و الشقاوه من هذا النوع و هو أن يدخلهم النار و قد كان خلقهم للجنه غير أن الغايه الاولى غايه أصليه كماليه، و الغايه الثانيه غايه تبعيه ضروريه، و القضاء الإلهى المتعلق بسعاده من سعد و شقاوه من شقى ناظر إلى هذا النوع الثانى من الغايه فإنه تعالى يعلم ما يثول إليه حال الخلق من سعاده أو شقاء فهو مرید لذلك بإرادته تبعيه لا أصليه.

و على هذا النوع من الغايه ينزل قوله تعالى: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ» و ما فى هذا المساق من الآيات الكريمه و هى كثيره.

و قوله: لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا إشاره الى بطلان استعدادهم للوقوع فى مجرى الرحمه الإلهيه، و الوقوف فى مهب النفحات الربانيه، فلا ينفعهم ما يشاهدونه من آيات الله، و ما يسمعونه من مواعظ أهل الحق، و ما تلقنه لهم فطرتهم من الحججه و البينه.

و لا يفسد عقل و لا عين و لا أذن فى عمله و قد خلقها الله لذلك، و قد قال: لَا تَبْدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ (الروم ٣٠) إلا أن يكون الذى يغيره هو الله سبحانه فيكون من جملة الخلق لكنه سبحانه لا يغير ما انعمه على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، قال تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيَّرًا بِنِعْمَةِ أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (الأنفال ٥٣).

فالذى أبطل ما عندهم من الاستعداد، و أفسد أعمال قلوبهم و أعينهم و آذانهم هو الله

سبحانه فعل بهم ما فعل جزاء بما كسبوا نكالا- فهم غيروا نعمه الله بتغيير طريق العبوديه فجازاهم الله بالطبع على قلوبهم فلا يفقهون بها،و جعل الغشاوه على أبصارهم فلا يبصرون بها،و الوقر على آذانهم فلا يسمعون بها فهذه آيه أنهم مسيرون إلى النار.

و قوله: **أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ نَتِيجَهُ مَا تَقْدَمُ،** و بيان لحالهم فإنهم فقدوا ما يتميز به الإنسان من سائر الحيوان، و هو تمييز الخير و الشر و النافع و الضار بالنسبه الى الحياه الإنسانيه السعيده من طريق السمع و البصر و الفؤاد.

و إنما شبهوا من بين الحيوان العجم بالأنعام من أن فيهم خصال السباع الضاربه و خصائصها كخصال الأنعام الراعيه، لأن التمتع بالأكل و السفاد أقدم و أسبق بالنسبه إلى الطبع الحيوانى فجلب النفع أقدم من دفع الضر، و ما فى الإنسان من القوى الدافعه الغضبيه مقصوده لأجل ما فيه من القوى الجاذبه الشهويه، و غرض النوع بحسب حياته الحيوانيه يتعلق أولا بالتغذى و التوليد، و يتحفظ على ذلك بإعمال القوى الدافعه فالآيه تجرى مجرى قوله تعالى: **وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَ النَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ** (محمد/ ١٢).

و أما كونهم أكثر أو أشد ضلالا من الأنعام، و لازمه ثبوت ضلال ما فى الأنعام فلأن الضلال فى الأنعام نسبي غير حقيقى فإنها مهتديه بحسب ما لها من القوى المركبه الباعثه لها الى قصر الهمة فى الأكل و التمتع غير ضاله فيما هيئت لها من سعادته الحياه و لا مستحقه للذم فيما أخذت إليه، و إنما تعد ضاله بقياسها الى السعاده الإنسانيه التى ليست لها و لا جهزت بما تتوسل به إليها.

و أما هؤلاء المطبوع على قلوبهم و أعينهم و آذانهم فالسعاده سعادتهم و هم مجهزون بما يوصلهم إليها و يدلهم عليها من السمع و البصر و الفؤاد لكنهم أفسدوا و ضيعوا أعمالها و نزلوها منزله السمع و البصر و القلب التى فى الأنعام، و استعملوها فيما تستعملها فيه الأنعام و هو التمتع

من لذائذ البطن و الفرج فهم أكثر أو أشد ضلالا من الأنعام، وإليهم يعود الدم.

وقوله: **أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** نتيجة و بيان حال اخرى لهم و هو أن حقيقه الغفله هي التي توجد عندهم فإنها بمشيئه الله سبحانه، ألبسها إياهم بالطبع الذي طبع به على قلوبهم و أعينهم و آذانهم و الغفله ماده كل ضلال و باطل (١).

[سوره الاعراف (٧): الآيات ١٨٠ الى ١٨٦]

إشاره

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَ مِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعدُّونَ (١٨١) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسَبِندَرَجَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَّا بَصَّحَبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوٰتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَّا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ افْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَ يَدْرُهُمْ فِي طُعْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)

بيان:

قوله تعالى: **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا** الاسم بحسب اللغة ما يدل به

ص: ٦١٣

١-١). الاعراف ١٧٥-١٧٩: بحث روائي في: بلعم بن باعورا؛ طبع القلب.

على الشيء سواء أفاد مع ذلك معنى وصفيا كاللفظ الذى يشار به إلى الشيء لدلالته على معنى موجود فيه، أو لم يفد إلا الإشاره إلى الذات كزيد و عمرو و خاصة المرتجل من الأعلام، و توصيف الأسماء الحسنى-و هى مؤنث أحسن-يدل على أن المراد بها الأسماء التى فيها معنى وصفى دون ما لا دلالة لها إلا على الذات المتعالیه فقط لو كان بين أسمائه تعالى ما هو كذلك، و لا كل معنى وصفى، بل المعنى الوصفى الذى فيه شىء من الحسن، و لا كل معنى وصفى حسن بل ما كان أحسن بالنسبه الى غيره اذا اعتبرا مع الذات المتعالیه: فالشجاع و العفيف من الأسماء الحسنه لكنهما لا يليقان بساحه قدسه لإنبائهما عن خصوصيه جسمانيه لا يمكن سلبها عنهما، و لو أمكن لم يكن مانع عن إطلاقهما عليه كالجواد و العدل و الرحيم.

فكون اسم ما من أسمائه تعالى أحسن الأسماء أن يدل على معنى كمالى غير مخالط لنقص أو عدم، مخالطه لا يمكن معها تحرير المعنى من ذلك النقص و العدم و تصفيته، و ذلك فى كل ما يستلزم حاجه أو عدما و فقدا كالأجسام و الجسمانيات و الأفعال المستقبحة أو المستشنعه، و المعانى العدميه:

فهذه الأسماء بأجمعها محصول لغاتنا لم نضعها إلا- لمصاديقها فينا التى لا تخلو عن شوب الحاجه و النقص غير أن منها ما لا يمكن سلب جهات الحاجه و النقص عنها كالجسم و اللون و المقدار و غيرها، و منها ما يمكن فيه ذلك كالعلم و الحياه و القدره فالعلم فينا الإحاطه بالشىء من طريق أخذ صورته من الخارج بوسائل ماديه، و القدره فينا المنشئيه للفعل بكيفيه ماديه موجوده لعضلاتنا، و الحياه كوننا بحيث نعلم و نقدر بمالنا من وسائل العلم و القدره فهذه لا تليق بساحه قدسه غير أنا اذا جردنا معانيها عن خصوصيات ماده عاد العلم و هو الإحاطه بالشىء بحضوره عنده، و القدره هى المنشئيه للشىء بإيجاده، و الحياه كون الشىء بحيث يعلم و يقدر، و هذه لا مانع من إطلاقها عليه لأنها معان كماليه خاليه عن جهات النقص و الحاجه، و قد دل العقل و النقل أن كل صفه كماليه فهى له تعالى و هو المفيض لها على غيره من غير مثال

سابق فهو تعالى عالم قادر حي لكن لا كعلمنا و قدرتنا و حياتنا بل بما يليق بساحه قدسه من حقيقه هذه المعاني الكماله مجردة عن النقائص.

و قد قدم الخبر في قوله: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ» و هو يفيد الحصر، و جىء بالأسماء محلى باللام، و الجمع المحلى باللام يفيد العموم، و مقتضى ذلك أن كل اسم أحسن في الوجود فهو لله سبحانه لا يشاركه فيه أحد، و إذ كان الله سبحانه ينسب بعض هذه المعاني إلى غيره و يسميه به كالعلم و الحياه و الخلق و الرحمه فالمراد بكونها لله كون حقيقتها له وحده لا شريك له.

و ظاهر الآيات بل نص بعضها يؤيد هذا المعنى كقوله: «أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا» (البقره / ١٦٥). و قوله: «فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا» (النساء / ١٣٩)، و قوله: «وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ» (البقره / ٢٥٥)، و قوله: «هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ (المؤمن / ٦٦) فله سبحانه حقيقه كل اسم أحسن لا يشاركه غيره إلا بما ملكهم منه كيفما أراد و شاء.

و يؤيد هذا المعنى ظاهر كلامه أينما ذكر أسماءه في القرآن كقوله تعالى: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ» (طه / ٨) و قوله: «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ» (أسرى / ١١٠)، و قوله: «لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» (الحشر / ٢٤) فظاهر الآيات جميعا كون حقيقه كل اسم أحسن لله سبحانه وحده.

و ما احتمله بعضهم أن اللام في «الْأَسْمَاءُ» للعهد مما لا دليل عليه و لا في القرائن الحافه بالآيات ما يؤيده غير ما عهده القائل من الأخبار العاده للأسماء الحسنی، و سيجىء الكلام فيها في البحث الروائی التالی إن شاء الله.

و قوله: «فَادْعُوهُ بِهَا إِمَّا مِنْ الدَّعْوَةِ بِمَعْنَى التَّسْمِيَةِ كَقَوْلِنَا: دَعْوَتُهُ زَيْدًا وَ دَعْوَتُكَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَيْ سَمِيَّتَهُ وَ سَمِيَّتُكَ، وَ إِمَّا مِنْ الدَّعْوَةِ بِمَعْنَى النِّدَاءِ أَيْ نَادَوْهُ بِهَا فَقُولُوا: يَا رَحْمَانُ يَا رَحِيمٌ وَ هَكَذَا. أَوْ مِنَ الدَّعْوَةِ بِمَعْنَى الْعِبَادَةِ أَيْ فاعبدوه مدعين أنه متصف بما يدل عليه هذه الاسماء من الصفات الحسنه و المعاني الجميله.

وقد احتملوا جميع هذه المعاني غير أن كلامه تعالى في مواضع مختلفه يذكر فيها دعاء الربّ يؤيد هذا المعنى الأخير كما في الآيه السابقه: قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وقوله: وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَاخِرِينَ (المؤمن ٦٠) حيث ذكر أولا الدعاء ثم بدله ثانيا من العباده إيماء الى اتحادهما، وقوله: وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (الأحقاف ١٦)، وقوله: هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (المؤمن ٦٥) يريد إخلاص العباده.

و يؤيده ذيل الآيه: «وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» بظاهره فإنه لو كان المراد بالدعاء التسميه أو النداء دون العباده لكان الأنسب أن يقال: بما كانوا يصفون كما قال في موضع آخر: سَيُجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ (الأنعام ١٣٩).

فمعنى الآيه -و الله أعلم- و لله جميع الأسماء التي هي أحسن فاعبدوه و توجهوا إليه بها، و التسميه و النداء من لواحق العباده.

قوله تعالى: وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ الى آخر الآيه. اللحد و الإلحاد بمعنى واحد و هو التطرف و الميل عن الوسط إلى أحد الجانبين، و منه لحد القبر لكونه في جانبه بخلاف الضريح الذي في الوسط فقراءه يلحدون بفتح الياء من المجرد، و يلحدون بضم الياء من باب الإفعال بمعنى واحد، و نقل عن بعض اللغويين: أن اللحد بمعنى الميل إلى جانب، و الإلحاد بمعنى الجدل و المماراه.

و قوله: سَيُجْزَوْنَ الآيه؛ بالفصل لأنه بمنزله الجواب لسؤال مقدر كأنه لما قيل «وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ» قيل: إلى م يصير حالهم؟ فأجيب «سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» و للبحث في الأسماء الحسنی بقايا ستوافيك في كلام مستقل نوره بعد الفراغ عن

قوله تعالى: وَ مِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ قد مر بعض ما يتعلق به من الكلام فى قوله تعالى: وَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (الآية ١٥٩/١) من السوره و تختص هذه الآية بأنها لوقوعها فى سياق تقسيم الناس إلى ضال و مهتد، و بيان أن الملا-ك فى ذلك دعاؤه سبحانه بأحسن الأسماء اللاتقه بحضرتة و الإلحاد فى أسمائه، تدل على أن النوع الإنسانى يتضمن طائفه قليله أو كثيره مهتديه حقيقه إذ الكلام فى الاهتداء و الضلال الحقيقين المستندين إلى صنع الله، و من يهدى الله فهو المهتدى و من يضل فاولئك هم الخاسرون، و الاهتداء الحقيقى لا يكون إلا عن هدايه حقيقه، و هى التى لله سبحانه، و قد تقدم فى قوله تعالى: فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (الأنعام ٨٩/١)، و غيره أن الهدايه الحقيقه الإلهيه لا تتخلف عن مقتضاها بوجه و توجب العصمه من الضلال، كما أن التردد الواقع فى قوله تعالى: أَمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى (يونس ٣٥/١). يدل على أن من يهدى إلى الحق يجب أن لا- يكون مهتديا بغيره إلا بالله فافهم ذلك.

و على هذا فإسناد الهدايه إلى هذه الامه لا يخلو عن الدلاله عن مصونيتهم من الضلال و اعتصامهم بالله من الزيغ إما بكون جميع هؤلاء المشار إليهم بقوله: «أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ» متصفين بهذه العصمه و الصيانه كالانبياء و الأوصياء، و إما بكون بعض هذه الأمم كذلك و توصيف الكل بوصف البعض نظير قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النَّبُوَّةَ (الجاثيه ١٦/١)، و قوله: وَ جَعَلَكُمْ مَلُوكًا (المائد ٢٠/١)، و قوله: لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ (البقره ١٤٣/١)، و إنما المتّصف بهذه المزاي بعضهم دون الجميع.

و المراد بالآيه-و الله أعلم-إننا لا- نأمركم بامر غير واقع أو خارج عن طوق البشر فإنّ ممّن خلقنا أمه متلبسه بالاهتداء الحقيقى هادين بالحق لأن الله كرمهم بهدايته الخاصه.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا سَنَسِفُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ الاستدراج الاستعداد أو الاستنزال درجة فدرجه، والاستدناء من أمر أو مكان، وقرينه المقام تدل على أن المراد به هنا الاستدناء من الهلاك إما في الدنيا أو في الآخرة.

و تقييد الاستدراج بكونه من حيث لا يعلمون للدلالة على أن هذا التقريب خفي غير ظاهر عليهم بل مستبطن فيما يتلهون فيه من مظاهر الحياه الماديه فلا يزالون يقتربون من الهلاك باشتداد مظالمهم فهو تجديد نعمه بعد نعمه حتى يصرفهم التلذذ بها عن التأمل في وبال أمرهم كما مر في قوله تعالى: ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا (الأعراف ٩٥)، وقال تعالى: لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (آل عمران ١٩٧).

و من وجه آخر لما انقطع هؤلاء عن ذكر ربهم و كذبوا بآياته سلبوا اطمئنان القلوب و أمنها بالتشبث بذيل الأسباب التي من دون الله، و عذبوا باضطراب النفوس و قلق القلوب و قصور الأسباب و تراكم النوائب، و هم يظنون أنها الحياه ناسين معنى حقيقه الحياه السعيده فلا- يزالون يستزيدون من مهلكات زخارف الدنيا فيزدادون عذابا و هم يحسبونه زياده في النعمه حتى يردوا عذاب الآخرة و هو أمر و أدهى، فهم يستدرجون في العذاب من لدن تكذيبهم بآيات ربهم حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون.

قال تعالى: أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (الرعد ٢٨)، و قال: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا (طه ١٢٤)، و قال: فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ (التوبه ٥٥)، و هذا معنى آخر من الاستدراج لكن قوله تعالى بعده: «وَأْمَلَىٰ لَهُمْ» لا يلائم ذلك فالمتعين هو المعنى الأول.

قوله تعالى: وَ أْمَلَىٰ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ الإملاء هو الإمهال، و قوله: «إِنَّ كَيْدِي

مَتِينٌ» تعليل لمجموع ما فى الآيتين، و فى قوله: «وَ أَمْلَى» بعد قوله: «سَسَّيْتَدْرِجُهُمْ» الآيه؛ التفات من التكلم مع الغير إلى التكلم وحده للدلاله على مزيد العناية بتحريمهم من الرحمه الإلهيه و إيرادهم مورد الهلكه.

و أيضا الإملاء هو إمهالهم إلى أجل مسمى. فيكون فى معنى قوله: «وَ لَوْ لَا كَلِمَهُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ» (الشورى ١٤/)، و هذه الكلمه هى قوله لآدم عليه السلام حين إهباطه إلى الأرض: «وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ» (البقره ٣٦/) و هو القضاء الإلهي و القضاء مختص به تعالى لا يشاركه فيه غيره، و هذا بخلاف الاستدراج الذى هو إيصال النعمه بعد النعمه و تجديدها فإنها نعم إلهيه مفاضه بالوسائط من الملائكه و الأمر فلهذا السبب جىء فى الاستدراج بصيغه المتكلم مع الغير، و غير ذلك فى الإملاء و فى الكيد الذى هو أمر متحصل من الاستدراج و الإملاء الى لفظ المتكلم وحده.

قوله تعالى: «أَوْ لَمْ يَتَّفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ» فى تركيب الكلام اختلاف شديد بينهم، و الذى يستبق إلى الذهن من السياق أن يكون قوله «أَوْ لَمْ يَتَّفَكَّرُوا» كلاما تاما سيق للإنكار و التوبيخ ثم قوله: «مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ» الآيه كلاما آخر سيق لبيان صدق النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى دعواه النبوه، و هو يشير إلى ما يتفكرون فيه كأنه قيل: أ و لم يتفكروا فى أنه ما بصاحبهم من جنه الآيه؛ حتى يتبين لهم ذلك؟ نعم، ما به من جنه إن هو إلا نذير مبين.

و التعبير عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم بصاحبهم للإشاره إلى ماده الاستدلال الفكرى فإنه صلى الله عليه و آله و سلم كان يصحبهم و يصحبونه طول حياته بينهم فلو كان به شىء من جنه لبان لهم ذلك البته فهو فيما جاء به نذير لا مجنون، و الجنه بناء نوع من الجنون على ما قيل و إن كان من الجائر أن يكون المراد به الفرد من الجن بناء على ما يزعمونه أن المجنون يحلّ فيه بعض الجنّ فيتكلم من فيه و بلسانه.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ؛ قد مر كرارا أن الملكوت في عرف القرآن على ما يظهر من قوله تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (يس ٨٣) هو الوجه الباطن من الأشياء الذي يلي وجهه الرب تعالى، وأن النظر إلى هذا الوجه واليقين متلازمان كما يفهم من قوله: وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ لِيُكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (الأنعام ٧٥).

فالمراد توبيخهم في الإعراض والانصراف عن الوجه الملكوتي للأشياء لم نسوه ولم ينظروا فيه حتى يتبين لهم أن ما يدعوههم إليه هو الحق؟

وقوله: وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ عَظْفَ عَلَى مَوْضِعِ السَّمَاوَاتِ، وقوله: «مِنْ شَيْءٍ» بيان لما الموصوله، ومعنى الآية: لم ينظروا في خلق السماوات والأرض وأي شيء آخر مما خلقه الله؟ لكن لا من الوجه الذي يلي الأشياء حتى ينتج العلم بخواص الأشياء الطبيعية بل من وجهه أن وجوداتها غير مستقلة بنفسها مرتبطة بغيرها محتاجة إلى رب يدبر أمرها وأمر كل شيء، وهو رب العالمين.

وقوله: وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ عَظْفَ عَلَى قَوْلِهِ: «مَلَكُوتِ» الآية؛ لكونه في تأويل المفرد والتقدير: أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي أَنَّهُ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ النَّظَرَ فِي هَذَا الْإِحْتِمَالِ رَبَّمَا صَرَفَهُمْ عَنِ التَّمَادِي عَلَى ضَلَالِهِمْ وَغِيهِمْ فَأَغْلَبَ مَا يَصْرِفُ الْإِنْسَانَ عَنِ الْإِشْتِغَالِ بِأَمْرِ الْآخِرَةِ، وَيُوجِّهُ وَجْهَهُ إِلَى الْإِغْتِرَارِ بِالدُّنْيَا نَسِيَانِ الْمَوْتِ الَّذِي لَا يَدْرِي مَتَى يَرُدُّ رَأْسَهُ، وَأَمَّا إِذَا التَّفَتَ إِلَى ذَلِكَ وَشَاهَدَ جَهْلَهُ بِأَجَلِهِ وَأَنَّ مِنَ الْمَرْجُوِّ الْمَحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ يَقْطَعُ مَنَابِتَ الْغَفْلَةِ وَيَمْنَعُهُ عَنِ اتِّبَاعِ الْهَوَى وَطَوْلِ الْأَمَلِ.

وقوله: فَبِأَيِّ حَيْدٍ بَعِيدَةٍ يُؤْمِنُونَ الضمير للقرآن على ما يستدعيه السياق، وفي الكلام إثناس من إيمانهم بالمره أي إن لم يؤمنوا بالقرآن وهو تجليه سبحانه عليهم بكلامه

يكلّمهم بما يضطر عقولهم بقبوله من الحجج و البراهين و الموعظه الحسنه و هو مع ذلك معجزه باهره فلا يؤمنون بشيء آخر البته، و قد أخبر سبحانه أنه طبع على قلوبهم فلا- سبيل لهم إلى فقه القول و الإيمان بالحق، و لذلك عقبه بقوله في الآيه التاليه: «مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ» الآيه.

قوله تعالى: مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ العمه الحيره و التردد في الضلال أو عدم معرفه الحجه، و إنما لم يذكر ما يقابله و هو أن من يهدى فلا مضل له لأن الكلام مسوق لتعليل الآيه السابقه: «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ» الآيه؛ كأنه قيل: لم لا يؤمنون بحديث البته؟ فقيل: لأن من يضل الله الآيه (١)(٢).

[سوره الاعراف (٧): الآيات ١٨٧ الى ١٨٨]

اشاره

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَفْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسِيرًا كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَ لَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ مَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)

ص: ٦٢١

- ١-١. الاعراف ١٨٠-١٨٦: كلام في الأسماء الحسنی فی فصول (ما معنى الاسماء الحسنی، ما هو حد ما نصفه أو نسميه به من الاسماء؟ الانقسامات التي لها، نسب الصفات و الأسماء إلینا، ما معنى الاسم الاعظم، عدد الاسماء الحسنی. هل اسماء الله توقيفيه؟
- ٢-٢. الاعراف ١٨٠-١٨٦: بحث روائی فی الاسماء الحسنی.

قوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا - إلى قوله - إِلَّا هُوَ السَّاعَةَ سَاعَهُ الْبَعثِ وَ الرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ الْعَامِ فَالْإِلَامِ لِلْعَهْدِ لَكِنَّهُ صَارَ فِي عَرَفِ الْقُرْآنِ وَ الشَّرْعِ كَالْحَقِيقَةِ فِي هَذَا الْمَعْنَى.

و المرسى اسم زمان و مكان و مصدر ميمى من أرسيت الشىء إذا أثبتته، أى متى وقوعها و ثبوتها، و التجليه الكشف و الإظهار يقال جلاه فانجلى أى كشف عنه فانكشف.

فقوله: لَا يُجَلِّيهَا لَوْ قُبِّهَا إِلَّا هُوَ أى لا يظهرها و لا يكشف عنها فى وقتها و عند وقوعها إلا الله سبحانه، و يدل ذلك على أن ثبوتها و وجودها و العلم بها واحد أى إنها محفوظة فى مكنم الغيب عند الله تعالى يكشف عنها و يظهرها متى شاء من غير أن يحيط بها غيره سبحانه أو يظهر لشىء من الأشياء، و كيف يمكن أن يحيط بها شىء من الأشياء أو ينكشف عنده، و تحققها و ظهورها يلزم فناء الأشياء، و لا شىء منها يسعه أن يحيط بفناء نفسه أو يظهر له فناء ذاته، و النظام السببى الحاكم من الكون يتبدل عند وقوعها، و هذا العلم الذى يصحبها من هذا النظام.

و من هنا يظهر: أن المراد بقوله: «نُقِلَّتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» -و الله أعلم- ثقل علمها فى السماوات و الأرض و هو بعينه ثقل وجودها فلا ثمره لاختلافهم فى أن المراد بثقل الساعه فيها ثقل علمها عليها، أو المراد ثقل صفتها على أهل السماوات و الأرض لما فيها من الشدائد و العقاب و الحساب و الجزاء، أو ثقل وقوعها عليهم لما فيها من انطواء السماء و انتشار الكواكب و اجتماع الشمس و القمر و تسيير الجبال، أو أن السماوات و الأرض لا تطيق حملها لعظمتها و شدتها.

و ذلك أنها ثقيله بجميع ما يرجع إليها من ثبوتها و العلم بها و صفاتها على السماوات

و الأرض، و لا تطيق ظهورها لملازمته فناءها و الشيء لا يطيق فناء نفسه.

و من ذلك يظهر أيضا وجه قوله سبحانه: «لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَعْتُهُ» فإن البعته و الفجأ ظهور الشيء من غير أن يعلم به قبل ظهوره، و الساعه لثقلها لا يظهر وصف من أوصافها، و لا جزء من أجزائها قبل ظهورها النام، و لذلك كان ظهورها لجميع الأشياء بعته.

و من هنا أيضا يظهر معنى تتمه الآية: «يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ» الآية؛ على ما سيأتى.

قوله تعالى: «يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا» الى آخر الآية؛ قال الراغب: الحفى العالم بالشيء (انتهى) و كأنه مأخوذ من حفيت فى السؤال إذا ألححت، و قوله: «كَأَنَّكَ خَفِيٌّ» متخلل بين يسألونك و الظرف المتعلق به، و الاصل: يسألونك عنها كأنك حفى عالم بها، و هو يلوح الى أنهم كرروا السؤال و ألحوا عليه، و لذلك كرر السؤال و الجواب بوجه فى اللفظ.

ففى قوله ثانيا: «يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا» إشعار أو دلالة على أنهم حسبوا أن جوابه صلى الله عليه و آله و سلم بأمر ربه أولا «إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي» من قبيل إحاله علم ما لا يعلمه الى ربه -على ما هو من أدب الدين- و لذا قال: «عِنْدَ رَبِّي» إشعارا بالعبودية و وظيفتها، و أن قوله «لَا يُجَلِّيهَا لَوْفَتِهَا إِلَّا هُوَ» وصف لعظمتها من غير أن يرتبط ذلك بالعلم بوقتها، و لذلك كله كرروا السؤال ليقول صلى الله عليه و آله و سلم فى ذلك شيئا أو يعترف بجهله لنفسه.

فأمره الله سبحانه أن يعيد الجواب عليهم «إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ» دالا به على أن القول جد و الجواب فصل، فهو من العلم لا من الجهل، و الغرض به إفاده العلم بانحصار علمها فيه تعالى دون الجهل بها، و إحاله علمها الى ربه عملا بوظيفه العبودية، و لذا بدل قوله فى الجواب الأول «عِنْدَ رَبِّي» فى هذا الجواب الثانى الى قوله: «عِنْدَ اللَّهِ» .

ثم قال: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» يشير به الى جهلهم بمعنى قوله: «إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي» الآية فإنهم لانسهم بالحس و المحسوس يقيسون كل شيء سمعوه الى المحسوس،

ويعممون حكمه عليه فيظنون أن كل ما وصف لهم بوجه يسع لهم أن يعلموه و يحيطوا به علما، و أنه لو كان هناك أمر أخفى عنهم فإنما يخفى بالكتمان، و لو أظهر لهم أحاطوا به علما كسائر ما عندهم من الامور المحسوسه، و قد أخطأ قياسهم و اشتبه عليهم فإن بعض ما فى الغيب و من جملته الساعه لا يطيق علمه إلا الله سبحانه.

و قد ظهر من الآيه أن علم الساعه مما لا يطيقه شىء من الأشياء إلا الله سبحانه، و كذا حقيقه ما له من الأوصاف و النعوت فإن الجميع ثقيله بثقلها.

قوله تعالى: **قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ** إلى آخر الآيه لما كان فى سؤالهم الغيب عنه صلى الله عليه و آله و سلم إيهام أن دعواه النبوه دعوى لعلم الغيب، و لا يعلم الغيب حقيقه غيره تعالى إلا بوحي و تعليم إلهي، أمر نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن يتبرأ من دعوى العلم بالغيب.

و حقيقه السبب فى اختصاص العلم بالغيب به تعالى أن غيره تعالى اياما كان محدود الوجود لا سبيل له إلى الخارج منه الغائب عنه من حيث إنه غائب، و لا شىء غير محدود و لا غير متناه محيط بكل شىء إلا الله سبحانه فله العلم بالغيب.

لكن لما كان اولئك السائلون لا يسعهم فهم هذا السبب على ما لهم من الأفهام البسيطة العاميه أمره صلى الله عليه و آله و سلم أن يكلمهم بما يسعهم فهمه، و هو أن العلم بالغيب يهدى الإنسان الى كل خير و شر و العاده تأبى أن يعلم أحد الخير و الشر و يهتدى إلى موقعهما ثم لا يستفيد من ذلك لنفسه فالإنسان اذا لم يستكثر من الخير و لم يوق من الشر كيف يعلم الغيب؟.

فقوله فى صدر الآيه: **«قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي»** الآيه وصف لنفسه بما ينافى فى نتيجة العلم بالغيب ثم قوله: **«وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ»** الآيه بيان نتيجة العلم بالغيب، لينتج من الفصلين عدم علمه بالغيب، ثم قوله: **«إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ»** بيان حقيقه حاله فيما يدعيه من الرساله من غير أن يكون معها دعوى اخرى.

إشارة

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمْ لَأُنزِلَنَّ عَلَيْنَا مَائِدًا صَالِحًا لَنُكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيهَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُواكُمْ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدْعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَٰمِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ (١٩٥) إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّٰلِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنظِرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨)

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ. الكلام في الآيتين جار مجرى المثل المضروب لبني آدم في نقضهم موثقهم الذي واثقوه، و ظلمهم بآيات الله.

و المعنى: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ» يا معشر بني آدم «مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ» هو أبوكم «وَجَعَلَ مِنْهَا» أى من نوعها «زَوْجَهَا لِيَسِيْرُكُنَّ» الرجل الذى هو النفس الواحد «إِلَيْهَا» أى إلى الزوج التى هى امرأته «فَلَمَّا تَغَشَّاهَا» و التغشى هو الجماع «حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيْفًا» و المحمول النطفه و هى خفيفه «فَمَرَّتْ بِهِ» أى استمرت الزوج بحملها تذهب و تجىء و تقوم و تقعد حتى نمت النطفه فى رحمها و صارت جنينا ثقيلًا. أثقلت به الزوج «فَلَمَّا أَثَقَلَتْ دَعَا اللّٰهَ رَبَّهُمَا» و عاهداه و واثقاه «لِئِنْ آتَيْنَا» و رزقتنا ولدا «صَالِحًا» يصلح للحياه و البقاء بكونه إنسانا سويا تام الأعضاء غير ذى عاهه و آفه فإن ذلك هو المرجو للولد حين ولادته و بدء نشوئه دون الصلاح الدينى «لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ» لك بإظهار نعمتك، و الانقطاع إليك فى أمره لا نميل إلى سبب دونك، و لا نتعلق بشىء سواك.

فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا كَمَا سَأَلَاهُ وَ جَعَلَهُ إِنْسَانًا سَوِيًّا صَالِحًا لِلْبَقَاءِ وَ قَرَّتْ بِهِ أَعْيُنُهُمَا جَعَلًا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا مِنَ الْوَلَدِ الصَّالِحِ حَيْثُ بَعَثْتَهُمَا الْمَحْبُوبَةَ وَ الشَّفَقَةَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّقَا بِكُلِّ سَبَبٍ سِوَاهُ، وَ يَخْضَعَا لِكُلِّ شَيْءٍ دُونَهُ مَعَ أَنَّهُمَا كَانَا قَدْ اشْتَرَطَا لَهُ أَنْ يَكُونَا شَاكِرِينَ لَهُ غَيْرِ كَافِرِينَ لِنِعْمَتِهِ وَ رُبُوبِيَّتِهِ فَنَقُضَا عَهْدَهُمَا وَ شَرَطَهُمَا.

و هكذا عامه الانسان إلا من رحمه الله مهتمون بنقض موثيقهم و خلف وعدهم، و عدم

الوفاء بعهدهم مع الله «فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» .

و القصة- كما ترى- يمكن أن يراد بها بيان حال الأبوين من نوع الإنسان في استيلادهما الولد بالاعتبار العام النوعى فإن كل إنسان فإنه مولود أبويه فالكثرة الإنسانية نتيجة أبوين يولدان ولدا كما في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ (الحجرات ٤٣/).

و الغالب على حال الأبوين و هما يحبان ولدهما و يشفقان عليه أن ينقطعا طبعاً إلى الله في أمر ولدهما و إن لم يلتفتا إلى تفصيل انقطاعهما كما ينقطع راكب البحر إلى الله سبحانه إذا تلاطمت و أخذت أمواجها تلعب به ينقطع إلى ربه و إن لم يعبد ربا قط فإنما هو حال قلبى يضطر الإنسان إليه.

فلأبوين انقطاع إلى ربهما في أمر ولدهما لئن آتيتنا صالحا نرضاه لنكونن من الشاكرين فلما استجاب لهما و آتاها صالحا جعلنا له شركاء و تشبثا في حفظه و تربيته بكل سبب، و لا إذا إلى كل كهف.

و يؤيد هذا الوجه قوله في ذيل الآية: «فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» فإن المراد بالنفس و زوجها في صدر الكلام لو كان شخصين من الإنسان بعينهما كآدم و حواء مثلاً كان من حق الكلام أن يقال: فتعالى الله عن شركهما أو عما أشركا.

على أنه تعالى يعقب هذه الآية بآيات أخر يذم فيها الشرك و يوبخ المشركين بما ظاهره أنه الشرك بمعنى عباده غير الله، و حاشا أن يكون صفى الله آدم يعبد غير الله و قد نص الله سبحانه على أنه اجتنابه و هداه، و نص على أن لا سبيل للضلال على من هداه الله و أى ضلال أضل من عباده غير الله، قال تعالى: ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَىٰ (طه ١٢٢/)، و قال: وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ (أسرى ٩٧/)، و قال: وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ (الأحقاف ٥/)، و بذلك يظهر أن الضلال و الشرك غير منسوب

إلى آدم و إن لم نقل بنوته أو قلنا بها و لم نقل بعصمه الأنبياء عليهم السلام.

و إن أريد بالنفس و زوجها فى القصة آدم زوجته كان المراد بشركهما المذكور فى الآيه أنهما اشتغلا بتربيته الولد و اهتما فى أمره بتدبير الأسباب و العوامل، و صرفهما ذلك عن بعض ما لهما من التوجه إلى ربهما و الخلوص فى ذلك، و من الدليل عن ذلك قوله تعالى حكاية عنهما:

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ و قد تقدم فى تفسير أوائل هذه السوره فى قوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الآيه ١٧) أن الشاكرين فى عرف القرآن هم المخلصون-بفتح اللام-الذين لا-سبيل لإبليس عليهم و لا ديب للغفله فى قلوبهم فالعتاب المتوجه إليهما فى قوله ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إنما هو بالشرك بمعنى الاشتغال عن الله بغيره من الأسباب الكونيه يوجه خلاف إخلاص القلب له تعالى.

لكن يبقى عليه إتيان قوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بصيغه الجمع، و تعقيبه بما ظاهره أنه الشرك بمعنى عباده غير الله.

و ربما دفعه بعضهم بأن الآيه فى التخصيص أولا و التعميم ثانيا عكس قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ (يونس ٢٢) حيث خاطب أولا-عامتهم بالتسيير ثم خص الكلام براكبي الفلك منهم خاصة، و الآيه التى نحن فيها تخص أول القصة بآدم و زوجته فهما المعنيان بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ثم انقضى حديث آدم و زوجته، و خص بالذكر المشركون من بنى آدم الذين سألوا ما سألوا، و جعلوا له شركاء فيما آتاهم أى إن كل اثنين منهم يولدان ولدا هذا حالهما من العهد ثم النقض.

و فيه أن قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ الآيه؛ محفوف بقريته قطعيه تدل على المراد و تزيل اللبس بخلاف التدرج من الخصوص إلى العموم فى هذه الآيه فإنه موقع فى اللبس لا يصار إليه فى الكلام البليغ، اللهم إلا أن يجعل قوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إلى آخر الآيات قريته

على ذلك.

و كيف كان فهذا الوجه كالمأخوذ من الوجهين الأولين بحمل صدر الآية على الوجه الثانى و ذيلها على الوجه الأول.

و ربما دفع الاعتراض السابق بأن فى الكلام حذفاً و إيصالاً- و التقدير: «فما آتاهما أى آدم و حواء صالحاً جعل أولادهما له شركاء» فحذف المضاف و هو الأولاد، و أقيم المضاف إليه و هو ضمير التثنية المدلول عليه فى قوله: «جعلاً مقامه». و فيه أنه لا دليل عليه.

و ربما التزم بعض المفسرين الإشكال، و تسلم أن المراد بهما آدم و زوجته، و أنهما أشركا بالله عملاً بروايات وردت فى القصة عن بعضهم، و هى موضوعه أو مدسوسه مخالفه للكتاب لا سبيل إلى الأخذ بأمثالها.

قوله تعالى: أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ. صدر الآيات و إن احتمل أن يكون المراد الشرك بالأصنام أو بسائر الأسباب غير الله، التى الاعتماد عليها نوع من الشرك لكن ذيلها ظاهر فى أن المراد هو الشرك بالأصنام المتخذة آلهة و هى جماد لا يستطيع نصر من يعبدها و لا نصر أنفسها، و لا يشعر بشيء من الدعاء و عدمه.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ - إلى قوله - يَشْتَمِعُونَ بِهَا احتجاج على مضمون الآيات الثلاثة السابقة، و المعنى إنما قلنا إنهم مخلوقون لا يقدرون على شيء لأنهم عباد أمثالكم فكما أنكم مخلوقون مدبرون كذلك هم.

و الحجج عليه أنهم لا- يستجيبون لكم إن دعوتهم فادعوهم إن كنتم صادقين فى دعواكم أن لهم علماً و قدره و إنما نسب إليهم دعوى كونهم ذوى علم و قدره لما فى دعوتهم من الدلالة على ذلك- و كيف يستجيبون لكم؟ و ليست ما عبأتم لهم من الأرجل و الأيدي ماشيه و باطشه، و لا ما صورتم لهم من الأعين و الأذان مبصره و سامعه لأنهم جمادات.

ص: ٦٢٩

و فى الآيات إطلاق العباد على الجمادات.

قوله تعالى: قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ إِلَى آخِرِ الآياتِ ثُمَّ أَمَرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَكْرِ عَلَيْهِمْ عَلَى انْتِصَارِهِمْ بِأَرْبَابِهِمْ وَآلِهِتِهِمْ بِالتَّحْدَى وَالإِعْجَازِ لِسِتِينَ سَبِيلِهِ مِنْ سَبِيلِهِمْ، وَيُظْهِرُ أَنَّ رَبَّهُ هُوَ اللهُ الَّذِى لَهُ كُلُّ الْعِلْمِ وَالقُدْرَةِ، وَأَنَّ أَرْبَابَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ عِلْمًا لِيَهْتَدُوا بِهِ إِلَى شَيْءٍ وَلَا قُدْرَةَ لِيَنْصُرُوهُمْ فِي شَيْءٍ.

فقال: قل لهم ادعوا شركاءكم لنصركم على ثم كيدونى فلا تنظرونى ولا تمهلونى إن ربي ينصرنى ويدفع عنى كيدكم فإنه الذى نزل الكتاب ليهدى به الناس، وهو يتولى الصالحين من عباده فينصرهم، وهو القائل: إن الأرض يرثها عبادى الصالحون وأنا من الصالحين فينصرنى ولا محاله، وأما أربابكم الذين تدعون من دونه فلا يستطيعون نصركم ولا نصر أنفسهم ولا يسمعون ولا يبصرون فلا قدره لهم ولا علم.

و فى الآيات أمر النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَخْبِرَهُمْ أَنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ وَ لَمْ يَعْهَدْ فِيمَا يَخْبِرُ بِهِ الْقُرْآنَ مِنْ صَلَاحِ الْأَنْبِيَاءِ مِثْلَ ذَلِكَ فِي غَيْرِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

و فيها التحدى على الأصنام و عبادتهم كما تحدى بذلك غيره من الأنبياء عليهم السلام.

[سوره الأعراف (٧): الآيات ١٩٩ الى ٢٠٦]

إشارة

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٌ قَالُوا لَوْ لَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَأُذَكِّرْ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)

ص: ٦٣٠

قوله تعالى: «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ الْأَخْذُ بِالشَّيْءِ هُوَ لَزُومُهُ أَوْ عَدَمُ تَرْكِهِ فَأَخَذَ الْعَفْوَ مَلَاظِمَهُ السُّتْرَ عَلَى إِسَاءَةٍ مِنْ أَسَاءٍ إِلَيْهِ، وَ الْإِعْمَاضُ عَنْ حَقِّ الْإِنْتِقَامِ الَّذِي يُعْطِيهِ الْعَقْلُ الْاجْتِمَاعِي لِبَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ. هَذَا بِالنَّسْبَةِ إِلَى إِسَاءَةِ الْغَيْرِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى نَفْسِهِ وَ التَّضْيِيعُ لِحَقِّ شَخْصِهِ، وَ أَمَّا مَا أُضِيعَ فِيهِ حَقُّ الْغَيْرِ بِالإِسَاءَةِ إِلَيْهِ فَلَيْسَ مِمَّا يَسُوغُ الْعَفْوَ فِيهِ لِأَنَّهُ إِغْرَاءٌ بِالْإِثْمِ وَ تَضْيِيعُ لِحَقِّ الْغَيْرِ بِنَحْوِ أَشَدِّ، وَ إِبْطَالٌ لِلنَّوَامِيسِ الْحَافِظَةِ لِلْاجْتِمَاعِ، وَ يَمْنَعُ عَنْهُ جَمِيعُ الْآيَاتِ النَّاهِيَةِ عَنِ الظُّلْمِ وَ الْإِفْسَادِ وَ إِعَانَةِ الظَّالِمِينَ وَ الرُّكُونِ إِلَيْهِمْ بَلْ جَمِيعُ الْآيَاتِ الْمُعْطِيَةِ لِأَصُولِ الشَّرَائِعِ وَ الْقَوَانِينِ، وَ هُوَ ظَاهِرٌ.

فالمراد بقوله: «خُذِ الْعَفْوَ» هُوَ السُّتْرُ بِالْعَفْوِ فِيمَا يَرْجَعُ إِلَى شَخْصِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، وَ عَلَى ذَلِكَ كَانَ يَسِيرٌ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي بَعْضِ الرُّوَايَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي أُدْبِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: أَنَّهُ لَمْ يَنْتَقِمْ مِنْ أَحَدٍ لِنَفْسِهِ قَطُّ.

هذا على ما ذكره القوم أن المراد بالعفو ما يساوق المغفرة، و في بعض الروايات الآتية عن الصادق عليه السلام أن المراد به الوسط و هو أنسب بالآية و أجمع للمعنى من غير شائبه التكرار الذى يلزم من قوله: «وَ أَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ» على التفسير الأول.

وقوله: «وَ أَمْرٌ بِالْعُرْفِ» و العرف هو ما يعرفه عقلاء المجتمع من السنن و السير الجميله الجاربه بينهم بخلاف ما ينكره المجتمع و ينكره العقل الاجتماعى من الأعمال النادره الشاذه، و من المعلوم أن لازم الأمر بمتابعه العرف أن يكون نفس الأمر مؤتمرا بما يأمر به من المتابعه، و من ذلك أن يكون نفس أمره بنحو معروف غير منكر فمقتضى قوله: «وَ أَمْرٌ بِالْعُرْفِ» أن يأمر بكل معروف، و أن لا يكون نفس الأمر بالمعروف على وجه منكر.

وقوله: «وَ أَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ» أمر آخر بالمداراه معهم، و هو أقرب طريق و أجمله لإبطال نتائج جهلهم و تقليل فساد أعمالهم فإن فى مقابله الجاهل بما يعادل جهله إغراء له بالجهل و الإداهه على الغى و الضلال.

قوله تعالى: «وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» قال الراغب فى المفردات: النزغ دخول فى أمر لأجل إفساده، قال: من بعد أن نزغ الشيطان بينى و بين إخوتى. انتهى، و قيل: هو الازعاج و الإغراء و أكثر ما يكون حال الغضب، و قيل: هو من الشيطان أدنى الوسوسه، و المعانى متقاربه، و أقربها من الآيه هو الأوسط لمناسبتة الآيه السابقه الأمره بالإعراض عن الجاهلين فإن مماستهم الإنسان بالجهاله نوع مداخله من الشيطان لإثاره الغضب، و سوجه إلى جهاله مثله.

فيرجع معنى الآيه إلى أنه لو نزغ الشيطان بأعمالهم المبنيه على الجهاله و إساءتهم إليك ليسوقك بذلك إلى الغضب و الانتقام فاستعد بالله إنه سميع عليم، و الآيه مع ذلك عامه خوطب بها النبى صلى الله عليه و آله و سلم و قصد بها أمته لعصمته.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ

مُبَيَّنَةٌ نُوحٍ نحو تعليل للأمر في الآيه السابقه و الطائف من الشيطان هو الذى يطوف حول القلب ليلقى إليه الوسوسه أو وسوسته التى تطوف حول القلب لتقع فيه و تستقر عليه، و «مَنْ» بيانيه على الأول، و نشؤيه على الثانى، و مآل المعنيين مع ذلك واحد، و التذکر تفکر من الإنسان فى أمور لتهديه الى نتيجه مغفول عنها أو مجهوله قبله.

و الآيه بمنزله التعليل للأمر بالاستعاذه فى الآيه السابقه، و المعنى استعد بالله عند نزغه الشيطان فإن هذا طريق المتقين فهم إذا مسهم طائف من الشيطان. تذکروا أن الله هو ربهم الذى يملكهم و يرببهم يرجع إليه أمرهم فأرجعوا إليه الأمر فكفاهم مئونته، و دفع عنهم كيده، و رفع عنهم حجاب الغفله فإذا هم مبصرون غير مضروب على أبصارهم بحجاب الغفله.

فالآيه - كما عرفت - فى معنى قوله: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (النحل ٩٩).

و قد ظهر أيضا أن الاستعاذه بالله نوع من التذکر لأنها مبنيه على أن الله سبحانه و هو ربه هو الركن الوحيد الذى يدفع هذا العدو المهاجم بماله من قوه، و أيضا الاستعاذه نوع من التوکل كما مر.

قوله تعالى: وَ إِيَّاهُمْ يَمْدُونَهُمْ فِي الْعِثْرِ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ كَأَن الْجَمَلَةَ حَالِيهِ، و المراد بإخوانهم إخوان المشركين و هم الشياطين كما وقع قوله: إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ (الإسراء ٢٧) و الإقصار الكف و الانتهاء.

و المعنى: أن الذين اتقوا على هذا الحال من التذکر و الإبصار و الحال أن إخوان المشركين من الشياطين يمدون المشركين فى غيهم و يعينونهم ثم لا يكفون عن مدهم و إعانتهم، أو لا يكف المشركون و لا ينتهون عن غيهم.

قوله تعالى: وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْ لَا اجْتَبَيْتَهَا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ الإجتباء افتعال من الجبايه، و قولهم: «لَوْ لَا اجْتَبَيْتَهَا» كلام منهم جار مجرى التهكم و السخرية و المعنى

على ما يعطيه السياق: أنك إذا آتيتهم بآيه كذبوا بها و إذا لم تأتتهم بآيه كما لو أبطأت فيها قالوا:

لولا اجتبيت ما تسميه آيه و جمعتها من هنا و هناك فأتيت بها «قل» ليس لى من الأمر شيء «إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِيَّايَ مِنْ رَبِّي هَذَا» القرآن «بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ» يريد أن يبصركم بها «و هُدًى وَ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» .

قوله تعالى: وَ إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ الإنصات السكوت مع استماع، و قيل: هو الاستماع مع سكوت يقال: أنصت الحديث و أنصت له أى استماع، و قيل: هو الاستماع مع سكوت يقال: أنصت الحديث و أنصت له أى استمع ساكتا، و أنصته غيره و أنصت الرجل أى سكت؛ فالمعنى: استمعوا للقرآن و اسكتوا.

و الآيه بحسب دلالتها عامه و إن قيل: أنها نزلت فى الصلاه جماعه.

قوله تعالى: وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ. قسم الذكر إلا ما فى النفس و دون الجهر من القول: ثم أمر بالقسمين، و أما الجهر من القول فى الذكر فمضرب عنه لا لأنه ليس ذكرا بل لمنافاته لأدب العبوديه و يدل على ذلك ما ورد أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم سار بأصحابه فى بعض غزواته فدخلوا واديا موحشا و الليل داج فكان ينادى بعض أصحابه بالتكبير فنهاه النبى صلى الله عليه و آله و سلم و قال: إنكم لا تدعون غائبا بعيدا (١).

و التضرع من الضراعه و هو التملق بنوع من الخشوع و الخضوع، و الخيفه بناء نوع من الخوف، و المراد به نوع من الخوف يناسب ساحه قدسه تعالى ففى التضرع معنى الميل إلى المتضرع إليه و الرغبه فيه و التقرب منه، و فى الخيفه معنى اتقائه و الرهبه و التبعد عنه، فمقتضى توصيف الذكر بكونه عن تضرع و خيفه أن يكون بحركه باطنيه إليه و منه كالذى يجب شيئا

ص: ٦٣٤

(١ - ١). الروايه منقوله بالمعنى.

و يهابه فيدنو منه لحبه و يتعبد عنه لمهابته، و الله سبحانه و إن كان محض الخير لا شر فيه، و إنما الشر الذى يمسنا هو من قبلنا لكنه تعالى ذو الجلال و الإكرام له أسماء الجمال التى تدعو إليه و تجذب نحوه كل شىء.

و له أسماء الجلال التى تقهر و تدفع عنه كل شىء فحق ذكره و هو الله له الأسماء الحسنى كلها أن يكون على ما يقتضيه مجموع أسمائه الجماليه و الجلاليه، و هو أن يذكر تعالى تضرعا و خيفه، و رغبا و رهبا.

و قوله: بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ظاهره أنه قيد لقوله: «و دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ» فيكون الذكر القولى هو الموزع إلى الغدو و الآصال، و ينطبق على بعض الفرائض اليوميه.

و قوله: وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ تأكيد للأمر بالذكر فى أول الآيه و لم ينفه تعالى عن أصل الغفله، و إنما نهى عن الدخول فى زمرة الغافلين، و هم الموصوفون بالغفله الذين استقرت فيهم هذه الصفه.

و يتبين بذلك أن الذكر المطلوب المأمور به هو أن يكون الإنسان على ذكر من ربه حيناً بعد حين، و يبادر إليه لو عرضت له غفله منسيه، و لا يدع الغفله تستقر فى نفسه، و فى الآيه التاليه: دلالة على ذلك على ما سيجىء.

فمحصل الآيه: الأمر بالاستمرار على ذكر الله فى النفس تضرعا و خيفه حيناً بعد حين، و ذكره بالقول دون الجهر بالغدو و الآصال.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ ظاهر السياق أنه فى موضع التعليل للأمر الواقع فى الآيه السابقه فيكون المعنى:

اذكر ربك كذا و كذا فإن الذين عند ربك كذلك أى اذكر ربك كذا لتكون من الذين عند ربك و لا تخرج من زمرتهم.

و يتبين بذلك أن المراد بقوله: «الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ» ليس هم الملائكه فقط -على ما فسره

كثير من المفسرين-اذ لا معنى لقولنا: اذكر ربك كذا لأن الملائكة يذكرونه كذلك بل مطلق المقربين عنده تعالى على ما يفيد
لفظ «عِنْدَ رَبِّكَ» من الحضور من غير غيبه.

و يظهر من الآيه أن القرب من الله إنما هو بذكره، فبه يرتفع الحجاب بينه وبين عبده، وإلا فجميع الأشياء متساويه فى النسبه إليه
من غير اختلاف بينها بقرب أو بعد أو غير ذلك.

وقوله: «لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَبْخُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ» فيه امور ثلاثه يتصف بها الذكر النفسى كما يتصف بها الذكر
القولى فإن للنفس أن تتصف بحال عدم الاستكبار، وبحال تنزيهه تعالى، وبحال السجده و كمال الخشوع له كما يتصف بها
الذكر القولى و يعنون بها العمل الخارجى، فليس التسييح و السجود مما يختص بالأعضاء من لسان و غيره كما يدل عليه قوله:

وَ إِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ (أسرى/٤٤)، وقوله: وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (الرحمن/٦)، وقوله: وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَ مَا فِي الْأَرْضِ (النحل/٤٩).

و ما فى الآيه توصيف القوم بعدم الاستكبار و التسييح و السجود أخف و أهون مما يشتمل عليه قوله تعالى: وَ مَن عِنْدَهُ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ لَا يَسْتَحْسِرُونَ يَسْتَبْخُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (الأنبياء/٢٠) وقوله: فَإِن اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ
يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ هُمْ لَا يَشْأَمُونَ (حم السجده/٣٨) فإن هذه الآيات ظاهرها الاستمرار الذى لا يتخلله عدم، و لا يتوسطه
مناف، و الآيه التى نبحت عنها لم يأمر إلا بما لا تثبت معه الغفله فى النفس كما عرفت.

فهذه الآيه تأمر بمرتبته من الذكر هى دون ما تتضمنه آيات سورتي الأنبياء و حم السجده و الله العالم (١).

ص: ٦٣٦

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سوره الأنفال (٨): الآيات ١ الى ٦]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
رَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦)

ص: ٦٣٧

قوله تعالى: يَسْتَمْلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ الْأَنْفَالُ جمع نفل بالفتح و هو الزيادة على الشيء، و لذا يطلق النفل و النافله على التطوع لزيادته على الفريضة، و تطلق الأنفال على ما يسمّى فينا أيضا و هي الأشياء من الأموال التي لا مالك لها من الناس كرهوس الجبال، و بطون الأودية، و الديار الخربه، و القرى التي باد أهلها، و تركه من لا وارث له، و غير ذلك كأنها زياده على ما ملكه الناس فلم يملكها أحد و هي لله و لرسوله، و تطلق على غنائم الحرب كأنها زياده على ما قصد منها فإن المقصود بالحرب و الغزوه الظفر على الأعداء و استئصالهم فاذا غلبوا و ظفر بهم فقد حصل المقصود، و الأموال التي غنمه المقاتلون و القوم الذين أسروهم زياده على أصل الغرض.

و «ذات» في الأصل مؤنث «ذا» بمعنى الصاحب من الألفاظ اللازمه الإضافه غير أنه كثر استعماله في نفس الشيء بمعنى ما به الشيء هو هو فيقال: ذات الإنسان أى ما به الإنسان إنسان، و ذات زيد أى النفس الإنسانية الخاصه التي سميت بزيد، و كأن الأصل فيها النفس ذات أعمال كذا ثم أفردت بالذكر فقيل ذات الأعمال أو ما يؤدى مؤداه ثم قيل ذات، و كذلك الأمر في ذات البين فلكون الخصومه لا- تتحقق إلا- بين طرفين نسب إليها البين فقيل ذات البين أى الحاله و الرابطه السيئه التي هي صاحبه البين فالمراد بقوله: أصلحوا ذات بينكم أى أصلحوا الحاله الفاسده و الرابطه السيئه التي بينكم.

و قال الراغب في المفردات: «ذو» على وجهين: أحدهما يتوصل به الى الوصف بأسماء الأجناس و الأنواع، و يضاف الى الظاهر دون المضمّر، و يثنى و يجمع، و يقال في التشبيه: ذواتا، و فى الجمع: ذوات، و لا يستعمل شيء منها إلا مضافا.

قال: وقد استعار أصحاب المعاني الذات فجعلوه عبارة عن عين الشيء جوهرًا كان أو عرضًا، واستعملوها مفردة و مضافه الى المضمرة و بالألف و اللام، و أجروها مجرى النفس و الخاصه فقالوا: ذاته و نفسه و خاصته، و ليس ذلك من كلام العرب، و الثانى فى لفظ ذو لغه لطئى يستعملونه استعمال «الذى» و يجعل فى الرفع و النصب و الجرّ و الجمع و التأنيث على لفظ واحد نحو:

و بئرى ذو حفرت و ذو طويت

أى التى حفرت و التى طويت. انتهى.

و الذى ذكره من عدم إضافته الى الضمير منقول عن الفراء، و لازمه كون استعماله مضافا الى الضمير من كلام المولدين و الحق أنه قليل لا متروك، و قد وقع فى كلام على عليه السلام فى بعض خطبه كما فى نهج البلاغه.

و قد اختلف المفسرون فى معنى الآيه و موقعها اختلافا شديدا من جهات: من جهة معنى قوله: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ» و قد نسب الى أهل البيت عليهم السلام و بعض آخر كعبد الله بن مسعود و سعد بن أبى وقاص و طلحه بن مصرف أنهم قرءوا «يسألونك الأنفال» فقيل: عن زائده فى القراءه المشهوره، و قيل: بل مقدره فى القراءه الشاذه، و قيل: إن المراد بالأنفال غنائم الحرب، و قيل: غنائم غزوه بدر خاصه بجعل اللام فى الأنفال للعهد، و قيل: الفىء الذى لله و الرسول و الإمام، و قيل: إن الآيه منسوخه بآيه الخمس، و قيل: بل محكمه، و قد طالت المشاجره بينهم كما يعلم بالرجوع الى مطوّلات التفاسير كتفسيرى الرازى و الآلوسى و غيرهما.

و الذى ينبغى أن يقال بالاستمداد من السياق: أن الآيه بسياقها تدل على أنه كان بين هؤلاء المشار إليهم بقوله: «يَسْأَلُونَكَ» تخاصم خاصم به بعضهم بعضا بأخذ كل جانبا من القول لا يرضى به خصمه، و التفرّيع الذى فى قوله: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ» يدل

على أن الخصومه كانت في أمر الأنفال، ولازم ذلك أن يكون السؤال الواقع منهم المحكى في صدر الآيه إنما وقع لقطع الخصومه، كأنهم تخاصموا في أمر الأنفال ثم راجعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسألونه عن حكمها لتقطع بما يجيبه الخصومه و ترتفع عما بينهم.

و هذا- كما ترى- يؤيد أولا القراءه المشهوره: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ» فإن السؤال اذا تعدى بعن كان بمعنى استعلام الحكم و الخبر، و أما اذا استعمل متعديا بنفسه كان بمعنى الاستعطاف و لا يناسب المقام إلا المعنى الأول.

و ثانيا: أن الأنفال بحسب المفهوم و إن كان يعم الغنيمه و الفىء جميعا إلا ان مورد الآيه هي الأنفال بمعنى غنائم الحرب لا غنائم غزوه بدر خاصه اذ لا وجه للتخصيص فإنهم اذ تخاصموا في غنائم بدر لم يتخاصموا فيها لأنها غنائم بدر خاصه بل لأنها غنائم مأخوذه من أعداء الدين في جهاد ديني، و هو ظاهر.

و اختصاص الآيه بحسب موردها بغنيمه الحرب لا يوجب تخصيص الحكم الوارد فيها بالمورد، فان المورد لا يخصص، فإطلاق حكم الآيه بالنسبه الى كل ما يسمى بالنفل في محله، و هي تدل على ان الأنفال جميعا لله و لرسوله لا يشارك الله و رسوله فيها أحد من المؤمنين سواء في ذلك الغنيمه و الفىء.

ثم الظاهر من قوله: «قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ» و ما يعظمهم الله به بعد هذه الجملة و يحرضهم على الايمان هو ان الله سبحانه فصل الخصومه بتشريع ملكها لنفسه و لرسوله، و نزعها من ايديهم و هو يستدعى أن يكون تخاصمهم من جهه دعوى طائفه منهم ان الأنفال لها خاصه دون غيرها، او انها تختص بشىء منها، و إنكال الطائفه الاخرى ذلك، ففصل الله سبحانه خصومتهم فيها بسلب ملكهم منها و إثبات ملك نفسه و رسوله، و موعظتهم ان يكفوا عن المخاصمه و المشاجره، و أما قول من يقول: ان الغزاه يملكون ما اخذوه من الغنيمه بالإجماع فأحرى به ان يورد في الفقه دون التفسير.

و بالجمله فزاعهم فى الأنفال يكشف عن سابق عهد لهم بأن الغنيمه لهم او ما فى معناه غير انه كان حكما مجملا اختلف فيه المتخاصمان و كل يجبر النار الى قرصته، و الآيات الكريمة تؤيد ذلك.

توضيحه: ان ارتباط الآيات فى السوره و التصريح بقصه وقوعه بدر فيها يكشف ان السوره بأجمعها نزلت حول وقوعه بدر و بعيدا حتى ان ابن عباس -على ما نقل عنه- كان يسميها سوره بدر، و التى تتعرض لأمر الغنيمه من آياتها خمس آيات فى مواضع ثلاثه من السوره هى بحسب ترتيب السوره، قوله تعالى: «يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ» الآية؛ و قوله تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِإِخْوَتِكُمُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِيهِ الْجَمْعَانِ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، و قوله تعالى: «مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَشْرَى حَتَّى يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَ اللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

و سياق الآية الثانيه يفيد انها نزلت بعد الآية الاولى و الآيات الاخيره جميعا لمكان قوله فيها: «إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِيهِ الْجَمْعَانِ» فهى نازله بعد الوقعه بزمان.

ثم الآيات الاخيره تدل على انهم كلموا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فى امر الاسرى و سألوه ان لا يقتلهم و يأخذ الفديه، و فيها عتابهم على ذلك، ثم تجوز ان يأكلوا مما غنموا و كأنهم فهموا من ذلك انهم يملكون الغنائم و الأنفال على إبهام فى امره: هل يملكه جميع من حضر الوقعه او بعضهم كالمقاتلين دون القاعدین مثلا؟ و هل يملكون ذلك بالسويه فيقسم بينهم كذلك أو يختلفون فيه بالزيادة و النقصه كأن يكون سهم الفرسان منها ازيد من المشاه؟ او نحو ذلك.

و كان ذلك سبب التخاصم بينهم فتشاجروا في الامر، و رفعوا ذلك الى رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم فنزلت الآيه الاولى: «قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَ أَصِرُّوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ» الآيه؛ فخطأ تهم الآيه فيما زعموا انهم مالكو الانفال بما استفادوا من قوله: «فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ» الآيه؛ و أقرت ملك الأنفال لله و الرسول و نهتهم عن التخاصم و التشاجر، فلما انقطع بذلك تخاصمهم ارجعها النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم اليهم، و قسمها بينهم بالسويه، و عزل السهم لعهده من اصحابه لم يحضروا الوقعه، و لم يقدم مقاتلا- على قاعد، و لا- فارسا على ماش، ثم نزلت الآيه الثانيه: «وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ الْآيَه؛ بعد حين فأخرج النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم مما رد اليهم من السهام الخمس و بقي لهم الباقي. هذا ما يتحصل من انضمام الآيات المربوطه بالانفال بعضها ببعض.

فقوله تعالى: «يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ» يفيد بما ينضم اليه من قرائن السياق انهم سألو النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم عن حكم غنائم الحرب بعد ما زعموا انهم يملكون الغنيمه، و اختلفوا فيمن يملكها، او في كيفية ملكها و انقسامها بينهم، او فيهما معا، و تخاصموا في ذلك.

و قوله: «قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ» جواب عن مسألتهم و فيه بيان انهم لا يملكونها و إنما هي أنفال يملكها الله و رسوله، فيوضع حيثما اراد الله و رسوله، و قد قطع ذلك اصل ما نشب بينهم من الاختلاف و التخاصم.

و يظهر من هذا البيان ان الآيه غير ناسخه لقوله تعالى: «فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ الى آخر الآيه؛ و إنما تبيّن معناها بالتفسير، و ان قوله: «كلوا» ليس بكنايه عن ملكهم للغنيمه بحسب الأصل، و إنما المراد هو التصرف فيها و التمتع منها إلا ان يمتلكوا بقسمه النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم إياها بينهم.

و يظهر ايضا ان قوله تعالى: «وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِإِخْوَتِي الْاِيَه؛ ليس بناسخ لقوله: «قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ» الآيه؛ فإن قوله: «وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ الآيه؛ إنما يؤثر بالنسبه الى المجاهدين منعهم عن اكل تمام الغنيمه و التصرف فيه

اذ لم يكن لهم بعد نزول قوله: «الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ» إلا ذلك، وأما قوله «الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ» فلا يفيد إلا كون أصل ملكها لله والرسول من دون ان يتعرض لكيفية التصرف و جواز الأكل و التمتع، فلا يناقضه في ذلك قوله: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمُ الْآيَةَ؛ حَتَّى يَكُونَ بِالنَّسْبَةِ إِلَيْهِ نَاسِخًا، فَيَتَحَصَّلُ مِنْ مَجْمُوعِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ: أَنْ أَصْلَ الْمَلِكِ فِي الْغَنِيمَةِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ثُمَّ يَرْجِعُ أَرْبَعَهُ أَمْسَاهَا إِلَى الْمَجَاهِدِينَ يَأْكُلُونَهَا وَيَمْتَلِكُونَهَا وَيَرْجِعُ خَمْسَ مِئَةِهَا إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ وَذِي الْقُرْبَىٰ وَغَيْرِهِمْ لَهُمْ التَّصَرُّفُ فِيهَا وَالِاخْتِصَاصُ بِهَا.

و يظهر بالتأمل في البيان السابق أيضا: ان في التعبير عن الغنائم بالأنفال و هو جمع نفل بمعنى الزيادة إشاره الى تعليل الحكم بموضوعه الأيم، كأنه قيل: يسألونك عن الغنائم و هي زيادات لا مالك لها من بين الناس، و اذا كان كذلك فأجبهم بحكم الزيادات و الأنفال، و قل:

الأنفال لله و الرسول، و لازم ذلك كون الغنيمه لله و الرسول.

و بذلك ربما تأيد كون اللام في لفظ الأنفال الاول للعهد و في الثاني للجنس او الاستغراق، و تبين وجه الإظهار في قوله: «قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ» حيث لم يقل: قل هي لله و الرسول.

و يظهر بذلك أيضا: ان قوله: «قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ» حكم عام يشمل بعمومه الغنيمه و سائر الاموال الزائده في المجتمع نظير الديار الخاليه و القرى البائده و رعوس الجبال و بطون الاوديه و قطائع الملوكة و تركه من لا وارث له، أما الأنفال بمعنى الغنائم فهي متعلقه بالمقاتلين من المسلمين بعمل النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و بقى الباقي تحت ملك الله و رسوله.

هذا ما يفيدته التأمل في كرائم الآيات، و للمفسرين فيها اقاويل مختلفه تعلم بالرجوع الى مطولات التفاسير لا جدوى في نقلها و التعرض المنقوض و الإبرام فيها.

قوله تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِ؛ الْآيَاتِ» و التي بعدهما بيان ما يتميز به المؤمنون بحقيقه الايمان و يختصون به من الاوصاف الكريمة و الثواب الجزيل يثبت ليتأكد به ما يشتمل عليه قوله تعالى: «فَاتَّقُوا اللَّهَ»

وَ أَضْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ» الى آخر الآيه.

وقد ذكر الله تعالى لهم خمس صفات اختارها من بين جميع صفاتهم التي ذكرها في كلامه لكونها مستلزمه لكرائم صفاتهم على كثرتها و ملازمه لحق الايمان، و هي بحيث اذا تنبهوا لها و تأملوها كان ذلك مما يسهل لهم توطين النفس على التقوى و إصلاح ذات بينهم، و إطاعه الله و رسوله.

و هاتيك الصفات الخمس هي: وجل القلب عند ذكر الله، و زياده الايمان عند استماع آيات الله، و التوكل، و إقامة الصلاه، و الإنفاق مما رزقهم الله، و معلوم ان الصفات الثلاث الاول من اعمال القلوب، و الأخيرتان من اعمال الجوارح.

وقد روعى في ذكرها الترتيب الذى بينها بحسب الطبع، فإن نور الإيمان إنما يشرق على القلب تدريجاً، فلا يزال يشتد و يضاعف حتى يتم و يكمل بحقيقته، فأول ما يشرق يتأثر القلب بالوجل و الخشية اذا تذكر بالله عند ذكره، و هو قوله تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ» .

ثم لا- يزال ينبسط الإيمان و يتعرق و ينمو و يتفرع بالسير فى الآيات الداله عليه تعالى، و الهاديه الى المعارف الحقه، فكلما تأمل المؤمن فى شىء منها زادته ايماناً، فيقوى الايمان و يشتد حتى يستقر فى مرحله اليقين، و هو قوله تعالى: «وَ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا» .

و اذا زاد الايمان و كمل كما لا- عرف عندئذ مقام ربه و موقع نفسه، معرفه تطابق واقع الأمر، و هو أن الأمر كله الى الله سبحانه فإنه تعالى وحده هو الرب الذى إليه يرجع كل شىء، فالواجب الحق على الإنسان ان يتوكل عليه و يتبع ما يريد منه بأخذه و كيلا- فى جميع ما يهيمه فى حياته، فيرضى بما يقدر له فى مسير الحياه، و يجرى على ما يحكم عليه من الأحكام و يشرعه من الشرائع فليأتمر بأوامره و ينتهى عن نواهيه، و هو قوله تعالى: «وَ عَلَى رَبِّهِمْ

ثم اذا استقر الإيمان على كماله في القلب، استوجب ذلك أن يعطف العبد بالعبودية الى ربه، و ينصب نفسه في مقام العبودية و إخلاص الخضوع و هو الصلاة، و هي أمر بينه و بين ربه، و أن يقوم بحاجه المجتمع في نواقص مساعيهم بالإنفاق على الفقراء مما رزقه الله من مال أو علم أو غير ذلك، و هو أمر بينه و بين سائر أفراد مجتمعه، و هو قوله تعالى: «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» .

و قد ظهر مما تقدم أن قوله تعالى: «زَادَتْهُمْ إِيمَانًا» إشارة الى الزيادة من حيث الكيفية و هو الاشتداد و الكمال، دون الكمية و هي الزيادة من حيث عدد المؤمنين كما احتمله بعض المفسرين.

قوله تعالى: «أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ» قضاء منه تعالى بثبوت الايمان حقا فيمن اتصف بما عدّه تعالى من الصفات الخمس، و لذلك أطلق ما ذكره لهم من كريم الأجر في قوله: «لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ» الآية؛ فلهؤلاء من صفات الكمال و كريم الثواب و عظيم الأجر ما لكل مؤمن حقيقى.

و أما قوله: «لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ» فالمغفرة هي الصفح الإلهي عن ذنوبهم، و الرزق الكريم ما يرتقون به من نعم الجنة، و قد أراد الله سبحانه بالرزق الكريم الجنة و نعمها في مواضع من كلامه، كقوله تعالى: «فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (الحج ٥١)» و غير ذلك.

و بذلك يظهر أن المراد بقوله: «لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ» مراتب القرب و الزلفى و درجات الكرامة المعنوية، و هو كذلك. فإن المغفرة و الجنة من آثار مراتب القرب من الله سبحانه و فروعه البته.

و الذى يشتمل عليه الآيه من إثبات الدرجات لهؤلاء المؤمنين، هو ثبوت جميع الدرجات لجميعهم، لا ثبوت جميعها لكل واحد منهم فإنها من لوازم الإيمان، والإيمان مختلف ذو مراتب فالدرجات الموهوبه بإزائه كذلك لا محاله، فمن المؤمنين من له درجه واحده، ومنهم ذو الدرجتين، ومنهم ذو الدرجات على اختلاف مراتبهم فى الإيمان.

و يؤيده قوله تعالى: ﴿رَفَعَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادله ١١)، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ، هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران ١٦٣).

و بما تقدم يظهر أن تفسير بعضهم ما فى الآيه من الدرجات بدرجات الجنة، ليس على ما ينبغى، و ان المتعين كون المراد بها درجات القرب؛ كما تقدم و إن كان كل منهما يلزم الآخر.

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ الى آخر الآيتين؛ ظاهر السياق أن قوله: «كَمَا أَخْرَجَكَ» متعلق بما يدل عليه قوله تعالى: «قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ» و التقدير: أن الله حكم بكون الأنفال له و لرسوله بالحق مع كراهتهم له، كما أخرجك من بيتك بالحق مع كراهه فريق منهم له، فلجميع حق يترتب عليه من مصلحه دينهم و دنياهم ما هم غافلون عنه.

و المراد بالحق ما يقابل الباطل، و هو الأمر الثابت الذى يترتب عليه آثاره الواقعيه المطلوبه، و كون الفعل -و هو الإخراج- بالحق هو أن يكون هو المتعين الواجب بحسب الواقع، و قيل: المراد به الوحي، و قيل: المراد به الجهاد، و قيل غير ذلك، و هى معان بعيده.

و الأصل فى معنى الجدل شدة القتال، يقال: زمام جدل أى شديد القتال، و سُمى الجدل جدالا لأن فيه نزاعا بالقتل عن مذهب الى مذهب كما ذكره فى المجمع.

و معنى الآيتين: ان الله تعالى حكم فى امر الأنفال بالحق مع كراهتهم لحكمه كما أخرجك من

بيتك بالمدينه إخراجا يصاحب الحق، والحال ان فريقا من المؤمنين لكارهون لذلك، ينازعونك فى الحق بعد ما تبين لهم
اجمالا، والحال انهم يشبهون جماعه يساقون الى الموت، وهم ينظرون الى ما أعد لهم من أسبابه و أدواته (١).

[سوره الأنفال (٨): الآيات ٧ الى ١٤]

إشاره

وَ إِذِ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَهِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ يَقْطَعَ
ذَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) إِذِ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ
الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ (٩) وَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَ مَا النَّصِيرُ إِلَّا- مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذِ
يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَ كُفْرَكُمْ بِهِ وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَ لِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ
الْأَقْدَامَ (١١) إِذِ يُوحى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّثُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ
الْأَعْنَاقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكَ
فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤)

ص: ٦٤٧

(١-١). الانفال ١-٦: بحث روائى فى الانفال.

قوله تعالى: وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِخِيدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَهِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ أَى و اذكروا اذ يعدكم الله، و هو بيان منن الله و عدّ نعمه عليهم ليكونوا على بصيره من ان الله سبحانه لا يستقبلهم بأمر و لا يأتيتهم بحكم إلا بالحق و فيه حفظ مصالحهم و إسعاد جدّهم فلا يختلفوا فيما بينهم، و لا يكرهوا ما يختاره لهم، و يكلوا أمرهم إليه فيطيعوه و رسوله.

و المراد بالطائفتين العير و النفير، و العير قافله قريش و فيها تجارتهم و أموالهم و كان عليها أربعون رجلا منهم أبو سفيان بن حرب، و النفير جيش قريش و هم زهاء ألف رجل.

و قوله: «إِخِيدَى الطَّائِفَتَيْنِ» مفعول ثان لقوله: «يَعِدُكُمُ» و قوله: «أَنَّهَا لَكُمْ» بدل منه و قوله: «وَتَوَدُّونَ» الآية؛ فى موضع الحال، و المراد بغير ذات الشوكه: الطائفه غير ذات الشوكه و هى العير الذى كان أقل عدّه و عدّه من النفير، و الشوكه الحدّه، استعاره من الشوك.

و قوله: «وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ» فى موضع الحال، و المراد باحقاق الحق إظهاره و إثباته بترتيب آثاره عليه، و كلمات الله هى ما قضى به من نصره أنبيائه و إظهار دينه الحق، قال تعالى: «وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِجَانِبِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ هُمْ إِلَّا لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (الصافات ١٧٣) و قال تعالى: يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ

كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (الصف ٩/١)؛ و قرئ «بكلمته»: و هو اوجه و أقرب و الدابر ما يأتي بعد الشيء مما يتعلق به و يتصل إليه و قطع دابر الشيء، كناية عن إفناؤه و استئصاله بحيث لا يبقى بعده شيء من آثاره المتفرعه عليه المرتبطه به.

و معنى الآية: و اذكروا اذ يعدكم الله أن إحدى الطائفتين لكم تستعلون عليها بنصر الله إما العير و إما النفير و أنتم تودون أن تكون تلك الطائفة هي العير لما تعلمون من شوكة النفير، و قوتهم و شدتهم، مع ما لكم من الضعف و الهوان، و الحال ان الله يريد خلاف ذلك و هو أن تلاقوا النفير فيظهركم عليهم و يظهر ما قضى ظهوره من الحق، و يستأصل الكافرين و يقطع دابرهم.

قوله تعالى: لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَ يَبْطِلَ الْبَاطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ظاهر السياق ان اللام للغايه، و قوله: «لِيُحَقِّقَ» الآية؛ متعلق بقوله: «يَعِدُّكُمْ اللَّهُ» أى إنما وعدكم الله ذلك و هو لا- يخلف الميعاد ليحق بذلك الحق و يبطل الباطل و لو كان المجرمون يكرهونه و لا يريدونه.

و بذلك يظهر ان قوله: «لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ» الآية؛ ليس تكرارا لقوله: «وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ» و إن كان فى معناه.

قوله تعالى: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ الاستغاثه طلب الغوث و هو النصره كما فى قوله: فَاسْتغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ (القصص ١٥/١) و الإمداد معروف، و قوله: «مُرْدِفِينَ» من الإرداف و هو ان يجعل الراكب غيره ردفا له، و الردف التابع، قال الراغب: الردف التابع، و ردف المرأه عجيزتها، و الترادف: التابع، و الرادف: المتأخر، و المردف المقدم الذى اردف غيره. انتهى.

و بهذا المعنى تلائم الآية ما فى قوله تعالى فيما يشير به الى هذه القصة فى سوره آل عمران:

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمِدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (آل عمران ١٢٦).

فإن تطبيق الآيات من السورتين يوضح ان المراد بنزول الف من الملائكة مردفين نزول الف منهم يستتبعون آخرين فينطبق الألف المردفون على الثلاثة آلاف المنزلين.

قوله تعالى: وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ الضميران في قوله: «جَعَلَهُ» وقوله: «بِهِ» للإمداد بالملائكة على ما يدل عليه السياق، والمعنى ان الإمداد بالملائكة إنما كان لغرض البشرى و اطمئنان نفوسكم لا- ليهلك بأيديهم الكفار كما يشير اليه قوله تعالى بعد: «إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ» .

و بذلك يتأيد ما ذكره بعضهم: ان الملائكة لم ينزلوا ليقتلوا المشركين و لا قتلوا منهم احدا فقد قتل ثلث المقتولين منهم او النصف على عليه السلام و الثلثين الباقين او النصف سائر المسلمين.

و إنما كان للملائكة تكثير سواد المسلمين حينما اختلطوا بالقوم و تثبيت قلوب المسلمين، و إلقاء الرعب في قلوب المشركين، و سيجيء بعض الكلام في ذلك.

و قوله: وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ بيان انحصار حقيقه النصر فيه تعالى و أنه لو كان بكثرة العدد و القوه و الشوكه كانت الدائره يومئذ للمشركين بما لهم من الكثره و القوه على المسلمين على ما بهم من القله و الضعف.

و قد علل بقوله: «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» جميع مضمون الآيه و ما يتعلق به من الآيه السابقه فبعزته نصرهم و أمدهم، و بحكمته جعل نصره على هذه الشاكلة.

قوله تعالى: إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. النعاس اول النوم

و هو خفيفه و التغشيه الإحاطه، و الأمانه الامان، و قوله: «أَمَنَّهُ» أى من الله و قيل: أى من العدو، و الرجز هو الرجس و القذاره، و المراد برجز الشيطان القذاره التى يطرأ القلب من وسوسته و تسويله.

و معنى الآيه: ان النصر و الإمداد بالبشرى و اطمئنان القلوب كان فى وقت يأخذكم النعاس للأمن الذى افاضه الله على قلوبكم فنتمت و لو كنتم خائفين مرتاعين لم يأخذكم نعاس و لا نوم، و ينزل عليكم المطر ليطهركم به و يذهب عنكم وسوسه الشيطان و ليربط على قلوبكم و يشد عليها- و هو كناية عن التشجيع- و ليثبت بالمطر اقدامكم فى الحرب بتلبد الرمل او بثبات القلوب.

و الآيه تؤيد ما ورد ان المسلمين سبقهم المشركون الى الماء فنزلوا على كثيب رمل، و أصبحوا محدثين و مجننين، و أصابهم الظمأ، و وسوس اليهم الشيطان فقال: إن عدوكم قد سبقكم الى الماء، و أنتم تصلون مع الجنابه و الحدث و تسوخ اقدامكم فى الرمل فأمطر عليهم الله حتى اغتسلوا به من الجنابه، و تطهروا به من الحدث، و تلبدت به أرضهم، و أوحلت أرض عدوهم.

قوله تعالى: إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّغْبَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ حال الظرف فى أول الآيه كحال الظرف فى قوله: «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ» و قوله: «إِذْ يُعَشِّيكُمُ النُّعَاسَ» و معنى الآيه ظاهر.

و أما قوله: «فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْدَاقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ» فالظاهر أن يكون المراد بفوق الأعناق الرءوس و بكل بنان جميع الأطراف من اليدين و الرجلين أو أصابع الأيدى لثلا يطبقوا حمل السلاح بها و القبض عليه.

و من الجائز أن يكون الخطاب بقوله: «فَاضْرِبُوا» الخ؛ للملائكه كما هو المتسابق الى

الذهن، والمراد بضرب فوق الأعناق و كل بنان ظاهر معناه، أو الكناية عن اذلالهم و إبطال قوه الإمساك من أيديهم بالإرعاب، و أن يكون الخطاب للمؤمنين و المراد به تشجيعهم على عدوهم بثبيت أقدامهم و الربط على قلوبهم، و حثهم و إغراؤهم بالمشركين.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ المشاقه المخالفه و أصله الشق بمعنى البعض كأن المخالف يميل الى شق غير شق من يخالفه، و المعنى أن هذا العقاب للمشركين بما أوقع الله بهم، لأنهم خالفوا الله و رسوله و ألحوا و أصروا على ذلك و من يشاقق الله و رسوله فإن الله شديد العقاب.

قوله تعالى: ذَلِكَ فَدُوْقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ خطاب تشديدي للكفار يشير الى ما نزل بهم من الخزي و يأمرهم أن يذوقوه، و يذكر لهم أن وراء ذلك عذاب النار (١).

[سوره الأنفال (٨): الآيات ١٥ الى ٢٩]

إشارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمْ الْأَذْبَارَ (١٥) وَ مَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ ذُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَ لِيُنَبِّئَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسِينًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكَمُ وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَ هُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكُمُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)

ص: ٦٥٢

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ اللقاء مصدر لقي يلقى من المجرد و لاقي يلاقي من المزيد فيه، قال الراغب في مفردات القرآن: اللقاء مقابله الشيء و مصادفته معا، و قد يعبر به عن كل واحد منهما يقال:

لقيه يلقاه لقاء و لقيًا و لقيه، و يقال ذلك في الإدراك بالحس و بالبصر و بالبصيره قال: لقد كنتم تمنون الموت من قبل ان تلقوه، و قال: لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا، و ملاقاه الله عبارته عن القيامه و عن المصير اليه قال: و اعلموا انكم ملاقوه، و قال: الذين يظنون انهم ملاقوا الله، و اللقاء الملاقاه، قال: و قال الذين لا يرجون لقاءنا، و قال: الى ربك كدحا فملاقيه. انتهى.

و قال في المجمع: اللقاء الاجتماع على وجه المقاربه لان الاجتماع قد يكون على غير وجه المقاربه فلا يكون لقاء كاجتماع الأعراض في المحل الواحد. انتهى.

و قال فيه: الزحف الدنو قليلا قليلا، و التزاحف التدانى يقال: زحف يزحف زحفا و أزحفت للقوم اذا دنوت لقتالهم و ثبت لهم. قال الليث: الزحف جماعه يزحفون الى عدو لهم بمره و جمعه زحوف. انتهى.

و توليه الأعداء الادبار جعلهم يلونها و هو استدبار العدو و استقبال جهه الهزيمة.

و خطاب الآيه عام غير خاص بوقت دون وقت و لا غزوه دون غزوه فلا وجه لتخصيصها

بغزوه بدر و قصر حرمه الفرار من الزحف بها كما يحكى عن بعض المفسرين. على انك عرفت أن ظاهر سياق الآيات انها نزلت بعد غزوه بدر لا- يومها، و ان الآيات ذيل ما فى صدر السوره من قوله: «يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ» الآية؛ و للكلام تتمه ستوافيك فى البحث الروائى إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: وَ مَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِيهِ الْإِلَىٰ فَتَنَةٍ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ. التحرف: الزوال عن جهه الاستواء الى جهه الحرف و هو طرف الشيء و هو أن ينحرف و يعطف المقاتل من جهه الى جهه أخرى ليتمكن من عدوه و يبادر الى إلقاء الكيد عليه، و التحيز هو أخذ الحيز و هو المكان، و الفئه القطعه من جماعه الناس، و التحيز الى فئه أن يعطف المقاتل عن الانفراد بالعدو الى فئه من قومه فيلحق بهم و يقاتل معهم.

و البواء الرجوع الى مكان و الاستقرار فيه، و لذا قال الراغب: أصل البواء مساواه الأجزاء فى المكان خلاف النبوه الذى هو منافاه الأجزاء. انتهى. فمعنى قوله: بَاءَ بَغْضَبٍ مِنَ اللَّهِ أَى رَجَعَ وَمَعَهُ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ.

فمعنى الآيةين: يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا لقاء زحف أو زاحفين للقتال فلا تفروا منهم و من يفر منهم يومئذ أى وقتئذ فقد رجع و معه غضب من الله و مأواه جهنم و بس المصير إلا أن يكون فراره للتحرف لقتال أو التحيز الى فئه فلا بأس به.

قوله تعالى: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ التدبر فى السياق لا يدع شكاً فى أن الآية تشير الى وقعه بدر و ما صنعه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم من رميهم بكف من الحصا، و المؤمنون بوضع السيف فيهم و قتلهم القتل الذريع، و ذيل الآية أعنى قوله: و ليلى المؤمنين منه بلاء حسنا يدل على أن الكلام جار مجرى الامتنان منه تعالى، و قد أثبت تعالى عين ما نفاه فى جمله واحده أعنى قوله: «وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ» .

فمن جميع هذه الشواهد يتحصل أن المراد بقوله: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى» نفي أن تكون وقعه بدر و ما ظهر فيها من استئصال المشركين و الظفر بهم جاريه على مجرى العاده و المعروف من نواميس الطبيعه، و كيف يسع لقوم هم شرذمه قليلون ما فيهم على ما روى الافرسان و فرسان و بضعه أدرع و بضعه سيوف، أن يستأصلوا جيشا مجهزا بالأفراس و الأسلحة و الرجال و الزاد و الراحله، هم أضعافهم عده و لا يقاسون بهم قوه و شده، و أسباب الغلبه عندهم، و عوامل البأس معهم، و الموقف المناسب للتقدم لهم.

إلا ان الله سبحانه بما أنزل من الملائكه ثبت أقدام المؤمنين و أربع قلوب المشركين، و ألقى الهزيمة بما رماه النبي صلى الله عليه و آله و سلم من الحصاه عليهم فشملمهم المؤمنون قتلا و أسرا فبطل بذلك كيدهم و خمدت أنفاسهم و سكنت أجراسهم.

فبالحرى أن ينسب ما وقع عليهم من القتل بأيدي المؤمنين و الرمي الذي شملت شملهم و ألقى الهزيمة فيهم اليه سبحانه دون المؤمنين.

فما في الآيه من النفي جار مجرى الدعوى بنوع من العنايه، بالنظر الى استناد الوقعه بأطرافها الى سبب إلهي غير عادى، و لا ينافى ذلك استنادها بما وقع فيها من الوقائع الى اسبابها القريبه المعهوده فى الطبيعه بأن يعد المؤمنون قاتلين لمن قتلوا منهم، و النبي صلى الله عليه و آله و سلم راميا لما رماه من الحصاه.

و قوله: «وَلِيَّبِلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسِينًا ظَاهِرًا ان ضمير «مِنْهُ» راجع الى الله تعالى، و الجملة لبيان الغايه و هى معطوفه على مقدر محذوف، و التقدير: إنما فعل الله ما فعل من قتلهم و رميهم لمصالح عظيمه عنده، و ليبلى المؤمنين و يمتحنهم بلاء و امتحانا حسنا أو لينعم عليهم بنعمه حسنه، و هو إثناء خصمهم و إعلاء كلمه التوحيد بهم و إغناؤهم بما غنموا من الغنائم.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ تعليل لقوله: «وَ لِيُنذِرَ الْمُؤْمِنِينَ» أى إنه تعالى يليلهم لأنه سميع باستغاثتهم عليهم بحالهم فيليلهم منه بلاء حسنا.

و التفریع الذی فی صدر الآیه «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ» الخ؛ متعلق بما يتضمنه الآيات السابقة «إِذْ تَسْتَعْجِلُونَ رَبَّكُمْ» الى آخر الآيات من المعنى، فإنها تعد من الله عليهم من انزال الملائكة و امدادهم بهم و تغشيه النعاس اياهم و امطار السماء عليهم و ما أوحى الى الملائكة من تأييدهم و تثبيت أقدامهم و القاء الرعب فى قلوب أعدائهم، فلما بلغ الكلام هذا المبلغ فرع عليه قوله: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى» .

و على هذا فقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ» الى قوله: «وَ بِنَسِ الْمَصِيرِ» معترضه متعلقه بقوله: «فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ» او بمعناه المفهوم من الجمل المسروده، و قوله: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ» الخ؛ متصل بما قبله بحسب النظم.

و ربما يذكر فى نظم الآيه وجهان آخران:

احدهما: ان الله سبحانه لما أمرهم بالقتل فى الآيه المتقدمه ذكر عقبيها ان ما كان من الفتح يوم بدر و قهر المشركين انما كان بنصرته و معونته تذكيرا للنعمة. ذكره ابو مسلم.

و الثانى: انهم لما أمروا بالقتال ثم كان بعضهم يقول: أنا قتلت فلانا و أنا فعلت كذا نزلت الآيه على وجه التنبيه لهم لئلا يعجبوا بأعمالهم. و ربما قيل: ان الفاء فى قوله: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ» لمجرد ربط الجمل بعضها ببعض. و الوجه ما قدمناه.

قوله تعالى: «ذَلِكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ مُبِينٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ «ذَلِكُمْ» موضعه رفع، و كذلك «أَنَّ اللَّهَ» فى موضع رفع، و التقدير: الأمر ذلكم و الأمر ان الله موهن، و كذلك الوجه فيما تقدم من قوله: «ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ»، و من قال: ان «ذَلِكُمْ» مبتدأ و «فَذُوقُوهُ» خبره فقد أخطأ لأن ما بعد الفاء لا يكون خبرا لمبتدأ، و لا يجوز:

زيد فمنطلق، و لا: زيد فاضربه، إلا ان تضمير «هذا» تريد: هذا زيد فاضربه. انتهى. فمعنى

الآية: الامر ذلكم الذى ذكرناه و الامر ان الله موهن كيد الكافرين.

قوله تعالى: **إِنْ تَسِيءُوا فَتُحُوا فَتَدُكُمْ فَتُحُوا فَتَدُكُمْ فَتُحُوا فَتَدُكُمْ** الآية. ظاهر الآية بما تشتمل عليه من الجمل المسروده كقوله: **«وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ»** وقوله: **«وَإِنْ تَعُودُوا نَعِيدُ»** الخ؛ ان تكون الخطاب فيه للمشركين دون المؤمنين باشمال الكلام على الالتفات لتهكم، و هو المناسب لقوله فى الآية السابقه: **«وَإِنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ»**.

فالمعنى: ان طلبتم الفتح و سألتم الله ايها المشركون ان يفتح بينكم و بين المؤمنين فقد جاءكم الفتح بما أظهر الله من الحق يوم بدر فكانت الدائره للمؤمنين عليكم، و إن تنتهوا عن المكيد على الله و رسوله فهو خير لكم و ان تعودوا الى مثل ما كدتم نعد الى مثل ما أوهنا به كيدكم، و لن تغنى عنكم جماعتكم شيئاً و لو كثرت كما لم تغن فى هذه المره و إن الله مع المؤمنين و لن يغلب من هو معه.

و بهذا يتأيد ما ورد ان ابا جهل قال يوم بدر حين اصطف الفريقان او حين التقى الفئتان:

اللهم ان محمداً افطعنا للرحم و أتانا بما لا- نعرف فانصر عليه، و فى بعض الروايات- و هو الأنسب- كما فى المجمع عن ابي حمزه: قال ابو جهل: اللهم ربنا ديننا القديم و دين محمد الحديث فأى الدينين كان احب اليك و أرضى عندك فانصر أهله اليوم.

قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَ لَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ** الضمير على ما يفيد السباق راجع الى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، و المعنى: و لا- تولوا عن الرسول و أنتم تسمعون ما يلقى اليكم من الدعوه الحقه و ما يأمركم به و ينهاكم عنه مما فيه صلاح دينكم و دنياكم. و مصب الكلام او امره الحربيه و إن كان لفظه أعم.

قوله تعالى: **وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَ هُمْ لَا يَسْمَعُونَ** المعنى ظاهر و فيه نوع تعريض للمشركين اذ قالوا: سمعنا، و هم لا يسمعون، و قد حكى الله عنهم ذلك اذ قال بعد هذه آيات: **وَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا**

(الأنفال ٣١)، لكنهم كذبوا و لم يسمعوا و لو سمعوا لاستجابوا كما قال الله تعالى: وَ لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا (الأعراف ١٧٩)، و قال تعالى حكاية عن اصحاب السعير وَ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (الملك ١٠) فالمراد بالسمع فى الآيه الاولى تلقى الكلام الحق الذى هو صوت من طريق الاذن، و فى الآيه الثانية الانقياد لما يتضمنه الكلام الحق المسموع.

و الآيتان- كما ترى- خطاب متعلق بالمؤمنين متصل نوع اتصال بالآيه السابقه عليهما و تعريض للمشركين، فهو تعالى لما التفت الى المشركين فذمهم و تهكم عليهم بسؤالهم الفتح، و ذكر لهم ان الغلبه دائما لكلمه الايمان على كلمه الكفر و لدعوه الحق على دعوه الباطل، التفت الى حزبه و هم المؤمنون فأمرهم بالطاعه له و لرسوله، و حذرهم عن التولى عنه بعد استماع كلمه الحق، و أن يكونوا كأولئك اذ قالوا: سمعنا و هم لا يسمعون.

قوله تعالى: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ الى آخر الآيتين؛ تعريض و ذم للذين سبق ذكرهم من الكفار على ما يعطيه سياق الكلام و ما اشتملت عليه الآيه من الموصول و الضمائر المستعمله فى اولى العقل، و على هذا فالظاهر ان الام فى قوله: «الضُّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ» للعهد الذكري، و يؤول المعنى الى ان شر جميع ما يدب على الأرض من أجناس الحيوان و أنواعها هؤلاء الصم البكم الذين لا يعقلون، و إنما لم يعقلوا لأنه لا طريق لهم الى تلقى الحق لفقدهم السمع و النطق فلا يسمعون و لا ينطقون.

ثم ذكر تعالى ان الله إنما ابتلاهم بالصمم و البكمه فلا- يسمعون كلمه الحق و لا ينطقون بكلمه الحق، و بالجمله حرمهم نعمه السمع و القبول، لأنه تعالى لم يجد عندهم خيرا و لم يعلم به و لو كان لعلم، لكن لم يعلم فلم يوفقههم للسمع و القبول، و لو انه تعالى رزقهم السمع و الحال هذه لم يثبت السمع و القبول فيهم بل تولوا عن الحق و هم معرضون.

و من هنا يعلم ان المراد بالخير حسن السريره الذى يثبت به الاستعداد لقبول الحق

و يستقر فى القلب، و ان المراد بقوله: «وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ» الإسماع على تقدير عدم الاستعداد الثابت المستقر فافهم ذلك فلا يرد انه تعالى لو أسمعهم و رزقهم قبول الحق استلزم ذلك تحقق الخير فيهم و لا وجه مع ذلك لتوليهم و إعراضهم و ذلك ان الشرط فى قوله: «وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ» على تقدير فقدهم الخير على ما يفيدته السياق.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ لِمَا دَعَاكُمْ اللَّهُ وَ الرَّسُولَ الخ؛ الى إطاعه الدعوه الحقه و عدم التولى عنها بعد استماعها اكده ثانيا بالدعوه الى استجابته الله و الرسول فى دعوه الرسول، ببيان حقيقته الأمر و الركن الواقعى الذى تعتمد عليه هذه الدعوه، و هو ان هذه الدعوه دعوه الى ما يحيى الانسان بإخراجه من مهبط الفناء و البوار، و موقفه فى الوجود، ان الله سبحانه اقرب اليه من قلبه و انه سيحشر اليه فليأخذ حذره و ليجمع هممه و يعزم عزمه.

و بالجمله فلإنسان حياه حقيقه اشرف و أكمل من حياته الدينيه الدنيويه يتلبس بها اذا تم استعداده بالتحلى بحليه الدين و الدخول فى زمرة الأولياء الصالحين كما تلبس بالحياه الدنيويه حين تم استعداده للتلبس بها و هو جنين انسانى.

و على ذلك ينطبق قوله تعالى فى الآيه المبحوث عنها: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» فالتلبس بما تندب اليه الدعوه الحقه من الاسلام يجر الى الانسان هذه الحياه الحقيقه كما ان هذه الحياه منبع ينبع منه الاسلام و ينشأ منه العلم النافع و العمل الصالح، و فى معنى هذه الآيه قوله تعالى: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (النحل ٩٧).

و الآيه اعنى قوله فيها: «إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» مطلق لا- يأبى الشمول لجميع دعوته صلى الله عليه و آله و سلم المحييه للقلوب، او بعضها الذى فيه طبيعه الإحياء أو لتائجها التى هى أنواع الحياه السعيده الحقيقه كالحياه السعيده فى جوار الله سبحانه فى الآخره.

قوله تعالى: وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ الحيلولة هي التخلل وسطا، والقلب العضو المعروف. ويستعمل كثيرا في القرآن الكريم في الأمر الذي يدرك به الانسان و يظهر به أحكام عواطفه الباطنه كالحب و البغض و الخوف و الرجاء و التمني و القلق و نحو ذلك فالقلب هو الذي يقضى و يحكم، و هو الذي يحب شيئا و يبغض آخر، و هو الذي يخاف و يرجو و يتمنى و يسر و يحزن، و هو في الحقيقه النفس الانسانيه تفعل بما جهزت به من القوى و العواطف الباطنه.

فالله سبحانه هو الحائل المتوسط بين الإنسان و بين قلبه و كل ما يملكه الإنسان و يرتبط و يتصل هو به نوعا من الارتباط و الاتصال و هو اقرب اليه من كل شيء كما قال تعالى وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (ق ١٦).

□
و الى هذه الحقيقه يشير قوله: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» فهو تعالى لكونه مالكا لكل شيء و من جملتها الإنسان ملكا حقيقيا لا مالك حقيقه سواه، أقرب اليه حتى من نفسه و قوى نفسه التي يملكها لأنه سبحانه هو الذي يملكه اياها فهو حائل متوسط بينه و بينها يملكه اياها و يربطها به فافهم ذلك.

و لذلك عقب الجمله بقوله: «وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» فإن الحشر و البعث هو الذي ينجلي عنده الملك الحق لله وحده لا شريك له، و يبطل عند ذلك كل ملك صوري و سلطنه ظاهريه إلا ملكه الحق حل ثناؤه كما قال سبحانه: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (المؤمن / ١٦)، و قال: يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (الانفطار ١٩).

فكأن الآيه تقول: و اعلموا ان الله هو المالك بالحقيقه لكم و لقلوبكم و هو أقرب اليكم من كل شيء، و انه ستحشرون اليه فيظهر حقيقه ملكه لكم و سلطانه عليكم يومئذ فلا يغنى عنكم منه شيء.

□
قوله تعالى: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ

اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ قرأ على و الباقر عليهما السلام من أئمة اهل البيت و كذا زيد بن ثابت و الربيع بن انس و أبو العالیه علی ما فی المجمع: لتصيين باللام و نون التأكيد الثقيله، و القراءه المشهوره:

لا تصيين بلا الناهيه و نون التأكيد الثقيله.

و علی أى تقدير كان، تحذر الآيه جميع المؤمنين عن فتنه تختص بالظالمين منهم، و لا يتعداهم الى غيرهم من الكفار و المشركين، و اختصاصها بالظالمين من المؤمنين و أمر عامتهم مع ذلك باتقائها يدل على انها و إن كانت قائمه ببعض الجماعه لكن السيئ من أثرها يعم الجميع ثم قوله تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» تهديد للجميع بالعقاب الشديد و لا دليل يدل على اختصاص هذا العقاب بالحياه الدنيا و كونه من العذاب الدنيوى من قبيل الاختلافات القوميه و شيوع القتل و الفساد و ارتفاع الأمن و السلام و نحو ذلك.

و مقتضى ذلك ان تكون الفتنه المذكوره على اختصاصها ببعض القوم مما يوجب على عامه الامه ان يبادروا على دفعها، و يقطعوا دابرها و يطفئوا لهيب نارها بما اوجب الله عليهم من النهى عن المنكر و الأمر بالمعروف.

فيؤول معنى الكلام الى تحذير عامه المسلمين عن المساهله فى امر الاختلافات الداخليه التى تهدد وحدتهم و توجب شق عصاهم و اختلاف كلمتهم، و لا تلبث دون ان تحزبهم أحزابا، و تبعضهم أبعاضا، و يكون الملك لمن غلب منهم، و الغلبه لكلمه الفساد لا لكلمه الحق و الدين الحنيف الذى يشترك فيه عامه المسلمين.

فهذه فتنه تقوم بالبعض منهم خاصه و هم الظالمون غير ان سيئ أثره يعم الكل و يشمل الجميع فيستوعبهم الذله و المسكنه و كل ما يترقب من مر البلاء بنشوء الاختلاف فيما بينهم، و هم جميعا مسئولون عند الله و الله شديد العقاب.

و قد ابهم الله تعالى امر هذه الفتنه و لم يعرفها بكمال اسمها و رسمها غير ان قوله فيما بعد: «لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» و قوله: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» - كما تقدم -

يوضحها بعض الايضاح، و هو انها اختلاف البعض من الامه مع بعض منها فى امر يعلم جميعهم وجه الحق فيه فيجمع البعض عن قبول الحق و يقدم الى المنكر بظلمه فلا- يرد عونه عن ظلمه و لا- ينهونه عن ما ياتيه من المنكر، و ليس كل ظلم، بل الظلم الذى يسرى سوء أثره الى كافه المؤمنين و عامه الامه لمكان امره سبحانه الجميع باتقائه، فالظلم الذى هو لبعض الامه و يجب على الجميع ان يتقوه، ليس الا ما هو من قبيل التغلب على الحكومه الحقه الاسلاميه، و التظاهر بهدم القطعيات من الكتاب و السنه التى هى من حقوقها.

و أيا ما كان ففى الفتن الواقعه فى صدر الاسلام ما ينطبق عليه الآيه اوضح انطباق و قد انهدمت بها الوحده الدينيه، و بدت الفرقه و نفدت القوه، و ذهبت الشوكه على ما اشتملت عليه من القتل و السبى و النهب و هتك الاعراض و الحرمات و هجر الكتاب و إلغاء السنّه، و قال الرسول: يا رب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا.

و من شمول مشأمتها و تعرّق فسادها ان الامه لا تستطيع الخروج من أليم عذابها حتى بعد التنبه منهم لسوء فعالهم و تفریطهم فى جنب الله كلما أرادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها و ذوقوا عذاب الحريق.

و قد تظن بعض المفسرين بأن الآيه تحذر الامه و تهددهم بفتنه تشمل عامتهم و تفرّق جمعهم، و تشتت شملهم، و توعدهم بعذاب الله الشديد، و قد احسن التفظن غير انه تكلف فى توجيه العذاب بالعذاب الدنيوى، و تمحل فى تقييد ما فى الآيه من إطلاق العقاب، و أنى لهم التناوش من مكان بعيد.

و لنرجع الى لفظ الآيه:

أما على قراءه اهل البيت عليهم السلام و زيد «و اتقوا فتنه لتصيبين الذين ظلموا منكم خاصه» فاللام فى «لتصيبين» للقسم و النون الثقيله لتأكيد، و التقدير: و اتقوا فتنه اقسام لتصيبين الذين ظلموا منكم خاصه، و خاصه حال من الفتنه، و المعنى اتقوا فتنه تختص إصابته بالذين ظلموا

منكم أيها المخاطبون و هم الذين آمنوا،و عليك ان تتذكر ما سلف بيانه ان لفظ «الَّذِينَ آمَنُوا» في القرآن خطاب تشريفي للمؤمنين في اول البعثة و بدء انتشار الدعوه لو لا قرينه صارفه عن ذلك،ثم تذكر ان فتن صدر الاسلام تنتهي الى اصحاب بدر،و الآيه على أى حال يأمر الجميع ان يتقوا فتنه تثيرها بعضهم،و ليس إلا لأن أثرها السيئ يعم الجميع كما تقدم.

و أما على قراءه المشهور: «وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» فقد ذكروا:

ان لا- في «لَا تُصِيبَنَّ» ناهيه و النون لتأكيد النهي،و ليس «لَا تُصِيبَنَّ» جوابا للأمر في «اتقوا» بل الكلام جار مجرى الابتداء و الاستيناف كقوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَ جُنُودُهُ (النمل ١٨) فقد قال اولاً: «وَاتَّقُوا فِتْنَةً» ثم استأنف و قال: «لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» لاتصال الجملتين معنى.

و ربما جوز بعض النحاه ان يكون «لَا تُصِيبَنَّ» نهياً واردا في جواب الأمر كما يقال: اتق زيدا لا يضربك أو لا يضربنك و التقدير: اتق زيدا فإنك إن اتقيته لا يضربك و لم يشترط في نون التأكيد أن لا يدخل الخبر.

و الآيه- كما عرفت- تتضمن خطابا اجتماعيا متوجها الى مجموع الامه و ذلك يؤيد كون الخطاب في الآيه السابقه «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» خطابا اجتماعيا متوجها الى كافة المؤمنين،و يتفرع عليه ان المراد بالدعوه الى ما يحييهم الدعوه الى الاتفاق على الاعتصام بحبل الله و إقامة الدين و عدم التفرق فيه كما قال وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لَا تَفَرَّقُوا (آل عمران ١٠٣) و قال: أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ (الشورى ١٣) و قوله: وَ أَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ (الأنعام ١٥٣).

و بهذا يتأيد بعض الوجوه المذكوره سابقا في قوله: «إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» و كذا في قوله:

«أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ» و تختص الآيه به بحسب السياق و إن كانت تفيد معنى اوسع من

ذلك باعتبار اخذها في نفسها مفردة عن السياق، و الباحث الناقد لا يعوز عليه تمييز ذلك و الله الهادي.

قوله تعالى: وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الاستضعاف عدّ الشيء ضعيفا بتوهين امره، و التخطف و الخطف و الاختطاف أخذ الشيء بسرعه انتزاع، و الإيواء جعل الانسان ذا مأوى و مسكن يرجع اليه و يأوى، و التأيد من الأيد و هو القوه.

و السياق يدل على ان المراد بقوله: «إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ» الزمان الذي كان المسلمون محصورين بمكة قبل الهجره و هم قليل مستضعفون، و بقوله: «تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ» مشركوا العرب و صناديد قريش، و بقوله: «فَأَوَّكُم» أى بالمدينه، و بقوله: «وَ أَيْدِكُمْ بِنَصْرِهِ» ما اسبغ عليهم من نعمه النصر ببدر، و بقوله: «وَ رَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ» ما رزقهم من الغنائم و أحلها لهم.

و ما عده في الآيه من احوال المؤمنين و منته عليهم بالإيواء و إن كانت مما يختص بالمهاجرين منهم دون الأنصار إلا ان المراد الامتنان على جميعهم من المهاجرين و الأنصار فإنهم امه واحده يوحدهم دين واحد. على ان فيما ذكره الله في الآيه من منته التأيد بالنصر و الرزق من الطيبات و هما يعمان الجميع، هذا بحسب ما تقتضيه الآيه من حيث وقوعها في سياق آيات بدر، و لكن هى وحدها و باعتبار نفسها تعم جميع المسلمين من حيث انهم امه واحده يرجع لاحقهم الى سابقهم فقد بدأ ظهور الاسلام فيهم و هم قليل مستضعفون بمكة يخافون ان يتخطفهم الناس فأوهم بالمدينه و كثرهم بالأنصار و أيدهم بنصره فى بدر و غيره و رزقهم من جميع الطيبات الغنائم و غيرها من سائر النعم لعلهم يشكرون.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ إِلَى آخِرِ الْآيَتِينَ؛ الخيانه نقض الأمانه التى هى حفظ الامن

لحق من الحقوق بعهد أو وصيه و نحو ذلك، قال الراغب: الخيانه و النفاق واحد إلا ان الخيانه تقال اعتبارا بالعهد و الأمانه، و النفاق يقال اعتبارا بالدين ثم يتداخلان فالخيانه مخالفه الحق بنقض العهد فى السر، و نقيض الخيانه الأمانه يقال: خنت فلانا، و خنت امانه فلان و على ذلك قوله: لا تخونوا الله و الرسول و تخونوا أماناتكم. انتهى.

و قوله: «وَ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ» من الجائز ان يكون مجزوما معطوفا على تخونوا السابق، و المعنى: و لا تخونوا اماناتكم، و أن يكون منصوبا بحذف أن و التقدير: و أن تخونوا اماناتكم و يؤيد الوجه الثانى قوله بعده: «وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» .

و ذلك ان الخيانه و إن كانت إنما يتعلق النهى التحريمى بها عند العلم فلا نهى مع جهل بالموضوع و لا تحريم غير ان العلم من الشرائط العامه التى لا- ينجز تكليف من التكاليف المولويه إلا به فلا نكته ظاهره فى تقييد النهى عن الخيانه بالعلم مع ان العلم لكونه شرطاً عاماً مستغنى عن ذكره، و ظاهر قوله: «وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» بحذف متعلقات الفعل ان المراد: و لكم علم بأنه خيانه لا ما قيل: إن المعنى: و أنتم تعلمون مفسد الخيانه و سوء عاقبتها و تحريم الله اياها فان ذلك لا دليل عليه من جهه اللفظ و لا من جهه السياق.

فالوجه ان تكون الجملة بتقدير: و أن تخونوا أماناتكم، و يكون مجموع قوله: «ال- تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ» نهياً واحداً متعلقاً بنوع خيانه هى خيانه أمانه الله و رسوله و هى بعينها خيانه لأمانه المؤمنين انفسهم فان من الأمانه ما هى امانه الله سبحانه عند الناس كأحكامه المشرعه من عنده و منها ما هى أمانه الرسول كسيرته الحسنه، و منها ما هى امانه الناس بعضهم عند بعض كالأمانات من اموالهم او اسرارهم، و منها ما يشترك فيه الله و رسوله و المؤمنون، و هى الامور التى امر بها الله سبحانه و أجازها الرسول و ينتفع بها الناس و يقوم بها صلب مجتمعهم كالأسرار السياسيه و المقاصد الحريه التى تضيع بإفشائها آمال الدين و تضل بإذاعتها مساعى الحكومه الاسلاميه فيبطل به حق الله و رسوله و يعود ضرره الى

لهذا النوع من الأمانة خيانتة خيانه لله و رسوله و للمؤمنين فالخائن بهذه الخيانه من المؤمنين يخون الله و الرسول و هو يعلم ان هذه الامانه التي يخونها امانه لنفسه و لسائر اخوانه المؤمنين و هو يخون امانه نفسه، و لن يقدم عاقل على الخيانه لأمانه نفسه فان الانسان بعقله الموهوب له يدرك قبح الخيانه للأمانه فكيف يخون امانه نفسه؟

فالمراد بقوله: «و تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» -و الله اعلم- و تخونوا في ضمن خيانه الله و الرسول اماناتكم و الحال انكم تعلمون انها امانات انفسكم و تخونونها، و أى عاقل يقدم على خيانه امانه نفسه و الاضرار بما لا يعود إلا الى شخصه فتذليل النهى بقوله:

«وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» لتهديج العصبية الحقه و إثارة قضاء الفطره لا لبيان شرط من شرائط التكليف.

فكان بعض افراد المسلمين كان يفشى امورا من عزائم النبي صلى الله عليه و آله و سلم المكتومه من المشركين او يخبرهم ببعض اسراره فسماه الله تعالى خيانه و نهى عنه، و عدها خيانه لله و الرسول و المؤمنين.

و يؤيد ذلك قوله بعد هذا النهى: «وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ» الخ؛ فان ظاهر السياق انه متصل بما قبله غير مستقل عنه، و يفيد حينئذ ان موعظتهم فى امر الاموال و الأولاد مع النهى عن خيانه الله و الرسول و أماناتهم انما هو لإخبار المخبر منهم المشركين بأسرار رسول الله المكتومه، استماله منهم مخافه ان يتعدوا على اموالهم و أولادهم الذين تركوهم بمكه بالهجره الى المدينة، فصاروا يخبرونهم بالأخبار إلقاء للموده و استبقاء للمال و الولد او ما يشابه ذلك نظير ما كان من أبى لبابه مع بنى قريظه.

و هذا يؤيد ما ورد فى سبب النزول ان ابا سفيان خرج من مكه بمال كثير فأخبر جبرئيل النبي صلى الله عليه و آله و سلم بخروجه و أشار عليه بالخروج اليه و كتمان أمره فكتب اليه بعضهم بالخبر فأنزل الله

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ و في نزول الآية بعض أحاديث أخر سيأتي ان شاء الله في البحث الروائي التالي.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الفرقان ما يفرق به بين الشيء و الشيء، و هو في الآية بقرينه السياق و تفريعه على التقوى الفرقان بين الحق و الباطل سواء كان ذلك في الاعتقاد بالترفة بين الايمان و الكفر و كل هدى و ضلال او في العمل بالتمييز بين الطاعة و المعصية و كل ما يرضى الله او يسخطه، او في الرأى و النظر بالفصل بين الصواب و الخطأ فان ذلك كله مما تشره شجره التقوى، و قد اطلق الفرقان في الآية و لم يقيده و قد عدّ جمل الخير و الشر في الآيات السابقة و الجميع يحتاج الى الفرقان (١).

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٣٠ الى ٤٠]

إشاره

وَ إِذِ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يُقَاتِلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَجَعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصِيدُونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّفِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَاحِبُهَا عَلَيْهِمْ لِآئِنَاتِهِمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مَكَاءٌ وَتَصَدِيحَهُ فُذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)

ص: ٦٦٨

١- (١). الانفال ١٥-٢٩: بحث روائي في: الجهاد في سبيل الله؛ معنى الآية «اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» ؛ و الآية «أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ» ؛ أصحاب الجمل.

قوله تعالى: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ

الى آخر الآيه؛ قال الراغب: المكر صرف الغير عما يقصده بحيله، و ذلك ضربان: ضرب محمود و ذلك ان يتحرى به فعل جميل و على ذلك قال: و الله خير الماكرين، و مذبوم و هو ان يتحرى به فعل قبيح قال: و لا يحق المكر السيئ الا بأهله. و اذ يمكر بك الذين كفروا. فانظر كيف كان عاقبه مكرهم، و قال فى الأمرين: و مكروا مكرًا و مكرنا مكرًا، و قال بعضهم: من مكر الله امهال العبد و تمكينه من اعراض الدنيا، و لذلك قال امير المؤمنين رضى الله عنه: من وسع عليه دنياه و لم يعلم انه مكر به فهو مخدوع عن عقله. انتهى.

و فى المجمع: الإثبات الحبس يقال: رماه فأثبته أى حبسه مكانه، و أثبته فى الحرب أى جرحه جراحه مثقله. انتهى.

و مقتضى سياق الآيات ان يكون قوله: «وَ إِذِ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا» الآيه؛ معطوفه على قوله سابقا: «وَ إِذِ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ» فالآيه مسوقه لبيان ما اسبغ الله عليهم من نعمته، و أيدهم به من اياديه التى لم يكن لهم فيها صنع.

و معنى الآيه: و اذكر او و ليذكروا اذ يمكر بك الذين كفروا من قريش لإبطال دعوتك ان يوقعوا بك احد أمور ثلاثه: إما ان يحبسوك و اما ان يقتلوك و اما ان يخرجوك و يمكرون و يمكر الله و الله خير الماكرين.

و الترديد فى الآيه بين الحبس و القتل و الإخراج بيانا لما كانوا يمكرونه من مكر يدل انه كان منهم شورى يشاور فيها بعضهم بعضا فى امر النبى صلى الله عليه و آله و سلم و ما كان يهمهم و يهتمون به من اطفاء نور دعوته، و بذلك يتأيد ما ورد من اسباب النزول ان الآيه تشير الى قصه دار الندوه على ما سيجىء فى البحث الروائى التالى ان شاء الله تعالى.

قوله تعالى: «وَ إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِلَى آخِرِ الآيه الأساطير الأحاديث جمع اسطوره و يغلب فى الأخبار الخرافيه، و قوله حكاية عنهم: «قَدْ سَمِعْنَا» و قوله: «لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا» و قوله: «مِثْلَ هَذَا» و لم يقل: مثل هذه او

مثلها كل ذلك للدلالة على اهانتهم بآيات الله و إزرائهم بمقام رساله، و نظيرها قولهم: «إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» .

و المعنى: و اذا تتلى عليهم آياتنا التي لا ريب فى دلالتها على انها من عندنا و هى تكشف عن ما نريده منهم من الدين الحق لَجُوا و اعتدوا بها و هونوا امرها و أزروا برسالتنا و قالوا قد سمعنا و عقلنا هذا الذى تلى علينا لا حقيقه له الا انه من أساطير الأولين، و لو نشاء لقلنا مثله غير أننا لا نعتنى به و لا نهتم بأمثال هذه الأحاديث الخرافيه.

قوله تعالى: وَ إِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ. الإمطار هو انزال الشىء من فوق، و غلب فى قطرات الماء من المطر او هو استعاره امطار المطر لغيره كالحجاره و كيف كان فقولهم: امطر علينا حجاره من السماء بالتصريح باسم السماء للدلالة على كونه بنحو الآيه السماويه و الإهلاك الإلهى محضاً.

فإمطار الحجاره من السماء عليهم على ما سألوا احد اقسام العذاب و يبقى الباقي تحت قولهم: «أَوْ اثْنَا بَعْدَ أَلِيمٍ» و لذلك نكر العذاب و أبهم وصفه ليدل على باقى اقسام العذاب، و يفيد مجموع الكلام: ان امطر علينا حجاره من السماء او اثنا بعذاب آخر غيره يكون أليماً، و انما افرد امطار الحجاره من بين افراد العذاب الأليم بالذكر لكون الرضخ بالحجاره مما يجتمع فيه عذاب الجسم بما فيه من تألم البدن و عذاب الروح بما فيه من الذله و الإهانه.

ثم قوله: «إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ» يدل بلفظه على ان الذى سمعوه من النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بلسان القال او الحال بدعوته هو قوله: «هذا هو الحق من عند الله» و فيه شىء من معنى الحصر، و هذا غير ما كان يقوله لهم: هذا حق من عند الله فان القول الثانى يواجه به الذى لا يرى دينا سماويا و نبوه إلهيه كما كان يقوله المشركون و هم الوثنيه: ما انزل الله على بشر من شىء، و اما القول الأول فإنما يواجه به من يرى ان هناك دينا حقا من عند الله و رساله إلهيه يبلغ الحق من عنده ثم ينكر كون ما أتى به النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم أو بعض ما أتى به هو الحق من عند الله

تعالى فيواجه بأنه هو الحق من عند الله لا غيره، ثم يرد بالاشتراط في مثل قوله: اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجاره من السماء او ائتنا بعذاب اليم.

فالأشبه ان لا يكون هذا حكاية عن بعض المشركين بنسبته الى جميعهم لاتفاقهم فى رأى او رضا جميعهم بما قاله هذا القائل بل كأنه حكاية عن بعض أهل الردة ممن اسلم ثم ارتد او عن بعض اهل الكتاب المعتقدين بدين سماوى حق فافهم ذلك.

قوله تعالى: **وَ مَا لَهُمْ اَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللّٰهُ وَ هُمْ يَصُدُّوْنَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ مَا كَانُوْا اَوْلِيَاءَهُ اِلَّا اٰخِرُ الْاَيَّهٖ اسْتَفْهَامٌ فِى مَعْنَى الْاِنْكَارِ** او التعجب، وقوله: **«وَ مَا لَهُمْ»** بتقدير فعل يتعلق به الظرف و يكون قوله: **«ان لا يعذبهم»** مفعول له او هو من التضمين نظير ما قيل فى قوله: **هَلْ لَكَ اِلٰى اَنْ تَرْكَبَ (النازعات ١٨)**.

و التقدير على أى حال نحو من قولنا: **«و ما الذى يثبت و يحق لهم عدم تعذيب الله اياهم و الحال انهم يصدون عن المسجد الحرام و يمنعون المؤمنين من دخوله و ما كانوا اولياءه»**.

فقوله: **«وَ هُمْ يَصُدُّوْنَ»** الخ؛ حال عن ضمير **«يُعَذِّبُهُمْ»** و قوله: **«وَ مَا كَانُوْا اَوْلِيَاءَهُ»** حال عن ضمير **«يَصُدُّوْنَ»** .

و قوله: **«اِنَّ اَوْلِيَاءُوْهُ اِلَّا الْمُتَّقُوْنَ** تعليل لقوله: **«وَ مَا كَانُوْا اَوْلِيَاءَهُ»** أى ليس لهم ان يلوا امر البيت فيجيزوا و يمنعوا من شاءوا لأن هذا المسجد مبنى على تقوى الله فلا يلي امره إلا المتقون و ليسوا بهم.

فقوله: **«اِنَّ اَوْلِيَاءُوْهُ اِلَّا الْمُتَّقُوْنَ»** جملة خبرية تعلل القول بأمر بين يدركه كل ذى لب، و ليست الجملة إنشائية مشتملة على جعل الولاية للمتقين، و يشهد لما ذكرناه قوله بعد **«وَ لَكِنَّ اَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُوْنَ»** كما لا يخفى.

و المراد بالعذاب العذاب بالقتل أو الأعم منه على ما يفيد السياق باتصال الآية بالآية التالية، و قد تقدم ان الآية غير متصله ظاهرا بما تقدمها أى ان الآيتين **«وَ اِذْ قَالُوا اللّٰهُمَّ»** الخ؛

«وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ» الخ؛ خارجتان عن سياق الآيات، ولازم ذلك ما ذكرناه.

قوله تعالى: «وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيهً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» المكاء بضم الميم الصغير، والمكاء بصيغه المبالغة طائر بالحجاز شديد الصغير، ومنه المثل السائر: بنيك حمرى و مككىنى. و التصديه التصفيق بضرب اليد على اليد.

و قوله: «وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ» الضمير لهؤلاء الصادقين المذكورين فى الآيه السابقه و هم المشركون من قريش، و قوله: «فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» بيان إنجاز العذاب الموعد لهم بقريته التفرغ بالفاء.

و من هنا يتأيد ان الآيتين متصلتان كلاما واحدا، و قوله: «وَمَا كَانَ» الخ؛ جملة حاله و المعنى: و ما لهم ان لا يعذبهم الله و الحال انهم يصدون العباد من المؤمنين عن المسجد الحرام و ما كان صلاتهم عند البيت إلا ملعبه من المكاء و التصديه فإذا كان كذلك فليذوقوا العذاب بما كانوا يكفرون، و الالتفات فى قوله: «فَذُوقُوا الْعَذَابَ» عن الغيبه الى الخطاب لبلوغ التشديد.

و يستفاد من الآيتين ان الكعبه المشرفه لو تركت بالصد استعقب ذلك المؤاخذة الإلهيه بالعذاب قال على عليه السلام فى بعض وصاياه «اللَّهُ اللَّهُ فى بيت ربكم فانه إن ترك لم تنظروا» (١).

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيُصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ يَبِينُ حَالُ الْكُفَّارِ فِي ضَلَالٍ سَعِيهِمُ الَّذِي يُسْعَوْنَه لِإِبْطَالِ دَعْوَةِ اللَّهِ وَ الْمَنَعِ عَنْ سُلُوكِ السَّالِكِينَ لِسَبِيلِ اللَّهِ، وَ يشرح ذلك قوله: «فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ» الخ.

ص: ٦٧٣

و بهذا السياق يظهر ان قوله: «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ» بمنزله التعليل، و محصل المعنى ان الكفر سيبعثهم -بحسب سنه الله في الأسباب- الى ان يسعوا في إبطال الدعوة و الصّد عن سبيل الحق غير ان الظلم و الفسق و كل فساد لا يهدى الى الفلاح و النجاح فسينفقون اموالهم في سبيل هذه الاغراض الفاسده فتضيع الاموال في هذا الطريق فيكون ضيعتها موجب لتحصيرهم، ثم يغلبون فلا ينتفعون بها، و ذلك ان الكفار يحشرون الى جهنم و يكون ما يأتون به في الدنيا من التجمع على الشر و الخروج الى محاربه الله و رسوله بحذاء خروجهم محشورين الى جهنم يوم القيامة.

و قوله: «فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ» الى آخر الآيه؛ من ملاحم القرآن و الآيه من سوره الأنفال النازله بعد غزوه بدر فكانها تشير الى ما سيقع من غزوه أحد او هي و غيرها، و على هذا فقوله: «فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً» اشاره الى غزوه أحد او هي و غيرها، و قوله: «ثُمَّ يُغْلَبُونَ» الى فتح مکه، و قوله: «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ» الى حال من لا يوفق للإسلام منهم.

قوله تعالى: لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ الخبائثه و الطيب معنيان متقابلان و قد مر شرحهما و التمييز إخراج الشيء عما يخالفه و إلحاقه بما يوافقه بحيث ينفصل عما يخالفه، و الركم جمع الشيء فوق الشيء و منه سحاب مركوم أى مجتمع الأجزاء بعضها الى بعض و مجموعها و تراكم الأشياء تراكب بعضها بعضا.

و الآيه في موضع التعليل لما أخبر به في الآيه السابقه من حال الكفار بحسب السنه الكونيه، و هو انهم يسعون بتمام وجدهم و مقدرتهم الى ان يطفئوا نور الله و يصدوا عن سبيل الله فينفقون في ذلك الاموال و يبذلون في طريقه المساعى غير انهم لا يهتدون الى مقاصدهم و لا يبلغون آمالهم بل تضيع اموالهم، و تحبط اعمالهم و تضل مساعيهم، و يرثون بذلك

قوله تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ الانتهاء الإقلاع عن الشيء لأجل النهي، والسلف التقدم، والسنة هي الطريقه و السيره.

امر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَم ان يبلغهم ذلك و فى معناه تطميع و تخويف و حقيقته دعوه الى ترك القتال و الفتنه ليغفر الله لهم بذلك ما تقدم من قتلهم و إيذائهم للمؤمنين فان لم ينتهوا عما نهوا عنه فقد مضت سنه الله فى الأولين منهم بالإهلاك و الإباده و خسران السعى.

قوله تعالى: وَ قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ الْآيَةَ؛ و ما بعدها يشتملان على تكليف المؤمنين بحذاء ما كلف به الكفار فى الآيه السابقه، و المعنى: قل لهم إن ينتهوا عن المحاده لله و رسوله يغفر لهم ما قد سلف و ان يعودوا الى مثل ما عملوا فقد علموا بما جرى على سابقتهم قل لهم كذا و أما انت و المؤمنون فلا تهنوا فيما يهكم من إقامة الدين و تصفيه جو صالح للمؤمنين، و قاتلوهم حتى تنتهى هذه الفتن التى تفاجئكم كل يوم، و لا تكون فتنه بعد فإن انتهوا فإن الله يجازيهم بما يرى من اعمالهم، و إن تولوا عن الانتهاء فأديموا القتال و الله مولاكم فاعلموا ذلك و لا تهنوا و لا تخافوا.

و الفتنه ما يمتحن به النفوس و تكون لا- محاله مما يشق عليها، و غلب استعمالها فى المقاتل و ارتفاع الأمن و انتفاض الصلح، و كان كفار قريش يقبضون على المؤمنين بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَم قبل الهجره و بعدها الى مده فى مكه و يعذبونهم و يجبرونهم على ترك الاسلام و الرجوع الى الكفر، و كانت تسمى فتنه.

و قد ظهر بما يفيد السياق من المعنى السابق ان قوله: «وَ قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ» كناية عن تضعيفهم بالقتال حتى لا يغتروا بكفرهم و لا- يلقوا فتنه يفتتن بها المؤمنون، و يكون الدين كله لله لا- يدعو الى خلافه احد، و ان قوله: «فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» المراد

به الانتهاء عن القتال و لذلك اردفه بمثل قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» أى عندئذ يحكم الله فيهم بما يناسب اعمالهم و هو بصير بها، و ان قوله: «و إن تولوا» الخ؛ أى ان تولوا عن الانتهاء، و لم يكفوا عن القتال و لم يتركوا الفتنة فاعلموا ان الله مولاكم و ناصركم و قاتلوهم مطمئين بنصر الله نعم المولى و نعم النصير.

و قد ظهر ان قوله: «وَ يَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ» لا- ينافى إقرار اهل الكتاب على دينهم ان دخلوا فى الذمه و اعطوا الجزية فلا نسبه لآليه مع قوله تعالى: حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (التوبة ٢٩/بالتاسخيه و المنسوخيه (١)).

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٤١ الى ٥٤]

إشارة

وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبَىٰ وَ لِأَيِّمَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفَاقُحِ وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَ هُمْ بِالْعُدُوِّ الْفُضُوى وَ الرُّكْبِ أَشْفَلَ مِنْكُمْ وَ لَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِكُمْ فِي الْمِيعَادِ وَ لَكِنْ لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يُخَيَّبَ مَنْ حَتَّىٰ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ إِنْ اللَّهُ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَ لَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَ تَلَتَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ لَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَ إِلَىٰ اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَ اذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَ رِئَاءَ النَّاسِ وَ يُصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ اللَّهِ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَ إِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَ قَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُبَدِّقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ عَرَّ هَوْلًا دِينَهُمْ وَ مَنْ يَتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) وَ لَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ اذْبَارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ (٥١) كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتَبَرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بَانَفْسِهِمْ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ اعْرِفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَ كُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤)

ص: ٦٧٦

قوله تعالى: وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الغنم و الغنيمه إصابه الفائده من جهه تجاره او عمل او حرب و ينطبق بحسب مورد نزول الآيه على غنيمه الحرب، قال الراغب: الغنم-بفتحتين-معروف قال: و من البقر و الغنم ما حرمتنا عليهم شحومهما، و الغنم-بالضم فالسكون-إصابته و الظفر به ثم استعمل فى كل مظفور به من جهه العدى و غيرهم قال: و اعلموا أنما غنمتم من شىء، فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا. و المغنم ما يغنم و جمعه مغنم قال: فعند الله مغنم كثيره، انتهى.

و ذو القربى القريب و المراد به قرابه النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم او خصوص اشخاص منهم على ما يفسره الآثار القطعيه، و اليتيم هو الانسان الذى مات ابوه و هو صغير، قالوا: كل حيوان يتيم من قبل أمه إلا الانسان فان يتمه من قبل ابيه.

و قوله: «فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ» الخ؛ قرئ بفتح أن، و يمكن ان يكون بتقدير حرف الجرّ و التقدير:

و اعلموا ان ما غنمتم من شىء فعلى أن لله خمسه اى هو واقع على هذا الاساس محكوم به، و يمكن ان يكون بالعطف على أن الاولى، و حذف خبر الاولى لدلاله الكلام عليه، و التقدير:

اعلموا أن ما غنمتم من شىء يجب قسمته فاعلموا ان خمسه لله، او يكون الفاء لاستشمام معنى

الشرط فان مآل المعنى الى نحو قولنا: إن غنمتم شيئاً فخمسه لله، الخ؛ فالفاء من قبيل فاء الجزاء، وكرر أن للتأكيد، والأصل اعلموا أن ما غنمتم من شيء أن خمسه لله، الخ؛ والأصل الذى تعلق به العلم هو: ما غنمتم من شيء خمسه لله و للرسول، الخ؛ وقد قدم لفظ الجلاله للتعظيم.

□
و قوله: **إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ الْخ؛** قيد للأمر الذى يدل عليه صدر الآية أى أدوا خمسه إن كنتم آمنتم بالله و ما أنزلنا على عبدنا، و ربما قيل: انه متصل بقوله تعالى فى الآية السابقة: «فاعلموا ان الله موليكم» هذا و السياق الذى يتم بحيلولة قوله: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ» الخ؛ لا يلائم ذلك.

و قوله تعالى: **وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ** الظاهر ان المراد به القرآن بقريته تخصيص النبي صلى الله عليه و آله و سلم بالإنزال، و لو كان المراد به الملائكة المنزلون يوم بدر- كما قيل - لكان الأنسب اولاً: ان يقال: و من أنزلنا على عبدنا، او ما يؤدى هذا المعنى و ثانياً: ان يقال:

عليكم لا على عبدنا فان الملائكة كما أنزلت لنصره النبي صلى الله عليه و آله و سلم أنزلت لنصره المؤمنين معه كما يدل عليه قوله: **فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ** (الأنفال/٩).

و قوله بعد ذلك: **إِذْ يُوحَى رُبَّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَبَشَّرُوا الَّذِينَ آمَنُوا الْخ؛** (الأنفال/ ١٢). و نظيرهما قوله: **إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ بَلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُواكُمْ مِنْ قُدْرِهِمْ هَذَا يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ** (آل عمران/١٢٥).

□
و فى الالتفات من الغيبة الى التكلم فى قوله: **«إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا»** من بسط اللطف على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و اصطفاؤه بالقرب ما لا يخفى.

□
و يظهر بالتأمل فيما قدمناه من البحث فى قوله تعالى فى اول السوره: **«يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ»** الآية؛ أن المراد بقوله: **«وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ»** هو قوله

تبارك و تعالی: «فَكَلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا» بما يحتف به من الآيات.

و المراد بقوله: «يَوْمَ الْفُرْقَانِ» يوم بدر كما يشهد به قوله بعده: «يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ» فان يوم بدر هو اليوم الذى فرق الله فيه بين الحق و الباطل فأحق الحق بنصرته، و أبطل الباطل بخذلانه.

و قوله تعالى: وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ بمنزله التعليل لقوله: «يَوْمَ الْفُرْقَانِ» بما يدل عليه من تمييزه تعالى بين الحق و الباطل كأنه قيل: و الله على كل شىء قدير فهو قادر ان يفرق بين الحق و الباطل بما فرق.

فمعنى الآية-و الله أعلم-و اعلموا ان خمس ما غنمتم اى شىء كان هو لله و لرسوله و لذى القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل فردوه الى أهله ان كنتم آمنتم بالله و ما أنزله على عبده محمد صلى الله عليه و آله و سلم يوم بدر، و هو ان الأنفال و غنائم الحرب لله و لرسوله لا يشارك الله و رسوله فيها احد، و قد أجاز الله لكم أن تأكلوا منها و أباح لكم التصرف فيها فالذى أباح لكم التصرف فيها يأمركم ان تؤدوا خمسها الى أهله.

و ظاهر الآية أنها مشتملة على تشريع مؤبد كما هو ظاهر التشريعات القرآنية، و أن الحكم متعلق بما يسمى غنما و غنيمه سواء كان غنيمه حربيه مأخوذه من الكفار أو غيرها مما يطلق عليه الغنيمه لغه كأرباح المكاسب و الغوص و الملاحه و المستخرج من الكنوز و المعادن، و إن كان مورد نزول الآية هو غنيمه الحرب فليس للمورد أن يخصص.

و كذا ظاهر ما عد من موارد الصرف بقوله: «لِلَّهِ خُمُسُهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبَىٰ وَ لِالْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ» انحصار الموارد فى هؤلاء الأصناف، و أن لكل منهم سهما بمعنى استقلاله فى اخذ السهم كما يستفاد مثله من آيه الزكاه من غير ان يكون ذكر الأصناف من قبيل التمثيل.

فهذا كله مما لا ريب فيه بالنظر الى المتبادر من ظاهر معنى الآية، و عليه وردت الأخبار

من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السّلام و قد اختلفت كلمات المفسرين من أهل السنه فى تفسير الآيه و ستعرض لها فى البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَ الرِّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ لَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَ لَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا الْعُدْوَةَ بِالضَّمِّ وَ قد يكسر شفير الوادى، و الدنيا مؤنث أدنى كما ان القصوى و قد يقال: القصيا مؤنث اقصى و الركب كما قيل هو العير الذى كان عليه ابو سفيان بن حرب.

و الظرف فى قوله: «إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ» بيان ثان لقوله فى الآيه السابقه: «يَوْمَ الْفُرْقَانِ» كما أن قوله: «يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ» بيان اول له متعلق بقوله: «أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا» و اما ما يظهر من بعضهم إنه بيان لقوله: «وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» بما يفيد به حسب المورد، و المعنى: و الله قدير على نصركم و أنتم أذله اذ انتم نزول بشفير الوادى الأقرب، فلا يخفى بعده و وجه التكلف فيه.

و قوله تعالى: «وَ لَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ»، سياق ما تقدمه من الجمل الكاشفه عن تلاقى الجيشين، و كون الركب اسفل منهم، و ان الله بقدرته التى قهرت كل شىء فرق بين الحق و الباطل، و أيد الحق على الباطل، و كذا قوله بعد: «وَ لَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا» كل ذلك يشهد على أن المراد بقوله: «وَ لَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ» بيان ان التلاقى على هذا الوجه لم يكن إلا- بمشيئه خاصه من الله سبحانه حيث نزل المشركون و هم ذووا عده و شده بالعدوه القصوى و فيها الماء و الأرض الصلبة، و المؤمنون على قله عددهم و هوان امرهم بالعدوه الدنيا و لا ماء فيها و الأرض رملية لا تثبت تحت اقدامهم، و تخلص العير منهم اذ ضرب ابو سفيان فى الساحل أسفل، و تلاقى الفريقان لا- حاجز بينهما و لا مناص عندئذ عن الحرب، فالتلاقى و المواجهه على هذا الوجه ثم ظهور المؤمنين على المشركين، لم يكن عن اسباب عاديه بل لمشيئه خاصه إلهيه ظهرت بها قدرته و بانته بها عنايته الخاصه و نصره

و تأييده للمؤمنين.

فقوله: «وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِلاَّخْتِلَافِ فِي الْمِيعَادِ» بيان ان هذا التلاقي لم يكن عن سابق قصد و عزمه، و لا رويه او مشوره، و لهذا المعنى عقبه بقوله: «وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا» بما فيه من الاستدراك.

و قوله: لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنِهِ وَيُحْيِيَ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنِهِ لتعليل ما قضى به من الأمر المفعول أى إن الله إنما قضى هذا الذى جرى بينكم من التلاقي و المواجهه ثم تأييد المؤمنين و خذلان المشركين ليكون ذلك بينه ظاهره على حقيقه الحق و بطلان الباطل فيهلك من هلك عن بينه و يحيى من حى عن بينه.

و بذلك يظهر ان المراد بالهلاكه و الحياه هو الهدى و الضلال لأن ذلك هو الذى يرتبط به وجود الآيه البينه ظاهرا.

و كذا قوله: وَ إِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ عطف على قوله: «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنِهِ» الخ؛ أى و إن الله إنما قضى ما قضى و فعل ما فعل لأنه سميع يسمع دعاءكم عليم يعلم ما فى صدوركم، و فيه إشاره الى ما ذكره فى صدر الآيات: «إِذْ تَسْتَدْعِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ» الى آخر الآيات.

و على هذا السياق-أى لبيان أن مرجع الأمر فى هذه الوقعه هو القضاء الخاص الإلهى دون الأسباب العاديه-سيق قوله تعالى بعد: «إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَاةٍ قَلِيلًا» الخ؛ و قوله: «وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَنْ أَعْمَهُمُ» الخ؛ و قوله: «إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ» الخ.

و معنى الآيه يوم الفرقان هو الوقت الذى انتم نزول بالعدوه الدنيا و هم نزول بالعدوه القصى، و قد توافق نزولكم بها و نزولهم بها بحيث لو تواعدتم بينكم ان تلتقوا بهذا الميعاد لاختلقتم فيه و لم تتلاقوا على هذه الوتيره فلم يكن ذلك منكم و لا منهم و لكن ذلك كان امرا

مفعولا و الله قاضيه و حاكمه، و إنما قضى ما قضى ليظهر آيه بينه فتتم بذلك الحجه، و لأنه قد استجاب ذلك دعوتكم بما سمع من استغاثتكم و علم به من حاجه قلوبكم.

قوله تعالى: إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَاكُمْ قَلِيلًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الفشل هو الضعف مع الفرع، و التنازع هو الاختلاف و هو من النزاع نوع من القلع كأن المتنازعين ينزع كل منهما الآخر عما هو فيه، و التسليم هو النتيجة.

و الكلام على تقدير اذكر أى اذكر وقتا يريكهم الله فى منامك قليلا، و إنما أراكم قليلا ليربط بذلك قلوبكم و تطمئن نفوسكم و لو أراكم كثيرا ثم ذكرتها للمؤمنين افزعكم الضعف و اختلفتم فى امر الخروج اليهم و لكنه تعالى نجاكم بإراءتهم قليلا عن الفشل و التنازع انه عليهم بذات الصدور و هى القلوب يشهد ما يصلح به حال القلوب فى اطمئنانها و ارتباطها و قوتها.

و الآيه تدل على ان الله سبحانه أرى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم رؤيا مبشره رأى فيها ما وعده الله من إحدى الطائفتين انها لهم، و قد أراهم قليلا لا يعابأ بشأنهم، و أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم ذكر ما رآه للمؤمنين و وعدهم وعد تبشير فعزموا على لقائهم. و الدليل على ذلك قوله: «وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ» الخ؛ و هو ظاهر.

قوله تعالى: وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقْلِلْكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ معنى الآيه ظاهر، و لا تنافى بين هذه الآيه و قوله تعالى: قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْسَيْنِ التَّقَاتِ فَتَهُ تَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ أُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ (آل عمران ١٣) بناء على ان الآيه تشير الى وقعه بدر.

و ذلك ان التقليل الذى يشير اليه فى الآيه المبحوث عنها مقيد بقوله: «اذ التقيتم» و بذلك يرتفع التنافى كأن الله سبحانه أرى المؤمنين قليلا فى اعين المشركين فى بادئ الالتقاء ليستحقروا جمعهم و يشجعهم ذلك على القتال و النزال حتى اذا زحفوا و اختلطوا، كثر المؤمنين فى أعينهم فأوهم مثلهم رأى العين فأوهم بذلك عزمهم و أطار قلوبهم فكانت الهزيمة فأيه

الأنفال تشير الى اول الوقعه، و آيه آل عمران الى ما بعد الزحف و الاختلاط و قوله: «لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا» متعلق بقوله: «يُرِيكُمُوهُمْ» و تعليل لمضمونه.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الى آخر الآيات الثلاث؛ قال الراغب فى المفردات: الثبات - بفتح الثاء - ضد الزوال انتهى فهو فى المورد ضد الفرار من العدو، و هو بحسب ماله من المعنى اعم من الصبر الذى يأمر به فى قوله: «وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» فالصبر ثبات قبال المكروه بالقلب بأن لا يضعف و لا يفزع و لا يجزع، و بالبدن بأن لا يتكاسل و لا يتساهل و لا يزول عن مكانه و لا يعجل فيما لا يحمد فيه العجل فالصبر ثبات خاص.

و الريح على ما قيل، العز و الدوله، و قد ذكر الراغب ان الريح فى الآيه بمعنى الغلبه استعاره كأن من شأن الريح ان تحرك ما هبت عليه و تقلعه و تذهب به، و الغلبه على العدو يفعل به ما تفعله الريح بالشىء كالتراب فاستعيرت لها.

و قال الراغب: البطر دهش يعتري الانسان من سوء احتمال النعمه و قله القيام بحقها و صرفها الى غير وجهها قال عز و جل: «بَطْرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ» و قال: «بَطْرَتْ مَعِيشَتُهَا» و أصله: بطرت معيشتها فصرف عنه الفعل و نصب، و يقارب البطر الطرب، و هو خفه أكثر ما يعتري من الفرح و قد يقال ذلك فى الترح، و البيطره معالجه الدابه. انتهى. و الرثاء المراءاه.

و قوله: فَاثْبُتُوا أمر بمطلق الثبوت امام العدو، و عدم الفرار منه فلا يتكرر بالأمر ثانيا بالصبر كما تقدمت الإشارة اليه.

و قوله: وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا اى فى جنانكم و لسانكم فكل ذلك ذكر، و من المعلوم أن الأحوال القليله الباطنه من الإنسان هى التى تميز مقاصده و تشخصها سواء وافقها اللفظ كالفقير المستغيث بالله من فقره و هو يقول: يا غنى و المريض المستغيث به من مرضه و هو يقول: يا شافى و لو قال الفقير فى ذلك: يا الله او قال المريض فيه ذلك لكان معناه: يا غنى و يا

شافى لأنهما بمقتضى الحال الباعث لهما على الاستغاثه و الدعوه لا يريدان إلا ذلك كما هو ظاهر.

و الذى يخرج الى قتال عدوه، ثم لقيه و استعد الظرف للقتال، و ليس فيه إلا زهاق النفوس، و سفك الدماء و نقص الأطراف و كل ما يهدد الانسان بالفناء فى ما يحبه فان حاله يحوّل فكرته و يصرف إرادته الى الظفر بما يريد بالقتال، و الغلبه على العدو الذى يهدده بالفناء، و الذى حاله هذا الحال و تفكيره هذا التفكير انما يذكر الله سبحانه بما يناسب حاله و تنصرف اليه فكرته.

و هذا اقوى قرينه على ان المراد بذكر الله كثيرا ان يذكر المؤمن ما علمه تعالى من المعارف المرتبطه بهذا الشأن و هو انه تعالى إلهه و ربه الذى بيده الموت و الحياه و هو على نصره لقدير، و أنه هو مولاه نعم المولى و نعم النصير، و قد وعده النصر اذ قال: إن تنصروا الله ينصركم و يثبت اقدامكم، و أن الله لا يضيع أجر من احسن عملا، و أن مآل امره فى قتاله الى احدى الحسنين إما الظفر على عدوه و رفع رايه الاسلام و إخلاص الجو لسعادته الدينيه، و إما القتل فى سبيل الله و الانتقال بالشهاده الى رحمته، و الدخول فى حظيره كرامته، و مجاوره المقربين من اوليائه، و ما فى هذا الصف من المعارف الحقيقه التى تدعو الى السعاده الواقعيه و الكرامه السرمديه.

و قد قيد الذكر بالكثير لتجدد به روح التقوى كلما لاح للانسان ما يصرف نفسه الى حب الحياه الفانيه و التمتع بزخارف الدنيا الغارّه و الخطورات النفسانيه التى يلقيها الشيطان بتسويله.

□
و قوله: وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ ظاهر السياق ان المراد بها إطاعه ما صدر من ناحيته تعالى و ناحيه رسوله من التكاليف و الدساتير المتعلقة بالجهاد و الدفاع عن حومه الدين و بيضه الإسلام مما تشتمل عليه آيات الجهاد و السنّه النبويه كالاتداء بإتمام الحجّه

و عدم التعرض للنساء و الذرارى و الكف عن تبييت العدو و غير ذلك من أحكام الجهاد.

و قوله: «وَلَا تَتَّزِعُوا فَتَنَشَلُوا وَ تَذَهَبَ رِيحُكُمْ» اى و لا- تختلفوا بالنزاع فيما بينكم حتى يورث ذلكم ضعف ارادتكم و ذهاب عزتكم و دولتكم او غلبتكم فان اختلاف الآراء يخلّ بالوحده و يوهن القوه.

و قوله: «وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» اى الزموا الصبر على ما يصيبكم من مكاره القتال مما يهددكم به العدو، و على الإكثار من ذكر الله، و على طاعه الله و رسوله من غير ان يهزكم الحوادث او يزجركم ثقل الطاعه او تغويكم لذه المعصيه او يضلكم عجب النفس و خيلاؤها.

و قد أكد الأمر بالصبر بقوله: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» لأن الصبر اقوى عون على الشدائد و أشد ركن تجاه التلون فى العزم و سرعه التحول فى الإمراده، و هو الذى يخلى بين الانسان و بين التفكير الصحيح المطمئن حيث يهجم عليه الخواطر المشوشه و الأبتكار الموهنه لإرادته عند الأهوال و المصائب من كل جانب فالله سبحانه مع الصابرين.

و قوله: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَ رِثَاءَ النَّاسِ الْآيَه؛ نهى عن اتخاذ طريقه هؤلاء البطرين المرئين الصادين عن سبيل الله، و هم على ما يفيدته سياق الكلام فى الآيات، كقار قريش، و ما ذكره من اوصافهم أعنى البطر و رثاء الناس و الصدّ عن سبيل الله هو الذى أوجب النهى عن التشبه بهم و اتخاذ طريقتهم بدلاله السياق، و قوله:

«وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» ينبئ عن إحاطته تعالى بأعمالهم و سلطنته عليها و ملكه لها، و من المعلوم أن لازم ذلك كون أعمالهم داخله فى قضائه متمشيه بإذنه و مشيته و ما هذا شأنه لا يكون مما يعجز الله سبحانه فالجمله كالكنايه عما يصرح به بعد عدّه آيات بقوله: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (الأنفال ٥٩)».

و ظاهر أن أخذ هذه القيود أعنى قوله: «بَطْرًا وَ رِثَاءَ النَّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ»

يوجب تعلق النهى بها و التقدير:و لا تخرجوا من دياركم الى قتل اعداء الدين بطرين و مرءين بالتجملات الدينويه،و صد الناس عن سبيل الله بدعوتهم بأقوالكم و أفعالكم الى ترك تقوى الله و التوغل فى معاصيه و الانخلاع عن طاعه او امره و دساتيره فإن ذلك يحبط أعمالكم و يطفى نور الإيمان و يبطل أثره عن جمعكم فلا طريق الى نجاح السعى و الفوز بالمقاصد الهامه إلا سوى الصراط الذى يمهده الدين القويم و تسهله المله الفطريه و الله لا يهدى القوم الفاسقين الى مقاصدهم الفاسده.

و قد اشتملت الآيات الثلاث على امور سته أوجب الله سبحانه على المؤمنين رعايتها فى الحروف الإسلاميه عند اللقاء و هى الثبات،و ذكر الله كثيرا،و طاعه الله و رسوله،و عدم التنازع،و أن لا يخرجوا بطرا و رثاء الناس و يصدون عن سبيل الله.

و مجموع الامور الستة دستور حربى جامع لا يفقد من مهام الدستورات الحربيه شيئا، و التأمل الدقيق فى تفاصيل الوقائع فى تاريخ الحروب الإسلاميه الواقعه فى زمن النبى صلى الله عليه و آله و سلم كبدر و أحد و الخندق و حنين و غير ذلك يوضح أن الأمر فى الغلبه و الهزيمه كان يدور مدار رعايه المسلمين موادّ هذا الدستور الإلهى و عدم رعايتها،و المراقبه لها و المساهله فيها.

قوله تعالى: **وَ إِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَ قَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ** الى آخر الآيه؛تزيين الشيطان للانسان عمله هو إلقاءه فى قلبه كون العمل حسنا جميلا يستلذ به و ذلك بتهييج قواه الباطنه و عواطفه الداخله المتعلقة بذلك العمل فينجذب إليه قلبه،و لا يجد فراغا يعقل ماله من سوء الأثر و شؤم العقابه.

و ليس من البعيد ان يكون قوله: **«وَ قَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ»** الآيه؛مفسرا أو بمنزله المفسر للتزيين الشيطانى على ان يكون المراد بالأعمال نتائجها و هى ما هيئوه من قوه و سلاح و عدّه و ما اخرجوه من القيان و المعازف و الخمور،و ما تظاهروا به من نظام الجيش و الجنائب تساق بين أيديهم،و يمكن أن يكون المراد بها نفس الأعمال و هى أنواع تماديهم فى الغى

و الضلال و إصرارهم في محادّه الله و رسوله، و استرسالهم في الظلم و الفسق فيكون قوله المحكيّ: «لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ» مما يتم به تزيين الشيطان، و تطيب به نفوسهم فيما اهتموا به من قتال المسلمين، و قد اكمل ذلك بقوله: «وَإِنِّي لَجَارٌّ لَكُمْ»

و الجوار من سنن العرب في الجاهليه التي كانت تعيش عيشه القبائل، و من حقوق الجوار نصره الجار للجار اذا دهمه عدو، و له آثار مختلفه بحسب السنن الجاريه في المجتمعات الإنسانيه.

و قوله: فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئْتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ النكوص الإحجام عن الشيء و «عَلَى عَقَبَيْهِ» حال و العقب مؤخر القدم أى أحجم و قد رجع القهقري منهزما وراءه.

و قوله: إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ الْآيَةَ؛ تعليل لقوله: «إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ» و لعله إشاره إلى نزول الملائكه المردين الذين نصر الله المسلمين بهم، و كذا قوله: «إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ» تعليل لقوله: «إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ» و مفسر للتعليل السابق.

و المعنى و يوم الفرقان هو الوقت الذى زين الشيطان لمشركين ما كانوا يعملونه لمحادّه الله و رسوله و قتال المؤمنين، و يتلبسون به للتهىء على إطفاء نور الله، فزين ذلك فى أنظارهم، و طيب نفوسهم بقوله: لا غالب لكم اليوم من الناس، و إني مجير لكم أذب عنكم فلما تراءت الفتان فرأى المشركون المؤمنين و المؤمنون المشركين رجع الشيطان القهقري منهزما وراءه و قال للمشركين إني بريء منكم إني أرى ما لا ترونه من نزول ملائكه النصر للمؤمنين و ما عندهم من العذاب الذى يهددكم انى أخاف عذاب الله و الله شديد العقاب.

قوله تعالى: إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هُوَ لَاءِ دِينُهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ اى يقول المنافقون و هم الذين أظهروا الإيمان و أبطنوا الكفر، و الذين فى قلوبهم مرض و هم الضعفاء فى الايمان ممن لا يخلو نفسه من الشك و الارتياب. يقولون

المعنى يراد به الإزراء و الإذلال.

و قوله: وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ أَي يَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ: ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ وَ هُوَ النَّارُ.

و قوله: ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ تتمه لقولهم المحكى او إشاره الى مجموع ما يفعل بهم و ما يقول لهم الملائكة، و المعنى إنما نذيقكم عذاب الحريق بما قدمت ايديكم او: نضرب و جوهكم و أذباركم و نذيقكم عذاب الحريق بما قدمت ايديكم.

و قوله: وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ معطوف على موضع قوله: «بِمَا قَدَّمْتُمْ» أَي وَ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ أَي لَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِنْ عِبِيدِهِ فَإِنَّهُ تَعَالَى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ لَا تَخْلِفُ وَ لَا اخْتِلَافَ فِي فِعْلِهِ فَلَوْ ظَلَمَ أَحَدًا لَظَلَمَ كُلَّ أَحَدٍ، وَ لَوْ كَانَ ظَالِمًا لَكَانَ ظَالِمًا لِلْعَبِيدِ فَافْهَمِ ذَلِكَ.

و سياق الآيات يشهد على ان المراد بهؤلاء الذين يصفهم الله سبحانه بأن الملائكة يتوفاهم و يعذبهم هم المقتولون بيد من مشركى قريش.

قوله تعالى: كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الذأب و الديدن: العاده و هى العمل الذى يدوم و يجرى على الإنسان، و الطريقه التى يسلكها، و المعنى كفر هؤلاء يشبه كفر آل فرعون و الذين من قبلهم من الأمم الخاليه الكافره كفروا بآيات الله و أذنبوا بذلك فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوى لا يضعف عن اخذهم شديد العقاب اذا اخذ.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَهُ أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ الخ؛ أى ان العقاب الذى يعاقب به الله سبحانه إنما يعقب نعمه إلهيه سابقه بسلبها و استخلافها، و لا تزول نعمه من النعم الإلهيه و لا تتبدل نغمه و عقابا إلا مع تبدل محله و هو النفوس الإنسانية، فالنعمه التى انعم بها على قوم إنما أفيضت عليهم لما استعدوا لها فى

انفسهم، و لا يسلبونها و لا تتبدل بهم نقمه و عقابا إلا لتغييرهم ما بأنفسهم من الاستعداد و ملاك الإفاضه و تلبسهم باستعداد العقاب.

و هذا ضابط كلى فى تبدل النعمه الى النقمه و العقاب، و أجمع منه قوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** (الرعد ١١) و إن كان ظاهره اظهر انطباقا على تبدل النعمه الى النقمه.

و كيف كان فقوله: **«ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا»** الخ؛ من قبيل التعليل بأمر عام و تطبيقه على مورد الخاص أى اخذ مشركى قريش بذنوبهم، و عقابهم بهذا العقاب الشديد، و تبديل نعمه الله عليهم عقابا شديدا إنما هو فرع من فروع سنّه جاريه إلهيه هى ان الله لا يغير نعمه أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

و قوله: **وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** تعليل آخر بعد التعليل بقوله: **«ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا»** و ظاهره - بمقتضى إشعار السياق - ان المراد به: و ذلك بأن الله سميع لدعواتكم عليم بحاجاتكم سمع استغاثتكم و علم بحاجتكم فاستجاب لكم فعذب أعداءكم الكافرين بآيات الله، و يحتمل أن يكون المراد: ذلك بأن الله سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم فعذبهم على ذلك، و يمكن الجمع بين المحتملين.

قوله تعالى: **كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ** الخ؛ كرر التنظير السابق لمشابهه الفرض مع ما تقدم فقوله **«كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ»** الخ؛ السابق تنظير لقوله: **«ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ»** كما ان قوله: **«كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ»** - الى قوله - **وَ كُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ** ثانيا تنظير لقوله **«ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً»** الخ.

غير ان التنظير الثانى يشتمل على نوع من الالتفات فى قوله: **«فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ»** و قد وقع بحذائه فى التنظير الأول **«فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ»** من غير التفات و لعل الوجه فيه ان

التنظير الثاني لما كان مسبقا بإفاده ان الله هو المفيض بالنعم على عباده و لا يغيرها إلا عن تغييرهم ما بأنفسهم، وهذا شأن الرب بالنسبة الى عباده اقتضى ذلك ان يعد هؤلاء عبيده غير جارين على صراط عوديه ربهم و لذلك غير بعض سياق التنظيم فقال فى الثاني «كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ» و قد كان بحدائه فى الأول قوله: «كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ» و لذلك التفت هاهنا من الغيبة الى التكلم مع الغير فقال: «فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِدُونِهِمْ» للدلالة على انه سبحانه هو ربهم و هو مهلكهم، و قد أخذ المتكلم مع الغير للدلالة على عظمه الشأن و جلاله المقام، و ان له وسائل يعملون بأمره و يجرون بمشيته.

و قوله: وَ أَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ أَظْهَرَ الْمَفْعُولَ و لم يقل: و أغرقناهم ليؤمن الالتهاس برجوع الضمير الى آل فرعون و الذين من قبلهم جميعا.

و قوله تعالى: وَ كُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ أى جميع هؤلاء الذين أخذهم العذاب الإلهي من كفار قريش و آل فرعون و الذين من قبلهم كانوا ظالمين فى جنب الله.

و فيه بيان ان الله سبحانه لا يأخذ بعقابه الشديد أحدا، و لا يبدل نعمته على احد نقمه إلا اذا كان ظلما ظلما يبدل نعمه الله كفرا بآياته فهو لا يعذب بعذابه إلا مستحقه (١).

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٥٥ الى ٦٦]

إشارة

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِذَا تَفَفَّتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ (٥٧) وَإِذَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَ أَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَ أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْمَأْرُضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْفِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) أَلَمْ يَأْنِ أَنْ يَخَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)

ص: ٦٩٢

قوله تعالى: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ الكلام مسوق لبيان كون هؤلاء شر جميع الموجودات الحيه من غير شك في ذلك لما في تقييد الحكم بقوله: «عِنْدَ اللَّهِ» من الدلاله عليه فان معناه الحكم؛ و ما يحكم و يقضى به الله سبحانه لا يتطرق اليه خطأ و قد قال تعالى: لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسِي (طه ٥٢).

و قد افتتح هذه القطعه من الكلام المتعلق بهم بكونهم شر الدواب عنده لأن مغزى الكلام التحرز منهم و دفعهم، و من المغرور في الطباع ان الشر الذي لا يرجى معه خير يجب دفعه بأى وسيله صحت و أمكنت فناسب ما سيأمره في حقهم بقوله: «فَأَمَّا تَتَقَفَّنَهُمْ فِي الْحَزْبِ فَشَرُّدُ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ» الخ؛ الافتتاح ببيان كونهم شر الدواب.

و عقب قوله: «الَّذِينَ كَفَرُوا» بقوله: «فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» مبتدأ بفاء التفريع اى ان من وصفهم الذى يتفرع على كفرهم انهم لا يؤمنون، و لا يتفرع عدم الايمان على الكفر إلا اذا رسخ فى النفس رسوخا لا يرجى معه زواله فلا مطمع حينئذ فى دخول الايمان فى قلب هذا شأنه لمكان المضاده التى بين الكفر و الايمان.

و من هنا يظهر ان المراد بقوله: «الَّذِينَ كَفَرُوا» الذين ثبتوا على الكفر، و عند هذا يرجع معنى هذه الآيه الى نظيرتها السابقه: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (الأنفال ٢٣).

على ان الآيتين لما دلتا على حصر الشر عند الله فى طائفه معينه من الدواب كانت الآيه الاولى مع دلالتها على كون اهلها ممن لا يؤمنون البتة داله على ان المراد بقوله فى الآيه الثانيه:

«الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» كونهم ثابتين على كفرهم لا يزولون عنه البتة.

يُحِبُّ الْخَائِنِينَ الخيانه-على ما فى المجمع-نقض العهد فيما يؤتمن عليه، وهذا معنى الخيانه فى العهود و المواثيق، و أما الخيانه بمعناها العام فهى نقض ما أبرم من الحق فى عهد أو امانه، و النبذ هو الإلقاء و منه قوله: فَتَبَدُّوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ (آل عمران ١٨٧/) و السواء بمعنى الاستواء و العدل.

و قوله: «وَ إِمَّا تَخَافَنَّ» كقوله فى الآيه السابقه: «فَأِمَّا تَثَقَّفَتْهُمْ» و معنى الخوف ظهور امارات تدل على وقوع ما يجب التحرز منه و الحذر عنه و قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ» تعليل لقوله: «فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ» .

و معنى الآيه: و إن خفت من قوم بينك و بينهم عهد ان يخونوك و ينقضوا عهدهم و لاحت آثار دالله على ذلك فانبذ و ألق إليهم عهدهم و أعلمهم إلغاء العهد لتكونوا انتم و هم على استواء من نقض العهد او تكون مستويا على عدل فإن من العدل المعامله بالمثل و السواء لأنك إن قاتلتهم بغير إعلام إلغاء العهد كان ذلك منك خيانه و الله لا يحب الخائنين.

و ملخص الآيتين دستوران إلهيان فى قتال الذين لا عهد لهم بالنقض او بخوفه فان كان أهل العهد من الكفار لا يثبتون على عهدهم بنقضه فى كل مره فعلى ولى الأمر ان يقاتلهم و يشدد عليهم، و إن كانوا بحيث يخاف من خيانتهم و لا وثوق بعهدهم فيعلمون إلغاء عهدهم ثم يقاتلون و لا يبدأ بقتالهم قبل الإعلام فإنما ذلك خيانه، و أما إن كانوا عاهدوا و لم ينقضوا و لم يخف خيانتهم فمن الواجب حفظ عهدهم و احترام عقدهم و قد قال تعالى: فَاتَّبِعُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مِيعَدِهِمْ (التوبه ٤/). و قال: أَوْفُوا بِالْعُقُودِ (المائده ١/).

قوله تعالى: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ» القراءه المشهوره «تحسبن» بقاء الخطاب، و هو خطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم تطيبا لنفسه و تقويه لقلبه كالخطاب الآتى بعد هذه آيات «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» و كالخطاب الملقى بعده لتحريض المؤمنين: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ» .

و السبق تقدم الشيء على طالب اللحوق به، والإعجاز إيجاد العجز، وقوله: «إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ» تعليل لقوله: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الْخَيْلُ وَالْإِنْسَانُ وَالْأَنْعَامُ أَنْ يَنْفَعُوا شَيْئًا بِأَعْيُنِنَا سَبَّحَ لِلَّهِ الْمَلَأَ سَمَاوَاتِهِ الْعَرْشَ عِلْمَ الْغُيُوبِ» وقوله: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الْخَيْلُ وَالْإِنْسَانُ وَالْأَنْعَامُ أَنْ يَنْفَعُوا شَيْئًا بِأَعْيُنِنَا سَبَّحَ لِلَّهِ الْمَلَأَ سَمَاوَاتِهِ الْعَرْشَ عِلْمَ الْغُيُوبِ» والمعنى: يا أيها النبي لا تحسبن ان الذين كفروا سبقونا فلا ندركهم، لأنهم لا يعجزون الله و له قدره على كل شىء.

قوله تعالى: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ الْإِعْدَادُ تهيئه الشيء للظفر بشىء آخر و إيجاد ما يحتاج اليه الشيء المطلوب فى تحقيقه كإعداد الحطب و الوقود للإيقاد و إعداد الإيقاد للطبخ، و القوه كل ما يمكن معه عمل من الأعمال، و هى فى الحرب كل ما يتمشى به الحرب و الدفاع من أنواع الاسلحه، و الرجال المدربين و المعاهد الحربيه التى تقوم بمصلحه ذلك كله، و الرباط مبالغه فى الربط و هو أيسر من العقد يقال: ربطه يربطه ربطا و رباطه يربطه رباطه و رباطا فالكل بمعنى غير ان الرباط ابلغ من الربط، و الخيل هو الفرس، و الإرهاب قريب المعنى من التخويف.

و قوله: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ» امر عام بتهيئه المؤمنين مبلغ استطاعتهم من القوى الحربيه ما يحتاجون اليه قبال ما لهم من الأعداء فى الوجود او فى الفرض و الاعتبار فان المجتمع الانسانى لا يخلو من التآلف من أفراد او أقوام مختلفى الطباع و متضادى الأفكار لا- ينعقد بينهم مجتمع على سنه قيمه بمنافعهم إلا- و هناك مجتمع آخر يضاده فى منافعه، و يخالفه فى سنته، و لا يعيشان معا برهه من الدهر إلا و ينشب بينهما الخلاف و يؤدى ذلك الى التغلب و القهر.

فالحروب المبيده و الاختلافات الداعيه إليها مما لا مناص عنها فى المجتمعات الانسانيه و المجتمعات هى هذه المجتمعات، و يدل على ذلك ما نشاهده من تجهز الانسان فى خلقه بقوى لا يستفاد منها إلا للدفاع كالغضب و الشده فى الأبدان، و الفكر العامل فى القهر و الغلبه، فمن الواجب الفطرى على المجتمع الإسلامى أن يتجهز دائما بإعداد ما استطاع من قوه و من رباط الخيل بحسب ما يفترضه من عدو لمجتمعه الصالح.

وقوله تعالى: تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ فى مقام التعليل لقوله: «وَ أَعِدُّوا لَهُمْ» أى و أعدوا لهم ذلك لترهبوا و تخوفوا به عدو الله و عدوكم، و فى عددهم عدوا لله و لهم جميعا بيان للواقع و تأكيد فى التحريض.

و فى قوله: «وَ آخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ» دلالة على ان المراد بالأولين هم الذين يعرفهم المؤمنون بالعداوة لله و لهم، و المراد بهؤلاء الذين لا يعلمهم المؤمنون -على ما يعطيه إطلاق اللفظ- كل من لا خبره للمؤمنين بتهديده إياهم بالعداوة من المنافقين الذين هم فى كسوة المؤمنين و صورتهم يصلون و يصومون و يحجون و يجاهدون ظاهرا، و من غير المنافقين من الكفار الذين لم يتبل بهم المؤمنون بعد.

و الإرهاب باعداد القوه، و ان كان فى نفسه من الأغراض الصحيحة التى تتفرع عليها فوائد عظيمة ظاهره غير أنه ليس تمام الغرض المقصود من إعداد القوه، و لذلك أردفه بقوله «وَ مَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فى سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ» ليدل على جماع الغرض.

و ذلك ان الغرض الحقيقى من إعداد القوى هو التمكن من الدفع مبلغ الاستطاعة، و حفظ المجتمع من العدو الذى يهدده فى نفوسه و أعراضه و أمواله، و باللفظ المناسب لغرض الدين إطفاء نائره الفساد الذى يبطل كلمه الحق و يهدم بنیان دين الفطره الذى به يعبد الله فى أرضه و يقوم ملاك العدل فى عبادته.

قوله تعالى: «وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فى المجمع: الجنوح الميل، و منه جناح الطائر لأنه يميل به فى احد شقيه، و لا جناح عليه أى لا ميل الى مأثم. انتهى، و السلم بفتح السين و كسرهما الصلح.

و قوله: «وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» من تتمه الأمر بالجنوح فالجميع فى معنى امر واحد، و المعنى:

و إن مالوا الى الصلح و المسالمة فمل إليها و توكل فى ذلك على الله و لا تخف من ان يضطهدك

أسباب خفيه عنك على غفله منك و عدم تهيؤ لها فإن الله هو السميع العليم لا يغفله سبب و لا يعجزه مكر بل ينصرک و يكفيك و هذا هو الذى يثبته قوله فى الآيه التاليه: «وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ» .

و قد تقدم فيما اسلفناه من معنى التوكل على الله انه ليس اعتمادا عليه سبحانه بإلغاء الأسباب الظاهرية بل سلب الاعتماد القطعى على الأسباب الظاهرية لأن الذى يبدو للإنسان منها بعض يسير منها دون جميعها، و السبب التام الذى لا يتخلف عن مسببه هو الجميع الذى يحمل إرادته سبحانه.

فالتوكل هو توجيه الثقه و الاعتماد الى الله سبحانه الذى بمشيئته يدور رحى الأسباب عامه، و لا ينافيه ان يتوسل المتوكل بما يمكنه التوسل به من الأسباب اللائحه عليه من غير ان يلغى شيئا منها فيركب مطيه الجهل.

قوله تعالى: «وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَنْصِرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ الْآيَهُ»؛ متصله بما قبلها و هى بمنزله دفع الدخل، و ذلك ان الله سبحانه لما امر نبيه صلى الله عليه و آله و سلم بالجنوح للسلم ان جنحوا له و لم يرض بالخديعه لأنها من الخيانه فى حقوق المعاشره و المواصله للعامه و الله لا- يحب الخائنين كان امره بالجنوح المذكور مظنه سؤال و هو ان من الجائر ان يكون جنوحهم للسلم خديعه منهم يضلون بها المؤمنين ليغيروا عليهم فى شرائط و أحوال مناسبه فأجاب سبحانه بأنا امرناك بالتوكل فإن أرادوا بذلك ان يخدعوك فإن حسبك الله و قد قال تعالى: «وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ» .

و هذا مما يدل على ان هناك أسبابا وراء ما ينكشف لنا من الأسباب الطبيعیه العاديه تجرى على ما يوافق صلاح العبد المتوكل اذا خانت الأسباب الطبيعیه العاديه و لم تساعده على مطلوبه الحق.

و قوله: «هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَنْصِرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ» بمنزله الاحتجاج على قوله: «فَإِنَّ حَسْبَكَ

اللَّهُ» بذكر شواهد تدل على كفايته تعالى و هي انه ائده بنصره و ائده بالمؤمنين و ألف بين قلوبهم و هي شىء متباغضه.

قوله تعالى: وَ أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ الخ؛ قال الراغب: الإلف اجتماع مع التيام يقال:

ألفت بينهم، و منه الألفه، و يقال: للمألوف إلف و ألف قال تعالى: «إِذْ كُنْتُمْ أَغْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ» انتهى.

أورد سبحانه فى جملة ما استشهد على كفايته لمن توكل عليه انه كفى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم بتأليف قلوب المؤمنين بعد ذكر تأييده بهم، و الكلام مطلق و الملاك المذكور فيه عام يشمل جميع المؤمنين و إن كانت الآيه اظهر انطباقا على الأنصار حيث ائد الله بهم نبيه صلى الله عليه و آله و سلم فأووه و نصره و ألف الله سبحانه بدينه بينهم أنفسهم و قد نشبت فيهم الحروب المبيده و كانت قائمه على ساقها دهرا طويلا و هي حرب «بغاث» بين الأوس و الخزرج حتى اصطلحوا بنزول الاسلام فى دارهم و أصبحوا بنعمته إخوانا (١).

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ تطيب لنفس النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و قد قال تعالى قبله: «فَإِنَّ حَسْبُكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ» فالمراد- و الله اعلم- يكفيك الله بنصره و بمن اتبعك من المؤمنين، و ليس المراد ان هناك سببين كافيين او سببا كافيا ذا جزئين يتألف منهما سبب واحد كاف فالتوحيد القرآنى يأبى ذلك.

و ربما قيل: ان المعنى حسبك الله و حسب من اتبعك من المؤمنين بعطف قوله: «مَنْ اتَّبَعَكَ» على موضع الكاف من «حَسْبُكَ».

ص: ٧٠٠

و الكلام على اى حال مسوق للتحريض على القتال على ما يفيدته السياق و القرائن الخارجة فان تأثير المؤمنين فى كفايتهم له صلى الله عليه و آله و سلم إنما هو فى القتال على ما يسبق الى الذهن.

و ذكر بعضهم: ان الآيه نزلت بالبديء قبل غزوه بدر، و على هذا لا اتصال لها بما بعدها، و أما اتصالها بما قبلها فغير مقطوع به.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ التحريض و التحضيض و الترغيب و الحضّ و الحث بمعنى و الفقه ابلغ و أغزر من الفهم، و قوله «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ» اى من الذين كفروا كما قيد به الألف بعدا، و كذا قوله: «وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ» اى مائه صابره كما قيد بها «عَشْرُونَ» قبلا.

و قوله: بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ الْبَاءَ لِلْسَّبِيهِ أَوْ الْآلِهِ، و الجملة تعليليه متعلقه بقوله: «يَغْلِبُوا» اى عشرون صابرون منكم يغلبون مائتين من الذين كفروا، و مائه صابره منكم يغلبون الفا من الذين كفروا كل ذلك بسبب ان الكفار قوم لا يفقهون.

و فقدان الفقه فى الكفار و بالمقابل ثبوته فى المؤمنين هو الذى اوجب ان يعدل الواحد من العشرين من المؤمنين اكثر من العشره من المائتين من الذين كفروا حتى يغلب العشرون من هؤلاء المائتين من اولئك على ما بنى عليه الحكم فى الآيه فان المؤمنين انما يقدمون فيما يقدمون عن ايمان بالله و هو القوه التى لا يعادله و لا يقاومه اى قوه اخرى لا بتناؤه على الفقه الصحيح الذى يوصفهم بكل سجيته نفسانيه فاضله كالشجاعه و الشهامه و الجراءه و الاستقامه و الوقار و الطمأنينه و الثقة بالله و اليقين بأنه على احدى الحسينيين ان قتل فى الجنة و إن قتل فى الجنة، و أن الموت بالمعنى الذى يراه الكفار و هو الفناء لا مصداق له.

و أما الكفار فإنما اتكاؤهم على هوى النفس، و اعتمادهم على ظاهر ما يسؤله لهم الشيطان، و النفوس المعتمده على اهوائها لا تتفق للغايه و إن اتفقت احيانا فإنما تدوم عليه ما لم يلح لائح الموت الذى تراه فناء، و ما اندر ما تثبت النفس على هواها حتى حال ما تهدد بالموت و هى

على استقامه من الفكر بل تميل بأدنى ريح مخالف، و خاصه فى المخاوف العامه و المهاول الشامله كما أثبتته التاريخ من انهزام المشركين يوم بدر و هم ألف بقتل سبعين منهم، و نسبه السبعين الى الألف قريبه من نسبه الواحد الى اربعة عشر فكان انهزامهم فى معنى انهزام الأربعة عشر مقاتلا- من مقاتل واحد، و ليس ذلك إلا لفقته المؤمنين الذى يستصحب العلم و الايمان، و جهل الكفار الذى يلازمه الكفر و الهوى.

□
قوله تعالى: «الآن خفف الله عنكم و علم أن فيكم ضعفاً فإن يكن النخ؛ أى إن يكن منكم مائه صابره يغلبوا مائتين من الذين كفروا و إن يكن منكم ألف صابر يغلبوا الفين من الذين كفروا على وزان ما مرّ فى الآيه السابقه.

و قوله: «و علم أن فيكم ضعفاً» المراد به الضعف فى الصفات الروحيه و لا محاله ينتهى الى الايمان فإن الايقان بالحق هو الذى ينبعث عنه جميع السجايا الحسنه الموجهه للفتح و الظفر كالشجاعه و الصبر و الرأى المصيب و أما الضعف من حيث العده و القوه فمن الضرورى ان المؤمنين لم يزلوا يزيدون عده و قوه فى زمن النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

□
و قوله: «يأذن الله تقبيد لقوله: «يغلبوا» أى إن الله لا يشاء خلافه و الحال انكم مؤمنون صابرون، و بذلك يظهر ان قوله: «و الله مع الصابرين» يفيد فائده التعليل بالنسبه الى الإذن.

□
و قوله تعالى فى الآيه السابقه تعليلا- للحكم: «بأنهم قوم لا يفقهون» و كذا فى هذه الآيه «و علم أن فيكم ضعفاً» «و الله مع الصابرين» و عدم الفقه و الضعف الروحى و الصبر من العلل و الأسباب الخارجيه المؤثره فى الغلبه و الظفر و الفوز بلا شك يدل على ان الحكم فى الآيتين مبنى على ما اعتبر من الأوصاف الروحيه فى الفئتين: المؤمنين و الكفار، و أن القوى الداخله الروحيه التى اعتبرت فى الآيه الاولى ما فى المؤمن الواحد منها غالبه على القوى الداخله الروحيه فى عشر من الكفار عادت بعد زمان يسير يشير اليه بقوله: «الآن خفف الله عنكم»

لا يربو ما في المؤمن الواحد منها-من متوسطى المؤمنين-إلا على اثنين من الكفار فقد فقدت القوه من أثرها بنسبه الثمانين فى المائه،و تبدلت العشرون و المائتان فى الآيه الاولى الى المائه و المائتين فى الآيه الثانيه،و المائه و الألف فى الاولى الى الألف و الألفين فى الثانيه (١)(٢).

[سوره الأنفال (٨): الآيات ٤٧ الى ٧١]

اشاره

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسِيرٌ حَتَّى يُخْرَجَ فِي الْمَآرِضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٧) لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٤٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسِيرِ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)

ص: ٧٠٣

١- ١). الانفال ٥٥-٦٦: كلام فى عله تخفيف الله فى حكم الجهاد.

٢- ٢). الانفال ٥٥-٦٦: بحث روائى فى:الذين عاهد منهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ثم ينقضون عهدهم فى كل مره؛معنى الآيه «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ» .

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ﴾ الى آخر الآيات الثلاث، الأسر: الشد على المحارب بما يصير به في قبضه الآخذ له كما قيل والأسير هو المشدود عليه، وجمعه الأسرى و الاسراء و الاسارى و الأسارى، وقيل الأسارى جمع جمع و على هذا فالسبى أعم موردا من الأسر لصدقه على أخذ من لا يحتاج الى شد كالذرارى.

و الثخن بالكسر فالفتح الغلظ، و منه قولهم: أثخنه الجراح و أثخنه المرض قال الراغب في المفردات: يقال: ثخن الشيء فهو ثخين اذا غلظ فلم سل و لم يستمر في ذهابه، و منه استعير قولهم: أثخنه ضربا و استخفافا قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ﴾ «حَتَّىٰ إِذَا أَثَخَّنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوُثَاقَ» فالمراد بإثخان النبي في الأرض استقرار دينه بين الناس كأنه شيء غليظ انجمد فثبت، بعد ما كان رقيقا سائلا مخشى الزوال بالسيلان.

و العرض ما يطراً على الشيء و يسرع فيه الزوال، و لذلك سمي به متاع الدنيا لدثورته و زواله عما قليل، و الحلال وصف من الحل مقابل العقد و الحرمة كأن الشيء الحلال كان معقودا عليه محروما منه فحل بعد ذلك؛ و قد مر معنى الطيب و هو الملائمه للطبع.

و قد اختلف المفسرون في تفسير الآيات بعد اتفاقهم على انها إنما نزلت بعد وقوعه بدر تعاتب أهل بدر و تبيح لهم الغنائم (1).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ﴾ الى آخر الآيه

ص: ٧٠٤

كون الأسرى بأيديهم استعاره لتسلطهم عليهم تمام التسلط كالشيء يكون في يد الانسان يقبله كيف يشاء.

وقوله: إِنَّ يَعْلمَ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا كُنَايَه عَنِ الْإِيمَانِ أَوْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ الَّذِي يَلْزِمُهُ الْإِيمَانُ فَإِنَّهُ تَعَالَى يَعْدَهُمْ فِي آخِرِ الْآيَةِ بِالْمَغْفِرَةِ، وَلَا مَغْفِرَةَ مَعَ شَرِكٍ قَالَ تَعَالَى إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (النساء ٤٨).

و معنى الآية: يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى الذين تسلطتم عليهم و أخذت منهم الفداء: إن ثبت في قلوبكم الإيمان و علم الله منكم ذلك- و لا يعلم إلا ما ثبت و تحقق- يؤتكم خيرا مما أخذ منكم من الفداء و يغفر لكم و الله غفور رحيم.

قوله تعالى: فَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ الْخَيْبَةُ؛ أمكنه منه أى أقدره عليه، و إنما قال أولا: «خِيَانَتَكَ» ثم قال: «خَانُوا اللَّهَ» لأنهم أرادوا بالفديه ان يجمعوا الشمل ثانيا و يعودوا الى محاربهته صلى الله عليه و آله و سلم، و أما خيانتهم لله من قبل فهى كفرهم و إصرارهم على ان يطفئوا نور الله و كيدهم و مكرهم.

و معنى الآية: إن آمنوا بالله و ثبت الإيمان فى قلوبهم آتاهم الله خيرا مما أخذ منهم و غفر لهم، و أرادوا خيانتك و العود الى ما كانوا عليه من العناد و الفساد فإنهم خانوا الله من قبل فأمكنك منهم و أقدرك عليهم و هو قادر على ان يفعل بهم ذلك ثانيا، و الله عليه بخيانتهم لو خانوا حكيم فى إمكانك منهم (١).

[سوره الأنفال (٨): الآيات ٧٢ الى ٧٥]

إشارة

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَ إِنْ اسْتَنْصَرْتُمْهُمْ فَعَلَيْكُمْ النَّصِيرُ إِلا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلا تَعْلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فسادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أَوْلِيَاءَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلِي بَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)

ص: ٧٠٥

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا إِلَى قَوْلِهِ: «أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» المراد بَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا: الطائفة الأولى من المهاجرين قبل نزول السورة بدليل ما سيذكر من المهاجرين في آخر الآيات، والمراد بالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا: هم الانصار الذين آووا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَكَانَ يَنْحَصِرُ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَئِذٍ فِي هَاتَيْنِ الطَّائِفَتَيْنِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ آمَنَ بِمَكَهٍ وَلَمْ يَهَاجِرْ.

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ بَيْنَهُمْ وَوَلَايَهُ بِقَوْلِهِ: «أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» وَوَلَايَهُ أَعْمٌ مِنْ وَوَلَايَةِ الْمِيرَاثِ وَوَلَايَةِ النَّصْرَةِ وَوَلَايَةِ الْأَمْنِ، فَمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ كَافِرًا كَانَ نَافِذًا عِنْدَ الْجَمِيعِ؛ فَالْبَعْضُ

من الجميع وليّ البعض من الجميع كالمهاجر هو ولي كل مهاجر و أنصاري، و الأنصاري ولي كل أنصاري و مهاجر، كل ذلك بدليل إطلاق الولاية في الآية.

فلا- شاهد على صرف الآية الى ولاية الإرث بالمؤاخاه التي كان النبي صلى الله عليه و آله و سلم جعلها في بدء الهجره بين المهاجرين و الأنصار و كانوا يتوارثون بها زمانا حتى نسخت.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ معناه واضح و قد نفيت فيها الولاية بين المؤمنين المهاجرين و الأنصار و بين المؤمنين غير المهاجرين إلا- ولاية النصره اذا استنصروهم بشرط ان يكون الاستنصار على قوم ليس بينهم و بين المؤمنين ميثاق.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ اى ان ولايتهم بينهم لا تتعداهم الى المؤمنين فليس للمؤمنين ان يتولواهم، و ذلك ان قوله هاهنا في الكفار: «بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» كقوله في المؤمنين: «أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» إنشاء و تشريع في صورته الإخبار، و جعل الولاية بين الكفار أنفسهم لا يحتمل بحسب الاعتبار إلا ما ذكرناه من نفى تعديه عنهم الى المؤمنين.

قوله تعالى: إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فسادٌ كبيرٌ إشاره الى مصلحه جعل الولاية على النحو الذي جعلت، فان الولاية مما لا غنى عنها في مجتمع من المجتمعات البشريه سيما المجتمع الإسلامى الذى أسس على اتباع الحق و بسط العدل الإلهى كما ان تولى الكفار و هم أعداء هذا المجتمع يوجب الاختلاط بينهم فيسرى فيه عقائدهم و أخلاقهم، و تفسد سيره الإسلام المبنيه على الحق بسيرهم المبنيه على اتباع الهوى و عباده الشيطان، و قد صدق جريان الحوادث فى هذه الآونه ما أشارت اليه هذه الآية.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ اثبات لحق الإيمان على من اتصف بآثاره اتصافا حقا، و وعد لهم بالمغفره و الرزق الكريم.

قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال الراغب: أصل البرء والبراء والتبرى: التفصى مما يكره مجاورته، ولذلك قيل: برأت من المرض و برأت من فلان و تبرأت، و أبرأته من كذا و برأته، و رجل برىء و قوم راء و بريئون قال تعالى: براءة من الله و رسوله. انتهى.

و الآية بالنسبة الى الآيات التالية كالعنوان المصدر به الكلام المشير الى خلاصه القول على نهج سائر السور المفصلة التي تشير الآية و الآيات من اولها على إجمال الغرض المسرود لأجل بيانه آياتها.

و الخطاب فى الآية للمؤمنين او للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و لهم على ما يدل عليه قوله: ﴿عَاهَدْتُمْ﴾ و قد أخذ الله تعالى و منه الخطاب و رسوله صلى الله عليه و آله و سلم و هو الواسطه، و المشركون و هم الذين أريدت البراءه منهم، و وجه الخطاب ليبلغ اليهم جميعا فى الغيبه، و هذه الطريقه فى الأحكام و الفرامين المراد إيصالها الى الناس نوع تعظيم لصاحب الحكم و الأمر.

و الآيه تتضمن إنشاء الحكم و القضاء بالبراءه من هؤلاء المشركين و ليس بتشريع محض بدليل تشريكه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم في البراءه فان دأب القرآن ان ينسب الحكم التشريعى المحض الى الله سبحانه وحده، و قد قال تعالى: وَ لَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (الكهف ٢٦) و لا ينسب الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم إلا الحكم بالمعنى الذى فى الولايه و السياسه و قطع الخصومه.

فالمراد بالآيه القضاء برفع الأمان عن الذين عاهدوهم من المشركين و ليس رفعا جزافيا و إبطالا للعهد من غير سبب يبيح ذلك فان الله تعالى سيذكر بعد عده آيات أنهم لا وثوق بعهدهم الذى عاهدوه و قد فسق اكثرهم و لم يراعوا حرمة العهد و نقضوا ميثاقهم، و قد أباح تعالى عند ذلك إبطال العهد بالمقابله نقضا بنقض حيث قال: وَ إِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (الأنفال ٥٨) فأباح إبطال العهد عند مخافه الخيانه و لم يرض مع ذلك إلا بابلاغ النقض اليهم لئلا يؤخذوا على الغفله فيكون ذلك من الخيانه المحظوره.

و لو كان إبطالا لعهدهم من غير سبب مبيح لذلك من قبل المشركين لم يفرق بين من دام على عهده منهم و بين من لم يدم عليه، و قد قال تعالى مستثنيا: «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَهُمْ وَ لَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحِدًا فَآتَمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» .

و لم يرض تعالى بنقض عهد هؤلاء المعاهدين الناقضين لعهدهم دون ان ضرب لهم أجلا ليفكروا فى أمرهم و يرتثوا رأيهم و لا يكونوا مأخوذين بالمباغته و المفاجأه.

فمحصل الآيه الحكم ببطلان العهد و رفع الأمان عن جماعه من المشركين كانوا قد عاهدوا المسلمين ثم نقضه اكثرهم و لم يبق الى من بقى منهم وثوق تطمئن به النفس الى عهدهم و تعتمد على يمينهم و تأمن شرهم و أنواع مكرهم.

قوله تعالى: فَسَيَّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ السياحه هى السير فى الأرض و الجرى و لذلك يقال

للماء الدائم الجريه فى ساحه:السائح.

و أمرهم بالسياحه اربعة اشهر كنايه عن جعلهم فى مأمن فى هذه البرهه من الزمان و تركهم بحيث لا- يتعرض لهم بشر حتى يختاروا ما يرونه أنفع بحالهم من البقاء او الفناء مع ما فى قوله:

«وَاعْلَمُوا أَنكُم غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ» من إعلامهم ان الأصلح بحالهم رفض الشرك، و الإقبال الى دين التوحيد، و موعظتهم ان لا يهلكوا أنفسهم بالاستكبار و التعرض للخزى الإلهى.

و قد وجه فى الآيه الخطاب إليهم بالالتفات من الغيبه الى الخطاب لما فى توجيه الخطاب القاطع و الإراده الجازمه الى الخصم من الدلاله على بسط الاستيلاء و الظهور عليه و استدلاله و استحقاق ما عنده من قوه و شده.

قوله تعالى: وَ أَذَانَ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ الْأَذَانَ هُوَ الْإِعْلَامُ، و ليست الآيه تكرر القول تعالى السابق: «بِرَاءةٍ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ» فإن الجملتين و ان رجعتا الى معنى واحد و هو البراءه من المشركين إلا ان الآيه الاولى إعلام البراءه و إبلاغه الى المشركين بدليل قوله فى ذيل الآيه:

«إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» بخلاف الآيه الثانيه فإن وجه الخطاب فيه الى الناس ليعلموا براءه الله و رسوله من المشركين، و يستعدوا و يتهيئوا لإنفاذ أمر الله فيهم بعد انسلاخ الاشهر الحرم بدليل قوله: «إِلَى النَّاسِ» و قوله تفريعا: «فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» الى آخر الآيه.

و قد اختلفوا فى تعيين المراد بيوم الحج الاكبر على أقوال:

منها: أنه يوم النحر من سنه التسع من الهجره لأنه كان يوما اجتمع فيه المسلمون و المشركون و لم يحج بعد ذلك العام مشرك، و هو المؤيد بالأحاديث المرويه عن أئمه اهل البيت عليهم السلام و الأنسب بأذان البراءه، و الاعتبار يساعد عليه لأنه كان اكبر يوم اجتمع فيه

المسلمون و المشركون من اهل الحج عامه بمنى و قد ورد من طرق اهل السنّه روايات فى هذا المعنى غير ان مدلول جملها أن الحج الاكبر اسم يوم النحر فيتكرر على هذا كل سنه و لم ثبت من طريق النقل تسميه على هذا النحو.

و منها: أنه يوم عرفه لأن فيه الوقوف، و الحج الاصغر هو الذى ليس فيه وقوف و هو العمره، و هو استحسان لا دليل عليه، و لا سبيل الى تشخيص صحته.

و منها: أنه اليوم الثانى ليوم النحر لأن الإمام يخطب فيه و سقم هذا الوجه ظاهر.

و منها: أنه جميع ايام الحج كما يقال: يوم الجمل، و يوم صفين، و يوم بغاث، و يراد به الحين و الزمان، و هذا القول لا يقابل سائر الاقوال كل المقابله فانه انما يبين أن المراد باليوم جميع ايام الحج، و أما وجه تسميه هذا الحج بالحج الاكبر فيمكن أن يوجه ببعض ما فى الاقوال السابقه كما فى القول الاول.

و كيف كان فالاعتبار لا يساعد على هذا القول لأن وجود يوم بين ايام الحج يجتمع فيه عامه اهل الحج يتمكن فيه من أذان براءه كل التمكن كيوم النحر يصرف قوله: «يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ» الى نفسه، و يمنع شموله لسائر ايام الحج التى لا يجتمع فيها الناس ذاك الاجتماع.

ثم التفت سبحانه الى المشركين ثانيا و ذكّرهم أنهم غير معجزين لله ليكونوا على بصيره من امرهم كما ذكّرهم بذلك فى الآيه السابقه بقوله: «وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ» غير انه زاد عليه فى هذه الآيه قوله: «فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ» ليكون تصريحاً بما لّوح اليه فى الآيه السابقه فان التذكير بأنهم غير معجزى الله انما كان بمنزله العظه و بذل النصح لهم لئلا يلقوا بأيديهم الى التهلكه باختيار البقاء على الشرك و التولى عن الدخول فى دين التوحيد ففى الترديد تهديد و نصيحه و عظه.

ثم التفت سبحانه الى رسوله فخطابه ان يبشر الذين كفروا بعذاب أليم فقال: «وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» و الوجه فى الالتفات الذى فى قوله: «فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ» الخ؛ ما

تقدم فى قوله: «فَسَيُحُوا فِي الْمَارِضِ» الخ؛ و فى الالتفات الذى فى قوله: «وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا» الخ؛ أنه رساله لا تتم إلا من جهه مخاطبه النبى صَلَّى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُواكُمْ شَيْئًا وَ لَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحِدًا الخ؛ استثناء من عموم البراهه من المشركين، و المستثنون هم المشركون الذين لهم عهد لم ينقضوه لا مستقيماً و لا غير مستقيم فمن الواجب الوفاء بميثاقهم و إتمام عهدهم الى مدتهم.

و قد ظهر بذلك أن المراد من اضافه قوله: «وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحِدًا» الى قوله: «لَمْ يَنْقُصُواكُمْ شَيْئًا» استيفاء قسمى النقض و هما النقض المستقيم كقتلهم بعض المسلمين، و النقض غير المستقيم نظير مظاهرتهم بعض اعداء المسلمين عليهم كإمداد مشركى مكه بنى بكر على خزاعه بالسلاح، و كانت بنو بكر فى عهد قريش و خزاعه فى عهد النبى صَلَّى الله عليه وآله وسلم فحاربوا فأعانت قريش بنى بكر على خزاعه و نقضت بذلك عهد حديبيه الذى عقده بينهم و بين النبى صَلَّى الله عليه وآله وسلم، و كان ذلك من اسباب فتح مكه سنه ثمان.

و قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ فى مقام التعليل لوجوب الوفاء بالعهد ما لم ينقضه المعاهد المشرك، و ذلك يجعل احترام العهد و حفظ الميثاق احد مصاديق التقوى المطلق الذى لا يزال يأمر به القرآن و قد صرح به فى نظائر هذا المورد كقوله تعالى: وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعِيدُوا عَهْدَكُمْ أَوْ لَا تَعِيدُوا عَهْدَكُمْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ (المائدة ٨) و قوله: وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا، وَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوَىٰ وَ لَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ (المائدة ٢).

و بذلك يظهر ما فى قول بعضهم: إن المراد بالمتقين الذين يتقون نقض العهد من غير سبب، و ذلك أن التقوى بمعنى الورع عن محارم الله عامه كالحقيقه الثانيه فى القرآن فيحتاج إرادته خلافه الى قرينه صارفه.

قوله تعالى: فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ أَصْل
الانسلاخ من سلخ الشاه و هو نزع جلدها عنها، و انسلاخ الشهر نوع كناية عن خروجه، و الحصر هو المنع من الخروج عن محيط، و
المرصد اسم مكان من الرصد بمعنى الاستعداد للرقوب.

قال الراغب: الرصد الاستعداد للترقب يقال: رصد له و ترصد و أرصدته له، قال عزّ و جلّ: «وَإِزْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ
قَبْلُ» و قوله عزّ و جلّ: «إِنَّ رَبَّكَ لَبَلَمُرْصِدٍ» تنبيهاً أنه لا ملجأ و لا مهرب، و الرصد يقال للراصد الواحد و الجماعه الراصدين و
للمرصد واحداً كان او جمعا، و قوله تعالى: «يَسِيلُ لَكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصِيدًا» يحتمل كل ذلك، و المرصد موضع
الرصد. انتهى.

و المراد بالأشهر الحرم هي الأربعة الأشهر: أشهر السياحه التي ذكرها الله سبحانه في قوله: «فَسِيَّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» و
جعلها أجلا مضروبا للمشركين لا يتعرّض فيها لحالهم و أما الأشهر الحرم المعروفه أعنى ذا القعدة و ذا الحجة و المحرم فإنها لا
تنطبق على أذان براءة الواقع في يوم النحر عاشر ذى الحجة بوجه كما تقدمت الإشارة إليه.

و على هذا فاللام في الأشهر الحرم للعهد الذكري أي اذا انسلاخ هذه الأشهر التي ذكرناها و حرمانها للمشركين لا يتعرّض
لحالهم فيها فاقتلوا المشركين، الخ.

و يظهر بذلك ان لا- وجه لحمل قوله: «فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ» على انسلاخ ذى القعدة و ذى الحجة و المحرم بأن يكون
انسلاخ الاربعه الأشهر بانسلاخ الأشهر الثلاثة منطبقا عليه او يكون انسلاخ الأشهر الحرم مأخوذا على نحو الإشارة الى انقضاء
الاربعه الأشهر و ان لم ينطبق الا شهر على الا شهر فان ذلك كله مما لا سبيل اليه بحسب السياق و ان كان لفظ الا شهر الحرم في
نفسه ظاهرا في شهور رجب و ذى القعدة و ذى الحجة و المحرم.

و قوله: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» محقق للبراءه منهم و رفع الاحترام عن

نفوسهم باهدار الدماء فلا مانع من اى نازله نزلت بهم، و فى قوله: «حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» تعميم للحكم فلا مانع حاجب عن وجوب قتلهم حيثما وجدوا فى حل او حرم بل و لو ظفر بهم فى الشهر الحرام-بناء على تعميم «حَيْثُ» للزمان و المكان كليهما-فيجب على المسلمين كائنين من كانوا اذا ظفروا بهم ان يقتلوهم، كان ذلك فى الحل او الحرم فى الشهر الحرام او غيره.

و انما امر بقتلهم حيث وجدوا للتوسيل بذلك الى ايرادهم مورد الفناء و الانقراض، و تطيب الارض منهم، و انجاء الناس من مخالطتهم و معاشرتهم بعد ما سمح و ابيح لهم ذلك فى قوله: «فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» .

و لازم ذلك أن يكون كل من قوله: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» و قوله «وَ اخْذُوهُمْ» و قوله: «وَ اخْصِرُوهُمْ» و قوله: «وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ» بيانا لنوع من الوسيله الى افناء جمعهم و انقاد عددهم، ليتفصى المجتمع من شرهم.

فان ظفر بهم و أمكن قتلهم قتلوا، و ان لم يمكن ذلك قبض عليهم و أخذوا، و ان لم يمكن أخذهم حصروا و حبسوا فى كهفهم و منعوا من الخروج الى الناس و مخالطتهم و ان لم يعلم محلهم قعد لهم فى كل مرصد ليظفر بهم فيقتلوا او يؤخذوا.

و لعل هذا المعنى هو مراد من قال: ان المراد: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم او خذوهم و احصروهم على وجه التخيير فى اعتبار الاصلح من الامرين، و ان كان لا يخلو عن تكلف من جهة اعتبار الاخذ و الحصر و القعود فى كل مرصد امرا واحدا فى قبال القتل، و كيف كان فالسياق إنما يلائم ما قدمناه من المعنى.

و اما قول من قال: ان فى قوله: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم و خذوهم، تقديما و تأخيرا، و التقدير: فخذوا المشركين حيث وجدتموهم و اقتلوهم فهو من التصرف فى معنى الآيه من غير دليل مجوز، و الآيه و خاصه ذيلها يدفع ذلك سياقا.

و معنى الآية: فاذا انسلخ الاشهر الحرم و انقضى الاربعة الاشهر التى امهلناهم بها بقولنا «فَسَيَّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» فأفنوا المشركين بأى وسيله ممكنه رأيتموها اقرب و أوصل الى إفناء جمعهم و إمحاء رسمهم من قتلهم اينما وجدتموهم من حل او حرم و متى ما ظفرتم بهم فى شهر حرام او غيره، و من أخذهم او حصرهم او القعود لهم فى كل مرصد حتى يفتنوا عن آخرهم.

قوله تعالى: **فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** اشتراط فى معنى الغايه للحكم السابق، و المراد بالتوبه معناها اللغوى و هو الرجوع اى ان رجعوا من الشرك الى التوحيد بالايمان و نصبوا لذلك حجه من اعمالهم و هى الصلاه و الزكاه و التزموا احكام دينكم الراجعه الى الخالق جميعا فخلوا سبيلهم.

و تخليه السبيل كناية عن عدم التعرض لسالكيه و ان عادت مبتذله بكشره التداول كأن سبيلهم مسدوده مشغوله بتعرض المتعرضين فاذا خلّى عنها كان ذلك ملازما او منطبقا على عدم التعرض لهم.

و قوله: **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** تعليل لقوله: **«فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ»** إما من جهه الأمر الذى يدل عليه بصورته او من جهه المأمور به الذى يدل عليه بمادته اعنى تخليه سبيلهم.

و المعنى على الاول: و إنما امر الله بتخليه سبيلهم لانه غفور رحيم يغفر لمن تاب اليه و يرحمه.

و على الثانى: خلّوا سبيلهم لان تخليتكم سبيلهم من المغفره و الرحمه، و هما من صفات الله العليا فتتصفون بذلك بصفه ربكم، و أظهر الوجهين هو الاول.

قوله تعالى: **وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ** الى آخر الآيه؛ الآيه تتضمن حكم الإجاره لمن استجار من المشركين لان يسمع كلام الله، و هى بما تشتمل عليه من الحكم و ان كانت معترضه او كالمعترضه بين ما يدل على البراءه

و رفع الامان عن المشركين إلا أنها بمنزله دفع الدخل الواجب الذى لا يجوز إهماله فان أساس هذه الدعوه الحقه و ما يصاحبها من الوعد و الوعيد و التبشير و الانذار، و ما يترتب عليه من عقد العقود و إبرام العقود او النقض و البراءة و احكام القتال كل ذلك انما هو لصرف الناس عن سبيل الغى و الضلال الى صراط الرشده و الهدى، و انجائهم من شقاء الشرك الى سعادته التوحيد.

و لازم ذلك الاعتناء التام بكل طريق يرجى فيه الوصول الى هدايه ضال و الفوز باحياء حق و ان كان يسيرا قليلا فان الحق حق و ان كان يسيرا، و المشرك غير المعاهد و إن أبرأ الله منه الذمه و أهدر دمه و رفع الحرمة عن كل ما يعود اليه من مال و عرض لكنه تعالى إنما فعل به ذلك ليحيى حق و يبطل باطل فاذا رجا منه الخير منع ذلك من اى قصد سيئ يقصد به حتى يحصل اليأس عن هدايته و انجائه.

فاذا استجار المشرك لينظر فيما تندب اليه الدعوه الحقه و يتبعها ان اتضح له كان من الواجب اجارته حتى يسمع كلام الله و يرتفع عنه غشاوه الجهل و تتم عليه الحججه فاذا تمادى بعد ذلك فى ضلاله و أصر فى استكباره صار ممن ارتفع عنه الأمان و برأت منه الذمه و وجب تطيب الارض من قذاره وجوده بأيه وسيله امكنت و اى طريق كان اقرب و اسهل و هذا هو الذى يفيد قوله تعالى: «وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ» الآية؛ بما يكتنف به من الآيات.

فمعنى الآية: ان طلب منك بعض هؤلاء المشركين الذين رفع عنهم الأمان أن تأمنه فى جوارك ليحضر عندك و يكلمك فيما تدعو اليه من الحق الذى يتضمنه كلام الله فأجره حتى يسمع كلام الله و يرتفع عنه غشاوه الجهل ثم أبلغه مأمنه حتى يملك منك أمنا تاما كاملا، و إنما شرع الله هذا الحكم و بذل لهم هذا الامن التام لانهم قوم جاهلون و لا بأس على جاهل اذا رجا منه الخير بقبول الحق لو وضح له.

و هذا غاية ما يمكن مراعاته من اصول الفضيله و حفظ الكرامه و نشر الرحمه و الرأفه و شرافه الانسانيه اعتبره القرآن الكريم، و ندب اليه الدين القويم.

قوله تعالى: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ الْآيَه؛ تبيين و توضيح لما مر إجمالاً من الحكم بنقض عهد المشركين ممن لا وثوق بوفائه بعهدده، و قتلهم الى ان يؤمنوا بالله و يخضعوا لدين التوحيد، و استثناء من لم ينقض العهد و بقى على الميثاق حتى ينقضى مده عهدهم.

فالآيه و ما يتلوها الى تمام ست آيات تبين ذلك و توضح الحكم و استثناء ما استثنى منه و الغايه و المعنى جميعاً.

قوله: «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ» استفهام فى مقام الإنكار، و قد بادرت الآيه الى استثناء الذين عاهدوهم من المشركين عند المسجد الحرام لكونهم لم ينقضوا عهداً و لم يساهلوا فيما واثقوا به بدليل قوله تعالى: «فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ» و ذلك أن الاستقامه لمن استقام و السلم لمن يسالم من لوازم التقوى الدينى، و لذلك علل قوله ذلك بقوله:

«إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» كما جاء مثله بعينه فى الآيه السابقه: «فَأْتَمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» .

قوله تعالى: كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا - وَ لَا ذِمَّةً إِلَىٰ آخِر الْآيَه؛ قال الراغب فى المفردات: الإلّ كل حاله ظاهره من عهد حلف، و قرابه تنلّ: تلمع فلا- يمكن انكاره، قال تعالى: لا يرقبون فى مؤمن إلا و لا ذمه، و ألّ الفرس: اسرع، حقيقته لمع، و ذلك استعاره فى باب الإسراع نحو برق و طار. انتهى.

و قال ايضاً: الذمام- بكسر الذال- ما يذمّ الرجل على إضاعته من عهد، و كذلك الذمه و المذمه، و قيل: لى مذمه فلا تهتكها، و أذهب مذمتهم بشىء: أى اعطهم شيئاً لما لهم من الذمام. انتهى. و هو ظاهر فى أن الذمه مأخوذه من الذم بالمعنى الذى يقابل المدح.

و لعل إلقاء المقابلة فى الآيه بين الإلّ و الذمه للدلاله على أنهم لا يحفظون فى المؤمنین شیئا من المواثیق التى یجب رقبوها و حفظها سواء كانت مبنیه على اصول واقعیه تكوينیه كالقرايه التى توجب بوجه على القریب رعایه حال قریبه، او على الجعل و الاصطلاح كالعهود و المواثیق المعقوده بحلف و نحوه.

و قد كررت لفظه «كَيْفَ» للتأکید و لرفع الإبهام فى البیان الناشئ من تخلل قوله: «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ» الآیه؛ بطولها بین قوله: «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ» الآیه؛ و قوله: «وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ» الآیه.

فمعنى الآیه: كيف یكون للمشرکین عهد عند الله و عند رسوله و الحال أنهم إن یظهروا علیکم و یغلبوكم على الامر لا یحفظوا و لا یراعوا فیكم قرابه و لا عهدا من العهود یرضونكم بالكلام المدلس و القول المزوّق، و یأبى ذلك قلوبهم، و أكثرهم فاسقون.

و من هنا ظهر أن قوله: «يُضْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ» من المجاز العقلى نسب فيه الإرضاء الى الأفواه و هو فى الحقیقه منسوب الى القول و الكلام الخارج من الأفواه المكوّن فیها.

و قوله: «يُضْضُونَكُمْ» الآیه؛ تعلیل لإنكار وجود العهد للمشرکین و لذلك جىء به بالفصل، و التقدير: كيف یكون لهم عهد و هم یرضونكم بأفواههم و تأبى قلوبهم و أكثرهم فاسقون.

و أما قوله: «وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ» ففیه بیان أن أكثرهم ناقضون للعهد و الميثاق بالفعل من غیر ان ینتظروا ظهورهم جمیعا علیکم فالآیه توضح حال آحادهم و جمیعهم بأن أكثرهم فاسقون بنقض العهد من غیر ان یرقبوا فى مؤمن إلاّ و لا ذمه، و لو انهم ظهروا علیکم جمیعا لم یرقبوا فیكم إلاّ و الذمه.

قوله تعالى: «اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا» الى آخر الآيتين، بین و تفسیر لقوله فى الآیه السابقه: «وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ» و كأن قوله: «اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا» الى آخر

الآيه توطئه و تمهيد لقوله فى الآيه الثانيه: «لَا يَزُقُّونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلَّا وَ لَا ذِمَّةً» .

و بذلك يظهر أن الأقرب أن المراد بالفسق الخروج عن العهد و الذمه دون الفسق بمعنى الخروج عن زى عبوديه الله سبحانه و إن كان الامر كذلك.

و قوله: وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ كالتفسير لجميع ما مر من أحوالهم الروحيه و أعمالهم الجسميه، و تفيد الجملة مع ذلك جوابا عن سؤال مقدر او ما يجرى مجراه و المعنى: اذا كان هذا حالهم و هذه أفعالهم فلا تحسبوا ان لو نقضتم عهدهم اعتديتم عليهم فاولئك هم المعتدون عليكم لما اضمروه من العداوه و البغضاء و لما اظهره اكثرهم فى مقام العمل من الصد عن سبيل الله، و عدم رعايه قرابه و لا عهد فى المؤمنين.

قوله تعالى: فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ، الْآيَاتِ ببيان تفصيلى لقوله فيما تقدم: «فَإِنْ تَبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ» .

و المراد بالتوبه بدلاله السياق الرجوع الى الايمان بالله و آياته، و لذلك لم يقتصر على التوبه فقط بل عطف عليها إقامه الصلاه التى هى أظهر مظاهر عباد الله، و إيتاء الزكاه الذى هو اقوى اركان المجتمع الدينى، و قد أشير بهما الى نوع الوظائف الدينيه التى بإتيانها يتم الايمان بآيات الله بعد الايمان بالله عز اسمه فهذا معنى قوله: «تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ» .

و اما قوله: فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ فالمراد به بيان التساوى بينهم و بين سائر المؤمنين فى الحقوق التى يعتبرها الاسلام فى المجتمع الاسلامى: لهم ما للمسلمين و عليهم ما على المسلمين.

و قد عبر فى الآيه عن ذلك بالاخوه فى الدين، و قال فى موضع آخر: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ (الحجرات ١٠) اعتبارا بما بينهم من التساوى فى الحقوق الدينيه فان الأخوين شقيقان اشتقا من ماده واحده و هما لذلك متساويان فى الشئون الراجعه الى ذلك فى مجتمع المنزل عند والدهما الذى هو رب البيت، و فى مجتمع القرابه عند الأقرباء و العشيره.

و إذا كان لهذا المعنى المسمّى بلسان الدين أخوّه أحكام و آثار شرعيه اعتنى بها قانون الاسلام فهو اعتبار حقيقه لنوع من الاخوّه بين افراد المجتمع الاسلامى لها آثار مترتبه كما أن الاخوّه الطبيعيه فيما اعتبرها الاسلام لها آثار مترتبه عقلائيّه و دينيه و ليست تسميه ذلك أخوّه مجرد استعاره لفظيه عن عنايه مجازيه، و فيما نقل عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم: قوله: «المؤمنون إخوه يسعى بذمتهم أدناهم، و هم يد واحده على من سواهم».

و قوله: «وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ الْآيَةَ؛ يدل السياق أنهم غير المشركين الذين أمر الله سبحانه في الآية السابقة بنقض عهدهم و ذكر أنهم هم المعتدون لا يرقبون في مؤمن إلا و لا ذمه فإنهم ناكثون للأيمان ناقضون للعهد، فلا يستقيم فيهم الاشتراط الذي ذكره الله سبحانه بقوله:

«وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ» الآية.

فهؤلاء قوم آخرون لهم مع ولى الأمر من المسلمين عهود و أيمان ينكثون أيمانهم من بعد عهدهم، أى ينقضون عهودهم من بعد عقدها فأمر الله سبحانه بقتالهم و ألغى أيمانهم و سمّاهم أئمّة الكفر لأنهم السابقون فى الكفر بآيات الله يتبعهم غيرهم ممن يليهم، يقاتلون جميعا لعلهم ينتهون عن نكث الأيمان و نقض العهود.

قوله تعالى: «أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَ هُمْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ الْآيَةَ؛ و ما بعدها الى تمام اربع آيات تحريض للمؤمنين و تهيج لهم على قتال المشركين بيان ما اجرموا به فى جنب الله و خانوا به الحق و الحقيقه، و عدّ خطاياهم و طغياناتهم من نكث الأيمان و الهّم بإخراج الرسول و البدء بالقتال اول مره.

ثم بتعريف المؤمنين أن لازم إيمانهم بالله الذى يملك كل خير و شر و نفع و ضرر أن لا يخشوا إلا إياه ان كانوا مؤمنين به ففى ذلك تقويه لقلوبهم و تشجيعهم عليهم، و ينتهى الى بيان أنهم ممتحنون من عند الله بإخلاص الإيمان له و القطع من المشركين حتى يؤجروا بما يؤجر به المؤمن

المتحقق فى ايمانه.

قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ. أَعَادَ الْأَمْرَ بِالْقِتَالِ لِأَنَّهُ صَارَ مِنْ جِهَةِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ التَّحْرِيزِ وَ التَّحْضِيضِ أَوْقَعَ فِي الْقَبُولِ فَانِ الْأَمْرَ الْأَوَّلَ كَانَ ابْتِدَائِيًّا غَيْرَ مَسْبُوقٍ بِتَمْهِيدٍ وَ تَوَطُّئِهِ بِخِلَافِ الْأَمْرِ الثَّانِي الْوَارِدِ بَعْدَ اسْتِدَادِ الْإِسْتِدَادِ وَ كَمَالِ التَّهَيُّؤِ مِنَ الْمَأْمُورِينَ.

على ان ما أتبع به الامر من قوله: «يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يُخْزِيهِمْ» الى قوله: «وَ يُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ» يؤكد الامر و يغرى المأمورين على امتثاله و إجرائه على المشركين فان تذكرهم أن قتل المشركين عذاب إلهى لهم بأيدى المؤمنين، و أن المؤمنين أياذ مجريه لله سبحانه و أن فى ذلك خزيا للمشركين و نصره من الله للمؤمنين عليهم و شفاء لصدور قوم مؤمنين و اذهابا لغيظ قلوبهم، يجزئهم للعمل و ينشطهم و يصفى إرادتهم.

و قوله: «وَ يُتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ» الآية بمنزله الاستثناء لئلا يجرى حكم القتال على إطلاقه.

قوله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ بمنزله تعليل آخر لوجوب قتالهم لينتج تحريضهم على القتال و فيه بيان حقيقه الامر، و محصله أن الدار دار الامتحان و الابتلاء فان نفوس الأدميين تقبل الخير و الشر و السعاده و الشقاوه فهى فى اول كينونها ساذجه مبهمه، و مراتب القرب و الزلفى إنما تبدل بإزاء الايمان الخالص بالله و آياته، و لا يظهر صفاء الايمان إلا بالامتحان الذى يورد المؤمن مقام العمل، ليميز الله بذلك الطيب من الخبيث، و الصافى الايمان ممن ليس عنده إلا مجرد الدعوى او المزعمه.

فمن الواجب أن يمتحن هؤلاء المدعون أنهم باعوا أنفسهم و أموالهم لله بأن لهم الجنة، و يبتلوا بمثل القتال الذى يميز به الصادق من الكاذب و يفصل الذى قطع روابط المحبه و الصله

من أعداء الله سبحانه ممن فى قلبه بقايا من ولايتهم و مودتهم حتى يحيى هؤلاء و يهلك أولئك.

فعلى المؤمنين أن يمثّلوا أمر القتال بل يتسارعوا اليه و يتسابقوا فيه ليظهروا بذلك صفاء جوهرهم و حقيقته إيمانهم و يحتجوا به على ربهم يوم لا نجاح فيه إلا بحجه الحق.

فقوله: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا» أى بل أظننتم ان تتركوا على ما أنتم عليه من الحال و لما تظهر حقيقته صدقكم فى دعوى الإيمان بالله و بآياته.

و قوله: «وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ» الآيه اى و لما يظهر فى الخارج جهادكم و عدم اتخاذكم من دون الله و لا رسوله و لا المؤمنين وليجه فإن تحقق الأشياء علم منه تعالى بها و قد مر نظير الكلام مع بسط ما فى تفسير قوله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ الآيه (آل عمران ١٤٢) فى الجزء الرابع من الكتاب. و من الدليل على هذا الذى ذكرنا فى معنى العلم قوله فى ذيل الآيه: «وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» .

و الوليجه على ما فى مفردات الراغب كل ما يتخذها الإنسان معتمدا عليه و ليس من اهله (١)(٢)(٣).

[سوره التوبه (٩): الآيات ١٧ الى ٢٤]

إشارة

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَهْتَدِينَ (١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَشْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَدَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)

ص: ٧٢٥

١- ١). التوبه ١-١٦: بحث روائى فى سنه العرب فى الحج و طواف البيت؛ القتال فى سيره رسول الله؛ نزول آيات البراءة؛ نزول جبرئيل على ان تبليغ آيات البراءة يتم بواسطه النبى صلى الله عليه و آله و سلم او رجل منه؛ عزل ابى بكر عن تبليغ آيات البراءة و انتخاب على عليه السلام؛ الغاء السنه الجاهليه؛ آراء بعض المفسرين الخاطئه فى قصّ عزل أبى بكر و انتخاب على عليه السلام لتبليغ الاحكام الالهيه و الرد على هذه الآراء؛ يوم الحج الاكبر؛ الاشهر الحرم؛ ائمه الكفر.

٢-٢) التوبه ١-١٦: كلام فى معنى العهد و اقسامه و احكامه.

٣-٣) التوبه ١-١٦: كلام فى نسبه الاعمال الى الاسباب طولاً.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ الْعِمَارَةَ ضِدَّ الْخَرَابِ يُقَالُ: عَمَرَ الْأَرْضَ إِذَا بَنَىٰ بِهَا بِنَاءً، وَعَمَرَ الْبَيْتَ إِذَا أَصْلَحَ مَا أَشْرَفَ مِنْهَا عَلَى الْفَسَادِ، وَالتَّعْمِيرُ بِمَعْنَاهُ وَمِنْهُ الْعَمْرُ لِأَنَّهُ عِمَارَةُ الْبَدَنِ بِالرُّوحِ، وَالْعَمْرُ بِمَعْنَى زِيَارَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ لِأَنَّهُ فِيهَا تَعْمِيرُهُ.

والمسجد اسم مكان بمعنى المحل الذي يتعلق به السجده كالبيت الذي يبنى ليسجد فيه الله تعالى، وأعضاء السجده التي تتعلق بها السجده نوع تعلق و هي الجبهه و الكفان و الركبتان و رءوس إبهامى القدمين.

و قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية؛ لنفى الحق و الملك فإن اللام للملك و الحق، و النفى الحالى للكون السابق يفيد أنه لم يتحقق منهم سبب سابق يوجب لهم أن يملكوا هذا الحق و هو حق ان يعمرؤا مساجد الله و يرمؤا ما استرم منها أو يزوروا كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِإِبْرَاهِيمَ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ﴾ (الأنفال ٦٧) و قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِإِبْرَاهِيمَ أَنْ يَغْلِبَ﴾ (آل عمران ١٦١).

و المراد بالعماره فى قوله: ﴿أَنْ يَعْمُرُوا﴾ إصلاح ما أشرف على الخراب من البناء ورم ما استرم منه دون عماره المسجد بالزياره فإن المراد بمساجد الله هى المسجد الحرام و كل مسجد لله و لا عمره فى غير المسجد الحرام، و الدخول فى المساجد للعباده فيها و إن أمكن ان يسمى عماره و زياره لكن التعبير المعهود من القرآن فيه الدخول.

على أن فى قوله فى الآيه الآتيه: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ تأييدا ما لكون المراد بالعماره هو إصلاح البناء دون زياره البيت الحرام.

و المراد بمساجد الله بيوت العباده المبنيه لله لكن السياق يدل على أن المراد نفى جواز عمارتهم للمسجد الحرام، و يؤيد قراءه من قرأ ﴿أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ بالإفراد.

و لا- ضير فى التعبير بالجمع و المقصود الأصيل بيان حكم فرد خاص من أفراده لأن الملاك عام، و التعليل الوارد فى الآيه غير مقيد بخصوص المسجد الحرام فالكلام فى معنى: ما كان لهم ان يعمروا المسجد الحرام لأنه مسجد و المساجد من شأنها ذلك.

و قوله: «شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ» المراد بالشهادة أدائها و هو الاعتراف إما قولاً كمن يعترف بالكفر لفظاً، و إما فعلاً كمن يعبد الأصنام و يتظاهر بكفره فكل ذلك من الشهاده و الملاك واحد.

فمعنى الآيه: لا يحق و لا يجوز للمشركين أن يرموا ما استترم من المسجد الحرام كسائر مساجد الله و الحال أنهم معترفون بالكفر بدلاله قولهم أو فعلهم.

قوله تعالى: «أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ» فى مقام التعليل لما أفيد من الحكم فى قوله: «مَا كَانَ» الخ؛ و لذلك جىء به بالفصل دون الوصل.

و المراد بالجملة الاولى بيان بطلان الأثر و ارتفاعه عن أعمالهم، و العمل إنما يؤتى به للتوسل به الى أثر مطلوب، و اذ كانت أعمالهم حابطه لا- أثر لها لم يكن ما يجوز لهم الإتيان بها، و الأعمال العباديه كعمارته مساجد الله إنما تقصد لما يطمع فيه و يرجى من أثرها و هو السعاده و الجنه، و العمل الحابط لا يتعقب سعاده و لا جنه البته.

و المراد بالجملة الثانيه بيان ظرفهم الذى يستقرون فيه لو لا- السعاده و الجنه و هو النار فكأنه قيل: اولئك لا يهديهم أعمالهم العباديه الى الجنه بل هم فى النار الخالده، و لا تفيد لهم سعاده بل هم فى الشقاوه المؤبده.

و فى الآيه دلالة على أصلين لطيفين من أصول التشريع:

أحدهما: أن تشريع الجواز بالمعنى الأعم الشامل للواجبات و المستحبات و المباحات يتوقف على أثر فى الفعل ينتفع به فاعله فلا لغو مشروعاً فى الدين، و هذا أصل يؤيده العقل، و هو منطبق على الناموس الجارى فى الكون: أن لا فعل إلا لنفع عائد الى فاعله.

و ثانيهما: ان الجواز فى جميع موارد مسبق بحق مجعول من الله لفاعله فى أن يأتى بالفعل من غير مانع.

قوله تعالى: **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** الآيه السياق كاشف عن ان الحصر من قبيل قصر الأفراد كأن متوهمًا يتوهم أن للمشركين و المؤمنين جميعًا أن يعمروا مساجد الله فافرد و قصر ذلك فى المؤمنين، و لازم ذلك ان يكون المراد بقوله: «يَعْمُرُ» إنشاء الحق و الجواز فى صورته الإخبار دون الإخبار، و هو ظاهر.

و قد اشترط سبحانه فى ثبوت حق العماره و جوازها أن يتصف العامر بالإيمان بالله و اليوم الآخر قبال ما نفى عن المشركين ان يكون لهم ذلك و لم يقنع بالإيمان بالله وحده لأن المشركين يذعنون به تعالى بل شفع ذلك بالإيمان باليوم الآخر لأن المشركين ما كانوا مؤمنين به، و بذلك يختص حق العماره و جوازها بأهل الدين السماوى من المؤمنين.

و لم يقنع بذلك ايضا بل ألحق به قوله: **«وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَ لَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ»** لأن المقام مقام بيان من ينتفع بعمله فيحق له بذلك ان يقترفه، و من كان تاركا للفروع المشروعه فى الدين و خاصة الركنتين: الصلاة و الزكاه فهو كافر بآيات الله لا ينفعه مجرد الإيمان بالله و اليوم الآخر و إن كان مسلما، اذا لم ينكرها بلسانه، و لو انكرها بلسانه ايضا كان كافرا غير مسلم.

و قد خص من بينها الصلاة و الزكاه بالذكر لكونهما الركنتين الذين لا غنى عنهما فى حال من الاحوال.

و بما ذكرنا من اقتضاء المقام يظهر ان المراد بقوله: **«وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ»** الخشيه الدينيه و هى العباده دون الخشيه الغريزيه التى لا يسلم منها إلا المقربون من اولياء الله كالأنبياء قال تعالى: **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لَا يَخْشُونَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ** (الأحزاب / ٣٩).

و الوجه فى التكنيه عن العباده بالخشيه ان الأعراف عند الانسان من علل اتخاذ الإله

للعباده الخوف من سخطه او الرجاء لرحمته، و رجاء الرحمه ايضا يعود بوجه الى الخوف من انقطاعها و هو السخط فمن عبد الله سبحانه او عبد شيئا من الاصنام فقد دعاه الى ذلك اما الخوف من شمول سخطه او الخوف من انقطاع نعمته و رحمته فالعباده ممثله للخوف و الخشيته مصداق لهما لتمثيلها اياها، و بينهما حاله الاستلزام، و لذلك كنى بها عنها، فالمعنى -و الله اعلم- و لم يعبد احدا من دون الله من الآلهه.

و قوله: **فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ** اى اولئك الذين آمنوا بالله و اليوم الآخر و لم يعبدوا احدا غير الله سبحانه يرجى فى حقهم ان يكونوا من المهتدين، و هذا الرجاء قائم بأنفسهم او بأنفس المخاطبين بالآيه، و أما هو تعالى فمن المستحيل ان يقوم به الرجاء الذى لا يتم إلا مع الجهل بتحقيق الأمر المرجو الحصول.

و انما أخذ الاهتداء مرجو الحصول لا محقق الوقوع مع أن من آمن بالله و اليوم الآخر حقيقه و حققه اعماله العباديه فقد اهتدى حقيقه لأن حصول الاهتداء مره او مرات لا يستوجب كون العامل من المهتدين، و استقرار صفه الاهتداء و لزومها له، فالتلبس بالفعل الواقع مره أو مرات غير التلبس بالصفه اللازمه فأولئك حصول الاهتداء لهم محقق، و أما حصول صفه المهتدين فهو مرجو التحقيق لا محقق.

و قد تحصل من الآيه أن عماره المساجد لا تحقق و لا تجوز لغير المسلم أما المشركون فلعدم إيمانهم بالله و اليوم الآخر، و أما اهل الكتاب فلأن القرآن لا يعد إيمانهم بالله ايمانا قال تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا** أولئك هم الكافرون حقا (النساء ١٥١)، و قال ايضا فى آيه ٢٩ من السوره: **قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ الْآيَه.**

قوله تعالى: أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْآيَةَ؛ السقايه كالحكايه و الجنايه و النكايه مصدر يقال: سقى يسقى سقايه.

و السقايه ايضا الموضع الذى يسقى فيه الماء، و الإناء الذى يسقى به قال تعالى: جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ (يوسف ٧٠)، و قد رووا فى الآثار ان سقايه الحاج كانت احدى الشئونات الفاخره و المآثر التى يباهى بها فى الجاهليه، و أن السقايه كانت حياضا من آدم على عهد قصي بن كلاب احد اجداد النبي صلى الله عليه و آله و سلم توضع بفناء الكعبه، و يستقى فيها الماء العذب من الآبار على الإبل، و يسقى الحاج فجعل قصي امر السقايه عند وفاته لابنه عبد مناف و لم يزل فى ولده حتى ورثه العباس بن عبد المطلب.

و سقايه العباس هو الموضع الذى كان يسقى فيه الماء فى الجاهليه و الاسلام و هو فى جهه الجنوب من زمزم بينهما اربعون ذراعاً، و قد بنى عليه بناء هو المعروف اليوم بسقايه العباس.

و المراد بالسقايه فى الآيه-على اى حال-معناها المصدرى و هو السقى، و يؤيده مقابلتها فى الآيه عماره المسجد الحرام و المراد بها المعنى المصدرى قطعاً بمعنى الشغل.

قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ بيان لحق الحكم الذى عند الله فى المسأله بعد إنكار المساواه، و هو ان الذى آمن و هاجر و جاهد فى سبيل الله ما استطاع ببذل ما عنده من مال و نفس، أعظم درجه عند الله و إنما عبر فى صورته الجمع-الذين آمنوا-الخ؛ إشاره الى ان ملاك الفصل هو الوصف دون الشخص.

و ما تقدم من دلالة الكلام على أن الأعمال من غير إيمان بالله لا فضل لها و لا درجه لصاحبها عند الله، قرينه على ان ليس المراد بالقياس الذى يدل عليه أفعال التفضيل فى قوله:

«أَوْلَيْكَ أَكْبَرُ دَرَجَةً» الخ؛ هو ان بين الفريقين اشتراكا فى الدرجات غير ان درجه من جاهد

عن إيمان أعظم ممن سقى و عمر.

بل المراد بيان ان النسبه بينهما نسبه الأفضل الى من لا فضل له كالمقايسه المأخوذه بين الأكثر و الأقل فإنها تستدعى وجود حد متوسط بينهما يقاسان اليه فهناك ثلاثه امور امر متوسط يؤخذ مقياسا معدلا و آخر يكون أكثر منه، و آخر يكون أقل منه فاذا قيس الأكثر من الأقل كان الأكثر مقيسا الى ما لا كثره فيه أصلا.

فقوله: **أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ** أى بالقياس الى هؤلاء الذين لا درجه لهم أصلا، و هذا نوع من الكنايه عن ان لا نسبه حقيقه بين الفريقين لأن أحدهما ذو قدم رفيع فيما لا قدم للآخر فيه أصلا و يدل على ذلك أيضا قوله: **«وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ»** بما يدل على انحصار الفوز فيهم و ثبوتها لهم على نهج الاستقرار.

قوله تعالى: **يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ** الى آخر الآيتين ظاهر السياق أن ما يعده من الفضل فى حقهم بيان و تفصيل لما ذكر فى الآيه السابقه من فوزهم جىء به بلسان التبشير.

فالمعنى **«يُبَشِّرُهُمْ»** أى هؤلاء المؤمنين **«رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ»** عظيمه لا يقدر قدرها **«وَرِضْوَانٍ»** كذلك **«وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا»** فى تلك الجنات **«نَعِيمٌ مُّقِيمٌ»** لا يزول و لا ينفد حالكونهم **«خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا»** لا ينقطع خلودهم بأجل و لا أمد.

ثم لما كان المقام مقام التعجب و الاستبعاد لكونها بشاره بأمر عظيم لم يعهد فى ما نشاهده من أنواع النعيم الذى فى الدنيا، رفع الاستبعاد بقوله: **«إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ»**.

و سيوافيك الكلام فى توضيح معنى رحمته تعالى و رضوانه فيما سيمر من موضع مناسب و قد تقدم بعض الكلام فيهما.

قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَ إِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ** الى آخر الآيه؛ نهى عن تولى الكفار و لو كانوا آباء و إخوانا فإن الملاك عام، و الآيه التاليه تنهى

عن تولى الجميع غير أن ظاهر لفظ الآيه النهى عن اتخاذ الآباء و الإخوان أولياء إن استحبا الكفر و رجحوه على الإيمان.

و إنما ذكر الآباء و الإخوان دون الأبناء و الأزواج مع كون القبيلين و خاصه الأبناء محبوبين عندهم كالأباء و الإخوان لأن التولى يعطى للتولى ان يداخل امور وليه و يتصرف فى بعض شئون حياته، و هذا هو المحذور الذى يستدعى النهى عن تولى الكفار حتى لا يداخلوا فى امورهم الداخليه و لا يأخذوا بمجامع قلوبهم، و لا يكف المؤمنون و لا يستتكفوا عن الإقدام فيما يسوؤهم و يضرهم، و من المعلوم ان النساء و الذرارى لا يترقب منهم هذا الأثر السيئ إلا بواسطه، فلذلك خص النهى عن التولى بالآباء و الإخوان فهم الذين يخاف نفوذهم فى قلوب المؤمنين و تصرفهم فى شئونهم.

و قد ورد النهى عن اتخاذ الكفار اولياء فى موضع من كلامه تقدم بعضها فى سوره المائده و آل عمران و النساء و الأعراف و فيها إنذار شديد و تهديدات بالغه كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ (المائده ٥١/)، و قوله: ﴿وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (آل عمران ٢٨/)، و قوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ (آل عمران ٢٨/)، و قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (النساء ١٤٤/).

و أندرهم فى الآيه التى نحن فيها بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ و لم يقل:

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ اذ من الجائز ان يتوهم بعض هؤلاء انه منهم لأنهم آباؤه و إخوانه فلا يؤثر فيه التهديد أثرا جديدا يبعثه نحو رفض الولاية.

و كيف كان فقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بما فى الجملة من المؤكدات كاسميه الجملة، و دخول الام على الخبر و ضمير الفصل يفيد تحقق الظلم منهم و استقراره فيهم، و قد كرر الله فى كلامه ان الله لا يهدى القوم الظالمين، و قال فى نظير الآيه من سوره المائده: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فهؤلاء محرومون

من الهدايه الإلهيه لا ينفعهم شىء من أعمالهم الحسنه فى جلب السعاده اليهم،و السماح بالفوز و الفلاح عليهم.

قوله تعالى: قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛التفت من مخاطبتهم الى مخاطبه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إيماء الى الإعراض عنهم لما يستشعر من حالهم أن قلوبهم مائله الى الاشتغال بما لا ينفع معه النهى عن تولي آبائهم و إخوانهم الكافرين،و إيجاد الداعى فى نفوسهم الى الصدور عن امر الله و رسوله،و قتال الكافرين جهادا فى سبيل الله و إن كانوا آباءهم و إخوانهم.

و الذى يمنعهم من ذلك هو الحب المتعلق بغير الله و رسوله و الجهاد فى سبيل الله،و قد عدَّ اللهُ سبحانه اصول ما يتعلق به الحب النفسانى من زينه الحياه الدنيا،و هى الآباء و الأبناء و الإخوان و الأزواج و العشيره-و هؤلاء هم الذين يجمعهم المجتمع الطبيعى بقرابه نسبيه قريبه او بعيده او سببيه-و الأموال التى اكتسبها و جمعوها،و تجاره التى يخشون كسادها و المساكن التى يرضونها-و هذه اصول ما يقوم به المجتمع فى المرتبه الثانيه-.

و ذكر تعالى أنهم إن تولوا أعداء الدين،و قدموا حكم هؤلاء الامور على حب الله و رسوله و الجهاد فى سبيل فليترصبوا و لينتظروا حتى يأتى الله بأمره و الله لا يهدى القوم الفاسقين.

و من المعلوم أن الشرط أعنى قوله: «إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ» الى قوله: «فِي سَبِيلِهِ» فى معنى أن يقال: إن لم تنتهوا عما ينهاكم عنه من اتخاذ الآباء و الإخوان الكافرين اولياء باتخاذكم سببا يؤدى الى خلاف ما يدعوكم اليه،و إهمالكم فى أمر غرض الدين و هو الجهاد فى سبيل الله.

فقوله فى الجزاء: «فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ» لا محاله إما أمر يتدارك به ما عرض على الدين من ثلمه و سقوط غرض فى ظرف مخالفتهم،و إما عذاب يأتيهم عن مخالفه أمر الله و رسوله و الإعراض عن الجهاد فى سبيله.

غير ان قوله تعالى فى ذيل الآيه: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» يعرض لهم أنهم

خارجون حينئذ عن زى العبوديه، فاسقون عن أمر الله و رسوله فهم بمعزل من أن يهديهم الله بأعمالهم و يوفقهم لنصره الله و رسوله، و إعلاء كلمه الدين و إمحاء آثار الشرك.

فذيل الآيه يهدى الى أن المراد بهذا الأمر الذى يأمرهم الله أن يتربصوا له حتى يأتى به أمر منه تعالى، متعلق بنصره دينه و إعلاء كلمته فينطبق على مثل قوله تعالى فى سورة المائده بعد آيات ينهى فيها عن تولّى الكافرين: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَزْتَدِ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** (المائده ٥٤).

و الآيه بقيودها و خصوصياتها- كما ترى- تنطبق على ما تفيده الآيه التى نحن فيها.

فالمراد- و الله اعلم- ان اتخذتم هؤلاء اولياء، و استنكفتم عن اطاعه الله و رسوله و الجهاد فى سبيل الله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره، و يبعث قوما لا- يحبون إلا- الله، و لا- يوالون اعداءه و يقومون بنصره الدين و الجهاد فى سبيل الله افضل قيام فانكم اذا فاسقون لا ينتفع بكم الدين، و لا يهدى الله شيئا من اعمالكم الى غرض حق و سعاده مطلوبه.

و ربما قيل: ان المراد بقوله: **«فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ»** الاشاره الى فتح مكه، و ليس بسديد فان الخطاب فى الآيه للمؤمنين من المهاجرين و الانصار و خاصه المهاجرين، و هؤلاء هم الذين فتح الله مكه بأيديهم، و لا معنى لأن يخاطبوا و يقال لهم: ان كان آباؤكم و ابناؤكم، الخ؛ أحب اليكم من الله و رسوله و جهاد فى سبيله فواليتموهم و استنكفتم عن اطاعه الله و رسوله و الجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يفتح الله مكه بأيديكم و الله لا يهدى القوم الفاسقين، او فتربصوا حتى يفتح الله مكه و الله لا يهديكم لمكان فسقكم فتأمل (١).

ص: ٧٣٥

(١ - ١). التوبه ١٧-٢٤: بحث روائى فى: سقايه الحاج و عماره المسجد الحرام؛ فضائل امير المؤمنين على عليه السلام؛ الجهاد فى سبيل الله.

إشارة

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مَّدْيَنَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَيِّئَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)

بيان:

قوله تعالى: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ -الى قوله- وَلَّيْتُم مَّدْيَنَ المواقن جمع موطن و هو الموضع الذى يسكنه الإنسان و يتوطن فيه.

و حنين اسم واد بين مكة و الطائف وقع فيه غزوه حنين قاتل فيه النبى صلى الله عليه و آله و سلم هوازن و ثقيف و كان يوما شديدا على المسلمين انهزموا أولا ثم أيدهم الله بنصره فغلبوا.

و الإعجاب الإسرار و العجب سرور النفس بما يشاهده نادرا، و الرحب السعة فى المكان و ضده الضيق.

وقوله: «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ» ذكر لنصرته تعالى لهم في مواطن كثيرة و مواضع متعددة يدلّ السياق على انها مواطن الحروب كوقائع بدر و أحد و الخندق و خيبر و غيرها، و يدل السياق أيضا أن الجملة كالمقدمه الممهده لقوله: «وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ» الآية؛ فإن الآيات الثلاث مسوقه لتذكير قصه وقعه حنين، و عجيب ما أفاض الله عليهم من نصرته و خصّهم به من تأييده فيها.

وقوله: «وَيَوْمَ حُنَيْنٍ أَيْ وِيَوْمَا وَقَعَتْ فِيهِ الْقِتَالُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِكُمْ بَوَادِي حُنَيْنٍ، وَإِضَافَةُ الْيَوْمِ إِلَى امْكِنَةِ الْوَقَائِعِ الْعَظِيمَةِ شَائِعٌ فِي الْعَرَفِ كَمَا يُقَالُ: يَوْمَ بَدْرٍ وَ يَوْمَ أَحَدٍ وَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَظِيرٌ إِضَافَتُهُ إِلَى الْجَمَاعَةِ الْمُتَلَبِّسِينَ بِذَلِكَ كَيَوْمِ الْأَحْزَابِ وَ يَوْمِ تَمِيمٍ، وَ إِضَافَتُهُ إِلَى نَفْسِ الْحَادِثَةِ كَيَوْمِ فَتْحِ مَكَّةِ.

وقوله: «إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ أَيْ أُسْرَتِكُمْ الْكَثْرَةَ الَّتِي شَاهَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَانْقَطَعْتُمْ عَنِ الْاعْتِمَادِ بِاللَّهِ وَالثِّقَةِ بِأَيْدِهِ وَ قُوَّتِهِ وَ اسْتَنْدَظْتُمْ إِلَى الْكَثْرَةِ فَرَجَوْتُمْ أَنْ سَتَدْفَعَنَّ عَنْكُمْ كَيْدَ الْعَدُوِّ وَ تَهْزِمَ جَمْعَهُمْ، وَ إِنَّمَا هُوَ سَبَبٌ مِنَ الْأَسْبَابِ الظَّاهِرِيَّةِ لَا أَثَرَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ الَّذِي إِلَيْهِ تَسِيَّبُ الْأَسْبَابُ.

و بالنظر الى هذا المعنى أردف قوله: «إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ» بقوله: «فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا» أَيْ اتَّخَذْتُمُوهَا سَبِيحًا مُسْتَقْلِلًا دُونَ اللَّهِ فَانْسَاكُمُ الْاعْتِمَادَ بِاللَّهِ، وَ رَكَنْتُمْ إِلَيْهَا فَبَانَ لَكُمْ مَا فِي وَسْعِ هَذَا السَّبَبِ الْمَوْهُومِ وَ هُوَ أَنْ لَا غِنَى عِنْدَهُ حَتَّى يَغْنِيَكُمْ فَلَمْ يَغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَ لَا نَصْرًا وَ لَا شَيْئًا آخَرَ.

وقوله: «وَ ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ» أَيْ مَعَ مَا رَحِبَتْ، وَ هُوَ كُنَايَةٌ عَنِ إِحْاطَةِ الْعَدُوِّ بِهِمْ إِحْاطَةً لَا يَجِدُونَ مَعَ ذَلِكَ مَأْمَنًا مِنَ الْأَرْضِ يَسْتَقْرُونَ فِيهِ وَ لَا كَهْفًا يَأْوُونَ إِلَيْهِ فَيَقِيهِمْ مِنَ الْعَدُوِّ، أَيْ فَرَرْتُمْ فَرَارًا لَا تَلْوُونَ عَلَى شَيْءٍ.

فهو قريب المعنى من قوله تعالى في قصة الأحزاب: «إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ

أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ (الأحزاب ١٠).

وقوله: ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ أى جعلتم العدو يلى أذباركم وهو كناية عن الانهزام وهذا هو الفرار من الزحف ساقهم إليه اطمئنانهم بكثرتهم والانتطاع من ربهم، قال تعالى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ -الى ان قال- فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (الأنفال ١٦) وقال ايضا: وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (الأحزاب ١٥).

فهذا كله اعنى ضيق الأرض عليهم بما رحبت ثم انهزامهم و فرارهم من الزحف على ما فيه من كبير الإثم، ووقوفهم هذا الموقف الذى يستتبع العتاب من ربهم إنما ساقهم إليه اعتمادهم و اطمئنانهم الى هذه الأسباب السراييه التى لا تغنى عنهم شيئاً.

و الله سبحانه بسعه رحمته و عظم منه امتن عليهم بنصره و إنزال سكينته و إنزال جنود لم يروها، و تعذيب الكافرين، و وعد مجمل بمغفرته: وعدا ليس بالمقطوع وجوده حتى تبطل به صفة الخوف من قلوبهم، و لا- بالمقطوع عدمه حتى تزول صفة الرجاء من نفوسهم بل وعدا يحفظ فيهم الاعتدال و التوسط بين صفتى الخوف و الرجاء، و يرببهم تربيته حسنة تعدهم و تهيبهم للسعادة الواقعيه.

قوله تعالى: ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ السكينه- كما تقدم-حاله قلبيه توجب سكون النفس و ثبات القلب ملازمه لازدياد الإيمان مع الإيمان و لكلمه التقوى التى تهدى الى الورع عن محارم الله على ما تفسرها الآيات.

و هى غير العدالة التى هى ملكه نفسانيه تردع عن ركوب الكبائر و الإصرار على الصغائر

فان السكينه تردع عن الصغائر والكبائر جميعا.

وقد نسب الله السكينه فى كتابه الى نفسه نسبه تشعر بنوع من الاختصاص كما نسب الروح الى نفسه دون العداله و وصفها بالانزال فلها اختصاص عندى به تعالى بل ربما يشعر بعض الآيات بأنه عدّها من جنوده كقوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَ لِلّٰهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ (الفتح ٤/).

و فى غير واحد من الآيات المشتمله على ذكر السكينه ذكر الجنود كقوله: فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيْدُهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا (التوبه ٤٠/)، و كما فى الآيه المبحوث عنها: «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا» .

و الذى يفهم من السياق ان هذه الجنود هى الملائكه النازله الى المعركه، او أن يقال من جملتها الملائكه النازله و الذى ينتسب الى السكينه و الملائكه أن يعذب بهم الكفار و يسدد و يسعد بهم المؤمنون كما اشتملت عليه آيات آل عمران القاصه قصه أحد، و آيات فى أول سوره الفتح فراجعها حتى يتبين لك حقيقه الحال إن شاء الله تعالى.

و قد تقدم فى قوله تعالى: فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ (البقره ٢٤٨/٢٤٨) فى الجزء الثانى من الكتاب بعض ما يتعلق بالسكينه الإلهيه من الكلام مما لا يخلو من نفع فى هذا المقام.

قوله تعالى: ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ قد تقدم مرارا أن التوبه من الله سبحانه هى الرجوع الى عبده بالعنايه و التوفيق أولا ثم بالعفو و المغفره ثانيا، و من العبد الرجوع الى ربه بالندامه و الاستغفار، و لا يتوب الله على من لا يتوب اليه.

و الإشاره فى قوله: «مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ» على ما يعطيه السياق الى ما ذكره فى الآيتين السابقتين من خطيئتهم بالركون الى غير الله سبحانه و معصيتهم بالفرار و التولى ثم إنزال السكينه و إنزال الجنود و تعذيبهم الذين كفروا.

و الملائم لذلك ان يكون الموصول في «مَنْ يَشَاءُ» شاملا للمسلمين و الكافرين جميعا فقد ذكر من الفريقين جميعا ما يصلح لأن يتوب الله عليهم فيه إن تابوا، و هو من الكفار كفرهم و من المسلمين خطيئتهم و معصيتهم، و لا وجه لتخصيص التوبه على بعضهم مع ما في آيات التوبه من عموم الحكم وسعته و لم يقيد في هذه الآيه المبحوث عنها بما يوجب اختصاصها بأحد الفريقين: المسلمين او الكافرين مع وجود المقتضى فيهما جميعا.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ قال في المجمع: كل مستقذر نجس يقال: رجل نجس و امرأه نجس و قوم نجس لأنه مصدر، و اذا استعملت هذه اللفظه مع الرجس قيل: رجس نجس - بكسر النون - قال: و العيله الفقر يقال عال يعيل اذا افتقر. انتهى.

و النهى عن دخول المشركين المسجد الحرام بحسب المتفاهم العرفي يفيد أمر المؤمنين بمنعهم عن دخول المسجد الحرام، و في تعليقه تعالى منع دخولهم المسجد بكونهم نجسا اعتبار نوع من القذاره لهم كاعتبار نوع من الطهاره و النزاهه للمسجد الحرام، و هي كيف كانت أمر آخر وراء الحكم باجتنااب ملاقاتهم بالرطوبه و غير ذلك.

و المراد بقوله: «عَامِهِمْ هَذَا» سنه تسع من الهجره، و هي السنه التي أذن فيها على عليه السلام بالبراءه، و منع طواف البيت عريانا، و حج المشركين البيت.

و قوله: «وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةَ الْآيَةِ؛ أَى و إن خفتم فى إجراء هذا الحكم أن ينقطعوا عن الحج، و يتعطل أسواقكم، و تذهب تجارتكم فتفتقروا و تعيلوا فلا تخافوا فسوق يغنيكم الله من فضله، و يؤمنكم من الفقر الذى تخافونه.

و هذا وعد حسن منه تعالى فيه تطيب نفوس أهل مكه و من كان له تجاره هناك بالموسم، و كان حاضر العالم الاسلامى يبشرهم يومئذ بمضمون هذا الوعد فقد كان الاسلام تعلق كلمته، و ينتشر صيته حالا بعد حال، و كانت عامه المشركين فى عتبه

الاستئصال بعد إيدان براءه لم يبق لهم إلا اربعة أشهر إلا شردمه قليله من العرب كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم عاهدهم عند المسجد الحرام الى أجل ما بعده من مهل فالجميع كانوا في معرض قبول الاسلام (١).

[سوره التوبه (٩): الآيات ٢٩ الى ٣٥]

إشارة

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُم وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)

ص: ٧٤١

(١ - ١). التوبه ٢٥-٢٨: بحث روائى فى: غزوه حنين، فهرس اسماء شهداء حنين.

قوله تعالى: قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَهْلَ الْكِتَابِ هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى عَلَى مَا يَسْتَفَادُونَ مِنْ آيَاتِ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَكَذَلِكَ الْمَجُوسُ عَلَى مَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (الحج ١٧) حيث عدوا في الآية مع سائر ارباب النحل السماويه في قبال الذين اشركوا، و الصابئون كما تقدم طائفه من المجوس صبوا الى دين اليهود فاتخذوا طريقا بين الطريقين.

و السياق يدل على ان لفظه «مِنَ» في قوله: «مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» بيانيه لا تبعيضييه فان كلاً من اليهود و النصارى و المجوس امه واحده كالمسلمين في اسلامهم و ان تشعبوا شعبا مختلفه و تفرقوا فرقا متشتته اختلط بعضهم ببعض و لو كان المراد قتال البعض و اثبات الجزيه على الجميع او على ذلك البعض بعينه لاحتاج المقام في افاده ذلك الى بيان غير هذا البيان

يحصل به الغرض.

و حيث كان قوله: «مَنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» بيانا لما قبله من قوله: «الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ» الآية فالأوصاف المذكوره اوصاف عامه لجميعهم و هى ثلاثه أوصاف وصفهم الله سبحانه بها: عدم الايمان بالله و اليوم الآخر، و عدم تحريم ما حرّم الله و رسوله، و عدم التدبّر بدين الحق.

فأول ما وصفهم به قوله: «الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ» و هو تعالى ينسب اليهم فى كلامه أنهم يشتونه إليها و كيف لا؟ و هو يعدّهم اهل الكتاب، و ما هو إلا الكتاب السماوى النازل من عند الله على رسول من رسله و يحكى عنهم القول او لازم القول بالالوهيه فى مئات من آيات كتابه (١).

فمعنى الآية- و الله اعلم- قاتلوا اهل الكتاب لأنهم لا يؤمنون بالله و اليوم الآخر إيماناً مقبولاً- غير منحرف عن الصواب و لا يحرمون ما حرّمه الإسلام مما يفسد اقترافه المجتمع الإنسانى و لا يدينون ديناً منطبقاً على الخلقه الإلهيه قاتلوهم و دوما على قتالهم حتى يصغروا عندكم و يخضعوا لحكومتم، و يعطوا فى ذلك عطيه مالىه مضروبه عليهم يمثل صغارهم، و يصرف فى حفظ ذمتهم و حقن دمائهم و حاجه إداره امورهم.

قوله تعالى: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ» الى آخر الآية المضاهاه المشاكلة و الإفك على ما ذكره الراغب كل مصروف عن وجهه الذى يحق ان يكون عليه فمعنى «يُؤْفَكُونَ» يصرفون فى اعتقادهم عن الحق الى الباطل.

و قوله: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ» عزيز هذا هو الذى يسميه اليهود عزرا غيرت

ص: ٧٤٣

(١- ١). التوبه ٢٩-٣٥: بحث فى صله الايمان بالتوحيد و باليوم الآخر؛ لم عد الله اهل الكتاب كفارا.

اللفظه عند التعريف كما غير لفظ «يسوع» فصار بالتعريب «عيسى» و لفظ «يوحنا» فصار كما قيل «يحيى».

و قوله: «وَ قَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ» كلمه قالتها النصارى، و قد تقدم الكلام فيها و فى ما يتعلق بها فى قصه المسيح عليه السلام من سوره آل عمران فى الجزء الثالث من الكتاب.

و قوله: يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ تَنْبِئُ الْآيَةَ عَنْ ان القول بالنبوه منهم مضاهاه و مشاكلة لقول من تقدمهم من الأمم الكافره و هم الوثنيون عبده الأصنام فإن من آلهتهم من هو إله أب إله و من هو إله ابن إله، و من هى إلهه ام إله او زوجه إله، و كذا القول بالثالوث مما كان دائرا بين الوثنيين من الهند و الصين و مصر القديم و غيرهم و قد مرّ نبذه من ذلك فيما تقدم من الكلام فى قصه المسيح فى ثالث أجزاء هذا الكتاب.

ثم دعا عليهم بقوله: «قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْى يُؤْفَكُونَ» و ختم به الآية.

قوله تعالى: اِتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ الْأَحْبَارَ جَمَعَ حَبْرَ بَفَتْحِ الْحَاءِ وَ كَسْرِهَا وَ هُوَ الْعَالَمُ وَ غَلَبَ اسْتِعْمَالُهُ فِي عُلَمَاءِ الْيَهُودِ وَ الرَّهْبَانِ جَمَعَ رَاهِبٌ وَ هُوَ الْمَتَلْبَسُ بِلِبَاسِ الْخَشِيهِ وَ غَلَبَ عَلَى الْمُتَنَسِّكِينَ مِنَ النَّصَارَى.

و اتخاذهم الأحبار و الرهبان أربابا من دون الله هو إصغائهم لهم و إطاعتهم من غير قيد و شرط و لا يطاع كذلك إلا الله سبحانه.

و أما اتخاذهم المسيح بن مريم ربا من دون الله فهو القول بالوهيته بنحو كما هو المعروف من مذاهب النصارى، و فى إضافه المسيح الى مريم إشاره الى عدم كونهم محقين فى هذا الاتخاذ لكونه إنسانا ابن مرأه.

و لكون الاتخاذين مختلفين من حيث المعنى فصل بينهما فذكر اتخاذهم الأحبار و الرهبان أربابا من دون الله أولا، ثم عطف عليه قوله: «وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ» .

و الكلام كما يدل على اختلاف الربوبيتين كذلك لا- يخلو عن دلاله على أن قولهم بينوّه عزير و بنوه المسيح على معينين مختلفين، و هو البنوه التشريفيه فى عزير و البنوه بنوع من الحقيقه فى المسيح عليه السلام فإن الآيه أهملت ذكر اتخاذهم عزيرا ربا من دون الله، و لم يذكر مكانه إلاّ اتخاذهم الأخبار و الرهبان أربابا من دون الله.

فهو رب عندهم بهذا المعنى إما لاستلزام التشريف بالبنوه ذلك أو لأنه من أبحارهم و قد أحسن إليهم فى تجديد مذهبهم ما لا يقاس به إحسان غيره، و أما المسيح فبنوته غير هذه البنوه.

و قوله: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» جملة حاله أى اتخذوا لهم أربابا و الحال هذه.

و فى الكلام دلاله أوّلا: على أن الاتخاذ بالربوبيه بواسطه الطاعه كالاتخاذ بها بواسطه العباده فالطاعه اذا كانت بالاستقلال كانت عباده، و لازم ذلك ان الرب الذى هو المطاع من غير قيد و شرط و على نحو الاستقلال إله، فإن الإله هو المعبود الذى من حقه أن يعبد، يدل على ذلك كله قوله تعالى: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا» حيث يدل الرب بالإله، و كان مقتضى الظاهر ان يقال و ما أمروا إلاّ ليتخذوا ربا واحدا فالاتخاذ للربوبيه بواسطه الطاعه المطلقه عباده، و اتخاذ الرب معبودا اتخاذ له إلهافهم ذلك.

و ثانيا: على ان الدعوه الى عباده الله وحده فيما وقع من كلامه تعالى كقوله تعالى: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (الأنبياء ٢٥) و قوله: فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ (الشعراء ٢١٣) و أمثال ذلك كما أريد بها قصر العباده بمعناها المتعارف فيه تعالى كذلك أريد قصر الطاعه فيه تعالى، و ذلك انه تعالى لم يؤاخذهم فى طاعتهم لأبحارهم و رهبانهم إلاّ بقوله عزّ من قائل:

«وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» .

و على هذا المعنى يدل قوله تعالى: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ

لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (يس ١٦١)، و هذا باب يفتح منه ألف باب.

و فى قوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» تتميم لكلمه التوحيد التى يتضمنها قوله: «وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا» فإن كثيرا من عبده الاصنام كانوا يعتقدون بوجود آلهه كثيره، و هم مع ذلك لا- يخصون بالعباده إلا واحدا منها فعباده إله واحد لا يتم به التوحيد إلا مع القول بأنه لا إله إلا هو.

و قد جمع تعالى بين العبادتين مع الإشاره الى مغايره ما بينهما و ان قصر العباده بكلا معنيها عليه تعالى هو معنى الإسلام له سبحانه الذى لا- مفر منه للانسان؛ فمما أمر به نبيه صلى الله عليه و آله و سلم من دعوه أهل الكتاب بقوله: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (آل عمران ٦٤).

و قوله تعالى فى ذيل الآيه: «سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» تنزيه له تعالى عما يتضمنه قولهم بربوبيه الأبحار و الرهبان، و قولهم بربوبيه المسيح عليه السلام من الشرك.

و الآيه بمنزله البيان التعليلى لقوله تعالى فى أول الآيات: «الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ» فان اتخاذ إله او آلهه دون الله سبحانه لا يجامع الإيمان بالله، و لا الإيمان بيوم لا ملك فيه إلا الله.

قوله تعالى: يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الإطفاء اخماد النار او النور، و الباء فى قوله: «بِأَفْوَاهِهِمْ» للآله او السبيه.

و إنما ذكر الأفواه لأن النفخ الذى يتوسل به الى اخماد الانوار و السرج يكون بالأفواه، قال فى المجمع: و هذا من عجيب البيان مع ما فيه من تصغير شأنهم و تضعيف كيدهم لأن الفم يؤثر فى الأنوار الضعيفه دون الاقباس العظيمه. انتهى.

وقال فى الكشاف: مثل حالهم فى طلبهم ان يبطلوا نبوه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم بالتكذيب بحال من يريد ان ينفخ فى نور عظيم منبث فى الآفاق يريد الله ان يزيده، و يبلغه الغايه القصوى فى الاشراق و الاضاءه ليطفئه بنفخه و يطمسه. انتهى، و الآيه اشاره الى حال الدعوه الإسلاميه، و ما يريده منه الكافرون، و فيها وعد جميل بأن الله سيتم نوره.

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ الهدى الهدايه الإلهيه التى قارنها برسوله ليهدى بأمره، و دين الحق هو الاسلام بما يشتمل عليه من العقائد و الأحكام المنطبقه على الواقع الحق.

و المعنى أن الله هو الذى ارسل رسوله و هو محمّد صلى الله عليه وآله وسلم مع الهدايه- او الآيات و البيئات- و دين فطرى ليظهر و ينصر دينه الذى هو دين الحق على كل الأديان و لو كره المشركون ذلك.

و بذلك ظهر أن الضمير فى قوله: «لِيُظْهِرَهُ» راجع الى دين الحق كما هو المتبادر من السياق، و ربما قيل: ان الضمير راجع الى الرسول، و المعنى ليظهر رسوله و يعلمه معالم الدين كلها و هو بعيد.

و فى الآيتين من تحريض المؤمنين على قتال اهل الكتاب و الاشاره الى وجوب ذلك عليهم ما لا يخفى فانهما تدلان على أن الله أراد انتشار هذا الدين فى العالم البشرى فلا بد من السعى و المجاهده فى ذلك، و أن اهل الكتاب يريدون أن يطفئوا هذا النور بأفواههم فلا بد من قتالهم حتى يفنوا او يستبقوا بالجزيه و الصغار، و أن الله سبحانه يأبى إلا ان يتم نوره، و يريد ان يظهر هذا الدين على غيره فالدائرته بمشيئه الله لهم على اعدائهم فلا ينبغى لهم ان يهنوا و يحزنوا و هم الأعلون ان كانوا مؤمنين.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَعْمَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ

أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَ يَصِيءُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ الظاهر أن الآية اشاره الى بعض التوضيح لقوله في أول الآيات: «وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ» كما ان الآية السابقه كالتوضيح لقوله فيها: «الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ» .

أما ايضاح قوله تعالى: «وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» بقوله: «إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَ الرَّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ» فهو إيضاح بأوضح المصديق و أهمها تأثيرا فى افساد المجتمع الانسانى الصالح، و ابطال غرض الدين.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَ الفِضَّةَ وَ لَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ قال الراغب: الكنز جعل المال بعضه على بعض و حفظه، و أصله من كنزت التمر فى الوعاء، و زمن الكنز وقت ما يكتز فيه التمر، و ناقه كنز مكتنزه اللحم، و قوله: «وَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَ الفِضَّةَ» أى يدخرونها، انتهى.

ففى مفهوم الكنز حفظ المال المكنوز و ادخاره و منعه من ان يجرى بين الناس فى وجوه المعاملات فينمو نماء حسنا، و يعم الانتفاع به فى المجتمع فينتفع به هذا بالأخذ، و ذاك بالرد، و ذلك بالعمل عليه و قد كان دأبهم قبل ظهور البنوك و المخازن العامه أن يدفنوا الكنوز فى الأرض سترًا عليها من أن تقصد بسوء.

و الآية و إن اتصلت فى النظم اللفظى بما قبلها من الآيات الدائمة لأهل الكتاب و الموبخه لأخبارهم و رهبانهم فى أكلهم اموال الناس بالباطل و الصد عن سبيل الله إلا أنه لا دليل من جهة اللفظ على نزولها فيهم و اختصاصها بهم البتة.

فلا سبيل الى القول بأن الآية إنما نزلت فى أهل الكتاب و حرمت الكنز عليهم، و أما المسلمون فهم و ما يقتنون من ذهب و فضه يصنعون بأموالهم ما يشاءون من غير بأس عليهم.

و الآية توعد الكانزين إيعادا شديدا، و يهددهم بعذاب شديد غير أنها تفسر الكنز

المدلول عليه بقوله: «الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَ الفِضَّةَ» بقوله: «وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» فتدل بذلك على أن الذي يبغضه الله من الكنز ما يلازم الكف عن إنفاقه في سبيل الله إذا كان هناك سبيل.

فآليه ناظره الى الكنز الذي يصاحبه الامتناع عن الانفاق في الحقوق الماليه الواجبه لا بمعنى الزكاه الواجبه فقط بل بمعنى يعمها وغيرها من كل ما يقوم عليه ضروره المجتمع الدينى من الجهاد و حفظ النفوس من الهلكه و نحو ذلك.

و قوله فى ذيل الآيه: «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» إيعاد بالعذاب يدل على تحريمه الشديد.

قوله تعالى: يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ الى آخر الآيه. إحماء الشىء جعله حارا فى الاحساس، و الإحماء عليه الايقاد ليتسخن و الإحماء فوق التسخين، و الكوى إصاق الشىء الحار بالبدن.

و المعنى: أن ذلك العذاب المبشّر به فى يوم يوقد على تلك الكنوز فى نار جهنم فتكون محماه بالنار فتلتصق بجباههم و جنوبهم و ظهورهم، و يقال لهم عند ذلك: «هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ»: فقد عاد عذابا عليكم تعذبون به.

و لعل تخصيص الجباه و الجنوب و الظهر لأنهم خضعوا لها و هو السجده التى تكون بالجباه و لاذوا إليها و اللواذ بالجنوب، و اتكئوا عليها و الاتكاء بالظهور، و قيل غير ذلك و الله أعلم (١)(٢).

ص: ٧٤٩

١-١). التوبه ٢٩-٣٥: بحث روائى فى: السيوف الثلاثه، سيره الاسلام مع اهل الكتاب و الكفار من غيرهم؛ الجزيه؛ معنى اتخاذ اهل الكتاب احبارهم و رهبانهم اربابا من دون الله؛ ظهور المهدي عليه السلام؛ كنز الذهب و الفضة؛ الدرهم و الدينار.

٢-٢). التوبه ٢٩-٣٥: كلام فى معنى الكنز.

إشارة

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُجَلِّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ الشهر كالسنه و الاسبوع مما يعرفه عامه الناس منذ اقدم اعصار الإنسانيه، و كأن لبعضها تأثيرا في تنبهم لبعض فقد كان الانسان يشاهد تحول السنين و مرورها بمضى الصيف و الشتاء و الربيع و الخريف و تكررهما بالعود ثم العود ثم تنبهوا لانقسامها الى اقسام هي اقصر منها مده حسب ما ساقهم اليه مشاهده اختلاف اشكال القمر من الهلال الى الهلال، و ينطبق على ما يقرب من ثلاثين يوما و تنقسم بذلك السنه الى اثني عشر شهرا.

و السنه التي ينالها الحس شمسيه تتألف من ثلاثمائه و خمسه و ستين يوما و بعض يوم لا تنطبق على اثني عشر شهرا قمريا هي ثلاثمائه و أربعه و خمسون يوما تقريبا إلا برعايه حساب

الكيسه غير ان ذلك هو الذى يناله الحس و ينتفع به عامه الناس من الحاضر و البادى و الصغير و الكبير و العالم و الجاهل.

فقوله تعالى: «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا» الخ؛ ناظر الى الشهور القمرية التى تتألف منها السنون و هى التى لها اصل ثابت فى الحس و هو التشكلات القمرية بالنسبه الى اهل الارض.

و الدليل على كون المراد بها الشهور القمرية-اولا-قوله بعد: «مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ» لقيام الضروره على ان الاسلام لم يحرم إلا اربعة من الشهور القمرية التى هى ذو القعدة و ذو الحجة و المحرم و رجب، و الاربعه من القمرية دون الشمسية.

و ثانيا: قوله «عِنْدَ اللَّهِ» و قوله: «فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» فإن هذه القيود تدل على ان هذه العده لا سبيل للتغير و الاختلاف إليها لكونها عند الله كذلك و لا يتغير علمه، و كونها فى كتاب الله كذلك يوم خلق السماوات و الارض فجعل الشمس تجرى لمستقر لها، و القمر قدره منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغى لها ان تدرك القمر و لا الليل سابق النهار و كل فى فلك يسبحون فهو الحكم المكتوب فى كتاب التكوين، و لا معقب لحكمه تعالى.

فمعنى الآيه ان عده الشهور اثنا عشر شهرا تتألف منها السنون، و هذه العده هى التى فى علم الله سبحانه، و هى التى أثبتتها فى كتاب التكوين يوم خلق السماوات و الارض و أجرى الحركات العامه التى منها حركه الشمس و حركه القمر حول الارض و هى الاصل الثابت فى الكون لهذه العده.

قوله تعالى: «مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ الْحَرَمُ جَمْعُ حَرَامٍ وَ هُوَ الْمَمْنُوعُ مِنْهُ، وَ الْقِيَمُ هُوَ الْقَائِمُ بِمَصْلَحَةِ النَّاسِ الْمَهِيْمُنَ عَلَى إِدَارَةِ أُمُورِ حَيَاتِهِمْ وَ حَفْظِ شُؤْنِهَا.

و قوله: «مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ» هى الأشهر الأربعة: ذو القعدة و ذو الحجة و المحرم و رجب بالنقل القطعى، و الكلمه كلمه تشريع بدليل
قوله: «ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» الخ.

و إنما جعل الله هذه الأشهر الأربعة حرما ليكف الناس فيها عن القتال و ينسبط عليهم بساط الأمن، و يأخذوا فيها الأهبه للسعاده، و
يرجعوا الى ربهم بالطاعات و القربات.

و كانت حرمتها من شريعته إبراهيم، و كانت العرب تحترمها حتى فى الجاهليه حينما كانوا يعبدون الأوثان غير أنهم ربما كانوا
يحولون الحرمه من شهر الى شهر سنه أو أزيد منها بالنسيء الذى تتعرض له الآيه التاليه.

و قوله: «ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ»، الإشاره الى حرمه الأربعة المذكوره، و الدين كما تطلق على مجموع ما أنزله الله على أنبيائه تطلق
على بعضها فالمعنى ان تحريم الأربعة من الشهور القمرية هو الدين الذى يقوم بمصالح العباد. كما يشير اليه فى قوله: «جَعَلَ اللَّهُ
الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ الْآيَه (المائدہ ٩٧)»؛ و قد تقدم الكلام فيه فى الجزء السادس من الكتاب.

و قوله: «فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ» الضمير الى الأربعة اذ لو كان راجعا الى «اثْنَا عَشَرَ» المذكور سابقا لكان الظاهر أن
يقال: «فيها» كما نقل عن الفراء، و أيضا لو كان راجعا الى «اثْنَا عَشَرَ» و هى تمام السنه لكان قوله: «فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ» كما
قيل فى معنى قولنا:

فلا تظلموا أبدا أنفسكم، و كان الكلام متفرقا على كون عدّه الشهور عند الله اثنى عشر شهرا، و لا تفرع له عليه ظاهرا فالمعنى لما
كانت هذه الأربعة حرما تفرع على حرمتها عند الله أن تكفوا فيها عن ظلم أنفسكم رعايه لحرمتها و عظم منزلتها عند الله
سبحانه.

فالنهى عن الظلم فيها يدل على عظم الحرمه و تأكدها لتفرعها على حرمتها أولا و لأنها نهى خاص بعد النهى العام كما يفيد
قولنا: لا تظلم أبدا و لا تظلم فى زمان كذا.

و الجمله أعنى قوله: «فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ» و إن كانت بحسب إطلاق لفظها نهيا عن

كل ظلم و معصيه لكن السياق يدل على كون المقصود الأهم منها النهى عن القتال فى الأشهر الحرم.

قوله تعالى: وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ قال الراغب فى المفردات: الكف كف الإنسان و هى ما بها يقبض و يبسط، و كفته أصبت كفه، و كفته أصبته بالكف و دفعته بها، و تعورف الكف بالدفع على أى وجه كان، بالكف كان أو غيرها حتى قيل: رجل مكفوف لمن قبض بصره.

و قوله: و ما أرسلناك إلا كافه للناس أى كافا لهم عن المعاصى، و الهاء فيه للمبالغه كقولهم:

راويه و علامه و نسيابه، و قوله: «و قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً» قيل: معناه كافين لهم كما يقاتلونكم كافين، و قيل: معناه جماعه كما يقاتلونكم جماعه، و ذلك أن الجماعه يقال لهم: الكافه كما يقال لهم: الوازعه لقوتهم باجتماعهم، و على هذا قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً». انتهى.

و قال فى المجمع: كافه بمعنى الإحاطه مأخوذ من كافه الشىء و هى حرفه و اذا انتهى الشىء الى ذلك كف عن الزياده، و أصل الكف المنع. انتهى.

و قوله: «كَافَّةً» فى الموضوعين حال عن الضمير الراجع الى المسلمين او المشركين أو فى الأول عن الأول و فى الثانى عن الثانى او بالعكس فهناك وجوه أربعة، و المتبادر الى الذهن هو الوجه الرابع للقرب اللفظى الذى بين الحال و ذى الحال حينئذ، و معنى الآيه على هذا: و قاتلوا المشركين جميعهم كما يقاتلونكم جميعكم.

فالآيه توجب قتال جميع المشركين فتصير نظيره قوله تعالى: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» الآيه؛ ينسخ هذه ما ينسخ تلك و تخصص أو تقيد بما تخصص او تقيد به هى.

و الآيه مع ذلك إنما تتعرض لحال القتال مع المشركين و هم عبده الأوثان غير أهل الكتاب فإن القرآن و إن كان ربما نسب الشرك تصريحا او تلويحا الى أهل الكتاب لكنه لم يطلق

المشركين على طريق التوصيف إلا على عبده الأوثان، و أما الكفر فعلا او وصفا فقد نسب الى اهل الكتاب و أطلق عليهم كما نسب و أطلق الى عبده الأوثان.

فالأية أعنى قوله: «وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً» الآية؛ لا هي ناسخه لآيه أخذ الجزية من أهل الكتاب، ولا هي مخصصة او مقيدة بها. و قد قيل في الآية بعض وجوه آخر تركناه لعدم جدوى في التعرض له.

و قوله: «وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» تعليم و تذكير و فيه حث على الاتصاف بصفه التقوى يترتب عليه من الفائدة: أولاً- الوعد الجميل بالنصر الإلهي و الغلبة و الظفر فإن حزب الله هم الغالبون.

و ثانيا: منعهم ان يتعدوا حدود الله في الحروب و المغازي بقتل النساء و الصبيان و من ألقى اليهم السلام كما قتل خالد في غزوه حنين مرأه فأرسل اليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم ينهاه عن ذلك و قتل رجالا من بنى جذيمه و قد اسلموا فوداهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم ينهاه عن ذلك و قتل رجالا من بنى جذيمه و قد اسلموا فوداهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم و تبرأ الى الله من فعله ثلاثا (1)، و قتل إسامه يهوديا اظهر له الاسلام فنزل قوله تعالى: «وَ لَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسِبْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ (النساء ٩٤/١) و قد تقدم.

قوله تعالى: إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ الى آخر الآية؛ يقال: نسأ الشيء ينسؤه نساءً و منسأه و نسيئا اذا اخره تأخيرا، و قد يطلق النسيء على الشهر الذي اخر تحريمه على ما كانت العرب تفعله في الجاهلية فإنهم ربما كانوا يؤخرون حرمة بعض الأشهر الحرم الى غيره و أما انه كيف كان ذلك فقد اختلف فيه كلام المفسرين كأهل التاريخ.

و الذي يظهر من خلال الكلام المسرود في الآية أنه كانت لهم فيها بينهم سنه جاهليه في امر الأشهر الحرم و هي المسماه بالنسيء، و هو يدل بلفظه على تأخير الحرمة من شهر حرام

ص: ٧٥٤

(١- ١). القستان الاوليان المذكورتان في كتب السير و المغازي و الثالثة تقدمت في تفسير الآية سابقا.

الى بعض الشهور غير المحرّمه الذى بعده، وانهم كانوا يؤخرون الحرمه و لا يطلونها برفعها من اصلها لإرادتهم بذلك ان يتحفظوا على سنّه قوميه ورثوها عن اسلافهم عن إبراهيم عليه السلام.

فكانوا لا- يتركون أصل التحريم لغى و إنما يؤخرونه الى غير الشهر سنه او أزيد ليواطئوا عدّه ما حرّم الله، و هى الأربعة ثم يعودون و يعيدون الحرمه الى مكانها الأول.

و هذا نوع تصرف فى الحكم الإلهى بعد كفرهم بالله باتخاذ الأوثان شركاء له تعالى و تقدّس، و لذا عدّه الله سبحانه فى كلامه زياده فى الكفر.

و قد ذكر الله سبحانه من الحكم الخاص بحرمه الأشهر الحرم النهى عن ظلم الأنفس حيث قال: «فَلَا تَظَلِّمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ» و اظهر مصاديقه القتال كما ان المصداق الوحيد الذى استفتوا فيه النبى صلّى الله عليه و آله و سلم فحكاه الله سبحانه بقوله: يَسِيئُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَتَالِ فِيهِ الْآيَةَ (البقره ٢١٧)؛ و كذا ما فى معناه من قوله: لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ (المائده ٢) و قوله: جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَ الْهَدْيَ وَ الْقُلَائِدَ (المائده ٩٧).

و كذلك الأثر الظاهر من حرمه البيت او الحرم هو جعل الامن فيه كما قال: وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا (آل عمران ٩٧) و قال: أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا (القصص ٥٧).

فالظاهر ان النسيء الذى تذكره الآيه عنهم إنما هو تأخير حرمه الشهر الحرام للتوسّل بذلك الى قتال فيه لا لتأخير الحج الذى هو عباده دينيه مختصه ببعضها.

و هذا كله يؤيد ما ذكره: أن العرب كانت تحرّم هذه الأشهر الحرم، و كان ذلك مما تمسّكت به من مله ابراهيم و اسماعيل عليهما السلام، و هم كانوا أصحاب غارات و حروب فربما كان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثه اشهر متواليه لا يغزون فيها فكانوا يؤخرون تحريم المحرّم الى صفر فيحرّمونه و يستحلون المحرم فيمكثون بذلك زمانا ثم يعود التحريم الى المحرّم، و لا يفعلون ذلك اى إنساء

حرمه المحرم الى صفر إلا في ذى الحجه.

و أما ما ذكره بعضهم أن النسيء هو ما كانوا يؤخرون الحج من شهر الى شهر فمما لا ينطبق على لفظ الآية البتة، و سيجيء تفصيل الكلام فيه فى البحث الروائى الآتى ان شاء الله. و لارجع الى ما كُنا فيه.

فقوله تعالى: «إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ» أى تأخير الحرمة التى شرعها الله لهذه الأشهر الحرم من شهر منها الى شهر غير حرام زياده فى الكفر لأنه تصرف فى حكم الله المشروع و كفر بآياته بعد الكفر بالله من جهه الشرك فهو زياده فى الكفر.

و قوله: يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا أى ضلوا فيه بإضلال غيرهم إياهم بذلك، و فى الكلام إشعار أو دلالة على أن هناك من يحكم بالنسيء، و قد ذكروا أن المتصدى لذلك كان بعض بنى كنانة، و سيجيء تفصيله فى البحث الروائى إن شاء الله.

و قوله: يُحِلُّونَهُ عَامًا وَ يُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ فى موضع التفسير للإنسان، و الضمير للشهر الحرام المعلوم فى سياق الكلام أى و هو انهم يحلون الشهر الحرام الذى نسئوه بتأخير حرمة عامًا و يحرمونه عامًا، أى يحلون عامًا بتأخير حرمة الى غيره، و يحرمونه عامًا بإعاده حرمة اليه.

و إنما يعملون على هذه الشاكلة بالتأخير سنه و الإثبات اخرى ليؤاطوا و يوافقوا عده ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله فى حال حفظهم اصل العدد أى انهم يريدون التحفظ على حرمة الاشهر الاربعه بعددها مع التغيير فى محل الحرمة ليتمكنوا مما يريدونه من الحروب و الغارات مع الاستئان بالحرمة.

و قوله: زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ الْمَزِينِ هو الشيطان كما وقع فى آيات من الكتاب، و ربما الى الله سبحانه كما فى آيات أخر، و لا ينسب الشر اليه سبحانه إلا ما قصد به الجزاء على الشر كما قال تعالى: يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ

كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦).

و ذلك بأن يفسق العبد فيمنعه الله الهدايه فيكون ذلك إذنا لداعى الضلال و هو الشيطان ان يزين له سوء عمله فيغويه و يضلّه،و لذلك قال تعالى: «زُيِّنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ» ثم عقبه بقوله:

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» كأنه لما قيل: زين لهم سوء أعمالهم قيل: كيف أذن الله فيه و لم يمنع ذلك قيل: إن هؤلاء كافرون و الله لا يهدي القوم الكافرين (١).

[سوره التوبه (٩): الآيات ٣٨ الى ٤٨]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِثْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا - وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانِ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَ لَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّفَّةُ وَ سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكَافِرِينَ (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَ اللَّهِ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَ لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا - وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ كَارِهُونَ (٤٨)

ص: ٧٥٧

(١ - ١). التوبه ٣٦-٣٧: بحث روائى فى الاشهر الحرم.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا كُنتُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ الْآيَةَ؛ اثَّاقَلْتُمْ أَصْلُهُ تَثَاقَلْتُمْ عَلَى وَزَانِ إِذَا رَكَوْا وَغَيْرِهِ، وَكَأَنَّهُ

أشرب معنى الميل ونحوه فعدي بإلى وقيل: اثاقلتم الى الأرض أى ملتم الى الأرض متثاقلين او ثقاقلتم مائلين الى الأرض و المراد بالنفر فى سبيل الله الخروج الى الجهاد.

وقوله: أَرْضِيَّتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ كَأَنَّ الرِّضَا أَشْرَبُ معنى القناعه فعدي بمن كما يقال: رضيت من المال بطيبه، و رضيت من القوم بخله فلان، و على هذا ففى الكلام نوع من العناية المجازيه كأن الحياه الدنيا نوع حقير من الحياه الآخره فنعوا بها منها، و يشعر بذلك قوله بعده: «فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» .

فمعنى الآية: يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قال لكم لى النبى صلى الله عليه و آله و سلم-لم صرح باسمه صونا و تعظيما-اخرجوا الى الجهاد أبطأتم كأنكم لا تريدون الخروج أفنعتم بالحياه الدنيا راضين بها من الآخره فما متاع الحياه الدنيا بالنسبه الى الحياه الآخره إلا قليل.

و فى الآية و ما يتلوها عتاب شديد للمؤمنين و تهديد عنيف و هى تقبل الانطباق على غزوه تبوك كما ورد ذلك فى اسباب النزول.

قوله تعالى: إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛العذاب الذى أنذروا به مطلق غير مقيد فلا وجه لتخصيصه بعذاب الآخره بل هو على إبهامه، و ربما أيد السياق كون المراد به عذاب الدنيا او عذاب الدنيا و الآخره جميعا.

وقوله: «يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ» أى يستبدل بكم قوما غيركم لا- يتثاقلون فى امثال أوامر الله و النفر فى سبيل الله اذا قيل لهم: انفروا، و الدليل على هذا المعنى قرينه المقام.

وقوله: «وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا» إشاره الى هوان أمرهم على الله سبحانه لو أراد ان يذهب بهم و يأتى بآخرين فإن الله لا ينتفع بهم بل نفعهم لأنفسهم فضررهم على أنفسهم، و قوله: «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» تعليل لقوله: «يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ» .

قوله تعالى: إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ الثقبه العظيمه فى الجبل، و المراد

به غار جبل ثور قرب منى و هو غير غار حراء الذى ربما كان النبى صلى الله عليه و آله و سلم يأوى اليه قبل البعثة للأخبار المستفيضة، و المراد بصاحبه هو ابو بكر للنقل القطعى.

و قوله: إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا أَى لَا تَحْزَنْ خَوْفًا مِمَّا تَشَاهَدُهُ مِنَ الْوَحْدَةِ وَالْغُرْبَةِ وَفَقْدِ النَّاصِرِ وَتَظَاهِرِ الْأَعْدَاءِ وَتَعْقِيهِمْ إِيَّايَ فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ مَعَنَا يَنْصُرُنِي عَلَيْهِمْ.

و قوله: فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيْدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا أَى أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ أَيْدٍ رَسُولَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا يَصْرَفُونَ الْقَوْمَ عَنْهُمْ بِوَجْهِهِ مِنَ الصَّرْفِ بِجَمِيعِ الْعَوَامِلِ الَّتِي عَمَلَتْ فِي أَنْصِرَافِ الْقَوْمِ عَنْ دُخُولِ الْغَارِ وَالظَّفْرِ بِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ، وَ قَدْ رَوَى فِي ذَلِكَ أَشْيَاءَ سَتَأْتِي فِي الْبَحْثِ الرَّوَائِيَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

و الدليل على رجوع الضمير فى قوله: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم اولاً:

رجوع الضمائر التى قبله و بعده اليه صلى الله عليه و آله و سلم كقوله: «إِلَّا تَنْصُرُوهُ» و «نَصْرَهُ» و «أَخْرَجَهُ» و «يَقُولُ» و «لِصَاحِبِهِ» و «أَيْدَهُ» فلا سبيل الى رجوع ضمير «عَلَيْهِ» من بينها وحده الى غيره من غير قرينه قاطعه تدل عليه.

و ثانياً: أن الكلام فى الآيه مسوق لبيان نصر الله تعالى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم حيث لم يكن معه أحد ممن يتمكن من نصرته اذ يقول تعالى: «إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ» الآية و إنزال السكينه و التقويه بالجند من النصر فذاك له صلى الله عليه و آله و سلم خاصه.

و يدل على ذلك تكرار «إِذْ» و ذكرها فى الآيه ثلاث مرات كل منها بيان لما قبله بوجه فقوله: «إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا» بيان لوقت قوله: «فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ» و قوله: «إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ» بيان لتشخيص الحال الذى هو قوله: «ثَانِي اثْنَيْنِ» و قوله: «إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ» بيان لتشخيص الوقت الذى يدل عليه قوله: «إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ» .

و ثالثاً: أن الآيه تجرى فى سياق واحد حتى يقول: «وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى»

وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا» و لا ريب أنه بيان لما قبله، و أن المراد بكلمه الذين كفروا هي ما قضاوا به في دار الندوه و عزموا عليه من قتله صَلَّى الله عليه و آله و سلم و إطفاء نور الله، و بكلمه الله هي ما وعده من نصره و إتمام نوره، و كيف يجوز أن يفرق بين البيان و المبين و جعل البيان راجعا الى نصره تعالى إياه صَلَّى الله عليه و آله و سلم، و المبين راجعا الى نصره غيره.

فمعنى الآية: ان لم تنصروه أنتم ايها المؤمنون فقد اظهر الله نصره إياه في وقت لم يكن له احد ينصره و يدفع عنه و قد تظاهرت عليه الأعداء و أحاطوا به من كل جهه و ذلك اذ هم المشركون به و عزموا على قتله فاضطر الى الخروج من مكه في حال لم يكن إلا احد رجلين اثنين، و ذلك اذ هما في الغار اذ يقول النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم لصاحبه و هو ابو بكر: لا تحزن مما تشاهده من الحال ان الله معنا بيده النصر فنصره الله.

حيث أنزل سكينته عليه و أيده بجنود غائبه عن ابصاركم، و جعل كلمه الذين كفروا - و هي قضاؤهم بوجوب قتله و عزيمنتهم عليه - كلمه مغلوبه غير نافذه و لا مؤثره، و كلمه الله - و هي الوعد بالنصر و إظهار الدين و اتمام النور - هي العليا العاليه القايره و الله عزيز لا يغلب حكيم لا يجهل و لا يغلط في ما شاءه و فعله.

و قد تبين مما تقدم أولا: ان قوله: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» متفرع على قوله: «فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ» في عين انه متفرع على قوله: «إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ» فان الظرف ظرف للنصره على ما تقدم، و الكلام مسوق لبيان نصره تعالى إياه صَلَّى الله عليه و آله و سلم لا غيره فالتفريع تفريع على الظرف بمظروفه الذي هو قوله: «فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ» لا على قوله: «يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ» .

و ربما استدل لذلك بأن النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم لم يزل على سكينه من ربه فانزال السكينه في هذا الظرف خاصه يكشف عن نزوله على صاحبه.

و يدفعه أولا قوله تعالى: «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» في قصه حنين، و القول بأن نفسه الشريفه اضطربت بعض الاضطراب في وقعه حنين فناسب نزول السكينه

بخلاف الحال في الغار. يدفعه أنه من الافتعال بغير علم فالآية لا تذكر منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حزنا ولا اضطرابا ولا غير ذلك إلا ما تذكر من فرار المؤمنين. على أنه يبطل أصل الاستدلال ان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لم يزل على سكينه من ربه لا يتجدد له شيء منها فكيف جاز له أن يضطرب في حين فتنزل عليه سكينه جديده اللهم إلا أن يريدوا به أنه لم يزل في الغار كذلك.

و نظيرتها الآية الناطقه بنزول السكينه عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و على المؤمنين في سورة الفتح: إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ (الفتح/٢٦).

و يدفعه ثانيا: لزوم تفرع قوله: «وَ أَيْدُهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا» على اثر تفرع قوله: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» لأنهما في سياق واحد، ولازمه عدم رجوع التأييد بالجنود اليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أو التفكيك في السياق الواحد من غير مجوز يجوزه.

و ربما التزم بعضهم-فرارا من شناعه لزوم التفكيك-أن الضمير في قوله تعالى: «وَ أَيْدُهُ» أيضا أيضا راجع الى صاحبه، ولازمه كون إنزال السكينه و التأييد بالجنود عائدین الى أبي بكر دون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

و ربما أزيد بعض آخر بأن الوقائع التي تذكر الآيات فيها نزول جنود لم يروها كوقعه حنين و الأحزاب و كذا نزول الملائكة لوقعه بدر و ان لم تذكر نزولهم على المؤمنين و لم تصرح بتأييدهم بهم لكنهم حيث كانوا انما نزلوا للنصر و فيه نصر المؤمنين و إمدادهم فلا مانع من القول بأن الجنود التي لم يروها إنما أيدت أبا بكر، و تأييدهم المؤمنين جميعا أو ابا بكر خاصه تأييد منهم في الحقيقة للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

و الأولى على هذا البيان أن يجعل الفرع الثالث الذي هو قوله: «وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى» الآية؛ مترتبا على ما تقدمه من الفرعين لئلا يلزم التفكيك في السياق.

و لا يخفى عليك أن هذا الذي التزموا به يخرج الآية عن مستقر معناها الوحداى الى معنى

متهافت الأطراف يدفع آخره أوله، و ينقض ذيله صدره فقد بدأت الآية بأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أكرم على الله و أعز من أن يستذله و يحوجه الى نصره هؤلاء بل هو تعالى وليه القائم بنصره حيث لم يكن أحد من هؤلاء الحافين حوله المتبعين أثره ثم اذا شرعت في بيان نصره تعالى إياه بين نصره غيره بإنزال السكينة عليه و تأييده بجنود لم يروها الى آخر الآية.

هب أن نصره تعالى بعض المؤمنين به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أو جميعهم نصر منه له بالحقيقه لكن الآية في مساق يدفعه البته فإن الآية السابقه يجمع المؤمنين في خطاب واحد-يا أيها الذين آمنوا- و يعاتبهم و يهددهم على الثاقل عن إجابته النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الى ما أمرهم به من النفر في سبيل الله و الخروج الى الجهاد ثم الآية الثانيه تهددهم بالعذاب الاستبدال إن لم ينفروا و تبين لهم أن الله و رسوله في غنى عنهم و لا يضررونه شيئاً، ثم الآية الثالثه توضح ان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في غنى عن نصرهم لأن ربه هو وليه الناصر له، و قد نصره حيث لم يكن لأحد منهم صنع فيه و هو نصره إياه اذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا.

و من البين الذي لا مريه فيه ان مقتضى هذا المقام بيان نصره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الخاص به المتعلق بشخصه من الله سبحانه خاصه من دون صنع لأحد من المؤمنين في ذلك لا- بيان نصره إياه بالمؤمنين أو ببعضهم و قد جمعهم في خطاب المعاتبه، و لا بيان نصره بعض المؤمنين به ممن كان معه.

و لا- أن المقام مقام يصلح لأن يشار بقوله: «إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا» إشارة إجمالية الى نصره العزيز لنيبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ثم يؤخذ في تفصيل ما خص به صاحبه من الخصيصه بإنزال السكينة و التأييد بالجنود فإن المقام على ما تبين لك يابى ذلك.

و يدفعه ثالثاً: أن فيه غفله عن حقيقه معنى السكينة و قد تقدم الكلام فيها في ذيل قوله تعالى: [□] ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ الآية: ٢٦ من السوره.

و الأمر الثاني: أن المراد بتأييده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بجنود لم يروها تأييده بذلك يومئذ على ما يفيد

السياق، و أما قول بعضهم: إن المراد به ما أيده بالجنود يوم الأحزاب و يوم حنين على ما نطقت به الآيات فمما لا دليل عليه من اللفظ البتة.

و الأمر الثالث: أن المراد بالكلمه فى قوله: «وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى» هو ما قضاوا به فى دار الندوه و عزموا عليه من قتله صلى الله عليه و آله و سلم و إبطال دعوته الحقه بذلك، و بقوله «وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا» هو ما وعد الله نبيه صلى الله عليه و آله و سلم من النصر و إظهار دينه على الدين كله.

و ذلك أن هذه الآيه بما تتضمنه من قوله: «فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا» تشير الى ما يقصه قوله تعالى: «وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يُقْتَلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ (الأنفال ٣٠)»، و الذى فى ذيل الآيه من إبطال كلمتهم و إحقاق الكلمه الإلهيه مرتبط بما فى صدر الآيه من حديث الإخراج أى الاضطرار الى الخروج لا محاله، و الذى اضطره صلى الله عليه و آله و سلم الى الخروج هو عزمهم على قتله حسب ما اتفقوا عليه من القضاء بقتله فهذه هى الكلمه التى أبطلها الله سبحانه و جعلها السفلى و تقابلها كلمه الله و ليست إلا النصر و الإظهار.

و من هنا يظهر ان قول بعضهم إن المراد بكلمه الذين كفروا الشرك و الكفر، و بكلمه الله تعالى التوحيد و الإيمان غير سديد فإن الشرك و إن كان كلمه لهم، و التوحيد كلمه الله لكنه لا يستلزم كونهما المرادين كلما ذكرت الكلمتان حتى مع وجود القرينه على الخلاف.

قوله تعالى: «انْفِرُوا خِفَافًا وَ ثِقَالًا» وَ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الخفاف و الثقال جمعاً خفيف و ثقيل، و الثقل بقرينه المقام كناية عن وجود الموانع الشاغله الصارفه للإنسان عن الخروج الى الجهاد نظير كثره المشاغل الماليه و حب الأهل و الولد و الأقرباء و الأصدقاء الذى يوجب كراهه مفارقتهم، و فقد الزاد و الراحله و السلاح و نحو ذلك، و الخفه كناية عن خلاف ذلك.

فالأمر بالنفر خفافاً و ثقلاً و هما حالان متقابلان فى معنى الأمر بالخروج على أى حال،

و عدم اتخاذ شىء من ذلك عذرا يعتذر به لترك الخروج كما أن الجمع بين الأموال و الأنفس فى الذكر فى معنى الأمر بالجهد بأى وسيله أمكنت.

و قد ظهر بذلك ان الأمر فى الآيه مطلق لا يأبى التقييد بالأعذار التى يسقط معها وجوب الجهد كالمرض و العمى و العرج و نحو ذلك فإن المراد بالخفه و الثقل امر وراء ذلك.

قوله تعالى: لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَ سَفَرًا قاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ الى آخر الآيه.

العرض ما يسرع اليه الزوال و يطلق على المال الدنيوى و هو المراد فى الآيه بقريته السياق، و المراد بقربه كونه قريبا من تناول، و القاصد من القصد و هو التوسط فى الأمر، و المراد بكون السفر قاصدا كونه غير بعيد المقصد سهلا على المسافر، و الشقه: المسافه لما فى قطعها من المشقه.

و الآيه كما يلوح من سياقها تعبير و ذم للمنافقين المتخلفين عن الخروج مع النبى صلى الله عليه و آله و سلم الى الجهد الى غزوه تبوك اذ الغزوه التى خرج فيها النبى صلى الله عليه و آله و سلم و تخلف عنه المنافقون و هى على بعد من المسافه هى غزوه تبوك لا غيرها.

و معنى الآيه: لو كان ما امرتهم به و دعوتهم اليه عرضا قريب تناول و غنيمه حاضره و سفرا قاصدا قريبا هينا لاتبعوك يا محمّد و خرجوا معك طمعا فى الغنيمه و لكن بعدت عليهم الشقه و المسافه فاستصعبوا السير و ثاقلوا فيه.

و سيحلفون بالله اذا رجعت اليهم و لتموهم على تخلفهم: لو استطعنا الخروج لخرجنا معكم يهلكون انفسهم بما اخذوه من الطريقه: من الخروج الى القتال طمعا فى عرض الدنيا اذا استيسروا القبض عليه، و التخلف عنه اذا شق عليهم ثم الاعتذار بالعدر الكاذب على نبهم و الحلف فى ذلك بالله كاذبين، او يهلكون انفسهم بهذا الحلف الكاذب، و الله يعلم انهم لكاذبون.

قوله تعالى: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا

وَ تَعَلَّمَ الْكَاذِبِينَ الْجَمْلَةَ الْاُولَى دَعَاءَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بِالْعَفْوِ نَظِيرَ الدَّعَاءِ عَلَى الْاِنْسَانِ بِالْقَتْلِ فِي قَوْلِهِ: قُتِلَ الْاِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (عبس ١٧/)، وَ قَوْلِهِ: فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَرَ (المدثر ١٩/) وَ قَوْلِهِ: قَاتَلَهُمُ اللَّهُ اُنِّي يُؤْفِكُونَ (التوبه ٣٠/).

وَ الْجَمْلَةَ مَتَعَلِّقَهُ بِقَوْلِهِ: «لِمَ أَذْنَتَ لَهُمْ» أَى فِي التَّخْلَفِ وَ الْعُقُودِ، وَ لَمَّا كَانَ الْاِسْتِفْهَامَ لِلْاِنْكَارِ اَوْ التَّوْبِيخِ كَانَ مَعْنَاهُ: كَانَ يَنْبَغِي اِنْ لَا تَأْذَنَ لَهُمْ فِي التَّخْلَفِ وَ الْعُقُودِ، وَ يَسْتَقِيمُ بِهِ تَعَلُّقُ الْغَايَةِ الَّتِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا قَوْلُهُ: «حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِيْنَ صَدَقُوا» الْاَيَّهُ؛ بِقَوْلِهِ: «لِمَ أَذْنَتَ لَهُمْ» فَالتَّعَلُّقُ اِنْمَاءً هُوَ بِالْمُسْتَفْهَمِ عَنْهُ دُونَ الْاِسْتِفْهَامِ وَ اِلَّا اَفَادَ خِلَافَ الْمَقْصُودِ، وَ الْكَلَامُ مَسْوُوقٌ لِبَيَانِ ظُهُورِ كَذِبِهِمْ وَ اَنْ اَدْنَى الْاِمْتِحَانِ كَالْكَفِّ عَنْ اِذْنِهِمْ فِي الْعُقُودِ يَكْشِفُ عَنْ فَصَاحَتِهِمْ.

وَ مَعْنَى الْاَيَّةِ: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لَمَّا أَذْنَتَ لَهُمْ فِي التَّخْلَفِ وَ الْعُقُودِ؟ وَ لَوْ شِئْتَ لَمَّا تَأْذَنَ لَهُمْ - وَ كَانُوا اَحَقَّ بِهِ - حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِيْنَ صَدَقُوا وَ تَعَلَّمَ الْكَاذِبِينَ فَيَتَمَيَّزُ عِنْدَكَ كَذِبُهُمْ وَ نِفَاقُهُمْ.

وَ الْاَيَّةُ - كَمَا تَرَى وَ تَقَدَّمَتْ الْاِشَارَةُ اِلَيْهِ - فِي مَقَامِ دَعْوَى ظُهُورِ كَذِبِهِمْ وَ نِفَاقِهِمْ وَ اَنْهُمْ مَفْتَضِحُونَ بِاَدْنَى اِمْتِحَانِ يَمْتَحِنُونَ بِهِ، وَ مِنْ مَنَاسِبَاتِ هَذَا الْمَقَامِ اِلْقَاءُ الْعِتَابِ اِلَى الْمَخَاطَبِ وَ تَوْبِيخُهُ وَ الْاِنْكَارُ عَلَيْهِ كَاَنَّهُ هُوَ الَّذِي سَتَرَ عَلَيْهِمْ فِضَائِحَ اَعْمَالِهِمْ وَ سَوَّءَ سِرِّيَرَتِهِمْ، وَ هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْعِنَايَةِ الْكَلَامِيَّةِ يَتَبَيَّنُ بِهِ ظُهُورُ الْاَمْرِ وَ وَضُوحُهُ لَآ - يَرَادُ اَزْيَدُ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ مِنْ اِقْسَامِ الْبَيَانِ عَلَى طَرِيقِ «اِيَاكَ اَعْنِي وَ اَسْمَعِي يَا جَارَهُ».

فَالْمُرَادُ بِالْكَلَامِ اِظْهَارُ هَذِهِ الدَّعْوَى لِاَلْكَشْفِ عَنْ تَقْصِيرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ سَوَّءِ تَدْبِيرِهِ فِي اِحْيَاءِ اَمْرِ اللَّهِ، وَ اِرْتِكَابِهِ بِذَلِكَ ذَنْبًا - حَاشَا - وَ اَوْلَوِيَّةِ عَدَمِ الْاِذْنِ لَهُمْ مَعْنَاهَا كَوْنُ عَدَمِ الْاِذْنِ اَنْسَبَ لظُهُورِ فِضِيحَتِهِمْ وَ اَنْهُمْ اَحَقُّ بِذَلِكَ لَمَّا بِهِمْ مِنْ سَوَّءِ السَّرِيرَةِ وَ فِسَادِ النِّيَّةِ لِاَنَّهُ كَانَ اَوْلَى وَ اَحْرَى فِي نَفْسِ وَ اَقْرَبُ وَ اَمْسُ بِمَصْلَحَةِ الدِّينِ.

وَ الدَّلِيلُ عَلَى هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا قَوْلَهُ تَعَالَى بَعْدَ ثَلَاثِ اَيَّاتٍ: «لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ اِلَّا خَبَالًا وَ لَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَنْغُونَكُمْ اَلْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ» اِلَى اَخْرِ الْاَيَّتَيْنِ، فَقَدْ كَانَ

الأصلح ان يؤذن لهم فى التخلف ليصان الجمع من الخبال و فساد الرأى و تفرق الكلمه، و المتعين ان يقعدوا فلا يفتنوا المؤمنين بإلقاء الخلاف بينهم و التفتين فيهم و فيهم ضعفاء الإيمان و مرضى القلوب و هم سماعون لهم يسرعون الى المطاوعه لهم و لو لم يؤذن لهم فأظهروا الخلاف كانت الفتنة اشد و التفرق فى كلمه الجماعه اوضح و أبين.

و يؤكد ذلك قوله تعالى بعد آيتين: «وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ» فقد كان تخلفهم و نفاقهم ظاهرا لانحنا من عدم إعدادهم العده يتوسمه فى وجوههم كل ذى لب، و لا يخفى مثل ذلك على مثل النبي صلى الله عليه و آله و سلم و قد نبأه الله بأخبارهم قبل نزول هذه السوره كرارا فكيف يصح ان يعاتب هاهنا عتابا جديا بأنه لم يكف عن الإذن و لم يستعلم حالهم حتى يتبين له نفاقهم و يميز المنافقين من المؤمنين؟ فليس المراد بالعتاب إلا ما ذكرناه.

و مما تقدم يظهر فساد قول من قال: إن الآيه تدل على صدور الذنب عنه صلى الله عليه و آله و سلم لأن العفو لا يتحقق من غير ذنب، و ان الإذن كان قبيحا منه صلى الله عليه و آله و سلم و من صغائر الذنوب لأنه لا يقال فى المباح لم فعلته؟ انتهى.

و هذا من لعبهم بكلام الله سبحانه، و لو اعترض معترض على ما يهجون به فى مثل المقام الذى سيقى الآيه فيه لم يرضوا بذلك، و قد اوضحنا ان الآيه مسوقه لغرض غير غرض الجد فى العتاب.

على ان قولهم: إن المباح لا يقال فيه: لم فعلت؟ فاسد فإن من الجائز اذا شوهده من رجح غير الأولى على الأولى ان يقال له: لم فعلت ذلك و رجحته على ما هو اولى منه؟ على انك قد عرفت ان الآيه غير مسوقه لعتاب جدى.

و نظيره ما ذكره بعض آخر حيث قال: إن بعض المفسرين و لا سيما الزمخشري قد أساءوا الأدب فى التعبير عن عفو الله تعالى عن رسوله صلى الله عليه و آله و سلم فى هذه الآيه، و كان يجب ان يتعلموا

أعلى الأدب معه صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم إذ أخبره ربه و مؤدبه بالعفو قبل الذنب، و هو منتهى التكريم و اللطف.

و بالغ آخرون كالرازي في الطرف الآخر فأرادوا ان يثبتوا ان العفو لا يدل على الذنب، و غايته ان الإذن الذي عاتبه الله عليه هو خلاف الاولى.

و هو جمود مع الاصطلاحات المحدثه و العرف الخاص في معنى الذنب هو المعصيه، و ما كان ينبغي لهم ان يهربوا من إثبات ما اثبته الله في كتابه تمسكا باصطلاحاتهم و عرفهم المخالف له و المدلول اللغه ايضا.

فالذنب في اللغه كل عمل يستتبع ضررا او فوت منفعه او مصلحة، مأخوذ من ذنب الدابه، و ليس مرادفا للمعصيه بل اعم منها. و الإذن المعفو عنه قد استتبع فوت المصلحه المنصوصه في الآيه و هي تبين الذين صدقوا و العلم بالكاذبين، و قد قال تعالى: **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ** (الفتح ٢).

ثم ذكر في كلام له طويل ان ذلك كان اجتهادا منه صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم فيما لا وحى فيه من الله و هو جائز و واقع من الأنبياء عليهم السلام و ليسوا بمعصومين من الخطاء فيه و إنما العصمه المتفق عليها خاصه بتبليغ الوحى بيانه و العمل به فيستحيل على الرسول ان يكذب او يخطئ فيما يبلغه عن ربه او يخالفه بالعمل.

و منه ما تقدم في سورة الأنفال من عتابه تعالى لرسوله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم في اخذ الفديه من اسارى بدر حيث قال: **مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَشْرَى حَتَّى يُثَخَّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّيَا وَ اللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ** (الأنفال ٦٧) ثم بين انه كان مقتضيا لنزول عذاب أليم لو لا كتاب من الله سبق فكان مانعا انتهى كلامه بنوع من التخليص.

و ليت شعري ما الذى زاد في كلامه على ما تفصى به الرازي و غيره حيث ذكروا ان ذلك من ترك الاولى، و لا يسمونه ذنبا في عرف المتشرعين و هو الذى يستتبع عقابا، و ذكر هو انه من ترك الأصلح و سماه ذنبا لغه.

على انك قد عرفت فيما تقدم انه لم يكن ذنبا لا عرفا و لا لغه بدلاله ناصه من الآيات على ان عدم خروجهم كان هو الأصلح لحال جيش المسلمين لتخلصهم بذلك عن غائله وقوع الفتنة و اختلاف الكلمه، و كانت هذه العله بعينها موجوده لو لم يأذن لهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و ظهر منهم ما كانوا ابطنوه من الكفر و الخلاف و أن الذى ذكره الله بقوله: «وَ لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً» ان عدم إعدادهم العده كان يدل على عدم إرادتهم الخروج، كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم اجل من ان يخفى عليه ذلك و هم بمراى منه و مسمع.

مضافا الى انه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم كان يعرفهم فى لحن القول كما قال تعالى: وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ (محمّد ٣٠/١) و كيف يخفى على من سمع من احدهم مثل قوله: «أُذِّنْ لِي وَ لَا تَفْتِنِّي» او يقول للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم «هُوَ أُذُنٌّ» او يلزمه فى الصدقات و لا ينصح له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم أن ذلك من طلائع النفاق يطلع منهم و ما وراءه إلا كفر و خلاف.

فقد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم يتوسم منهم النفاق و الخلاف و يعلم بما فى نفوسهم، و مع ذلك فعتابه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بأنه لم يكف عن الإذن و لم يستعلم حالهم و لم يميزهم من غيرهم؟ ليس إلا- عتابا غير جدوى للغرض الذى ذكرناه.

و أما قوله: «إن الإذن المعفو عنه قد استتبع فوت المصلحه المنصوصه فى الآيه و هى تبين الذين صدقوا و العلم بالكاذبين» ففيه أن الذى تشتمل عليه الآيه من المصلحه هو تبين الذين صدقوا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و علمه هو بالكاذبين لا مطلق تبينهم و لا مطلق العلم بالكاذبين، و قد ظهر مما تقدم انه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم لم يكن يخفى عليه ذلك، و أن حقيقه المصلحه إنما كانت فى الإذن و هى سدّ باب الفتنة و اختلاف الكلمه فانه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم كان يعلم من حالهم انهم غير خارجين البتّه سواء أذن لهم فى القعود أم لم يأذن فبادر الى الإذن حفظا على ظاهر الطاعه و وحده الكلمه.

و ليس لك ان تتصور انه لو بان نفاقهم يومئذ و ظهر خلافهم بعدم إذن النبي لهم بالقعود لتخلص الناس من تفتينهم و إلقاءهم الخلاف لما فى الاسلام يومئذ- هو يوم خروج

النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الى غزوه تبوك-من الشوكه و القوه،و له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من نفوذ الكلمه.

فان الإسلام يومئذ إنما كان يملك القوه و المهابه فى أعين الناس من غير المسلمين كانوا يرتاعون شوكته و يعظمون سواد أهله و يخافون حد سيوفهم،و أما المسلمون فى داخل مجتمعهم و بين انفسهم فلم يخلصوا بعد من النفاق و مرض القلوب،و لم يستول عليهم بعد وحده الكلمه و جدّ الهمه و العزيمه،و الدليل على ذلك نفس هذه الآيات و ما يتلوها الى آخر السوره تقريباً.

و قد كانوا تظاهروا بمثل ذلك يوم أحد و قد هجم عليهم العدو فى عقر دارهم فرجع ثلث الجيش الاسلامى من المعركه و لم يؤثر فيهم عظه و لا إلحاح حتى قالوا:لو نعلم قتالا لاّ تبعناكم،فكان ذلك احد الأسباب العامله فى انهزام المسلمين.

و أما قوله:و من عتابه تعالى لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فى اجتهاده ما تقدم فى سوره الأنفال من عتابه فى اخذ الفديه من أسارى بدر حيث قال: «مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ ۚ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ» الآية.

ففيه أولاً:انه من سوء الفهم فمن البين الذى لا يرتاب فيه أن الآية بلفظها لا تعاتب على اخذ الفديه من الأسرى و إنما تعاتب على نفس اخذ الأسرى-ما كان لنبى ان يكون له اسرى-و لم تنزل آيه و لا وردت روايه فى ان النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان امرهم بالأسر بل روايات القصه تدل على ان النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لما أمر بقتل بعض الأسرى خاف الناس ان يقتلهم على آخرهم فكلموه و ألحوا عليه فى أخذ الفديه منهم ليتقوا بذلك على أعداء الدين و قد ردّ الله عليهم ذلك بقوله: «تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ» .

و هذا من أحسن الشواهد على أن العتاب فى الآية متوجه الى المؤمنين خاصه من غير ان يختص به النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ او يشاركهم فيه و أن اكثر ما ورد من الأخبار فى هذا المعنى موضوعه او مدسوسه.

و ثانيا: ان العتاب فى الآيه لو اختص بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم او شمله و غيره لم يكن من العتاب على ما ذكره على الذنب بمعناه اللغوى و هو تفويت المصلحه بوجه فان هذا العتاب مذيّل بقوله تعالى فى الآيه التاليه: **لَوْ لَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** (الأنفال / ٦٨) فلا يرتاب ذولب فى أن التهديد بالعذاب العظيم لا يتأتى إلا مع كون المههد عليه من المعصيه المصطلحه بل و من كبائر المعاصى، و هذا ايضا من الشواهد على ان العتاب فى الآيه متوجه الى غير النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: **لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ**، تذكر الآيتان أحد ما يعرف به المنافق و يتميز به من المؤمن و هو الاستيذان فى التخلف عن الجهاد فى سبيل الله.

و قد بين الله سبحانه ذلك بأن الجهاد فى سبيل الله بالأموال و الأنفس من لوازم الايمان بالله و اليوم الآخر بحقيقه الايمان لما يورثه هذا الايمان من صفه التقوى، و المؤمن لما كان على تقوى من قبل الإيمان بالله و اليوم الآخر كان على بصيره من وجوب الجهاد فى سبيل الله بماله و نفسه.

و لا يدعه ذلك ان يتناقل عنه فيستأذن فى القعود لكن المنافق لعدم الإيمان بالله و اليوم الآخر فقد صفه التقوى فارتاب قلبه و لا يزال يتردد فى ريبه فيحب التطرف، و يستأذن فى التخلف و القعود عن الجهاد.

قوله تعالى: **وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً إِلَى آخِرِ آيَةِ الْعُدَّةِ الْأَهْبَةِ، وَ الْأَنْبِعَاثِ - عَلَى مَا فِي الْمَجْمَعِ - الْإِنْطِلَاقِ بِسُرْعَةٍ فِي الْأَمْرِ، وَ التَّشْيِيطِ التَّوْقِيفِ عَنِ الْأَمْرِ بِالتَّرْهِيدِ فِيهِ.**

و الآيه معطوفه على ما تقدم من قوله: **«وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ»** بحسب المعنى أى هم كاذبون فى دعواهم عدم استطاعتهم الخروج بل ما كانوا يريدونه و لو أرادوه لأعدوا له عدّه لأن من آثار من يريد أمرا من الامور أن يتأهب له بما يناسبه من العدّه و الأهبه و لم يظهر منهم

شئ من ذلك.

وقوله: «وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ» أى جزاء بنفاقهم و امتنانا عليك و على المؤمنين لثلا يفسدوا جمعكم، و يفترقوا كلمتكم بالتفتين و إلقاء الخلاف.

وقوله: «وَقِيلَ أَفَعُدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ» أمر غير تشريعى لا ينافى الأمر التشريعى بالنفر و الخروج، فقد أمرهم الله بلسان نبيه صلى الله عليه و آله و سلم بالنفر و الخروج- و هو أمر تشريعى- و أمرهم من ناحيه سريرتهم الفاسده و الريب المتردد فى قلوبهم و سجايهم الباطنيه الخبيثه بالقعود - و هو أمر غير تشريعى - و لا تنافى بينهما.

و لم ينسب قول: «أَفْعُدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ» الى نفسه تنزيها لنفسه عن الأمر بما لا- يرتضيه و هناك اسباب متخلله آخره بذلك كالشيطان و النفس، و إنما ينسب اليه تعالى بالواسطه لانطباق معنى الجزاء و الامتتان على المؤمنين عليه.

و ليتوافق الأمران المتخالفان صورته فى السياق أعنى قوله: «قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» و قوله: «قِيلَ أَفَعُدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ» .

قوله تعالى: لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا و لَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ الآيه؛ الخبال هو الفساد و اضطراب الرأى، و الإيضاح: الإسراع فى الشر، و الخلال: البين، و البغى هو الطلب فمعنى يبغونكم الفتنة أى يطلبون لكم أو فيكم الفتنة على ما قيل، و الفتنة هى المحنه كالفرقه و اختلاف الكلمه على ما يناسب الآيه من معانيها، و السماع السريع الإجابه و القبول.

و الآيه فى مقام التعليل لقوله: «وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ» امتنانا، و لذا جىء بالفصل من غير عطف، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: لَقَدْ اِنتَعَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ و قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ و ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ و هُمْ كَارِهُونَ أى أقسم لقد طلبوا المحنه و اختلاف الكلمه و تفرق

الجماعه من قبل هذه الغزوه-وهى غزوه تبوك-كما فى غزوه أحد حين رجع عبد الله بن أبى بن سلول بثلاث القوم و خذل النبى صلى الله عليه و آله و سلم،وقلبوا لك الأمور بدعوه الناس الى الخلاف و تحريضهم على المعصيه و خذلانهم عن الجهاد و بعث اليهود و المشركين على قتال المؤمنين و التجسس و غير ذلك حتى جاء الحق-وهو الحق الذى يجب أن يتبع-و ظهر أمر الله-وهو الذى يريده من الدين-و هم كارهون لجميع ذلك.

و الآيه تستشهد على الآيه السابقه بذكر الأمثال كما يستدل على الأمر بمثله،و توجيه الخطاب الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم خاصه بعد عمومه فى الآيه السابقه لاختصاص الأمر فيه بالنبى صلى الله عليه و آله و سلم أعنى تقلاب الامور عليه بخلاف ما فى الآيه السابقه من خروجهم فى الناس (١).

[سوره التوبه (٩): الآيات ٤٩ الى ٦٣]

اشاره

و مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِذْذَنْ لِي وَ لَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) إِنَّ تَصَبُّعَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤُهُمْ وَ إِنَّ تَصَبُّعَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلِهِ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ كُفْرًا فَاسْتَقِينِ (٥٣) وَ مَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَ هُمْ كُسَالَى وَ لَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَ هُمْ كَارِهُونَ (٥٤) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ تَزَهَّقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ (٥٥) وَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَمِنْكُمْ وَ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَ لَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مَدَاجِلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَعُونَ (٥٧) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَ إِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَحْطُونَ (٥٨) وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسْكِينِ وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقَابِ وَ الْعَارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) وَ مِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أَذُنٌ قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣)

ص: ٧٧٣

١ - ١). التوبه ٣٨-٤٨: بحث روائى فى: هجره رسول الله؛ نزول السكينه على النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى الهجره و تأييد بجنود؛ غزوه تبوك و تخلف المنافقين عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم.

قوله تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي اَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا اَلَا يَهْدِي اِلَيْهِ السِّيَاقُ-إما الإلقاء الى ما يفتتن و يغربه،و إما الإلقاء فى الفتنة و البليه الشامله.

و المراد على الأول:اِئذَنْ لِي فى القعود و عدم الخروج الى الجهاد،و لا تلقنى فى الفتنة بتوصيف ما فى هذه الغزوه من نفائس الغنائم و مشتبهات الأنفس فافتتن بها و أضطر الى الخروج،و على الثانى ائذَنْ لِي و لا تلقنى الى ما فى هذه الغزوه من المحنه و المصيبه و البليه.

فأجاب الله عن قولهم بقوله: «أَلَا-فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا» و معناه أنهم يحترزون بحسب زعمهم عن فتنة مترقبه من قبل الخروج،و قد أخطئوا فإن الذى هم عليه من الكفر و النفاق و سوء السريره،و من آثاره هذا القول الذى تفوهوا به هو بعينه فتنة سقطوا فيها فقد فتنتهم الشيطان بالغرور،و وقعوا فى مهلكه الكفر و الضلال و فتنته.

هذا حالهم فى هذه النشأه الدنيويه و أما فى الآخره فإن جهنم لمحيطه بالكافرين على حذو إحاطه الفتنة بهم فى الدنيا و سقوطهم فيها فقوله: «أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا» و قوله: «وَإِنَّ جَهَنَّمَ

لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ» كأنهما معا يفيدان معنى واحدا وهو ان هؤلاء واقعون فى الفتنه و التهلكه ابدًا فى الدنيا و الآخره.

و يمكن ان يفهم من قوله: «وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ» الإحاطه بالفعل دون الإحاطه الاستقباليه كما تهدى اليه الآيات الداله على تجسم الأعمال.

قوله تعالى: إِنَّ تَصَبُّكَ حَسَنَةٌ تَسُؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ مِنَ قَبْلُ المراد بالحسنه و السيئه بقرينه السياق ما تتعقبه الحروب و المغازى لأهلها من حسنه الفتح و الظفر و الغنيمه و السبى، و من سيئه القتل و الجرح و الهزيمه.

و قوله: «يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ» كناية عن الاحتراز عن الشر قبل وقوعه كأن أمرهم كان خارجا من ايديهم فأخذوه و قبضوا و تسلطوا عليه فلم يدعوه يفسد و يضيع.

فمعنى الآية أن هؤلاء المنافقين هواهم عليك: إن غنمت و ظفرت فى وجهك هذا ساءهم ذلك، و إن قتلت او جرحت او اصبت بأى مصيبه اخرى قالوا قد احترزنا عن الشر من قبل و تولوا و هم فرحون.

و قد أجاب الله سبحانه عن ذلك بجوابين اثنين فى آيتين قوله: «قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا» الخ؛ و قوله: «قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ» الخ.

قوله تعالى: قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ محصيه له أن ولايه امرنا إنما هى لله سبحانه فحسب-على ما يدل عليه قوله: «هُوَ مَوْلَانَا» من الحصر» لا الى انفسنا و لا الى شىء من هذه الاسباب الظاهره، بل حقيقه الامر لله وحده و قد كتب كتابه حتم ما سيصينا من خير او شر او حسنه او سيئه، و اذا كان كذلك فعلينا امثال امره و السعى لإحياء امره و الجهاد فى سبيله و لله المشيئه فيما يصينا فى ذلك من حسنه او سيئه فما على العبيد إلا ترك التدبير و امثال الامر و هو التوكل.

و بذلك يظهر: ان المراد بقوله: «وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» ليس كلاما مستأنفا بل

معطوف على ما قبله متمم له، والمعنى ان ولايه امرنا لله و نحن مؤمنون به، و لازمه ان نتوكل عليه و نرجع الأمر اليه من غير ان نختار لأنفسنا شيئاً من الحسنه و السيئه فلو اصابتنا حسنه كان المن له و إن اصابتنا سيئه كانت المشيه و الخيره له، و لا لوم علينا و لا شماته تتعلق بنا، و لا حزن و لا مساءه يطرأ على قلوبنا.

قوله تعالى: قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ الْآيَةَ الْحَسَنِيَّاتِ هُمَا الْحَسَنَةُ وَ الْبُشَيْرَةُ عَلَىٰ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَةُ الْأُولَى الْحَاكِيهِ أَنَّهُمْ يَسُوؤُهُمْ مَا أَصَابَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مِنْ حَسَنَةٍ، وَ تَسْرَهُمْ مَا أَصَابَهُ مِنْ سَيِّئَةٍ فَيَقُولُونَ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلِ فَهَمٍّ عَلَىٰ حَالٍ تَرَبَّصُوا مَا يَقَعُ بِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْحَسَنَةِ أَوْ السَّيِّئَةِ.

و الحسنه و السيئه كلتاها حسنيتان بحسب النظر الدينى فإن فى الحسنه حسنه الدنيا و عظيم الأجر عند الله، و فى السيئه التى هى الشهاده او أى تعب و عناء اصابهم مرضاه الله و ثواب خالد دائم.

و معنى الآيه أنا نحن و أنتم كل يتربص بصاحبه غير انكم تتربصون بنا إحدى خصلتين كل واحده منهما خصله حسنى و هما: الغلبه على العدو مع الغنيمه، و الشهاده فى سبيل الله، و نحن تتربص بكم ان يعذبكم الله بعذاب من عنده كالعذاب السماوى او بعذاب يجرى بأيدينا كأن يأمرنا بقتالكم و تطهير الأرض من قذاره وجودكم فنحن فائزون على أى حال، إن وقع شىء مما تتربصتم سعدنا، و إن وقع ما تتربصنا سعدنا فتربصوا إنا معكم متربصون، و هذا جواب ثان على المنافقين.

و قد ذكر فى الآيه الاولى إصابه الحسنه و السيئه النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و فى مقام الجواب فى الآيتين الثانية و الثالثه إصابتهما النبى و المؤمنين جميعاً لملازمتهم إياه و مشاركتهم إياه فيما أصابه من حسنه او سيئه.

قوله تعالى: قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا

فَاسْتَقِيمَ لَفْظَ امْرٍ فِي مَعْنَى الشَّرْطِ. وَ التَّرْدِيدُ لِلتَّعْمِيمِ وَ لَفْظُ الْأَمْرِ فِي هَذِهِ الْمَوَارِدِ كُنَايَهُ عَنِ عَدَمِ النُّهْيِ وَ سَدِّ السَّبِيلِ إِيمَاءً إِلَى أَنَّ الْفِعْلَ لَغْوًا- يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ أَثْرٌ، وَقَوْلُهُ: «لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ» تَعْلِيلٌ لِلأَمْرِ كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: «إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ» تَعْلِيلٌ لِعَدَمِ الْقَبُولِ.

وَ مَعْنَى الْآيَةِ: لَا نَمْنَعُكُمْ عَنِ الْإِنْفَاقِ فِي حَالِ طَوْعٍ أَوْ كَرِهٍ فَإِنَّهُ لَغْوٌ غَيْرٌ مَقْبُولٌ لِأَنَّكُمْ فَاسِقُونَ، وَ لَا يَقْبَلُ عَمَلُ الْفَاسِقِينَ، قَالَ تَعَالَى: **إِنَّمَا يُتَقَبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** (المائدة: ٢٧) وَ التَّجْبِيلُ أَبْلَغُ مِنَ الْقَبُولِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: **وَ مَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ** الْخِ الْآيَةِ؛ تَعْلِيلٌ تَفْصِيلِيٌّ لِعَدَمِ تَقْبِيلِ نَفَقَاتِهِمْ، وَ بَعْبَارَهُ أُخْرَى بِمَنْزِلِهِ الشَّرْحُ لِفَسَقِهِمْ، وَ قَدْ عَدَّتْ الْكُفْرَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَ رَسُولَهُ وَ الْكُسْلَ فِي إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَ الْكُرْهَ فِي الْإِنْفَاقِ أَرْكَانًا لِنَفَاقِهِمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: **فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا** إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الْإِعْجَابُ بِالشَّيْءِ السَّرُورُ بِمَا يَشَاهِدُ فِيهِ مِنْ جَمَالٍ أَوْ كَمَالٍ أَوْ نَحْوِهِمَا، وَ الزُّهُوقُ خُرُوجُ الشَّيْءِ بِصُعُوبَةٍ وَ أَصْلُهُ الْهَلَاكُ عَلَى مَا قِيلَ.

وَ قَدْ نَهَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عَنِ الْإِعْجَابِ بِأَمْوَالِ الْمُنَافِقِينَ وَ أَوْلَادِهِمْ أَى بِكَثْرَتِهَا عَلَى مَا يُعْطِيهِ السِّيَاقُ، وَ عِلْلُ ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَمْوَالَ وَ الْأَوْلَادَ- هِيَ شَاغِلَةٌ لِلْإِنْسَانِ لَا مَحَالَةَ- لَيْسَتْ مِنَ النِّعْمَةِ الَّتِي تَهْتَفُ لَهُمْ بِالسَّعَادَةِ بَلْ مِنَ النِّقْمَةِ الَّتِي تَجْرَهُمْ إِلَى الشَّقَاءِ فَإِنَّ اللَّهَ وَ هُوَ الَّذِي خَوَّلَهُمْ إِيَّاهَا إِنَّمَا أَرَادَ بِهَا تَعْذِيبَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَ تَوْفِيهِمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: **وَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ مَا هُمْ مِنْكُمْ** إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ؛ الْفَرْقُ انْتِزَاعُ النَّفْسِ مِنْ ضَرَرٍ مُتَوَقَّعٍ، وَ الْمَلْجَأُ الْمَوْضِعُ الَّذِي يَلْتَجَأُ إِلَيْهِ وَ يَتَحَصَّنُ فِيهِ، وَ الْمَغَارُ الْمَحَلُّ الَّذِي يَغُورُ فِيهِ الْإِنْسَانُ فَيَسْتَرِهُ عَنِ الْأَنْظَارِ، وَ يُطْلَقُ عَلَى الْغَارِ وَ هُوَ الثَّقْفُ الَّذِي يَكُونُ فِي الْجِبَالِ، وَ الْمَدْخَلُ مِنَ الْإِفْتِعَالِ الطَّرِيقُ الَّذِي يَتَدَسَّسُ بِالدَّخُولِ فِيهِ، وَ الْجَمَاحُ مَضَى الْمَارِ

مسرعا على وجهه لا يصرفه عنه شيء، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسِيخُطُونَ اللمز العيب، وإنما كانوا يعيونه فيها إذا لم يعطهم منها لعدم استحقاقهم ذلك أو لأسباب أخر كما يدل عليه ذيل الآية.

قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ «لَوْ» للتمنى و قوله: «رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ» كأن الرضى ضمن معنى الأخذ و لذا عدى بنفسه أى اخذوا ذلك راضين به أو رضوا آخذين ذلك، والإيتاء الإعطاء، و حسبنا الله أى كفانا فيما نرغب اليه و نأمله.

و قوله: سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ بَيَانٌ لِمَا يَرْغَبُ إِلَيْهِ وَ يَطْمَعُ فِيهِ وَ لَيْسَ إِخْبَارًا عَمَّا سَيَكُونُ، و قوله: «إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ» كالتعليل لقوله: «سَيُؤْتِينَا اللَّهُ» إلى آخر الآية.

و المعنى و كان مما يتمنى لهم ان يكونوا اخذوا ما اعطاهم الله و رسوله بأمر منه من مال الصدقات او غيره، و قالوا كفانا الله سبحانه من سائر الأسباب و نحن راغبون فى فضله و نطمع ان يؤتينا من فضله و يؤتينا رسوله.

و فى الآية ما لا يخفى من لطيف البيان حيث نسب الإيتاء الى الله و الى رسوله و خص الكفايه و الفضل و الرغبة بالله على ما هو لازم دين التوحيد.

قوله تعالى: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسْكِينِ وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقَابِ وَ الْغَارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ الْآيَةِ؛ بيان لموارد تصرف إليها الصدقات الواجبه و هى الزكوات بدليل قوله فى آخر الآية «فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ» و هى ثمانيه. و ارد على ظاهر ما يعطيه سياق الآية و لازمه أن يكون الفقير و المسكين موردين أحدهما غير الآخر.

و قد اختلفوا فى الفقير و المسكين أنهما صنف واحد أو صنفان، ثم على الثانى فى معناهما على أقوال كثيره لا ينتهى أكثرها الى حجه بينه، و الذى يعطيه ظاهر لفظهما ان الفقير هو الذى اتصف بالعدم و فقدان ما يرفع حوائجه الحيويه من المال قبال الغنى الذى اتصف بالغنى و هو الجده و اليسار.

و أما المسكين فهو الذى حلت به المسكنه و الذله مضافه الى فقدان المال و ذلك انما يكون بأن يصل فقر الى حد يستدله بذلك كمن لا يجد بدا من ان يبذل ماء وجهه و يسأل كل كريم و لئيم من شدة الفقر كالأعمى و الأعرج فالمسكين أسوأ حالا من الفقير.

و الفقير و المسكين و إن كانا بحسب النسبه أعمّ و أخص فكل مسكين من جهه الحاجه المالىه فقير و لا عكس غير ان العرف يراهما صنفين متقابلين لمكان مغايره الوصفين فى نفسهما فلا يرد أن ذكر الفقير على هذا المعنى مغن عن ذكر المسكين لمكان أعميته و ذلك أن المسكنه هى وصف الذله كالزمانه و العرج و العمى و ان كان بعض مصاديقه نهايه الذله من جهه فقد المال. و أما العاملون عليها اى على الصدقات فهم الساعون لجمع الزكوات و جباتها.

و أما المؤلفه قلوبهم فهم الذين يؤلف قلوبهم بإعطاء سهم من الزكاه ليسلموا أو يدفع بهم العدو او يستعان بهم على حوائج الدين.

و أما قوله: وَ فِي الرِّقَابِ فَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِمَقَدَّرٍ وَ التَّقْدِيرُ: وَ المَصْرَفُ فِي الرِّقَابِ أَيْ فِي فَكِّهَا كَمَا فِي الْمَكَاتِبِ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى تَأْدِيهِ مَا شَرَطَهُ لِمَوْلَاهُ عَلَى نَفْسِهِ لِعَتَقِهِ أَوْ الرِّقَ الَّذِي كَانَ فِي شَدِّهِ.

و قوله: وَ الْغَارِمِينَ أَيْ وَ لِلصَّرْفِ فِي الْغَارِمِينَ الَّذِينَ رَكِبْتَهُمُ الدِّيُونَ فَيَقْضَى دِيُونَهُمْ بِسَهْمٍ مِنَ الزَّكَاةِ.

و قوله: وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَيْ وَ لِلصَّرْفِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَ هُوَ كُلُّ عَمَلٍ عَامٍ يَعُودُ

عائده الى الإسلام و المسلمين و تحفظ به مصلحه الدين و من أظهر مصاديقه الجهاد فى سبيل الله، و يلحق به سائر الأعمال التى تعم نفعه و تشمل فائده كاصلاح الطرق و بناء القناطر و نظائر ذلك.

و قوله: وَ ابْنِ السَّبِيلِ اى و للصراف فى ابن السبيل و هو المنقطع عن وطنه الفاقد لما يعيش به و إن كان غنيا ذا يسار فى بلده فيرفع حاجته بسهم من الزكاه.

و قد اختلف سياق العد فيما ذكر فى الآيه من الأصناف الثمانية فذكرت الأربعة الأولى باللام: «لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسْكِينِ وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهِمْ وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ» ثم غير السياق فى الأربعة الباقية فقيل: «وَ فِي الرِّقَابِ وَ الْعَارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ» فان ظاهر السياق الخاص بهذه الأربعة أن التقدير: و فى الرقاب و فى العارمين و فى سبيل الله و فى ابن السبيل.

اما الأربعة الاول: «لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسْكِينِ وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهِمْ وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ» فاللام فيها للملك بمعنى الاختصاص فى التصرف فان الآيه بحسب السياق كالجواب عن المنافقين الذين كانوا يطمعون فى الصدقات و هم غير مستحقين لها و كانوا يلمزون النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى حرمانهم منها فاجيبوا بالآيه أن للصدقات مواضع خاصه تصرف فيها و لا تتعدها، و الآيه ليست بظاهره فى أزيد من هذا المقدار من الاختصاص.

و أما كون ملكهم للصدقات هو الملك بمعناه المعروف فقها؟ و كذا حقيقه هذا الملك مع كون المالكين أصنافا بعناوينهم الصنفية لا ذوات شخصيه؟ و نسبه سهم كل صنف الى بقية السهام؟ فإنما هى مسائل فقهيه خارجه عن غرضنا، و قد اختلفت اقوال الفقهاء فيها اختلافا شديدا فليرجع الى الفقه.

و أما الأربعة الباقية: «وَ فِي الرِّقَابِ وَ الْعَارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ» فقد قيل فى تغيير السياق فيها و فى تأخيرها عن الأربعة الاول وجوه:

منها: ان الترتيب لبيان الأحق فالأحق من الأصناف، فأحق الأصناف بها الفقراء ثم

المساكين و هكذا على الترتيب، و لكون الأربعة الأخرى بحسب ترتيب الأحقىه واقعه فى المراتب الأربعة الأخرى وضع كل فى موضعه الخاص، و لو لا- هذا الترتيب لكان الأنسب ان يذكر الأصناف ثم تذكر موارد المصالح فىقال: للفقراء و المساكين و العاملين عليها و المؤلفه قلوبهم و الغارمين و ابن السبيل ثم يقال: و فى الرقاب و سبيل الله.

و الحق أن دلالة الترتيب بما فيه من التقديم و التأخير على أهميه الملاك و قوه المصلحه فى اجزاء الترتيب لا ريب فيه فان كان مراده بالأحق فالأحق الأهم ملاكا فالأهم فهو، و لو كان المراد التقدم و التأخر من حيث الإعطاء و الصرف ما يشبه ذلك فلا دلالة من جهه اللفظ عليه البتة كما لا يخفى و الذى أیده به من الوجه لا جدوى فيه.

و منها: ان العدول عن الام فى الأربعة الأخرى الى «فى» للإيدان بأنهم ارسخ فى استحقاق التصديق عليهم ممن سبق ذكره لأن «فى» للوعاء فتبه على انهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات و يجعلوا مظنه لها و مصبا، و ذلك لما فى فك الرقاب من الكتابه او الرق و الأسر، و فى فك الغارمين من الغرم و التخليص و الانقاذ، و لجمع الغازى الفقير او المنقطع فى الحج بين الفقر و العباده، و كذلك ابن السبيل جامع بين الفقر و الغربه عن الأهل و المال.

□

و تكرير «فى» فى قوله: «وَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ» فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب و الغارمين. كذا ذكره فى الكشاف.

و فيه: أنه معارض بكون الأربعة الاول مدخوله للام الملك فان المملوك اشد لزوما و اتصالا بالنسبه الى مالكة من المظروف بالنسبه الى ظرفه، و هو ظاهر.

و منها: أن الأصناف الأربعة الاوائل ملاك لما عساه يدفع اليهم، و إنما يأخذونه ملكا فكان دخول اللام لائقا بهم، و أما الأربعة الاواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم بل و لا يصرف اليهم و لكن فى مصالح تتعلق بهم.

فالمال الذى يصرف فى الرقاب انما يتناوله الساده المكاتبون و البائعون فليس نصيبهم

مصروفا الى ايديهم حتى يعبر عن ذلك باللام المشعره بتملكهم لما يصرف نحوهم، و إنما هم محال لهذا الصرف و المصلحه المتعلقه به، و كذلك الغارمون انما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم تخليصا لذممهم لا لهم، و أما سبيل الله فواضح ذلك فيه، و أما ابن السبيل فكأنه كان مندرجا في سبيل (1) الله، و إنما أفرد بالذكر تنبيها على خصوصيته مع انه مجرد من الحرفين جميعا و عطفه على المجرور باللام ممكن و لكنه على التقريب منه أقرب.

و هذا الوجه لا- يخلو عن وجه غير أن اجراءه في ابن السبيل لا- يخلو عن تكلف، و ما ذكر من دخوله في سبيل الله و هو وجه مشترك بينه و بين غيره.

و لو قال قائل بكون الغارمين و ابن السبيل معطوفين على المجرور باللام ثم ذكر الوجه الاول بالمعنى الذى ذكرناه وجها للترتيب و الوجه الاخير وجها لاختصاص الرقاب و سبيل الله بدخول «فى» لم يكن بعيدا عن الصواب.

و قوله فى ذيل الآيه: «فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» إشاره الى كون الزكاه فريضة واجبه مشرعه على العلم و الحكمة لا تقبل تغيير المتغير، و لا يبعد ان يتعلق الفرض بتقسيمها الى الاصناف الثمانية كما ربما يؤيده السياق فان الغرض فى الآيه إنما تعلق ببيان مصارف الصدقات لا- بفرض اصلها فالأنسب ان يكون قوله: «فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ» اشاره الى ان تقسيمها الى الاصناف الثمانية امر مفروض من الله لا يتعدى عنه على خلاف ما كان يطمع فيه المنافقون فى لمزهم النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

و من هنا يظهر ان الآيه لا- تخلو عن إشعار بكون الاصناف الثمانية على سهمها من غير اختصاص بزمان دون زمان خلافا لما ذكره بعضهم: أن المؤلفه قلوبهم كانوا جماعه من

ص: ٧٨٣

(١-١). بل هو ايضا كالغارمين و الرقاب لا يدفع اليه نصيبه و انما يصرف فى المصلحه المتعلقه به من الزاد و اكتراء الراحله حتى يصل الى وطنه (ب).

الإشراف في زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَلْفَ قَلْبِهِمْ بِإِعْطَاءِ سَهْمٍ مِنَ الصَّدَقَاتِ إِيَّاهُمْ، وَأَمَّا بَعْدَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ ظَهَرَ الْإِسْلَامَ عَلَى غَيْرِهِ، وَارْتَفَعَتِ الْحَاجَةُ إِلَى هَذَا النَّوعِ مِنَ التَّأْلِيفَاتِ، وَهُوَ وَجْهٌ فَاسِدٌ وَارْتِفَاعُ الْحَاجَةِ مَمْنُوعٌ.

قوله تعالى: وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هِيَ أذنٌ قُلُّ أذنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ الْآذِنُ جَارِحَةُ السَّمْعِ الْمَعْرُوفَةِ، وَقَدْ أُطْلِقُوا عَلَيْهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الْآذِنَ وَسَمَّوْهُ بِهَا إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ يَصْغِي لِكُلِّ مَا قِيلَ لَهُ وَيَسْتَمِعُ إِلَى كُلِّ مَا يَذْكَرُ لَهُ فَهُوَ آذِنٌ.

وقوله: «قُلُّ أذنٌ خَيْرٌ لَكُمْ» من الإضافة الحقيقية أي سَمَاعٌ يَسْمَعُ مَا فِيهِ خَيْرٌ لَكُمْ حَيْثُ يَسْمَعُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ الْوَحْيَ وَفِيهِ خَيْرٌ لَكُمْ، وَيَسْمَعُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ النَّصِيحَةَ وَفِيهَا خَيْرٌ لَكُمْ وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مِنْ إِضَافَةِ الْمَوْصُوفِ إِلَى الصِّفَةِ أَيِ أذنٌ هِيَ خَيْرٌ لَكُمْ لِأَنَّهُ لَا يَسْمَعُ إِلَّا مَا يَنْفَعُكُمْ وَلَا يَضُرُّكُمْ.

والفرق بين الوجهين أن اللازم على الأول أن يكون مسموعه خيرا لهم كالوحي من الله والنصيحة من المؤمنين، واللازم على الثاني أن يكون استماعه استماع خيرا وإن لم يكن مسموعه خيرا كأن يستمع إلى بعض ما ليس خيرا لهم لكنه يستمع إليه فيحترم بذلك قائله ثم يحمل ذلك القول منه على الصحة فلا يهتك حرمة ولا يسىء الظن به ثم لا يرتب أثر الخبر الصادق المطابق للواقع عليه فلا يؤخذ من قيل فيه بما قيل فيه فيكون قد احترم إيمانه كما احترم إيمان القائل الذي جاءه بالخبر.

و من هنا يظهر أن الأنسب بسياق الآية هو الوجه الثاني لما عقبه بقوله: «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا» الآية.

قوله تعالى: يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: «الفرق بين الأحق والأصلح أن الأحق قد يكون من

غير صفات الفعل كقولك: زيد أحق بالمال، والأصلح لا يقع هذا الموقع لأنه من صفات الفعل و تقول: الله أحق بأن يطاع و لا تقول أصلح» انتهى.

و السبب الأصلي فيه أن الصلاحيه و الصلوح يحمل معنى الاستعداد و التهيؤ، و الحق يحمل معنى الثبوت و اللزوم، و الله سبحانه لا يتصف بشيء من معنى الاستعداد و القبول المستلزم لتأثير الغير فيه و تأثره عنه.

و قد حول الله الخطاب في الآيه عن نبيه صلى الله عليه و آله و سلم الى المؤمنين التفاتا و كأن الوجه فيه التلويح لهم بما يشتمل عليه قوله: «وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ» من الحكم و هو ان من الواجب على كل مؤمن ان يرضى الله و رسوله، و لا يحاد الله و رسوله فإن فيه خزيا عظيما نار جهنم خالدا فيها.

و من أدب التوحيد في الآيه ما في قوله: «أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ» من أفراد الضمير و لم يقل:

أحق ان يرضوهما صونا لمقامه تعالى من ان يعدل به أحد فإن أمثال هذه الحقوق و كذا الاوصاف التي يشاركه تعالى غيره من حيث الإطلاق و الإجراء، له تعالى بالذات و لنفسه و لغيره بالتبع أو بالعرض و من جهته كوجوب الإرضاء و التعظيم و الطاعة و غيرها، و كالاتصاف بالعلم و الحياه و الإحياء و الإماتة و غيرها.

و قد روعى نظير هذا الأدب في القرآن في موارد كثيرة فيما يشارك النبي صلى الله عليه و آله و سلم غيره من الامه من الشئون فأخرج النبي صلى الله عليه و آله و سلم من بينهم و أفرد بالذكر كما في قوله: يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا (التحریم ٨) و قوله: فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ (الفتح ٢٦) و قوله: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ (البقره ٢٨٥) و غير ذلك.

قوله تعالى: أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ إِلَى آخِرِ آيِهِ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: المحاده مجاوزه الحد بالمشاقه، و هى و المخالفه و المجانبه و المعاده

نظائر، وأصله المنع والمحاذاة ما يلحق الإنسان من النزق لأنه يمنعه من الواجب وقال: والخزى الهوان وما يستحى منه. انتهى.

والاستفهام في الآيه للتعجب، والكلام مسوق لبيان كونه تعالى وكون رسوله أحق بالإرضاء ومحصله أنهم يعلمون أن محاده الله ورسوله والمشافه والمعاداه مع الله ورسوله والإسقاط يوجب خلود النار، وإذا حرم إسقاط الله ورسوله وجب إرضاءه وإرضاء رسوله على من كان مؤمناً بالله ورسوله (١).

[سورة التوبة (٩): الآيات ٦٤ إلى ٧٤]

إشارة

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أ بِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَشْتَهَرُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) الْمُنَافِقُونَ وَ الْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنْ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَ عِدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْكُفَّارِ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَ لَعْنَهُمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوَالًا وَ أَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخُلُقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخُلُقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخُلُقِهِمْ وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أَوْلَيْكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أَوْلَيْكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَ أَصْحَابِ مِدْيَانَ وَ الْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ يُطِيعُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أَوْلَيْكَ سَيَرَحْمَهُمُ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَ عِدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَدَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَ رِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنَافِقِينَ وَ أَعْلَظْ عَلَيْهِمْ وَ مَا أَوْاهُمْ جَهَنَّمَ وَ بَشَسِ الْمَصِيرُ (٧٣) يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَ لَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَ هُمُومًا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَ مَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (٧٤)

ص: ٧٨٦

(١ - ١). التوبة ٤٩-٦٣: بحث روائى فى: المنافقين و لمزهم لرسول الله فى الصدقات؛ الصدقات لمن هى و على من تجب.

قوله تعالى: **يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ**؛ كان المنافقون يشاهدون ان جل ما يستسرون به من شئون النفاق؛ و يناجى به بعضهم بعضا من كلمه الكفر و وجوه الهمز و اللمز و الاستهزاء او جميع ذلك لا يخفى على الرسول، و يتلى على الناس فى آيات من القرآن يذكر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ انه من وحي الله، و لا محاله كانوا لا يؤمنون بأنه وحي نزل به الروح الأمين على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و يقدرّون ان ذلك مما يتجسسّه المؤمنون فيخبرون به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فيخبره لهم فى صورته كتاب سماوى نازل عليهم و هم مع ذلك كانوا يخافون ظهور نفاقهم و خروج ما خبوه فى سرائرهم الخبيثه لأن السلطنه و الظهور كانت للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عليهم يجرى فيهم ما يأمر به و يحكم عليه.

فهم كانوا يحذرون نزول سورة يظهر بها ما اضمروه من الكفر و هموا به من تقلب الأمور على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و قصده بما يبطل به نجاح دعوته و تمام كلمته فأمر الله نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ان يبلغهم ان الله عالم بما فى صدورهم مخرج ما يحذرون خروجه و ظهوره بنزول سورة من عنده أى يخبرهم بأن الله منزل سورة هذا نعتها.

و بهذا يستنير معنى الآية فقوله: **«يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ»** الخطاب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و وجه الكلام اليه، و هو يعلم بتعليم الله ان هذا الكلام الذى يتلوه على الناس كلام إلهى و قرآن منزل من عنده فيصف سبحانه الكلام الذى يخاف منه المنافقون بما له من

الوصف عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ أَنَّهُ سُوْرَةٌ مَنَزَلَةٌ مِنَ اللهِ عَلَى النَّاسِ وَمِنْهُمْ الْمُنَافِقُونَ لَا عَلَى مَا يَرَاهُ الْمُنَافِقُونَ أَنَّهُ كَلَامٌ بَشَرِيٌّ يَدْعَى كَوْنَهُ كَلَامَ اللهِ.

فَهُمْ كَانُوا يَحْذَرُونَ أَنْ يَتْلُوَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى النَّاسِ كَلَامًا هَذَا نَعْتُهُ الْوَاقِعِيَّ وَهُوَ أَنَّهُ سُوْرَةٌ مَنَزَلَةٌ عَلَيْهِمْ بِمَا أَنَّهَا مَتَوَجَّهَةٌ بِمَضْمُونِهَا إِلَيْهِمْ قَاصِدَةٌ نَحْوَهُمْ يَنْبُتُهُمْ هَذِهِ السُّورَةُ النَّازِلَةُ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ فَيُظْهِرُ عَلَى النَّاسِ وَيُفْشِي بَيْنَهُمْ مَا كَانُوا يَسْرُونَهُ مِنْ كُفْرِهِمْ وَسُوءِ نِيَاتِهِمْ، وَهَذَا الظُّهُورُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ الَّذِي كَانُوا يَحْذَرُونَهُ مِنْ نَزُولِ السُّورَةِ.

وَقَوْلُهُ: قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ كَأَنَّ الْمَرَادَ بِالِاسْتَهْزَاءِ هُوَ نِفَاقُهُمْ وَمَا يَلْحَقُ بِهِ مِنَ الْآثَارِ فَإِنَّ اللَّهَ سَمَّى نِفَاقَهُمْ اسْتَهْزَاءً حَاكِيًا فِي ذَلِكَ قَوْلَهُمْ حَيْثُ قَالَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ (البقرة ١٤/١٤) فَالْمَرَادُ بِالِاسْتَهْزَاءِ هُوَ سَتْرٌ مَا يَحْذَرُونَ ظُهُورَهُ، وَالأمرُ تَعْجِيزِيٌّ أَيْ دَوْمَا عَلَى نِفَاقِكُمْ وَسَتْرِكُمْ مَا تَحْذَرُونَ خُرُوجَهُ مِنْ عِنْدِكُمْ إِلَى مَرْتَبَةِ النَّاسِ وَمَسْمَعِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ مَخْرَجٌ ذَلِكَ وَكَاشَفَ عَنْ وَجْهِهِ الْغَطَاءَ، وَمُظْهِرٌ مَا اخْفَيْتُمُوهُ فِي صُدُورِكُمْ.

فَصَدَرَ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَ يَذْكَرُ أَنَّهُمْ يَحْذَرُونَ تَنْزِيلَ سُوْرَةِ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنَّهُمْ إِنَّمَا كَانُوا يَحْذَرُونَهَا لِمَا فِيهَا مِنَ الْأَنْبَاءِ الَّتِي يَحْذَرُونَ أَنْ يُطَّلَعَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَتَنْجَلِيٍّ لِلنَّاسِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَذْكَرُ ذَيْلُهَا أَنَّهُمْ يَحْذَرُونَهُ فَالْكَلَامُ بِمَنَزَلِهِ أَنْ يُقَالَ: يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ تَنْزِيلَ سُوْرَةِ قُلِ إِنَّ اللَّهَ مَنَزَّلُهَا، أَوْ يُقَالَ: يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ انْكَشَافَ بَاطِنِ أَمْرِهِمْ وَمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُوا إِنَّ اللَّهَ سَيَكْشِفُ ذَلِكَ وَيُنْبِئُ عَمَّا فِي قُلُوبِكُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ الْخَوْضُ - عَلَى مَا فِي الْمَجْمَعِ - دَخُولُ الْقَدَمِ فِيمَا كَانَ مَائِعًا مِنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى اسْتَعْمَلَ فِي غَيْرِهِ.

وَقَالَ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ: الْخَوْضُ هُوَ الشَّرُوعُ فِي الْمَاءِ وَالْمَرُورُ فِيهِ، وَيَسْتَعَارُ فِي الْأُمُورِ،

و أكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه. انتهى.

و لم يذكر الله سبحانه متعلق السؤال و أن المسئول عنه الذي إن سأل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم سأل عنه ما هو؟ غير أن قوله: «لَيَقُولَنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ» بما له من السياق المصدر وإنما يدل على أنه كان فعلا صادرا منهم له نوع تعلق بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم، و كان أمرا مرثيا يسىء الظن بهم، و لم يكن في وسعهم أن يعتذروا منه بعد ما تبين و انكشف للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم إلا بأنه إنما كان منهم خوضا و لعبا لم يريدوا به غير ذلك.

و الخوض و اللعب الذين اعتذروا بهما من الأعمال السيئة التي لا يعترف بهما الناس في حالهم العادي و خاصة المؤمنون و سائر المتظاهرين بالإيمان و خاصة اذا كان ذلك في أمر يرجع الى الله و رسوله غير أنهم لم يجدوا وصفا يصفون به فعلهم لإخراجه عن ظاهر ما يدل عليه، دون أن يعنونوه بأنه كان خوضا و لعبا.

و لذا أمر نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم أن يوبخهم على ما اعتذروا به فقال: «قُلْ أ بِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤْنَ» ثم فسّر عملهم في آخر الآيات بقوله: «يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَ لَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَ هُمُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا» الآية.

و يتحصل من مجموع هذه القرائن أن المنافقين كانوا أرادوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بسوء كالفتك به و مفاجأته بما يهلكه و أقدموا على ما قصدوه و تكلموا عند ذلك بشيء من الكلام الردى لكنهم أخطئوا في ما أوقعوه عليه و اندفع الشر عنه، و لم يصب السهم هدفه فلما خاب سعيهم و بان أمرهم سألهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم عن ذلك و ما تصدوه به اعتذروا بأنهم كانوا يخوضون و يلعبون فوبخهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بقوله: «أ بِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤْنَ» و رد الله سبحانه إليهم عذرهم الذي اعتذروا به و بين حقيقته ما قصدوا بذلك.

و بالجمله معنى الآية: و أقسم لئن سألتهم عن فعلهم الذي شوهد منهم: ما الذي أرادوا به؟ و كان ظاهره أنهم هموا بأمر فيك ليقولن: لم يكن قصد سوء و لا بالذي ظننت فأسأت الظن

بنا، وإنما كنا نخوض و نلعب خوض الركب فى الطريق لا على سبيل الجد و لكن لعبا.

و هذا اعتذار منهم بالاستهزاء بالله و آياته و رسوله فإنهم يعترفون بأنهم فعلوا فيك ما فعلوا خوضا و لعبا فقد استهزءوا بالله و رسوله فقل: أ بالله و آياته و رسوله كنتم تستهزءون أى أ تعتذرون عن سيئ فعلكم بسيئه أخرى هى الاستهزاء بالله و آياته و رسوله، و هو كفر؟

و ليس من البعيد أن يكون الغرض الأصيل بيان كونه استهزاء بالرسول، و إنما ذكر الله و آياته للدلالة على معنى الاستهزاء بالرسول، و أنه لما كان من آيات الله كان الاستهزاء به استهزاء بآيات الله، و الاستهزاء بآيات الله استهزاء بالله العظيم فالاستهزاء برسول الله استهزاء بالله و آياته و رسوله.

قوله تعالى: **لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ يُعَذِّبُ طَائِفَةٌ آيَةٌ**؛ قال الراغب فى المفردات: الطوف المشى حول الشىء و منه الطائف لمن يدور حول البيوت حافظا-الى أن قال- و الطائفه من الناس جماعه منهم و من الشىء القطعه منه.

و قوله تعالى: **«فَلَوْ لَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ»** قال بعضهم: قد يقع ذلك على الواحد فصاعدا، و على ذلك قوله: **«وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ»**.

و الطائفه اذا أريد بها الجمع فجمع طائف، و اذا اريد بها الواحد فيصح أن يكون جمعا و يكتنى به عن الواحد، و يصح أن يجعل كراويه و علامه و نحو ذلك. انتهى.

و قد خطأ بعضهم القول بجواز صدق الطائفه على الواحد و الاثنين من الناس كما تصدق على الثلاثة فصاعدا، و بالغ فى ذلك حتى عدّه غلطا و لا دليل له على ما ذكره، و ماده اللفظ لا يستوجب شيئا معينا من العدد، و إطلاقها على القطعه من الشىء يؤيد استعمالها فى الواحد.

و قوله: **«لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ»** نهى عن الاعتذار بدعوى أنه لغو كما يدل عليه

و بعبارة اخرى رابطته اللزوم بين الشرط و الجزاء بترتب الجزاء و تفرعه على الشرط إنما هي بالتبع و أصله ترتب الجزاء هاهنا على امر يتعلق به الشرط و هو ان العذاب و جب على جماعتهم فإن عفى عن بعضهم تعين الباقيون من غير تخلف.

قوله تعالى: الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ ذكروا أنه استئناف يتعرض لحال عامه المنافقين بذكر أوصافهم العامة الجامعه و تعريفهم بها و ما يجازيهم الله في عاقبه أمرهم ثم يتعرض لحال عامه المؤمنين و يعرفهم بصفاتهم الجامعه و يذكر ما ينبئهم الله به على سبيل المقابله استتماما للقسمه، و من الدليل على هذا الاستيفاء ذكر جزاء الكفار مع المنافقين في قوله: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ» الآية.

و الظاهر أن الآية في مقام التعليل لقوله في الآية السابقة: «إِنْ نَعُفْ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً» و سياق مخاطبه المنافقين جار لم ينقطع بعد.

فالآية السابقة لما دلت على أنه تعالى لا يترك المنافقين حتى يعذبهم بإجرامهم فإن ترك بعضا منهم لحكمه و مصلحه أخذ آخرين منهم بالعذاب كان هناك مظنه أن يسأل فيقال: ما وجه أخذ البعض اذا ترك غيره؟ و هل هو إلا كأخذ الجار بجرم الجار فاجيب ببيان السبب و هو أن المنافقين جميعا بعضهم من بعض لا شراكتهم في خباث الصفت و الأعمال، و اشتراكهم في جزاء أعمالهم و عاقبه حالهم.

و لعله ذكر المنافقات مع المنافقين مع عدم سبق لذكرهن للدلالة على كمال الاتحاد و الاتفاق بينهم في نفسيتهم، و ليكون تلويحا على أن من النساء أيضا أجزاء مؤثره في هذا المجتمع النفاقي الفاسد المفسد.

فمعنى الآية لا- ينبغي أن يستغرب أخذ بعض المنافقين اذا ترك البعض الآخر لأن المنافقين و المنافقات يحكم عليهم نوع من الوحده النفسيه يوحد كثرتهم فيرجع بعضهم الى بعض، فيشركهم في الاوصاف و الأعمال و ما يجازون به بوعد من الله تعالى.

فهم يأمرون بالمنكر و ينهون عن المعروف و يمسكون عن الإنفاق في سبيل الله و بعبارة اخرى نسوا الله تعالى بالإعراض عن ذكره لأنهم فاسقون خارجون عن زى العبودية فسيهم الله فلم يشبه بما أثار عباده الذاكرين مقام ربهم.

ثم ذكر ما وعدهم على ذلك فقال: «وَعِدَ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارِ - وَعَطَفَ عَلَيْهِمُ الْكُفَّارَ لِأَنَّهُمْ جَمِيعًا سِوَاءَ - نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُ لَهُمْ» من الجزاء لا يتعدى فيهم الى غيرها «وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ» و أبعدهم «وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌّ» ثابت لا يزول عنهم البتة.

و قد ظهر بذلك أن قوله تعالى: «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ» الخ؛ بيان لما تقدمه من قوله «يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ» .

و يتفرع على ذلك أن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و الإنفاق في سبيل الله من الذكر.

قوله تعالى: كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوَالًا - وَ أَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ الخ؛ قال الراغب: الخلاق ما اكتسبه الإنسان من الفضيله بخلقه قال تعالى: «وَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ» انتهى و فسره غيره بمطلق النصيب.

و الآية من تتمه مخاطبه المنافقين التى فى قوله: «لَا تَعْتَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ» الآية؛ فى سياق واحد متصل و فى الآية تشبيه حال المنافقين بحال من كان قبلهم من الكفار و المنافقين و قياسهم إليهم ليستشهد بذلك على ما قيل: ان المنافقين و المنافقات بعضهم من بعض و أنهم جميعا و الكفار ذووا طبيعه واحده فى الإعراض عن ذكر الله و الإقبال على الاستمتاع بما أوتوا من أعراض الدنيا من أموال و أولاد و الخوض فى آيات الله ثم فى حبط أعمالهم فى الدنيا و الآخرة و الخسران.

و معنى الآية - و الله أعلم - أنتم كالذين من قبلكم كانت لهم قوه و أموال و أولاد بل أشد و أكثر فى ذلك منكم، فاستمتعوا بنصيبيهم و قد تفرع على هذه المماثلة أنكم استمتعتم كما

استمتعوا و خضتم كما خاضوا اولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا و الآخرة و اولئك هم الخاسرون و أنتم أيضا أمثالهم فى الحبط و الخسران و لذا وعدكم النار الخالده و لعنكم.

و ذكر كون قوه من قبلهم أشد و أموالهم و أولادهم أكثر للإيماء الى أنهم لم يعجزوا الله بذلك، و لم يدفع ذلك عنهم غائله الحبط و الخسران فكيف بكم و أنتم أضعف قوه و أقل أموالا و أولادا؟

قوله تعالى: أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَ أَصْحَابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكَاتِ الْآيَةَ رَجُوعَ إِلَى السِّيَاقِ الْأَوَّلِ وَ هُوَ سِيَاقُ مَخَاطَبَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مَعَ افْتِرَاضِ الْغِيْبَةِ فِي الْمُنَافِقِينَ، وَ تَذْكَيرِ لَهُمْ بِمَا قَصَّ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ مِنْ قِصَصِ الْأُمَمِ الْمَاضِينَ.

فذاك قوم نوح عمهم الله سبحانه بالغرق، و عاد و هم قوم هود أهلكتهم بريح صرصر عاتيه، و ثمود و هم قوم صالح عذبهم بالرجفه، و قوم ابراهيم اهلك ملكهم نمرود و سلب عنهم النعمه، و المؤتفكات و هى القرى المنقلبات على وجهها-من ائتفكت الأرض اذا انقلبت- قرى قوم لوط جعل عاليها سافلها.

و قوله: أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ أَى بِالْوَاضِحَاتِ مِنَ الْآيَاتِ وَ الْحُجُجِ وَ الْبُرَاهِينِ وَ هُوَ بَيَانُ إِجْمَالِ لِنَبِيَّتِهِمْ أَى كَانَ نَبَاهُمْ أَنْتَ أَتَيْتَهُمْ رَسُلَهُمْ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَةِ فَكَذَّبُوهَا فَانْتَهَى أَمْرُهُمْ إِلَى الْهَلَاكِ، وَ لَمْ يَكُنْ مِنْ شَأْنِ السَّنَةِ الْإِلَهِيَةِ أَنْ يَظْلَمَهُمْ لِأَنَّهُ بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقَّ وَ الْبَاطِلَ، وَ مَيَّزَ الرُّشْدَ مِنَ الْغَىِّ، وَ الْهُدَى مِنَ الضَّلَالِ، وَ لَكِنْ كَانَ أَوْلَئِكَ الْأَقْوَامِ وَ الْأُمَمِ أَنْفُسَهُمْ يَظْلَمُونَ بِالِاسْتِمْتَاعِ مِنْ نَصِيبِ الدُّنْيَا وَ الْخَوْضِ فِي آيَاتِ اللَّهِ وَ تَكْذِيبِ رِسَالِهِ.

قوله تعالى: وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ ثُمَّ وَصَفَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ حَالَ الْمُؤْمِنِينَ عَامَهُ مُحَاذَاهُ لِمَا وَصَفَ بِهِ الْمُنَافِقِينَ فَقَالَ: «وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» لِيَدُلَّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمْ مَعَ كَثْرَتِهِمْ وَ تَفْرِيقِهِمْ مِنْ حَيْثُ الْعِدَدِ

و من الذكوره و الانوثه ذوو كينونه واحده متفقه لا تشعب فيها و لذلك يتولى بعضهم امر بعض و يدبره.

و لذلك كان يأمر بعضهم بعضا بالمعروف و ينهى بعضهم بعضا عن المنكر فلولايه بعض المجتمع على بعض ولايه ساريه فى جميع الأبعاض دخل فى تصديهم الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فيما بينهم أنفسهم.

ثم وصفهم بقوله: «وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ» و هما الركنا الوثقان فى الشريعه فالصلاه ركن العبادات التى هى الرابطه بين الله و بين خلقه، و الزكاه فى المعاملات التى هى رابطه بين الناس أنفسهم.

ثم وصفهم بقوله: «وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ» فجمع فى إطاعه الله جميع الأحكام الشرعيه الإلهيه و جمع فى إطاعه رسوله جميع الأحكام الولائيه التى صدرها رسوله فى إداره امور الامه و إصلاح شئونهم كفرامينه فى الغزوات، و أحكامه فى القضايا و إجراء الحدود و غير ذلك.

على أن إطاعه شرائع الله النازله من السماء من جهه اخرى منطويه فى إطاعه الرسول فان الرسول هو الصادع بالحق القائم بالدعوه الى اصول الدين و فروعه.

و قوله: «أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ» إخبار عما فى القضاء الإلهي من شمول الرحمه الإلهيه لهؤلاء القوم الموصوفين بما ذكر، و كأن فى هذه الجملة محاذاه لما سرد فى المنافقين من قوله تعالى: «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ» و الظاهر ايضا أن قوله: «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» تعليل لما ذكر من الرحمه فلا مانع من رحمته لعزته، و لا اختلال او وهنا و جزافا فى حكمته.

قوله تعالى: «وَعِدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» الى آخر الآيه؛ العدن مصدر بمعنى الإقامه و الاستقرار يقال: عدن بالمكان اى اقام فيه و استقر و منه المعدن للأرض التى تستقر فيه الجواهر و الفلزات المعدنيه، و على هذا فمعنى جنات عدن جنات إقامه و استقرار و خلود.

وقوله: وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ أَي رَضِيَ اللَّهُ سبحانه عنهم أكبر من ذلك كله -على ما يفيدُه السياق- وقد نكر «رضوان» إيماء إلى أنه لا يقدر بقدر ولا يحيط به وهم بشر أو لأن رضوانا ما منه ولو كان يسيرا أكبر من ذلك كله لا لأن ذلك كله مما يتفرع على رضا تعالى و يترشح منه و إن كان كذلك في نفسه، بل لأن حقيقه العبوديه التي يندب إليها كتاب الله هي عبوديته تعالى حباله: لا طمعا في جنه، أو خوفا من نار، و أعظم السعاده و الفوز عند المحب ان يستجلب رضى محبوبه دون ان يسعى لإرضاء نفسه.

و كأنه للإشاره الى ذلك ختم الآيه بقوله: «ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» و تكون في الجملة دلاله على معنى الحصر أى أن هذا الرضوان هو حقيقه كل فوز عظيم حتى الفوز العظيم بالجنه الخالده اذ لو لا شىء من حقيقه الرضى الإلهى في نعيم الجنه كان نقمه لا نعمه.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ جهاد القوم و مجاهدتهم بذل غايه الجهد فى مقاومتهم و هو يكون باللسان و باليد حتى ينتهى الى القتال، و شاع استعماله فى الكتاب فى القتال و إن كان ربما استعمل فى غيره كما فى قوله: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا» الآيه.

و استعماله فى قتال الكفار على رسله لكونهم متجاهرين بالخلاف و الشقاق، و أما المنافقون فهم الذين لا يتظاهرون بكفر و لا يتجاهرون بخلاف، و إنما يبطنون الكفر و يقبلون الامور كيدا و مكرا و لا معنى للجهاد معهم بمعنى قتالهم و محاربتهم؟ و لذلك ربما يسبق الى الذهن أن المراد بجهادهم مطلق ما تقتضيه المصلحه من بذل غايه الجهد فى مقاومتهم فإن اقتضت المصلحه هجروا و لم يخالطوا و لم يعاشروا، و ان اقتضت وعظوا باللسان، و ان اقتضت أخرجوا و شردوا الى غير الأرض أو قتلوا اذا اخذ عليهم الرده، أو غير ذلك.

و ربما شهد لهذا المعنى اعنى كون المراد بالجهاد فى الآيه مطلق بذل الجهد تعقيب قوله «جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ» بقوله: «وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ» أى شدّد عليهم و عاملهم بالخشونه.

و أما قوله: «وَمَا أَهْمُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» فهو عطف على ما قبله من الأمر، ولعل الذى هوّن الأمر فى عطف الإخبار على الإنشاء هو كون الجملة السابقة فى معنى قولنا: «ان هؤلاء الكفار و المنافقين مستوجبون للجهاد». و الله أعلم.

قوله تعالى: يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَ لَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَ هُمُومًا بِمَا لَمْ يَنَالُوا الْآيَةَ. سياق الآيه يشعر بأنهم أتوا بعمل سيئ و شفّعوه بقول تفوّهوا به عند ذلك، و أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم عاتبهم على قولهم مؤاخذا لهم فحلفوا بالله ما قالوا كما تقدّم فى قوله: «وَلَيْئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ» الى آخر الآيه أنهم كانوا يعتذرون بذلك عن عملهم أنه كان خوضا و لعبا لا غير ذلك.

و الله سبحانه يكذبهم فى الأمرين جميعا: أما فى إنكارهم القول بقوله: «وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ» و فسره ثانيا بقوله: «وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ» للدلالة على جد القول فيتفرع عليه الكفر بعد الاسلام.

و لعله قال هاهنا: «وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ» و قد قيل سابقا: «قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ» لأن القول السابق للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم الجارى على ظاهر حالهم و هو الإيمان الذى كانوا يدّعون و يتظاهرون به، و القول الثانى لله العالم بالغيب و الشهادة فيشهد بأنهم لم يكونوا مؤمنين و لم يتعدوا الشهادتين بلسانهم فهم كانوا مسلمين لا مؤمنين، و قد كفروا بقولهم و خرجوا عن الاسلام الى الكفر، و فى هذا إيماء الى ان قولهم كان كلمه فيه الرد على الشهادتين او إحداهما.

او لأن القول الأول فى قبال عملهم الذى أرادوا ايقاع الشر بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم، و العمل الخالى من القول و هو لم يصب الغرض لا يضر بالاسلام الذى هو نصيب اللفظ و الشهاده، و انما يضر بالايمان الذى هو نصيب الاعتقاد، و القول الثانى فى قبال قولهم الذى تفوّهوا به، و هو ينافى الاسلام الذى يكتسب باللفظ دون الايمان الذى هو نوع من الاعتقاد القلبي.

و اما فى إنكارهم العمل السيئ الذى اتوا به و تأويلهم إياه الى الخوض و اللعب فقوله

«وَهُمْوَا بِمَا لَمْ يَنَالُوا» .

ثم قال فى مقام ذمهم و تعبيرهم: «وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ» أى بسبب أن اغناهم الله و رسوله، أى كان سبب نقتهم هذه ان الله اغناهم من فضله بما رزقهم من الغنائم و بسط عليهم الأمن و الرفاهيه فممكنهم من توليد الثروه و انماء المال من كل جهه، و كذا رسوله حيث هداهم الى عيشه صالحه تفتح عليهم أبواب بركات السماء و الأرض، و قسم بينهم الغنائم و بسط عليهم العدل.

فهو من قبيل وضع الشىء موضع ضده: وضع فيه الاغناء و هو بحسب الطبع سبب للرضى و الشكر موضع سبب النقمه و السخطه كالظلم و الغضب و ان شئت قلت: وضع فيه الإحسان موضع الإساءه، ففيه نوع من التهكم المشوب بالذم نظير ما فى قوله تعالى: وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكذِّبُونَ (الواقعه ٨٢) أى تجعلون رزقكم سببا للتكذيب بآيات الله و هو سبب بحسب الطبع لشكر النعمه و الرضا بالموهبه على ما قيل: إن المعنى: و تجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون.

و الضمير فى قوله: «مِنْ فَضْلِهِ» راجع الى الله سبحانه، قال فى المجمع: و إنما لم يقل: من فضلها لأنه لا يجمع بين اسم الله و اسم غيره فى الكنايه تعظيما لله، و لذلك قال النبى صلى الله عليه و آله و سلم لمن سمعه يقول: «من أطاع الله و رسوله فقد اهتدى و من عصاهما فقد غوى»: بنس خطيب القوم أنت فقال: كيف أقول يا رسول الله؟ قال: قل: و من يعص الله و رسوله، و هكذا القول فى قوله سبحانه: «وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ» و قيل: إنما لم يقل من فضلها لأن فضل الله منه و فضل رسوله من فضله، انتهى كلامه.

و هناك وراء التعظيم أمر آخر قدمنا القول فيه فى تفسير قوله تعالى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ (المائده ٧٣) فى الجزء السادس من الكتاب، و هو أن وحدته تعالى ليست من سنخ الوحده العديده حتى يصح بذلك تأليفها مع وحده غيره و استنتاج عدد من

ثم بين الله سبحانه لهؤلاء المنافقين أن لهم مع هذه الذنوب المهلكة و صريح كفرهم بالله و همهم بما لم ينالوا أن يرجعوا الى ربهم، و بين عاقبه أمر هذه التوبه و عاقبه التولى و الإعراض عنها فقال: «فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ» لادائه الى المغفره و الجنه «وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا» و يعرضوا عن التوبه «يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا» بالسياسه و النكال او بإغراء النبي صلى الله عليه و آله و سلم عليهم او بالمكر و الاستدراج، و لو لم يكن من عذابهم إلا أنهم مخالفون بنفاقهم نظام الأسباب المبني على الصدق و الإيمان فتقادمهم سلسله الاسباب و تحطمهم و تفضحهم لكان فيه كفايه، و قد قال الله: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» (التوبه ٢٤) «وَ الْآخِرَهُ» بعذاب النار.

و قوله تعالى: «وَ مَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ» معناه أن هؤلاء لا ولى لهم فى الأرض يتولى امرهم و يصرف العذاب عنهم، و لا نصير ينصرهم و يمدّهم بما يدفعون به العذاب الموعود عن انفسهم لأن سائر المنافقين ايضا منهم و كلمه الفساد يجمعهم و أصلهم الفساد منقطع عن سائر الأسباب الكونيه فلا ولى لهم يتولى امرهم و لا ناصر لهم ينصرهم و لعل هذه الجملة من الآيه إشاره الى ما أو مانا اليه فى معنى عذاب الدنيا (١).

[سوره التوبه (٩): الآيات ٧٥ الى ٨٠]

إشارة

وَ مِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سَرَّهُمْ وَ نَجْوَاهُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرُوا لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ إِنَّ تَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠)

ص: ٨٠٠

قوله تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ إِلَى آخِرِ آيَتَيْنِ؛ الإيتاء الإعطاء، وقد كثر إطلاق الإيتاء من الفضل على إعطاء المال، و من القرائن عليه في الآية قوله: «فنصدقن» أى لتصدقن مما آتانا من المال و كذلك ما فى الآية التالىة من ذكر البخل به.

و السياق يفيد ان الكلام متعرض لأمر واقع، و الروايات تدل على ان الآيات نزلت فى ثعلبه فى قصه سيأتى نقلها فى البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى، و معنى الآيتين ظاهر.

قوله تعالى: فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ الْآيَةَ؛ الإعقاب الإيراث قال فى المجمع: و أعقبه و أورثه و أداه نظائر و قد يكون أعقبه بمعنى جازاه. انتهى. و هو مأخوذ من العقب، و معناه الإتيان بشىء عقيب شىء.

و الضمير فى قوله: «فَأَعْقَبَهُمْ» راجع الى البخل او الى فعلهم الذى منه البخل، و على هذا

فالمراد بقوله: «يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ» يوم لقاء البخل أى جزاء البخل بنحو من العناية.

و يمكن ان يرجع الضمير اليه تعالى و المراد بيوم يلقونه يوم يلقون الله و هو يوم القيامة على ما هو المعروف من كلامه تعالى من تسميه يوم القيامة بيوم لقاء الله او يوم الموت كما هو الظاهر من قوله تعالى: مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ (العنكبوت ٥).

و هذا الثانى هو الظاهر على الثانى لأن الأنسب عند الذهن ان يقال: فهم على نفاقهم الى ان يموتوا. دون ان يقال: فهم على نفاقهم الى ان يبعثوا اذ لا تغير لحالهم فيما بعد الموت على أى حال.

و قوله: بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ الباء فى الموضوعين منه للسببيه أى إن هذا البخل اورثهم نفاقا بما كان فيه من الخلف فى الوعد و الاستمرار على الكذب الموجبين لمخالفه باطنهم لظاهرهم و هو النفاق.

و معنى الآيه: فأورثهم البخل و الامتناع عن إيتاء الصدقات نفاقا فى قلوبهم يدوم لهم ذلك و لا يفارقهم الى يوم موتهم و إنما صار هذا البخل و الامتناع سببا لذلك لما فيه من خلف الوعد لله و الملازمه و الاستمرار على الكذب.

او المعنى: جازاهم الله نفاقا فى قلوبهم الى يوم لقائه و هو يوم الموت لأنهم أخلفوه ما وعدوه و كانوا يكذبون.

قوله تعالى: أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ الْآيَه؛ النجوى الكلام الخفى و الاستفهام للتوبيخ و التأنيب.

قوله تعالى: الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ الْآيَه؛ التطوع الإتيان بما لا تكرهه النفس و لا تحسبه شاقا و لذلك يستعمل غالبا فى المندوبات لما فى الواجبات من شائبه التحميل على النفس بعدم الرضى بالترك.

و مقابله المطوعين من المؤمنين فى الصدقات بالذین لا یجدون إلا جهدهم قرینه على أن المراد بالمطوعین فیها الذین یؤتون الزكاه على السعه و الجده كأنهم لسعتهم و كثره مالهم یؤتونها على طوع و رغبه من غیر ان یشق ذلك علیهم بخلاف الذین لا یجدون إلا جهدهم أى مبلغ جهدهم و طاقتهم او ما یشق علیهم القنوع بذلك.

□
و قوله: «الذین یلمزُونَ» الآیه كلام مستأنف او هو وصف للذین ذكروا بقوله: «وَ مِنْهُمْ مَرٍنٌ عَاهِدَ اللّٰهَ» الآیه كما قالوا. و المعنى: الذین یعیبون الذین یتطوعون بالصدقات من المؤمنین الموسرین و الذین لا یجدون من المال إلا جهد انفسهم من الفقراء المعسرین فیعیون المتصدقین موسرهم و معسرهم و غنیهم و فقیرهم و یسخرون منهم سخر الله منهم و لهم عذاب أليم، و فیہ جواب لاستهزائهم و إیعاد بعذاب شدید.

□
قوله تعالى: اِسْتَعْفِرْ لَهُمْ اَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ اِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ التردید بین الأمر و النهی كناية عن تساوى الفعل و الترك أى لغویه الفعل كما مر نظیره فى قوله: اَنْفَقُوا طَوْعًا اَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ (التوبه ۵۳).

فالمعنى ان هؤلاء المنافقین لا تنالهم مغفره من الله و یتسوى فیهم طلب المغفره و عدمها لأن طلبها لهم لغو لا اثر له.

□
و قوله: «اِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ» تأکیداً لما ذكر قبله من لغویه الاستغفار لهم، و بیان ان طبیعه المغفره لا تنالهم البتة سواء سئلت المغفره فى حقهم او لم تسأل، و سواء كان الاستغفار مره او مرات قليلاً او كثيراً.

فذكر السبعین كناية عن الكثرة من غیر ان يكون هناك خصوصیه للعدد حتى يكون الواحد و الاثنان من الاستغفار حتى یبلغ السبعین غیر مؤثر فى حقهم فاذا جاوز السبعین أثر اثره، و لذلك علله بقوله: «ذَلِكَ بِاَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُوْلِهِ» اى ان المانع من شمول المغفره هو كفرهم بالله و رسوله، و لا یختلف هذا المانع بعدم الاستغفار. و لا وجوده واحداً او كثيراً فهم

و من هنا يظهر أن قوله: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» متم لسابقه و الكلام مسوق سوق الاستدلال القياسى و التقدير: انهم كافرون بالله و رسوله فهم فاسقون خارجون عن عبوديه الله، و الله لا يهدى القوم الفاسقين، لكن المغفره هدايه الى سعاده القرب و الجنه فلا تشملهم المغفره و لا تنالهم البته.

و استعمال السبعين فى الكثره المجزده عن الخصوصيه كاستعمال المائه و الألف فيها كثير فى اللغة (١).

[سوره التوبه (٩): الآيات ٨١ الى ٩٦]

إشارة

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعِدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَ كَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَ لَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عِدْوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَ لَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَ لَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ مَا تَوَّأ وَ هُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَ لَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ (٨٥) وَ إِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ جَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطُّولِ مِنْهُمْ وَ قَالُوا ذُرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَ طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَكِنَّ الرُّسُولَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩) وَ لَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْمَاعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَ قَعِدَ الَّذِينَ كَذَّبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَ لَا عَلَى الْمَرْضَى وَ لَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَ لَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لَتَعْمَلُنَّ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ قُلْتُ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْيَاءٌ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيُخَلِّفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعْرَضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَخَلِّفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)

قوله تعالى: فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ الْآيَةَ؛ الفرح و السرور خلاف الغم و هما حالتان نفسيّتان وجدائيتان ملذه و مؤلمه، و المخلّفون اسم مفعول من قولهم خلفه اذا تركه بعده و المقعد كالمقعد مصدر قعد يقعد و هو كناية عن عدم الخروج الى الجهاد.

و الخلاف كالمخالفه مصدر خالف يخالف، و ربما جاء بمعنى بعد كما قيل و لعل منه قوله «وَ إِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا» و كان قياس الكلام أن يقال: «خِلَافَكَ» لأن الخطاب فيه للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و إنما قيل: «خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ» للدلاله على أنهم إنما يفرحون على مخالفه الله العظيم فما على الرسول إِلَّا البلاغ.

و المعنى فرح المنافقون الذين تركتهم بعدك بعدم خروجهم معك خلافا لك- أو بعدك-

و كرهوا ان يجاهدوا بأموالهم و أنفسهم فى سبيل الله.

وقوله تعالى: «وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ» خاطبوا بذلك غيرهم ليخذلوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَيَبْطَلُوا مَسْعَاهُ فِي تَنْفِيرِ النَّاسِ إِلَى الْغَزْوَةِ، وَلِذَلِكَ أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَجِيبَ عَنْ قَوْلِهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا» أَي أَنَّ الْفِرَارَ عَنِ الْحَرِّ بِالْقَعُودِ أَنْجَاكُمْ مِنْهُ لَمْ يَنْجِكُمْ مِمَّا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ وَهُوَ نَارُ جَهَنَّمَ الَّتِي هِيَ أَشَدُّ حَرًّا فَانْزِعُوا عَنِ الْفِرَارِ عَنْ هَذَا الْهَيْئِ يُوَقِّعُكُمْ فِي ذَاكَ الشَّدِيدِ. ثُمَّ أَفَادَ بِقَوْلِهِ: «لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ» الْمَصْدَرَ بِلَوْ التَّمَنَّى الْيَأْسَ مِنْ فَهْمِهِمْ وَفَهْمِهِمْ.

قوله تعالى: «فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا» وَ لِيُبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ تَفْرِيعٌ عَلَى تَخْلُفِهِمْ عَنِ الْجِهَادِ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَفَرَحِهِمْ بِالْقَعُودِ عَنْ هَذِهِ الْفَرِيضَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْفَطْرِيَّةِ الَّتِي لَا سَعَادَةَ لِلْإِنْسَانِ فِي حَيَاتِهِ دُونَهَا.

وقوله: «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» وَ الْبَاءُ لِلْمُقَابَلَةِ أَوْ السَّبْبِيَّةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالضَّحْكِ الْقَلِيلِ هُوَ الَّذِي فِي الدُّنْيَا فَرَحًا بِالتَّخْلُفِ وَ الْقَعُودِ وَ نَحْوِ ذَلِكَ، وَ بِالْبُكَاءِ الْكَثِيرِ مَا كَانَ فِي الْآخِرَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ الَّتِي هِيَ أَشَدُّ حَرًّا فَانْزِعُوا عَنِ الْفِرَارِ عَنِ الضَّحْكِ وَ الْبُكَاءِ هُوَ مَا فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، وَ هُوَ فَرَحُهُمْ بِالتَّخْلُفِ وَ خُرُوجِهِمْ مِنْ حَرِّ الْهَوَاءِ إِلَى حَرِّ نَارِ جَهَنَّمَ.

فالمعنى: فمن الواجب بالنظر الى ما عملوه و اكتسبوه ان يضحكوا و يفرحوا قليلا فى الدنيا و ان يبكوا و يحزنوا كثيرا فى الآخرة فالأمر بالضحك و البكاء للدلالة على ايجاب السبب و هو ما كسبوه من الأعمال لذلك.

و اما حمل الأمر فى قوله: «فَلْيَضْحَكُوا» وَ قَوْلِهِ: «وَلْيُبْكُوا» عَلَى الْأَمْرِ الْمَوْلُودِ لِيَنْتِجَ تَكْلِيفًا مِنَ التَّكْلِيفِ الشَّرْعِيِّ فَلَا يَنَاسِبُهُ قَوْلُهُ: «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

و يمكن ان يكون المراد الأمر بالضحك القليل و البكاء الكثير معا ما هو فى الدنيا جزاء لسابق اعمالهم فانها هدتهم الى راحه وهميه فى ايام قلائل و هى ايام قعودهم خلاف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ إِلَى هَوَانٍ وَ ذَلَّةٍ عِنْدَ اللهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا أَحْيَاءَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَى شَدِيدِ حَرِّ

النار في الآخرة بعد موتهم.

قوله تعالى: فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ إِلَى آخِرِ آيَةِ الْمَرَادِ بِالْقَعْدِ أَوَّلَ مَرَّةٍ التَّخَلُّفِ عَنِ الْخُرُوجِ فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَخْرُجُوا فِيهَا فَلَمْ يَخْرُجُوا، وَلَعَلَّهَا غَزْوَةُ تَبُوكَ كَمَا يَهْدِي إِلَيْهِ السِّيَاقُ.

و المراد بالخالفين المتخلفون بحسب الطبع كالنساء و الصبيان و المرضى و الزمنى و قيل:

المتخلفون من غير عذر، و قيل: الخالفون هم أهل الفساد، و الباقي واضح.

و في قوله: «فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ» الآية دلالة على أن هذه الآية و ما في سياقها المتصل من الآيات السابقة و اللاحقة نزلت و رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ فِي سَفَرِهِ وَ لَمَّا يَرْجِعُ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَ هُوَ سَفَرُهُ إِلَى تَبُوكَ.

قوله تعالى: وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَيْدَاءً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ مَاتُوا وَ هُمْ فَاسِقُونَ نَهَى عَنِ الصَّلَاةِ لِمَنْ مَاتَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَ الْقِيَامِ عَلَى قَبْرِهِ وَ قَدْ عَلِلَ النَّهْيَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا وَ فَسَقُوا وَ مَاتُوا عَلَى فَسَقَتِهِمْ، وَ قَدْ عَلِلَ لُغْوِيَةَ الْإِسْتِغْفَارِ لَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: السَّابِقُ: إِسْتِغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ (آية ٨٠ من السورة)، وَ كَذَا فِي قَوْلِهِ: سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفِرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (المنافقون ٦) بِالْكَفْرِ وَ الْفُسْقِ أَيْضًا.

و يتحصل من الجميع أن من فقد الإيمان بالله باستيلاء الكفر على قلبه و إحاطته به فلا سبيل له إلى النجاة يهتدى به، و أن الآيات الثلاث جميعا تكشف عن لغوية الاستغفار للمنافقين و الصلاة على موتاهم و القيام على قبورهم للدعاء لهم.

و في الآية إشارة إلى أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ كَانَ يَصَلِّي عَلَى مَوْتَى الْمُسْلِمِينَ وَ يَقُومُ عَلَى قُبُورِهِمْ لِلدَّعَاءِ.

قوله تعالى: وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ أَوْلَادُهُمْ الْآيَةَ؛ تَقْدِمُ بَعْضُ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْآيَةِ

من الكلام فى الآيه ٥٥ من السوره.

قوله تعالى: وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةَ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ الطول القدره و النعمه، و الخوالف هم الخالفون و الكلام فيه كالكلام فيه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ لِمَا ذَمَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الْآيَاتِينَ السَّابِقَتَيْنِ بِالرِّضَا بِالْقَعُودِ مَعَ الْخَوَالِفِ وَالطَّبَعِ عَلَى قُلُوبِهِمْ اسْتَدْرَكَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ - والمراد بهم المؤمنون حقا الذين خلصت قلوبهم من رين النفاق بدليل المقابله مع المنافقين - ليمدحهم بالجهد بأموالهم و أنفسهم أى انهم لم يرضوا بالعود و لم يطبع على قلوبهم بل نالوا سعاده الحياه و النور الإلهى الذى يهتدون به فى مشيهم كما قال تعالى: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَىٰ بِهِ فِي النَّاسِ (الأنعام ١٢٢).

و لذلك عقب الكلام بقوله: «وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» فلهم جميع الخيرات -على ما يقتضيه الجمع المحلى باللام- من الحياه الطيبه و نور الهدى و الشهاده و سائر ما يتقرب به الى الله سبحانه، و هم المفلحون الفائزون بالسعاده.

قوله تعالى: أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ؛ الإعداد هو التهيئه و قد عبر بالإعداد دون الوعد لأن الامور بخواتيمها و عواقبها فلو كان وعدا و هو وعد لجميع من آمن معه لكان قضاء حتميا واجب الوفاء سواء بقى الموعودون على صفاء إيمانهم و صلاح اعمالهم او غيروا و الله لا يخلف الميعاد.

و الا-صول القرآنيه لا- تساعد على ذلك، و لا- الفطره السليمه ترضى ان ينسب الى الله سبحانه ان يطبع بطابع المغفره و الجنه الحتميه على احد لعمل عمله من الصالحات ثم يخلى بينه و بين ما شاء و أراد.

و لذلك نجده سبحانه اذا وعد وعدا علقه على عنوان من العناوين العامه كالإيمان و العمل الصالح يدور معه الوعد الجميل من غير ان يخص به اشخاصا بأعيانهم فيفيد التناقض بالجمع بين التكليف و التأمين كما قال تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ (الآيه ٧٢ من السوره)، و قال تعالى: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ - الى ان قال- وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (الفتح ٢٩).

قوله تعالى: وَجَاءَ الْمُعَذِّبُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ الْآيَةَ؛ الظاهر أن المراد بالمعذرين هم اهل العذر كالذى لا يجد نفقه و لا سلاحا بدليل قوله: «وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا» الْآيَةَ؛ و السياق يدل على ان فى الكلام قياسا لإحدى الطائفتين الى الاخرى ليظهر به لؤم المنافقين و خستهم و فساد قلوبهم و شقاء نفوسهم، حيث ان فريضة الجهاد الدينيه و النصره لله و رسوله هيح لذلك المعذرين من الأعراب و جاءوا الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم يستأذنونهم، و لم يؤثر فى هؤلاء الكاذبين شيئا.

قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ الْمَرَادُ بِالضُّعَفَاءِ بَدَلَالَهُ سِيَاق الْآيَةِ: الَّذِينَ لَا قُوَّةَ لَهُمْ عَلَى الْجِهَادِ بِحَسَبِ الطَّبَعِ كَالزَّمَنِ كَمَا أَنَّ الْمَرْضَى لَا قُوَّةَ لَهُمْ عَلَيْهِ بِحَسَبِ عَارِضِ مَزَاجِي، وَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ لَا قُوَّةَ لَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ فَقْدِ الْمَالِ وَ نَحْوِهِ.

فهؤلاء مرفوع عنهم الحرج و المشقه أى الحكم بالوجوب الذى لو وضع كان حكما حرجيا، و كذا ما يستتبعه الحكم من الذم و العقاب على تقرير المخالفه.

و قد قيد الله تعالى رفع الحرج عنهم بقوله: «إِذَا نَصَبُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ» وَ هُوَ نَاطِرُ إِلَى الذَّمِّ وَ الْعِقَابِ عَلَى الْمَخَالَفَةِ وَ الْقُعُودِ فَإِنَّمَا يَرْفَعُ الذَّمَّ وَ الْعِقَابَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمَعذُورِينَ إِذَا نَصَبُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَ أَخْلَصُوا مِنَ الْغِشِّ وَ الْخِيَانَةِ وَ لَمْ يَجْرُوا فِي قُعُودِهِمْ عَلَى مَا يَجْرَى عَلَيْهِ الْمُنَافِقُونَ

المتخلفون من تقلب الامور و إفساد القلوب فى مجتمع المؤمنين، و إلا فيجرى عليهم ما يجرى على المنافقين من الذم و العقاب.

و قوله: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ فِي مَقَامِ التَّعْلِيلِ لِنَفْيِ الْحَرَجِ عَنِ الطَّوَائِفِ الْمَذْكُورِينَ بِشَرَطِ أَنْ يَنْصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أَى لَأَنْهُمْ يَكُونُونَ حِينَئِذٍ مُحْسِنِينَ وَ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ فَلَا سَبِيلَ يَتَسَلَطُ عَلَيْهِمْ يُؤْتُونَ مِنْهُ فَيَصَابُونَ بِمَا يَكْرَهُونَهُ.

ففى السبيل كناية عن كونهم فى مأمن مما يصيبهم من مكروه كأنهم فى حصن حصين لا طريق الى داخله يسلكه الشر اليهم فيصيبهم، و الجملة عامه بحسب المعنى و إن كان مورد التطبيق خاصا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ الْآيَةَ﴾؛ قال فى المجمع: إطاء المركوب من فرس او بعير او غير ذلك تقول: حملة يحمله حملا اذا أعطاه ما يحمله عليه قال:

ألا فتى عنده خفان يحملنى

عليهما إننى شيخ على سفر

قال: و الفيض الجرى عن امتلاء من قولهم: فاض الإناء بما فيه، و الحزن ألم فى القلب لفوت امر مأخوذ من حزن الأرض و هى الأرض الغليظة المسلك. انتهى.

و قوله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ﴾ الآية؛ موصول صلته قوله: «تَوَلَّوْا» الآية، و قوله: «إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ» كالشرك و الجزاء و المجموع ظرف لقوله: «تَوَلَّوْا» و حزنا مفعول له، «و ان لا يجدوا» منصوب بنزع الخافض.

و المعنى: و لا- حرج على الفقراء الذين اذا ما اتوك لتعطيهم مركوبا يركبونه و تصلح سائر ما يحتاجون اليه من السلاح و غيره قلت لا أجد ما احملكم عليه تولوا و الحال ان اعينهم تمتلئ و تسكب دموعا للحزن من ان لا يجدوا- او لأن لا يجدوا- ما ينفقونه فى سبيل الله للجهاد مع اعدائه.

و عطف هذا الصنف على ما تقدمه من عطف الخاص على العام عناية بهم لأنهم فى أعلى درجه من النصح و احسانهم ظاهر.

قوله تعالى: إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْيَاءٌ الْآيَةَ؛ القصر للإفراد و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ خطاب الجمع للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا، و قوله: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ» أى لن نصدقكم على ما تعتذرون به بناء على تعديه الإيمان باللام كالباء- أو لن نصدق تصديقا ينفعكم- بناء على كون اللام للنفع -و الجملة تعليل لقوله: «لَا تَعْتَذِرُوا» كما أن قوله: «قَدْ تَبَّأْنَا اللَّهُ مِنْ أَجْبَارِكُمْ» تعليل لهذه الجملة.

و المعنى يعتذر المنافقون اليكم عند رجوعكم من الغزوه اليهم قل يا محمد لهم: لا تعتذروا لينا لأننا لن نصدقكم فيما تعتذرون به لأن الله قد اخبرنا ببعض اخباركم مما يظهر به نفاقكم و كذبكم فيما تعتذرون به، و سيظهر عملكم ظهور شهود لله و رسوله ثم تردون الى الله الذى يعلم الغيب و الشهاده يوم القيامة فيخبركم بحقائق اعمالكم.

و فى قوله: «وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ» الخ؛ فى إيضاحه كلام سيمر بك عن قريب.

قوله تعالى: سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعْرَضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ الْآيَةَ؛ أى لتعرضوا عنهم فلا تتعرضوا لهم بالعتاب و التقرير و ما يتعقب ذلك فأعرضوا عنهم لا تصديقا لهم فيما يحلفون له من الأعداء بل لأنهم رجس ينبغى أن لا يقترب منهم و مأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون.

قوله تعالى: يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ أى هذا الحلف منهم كما كان للتوسل الى صرفكم عنهم ليأمنوا الدم و التقرير كذلك هو للتوسل الى رضاكم عنهم أما الإعراض فافعلوه لأنهم رجس

قوله تعالى: الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَ نِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ الْآيَةَ؛ قال الراغب في المفردات: العرب ولد اسماعيل، و الأعراب جمعه في الأصل، و صار ذلك اسما لسكان البادية، «قالت الأعراب آمنا».

و الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَ نِفَاقًا. وَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ، و قيل في جمع

الأعراب أعراب، قال الشاعر:

أعراب ذوو فخر يافك

و ألسنه لطاف في المقال

و الأعرابي في التعارف صار اسماً للمنسوب الى سكان البادية، و العربيّ المفصح و الإعراب البيان، انتهى موضع الحاجة. يبين تعالى حال سكان البادية و أنهم أشد كفراً و نفاقاً لأنهم لبعدهم عن المدنيه و الحضاره، و حرمانهم من بركات الإنسانيه من العلم و الأدب أفسى و أجفى، فهم أجدر و أحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله من المعارف الأصيله و الأحكام الشرعيه من فرائض و سنن و حلال و حرام.

قوله تعالى: **وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ** الآية، قال في المجمع: المغرم الغرم و هو نزول نائبه بالمال من غير خيانه، و أصله لزوم الأمر، و منه قوله: إن عذابها كان غراماً، و حبّ غرام أى لازم، و الغريم يقال لكل واحد من المتدائنين للزوم احدهما الآخر و غرّمته كذا أى ألزّمته إياه فى ماله، انتهى.

و الدائرته الحادثه و تغلب فى الحوادث السوء كأن الحوادث السوء تدور بين الناس فتتزل كل يوم يقوم فتربص الدوائر بالمؤمنين انتظار نزول الحوادث السوء عليهم للتخلص من سلطتهم و الرجوع الى رسوم الشرك و الضلال.

و قوله: **يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا** أى يفرض الإنفاق غرماً او المال الذى ينفقه مغرماً على أن يكون ما مصدرية او موصوله - و المراد الإنفاق فى الجهاد او أى سبيل من سبل الخير على ما قيل، و يمكن ان يكون المراد الإنفاق فى خصوص الصدقات ليكون الكلام كالتوطئه لما سيجىء بعد عده آيات من حكم أخذ الصدقه من اموالهم، و يؤيده ما فى الآية التاليه من قوله: **«وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَوَاتِ الرَّسُولِ»** فانه كالتوطئه لقوله فى آيه الصدقه **«وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ»**.

فمعنى الآية: و من سكان البادية من يفرض الإنفاق فى سبيل الخير او فى خصوص

الصدقات غرما و خساره و ينتظر نزول الحوادث السيئه بكم، عليهم دائره السوء-قضاء منه تعالى او دعاء عليهم-و الله سميع للأقوال عليم بالقلوب.

قوله تعالى: وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَوَاتِ الرَّسُولِ الْخ؛ الظاهر أن قوله: «صَلَوَاتِ الرَّسُولِ» عطف على قوله: «مَا يُنْفِقُ» و أن الضمير فى قوله: «أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ» عائد الى ما ينفق و صلوات الرسول.

و معنى الآيه: و من الأعراب من يؤمن بالله فيوحده من غير شرك و يؤمن باليوم الآخر فيصدق الحساب و الجزاء و يتخذ إنفاق المال لله و ما يتبعه من صلوات الرسول و دعواته بالخير و البركه، كل ذلك قربات عند الله و تقربات منه اليه ألا إن هذا الإنفاق و صلوات الرسول قربه لهم، و الله يعدهم بأنه سيدخلهم فى رحمته لأنه غفور للذنوب رحيم بالمؤمنين به و المطيعين له.

قوله تعالى: وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ الْخ؛ القراءه المشهوره «و الأنصار» بالكسر عطفاً على «المُهَاجِرِينَ» و التقدير: السابقون الأولون من المهاجرين و السابقون الأولون من الأنصار و الذين اتبعوهم بإحسان؛ و قرء يعقوب: و الأنصار بالرفع فالمراد به جميع الأنصار دون السابقين الأولين منهم فحسب.

و قد اختلفت الكلمه فى المراد بالسابقين الأولين فقيل: المراد بهم من صلى الى القبلتين، و قيل: من بايع بيعة الرضوان و هى بيعة الحديبيه، و قيل: هم أهل بدر خاصه، و قيل: هم الذين أسلموا قبل الهجره، و هذه جميعاً و جوه لم يوردوا لها دليلاً من جهة اللفظ.

و الذى يمكن أن يؤيده لفظ الآيه بعض التأييد هو أن بيان الموضوع-السابقون الأولون- بالوصف بعد الوصف من غير ذكر أعيان القوم و أشخاصهم يشعر بأن الهجره و النصره هما

ثم الذى عطف عليهم من قوله: «وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ، يذكر قوما ينعتهم بالاتباع و يقيده بأن يكون بإحسان و الذى يناسب وصف الاتباع أن يترتب عليه هو وصف السبق دون الأوليه فلا- يقال: أول و تابع و إنما يقال: سابق و تابع، و تصديق ذلك قوله تعالى: لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ إِلَى أَنْ قَالُوا: وَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ إِلَى أَنْ قَالُوا: وَ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ الْآيَات: (الحشر ١٠/).

فالمراد بالسابقين هم السابقون الى الإيمان من بين المسلمين من لدن طلوع الإسلام الى يوم القيامة (١).

قوله تعالى: وَ مِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَّفِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الْآيَة؛ حول الشيء ما يجاوره من المكان من اطرافه و هو ظرف، و المرد العتو و الخروج عن الطاعة، و الممارسه و التمرين على الشر و هو المعنى المناسب لقوله فى الآيه: «مَرَدُّوا عَلَيَّ النِّفَاقِ» أى مروا عليه و مارسوا حتى اعتادوه.

و معنى الآيه: و ممن فى حولكم او حول المدينة من الأعراب الساكنين فى البوادي منافقون مروا على النفاق و من اهل المدينة أيضا منافقون معتادون على النفاق لا تعلمهم انت يا محمد نحن نعلمهم سنعدّ بهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم.

و قد اختلفت كلماتهم فى المراد من تعذيبهم مرتين. ما هما المرتان؟ فقيل: يعنى مره فى الدنيا بالسبى و القتل و نحوهما و مره بعذاب القبر، و قيل: فى الدنيا بأخذ الزكاه و فى الآخره بعذاب القبر، و قيل بالجوع مرتين و قيل مره عند الاحتضار و مره فى القبر و قيل: بإقامه الحدود

و عذاب القبر، و قيل: مره بالفضيحة فى الدنيا و مره بالعذاب فى القبر، و قيل غير ذلك، و لا دليل على شىء من هذه الأقوال، و إن كان و لا بد فأولها أولاها.

قوله تعالى: وَ آخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَ آخَرَ سَيِّئًا أَي: و من الأعراب جماعه آخرون مذنبون لا ينافقون مثل غيرهم بل اعترفوا بذنوبهم لهم عمل صالح و عمل آخر سىئ خلطوا هذا بذلك من المرجو ان يتوب الله عليهم إن الله غفور رحيم.

و فى قوله: «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» إيجاد الرجاء فى نفوسهم لتكون نفوسهم واقعه بين الخوف و الرجاء من غير ان يحيط بها اليأس و القنوط، و فى قوله: «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» ترجيح جانب الرجاء.

قوله تعالى: خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صِدْقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِهَا وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صِدْقَ لَتَكَّ سَيَكُنْ لَهُمْ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ التّطهير إزاله الأوساخ و القدرات من الشىء ليصفى وجوده و يستعد للنشوء و النماء و ظهور آثاره و بركاته، و التزكية إنماءه و إعطاء الرشد له بلحوق الخيرات و ظهور البركات كالشجره بقطع الزوائد من فروعها فتزيد فى حسن نموها و جوده ثمرتها فالجمع بين التّطهير و التزكية فى الآية من لطيف التعبير.

فقوله: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صِدْقَةً» أمر للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بأخذ الصدقه من اموال الناس و لم يقل:

من مالهم ليكون اشاره الى انها مأخوذه من أصناف المال، و هى النقدان: الذهب و الفضة، و الأنعام الثلاثة: الإبل و البقر و الغنم، و الغلات الأربع: الحنطة و الشعير و التمر و الزبيب.

و قوله: «تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِهَا» خطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و ليس وصفا لحال الصدقه، و الدليل عليه ضمير بها الراجع الى الصدقه اى خذ يا محمد من اصناف اموالهم صدقه تطهرهم انت و تزكيهم بتلك الصدقه اى أخذها.

و قوله: «وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ» الصلاة عليهم هى الدعاء لهم و السياق يفيد انه دعاء لهم

و لأموالهم بالخير و البركه و هو المحفوظ من سنه النبي صلى الله عليه و آله و سلم فكان يدعو لمعطي الزكاه و لماله بالخير و البركه.

و قوله: «إِنَّ صِدْقَاتِكُمْ سَكَنٌ لَهُمْ» السكَن ما يسكن اليه الشيء و المراد به أن نفوسهم تسكن الي دعائك و تثق به و هو نوع شكر لسعيهم في الله كما أن قوله تعالى في ذيل الآية: «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» سكن يسكن اليه نفوس المكلفين ممن يسمع الآية او يتلوها.

و الآية تتضمن حكم الزكاه الماليه التي هي من أركان الشريعة و المله على ما هو ظاهر الآية في نفسها، و قد فسرتها بذلك اخبار متكاثره من طرق أئمه أهل البيت عليهم السلام و غيرهم.

قوله تعالى: أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ استفهام إنكارى بداعى تشويق الناس الى إيتاء الزكاه، و ذلك أنهم إنما يؤتون الصدقه لله و إنما يسلمونها الى الرسول او الى عامله و جاييه بما أنه مأمور من قبل الله في اخذها فإيتاؤه إيتاء لله، و أخذه أخذ من الله فالله سبحانه هو الآخذ لها بالحقيقه، و قد قال تعالى في أمثاله: إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ (الفتح ١٠) و قال: وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى (الأنفال ١٣) و قال قولاً عاماً: مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ (النساء ٨٠).

فاذا ذكر الناس بمثل قوله: «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ» الآية؛ انبعثت رغباتهم و اشتاقوا أن يعاملوا ربهم فيصافحوه و يمسوا بأيديهم يده تنزه عن عوارض الأجسام و تعالى عن ملابسه الحدثان.

و مقارنته الصدقه بالتوبه لما أن التوبه تطهر و إيتاء الصدقه تطهر فالتصدق بصدقه توبه ماليه كما ان التوبه بمنزله الصدقه في الأعمال و الحركات، و لذلك عطف على صدر الآية قوله ذيلاً: «وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» فذكر عباده باسميه التواب و الرحيم، و جمع فيهما التوبه

و التصدق.

و قد بان من الآيه ان التصدق و إيتاء الزكاه نوع من التوبه.

قوله تعالى: وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ الْآيَهُ؛ الْآيَهُ عَلَى ظَاهِرِ اتِّصَالِهَا بِمَا قَبْلُهَا كَأَنَّهَا تَخَاطَبُ الْمُؤْمِنِينَ وَ تَسَوِّقُهُمْ وَ تَحْرُضُهُمْ إِلَى إِيْتَاءِ الصَّدَقَاتِ.

غير أن لفظها مطلق لا دليل على تخصيص خطابها بالمتصدقين من المؤمنين و لا بعامه المؤمنين بل هي تشمل كل ذى عمل من الناس من الكفار و المنافقين و المؤمنين و لا أقل من شمولها للمنافقين و المؤمنين جميعا.

إلا أن نظير الآيه الذى مر أعنى قوله فى سياق الكلام على المنافقين: وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (التوبه ٩٤/) حيث ذكر الله و رسوله فى رؤيه عملهم و لم يذكر المؤمنين لا يخلو من إيماء الى أن الخطاب فى الآيه التى نحن فيها للمؤمنين خاصه فإن ضم إحدى الآيتين الى الاخرى يخطر بالبال ان حقيقه أعمال المنافقين أعنى مقاصدهم من أعمالهم لما كانت خفيه على ملائـ الناس فإنما يعلم بها الله و رسوله بوحي من الله تعالى، و أما المؤمنون فحقائق أعمالهم أعنى مقاصدهم منها و آثارها و فوائدها التى تتفرع عليها و هى شيوع التقوى و إصلاح شئون المجتمع الإسلامى و إمداد الفقراء فى معاشهم و زكاه الأموال و نماؤها يعلمها الله تعالى و رسوله و يشاهدها المؤمنون فيما بينهم.

لكن ظهور الأعمال بحقائق آثارها و عامه فوائدها أو مضراتها فى محيط كينونتها و تبديلها بأمثالها و تصورها فى أطوارها زمانا بعد زمان و عصرا بعد عصر مما لا يختص بعمل قوم دون عمل قوم، و لا مشاهدتها و التأثير بها بقوم دون قوم.

فلو كان المراد من رؤيه المؤمنين أعمالا لعاملين ظهور آثارها و نتائجها و بعبارة

أخرى ظهور أنفسها فى ألبسه نتائجها لهم لم يختص المشاهده بقوم دون قوم ولا بعمل قوم دون عمل قوم فما بال الأعمال يراها المؤمنون ولا يراها المنافقون وهم أهل مجتمع واحد؟ وما بال أعمال المنافقين لا يشاهدها المؤمنون وقد كُوت فى مجتمعهم و داخلت أعمالهم؟

و هذا مع ما فى الآيه من خصوص السياق مما يقرب الذهن أن يفهم من الآيه معنى آخر فإن قوله: «سُتْرُدُونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» يدل أولا على أن قوله:

«فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ» الآيه؛ ناظر الى ما قبل البعث و هى الدنيا لمكان قوله: «ثُمَّ تُرَدُّونَ» فإنه يشير الى يوم البعث و ما قبله هو الدنيا.

و ثانيا: أنهم إنما يوقفون على حقيقه أعمالهم يوم البعث و أما قبل ذلك فإنما يرون ظاهرها، و قد نبهنا على هذا المعنى كرارا فى أبحاثنا السابقه، و اذ قصر علمهم بحقائق أعمالهم على إنبائه تعالى إياهم بها يوم القيامة و ذكر رؤيه الله و رسوله و المؤمنين أعمالهم قبل يوم البعث فى الدنيا و قد ذكر الله مع رسوله و غيره و هو عالم بحقائقها و له أن يوحى الى نبيه بها كان المراد بها مشاهده الله سبحانه و رسوله و المؤمنون حقيقه أعمالهم، و كان المراد بالمؤمنين شهداء الأعمال منهم لا عامه المؤمنين كما يدل عليه أمثال قوله تعالى: «وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسِيًّا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» (البقره ١٤٣) و قد مر الكلام فيه فى الجزء الأول من الكتاب.

و على هذا فمعنى الآيه: و قل يا محمّد اعملوا ما شئتم من عمل خيرا أو شرا فسيشاهد الله سبحانه حقيقه عملكم و يشاهدها رسوله و المؤمنون-و هم شهداء الأعمال-ثم تردون الى الله عالم الغيب و الشهاده يوم القيامة فيريكم حقيقه عملكم.

و بعبارة اخرى: ما عملتم من عمل خيرا او شر فإن حقيقته مرثيه مشهوده لله عالم الغيب و الشهاده ثم لرسوله و المؤمنين فى الدنيا ثم لكم أنفسكم معاشر العاملين يوم القيامة.

قوله تعالى: «وَ آخِرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ الْارْجَاءُ التَّأخِيرُ، وَالْآيَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى قَوْلِهِ: «وَ آخِرُونَ اَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ» وَمَعْنَى اِرْجَائِهِمْ اِلَى اَمْرِ اللَّهِ اَنَّهُمْ لَا سَبَبَ عِنْدَهُمْ يَرْجَحُ لَهُمْ جَانِبَ الْعَذَابِ اَوْ جَانِبَ الْمَغْفِرَةِ فَأَمْرُهُمْ يُوَوَّلُ اِلَى اَمْرِ اللَّهِ مَا شَاءَ وَ اَرَادَ فِيهِمْ فَهُوَ النَّاظِذُ فِي حَقِّهِمْ؟

و هذه الآيه تنطبق بحسب نفسها على المستضعفين الذين هم كالبرزخ بين المحسنين و المسيئين، و إن ورد في أسباب النزول ان الآيه نازله في الثلاثة الذين خلفوا ثم تابوا فأَنْزَلَ اللَّهُ تَوْبَتَهُمْ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ سَيَجِيءُ اِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

و كيف كان فالآيه تخفى ما يوول اليه عاقبه امرهم و تبقياها على إبهامها حتى فيما ذيلت به من الاسمين الكريمين: العليم و الحكيم الدالين على ان الله سبحانه يحكم فيهم بما يقتضيه علمه و حكمته، و هذا بخلاف ما ذيل قوله: «وَ آخِرُونَ اَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ» حيث قال: «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (١)(٢).

[سوره التوبه (٩): الآيات ١٠٧ الى ١١٠]

اشاره

وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا مَرَارًا وَ كُفْرًا وَ تَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ اِرْضًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَ لِيُخَلِّفُنَّ اِنْ اَرَدْنَا اِلَّا الْحُسْنَى وَ اللَّهُ يَشْهَدُ اِنَّهُمْ لَكَافِرُونَ (١٠٧) - لَا تَقُمْ فِيهِ اَيْدًا لِمَسْجِدٍ اُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ اَوَّلِ يَوْمٍ اَحَقُّ اَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ اَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (١٠٨) اَفَمَنْ اُسِّسَ بِنِيبَانِهِ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانٍ خَيْرٌ اَمْ مَنْ اُسِّسَ بِنِيبَانِهِ عَلَى شِفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) - يَزَالُ بُعِثَتْهُمْ اِلَى الَّذِي بَنَوْا رِيبَهُ فِي قُلُوبِهِمْ اِلَّا - اَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)

ص: ٨٢٢

١- ١). التوبه ٩٧-١٠٦: بحث روائى فى السابقين الاولين...؛ الاعراب؛ الصدقات.

٢- ٢). التوبه ٩٧-١٠٦: كلام فى الزكاه و سائر الصدقات.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَيْقًا وَ كُفْرًا إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ، الضرار و المضاره إيصال الضرر، و الإرصاء اتخاذ الرصد و الانتظار و الترقب.

و قوله: «وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَيْقًا» إن كانت الآيات نازله مع ما تقدمها من الآيات النازله فى المنافقين فالعطف على ما تقدم ذكرهم من طوائف المنافقين المذكورين بقوله:

و منهم، و منهم أى و منهم الذين اتخذوا مسجدا ضارا.

و إن كانت مستقلة بالنزول فالوجه كون الواو استثنائية و قوله: «الَّذِينَ اتَّخَذُوا» مبتدأ خبره قوله: «لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا» و يمكن إجراء هذا الوجه على التقدير السابق أيضا، و قد ذكر المفسرون فى إعراب الآيه وجوها اخرى لا تخلو عن تكلف تركناها.

و قد بين الله غرض هذه الطائفة من المنافقين فى اتخاذ هذا المسجد و هو الضرار بغيرهم و الكفر و التفريق بين المؤمنين و الإرصاء لمن حارب الله و رسوله، و الأغراض المذكوره خاصه ترتبط الى قصه خاصه بعينها، و هى على ما اتفق عليه أهل النقل أن جماعه من بنى عمرو بن عوف بنوا مسجد قبا و سألوا النبى أن يصلى فيه فصلى فيه فحسداهم جماعه من بنى غنم بن عوف و هم منافقون فبنوا مسجدا الى جنب مسجد قبا ليضروا به و يفرقوا المؤمنين منه

و ينتظروا لأبى عامر الراهب الذى وعدهم أن يأتيهم بجيش من الروم ليخرجوا النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ مِنْ الْمَدِينَةِ، وَ أَمْرَهُمْ أَنْ يَسْتَعِدُّوا لِلْقِتَالِ مَعَهُمْ.

وَ لَمَّا بَنُوا الْمَسْجِدَ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ وَ هُوَ يَتَجَهَّزُ إِلَى تَبُوكَ وَ سَأَلُوهُ أَنْ يَأْتِيَهُ وَ يَصَلِّيَ فِيهِ وَ يَدْعُو لَهُمُ الْبِرْكَهَ فَوَعَدَهُمْ إِلَى الْفَرَاغِ مِنْ أَمْرِ تَبُوكَ وَ الرَّجُوعِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَتَزَلَّتِ الْآيَاتُ.

فَكَانَ مَسْجِدُهُمْ لِمُضَارَّهَ مَسْجِدِ قِبَا، وَ لِلْكَفْرِ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ، وَ لَتَفْرِيقِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَجْتَمِعِينَ فِي قِبَا، وَ لِإِرْصَادِ أَبِي عَامِرِ الرَّاهِبِ الْمَحَارِبِ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ مِنْ قَبْلِ، وَ قَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْهُمْ أَنْهُمْ لِيُحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا مِنْ بِنَاءِ هَذَا الْمَسْجِدِ إِلَّا الْفَعْلَةَ الْحَسَنَى وَ هُوَ التَّسْهِيلُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِتَكْثِيرِ مَعَابِدِ يَعْبُدُ فِيهَا اللَّهُ، وَ شَهِدَ تَعَالَى بِكَذِبِهِمْ بِقَوْلِهِ: «وَ لَيُحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسَيْنَى وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» .

قَوْلُهُ تَعَالَى: لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، بِدَأْ بِنَهْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ عَنْ أَنْ يَقُومَ فِيهِ ثُمَّ ذَكَرَ مَسْجِدَ قِبَا وَ رَجَّحَ الْقِيَامَ فِيهِ بَعْدَ مَا مَدَحَهُ بِقَوْلِهِ: «لَمَسِجِدٍ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ» فَمَدَحَهُ بِحَسَنِ نِيَّةِ مُؤَسِّسِهِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ وَ بَنَى عَلَيْهِ رَجْحَانَ الْقِيَامِ فِيهِ عَلَى الْقِيَامِ فِي الضَّرَارِ.

وَ الْجُمْلَةُ وَ إِنْ لَمْ تَفُتِدْ تَعَيَّنَ الْقِيَامُ فِي مَسْجِدِ قِبَا حَيْثُ عَبَّرَ بِقَوْلِهِ: أَحَقُّ، غَيْرَ أَنْ سَبَقَ النَّهْيُ عَنِ الْقِيَامِ فِي مَسْجِدِ الضَّرَارِ يَوْجِبُ ذَلِكَ، وَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا» تَعْلِيلٌ لِلرَّجْحَانِ السَّابِقِ، وَ قَوْلُهُ: «وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ» مُتَمِّمٌ لِلتَّعْلِيلِ الْمَذْكُورِ، وَ هَذَا هُوَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: «لَمَسْجِدٍ أُسَسَ» الْخ؛ هُوَ مَسْجِدُ قِبَا لَا مَسْجِدَ النَّبِيِّ أَوْ غَيْرِهِ.

وَ مَعْنَى الْآيَةِ: لَا تَقُمْ أَى لِلصَّلَاةِ فِي مَسْجِدِ الضَّرَارِ أَبَدًا، أَقْسَمُ، لِمَسْجِدِ قِبَا الَّذِي هُوَ مَسْجِدُ أُسَسَ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ وَ أُخْرَى أَنْ تَقُومَ فِيهِ لِلصَّلَاةِ وَ ذَلِكَ أَنْ فِيهِ رِجَالًا يُحِبُّونَ التَّطَهُّرَ مِنَ الذُّنُوبِ أَوْ مِنَ الْأَرْجَاسِ وَ الْأَحْدَاثِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ وَ عَلَيْكَ أَنْ تَقُومَ فِيهِمْ.

وقد ظهر بذلك أن قوله: «لَمَسِ جِدُّ أَسَسٍ» الخ؛ بمنزله التعليل لرجحان المسجد على المسجد و قوله: «فِيهِ رِجَالٌ» الخ؛ لإفاده رجحان أهله على أهله، وقوله الآتي: «أَفَمَنْ أَسَسَ بُيَاتَهُ» الخ؛ لبيان الرجحان الثاني.

قوله تعالى: «أَفَمَنْ أَسَسَ بُيَاتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ شفا البئر طرفه، و جرف الوادي جانبه الذي انحفر بالماء أصله و هار الشيء يهار فهو هائر و ربما يقال: هار بالقلب و انهار ينهار انهيارا اى سقط عن لين فقوله: «عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ» استعاره تخيليه شبه فيها حالهم بحال من بنى بيانا على نهايه شفير واد لا ثقه بثباتها و قوامها فتساقطت بما بنى عليه من البنيان و كان فى أصله جهنم فوقع فى ناره، و هذا بخلاف من بنى بيانه على تقوى من الله و رضوان منه اى جرى فى حياته على اتقاء عذاب الله و ابتغاء رضاه.

و ظاهر السياق أن قوله: «أَفَمَنْ أَسَسَ بُيَاتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ» الخ؛ وقوله: «أَمْ مَنْ أَسَسَ بُيَاتَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ» الخ؛ مثلان يمثل بهما ببيان حياه المؤمنين و المنافقين و هو الدين و الطريق الذى يجريان عليه فيها فدين المؤمن هو تقوى الله و ابتغاء رضوانه عن يقين به، و دين المنافق مبنى على التزلزل و الشك.

و لذلك أعقبه الله تعالى و زاد فى بيانه بقوله: «لَا يَزَالُ بُيَاتُهُمْ» يعنى المنافقين «الَّذِي بَنَوْا رَبِيَّهُ» و شكا «فِي قُلُوبِهِمْ» لا يتعدى الى مرحله اليقين «إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ» فتتلاشى الربيه بتلاشيها «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» و لذلك يضع هؤلاء و يرفع اولئك.

[سورة التوبه (٩): الآيات ١١١ الى ١٢٣]

إشارة

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ بِآنَ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَ عِدَاءٌ عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمَتِ اللَّهِ الَّتِي بِئِعْتُمُ بِهِ وَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّهْيُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَ مَا كَانَ إِسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (١١٦) لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَ عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَ لَا يُرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَ لَا نَصَبٌ وَ لَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَا يَطْؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَ لَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَ لَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صِغِيرَةً وَ لَا كَبِيرَةً وَ لَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) وَ مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)

ص: ٨٢٥

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ

ص: ٨٢٧

الْجَنَّةَ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ الْإِشْتِرَاءُ هُوَ قَبُولُ الْعَيْنِ الْمَبِيعَةَ بِنَقْلِ الثَّمَنِ فِي الْمَبَايَعَةِ.

وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يَذُكُرُ فِي آيَاتِهِ وَعَدَهُ الْقَطْعَى لِلَّذِينَ يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ بِالْجَنَّةِ، وَيَذُكُرُ أَنَّهُ ذَكَرَ ذَلِكَ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ كَمَا يَذُكُرُهُ فِي الْقُرْآنِ.

وَقَدْ قَلِبَهُ سَبْحَانَهُ فِي قَالِبِ التَّمْثِيلِ فَصَوَّرَ ذَلِكَ بَيْعًا، وَجَعَلَ نَفْسَهُ مُشْتَرِيًا وَالْمُؤْمِنِينَ بَائِعِينَ، وَأَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ سَلْعَةً وَمَبِيعًا، وَالْجَنَّةَ ثَمَنًا، وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالْقُرْآنَ سِنْدًا لِلْمَبَايَعَةِ، وَهُوَ مِنْ لَطِيفِ التَّمْثِيلِ ثُمَّ يَبْشُرُ الْمُؤْمِنِينَ بِبَيْعِهِمْ ذَلِكَ، وَيَهْنَتْهُمْ بِالْفَوْزِ الْعَظِيمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: **الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ يَصِفُ سَبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَجْمَلِ صِفَاتِهِمْ، وَالصِّفَاتُ مَرْفُوعَةٌ بِالْقَطْعِ أَيِ الْمُؤْمِنُونَ هُمُ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ، الْخ؛ فَهَمُ التَّائِبُونَ لِرُجُوعِهِمْ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ الْعَابِدُونَ لَهُ وَيَعْبُدُونَهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ فَيَحْمَدُونَهُ بِجَمِيلِ الثَّنَاءِ، وَبِأَقْدَامِهِمْ فَيَسِيحُونَ وَيَجُولُونَ مِنْ مَعْبَدٍ مِنَ الْمَعَاهِدِ الدِّينِيَّةِ وَمَسْجِدٍ مِنْ مَسَاجِدِ اللَّهِ إِلَى غَيْرِهِ، وَبِأَيْدَانِهِمْ فَيُرْكَعُونَ لَهُ وَيَسْجُدُونَ لَهُ.

هَذَا شَأْنُهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى حَالِ الْإِنْفِرَادِ وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى حَالِ الْاجْتِمَاعِ فَهَمُ آمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ فِي السُّنَّةِ الدِّينِيَّةِ وَنَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ فِيهَا ثُمَّ هُمْ حَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ لَا يَتَعَدُّونَهُ فِي حَالَتِي انْفِرَادِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ خُلُوتِهِمْ وَجَلُوتِهِمْ، ثُمَّ يَأْمُرُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ يَبْشُرَهُمْ وَقَدْ بَشَّرَهُمْ تَعَالَى نَفْسَهُ فِي آيَاتِهِ السَّابِقَةِ، وَفِيهِ مِنْ كَمَالِ التَّأَكِيدِ مَا لَا يَقْدَرُ قَدْرَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: **إِنَّمَا كَانَ لِنَبِيِّكَ** وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَىٰ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ، مَعْنَى الْآيَةِ ظَاهِرٌ غَيْرُ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَهُ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي تَبَيَّنَ سَبَبُ اسْتِغْفَارِ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ مَعَ كَوْنِهِ كَافِرًا أَنَّهُ تَبَرَّأَ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ تَبَيَّنَ كَوْنَ الْمُشْرِكِينَ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ إِنَّمَا يَرُشِدُ إِلَى عَدَمِ جَوَازِ اسْتِغْفَارِ لِكُونِهِ مَلَازِمًا لِكُونِهِمْ أَعْدَاءَ لِلَّهِ فَإِذَا تَبَيَّنَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَعْدَاءَ لِلَّهِ كَشَفَ ذَلِكَ لَهُمْ عَنْ حُكْمِ ضَرُورِيٍّ وَهُوَ عَدَمُ جَوَازِ اسْتِغْفَارِ لِكُونِهِ لِعَوَا لَا يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ أَثْرٌ وَخُضُوعٌ

الإيمان مانع أن يلغو العبد مع ساحه الكبرياء.

و ذلك أنه تاره يفرض الله تعالى عدوا للعبد مبغضا له لتقصير من ناحيته و سوء من عمله فمن الجائر بالنظر الى سعه رحمه الله أن يستغفر له و يسترحم اذا كان العبد متذللا غير مستكبر، و تاره يفرض العبد عدوا لله محاربا له مستكبرا مستعليا كأرباب الجحود و العناد من المشركين، و العقل الصريح حاكم بأنه لا ينفعه حينئذ شفاعه بمسأله او استغفار إلا أن يتوب و يرجع الى الله و ينسلخ عن الاستكبار و العناد و يتلبس بلباس الذلّه و المسكنه فلا- معنى لسؤال الرحمه و المغفره لمن يأبى عن القبول، و لا للاستعطاء لمن لا- يخضع للأخذ و التناول إلا- الهزؤ بمقام الربوبيه و اللعب بمقام العبوديه و هو غير جائز بضروره من حكم الفطره.

و قوله: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ تعليل لوعد ابراهيم و استغفاره لأبيه بأنه تحمّل جفوه أبيه و وعده وعدا حسنا لكونه حلّيما و استغفر له لكونه أواها، و الأواه هو الكثير التأوه خوفا من ربه و طمعا فيه.

قوله تعالى: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إلى آخر الآيتين؛ الآيتان متصلتان بالآيتين قبلهما المسوقتين للنهي عن الاستغفار للمشركين.

أما الآية الاولى اعنى قوله: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ» الخ؛ ففيه تهديد لمؤمنين بالإضلال بعد الهدايه إن لم يتقوا ما بين الله لهم ان يتقوه و يجتنبوا منه، و هو بحسب ما ينطبق على المورد ان المشركين أعداء لله لا- يجوز الاستغفار لهم و التودد اليهم فعلى المؤمنين ان يتقوا ذلك و إلا فهو الضلال بعد الهدى، و عليك ان تذكر ما قدمناه فى تفسير قوله تعالى: أَلْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَ أَحْسُونِ (المائدة/٣) فى الجزء الخامس من الكتاب و فى تفسير آيات ولايه المشركين و أهل الكتاب الواقعه فى السور المتقدمه.

و الآية بوجه فى معنى قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتَبَرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى

يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (الأنفال ٥٣/٥) وما فى معناه من الآيات، وهى جميعا تهتف بأن من السنّه الإلهيه ان تستمر على العبد نعمته و هدايته حتى يغير هو ما عنده بالكفران و التعدى فيسلب الله منه النعمه و الهدايه.

و أما الآيه الثانيه أعنى قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ» فذيلها بيان لعله الحكم السابق المدلول عليه بالآيه السابقه و هو النهى عن تولى أعداء الله او وجوب التبرى منهم اذ لا ولى و لا نصير حقيقه إلا- الله سبحانه و قد بينه للمؤمنين فعليهم بدلاله من إيمانهم ان يقصروا التولى عليه تعالى او من أذن فى توليهم له من اوليائه و ليس لهم ان تعتدوا ذلك الى تولى أعدائه كائنين من كانوا.

و صدر الآيه بيان لسبب هذا السبب و هو ان الله سبحانه هو الذى يملك كل شىء و بيده الموت و الحياه فإليه تدبير كل امر فهو الولى لا ولى غيره.

و قد ظهر من عموم البيان و العله فى الآيات الأربع ان الحكم عام و هو وجوب التبرى او حرمة التولى لأعداء الله سواء كان التولى بالاستغفار او بغير ذلك و سواء كان العدو مشركا او كافرا او منافقا او غيرهم من اهل البدع الكافرين بآيات الله او المصرين على بعض الكبائر كالمرابى المحارب لله و رسوله.

قوله تعالى: لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ الساعه مقدار من الزمان فساعه العسره الزمان الذى تعسّر فيه الحياه لابتلاء الانسان بما تشق معه العيشه عليه كعطش او جوع او حر شديد او غير ذلك، و الزيغ هو الخروج من الطريق و الميل عن الحق، و إضافه الزيغ الى القلوب و ذكر ساعه العسره و سائر ما يلوح من سياق الكلام دليل على ان المراد بالزيغ الاستنكاف عن امثال امر النبى صلى الله عليه و آله و سلم و الخروج عن طاعته بالتثاقل عن الخروج الى الجهاد او الرجوع الى الأوطان بقطع السير تخرجاً من العسره و المشقه التى واجهتهم فى مسيرهم.

والتخليف-على ما فى المجمع-تأخير الشىء عن مضى فأمأ تأخير الشىء عنك فى المكان فليس بتخليف، و هو من الخلف الذى هو مقابل لوجه الوجه يقال، خلفه أى جعله خلفه فهو مخلف. انتهى و الرحب هو السعه التى تقابل الضيق، و بما رحبت أى برحبها فما مصدرية.

و الآيتان و إن كانت كل واحده منهما ناظره الى جهة دون جهة الاخرى فالاولى تبين التوبه على النبى و المهاجرين و الانصار و الثانية تبين توبه الثلاثة المخلفين مضافا الى أن نوع التوبه على أهل الآيتين مختلف فأهل الآيه الاولى او بعضهم تاب الله عليهم من غير معصيه منهم، و أهل الآيه الثانية تيب عليهم و هم عاصون مذنبون.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ [□] الصّديقين [□] بحسب الأصل مطابقه القول و الخبر للخارج، و يوصف به الانسان اذا طابق خبره الخارج ثم لما عدّ كل من الاعتقاد و العزم-الاراده-قولا توسع فى معنى الصّديق فعّد الانسان صادقا اذا طابق خبره الخارج و صادقا اذا عمل بما اعتقده و صادقا اذا اتى بما يريد و يعزم عليه على الجّد.

و ما فى الآيه من إطلاق الامر بالتقوى و إطلاق الصادقين و إطلاق الأمر بالكون معهم -و المعية هى المصاحبه فى العمل و هو الاتباع-يدل على ان المراد بالصّديق هو معناه الوسيع العام دون الخاص.

فالآيه تأمر المؤمنين بالتقوى و أتباع الصادقين فى اقوالهم و افعالهم و هو غير الأمر بالاتصاف بصفاتهم فانه الكون منهم لا الكون معهم و هو ظاهر.

قوله تعالى: [□] مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ [□] الى آخر الآيتين؛ الرغبه ميل خاص نفسانى و الرغبه فى الشىء الميل اليه لطلب منفعه فيه، و الرغبه عن الشىء الميل عنه بتركه و الباء للسببيه فقوله: «وَ لَا يَزْعُبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ» معناه و ليس لهم ان يشتغلوا بأنفسهم عن نفسه فيتركوه عند مخاطر المغازى و فى تعب الاسفار و دعائها

و يقعدوا للتمتع من لذائذ الحياه، و الظماً العطش، و النصب التعب و المخصمه المجاعه، و الغيظ أشد الغضب، و الموطئ الارض التي توطأ بالاقدام.

و الآيه تسلب حق التخلف عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم من أهل المدينه و الأعراب الذين حولها ثم تذكر ان الله قابل هذا السلب منهم بأنه يكتب لهم في كل مصيبه تصيبهم في الجهاد من جوع و عطش و تعب و في كل أرض يطئونها فيغيظون به الكفار أو نيل نالوه منهم عملاً صالحاً فانهم محسنون و الله لا يضيع أجر المحسنين، و هذا معنى قوله: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ خ.»

ثم ذكر أن نفقاتهم صغيره يسيره كانت أو كبيره خطيره و كذا كل واد قطعوه فانه مكتوب لهم محفوظ لأجلهم ليجزوا به أحسن الجزاء.

و قوله: لِيُجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ غايه متعلقه بقوله: «كُتِبَ لَهُمْ» أى غايه هذه الكتابه هي ان يجزيهم بأحسن أعمالهم، و إنما خص جزاء أحسن الاعمال بالذكر لأن رغبه العامل عاكفه عليه، أو لأن الجزاء بأحسنها يستلزم الجزاء بغيره، أو لأن المراد بأحسن الاعمال الجهاد في سبيل الله لكونه أشقها و قيام الدعوه الدينيه به.

و هاهنا معنى آخر و هو ان جزاء العمل في الحقيقه إنما هو نفس العمل عائدا الى الله فأحسن الجزاء هو أحسن العمل فالجزاء بأحسن الأعمال في معنى الجزاء بأحسن الجزاء و معنى آخر و هو ان يغفر الله سبحانه سيئاتهم المشوبه بأعمالهم الحسنه و يستر جهات نقصها فيكون العمل أحسن بعد ما كان حسناً ثم يجيزهم بأحسن ما كانوا يعملون فافهم ذلك و ربما رجح المعنيان الى معنى واحد.

قوله تعالى: وَ مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْ لَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ السِّيَاقِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: «لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً» لِيَنْفِرُوا وَ لِيُخْرَجُوا إِلَى الْجِهَادِ جَمِيعاً، وَ قَوْلِهِ: «فِرْقَةٍ مِنْهُمْ» الضَّمِيرُ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَنْفِرُوا كَآفَةً، وَ لَازِمُهُ أَنْ يَكُونَ النِّفْرُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم مِنْهُمْ.

فالآيه تنهى مؤمنى سائر البلاد غير مدينه الرسول ان ينفروا الى الجهاد كافه بل يحضضهم ان ينفروا طائفه منهم الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم للتعرفه فى الدين، و ينفروا الى الجهاد غيرهم.

و الانسب بهذا المعنى ان يكون الضمير فى قوله: «رَجَعُوا» للطائفه المتفقهين، و فى قوله «إِلَيْهِمْ» لقومهم و المراد اذا رجع هؤلاء المتفقهون الى قومهم، و يمكن العكس بأن يكون المعنى: اذا رجع قومهم من الجهاد الى هؤلاء الطائفه بعد تفقهمهم و رجوعهم الى اوطانهم.

و معنى الآيه لا يجوز لمؤمنى البلاد ان يخرجوا الى الجهاد جميعا فهلاً نفروا خرج الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم طائفه من كل فرقه من فرق المؤمنين ليتحققوا الفقه و الفهم فى الدين فيعملوا به لانفسهم و لينذروا بنشر معارف الدين و ذكر آثار المخالفه لاصوله و فروعه قومهم اذا رجعت هذه الطائفه اليهم لعلهم يحذرون و يتقون.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَ لِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ امر بالجهاد العام الذى فيه توسع الاسلام حتى يشيع فى الدنيا فان قتال كل طائفه من المؤمنين من يليهم من الكفار لا ينتهى إلا باتساع الاسلام اتساعا باستقرار سلطنته على الدنيا و احاطته بالناس جميعا.

و المراد بقوله: «وَ لِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً» اى الشده فى ذات الله و ليس يعنى بها الخشونه و الفظاظه و سوء الخلق و القساوه و الجفاء فجميع الأصول الدينيه تدم ذلك و تستبجه، و لحن آيات الجهاد ينهى عن كل تعد و اعتداء و جفاء كما مرّ فى سوره البقره.

و فى قوله: «وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» وعد إلهى بالنصر بشرط التقوى، و يؤول معناه الى إرشادهم الى ان يكونوا دائما مراقبين لأنفسهم ذاكرين مقام ربهم منهم، و هو أنه معهم و مولاهم فهم الأعلون إن كانوا يتقون (١).

ص: ٨٣٣

١ - ١). التوبه ١١١-١٢٣: بحث روائى حول: الآيه «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ...»؛ النهى عن الاستغفار للمشركين؛ الصادقين.

إشارة

وَ إِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هِدَاهُ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَ هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ (١٢٤) وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَ مَاتُوا وَ هُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوْ لَا يَزُونَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَ لَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَ إِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧) لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)

بيان:

قوله تعالى: وَ إِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هِدَاهُ إِيْمَانًا الى آخر الآيتين؛ نحو السؤال في قولهم: هل يراكم من أحد؟! يدل على أن سائله لا يخلو من شيء في قلبه فإن هذا السؤال بالطبع سؤال من لا يجد في قلبه أثرا من نزول القرآن و كأنه يذعن ان قلوب غيره كقلبه فيما يتلقاه فيتفحص عن أثر في قلبه نزول القرآن كأن يرى ان النبي صلى الله عليه و آله و سلم يدعى ان القرآن يصلح كل قلب سواء كان مستعدا مهيبا للصلاح ام لا و هو

لا يذعن بذلك و كلما تليت عليه سورة جديدة و لم يجد في قلبه خشوعاً لله و لا ميلاً و حناناً الى الحق زاد شكاً فبعثه ذلك الى ان يسأل سائر من حضر عند النزول عن ذلك حتى يستقر في شكه و يزيد ثباتاً في نفاقه.

و بالجمله السؤال سؤال من لا يخلو قلبه من نفاق.

و قد فصل الله سبحانه امر القلوب و فرق بين قلوب المؤمنين و الذين في قلوبهم مرض فقال: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا» و هم الذين قلوبهم خالية عن النفاق بريئه من المرض و هم على يقين من دينهم بقريته المقابله «فزادتهم» السوره النازله «إيماناً» فإنها بإنارتها أرض القلب بنور هدايتها توجب اشتداد نور الإيمان فيه، و هذه زياده في الكيف، و باشمالها على معارف و حقائق جديده من المعارف القرآنيه و الحقائق الإلهيه، و بسطها على القلب نور الإيمان بها توجب زياده إيمان جديد على سابق الإيمان و هذه زياده في الكميّه و نسبه زياده الإيمان الى السوره من قبيل النسبه الى الأسباب الظاهره و كيف كان فالسوره تزيد المؤمنين إيماناً فتشرح بذلك صدورهم و تتهلل وجوههم فرحاً «وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ» .

«وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» و هم اهل الشك و النفاق «فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ» أى ضلالاً جديداً الى ضلالهم القديم و قد سمي الله سبحانه الضلال رجساً في قوله «وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (الأنعام ١٢٥)» و المقابله الواقعه بين «الَّذِينَ آمَنُوا» و «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» يفيد ان هؤلاء ليس في قلوبهم إيمان صحيح و إنما هو الشك او الجحد و كيف كان فهو الكفر و لذلك قال: «وَمَا تَوْأَمَهُمْ كَافِرُونَ» .

و الآيه تدل على ان السوره من القرآن لا تخلو عن تأثير في قلب من استمعه فإن كان قلباً سليماً زادته إيماناً و استبشاراً و سروراً، و إن كان قلباً مريضاً زادته رجساً و ضلالاً نظير ما يفيدته قوله: «وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا»

قوله تعالى: «وَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ الْآيَةَ؛ الاستفهام للتقرير أى ما لهم لا يتفكرون ولا يعتبرون وهم يرون أنهم يتلون و يمتحنون كل عام مره او مرتين فيعصون الله و لا- يخرجون من عهده المحنه الإلهيه و هم لا- يتوبون و لا يتذكرون و لو تفكروا فى ذلك انتبهوا لواجب امرهم و أيقنوا ان الاستمرار على هذا الشأن ينتهى بهم الى تراكم الرجس على الرجس و الهلاك الدائم و الخسران المؤبد.

قوله تعالى: «وَ إِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ الْآيَةَ؛ وهذه خصيصه أخرى من خصائصهم و هى أنهم عند نزول سورة قرآنيه- و لا محاله هم حاضرون- ينظر بعضهم الى بعض نظر من يقول: هل يراكم من احد، و هذا قول من يسمع حديثا لا يطيقه و يضيق بذلك صدره فيتغير لونه و يظهر القلق و الاضطراب فى وجهه فيخاف ان يلتفت اليه و يظهر السر الذى طواه فى قلبه فينظر الى بعض من كان قد اودعه سره و أوقفه على باطن امره كأنه يستفسره هل يطلع على ما بنا من القلق و الاضطراب احد؟

فقوله: «نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ» أى بعض المنافقين، و هذا من الدليل على أن الضمير فى قوله فى الآيه السابقه: «فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ» أيضا للمنافقين، و قوله: «نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ» أى نظر قلق مضطرب يحذر ظهور امره و انتهاك ستره، و قوله: «هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ» فى مقام التفسير للنظر أى نظر بعضهم الى بعض نظر من يقول: هل يراكم من احد؟ و من للتأكيد و أحد فاعل يراكم.

و قوله: «ثُمَّ انصَبَرُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ظَاهِرَ السِّيَاقِ ان المعنى ثم انصرفوا من عند النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى حال صرف الله قلوبهم عن وعى الآيات الإلهيه و الإيمان بها بسبب انهم قوم لا يفقهون الكلام الحق فالجمله حاله على ما يجوز به بعضهم.

و ربما احتمال كون قوله: «صَيَّرَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» دعاء منه تعالى على المنافقين، و له نظائر في القرآن، و الدعاء منه تعالى على احد إيعاد له بالشر.

قوله تعالى: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ العنت هو الضرر و الهلاك، و ما فى قوله: «مَا عَنِتُّمْ» مصدرية التأويل عنتكم، و المراد بالرسول على ما يشهد سياق الآيتين محمّد صلى الله عليه و آله و سلم، و قد وصفه بأنه من انفسهم و الظاهر ان المراد به انه بشر مثلكم و من نوعكم اذ لا دليل يدل على تخصيص الخطاب بالعرب او بقريش خاصة، و خاصة بالنظر الى وجود رجال من الروم و فارس و الحبشه بين المسلمين فى حال الخطاب.

و المعنى لقد جاءكم ايها الناس رسول من انفسكم، من اوصافه انه يشق عليه ضرركم او هلاككم و أنه حريص عليكم جميعا من مؤمن او غير مؤمن، و أنه رءوف رحيم بالمؤمنين منكم خاصة فيحق عليكم ان تطيعوا امره لأنه رسول لا يصدع إلا عن امر الله، و طاعته طاعه الله، و ان تأنسوا به و تحنوا اليه لأنه من انفسكم، و ان تجيبوا دعوته و تصغوا اليه كما ينصح لكم.

و من هنا يظهر أن القيود المأخوذة فى الكلام من الاوصاف اعنى قوله: «رَسُولٌ» و «مِّنْ أَنْفُسِكُمْ» و «عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ» الخ؛ جميعها مسوقه لتأكيد الندب الى إجابته و قبول دعوته، و يدل عليه قوله فى الآيه التاليه: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلَّ حَسْبِيَ اللَّهُ» .

قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلَّ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ اى و ان تولوا عنكم و أعرضوا عن قبول دعوتك فقل حسبي الله لا إله إلا هو اى هو كافي لا إله إلا هو.

فقوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» فى مقام التعليل لانقطاعه من الأسباب و اعتصامه بربه فهو كاف لا كافي سواه لأنه الله لا إله غيره، و من المحتمل ان تكون كلمه التوحيد جىء بها للتعظيم نظير قوله: وَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ (البقره ١١٦).

وقوله: «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» وفيه معنى الحصر تفسير يفسر به قوله: «حَسْبِيَ اللَّهُ» الدالّ على معنى التوكل بالالتزام، وقد تقدم في بعض الأبحاث السابقة ان معنى التوكل هو اتخاذ العبد ربه وكيلا يحل محل نفسه و يتولى تدبير اموره اى انصرافه عن التسبب بذيل ما يعرفه من الاسباب، و لا محاله هو بعض الأسباب الذى هو علّه ناقصه و الاعتصام بالسبب الحقيقى الذى اليه ينتهى جميع الأسباب. و من هنا يظهر وجه تذييل الكلام بقوله: «وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» اى الملك و السلطان الذى يحكم به على كل شىء و يدبر به كل امر.

و انما قال تعالى: «فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ» الآية؛ و لم يقل: فتوكل على الله لإرشاده الى ان يتوكل على ربه و هو ذاكر هذه الحقائق التى تنور حقيقه معنى التوكل، و ان النظر المصيب هو ان لا يثق الانسان بما يدركه من الأسباب الظاهره التى هى لا- محاله بعض الأسباب بل يأخذ بما يعلمه منها على ما طبعه الله عليه و يثق بربه و يتوكل عليه فى حصول بغيته و غرضه.

و فى الآية من الدلاله على عجب اهتمامه صلى الله عليه و آله و سلم باهتمام الناس ما ليس يخفى فإنه تعالى يأمره بالتوكل على ربه فيما يهتم به من الأمر و هو ما تبينه الآية السابقه من شدة رغبته و حرصه فى اهتمام الناس و فوزهم بالسعادة فافهم ذلك.

الجزء الثالث

اشاره

ص: ١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الْإِنشَاءُ
 بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (۱) أَ كَان لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ
 النَّاسَ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَشَايِرٌ مُبِينٌ (۲) إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
 وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَ فَلَا تَذَكَّرُونَ (۳)
 إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعِندَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ
 شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (۴) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَ الْقَمَرَ نُورًا وَ قَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ
 وَ الْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۵) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ
 وَ الْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (۶) إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَ رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (۷)
 أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (۸) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ
 فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۹) دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۱۰)

قوله تعالى: الرِّتْلُكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ الإِشَارَةُ بِاللَّفْظِ الدَّالِّ عَلَى الْبَعْدِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى ارْتِفَاعِ مَكَانِهِ الْقُرْآنِ وَ عُلُوِّ مَقَامِهِ فَإِنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ النَّازِلِ مِنْ عِنْدِهِ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ.

و الْآيَةُ- وَ مَعْنَاهَا الْعَلَامَةُ- وَ إِنْ كَانَ مِنَ الْجَائِزِ أَنْ يُسَمَّى بِهَا مَا هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْمَعْنَى أَوْ الْأَعْيَانِ الْخَارِجِيَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ: أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (الشعراء ١٩٧) وَ فِي قَوْلِهِ: وَ جَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (الأنبياء ٩١) وَ كَذَا مَا هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْقَوْلِ كَمَا فِي قَوْلِهِ ظَاهِرًا: وَ إِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ (النحل ١٠١) وَ نَحْوِ ذَلِكَ

لكن المراد بالآيات هاهنا هي أجزاء الكلام الإلهي قطعاً فإن الكلام في الوحي النازل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ كَلَامٌ مَتَلُوهُ مَقْرُوبٌ بِأَيِّ مَعْنَى مِنَ الْمَعْنَى صُورُنَا نَزُولِ الْوَحْيِ.

فالمراد بالآيات أجزاء الكتاب الإلهي، و تتعين في الجملة من جهة المقاطع التي تفصل الآيات بعضها من بعض مع إعانه ما من ذوق التفاهم، و لذلك ربما وقع الخلاف في عدد آيات بعض السور بين علماء الإحصاء كالكوفيين و البصريين و غيرهم.

و المراد بالكتاب الحكيم هو الكتاب الذي استقرت فيه الحكمة، و ربما قيل: إن الحكيم من الفعيل بمعنى المفعول و المراد به المحكم غير القابل للانثلام و الفساد، و الكتاب الذي هذا شأنه - و قد وصفه تعالى في الآية التالية بأنه من الوحي - هو القرآن المنزل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

قوله تعالى: **أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛** الاستفهام للإنكار فهو إنكار لتعجبهم من إحياء الله الى رجل منهم ما اشتملت عليه الدعوه القرآنيه.

و قوله: **أَنْ أُنذِرَ النَّاسَ** الخ؛ تفسير لما أوحاه اليه، و يتبين به أن الذي ألقاه اليه من الوحي هو بالنسبه الى عامه الناس إنذار و بالنسبه الى الذين آمنوا منهم خاصه تبشير فهو لا محاله يضر الناس على بعض التقادير و هو تقدير الكفر و العصيان و ينفعهم على تقدير الايمان و الطاعه.

و قد فسّر البشرى الذي أمره أن يبشّر به المؤمنين بقوله: **«أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ»** و المراد بقدم الصدق هو المنزله الصادقه كما يشير اليه قوله: **فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكَ مُقْتَدِرٍ** (القمر ٥٥) فإن الايمان لما استتبع الزلفى و المنزله عند الله كان الصدق فى الايمان يستتبع الصدق فى المنزله التى يستتبعها فلهم منزله الصدق كما أن لهم إيمان الصدق.

فإطلاق القدم على المنزله و المكانه من الكنايه و لما كان إشغال المكان عاده إنما هو بالقدم استعملت القدم فى المكان إن كان فى الماديّات، و فى المكانه و المنزله إن كان فى

المعنويات ثم أضيفت القدم الى الصدق، و هو صدق صاحب القدم فى شأنه أى قدم منسوبه الى صدق صاحبها او قدم هى صادقه لصدق صاحبها فى شأنه.

و هناك معنى آخر و هو أن يراد بالصدق طبيعته كأن للصدق قدما و للكذب قدما و قدم الصدق هى التى تثبت و لا تزول.

و قوله: **قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ** أى النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم، و قرئ **«إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ»** أى القرآن و مآل القراءتين واحد فإنهم إنما كانوا يرمونه صَلَّى الله عليه و آله و سلم بالسحر من جهه القرآن الكريم.

و الجمله كالتعليل لقوله: **«كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا»** يمثل به معنى تعجبهم و هو أنهم لما سمعوا ما تلاه عليهم من القرآن وجدوه كلاما من غير نوع كلامهم خارقا للعادة المألوفه فى سنخ الكلام يأخذ بمجامع القلوب و تتولّه اليه النفوس فقالوا: إنه لسحر مبین، و إن الجائى به لساحر مبین.

قوله تعالى: **إِنَّ رَبُّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ** لما ذكر فى الآيه السابقه عجبهم من نزول الوحي و هو القرآن على النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم و تكذيبهم له برميه بالسحر شرع تعالى فى بيان ما كذبوا به من الجهتين أعنى من جهه أن ما كذبوا به من المعارف المشتمل عليها القرآن حق لا ريب فيه، و من جهه أن القرآن الذى رموه بالسحر كتاب إلهى حق و ليس من السحر الباطل فى شىء.

فقوله: **إِنَّ رَبُّكُمُ اللَّهُ** الخ؛ شروع فى بيان الجهه الاولى و هى أن ما يدعوكم اليه النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم مما يعلمكم القرآن حق لا ريب فيه و يجب عليكم أن تتبعوه.

و المعنى: إن ربكم معاشر الناس هو الله الذى خلق هذا العالم المشهود كله سماواته و أرضه فى ستة أيام ثم استوى على عرش قدرته و قام مقام التدبير الذى اليه ينتهى كل تدبير و إداره فشرع يدبر أمر العالم، و إذا انتهى اليه كل تدبير من دون الاستعانه بمعين او الاعتضاد بأعضاء

لم يكن لشيء من الأشياء أن يتوسط في تدبير أمر من الامور- وهو الشفاعة-إلا- من بعد إذنه تعالى فهو سبحانه هو السبب الأصلي الذى لا سبب بالأصالة دونه، و من دونه من الأسباب أسباب بتسيبه و شفعاء من بعد إذنه.

و إذا كان كذلك كان الله تعالى هو ربكم الذى يدبر امركم لا غيره مما اتخذتموها أربابا من دون الله و شفعاء عنده، و هو المراد بقوله: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» أى هلا انتقلتم انتقالا فكريا الى ما يستنير به أن الله هو ربكم لا رب غيره بالتأمل فى معنى الألوهية و الخلقه و التدبير.

و قد تقدم الكلام فى معنى العرش و الشفاعة و الإذن و غير ذلك فى ذيل قوله: إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ (الأعراف ٥٤) فى الجزء الثامن من الكتاب.

قوله تعالى: إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعِندَ اللَّهِ حَقًّا تذكير بالمعاد بعد التذكير بالبدء، و قوله: وَعِندَ اللَّهِ حَقًّا من قيام المفعول المطلق مقام فعله، و المعنى: وعده الله وعدا حقا.

و الحق هو الخبر الذى له أصل فى الواقع يطابق الخبر فكون وعده تعالى بالمعاد حقا معناه كون الخلقه الإلهية بنحو لا تتم خلقه إلا برجوع الأشياء- و من جملتها الإنسان- اليه تعالى و ذلك كالحجر الهابط من السماء فإنه يعد بحركته السقوط على الأرض فإن حركته سنخ أمر لا يتم إلا بالاقتراب التدريجى من الأرض و السقوط و الاستقرار عليها، و الأشياء على حال كدح الى ربها حتى تلاقيه، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (الانشقاق ٦) فافهم ذلك.

قوله تعالى: إِنَّهُ يَتَّبِعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ الخ؛ تأكيد لقوله: «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً» و تفصيل لإجمال ما يتضمنه من معنى الرجوع و المعاد.

و يمكن أن يكون فى مقام التعليل لما تقدمه من قوله: «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ» الخ؛ أشير به الى حجتين من الحجج المستعمله فى القرآن لإثبات المعاد: أما قوله: «إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» فلأن الجارى من سَنَهُ اللّٰهُ سبحانه أنه يفيض الوجود على ما يخلقه من شىء و يمدّه من رحمته بما تتم له به الخلقه فيوجد و يعيش و يتنعم برحمه منه تعالى ما دام موجودا حتى ينتهى الى اجل معدود.

و ليس انتهاؤه الى أجله المعدود المضروب له فناء منه و بطلانا للرحمة الإلهيه التى كان بها وجوده و بقاؤه و سائر ما يلحق بذلك من حياه و قدره و علم و نحو ذلك بل بقبضه تعالى ما بسطه عليه من الرحمة فإن ما أفاضه اللّٰهُ عليه من عنده هو وجهه تعالى و لن يهلك وجهه.

فنفاد وجود الأشياء و انتهائها الى أجلها ليس فناء منها و بطلانا لها على ما نتوهمه بل رجوعا و عودة منها الى عنده و قد كانت نزلت من عنده، و ما عند اللّٰهُ باق فلم يكن إلا بسطا ثم قبضا فاللّٰهُ سبحانه يبدأ الأشياء بسط الرحمة، و يعيدها اليه بقبضها و هو المعاد الموعود.

و أما قوله: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ الخ؛ فإن الحجه فيه أن العدل و القسط الإلهي -و هو من صفات فعله- يأبى أن يستوى عنده من خضع له بالإيمان به و عمل صالحا و من استكبر عليه و كفر به و بآياته، و الطائفتان لا يحس بينهما بفرق فى الدنيا فإنما السيطره فيها للأسباب الكونيه بحسب ما تنفع و تضر ياذن اللّٰهُ.

فلا يبقى إلا أن يفرّق اللّٰهُ بينهما بعدله بعد إرجاعهما اليه فيجزى المؤمنين المحسنين جزاء حسنا و الكفار المسيئين جزاء سيئا من جهه ما يتلذذون به او يتألمون.

فالحجه معتمده على تمايز الفريقين بالإيمان و العمل الصالح و بالكفر و على قوله:

«بِالْقِسْطِ» هذا، و قوله: «لِيَجْزِيَ» متعلق بقوله: «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً» على ظاهر التقدير.

و يمكن أن يكون قوله: «لِيَجْزِيَ» الخ؛ متعلقا بقوله: «ثُمَّ يُعِيدُهُ» و يكون الكلام مسوقا للتعليل و إشاره الى حجه واحده و هى الحجه الثانيه المذكوره، و الأقرب من جهه اللفظ هو

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَ الْقَمَرَ نُورًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الضياء-على ما قيل-مصدر ضاء يضيء ضوء و ضياء كعاذ يعوذ عودا و عواذا، وربما كان جمع ضوء كسياط جمع سوط، و اللفظ-على ما قيل-على تقدير مضاف و الأصل جعل الشمس ذات ضياء القمر ذا نور.

و كذلك قوله: وَ قَدَرَهُ مَدَازِلَ أَي وَقَدَّرَ الْقَمَرَ ذَا مَنَازِلَ فِي مَسِيرِهِ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ مَنَزَلًا- مِنْ تِلْكَ الْمَنَازِلِ غَيْرَ مَا نَزَلَهُ فِي اللَّيْلِ السَّابِقَةِ فَلَا يَزَالُ يَتْبَاعِدُ مِنَ الشَّمْسِ حَتَّى يُوَافِقَهَا مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرَ، وَ ذَلِكَ فِي شَهْرِ قَمَرِيٍّ كَامِلٍ فَتَرْتَسِمُ بِذَلِكَ الشُّهُورُ وَ تَرْتَسِمُ بِالشُّهُورِ السَّنُونَ، وَ لِذَلِكَ قَالَ «لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابَ» .

و قوله: يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يَرَادَ بِهِ التَّفْصِيلُ بِحَسَبِ التَّكْوِينِ الْخَارِجِيِّ أَوْ بِحَسَبِ الْبَيَانِ اللَّفْظِيِّ، وَ لَعَلَّ الْأَوَّلَ أَقْرَبُ إِلَى سِيَاقِ الْآيَةِ.

قوله تعالى: إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: الْاِخْتِلَافُ ذَهَابُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الشَّيْئَيْنِ فِي جِهَةٍ غَيْرِ جِهَةِ الْآخَرِ فَاِخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ ذَهَابُ أَحَدِهِمَا فِي جِهَةِ الضِّيَاءِ وَ الْآخَرِ فِي جِهَةِ الظُّلَامِ، وَ انْتَهَى. وَ الظَّاهِرُ أَنَّهُ مَأْخُودٌ مِنَ الْخَلْفِ، وَ الْأَصْلُ فِي مَعْنَاهُ أَخَذَ أَحَدَ الشَّيْئَيْنِ الْآخَرَ فِي جِهَةٍ خَلْفَهُ ثُمَّ اتَّسَعَ فَاسْتَعْمَلَ فِي كُلِّ تَغَايِيرِ كَاتِنٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ.

يقال: اختلفه أي جعله خلفه، و اختلف الناس في كذا ضد اتفقوا فيه، و اختلف الناس إليه أي ترددوا بالدخول عليه و الخروج من عنده فجعل بعضهم بعضا خلفه.

و المراد باختلاف الليل و النهار إما ورود كل منهما على الأرض خلف الآخر و هو توالي الليل و النهار الراسم للأسابيع و الشهور و السنين، و إما اختلاف كل من الليل و النهار في أغلب بقاع الأرض المسكونة فالليل و النهار يتساويان في الاعتدال الربيعي ثم يأخذ النهار في

الزيادة فى المناطق الشماليه فيزيد النهار كل يوم على النهار السابق عليه حتى يبلغ اول الصيف فيأخذ فى النقيصه حتى يبلغ الاعتدال الخريفى و هو اول الخريف فيتساويان.

ثم يأخذ الليل فى الزيادة على النهار الى اول الشتاء و هو منتهى طول الليالى ثم يعود راجعا الى التساوى حتى ينتهى الى الاعتدال الربيعى و هو اول الربيع هذا فى المناطق الشماليه و الأمر فى المناطق الجنوبيه بالخلاف منه فكلما زاد النهار طولاً- فى احد الجانبين زاد الليل طولاً فى الجانب الآخر بنفس النسبه.

و الاختلاف الأول بالليل و النهار هو الذى يدبّر أمر اهل الارض بتسليط حراره الأشعه ثم بسط برد الظلمه و نشر الرياح و بعث الناس للحركه المعاشيه ثم جمعهم للسكن و الراحة، قال تعالى: **وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُباتًا وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَ جَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا** (النبا ١١٠).

و الاختلاف الثانى هو الذى يرسم الفصول الاربعه السنويه التى يدبّر بها أمر الأقوات و الأرزاق كما قال تعالى: **وَ قَدَرَفِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ** (حم السجده ١٠).

قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَ رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنَّنُوا بِهَا إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ**. شروع فى بيان ما يتفرع على الدعوه السابقه المذكوره بقوله: **«ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ»** من حيث عاقبه الأمر فى استجابته و ردّه و طاعته و معصيته.

فبدأ سبحانه بالكافرين بهذا الأمر فقال **«إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَ رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ»** فوصفهم أولاً بعدم رجائهم لقاءه، و هو الرجوع الى الله بالبعث يوم القيامه، و قد تقدم الكلام فى وجه تسميته بلقاء الله فى مواضع من هذا الكتاب و منها ما فى تفسير آيه الرؤيه من سوره الأعراف فهؤلاء هم المنكرون ليوم الجزاء، و إنكاره يسقط الحساب و الجزاء فالوعد و الوعيد و الأمر و النهى، و بسقوطها يبطل الوحي و النبوه و ما يتفرع عليه من الدين السماوى.

و يانكار البعث و المعاد ينعطف هم الانسان على الحياه الدنيا فان الانسان و كذا كل موجود ذى حياه له هم فطرى ضرورى فى بقائه و طلب لسعاده تلك الحياه فان كان مؤمنا بحياه دائمه تسع الحياه الدنيويه و الاخرويّه معا فهو، و إن لم يدعن إلا بهذه الحياه المحدوده الدنيويه علقت همته الفطريه بها، و رضى بها و سكن بسببها عن طلب الآخره، و هو المراد بقوله: «و رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنُّوا بِهَا» .

و من هنا يظهر أن الوصف الثانى أعنى قوله: «و رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنُّوا بِهَا» من لوازم القول الأول أعنى قوله: «لَا يَزُجُونَ لِقَاءَنَا» و هو بمنزله المفسر بالنسبه اليه، و أن الباء فى قوله: «اطْمَأَنُّوا بِهَا» للسببيه اى سكنوا بسببها عن طلب اللقاء و هو الآخر.

و قوله: «و الَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ» فى محل التفسير لما تقدمه من الوصف لمكان ما بينهما من التلازم فان نسيان الآخره و ذكر الدنيا لا ينفك عن الغفله عن آيات الله.

و قوله: «أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» لبيان لجزائهم بالنار الخالده قبل أعمالهم التى كسبوها.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ» الى آخر الآيه، هذا بيان لعاقبه أمر المؤمنين و ما يشبههم الله على استجابتهم لدعوته و طاعتهم لأمره.

ذكر سبحانه أنه يهديهم بإيمانهم، و إما يهديهم الى ربهم لأن الكلام فى عاقبه أمر من يرجو لقاء الله، و قد قال تعالى: «و يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَزَابَ» (الرعد ٢٧). فإنما يهدى الإيمان بإذن الله الى الله سبحانه و كلما اهتدى المؤمنون الى الحق او الى الصراط المستقيم او غير ذلك مما يشتمل عليه كلامه فإنما هى وسائل و مدارج تنتهى بالآخره اليه تعالى، قال تعالى: «وَأَنَّ إِلِيَّ رُبُّكَ الْمُتَهَيِّئِ» (النجم ٤٢).

و قد وصف المؤمنين بالإيمان و الأعمال الصالحه ثم نسب هدايتهم اليه الى الإيمان وحده فإن

الإيمان هو الذى يصعد بالعبد الى مقام القرب، وليس للعمل الصالح إلا اعانه الإيمان و إسعاده فى عمله كما قال تعالى: يَزِفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (المجادله ١١) حيث ذكر للرفع الإيمان و العلم و سكت عن العمل الصالح، و أوضحه منه فى الدلاله قوله تعالى: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ» (فاطر ١٠).

هذا فى الهدايه التى هى شأن الإيمان، و أما نعم الجنه فإن للعمل الصالح دخلا فيها كما أن للعمل الطالح دخلا فى أنواع العذاب و قد ذكر تعالى فى المؤمنين قوله: «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ» كما ذكر فى الكافرين قوله: «أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» .

و ليتنبه الباحث المتدبر أنه تعالى ذكر لهؤلاء المهتدين بإيمانهم من مسكن القرب جنات النعيم، و من نعيمها الأنهار التى تجرى من تحتهم فيها، و قد تقدّم فى تفسير قوله تعالى:

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ (الحمد ٧) و قوله: فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْآيَةَ (النساء ٦٩) أن النعيم بحقيقه معناه فى القرآن الكريم هو الولايه الإلهيه، و قد خص الله أولياءه المقربين بنوع من شراب الجنه اعتنى به فى حقهم كما قال: إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (الإنسان ٦)، و قال أيضا إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ -الى أن قال- يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ -الى أن قال- عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (المطففين ٢٨)، و عليك بالتدبر فى الآيات و تطبيق بعضها على بعض حتى ينجلى لك بعض ما أودعه الله سبحانه فى كلامه من الأسرار اللطيفه.

قوله تعالى: دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أول ما يكرم به الله سبحانه أولياءه -و هم الذين ليس فى قلوبهم إلا الله و لا مدبر لأمرهم غيره- أنه يطهر قلوبهم عن محبه غيره فلا يحبون إلا الله فلا يتعلقون بشىء إلا الله و فى الله سبحانه فهم ينزهونه عن كل شريك يجذب قلوبهم الى نفسه عن ذكر الله سبحانه، و عن أى شاغل يشغلهم عن ربهم.

و هذا تنزيه منهم لربهم عن كل ما لا يليق بساحه قدسه من شريك فى الاسم او فى المعنى او نقص او عدم، و تسييح منهم له لا فى القول و اللفظ فقط بل قولاً و فعلاً و لساناً و جناحاً، و ما دون ذلك فإن له شوباً من الشرك، و قد قال تعالى: **وَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ** (يوسف ١٠٦).

و هؤلاء الذين طهر الله قلوبهم عن قذاره حب غيره الشاغله عن ذكره و ملأها بحبه فلا يريدون إلا إياه و هو سبحانه الخير الذى لا شر معه قال: **وَ اللَّهُ خَيْرٌ** (طه ٧٣).

فلا يواجهون بقلوبهم التى هى ملأى بالخير و السلام أحداً إلا بخير و سلام اللهم إلا أن يكون الذى واجهوه بقلوبهم هو الذى يبدل الخير و السلام شراً و ضراً كما أن القرآن شفاء لمن استشفى به لكنه لا يزيد الظالمين إلا خساراً.

[سوره يونس (١٠): الآيات ١١ الى ١٤]

اشاره

وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلدَّاسِ الشَّرِّ إِشْرَاقًا لَغَدَا لِقَاءُ اللَّهِ بِالخَيْرِ لِقْضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَ إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)

قوله تعالى: وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ الْخَيْرِ؛ تعجيل الشيء الإتيان به بسرعته و عجله، و الاستعجال بالشيء طلب حصوله بسرعته و عجله، و العمه شدة الحيره.

و معنى الآية: و لو يعجل الله للناس الشر و هو العذاب كما يستعجلون بالخير كالنعمه لأنزل عليهم العذاب بقضاء أجلهم لكنه تعالى لا يعجل لهم الشر فيذر هؤلاء المنكرين للمعاد المارقين عن ربقة الدين يتحIRON في طغيانهم أشد التحير.

قوله تعالى: وَ إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ. الضر بالضم ما يمس الانسان من الضرر في نفسه، و قوله: «دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا» أى دعانا منبطحا لجنبه، الخ؛ و الظاهر أن التردد للتعميم أى دعانا على أى حال من أحواله فرض من انبطاح او قعود او قيام مصرًا على دعائه لا- ينسانا فى حال، و يمكن أن يكون «لِجَنبِهِ» الخ؛ أحوالا- ثلاثه من الانسان لا من فاعل دعانا و العامل فيه «مَسَّ» و المعنى اذا مس الانسان الضر و هو منبطح او قاعد او قائم دعانا فى تلك الحال و هذا معنى ما ورد فى بعض المرسلات «دَعَانَا لِجَنبِهِ» العليل الذى لا يقدر أن يجلس «أَوْ قَاعِدًا» الذى لا يقدر أن يقوم «أَوْ قَائِمًا» الصحيح.

و قوله: مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كناية عن النسيان و الغفله عما كان لا يكاد ينساه.

و المعنى: و إذا مس الانسان الضر لم يزل يدعونا لكشف ضره و أصرّ على الدعاء فإذا كشفنا عنه ضره الذى مسه نسينا و ترك ذكرنا و انجذبت نفسه الى ما كان يتمتع به من أعماله كذلك زَيْن للمسرفين المفرطين فى التمتع بالزخارف الدنيويه أعمالهم فأورثهم نسيان جانب

الربوبيه و الاعراض عن ذكر الله تعالى.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قد ظهر معناه مما تقدم، و في الآيه التفات في قوله: «مِنْ قَبْلِكُمْ» من الغيبه الى الخطاب، و كأن النكته فيه التشديد في الإنذار لأن الإنذار و التخويف بالمشافهه أوقع أثرا و أبلغ من غيره.

ثم في قوله: كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ التفات آخر بتوجيه الخطاب الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، و النكته فيه أنه إخبار عن السنه الإلهيه في أخذ المجرمين، و النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ هو الأهل لفهمه و الإذعان بصدقه دونهم و لو أذعنوا بصدقه لآمنوا به و لم يكفروا، و هذا بخلاف قوله:

«وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ...»

وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ» فإنه خبر تاريخي لا ضير في تصديقهم به.

قوله تعالى: ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ معناه ظاهر، و فيه بيان أن سنه الامتحان و الابتلاء عامه جاريه.

[سوره يونس (١٠): الآيات ١٥ الى ٢٥]

إشارة

وَ إِذَا تُبْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّا بُرْءَانِ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنْ أَحَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَ لَا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هُوَ لَا يَشْفَعُاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَتَّبِعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَ مَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَيْتُ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) وَ يَقُولُونَ لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠) وَ إِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرِعُ مَكْرًا إِنْ رُسُلُنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَ جَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بِمَا أُيِّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَيَّ أَنْفُسَكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَ أَزْيَبَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥)

قوله تعالى: وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ هؤلء المذكورون فى الآيه كانوا قوما و ثنين يقادسون الأصنام و يعبدونها، و من سننهم التوغل فى المظالم و الآثام و اقرار المعاصى، و القرآن ينهى عن ذلك كله، و يدعو الى توحيد الله تعالى و رفض الشركاء، و عباده الله مع التنزه عن الظلم و الفسق و اتباع الشهوات.

و من المعلوم أن كتابا هذا شأنه اذا تليت آياته على قوم ذلك شأنهم لم يكن ليوافق ما تهواه أنفسهم بما يشتمل عليه من الدعوه المخالفه فلو قالوا: انت بقرآن غير هذا دلّ على انهم يقترحون قرآنا لا يشتمل على ما يشتمل عليه هذا القرآن من الدعوه الى رفض الشركاء و اتقاء الفحشاء و المنكر، و إن قالوا: بدّل القرآن كان مرادهم تبديل ما يخالف آراءهم من آياته الى ما يوافقها حتى يقع منهم موقع القبول، و ذلك كالشاعر ينشد من شعره او القاصّ يقصّ القصه فلا تستحسنه طباع السامعين فيقولون: انت بغيره او بدّله، و فى ذلك تنزل القرآن أنزل مراتب الكلام و هو لهو الحديث الذى إنما يلقي لتلهو به نفس سامعه و تنشط به عواطفه ثم

لا يستطيعه السامع فيقول: ائت بغير هذا أو بدله.

فبذلك يظهر أن قولهم إذا تليت عليهم آيات القرآن: «أنت بقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا» يريدون به قرآنا لا- يشتمل من المعارف على ما يتضمنه هذا القرآن بأن يترك هذا و يؤتى بذاك، وقولهم:

«أَوْ يَدِّلُهُ» أن يغير ما فيه من المعارف المخالفه لأهوائهم الى معان يوافقها مع حفظ أصله فهذا هو الفرق بين الإتيان بغيره و بين تبديله.

و في قوله: وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا نَكُفَّهِمُ الْغَيْبِ، والظاهر أن النكته فيه أن يكون توطئه الى إلقاء الأمر الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بقوله: «قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ» الخ؛ فان ذلك لا يتم إلا بصرف الخطاب عنهم و توجيهه اليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ.

قوله تعالى: قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ الى آخر الآيه التلقاء، بكسر التاء مصدر كالتلقاء نظير التبيان و البيان و يستعمل ظرفا.

و الله سبحانه على ما أجاب عن مقترحهم بقولهم: «أنت بقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ يَدِّلُهُ» في أثناء كلامه بقوله: «بَيِّنَاتٍ» فإن الآيات إذا كانت بَيِّنَاتٍ ظاهره الاستناد الى الله سبحانه كشفت كسفا قطعيا عما يريد الله سبحانه منهم من رفض الأصنام و الاجتناب من كل ما لا يرتضيه بما أوحى الى رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ من تفصيل دينه؛ ردّ سؤالهم اليهم تفصيلا بتلقين نبيّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ الحجه في ذلك بقوله: «قُلْ مَا يَكُونُ لِي» الى آخر الآيات الثلاث.

فقوله: قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ الخ؛ جواب عن قولهم: أَوْ يَدِّلُهُ و معناه: قل لا أملكك- و ليس لي بحق- أن أبده من عند نفسي لأنه ليس بكلامي و إنما هو وحي إلهي أمرني ربي أن أتبعه و لا- أتبع غيره، و إنما لا أخالف أمر ربي لأنني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم و هو يوم لقائه.

فقوله: قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ نفى الحق و سلب الخيره، وقوله: إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا

مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ فِي مَقَامِ التَّعْلِيلِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قَوْلِهِ: مَا يَكُونُ لِي وَقَوْلِهِ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي الْخ، فِي مَقَامِ التَّعْلِيلِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قَوْلِهِ: إِنَّ أَتَّبِعُ الْخ؛ بِمَا يُلَوِّحُ مِنْهُ أَنَّهُ مِمَّا تَعَلَّقَ بِهِ الْأَمْرَ الْإِلَهِيَّ.

و فِي قَوْلِهِ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ نَوْعَ مُحَاذَاهُ لَمَّا فِي صَدْرِ الْكَلَامِ مِنْ قَوْلِهِ: قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتَ بِقُرْآنِ الْخ؛ فَإِنَّ الْإِتْيَانَ بِالْوَصْفِ لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ الْبَاعْثَ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا مَا قَالُوا إِنَّمَا هُوَ إِنْكَارُهُمْ لِلْمَعَادِ وَ عَدَمَ رَجَائِهِمْ لِقَاءَ اللَّهِ فَقَابَلَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بِأَمْرٍ مِنْ رَبِّهِ بِقَوْلِهِ: «إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» فَيُؤَوِّلُ الْمَعْنَى إِلَى أَنَّكُمْ تَسْأَلُونَ مَا تَسْأَلُونَ لِأَنَّكُمْ لَا تَرْجُونَ لِقَاءَ اللَّهِ لَكِنِّي لَا أَشْكُ فِيهِ فَلَا يُمْكِنُنِي إِجَابَتُكُمْ إِلَيْهِ لِأَنِّي أَخَافُ عَذَابَ يَوْمِ الْلِقَاءِ، وَ هُوَ يَوْمٌ عَظِيمٌ.

وَ فِي تَبْدِيلِ يَوْمِ الْلِقَاءِ بِيَوْمٍ عَظِيمٍ فَائِدَةُ الْإِنْدَارِ مُضَافًا إِلَى أَنَّ الْعَذَابَ لَا يَنَاسِبُ الْلِقَاءَ تِلْكَ الْمُنَاسِبَةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لَا أَذْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ أَدْرَاكُمْ بِهِ أَيَّ أَعْلَمَكُمْ اللَّهُ بِهِ، وَ الْعَمْرُ بِضَمَّتَيْنِ أَوْ بِالْفَتْحِ فَالْمَسْكُونُ هُوَ الْبَقَاءُ، وَ إِذَا اسْتَعْمَلَ فِي الْقِسْمِ كَقَوْلِهِمْ: لِعَمْرِي وَ لِعَمْرِكَ تَعِينِ الْفَتْحَ.

وَ هَذِهِ الْآيَةُ تَتَضَمَّنُ رَدَّ الشَّقِّ الْأَوَّلِ مِنْ سؤَالِهِمْ وَ هُوَ قَوْلُهُمْ: «أَنتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا» وَ مَعْنَاهَا عَلَى مَا يَسَاعِدُ عَلَيْهِ السِّيَاقُ: أَنَّ الْأَمْرَ فِيهِ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ لَا- إِلَى مَشِيئَتِي فَإِنَّمَا أَنَا رَسُولٌ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَنْزِلَ قُرْآنًا غَيْرَ هَذَا وَ لَمْ يَشَأْ هَذَا الْقُرْآنَ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَإِنِّي مَكْتَثٌ فِيكُمْ عَمْرًا مِنْ قَبْلِ نَزُولِ الْقُرْآنِ وَ عَشْتُ بَيْنَكُمْ وَ عَاشَرْتُكُمْ وَ عَاشَرْتُمُونِي وَ خَالَطْتُمْكُمْ وَ خَالَطْتُمُونِي فَوَجَدْتُمُونِي لَا خَبَرَ عِنْدِي مِنْ وَحْيِ الْقُرْآنِ، وَ لَوْ كَانَ ذَلِكَ إِلَيَّ وَ بِيَدِي لَبَادَرْتُ إِلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ، وَ بَدَتْ مِنْ ذَلِكَ آثَارٌ وَ لَاحَتْ لَوَائِحُهُ، فَلَيْسَ إِلَيَّ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، وَ إِنَّمَا الْأَمْرُ فِي ذَلِكَ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ وَ قَدْ تَعَلَّقْتُ مَشِيئَتَهُ بِهَذَا الْقُرْآنِ لَا غَيْرَهُ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ؟

قوله تعالى: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ استفهام إنكارى أى لا أحد أظلم و أشهد إجراما من هذين الفريقين:

المفترى على الله كذبا، و المكذب بآياته فان الظلم يعظم بعظمه من يتعلق به و اذا اختص بجنب الله كان أشد الظلم.

و ظاهر سياق الاحتجاج فى الآيتين أن هذه الآيه من تمامها و المعنى: لا أجيبكم الى ما اقترحتم على من الإتيان بقرآن غير هذا او تبديله فإن ذلك ليس إلى و لا لى حقّ فيه، و لو أجبتكم اليه لكنت أظلم الناس و أشدهم إجراما و لا يفلح المجرمون فإنى لو بدلت القرآن و غيرت بعض مواضعه مما لا ترتضونه لكنت مفتريا على الله كذبا و لا أظلم منه، و لو تركت هذا القرآن و جئتكم بغيره مما ترتضونه لكنت مكذبا لآيات الله، و لا أظلم منه.

و ربما احتمل كون الاستفهام الإنكارى بشقيّه تعريضا للمشركين أى أنتم أظلم الناس بإثباتكم لله شركاء و هو افتراء الكذب على الله و بتكذيبكم بنبوتى و الآيات النازله على و هو تكذيب بآيات الله و لا يفلح المجرمون.

قوله تعالى: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَ لَا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ، الكلام: موجه نحو عبده الأصنام من المشركين و إن كان ربما شمل غيرهم كأهل الكتاب بحسب سعه معناه، و ذلك لمكان «مَا» و كون السوره مكّيه من أوائل ما نزل على النبى صلّى الله عليه و آله و سلم من القرآن.

و قد كانت عبده الأصنام و يعبدون الأصنام ليتقربوا بعبادتها الى أربابها و بأربابها الى رب الأرباب و هو الله سبحانه، و يقولون: إننا على ما بنا من ألوات البشريه الماديه و قذارات الذنوب و الآثام لا سبيل لنا الى رب الأرباب لطهاره ساحته و قدسها و لا نسبه بيننا و بينه.

فمن الواجب أن نتقرب اليه بأحب خلائقه اليه و هم أرباب الأصنام الذين فوّض الله اليهم أمر تدبير خلقه، و نتقرب اليهم بأصنامهم و تماثيلهم و إنما نعبد الأصنام لتكون شفعا لنا عند

اللّه لتجلب الينا الخير و تدفع عنا الشر فتقع العباده للأصنام حقيقه،و الشفاعه لأربابها و ربما نسبت إليها.

و قد وضع فى الكلام قوله: مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ موضع الأصنام للتلويح الى موضع خطئهم فى مزعتهم،و هو أن هذا السعى إنما كان ينجح منهم لو كانت هذه الأصنام ضارّه نافعه فى الامور و كانت ذوات شعور بالعباده و التقرب حتى ترضى عن عبادها بعبادتهم لها فتشفع او يشفع اربابها لهم عند اللّٰه إن كان اللّٰه يرتضى شفاعتهم و هؤلاء اجسام ميتة لا تشعر بشيء و لا تضرّ و لا تنفع شيئاً.

و قد أمر اللّٰه سبحانه نبيه صلّى اللّٰه عليه و آله و سلم أن يحتج على بطلان دعواهم الشفاعه-مضافا الى ما يلوح اليه قوله: لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ -بقوله: قُلْ أَتُتَّبِعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ و محصّيه أن اللّٰه سبحانه لا علم له بهذه الشفاعه فى شىء من السماوات و الأرض فدعواكم هذه إخبار منكم إياه بما لا يعلم،و هو من أقبح الافتراء و أشنع المكابره،و كيف يكون فى الوجود شىء لا يعلم به اللّٰه و هو يعلم ما فى السماوات و الأرض؟

فالاستفهام إنكارى،و نفى العلم بوجود الشفاعه كناية عن نفى وجودها،و لعل اختيار هذا التعبير لكون الشفاعه مما يتقوم بالعلم ذاته فإن الشفاعه إنما تتحقق اذا كان المشفوع عنده عالما بوجود الشافع و شفاعته فإذا فرض أنه لا يعلم بالشفعاء فكيف تتحقق الشفاعه عنده و هو لا يعلم.

و قوله: سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ كلمه تنزيه،و هى من كلام اللّٰه و ليست مقوله قول النّبى صلّى اللّٰه عليه و آله و سلم فان ظرف المشركين بالنسبه اليه هو الخطاب دون الغيبه فلو كان من كلام النّبى صلّى اللّٰه عليه و آله و سلم لقليل:عما تشركون بالخطاب.

قوله تعالى: وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا قَدْ تقدم فى تفسير قوله تعالى: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ

بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مِمَّا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مِمَّا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ (البقره ٢١٣) أَنْ
الآيه تكشف عن نوعين من الاختلاف بين الناس.

أحدهما:الاختلاف من حيث المعاش و هو الذى يرجع الى الدعاوى و ينقسم به الناس الى مدّع و مدّعى عليه و ظالم و مظلوم و
متعدّ و متعدّى عليه و أخذ بحقه و ضائع حقه،و هذا هو الذى رفعه الله سبحانه بوضع الدين و بعث النبيين و إنزال الكتاب معهم
ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه،و يعلمهم معارف الدين و يواجههم بالإنذار و التبشير.

و ثانيهما:الاختلاف فى نفس الدين و ما تضمنه الكتاب الإلهى من المعارف الحقه من الاصول و الفروع،و قد صرح القرآن فى
مواضع من آياته أن هذا النوع من الاختلاف ينتهى الى علماء الكتاب بغيا بينهم،و ليس مما يقتضيه طباع الإنسان كالقسم
الأول،و بذلك ينقسم الطريق الى طريقى الهدايه و الضلال فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق،و قد ذكر سبحانه فى
مواضع من كلامه بعد ذكر هذا القسم من الاختلاف أنه لو لا قضاء من الله سبق لحكم بينهم فيما اختلفوا فيه و لكن يؤخرهم الى
أجل،قال تعالى وَ مَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِّتَ بَيْنَهُمْ
(الشورى ١٤)الى غير ذلك من الآيات.

و سياق الآيه السابقه أعنى قوله تعالى: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَ لَا يَنْفَعُهُمْ الخ؛لا يناسب من الاختلافين المذكورين
إلا الاختلاف الثانى و هو الاختلاف فى نفس الدين لأنها تذكر ركوب الناس طريق الضلال بعبادتهم ما لا يضرهم و لا ينفعهم و
اتخاذهم شفعاء عند الله،و مقتضى ذلك أن يكون المراد من كون الناس سابقا أمه واحده كونهم على دين واحد و هو دين
التوحيد ثم اختلفوا فتفرقوا فريقين موحد و مشرك.

فذكر الله فيها أن اختلافهم كان يقضى أن يحكم الله بينهم باظهار الحق على الباطل و فيه هلاك المبطلين و إنجاء المحققين
لكن السابق من الكلمه الإلهيه منعت من القضاء بينهم،و الكلمه

هى قوله تعالى لما أهبط الإنسان الى الدنيا: وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرًّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (البقره ٣٦).

قوله تعالى: وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَبِهُوا إِنِّي مَعََكُمْ مِنَ الْمُنْتَضِرِينَ الْآيَةَ؛ كقوله قبلها: «وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» وقوله قبله: «وَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا» تعد أمورا من مظالم المشركين فى أقوالهم و أعمالهم ثم ترد عليها بحجج تلقنها النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم ليقيمها عليهم كما مرّ فى أول الآيات فقوله: «وَ يَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ الْخُبْرُ؛ عطف على قول فى أول الآيات «وَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا».

و فيها مع ذلك عود بعد عود الى إنكارهم أمر القرآن فإن مرادهم بقولهم: «لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ» و إن كان طلب آيه أخرى غير القرآن لكنهم إنما قالوه إزراء و تحقيرا لأمر القرآن و استخفافا به لعدم عدّه آيه إلهيه و الدليل عليه قوله تعالى: «فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ» و لم يقل «قل» كما قال فى سائر الآيات كأنه يقول: و يطلبون منك آيه أخرى غير مكتفين بالقرآن و لا راضين به فإذا لم يكتفوا به آيه فقل: إنما الآيات من الغيب المختص بالله و ليست بيدى فانتظروا إني معكم من المنتظرين.

فهذا هو المستفاد من الآيه و فيها دلالة على أن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم كان ينتظر آيه فاصله بين الحق و الباطل غير القرآن قاضيه بينه و بين أمته، و سيجىء الوعد الصريح منه بهذه الآيه-التي يأمر بانتظارها ها هنا- فى قوله: «وَ إِذَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ» (يونس ٤٦) الى تمام عده آيات.

قوله تعالى: «وَ إِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا» الى آخر الآيه؛ مضمون الآيه و إن كان من المعانى العامه الجاربه فى أغلب الناس فى اكثر الأوقات فإن الفرد من الانسان لا يخلو عن أن يمسه سراء بعد ضراء بل قلما يتفق أن لا يتكرر فى حقه ذلك لكن الآيه من جهه السياق المتقدم كأنها مسوقه للتعريض

للمشركين و مكرهم فى آيات الله، و الدليل عليه قوله: «قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا» فقد كان النظر معطوفا على مكر طائفه خاصه و هم المخاطبون بهذه الآيات حيث كانوا يمكرون بآيات السراء و الضراء بعد ظهورها، و من مكرهم مكرهم فى القرآن الذى هو آيه إلهيه و رحمه أذاقهم الله إياها بعد ضراء الجهاله العالقه بهم و شمول ضنك العيش و الذله و التفرقه و تباعد القلوب و بغضائها لهم و هم يمكرون به فتاره يقولون «أنتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أوِ بدلُهُ» و تاره يقولون «لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ».

فالآيه تبين لهم أن هذا كله مكر يمكرونه فى آيات الله، و تبين لهم أن المكر بآيات الله لا يعقب إلا السوء من غير أن ينفعهم شيئا فإن الله أسرع مكرًا يأخذهم مكره قبل أن يأخذ مكرهم آياته فإن مكرهم بآيات الله عين مكر الله بهم.

فمعنى الآيه «وَ إِذَا أذَقْنَا النَّاسَ» عبر عن الإصابه بالإذاقه للأيام الى التذاذهم بالرحمه و عنايه بالقله فإن الذوق يستعمل فى القليل من التغذى «رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ» و التعبير بالرحمه فى موضع السراء للإشاره الى أنها من الرحمه الإلهيه من غير أن يستوجبوا ذلك فكان من الواجب عليهم أن يقوموا بحقه، و يخضعوا لما تدعو اليه الآيه و هو توحيد ربهم و شكر نعمته لكنهم يفاجئون بغير ذلك «إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا» كتوجيه الحوادث بما تبطل به دلالة الآيات كقولهم: «قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَ السَّرَاءُ» و الاعتذار بما لا يرتضيه الله كقولهم:

«لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ» و قولهم: «إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا».

فأمر الله نبيه صلى الله عليه و آله و سلم ان يجيبهم بقوله: «قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا» ثم علله بقوله: «إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ» فلنا عليكم شهداء رقباء أرسلناهم اليكم يكتبون اعمالكم و يحفظونها، و بمجرد ما عملتم عملا حفظ عليكم و تعين جزاؤه لكم قبل ان يؤثر مكركم اثره او لا يؤثر كما فسروه.

و هنا شيء و هو أن الظاهر من قوله تعالى: «هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا

نَسْتَسْخِجُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (الجاثية ٢٩) على ما سيحىء من البيان فى تفسير الآيه ان شاء الله تعالى أن معنى كتابه الملائكه اعمال العباد هو اخراجهم الاعمال من كمون الاستعدادات الى مرحله الفعلية الخارجيه و رسم نفس الاعمال فى صحيفه الكون و بذلك تنجلي عليه كتابه الرسل لأعمالهم لكونه تعالى اسرع مكر اتمام الانجلاء فان حقيقه المعنى على هذا: أننا نحن نخرج اعمالكم التى تمكرون بها من داخل ذواتكم و نضعها فى الخارج فكيف يخفى علينا كونهم تريدون بنا المكر بذلك؟ و هل المكر إلا صرف الغير عما يتصدده بحيله و ستر عليه بل ذاك الذى تزعمونه مكرنا بنا مكرنا بكم حيث نجعلكم تزعمونه مكرنا و تقدمون على المكر بنا، و هذه المزعمه و الاقدام ضلال منكم و إضلال منا لكم جزاء بما كسبته ايديكم، و سيأتى نظير هذا المعنى فى قوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْكُمُ عَلِيٌّ أَنْفُسِكُمُ الْآيَهُ ٢٣ من السوره.

و فى الآيه التفات من الغيبه الى الخطاب فى قوله: إِنَّ رَسُولَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ على قراءه تمكرون بناء الخطاب و هى القراءه المشهوره، و هو من عجب الالتفات الواقع فى القرآن و لعل النكته فيه تمثيل معنى قوله: قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا فى العين كأنه تعالى لمّا قال لنبيه صلى الله عليه و آله و سلم «قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا» اراد ان يوضحه لهم عيانا ففاجأهم بتجليه لهم دفعه فكلمهم و أوضح لهم السبب فى كونه اسرع مكرنا ثم حجبه عن نفسه فعادوا الى غيبتهم و عاد الكلام الى حاله، و خوطب النبى صلى الله عليه و آله و سلم ببقية الخطاب «هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ» الخ؛ و هذا من لطيف الالتفات.

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلَمِكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ الى آخر الآيه؛ الفلك السفينه و تستعمل مفردا و جمعا، و المراد بها هاهنا الجمع بدليل قوله: وَ جَرَيْنَ بِهِمْ و الريح العاصف: الشديده الهبوب، و قوله: أُحِيطَ بِهِمْ كناية عن الاشراف على الهلاك، و تقديره احاط بهم البلاء او الامواج، و الاشاره بقوله: «مِنْ هَذِهِ» الى الشده. و معنى الآيه ظاهر.

و فيها من عجيب الالتفات الالتفات من الخطاب الى الغيبه في قوله: وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ -الى قوله- بَغَيْرِ الْحَقِّ و لعل النكته فيه ارجاعهم الى الغيبه و توجيه الخطاب الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم و وصف اعجب جزء من هذه القصة الموصوفه له ليسمعه و يتعجب منه،و يكون فيه مع ذلك اعراض عن الامر بمخاطبتهم لأنهم لا يفقهون القول.

قوله تعالى: فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْعُونَ فِي الْمَأْرُضِ بَغَيْرِ الْحَقِّ اصل البغي هو الطلب و يكثر استعماله في مورد الظلم لكونه طلبا لحق الغير بالتعدى عليه و يقيد حينئذ بغير الحق،و لو كان بمعنى الظلم محضا لكان القيد زائدا.

و الجملة من تنميه الآيه السابقه،و المجموع اعني قوله: هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ -الى قوله- بَغَيْرِ الْحَقِّ بمنزله الشاهد و المثال بالنسبه الى عموم قوله قبله: «وَ إِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُمْ» الى آخر الآيه،او لخصوص قوله: قُلِ اللَّهُ أَشْرَعُ مَكْرًا و على اى حال فقوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ الْخِمْمَ؛ مما يتوقف عليه تمام الغرض من الكلام فى الآيه السابقه و ان لم يكن من كلام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم فافهم ذلك.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ الى آخر الآيه؛فى الكلام التفات من الغيبه الى الخطاب فقوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» الخ؛خطاب منه تعالى للناس بلا واسطه،و ليس من كلام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم مما امره الله سبحانه ان يخاطب به الناس.

و الدليل على ذلك قوله تعالى: ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ الى آخر الآيه؛فانه لا يصلح ان يكون من خطاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم.

و النكته فى هذا الالتفات هى نظير النكته التى قدّمنا ذكرها فى قوله تعالى فى اول الكلام:

«إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ» فكأنه سبحانه يفاجئهم بالاطلاع عليهم اثناء ما يخاطبهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم و هم يحسبون ان ربهم غائب عنهم غافل عن تياتهم و مقاصدهم فى اعمالهم

فيشرف عليهم و يمثل بذلك كونه معهم في جميع احوالهم و احاطته بهم و يقول لهم: انا اقرب اليكم و الى اعمالكم منكم فما تعملونه من عمل تريدون به ان تبتغوا علينا و تمكروا بنا انما توجد بتقديرنا و تجري بأيدينا فكيف يمكنكم ان تبغوا بها علينا؟ بل هي بغى منكم على انفسكم فانها تبعدكم منا و تكتب آثامها في صحائف اعمالكم فبغيتكم على انفسكم و هو متاع الحياه الدنيا تتمتعون به اياما قلائل ثم الينا مرجعكم فنخبركم و نوضح لكم هناك حقائق اعمالكم.

و قوله: **مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** بالنصب في قراءه حفص عن عاصم و التقدير: تتمتعون متاع الحياه الدنيا، و بالرفع في قراءه غيره و هو خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير هو اى بغيتكم و عملكم متاع الحياه الدنيا.

و على كلتا القراءتين فقوله: **مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** الى آخر الآيه، تفصيل لإجمال قوله:

إِنَّمَا بُغِيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ فقوله: **مَتَاعِ** الخ؛ في مقام التعليل بالنسبه الى كون بغيتهم على انفسهم من قبيل تعليل الاجمال بالتفصيل و بيانه به.

قوله تعالى: **إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ** الى آخر الآيه؛ لما ذكر سبحانه في الآيه السابقه متاع الحياه الدنيا مثل له بهذا المثل يصف فيه من حقيقه امره ما يعتبر به المعبرون، و هو من الاستعاده التمثليه و ليس من تشبيه المفرد بالمفرد من شىء و ان اوهم ذلك قوله: **كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ** ابتداء، و نظائره شائعه في امثال القرآن، و الزخرف الزينه و البهجه، و قوله: **لَمْ تَغْنَنَّ** من غنى في المكان اذا اقام فيه فأطال المقام، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: **وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** الدعاء و الدعوه عطف نظر المدعو الى ما يدعى اليه و جلب توجهه و هو اعم من النداء فان النداء يختص بباب اللفظ و الصوت، و الدعاء يكون باللفظ و الاشاره و غيرهما،

و النداء انما يكون بالجهر و لا يقيد به الدعاء.

و الدعاء فى الله سبحانه تكوينى و هو ايجاد ما يريد لشيء كأنه يدعو الى ما يريد، قال تعالى: يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ (الإسراء ٥٢/اى يدعوكم الى الحياه الاخرويه فتستجيبون الى قبولها، و تشريعى و هو تكليف النامن بما يريد من دين بلسان آياته، و الدعاء من العبد لربه عطف رحمته و عنايته الى نفسه بنصب نفسه فى مقام العبوديه و المملوكيه، و لذا كانت العباده فى الحقيقه دعاء لأن العبد ينصب فيها نفسه فى مقام المملوكيه و الاتصال بمولاه بالتبعيه و الذله ليعطفه بمولويته و ربوبيته الى نفسه و هو الدعاء.

و الى ذلك يشير قوله تعالى: وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَكِبُونَ عَنِ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (المؤمن ٦٠/حيث عبر اولا بالدعاء ثم بدله ثانيا العباده.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٢٦ الى ٣٠]

اشاره

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَ زِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَ تَزَهُوهُمُ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَ قَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا بَنَاءٌ تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)

قوله تعالى: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ الخ؛ الحسنى مؤنث أحسن و المراد المثوبه الحسنى، و المراد بالزيادة الزيادة على الاستحقاق بناء على أن الله جعل من فضله للعمل مثلا من الجزاء و الثواب ثم جعله حقا للعامل فى مثل قوله: لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ (آل عمران ١٩٩/) ثم ضاعفه و جعل المضاعف منه أيضا حقا للعامل كما فى قوله: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَالِهَا (الأنعام / ١٦٠) و عند ذلك كان مفاد قوله: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ» استحقاقهم للجزاء و المثوبه الحسنى، و تكون الزيادة هى الزيادة على مقدار الاستحقاق من المثل أو العشره الأمثال نظير ما يفيدده قوله: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ (النساء ١٧٣).

و لو كان المراد بالحسنى فى قوله: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ» العاقبه الحسنى، و ليس فيما يعقل فوق الحسنى شىء كان معنى قوله: «وَزِيَادَةٌ» الزيادة على ما يعقله الإنسان من الفضل الإلهى كما يشير اليه قوله: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ (الم السجده ١٧/) و ما فى قوله: لَهُمْ مَّا يَشَاؤُنَ فِيهَا وَ لَعَدْنَا مَرْيَدًا (ق ٣٥/) فإن من المعلوم أن كل أمر حسن يشاؤه الإنسان فالمزيد على ما يشاؤه أمر فوق ما يدركه فافهم ذلك.

و الرهق بفتحتين اللقوق و الغشيان يقال: رهقه الدين أى لحق به و غشيه، و القتر الدخان الأسود أو الغبار الأسود، و فى توصيفهم بقوله: وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ

محاذاة لما فى الآيه التاليه من وصف أهل النار بسواد وجوههم بالقطر و هو سواد صورى و الذله و هى سواد معنوى.

و المعنى: للذين أحسنوا فى الدنيا المثوبه الحسنى و زياده من فضل الله-أو العاقبه الحسنى و زياده لا تخطر ببالهم-و لا يغشى وجوههم سواد من قطر و لا ذله، و أولئك أصحاب الجنه هم فيها خالدون.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَ تَزَهَّجُوهُمْ ذَلَّةً إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ جملة «جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا» مبتدأ لخبر محذوف و التقدير: لهم جزاء سيئه بمثلها من العذاب، و الجملة خبر للمبتدأ الذى هو قوله: «الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ» و المراد أن الذين كسبوا السيئات لا يجوزون إلا مثل ما عملوه من العقوبات السيئه فجزاه فعله سيئه عقوبه سيئه.

و قوله: مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ أى ما لهم عاصم يعصمهم من الله أى من عذابه و فيه نفى لشركائهم الذين يظنونهم شفعاء على وجه ينفى كل عاصم مانع سواء كان شريكا شفيعا أو ضدا قويا ممانعا أو أى عاصم غيرهما.

و قوله: كَانُوا أَغْشِيَتْ وَجُوهَهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا القِطْع جمع قطعه و مظلمًا حال من الليل، و المراد كأن الليل المظلم قسّم الى قطع فاغشيت وجوههم تلك القطع فاسودت بالتمام، و المتبادر منه أن يغشى وجه كل من المشركين بقطعه من تلك القطع لا كما فسره بعضهم أن المراد أن الوجوه أغشيت تلك القطع قطعه بعد قطعه فصارت ظلمات بعضها فوق بعض. فليس فى الكلام ما يدل على ذلك.

و قوله: أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ يدل على دوام بقائهم فى النار للدلاله الصحابه و الخلود عليه كما أن نظيره فى أصحاب الجنه يدل على نظيره.

قوله تعالى: وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ

وَ شُرَكَاءُكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ المراد حشر جميع من سبق ذكره من المؤمنين و المشركين و شركائهم فإنه تعالى يذكر المشركين و شركاءهم فى هذه الآيه و ما يتلوها ثم يشير الى الجميع بقوله فى الآيه التاليه: «هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ».

و قوله: ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاءُكُمْ أَي الزموا مكانكم أنتم و ليلزم شركاءكم مكانهم و تفرع على هذا الخطاب أن زيلنا بينهم، و قطعنا الرابطه التى كانت تربطهم بشركائهم و هى رابطه الوهم و الحسبان التى يتصلون بسببها بشركائهم فانقطعوا عن شركائهم و انقطع شركاؤهم عنهم فبان أن عبادتهم لم تقع عليهم و لم تتعلق بهم لأنهم إنما عبدوا الشركاء و هم ليسوا بشركاء.

قوله تعالى: فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ ظهر معناه بما مرّ من التقرير، و الفاء فى قوله: «فَكَفَى بِاللَّهِ» يفيد التعليل كقولنا: اعبد الله فهو ربك، و هو شائع فى الكلام.

قوله تعالى: هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ البلاء الاختبار، و الاشاره بقوله: «هُنَالِكَ» الى الموقف الذى ذكره بقوله: ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ.

فذلك الموقف موقف تختبر و تمتحن كل نفس ما أسلفت و قدّمت من الأعمال فتتكشف لها حقيقه أعمالها و تشاهدها مشاهده عيان لا مجرد الذكر او البيان، و بمشاهده الحق من كل شىء عيانا ينكشف أن المولى الحقّ هو الله سبحانه، و تسقط و تنهدم جميع الأوهام، و تضل جميع الدعاوى التى يفترها الانسان بأوهامه و أهوائه على الحقّ.

فهذه الافتراءات و الدعاوى جميعا إنما نشأت من حيث الروابط التى نضعها فى هذه الدنيا بين الأسباب و المسببات و الاستقلال و المولويه التى نعطيها الأسباب و لا إله إلاّ الله و لا مولى حقا إلاّ هو سبحانه فإذا انجلت حقيقه الأمر، و انكشف غيم الوهم و انهتك حجاب الدعاوى

ظهر أن لا مولى حقا إلا هو سبحانه، و بطل جميع الآلهة التي إنما أثبتها الافتراء من الانسان، و سقطت و حبطت جميع الاعمال إلا ما عبد به الله سبحانه عباده حق.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٣١ الى ٣٦]

اشاره

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ مَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتَى تُصِرُّونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَى تُؤْفِكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)

قوله تعالى: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ الرزق هو العطاء الجارى، و رزقه تعالى للعالم الانسانى من السماء هو نزول الامطار و الثلوج و نحوه، و من الارض هو بانباتها نباتها و تربيتها الحيوان و منها يرتزق الانسان، و ببركه هذه النعم الالهيه يبقى النوع الانسانى و المراد بملك السمع و الابصار كونه تعالى متصرفا فى الحواس الانسانيه التى بها ينتظم له انواع التمتع من الارزاق المختلفه التى اذن الله تعالى ان يتمتع بها فانما هو يشخص و يميز ما يريد مما لا يريد باعمال السمع و البصر و اللمس و الذوق و الشم فيتحرك نحو ما يريد، و يتوقف او يفر مما يكرهه بها.

فالحواس هى التى تتم بها فائده الرزق الالهى، و انما خص السمع و البصر من بينها بالذكر لظهور آثارهما فى الأعمال الحيويه اكثر من غيرهما، و الله سبحانه هو الذى يملكها و يتصرف فيهما بالاعطاء و المنع و الزيادة و النقصه.

و قوله: وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْحَيِّ بِحَسَبِ النِّظَرِ البادئ فى الانسان هى المبدأ الذى يظهر به العلم و القدره فى الشئ فيصدر اعماله عن العلم و القدره ما دامت الحياه، و اذا بطلت بطل الصدور كذلك.

قوله تعالى: فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَا ذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتَ تُصِرُّونَ الْجَمَلَةَ الْاُولَى نَتِجَهَ الْحَجَهَ السَّابِقَهَ، و قد وصف الرب بالحق ليكون توضيحا لمفاد الحجه، و توطئه و تمهيدا لقوله بعده: «فَمَا ذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ» .

و قوله: الْحَقُّ فَمَا ذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ أخذ بلازم الحجه السابقه لاستنتاج أنهم ضالون فى عباده الاصنام فانه اذا كانت ربوبيته تعالى حقه فان الهدى فى اتباعه و عبادته فان الهدى مع الحق لا غير فلا يبقى عند غيره الذى هو الباطل إلا

فتقدير الكلام: فما ذا بعد الحق الذى معه الهدى إلا الباطل الذى معه الضلال فحذف من كل من الطرفين شىء و أقيم الباقي مقامه ايجازاً، و قيل: فما ذا بعد الحق إلا الضلال، و لذا قال بعضهم: ان فى الآيه احتباكاً- و هو من المحسنات البديعيه- و هو أن يكون هناك متقابلان فيحذف من كل منهما شىء يدل عليه الآخر فان تقدير الكلام: فما ذا بعد الحق إلا الباطل؟ و ما ذا بعد الهدى إلا الضلال؟ فحذف الباطل من الأول و الهدى من الثانى و بقى قوله: فما ذا بعد الحق إلا الضلال؟ و الوجه هو الذى قدّمناه.

ثم تمم الآيه بقوله: فَأَنى تُضْرَفُونَ اى الى متى تصرفون عن الحق الذى معه الهدى الى الضلال الذى مع الباطل.

قوله تعالى: كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَدُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ظاهر السياق ان الكلمه التى تكلم الله سبحانه بها على الفاسقين هى انهم لا يؤمنون اى أنه سبحانه قضى عليهم قضاء حتما و هو ان الفاسقين- و هم على فسقهم- لا يؤمنون و لا تنالهم الهدايه الالهيه الى الايمان، و قد قال تعالى: وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (المائدہ ١٠٨).

و على هذا فالإشارة بقوله: كَذَلِكَ الى ما تحصل من الآيه السابقه: ان المشركين صرفوا عن الحق و فسقوا عنه فوقعوا فى الضلال اذ ليس بعد الحق إلا الضلال.

فمعنى قوله: كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الخ؛ ان الكلمه الالهيه و القضاء الحتمى الذى قضى به فى الفاسقين- و هو أنهم لا يؤمنون- هكذا حقت و ثبتت فى الخارج و اخذت مصداقها و هو انهم خرجوا عن الحق فوقعوا فى الضلال اى إننا لم نقض عدم هدى الفاسقين و عدم إيمانهم ظلماً و لا جزافاً و انما قضينا ذلك لأنهم صرفوا عن الحق و فسقوا فوقعوا فى الضلال و لا واسطه بينهما فافهم ذلك.

و فى الآيه دلالة على ان الامور الضرورية و الاحكام و القوانين البينه التى تجرى فى النظام المشهود كقولنا: لا واسطه بين الحق و الباطل و لا بين الهدى و الضلال لها نوع استناد الى القضاء الالهى، و ليست ثابتة فى ملكه تعالى من تلقاء نفسها.

قوله تعالى: قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ تلقين للاحتجاج من جهه المبدإ و المعاد فان الذى يبدأ كل شىء ثم يعيده يستحق ان يعبده الانسان اتقاء من يوم لقائه ليأمن من أليم عذابه و ينال عظيم ثوابه يوم المعاد.

و لما كان المشركون-هم المخاطبون بالحجه- غير قائلين بالمعاد أمر تعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ان يتصدى جواب سؤاله بنفسه و قال «قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتُمْ تُؤْفِكُونَ» و الى متى تصرفون عن الحق.

قوله تعالى: قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ يهذى للحق و الى الحق بمعنى واحد فالهداياه تتعدى بكثر الحرفين، و قد رود تعديتها باللام فى مواضع كثيره من كلامه تعالى كقوله: أَوْ لَعَمْرُ يَهْدِي لَكُمْ (الم السجده ٢٦)، و قوله: يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ (الإسراء ٩) الى غير ذلك فما ذكره بعضهم من كون اللام فى قوله: «يَهْدِي لِلْحَقِّ» للتعليل ليس بشىء.

لَقَنَّ سبحانه نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ هذه الحجه و هى ثالثه الحجج، و هى حجه عقليه يعتمد عليها الخاصه من المؤمنين، و توضيحها ان المرتكز فى الفطره الانسانيه و به يحكم عقله ان من الواجب على الانسان ان يتبع الحق حتى انه ان انحرف فى شىء من اعماله عن الحق و أتبع غيره لغلط او شبهه او هوى فانما اتبعه لحسابه اياه حقا و التباس الأمر عليه، و لذا يعتذر عنه بما يحسبه حقا فالحق واجب الاتباع على الاطلاق و من غير قيد او شرط.

و الهادى الى الحق واجب اتباعه لما عنده من الحق، و من الواجب ترجيحه على من لا

يهدى اليه او يهدى الى غيره لأن اتباع الهادى الى الحق اتباع لنفس الحق الذى معه وجوب اتباعه ضرورى (١).

وقوله فى ذيل الآيه: **فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** استفهام للتعجب استغرابا لحكمهم باتباع شركائهم مع حكم العقل الصريح بعدم جواز اتباع من لا يهتدى ولا يهدى الى الحق.

قوله تعالى: **وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** أغنى يغنى يتعدى بمن وعن كليهما وقد جاء فى الكلام الإلهى بكل من الوجهين فعدى بمن كما فى الآيه، وبعن كما فى قوله: **مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَه** (الحاقه ٢٩).

وإنما نسب اتباع الظن الى أكثرهم لأن الأقل منهم وهم أئمة الضلال على يقين من الحق، ولم يوثروا عليه الباطل و يدعو اليه إلا- بغيا كما قال تعالى: **وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ** (البقره ٢١٣). و أما الأكثرون فإنما اتبعوا آباءهم تقليدا لهم لحسن ظنهم بهم.

وقوله: **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** تعليل لقوله: **«وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا»** والمعنى أن الله عليم بما يأتونه من الأعمال يعلم أنها اتباع للظن.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٣٧ الى ٤٥]

إشارة

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لَكِنْ تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧)
أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مِنْ إِسْتِطْعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَ إِنَّ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أ فَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَ لَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَ لَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَمَا أَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا لِسَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ يَنْتَعَرِفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥)

ص: ٤٠

١- ١). يونس ٣١-٣٦: بحث فى احتجاج القرآن على المشركين و آلهتهم؛ معنى الهدايه؛ ان ليس من شركاء المشركين من يهدى الى الحق و ان الله سبحانه يهدى الى الحق.

قوله تعالى: وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ قد تقدمت الاشارة الى ان نفي صفة او معنى بنفي الكون يفيد نفي الشأن و الاستعداد، وهو أبلغ

من نفيه نفسه ففرق بين قولنا: ما كان زيد ليقوم، و قولنا: لم قم او ما قام زيد إذ الاول يدل على أن القيام لم يكن من شأن زيد و لا استعداد له استعداد، و الثانى ينفى القيام عنه فحسب، و فى القرآن منه شىء كثير كقوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ (يونس ٧٤)، و قوله: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ (الشورى ٥٣)، و قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾ (العنكبوت ٤٠).

فقوله: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ «وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ» نفى لشأنيه الافتراء عن القرآن كما قيل و هو أبلغ من نفى فعليته، و المعنى ليس من شأن هذا القرآن و لا فى صلاحيته أن يكون افتراء من دون الله يفتره على الله سبحانه.

و قوله: ﴿وَلَكِنْ تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى تصديقا لما هو حاضر منزل من الكتاب و هو التوراه و الإنجيل كما حكى عن المسيح قوله: ﴿يَا بَنَى إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ (الصف ٦)، و إنما وصفهما بما بين يديه مع تقدمهما لأن هناك كتابا غير الكتابين ككتاب نوح و كتاب ابراهيم عليهما السلام فاذا لوحظ تقدم جميعها عليه كان الاقرب منها زمانا اليه و هو التوراه و الانجيل موصوفا بأنه بين يديه.

و ربما قيل: إن المراد بما بين يديه هو ما يستقبل نزوله من الامور كالبعث و النشور و الحساب و الجزاء، و ليس بشىء.

و قوله: ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ عَطْفَ عَلَى «تَصْدِيقَ»﴾ و المراد بالكتاب بدلاله من السياق جنس الكتاب السماوى النازل من عند الله سبحانه على انبيائه، و التفصيل إيجاد الفصل بين أجزائها المندمجه بعضها فى بعض المنطويه جانب منها فى آخر بالإيضاح و الشرح.

و فيه دلالة على أن الدين الإلهى المنزل على أنبيائه عليهم السلام واحد لا اختلاف فيه إلا بالإجمال و التفصيل، و القرآن يفصل ما أجمله غيره كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾

و أن القرآن الكريم مفصّل لما أجمله الكتب السماويه السابقه مهيمن عليها جميعا كما قال تعالى: **وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَ مُهَيِّمًا عَلَيْهِ** (المائدہ ٤٨). وقوله: **لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ** اى لا- ريب فيه هو من رب العالمين، و الجملة الثانيه كالتعليل للولى.

قوله تعالى: **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ** الى آخر الآيه، أم منقطعه و المعنى بل يقولون افتراه، و الضمير للقرآن، و اتصاف السوره بكونها مثل القرآن شاهد على أن القرآن يصدق على الكثير منه و القليل.

و المعنى قل للذين يقولون افتراه: إن كنتم صادقين فى دعواكم فأتوا بسوره مثل هذا القرآن المفترى و ادعوا كل من استطعتم من دون الله مستمدين مستظهرين فانه لو كان كلاما مفترى كان كلاما بشريا و جاز او يؤتى بمثله و فى ذلك تحدّ ظاهر بسوره واحده من سور القرآن طويله كانت او قصيره (١).

قوله تعالى: **بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** الى آخر الآيه؛ الآيه تبين وجه الحقيقه فى عدم إيمانهم به و قولهم إنه افتراء و هو أنهم كذبوا من القرآن بما لم يحيطوا بعلمه أو كذبوا من القرآن بما لم يحيطوا بعلمه أو كذبوا بالقرآن الذى لم يحيطوا بعلمه ففيه معارف حقيقه من قبيل العلوم الواقعيه لا يسعها علمهم، و لم يأتهم تأويله بعد أى تأويل ذاك الذى كذبوا به حتى يضطروهم الى تصديقه.

هذا ما يقتضيه السياق من المعنى فقوله: **وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** يشير الى يوم القيامه كما يؤيده قوله تعالى: **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ**

قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءٍ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ (الأعراف ٥٣).

قوله تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرُبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ قَسَمَهُمْ قَسَمِينَ مِنْ يُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ثُمَّ كَتَى عَمَنَ لَا يُؤْمِنُ بِهِ أَنَّهُمْ مَفْسِدُونَ فَتَحْصِلُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ بِمَا فِي الْقُرْآنِ إِنَّمَا كَذَّبُوا بِهِ لِأَنَّهُمْ مَفْسِدُونَ.

فالآية لبيان حالهم الذي هم عليه من إيمان البعض وكفر البعض وأن الكفر ناش من رذيله الإفساد.

قوله تعالى: وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ تَلْقِينَ لِلتَّبَرِّي عَلَى تَقْدِيرِ تَكْذِيبِهِمْ لَهُ، وَهُوَ مِنْ مَرَاتِبِ الْإِنْتِصَارِ لِحَقِّ مِمَّنْ انْتَهَضَ لِأَحْيَائِهِ فَالطَّرِيقُ هُوَ حَمَلُ النَّاسِ عَلَيْهِ أَنْ حَمَلُوا وَإِلَّا فَالتَّبَرِّي مِنْهُمْ لثَلَا يَحْمِلُوهُ عَلَى بَاطِلِهِمْ.

وقوله: أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ تَفْسِيرُ لِقَوْلِهِ: «لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ».

قوله تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ الاستفهام للإنكار، وقوله: «وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ» قرينه على أن المراد بنفى السمع نفى ما يقارنه من تعقل ما يدل عليه الكلام المسموع وهو المسمى بسمع القلب.

والمعنى: و منهم الذين يستمعون إليك وهم صم لا سمع لقلوبهم، ولست أنت قادر على إسماعهم ولا سمع لهم.

قوله تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. الكلام فيها نظير الكلام في سابقتها.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسِهِمْ يَظْلِمُونَ مسوق للإشارة إلى أن ما ابتلى به هؤلاء المحرومون من السمع والبصر من جهة الصمم والعمى

من آثار ظلمهم انفسهم من غير ان يكون الله تعالى ظلمهم بسلب السمع و البصر عنهم فانهم انما أوتوا من قبل أنفسهم.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ الخ؛ ظاهر الآية ان يكون «يَوْمَ» ظرفا متعلقا بقوله: «قَدْ حَسِرَ» الخ؛ وقوله: «كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً» الخ؛ حالا من ضمير الجمع في «يَحْشُرُهُمْ» و قوله: «يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ» حالا ثانيا مبينا للحال الاول.

و المعنى قد خسر الذين كذبوا بقاء الله في يوم يحشرهم اليه حال كونهم يستقلون هذه الحياه الدنيا فيعدونها كمكث ساعه من النهار و هم يتعارفون بينهم من غير ان ينكر بعضهم بعضا او ينسأه.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٤٦ الى ٥٦]

اشاره

وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) وَ يَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن آتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَلَمْ تَرَ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلآنَ وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) وَ يَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَ أَسِيرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الْأَلَّا إِنَّ وَ عَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)

ص: ٤٥

قوله تعالى: وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّئَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَيْنَا مِمَّا نَفْعَلُونَ إما نرينك أصله: إن نرك، زيد عليه ما و النون الثقيله للتأكيد، و الترديد بين الإراده و التوفى للتسويه و استيعاب التقادير، و المعنى الينا مرجعهم على اى تقدير، و لفظه ثم للتراخى بحسب ترتيب الكلام دون الزمان و الآيه مسوقه لتطيب نفس النبى صلى الله عليه و آله و سلم و لتكون كالتوطئه لحديث قضاء العذاب الذى ستفصله الآيات التالیه لهذه الآيه.

و المعنى طب نفسا فإننا موقعون بهم ما نعدهم سواء أريناك بعض ذاك او توفيناك قبل أن نريك ذاك فإن أمرهم الينا و نحن شاهدون لأفعالهم المستوجه للعذاب لا تغيب عنا و لا ننساها.

و الالتفات من قوله: «نُرِيَنَّكَ» الى قوله: «ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ» للدلالة على عله الحكم فإن الله سبحانه شهيد على كل فعل بمقتضى ألوهيته.

قوله تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ قضاء إلهي منحل الى قضاءين أحدهما: أن لكل أمة من الامم رسولا يحمل رساله الله اليهم و يبلغها إياهم، و ثانيهما: أنه اذا جاءهم و بلغهم رسالته فاختلفوا من مصدق له و مكذب فإن الله يقضى و يحكم بينهم بالقسط و العدل من غير أن يظلمهم. هذا ما يعطيه سياق الكلام من المعنى.

و منه يظهر أن قوله: «فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ» فيه إيجاز بالحذف و الإضمار و التقدير:

فإذا جاء رسولهم اليهم و بلغ الرساله فاختلف قومه بالتكذيب و التصديق، و يدل على ذلك قوله: «قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ» فإن القضاء إنما يكون فيما اختلف فيه، و لذا كان السؤال عن القسط و عدم الظلم فى القضاء فى مورد العذاب و الضرر أسبق الى الذهن.

قوله تعالى: وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ سؤال منهم عن وقت هذا القضاء الموعود، و هو القضاء بينهم فى الدنيا، و السائلون هم بعض المشركين من معاصري النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و الدليل عليه أمره أن يجيبهم بقوله: «قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ» الخ؛ فقول بعضهم: إن السؤال عن عذاب يوم القيامة او إن السائلين بعض المشركين من الامم السابقة لا يلتفت اليه.

قوله تعالى: قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ الى آخر الآيه؛ لما كان قولهم: «مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» فى معنى قولنا: أى وقت يفى ربك بما وعدك او يأتى بما أوعدنا به أنه يقضى بيننا و بينك فيهلكنا و ينجيك و المؤمنين بك فيصفو لكم الجو و يكون لكم الأرض و تخلصون من شرنا؟ فهلا عجل لكم

ذلك - و ذلك أن كلامهم مسوق سوق الاستعجال تعجيزا و استهزاء كما تدل على استعجالهم الآيات التالية و هذا نظير قولهم: لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ (الحجر / ٧).

لَقَدْ سَبَّحَانَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ أَنْ يَبْدَأَهُمْ فِي الْجَوَابِ بِيَانِ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا حَتَّى يَدْفَعَهُ عَنْهَا وَ لَا نَفْعًا حَتَّى يَجْلِبَهُ إِلَيْهَا وَ يَسْتَعْجَلُ ذَلِكَ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْلِكَهُ مِنْ ضَرٍّ وَ نَفْعٍ فَالْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ سَبَّحَانَهُ جَمِيعًا، وَ اقْتِرَاحَهُمْ عَلَيْهِ بِأَنْ يَعْجَلَ لَهُمُ الْقَضَاءَ وَ الْعَذَابَ مِنَ الْجَهْلِ.

قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَّاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ إِلَى آخِرِ الْآيَتِينَ، الْبَيَاتِ وَ التَّبَيُّتِ الْإِتْيَانِ لَيْلًا وَ يَغْلِبُ فِي الشَّرِّ كَقَصْدِ الْعَدُوِّ عَدُوَّهُ لَيْلًا.

و لما كان قولهم: «مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» فِي مَعْنَى اسْتَعْجَالِ آيَةِ الْعَذَابِ الَّتِي يَلْجَأُونَ إِلَى الْإِيمَانِ رَجَعَ بَعْدَ بَيَانِ تَحَقُّقِ الْوُقُوعِ إِلَى تَوْبِيخِهِمْ وَ ذَمِّهِمْ مِنَ الْجَهْتَيْنِ فَوَبَّخَهُمْ أَوْلًا عَلَى اسْتَعْجَالِهِمْ بِالْعَذَابِ، وَ هُوَ عَذَابٌ فَجَائِئِيٌّ مِنَ الْحَزْمِ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ لَا أَنْ يَسْتَعْجَلُ فِيهِ فَقَالَ تَعَالَى مَلَقْنَا لَنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ «قُلْ أَرَأَيْتُمْ» وَ أَخْبَرُونِي «إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَّاتًا» لَيْلًا - «أَوْ نَهَارًا» فَإِنَّهُ عَذَابٌ لَا يَأْتِيكُمْ إِلَّا بَعْتَهُ إِذْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ وَ قَدْ نَزَلَهُ «مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ» مِنَ الْعَذَابِ «الْمُجْرِمُونَ» أَيُّ مَاذَا يَسْتَعْجَلُونَ مِنْهُ وَ أَنْتُمْ مُجْرِمُونَ لَا يَتَخَطَّكُمْ إِذَا أَتَاكُمْ.

فَفِي قَوْلِهِ: «مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ» التَّفَاتُ مِنَ الْخَطَابِ إِلَى الْغَيْبِ وَ كَأَنَّ النُّكْتَةَ فِيهِ رِعَايَةَ حَالِهِمْ أَنْ لَا يَشَافَهُوا بِصَرِيحِ الشَّرِّ وَ لِيَكُونَ تَعَرُّضًا لِمَلَائِكَةِ نَزُولِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ وَ هُوَ إِجْرَامُهُمْ.

وَ وَبَّخَهُمْ ثَانِيًا عَلَى تَأْخِيرِ إِيمَانِهِمْ إِلَى حِينٍ لَا يَنْفَعُهُمُ الْإِيمَانُ فِيهِ وَ هُوَ حِينُ نَزُولِ الْعَذَابِ فَإِنَّهُ آيَةُ الْعَذَابِ يَلْجَأُونَ إِلَى الْإِيمَانِ عَلَى مَا هُوَ الْمَجْرِبُ مِنَ إِيمَانِ الْإِنْسَانِ عِنْدَ إِشْرَافِ الْهَلِكَةِ،

و من جهة أخرى الإيمان توبه و التوبه غير مقبوله عند ظهور آيه العذاب و الإشراف على الموت.

فقال تعالى أ تُمْ إِذَا مَا وَقَعَ الْعَذَابُ «آمَنْتُمْ بِهِ» أى بالقرآن او بالدين أو بالله «آلآن» أى أ تؤمنون به فى هذا الآن و الوقت «وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ» و كان معنى استعجالهم عدم الاعتناء بشأن هذا العذاب و تحقيره بالاستهزاء به.

قوله تعالى: ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ الْأَشْبَهَ أَنْ تَكُونَ الْآيَةَ مُتَّصِلَةً بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ» الخ؛ فتكون الآية الأولى تبين تحقق وقوع العذاب عليهم و إهلاكهم، و الآية الثانية تبين أنه يقال لهم بعد الوقوع و الهلاك: ذوقوا عذاب الخلد و هو عذاب الآخرة و لا تجزون إلا أعمالكم التى كنتم تكسبونها و ذنوبكم التى تحملونها، و الخطاب تكوينى كنى به عن شمول العذاب لهم و نياله إياهم، و على هذا المعنى فالآيتان «قُلْ أَرَأَيْتُمْ -الى قوله- تَسْتَعْجِلُونَ» و اردتان مورد الاعتراض.

قوله تعالى: وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ يستنبئونك أى يستخبرونك، و قوله: «أَحَقُّ هُوَ» بيان له، و الضمير على ما يفيد السياق راجع الى القضاء أو العذاب، و المآل واحد، و قد أمر سبحانه نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن يؤكد القول فى إثباته من جميع جهاته، و بعبارة أخرى أن يجيبهم بوجود المقتضى و عدم المانع.

فقوله: «قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ» إثبات لتحققه و قد أكد الكلام القسم و الجملة الاسمية و إن و اللام، و قوله: «وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» بيان أنه لا مانع هناك يمنع من حلول العذاب بكم.

قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ فِي الْأَرْضِ لَافْتِيدَتْ بِهٖ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، إشاره الى شدة العذاب و أهميه التخلص منه عندهم، و إسرار الندامة إخفاؤها

و كتمانها خشية الشماته و نحوها، و الظاهر أنّ المراد بالقضاء و العذاب فى الآيه هو القضاء و العذاب الدينويان لا غير.

قوله تعالى: **أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** الآيه و ما بعدها بيان برهاني على حقيقته ما ذكره من كونه حقا واقعا لا يمنع عنه مانع فإن كل شىء مما فى السماوات و الأرض اذا كان مملوكا لله وحده لا شريك له كان كل تصرف مفروض فيها اليه تعالى، و لم يكن لغيره شىء من التصرف إلا بإذنه فإذا تصرف فى شىء كان مستندا الى إرادته فقط من غير أن يستند الى مقتضى آخر خارج يتصرف فى ذاته المقدسه فيحمله على الفعل، أو يتقيد بعدم مانع خارجى اذا وجد تصرف فيه سبحانه بمنعه عن الفعل، فهو تعالى يفعل ما يفعل عن نفسه من غير أن يرتبط الى مقتضى من خارج أو مانع من خارج فإذا أراد سبحانه شيئا فعله من غير ممدّ او عائق، و اذا وعد وعدا كان حقا لا مردّ له من غير ان يتغير عن وعده بصارف (١).

قوله تعالى: **هُوَ يَحْيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** احتجاج على ما تقدم فى الآيه السابقه من ملكه تعالى بالنسبه الى نوع الإنسان كأنه تعالى يقول: إن أمركم جميعا من حياه و موت و رجوع اليه تعالى فكيف لا تكونون ملكا له.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٥٧ الى ٧٠]

إشارة

أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ** (٥٨) **قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَ حَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ** (٥٩) **وَ مَا ظُنُّوا الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَعَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ** (٦٠) **وَ مَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ مَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَ مَا يَغْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ وَ لَا أَضْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَ لَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** (٦١) **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ** (٦٢) **الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ** (٦٣) **لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** (٦٤) **وَ لَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** (٦٥) **أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ مَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنَّ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** (٦٦) **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** (٦٧) **قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** (٦٨) **قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ** (٦٩) **مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ** (٧٠)

ص: ٥٠

(١-١). كلام فى ملكه تعالى لما فى السموات و الارض، حقيقته معنى ملكه و سلطانه.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكُفُّكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قال الراغب في المفردات: الوعظ زجر مقترن بتخويف، وقال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب، والعظه و الموعظه الاسم، انتهى. و الصدر معروف و الناس لثما وجدوا القلب في الصدر و هم يرون أن الإنسان إنما يدرك ما يدرك بقلبه و به يعقل الامور و يحب و يبغض و يريد و يكره و يشتاق و يرجو و يتمنى، عدوا الصدر خزانه لما في القلب من أسراره و الصفات الروحيه التي في باطن الإنسان من فضائل و رذائل، و في الفضائل صحه القلب و استقامته، و في الرذائل سقمه و مرضه، و الرذيله داء يقال: شفيت صدرى بكذا اذا ذهب به ما في صدره من ضيق و حرج، و يقال: شفيت قلبى، فشفاء الصدور و شفاء ما في الصدور كناية عن ذهاب ما فيها من الصفات الروحيه الخبيثه التي تجلب الى الإنسان الشقاء و تنغص عيشته السعيده و تحرمه خير الدنيا و الآخره.

و الهدى هي الدلاله على المطلوب بلطف على ما ذكره الراغب، و قد تقدم في ذيل قوله تعالى: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ (الأنعام ١٢٥) في الجزء السابع من الكتاب بحث فيها.

و الرحمة تأثر خاص في القلب عن مشاهدته ضرر أو نقص في الغير يبعث الراحم الى جبر كسره و إتمام نقصه، و إذا نسبت اليه تعالى كان بمعنى النتيجة دون أصل التأثير لتنزهه تعالى عن ذلك فينطبق على مطلق عطيته تعالى و إفاضته الوجود على خلقه.

و عطيته اذا نسبت الى مطلق خلقه كانت هي ما ينسب اليه تعالى من وجودهم و بقائهم و رزقهم الذي يمدّ به بقاؤهم و سائر ما ينعم به عليهم من نعمه التي لا تحصى كثره و إن تعدّوا نعمه الله لا تحصوها، و اذا نسبت الى المؤمنين خاصة كانت هي ما يختص بهم من سعادته الحياه الانسانيه بمظاهرها المختلفه التي ينعم الله بها عليهم من المعارف الحقه الإلهيه، و الأخلاق الكريمه و الأعمال الصالحه، و الحياه الطيبه في الدنيا و الآخره و الجنه و الرضوان.

و من ثم اذا وصف القرآن بأنه رحمه للمؤمنين كان معناه أنه يعشى المؤمنين أنواع الخيرات و البركات التي كنزها الله فيه لمن تحقق بحقائقها و تلبس بمعانيها، قال تعالى: وَ نُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً (الإسراء ٨٢).

قوله تعالى: قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ الفضل هو الزيادة، و تسمى العطيّه فضلاً لأن المعطى إنما يعطى غالباً ما لا يحتاج اليه من المال ففي تسميه ما يفيضه الله على عباده فضلاً إشاره الى غناه تعالى و عدم حاجته في إفاضته الى ما يفيضه و لا الى ما يفيض عليه.

و ليس من البعيد أن يكون المراد بالفضل ما يبسطه الله من عطائه على عامه خلقه، و بالرحمه خصوص ما يفيضه على المؤمنين فإن رحمه السعاده الدينيه اذا انضمن الى النعمه العامه من حياه و رزق و سائر البركات العامه كان المجمع منهما أحق بالفرج و السرور و أخرى بالانبساط و الابتهاج.

و من الممكن أن يتأيد ذلك بقوله: «بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ» حيث أدخلت باء السببيه على كل من الفضل و الرحمه، و هو مشعر بكون كل واحد منهما سبباً مستقلاً و إن جمع بينهما ثانياً

بقوله: «فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا» للدلالة على استحقاق مجموعهما لأن ينحصر فيه الفرح.

و يمكن ان يكون المراد بالفضل غير الرحمة و من الامور المذكوره فى الآيه السابقه اعطى الموعظه و شفاء ما فى الصدر و الهدى، و المراد بالرحمة: الرحمة بمعناها المذكور فى الآيه السابقه و هى العطيّه الخاصه الإلهيه التى هى سعادته الحياه فى الدنيا و الآخره.

و المعنى على هذا: ان ما تفضل الله به عليهم من الموعظه و شفاء ما فى الصدور و الهدى، و ما رحم المؤمنين به من الحياه الطيبه ذلك احق ان يفرحوا به دون ما يجمعونه من المال.

و ربما تأيد هذا الوجه بقوله سبحانه: «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ» (النور ٢١/) حيث نسب زكاتهم الى الفضل و الرحمة معا و استناد الزكاه الى الفضل بمعنى العطيّه العامه بعيد عن الفهم، و مما يؤيد هذا الوجه ملائمته لما ورد فى الروايه من تفسير الآيه بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم و على عليه السلام او بالقرآن و الاختصاص به و سيجىء ان شاء الله.

و قوله: «فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ذكروا ان الفاء فى قوله: «فَلْيَفْرَحُوا» زائده كقول الشاعر: «فاذا قتلت فعند ذلك فاجزعى» و الظرف اعنى قوله: «فَبِذَلِكَ» بدل من قوله:

«بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ»، و متعلق بقوله: «فَلْيَفْرَحُوا» قَدَّم عليه لإفاده الحسر، و قوله: «هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» بيان ثان لمعنى الحصر.

فظهر بذلك كله ان الآيه تفرع على مضمون الآيه السابقه فانه تعالى لما خاطب الناس امتنانا عليهم أن هذا القرآن موعظه لهم و شفاء لما فى صدورهم و هدى و رحمه للمؤمنين منهم فرح عليه انه ينبغى لهم حينئذ ان يفرحوا بهذا الذى امتن به عليهم من الفضل و الرحمة لا بالمال الذى يجمعونه فان ذلك - و فيه سعادتهم و ما تتوقف عليه سعادتهم - خير من المال الذى ليس إلا فتنه ربما اهلكتهم و اشقتهم.

قوله تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا»

وَ حَلَالًا إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ نَسَبَهُ الرِّزْقَ وَ هُوَ مَا يَمِدُّ الْإِنْسَانَ فِي بَقَائِهِ مِنَ الْأُمُورِ الْأَرْضِيَّةِ مِنْ مَأْكُولٍ وَ مَشْرُوبٍ وَ مَلْبُوسٍ وَ غَيْرِهَا إِلَى الْإِنزَالِ مَبْنِي عَلَى حَقِيقَتِهِ يَفِيدُهَا الْقُرْآنُ وَ هِيَ أَنْ الْأَشْيَاءَ لَهَا خَزَائِنٌ عِنْدَ اللَّهِ تَنْزِلُ مِنْ هُنَاكَ عَلَى حَسَبِ مَا قَدَّرَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ، قَالَ تَعَالَى:

وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر ٢١) وَ قَالَ تَعَالَى:

وَ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَ مَا تُوعَدُونَ (الذاريات ٢٢) وَ قَالَ: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ (الزمر ٦) وَ قَالَ: وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ (الحديد ٢٥).

وَ أَمَا مَا قِيلَ: أَنَّ التَّعْبِيرَ بِالْإِنزَالِ أَمَّا هُوَ لَكُنْ أَرْزَاقَ الْعِبَادِ مِنَ الْمَطَرِ الَّذِي يَنْزِلُهُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ، فَوَجْهٌ بَسِيطٌ لَا يَطْرُدُ عَلَى تَقْدِيرِ صِحَّتِهِ فِي جَمِيعِ الْمَوَارِدِ الَّتِي عَبَّرَ فِيهَا عَنْ كَيْنُونَتِهَا بِالْإِنزَالِ كَمَا فِي الْأَنْعَامِ وَ فِي الْحَدِيدِ، وَ الرِّزْقُ الَّذِي تَذَكَّرُ الْآيَةُ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهُ لَهُمْ فَجَعَلُوا مِنْهُ حَرَامًا وَ حَلَالًا هُوَ الْأَنْعَامُ مِنَ الْإِبِلِ وَ الْغَنَمِ كَالْوَصِيلِ وَ السَّائِبِ وَ الْحَامِ وَ غَيْرِهَا.

وَ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ: لَكُمْ لِلْغَايَةِ وَ تَفِيدُ مَعْنَى النِّفْعِ أَيْ أَنْزَلَ اللَّهُ لِأَجْلِكُمْ وَ لَتَنْتَفِعُوا بِهِ، وَ لَيْسَتْ لِلتَّعْدِيَةِ فَانِ الْإِنزَالِ أَمَّا يَتَّعَدَى بَعْلَى أَوْ إِلَى، وَ مِنْ هُنَا أَفَادَ الْكَلَامُ مَعْنَى الْإِبَاحَةِ وَ الْحَلِّ أَيْ أَنْزَلَهَا اللَّهُ فَأَحْلَاهَا، وَ هَذَا هُوَ النَّكْتَةُ فِي تَقْدِيمِ التَّحْرِيمِ عَلَى الْإِحْلَالِ فِي قَوْلِهِ: «فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَ حَلَالًا» أَيْ كَانَ اللَّهُ أَحْلَهُ لَكُمْ بِأَنْزَالِهِ رِزْقًا لَكُمْ تَنْتَفِعُونَ بِهِ فِي حَيَاتِكُمْ وَ بَقَائِكُمْ وَ لَكُنْكُمْ قَسَمْتُمُوهُ قَسَمِينَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ فَحَرَّمْتُمْ قَسَمًا وَ أَحْلَلْتُمْ آخَرَ فَالْمَعْنَى: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ: أَخْبِرُونِي عَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ وَ لِأَجْلِكُمْ مِنَ الرِّزْقِ الْحَلَالِ فَقَسَمْتُمُوهُ قَسَمِينَ وَ جَعَلْتُمْ بَعْضَهُ حَرَامًا وَ بَعْضَهُ حَلَالًا مَا هُوَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ؟ وَ مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّهُ افْتَرَأَ عَلَى اللَّهِ لَا عَنْ إِذْنِ مَنْ تَعَالَى.

وَ قَوْلُهُ: قُلْ أَلَلَّهِ أَذْنٌ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ سؤَالٌ عَنِ سَبَبِ تَقْسِيمِهِمُ الرِّزْقَ إِلَى حَرَامٍ وَ حَلَالٍ، وَ إِذَا كَانَ مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّهُ لَيْسَ ذَلِكَ عَنْ إِذْنِ مَنْ تَعَالَى لِعَدَمِ اتِّصَالِهِمْ بِرَبِّهِمْ بُوْحَى أَوْ رَسُولِ كَانَ مِنَ الْمَتَعِّينِ أَنَّهُ افْتَرَأَ فَالاسْتِفْهَامُ فِي سِيَاقِ التَّرْدِيدِ كُنَايَةً عَنِ اثْبَاتِ

و الذى يقضى به النظر الابتدائى ان التردد فى الآيه غير حاصر اذ كما يجوز ان يكون تقسيمهم رزق الله الى حرام و حلال عن اذن من الله او افتراء عليه تعالى كذلك يجوز ان يكون عن مصلحه احرزوها او زعموها فى ذلك او عن هوى لهم فيه من غير أن ينسبوه الى الله تعالى فيكون افتراء عليه.

و من وجه آخر التردد فى الآيه بين اذن الله و الافتراء على الله يشعر بأن الحكم إنما هو لله فالحكم بكون بعض الرزق حراما و بعضه حلالا- و هو دائر بينهم إما أن يكون من الله او افتراء عليه، و من الممكن أن يمنع ذلك فى بادئ النظر فكثير من السنن الدائره بين الناس كوّنتها طبيعه مجتمعهم او عاداتهم القوميه و غير ذلك.

لكن التدبر فى كلامه تعالى و البحث العميق يدفع ذلك فإن القرآن يرى أن الحكم يختص بالله تعالى، و ليس لأحد من خلقه أن يبادر الى تشريع حكم و وضعه فى المجتمع الانسانى، قال تعالى: **إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ** (يوسف ٤٠).

و قد أشار تعالى الى لم ذلك فى قوله: **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** (الروم ٣٠) فتبين به أن معنى كون الحكم لله كونه معتمدا على الخلقه و الفطره منطبقا عليها غير مخالف لما ينطق به الكون و الوجود.

و ذلك أن الله سبحانه لم يخلق الخلق عبثا كما قال: **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً** (المؤمنون ١١٥) بل خلقهم لأغراض إلهيه و غايات كماليه يتوجهون إليها بحسب جبلتهم و يسيرون نحوها بفطرتهم بما جهزهم به من الأسباب و الأدوات و هداهم اليه من السبيل الميسر لهم كما قال: **أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى** (طه ٥٠)، و قال: **ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ** (عبس ٢٠).

قوله تعالى: **وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** الى

آخر الآيه؛لما كان جواب الاستفهام المتقدم «أَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ» معلوما من المورد،و هو أنه افتراء،استعظم و خامه عاقبته فإنه افتراء على الله سبحانه و الافتراء من الآثام و الذنوب بحكم البدايه فلا محاله له أثر سيئ،و لذلك قال تعالى إيعادا و تهديدا «وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» .

و أما قوله: إِنَّ اللَّهَ لَعَدُوٌّ فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَآ-يَشْكُرُونَ فهو شكوى و عتبي يشار به الى ما اعتاد عليه الناس من كفران اكثرهم لنعمه الله،و عدم شكرهم قبال عطيته و نعمته،و المراد بالفضل هاهنا هو العطيه الإلهيه فإن الكلام فى الرزق الذى أنزله الله لهم و هو الفضل،و تحريمهم بعضه و هو الكفران و عدم الشكر.

و برجوع ذيل الآيه الى صدرها يكون الافتراء على الله من مصاديق كفران نعمته،و المعنى أن الله ذو فضل و عطاء على الناس و لكن أكثرهم كافرون لنعمته و فضله فما ظن الذين يكفرون بنعمه الله و رزقه بتحريمه افتراء على الله الكذب يوم القيامة.

قوله تعالى: «وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ مَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا- كَذَّآ عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛قال الراغب:الشأن الحال و الأمر الذى يتفق و يصلح،و لا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال و الامور قال «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ». انتهى.

و قوله: «وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ الظاهر أن الضمير الى الله سبحانه و من الاولى للابتداء و النشوء و الثانيه للبيان،و المعنى:و لا تتلو شيئا هو القرآن ناشئا و نازلا من قبله تعالى،و الإفاضه فى الفعل الخوض فيه جمعا.

و قد وقع فى قوله: إِلَّا- كَذَّآ عَلَيْكُمْ شُهُودًا التفات من الغيبه الى التكلم مع الغير، و النكته فيه الإشاره الى كثره الشهود فإن لله شهودا على أعمال الناس من الملائكه و الناس و الله من ورائهم محيط،و العظماء يتكلمون عنهم و عن غيرهم للدلاله على أن لهم أعوانا و خدمه.

و ليس ينبغي أن يغفل عن أن اصل الالتفات يبدأ من اول الآيه فإن الآيات السابقه كانت تخاطب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم وَ تأخذ المشركين على الغيبه وَ تكلمهم بوساطته من غير أن تواجهه بشيء من الخطاب يخص نفسه، و قد حوّلت هذه الآيه وجه الكلام الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بما يخص به نفسه فقالت «و ما تكون من شأن و لا تتلوا منه من قرآن» ثم جمعتهم و المشركين و غيرهم جميعا فى خطاب واحد فقالت «وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا» و ذلك بضمهم الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و هم على غيبتهم و بسط الخطاب على الجميع بنوع من التغليب كما تقول لمخاطبك:

أنت و قومك تفعلون كذا و كذا.

و الدليل على أن هذا الخطاب بنحو الضم و التغليب قوله بعده: «و لا- يعزى عن ربك» الخ؛ فإن يكشف عن كون الخطاب معه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم جاريا على ما كان.

و على أى حال فالتحول المذكور فى خطاب الآيه للإشاره الى أن السلطنه و الإحاطه التامه الإلهيه واقعه على الأعمال شهاده و علما على أتم ما يكون من كل جهه من غير أن يستثنى منه نبى و لا- مؤمن و لا- مشرك او يغفل عن عمل من الاعمال فلا يتوهم احد أن الله يخفى عليه شيء من أمره فلا يحاسبه عليه يوم القيامه، و ليكن هذا هو ظنه بربه يوم القيامه و ليأخذ حذره.

و ذكر تلاوه القرآن مستقلا مع دخوله فى قوله قبالا: «وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ فَإِنَّهُ أَحَدٌ شَتُونَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم للايماء الى أهميه أمرها و مزيد العنايه بها.

و فى الآيه اولا تشديد فى العظه على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و على أمته، و ثانيا: أن الذى يتلوه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم من القرآن للناس من وحى الله و كلامه لا- يطرقة تغيير و لا يدب فيه باطل لا فى تلقيه منا لله و لا فى تلاوته للناس فالآيه قريبه المضمون من قوله: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيُعَلِّمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتٍ رَبِّهِمْ (الجن ٢٨)».

وقوله: **وَ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ**؛ العزوب الغيبه و التباعد و الخفاء، و فيه إشارة الى حضور الأشياء عنده تعالى من غير غيبه و حفظه لها في كتاب من غير زوال، و قد تقدم بعض ما يتعلق به من الكلام في ذيل قوله: **وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ** (الأنعام ٥٩) في الجزء السابع من الكتاب.

قوله تعالى: **الْأَلَاءِ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ** استئناف في الكلام غير أنه متعلق بغرض السوره و هو الدعوه الى الايمان بكتاب الله و النذب الى توحيد الله تعالى بمعناه الواسع.

و للدلاله على أهميه المطلب افتتح بلفظه «**الْأَلَاءِ**» التنبيهيه، و الله سبحانه يذكر في هذه الآيه و الآيتين بعدها أولياءه و يعرّفهم و يصف آثار ولايتهم و ما يختصون به من الخصيصه.

فأولياء الله-على أى حال-هو المؤمنون فإن الله يعدّ نفسه وليا لهم في حياتهم المعنويه حيث يقول: **وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ** (آل عمران ٦٨).

غير أن الآيه التاليه لهذه الآيه المفسره للكلمه تأبى أن تكون الولايه شامله لجميع المؤمنين و فيهم امثال الذين يقول الله سبحانه فيهم: **وَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ** (يوسف ١٠٦)

فإن قوله في الآيه التاليه: «**الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ**» يعرّفهم بالايمن و التقوى مع الدلاله على كونهم على تقوى مستمر سابق على إيمانهم من حيث الزمان حيث قيل «**آمَنُوا**» ثم قيل عطفاً عليه «**وَ كَانُوا يَتَّقُونَ**» فدللّ على أنهم كانوا يستمرون على التقوى قبل تحقق هذا الإيمان منهم و من المعلوم أن الإيمان الابتدائي غير مسبق بالتقوى بل هما متقاربان او هو قبل التقوى و خاصه التقوى المستمر.

فالمراد بهذه الإيمان مرتبه أخرى من مراتب الايمان غير المرتبه الاولى منه. فقد تقدم في الجزء الأول من الكتاب آيه ١٣٠ من البقره أن لكل من الإيمان و الإسلام و كذا الشرك و الكفر مراتب مختلفه بعضها فوق بعض فالمرتبه الاولى من الإسلام إجراء الشهاداتين لسانا

و التسليم ظاهرا، و تليه المرتبه الاولى من الإيمان و هو الإذعان بمؤدى الشهادتين قلبا إجمالا و إن لم يسر الى جميع ما يعتقد في الدين من الاعتقاد الحق، و لذا كان من الجائز أن يجتمع مع الشرك من بعض الجهات، قال تعالى: ﴿ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ (يوسف ١٠٦).

قوله تعالى: ﴿ لَّهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ يبشّرهم الله تعالى بشاره إجماليه بما تقر به أعينهم فإن كان قوله: ﴿ لَّهُمُ الْبُشْرَىٰ ﴾ إنشاء للبشاره كان معناه وقوع ما بشّر به في الدنيا و في الآخره كلاهما، و إن كان اخبارا بأن الله سيبشّرهم بشرى كانت البشاره واقعه في الدنيا و في الآخره، و أما المبشّر به فهل يقع في الآخره فقط او في الدنيا و الآخره معا؟ الآيه ساكته عن ذلك.

و قد وقع في كلامه تعالى بشارات للمؤمنين بما ينطبق على أوليائه تعالى كقوله تعالى:

﴿ وَ كَذَٰلِكَ عَلَّمْنَا نَبِيَّ رُؤْمٍ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم ٤٧) و قوله: ﴿ إِنَّا لَنُنصِّرُ رُؤْسَ لَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (المؤمن ٥١) و قوله: ﴿ بُشِّرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ (الحديد ١٢) الى غير ذلك.

و قوله: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ إشاره الى ان ذلك من القضاء المحتوم الذى لا سبيل للتبديل اليه، و فيه تطيب لنفوسهم.

قوله تعالى: ﴿ وَ لَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ تأديب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بتعزيتة و تسليته فيما كانوا يؤذونه به بالوقوع في ربه و الطعن في دينه و الاعتزاز بشركائهم و آلهتهم كما يشعر به القول في الآيه التاليه فكاد يحزن لله فسلاه الله و طيب نفسه بتذكيره ما يسكن وجده و هو أن العزه لله و أنه سميع لمقالهم عليهم بحاله و حالهم و إذ كان له تعالى كل العزه فلا يعبأ بما اعتزوا به من العزه الوهميه فهذوا ما هذوا، و إذ كان سميعا عليما فلو

شاء لأخذهم بالنكال و إذ كان لا يأخذهم فإنما فى ذلك مصلحه الدعوه و خير العاقبه.

□

و من هنا يظهر ان كلا من قوله: «إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ» و قوله: «هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» عله مستقله للنهى و لذا جىء بالفصل من غير عطف.

قوله تعالى: «الْأَلَاءِ إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ فِيهِ بَيَانُ مَالِكِيَّتِهِ تَعَالَى لِكُلِّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» التى بها يتم للإله معنى الربوبيه فإن الرب هو المالك المدبر لأمر مملوكه، و هذا الملك لله وحده لا شرك له فما يدعون له من الشركاء ليس لهم من معنى الشركه إلا ما فى ظن الداعين و فى خرصهم من المفهوم الذى لا مصداق له.

فالآيه تقيس شركاءهم اليه تعالى و تحكم ان نسبتهم اليه تعالى نسبه الظن و الخرص الى الحقيقه و الحق، و الباقي ظاهر.

و قد قيل «مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ» و لم قل: ما فى السماوات و ما فى الأرض لأن الكلام فى ربوبيه العباد من ذوى الشعور و العقل و هم الملائكه و الثقلان.

قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصِرًا» الآيه؛ الآيه تتم البيان الذى أورد فى الآيه السابقه لاثبات ربوبيته تعالى و الربوبيه - كما تعلم - هى الملك و التدبير، و قد ذكر ملكه تعالى فى الآيه السابقه، فبذكر تدبير من تدبيره العامه فى هذه الآيه تصلح به عامه معيشه الناس و تستبقى به حياتهم يتم له معنى الربوبيه.

و للإشاره الى هذا التدبير ذكر مع الليل سكنهم فيه، و مع النهار إبصارهم فيه الباعث لهم الى انواع الحركات و التنقلات لكسب مواد الحياه و اصلاح شئون المعاش فليس يتم أمر الحياه الانسانيه بالحركه فقط او بالسكون فقط فدبر الله سبحانه الأمر فى ذلك بظلمه الليل الداعيه الى تجديد تجهيز القوى بعد ما لحقها من العى و التعب و النصب و الى الارتياح و الانس بالأهل

و التمتع مما جمع و اكتسب بالنهار و الفراغ للعبوديه، و بضوء النهار الباعث الى الرؤيه فالاشتياق فالطلب.

قوله تعالى: [□] قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الاستيلاء بمعناه المعروف عند الناس هو ان يفصل الموجود الحي بعض اجزاء مادته فيربيه بالحمل او البيض تربيته تدريجيه حتى يتكون فردا مثله، و الانسان من بينها خاصه ربما يطلب الولد ليكون عوناً له على نوائب الدهر و ذخراً ليوم الفاقه، و هذا المعنى بجميع جهاته محال عليه تعالى فهو عزّ اسمه منزّه عن الاجزاء متعال عن التدرّج في فعله برىء عن المثل و الشبه مستغن عن غيره بذاته.

و قد نفى القرآن الولد عنه بالاحتجاج عليه من كل من الجهات المذكوره كما تعرّض لنفيه من جميعها في قوله: [□] قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ يَلِ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ يُدْعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (البقره ١١٧/) و قد مرّت الاشاره الى ذلك في تفسير الآيات في الجزء الأول من الكتاب.

و اما الآيه التي نحن فيها فهي مسوقه للاحتجاج على نفى الولد من الجبهه الاخيريه فحسب و هو ان الغرض من وجوده الاستعانه به عند الحاجه و ذلك انما يتصور فيمن كان بحسب طبعه محتاجاً فقيراً، و الله سبحانه هو الغنى الذي لا يخالفه فقر فانه المالك لما فرض في السماوات و الارض من شيء.

و قوله: [□] إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ أَيْ بَرهَانٍ «بِهَذَا» اثبات لكونهم انما قالوه جهلاً من غير دليل فيكون محصل المعنى انه لا دليل لكم على ما قلتموه بل الدليل على خلافه و هو انه تعالى غنى على الاطلاق، و الولد انما يطلبه من به فاقه و حاجه، و الكلام على ما اصطلاح عليه في فن المناظره من قبيل المنع مع السند.

و قوله: [□] أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ تويخ لهم في قولهم ما ليس لهم به

علم، وهو مما يستقبحه العقل الانساني و لا سيما فى ما يرجع الى رب العالمين عز اسمه.

قوله تعالى: قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ يُخَوِّفُ وَيُنذِرُ بِشَوْمِ الْعَاقِبَةِ، وَفِي الْآيَتَيْنِ مِنْ لَطِيفِ الْاِلْتِفَاتِ مَا هُوَ ظَاهِرٌ فَقَدْ حَكَى اللَّهُ أَوَّلًا عَنْهُمْ مِنْ طَرِيقِ الْغَيْبِ قَوْلَهُمْ: «اتَّخَذَ اللَّهُ وَدًّا» ثُمَّ خَاطَبَهُمْ خَطَابَ السَّخَطِ الْغَضْبَانِ مِمَّا نَسَبُوا إِلَيْهِ وَافْتَرَوْا عَلَيْهِ فَقَالَ «إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» وَانَّمَا خَاطَبَهُمْ مَتَنَكِرًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْرِفَهُمْ نَفْسَهُ حَيْثُ قَالَ «عَلَى اللَّهِ» وَ لَمْ يَقُلْ: عَلَيَّ أَوْ عَلَيْنَا صَوْنًا لِعَظَمَةِ مَقَامِهِ أَنْ يَخَالَطَهُمْ مَعْرُوفًا ثُمَّ اعْرَضَ عَنْهُمْ تَنْزَهًا عَنْ سَاحَةِ جَهْلِهِمْ وَ رَجَعَ إِلَى خَطَابِ رَسُولِهِ قَائِلًا «قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ» لِأَنَّهُ إِذْ نَذَرَ وَ الْإِنْذَارَ شَأْنَهُ.

قوله تعالى: مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِنِّي أَمْرَجُهُمْ ثُمَّ نَذَيْقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ خَاطَبَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فِيهِ بَيَانَ وَجْهَ عَدَمِ فَلَاحِهِمْ بِأَنَّهُ كَفَرَ بِاللَّهِ لَيْسَ بِحَدَائِهِ إِلَّا مَتَاعٌ قَلِيلٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ وَ الْعَذَابُ الشَّدِيدَ الَّذِي يَذُوقُونَهُ (١).

[سوره يونس (١٠): الآيات ٧١ الى ٧٤]

اشاره

وَ أُتِلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ كَابِرِينَ عَلَيْنَا مَقَامِي وَ تَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَ لَا تَنْظُرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ خَلَائِفًا وَ أَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٣) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)

ص: ٦٣

(١ - ١). بحث روائى فى فضل الله و رحمته: اولياء الله؛ البشرى للمتقين فى الحياه الدنيا و فى الآخرة.

قوله تعالى: وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ المقام مصدر ميمي و اسم زمان و مكان من القيام، و المراد به الأول أو الثالث أى قيامى بأمر الدعوه الى توحيد الله أو مكائنتى و منزلتى و هى منزله الرساله، و الإجماع العزم و ربما يتعدى بعلى قال الراغب: و أجمعت كذا اكثر ما يقال فيما يكون جمعا يتوسل اليه بالفكره نحو فأجمعوا كيدكم و شركاءكم.

و الغمه هى الكربه و الشده و فيه معنى التغطيه كأن الهم يغطى القلب، و منه الغمام للغيم سمي به لتغطيته وجه السماء، و القضاء الى الشىء إتمام أمره بقتل و إفناء و نحو ذلك.

و معنى الآيه وَآتِلْ يَا مُحَمَّدٌ «عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ» و خبره العظيم حيث واجه قومه و هو واحد يتكلم عن نفسه، و هو مرسل الى أهل الدنيا فتحدى عليهم بأن يفعلوا به ما بدا لهم إن قدروا على ذلك، و أتم الحججه على مكذبيه فى ذلك «إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ فَلْيَأْتِكُمْ بِآيَاتٍ كَمَا آتَى اللَّهَ بِمُوسَىٰ وَرَأَيْتُمُ اللَّهَ مُنْزِلًا فِي السَّمَاءِ لِأَنَّكُمْ كَانْتُمْ كَاذِبِينَ» و نهضتى لأمر الدعوه الى التوحيد أو منزلتى من الرساله «وَ تَذَكِّرِي بآيَاتِ اللَّهِ» و هو داعيكم لا محاله الى قتلى و إيقاع ما تقدرون عليه من الشر بى لإراحه أنفسكم منى «فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ» قبال ما يهددنى من تخرج صدوركم و ضيق نفوسكم علىّ بإرجاع أمرى اليه و جعله

وكيلا- يتصرف فى شئونى و من غير أن أشغل بالتدبير «فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكَاءَكُمْ» الذين تزعمون أنهم ينصرونكم فى الشدائد، واعزموا على بما بدا لكم، وهذا أمر تعجيزى «ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً» إن لم تكونوا اجتهدتم فى التوسل الى كل سبب فى دفعى «ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ» بدفعتى و قتلى «وَلَا تُنظِرُونِ» و لا تمهلونى.

و فى الآيه تحديه عليه السلام على قومه بأن يفعلوا به ما بدا لهم، و إظهار أن ربه قد ير على دفعهم عنه و إن أجمعوا عليه و انتصروا بشر كائهم و آلهتهم.

قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَلَمَّا سَأَلْتِكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ تفرّيع على توكله بربه، و قوله: «فَلَمَّا سَأَلْتِكُمْ» الخ؛ بمنزله وضع السبب موضع المسبب و التقدير فإن توليتهم و أعرضتم عن استجابته دعوتى فلا ضير لى فى ذلك فإنى لا أتضرر فى إعراضكم شيئاً لأنى إنما كنت أتضرر بإعراضكم عنى لو كنت سألتكم أجراً على ذلك يفوت بالإعراض و ما سألتكم عليه من أجر إن أجرى إلا على الله.

و قوله: وَ أَمِوتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أى الذين يسلمون الأمر اليه فيما أراده لهم و عليهم، و لا يستكبرون عن امره بالتسليم لسائر الأسباب الظاهره حتى يخضعوا لها و يتوقعوا به ايصال نفع او دفع شر.

قوله تعالى: فَكَذَّبُوهُ فَجَبْنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ جَعَلْنَاهُمْ خُلَافَةً إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الخلائف جمع خليفه أى جعلنا هؤلاء الناجين خلائف فى الارض و الباقين من بعدهم يخلفون سلفهم و يقومون مقامهم، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ يريد بالرسول من جاء منهم بعد نوح الى زمن موسى عليهم السلام. و ظاهر السياق أن المراد بالبينات الآيات المعجزه التى اقترحتها الامم على انبيائهم بعد مجيئهم و دعوتهم و تكذيبهم لهم فأتوا بها و كان فيها القضاء بينهم و بين اممهم، و يؤيده قوله بعده: «فَلَمَّا كَانُوا لِيَوْمِئِذٍ بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ» الخ؛

فإن السابق الى الذهن أنهم جاءوهم بالآيات البينات لكن الله قد كان طبع على قلوبهم لاعتدائهم فلم يكن في وسعهم أن يؤمنوا ثانيا بما كذبوا به أولا.

ولازم ذلك أن يكون تكذيبهم بذلك قبل مجيء الرسل بتلك الآيات البينات فقد كانت الرسل بتوا دعوتهم فيهم و دعوهم الى توحيد الله فكذبوا به و بهم ثم اقترحوا عليهم آيه معجزه فجاءوهم بها فلم يؤمنوا.

وقد أسلفنا بعض البحث عن هذه الآيه في تفسير قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ (الأعراف ١٠١) في الجزء الثامن من الكتاب، و بينا هناك أن في الآيه إشارة الى عالم الدرّ غير أنه لا ينافى إفادتها لما قدمناه من المعنى آنفا فليراجع.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٧٥ الى ٩٣]

إشارة

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُم الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰ أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَ جِئْنَا لِنَتْلِفَ لِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَ تَكُونُ لَكُمْ أَلِكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَ مَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) وَ قَالَ فِرْعَوْنُ إِنِّي نَبِيٌّ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) فَلَمَّا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّهُ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَ قَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَ نَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمْ بِمِصْرَ بَيْوتًا وَ اجْعَلُوا بَيْوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) وَ قَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ زِينَةً وَ أَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَ أَشْدُدْ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَقِيمُوا وَ لَا تَتَّبِعَنَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩) وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْيًا وَ عَدَاوَةً حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) أَلَا نَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُسْفِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) وَ لَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)

قوله تعالى: ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ الْخ؛ أى ثم بعثنا من بعد نوح و الرسل الذين من بعده موسى و أخاه هارون بآياتنا الى فرعون و الجماعه الذين يختصون به من قومه و هم القبط فاستكبروا عن آياتنا و كانوا مستمرين على الاجرام.

قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا الْخ؛ الظاهر أن المراد بالحق هو الآيه الحقه كالثعبان و اليد البيضاء، و قد جعلهما الله آيه لرسالته بالحق فلما جاءهم الحق قالوا و أكدوا القول: إن هذا-يشيرون الى الحق من الآيه-لسحر مبین واضح كونه سحرا، و انما سمى الآيه حقا قبال تسميتهم إياها سحرا.

قوله تعالى: قَالَ مُوسَىٰ أ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أ سِحْرٌ هَذَا الْخ؛ أى فلما سمع مقاتلتهم تلك و رميهم الحق بأنه سحر مبین قال لهم منكرًا لقولهم فى صورته الاستفهام:

«أ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ» إنه لسحر؟ ثم كزر الانكار مستفهما بقوله: «أ سِحْرٌ هَذَا»؟ فمقول القول فى الجمله الاستفهاميه محذوف إيجازا لدلاله الاستفهام الثانى عليه، و قوله: «وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ» يمكن أن يكون جملة حالیه معلله للإنكار الذى يدل عليه قوله: «أ سِحْرٌ هَذَا» ،

و يمكن أن يكون إخبارا مستقلا بيانا للواقع يبرئ به نفسه من أن يقترب السحر لأنه يرى لنفسه الفلاح و للساحرين أنهم لا يفعلون.

قوله تعالى: **قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا الْخِطَابُ** هو اللفت هو الصرف عن الشيء، والمعنى: قال فرعون و ملاء لموسى معاتبين له **«أَجِئْنَا لِنُلْفِتْنَا»** و تصرفنا **«عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا»** يريدون سنه قدمائهم و طريقتهم **«وَتَكُونَ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ»** يعنون الرئاسة و الحكومه و انبساط القدره و نفوذ الإراده يؤمّن بذلك أنكما اتخذتما الدعوه الدينيه وسيله الى إبطال طريقتنا المستقره فى الأرض، و وضع طريقه جديده أنتما واضعان مبتكران لها موضعها تحوزان بإجرائها فى الناس و إيماننا بكما و طاعتنا لكما الكبرياء و العظمه فى المملكه.

و بعبارة أخرى إنما جئنا لتبدلاً الدوله الفرعونه المتعرقه فى القبط الى دوله إسرائيليه تدار بإمامتكم و قيادتكم، و ما نحن لكما بمؤمنين حتى تنالا بذلك أمنيتكم و تبلغا غايتكم من هذه الدعوه المزوره.

قوله تعالى: **وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ** كان يأمر به ملاء فيعارض بسحر السحره معجزه موسى كما فصل فى سائر الآيات القاصه للقصه و تدل عليه الآيات التاليه.

قوله تعالى: **فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لَئِن لَّمْ يَأْتِنَا بِآيَاتٍ مِّنْ رَبِّهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخٰسِرِينَ** قَالُوا لَئِن لَّمْ يَأْتِنَا بِآيَاتٍ مِّنْ رَبِّهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخٰسِرِينَ

قوله تعالى: **فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ** ما قاله عليه السلام بيان لحقيقه من الحقائق لينطبق عليها ما سيظهره الله من الحق على يديه من صيروره العصا ثعبانا يلقف ما ألقوه من الحبال و العصى و أظهره فى صور الحيات و الثعابين بسحرهم.

و الحقيقة التي بينها لهم أن الذي جاءوا به سحر و السحر شأنه إظهار ما ليس بحق واقع في صورته الحق الواقع لحواس الناس و أنظارهم، و إذا كان باطلا في نفسه فإن الله سيبيطه لأن السنه الإلهيه جاريه على إقرار الحق و احقاقه في التكوين و إزهاق الباطل و إبطاله فالدوله للحق و ان كانت للباطل جوله أحيانا.

و لذا علل قوله: إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ بقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ» فإن الصلاح و الفساد شأنان متقابلان، و قد جرت السنه الإلهيه أن يصلح ما هو صالح و يفسد ما هو فاسد أي ان يرتب على كل منهما أثره المناسب له المختص به و أثر العمل الصالح ان يناسب و يلائم سائر الحقائق الكونيه في نظامها الذي تجرى هي عليه، و يمتزج بها و يخالطها فيصلحه الله سبحانه و يجريه على ما كان من طباعه، و أثر العمل الفاسد ان لا يناسب و لا يلائم سائر الحقائق الكونيه فيما تقتضيه بطباعها و تجرى عليه بجلتها فهو امر استثنائي في نفسه، و لو اصلحه الله في فساده كان ذلك إفسادا للنظام الكوني.

فيعارضه سائر الأسباب الكونيه بما لها من القوى و الوسائل المؤثره، و تعيده الى السير الصالحه إن أمكن و إلا أبطلته و أفنته و محته عن صحيفه الوجود البته.

قوله تعالى: وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ لما كشف الله عن الحقيقه المتقدمه في جانب النفي بقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ» أبان عنه في جانب الإثبات أيضا في هذه الآيه بقوله: «وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ» و قد جمع تعالى بين معنئ النفي و الإثبات في قوله: لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (الأنفال/٨).

و من هنا يقوى احتمال أن يكون المراد بالكلمات في الآيه أقسام الأفضيه الإلهيه في شئون الأشياء الكونيه الجاريه على الحق فإن قضاء الله ماض و سنته جاريه أن يضرب الحق و الباطل في نظام الكون ثم لا يلبث الباطل دون أن يفنى و يعفى أثره و يبقى الحق على جلانه، و ذلك قوله تعالى: أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا

وَمَا يُوقَدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلِيِّهِ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ (الرعد ١٧)، وسيجيء استيفاء البحث فيه في ذيل الآيه إن شاء الله تعالى.

و الحاصل أن موسى عليه السلام إنما ذكر هذه الحقيقة لهم ليوقفهم على سنّه إلهيه حقه غفلوا عنها، و ليهيئ نفوسهم لما سيظهره عملا من غلبه الآيه المعجزه على السحر و ظهور الحق على الباطل، و لذا بادروا الى الإيمان حين شاهدوا المعجزه، و ألقوا أنفسهم على الأرض ساجدين على ما فصله الله سبحانه في مواضع أخرى من كلامه.

و قوله: «وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ» و ذكر الإِجرام من بين أوصافهم لأن فيه معنى القطع فكأنهم قطعوا سبيل الحق على أنفسهم و بنوا على ذلك بنيانهم فهم على كراهيه من ظهور الحق، و لذلك نسب الله كراهه ظهور الحق اليهم بما هم مجرمون في قوله: «وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ» و في معناه قوله في اول الآيات: «فَأَسْتَكْبِرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ».

قوله تعالى: «فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ» ذكر بعض المفسرين أن الضمير في «قَوْمِهِ» راجع الى فرعون، و الذريه الذين آمنوا من قومه كانت أمهاتهم من بنى إسرائيل و آباؤهم من القبط فتبعوا أمهاتهم في الإيمان بموسى؛ و قيل: الذريه بعض أولاد القبط؛ و قيل: أريد بها امرأه فرعون و مؤمن آل فرعون، و قد ذكرا في القرآن و جاريه و امرأه هي مشاطه امرأه فرعون.

و ذكر آخرون أن الضمير لموسى عليه السلام و المراد بالذريه جماعه من بنى إسرائيل تعلموا السحر و كانوا من أصحاب فرعون؛ و قيل: هم جميع بنى إسرائيل و كانوا ستمائة الف نسمة سمّاهم ذريه لضعفهم؛ و قيل: ذريه آل إسرائيل ممن بعث اليهم موسى و قد هلكوا بطول العهد، و هذه الوجوه - كما ترى - لا دليل على شيء منها في الآيات من جهة اللفظ.

و الذى يفيد السياق و هو الظاهر من الآيه أن يكون الضمير راجعا الى موسى و المراد

بالذريه من قوم موسى بعض الضعفاء من بنى إسرائيل دون ملائهم الأقوياء و الشرفاء، و الاعتبار يساعد على ذلك فإنهم جميعا كانوا أسراء للقبط محكومين بحكمهم بأجمعهم، و العاده الجاربه فى أمثال هذه الموارد أن يتوسل الشرفاء و الأقوياء بأى وسيله أمكنت الى حفظ مكانتهم الاجتماعيه و جاههم القومى، و يتقربوا الى الجبار المسيطر عليهم بإرضائه بالمال و التظاهر بالخدمه و مرءاه النصيح و التجنب عما لا- يرتضيه فلم يكن فى وسع الملأ- من بنى اسرائيل أن يعلنوا موافقه موسى على بغيته، و يتظاهروا بالايمان به.

على أن قصص بنى اسرائيل فى القرآن أعدل شاهد على أن كثيرا من عتاه بنى اسرائيل و مستكبريهم لم يؤمنوا بموسى الى أواخر عهده و إن كانوا يتسلّمون له و يطيعونه فى عامه او امره التى كان يصدرها لبذل المساعى فى سبيل نجاه بنى اسرائيل لما كان فيها صلاح قوميتهم و حريه شعبهم و منافع اشخاصهم، فالإطاعه فى هذه الامور أمر و الإيمان بالله و ما جاء به الرسول أمر آخر.

و يستقيم على هذا معنى قوله: «وَ مَلَأْتَهُمْ» بأن يكون الضمير الى الذريه و يفيد الكلام أن الذريه الضعفاء كانوا فى ايمانهم يخافون الملأ و الأشراف من بنى اسرائيل فانهم ربما كانوا يمنعونهم لعدم إيمانهم انفسهم او تظاهروا بذلك ليرضوا به فرعون و قومه و يطيبوا انفسهم فلا يضيّقوا عليهم و ينقصوا من إيدائهم و التشديد عليهم.

و أما ما قيل: إن الضمير راجع الى فرعون لأنه ذو أصحاب او للذريه لأنهم كانوا من القبط فمما لا يصار اليه البته و خاصه أول الوجيهين.

و قوله: «أَنْ يَفْتِنَهُمْ اى يعذبهم ليعودوا الى ملته، و قوله: «وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْمَأْرُضِ» اى و الظرف هذا الظرف و هو أن فرعون عال فى الارض مسرف فى الأمر.

فالمعنى -و الله أعلم- فتفرع على قصه بعثهما و استكبار فرعون و ملته أنه لم يؤمن بموسى إلا- ضعفاء من بنى اسرائيل و هم يخافون ملائهم و يخافون فرعون أن يعذبهم لإيمانهم و كان

ينبغي لهم و من شأنهم أن يخافوا فإن فرعون كان يومئذ عالياً في الأرض مسلطاً عليهم و أنه كان من المسرفين لا يعدل فيما يحكم و يجاوز الحد في الظلم و التعذيب.

و لو صحَّ أن يراد بقومه كل من بعث اليهم موسى و بلغهم الرسالة و هم القبط و بنو اسرائيل استقام الكلام من طريق آخر من غير حاجة الى ما تقدم من تكلفاتهم.

قوله تعالى: **وَ قَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ** لما كان الايمان بالله بما يفيد للمؤمن من العلم بمقام ربه و لو إجمالاً و أنه سبب فوق الأسباب اليه ينتهي كل سبب، و هو المدبّر لكل أمر، يدعوه الى تسليم الأمر اليه و التجنب عن الاعتماد بظاهر ما يمكنه التسبب به من الأسباب فإنه من الجهل، و لازم ذلك إرجاع الأمر اليه و التوكل عليه، و قد أمرهم في الآية بالتوكل على الله، علقه أولاً على الشرط الذي هو الإيمان ثم تمم الكلام بالشرط الذي هو الإسلام.

فالكلام في تقدير: إن كنتم آمنتم بالله و مسلمين له فتوكلوا عليه. و قد فرّق بين الشرطين و لعله لم يجمع بينهما فيقول «إن كنتم آمنتم و أسلمتم فتوكلوا» لاختلاف الشرطين بحسب الحال فقد كان الإيمان واقعا محرزا منهم، و أما الاسلام فهو من كمال الإيمان، و ليس من الواجب الضروري ان يكون كل مؤمن مسلماً بل من الأولى الأخرى أن يكمل إيمانه بالإسلام.

فالتفريق بين الشرطين للإشعار بكون احدهما واجبا واقعا منهم، و الآخر مما ينبغي لهم أن يتحققوا به فالمعنى: يا قوم إن كنتم آمنتم بالله - و قد آمنتم - و كنتم مسلمين له - و ينبغي أن تكونوا كذلك - فتوكلوا على الله؛ ففي الكلام من لطيف الصنعة ما لا يخفى.

قوله تعالى: **فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** الى آخر الآيتين، إنما توكلوا على الله لينجيهم من فرعون و ملئه فدعاؤهم بما دعوا به من قولهم: «رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً» الخ؛ سؤال منهم نتيجة توكلهم و هو ان ينزع الله منهم لباس الضعف و الذلّ، و ينجيهم من القوم الكافرين.

أما الأول فقد اشاروا اليه بقولهم: «رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» وذلك أن الذى يغرى الأقوياء الظالمين على الضعفاء المظلومين هو ما يشاهدون فيهم من الضعف فيفتنون به فيظلمونهم فالضعيف بما له من الضعف فتنه للقوى الظالم كما أن الأموال والأولاد بما عندها من جاذبه الحب فتنه للانسان، قال تعالى: إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ (التغابن ١٥).

و الدنيا فتنه لطالبها فسؤالهم ربهم أن لا يجعلهم فتنه للقوم الظالمين سؤال منهم أن يسلبهم الضعف و الذله بسلب الغرض منه و هو سلب الشيء بسلب سببه.

و أما الثانى أعنى التنجيه فهو الذى ذكره حكاية عنهم فى الآيه الثانيه «وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمْ بِمِصْرَ بَيْوتًا مِّنَ الخ؛ التبوؤ أخذ المسكن و المنزل، و مصر بلد فرعون، و القبلة فى الأصل بناء نوع من المصدر كجلسه أى الحاله التى يحصل بها التقابل بين الشيء و غيره فهو مصدر بمعنى الفاعل أى اجعلوا بيوتكم متقابله يقابل بعضها بعضا و فى وجهه واحده و كان الغرض أن يتمكننا منهم بالتبليغ و يتمكنوا من إقامة الصلاة جماعه كما يدل عليه او يشعر به قوله بعده: «وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ» لوقوعه بعده.

و أما قوله: وَ بَشَّرِ الْمُؤْمِنِينَ فالسياق يدل على أن المراد به البشاره بإجابه ما سأله فى دعائهم المذكور آنفا «رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً» الى آخر الآيتين.

و المعنى: و أوحينا الى موسى و أخيه أن اتخذا لقومكما مساكن من البيوت فى مصر -و كأنهم لم يكونوا الى ذاك الحين إلا كهيئه البدويين يعيشون فى الفساطيط أو عيشه تشبهها- و اجعلا أنتما و قومكما بيوتكم متقابله و فى جهه واحده يتصل بذلك بعضكم ببعض و يتمشى أمر التبليغ و المشاوره و الاجتماع فى الصلوات، و أقيموا الصلاة و بشر يا موسى أنت المؤمنين بأن الله سينجيهم من فرعون و قومه.

قوله تعالى: وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا خَالِجًا مِنَ الزَّيْنِ وَهِيَ الْهَيْئَةُ الَّتِي تَجْذِبُ النَّفْسَ إِلَى الشَّيْءِ، والنسبه بين الزينه و المال العموم من وجه فبعض الزينه ليس بمال يبذله بإزائه الثمن كحسن الوجه و اعتدال القامه، و بعض المال لبس بزينه كالأنعام و الأراضي، و بعض المال زينه كالحلى و التقابل الواقع بين الزينه و المال يعطى أن يكون المراد بالزينه جهه الزينه من غير نظر الى المالىه كالحلى و الرياش و الأثاث و الأبنيه الفاخره و غيرها.

و قوله: رَبَّنَا لِيُضِلُّنَا عَن سَبِيلِكَ قِيلَ اللَّامُ لِلْعَاقِبَةِ، و المعنى و عاقبه أمرهم أنهم يضلون عن سبيلك، و لا- يجوز أن يكون لام الغرض لأننا قد علمنا بالأدله الواضحه أن الله سبحانه لا- يبعث الرسول ليأمر الخلق بالضلال و لا يريد أيضا منهم الضلال، و كذلك لا يؤتيهم المال ليضلوا. انتهى.

و هو حقّ لكن في الإضلال الابتدائي المستحيل عليه تعالى، و أما الإضلال بعنوان المجازاه و مقابله السوء بالسوء فلا دليل على امتناعه على الله سبحانه بل يثبتته كلامه في موارد كثيره، و قد كان فرعون و ملؤه مصرّين على الاستكبار و الإفساد ملخّين على الإجرام فلا مانع من أن يؤتيهم الله بذلك زينه و أموالا ليضلوا عن سبيله جزاء بما كسبوا.

و ربما قيل: إن اللام في لِيُضِلُّنَا للدعاء، و ربما قيل: إن الكلام بتقدير لا أى لئلا يضلوا عن سبيلك، و السياق لا يساعد على شيء من الوجهين.

و الطمس - كما قيل - تغير الى الدثور و الدروس فمعنى «اطمس على أموالهم» غيرها الى الفناء و الزوال، و قوله: «وَ أَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ» من الشد المقابل للحل أى أقس قلوبهم و اربط عليها ربطا لا ينشرح للحق فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم فهو الطبع على القلوب، و قول بعضهم: إن المراد بالشد تثبيتهم على المقام بمصر بعد الطمس على أموالهم ليكون ذلك أشد عليهم و ألم، و كذا قول آخرين: إنه كناية عن إماتتهم و إهلاكهم من الوجوه

فمعنى الآية: وقال موسى-و كان ذلك بعد يأسه من إيمان فرعون و ملئه و يقينه بأنهم لا يدومون إلا على الضلال و الإضلال كما يدل عليه سياق كلامه في دعائه-ربنا إنك جازيت فرعون و ملأه على كفرهم و عتوهم جزاء السوء فآتيتهم زينه و أموالا في الحياه الدنيا ربنا إرادته منك لأن يضلوا من أتبعهم عن سبيلك، و إرادتك لا تبطل و غرضك لا يلغو ربنا آدم على سخطك عليهم و اطمس على أموالهم و غيرها عن مجرى النعمه الى مجرى النقمه، و اجعل قلوبهم مشدوده مربوطه فلا يؤمنوا حتى يقفوا موقفا لا ينفعهم الإيمان و هو زمان يرون فيه العذاب الإلهي.

و هذا الدعاء من موسى عليه السلام على فرعون و ملئه إنما هو بعد يأسه التام من إيمانهم، و علمه أنه لا يترقب منهم في الحياه إلا أن يضلوا و يضلوا كدعاء نوح على قومه فيما حكاه الله: رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (نوح ٢٧/)، و حاشا ساحه الأنبياء عليهم السلام أن يتكلموا على الخرص و المظنه في موقف يشافهون فيه رب العالمين جلت كبرياؤه و عز شأنه.

قوله تعالى: قَالَ قَدْ أُجِيبْتُ دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَجِيبُوا لِي وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ الخطاب-على ما يدل عليه السياق-لموسى و هارون و لم يحك الدعاء في الآية السابقه إلا عن موسى، و هذا يؤيد ما ذكره المفسرون: أن موسى صلى الله عليه و آله و سلم كان يدعو، و كان هارون يؤمن له و آمين دعاء فقد كانا معا يدعوان و إن كان متن الدعاء لموسى عليه السلام وحده.

و الاستقامه هو الثبات على الأمر، و هو منهما عليهما السلام الثبات على الدعوه الى الله و على إحياء كلمه الحق، و المراد بالذين لا يعلمون الجهله من شعب إسرائيل و قد وصفهم موسى عليه السلام بالجهل كما في قوله: قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (الأعراف ١٣٨/).

و المعنى قَالَ اللهُ مخاطبا لموسى و هارون «قَدْ أَجِيبْتُ دَعْوَتَكُمَا» من سؤال العذاب الأليم لفرعون و ملئه، و الطمس على أموالهم و الشد على قلوبهم «فَأَسْتَقِيمَا» و اثبتا على ما أمرتما به من الدعوه الى الله و إحياء كلمه الحق «وَلَا تَتَّبِعَانَّ» البتة «سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» بإجابه ما يقترحون عليكما عن أهواء أنفسهم و دواعى شهواتهم، و فيه نوع تلويح الى أنهم سيسألون أمورا فيها إحياء سنتهم القوميه و سيرتهم الجاهليه.

و بالجملة فالآيه تذكر إجابته دعوتهما المتضمنه لعذاب فرعون و ملئه و عدم توفيقهم للإيمان و وعدهما بذلك، و لذلك ذكر فى الآيه التاليه وفاؤه تعالى بهذا الوعد بخصوصيته التى فيه.

و لم يكن فى الدعاء ما يدل على مسأله الفور أو التراخى فى القضاء عليهم بالعذاب و على ذلك جرى أيضا سياق الآيه الداله على القبول و الإجابته و كذا الآيه المخبره عن كيفية إنجازها، و قد نقل فى المجمع عن ابن جريج أن فرعون مكث بعد هذا الدعاء أربعين سنه قال: و روى ذلك عن أبى عبد الله عليه السّلام، و رواه عنه عليه السّلام فى الاحتجاج و كذا فى الكافى و تفسير العياشى عن هشام بن سالم عنه عليه السّلام و فى تفسير القمى عن أبيه عن النوفى عن السكونى عنه عليه السّلام.

قوله تعالى: «وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَيْدًا إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ، الْبَغْيُ وَ الْعَدُو كَالْعَدْوَانِ الظلم و إدراك الشىء اللحق به و التسلط عليه كما أن اتّباع الشىء طلب اللحق به.

و قوله: «آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَى آمَنْتُ بِأَنَّهُ.

و قد وصف الله بالذى آمنتم به بنو إسرائيل ليظفر بما ظفروا به بإيمانهم و هو مجاوزة البحر و الأمان من الغرق، و لذلك أيضا جمع بين الإيمان و الإسلام ليزيل بذلك أثر ما كان يصير عليه من المعصيه و هو الشرك بالله و الاستكبار على الله، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ آلآنَ بالمد أصله

ءالآن أى أ تؤمن بالله الآن و هو حين أدركك العذاب و لا إيمان و توبه حين غشيان العذاب و مجيء الموت من كل مكان، و قد عصيت قبل هذا و كنت من المفسدين، و أفنيت أيامك فى معصيته، و لم تقدم التوبه لوقتها فما ذا ينفعك الإيمان بعد فوت وقته و هذا هو الذى كان موسى و هارون سألاه ربهما ان يأخذ به عذاب أليم و يسد سبيله الى الإيمان إلا حين يغشاه العذاب فلا ينفعه الإيمان و لا تغنى عنه التوبه شيئا.

قوله تعالى: فَأَلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ التنجيه و الإنجاء تفعيل و إفعال من النجاه كالتخليص و الإخلاص من الخلاص وزنا و معنى.

و تنجيته ببدنه تدل على أن له اما آخر وراء البدن فقدنه بغشيان العذاب و هو النفس التى تسمى ايضا روحا، و هذه النفس المأخوذه هى التى يتوفاها الله و يأخذها حين موتها كما قال تعالى: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا (الزمر ٤٢)، و قال: قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (الم السجده ١١)، و هى التى يخبر عنها الانسان بقوله: «أنا» و هى التى بها تتحقق للإنسان إنسانيته، و هى التى تدرك و تريد و تفعل الأفعال الانسانيه بواسطه البدن بما له من القوى و الأعضاء الماديه، و ليس للبدن إلا أنه آله و أداه تعمل بها النفس أعمالها الماديه.

و لمكان الاتحاد الذى بينها و بين البدن يسمى باسمها البدن و إلا فأسماء الأشخاص فى الحقيقه لنفوسهم لا لأبدانهم، و ناهيك فى ذلك التغير المستمر الذى يعرض البدن مده الحياه، و التبديل الطبيعى الذى يطرأ عليه حيننا بعد حين حتى ربما تبدل البدن بجميع أجزائه الى أجزاء آخر تتركب بدنا آخر فلو كان زيد هو البدن الذى ولدته أمه يوم ولدته و الاسم له لكان غيره و هو ذو سبعين و ثمانين قطعا و الاسم لغيره حتما، و لم يثب و لم يعاقب الانسان و هو شائب على ما عمله و هو شاب لأن الطاعه و المعصيه لغيره.

فهذه و أمثالها شواهد قطعيه على أن إنسانيه الانسان بنفسه دون بدنه، و الأسماء للنفوس لا للأبدان يدركها الانسان و يعرفها إجمالاً و إن كان ربما أنكرها فى مقام التفصيل.

و بالجملة فالآيه: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ كالصريح أو هو صريح فى أن النفوس وراء الأبدان، و أن الأسماء للنفوس دون الأبدان إلا ما يطلق على الأبدان بعنايه الاتحاد.

فمعنى: نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ نخرج بدنك من اليم و ننجيه، و هو نوع من تنجيتك-لما بين النفس و البدن من الاتحاد القاضى بكون العمل الواقع على أحدهما واقعا بنحو على الآخر- لتكون لمن خلفك آيه، و هذا بوجه نظير قوله تعالى: مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ (طه/ ٥٥) فإن الذى يعاد الى الأرض هو جسد الانسان دون الانسان التام فليست نسبة الإعاده الى الانسان إلا لما بين نفسه و بدنه من الاتحاد.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءاً صِدْقٍ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ أى أسكناهم مسكن صدق، و إنما يضاف الشىء الى الصدق نحو وعد صدق و قدم صدق و لسان صدق و مدخل صدق و مخرج صدق للدلاله على أن لوازم معناه و آثاره المطلوبه منه موجوده فيه صدقا من غير أن يكذب فى شىء من آثاره التى يعده بلسان دلالتها للالتزاميه لطالبه فوعد صدق مثلا هو الوعد الذى سيفى به و اعده، و يسر بالوفاء به موعوده، و يحق أن يطمع فيه و يرجى وقوعه. فإن لم يكن كذلك فليس بوعد صدق بل وعد كذب كأنه يكذب فى معناه و لوازم معناه.

و على هذا فقوله: مَبُوءاً صِدْقٍ يدل على أن الله سبحانه بَوَّأهم مَبُوءاً يوجد فيه جميع ما يطلبه الإنسان من المسكن من مقاصد السكنى كطيب الماء و الهواء و بركات الأرض و وفور نعمها و الاستقرار فيها و غير ذلك، و هذه هى نواحي بيت المقدس و الشام التى أسكن الله بنى إسرائيل فيها و سماها الأرض المقدسه المباركه و قد قص القرآن دخولهم فيها.

و الآيه أعنى قوله: وَ لَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ -الى قوله- مِنْ الطَّيِّبَاتِ

مسوقه سوق الشكوى و العتبى، و يشهد به تذييلها بقوله: «فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ» و قوله: «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ» الى آخر الآيه بيان لعاقبه اختلافهم عن علم و بمنزله أخذ النتيجة من القصه.

و المعنى: أنا أتمننا على بنى إسرائيل النعمه و بوأناهم مبيوء صدق و رزقناهم من الطيبات بعد حرمانهم من ذلك مده طويله كانوا فيها فى إساره القبط فوحدنا شعبهم و جمعنا شملهم فكفروا النعمه و فرّقا الكلمه و اختلفوا فى الحق، و لم يكن اختلافهم عن عذر الجهل و إنما اختلفوا عن علم إن ربك يقضى بينهم فيما كانوا فيه يختلفون.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٩٤ الى ١٠٣]

إشاره

فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسِئْلِ الَّذِينَ يَنْقُرُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَ لَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَمَأَمَّنْ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٠٠) قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلِ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)

قوله تعالى: فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ إِلَى آخِرِ آيَةِ الشَّكِّ الرَّيْبِ، و المراد بقوله: «مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ» المعارف الراجعة الى المبدأ و المعاد و السنّه الإلهيه فى القضاء على الامم مما تقدم فى السوره، و قوله: «يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ» «يَقْرَأُونَ» فعل مضارع استعمل فى الاستمرار «مِنْ قَبْلِكَ» حال من الكتاب عامله متعلقه المقدره و التقدير منزلا من قبلك. كل ذلك على ما يعطيه السياق.

و المعنى «فَإِنْ كُنْتَ» أيها النبى «فى ريب» و شك «مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ» من المعارف الراجعة الى المبدأ و المعاد و ما قصصنا عليك اجمالا- من قصص الأنبياء الحاكيه لسنه الله الجاربه فى خلقه من الدعوه أولا ثم القضاء بالحق «فَسِئَلُ» اهل الكتاب «الَّذِينَ» لا يزالون «يَقْرَأُونَ» جنس «الْكِتَابِ» منزلا- من السماء «مِنْ قَبْلِكَ» أقسم «لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» المترددين.

و هذا لا يستلزم وجود ريب فى قلب النبى صلى الله عليه و آله و سلم و لا تحقق شك منه فان هذا النوع من الخطاب كما يصح أن يخاطب من يجوز عليه الريب و الشك كذلك يصح أن يخاطب به من هو على يقين من القول و بينه من الأمر على نحو التكنيه عن كون المعنى الذى أخبر به المخبر مّياً تعاضدت عليه الحجج و تجمعت عليه الآيات فان فرض من المخاطب او السامع شكّ فى واحده منها كان له ان يأخذ بالآخرى.

و هذه طريقه شائعه فى عرف التخاطب و التفاهم يأخذ بها العقلاء فيما بينهم جريا على ما تدعوهم اليه قرائحهم ترى الواحد منهم يقيم الحججه على أمر من الامور ثم يقول: فان شككت فى ذلك أو سلّمنا أنها لا توجب المطلوب فهناك حجّه اخرى على ذلك و هى أنّ كذا كذا، و ذلك كناية عن أنّ الحجج متوفره متعاضده كالدعائم المضروبه على ما لا يحتاج الى مزيد من واحد منها لكنّ الغرض من تكثيرها هو أن تكون العريشه قائمه عليها على تقدير قيام الكل و البعض.

فيقول معنى الكلام الى أن هذه معارف بينها الله لك بحجج تضطر العقول الى قبولها و قصص تحكى سنّه الله فى خلقه و الآثار تدل عليها، بينها فى كتاب لا- ريب فيه، فعلى ما بينه حجّه و هناك حجّه اخرى و هى أنّ أهل الكتب السماويه الموفين لها حق قراءتها يجدون ذلك فيما يقرءونه من الكتاب فهناك مبدأ و معاد، و هناك دين الهى بعث به رسله يدعون اليه، و لم يدعوا أمّه من الامم إلا انقسموا قبيلين مؤمن و مكذب فأنزل الله آيه فاصله بين الحق و الباطل و قضى بينهم.

و هذا أمر لا- يسع أهل الكتاب أن ينكروه، و إنما كانوا ينكرون بشارات النبى صلى الله عليه و آله و سلم و بعض ما يختص به الإسلام من المعارف و ما غيروه فى الكتب من الجزئيات، و من لطيف الإشاره أن الله سبحانه لم يذكر فى القصص المذكوره فى هذه السوره قصه هود و صالح لعدم تعرّض التوراه الموجوده عندهم لقصّتهما و كذا قصه شعيب و قصه المسيح لعدم توافق أهل الكتاب عليها

و ليس إلا لمكان أن يستشهد في هذه الآية بما لا يمتنعون من تصديقه.

فهذه الآية في القاء الحجّ على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وزان قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (الشعراء ١٩٧) في القاء الحجّ الى الناس.

على أنّ السورة من أوائل السور النازلة بمكّه، و لم تشتد الخصومه يومئذ بين المسلمين و أهل الكتاب و خاصة اليهود اشتدادها بالمدينه، و لم يركبوا بعد من العناد و اللجاج ذاك المركب الصعب الذي ركبوه بعد هجره النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و نشوب الحروب بينهم و بين المسلمين حتى بلغوا المبلغ الذي قالوا: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشْرًا مِنْ شَيْءٍ (الأنعام ٩١).

فهذا ما يعطيه سياق الآية من المعنى، و أظنك إن أمعنت في تدبر الآية و سائر الآيات التي تناسبها مما يخاطب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عليه و آلِهِ وَسَلَّمَ بحقيه ما نزل اليه من ربه، و يتحدى على البشر بعجزهم عن إتيان مثله، و ما يصف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ سلم أنه على بصيره من أمره، و أنه على بينه من ربه أقنعك ذلك فيما قدمناه من المعنى، و أغناك عن التمحلات التي ارتكبوها في تفسير الآية بما لا جدوى في نقلها و البحث عنها.

قوله تعالى: وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتُكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ نهى عن الارتياب و الامتراء أولاً ثم ترقى الى النهى عن التكذيب بآيات الله و هو العناد مع الحق استكباراً على الله فإن الآية لا تكون آية إلا مع وضوح دلالتها و ظهور بيانها و تكذيب ما هذا شأنه لا يكون مبنيًا إلا على العناد و اللجاج.

و قوله: فَتُكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ تفرّيع على التكذيب بآيات الله فهو نتيجته و عاقبته فهو المنهى عنه بالحقيقه. و المعنى: و لا تكن من الخاسرين، و الخسران زوال رأس المال بانتقاصه او ذهاب جميعه، و هو الإيمان بالله و آياته الذي هو رأس مال الإنسان في سعادته حياته في الدنيا و الآخرة على ما يستفاد من الآية التاليه حيث يعلل خسرانهم أنهم لا يؤمنون.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَ لَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ النَّخِ؛ تعليل للنهي السابق ببيان ما للمنهى عنه من الشأن فإن اصل النظم بحسب المعنى المستفاد من السياق أن يقال: لا تكونن من المكذبين لأن المكذبين لا يؤمنون فيكونون خاسرين لأن رأس مال السعادة هو الإيمان فوضع قوله: «الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ» موضع «المكذبين» للدلالة على سبب الحكم و أن المكذبين إنما يخسرون لأن كلمه الله سبحانه تحق عليهم فالأمر على كل حال الى الله سبحانه.

و الكلمه الإلهيه التي حقت على المكذبين بآيات الله هي قوله يوم شرع الشريعة العامه لآدم و زوجته فمن بعدهما من ذريتهما: قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا - الى قوله - وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقره ٣٩).

و هذا هو الذى يريد به بقوله فى مقام بيان سبب خسران المكذبين: «إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ» و هم المكذبون حقت عليهم كلمه العذاب فهم «لا- يُؤْمِنُونَ» و لذلك كانوا خاسرين لأنهم ضيعوا رأس مال سعادتهم و هو الإيمان فحرموه و حرموا بركاته فى الدنيا و الآخرة، و إذ حق عليهم أنهم لا- يؤمنون فلا- سبيل لهم الى الإيمان و لو جاءتهم كل آيه «حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» و لا فائده فى الإيمان الاضطرارى.

قوله تعالى: فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَا آَمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِيَابَ الْخِزْيِ النَّخِ؛ ظاهر السياق أن لو لا للتخصيص، و أن المراد بقوله: «آمَنَتْ» الإيمان الاختيارى الصحيح كما يشعر به قوله بعده: «فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا» و لوقوع التخصيص على أمر ماض لم يتحقق أفادت الجملة معنى اليأس المساوق للنفى فاستقام الاستثناء الذى فى قوله: «إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ».

و المعنى: هلا كانت قريه- من هذه القرى التي جاءتهم رسلنا فكذبوهم- آمنت قبل نزول العذاب إيماناً اختيارياً فنفعها إيمانها. لا و لم يؤمن إلا قوم يونس لما آمنت كشفنا عنهم عذاب

الخزى فى الحياه الدنيا و متعناهم بالحياه الى حين آجالهم العاديه الطبيعيه. و منه يعلم أن الاستثناء متصل.

قوله تعالى: **وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَمَأْمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً** اى لكنه لم يشأ ذلك فلم يؤمن جميعهم و لا يؤمن فالمشيئه فى ذلك الى الله سبحانه و لم يشأ ذلك فلا ينبغى لك أن تطمع فيه و لا أن تجتهد لذلك لأنك لا تقدر على إكراههم و إجبارهم على الإيمان، و الإيمان الذى نريده منهم هو ما كان عن حسن الاختيار لا ما كان عن إكراه و إجبار.

و لذلك قال بعد ذلك فى صورته الاستفهام الإنكارى **«أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ»** اى بعد ما بينا أن أمر المشيه الى الله و هو لم يشأ إيمان جميع الناس فلا يؤمنون باختيارهم البته لم يبق لك إلا أن تكره الناس و تجبرهم على الإيمان، و أنا أنكر ذلك عليك فلا أنت تقدر على ذلك و لا أنا أقبل الإيمان الذى هذا نعته.

قوله تعالى: **وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ** لما ذكر فى الآيه السابقه أن الأمر الى الله سبحانه لو شاء أن يؤمن أهل الأرض جميعاً لآمنوا لكنه لم يشأ فلا مطمع فى إيمان الجميع زاد فى هذه الآيه فى بيان ذلك ما محصله أن الملك-بالكسر-لله فله أصاله التصرف فى كل أمر لا- يشاركه فى ذلك مشارك إلا أن يأذن لبعض ما خلقه فى بعض التصرفات.

و الإيمان بالله عن اختيار و الاهتداء اليه أمر من الامور يحتاج فى تحققه الى سبب يخصه، و لا يؤثر هذا السبب و لا يتصرف فى الكون بإيجاد مسببه إلا عن إذن من الله سبحانه فى ذلك لكن الله سبحانه بجعل الرجس و الضلال على أهل العناد و النجود لم يأذن فى إيمانهم، و لا رجاء فى سعادتهم.

و لو أنه تعالى أذن فى ذلك لأحد لأذن فى إيمان غير أولئك المكذبين فقوله: **«وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ»** حكم عام حقيقى ينيط تملك النفوس للإيمان الى إذن الله، و قوله:

«وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ» الخ؛ يسلب عن الذين لا يعقلون استعداد حصول الإذن فيبقى غيرهم.

وقد أريد في الآيه بالرجس ما يقابل الإيمان من الشك والريب بمعنى أنه هو المصداق المنطبق عليه الرجس في المقام لما قوبل بالإيمان، وقد عرّف في قوله تعالى: «وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأْتَمَّ يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (الأنعام ١٢٥)».

وقد أريد أيضا بقوله: «الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ أَهْلَ التَّكْذِيبِ بآياتِ اللَّهِ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُمْ مِمَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ فَإِنَّهُمْ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ قَالَ: وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (التوبة ٩٣)».

قوله تعالى: «قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ الْمَخْتَلِفَةِ الْمُتَشَتِّتَةِ الَّتِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى تَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ، وَقَوْلُهُ: «وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ» ظاهره أن «ما» استفهامية والجمله مسوقه بداعى الإنكار وإظهار الأسف كقول الطيب: بما ذا أعالج الموت؟ أى إنا أمرناك أن تنذرهم بقولنا «قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ» الخ؛ لكن أى تأثير للنذر فيهم أو للآيات فيهم وهم لا يؤمنون أى عازمون مجتمعون على أن لا يؤمنوا بالطبع الذى على قلوبهم وربما قيل: إن ما نافية.

قوله تعالى: «فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ تَفْرِيعَ عَلَى مَا فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ مِنْ قَوْلِهِ: «وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ» أى اذا لم تغن الآيات والنذر عنهم شيئا وهم لا يؤمنون البتة فهم لا ينتظرون إلا مثل ايام الذين خلوا من قبلهم، وإنما يحبسون نفوسهم لآيه العذاب الإلهى التى تفصل بينك وبينهم فتقضى عليهم لأنهم حقت عليهم كلمة العذاب.

ولذا أمر النبى صلى الله عليه وآله وسلم ان يبلغهم ذلك بقوله: «قُلْ فَانْتَظِرُوا» أى مثل ايام الذين خلوا من قبلكم يعنى يوم العذاب الذى يفصل بينى وبينكم فتؤمنون ولا ينفعكم إيمانكم «إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ

و قد تبين بما مرّ أن الاستفهام فى الآيه إنكارى.

قوله تعالى: ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا الْجمله تتمه صدر الآيه السابقه و قوله: «قُلْ فَانْتَظِرُوا» الخ؛ جمله معترضه و النظم الأصلى بحسب المعنى «فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ» أى قومك هؤلاء «إِلَّا- مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ» من الامم الذين كانت تحق عليهم كلمه العذاب فنرسل اليهم آيه العذاب «ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا».

و إنما اعترض بقوله: قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ بين الكلام لأنه يتعلق بالجزء الذى يتقدمه من مجموع الكلام المستفهم عنه فإنه المناسب لأن يجعل جوابا لهم، و هو يتضمن انتظار النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ للقضاء بينه و بينهم، و أما تنجيته و تنجيه المؤمنين به فإن المنتظر لها هو النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و المؤمنون لا هو وحده، و لا يتعلق هذا الانتظار بفصل القضاء بل بالنجاه من العذاب، و هو مع ذلك لا يتعلق به غرض فى المقام الذى سيق فيه الكلام لإندار المشركين لا لتبشير النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و المؤمنين فافهم ذلك.

و أما قوله: كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ فمعناه كما كنا ننجى الرسل و الذين آمنوا فى الامم السابقه عند نزول العذاب كذلك ننجى المؤمنين بك من هذه الامه حقّ علينا ذلك حقاً، فقوله: «حَقًّا عَلَيْنَا» مفعول مطلق قام مقام فعله المحذوف، و اللام فى «الْمُؤْمِنِينَ» للعهد و المراد به مؤمنو هذه الامه، و هذا هو الوعد الجميل للنبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و المؤمنين من هذه الامه بالإنجاه.

و ليس من البعيد أن استفاد من قوله: «نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ» أن فيه تلويحا الى أن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لا يدرك هذا القضاء، و إنما يقع بعد ارتحاله حيث ذكر المؤمنون و لم يذكر معهم النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مع أنه تعالى ذكر فى السابقين رسله مع المؤمنين بهم كما ربما يخطر بالبال من تكرر قوله تعالى فى كلامه: «فَأَمَّا نُورِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيْكَ فَأَلَيْنَا يَرْجِعُونَ» او ما فى معناه.

إشارة

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمَسَّ شَكَّ اللَّهِ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصَيِّبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)

بيان:

قوله تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي الخ؛ قد تقدم غير مره أن الدين هو السنه المعمول بها في الحياه لنيل سعادتها وفيه معنى الطاعه كما في قوله تعالى:

وَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ (النساء ١٤٦) وربما استعمل بمعنى الجزاء.

وقوله: إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي أَى فِي طَرِيقَتِي الَّتِي أَسْلَكَهَا وَ أَثْبَتَ عَلَيْهَا وَ شَكَّ الْإِنْسَانُ فِي دِينٍ غَيْرِهِ وَ طَرِيقَتَهُ الْمَعْمُولَةَ لَهُ إِنَّمَا يَكُونُ فِي ثَبَاتِهِ عَلَيْهِ هَلْ يَسْتَقِرُّ عَلَيْهِ وَ يَسْتَقِيمُ؟ وَ قَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَطْمَعُونَ فِي دِينِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلِمَ وَ رَبَّمَا رَجَا أَنْ يَحُولُوهُ عَنْهُ فَيَنْجُوا مِنْ دَعْوَتِهِ إِلَى التَّوْحِيدِ وَ رَفْضِ الشِّرْكِ بِالْآلِهَةِ.

فالمعنى: إِنْ كُنْتُمْ تَشْكُونَ فِيمَا أَدِينُ بِهِ وَ أَدْعُو إِلَيْهِ هَلْ أَسْتَقِيمُ عَلَيْهِ؟ أَوْ شَكَّكُمْ فِي دِينِي مَا هُوَ؟ وَ لَمْ تَحْصُلُوا الْأَصْلَ الَّذِي يَبْتَنِي عَلَيْهِ فَإِنِّي أَصْرَحُ لَكُمْ الْقَوْلَ فِيهِ وَ أَبِينَهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَنِّي لَا أَعْبُدُ آلِهَتَكُمْ وَ أَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ.

وَ قَدْ أَخَذَ فِي قَوْلِهِ: وَ لَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ لَهُ تَعَالَى وَ صَفَّ تَوْفِيَهُمْ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ أَوْصَافِهِ تَعَالَى لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ الْإِلَهَ لِزَعْمِهِمُ الْحَاجَةَ إِلَيْهِ فِي دَفْعِ الضَّرْرِ وَ جَلْبِ النِّفْعِ، وَ التَّوْفَى أَمْرٌ لَا يَشْكُونَ أَنَّهُ سَيَصِيبُهُمْ وَ أَنَّهُ لِلَّهِ وَحْدَهُ فَمَسَّاسُ الْحَاجَةِ إِلَى الْأَمْنِ مِنْ ضَرَرِهِ يَوْجِبُ عِبَادَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

على أن اختيار التوفى للذكر ليكون في الكلام تلويح إلى تهديدهم فإن الآيات السابقة وعدتهم العذاب وعدا قطعيا، و وفاه المشركين ميعاد عذابهم، و يؤيد ذلك اتباع قوله:

وَ لَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِقَوْلِهِ: أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ نَجَّاهُمْ مِنَ الْعَذَابِ جُزْءَ الْوَعْدِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي الْآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ «فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ - إِلَى قَوْلِهِ - نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ».

و المعنى: فاعلموا و استيقنوا أنى لا أعبد آلِهَتكم و لكن أعبد الله الذى وعد عذاب المكذبين منكم و إنجاء المؤمنين و أمرنى أن أكون منهم كما أمرنى أن أجتنب عبادة الآلهة.

قوله: وَ أَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا عَظْفَ عَلَى مَوْضِعِ قَوْلِهِ: «وَ أُمِرْتُ أَنْ» الخ؛ فإنه فى معنى و كن من المؤمنين، و قد مر الكلام فى معنى إقامة الوجه للدين الحنيف غير

قوله تعالى: **وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ** نهى بعد نهى عن الشرك، وبيان أن الشرك يدخل الإنسان في زمرة الظالمين فيحق عليه ما أوعده الله به الظالمين في كلامه.

و من لطيف التعبير قوله حين ذكر الدعاء **«مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ»** و حين ذكر العباده **«الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ»** فإن العباده بالطبع يعطى للمعبود شعورا و عقلا- فناسب أن يعبر عنه بنحو **«الَّذِينَ»** المستعمل في ذوى العلم و العقل، و الدعاء و إن كان كذلك لمساقوته العباده غير أنه لما وصف المدعو بما لا ينفع و لا يضر، و ربما توهم أن ذوى العلم و العقل يصح أن تنفع و تضر، عبر بلفظه **«ما»** ليلوح الى أنها جماد لا يتخيل فى حقهم إرادته نفع أو ضرر.

و فى التعبير نفسه أعنى قوله: **«مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ** إعطاء الحجه على النهى عن الدعاء.

قوله تعالى: **إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ** الخ؛ الجملة حالیه و هى تتمه البيان فى الآيه السابقه، و المعنى: و لا تدع من دون الله ما لا نفع لك عنده و لا ضرر، و الحال أن ما مسك الله به من ضر لا يكشفه غيره و ما أرادك به من خير لا يردده غيره فلهو القاهر دون غيره يصيب بالخير عباده بمشيئته و إرادته، و هو مع ذلك غفور رحيم يغفر ذنوب عباده و يرحمهم، و اتصافه بهذه الصفات الكريمة و كون غيره صفر الكف منها يقتضى تخصيص العباده و الدعوه به.

قوله تعالى: **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ** و هو القرآن أو ما يشتمل عليه من الدعوه الحقه، و قوله: **فَمَنْ اهْتَدَى** الى آخر الآيه؛ إعلام لهم بكونهم مختارين فيما ينتخبونه لأنفسهم من غير أن يسلبوا الخيره ببيان حقيقه هى ان الحق- و قد جاءهم- من حكمه ان من اهتدى اليه فإنما يهتدى و نفعه عائد اليه، و من ضل عنه فإنما يضل

و ضرره على نفسه فلهم ان يختاروا لأنفسهم ما يحبونه من نفع او ضرر، وليس هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وكيلا لهم يتصدى من الفعل ما هو لهم فالآيه كناية عن وجوب اهتدائهم الى الحق لان فيه نفعهم.

قوله تعالى: **وَ اتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَ اصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُذَكَ اللَّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** أمر باتباع ما يوحى اليه و الصبر على ما يصيبه فى جنب هذا الاتباع من المصائب و المحن، و وعد بأن الله سبحانه سيحكم بينه و بين القوم، و لا يحكم إلا بما فيه قره عينه فالآيه تشتمل على أمره بالاستقامه فى الدعوه و تسليته فيما يصيبه، و وعده بأن العاقبه الحسنى له.

و قد اختتمت الآيه بحكمه تعالى، و هو الذى عليه يعتمد معظم آيات السوره فى بيانها.

و الله اعلم.

ص: ٩١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (۱) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ
نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ (۲) وَ أَنْ إِشْتِغَفِرُوا رَبُّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسِينًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا
فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (۳) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴)

قوله تعالى: الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ المقابله بين الاحكام و التفصيل الذى هو ايجاد الفصل بين
أجزاء الشىء المتصل بعضها ببعض، و التفرقه بين الامور المندمجه كل منها فى آخر تدل على أن المراد بالاحكام ربط بعض
الشىء

ببعضه الآخر و إرجاع طرف منه الى طرف آخر بحيث يعود الجميع شيئاً واحداً بسيطاً غير ذى أجزاء و أبعاض.

و من المعلوم أن الكتاب اذا اتصف بالاحكام و التفصيل بهذا المعنى الذى مرّ فإنما يتصف بهما من جهة ما يشتمل عليه من المعنى و المضمون لا- من جهة ألفاظه او غير ذلك، و أن حال المعانى فى الاحكام و التفصيل و الاتحاد و الاختلاف غير حال الاعيان فالمعانى المتكثرة اذا رجعت الى معنى واحد كان هذا الواحد هو الأصل المحفوظ فى الجميع و هو بعينه على إجماله هذه التفاصيل، و هى بعينها على تفاصيلها ذاك الإجمال و هذا كله ظاهر لا ريب فيه.

و على هذا فكون آيات الكتاب محكمه أولاً ثم مفصله ثانياً معناه أن الآيات الكريمة القرآنية على اختلاف مضامينها و تشتت مقاصدها و أغراضها ترجع الى معنى واحد بسيط، و غرض فارد أصلى لا- تكثّر فيه و لا تشتت بحيث لا تروم آية من الآيات الكريمة مقصداً من المقاصد و لا ترمى الى هدف إلاّ و الغرض الأصلى هو الروح السارى فى جثمانه و الحقيقه المطلوبه منه.

فلا غرض لهذا الكتاب الكريم على تشتت آياته و تفرّق أبعاضه إلاّ غرض واحد متوحد إذا فصل كان فى مورد أصلاً دينياً و فى آخر أمراً خلقياً و فى ثالث حكماً شرعياً و هكذا كلما تنزّل من الاصول الى فروعها و من الفروع الى فروع الفروع لم يخرج من معناه الواحد المحفوظ، و لا يخطى غرضه فهذا الأصل الواحد بتركبه يصير كل واحد واحد من أجزاء تفاصيل العقائد و الأخلاق و الأعمال، و هى بتحليلها و إرجاعها الى الروح السارى فيها الحاكم على أجسادها تعود الى ذاك الأصل الواحد.

فتوحيده تعالى بما يليق بساحه عزّه و كبريائه مثلاً فى مقام الاعتقاد هو إثبات أسمائه الحسنى و صفاته العليا، و فى مقام الأخلاق هو التخلق بالأخلاق الكريمة من الرضا و التسليم و الشجاعه و العفّه و السخاء و نحو ذلك و الاجتناب عن الصفات الرذيله، و فى مقام الأعمال

و الأفعال الإتيان بالأعمال الصالحة و الورع عن محارم الله.

و إن شئت فقل: إن التوحيد الخالص يوجب في كل من مراتب العقائد و الأخلاق و الأعمال ما يبينه الكتاب الإلهي من ذلك كما أن كلا من هذه المراتب و كذلك أجزاؤها لا تتم من دون توحيد خالص.

فقد تبين أن الآية في مقام بيان رجوع تفاصيل المعارف و الشرائع القرآنية الى أصل واحد هو بحيث اذا ركب في كل مورد من موارد العقائد و الأوصاف و الأعمال مع خصوصية ذلك المورد أنتج حكما يخصه من الأحكام القرآنية.

و قوله تعالى: مِنْ لَمَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ الْحَكِيمِ مِنْ اسْمَائِهِ الْحَسَنِ الْفَعْلِيهِ يَدُلُّ عَلَى اتِّقَانِ الصَّنْعِ، وَ كَذَا الْخَيْرِ مِنْ اسْمَائِهِ الْحَسَنِ يَدُلُّ عَلَى عِلْمِهِ بِجَزْئِيَّاتِ أَحْوَالِ الْأُمُورِ الْكَائِنَةِ وَ مَصَالِحِهَا، وَ إِسْنَادِ إِحْكَامِ الْآيَاتِ وَ تَفْصِيلِهَا إِلَى كَوْنِهِ تَعَالَى حَكِيمًا خَيْرًا لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ النِّسْبَةِ.

قوله تعالى: **الْأَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْ نَّدِيرٍ وَ بَشِيرٍ وَ أَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ؛** و ما بعدها تفسير لمضمون الآية **«كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَمَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ»** و إذ كانت الآية تتضمن أنه كتاب من الله الى... له آيات محكمه ثم مفصله كانت العناية في تفسيرها متوجهه الى إيضاح هذه الجهات.

و من المعلوم ان هذا الكتاب الذي انزله الله تعالى من عنده الى رسوله ليتلوه على الناس و يبلغهم له وجه خطاب الى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و وجه خطاب الى الناس بوساطته اما وجه خطابه الى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و هو الذي يتلقاه الرسول من وحى الله فهو ان انذر و بشر و ادع الناس الى كذا و كذا، و هذا الوجه هو الذي عنى به في اول سورة يونس حيث قال تعالى:

أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ (يونس ١٠٢).

و اما وجه خطابه الى الناس و هو الذي يتلقاه الناس من الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فهو ما يلقيه الى

الناس من المعنى فى ضمن تلاوته كلام الله عليهم بعنوان الرساله أنى ادعوكم الى الله دعوه نذير و بشير، وهذا الوجه من الخطاب هو الذى عنى به فى قوله: «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ» الخ.

فآليه من كلام الله تفسر معنى إحكام آيات الكتاب ثم تفصيلها بحكاية ما يتلقاه الناس من دعوه الرسول اياهم بتلاوه كتاب الله عليهم، وليس كلاما للرسول بطريق الحكايه و لا بتقدير القول و لا من الالتفات فى شىء، و لا ان التقدير: امركم بأن لا تعبدوا او «فصّلت آياته لأين لا تعبدوا إلا الله» بأن يكون قوله: «لا تعبدوا» نفيا لا نهيا فإن قوله بعد «وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» معطوف على قوله: «أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» و هو يشهد بأن «لا تعبدوا» نهى لا نفى. على ان التقدير لا يصر اليه من غير دليل فافهم ذلك فإنه من لطيف صنعه البلاغه فى الآيه.

و على هذا فقله: «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» دعوه الى توحيد العباده بالنهى عن عباده غير الله من الآلهه المتخذة شركاء لله، و قصر العباده فيه تعالى، و قوله: «وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» امر بطلب المغفره من الله و قد اتخذوه ربا لهم برفض عباده غيره ثم امر بالتوبه و الرجوع اليه بالأعمال الصالحه، و يتحصّل من الجميع سلوك الطريق الطبيعى الموصل الى القرب و الزلفى منه تعالى، و هو رفض الآلهه دون الله ثم طلب المغفره و الطهاره النفسانيه للحضور فى حظيره القرب ثم الرجوع اليه تعالى بالأعمال الصالحه. و قد جىء بأن التفسيريه ثانيا فى قوله: «وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا» الخ؛ لاختلاف ما بين المرحتين اللتين يشير اليهما قوله: «أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» و هى مرحله التوحيد بالعباده مخلصا، و قوله:

«وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» و هى مرحله العمل الصالح و إن كانت الثانيه من نتائج الاولى و فروعها.

و لكون التوحيد هو الأصل الأساسى و الاستغفار و التوبه نتيجه و فرعا متفرعا عليه أورد

النذر و البشاره بعد ذكر التوحيد، و الوعد الجميل الذى يتضمنه قوله: «يُمَتِّعُكُمْ» الخ؛ بعد ذكر الاستغفار و التوبه فقال «أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ» فبين به أن النذر و البشري كائنين ما كانا يرجعان الى التوحيد و يتعلقان به ثم قال «وَ أَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسِينًا» الخ؛ فإن الآثار القيمه و النتائج الحسنه المطلوبه إنما تترتب على الشىء بعد ما تم فى نفسه و كمل بصفاته و فروعها و نتائجها، و التوحيد و إن كان هو الأصل الوحيد للدين على سعته لكن شجرته لا تثمر ما لم تقم على ساقها و يتفرع عليها فروعها و أغصانها، «كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا».

و الظاهر أن المراد بالتوبه فى الآيه الايمان كما فى قوله تعالى: فَاعْفُرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ (المؤمنون ٧) فيستقيم الجمع بين الاستغفار و التوبه مع عطف التوبه عليه بثم، و المعنى اتركوا عبادته الأصنام بعد هذا و اطلبوا من ربكم غفران ما قدمتم من المعصيه ثم آمنوا بربكم.

و قيل: إن المعنى اطلبوا المغفره و اجعلوها غرضكم ثم توصلوا اليه بالتوبه و هو غير جيد و من التكلف ما ذكره بعضهم أن المعنى: استغفروا من ذنوبكم الماضيه ثم توبوا اليه كلما أذنبتم فى المستقبل و كذا قول آخر: إن «ثُمَّ» فى الآيه بمعنى الواو لأن التوبه و الاستغفار واحد.

و قوله: يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسِينًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى هو الوقت الذى ينتهى اليه الحياه لا تتخطاه البتة، فالمراد هو التمتع فى الحياه الدنيا بل بالحياه الدنيا لأن الله سبحانه سماها فى مواضع من كلامه متاعا، فالمتاع الحسن الى أجل مسمى ليس إلا الحياه الدنيا الحسنه.

فيؤول معنى قوله: يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسِينًا على تقدير كون «مَتَاعًا» مفعولا

مطلقا الى نحو من قولنا: يمتعكم تمتيعا حسنا بالحياه الحسنه الدنيويه، و متاع الحياه إنما يكون حسنا إذا ساق الإنسان الى سعادته الممكنه له، و هداه الى أمانى الإنسانيه من التمتع بنعم الدنيا فى سعه و أمن و رفاهيه و عزه و شرافه فهذه الحياه الحسنه تقابل المعيشه الضنك التى يشير إليها فى قوله: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا (طه ١٢٤).

و قوله: وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ الْفَضْلُ هو الزيادة و إذ نسب الفضل فى قوله: «كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلُهُ» الى من عنده الفضل من الأفراد كان ذلك قرينه على كون الضمير فى «فَضْلُهُ» راجعا الى ذى الفضل دون اسم الجلاله كما احتمله بعضهم و الفضل و الزيادة من المعانى النسبيه التى إنما تتحقق بقياس شىء الى شىء و إضافته اليه.

فالمعنى: و يعطى كل من زاد على غيره بشىء من صفاته و أعماله و ما يقتضيه من الاختصاص بمزيد الأجر و خصوص موهبه السعاده تلك الزيادة من غير أن يبطل حقه او يغصب فضله او يملكه غيره كما يشاهد فى المجتمعات غير الدينيه و إن كانت مدنيه راقيه فلم تنزل البشريه منذ سكنت الأرض و كونت أنواع المجتمعات الهمجيه او الراقيه او ما هى أرقى تنقسم الى طائفتين مستعليه مستكبره قاهره، و مستذله مستعبده مقهوره، و ليس يعدل هذا الإفراط و التفريط و لا يسوى هذا الاختلاف إلا دين التوحيد.

و قوله: وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ أى فإن تتولوا، الخ؛ بالخطاب، و الدليل عليه قوله: «عَلَيْكُمْ» و ما تقدم فى الآيتين من الخطابات المتعدده فلا يصغى الى قول من يأخذ قوله: «تَوَلَّوْا» جمعا مذكرا غائبا من الفعل الماضى فإنه ظاهر الفساد.

[سوره هود (١١): الآيات ٥ الى ١٦]

إشارة

أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لَيْسَ يَتَخَفُوا مِنْهُ إِلَّا حِينَ يَسْتَعْشُونَ لِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥) وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا - وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَ لَئِنْ أَخْرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّه مَعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَحْبِسُهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨) وَ لَئِنْ أَدْخَلْنَا الْإِنْسَانَ مِذَا رَحِمَهُ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤْسُ كَفُورٌ (٩) وَ لَئِنْ أَدْخَلْنَا نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضٌ مَّا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَ ضَائِقٌ بِهِ صِدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَ ادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فاعلموا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَ هُمْ فِيهَا لَا يُخْسِرُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ مَا صَبَعُوا فِيهَا وَ بَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)

قوله تعالى: **أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ** الى آخر الآية؛ ثنى الشيء يشناه ثنيا كفتح يفتح فتحا اي عطفه و طواه و ردّ بعضه على بعض قال فى المجمع: اصل الثنى العطف تقول: ثنيتك عن كذا اي عطفته، و منه الاثنان لعطف أحدهما على الآخر فى المعنى، و منه الثناء لعطف المناقب فى المدح، و منه الاستثناء لأنه عطف عليه بالإخراج منه، انتهى. و قال ايضا: الاستخفاء طلب خفاء الشيء يقال: استخفى و تخفى بمعنى، و كذلك استغشى و تغشى، انتهى.

فالمراد بقوله: **يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ** أنهم يميلون بصدورهم الى خلف و يطأطئون رؤوسهم ليتخفوا من الكتاب اي من استماعه حين تلاوته و هو كناية عن استخفائهم من النبى صلى الله عليه و آله و سلم و من حضر عنده حين تلاوه القرآن عليهم للتبليغ لئلا يروا هناك فتلزمهم الحجة.

و قوله: **أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ لِيَأْبَهُمْ يَعْلَمُ** الخ؛ كأنهم كانوا يسترون رؤوسهم

ايضا بثيابهم عند استخفائهم بثنى الصدور فذكر الله سبحانه ذلك و أخبر أنه تعالى يعلم عند ذلك ما يسرون و ما يعلنون فما يغنيهم التخفى عن استماع القرآن و الله يعلم سرهم و علانيتهم.

وقيل: إن المراد باستخفائهم ثيابهم هو الاستعشاء فى بيوتهم ليلا عند أخذ المضاجع للنوم، و هو أخفى ما يكون فيه الانسان و أخلى أحواله، و المعنى: أنهم يشنون صدورهم ليستخفوا من هذا الكتاب عند تلاوته عليهم، و الله يعلم سرهم و علانيتهم فى أخفى ما يكونون عليه من الحال و هو حال تغشيتهم بثيابهم للنوم، و لا يخلو الوجه من ظهور.

قوله تعالى: **وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا** الى آخر الآيه، الدابة على ما فى كتب اللغة كل ما يدب و يتحرك، و يكثر استعماله فى النوع الخاص منه، و قرينه المقام تقتضى كون المراد منه العموم لظهور أن الكلام مسوق لبيان سعه علمه تعالى، و لذلك عقب به قوله: **«الَّا حِينَ يَسْتَعْشُونَ بِيَابِهِمْ يُعَلِّمُهُمَّا مَا يَسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ»**.

و هذا المعنى أعنى كون ذكر وجوب رزق كل دابة على الله لبيان سعه علمه لكل دابة فى جميع احوالها يستوجب أن يكون قوله: **وَ يُعَلِّمُهُمُّ مُسِيْرَهَا وَ مُسِيْرَهَا بِمَنْزِلِهِ عَطْفَ التَّفْسِيرِ** لقوله: **عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا** فيعود المعنى الى أن كل دابة من دواب الأرض على الله أن يرزقها- و لن تبقى بغير رزق- فهو تعالى عليم بها خبير بحالها أينما كانت فإن كانت فى مستقر لا تخرج منه كالحوث فى الماء و كالصدف فيما وقعت و استقرت فيه من الأرض رزقها هناك و إن كانت خارجه من مستقرها و هى فى مستودع ستر كه الى مستقرها كالطير فى الهواء او كالمسافر الغارب عن وطنه او كالجنين فى الرحم رزقها هناك و بالجمله هو تعالى عالم بحال كل دابة فى الأرض و كيف لا و عليه تعالى رزقها و لا يصيب الرزق المرزوق إلا بعلم من الرازق بالمرزوق و خبره منه بما حلّ فيه من محل دائم او معجل و مستقر او مستودع.

و أما قوله: **عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا** فهو دال على وجوب الرزق عليه تعالى و قد تكرر فى

القرآن أن الرزق من أفعاله تعالى المختصه به و أنه حق للخلق عليه تعالى قال تعالى: أَمَّنْ لِّلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ (المملك ٢١/)، وقال تعالى: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (الذاريات ٥٨/) وقال تعالى: وَ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَ مَا تُوعَدُونَ فَو رَبِّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (الذاريات ٢٣/).

ولا- ضير في أن يثبت عليه تعالى حق لغيره اذا كان تعالى هو الجاعل الموجب لذلك على نفسه من غير أن يداخل فيه غيره، و لذلك نظائر في كلامه تعالى كما قال: كَتَبَ عَلَيَّ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ (الأنعام ١٢/)، و قال: وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (الروم ٤٧/) الى غير ذلك من الآيات.

و الاعتبار العقلي يؤيد ذلك فإن الرزق هو ما يديم به المخلوق الحي وجوده و إذ كان وجوده من فيض جوده تعالى فما يتوقف عليه من الرزق من قبله، و إذ لا شريك له تعالى في إيجاده لا شريك له في ما يتوقف عليه وجوده كالرزق. و قد تقدم بعض الكلام في معنى الكتاب المبين في سورة الأنعام آيه: ٥٩ و في سورة يونس آيه: ٦١ فليراجع.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتِّتِهِ أَيَّامٍ وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ الْكَلَامِ الْمُسْتَوْفَى فِي تَوْصِيْفِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ عَلَى مَا يَظْهَرُ مِنْ كَلَامِهِ تَعَالَى وَ يَفْسِرُهُ مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ عَنْ أَهْلِ الْعِصْمَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مَوْكُولٌ إِلَى مَا سَيَأْتِي مِنْ تَفْسِيرِ سُورَةِ حَمِّ السَّجْدَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

و إجمال القول الذي يظهر به معنى قوله: سِتِّتِهِ أَيَّامٍ و قوله: وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ هو أن الظاهر أن ما يذكره تعالى من السماوات- بلفظ الجمع- و يقارنها بالأرض و يصف خلقها في ستة أيام طبقات من الخلق الجسماني المشهود تعلق أرضنا فكل ما علاك و أظلك فهو سماء على ما قيل و العلو و السفل من المعاني الإضافية.

فهي طبقات من الخلق الجسماني المشهود تعلق أرضنا و تحيط بها فإن الأرض كروي الشكل على ما يفيدته قوله تعالى: يُغَشِّي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا (الأعراف ٥٤).

و السماء الاولى هي التي تزينه مصابيح النجوم و الكواكب فهي الطبقة التي تتضمنها او هي فوقها و تترين بها كالسقف يتزين بالقناديل و المشاكي و أما ما فوق السماء الدنيا فلم يرد في كلامه شيء من صفتها غير ما في قوله تعالى: سَبَّحَ سَمَآوَاتٍ طَبَاقًا (الملك ٣)، و قوله:

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبَّحَ سَمَآوَاتٍ طَبَاقًا وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (نوح ١٦) حيث يدل على مطابقه بعضها بعضا.

و أما قوله: وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ فهو حال و المعنى و كان عرشه يوم خلقهن على الماء و كون العرش على الماء يومئذ كناية عن أن ملكه تعالى كان مستقرا يومئذ على هذا الماء الذي هو مادة الحياه فعرش الملك مظهر ملكه، و استقراره على محل هو استقرار ملكه عليه كما ان استواءه على العرش احتواءه على الملك و أخذه في تدبيره.

قوله تعالى: لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا- اللام للغايه و البلاء الامتحان و الاختبار، و قوله: «أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» بيان للاختبار و الامتحان في صورته الاستفهام و المراد أنه تعالى خلق السماوات و الأرض على ما خلق لغايه امتحانكم و تمييز المحسنين منكم من المسيئين (١).

و أما ما في الآيه من تعليل خلق السماوات و الارض بقوله: «لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» و نظائره الكثيره في القرآن فإنما هو و أمثاله من قبيل التعليل بالفوائد المترتبة و المصالح المتفرعه و قد أخبر تعالى أن فعله لا يخلو من الحسن إذ قال: الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (الم السجده ٧)، فهو سبحانه هو الخير لا شر فيه و هو الحسن لا قبح عنده و ما كان كذلك لم

ص: ١٠٢

يصدر عنه شرّ و لا قبيح البتّه.

و ليس مقتضى ما تقدم أن يكون معنى الحسن هو ما صدر عنه تعالى او الذى أمر به و إن استقبحه العقل، و معنى القبيح هو ما لا يصدر عنه او الذى نهى عنه و إن استحسّنه العقل و استصوبه فإن ذلك يأباه أمثال قوله تعالى: قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ (الأعراف / ٢٨).

قوله تعالى: وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ لما كان قوله: «لَيَبْلُوكُمْ» الخ؛ يشير الى المعاد أشار الى ما كان يواجهه به الكفار ذكره صلى الله عليه و آله و سلم للمعاد برميّه بأنه سحر من القول.

فظاهر الآيه أنهم كما كانوا يسمّون لفظ القرآن الكريم بما فيه من الفصاحه و بلاغه النظم سحراً، كذلك كانوا يسمّون ما يخبر به القرآن او النبى صلى الله عليه و آله و سلم من حقائق المعارف التى لا يصدّقه أحلامهم كالبعث بعد الموت سحراً، و على هذا فهو من مبالغتهم فى الافتراء على كتاب الله و التعنت و العناد مع الحق الصريح حيث تعدّوا عن رمى اللفظ لفصاحته و بلاغته بالسحر الى رمى المعنى لصحته و استقامته بالسحر.

و من الممكن أن يكون المراد بالسحر المغالطه و التمويه بإظهار الباطل فى صوره الحق على نحو إطلاق الملزوم و إرادته اللازم لكن لا- يلائمه ظاهر قوله تعالى فى نظير المورد: قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لَا- يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (المؤمنون / ٨٩).

قوله تعالى: وَ لَئِنْ أَخْرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَيَّ أُمَّهُ مَعِيدُودَهُ لَيَقُولَنَّ مَا يَحْبِسُهُ الى آخر الآيه؛ اللام فى صدر الآيه للقسم و لذلك أكد الجواب أعنى قوله:

«لَيَقُولَنَّ» باللام و النون و المعنى: و أقسم لئن أخرنا عن هؤلاء الكفار ما يستحقونه من العذاب قالوا مستهزئين: ما الذى يحبس هذا العذاب الموعود عنا و لما ذا لا ينزل علينا و لا يحلّ

و فى هذا إشاره أو دلالة على أنهم سمعوا من كلامه تعالى أو من كلام النبى صلى الله عليه وآله وسلم ما يوعدهم بعذاب لا محيص منه و أن الله آخر ذلك تأخيراً رحمه لهم فاستهزءوا به و سخروا منه بقولهم: ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾ و يؤيده قوله تعالى عقيب ذلك: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ الخ.

و بهذا يتأيد أن السوره-سوره هود-نزلت بعد سوره يونس لمكان قوله تعالى فيها:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ الى آخر الآيات.

و قوله: ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ الْأَمَّةِ الْحِينِ وَالْوَقْتِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ (يوسف ٤٥)﴾ أى بعد حين و وقت.

و ربما أمكن أن يراد بالامه الجماعه فقد وعد الله سبحانه أن يؤيد هذا الدين بقوم صالحين لا يؤثرون على دينه شيئاً و يمكن عند ذلك للمؤمنين دينهم الذى ارتضى لهم.

و قوله: ﴿أَلَا- يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَدِّقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ بمنزله الجواب عن قولهم: ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾ الواقع موقع الاستهزاء فإنه فى معنى الرد على ما أوعدوا به من العذاب، و محصله أن هذا العذاب الذى يهددنا لو كان حقاً لم يكن لحبسه سبب فإننا كفرون غير عادلين عن الكفر و لا- تاركين له فتأخر نزول العذاب من غير موجب لتأخره بل مع الموجب لتعجيله كاشف عن كونه من قبيل الوعد الكاذب.

فأجاب الله عن ذلك بأنه سيأتيهم و لا يصرفه يومئذ عنهم صارف و يحق بهم هذا العذاب الذى كانوا به يستهزءون.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحِمَهُ ثُمَّ نَزَعْنَا مَا فِي صَفْوَتِهِ مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: الذوق تناول الشيء بالفم لإدراك الطعم، و سمي الله سبحانه إحلال اللذات بالإنسان إذاقه لسرعه زوالها تشبيهاً بما يذاق ثم يزول كما قيل: أحلام نوم أو كظل

زائل و النزع قلع الشيء عن مكانه، و اليئوس فعول من يئس -صيغه مبالغه- و اليأس القطع بأن الشيء المتوقع لا يكون و نقيضه الرجاء. انتهى.

و قد وضعت الرحمه فى الآيه مكان النعمه لإشعار بأن النعم التى يؤتيها الله الإنسان عنوانها الرحمه و هى رفع حاجه الإنسان فيما يحتاج اليه من غير استحقاق و إيجاب و المعنى: إنا إن آتينا الإنسان شيئاً من النعم التى يتنعم بها ثم نزعناها يئس منها و اشتد بأسه حتى كأنه لا يرى عودها اليه ثانياً ممكننا و كفر بنعمتنا كأنه يرى تلك النعمه من حقه الثابت علينا و يرانا غير مالكين لها فالإنسان مطبوع على اليأس عما أخذ منه و الكفران، و قد أخذ فى الآيه لفظ الإنسان -و هو لفظ دال على نوعه- للدلاله على أن الذى يذكر من صفته من طبع نوعه.

قوله تعالى: **وَ لئنْ أَدْفَنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدِ ضِرَاءٍ مَّسْتَهٌ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ** قال فى المجمع: النعماء إنعام يظهر أثره على صاحبه و الضراء مضره يظهر الحال بها لأنهما أخرجتا مخرج الأحوال الظاهره مثل حمراء و عيناء مع ما فيهما من المبالغه، و الفرح و السرور من النظائر و هو انفتاح القلب بما يلتذ به و ضده الغم -الى أن قال:- و الفخور الذى يكثر فخره و هو التناول بتعديد المناقب و هى صفة ذم اذا أطلقت لما فيها من التكبر على من لا يجوز أن يتكبر عليه. انتهى.

و المراد بالسيئات بقرينه المقام المصائب و البلايا التى يسوء الإنسان نزولها عليه، و المعنى:

و لئن أصبناه بالنعمه بعد الضراء ليقولنّ ذهب الشدائد عنى، و هو كناية عن الاعتقاد بأن هاتيك الشدائد و النوازل لا تعود بعد زوالها و لا تنزل بعد ارتفاعها ثانياً.

و قوله: **إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ** بمنزله التعليل لقوله: **ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي** فإنه يفرح و لا يزال على ذلك لما ذاقه من النعماء بعد الضراء، و لو كان يرى أن ما عنده من النعماء جائز الزوال لا وثوق على بقاءه و لا اعتماد على دوامه. و أن الأمر ليس اليه بل الى غيره و من الجائز أن يعود اليه ما تركه من السيئات لم يكن فرحاً بذلك فإنه لا فرح فى أمر مستعار غير

وانه ليفخر بما أوتى من النعماء على غيره، ولا يفخر إلا بكرامه أو منقبه يملكها الإنسان فهو يرى ما عنده من النعمة أمرا بيده زمامه ليس لغيره أن يسلبه و يتزعه منه و يعيد اليه ما ذهب عنه من السيئات و لذلك يفخر و يكثر من الفخر.

قوله تعالى: **إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ** ذكر سبحانه ما الإنسان مطبوع عليه عند الشده و البلاء من اليأس و الكفر و عند الرخاء و النعماء من الفرح و الفخر، و مغزى الكلام أنه مخلوق كليل البصر قصير النظر إنما يرى ما يجده في حاله الحاضر، و يذهل عما دون ذلك فإن زالت عنه نعمه لم ير لها عوده و أنها كانت من عند الله سبحانه، و له تعالى ان يعيدها اليه إن شاء حتى يصبر على بلائه و يتعلق قلبه به بالرجاء و المسأله، و إن عادت اليه نعمه بعد زوالها رأى أنه يملكها ففرح و فخر و لم ير لله تعالى صنعا في ذلك حتى يشكره عليها و يكف عن الفرح و عن التناول على غيره بالفخر.

استثنى سبحانه طائفه من الإنسان و وصفهم بقوله: **«الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»** ثم وعدهم وعدا حسنا بقوله: **«أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ»** و ذلك أن التخلص من هذا الطبع المذموم إنما يتمشى من الصابرين الذين يصبرون عند الضراء فلا يحملهم الجزع على اليأس و الكفر، و يعملون الصالحات من الشكر بثنائه تعالى على ما كشف الضراء و أعقب بالنعماء و صرف نعمه في ما يرضيه و يريح خلقه فلا يحملهم الاستغناء على الفرح و الفخر.

و هؤلاء هم المتخلصون الناجون يغفر لهم ربهم بامحاء آثار ذلك الطبع المذموم و وضع الخصال المحموده موضعه و لهم عند ربهم مغفره و أجر كبير.

و في الآيه دلالة على أن الصبر مع العمل الصالح لا ينفك عن الإيمان فإنها تعد هؤلاء الصابرين مغفرة و أجرا كبيرا، و المغفرة لا تنال المشركين، قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ (النساء ١١٦).**

وقد ورد الوعد بعين ما ذكر في هذه الآيه أعنى المغفره و الأجر الكبير للمؤمنين فى قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (فاطر ٧/٧)، وقوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (الملك ١٢/١٢).

قوله تعالى: فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَ ضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ لما كانت رساله النبى صلى الله عليه و آله و سلم بما أيدت به من القرآن الكريم و الآيات البيّنات و الحجج و البراهين مما لا يسع لذى عقل إنكارها و لا لانسان صحيح المشاعر ردها و الكفر بها كان ما حكى من كفر الكافرين و إنكار المشركين أمرا مستبعدا بحسب الطبع، و إذا كان وقوع أمر على صفه من الصفات مستبعدا أخذ الانسان فى تقرير ذلك الأمر من غير مجرى الاستبعاد طلبا للمخرج من نسبه الوقوع الى ما يستبعده الطبع.

و لما كان المقام فى الآيه الكريمه هذا المقام و كان ما حكاه الله سبحانه من كفر المنكرين و إنكار المشركين لما جاء به النبى صلى الله عليه و آله و سلم اليهم من الحق الصريح و ما أنزل اليه من كلام الله تعالى مع ما يتلوه من البيّنات و الحجج ما لا ينبغى أن يذعن به لبعده طبعاً بيّن تعالى لذلك وجهها بعد وجه على سبيل الترجى فقال «و لعلك تارك بعض ما يوحى اليك» الخ؛ «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ» الخ.

فكأنه قيل: من المستبعد أن تهديهم الى الحق الواضح و يسمعوا منك كلامى ثم لا يستجيبوا دعوتك و يكفروا بالحق بعد وضوحه فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك و غير داعيهم اليه و لذلك جبهوك بالإنكار أم يقولون إن القرآن ليس من كلام الله بل هو افتراء افتريته على الله و لذلك لم يؤمنوا به. فإن كنت تركت بعض الوحي خوفا من اقتراحهم عليك الآيات فإنما أنت نذير و ليس لك إلا ما شاء الله، و ان يقولوا افتراه فقل لهم يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، الخ.

و قوله: تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ إنما ذكر البعض لأن الآيات السابقه

متضمنه لتبليغ الوحى فى الجملة أى لعلك تركت بعض ما أوحينا اليك من القرآن فما تلوته عليهم فلم ينكشف لهم الحق كل الانكشاف حتى لا- يجبهوك بما جبهوك به من الرد و الجحود،و ذلك أن القرآن بعضه يوضح بعضا و شطر منه يقرب شطرا منه من القبول كآيات الاحتجاج توضح الآيات المشتمله على الدعاوى،و آيات الثواب و العقاب تقرب الحق من القبول بالتطميع و التخويف،و آيات القصص و العبر تستميل النفوس و تلين القلوب.

و قوله: وَ ضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا الْخ؛قال فى المجمع:ضائق و ضيق بمعنى واحد إلا أن ضائق هاهنا أحسن لوجهين:أحدهما أنه عارض،و الآخر أنه أشكل بقوله:

«تَارِكٌ» انتهى.

و الظاهر أن ضمير «به» راجع الى قوله: «بَعْضَ مَا يُوحَى» و إن ذكر بعضهم أن الضمير راجع الى قولهم: «لَوْ لَا- أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ» الخ؛أو الى اقتراحهم و هذا أوفق بكون قوله: «أَنْ يَقُولُوا» الخ؛بدلا من الضمير فى «به» و ما ذكرناه أوفق بكونه مفعولا له لقوله: «تَارِكٌ» و التقدير:لعلك تارك ذلك مخافه أن يقولوا:لو لا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك.

و قوله: إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ جَوَابٌ عَنْ اقْتِرَاحِهِمْ بِقَوْلِهِ: لَوْ لَا- أَنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلِكٌ،و قد تكرر فى مواضع من كلامه تعالى ذكر ما اقترحوه اقتصر فى بعضها على ذكر مجيء الملك و زيد فى بعضها عليه غيره كاقتراح الإتيان بالله سبحانه ليشهد على الرسالة و أن يكون له جنه يأكل منها و أن ينزل من السماء كتابا يقرءونه.و قد أجاب الله سبحانه عنها جميعا بمثل ما أجاب به هاهنا و هو أن رسوله ليس له إلا الرسالة فلبس بيده و هو بشر رسول أن يجيبهم الى ما اقترحوها به عليه إلا أن يشاء الله فى ذلك شيئا و يأذن فى إتيان آيه كما قال: وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (المؤمن ٧٨).

ثم عقب قوله: إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ بِقَوْلِهِ: وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ

للتميم الجواب عن اقتراحهم على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالمعجزات و محصّيه: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بشر مثلهم و لم يؤمر إلاّ بالإنذار و هو الرساله بإعلام الخطر، و القيام بالامور كلها و تدبيرها سواء كانت جاريه على العاده أو خارقه لها إنما هو الى الله سبحانه فلا وجه لتعلقهم بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فيما ليس اليه.

و ذلك أن الله سبحانه هو الموجد للأشياء كلها و فاطرها و هو القائم على كل شيء فيما يجرى عليه من النظام فما من شيء إلاّ و هو تعالى المبدأ في أمره و شأنه و المنتهى سواء الامور الجاريه على العاده و الخارقه لها فهو تعالى الذى يسلم اليه أمره و يدبر شأنه فهو تعالى الوكيل عليه فإن الوكيل هو الذى يسلم اليه الأمر و ينفذ فيه منه الحكم فهو تعالى على كل شيء و وكيل.

و بذلك يظهر أن قوله: «وَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ» بمعونه من قوله: «إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ» يفيد قصر القلب فإنهم سألوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أمرا ليس اليه و إنما هو الى الله تعالى.

قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ قَدْ تَقَدَّمَ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَصِحُّ بِهِ اخْتِذَ «أَمْ» متصلا لكون قوله: «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ» الخ؛ فى معنى الاستفهام، و التقدير:

أفأنت تارك بعض ما يوحى اليك خوفا من اقتراحهم المعجزه أم يقولون إنك افتريته علينا فإن من المستبعد أن يقرأ عليهم كلامى ثم لا يؤمنوا به و قيل: إن أم منقطعه و المعنى: بل يقولون افتراه.

و قوله: قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ فى الكلام تحدّ ظاهر و الضمير راجع الى القرآن او الى السوره بما أنها قرآن و الفاء فى «فَأْتُوا» تفيد تفريع الامر على قوله:

«افْتَرَاهُ» و فى الكلام حذف و إيصال رعايه للإيجاز، و التقدير: قل لهم: إن كان هذا القرآن مما افتريته على الله كان من عندى و كان من الجائز أن يأتى بمثله غيرى فإن كنتم صادقين فى دعواكم و مجدين غير هازلين فأتوا بعشر سور مثله مفتريات و استعينوا فى ذلك بدعوه كل من

تستطيعون من دون الله من اوثانكم الذين تزعمون انهم آلهه تتسرعون اليهم فى الحاجات و غيرهم من سائر الخلق حتى يتم لكم جميع الاسباب و الوسائل و لا يبقى أحد ممن يطمع فى تأثير إعانته و يرجى نفعه فى ذلك فلو كان من عندى لا من عند الله جاز أن تأتوا حينئذ بمثله.

و قد بان بهذا البيان ان التحدى بالقرآن فى الآيه الكريمة ليس من حيث نظمه و بلاغته فحسب فإنه تعالى يأمرهم بالاستمداد من كل من استطاعوا دعوته من دون الله سواء فى ذلك آلهتهم و غير آلهتهم و فيهم من لا يعرف الكلام العربى او جزاله نظمه و صفه بلاغته فالتحدى عام لكل ما يتضمنه القرآن الكريم من معارف حقيقه و الحجج و البراهين الساطعه و المواعظ الحسنه و الأخلاق الكريمة و الشرائع الإلهيه و الأخبار الغيبيه و الفصاحه و البلاغه نظير ما فى قوله تعالى: قُلْ لئنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (الإسراء ٨٨/١)، و قد تقدمت الإشاره الى ذلك فى الكلام على إعجاز القرآن فى الجزء الاول من الكتاب.

قوله تعالى: فَإِلمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ إجابته الدعوه و استجابتها بمعنى.

و الظاهر من السياق ان الخطاب فى الآيه للمشركين، و أنه من تمام كلام النبى صلى الله عليه و آله و سلم الذى أمر بقوله تعالى: «قُلْ» أن يلقىة اليهم، و على هذا فضمير الجمع فى قوله: «فَمَا لَمْ يَسْتَجِيبُوا» راجع الى الآلهه و كل من استعانوا به المدلول عليهم بقوله: «وَ اذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ».

و المعنى: فإن لم يستجب لكم معاشر المشركين هؤلاء الذين دعوتموهم من آلهتكم و من بلغاء أهل لسانكم العارفين بأساليب الكلام و علماء اهل الكتاب الذين عندهم الكتب السماويه و أخبار الأنبياء و الامم و الكهنه المستمدين من إلقاء شياطين الجن،

و جهابذه العلم و الفهم من سائر الناس المتعمقين فى المعارف الانسانيه بأطرافها فاعلموا أنما أنزل هذا القرآن بعلم الله و لم يختلق عن علمى أنا و لا- غيرى ممن تزعمون أنه يعلمنى و يملئ على، و اعلموا أيضا ان ما ادعوكم اليه من التوحيد حق فإنه لو كان هناك إله من دون الله لنصركم على ما دعوتموه اليه فهل انتم ايها المشركون مسلمون لله تعالى منقادون لأمره؟

فقوله تعالى: **فَالَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فِي مَعْنَى قَوْلِنَا: فَإِنْ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَى الْمَعَارِضِ بَعْدَ الْاِسْتِعَانَةِ وَ الْاِسْتِمْدَادِ بِمَنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَدْعُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَ ذَلِكَ أَنَّ الْأَسْبَابَ الَّتِي تَوْجِبُ قُدْرَتَهُمْ عَلَى الْمَعَارِضِ هِيَ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ قُدْرَةِ الْبَيَانِ وَ قَرِيحَةِ الْبَلَاغَةِ وَ هُمْ يَرُونَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَوَاهِبِ آلِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ كَذَا مَا عِنْدَ آلِهِمْ مِمَّا لَمْ يَهْبُوهُمْ بَعْدَ، وَ لَهُمْ أَنْ يُؤَيِّدُوهُمْ بِهِ إِنْ شَاءَ وَ عَلَى زَعْمِهِمْ، وَ أَيْضًا مَا عِنْدَ غَيْرِ آلِهِمْ مِنَ الْمُدَدِ، وَ إِذَا لَمْ يَسْتَجِيبَهُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ فِي مَعَارِضِ الْقُرْآنِ فَقَدْ اِرْتَفَعَ جَمِيعُ الْأَسْبَابِ الْمَوْجِبَةِ لِقُدْرَتِهِمْ وَ اِرْتَفَعَتْ بِذَلِكَ قُدْرَتُهُمْ فَعَدِمَ إِجَابَتَهُ الشَّرَكَاءُ عَلَى مَعَارِضِ الْقُرْآنِ مَلَاذِمَ لِعَدَمِ قُدْرَتِهِمْ عَلَيْهَا حَتَّى بِمَا عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْقُدْرَةِ فِي الْكَلَامِ كُنَايَهُ.**

و قوله: **فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ الظاهر أن المراد بعلم الله هو العلم المختص به و هو الغيب الذى لا سبيل لغيره تعالى اليه إلا بإذنه كما قال تعالى: لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ (النساء ١٦٦)، و قال: ذَلِكَ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ (يوسف / ١٠٢)، و قال: عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ (الجن / ٢٧)، و قال: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (الواقعه ٨٠).**

فالمعنى: فإن لم تقدرُوا على معارضته بأى سبب ممد تعلقتم به من دون الله فتيقنوا أنه لم ينزل إلا عن سبب غيبى و أنه من أنباء الغيب الذى يختص به تعالى فهو الذى أنزله على

و كلمنى به و اراد تفهيمى و تفهيمكم بما فيه من المعارف الحقه و ذخائر الهداياه.

و ذكر بعضهم ان المراد به انه انما انزل على علم من الله بنزوله و شهاده منه له، و ذكر آخرون ان المراد انه انما انزل بعلم من الله انه لا يقبل المعارضه او بعلم من الله بنظمه و ترتيبه و لا يعلم غيره ذلك، و هذه معان واهيه بعيده عن الفهم.

و الجملة أعنى قوله: **أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ** احدى النتيجتين المأخوذتين من عدم استجابته شركائهم لهم. و النتيجة الأخرى قوله: **«وَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»** و لزوم هذه النتيجة من وجهين: أحدهما: أنهم اذا دعوا آلهم لما يهتمهم من الأمور فلم فلم يجيبوهم كشف ذلك عن أنهم ليسوا بالهه فليس الإله إلا من يجيب المضطر اذا دعاه و خاصه اذا دعاه لما فيه نفع الإله المدعو فإن القرآن الذى أتى به النبى صلى الله عليه و آله و سلم كان يقطع دابرهم و يميت ذكرهم و يصرف الناس عن التوجه اليهم فإذا لم يجيبوا أولياءهم اذا دعوهم لمعارضه كتاب هذا شأنه كان ذلك من اوضح الدليل على نفى ألوهيتهم.

و ثانيهما: أنه اذا صح ان القرآن حق نازل من عند الله صادق فيما يخبر به، و مما يخبر به أنه ليس مع الله إله آخر علم بذلك أنه لا إله إلا الله سبحانه.

و قوله: **فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** أى لما علمتم و اتضح لكم من جهه عدم استجابته شركائهم من دون الله و عجزكم عن المعارضه فهل أنتم مسلمون لما وقع عليه علمكم هذا من توحيد الله سبحانه و كون هذا القرآن كتابا نازلا بعلمه؟ و هو أمر بالإسلام فى صورته الاستفهام. هذا كله ما يقتضيه ظاهر الآيه.

و قيل: إن الخطاب فى قوله: **فَالْتَمَسْتُمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ** الخ؛ للنبى صلى الله عليه و آله و سلم خوطب بلفظ الجمع تعظيما له و تفخيما لشأنه و ضمير الجمع الغائب راجع الى المشركين أى فإن لم يستجب المشركون لما دعوتهم أيها النبى اليه من المعارضه فاعلم أنه منزل بعلم الله و أن الله واحد فهل أنت مسلم لأمره.

و فيه أنه قد صح أن التعظيم بلفظ الجمع و الكثره يختص فى الكلام العربى بالمتكلم و اما الخطاب و الغيبه فلا تعظيم فيها بلفظ الجمع.

مضافا الى ان استناد الوحي الإلهى و التكليم الربانى اليه تعالى استناد ضرورى لا يقبل الشك حتى يستعان عليه بالدليل فما يتلقاه النبى صلى الله عليه و آله و سلم دلالاته على كونه كلاما من الله دلالة ضروريه غير محتاجه الى حجه حتى يحتج عليه بعدم إجابته المشركين الى معارضه القرآن و عجزهم عنها بخلاف كلام المخلوقين من الانسان و الجن و الملك و أى هاتف آخر فإنه يحتاج فى حصول العلم باستناده الى متكلمه الى دليل خارجى من حسن أو عقل، و قد تقدمت إشاره الى ذلك فى قصه زكريا من سوره آل عمران، و سيجىء البحث المستوفى عن ذلك فيما يناسبه من المورد إنشاء الله تعالى.

على أن خطاب النبى صلى الله عليه و آله و سلم بمثل قوله: «و أنه لا إله إلا هو»، و قوله: «فَهَلْ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ» لا يخلو عن بشاعه. على أن نفس الاستدلال ايضا غير تام كما سنبين.

و قيل: إن الخطاب فى الآيه للنبى صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين جميعا او للمؤمنين خاصه لأن المؤمنين يشاركونه صلى الله عليه و آله و سلم فى الدعوه الدينيه و التحدى بالقرآن الذى هو كتاب ربهم المنزل عليهم و المعنى: فإن لم يستجب المشركون لكم فى المعارضه فاعلموا أن القرآن منزل بعلم الله و أن لا إله إلا هو فهل تسلمون أنتم لله؟

و لما تفتن بعضهم أن لا معنى لدعوه المؤمنين و هم مؤمنون بالله و وحده و بكتابه الى العلم بأنه كتاب نازل من عند الله و بأنه تعالى واحد لا شريك له أصلحه بأن المراد فاثبتوا على علمكم أنه إنما أنزل بعلم الله و ازدادوا به ايمانا و يقينا و أنه لا إله إلا هو و لا يستحق العباده سواه فهل أنتم ثابتون على إسلامكم و الإخلاص فيه؟

و فيه أنه تقييد للآيه من غير مقيّد و الحجه غير تامه و ذلك أن المشركين لو كانوا وقفوا موقف المعارضه بما عندهم من البضاعه و استعانوا عليها بدعوه آلهتهم و سائر من يطمعون فيه

من الجن و الإنس ثم عجزوا كان ذلك دليلا واضحا يدلهم على أن القرآن فوق كلام البشر و تمت بذلك الحجه عليهم، و أما عدم استجابه الكفار للمعارضه فليس يدل على كونه من عند الله لأنهم لم يأتروا بما أمروا به بقوله: «فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ» إما لعلمهم بأنه كلام الله الحق و إنما كان قولهم: «افترأه» قولاً ناشئا عن العناد و اللجاج لا عن إذعان به او شك فيه، او لأنهم كانوا آيسين من استجابه شركائهم للدعوه على المعارضه، او لأنهم كانوا هازلين فى قولهم ذلك يهدرون هذرا.

و بالجمله عدم استجابه المشركين للنبي صلى الله عليه و آله و سلم او للمؤمنين او لهم جميعا لا يدل بنفسه على كون القرآن نازلا من عند الله إلا اذا كان عدم الاستجابه المذكوره بعد تحقق دعوتهم شركاءهم الى المعارضه و عدم استجابتهم لهم، و لم يتحقق من المشركين دعوه على هذه الصفه، و مجرد عدم استجابه المشركين انفسهم لا ينفع شيئا، و لا يبقى إلا أن يقال: إن معنى الآيه: فإن دعا المشركون من استطاعوا من دون الله فلم يستجيبوا لهم و لم يستجب المشركون لكم أيها النبي و معاشر المؤمنين فاعلموا أنما أنزل بعلم الله، الخ؛ و هذا هو الذى أوأنا اليه آنفا أنه تقييد للآيه من غير مقيد.

على أن فيه امرا للمؤمنين أن يهتدوا فى ايمانهم و يقينهم بأمر فرضى غير واقع و كلامه تعالى يجلّ عن ذلك، و لو أريدت الدلاله على أنهم غير قادرين على ذلك و إن دعوا شركاءهم الى المعارضه كان من حق الكلام أن يقال: فإن لم يستجيبوا لكم و لن يستجيبوا فاعلموا، الخ؛ كما قيل كذلك فى نظيره قال تعالى: «وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ» (البقره ٢٤).

قوله تعالى: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَ هُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ» التوفيه إيصال الحق الى صاحبه و إعطاؤه له بكماله، و البخس

و فى الآيه تهديد لهؤلاء الذين لا يخضعون للحق لما جاءهم و لا يسلمون له إيثارا للحياه الدنيا و نسيانا للآخره، و بيان لشيء من سنّه الاسباب القاضيه عليهم باليأس من نعيم الحياه الآخره.

و ذلك أن العمل كيفما كان فإنما يسمح للإنسان بالغايه التى ارادها به و عمله لأجلها، فإن كانت غايه دنيويه تصلح شئون الحياه الدنيا من مال و جمال و حسن حال ساقه العمل-إن أعانتها سائر الاسباب العامله-الى ما يرجوه بالعمل و أما الغايات الاخرويه فلا خبر عنها لأنها لم تقصد حتى تقع، و مجرد صلاحيه العمل لأن يقع فى طريق الآخره و ينفع فى الفوز بنعيمها كالبر و الإحسان و حسن الخلق لا يوجب الثواب و ارتفاع الدرجات ما لم يقصد به وجه الله و دار ثوابه.

و لذلك عقبه بقوله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» فأخبر أنهم اذا وردوا الحياه الآخره وقعوا فى دار حقيقتها أنها نار تأكل جميع أعمالهم فى الحياه كما تأكل النار الحطب و تبير و تهلك كل ما تطيب به نفوسهم من محاسن الوجود، و تحبط جميع ما صنعوا فيها و تبطل ما أسلفوا من الأعمال فى الدنيا، و لذلك سماها سبحانه فى موضع آخر بدار البوار أى الهلاك فقال تعالى: «لَمْ تَرِ إِلَى الَّذِينَ يَدَّؤُنَا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا (إبراهيم ٢٩)، و بذلك يظهر أن كلا من قوله: «وَ حَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا» و قوله: «وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» يفسر قوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ» نوعا ما من التفسير (١).

ص: ١١٥

١ - ١). هود ٥-١٦: بحث روائى فى سيره المشركين اذا مروا برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم؛ ان رزق العباد على الله؛ السؤال من فضل الله؛ القضاء بالرزق و الامر بطلبه؛ نظر الائمة المعصومين صلى الله عليه و آله و سلم فى طلب الرزق؛ بدء الخلقه؛ الاعمال الصالحه.

اشاره

أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ
 فَالذَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةِ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (۱۷) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
 أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (۱۸) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ
 سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (۱۹) أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ
 أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَعْجِلُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (۲۰) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا
 كَانُوا يَفْتَرُونَ (۲۱) لَا جَزْمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسِرُونَ (۲۲) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأُحِبُّوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ
 أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۲۳) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَمْ لَا تَذَكَّرُونَ (۲۴)

قوله تعالى: أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً الْجمله تفريع على ما مضى من الكلام الذى هو فى محل الاحتجاج على كون القرآن كتابا منزلا- من عند الله سبحانه، و«مِنْ» مبتدأ خبره محذوف و التقدير: كغيره، أو ما يؤدى معناه، و الدليل عليه قوله تلو «أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ».

و الاستفهام إنكارى و المعنى: ليس من كان كذا و كذا كغيره ممن ليس كذلك و أنت على هذه الصفات فلا تك فى مريه من القرآن.

و قوله: عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ البينه صفة مشبهه معناها الظاهره الواضحه غير أن الامور الظاهره الواضحه ربما أوضحت ما ينضم إليها و يتعلق بها كالنور الذى هو بين ظاهر و يظهر به غيره، و لذلك كثر استعمال البينه فيما يتبين به غيره كالحجه و الآيه، و يقال للشاهد على دعوى المدعى بينه.

و الظاهر أن المراد بالبينه فى المقام هو هذا المعنى الأخير العام بقريته قوله بعد «أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» و إن كان المراد به بحسب المورد هو النبى صلى الله عليه و آله و سلم فإن الكلام مسوق ليتفرع عليه قوله: «فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةٍ مِنْهُ» .

فالمراد بها البصيره الإلهيه التى اوتيتها النبى صلى الله عليه و آله و سلم لا نفس القرآن النازل عليه فإنه لا يحسن ظاهرا ان يتفرع عليه قوله: «فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةٍ مِنْهُ» و هو ظاهر و لا- ينافيه كون القرآن فى نفسه بينه من الله من جهه كونه آيه منه تعالى كما فى قوله: قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ (الأنعام ٥٧/)، فإن المقام غير المقام.

و قوله تعالى: وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ المراد بالشهاده تأديه الشهاده التى تفيد صحه

الأمر المشهود له دون تحمّلها فإن المقام مقام تثبيت حقيته القرآن و هو إنما يناسب الشهاده بمعنى التأديه لا بمعنى التحمل.

و الظاهر أن المراد بهذا الشاهد بعض من أيقن بحقيقته القرآن و كان على بصيره إلهيه من امره فأمن به عن بصيرته و شهد بأنه حقّ منزل من عند الله تعالى كما يشهد بالتوحيد و الرساله فإن شهاده الموقن البصير على امر تدفع عن الإنسان مريه الاستيحاش و ريب التفرد فإن الانسان اذا أذعن بأمر و تفرد فيه ربما اوحشه التفرد فيه اذا لم يؤيده احد فى القول به اما اذا قال به غيره من الناس و أيد نظره فى ذلك زالت عنه الوحشه و قوى قلبه و ارتبط جأشه و قد احتج تعالى بما يماثل هذا المعنى فى قوله: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ (الأحقاف ١٠).

و على هذا فقوله: «يَتْلُوهُ» من التلو لا من التلاوه، و الضمير فيه راجع الى «مِنْ» او الى «بَيْنَهُ» باعتبار انه نور او دليل، و مآل الوجهين واحد فإن الشاهد الذى يلى صاحب البينه يلى بينته كما يلى نفسه و الضمير فى قوله: «مِنْهُ» راجع الى «مِنْ» دون قوله: «رَبِّهِ» و عدم رجوعه الى البينه ظاهر و محضّل المعنى: من كان على بصيره إلهيه من امر و لحق به من هو من نفسه فشهد على صحه امره و استقامته.

و على هذا الوجه ينطبق ما ورد فى روايات الفريقين ان المراد بالشاهد علىّ عليه السلام إن اريد به انه المراد بحسب انطباق المورد لا بمعنى الاراده الاستعماليه.

و قوله تعالى: وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَ رَحْمَةً الضمير راجع الى الموصول او الى البينه على حد ما ذكرناه فى ضمير «يَتْلُوهُ» و الجمله حال بعد حال اى أ فمن كان على بصيره إلهيه ينكشف له بها ان القرآن حقّ منزل من عند الله و الحال ان معه شاهدا منه يشهد بذلك عن بصيره و الحال أن هذا الذى هو على بينه سبقه كتاب موسى إماما و رحمه او قبل بينته التى منها القرآن او هى القرآن المشتمل على المعارف و الشرائع الهاديه الى الحق

كتاب موسى إماما فليس هو او ما عنده من البيئه ببدع من الأمر غير مسوق بمثل و نظير بل هناك طريق مسلوک من قبل يهدى اليه كتاب موسى.

قوله تعالى: **أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ الْمَشَارِ إِلَيْهِمْ** بقوله: «**أُولَئِكَ**» بناء على ما تقدم من معنى صدر الآيه هم الذين كانوا على بينه من ربهم المدلول عليهم بقوله: «**أَفَمَنْ كَانَ**» الخ، و أما إرجاع الإشاره الى المؤمنين لدلاله السياق عليهم فبعيد عن الفهم.

و كذا الضمير فى قوله: «**بِهِ**» راجع الى القرآن من جهة أنه بينه منه تعالى او امر قامت عليه البيئه، و أما إرجاعه الى النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم فلا يلائم ما قررناه من معنى الآيه فإن فى صدر الآيه بيان حال النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم بنحو العموم حتى يتفرع عليه قوله: «**فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةِ مِنْهُ**» كأنه قيل: إنك على بينه كذا و معك شاهد و قبلك كتاب موسى، و من كان على هذه الصفه يؤمن بما اوتى من كتاب الله، و لا يصح أن يقال: و من كان على هذه الصفه يؤمن بك، و الكلام فى الضمير فى «**و مَنْ يَكْفُرْ بِهِ**» كالكلام فى ضمير «**يُؤْمِنُونَ بِهِ**» .

و أمر الآيه فيما يحتمله مفردات ألفاظها و ضمائرهما عجيب فضرب بعضها فى بعض يرقى الى الوف من المحتملات بعضها صحيح و بعضها خلافه.

قوله تعالى: **فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةِ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ** المريه كجلسه النوع من الشك، و الجمله تفرع على صدر الآيه، و المعنى أن من كان على بينه من ربه فى امر و قد شهد عليه شاهد منه و قبله إمام و رحمه ككتاب موسى ليس كغيره من الناس الغافلين المغفلين فهو يؤمن بما عنده من امر الله و لا يوحشه إعراض أكثر الناس عما عنده، و أنت كذلك فإنك على بينه من ربك و يتلوک شاهد و من قبلك كتاب موسى إماما و رحمه و إذا كان كذلك فلا تك فى مريه من امر ما أنزل اليك من القرآن إنه محض الحق من جانب الله و لكن أكثر الناس لا يؤمنون.

وقوله: إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ تعليل للنهي وقد اكد بأن و لام الجنس للدلالة على توافر الأسباب النافية للمريه و هى قيام البيئه و شهاده الشاهد و تقدم كتاب موسى إماما و رحمه.

قوله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ من الممكن أن يكون ذبلا للسياق السابق من حيث كان تطيبا لنفس النبي صلى الله عليه و آله و سلم فيقول المعنى الى أنك إذ كنت على بينه من ربك لست بظالم فحاشاك أن تكون مفتريا على الله الكذب لأن المفترى على الله كذبا من أظلم الظالمين، و لهم من وبال كذبهم كذا و كذا.

و كيف كان فالمراد بافتراء الكذب على الله سبحانه توصيفه تعالى بما ليس فيه او نسبه شىء اليه بغير الحق او بغير علم، و الافتراء من أظهر أفراد الظلم و الإثم، و يعظم الظلم بعظم متعلقه حتى اذا انتهى الى ساحه العظمه و الكبرياء كان من أعظم الظلم.

وقوله تعالى: أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ الْعُرْضُ الشَّيْءِ ليرى و يوقف عليه، و لما كان ارتفاع الحجب بينهم و بين ربهم يوم القيامة بظهور آياته و وضوح الحق الصريح من غير شاغل يشغل عنه حضورا اضطراريا منهم لفصل القضاء سماه عرضا لهم على ربهم كما سمي بوجه آخر بروزا منهم لله فقال: يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ (المؤمن ١٦)، و قال: وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (إبراهيم ٤٨) فقال «أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ» أى يأتى بهم الملائكه الموكلون بهم فيوقفونهم موقفا ليس بينهم و بين ربهم حاجب حائل لفصل القضاء.

وقوله: وَ يَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ الْأَشْهَادُ جمع شهيد كأشراف جمع شريف و قيل: جمع شاهد كأصحاب جمع صاحب، و يؤيد الأول قوله تعالى:

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ (النساء ٤١) وقوله: وَ جَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَ شَهِيدٌ (ق ٢١).

و قول الأَشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم شهادة منهم عليهم بالافتراء على الله اى سجل عليهم بأنهم المفترون من جهة شهادته الأَشهاد عليهم بذلك فى موقف لا يذكر فيه إلا الحق و لا مناص فيه عن الاعتراف و القبول كما قال تعالى: لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (النبا ٣٨) و قال تعالى: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّرًا و مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَ بَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا (آل عمران ٣٠).

قوله تعالى: أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ الخ؛ تتمه قول الأَشهاد، و الدليل عليه قوله تعالى: فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجًا وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (الأعراف / ٤٥).

و هذا القول منهم المحكى فى كلامه تعالى تشبث منهم للبعد و اللعن على الظالمين و تسجيل للعذاب، و ليس اللعن و الرحمة يوم القيامة كاللعن و الرحمة فى الدنيا كما فى قوله تعالى:

أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (البقره ١٥٩) و ذلك أن الدنيا دار عمل و يوم القيامة يوم جزاء فما فيه من لعنه او رحمه هو إيصال ما أذخر لهم اليهم فلعن اللاعن احدا يوم القيامة طرده من رحمه الله الخاصه بالمؤمنين و تسجيل عذاب البعد عليه.

قوله تعالى: أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ الى آخر الآيه؛ الاشاره الى المفترين على الله الموصوفين بما مر فى الآيتين السابقتين.

و المقام يدل على ان المراد من كونهم غير معجزين فى الأرض انهم لم يكونوا معجزين لله سبحانه فى حياتهم الارضيه حيث خرجوا عن زى العبوديه فأخذوا يفترون على الله الكذب و يصدون عن سبيله و يبغونها عوجا فكل ذلك لا- لأن قدرتهم المستعاره فاقت قدره الله سبحانه و مشيتهم سبقت مشيته، و لا لأنهم خرجوا من ولايه الله فدخلوا فى ولايه غيره و هم

الذين اتخذوهم اولياء من اصنامهم و كذا سائر الأسباب التي ركنوا إليها، و ذلك قوله: «وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ» .

و بالجمله لا قدرتهم غلبت قدره الله سبحانه و لا شركاؤهم الذين يسمونهم اولياء لأنفسهم اولياء لهم بالحقيقه يدبرون امرهم و يحملونهم على ما يأتون به من البغى و الظلم بل الله سبحانه هو وليهم و هو المدبر لأمرهم يجازيهم على سوء نياتهم و اعمالهم بما يجرمهم الى سوء العذاب و يستدرجهم من حيث لا يشعرون كما قال تعالى: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ (الصف ٥)، و قال: يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره / ٢٦).

و قوله: يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ فسقوا ثم لجوا عليه او لأنهم عصوا الله بأنفسهم و حملوا غيرهم على معصيه الله فيضاعف لهم العذاب كما ضاعفوا المعصيه قال تعالى:

لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ (النحل ٢٥) / و قال: وَ نَكْتِبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ (يس ١٢).

و قوله: مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ مَا كَانُوا يُبْصِرُونَ فى مقام التعليل و لذا جىء بالفصل يقول تعالى إنهم لم يكفروا و لم يعصوا لظهور إرادتهم على إرادة الله و لا لأن لهم اولياء من دون الله يستظهرون بهم على الله بل لأنهم ما كانوا يستطيعون ان يسمعوا ما يأتىهم من الإنذار و التبشير من ناحيته او يذكر لهم من البعث و الزجر من قبله و ما كانوا يبصرون آياته حتى يؤمنوا بها كما وصفهم فى قوله: لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ (الأعراف ١٧٩)، و فى قوله:

وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ (الأنعام ١١٠)، و قوله: حَتَّىٰمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَ عَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ (البقره ٧)، و آيات اخرى كثيرة تدل على انه تعالى سلبهم عقولهم و اعينهم و آذانهم غير انه تعالى يحكى عنهم مثل قولهم:

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ (الملك ١١)، و اعترفهم بأن عدم سمعهم و عقلهم كان ذنبا منهم مع ان ذلك مستند الى سلبه تعالى منهم ذلك يدل على انهم انفسهم توسلوا الى سلب هذه النعم بالذنوب كما يدل عليه ما تقدم من قوله تعالى: وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦) وغيره.

قوله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ اما خسرانهم فإن الإنسان لا يملك بالحقيقه-و ذلك بتملكك من الله تعالى-إلا نفسه و اذا اشترى لنفسه ما فيه هلاكها و ضيعتها بالكفر و المعصيه فقد خسر في هذه المعامله التي اقدم عليها نفسه فخسران النفس كناية عن الهلاك، و أما ضلال ما كانوا يفترون فإنه كان كذبا و افتراء ليس له وجود في الخارج من اوهامهم و مزاعمهم التي زيّنتها لهم الأهواء و الهوسات الدنيويه و بانطواء بساط الحياه الدنيا يزول و ينمحي تلك الاوهام و يضل ما لا يح و استقر فيها من الكذب و الافتراء و يومئذ يعلمون ان الله هو الحق المبين، و يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون.

قوله تعالى: لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْمَآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسِرُونَ عن الفراء: أن «لَا جَرَمَ» في الاصل بمعنى لا بد و لا محاله ثم كثرت فحولت الى معنى القسم و صارت بمعنى «حقا» و لهذا تجاب باللام نحو لا جرم لأفعلن كذا. انتهى، و قد ذكروا أن «جَرَمَ» بفتحين بمعنى القطع فلعلها كانت في الأصل تستعمل في نتائج الكلام كلفظه «لا محاله» و تفيد أنه لا يقطع هذا القول قاطع إن كذا كذا كما يتصور نظير المعنى في «لا محاله» فمعنى الآية على هذا: حقا إنهم في الآخرة هم الأخسرون.

و وجه كونهم في الآخرة هم الأخسرين إن فرض أنهم أخسر بالنسبه الى غيرهم من أهل المعاصي هو أنهم خسروا أنفسهم بإهلاكها و إضاعتها بالكفر و العناد فلا مطمع في نجاتهم من النار في الآخرة كما لا مطمع في أن يفوزوا في الدنيا و يسعدوا بالإيمان ما داموا على العناد، قال

تعالى: الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (الأنعام/١٢). وقال تعالى في هؤلاء المختوم على سمعهم و أبصارهم و قلوبهم: وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ وَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (يس/١٠). و قال أيضا في سبب عدم إمكان إيمانهم: أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ (الجاثية/٢٣).

و ان فرض أنهم أخسر بالنسبة الى الدنيا فذلك لكونهم بكفرهم و صداهم عن سبيل الله حرموا سعادته الحياه التي يمهدا لهم الدين الحق فخسروا في الدنيا كما خسروا في الآخرة لكنهم في الآخرة أخسر لكونها دائمه مخلده و أما الدنيا فليست إلا قليلا، قال تعالى: كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ (الأحقاف/٣٥).

على أن الأعمال تشتد و تتضاعف في الآخرة بنتائجها كما قال تعالى: وَ مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَ أَضَلُّ سَبِيلًا (الإسراء/٧٢)، و أحسن الوجهين أولهما لأن ظاهر الآيه حصر الأخرين فيهم دون إثبات أخسريتهم في الآخرة قبال الدنيا.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَيْسَ آخِرُ الْأَيَّامِ؛ قال الراغب في المفردات: الخبت المطمئن من الأرض و أختب الرجل قصد الخبت أو نزله نحو أسهل و أنجد ثم استعمل الإخبات في استعمال اللين و التواضع قال الله تعالى:

و أخبتوا الى ربهم، و قال: و بشر المخبتين أى المتواضعين نحو لا- يستكبرون عن عبادته، و قوله: فتخبت له قلوبهم أى تلين و تخشع. انتهى.

فالمراد بإخباتهم الى الله اطمئنانهم اليه بحيث لا يتزلزل ما فى قلوبهم من الإيمان به فلا يزيغون و لا يرتابون كالأرض المطمئنه التي تحفظ ما استقر فيها فلا وجه لما قيل ان الأصل، أخبتوا لربهم فإن ما فى معنى الاطمئنان يتعدى يالى دون اللام.

و تقييده تعالى الإيمان و العمل الصالح بالإخبارات اليه يدل على أن المراد بهم طائفه خاصه من المؤمنين و هم المطمئنون منهم الى الله ممن هم على بصيره من ربهم، و هو الذى أشرنا اليه فى صدر الآيات عند قوله: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ» الخ؛ أن الآيات تقيس ما بين فريقين خاصين من الناس و هم أهل البصيره الإلهيه و من عميت عين بصيرته.

قوله تعالى: مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْمَأْعَمِيِّ وَالْمَأْصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَمْ فَلَا تَذَكَّرُونَ المثل هو الوصف، و غلب فى المثل السائر و هو بيان معنى من المعانى الخفيه على المستمع بأمر محسوس أو كالمحسوس يأنس به ذهنه و يتلقاه فهمه لينتقل به الى المعنى المعقول المقصود بيانه، و المراد بالفريقين من بين حالهما فى الآيات السابقه، و الباقي واضح.

[سوره هود (١١): الآيات ٢٥ الى ٣٥]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآلَمِ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَأْكُ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَأْكُ إِلَّا تَأْكُ إِلَّا تَبْعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدَىٰ الرُّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْ نُلْزِمُكُمْوهَا وَ أَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤَيَّسَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالُوا إِنَّمَا يَاأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصِحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)

قوله تعالى: **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ** القراءه المعروفه «إنى» بكسر الهمزه على تقدير القول و قرئ أنى بفتح الهمزه بنزع الخافض و التقدير بأنى لكم نذير مبین، و الجملة أعنى قوله: «إنى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ» على أى حال بيان إجمالى لما أرسل به فإن جميع ما بلغه قومه عن ربه و أرسل به اليهم إنذار مبین فهو نذير مبین.

فكما أنه لو قال: ما سألقيه اليكم من القول إنذار مبین كان بيانا لجميع ما أرسل به اليهم بأوجز كلمه كذا قوله: إنى لكم نذير مبین بيان لذلك بالإجمال غير أنه يزيد على سابقه بيان

سمه نفسه و هى أنه رسول من الله اليهم لينذرهم بعذاب الله، وليس له من الأمر شيء أزيد من أنه واسطه يحمل الرساله.

قوله تعالى: أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ .

بيان ثان لما ارسل به او بيان لقوله: «إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ» و مآل الوجهين واحد، و أن على أى حال مفسره، و المعنى أن محصل رسالته النهى عن عباده غير الله تعالى من طريق الإنذار و التخويف.

و الظاهر أن المراد بعذاب يوم أليم عذاب الاستئصال دون عذاب يوم القيامة او الأعم من العذابين يدل على ذلك قولهم له فيما سيحكيه الله تعالى عنهم «يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْنَا فَأَنْتَ أَكْثَرُ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ» الآيه؛ فإنه ظاهر فى عذاب الاستئصال.

فهو عليه السلام كان يدعوهم الى رفض عباده الأوثان و يخوفهم من يوم ينزل عليهم من الله عذاب أليم اى مؤلم و نسبه الإيلام الى اليوم دون العذاب فى قوله: «عَذَابٌ يَوْمٍ أَلِيمٍ» من قبيل وصف الظرف بصفه المظروف.

و بما تقدم يندفع ما ربما قيل: إن تعذيب المشركين مقطوع لا محتمل فما الوجه فى خوفه عليه السلام من تعذيبهم المقطوع؟ و الخوف إنما يستقيم فى محتمل الوقوع لا مقطوعه.

و بالجمله كان عليه السلام يدعوهم الى توحيد الله سبحانه بتخويفهم من العذاب، و إنما كان يخوفهم لأنهم كانوا يعبدون الأوثان خوفا من سخطهم فقابلهم نوح عليه السلام بأن الله سبحانه هو الذى خلقهم و دبّر شئون حياتهم و أمور معاشهم بخلق السماوات و الأرض و إشراق الشمس و القمر و إنزال الأمطار و إنبات الأرض و إنشاء الجنات و شق الأنهار على ما يحكيه تعالى عنه عليه السلام فى سوره نوح.

و إذ كان كذلك كان الله سبحانه هو ربهم لا رب سواه فليخافوا عذابه و ليعبدوه وحده.

المفردات: الرذل-بفتح الراء-و الرذال-بكسرهما-المرغوب عنه لرداءته قال تعالى «وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ» وقال «إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِآدِي الرَّأْيِ» وقال «قَالُوا أُنُومٌ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ» جمع الأردل.

وقال فى المجمع: الرذل الخسيس الحقير من كل شىء و الجمع اردل ثم يجمع على ارادل كقولك: كلب و اكلب و كالب و، ويجوز ان يكون جمع الأردل فيكون مثل اكابر جمع اكبر.

وقال: و الرأى الرؤيه من قوله: «يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ» أى رؤيه العين و الرأى ايضا ما يراه الإنسان فى الأمر و جمعه آراء. انتهى.

وقال فى المفردات: و قوله: «بِآدِي الرَّأْيِ» أى ما يبدأ من الرأى و هو الرأى الفطير، و قرئ: بآدى بغير همزه أى الذى يظهر من الرأى و لم يتروّ فيه. انتهى.

وقوله: «بِآدِي الرَّأْيِ» يحتمل أن يكون قيذا لقوله: «هُمْ أَرَادْنَا» أى كونهم أراذل و سفله فينا معلوم فى ظاهر الرأى و النظر او فى اول نظره.

و يحتمل كونه قيذا لقوله: «اتَّبَعَكَ أى اتبعوك فى ظاهر الرأى او فى اوله من غير تعمق و تفكر و لو تفكروا قليلا و قلبوا أمرك ظهرا لبطن ما اتبعوك، و هذا الاحتمال لا- يستغنى عن تكرار الفعل ثانيا و التقدير: اتبعوك بآدى الأمر و إلا اختل المعنى لو لم يتكرر و قيل: ما نراك اتبعك بآدى الرأى إلا الذين هم أراذلنا. و بالجملة معنى الآية: أنا نشاهد أن متبعيك هم الأراذل و الأخساء من القوم و لو اتبعناك ساويناهم و دخلنا فى زمرتهم و هذا ينافى شرافتنا و يحط قدرنا فى المجتمع، و فى الكلام إيماء الى بطلان رسالته عليه السلام بدلاله الالتزام فإن من معتقدات العامه أن القول لو كان حقا نافعا لتبعه الشرفاء و العظماء و أولو القوه و الطول فلو استنكفوا عنه او اتبعه الأخساء و الضعفاء كالعبيد و المساكين و الفقراء ممن لا حظ له من مال او جاه و لا مكانه له عند العامه فلا خير فيه.

وقوله: **وَ مَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ** المراد نفى مطلق الفضل من متاع دنيوى يختصون بالتنعم به او شىء من الامور الغيبية كعلم الغيب او التأيد بقوه ملكوتيه و ذلك لكون النكره-فضل-واقعه فى سياق النفى فتفيد العموم.

وقد أشركوا أتباع نوح عليه السّلام و المؤمنين به منهم فى دعوته إذ قالوا «و لا نرى لكم علينا» و لم يقولوا «و لا نرى لك» لأنهم كانوا يحثونهم و يرغبونهم فى اتباع ما اتبعوه من الطريقه.

و المعنى أن دعوتكم إيانا-و عندنا ما نتمتع به من مزايا الحياه الدنيا كالمال و البنين و العلم و القوه-إنما يستقيم و يؤثر أثره لو كان لكم شىء من الفضل تفضلون به علينا من زينه الحياه الدنيا او علم من الغيب او قوه من الملكوت حتى يوجب ذلك خضوعا منا لكم و لا نرى شيئا من ذلك عندكم فأى موجب يوجب علينا اتباعكم؟

و إنما عممنا الفضل فى كلامه للفضل من حيث الجهات الماديه و غيره كعلم الغيب و القوه الملكوتيه خلافا لأكثر المفسرين حيث فسروا الفضل بالفضل المادى كالمال و الكثره و غيرهما، لما يستفاد من كلامهم من العموم لوقوع النكره فى سياق النفى.

مضافا الى أن ما يحاذى قولهم هذا من جواب نوح عليه السّلام يدل على ذلك و هو قوله: **«و لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ»** الخ؛ على ما سيأتى.

وقوله تعالى: **بَلْ نَحْنُكُمْ كَاذِبِينَ** إضراب فى الاحتجاج كما تقدمت الإشارة اليه فمحصله انا لا نرى معكم امرا يوجب اتباعنا لكم بل هناك امر يوجب عدم الاتباع و هو انا نظنكم كاذبين.

و معناه على ما يعطيه السياق-و الله اعلم-انه لما لم يكن عندكم ما يشاهد معه صحه دعوتكم و إنكم تلحون علينا بالسمع و الطاعه و انتم صفر الأيدى من مزايا الحياه من مال و جاه و هذه الحال تستدعى الظن بأنكم كاذبون فى دعواكم تريدون بها نيل ما بأيدينا من امانى الحياه بهذه الوسيله و بالجمله هذه اماره توجب عاده الظن بأنها اكذوبه يتوسل بها الى

مِنَ اللَّهِ إِنَّ طَرَدْتُهُمْ» الخ؛ فتدبر فيها.

فقوله: قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي جَوَابٌ عَنْ قَوْلِهِمْ:

«مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا» يريدون به أنه ليس معه إلا البشرية التي يماثلهم فيها و يماثلونه فبأى شيء يدعى وجوب اتباعهم له؟ بل هو كاذب يريد بما يدعيه من الرسالة أن يصطادهم فيقتنص بذلك أموالهم و يترأس عليهم.

و إذ كان هذا القول منهم متضمنا لنفى رسالته و سندهم فى ذلك أنه بشر لا أثر ظاهر معه يدل على الرسالة و الاتصال بالغيب كان من الواجب تنبيههم على ما يظهر به صدقه فى دعوى الرسالة و هو الآيه المعجزه الداله على صدق الرسول فى دعوى الرسالة فإن الرسالة نوع من الاتصال بالغيب خارق للعاده الجاربه لا طريق الى العلم بتحقيقه إلا بوقوع امر غيبى آخر خارق للعاده يوقن به كون الرسول صادقا فى دعواه الرسالة، و لذلك اشار عليه السلام بقوله:

«يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي» الى أن معه بينه من الله و آيه معجزه تدل على صدقه فى دعواه.

و قوله: وَ أَنَا بِي رَحْمَةٍ مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ الظاهر انه عليه السلام يشير به الى ما آتاه الله تعالى من الكتاب و العلم، و قد تكرر فى القرآن الكريم تسميه الكتاب و كذا تسميه العلم بالله و آياته رحمه قال تعالى: وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَ رَحْمَةً (هود/١٧)، و قال: وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً (النحل/٨٩)، و قال:

فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا (الكهف/٦٥) و قال: رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَ هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً (آل عمران/٨).

و أما قوله: فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ فالظاهر ان ضميره راجع الى الرحمه، و المراد أن ما عندى من العلم و المعرفة اخفاها عليكم جهلكم و كراحتكم للحق بعد ما ذكرتكم به و بثته فيكم.

وقوله: أُنزِلَتْكُمْوهَا وَ أَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ الإلزام جعل الشيء مع الشيء بحيث لا يفارقه و لا ينفك منه، والمراد بالزامهم الرحمة و هم لها كارهون إجبارهم على الايمان بالله و آياته و التلبس بما يستدعيه المعارف الالهيه من النور و البصيره.

و معنى الآيه-و الله اعلم-اخبرونى إن كانت عندى آيه معجزه تصدق رسالتى مع كونى بشرا مثلكم و كانت عندى ما تحتاج اليه الرساله من كتاب و علم يهديكم الى الحق لكن لم يلبث دون ان اخفاه عليكم عنادكم و استكباركم أ يجب علينا عندئذ ان نجبركم عليها؟ اى عندى جميع ما يحتاج اليه رسول من الله فى رسالته و قد أوقفتمكم عليه لكنكم لا تؤمنون به طغيانا و استكبارا و ليس على ان أجبركم عليها، إذ لا إجبار فى دين الله سبحانه.

قوله تعالى: وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا- إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا- عَلَى اللَّهِ يَرِيدُ بِهِ الْجَوَابِ عما اتهموه به من الكذب و لازمه ان تكون دعوته طريقا الى جلب اموالهم و اخذ ما فى ايديهم طمعا فيه فإنه إذا لم يسألهم شيئا من اموالهم لم يكن لهم ان يتهموه بذلك.

قوله تعالى: وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَ لَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ جواب عن قولهم: «وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِأَدْيِ الرَّأْيِ» و قد بدل لفظه الأراذل-و هى لفظه إرزاء و تحقير-من قوله:الذين آمنوا تعظيما لأمر إيمانهم و إشاره الى ارتباطهم بربهم.

نفى فى جوابه ان يكون يطردهم و علل ذلك بقوله: «إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ» إيدانا بأن لهم يوما يرجعون فيه الى الله فيحاسبهم على اعمالهم فيجازيهم على ما عملوه من خير او شر فحاسبهم على ربهم و ليس لغيره من الأمر شيء،فليس على نوح عليه السلام ان يحاسبهم فيجازيهم بشيء لكن القوم لجهالتهم يتوقعون على الفقراء و المساكين و الضعفاء ان يطردوا من مجتمع الخير و يسلبوا النعمة و الشرافه و الكرامه.

فظهر ان المراد بقوله: إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ الإيتمان الى محاسبه الله سبحانه إياهم

يوم يرجعون فيه اليه فيلاقونه كما وقع في نظير هذا المعنى فى قوله تعالى: **وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (الأنعام ٥٧).**

قوله تعالى: **وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** النصر مضمّن معنى المنع او الانجاء و نحوهما و المعنى من يمنعنى أو من ينجينى من عذاب الله إن طردتهم أفلا تتذكرون أنه ظلم، و الله سبحانه ينتصر للمظلوم من الظالم و ينتقم منه، و العقل جازم بأن الله سبحانه لا يساوى بين الظالم و المظلوم، و لا يدع الظالم يظلم دون أن يجازيه على ظلمه بما يسوءه و يشفى به غليل صدر المظلوم و الله عزيز ذو انتقام.

قوله تعالى: **وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكُكُمْ جَوَابَ عَنْ قَوْلِهِمْ: «وَلَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ»** يرد عليهم قولهم بأننى لست أدعى شيئاً من الفضل الذى تتوقعون منى أن أدعيه بما أنى أدعى الرسالة فإنكم تزعمون أن على الرسول أن يملك خزائن الرحمة الإلهيه فيستقل بإغناء الفقير و شفاء العليل و إحياء الموتى و التصرف فى السماء و الأرض و سائر أجزاء الكون بما شاء و كيف شاء.

و أن يملك علم الغيب فيحصل على كل خير محجوب عن العيون مستور عن الأبصار فيجلبه الى نفسه، و يدفع كل شر مستقبل كامن عن نفسه و بالجمله يستكثر من الخيرات و يصاب من المكاره.

و أن يرتفع عن درجه البشريه الى مقام الملكيه أى يكون ملكاً منزهاً من ألوان الطبيعه و مبرى من حوائج البشريه و نقائصها فلا يأكل و لا يشرب و لا ينكح و لا يقع فى تعب اكتساب الرزق و اقتناء لوازم الحياه و أمتعتها.

فهذه هى جهات الفضل التى تزعمون أن الرسول يجب أن يؤتاها و يمتلكها فيستقل بها، و قد أخطأتم فليس للرسول إلا الرساله و إنى لست أدعى شيئاً من ذلك فلا أقول لكم عندى

خزائن الله و لا- أعلم الغيب و لا أقول إني ملك، و بالجمله لست أدعى شيئاً من الفضل الذى تتوقعونه حتى تكذبونى بفقده، و إنما أقول إني على بينه من ربي تصدق رسالتى و آتاني رحمه من عنده.

و المراد بقوله: خَزَائِنُ اللَّهِ جميع الذخائر و الكنوز الغيبية التى ترزق المخلوقات منها ما يحتاجون اليه فى وجودهم و بقائهم و يستعينون به على تميم نقائصهم و تكميلها.

فهايتك هى التى ترعم العامه أن الأنبياء و الأولياء يؤتون مفاتيحها و يمتلكون بها من القدره ما يفعلون بها ما يشاءون و يحكمون ما يريدون كما اقترح على النبى صلى الله عليه و آله و سلم و قد حكاه الله تعالى إذ يقول: وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كَيْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيْلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (الإسراء ٩٣).

و إنما قال: وَ لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ و لم يقل: و لا أقول إني أعلم الغيب لأن هذا النوع من العلم لما كان مما يضمن به و لا يسمح بإظهاره لم يكن قول القائل: لا- أقول إني أعلم الغيب نافية لوجوده عند القائل بل يحتاج الى أن يقال: لا أعلم الغيب ليفيد النفي بخلاف قوله:

وَ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ و قوله: وَ لَا أَقُولُ إِنِّي مَلِكٌ، و لم يكرر قوله: لَكُمْ لحصول الكفايه بالواحد.

و قد أمر الله سبحانه نبيه محمد صلى الله عليه و آله و سلم أن يخاطب قومه بما خاطب به نوح صلى الله عليه و آله و سلم قومه ثم ذبله بما يظهر به المراد إذ قال: قُلْ لَا- أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا- أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلِكٌ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَ الْبَصِيرُ أَمْ فَلَا تَتَفَكَّرُونَ (الأنعام ٥٠).

انظر الى قوله: لَا أَقُولُ لَكُمْ الْخ؛ ثم الى قوله: «إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ» ثم الى قوله: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَ الْبَصِيرُ» الخ؛ فهو ينفى أولاً-الفضل الذى يتوقعه عامه الناس من نبيهم ثم يثبت للرسول رساله فحسب ثم يبادل الى إثبات الفضل من جهة أخرى غير الجبهه التى يتوقعها الناس و هو أنه بصير بإبصار الله تعالى و أن غيره بالنسبه اليه كالأعمى بالنسبه الى البصير و هذا هو الموجب لاتباعهم له كما يتبع الأعمى البصير، و هو المجوز له أن يدعوهم الى اتباعه (١).

قوله تعالى: وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالَ فِي المفردات: زريت عليه عبه و أزريت به قصدت به و كذلك ازدريت به و أصله افتعلت قال: تزدري أعينكم أى تستقلهم تقديره تزدريهم أعينكم أى تستقلهم و تستهين بهم. انتهى.

و هذا الفصل من كلامه عليه السلام إشاره الى ما كان يعتقد الملاء الذين كفروا من قومه و بنوا عليه سنه الاشرافيه و طريقه السياهه، و هو أن أفراد الإنسان تنقسم الى قسمين الأقوياء و الضعفاء، أما الأقوياء فهم أولو الطول و أرباب القدره المعتضدون بالمال و العده، و أميا الضعفاء فهم الباقون. و الأقوياء هم الساده فى المجتمع الانسانى لهم النعمه و الكرامه، و لأجلهم انعقاد المجتمع، و غيرهم من الضعفاء مخلوقون لأجلهم مقصودون لهم أضحى منافعهم كالرعيتيه بالنسبه الى كرسى الحكومه المستبده، و العبيد بالنسبه الى الموالى، و الخدم و العمله بالنسبه الى المخدمين و النساء بالنسبه الى الرجال، و بالأخره كل ضعيف بالنسبه الى القوى المستعلى عليه.

و بالجمله كان معتقدهم أن الضعيف فى المجتمع إنسان منحط أو حيوان فى صوره إنسان

ص: ١٣٦

١- (١). هود ٢٥-٣٥: كلام فى قدره الانبياء و الاولياء فلسفى و قرآنى.

إنما يرد داخل المجتمع و يشاركهم فى الحياه ليستفيد الشريف من عمله و ينتفع من كدّ يمينه لحياته من غير عكس بل هو محروم من الكرامه مطرود عن حظيره الشرافه آيس من الرحمه و العنايه.

فهذا هو الذى كانوا يرونه و كان هو المعتمد عليه فى مجتمعهم، و قد ردّ نوح عليه السّلام ذلك إليهم بقوله: «وَأَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا» .

ثمّ بيّن خطأهم فى معتقدهم بقوله: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ» أى إن أعينكم إنما تزدريهم و تستحقّهم و تستهين أمرهم لما تحسّ ظاهر ضعفهم و هوانهم، و ليس هو الملاك فى إحراز الخير و نيل الكرامه بل الملاك فى ذلك و خاصّه الكرامات و المثوبات الإلهيه أمر النفس و تحلّيها بحلّى الفضيله و المنقبه المعنويه، و لا طريق لى و لا لكم الى العلم ببواطن النفوس و خبايا القلوب إلاّ لله سبحانه فليس لى و لا لكم أن نحكم بحرمانهم من الخير و السعاده.

ثمّ بيّن بقوله: «إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ» السبب فى تحاشيه عن هذا القول و معناه أنه قول بغير علم، و تحريم الخير على من يمكن أن يستحقه جزافا من غير دليل ظلم لا ينبغى أن يرومه الانسان فيدخل بذلك فى زمره الظالمين.

و هذا المعنى هو الذى يشير تعالى إليه فيما يحكيه من كلام أهل الأعراف يوم القيامة خطابا لهؤلاء الطاغين إذ يقول: وَ نَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ مَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ (الأعراف ٤٩).

و فى الكلام أعنى قول نوح عليه السّلام «وَأَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ» الخ؛ تعريض لهم أنهم كما كانوا يحرمون على ضعفاء المجتمع المزاي الحيويه الاجتماعيه كذلك كانوا يحرمون عليهم الكرامه الدينيه و يقولون: إنهم لا يسعدون بدين و إنما يسعد به أشراف

المجتمع و أقوياءوهم، وفيه أيضا تعريض بأنهم ظالمون.

و إنما عقب نوح عليه السلام قوله: «وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ» و هو ينفى فيه جهات الامتياز التي كانوا يتوقعونها في الرسول عن نفسه، بقوله: «وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا» الخ؛ مع أنه راجع الى الضعفاء الذين آمنوا به من قومه لأن الملاء الحقوهم به في قولهم: «وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ» .

و توضيحه أن معنى قولهم هذا أن اتباعنا لك و لمن آمن بك من هؤلاء الأراذل إنما يستقيم لفضل يتم لكم علينا و لا نرى لكم علينا من فضل أميا أنت فليس معك ما يختص به الرسول من قدره ملكوته أو علم بالغيب أو أن تكون ملكا منزها من ألوات المادّه و الطبيعه، و أما المؤمنون بك فإنما هم أراذلنا الآيسون من كرامه الانسانيه المحرومون من الرحمه و العنايه.

فأجاب عنهم نوح بما معناه: أمّا أنا فلا أدعى شيئا مما تتوقعون من رسالتى فليست للرسول إلا الرساله و أما هؤلاء الضعفاء الذين لهم هوان عندكم فمن الجائز أن يعلم الله من نفوسهم خيرا فيؤتيهم خيرا و فضلا فهو أعلم بأنفسهم، و ملاك الكرامه الدينيه و الرحمه الإلهيه زكاء النفس و سلامه القلب دون الظاهر الذى تزدرية أعينكم فليست أقول: لن يؤتيهم الله خيرا، فإنه ظلم يدخلنى فى زمرة الظالمين.

قوله تعالى: «قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ» كلام القوه الى نوح عليه السلام بعد ما عجزوا عن دحض حجته و إبطال ما دعا إليه من الحق، و هو مسوق سوق التعجيز و المراد بقولهم: «بِمَا تَعِدُنَا» ما أنذرهم به فى أوّل دعوته من عذاب يوم أليم.

و المعنى -و الله أعلم- يا نوح قد جادلنا فأكثرت جدالنا حتى سئمنا و مللنا و ما نحن لك بمؤمنين فأتنا بما تعدنا من العذاب، و هم لا يعترفون بالعجز عن خصامه و جداله بل

يؤيسونه من أنفسهم في الحجاج و يطلبون منه أن يشتغل بما يشتغل الداعى الآيس من السمع و الطاعه و هو الشر الذى يهددهم به و يذكره وراء نصحه.

قوله تعالى: قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ لَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ: «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا» الخ؛ طلبا منه أن يأتيهم بالعذاب و ليس ذلك اليه وإنما هو رسول، أجب عن اقتراحهم هذا أيضا- فى سياق قصر القلب- أن الإتيان بالعذاب ليس إلى بل إنما هو الى الله فهو الذى يملك أمركم فيأتيكم بالعذاب الذى وعدتكموه بأمره فهو ربكم و اليه مرجع أمركم كله، و لا يرجع إلى من أمر التدبير شىء حتى أن وعدى إياكم بالعذاب و اقتراحكم على بطلبه لا يؤثر فى ساحه كبريائه شيئا فإن يشأ يأتيكم به و إن لم يشأ فلا.

و من هنا يظهر أن قوله عليه السلام: «إِنْ شَاءَ» من أطف القیود فى هذا المقام أفيد به حق التنزيه و هو أن الله سبحانه لا يحكم فيه شىء و لا يقهره قاهر يفعل ما يشاء و لا يفعل ما يشاء غيره نظير ما سيأتى فى آخر السوره من الاستثناء فى قوله: خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُودٍ (هود ١٠٨).

و قوله: «وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» تنزيه آخر لله سبحانه و هو مع ذلك جواب عن الأمر التعجيزى الذى ألقوه اليه عليه السلام فإن ظاهره أنهم لا يعبتون بما هددهم به من العذاب كأنهم معجزون لا يقدر عليهم.

قوله تعالى: وَ لَا يَنْفَعُكُمْ نُصِيحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ الخ؛ قال فى المفردات: النصح تحرى فعل او قول فيه صلاح صاحبه -قال- و هو من قولهم: نصحت له الود أى أخلصته و ناصح العسل خالصه او من قولهم:

نصحت الجلد خطته و الناصح الخياط و الناصح الخيط.

و قال أيضا: الغى جهل من اعتقاد فاسد، و ذلك أن الجهل قد يكون من الانسان غير معتقد اعتقادا لا صالحا و لا فاسدا، و قد يكون من اعتقاد شىء فاسد، و هذا النحو الثانى

يقال له غيى قال تعالى: مَا ضَلَّ لِصَاحِبِكُمْ وَمَا غَوَى، وقال: وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ .

انتهى.

و على هذا فالفرق بين الإغواء و الإضلال أن الإضلال إخراج من الطريق مع بقاء المقصد فى ذكر الضال، و الإغواء إخراجه منه مع زواله عن ذكره لاشتغاله بغيره جهلا.

و الإرادة و المشيه كالمترادفتين، و هى من الله سبحانه تسبب الأسباب المؤديه لوجود شىء بالضروره فكون الشىء مرادا له تعالى أنه تم أسباب وجوده و أكملها فهو كائن لا محاله، و أما اصل السببيه الجاربه فهى مراده بنفسها و لذا قيل: خلق الله الأشياء بالمشيه و المشيه بنفسها.

و بالجمله قوله: وَ لَا يَنْفَعُكُمْ نُصِيحِي الْخ؛ كأحد شقى الترييد و الشق الآخر قوله: «وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» كأنه عليه السلام يقول: أمركم الى الله إن شاء أن يعذبكم أتاكم بالعذاب و لا يدفع عذابه و لا يقهر مشيته شىء فلا أنتم معجزوه، و لا نصحى ينفعكم إن أردت أن أنصح لكم بعد ما أراد الله أن يغويكم لتكفروا به فيحق عليكم كلمه العذاب، و قيد نصحه بالشرط لأنهم لم يكونوا يسلمون له أنه ينصحهم.

و الإغواء كالإضلال و إن لم يجز نسبته الىه تعالى اذا كان إغواء ابتدائيا لكنه جائز اذا كان بعنوان المجازاه كأن يعصى الإنسان و يستوجب به الغوايه فيمنعه الله أسباب التوفيق و يخليه و نفسه فيغوى و يضل عن سبيل الحق، قال تعالى: يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦).

و فى الكلام إشاره الى أن نزول عذاب الاستئصال عليهم مسبق بالإغواء الإلهى كما يلوح اليه قوله تعالى: وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (الإسراء ١٦)، و قال: وَ قَيِّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ (حم السجده ٢٥).

ص: ١٤٠

و قوله: هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ تعليل لقوله: «وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي» الخ؛ أو لقوله: «إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ -الى قوله- يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ» جميعا و محصله أن أمر تدبير العباد الى الرب الذى اليه يرجع الامور، و الله سبحانه هو ربكم و إليه ترجعون فليس لى أن آتاكم بعذاب موعود، و ليس لكم أن تعجزوه إن شاء أن يأتىكم بالعذاب فأتاكم به لاستئصالكم و ليس لنصحى أن ينفعكم إن أراد هو أن يغويكم ليعذبكم.

قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ أصل الجرم-على ما ذكره الراغب فى مفرداته- قطع الثمره من الشجره و أجرم أى صار ذا جرم، و استعير لكل اكتساب مكروه فالجرم بضم الجيم و فتحها بمعنى الاكتساب المكروه و هو المعصيه، و الآيه، واقعه موقع الاعتراض، و النكته فيه أن دعوه نوح و احتجاجاته على وثنيه قومه و خاصه ما أورده الله تعالى فى هذه السوره من احتجاجه أشبه شىء بدعوه النبی صلی الله علیه و آله و سلم، و احتجاجه على وثنيه أمته.

و إن شئت زياده تصديق فى ذلك فارجع الى سوره الأنعام- و هى فى الحقيقه سوره الاحتجاج- و قابل ما حكاه الله تعالى عن نوح فى هذه السوره ما أمر الله به النبی صلی الله علیه و آله و سلم فى تلك السوره بقوله: «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَ لَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ -الى أن قال- وَ لَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ -الى أن قال- قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَ كُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ» .

و لك أن تطبق سائر ما ذكر من حججه عليه السیلام فى سوره نوح و الأعراف على ما ذكر من الحجج فى سوره الأنعام و فى هذه السوره فتشاهد صدق ما ادعينا.

و فى قوله: وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ إثبات إجرام مستمر لهم و قد أرسل إرسال المسلمات كما فى قوله: «فَعَلَىٰ إِجْرَامِي» من إثبات الجرم و ذلك أن الذى ذكر من حجج نوح إن كان من الافتراء كان كذبا من حيث إن نوحا عليه السیلام لم يحتج بهذه الحجج و هى حقّه،

لكنها من حيث إنها حجج عقلية قاطعه لا تقبل الكذب و هي تثبت لهؤلاء الكفار إجراما مستمرا في رفض ما يهديهم اليه من الإيمان و العمل الصالح فهم في خروجهم عن مقتضى هذه الحجج مجرمون قطعاً، و النبي صلى الله عليه و آله و سلم مجرم لا قطعاً بل على تقدير أن يكون مفترياً و ليس بمفتر.

[سوره هود (١١): الآيات ٣٦ الى ٤٩]

اشاره

وَ أَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَ اصْبِرْ لِفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحِينَا وَ لَا تَخَاطَبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧) وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَ فَارَ التَّنُورَ قُلْنَا إجْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ مَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) وَ قَالَ إِرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَ مُرْسَاهَا إِنْ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَ نَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَ كَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ إِرْكَبْ مَعَنَا وَ لَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَيَأْوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَ حَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَ قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَ يَا سَمَاءُ أَفْلَعِي وَ غِيضَ الْمَاءِ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودَىٰ وَ قِيلَ بُعِدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) وَ نَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْمَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ إِلَّا تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلَىٰ أُمَّةٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَّةٍ سَنُنْتَعِبُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ آيَاتِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)

ص: ١٤٢

قوله تعالى: وَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ الابتئاس من البؤس و هو حزن مع استكانه.

و قوله: لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ يئاس و إقنات له عليه السلام من إيمان الكفار من قومه بعد ذلك، و لذلك فرّع عليه قوله: «فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» لأن الداعى الى أمر إنما يبتئس و يغمّ من مخالفه المدعويين و تمردهم ما دام يرجو منهم الإيمان و الاستجابة لدعوته، و أما إذا يئس من إجابتهم فلا يهتم بهم و لا يتعب نفسه فى دعوتهم الى السمع و الطاعة و الإلحاح عليهم بالإقبال اليه و لو دعاهم بعدئذ فإنما يدعوهم لغرض آخر كإتمام الحجّه و إبراز المعذره.

و على هذا ففى قوله: فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ تسليه من الله لنحو عليه السلام و تطيب لنفسه الشريفه من جهه ما فى الكلام من الإشاره الى حلول حين فصل القضاء بينه و بين قومه، و صيانته لنفسه من الوجد و الغم لما كان يشاهد من فعلهم به و بالمؤمنين به من قومهم من إيذائهم إياهم فى دهر طويل (مما يقرب من ألف سنه) لبث فيه بينهم.

قوله تعالى: وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحِينَا وَ لَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ الفلك هى السفينه مفردها و جمعها واحد و الأعين جمع فله للعين و إنما جمع للدلاله على كثره المراقبه و شدتها فإن الجملة كناية عن المراقبه فى الصنع.

و ذكر الأئين قرينه على أن المراد بالوحى ليس هو هذا الوحى أعنى قوله: «وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ» الخ؛ حتى يكون وحيا للحكم بل وحى فى مقام العمل و هو تسديد و هدايه عمليه بتأييده بروح القدس الذى يشير اليه أن افعل كذا و افعل كذا كما ذكره تعالى فى الأئمه من آل ابراهيم عليهم السلام بقوله: وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا

لِلْعَابِدِينَ (الأنبياء ٧٣) وقد تقدمت الاشاره اليه في المباحث السابقه و سيجىء ان شاء الله في تفسير الآيه.

و قوله: **وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا** اى لا تسألنى فى امرهم شيئا تدفع به الشر و العذاب و تشفع لهم لتصرف عنهم السوء لأن القضاء فصل و الحكم حتم و بذلك يظهر أن قوله: **«إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ»** فى محل التعليل لقوله: **«وَلَا تُخَاطِبْنِي»** الخ؛ او لمجموع قوله:

«وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا» و يظهر ايضا أن قوله: **«وَلَا تُخَاطِبْنِي»** الخ؛ كناية عن الشفاعة.

و المعنى: و اصنع السفينه تحت مراقبتنا الكامله و تعليمنا إياك و لا تسألنى صرف العذاب عن هؤلاء الذين ظلموا فإنهم مقضى عليهم الغرق قضاء حتم لا مرد له.

قوله تعالى: **وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَيِّخْرًا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسِيخْرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسِيخْرُ مِنْكُمْ** كما تَسِيخْرُونَ قال فى المجمع: السخرية إظهار خلاف الإبطان على وجه يفهم منه استضعاف العقل، و منه التسخير لتدليل يكون استضعافا بالقهر، و الفرق بين السخرية و اللعب أن فى السخرية خديعه و استنقاصا و لا تكون إلا فى الحيوان و قد يكون اللعب بجماد، انتهى.

و قال الراغب فى المفردات: سخرت منه و استسخرته للهزاء منه قال تعالى **«إِنْ تَسِيخْرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسِيخْرُ مِنْكُمْ** كما تَسِيخْرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» **«يَلْ عَجِبْتَ وَيَسِيخْرُونَ»** و قيل: رجل سخره-بالضم فالفتح-لمن سخر و سخره-بالضم فالسكون-لمن يسخر منه، و السخرية-بالضم-و السخرية-بالكسر-لفعل الساخر، انتهى.

و قوله: **وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ** حكاية الحال الماضيه يمثل بها ما يجرى على نوح عليه السلام من إيذاء قومه و قيام طائفه منهم بعد طائفه على إهانته و الاستهزاء به فى عمل السفينه و صبره عليه فى جنب الدعوه الإلهيه و إقامه الحجه عليهم من غير ان يفشل و يثنى.

وقوله: **كَلِمًا مَّرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَيِّئًا** مِنْهُ حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ يَصْنَعُ وَالْمَلَأُ هَاهُنَا الْجَمَاعَةَ الَّذِينَ يَعْأُ بِهِمْ، وَفِي الْكَلَامِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْتُونَهُ وَهُوَ يَصْنَعُ الْفَلَكَ جَمَاعَةً بَعْدَ جَمَاعَةٍ بِالْمُرُورِ عَلَيْهِ سَاخِرِينَ، وَأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَصْنَعُهَا فِي مَرَأَى مِنْهُمْ وَمَمَرَّ عَامًا.

وقوله: **قَالَ إِنَّ تَسِيخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسِيخَرُ مِنْكُمْ** كَمَا تَسِيخَرُونَ فِي مَوْضِعِ الْجَوَابِ لِسُؤَالٍ مَقْدَرٍ كَأَنَّ قَائِلًا قَالَ: فَمَاذَا قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ فَقِيلَ «قَالَ إِنَّ تَسِيخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسِيخَرُ مِنْكُمْ» وَلِذَا فَصَلَ الْكَلَامَ مِنْ غَيْرِ عَطْفٍ.

وَلَمْ يَقُلْ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ تَسِيخَرُوا مِنِّي فَإِنِّي أَسِيخَرُ مِنْكُمْ لِيُدْفَعَ بِهِ عَنِ نَفْسِهِ وَعَنِ عَصَابَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَكَأَنَّهُ كَانَ يَسْتَمِدُّ مِنْ أَهْلِهِ وَأَتْبَاعِهِ فِي ذَلِكَ وَكَانُوا يَشَارِكُونَهُ فِي عَمَلِ السَّفِينَةِ وَكَانَتِ السَّخْرِيَّةُ تَتَنَاوَلُهُمْ جَمِيعًا فَظَاهَرَ الْكَلَامُ أَنَّ الْمَلَأَ كَانُوا يُوَاجِهُونَ نُوحًا وَمَنْ مَعَهُ فِي عَمَلِ السَّفِينَةِ بِسَخْرِيَّةِ نُوحٍ وَرَمِيَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْخَيْلِ وَالْجَنُونِ فَيَشْمَلُ هَزْوَهُمْ نُوحًا وَمَنْ مَعَهُ وَإِنْ كَانُوا لَمْ يَذْكُرُوا فِي هَزْوِهِمْ إِلَّا نُوحًا فَقَطْ.

عَلَى أَنَّ الطَّبْعَ وَالْعَادَةَ يَقْضِيَانِ أَنَّ يَكُونُوا يَسِيخَرُونَ مِنْ أَتْبَاعِهِ أَيْضًا كَمَا كَانُوا يَسِيخَرُونَ مِنْهُمْ فَهَمَّ أَهْلُ مَجْتَمَعٍ وَاحِدٍ تَرْتَبُ الْمَعَاشِرَةَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ وَإِنْ كَانَتِ سَخْرِيَّتُهُمْ مِنْ أَتْبَاعِهِ سَخْرِيَّةً مِنْهُ فِي الْحَقِيقَةِ لِأَنَّهُ هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي تَقُومُ بِهِ الدَّعْوَةُ، وَلِذَا قِيلَ «سَيِّئًا مِنْهُ» وَلَمْ يَقُلْ: سِيخَرُوا مِنْهُ وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

وَالسَّخْرِيَّةُ وَإِنْ كَانَتْ قَبِيحَةً وَمِنَ الْجَهْلِ إِذَا كَانَتْ ابْتِدَائِيَّةً لَكِنَّهَا جَائِزَةٌ إِذَا كَانَتْ مَجَازَاةً وَبِعُنْوَانِ الْمَقَابَلَةِ وَخَاصَّةً إِذَا كَانَتْ تَتَرْتَبُ عَلَيْهَا فَائِدَةٌ عَقْلَانِيَّةٌ كَانْفَازِ الْعَزِيمَةِ وَإِتْمَامِ الْحُجَّةِ، قَالَ تَعَالَى: **فَيَسِيخَرُونَ مِنْهُمْ سَيِّئًا** اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (التوبة ٧٩)، وَيَدُلُّ عَلَى اعْتِبَارِ الْمَجَازَاةِ وَالْمَقَابَلَةِ بِالْمَثَلِ فِي الْآيَةِ قَوْلُهُ: «كَمَا تَسِيخَرُونَ».

قَوْلُهُ تَعَالَى: **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ**

مُقِيمٌ السياق يقضى أن يكون قوله: «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» تفريعاً على الجملة الشرطية السابقة «إِنَّ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ» و تكون الجملة المتفرعة هو متن السخرية التي أتى بها نوح عليه السلام، و يكون قوله: «مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ» الخ؛ متعلقاً بتعلمون على أنه معلوم العلم.

و المعنى: ان تسخروا منا فإننا نسخر منكم فنقول لكم: سوف تعلمون من يأتيه العذاب؟ نحن او انتم؟ و هذه سخرية بقول حق.

و قوله: مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ المراد به عذاب الاستئصال في الدنيا و هو الغرق الذي أخزاهم و أذلهم، و المراد بقوله: «وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ» اى ينزل عليه عذاب ثابت لازم لا يفارق، هو عذاب النار في الآخرة، و الدليل على ما ذكرنا من كون العذاب الأول هو الذي في الدنيا و الثانى هو عذاب الآخرة هو المقابلة و تكرر العذاب-منكراً-فى اللفظ و توصيف الأول بالإخزاء و الثانى بالإقامة.

و ربما أخذ بعضهم قوله: «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» تاماً من غير ذكر متعلق العلم و قوله: «مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ» الخ؛ ابتداءً كلام من نوح عليه السلام و هو بعيد عن السياق.

قوله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ يقال: فار القدر يفور فوراً و فوراناً إذا غلا و اشتدّ غليانه، و فارت النار إذا اشتعلت و ارتفع لهيبها، و التَّنُّورُ تنور الخبز، و هو مما انفقت فيه اللغتان: العربية و الفارسية او الكلمه فارسيه فى الاصل.

و فوران التَّنُّورِ نبع الماء و ارتفاعه منه، و قد ورد فى الروايات: أن أول ما ابتدأ الطوفان يومئذ كان ذلك بتفجر الماء من تنور، و على هذا فاللام فى التَّنُّورِ للعهد يشار بها الى تنور معهود فى الخطاب، و يحتمل اللفظ أن يكون كناية عن اشتداد غضب الله تعالى فيكون من قبيل قولهم: «حمى الوطيس» اذا اشتدّ الحرب.

فقوله: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ أَى كَانَ الْأَمْرُ عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ

أمرنا أى تحقّق الأمر الربوبىّ و تعلق بهم و فار الماء من التّور أو اشتدّ غضب الربّ تعالى قلنا له كذا و كذا.

و فى التّور أقوال آخر بعيدة من الفهم كقول من قال: إن المراد به طلوع الفجر و كان عند ذلك أوّل ظهور الطوفان، و قول بعضهم: إن المراد به أعلى الأرض و أشرفها أى انفجر الماء من الأمكنة المرتفعة و وجود الارض، و قول آخرين: إن التور وجه الأرض هذا.

و قوله: قُلْنَا اْحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ أى أمرنا نوحا عليه السّلام أن يحمل فى السفينه من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين و هى الذكر و الانثى.

و قوله: وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ أى و احمل فيها أهلك و هم المختصون به من زوج و ولد و أزواج الأولاد و أولادهم إلا من سبق عليه قولنا و تقدّم عليه عهدنا أنّه هالك، و كان هذا المستثنى زوجته الخائنه التى يذكرها الله تعالى فى قوله:

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا (التحریم ١٠). و ابن نوح الذى يذكره الله تعالى فى الآيات التالیه و كان نوح عليه السّلام يرى أن المستثنى هو امرأته فحسب حتى بين الله سبحانه أن ابنه ليس من أهله و أنه عمل غير صالح فعند ذلك علم أنه من الذين ظلموا.

و قوله: وَ مَنْ آمَنَ وَ مَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ أى و احمل فيها من آمن بك من قومك غير اهلك لأن من آمن به من اهله أمر بحمله بقوله: «وَ أَهْلَكَ» و لم يؤمن به من القوم إلا قليل.

فى قوله: وَ مَا آمَنَ مَعَهُ دون ان يقال: و ما آمن به تلويح الى أن المعنى: و ما آمن بالله من نوح إلا قليل، و ذلك انسب بالمقام و هو مقام ذكر من أنجاه الله من عذاب الغرق، و الملاك فيه هو الإيمان بالله و الخضوع لربوبيته، و كذا فى قوله: «إِلَّا قَلِيلٌ» دون أن يقال: إلا قليل منهم بلوغا فى استقلالهم أن من آمن كان قليلا فى نفسه لا بالقياس الى القوم فقد كانوا

فى نهايه القله.

قوله تعالى: وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ قَرَأَ مَجْرَاهَا بِفَتْحِ الْمِيمِ وَهُوَ مَجْرَى السَّفِينَةِ وَ سِيرَهَا، وَ مَجْرَاهَا بِضَمِّ الْمِيمِ وَهُوَ إِجْرَاءُ السَّفِينَةِ وَ سِيَاقَهَا، وَ مَرَسَاهَا بِضَمِّ الْمِيمِ مَصْدَرٌ مِيمِيٌّ مُرَادِفٌ الْإِرْسَاءِ، وَ الْإِرْسَاءُ الْإِثْبَاتُ وَ الْإِقْيَافُ، قَالَ تَعَالَى: وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا (النازعات ٣٢).

وقوله: وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ: «جَاءَ أَمْرُنَا» أَيْ حَتَّى إِذَا قَالَ نُوحٌ، السَّخُّ، وَ خُطَابُهُ لِأَهْلِهِ وَ سَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ لِجَمِيعٍ مِنْ فِي السَّفِينَةِ.

وقوله: بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا تَسْمِيَةٌ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَجْلِبُ بِهِ الْخَيْرُ وَ الْبِرْكَةُ لِجَرَى السَّفِينَةِ وَ إِرْسَائِهَا فَإِنْ فِي تَعْلِيْقِ فِعْلٍ مِنَ الْأَفْعَالِ أَوْ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ عَلَى اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَ رَبَطَهُ بِهِ صِيَانَهُ لَهُ مِنَ الْهَلَاكِ وَ الْفَسَادِ وَ اتِّقَاءِ مِنَ الضَّلَالِ وَ الْخَسْرَانِ لِمَا أَنَّهُ تَعَالَى رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ مُنِيعُ الْجَانِبِ لَا سَبِيلَ لِلدُّثُورِ وَ الْفَنَاءِ وَ الْعَيِّْ وَ الْعِنَاءِ إِلَيْهِ فَمَا تَعَلَّقَ بِهِ مَصُونٌ لَا مُحَالَهَ مِنْ تَطَرُّقِ عَارِضِ السُّوءِ.

فهو عليه السَّلَامُ يعلِّقُ جَرَى السَّفِينَةِ وَ إِرْسَاءَهَا بِاسْمِ اللَّهِ وَ هَذَا هُمَا السَّبَبَانِ الظَّاهِرَانِ فِي نَجَاةِ السَّفِينَةِ وَ مِنْ فِيهَا مِنَ الْغَرَقِ، وَ إِنَّمَا يَنْجِحُ هَذَا السَّبَبَانِ لَوْ شَمِلَتِ الْعَنَاءِ الْإِلَهِيَّةَ مِنْ رَكْبِهَا وَ إِنَّمَا تَشْمَلُ لِلْعَنَاءِ بِشُمُولِ الْمَغْفَرَةِ الْإِلَهِيَّةِ لِخَطَايَا رُكَّابِهَا وَ الرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ لَهُمْ لِيَنْجُوا مِنَ الْغَرَقِ وَ يَعِيشُوا عَلَى رَسْلِهِمْ فِي الْأَرْضِ، وَ لِذَلِكَ عَلَّلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَسْمِيَتَهُ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» أَيْ إِنَّمَا أَذْكَرُ اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَجْرَى سَفِينَتِي وَ مَرَسَاهَا لِأَنَّهُ رَبِّي الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، لَهُ أَنْ يَحْفَظَ مَجْرَاهَا وَ مَرَسَاهَا مِنَ الْإِخْتِلَالِ وَ التَّخْبِطِ حَتَّى نَنْجُو بِذَلِكَ مِنَ الْغَرَقِ بِمَغْفَرَتِهِ وَ رَحْمَتِهِ.

و نوح عليه السَّلَامُ أَوَّلُ إِنْسَانٍ حَكِيَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْهُ التَّسْمِيَةَ بِاسْمِهِ الْكَرِيمِ فِيمَا أَوْحَاهُ مِنْ كِتَابِهِ فَهُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلُ فَاتِحِ فَتْحِ هَذَا الْبَابِ كَمَا أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَقَامَ الْحُجَّةَ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَ أَوَّلُ مَنْ جَاءَ

بكتاب و شريعته و أول من انتهض لتعديل الطبقات و رفع التناقض عن المجتمع الإنساني.

و ما قدمناه من معنى قوله: «بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَ مُرْسَاهَا» مبنى على ما هو الظاهر من كون الجملة تسميه من نوح عليه السّلام و المجرى و المرسى مصدرين ميمين و ربما احتمل كونه تسميه ممن مع نوح بأمره او كون مجراها و مرساها اسمين للزمان او المكان فيختلف المعنى.

قال فى الكشاف فى الآيه: يجوز أن يكون كلاما واحدا و كلامين: فالكلام الواحد أن يتصل باسم الله باركبوا حالا من الواو بمعنى اركبوا فيها مسمين الله او قائلين بسم الله وقت إجرائها و وقت إرسائها إما لأن المجرى و المرسى للوقت و اما لأنهما مصدر ان كالأجراء و الإرساء حذف منهما الوقت المضاف كقولهم: خفوق النجم و مقدم الحاج، و يجوز أن يراد مكانا الإجراء و الإرساء، و انتصابهما بما فى بسم الله من معنى الفعل او بما فيه من اراده القول.

و الكلامان أن يكون بسم الله مجراها و مرساها جملة من مبتدأ و خبر مقتضيه (1) أى بسم الله اجراؤها و ارساؤها، يروى أنه كان اذا أراد أن تجرى قال: بسم الله فجرت، و اذا أراد أن ترسوا قال: بسم الله فرست، و يجوز أن يقحم (2) الاسم كقوله: ثم اسم السلام عليكما و يراد بالله اجراؤها و ارساؤها.

قال: و قرئ مجراها و مرساها (3) بفتح الميم من جرى و رسى اما مصدرين او وقتين او مكانين، و قرأ مجاهد: مجراها و مرساها بلفظ اسم الفاعل مجرورى المحل صفتين لله.

ص: ١٥٠

-
- ١- ١). اقتضاب الكلام ارتجاله و المراد من كون الجملة مقتضيه كونها ابتدائية اى كونها كلاما ابتدائية من نوح مقطوعا عما قبله.
 - ٢- ٢). التحميم إدخال الكلمه بين الكلمتين المتلازمتين المتصلتين كالمضاف و المضاف اليه و المراد كون الاسم معترضا بين «ثم» و «السلام» و كذا بين الباء و لفظ الجلاله فى قوله: بسم الله.
 - ٣- ٣). قراءه مرساها بفتح الميم من الشواذ منسوب الى ابن محيصن.

قوله تعالى: وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ الضمير للسفينه، و الموح اسم جنس كتمر او جمع موجه-على ما قيل- و هي قطعه عظيمه ترتفع عن جمله الماء و في الآية اشعار بأن السفينه كانت تسير على الماء و لم تكن تسبح جوف الماء كالحياتان كما قيل.

قوله تعالى: وَ نَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَ كَانَ فِي مَعْرِزٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَ لَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ المعزل اسم مكان من العزل و قد عزل ابنه نفسه عن ابيه و المؤمنين في مكان لا يقرب منهم، و لذلك قال «وَ نَادَى نُوحٌ ابْنَهُ» و لم يقل: و قال نوح لابنه.

و المعنى: و نادى نوح ابنه و كان ابنه في مكان معزل بعيد منهم و قال في ندائه: يَا بُنَيَّ -بالتصغير و الإضافه دلالة على الإشفاق و الرحمة- اركب معنا السفينه و لا تكن مع الكافرين فتشاركهم في البلاء كما شاركهم في الصحبه و عدم ركوب السفينه، و لم يقل عليه السلام:

و لا تكن من الكافرين لأنه لم يكن يعلم نفاقه و أنه غير مؤمن إلا باللفظ، و لذلك دعاه الى الركوب.

قوله تعالى: قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ الْخ؛ قال الراغب: المأوى مصدر أوى يأوى أوياً و مأوى تقول: أوى الى كذا: انضم اليه يأوى أوياً و مأوى و آواه غيره يؤويه ابواء، انتهى.

و المعنى: اقل ابن نوح مجيباً لأبيه راداً لأمره: سأنضم الى جبل يعصمني و يقيني من الماء فلا أغرق، قال نوح: لا عاصم اليوم- و هو يوم اشتد غضب الله و قضى بالغرق لأهل الأرض الآ- من التجأ منهم الى الله- من الله لا جبل و لا غيره، و حال بين نوح و ابنه الموح فكان ابنه من المغرقين و لو لم يحل الموح بينهما و لم ينقطع الكلام بذلك لعرف كفره و تبرأ منه.

و في الكلام اشاره الى ان ارضهم كانت ارضا جبلية لا مثونه زائده في صعود الانسان الى

بعض جبال كانت هناك.

قوله: وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ
البلع اجراء الشىء فى الحلق الى الجوف،و الإقلاع الإمساك و ترك الشىء من أصله،و الغيض جذب الأرض المائع الرطب من
ظاها الى باطنها و هو كالنشف يقال:غاضت الارض الماء اى نقصته.

و الجودى مطلق الجبل و الأرض الصلبة،و قيل:هو جبل بأرض موصل فى سلسله جبال تنتهى الى ارمينيه و هى المسماه «آارات».

و قوله: وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي نداء صادر من ساحه العظمه و الكبرياء لم يصرح باسم قائله و هو الله عز
اسمه للتعظيم،و الأمر تكوينى تحمله كلمه «كن»الصادره من ذى العرش تعالى يترتب عليه من غير فصل أن تبتلع الأرض ما على
وجهها من الماء المتفجر من عيونها،و أن تكفّ السماء عن امطارها.

و فيه دلالة على أن الارض و السماء كانتا مشتركين فى اطعاء الماء بأمر الله كما بيّنه قوله تعالى: فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ
مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ (القمر ١٢).

و قوله: وَغِيضَ الْمَاءِ اى نقص الماء و نشف عن ظاهر الارض و انكشف البسيط،و ذلك انما يكون بالطبع باجتماع ما يمكن
اجتماعه منه فى الغدران و تشكيل البحار و البحيرات،و انتشاف ما على سائر البسيطة.

و قوله: وَقُضِيَ الْأَمْرُ اى أنجز ما وعد لنوح عليه السلام من عذاب القوم و أنفذ الأمر الإلهى يغرقهم و تطهر الارض منهم اى كان
ما قيل له كن كما قيل فقضاء الامر كما يقال على جعل الحكم و اصداره كذلك يقال على امضائه و انفاذه و تحقيقه فى
الخارج،غير أن القضاء الإلهى و الحكم الربوبى الذى هو عين الوجود الخارجى جعله و انفاذه واحد،و انما

كما انه لو قيل: يا ارض ابلعي ماءك و يا سماء اقلعي و قيل: بعدا للقوم الظالمين فإنما القائل هو الله عز اسمه و القوم الظالمون هم المقضى عليهم بالعذاب، و لو قيل: قضى الأمر فإنما القاضى هو الله سبحانه، و الأمر هو ما وعده نوحا و نهاه ان يراجعه فى ذلك و هو انهم مغرقون، و لو قيل للسماء: اقلعي بعد ما قيل للأرض: ابلعي ماءك فإنما يراد اقلعها و امساكها ماءها.

ففى الآيه الكريمة اجتماع عجيب من اسباب الإيجاز و توافق لطيف فيما بينها كما أن الآيه واقفه على موقف عجيب من بلاغه القرآن المعجزه يبهر العقول و يدهش الألباب و ان كانت الآيات القرآنيه كلها معجزه فى بلاغتها.

و قد اهتم بأمرها رجال البلاغه و علماء البيان فغاصوا لحيّ بحرها و اخرجوا ما استطاعوا نيله من لثايلها، و ما هو—و قد اعترفوا بذلك—الأ كغرفه من بحر أو حصاه من بر.

قوله تعالى: ﴿وَ نَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ دعاء نوح عليه السّلام لابنه الذى تخلف عن ركوب السفينه و قد كان آخر عهده به يوم ركب السفينه فوجدته فى معزل فناداه و امره بركوب السفينه فلم يأتهم ثم حال بينهما الموج فوجد نوح عليه السّلام و هو يرى انه مؤمن بالله من اهله و قد وعده الله بإنجاء اهله.

و لما به من الوجد و الحزن رفع صوته بالدعاء كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَ نَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ و لم يقل: سأل او قال او دعاء، و رفع الصوت بالاستغاثه من المضطر الذى اشتد به الضر و هاج به الوجد امر طبعى. و الدعاء اعنى نداء نوح عليه السّلام ربه فى ابنه و ان ذكر فى القصه بعد ذكر انجاز غرق القوم و ظاهره كون النداء بعد تمام الأمر و استواء الفلك لكن مقتضى ظاهر الحال ان يكون النداء بعد حيلولة الموج بينهما و على هذا فذكره بعد ذكر انقضاء الطوفان انما هو لمكان العناية ببيان جميع ما فى القصه من الهيئه الهائله فى محل واحد لتكميل

تمثيل الواقعه ثم الأخذ ببيان بعض جهاته الباقية.

و قد كان عليه السلام رسولا احد الأنبياء أولى العزم عالما بالله عارفا بمقام ربه بصيرا بموقف نفسه فى العبوديه، و الظرف ظهرت فيه آيه الربوبيه و القهر الإلهى اكمل ظهورها فأغرقت الدنيا و اهلها، و نودى من ساحه العظمه و الكبرياء على الظالمين بالبعد، فأخذ نوح عليه السلام يدعو لابنه و الظرف هذا الظرف لم يجترئ عليه السلام-على ما يقتضيه ادب النبوه-على ان يسأل ما يريد من نجاه ابنه بالتصريح، بل اورد القول كالمستفسر عن حقيقه الأمر، و ابتدر بذكر ما وعده الله من نجاه اهله حين أمره أن يجمع الناجين معه فى السفينه فقال له «أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ» .

و كان أهله-غير امرأته-حتى ابنه هذا مؤمنين به ظاهرا و لو لم يكن ابنه هذا على ما كان يراه نوح عليه السلام مؤمنا لم يدعه البتة الى ركوب السفينه فهو عليه السلام الداعى على الكافرين السائل هلاكهم بقوله: رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا فقد كان يرى ابنه هذا مؤمنا و لم يكن مخالفته لأمر أبيه اذ أمره بركوب السفينه كفرا أو مؤديا الى الكفر و انما هى معصيه دون الكفر.

و لذلك كله قال عليه السلام «رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ» فذكر وعد ربه و ضم اليه أن ابنه من أهله-على ما فى الكلام من دلالة «ربى» على الاسترحام، و دلالة الإضافة فى «ابنى» على الحجّه فى قوله: «مِنْ أَهْلِي» و دلالة التأكيد بأن و لام الجنس فى قوله: «وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ» على أداء حق الإيمان.

و كانت الجملتان «إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي» «وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ» ينتجان بانضمام بعضهما الى بعض الحكم بلزوم نجاه ابنه لكنه عليه السلام لم يأخذ بما ينتجه كلامه من الحكم أدبا فى مقام العبوديه فلا حكم إلا لله بل سلم الحكم الحقّ و القضاء الفصل الى الله سبحانه فقال «وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ» .

فالمعنى: ربّ إنّ ابني من أهلي، وإنّ وعدك حقّ كل الحقّ، وإنّ ذلك يدلّ على أن لا تأخذه بعذاب القوم بالغرق و مع ذلك فالحكم الحقّ اليك فأنت أحكم الحاكمين كأنه عليه السّلام يستوضح ما هو حقيقه الأمر و لم يذكر نجاه ابنه و لا زاد على هذا الذي حكاه الله عنه شيئا و سيوافيك بيان ذلك.

قوله تعالى: قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ خ؛ بين سبحانه لنوح عليه السّلام وجه الصواب فيما ذكره بقوله: «إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ» الخ؛ و هو يستوجب به نجاه ابنه فقال تعالى «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» فارتفع بذلك اثر حجّته.

و المراد بكونه ليس من اهله-و الله اعلم-أنّه ليس من اهله الذين وعده الله بنجاتهم لأنّ المراد بالأهل في قوله: «وَأَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» الأهل الصالحون، و هو ليس بصالح و ان كان ابنه و من أهله بمعنى الاختصاص، و لذلك علّل قوله: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» بقوله: «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ» .

فإن قلت: لا يزم ذلك ان يكون امرأته الكافره من اهله لأنها انما خرجت من الحكم بالاستثناء و هي داخله موضوعا في قوله: «وَأَهْلِكَ» و يكون ابنه ليس من اهله و خارجا موضوعا لا بالاستثناء و هو بعيد.

قلت: المراد بالأهل في قوله: «وَأَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» هم الأهل بمعنى الاختصاص و بالمستثنى-من سبق عليه القول- غير الصالحين و مصداقه امرأته و ابنه هذا، و اما الأهل الواقع في قوله هذا: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» فهم الصالحون من المختصين به عليه السّلام طبقا لما وقع في قوله: «رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي» فإنه عليه السّلام لا يريد بالأهل في قوله هذا غير الصالحين من اولى الاختصاص و إلاّ شمل امرأته و بطلت حجته فافهم ذلك.

فهذا هو الظاهر من معنى الآيه، و يؤيده بعض ما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السّلام مما سيأتي

فى البحث الروائى التالى ان شاء الله.

و ذكروا فى تفسير الآيه معان آخر.

قوله تعالى: **قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنُ مِنَ الْخَاسِرِينَ** لما تبين لنوح عليه السلام أنه لو ساقه طبع الخطاب الذى خاطب به ربه الى السؤال كان سائلا ما ليس له به علم و كان من الجاهلين و ان عنايه الله حالت بينه و بين الهلكه، شكر ربه فاستعاذ بمغفرته و رحمته عن ذلك السؤال المخسر فقال **«رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ»**.

و الكلام فى الاستعاذه مما لم يقع بعد من الامور المهلكه و المعاصى الموبقه كالنهى عما لم يقع من الذنوب و الآثام و قد تقدم الكلام فيه و قد امر الله نبيه صلى الله عليه و آله و سلم بالاستعاذه من الشيطان و هو معصوم لا سبيل للشيطان اليه، قال تعالى: **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ - الى ان قال - مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (الناس ٥)** و قال:

وَ أَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (المؤمنون ٩٨) و الوحي مصون عن مس الشياطين كما قال تعالى: **عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ (الجن ٢٨)**.

و قوله: **وَ إِلَّا تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِي أَكُنُ مِنَ الْخَاسِرِينَ** كلام صورته صورته التوبه و حقيقته الشكر على ما أنعم الله عليه من التعليم و التأديب.

أما صورته توبته فإن فى ذلك رجوعا الى ربه تعالى بالاستعاذه و لازمها طلب مغفره الله و رحمته اى ستره على الإنسان ما فيه زلته و هلاكه و شمول عنايته لحاله و قد تقدم فى أواخر الجزء السادس من الكتاب بيان أن الذنب أعم من مخالفه الأمر التشريعى بل كل وبال و أثر سيئ يسوء الإنسان بوجهه، و أن المغفره أعم من الستر على المعصيه المعروفة عند المتشرعه بل كل ستر إلهى يسعد الإنسان و يجمع شمله.

و أما حقيقه الشكر فإن العنايه الإلهيه التي حالت بينه و بين السؤال الذى كان يوجب دخوله فى زمرة الجاهلين و عصمته ببيان وجه الصواب كانت سترا إلهيا على زلّه فى طريقه و رحمه و نعمه أنعم الله سبحانه بها عليه فقله عليه السّلام: «وَالْإِلَٰهَ تَغْفِرُ لِي وَ تَزَحْمِنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ» أى إن لم تعذنى من الزّلات لخسرت، ثناء و شكر لصنعه الجميل.

قوله تعالى: قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلَيَّ أُمَمٌ مِّمَّنْ مَعَكَ الخ؛ السلام هو السلامه أو التحيه غير ان ذكر مسّ العذاب فى آخر الآيه يؤيد كون المراد به فى صدرها السلامه من العذاب و كذا تبديل البركه فى آخر الآيه الى التمتع يدل على ان المراد بالبركات ليس مطلق النعم و أمتعته الحياه بل النعم من حيث تسوق الانسان الى الخير و السعاده و العاقبه المحموده.

فقوله: قِيلَ - و لم ذكر القائل و هو الله سبحانه للتعظيم - يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ معناه - و الله أعلم - يا نوح انزل مع سلامه من العذاب - الطوفان - و نعم ذوات بركات و خيرات نازله منا عليك، أو انزل بتحيه و بركات نازله منا عليك.

و قوله: وَ عَلَيَّ أُمَمٌ مِّمَّنْ مَعَكَ معطوف على قوله: «عَلَيْكَ» و تنكير أم يدل على تبعيضهم لأن من الامم من يذكره تعالى بعد فى قوله: «وَ أُمَّمٌ سَنَمُنُّهُنَّ» .

و الخطاب أعنى قوله تعالى: يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ الى آخر الآيه بالنظر الى ظرف صدوره و ليس وقتئذ متنفّس على وجه الأرض من انسان او حيوان و قد أغرقوا جميعا و لم يبق منهم إلا جماعه قليله فى السفينه و قد رست و استوت على الجودى، و قد قضى أن ينزلوا الى الأرض فيعمروها و يعيشوا فيها الى حين.

خطاب عام شامل للبشر من لدن خروجهم منها الى يوم القيامه نظير ما صدر من الخطاب الإلهي يوم أهبط آدم عليه السّلام من الجنه الى الارض و قد حكاه الله تعالى فى موضع بقوله: وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ - الى أن

قال - قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقره ٣٩) و في موضع آخر بقوله: قَالَ فِيهَا تَحْيُونَ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ (الأعراف / ٢٥).

و هذا الخطاب خطاب ثانٍ مشابه لذاك الخطاب الأول موجّه الى نوح عليه السّلام و من معه من المؤمنين - و إليهم ينتهى نسل البشر اليوم - متعلق بهم و بمن يلحق بهم من ذراريهم الى يوم القيامة، و هو يتضمن تقدير حياتهم الأرضيه و الإذن فى نزولهم إليها و استقرارهم فيها و إيوائهم إياها.

و قد قسم الله هؤلاء المأذون لهم قسمين فعبر عن إذنه لطائفه منهم بالسّلام و البركات و هم نوح عليه السّلام و أمم ممن معه، و لطائفه أخرى بالتمتع، و عقب التمتع بمس العذاب لهم كما أن كلمتى السّلام و البركات لا تخلوان من بشرى الخير و السعاده بالنسبه الى ما تعلقتا به.

و قوله: وَ أُمَّيْمٌ سَيْنَمْتَعُهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ كأنه مبتدأ لخبر محذوف و التقدير: و ممن معك أمم او و هناك أمم ستمتعهم، الخ؛ و قد أرجهم الله سبحانه من زمرة المخاطبين بخطاب الإذن فلم يقل: و متاع لامم آخرين سيعذبون طردا لهم من موقف الكرامه، فأخبر أن هناك أممًا آخرين ستمتعهم ثم نعذبهم و هم غير مأذون لهم فى التصرف فى أمتعته الحياه إذن كرامه و زلفى.

قوله تعالى: تِلْكَ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ أَى هذه القصص أو هذه القصة من أنباء الغيب نوحيا اليك.

و قوله: مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَى كانت و هى على محوضه الصدق و الصحه مجهوله لك و لقومك من قبل هذا، و الذى عند أهل الكتاب منها محرّف مقلوب عن وجه الصواب كما سيوافيك ما فى التوراه الحاضره من قصته عليه السّلام.

وقوله: فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ أمر منتزع عن تفصيل القصه أى اذا علمت ما آل اليه أمر نوح عليه السّلام وقومه من هلاك قومه و نجاته و نجاه من معه من المؤمنين وقد ورّثهم الله الأرض على ما صبروا، و نصر نوحا على أعدائه على ما صبر فاصبر على الحق فإن العاقبه للمتقين، و هم الصابرون فى جنب الله سبحانه (١)(٢)(٣)(٤).

[سوره هود (١١): الآيات ٥٠ الى ٦٠]

إشارة

وَإِلَىٰ عَادٍ آخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نُزِّلُهَا عَلَيْكَ لَعَلَّ لَكَ تَحْفَظُهَا وَتُذَكِّرُهَا لِقَوْمٍ عَصَاوٍ (٥٩) وَاتَّبِعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعَنَ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ عَادُوا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ إِعَادِ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)

ص: ١٦٠

١- ١). هود ٣٦-٤٩: بحث روائى حول قصه نوح عليه السّلام.

٢- ٢). هود ٣٦-٤٩: ابحاث حول قصه نوح فى فصول و هى ابحاث قرآنيه و روائيه و تاريخيه و فلسفيه، الاشاره الى قصته، قصته عليه السّلام فى القرآن، بعثه و ارساله، دينه و شريعته عليه السّلام، اجتهاده عليه السّلام فى دعوته، لبثه فى قومه، صنعه عليه السّلام الفلك، نزول العذاب و مجىء الطوفان، قضاء الامر و نزوله و من معه الى الارض، قصه ابن نوح الغريق، خصائص نوح عليه السّلام، قصته عليه السّلام فى التوراه الحاضره، ما جاء فى امر الطوفان فى اخبار الامم و اساطيرهم، هل كانت نبوته عليه السّلام عامه للبشر؟، هل الطوفان كانت عامه لجميع الارض؟، انبساط البحار و اتساعها بانحدار المياه إليها، العوامل المؤثره فى ازدياد المياه و غزاره عملها فى عهد الطوفان، عمره عليه السّلام الطويل، اين هو جبل الجودى؟.

٣- ٣). هود ٣٦-٤٩: كلام فى عبادته الاصنام فى فصول (الانسان و اطمئنانه الى الحس، الاقبال الى الله بالعباده، كيف نشأت الوثنيه؟، و بما ذا بدأت، اتخاذ الاصنام لأرباب الانواع و غيرهم، الوثنيه الصابئه، الوثنيه البرهميه، الوثنيه البوذيه، و ثنيه العرب، دفاع الاسلام عن التوحيد و منازلته الوثنيه، بناء سيره النبي على التوحيد و نفى الشركاء).

٤- ٤). هود ٣٦-٤٩: كلام فى: التناسخ عند الوثنيين؛ سريان هذه المحاذير الى سائر الاديان؛ اصلاح الاسلام لهذه المفاسد.

قوله تعالى: وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا كَانَ أَخَاهُمْ فِي النَّسَبِ لِكَوْنِهِ مِنْهُمْ وَأَفْرَادَ الْقَبِيلَةِ يَسْمُونَ إِخْوَهُ لِانْتِسَابِهِمْ جَمِيعًا إِلَىٰ أَبِ الْقَبِيلَةِ، وَ الْجَمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ سَابِقًا: «نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ» وَ التَّقْدِيرُ «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا» وَ لَعَلَّ حَذْفَ الْفِعْلِ هُوَ الْمَوْجِبُ لِتَقْدِيمِ الظَّرْفِ عَلَى الْمَفْعُولِ فِي الْمَعْطُوفِ عَلَىٰ خِلَافِ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ حَيْثُ قِيلَ «وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ» النِّخ؛ وَ لَمْ يَقُلْ: وَ هُودًا إِلَىٰ عَادٍ مِثْلًا كَمَا قَالَ «نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ» لِأَنَّ دَلَالَةَ الظَّرْفِ أَعْنَى «إِلَىٰ عَادٍ» عَلَىٰ تَقْدِيرِ الْإِرْسَالِ أَظْهَرَ وَ أَوْضَحَ.

قوله تعالى: قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ الْكَلَامُ وَارِدٌ مُورِدُ الْجَوَابِ كَأَنَّ السَّامِعَ لَمَّا سَمِعَ قَوْلَهُ: «وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا» قَالَ: فَمَاذَا قَالَ لَهُمْ؟ فَقِيلَ «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ» النِّخ؛ وَ لَذَا جِيءَ بِالْفَصْلِ مِنْ غَيْرِ عَطْفٍ.

وَ قَوْلُهُ: «اعْبُدُوا اللَّهَ فِي مَقَامِ الْحَصْرِ أَيْ اعْبُدُوهُ وَ لَا تَعْبُدُوا غَيْرَهُ مِنْ آلِهِ اتَّخَذَتْهَا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعْبُدُونَهَا لِتَكُونَ لَكُمْ ضِعْفًا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَعْبُدُوهُ تَعَالَىٰ.

وَ الدَّلِيلُ عَلَى الْحَصْرِ الْمَذْكُورِ قَوْلُهُ بَعْدَ: «مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ» حَيْثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ اتَّخَذُوا آلَهُهُ يَعْْبُدُونَهَا افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ بِالشَّرْكَهِ وَ الشَّفَاعَةِ.

قوله تعالى: يَا قَوْمِ لَا أَسئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ الْفَطْرُ الشَّقُّ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ كَمَا يَنْفَطِرُ الْوَرَقُ عَنِ الشَّجَرِ، وَ مِنْهُ فَطَرَ اللَّهُ الْخَلْقَ لِأَنَّهُ بِمَنْزِلِهِ مَا شَقَّ مِنْهُ فَظَهَرَ. انْتَهَى، وَ قَالَ الرَّاعِبُ: أَصْلُ الْفَطْرِ الشَّقُّ طَوْلًا يُقَالُ: فَطَرَ فُلَانٌ كَذَا فَطْرًا وَ أَفَطَرَ هُوَ فَطُورًا وَ انْفَطَرَ انْفِطَارًا- إِلَىٰ أَنْ قَالَ- وَ فَطَرَ اللَّهُ الْخَلْقَ وَ هُوَ إِيجَادُ الشَّيْءِ وَ إِبْدَاعُهُ عَلَىٰ هَيْئَةٍ مَتَرَشِّحَةٍ لِفِعْلِ مِنَ الْأَفْعَالِ فَقَوْلُهُ: فَطَرَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا إِشَارَةٌ مِنْ تَعَالَىٰ إِلَىٰ مَا فَطَرَ أَيْ أَبْدَعَ وَ رَكَزَ فِي النَّاسِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ، وَ فَطَرَ اللَّهُ هِيَ مَا رَكَزَ فِيهِ مِنْ قُوَّتِهِ عَلَىٰ مَعْفَرِهِ الْإِيمَانِ

و هو المشار اليه بقوله: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ. انتهى.

و الظاهر أن الفطر هو اليجاد عن عدم بحث، و الخصوصيه المفهومه من مثل قوله:

«فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا» إنما نشأت من بناء النوع الذى تشتمل عليه فطره و هى فعله، و على هذا فتفسير بعضهم الفطره بالخلقه بعيد من الصواب، و إنما الخلق هو إيجاد الصوره عن ماده على طريق جمع الأجزاء، قال تعالى: وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ (المائدة ١١٠).

و الكلام مسوق لرفع التهمه و العتب و المعنى يا قوم لا- أسألكم على ما أدعوكم أجرا و جزاء حتى تهتمونى أنى أستدر به نفعا يعود إالى و إن أضرب بكم، و لست أدعوكم من غير جزاء مطلوب حتى يكون عبثا من الفعل بل إنما أطلب به جزاء من الله الذى أوجدنى و أبدعنى أفلا تعقلون عنى ما أقوله لكم حتى يتضح لكم أنى ناصح لكم فى دعوتى، و ما أريد إلا أن أحملكم على الحق.

قوله تعالى: وَ يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا إلى آخر الآيه؛ تقدم الكلام فى معنى قوله: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» فى صدر السوره.

و قوله: «يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا» فى موقع الجزاء لقوله: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ» الخ؛ أى أن تستغفروه و تتوبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا، و المراد بالسماء السحاب فإن كل ما علا و أظل فهو سماء، و قيل المطر و هو شائع فى الاستعمال، و المدرار مبالغه من الدرّ، و أصل الدرّ اللبن ثم استعير للمطر و لكل فائده و نفع فأرسال السماء مدرارا إرسال سحب تمطر أمطارا متتابعه نافعه تحيى بها الارض و ينبت الزرع و العشب، و تنضر بها الجنات و البساتين.

و قوله: وَ يَزِدُّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ قيل المراد بها زياده قوه الايمان على قوه

الأبدان وقد كان القوم أولى قوه و شده فى أبدانهم و لو أنهم آمنوا انضافت قوه الإيمان على قوه أبدانهم، وقيل المراد بها قوه الأبدان كما قال نوح لقومه: اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَ يُمِدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَيْنَ (نوح ١٢) و لعل التعميم أولى.

و قوله: «وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ» بمنزله التفسير لقوله: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ» أى إن عبادتكم لما اتخذتموه من الآلهه دون الله إجرام منكم و معصيه توجب نزول السخط الإلهى عليكم فاستغفروا الله من إجرامكم و ارجعوا اليه بالإيمان حتى يرحمكم بإرسال سحب هاطله ممطره و زياده قوه الى قوتكم.

قوله تعالى: «قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَ مَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ سَأَلَهُمْ هُوْدُ فِى قَوْلِهِ: «يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» الى آخر الآيات الثلاث؛ أمرين هما أن يتركوا آلهتهم و يعودوا الى عباده الله وحده و أن يؤمنوا به و يطيعوه فيما ينصح لهم فردوا عليه القول بما فى هذه الآيه إجمالاً و تفصيلاً:

أما إجمالاً فبقولهم: «مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ» يعنون أن دعوتك خاليه عن الحججه و الآيه المعجزه و لا موجب للإصغاء الى ما هذا شأنه.

و أما تفصيلاً فقد أجابوا عن دعوته إياهم الى رفض الشركاء بقولهم: «وَ مَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ» و عن دعوته إياهم الى الايمان و الطاعه بقولهم: «وَ مَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ» فأيسوه فى كلتا المسألتين.

ثم ذكروا له ما ارتأوا فيه من الرأى لبيأس من إجابتهم بالمره فقالوا «إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ» و الاعتراء الاعتراض و الإصابه يقولون: إنما نعتقد فى أمرك أن بعض آلهتنا أصابك بسوء كالخبل و الجنون لشمك إياها و ذكرك لها بسوء فذهب بذلك عقلك فلا يعبا بما تفوهت به فى صوره الدعوه.

قوله تعالى: قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَ أَشْهَدُوكُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ

دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ أَجَاب هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِهِمْ بَاطِلًا الْبِرَاءَةَ مِنْ شُرَكَائِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ثُمَّ التَّحَدَى عَلَيْهِمْ بِأَنْ يَكِيدُوا بِهِ جَمِيعاً وَلَا يَنْظُرُوهُ.

فَقَوْلُهُ: أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ إِِنْ شَاءَ وَلَا يَخْبَارُ كَمَا هُوَ الْمُنَاسِبُ لِمَقَامِ التَّبَرُّي، وَلَا يَنَافِي ذَلِكَ كَوْنَهُ بَرِيئاً مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ فَإِنَّ التَّبَرُّزَ بِالْبِرَاءَةِ لَا يَنَافِي تَحَقُّقَهَا مِنْ قَبْلِ، وَقَوْلُهُ: «فَكَيْدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ» أَمْرٌ وَنَهْيٌ تَعَجِيزِيَانِ.

وَإِنَّمَا أَجَابَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا أَجَابَ لِشَاهِدِ الْقَوْمِ مِنْ آلِهِمْ أَنَّهَا لَا تَمْسُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسُوءٍ مَعَ تَبَرُّزِهِ بِالْبِرَاءَةِ، وَهُوَ لَوْ كَانَتْ آلُهُ ذَاتَ عِلْمٍ وَقَدْرِهِ لَقَهَرْتَهُ وَانْتَقَمَتْ مِنْهُ لِنَفْسِهَا كَمَا ادَّعَوْا أَنْ بَعْضَ آلِهِمْ اعْتَرَاهُ بِسُوءٍ وَهَذِهِ حُجَّةٌ بَيْنَهُ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِآلِهِ وَ عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَعْتَرِهِ بِسُوءٍ كَمَا ادَّعَوْهُ، ثُمَّ يَشَاهِدُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ بِقَتْلِ أَوْ تَنْكِيلٍ مَعَ كَوْنِهِمْ ذَوِي شِدَّةٍ وَقُوَّةٍ لَا يِعَادِلُهُمْ غَيْرُهُمْ فِي الشِدَّةِ وَالْبَطْشِ، وَ لَوْ لَا أَنَّهُ نَبِيٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ صَادِقٌ فِي مَا يَقُولُهُ مَصُونٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ لَقَدَّرُوا عَلَيْهِ بِكُلِّ مَا أَرَادُوهُ مِنْ عَذَابٍ أَوْ دَفْعٍ.

فَالْحَقُّ أَنَّ قَوْلَهُ: إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَ أَشْهَدُوا إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ؛ مُشْتَمِلٌ عَلَى حُجَّةٍ عَقْلِيَّةٍ عَلَى بَطْلَانِ الْوَهْيِيِّ الشَّرْكَاءِ، وَ عَلَى آيَةِ مَعْجَزِهِ لِصَحَّةِ رِسَالَةِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَ فِي قَوْلِهِ: جَمِيعاً إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَرَادَهُ تَعَجِيزَهُمْ وَ تَعَجِيزَ آلِهِمْ جَمِيعاً فَيَكُونُ أَمْرٌ دَلَالَةٌ عَلَى كَوْنِهِ عَلَى الْحَقِّ وَ كَوْنِهِمْ عَلَى الْبَاطِلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ لَمَّا كَانَ الْأَمْرُ الَّذِي فِي صُورِهِ التَّعَجِيزُ صَالِحاً لِأَنَّ يَكُونُ بَدَاعِي إِظْهَارِ عِزِّ الْخَصْمِ وَ عَدَمِ قَدْرَتِهِ، وَ صَالِحاً لِأَنَّ يَصْدُرَ بَدَاعِي أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَخَافُ الْخَصْمَ وَ إِنْ كَانَ الْخَصْمُ قَادِراً عَلَى الْإِتْيَانِ بِمَا يُؤْمَرُ بِهِ لَكِنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى تَخْوِيفِهِ وَ إِكْرَاهِهِ عَلَى الطَّاعَةِ وَ حَمَلَهُ عَلَى مَا يَرِيدُ مِنْهُ كَقَوْلِ السَّحْرَةِ لِفِرْعَوْنَ: فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (طه ٧٢).

وَ كَانَ قَوْلُهُ: «فَكَيْدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ» مُحْتَمِلاً لِأَنَّ يَكُونُ الْمَرَادُ بِهِ إِظْهَارُ أَنَّهُ لَا

يخافهم و إن فعلوا به ما فعلوا، عقبه لدفع هذا الاحتمال بقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبِّكُمْ﴾ فذكر أنه متوكل في أمره على الله الذي هو يدبر أمره و أمرهم ثم عقبه بقوله: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فذكر أنه ناجح في توكله هذا فإن الله محيط بهم جميعا قاهر لهم يحكم على سنه واحده و هى نصره الحق و إظهاره على الباطل اذا تقابلا و تغالبا.

فتبريه من أصنامهم و تعجزهم على ما هم عليه من الحال بقوله: ﴿فَكَيْدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ ثم لبثه بينهم فى عاقبه و سلامه لا يمسونه بسوء و لا يستطيعون أن ينالوه بشر آيه معجزه و حجه سماويه على أنه رسول الله اليهم.

و قوله: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الدابه كل ما يدب فى الأرض من أصناف الحيوان، و الأخذ بالناصيه كناية عن كمال السلطه و نهايه القدره، و كونه تعالى على صراط مستقيم هو كون سنته فى الخلقه واحده ثابتة غير متغيره و هو تدبير الامور على منهاج العدل و الحكمه فهو يحق الحق و يبطل الباطل إذا تعارضا.

فالمعنى إنى توكلت على الله ربي و ربكم فى نجاح حجتى التى ألقيتها اليكم و هو التبرز بالبراءه من آلهتكم و أنكم و آلهتكم لا- تضرّوننى شيئا فإنه المالك ذو السلطنه على و عليكم و على كل دابه، و سنته العادله ثابتة غير متغيره فسوف ينصر دينه و يحفظنى من شركم.

و لم يقل «إن ربي و ربكم على صراط مستقيم» على وزان قوله: ﴿عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ﴾ فإنه فى مقام الدعاء لنفسه على قومه يتوقع أن يحفظه الله من شرهم، و هو يأخذه تعالى ربا بخلاف القوم فكان الأنسب أن يعده ربا لنفسه و يستمسك برابطه العبوديه التى بينه و بين ربه حتى ينجح طلبته، و هذا بخلاف مقام قوله: ﴿تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ﴾ فانه يريد هناك بيان عموم السلطه و الاحاطه.

قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ و هذه الجملة من كلامه عليه السلام ناظر الى قولهم فى آخر جدالهم: «إِنْ نَقُولُ إِلَّا-اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ» الدال على أنهم قاطعون على أن لا- يؤمنوا به و دائمون على الجحد، والمعنى إن تتولوا و تعرضوا عن الإيمان بى و الإطاعة لأمرى فقد أبلغتكم رساله ربهى تمت عليكم الحججه و لزمتمكم البليه.

قوله تعالى: وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ هذا وعيد و إخبار بالتبعه التى يستتبعها إجرامهم، فإنه كان وعدهم ان يستغفروا الله و يتوبوا اليه أن يرسل السماء عليهم مدرارا و يزيد قوه الى قوتهم، و نهاهم أن يتولوا مجرمين ففيه العذاب الشديد.

و قوله: وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ اى يجعل قوما غيركم خلفاء فى الأرض مكانكم فإن الإنسان خليفه منه فى الأرض كما قال تعالى: إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (البقره ٣٠)، و قد كان عليه السلام بين لهم أنهم خلفاء فى الارض من بعد قوم نوح كما قال تعالى حكاية عن قوله لقومه: وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَ زَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً الْآيَه؛ (الأعراف ٦٩).

و ظاهر السياق أن الجملة الخبريه معطوفه على أخرى مقدره، و التقدير: و سيذهب بكم ربهى و يستخلف قوما غيركم على حد قوله: إِنَّ يَشَاءُ يُدْهِبُكُمْ وَ يَسْتَخْلِفُ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ (الأنعام ١٣٣).

و قوله: «وَ لَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا» ظاهر السياق أنه تتمه لما قبله اى لا تقدرن على إضراره بشيء من الفوت و غيره إن اراد أن يهلككم و لا- أن تعذيبكم و إهلاككم يفوت منه شيئا مما يريده فإن ربهى على كل شيء حفيظ لا يعزم عن علمه عازب و لا يفوت من قدرته فائت؛ و للمفسرين فى الآيه وجوه أخر بعيده عن الصواب أعرضنا عنها؟

قوله تعالى: **وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالدِّينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَا هُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ الْمُرَادِ بِمَجِيءِ الْأَمْرِ نَزُولِ الْعَذَابِ** و بوجه أدق صدور الأمر الإلهي الذي يستتبع القضاء الفاصل بين الرسول و بين قومه كما قال تعالى: **وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (المؤمن ٧٨).**

و قوله: **بِرَحْمَةٍ مِّمَّا الظاهر أن المراد بها الرحمة الخاصة بالمؤمنين المستوجبه نصرهم في دينهم و إنجاءهم من شمول الغضب الإلهي و عذاب الاستئصال، قال تعالى: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالدِّينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (المؤمن ٥١).**

و قوله: **وَ نَجَّيْنَا هُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ** ظاهر السياق أنه العذاب الذي شمل الكفار من القوم فيكون من قبيل عطف التفسير بالنسبه الى ما قبله، و قيل: المراد به عذاب الآخرة و ليس بشيء.

قوله تعالى: **وَ تِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ** الآية؛ و ما بعدها تلخيص بعد تلخيص لقصه عاد فأول التلخيصين قوله: **(وَ تِلْكَ عَادٌ - الى قوله - وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)** يذكر فيه أنهم جحدوا بآيات ربهم من الحكمة و الموعظه و الآية المعجزه التي أبانت لهم طريق الرشد و ميزت لهم الحق من الباطل فجددوا بها بعد ما جاءهم من العلم.

و عصوا رسل ربهم و هم هود و من قبله من الرسل فإن عصيان الواحد منهم عصيان للجميع فكلهم يدعون الى دين واحد فهم إنما عصوا شخص هود و عصوا بعصيانه سائر رسل الله و هو ظاهر قوله في موضع آخر: **كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (الشعراء ١٢٤).** و يشعر به ايضا قوله: **وَ اذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ (الأحقاف ٢١)،** و من الممكن أن يكون لهم

رسل آخرون بعثوا اليهم فيما بين هود و نوح عليهما السلام لم يذكروا في الكتاب العزيز لكن سياق الآيات لا يساعد على ذلك.

و أتبعوا أمر كل جبار عنيد من جبارتهم فألهاهم ذلك عن اتباع هود و ما كان يدعو اليه، و الجبار العظيم الذى يقهر الناس بإرادته و يكرههم على ما أراد و العنيد الكثير العناد الذى لا يقبل الحق، فهذا ملخص حالهم و هو الجحد بالآيات و عصيان الرسل و طاعة الجبابره.

ثم ذكر الله وبال أمرهم بقوله: **وَ أَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَهُ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ اى و أتبعهم الله فى هذه الدنيا لعنه و إبعادا من رحمه، و مصداق هذا اللعن العذاب الذى عقّبهم فلحق بهم، أو الآثام و السيئات التى تكتب عليهم ما دامت الدنيا فإنهم سنوا سنّه الإشراك و الكفر لمن بعدهم، قال تعالى: **وَ نَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ (يس ١٢).****

و قيل: المعنى لحقت بهم لعنه فى هذه الدنيا فكان كل من علم بحالهم من بعدهم، و من أدرك آثارهم، و كل من بلغهم الرسل من بعدهم خبرهم يلعنونهم.

و أما اللعنه يوم القيامة فمصداقه العذاب الخالد الذى يلحق بهم يومئذ فإن يوم القيامة يوم جزاء لا غير.

و فى تعقيب قوله فى الآية: **وَ أَتَّبِعُوا بقوله: وَ أَتَّبِعُوا لطف ظاهر.**

قوله تعالى: **أَلَا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعِدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ اى كفروا بربهم فهو منصوب بنزع الخافض و هذا هو التلخيص الثانى الذى أشرنا اليه لخص به التلخيص الاول فقوله: **أَلَا إِنَّ عَاداً الخ؛ يحاذى به وصف حالهم المذكور فى قوله: «وَ تِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا» الخ؛ و قوله: «أَلَا بُعِدًا لِعَادٍ» الخ؛ يحاذى به قوله: «وَ أَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَهُ» الخ.****

و يتأيد من هذه الجملة أن المراد باللعنه السابقه اللعنه الإلهيه دون لعن الناس، و الأنسب به أحد الوجهين الأولين من الوجوه الثلاثه السابقه و خاصه الوجه الثانى دون

إشارة

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا
إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٤١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا
تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ (٤٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا
تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٤٣) وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ
(٤٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعِيدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ (٤٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ
بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٤٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٤٧) كَأَن
لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (٤٨)

ص: ١٧٠

قوله تعالى: وَ إِلِي تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ تقدم الكلام فى نظيره الآية فى قصه هود.

قوله تعالى: هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا الى آخر الآية؛ قال الراغب الإنشاء إيجاد الشيء و تربيته و أكثر ما يقال ذلك فى الحيوان قال «هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ». انتهى، و قال: العماره ضد الخراب يقال: عمر أرضه يعمرها عماره قال «وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» يقال: عمرته فعمر فهو معمور قال «وَ عَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا» «وَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ» و أعمرتة الأرض و استعمرته إذا فوّضت اليه العماره قال «وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا» انتهى، فالعماره تحويل الارض الى حال تصلح بها أن ينتفع من فوائدها المترقبه منها كعمارها الدار للسكنى و المسجد للعباده و الزرع للحرث و الحديد لاجتناء فاكهتها و التنزه فيها و الاستعمار هو طلب العماره بأن يطلب من الانسان أن يجعل الأرض عامره تصلح لأن ينتفع بما يطلب من فوائدها.

و على ما مرّ يكون معنى قوله: هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا - و الكلام يفيد الحصر - أنه تعالى هو الذى اوجد على المواد الارضيه هذه الحقيقه المسماه بالإنسان ثم كملها بالتربيه شيئاً فشيئاً و أفطره على ان يتصرف فى الأرض بتحويلها الى حال ينتفع بها فى حياته، و يرفع بها ما يتبّه له من الحاجه و النقيصه اى إنكم لا- تفتقرون فى وجودكم و بقائكم إلا- اليه تعالى و تقدّس.

فقول صالح: هو الذى أنشأكم من الأرض و استعمركم فيها فى مقام التعليل و حجه يستدل بها على ما ألقاه اليهم من الدعوه بقوله: «يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» و لذلك جىء بالفصل كأنه قيل له: لم نعبده وحده؟ فقال: لأنه هو الذى أنشأكم من

و قد علل قوله: فَاسْتَغْفِرُوهُ الخ؛ بقوله: «إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ» لأنه استنتج من حجته المذكوره أنه تعالى يقوم بإيجاد الانسان و تربيته و تدبير أمر حياته، و أنه لا- استقلال لشىء من الأسباب العمّاله فى الكون بل الله تعالى هو الذى يسوق هذا الى هنا، و يصرف ذاك عن هناك فهو تعالى الحائل بين الانسان و بين حوائجه و جميع الأسباب العمّاله فيها، القريب منه لا كما يزعمون أنه لا- يدركه فهم و لا يناله عبادته و قربان، و إذا كان قريبا فهو مجيب، و إذا كان قريبا مجيبا و هو الله لا إله غيره فمن الواجب أن يستغفروه ثم يتوبوا اليه.

قوله تعالى: قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا الخ؛ الرجاء إنما يتعلق بالإنسان لا من جهة ذاته بل من جهة أفعاله و آثاره، و لا يرجى منها الخير و يرقب منه النفع، و قوله «قَدْ كُنْتَ فِينَا» دليل على كونه مرجوا لعامتهم و جمهورهم.

فقولهم: قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا معناه أن ثمود كانت ترجو منك أن تكون من أفرادها الصالحه تنفع بخدماتك مجتمعهم و تحمل الامه على صراط الترقى و التعالى لما كانت تشاهد فيك من امارات الرشد و الكمال لكنهم يئسوا منك و من رزانه رأيك اليوم بما أبدعت من القول و أقمت من الدعوه.

و قولهم: أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا استفهام إنكارى بداعى المذمه و الملامه، و الاستفهام فى مقام التعليل لما قبله محصله أن سبب ياسهم منك اليوم أنك تنهاهم من إقامة سنه من سنن مليتهم و تمحو أظهر مظاهر قوميتهم فإن اتخاذ الأوثان من سنن هذا المجتمع المقدسه، و استمرار إقامة السنن المقدسه من المجتمع دليل على أنهم ذوو أصل عريق ثابت، و وحده قوميه لها استقامه فى الرأى و الإراده.

و قوله: وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ حجه ثانيه لهم فى رد دعوه

صالح عليه السلام، و حجتهم الاولى ما يتضمنه صدر الآيه و محلها أن ما تدعو اليه من رفض عباده الأصنام بدعه منكره تذهب بسنه ثمود المقدسه و تهدم بنیان مليتهم، و تمت ذكرهم فعلياً أن نرده، و الثانيه أنك لم تأت بحجه بينه على ما تدعو اليه تورث اليقين و تميظ الشك عنا فنحن في شك مريب مما تدعوننا اليه و ليس لنا أن نقبل ما تندب اليه على شك منا فيه.

و الإبراهه الاتهام و إساءه الظن يقال: رابني منه كذا إذا أوجب فيه الشك و أرابني كذا إرابه إذا حملك على اتهامه و سوء الظن به.

قوله تعالى: **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَ أَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ أَلِي آخِرَ الْآيَةِ؛ المراد بالبينه الآيه المعجزه و بالرحمه النبوه، و قد تقدم الكلام في نظير الآيه من قصه نوح عليه السلام في السوره.**

و قوله: **فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ جَوَابَ الشَّرْطِ، و حاصل المعنى:**

أخبروني إن كنت مؤيداً بآيه معجزه تنبئ عن صحه دعوتي و أعطاني الله الرساله فأمرني بتبليغ رسالته فمن ينجني من الله و يدفع عني إن أطعتكم فيما تسألون و وافقتكم فيما تريدونه مني و هو ترك الدعوه.

ففي الكلام جواب عن كلتا حجتيهم و اعتذار عما لاموه عليه من الدعوه المبتدعه.

و قوله: **فَلَمَّا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ تَفْرِيعٍ عَلَى قَوْلِهِ السَّابِقِ الَّذِي ذَكَرَهُ فِي مَقَامِ دَحْضِ الْحُجَّتَيْنِ وَ الْعِذَارِ عَنْ مَخَالَفَتِهِمْ وَ الْقِيَامِ بِدَعْوَتِهِمْ إِلَى خِلَافِ سُنَّتِهِمُ الْقَوْمِيَّةِ فَالْمَعْنَى فَمَا تَزِيدُونَنِي فِي حِرْصِكُمْ عَلَى تَرْكِ الدَّعْوَةِ وَ الرَّجُوعِ إِلَيْكُمْ وَ اللُّحُوقِ بِكُمْ غَيْرَ أَنْ تَخْسِرُونَنِي فَمَا مَخَالَفَةُ الْحَقِّ إِلَّا خِسَارُهُ.**

و قيل: المراد أنكم ما تزيدونني في قولكم: أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ غير نسبتى إياكم الى خساره. و قيل: المعنى ما تزيدونني إلا بصيره في خسارتكم و الوجه الأول أوجه.

قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لِهَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ إِضَافَةَ النَاقَةِ إِلَى اللَّهِ إِضَافَةَ تَشْرِيفٍ كَبِيَّتِ اللَّهُ وَ كِتَابِ اللَّهِ. وَ كَانَتْ النَاقَةُ آيَةً مُعْجِزَةً لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَوْيِدَ نُبُوَّتِهِ، وَ قَدْ أَخْرَجَهَا عَنْ مَسْأَلَتِهِمْ مِنْ صَخْرِ الْجَبَلِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَ قَالَ لَهُمْ: إِنَّهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ مُحَرَّرَةً، وَ حَذَرَهُمْ أَنْ يَمْسُوهَا بِسُوءٍ أَى يَصِيبُوهَا بِضَرْبٍ أَوْ جَرْحٍ أَوْ قَتْلِ. وَ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ أَخَذَهُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ مُعْجَلٌ، وَ هَذَا مَعْنَى الْآيَةِ.

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ عَقَرَ النَاقَةَ نَحْرَهَا، وَ الدَارُ هِيَ الْمَكَانُ الَّذِي بَيْنَهُ الْإِنْسَانُ فَيَسْكُنُ فِيهِ وَ يَأْوِي إِلَيْهِ هُوَ وَ أَهْلُهُ، وَ الْمَرَادُ بِهَا فِي الْآيَةِ الْمَدِينَةُ سَمِيَتْ دَارًا لِأَنَّهَا تَجْمَعُ أَهْلَهَا كَمَا تَجْمَعُ الدَارُ أَهْلَهَا، وَ قِيلَ الْمَرَادُ بِالدَّارِ الدُّنْيَا، وَ هُوَ بَعِيدٌ.

وَ الْمَرَادُ بِتَمَتَّعَهُمْ فِي مَدِينَتِهِمْ الْعَيْشَ وَ التَّنَعُّمَ بِالْحَيَاةِ لِأَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مَتَاعٌ يَتَمَتَّعُ بِهِ، أَوْ الْإِلْتِمَادَ بِأَنْوَاعِ النِّعَمِ الَّتِي هِيَئُوهَا فِيهَا مِنْ مَنَاطِرِ ذَاتِ بَهْجَةٍ وَ الْأُنْثَى وَ الْمَأْكُولِ وَ الْمَشْرُوبِ وَ الْإِسْتِرْسَالِ فِي أَهْوَاءِ أَنْفُسِهِمْ.

وَ قَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ الْإِشَارَةُ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿تَمَتَّعُوا النَّخِ؛ وَ «وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ» بَيَانٌ لَهُ.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ أَمَا قَوْلُهُ: «وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةِ مِنَّا» فَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي مِثْلِهِ فِي قِصَّةِ هُودٍ.

وَ أَمَا قَوْلُهُ: ﴿وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمٍ إِذْ فَمِعْطُوفٍ عَلَى مُحْذُوفٍ وَ التَّقْدِيرُ نَجَّيْنَاهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمٍ إِذْ، وَ الْخِزْيُ الْعَيْبُ الَّذِي تَظْهَرُ فُضِيحَتُهُ وَ يَسْتَحْيِي مِنْ إِظْهَارِهِ أَوْ أَنَّ التَّقْدِيرَ: نَجَّيْنَاهُمْ مِنَ الْقَوْمِ وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمٍ إِذْ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ: ﴿وَ نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

وقوله: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ فِي مَوْضِعِ التَّعْلِيلِ لِمُضْمِنِ صَدْرِ الْآيَةِ وَ فِيهِ التَّفَاتُ مِنَ التَّكْلِمْ بِالْغَيْرِ إِلَى الْغَيْبِ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ نَظِيرُهُ فِي آخِرِ قِصَّةِ هُودٍ فِي قَوْلِهِ: «أَلَا- إِنَّ عَمَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ» وَ الْوَجْهَ فِيهِ ذَكَرَ صِفَةَ الرِّبُوبِيَّةِ لِيُدَلَّ بِهِ عَلَى خُرُوجِهِمْ مِنْ زِي الْعَبُودِيَّةِ وَ كَفَرَهُمْ بِالرِّبُوبِيَّةِ وَ كَفَرَانَهُمْ نَعَمَ رَبَّهُمْ.

قوله تعالى: وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ يُقَالُ: جَثِمَ جَثُومًا إِذَا وَقَعَ عَلَى وَجْهِهِ، وَ الْبَاقِي ظَاهِرٌ.

قوله تعالى: كَأَنَّ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا غَنَى بِالْمَكَانِ أَى أَقَامَ فِيهِ، وَ الضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى الدِّيَارِ.

قوله تعالى: أَلَا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَّا بُعِيدًا لَتَمُودَ الْجَمَلَتَانِ تَلْخِصُ مَا تَقَدَّمَ تَفْصِيلُهُ مِنَ الْقِصَّةِ فَالْجَمْلَةُ الْأُولَى تَلْخِي مَا انْتَهَى إِلَيْهِ أَمْرُ تَمُودَ وَ دَعَاهُ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ الثَّانِيَةُ تَلْخِصُ مَا جَازَاهُمْ اللَّهُ بِهِ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ نَظِيرُهُ الْآيَةَ فِي آخِرِ قِصَّةِ هُودٍ (١)(٢).

[سورة هود (١١): الآيات ٦٩ إلى ٧٦]

إشارة

وَ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا قَالِ سَلَامًا فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا- تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَ امْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاَهَا بِإِسْحَاقَ وَ مِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَ جَاءَتْهُ الْبَشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)

ص: ١٧٥

١- ١. هود ٦١-٦٨: بحث روائي حول قصة صالح و قومه.

٢- ٢. هود ٦١-٦٨: كلام في قصة صالح في فصول (تمود قوم صالح عليه السلام، بعثه صالح عليه السلام، شخصيه صالح عليه السلام).

قوله تعالى: **وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ الْبُشْرَىٰ هِيَ الْبَشَارَةُ، وَالْعَجَلُ وَلَدُ الْبَقْرَةِ، وَالْحَنِيزُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ أَيْ الْمَحْنُودُ وَهُوَ اللَّحْمُ الْمَشْوِيُّ عَلَى حِجَارِهِ مَحْمَاهُ بِالنَّارِ كَمَا أَنَّ الْقَدِيدَ هُوَ الْمَشْوِيُّ عَلَى حِجَارِهِ مَحْمَاهُ بِالشَّمْسِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ بَعْضُ اللُّغَوِيِّينَ، وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ الْمَشْوِيُّ الَّذِي يَقَطُرُ مَاءٌ وَسَمْنًا، وَقِيلَ: هُوَ مَطْلُقُ الْمَشْوِيِّ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الذَّارِيَاتِ فِي الْقِصَّةِ: «فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ» لَا يَخْلُو مِنْ تَأْيِيدِ مَا لِلْمَعْنَى الثَّانِي.**

و قوله: **وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ** معطوف على قوله سابقا:

«**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ**» قال في المجمع: وإنما دخلت اللام لتأكيد الخبر و معنى قد هاهنا أن السامع لقصص الأنبياء يتوقع قصه بعد قصه، و قد للتوقع فجاءت لتؤذن أن السامع

فى حال توقع.انتهى.

و الرسل هم الملائكة المرسلون الى ابراهيم للبشاره و الى لوط لاهلاك قومه و قد اختلفت كلمات المفسرين فى عددهم مع القطع بكونهم فوق الاثنين لدلاله لفظ الجمع -الرسلى-على ذلك،و فى بعض الروايات عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام أنهم كانوا أربعة من الملائكة الكرام،و سيأتى نقلها إن شاء الله فى البحث الروائى.

و البشرى التى جاءت بها الرسل إبراهيم عليه السّلام لم يذكر بلفظها فى القصة،و التى ذكرت فيها منها هى البشاره لامرأته،و إنما ذكرت بشاره إبراهيم نفسه فى غير هذا المورد كسورتى الحجر و الذاريات،و لم يصرح فيهما باسم من بشر به إبراهيم أ هو إسحاق أم إسماعيل عليهم السّلام أو أنهم بشروه بكليهما؟و ظاهر سياق القصة فى هذه السوره أنها البشاره بإسحاق،و سيأتى البحث المستوفى عن ذلك فى آخر القصة.

و قوله: **قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ** أى تسالموا هم و إبراهيم فقالوا:سلاما أى سلّمنا عليك سلاما،و قال إبراهيم:سلام أى عليكم سلام.

و السلام الواقع فى تحيه ابراهيم عليه السّلام نكره و وقوعه نكره فى مقام التحيه دليل على ان المراد به الجنس أو أن له وصفا محذوفا للتفخيم و مزيد التكريم و التقدير:عليكم سلام زاك طيب أو ما فى معناه،و لذا ذكر بعض المفسرين:ان رفع السلام أبلغ من نصبه فقد حيّاهم بأحسن من تحيتهم فبالغ فى إكرامهم ظنا منه أنهم ضيف.

و قوله: **فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ** أى ما أبطأ فى أن قدّم اليهم عجلا مشويا يقطر ماء و سمنا و أسرع فى ذلك.

قوله تعالى: **فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً** عدم وصول ايديهم اليه كناية عن أنهم ما كانوا يمدون أيديهم الى الطعام،و ذلك أماره العداوه و إضمار الشر،و نكرهم و أنكرهم بمعنى واحد و إنما كان أنكرهم لإنكاره ما شاهد

منهم من فعل غير معهود.

و الإيجاس الخطور القلبي، قال الراغب: الوجل الصوت الخفى، و التوجل التسمع، و الإيجاس وجود ذلك النفس قال: و أوجل منهم خيفه، و الوجل قالوا: هو حاله تحصل من النفس بعد الهاجس لأن الهاجس مبتدأ التفكير ثم يكون الوجل خاطر. انتهى.
فالجمله من الكنايه كأن لطروق الخيفه-و هو النوع من الخوف-و خطوره فى النفس صوتا تسمع بالسمع القلبي، و المراد أنه استشعر فى نفسه خوفا و لذلك أمّنه و طيبوا نفسه بقولهم:

«لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ».

و معنى الآيه أن إبراهيم عليه السّلام لما قدم اليهم العجل المشوى رآهم لا يأكلون منه كالممتنع من الأكل-و ذلك أماره الشر- استشعر فى نفسه منهم خوفا قالوا تأمينا له و تطيبا لنفسه: لا تخف إنا أرسلنا الى قوم لوط فعلم أنهم من الملائكه الكرام المنزهين من الأكل و الشرب و ما يناظر ذلك من لوازم البدن الماديه، و أنهم مرسلون لخطب جليل.

قوله تعالى: وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ضحكت من الضحك بفتح الضاد أى حاضت، و يؤيده تفریع البشاره عليه فى قوله عقيبه: «فبشرناهم» الخ؛ و يكون ضحكها أماره تقرب البشرى الى القبول، و آيه تهییئ نفسها للإذعان بصدقهم فيما يبشرون به، و يكون ذكر قيامها لتمثيل المقام و أنها ما كانت تخطر ببالها أنها ستحيض و هى عجوز، و إنما كانت قائمه تنظر ما يجرى عليه الأمر بين بعله و بين الضيفان النازلين به و تحادثهم.

و المعنى أن إبراهيم عليه السّلام كان يكلمهم و يكلمونه فى امر الطعام و الحال أن امرأته قائمه هناك تنظر الى ما يجرى بين الضيفان و بين إبراهيم و ما كان يخطر ببالها شىء دون ذلك ففاجأها انها حاضت فبشرته الملائكه بالولد.

و قوله: فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ إسحاق هو ابنها من

ابراهيم، ويعقوب هو ابن إسحاق عليهما السلام فالمراد أن الملائكة بشروها بأنها ستلد إسحاق و إسحاق سيولد له يعقوب ولد بعد ولد. هذا على قراءه يعقوب بالفتح و هو منزوع الخافض و قرئ برفع يعقوب و هو بيان لتتمه البشاره، و الاولى ارجح.

و كأن فى هذا التعبير: وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ إشاره الى وجه تسميه يعقوب عليه السلام بهذا الاسم، و هو أنه كان يعقب بحسب هذه البشاره أباه إسحاق و قد ذكر فيها أنه وراءه، و يكون فيها تخطئه لما فى التوراه من السبب فى تسميه يعقوب به.

قوله تعالى: قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَ هَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ الويل القبح و كل مساءه توجب التحير من هلكه او مصيبه او فجيعة او فضيحه، و نداؤه كناية عن حضوره و حلوله يقال: يا ويلي أى حضرنى و حل بى ما فيه تحيرى، و يا ويلتا بزياده التاء عند النداء مثل يا أبتا.

و العجوز الشيخه من النساء، و البعل زوج المرأه و الأصل فى معناه القائم بالأمر المستغنى عن الغير يقال للنخل الذى يستغنى بماء السماء عن سقى الأنهار و العيون بعل، و يقال للصاحب و للرب: بعل. و منه بعلبك لأنه كان فيه هيكل بعض أصنامهم.

و العجيب صفه مشبهه من العجب و هو الحال العارض للإنسان من مشاهدته ما لا يعلم سببه، و لذا يكثر من الامور الشاذه النادره للجهل بسببها عاده و قولها: «يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ» الخ؛ و ارد مورد التعجب و التحسر فإنها لما سمعت بشاره الملائكه تمثل لها الحال بتولد ولد من عجوز عقيم و شيخ هرم بالغين فى الكبر لا يعهد من مثلهما الاستيلاء فهو أمر عجيب على ما فيه من العار و الشين عند الناس فيضحكون منهما و يهزءون بهما و ذلك فضيحه.

قوله تعالى: قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ المجد هو الكرم و المجيد الكريم كثير النوال و قد تقدم معنى بقيه مفردات الآيه.

وقولهم: أَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ اسْتِفْهَامَ إِنْكَارِي أَنْكَرْتَ الْمَلَائِكَةَ تَعْجِبُهَا عَلَيْهَا لِأَنَّ التَّعَجُّبَ إِنَّمَا يَكُونُ لِلْجَهْلِ بِالسَّبَبِ وَاسْتِغْرَابَ الْأَمْرِ، وَالْأَمْرُ الْمَنْسُوبُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَهُوَ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لَا وَجْهَ لِلتَّعَجُّبِ مِنْهُ.

على أنه تعالى خص بيت إبراهيم بعنايات عظيمة و مواهب عالية يتفردون بها من بين الناس فلا ضير إن ضم إلى ما مضى من نعمه النازله عليهم نعمه اخرى مختصه بهم من بين الناس و هو ولد من زوجين شائخين لا يولد من مثلهما ولد عاده.

ولهذا الذى ذكرنا قالت الملائكة لها فى إنكار ما رأوا من تعجبها أولا «أَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» فأضافوا الأمر إلى الله لينقطع بذلك كل استعجاب و استغراب لأن ساحة الألوهية لا يشق شىء عليها و هو الخالق لكل شىء.

و ثانيا رَحِمْتُ اللَّهُ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ فنبهوها بذلك أن الله انزل رحمته و بركاته عليهم أهل البيت، و ألزمهم ذلك فليس من البعيد ان يكون من ذلك تولد مولود من والدين فى غير سنهما العادى المألوف لذلك.

وقوله: إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ فى مقام التعليل لقوله: «رَحِمْتُ اللَّهُ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ» أى إنه تعالى مصدر كل فعل محمود و منشأ كل كرم وجود يفيض من رحمته و بركاته على كل من يشاء من عباده.

قوله تعالى: فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَ جَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ الرُّوعُ الْخَوْفُ وَ الرَّعْبُ وَ الْمَجَادِلَةُ فِي الْأَصْلِ الْإِلْحَاحُ فِي الْبَحْثِ وَ الْمَسَاءَلَةُ لِلْغَلْبَةِ فِي الرَّأْيِ، وَ الْمَعْنَى أَنَّهُ لَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ مَا اعْتَرَاهُ مِنَ الْخَيْفَةِ بِتَبْيِينِ أَنَّ النَّازِلِينَ بِهِ لَا يَرِيدُونَ بِهِ سُوءًا وَ لَا يَضْمُرُونَ لَهُ شَرًّا. وَ جَاءَتْهُ الْبُشْرَى بِأَنَّ اللَّهَ سَيَرْزُقُهُ وَ زَوْجَهُ إِسْحَاقَ وَ مِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ أَخَذَ يُجَادِلُ الْمَلَائِكَةَ فِي قَوْمِ لُوطٍ يَرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ.

فقوله: يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ لحكاية الحال الماضية او بتقدير فعل ماض قبله و تقديره: اخذ يجادلنا، الخ، لأن الأصل في جواب لما ان يكون فعلا ماضيا.

و يظهر من الآيه ان الملائكة اخبروه اولاً: بأنهم مرسلون الى قوم لوط ثم ألقوا اليه البشاره ثم جرى بينهم الكلام في خصوص عذاب قوم لوط فأخذ إبراهيم عليه السلام يجادلهم ليصرف عنهم العذاب فأخبروه بأن القضاء حتم، و العذاب نازل لا مرد له.

و الذى ذكره الله من مجادلته عليه السلام الملائكة هو قوله في موضع آخر: وَ لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالِ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (العنكبوت ٣٢).

قوله تعالى: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ الحليم هو الذى لا يعاجل العقوبه و الانتقام، و الأواه كثير التأوه مما يصيبه او يشاهده من السوء، و المنيب من الإنابه و هو الرجوع و المراد الرجوع فى كل أمر الى الله.

و الآيه مسوقه لتعليل قوله فى الآيه السابقه: «يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ» و فيه مدح بالغ لإبراهيم عليه السلام و بيان أنه إنما كان يجادل فيهم لأنه كان حليماً لا يعاجل نزول العذاب على الظالمين رجاء أن يأخذهم التوفيق فيصلحوا و يستقيموا، و كان كثير التأثر من ضلال الناس و حلول الهلاك بهم مراجعاً الى الله فى نجاتهم. لا أنه عليه السلام كان يكره عذاب الظالمين و ينتصر لهم بما هم ظالمون و حاشاه عن ذلك.

قوله تعالى: يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ هذا حكاية قول الملائكة لإبراهيم عليه السلام و بذلك قطعوا عليه جداله فانقطع حيث علم أن الإلحاح فى صرف العذاب عنهم لن يثمر ثمراً فإن القضاء حتم و العذاب واقع لا محاله. فقولهم: «يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا» أى انصرف عن هذا الجدال و لا تطمع فى نجاتهم فإنه طمع فيما لا مطمع فيه.

وقولهم: إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ أَى بَلغ أمره مبلغا لا يدفع بدافع ولا يتبدل بمبدل و يؤيده قوله فى الجملة التالىة: «وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ» فإن ظاهره المستقبل و لو كان الأمر صادرا لم يتخلف القضاء عن المقضى البتة و يؤيده أيضا قوله فى ما سياتى من آيات قصة قوم لوط: فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا الخ؛ آية ٨٢ من السورة.

وقولهم: وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ اى غير مدفوع عنهم بدافع فله الحكم لا معقب لحكمه، و الجملة بيان لما أمر به جىء بها تأكيدا للجملة السابقة و المقام مقام التأكيد، و لذلك جىء فى الجملة الاولى بضمير الشأن و قد المفيد للتحقيق، و صدرت الجملتان معا يان، و أضافوا الأمر الى رب إبراهيم عليه السلام دون امر الله ليعينهم ذلك على انقطاعه عن الجدل (١)(٢).

[سورة هود (١١): الآيات ٧٧ الى ٨٣]

إشارة

وَ لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَ ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَ قَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصَيْبٌ (٧٧) وَ جَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِىَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْطَلُوا إِلَيْكَ فَاسِيرًا بَأْهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنْ مَوْعَدَهُمْ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ مَا هِىَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ (٨٣)

ص: ١٨٢

١-١. هود ٦٩-٧٦: بحث روائى فى اهلاك قوم لوط.

٢-٢. هود ٦٩-٧٦: كلام فى قصة البشرى (حديث ضيف ابراهيم عليه السلام).

قوله تعالى: وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ يُقَالُ: سَاءَ الْأَمْرُ مَسَاءَهُ أَيْ أَوْقَعَ عَلَيْهِ السُّوءَ، وَ سَيِّئٌ بِالْأَمْرِ بِالْبِنَاءِ لِلْمَجْهُولِ أَيْ أَوْقَعَ عَلَيْهِ مِنْ نَاحِيَّتِهِ وَ بِسَبَبِهِ.

و الذرع مقاييسه الأطوال مأخوذ من الذراع العضو المعروف لأنهم كانوا يقيسون بها، و يطلق على نفس المقياس ايضاً، و يقال: ضاق بالأمر ذرعاً و هو كناية عن انسداد طريق الحيلة و العجز عن الاهتداء الى مخلص ينجو به الانسان من النائبة كالذى يذرع ما لا ينطبق عليه ذرعه.

و العصيب فعيل بمعنى المفعول من العصب بمعنى الشدّ و اليوم العصيب هو اليوم الذى شدّ بالبلاء شدا لا يقبل الانحلال و لا بعض أجزائه ينفكّ عن بعض.

و المعنى جاءت رسلنا لوطاً و هم الملائكة النازلون بإبراهيم عليه السلام ساء مجيئهم لوطاً، و عجز عن الاحتيال لنجاتهم من شر القوم فإنهم دخلوا عليه فى صور غلمان مرد صبيحي المنظر و كان قومه ذوى حرص شديد على إتيان الفحشاء ما كان من المترقب أن يعرضوا

عنهم و يتركوهم على حالهم، و لذلك لم يملك لوط نفسه دون أن قال «هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ» أى شديد ملتفتٌ بعض شره ببعض.

قوله تعالى: «وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ الرَّاعِبُ: يقال: هرع و أهرع ساقه سوقا بعنف و تخويف، انتهى. و عن كتاب العين الإهرع السوق الحثيث، انتهى.

و قوله: «و مِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ» أى و من قبل ذلك كانوا يقتربون المعاصى و يأتون بالمنكرات فكانوا مجترئين على إيقاع الفحشاء معتادين بذلك لا ينصرفون عنه بصارف، و لا يحجبهم عن ذلك استحياء أو استنشاع، و لا ينزجرون بموعظه أو ملامه أو مذمه لأن العاده تسهل كل صعب و تزين كل قبيح و وقیح.

و الجمله كالمعترضه بين قوله: «وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ» و قوله: «قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي الخ» و هى نافعه فى مضمون طرفيها أما فيما قبلها فإنها توضح أن الذى كان يهرعهم و يسوقهم الى لوط عليه السلام هو أنهم كانوا يعملون السيئات و صورا بذلك معتادين على إتيان الفحشاء و لعين به فساقهم ذلك الى المعجىء اليه و قصد السوء بأضيفه.

و أما فيما بعدها فإنها تفيد أنهم لرسوخ الملكه و استقرار العاده سلبوا سماع القبول و أن يزرهم زاجر من عظه او نصيحه، و لذلك بدأ لوط فى تكليمهم بعرض بناته عليهم ثم قال لهم «اتقوا الله و لا تخزون فى ضيفى» الخ.

قوله تعالى: «قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطَهَرُ لَكُمْ» الى آخر الآيه؛ لما رأهم تجمّعوا على الشر لا يصرفهم عن ذلك مجرد القول بعظه او إغلاظ فى الكلام أراد أن يصرفهم عنه بتبديل ما يريدون من الفحشاء مما لا معصيه فيه من الحلال فعرض بناته عليهم و رجحه لهم بأنهن أطهر لهم.

و إنما المراد بصيغه التفضيل -أطهر- مجرد الاشتمال على الطهاره من غير شوب

بقذاره، والمراد هي طهاره محضاً، وهو استعمال شائع، قال تعالى: ﴿مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ (الجمعه ١١)﴾، وقال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ (النساء ١٢٨)﴾. وتفيد معنى الأخذ بالمتيقن.

وتقييد قوله: ﴿هُؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ بقوله: ﴿هُنَّ أَطَهَرُ لَكُمْ شَاهِدٌ صَدَقَ عَلَيَّ أَنَّهُ إِنَّمَا عَرَضَ لَهُمْ مَسِيهٌ عَنْ نِكَاحٍ لَا عَنْ سَفَاحٍ وَحَاشَا مَقَامَ نَبِيِّ اللَّهِ عَنْ ذَلِكَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ السَّفَاحَ لَا طَهَارَةَ فِيهِ أَصْلًا وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (الإسراء ٣٢)﴾، وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْقَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ (الأنعام ١٥١)﴾، وقد تقدم في تفسير هذه الآية أن ما تتضمنه هو من الأحكام العامه المشرعه في جميع الشرائع الإلهيه النازله على أنبيائه.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ بيان للمطلوب، وقوله: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ عطف تفسيرى لقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فإنه عليه السلام إنما كان يطلب منهم أن لا يتعرضوا لضيفه لتقوى الله لا لهوى نفسه و عصبية جاهليه منه، ولم يكن عنده فرق بين ضيفه و غيرهم فيما كان يردعهم، وقد وعظهم بالردع عن هذا الذنب الشنيع و ألح على ذلك سنين متماديه.

وإنما علق الردع على معنى الضيفه و أضاف الضيف الى نفسه و ذكر الخزي الوارد عليه من التعرض لهم كل ذلك رجاء أن يهيج صفه الفتوه و الكرامه فيهم و لذلك عقب ذلك بالاستغاثه و الاستنصار بقوله: ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ لعله يجد فيهم ذا رشد إنسانى فينتصر له و ينجيه و ضيوفه من أيدي اولئك الظالمين لكن القوم كانوا كما قال الله تعالى:

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَيِّئَاتِهِمْ يَعْمَهُونَ (الحجر ٧٢)﴾ و لم يؤثر ذلك فيهم أثرا و لم ينتهوا عن قوله بل أجابوا بما بأسوه به من أى إلحاح فى ذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا

نريدُ هذا جواب القوم عما دعاهم اليه لوط من النكاح المباح أجابوا بنفى أن يكون لهم فى بناته من حق و أنه يعلم ذلك و يعلم ما هو بغيتهم فى هذا الهجوم و ما ذا يريدون.

و قد قيل فى معنى نفيتهم الحق: إن معناه ما لنا فى بناته من حاجه و ما ليس للانسان فيه حاجه فكأنه لا حق له فيه فى الكلام نوع استعاره.

و قيل: إن المراد ليس لنا فى بناتك من حق لأننا لا نتزوجهن و من لم يتزوج بامرأه فلا حق له فيها فالمراد بنفى الحق نفى سببه و هو الازدواج.

و قيل: المراد بالحق هو الحظ و النصيب دون الحق الشرعى او العرفى أى لا رغبه لنا فيهن لأنهن نساء و لا ميل لنا اليهن.

و الذى يجب الالتفات اليه أنهم لم يقولوا: ما لنا فى بناتك من حق بل قالوا «لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ» فلم يجيبوا عنه بذلك بل بعلمه بذلك و بين القولين فرق فالظاهر أنهم ذكروه بما كان يعلم من السنه القوميه الجاربه بينهم، و هو المنع من التعرض لساء الناس و خاصه بالقهر و الغلبه او ترك إتيان النساء بالمره و استباحه التعرض للغلمان و قضاء الوطر منهم، و قد كان لوط يردعهم عن سنتهم ذلك إذ يقول لهم: إِنَّكُمْ لَتَيَأْتُونَ الرَّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ (الأعراف ٨١) أ تَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَ تَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ (الشعراء ١٦٦) أ إِنَّكُمْ لَتَيَأْتُونَ الرَّجَالَ وَ تَقَطُّعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ (العنكبوت ٢٩)، و لا شك أن السنه القوميه الجاربه على فعل شىء يثبت حقا فيه، و الجاربه على تركه ينفى الحق.

و بالجمله هم يلفتون نظره عليه السلام الى ما يعلم من انتفاء حقهم عن بناته بما هن نساء بحسب السنه القوميه و ما يعلم من إرادتهم فى الهجوم على داره هذا و لعل هذا أحسن الوجوه، و بعده الوجه الثالث.

قوله تعالى: قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ يقال: أوى

الى كذا يأوى أوياً و مأوى أى انضم اليه، و آواه اليه يؤويه إيواء أى ضمه اليه. و الركن هو ما يعتمد عليه البناء بعد الأساس.

الظاهر انه لما وعظهم لوط عليه السلام بالأمر بتقوى الله و تهيج فتوتهم فى حفظ موقعه و رعايه حرمة فى عدم التعرض لضيفه بما يجلب اليه العار و الخزى، و قد قطع عذرهم بعرض بناته عليهم بالنكاح ثم استغاث بالاستنصار من أولى الرشد منهم رجاء أن يوجد فيهم رجل رشيد ينصره عليهم و يدفعهم عنه فلم يجبه أحد فيما سأل و لا انماز من بينهم ذو رشد ينصره عليهم و يدفعهم عنه فلم يجبه أحد فيما سأل و لا انماز من بينهم ذو رشد ينصره و يدفع عنه بل أياسوه بقولهم: «لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ» لم يبق له إلا- أن يظهر ما به من البث و الحزن فى صورته التمنى فتمنى أن يكون له منهم قوه يقوى به على دفع عتاتهم الظالمين- و هو الرجل الرشيد الذى كان يسأل عنه فى استغاثته- او يكون له ركن شديد و عشيره منيعه ينضم اليهم فيدفعهم بهم.

فقوله: لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَى لیت لی قدره بسبيكم بانضمام رجل منكم رشيد إلى يقوم بنصرتى فأدفعكم به، و قوله: «أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ» أى او كنت أنضم الى ركن شديد أى عشيره منيعه يمنعكم منى هذا ما يعطيه ظاهر السياق.

قوله تعالى: قَالُوا يَا لَوُطُ إِذَا رُسِلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْطَلُوا إِلَيْكَ إِلَى آخر الآيه؛ عدم وصولهم اليه كناية عن عدم قدرتهم على ما يريدون، و المعنى لما بلغ الأمر هذا المبلغ قالت الملائكة مخاطبين للوط: إنا رسل ربك فأظهروا له أنهم ملائكة و عرفوه أنهم مرسلون من عند الله، و طيبوا نفسه أن القوم لن يصلوا اليه و لن يقدرُوا أن يصيبوا منه ما يريدون فكان ما ذكره الله تعالى فى موضع آخر من كلامه: وَ لَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ (القمر ٣٧)، فأذهب الله بأبصار الذين تابعوا على الشر و ازدحموا على بابه فصاروا عميانا يتخبطون.

و قوله: فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لَا يَتْلُفِثُ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَرَّ السَّرِيَّ بِالضَّمِّ السَّيْرُ بِاللَّيْلِ فَيَكُونُ قَوْلُهُ: «بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ» نَوْعٌ تَوْضِيحٌ لَهُ، وَ الْبَاءُ لِلْمَصَاحِبِ أَوْ بِمَعْنَى فِي. وَ الْقِطْعُ مِنَ الشَّيْءِ طَائِفَةٌ مِنْهُ وَ بَعْضُهُ، وَ الْإِتْفَاتُ افْتِعَالٌ مِنَ الْفَتْ، قَالَ الرَّاعِبُ: يُقَالُ: لَفْتَهُ عَنْ كَذَا صَرَفَهُ عَنْهُ، قَالَ تَعَالَى «قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتْلِفِثَنَّ» أَيْ تَصْرَفْنَا، وَ مِنْهُ التَّفْتُ فَلَانِ إِذَا عَدَلَ عَنْ قَبْلِهِ بِوَجْهِهِ، وَ أَمْرَاهُ لَفُوتٌ تَلَفَتْ مِنْ زَوْجِهَا إِلَى وَلَدِهَا مِنْ غَيْرِهِ. انْتَهَى.

وَ الْقَوْلُ دَسْتُورٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِلْوَطِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِرشَادًا لَهُ إِلَى النِّجَاحِ مِنَ الْعَذَابِ النَّازِلِ بِالْقَوْمِ صَبِيحَهُ لَيْلَتَهُمْ هَاتِيكَ، وَ فِيهِ مَعْنَى الْإِسْتِعْجَالِ كَمَا يَشْعُرُ بِهِ قَوْلُهُ بَعْدَ: «إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ».

وَ الْمَعْنَى أَنَا مَرْسَلُونَ لِعَذَابِ الْقَوْمِ وَ هَلَاكِهِمْ فَانْجِ أَنْتَ بِنَفْسِكَ وَ أَهْلِكَ وَ سَيَرُوا أَنْتَ وَ أَهْلَكَ بِقِطْعٍ مِنْ هَذَا اللَّيْلِ وَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ فَإِنَّهُمْ هَالِكُونَ بِعَذَابِ اللَّهِ صَبِيحَهُ لَيْلَتَهُمْ هَذِهِ، وَ لَا كَثِيرٌ وَقْتُ بَيْنِكَ وَ بَيْنَ الصُّبْحِ، وَ لَا يَنْظُرُ أَحَدٌ كَمِ الْإِلَى وَرَاءَ.

وَ قَوْلُهُ: إِلَّا أَمْرًا تَكَ إِنَّهُ مُصَيَّبًا مَا أَصَابَهُمْ ظَاهِرُ السِّيَاقِ أَنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ مِنْ قَوْلِهِ:

«بِأَهْلِكَ» لَا- مِنْ قَوْلِهِ: «أَحَدٌ» وَ فِي قَوْلِهِ: «إِنَّهُ مُصَيَّبٌ بِهَا مَا أَصَابَهُمْ» بَيَانُ السَّبَبِ لِاسْتِثْنَائِهَا، وَ قَالَ تَعَالَى فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ: إِلَّا أَمْرًا تَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (الحجر ٦٠).

وَ قَوْلُهُ: إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ أَيْ مَوْعِدُ هَلَاكِهِمْ الصُّبْحُ وَ هُوَ صَدْرُ النَّهَارِ بَعْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ حِينَ الشَّرُوقِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (الحجر ٧٣).

وَ الْجُمْلَةُ الْأُولَى تَعْلِيلٌ لِقَوْلِهِ: «فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ» وَ فِيهِ نَوْعٌ اسْتِعْجَالٍ كَمَا تَقَدَّمَ، وَ يُؤَكِّدُهُ قَوْلُهُ: «أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ» وَ مِنَ الْجَائِزِ أَنْ يَكُونَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَسْتَعْجِلُهُمْ فِي عَذَابِ الْقَوْمِ فَيَجِيبُوهُ بِقَوْلِهِمْ: «إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ» أَيْ إِنْ مِنَ الْمَقْدَرِ أَنْ يَهْلِكُوا بِالصُّبْحِ وَ لَيْسَ مَوْعِدًا بَعِيدًا أَوْ يَكُونُ الْجُمْلَةُ الْأُولَى اسْتِعْجَالًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ،

و الثانية تسليه منهم للوط فى استعجاله.

و لم يذكر فى الآيات ما هى الغايه لسراهم و المحل الذى يتوجهون اليه، و قد قال تعالى فى موضع آخر من كلامه: فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ اتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (الحجر ١٦٥)، و ظاهره أن الملائكه لم يذكروا له المقصد و أحالوا ذلك الى ما سيأتيه من الدلاله بالوحي الإلهي.

قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَ آمَطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ضَمَائِرَ التَّائِبِ الثَّلَاثِ راجعه الى أرض القوم او القرية او بلادهم المعلومه من السياق، و السجّيل على ما فى المجمع بمعنى السجّين و هو النار، و قال الراغب: السجّين حجر و طين مختلط، و أصله فيما قيل فارسى معرّب، انتهى. يشير الى ما قيل إن أصله سنككل، و قيل: إنه مأخوذ من السجلّ بمعنى الكتاب كأنها كتب فيها ما فيها من عمل الإهلاك، و قيل: مأخوذ من أسجلت بمعنى أرسلت.

و الظاهر أن الأصل فى جميع هذه المعانى هو التركيب الفارسى المعرّب المفيد معنى الحجر و الطين، و السجلّ بمعنى الكتاب ايضا منه فإنهم على ما قيل كانوا يكتبون على الحجر المعمول ثم توسّع فسّمى كل كتاب سجلا و إن كان من قرطاس، و الإسجال بمعنى الإرسال مأخوذ من ذلك.

و النضد هو النظم و الترتيب، و التسويم جعل الشئ ذا علامه من السيماء بمعنى العلامه.

و المعنى: و لما جاء أمرنا بالعذاب و هو أمره تعالى الملائكه بعذابهم و هو كلمه «كن» التى أشار إليها فى قوله: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ - كُنْ (يس ٨٣)، جعلنا على أرضهم و بلادهم سافلها بتقليبها عليهم و أمطرنا عليها حجاره من سجّيل منضود معلّمه عند ربك و فى علمه ليس لها أن تخطئ هدفها الذى رميت لأجل إصابته.

و قوله تعالى: وَ مَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ قِيلَ المراد بالظالمين ظالمو أهل

مكة او المشركون من قوم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والكلام مسوق للتهديد، والمعنى وليست هذه الحجارة من ظالمى مكة ببعيد او المعنى: ليست هذه القرى المخسوفه من ظالمى قومك ببعيد فإنه فى طريقهم بين مكة والشام، كما قال تعالى فى موضع آخر: **وَإِنَّهَا لَبَسِيلٌ مَّقِيمٌ (الحجر ٧٦)**، وقال: **وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَ بِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ (الصفات ١٣٨)**.

و يؤيد العدول من سياق التكلم الى الغيبه فى قوله: **«مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ»** فكأنه تعالى عدل عن مثل قولنا: مسومه عندنا، الى هذا التعبير ليتعرض لقومه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالتهديد أو بإنهاء الحديث الى حسهم ليكون أقوى تأثيراً فى الحجاج عليهم.

و ربما احتمال أن المراد تهديد مطلق الظالمين و المراد انه ليست الحجارة اى إظهارها من عند الله تعالى من معشر الظالمين و منهم قوم لوط الظالمون ببعيد، و يكون وجه الالتفات فى قوله: **«عِنْدَ رَبِّكَ»** ايضا التعريض لقوم النبي الظالمين المشركين **(١)(٢)**.

[سوره هود (١١): الآيات ٨٤ الى ٩٥]

اشاره

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا الْمُدَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْمَآرِضِ مُمْسِكِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصِلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسِينًا وَ مَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتِطَعْتُ وَ مَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَ مَا قَوْمِ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَ إِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَ لَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَّ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ لَجَائِمِينَ (٩٤) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ (٩٥)

ص: ١٩٠

١- ١). بحث روائى حول قصه لوط عليه السلام و قومه.

٢- ٢). هود ٧٧-٨٣: كلام فى قصه لوط و قومه فى فصول (قصته و قصه قومه فى القرآن، عاقبه امرهم، شخصيه لوط المعنويه، لوط و قومه فى التوراه).

قوله تعالى: وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ عطف على ما تقدمه من قصص الأنبياء و أممهم، و مدين اسم مدينه كان يسكنها قوم شعيب ففي نسبه إرسال شعيب الى مدين و كان مرسلا الى أهله نوع من المجاز في الإسناد كقولنا: جرى الميزاب، و في عد شعيب عليه السلام أخوا لهم دلالة على أنه كان ينتسب اليهم.

و قوله: قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ تقدم تفسيره في نظائره.

و قوله: «وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ» المكيال و الميزان اسما آله بمعنى ما يكال به و ما يوزن به، و لا يوصفان بالنقص و إنما يوصف بالنقص كالزيادة و المساواه المكيل و الموزون فنسبه النقص الى المكيال و الميزان من المجاز العقلي.

و في تخصيص نقص المكيال و الميزان من بين معاصيهم بالذكر دلالة على شيوعه بينهم و إقبالهم عليه و إفراطهم فيه بحيث ظهر فساده و بان سيئ أثره فأوجب ذلك شده اهتمام به من داعي الحق فدعاهم الى تركه بتخصيصه بالذكر من بين المعاصي.

و قوله: إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بَخِيلٍ أَيُّ أَشَاهِدِكُمْ فِي خَيْرٍ، و هو ما أنعم الله تعالى عليكم من المال و سعه الرزق و الرخص و الخصب فلا حاجة لكم الى نقص المكيال و الميزان، و اختلاس اليسير من اشياء الناس طمعا في ذلك من غير سبيله المشروع و ظلما و عتوا، و على هذا فقوله: إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بَخِيلٍ تَعْلِيلٌ لِقَوْلِهِ: وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ.

و يمكن تعميم الخير بأن يراد به أنكم مشمولون لعنايه الله معنيون بنعمه آتاكم عقلا و رشدا و رزقكم رزقا فلا مسوغ لأن تعبدوا الآلهه من دونه و تشركوها به غيره، و أن تفسدوا في الأرض بنقص المكيال و الميزان، و على هذا يكون تعليلا- لما تقدمه من الجملتين أعنى قوله: «اعْبُدُوا اللَّهَ» الخ؛ و قوله: «وَلَا تَنْقُصُوا» الخ؛ كما أن قوله: «وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ» كذلك.

فمحصل قوله: إِنِّي أَرَاكُمْ إلى آخر الآيه أن هناك رادعين يجب أن يردعاكم عن معصيه الله: أحدهما: أنكم في خير و لا حاجه لكم إلى بخرس أموال الناس من غير سبيل حلها. و ثانيهما: أن وراء مخالفه امر الله يوما محيطا يخاف عذابه.

و ليس من البعيد أن يراد بقوله: «إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ» أنى أراكم برؤيه خير أى انظر اليكم نظر الناصح المشفق الذى لا- يصاحب نظره إلا الخير و لا يريد بكم غير السعاده، و على هذا يكون قوله: «وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ» كعطف التفسير النسبه اليه.

و قوله: وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ يشير به الى يوم القيامة او يوم نزول عذاب الاستئصال و معنى كون اليوم- هو يوم القضاء بالعذاب- محيطا أنه لا- مخرج منه و لا- مفر و لا- ملاذ من دون الله فلا يدفع فيه ناصر و لا معين، و لا ينفع فيه توبه و لا شفاعه، و يتول معنى الإحاطه الى كون العذاب قطعيا لا مناص منه، و معنى الآيه أن للكفر و الفسوق عذابا غير مردود أخاف أن يصيبكم ذلك.

قوله تعالى: وَ يَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ الخ؛ الإيفاء إعطاء الحق بتمامه و البخرس النقص كمر القول فى المكيال و الميزان بالأخذ بالتفصيل بعد الإجمال مبالغه فى الاهتمام أمر لا غنى لمجتمعهم عنه، و ذلك أنه دعاهم اولاً- الى الصلاح بالنهى عن نقص المكيال و الميزان، و عاد ثانيا فأمر بايفاء المكيال و الميزان و نهى عن بخرس الناس اشياءهم إشاره الى أن مجرد التحرز عن نقص

المكيال و الميزان لا- يكفى فى إعطاء هذا الأمر حقه- وإنما نهى عنه اولا لتكون معرفه إجماليه هى كالمقدمه لمعرفه التكليف تفصيلا- بل يجب أن يوفى الكائل و الموازن مكياله و ميزانه و يعطياهما حقهما و لا يخسا و لا ينقصا الأشياء المنسوبه الى الناس بالمعامله حتى يعلما انها اديا الى الناس اشياءهم و ردا اليهم ما لهم على ما هو عليه.

و قوله: **وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** قال الراغب: العيث و العثى يتقاربان نحو جذب و جذب إلا ان العيث اكثر ما يقال فى الفساد الذى يدرك حسا و العثى فيما يدرك حكما يقال: عثى يعنى عثيا، و على هذا **«وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ»** و عثا يعثو عثوا. انتهى.

و على هذا فقوله: **مُفْسِدِينَ** حال من ضمير **«لَا تَعْتُوا»** لإفاده التأكيد نظير ما يفيد قولنا: لا تفسدوا إفسادا.

و الجمله اعنى قوله: **وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** نهى مستأنف عن الفساد فى الارض من قتل او جرح او أى ظلم مالى او جاهى او عرضى لكن لا يبعد ان يستفاد من السياق كون الجمله عطفًا تفسيرا للنهى السابق فيكون نهيا تأكيدا عن التطفيف و نقص المكيال و الميزان لأنه من الفساد فى الأرض.

قوله تعالى: **بَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ** **وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ** البقيه بمعنى الباقي و المراد به الربح الحاصل للبائع و هو الذى يبقى له بعد تمام المعامله فيضعه فى سبيل حوائجه، و ذلك ان المبادله و إن لم يوضع بالقصد الأول على أساس الاسترباح، و إنما كان الواحد منهم يقتنى شيئا من متاع الحياه، فإذا كان يزيد على ما يحتاج اليه بَدَل الزائد المستغنى عنه من متاع آخر يحتاج اليه و لا يملكه ثم اخذت نفس التجاره و تبديل الأمتعه من الأثمان حرفه يكتسب بها المال و يقتنى بها الثروه فأخذ الواحد منهم متاعا من نوع واحد او انواع شتى و عرضه على أرباب الحاجه للمبادله، و أضاف الى

رأس ماله فيه شيئاً من الربح بإزاء عمله في الجمع و العرض و رضى بذلك الناس المشترون لما فيه من تسهيل امر المبادله عليهم فللتاجر في تجارته ربح مشروع يرتضيه المجتمع بحسب فطرتهم يقوّم معيشته و يحوّل اليه ثروه يقتنيها و يقيم بها صلب حياته.

فالمراد أن الربح الذى هو بقيه إلهيه هداكم الله اليه من طريق فطرتكم هو خير لكم من المال الذى تقتنونه من طريق التطفيف و نقص المكيال و الميزان و إن كنتم مؤمنين فإن المؤمن إنما ينتفع من المال بالمشروع الذى ساقه الله اليه من طريق حله، و أما غير ذلك مما لا يرتضيه الله و لا يرتضيه الناس بحسب فطرتهم فلا خير له فيه و لا حاجه له اليه.

و قوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ أَى و ما يرجع الى قدرتى شىء مما عندكم من نفس او عمل او طاعه او رزق و نعمه فإنما انا رسول ليس عليه إلاّ البلاغ، لكم ان تختاروا ما فيه رشدكم و خيركم او تسقطوا فى مهبط الهلكه من غير ان اقدر على جلب خير اليكم او دفع شر منكم فهو كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (الأنعام ١٠٤).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصِلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ رَدّ منهم لحجه شعيب عليه، و هو من أطف التركيب، و مغزى مرادهم أننا فى حربه فيما نختاره لأنفسنا من دين او نتصرف به فى اموالنا من وجوه التصرف و لست تملكنا حتى تأمرنا بكل ما أحببت او تنهاننا عن كل ما كرهت فإن ساءك شىء مما تشاهد منا بما تصلّى و تتقرب الى ربك و أردت ان تأمر و تنهى فلا تتعدّ نفسك لأنك لا تملك إلاّ إياها.

و قد أدوا مرادهم هذا فى صوره بديعه مشوبه بالتهكم و اللوم معا و مسبوكه فى قالب الاستفهام الإنكارى و هو ان الذى تريده منا من ترك عباده الأصنام، و ترك ما شئنا من التصرف فى اموالنا هو الذى بعثتك اليه صلاتك و شوته فى عينك فأمرتك به لما انها ملكتك لكنك اردت منا ما ارادته منك صلاتك و لست تملكنا انت و لا صلاتك لأننا احرار فى

شعورنا و إرادتنا لنا ان نختار اى دين شئنا و نتصرف فى اموالنا اى تصرف اردنا من غير حجر و لا منع و لم نتحل إلا ديننا الذى هو دين آباءنا و لم نتصرف إلا فى اموالنا و لا حجر على ذى مال فى ماله.

فما معنى ان تأمرک إياک صلاتک بشىء و نكون نحن الممثلون لما امرتک به؟ و بعبارة أخرى ما معنى ان تأمرک صلاتک بفعلنا القائم بنا دونک؟ فهل هذا إلا سفها من الرأى؟ و إنک لأنت الحلیم الرشید و الحلیم لا یعجل فى زجر من یراه مسینا و انتقام من یراه مجرما حتى ینجلی له وجه الصواب، و الرشید لا یقدم على امر فيه غی و ضلال فکیف اقدمت على مثل هذا الأمر السفهى الذى لا صورہ له إلا الجهاله و الغی؟

قوله تعالى: **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسِينًا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛** المراد بكونه على بينة من ربه كونه على آية بينة و هى آية النبوه و المعجزه الداله على صدق النبى فى دعوى النبوه، و المراد بكونه رزق من الله رزقا حسنا أن الله آتاه من لدنه وحى النبوه المشتمل على أصول المعارف و الشرائع، و قد مرّ توضیح نظیر هاتین الكلمتين فيما تقدم.

و المعنى: أخبرونى إن كنت رسولا من الله اليكم و خصّنى بوحي المعارف و الشرائع و أريدنى بآية بينة يدل على صدق دعواى فهل أنا سفیه فى رأى؟ و هل ما أدعوكم اليه دعوه سفهيه؟ و هل فى ذلك تحكّم منى عليكم او سلب منى لحریتکم؟ فإنما هو الله المالك لكل شىء و لستم أحرار بالنسبه اليه بل انتم عباده يأمرکم بما شاء، و له الحكم و اليه ترجعون.

و قوله: **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُمُ عَنْهُ** تعديده المخالفه بالى لتضمينه معنى ما يتعدى بها كالميل و نحوه؟ و التقدير: أخالفكم ماثلا الى ما أنهاكم عنه او أميل الى ما أنهاكم عنه مخالفا لكم.

و الجملة جواب عن ما اتهموه به أنه يريد أن يسلب عنهم الحريه فى أعمالهم

و يستعبدهم و يتحكم عليهم، و محصّيه أنه لو كان مريداً ذلك لخالفهم فيما ينهاهم عنه، و هو لا يريد مخالفتهم فلا يريد ما اتّهموه به و إنما يريد الإصلاح ما استطاع (١).

و قوله: **وَ مَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** في مقام الاستثناء من الاستطاعه فإنه عليه السّلام لما ذكر لهم انه يريد إصلاح مجتمعهم بالعلم النافع و العمل الصالح على مقدار ماله من الاستطاعه و في ضوئها أثبت لنفسه استطاعه و قدره و ليست للعبد باستقلاله و حيال نفسه استطاعه دون الله سبحانه أتم ما في كلامه من النقص و القصور بقوله:

«وَ مَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ» أى إن الذى يترشح من إرادتى باستطاعه منى من تدبير أمور مجتمعكم و توفيق الأسباب بعضها ببعض الناتجه لسعادته إنما هو بالله سبحانه لا غنى عنه و لا مخرج من إحاطته و لا استقلال فى امر دونه فهو الذى اعطانى ما هو عندى من الاستطاعه، و هو الذى يوفق الأسباب من طريق استطاعتي فاستطاعتي منه و توفيقى به (٢)(٣).

قوله تعالى: **وَ يَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ** الجرم بالفتح فالسكون-على ما ذكره الراغب-قطع الثمره عن الشجر و قد استعير لكل اكتساب مكروه، و الشقاق المخالفه و المعاداه. و المعنى: احذروا أن يكتسب لكم مخالفتى و معاداتى بسبب ما أدعوكم اليه إصابه مصيبه مثل مصيبه قوم نوح و هى الغرق او قوم هود و هى الريح العقيم او قوم صالح و هى الصيحه و الرجفه.

و قوله: **وَ مَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بَبَعِيدٍ** أى لا فصل كثيرا بين زمانهم و زمانكم و قد كانت الفاصله الزمانيه بين القومين أقل من ثلاثه قرون، و قد كان لوط معاصراً لإبراهيم عليهما السلام

ص: ١٩٧

١-١. هود ٧٤-٩٥: كلام فى حكمه احكام الله.

٢-٢. هود ٨٤-٩٥: كلام فى انه تعالى و كيل كل شىء.

٣-٣. هود ٨٤-٩٥: كلام فى معنى حريه الانسان فى عمله.

و شعيب معاصرا لموسى عليهما السلام.

وقيل: المراد به نفى البعد المكاني، والإشارة الى أن بلادهم الخربه قريبه منكم لقرب مدين من سدوم و هو بالأرض المقدسه، فالمعنى: و ما كان قوم لوط منكم بعيد تشاهدون مدائنهم المخسوفه و آثارهم الباقية الظاهره. و السياق لا يساعد عليه و التقدير خلاف الأصل لا يصار اليه إلا بدليل.

قوله تعالى: «وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ» قد تقدم الكلام فى معنى قوله: «وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» اى استغفروا الله من ذنوبكم و ارجعوا اليه الإيمان به و برسوله إن الله ذو رحمة و موده يرحم المستغفرين التائبين و يحبهم.

و قد قال أولا- «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ» فأضاف الرب اليهم ثم قال فى مقام تعليله «إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ» و لعل الوجه فيه أنه ذكر فى مرحله الأمر بالاستغفار و التوبه من الله سبحانه صفه ربوبيته لأنها الصفه التى ترتبط بها العباده و منها الاستغفار و التوبه، و أضاف ربوبيته اليهم بقوله: «رَبَّكُمْ» لتأكيد الارتباط و للإشعار بأنه هو ربهم لا ما يتخذونها من الارباب من دون الله.

و كان من حق الكلام ان يقول فى تعليله: إن ربكم رحيم وودود لكنه لما كان مع كونه تعليلا ثناء على الله سبحانه، و قد أثبت سابقا انه رب القوم أضافه ثانيا الى نفسه ليفيد الكلام بمجموعه معنى إن ربكم و ربي رحيم وودود.

على ان فى هذه الإضافة معنى المعرفه و الخبره فتفيد تأييدا لصحة القول فإنه فى معنى انه تعالى رحيم وودود و كيف لا؟ و هو ربي أعرفه بهذين الوصفين.

و الودود من أسماء الله تعالى، و هو فعول من الود بمعنى الحب إلا ان المستفاد من موارد استعماله انه نوع خاص من المحبه و هو الحب الذى له آثار و تبعات ظاهره كالالفه و المراوده و الإحسان، قال تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا»

إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً (الروم ٢١).

و الله سبحانه يحب عباده و يظهر آثار حبه بإفاضه نعمه عليهم: وَ إِنْ تَعِيدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُخْصُوهَا (إبراهيم ٣٤) فهو تعالى ودود لهم.

قوله تعالى: قَالَ لَوْ لِي شُعَيْبٌ مَّا نَفَقْتُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَ إِذَا لَرَّاكَ فِينَا ضَعِيفًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الفقه أبلغ من الفهم و أقوى، و رهط الرجل عشيرته و قومه، و قيل:

إنه من الثلاثة إلى السبعة أو العشرة و على هذا ففي قولهم: رهطك، إشاره إلى قلتهم و هو ان امرهم، و الرجم هو الرمي بالحجارة.

لما حاجهم شعيب عليه السلام و أعياهم بحجته لم يجدوا سبيلا دون ان يقطعوا عليه كلامه من غير طريق الحجج فذكروا له:

أولاً: ان كثيرا مما يقوله غير مفهوم لهم فيذهب كلامه لغى لا أثر له، و هذا كناية عن أنه يتكلم بما لا فائده فيه.

ثم عقبه بقولهم: «وَ إِذَا لَرَّاكَ فِينَا ضَعِيفًا» أى لا- نفهم ما تقول و لست قويا فينا حتى تضطرنا قوتك على الاجتهاد فى فهم كلامك و الاهتمام بأخذه، و السمع و القبول له فإننا لا نراك فينا إلا ضعيفا لا يعبا بأمره و لا يلتفت الى قوله.

ثم هددوه بقولهم: «وَ لَوْ لَأَ رَهْطُكَ لَرَجْمْنَاكَ» أى و لو لا هذا النفر القليل الذين هم عشيرتك لرجمناك لكننا نراعى جانبهم فيك، و فى تقليل العشيره إيماء الى أنهم لو أرادوا قتله يوما قتلوه من غير ان يبالوا بعشيرته، و إما كفهم عن قتله نوع احترام و تكريم منهم لعشيرته.

ثم عقبوه بقولهم: «وَ مَّا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ» تأكيداً لقولهم: «لَوْ لَأَ رَهْطُكَ لَرَجْمْنَاكَ» أى لست بقوى منيع جانبا علينا حتى يمنعنا ذلك من قتلك بشر القتلى، و إنما يمنعنا رعايه جانب رهطك. فمحصل قولهم إهانته شعيب و أنهم لا يعبتون به و لا بما قال، و إنما يراعون فى ترك

التعرض له جانب رهطه.

قوله تعالى: **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا الظهري** نسبة الى الظهر بفتح الظاء المعجمه و إنما غير بالنسب و هو الشيء الذى وراء الظهر فيترك نسيا منسيا يقال: اتخذه وراء ظهرياً اي نسيه و لم ذكره و لم يعتن به.

و هذا نقض من شعيب لقولهم: **وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ** اي كيف تعززون رهطى و تحترمون جانبهم، و لا تعززون الله سبحانه و لا تحترمون جانبه و انى انا الذى ادعوكم اليه من جانبه؟ فهل رهطى اعز عليكم من الله؟ و قد جعلتموه نسيا منسيا و ليس لكم ذلك و ما كان لكم ان تفعلوه ان ربي بما تعملون محيط بما له من الإحاطه بكل شىء و جودا و علما و قدره. و فى الآيه طعن فى رأيهم بالسفه كما طعنوا فى الآيه السابقه فى رأيه بالهوان.

قوله تعالى: **وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَانَتِكُمْ** **إِنِّي عَامِلٌ** الى آخر الآيه؛ قال فى المجمع: المكانه الحال التى يتمكن بها صاحبها من عمل. انتهى و هو فى الأصل. كما قيل -من مكن مكانه كضخم ضخمه إذا قوى على العمل كل القوه و يقال- تمكن من كذا أى أحاط به قوه.

و هذا تهديد من شعيب لهم أشد التهديد فإنه يشعر بانه على وثوق مما يقول لا يأخذه قلق و لا اضطراب من كفرهم به و تمردهم عن دعوته فليعملوا على ما لهم من القوه و التمكن فلهم عملهم و له عمله فسوق يفاجئهم عذاب مخز يعلمون عند ذلك من هو الذى يأخذه العذاب. و هو أو هو؟ و يعلمون من هو كاذب؟ فليرتقبوا و هو معهم رقيب لا يفارقهم.

قوله تعالى: **وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا** -الى قوله- **جَائِمِينَ** تقدم ما يتضح به معنى الآيه.

قوله تعالى: **كَأَنَّ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا** **أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ** **كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ غَنَى فِي الْمَكَانِ** إذا أقام فيه. و قوله: **«أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ»** الخ؛ فيه لعنهم كما لعنت ثمود، و قد تقدم بعض

الكلام فيه فى القصص السابقه (١).

[سوره هود (١١): الآيات ٩٦ الى ٩٩]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَتَّقِدُمْ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بِنَسِ الْوَرْدِ الْمَمُورُودُ (٩٨) وَ أَنْبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَهُ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِنَسِ الرَّفْدِ الْمَرْفُودُ (٩٩)

بيان:

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ الباء فى قوله:

«بِآيَاتِنَا» للمصاحبه اى و لقد ارسلنا موسى مصحوبا لآياتنا و ذلك أن الذين بعثهم الله من الأنبياء و الرسل و أيدهم بالآيات المعجزه طائفتان منهم من أوتى الآيه المعجزه على حسب ما اقترحه قومه كصالح عليه السّلام المؤيد بآيه الناقه، و طائفه أيّدوا بآيه من الآيات فى بدء بعثتهم كموسى و عيسى و محمّد عليهم السّلام، كما قال تعالى خطابا لموسى عليه السّلام: إِذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآيَاتِنَا (طه ٤٢)، و قال فى عيسى عليه السّلام: وَ رَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ الْخ (آل عمران ٤٩)، و قال فى محمّد صلّى الله عليه و آله و سلم: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ (الصف ٩)، و الهدى القرآن بدليل قوله: ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى

ص: ٢٠١

١- ١). هود ٨٤-٩٥: كلام فى قصه شعيب و قومه فى القرآن فى فصول (هو عليه السّلام ثالث المرسل، شخصيته المعنويه، ذكره فى التوراه).

لِلْمُتَّقِينَ (البقره ٢/٢)، و قال تعالى: وَ اتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ (الأعراف ١٥٧/١).

فموسى عليه السّلام مرسل مع آيات و سلطان مبین، و ظاهر أن المراد بهذه الآيات الامور الخارقه التي كانت تجرى على يده، و يدل على ذلك سياق قصصه عليه السّلام فى القرآن الكريم.

و أما السلطان و هو البرهان و الحججه القاطعه التي يتسلط على العقول و الافهام فيعمّ الآيه المعجزه و الحججه العقليه، و على تقدير كونه بهذا المعنى يكون عطفه على الآيات من قبيل عطف العامّ على الخاصّ.

و ليس من البعيد أن يكون المراد بإرساله بسلطان مبین أن الله سبحانه سلطه على الأوضاع الجاربه بينه و بين آل فرعون ذاك الجبار الطاغى الذى ما ابتلى بمثله أحد من الرسل غير موسى عليه السّلام لكنّ الله تعالى أظهر موسى عليه حتى أغرقه و جنوده و نجى بنى اسرائيل بيده، و يشعر بهذا المعنى قوله: قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَ أَرَى (طه ١٤٦/١)، و قوله لموسى عليه السّلام: لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (طه ٦٨/١).

و فى هذه الآيه و نظائرها دلالة واضحة على أن رساله موسى عليه السّلام ما كانت تختصّ بقومه من بنى اسرائيل بل كانت تعمّهم و غيرهم.

قوله تعالى: إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ نَسَبَهُ رسالته الى فرعون و ملاه-و الملاء هم اشراف القوم و عظماءهم الذين يملئون القلوب هيبه-دون جميع قومه لعلها للإشاره الى أن عامتهم لم يكونوا إلا أتباعا لا رأى لهم إلا ما رآه لهم عظماءهم.

و قوله: فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ الخ؛ الظاهر أن المراد بالأمر ما هو الأعمّ من القول و الفعل كما حكى الله عن فرعون فى قوله: قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَ مَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (المؤمن ٢٩/٢٩)، فينطبق على السّنه و الطريقه التي كان يتخذها و يأمر

بها. و كأن الآيه محاذاه لقول فرعون هذا فكذبه الله تعالى بقوله: «وَ مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ» .

و الرشيد فعيل من الرشد خلاف الغي اي و ما أمر فرعون بنى رشد حتى يهدى الى الحق بل كان ذا غي و جهاله، و قيل: الرشيد بمعنى المرشد.

و فى الجملة أعنى قوله: «وَ مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ» وضع الظاهر موضع المضمرة و الأصل «أمره» و لعل الفائدة فيه ما يفيد اسم فرعون من الدليل على عدم رشد الأمر و لا يستفاد ذلك من الضمير البته.

قوله تعالى: يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بَشِّرِ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ أى يقدم فرعون قومه فإنهم اتبعوا أمره فكان إماما لهم من أئمة الضلال، قال تعالى: وَ جَعَلْنَا هُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ (القصص ٤١).

قوله: فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ تفریع على سابقه أى يقدمهم فيوردهم النار، و التعبير بلفظ الماضى لتحقق الوقوع، و ربما قيل: تفریع على قوله: «فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ» أى اتبعوه فأوردتهم النار، و قد استدلت لتأييد هذا المعنى بقوله: وَ حَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَ عَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (المؤمن ٤٦) حيث تدل الآيات على تعذيبهم من حين الموت قبل يوم القيامة هذا، و لا يخفى ان الآيات ظاهره فى خلاف ما استدلت بها عليه لتعبيرها فى العذاب قبل يوم القيامة بالعرض غدوًا و عشيا، و فى يوم القيامة بالدخول فى أشد العذاب الذى سجل فيها أنه النار.

و قوله: وَ بَشِّرِ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ الورد هو الماء الذى يرده العطاش من الحيوان و الإنسان للشرب، قال الراغب فى المفردات: الورد أصله قصد الماء ثم يستعمل فى غيره يقال: وردت الماء أرد و رودا فأنا وارد و الماء مورود. و قد أوردت الإبل الماء قال «وَ لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ» و الورد الماء المرشح للورود. انتهى.

و على هذا ففى الكلام استعاره لطيفه بتشبيه الغايه التى يقصدها الإنسان فى الحياه لمساعيه المبذوله بالماء الذى يقصده العطشان فعذب السعاده التى يقصدها الإنسان بأعماله ورد يرد، و سعاده الإنسان الأخيره هى رضوان الله و الجنه و لكنهم لما غووا باتباع أمر فرعون و أخطئوا سبيل السعاده الحقيقه تبدلت غايتهم الى النار فكانت النار هو الورد الذى يردونه، و بس الورد المورد، لأن الورد هو الذى يخمد لهيب الصدر و يروى الحشا العطشان و هو عذب الماء و نعم المنهل السائغ و أما إذا تبدل الى عذاب النار فبس الورد المورد.

قوله تعالى: وَ أَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَهُ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ أى هم اتبعوا أمر فرعون فاتبعتهم لعنه من الله فى هذه الدنيا و إبعاد من رحمته و طرد من ساحه قربه، و مصداق اللعن الذى أتبعوه هو الغرق، أو أنه الحكم منه تعالى بإبعادهم من الرحمه المكتوب فى صحائف أعمالهم الذى من آثاره الغرق و عذاب الآخره.

و قوله: وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ الرفد هو العطيه و الأصل فى معناه العون، و سميت العطيه رفاً و مرفوداً لأنه عون للآخذ على حوائجه، و المعنى و بس الرفد رفاً يوم القيامة و هو النار التى يسجرون فيها، و الآيه نظيره قوله فى موضع آخر:

وَ أَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَهُ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (القصص ٤٢).

و ربما أخذ «يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ظرفاً فالآيه متعلقاً بقوله: «أَتَّبِعُوا» أو بقوله: «لَعْنَهُ» نظير قوله: «فِي هَذِهِ»، و المعنى: و أتبعهم الله فى الدنيا و الآخره لعنه أو فاتبعهم الله لعنه الدنيا و الآخره ثم استؤنف فقيل: بس الرفد المرفود اللعن الذى أتبعوه أو الاتباع باللعن.

[سوره هود (١١): الآيات ١٠٠ الى ١٠٨]

إشارة

ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ نَقَضَهُ عَلَيْكَ مِنْهَا فَأَتَمَّ وَ حَصَيْدُ (١٠٠) وَ مَا ظَلَمْنَا هُمْ وَ لَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ مَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَ كَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَ هِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (١٠٣) وَ مَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ شَهيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَ أَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ (١٠٨)

قوله تعالى: ذَلِكُمْ مِنَ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ الإِشَارَةُ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْقِصَصِ، وَ مِنْ تَبْعِيضِيهِ أَي الَّذِي قِصَصْنَاهُ عَلَيْكَ هُوَ بَعْضُ أَخْبَارِ الْمَدَائِنِ وَالْبِلَادِ أَوْ أَهْلِهِمْ نَقَصَهُ عَلَيْكَ.

و قوله: مِنْهَا قَائِمٌ وَ حَصِيدٌ الحَصِيدُ قَطْعُ الزَّرْعِ، شَبَّهَهَا بِالزَّرْعِ يَكُونُ قَائِمًا وَ يَكُونُ حَصِيدًا، وَ الْمَعْنَى إِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْقُرَى نَفْسَهَا أَنَّ مِنَ الْقُرَى الَّتِي قِصَصْنَا أَنْبَاءَهَا عَلَيْكَ مَا هُوَ

قائم لم تذهب بقايا آثارها التي تدلّ عليها بالمره كقرى قوم لوط حين نزول قصيتهم في القرآن كما قال: **وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** (العنكبوت ٣٥) وقال:

وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (الصفات ١٣٨)، و منها ما انمحت آثاره و انطمست أعلامه كقرى قوم نوح و عاد.

و إن كان المراد بالقرى أهلها فالمعنى أنّ من تلك الامم و الأجيال من هو قائم لم يقطع دابرهم البتّه كأمه نوح و صالح، و منها من قطع الله دابرهم كقوم لوط لم ينج منهم إلا أهل بيت لوط و لم يكن لوط منهم.

قوله تعالى: **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ** الى آخر الآية؛ أى ما ظلمناهم فى إنزال العذاب عليهم و إهلاكهم إثر شركهم و فسوقهم و لكن ظلموا أنفسهم حين أشركوا و خرجوا عن زى العبوديّة، و كلما كان عمل و عقوبه عليه كان أحدهما ظلما إما العمل و إما العقوبه عليه فإذا لم تكن العقوبه ظلما كان الظلم هو العمل استتبع العقوبه.

فمحصّل القول أنّا عاقبناهم ظلمهم و لذا عقبه بقوله: **«فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ»** الخ؛ لأن محصّل النظم أخذناهم فما أغنت عنهم آلِهتهم، فالمفترّع عليه هو الذى يدل عليه قوله:

«وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ» الخ؛ و المعنى أخذناهم فلم يكفهم فى ذلك آلِهتهم التى كانوا يدعونها من دون الله لتجلب اليهم الخير و تدفع عنهم الشر، و لم تغنهم شيئا لما جاء أمر ربك و حكمه بأخذهم أو لما جاء عذاب ربك.

و قوله: **«وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبِ التَّتِيبِ التَّدْمِيرِ وَالإِهْلَاكِ مِنَ التَّبِّ وَأَصْلِهِ الْقَطْعُ** لأن عبادتهم الأصنام كان ذنبا مقتضيا لعذابهم و لما أحسوا بالعذاب و البؤس فالتجئوا الى الأصنام و دعوا لكشفه و دعاؤها ذنب آخر زاد ذلك فى تشديد العذاب عليهم و تغليظ العقاب لهم فما زادوهم غير هلاك.

و نسبة التتبيب الى آلِهتهم مجاز و هو منسوب فى الحقيقة الى دعائهم إيها، و هو عمل

قائم الحقيقه بالداعى لا بالمدعو.

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ الإِشَارَةُ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى، وَذَلِكَ بَعْضُ مُصَادِقِ أَخْذِهِ تَعَالَى بِالْعُقُوبَةِ قَاسٍ بِهِ مُطْلَقٌ أَخْذَهُ الْقُرَى فِي أَنَّهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ، وَهَذَا مِنْ قَبِيلِ التَّشْبِيهِ الْكُلِّيِّ بِبَعْضِ مُصَادِقِهِ فِي الْحُكْمِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ عَامٌ شَامِلٌ لِجَمِيعِ الْأَفْرَادِ وَهُوَ نَوْعٌ مِنْ فَنِّ التَّشْبِيهِ شَائِعٌ وَقَوْلُهُ: «إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ» بَيَانٌ لَوْجِهِ الشَّبَهُ وَهُوَ الْأَلَمُ وَالشَّدَّةُ.

والمعنى كما أخذ الله سبحانه هؤلاء الأئمة الظالمه: قوم نوح و هود و صالح و لوط و شعيب و قوم فرعون أخذوا أليما شديدا، كذلك يأخذ سائر القرى الظالمه إذا أخذها فليعتبر بذلك المعترفون.

قوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَمَآيَةٌ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الإِشَارَةُ إِلَى مَا أَنْبَأَهُ اللَّهُ مِنْ قِصَصِ تِلْكَ الْقُرَى الظالمه التي أخذها بظلمها أخذوا أليما شديدا.

و أنبأ أن أخذه كذلك يكون، و في ذلك آية لمن خاف عذاب الآخرة، و علامه تدل على أن الله سبحانه و تعالى سيأخذ في الآخرة المجرمين بإجرامهم، و إن أخذه سيكون أليما شديدا فيوجب اعتباره بذلك و تحرزه ممّا يستتبع سخط الله تعالى.

و قوله: ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ أَي ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ عَذَابُ الْآخِرَةِ يَوْمَ مَجْمُوعٍ لَهُ النَّاسُ فَالإِشَارَةُ إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ ذِكْرُ عَذَابِ الْآخِرَةِ، «و لَذَلِكَ أَتَى بِلَفْظِ الْمَذْكُورِ» كَمَا قِيلَ، وَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ تَذْكَيرُ الإِشَارَةِ لِيَطَابِقَ الْمَبْتَدَأُ الْخَبِيرَ.

و وصف اليوم الآخر بأنه مجموع له الناس دون ان يقال: سيجمع أو يجمع له الناس إنما هو للدلالة على أن جمع الناس له من أوصافه المقضية له التي تلزمه و لا تفارقه من غير أن يحتاج الى الإخبار عنه بخبر.

فمشخص هذا اليوم أن الناس مجموعون لأجله-و اللام للغايه-فليوم شأن من الشأن

لا- يتم إلا- بجمع الناس بحيث لا- يغادر منهم أحد و لا- يتخلف عنه متخلف: و للناس شأن من الشأن يرتبط به كل واحد منهم بالجميع، و يمتزج فيه الأول مع الآخر و الآخر مع الأول و يختلط فيه الكل بالبعض و البعض بالكل، و هو حساب أعمالهم من جهة الإيمان و الكفر و الطاعة و المعصية، و بالجملة من حيث السعادة و الشقاوه.

و قوله: وَ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ كالمترفع بظاهره على الجملة السابقة «ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ» إذ الجمع يوجب المشاهده غير أن اللفظ غير مقيد بالناس و إطلاقه يشعر بأنه مشهود لكل من له أن يشهد كالناس و الملائكة و الجن، و الآيات الكثيره الداله على حشر الجن و الشياطين و حضور الملائكة هناك يؤيد إطلاق الشهاده كما ذكر.

قوله تعالى: وَ مَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعِيْنٍ أَي أَن لَدُنْكَ الْيَوْمِ أَجَلًا قَضَى اللَّهُ أَن لَا يَقَعُ قَبْلَ حُلُولِ أَجَلِهِ وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ وَ لَا رَادَّ لِقَضَائِهِ، و لا يؤخر اليوم إلا لأجل يعده فإذا تم العدد و حل الأجل حق القول و وقع اليوم.

قوله تعالى: يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فاعل «يَأْتِ» ضمير راجع الى الأجل السابق الذكر أى يوم يأتى الأجل الذى تؤخر القيامه اليه لا تتكلم نفس إلا بإذنه، قال تعالى: مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ (العنكبوت ٥).

و ذكر بعضهم كما فى المجمع أن المعنى يوم يأتى القيامه و الجزاء، و لازمه إرجاع الضمير الى القيامه و الجزاء لدلاله سابق الكلام اليه بوجه، و هو تكلف لا حاجه اليه.

و ذكر آخرون- كما فى تفسير صاحب المنار- أن المعنى فى الوقت الذى يجىء فيه ذلك اليوم المعين لا تتكلم نفس من الأنفس الناطقه إلا- بإذن الله تعالى فالمراد باليوم فى الآيه مطلق الوقت أى غير المحدود لأنه ظرف لليوم المحدود الموصوف بما ذكر الذى هو فاعل يأتى.

و هو خطأ لاستلزامه ظرفيه اليوم لليوم لعود المعنى حقيقه الى قولنا: فى الوقت الذى يجىء فيه ذلك الوقت المعين أو اليوم الذى يجىء فيه ذلك اليوم المعين، و التفرقه بين

اليومين يجعل أحدهما خاصا و معيناً و الآخر عاما و مرسلا لا ينفع فى دفع محذور ظرفيه الشئ ل نفسه و مطروفيه الزمان- و هو ظرف بذاته-لزمان آخر، و هو محال لا ينقلب ممكنا بتغيير اللفظ.

و ما ذكره من التفرقة بين اليومين بالاطلاق و التحديد مجرد تصوير لا تغنى شيئا فان اليوم الذى يأتى فيه ذلك اليوم الموصوف و ذلك اليوم الموصوف متساويان إطلاقا و تحديدا و سعه و ضيقا، نعم ربما يؤخذ الزمان متحدا بما يقع فيه من الحوادث فيصير حادثا من الحوادث و تلغى ظرفيته فيجعل مطروفا لزمان آخر كما يقال يوم الأضحى فى شهر ذى الحجه و يوم عاشوراء فى المحرم، قال تعالى: **وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ** (الجاثية ٢٧) فإن صحت هذه العناية فى الآية أمكن به أن يعود ضمير يأتى الى اليوم.

و قوله: **لَا تَكَلِّمْ نَفْسًا إِلَّا بِإِذْنِهِ** أى لا تتكلم نفس ممن حضر إلا بإذن الله سبحانه، و حذف أحد التاءين المجتمعين فى المستقبل من باب التفعّل شائع قياسى.

و الباء فى قوله: **بِإِذْنِهِ** للمصاحبه فالاستثناء فى الحقيقة من الكلام لا من المتكلم كما فى قوله: **لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ** (النبا ٣٨) و المعنى لا تتكلم نفس بشئ من الكلام إلا بالكلام الذى يصاحب إذنه لا كالدنيا يتكلم فيها الواحد منهم بما اختاره و أراد، أذن فيه الله إذن تشريع أم لم يأذن.

و قد ذكرت الصفة أعنى عدم تكلم نفس إلا بإذنه من خواص يوم القيامة المعرفه له، و ليست بمختصه به فإنه لا تتكلم أى نفس من النفوس و لا يحدث أى حادث من الحوادث دائما إلا بإذنه من غير أن يختص ذلك بيوم القيامة (١).

ص: ٢٠٩

(١-١). هود ١٠٠-١٠٨: بحث فى زوال الستر و الحجاب و ظهور الحقائق يوم القيامة، معنى عدم تكلم الانسان يوم القيامة.

قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ قال في المجمع: الزفير أول نهاق الحمار و الشهيق آخر نهاقه انتهى. و قال في الكشاف: الزفير إخراج النفس و الشهيق رده انتهى. و قال الراغب في المفردات، الزفير تردد النفس حتى ينتفخ الضلوع منه. و قال: الشهيق طول الزفير و هو رده و الزفير مده، قال تعالى «لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ» «سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَ زَفِيرًا» و قال «سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا» و أصله من جبل شاهق أى متناهى الطول. انتهى.

و المعانى - كما ترى - متقاربه و كأن فى الكلام استعاره، و المراد أنهم يردون أنفاسهم الى صدورهم ثم يخرجونها فيمدونها برفع الصوت بالبكاء و الأنين من شدة حر النار و عظم الكربه و المصيبه كما يفعل الحمار ذلك عند نهيقه.

و كان الظاهر من سياق قوله: «فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ» أن يقال بعده: فأما الذى شقى ففى النار له فيها زفير و شهيق، الخ؛ لكن السياق السابق عليه الذى افتتح به وصف يوم القيامة أعنى قوله: «ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ» مبنى على الكثرة و الجماعه، و مقتضاها المضى على هيئه الجمع: الذين شقوا و الذين سعدوا، و إما عبر بقوله: شقى و سعيد لما قيل قبله «لَا تَكَلَّمْ نَفْسٌ» فاختر المفرد المنكر ليفيد النفى بذلك الاستغراق و العموم فلما حصل الغرض بقوله: «لَا تَكَلَّمْ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ» عاد السياق السابق المبني على الكثرة و الجماعه فقيل «فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا» بلفظ الجمع الى آخر الآيات الثلاث.

قوله تعالى: خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ. بيان لمكث أهل النار فيها كما أن الآيه التاليه «وَ أَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَمِنْهُمْ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ» بيان لمكث أهل الجنة فيها و تأييد لاستقرارهم فى ماواهم.

قال الراغب في المفردات: الخلود هو تبرى الشيء من اعتراض الفساد وبقاؤه على حاله التي هو عليها، وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد يصفه العرب بالخلود كقولهم للأثافي (١): خوالد و ذلك لطول مكثها لا لدوام بقائها يقال: خلد يخلد خلوداً، قال تعالى «لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ» و الخلد-بالفتح فالسكون-اسم للجزء الذى يبقى من الانسان على حالته فلا يستحيل ما دام الانسان حيا استحاله سائر اجزائه، و أصل المخلد الذى يبقى مده طويله، و منه قيل: رجل مخلد لمن أبطأ عن الشيب، و دابه مخلده هي التي تبقى ثناياها حتى تخرج رباعيتها ثم استعير للمبقى دائماً.

و الخلود في الجنة بقاء الأشياء على حاله التي عليها من غير اعتراض الفساد عليها قال تعالى: أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا .

و قوله تعالى: يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ قيل: مبقون بحالتهم لا يعترتهم الفساد، و قيل: مقرطون بخلده، و الخلده ضرب من القرطه، و إخلاد الشيء جعله مبقى و الحكم عليه بكونه مبقى، و على هذا قوله سبحانه: «وَ لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ» أى ركن إليها ظانا أنه يخلد فيها. انتهى.

و قوله: مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ نَوْعٍ مِنَ التَّقْيِيدِ يفيد تأكيد الخلود و المعنى دائمين فيها دوام السماوات و الأرض لكن الآيات القرآنية ناصه على أن السماوات و الأرض لا تدوم دوام الأبد و هي مع ذلك ناصه على بقاء الجنة و النار بقاء لا الى فناء و زوال.

و من الآيات الناصه على الأول قوله تعالى: مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُّسَمًّى (الأحقاف ٣)، و قوله: يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ

ص: ٢١١

(١- ١). الأثافي، جمع الأثفيه بضم الهمزة و هي الحجر الذى توضع عليه القدر و هما أثفيتان.

كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا وَإِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (الأنبياء ١٠٤)، و قوله:

و السَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ (الزمر ٦٧)، و قوله: إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُتَّبَثًا (الواقعه ٦).

و منها في النص على الثاني قوله: جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (التغابن ٩)، و قوله: وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (الأحزاب ٦٥) (١)(٢).

[سوره هود (١١): الآيات ١٠٩ الى ١١٩]

اشاره

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصَبَ بَيْنَهُمْ غَيْرَ مَقْصُودٍ (١٠٩) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَيْتُمْ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَ إِن كُلا لِيُؤْفِقِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ مَنْ تَابَ مَعَكَ وَ لَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَ لَا تَزْكُتُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَتَّسِكُمْ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣) وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَ زُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَ إِصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) فَلَوْ لَا كَانَ مِنْ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَ مَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُهَا مُصْرِحُونَ (١١٧) وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)

ص: ٢١٢

١-١). هود ١٠٠-١٠٨: بحث حول الخلود في الآخرة.

٢-٢). هود ١٠٠-١٠٨: بحث روائي في: السعادة و الشقاوة، الخلود في الجنة و النار.

قوله تعالى: فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ السخ؛ تفرّيع لما تقدم من تفصيل قصص الامم الماضيه التي ظلموا أنفسهم باتخاذ الشركاء و الفساد في الأرض فأخذهم الله بالعذاب، و المشار اليهم بقوله: «هَؤُلَاءِ» هم قوم النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و قوله: «مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ» أى إنهم يعبدونها تقليدا كآبائهم فالآخرون يسلكون الطريق الذى سلكه الأولون من غير حجه، و المراد بنصيبيهم ما هو حظهم قبال شركهم و فسقهم.

و قوله: غَيْرَ مَنْقُوصٍ حال من النصيب و فيه تأكيد لقوله: «لَمَوْفُوهُمْ» فإن التوفيه تأديه حق الغير بالتمام و الكمال، و فيه إثناس الكافرين من العفو الإلهى.

و معنى الآية: فإذا سمعت قصص الأولين و أنهم كانوا يعبدون آلهه من دون الله و يكذبون

بآياته، وعلمت سنه الله تعالى فيهم و أنها الهلاك في الدنيا و المصير الى النار الخالده في الآخره لا تكن في شك و مريه من عباده هؤلاء الذين هم قومك ما يعبدون إلا كعباده آبائهم على التقليد من غير حجه و لا بينه، و إنا سنعطيهم ما هو نصيبهم من جزاء أعمالهم من غير أن ننقص من ذلك شيئاً بشفاعه أو عفو كيفما كان.

و يمكن أن يكون المراد بآبائهم، الامم الماضيه الهالكه دون آباء العرب بعد إسماعيل مثلاً و ذلك أن الله سماهم آباء لهم أولين كما في قوله: أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأُولِينَ (المؤمنون ٦٨) و هذا أنسب و أحسن و المعنى -على هذا- فلا- تكن في شك من عباده قومك ما يعبد هؤلاء إلا كمثل عباده أولئك الامم الهالكه الذين هم آباؤهم، و لا شك أنا سنعطيهم حظهم من الجزاء كما فعلنا ذلك بآبائهم.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَيْتَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ لما كانت هذه الآيات مسوقه للاعتبار بالقصص المذكوره في السوره، و كانت القصص نفسها سردت ليتعظ بها القوم و يقضوا بالحق في اتخاذهم شركاء لله سبحانه، و تكذيبهم بآيات الله و رمى القرآن بأنه افتراء على الله تعالى.

تعرض في هذه الآيات-المسوقه للاعتبار- لأمر اتخاذهم الآلهه و تكذيب القرآن فذكر تعالى أن عباده القوم للشركاء كعباده أسلافهم من الامم الماضيه لها و سينالهم العذاب كما نال أسلافهم و أن اختلافهم في كتاب الله كاختلاف أمه موسى عليه السلام فيما آتاه الله من الكتاب و أن سيقضى بينهم فيما اختلفوا فيه، فقوله: «وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ» إشاره الى اختلاف اليهود في التوراه بعد موسى.

و قوله: وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَيْتَ بَيْنَهُمْ كرر سبحانه في كتابه ذكر أن اختلاف الناس في أمر الدنيا أمر فطروا عليها لكن اختلافهم في أمر الدين لا منشأ له إلا

البغى بعد ما جاءهم العلم، قال تعالى: وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا (يونس / ١٩)، وقال: وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ (آل عمران ١٩)، وقال: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ (البقره ٢١٣).

وقوله: وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ الإرباه إلقاء الشك فى القلب، فتوصيف الشك بالمريب من قبيل قوله: «ظَلًّا ظَلِيلًا» و «حِجَابًا مَسْتُورًا» و «حِجْرًا مَحْجُورًا» و غير ذلك، و يفيد تأكيداً لمعنى الشك.

و الظاهر أن مرجع الضمير فى قوله: «وَإِنَّهُمْ» امه موسى و هم اليهود، و حق لهم أن يشكوا فيه فإن سند التوراه الحاضره ينتهى الى ما كتبه لهم رجل من كهنتهم يسمى عزراء عند ما أرادوا أن يرجعوا من بابل بعد انقضاء السبى الى الأرض المقدسه، و قد أحرقت التوراه قبل ذلك بسنين عند إحراق الهيكل فانتهاه سندها الى واحد يوجب الريب فيها طبعاً و نظيرها الإنجيل من جهه سنده.

قوله تعالى: وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا لِيُؤْفِقِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ لفظه إن هى المشبهه بالفعل و اسمها قوله: «كُلًّا» منونا مقطوعاً عن الإضافه و التقدير كلهم أى المختلفين، و خبرها قوله: «لِيُؤْفِقِيَهُمْ» و اللام و النون لتأكيد الخبر، و قوله: «لَمَّا» مؤلف من لام تدل على القسم و ما مشدده تفصل بين اللامين، و تفيد مع ذلك تأكيداً، و جواب القسم محذوف يدل عليه خبر إن.

و المعنى -و الله أعلم- و إن كل هؤلاء المختلفين أقسم ليؤفقيهم و يعطينهم ربك أعمالهم أى جزاءها إنه بما يعملون من أعمال الخير و الشر خبير.

و نقل فى روح المعانى عن أبى حيان عن ابن الحاجب أن «لَمَّا» فى الآيه هى ما الجازمه

و حذف مدخولها شائع فى الاستعمال يقال: خرجت و لما، و سافرت و لما. ثم قال: و الاولى على هذا أن يقدر: لما يوفوها أى و إن كلا منها لما يوفوا أعمالهم ليوفينهم ربك إياها. و هذا وجه وجهه.

قوله تعالى: فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ مَنِ تَابَ مَعَكَ وَ لَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ يقال: قام كذا و ثبت و ركز بمعنى واحد كما ذكره الراغب و غيره، و الظاهر أن الأصل المأخوذ به فى ذلك قيام الإنسان و ذلك أن الإنسان فى سائر حالاته و أوضاعه غير القيام كالقعود و الانبطاح و الجثو و الاستلقاء و الانكباب لا يقوى على جميع ما يرومه من الأعمال كالقبض و البسط و الأخذ و الرد و سائر ما الإنسان مهيمن عليه بالطبع لكنه إذا قام على ساقه قياما كان على أعدل حالاته الذى يسلطه على عامه أعماله من ثبات و حركه و أخذ و رد و إعطاء و منع و جلب و دفع، و ثبت مهيمنا على ما عنده من القوى و أفعالها، فقيام الإنسان يمثل شخصيته الإنسانية بماله من الشئون.

ثم استعير فى كل شىء لأعدل حالاته الذى يسلط معه على آثاره و أعماله فقيام العمود أن يثبت على طوله، و قيام الشجر أن يركز على ساقه متعرقا بأصله فى الأرض، و قيام الإناء المحتوى على مائع أن يقف على قاعدته فلا يهراق ما فيه و قيام العدل أن ينبسط على الأرض، و قيام السنه و القانون أن تجرى فى البلاد.

و الإقامة جعل الشىء قائما أى جعله بحال يترتب عليه جميع آثاره بحيث لا يفقد شيئا منها كإقامه العدل و إقامة السنه و إقامة الصلاة و إقامة الشهاده، و إقامة الحدود، و إقامة الدين و نحو ذلك.

و الاستقامه طلب القيام من الشىء و استدعاء ظهور عامه آثاره و منفعه فاستقامه الطريق اتصافه بما يقصد من الطريق كالاستواء و الوضوح و عدم إضلاله من ركبته، و استقامه الإنسان فى أمر أن يطلب من نفسه القيام به و إصلاحه بحيث لا يتطرق اليه فساد و لا نقص،

و يأتي تاما كاملا، قال تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَإِحَادٌ فَاسِدٌ تَقِيْمُوا إِلَيْهِ (حم السجده ١٦) أى قوموا بحق توحيدده فى الوهيته، وقال: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا (حم السجده ٣٠) أى ثبتوا على ما قالوا فى جميع شئون حياتهم لا- يركنون فى عقائدهم و أخلاقهم و أعمالهم إلا- الى ما يوافق التوحيد و يلائمه أى يراعونه و يحفظونه فى عامه ما يواجهم فى باطنهم و ظاهرهم. وقال: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (الروم ٣٠) فإن المراد بإقامه الوجه إقامة النفس من حيث تستقبل العمل و تواجهه، و إقامة الإنسان نفسه فى أمر هى استقامته فيه فافهم.

فقوله: فَاسِدٌ تَقِيْمٌ كَمَا أُمِرْتَ أى كن ثابتا على الدين موفيا حقه طبق ما أمرت بالاستقامه، و قد أمر به فى قوله: وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (يونس ١٠٥)، و قوله: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (الروم ٣٠).

و قوله: وَ مَنْ تَابَ مَعَكَ عَظِفَ عَلَى الضَّمِيرِ الْمَسْتَكِنِ فى «فَاسِدٌ تَقِيْمٌ» أى استقم أنت و من تاب معك أى استقيموا جميعا و إنما أخرج النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من بينهم و افردده بالذكر معه تشريفا لمقام النبوه، و على ذلك تجرى سنته تعالى فى كلامه كقوله تعالى: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ (البقره ٢٨٥) و قوله: يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (التحریم ٨).

على أن الأمر الذى تقيده به قوله: «فَاسِدٌ تَقِيْمٌ» أعنى قوله: «كَمَا أُمِرْتَ» يختص بالنبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و لا يشاركه فيه غيره فإن ما ذكر من مثل قوله: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ» الخ؛ خاص به فلو قيل: فاستقيموا لم يصح تقييده بالأمر السابق.

و المراد بمن تاب مع النبى المؤمنون الذين رجعوا الى الله بالإيمان و إطلاق التوبه على أصل الإيمان- و هو رجوع من الشرك- كثير الورد فى القرآن كقوله تعالى: وَ يَسْتَغْفِرُونَ

لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ (المؤمن ٧٧) الى غير ذلك.

و قوله: وَلَا تَطْغَوْا أَى لَا- تتجاوزوا حدكم الذى خطته لكم الفطره و الخلقه و هو العبوديه لله وحده كما تجاوزه الذين قبلكم فأفضاهم الى الشرك و ساقهم الى الهلكه، و الظاهر أن الطغيان بهذا المعنى مأخوذ من طغى الماء إذا جاوز حده، ثم استعير لهذا الأمر المعنوى الذى هو طغيان الإنسان فى حياته لتشابه الأثر و هو الفساد.

و قوله: إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ تعليل لمضمون ما تقدمه، و معنى الآيه اثبت على دين التوحيد و الزم طريق العبوديه من غير تزلزل و تذبذب، و ليثبت الذين آمنوا معكم، و لا تتعدوا الحد الذى حد لكم لأن الله بصير بما تعملون فيؤاخذكم لو خالفتم أمره.

و فى الآيه الكريمه من لحن التشديد ما لا- يخفى فلا- يحس فيها بشيء من آثار الرحمه و أمارات الملاطفه و قد تقدمها من الآيات ما يتضمن من حديث مؤاخذة الامم الماضيه و القرون الخاليه بأعمالهم و استغناء الله سبحانه عنهم ما تصعق له النفوس و تطير القلوب.

غير ما فى قوله: فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ من أفراد النبى صلى الله عليه و آله و سلم بالذكر و إخراجهم من بين المؤمنين تشريفا لمقامه لكن ذلك يفيد بلوغ التشديد فى حقه فإن تخصيصه قبلا- بالذكر يوجب توجه هول الخطاب و روع التكليم من مقام العزه و الكبرياء اليه وحده عدل ما يتوجه الى جميع الامه الى يوم القيامه كما وقع نظير التشديد فى قوله تعالى: وَلَا أَنْ تَبْتَئَكَ لَقَدْ كِدْتُمْ تَزْكُنُّ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذَا لَأَذْفَنَّاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَ ضِعْفَ الْمَمَاتِ (الإسراء ٧٥).

و لذلك ذكر أكثر المفسرين أن قوله عليه السلام: «شيئتي سورة هود» ناظر الى هذه الآيه، و سيوافيك الكلام فيه فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: وَلَا تَزْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ

اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ قال فى الصحاح: ركن اليه كنصر، ركونا: مال و سكن، و الركن بالضم الجانب الأقوى. و الأمر العظيم و العز و المنعه انتهى و عن لسان العرب مثله، و عن المصباح أن الركون هو الاعتماد على الشىء.

و قال الراغب: ركن الشىء جانبه الذى يسكن اليه، و يستعار للقوه، قال تعالى: لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ و ركنت الى فلان أركن بالفتح و الصحيح أن يقال:

ركن يركن - كنصر - و ركن يركن - كعلم - قال تعالى «وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» و ناقه مركنه الضرع له أركان تعظمه و المركان الإجابيه، و أركان العبادات جوانبها التى عليها مبناها، و بتركها بطلانها. انتهى و هذا قريب مما ذكره فى المصباح.

و الحق أنه الاعتماد على الشىء عن ميل اليه لا مجرد الاعتماد فحسب و لذلك عدى يالى لا بعلى و ما ذكره أهل اللغه تفسير له بالأعم من معناه على ما هو دأبهم.

فالركون الى الذين ظلموا هو نوع اعتماد عليهم عن ميل اليهم إما فى نفس الدين كأن يذكر بعض حقائقه بحيث ينتفعون به أو يغمض عن بعض حقائقه التى يضرهم إفساؤها، و إما فى حياه دينيه كأن يسمح لهم بنوع من المداخله فى إداره امور المجتمع الدينى بولايه الامور العامه أو الموده التى تفضى الى المخالطه و التأثير فى شئون المجتمع أو الفرد الحيويه.

و بالجمله الاقتراب فى أمر الدين أو الحياه الدينيه من الذين ظلموا بنوع من الاعتماد و الاتكاء يخرج الدين أو الحياه الدينيه عن الاستقلال فى التأثير و يغيرهما عن الوجهه الخالصه، و لازم ذلك السلوك الى الحق من طريق الباطل أو إحياء حق بإحياء باطل و بالأخره إماته الحق لإحيائه.

و الدليل على هذا الذى ذكرنا أنه تعالى جمع فى خطابه فى هذه الآيه الذى هو من تتمه الخطاب فى الآيه السابقه بين النبى صلى الله عليه و آله و سلم و بين المؤمنين من أمته، و الشئون التى له و لامته

هى المعارف الدينيه و الأخلاق و السنن الإسلاميه فى تبليغها و حفظها و إجرائها و الحياه الاجتماعيه بما يطابقها، و ولايه امور المجتمع الإسلامى، و انتحال الفرد بالدين و استنانه بسنه الحياه الدينيه فليس للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و لا لامته أن يركنوا فى شىء من ذلك الى الذين ظلموا.

على أن من المعلوم أن هاتين الآيتين كالنتيجه المأخوذه من قصص القرى الظالمه التى أخذهم الله بظلمهم و هما متفرعتان عليها ناظرتان إليها، و لم يكن ظلم هؤلاء الامم الهالكه و فى شركهم بالله تعالى و عباده الأصنام فحسب بل كان مما ذمه الله من فعالهم اتباع الظالمين و الفساد فى الارض بعد إصلاحها و هو الاستنانه بالسنن الظالمه التى يقيمها الولاه الجائرون، و يستن بها الناس و هم بذلك ظالمون.

و من المعلوم أيضا أن الآيتين متربتان فى غرضهما فالاولى تنهى عن أن يكونوا من اولئك الذين ظلموا، و الثانيه تنهى أن يقتربوا منهم و يميلوا اليهم و يعتمدوا (1) فى حقهم على باطلهم فقوله: «وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» نهى عن الميل اليهم و الاعتماد عليهم و البناء على باطلهم فى أمر أصل الدين و الحياه الدينيه جميعا.

و وقوع الآيتين موقع النتيجه المتفرعه على ما تقدم من القصص المذكوره يفيد أن المراد بالذين ظلموا فى الآيه ليس من تحقق منه الظلم تحققا ما و إلا لعم جميع الناس إلا أهل العصمه و لم يبق للنهى حينئذ معنى، و ليس المراد بالذين ظلموا الظالمين أى المتلبسين بهذا الوصف المستمرين فى ظلمهم فإن لإفاده الفعل الدال على مجرد التحقق معنى الصفه الداله على التلبس و الاستمرار أسبابا لا يوجد فى المقام منها شىء و لا دلالة لشىء على شىء جزافا.

ص: ٢٢٠

١- (١) أى أن يتوسلوا فى اجراء الحق بين أنفسهم بالوسيله الباطله التى عند اعداء الدين من الظالمين.

بل المراد بالذين ظلموا اناس حال اولئك الذين قصهم الله في الآيات السابقة من الامم الهالكه، و كان الشأن في قصتهم أنه تعالى أخذ الناس جملة واحده في قبال الدعوه الإلهيه المتوجهه اليهم ثم قسمهم الى من قبلها منهم و الى من ردها ثم عبر عن قبلها بالذين آمنوا في بضعه مواضع من القصص المذكوره و عن ردها بالذين ظلموا و ما يقرب منه في أكثر من عشر مواضع كقوله: **وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا وَقَوْلِهِ:**

وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ و قوله: **وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ** و قوله: **أَلَا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ** و قوله: **أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ تَمُودُ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ (١)**.

قوله تعالى: **وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَ زُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** الخ؛ طرفا النهار هو الصباح و المساء، و الزلف جمع زلفى كقرب جمع قربي لفظا و معنى على ما قيل، و هو وصف ساد مسد موصوفه كالساعات و نحوها، و التقدير و ساعات من الليل أقرب من النهار.

و المعنى أقم الصلاة في الصلاح و المساء و في ساعات من الليل هي أقرب من النهار، و ينطبق من الصلوات الخمس اليوميه على صلاه الصبح و العصر و هي صلاه المساء و المغرب و العشاء الآخره، و قتهما زلف من الليل كما قاله بعضهم، أو على الصبح و المغرب و قتهما طرفا النهار و العشاء الآخره و وقتها زلف من الليل كما قاله آخرون، و قيل غير ذلك.

لكن البحث لما كان فقيها كان المتبع فيه ما ورد عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم و أئمه أهل بيته عليهم السلام من البيان، و سيجيء في البحث الروائي الآتى إن شاء الله تعالى.

و قوله: **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** تعليل لقوله: **«وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ»** و بيان أن

ص: ٢٢١

الصلوات حسنة واردة على نفوس المؤمنين تذهب بآثار المعاصي و هي ما تعترتها من السيئات، وقد تقدم كلام في هذا الباب في مسأله الجبط في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

و قوله: ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ أَي هذا الذي ذكر و هو أن الحسنات يذهبن السيئات على رفعه قدره تذكرا للمتلبسين بذكر الله تعالى من عباده.

قوله تعالى: وَ اصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ثم أمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بالصبر بعد ما أمره بالصلاه كما جمع بينهما في قوله: وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ (البقره ٤٥) و ذلك أن كلا- منهما في بابه من أعظم الأركان أعني الصلاه في العبادات، و الصبر في الأخلاق و قد قال تعالى في الصلاه: وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ (العنكبوت ٤٥) و قال في الصبر: إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (الشورى ٤٣).

و اجتماعهما أحسن و سيله يستعان بها على النوائب و المكارهه فالصبر يحفظ النفس عن القلق و الجزع و الانهزام، و الصلاه توجهها الى ناحيه الرب تعالى فتنسى ما تلقاه من المكارهه، و قد تقدم بيان في ذلك في تفسير الآيه ٤٥ من سوره البقره في الجزء الأول من الكتاب.

و إطلاق الأمر بالصبر يعطى أن المراد به الأعم من الصبر على العباده و الصبر عن المعصيه و الصبر عند النائبه، و على هذا يكون أمرا بالصبر على جميع ما تقدم من الأوامر و النواهي أعني قوله: «فَاسْتَقِمُّ» «وَ لَا تَطْغَوْا» «وَ لَا تَزْكُوا» «وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ» .

لكن أفراد الأمر و تخصيصه بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم يفيد أنه صبر في أمر يختص به و إلا قيل «وَ اصْبِرُوا» جريا على السياق، و هذا يؤيد قول من قال: إن المراد اصبر على أذى قومك في طريق دعوتك الى الله سبحانه و ظلم الظالمين منهم، و أما قوله: «وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ» فإنه ليس أمرا بما يخصه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم من الصلاه بل أمر بإقامته الصلاه بمن تبعه من المؤمنين جماعه فهو أمر لهم جميعا بالصلاه فافهم ذلك.

وقوله: فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ تعليل للأمر بالصبر.

قوله تعالى: فَلَوْ لَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ الْخَالِجِ هَلَا وَلَا يَفِيدُ التَّعْجِيبُ وَ التَّوْبِيخُ، والمعنى هلا- كان من القرون التي كانت من قبلكم وقد أفنيهاها بالعذاب و الهلاك اولو بقيه أى قوم باقون ينهون عن الفساد فى الأرض ليصلحوا بذلك فيها و يحفظوا امتهم من الاستئصال.

وقوله: إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ استثناء من معنى النفي فى الجملة السابقة فى المعنى: من العجب أنه لم يكن من القرون الماضية مع ما رأوا من آيات الله و شاهدوا من عذابه بقايا ينهون عن الفساد فى الأرض إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنَ الْعَذَابِ وَ الهلاك منهم فإنهم كانوا ينهون عن الفساد.

وقوله: وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كَانُوا مُجْرِمِينَ بيان حال الباقي منهم بعد الاستثناء و هم أكثرهم و عرّفهم بأنهم الذين ظلموا و بين أنهم اتبعوا لذائد الدنيا التي اترفوا فيها و كانوا مجرمين.

وقد تحصل بهذا الاستثناء و هذا الباقي الذى ذكر حالهم تقسيم الناس الى صنفين مختلفين: الناجون بإنجاء الله و المجرمون و لذلك عقبه بقوله: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ» .

قوله تعالى: وَ مَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُهَا مُصِيبُونَ أى لم يكن من سنته تعالى إهلاك القرى التي أهلها مصلحون لأن ذلك ظلم و لا يظلم ربك أحدا فقوله: «بِظُلْمٍ» قيد توضيحي لا احترازي، و يفيد أن سنته تعالى عدم إهلاك القرى المصلحة لكونه من الظلم «وَ مَا كَانَ رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ» .

قوله تعالى: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ» -الى قوله- أَجْمَعِينَ الخلف خلاف القدام و هو الأصل فيما اشتق من

هذه المادة من المشتقات يقال: خلف أباه أى سد مسده لوقوعه بعده، وأخلف وعده أى لم يف به كأنه جعله خلفه، ومات و خلف ابنا أى تركه خلفه، واستخلف فلانا أى طلب منه أن ينوب عنه بعد غيبته أو موته أو بنوع من العناية كاستخلاف الله تعالى آدم و ذريته فى الأرض، وخالف فلان فلانا و تخالفا إذا تفرقا فى رأى أو عمل كأن كلا منهما يجعل الآخر خلفه، و تخلف عن أمره إذا أدبر و لم يأت به، و اختلف القوم فى كذا إذا خالف بعضهم بعضا فيه فجعله خلفه، و اختلف القوم الى فلان إذا دخلوا عليه واحدا بعد واحد، و اختلف فلان الى فلان إذا دخل عليه مرات كل واحده بعد اخرى.

ثم الاختلاف و يقابله الاتفاق من الامور التى لا- يرتضيها الطبع السليم لما فيه من تشتت القوى و تضعيفها و آثار اخرى غير محموده من نزاع و مشاجره و جدال و قتال و شقاق كل ذلك يذهب بالأمن و السلام غير أن نوعا منه لا مناص منه فى العالم الإنسانى و هو الاختلاف من حيث الطبائع المنتهيه الى اختلاف البنى فإن التركيبات البدنيه مختلفه فى الأفراد و هو يؤدى الى اختلاف الاستعدادات البدنيه و الروحيه و بانضمام اختلاف الأجواء و الظروف الى ذلك يظهر اختلاف السلائق و السنن و الآداب و المقاصد و الأعمال النوعيه و الشخصيه فى المجتمعات الإنسانيه، و قد أوضحت الأبحاث الاجتماعيه أن لو لا ذلك لم يعيش المجتمع الإنسانى و لا طرفه عين (1).

و قوله: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ أى حقت كلمته تعالى و أخذت مصداقها منهم بما ظلموا و اختلفوا فى الحق من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم، و الكلمه هى قوله: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ» الخ.

و الآيه نظيره قوله: وَ لَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَ لَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ

ص: ٢٢٤

١- ١). هود ١٠٩-١١٩: بحث فى: اختلاف فى الطبائع، اختلاف فى الدين.

مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (الم السجده ١٣) و الأصل في هذه الكلمه ما ألقاه الله تعالى الى إبليس لعنه الله إذ قال: فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا طِبَّادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ قَالِ فَالْحَقُّ وَ الْحَقُّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (ص ٥٨) و الآيات متحده المضمون يفسر بعضها بعضا (١).

[سوره هود (١١): الآيات ١٢٠ الى ١٢٣]

اشاره

وَ كَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَلْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَبَّئْتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَ جَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَ قُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اِعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَ اِنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)

بيان:

قوله تعالى: وَ كَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَلْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَبَّئْتُ بِهِ فُؤَادَكَ الى آخر الآيه أى و كل القصص نقص عليك تفصيلا أو إجمالاً و قوله: «مِنَ أَلْبَاءِ الرُّسُلِ» بيان لما اضيف اليه كل، و قوله: «مَا نَبَّئْتُ بِهِ فُؤَادَكَ» عطف بيان للأبناء اشير به الى فائده القصص بالنسبه اليه صلى الله عليه و آله و سلم و هو تثبيت فؤاده و حسم ماده القلق و الاضطراب منه.

و المعنى نقص عليك أبناء الرسل لثبت به فؤادك و تربط جأشك في ما أنت عليه من

ص: ٢٢٥

١ - ١). هود ١٠٩-١١٩: بحث روائى حول معنى الركون الى الذين ظلموا؛ الصلوات الخمس اليوميه؛ ان الحسنات يذهبن السيئات؛ اهلاك القرى؛ الاختلاف فى الدين.

سلوك سبيل الدعوه الى الحق، والنهضة على قطع منابت الفساد، والمحنة من أذى قومك.

ثم ذكر تعالى من فائده السوره ما يعمه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وقومه مؤمنين وكافرين فقال فيما يرجع الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من فائده نزول السوره «وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ» والإشارة الى السوره أو الى الآيات النازله فيها أو الأنباء على وجه، ومجىء الحق فيها هو ما بين الله تعالى فى ضمن القصص وقبلها وبعدها من حقائق المعارف فى المبدأ والمعاد وسنته تعالى الجارىه فى خلقه بإرسال الرسل ونشر الدعوه ثم إسعاد المؤمنين فى الدنيا بالنجاه، وفى الآخره بالجنه، وإشقاء الظالمين بالأخذ فى الدنيا والعذاب الخالد فى الآخره.

وقال فيما يرجع الى المؤمنين «وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» فإن فيما ذكر فيها من حقائق المعارف تذكره للمؤمنين يذكرون بها ما نسبه من علوم الفطره فى المبدأ والمعاد وما يرتبط بهما، وفيما ذكر فيها من القصص والعبر موعظه يتعظون بها.

قوله تعالى: «وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ» وهذا فيما يرجع الى غير المؤمنين يأمر نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يختم الحجاج معهم ويقطع خصامهم بعد ما تلا القصص عليهم بهذه الجمل فيقول لهم: أما إذا لم تؤمنوا ولم تنقطعوا عن الشرك والفساد بما ألقىت اليكم من التذكرة والعبر ولم تصدقوا بما قصه الله من أنباء الامم وأخبر به من سنته الجارىه فيهم فاعملوا على ما أنتم عليه من المكانه والمنزله، وما تحسبونه خيرا لكم إنا عاملون، وانتظروا ما سيستقبلكم من عاقبه عملكم إنا منتظرون فسوف تعرفون صدق النيا الإلهى وكذبه.

وهذا قطع للخصام ونوع تهديد أورده الله فى القصص الماضيه قصه نوح وهود وصالح عليهم السلام، وفى قصه شعيب عليه السلام حاكيا عنه «يَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ» (آيه ٩٣ من السوره).

قوله تعالى: **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ** لما كان أمره تعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يأمرهم بالعمل بما تهوى أنفسهم والانتظار، وإخبارهم بأنه و من آمن معه عاملون و منتظرون، في معنى أمره و من تبعه بالعمل و الانتظار عقبه بهاتين الجملتين ليكون على طيب من النفس و ثبات من القلب من أن الدائرة ستكون له عليهم.

و المعنى فاعمل و انتظر أنت و من تبعك فغيب السماوات و الأرض الذي يتضمن عاقبه أمرك و أمرهم إنما يملكه ربك الذي هو الله سبحانه دون آلهتهم التي يشركون بها و دون الأسباب التي يتوكلون عليها حتى يدبروا الدائرة لأنفسهم و يحولوا العاقبه الى ما ينفعهم، و الى ربك الذي هو الله يرجع الأمر كله فيظهر من غيبه عاقبه الأمر على ما شاءه و أخبر به، فالدائرة لك عليهم، و هذا من عجيب البيان.

و من هنا يظهر وجه تبديل قوله: **«رَبُّكَ»** المكرر من هذه الآيات بلفظ الجلاله «الله» لأن فيه من الإشعار بالإحاطه بكل ما دق و جل ما ليس في غيره، و المقام يقتضى الاعتماد و الالتجاء الى ملجأ لا يقهره قاهر و لا يغلب عليه غالب، و هو الله سبحانه و لذلك ترى أنه يعود بعد انقضاء هذه الجمل الى ما كان يكرره من صفه الرب، و هو قوله: **«وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ»**.

قوله تعالى: **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ الظاهر** أنه تفريع لقوله: **«وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ»** أى إذا كان الأمر كله مرجوعا اليه تعالى فلا يملك غيره شيئا و لا يستقل بشيء فاعبده سبحانه و اتخذه و كيلا فى جميع الامور و لا تتوكل على شيء من الأسباب دونه لأنها أسباب بتسبيبه غير مستقلة دونه، فمن الجهل الاعتماد على شيء منها. و ما ربك بغافل عما تعملون فلا يجوز التساهل فى عبادته و التوكل عليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ
أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣)

غرض السوره بيان ولايه الله لعبده الذي أخلص إيمانه له تعالى إخلاصا و امتلا بمحبته تعالى لا يتغى له بدلا و لم يلو الى غيره تعالى من شىء، و أن الله تعالى يتولى هو أمره فيريه أحسن تربيه فيورده مورد القرب و يسقيه فيرويه من مشرعه الزلفى فيخلصه لنفسه و يحييه حياه إلهيه و إن كانت الأسباب الظاهره أجمعت على هلاكه، و يرفعه و إن توفرت الحوادث على ضعته، و يعزه و ان دعت النوائب و رزايا الدهر الى ذلته و حط قدره.

وقد بين تعالى ذلك بسرد قصه يوسف الصديق عليه السلام. ولم يرد في سور القرآن الكريم تفصيل قصه من القصص باستقصائها من أولها الى آخرها غير قصته عليه السلام، وقد خصت السوره بها من غير شركه ما من غيرها.

فقد كان عليه السلام عبدا مخلصا في عبوديته فأخلصه الله لنفسه و أعزه بعزته و قد تجمعت الأسباب على إذلاله وضعته فكلمنا ألقته في إحدى المهالك أحياء الله تعالى من نفس السبيل التي كانت تسوقه الى الهلاكه: حسده إخوته فألقوه في غيابه الجب ثم شروه بثمان بخس دراهم معدوده فذهب به ذلك الى مصر و أدخله في بيت الملك و العزه، راودته التي هو في بيتها عن نفسه و اتهمته عند العزيز و لم تلبث دون أن اعترفت عند النسوة ببراءته ثم اتهمته و أدخلته السجن فكان ذلك سبب قربه عند الملك، و كان قميصه الملطخ بالدم الذي جاءوا به الى أبيه يعقوب أول يوم هو السبب الوحيد في ذهاب بصره فصار قميصه بعينه و قد أرسله بيد إخوته من مصر الى أبيه آخر يوم هو السبب في عود بصره اليه، و على هذا القياس.

و بالجمله كلما نازعه شيء من الأسباب المخالفه أو اعترضه في طريق كماله جعل الله تعالى ذلك هو السبب في رشد أمره و نجاح طلبته، و لم يزل سبحانه يحوله من حال الى حال حتى آتاه الحكم و الملك و اجتباه و علمه من تأويل الأحاديث و أتم نعمته عليه كما وعده أبوه.

و قد بدأ الله سبحانه قصته بذكر رؤيا رآها في بادئ الأمر و هو صبي في حجر أبيه و الرؤيا من المبشرات ثم حقق بشارته و أتم كلمته فيه بما خصه به من التربيه الإلهيه، و هذا هو شأنه تعالى في أوليائه كما قال تعالى: **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** (يونس ٦٤).

و في قوله تعالى بعد ذكر رؤيا يوسف و تعبير أبيه عليه السلام لها: **لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ**

آيَاتُ لِلْسَّائِلِينَ إشعار بأنه كان هناك قوم سألوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عما يرجع إلى هذه القصة، وهو يؤيد ما ورد أن قوما من اليهود بعثوا مشركي مكة أن يسألوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن سبب انتقال بني إسرائيل إلى مصر وقد كان يعقوب عليه السلام ساكنا في أرض الشام فنزلت السورة.

و على هذا فالغرض بيان قصته عليه السلام وقصه آل يعقوب، وقد استخرج تعالى بيانه ما هو الغرض العالى منها وهو طور ولايه الله لعباده المخلصين كما هو اللائح من مفتاح السوره و مختمها، و السوره مكيه على ما يدل عليه سياق آياتها، و ما ورد فى بعض الروايات عن ابن عباس أن أربعا من آياتها مدنيه، و هى الآيات الثلاث التى فى أولها، و قوله: لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ مدفوع بما تشتمل عليه من السياق الواحد.

قوله تعالى: الر تَلْمِكُ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ الاشارة بلفظ البعيد للتعظيم و التفخيم، و الظاهر أن يكون المراد بالكتاب المبين هذا القرآن المتلو و هو مبين واضح فى نفسه و مبين موضح لغيره ما ضمنه الله تعالى من المعارف الإلهيه و حقائق المبدأ و المعاد.

و قد وصف الكتاب فى الآيه بالمبين لا كما فى قوله فى أول سوره يونس: تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ لكون هذه السوره نازله فى شأن قصه آل يعقوب و بيانها، و من المحتمل أن يكون المراد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: إِذْ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ الضمير للكتاب بما أنه مشتمل على الآيات الإلهيه و المعارف الحقيقيه، و إنزاله قرآنا عربيا هو إلباسه فى مرحله الإنزال لباس القراءه و العربيه، و جعله لفظا متلوا مطابقا لما يتداوله العرب من اللغه كما قال تعالى فى موضع آخر: إنا جعلناه قرآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ (الزخرف ٤).

و قوله: لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ من قبيل توسعه الخطاب و تعميمه فان السوره مفتحة بخطاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ»، و على ذلك يجرى بعد كما فى قوله: «نَحْنُ

نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» الخ.

فمعنى الآية-و الله أعلم-إنا جعلنا هذا الكتاب المشتمل على الآيات فى مرحله النزول ملبسا بلباس اللفظ العربى محلى بحليته ليقع فى معرض التعقل منك و من قومك أو امتك، و لو لم يقلب فى وحيه فى قالب اللفظ المقرو أو لم يجعل عربيا مبينا لم يعقل قومك ما فيه من أسرار الآيات بل اختص فهمه بك لاختصاصك بوحيه و تعليمه.

و فى ذلك دلاله ما على أن الألفاظ الكتاب العزيز من جهه تعينها بالاستناد الى الوحي و كونها عربيه دخلا فى ضبط أسرار الآيات و حقائق المعارف، و لو أنه اوحى الى النبي صلى الله عليه و آله و سلم بمعناه و كان اللفظ الحاكى له لفظه صلى الله عليه و آله و سلم كما فى الأحاديث القدسيه مثلا أو ترجم الى لغة اخرى خفى بعض أسرار آياته البينات عن عقول الناس و لم تنله أيدي تعقلهم و فهمهم.

و عنايته تعالى فيما أوحى من كتاب باللفظ مما لا يرتاب فيه المتدبر فى كلامه كيف؟ و قد قسمه الى المحكمات و المتشابهات و جعل المحكمات ام الكتاب ترجع إليها المتشابهات قال تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَ أُخْرَى مُتَشَابِهَاتٌ (آل عمران ٧) و قال تعالى أيضا: وَ لَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (النحل ١٠٣).

قوله تعالى: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَ إِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ قال الراغب فى المفردات: القص تتبع الأثر يقال: قصصت أثره، و القصص الأثر قال: فارتدا على آثارهما قصصا، و قالت لاخته قصيه. قال: و القصص الأخبار المتتبعه قال تعالى: لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ. فى قصصهم عبره، و قص عليه القصص، نقص عليك أحسن القصص. انتهى فالقصص هو القصة و أحسن القصص أحسن القصة و الحديث، و ربما قيل: إنه مصدر بمعنى الاقتصاص.

فإن كان اسم مصدر فقصة يوسف عليه السّلام أحسن قصه لأنها تصف إخلاص التوحيد في العبودية، و تمثل ولايه الله سبحانه لعبده و أنه يريه بسلوكه في صراط الحب و رفعه من حضيض الذله الى أوج المعزه، و أخذه من غيابه جبّ الإساره و مرتبط الرقيه و سجن النكال و النقمه الى عرش العزه و سرير الملك.

و إن كان مصدرًا فالاقتصاص عن قصته بالطريق الذي اقتص سبحانه به أحسن الاقتصاص لأنه اقتصاص لقصة الحب و الغرام بأعف ما يكون و أستر ما يمكن.

و المعنى -و الله أعلم- نحن نقص عليك أحسن القصص بسبب وحيننا هذا القرآن اليك و إنك كنت قبل اقتصاصنا عليك هذه القصة من الغافلين عنها.

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٤ الى ٦]

إشاره

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتَكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥) وَ كَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَلْحَادِيثِ وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلَى آلِ يَعْقُوبَ كُلَّمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)

بيان:

قوله تعالى: إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ لم يذكر يعقوب عليه السلام باسمه بل كنى عنه

بالأب للدلالة على ما بينهما من صفه الرحمه و الرأفه و الشفقه كما يدل عليه ما فى الآيه التاليه «قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ» الخ.

و قوله: رَأَيْتُ و رَأَيْتُهُمْ من الرؤيا و هى ما يشاهده النائم فى نومه أو الذى خمدت حواسه الظاهره بإغماء أو ما يشابهه، و يشهد به قوله فى الآيه التاليه: «لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ» و قوله فى آخر القصه: «يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ» .

و تكرار ذكر الرؤيه لطول الفصل بين قوله: «رَأَيْتُ» و قوله: «لِي سَاجِدِينَ» و من فائده التكرير الدلاله على أنه إنما رآهم مجتمعين على السجود جميعا لا فرادى. على أن ما حصل له من المشاهده نوعان مختلفان فمشاهده أشخاص الكواكب و الشمس و القمر مشاهده أمر صورى و مشاهده سجدتهم و خضوعهم و تعظيمهم له مشاهده أمر معنوى.

و قد عبر عن الكواكب و النيرين فى قوله: «رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ» بما يختص بأولى العقل-ضمير الجمع المذكور و جمع المذكر السالم-للدلاله على أن سجدتهم كانت عن علم و إراده كما يسجد واحد من العقلاء لآخر.

قوله تعالى: قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ذكر فى المفردات: أن الكيد ضرب من الاحتيال، و قد يكون مذموما و ممدوحا و إن كان يستعمل فى المذموم أكثر و كذلك الاستدراج و المكر.

انتهى. و قد ذكروا أن الكيد يتعدى بنفسه و باللام.

و الآيه تدل على أن يعقوب لما سمع ما قصه عليه يوسف من الرؤيا أيقن بما يدل عليه أن يوسف عليه السلام سيتولى الله أمره و يرفع قدره، يسنده على أريكه الملك و عرش العزه، و يخصه من بين آل يعقوب بمزيد الكرامه فأشفق على يوسف عليه السلام و خاف من اخوته عليه و هم عصبه أقوياء أن لو سمعوا الرؤيا-و هى ظاهره الانطباق على يعقوب عليه السلام و زوجته و أحد عشر من ولده غير يوسف، و ظاهره الدلاله على أنهم جميعا سيخضعون و يسجدون

ليوسف-حملهم الكبر و الأنفه أن يحسدوه فيكيدوا له كيدا ليحولوا بينه و بين ما تبشره به رؤياه.

و لذلك خاطب يوسف عليه السّلام خطاب الإشفاق كما يدل عليه قوله: «يَا بَنِيَّ» بلفظ التصغير، و نهاء عن اقتصاص رؤياه على إخوته قبل أن يعبرها له و ينبئه بما تدل عليه رؤياه من الكرامه الإلهيه المقضيه فى حقه، و لم يقدم النهى على البشاره إلا لفرط حبه له و شدة اهتمامه به و اعتناؤه بشأنه، و ما كان يتفرس من إخوته أنهم يحسدونه و أنهم امتثلوا منه بغضا و حنقا.

و الدليل على بلوغ حسدهم و ظهور حنقهم و بغضهم قوله: «لَا تَقْضِيْ صُ رُؤْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتَكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا» فلم يقل: إني أخاف أن يكيدوا، أو لا آمنهم عليك بتفريع الخوف من كيدهم أو عدم الأمن من جهتهم بل فرّع على اقتصاص الرؤيا نفس كيدهم و أكدّ تحقق الكيد منهم بالمصدر-المفعول المطلق- اذ قال «فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا» ثم أكد ذلك بقوله ثانيا فى مقام التعليل: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» أى إن لكيدهم سببا آخر منفصلا يؤيد ما عندهم من السبب الذى هو الحسد و يثيره و يهيجه ليؤثر أثره السيئ و هو الشيطان الذى هو عدو للإنسان مبين لا خله بينه و بينه أبدا يحمل الإنسان بوسوسته و تسويله على أن يخرج من صراط الاستقامه و السعاده الى سبيل عوج فيه شقاء دنياه و آخرته فيفسد ما بين الوالد و ولده و ينزع بين الشقيق و شقيقه و يفرق بين الصديق و صديقه ليضلهم عن الصراط.

فكان المعنى: قال يعقوب ليوسف عليهما السّلام: يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فانهم يحسدونك و يغتazon من أمرك فيكيدونك عندئذ بنزع و إغراء من الشيطان و قد تمكن من قلوبهم و لا يدعهم يعرضوا عن كيدك فإن الشيطان للإنسان عدو مبين.

قوله تعالى: وَ كَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلَى آلِ يَعْقُوبَ الى آخر الآيه؛ الاجتباء من الجبايه و هى الجمع يقال: جبيت الماء فى الحوض إذا جمعته فيه، و منه جبايه الخراج أى جمعه قال تعالى

يُجِبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ (القصص ٥٧) ففي معنى الاجتباء جمع أجزاء الشيء و حفظها من التفرق و التشتت، وفيه سلوك و حركه من الجابى نحو المجبى فاجتباه الله سبحانه عبدا من عباده هو أن يقصده برحمته و يخصه بمزيد كرامته فيجمع شمله و يحفظه من التفرق فى السبل المتفرقه الشيطانيه المفرقه للإنسان و يركبه صراطه المستقيم و هو أن يتولى أمره و يخصه بنفسه فلا يكون لغيره فيه نصيب كما أخبر تعالى بذلك فى يوسف عليه السلام إذ قال إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (الآيه ٢٤ من السوره).

و قوله: وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ التَّأْوِيلُ هو ما ينتهى اليه الرؤيا من الأمر الذى تتعقبه، و هو الحقيقه التى تتمثل لصاحب الرؤيا فى رؤياه بصوره من الصور المناسبه لمداركه و مشاعره كما تمثل سجده أبوى يوسف و إخوته الأحد عشر فى صوره أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر و خرورها أمامه ساجده له، و قد تقدم استيفاء البحث عن معنى التأويل فى تفسير قوله: فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ الْآيَه، (آل عمران ٧) فى الجزء الثالث من الكتاب.

و الأحاديث جمع الحديث و ربما اريد به الرؤى لأنها من حديث النفس فان النفس الانسان تصور له الامور فى المنام كما يصور المحدث لسماعه الامور فى اليقظه فالرؤيا حديث مثله و منه يظهر ما فى قول بعضهم: إن الرؤى سميت أحاديث باعتبار حكايتها و التحديث بها و هو كما ترى.

و قوله: وَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلَى آلِ يَعْقُوبَ قَالَ الرَّاغِبُ فى المفردات:

النعمه (بالكسر فالسكون) الحاله الحسنه، و بناء النعمه بناء الحاله التى يكون عليها الإنسان كما الجلسه و الركبه، و النعمه (بالفتح فالسكون) التنعم و بناؤها بناء المره من الفعل كالضربه و الشتمه، و النعمه للجنس تقال للقليل و الكثير.

قال: و الإنعام إيصال الإحسان الى الغير، و لا يقال إلا إذا كان الموصل اليه من جنس

الناطقين فإنه لا- يقال: أنعم فلان على فرسه، قال تعالى «أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَانْعَمْتَ عَلَيْهِ) و النعماء بإزاء الضراء.

قال: و النعيم النعمه الكثيره قال تعالى «فِي جَدَاتِ النَّعِيمِ» و قال تعالى «جَدَاتِ النَّعِيمِ» ، و تنعم تناول ما فيه النعمه و طيب العيش، يقال: نعمه تنعيما فتنعم أى لين عيش و خصب قال تعالى «فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ» و طعام ناعم و جاريه ناعمه. انتهى.

فقوله: وَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَ عَلَى آلِ يَعْقُوبَ يريد أن الله أنعم عليكم بما تسعدون به فى حياتكم لكنه يتم ذلك فى حقك و فى حق آل يعقوب و هم يعقوب و زوجه و سائر بنيه كما كان رآه فى رؤياه.

و قد جعل يوسف عليه السلام أصلا و آل يعقوب معطوفا عليه إذ قال «عَلَيْكَ وَ عَلَى آلِ يَعْقُوبَ» كما يدل عليه الرؤيا إذ رأى يوسف نفسه مسجودا له و رأى آل يعقوب فى هيئه الشمس معها القمر و أحد عشر كوكبا سجدا له.

و قد ذكر الله تعالى مما أتم به النعمه على يوسف عليه السلام أنه آتاه الحكم و النبوه و الملك و العزه فى مصر مضافا الى أن جعله من المخلصين و علمه من تأويل الأحاديث، و مما أتم به النعمه على آل يعقوب أنه أقر عين يعقوب بابنه يوسف عليهما السلام، و جاء به و بأهله جميعا من البدل و رزقهم الحضاره بنزول مصر.

و قوله: كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبِيكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ أى نظير ما أتم النعمه من قبل على إبراهيم و إسحاق و هما أبواك فإنه آتاهما خير الدنيا و الآخره فقوله:

«مِنْ قَبْلِ» متعلق بقوله: «أَتَمَّهَا» و ربما احتمل كونه ظرفا مستقرا و صفا لقوله: «أَبُوَيْكَ» و التقدير كما أتمها على أبويك الكائنين من قبل.

و «إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ» بدل أو عطف بيان لقوله: «أَبُوَيْكَ» و فائده هذا السياق الإشعار بكون النعمه مستمره موروثه فى بيت إبراهيم من طريق إسحاق حيث أتمها الله على إبراهيم

و إسحاق و يعقوب و يوسف عليهم السّلام و سائر آل يعقوب.

و معنى الآيه: و كما رأيت فى رؤياك يخلصك ربك لنفسه بإنقائك من الشرك فلا يكون فيك نصيب لغيره، و يعلمك من تأويل الأحاديث و هو ما يثول اليه الحوادث المصوره فى نوم أو يقظه و يتم نعمته هذه و هى الولاية الإلهيه بالنزول فى مصر و اجتماع الأهل و الملك و العزه عليك و على ابويك و إخوتك و إنما يفعل ربك بك ذلك لأنه عليم بعباده خبير بحالهم حكيم يجرى عليهم ما يستحقونه فهو عليم بحالك و ما يستحقونه من غضبه (١).

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٧ الى ٢١]

إشاره

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعِيدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي الْغُيُوبِ فَلَمَّا بَلَغَ مِنْهُ الْعِلْمَ عَصَى أَهْلَهُ فَأَتَيْنَا الْكَافِرِينَ (١٠) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسَلْنَا مَعَنَا غَدًا يَزْتَعُ وَيَلْعَبُ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَ جَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ مَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَ لَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَ جَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ حَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨) وَ جَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَ أَصْرُوهَ بِضَاعَهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَ كَانُوا فِيهِ مِنَ الظَّالِمِينَ (٢٠) وَ قَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مِرَاتِهِ أَكْرَمِي مِثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَ كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١)

ص: ٢٣٧

١-١). يوسف ١-٦: بحث حول سجده يعقوب عليه السّلام ليوسف عليه السّلام.

بيان:

قوله تعالى: لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُتَلَكِّينَ شُرُوعِ فِي

ص: ٢٣٨

القصة و فيه التنبيه على أن القصة مشتمله على آيات إلهيه داله على توحيد الله سبحانه، وأنه هو الولي يلي امور عباده المخلصين حتى يرفعهم الى عرش العزه، و يثبتهم فى أريكه الكمال فهو تعالى الغالب على أمره يسوق الأسباب الى حيث يشاء لا الى حيث يشاء غيره و يستنتج منها ما يريد لا ما هو اللائح الظاهر منها.

و فى قوله تعالى: لِلشَّائِلِينَ دلالة على أنه كان هناك جماعه سألوا النبى صلى الله عليه و آله و سلم عن القصة أو عما يرجع بوجه الى القصة فانزلت فى هذه السوره.

قوله تعالى: إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ آبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ذكر فى المجمع أن العصبه هى الجماعه التى يتعصب بعضها لبعض، و يقع على جماعه من عشره الى خمسه عشر، و قيل: ما بين العشره الى الأربعين، و لا واحد له من لفظه كالقوم و الرهط و النفر. انتهى.

و قوله: إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا القائلون هم أبناء يعقوب ما خلا يوسف و أخاه الذى ذكروه معه، و كانت عدتهم عشره و هم رجال اقوياء بيدهم تدبير بيت أبيهم يعقوب و إداره مواشيه و أمواله كما يدل عليه قولهم: «وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ» .

و قولهم: «لِيُوسُفُ وَ أَخُوهُ» بنسبته الى يوسف مع أنهم جميعا أبناء ليعقوب و إخوه فيما بينهم يشعر بأن يوسف و أخاه هذا كانا أخوين لام واحده و أخوين لهؤلاء القائلين لأب فقط، و الروايات تذكر أن اسم أخى يوسف هذا «بنيامين»، و السياق يشهد أنهما كانا صغيرين لا يقومان بشىء من أمر بيت يعقوب و تدبير مواشيه و أمواله.

و قولهم: وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ أى عشره أقوياء مشدود ضعف بعضنا بقوه بعض، و هو حال عن الجمله السابقه يدل على حسدهم و حنقهم لهما و غيظهم على أبيهم يعقوب فى حبه لهما أكثر منهم، و هو بمنزله تمام التعليل لقولهم بعده: «إِنَّ آبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» .

وقولهم: إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ قضاء منهم على أبيهم بالضلال و يعنون بالضلال الاعوجاج في السليقه و فساد السيره دون الضلال في الدين (١).

قوله تعالى: اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعِيدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ تتمه قول إخوه يوسف و الآيه تتضمن الفصل الثاني من مؤامرتهم في مؤتمرهم الذي عقده في أمر يوسف ليرسموا بذلك خطه تريخ نفوسهم منه كما ذكره تعالى بقوله: وَمَا كُنْتُمْ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ (الآيه ١٠٢ من السوره).

و قد ذكر الله سبحانه متن مؤامرتهم في هذه الآيات الثلاث «قَالُوا لِيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ -الى قوله- إِنَّ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ» .

فأوردوا أولاً ذكر مصيبتهم في يوسف و أخيه إذ صرفا وجه يعقوب عنهم الى أنفسهما و جذبا نفسه اليهما عن سائر الأولاد فصار يلتزمهما و لا- يعباً بغيرهما ما فعلوا، و هذه محنه حاله بهم توعدهم بخطر عظيم في مستقبل الامر فيه سقوط شخصيتهم و خيبه مسعاهم و ذلتهم بعد العزه و ضعفهم بعد القوه، و هو انحراف من يعقوب في سيرته و طريقته.

ثم تذاكروا ثانيا في طريق التخلص من الرزیه بطرح كل منهم ما هيأه من الخطه و يراه من الرأى فأشار بعضهم الى لزوم قتل يوسف، و آخرون الى طرحه أرضا بعيدة لا يستطيع معه العود الى أبيه و اللحق بأهله فينسى بذلك اسمه و يمحو رسمه فيخلو وجه أبيهم لهم و ينسب حبه و حباؤه فيهم.

ثم اتفقوا على ما يقرب من الرأى الثاني و هو أن يلقوه في قعر بئر ليلتقطه بعض السياره

ص: ٢٤٠

١-١). يوسف ٧-٢١: بحث في معنى قول ابناء يعقوب «إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» عله حسد اخوان يوسف عليه؛ ان يعقوب كان يحب يوسف و اخاه في الله.

و يذهبوا به الى بعض البلاد النائية البعيده فينقطع بذلك خبره و يعفى أثره.

فقوله تعالى: «أَقْتُلُوا يُوسُفَ حَكَايَهُ لِأَحَدِ الرَّأْيَيْنِ مِنْهُمْ فِي أَمْرِهِ، وَ فِي ذِكْرِهِمْ يَوْسُفَ وَحَدَّهُ- وَ قَدْ ذَكَرُوا فِي مَفْتَحِ كَلَامِهِمْ فِي الْمُوَامَرَةِ يَوْسُفَ وَ أَخَاهُ مَعَا «لِيُؤَسِّفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْبِنَا مِنَّا» - دليل على أنه كان مخصوصا بمزيد حب يعقوب و بلوغ عنايته و اهتمامه و إن كان أخوه أيضا محبو بالحب و الإكرام من بينهم و كيف لا؟! و يوسف هو الذى رأى الرؤيا و بشر بأخص العنايات الإلهيه و الكرامات الغيبيه، و قد كان أكبرهما و الخطر المتوجه من قبله اليهم أقرب مما من قبل أخيه، و لعل فى ذكر الأخوين معا إشاره الى حب يعقوب لامهما الموجب لوجهه بالطبع لهما و تهيج حسد الإخوه و غيظهم و حقدهم بالنسبه اليهما.

و قوله: «أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا حَكَايَهُ رَأْيِهِمُ الثَّانِي فِيهِ، وَ الْمَعْنَى صَيْرُوهُ أَوْ غَرَبُوهُ فِي أَرْضٍ لَا يَقْدِرُ مَعَهُ عَلَى الْعُودِ إِلَى بَيْتِ أَبِيهِ فَيَكُونُ كَالْمَقْتُولِ يَنْقَطِعُ أَثَرُهُ وَ يَسْتَرَاخُ مِنْ خَطَرِهِ كَالْقَائِئِ فِي بَثْرٍ أَوْ تَغْرِيْبِهِ إِلَى مَكَانٍ نَاءٍ وَ نَظِيرِ ذَلِكَ.

و الدليل عليه تنكير «أَرْضٍ» و لفظ الطرح الذى يستعمل فى القاء الانسان المتاع أو الأناث الذى يستغنى عنه و لا ينتفع به للإعراض عنه.

و فى نسبه الرأيين بالترديد اليهم، دليل على أن مجموع الرأيين كان هو المرضى عند أكثر الإخوه حتى قال قائل منهم: لا تقتلوا يوسف، الخ.

و قوله: «يَخْذُلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ أَى افعلوا به أحد الأمرين حتى يخلو لكم وجه أبيكم و هو كناية عن خلوص حبه لهم بارتفاع المانع الذى يجلب الحب و العطف الى نفسه كأنهم و يوسف إذا اجتمعوا و أباهم حال يوسف بينه و بينهم و صرف وجهه الى نفسه فإذا ارتفع خلا وجه أبيهم لهم و اختص حبه بهم و انحصر إقباله عليهم.

و قوله: «وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ أَى و تكونوا من بعد يوسف أو من

بعد قتله أو نفيه-و المآل واحد-قوما صالحين بالتوبه من هذه المعصيه.

و فى هذا دليل على أنهم كانوا يرونه ذنبا و إثما،و كانوا يحترمون أمر الدين و يقدسونه لكن غلبهم الحسد و سولت لهم أنفسهم اقتراف الذنب و ارتكاب المظلمه و آمنهم من عقوبه الذنب بتلقين طريق يمكنهم من الاعتراف من غير لزوم العقوبه الإلهيه و هو أن يقترفوا الذنب ثم يتوبوا.

و هذا من الجهل فإن التوبه التى شأنها هذا الشأن غير مقبوله البتة فإن من يوطن نفسه من قبل على المعصيه ثم التوبه منها لا يقصد بتوبته الرجوع الى الله و الخضوع لمقامه حقيقه بل إنما يقصد المكر بربه فى دفع ما أوعدده من العذاب و العقوبه مع المخالفه لأمره أو نهيه، فتوبته ذيل لما وطن عليه نفسه أولا: أن يذنب فيتوب فهى فى الحقيقه تتمه ما رامه أولا من نوع المعصيه و هو الذنب الذى تعقبه توبه و ليست رجوعا الى ربه بالندم على ما فعل. و قد تقدم البحث عن معنى التوبه فى تفسير قوله تعالى: **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ** الآية،(النساء ١٧/الجزء الرابع من الكتاب.

و قيل المراد بالصلاح فى الآيه صلاح الأمر من حيث سعادته الحياه الدنيا و انتظام الامور فيها و المعنى و تكونوا من بعده قوما صالحين بصلاح أمركم مع أبيكم.

قوله تعالى: **قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِي الْوُحُوشِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ** الجب هو البئر التى لم يطلو أى لم يبن داخلها بالحجاره،و إن بنى بها سميت البئر طويا،و الغيابه بفتح الغين المنهبط من الأرض الذى يغيب ما فيه من الأنظار و غيابه الجب قعره الذى لا يرى لما فيه من الظلمه.

و قد اختار هذا القائل الرأى الثانى المذكور فى الآيه السابقه الذى يشير اليه قوله: **«أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا»** إلا أنه قيده بما يؤمن معه القتل أو أمر آخر يؤدى الى هلاكه كأن يلقى فى بئر و يترك فيها حتى يموت جوعا أو ما يشاكل ذلك،فما أبداه من الرأى يتضمن نفى يوسف

من الأرض من غير أن يتسبب الى هلاكه بقتل أو موت أو نقص يشبهه فيكون اهلاكا لذى رحم، وهو أن يلقى فى بعض الآبار التى على طريق الماره حتى يعثروا به عند الاستقاء فيأخذوه و يسيروا به الى بلاد نائيه تعفو أثره و تقطع خبره، و السياق يشهد بأنهم ارتضوا هذا الرأى إذ لم يذكر رد منهم بالنسبه اليه و قد جرى عملهم عليه كما هو مذكور فى الآيات التاليه.

قوله تعالى: قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ أَصْل «لَا تَأْمَنَّا» لَا تَأْمَنَّا ثُمَّ ادْغَم بِالْإِدْغَامِ الْكَبِيرِ.

و الآيه تدل على ان الإخوه أجمعوا على قول القائل: لا- تقتلوا يوسف و ألقوه فى غياهبه الجب، و أجمعوا على أن يمكروا بأبيهم فيأخذوا يوسف و يفعلوا به ما عزموا عليه و قد كان أبوهم لا- يأمنهم على يوسف و لا يخليه و إياهم فكان من الواجب قبلا أن يزكوا أنفسهم عند أبيهم و يجلّوا قلبه من كدر الشبهه و الارتياب حتى يتمكنوا من أخذه و الذهاب به. و لذلك جاءوا أباهم و خاطبوه بقولهم: «يَا أَبَانَا - و فيه اثاره للعطف و الرحمه و إيثار للموده- مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ» أى و الحال أنا لا نريد به إلا الخير و لا نبتغى إلا ما يرضيه و يسره.

ثم سألوه ما يريدونه و هو أن يرسله معهم الى مرتعهم الذى كانوا يخرجون اليه ماشيتهم و غنمهم ليرتع و يلعب هناك، و هم حافظون له فقالوا «أَرْسَلُهُ مَعَنَا» الخ.

قوله: أَرْسَلُهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ الرتع هو توسع الحيوان فى الرعى و الانسان فى التنزه و أكل الفواكه و نحو ذلك.

و قولهم: «أَرْسَلُهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ» اقتراح لمسئولهم كما تقدمت الإشارة اليه و قولهم: «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» اكدوه بوجه التأكيد: إن و اللام و الجملة الاسميه على وزن قولهم: «وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ» كما يدل ان كل واحده من الجملتين تتضمن نوعا من التطيب

لنفس أبيهم كأنهم قالوا: ما لك لا تأمنا على يوسف فإن كنت تخاف عليه ايانا معشر الإخوه كأن نقصده بسوء فإننا له لناصحون و إن كنت تخاف عليه غيرنا مما يصيبه أو يقصده بسوء كأن يدهمه مكروه و نحن مساهلون فى حفظه و مستهينون فى كلاءته فإننا له لحافظون.

فالكلام مسوق على ترتيبه الطبيعى: ذكروا أولا- أنه فى أمن من ناحيتهم دائما ثم سألوا إن يرسله معهم غداه غد ثم ذكروا أنهم حافظون له ما دام عندهم، و بذلك يظهر ان قولهم: «وَإِذَا لَهُ لِنَاصِحُونَ» تأمين له دائمى من ناحيه انفسهم، و قولهم: «وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ» تأمين له موقت من غيرهم.

قوله تعالى: قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّبُّ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ هذا ما ذكر أبوهم جوابا لما سأله، و لم ينف عن نفسه أنه لا- يأمنهم عليه و إنما ذكر ما يأخذه من الحاله النفسانيه لو ذهبوا به فقال و قد أكد كلامه «إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ» و قد كشف عن المانع أنه نفسه التى يحزنها ذهابهم به لا ذهابهم به الموجب لحزنه تطفيا فى الجواب معهم و لئلا يهيج ذلك عنادهم و لجاجهم و هو من لطائف النكت.

و اعتذر اليهم فى ذلك بقولهم: «وَ أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّبُّ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ» و هو عذب موجه فإن الصحارى ذوات المراتع التى تأوى إليها المواشى و ترتع فيها الأغنام لا تخلو طبعاً من ذئب او سباع تقصدها و تكمن فيها للافتراس و الاصطياد فمن الجائر أن يقبلوا على بعض شأنهم و يغفلوا عنه فيأكله الذئب.

قوله تعالى: قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذُّبُّ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ تجاهلوا لأبيهم كأنهم لم يفقهوا إلا أنه يأمنهم عليه لكن يخاف أن يأكله الذئب على حين غفله منهم فردوه رد منكر مستغرب، و ذكروا لتطيب نفسه انهم جماعه اقوياء متعاضدون ذووا بأس و شده، و اقسما بالله إن أكل الذئب إياه و هم عصبه يقضى بخسرانهم و لن يكونوا

خاسرين البته، و إنما أقسموا- كما يدل عليه لام القسم- ليطيئوا نفسه و يذهبوا بحزنه فلا يمنعهم من الذهاب به، و هذا شائع فى الكلام «و فى الكلام وعد ضمنى منهم له أنهم لن يغفلوا» لكنهم لم يلبثوا يوما حتى كذبوا أنفسهم فيما أقسموا له و اخلفوه ما وعده، إذ قالوا «يا أبانا إنا ذهبنا نستيق و تركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب» الآية.

قوله تعالى: فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ قَالَ الرَّاعِبُ: أجمعت على كذا أكثر ما يقال فيما يكون جمعا يتوصل اليه بالفكره نحو فأجمعوا أمركم و شركاءكم. قال: و يقال: أجمع المسلمون على كذا اتفقت آراؤهم عليه. انتهى.

و فى المجمع: أجمعوا أى عزموا جميعا أن يجعلوه فى غيابه الجب أى قعر البئر و اتفقت دواعيهم عليه فإن من دعاه داع واحد الى الشئ لا يقال فيه إنه أجمع عليه فكأنه مأخوذ من اجتماع الدواعى. انتهى.

و الآية تشعر بأنهم أقنعوا أباهم بما قالوا له من القول و أرضوه أن لا يمنعهم أن يخرجوا يوسف معهم الى الصحراء فحملوه معهم لإنفاذ ما ازمعوا عليه من القائه فى غيابه الجب.

و جواب لما محذوف للدلاله على فجاعه الأمر و فظاعته، و هى صنعته شائعه فى الكلام ترى المتكلم يصف أمرا فظيعا كقتل فجيح يحترق به القلب و لا يطيقه السمع فيشرع فى بيان أسبابه و الاحوال التى تؤدى اليه فيجرى فى وصفه حتى إذا بلغ نفس الحادثه سكت سكوتا عميقا ثم وصف ما بعد القتل من الحوادث فيدل بذلك على أن صفه القتل بلغت من الفجاعه مبلغا لا يسع المتكلم أن يصرح به و لا يطيق السامع أن يسمعه.

فكان الذى يصف القصة- عز اسمه- لما قال «فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ» سكت مليا و أمسك عن ذكر ما فعلوا به أسى و أسفا لأن السمع لا يطيق وعى ما فعلوا بهذا الطفل المعصوم المظلوم النبى ابن الأنبياء و لم يأت بجرم يستحق به شيئا مما ارتكبه فيه و هم اخوته و هم يعلمون مبلغ حب أبيه النبى الكريم يعقوب له فيا قاتل الله

الحسد يهلك شقيقا مثل يوسف الصديق بأيدى إخوته، و يثكل أبا كريما مثل يعقوب بأيدى أبنائه، و يزين بغيا شنيعا كهذا فى اعين رجال ربوا فى حجر النبوه و نشثوا فى بيت الأنبياء.

و لما حصر الغرض بالسكوت عن جواب لما جرى سبحانه فى ذيل القصة فقال «وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ» الخ.

قوله تعالى: «وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ» الضمير ليوسف و ظاهر الوحي أنه من وحي النبوه، و المراد بأمرهم هذا إلقاءهم إياه فى غيابه الجب، و كذا الظاهر أن جملة «وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ» حال من الإيحاء المدلول عليه بقوله: «وَ أَوْحَيْنَا» الخ؛ و متعلق «لَا يَشْعُرُونَ» هو الأمر أى لا يشعرون بحقيقه أمرهم هذا أو الإيحاء أى و هم لا يشعرون بما أوحينا اليه.

و المعنى -و الله أعلم- و أوحينا الى يوسف أقسم لتخبرنهم بحقيقه أمرهم هذا و تأويل ما فعلوا بك فإنهم يرونه نفيا لشخصك و إنساء لاسمك و إطفاء لنورك و تذليلا لك و حطا لقدرك و هو فى الحقيقه تقرب لك الى أريكه العزه و عرش المملكه و إحياء لذكرك و إتمام لنورك و رفع لقدرك و هم لا يشعرون بهذه الحقيقه و ستنبئهم بذلك، و هو قوله لهم و قد أتكا على أريكه العزه و هم قيام أمامه يسترحمونه بقولهم: يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَ أَهْلْنَا الضُّرُّ وَ جِنَّا بِيضَاعِهِ مُرٌّ جَاهٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ إذ قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف و أخيه إذ أنتم جاهلون -الى أن قال- أَنَا يُوسُفُ وَ هَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا الخ.

انظر الى موضع قوله: «هَلْ عَلِمْتُمْ» فإنه إشاره الى أن هذا الذى تشاهدونه اليوم من الحال هو حقيقه ما فعلتم بيوسف، و قوله: «إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ» فإنه يحاذى من هذه الآيه التى نحن فيها قوله: «وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ» .

قوله تعالى: «وَ جَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ» العشاء آخر النهار، و قيل: من صلاه

المغرب الى العتمة، و إنما كانوا سيكون ليلبسوا الأمر على أيهم فيصدقهم فيما يقولون و لا يكذبهم.

قوله تعالى: **قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّبُّ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ**؛ قال الراغب في المفردات: أصل السبق التقدم في السير نحو «و السابقات سبقا» و الاستباق التسابق و قال «إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ» «وَ اسْتَبَقَا الْبَابَ» انتهى، و قال الزمخشري في الكشاف: نستبق أى نتسابق، و الافتعال و التفاعل يشتركان كالانتضال و التناضل و الارتماء و الترامى و غير ذلك، و المعنى نتسابق فى العدو أو فى الرمى. انتهى.

و قوله: **بِمُؤْمِنٍ لَنَا أَي بِمُصَدِّقٍ لِقَوْلِنَا**، و الإيمان يتعدى باللام كما يتعدى بالباء قال تعالى **فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ** (العنكبوت ٢٦).

و المعنى -إنهم حينما جاءوا أباهم عشاء سيكون قالوا لأبيهم: يا أبانا إنا معشر الإخوه ذهبنا الى البيداء نتسابق فى عدو أو رمى - و لعله كان فى عدو- فإن ذلك أبلغ فى إبعادهم من رحلهم و متاعهم و كان عنده يوسف على ما ذكروا- و تركنا يوسف عند رحلنا و متاعنا فأكله الذب، و من خيبتنا و مسكنتنا أنك لست بمصدق لنا فيما نقوله و نخبر به و لو كنا صادقين فيه.

و قولهم: **وَ مَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَ لَوْ كُنَّا صَادِقِينَ** كلام يأتى بمثله المعتذر إذا انقطع عن الأسباب و انسدت عليه طرق الحيله، للدلاله على أن كلامه غير موجه عند من يعتذر اليه و عذره غير مسموع و هو يعلم بذلك لكنه مع ذلك مضطر أن يخبر بالحق و يكشف عن الصدق و إن كان غير مصدق فيه، فهو كناية عن الصدق فى المقال.

قوله تعالى: **وَ جَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ** بالكذب بالفتح فالكسر مصدر أريد به الفاعل للمبالغه أى بدم كاذب بين الكذب.

و فى الآيه إشعار بأن القميص و عليه دم-و قد نكر الدم للدلاله على هو ان دلالتة و ضعفتها على ما وصفوه-كان على صفه تكشف عن كذبهم فى مقالهم فإن من افترسته السباع و أكلته لم تترك له قميصا سالما غير ممزق.هذا شأن الكذب لا يخلو الحديث الكاذب و لا الاحدوثه الكاذبه من تناف بين أجزاءه و تناقض بين أطرافه أو شواهد من أوضاع و أحوال خارجيه تحف به و تنادى بالصدق و تكشف القناع عن قبيح سريره و باطنه و إن حسنت صورته (١).

قوله تعالى: قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ هذا جواب يعقوب و قد فوجئ بنعى ابنه و حبيبه يوسف دخلوا عليه و ليس معهم يوسف و هم يبكون يخبرونه أن يوسف قد أكله الذئب و هذا قميصه المملخ بالدم،و قد كان يعلم بمبلغ حسدهم له و هم قد انتزعوه من يده بالحاح و إصرار و جاءوا بقميصه و عليه دم كذب ينادى بكذبهم فيما قالوه و أخبروا به.

فأضرب عن قولهم: «إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ» الخ؛ بقوله: «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً» و التسويل الوسوسه أى ليس الأمر على ما تخبرون بل وسوست لكم أنفسكم فيه أمرا،و أبهم الأمر و لم يعنيه ثم أخبر أنه صابر فى ذلك من غير أن يؤاخذهم و ينتقم منهم لنفسه انتقاما و إنما يكظم ما هجم نفسه كظما.

فقوله: بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً تكذيب لما أخبروا به من أمر يوسف و بيان أنه على علم من أن فقد يوسف لا يستند الى ما ذكره من افتراس السبع و إنما يستند الى مكر مكروه و تسويل من أنفسهم لهم،و الكلام بمنزله التوطئه لما ذكره بعد من قوله:

«فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» الى آخر الآيه.

ص: ٢٤٨

و قوله: فَصَبْرٌ جَمِيلٌ مدح للصبر و هو من قبيل وضع السبب موضع المسبب و التقدير: سأصبر على ما أصابني فإن الصبر جميل و تنكير الصبر و حذف صفته و إبهامها للإشارة الى فخامه أمره و عظم شأنه أو مراره طعمه و صعوبه تحمله.

و قد فرّع قوله: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» على ما تقدم للإشعار بأن الأسباب التي أحاطت به و أفرغت عليه هذه المصيبة هي بحيث لا يسع له معها إلا أن يملك سبيل الصبر، و ذلك أنه عليه السلام فقد أحب الناس اليه يوسف و هو ذا يذكر له أنه صار أكله للذئب و هذا قميصه ملطخا بالدم و هو يرى أنهم كاذبون فيما يخبرونه به، و يرى أن لهم صنعا في افتقاده و مكرا في أمره و لا طريق له الى التحقيق فيما جرى على يوسف و التجسس مما آل اليه أمره و أين هو؟ و ما حاله؟ فإنما أعوانه على أمثال هذه النوائب و أعضاده لدفع ما يقصده من المكاره إنما هم أبنائوه و هم عصبه أولو قوه و شدة فإذا كانوا هم الأسباب لنزول النائبة و وقوع المصيبة فبمن يقع فيهم؟ و بما ذا يدفعهم عن نفسه؟ فلا يسعه إلا الصبر.

فقوله: وَ اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَيَّ مَا تَصِفُونَ - و هو من أعجب الكلام - بيان لتوكله على ربه يقول: إني أعلم أن لكم في الأمر مكرا و أن يوسف لم يأكله ذئب لكنى لا أركن في كشف كذبكم و الحصول على يوسف بالأسباب الظاهره التي لا تغني طائلا بغير إذن من الله و لا أتشحط بينها بل أضبط استقامه نفسى بالصبر و أوكل ربي أن يظهر على ما تصفون أن يوسف قد قضى نحبه و صار أكله للذئب.

فظهر أن قوله: «وَ اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَيَّ مَا تَصِفُونَ» دعاء في موقف التوكل و معناه: اللهم إني توكلت عليك في أمرى هذا فكن عوناً لى على ما يصفه بنى هؤلاء، و الكلمه مبنيه على توحيد الفعل فإنها مسوقه سوق الحصر و معناها أن الله سبحانه هو المستعان لا مستعان لى غيره فإنه عليه السلام كان يرى أن لا حكم حقا إلا حكم الله كما قال فيما سيأتى من كلامه «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ»، و لتكميل هذا التوحيد بما هو أعلى منه لم يذكر نفسه فلم يقل:

سأصبر و لم يقل: و الله أستعين على ما تصفون بل ترك نفسه و ذكر اسم ربه و أن الأمر منوط بحكمه الحق و هو من كمال توحيده و هو مستغرق فى وجده و أسفه و حزنه ليوسف غير أنه ما كان يحب يوسف و لا يتوله فيه و لا يجد لفقده إلا لله و فى الله.

قوله تعالى: وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ قَالَ الرَّاعِبُ:الورود أصله قصد الماء ثم يستعمل فى غيره.انتهى، وقال:دلوت الدلو إذا أرسلتها،و أدليتها إذا أخرجتها.انتهى،وقيل بالعكس،وقال:الإسرار خلاف الإعلان.انتهى.

وقوله: قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ إيراده بالفصل مع أنه متفرع وقوعا على إدلاء الدلو للدلالة على أنه كان أمرا غير مترقب الوقوع فإن الذى يترقب وقوعه غير الإدلاء هو خروج الماء دون الحصول على غلام فكان مفاجئا لهم و لذا قال «قَالَ يَا بُشْرَى» و نداء البشرى كنداء الأسف و الويل و نظائرها للدلالة على حضوره و جلاء ظهوره.

وقوله: وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ مفاده ذم عملهم و الإنابه عن كونه معصيه محفوظه عليهم سيؤاخذون بها،و يمكن أن يكون المراد به أن ذلك إنما كان بعلم من الله أراد بذلك أن يبلغ يوسف مبلغه الذى قدر له فإنه لو لم يخرج من الجب و لم يسر بضاعه لم يدخل بيت العزيز بمصر فلم يؤت ما اوتيه من الملك و العزه.

و المعنى الآيه:و جاءت جماعه ماره الى هناك فأرسلوا من يطلب لهم الماء فأرسل دلوه فى الجب ثم لما أخرجها فاجأهم بقوله: «يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ» -وقد تعلق يوسف بالحبل فخرج-فأخفوه بضاعه يقصد بها البيع و التجاره و الحال أن الله سبحانه عليم بما يعملون يؤاخذهم عليه أو أن ذلك كان بعلمه تعالى و كان يسير يوسف هذا المسير ليستقر فى مستقر العزه و الملك و النبوه.

قوله تعالى: وَشَرُّهُ بِثَمَنِ بَخْسٍ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ

الزَّاهِدِينَ الثَّمَنُ الْبَخْسُ هُوَ النَّاقِصُ عَنِ حَقِّ الْقِيَمَةِ، وَدِرَاهِمٌ مَعْدُودَةٌ أَيْ قَلِيلَةٌ وَالْوَجْهُ فِيهِ -عَلَى مَا قِيلَ- أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا كَثُرَتِ الدِّرَاهِمُ أَوْ الدَّنَانِيرُ وَزَنُوهَا وَ لَا يَعْدُونَ إِلَّا الْقَلِيلَةَ مِنْهَا وَ الْمُرَادُ بِالدِّرَاهِمِ النُّقُودَ الْفُضِيَّةَ الدَّائِرَةَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ، وَ الشِّرَاءُ هُوَ الْبَيْعُ، وَ الزَّهْدُ هُوَ الرَّغْبَةُ عَنِ الشَّيْءِ أَوْ هُوَ كُنْيَاةٌ عَنِ الْإِتْقَانِ.

وَ الظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ ضَمِيرِي الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ: «وَ شَرَوْهُ» «وَ كَانُوا» لِلسِّيَارَةِ وَ الْمَعْنَى أَنَّ السِّيَارَةَ الَّذِينَ أَخْرَجُوهُ مِنَ الْجَبِّ وَ أَسْرُوهُ بِضَاعَهُ بَاعُوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ نَاقِصٍ وَ هِيَ دِرَاهِمٌ مَعْدُودَةٌ قَلِيلَةٌ وَ كَانُوا يَتَّقُونَ أَنَّ يَظْهَرُ حَقِيقَةَ الْحَالِ فَيَتَتَرَعَّعُ هُوَ مِنْ أَيْدِيهِمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَ قَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَ لَدَا السِّيَاقِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السِّيَارَةَ حَمَلُوا يَوْسُفَ مَعَهُمْ إِلَى مِصْرَ وَ عَرَضُوهُ هُنَاكَ لِلْبَيْعِ فَاشْتَرَاهُ بَعْضُ أَهْلِ مِصْرَ وَ أَدْخَلَهُ فِي بَيْتِهِ.

وَ قَدْ أَعْجَبَتِ الْآيَاتُ فِي ذِكْرِ هَذَا الَّذِي اشْتَرَاهُ وَ تَعْرِيفَهُ فَذَكَرَ فِيهَا أَوْلَا بِمِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى:

«وَ قَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ فَأَنْبَأَتْ أَنَّهُ كَانَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مِصْرَ، وَ ثَانِيًا بِمِثْلِ قَوْلِهِ: «وَ أَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ فَعَرَفْتَهُ بِأَنَّهُ كَانَ سَيِّدًا مِصْرِيًّا» وَ ثَالِثًا بِمِثْلِ قَوْلِهِ: «وَ قَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ فَأَوْضَحَتْ أَنَّهُ كَانَ عَزِيزًا فِي مِصْرَ يَسْلَمُ لَهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ الْعِزَّةَ وَ الْمَنَاعَةَ، ثُمَّ أَشَارَتْ إِلَى أَنَّهُ كَانَ لَهُ سِجْنٌ وَ هُوَ مِنْ شُؤْنِ مِصْرِيَّةِ الْأُمُورِ وَ الرَّئِيسَةِ بَيْنَ النَّاسِ، وَ عَلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ يَوْسُفَ كَانَ ابْتِيعَ أَوَّلَ يَوْمٍ لِعَزِيزِ مِصْرَ وَ دَخَلَ بَيْتَ الْعِزَّةِ.

وَ بِالْجَمَلِ لَمْ يَعْرِفِ الرَّجُلُ كُلَّ مَرَّةٍ فِي كَلَامِهِ تَعَالَى إِلَّا بِمَقْدَارِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مَوْقِفَ الْحَدِيثِ مِنَ الْقِصَّةِ، وَ لَمْ يَكُنْ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي تَعْرِيفِهِ حَاجَةٌ إِلَى أَزِيدٍ مِنْ وَصْفِهِ بِأَنَّهُ كَانَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مِصْرَ وَ بِهَا بَيْتُهُ فَلِذَا اقْتَصَرَ فِي تَعْرِيفِهِ بِقَوْلِهِ: «وَ قَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ».

وَ كَيْفَ كَانَ، الْآيَةُ تَنْبِئُ عَلَى إِيجَازِهَا أَنَّ السِّيَارَةَ حَمَلُوا يَوْسُفَ مَعَهُمْ وَ أَدْخَلُوهُ مِصْرَ وَ شَرُوهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِهَا فَأَدْخَلَهُ بَيْتَهُ وَ وَصَّاهُ امْرَأَتَهُ قَائِلًا: اكَرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ

نتخذه ولدا.

فقوله: وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ أَي الْعَزِيزِ «الْمَرْأَتِ» وَ هِيَ الْعَزِيزَةُ «أَكْرَمِي مَنَوَاهُ» أَي تَصَدَّى بِنَفْسِكَ أَمْرَهُ وَ اجْعَلِي لَهُ مَقَامًا كَرِيمًا عِنْدَكَ «عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا» فِي مَقَاصِدِنَا الْعَالِيَةِ وَ أَمُورِنَا الْهَامَةِ «أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا» بِالتَّبْنِيِّ.

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ قال في المفردات المكان عند أهل اللغة الموضع الحاوي للشيء قال و يقال: مكنته و مكنت له فتمكن، قال تعالى: وَ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيهَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ وَ نُمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ قال: قال الخليل: المكان مفعول من الكون، و لكثرتة في الكلام أجرى مجرى فعال ففعل: تمكن و تمسكن مثل تمززل. انتهى. فالمكان هو مقر الشيء من الأرض، و الإمكان و التمكين الإقرار و التقرير في المحل، و ربما يطلق المكان المكانة لمستقر الشيء من الامور المعنويه كالمكانة في العلم و عند الناس يقال:

أمكنته من الشيء فتمكن منه أي أقدرته فقدر عليه و هو من قبيل الكناية.

و لعل المراد من تمكين يوسف في الأرض إقراره فيه بما يقدر معه على التمتع من مزايا الحياه و التوسع فيها بعد ما حرّم عليه إخوته القرار على وجه الأرض فألقوه في غيابه الجب ثم شروه بثمن بخس ليسير به الركبان من أرض الى أرض و يتغرب عن أرضه و مستقر أبيه.

و قد ذكر تعالى تمكينه ليوسف في الأرض في خلال قصته مرتين إحداهما بعد ذكر خروجه من غيابه الجب و تسيير السياره إياه الى مصر و بيعه من العزيز و هو قوله في هذه الآيه: وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَ ثَانِيَتُهُمَا بعد ذكر خروجه من سجن العزيز و انتصابه على خزائن أرض مصر حيث قال تعالى: وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ (الآيه ٥٦ من السوره) و العناية في الموضعين واحده.

ص: ٢٥٢

وقوله: وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ الْإِشَارَةَ إِلَى مَا ذَكَرَهُ مِنْ إِخْرَاجِهِ مِنَ الْجَبِّ وَبَيْعِهِ وَاسْتِقْرَارِهِ فِي بَيْتِ الْعَزِيزِ فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْ تَمْكِينِهِ فِي الْأَرْضِ هَذَا الْمَقْدَارَ مِنَ التَّمَكِينِ الَّذِي حَصَلَ بِهِ مِنْ دَخُولِهِ فِي بَيْتِ الْعَزِيزِ وَاسْتِقْرَارِهِ فِيهِ عَلَى أَهْنِ عَيْشٍ بِتَوْصِيهِ الْعَزِيزِ فَالتَّشْبِيهِ مِنْ قَبِيلِ تَشْبِيهِ الشَّيْءِ بِنَفْسِهِ لِيَدُلَّ بِهِ عَلَى غَزَارِهِ الْأَوْصَافِ الْمَذْكُورَةِ لَهُ وَ لَيْسَ مِنَ الْقِسْمِ الْمَذْمُومِ مِنْ تَشْبِيهِ الشَّيْءِ بِنَفْسِهِ كَقَوْلِهِ:

كَأَنَّا وَالْمَاءُ مِنْ حَوْلِنَا

قَوْمٌ جُلُوسٌ حَوْلَهُمْ مَاءٌ

بل المراد أن ما فعلنا به من التمكين في الأرض كان يماثل هذا الذي وصفناه وأخبرنا عنه فهو يتضمن من الأوصاف الغزيره ما يتضمنه ما حدثناه فهو تल्प في البيان بجعل الشئء مثل نفسه بالتشبيه دعوى ليلفت به ذهن السامع الى غزاره أوصافه وأهميتها و تعلق النفس بها كما هو شأن التشبيه.

و من هذا الباب قوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (الشورى ١١) وقوله تعالى: لِيَمِثِلَ هَذَا فليعملِ الْعَامِلُونَ (الصفات ٦١) والمراد أن كل ما اتصف من الصفات بما اتصف به الله سبحانه لا يشبهه و لا يماثله شئء، و أن كل ما اشتمل من الصفات على ما اشتملت عليه الجنة و مائلها في صفاتها فليعملِ الْعَامِلُونَ لأجل الفوز به.

و إن كان المراد بالتمكين مطلق تمكينه في الأرض فتشبيهه بما ذكر من الوصف من قبيل تشبيه الكلى ببعض أفراده ليدل به على أن سائر الأفراد حالها هذا الفرد أو تشبيه الكل ببعض اجزائه للدلالة على أن الأجزاء الباقية حالها حال ذاك الجزء المذكور فيكون المعنى كان تمكيننا ليوسف في الأرض يجرى على هذا النمط المذكور في قصه خروجه من الجب و دخوله مصر و استقراره في بيت العزيز على أحسن حال فإن إخوته حسدوه و حرموا عليه القرار على وجه الأرض عند أبيه فألقوه في غيابه الجب و سلبوه نعمه التمتع في وطنه في البادية و باعوه من السياره ليغربوه من أهله فجعل الله سبحانه كيدهم هذا بعينه سببا يتوسل

به الى التمكّن والاستقرار في بيت العزيز بمصر على أحسن حال ثم تعلقت به امرأه العزيز وراودته هي و نسوه مصر ليوردنه في الصبوه و الفحشاء فصرف الله عنه كيدهن و جعل ذلك بعينه وسيله لظهور إخلاصه و صدقه في ايمانه ثم بدا لهم أن يجعلوه في السجن و يسلبوا عنه حريه معاشره الناس و المخالطه لهم فتسبب الله سبحانه بذلك بعينه الى تمكينه في الأرض تمكينا يتبوء من الأرض حيث يشاء لا يمنعه مانع و لا يدفعه دافع.

و بالجمله الآيه على هذا التقدير من قبيل قوله تعالى: كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (المؤمن ٧٤) وقوله: كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (الرعد ١٧) أي إن إضلاله تعالى للكافرين يجرى دائما هذا المجرى، و ضربه الأمثال أبدا على هذا النحو من المثل المضروب و هو أنموذج ينبغي أن يقال اليه غيره.

و قوله: وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ بيان لغايه التمكين المذكور و اللام للغايه، و هو معطوف على مقدر و التقدير:مكننا له في الأرض لنفعل به كذا و كذا و لنعلمه من تأويل الأحاديث و إنما حذف المعطوف عليه للدلاله على أن هناك غايات أخر لا يسعها مقام التخاطب، و من هذا القبيل قوله تعالى: وَ كَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (الأنعام ٧٥) و نظائره.

و قوله: وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ الظاهر أن المراد بالأمر الشأن و هو ما يفعله في الخلق مما يتركب منه نظام التدبير قال تعالى: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ (يونس ٣)، و إنما أضيف اليه تعالى لأنه مالك كل أمر كما قال تعالى: أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ ﴿بَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف ٥٤).

و المعنى أن كل شأن من شئون الصنع و الإيجاد من أمره تعالى و هو تعالى غالب عليه و هو مغلوب له مقهور دونه يطيعه فيما شاء، ينقاد له فيما أراد، ليس له أن يستكبر او يتمرد فيخرج من سلطانه كما ليس له أن يسبقه تعالى و يفوته، قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ بِأَعْيُنِهِ أَمْرُهُ

و بالجمله هو تعالى غالب على هذه الأسباب الفعالة بإذنه يحمل عليها ما يريد فليس لها إلا السمع و الطاعه و لكن أكثر الناس لا يعلمون لحسابانهم أن الأسباب الظاهره مستقله فى تأثيرها فعاله برءوسها فإذا ساقطت الحوادث الى جانب لم يحولها عن وجهتها شىء و قد أخطئوا (١).

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٢٢ الى ٣٤]

اشاره

وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) وَ رَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَ قَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَتَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوْءَ وَ الْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَ اسْتَبَقَا الْبَابَ وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَ الْفُلْيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَيِّجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَ اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) وَ قَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَ آتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَ قَالَتِ أُخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَ قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَ لَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيَسْجَنَنَّ وَ لَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)

ص: ٢٥٥

قوله تعالى: **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** بلوغ الأشد أن يعمر الإنسان ما تشتد به قوى بدنه و تتقوى به أركانه بذهاب آثار الصباوه، و يأخذ ذلك من ثمانية شر من عمره الى سن الكهوله التي عندها يكمل العقل و يتم الرشد.

و الظاهر أن المراد به الانتهاء الى أول سن الشباب دون التوسط فيه أو الانتهاء الى آخره كالأربعين، و الدليل عليه قوله تعالى فى موسى عليه السلام: **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا** (القصص ١٤) حيث دل على التوسط فيه بقوله: «استوى»، و قوله: **حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَهُ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ** (الأحقاف ١٥) فلو كان بلوغ الأشد هو بلوغ الأربعين لم تكن حاجه الى تكرار قوله: «بَلَغَ» .

و قوله: **آتَيْنَاهُ حُكْمًا** الحكم هو القول الفصل و إزالة الشك و الريب من الامور القابله للاختلاف-على ما يتحصل من اللغه-و لازمه إصابه النظر فى عامه المعارف الإنسانيه الراجعه الى المبدأ و المعاد و الأخلاق النفسانيه و الشرائع و الآداب المرتبطه بالمجتمع البشرى.

و بالنظر الى قوله عليه السلام لصاحبيه فى السجن: **إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ** (الآيه ٤٠ من السوره)، و قوله بعد: **قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِينَ** (الآيه ٤١ من السوره)، يعلم أن هذا الحكم الذى أوتيه كان هو حكم الله فكان حكمه حكم الله، و هذا هو الذى سأله إبراهيم عليه السلام من ربه إذ قال: **رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** (الشعراء ٨٣).

و قوله: **وَعِلْمًا** و هذا العلم المذكور المنسوب الى إيتائه تعالى كيفما كان و أى مقدار كان علم لا يخالطه جهل كما أن الحكم المذكور معه حكم لا يخالطه هوى نفسانى و لا

تسويل شيطاني كيف؟ و الذي آتاهما هو الله سبحانه و قد قال تعالى: وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ (الآيه ٢١ من السوره)، و قال: إِنَّ اللَّهَ بِأَعْيُنِنَا (الطلاق ٣) فما آتاه من الحكم لا يخالطه تزلزل الريب و الشك، و ما يؤتیه من العلم لا يكون جهلا البته.

ثم من المعلوم أن هذه المواهب الإلهيه ليست بأعمال جزافيه و لا لغوا أو عبثا منه تعالى فالنفوس التي تؤتى هذا الحكم و العلم لا تستوى هم و النفوس الخاطئه في حكمها المنغمره في جهلها، و قد قال تعالى: وَ الْبَاطِلُ يُخْرِجُ لِبَاطِنِهِ يَأْذِنُ رَبِّهِ وَ الَّذِي خَبَثَ لَآ يُخْرِجُ إِلَّا نَكَدًا (الأعراف ٥٨) و الى ذلك الإشاره بقوله: «وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» حيث يدل على أن هذا الحكم و العلم اللذين آتاهما الله إياهما الله إياه لم يكونا موهبتين ابتدائيتين لا مستدعى لهما أصلا بل هما من قبيل الجزاء جزاه الله بهما لكونه من المحسنين.

و ليس من البعيد أن يستفاد من قوله: «وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» أن الله تعالى يجزي كل محسن -على اختلاف صفات الإحسان- شيئا من الحكم و العلم يناسب موقعه في الإحسان و قد قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ (الحديد ٢٨) و قال تعالى: أَوْ مَنْ كَانَ مِثْنًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ (الأنعام ١٢٢).

و هذا العلم المذكور في الآيه يتضمن ما وعد الله سبحانه تعليمه ليوسف من تأويل الأحاديث فإنه واقع بين قوله تعالى في الآيات السابقه: «وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» و قوله حكايه عن يوسف في قوله لصاحبيه في السجن: «ذَلِكُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي» فافهم ذلك.

قوله تعالى: وَ رَأَوْنَاهُ فِي بَيْتِنَا عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَ قَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ قال في المفردات: الرود هو التردد في طلب الشيء برفق و منه الرائد لطالب الكلاء، قال: و الإراده

منقوله من راد يروود إذا سعى فى طلب شىء، قال: و المرأوده أن تنازع غيرك فى الإراده فتريد غير ما يريد أو ترود غير ما يروود، و راودت فلانا عن كذا، قال تعالى: هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَ قَالَ: تَرَاوَدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ أَى تصرفه عن رأيه، و على ذلك قوله: وَ لَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ سَرَّارًا وَ عَنْهُ أَبَاهُ انْتَهَى.

و فى المجمع: المرأوده المطالبه بأمر بالرفق و اللين ليعمل به و منه المرود لأنه يعمل به، و لا يقال فى المطالبه بدين: راوده، و أصله من راد يروود إذا طلب المرعى، و فى المثل: الرائد لا يكذب أهله، و التعليق إطباق الباب بما يعسر فتحه، و إنما شدد ذلك لتكثير الإغلاق أو للمبالغه فى الإيثاق، انتهى.

و هيت لك اسم فعل بمعنى هلم، و معاذ الله أى اعوذ بالله معادا فهو مفعول مطلق قائم مقام فعله.

و الآيه الكريمة «وَ رَاوَدْتُهُ النَّبِيَّ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَ قَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» على ما فيها من الإيجاز تنبئ عن إجمال قصه المرأوده غير أن التدبر فى القيود المأخوذه فيها و السياق الذى هى واقع فيه و سائر ما يلوح من أطراف قصته المورده فى السوره يجلى عن حقيقه الحال و يكشف القناع عن تفصيل ما خبئ من الأمر (١).

و قوله: قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ الى آخر الآيه؛ جواب ليوسف يقابل به مسألتها بالعياذ بالله يقول: أعوذ بالله معاذ مما تدعيننى اليه لأنه ربي الذى تولى أمرى و أحسن مثواى و جعلنى بذلك سعيدا مفلحا و لو اقترفت هذا الظلم لتغربت به عن الفلاح و خرجت به من تحت ولايته.

ص: ٢٥٩

(١ - ١). يوسف ٢٢-٣٤: كلام حول قصه يوسف (يوسف، امرأه العزيز، يوسف و امرأه العزيز).

وقد راعى عليه السلام فى كلامه هذا أدب العبوديه كله كما تقدم وقد أتى أولاً بلفظه «الجلاله» ثم بصفه الربوبيه ليدل به على أنه لا يعبد ربا غير الله مله آباءه إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصِّرَفَ عَنْهُ الشُّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** التدبر البالغ فى أطراف القصة وإمعان النظر فيما محتف به الجهات والأسباب والشرائط العامله فيها يعطى أن نجاه يوسف منها لم تكن إلا أمرا خارقا للعاده و واقعه هى أشبه بالرؤيا منها باليقظه.

فقد كان يوسف عليه السلام رجلا- و من عزيزه الرجال الميل الى النساء،و كان شابا بالغا أشده و ذلك أو ان غليان الشهوه و ثوران الشبق،و كان ذا جمال بديع يدهش العقول و يسلب الألباب و الجمال و الملاحه يدعو الى الهوى و الترح،و كان مستغرقا فى النعمه و هنىء العيش محبورا بمثوى كريم و ذلك من أقوى أسباب التهوس و الإتراف،و كانت الملكه فتاه فائقه الجمال و كذلك تكون حرم الملوک و العظماء.

و كانت لا محاله متزينه بما يأخذ بمجامع كل قلب،و هى عزيزه مصر و هى عاشقه و آلهه تتوق إليها النفوس نفسها اليه،و كانت لها سوابق الإ-كرام و الإحسان و الإنعام ليوسف و ذلك كله مما يقطع اللسان و يصمت الإنسان،و قد تعرضت له و دعتة الى نفسها و الصبر مع التعرض أصعب،و قد راودته هذه الفتانه و أتت فيها بما فى مقدرتها من الغنج و الدلال،و قد ألحت عليه فجذبتة الى نفسها حتى قدت قميصه و الصبر معها أصعب و أشق،و كانت عزيزه لا يرد أمرها و لا يثنى رأيها،و هى ربتة خصه بها العزيز،و كانا فى قصر زاه من قصور الملوک ذى المناظر الرائقه التى تبهر العيون و تدعو الى كل عيش هنىء.

و كانا فى خلوه و قد غلقت الأبواب و أرخت الستور،و كان لا يأمن الشر مع الامتناع، و كان فى أمن من ظهور الأمر و انتهاك الستر لأنها كانت عزيزه بيدها أسباب الستر و التعميه، و لم تكن هذه المخالطه فائته لمره بل كان مفتاحا لعيش هنىء طويل،و كان يمكن ليوسف

أن يجعل هذه المخالطه و المعاشقه وسيله يتوسل بها الى كثير من آمال الحياه و أمانيهها كالمملك و العزه و المال.

فهذه أسباب و أمور هائله لو توجهت الى جبل لهدته أو أقبلت على صخره صماء لأذابتها و لم يكن هناك مما يتوهم مانعا إلا الخوف من ظهور الأمر أو منعه نسب يوسف أو قبح الخيانه للعزيز.

أما الخوف من ظهور الأمر فقد مر أنه كان فى أمر منه. و لو كان بدأ من ذلك شىء لكان فى وسع العزيزه أن تؤوله تأويلا كما فعلت فيما ظهر من أمر مرادتها فكادت حتى أرضت نفس العزيز إرضاء فلم يؤاخذها بشىء و قلبت العقوبه ليوسف حتى سجن.

و أما منعه النسب فلو كانت مانعه لمنعت إخوه يوسف عما هو أعظم من الزنا و أشد إثما فإنهم كانوا أبناء إبراهيم و إسحاق و يعقوب أمثال يوسف فلم تمنعهم شرافه النسب من أن يهوما بقتله و يلقوه فى غيايت الجب و يبيعون من السياره بيع العبيد و يتكلموا فيه أباهم يعقوب النبى صلى الله عليه و آله و سلم فبكى حتى ابيضت عيناه.

و أما قبح الخيانه و حرمتها فهو من القوانين الاجتماعيه و القوانين الاجتماعيه إنما تؤثر أثرها بما تستتبعه من التبعه على تقدير المخالفه، و ذلك إنما يتم فيما إذا كان الإنسان تحت سلطه القوه المجريه و الحكومه العادله، و أما لو أغفلت القوه المجريه أو فسقت فأهملت أو خفى الجرم عن نظرها أو خرج من سلطانها فلا تأثير حينئذ لشيء من هذه القوانين كما ستتكلم فيه عن قريب.

فلم يكن عند يوسف عليه السلام ما يدفع به عن نفسه و يظهر به على هذه الأسباب القويه التى كانت لها عليه إلا أصل التوحيد و هو الإيمان بالله. و إن شئت فقل المحبه الإلهيه التى ملأت وجوده و شغلت قلبه فلم تترك لغيرها محلا و لا موضع إصبع. فهذا هو ما يفيدته التدبر فى القصه. و لارجع الى متن الآيه.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٍ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصِّرَفَ عَنْهُ الشُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ لَا رَيْبَ أَنَّ الْآيَةَ تَشِيرُ إِلَى وَجْهِ نَجَاةِ يُوسُفَ مِنْ هَذِهِ الْغَائِلَةِ، وَالسِّيَاقُ يُعْطِي أَنَّ الْمُرَادَ بِصِرْفِ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ عَنْهُ إِجْنَازُهُ مِمَّا أُرِيدَ مِنْهُ وَسُئِلَ بِالْمُرَاوَدِ وَالْخُلُوهِ، وَإِنْ الْمَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: «كَذَلِكَ» هُوَ مَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» .

فَيُتَوَلَّى مَعْنَى قَوْلِهِ: «كَذَلِكَ لِنَصِّرَفَ» إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ إِلَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا كَانَ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ صِرْفَنَا عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ بِمَا رَأَى مِنْ بُرْهَانِ رَبِّهِ فَرُؤِيهِ بُرْهَانَ رَبِّهِ هِيَ السَّبَبُ الَّذِي صِرْفَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِهِ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَلَا يَزِمُ ذَلِكَ أَنَّ يَكُونَ الْجِزَاءُ الْمَقْدَرُ لِقَوْلِهِ: «لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» هُوَ ارْتِكَابُ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ، وَلَا يَزِمُ ذَلِكَ أَنَّ يَكُونَ «لَوْلَا أَنْ رَأَى» الْخَطِّ قَيْدًا لِقَوْلِهِ: «وَهَمَّ بِهَا» وَذَلِكَ يَقْتَضِي أَنَّ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِمْ بِهَا نَظِيرَ هَمِّهَا بِهِ هُوَ الْقَصْدُ إِلَى الْمَعْصِيَةِ وَيَكُونَ حِينَئِذٍ هَمُّهَا بِهَا دَاخِلًا تَحْتَ الشَّرْطِ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ لَهَمَّ بِهَا وَأَوْشَكَ أَنْ يَرْتَكِبَ فَإِنَّ «لَوْلَا»، وَإِنْ كَانَتْ مَلْحَقَةً بِأَدْوَاتِ الشَّرْطِ وَقَدْ مَنَعَ النَّحَاهُ تَقَدُّمَ جِزَائِهَا عَلَيْهَا قِيَاسًا عَلَى إِنْ الشَّرْطِيَّةِ إِلَّا أَنَّ قَوْلَهُ: «وَهَمَّ بِهَا» لَيْسَ جِزَاءً لَهَا بَلْ هُوَ مَقْسَمٌ بِهِ بِالْعَطْفِ عَلَى قَوْلِهِ: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٍ» وَهُوَ فِي مَعْنَى الْجِزَاءِ اسْتِغْنَى بِهِ عَنْ ذِكْرِ الْجِزَاءِ فَهُوَ كَقَوْلِنَا: وَاللَّهِ لِأَضْرِبَنَّهُ إِنْ يَضْرِبَنِي وَالْمَعْنَى: وَاللَّهِ إِنْ يَضْرِبَنِي أَضْرِبُهُ.

وَمَعْنَى الْآيَةِ: وَاللَّهُ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَاللَّهُ لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ لَهَمَّ بِهَا وَأَوْشَكَ أَنْ يَقَعَ فِي الْمَعْصِيَةِ، وَإِنَّمَا قُلْنَا: أَوْشَكَ أَنْ يَقَعَ، وَلَمْ نَقُلْ: وَقَعَ لِأَنَّ الْهَمَّ - كَمَا قِيلَ - لَا يَسْتَعْمَلُ إِلَّا فِيمَا كَانَ مَقْرُونًا بِالْمَانِعِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا» (التَّوْبَةُ ٧٤)، وَقَوْلُهُ: إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا (آلِ عِمْرَانَ ١٢٢)، وَقَوْلُ صَخْرٍ:

أَهْمُّ بِأَمْرِ الْحِزْمِ لَا أُسْتَطِيعُهُ

وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الْعَيْرِ وَالنِّزْوَانِ

ص: ٢٤٢

فلو لا ما رآه من البرهان لكان الواقع هو الهمم و الاقتراب دون الارتكاب و الاقتراف، و قد أشار سبحانه الى ذلك بقوله: «لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشَاءَ» و لم يقل: لنصرفه عن السوء و الفحشاء فتدبر فيه.

و من هنا يظهر أن الأنسب أن يكون المراد بالسوء هو الهمم بها و الميل إليها كما أن المراد بالفحشاء اقتراف الفاحشه و هى الزنا فهو عليه السلام لم فعل و لم يكذب، و لو لا ما أراه الله من البرهان لهمم و كاد أن يفعل، و هذا المعنى هو الذى يؤيده ما قدمناه من الاعتبار و التأمل فى الأسباب و العوامل المجتمعه فى هذا الحين القاضيه لها عليه.

فقوله تعالى: وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِه اللام فيه للقسم، و المعنى و أقسم لقد قصدت يوسف بما تريده منه و لا يكون الهم إلا بأن تشفع الإراده بشىء من العمل.

و قوله: وَ هَمَّ بِهَا لَوْلَا - أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ معطوف على مدخول لام القسم من الجملة السابقه، و المعنى أقسم لو لا رؤيته برهان ربه لهمم بها و كاد أن يجيبها لما تريده منه.

و البرهان هو السلطان و يراد به السبب المفيد لليقين لتسلطه على القلوب كالمعجزه قال تعالى: فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ (القصص ٣٢)، و قال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ (النساء ١٧٤)، و قال: أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلُوبٌ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (النمل ٦٤) و هو الحجج اليقينيّه التى تجلى الحق و لا تدع ريباً لمرتاب.

و الذى رآه يوسف عليه السلام من برهان ربه و إن لم يوضحه كلامه تعالى كل الإيضاح لكنه -على أى حال- كان سبباً من أسباب اليقين لا -يجامع الجهل و الضلال بتاتا، و يدل على أنه كان من قبيل العلم قول يوسف عليه السلام فيما يناجى ربه كما سيأتى: وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصِيبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنُّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (الآيه ٣٣ من السوره)، و يدل على أنه ليس من العلم المتعارف بحسن الأفعال و قبحها و مصلحتها و مفسدتها أن هذا النوع من العلم قد

يُجَامِعُ الضَّلَالِ وَالْمَعْصِيَةِ وَهُوَ ظَاهِرٌ، قَالَ تَعَالَى: أَمْ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ (الجاثية ٢٣) وَقَالَ: وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ (النمل ١٤).

فالبرهان الذى أراه به و هو الذى يريه الله عباده المخلصين نوع من العلم المكشوف و اليقين المشهود تطيعه النفس الإنسانية طاعه لا تميل معها الى معصيه أصلا، و سنورد فيه بعض الكلام إن شاء الله تعالى.

و قوله: كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ اللام في «لِنَصْرِفَ» للغايه أو التعليل و المآل واحد و «كَذَلِكَ» متعلق بقوله: «لِنَصْرِفَ» و الإشارة الى ما ذكر من رؤيه برهان ربه، و السوء هو الذى يسوء صدوره من العبد بما هو عبد و هو مطلق المعصيه أو الهَمَّ بها، و الفحشاء هو ارتكاب الأعمال الشنيعه كالزنا، و قد تقدم أن ظاهر السياق انطباق السوء و الفحشاء على الزنا و الهَمَّ به.

و المعنى: الغايه-أو السبب-فى أن رأى برهان ربه هى أن نصرف عنه الفحشاء و الهَمَّ بها.

و من لطيف الإشاره فى الآيه ما فى قوله: «لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ» حيث أخذ السوء و الفحشاء مصروفين عنه لا- هو مصروفا عنهما، لما فى الثانى من الدلاله على أنه كان فيه ما يقتضى اقترافهما المحوج الى صرفه عن ذلك، و هو ينافى شهادته تعالى بأنه من عباده المخلصين و هم الذين أخلصهم الله لنفسه فلا يشاركه فيهم شىء فلا يطيعون غيره من تسويل شيطان أو تزيين نفس أو أى داع يدعو من دون الله سبحانه.

و قوله: إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ فى مقام التعليل لقوله: «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ» السخ؛ و المعنى: عاملنا يوسف كذلك لأنه من عبادنا المخلصين، و هم يعاملون هذه المعامله.

و يظهر من الآيه أن من شأن المخلصين من عباد الله أن يروا برهان ربهم، و أن الله سبحانه يصرف كل سوء و فحشاء عنهم فلا يقتربون معصيه و لا يهمون بها بما يريهم الله من برهانه،

و هذه هي العصمة الإلهية.

و يظهر أيضا أن هذا البرهان سبب علمي يقيني لكن لا من العلوم المتعارفه المعهوده لنا (١).

قوله تعالى: وَ اسْتَبَقَا الْبَابَ وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرِ الْاسْتَبَاقِ هُوَ التَّسَابِقُ وَ قَدْ تَقَدَّمَ، وَ الْقَدُّ هُوَ الْقَطُّ هُوَ الشَّقُّ إِلَّا أَنْ الْقَدُّ هُوَ الشَّقُّ طَوَّالًا وَ الْقَطُّ هُوَ الشَّقُّ عَرْضًا، وَ الدَّبْرُ وَ الْقَبْلُ كَالْخَلْفِ وَ الْأَمَامِ.

و السياق يعطى أن استباقهما كان لغرضين مختلفين فكان يوسف عليه السلام يريد أن يفتحه و يتخلص منها بالخروج من البيت، و امرأه العزيز كانت تريد أن تسبقه اليه فتمنعه من الفتح و الخروج لعلها تفوز بما تريده منه، و أن يوسف سبقها الى الباب فاجتذبتة من قميصه من الورا ففقدته و لم ينقذ إلا لأنه كان فى حال الهرب مبتعدا منها و إلا لم ينشق طولاً.

و قوله: وَ أَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَمَدَى الْبَابِ الْإِلْفَاءُ الْوَجْدَانُ يُقَالُ: أَلْفَيْتَهُ كَذَا أَى وَجَدْتَهُ وَ الْمَرَادُ بِسَيِّدِهَا زَوْجَهَا. قيل: إنه جرى على عرف مصر و قد كانت النساء بمصر يلقين زوجهن بالسيد، و هو مستمر الى هذا الزمان.

قوله تعالى: قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَيِّجَنَ أَوْ يُعَذَّبَ أَلَيْمٌ لَمَّا أَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَمَدَى الْبَابِ انقلب مجلس المرآوده الى موقف التحقيق، و إنما أوجد هذا الموقف وجود العزيز لدى الباب و حضورهما و الهيئه هذه الهيئه عنده، و يتكفل ما جرى فى هذا الموقف قوله: «وَ أَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَمَدَى الْبَابِ» الى تمام خمس آيات.

فبدأت امرأه العزيز تشكو يوسف اليه و تسأله أن يجازيه فذكرت أنه أراد بها سوء و عليه أن يسجنه أو يعذبه عذاباً أليماً لكنها لم تصرح بذلك و لا بشيء من أطراف الواقعه بل كُتت

ص: ٢٦٥

١- ١). يوسف ٢٢-٣٤: بحث تفسيري و آراء المفسرين حول الآية «وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا»؛ معنى هم يوسف بها.

و أتت بحكم عام عقلاني يتضمن مجازاه من قصد ذوات البعل بالفحشاء فقالت «مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» فلم يصرح باسم يوسف و هو المرید، و لا باسم نفسها و هي الأهل، و لا باسم السوء و هو الزنا بذات البعل كل ذلك تأدبا في حضره العزيز و تقديسا لساحته.

و لم يتعين الجزاء بل رددته بين السجن و العذاب الأليم لأن قلبها الواله اليه الملىء بحبه ما كان يساعدها على التعيين فإن في الإبهام نوعا من الفرج إلا أن في تعبيرها بقولها:

«بِأَهْلِكَ» نوعا من التحريض عليه و تهيجه على مؤاخذته و لم يكن ذلك إلا كيدا منها للعزيز بالتظاهر بالوجد و الأسى لئلا يتفطن بواقع الأمر فيؤاخذها أما إذا صرفته عن نفسها المجرمه فإن صرفه عن مؤاخذه يوسف عليه السلام لم يكن صعبا عليها تلك الصعوبه.

قوله تعالى: قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي لم يبدأ يوسف عليه السلام بالقول أدبا مع العزيز و صونا لها أن يرميها بالجرم لكن لما اتهمته بقصدها بالسوء لم يربدا دون أن يصرح بالحق فقال «هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي» و في الكلام دلالة على القصر و هي من قصر القلب أي لم اردھا بالسوء بل هي التي أرادت ذلك فراودتني عن نفسي.

و في كلامه هذا- و هو خال عن أقسام التأكيد كالتقسم و نحوه- دلالة على سكون نفسه عليه السلام و طمأنينته و أنه لم يحتشم و لم يجزع و لم يتملق حين دعوى براءته مما رمته به إذ كان لم يأت بسوء و لا- يخافها و لا ما اتهمته و قد استعاذ بربه حين قال «مَعَاذَ اللَّهِ» .

قوله تعالى: وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ الى آخر الآيتين. لما كانت الشهادة في معنى القول كان قوله: «إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ» الخ؛ بمنزله مقول القول بالنسبه اليه فلا حاجه الى تقدير القول قبل قوله: «إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ» الخ؛ و قد قيل: إن هذا القول لما أدى مؤدى الشهاده عبر عنه بلفظ الشهاده.

و قد أشار هذا الشاهد الى دليل ينحل به العقده و يتضح طريق القضييه فتكلم فقال «إِنْ

كَانَ قَمِيصُهُ قَدًّا مِنْ قُبُلٍ فَصَيَّرَ دَقَّتْ وَ هُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ» فَإِنَّ مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّ أَحَدَهُمَا صَادِقٌ فِي دَعْوَاهُ وَالْآخَرُ كَاذِبٌ، وَ كَوْنُ الْقَدِّ مِنْ قَبْلِ يَدِلُّ عَلَى مَنَازَعَتِهِمَا وَ مَصَارَعَتِهِمَا بِالْمُوَاجَهَةِ فَالْقَضَاءُ لَهَا عَلَيْهِ، وَ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدًّا مِنْ دَبْرٍ فَكَذِبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَإِنَّ كَوْنَ الْقَدِّ مِنْ دَبْرٍ يَدِلُّ عَلَى هَرَبِهِ مِنْهَا وَ تَعْقِيبِهَا إِيَّاهُ وَ اجْتِنَابِهَا لَهُ إِلَى نَفْسِهَا فَالْقَضَاءُ لَهُ عَلَيْهَا. وَ هُوَ ظَاهِرٌ.

وَ أَمَّا مِنْ هَذَا الشَّاهِدِ؟ فَقَدْ اِخْتَلَفَ فِيهِ الْمَفْسُرُونَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ رَجُلًا حَكِيمًا أَشَارَ لِلعَزِيزِ بِمَا أَشَارَ كَمَا عَنِ الْحَسَنِ وَ قَتَادَةَ وَ عَكْرَمَةَ، وَ قِيلَ: كَانَ رَجُلًا - وَ هُوَ ابْنُ عَمِّ الْمَرْأَةِ وَ كَانَ جَالِسًا مِنْ زَوْجِهَا لَدَى الْبَابِ، وَ قِيلَ: لَمْ يَكُنْ مِنَ الْإِنْسِ وَ لَا الْجِنِّ بَلْ خَلَقَا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ كَمَا عَنِ مَجَاهِدٍ، وَ رَدَّ بِمَنَافَاتِهِ الصَّرِيحَةَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «مِنْ أَهْلِهَا» .

وَ مِنْ طَرُقِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَ بَعْضِ طَرُقِ أَهْلِ السَّنَةِ أَنَّهُ كَانَ صَبِيًّا فِي الْمَهْدِ مِنْ أَهْلِهَا، وَ سَيَجِيءُ فِي الْبَحْثِ الرَّوَاثِي التَّالِيِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَنْظَرَ فِيهِ أَنَّ الَّذِي أَتَى بِهِ هَذَا الشَّاهِدَ بَيَانٌ عَقْلِيٌّ وَ دَلِيلٌ فِكْرِيٌّ يُوْدِي إِلَى نَتِيجَةٍ هِيَ الْقَاضِيَةُ لِأَحَدِ هَذَيْنِ الْمَتَدَاعِيَيْنِ عَلَى الْآخَرِ، وَ مِثْلُ هَذَا لَا يَسْمَى شَهَادَةً عَرَفًا فَإِنَّهَا هِيَ الْبَيَانُ الْمَعْتَمَدُ عَلَى الْحَسَنِ أَوْ مَا فِي حَكْمِهِ وَ بِالْجُمْلَةِ الْقَوْلُ الَّذِي لَا يَعْتَمَدُ عَلَى التَّفَكِيرِ وَ التَّعْقُلِ كَمَا فِي قَوْلِهِ: شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَيِّمِعُهُمْ وَ أَبْصَارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ (حَمَّ السَّجْدَةِ / ٢٠)، وَ قَوْلِهِ: قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ (الْمَنَافِقُونَ / ١) فَإِنَّ الْحَكْمَ بِصَدَقِ الرِّسَالَةِ وَ إِنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ مَسْتَنَدًا إِلَى التَّفَكْرِ وَ التَّعْقُلِ لَكِنِ الْمُرَادُ بِالشَّهَادَةِ تَأْيِيدُهُ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْحَقِّ الْمَعْلُومِ قِطْعًا مِنْ غَيْرِ مَلَاخِظِهِ كَوْنَهُ عَنِ التَّفَكْرِ وَ تَعْقُلِ كَمَا فِي مَوَارِدٍ يَعْبُرُ عَنْهُ فِيهَا بِالْقَوْلِ وَ نَحْوِهِ.

فَلَيْسَ مِنَ الْبَعِيدِ أَنْ يَكُونَ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ قَوْلِ هَذَا الْقَائِلِ بِمِثْلِ «وَ شَهِدَ شَاهِدًا» إِشَارَةٌ إِلَى كَوْنِ ذَلِكَ كَلَامًا صَدَرَ عَنْهُ مِنْ غَيْرِ تَرَوٍّ وَ فِكْرٍ فَيَكُونُ شَهَادَةً لِعَدَمِ اعْتِمَادِهِ عَلَى تَفَكْرٍ وَ تَعْقُلٍ لَا قَوْلًا يَعْبُرُ بِهِ عَرَفًا عَنِ الْبَيَانِ الَّذِي يَبْتَنِي عَلَى تَرَوٍّ وَ تَفَكْرٍ، وَ بِهَذَا يَتَأَيَّدُ مَا وَرَدَ مِنَ الرَّوَايَةِ أَنَّهُ

كان صبيا في المهد فقد كان ذلك بنوع من الإعجاز أيد الله سبحانه به قول يوسف عليه السلام.

قوله تعالى: فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدِّمَ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ، أى فلما رأى العزيز قميص يوسف و الحال أنه مقدود مشوق من خلف، قال إن الأمر من كيدكن معاشر النساء إن كيدكن عظيم فمرجع الضمائر معلوم من السياق.

و نسبه الكيد الى جماعه النساء مع كونه من امرأته الدلاله على أنه إنما صدر منها بما أنها من النساء، و كيدهن معهود معروف، و لذا استعظمه و قال ثانيا «إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ» و ذلك أن الرجال اوتوا من الميل و الانجذاب اليهن ما ليس يخفى و اوتين من أسباب الاستماله و الجلب ما فى وسعهن أن يأخذن بمجامع قلوب الرجال و يسخرن أرواحهم بجلوات فتانه و أطوار سحاره تسلب أحلامهم، و تصرفهم الى إرادتهن من حيث لا يشعرون و هو الكيد و إرادته الإنسان بالسوء و مفاد الآيه أن العزيز لما شاهد أن قميصه مقدود من خلف قضى ليوسف عليه السلام على امرأته.

قوله تعالى: يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ من مقول قول العزيز أى إنه بعد ما قضى له عليها أمر يوسف أن يعرض عن الأمر و أمر امرأته أن تستغفر لذنبها و من خطيئتها.

فقوله: يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا يشير الى ما وقع من الأمر و يعزم على يوسف أن يعرض عنه و يفرضه كأن لم يكن فلا يحدث به و لا يذيعه، و لم يرد فى كلامه تعالى ما يدل على أن يوسف عليه السلام حدث به أحدا و هو الظن به عليه السلام كما نرى أنه لم يظهر حديث المراوده للعزيز حتى اتهمته بسوء القصد فذكر الحق عند ذلك لكن كيف يخفى حديث استمر عهدا ليس بالقصير، و قد استولى عليها الوله و سلب منها الغرام كل حلم و حزم، و لم تكن المراوده مره أو مرتين و الدليل على ذلك ما سيأتى من قول النسوه «امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تَرَاوَدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا» .

وقوله: وَاسْتَغْفِرِي لِتَدْنِيكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ يقرر لها الذنب و يأمرها أن تستغفر ربها لذلك الذنب لأنها كانت بذلك من أهل الخطيئه، و لذلك قيل «مِنَ الْخَاطِئِينَ» و لم قل من الخاطئات.

و هذا كله من كلام العزيز على ما يعطيه السياق لا من كلام الشاهد لأنه قضاء و حكم و القضاء العزيز لا للشاهد.

قوله تعالى: وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ قصه نسوه مصر مع يوسف في بيت العزيز تتضمنها الآية الى تمام ست آيات.

و الذى يعطيه التدبر فيها بما ينضم إليها من قرائن الأحوال و ما يستوجه طبع القصة أنه لما كان من أمر يوسف و العزيزه ما كان، شاع الخبر في المدينة تدريجا، و صارت النساء و هن سيدات المدينة يتحدثن به في مجامعهن و محافلهن فيما بينهن و يعيرن بذلك عزيزه مصر و يعبئها أنها تولهت الى فتاها و افتتنت به و قد أحاط بها حبا فظلت تراوده عن نفسه، و ضلت به ضلالا مبينا.

و كان ذلك مكررا منهن بها على ما فى طبع أكثر النساء من الحسد و العجب فإن المرأه تغلبه العواطف الرقيقه و الإحساسات اللطيفه و ركوز لطف الخلقه و جمال الطبيعه فيها مشعوفه القلب بالزينه و الجمال متعلقه الفؤاد برسوم الدلال، و يورث ذلك فيها و خاصه فى الفتيات إعجابا بالنفس و حسدا للغير.

فقوله تعالى: وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا الخ؛ النسوه اسم جمع للمرأه و تقييده بقوله: فى المدينة تفيد أنهم كن من جهه العدد أو الشأن بحال تؤثر قولهن فى شيوع الفضيحه.

و امرأه العزيزه هى التى كان يوسف فى بيتها و قد راودته عن نفسه و العزيز معناه معروف،

وقد كان يلقب به السيد الذى اشترى يوسف من السياره و كان يلقب به الرؤساء بمصر كما لقب به يوسف بعد ما جعل على خزائن الأرض.

و فى قوله: **تُرَاوِدُ** دلالة على الاستمرار و هو أفحش المرأوده، و الفتى الغلام الشاب و المرأه فتاه، و قد شاع تسميه العبد فتى و كأنه بهذه العناية اضيف الى ضميرها ف قيل «فتاها» .

و فى المفردات «شَعَفَهَا حُبًّا» أى أصاب شغاف قلبها أى باطنه. عن الحسن، و قيل:

وسطه. عن أبى على، و هما يتقاربان انتهى. و شغاف القلب غلافه المحيط به.

و المعنى: و قال عدو من نساء المدينة لا يخلو قولهن من أثر فيها و فى حقها: امرأه تستمر فى مرأوده عبدها عن نفسه و لا يحرى بها ذلك لأنها مرأه و من القحه أن تراود المرأه الرجل بل ذاك- إن كان- من طبع الرجال و إنها امرأه العزيز فهى عزيزه مصر فمن الواجب الذى لا معدل عنه أن تراعى شرف بيتها و عزه زوجها و مكانه نفسها، و إن الذى علقت به عبدها و من الشنيع أن يتوله مثلها و هى عزيزه مصر بعبد عبرانى من جمله عبيده، و إنها أحبته و تعدت ذلك الى مرأوده فامتنع من إجابتها فلم تنته حتى ألحت و استمرت على مرأوده و ذلك أقبح و أشنع و أمعن فى الضلال.

و ذلك عقبن قوله: «امرأتُ العزيزِ تُراوِدُ» الخ؛ بقولهن: «إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» .

قوله تعالى: **فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِّينًا** قال فى المجمع: المكر هو القتل بالحيله على ما يراد من الطلبه. انتهى. و تسميه هذا القول منهن مكرًا بامرأه العزيز لما فيه من فضاحتها و هتك سترها من ناحيه رقيباتها حسدا و بغيا، و إنما أرسلت اليهن لثريهن يوسف و بتليهن بما ابتليت به نفسها فيكففن عن لومها و يعذرنها فى حبه.

و على هذا إنما سمى قولهن مكرًا و نسب السمع اليه لأنه صدر منهن حسدا و بغيا لغايه

فضاحتها بين الناس.

و قوله: أَرْسَلْتُ إِلَيْهِمْ مَعْنَاهُ مَعْلُومٌ وَ هُوَ كُنَايَةٌ عَنِ الدَّعْوَةِ إِلَى الحُضُورِ عِنْدَهَا.

و قوله: وَ أَعْتَدْتُ لَهُنَّ مُتَّكًا وَ آتَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا الإِعْتَادُ الإِعْدَادُ وَ المِرَادُ بِهِ مَا يَتَّكَأُ عَلَيْهِ مِنْ نَمْرُقٍ أَوْ كُرْسَى كَمَا كَانَ مَعْمُولًا فِي بَيْوتِ العِظَمَاءِ.

وَ فِسرِ المِتَّكَاءِ بِالأَتْرِجِ وَ هُوَ نَوْعٌ مِنَ الفَاكِهِهِ كَمَا قُرئَ فِي الشُّوَاذِ «مُتَّكًا» بِالضَّمِّ فَالسُّكُونُ وَ هُوَ الأَتْرِجُ وَ قُرئَ «مُتَّكًا» بِضَمِّ المِيمِ وَ تَشْدِيدِ التَّاءِ مِنْ غَيْرِ هَمْزٍ.

و قوله: وَ آتَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا أَيْ لِقِطْعٍ مَا يَرُونَ أَكَلَهُ مِنَ الفَاكِهِهِ كالأَتْرِجِ أَوْ مَا يَشَابَهُهُ مِنَ الفُؤَاكِهِ المَأْكُولَةِ بِالقِطْعِ وَ قَوْلُهُ: «وَ قَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْنَّ» أَيْ أَمَرْتُ يَوْسُفَ أَنْ يَخْرُجَ عَلَيْنَّ وَ هُنَّ خَالِيَاتُ الأُذْهَانِ فَارغَاتُ القُلُوبِ مُشْتَغَلَاتٌ بِأَخْذِ الفَاكِهِهِ وَ قِطْعُهَا، وَ فِي اللفظِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ غَائِبًا عَنْهُنَّ وَ كَانَ فِي مَخْدَعٍ هُنَاكَ أَوْ بَيْتٍ آخَرَ فِي دَاخِلِ بَيْتِ المَأْدَبِ الَّذِي كُنَ فِيهِ فَإِنَّهَا قَالَتْ «اخْرُجْ عَلَيْنَّ» وَ لَوْ كَانَ فِي خَارِجٍ مِنَ البَيْتِ لَقَالَتْ «ادْخُلْ عَلَيْنَّ».

وَ فِي السِّيَاقِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ هَذَا التَّدْبِيرَ كَانَ مَكْرًا مِنْهَا تَجَاهَ مَكْرِهِنَّ لِيَفْتَضِحْنَ بِهِ فَيَعْذِرْنَهَا فِيمَا عَذَلْنَهَا، وَ قَدْ أَصَابَتْ فِي رَأْيِهَا حَيْثُ نَظَّمَتْ بَرنامِجَ المِلاقَهِ فَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مِتَّكَاءً وَ آتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا، وَ أَخْفَتِ يَوْسُفَ عَنْ أَعْيُنِهِنَّ ثُمَّ فَاجَأَتْهُنَّ بِإِظْهَارِهِ دَفَعَهُ لَهُنَّ لِيَغْبِنَ عَنْ عَقُولِهِنَّ، وَ يَنْدَهْشْنَ بِذَلِكَ الجِمالِ البَدِيعِ وَ يَأْتِينَ بِمَا لَا يَأْتِي بِهِ ذُو شَعُورٍ البَتَّةِ وَ هُوَ تَقْطِيعُ الأَيْدِي مَكَانَ الفُؤَاكِهِ لَا مِنَ الوَاحِدَةِ وَ الثَّنَتَيْنِ مِنْهُنَّ بَلْ مِنَ الجَمِيعِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: فَلَمَّا رَأَيْتُهُ أَكْبَرْتُهُ وَ قَطَعْتَ أَيْدِيَهُنَّ وَ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ الإِكْبَارُ الإِعْظَامُ وَ هُوَ كُنَايَةٌ عَنِ انْدِهَاشِهِنَّ وَ غِيْبَتِهِنَّ عَنْ شَعُورِهِنَّ وَ إِرادَتِهِنَّ بِمِفْجَاحِهِ مِشاهِدَهُ ذاكِ الحَسَنِ الرَّائِعِ طَبَقًا لِلنَّامُوسِ الكُونِيِّ العَامِ وَ هُوَ خُضُوعُ الصَّغِيرِ لِلكَبِيرِ وَ قَهْرُ العَظِيمِ لِلحَقِيرِ فَإِذا ظَهَرَ العَظِيمُ الكَبِيرُ بِعَظَمَتِهِ وَ كَبْرِيائِهِ لِشَعُورِ

الإنسان قهر سائر ما فى ذهنه من المقاصد والأفكار فأنساها و صار يتخطى فى أعماله.

و لذلك لما رأينه قهرت رؤيته شعورهن فقطعن ايديهن تقطيعا مكان الفاكهه التى كن يردن قطعها،و فى صيغه التفعيل دلالة على الكثرة يقال: قتل القوم تقتيلا و مؤتهم الجذب تمويتا.

و قوله: وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ تَنْزِيهِهُ لَلَّهِ سُبْحَانَهُ فى أمر يوسف و هذا كقوله تعالى: مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (النور ١٦) و هو أدب الكلام عند المليونين إذا جرى القول فى أمر فيه نوع تنزيه و تبرئه لأحد يبدأ فينزه الله سبحانه ثم يشتغل بتنزيه من اريد تنزيهه فهن لما أردن تنزيه عليه السلام بقولهن: «مَا هَذَا بَشَرًا» الخ؛ بدأن بتنزيهه تعالى، ثم أخذن ينزهنه.

و قوله: «مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ» نفى أن يكون يوسف عليه السلام بشرا و إثبات أنه ملك كريم، و هذا بناء على ما يعتقدده المليون و منهم الوثنيون أن الملائكة موجودات شريفه هم مبادئ كل خير و سعادته فى العالم منهم يترشح كل حياه و علم و حسن و بهاء و سرور و سائر ما يتمنى و يؤمل من الامور ففيهم كل جمال صورى و معنوى، و إذا مثلوا تخيلوا فى حسن لا يقدر بقدره، و يتصوره أصحاب الأصنام فى صور إنسانيه حسنه بهيه.

و لعل هذا هو السبب فى قولهن: «إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ» حيث لم يصفنه بما يدل على حسن الوجه و جمال المنظر مع أن الذى فعل بهن ما فعل هو حسن و وجهه و اعتدال صورته بل سمينه ملكا كريما لتكون فيه إشارة الى حسن صورته و سيرته معا، و جمال خلقه و خلقه و ظاهره و باطنه جميعا. و الله أعلم.

و تقدم قولهن هذا على قول امرأه العزيز: «فذلكن الذى لمتنى فيه» يدل على أنهم لم يفهمهن بهذا الكلام إعدار لامرأه العزيز فى حبها له و تيمها و غرامها به، و إنما كان ذلك اضطرارا

منهن على الشاء عليه و إظهارا قهريا لانجذاب نفوسهن و توله قلوبهن اليه فقد كان فيه فضاحتهم، و لم تقل امرأه العزيز «فذلكن الذى لمتنى فيه» إلا بعد ما فضحتهن فعلا و قولاً بتقطع الأيدي و تنزيه الحسن فلم يبق لهن إلا أن يصدقنها فيما تقول و يعذرنها فيما تفعل.

قوله تعالى: **قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَ لَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ** الى آخر الآية؛ الكلام فى موضع دفع الدخل كأن قائلاً يقول: فما ذا قالت امرأه العزيز لهن؟ فقيل «**قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ**» .

و قد فرغت كلامها على ما تقدمه من قولهن و فعلهن و أشارت الى شخص الذى لمنها فيه و وصفته بأنه الذى لمنها فيه ليكون هو بعينه جواباً لما رمينها به من ترك شرف بيتها و عزه زوجها و عفه نفسها فى حبه، و عذراً قبال لومهن إياها فى مرآودته، و أقوى البيان أن يحال السامع الى العيان، و من هذا الباب قوله تعالى: **أَهَذَا الَّذِي يَذُكُرُ آلِهَتَكُمْ** (الأنبياء / ٣٦)، و قوله: **رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا** (الأعراف / ٣٨).

ثم اعترفت بالمرآوده و ذكرت لهن أنها راودته لكنه أخذ بالعفه و طلب العصمه، و إنما استرسلت و أظهرت لهن ما لم تزل تخفيه لما تخفيه لما رأت موافقه القلوب على التوله فيه فبثت الشكوى لهن و نبهت يوسف أنها غير تاركته فلوطن نفسه على طاعتها فيما تأمر به، و هذا معنى قولها: **«وَ لَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ»** .

ثم ذكرت لهن ما عزمت عليه من إجباره على الموافقه و سياسته لو خالف فقالت **«وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيْسَ بِنَجِّنَ وَ لَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّٰغِرِينَ»** و قد أكدت الكلام بوجوه من التأكيد كالتقسيم و النون و اللام و نحوها ليدل على أنها عزمت على ذلك عزيزه جازمه، و عندها ما يجبره على ما أرادته و لو استنكف فليوطن نفسه على السجن بعد الراحة، و الصغار و الهوان بعد الإكرام و الاحترام، و فى الكلام تجلد و نوع تعزز و تمنع بالنسبه اليهن و نوع تنبيه و تهديد بالنسبه الى يوسف عليه السلام.

و هذا التهديد الذى يتضمنه قولها: «وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيْسَ جَنًّا وَ لَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ» أشد و أهول مما سألته زوجها يوم المراده بقولها: «مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابَ أَلِيمٍ» .

أما أولا: فلانها رددت الجزاء هناك بين السجن و العذاب الاليم و جمع هاهنا بين الجزاءين و هو السجن و الكون من الصاغرين .

و أما ثانيا: فلانها هاهنا قامت بالتهديد بنفسها لا بأن تسأل زوجها، و كلامها كلام من لا يتردد فيما عزم عليه و لا يرجع عما حزم به. و قد حققت أنها تملك قلب زوجها و تقدر أن تصرفه مما يريد به الى ما تريده، و تقوى على التصرف فى أمره كيفما شاءت؟

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ قال الراغب فى المفردات: صبا فلان يصبو صبوا و صبوه إذا نزع و اشتاق و فعل فعل الصبيان، قال تعالى «أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ» انتهى. و فى المجمع: الصبوه لطافه الهوى. انتهى.

تفاوضت امرأه العزيز و النسوة فقالت و قلن و استرسلن فى بت ما فى ضمائرهن و يوسف عليه السلام واقف أمامهن يدعونه و يراودونه عن نفسه لكن يوسف عليه السلام لم يلتفت اليهن و لا- كلمهن و لا- بكلمه بل رجع الى ربه الذى ملك قلبه بقلب لا مكان فيه إلا له و لا شغل إلا به «قال: رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ» الخ.

و قوله هذا ليس بدعاء على نفسه بالسجن و أن يصرف الله عنه ما يدعونه اليه بالقائه فى السجن، و إنما هو بيان حال لربه و أنه عن تربيته إلهيه يرجح عذاب السجن فى جنب الله على لذه المعصيه و البعد منه، فهذا الكلام منه نظير ما قاله لامرأه العزيز حين خلت به و راودته عن نفسه «مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» ففى الكلامين معا تمنع و تعزز بالله، و إنما الفرق أنه يخاطب بأحدهما امرأه العزيز و بالآخر ربه القوى العزيز و ليس شىء

و في قوله: رَبِّ السَّجْنِ أَحْبُّ إِلَيَّ الخ؛ نوع توطئه لقوله: «وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ» الخ؛ الذي هو دعاء في صورته بيان الحال.

فمعنى الآية: رب إنى لو خيرت بين السجن و بين ما يدعونى اليه لا اخترت السجن على غيره و أسألك أن تصرف عنى كيدهن فإنك إن لا تصرف عنى كيدهن أنتزع و أمل اليهن و أكن من الجاهلين فإنى إنما أتوقى شرهن بعلمك الذى علمتنيه و تصرف به عنى كيدهن فإن أمسكت عن إفاضته على صرت جاهلا و وقعت فى مهلكه الصبوه و الهوى.

قوله تعالى: فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أى استجاب الله مسألته فى صرف كيدهن عنه حين قال «وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ» إنه هو السميع بأقوال عباده العليم بأحوالهم (١)(٢).

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٣٥ الى ٤٢]

إشارة

ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسَ جُنَّتْ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) وَ دَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَيَأْتِيهِمْ فِيهَا الْغُيُوبُ قَالَ أَكَيْدُهَا إِنِّي أُرَانِي أَغْصِرُ خَمْراً وَ قَالَ الْآخِرُ إِنِّي أُرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأَوِيْلَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُزْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بَتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خِيفْ أَمْ لِلَّهِ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَشْجَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبُّهُ خَمْراً وَ أَمَا الْآخِرُ فَيُضِلُّكَ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ بِالْأَمْرِ الَّذِي فِيهِ تَسْتَنَفِيانِ (٤١) وَ قَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢)

ص: ٢٧٥

١ - ١). يوسف ٢٢-٣٤: أبحاث حول التقوى الدينى و درجاته فى فصول (القانون و الاخلاق الكريمة و التوحيد، يحصل التقوى الدينى بأحد امور ثلاثة، كيف يورث الحب الاخلاص).

٢ - ٢). يوسف ٢٢-٣٤: بحث روائى حول قصه يوسف عليه السلام؛ معنى هم يوسف بها.

بيان:

قوله تعالى: **ثُمَّ يَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسَ لِيُجَنِّتَهُ حَتَّىٰ** حين البدء هو ظهور رأى بعد ما لم يكن يقال؟ بدا لى فى أمر كذا أى ظهر لى فيه رأى جديد، و الضمير فى قوله: «لَهُمْ» الى العزيز و امرأته و من يتلوهما من أهل الاختصاص و أعوان الملك و العزه.

و المراد بالآيات الشواهد و الأدله الداله على براءه يوسف عليه السلام و طهاره ذيله مما اتهموه به

ص: ٢٧٤

كشهاده الصبى و قدّ القميص من خلفه و استباقهما الباب معا، و لعل منها تقطيع النسوه أيديهن برؤيته و استعصامه عن مرادتهن إياه عن نفسه و اعتراف امرأه العزيز لهن أنها راودته عن نفسه فاستعصم.

و قوله: لَيْسَ جُنَّةُ اللّام فيه للقسم أى أقسموا و عزموا ليسجننه البته، و هو تفسير للرأى الذى بدا لهم، و يتعلق به قوله: «حَتَّى حِينَ» و لا- يخلو من معنى الانتظار بالنظر الى قطع حين عن الإضافه و المعنى على هذا ليسجننه حتى ينقطع حديث المراده الشائع فى المدينه و ينسأه الناس.

و معنى الآيه: ثم ظهر للعزيز و من يتلوه من امرأته و سائر مشاوريه رأى جديد فى يوسف من بعد ما رأوا هذه الآيات الداله على براءته و عصمته و هو أن يسجنوه حيناً من الزمان حتى ينسى حديث المراده الذى يجلب لهم العار و الشين و أقسموا على ذلك.

و يظهر بذلك أنهم إنما عزموا على ذلك لمصلحه بيت العزيز و صونا لاسرته عن هوان التهمه و العار، و لعل من غرضهم أن يتحفظوا على أمن المدينه العام و لا يخلوا الناس و خاصه النساء أن يفتنوا به فإن الحسن الذى أوله امرأه العزيز و السيدات من شرفاء المدينه و فعل بهم ما فعل من طبعه أن لا يلبث دون أن يقيم فى المدينه بلوى.

لكن الذى يظهر من قوله فى السجن لرسول الملك: «ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَيُتْلَىٰ مَا بَالُ النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» الى آخر ما قال، ثم قول الملك لهن: ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه، و قولهن: حاش لله ما علمنا عليه من سوء ثم قول امرأه العزيز: الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه و إنه لمن الصادقين، كل ذلك يدل على أن المرأه ألبست الأمر بعد على زوجها و أرابته فى براءه يوسف عليه السلام فاعتقد خلاف ما دلت عليه الآيات أو شك فى ذلك، و لم يكن ذلك إلا عن سلطه تامه منها عليه و تمكن كامل من قلبه و رأيه.

و على هذا فقد كان سجنه بتوسل أو بأمر منها لتدفع بذلك تهمة الناس عن نفسها و تؤدب

يوسف لعله ينقاد لها و يرجع الى طاعتها فيما كانت تأمره به كما هددته به بمحضر من النسوة بقولها: «وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ» .

قوله تعالى: وَ دَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَيُنَادِي إِلَى آخِرِ آيَةِ؛ الفتى العبد و سياق الآيات يدل على أنهما كانا عبيد من عبيد الملك، و قد وردت به الروايات كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

و قوله: قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا فصل قوله: «قَالَ أَحَدُهُمَا» للدلالة على الفصل بين حكاية الرؤيا و بين الدخول كما يشعر به ما فى السياق من قوله:

«أَرَانِي» و خطابه له بصاحب السجن.

و قوله: أَرَانِي لِحكاية الحال الماضيه كما قيل، و قوله: «أَعْصِرُ خَمْرًا» أى أعصر عنباً كما يعصر ليتخذ خمراً فقد سمي العنب خمراً باعتبار ما يؤول اليه.

و المعنى أصبح أحدهما و قال ليوسف عليه السلام إنى رأيت فيما يرى النائم أنى أعصر عنباً للخمر.

و قوله: وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ أَى تنهشه و هى رؤيا أخرى ذكرها صاحبه. و قوله: «بَنَيْنَا بِنْتًا وَإِلَيْهِ إِنَّا نُرَاكُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» أى قالنا بنينا بتأويله فاكتفى عن ذكر الفعل بقوله: «قَالَ» «وَقَالَ» و هذا من لطائف تفنن القرآن، و الضمير فى قوله: «بِنْتًا وَإِلَيْهِ» راجع الى ما يراه المدلول عليه بالسياق، و فى قوله: «إِنَّا نُرَاكُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» تعليل لسؤالهما التأويل و «نُرَاكُ» أى نعتقدك من المحسنين لما نشاهد فيك من سيماهم، و إنما أقبلنا عليه فى تأويل رؤياهما لإحسانه، لما يعتقد عامه الناس أن المحسنين الأبرار ذووا قلوب طاهره و نفوس زاكية فهم ينتقلون الى روابط الامور و جريان الحوادث انتقالاً أحسن و أقرب الى الرشد من انتقال غيرهم.

و المعنى: قال أحدهما ليوسف: إنى رأيت فيما يرى النائم كذا و قال الآخر: إنى رأيت

كذا، وقال له: أخبرنا بتأويل ما رآه كل منا لأننا نعتقد أنك من المحسنين، ولا يخفى لهم أمثال هذه الأمور الخفية لزكاء نفوسهم و صفاء قلوبهم.

قوله تعالى: **قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا لَمَّا أَقْبَلَ صَاحِبَا السِّجْنِ عَلَى يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سْؤَالِهِ عَنِ تَأْوِيلِ رُؤْيَا رَأْيَاهَا عَنِ حَسَنِ ظَنِّ بَعْضِ مَنْ جَهِهَ مَا كَانَا يَشَاهِدَانِ مِنْهُ سَيِّمَاءِ الْمُحْسِنِينَ اغْتَنِمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْفُرْصَةَ فِي بَثِّ مَا عِنْدَهُ مِنْ أَسْرَارِ التَّوْحِيدِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى رَبِّهِ سَبْحَانَهُ الَّذِي عَلَّمَهُ ذَلِكَ فَأَخْبَرَهُمَا أَنَّهُ عَلِيمٌ بِذَلِكَ بِتَعْلِيمٍ مِنْ رَبِّهِ خَبِيرٌ بِتَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَتَوْسِلُ بِذَلِكَ إِلَى الْكَشْفِ عَنِ سِرِّ التَّوْحِيدِ وَنَفْيِ الشَّرْكَاءِ ثُمَّ أَوَّلَ رُؤْيَاهُمَا.**

فقال أولا: لا يأتیکما طعام ترزقانه-و أنتما فی السجن-إلا نبأ تکما بتأويله-أى بتأويل ذاکما الطعام و حقیقته و ما يؤول الیه أمره- فأنا خبير بذلك فلیکن آیه لصدقی فیما أدعوکما الیه من دین التوحید.

هذا على تقدير عود الضمير فى قوله: «بتأويله» الى الطعام، و يكون عليه إظهارا منه عليه السلام لآيه نبوته نظير قول المسيح عليه السلام لبنى إسرائيل: **وَأُتْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (آل عمران ٤٩)**، و يؤيد هذا المعنى بعض الروايات الواردة من طرق أهل البيت عليهم السلام كما سيأتى فى بحث روائى إن شاء الله تعالى.

و أما على تقدير عود ضمير «بتأويله» الى ما رآياه من الرؤيا فقوله: **«لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ»** الخ؛ وعد منه لهما تأويل رؤياهما و وعد بتسريعه غير أن هذا المعنى لا يخلو من بعد بالنظر الى السياق.

قوله تعالى: **ذَلِكُمْ إِيمَانٌ مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ**

بين عليه السّلام أن العلم و التنبؤ بتأويل الأحاديث ليس من العلم العادى الاكتسابى فى شىء بل هو مما علمه إياه ربه ثم علل ذلك بتركه مله المشركين و اتباعه مله آباءه إبراهيم و إسحاق و يعقوب أى رفضه دين الشرك و أخذه بدين التوحيد.

و المشركون من أهل الأوثان يعتقدون بالله سبحانه و يشبتون يوم الجزاء بالقول بالتناسخ كما تقدم فى الجزء السابق من الكتاب لكن دين التوحيد يحكم أن الذى يقدر له شركاء فى التأثير أو فى استحقاق العباده ليس هو الله و كذا عود النفوس بعد الموت بأبدان أخرى تتنعم فيها أو تعذب ليس من المعاد فى شىء، و لذلك نفى عليه السّلام عنهم الإيمان بالله و بالآخرة، و أكد كفرهم بالآخرة بتكرار الضمير حيث قال «وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ» و ذلك لأن من لا يؤمن بالله فأحرى به أن لا يؤمن برجوع العباد اليه.

و هذا الذى يقصه الله سبحانه من قول يوسف عليه السّلام «وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ» هو أول ما أنبأ فى مصر نسبه و أنه من أهل بيت إبراهيم و إسحاق و يعقوب عليهم السّلام.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أى لم يجعل الله سبحانه لنا أهل البيت سبيلا الى أن نشرك به شيئا و منعنا من ذلك، ذلك المنع من فضل الله و نعمته علينا أهل البيت و على الناس و لكن أكثر الناس لا يشكرون فضله تعالى بل يكفرون به.

و أما أنه تعالى جعلهم بحيث لا سبيل لهم الى أن يشركوا به فليس جعل إجبار و إلقاء بل جعل تأيد و تسديد حيث أنعم عليهم بالنبوه و الرساله و الله أعلم حيث يجعل الرساله فاعتصموا بالله عن الشرك و دانوا بالتوحيد.

و أما أن ذلك من فضل الله عليهم و على الناس فلأنهم أيدوا بالحق و هو أفضل الفضل و الناس فى وسعهم أن يرجعوا اليهم فيفوزوا باتباعهم و يهتدوا بهداهم.

و أما أن أكثر الناس لا يشكرون فلأنهم يكفرون بهذه النعمه و هى النبوه و الرساله فلا

يعبئون بها ولا يتبعون أهلها أو لأنهم يكفرون بنعمه التوحيد و يتخذون لله سبحانه شركاء من الملائكة و الجن و الإنس يعبدونهم من دون الله.

هذا ما ذكره أكثر المفسرين فى معنى الآية.

و يبقى عليه شىء و هو أن التوحيد و نفى الشركاء ليس مما يرجع فيه الى بيان النبوه فإنه مما يستقل به العقل و تقضى به الفطره فلا معنى لعدده فضلا على الناس من جهه الاتباع بل هم و الأنبياء فى أمر التوحيد على مستوى واحد و شرع سواء و لو كفروا بالتوحيد فإنما كفروا لعدم إجابتهم لنداء الفطره لا لعدم اتباع الأنبياء (١).

قوله تعالى: يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ لفظه الخير بحسب الوزن صفه من قولهم: خار يخار خيره إذا انتخب و اختار أحد شيئين يتردد بينهما من حيث الفعل أو من حيث الأخذ بوجه فالخير منهما هو الذى يفضل على الآخر فى صفه المطلوبه فيتعين الأخذ به فخير الفعلين هو المطلوب منهما الذى يتعين القيام به و خير الشيئين هو المطلوب منهما من جهه الأخذ به كخير المالين من جهه التمتع به و خير الدارين من جهه سكنائها و خير الانسانين من جهه مصاحبته، و خير الرأيين من جهه الأخذ به، و خير الإلهين من جهه عبادته، و من هنا ذكر أهل الأدب أن الخير فى الأصل «أخير» أفعل تفضيل، و الحقيقه أنه صفه مشبهه تفيد بحسب ماده ما يفيد أفعل التفضيل من الفضل فى القياس.

و بما مر يتبين أن قوله عليه السلام: «أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» الخ؛ مسوق لبيان الحججه على تعينه تعالى للعباده إذا فرض تردد الأمر بينه و بين سائر الأرباب التى تدعى من دون الله لا لبيان أنه تعالى هو الحق الموجود دون غيره من الأرباب أو أنه تعالى هو

ص: ٢٨١

الإله الذى تنتهى إليه الأشياء بدءا و عودا دونها أو غير ذلك فإنه الشىء إنما يسمى خيرا من جهة طلبه و تعيينه بالأخذ به بنحو
ف قوله عليه السلام: أ هو خير أم سائر الأرباب يريد به السؤال عن تعيين أحد الطرفين من جهة الأخذ به و الأخذ بالرب هو عبادته.

ثم إنه عليه السلام سمي آلهتهم أربابا متفرقين لأنهم كانوا يعبدون الملائكة و هم عندهم صفات الله سبحانه أو تعيينات ذاته
المقدسه التى تستند إليها جهات الخير و السعاده فى العالم فيفرون بين الصفات بتنظيمها طولاً و عرضاً و يعبدون كلا بما يخصه
من الشأن فهناك إله العلم و إله القدره و إله السماء و إله الأرض و إله الحسن و إله الحب و إله الأمن و إله الخصب و غير
ذلك، و يعبدون الجن و هم مبادئ الشر فى العالم كالموت و الفناء و الفقر و القبح و الألم و الغم و غير ذلك، و يعبدون أفراد
كالكاملين من الأولياء و الجابره من السلاطين و الملوك و غيرهم، و هم جميعا متفرون من حيث أعيانهم و من حيث أصنامهم
و التماثيل المتخذة لهم المنصوبه للتوجه بها اليهم.

و قابل الأرباب المتفرقين بذكر الله عز اسمه و وصفه بالواحد القهار حيث قال «أَمِ اللّٰهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» فالكلمه تفيد بحسب
المعنى خلاف ما يفيد قوله: «أربابٌ مُتَفَرِّقُونَ» لضروره التقابل بين طرفى الترديد.

قوله تعالى: مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا
إِيَّاهُ الْخَبْرُ؛ بدأ عليه السلام بخطاب صاحبيه فى السجن أولا ثم عمم الخطاب للجميع لأن الحكم مشترك بينهما و بين غيرهما من
عبده الأوثان.

و نفى العباده إلا عن الأسماء كناية عن أنه لا مسميات وراء هذه الأسماء فتقع العباده فى مقابل الأسماء كلفظه إله السماء و إله
الأرض و إله البحر و إله البر و الأب و الام و ابن الإله و نظائر ذلك.

وقد أكد كون هذه الأسماء ليس وراءها مسميات بقوله: «أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ» فإنه في معنى الحصر أى لم يضع هذه الأسماء أى أحد غيركم بل أنتم و آباؤكم وضعتموها، ثم أكده ثانيا بقوله: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» و السلطان هو البرهان لتسلطه على العقول أى ما أنزل الله بهذه الأسماء أو بهذه التسميه من برهان يدل على أن لها مسميات وراءها، و حينئذ كان يثبت لها الالوهيه أى المعبوديه فصحت عبادتكم لها.

و من الجائز أن يكون ضمير «بِهَا» عائدا الى العباده أى ما أنزل الله حجه على عبادتها بأن يثبت لها شفاعه و استقلالاً فى التأثير حتى تصح عبادتها و التوجه إليها فإن الأمر الى الله على كل حال. و اليه أشار بقوله بعده: «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» .

و هو أعنى قوله: «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» مما لا ريب فيه البتة إذ الحكم فى أمر ما لا يستقيم إلا ممن يملك تمام التصرف، و لا مالك للتصرف و التدبير فى امور العالم و تربيته العباد حقيقه إلا الله سبحانه فلا حكم بحقيقه المعنى إلا له.

و هو أعنى قوله: «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» مفيد فيما قبله و ما بعده صالح لتعليقهما معا، أما فائدته فى قوله قبل: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» فقد ظهرت آنفا، و أما فائدته فى قوله بعد:

«أمر أن لا- تعبدوا إلا- إياه» فلأنه متضمن لجانب إثبات الحكم كما أن قوله قبل: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» متضمن لجانب السلب، و حكمه تعالى نافذ فى الجانبين معا فكأنه لما قيل «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» قيل «فما ذا حكم به فى أمر العباد» فقيل «أمر أن لا تعبدوا إلا إياه» و لذلك جىء بالفعل.

و معنى الآية-و الله أعلم- ما تعبدون من دون الله إلا أسماء خاليه عن المسميات لم يضعها إلا أنتم و آباؤكم من غير أن ينزل الله سبحانه من عنده برهانا يدل على أن لها شفاعه عند الله أو شيئا من الاستقلال فى التأثير حتى يصح لكم دعوى عبادتها لنيل شفاعتها، أو طمعا فى خيرها أو خوفا من شرها.

و أما قوله: **ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** فيشير به الى ما ذكره من توحيد الله و نفى الشريك عنه، و القيم هو القائم بالأمر القوي على تدبيره أو القائم على ساقه غير المتزلزل و المتضعضع، و المعنى أن دين التوحيد وحده هو القوى على إداره المجتمع و سوقه الى منزل السعاده، و الدين المحكم غير المتزلزل الذى فيه الرشد من غير غي و الحقيه من غير بطلان، و لكن أكثر الناس لانسهم بالحس و المحسوس و انهما كهم فى زخارف الدنيا الفانيه حرموا سلامه القلب و استقامه العقل لا يعلمون ذلك، و إنما يعلمون ظاهرا من الحياه الدنيا و هم عن الآخره معرضون.

أما أن التوحيد دين فيه الرشد و مطابقه الواقع فيكفى فى بيانه ما أقامه عليه السلام من البرهان، و أما أنه هو القوى على إداره المجتمع الإنسانى فلأن هذا النوع إنما يسعد فى مسير حياته إذا بنى سنن حياته و أحكام معاشه على مبنى حق مطابق للواقع فسار عليها لا إذا بناها على مبنى باطل خرافى لا يعتمد على أصل ثابت (١).

قوله تعالى: **يَا صَاحِبِ السُّجْنِ أَمَا أُخِذْتُ كَمَا فَتَشِيتُ رَبِّي خَمْرًا وَ أَمَّا الْآخِرُ فَيُضَلُّ بِهَا فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ** معنى الآيه ظاهر، و قرينه المناسبه قاضيه بأن قوله: «**أَمَا أُخِذْتُ كَمَا**» الخ؛ تأويل رؤيا من قال منهما «**إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا**» و قوله: «**وَ أَمَّا الْآخِرُ**» الخ؛ تأويل لرؤيا الآخر.

و قوله: **قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ** لا يخلو من إشعار بأن الصاحبين أو أحدكما كذب نفسه فى دعواه الرؤيا و لعله الثانى لما سمع تأويل رؤياه بالصلب و أكل الطير من رأسه، و يتأيد بهذا ما ورد من الروايه من طرق أئمه أهل البيت عليهم السلام أن الثانى من الصاحبين قال له: **إني كذبت فيما قصصت عليك من الرؤيا فقال عليه السلام «قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ»**

ص: ٢٨٤

١- ١. يوسف ٣٥-٤٢: برهان على توحيد العباده لله تعالى.

أى إن التأويل الذى استفتيتما فيه مقضى مقطوع لا مناص عنه.

قوله تعالى: **وَ قَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاءَ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ الضمائر فى قوله: «قَالَ» و «ظَنَّ» و «فَلَبِثَ» راجعه الى يوسف أى قال يوسف للذى ظن هو أنه سينجو منهما: اذكرنى عند ربك بما يثير رحمته لعله يخرجنى من السجن.**

و إطلاق الظن على اعتقاده مع تصريحه لهما بأنه من المقضى المقطوع به و تصريحه بأن ربه علمه تأويل الأحاديث لعله من إطلاق الظن على مطلق الاعتقاد و له نظائر فى القرآن كقوله تعالى: **الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ** (البقره ٤٦).

و قوله: **فَأَنَسَاءَ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ الخ؛ الضميران راجعان الى «الذى» أى فأنسى الشيطان صاحبه الناجى أن يذكره لربه أو عند ربه** فلبث يوسف فى السجن يضع سنين و البضع ما دون العشره بإضافه الذكر الى ربه من قبيل إضافه المصدر الى معموله المعدى اليه بالحرف أو الى المظروف بنوع من الملاسه.

و أما إرجاع الضميرين الى يوسف حتى يفيد أن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله سبحانه فتعلق بذيل غيره فى نجاته من السجن فعوقب على ذلك فلبث فى السجن بضع سنين كما ذكره بعضهم و ربما نسب الى الروايه.

فمما يخالف نص الكتاب فإن الله سبحانه نص على كونه عليه السلام من المخلصين و نص على أن المخلصين لا سبيل للشيطان اليهم مضافا الى ما أثنى الله عليه فى هذه السوره.

و الإخلاص لله لا- يستوجب ترك التوسل بالأسباب فإن ذلك من أعظم الجهل لكونه طمعا فيما لا مطمع فيه بل إنما يوجب ترك الثقة بها و الاعتماد عليها و ليس فى قوله: «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» ما يشعر بذلك البتة.

على أن قوله تعالى بعد آيتين: **«وَ قَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَ اذْكُرْ بَعْدَ أُمَّه» الخ؛ قرينه صالحه**

اشاره

وَ قَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَ سَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَ أُخْرَى يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أفتونى فى رؤىاى
إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ (٤٤) وَ قَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَ ادَّكَّرَ بَعْدَ أُمَّهِ أَنَا
أَبْتُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فى سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَ سَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَ أُخْرَى
يَابِسَاتٍ لَعَلِّى أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فى سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ
(٤٧) ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فىهِ يُغَاثُ
الذَّاسُ وَ فىهِ يَعْصَرُونَ (٤٩) وَ قَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَدِّئْ لَهُ مَا بَالَ النَّسْوَهُ اللَّاتِى قَطَعَنَ
أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِّ يُوسُفُ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ امْرَأَةُ
الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ
الْخَائِنِينَ (٥٢) وَ مَا أُبْرِئُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا رَحِمَ رَبِّى إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣) وَ قَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ
أَسَدِّ تَخْلُصَهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَ
كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فى الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَ لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ
لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)

قوله تعالى: وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سَوِيَّاتٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عِجَافٍ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ رؤيا للملك يخبر بها المملأ و الدليل عليه قوله: «إِنَّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ» وقوله: «إِنِّي أَرَى» حكاية حال ماضيه، و من المحتمل أنها كانت رؤيا متكرره كما يحتمل مثله في قوله سابقا: «إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا» «إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ» الخ.

و السمان جمع سمينه و العجاف جمع عجفاء بمعنى المهزوله، قال في المجمع: و لا يجمع فعلاء

على فعال غير العجفاء على عجاف و القياس فى جمعه العجف بضم العين و سكون الجيم كالحمرء و الخضراء و البيضاء على حمر و خضر و بيض، و قال غيره: إن ذلك من قبيل الاتباع و الجمع القياسى عجف.

و الإفتاء إفعال من الفتوى و الفتيا، قال فى المجمع: الفتيا الجواب عن حكم المعنى و قد يكون الجواب عن نفس المعنى فلا يكون فتيا انتهى.

و قوله: تَعْبُرُونَ من العبر و هو بيان تأويل الرؤيا و قد يسمى تعبيرا، و هو على أى حال مأخوذ من عبور النهر و نحوه كأن العابر يعبر من الرؤيا الى ما وراءها من التأويل، و هو حقيقة الأمر التى تمثلت لصاحب الرؤيا فى صورته خاصة مألوفه له.

و معنى الآية: و قال ملك مصر لملئه إنى أرى فى منامى سبع بقرات سمات يأكلهن سبع بقرات مهازيل و أرى سبع سنبلات خضر و سنبلات أخر يابسات يا أيها الملاء بينوا لى ما عندكم من حكم رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون.

قوله تعالى: قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ الْأَحْلَام جمع حلم بضمين و قد يسكن وسطه هو ما يراه النائم فى منامه و كأن الأصل فى معناه ما يتصور للإنسان من داخل نفسه من غير توصله اليه بالحس، و منه تسميه العقل حلما لأنه استقامه التفكير، و منه أيضا الحلم لزمان البلوغ قال تعالى: وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ (النور ٥٩) أى زمان البلوغ، بلوغ العقل، و منه الحلم بكسر الحاء بمعنى الأثناء ضد الطيش و هو ضبط النفس و الطبع عن هيجان الغضب و عدم المعاجلة فى العقوبة فإنه إنما يكون عن استقامه التفكير، و ذكر الراغب: أن الأصل فى معناه الحلم بكسر الحاء، و لا يخلو من تكلف.

و قال الراغب: الضغث قبضه ريحان أو حشيش أو قضبان و جمعه أضغاث، قال تعالى «وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا» و به شبه الأحلام المختلفة التى لا تتبين حقائقها «قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ» حزم أخلاط من الأحلام انتهى.

و تسميه الرؤيا الواحده بأضغاث الأحلام كأنه بعنايه دعوى كونها صوراً متفرقه مختلطه مجتمعه من رؤى مختلفه لكل واحد منها تأويل على حده فإذا اجتمعت و اختلطت عسر للمعبر الوقوف على تأويلها، و الإنسان كثيراً ما ينتقل في نومه واحد من رؤيا الى اخرى و منها الى ثالثه و هكذا فإذا اختلطت أبعاضها كانت أضغاث أحلام و امتنع الوقوف على حقيقتها، و يدل على ما ذكرنا من العنايه التعبير بأضغاث أحلام بتنكير المضاف و المضاف اليه معا كما لا يخفى.

على أن الآيه أعنى قوله: «وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ» الخ؛ غير صريحه في كونه رؤيا واحد و في التوراه أنه رأى البقرات السمان و العجاف في رؤيا و السنبلات الخضر و اليابسات في رؤيا اخرى.

و قوله: «وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ إِنْ كَانَ الْأَلْفُ وَاللَّامُ الْعَهْدَ فَالْمَعْنَى وَ مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ هَذِهِ الْمَنَامَاتِ الَّتِي هِيَ أَضْغَاثُ أَحْلَامِ بِعَالَمِينَ. وَ إِنْ كَانَ لِعَهِدِ الْعَهْدِ وَ الْجَمْعِ الْمَحَلِّي بِاللَّامِ يَفِيدُ الْعُمُومَ فَالْمَعْنَى وَ مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ جَمِيعِ الْمَنَامَاتِ بِعَالَمِينَ وَ إِنَّمَا نَعْبَرُ غَيْرَ أَضْغَاثِ الْأَحْلَامِ مِنْهَا، وَ عَلَىٰ أَيِّ حَالٍ لَا تَدْفَعُ بَيْنَ عَدَمِهِمْ رُؤْيَاهُ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَ بَيْنَ نَفِيهِمُ الْعِلْمُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْأَحْلَامِ الْأَحْلَامَ الصَّحِيحَةَ فَحَسَبَ كَانَ كُلٌّ مِنْ شَطْرِي كَلَامِهِمْ يَغْنَىٰ عَنِ الْآخَرِ.

و معنى الآيه قالوا أى قال الملأ للملك: ما رأيت أضغاث أحلام و أخلاط من منامات مختلفه و ما نحن بتأويل هذا النوع من المنامات بعالمين أو و ما نحن بتأويل جميع المنامات بعالمين و إنما نعلم تأويل الرؤى الصالحه.

قوله تعالى: «وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّهُ أَنَا أَتَّبِكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ الْإِمَامَةَ الْجَمَاعَةَ الَّتِي تَقْصِدُ لَشَأْنٍ وَ يَغْلِبُ اسْتِعْمَالُهَا فِي الْإِنْسَانِ، وَ الْمُرَادُ بِهَا هَاهُنَا الْجَمَاعَةُ مِنَ السَّنِينَ وَ هِيَ الْمَدَّةُ الَّتِي نَسِيَ فِيهَا هَذَا الْقَائِلُ وَ هُوَ سَاقِي الْمَلِكِ أَنْ يَذْكَرَ يُوسُفَ عِنْدَ بِهِ

و قد سأله يوسف ذلك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث يوسف في السجن بضع سنين.

و المعنى: وقال الذى نجا من السجن يا صاحبي يوسف فيه و اذكر بعد جماعه من السنين ما سأله يوسف فى السجن حين أول رؤياه: أنا أنبئكم بتأويل ما رآه الملك فى منامه فأرسلونى الى يوسف فى السجن حتى أخبركم بتأويل ذلك.

و خطاب الجمع فى قوله: «أُنَبِّئُكُمْ» و قوله: «فَأَرْسِلُونِ» تشريك لمن حضر مع الملك و هم الملاء من أركان الدوله و أعضاء المملكه الذين يلون أمور الناس، و الدليل عليه قوله الآتى:

«لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ» كما سيأتى.

قوله تعالى: يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ فى الكلام حذف و تقدير إيجازاً، و التقدير: فأرسلوه فجاء الى يوسف فى السجن فقال:

يا يوسف أيها الصديق أفنتا فى رؤيا الملك و ذكر الرؤيا و ذكر أن الناس فى انتظار تأويله و هذا الاسلوب من لطائف أساليب القرآن الكريم.

و سمى يوسف صديقا و هو كثير الصدق المبالغ فيه لما كان رأى من صدقه فيما عبر به منامه و منام صاحبه فى السجن و أمور أخرى شاهدها من فعله و قوله فى السجن، و قد أمضى الله سبحانه كونه صديقا بنقله ذلك من غير رد.

و قد ذكر متن الرؤيا من غير أن يصرح أنه رؤيا فقال «أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَ سَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَ أُخْرٍ يَأْبَسَاتٍ» لأن قوله: «أَفْتِنَا» و هو سؤال الحكم الذى يؤدى اليه نظره، و كون المعهود فيما بينه و بين يوسف تأويل الرؤيا، و كذا ذيل الكلام يدل على ذلك و يكشف عنه.

و قوله: لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ لعل الأول تعليل لقوله:

«أَفْتِنَا» و لعل الثانى تعليل لقوله: «أَرْجِعُ» و المراد أفنتا فى أمر هذه الرؤيا ففى إفتائك رجاء أن أرجع به الى الناس و أخبرهم بها و فى رجوعى اليهم رجاء أن يعلموا به فيخرجوا به من الحيره

و من هنا يظهر أن قوله: «أَرْجِعْ» فى معنى أرجع بذلك فمن المعلوم أنه لو أفتى فيه فرجع المستفتى الى الناس كان رجوعه رجوع عالم بتأويله خبير بحكمه فرجوعه عندئذ اليهم رجوع بمصاحبه ما ألقى اليه من التأويل فافهم ذلك.

و فى قوله أولاد: «أَفْتَدًا» و ثانيا «لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ» دلالة على أنه كان يستفتيه بالرساله عن الملك و الملاء و لم يكن يسأله لنفسه حتى يعلمه ثم يخبرهم به بل ليحملة اليهم و لذلك لم يخصه يوسف بالخطاب بل عم الخطاب له و لغيره فقال «تَزْرَعُونَ» الخ.

و فى قوله: إِلَى النَّاسِ إشعار أو دلالة على أن الناس كانوا فى انتظار أن يرتفع بتأويله حيرتهم، و ليس إلا أن الملاء كانوا هم أولياء أمور الناس و خيرتهم فى الأمر خيره الناس أو أن الناس أنفسهم كانوا على هذا الحال لتعلقهم بالملك و اهتمامهم برؤياه لأن الرؤيا ناظره غالبا الى ما يهتم به الإنسان من شئون الحياه و الملوك إنما يهتمون بشئون الملكه و أمور الرغبه.

قوله تعالى: قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ قال الراغب: الدأب إدامه السير دأب فى السير دأبا قال تعالى:

وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دَائِبِينَ وَ الدأب العاده المستمره دائما على حاله، قال تعالى:

كَدَّأَبِ آلِ فِرْعَوْنَ أَى كعادتهم التى يستمرون عليها. انتهى و عليه فالمعنى تزرعون سبع سنين زراعه متواليه مستمره، و قيل: هو من دأب بمعنى التعب أى تزرعون بجد و اجتهاد، و يمكن أن يكون حالا أى تزرعون دائبين مستمرين أو مجددين مجتهدين فيه.

ذكروا أن «تَزْرَعُونَ» خبر فى معنى الإنشاء، و كثيرا ما يؤتى بالأمر فى صوره الخبر مبالغه فى وجوب الامتثال كأنه واقع يخبر عنه كقوله تعالى: تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (الصف ١١)، و الدليل عليه قوله بعد: «فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ»، قيل:

و إنما أمر بوضعه و تركه فى سنبله لأن السنبل لا يقع فيه سوس و لا يهلك و إن بقى مده من الزمان، و إذا ديس و صفى أسرع اليه الهلاك.

و المعنى: ازرعوا سبع سنين متواليات فما حصدتم فذروه فى سنبله لئلا يهلك و احفظوه كذلك إلا قليلا و هو ما تأكلون فى هذه السنين.

قوله تعالى: **ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ** الشداد جمع شديد من الشده بمعنى الصعوبه لما فى سنى الجذب و المجاعه من الصعوبه و الحرج على الناس أو هو من شد عليه إذا كر، و هذا أنسب لما بعده من توصيفها بقوله: **«يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ»**.

و عليه فالكلام يشتمل على تمثيل لطيف كأن هذه السنين سبع ضاربه تكرر على الناس لافتراسهم و أكلهم فيقدمون إليها ما ادخروه عندهم من الطعام فتأكله و تنصرف عنهم.

و الإحصان الإحراز و الادخار، و المعنى ثم يأتى من بعد ذلك أى ما ذكر من السنين الخصبه سبع سنين شداد يشددن عليكم يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحرزون و تدخرون.

قوله تعالى: **ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَ فِيهِ يَعَصِرُونَ** يقال: غاثة الله و أغاثة أى نصره، و يغايته بفتح الياء و ضمها أى بنصره و هو من الغوث بمعنى النصره و غايمهم الله يغايهم من الغيث و هو المطر، فقوله: **«فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ»** إن كان من الغوث كان معناه: ينصرون فيه من قبل الله سبحانه بكشف الكربه و رفع الجذب و المجاعه و إنزال النعمه و البركه، و إن كان من الغيث كان معناه: يمطرون فيرتفع الجذب من بينهم.

و هذا المعنى الثانى أنسب بالنظر الى قوله بعده: **«وَ فِيهِ يَعَصِرُونَ»** و لا يصغى الى قوله من يدعى: أن المعنى الأول هو المتبادر من سياق الآيه إلا على قراءه **«يَعَصِرُونَ»** بالبناء للمجهول و معناه يمطرون.

و ما أورده بعض المستشرقين على المعنى الثانى أنه لا ينطبق على مورد الآيه فإن خصب

مصر إنما يكون بفيضان النيل لا بالمطر فالامطار لا تؤثر فيها أثرا.

رد عليه بأن الفيضان نفسه لا يكون إلا بالمطر الذى يمدده فى مجاريه من بلاد السودان.

على أن من الجائز أن يكون «يُعَاتُ» مأخوذا من الغيث بمعنى النبات، قال فى لسان العرب: و الغيث الكلاء ينبت من ماء السماء انتهى، وهذا أنسب من المعنيين السابقين بالنظر الى قوله: «وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ» .

وقوله: وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ من العصر وهو إخراج ما فى الشيء من ماء أو دهن بالضغط كإخراج ماء العنب و التمر للدبس و غيره و إخراج دهن الزيت و السمسم للالتدام و الاستصباح و غيرهما، و يمكن أن يراد بالعصر الحلب أى يحلبون ضرور أنعامهم كما فسرهم بعضهم به.

و المعنى ثم يأتى من بعد ذلك أى ما ذكر من السبع الشداد عام فيه تنبت أراضيهم-أو يمطرون أو ينصرون-و فيه يتخذون الأشربه و الأدهنه من الفواكه و البقول أو يحلبون ضرور أنعامهم. و فيه كناية عن توفر النعمه عليهم و على أنعامهم و مواشيهم.

قوله تعالى: وَ قَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْئَلُهُ مَا بِآلِ النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ فى الكلام حذف و إضمار إيجازا، و التقدير-على ما يدل عليه السياق و الاعتبار بطبيعته الأحوال- و جاء الرسول و هو الساقى فنأهم بما ذكره يوسف من تأويل الرؤيا و قال الملك بعد ما سمعه:

ائتونى به.

و ظاهر أن الذى أنبأهم به من جذب سبع سنين متواليه كان أمرا عظيما، و الذى أشار اليه من رأى البين الصواب أعظم منه و أغرب عند الملك المهتم بأمر أمته المعتنى بشئون مملكته، و قد أفزعه ما سمع و أدهشه، و لذلك يحضاره ليكلمه و يتبصره بما يقوله مزيد تبصر، و يشهد بهذا ما حكاه الله تعالى من تكليمه إياه بقوله: «فلما جاءه و كلمه» الخ.

ص: ٢٩٣

و لم يكن أمره يأتيناه به إشخاصا له بل إطلاقا من السجن و إشخاصا للتكليم، و لو كان إشخاصا و إحضارا لمسجون يعود الى السجن بعد التكليم لم يكن ليوسف عليه السلام أن يستنكف عن الحضور بل أجبر عليه إجبارا بل كان إحضارا عن عفو و إطلاق فوسعه أن يأتي الحضور و يسأله أن يقضى فيه بالحق، و كانت نتيجة هذا الإباء و السؤال أن يقول الملك ثانيا: ائتوني به أستخلصه لنفسي بعد ما قال أولا: ائتوني به.

و قد راعى عليه السلام أدبا بارعا فى قوله للرسول: «ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَدِّئْ لَهُ مَا بَالَ النَّسْوَةَ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» فلم يذكر امرأه العزيز بما يسوؤه و ليس يريد إلا أن يقضى بينه و بينها، و إنما أشار الى النسوة اللاتي راودنه، و لم يذكرهن أيضا بسوء إلا بأمر يظهر بالتحقيق فيه براءته و لا براءته من مراوده امرأه العزيز بل نزاهته من أى مراوده و فحشاء تنسب اليه فقد كان بلاؤه عظيما.

و لم يذكرهن بشيء من المكروه إلا ما فى قوله: «إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِيهِنَّ عَلِيمٌ» و ليس إلا نوعا من بث الشكوى لربه.

و ما أطف قوله فى صدر الآيه و ذيلها حيث يقول للرسول: «ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَدِّئْ لَهُ» ثم يقول «إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِيهِنَّ عَلِيمٌ» و فيه نوع من تبليغ الحق، و ليكن فيه تنبه لمن يزعم أن مراده من «رَبِّي» فيما قال لامرأه العزيز «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» هو زوجها، و أنه يسميه ربا لنفسه.

و ما أطف قوله: «مَا بَالَ النَّسْوَةَ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» و البال هو الأمر الذى يهتم به يقول: ما هو الأمر العظيم و الشأن الخطير الذى أوقعهن فيما وقعن فيه، و ليس إلا - هوهنّ فيه و و لهنّ فى حبه حتى أنساهن أنفسهن فقطعن الأيدي مكان الفاكهه تقطيعا فليفكر الملك فى نفسه أن الابتلاء بمثل هذه العاشقات الوالهات عظيم جدا، و الكف عن معاشقتهن و الامتناع من إجابتهن بما يردنه و هن يفدينه بالأنفس و الأموال أعظم، و لم يكن المراوده بالمره و المرتين و لا - الإلحاح و الإصرار يوما أو يومين و لن تيسر المقاومه و الاستقامه تجاه ذلك إلا لمن صرف

اللّه عنه السوء و الفحشاء ببرهان من عنده.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الْآيَةِ﴾ قال الراغب: الخطب الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب قال تعالى ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾. انتهى.

وقال أيضا: حصحص الحق أى وضح و ذلك بانكشاف ما يظهره، و حص و حصحص نحو كف و كفكف و كب و كبكب، و حصه قطع منه إما بالمباشره و إما بالحكم-الى أن قال- و الحصه القطعه من الجملة، و يستعمل استعمال النصيب. انتهى.

وقوله: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ؟﴾ جواب عن سؤال مقدر على ما فى الكلام من حذف و إضمار إيجازا- كل ذلك يدل عليه السياق- و التقدير: كأن سائلا يسأل فيقول: فما الذى كان بعد ذلك؟ و ما فعل الملك؟ فقيل: رجع الرسول الى الملك و بلغه ما قاله يوسف و سأله منى القضاء فأحضر النسوة و سألهن عما يهمن من شأنهن فى مرادتهن ليوسف: ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه؟ قلن ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ فنزّهه عن كل سوء، و شهدن أنهم لم يظهر لهن منه ما يسوء فيما راودنه عن نفسه.

و ذكرهن كلمه التنزيه ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ نظير تنزيههن حينما رأينه لأول مره ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾ يدل على بلوغه عليه السلام النهايه فى النزاهه و العفه فيما علمنه كما أن كان بالغاً فى الحسن.

و الكلام فى فصل قوله: ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ نظير الكلام فى قوله: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ﴾ و قوله: ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ فعند ذلك تكلمت امراه العزيز و هى الأصل فى هذه الفتنه و اعرفت بذنبها و صدقت يوسف عليه السلام فيما كان يدعيه من البراءه قالت: الآن حصحص و وضح الحق و هو أنه: أنا راودته عن نفسه و إنه لمن الصادقين فنسبت المرادوه الى نفسها و كذبت نفسها فى اتهامه بالمرادوه، و لم تقنع بذلك بر برأته تبرئه كامله أنه لم يراود و لا أجابها فى مرادتها بالطاعه.

و اتضحت بذلك براءته عليه السّلام من كل وجه، و في قول النسوة و قول امرأه العزيز جهات من التأكيد بالغه في ذلك كنفى السوء عنه بالنكره في سياق النفي مع زياده من «مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ» مع كلمه التنزيه «حَاشَ لِلَّهِ» في قولهن، و اعترافها بالذنب في سياق الحصر «أَنَا رَأَوْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ» و شهادتها بصدقه مؤكده يانّ و اللام و الجملة الاسميه «وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ» و غير ذلك في قولها. و هذا ينفي عنه عليه السّلام كل سوء أعم من الفحشاء و المراوده لها و أى ميل و نزعه إليها و كذب و افتراء، بنزاهه من حسن اختياره.

قوله تعالى: ذَلِكُمْ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ من كلام يوسف عليه السّلام على ما يدل عليه السياق، و كأنه قاله عن شهادته النسوة على براءه ساحتها من كل سوء و اعتراف امرأه العزيز بالذنب و شهادتها بصدقه و قضاء الملك ببراءته.

و حكاية القول كثير النظير في القرآن كقوله: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ (البقره / ٢٨٥) أى قالوا لا نفرق، الخ؛ و قوله: وَإِذَا لَنَحْنُ الصَّافُونَ وَإِذَا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (الصافات / ١٦٦).

و على هذا فالإشارة بقوله: «ذَلِكُمْ» الى إرجاع الرسول الى الملك و سؤاله القضاء، و الضمير فى «لِيَعْلَمَ» و «لَمْ أَخُنْهُ» عائد الى العزيز و المعنى إنما أرجعت الرسول الى الملك و سألته أن يحقق الأمر و يقضى بالحق ليعلم العزيز أنى لم أخنه بالغيب بمراوده امرأته و ليعلم أن الله لا يهدى كيد الخائنين.

يذكر عليه السّلام لما فعله من الإرجاع و السؤال غايتين:

أحدهما: أن يعلم العزيز أنه لم يخنه و تطيب نفسه منه و يزول عنها و عن أمره أى شبهه و ريبه.

و الثاني: أن يعلم أن الخائن مطلقاً لا ينال بخيائته غايته و أنه سيفتضح لا محاله سنه الله التي قد خلت في عبادته و لن تجد لسنه الله تبديلاً فإن الخيانه من الباطل، و الباطل لا يدوم و سيظهر الحق عليه ظهوراً، و لو اهتدى الخائن الى بغيته لم تفتضح النسوه الآتى قطعن أيديهن و أخذن بالمرأوده و لا امرأه العزيز فيما فعلت و أصرت عليه فالله لا يهدى كيد الخائنين.

و كان الغرض من الغايه الثانيه «وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ» و تذكيره و تعليمه للملك، الحصول على لازم فائده الخبر و هو أن يعلم الملك أنه عليه السلام عالم بذلك مدعن بحقيقته فإذا كان لم يخنه في عرضه بالغيب و لا يخون في شيء البتة كان جديراً بأن يؤتمن على كل شيء نفساً كان أو عرضاً أو مالاً.

و بهذا الامتياز البين يتهياً ليوسف ما كان بباله أن يسأل الملك إياه و هو قوله بعد أن أشخص عند الملك: «اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ» .

و الآيه ظاهره في أن هذا الملك هو غير عزيز مصر زوج المرأه الذي أشير اليه بقوله:

«وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ» و قوله: «وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ» .

و قد ذكر بعض المفسرين أن هذه الآيه و التي بعدها تتمه قول امرأه العزيز «الآن حصي حص الحق أنا راودتته عن نفسه و إنه لمن الصادقين» و سيأتي الكلام عليه.

قوله تعالى: «وَمَا أُبْرِي نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ» تتمه كلام يوسف عليه السلام و ذلك أن قوله: «أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» كان لا يخلو من شائبه دعوى الحول و القوه و هو عليه السلام من المخلصين المتوغلين في التوحيد الذين لا يرون لغيره تعالى حولا و لا قوه فبادر عليه السلام الى نفى الحول و القوه عن نفسه و نسبه ما ظهر منه من عمل صالح أو صفه جميله الى رحمه ربه، و تسويه نفسه بسائر النفوس التي هي بحسب الطبع مائله الى الأهواء أماره بالسوء فقال «وَمَا أُبْرِي نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي» فقوله هذا كقول شعيب عليه السلام: «إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَ مَا تَوْفِيقِي إِلَّا

فقوله: وَمَا أَتَىٰ نَفْسِي إِشَارَهُ إِلَى قَوْلِهِ: «أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» و أنه لم قل هذا القول بداعى تنزيه نفسه و تزكيتها بل بداعى حكاية رحمه من ربه، و علل ذلك بقوله: «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» أى إن النفس بطبعها تدعو الى مشتبهاتها من السيئات على كثرتها و فورها فمن الجهل أن تبرأ من الميل الى السوء، و إنما تكف عن أمرها بالسوء و دعوتها الى الشر برحمه من الله سبحانه تصرفها عن السوء و توفيقها لصالح العمل.

قوله تعالى: وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَمَدِينٌ مِّمَّنْ أَمِينٌ يقال: أستخلصه أى جعله خالصاً، و المكين صاحب المكانه و المنزله، و فى قوله: «فَلَمَّا كَلَّمَهُ» حذف للإيجاز و التقدير: فلما أتى به اليه و كلمه قال إنك اليوم، الخ؛ و فى تقييد الحكم باليوم اشاره الى التعليل، و المعنى إنك اليوم و قد ظهر من مكارم أخلاقك فى التجنب عن السوء و الفحشاء و الخيانه و الظلم، و الصبر على مكروهه و صغار فى سبيل طهاره نفسك، و اختصاصك بتأييد من ربك غيبى و علم بالأحاديث و الرأى و الحزم و الحكمه و العقل لدينا ذو مكانه و أمانه، و قد أطلق قوله: «مَكِينٌ أَمِينٌ» فأفاد بذلك عموم الحكم.

و المعنى: و قال الملك ائتوني بيوسف أجعله خالصاً لنفسى و خاصه لى فلما أتى به اليه و كلمه قال له إنك اليوم و قد ظهر من كمالك ما ظهر لدينا ذو مكانه مطلقه و أمانه مطلقه يمكنك من كل ما تريد و يأتينك على جميع شئون الملك و فى ذلك حكم صدارته.

قوله تعالى: قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمَ لما عهد الملك ليوسف إنك اليوم لدينا مكين أمين و أطلق القول سأله يوسف عليه السلام أن ينصبه على خزائن الأرض و يفوض اليه أمرها، و المراد بالأرض أرض مصر.

و لم يسأله ما سأل إلا ليتقلد بنفسه إداره أمر الميره و أرزاق الناس فيجمعها

و يدخرها لسنين السبع الشداد التي سيستقبل الناس و تنزل عليهم جديها و مجاعتها و يقوم بنفسه لقسمه الأرزاق بين الناس و إعطاء كل منهم ما يستحقه من الميره من غير حيف.

و قد علل سؤاله ذلك بقوله: «إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ» فإن هاتين الصفتين هما اللآزم وجودهما فيمن يتصدى مقاما هو سائله و لا غنى عنهما له، و قد أجب اللى ما سأل و اشتغل بما كان يريد ك ذلك معلوم من سياق الآيات و ما يتلوها.

قوله تعالى: وَ كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَ لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ التمكنين هو الإقدار و التبوؤ أخذ المكان.

و الإشارة بقوله: «كَذَلِكَ» اللى ما ساقه من القصة بما انتهى اللى نيله عليه السّلام عزه مصر، و هو حديث السجن و قد كانت امرأه العزيز هددته بالصغار بالسجن فجعله الله سببا للعزه، و على هذا النمط كان يجرى أمره عليه السّلام أكرمه أبوه فحسده إخوته فكادوا به بالقاءه فى غياهب الجب و بيعه من السّياره ليدلوه فأكرم الله مثواه فى بيت العزيز، و كادت به امرأه العزيز و نسوه مصر ليوردنه مورد الفجور فأبان الله عصمته ثم كادت به بالسجن لصغاره فتسبب الله بذلك لعزته.

و للإشارة اللى أمر السجن و حبسه و سلبه حريه الاختلاط و العشره، قال تعالى «وَ كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ» أى رفعنا عنه حرج السجن الذى سلب منه إطلاق الإراده فصار مطلق المشيه له أن يتبوأ فى أى بقعه يشاء فهذا الكلام بوجه يحاذى قوله تعالى السابق فيه حين دخل بيت العزيز و وصاه امرأته: «وَ كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ» .

و بهذه المقايسه يظهر أن قوله هاهنا: «نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ» فى معنى قوله هناك: «وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ» و أن المراد أن الله سبحانه إذا شاء أن يصيب برحمته أحدا لم يغلب فى مشيته و لا يسع لأى مانع مفروض أن يمنع من إصابته. و لو وسع لسبب أن يبطل مشيه الله فى أحد

لوسع فى يوسف الذى تعاضدت الأسباب القاطعه و تظاهرت لخفضه فرفعه الله و لإذلاله فأعزه الله، إن الحكم إلا لله.

وقوله: **وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** إشاره الى أن هذا التمكين أجر اوتيه يوسف عليه السلام، و وعد جميل للمحسنين جميعا أن الله لا يضيع أجرهم.

قوله تعالى: **وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ** أى لأولياء الله من عباده فهو وعد جميل اخروى لأوليائه تعالى خاصه و كان يوسف عليه السلام منهم.

و الدليل على أنه لا- يعم عامه المؤمنين الجملة الحاليه «**وَ كَانُوا يَتَّقُونَ**» الداله على أن هذا الإيمان و هو حقيقه الإيمان لا محاله كان منهم مسبقا بتقوى مستمر حقيقى و هذا التقوى لا يتحقق من غير إيمان فهو إيمان بعد إيمان و تقوى و هو المساوق لولايه الله سبحانه قال تعالى **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ** الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ (يونس ٦٤) (١).

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٥٨ الى ٦٢]

إشاره

وَ جَاءَ إِخْوَهُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٨) وَ لَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفَىٰ الْكَيْلِ وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَ لَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سِرًّا أَرَادَ عَنَّهُ أَبَاهُ وَ إِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَ قَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)

ص: ٣٠٠

قوله تعالى: «وَجَاءَ إِخْوَهُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ فِي الْكَلَامِ حَذَفَ كَثِيرٌ وَإِنَّمَا تَرَكَ الْاِقْتِصَاصَ لَهُ لِعَدَمِ تَعَلُّقِ غَرَضِ هَامَ بِهِ، وَإِنَّمَا الْغَرَضُ بَيَانُ لِحُوقِ أُخَى يُوسُفَ مِنْ أُمِّهِ بِهِ وَإِشْرَاكِهِ مَعَهُ فِي النِّعْمَةِ وَالْمَنْنِ الْإِلَهِيِّ ثُمَّ مَعْرِفَتِهِمْ بِيُوسُفَ وَ لِحُوقِ بَيْتِ يَعْقُوبَ بِهِ فَهُوَ شَطْرُ مَخْتَارٍ مِنْ قِصَّتِهِ وَ مَا جَرَى عَلَيْهِ بَعْدَ عِزِّهِ مِصْرَهُ.

وَالَّذِي جَاءَ إِلَيْهِ مِنْ إِخْوَتِهِ هُمُ الْعَصْبَةُ مَا خَلَا أُخِيهِ مِنْ أُمِّهِ فَإِنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْنَسُ بِهِ وَ لَا يَخْلَى بَيْنَهُ وَ بَيْنَهُمْ بَعْدَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ يُوسُفَ مَا كَانَ، وَ الدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ مَا سَيَأْتِي مِنَ الْآيَاتِ.

وَ كَانَ بَيْنَ دُخُولِهِمْ هَذَا عَلَى أُخِيهِمْ يُوسُفَ وَ بَيْنَ انْتِصَابِهِ عَلَى خِزَانِ الْأَرْضِ وَ تَقْلُدِهِ عِزَّهُ مِصْرَ بَعْدَ الْخُرُوجِ مِنَ السِّجْنِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِ سِنِينَ فَإِنَّهُمْ إِذَا جَاءُوا إِلَيْهِ فِي بَعْضِ السِّنِينَ الْمَجْدِبَةِ وَ قَدْ خَلَّتِ السَّبْعُ السِّنُونَ الْمَخْصِبَةَ، وَ لَمْ يَرَوْهُ مِنْذُ سَلْمُوهُ إِلَى السِّيَارَةِ يَوْمَ أُخْرِجَ مِنَ الْعِجْبِ وَ هُوَ صَبِيٌّ وَ قَدْ مَرَّ عَلَيْهِ سِنُونَ فِي بَيْتِ الْعَزِيزِ وَ لَبِثَ بَضْعَ سِنِينَ فِي السِّجْنِ وَ تَوَلَّى أَمْرَ الْخِزَانَةِ مِنْذُ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِ سِنِينَ، وَ هُوَ الْيَوْمَ فِي زِيِّ عَزِيزِ مِصْرَ لَا يَظُنُّ بِهِ أَنَّهُ رَجُلٌ عَبْرِيٌّ مِنْ غَيْرِ الْقَبْطِ، وَ هَذَا كُلُّهُ صَرَفُهُمْ عَنْ أَنْ يَظُنُّوا بِهِ أَنَّهُ أُخُوهُمْ وَ يَعْرِفُوهُ لَكِنَّهُ عَرَفَهُمْ بِكَيْاسَتِهِ أَوْ بِفِرَاسَةِ النَّبُوَّةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى «وَ جَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ» .

قوله تعالى: «وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَ لَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَ أَنَا خَيْرُ الْمُتْرَلِينَ قَالَ الرَّابِعُ فِي الْمَفْرَدَاتِ: الْجِهَازُ مَا يَعْدُ مِنْ مَتَاعٍ وَ غَيْرِهِ، وَ التَّجْهِيْزُ حَمْلُ ذَلِكَ أَوْ بَعْتُهُ. انْتَهَى. فَالْمَعْنَى وَ لَمَّا حَمَلَهُمْ مَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الْجِهَازِ وَ الطَّعَامِ الَّذِي بَاعَهُ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ بِأَنْ يَأْتُوا إِلَيْهِ بِأَخٍ لَهُمْ مِنْ أَبِيهِمْ وَ قَالَ ائْتُونِي، الْخ.

وَ قَوْلُهُ: «أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ - أَيْ لَا أَبْخَسُ فِيهِ وَ لَا أَظْلِمُكُمْ بِالْاِتِّكَاءِ عَلَى قَدْرَتِي

و عزتى - وَ أَنَا خَيْرُ الْمُتَزَلِّينَ » أكرم النازلين بى و أحسن مثوهم، و هذا تحريض لهم أن يعودوا اليه ثانيا و يأتوا اليه بأخيهم من أبيهم كما أن قوله فى الآيه التاليه: «فَبِإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَ لَا تَقْرُبُونِ» تهديد لهم لئلا يعصوا أمره، و كما أن قولهم فى الآيه: «سَرَّادُ عَنَّهُ أَبَاهُ وَ إِنَّا لَفَاعِلُونَ» تقبل منهم لذلك فى الجملة و تطيب لىفس يوسف عليه السلام.

ثم من المعلوم أن قوله عليه السلام أو ان خروجهم: «أَتْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ» مع ما فيه من التأكيد و التحريض و التهديد ليس من شأنه أن يورد كلاما ابتدائيا من غير مقدمه و توطئه تعمى عليهم و تصرفهم أن يتفطنوا أنه يوسف أو يتوهموا فيه ما يريهم فى أمره. و هو ظاهر.

و قد أورد المفسرون فى القصة من مفاوضات لهم و تكليمه إياهم أمورا كثيره لا دليل على شىء منها من كلامه تعالى فى سياق القصة و لا أثر يطمأن اليه فى أمثال المقام.

و كلامه تعالى خال عن التعرض لذلك، و إنما الذى يستفاد منه أنه سأ لهم عن خطبهم فأخبروه و هم عشره أنهم إخوه و أن لهم أخا آخر بقى عند أبيهم لا يفارقه أبوه و لا يرضى أن يفارقه لسفر أو غيره فأحب العزيز أن يأتوا به اليه فيراه.

قوله تعالى: «فَبِإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَ لَا تَقْرُبُونِ الْكَيْلَ بِمَعْنَى الْمَكِيلِ وَ هُوَ الطَّعَامُ، وَ لَا تَقْرُبُونَ أَى لَا تَقْرُبُونِي بِدُخُولِ أَرْضِي وَ الْحُضُورِ عِنْدِي لِلْمَتْيَارِ وَ اشْتِرَاءِ الطَّعَامِ. وَ مَعْنَى الْآيَةِ ظَاهِرٌ، وَ هُوَ تَهْدِيدٌ مِنْهُمْ لَوْ خَالَفُوا عَنْ أَمْرِهِ كَمَا تَقَدَّمَ.

قوله تعالى: «قَالُوا سَرَّادُ عَنَّهُ أَبَاهُ وَ إِنَّا لَفَاعِلُونَ الْمَرَاوِدَ» كما تقدم هى الرجوع فى أمر مره بعد مره بالإلحاح أو الاستخدام، فى قولهم لىوسف عليه السلام: «سَرَّادُ عَنَّهُ أَبَاهُ» دليل على أنهم قصوا عليه قصته أن أباهم يرضن به و لا يرضى بمفارقتة له و يابى أن يبتعد منه لسفر أو أى غيبه، و فى قولهم: «أَبَاهُ» و لم قولوا: أبانا تأييد لذلك.

و قولهم: «وَ إِنَّا لَفَاعِلُونَ أَى فاعلون للإتيان به أو للمراوده لحمله معهم و الإتيان به اليه، و معنى الآيه ظاهر، و فيه تقبل منهم لذلك فى الجملة و تطيب لىفس يوسف عليه السلام

كما تقدم.

قوله تعالى: وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَيَّ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ الفتيان جمع الفتى و هو الغلام، و قال الراغب:

البضاعة قطعه وافر من المال يقتنى للتجاره يقال: أبضع بضاعه و ابتضعها، قال تعالى «هَذِهِ بَضَاعَتُنَا رُذَّتِ الْبِئْسَاءُ» و قال تعالى «بِضَاعِهِ مُزْجَاهٍ» و الأصل فى هذه الكلمه البضع - بفتح الباء - و هو جمله من اللحم ببضع أى يقطع - قال - و فلان بضعه منى أى جار مجرى بعض جسدى لقربه منى - قال - و البضع بالكسر المنقطع من العشره، و يقال ذلك لما بين الثلاث الى العشره و قيل: بل هو فوق الخمس و دون العشره. انتهى، و الرحال جمع رحل و هو الوعاء و الأناث، و الانقلاب الرجوع.

و معنى الآيه: و قال يوسف عليه السلام لغلمايه: اجعلوا مالهم و بضاعتهم التى قدموها ثمننا لما اشتروه من الطعام فى أوعيتهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا و رجعوا الى أهلهم - و فتحوا الأوعية - لعلهم يرجعون إلينا و يأتوا بأخيهم فإن ذلك يقع فى قلوبهم و يطعمهم الى الرجوع و التمتع من الإكرام و الإحسان.

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٦٣ الى ٨٢]

إشارة

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَذِيبُ فَأَرْسَلْنَا مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلُ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَيْلَ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَ لَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَ حِيدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بَضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَ نَمِيرُ أَهْلَنَا وَ نَحْفَظُ أَخَانَا وَ نَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُوا مِن مَّوْتِقَاتِي مِنَ اللَّهِ لَتِيَأتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْتِقَاتِهِمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَ كَيْلٌ (٦٦) وَ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَ ادْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَ مَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَ لَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَ إِنَّهُ لَمَذُوعٌ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨) وَ لَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئَسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذِنَ مَوْذَنٌ أُوتِيهَا الْعَبْرَ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفَقَدْ صُوعَ الْمَلِكِ وَ لِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلٌ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَ مَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَلَمَّا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مِنْ وَجْدٍ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبِيلَ وَعَمَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَمَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) قَالُوا إِنْ يَشْرِقْ فَقَدْ سَرِقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَحِيدًا مَّتَاعًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَالِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَ مِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَ هُوَ خَيْرٌ الْحَاكِمِينَ (٨٠) اِرْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَ مَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا

عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ لِحَافِظِينَ (٨١) وَ سَأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْغَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢)

ص: ٣٠٣

قوله تعالى: فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتَلُ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ الاكتيال أخذ الطعام كيلا إن كان مما يكال، قال الراغب: الكيل كيل الطعام يقال: كلت له الطعام إذا توليت له ذلك، و كلته الطعام إذا أعطيته كيلا، و اكتلت عليه إذا أخذت منه كيلا، قال تعالى: وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ- وَإِذَا كَالُوهُمْ.

و قوله: قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ أى لو لم نذهب بأخينا و لم يذهب معنا الى مصر، بدليل قوله: «فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا» فهو إجمال ما جرى بينهم و بين عزيز مصر من أمره بمنعم من الكيل إن لم يأتوا بأخ لهم من أبيهم، يقصونه لأبيهم و يسألونه أن يرسله معهم ليكتالوا و لا يحرموا.

و قولهم: آخَانًا إظهار رأفه و إشفاق لتطيب نفس ابيهم من انفسهم كقولهم: «وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» بما فيه من التأكد البالغ.

قوله تعالى: قَالَ هَيْلًا آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَّنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ قال فى المجمع: الأمان اطمئنان القلب الى سلامه الأمر يقال: آمنه يأمنه أمانا انتهى فقوله: «هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ» الخ؛ أى هل اطمأن اليكم فى ابني هذا إلا مثل ما اطمأنت اليكم فى أخيه يوسف من قبل هذا فكان ما كان.

و محصله أنكم تتوقعون منى أن أثق فيه بكم و تطمئن نفسى اليكم كما وثقت بكم و اطمأنت

اليكم فى أخيه من قبل و تعدوننى بقولكم «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» أن تحفظوه كما وعدتم فى يوسف بقولكم «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» و قد أمنتكم بمثل هذا الأمن على يوسف فلم تغنوا عنى شيئاً و جئتم بقميصه الملطخ بالدم أن الذئب أكله و أمنى لكم على هذا الأخ مثل أمنى على أخيه من قبل أمن لمن لا يغنى أمنه و الاطمئنان اليه شيئاً و لا بيده حفظ ما سلم اليه و ائتمن له.

و قوله: فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ تفرّيع على سابق كلامه «هَيْلُ أَمْنِكُمْ عَلَيْهِ» الخ؛ و تفيد الاستنتاج أى إذا كان الاطمئنان اليكم فى أمره لغى لا أثر له و لا يغنى شيئاً فخير الاطمئنان و الاتكال ما كان اطمئنانا الى الله سبحانه من حيث حفظه، و إذا تردد الأمر بين التوكّل عليه و التفويض اليه و بين الاطمئنان الى غيره كان الوثوق به تعالى هو المختار المتعين.

و قوله: وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فى موضع التعليل لقوله: «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا» أى إن غيره تعالى ربما أمن فى أمر و ائتمن عليه فى أمانه سلم له فلم يرحم المؤمن وضيع الأمانه لكنه سبحانه أرحم الراحمين لا يترك الرحمه فى محل الرحمه و يترحم العاجز الضعيف الذى فوض اليه أمراً و توكّل عليه، و من يتوكّل على الله فهو حسبه.

قوله تعالى: وَ لَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَ جَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ الى آخر الآيه؛ البغى هو الطلب و يستعمل كثيراً فى الشر و منه البغى بمعنى الظلم و البغى بمعنى الزنا، و قال فى المجمع: الميره الأطمعه التى تحمل من بلد الى بلد و يقال: مرتهم أميرهم ميرا: إذا أتيتهم بالميره، و مثله: امرتهم امتياراً. انتهى.

و قوله: يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي استفهام أى لما فتحوا متاعهم و وجدوا بضاعتهم ردت اليهم و كان ذلك دليلاً على اكرم العزيز لهم و أنه غير قاصد بهم سوء و قد سلم اليهم الطعام و رد اليهم الثمن فكان ذهابهم الى مصر للاختيار خير سفر نفعاً و درا راجعوا أباهم و قالوا: يا أبانا ما الذى نطلب من سفرنا الى مصر وراء هذا؟ فقد اوفى لنا الكيل و رد الينا ما بذلناه من البضاعه

فقولهم: يَا أَبَاتَنَا مَا نَبَغِي هَذِهِ بَضَاعَتَنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا أَرَادُوا بِهِ تَطْيِيبَ نَفْسِ أَبِيهِمْ لِيَرْضَى بِذَهَابِ أَحْيِهِمْ مَعَهُمْ لِأَنَّهُ فِي أَمْنٍ مِنَ الْعَزِيزِ وَ هُمْ يَحْفَظُونَهُ كَمَا وَعَدُوهُ وَ لِذَلِكَ عَقَبُوهُ بِقَوْلِهِمْ: «وَ نَمِيرُ أَهْلَنَا وَ نَحْفَظُ أَحَانَا وَ نَزْدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ» أَيْ سَهْلٌ.

وَ رُبَمَا قِيلَ: إِنْ «مَا» فِي قَوْلِهِ: «مَا نَبَغِي» لِلنَّفْيِ أَيْ مَا نَطْلُبُ بِمَا أَخْبَرْنَاكَ مِنَ الْعَزِيزِ وَ إِكْرَامِهِ لَنَا الْكُذْبَ فَهَذِهِ بَضَاعَتَنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا، وَ كَذَا قِيلَ: إِنْ الْيَسِيرُ بِمَعْنَى الْقَلِيلِ أَيْ إِنْ الَّذِي جِئْنَا بِهِ إِلَيْكَ مِنَ الْكَيْلِ قَلِيلٌ لَا يَقْنَعُنَا فَنَحْتَاجُ إِلَى أَنْ نُضَيِّفَ إِلَيْهِ كَيْلَ بَعِيرٍ أَخِينَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونَ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتِنَنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَ كَيْلُ الْمَوْثِقِ بِكَسْرِ الشَّاءِ مَا يُوَثِّقُ بِهِ وَ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ، وَ الْمَوْثِقُ مِنَ اللَّهِ هُوَ أَمْرٌ يُوَثِّقُ بِهِ وَ يَرْتَبِطُ مَعَ ذَلِكَ بِاللَّهِ وَ إِيتَاءُ مَوْثِقِ إِلَهِي وَ إِعْطَاؤُهُ هُوَ أَنْ يَسْلُطَ الْإِنْسَانَ عَلَى أَمْرِ إِلَهِي يُوَثِّقُ بِهِ كَالْعَهْدِ وَ الْيَمِينِ بِمَنْزِلَةِ الرَّهِينَةِ، وَ الْمَعَاهِدِ وَ الْمَقْسَمِ بِقَوْلِهِ عَاهَدْتُ اللَّهَ أَنْ أَفْعَلَ كَذَا أَوْ بِاللَّهِ لِأَفْعَلَنْ كَذَا يِرَاهِنُ كِرَامَهُ اللَّهَ وَ حَرَمَتَهُ فَيَضَعُهَا رَهِينَةً عِنْدَ مَنْ يَعَاهِدُهُ أَوْ يَقْسَمُ لَهُ، وَ لَوْ لَمْ يَفِ بِمَا قَالَ خَسِرَ فِي رَهِينَتِهِ وَ هُوَ مَسْئُولٌ عِنْدَ اللَّهِ لَا مَحَالَةَ.

وَ الْإِحَاطَةُ مِنَ حَاطَ بِمَعْنَى حَفِظَ وَ مِنْهُ الْحَائِطُ لِلجِدَارِ الَّذِي يَدُورُ حَوْلَ الْمَكَانِ لِيَحْفَظَهُ وَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ أَيْ مَسْلُطٌ عَلَيْهِ حَافِظٌ لَهُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ لَا يَخْرُجُ وَ لَا شَيْءٌ مِنْ أَجْزَائِهِ مِنْ قُدْرَتِهِ، وَ أَحَاطَ بِهِ الْبَلَاءُ وَ الْمَصِيبَةُ أَيْ نَزَلَ بِهِ عَلَى نَحْوِ انْسَدَّتْ عَلَيْهِ جَمِيعَ طَرِيقِ النِّجَاهِ فَلَا مَنَاصَ لَهُ مِنْهُ، وَ مِنْهُ قَوْلُهُمْ: أَحِيطَ بِهِ أَيْ هَلَكَ أَوْ فَسَدَ أَوْ انْسَدَّتْ عَلَيْهِ طَرِيقُ النِّجَاهِ وَ الْخِلَاصِ قَالَ تَعَالَى: وَ أَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلَّبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا (الكهف ٤٢)، وَ قَالَ:

وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أَحِيطَ بِهِمْ دَعَاؤُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (يونس ٢٢) وَ مِنْهُ قَوْلُهُ فِي الْآيَةِ:

«إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ» أَيْ أَنْ يَنْزَلَ بِكُمْ مِنَ النَّازِلَةِ مَا يَسْلُبُ مِنْكُمْ كُلَّ اسْتِطَاعَةٍ وَ قُدْرَةٍ فَلَا

يسعكم الإتيان به إلى.

و الوكالة نوع تسلط على أمر يعود الى الغير ليقوم به، و توكيل الإنسان غيره في أمر تسليطه عليه ليقوم في إصلاحه مقامه، و التوكل عليه اعتماده و الاطمئنان اليه في أمر، و توكيله تعالى و التوكل عليه في الامور ليس بعنايه أنه خالق كل شيء و مالكه و مدبره بل بعنايه أنه أذن في نسبه الامور الى مصادرها و الأفعال الى فواعلها و ملكها إياها بنحو من التمليك و هي فاقده للأصالة و الاستقلال في التأثير و الله سبحانه هو السبب المستقل القاهر لكل سبب الغالب عليه فمن الرشد إذا أراد الإنسان أمرا و توصل اليه بالأسباب العاديه التي بين يديه أن يرى الله سبحانه هو السبب الوحيد المستقل بتدبير الأمر و ينفي الاستقلال و الأصالة عن نفسه و عن الأسباب التي استعملها في طريق الوصول اليه فيتوكل عليه سبحانه. فليس التوكل هو قطع الإنسان أو نفيه نسبه الامور الى نفسه أو الى الأسباب بل هو نفيه دعوى الاستقلال عن نفسه و عن الأسباب و إرجاع الاستقلال و الأصالة اليه تعالى مع إبقاء أصل النسبه غير المستقله التي الى نفسه و الى الأسباب.

و لذلك نرى أن يعقوب عليه السلام فيما تحكيه الآيات من توكله على الله لم بلغ الأسباب و لم يهملها بل تمسك بالأسباب العاديه فكلم أولا بنيه في أخيهم ثم أخذ منهم موثقا من الله ثم توكل على الله و كذا فيما وصاهم في الآيه الآتية بدخولهم من أبواب متفرقه ثم توكله على ربه تعالى.

فالله سبحانه على كل شيء و وكيل من جهه الامور التي لها نسبه إليها كما أنه ولي لها من جهه استقلاله بالقيام على الامور المنسوبه إليها و هي عاجزه عن القيام بها بحول و قوه، و أنه رب كل شيء من جهه أنه المالك المدبر لها.

و معنى الآيه «قَالَ» يعقوب لبنيه «لَنْ أُرْسِلَهُ» أى أحاكم من ام يوسف «مَعَكُمْ حَيْتَى تُؤْتُونِ» و تعطونى «مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ» أثق به و أعتد عليه من عهد أو يمين «لَتَأْتِنِي بِهِ» و اللام للقسم و لما كان إيتاؤهم موثقا من الله إنما كان يمضى و يفيد فيما كان راجعا الى استطاعتهم

وقدرتهم استثنى فقال «إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ» و تسلبوا الاستطاعه و القدره «فَلَمَّا آتَوْهُ مُؤْتَفِقِينَ» من الله «قَالَ» يعقوب «اللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكَيْلٌ» أى إنا قولنا جميعا فقلت و قلت و توسلتم بذلك الى هذه الأسباب العاديه للوصول الى غرض نبتغيه فليكن الله سبحانه و كيلا على هذه الأقاويل يجريها على رسلها فمن التزم بشيء فليأت به كما التزم و إن تخلف فليجازه الله و ينتصف منه.

قوله تعالى: وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ هذه كلمه ألقاها يعقوب عليه السلام الى بنيه حين آتوه موثقا من الله و تجهزوا و استعدوا للرحيل، و من المعلوم من سياق القصة أنه خاف على بنيه و هم أحد عشر عصبه-لا من أن يراهم عزيز مصر مجتمعين صفا واحدا لأنه كان من المعلوم أنه سيخصهم اليه فيصطفون عنده صفا واحدا و هم أحد عشر إخوه لأب واحد-بل إنما كان يخاف عليهم أن يراهم الناس فيصيبهم عين على ما قيل أو يحسدون أو يخاف منهم فينالهم ما يتفرق به جمعهم من قتل أو أى نازله اخرى.

و قوله بعده: «وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» لا يخلو من دلالة أو إشعار بأنه كان يخاف ذلك جدا فكأنه عليه السلام-و الله أعلم-أحس حينما تجهزوا للسفر و اصطفوا أمامه للوداع إحساس إلهام أن جمعهم و هم على هذه الهيئه الحسنه سيفترق و ينقص من عددهم فأمرهم أن لا يتظاهروا بالاجماع كذلك و حذرهم عن الدخول من باب واحد و عزم عليهم أن يدخلوا من أبواب متفرقه رجاء أن يندفع بذلك عنهم بلاء التفرقه بينهم و النقص فى عددهم.

ثم رجع الى إطلاق كلامه الظاهر فى كون هذا السبب الذى ركن اليه فى دفع ما خطر بباله من المصيبه سببا أصيلا مستقلا-و لا مؤثر فى الوجود بالحقيقه إلا الله سبحانه-فقيده كلامه بما يصلحه فقال مخاطبا لهم «وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ» ثم علله بقوله: «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» أى لست أرفع حاجتكم الى الله سبحانه بما أمرتكم به من السبب الذى تتقون به نزول النازله

و تتوسلون به الى السلامه و العافيه و لا أحكم بأن تحفظوا بهذه الحيله فإن هذه الأسباب لا تغنى من الله شيئاً و لا لها حكم دون الله سبحانه فليس الحكم مطلقاً إلا لله بل هذه أسباب ظاهريه إنما تؤثر إذا أراد الله لها أن تؤثر.

و لذلك عقب كلامه هذا بقوله: «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» أى إن هذا سبب أمرتكم باتخاذها لدفع ما أخافه عليكم من البلاء و توكلت مع ذلك على الله فى أخذ هذا السبب و فى سائر الأسباب التى أخذتها فى امورى، و على هذا المسير يجب أن يسير كل رشيد غير غوى يرى أنه لا يقوى باستقلاله لإداره اموره و لا أن الأسباب العاديه باستقلالها تقوى على إيصاله الى ما يبتغيه من المقاصد بل عليه أن يلتجئ فى اموره الى وكيل يصلح شأنه و يدبر أمره أحسن تدبير فذلك الوكيل هو الله سبحانه القاهر الذى لا يقهره شىء الغالب الذى لا يغلبه شىء يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

قوله تعالى: «وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَهُ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ» الذى يعطيه سياق الآيات السابقه و اللاحقه و التدبر فيها—و الله أعلم—أن يكون المراد بدخولهم من حيث أمرهم أبوهم أنهم دخلوا مصر أو دار العزيز فيها من ابواب متفرقه كما أمرهم ابوهم حينما و دعوه للرحيل، و إنما اتخذ يعقوب عليه السلام هذا الأمر و سيله لدفع ما تفرسه من نزول مصيبيه بهم تفرق جمعهم و نقص من عددهم كما أشير اليه فى الآيه السابقه لكن اتخاذ هذه الوسيله و هى الدخول من حيث أمرهم أبوهم لم يكن ليدفع عنهم البلاء و كان قضاء الله سبحانه ماضياً فيهم و أخذ العزيز أخاهم من أيهم لحديث سرقت الصواع و انفصل منهم كبيرهم فبقى فى مصر و أدى ذلك الى تفرق جمعهم و نقص عددهم فلم يغن يعقوب أو الدخول من حيث أمرهم من الله من شىء.

لكن الله سبحانه قضى بذلك حاجه فى نفس يعقوب عليه السلام فإنه جعل هذا السبب الذى تخلف

عن أمره و أدى الى تفرق جمعهم و نقص عددهم بعينه سببا لوصول يعقوب الى يوسف عليهما السلام فإن يوسف أخذ أخاه اليه و رجع سائر الإخوة إلا كبيرهم الى أبيهم ثم عادوا الى يوسف يسترحمونه و يتذللون لعزته فعرفهم نفسه و أشخص أباه و أهله الى مصر فاتصلوا به.

فقوله: ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ أَى لم يكن من شأن يعقوب أو هذا الأمر الذى اتخذه وسيله لتخلصهم من هذه المصيبة النازله أن يغنى عنهم من الله شيئا البتة و يدفع عنهم ما قضى الله أن يفارق اثنان منهم جمعهم بل أخذ منهم واحد و فارقهم و لزم أرض مصر آخر و هو كبيرهم.

و قوله: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ قيل: إن «إِلَّا» بمعنى لكن أى لكن حاجه فى نفس يعقوب قضاها الله فرد اليه ولده الذى فقده و هو يوسف.

و لا يبعد أن يكون «إِلَّا» استثنائية فإن قوله: ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فى معنى قولنا: لم ينفع هذا السبب يعقوب شيئا أو لم ينفعهم جميعا شيئا و لم يقض الله لهم جميعا به حاجه إلا حاجه فى نفس يعقوب، و قوله: ﴿قَضَاهَا﴾ استئناف و جواب سؤال كأن سائلا يسأل فيقول: ما ذا فعل بها؟ فاجيب بقوله: ﴿قَضَاهَا﴾.

و قوله: ﴿وَ إِنَّهُ لَدُوُّ عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ الضمير ليعقوب أى إن يعقوب لدو علم بسبب ما علمناه من العلم أو يسبب تعليمنا إياه و ظاهر نسبه التعليم اليه تعالى أنه علم موهبى غير اكتسابى و قد تقدم أن إخلاص التوحيد يؤدي الى مثل هذه العناية الإلهيه، و يؤيد ذلك أيضا قوله تعالى بعده: ﴿وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إذ لو كان من العلم الاكتسابى الذى يحكم بالأسباب الظاهرية و يتوصل اليه من الطرق العاديه المؤلفه لعلمه الناس و اهتمدوا اليه.

و الجملة «وَ إِنَّهُ لَدُوُّ عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ» الخ؛ ثناء على يعقوب عليه السلام، و العلم الموهبى لا يضل فى هدايته و لا يخطئ فى إصابته و الكلام كما يفيد السباق يشير الى ما تفرس له يعقوب عليه السلام من البلاء و توسل به من الوسيله و حاجته فى يوسف فى نفسه لا ينساها و لا يزال يذكرها، فمن

هذه الجهات يعلم أن في قوله: «وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمْتَاهُ» الخ؛ تصديقا ليعقوب عليه السلام فيما قاله لبنيه و تصويبا لما اتخذ من الوسيله لحاجته بأمرهم بما أمر توكله على الله ففضى الله له حاجه فى نفسه.

قوله تعالى: «وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ الْإِيوَاءَ إِلَيْهِ ضَمَهُ وَ تَقْرِيْبَهُ مِنْهُ فِي مَجْلِسِهِ وَ نَحْوِهِ، وَ الْإِبْتِئَاسَ اجْتِلَابَ الْبُؤْسِ وَ الْإِغْتِمَامَ وَ الْحُزْنَ، وَ ضَمِيرَ الْجَمْعِ لِلْإِخْوَةِ.

و معنى الآيه «وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ» بعد دخولهم مصر «آوَى» و قرب «إِلَيْهِ أَخَاهُ» الذى أمرهم أن يأتوا به اليه و كان أخا له من أبيه و أمه «قَالَ» له «إِنِّي أَنَا أَخُوكَ» أى يوسف الذى فقدته منذ سنين -و الجملة خبر بعد خبر أو جواب سؤال مقدر- «فَلَا تَبْتَئِسْ» و لا تغتم «بِمَا كَانُوا» أى الإخوة «يَعْمَلُونَ» من أنواع الأذى و المظالم التى حملهم عليها حسدهم لى و لكك و نحن أخوان من ام أو لا تبئس بما كان غلمانى يعملون فإنه كيد لحبسك عندى.

و ظاهر السياق أنه عرفه نفسه بإسرار القول اليه و سلاه على ما عمله الإخوه و طيب نفسه فلا يعبا بقول بعضهم أن معنى قوله:إنى أنا أخوك:أنا أخوك مكان أخيك الهالك-و قد كان أخبره أنه كان له أخ من أمه هلك من قبل فبقى وحده لا أخ له من أمه- و لم يعترف يوسف له بالنسب و لكنه أراد أن يطيب نفسه.

و ذلك أنه ينافيه ما فى قوله: «إِنِّي أَنَا أَخُوكَ» من وجوه التأكيد و ذلك إنما يناسب تعريفه نفسه بالنسب ليستيقن أنه هو يوسف.على أنه ينافى أيضا ما سيأتى من قوله لإخوته عند تعريفهم نفسه: «أَنَا يُوسُفُ وَ هَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا» فإنه إنما يناسب ما إذا علم أخوه أنه أخوه فأعتر بعزته كما لا يخفى.

قوله تعالى: «فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السُّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ السقايه الظرف الذى يشرب فيه،و الرحل ما

يوضع على البعير للركوب، و العير القوم الذين معهم أحمال الميره و ذلك اسم للرجال و الجمال الحامله للميره و إن كان قد يستعمل فى كل واحد من دون الآخر، ذكر ذلك الراغب فى مفرداته.

و معنى الآيه ظاهر و هذه حيله احتالها يوسف عليه السلام ليأخذ بها أخاه اليه كما قصه و فصله الله تعالى و جعل ذلك مقدمه لتعريفهم نفسه فى حال التحق به أخوه و هما منعمان بنعمه الله مكرمان بكرامته.

و قوله: ثُمَّ أَذَّنْ مُؤَذِّنٌ أَيُّهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ الخطاب لإخوه يوسف و فيهم أخوه لأمه، و من الجائز توجيه الخطاب الى الجماعه فى أمر يعود الى بعضهم إذا كان لا يمتاز عن الآخرين، و فى القرآن منه شىء كثير، و هذا الأمر الذى سُمى سرقه و هو وجود السقايه فى رحل البعير كان قائما بواحد منهم و هو أخو يوسف لأمه لكن عدم تعيينه بعد من بينهم كان مجوزا لخطابهم جميعا بأنكم سارقون فإن معنى هذا الخطاب فى مثل هذا المقام أن السقايه مفقوده و هى عند بعضكم ممن لا يتعين إلا بعد الفحص و التفطيش.

و من المعلوم من السياق أن أخا يوسف لأمه كان عالما بهذا الكيد مستحضرا منه و لذلك لم يتكلم من أول الأمر الى آخره و لا بكلمه و لا نفى عن نفسه السرقة و لا اضطرب كيف؟ و قد عرّفه يوسف أنه أخاه و سلاه و طيب نفسه فليس إلا أن يوسف عليه السلام كان عرّفه ما هو غرضه من هذا الصنع، و أنه إنما يريد بتسميته سارقا و إخراج السقايه من رحله أن يقبض عليه و يأخذه اليه فتسميته سارقا إنما كان اتهاما فى نظر الإخوه و أما بالنسبه اليه و فى نظره فلم يكن تسميه جديده و تهمه حقيقه بل توصيفا صوريا فحسب لمصلحه لازمه جازمه.

فنسبه السرقة اليهم-بالنظر الى هذه الجهات-لم تكن من الافتراء المذموم عقلا المحرم شرعا، على أن القائل هو المؤذن الذى أذن بذلك.

قوله تعالى: قَالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ فَقَدْ-كما قيل-غيبه الشىء

المَلِكِ» معترض.

قوله تعالى: قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ المراد بالأرض أرض مصر و هي التي جاؤها و معنى الآيه ظاهر.

و فى قولهم: لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ دلالة على أنهم فتنوا و حقق فى أمرهم أول ما دخلوا مصر للميره بأمر يوسف عليه السّلام بدعوى الخوف من أن يكونوا جواسيس و عيوناً أو نازلين بها لأغراض فاسده اخرى فسئلوا عن شأنهم و محلهم و نسبهم و أمثال ذلك، و به يتأيد ما ورد فى بعض الروايات أن يوسف أظهر لهم أنه فى ريب من أمرهم فسألهم عن شأنهم و مكانهم و أهلهم و عند ذلك ذكروا أن لهم أبا شائخا و أخا من أبيهم فأمر بإتيانهم به، و سيأتى فى البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى.

و قولهم: وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ نفى أن يكونوا متصفين بهذه الصفه الرذيله من قبل أن يعهد منهم أهل البيت ذلك.

قوله تعالى: قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ أى قال فتيان يوسف أو هو و فتiane سائلين منهم عن الجزاء: ما جزاء السرقة أو ما جزاء الذى سرق منكم إن كنتم كاذبين فى إنكاركم.

و الكلام فى قولهم: «إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ» فى نسبة الكذب اليهم يقرب من الكلام فى قولهم:

«إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» و قد تقدم.

قوله تعالى: قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ مرادهم أن جزاء السرقة نفس السارق أو جزاء السارق نفسه بمعنى أن من سرق مالا يصير عبدا لمن سرق ماله و هكذا كان حكمه فى سنه يعقوب عليه السّلام كما يدل عليه قولهم:

«كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ» أى هؤلاء الظالمين و هم السراق لكنهم عدلوا عنه الى قولهم: «جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ» للدلالة على أن السرقة إنما يجازى بها نفس السارق لا رفقته

و صحبه و هم أحد عشر نسمة لا ينبغي أن يؤاخذ منهم لو تحققت السرقة إلا السارق بعينه من غير أن يتعدى الى نفوس الآخرين و رحالهم ثم للمسروق منه أن يملك السارق نفسه يفعل به ما يشاء.

قوله تعالى: فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ فِيهِ تَفْرِيعٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ أَى أَخَذَ بِالتَّفْتِيشِ و الفحص بالبناء على ما ذكروه من الجزاء فبدأ بأوعيتهم و ظروفهم قبل وعاء أخيه للتعمية عليهم حذرا من أن يتنبهوا و يتفطنوا أنه هو الذى وضعها فى رحل أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه و عند ذلك استقر الجزاء عليه لكونها فى رحله.

قوله تعالى: كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛الإشارة الى ما جرى من الأمر فى طريق أخذ يوسف عليه السلام أخاه لأمه من عصبه إخوته، و قد كان كيدا لأنه يوصل الى ما يطلبه منهم من غير أن يعلموا و يتفطنوا به و لو علموا لما رضوا به و لا-مكنوه منه، و هذا هو الكيد غير أنه كان بإلهام من الله سبحانه أو وحي منه اليه علمه به طريق التوصل الى أخذ أخيه. و لذلك نسب الله سبحانه ذلك الى نفسه مع توصيفه بالكيد فقال «كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ»

و ليس كل كيد بمنفى عنه تعالى، و إنما تنتزه ساحه قدسه عن الكيد الذى هو ظلم و نظيره المكر و الإضلال و الاستدراج و غيرها.

و قوله: مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ بَيَانٌ لِّلسَّبَبِ الدَّاعَى إِلَى الكيد، و هو أنه كان يريد أن يأخذ أخاه اليه، و لم يكن فى دين الملك أى سنته الجارية فى أرض مصر طريق يودى الى أخذه، و لا أن السرقة حكمها استعباد السارق و لذلك كادهم يوسف-بأمر من الله-بجعل السقايه فى رحله ثم إعلام أنهم سارقون حتى ينكروه فيسألهم عن جزائه ان كانوا كاذبين فيخبروا أن جزاء السرقة عن عندهم أخذ السارق

و استعباده فيأخذهم بما رضوا به لأنفسهم.

و على هذا فلم يكن له أن يأخذ أخاه في دين الملك إلا في حال يشاء الله ذلك و هو هذا الحال الذي رضوا فيه أن يجازوا بما رضوا به لأنفسهم.

و من هنا يظهر أن الاستثناء يفيد أنه كان من دين الملك أن يؤخذ المجرم بما يرضاه لنفسه من الجزاء و هو أشق، و كان ذلك متداولاً في كثير من السنن القومية و سياسات الملوك.

و قوله: نَزَعَ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ امْتِنَانِ عَلَى يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بما رفعه الله على إخوته، و بيان لقوله: «كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ» و كان امتناناً عليه.

و في قوله: وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ بيان أن العلم من الامور التي لا يقب على حد ينتهي اليه بل كان ذي علم يمكن ان يفرض من هو أعلم منه.

و ينبغي أن يعلم ان ظاهر قوله: «ذِي عِلْمٍ» هو العلم الطارى على العالم الزائد على ذاته لما في لفظه «ذِي» من الدلالة على المصاحبه و المقارنه فالله سبحانه و علمه الذي هو صفه ذاته عين ذاته، و هو تعالى علم غير محدود كما ان وجوده أحدى غير محدود، خارج بذاته عن إطلاق الكلام.

على ان الجملة «وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ» إنما تصدق فيما أمكن هناك فرض «فَوْقَ» و الله سبحانه لا فوق له و لا تحت له و لا وراء لوجوده و لا حد لذاته و لا نهايه.

و لا- يبعد ان يكون قوله: «وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ» إشارة الى كونه تعالى فوق كل ذي علم أن يكون المراد بعليم هو الله سبحانه أورد في هيئه النكره صونا للسان عن تعريفه للتعظيم.

قوله تعالى: قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ القائلون هم إخوه يوسف عليه السلام لأبيه، و لذلك نسبوا يوسف الى أخيهم المتهم بالسرقه لأنهما كانا من أم واحده، و المعنى أنهم قالوا: إن يسرق هذا صواع الملك فليس يبعد منه لأنه كان

له اخ وقد تحققت السرقة منه من قبل فهما يتوارثان ذلك من ناحيه امهما و نحن مفارقوهما فى الام.

و فى هذا نوع تبرئه لأنفسهم من السرقة لكنه لا يخلو من تكذيب لما قالوه آنفا «وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ» لأنهم كانوا ينفقون به السرقة عن أبناء يعقوب جميعا و إلا لم يكن ينفعهم البتة فقولهم: «فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ» يناقضه و هو ظاهر. على أنهم أظهروا بهذه الكلمه ما فى نفوسهم من الحسد لىوسف و اخيه-و لعلمهم لم يشعروا به-و هذا يكشف عن أمور مؤسفه كثيره فيما بينهم.

و بهذا يتضح بعض الاتضاح معنى قول يوسف «أَنْتُمْ سَرَّ مَكَانًا» كما ان الظاهر ان قوله:

«أَنْتُمْ سَرَّ مَكَانًا» الى آخر الآيه كالبيان لقوله: «فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ» و كما أن قوله: «وَ لَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ» عطف تفسير لقوله: «فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ» .

و المعنى-و الله أعلم- «فَأَسَرَّهَا» أى اخفى هذه الكلمه التى قالوها اى لم يتعرض لما نسبوا اليه من السرقة و لم ينفه و لم يبين حقيقه الحال بل «فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ» و كأن هناك قائلا يقول: كيف أسرها فى نفسه فاجيب أنه «قَالَ: أَنْتُمْ سَرَّ مَكَانًا» و أسوأ حالا لما فى اقوالكم من التناقض و فى نفوسكم من غريزه الحسد الظاهره و اجترائكم على الكذب فى حضره العزيز بعد هذا الإكرام و الإحسان كله «وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ» إنه قد سرق أخ له من قل فلم يكذبهم فى وصفهم و لم ينفه.

قوله تعالى: «قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» سياق الآيات يدل على أنهم إنما قالوا هذا القول لما شاهدوا أنه استحق الأخذ و الاستعباد، و ذكروا أنهم أعطوا أباهم موثقا من الله أن يرجعوه اليه فلم يكن فى مقدرتهم أن يرجعوا الى أبيهم و لا يكون معهم، فعند ذلك عزموا أن يفدوه بواحد منهم إن قبل العزيز، و كلموا العزيز فى ذلك أن يأخذ أى من شاء منهم، و يخلى عن سبيل أخيهم المتهم

ليرجعوه اليه أبيه.

و معنى الآيه ظاهر، و فى اللفظ تريق و استرحام و إثارة لصفه الفتوه و الإحسان من العزيز.

قوله تعالى قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعِنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لظَالِمُونَ رد منه عليه السلام لسؤالهم أن يأخذ أحدهم مكانه و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا الى آخر الآيه؛ قال فى المجمع:

اليأس قطع الطمع من الأمر يقال يئس يئس و أيس يئس لغه، و استنفل مثل استئأس و استأيس. قال: و يئس و استئأس بمعنى مثل سخر و استسخر و عجب و استعجب.

و النجى القوم يتناجون الواحد و الجمع فيه سواء قال سبحانه «وَقَرَّبْنَا نَجِيًّا» و إنما جاز ذلك لأنه مصدر وصف به، و المناجاة المساره و أصله من النجوه هو المرتفع من الأرض فإنه رفع السر من كل واحد الى صاحبه فى خفيه، و النجوى يكون اسما مصدرىا قال سبحانه «وَإِذْ هُمْ نَجْوَى» أى يتناجون، و قال فى المصدر «إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ» و جمع النجى أنجيه قال:

و برح الرجل براحا إذا تنحى عن موضعه. انتهى.

و الضمير فى قوله: «فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ» ليوסף و يمكن أن يكون لأخيه و المعنى «فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا» أى إخوه يوسف «مِنْهُ» أى من يوسف أن يخلى عن سبيل أخيه و لو بأخذ أحدهم بدلا منه «خَلَصُوا» و خرجوا من بين الناس الى فراغ «نَجِيًّا» يتناجون فى أمرهم أ يرجعون الى أبيهم و قد أخذ منهم موثقا من الله أن يعيدوا أخاهم اليه أم يقيمون هناك و لا فائده فى إقامتهم؟ ما ذا يصنعون؟

«قَالَ كَبِيرُهُمْ» مخاطبا لسائرهم «أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ» ألا ترجعوا من سفركم هذا اليه إلا بأخيكم، «وَ مِنْ قَبْلِ» هذه الواقعة «مَا فَزَّطْتُمْ» أى تفريطكم و تقصيركم «فِي» أمر «يُوسُفَ» عهدتم أباكم أن تحفظوه و تردوه اليه سالما فألقيتموه فى الجب

ص: ٣٢٠

ثم بعموه من السياره ثم أخبرتم أباكم أنه أكله الذئب.

«فَلَنْ أُبْرِحَ الْمَأْرُضَ» أى فإذا كان الشأن هذا الشأن لن أتنحى و لن أفارق أرض مصر «حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي» برفعه اليد عن الموثق الذى واثقته به «أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ» فيجعل لى طريقا الى النجاه من هذه المضيقه التى سدت لى كل باب و ذلك إما بخلاص أخى من يد العزيز من طريق لا أحتسبه أو بموتى أو بغير ذلك من سبيل!!.

أما أنا فأختار البقاء هاهنا و أما أنتم فارجعوا الى أبيكم الى آخر ما ذكر فى الآيتين التاليتين.

قوله تعالى «إِرْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ» قيل المراد بقوله: «وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا» أنا لم نشهد فى شهادتنا هذه «إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ» إلا بما علمنا من سرقة، وقيل المراد ما شهدنا عند العزيز أن السارق يؤخذ بسرقة و يسترق إلا بما علمنا من حكم المسألة، قيل و إنما قالوا ذلك حين قال لهم يعقوب: ما يدرى الرجل أن السارق يؤخذ بسرقة و يسترق؟ و إنما علم ذلك بقولكم، و أقرب المعنيين الى السياق أولهما.

و قوله: «وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ» قيل أى لم نكن نعلم أن ابنك سيسرق فيؤخذ و يسترق و إنما كنا نعتمد على ظاهر الحال و لو كنا نعلم ذلك لما بادرنا الى تفسيره معنا و لا أقدمنا على الميثاق.

و الحق أن المراد بالغيب كونه سارقا مع جهلهم بما و معنى الآية إن ابنك سرق و ما شهدنا فى جزاء السرقة إلا بما علمنا و ما كنا نعلم أنه سرق السقايه و أنه سيؤخذ بها حتى نكف عن تلك الشهاده فما كنا نظن به ذلك.

قوله تعالى: «وَ سِئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ» أى و اسأل جميع من صاحبنا فى هذه السفره أو شاهد جريان حالنا عند العزيز التى لا يبقى لك أدنى ريب فى أنا لم نفرط فى أمره بل إنه سرق فاسترق.

فالمراد بالقريه التي كانوا فيها بلده مصر-على الظاهر-و بالعبير التي أقبلوا فيها القافله التي كانوا فيها و كان رجالها يصاحبونهم في الخروج الى مصر و الرجوع منها ثم أقبلوا مصاحبين لهم،و لذلك عقبوا عرض السؤال بقولهم: «وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ» أى فيما نخبرك من سرقة و استرقاقه لذلك،و نكلفك السؤال لإزالة الريب من نفسك.

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٨٣ الى ٩٢]

إشاره

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَ تَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسِيفَ عَلَى يَوْسُفَ وَ ائْبِضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُمْ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُنُوا تَذَكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لَا تَتَيَّسُّوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَتَيَّسُّ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ وَ جَنَّا بِيضَاعَهُ مُزْجَاهٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيَوْسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَإِنَّكَ لَمَأْتٌ يَوْسُفُ قَالَ أَنَا يَوْسُفُ وَ هَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَ إِنْ كُنَّا لَخَاطِبِينَ (٩١) قَالَ لَا- تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)

ص: ٣٢٢

قوله تعالى: قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ فى المقام حذف كثير يدل عليه قوله:

«ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا» الى آخر الآيتين؛ و التقدير و لما رجعوا الى أبيهم و قالوا ما وصاهم به كبيرهم قال أبوهم بل سولت لكم أنفسكم أمراً، الخ.

و قوله: قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً حكاية ما أجابهم به يعقوب عليه السلام و لم يقل عليه السلام هذا القول تكذيباً لهم فيما أخبروه به و حاشاه أن يكذب خبراً يحتف بقرائن الصدق و تصاحبه شواهد يمكن اختباره بها، و لا رماهم بقوله: «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً» رمياً بالمظنه بل ليس إلا أنه وجد بفراسه إلهيه أن هذه الواقعة ترتبط و تتفرع على تسويل نفسانى منهم إجمالاً و كذلك كان الأمر فإن الواقعة من أذئاب واقعه يوسف و كانت واقعه من تسويل نفسانى منهم.

و من هنا يظهر أنه عليه السلام لم ينسب الى تسويل أنفسهم عدم رجوع أخى يوسف فحسب بل عدم رجوعه و عدم رجوع كبيرهم الذى توقف بمصر و لم يرجع اليه، و يشهد لذلك قوله:

«عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا» فجمع في ذلك بين يوسف و أخيه و كبير الإخوه فلم يذكر أخوا يوسف وحده و لا يوسف و أخاه معا، فظاهر السياق أن ترجيه رجوع بنيه الثلاثة مبنى على صبره الجميل قبال ما سولت لهم أنفسهم أمرا.

فالمعنى -و الله أعلم- أن هذه الواقعة مما سولت لكم أنفسكم كما قلت ذلك في واقعه يوسف فصبر جميل قبال تسويل أنفسكم عسى الله أن يأتيني بأبنائي الثلاثة جميعا.

و من هنا يظهر أن قولهم: إن المعنى: ما عندى ان الأمر على ما تصفونه بل سولت لكم أنفسكم أمرا فيما أظن، ليس فى محله.

□
و قوله: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ترج مجرد لرجوعهم جميعا مع ما فيه من الإشارة الى أن يوسف حى لم يمت -على ما يراه- و ليس مشربا معنى الدعاء، و لو كان فى معنى الدعاء لم يختمه بقوله: «إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» بل بمثل قولنا:

إنه هو السميع العليم أو الرؤوف الرحيم أو ما يناظرهما كما هو المعهود فى الأدعية المنقولة فى القرآن الكريم.

بل هو رجاء لثمره الصبر فهو يقول: إن واقعه يوسف السابقة و هذه الواقعة التى أخذت منى ابنين آخرين إنما هما لأمر ما سولته لكم أنفسكم فسأصبر صبيرا و أرجو به ان يأتيني الله بأبنائي جميعا و يتم نعمته على آل يعقوب كما وعدنيه إنه هو العليم بمورد الاجتباء و إتمام النعمة حكيم فى فعله يقدر الامور على ما تقتضيه الحكمة البالغة فلا ينبغى للإنسان ان يضطرب عند البلايا و المحن بالطيش و الجزع و لا أن ييأس من روجه و رحمته.

و الاسمان: العليم الحكيم هما اللذان ذكرهما يعقوب ليوسف عليه السلام لأول مره أول رؤياه فقال «إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» ثم ذكرهما يوسف ليعقوب عليهما السلام ثانيا حيث رفع ابويه على العرش و خروا له سجدا فقال «يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ -الى أن قال- وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» .

قوله تعالى: وَ تَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسِيفِي عَلَى يَوْسُفَ وَ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ قال الراغب في المفردات: الأسف الحزن و الغضب معا، و قد يقال لكل واحد منهما على الانفراد و حقيقته ثوران دم القلب شهوه الانتقام فمتى كان ذلك على من دونه انتشر فصار غضبا، و متى كان على من فوّه انقبض فصار حزنا-الى ان قال- و قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أى أغضبونا قال أبو عبد الله (١)الرضا: إن الله لا يأسف كأسفنا و لكن له أولياء يأسفون و يرضون فجعل رضاهم رضاه و غضبهم غضبه. قال: و على ذلك قال: من أهان لى و ليا فقد بارزنى بالمحاربة. انتهى.

و قال: الكظم مخرج النفس يقال: أخذ بكظمه، و الكظوم احتباس النفس و يعبر به عن السكوت كقولهم: فلان لا يتنفس إذا و صف بالمبالغة فى السكوت، و كظم فلان حبس نفسه قال تعالى «إِذْ نَادَى وَ هُوَ مَكْظُومٌ» و كظم الغيظ حبسه قال تعالى «وَ الْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ»، و منه كظم البعير إذا ترك الاجترار و كظم السقاء شده بعد ملئه مانعا لنفسه. انتهى.

و قوله: وَ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ابيضاض العين أى سوادها هو العمى و بطلان الإبصار و ربما يجامع قليل إبصار لكن قوله الآتى: اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بِصِيرًا (الآيه ٩٣ من السوره) يشهد بأنه كناية عن ذهاب البصر.

و معنى الآيه «ثُمَّ تَوَلَّى» و أعرض يعقوب عليه السّلام «عَنْهُمْ» أى عن أبنائه بعد ما خاطبهم بقوله: بل سولت لكم أنفسكم أمرا «وَ قَالَ يَا أَسِيفِي» و يا حزنى «عَلَى يَوْسُفَ وَ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ» و ذهب بصره «مِنَ الْحُزْنِ» على يوسف «فَهُوَ كَظِيمٌ» حابس غيظه متجرع حزنه لا يتعرض لبنيه بشىء.

قوله تعالى: قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُونَا تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ

ص: ٣٢٥

مِنَ الْهَالِكِينَ الْحَرَضِ وَالْحَارِضِ الْمَشْرِفِ عَلَى الْهَلَاكِ وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي لَا مِيتَ فِينَسَى وَ لَا حَى فِيرَجَى، وَ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَنْسَبَ بِالنَّظَرِ إِلَى مِقَابَلَتِهِ الْهَلَاكِ، وَ الْحَرَضُ لَا يَتْنَى وَ لَا يَجْمَعُ لِأَنَّهُ مَصْدَرٌ.

وَ الْمَعْنَى: نَقَسَمَ بِاللَّهِ لَا- تَزَالُ تَذَكُرُ يَوْسُفَ وَ تَدِيمُ ذَكَرَهُ مِنْذُ سَنِينَ لَا- تَكْفُ عَنْهُ حَتَّى تَشْرِفَ عَلَى الْهَلَاكِ أَوْ تَهْلِكَ، وَ ظَاهِرُ قَوْلِهِمْ هَذَا أَنَّهُمْ إِنَّمَا قَالُوهُ رِقَهُ بِحَالِهِ وَ رَأْفَهُ بِهِ، وَ لَعَلَّهُمْ إِنَّمَا تَفَوَّهُوا بِهِ تَبَرُّمَا بِيكَاثِهِ وَ سَأَمَهُ مِنْ طَوْلِ نِيَاحِهِ لِيَوْسُفَ، وَ خَاصَهُ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ كَانَ يَكْذِبُهُمْ فِي مَا كَانُوا يَدْعُونَهُ مِنْ أَمْرِ يَوْسُفَ، وَ كَانَ ظَاهِرَ بِيكَاثِهِ وَ تَأْسَفَهُ أَنَّهُ يَشْكُوهُمْ كَمَا رَبَّمَا يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ: «إِنَّمَا أَشْكُوا» الْخ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَ أَعْلَمَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: الْبَثُّ الْهَمُّ الَّذِي لَا يَقْدِرُ صَاحِبُهُ عَلَى كِتْمَانِهِ فَيُبَيِّتُهُ أَى يَفْرُقُهُ، وَ كُلُّ شَيْءٍ فَرَقْتَهُ فَقَدْ بَثْتَهُ وَ مِنْهُ قَوْلُهُ: «وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ» أَنْتَهَى فَهُوَ مِنَ الْمَصْدَرِ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ أَى الْمَبْثُوثِ.

وَ الْحَصْرُ الَّذِي فِي قَوْلِهِ: «إِنَّمَا أَشْكُوا» الْخ؛ مِنْ قَصْرِ الْقَلْبِ فَيَكُونُ مِفَادَهُ أَنَّى لَسْتُ أَشْكُو بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَيْكُمْ مَعَاشِرَ وَلَدَى وَ أَهْلَى، وَ لَوْ كُنْتُ أَشْكُوهُ إِلَيْكُمْ لَأَنْقَطَعَ فِي أَقَلِّ زَمَانٍ كَمَا يَجْرَى عَلَيْهِ دَابُّ النَّاسِ فِي بَثِّهِمْ وَ حُزْنِهِمْ عِنْدَ الْمَصَائِبِ، وَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ لَا يَأْخُذُهُ مَلَلٌ وَ لَا سَأَمُهُ فِيمَا يَسْأَلُهُ عَنْهُ عِبَادُهُ وَ يَبْرِمُهُ أَرْبَابَ الْحَوَائِجِ وَ يَلْحُونُ عَلَيْهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ فَلَسْتُ أَيَّاسٌ مِنْ رُوحِهِ وَ لَا أَقْنَطُ مِنْ رَحْمَتِهِ.

وَ فِي قَوْلِهِ: «وَ أَعْلَمَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» إِشَارَةٌ إِجْمَالِيَّةٌ إِلَى عِلْمِهِ بِاللَّهِ لَا يَسْتَفَادُ مِنْهُ إِلَّا مَا يَسَاعِدُ عَلَى فَهْمِهِ الْمَقَامِ كَمَا إِشْرْنَا إِلَيْهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لَا- تَتَّبِعُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَنْبَأُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ» قَالَ فِي الْمَجْمَعِ:

التحسس-بالحاء-طلب الشيء بالحاسه و التجسس-بالجيم-نظيره و فى الحديث:لا تحسسوا و لا تجسسوا،و قيل إن معناهما واحد و نسق أحدهما على الآخر لاختلاف اللفظين كقول الشاعر «متى أدن منه ينأ عنه و يبعد».

و قيل:التجسس بالجيم البحث عن عورات الناس،و بالحاء الاستماع لحديث قوم و سئل ابن عباس عن الفرق بينهما؟قال:لا يبعد أحدهما عن الآخر:التحسس فى الخير و التجسس فى الشر.انتهى.

و قوله: **وَ لَا تَيَّأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ** الروح بالفتح فالسكون النفس أو النفس الطيب و يكنى به عن الحاله التى هى ضد التعب و هى الراحة و ذلك أن الشده التى فيها انقطاع الأسباب و انسداد طرق النجاه تتصور اختناقاً و كظماً للإنسان و بالمقابله الخروج الى فسحه الفرج و الظفر بالعافيه تنفساً و روحاً لقلوبهم يفرج الهمّ و ينفس الكرب،فالروح المنسوب اليه تعالى هو الفرج بعد الشده بإذن الله و مشيئته،و على من يؤمن بالله أن يعتقد أن الله يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد لا قاهر لمشيئته و لا معقب لحكمه،و ليس له أن يئأس من روح الله و يقنط من رحمته فإنه تحديد لقدرته و فى معنى الكفر باحاطته وسعه رحمته كما قال تعالى حاكياً عن لسان يعقوب عليه السلام **«إِنَّهُ لَا يَيَّأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ»** و قال حاكياً عن لسان إبراهيم عليه السلام **وَ مَنْ يَقْنُطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ** (الحجر ٥٦)،و قد عد اليأس من روح الله فى الأخبار المأثوره من الكبائر الموبقه.

و معنى الآيه-ثم قال يعقوب لبنيه **آمرا لهم- «يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا»** من يوسف و أخيه،الذى أخذ بمصر و ابحتوا عنهما لعلكم تظفرون بهما **«وَ لَا تَيَّأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ»** و الفرج الذى يرزقه الله بعد الشده **«إِنَّهُ لَا يَيَّأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ»** الذين لا يؤمنون بأن الله يقدر أن يكشف كل غمه و ينفس عن كل كربه.

قوله تعالى: **فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ**

وَ جِئْنَا بِبِضَاعِهِ مُزْجَاهٍ الْخ؛ البضاعه المزجاء المتاع القليل، و فى الكلام حذف و التقدير فساروا بنى يعقوب الى مصر و لما دخلوا على يوسف قالوا، الخ.

كانت لهم -على ما يدل عليه السياق- حاجتان الى العزيز و لا مطمع لهم بحسب ظاهر الأسباب الى قضائهما و استجابته عليهم فيها.

إحداهما: أن يبيع منهم الطعام و لا ثمن عندهم يفى بما يريدونه من الطعام على أنهم عرفوا بالكذب و سجل عليهم السرقة من قبل و هان أمرهم على العزيز لا يرجى منه أن يكرمهم بما كان يكرمهم به فى الجيئه الاولى.

و ثانيتهما: أن يخلى عن سبيل أخيهم المأخوذ بالسرقة، و قد استياسوا منه بعد ما كانوا ألحوا عليه فأبى العزيز حتى عن تخليه سبيله بأخذ أحدهم مكانه.

و لذلك لما حضروا عند يوسف العزيز و كلموه و هم يريدون أخذ الطعام و إعتاق أخيهم أوقفوا أنفسهم موقف التذلل و الخضوع و بالغوا فى رقة الكلام استرحاما و استعطافا فذكروا أولا ما مسهم و أهلهم من الضر و سوء الحال ثم ذكروا قله ما أتوا به من البضاعه ثم سألوه إيفاء الكيل، و أما حديث أخيهم المأخوذ فلم يصرحوا بسؤال تخليه سبيله بل سألوه أن يتصدق عليهم و إنما يتصدق بالمال و الطعام مال و أخوهم المسترق مال العزيز ظاهرا ثم حرضوه بقولهم: «إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ» و هو فى معنى الدعاء.

فمعنى الآية «يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ» و أحاط بنا جميعا المضيقة و سوء الحال «وَ جِئْنَا» اليك «بِبِضَاعِهِ مُزْجَاهٍ» و متاع قليل لا يعدل ما نسألك من الطعام غير أنه نهايه ما فى وسعنا «فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنَا» و كأنهم يريدون به أخاهم أو إياه و الطعام «إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ» خيرا.

و قد بدءوا القول بخطاب «يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ» و ختموه بما فى معنى الدعاء، و أتوا خلاله بذكر سوء حالهم و الاعتراف بقله بضاعتهم و سؤاله أن يتصدق عليهم و هو من أمر السؤال

و الموقف موقف الاسترحام ممن لا يستحق ذلك لسوء سابقته، و هم عصبه قد اصطفوا أما عزيز مصر.

و عند ذلك تمت الكلمه الإلهيه أنه سيرفع يوسف و أخاه و يضع عنده سائر بنى يعقوب لظلمهم، و لذلك لم يلبث يوسف عليه السلام دون أن أجابهم قوله: «هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ» و عرفهم نفسه، و قد كان يمكنه عليه السلام أن يخبر أباه و أخوته مكانه و أنه بمصر طول هذه المده غير القصيره لكن الله سبحانه شاء أن يوقف إخوته أمامه و معه أخوه المحسود متوقف المذله و المسكنه و هو متك على أريكه العزه.

قوله تعالى: «قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ» إنما يخاطب المخطفى المجرم بمثل هل علمت و أتدرى و رأيت و نحوها و هو عالم بما فعل لتذكيره جزاء عمله و وبال ذنبه لكنه عليه السلام أعقب استفهامه بقوله: «إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ» و فيه تلقين عذر.

فقوله: «هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ» مجرد تذكير لعملهم بهما من غير توبيخ و مؤاخذه ليعرفهم من الله عليه و على أخيه و هذا من عجيب فتوه يوسف عليه السلام، و يالها من فتوه.

قوله تعالى: «قَالُوا أَإِنَّكَ لَمَأْتٌ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا» الى آخر الآيه تأكيد الجمله المستفهم عنها للدلاله على أن الشواهد القطعيه قامت على تحقق مضمونها و إنما يستفهم لمجرد الاعتراف فحسب.

و قد قامت الشواهد عندهم على كون العزيز هو أخاهم يوسف و لذلك سألوه بقولهم:

«أَإِنَّكَ لَمَأْتٌ يُوسُفُ» مؤكداً بيان و اللام و ضمير الفصل فأجابهم بقوله: «أَنَا يُوسُفُ وَ هَذَا أَخِي» و إنما ألحق أخاه بنفسه و لم يسألوا عنه و ما كانوا يجهلونه ليخبر عن من الله عليهما، و هما مع المحسودان و لذا قال «قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا» .

ثم أخبر عن سبب المن الإلهي بحسب ظاهر الأسباب فقال «إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا

يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» وفيه دعوتهم الى الإحسان و بيان أنه يتحقق بالتقوى و الصبر.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ الْإِثَارِ هُوَ الْاِخْتِيَارُ وَ التَّفْضِيلُ، وَ الْخَطَأُ ضِدُّ الصَّوَابِ وَ الْخَاطِئُ وَ الْمَخْطُئُ مِنْ خَطَأٍ خَطَأً وَ أَخْطَأَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَ مَعْنَى آيَةِ ظَاهِرٍ وَ فِيهَا اعْتِرَافُهُمْ بِالْخَطِيئَةِ وَ تَفْصِيلُ اللَّهِ يَوْسُفَ عَلَيْهِمُ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ التَّشْرِيْبُ التَّوْبِيْحُ وَ الْمَبَالِغَةُ فِي اللَّوْمِ وَ تَعْدِيدُ الذَّنُوبِ، وَ إِنَّمَا قَيْدُ نَفْسِ التَّشْرِيْبِ بِالْيَوْمِ لِيَدُلَّ عَلَى مَكَانِهِ صَفْحُهُ وَ إِغْمَاضُهُ عَنِ الْاِنْتِقَامِ مِنْهُمْ وَ الظَّرْفُ هَذَا الظَّرْفُ هُوَ عَزِيْزٌ مِصْرٌ اَوْتَى النَّبُوْهَ وَ الْحَكْمُ وَ عِلْمُ الْاَحَادِيْثِ وَ مَعَهُ اُخُوْهٌ وَ هُمْ اَذْلَاءٌ بَيْنَ يَدَيْهِ مَعْتَرِفُونَ بِالْخَطِيئَةِ وَ اَنْ اللّٰهُ اَثَرَهُ عَلَيْهِمُ بِالرَّغْمِ مِنْ قَوْلِهِمْ اَوَّلَ يَوْمٍ: «لِيُؤْسِفُ وَ اُخُوْهُ اَحَبُّ اِلَيَّ اَبِيْنَا مِنْهَا وَ نَحْنُ عَضْبَةٌ اِنْ اَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِيْنٍ».

ثم دعا لهم و استغفر بقوله: «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» وَ هَذَا دَعَاٌ وَ اسْتِغْفَارٌ مِنْهُ لِاِخْوَتِهِ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْهُ جَمِيْعًا وَ اِنْ كَانَ الْحَاضِرُونَ عِنْدَهُ الْيَوْمَ بَعْضُهُمْ لَا جَمِيْعُهُمْ كَمَا يَسْتَفَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى الْآتِي: «قَالُوا تَاللَّهِ اِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيْمِ» وَ سِيَجِيءُ اِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى (١).

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٩٣ الى ١٠٢]

اشاره

اِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوْهُ عَلِيٌّ وَجْهٌ اَبِيٌّ يَأْتِ بِصِيْرًا وَ اَتُوْنِيْ بِاَهْلِكُمْ اَجْمَعِيْنَ (٩٣) وَ لَمَّا فَصَلَتِ الْعِيْرُ قَالَ اَبُوْهُمْ اِنِّيْ لَأَجِدُ رِيْحَ يُوْسُفَ لَوْ لَأَ اَنْ تُفَنِّدُوْنَ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ اِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيْمِ (٩٥) فَلَمَّا اَنَّ جَاءَ الْبَشِيْرُ اَلْقَاهُ عَلِيٌّ وَجْهًا فَارْتَدَّ بِصِيْرًا قَالَ اَلَمْ اَقُلْ لَكُمْ اِنِّيْ اَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ (٩٦) قَالُوا يَا اَبَانَا اِسْتَعْفِرْ لَنَا ذُنُوْبَنَا اِنَّا كُنَّا خَاطِئِيْنَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ اَسْتَعْفِرُ لَكُمْ رَبِّيْ اِنَّهُ هُوَ الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ (٩٨) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيَّ يُوْسُفَ اَوَى اِلَيْهِ اَبُوْهُ وَ قَالَ اُدْخُلُوا مِصْرَ اِنْ شَاءَ اللَّهُ اٰمِنِيْنَ (٩٩) وَ رَفَعَ اَبُوْهُ عَلَيْهِ عَلِيَّ الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهٗ سَجْدًا وَ قَالَ يَا اَبْتِ هَذَا تَأْوِيْلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْتَهَا رَبِّيْ حَقًّا وَ قَدْ اَحْسَنَ بِيْ اِذْ اَخْرَجْتَنِيْ مِنَ السِّجْنِ وَ جَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدُوِّ مِنْ بَعْدِ اَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِيْ وَ بَيْنَ اِخْوَتِيْ اِنَّ رَبِّيْ لَطِيْفٌ لِّمَا يَشَاءُ اِنَّهُ هُوَ الْعَلِيْمُ الْحَكِيْمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِيْ مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِيْ مِنْ تَأْوِيْلِ الْاَحَادِيْثِ فَاطِرُ السَّمٰوٰتِ وَ الْاَرْضِ اَنْتَ وَاَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ تَوَفَّنِيْ مُسْلِمًا وَ الْحَقِيْنِيْ بِالصَّالِحِيْنَ (١٠١) ذٰلِكَ مِنْ اَنْبِيَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيْهِ اِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ اِذْ اَجْمَعُوْا اَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُوْنَ (١٠٢)

ص: ٣٣٠

١- ١). يوسف ٨٣-٩٢: بحث روائي حول قصه يوسف و اخوانه في مصر؛ سيره يوسف في مصر؛ حزن يعقوب على يوسف و تغيير حالته من الحزن.

قوله تعالى: إِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ تتمه كلام يوسف عليه السلام يأمر فيه إخوته أن يذهبوا بقميصه الى أبيه فيلقوه على وجهه ليشفى الله به عينيه و يأتي بصيرا بعد ما صار من كثره الحزن و البكاء ضريرا لا يبصر.

و هذا آخر العنايات البديعه التي أظهرها الله سبحانه في حق يوسف عليه السلام على ما يقصه في هذه السوره مما غلب الله الاسباب فحولها الى خلاف الجبهه التي كانت تجرى إليها حسده إخوته فاستدلوه و غربوه عن مستقره بالقائه في الجب و بيعه من السياره بثمان بخس فجعل الله سبحانه هذا السبب بعينه سببا لقراره في بيت عزيز مصر في أكرم مثوى ثم أقره في أريكه عزه تضرع اليه أمامها إخوته بقولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعِهِ مُرْجَاهٍ فَاؤُفٍ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ .

ثم أحبته امرأه العزيز و نسوه مصر فراودنه عن نفسه ليوردنه في مهلكه الفجور فحفظه الله و جعل ذلك سببا لظهور براءه ساحته و كمال عفته، ثم استدلوه فسجنوه فجعله الله سببا لعزته و ملكه.

و جاء إخوته الى أبيه يوم ألقوه في غيابه الجب بقميصه المملخ بالدم فأخبروه بموته كذبا فكان القميص سببا لحزن أبيه و بكائه في فراق ابنه حتى ابيضت عيناه و ذهب بصره فرد الله سبحانه به بصره اليه و بالجمله اجتمعت الاسباب على خفضه و أراد الله سبحانه رفعه فكان ما أراد الله دون الذي توجهت اليه الاسباب و الله غالب على أمره.

وقوله: وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ أمر منه بانتقال بيت يعقوب من يعقوب و أهله و بنيه و ذراريه جميعا من البدو الى مصر و نزولهم بها.

قوله تعالى: وَ لَمَّا فَصَّيَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لَّا أَنْ تُفَنِّدُونِ الفصل القطع و الانقطاع و التنفيذ تفعيل من الفند بفتحتين و هو ضعف الرأى، و المعنى لما خرجت العير الحامله لقميص يوسف من مصر و انقطعت عنها قال أبوهم يعقوب لمن عنده من بنيه: إنى لأجد ريح يوسف لو لا أن ترمونى بضعف الرأى أى إنى لأحس بريحه و أرى أن اللقاء قريب و من حقه أن تدعنوا بما أجده لو لا أن تخطئونى لكن من المحتمل أن تفندونى فلا تدعنوا بقولى.

قوله تعالى: قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ القديم مقابل الجديد و المراد به المتقدم وجودا، و هذا ما واجهه به بعض بنيه الحاضرين عنده، و هو من سبى حظهم فى هذه القصة تفوهوا بمثله فى بدء القصة إذ قالوا «إِنَّ آبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» و فى ختمها و هو قولهم هذا: «تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ» .

و الظاهر أن مرادهم بالضللال هاهنا هو مرادهم بالضللال هناك و هو المبالغه فى حب يوسف و ذلك أنهم كانوا يرون أنهم أحق بالحب من يوسف و هم عصبه اليهم تدبير بيته و الدفاع عنه لكن أباهم قد ضل عن مستوى طريق الحكمة و قدم عليهم فى الحب طفلين صغيرين لا يغنيان عنه شيئا فأقبل بكله اليهما و نسيهم، ثم لما فقد يوسف جزع له و لم يزل يجزع و يبكى حتى ذهب عيناه و تقوس ظهره.

فهذا هو مرادهم من كونه فى ضلاله القديم ليسوا يعنون به الضلال فى الدين حتى يصيروا بذلك كافرين:

أما أولا: فلأن ما ذكر من فصول كلامهم فى خلال القصة يشهد على أنهم كانوا موحدين على دين آباؤهم إبراهيم و إسحاق و يعقوب عليهم السلام.

و أما ثانيا: فلأن المقام هاهنا و كذا فى بدء القصة حين قالوا: إن آباؤنا لفي ضلال مبين لا مساس له بالضللال فى الدين حتى يحتمل رميهم أباهم فيه، و إنما يمس أمرا عمليا حيويا و هو

حب أب لبعض أولاده و تقديمه فى الكرامه على آخريين فهو المعنى بالضلال.

قوله تعالى: فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّى أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ البشير حامل البشاره و كان حامل القميص و قوله: «أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّى أَعْلَمُ» يشير عليه السلام الى قوله لهم حين لاموه على ذكر يوسف:

«إِنَّمَا أَشْكُوا بَثْنَىٰ وَحُزْنَىٰ إِلَى اللَّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ القائلون بنو يعقوب بدليل قولهم: «يَا أَبَانَا» و يريدون بالذنوب ما فعلوه به فى أمر يوسف و أخيه، و أما يوسف فقد كان استغفر لهم قبل.

قوله تعالى: قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ أخر عليه السلام الاستغفار لهم كما هو مدلول قوله: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى» و لعله إنما أخره ليتم له النعمه بقاء يوسف و تطيب نفسه به كل الطيب بنسيان جميع آثار الفراق ثم يستغفر لهم و فى بعض الأخبار: أنه أخره الى وقت يستجاب فيه الدعاء و سيجىء إن شاء الله.

قوله تعالى: فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنِ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ فى الكلام حذف و التقدير فخرج يعقوب و آله من أرضهم و ساروا الى مصر و لما دخلوا «الخ».

و قوله: آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ فسروه بضمهما اليه، و قوله: «وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ» الخ؛ ظاهر فى أن يوسف خرج من مصر لاستقبالهما و ضمهما اليه هناك ثم عرض لهما دخول مصر إكراما و تأدبا و قد أبدع عليه السلام فى قوله: «إِنِ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ» حيث أعطاهم الأمن و اصدر لهم حكمه على سنه الملوك و قيد ذلك بمشيئه الله سبحانه للدلاله على أن المشيه الإنسانيه لا تؤثر أثرها كسائر الاسباب إلا- إذا وافقت المشيه الإلهيه على ما هو مقتضى التوحيد الخالص، و ظاهر هذا السياق أنه لم يكن لهم الدخول و الاستقرار فى مصر إلا بجواز من ناحيه الملك،

و لذا أعطاهم الأمن فى مبتدأ الأمر.

و قد ذكر سبحانه «أَبُوَيْهِ» و المفسرون مختلفون فى أنهما كانا والديه أباه و أمه حقيقه أو أنهما يعقوب و زوجه خاله يوسف بالبناء على أن أمه ماتت و هو صغير، و لا- يوجد فى كلامه تعالى ما يؤيد أحد المحتملين غير أن الظاهر من الأبوين هما الحقيقيان.

و معنى الآيه «فَلَمَّا دَخَلُوا» أى أبواه و إخوته و أهلهم «عَلَى يَوْسُفَ» و ذلك فى خارج مصر «أَوْى» و ضم «إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ وَ قَالَ» لهم مؤمنا لهم «ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ» .

قوله تعالى: وَ رَفَعَ أَبُوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَ قَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَاىَ الِى آخِرِ الْآيَةِ؛ العرش هو السرير العالى و يكثر استعماله فيما يجلس عليه الملك و يختص به، و الخرور السقوط على الارض و البدو البادية فإن يعقوب كان يسكن البادية.

و قوله: وَ رَفَعَ أَبُوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ أى رفع يوسف أبويه على عرش الملك الذى كان يجلس عليه و مقتضى الاعتبار و ظاهر السياق أنهما رفعا على العرش بأمر من يوسف تصداه خدمه لا هو بنفسه كما يشعر به قوله: «وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا» فإن الظاهر أن السجده إنما وقعت لأول ما طلع عليهم يوسف فكأنهم دخلوا البيت و اطمأن بهم المجلس ثم دخل عليهم يوسف فغشاهم النور الإلهى المتألى من جماله البديع فلم يملكوا أنفسهم دون أن خروا له سجدا.

و قوله: وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا الضمير ليوسف كما يعطيه السياق فهو المسجود له، و قول بعضهم: إن الضمير لله سبحانه نظرا الى عدم جواز السجود لغير الله لا دليل عليه من جهة اللفظ، و قد وقع نظيره فى القرآن الكريم فى قصه آدم و الملائكه قال تعالى وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ (طه ١١٦).

و الدليل على أنها لم تكن منهم سجده عباده ليوسف أن بين هؤلاء الساجدين يعقوب عليه السلام

و هو ممن نصّ القرآن الكريم على كونه مخلصا-بالفتح-لله لا يشرك به شيئا، و يوسف عليه السلام -و هو المسجود له-منهم
بنص القرآن و هو القائل لصاحبيه في السجن: ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء و لم يردعهم.

فليس إلا أنهم إنما أخذوا يوسف آية الله فاتخذوه قبله في سجدتهم و عبدوا الله بها لا غير كالكعبه التي تؤخذ قبله فيصلى إليها
فيعبد بها الله دون الكعبه، و من المعلوم أن الآيه من حيث إنها آيه لا-نفسيه لها أصلا فليس المعبود عندها إلا الله سبحانه و
تعالى، و قد تكرر الكلام في هذا المعنى فيما تقدم من أجزاء الكتاب.

قوله تعالى: قَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ لما شاهد عليه السلام سجده أبويه و إخوته
الأحد عشر ذكر الرؤيا التي رأى فيها أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر له ساجدين و أخبر بها أباه و هو صغير فأولها له، فأشار
إلى سجودهم له و قال «يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا -أى الرؤيا- رَبِّي حَقًّا».

ثم أثنى على ربه شاكرًا له فقال «وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ» فذكر إحسان ربه به فى إخراجة من السجن و هو ضراء
و بلاء دفعه الله عنه بتبديله سراء و نعمه من حيث لا يحتسب حيث جعله وسيلة لنيله العزه و الملك.

و لم يذكر إخراجة من الجب قبل ذلك لحضور إخوته عنده و كان لا يريد أن يذكر ما يسوؤهم ذكره كرمه و فتوه بل أشار إلى
ذلك بأحسن لفظ يمكن أن يشار به إليه من غير أن يتضمن طعنا فيهم و شتانا فقال «وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْيَدِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ
الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي» و النزغ هو الدخول فى أمر لإفساده.

و المراد: و قد أحسن بى من بعد أن أفسد الشيطان بينى و بين إخوتى فكان من الأمر ما كان فأدى ذلك إلى فراق بينى و بينكم
فساقنى ربي إلى مصر فأقرنى فى أرغد عيش و أرفع عزه و ملك ثم قرّب بيننا بنقلكم من البادية إلى فى دار المدنيه و الحضاره.

يعنى أنه كانت نوائب نزلت بى إثر إفساد الشيطان بينى و بين إخوتى و مما أخصه بالذكر من بينها فراق بينى و بينكم ثم رزىه السجن فأحسن بى ربى و دفعها عنى واحده بعد أخرى و لم يكن من المحن و الحوادث العاديه بل رزايا صماء و عقودا لا تنحل لكن ربى نفذ فيها بلطفه و نفوذ قدرته فبدلها أسباب حياه و نعمه بعد ما كانت أسباب هلاك و شقاء و لهذه الثلاثه الأخيره عقب قوله: «وَقَدْ أَحْسَنَ بِي» الخ؛ بقوله: «إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ» .

فقوله: إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ تعليل لإخراجه من السجن و مجيئهم من البدو، و يشير به الى ما خصه الله به من العنايه و المنه و أن البلايا التى أحاطت به لم تكن لتنحل عقدها أو لتتحرف عن مجراها لكن الله لطيف لما يشاء نفذ فيها فجعل عوامل الشده عوامل رخاء و راحه و أسباب الذله و الرقيه وسائل عزه و ملك.

و اللطيف من أسمائه تعالى يدل على حضوره و إحاطته تعالى بما لا سبيل الى الحضور فيه و الإحاطه به من باطن الأشياء و هو من فروع إحاطته تعالى بنفوذ قدره و العلم قال تعالى:

أَلَا- يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (الملك ١٤) و الأصل فى معناه الصغر و الدقه و النفوذ يقال: لطف الشيء بالضم يلطف لطفه إذا صغر و دق حتى نفذ فى المجارى و الثقب الصغار، و يكنى به عن الإرفاق و الملاءمه و الاسم اللطف.

و قوله: هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ تعليل لجميع ما تقدم من قوله: «يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا» الخ؛ و قد علل عليه السلام الكلام و ختمه بهذين الاسمين محاذاه لأبيه حيث تكلم فى رؤياه و قال «وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ -الى أن قال- إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» و ليس يبعد أن يفيد اللام فى قوله: «الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» معنى العهد فيفيد تصديقه لقول أبيه عليه السلام و المعنى: و هو ذاك العليم الحكيم الذى وصفته لى يوم أوّلت رؤياى.

قوله تعالى: رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ

الى آخر الآيه؛ لما أثنى عليه السّلام على ربه و عدّ ما دفع عنه من الشدائد و النوائب أراد أن يذكر ما خصه به من النعم المثبتة و قد هاجت به المحبه الإلهيه و انقطع بها عن غيره تعالى فترك خطاب أبيه و انصرف عنه و عن غيره ملتفتا الى ربه و خاطب ربه عز اسمه فقال «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» .

و قوله: **فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَ لِيَّ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ** إضراب و ترق في الثناء، و رجوع منه عليه السّلام الى ذكر أصل الولاية الإلهيه بعد ما ذكر بعض مظاهرها الجليه كإخراجه من السجن و المعجىء بأهله من البدو و إيتائه من الملك و تعليمه من تأويل الأحاديث فإن الله سبحانه رب فيما دق و جلّ معاً، و لى في الدنيا و الآخرة جميعاً.

و ولايته تعالى أعنى كونه قائماً كل شىء في ذاته و صفاته و أفعاله منشأها إيجاده تعالى إياها جميعاً و إظهاره لها من كتم العدم فهو فاطر السموات و الأرض و لذا يتوجه اليه تعالى قلوب أوليائه و المخلصين من عباده من طريق هذا الاسم الذى يفيد وجوده تعالى لذاته و إيجاده لغيره قال تعالى: **قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ (إبراهيم ١٠)**.

و لذا بدأ به يوسف عليه السّلام و هو من المخلصين في ذكر ولايته فقال **«فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَ لِيَّ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ»** أى إنى تحت ولايتك التامه من غير أن يكون لى صنع فى نفسى و استقلال فى ذاتى و صفاتى و أفعالى أو أملك لنفسى شيئاً من نفع أو ضرر أو موت أو حياه أو نشور.

و قوله: **تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَ أَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ** لما استغرق عليه السّلام فى مقام الذله قبال رب العزه و شهد بولايته له فى الدنيا و الآخرة سأله سؤال المملوك المولى عليه أن يجعله كما يستدعيه ولايته عليه فى الدنيا و الآخرة و هو الإسلام ما دام حيا فى الدنيا و الدخول فى

زمره الصالحين في الآخرة فإن كمال العبد المملوك أن يسلم لربه ما يريد منه ما دام حيا ولا يظهر منه ما يكرهه ولا يرتضيه فيما يرجع اليه من الأعمال الاختياريه و أن يكون صالحا لقرب مولاه لائقا لمواهبه الساميه فيما لا يرجع الى العبد و اختياره، و هو سؤاله عليه السلام الإسلام في الدنيا و الدخول في زمره الصالحين في الآخرة و هو الذى منحه الله سبحانه لجدته إبراهيم عليه السلام وَ لَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَ إِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (البقره ١٣١).

و هذا الإسلام الذى سأله عليه السلام أقصى درجات الإسلام و أعلى مراتبه، و هو التسليم المحض لله سبحانه، و هو أن لا يرى العبد لنفسه و لا- لآثار نفسه شيئا من الاستقلال حتى لا يشغله شيء من نفسه و لا صفاتها و لا أعمالها من ربه، و إذا نسب اليه تعالى كان إخلاصه عبده لنفسه.

و مما تقدم ظهر أن قوله: «تَوَفَّنِي مُسْلِمًا» سؤال منه لبقاء الإخلاص و استمرار الإسلام ما دام حيا و بعبارة أخرى أن يعيش مسلما حتى يتوفاه الله فهو كناية عن أن يثبتته الله على الإسلام حتى يموت، و ليس يراد به أن يموت في حال الإسلام و لو لم يكن قبل ذلك مسلما، و لا سؤالا للموت و هو مسلم حتى يكون المعنى أنى مسلم فتوفنى.

و يتبين بذلك فساد ما روى عن عده من قدماء المفسرين أن قوله: «تَوَفَّنِي مُسْلِمًا» دعاء منه يسأل به الموت من الله سبحانه حتى قال بعضهم: لم يسأل أحد من الأنبياء الموت من الله و لا تمناه إلا يوسف عليه السلام.

قوله تعالى: ذَلِكُمْ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَمَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ الإشاره الى نبأ يوسف عليه السلام، و الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و ضمير الجمع لإخوه يوسف و الإجماع العزم و الإراده.

و قوله: وَ مَا كُنْتَ لَمَدَيْهِمْ الخ؛ حال من ضمير الخطاب من «إِلَيْكَ» و قوله: «نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ» الى آخر الآيه بيان لقوله: «ذَلِكُمْ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ» و المعنى أن نبأ يوسف من

أنباء الغيب فإننا نوحيه اليك و الحال أنك ما كنت عند إخوه يوسف إذ عزموا على أمرهم و هم يمكرون فى أمر يوسف
(١)(٢)(٣).

[سوره يوسف (١٢): الآيات ١٠٣ الى ١١١]

أشاره

وَمَا أَكْثَرُ الدَّاسِ و لو حَرَضَتْ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) و مَا تَسْتَلْهُم عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) و كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي
السَّمَاوَاتِ و الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَ هُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) و مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمْنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ
عَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧) قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي وَ
سُبْحَانَ اللَّهِ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) و مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لِمَذَارِ الْأَخْرَجَهُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ
قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ نَشَاءُ وَ لَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ
حَدِيثًا يُنْتَرَى وَ لَكِنْ تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)

ص: ٣٤٠

- ١- ١). يوسف ٩٣-١٠٢: بحث روائى حول قصه يوسف و اخوانه و يعقوب حين وجدوا يوسف.
- ٢- ٢). يوسف ٩٣-١٠٢: كلام فى قصه يوسف فى فصول (قصته فى القرآن، ما اثنى الله عليه و منزلته المعنويه، قصته فى التوراه الحاضره).
- ٣- ٣). يوسف ٩٣-١٠٢: كلام فى الرؤيا فى فصول (الاعتناء بشأنها، للرؤيا حقيقه، المنامات الحقه، فى القرآن ما يؤيد ذلك).

قوله تعالى: وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ أَي لیس من شأن أكثر الناس لانكبابهم على الدنيا و انجذاب نفوسهم الى زينتها و سهوهم عما أودع فى فطرتهم من العلم بالله و آياته أن يؤمنوا به، و لو حرصت و أحببت إيمانهم، و الدليل على هذا المعنى الآيات التالية.

قوله تعالى: وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا- ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ الواو حالیه أى ما هم بمؤمنين و الحال أنك ما تسألهم على إيمانهم أو على هذا القرآن الذى ننزله عليك و تتلوه عليهم من أجر حتى يصددهم الغرامه المالىه و إنفاق ما يحبونه من المال عن قبول دعوته و الإيمان به.

و قوله: إِنْ هُوَ إِلَّا- ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ بيان لشأن القرآن الواقعى و هو أنه ممحض فى أنه ذكر للعالمين يذكرون به ما أودع الله فى قلوب جماعات البشر من العلم به و بآياته فما هو إلا- ذكر يذكرون به ما أنستهم الغفله و الإعراض و لبس من الأمتعه التى يكتسب بها الأموال أو ينال بها عزه أو جاه أو غير ذلك.

قوله تعالى: وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَ هُمْ

عَنْهَا مُعْرَضُونَ الواو حالیه و یحتمل الاستثناف و المرور علی الشیء هو موافاته ثم تركه بموافاه ما وراءه فالمرور علی الآیات السماویة و الأرضیه مشاهدتها واحده بعد أخرى.

و المعنی أن هناك آیات كثیره سماویة و أرضیه تدل بوجودها و النظام البدیع الجاری فیها علی توحید بهم و هم یشاهدونها واحده بعد أخرى فتتكرر علیهم و الحال أنهم معرضون عنها لا یتنبهون.

و لو حمل قوله: «يَمْرُؤُونَ عَلَيَّهَا» علی التصریح من دون الكنایه كان من الدلیل علی ما یتنی علیه الهیئه الحدیثه من حركة الأرض وضعا و انتقالا فإننا نحن المارون علی الأجرام السماویة بحركة الأرض الانتقالیة و الوضعیه لا بالعكس علی ما یخیل الینا فی ظاهر الحس.

قوله تعالى: وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ الضمیر فی «أَكْثَرُهُمْ» راجع الی الناس باعتبار إیمانهم أی أكثر الناس لیسوا بمؤمنین و إن لم تسألهم علیه أجرا و إن كانوا یمرون علی الآیات السماویة و الأرضیه علی كثرتها و الذین آمنوا منهم-و هم الأقلون- ما يؤمن أكثرهم بالله إلا و هم متلبسون بالشرك.

و تلبس الإنسان بالإیمان و الشرك معا مع كونهما معنیین متقابلین لا- یجتمعان فی محل واحد نظیر تلبسه بسائر الاعتقادات المتناقضه و الأخلاق المتضاده إنما يكون من جهة كونها من المعانی التي تقبل فی نفسها القوه و الضعف فتختلف بالنسبه و الإضافه كالقرب و البعد فإن القرب و البعد المطلقین لا یجتمعان إلا أنهما إذا كانا نسییین لا یمتنعان الاجتماع و التصادق كمکه فإنها قریبه بالنسبه الی المدینة بعیده بالنسبه الی الشام، و كذا هی بعیده من الشام إذا قیست الی المدینة قریبه منه إذا قیست الی بغداد.

و الإیمان بالله و الشرك به و حقیقتهما تعلق القلب بالله بالخضوع للحقیقه الواجبه و تعلق القلب بغيره تعالی مما لا یملك شیئا إلا یأذنه تعالی یختلفان بحسب النسبه و الإضافه فإن من الجائز أن یتعلق الإنسان مثلا بالحیاه الدنیا الفانیة و زینتها الباطله و ینسى مع ذلك كل حق

و حقيقه، و من الجائز أن ينقطع عن كل ما يصد النفس و يشغلها عن الله سبحانه و يتوجه بـكله اليه و يذكره و لا يغفل عنه فلا يركن في ذاته و صفاته إلا اليه و لا يريد إلا ما يريده كالمخلصين من أوليائه تعالى.

و بين المنزلتين مراتب مختلفه بالقرب من أحد الجانبين و البعد منه و هي التي يجتمع فيها الطرفان بنحو من الاجتماع، و من الدليل على ذلك الأخلاق و الصفات المتمكنه في النفوس التي تخالف مقتضى ما تعتقده من حق أو باطل، و الأعمال الصادره منها كذلك ترى من يدعى الإيمان بالله يخاف و ترتعد فرائضه من أى نائبه أو مصيبه تهدده و هو يذكر أن لا قوه إلا بالله، و يلتمس العزه و الجاه من غيره و هو يتلو قوله تعالى: «إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» و يقرع كل باب يبتغى الرزق و قد ضمنه الله، و يعصى الله و لا يستحيى و هو يرى أن ربه عليم بما في نفسه سمع لما يقول بصير بما يعمل و لا يخفى عليه شيء في الأرض و لا في السماء، و على هذا القياس.

فالمراد بالشرك في الآيه بعض مراتبه الذي يجامع بعض مراتب الإيمان و هو المسمى باصطلاح فن الأخلاق بالشرك الخفى.

قوله تعالى: أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ الغاشيه صفه ساد مسد الموصوف المحذوف لدلاله كلمه العذاب عليه، و التقدير عقوبه غاشيه تغشاهم و تحيط بهم.

و البغته الفجأه. و قوله: «وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ» حال من ضمير الجمع أى تفاجئهم الساعه في إتيانها و الحال أنهم لا يشعرون بإتيانها لعدم مسبقيتها بعلامات تعين وقتها و تشخص قيامها و الاستفهام للتعجب، و المعنى أن أمرهم في إعراضهم عن آيات السماء و الأرض و عدم إخلاصهم الإيمان لله و تماديهم في الغفله عجيب أ فأمنوا عذابا من الله يغشاهم أو ساعه تفاجئهم و تبهتهم؟

قوله تعالى: قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي

وَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ لما ذكر سبحانه أن محض الإيمان به و إخلاص التوحيد له عزيز المنال و هو الحق الصريح الذى تدل عليه آيات السماوات و الأرض أمر نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم أن يبين لهم أن سبيله هو الدعاء الى هذا التوحيد على بصيره.

فقوله: هَذِهِ سَبِيلِي إعلان لسبيله، و قوله: «أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ» بيان للسبيل، و قوله: «وَ سُبْحَانَ اللَّهِ» اعتراض للتنزيه، و قوله: «وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» تأكيد لمعنى الدعوه الى الله و بيان أن هذه الدعوه ليست دعوه اليه تعالى كيف كان بل دعوه على أساس التوحيد الخالص لا معدل عنه الى شرك أصلا.

و أما قوله: أَنَا وَ مَنْ اتَّبَعَنِي فتوسعه و تعميم لحمل الدعوه و أن السبيل و إن كانت سبيل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم مختصه به لكن حمل الدعوه و القيام به لا يختص به بل من اتبعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم يقوم بها لنفسه.

لكن السياق يدل على أن الإشراك ليس بذاك العموم الذى يترأى من لفظ «مَنْ اتَّبَعَنِي» فإن السبيل التى تعرفها الآيه هى الدعوه عن بصيره و يقين الى إيمان محض و توحيد خالص و انما يشاركه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم فيها من كان مخلصا لله فى دينه عالما بمقام ربه ذا بصيره و يقين و ليس كل من صدق عليه أنه اتبعه على هذا النعت، و لا أن الاستواء على هذا المستوى مبذول لكل مؤمن حتى الذين عداهم الله سبحانه فى الآيه السابقه من المشركين و ذمهم بأنهم غافلون عن ربهم آمنون من مكره معرضون عن آياته، و كيف يدعو الى الله من كان غافلا عنه آمننا من مكره معرضا عن آياته و ذكره؟ و قد وصف الله فى آيات كثيره أصحاب هذه النعوت بالضلال و العمى و الخسران و لا تجتمع هذه الخصال بالهدايه و الإرشاد البتة.

قوله تعالى: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى الى آخر الآيه؛ لما ذكر سبحانه حال الناس فى الإيمان به ثم حال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم فى دعوته إياهم عن رساله إلهيه من غير أن يسألهم فيها أجرا و يجر لنفسه نفعا بين أن ذلك ليس

بيدع من الأمر بل مما جرت عليه السنه الإلهيه فى الدعوه الدينيه فلم يكن الرسل الماضون ملائكه و إنما بعثوا من بين هؤلاء الناس و كانوا رجالا من أهل القرى يخالطون الناس و يعرفون عندهم أوحى الله اليهم و أرسلهم نحوهم يدعونهم اليه كما أن النبى كذلك، و من الممكن أن يسير هؤلاء المدعوون فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبه الذين من قبلهم فبلادهم الخربه و مساكنهم الخاليه تفصح عما آل اليه أمرهم، و تنبئ عن عاقبه كفرهم و جحودهم و تكذيبهم لآيات الله.

فالنبى صلى الله عليه و آله و سلم لا يدعوهم إلا كما كان يدعوهم الأنبياء من قبله، و ليس يدعوهم إلا الى ما فيه خيرهم و صلاح حالهم و هو أن يتقوا الله فيفلحوا و يفوزوا بسعاده خالده و نعيم مقيم فى دار باقيه و لدار الآخره خير للذين اتقوا أ فلا تعقلون.

ف قوله: **وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى** تطبيق لدعوه النبى صلى الله عليه و آله و سلم على دعوه من قبله من الرسل. و لعل توصيفهم بأنهم كانوا من أهل القرى للدلاله على أنهم كانوا من أنفسهم يعيشون بينهم و معروفين عندهم بالمعاشره و المخالطه و لم يكونوا ملائكه و لا من غير أنفسهم، و يؤيد ذلك توصيفهم بأنهم كانوا رجالا فإن الرجال كانوا أقرب الى المعرفه من النساء ذوات الخدر.

و قوله: **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** إنذار لآمه النبى صلى الله عليه و آله و سلم بمثل ما أندر به الامم الخاليه فلم يسمعوا فذاقوا وبال أمرهم.

و قوله: **وَ لَعَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ** بيان النصيح و أن ما يدعون اليه و هو التقوى ليس وراءه إلا ما فيه كل خيرهم و جماع سعادتهم.

قوله تعالى: **حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا** جاءهم نصرنا الى آخر الآيه ذكروا أن يس و استيأس بمعنى، و لا يبعد أن يقال: إن الاستيأس هو الاقتراب من اليأس بظهور آثاره لمكان هيئه الاستفعال و هو مما يعد بأسا عرفا و ليس باليأس

القاطع حقيقه.

وقوله: حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ السَّخَابُ، متعلق الغايه بما يتحصل من الآيه السابقه و المعنى تلك الرسل الذين كانوا رجالا أمثالك من أهل القرى و تلك قراهم البائده دعوهم فلم يستجيبوا و أنذروهم بعذاب الله فلم ينتهوا حتى إذا استيأس الرسل من إيمان اولئك الناس، و ظن الناس أن الرسل قد كذبوا أى اخبروا بالعذاب كذبا جاء نصرنا فنجىء بذلك من نشاء و هم المؤمنون و لا يرد بأسنا أى شدتنا عن القوم المجرمين.

أما استيأس الرسل من إيمان قومهم فكما أخبر في قصه نوح: وَ أَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَّ آمَنَ (هود/٣٦) وَ قَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَىٰ الْبَارِضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْنَاهُمْ يَفِضُوا عَلَيَّ آيَاتِكَ وَ لَا يَأْتِدُوا إِلَّا فَاغْرًا كَفَّارًا (نوح/٢٧) و يوجد نظيره فى قصص هود و صالح و شعيب و موسى و عيسى عليهم السلام.

و أما ظن امهم أنهم قد كذبوا فكما اخبر عنه فى قصه نوح من قولهم: بَلْ نَطْنُكُم كَاذِبِينَ (هود/٢٧)، و كذا فى قصه هود و صالح و قوله: فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (الإسراء/١٠١).

و أما تنجيه المؤمنين بالنصر فكقوله تعالى: وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (الروم/٤٧) و قد أخبر به فى هلاك بعض الامم أيضا كقوله: نَجَّيْنَا هُودًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (هود/٥٨) نَجَّيْنَا صَالِحًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (هود/٦٦) نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (هود/٤٤) الى غير ذلك.

و أما أن بأس الله لا يرد عن المجرمين فمذكور فى آيات كثيره عموما و خصوصا كقوله:

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (يونس/٤٧)، و قوله: وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (الرعد/١١) الى غير ذلك من الآيات.

هذا أحسن ما أوردوه فى الآيه من المعانى، و الدليل على كون الآيه بمضمونها غاية لما تتضمنه سابقتها كما قدمناه، و قد أوردوا لها معانى اخرى لا يخلو شىء منها من السقم و الإضراب عنها اوجه.

قوله تعالى: لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ الى آخر الآيه؛ قال الراغب اصل العبر تجاوز من حال الى حال فأما العبور فيختص بتجاوز الماء-الى أن قال- و الاعتبار و العبره بالحاله التى يتوصل بها من معرفه المشاهد الى ما ليس بمشاهد قال تعالى: إن فى ذلك لعبره. انتهى.

و الضمير فى قصصهم للأنبياء و منهم يوسف صاحب القصة فى السوره، و احتمال رجوعه الى يوسف و إخوته و المعنى أقسم لقد كان فى قصص الأنبياء أو يوسف و إخوته عبره لأصحاب العقول، ما كان القصص المذكور فى السوره حديثا يفترى و لكن تصديق الذى بين يدي القرآن، و هو التوراه المذكور فيه القصة يعنى توراه موسى عليه السلام.

و قوله: وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ الْخَيْرِ؛ أى بيانا و تمييزا لكل شىء مما يحتاج اليه الناس فى دينهم الذى عليهم بناء سعادتهم فى الدنيا و الآخرة، و هدى الى السعاده و الفلاح و رحمه خاصه من الله سبحانه لقوم يؤمنون به فإنه رحمه من الله لهم يهتدون بهدايته الى صراط مستقيم (1).

ص: ٣٤٧

(١-١). يوسف ١٠٣-١١١: بحث روائى فى: التوحيد و الشرك؛ التسبيح؛ استيئاس الرسل و مجيء نصر الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ;المَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (۱)
اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ
يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلِّغْتُمْ رَبِّكُمْ تَوْفَنُونَ (۲) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا
زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۳) وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَ
نَخِيلٌ صَوْنٌ وَغَيْرُ صَوْنٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَّضَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۴)

غرض السوره بيان حقيقه ما نزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الكتاب و أنه آيه الرساله و أن قولهم:

«لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ» و هم يعرضون به للقرآن و لا يعدونه آيه كلام مردود اليهم و لا ينبغى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يصغى اليه و لا لهم أن يتفوهوا به.

و يدل على ذلك ابتداء السوره بمثل قوله: ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ و اختتامها بقوله: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ» الآية؛ و تكرار حكاية قولهم: لو لا أنزل عليه آيه من ربه.

و محصل البيان على خطاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن هذا القرآن النازل عليك حق لا يخالطه باطل فإن الذى يشتمل عليه من كلمه الدعوه هو التوحيد الذى تدل عليه آيات الكون من رفع السماوات و مد الأرض و تسخير الشمس و القمر و سائر ما يجرى عليه عجائب تدبيره و غرائب تقديره تعالى.

و تدل على حقيقه دعوته أيضا أخبار الماضين و آثارهم جاءتهم الرسل بالبينات فكفروا و كذبوا فأخذهم الله بذنوبهم. فهذا ما يتضمنه هذا الكتاب و هو آيه داله على رسالتك.

و قولهم: «لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ» تعريضا منهم للقرآن مردود اليهم اولا- بأنك لست إلا- منذرا و ليس لك من الأمر شيء حتى يقترح عليك بمثل هذه الكلمه و ثانيا أن الهدايه و الإضلال ليسا كما يزعمون فى وسع الآيات حتى يرجوا الهدايه من آيه يقترحونها و إنما ذلك الى الله سبحانه يضل من يشاء و يهدى من يشاء على نظام حكيم و أما قولهم: لست مرسلا فيكفيك من الحجج شهاده الله فى كلامه على رسالتك و دلاله ما فيه من المعارف الحقه على ذلك.

و من الحقائق الباهره المذكوره فى هذه السوره ما يتضمنه قوله: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً»

الآيه؛ و قوله: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ»، و قوله: «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ»، و قوله: «فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا» .

و السوره مكيه كلها على ما يدل عليه سياق آياتها و ما تشتمل عليه من المضامين، و نقل عن بعضهم أنها مكيه إلا آخر آيه منها فإنها نزلت بالمدينه فى عبد الله بن سلام، و عزى ذلك الى الكلبى و مقاتل، و يدفعه أنها محتتم السوره قوبل بها ما فى مفتحتها من قوله: «وَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ» .

و قيل: إن السوره مدنيه كلها إلا آيتين منها و هما قوله: «وَ لَوْ أَنْ قُرْآنًا سُوِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ» الآيه؛ و الآيه التى بعدها، و نسب ذلك الى الحسن و عكرمه و قتاده، و يدفعه سياق الآيات بما تشتمل عليه من المضامين فإنها لا تناسب ما كان يجرى عليه الحال فى المدينه و بعد الهجره.

و قيل: إن المدنى منها قوله تعالى: «وَ لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصَِّبُهُمْ بِمَا صَيَّرْنَا قَارِعَةً» الآيه؛ و الباقي مكى و كأن القائل اعتمد فى ذلك على قبولها الانطباق على أوائل حال الإسلام بعد الهجره الى الفتح و سيأتى فى بيان معنى الآيه ما يتضح به اندفاعه.

قوله تعالى: المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ الخ؛ الحروف المصدره بها السوره هى مجموع الحروف التى صدرت بها سوره «الم» و سور «الر» كما أن المعارف المبينه فى السوره كأنها المجموع من المعارف المعنيه فى ذينك الصنفين من السور، و فى الرجاء أن نشرح القول فى ذلك فيما سيأتى إن شاء الله العزيز.

و قوله: تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ظاهر سياق الآيه و ما يتلوها من الآيات الثلاث على ما بها من الاتصال و هى تعد الآيات الكونيه من رفع السماوات و مد الأرض و تسخير الشمس و القمر و غير ذلك الداله على توحيد الله سبحانه الذى يفصح عنه القرآن الكريم و تندب اليه الدعوه الحقه، و هى تذكر أن التدبر فى تفصيلها و التفكير فيها يورث اليقين بالمبدإ و المعاد و العلم، بأن الذى أنزل الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم حق.

فظاهر ذلك كله أن يكون المراد بالآيات المشار إليها بقوله: «تَلَمَّكَ آيَاتُ الْكِتَابِ» الموجودات الكونية و الأشياء الخارجيه المسخره فى النظام العام الإلهى، و المراد بالكتاب هو مجموع الكون الذى هو بوجه اللوح المحفوظ أو المراد به القرآن الكريم بما يشتمل على الآيات الكونية بنوع من العناية و المجاز.

و على هذا يكون فى الآيه إشاره الى نوعين من الدلاله و هما الدلاله الطبيعیه التى تتلبس بها الآيات الكونية من السماء و الأرض و ما بينهما، و الدلاله اللفظیه التى تتلبس بها الآيات القرآنيه المنزله من عنده تعالى الى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم، و يكون قوله: «وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ» استدراكا متعلق بالجملتين معا أعنى بقوله: «تَلَمَّكَ آيَاتُ الْكِتَابِ» و قوله: «وَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ» لا بالجمله الأخيره فحسب.

و المعنى -و الله أعلم- تلك الامور الكونيه -و قد أشير بلفظ البعيد دلاله على ارتفاع مكانتها- آيات الكتاب العام الكونى داله على أن الله سبحانه واحد لا شريك له فى ربوبيته و القرآن الذى أنزل اليك من ربك حق ليس بباطل -و اللام فى قوله: «الْحَقُّ» للحصر فتفيد المحوضه -فتلك آيات قاطعه فى دلالتها و هذا حق فى نزوله و لكن أكثر الناس لا يؤمنون، لا بتلك الآيات العينيه و لا بهذا الحق النازل، و فى لحن الكلام شىء من اللوم و العتاب.

قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ قال الراغب فى المفردات: العمود ما تعتمد عليه الخيمه و جمعه عمد -بضمتين- و عمد -بفتحتين- قال: فى عمد ممده، و قرئ فى عمد، و قال: بغير عمد ترونها انتهى. و قيل: إن العمد بفتحتين اسم جمع للعماد لا جمع.

و المراد بالآيه التذكير بدليل ربوبيته تعالى وحده لا شريك له و أن السماوات مرفوعه بغير عمد تعتمد عليها تدركها أبصاركم و هناك نظام جار و هناك شمس و قمر مسخران يجريان الى أجل مسمى، و لا بد ممن يقوم على هذه الامور فيرفع السماء و ينظم النظام و يسخر الشمس

و القمر و يدبر الأمر و يفصل هذه الآيات بعضها عن بعض تفصيلا فيه رجاء أن توقنوا بقاء ربكم فالله سبحانه هو ذاك القائم بما ذكر من أمر رفع السماوات و تنظيم النظام و تسخير الشمس و القمر و تدبير الأمر و تفصيل الآيات فهو تعالى رب الكل لا رب غيره.

فقوله: الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۚ رَفَعَ السَّمَاوَاتِ هُوَ فَصَلَهَا مِنَ الْأَرْضِ فَصَلًا يَتَسَلَطُ بِهِ عَلَى الْأَرْضِ بِالْقَاءِ أَشْعَتْهَا وَ أَنْزَلَ الْأَمْطَارَ وَ صَوَّعَهَا عَلَيْهَا وَ غَيْرَ ذَلِكَ فَهِيَ مَرْفُوعَةٌ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ غَيْرِ عَمَدٍ مَحْسُوسَةٍ لِلْإِنْسَانِ تَعْتَمِدُ عَلَيْهَا فَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَفَتَّنَ أَنْ لَهَا رَافِعًا حَافِظًا لَهَا أَنْ تَتَحَوَّلَ مِنْ مَكَانِهَا مَمْسُكًا لَهَا أَنْ تَزُولَ مِنْ مَسْتَقَرِّهَا.

و قوله: ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَ سَبَّحَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي مَعْنَى الْعَرْشِ وَ الْاسْتَوَىٰ وَ التَّسْبِيحُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ الْآيَةِ ٥٤.

و قوله: كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَي كُلٌّ مِنْهُمَا يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّعَيَّنٍ يَقِفُ عِنْدَهُ وَ لَا يَتَعَدَاهُ كَذَا قِيلَ وَ مِنَ الْجَائِزِ بَلِ الرَّاجِحُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ الْمَحذُوفُ ضَمِيرَ جَمْعٍ رَاجِعًا إِلَىٰ الْجَمِيعِ وَ الْمَعْنَى كُلٌّ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَ الشَّمْسِ وَ الْقَمَرِ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِنَّ حَكْمَ الْجَرَىٰ وَ الْحَرَكَةَ وَ عَامَ مَطْرَدٍ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْأَجْسَامِ.

و قد تقدم الكلام في معنى الأجل المسمى في تفسير سورة الأنعام الآية ١ فراجع.

و قوله: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ التَّدْبِيرُ هُوَ الْإِتْيَانُ بِالشَّيْءِ عَقِيبَ الشَّيْءِ وَ يَرَادُ بِهِ تَرْتِيبُ الْأَشْيَاءِ الْمُتَعَدِّدَةِ الْمُخْتَلَفَةِ وَ نَظْمُهَا بِوَضْعِ كُلِّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ الْخَاصِّ بِهِ بِحَيْثُ يَلْحَقُ بِكُلِّ مِنْهَا مَا يَقْصَدُ بِهِ مِنَ الْغَرَضِ وَ الْفَائِدَةِ وَ لَا يَخْتَلُ الْحَالُ بِتَلَاشَى الْأَصْلِ وَ تَفَاسِدِ الْأَجْزَاءِ وَ تَزَاحِمِهَا يُقَالُ: دَبَّرَ أَمْرَ الْبَيْتِ أَي نَظَّمَ أُمُورَهُ وَ التَّصَرُّفَاتِ الْعَائِدَةَ إِلَيْهِ بِحَيْثُ أَدَّى إِلَىٰ صِلَاحِ شَأْنِهِ وَ تَمَتَّعَ أَهْلُهُ بِالْمَطْلُوبِ مِنْ فَوَائِدِهِ.

فتدبير أمر العالم نظم أجزائه نظما جيدا متقنا بحيث يتوجه به كل شيء الى غاية المقصوده منه و هي آخر ما يمكنه من الكمال الخاص به و منتهى ما ينساق اليه من الأجل المسمى،

و تدبير الكل إجراء النظام العام العالمى بحيث يتوجه الى غايته الكليه و هى الرجوع الى الله و ظهور الآخره بعد الدنيا.

و قوله: يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلِّغَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ظاهر السياق أن المراد بالآيات هى الآيات الكونيه فالمراد بتفصيلها هو تمييز بعضها من بعض و فتحها بعد رتقها، و هذا من سنته تعالى يفصل الأشياء و يميز كل شىء من كل شىء و يخرج من كل شىء ما هو كامن فيه مستخف فى باطنه فيفصل به النور من الظلمه و الحق من الباطل و الخير من الشر و الصالح من الطالح و المثيب من المجرم.

و لذا عقبه بقوله: «لَعَلَّكُمْ بَلِّغَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ» فإن يوم اللقاء هو الساعه التى سماها الله بيوم الفصل و وعد فيه تمييز المتقين من المجرمين و الفجار قال: إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (الدخان ٤٠)، و قال: وَ ائْتَاؤُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (يس ٥٩)، و قال:

لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ لِكُلِّ خَبِيثٍ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (الأنفال ٣٧).

و فى قوله: لَعَلَّكُمْ بَلِّغَاءِ رَبِّكُمْ و لم يقل: لعلكم بلقائه، و وضع الظاهر موضع المضمرة و الوجه فيه الإصرار على تثبيت الربوبيه و التأكيد له و الإشاره الى أن الذى خلق العالم و دبر أمره فصار ربا له هو رب لكم أيضا فلا رب إلا رب واحد لا شريك له.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي مَرَّدَ الْبَارِضَ وَ جَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَّ وَ أَنهَاراً الى آخر الآيه؛ الرواسى جمع راسيه من رسى إذا ثبت و قر، و المراد بها الجبال لثباتها فى مقرها، و الزوج خلاف الفرد و يطلق على مجموع الأمرين و على أحدهما فهما زوج و هما زوجان، و ربما يقيد الزوجان باثنين تأكيداً للدلاله على أن المراد هو اثنان لا أربعة كما فى الآيه.

و قوله: هُوَ الَّذِي مَرَّدَ الْبَارِضَ أى بسطها بسطاً صالحاً لأن يعيش فيه الحيوان و ينبت فيه الزرع و الشجر، و الكلام فى نسبه مد الأرض اليه تعالى و كونه كالتوطئه و التمهيد لما

يلحق به من قوله: «وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا» الخ؛ نظير الكلام في قوله في الآية السابقة:

«اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا» .

وقوله: «وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا» الضمير للأرض والكلام مسوق بحيث يستتبع بعض أجزائه بعضا والغرض -والله أعلم- بيان تدبيره تعالى أمر سكنه الأرض من إنسان وحيوان في حركته لطلب الرزق و سكونه للارتياح فقد مد الله سبحانه الأرض و لو لا ذلك لم يصلح لبقاء نوع الإنسان و الحيوان و لو كانت ممدوده فحسب من غير ارتفاع و انخفاض في سطحها لم تصلح لظهور ما ادخر فيها من خزائن الماء على سطحها لشرب الزروع و البساتين فجعل سبحانه فيها الجبال الرواسي و ادخر فيها ما ينزل على الأرض من ماء السماء و شق من أطرافها أنهارا و فجر منها عيوننا مطلقه على السهل تسقى الزروع و الجنان فيخرج به ثمرات مختلفه حلوه و مره صيفه و شتويه بريه و أهليه، و سلط على وجه الأرض الليل و النهار و هما عاملان قويان في رشد الأثمار و الفواكه بتسليط الحرارة و البروده المؤثرتين في النضج و النمو و الانبساط و الانقباض، و تسليط الضوء و الظلمه النظامين لحركه الدواب و الإنسان و سعيهما في طلب الرزق و سكونهما للنوم و الرقده.

فمد الأرض يسهل الطريق لجعل الجبال الرواسي و ذلك لشق الأنهار و ذلك لجعل الثمرات المزدوجه المختلفه و بالليل و النهار يتم المطلوب و في ذلك كله تدبير متصل متحد يكشف عن مدبر حكيم واحد لا شريك له في ربوبيته، و إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون.

وقوله: «وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رُزُوقَيْنِ أَثْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسِينَ أَوْ سِتِينَ أَوْ سَبْعِينَ أَوْ ثَمَانِينَ أَوْ تِسْعِينَ أَوْ مِائَتَيْنِ أَوْ مِائَتَيْنِ عَشْرًا» الخ يخالف آخر كالصيفي و الشتوي و الحلو و غيره و الرطب و اليابس.

هذا هو المعروف في تفسير زوجين اثنين فالمراد بالزوجين الصنف يخالفه صنف آخر سواء كانا صنفين لا ثالث لهما أم لا، نظير ما تأتي فيه التشبيه للتكرير كقوله تعالى: «ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ»

كَرَّتَيْنِ (الملك ١٤) أريد به الرجوع كره بعد كره و إن بلغ من الكثرة ما بلغ (١).

وقوله: يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ أى يلبس ظلمه الليل ضوء النهار فيظلم الهواء بعد ما كان مضيئا، و ذكر بعضهم أن المراد به إغشاء كل من الليل و النهار غيره و تعقيب الليل النهار و النهار الليل، و لا قرينه تدل على ذلك.

ثم ختم الآية بقوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» فإن التفكير فى النظام الجارى عليها الحاكم فيها القاضى باتصال بعضها ببعض و تلاؤم بعضها مع بعض المؤدى الى توجه المجموع و كل جزء من أجزائها الى غايات تخصصها يكشف عن ارتباطها بتدبير واحد عقلى فى غايه الإتقان و الإحكام فيدل على أن لها ربا واحدا لا شريك له فى ربوبيته عليما لا يعتريه جهل قديرا لا يغلب فى قدرته ذا عنايه بكل شىء و خاصه بالإنسان يسوقه الى ما فيه سعاده الخالده.

قوله تعالى: وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مِّنْجَبَلٍ وَأَوْرَاتٌ وَجَدَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِهْرًا وَغَيْرُ صِهْرًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قال الراغب: الصنو الغصن الخارج عن أصل الشجره يقال: هما صنوا نخله و فلان صنو أبيه و التثنيه صنوان و جمعه صنوان قال تعالى:

صنوان و غير صنوان. انتهى، و قال: و الاكل لما يؤكل بضم الكاف و سكونه قال تعالى «أَكُلُهُمْ دَائِمًا» و الأكله للمره و الأكله كاللقمه. انتهى.

و المعنى أن من الدليل على أن هذا النظام الجارى قائم بتدبير مدبر وراءه يخضع له الأشياء بطبائعها و يجريها على ما يشاء و كيف يشاء أن فى الأرض قطعا متجاورات متقاربه بعضها من بعض متشابهه فى طبع ترابها و فيها جنات من أعناب و العنب من الثمرات التى تختلف اختلافا عظيما فى الشكل و اللون و الطعم و المقدار و اللطافه و الجوده و غير ذلك، و فيها زرع مختلف فى

ص: ٣٥٥

(١-١). الرعد ١-٤: بحث فى معنى «زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ» فى قوله تعالى: «وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلْنَا فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ» .

جنسه و صنفه من القمح و الشعير و غير ذلك، و فيها نخيل صنوان أى أمثال نابته على أصل مشترك فيه و غير صنوان أى متفرقه تسقى الجميع من ماء واحد و نفضل بعضها على بعض بما فيه من المزيه المطلوبه فى شىء من صفاته.

[سوره الرعد (١٣): الآيات ٥ الى ٦]

اشاره

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْتَابِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦)

بيان:

قوله تعالى: وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ الى آخر الآيه؛ قال فى المجمع: العجب و التعجب هجوم ما لا يعرف سببه على النفس الغسل طوق تشد به اليد الى العنق انتهى.

أشار تعالى فى مفتتح كلامه الى حقيقه ما أنزله الى نبيه من معارف الدين فى كتابه ملوحا الى أن آيات التكوين تهدى اليه و تدل عليه و أصولها التوحيد و الرساله و البعث ثم فصل القول فى دلالة الآيات التكوينية على ذلك و استنتج من حجج ثلاث ذكرها توحيد الربوبيه و البعث بالتصريح، و يستلزم ذلك حقيقه الرساله و الكتاب المنزل الذى هو آيتها، فلما اتضح ذلك و استنار تمهدت الطريق لذكر شبه الكفار فيما يرجع الى الاصول الثلاثه فأشار فى هذه الآيه الى

شبهتهم فى البعث و سيتعرض لشبههم و أقاويلهم فى الرساله و التوحيد فى الآيات التالیه.

و شبهتهم فى ذلك قولهم: «أِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» أورده بعنوان أنه عجب أخرى به أن يتعجب منه لظهور بطلانه و فساده ظهورا لا- مسوغ لإنسان سليم العقل أن يرتاب فيه فلو تفوه به إنسان لكان من موارد العجب فقال: «وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ» الخ.

و معنى الجملة على ما يرشد إليه حذف متعلق «تَعْجَبُ» إن تحقق منك تعجب-و لا- محاله يتحقق لأن الإنسان لا يخلو منه- فقولهم هذا عجيب يجب أن يتعلق به تعجبك، فالتركيب كناية عن وجوب التعجب من قولهم هذا لكونه قولاً ظاهر البطلان لا يميل إليه ذولب و حجى.

و قولهم: «أِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» مرادهم من التراب بقريته السياق ما يصير إليه بدن الإنسان بعد الموت من صورته التراب و ينعدم عند ذلك الإنسان الذى هو الهيكل اللحمى الخاص المركب من أعضاء خاصه المجهز بقوى ماديته على زعمهم و كيف يشمل الخلقه أمرا منعدهما من أصله فيعود مخلوقا جديدا؟.

و لشبهتهم هذه جهات مختلفه أجب الله سبحانه فى كلامه عن كل واحده منها بما يناسبها و يحسم مادتها:

فمنها: استبعاد أن يستحيل التراب إنسانا سويا، و قد أجب عنه بأن إمكان استحاله المواد الأرضيه منيا ثم المنى علقه ثم العلقه مضغه ثم المضغه بدن إنسان سوى و وقوع ذلك بعد إمكانه لا يدع ريبا فى جواز صيروره التراب ثانيا إنسانا سويا قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ الْآيَه، (الحج ٥/).

و منها: استبعاد إيجاد الشئ بعد عدمه. و أجب بأنه مثل الخلق الاول فليجز كما جاز قال

تعالى: وَ ضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ (يس ٧٩).

و منها: أن الإنسان تنتفى ذاته بالموت فلا ذاته بالموت فلا ذات حتى تتلبس بالخلق الجديد و لا إنسان بعد الموت و الفوت إلا في تصور المتصور دون الخارج بنحو.

و قد أجب في كلامه تعالى عنه بيان أن الإنسان ليس هو البدن المركب من عده أعضاء ماديه حتى ينعدم من أصله بطلان التركيب و انحلاله بل حقيقته روح علويه-و إن شئت قلت: نفس-متعلق بهذا المركب المادي تستعمله في أغراضه و مقاصده و بها حياه البدن يبقى بها الإنسان محفوظ الشخصيه و إن تغير بدنه و تبدل بمرور السنين و مضى العمر ثم الموت هو أن يأخذها الله من البدن و تقطع علقته بها ثم البعث هو أن يجدد الله خلق البدن و تعليقها به و هو القيام لله لفصل القضاء.

قال تعالى: وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (الم السجده ١١) يقول إنكم بالموت لا تضلون في الأرض و لا تنعدمون بل الملك الموكل بالموت يأخذ الأمر الذي تدل عليه لفظه «كم» و«نا» و هي النفوس فتبقى في قبضته و لا تضل ثم إذا بعثتم ترجعون الى الله بلحوق أبدانكم الى نفوسكم و أنتم انتم.

فلا إنسان حياه باقيه غير محدوده بما في هذه الدنيا الفانيه و له عيشه في دار اخرى باقيه ببقاء الله و لا يتمتع في حياته الثانيه إلا بما يكتسبه في حياته الاولى من الإيمان بالله و الأعمال الصالحه و يعده في يومه لغده من مواد السعاده فإن اتبع الحق و آمن بآيات الله سعد في أخراه بكرامه القرب و الزلفى و ملك لا- يبلى، و إن أخلد الى الأرض و انكب على الدنيا و أعرض عن الذكرى بقى في دار الشقاء و البوار و غل بأغلال الخيبه و الخسران في مهبط اللعن و حضيض البعد و كان من أصحاب النار.

و إذا عرفت هذا الذى قدمناه و تأملته تأملا كافيا بأن لك أن قوله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ» الى آخر الآيه؛ ليس بمجرد تهديد بالعذاب لهؤلاء القائلين «أَ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» على ما يتخيل فى بادئ النظر بل جواب بلازم القول.

توضيح ذلك أن لازم قولهم: إن الإنسان إذا مات و صار ترابا بطلت الإنسانيه و انعدمت الشخصيه أن يكون الإنسان صورته ماديه قائمه بهذا الهيكل البدنى المادى العائش بحياته ماديه من غير أن تكون له حياه اخرى خالده بعد الموت يبقى فيها بقاء الرب تعالى و يسعد بقربه و يفوز عنده و بعبارة اخرى تكون حياته محدوده بهذه الحياه الماديه غير أن تنبسط على ما بعد الموت و تدوم أبدا، و هذا فى الحقيقه إنكار للعالم الربوبى إذ لا معنى لرب لا معاد اليه.

و لازم ذلك أن يقصر الإنسان همه فى المقاصد الدنيويه و الغايات الماديه من غير أن يرتقى فهمه الى ما عند الله من النعيم المقيم و الملك العظيم فيسعى لقربه تعالى و يعمل فى يومه لغده كالمغلول الذى لا يستطيع حراكا و لا يقدر على السعى لواجب أمره.

و لازم ذلك أن يثبت الإنسان فى شقاء لازم و عذاب دائم فإنه افسد استعداد السعاده و قطع الطريق و هذه اللوازم الثلاث هى التى أشار تعالى اليه بقوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا» الخ.

فقوله: أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ إشارة الى اللازم الأول و هو إعراض منكرو المعاد عن العالم الربوبى و الحياه الباقية و الستر على ما عند الله من النعيم المقيم و الكفر به.

و قوله: وَ أُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ إشارة الى اللازم الثانى و هو الإخلاق الى الأرض و الركون الى الهوى و التقيد بقيود الجهل و أغلال الجحد و الإنكار، و قد مر فى تفسير قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا لِّلآيَةِ، (البقره ٢٦) فى الجزء الأول من الكتاب كلام فى كون هذه التعبيرات القرآنيه حقائق او مجازات فراجع اليه.

و قوله: أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ إشارة الى اللازم الثالث و هو مكثهم فى العذاب و الشقاء.

قوله تعالى: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قال في المجمع: الاستعجال طلب التعجيل بالأمر و التعجيل تقديم الأمر قبل وقته، و السيئه خصله تسوء النفس و نقيضها الحسنه و هي خصه تسر النفس، و المثالات العقوبات واحدها مثله بفتح الميم و ضم الثاء، و من قال في الواحد: مثله بضم الميم و سكون الثاء قال في الجمع: مثالات بضميتين نحو غرفه و غرفات، و قيل في المجمع: مثالات و مثالات-أى بسكون الثاء و فتحها-انتهى.

و قال الراغب في المفردات: المثله نومه تنزل بالإنسان فيجعل مثالا يرتدع به غيره و ذلك كالنكال و جمعه مثالات و مثالات-أى بضم الميم أو فتحها و ضم الثاء- و قد قرئ: من قبلهم المثالات، و المثالات بإسكان الثاء على التخفيف نحو عضد و عضد. انتهى.

و قوله: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ضمير الجمع للذين كفروا المذكورين في الآيه السابقه، و المراد باستعجالهم بالسيئه قبل الحسنه سؤالهم نزول العذاب اليهم استهزاء بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ قبل سؤال الرحمه و العافيه، و الدليل عليه قوله: «وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ» - و الجملة في موضع الحال- فإن المراد به العقوبات النازله على الأمم الماضين القاطعه لدابرهم.

و المعنى: يسألك الذين كفروا أن تنزل عليهم العقوبه الإلهيه قبل الرحمه و العافيه بعد ما سمعوك تنذرهم بعذاب الله استهزاء و هم على علم بالعقوبات النازله قبلهم على الامم الماضين الذين كفروا برسلهم و الآيه في مقام التعجيب.

و قوله: وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَذُومٌ مَغْفِرٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدٌ الْعِقَابِ استئناف أو في موضع الحال، و يفيد بيان السبب في كون استعجالهم أمرا عجيبا أى إن ربك ذو رحمه واسع و تسع الناس في جميع أحوالهم حتى حال ظلمهم و ذو غضب شديد و قد سبقت رحمته غضبه فما بالهم يعرضون عن وسيع رحمته و مغفرته و يسألون شديد عقابه و هم

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ
الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ
وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ
حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيَسْبِغُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي
اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كِبَاسٌ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ
وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَهُمْ بِالْعُدْوَةِ
الْأَسْفَلِ (١٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ
يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ
شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)

قوله تعالى: وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ ليس المراد بهذه الآية الآية القاضيه بين الحق و الباطل المهلكه للامه و هى المذكوره فى الآية السابقه بقوله: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ» بأن يكون تكرارا لها و ذلك لعدم إعانه السياق على ذلك، و لو أريد ذلك لكان من حق الكلام أن يقال: و يقولون لولا «الخ».

بل المراد أنهم يقترحون على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم آيه أخرى غير القرآن تدل على صدقه فى دعوى الرساله و كانوا يحقرون أمر القرآن الكريم و لا يعبتون به و يسألون آيه أخرى معجزه كما أوتى موسى و عيسى و غيرهما عليهم السَّلام فكان فى قولهم: «لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ» تعريض منهم للقرآن.

و أما قوله: إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ فإعطاء جواب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و فى

توجيه الخطاب اليه دونهم و عدم أمره أن يبلغ الجواب إياهم تعريض لهم أنهم لا يستحقون جوابا لعدم فقههم به و فقدهم القدر اللازم من العقل و الفهم و ذلك أن اقتراحهم الآيه مبنى على زعمهم- كما يدل عليه كثير مما حكى عنهم القرآن فى هذا الباب على أن من الواجب أن يكون للرسول قدره غيبه مطلقه على كل ما يريد فله أن يوجد ما أراد و عليه أن يوجد ما أريد منه.

و الحال أن الرسول ليس إلا بشرا مثلهم أرسله الله اليهم لينذرهم عذاب الله و يحذرهم أن يستكبروا عن عبادته و يفسدوا فى الأرض بناء على السنه الإلهيه الجاريه فى خلقه أنه يهدى كل شىء الى كماله المطلوب و يدل عبادته على ما فيه صلاح معاشهم و معادهم.

فالرسول بما هو رسول بشر مثلهم لا يملك لنفسه ضرا و لا نفعا و لا موتا و لا حياه و لا نشورا و ليس عليه إلا تبليغ رساله ربه و أما الآيات فأمرها الى الله ينزلها إن شاء و كيف شاء فاقترحها على الرسول جهل محض.

فالمعنى: أنهم يقترحون عليك آيه- و عندهم القرآن أفضل آيه- و ليس اليك شىء من ذلك و إنما أنت هاد تهديهم من طريق الإنذار و قد جرت سنه الله فى عبادته أن يبعث فى كل قوم هاديا يهديهم.

و الآيه تدل على أن الأرض لا تخلو من هاد يهدى الناس الى الحق إما نبي منذر و إما هاد غيره يهدى بأمر الله و قد مر بعض ما يتعلق بالمقام فى أبحاث النبوه فى الجزء الثانى و فى أبحاث الإمامه فى الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَ مَا تَزْدَادُ وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ قال فى المفردات: غاض الشىء و غاضه غيره نحو نقص و نقصه غيره قال تعالى «وَ غِيضَ الْمَاءِ» «وَ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ» أى تفسده الأرحام فتجعله كالماء الذى تبتلعه الأرض و الغيضة المكان الذى يقف فيه الماء فيبتلعه و ليله غائضه أى

و على هذا فالأنسب أن تكون الامور الثلاثه المذكوره فى الآيه أعنى قوله: «مَا تَحْمِلُ كُلُّ أَنْثَى» و «مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ» و «مَا تَزْدَادُ» إشاره الى ثلاثه من أعمال الأرحام فى أيام الحمل فما تحمله كل أنثى هو الجنين الذى تعيه و تحفظه و ما تغيضه الأرحام هو دم الحيض تنصب فيها فتصرفه الرحم فى غذاء الجنين، و ما تزداده هو الدم التى تدفعها الى خارج كدم النفاس و الدم أو الحمرة التى تراها أيام الحمل أحيانا و هو الذى يظهر من بعض ما روى عن أئمه أهل البيت عليهم السلام و ربما ينسب الى ابن عباس.

و قوله: «و كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ» المقدار هو الحد الذى يحد به الشىء و يتعين و يمتاز به من غيره إذ لا ينفك الشىء الموجود عن تعين فى نفسه و امتياز من غيره و لو لا ذلك لم يكن موجودا البته.

و هذا المعنى أعنى كون كل شىء مصاحبا لمقدار و قرينا لحد لا يتعداه حقيقه قرآنيه تكرر ذكرها فى كلامه تعالى كقوله: قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (الطلاق ٣)، و قوله:

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر ٢١) و غير ذلك من الآيات.

فإذا كان الشىء محدودا بحد لا يتعداه و هو مضروب عليه ذلك الحد عند الله و بأمره و لن يخرج من عنده و إحاطته و لا يغيب عن علمه شىء كما قال: إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (الحج ١٧) و قال: أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (حم السجده ٥٤)، و قال: لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ (السبأ ٣) فمن المحال أن لا يعلم تعالى ما تحمل كل أنثى و ما تغيض الأرحام و ما تزداد.

فذيل الآيه أعنى قوله: «و كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ» تعليل لصدرها أعنى قوله: «اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أَنْثَى» الخ؛ و الآيه و ما يتلوها كالتدليل للآيه السابقه أن الله يعلم بكل شىء و يقدر

على كل شيء و يجب الدعوه و يخضع له كل شيء فهو أحق بالربوبيه فإليه أمر الآيات لا إليك و إنما أنت منذر.

قوله تعالى: **عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ الْغَيْبِ** و الشهاده كما سمعت مرارا معنيان إضافيان فالشيء الواحد يمكن أن يكون غيبا بالنسبه الى شيء و شهاده بالنسبه الى آخر و ذلك أن الاشياء-كما تقدم-لا تخلو من حدود تلزمها و لا تنفك عنها فما كان من الاشياء داخلا فى حد الشيء غير خارج عنه فهو شهاده بالنسبه اليه مشهود لإدراكه و ما كان خارجا عن حد الشيء غير داخل فيه فهو غيب بالنسبه اليه غير مشهود لإدراكه.

و من هنا يظهر أن الغيب لا يعلم به إلا الله سبحانه أما أنه لا يصير معلوما لشيء فلأن العلم نوع إحاطه و لا معنى لإحاطه الشيء بما هو خارج عن حد وجوده أجنبى عن إحاطته،و أما أنه تعالى يعلم الغيب فلأنه تعالى غير محدود الوجود بحد و هو بكل شيء محيط فلا يمتنع شيء عنه بحده فلا يكون غيبا بالنسبه اليه و الى فرض أنه غيب بالنسبه الى غيره.

فيرجع معنى علمه بالغيب و الشهاده بالحقيقه الى أنه لا غيب بالنسبه اليه بل الغيب و الشهاده اللذان يتحققان فيما بين الأشياء بقياس بعضها الى بعض هما معا شهادتان بالنسبه اليه تعالى،و يصير معنى قوله: **«عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ»** أن الذى يمكن أن يعلم به أرباب العلم و هو الذى لا يخرج عن حد وجودهم و الذى لا يمكن أن يعلموا به لكونه غيبا خارجا عن حد وجودهم هما معا معلومان مشهودان له تعالى لإحاطته بكل شيء.

و قوله: **الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ** اسمان من أسمائه تعالى الحسنى،و الكبر و يقابله الصغر من المعانى المتضايفه فإن الأجسام إذا قيس بعضها الى بعض من حيث حجمها المتفاوت فما احتوى على مثل حجم الآخر و زياده كان كبيرا و ما لم يكن كذلك كان صغيرا ثم توسعوا فاعتبروا ذلك فى غير الأجسام،و الذى يناسب ساحه قدسه تعالى من معنى الكبرياء أنه تعالى يملك كل كمال لشيء و يحيط به فهو تعالى كبير أى له كمال كل ذى كمال و زياده.

و المتعال صفه من التعالى و هو المبالغه فى العلو كما يدل عليه قوله: **تَعَالَىٰ عَمَّا يُقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا** (الإسراء ٤٣) فإن قوله: «عُلُوًّا كَبِيرًا» مفعول مطلق لقوله: **تَعَالَىٰ** و موضوع فى محل قولنا: «تعاليا» فهو سبحانه على و متعال أما أنه على فلأنه علا كل شىء و تسلط عليه و العلو هو التسلط، و أما أنه متعال فلأن له غايه العلو لأن علوه كبير بالنسبه الى كل علو فهو العالى المتسلط على كل عال من جهه.

و من هنا تظهر النكته فى تعقيب قوله: **عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ** بقوله: **الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ** لأن مفاد مجموع الاسمين أنه سبحانه محيط بكل شىء متسلط عليه و لا يتسلط عليه و لا يغلبه شىء من جهه البتة فهو يعلم الغيب كما يعلم الشهاده و لا يتسلط عليه و لا يغلبه غيب حتى يعزى عن علمه بغيبته كما لا يتسلط عليه شهاده فهو عالم الغيب و الشهاده لأنه كبير متعال.

قوله تعالى: **سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سَارِبٌ بِالنَّهَارِ** السرب بفتحتين و السروب الذهاب فى حدور و سيلان الدمع و الذهاب فى مطلق الطريق يقال سرب سربا و سروبا نحو مر مرا و مرورا. كذا فى المفردات فالسارب هو الذهاب فى طريق المعلى بنفسه.

و الآيه كالتفريع على الآيه السابقه أى إذا كان الله سبحانه عالما بالغيب و الشهاده على سواء فسواء منكم من أسر القول و من جهر به أى بالقول و الله سبحانه يعلم بقولهما و يسمع حديثهما من غير أن يخفى عليه إسرار من أسر بقوله، و سواء منكم من هو مستخف بالليل يستمد بظلمه الليل و إرخاء سدولها لأن يخفى من أعين الناظرين و من هو سارب بالنهار ذاهب فى طريقه متبرز غير مخل لنفسه فالله يعلم بهما من غير أن يخفى المستخفى بالليل بمكيدته.

قوله تعالى: **لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** الخ؛ ظاهر السياق أن الضمائر الأربع «لَهُ» «يَدَيْهِ» «خَلْفِهِ» «يَحْفَظُونَهُ» مرجعها واحد و لا

مرجع يصلح لها جميعا إلا- ما فى الآيه السابقه أعنى الموصول فى قوله: «مَنْ أَسِيرَ الْقَوْلِ» الخ؛ فهذا الإنسان الذى يعلم به الله سبحانه فى جميع أحواله هو الذى له معقبات من بين يديه و من خلفه.

و تعقيب الشىء إنما يكون بالمجىء بعده و الإتيان من عقبه فتوصيف المعقبات بقوله: «مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ» إنما يتصور إذا كان سائرا فى طريق، ثم طاف عليه المعقبات حوله و قد أخبر سبحانه عن كون الإنسان سائرا هذا السير بقوله: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (الانشقاق ٦) و فى معناه سائر الآيات الداله على رجوعه الى ربه كقوله:

وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (يس ٨٣) وَ إِلَيْهِ تُقَلَّبُونَ (العنكبوت ٢١) فللإنسان و هو سائر الى ربه معقبات تراقبه من بين يديه و من خلفه.

و الآيه أعنى قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ» الخ؛ يدل بالجملة على أن الله قضى قضاء حتم بنوع من التلازم بين النعم الموهوبه من عنده للإنسان و بين الحالات النفسيه الراجعه الى الإنسان الجاربه على استقامه الفطره فلو جرى قوم على استقامه الفطره و آمنوا بالله و عملوا صالحا أعقبهم نعم الدنيا و الآخره كما قال: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ لَكِن كَذَّبُوا (الأعراف ٩٦) و الحال ثابتة فيهم دائمه عليهم ما داموا على حالهم فى أنفسهم فإذا غيروا حالهم فى أنفسهم غير الله سبحانه حالهم الخارجيه بتغيير النعم نقما.

و أما قوله تعالى: وَ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ فَإِنَّمَا دَخَلَ فِي الْحَدِيثِ لَا بِالْقَصْدِ الْأُولَىٰ لَكِنَّه تعالى لما ذكر أن كل شىء عنده بمقدار و أن لكل إنسان معقبات يحفظونه بأمره من أمره و لا يدعونيه يهلك أو يتغير أو يضطرب فى وجوده و النعم التى اوتيتها، و هم على حالهم من الله لا يغيرها عليهم حتى يغيروا ما بأنفسهم و جب أن يذكر أن هذا التغيير من السعاده الى الشقاء و من النعمه الى النقمه أيضا من الامور المحكمه المحتومه التى

ليس لمانع أن يمنع من تحققها، وإنما أمره الى الله لا حظ فيه لغيره، وبذلك يتم أن الناس لا مناص لهم من حكم الله في جانبي الخير و الشر و هم مأخوذ عليهم و في قبضته.

فالمعنى: و إذا أراد الله بقوم سوء لا يريد ذلك إلا إذا غيروا ما بأنفسهم من سمات معبوديه و مقتضيات الفطره فلا مرد لذلك السوء من شقاء أو نقمه أو نكال.

ثم قوله: **وَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ عَظْفٌ تَفْسِيرِي عَلَى قَوْلِهِ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ»** و يفيد معنى التعليل له فإنه إذا لم يكن لهم من وال يلي أمرهم إلا الله سبحانه لم يكن هناك أحد يرد ما أراد الله بهم من السوء.

فقد بان من جميع ما تقدم أن معنى الآية-على ما يعطيه السياق-و الله أعلم-أن لكل من الناس على أى حال كان معقبات يعقبونه فى مسيره الى الله من بين يديه و من خلفه أى فى حاضر حاله و ماضيه يحفظونه بأمر الله من أن يتغير حاله بهلاك أو فساد أو شقاء بأمر آخر من الله، و هذا الأمر الآخر الذى يغير الحال إنما يؤثر أثره إذا غير قوم ما بأنفسهم فعند ذلك يغير الله ما عندهم من نعمه و يريد بهم السوء و إذا أراد بقوم سوء فلا- مرد له لأنهم لا-والى لهم يلي أمرهم من دونه حتى يرد ما أراد الله بهم من سوء (1).

قوله تعالى: **هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبُرُوقَ حَافًا وَ طَمَعًا وَ يُنْشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ السَّحَابِ** بفتح السين جمع سحابه بفتحها و لذلك وصف بالثقال.

و الإجراء إظهار ما من شأنه أن يحس بالبصر للمبصر ليصره أو جعل الإنسان على صفه الرؤيه و الإبصار، و التقابل بين قوله: «يُرِيكُمُ» و قوله: «يُنْشِئُ» يؤيد المعنى الأول.

و قوله: **حَافًا وَ طَمَعًا** مفعول له أى لتخافوا و تطمعوا، و يمكن أن يكون مصدرين بمعنى الفاعل حالين من ضمير «كم» أى خائفين و طامعين.

ص: ٣٦٨

و المعنى: هو الذى يظهر لعيونكم البرق ليظهر فيكم صفتا الخوف و الطمع كما أن المسافر يخافه و الحاضر يطمع فيه، و أهل البحر يخافونه و أهل البر يطمعون فيه و يخاف صاعقته و يطمع فى غيثه، و يخلق بإنشائه السحابات التى تثقل بالمياه التى تحملها، و فى ذكر آيه البرق بالإرءاء و آيه السحاب بالإنشاء لطف ظاهر.

قوله تعالى: **وَ يُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ** الخ؛ الصواعق جمع صاعقه و هو القطعه الناريه النازله من السماء عن برق و رعد، و الجدل المفاوضه و المنازعه فى القول على سبيل المغالبه، و أصله من جدلت الجبل إذا أحكمت فتله، و المحال بكسر الميم مصدر ماحله يماحله إذا ماكره و قاواه ليتبين أيهما أشد و جادله لإظهار مساويه و معائبه فقوله: **«وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ»** معناه- و الله أعلم- أن الوثنيين- و اليهم وجه الكلام فى إلقاء هذه الحجج- يجادلون فى ربوبيته تعالى بتلفيق الحجج على ربوبيه أربابهم كالتمسك بدأب آبائهم و الله سبحانه شديد المماحله لأنه عليم بمساويهم و معائبهم قدير على إظهارها و فضاحتهم.

قوله تعالى: **لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الدعاء و الدعوه توجيه نظر المدعو الى الداعى و يتأتى غالبا بلفظ أو إشاره، و الاستجابه و الإجابه إقبال المدعو على الداعى عن دعائه، و أما اشتمال الدعاء على سؤال الحاجه و اشتمال الاستجابه على قضائها فذلك غايه متممه لمعنى الدعاء و الاستجابه غير داخله فى مفهوميهما.**

نعم: الدعاء إنما يكون دعاء حقيقه إذا كان المدعو ذا نظر يمكن أن يوجه الى الداعى و ذا جده و قدره يمكنه بهما استجابته الدعاء و أما دعاء من لا يفقه أو يفقه و لا يملك ما ترفع به الحاجه فليس بحق الدعاء و إن كان فى صورته.

و لما كانت الآيه الكريمه قرر فيها التقابل بين قوله: **«لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ»** و بين قوله: **«وَ الَّذِينَ»**

يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ» الخ؛ الذى يذكر أن دعاء غيره خال عن الاستجابة ثم يصف دعاء الكافرين بأنه فى ضلال علمنا بذلك أن المراد بقوله: «دَعْوَةُ الْحَقِّ» الدعوه الحقه غير الباطله و هى الدعوه التى يسمعها المدعو ثم يستجيبها البته، و هذا من صفاته تعالى و تقدس فإنه سميع الدعاء قريب مجيب و هو الغنى ذو الرحمه و قد قال: أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ (البقره/ ١١٦) و قال: أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ (المؤمن ٦٠) فأطلق و لم يشترط فى الاستجابة إلا أن تتحقق هناك حقيقه الدعاء و أن يتعلق ذلك الدعاء به تعالى لا غير.

فلفظه دعوه الحق من إضافه الموصوف الى الصفه أو من الإضافه الحقيقيه بعنايه أن الحق و الباطل كأنهما يقتسمان الدعاء فقسم منه للحق و هو الذى لا يتخلف عن الاستجابة، و قسم منه للباطل و هو الذى لا يهتدى الى هدف الإجابة كدعاء من لا يسمع أو لا يقدر على الاستجابة.

فهو تعالى لما ذكر فى الآيات السابقه أنه عليم بكل شىء و أن له القدره العجيبه ذكر فى هذه الآيه أن له حقيقه الدعاء و الاستجابة فهو مجيب الدعاء كما أنه عليم قدير، و قد ذكر ذلك فى الآيه بطريقتى الإثبات و النفى أعنى إثبات حق الدعاء لنفسه و نفيه عن غيره.

و مثل من يدعو غير الله سبحانه مثل هذا الباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه و ليس له من الدعاء إلا صورته الخاليه من المعنى و اسمه من غير مسمى فهؤلاء المدعوون من دون الله لا يستجيبون للذين يدعونهم بشىء و لا يقضون حاجتهم إلا كما يستجاب لباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه و يقضى حاجته أى لا يحصل لهم إلا صوره الدعاء كما لا يحصل لذلك الباسط إلا صورته الطلب ببسط الكفين.

و من هنا يعلم أن هذا الاستثناء «إِلَّا كَبَّاسِطِ كَفَيْهِ» الخ؛ لا ينتقض به عموم النفى فى المستثنى منه و لا يتضمن إلا صورته الاستثناء فهو يفيد تقويه الحكم فى جانب المستثنى منه فإن مفاده أن الذين يدعون من دون الله لا يستجاب لهم إلا كما يستجاب لباسط كفيه الى

الماء و لن يستجاب له، و بعبارة أخرى لن ينالوا بدعائهم إلا أن لا ينالوا شيئاً أى لن ينالوا شيئاً البتة.

و هذا من لطيف كلامه تعالى و يناظر من وجه قوله تعالى الآتى: «قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا» و أكد منه كما سيجيء إن شاء الله.

ثم أكد سبحانه الكلام بقوله: «وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ» مع ما فيه من الإشارة الى حقيقة أصيله أخرى و هى أنه لا غرض لدعاء إلا الله سبحانه فإنه العليم القدير و الغنى ذو الرحمه فلا طريق له إلا طريق التوجه اليه تعالى فمن دعا غيره و جعله الهدف لدعائه فقد الارتباط بالغرض و الغايه و خرج بذلك عن الطريق فضل دعاؤه فإن الضلال هو الخروج عن الطريق و سلوك ما لا يوصل الى المطلوب.

قوله تعالى: «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ السُّجُودِ الْخُرُورِ عَلَى الْأَرْضِ بوضع الجبهه أو الذقن عليها قال تعالى وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا (يوسف ١٠٠)»، و قال يَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (الإسراء ١٠٧). و الواحد منه سجده.

و الكره ما يأتى به الإنسان من الفعل بمشقه فإن حمل عليه من خارج فهو الكره بفتح الكاف و ما حمل عليه من داخل نفسه فهو الكره بضمها و الطوع يقابل الكره مطلقاً.

و قال الراغب: الغدوه و الغداه من أول النهار، و قوبل فى القرآن الغدو بالآصال نحو قوله:

«بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ» و قوبل الغداه بالعشى قال «بِالْغُدَاهِ وَالْعَشِيِّ» انتهى و الغدو جمع غداه كقنى و قناه و قال فى المجمع: الآصال جمع أصل -بضمين- و أصل جمع أصيل فهو جمع الجمع مأخوذ من الأصل فكأنه أصل الليل الذى ينشأ منه و هو ما بين العصر الى مغرب الشمس.

انتهى.

و أما قوله: «و ظلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ» ففيه إلحاق أظلال الأجسام الكثيفه بها

فى السجود فإن الظل و إن كان عدما من حجب الجسم بكثافته عن نفوذ النور إلا أن له أثارا خارجيه و هو يزيد و ينقص فى طرفى النهار و يختلف اختلافا ظاهرا للحس فله نحو من الوجود ذو آثاره يخضع فى وجوده و آثاره لله و يسجد له.

و هى تسجد لله سبحانه سجده طوع فى جميع الأحيان، و إنما خص الغدو و الأصال بالذكر لا لما قيل: إن المراد بهما الدوام لأنه يذكر مثل ذلك للتأييد إذ لو أريد سجودها الدائم لكان الأنسب به أن يقال: بأطراف النهار حتى يعم جميع ما قبل الظهر و ما بعده كما وقع فى قوله:

وَ مِنْ أَنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَ اطَّرَافِ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (طه ١٣٠).

بل النكته فيه -و الله أعلم- أن الزيادة و النقيصه دائمتان للأظلال فى الغداه و الأصيل فيمثلان للحس السقوط على الأرض و ذله السجود، و أما وقت الظهيرة و أوساط النهار فرما انعدمت الأظلال فيها أو نقصت و كانت كالساكنه لا يظهر معنى السجده منها ذلك الظهور.

قوله تعالى: قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَ لَا ضَرًّا الْآيَه بما تشتمل على أمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم بالاحتجاج على المشركين بمنزله الفذلکه من الآيات السابقه.

و ذلك أن الآيات السابقه تبين بأوضح البيان أن تدبير السماوات و الأرض و ما فيهما من شىء الى الله سبحانه كما أن خلقها منه و أنه يملك ما يفتقر اليه الخلق و التدبير من العلم و القدره و الرحمه و أن كل من دونه مخلوق مدبر لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا و ينتج ذلك أنه الرب دون غيره.

فأمر تعالى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن يسجل عليهم نتيجة بيانه السابق و يسألهم بعد تلاوه الآيات السابقه عليهم الكاشفه عن وجه الحق لهم بقوله: «مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» أى من هو الذى يملك السماوات و الأرض و ما فيهما و يدبر أمرها؟ ثم أمره أن يجيب هو نفسه عن السؤال و يقول «اللَّهُ» لأنهم و هم مشركون معاندون يمتنعون عن الإقرار بتوحيد الربوبيه و فى ذلك

تلويح الى أنهم لا يعقلون حجه و لا يفقهون حديثا.

ثم استنتج بمعونه هذه النتيجة نتيجه ثانيه بها يتضح بطلان شركهم أوضح البيان و هى أن مقتضى ربوبيته تعالى الثابته بالحجج السابقه أنه هو المالك للنفع و الضرر فكل من دونه لا يملك لنفسه نفعاً و لا ضراً فكيف لغيره؟ فاتخاذ أرباب من دون الله أى فرض أولياء من دونه يلون أمر العباد و يملكون لهم نفعاً و ضراً فى الحقيقه فرض لأولياء ليسوا بأولياء لأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً و لا ضراً فكيف يملكون لغيرهم ذلك؟

و هذا هو المراد بقوله مفرعاً على السؤال السابق: «قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا» أى فكيف يملكون لغيرهم ذلك: أى إذا كان الله سبحانه هو رب السماوات و الأرض فقد قلتم باتخاذكم أولياء آله من دونه قولاً يكذبه نفسه و هو عدم ولايتهم فى عين ولايتهم و هو التناقض الصريح بأنهم أولياء غير أولياء و أرباب لا ربوبيه لهم.

و بالتأمل فيما قدمناه أن الآيه بمنزله الفدلكه من سابق البيانات يعود مفاد الآيه الى مثل قولنا: إذا تبين ما تقدم فمن رب السماوات و الأرض إلا الله؟ أ فاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون نفعاً و لا ضراً؟ فالعدول عن التفريع الى أمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم بقوله: قل كذا و قل كذا و تكراره مره بعد مره إنما هو للتنزه عن خطابهم على ما بهم من قذاره الجهل و العناد و هذا من لطيف نظم القرآن.

قوله تعالى: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَ الْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَ النُّورُ مثلاًن ضربهما الله سبحانه بعد تمام الحججه و إتمامها عليهم و أمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن يضربهما لهم يبين بأحدهما حال المؤمن و الكافر فالكافر بالحججه الحقه و الآيات البينات غير المسلم لها أعمى و المؤمن بها بصير فالعاقل لا يسوى بينهما ببيدهه عقله، و يبين بالثانى أن الكفر بالحق ظلمات كما أن الكافر الواقع فيها غير بصير و الإيمان بالحق نور كما أن المؤمن الآخذ به بصير و لا يستويان البته فمن الواجب على المشركين إن كان لهم عقول سليمه- كما

يدعون- أن يسلموا للحق و يرفضوا الباطل و يؤمنوا بالله وحده.

قوله تعالى: «أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ -الى قوله- وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ فِي التَّعْبِيرِ بقوله: «جَعَلُوا» و «عَلَيْهِمْ» دون أن يقال جعلتم و عليكم دليل على أن الكلام مصروف عنهم الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ دون أن يؤمر بإلقائه اليهم.

ثم العود في جواب هذا الاحتمال الذي يتضمنه قوله: «أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ» الى الأمر بإلقائه اليهم بقوله: «قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» دليل على أن السؤال إنما هو عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و المطلوب من إلقاء توحيد الخالق اليهم هو الإلقاء الابتدائي لا- الإلقاء بنحو الجواب، وليس إلا لأنهم لا يقولون بخالق غير الله سبحانه كما قال تعالى: «وَلَيْسَ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (لقمان ٢٥)، (الزمر ٣٨)» و قد كرر تعالى نقل ذلك عنهم.

فهؤلاء الوثنيون ما كانوا يرون لله سبحانه شريكا في الخلق و الإيجاد و إنما كانوا ينازعون الإسلام في توحيد الربوبية لا في توحيد الالهية بمعنى الخلق و الإيجاد، و تسليمهم توحيد الخالق المبدع و قصر ذلك على الله يبطل قولهم بالشركاء في الربوبية و تتم الحجة عليهم لأن اختصاص الخلق و الإيجاد بالله سبحانه ينفي استقلال الوجود و العلم و القدره عن غيره تعالى و لا ربوبية مع انتفاء هذه النعوت الكماليه.

و لذلك لم يبق لهم في القول بربوبية شركائهم مع الله سبحانه إلا أن ينكروا توحده تعالى في الخلق و الإيجاد و يثبتوا بعد الخلق و الإيجاد لآلهتهم و هم لا يفعلونه. و هذا هو الموجب لذكره تعالى هذا الاحتمال لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من دون أن يخاطبهم به أو يأمره أن يخاطبهم.

فكأنه تعالى إذ يقول «أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ» يقول لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: هؤلاء تمت عليهم الحجة في توحيد الربوبية من جهة اختصاصه تعالى بالخلق و الإيجاد فلم يبق لهم إلا أن يقولوا بشركه شركائهم في الخلق و الإيجاد فهل هم قائلون بأن

شركائهم خلقوا خلقا كخلقه ثم تشابه الخلق عليهم فقالوا بربوبيتهم إجمالا مع الله.

ثم أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يلقي اليهم ما يقطع دابر هذا الاحتمال فقال «قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» و الجملة صدرها دعوى دليلها ذيلها أى أنه تعالى واحد فى خالقيته لا شريك له فيها، وكيف يكون له فيها شريك و له وحده يقهر كل عدد و كثره و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (يوسف ٣٩) بعض الكلام فى معنى كونه تعالى هو الواحد القهار، و تبين هناك أن مجموع هاتين الصفتين ينتج صفة الأحديه.

و قد بان مما ذكرناه وجه تغيير السياق فى قوله: «أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ» و الإعراض عن سياق الخطاب السابق فتأمل فى ذلك و اعلم أن أكثر المفسرين اشتبه عليهم الحال فى الحجج التى تقيمها الآيات القرآنيه لإثبات ربوبيته تعالى و توحيده فيها و نفى الشريك عنه فخلطوا بينها و بين ما أقيمت لإثبات الصانع فتنبه لذلك (١).

[سورة الرعد (١٣): الآيات ١٧ الى ٢٦]

إشارة

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاخْتَمَلَ السَّبِيلُ زَيْدًا رَابِعًا وَمِمَّا يُوقَدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلِيِّهِ أَوْ مَتَاعٍ زَيْدٌ مِثْلَهُ
كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّيْدُ فَيَدْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
(١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ
الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ
(١٩) الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِّمُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ
الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ رِزْقًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُؤْنَ بِالْحَسَنَةِ
أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ
كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ
يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ
مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦)

ص: ٣٧٥

(١- ١). الرعد ٧-١٦: بحث روائى فى قول الله تبارك و تعالى «إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ»؛ ان المنذر هو رسول الله و على عليه السلام هو الهادى؛ الغيب و الشهادة؛ ان ليس من عبد الا و معه ملائكة يحفظونه.

قوله تعالى: أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ قال في مجمع البيان: الوادى سفح الجبل العظيم المنخفض الذى يجتمع فيه ماء المطر، ومنه اشتقاق الديره لأنه جمع المال العظيم الذى يؤدى عن القتل، والقدر اقتران الشىء بغيره من غير زياده ولا نقصان و الوزن يزيد و ينقص فإذا كان مساويا فهو القدر، و قرء الحسن بقدرها بسكون الدال، و هما لغتان يقال: أعطى قدر شبر و قدر شبر، و المصدر بالتخفيف لا غير.

قال: و الاحتمال رفع الشىء على الظهر بقوه الحامل له، و يقال: علا صوته على فلان فاحتمله و لم يغضبه، و الزيد و ضر الغليان و هو خبث الغليان و منه زبد القدر و زبد السيل.

و الجفاء ممدود مثل الغشاء و أصله الهمز يقال: جفأ الوادى جفاء قال أبو زيد: يقال: جفأت الرجل إذا صرعته و أجفأت القدر بزبدها إذا ألقيت زبدها عنها، قال الفراء: كل شىء ينضم بعضه الى بعض فإنه يجىء على فعال مثل الحطام و القماش و الغشاء و الجفاء.

و الإيقاد إلقاء الحطب فى النار استوقدت النار، و انقدت و توقدت، و المتاع ما تمتعت به، و المكث السكون فى المكان على مرور الزمان يقال: مكث و مكث-بفتح الكاف و ضمها- و تمكث أى تلبث. انتهى.

و قال الراغب: الباطل نقيض الحق و هو ما لا ثبات له عند الفحص عنه قال تعالى «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ» و قد يقال ذلك فى الاعتبار الى المقال و الفعال يقال: بطل بطولا و بطلا و بطلانا و أبطله غيره قال عزّ و جلّ «وَبَطَّلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» و قال «لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ». انتهى موضع الحاجه.

فبطلان الشىء هو أن يقدر للشىء نوع من الوجود ثم إذا طبق على الخارج لم يثبت على ما قدر و لم يطابقه الخارج و الحق بخلافه فالحق و الباطل يتصف بهما أولا الاعتقاد ثم غيره بعنايه

فالقول نحو السماء فوقنا و الأرض تحتنا بكون حقا لمطابقه الواقع إياه إذا فحص عنه و طبق عليه، و لقولنا: السماء تحتنا و الأرض فوقنا كان باطلا- لعدم ثباته فى الواقع على ما قدر له من الثبات، و الفعل يكون حقا إذا وقع على ما قدر له من الغايه أو الأمر كالأكل للشبع و السعى للرزق و شرب الدواء للصحه مثلا إذا أثره و بلغ غرضه، و يكون باطلا إذا لم يقع على ما قدر عليه من الغايه أو الأمر، و الشىء الموجود فى الخارج حق من جهه أنه موجود كما اعتقد كوجود الحق تعالى، و الشىء غير الموجود و قد اعتقد له الوجود باطل و كذا لو كان موجودا لكن قدر له من خواص الوجود ما ليس له كتقدير الاستقلال و البقاء للموجود الممكن فالموجود الممكن باطل من جهه عدم الاستقلال أو البقاء المقدر له و إن كان حقا من جهه أصل الوجود قال:

ألا كل شىء ما خلا الله باطل

و كل نعيم لا محاله زائل

و الآيه الكريمة من غرر الآيات القرآنيه تبحث عن طبيعه الحق و الباطل فتصف بدء تكونهما و كيفيه ظهورهما و الآثار الخاصه بكل منهما و سنه الله سبحانه الجاربه فى ذلك و لن تجد لسنه الله تحويلا و لن تجد لسنه الله تبديلا.

بين تعالى ذلك بمثل ضربه للناس، و ليس بمثلين كما قاله بعضهم و لا بثلاثه أمثال كما ذكره آخرون كما سنشير اليه إن شاء الله و إنما هو مثل واحد ينحل الى أمثال فقال تعالى «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا» و قوله: «أَنْزَلَ» فعل فاعله هو الله سبحانه لم يذكر لوضوحه، و تنكير «مَاءً» للدلاله على النوع و هو الماء الخالص الصافى يعنى نفس الماء من غير أن يختلط بشىء أو يشوبه تغير، و تنكير «أَوْدِيَهُ» للدلاله على اختلافها فى الكبر و الصغر و الطول و القصر و تغايرها فى السعه و الوعى، و نسبة السيلان الى الاوديه نسبة مجازيه نظير قولنا: جرى الميزاب و توصيف الزبد بالرابى لكونه طافيا يعلو

السييل دائما و هذا كله بدلاله السياق، و إنما مثل بالسييل لأن احتمال الزبد الرابى فيه أظهر.

و المعنى: أنزل الله سبحانه من السماء و هى جهه العلو ماء بالإمطار فسالت الأوديه الواقعه فى محل الامطار المختلفه بالسعه و الضيق و الكبر و الصغر بقدرها أى كل بقدره الخاص به فالكبير بقدره و الصغير بقدره فاحتمل السييل الواقع فى كل واحد من الأوديه المختلفه زبدا طافيا عاليا و هو الظاهر على الحس يستر الماء سترًا.

ثم قال تعالى وَ مِمَّا يُوقَدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلِيِّهِ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ من نشويه و ما يوقدون عليه أنواع الفلزات و المواد الأرضيه القابله للإذابه المصوغه منها آلايت الزينه و أمتعه الحياه التى يتمتع بها و المعنى و يخرج من الفلزات و المواد الأرضيه التى يوقدون عليها فى النار طلبا للزينه كالذهب و الفضة أو طلبا لمتاع كالحديد و غيره يتخذ منه الآلات و الأدوات، زبد مثل الزبد الذى يربو السييل يطفو على ماده المذابه و يعلوه.

ثم قال تعالى كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ أى يثبت الله الحق و الباطل نظير ما فعل فى السييل و زبده و ما يوقدون عليه فى النار و زبده.

فالمراد بالضرب-و الله أعلم-نوع من التثبيت من قبيل قولنا:ضربت الخيمه أى نصبتها و قوله:ضربت عليهم الذله و المسكنه أى أوقعت و أثبتت و ضرب بينهم بسور أى أوجد و بنى،و اضرب لهم طريقا فى البحر أى افتح و ثبت و الى هذا المعنى أيضا يعود ضرب المثل لأنه تثبيت و نصب لما يماثل الممثل حتى يتبين به حاله،و الجميع فى الحقيقه من قبيل إطلاق الملزوم و إرادته اللازم فإن الضرب و هو إيقاع شىء على شىء بقوه و عنف لا ينفك عاده عن تثبيت أمر فى ما وقع عليه الضرب كثبوت الودت فى الأرض بضرب المطرقه و حلول الألم فى جسم الحيوان بضربه فقد أطلق الضرب و هو الملزوم و أريد التثبيت و هو الأمر اللازم.

ثم قال تعالى فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ جمع بين الزبد بين أعنى زبد السيل و زبد ما يوقدون عليه و قد كانا متفرقين في الذكر لاشتراك الجميع فيما يذكر من الخاصه و هو أنه يذهب جفاء، و لذا قدمنا آنفا أن الآيه تتضمن مثلا واحدا و إن انحل الى غير واحد من الأمثال.

و قد عدل عن ذكر الماء و غيره الى قوله: «وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ» للدلاله على خاصه يختص بها الحق و هو أن الناس ينتفعون به و هو الغايه المطلوبه لهم.

و المعنى: فأما الزبد الذي كان يطفو على السيل و يعلوه أو يخرج مما يوقدون عليه في النار فيذهب جفاء و يصير باطلا متلاشيا، و أما الماء الخالص أو العين الارضيه المصوغه و فيهما انتفاع الناس و تمتعهم في معاشهم فيمكث في الأرض ينتفع به الناس.

ثم قال تعالى كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ و ختم به القول أى إن الأمثال المضروبه للناس فى كلامه تعالى يشابه المثل المضروب فى هذه الآيه فى أنها تميز الحق من الباطل و تبين للناس ما ينفعهم فى معاشهم و معادهم.

و لا- يبعد أن تكون الإشاره بقوله: «كَذَلِكَ» الى ما ذكره من أمر نزول المطر و جريان الاوديه بسيولها المزبده و إيقاد المواد الأرضيه و خروج زبدها، أعنى أن تكون الإشاره الى نفس هذه الحوادث الخارجيه و التكونات العينيه لا القول فيدل على أن هذه الوقائع الكونيه و الحوادث الواقعه فى عالم الشهاده أمثال مضروبه تهدى اولى النهى و البصيره الى ما فى عالم الغيب من الحقائق كما أن ما فى عالم الشهاده آيات داله على ما فى عالم الغيب على ما تكرر ذكره فى القرآن الكريم، و لا كثير فرق بين كون هذه المشهودات أمثالا مضروبه أو آيات داله و هو ظاهر.

قوله تعالى: لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسَيْنِ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ المهاد الفراش الذى يوطأ لصاحبه و المكان الممهد الموطأ و سميت جهنم لأنها

مهتد لاستقرارهم فيها لكفرهم و أعمالهم السيئه.

و الآيه و ما بعدها من الآيات التسعه متفرعه على المثل المضروب فى الآيه السابقه كما تقدمت الإشاره اليه يبين الله سبحانه فيها آثار الاعتقاد الحق و الإيمان به و الاستجابه لدعوته، و آثار الاعتقاد الباطل و الكفر به و عدم استجابه دعوته و يشهد بذلك سياق الآيات فإن الحديث فيها يدور حول عاقبه الإيمان و الكفر و أن العاقبه المحموده التى للإيمان لا يقوم مقامها شىء و لو كان ضعف ما فى الدنيا من نعمه.

و على هذا فالأظهر أن يكون المراد بالحسنى العاقبه الحسنى و ما ذكره بعضهم أن المراد بها المثوبه الحسنى أو الجنه و إن كان حقا بحسب المآل فإن عاقبه الإيمان و العمل الصالح المحموده هى المثوبه الإلهيه الحسنى و هى الجنه لكن المثوبه أو الجنه غير مقصوده فى المقام بما أنها مثوبه أو جنه بل بما أنها عاقبه أمرهم و ينتهى إليها سعيهم.

و يؤيده بل يدل عليه قوله تعالى فيهم فى الآيات التاليه بعد تعريفهم بصفاتهم المختصه بهم:

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقُوبَى الدَّارِ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ الآيه.

و على هذا أيضا فقولہ: «لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ» موضوع موضع الغايه المحذوفه للدلاله على فخامه أمرها و بلوغها الغايه من حمل الهول و الدهشه و الشر و الشقوه بما لا يذكر.

و المعنى: و الذين لم يستجيبوا لربهم يحل بهم أمر- أو يفوتهم أمر و هو نتيجه الاستجابه و عاقبتها الحسنى- من صفتة أنه لو أن لهم ما فى الارض من نعمه تلتذ بها النفس الانسانيه و هو غايه ما يمكن لإنسان أن يأمله و يتمناه ثم أضيف اليه مثله و هو فوق منيه الإنسان و بعبارة ملخصه لو كانوا يملكون غايه مناهم فى الحياه و ما فوق هذه الغايه رضوا أن يفتدوا بهذا الذى يملكونه فرضا عما يفوتهم من الحسنى، و فى بعض كلمات على عليه السلام فى وصفه «غير موصوف ما نزل بهم».

ثم أخبر تعالى عن هذا الذى لا- يوصف من عاقبه أمرهم فقال «أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ» و سوء الحساب الحساب الذى يسوؤهم و لا يسرهم فهو من إضافة الصفه الى الموصوف ثم ذم تعالى ذلك مشيرا الى سوء العاقبه بقوله: «وَبئْسَ الْمِهَادُ» أى بئس المهاد مهادهم الذى مهد لهم و يستقرون فيه، و مجموع قوله: «أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ» الخ؛ فى موضع التعليل لما ذكر من الافتداء و التعليل بالإشاره كثير فى الكلام يقال: افعل بفلان كذا و كذا ذاك الذى من صفته كذا و كذا.

و معنى الآيه-و الله أعلم-للذين استجابوا لدعوه ربهم الحقه العاقبه الحسنى و الذين لم يستجيبوا له لهم من عاقبه الامر ما يرضون أن يفتدوا للتخلص منه فوق ما يمكنهم أن يتمنوه لأن الذى يحل بهم من العاقبه السيئه يتضمن أو يقارن سوء الحساب و القرار فى وئس المهاد مهادهم.

و قد وضع فى الآيه الاستجاب و عدم الاستجابه مكان الإيمان و الكفر لمناسبه المثل المضروب فى الآيه السابقه من نزول الماء من السماء و قبول الأوديه منه كل بقدره، و الاستجابه قبول الدعوه.

قوله تعالى: أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا نُزِّلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ استفهام إنكارى و هو فى موضع التعليل لما تضمنه الآيه السابقه، و بيان تفصيلى لعاقبه حال الفريقين من حيث استجابه دعوه الحق و عدمها.

و ملخص البيان: أن الحق يستقر فى قلوب هؤلاء الذين استجابوا لربهم فتصير قلوبهم ألبابا و قلوبا حقيقه لها آثارها و بركاتها و هو التذكر و التبصر، و من خواص هذه القلوب التى يعرف بها صاحبوها أن اولى الألباب يثبتون على الوفاء بعهد الله المأخوذ عنهم بفطرتهم فلا- ينقضون ميثاق ربهم، و يثبتون على احترام ما وصلهم الله به و هى الرحم التى أجرى الله الخلقه من طريقها فيصلونها و هم خاشعون خائفون، و يثبتون بالصبر عند المصائب و عن

المعصية و على الطاعة، و يجرون بالتوجه الى ربهم و هو الصلاه، و إصلاح المجتمع و هو الإنفاق، و درء السيئات بالحسنات.

فهؤلاء لهم عاقبه الدار المحموده و هى الجنه يدخلونها و تنعكس اليهم فيها مثنويات أعمالهم الحسنه المذكوره فيصاحبون فيها الصالحين من آباءهم و أزواجهم و ذرياتهم كما وصلوا الرحم فى الدنيا، و الملائكه يدخلون عليهم من كل باب مسلمين عليهم بما صبروا كما فتحوا أبواب العبادات و الطاعات المختلفه فى الدنيا فهذا هو أثر الحق.

و قوله: «أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنْتُمْ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۖ لَا يَبْصُرُ» الاستفهام فيه للإنكار- كما تقدم- و فيه نفى التساوى بين من استقر فى قلبه العلم بالحق و من جهل الحق و فى توصيف الجاهل بالحق بالأعمى إيماء الى أن العالم به يصير و قد سماه بالأعمى و البصير فى قوله آنفا: «قُلْ هَيْلٌ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَ الْبَصِيرُ» الآية، فالعلم بالحق بصيره و الجهل به عمى و التبصر يفيد التذكر و لذا عده من خواص اولى العلم بقوله: «إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ» .

و قوله: «إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ» فى مقام التعليل لما سبقه أعنى قوله: «أَفَمَنْ يَعْلَمُ» الخ؛ أى إنهما لا يستويان لأن لاولى العلم تذكر ليس لاولى العمى و الجهل، و قد وضع فى موضع اولى العلم اولو الألباب فدل على دعوى أخرى تفيد فائده التعليل كأنه قيل: لا يستويان لأن لأحد الفريقين تذكر ليس للآخر، و إنما اختص التذكر بهم لأن لهم ألبابا و قلوبا و ليس ذلك لغيرهم.

قوله تعالى: «الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ لَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ» ظاهر السياق أن الجملة الثانيه عطف تفسيرى على الجملة الاولى فالمراد بالميثاق الذى لا ينقضونه هو عهد الله الذى يوفون به، و المراد بهذا العهد و الميثاق بقريته ما ذكر فى الآية السابقه من تذكرهم هو ما عاهدوا به ربهم و واثقوه بلسان فطرتهم أن يوحده و يجروا على ما يقتضيه توحيده من الآثار فإن الانسان مفطور على توحيده تعالى و ما يهتف به توحيده، و هذا عهد عاهدته

و أما العهود و الموائيق المأخوذه بوسيله الأنبياء و الرسل على أمر من الله و الأحكام و الشرائع فكل ذلك من فروع الميثاق الفطرى فإن الدين فطرى.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يَصِفُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ السَّخَّ الظاهر أن المراد بالأمر هو الأمر التشريعى النازل بشهاده ذيل الآيه «وَ يَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ» فإن الحساب على الأحكام النازله فى الشريعة ظاهرا و إن كانت مدركه بالفطره كقبح الظلم و حسن العدل فإن المستضعف الذى لم يبلغه الحكم الإلهى و لم يقصر لا يحاسب عليه كما يحاسب غيره، و قد تقدم فى أبحاثنا السابقة أن الحجه لا تتم على الإنسان بمجرد الإدراك الفطرى لو لا انضمام طريق الوحي اليه قال تعالى: لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرُّسُل (النساء / ١٦٥).

و الآيه مطلقه فالمراد به كل صلّه أمر الله سبحانه بها و من أشهر مصاديقه صلّه الرحم التى أمر الله بها و أكد القول فى وجوبها، قال تعالى: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحَامَ (النساء / ١).

و قد أكد القول فيه بما فى ذيل الآيه من قوله: «وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ» فأشار الى أن فى ترك الصلّه مخالفه لأمر الله فليخش الله فى ذلك و عملا سيئا مكتوبا فى صحيفه العمل محفوظا على الإنسان يجب أن يخاف من حسابه السيئ.

و الظاهر أن الفرق بين الخشيه و الخوف أن الخشيه تأثر القلب من إقبال الشر أو ما فى حكمه، و الخوف هو التأثير عملا بمعنى الإقدام على تهيته ما يتقى به المحذور و إن لم يتأثر القلب و لذا قال سبحانه فى صفه أنبيائه: وَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ (الأحزاب / ٣٩). فنفى عنهم الخشيه عن غيره و قد أثبت الخوف لهم عن غيره فى مواضع من كلامه كقوله: فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى (طه / ٦٧) و قوله: وَ إِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً (الأنفال / ٥٨).

و لعله اليه يرجع ما ذكره الراغب في الفرق بينهما أن الخشية خوف يشوبه تعظيم و أكثر ما يكون ذلك عن علم. و لذا خص العلماء بها في قوله: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ و كذا قول بعضهم: إن الخشية أشد الخوف لأنها مأخوذة من قولهم: شجره خشية أى يابسه.

و كذا قول بعضهم: إن الخوف يتعلق بالمكروه و بمنزله يقال: خفت المرض و خفت زيدا بخلاف الخشية فإنها تتعلق بالمنزل دون المكروه نفسه يقال: خشيت الله.

و لو لا رجوعها الى ما قدمناه لكانت ظاهره النقض و ذكر بعضهم أن الفرق أغلبي لا كلي، و الآخرون أن لا فرق بينهما أصلا و هو مردود بما قدمناه من الآيات.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ أَنْفَقُوا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ إطلاق الصبر يدل على اتصافهم بجميع شعبه و أقسامه و هى الصبر عند المصيبة و الصبر على الطاعة و الصبر عن المعصية لكنه مع ذلك مقيد بقوله: «ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ» أى طلبا لوجه ربهم فصفتهم التى يمدحون بها أن يكون صبرهم لوجه الله لأن الكلام فى صفاتهم التى تنشأ و تنمو فيهم من استجابتهم لربهم و علمهم بحقه ما أنزل اليهم من ربهم لا- كل صفة يمدحها الناس فيما بينهم و إن لم ترتبط بعبوديتهم و إيمانهم بربهم كالصبر عند الكريهه تمنعا و عجا بالنفس أو طلبا لجميل الثناء و نحوه كما قيل:

و قولى كلما جشأت و جاشت

مكانك تحمدى أو تستريحي

و المراد بوجه الرب تعالى هو الوجه المنسوبه اليه تعالى من العمل و نحوه و هى الوجهه التى عليها يظهر و يستقر العمل عنده تعالى أعنى المثوبه التى له عنده الباقيه ببقائه و قد قال تعالى:

وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (آل عمران ١٩٥)، و قال: وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ بِمَا قِيَ (النحل / ٩٦)، و قال: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ (القصص / ٨٨).

و قوله: وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ أى جعلوها قائمه غير ساقطه بالإخلال بأجزائها و شرائطها أو بالاستهانه بأمرها، و عطف الصلاه و ما بعدها على الصبر من عطف الخاص على

العام اعتناء بشأنه و تعظيماً لأمره. كما قيل.

وقوله: **وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَ عَلَانِيَةً** المراد به مطلق الإنفاق أعم من الواجب وغيره، والآيه مكيه لم ينزل وجوب الزكاه عند نزولها بعد، و تقييد الإنفاق بقوله:

«**سِرًّا وَ عَلَانِيَةً**» للدلاله على استيفائهم حقه فإن من الإنفاق ما يحسن فيه الإسرار و منه ما يحسن فيه الإعلان فعلى من آمن بما أنزله الله بالحق أن يستوفى من كل حقه فيسر بالإنفاق إذا كان فى إعلانه مظنه الرياء أو السمعه أو إهانته أو إذهاب ماء الوجه، و يعلن فيه فيما كان فى إعلانه تشويق الناس على البر و المعروف و دفع التهمه و نحو ذلك.

وقوله: **وَ يَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ** الدرء الدفع و المعنى إذا صادفوا سيئه جاءوا بحسنه تزيد عليها أو تعادلها فيدفعون بها السيئه، و هذا أعم من أن يكون ذلك فى سيئه صدرت من أنفسهم فدفعوها بحسنه جاءوا بها فإن الحسنات يذهبن السيئات أو دفعوها بتوبه الى ربهم فإن التائب من الذنب كمن لا- ذنب له أو فى سيئه أتى بها غيرهم بالنسبه اليهم كمن ظلمهم فدفعوه بالعفو أو بالإحسان اليه أو من جفاهم فقابلوه بحسن الخلق و البشر كما إذا خاطبهم الجاهلون فقالوا: سلاماً أو أتى بمنكر فنهوا عنه أو ترك معروف فأمروا بها.

فذلك كله من درء السيئه بالحسنه و لا دليل من جانب اللفظ يدل على التخصيص ببعض هذه الوجوه البتة.

وقد اختلف التعبير فى هذه الصفات المذكوره لاولى الألباب «الذين يوفون، و لا- ينقضون، و يصلون، و يخشون، و يخافون، و صبروا، و أقاموا، و أنفقوا، و يدرءون» فأتى فى بعضها- و هى سته- بلفظ المضارع، و فى بعضها- و هى ثلاثه- بلفظ الماضى.

وقد نقل عن بعضهم فى وجه ذلك أن التعبير فى قوله: «**وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ**» الخ؛ بلفظ الماضى و فيما تقدم بلفظ المضارع على سبيل التفنن فى الفصاحه لأن هذه الأفعال وقعت صله للموصول يعنى «**وَ الَّذِينَ**» و الموصول وصلته

فى معنى اسم الشرط مع الجملة الشرطيه، و الماضى و المضارع يستويان معنى فى الجملة الشرطيه نحو إن ضربت ضربت و إن تضرب أضرب فكذا فيما بمعناه.

و لذا قال النحويون: إذا وقع الماضى صله أو صفه لنكره عامه احتمال أن يراد به الماضى و أن يراد به الاستقبال فمن الأول «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ» و من الثانى «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ» .

و فيه أن إلغاء خصوصيه زمان الفعل من الماضى و الاستقبال فى الشرط و ما فى معناه لا يستوجب إلغاء لوازم الأزمنه كالتحقق فى الماضى و الجريان و الاستمرار و نحوهما فى المضارع فإن فى الماضى مثلا عنايه بالتحقق و إن كان ملغى الزمان فصحه السؤال عن نكته اختلاف التعبير فى محله بعد.

و يستفاد من كلام بعض آخر فى وجهه أن المراد بالأوصاف المتقدمه أعنى الوفاء بالعهد و الصله و الخشيه و الخوف الاستصحاب و الاستمرار لكن الصبر لما كان مما يتوقف على تحققه التلبس بتلك الأوصاف اعتنى بشأنه فعبر بلفظ الماضى الدال على التحقق و كذا فى الصلاه و الإنفاق اعتناء بشأنهما.

و فيه أن بعض الصفات السابقه لا يقصر فى الأهميه عن الصبر و الصلاه و الإنفاق كالوفاء بعهد الله الذى أريد به الإيمان بالله بإجابه دعوه الفطره فلو كان الاعتناء بالشأن هو الوجه كان من الواجب أن يعبر عنه بلفظ الماضى كغيره من الصبر و الصلاه و الإنفاق.

و الذى أحسب-و الله أعلم- أن مجموع قوله تعالى: «وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ» مسوق لبيان معنى واحد و هو الإتيان بالعمل الصالح أعنى إتيان الواجبات و ترك المحرمات و تدارك ما يقع فيه من الخلل استثناء بالحسنه فالعمل الصالح هو المقصود بالاصاله و درء السيئه بالحسنه الذى هو تدارك الخلل الواقع فى العمل مقصود بالتبع كالمتمم للنقيصه.

فلو جرى الكلام على السياق السابق و قيل «و الذين يصبرون ابتغاء وجه ربهم و يقامون الصلاه و ينفقون مما رزقناهم سرا و علانيه و يدرءون بالحسنه السيئه» فاتت هذه العنايه و بطل ما ذكر من حديث الأصاله و التبعية لكن قيل «و الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ» فاخذ جميع الصبر المستقر أمرا واحدا مستمرا ليدل على وقوع كل الصبر منهم ثم قيل «و يَدْرُونَ» الخ؛ ليدل على دوام مراقبتهم بالنسبه اليه لتدارك ما وقع فيه من الخلل، و كذا فى الصلاه و الإنفاق فافهمه.

و هذه العنايه بوجه نظيره العنايه فى قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ» الآية؛ حيث يدل على تفرع تنزل الملائكه على تحقق قولهم: «رَبُّنَا اللَّهُ» و استقامتهم دون الاستمرار عليه.

و قوله: «أُولَئِكَ لَهُمْ عُقَبِي الدَّارِ» أى عاقبتها المحموده فإنها هى العاقبه حقيقه لأن الشىء لا ينتهى بحسب ما جبله الله عليه إلا الى عاقبه تناسبه و تكون فيها سعادته، و أما العاقبه المذمومه السيئه ففيها بطلان عاقبه الشىء لخلل واقع فيه، و إنما تسمى عاقبه بنحو من التوسع، و لذلك أطلق فى الآية عقبى الدار و أريدت بها العاقبه المحموده و قوبلت فيما يقابلها من الآيات بقوله: «و لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ»، و من هنا يظهر أن المراد بالدار هذه الدار الدنيا أى حياه الدار فالعاقبه عاقبتها.

قوله تعالى: «جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا و مَنْ صِلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ و أزْوَاجِهِمْ و ذُرِّيَّاتِهِمْ العدن الاستقرار يقال: عدن بمكان كذا إذا استقر فيه و منه المعدن لمستقر الجواهر الأرضيه و جنات عدن أى جنات نوع من الاستقرار فيه خلود و سلام من كل جهه.

و جنات عدن «الخ»؛ بديل أو عطف بيان من قوله: «عُقَبِي الدَّارِ» أى عاقبه هذه الدار المحموده هى جنات العدن و الخلود فليست هذه الحياه الدنيا بحسب ما طبعها الله عليه إلا حياه واحده متصله أولها عناء و بلاء و آخرها رخاء نعيم و سلام، و هذا الوعد هو الذى يحكى وفاءه

تعالى به حكاية عن أهل الجنة بقوله: وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ (الزمر ٧٤).

و الآيه- كما سمعت- تحاذى قوله: «يَصْتَلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ» و بيان لعاقبه هذا الحق الذى أخذوه و عملوا به و بشرى لهم أنهم سيصاحبون الصالحين من أرحامهم و أهليهم من الآباء و الامهات و الذرارى و الاخوان و الاخوات و غيرهم و يشمل الجميع قوله: «أَبَائِهِمْ وَ أَرْوَاجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ» لأن الامهات أزواج الآباء و الاخوان و الاخوات و الاعمام و الاخوال و أولادهم ذريات الآباء، و الآباء من الداخلين فمعهم أزواجهم و ذرياتهم ففى الآيه ايجاز لطيف.

قوله تعالى: وَ الْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ و هذا عقبى أعمالهم الصالحه التى داموا عليها فى كل باب من أبواب الحياه بالصبر على الطاعه و عن المعصيه و عند المصيبه مع الخشيه و الخوف.

و قوله: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» قول الملائكه و قد خاطبوهم بالأمن و السلام الخالد و عقبى محموده لا يعترىها ذم و سوء أبدا.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ بيان حال غير المؤمنين بطريق المقابله و قد قوبل بقوله: «وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ» بقيه ما ذكر فى الآيات السابقه بعد الوفاء بعهد الله و الصلحه، من الأعمال الصالحه و فيه إيماء الى أن الأعمال الصالحه هى التى تضمن صلاح الأرض و عماره الدار على نحو يؤدى الى سعادته النوع الإنسانى و رشد المجتمع البشرى، و قد تقدم بيانه فى دليل النبوه العامه.

و قد بين تعالى جزاء عملهم و عاقبه أمرهم بقوله: «أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» و اللعن الابعاد من الرحمه و الطرد من كل كرامه، و ليس ذلك إلا لانكبابهم على الباطل و رفضهم الحق النازل من الله، و ليس للباطل إلا البوار.

قوله تعالى: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِلَى آخِرِ الآيَةِ؛ بيان أن ما أوتى الفريقان من العاقبة المحموده و الجنه الخالده و من اللعنه و سوء الدار هو من الرزق الذى يرزقه الله من يشاء و كيف يشاء من غير حجر عليه أو إلزام.

و قد بين أن فعله تعالى يستمر على وفق ما جعله من نظام الحق و الباطل فالاعتقاد الحق و العمل به ينتهى الى الارتزاق بالجنه و السلام و الباطل من الاعتقاد و العمل به ينتهى الى اللعنه و سوء الدار و نكد العيش.

و قوله: وَ فَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ يريد به-على ما يفيدته السياق-أن الرزق هو رزق الاخرى لكنهم لميلهم الى ظاهر الحياه الدنيا و زينتها ركنوا إليها و فرحوا بها، و قد أخطئوا فإنها حياه غير مقصوده بنفسها و لا خالده فى بقائها بل مقصوده لغيرها الذى هو الحياه الآخره فهى بالنسبه الى الآخره متاع يتمتع به فى غيره و لغيره غير مطلوب لنفسه فالحياء الدنيا بالقياس الى الحياه الآخره إنما تكون من الحق إذا أخذت مقدمه لها يكتسب بها رزقها و أما إذا أخذت مطلوبه بالاستقلال فليست إلا من الباطل الذى يذهب جفاء و لا ينتفع به فى شىء، قال تعالى: وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَ لَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (العنكبوت ٦٤).

[سوره الرعد (١٣): الآيات ٢٧ الى ٣٥]

اشاره

وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَرَادَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَ حُسْنُ مِآبٍ (٢٩) كَذَلِكَ أَرَسْنَا لَكَ فِي أُمَّه قَدْ خَلتْ مِنْ قَبْلِهِ أُمَّمٌ لَتَنَلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتَابٍ (٣٠) وَ لَوْ أَنْ قُرْآنًا سُرِّيَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى بَيِّنٌ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَلَمْ يَنبَأِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَ لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصَِّبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) وَ لَقَدْ أَسْرَيْتُهُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَلَمْ يَنْهَوْا عَلَى كُفْرِهِمْ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِيْظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَ صُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَ مَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَ ظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ عُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥)

قوله تعالى: وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ عود الى قول الكفار «لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ» وإنما ارادوا به أنه لو أنزل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ آية من ربه لاهتدوا به واستجابوا له وهم لا يعدون القرآن النازل اليه آية.

و الدليل على إرادتهم هذا المعنى قوله بعده: «قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ» الخ؛ وقوله بعد:

«وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ -الى قوله- بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا» وقوله بعد: «وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ» الى آخر الآيه.

فأجاب تعالى عن قولهم بقوله آمر نبيه أن يلقيه اليهم: «قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ» فأفاد أن الأمر ليس الى الآيه حتى يهتدوا بنزولها و يضلوا بعدم نزولها بل أمر الإضلال و الهدايه الى الله سبحانه يضل من يشاء و يهدى من يشاء.

و لما لم يؤمن أن يتوهموا منه أن الأمر يدور مدار مشيه جزافيه غير منتظمه أشار الى دفعه بتبديل قولنا: و يهدى اليه من يشاء من قوله: «وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ» فبين أن الأمر الى مشيه الله تعالى جاريه على سنه دائمه و نظام متقن مستمر و ذلك أنه تعالى يشاء هدايه من أناب و رجع اليه و يضل من أعرض و لم ينب فمن تلبس بصفه الإنابه و الرجوع الى الحق و لم يتقيد بأغلال الأهواء هداه الله بهذه الدعوه الحقه و من كان دون ذلك ضل عن الطريق و إن كان مستقيما و لم تنفعه الآيات و إن كانت معجزه و ما تغن الآيات و النذر عن قوم لا يؤمنون.

و من هنا يظهر أن قوله: «إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ» الخ؛ على تقدير: إن الله يضل بمشيته من لم ينب اليه و يهدى اليه بمشيته من أناب اليه.

و يظهر أيضا أن ضمير «إِلَيْهِ» فى «يَهْدِي إِلَيْهِ» راجع اليه تعالى و أن ما ذكره بعضهم أنه

راجع الى القرآن. و آخرون أنه راجع الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ غير وجيه.

قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ الاطمئنان السكون و الاستقرار و الاطمئنان الى الشئ السكون اليه.

و ظاهر السياق أن صدر الآيه بيان لقوله في ذيل الآيه السابقه: «مَنْ أَنَابَ» فالإيمان و اطمئنان القلب بذكر الله هو الإنابه، و ذلك من العبد تهيو و استعداد يستعقب عطيه الهدايه الإلهيه كما أن الفسق و الزيغ فى باب الضلال تهيو و استعداد يستعقب الإضلال من الله كما قال:

وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦)؛ و قال: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (الصف ٥).

و ليس الإيمان بالله تعالى مثلا- مجرد إدراك أنه حق فإن مجرد الإدراك ربما يجمع الاستكبار و الجحود كما قال تعالى: وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ (النمل ١٤) مع أن الإيمان لا- يجمع الجحود فليس الإيمان بشئ مجرد إدراك أنه حق مثلا بل مطاوعه و قبول خاصه من النفس بالنسبه الى ما أدركته يوجب تسليمها له و لما يقتضيه من الآثار و آيته مطاوعه سائر القوى و الجوارح و قبولها له كما طاوعته النفس و قبلته فترى المعتاد ببعض الأعمال المذمومه ربما يدرك وجه القبح أو المساءه فيه غير أنه لا يكف عنه لأن نفسه لا تؤمن به و لا تستسلم له و ربما طاوعته و سلمت له بعد ما أدركته و كفت عنه عند ذلك بلا مهل و هو الإيمان.

و هذا هو الذى يظهر من قوله تعالى: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ (الأنعام ١٢٥) فالهدايه من الله سبحانه تستدعى من قلب العبد أو صدره و بالآخره من نفسه أمرا نسبه اليه نسبه القبول و المطاوعه الى الأمر المقبول المطاوع، و قد عبر عنه فى آيه الأنعام بشرح الصدر و توسعته، و فى الآيه المبحوث عنها بالإيمان و اطمئنان القلب و هو أن يرى الإنسان نفسه فى أمن من قبوله و مطاوعته و يسكن قلبه اليه و يستقر هو فى قلبه من غير أن يضطرب منه أو

ينقلع عنه.

و من ذلك يظهر أن قوله: «وَ تَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ» عطف تفسيري على قوله: «آمَنُوا» فالإيمان بالله يلازم اطمئنان القلب بذكر الله تعالى.

ولا ينافي ذلك ما في قوله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ (الأنفال/٢) فإن الوجل المذكور فيه حاله قلبيه متقدمه على الاطمئنان المذكور في الآية المبحوث عنها كما يرشد اليه قوله تعالى: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ (الزمر/٢٣) وذلك أن النعمة هي النازلة من عنده سبحانه و أما النقمة أيا ما كانت فهي بالحقيقه امساك منه عن إفاضه النعمه و إنزال الرحمه و ليست فعلا- ثبوتيا صادرا منه تعالى على ما يفيدده قوله: مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَ مَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ (فاطر/٢).

و إذا كان الخوف و الخشيه انما هو من شر متوقع و لا شر عنده سبحانه فحقيقه الخوف من الله هي خوف الإنسان من أعماله السيئه التي توجب إمساك الرحمه و انقطاع الخير المفاض من عنده، و النفس الإنسانيه إذا قرعت بذكر الله سبحانه التفتت أولا الى ما أحاطت به من سمات القصور و التقصير فأخذتها القشعيريه في الجلد و الوجل في القلب ثم التفتت ثانيا الى ربه الذي هو غايه طلبه فطرته فسكنت اليه و اطمأنت بذكره.

و قال في مجمع البيان: وقد وصف الله المؤمن هاهنا بأنه يطمئن قلبه الى ذكر الله، و وصفه في موضع آخر بأنه إذا ذكر الله وجل قلبه لأن المراد بالأول أنه يذكر ثوابه و إنعامه و آلاءه التي لا تحصى و أياديه التي لا تجازى فيسكن اليه، و بالثاني أنه يذكر عقابه و انتقامه فيخافه و يوجل قلبه. انتهى، و هذا الوجه أوفق بتفسير من فسر الذكر في الآية بالقرآن الكريم و قد سماه الله تعالى ذكرا في مواضع كثيره من كلامه كقوله: وَ هَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ (الأنبياء/٥٠) و قوله:

ص: ٣٩٤

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ (الحجر ٩) وغير ذلك.

لكن الظاهر أن يكون المراد بالذكر أعم من الذكر اللفظي و أعنى به مطلق انتقال الذهن و الخطور بالبال سواء كان بمشاهده آيه أو العثور على حجه أو استماع كلمه، و من الشاهد عليه قوله بعده: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» فإنه كضرب القاعده يشمل كل ذكر سواء كان لفظيا أو غيره، و سواء كان قرآنا أو غيره.

و قوله: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» فيه تنبيه للناس أن يتوجهوا اليه و يريحوا قلوبهم بذكره فإنه لا هم للإنسان في حياته إلا الفوز بالسعاده و النعمه و لا خوف له إلا من أن تغتاله الشقوقه و النقمه و الله سبحانه هو السبب الوحيد الذى بيده زمام الخير و اليه يرجع الأمر كله، و هو القاهر فوق عباده و الفعال لما يريد و هو ولى عباده المؤمنين به اللاجئين اليه فذكره للنفس الأسيره بيد الحوادث الطالبه لركن شديد يضمن له السعاده، المتحيره فى أمرها و هى لا تعلم أين تريد و لا أنى يراد بها؟ كوصف الترياق للسليم تنبسط به روحه و تستريح منه نفسه، و الركون اليه و الاعتماد عليه و الاتصال به كتناول ذاك السليم لذلك الترياق و هو يجد من نفسه نشاط الصحه و العافيه آنا بعد آن.

فكل قلب-على ما يفيدته الجمع المحلى باللام من العموم-يطمئن بذكر الله و يسكن به ما فيه من القلق و الاضطراب نعم إنما ذلك فى القلب الذى يستحق أن يسمى قلبا و هو القلب الباقى على بصيرته و رشده، و أما المنحرف عن أصله الذى لا يبصر و لا يفقه فهو مصروف عن الذكر محروم عن الطمأنينه و السكون قال تعالى: «فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِن تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (الحج ٤٦)، و قال: لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا (الأعراف ١٧٩) و قال نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ (التوبه ٦٧).

و فى لفظ الآيه ما يدل على الحصر حيث قدم متعلق الفعل أعنى قوله: «بِذِكْرِ اللَّهِ» عليه فيفيد أن القلوب لا تطمئن بشيء غير ذكر الله سبحانه، و ما قدمناه من الإيضاح ينور هذا

الحصر إذ لا هم لقلب الإنسان و هو نفسه المدركه إلا نيل سعادته و الأمن من شقائه و هو فى ذلك متعلق بذيّل الأسباب، و ما من سبب إلا- و هو غالب فى جهه و مغلوب من اخرى إلا الله سبحانه فهو الغالب غير المغلوب الغنى ذو الرحمه فبذكره أى به سبحانه وحده تطمئن القلوب و لا يطمئن القلب الى شىء غيره إلا غفله عن حقيقه حاله و لو ذكر بها أخذته الرعده و القلق.

و مما قيل فى الآيه الكريمه أعنى قوله: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ» الخ؛ أنها استئناف، و قوله: «الَّذِينَ آمَنُوا» مبتدأ خبره قوله فى الآيه التاليه: «طُوبَى لَهُمْ وَ حُسْنُ مَأْبٍ» و قوله: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» بدل من المبتدأ و قوله: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» اعتراض بين المبتدأ و خبره، و هو تكلف بعيد من السياق.

قوله تعالى: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَ حُسْنُ مَأْبٍ طُوبَى عَلَى وَزْنِ فَعْلَى بضم الفاء مؤنث أطيّب فهى صفه لمحدوف و هو-على ما يستفاد من السياق- الحياه أو المعيشه و ذلك أن النعمه كائنه ما كانت إنما تغتبط و تهناً إذا طابت للإنسان و لا تطيب إلا إذا اطمان القلب اليه و سكن و لم يضطرب و لا يوجد ذلك إلا لمن آمن بالله و عمل عملاً صالحاً فهو الذى يطمئن منه القلب و يطيب له العيش فإنه فى أمن من الشر و الخسران و سلام مما يستقبله و يدركه و قد أوى الى ركن لا ينهدم و استقر فى ولايه الله لا يوجه اليه ربه إلا ما فيه سعادته إن اعطى شيئاً فهو خير له و إن منع فهو خير له.

و قد قال فى وصف طيب هذه الحياه: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (النحل ٩٧) و قال فى صفه من لم يرزق اطمئنان القلب بذكر الله: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (طه ١٢٤)، و لعل وصف الحياه أو المعيشه فى الآيه التى نحن فيها بزياده الطيب تلميحا الى أنها نعمه لا تخلو من طيب على أى حال إلا أنها فيمن اطمان قلبه

بذكر الله أكثر طيبا لخلوصها من شوائب المنغصات.

فقوله: طُوبَى لَهُمْ فِي تَقْدِيرِ لِهَمِ حَيَاهِ أَوْ مَعِيشَةِ طُوبَى، فطوبى مبتدأ و «لَهُمْ» خبره و إنما قدم المبتدأ المنكر على الظرف لأن الكلام واقع موقع التهنة و في مثله يقدم ما به التهنة استعجالا بذكر ما يسر السامع ذكره نظير قولهم في البشارة: بشرى لك.

و بالجمله في الآيه تهنة الذين آمنوا و عملوا الصالحات- و هم الذين آمنوا و تطمئن قلوبهم بذكر الله اطمئنانا مستمرا- بأطيب الحياه أو العيش و حسن المرجع، و بذلك يظهر اتصالها بما قبلها فإن طيب العيش من آثار اطمئنان القلب كما تقدم.

قوله تعالى: كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّهٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ متاب مصدر ميمي للتوبه و هي الرجوع، و الإشارة بقوله: «كَذَلِكَ» الى ما ذكره تعالى من سنته الجارية من دعوه الامم الى دين التوحيد ثم إضلال من يشاء و هدايه من يشاء على وفق نظام الرجوع الى الله و الإيمان به و سكون القلب بذكره و عدم الرجوع اليه.

و المعنى: و أرسلناك في امه قد خلت من قبلها امم إرسالا يماثل هذه السنه الجارية و يجرى في أمره على وفق هذا النظام لتتلو عليهم الذي أوحينا اليك و تبلغهم ما يتضمنه هذا الكتاب و هم يكفرون، بالرحمن و إنما قيل: بالرحمن، دون أن يقال «بنا» على ما يقتضيه ظاهر السياق إيماء الى أنهم في ردهم هذا الوحي الذي يتلوه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ عليهم و هو القرآن و عدم اعتنائهم بأمره حيث يقولون مع نزوله «لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ» يكفرون برحمه إلهيه عامه تضمن لهم سعادته دنياهم و أخراهم لو أخذوه و عملوا به.

ثم أمر تعالى: أن يصرح لهم القول في التوحيد فقال «قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتَابٌ» أي هو وحده ربي من غير شريك كما تقولون و لربوبيته لي وحده أتخذه القائم على جميع أمورى و بها، و أرجع اليه في حوائجى و بذلك يظهر أن قوله: «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتَابٌ» من آثار الربوبيه المتفرعه عليها فإن الرب هو المالك المدبر فمحصل المعنى هو و كيلي

و اليه أرجع.

قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا» المراد بتسيير الجبال قلعها من اصولها وإذابها من مكان الى مكان و بتقطيع الأرض شقها و جعلها قطعة قطعة، و بتكليم الموتى إحيائهم لاستخبارهم عما جرى عليهم بعد الموت ليستدل اعلى حقيه الدار الآخرة فإن هذا هو الذى كانوا يقترحونه.

فهذه امور عظيمه خارقه للعادة فرضت آثارا لقرآن فرضه الله سبحانه بقوله: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا» و الآيات- كما عرفت- مسوقه لبيان أن أمر الهدايه ليس براجع الى الآيه التى يقترحونها بقوله: «لَوْ لَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ آيَةٌ» بل الأمر الى الله يضل من يشاء كما أضلهم و يهدى اليه من أناب.

و على هذا يجرى سياق الآيات كقوله تعالى بعد: «بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصَيْدُوا عَنِ السَّبِيلِ وَ مَن يُضِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ» و قوله: «وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا حُكْمًا عَرَبِيًّا وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ لَآتِيَنَّ بِآيَةٍ إِلَّا يَأْذِنَ اللَّهُ الْآيَةَ» الى غير ذلك، و على مثله جرى سياق الآيات السابقه.

فجزاء لو المحذوف هو نحو من قولنا: ما كان لهم أن يهتدوا به إلا أن يشاء الله و المعنى و لو فرض أن قرآنا من شأنه أنه تسيير به الجبال أو تقطع به الأرض أو يحيا به الموتى فتكلم ما كان لهم أن يهتدوا به إلا أن يشاء الله بل الأمر كله لله ليس شىء منه لغيره حتى يتوهم متوهم أنه لو أنزلت آيه عظيمه هائله مدهشه أمكنها أن تهديهم لا بل الأمر لله جميعا و الهدايه راجعه الى مشيته.

قوله تعالى: «أَفَلَمْ يَنبَأِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ

جَمِيعاً تفرّيع على سابقه.

ذكر بعضهم أن اليأس بمعنى العلم و هي لغة هوازن و قيل لغة حى من النخع و أنشدوا على ذلك قول سحيم بن وثيل الرباحى:

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونى

ألم تياسوا أنى ابن فارس زهدم

و قول رباح بن عدى:

ألم يياس الأقوم أنى أنا ابنه

و إن كنت عن أرض العشيره نائيا

و محصل التفرّيع على هذا أنه إذا كانت الأسباب لا تملك من هدايتهم شيئا حتى قرآن سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى، و أن الامر لله جميعا فمن الواجب أن يعلم الذين آمنوا أن الله لم يشأ هدايه الذين كفروا و لو يشاء الله لهدى الناس جميعا الذين آمنوا و الذين كفروا لكنه لم يهد الذين كفروا فلم يهتدوا و لن يهتدوا.

و ذكر بعضهم أن اليأس بمعناه المعروف و هو القنوط غير أن قوله: «أَفَلَمْ يَيَّأْسِ» مضمن معنى العلم و المراد بيان لزوم علمهم بأن الله لم يشأ هدايتهم و لو شاء ذلك لهدى الناس جميعا و لزوم قنوطهم عن اهتدائهم و إيمانهم.

فتقدير الكلام بحسب الحقيقة: أفلم يعلم الذين آمنوا أن الله لم يشأ هدايتهم و لو يشاء لهدى الناس جميعا أو لم يياسوا من اهتدائهم و ايمانهم؟ ثم ضمن اليأس معنى العلم و نسب اليه من متعلق العلم الجملة الشرطيه فقط أعنى قوله: «لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً» إيجازا و إثارا للاختصار.

و ذكر بعضهم: أن قوله: «أَفَلَمْ يَيَّأْسِ» على ظاهر معناه من غير تضمين و قوله: «أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ» الخ؛ متعلق بقوله: «آمَنُوا» بتقدير الباء و متعلق «يَيَّأْسِ» محذوف و تقدير الكلام أ فلم يياس الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا من إيمانهم و ذلك أن الذين آمنوا يرون أن الأمر لله جميعا و يؤمنون بأنه تعالى لو يشاء لهدى الناس جميعا و لو لم يشاء لم يهد فإذ لم

يهد و لم يؤمنوا فليعلموا أنه لم يشأ و ليس في مقدره سبب من الأسباب أن يهديهم و يوفقهم للإيمان فليأسوا من إيمانهم.

و هذه وجوه ثلاثه لعل أعد لها أوسطها و الآيه على أى حال لا تخلو من إشاره الى أن المؤمنين كانوا يودون أن يؤمن الكفار و لعلمهم لمودتهم ذلك لما سمعوا قول الكفار «لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ» طمعوا فى إيمانهم و رجوا منهم الاهتداء إن أنزل الله عليهم آيه أخرى غير القرآن فسألوا النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يجيبهم على ذلك فأبأسهم الله من إيمانهم فى هذه الآيات، و فى آيات أخرى من كلامه مكيه و مدنيه كقوله فى سوره يس و هى مكيه: وَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (آيه ١٠)، و قوله فى سوره البقره و هى مدنيه: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (آيه ٦).

قوله تعالى: وَ لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصَيِّبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَهُ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ سياق الآيات يشهد أن المراد بقوله: «بِمَا صَنَعُوا» كفرهم بالرحمن قبال الدعوه الحقه، و القارعه هى المصيبة تفرع الإنسان قرعا كأنها تؤذنه بأشد من نفسها و فى الآيه تهديد و وعيد قطعى للذين كفروا بعذاب غير مردود و ذكر علائم و أشرط له تفرعهم مره بعد مره حتى يأتهم العذاب الموعود.

و المعنى: و لا يزال هؤلاء الذين كفروا بدعوتك الحقه تصيبهم بما صنعوا من الكفر بالرحمن مصيبه قارعه أو تحل تلك المصيبه القارعه قريبا من دارهم فلا يزالون كذلك حتى يأتى ما وعدهم الله من العذاب لأن الله لا يخلف ميعاده و لا يبدل قوله.

و التأمل فى كون السوره مكيه على ما يشهد به مضامين آياتها ثم فى الحوادث الواقعه بعد البعته و قبل الهجره و بعدها الى فتح مكه يعطى أن المراد بالذين كفروا هم كفار العرب من أهل مكه و غيرهم الذين ردوا أول الدعوه و بالغوا فى الجحود و العناد و الحوا على الفتنه

و المراد بالذين تصيبهم القارعه من كان فى خارج الحرم منهم تصيبهم قوارع الحروب و شن الغارات، و بالذين تحل القارعه قريبا من دارهم أهل الحرم من قريش تقع حوادث سوء قريبا من دارهم فتصيبهم معرفتها و تنالهم وحشتها و همها و سائر آثارها السيئه، و المراد بما وعدهم عذاب السيف الذى أخذهم فى غزوه بدر و غيرها.

و اعلم أن هذا العذاب الموعود للذين كفروا فى هذه الآيات غير العذاب الموعود المتقدم فى سورة يونس فى قوله تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ -الى قوله ثانيا- وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (يونس ٤٧-٥٤) فإن الذى فى سورة يونس وعيد عام للامه، و الذى فى هذه الآيات وعيد خاص بالذين كفروا فى أول الدعوه النبويه من قريش و غيرهم، و قد تقدم فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (البقره ٦) فى الجزء الأول من الكتاب أن المراد بقوله:

«الَّذِينَ كَفَرُوا» فى القرآن إذا أطلق إطلاقا المعاندون من مشركى العرب فى أول الدعوه كما أن المراد بالذين آمنوا إذا أطلق كذلك السابقون الى الإيمان فى أول الدعوه.

قوله تعالى: أَلَمْ يَأْتِكُمْ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْقَائِمِ عَلَىٰ شَيْءٍ هُوَ الْمَهِيْمُ الْمَتَسَلِّطُ عَلَيْهِ وَ الْقَائِمُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَمْرِ هُوَ الَّذِى يَدْبِرُهُ نَوْعًا مِنَ التَّدْبِيرِ وَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ هُوَ الْقَائِمُ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ أَمَا قِيَامُهُ عَلَيْهَا فَلأنه محيط بذاتها قاهر عليها شاهد لها، و أما قِيَامُهُ بِمَا كَسَبَتْ فَلأنه يدبر أمر أعمالها فيحولها من مرتبه الحركه و السكون الى أعمال محفوظه عليها فى صحائف الأعمال ثم يحولها الى المثوبات و العقوبات فى الدنيا و الآخره من قرب و بعد و هدى و ضلال و نعمه و نقمه و جنه و نار.

و الآيه متفرعه على ما تقدمها أى إذا كان الله سبحانه يهدى من يشاء فيجازيه بأحسن الثواب و يضل من يشاء فيجازيه بأشد العقاب و له الأمر جميعا فهو قائم على كل نفس بما

كسبت و مهيمن مدبر لنظام الأعمال فهل يعدله غيره حتى يشاركه في ألوهيته؟.

و من ذلك يظهر أن الخبر في قوله: «أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ» الخ؛ محذوف يدل عليه قوله: «وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ» و من سخييف القول ما نسب الى الضحاك أن المراد بقوله: «أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ» الملائكة لكونهم موكلين على الاعمال و المعنى أفيكون الملائكة الموكلون على الأعمال بأمره شركاء له سبحانه؟ و هو معنى بعيد من السياق غايته.

قوله تعالى: قُلْ سَيُّمُوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ لَمَّا ذَكَرَ سَبْحَانَهُ قَوْلَهُ: «وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ» عاد اليهم بيان يبطل به قولهم ذلك مأخوذ من البيان السابق بوجه.

فأمر نبيه بأن يحاجهم بنوع من الحجاج عجيب في بابه فقال «قُلْ سَيُّمُوهُمْ» أى صفوهم فإن صفات الأشياء هي التي تتعين بها شئونها و آثارها فلو كانت هذه الأصنام شركاء لله شفعاء عنده و جب أن يكون لها من الصفات ما يسوى لها الطريق لهذا الشأن كما يقال فيه تعالى إنه حي عليم قدير خالق مالك مدبر فهو رب كل شىء لكن الأصنام إذا ذكرت فقيل: هبل أو اللات أو العزى لم يوجد لها من الصفات ما يظهر به أنها شريكه لله شفيعه عنده.

ثم قال أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ و أم منقطعه أى بل أ تنبئونه بكذا و المعنى أن اتخاذكم الأصنام شركاء له إنباء له فى الحقيقة بما لا يعلم فلو كان له شريك فى الأرض لعلم به لأن الشريك فى التدبر يمتنع أن يخفى تأثيره فى التدبير على شريكه و الله سبحانه يدبر الأمر كله و لا يرى لغيره أثرا فى ذلك لا موافقا و لا مخالفا، و الدليل على أنه لا يرى لنفسه شريكا فى الأمر أنه تعالى هو القائم على كل نفس بما كسبت، و بعبارة أخرى أن له الخلق و الأمر و هو على كل شىء شهيد بالبرهان الذى لا سبيل للشك اليه، و الآيه بالجملة كقوله فى موضع آخر: قُلْ أُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ (يونس ١٨).

ثم قال أم بظاهر من القول أي بل أ تنبؤونه بأن له شركاء بظاهر من القول من غير حقيقه و هذا كقوله: **إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ (النجم ٢٣)**.

و عن بعضهم أن المراد بظاهر من القول ظاهر كتاب نازل من الله تسمى فيه الأصنام آلهه حقه و حاصل الآيه نفى الدليل العقلى و السمعى معا على الوهيتها و كونها شركاء لله سبحانه و هو بعيد من اللفظ.

و وجه الارتباط بين هذه الحجج الثلاث أنهم فى عبادتهم الأصنام و جعلهم لله شركاء مترددون بين محاذير ثلاثه إما أن يقولوا بشركتها من غير حجه إذ ليس لها من الاوصاف ما يعلم به أنها شركاء لله، و إما أن يدعوا أن لها أوصافا كذلك هم يعلمونها و لا- يعلم بها الله سبحانه، و إما أن يكونوا متظاهرين بالقول بشركتها من غير حقيقه و هم يغرون الله بذلك تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

قال الزمخشري فى الكشف: و هذا الاحتجاج و أساليبه العجيبه التى ورد عليها مناد على نفسه بلسان تطلق ذلك أنه ليس من كلام البشر لمن عرف و أنصف على نفسه انتهى كلامه.

قوله تعالى: **بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَ صِيُدُوا عَنِ السَّبِيلِ وَ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ إِضْرَابٍ** عن الحجج المذكوره و لوازمها و المعنى دع هذه الحجج فإنهم لا يجعلون له شركاء لشيء من هذه الوجوه بل مكر زينه لهم الشيطان و صدهم بذلك عن سبيل الله تعالى و ذلك أنهم على علم بأنه لا حجه على شركتها و أن مجرد الدعوى لا ينفعهم لكنهم يريدون بترويح القول بالوهيتها و توجيه قلوب العامه إليها عرض الدنيا و زينتها، و دعوتك الى سبيل الله مانعه دون ذلك فهم فى تصلبهم فى عبادتها و دعوه الناس إليها و الحث على الأخذ بها يمكرون بك من وجه و بالناس من وجه آخر و قد زين لهم هذا المكر و هو السبب فى جعلهم إياها شركاء لا غير ذلك من حجه أو غيرها و صدوا بذلك عن السبيل.

فهم زين لهم المكر و صدوا به عن السبيل و الذى زين لهم و صدهم هو الشيطان ياغواثهم، و اضلوا و الذى اضلهم هو الله سبحانه يامساك نعمه الهدى منهم و من يضل الله فما له من هاد.

قوله تعالى: لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ أَشَقُّ أَفَعَلِ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَ وَاقِ اسْمِ فَاعِلٍ مِنَ الْوَقَايَةِ بِمَعْنَى الْحِفْظِ.

و فى الآيه إيجاز القول فيما وعد الله الذين كفروا من العذاب فى الآيات السابقيه، و فى قوله:

«وَ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ» نفى الشفاعة و تأثيرها فى حقهم أصلا، و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَ ظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ عُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ المثل هو الوصف يمثل الشئ.

و فى قوله: «مَثَلُ الْجَنَّةِ» الخ؛ بيان ما خص الله به المتقين من الوعد الجميل مقابله لما أوعدهم به الذين كفروا و ليكون تمهيدا لما يختم به القول من الإشارة الى محصل سعى الفريقين فى مسيرهم الى ربهم و رجوعهم اليه، و قد قابل الذين كفروا بالمتقين إشاره الى أن الذين ينالون هذه العاقبه الحسنى هم الذين آمنوا و عملوا الصالحات دون المؤمنين من غير عمل صالح فإنهم مؤمنون بالله كافرون بآياته (١).

[سوره الرعد (١٣): الآيات ٣٦ الى ٤٢]

إشارة

وَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَ مِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ لَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَ إِلَيْهِ مَأْبٍ (٣٦) وَ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا حُكْمًا عَرَبِيًّا وَ لَسِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا وَاقٍ (٣٧) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَ ذُرِّيَّةً وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ (٣٨) يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ يُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) وَ إِنْ مِمَّنْ نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعَدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّهُمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَمْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُضُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَ اللَّهُ يَخُكِّمُ لِمَنْ يَشَاءُ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَ سَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢)

ص: ٤٠٤

(١ - ١). الرعد ٢٧-٣٥: بحث روائى فى اطمئنان القلوب بذكر الله، شجره طوبى؛ ان طوبى شجره اصلها فى دار على عليه السلام فى الجنة.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الظاهر أن المراد بالذين أوتوا الكتاب اليهود و النصارى أو هم و المجوس فإن هذا هو المعهود من إطلاقات القرآن و السوره مكيه و قد أثبت التاريخ أن اليهود ما كانوا يعاندون النبوه العربيه فى أوائل البعثه و قبلها ذاك العناد الذى ساقتهم اليه حوادث ما بعد الهجره و قد دخل جمع منهم فى الإسلام أوائل الهجره و شهدوا على نبوه النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و كونه مبشرا به فى كتبهم كما قال تعالى: وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ (الأحقاف ١٠).

و أنه كان من النصارى يومئذ قوم على الحق من غير أن يعاندوا دعوه الإسلام كقوم من نصارى الحبشه على ما نقل من قصه هجره الحبشه و جمع من غيرهم، و قد قال تعالى فى أمثالهم: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (القصص ٥٢) و قال: وَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٍ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَْعِيدُونَ (الأعراف ١٥٩) و كذا كانت المجوس ينتظرون الفرج بظهور منج ينشر الحق و العدل و كانوا لا يعاندون الحق كما يعانده المشركون.

فالظاهر أن يكونوا هم المعتبون بالآيه و خاصه المحقون من النصارى و هم القائلون بكون المسيح بشرا رسولا كالنجاشى و أصحابه، و يؤيده ما فى ذيل الآيه من قوله: «قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ لَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا» فإنه أنسب أن يخاطب به النصارى.

و قوله: وَ مِنَ الْمُخْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ اللَّامِ لِلْعَهْدِ أَى و من أحزاب أهل الكتاب من ينكر بعض ما أنزل اليك و هو ما دل منه على التوحيد و نفى التثليث و سائر ما يخالف ما عند أهل الكتاب من المعارف و الأحكام المحرفه.

و قوله: قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ لَا أُشْرِكَ بِهِ دليل على أن المراد من البعض الذى ينكرونه ما يرجع الى التوحيد فى العباده أو الطاعه و قد أمره الله أن يخاطبهم بالموافقه عليه بقوله: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ (آل عمران ٦٤).

ثم تم الكلام بقوله: إِلَيْهِ أَدْعُوا وَ إِلَيْهِ مَأْبِ أَى مرجعى فكان أول الكلام مفصحا عن بغيته فى نفسه و لغيره، و آخره عن سيرته أى أمرت لأعبد الله وحده فى عملى و دعوتى، و على ذلك أسير بين الناس فلا أدعو إلا اليه و لا أرجع فى أمر من امورى إلا اليه فذيل الآيه فى معنى قوله: قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَىٰ اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنْ اتَّبَعَنِي وَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (يوسف ١٠٨).

و يمكن أن يكون المراد بقوله: «وَ إِلَيْهِ مَأْبِ» المعاد و يفيد حينئذ فائده التعليل أى اليه أدعو

وحده لأن ما بى اليه وحده.

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ الإِشَارَةُ بقوله: «كَذَلِكَ» الى الكتاب المذكور فى الآيه السابقه و هو جنس الكتاب النازل على الأنبياء الماضين كالتوراه و الإنجيل.

و المراد بالحكم هو القضاء و العزيمه فإن ذلك هو شأن الكتاب النازل من السماء المشتمل على الشريعه كما قال: وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ (البقره ٢١٢/٢١٢) فالكتاب حكم إلهى بوجه و حاكم بين الناس بوجه فهذا هو المراد بالحكم دون الحكمه كما قيل.

و قوله: عَرَبِيًّا صفه لحكم و اشاره الى كون الكتاب بلسان عربى و هو لسانه صلى الله عليه و آله و سلم سنه الله التى قد خلت فى عباده، قال تعالى: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ (إبراهيم ٤/٤) و هذا- كما لا يخفى- من الشاهد على أن المراد بالمدكورين فى الآيه السابقه اليهود و النصارى، و أن هذه الآيات متعرضه لشأنهم كما كانت الآيات السابقه عليها متعرضه لشأن المشركين.

و على هذا فالمراد بقوله: «وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ» السخ؛ النهى عن اتباع أهواء أهل الكتاب، و قد ذكر فى القرآن من ذلك شىء كثير، و عمده ذلك أنهم كانوا يقترحون على النبى صلى الله عليه و آله و سلم آيه غير القرآن كما كان المشركون يقترحونها، و كانوا يطمعون أن يتبعهم فيما عندهم من الأحكام لإحالتهم النسخ فى الأحكام، و هذان الأمران و لا سيما أولهما عمده ما تتعرض له هذه الآيات.

و المعنى: و كما أنزلنا على الذين أتوا الكتاب كتابهم أنزلنا هذا القرآن عليك بلسانك مشتملا على حكم أو حاكما بين الناس و لئن اتبعت أهواء أهل الكتاب فتمنيت أن ينزل عليك

آيه غير القرآن كما يقترحون أو داهنتهم وملت الى اتباع بعض ما عندهم من الأحكام المنسوخه أو المحرفه أخذناك بالعقوبه و ليس لك ولى يلى أمرك من دون الله و لا واق يقيك منه فالخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و هو المراد به دون الامه كما ذكره بعضهم.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَ ذُرِّيَّةً وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ** لما نهى النبي صلى الله عليه و آله و سلم عن اتباع أهوائهم فيما اقترحوا عليه من إنزال آيه غير القرآن ذكره بحقيقه الحال التى تؤيسه من الطمع فى ذلك و يعزم عليه أن يتوكل على الله و يرجع اليه الامور.

و هو أن سنه الله الجاربه فى الرسل أن يكونوا بشرا جارين على السنه المألوفه بين الناس من غير أن يتعدوها فيملكوا شيئا مما يختص بالغيب كأن يكونوا ذا قوه غيبه فعاله لما تشاء قديره على كل ما أرادت أو أريد منها حتى تأتي بكل آيه شاءت إلا أن يأذن الله له فليس للرسول و هو بشر كسائرهم من الأمر شىء بل لله الأمر جميعا.

فهو الذى ينزل الآيه إن شاء غير أنه سبحانه إنما من الآيات إذا اقتضته الحكمة الإلهيه و ليست الأوقات مشتركه متساويه فى الحكم و المصالح و إلا لبطلت الحكمة و اختل نظام الخلقه بل لكل وقت حكمه تناسبه و حكم يناسبه فلكل وقت آيه تخصه.

و هذا هو الذى تشير اليه الآيه فقوله: **«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا وَ جَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَ ذُرِّيَّةً»** إشاره الى السنه الجاربه فى الرسل من البشر العاديه، و قوله: **«وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ»** إشاره الى حرمانهم من القدره الغيبه المستقله بكل ما أرادت إلا أن يمدهم الإذن الإلهي.

و قوله: **لِكُلِّ أَجَلٍ** أى وقت محدود **«كِتَابٌ»** أى حكم مقضى مكتوب يخصه إشاره الى ما يلوح اليه استثناء الإذن و سنه الله الجاربه فيه، و التقدير فالله سبحانه هو الذى ينزل ما شاء و يأذن فيما شاء لكنه لا ينزل و لا يأذن فى كل آيه فى كل وقت فإن لكل وقت كتابا كتبه لا

يجرى فيه إلا ما فيه.

و مما تقدم يظهر ان ما ذكره بعضهم ان قوله: «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ» من باب القلب و أصله:

لكل كتاب أجل أى إن لكل كتاب منزل من عند الله وقتا مخصوصا ينزل فيه و يعمل عليه فالتوراه وقت و للإنجيل وقت و للقرآن وقت.وجه لا يعبأ به.

قوله تعالى: يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ محو الشيء هو إذهاب رسمه و أثره يقال: محوت الكتاب إذا أذهبت ما فيه من الخطوط و الرسوم قال تعالى:

وَ يَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَ يَحِقُّ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ (الشورى ٢٤) أى يذهب بآثار الباطل كما قال:

فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَ قَالَ: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ آيَاتِينَ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً (أسرى ١٢) أى أذهبنا أثر الإبصار من الليل فالمحو قريب المعنى من النسخ يقال: نسخت الشمس الظل أى ذهبت بأثره و رسمه.

و قد قوبل المحو فى الآيه بالإثبات و هو إقرار الشيء فى مستقره بحيث لا يتحرك و لا يضطرب يقال: أثبت الوجد فى الأرض إذا ركزته فيها بحيث لا يتحرك و لا يخرج من مركزه فالمحو هو إزاله الشيء بعد ثبوته برسمه و يكثر استعماله فى الكتاب.

و وقوع قوله: «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ يُثَبِّتُ» بعد قوله: «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ» و اتصاله به من جانب و بقوله: «وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» من جانب ظاهر فى أن المراد محو الكتب و إثباتها فى الأوقات و الآجال فالكتاب الذى أثبتته الله فى الأجل الأول إن شاء محاه فى الأجل الثانى و أثبت كتابا آخر فلا يزال يمحي كتاب و يثبت كتاب آخر.

و إذا اعتبرنا ما فى الكتاب من آيه و كل شىء آيه صح أن يقال لا يزال بمحو آيه و يثبت آيه كما يشير اليه قوله: «مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِئُهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلُهَا» (البقره ١٠٦)، و قوله: «وَ إِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ الْآيَةُ» (النحل ١٠١).

فقوله: يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ يُثَبِّتُ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْإِطْلَاقِ يفيد فائده التعليل

لقوله: «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ» و المعنى أن لكل وقت كتابا يخصه فيختلف باختلاف الكتب باختلاف الأوقات و الآجال إنما ظهر من ناحيه اختلاف التصرف الإلهي بمشيئته لا من جهه اختلافها في أنفسها و من ذواتها بأن يتعين لكل أجل كتاب في نفسه لا يتغير عن وجهه بل الله سبحانه هو الذى يعين ذلك بتبديل كتاب مكان كتاب و محو كتاب و إثبات آخر.

و قوله: وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ أى أصله فإن الام هى الأصل الذى ينشأ منه الشىء و يرجع اليه، و هو دفع للدخل و إبانه الحقيقه الأمر فإن اختلاف حال الكتاب المكتوب لأجل بالمحو و الإثبات أى تغير الحكم المكتوب و القول المقضى به حيناً بعد حين ربما أوهم أن الأمور و القضايا ليس لها عند الله سبحانه صورته ثابتة و إنما يتبع حكمه العليل و العوامل الموجبه له من خارج كأحكامنا و قضايانا معاشر ذوى الشعور من الخلق أو أن حكمه جزافى لا- تعين له فى نفسه و لا- مؤثر فى تعينه من خارج كما ربما يتوهم أرباب العقول البسيطة أن الذى له ملك -بكسر اللام- مطلق و سلطنه مطلقه له أن يريد ما يشاء و يفعل ما يريد على حريه مطلقه من رعايه أى قيد و شرط و سلوك أى نظام أولاً نظام فى عمله فلا صورته ثابتة لشيء من أفعاله و قضاياها عنده، و قد قال تعالى: مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ (ق ٢٩)، و قال: وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (الرعد ٨) الى غير ذلك من الآيات.

فدفع هذا الدخل بقوله: «وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» أى أصل جنس الكتاب و الأمر الثابت الذى يرجع اليه هذه الكتب التى تمحى و تثبت بحسب الأوقات و الآجال و لو كان هو نفسه تقبل المحو و الإثبات لكان مثلها لا أصلاً لها و لو لم يكن من أصله كان المحو و الإثبات فى أفعاله تعالى إما تابعا لامور خارجه تستوجب ذلك فكان تعالى مقهوراً مغلوباً للعوامل و الأسباب الخارجيه مثلنا و الله يحكم لا معقب لحكمه.

و إما غير تابع لشيء أصلاً و هو الجزاف الذى يختل به نظام الخلقه و التدبير العام الواحد يربط الأشياء بعضها ببعض جلت عنه ساحته، قال تعالى: وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ

وَ مَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (الدخان ٣٩).

فالمخلص من مضمون الآيه أن لله سبحانه في كل وقت و أجل كتابا أى حكما و قضاء و أنه يمحو ما يشاء من هذه الكتب و الأحكام و الأفضيه و يثبت ما يشاء أى يغير القضاء الثابت فى وقت فيضع فى الوقت الثانى مكانه قضاء آخر لكن عنده بالنسبه الى كل وقت قضاء لا- يتغير و لا- يقبل المحو و الإثبات و هو الأصل الذى يرجع اليه الأفضيه الأخر و تنشأ منه فيمحو و يثبت على حسب ما يقتضيه هو.

و يتبين بالآيه أولا: أن حكم المحو و الاثبات عام لجميع الحوادث التى تداخله الآجال و الأوقات و هو جميع ما فى السماوات و الأرض و ما بينهما، قال تعالى مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُّسَمًّى (الأحقاف ٣).

و ذلك لإطلاق قوله: «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ يُثَبِّتُ» و اختصاص المورد بآيات النبوه لا- يوجب تخصيص الآيه لأن المورد لا يخصص.

قوله تعالى: وَ إِنَّ مَا نُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسَابُ «إما» هو إن الشرطيه و ما الزائده للتأكيد و الدليل عليه دخول نون التأكيد فى الفعل بعده.

و فى الآيه إيضاح لما للنبي صلى الله عليه و آله و سلم من الوظيفه و هو الاشتغال بأمر الإنذار و التبليغ فحسب فلا ينبغى له أن يتبع أهواءهم فى نزول آيه عليه كما اقترحوا حتى أنه لا ينبغى له أن ينتظر نتيجة بلاغه أو حلول ما أوعدهم الله من العذاب بهم.

و فى الآيه دلالة على أن الحساب الإلهى يجرى فى الدنيا كما يجرى فى الآخره.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا الخ؛ كلام مسوق للعبره بعد ما قدم اليهم الوعيد بالهلاك، و منه يعلم أن إتيان الأرض و نقصها من أطرافها كناية عن نقص أهلها بالإماتة و الإهلاك فالآيه نظيره قوله: بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ

وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (الأنبياء ٤٤).

و قول بعضهم إن المراد به أو لم ير أهل مكة أنا نأتى أرضهم فننقصها من أطرافها بفتح القرى واحده بعد واحده للمسلمين فليخافوا أن نفتح بلدتهم و ننتقم منهم يدفعه أن السوره مكيه و تلك الفتوحات إنما كانت تقع بعد الهجره، على أن الآيات بوعيدها ناظره الى هلاكهم بغزوه بدر و غيرها لا الى فتح مكة.

و قوله: وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ يريد به أن الغلبه لله سبحانه فإنه يحكم و ليس قبال حكمه أحد يعقبه ليغلبه بالمنع و الرد و هو سبحانه يحاسب كل عمل بمجرد وقوعه بلا مهله حتى يتصرف فيه غيره بالإخلال فقوله: «وَ اللَّهُ يَحْكُمُ» الخ؛ فى معنى قوله فى ذيل آيه سوره الأنبياء المتقدمه: «أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ» .

قوله تعالى: وَ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا الى آخر الآيه؛ أى و قد مكر الذين من قبلهم فلم ينفعهم مكرهم و لم يقدروا على صدنا من أن نأتى الأرض فننقصها من أطرافها فالله سبحانه يملك المكر كله و يبطله و يرده الى أهله فليعتبروا.

و قوله: يَعْزِمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ فى مقام التعليل لملكه تعالى كل مكر فإن المكر إنما يتم مع جهل الممكور به و أما إذا علم به فعنده بطلانه.

و قوله: وَ سَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقِبَى الدَّارِ قَطْعَ لِلْحِجَابِ بِدَعْوَى أَنْ مَسْأَلُهُ انْتِهَاءُ الْأُمُورِ الى عواقبها من الامور الضروريه العينيه لا تتخلف عن الوقوع و سيشهدونها شهود عيان فلا حجه الى الإطاله و الإطناب فى إعلامهم ذلك فسيعلمون (١).

ص: ٤١٢

(١- ١). الرعد ٣٦-٤٢: بحث روائى حول الآيه «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ يُثَبِّتُ»؛ أم الكتاب؛ علم الله.

اشاره

وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (۴۳)

بیان:

قوله تعالى: وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا الخ؛ بناء الكلام فى السوره على إنكارهم حقيه الكتاب و عدم عدهم إياه آيه إلهيه للرساله و لذا كانوا يقترحون آيه غيره كما حكاها الله تعالى فى خلال الآيات مره بعد مره و أجاب عنه بما يرد عليهم قولهم فكأنهم لما يسوا مما اقترحوا أنكروا أصل الرساله لعدم إذعانهم بما أنزل الله من آيه و عدم إجابتهم فيما اقترحوه من آيه فكانوا يقولون: «لَسْتَ مُرْسَلًا» .

فلقن الله نبيه صلى الله عليه و آله و سلم الحججه عليهم لرسالته بقوله: «قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» و هو حجه قاطعه و ليس بكلام خطابى و لا إحاله الى ما لا طريق الى حصول العلم به.

فقوله: قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ استشهاد بالله سبحانه و هو ولى أمر الإرسال و إنما هى شهاده تأديه لا شهاده تحمل فقط فإن أمثال قوله تعالى: «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» من آيات القرآن و كونه آيه معجزه من الله ضرورى، و كونه قولاً- و كلاماً له سبحانه ضرورى و اشتماله على تصديق الرساله بدلاله المطابقه المعتمده على علم ضرورى أيضا ضرورى، و لا نعى بشهاده التأديه إلا ذلك.

و من فسر شهادته تعالى من المفسرين بأنه تعالى قد أظهر على رسالتي من الأدله و الحجج ما فيه غنى عن شهاده شاهد آخر ثم قال: و تسميه ذلك شهاده مع أنه فعل و هى قول من المجاز حيث إنه يعنى غذاها بل هو أقوى منها. انتهى. فقد قصد المطلوب من غير طريقه.

و ذلك أن الأدلة و الحجج الداله على حقيه رسالته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم إما القرآن و هو الآيه المعجزه الخالده، و إما غيره من الخوارق و المعجزات و آيات السوره- كما ترى- لا- تجيب الكفار على ما اقترحوه من هذا القسم الثانى و لا- معنى حينئذ للاستشهاد بما لم يجابوا عليه، و أما القرآن فمن البين أن الاستناد اليه من جهه أنه معجزه تصدق الرساله بدلائلها عليها أى كلام له تعالى يشهد بالرساله، و إذا كان كذلك فما معنى العدول عن كونه كلاما له تعالى يدل على حقيه الرساله أى شهاده لفظيه منه تعالى على ذلك بحقيقه معنى الشهاده الى كونه دليلا فعليا منه عليها سمي مجازا بالشهاده؟.

على أن كون فعله تعالى أقوى دلالة على ذلك من قوله ممنوع.

□
فقد تحصل أن معنى قوله: «اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ» أن ما وقع فى القرآن من تصديق الرساله شهاده إلهيه بذلك.

و أما جعل الشهاده شهاده تحمل فيه إفساد المعنى من أصله و أى معنى لإرجاع أمر متنازع فيه الى علم الله و اتخاذ ذلك حجه على الخصم و لا سبيل له الى ما فى علم الله فى أمره؟ أ هو كما يقول أو فريه يفتريها على الله؟.

و قوله: «وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» أى و كفى بمن عنده علم الكتاب شهيدا بينى و بينكم، و قد ذكر بعضهم أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ و يتعين على هذا أن يكون المراد بالموصول هو الله سبحانه فكأنه قيل: كفى بالله الذى عنده علم الكتاب شهيدا «الخ».

و فيه أولا- أنه خلاف ظاهر العطف، و ثانيا أنه من عطف الذات مع صفته الى نفس الذات و هو قبيح غير جائز فى الفصيح و لذلك ترى الزمخشري لما نقل فى الكشاف هذا القول عن الحسن بقوله: «و عن الحسن: «لا- و الله ما يعنى إلا الله» قال بعده: و المعنى كفى بالذى يستحق العباده و بالذى لا- يعلم علم ما فى اللوح إلا- هو شهيدا بينى و بينكم. انتهى. فاحتال الى تصحيحه بتبديل لفظه الجلال «الله» من «الذى يستحق العباده» و تبديل «من» من «الذى»

ليعود المعطوف و المعطوف عليه و صفيين فيكون في معنى عطف أحد و صفي الذات على الآخر و إناطه الحكم بالذات بما له من الوصفين كدخالتهما فيه فافهم ذلك.

لكن من المعلوم أن تبديل لفظ من لفظ يستقيم إفادته لمعنى لا- يوجب استقامه ذلك في اللفظ الأول و إلا لبطلت أحكام الألفاظ.

على أن التأمل فيما تقدم في معنى هذه الشهاده و أن المراد به تصديق القرآن لرساله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم يعطى أن وضع لفظه الجلاله في هذا الموضع لا للتلميح الى معناه الوصفى بل لإسناده الشهاده الى الذات المقدسه المستجمعه لجميع صفات الكمال لأن شهادته أكبر الشهادات قال سبحانه «قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ» .

و ذكر آخرون: أن المراد بالكتاب التوراه و الإنجيل أو خصوص التوراه و المعنى و كفى بعلماء الكتاب شهداء بيني و بينكم لأنهم يعلمون بما بشر الله به الأنبياء في و يقرءون نعتي في الكتاب.

و فيه أن الذي أخذ في الآية هو الشهاده دون مجرد العلم، و السوره مكيه و لم يؤمن أحد من علماء أهل الكتاب يومئذ كما قيل و لا شهد للرساله بشيء فلا معنى للاحتجاج بالاستناد الى شهاده لم يقم بها أحد بعد.

و قيل: المراد القوم الذين أسلموا من علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام و تميم الدارى و الجارود و سلمان الفارسى، و قيل هو عبد الله بن سلام، و رد بأن السوره مكيه و هؤلاء إنما أسلموا بالمدينه.

و للقائلين بأنه عبد الله بن سلام جهد بليغ في الدفاع عنه فقال بعضهم: إن مكيه السوره لا تنافي كون بعض آياته مدنيه فلم لا يجوز أن تكون هذه الآية مدنيه مع كون السوره مكيه.

و فيه أولا: أن مجرد الجواز لا يثبت ذلك ما لم يكن هناك نقل صحيح قابل للتعويل عليه.

على أن الجمهور نصوا على أنها مكيه كما نقل عن البحر.

و ثانيا: أن ذلك إنما هو في بعض الآيات الموضوعه في خلال آيات السور النازله و أما في مثل هذه الآيه التي هي ختام ناظره الى ما افتتحت به السوره فلا إذ لا معنى لإرجاء بعض الكلام المرتبط الأجزاء الى أمد غير محدود.

و قال بعضهم: إن كون الآيه مكيه لا ينافى أن يكون الكلام إخبارا عما سيشهد به.

و فيه أن ذلك يوجب رداءه الحججه و سقوطها فأى معنى لأن يحتج على قوم يقولون «لَسْتَ مُرْسِيًّا» فيقال: صدقوا به اليوم لأن بعض علماء أهل الكتاب سوف يشهدون به.

و قال بعضهم: إن هذه الشهاده شهاده تحمّل لا يستلزم إيمان الشهيد حين الشهاده فيجوز أن تكون الآيه مكيه و المراد بها عبد الله بن سلام أو غيره من علماء اليهود و النصارى و إن لم يؤمنوا حين نزول الآيه.

و فيه أن المعنى حينئذ يعود الى الاحتجاج بعلم علماء أهل الكتاب و إن لم يعترفوا به و لم يؤمنوا، و لو كان كذلك لكان المتعين أن يستشهد بعلم الذين كفروا أنفسهم فإن الحججه كانت قد تمت عليهم بكون القرآن كلام الله و لا يكون ذلك إلا عن علمهم به فما الموجب للعدول عنهم الى غيرهم و هم مشتركون فى الكفر بالرساله و نفيها. على أنه تقدم أن الشهاده فى الآيه ليست إلا شهاده أداء دون التحمل.

و قال بعضهم: -و هو ابن تيميه و قد أغرب- إن الآيه مدنيه بالاتفاق. و هو كما ترى.

و ذكر بعضهم: أن المراد بالكتاب القرآن الكريم، و المعنى أن من تحمّل هذا الكتاب و تحقق بعلمه و اختص به فإنه يشهد على أنه من عند الله و أنى مرسل به فيعود مختتم السوره الى مفتتحها من قوله: «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ» و ينعطف آخرها على أولها و على ما فى أواسطها من قوله: «أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّ مَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ» .

و هذا فى الحقيقه انتصار و تأييد منه تعالى لكتابه قبال ما أزرى به و استهانته الذين كفروا

حيث قالوا: «لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ» مره بعد مره و: «لَسْتُ مُرْسَلًا» فلم يعبأ بأمره و لم يبالوا به و أجاب الله عن قولهم مره بعد مره و لم يتعرض لأمر القرآن و لم يذكر أنه أعظم آيه للرساله و كان من الواجب ذلك فقوله: «قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» استيفاء لهذا الغرض الواجب الذى لا يتم البيان دونه و هذا من أحسن الشواهد على ما تقدم أن الآيه كسائر السوره مكيه.

و بهذا يتأيد ما ذكره جمع و وردت به الروايات من طرق أئمه أهل البيت عليهم السّلام أن الآيه نزلت فى على عليه السّلام فلو انطبق قوله: «وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» على أحد ممن آمن بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم يومئذ لكان هو فقد كان أعلم الامه بكتاب الله و تكاثرت الروايات الصحيحه على ذلك و لو لم يرد فيه إلا قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم فى حديث (1) الثقلين المتواتر من طرق الفريقين: «لن يفترقا حتى يردا على الحوض» لكان فيه كفايه.

ص: ٤١٧

١- ١). و هو الحديث المعروف الذى رواه الفريقان عن جم غفير من الصحابه عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم «انى تارك فيكم الثقلين كتاب الله و عترتى أهل بيتى لن يفترقا حتى يردا على الحوض ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبدا». الحديث.

السورة الكريمة تصف القرآن النازل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم من حيث إنه آية رسالته يخرج به الناس من الظلمات إلى النور و يهديهم إلى صراط الله سبحانه الذي هو عزيز حميد أى غالب غير مغلوب و غنى غير محتاج إلى الناس و جميل فى فعله منعم عليهم،و إذا كان المنعم غالباً غنيا حميد الأفعال كان على المنعم عليهم أن يجيبوا دعوته و يلبوا نداءه حتى يسعدوا بما أفاض عليهم من النعم،و أن يخافوا سخطه و شديد عذابه فإنه قوى غير محتاج إلى أحد،له أن يستغنى عنهم فيذهب بهم و يأتى بآخرين كما فعل بالذين كفروا بنعمته من الامم الماضين فإن آيات السماوات و الأرض ناطقه بأن النعمه كلها له و هو رب العزه و ولى الحمد لا رب سواه.

و بهذا تختتم السوره إذ يقول عزّ من قائل: هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَيُنذَرُوا أُولُوا الْأَلْبَابِ .

و لعل ما ذكرنا هو مراد من قال: إن السورة مفتتحة ببيان الغرض من الرساله و الكتاب يشير إلى قوله تعالى: لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ .

و السوره مكيه على ما يدل عليه سياق آياتها،و نسب إلى ابن عباس و الحسن و قتاده أنها مكيه إلا آيتين منها نزلتا فى قتلى بدر من المشركين: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَ أَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَ يَسْسُ الْقُرَارُ وَ سَيَأْتِي أَنْ الْآيَتَيْنِ غير صريحتين و لا ظاهرتين فى ذلك.

قوله تعالى: الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ أى هذا كتاب أنزلناه إليك،فهو خير لمبتدئ محذوف على ما يعطيه السياق و قيل غير ذلك.

و قوله: لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ظاهر السياق عموم الناس لا

خصوص قومه صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم ولا- خصوص المؤمنين منهم إذ لا- دليل على التقييد من جهة اللفظ، وكلامه تعالى صريح في عموم رساله كقوله: لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (الفرقان ١) وقوله:

لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ (الأنعام ١٩)، وقوله: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا (الأعراف ١٥٨)، والآيات الصريحة في دعوه اليهود و عامه أهل الكتاب، وعمله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم في دعوتهم وقبول إيمان من آمن منهم كعبد الله بن سلام و سلمان و بلال و صهيب وغيرهم تؤيد ذلك.

على أن آخر السوره هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ الْآيَةَ؛ وقد قوبل به أولها يُؤَيِّدُ أن المراد بالناس أعم من المؤمنين الذين خرجوا من الظلمات إلى النور بالفعل.

وقد نسب الإخراج من الظلمات إلى النور إلى النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم لكون أحد الأسباب الظاهرية لذلك وإليه ينتهي إيمان المؤمنين بدعوته بلا- واسطه أو بواسطه، ولا- ينافية قوله: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (القصص ٥٦)، فإن الآية إنما تنفي أصالته صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم في الهدايه واستقلاله فيها من غير أن تنفي عنه مطلق الهدايه حتى ما يكون على نحو الوساطه و بإذن من الله تعالى، والدليل عليه قوله تعالى: وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (الشورى ٥٢)، ولذلك قيد سبحانه قوله: «لِتُخْرِجَ» بقوله: «بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» .

و المراد بالظلمات و النور و الضلال و الهدى، وقد تكرر في كلامه تعالى اعتبار الهدى نورا و عدّ الضلال ظلمه و جمع الظلمات دون النور، لأن الهدى من الحق و الحق واحد لا- تغاير بين أجزائه و مصاديقه و لا كثره بخلاف الضلال فإنه من اتباع الهوى و الأهواء مختلفه متغاير بعضها مع بعض لا- وحده بينها و لا اتحاد لأبعضها و مصاديقها قال تعالى: وَ أَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ (الأنعام ١٥٣).

و اللام في قوله: لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ؛ لام الغرض بناء على عموم الناس كما هو ظاهر الآية، وليس بلام المعاقبه إذ لو كان كذلك لكان الناس كلهم مؤمنين، و المعلوم خلافه.

و أما ما اعترض عليه بعضهم أن التريبه الإلهيه بإخراج الناس من الظلمات إلى النور و إيصالهم إلى السعاده و الكمال مشروطه بالتهيؤ و الاستعداد مع كون الفيض عاماً فالمقدار الممكن من هذه العاقبه على تقدير عمومه هو هذا المقدار.

ففيه أنه اعتراف بأن كون اللام للعاقبه خلاف ظاهر الآيه، فإن الذى ذكره لا يتم إلا بتقييد «الناس» بالمستعدين، لكن الذى يجب أن يعلم أن هذا الغرض غرض تشريعى معناه أن للحكم غايه مقصوده و هى المصلحه التى يستعقبها، فإن الله سبحانه يدعو الناس ليغفر لهم و يهديهم الى الإيمان و العمل الصالح ليسعدهم بذلك و يدخلهم الجنة، و يرسل الرسل و ينزل عليهم الكتاب ليخرجوا الناس من الظلمات الى النور بإذن ربهم، و يريد بما يوجهه اليهم من الأمر و النهى أن يطهرهم و يذهب عنهم رجز الشيطان، و الآيات الداله على ذلك كثيره لا موجب لإيرادها و كذا الروايات و لعلها تزهو الالوف.

قوله تعالى: **إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْعِزَّةُ تَقَابُلُ الذَّلَّةِ**، قال الراغب: العزه حاله مانعه للإنسان من أن يغلب من قولهم: أرض عزاز أى صلبه، قال تعالى: **أَيَّتُّعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** و تعزز اللحم اشتد و عزز كأنه حصل فى عزاز يصعب الوصول إليه، انتهى موضع الحاجه.

فعزه العزيز هى كونه بحيث يصعب نيله و الوصول إليه و منه عزيز القوم و هو الذى يقهر و لا يقهر لأنه ذو مقام لا يصل إليه من قصده دون أن يمنع قبل الوصول إليه و يقهر، و منه العزيز لما قل وجوده لصعوبه نيله، و منه العزيز بمعنى الشاق لأن الذى يشق على الإنسان يصعب حصوله، قال تعالى: **عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ** (التوبه ١٢٨/١)، و منه قوله: **وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ** (ص ٢٣/١)، أى غلبنى على ما فسر به.

و الله سبحانه عزيز لأنه الذات الذى لا يقهره شىء من جهه و هو يقهر كل شىء من كل جهه و لذلك انحصرت العزه فيه تعالى فلا توجد عند غيره إلا باكتساب منه و بإذنه قال تعالى:

أَيَّتُّغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (النساء ١٣٩)، وقال: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا (فاطر ١٠).

والحميد فعيل بمعنى المفعول من الحمد وهو الثناء على الجميل الاختياري، وإذ كان كل جمال ينتهي إليه سبحانه كان جميع الحمد له كما قال: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (سورة الحمد ٢) ومن غريب القول ما عن الإمام الرازي على ما سنقله: أن الحميد معناه العالم الغني.

وقوله: إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ بدل من قوله: «إِلَى التَّوْرِ» يبيِّن به ما يوصل إليه الكتاب الذي أنزله على نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بيانا بعد بيان فتبه أولا بأنه نور يميز الحق من الباطل والخير من الشر والسعادة من الشقاوة، وثانيا بأنه طريق واضح يجمع سالكيه في منتهى و ينتهي بهم جميعا إلى الله العزيز الحميد.

و الوجه في ذكر الصفتين الكريمتين: العزيز الحميد أنهما مبدءان لما سيورد في السورة من الكلام الموجه إليهم فإن عمده الكلام في السورة هي تذكيرهم أن الله أنعم عليهم بربوبيته كل نعمه عظيمه، ثم عزم عليهم من طريق رسله أن يشكروه و لا يكفروه و وعد رسله أنهم إن آمنوا أدخلهم الجنة، و إن كفروا انتقم منهم و أوردهم مورد الشقاء و العذاب، فليخافوا ربهم و ليحذروا مخالفه أمره و كفران نعمته لأن له كل العزه لا نمنع عن حلول سخطه بهم و نزول عذابه عليهم شيء، حميد لا يذم في إثابته المؤمنين، و لا في تعذيب الكافرين، كما لا يذم فيما بسط عليهم من نعمه التي لا تحصى.

فجّل الكلام في هذه السورة فيما يقتضيه الصفات الثلاث: توّخّده تعالى بالربوبية و عزته و كونه حميدا في أفعاله فليخف من عزته المطلقة، و ليشكر و ليوثق بما وعد و ليتذكر من آيات ربوبيته.

و أما قوله: اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ فبيان للعزيز

الحميد، والمراد بما في السماوات و الأرض كل ما في الكون فيشمل نفس السماوات و الأرض كما يشمل ما فيهما، فهو تعالى يملك كل شيء من كل جهه بحقيقه معنى الملك.

و فيه إشاره الى الحججه فى كونه تعالى عزيزا حميدا، فإنه تعالى و إن كان هو الذى يحق الحق بكلماته و هو الذى ينجح كل حججه فى دلالتها، لكنه جارى عبادته فى كلامه على ما فطرهم عليه، و ذلك أنه تعالى لما ملك كل خلق و أمر بحقيقه معنى الملك فهو المالك لكل قهر و غلبه فلا قهر إلا منه و لا غلبه إلا له، فهو تعالى عزيز و له أن يتصرف فى ما يشاء بما يشاء و لا يكون تصرفه إلا محمودا غير مذموم لأن التصرف إنما يكون مذموما إذا كان المتصرف لا يملكه إما عقلا أو شرعا أو عرفا، و أى تصرف نسبه اليه تعالى عقل أو شرع أو عرف فإنه يملكه، فهو تعالى حميد محمود الأفعال.

قوله تعالى: وَ وَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ بِيَانٍ لِمَا تَقْتَضِيهِ صِفَةُ الْعِزَّةِ مِنَ الْقَهْرِ لِمَنْ يَرُدُّ دَعْوَتَهُ وَيَكْفُرُ بِنِعْمَتِهِ.

قوله تعالى: الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا خ؛ قال الراغب فى المفردات: و قوله عزّ و جل: «إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ» أى إن آثروه عليه، و حقيقه الاستحباب أن يتحرى الإنسان فى الشيء أن يحبه، و اقتضى تعديته بعلى معنى الإيثار، و على هذا قوله تعالى: وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى، انتهى.

و معنى استحباب الدنيا على الآخرة اختيار الدنيا و ترك الآخرة رأسا، و يقابله اختيار الآخرة على الدنيا بمعنى أخذ الآخرة غايه للسعى و جعل الدنيا مقدّمه لها يتوسل بها إليها، و أما اختيار الآخرة و ترك الدنيا من أصلها فإنه مضاف الى عدم إمكانه بحقيقه معنى الكلمه يوجب اختلال أمر الآخرة، و ينجز الى تركها بالآخرة، فالحياه الدنيا حياه منقطعه و الحياه الآخرة حياه دائمه يتوسل الى سعادتها من طريق الدنيا بالاكْتِسَاب، فمن اختار الآخرة و أثبتها

لزمه إثبات الدنيا لمكان مقدميتها، و من اختار الدنيا و جعلها غايه لزمه نفي الآخره من أصلها لأنها لو ثبتت ثبتت غايه و إذ لم يجعل غايه انتفت، فليس بين يدى الإنسان إلا خصلتان:

اختيار الآخره على الدنيا بجعل الآخره غايه و إثبات الدنيا معها للمقدميه، و اختيار الدنيا على الآخره بجعل الدنيا غايه و نفي الآخره من أصلها.

و قوله: وَ يَصِيهُدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجًا مَفَادَهُ أَنَّهُمْ يَكْفُونَ أَنفُسَهُمْ عَنِ الِاسْتِنَانِ بِسَنَةِ اللَّهِ وَ التَّدِينِ بِدِينِهِ أَوْ يَصْدُونَ وَ يَصْرِفُونَ النَّاسَ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ التَّشَرُّعِ بِشَرِيعَتِهِ عِنَادًا مِنْهُمْ لِلْحَقِّ، وَ يَطْلُبُونَ سَنَةَ اللَّهِ عِوَجًا وَ مَنْحَرَفَةً بِالِاسْتِنَانِ بِغَيْرِهَا مِنْ سَنَةِ اجْتِمَاعِيهِ أَيَا مَا كَانَتْ ثُمَّ سَجَّلَ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَ بِقَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: «ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ».

قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ. اللسان هو اللغة، قال تعالى: بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (الشعراء ١٩٥).

و الضمير فى «قَوْمِهِ» عائد إلى «رَسُولٍ» و فى «لَهُمْ» إلى «قَوْمِهِ» و المحضّل ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قوم ذلك الرسول ليبيّن لقومه، و من الخطأ إرجاع ضمير قومه إلى النّبى صلّى الله عليه و آله و سلم ليفيد أن الله سبحانه كان يوحى إلى جميع الرسل بالعربيّه لفساد المعنى بذلك لرجوع ضمير «لَهُمْ» إلى «قَوْمِهِ» فيفيد أنّ الله أنزل التوراه لموسى مثلا بالعربيّه ليبيّن للعرب كما فى الكشاف.

و المراد بإرسال الرسول بلسان قومه إرساله بلسان القوم الذين كان يعيش فيهم و يخالطهم و يعاشرهم و ليس المراد به الإرسال بلسان القوم الذين هو منهم نسبا لأنه سبحانه يصرح بمهاجره لوط عليه السلام من كلدّه و هم سريانيه اللسان إلى المؤتفكات، و هم عبرانيون و سّمّاهم قومه و أرسله إليهم ثم أنجاه و أهله إلا- امرأته و هى منهم و أهلكتهم قال تعالى: فَأَمَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي (العنكبوت ٢٦) و فى مواضع من كلامه تعالى «قَوْمٍ

و أما من أرسل إلى أزيد من أمه و هم أولو العزم من الرسل فمن الدليل على أنهم كانوا يدعون أقواما من غير أهل لسانهم ما حكاه الله من دعوه إبراهيم عليه السّلام عرب الحجاز إلى الحجّ، و دعوه موسى عليه السّلام فرعون و قومه إلى الإيمان و عموم دعوه النبي صلي الله عليه و آله و سلم و قد اشتمل القرآن على دعوه اليهود و النصارى و غيرهم و قبول إيمان من آمن منهم بالنبي صلي الله عليه و آله و سلم و كذا ما يستفاد من عموم دعوه نوح عليه السّلام. و على هذا فالمراد بقوله: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا-بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ» -و الله أعلم- أن الله لم يبين إرسال الرسل و الدعوه الدينيه على أساس معجز خارق للعادة الجارويه و لا فَوْضَ إلى رسله من الأمر شيئا بل أرسلهم باللسان العادى الذى كانوا يكالمون قومهم و يحاورونهم به ليبيّنوا لهم مقاصد الوحي فليس لهم إلا البيان، و أما ما وراء ذلك من الهدايه و الإضلال فالى الله سبحانه لا يشاركه فى ذلك رسول و لا غيره.

فتعود الآيه كالبيان و الإيضاح لقوله تعالى قبل: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» و أنّ معنى إخراجك الناس من الظلمات إلى النور أن تبين لهم ما أنزل الله لا أزيد من ذلك فيكون فى معنى قوله: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» (النحل ٤٤).

و أما قوله: «فَيَضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» فإشاره إلى ما أوأنا إليه أن أمر الهدى و الضلال إلى الله لا يتحقق شىء منهما إلا عن مشيئه منه تعالى غير أنه سبحانه أخبرنا أنّ هذه المشيئه منه ليست جزافيه غير منتظمه بل لها نظم ثابت فمن اتّبع الحق و لم يعانده هداه الله، و من جاحده و اتّبع هواه أضله الله فهو إضلال مجازاه غير الإضلال الابتدائى المذموم.

و قد قدم سبحانه الإضلال على الهدايه إذ قال: «فَيَضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» لأن ذلك أحوج إلى البيان بالنظر إلى أن الكلام مبنى على عزته المطلقه فكان من الواجب أن

يبين أن ضلال من يضلّ عن السبيل كهدى من اهتدى إليها إنما هو بمشيئه منه تعالى و لم يغلب في إرادته و لم يزاحم في ملكه حتى لا- يخيل الى كل مغفل من الناس أن الله يصف نفسه بالعزه المطلقه و أنه غالب غير مغلوب و قاهر غير مقهور ثم يدعو الناس فلا يستجيبون دعوته و يأمرهم و ينهاهم فيعصون و لا يطيعون و هل هذا الا غلبه منهم و قهر و هو مغلوب مقهور؟

فكأنه تعالى أجاب عن ذلك بأن معنى دعوته أن يرسل رسولا بلسان قومه فيبين لهم ما يسعدهم مما يشقيهم، و أمّا ضلال من ضلّ من الناس كهدى من اهتدى منهم فبمشيئه من الله و إذنه، و حاشاه أن يقهر في سلطانه أو يتصرّف في ملكه أحد بغير إذنه.

فضلال من ضلّ منهم دليل عزته فضلا أن يكون ناقضا لها كما أن هدى من اهتدى كذلك، و لذلك ذيل الكلام بقوله: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» فهو سبحانه عزيز لا يغلبه و لا يضره ضلال من ضلّ منهم، و لا ينفعه هدى من اهتدى حكيم لا يشاء من شاء جزافا و عبثا بل عن نظام متقن دائمى.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ إِذْ كَانَ الْكَلَامَ فِي السُّورَةِ مَبْنِيًّا عَلَى الْإِنذَارِ وَ التَّذْكَيرِ بِعِزِّ اللَّهِ سَبْحَانَهُ نَاسِبٌ أَنْ يَذْكَرَ إِرسَالِ مُوسَىٰ بِالآيَاتِ لِهَدَايِهِ قَوْمَهُ فَإِنْ قَصَصَهُ رِيسَالَتَهُ مِنْ أَوْضَحِ مَصَادِيقِ ظُهُورِ الْعِزِّ الْإِلَهِيِّ مِنْ بَيْنِ الرِّسَالِ، وَ قَدْ قَالَ تَعَالَى فِيهِ: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ (المؤمن ٢٣)»، وَ قَالَ حَاكِيَا عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (الدخان ١٩)».

فوزان الآيه أعنى قوله: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ»، من قوله: «كَلَّمَكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» وَ زان التنظير بداعى التأييد و تطيب النفس كما فى قوله: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ (النساء ١٦٣)».

وقوله: وَ ذَكَرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ لَا- شك أن المراد بها أيام خاصه، ونسبه أيام خاصه إلى الله سبحانه مع كون جميع الأيام و كل الأشياء له تعالى ليست إلا- لظهور أمره تعالى فيها ظهورا لا يبقى معه لغيره ظهور، فهي الأزمنة و الظروف التي ظهرت أو سيظهر فيها أمره تعالى و آيات وحدانيته و سلطنته كيوم الموت الذي يظهر فيه سلطان الآخرة و تسقط فيه الأسباب الدنيوية عن التأثير، و يوم القيامة الذي لا يملك فيه نفس لنفس شيئا و الأمر يومئذ لله، و كالأيام التي أهلك الله فيها قوم نوح و عاد و ثمود فإن هذه و أمثالها أيام ظهر فيها الغلبة و القهر و الإلهيان و أن العزه لله جميعا.

و يمكن أن يكون منها أيام ظهرت فيها النعم الإلهية ظهورا ليس فيه لغيره تعالى صنع كيوم خروج نوح عليه السلام و أصحابه من السفينه بسلام من الله و بركات و يوم إنجاء إبراهيم من النار و غيرهما فإنها أيضا كسوابقها لا نسبه لها في الحقيقة إلى غيره تعالى فهي أيام الله منسوبه إليه كما ينسب الأيام إلى الأمم و الأقوام و منه أيام العرب كيوم ذي قار و يوم فجار و يوم بغاث و غير ذلك.

و تخصيص بعضهم الأيام بنعماء الله سبحانه بالنظر إلى ما سيأتي من ذكر نعمه تعالى كتخصيص آخرين لها بنقماته تعالى خال عن الوجه بعد ما كان الكلام جاريا في السوره على ما تقتضيه عزته تعالى، و من مقتضى صفه عزته الإنعام على العباد و الأخذ الشديد إن كفروا بنعمته.

ثم تتم الكلام بقوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أى كثير الصبر عند الضراء و كثير الشكر على النعماء.

[سوره إبراهيم (١٤): الآيات ٦ الى ١٨]

إشارة

وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَ قَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَعْيُنَهُمْ فِي آفْوَاهِهِمْ وَ قَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطْرَقْنَا السَّمَّاءَ وَ الْأَرْضَ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَ مَا لَنَا أَلَّا تَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَ قَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَ لَنْصَبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَ لَنَسْكَنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكُمْ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَ خَافَ وَعِيدِ (١٤) وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَنْجَرِعُهُ وَ لَا يَكَادُ يُسَبِّغُهُ وَ يُأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ مَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَ مِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) مِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكُمْ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ السوم على ما ذكره الراغب بمعنى الذهاب في ابتغاء الشيء فهو لفظ لمعنى يتركب من الذهاب و الابتغاء فكأنه في الآية بمعنى إذاقه العذاب، والاستحياء استبقاء الحياه.

و المعنى و اذكر أيها الرسول لزياده التثبيت في أن الله عزيز حميد إذ قال موسى لقومه و هم بنو إسرائيل: اذكروا نعمه الله عليكم يوم أنجاكم من آل فرعون و خاصه من القبط و الحال أنهم مستمرون على إذاقتكم سوء العذاب و يكثرزون ذبح الذكور من أولادكم و على استبقاء حياه نساءكم للاسترقاق، و في ذلكم بلاء و محنه من ربكم عظيم.

قوله تعالى: وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ

عَذَابِي لَشَدِيدٌ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: التَّأَذُّنُ الْإِعْلَامُ يُقَالُ: آذَنُ وَتَأَذَّنَ وَ مِثْلُهُ أَوْعَدَ وَ تَوَعَّدَ.

انتهى.

و قوله: «وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ الْخ؛ معطوف على قوله: «وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ» و موقع الآية التاليه «وَ قَالَ مُوسَى» الخ؛ من هذه الآية كموقع قوله: «وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى» الخ؛ من قوله: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ فَافْهَمَ ذَلِكَ فَهُوَ الْأَنْسَبُ بِسِيَاقِ كَلَامِهِ تَعَالَى.

و من لطيف كرمه تعالى اللائح من الآية- كما ذكره بعضهم- اشتمالها على التصريح بالوعد و التعريض في الوعيد حيث قال: «لَأَزِيدَنَّكُمْ» و قال: «إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ» و لم يقل:

لأعذبنكم و ذلك من دأب الكرام في وعدهم و وعيدهم غالباً.

و الآية مطلقه لا دليل على اختصاص ما فيها من الوعد و الوعيد بالدنيا و لا بالآخرة، و تأثير الإيمان و الكفر و التقوى و الفسق في شؤون الحياه الدنيا و الآخرة معا معلوم من القرآن.

و قد استدلل بالآيه على وجوب شكر المنعم، و الحق أن الآية لا تدل على أزيد من أن الكافر على خطر من كفره فإن الله سبحانه لم يصرح بفعليه العذاب على كل كفر إذ قال: «وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ» و لم يقل: لأعذبنكم.

قوله تعالى: «وَ قَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ» لما أمر تعال بشكر نعمه بذكر ما تأذن به من الزيادة على الشكر و العذاب على الكفر على ما تقتضيه العزه المطلقه ذكر في تأييده من كلام موسى عليه السلام ما يجرى مجرى التنظير فقال: «وَ قَالَ مُوسَى» و الكلام جار على هذا النمط الى تمام عشر آيات.

و أما أن الله غنى و إن كفر من في الأرض جميعاً فإنه غنى بالذات عن كل شيء فلا ينتفع بشكر و لا يتضرر بكفر، و إنما يعود النفع و الضرر الى الإنسان فيما أتى به، و أما أنه حميد فلائـن الحمد هو إظهار الحامد بلسانه ما لفعل المحمود من الجمال و الحسن و فعله تعالى حسن جميل

من كل جهه فهو جميل ظاهر الجمال يمتنع خفاؤه و إخفاؤه،فهو تعالى محمود سواء حمده حامد باللسان أو لم يحمد.

□
على أن كل شيء يحمده بتمام وجوده حتى الكافر بنعمته كما قال تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ (الإسراء ٤٤)،فهو
تعالى محمود سواء حمده الناس بألسنتهم أو لم يحمده، و له كل الحمد سواء قصد به هو أو قصد به غيره.

قوله تعالى: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَ ثَمُودَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛من كلام موسى عليه السلام يذكر قومه من
أيام الله في الامم الماضين ممن فئت أشخاصهم و خمدت أنفاسهم و عفت آثارهم و انقطعت أخبارهم فلا يعلمهم بحقيقه
حالهم تفصيلا إلا الله كقوم نوح و عاد و ثمود و الذين من بعدهم.

□ وقوله: جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمُ الظاهر أن المراد به أن رسلهم جاء وهم بحجج بينه تبين الحق و تجليه
من غير أى إبهام و ريب فمنعواهم أن يتفوهوا بالحق و سدوا عليهم طريق التكلم.

فالضميران في «أَيْدِيَهُمْ» و «أَفْوَاهِهِمْ» للرسول، و ردّ أيديهم في أفواههم كناية عن إجبارهم على أن يسكتوا و يكفوا عن التكلم
بالحق كأنهم أخذوا بأيدي رسلهم و ردوها في أفواههم إيذانا بأن من الواجب عليكم أن تكفوا عن الكلام، و يؤيده قوله بعد: «وَ
قَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ» فإن دعوى الشك و الريب قبال الحجج البينه و الحق الصريح
الذى لا يبقى مجالاً للشك لا- تتحقق إلا من جاحد مكابر متحكم مجازف لا يستطيع أن يسمع كلمه الحق فيجبر قائلها على
السكوت و الصمت.

□ و أما قوله: وَ قَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ فهو نحو بيان لقوله: «فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ»
و الجملة الاولى أعنى قولهم: «إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ» إنكار للشريعة الإلهيه التى هى متن الرساله،و الجملة الثانيه أعنى قولهم:

«وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ» الخ؛ إنكار لما جاءوا به من الحجج و البيّنات و إظهار ريب فيما كانوا يدعون اليه و هو توحيد الربوبية.

قوله تعالى: **قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيُعْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُوَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَيَّمِي** أصل الفطر على ما ذكره الراغب الشَّقُّ طولاً يقال: فطرت الشيء فطرا أى شققته طولاً، و أفطر الشيء فطورا و انفطر انفطارا أى قبل الفطر، و استعمل فى القرآن فيما انتسب إليه تعالى بمعنى الإيجاد بنوع من العناية كأنه تعالى شقّ العدم شقا فأظهر من بطنه الأشياء فهى ظاهره **مَا أَمْسَكَ** هو تعالى على شقى العدم موجوده ما كان ممسكا لها و لو ترك الإمساك لانعدمت و زالت كما قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَ لَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ (فاطر / ٤١).**

و على هذا فتفسير الفطر بالخلق الذى هو جمع الأجزاء و الأبعاض كما وقع فى بعض العبارات ليس على ما ينبغى، و يؤيد ذلك أن الفطر لو كان بمعنى الخلق لكان البرهان الذى أشير إليه بقوله: **«فَأَطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ»** مسوقا لإثبات وجود الخالق فكان أجنبيا عن المقام لأن الوثنيه لا تنكر وجود خالق للعالم و أنه هو الله عزّ اسمه لا غير، و إنما ينكرون توحيد الربوبية و العباده و هو أن يكون الله سبحانه هو الربّ المعبود لا غير، و البرهان على كونه تعالى خالقا للسموات و الأرض لا ينفع فيه شيئا.

و كيف كان فقوله: **قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِي اللَّهِ شَكٌّ** الخ؛ كلام قوبل به قولهم:

وَ قَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ و قد عرفت أن قولهم هذا يتضمن إنكارين: إنكارهم للرسالة و تشككهم فى توحيد الربوبية فكلام الرسل المورد جوابا منهم عن قولهم بالمقابلته متضمن لجزءين.

فقولهم: **أ فِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ** برهان على توحيد

الربوبيه إذ لو سيق لمجرد الإنكار على الكفار من غير إشارة إلى برهان لم يكن حاجه إلى ذكر الوصف «فَأَطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» ففي ذكره دلالة على أنه مزيل كل شك و ريب عنه تعالى.

و ذلك أنا نرى في أول ما نعقل أن لهذا العالم المشهود الذى هو مؤلف من أشياء كثيرة كل واحد منها محدود في نفسه متميز من غيره وجودا، وليس وجوده و لا- وجود شىء من أجزائه من نفسه و قائما بذاته و إلا- لم يتغير و لم ينعدم فوجوده و وجود أجزائه و كذا كل ما يرجع إلى الوجود من الصفات و الآثار من غيرها و لغيرها و هذا الغير هو الذى نسميه «الله» عز اسمه.

فهو تعالى الذى يوجد العالم و كل جزء من أجزائه و يحده و يميزه من غيره فهو في نفسه موجود غير محدود و إلا لاحتاج إلى آخر يحدده فهو تعالى واحد لا يقبل الكثرة لأن ما لا يحد بحد لا يقبل الكثرة.

و هو بوحدته يدبّر كل أمر كما أنه يوجد لأنه هو المالك لوجودها و الكل أمر يرجع إلى وجودها، و لا يشاركه غيره في شىء لأن شيئا من الموجودات غيره لا يملك لنفسه و لا لغيره فهو تعالى ربّ كل شىء لا ربّ غيره، كما أنه موجود كل شىء لا موجود غيره.

و هذا برهان تام سهل التناول حتى للأفهام البسيطة يناله الإنسان الذى يدعن بفطرته أن للعالم المشهود حقيقه و واقعيه من غير أن يكون وهما مجردا كما يبديه السفسطه و الشكك، و يثبت به توحيد الالوهيه و الربوبيه، و لذلك تمسك به في هذا المقام الذى هو مقام خصام الوثنيه.

و قوله: «وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى أَى لا يعاجلكم بالعقوبه و الهلاك و يؤخركم الى الأجل الذى لا يؤخر و قد سمّاه لكم و لا يبدّل القول لديه، و قد تقدم في تفسير أول سوره الأنعام أن الأجل أجلان: أجل موقوف معلق، و أجل مسمى لا يؤخر.

و من الدليل على هذا الذى ذكرناه قول نوح لقومه في هذا المقام على ما حكاه الله سبحانه:

وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ (نوح ٤).

قوله تعالى: قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ قد تقدم في مباحث النبوه في الجزء الثانى من الكتاب أن الآيه المعجزه حجه عامه على نبوه النبى لا حجه عاميه و خاصه الوحي و النبوه التى هى نوع اتصال بالغيب أمر خارق للعادة الجاربه بين أفراد الإنسان لا يجدونها من أنفسهم فعلى من يدعيها الإثبات، و لا طريق الى إثباتها إلا بالإتيان بخارق عاده آخر يدل على صحه هذا الاتصال الغيبى لأن حكم الأمثال واحد، و إذا جاز أن تخترق العاده بشيء جاز أن تخترق بما يماثله.

و الرسل عليهم السلام لما احتجوا على كفار أممهم فى النبوه العامه بقولهم: «يَدْعُوكُمْ لِيُغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى» عادت الكفار اليهم بطلب الدليل منهم على ما يدعونيه من النبوه لأنفسهم معتدريين فى ذلك بقولهم: «إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا»، ثم صرّحوا بما يطلبونه من الدليل و هو الآيه المعجزه بقولهم: «فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ» .

فالمعنى سلّمنا أن من مقتضى العنايه الإلهيه أن يدعونا الى المغفره و الرحمه، لكننا لا نسلّم لكم أن هذه الدعوه قائمه بكم كما تدعون فإنكم بشر مثلنا لا تزيدون علينا بشيء، و لو كان مجرد البشريه يوجب ذلك لكننا وجدناه من أنفسنا و نحن بشر، فإن كنتم صادقين فى دعواكم هذه فأتونا بسُلطان مبین أى ببرهان قاطع يتسلط على عقولنا و يضطرنا الى الإذعان بنبوتكم و هو آيه معجزه غيبه تخرق العاده كما أن ما تدعونيه خارق مثلها.

و بهذا البيان يظهر أولا أن كلامهم هذا من قبيل منع الدعوى، و قولهم: «إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا» سند المنع، و قولهم: «فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ» تصريح بطلب الدليل.

و ثانيا أن قولهم: «تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا» من قبيل الاعتراض الواقع بين المنع و سنده و معناه أنكم لما كنتم بشرا مثلنا لا فضل لكم علينا بشيء فلا وجه لأن نقبل

منكم ما لا نجده من أنفسنا ولا تعهده من أمثالنا، والذى نعده من أمثال هذه الامور إنما تظهر عن أغراض و مطامع دنيويه ماديه فليس إلا أنكم تريدون أن تصرفونا عن سنتنا القوميه و طريقتنا المثلى.

قوله تعالى: قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ جواب الرسل عمّا أوردوه على رسالتهم بأنكم بشر مثلنا فلستم ذوى هويه ملكوتيه حتى تتصلوا بالغيب فإن كنتم صادقين فى دعواكم هذه القدره الغيبه فأتونا بسلطان مبین.

و محصل الجواب أن كوننا بشرا مثلكم مسلم لكنه يوجب خلاف ما استوجبتموه أما قولكم إن كونكم بشرا مثلنا يوجب أن لا تختصموا بخصيصه لا- نجدها من أنفسنا و هى الوحي الرساله فجوابه: أن المماثله فى البشرى لا- توجب المماثله فى جميع الكمالات الصوريه و المعنويه الإنسانيه كما أن اعتدال الخلقه و جمال الهيئه و كذا رزانه العقل و إصابه الرأى و الفهم و الذكاء كمالات صوريه و معنويه توجد فى بعض أفراد الإنسان دون بعض، فمن الجائز أن ينعم الله بالوحي و الرساله على بعض عباده دون بعض فإن الله يمن على من يشاء منهم.

و أما قولكم فأتونا بسُلطانٍ مُبينٍ فإنه مبنى على كون النبى ذا شخصيه ملكوتيه و قدره غيبه فعاله لما تشاء، و ليس كذلك فما النبى إلا بشر مثلكم يوحى إليه بالرساله و ليس له من الأمر شيء، و ما كان له أن يأتى بآيه من عنده إلا أن يشاء الله ذلك و يأذن فيه.

فقوله: إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ تسليم من الرسل لقولهم: «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَنَا» لاستنتاج خلاف ما استنتجوه منه، و قوله: «وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ» إشاره إلى مقدمه بانضمامها يستنتج المطلوب، و قوله: «وَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» جواب منهم استنتجوه من كونهم بشرا مثلهم.

و تذييل هذا الكلام بقولهم: وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ للإشاره الى ما

يجرى مجرى حجه ثانيه على إرجاع الأمر كله-و منه أمر الآيه المعجزه-الى الله و هى حجه خاصه بالمؤمنين،و ملخصها أن الإيمان بالله سبحانه يقتضى منهم أن يذعنوا بأن الإتيان بالآيه إنما هو الى الله لأن الحول و القوه له خاصه لا يملك غيره من ذلك شيئاً إلا بإذنه.

و ذلك لأنه هو الله عز شأنه،فهو الذى يبدأ منه و ينتهى اليه و يقوم به كل شىء فهو رب كل شىء المالك لتدبير أمره لا يملك شىء أمراً إلا- بإذنه فهو و كيل كل شىء القائم بما يرجع اليه من الأمر،فعلى المؤمن ان يتخذ ربه و كيلا فى جميع ما يرجع اليه حتى فى أعماله التى تنسب اليه لما أن القوه كلها له سبحانه و على الرسول ان يذعن بأن ليس له الإتيان بآيه معجزه إلا بإذن الله.

و الآيه ظاهره فى أن الرسل عليهم السلام لم يدعوا امتناع إتيانهم بالآيه المعجزه المسماه سلطانا مبينا،و إنما ادعوا امتناع أن يستقلوا بذلك من غير حاجه فيه إلى إذن الله سبحانه،و احتجوا على ذلك أولاً،و ثانياً.

قوله تعالى: **وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا** وَ لَنْصَبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْنَا وَمَا نُنَاجِيهِ **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** ما استفهاميه و الاستفهام للإنكار، و قوله: **«وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا»** حال من الضمير فى «لنا» و سبل الأنبياء و الرسل الشرائع التى كانوا يدعون إليها، قال تعالى: **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ (يوسف ١٠٨/)** و المعنى ما الذى نملكه من العذر فى أن لا نتوكل على الله و الحال أنه تعالى هدانا سبلنا و لم يكن لنا صنع فى هذه النعمه و السعاده التى من بها علينا فإذا كان سبحانه فعل بنا هذا الفعل الذى هو كل الخير،فمن الواجب أن نتوكل عليه فى سائر الامور.

و هذا فى الحقيقه حجه ثانيه على وجوب التوكل عليه و إلقاء الزمام إليه سلك فيها من طريق الآثار المداله على وجوب التوكل عليه كما أن الحجه السابقه سلك فيها من النظر فى نفس المؤثر،و تقرير الحجه أن هدايته تعالى إيانا إلى سبلنا دليل على وجوب التوكل عليه لأنه لا يخون عباده و لا يريد بهم إلا الخير و مع وجود الدليل على التوكل لا معنى لوجود دليل على

عدم التوكل يكون عذرا لنا فيه فلا سبيل لنا إلى عدم التوكل عليه تعالى.

فقوله تعالى: **وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** مجرى اللهم، وقوله: **«وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا»** مجرى الإن فتدبر فى هذا البيان العذب و الاحتجاج السهل الممتنع الذى قدمه القرآن الكريم إلى متدبريه فى أوجز لفظ.

وقوله: **وَ لَنُصَبِّرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْنُمُونَ** من تفریع الصبر على ما بين من وجوب التوكل عليه أى إذا كان من الواجب أن نتوكل عليه و نحن مؤمنون به و قد هدانا سبلنا فلنصبرن على إيدائكم لنا فى سبيل الدعوه إليه متوكلين عليه حتى يحكم بما يريد و يفعل ما يشاء من غير أن نأوى فى ذلك إلى ما عندنا من ظاهر الحول و القوه.

وقوله: **وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** كلام مبنى على الترقى أى كل من تلبس بالتوكل فعليه أن يتوكل على الله سواء كان مؤمنا أو غير مؤمن إذ لا دليل غيره غير أن المتوكل بحقيقه التوكل لا يكون إلا مؤمنا فإنه مدعن أن الأمر كله لله فلا يسعه إلا أن يطيعه فيما يأمر و ينتهى عما ينهى و يرضى بما يرضى به و يسخط عما سخط عنه و هذا هو الإيمان.

قوله تعالى: **وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا** هذا تهديد منهم بعد ما عجزوا فى مناظرتهم و خسروا فى محاجتهم، و الخطاب فى قولهم: **«لَنُخْرِجَنَّكُمْ»** الخ؛ للرسل و الذين آمنوا معهم فما كانوا ليرضوا أن يعود الرسل فى ملتهم و يبقى أتباعهم على دين التوحيد. على أن الله سبحانه صرح بذلك فى قصص بعضهم كقوله فى شعيب: **قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَوْمِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا (الأعراف ٨٨).**

وقوله: **أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا** «عاد» من الأفعال الناقصه بمعنى الصيروره و هى الحيلولة من حال إلى حال سواء كان عليها سابقا أولا و من الدليل عليه- كما قيل- قوله: **«فِي مِلَّتِنَا»** و لو كان بمعنى الرجوع إلى ما كان لتعين أن يقال: إلى ملتنا.

و من لطيف الصنائه فى الآيه دخول لام القسم و نون التأكيد على طرفى الترديد «لنخرجنكم أو لتعودن» مع أن أو للاستدراك و تفيد معنى الاستثناء و لا- معنى لأن يقال: إلا- أن تعودوا و الله فى ملتنا، إلا أن عودهم لما كان بإجبار من الكفار كان فى معنى الإعادة و عاد قوله:

«لَتَعُوذُنَّ» طرف الترديد و صح دخول اللام و النون و آل المعنى إلى قولنا: و الله لنخرجنكم من أرضنا أو نعيدنكم فى ملتنا.

قوله تعالى: فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ، وَ لَنَسْجِنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ ضمير الجميع الأول و الثانى للرسول و الثالث للذين كفروا بدلاله السياق، و التعبير عنهم بالظالمين للإشارة إلى سببهم ظلمهم للإهلاء- ك فإن تعليق الحكم بالوصف مشعر بالعيه كما أن قوله: «ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَ خَافَ وَعِيدِ» مشعر بعيه الخوف للإسكان.

و قوله: مَقَامِي مصدر ميمى أريد به قيامه تعالى على الأمر كله أو اسم مكان أريد به مرتبه قيمومه تعالى للأمر كله، و المراد من وعيده تعالى ما أوعده به المخالفين عن أمره من العذاب.

فالمراد بالخوف من مقامه تعالى تقواه بما أنه الله القائم بأمر عباده و المراد بالخوف من وعيده تقواه بما أنه الله الذى حذر عباده من مخالفه أمره بلسان أنبيائه و رسله فيعود على أى حال إلى التقوى و ينطبق على قول موسى لقومه: اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (الأعراف ١٢٨/) كما أشار إليه فى الكشاف.

و المعنى فأوحى رب الرسول إليهم- و قد أخذت صفه الربوبيه الخاصه بهم لمكان توكلهم الجالب للرحمه و العنايه- و أقسم لنهلكن هؤلاء المهديين لكم بظلمهم و لنسكننكم هذه الأرض التى هددوكم بالإخراج منها و نورثكم إياها لصفه مخافتكم منى و من وعيدى و كذلك نفع فنورث الأرض عبادنا المتقين.

قوله تعالى: **وَاسِيَّتْفَتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ** الاستفتاح طلب الفتح و النصر. و الخيبة انقطاع الرجاء و الخسران و الهلاك، و العنيد هو اللجوج و منه المعاند.

و الضمير فى **وَاسِيَّتْفَتَحُوا** للرسل أى طلبوا النصر من الله لما انقطعت بهم الأسباب من كل جانب و بلغ بهم ظلم الظالمين و تكذيب المعاندين كقول نوح فيما حكاه الله: **أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ** (القمر ١٠/)، و يمكن رجوع الضمير إلى الرسل و الكفار جميعا فإن الكفار أيضا كانوا يصرون على أن يأتيهم الرسل بما يقضى بينهم كقولهم: **مَتَى هَذَا الْفَتْحُ** (الم السجده ٢٨/). **مَتَى هَذَا الْوَعْدُ** (يس ٤٨/)، و على هذا التقدير يكون المعنى:

و استفتح الرسل و الكفار جميعا، و كانت الخيبة للجبارين و هو عذاب الاستئصال.

قوله تعالى: **مِنْ وَّرَائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ** إلى آخر الآيتين؛ الصديد القيقح السائل من الجرح، و هو بيان للماء الذى يسقونه فى جهنم. و التجرع تناول المشروب جرعه جرعه على الاستمرار، و الإساعه إجراء الشراب فى الحلق يقال: ساع الشراب و أسغته أنا كذا فى المجمع و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: **مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ** إلى آخر الآيه، يوم عاصف شديد الريح تمثيل لأعمال الكفار من حيث تترتب نتائجها عليها و بيان أنها حبط باطله لا أثر لها من جهة السعاده فهو كقوله تعالى:

وَ قَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (الفرقان ٢٣/). فأعمالهم كذرات من الرماد اشتدت به الريح فى يوم شديد الريح فنثرته و لم يبق منه شيئا هذا مثلهم من جهة أعمالهم.

و من هنا يظهر أن لا حاجه إلى تقدير شيء فى الكلام و إرجاعه إلى مثل قولنا: مثل أعمال الذين كفروا الخ؛ و الظاهر أن الآيه ليست من تمام كلام موسى بل هى كالنتيجه المحصله من

أشاره

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَاشَأُ يَدْهَبُكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَكَكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سِوَاءَ عَلَيْنَا أَمْ جَزَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُزُونِي وَلَوْمُوا أَنْفُسِكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأَدْخَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يَبْتُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَدُلُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْآبِوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصِلُونَهَا وَبُنُسِ الْقَرَارِ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ (٣١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلُوكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعِدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)

ص: ٤٤٠

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ الْمَراد بالرؤية هو العلم القاطع، فإنه لصالح لأن يتعلق بكيفية خلق السماوات والأرض دون الرؤية البصريه.

ثم الفعل الحق و يقابله الباطل هو الذى يكون لفاعله فيه غايه مطلوبه يسلك إليه بذاته فمن المشهود أن كل واحد من الأنواع من أول تكونه متوجه إلى غايه مؤجله لا- بغيه له دون أن يصل إليها ثم البعض منها غايه للبعض ينتفع به فى طريق كينونته و يصلح به فى حدوثه و بقائه كالعناصر الارضيه التى ينتفع بها النبات، و النبات الذى ينتفع به الحيوان و هكذا قال تعالى:

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِيْنٍ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (الدخان ٣٩). و قال: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا (ص ٢٧).

فلا- تزال الخلقه تقع مرحله بعد مرحله و تنال غايه بعد غايه حتى تتوقف فى غايه لا- غايه بعدها، و ذلك رجوعها إلى الله سبحانه، قال تعالى: وَ أَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ (النجم / ٤٢).

و بالجمله الفعل إنما يكون فعلا حقا إذا كان له أمر يقصده الفاعل بفعله و غايه يسلك بالفعل إليها، و أما إذا كان فعلا لا يقصد به إلا- نفسه من غير أن يكون هناك غرض مطلوب فهو الفعل الباطل، و إذا كان الفعل الباطل ذا نظام و ترتيب فهو الذى يسمى لعبا كما يلعب الصبيان بإتيان حركات منظمه مرتبه لا- غايه لهم وراءها و لا أن لهم همًا إلا إيجاد ما تخيلوه من صوره الفعل لشوق نفسانى منهم إلى ذلك.

وفعله تعالى ملازم للحق مصاحب له فخلق السماوات و الارض يخلف عالما باقيا بعد زواله، و لو لم يكن كذلك كان باطلا لا أثر له و لا خلف يخلفه، و كان العالم المشهود بما فيه من النظام البديع لعبا منه سبحانه اتخذه لحاجه منه إليه كالتنفس من كرب و سأمه و التفرج من همّ أو التخلص من وحشه وحده و نحو ذلك و هو سبحانه العزيز الحميد لا تمسه حاجه و لا يذله فقر و فاقه.

و بما مرّ يظهر أن الباء في قوله: «بِالْحَقِّ» للمصاحبه و أن قول بعضهم: أن الباء للسببيه أو الآله و أن المعنى كيف خلقها بقوله الحق أو للغرض الحق ليس على ما ينبغي.

قوله تعالى: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَ مَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ أَيْ بِشَاقٍ صَعْبٍ، و الخطاب لعامه البشر بجعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم مثالا لهم يمثلون به لان الخطاب متوجه إليه في قوله قبل و بعد: «أَلَمْ تَرَ» وَ «مَا ذَلِكَ» .

قوله تعالى: وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ البروز هو الخروج الى البراز بفتح الباء و هو الفضاء، يقال: برز اليه إذا خرج اليه بحث لا يحجبه عنه حاجب، و منه المبارزه و البراز كخروج المقاتل من الصف الى كفؤه من العدو.

و التبع بفتحيتين جمع تابع كخادم و خادم، و قيل: اسم جمع، و قيل: مصدر جيء به للمبالغه، و الإغناء الإفاده و ضمّن معنى الدفع و لذا عدّى بعن كما قيل، و الجزع و الصبر متقابلان، و المحيص اسم مكان من حاص يحيص حيصا و حيوصا إذا زال عن المكروه كما في المجمع فالمحيص هو المكان الذي يزول اليه الإنسان عن المكروه و الشده.

قوله: وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا أَيْ ظَهَرُوا لَهُ تَعَالَى ظَهُورًا لَا يَحْجِبُهُمْ عَنْهُ حَاجِبٌ وَ هَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ حَيْثُ كَانُوا يَتَوَهَّمُونَ فِي الدُّنْيَا أَنَّ رَبَّهُمْ فِي غَيْبِهِ عَنْهُمْ وَ هُمْ غَائِبُونَ عَنْهُ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ زَالَ كُلُّ سِتْرٍ مَتَوَهَّمٌ وَ شَاهَدُوا أَنَّ لَا حَاجِبَ هُنَاكَ يَحْجِبُهُمْ عَنْهُ، وَ أَمَّا هُوَ تَعَالَى فَلَا سَاتِرَ يَسْتُرُ عَنْهُ فِي دُنْيَا وَ لَا آخِرَهُ، قَالَ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي

الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (آل عمران ٥).

و يمكن أن تكون الجملة كناية عن خلوصهم لحساب الأعمال و تعلق المشيئة الإلهية بانقطاع الأعمال و إنجاز الجزاء الموعود كما قال: سَنَفُزُّكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ (الرحمن / ٣١).

و قوله: فَقَالَ الضُّعْفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا -إلى قوله- مِنْ شَيْءٍ تَخَاصُمَ بَيْنَ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ-على ما يعطيه السياق-فالضعفاء هم المقلدون المطيعون لأوليائهم من الكفار، و المستكبرون هم أولياؤهم المتبوعون أولو الطول و القوه المستنكفون عن الإيمان بالله و آياته.

و المعنى فقال الضعفاء المقلدون للذين استكبروا منهم إنا كنا فى الدنيا لكم تابعين مطيعين من غير أن نسألكم حجة على ما تأمرونا به فهل أنتم مفيدون لنا اليوم تدفعون عنا شيئا من عذاب الله الذى قضى علينا.

و على هذا فلفظه «مِنْ» فى قوله: «مِنْ عَذَابِ اللَّهِ» للبيان، و فى قوله: «مِنْ شَيْءٍ» زائده للتأكيد كما فى قولنا: ما جاءنى من أحد، و النفى و الاستفهام متقاربان حكما و لا دليل على امتناع تقدم البيان على المبين و خاصة مع اتصالهما و عدم الفصل بينهما.

و قوله: قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ظاهر السياق أن المراد بالهدايه هنا الهدايه الى طريق التخلص من العذاب و يمكن أن يكون المراد بها الهدايه الى الدين الحق فى الدنيا، و المآل واحد لما بين الدنيا و الآخرة من التطابق، و لا يبرز فى الاخرى إلا ما كان كامنا فى الاولى، قال تعالى حكاية عن أهل الجنة: وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ (الأعراف ٤٣)، مزجوا الهدايتين بعضا ببعض كما هو ظاهر.

و قوله: سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنا أَمْ صَبْرُنا مَا لَنَا مِنْ مَحِيسٍ سِوَاهُ و الاستواء

والتساوى واحد، وسواء خبر لمبتدأ محذوف و الجملة الاستفهامية بيان لذلك، وقوله: ﴿مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ بيان آخر للتساوى، والمعنى الأمران متساويان علينا و بالنسبة إلنا و هما الجزع و الصبر لا مهرب لنا عن العذاب اللازم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى آخِرِ آيَةِ فِي الْمَجْمَعِ الْإِصْرَاحِ الْإِغَاثَةَ بِإِجَابَةِ الصَّارِخِ وَ يُقَالُ: اسْتَصْرَخْنِي فَلَانَ فَأَصْرَخْتَهُ أَى اسْتَغَاثَ بى فَأَغَثْتَهُ. انتهى.

و هذا كلام جامع يلقيه الشيطان يوم القيامة الى الظالمين يبين فيه موقعه منهم و يتبئ أهل الجمع منهم بوجه الحق فى الرابطة التى كانت بينه و بينهم فى الدنيا و قد وعد الله سبحانه أنه سينبئهم يوم القيامة بما كانوا فيه يختلفون، و أن الحق سيظهر يوم القيامة عن قبل كل من كان له من قبله خفاء أو التباس، فالملائكة يتبرءون من شركهم و الجن و القرناء من الشياطين يطردونهم، و الأصنام و الآلهة التى اتخذوها أربابا من دون الله يكفرون بشركهم، و كبرائهم و أئمة الضلال لا- يستجيبون لهم، و المجرمون أنفسهم يعترفون بضلالهم و جرمهم، كل ذلك واقعه فى آيات كثيرة غير حفيته على المتتبع المتدبر فيها.

و الشيطان و إن كان بمعنى الشرير و ربما أطلق فى كلامه تعالى على كل شرير من الجن و الإنس كقوله: ﴿كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ﴾ (الأنعام ١١٢)، لكن المراد به فى الآية الشيطان الذى هو مصدر كل غوايه و ضلال فى بنى آدم و هو إبليس فإن ظاهر السياق أنه يخاطب بكلامه هذا عامه الظالمين من أهل الجمع و يعترف أنه كان يدعوهم الى الشرك، و قد نص القرآن على أن الذى له هذا الشأن هو إبليس و قد ادعى هو ذلك و لم يرد الله ذلك عليه كما فى قوله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ - إلى أن قال- ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص ٨٥).

و أما ذريته و قبيله الذين يذكهم القرآن بقوله: إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِذَا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (الأعراف ٢٧)، و قوله: أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ

أَوْلِيَاءَ (الكهف ٥٠/٥٠) فولايه الواحد منهم إما لبعض الناس دون بعض أو فى بعض الأعمال دون بعض، وإما ولايه على نحو العونيه فهو العون، والأصل الذى ينتهى إليه أمر الإضلال والإغواء هو إبليس.

فهذا القائل: إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ الخ؛ هو إبليس يريد بكلامه ردّ اللوم على فعل المعاصى اليهم و التبرى من شركهم فقوله: «إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ» أى وعدكم الله وعدا حققه الوقوع و صدقته المشاهده من البعث و الجمع و الحساب و فصل القضاء و الجنه و النار، و وعدتكم أنا أن لا بعث و لا حساب و لا جنه و لا نار و لم أف بما وعدت حيث ظهر خلاف ما وعدت. كذا ذكره المفسرون.

و على هذا فالموعود جميع ما يرجع الى المعاد إثباتا و نفيًا أثبتته الله سبحانه و نفاه إبليس، و إخلاف الوعد كنايه عن ظهور الكذب و عدم الوقوع من إطلاق الملزوم و إرادته اللازم.

و من الممكن -بل هو الوجه- أن يشمل الوعد ما يترتب على الإيمان و الشرك فى الدنيا و الآخره جميعا لأنهما متطابقتان فقد وعد الله أهل الإيمان حياه طيبه و عيشه سعيده، و أهل الشرك المعرضين عن ذكره معيشه ضنكا و تحرّجا فى صدورهم و عذابا فى قلوبهم فى الدنيا، و وعد الجميع بعثا و حسابا و جنه و نارا فى الآخره.

و وعد إبليس أوليائه بالأهواء اللذيذه و الآمال الطويله و أنساهم الموت و صرفهم عن البعث و الحساب و خوّفهم الفقر و الذلّ و ملامحه الناس، و كان مفتاحه فى جميع ذلك إغفالهم عن مقام ربهم و تزيين ما بين أيديهم من الأسباب مستقله بالتأثير خالقه لآثارها و تصوير نفوسهم لهم فى صوره الاستقلال مهيمنه على سائر الأسباب تدبرها كيف شاءت فتغريهم على الاعتماد بأنفسهم دون الله و تسخير الأسباب فى سبيل الآمال و الأمانى.

و بالجمله وعدهم الله فيما يرجع الى الدنيا و الآخره بما و فى لهم فيه، و دعاهم إبليس من طريق الإغفال و التزيين الى الأوهام و الأمانى و هى بين ما لا يناله الإنسان قطعا و ما إذا ناله

وجده غير ما كان يظنه، فيتركه الى ما يظنه كما يريد هذا في الدنيا و أما الآخرة فينسيه شؤونها كما تقدم.

وقوله: وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي السُّلْطَانُ- كما ذكره الراغب- هو السلاطه و هو التمكن من القهر، و تسمى الحجه أيضا سلطانا لما فيها من التمكن من قهر العقول على ما لها من النتائج، و كثيرا ما يطلق و يراد به ذو السلطان كالملك و غيره.

و الظاهر أن المراد ما هو أعم من السلطه الصوريه و المعنويه فالمعنى و ما كان في الدنيا لي عليكم من تسلط لا- من جهه أشخاصكم و أعيانكم فاجبركم على معصيه الله بسلب اختياركم و تحميل إرادتي عليكم، و لا- من جهه عقولكم فاقم لكم الحجه على الشرك كيفما شئت فتضطر عقولكم لقبوله و تطيعها نفوسكم فيما تأمرها به.

و الظاهر أيضا أن يكون الاستثناء في قوله: «إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ» منقطعاً و المعنى لكن دعوتكم من غير أي سلطان فاستجبت لي، و دعوته الناس إلى الشرك و المعصيه و إن كانت باذن الله لكنهما لم تكن تسلطاً فإن الدعوه إلى فعل ليست تسلطاً من الداعي على فعل المدعو و إن كان نوع تسلط على نفس الدعوه، و من الدليل عليه قوله تعالى فيما يأذن له: وَاسْتَفْزِزْ مِنَ الَّذِينَ تَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصُورَتِكَ- إلى أن قال- وَعَدُّهُمْ وَمَا يَعْبُدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا (الإسراء ١٦٥).

وقوله: مَا أَنَا بِمُضِرِّخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُضِرِّخِي أَي مَا أَنَا بِمُغِيثِكُمْ و منجيتكم و ما أنتم بمغِيثِي و منجِيّ فلا أنا شافع لكم و لا أنتم شافعون لي اليوم.

وقوله: إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونَ مِنْ قَبْلُ أَي اني تبرأت من اشراككم إياي في الدنيا، و المراد بالاشراك في الطاعه دون الاشراك في العباده كما يظهر من قوله تعالى خطاباً لأهل الجمع: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنْ

اعْبُدُونِي (يس ٦١).

وقوله: إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ من تمام كلام إبليس على ما يعطيه السياق يسجل عليهم العذاب الأليم لأنهم ظالمون ظلما لا يرجع إلا الى أنفسهم.

و ظاهر السياق أن قوله: مَا أَنَا بِمُضِرِّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُضِرِّ خِيٍّ كناية عن انتفاء الرابطه بينه و بين تابعيه كما يشير تعالى اليه في مواضع اخرى بمثل قوله: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (الأنعام ٩٤)، وقوله: فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (يونس ٢٨).

و فى الآيه دلالة واضحة على أن للانسان سلطانا على عمله هو الذى يوجب ارتباط الجزاء به و يسلبه عن غيره، و هو الذى يعيد اللاتمه اليه لا الى غيره، و أما كونه مستقلا بهذا السلطان فلا دلالة فيها على ذلك البتة، و قد تكلمنا فى ذلك فى الجزء الأول من الكتاب فى ذيل قوله:

وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦).

قوله تعالى: وَ أَدْخَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ الْخَبْرُ؛ بيان ما ينتهى اليه حال السعداء من المؤمنين، و فى قوله: «تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ» مقابله حالهم من انعكاس السلام و التحية المباركه من بعضهم الى بعض مع حال غيرهم المذكورين فى الآيتين السابقتين من الخصام و تجبيه بعضهم بعضا بالكفر و التبرى و الإياس.

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ذَكَرُوا أَنَّ «كَلِمَةً» بدل اشتمال من «مَثَلًا» و «كَشَجَرَةٍ» صفة بعد صفة لقوله: «كَلِمَةً» أو خبر مبتدأ محذوف و التقدير هى كشجره، و قيل: إن «كَلِمَةً» مفعول أول متأخر لضرب و «مَثَلًا» مفعوله الثانى قدّم لدفع محذور الفصل بين «كَلِمَةً» و صفتها و هى «كَشَجَرَةٍ» و التقدير ضرب الله كلمه طيبه كشجره طيبه الخ...مثلا.

وقيل «ضَرَبَ» متعدّد لواحد و «كَلِمَةً» منصوب بفعل مقدّر كجعل و اتخذ و التقدير ضرب الله مثلا جعل كلمه طيبه كشجره طيبه الخ؛ و أظن أن هذا أحسن الوجوه لو وجه بكون «كَلِمَةً طَيِّبَةً» الخ؛ عطف بيان لقوله: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا» من بيان الجملة للجمله، و يتعيّن حينئذ نصب «كَلِمَةً» بمقدّر هو جعل أو اتخذ لأن المدلول أنه مثل الكلمه بالشجره و شبهها بها و هو معنى قولنا: اتخذ كلمه طيبه كشجره الخ.

و قوله: أَصْلُهَا ثَابِتٌ أَي مرتكز في الأرض ضارب بعروقه فيها، و قوله:

وَ فَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ أَي ما يتفرع على ذلك الأصل من أغصانها في جهه العلو فكل ما علا و أظّل سماء،

و قوله: تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا أَي تثمر ثمرها المأكول كل زمان بإذن الله، و هذا نهايه ما تفيده شجره من البركات.

و الذي يعطيه التدبر في الآيات أن المراد بالكلمه الطيبه التي شَبَّهت بشجره طيبه من صفتها كذا و كذا هو الاعتقاد الحق الثابت فإنه تعالى يقول بعد و هو كالنتيجه المأخوذه من التمثيل «يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الآخِرَةِ» الآية و القول هي الكلمه و لا كل كلمه بما هي لفظ بل بما هي معتمده على اعتقاد و عزم يستقيم عليه الإنسان و لا يزيغ عنه عملا.

ثم ختم الله سبحانه الآية بقوله: «وَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» ليتذكر به المتذكر أن لا محيص لمريد السعاده عن التحقق بكلمه التوحيد و الاستقامه عليها.

قوله تعالى: وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ الاجتثاث الاقتلاع، يقال: جثته و اجثته أي قلعته و اقتلعته، و الجث بالضم ما ارتفع من الأرض كالأكمه، و جثه الشيء شخصه الناتيء. كذا في المفردات.

و الكلمه الخبيثه ما يقابل الكلمه الطيبه و لذا اختلفوا فيها فقال كل قوم فيها ما يقابل ما قاله في الكلمه الطيبه و كذا اختلفوا في المراد بالشجره الخبيثه فقليل: هي الحنظل، و قيل:

الكشوث و هو نبت يلتف على الشوك و الشجر لا أصل له فى الأرض و لا ورق عليه، وقيل:

شجره الثوم، وقيل: شجره الشوك، وقيل: الطحلب، وقيل: الكمأه، وقيل: كل شجره لا تطيب لها ثمره.

وقد عرفت حال هذه الاختلافات فى الآيه السابقه، وعرفت أيضا ما يعطيه التدبير فى معنى الكلمه الطيبه و ما مثلت به و يجرى ما يقابله فى الكلمه الخبيثه و ما مثلت به حرفا بحرف فإنما هى كلمه الشرك مثلت بشجره خبيثه مفروضه اقتلعت من فوق الأرض ليس لها أصل ثابت و ما لها من قرار، و إذ كانت خبيثه فلا أثر لها إلا الضرّ و الشرّ.

قوله تعالى: **يُتَّبِتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ الظاهر أن «بِالْقَوْلِ» متعلق بقوله: «يُتَّبِتُ» لا بقوله: «آمَنُوا»، و الباء للآله أو السببيه لا للتعديه، و أن قوله: «فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ» متعلق أيضا بقوله: «يُتَّبِتُ» لا بقوله: «الثَّابِتِ» .**

فيعود المعنى إلى أن الذين آمنوا إذا ثبتوا على إيمانهم و استقاموا ثبتهم الله عليه فى الدنيا و الآخره، و لو لا تثبيته تعالى لهم لم ينفعهم الثبات من أنفسهم شيئا و لم يستفيدوا شيئا من فوائده فإليه تعالى يرجع الأمر كله، فقوله تعالى: **«يُتَّبِتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ»**، و فى باب الهدايه يوازن قوله: **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ (الصف ٥/٥)**، فى باب الإضلال.

غير أن بين البابين فرقا و هو أن الهدى يتدنى من الله سبحانه و يترتب عليه اهتداء العبد، و الضلال يتدنى من العبد بسوء اختياره فيجازيه الله بالضلال على الضلال، كما قال: **وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦/٢٦)** و قد تكاثرت الآيات القرآنيه أن الهدايه من الله سبحانه ليس لغيره فيها صنع.

و توضيح المقام أن الله سبحانه خلق الإنسان على فطره سليمه ركز فيها معرفه ربوبيته و ألهمها فجورها و تقواها، و هذه هدايه فطريه أوليه ثم أيدها بالدعوه الدينيه التى قام بها أنبياءه و رسله.

ثم إن الإنسان لو جرى على سلامه فطرته و اشتقاق إلى المعرفة و العمل الصالح هداه الله فاهتدى العبد للإيمان عن هدايته تعالى، و أما جريه على سلامه الفطره فلو سمى اهتداء فإنما هو اهتداء متفرع على السلامه الفطريه لو سميت هدايه.

و لو انحرف الإنسان عن صراط الفطره بسوء اختياره و جهل مقام ربه و أدخل إلى الأرض و أتبع الهوى و عاند الحق فهو ضلال منه غير مسبوق بإضلال من الله- و حاشاه سبحانه- لكنه يستعقب إضلاله عن الطريق مجازاه و تثبيتته على ما هو عليه بقطع الرحمه منه و سلب التوفيق عنه و هذا إضلال مسبوق بضلاله من نفسه بسوء اختياره و إزاعه له عن زيغ منه.

و قوله: **وَ يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** أي يجري تثبيت هؤلاء و إضلال اولئك على ما تقتضيه مشيئته لا مانع له و لا دافع فلا حائل بين مشيئته و فعله.

و يظهر من ذلك أن الله تعالى قد شاء تثبيت هؤلاء و إضلال اولئك و هو فاعلهما لا محاله فمن القضاء المحتوم سعادته المؤمن و شقاء الكافر و قد وردت به الروايه.

و وقوع لفظ الجلاله في قوله: **وَ يُضِلُّ اللَّهُ** و قوله: **وَ يَفْعَلُ اللَّهُ** من وقوع الظاهر موقع المضممر و يدل على فخامه الأمر و مهابه الموقف كما قيل.

قوله تعالى: **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَدْعُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَ أَحْلُوا قَوْمَهُمْ** **دَارَ الْبُورِ** قال في المجمع: الإحلال وضع الشيء في محل إما بمجاوره إن كان من قبيل الأجسام أو بمدخله إن كان من قبيل الأعراض، و البوار الهلاك يقال: بار الشيء يبور بورا إذا هلك و رجل بور أي هالك و قوم بور أيضا. انتهى.

و قال الراغب: البوار فرط الكساد و لما كان فرط الكساد يؤدي الى الفساد كما قيل: كسد حتى فسد، عبّر بالبوار عن الهلاك يقال: بار الشيء يبور بورا و بورا قال عزّ و جل: **تِجَارَةٌ لَنْ تَبُورَ** انتهى.

و الآيه تذكر حال أئمة الكفر و رؤساء الضلال في ظلمهم و كفرانهم نعمه الله سبحانه التي

أحاطت بهم من كل جهه بدل أن يشكروها و يؤمنوا بربهم، و قد ذكر قبل كيفية خلقه تعالى السماوات و الأرض على غنى منه و هى نعمه، ثم ذكر كلمه الحق التى يدعو إليها و ما لها من الآثار الثابته الطيبه و هى نعمه.

و الآيه مطلقه لا دليل على تقييدها بكفار مكه أو كفار قريش و إن كان الخطاب فيها للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و كان فى ذيلها مثل قوله: «قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ» لظهور أن ذلك لا يوجب تقييدا فى الآيه مع إطلاق مضمونها و شمولها للطواغيت من الامم و ما صنعوا بأقوامهم.

فقوله: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا يَذْكُرُ حَالِ أُمَّةِ الْكُفْرِ وَرُؤَسَاءِ الضَّلَالِ مِنَ الْأُمَّةِ السَّابِقَةِ وَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَ الدَّلِيلِ عَلَى اخْتِصَاصِهِ بِهِمْ قَوْلُهُ: «وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ» المشعر بكونهم نافذى الكلمه مطاعين فى قومهم فهم الأئمه و الرؤساء.

و المراد بتبديلهم نعمه الله كفرا بتبديلهم شكر نعمته الواجب عليهم كفرا فى الجملة مضاف محذوف و التقدير: بدلوا شكر نعمه الله كفرا، و يمكن أن يراد بتبديل نفس النعمه كفرا بنوع من التجوز، و نظير الآيه فى هذه العنايه قوله تعالى: وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ (الواقعه ٨٢).

و ذكر إحلالهم قومهم دار البوار يستلزم إحلال أنفسهم فيها لأنهم أئمه الضلال ضلوا ثم أضلوا و التبعه تبعه الضلال، و نظير الآيه فى هذا المعنى قوله فى فرعون: يَتَّقِدُمْ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ (هود ٩٨).

و المعنى أ لم تنظر الى الأئمه و الرؤساء من الامم السابقه و من أمتك الذين بدلوا شكر نعمه الله كفرا و اتبعتهم قومهم فحلوا و أحلوا قومهم دار الهلاك و هو الشقاء و النار.

قوله تعالى: جَهَنَّمَ يَصِيحُونَ بِهَا وَ يَنْسُ الْقَرَارُ بِيَانِ لِدَارِ الْبُورِ، و احتمال بعضهم أن يكون «جَهَنَّمَ» منصوبا بالاشتغال، و التقدير يصلون جهنم يصلونها و الجملة مستأنفه خال عن الوجه لأن النصب مرجوح و لا نكته تستوجب الاستئناف.

و من هنا يظهر فساد قول من قال إن الآيات مدنيه، والمراد بالذين كفروا هم عظماء مكه و صناديد قريش الذين جمعوا الجموع على النبي صلى الله عليه و آله و سلم و حاربوه بيدر فقتلوا و أحلوا قومهم دار البوار.

و ذلك أنك عرفت من معنى الآيه أنها مطلقه و لا- موجب لتخصيصها بقتلى بدر من الكفار أصلاً، بل الآيه تشمل كل إمام ضلال أحلّ قومه دار البوار ممن تقدّم و تأخر، و المراد بإحلال دار البوار إقرارهم فى شقاء النار و إن لم يقتلوا و لا ماتوا و لا دخلوا النار بعد.

على أن ظاهر الآيه التاليه «وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ» أن ضمير الجمع راجع الى الذين كفروا المذكورين فى هذه الآيه و لازمه كون خطاب قل تمتعوا خطاباً للباقيين منهم و هم الذين أسلموا يوم الفتح و هو إبعاد بشقاء قطعى منجز من غير استثناء.

قوله تعالى: «وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ الْأَنْدَادُ جَمْعُ نَدٍّ وَهُوَ الْمَثَلُ وَهُمْ الْأَلِهَةُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ»

و إنما جعلوها أندادا مع اعترافهم بأنهم مخلوقون لله سبحانه من جهة أنهم سمّوهم آلهه و أربابا و نسبوا اليهم تدبير أمر العالم ثم عبدوهم خوفاً و طمعا مع أن الأمر و الخلق كله لله و قد اعترفت بذلك فطرتهم و أريد الله ذلك بما ألهمه أنبياءه و رسله من الآيات و الحجج الدالّة على وحدانيته.

فهم كانوا على بصيره من أمر التوحيد لم يتخذوا الأنداد عن غفله أو خطأ بل عمدوا الى ذلك ابتغاء عرض الحياه الدنيا و ليستعبدوا الناس و يستدروهم بإضلالهم عن سبيل الله، و لذلك علل اتخاذهم الأنداد بقوله: «لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ» ثم أمر النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يوعدهم بالنار التى إليها مرجعهم لا مرجع لهم سواها، فقال: «قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ» .

و كان من طبع الكلام أن يقال لهم: اتخذوا الأنداد أو أضلوا عن سبيل الله فإن مصيركم الى النار، لكن بدل من قوله: «تَمَتَّعُوا» ليصرح بغرضكم الفاسد الذي كانوا يخفونه ليكون أبلغ في فضاحتهم.

قوله تعالى: قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ لِمَا توعدهم على لسان رسوله بعذاب يوم القيامة لإضلالهم الناس عن سبيل الله، أمره أن يأمر عباده الذين آمنوا بالتزام سبيله من قبل أن يأتي يوم القيامة فلا يسعهم تدارك ما فات منهم من السعادة بشيء من الأسباب الدائرة بينهم لذلك و هي ترجع الى أحد شيئين: إما المعارضه بإعطاء شيء و أخذ ما يعادله و هو البيع بالمعنى الأعم، وإما الخلة و المحبه، و لا أثر من هذه الأسباب فى يوم محض للحساب و الجزاء فإن ذلك شأن يوم القيامة لا شأن له دون ذلك.

و من هنا يظهر أن قوله: يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا بيان لسبيل الله و قد اكتفى بهذين الركنين اللذين بهما يلحق سائر الوظائف الشرعيه مما يصلح حياه الإنسان الدنيويه فيما بينه و بين ربه و ما بينه و بين سائر أفراد نوعه.

و قوله: يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا الخ؛ مجزومان لوقوعهما فى جواب الأمر و مقول القول محذوف لدلاله الفعلين عليه، و التقدير: قل: أقيموا الصلاة و أنفقوا الخ» يقيموا الصلاة و ينفقوا الخ».

قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ الخ؛ لما ذكر سبحانه جعلهم لله أندادا لإضلال الناس عن سبيل الله و أوعدهم عليه أورد فى هذه الآيه إلى تمام ثلاث آيات الحجج على اختصاص الربوبيه بنفسه تعالى و تقدس من طريق اختصاص التدبير العام به من نظم الخلقه و إنزال الماء و إخراج الرزق و تسخير البحار-الفلك-و الأنهار و الشمس و القمر و الليل و النهار.

و أشار فى آخر الآيات إلى أنها و ما لا تحصى من غيرها نعمه منه تعالى للإنسان لأن البيان فى هذه السوره- كما تقدمت الاشاره إليه-يجرى فى ضوء الاسمين: العزيز الحميد.

□
فقوله: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ الْخَبْءَ فى معنى قولنا: فهو الربّ وحده دون الذين جعلتموهم أندادا له.

و قوله: وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ الْخَبْءَ الْمُرْتَدِّءَ مِنَ السَّمَاءِ جِهَهُ الْعُلُوُّ وَ هُوَ مَعْنَاهَا اللُّغْوَى، و الماء النازل منها هو المطر النازل منها فإليه ينتهى الماء فى الأرض الذى تعيش به ذوات الحياه من النبات و الحيوان.

قوله تعالى: وَ سَيَخْرُ لَكُمْ الْفُلُوكَ لِتَجْرَى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ سَيَخْرُ لَكُمْ الْأَنْهَارُ لِتَسْخِرَ الْفُلُوكَ لِلنَّاسِ هُوَ جَعَلَهَا بِحَيْثُ تَنْفَعُهُمْ فِى مَقاصِدِهِمْ وَ هِىَ الْعُبُورُ بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَحْمَالِهِمْ وَ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَرْسِبَ فِى الْمَاءِ أَوْ تَمْتَنِعَ عَنِ الْحَرَكَةِ.

و أما قول بعضهم: تسخيرها لهم هو إقذارهم على صنعتها و استعمالها بإلهامهم طريق ذلك بعيد، فإن الظاهر من تسخير شىء للإنسان هو التصرف فيه بجعله موافقا لما يقصده من منافع نفسه دون التصرف فى الانسان نفسه بإلهام و نحوه.

و كان من طبع الكلام أن يقال: و سخر لكم البحر لتجرى فيه الفلك بأمره و سخر لكم الأنهار غير أنه عكس، و قيل: و سخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره لكون الفلك من أوضح النعم البحرية و إن لم تنحصر فيها نعمه و لعل ذلك هو السبب فى العكس، لأن المقام مقام عدّ النعمه و النعمه فى الفلك أوضح و إن كانت فى البحر أعظم.

و إسناد جريها فى البحر إلى أمره تعالى مع كونه مستندا إلى الأسباب الطبيعیه العامله كالريح و البخار و سائر الأسباب، لكونه تعالى هو السبب المحيط الذى إليه ينتهى كل سبب.

و قوله: وَ سَيَخْرُ لَكُمْ الْأَنْهَارُ وَ هِىَ الْمِيَاهُ الْجَارِيَةُ فى مختلف أقطار الأرض و تسخيرها هو تدليلها بحيث ينتفع بها الإنسان بالشرب و الغسل و إزاله الأوساخ و غير ذلك

و يعيش بها الحيوان و النبات المسخران له.

قوله تعالى: «وَسَيَخْرُ لَكُمْ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ دَائِبِينَ وَ سَيَخْرُ لَكُمْ اللَّيْلُ وَ النَّهَارُ قَالَ الرَّاغب: الدَّابُّ إِدَامَةُ السَّيْرِ دَابُّ فِي السَّيْرِ دَابًّا، قَالَ تَعَالَى: «وَسَيَخْرُ لَكُمْ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ دَائِبِينَ» وَ الدَّابُّ الْعَادَةُ الْمُسْتَمِرَّة دَائِمًا عَلَى حَالِهِ، قَالَ تَعَالَى: «كَدَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ» أَيْ كَعَادَتِهِمْ الَّتِي يَسْتَمِرُّونَ عَلَيْهَا. انْتَهَى، وَ مَعْنَى الْآيَةِ وَاضِحٌ.

قوله تعالى: «وَ أَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعِدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْنَهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ» السُّؤال هُوَ الْطَلْبُ وَ يَفَارِقُهُ أَنْ السُّؤال إِنَّمَا يَكُونُ مِمَّنْ يَعْقِلُ وَ الْطَلْبُ أَعْمٌ وَ إِنَّمَا تَتَّبِعُهُ الْإِنْسَانُ لِلسُّؤالِ مِنْ جِهَةِ الْحَاجَةِ الدَّاعِيَةِ إِلَيْهِ فَأُظْهِرُ لَهُ أَنْ يَرْفَعُ مَا حَلَّتْ بِهِ مِنْ حَاجَةٍ وَ كَانَتْ الْوَسِيلَةَ الْعَادِيَةَ إِلَيْهِ هِيَ الْلفْظُ فَتُوسَلُ بِهِ إِلَيْهِ وَ رُبَّمَا تُوسَلُ إِلَيْهِ بِإِشَارَةٍ أَوْ كِتَابَةٍ وَ سُمِّيَ سُّؤالًا حَقِيقَةً مِنْ غَيْرِ تَجَوُّزٍ.

فَبِالْجَمَلِ مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْطَى النُّوعَ الْإِنْسَانِيَّ مَا سَأَلَهُ فَمَا مِنْ حَاجَةٍ مِنْ حَوَائِجِهِ إِلَّا رَفَعَ كُلَّهَا أَوْ بَعْضُهَا حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ الْبَالِغَةُ.

وَ قَوْلُهُ: «وَ إِنْ تَعِدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْنَهَا» قَالَ الرَّاغب: الْإِحْصَاءُ: التَّحْصِيلُ بِالْعَدَدِ يُقَالُ: أَحْصَيْتُ كَذَا وَ ذَلِكَ مِنْ لَفْظِ الْحِصَا وَ اسْتِعْمَالُ ذَلِكَ فِيهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ بِالْعَدِّ كاعْتِمَادِنَا فِيهِ عَلَى الْأَصَابِعِ. انْتَهَى.

وَ فِي الْجَمَلِ إِشَارَةٌ إِلَى خُرُوجِ النِّعَمِ عَنِ طَوْقِ الْإِحْصَاءِ وَ لِأَنَّهُ كَوْنُ حَوَائِجِ الْإِنْسَانِ الَّتِي رَفَعَهَا اللَّهُ بِنِعْمِهِ غَيْرَ مَقْدُورٍ لِلإِنْسَانِ إِحْصَاؤُهَا.

وَ كَيْفَ يُمْكِنُ إِحْصَاءُ نِعْمَةِ تَعَالَى وَ عَالَمِ الْوُجُودِ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ وَ مَا يَلْحَقُ بِهَا مِنَ الْأَوْصَافِ وَ الْأَحْوَالِ مَرْتَبِطَةٌ مَتَنَظَّمَةٌ نَافِعَةٌ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ مَتَوَقِّفٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، فَالْجَمِيعُ نِعْمَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْجَمِيعِ وَ هَذَا أَمْرٌ لَا يَحِيطُ بِهِ إِحْصَاءٌ.

وَ لَعَلَّ ذَلِكَ هُوَ السِّرُّ فِي إِفْرَادِ النِّعْمَةِ فِي قَوْلِهِ: «نِعْمَةُ اللَّهِ» فَإِنَّ الْحَقَّ أَنْ لَيْسَ هُنَاكَ إِلَّا النِّعْمَةُ

فلا حاجة الى تفخيمها بالجمع ليدل على الكثرة، والمراد بالنعمة جنس المنعم فيفيد ما يفيد الجمع.

وقوله: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ أَي كثير الكفران يظلم نفسه فلا يشكر نعمه الله و يكفر بها فيؤديه ذلك الى البوار و الخسران، أو كثير الظلم لنعم الله لا- يشكرها و يكفر بها، الجملة استئناف بياني يؤكد بها ما يستفاد من البيان السابق، فإن الواقف على ما مر بيانه من حال نعمه تعالى و ما آتى الإنسان من كل ما سأله منها لا يرتاب فى أن الإنسان و هو غافل عنها طبعاً ظالم لنفسه كافر بنعمه ربه (١).

[سوره إبراهيم (١٤): الآيات ٣٥ الى ٤١]

إشارة

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مِنَ النَّاسِ تَهْوَى إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقُهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَ مَا نُعْلِنُ وَ مَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَ تَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِيُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)

ص: ٤٥٧

(١-١). ابراهيم ١٩-٣٤: بحث روائي فى كلمه طيبه و شجره طيبه و كلمه خبيثه و شجره خبيثه.

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا أَى و اذكر إذ قال إبراهيم و الإشارة إلى مكة شرفها الله تعالى.

و قد حكى الله سبحانه نظير هذا الدعاء على اختصار فيه عن إبراهيم عليه السلام فى موضع آخر بقوله: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَ ارزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَ بئسَ المصيرُ (البقره / ١٢٦).

و من الممكن أن يستفاد من اختلاف المحكيين فى التعبير أعنى قوله: «اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا» و قوله: «اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا» أنهما دعاء ان دعا عليه السّلام بهما فى زمانين مختلفين، و أنه بعد ما أسكن إسماعيل و أمه أرض مكة و رجع إلى أرض فلسطين ثم عاد اليهما وجد من إقبال جرهم إلى مجاورتهما مكانا ما سرّ بذلك فدعا عند ذلك مشيرا إلى مكانهم «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا» فسأل ربه أن يجعل المكان بلدا و لم يكن به و أن يرزق أهله المؤمنين من الثمرات، ثم لما عاد اليهم بعد ذلك بزمان وجد المكان بلدا فسأل ربه أن يجعل البلد آمنا.

و مما يؤيد كونهما دعاءين ما فيهما من الاختلاف من غير هذه الجهة ففى آيه البقره الدعاء لأهل البلد بالرزق من الثمرات و فى الآيات المبحوث عنها الدعاء بذلك لذريته خاصه مع امور اخرى دعا بها لهم.

و على هذا يكون هذا الدعاء المحكى عن إبراهيم عليه السّلام فى هذه الآيات آخر ما أورده الله تعالى فى كتابه من كلام إبراهيم عليه السّلام و دعائه، و قد دعا به بعد ما أسكن إسماعيل و أمه بها

و جاورتها قبيله جرهم و بنى البيت الحرام و بنيت بلده مكه بأيدى القاطنين هناك كما تدل عليه فقرات الآيات.

و على تقدير أن يكون المحكميات دعاء واحدا يكون قوله: «رَبِّ اجْعَلْ» الخ؛ تقديره: رَبِّ اجعل هذا البلد بلدا آمنا و قد حذف فى إحدى الآيتين المشار اليه و فى الاخرى الموصوف اختصارا.

و المراد بالأمن الذى سأل عليه السّلام الأمن التشريعى دون التكوينى - كما تقدم فى تفسير آيه البقره- فهو يسأل ربه أن يشرع لأرض مكه حكم الحرمه و الأمن، و هو- على خلاف ما ربما يتوهم- من أعظم النعم التى أنعم الله بها على عباده فإننا لو تأملنا هذا الحكم الإلهى الذى شرعه إبراهيم عليه السّلام بإذن ربه أعنى حكم الحرمه و الأمن و أمعنا فيما يعتقدده الناس من تقديس هذا البيت العتيق و ما أحاط به من حرم الله الأمن و قد ركز ذلك فى نفوسهم منذ أربعة آلاف سنه حتى اليوم وجدنا ما لا يحصى من الخيرات و البركات الدينيه و الدنيويه عائده إلى أهلها و إلى سائر أهل الحق ممن يحن إليهم و يتعلق قلبه بهم، و قد ضبط التاريخ من ذلك شيئا كثيرا و ما لم يضبط أكثر فجعله تعالى مكه بلدا آمنا من النعم العظيمة التى أنعم الله بها على عباده.

قوله تعالى: وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ الدَّاسِ - إلى قوله- غَفُورٌ رَحِيمٌ يقال: جنبه و أجنبه أى أبعده، و سؤاله عليه السّلام أن يجنبه الله و يعبده و بنيه من عباده الأصنام لواز و التجاء إليه تعالى من الإضلال الذى نسبه إليهن فى قوله: «رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ» الخ.

و من المعلوم أن هذا الإبعاد و الإجنباب منه تعالى كيفما كان و أيا ما كان تصرف ما و تأثير منه تعالى فى عبده بنحو، غير أنه ليس بنحو يؤدى إلى الإلجاء و الاضطرار و لا ينجر إلى القهر و الإيجاب بسلب صفه الاختيار منه إذ لا مزيه لمثل هذا الابتعاد حتى يسأل ذلك مثل إبراهيم خليل الله.

فرجع بالحقيقه إلى ما تقدم فى قوله تعالى: يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ الْآيَةَ؛ أن كل خير من فعل أو ترك فإنه منسوب إليه تعالى أولاً، ثم إلى العبد ثانياً بخلاف الشر من فعل أو ترك فإنه منسوب إلى العبد ابتداءً و لو نسب إليه تعالى فإنه ينسب إذا كان على سبيل المجازاه، وقد أوضحنا ذلك.

فالاتىب من عباده الأصنام إنما يتحقق عن إجناب من الله رحمه منه لعبده و عناية، و ليس فى الحقيقه إلا أمراً تلبس و اتصف به العبد غير أنه إنما بملكه بتمليك الله سبحانه فهو المالك له بذاته و العبد يملكه بأمر منه و إذن كما أن العبد إنما يهتدى عن هدايه من الله، و ليس هناك إلا هدى واحد لكنه مملوك لله سبحانه لذاته و العبد إنما يملكه بتمليك منه سبحانه، و أبسط كلمه فى هذا المعنى ما وقع فى أخبار آل العصمه أن الله يوفق عبده لفعل الخير و ترك الشر هذا.

فتلخص أن المراد بقوله عليه السلام: «وَ اجْتَنِبْنِي» سؤال ما لله سبحانه من الصنع فى ترك العبد عباده الأصنام، و بعبارة أخرى هو يسأل ربه أن يحفظه و بنيه من عباده الأصنام و يهديهم إلى الحق إن هم عرضوا أنفسهم لذلك و أن يفيض عليهم إن استفاضوا لا أن يحفظهم منها سواء عرضوا لذلك أنفسهم أو لم يعرضوا و أن يفيض عليهم سواء استفاضوا أو امتنعوا فهذا معنى دعائه عليه السلام.

و منه يعلم أن نتيجة الدعاء لبعض المدعويين لهم و إن كان بلفظ يستوعب الجميع، و هذا البعض هم المستعدون لذلك دون المعاندين و المستكبرين منهم و سنزيده بياناً.

ثم هو عليه السلام يدعو بهذا الدعاء لنفسه و بنيه «وَ اجْتَنِبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ» و بنوه جميع من جاء من نسله بعده و هم بنو إسماعيل و بنو إسحاق فإن الابن كما يطلق على الولد من غير واسطه كذلك يطلق على غيره، و يصدق ذلك القرآن الكريم قال تعالى: مَلَأَ آبَائِكُمْ إِبْرَاهِيمَ (الحج ٧٨) و قد تكرر إطلاق بنى إسرائيل على اليهود فى نيف و أربعين موضعاً من كلامه

فهو عليه السّلام يسأل البعد عن عباده الأصنام لنفسه و لجميع من بعده من بنيه بالمعنى الذى تقدم، اللهم إلا أن يقال: إن قرائن الحال و المقال تدل على اختصاص الدعاء بآل إسماعيل القاطنين بالحجاز فلا يعم بنى إسحاق.

ثم عقب عليه السّلام دعاءه «وَ اجْتُنِبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ»

بقوله: «رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنِي كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ» و هو فى مقام التعليل لدعائه، و قد أعاد النداء «رَبِّ» إثاره للرحمة الإلهية، أى إني إنما أسألك أن تبعدنى و بنى عن عبادتهم لأنهم أضلّلن كثيرا من الناس و نسبة الاضلال إلى الأصنام لمكان الربط الذى بين الضلال و بينهم و إن لم يكن ارتباطا شعوريا و ليس من اللازم فى نسبة أى فعل أو أثر إلى شىء أن يقوم به قياما شعوريا و هو ظاهر.

ثم قوله عليه السّلام: «فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» تفريع على ما تقدم من كلامه أى إذا كان كثير من الناس أضلتهم الأصنام بعبادتهم و استعدت بك و عرضت نفسى و بنى عليك أن تجنّبنا من عبادتهم افترقنا نحن و الناس طائفتين: الضالون عن طريق توحيدك و العارضون لأنفسهم على حفظك و إجنابك فمن تبعنى الخ.

و قد عبّر عليه السّلام فى تفريعه بقوله: «فَمَنْ تَبِعَنِي وَ الْإِتِّبَاعُ» إنما يكون فى طريق - و قد لوّح إلى الطريق أيضا بقوله: «أَضَلَّلَنِي» لأن الضلال إنما يكون عن الطريق - فمراده باتباعه التدين بدينه و السير بسيرته لا مجرد الاعتقاد بوحديته تعالى بل سلوك طريقته المبنية على توحيد الله سبحانه ليكون فى ذلك عرض النفس على رحمته تعالى و إجنابه من عباده الأصنام.

و من الدليل على كون المراد بالاتباع هو سلوك سبيله قوله فى ما يعادله من كلامه: «وَ مَنْ عَصَانِي» فإنه نسب العصيان إلى نفسه و لم يقل: و من كفر بك أو عصاك أو فسق عن الحق و نحو ذلك كما لم يقل: فمن آمن بك أو أطاعك أو اتقاك و ما أشبهه.

فمراده باتباعه سلوك طريقه و التدوين بجميع ما أتى به من الاعتقاد و العمل و بعضيانه ترك سيرته و ما أتى به من الشريعة اعتقادا و عملا- كأنه عليه السلام يقول: من تبعني و عمل بشريعتي و سار بسيرتي فانه ملحق بي و من أبنائي تنزيلا أسألك أن تجنبي و إياه أن نعبد الأصنام، و من عصاني بترك طريقتي كلها أو بعضها سواء كان من بني أو غيرهم فلا ألحقه بنفسى و لا أسألك إجنابه و إبعاده بل أخلى بينه و بين مغفرتك و رحمتك (١).

قوله تعالى: رَبَّنَا إِنِّي أَسِيكُنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِمَوَادِّ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ -إلى آخر الآية- مِنْ ذُرِّيَّتِي فِي تَأْوِيلِ مَفْعُولِ أَسِيكُنْتُ أَوْ سَادَّ مَسَدَهُ وَ «مَرْنٌ» فِيهِ لِلتَّبَعِضِ وَ مَرَادُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْضُ ذَرِيَّتِهِ ابْنُهُ إِسْمَاعِيلُ وَ مِنْ سَيُولِدُ لَهُ مِنَ الْأَوْلَادِ دُونَ إِسْمَاعِيلَ وَحَدَهُ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ بَعْدَ: «رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ» .

و المراد بغير ذي زرع غير المزروع و هو آكد و أبلغ لأنه يدل -كما قيل- على عدم صلاحيته لأن يزرع لكونه أرضا حجريه رملية خالية عن المواد الصالحة للزرع و هذا كقوله: «قرآنا غير ذي عوج».

و نسبه البيت إلى الله سبحانه لأنه مبنى لغرض لا يصلح إلا- له تعالى و هو عبادته، و كونه محرما هو ما جعل الله له من الحرمه تشريعا، و الظرف أعني قوله: «عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ» متعلق بقوله: «أَسَكُنْتُ» .

و هذه الجملة من دعائه عليه السلام أعني قوله: رَبَّنَا إِنِّي أَسِيكُنْتُ -إلى قوله- الْمُحَرَّمِ من الشاهد على ما قدمناه من أنه عليه السلام إنما دعا بهذا الدعاء في أواخر عمره بعد ما بنى الكعبه و بنى الناس بلده مكه و عمروها، كما أن من الشاهد عليه أيضا قوله: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ» .

ص: ٤٤٢

(١-١). ابراهيم ٣٥-٤١: بحث في قول ابراهيم عليه السلام «وَ اجْتَنِبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ»؛ الشرك الخفى.

و بذلك يندفع ما ربما يستشكل فيقال: كيف سماه بيتا و قال: أسكنت من ذريتي عنده و لم يينه بعد؟ كأن السائل يقدر أنه إنما دعا به يوم أتى بإسماعيل و أمه إلى أرض مكة و كانت أرضا قفراء لا أنيس بها و لا نبت.

و لا حاجة إلى دفعه بأنه كان يعلم بما علمه الله أنه سيبنى هناك بيتا لله أو بأن البيت كان قبل ذلك و إنما خرّبه بعض الطوائف أو رفعه الله إلى السماء في الطوفان و ليت شعري إذا اندفع بهما هذا الإشكال فكيف يندفع بهما ما يتوجه من الإشكال على هذا التقدير إلى ظاهر قوله: ربّ اجعل هذا البلد آمنا و ظاهر قوله: «وَهَبْ لِي عَلى الكَبْرِ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ» .

و قوله: رَبَّنَا لِتَقِيْمُوا الصَّلَاةَ بيان لغرضه من إسكانهم هناك، و هو بانضمام ما تقدم من قوله: «بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ» و ما يعقبه من قوله: «فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ» يفيد أنه عليه السّلام إنما اختار واديا غير ذى زرع أعزل من أمتعه الحياه من ماء عذب و نبات ذى خضره و شجر ذى بهجه و هواء معتدل خاليا من السكنه ليمحضوا فى عباده الله من غير أن يشغلهم شواغل الدنيا.

و قوله: فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ الخ؛ من الهوى بمعنى السقوط أى تحنّ و تميل اليهم بالمساكنه معهم أو بالحج إلى البيت فيأنسوا بهم، و ارزقهم من الثمرات، بالنقل اليهم تجاره لعلهم يشكرون.

قوله تعالى: رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَ مَا نُعْلِنُ إلى آخر الآيه معناه ظاهر، و قوله: «وَ مَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ» من تمام كلام إبراهيم عليه السّلام أو من كلامه تعالى، و على الأول ففي قوله: «عَلَى اللَّهِ» التفات وجهه الإشارة إلى عله الحكم كأنه قيل: إنك تعلم ما نخفى و ما نعلن لأنك الله الذى ما يخفى عليه شىء فى الأرض و لا فى السماء، و لا يبعد أن يستفاد من هذا التعليل أن المراد بالسماء ما هو خفى علينا غائب عن حسنا و الأرض خلافه فافهم ذلك.

قوله تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ كالجمله المعترضه بين فقرات دعائه دعاه إلى إيراده تذكّره في ضمن ما أورده من الأدعيه عظيم نعمه الله عليه إذ وهب له ولدين صالحين مثلهما بعد ما انقطع عنه الأسباب العاديه المؤديه إلى ظهور النسل، وأنه إنما وهبهما له باستجابته دعائه للولد فحمد الله على ما وهبهما و أثنى عليه على استجابته دعائه في ذلك.

قوله تعالى: رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ الْكَلَامِ فِي استناد إقامته الصلاه إلى الله سبحانه نظير الكلام في استناد إجنابه أن يعبد الأصنام فإن لإقامه الصلاه نسبه اليه تعالى بالإذن و المشيه كما أن لها نسبه إلى العبد بالتصدى و العمل و قد مرّ الكلام فيه.

و هذه الفقره ثاني دعاء يشترك فيه هو عليه السلام و ذريته و يعقب في الحقيقه قوله أولا:

«وَاجْتُنِبْنِي وَبَيْتِي أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ» كما يلحق به دعاؤه الثالث المشترك فيه «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ» .

و قد أفرد نفسه في جميع الفقرات الثلاث عن غيره إذ قال: وَاجْتُنِبْنِي رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ اغْفِرْ لِي لِأَن مطلوبه لحوق ذريته به كما قال في موضع آخر: وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (الشعراء ٨٤) و في موضع آخر كما حكاه الله بقوله: وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي (البقره ١٢٤).

و أما قوله في الفقره الاولى: «وَاجْتُنِبْنِي وَبَيْتِي» و هاهنا «اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي» فقد تقدم أن المراد بينه بعضهم لا جميعهم فتتطابق الفقرتان.

و من تطابق الفقرتين أنه أكد دعاءه في هذه الفقره بقوله: «رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ» فإن سؤال تقبل الدعاء إلحاح و إصرار و تأكيد كما أن التعليل في الفقره الاولى، بقوله: «رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضَلَلَنَ

كثيراً من الناس» تأكيد في الحقيقة لما فيها من الدعاء، بقوله: «وَاجْتَنِبِي» الخ.

قوله تعالى: رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ختم عليه السلام دعاءه— وهو آخر ما ذكر من دعائه في القرآن الكريم كما تقدم— بطلب المغفرة للمؤمنين يوم القيامة، ويشبه آخر ما دعا به نوح عليه السلام مما ذكر في القرآن: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِوَالِدَيَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ (نوح/٢٨).

و في الآية دليل على أنه عليه السلام لم يكن ولد آزر المشرك لصلبه فإنه عليه السلام— كما ترى— يستغفر لوالديه و هو على الكبير و في آخر عهده «و قد تبرأ من آزر في أوائل عهده بعد ما استغفر له عن مواعده وعده إياه قال تعالى: قَالَ سَيِّئًا مَّا عَلَيكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي (مریم/٤٧)، و قال:

وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (الشعراء/٨٤)، و قال: وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ (التوبة/١١٤) و قد تقدم تفصيل القول في قصصه عليه السلام في سورة الأنعام في الجزء السابع من الكتاب.

و من لطيف ما في دعائه عليه السلام اختلاف النداء المكرر الذي فيه بلفظ «رَبِّ» و «رَبَّنَا» و العناية فيما أضيف إلى نفسه بما يختص بنفسه من السبقه و الإمامه، و فيما أضيف إلى نفسه و غيره إلى المشتركات.

[سورة إبراهيم (١٤): الآيات ٤٢ إلى ٥٢]

إشارة

وَ لَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمَ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤْسِهِمْ لَا يَزِيدُ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْنَدْتُهُمْ هَوَاءً (٤٣) وَ أَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَ تَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤) وَ سَيَكْفُرْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَ ضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَ قَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكَرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّمَاوَاتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَ تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سِيرَابِ لَهُمْ مِنْ قِطْرٍ أَنْ تَعْشَىٰ وَ جُوهَهُمْ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَ لِيُنذَرُوا بِهِ وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَ لِيَذْكُرُوا الْأُولَاءِ الَّذِينَ الْأَلْبَابِ (٥٢)

بيان:

قوله تعالى: وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛

ص: ٤٦٦

يقال: شخص بصره أى سكن بحيث لا يطرف جفنه، و يقال: يعير مهطع إذا صوّب عنقه أى رفعه و هطع و أهطع بمعنى، و يقال: أقنع رأسه إذا رفعه، و قوله: لا يرتد اليهم طرفهم أى لا يقدرّون على أن يطرفوا من هول ما يشاهدونه، و قوله: و أفندتهم هواء أى قلوبهم خاليه عن التعقل و التدبير لشده الموقف أو أنها زائله.

و المعنى: و لا- تحسبنّ الله و لا تظننه غافلا عما يعمل هؤلاء الظالمون بما تشاهد من تمتعهم و إترافهم فى العيش و إفسادهم فى الأرض إما يمهلهم الله و يؤخر عقابهم الى يوم يسكن فيه أبصارهم فلا تطرف و الحال أنهم مادون لأعناقهم رافعون لرءوسهم لا يقدرّون على ردّ طرفهم و قلوبهم مدهوشه خاليه عن كل تحيّل و تدبير من شده هول يوم القيامة و فى الآيه إنذار للظالمين و تعزيه لغيرهم.

قوله تعالى: **وَ أَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ** الى آخر الآيه؛ فى الآيه إنذار بعد إنذار و بين الإنذار فرق من جهتين:

إحدهما: أن الإنذار فى الآيتين السابقتين إنذار بما أعدّ الله من أهوال يوم القيامة و أليم العذاب فيه، و أما الذى فى هذه الآيه و ما يتلوها فهو إنذار بعذاب الاستئصال فى الدنيا و من الدليل عليه قوله: «فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ» الخ.

و الثانيه: أن الإنذار الأول إنذار بعذاب قطعى لا- صارف له عن أمه ظالمه و لا فرد ظالم من أمه و أما الإنذار الثانى فهو إنذار بعذاب غير مصروف عن أمه ظالمه و أما الفرد فربما صرف عنه، و لذلك ترى أنه تعالى يقول أولا «وَ أَنْذِرِ النَّاسَ» ثم يقول «فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا» الخ؛ و لم يقل: فيقولون أى الناس لأن عذاب الاستئصال لا يصيب المؤمنين قال تعالى: **ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ** (يونس ١٠٣/١) و إنما يصيب الامه الظالمه بحلول أجلهم و هو طائفه من ظالمى الامه لا جميع أفرادها.

و بالجمله فقوله: **وَ أَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ** إنذار للناس بعذاب

الاستئصال الذى يقطع دابر الظالمين منهم، وقد تقدم فى تفسير سورة يونس وغيره أن ذلك مكتوب على الامم قضاء بينهم و بين رسولهم حتى هذه الامه المحمديه و قد تكرر هذا الوعيد منه تعالى فى عدة مواضع من كلامه.

و هذا هو اليوم الذى يطهر الله الأرض فيه من قذاره الشرك و الظلم و لا يعبد عليها يومئذ إلا الله سبحانه فإن الدعوه عامه و الامه هم أهل الأرض فإذا محى الله عنهم الشرك لم يبق منهم إلا المؤمنون و يكون الدين كله لله، قال تعالى: **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** .

و قوله: **فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِزْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَ نَتَّبِعِ الرُّسُلَ** المراد به الظالمون من الناس و هم الذين يأخذهم العذاب المستأصل و لا يتخطاهم، و مرادهم بقولهم: **«أَخْرِزْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ»** الاستمهال بمده قصيره تضاف الى عمرهم فى الدنيا حتى يتداركوا فيه ما فوتوه بظلمهم و الدليل عليه قولهم: **«نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَ نَتَّبِعِ الرُّسُلَ»** .

و التعبير بالرسول بلفظ الجمع فى قولهم: **«وَ نَتَّبِعِ الرُّسُلَ»** مع أن الآيه تصف حال ظالمى هذه الامه ظاهرا و كان مقتضى ذلك أن يقال: و نتبع الرسول إنما هو للدلاله على أن الملاك فى نزول هذا العذاب القضاء بين الرساله و بين منكريها من غير اختصاص ذلك برسول دون رسول كما يفيد قوله: **وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ** (يونس ٤٧).

و قوله: **أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسِمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالِ الْأَقْسَامِ** تعليق الحكم فى الكلام بأمر شريف من جهه شرافته ليدل به على صدقه إذ لو كذب المتكلم و قد أقسم فى كلامه لأذهب بذلك شرف المقسم به كقولنا: و الله إن كذا لكذا و لعمري إن الأمر على كذا، و يعد القسم أقوى أسباب التأكيد. و لا يبعد أن يكون الإقسام فى الآيه كناية عن إيراد

الكلام فى صورته جازمه غير قابله للترديد.

و الكلام على تقدير القول، و المعنى يقال لهم توبيخا و تبيكيتا: أ لم تكونوا أقسمتم من قبل نزول العذاب ما لكم من زوال و أنكم بما عندكم من القوه و السطوه و وسائل الدفاع أمه خالده مسيطره على الحوادث فما لكم تستمهلون الى أجل قريب.

قوله تعالى: وَ سَيَكُنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ الى آخر الآيه؛ معطوف على محل قوله: «أَقْسَمْتُمْ» فى الآيه السابقه، و المعنى: أ و لم تكونوا سكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم من الامم السابقه، و ظهر لكم أن هذه الدعوه حقه و يتعقبها لو ردت عذاب مستأصل، من جهتين: جهه المشاهده حيث تبين لكم كيف فعلنا باولئك الظالمين الذين سكنتم فى مساكنهم؟ و جهه البيان حيث ضربنا لكم الأمثال و أذرناكم عذابا مستأصلا يتعقبه إنكار الحق و رد الدعوه النبويه و يقطع دابر الظالمين.

قوله تعالى: وَ قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَ إِنْ كَانْ مَكْرُهُمْ لِيَتْرُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ حال من الضمير فى «فَعَلْنَا» فى الآيه السابقه أو من الضمير فى «بِهِمْ» فيها أو من الضميرين جميعا على ما قيل، و ضمائر الجمع راجعه الى «الَّذِينَ ظَلَمُوا» .

و المراد بكون مكرهم عند الله إحاطته تعالى به بعلمه و قدرته، و من المعلوم أن المكر إنما يكون مكرًا إذا لم يحط به الممكور به و جهله، و أما إذا كان الممكور به عالما بما هياه الماكر من المكر و قادرا على دفعه لغى المكر أو عاد مكرًا على نفس الماكر كما قال تعالى: وَ مَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ (الأنعام ١٢٣).

و قوله: وَ إِنْ كَانْ مَكْرُهُمْ لِيَتْرُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ إن وصلته على ما قيل -و اللام فى «الترول» متعلق بمقدر يدلّ عليه لفظ المكر كقولنا: يقتضى أو يوجب و ما أشبه ذلك، و التقدير: الله محيط بمكرهم عالم به قادر على دفعه إن كان مكرهم دون هذه الشده و إن كان على هذه الشده.

و المعنى تبين لكم كيف فعلنا بهم و الحال أنهم مكروا ما فى وسعهم من المكر و الله محيط بمكرهم و إن كان مكرهم عظيما موجبا لزوال الجبال.

و ربما قيل: إن «إِنَّ» نافية و اللام هى الداخلة على المنفى بالجبال الآيات و المعجزات كناية و المعنى و ما كان مكرهم لتبطل به آيات الله و معجزاته التى هى كالجبال الراسيات التى لا تزول عن مكانها، و أريد هذا المعنى بقراءة ابن مسعود «و ما كان مكرهم» و هو معنى بعيد.

و قرئ أيضا «لِتُزُولَ» بفتح اللام الاولى و ضم اللام الثانية، و على هذا تكون «إِنَّ» مخففة من المشددة و المعنى و التحقيق أن مكرهم كان من العظمه بحيث تزول منه الجبال.

قوله تعالى: **فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعَدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ** تفريع على ما تقدم أن ترك مؤاخذة الظالمين بعملهم إنما هو لتأخيرهم الى يوم القيامة أى إذا كان الأمر كذلك فلا تحسبن الله مخلفا لما وعد رسله من نصرهم و مؤاخذة المتخلفين عن دعوتهم، و كيف يخلف وعده و هو عزيز ذو انتقام شديد و لازم عزته المطلقة أن لا يخلف وعده فإن إخلاف الوعد إما لكون الواعد غير قادر على إنجاز ما وعده أو لتغير من الرأى بعروض حال ثانيه تقهره على خلاف ما بعثته اليه الحال الاولى التى أوجبت عليه الوعد و الله سبحانه عزيز على الإطلاق لا يتصف بعجز و لا تقهره حال و لا شىء آخر و هو الواحد القهار.

و لازم اتصافه بالانتقام أن ينتقم للحق ممن استكبر عنه و استعلى عليه و ينتصف للمظلوم من الظالم.

و ذو انتقام من أسمائه تعالى الحسنى التى سمى الله تعالى بها نفسه فى مواضع من كلامه و قارنه فى جميعها باسمه العزيز، قال تعالى: **وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ** (آل عمران ٤)، (المائدة ٩٥)، و قال: **أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ** (الزمر ٣٧)، و قال فى الآيه المبحوث

عنها: إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ من ذلك يظهر أن «ذُو انتِقَامٍ» من فروع اسم «العزیز» (١).

قوله تعالى: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ الظرف متعلق بقوله: «ذُو انتِقَامٍ» و تخصيص انتقامه تعالى بيوم القيامة مع عمومه لجميع الأوقات و الظروف إنما هو لكون اليوم أعلى مظاهر الانتقام الإلهي كما أن تخصيص بروزهم لله بذلك اليوم كذلك، و على هذا النسق جل الأوصاف المذكورة في كلامه تعالى ليوم القيامة كقوله: الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (الانفطار ١٩)، و قوله: مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ (المؤمن ٣٣)، إلى غير ذلك و قد تقدمت الإشارة إليه كرارا.

و الظاهر أن اللام في الأرض للعهد في الموضوعين معا و كذا في السماوات و السماوات معطوفه على الأرض الاولى و المعنى تبدل هذه الأرض غير هذه الأرض و تبدل هذه السماوات غير هذه السماوات.

و قوله: وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ معنى بروزهم و ظهورهم لله يومئذ-مع كون الأشياء بارزه غير خفيته عليه دائما-سقوط جميع العلل و الأسباب التي كانت تحجبهم عنه تعالى ما داموا في الدنيا فلا يبقى يومئذ-على ما يشاهدون-شيء من الأسباب يملكهم و يتولى أمرهم و يستقل بالتأثير فيهم إلا الله سبحانه كما يدل عليه آيات كثيرة فهم لا يلتفتون إلى جانب و لا يتوجهون إلى جهة في ظاهرهم و باطنهم و حاضرهم و الماضي الغائب من أحوالهم و أعمالهم إلا وجدوه سبحانه شاهدا مهيمنا عليه محيطا به.

و الدليل على هذا الذي ذكرناه توصيفه تعالى بالواحد القهَّار المشعر بنوع من الغلبة فبروزهم لله يومئذ إنما هو ناشئ عن كونه تعالى هو الواحد الذي يقوم به وجود كل شيء و يقهر كل من دونه من مؤثر فلا يحول بينهم و بينه حائل فهم بارزون له بروزا مطلقا.

ص: ٤٧١

قوله تعالى: وَ تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ، سِرَابِيْلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ وَ تَغْشَىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ الْمُقْرَّنِينَ من التقرين و هو جمع الشيء الى نظيره و الأصفاد جمع الصفد و هو الغل الذى يجمع اليد الى العنق أو هو مطلق السلسله يقرن بين المقيدين، و السرابيل جمع السربال و هو القميص و القطران شىء أسود متتن يطلى به الإبل فإنهم يطلون فيصير كالقميص عليهم، و الغشاوه بالفتح الستر و التغطية يقال: غشى يغشى غشاوه أى ستره و غطاه، و معنى الآيتين واضح.

قوله تعالى: لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ معنى الآيه واضح، و هى بظاهاها تدل على أن الذى تجزى به كل نفس هو عين ما كسبته من حسنه أو سيئه و إن تبدلت صورته، فهى من الآيات الدالّه على أن الذى يلحق بهم يوم القيامة هو نتيجة أعمالهم.

فالآيه تفسّر أولاً معنى الجزاء فى يوم الجزاء، و ثانياً معنى انتقامه تعالى يومئذ و أنه ليس من قبيل عقوبه المجرم العاصى تشفياً منه بل إلحاق ما يستدعيه عمل المجرم به و إن شئت فقل إيصال ما اكتسبه المجرم بعينه اليه.

و فى تعليل هذا الجزاء و هو فى يوم القيامة بقوله: «إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» إيما الى أن الجزاء واقع من غير فصل و مهل إلا أن ظرف ظهوره هو ذلك اليوم لا غير، أو أن الحكم بالجزاء و كتابته واقع عند العمل و تحققه يوم القيامة و مآل الوجهين واحد فى الحقيقة.

قوله تعالى: هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَ لِيُنذَرُوا بِهِ وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَ لِيَذْكُرُوا الْأَسْمَاءَ الَّتِي بَلَّغَ بِمَعْنَى التَّبْلِيغِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الرَّاعِبُ أَوْ بِمَعْنَى الْكِفَايَةِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ غَيْرُهُ.

و الآيه خاتمه السوره فالأنسب أن تكون الإشاره بهذا الى ما أورد فى السوره من البيان لا الى مجموع القرآن كما ذكره بعضهم و لا الى ما ذكر من قوله تعالى: «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا

يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ» الى آخر السوره؛ كما ذكره آخرون.

وقوله: وَ لِيُنذِرُوا بِهِ الخ؛ اللام فيه للغاية و هو معطوف على محذوف إنما حذف لفخامه أمره و عظم شأنه لا يحيط به أفهام الناس لاشتماله من الأسرار الإلهيه على ما لا- يطيقونه، وإنما تسع عقولهم ما ذكر من غاياته و هو الإنذار و العلم بوحدانيتها تعالى و التذکر، فهم يندرون بما ذكر فيها من مؤاخذته تعالى الظالمين عاجلا- و آجلا- و تتم عليهم الحجة بما ذكر فيها من آيات التوحيد، و يتذکر المؤمنون منهم خاصة بما فيها من المعارف الإلهيه.

و بهذا يتطابق مختتم السوره و مفتتحها أعنى قوله فى أول السوره: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ» فقد تقدم أن مدلول الآيه أمر النبي صلى الله عليه و آله و سلم بالدعوه و التبليغ الى صراط الله بما أنه تعالى ربهم العزيز الحميد ليخرج الناس من الظلمات الى النور بإذنه فإنهم إن استجابوا الدعوه و آمنوا خرجوا بذلك من ظلمات الكفر الى نور الإيمان بالفعل و إن لم يستجيبوا أنذروا و وقفوا على التوحيد الحق و خرجوا من الجهل الى العلم و هو نوع خروج من الظلمه الى النور و إن كان وبالا عليهم و خسارا ففى الدعوه-على أى حال-و إنذار للناس و إعلامهم أنما هو إله واحد و تذكر لاولى الألباب منهم خاصة و هم المؤمنون (1).

ص: ٤٧٣

١- ١). ابراهيم ٤٢-٥٢: بحث روائى فى يوم القيامة و تبديل الارض بغير الارض، و الجنة و نعيمها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا كَلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَ مَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبِهِ إِلَّا وَ لَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّه أَجْلَهَا وَ مَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) وَ قَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ مَا كَانُوا إِذَا مُنظَرِينَ (٨) إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون (٩)

تشتمل السوره على الكلام حول استهزاء الكفار بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم و رمية بالجنون و رمى القرآن الكريم بأنه من أهذار المجانين ففيها تعزیه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم و أمره بالصبر و الثبات و الصفح عنهم و تطيب لنفسه الشريفه و إنذار و تبشير.

و هي مكيه على ما تشهد به آياتها، و نقل في المجمع عن الحسن استثناء قوله: **وَ لَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي** الآية؛ و قوله: **كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ** و سيأتي ما فيه.

و تشتمل السوره على قوله تعالى: **فَاصْبِرْ بِمَا تُوْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** الخ؛ و الآية تقبل الانطباق على ما ضبطه التاريخ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم اكتتم في أول البعثة ثلاث سنين أو أربعا أو خمسا لا يعلن دعوته لاشتداد الأمر عليه فكان لا يدعو إلا آحادا ممن يرجو منهم الايمان يدعوهم خفيه و يسر اليهم الدعوه حتى أذن له ربه في ذلك و أمره أن يعلن دعوته.

و تؤيده الروايات المأثوره من طرق الشيعة و أهل السنه أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يكتتم في أول بعثته سنين لا يظهر فيها دعوته لعامة الناس حتى أنزل الله تعالى عليه: **فَاصْبِرْ بِمَا تُوْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** **إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ** فخرج الى الناس و أظهر الدعوه، و عليه فالسوره مكيه نازله في أول الدعوه العلنيه.

و من غرر الآيات القرآنيه المشتمله على حقائق جمه في السوره قوله تعالى: **وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ** الآية؛ و قوله: **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**.

قوله تعالى: **الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ** الإشاره الى الآيات الكريمه القرآنيه فالمراد بالكتاب القرآن، و تنكير القرآن للدلاله على عظم شأنه و فخامه أمره كما أن التعبير بتلك و هي للإشاره الى البعيد لذلك.

و المعنى هذه الآيات العالیه منزله الرفیعہ درجه التی ننتزلها الیک آیات الكتاب الإلهی و آیات قرآن عظیم الشأن فاصل بین الحق و الباطل علی خلاف ما یرمیها به الکفار بما یرمونک بالجنه مستهزئين بكلام الله.

و من الممكن أن یراد بالكتاب اللوح المحفوظ فان القرآن منه و فیہ، قال تعالی: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (الواقعه ٧٨/٧)، و قال: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (البروج ٢٢/٢٢) فيكون قوله: تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ كالمخلص من قوله: وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ (الزخرف ٤/٤).

قوله تعالی: رَبُّمَا يَؤُدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ توطئه لما سيتعرض له من قولهم للنبي: يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ يشير به الى أنهم سيندمون على ما هم عليه من الكفر و يتمنون الإسلام لله و الإيمان بكتابه يوم لا سبيل لهم الى تحصيل ذلك.

فقوله: رَبُّمَا يَؤُدُّ المراد به وداده التمني لا مطلق الوداده و الحب، و الدليل على ذلك قوله في بيان هذا الموده: لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ فَإِن لَفْظِي «لَوْ» و «كَانُوا» تدلان على أن ودادتهم وداده تمنّ و أنهم يتمنون الاسلام بالنسبه الى ماضى حالهم مما فاتهم و لن يعود اليهم فليس إلا الاسلام ما داموا في الدنيا.

فالآيه تدلّ على أن الذين كفروا سيندمون على كفرهم و يتمنون أن لو كانوا مسلمين بعد انطواء بساط الحياه الدنيا.

قوله تعالی: ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِمُ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ الإلهاء الصرف و الاشتغال يقال: ألهاه كذا عن كذا أى شغله عنه و أنساه ذكره.

و قوله: ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِمُ الْأَمْلُ أمر برفع اليد عنهم و تركهم و ما هم فيه من الباطل، و هو كناية عن النهي عن الجدل معهم و الاحتجاج عليهم لإثبات

هذه الحقيقه و هى أنهم سوف يودّون الاسلام و يتمنونه و لا- سبيل لهم الى تحصيله و تدارك ما فات منه، و قوله: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» فى موضع التعليل للأمر أى ذرهم و لا تجادلهم و لا تحاجهم فلا حاجه الى ذلك لأنهم سوف يعلمون ذلك فإن الحق ظاهر لا محاله.

و فى الآيه تعريض لهم أنهم لا غايه لهم فى حياتهم إلا الأكل و التمتع بلذات الماده و التلهى بالآمال و الأمانى فلا منطق لهم إلا منطق الأنعام و الحيوان العجم فمن الحرى أن يتركوا و ما هم فيه، و لا يلقى اليهم الحجج الحقه المبنيه على أساس العقل السليم و المنطق الإنسانى.

قوله تعالى: «وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا وَ لَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ تثبیت و توكيد لقوله فى الآيه السابقه: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» على ما يعطيه السياق و المعنى دعهم فإنهم لا- يسلمون فى هذه الحياه الدنيا و إنما يودّون الإسلام بعد حلول أجلهم و نزول الهلاك بهم، و الناس ليسوا بدوى خيره فى ذلك بل لكل أمه كتاب معلوم عند الله مكتوب فيه أجلهم لا يقدرّون أن يستقدموه و لا يستأخروه ساعه.

و فى الآيتين دلالة على أن الامه من الإنسان لها كتاب كما أن للفرد منه كتابا، قال تعالى:

وَ كُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (الإسراء/ ١٣).

قوله تعالى: «وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ» كلام خارج مخرج الاستهزاء، و لذلك خاطبه صلى الله عليه و آله و سلم لا باسمه بل بوصف نزول الذكر عليه كما كان يدّعيه، و جاءوا بالفعل المجهول للدلاله على أن منزله غير معلوم عندهم و لا اعتماد و لا وثوق لهم بما يدّعيه هو أن الله تعالى هو الذى أنزله، و توصيفه بالذى نُزِّلَ عليه الذكر و كذا تسميه النازل عليه ذكرا كل ذلك من الاستهزاء كما أن قولهم: «إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ» رمى و تكذيب.

قوله تعالى: «لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتِ مِنَ الصَّادِقِينَ» لو ما مثل هلا

للتحضيض أى هلاً- تأتينا بالملائكة إن كنت صادقاً فى دعوى النبوة ليشهدوا على صدق دعواك و يندروا معك،فهو قريب المعنى من قولهم على ما حكاه الله: لَوْ لَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا (الفرقان ٧).

و وجه اقتراحهم على الأنبياء أن يأتوا بالملائكة و يظهرهم لهم اعتقادهم أن البشريه كينونه ماديه مغموره فى قذاره الشهوه و الغضب لا- نسبه بينها و بين العالم السماوى الذى هو محض النورانيه و الطهاره فمن ادعى نوعاً من الاتصال بذاك العالم الروحاني فعليه أن يأتى ببعض أهله من الملائكة الكرام ليصدقوه فى دعواه و يعينوه فى دعوته.

على أن الملائكة عند الوثنيين آلهه دون الله سبحانه فدعوتهم الى التوحيد معناه أن هؤلاء الآلهه فى معزل من الشفاعه و العباده بأمر من الله سبحانه و هو إله الآلهه و لا دليل على ذلك كاعترافهم به فلينزّلوا و ليعترفوا و يصدقوا،النبوه.

قوله تعالى: ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴾ جواب عما اقترحوا على النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن ياتيهم بالملائكة حتى يصدقوه و محضيل الجواب أن السنه الإلهيه جاريه على ستر ملائكته عنهم تحت أستار الغيب فلو أنزلهم و أظهرهم لهم عن اقتراحهم ذلك كان ذلك آيه سماويه خارقه للعباده نازله عن اقتراحهم،و من شأن الآيه المعجزه النازله عن اقتراح الناس ان يعقبا عذاب الاستئصال و الهلاك القطعى إن لم يؤمنوا بها،و هؤلاء الكفار المعاندون ليسوا بمؤمنين فهو الهلاك.

و بالجمله لو أنزل الله الملائكة و الحال هذا الحال-هم يقترحون آيه فاصله تظهر الحق و تميط الباطل-لأنزلهم بالحق الفاصل المميز و ما كانوا إذا منظرين بل يهلكون و يقطع دابرهم، هذا محصل ما ذكره بعضهم.

و يمكن أن يقرّر معنى الآيه باستمداد من التدبر فى آيات أخر أن ظرف الحياه الماديه أعنى هذه النشأه الدنيويه ظرف يختلط فيه الحق و الباطل من غير ان يتمحض الحق فى الظهور

بجميع خواصه و آثاره كما يشير اليه قوله تعالى: كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ (الرعد ١٧)، و قد تقدم تفصيل القول فى ذلك فما يظهر فيه شىء من الحق إلا و هو يحتمل شيئا من اللبس و الشك كما يصدقه استقراء الموارد التى صادفناها مدى أعمارنا، و من الشاهد عليه قوله تعالى: وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا- وَ لَلْبَشِ إِنَّا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (الأنعام / ٩)، و الظرف ظرف الامتحان و الاختيار و لا- اختيار إلا مع إمكان التباس الحق بالباطل و اختلاط الخير و الشر بنحو حتى يقف الإنسان على ملتقى الطريقتين و منشعب النجدين فيستدلّ على الخير و الشر بآثارهما و أماراتهما ثم يختار ما يستحقه من السعادة و الشقاوه.

قوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ صدر الآيه مسوق سوق الحصر، و ظاهر السياق أن الحصر ناظر الى ما ذكر من ردهم القرآن بأنه من أهدار الجنون و أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم مجنون لا عبره بما صنع و لا حجر و من اقتراحهم أن يأتيهم بالملائكة ليصدقوه فى دعوته و أن القرآن كتاب سماوى حق.

و المعنى-على هذا و الله أعلم- أن هذا الذكر لم تأت به أنت من عندك حتى يعجزوك و يبطلوه بعنادهم و شدة بطشهم و تتكلف لحفظه ثم لا تقدر، و ليس نازلا من عند الملائكة حتى يفتقر الى نزولهم و تصديقهم إياه بل نحن أنزلنا هذا الذكر إنزالا تدريجيا و إننا له لحافظون بما له من صفة الذكر بما لنا من العناية الكاملة به.

فهو ذكر حى خالد مصون من أن يموت و ينسى من أصله، مصون من الزيادة عليه بما يبطل به كونه ذكرا، مصون من النقص كذلك، مصون من التغيير فى صورته و سياقه بحيث يتغير به صفة كونه ذكرا لله مبيّنا لحقائق معارفه.

فالآيه تدل على كون كتاب الله محفوظا من التحريف بجميع أقسامه من جهة كونه ذكرا لله

[سوره الحجر (١٥): الآيات ١٠ الى ١٥]

اشاره

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمِمَّا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسِيلُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥)

بيان:

قوله تعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ الى آخر الآيتين؛ الشيع جمع شيعه و هى الفرقة المتفقه على سنه أو مذهب يتبعونه، قال تعالى: مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (الروم ٣٢).

وقوله: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا أَيْ رَسَلًا وَقَدْ حُذِفَ لِلإِسْتِغْنَاءِ عَنْهُ فَإِنَّ الإِعْنَاءَ بِأَصْلِ تَحْقِيقِ الإِرْسَالِ مِنْ قَبْلِ مَنْ غَيْرِ نَظَرِ إِلَى مَنْ أَرْسَلَ بِلِ بَيَانِ أَنَّ الْبَشَرَ الْأَوَّلِينَ كَالْآخِرِينَ جَرَتْ عَادَتُهُمْ عَلَى أَنْ لَا يَحْتَرِمُوا الرِّسَالَةَ الإِلَهِيَّةَ وَيَسْتَهْزِئُوا بِمَنْ أَتَى بِهَا وَيَمْضُوا عَلَى إِجْرَامِهِمْ لِتَكُونَ فِي ذَلِكَ تَعْزِيَةٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَلَا يَضِيقُ صَدْرَهُ بِمَا قَابَلُوهُ بِهِ مِنَ الْإِنكَارِ وَالإِسْتَهْزَاءِ كَمَا سَيَعُودُ إِلَيْهِ فِي آخِرِ السُّورَةِ بِقَوْلِهِ: وَلَقَدْ نَعَلِمَ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ الخ؛ الآيه ٩٧ من السوره.

ص: ٤٨٠

و المعنى: طب نفسا فنحن نزلنا الذكر عليك و نحن نحفظه و لا- يضيقر صدرك بما يقولون فهو دأب المجرمين من الأمم الانسانية أقسم لقد أرسلنا من قبلك فى فرق الأولين و شيعهم و حالهم هذه الحال ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون.

قوله تعالى: كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ إِلَى آخِرِ آيَاتِنَا؛ السُّلُوكُ:

النفاذ و الإنفاذ يقال: سلكت الطريق أى نفذ فيه و سلكت الخيط فى الإبره أى أنفذه فيها و أدخله و ذكروا أن سلكت و أسلكت بمعنى.

و الضميران فى نَسْلُكُهُ و بِهِ للذكر المتقدم ذكره و هو القرآن الكريم و المعنى أن حال رسالتك و دعوتك بالذكر المنزل اليك تشبه حال الرساله من قبلك فكما أرسلنا من قبلك فقابلوها بالرد و الاستهزاء كذلك ندخل هذا الذكر و ننفذه فى قلوب هؤلاء المجرمين، و نبأ به:

أنهم لا يؤمنون بالذكر و قد مضت طريقه الأولين و سنتهم فى أنهم يستهزءون بالحق و لا يتبعونه فالآيتان قريبتا المعنى من قوله: فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ .

قوله تعالى: وَ لَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُيَّرَتْ أَبْصَارُنَا الْخ؛ العروج فى السماء الصعود إليها و التسكير الغشاوه.

و المراد بفتح باب من السماء عليهم إيجاد طريق يتيسر لهم به الدخول فى العالم العلوى الذى هو مأوى الملائكه و ليس كما يظن سقفا جرمانيا له باب ذو مصراعين يفتح و يغلق، و قد قال تعالى: فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (القمر ١١).

فالمعنى: و لو فتحنا عليهم بابا من السماء و يسرنا لهم الدخول فى عالمها فداموا يعرجون فيه عروجا بعد عروج حتى يتكرر لهم مشاهده ما فيه من أسرار الغيب و ملكوت الأشياء لقالوا إنما غشيت أبصارنا فشاهدت امورا لا حقيقه لها بل نحن قوم مسحورون.

[سورة الحجر (١٥): الآيات ١٦ الى ٢٥]

إشارة

وَ لَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَ زِينَاتٍ لِّلنَّاطِرِينَ (١٦) وَ حَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنْ إِسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) وَ الْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَ أَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُّزْوُونٍ (١٩) وَ جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَ مَنْ لَسِيئَةٌ لَهُ بُرَازِقِينَ (٢٠) وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَ أَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَ مَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَ إِذَا لَنَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ نَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَ لَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسِيئَةَ تَقْدِيمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَ إِنْ رَبُّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)

قوله تعالى: **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ** الى آخر الآيات الثلاث، البروج جمع برج و هو القصر سميت بها منازل الشمس و القمر من السماء بحسب الحسّ تشبيها لها بالقصور التي ينزلها الملوك.

و الضمير في قوله: **وَزَيَّنَّاهَا** للسماء كما في قوله: **وَ حَفِظْنَاهَا** و تزيينها للناظرين هو ما نشاهده في جَوْها من البهجه و الجمال الذي يولّه الألباب بنجومها الزاهره و كواكبها اللامعه على اختلاف أقدارها و تنوع لمعاتها و قد كرّر سبحانه ذكر هذا التزيين الكاشف عن مزيد عنايته به كقوله: **وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَ حِفْظًا** (حم السجده/

(١٢)، وقوله: إِذَا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِبَنِينَ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ، لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (الصفافات ١٠).

و استرق السمع أخذ الخبر المسموع فى خفيه كمن يصغى خفيه الى حديث قوم يسرونه فيما بينهم، و استراق السمع من الشياطين هو محاولتهم أن يطلعوا على بعض ما يحدث به الملائكة فيما بينهم كما يدل عليه ما تقدم آنفا من آيات سوره الصفافات.

و الشهاب هو الشعلة الخارجة من النار و يطلق على ما يشاهد فى الجو من أجرام مضيئه كأن الواحد منها كوكب ينقض دفعه من جانب الى آخر فيسير سيرا سريعا ثم لا يلبث دون أن ينطفىء.

فظاهر معنى الآيات: و لقد جعلنا فى السماء- و هى جهة العلو- بروجاً و قصورا هى منازل الشمس و القمر و زيناها أى السماء للناظرين بزينة النجوم و الكواكب و حفظناها أى السماء من كل شيطان رجيم أن ينفذ فيها فيطلع على ما تحتويه من الملكوت إلا من استراق السمع من الشياطين بالاقتراب منه لسمع ما يحدث به الملائكة من أحداث الغيب المتعلقة بمستقبل الحوادث و غيرها فإنه يتبعه شهاب مبين.

و سنتكلم إن شاء الله فى الشهب و معنى رمى الشياطين فيما سيأتى من تفسير سوره الصفافات.

قوله تعالى: وَ الْأَرْضَ مَدَدْنَا هَا وَ أَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ مَدَّ الْأَرْضَ بِسَطْحِهَا طَوَّلاً وَ عَرْضاً وَ بِذَلِكَ صَلَحَتْ لِلزَّرْعِ وَ السَّكَنِى وَ لَوْ اغْشَيْتْ جَبَالاً شَاهِقَهُ مَضْرَسَهُ لَفَقَدَتْ كَمَالَ حَيَاةِ الْحَيَوَانَ عَلَيْهَا.

و الرواسى صفة محذوفه الموصوف و التقدير و ألقينا فيها جبالات رواسى و هو جمع راسيه بمعنى الثابتة إشاره الى ما وقع فى غير هذا الموضع أنها تمنع الأرض من الميدان كما قال: وَ أَلْقَى

فِي الْأَرْضِ رَوَّاسِي أَنْ تُمِيدَ بِكُمْ (النحل ١٥).

والموزون من الوزن و هو تقدير الأجسام من جهه ثقلها ثم عمم لكل تقدير لكل ما يمكن أن يتقدر بوجه كتقدير الطول بالشبر و الذراع و نحو ذلك و تقدير الحجم و تقدير الحرارة و النور و القدره و غيرها، و في كلامه تعالى: وَ نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (الأنبياء ٤٧)، و هو توزين الأعمال و لا يتصف بثقل و خفه من نوع ما للأجسام الارضيه منهما.

و ربما يكتنى به عن كون الشىء بحيث لا يزيد و لا ينقص عما يقتضيه الطبع أو الحكمة كما يقال: كلامه موزون و قامته موزونه و أفعاله موزونه أى مستحسنه متناسبه الأجزاء لا تزيد و لا تنقص مما يقتضيه الطبع أو الحكمة.

و بالنظر الى اختلاف اعتباراته المذكوره ذكر بعضهم أن المراد به إخراج كل ما يوزن من المعدنيات كالذهب و الفضة و سائر الفلزات، و قال بعضهم: إنه إنبات النباتات على ما لكل نوع منها من النظام البديع الموزون، و قيل: إنه خلق كل أمر مقدر معلوم.

و الذى يجب التنبه له التعبير بقوله: «مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ» دون أن يقال: من كل نبات موزون فهو يشمل غير النبات مما يظهر و ينمو فى الأرض كما أنه يشمل النبات لمكان قوله:

«وَ أَنْبَتْنَا» دون أن يقال: أخرجنا أو خلقنا و قد جىء بمن و ظاهرها التبويض فالمراد-و الله أعلم- إنبات كل أمر موزون ذى ثقل مادى يمكن ان يزيد و ينقص من الأجسام النباتيه و الأرضيه، و لا مانع على هذا من أخذ الموزون بكل من معنيه الحقيقى و الكنائى.

و المعنى: و الأرض بسطناها و طرحنا فيها جبالا ثابتة لتسكنها من الميد و أنبتنا فيها من كل شىء موزون-ثقل واقع تحت الجاذبه أو متناسب-مقدارا تقتضيه الحكمة.

قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ الْمَعَايِشَ جمع معيشه و هى ما به يعيش الحيوان و يديم حياته من المأكول و المشروب و غيرهما و يأتى مصدرا

و قوله: وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ مَعُوفٍ عَلَى الضَّمِيرِ الْمَجْرُورِ فِي «لَكُمْ» عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مِنَ النَّحَاهِ الْكُوفِيُونَ وَ يُونُسَ وَ الْأَخْفَشَ مِنْ جَوَازِ الْعَطْفِ عَلَى الضَّمِيرِ الْمَجْرُورِ مِنْ غَيْرِ إِعَادَةِ الْجَارِ، وَ أَمَا عَلَى قَوْلِ غَيْرِهِمْ فَرَبِمَا يَعُطِفُ عَلَى مَعَايِشِ وَ التَّقْدِيرِ وَ جَعَلْنَا لَكُمْ مِنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ كَالْعَبِيدِ وَ الْحَيَوَانَ الْأَهْلَى، وَ رَبِمَا جَعَلَ «مَنْ» مُبْتَدَأً مَحْذُوفٍ الْخَبَرَ وَ التَّقْدِيرِ:

و من لستم له برازقين جعلنا له فيها معاش و هذا كله تكلف ظاهر.

و كيف كان، المراد بمن العبيد و الدواب-على ما قيل-أتى بلفظه من و هي لاولى العقل تغليبا هذا، و ليس من البعيد أن يكون المراد به كل ما عدا الإنسان من الحيوان و النبات و غيرهما فإنها تسأل الرزق كما يسأله العقلاء و من دأبه سبحانه في كلامه أن يطلق الألفاظ المختصة بالعقلاء على غيرهم إذا أضيف إليها شيء من الآثار المختصة بهم كقوله تعالى في الأصنام: فَسَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (الأنبياء ٦٣)، و قوله: فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي (الشعراء ٧٧)، إلى غير ذلك من الآيات المتعرضة لحال الأصنام التي كانوا يعبدونها و لا- يستقيم للمعبود إلا- أن يكون عاقلا- و كذا قوله: فَقَالَ لَهُمَا وَ لِلْمَأْرُضِ اثْنَيْ عَشَرَ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (حم السجده ١١)، و غير ذلك.

و المعنى: و جعلنا لكم معشر البشر في الأرض أشياء تعيشون بها مما تدام به الحياه و لغيركم من أرباب الحياه مثل ذلك.

قوله تعالى: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا- عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا- بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ الْخَزَائِنُ جَمْعُ خَزَانَةٍ وَ هِيَ مَكَانُ خَزَنِ الْمَالِ وَ حِفْظُهُ وَ ادِّخَارُهُ، وَ الْقَدْرُ بِفَتْحَتَيْنِ أَوْ فَتْحٍ فَسَكُونٌ مَبْلَغُ الشَّيْءِ وَ كَمِيَّتُهُ الْمَتَعِينَةُ (١).

و الذى يعطيه التدبر فى الآيه و ما يناظرها من الآيات الكريمة أنها من غرر كلامه تعالى تبين ما هو أدق مسلكا و أبعد غورا مما فسروها به و هو ظهور الأشياء بالقدر و الأصل الذى لها قبل إحاطته بها و اشتماله عليها.

و ذلك أن ظاهر قوله: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ» على ما به من العموم بسبب وقوعه فى سياق النفى مع تأكيده بمن، كل ما يصدق عليه أنه شىء من دون أن يخرج منه إلا ما يخرج نفسه السياق و هو ما تدل عليه لفظه «نا» و «عند» و «خزائن» و ما عدى ذلك مما يرى و لا يرى مشمول للعام.

فشخص زيد مثلا و هو فرد إنسانى و نوع من الإنسان أيضا الموجود فى الخارج بأفراده من الشىء و الآيه تثبت لذلك خزائن عند الله سبحانه فلننظر ما معنى كون زيد مثلا له خزائن عند الله؟

و الذى يسهل الأمر فيه أنه تعالى يعد هذا الشىء المذكور نازلا من عنده و النزول يستدعى علوا و سفلا و رفعه و خفضه و سماء و أرضا مثلا و لم ينزل زيد المخلوق مثلا من مكان عال الى آخر سافل بشهادته العيان فليس المراد بإنزاله إلا خلقه لكنه ذو صفه يصدق عليه النزول بسببها، و نظير الآيه قوله تعالى: «وَ أَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِينَ أَزْوَاجًا (الزمر / ٦)»، و قوله: «وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ (الحديد ٢٥)».

ثم قوله: «وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» يقرن النزول و هو الخلقه بالقدر قرنا لازما غير جائز الانفكاك لمكان الحصر، و الباء إما للسببيه أو الآله أو المصاحبه و المآل واحد فكينونه زيد و ظهوره بالوجود إنما هو بماله من القدر المعلوم فوجوده محدود لا محاله، كيف؟ و هو تعالى بقول: «إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (حم السجده ٥٤)»، و لو لم يكن محدودا لم يكن محاطا له تعالى فمن المحال أن يحاط بما لا حد له و لا نهايه.

و هذا القدر هو الذى بسببه يتعين الشىء و يتميز من غيره ففى زيد مثلا شىء به يتميز من

عمرو وغيره من أفراد الانسان و يتميز من الفرس و البقر و الأرض و السماء و يجوز لنا به أن نقول: ليس هو بعمر و لا بالفرس و البقر و الأرض و السماء و لو لا هذا الحد لكان هو هي و ارتفع التميز.

و كذلك ما عنده من القوى و الآثار و الأعمال محدوده مقدره فليس إبطاره مثلا إبطارا مطلقا في كل حال و في كل زمان و في كل مكان و لكل شيء و بكل عضو مثلا بل إبطار في حال و زمان و مكان خاص و لشيء خاص و بعضو خاص و على شرائط خاصه، و لو كان إبطارا مطلقا لأحاط بكل إبطار خاص و كان الجميع له و نظيره الكلام في سائر ما يعود اليه من خصائص وجوده و توابعه فافهم ذلك.

و من هنا يظهر أن القدر خصوصيه وجود الشيء و كيفيه خلقته كما يستفاد أيضا من قوله تعالى: الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (الأعلى ٣)، و قوله: الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (طه ٥٠) فإن الآيه الاولى رتبت الهدايه و هي الدلاله على مقاصد الوجود على خلق الشيء و تسويته و تقديره، و الآيه الثانيه رتبته على إعطائه ما يختص به من الخلق، و لازم ذلك -على ما يعطيه سياق الآيتين- كون قدر الشيء خصوصيه خلقه غير الخارجه عنه.

ثم إنه تعالى وصف قدر كل شيء بأنه معلوم إذ قال: «وَمَا نُزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ» و يفيد بحسب سياق الكلام أن هذا القدر معلوم له حينما ينزل الشيء و لما يتم نزوله و يظهر وجوده فهو معلوم القدر معينه قبل إيجاده، و اليه يؤول معنى قدر: «كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (الرعد / ٨)، فإن ظاهر الآيه أن كل شيء بماله من المقدار حاضر عنده معلوم له فقوله هناك: «عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ» في معنى قوله هاهنا: «بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ» و نظير ذلك قوله في موضع آخر: «قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا» (الطلاق / ٣)، أي قدرا لا يتجاوزه معينا غير مبهم معلوما غير مجهول و بالجملة للقدر تقدم على الشيء بحسب العلم و المشيه و إن كان مقارنا له غير منفك عنه في

ثم إنه تعالى أثبت بقوله: «عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ» الخ؛ للشيء عنده قبل نزوله الى هذه النشأة و استقراره فيها خزائن، وجعل القدر متأخرا عنها ملازما لنزوله فالشيء و هو في هذه الخزائن غير مقدر بقدر و لا محدود بحد و هو مع ذلك هو.

وقد جمع في تعريف هذه الخزائن بين كونها فوق القدر الذى يلحق الشيء و بين كونها خزائن فوق الواحد و الاثنتين، و من المعلوم أن العدد لا يلحق إلا الشيء المحدود و أن هذه الخزائن لو لم تكن محدوده متميزه بعضها من بعض كانت واحده البته.

و من هنا يتبين أن هذه الخزائن بعضها فوق بعض و كل ما هو عال منها غير محدود بحد ما هو دان غير مقدر بقدره و مجموعها غير محدود بالحد الذى يلحق الشيء و هو في هذه النشأة، و لا يبعد أن يكون التعبير بالتنزيل الدال على نوع من التدرج في قوله: «وَمَا نُنزِّلُهُ» إشارة الى كونه يطوى في نزوله مرحله بعد مرحله و كلما ورد مرحله طراه من القدر أمر جديد لم يكن قبل حتى إذا وقع في الأخيره أحاط به القدر من كل جانب قال تعالى: هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّيذُورًا (الدهر ١)، فقد كان الإنسان و لكنه لم يكن شيئاً مذكورا.

و هذه الخزائن جميعا فوق عالمنا المشهود لأنه تعالى وصفها بأنها عنده و قد أخبرنا بقوله:

«مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ» أن ما عنده ثابت لا يزول و لا يتغير عما هو عليه فهذه الخزائن كائنه ما كانت أمور ثابتة غير زائله و لا- متغيره، و الأشياء في هذه النشأة الماديّه المحسوسه متغيره فانيه لا- ثابتة و لا- باقيه فهذه الخزائن الإلهيه فوق عالمنا المشهود.

هذا ما يعطيه التدبر في الآيه الكريمة و هو و إن كان لا- يخلو من دقه و غموض يعضل على بادئ الفهم لكنك لو أمعنت في التدبر و بذلت في ذلك بعض جهدك استنتار لك و وجدته من واضحات كلامه إن شاء الله تعالى و على من لم يتيسر له قبوله أن يعتمد الوجه الثالث المتقدم

فهو أحسن الوجوه الثلاثة المتقدمه و الله ولي الهدايه و سرجع الى بحث القدر فى كلام مستقل يختص به إن شاء الله فى موضع يناسبه.

قوله تعالى: وَ أَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ اللواقح جمع لاقحه من اللقح بالفتح فالسكون يقال: لقح النخل لقحا أى وضع اللقاح-بفتح اللام-و هو طلع الذكور من النخل على الإناث لتحمل بالتمر، وقد ثبت بالأبحاث الحديثه فى علم النبات أن حكم الزوجيه جار فى عامه النبات و أن فيه ذكوريه و أنوثيه و أن الرياح فى مهبها تحمل الذرات من نطفه الذكور فتلقح بها الإناث، و هو قوله تعالى: «وَ أَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ» .

و قوله: فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ إشاره الى المطر النازل من السحاب و قد تسلم الأبحاث العلميه الحديثه أن الماء الموجود فى الكره الأرضيه من الأمطار النازله عليها من السماء على خلاف ما كانت تعتقده القدماء أنه كره ناقصه محيطه بكره الأرض إحاطه ناقصه و هو عنصر من العناصر الأربعه.

و هذه الآيه التى تثبت بشرها الأول «وَ أَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ» مسأله الزوجيه و اللقاح فى النبات، و بشرها الثانى «فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ» أن المياه الموجوده المدخره فى الأرض تنتهى الى الأمطار، و قوله تعالى السابق: وَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ الظاهر فى أن للوزن دخلا خاصا فى الإنبات و الإنماء من نقود العلم التى سبق إليها القرآن الكريم الأبحاث العلميه و هى تتلو المعجزه أو هى هى.

قوله تعالى: وَ إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ نَحْنُ الْوَارِثُونَ الكلام مسوق للحصر يريد بيان رجوع كل التدبير اليه، و قد كان ما عدّه من النعم كالسما بروجها و الأرض برواسيها، و إنبات كل شىء موزون و جعل المعائش و إرسال اللواقح و إنزال الماء من السماء إنما يتم نظاما مبنا على الحكمه و العلم إذا انضم اليه الحياه و الموت و الحشر، و كان

مما ربما يظن أن بعض الحياه و الموت ليس اليه تعالى و لذا أكد الكلام و أتى بالحصر دفعا لذلك.

ثم جاء بقوله: وَ نَحْنُ الْوَارِثُونَ أى الباقون بعد إمامتكم المتصرفون فيما حوّلناكموه من أمتعه الحياه كأنه تعالى يقول الينا تدبير أمركم و نحن محيطون بكم نحبيكم بعد ما لم تكونوا فنحن قبلكم، و نميتكم و نرثكم فنحن بعدكم.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ لما كانت الآيات السابقه التى تعدّ النعم الإلهيه و تصف التدبير مسوقه لبيان وحدانيته تعالى فى ربوبيته، و كان لا ينفع الخلق و النظم من غير انضمام علمه تعالى و خاصه بمن يحييه و يميته عقبها بهذه الآيه الداله على علمه بمن استقدم منهم بالوجود و من استأخر أى المتقدمين من الناس و المتأخرين على ما يفيد السياق.

و قيل: المراد بالمستقدمين المستقدمون فى الخير، و قيل: المستقدمون فى صفوف الحرب، و قيل: المستقدمون الى الصف الأول فى صلاه الجماعه و المستأخرون خلافهم، و هى أقوال رديه.

قوله تعالى: وَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ الكلام مسوق للحصر أى هو يحشرهم لا غير فهو الرب.

و أورد عليه أنه فى مثل ذلك من الحصر يكون الفعل مسلّم الثبوت و النزاع إنما هو فى الفاعل، و هاهنا ليس كذلك فإن الخصم لا يسلم الحشر من أصله هذا.

و قد ذهب على هذا المعترض أن الآيه حوّلت الخطاب السابق للناس عنهم الى النبى صلّى الله عليه و آله و سلم التفاتا فقول «وَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ» و لم يقبل: إن ربكم هو يحشركم، و النبى صلّى الله عليه و آله و سلم مسلّم للحشر.

و بذلك يظهر نكته الالتفات فى الآيه فى مورده تعالى من التكلم مع الغير الى الغيبه، و فى

مورد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْغِيْبَةِ إِلَى الْخُطَابِ، وَفِي مَوْرِدِ النَّاسِ بِالْعَكْسِ.

وَ قَدْ خَتَمَتِ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ: إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ لِأَنَّ الْحَشْرَ يَتَوَقَّفُ عَلَى الْحُكْمِ الْمَقْتَضِيهِ لِحِسَابِ الْأَعْمَالِ وَ مَجَازَاهِ الْمَحْسَنِ بِإِحْسَانِهِ وَ الْمَسِيءِ بِإِسَاءَتِهِ، وَ عَلَى الْعِلْمِ حَتَّى لَا يَغَادِرَ مِنْهُمْ أَحَدٌ.

[سوره الحجر (١٥): الآيات ٢٦ الى ٤٨]

اشاره

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَ الْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧) وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَمَاذَا سَوَّيْتَهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجِدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْمَآرِضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهُمْ فِيهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عَيْوُنٍ (٤٥) أَدْخُلُوها بِسَلَامٍ آمِينَ (٤٦) وَ نَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَ مَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨)

قوله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» قال الراغب في المفردات: أصل الصلصال تردد الصوت من الشيء اليابس و منه قيل: صلّ المسمار و سمى الطين الجاف صلصالا، قال تعالى: «مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ» «مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» و الصلصلة بقيه ماء سميت بذلك لحكاية صوت تحرّكه في المزاده و قيل: الصلصال الممتن من الطين من قولهم: صلّ اللحم.

وقال: والحمأ والحمأه طين أسود منتن، وقال: وقوله: من حمأ مسنون قيل: متغير وقوله: لم يتسنه معناه لم يتغير والهاء للاستراحة. انتهى.

وقوله: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ الْخ: المراد به بدء خلقه الإنسان بدليل قوله:

وَ يَدَا خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْ نَسِيلَهُ مِنْ سُيَالِهِ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (الم السجده ٨/٨)، فهو إخبار عن خلقه النوع و ظهوره فى الأرض فإن خلق أول من خلق منهم و منه خلق الباقي خلق الجميع.

قال فى مجمع البيان: و أصل آدم كان من تراب و ذلك قوله: «خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ» ثم جعل التراب طينا و ذلك قوله: «وَ خَلَقْتُهُ مِنْ طِينٍ» ثم ترك ذلك الطين حتى تغير و استرخى و ذلك قوله: «مِنْ حَمَاءٍ مَسْنُونٍ» ثم ترك حتى جف و ذلك قوله: «مِنْ صَلْصَالٍ» فهذه الأقوال لا تناقض فيها إذ هى أخبار عن حالاته المختلفه. انتهى.

قوله تعالى: وَ الْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ قال الراغب: السموم الريح الحاره تؤثر تأثير السم. انتهى. و أصل الجن الستر و هو معنى سار فى جميع ما اشتق منه كالجن و المجنه و الجنه و الجنين و الجنان بالفتح و جن عليه الليل و غير ذلك.

و الجن طائفه من الموجودات مستوره بالطبع عن حواسنا ذات شعور و إراده تكرر فى القرآن الكريم ذكرهم و نسب اليهم أعمال عجيبه و حركات سريعه كما فى قصص سليمان عليه السلام و هم مكلفون و يعيشون و يموتون و يحشرون تدل على ذلك كله آيات كثيره متفرقه فى كلامه تعالى.

و أما الجان فهل هو الجن بعينه أو هو أبو الجن كما أن آدم عليه السلام أبو البشر كما عن ابن عباس أو هو إبليس نفسه كما عن الحسن أو الجان نسل إبليس من الجن أو هو نوع من الجن كما ذكره الراغب؟ أقوال مختلفه لا دليل على أكثرها.

و الذى يهدى اليه التدبر فى كلامه تعالى أنه قابل فى هاتين الآيتين الإنسان بالجان فجعلهما

نوعين اثنين لا- يخلوان عن نوع من الارتباط في خلقتهما، و نظير ذلك قوله: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ (الرحمن ١٥).

و لا يخلو سياق ما نحن فيه من الآيات من دلالة على أن إبليس كان جانا و إلا لغي قوله:

«وَ الْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ» الخ؛ و قد قال تعالى في موضع آخر من كلامه في إبليس: كَمَا كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ (الكهف ٥٠)، فأفاد أن هذا الجان المذكور هو الجن نفسه أو هو نوع من أنواع الجن ثم ترك سبحانه في سائر كلامه ذكر الجان من أصله و لم يذكر إلا- الجن حتى في موارد يعم الكلام فيها إبليس و قبيله كقوله تعالى: شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ (الأنعام/ ١١٢)، و قوله: وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ (حم السجده ٢٥)، و قوله: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ -إلى أن قال- يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَعْظَمْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فَانفُذُوا (الرحمن ٣٣).

و ظاهر هذه الآيات من جهه المقابله الواقعه فيها بين الإنسان و الجان تاره و بين الإنسان و الجن أخرى أن الجن و الجان واحد و إن اختلف التعبير.

و ظاهر المقابله بين قوله: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ» الخ؛ و قوله: «وَ الْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ» الخ؛ أن خلق الجان من نار السموم المراد به الخلق الابتدائي و بدء ظهر و النوع كخلق الإنسان من صلصال؛ و هل كان استمرار الخلقه في أفراد الجان المستتبع لبقاء النوع على سنه الخلق الأول من نار السموم بخلاف الإنسان حيث بدئ خلقه من تراب ثم استمر بالنطفه؟ كلامه سبحانه خال عن بيانه ظاهرا غير ما في بعض كلامه من نسبه الذريه الى إبليس كما قال:

أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي (الكهف ٥٠)، و نسبه الموت اليهم كما في قوله:

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ (حم السجده ٢٥)، و المألوف من نوع فيه ذريه و موت هو التناسل و الكلام بعد في هذا التناسل هل هو بسفاد كسفاد نوع من الحيوان أو بغير ذلك؟

و قوله: خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مَقْطُوعِ الْإِضَافَةِ أَي مِنْ قَبْلِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَالْقَرِينَةُ هِيَ الْمَقَابِلَةُ بَيْنَ الْخَالِقِينَ.

وعد مبدأ خلق الجن في الآية هو نار السموم لا ينافى ما في سورة الرحمن من عده مارجا من نار أى لهيبا مختلطا بدخان فإن الآيتين تلخصان أن مبدأ خلقه ريح سموم اشتعلت فكانت مارج نار.

فمعنى الآيتين: أقسم لقد بدأنا خلق النوع الانساني من طين قد جفّ بعد أن كان سائلا متغيرا منتنا، و نوع الجن بدأنا خلقه من ريح حارّه حاده اشتعلت فصارت نارا.

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قَالَ فِي الْمَفْرَدَاتِ: الْبَشَرَةُ ظَاهِرُ الْجِلْدِ وَالْأَدَمَةُ بَاطِنُهُ كَذَا قَالَ عَامَهُ الْإِدْبَاءُ-إِلَى أَنْ قَالَ-وَعَبَّرَ عَنِ الْإِنْسَانِ بِالْبَشَرِ اعْتِبَارًا بِظُهُورِ جِلْدِهِ مِنَ الشَّعْرِ بِخِلَافِ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي عَلَيْهَا الصُّوفُ أَوْ الشَّعْرُ أَوْ الْوَبْرُ، وَاسْتَوَى فِي لَفْظِ الْبَشَرِ الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ وَثَنِي فَقَالَ تَعَالَى: أُنُومٌ لِبَشَرَيْنِ وَخَصَّ فِي الْقُرْآنِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ اعْتَبَرَ مِنَ الْإِنْسَانِ جِثَّتَهُ وَظَاهِرَهُ بِلَفْظِ الْبَشَرِ نَحْوَ «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا» أَنْتَهَى مَوْضِعَ الْحَاجَةِ.

و قوله: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا بِإِضْمَارِ فِعْلِ وَالتَّقْدِيرُ: وَاذْكَرْ إِذْ قَالَ رَبُّكَ، وَفِي الْكَلَامِ التَّفَاتِ مِنَ التَّكْلِمْ مَعَ الْغَيْرِ إِلَى الْغَيْبِ وَكَأَنَّ الْعِنَايَةَ فِيهِ مِثْلَ الْعِنَايَةِ الَّتِي مَرَّتْ فِي قَوْلِهِ: وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ أَيْضًا تَكْشِفُ عَنْ نَبَأِ يَنْتَهَى إِلَى الْحَشْرِ وَالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ الْخَالِدَتَيْنِ.

على أن التكلّم مع الغير في السابق «وَلَقَدْ خَلَقْنَا» مِنْ قَبِيلِ تَكْلِمْ الْعِظْمَاءِ عَنْهُمْ وَعَنْ خِدْمَتِهِمْ وَأَعْوَانِهِمْ تَعْظِيمًا أَيْ بِأَخْذِهِ تَعَالَى مَلَائِكَتَهُ الْكِرَامَ مَعَهُ فِي الْأَمْرِ وَهَذِهِ الْعِنَايَةُ مِمَّا لَا يَسْتَقِيمُ فِي مِثْلِ الْمَقَامِ الَّذِي يَخَاطَبُ فِيهِ الْمَلَائِكَةُ فِي إِخْبَارِهِمْ بِإِرَادَتِهِ خَلْقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَمَرَهُمْ بِالسُّجُودِ لَهُ إِذَا سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ فَافْهَمْ ذَلِكَ وَمَعْنَى الْآيَةِ ظَاهِرٌ.

قوله تعالى: فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ التسويه جعل الشىء مستويا قيما على أمره بحيث يكون كل جزء منه على ما ينبغى أن يكون عليه فتسويه الإنسان أن يكون كل عضو من أعضائه فى موضع الذى ينبغى أن يكون فيه و على الحال التى ينبغى أن يكون عليها.

و لا يبعد أن يستفاد من قوله: «إني خالق- فإذا سويته» أن خلق بدن الإنسان الأول كان على سبيل التدرج الزمانى فكان أولا الخلق و هو جمع الأجزاء ثم التسويه و هو تنظيم الأجزاء و وضع كل جزء فى موضعه الذى يليق به و على الحال التى تليق به ثم النفخ، و لا ينافيه ما فى قوله تعالى: خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران ٥٩/)، فإن قوله: «ثُمَّ قَالَ لَهُ» الخ؛ ناظر الى كينونه الروح و هو النفس الانسانيه دون البدن كما عبّر عنه فى موضع آخر بعد بيان خلق البدن بالتدرج بقوله: ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ (المؤمنون/ ١٤).

و قوله: وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي النفخ إدخال الهواء فى داخل الأجسام بفم أو غيره و يكتنى به عن إلقاء أثر أو أمر غير محسوس فى شىء، و يعنى به فى الآيه إيجاده تعالى الروح الانسانى بما له من الرابطة و التعلق بالبدن، و ليس بداخل فيه دخول الهواء فى الجسم المنفوخ فيه كما يشير اليه قوله سبحانه: ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ (المؤمنون ١٤/)، و قوله تعالى: قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (السجده/ ١١).

فالآيه الاولى- كما ترى- تبين أن الروح الانسانى هو البدن منشأ خلقا آخر و البدن على حاله من غير أن يزداد فيه شىء، و الآيه الثانية تبين أن الروح عند الموت مأخوذ من البدن و البدن على حاله من غير أن ينقص منه شىء.

فالروح أمر موجود في نفسه له نوع اتحاد بالبدن بتعلقه به و له استقلال عن البدن إذ انقطع تعلقه به و فارقه و قد تقدم بعض ما يتعلق من الكلام بهذا المقام في تفسير قوله تعالى: **وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ** (البقره ١٥٤/) في الجزء الأول من الكتاب.

و نرجو أن نستوفي هذا البحث في ذيل قوله: **«قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي»** الآية ٨٥ من سورة الإسراء إن شاء الله.

و إضافة الروح اليه تعالى في قوله: **«مَنْ رُوحِي»** للتكريمه و التشريف من الإضافة اللاميه المفيده للملك، و قوله: **«فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ»** أى اسجدوا، و لا يبعد أن يفهم منه أن خزوا على الأرض ساجدين له فيفيد التأكيد في الخضوع من الملائكه لهذا المخلوق الجديد كما قيل.

و معنى الآية فإذا عدلت تركيبه و أتممت صنع بدنه و أوجدت الروح الكريم المنسوب إلى الذى أربط بينه و بين بدنه فقعدوا و خزوا على الأرض ساجدين له.

قوله تعالى: **فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ** لفظه أجمعون تأكيد بعد تأكيد لتشديده، و المراد أن الملائكه سجدوا له بحيث لم يبق منهم أحد و قد استثنى من ذلك إبليس و لم يكن منهم لقوله تعالى: **كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** (الكهف ٥٠/)، و أما قول من قال: إن طائفه من الملائكه كانوا يسمعون الجن و كان إبليس منهم أو أن الجن بمعنى الستر فيعم الملائكه و غيرهم فمما لا يصغى اليه، و قد تقدم في تفسير سورة الأعراف كلام في معنى شمول الأمر بالسجود لإبليس مع عدم كونه من الملائكه، و معنى الآيتين ظاهر.

قوله تعالى: **قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ** «مَا لَكَ» مبتدأ و خبر أى ما الذى هو كائن لك؟ و قوله: **«أَلَّا تَكُونَ»** من قبيل نزع الخافض و التقدير فى أن لا تكون مع الساجدين و هم الملائكه، و محصل المعنى: ما بالك لم تسجد؟

قوله تعالى: **قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ**

مَسْتُونَ فِي التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ: «لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ» دُونَ أَنْ يَقُولَ: لَا أَسْجُدُ أَوْ لَسْتُ أَسْجُدُ دَلَالَةً عَلَى أَنَّ الْإِبَاءَ عَنِ السَّجْدِ مَقْتَضِي ذَاتَهُ وَ كَانَ هُوَ الْمُرْتَقِبُ مِنْهُ لَوْ أُطْلِعَ عَلَى جَوْهَرِهِ فَتَفِيدُ الْآيَةَ بِالْكِنَايَةِ مَا يَفِيدُهُ قَوْلُهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (ص ٧٦) بالتصريح.

و قد تقدم كلام في معنى السجود لآدم و أمر الملائكة و إبليس بذلك و ائتمارهم و تمرده عنه، نافع في هذا الباب في تفسير سورتي البقرة و الأعراف من هذا الكتاب.

قول تعالى فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ، وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ الرَّجِيمُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ مِنَ الرَّجْمِ وَ هُوَ الطَّرْدُ وَ شَاعَ اسْتِعْمَالُهُ فِي الطَّرْدِ بِالْحِجَارَةِ وَ الْحِصَاةِ، وَ اللَّعْنُ هُوَ الطَّرْدُ وَ الْإِبْعَادُ مِنَ الرَّحْمَةِ.

و من هنا يظهر أن قوله: وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ الخ؛ بمنزله البيان لقوله: «فَأِنَّكَ رَجِيمٌ» فَإِنَّ الرَّجْمَ كَانَ سَبَبًا لَخُرُوجِهِ مِنْ بَيْنِ الْمَلَائِكَةِ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ مِنَ الْمَنْزَلَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَ بِالْجَمَلَةِ مِنْ مَقَامِ الْقُرْبِ وَ هُوَ مَسْتَوَى الرَّحْمَةِ الْخَاصَةِ الْإِلَهِيَّةِ فَيَنْطَبِقُ عَلَى الْإِبْعَادِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَ هُوَ اللَّعْنُ.

و قد نسب سبحانه هذه اللعنة المجمعولة على إبليس في موضع آخر الى نفسه فقال: وَ إِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (ص ٥٨)، و قيدها في الآيتين جميعاً بقوله: «إِلَى يَوْمِ الدِّينِ» .

أما جعل مطلق اللعنة عليه في قوله: «عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ» فَلَأَنَّ اللَّعْنَ يَلْحَقُ الْمَعْصِيَةَ وَ مَا مِنْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا وَ لِإِبْلِيسِ فِيهِ صَنْعٌ بِالْإِغْوَاءِ وَ الْوَسْوَسَةِ فَهُوَ الْأَصْلُ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ كُلُّ مَعْصِيَةٍ وَ مَا يَلْحَقُهَا مِنْ لَعْنٍ حَتَّى فِي عَيْنِ مَا يَعُودُ إِلَى أَشْخَاصِ الْعِصَاةِ مِنَ اللَّعْنِ وَ الْوَبَالِ، وَ تَذَكَّرْ فِي ذَلِكَ مَا تَقَدَّمَ فِي ذِيْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ (الأنفال ٣٧) في الجزء التاسع من الكتاب.

على أنه لعنه الله أول فاتح فتح باب معصية الله و عصاه في أمره فاليه يعود وبال هذا الطريق بسالكيه ما سلكوا فيه.

و أما جعل لعنته خاصه عليه فى قوله: «عليه لعنتى» فلأن الإبعاد من الرحمه بالحقيقه إنما يؤثر أثره إذا كان منه تعالى إذ لا يملك أحد من رحمته إعطاء و منعا إلا بإذنه فاليه يعود حقيقه الإعطاء و المنع.

على أن اللعن من غيره تعالى بالحقيقه دعاء عليه بالإبعاد من الرحمه و أما نفس الإبعاد الذى هو نتيجه الدعاء فهو من صنعه القائم به تعالى و حقيقته المبالغه فى منع الرحمه.

و قال فى المجمع: و قال بعض المحققين: إنما قال سبحانه هنا: «وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ» بالألف و اللام، و قال فى سورة ص: لَعْنَتِي بِالْإِضَافَةِ لِأَنَّ هُنَاكَ يَقُولُ «لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ» مضافا، فقال: «وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي» على المطابقه، و قال هنا: «مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ» و ساق الآيه على اللام فى قوله: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ» و قوله: «وَ الْجَانَّ» فأتى باللام أيضا فى قوله:

«وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ» انتهى و قال أيضا فى الآيه بيان أنه لا يؤمن قط.

و أما تقييد اللعنه بقوله: إِلَى يَوْمِ الدِّينِ فلأن اللعنه هى عنوان الإثم و الوبال العائد الى النفس من المعصيه و المعصيه محدوده بيوم القيامه فالיום عمل و لا جزاء و غدا جزاء و لا عمل، و إن شئت فقل: هذه الدار دار كتابه الأعمال و حفظها و يوم القيامه دار الحساب و الجزاء.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ الانظار هو الامهال و قد صدر كلامه بقوله: «رَبِّ» و هو يخاصمه و قد عصاه و استكبر عليه تعالى لأنه فى مقام الدعاء لا مفر له من دعوته تعالى بما يثير به الرحمه الإلهيه المطلقه و هو الالتجاء اليه برؤيته له ليستجيب له و هو مغضوب عليه.

و قد صدر مسأله بفاء التفریع فى قوله: «فَأَنْظِرْنِي» و ذكر فيه بعثه عامه البشر من غير أن يخص بالذكر آدم أباهم الذى ابتلى بالرجم و اللعن من أجل الإباء عن السجود له و ذلك كله مبنى على ما تقدم فى تفسير آيات القصه فى سورة الأعراف أن المأمور به كان هو السجود

لعامه البشر و كان آدم عليه السّلام كالقنبله المنصوبه للسجود يمثل به النوع الانساني.

و توضيحه أنه قد تقدم في قوله تعالى: **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ نُفُوسًا صَوْرًا كُفَّ نَمِّ قُلُوبًا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَاجِدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ** (الأعراف ١١) أنهم إنما أمروا بالسجده لنوع الانسان لا لشخص آدم عليه السّلام و لم يكن هذه السجده تشريفا اجتماعيا من غير غايه حقيقيه بل كانت خضوعا بحسب الخلقه فهم بحسب ما أريد من خلقتهم خاضعون للإنسان بحسب ما أريد من كمال خلقتهم، أي إنهم مسخرون لأجله عاملون في سبيل سعادته أي إن للانسان منزله من القرب و مرحله من كمال السعاده تفوق ما للملائكه من ذلك.

فسجودهم جميعا له دليل أنهم جميعا مسخرون في سبيل كماله من السعاده عاملون لأجل فوزه و فلاحه كمالته الحياه و ملائكه الموت و ملائكه الأرزاق و ملائكه الوحي و المعقبات و الحفظه و الكتبه و غيرهم ممن تذكرهم متفرقات الآيات القرآنيه فالملائكه أسباب إلهيه و أعوان للانسان في سبيل سعاده و كماله.

و من هنا يظهر للمتدبر الفطن أن إباء إبليس عن السجده استنكاف منه عن الخضوع لنوع الانسان و العمل في سبيل سعاده و إعانته على كماله المطلوب على خلاف ما ظهر من الملائكه فهو يبائنه عن السجده خرج من جمع الملائكه كما يفيدته قوله تعالى: **«مَا لَكُمْ أَلَّا تَكُونُوا مَعَ السَّاجِدِينَ»** و أظهر الخصومه لنوع الانسان و البراءه منهم ما حيوا و عاشوا أو خالدا مؤبدا.

و يؤيده جعله تعالى اللعنه المطلقه عليه من يوم أبي الى يوم الدين و هو مدته مكث النوع الانساني في هذه الدنيا فجعلها عليه كذلك و لما يدّع إبليس أنه سيغويهم و لم يقل بعد **«لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ»** مشعر بأن إباءه عن السجده نوع خصومه و عداوه منه لهذا النوع آخذا من آدم الى آخر من سيولد و يعيش من ذريته.

فكأنه عليه اللعنه فهم من قوله تعالى: **«وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَيَّ يَوْمَ الدِّينِ»** أن له شأننا مع

النوع الانساني الى يوم القيامة و أن لشقائهم و فساد أعمالهم ارتباطا به من حيث امتنع عن السجود و لذلك سأل النظره الى يوم يبعثون مفرعا ذلك على اللعنه المجمعوله عليه فقال: «رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» و لم يقل: رَبِّ أَنْظِرْنِي الى يوم يبعثون و لم يقل: أَنْظِرْنِي الى يوم يموت آدم أو أَنْظِرْنِي ما دام حيا يعيش بل ذكر آدم و بنيه جميعا و طلب النظره الى يوم يبعثون مفرعا ذلك على اللعنه الى يوم الدين فلما أُجيب الى ما سأل أبدي ما فى كمون ذاته و قال: لاغوينهم أجمعين.

قوله تعالى: قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ جواب منه سبحانه لإبليس و فيه إجابته و ردّ أما الإجابته بالنسبه الى أصل الإنظار الذى سأله و أما الردّ بالنسبه الى القيد و هو أن يكون الإنظار الى يوم يبعثون فإن من الواضح اللائح بالنظر الى سياق الآيتين أن يوم الوقت المعلوم غير يوم يبعثون فلم يسمح له بإنظاره الى يوم يبعثون بل الى يوم هو غيره و لا محاله هو قبل يوم البعث.

و ظاهر يوم الوقت المعلوم أنه وقت تعين فى العلم الإلهي نظير قوله: وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (الحجر ٢١)، و قوله: أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (الصفات ٤١) فهو معلوم عند الله قطعا و أما أنه معلوم لإبليس أو مجهول عنده فغير معلوم من اللفظ، و قول بعضهم: أنه سبحانه أبهم اليوم و لم يبين فهو معلوم لله غير معلوم لإبليس لأن فى بيانه إغراء بالمعصيه كلام خال عن الدليل فإبهام اللفظ بالنسبه اليها غير إبهام ما ألقى الى إبليس من القول بالنسبه اليه على أن إغراء إبليس بالمعصيه و هو الأصل لكل معصيه مفروضه لا يخلو عن إشكال فافهمه.

على أن قول إبليس ثانيا «لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» شاهد على أنه سيبقى الى آخر ما يعيش الإنسان فى الدنيا ممن يمكنه إغواؤه فقد كان فهم من قوله تعالى: «إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» أنه آخر عمر البشر العائشين فى الأرض الجائر له إغواؤهم.

و نسب الى ابن عباس و مال اليه الجمهور أن اليوم هو آخر أيام التكليف و هو النفخه الاولى يوم يموت الخلائق و كأنه مبنى على أن إبليس باق ما بقى التكليف و أمكنت المخالفه و المعصيه، و هو مده عمر الإنسان فى الدنيا، و ينتهى ذلك الى النفخه الاولى التى بها يموت الخلائق فهو يوم الوقت المعلوم الذى أنظره الله اليه، و بينه و بين النفخه الثانيه التى فيها يعثون أربعمائه سنه أو اربعون سنه على اختلاف الروايات، و هى ما به التفاوت بين ما سأله إبليس و بين ما أجاب اليه الله سبحانه.

و هذا وجه حسن لو لا- ما فيه من قولهم: إن إبليس باق ما بقى التكليف و أمكنت المخالفه و المعصيه فإنها مقدمه لا يتنه و لا مبيته و ذلك أن تعويل القوم فى ذلك على أن المستفاد من الآيات و الأخبار كون كل كفر و فسوق موجود فى النوع الإنسانى مستندا الى إغواء إبليس و وسوسته كما يدلّ عليه أمثال قوله تعالى: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (يس ١٦٠) و قوله: وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ الخ؛ الى غير ذلك من الآيات. و مقتضاها أن يدوم وجود إبليس ما دام التكليف باقيا، و التكليف باق ما بقى الإنسان و هو المطلوب.

و فيه أن كون المعصيه الإنسانيه مستنده بالجملة الى إغواء إبليس مستفاده من الآيات و الروايات لا غبار عليه لكنه إنما يقتضى بقاء إبليس ما دامت المعصيه و الغوايه باقيه لا بقاءه ما دام التكليف باقيا، و لا دليل على الملازمه بين المعصيه و التكليف وجودا.

بل الحجه قائمه من العقل و النقل على أن غايه الانسان النوعيه و هى السعاده ستعمّ النوع و يتخلص المجتمع الانسانى الى الخير و الصلاح و لا يعبد على الأرض يومئذ إلا الله سبحانه، و ينطوى وقتئذ بساط الكفر و الفسوق، و يصفو العيش و يرتفع أمراض القلوب و وساوس الصدور، و قد تقدم تفصيل ذلك فى مباحث النبوه فى الجزء الثانى و فى قصص نوح فى الجزء العاشر من الكتاب. قال تعالى: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ

بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (الروم ٤١)، وقال: وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (الأنبياء ١٠٥).

و من ذلك يظهر أن الذي استندوا اليه من الحجّة إنما يدل على كون يوم الوقت المعلوم الذي جعله الله غايه إنظار إبليس هو يوم يصلح الله سبحانه المجتمع الإنساني فينقطع دابر الفساد و لا يعبد يومئذ إلا الله لا يوم يموت الخلائق بالنفخه الاولى.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ الباء فى قوله: «بِمَا أَغْوَيْتَنِي» للسبب و«ما» مصدرية أى أتسبب بإغوائك إياى الى التزيين لهم و ألقى اليهم ما استقر فى من الغوايه كما قالوا يوم القيامة على ما حكى الله: أَعْوَيْنَاهُمْ كَمَا عَوَيْنَا (القصص ٦٣).

و قول بعضهم: إن الباء للقسم أى أقسم بإغوائك لازينن؛ من أردإ القول فلم يعهد فى كتاب و لا سنّه أن يقسم بمثل الإغواء و الإضلال و ليس فيه شىء مفهوم من التعظيم اللازم فى القسم.

و قد نسب لعنه الله فى قوله: بِمَا أَغْوَيْتَنِي الى الله سبحانه أنه أغواه و لم يردّه الله سبحانه اليه و لا- أجاب عنه و ليس مراده به غوايته إذ عصى أمر السجده و لم يسجد لآدم عليه السّلام و الدليل على ذلك أن لا رابطه بين معصيته فى نفسه و بين معصيه الانسان لربه حتى يكون معصيته سبب معصيتهم و يتسبب هو بها الى إغوائهم.

و إنما يريد به ما يفيدده قوله تعالى: «وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّغْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ» من استقرار اللعنه المطلقه فيه و هى الابعاد من الرحمه و الإضلال عن طريق السعاده و هى إغواء له إثر الغوايه التى أبداها من نفسه و أتى بها من عنده فيكون من إضلاله تعالى مجازاه لا إضلالا ابتدائيا و هو جائز غير ممتنع عليه تعالى، و لذلك لم يردده كما قال تعالى: يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦)، و قد بيّنا ذلك فى ذيل الآيه و مواضع اخرى من هذا

أخلصوا لله و ما أخلصهم إلا الله سبحانه، وقد قدمنا فى الكلام على الإخلاص فى تفسير سورة يوسف أن المخلصين هم الذين أخلصهم الله لنفسه بعد ما أخلصوا أنفسهم لله فليس لغيره سبحانه فيهم شركة و لا فى قلوبهم محلّ فلا يشتغلون بغيره تعالى فما ألقاه اليهم الشيطان من حباله و تزيناته عاد ذكرًا لله مقرّبًا اليه.

و من هنا يترجح أن الاستثناء إنما هو الإِغواء فقط لا- منه و من التزيين بمعنى أنه لعنه الله يزين للكل لكن لا- يغوى إلا- غير المخلصين.

و يستفاد من استثناء العباد أولاً ثم تفسيره بالمخلصين أن حق العبودية إنما هو بأن يخلص الله العبد لنفسه أى أن لا يملكه إلا هو و يرجع الى أن لا يرى الإنسان لنفسه ملكا و أنه لا يملك نفسه و لا شيئاً من صفات نفسه و آثارها و أعمالها و أن الملك- بكسر الميم و ضمها- لله وحده.

قوله تعالى: قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ظاهر الكلام على ما يعطيه السياق أنه كناية على أن الأمر اليه تعالى لا غنى فيه عنه بوجه كما أن كون طريق السفينه على البحر يقضى على راعيها بأن لا مفرّ لهم مما يستدعيه العبور على الماء من العده و الوسيله و كذا كون طريق القافله على الجبل يحوجهم الى ما يتهيأ به لعبور قلله الشاهقه و مسالكه الصعبه فكونه صراطا عليه تعالى بالاستقامه هو أنه أمر متوقف من كل جهه الى حكمه و قضائه تعالى فإنه الله الذى منه يبدأ كل شىء و اليه ينتهى فلا يتحقق أمر إلا و هو ربه القيوم عليه.

و ظاهر السياق أيضا أن الإشاره بقوله: «هَذَا صِرَاطٌ» الخ؛ الى قول إبليس «لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ» لما أظهر بقوله هذا أنه سينتقم منهم و يبسط سلطته بالتزيين و الإِغواء عليهم جميعا فلا يخلص منهم إلا القليل كأنه يشير الى أنه سيستقلّ بما عزم عليه و يعلو بإرادته على الله سبحانه فيما أراد من خلقهم و استخلافهم و استعبادهم كما حكاه الله تعالى من قوله فى موضع آخر من قوله: «وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (الأعراف ١٧)».

فمعنى الآية أن ما ذكرت من أنك ستغويهم أجمعين و استثنيت منهم من استثنيت و أظهرت نسبتته الى قوتك و مشيئتك زاعما فيه أنك مستقل به، أمر لا- يملكه إلا أنا و لا يحكم فيه غيرى و لا يصدر إلا عن قضائى فإن أغويت فيأذننى أغويت و إن منعت فبمشيئتى منعت فليس اليك من الأمر شىء و لا من الملك إلا ما ملكتك و لا من القدره إلا ما أقدرتك، و الذى أفضيه لك من السلطان أن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من أتبعك، الخ.

قوله تعالى: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ هذا هو القضاء الذى أشار سبحانه اليه فى الآية السابقه فى أمر الإغواء و ذكر أنه له وحده ليس لغيره فيه صنع و لا نصيب.

و محصيه له أن آدم و بنيه كلهم عباده لا- كما قاله إبليس حيث قصر عباده على المخلصين منهم إذ قال: «إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ» و لم يجعل سبحانه له عليهم- أى على العباد- سلطانا حتى يستقل بأمرهم فيغويهم، و إنما جعل له السلطان على طائفه منهم و هم الذين اتبعوه من الغاوين و ولّوه أمرهم و ألقوا اليه زمام تدبيرهم فهؤلاء هم الذين له عليهم سلطان.

فإذا أمعنت فى الآية وجدتها تردّ على إبليس قوله: «لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ» من ثلاث جهات أصليه:

إحداها: أنه حصر عباده فى المخلصين منهم و نفى عنهم سلطان نفسه و عمم سلطانه على الباقيين و الله سبحانه عمم عباده على الجميع و قصر سلطان إبليس على طائفه منهم و هم الذين اتبعوه من الغاوين و نفى سلطانه على الباقيين.

و الثانيه: أنه لعنه الله ادعى لنفسه الاستقلال فى إغوائهم كما يظهر من قوله: «لَأُغْوِيَنَّهُمْ» فى سياق المخاصمه و التقرير بالانتقام و الله سبحانه يردّ عليه بأنه منه مزعمه باطله و إنما هو عن قضاء من الله و سلطان بتسليطه و إنما ملكه إغواء من اتبعه و كان غاويا فى نفسه و بسوء اختياره.

فلم يأت إبليس بشيء من نفسه و لم يفسد أمرا على ربه لا- في إغوائه أهل الغواية فإنه بقضاء من الله سبحانه أن يستقر لأهل الغواية غيهم بسببه- وقد اعترف لعنه الله بذلك بعض الاعتراف بقوله: «رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي» -و لا في استثنائه المخلصين فإنه أيضا بقضاء من الله نافذ فلا حكم إلا لله.

و هذا الذى تفيدته الآيه الكريمة أعنى تسليط إبليس على إغواء الغاوين الذين هم فى أنفسهم غاؤون و تخليص المخلصين و هم مخلصون فى أنفسهم من كيده كل ذلك بقضاء من الله، مبنى على أصل عظيم يفيد التوحيد القرآنى المفاد بأمثال قوله تعالى: **إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ** (يوسف ٦٧)، و قوله: **وَ هُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُ الْحُكْمُ** (القصص ٧٠)، و قوله: **الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ** (آل عمران ٦٠)، و قوله: **وَ يَحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ** (يونس ٨٢)، و غير ذلك من الآيات الدالّة على أن كل حكم إيجابى أو سلبى فهو مملوك لله نافذ بقضائه.

قوله تعالى: **وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ** الظاهر أن «مَوْعِدًا» اسم مكان و المراد بكون جهنم موعدهم كونه محل إنجاز ما وعدهم الله من العذاب.

و هذا منه سبحانه تأكيد لثبوت قدرته و رجوع الأمر كله اليه كأنه تعالى يقول له ما ذكرته من السلطان على الغاوين ليس لك من نفسك و لم تعجزنا بل نحن سلطناك عليهم لا تباعهم لك على أنا سنجازيهم بعذاب جهنم.

و لكون الكلام مسوقا لبيان حالهم اقتصر على ذكر جزائهم و لم يذكر معهم إبليس و لا جزاءه بخلاف قوله: **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ** (ص ٨٥) و قوله:

فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (الإسراء ٦٣)، لأن المقام غير المقام.

قوله تعالى: **لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ** لم يبين سبحانه فى شيء من صريح كلامه ما هو المراد بهذه الأبواب أ هى كأبواب الحيطان مداخل تهدى

الجميع الى عرصه واحده أم هي طبقات و دركات تختلف في نوع العذاب و شدته؟ و كثيرا ما يسمى في الامور المختلفه الأنواع كل نوع بابا كما يقال: أبواب الخير و أبواب الشر و أبواب الرحمه، قال تعالى: فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ (الأنعام ٤٤)، و ربما سمى أسباب الشيء و طرق الوصول اليه أبوابا كأبواب الرزق لأنواع المكاسب و المعاملات.

و ليس من البعيد أن يستفاد المعنى الثانى من متفرقات آيات النار كقوله تعالى: وَ سَيِّقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا - الى أن قال - قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا (الزمر ٧٢)، و قوله: إِنَّ الْمُتَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ (النساء ١٤٥)، الى غير ذلك من الآيات.

و يؤيده قوله: لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ فَإِنْ ظَاهَرَهُ أَنْ نَفْسَ الْجُزْءِ مَقْسُومٌ موزع على الباب، و هذا إنما يلائم الباب بمعنى الطبقة دون الباب بمعنى المدخل و أما تفسير بعضهم الجزء المقسوم بالفريق المعين المفروز من غيره فوهنه ظاهر.

و على هذا فكون جهنم لها سبعة أبواب هو كون العذاب المعدّ فيها متنوعا الى سبعة أنواع ثم انقسام كل نوع أقساما حسب انقسام الجزء الداخلى الماكت فيه، و ذلك يستدعى انقسام المعاصى الموجه للدخول فيها سبعة أقسام، و كذا انقسام الطرق المؤديه و الأسباب الداعيه الى تلك المعاصى ذاك الانقسام، و بذلك يتأيد ما ورد من الروايات فى هذه المعانى كما سيوافيك إن شاء الله.

قوله تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ، اُدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ أى إنهم مستقرون فى جنّات و عيون يقال لهم: ادخلوها بسلام لا يوصف و لا يكتنه نعتة فى حال كونكم آمنين من كل شرّ و ضرّ.

لما ذكر سبحانه قضاءه فيمن أتبع إبليس من الغاوين ذكر ما قضى به فى حق المتقين من الجنة، و قد ورد تفسير التقوى فى كلامه صلّى الله عليه و آله و سلم بالورع عن محارم الله، و قد تكرر فى كلامه

تعالى بشراهم بالجنة فيكون المتقون أعم من المخلصين.

فالحق أن الآيه إنما تشمل الذين استقرت فيهم ملكة التقوى و هو الورع عن محارم الله فاولئك هم المقضى عليهم بالسعاده و الجنة قضاء لازما، نعم المستفاد من الكتاب و السنه أن أهل التوحيد و هم من حضر الموقف بشهاده أن لا إله إلا الله لا يخلدون في النار و يدخلون الجنة لا محاله، و هذا غير دلاله آيه المتقين على ذلك.

قوله تعالى: **وَ نَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلِيٍّ شِرْرٍ مُتَّقَابِلِينَ** الى آخر الآيتين. الغل الحقد، و قيل هو ما في الصدر من حقد و حسد مما يبعث الإنسان الى إضرار الغير، و السرر جمع سرير و النصب هو التعب و العى الوارد من خارج.

يصف تعالى في الآيتين حال المتقين في سعادتهم بدخول الجنة، اختص بالذكر هذه الامور من بين نعم الجنة على كثرتها فإن العناية باقتضاء من المقام متعلقه ببيان أنهم في سلام و أمن مما ابتلى به الغاؤون من بطلان السعاده و ذهاب السيادة و الكرامه فذكر أنهم في أمن من قبل أنفسهم لأن الله نزع ما في صدورهم من غل فلا يهيم الواحد منهم بصاحبه سوء بل هم إخوان على سرر متقابلين و لتقابلهم معنى سيأتى في البحث الروائى إن شاء الله تعالى، و أنهم في أمن من ناحيه الأسباب و العوامل الخارجيه فلا يمسههم نصب أصلا، و أنهم في أمن و سلام من ناحيه ربهم فما هم من الجنة بمخرجين أبدا فلهم السعاده و الكرامه من كل جهه، و لا- يغشاهم و لا- يمسههم شقاء و وهن من جهه أصلا لا من ناحيه أنفسهم و لا من ناحيه سائر ما خلق الله و لا من ناحيه ربهم (١)(٢).

ص: ٥٠٩

-
- ١- ١). الحجر ٢٦-٤٨: كلام في الاقضية التي صدرت عن مصدر العزه في بدء خلق الانسان.
٢- ٢). الحجر ٢٦-٤٨: بحث روائى فى: الروح التي نفخ الله فى آدم؛ لم اضاف الله الروح الى نفسه؟؛ زمان موت ابليس؛ ابواب جهنم.

نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠) وَ تَسْتَهْمُونَ عَنْ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا
 سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجَلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونَنِي
 (٥٤) قَالُوا بِشَرِّ نَارِكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَلَمَّا حَضَبْتُكُمْ أَتَيْهَا
 الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمَنُجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ
 (٦٠) فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِنَّاتِكُمْ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَ أَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ
 وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسِرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ اتَّبِعْ أذْبَارَهُمْ وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَ فَضَيْنَا إِلَيْهِ
 ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُضْبِحِينَ (٦٦) وَ جَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبِشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَعُفَاءُ لَا تَنْفَعُونَ (٦٨) وَ
 اتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا تُخْزَوْنَ (٦٩) قَالُوا أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي
 سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَ آمَطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَ إِنَّهَا لَبَسِيلٌ مَقِيمٌ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَمَآيَةٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) وَ إِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ (٧٨)
 فَاتَّقَمْنَا مِنْهُمْ وَ إِنَّهُمَا لِيَأْمَامٌ مُبِينٌ (٧٩) وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ (٨٠) وَ آتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَ
 كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُضْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤)

قوله تعالى: تَبَيَّنَ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ المراد بقوله: «عِبَادِي» على ما يفيدته سياق الآيات مطلق العباد و لا يعبأ بما ذكره بعضهم: أن المراد بهم المتقون السابق ذكرهم أو المخلصون.

و تأكيد الجملتين بالاسميه و إن و ضمير الفصل و اللام فى الخبر يدل على أن الصفات المذكوره فيها أعنى المغفره و الرحمه و ألم العذاب بالغه فى معناها النهايه بحيث لا تقدر بقدر و لا يقاس بها غيرها،فما من مغفره أو رحمه إلا و يمكن أن يفرض لها مانع يمنع من إرسالها أو مقدر يقدرها و يحدّها،لكنه سبحانه يحكم لا معقّب لحكمه و لا مانع يقاومه فلا يمنع عن إنجاز مغفرته و رحمته شيء و لا- يحدّها أمر إلا- أن يشاء ذلك هو جلّ و عزّ،فليس لأحد ان يئأس من مغفرته أو يقنط من روحه و رحمته استنادا الى مانع يمنع أو رادع يردع إلا ان يخافه تعالى نفسه كما قال:

لَا تَقْنُطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَ أُنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ (الزمر ٥٤).

و ليس لأحد أن يحقر عذابه أو يؤمل عجزه أو يأمن مكره و الله غالب على أمره و لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

قوله تعالى: وَ نَبَّئُهُمْ عَنْ ضَيْفٍ إِبْرَاهِيمَ الضيف معروف و يطلق على المفرد و الجمع و ربما يجمع على أضياف و ضيوف و ضيفان لكن الأفصح- كما قيل- أن لا يشئى و لا يجمع لكونه مصدرا فى الأصل.

و المراد بالضيف الملائكه المكرمون الذين أرسلوا لبشاره إبراهيم بالولد و لهلاك قوم لوط سمّاهم ضيفا لأنهم دخلوا عليه فى صورته الضيف.

قوله تعالى: إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ، قَالُوا لَا

تَوَجَّلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۚ ضَمِيرُ الْجَمْعِ فِي «دَخَلُوا وَقَالُوا» فِي الْمَوْضِعِينَ لِلْمَلَائِكَةِ فَقَوْلُهُمْ: «سَلَامًا» تَحِيَّةٌ وَتَقْدِيرُهُ نَسَلِمُ عَلَيْكَ سَلَامًا وَقَوْلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ «إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ» أَي خَائِفُونَ وَالْوَجَلُ: الْخَوْفُ.

وإنما قال لهم إبراهيم ذلك بعد ما استقر بهم المجلس و قدّم اليهم عجلا حينذا فلم يأكلوا منه فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم و أوجس منهم خيفة كما في سورة هود فالقصه المذكوره على نحو التلخيص.

و قولهم: لَا تَوَجَّلْ تَسْكِينٌ لَوْجَلِهِ وَ تَأْمِينٌ لَهُ وَ تَطْيِيبٌ لِنَفْسِهِ بِأَنَّهُمْ رَسَلُ رَبِّهِ وَ قَدْ دَخَلُوا عَلَيْهِ لِيُبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ أَي بَوْلَدٍ يَكُونُ غُلَامًا وَ عَلِيمًا، وَ لَعَلَّ الْمُرَادَ كَوْنَهُ عَلِيمًا بِتَعْلِيمِ اللَّهِ وَ وَحْيِهِ فَيَقْرَبُ مِنْ قَوْلِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: وَ بَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا (الصافات ١١٢).

قوله تعالى: قَالَ أَ بَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشَّرُونَ تلقى إبراهيم عليه السلام البشرى و هو شيخ كبير هرم لا عقب له من زوجه و قد أياسته العاده الجارية عن الولد و ابن كان يجلّ أن يقنط من رحمه الله و نفوذ قدرته، و لذا تعجب من قولهم و استفهمهم كيف يبشرونه بالولد و حاله هذه الحال؟ و زوجه عجوز عقيم كما وقع في موضع آخر من كلامه تعالى.

فقوله: قَالَ أَ بَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ كِنَايَةٌ عَنِ الشَّيْخُوخَةِ وَ مَسَّهُ هُوَ نِيلُهُ مِنْهُ مَا نَالَ بِإِفْنَاءِ شِبَابِهِ وَ إِذْهَابِ قَوَاهِ، وَ الْمَعْنَى إِنِّي لِأَتَعْجَبُ مِنْ بَشَارَتِكُمْ إِيَّايَ وَ الْحَالُ أَنِّي شَيْخٌ هَرَمَ فَنِي شِبَابِي وَ فَقَدْتُ قُوَى بَدَنِي، وَ الْعَادَةُ تَسْتَدْعِي أَنْ لَا يَوْلَدُ لِمَنْ هَذَا شَأْنُهُ وَ لَد.

و قوله: فِيمَ تَبَشَّرُونَ تَفْرِيعٌ عَلَى قَوْلِهِ: «مَسَّنِيَ الْكِبَرُ» وَ هُوَ اسْتِفْهَامٌ عَمَّا بَشَّرُوهُ بِهِ كَأَنَّهُ يَشْكُ فِي كَوْنِ بَشَارَتِهِمْ بِشَرِيٍّ بِالْوَلَدِ مَعَ تَصْرِيحِهِمْ بِذَلِكَ لَا اسْتِبْعَادَ ذَلِكَ فَيَسْأَلُ مَا هُوَ الَّذِي تَبَشَّرُونَ بِهِ؟ فَإِنَّ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ كَلَامِكُمْ أَمْرٌ عَجِيبٌ، وَ هَذَا شَائِعٌ فِي الْكَلَامِ يَقُولُ

الرجل إذا أخير بما يستعبده أو لا يصدق: ما تقول؟ وما تريد؟ وما ذا تصنع؟.

قوله تعالى: **قَالُوا بَشِّرْنَا كَمَا بِالْحَقِّ** -الى قوله- **إِلَّا الضَّالُّونَ الباء** فى «**بِالْحَقِّ**» للمصاحبه أى إن بشارتنا ملازمه للحق غير منفكه منه فلا تدفعها بالاستبعاد فتكون من القانطين من رحمه الله، وهذا جواب للملائكه و قد قابلهم إبراهيم عليه السلام على نحو التكنيه فقال:

«**وَمَنْ يَقْنُطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ**» والاستفهام إنكارى أى إن القنوط من رحمه الله مما يختص بالضالين و لست أنا بضال فليس سؤالى سؤال قانط مستبعد.

قوله تعالى: **قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ** الخطب الأمر الجليل الشأن العظيم، و فى خطابهم بالمرسلين دلالة على أنهم ذكروا له ذلك قبلا، و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: **قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ** -الى قوله- **لَمِنَ الْغَابِرِينَ** قال فى المفردات: الغابر الماكت بعد مضى من هو معه قال تعالى: «**إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ**» يعنى فىمن طال أعمارهم، و قيل: فىمن بقى و لم يسر مع لوط، و قيل: فىمن بقى بعد فى العذاب، و فى آخر «**إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ**» و فى آخر «**قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ**» -الى أن قال- و الغبار ما يبقى من التراب المثار و جعل على بناء الدخان و العثار و نحوهما من البقايا. انتهى و لعله من هنا ما ربما يسمى الماضى و المستقبل معا غابرا أما الماضى فبعنايه أنه بقى فيما مضى و لم يتعد الى الزمان الحاضر و أما المستقبل فبعنايه أنه باق لم يفن بعد كالماضى.

و الآيات جواب الملائكه لسؤال إبراهيم **«قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا»** من عند الله سبحانه **«إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ»** نكروهم و لم يسموهم صونا للسان عن التصريح باسمهم تنفرا منه و مستقبل الكلام يعينهم ثم استثنوا و قالوا: **«إِلَّا آلَ لُوطٍ»** و هم لوط و خاصته و ظهر به أن القوم قومه **«إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ»** أى مخلصوهم من العذاب **«أَجْمَعِينَ»** و ظاهر السياق كون الاستثناء منقطعا.

ثم استثنوا امرأه لوط من آله للدلالة على أن النجاه لا تشملها و أن العذاب سيأخذها و يهلكها فقالوا: **«إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ»** أى الباقيين من القوم بعد خروج آل لوط

و قد تقدم تفصيل القول في ضيف إبراهيم عليه السلام في سورة هود في الجزء العاشر من الكتاب و عقدنا هناك بحثا مستقلا فيه.

قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنكَرُونَ إنما قال لهم لوط عليه السلام ذلك لكونهم ظاهرين بصور غلمان مرد حسان و كان يشقه ما يراه منهم و شأن قومه شأنهم من الفحشاء كما تقدم في سورة هود، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: قَالُوا بَلْ جِنَّاتِكِ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ، وَ أَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ الامتراء من المريبه و هو الشك، و المراد بما كانوا فيه يمترون العذاب الذى كان ينذرهم به لوط و هم يشكون فيه، و المراد بإتيانهم بالحق إتيانهم بقضاء حق فى أمر القوم لا معدل عنه كما وقع فى موضع آخر من قولهم: وَ إِنَّهُمْ آتِيَهُمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (هود/ ٧٦)، و قيل: المراد «و أتيناك بالعذاب الذى لا شك فيه» و ما ذكرناه هو الوجه.

و فى آيات القصة تقديم و تأخير لا- بمعنى اختلال ترتيبها بحسب النزول عند التأليف بوضع ما هو مؤخر فى موضع المقدم و بالعكس بل بمعنى ذكره تعالى بعض أجزاء القصة فى غير محله الذى يقتضيه الترتيب الطبعى و تعينه له سنه الاقتصاص لنكته توجب ذلك.

و ترتيب القصة بحسب أجزاءها على ما ذكرها الله سبحانه فى سورة هود و غيرها و الاعتبار يساعد ذلك مقتضاه أن يكون قوله: «فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ» الى تمام آيتين قبل سائر الآيات. ثم قوله: «وَ جَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ» الى تمام ست آيات. ثم قوله: «قَالُوا بَلْ جِنَّاتِكِ» الى تمام أربع آيات. ثم قوله: «فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ» الى آخر الآيات.

و حقيقه هذا التقديم و التأخير أن للقصة فصولا أربعة و قد أخذ الفصل الثالث منها فوضع بين الأول و الثانى أعنى أن قوله: «وَ جَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ» الى آخره أخر فى الذكر ليتصل آخره و هو قوله: «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ» بأول الفصل الأخير «فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ»

مُشْرِقِينَ» و ذلك ليمثل به الغرض في الاستشهاد بالقصه و ينجلي أوضح الانجلاء و هو نزول عذاب هائل كعذابهم في حال سكره منهم و أمن منه لا يخطر ببالهم شيء من ذلك و ذلك أبلغ في الدهشه و أوقع في الحسره يزيد في العذاب ألما على ألم.

و نظير هذا في التلويح بهذه النكته ما في آخر قصه أصحاب الحجر الآتيه من اتصال قوله:

«وَ كَانُوا يَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ» بقوله: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُضِيَّيْنَ» كل ذلك ليجلّى معنى قوله تعالى في صدر المقال: «وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ» فافهم ذلك.

قوله تعالى: فَاسِيرٌ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الإسراء هو السير بالليل، فقوله: «بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ» يؤكد و قطع الليل شطرا مقطوع منه، و المراد باتباعه أدبارهم هو أن يسير وراءهم فلا يترك أحدا يتخلف عن السير و يحملهم على السير الحثيث كما يشعر به قوله: «وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ» .

و المعنى: و إذ جئناك بعذاب غير مردود و أمر من الله ماض يجب عليك أن تستر بأهلك ليلا و تأخذ أنت وراءهم لئلا يتخلفوا عن السير و لا يساهلوا فيه و لا يلتفت أحد منكم الى ورائه و امضوا حيث تؤمرون، و فيه دلالة على أنه كانت أمامهم هدايه إلهيه تهديهم و قائد يقودهم.

قوله تعالى: وَ قَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُضِيَّيْنَ الْقَضَاءِ مَضْمَنٌ مَعْنَى الْوَحْيِ وَ لَذَا عَدَى يَالِي - كما قيل - و المراد بالأمر أمر العذاب كما يفسره قوله: «أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُضِيَّيْنَ» و الإشارة اليه بلفظه «ذَلِكَ» للدلالة على عظم خطره و هول أمره.

و المعنى: و قضينا أمرنا العظيم في عذابهم موحيا ذلك الى لوط و هو أن دابر هؤلاء و أثرهم الذي من شأنه أن يبقى بعدهم من نسل و بناء و عمل مقطوع حال كونهم مصبحين أو التقدير أوحينا اليه قاضيا، الخ.

قوله تعالى: «وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبِشِرُونَ» -الى قوله- «إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ يَدُلُّ نَسْبَهُ الْمَجِيءُ إِلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ عَلَى كَوْنِهِمْ جَمَاعَةً عَظِيمَةً يَصْحَحُ عَدَّهُمْ أَهْلَ الْمَدِينَةِ لكَثْرَتِهِمْ.

فالمعنى «وَجَاءَ» إلى لوط «أَهْلُ الْمَدِينَةِ» جمع كثير منهم يريدون أضيافه وهم «يَسْتَبِشِرُونَ» لولعهم بالفحشاء و خاصه بالداخلين في بلادهم من خارج فاستقبلهم لوط مدافعا عن أضيافه «قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ» بالعمل الشنيع بهم «وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ قَالُوا» المهاجمون من أهل المدينة: أ لم نقطع عذرک فی إيوائهم «أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ» أن تؤويهم و تشفع فيهم و تدافع عنهم فلما يئس لوط عليه السّلام منهم عرض عليهم بناته أن ينصرفوا عن أضيافه بنكاحهن -كما تقدم بيانه في سورة هود- «قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ» .

قوله تعالى: «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ» -الى قوله- «مَنْ سَجَّيْلٍ قَالِ فِي الْمَفْرَدَاتِ: الْعِمَارَةُ ضِدُّ الْخَرَابِ. قَالَ: وَالْعَمْرُ اسْمٌ لِمَدَى عِمَارَةِ الْبَدَنِ بِالْحَيَاةِ فَهُوَ دُونَ الْبَقَاءِ فَإِذَا قِيلَ: طَالَ عَمْرُهُ فَمَعْنَاهُ عِمَارَةُ بَدَنِهِ بِرُوحِهِ، وَإِذَا قِيلَ: بَقَاؤُهُ فَلَيْسَ يَقْتَضِي ذَلِكَ فَإِنَّ الْبَقَاءَ ضِدُّ الْفَنَاءِ، وَ لِفَضْلِ الْبَقَاءِ عَلَى الْعَمْرِ وَصَفَ اللَّهُ بِهِ وَقَلَّمَا وَصَفَ بِالْعَمْرِ قَالَ: وَالْعَمْرُ -بِالضَّم- وَالْعَمْرُ -بِالْفَتْحِ- وَاحِدٌ لَكِنْ خَصَّ الْقِسْمَ بِالْعَمْرِ -بِالْفَتْحِ- دُونَ الْعَمْرِ -بِالضَّم- نَحْوُ «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ» ، أَنْتَهَى.

و الخطاب في لَعَمْرُكَ للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم فهو قسم ببقائه و قول بعضهم: إنه خطاب من الملائكة للوط عليه السّلام و قسم بعمره لا دليل عليه من سياق الآيات.

و العمه هو التردد على حيره و السجّيل حجاره العذاب و قد تقدم تفصيل القول في معناه في تفسير سورة هود.

و المعنى أقسم بحياتك و بقائك يا محمد إنهم لفي سكرتهم و هي غفلتهم بانغمارهم في

الفحشاء و المنكر يترددون متحيرين «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ» و هى الصوت الهائل «مُشْرِقِينَ» أى حال كونهم داخلين فى إشراق الصبح فجعلنا على بلادهم سافلها و فوقها تحتها و أمطرنا و أنزلنا من السماء عليهم حجاره من سجّيل.

قوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ -الى قوله- لِّلْمُؤْمِنِينَ الآيه العلامه و المراد بالآيات أولا العلامات الداله على وقوع الحادثه من بقايا الآثار و بالآيه ثانيا العلامه الداله للمؤمنين على حقيّه الإنذار و الدعوه الإلهيه، و التوسّم التفرّس و الانتقال من سيماء الأشياء على حقيقه حالها.

و المعنى: أن فى ذلك أى فيما جرى من الأمر على قوم لوط و فى بلادهم لعلامات من بقايا الآثار للمتفرّسين و إن تلك العلامات لسبيل للعابرين مقيم لم تعف و لم تمنح بالكلية بعد، إن فى ذلك لآيه للمؤمنين تدلّ على حقيّه الإنذار و الدعوه و قد تبين بذلك وجه إيراد الآيات جمعا و مفردا فى الموضوعين.

قوله تعالى: وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ -الى- فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مِّنَ الْأَيْكَةِ وَاحِدٍ الْأَيْكَةُ وَ هُوَ الشَّجَرُ الْمَلْتَفُ بَعْضُهُ بَعْضٍ فَقَدْ كَانُوا- كما قيل فى غيظه أى بقعه كثيفه الأشجار.

و هؤلاء- كما ذكروا- هم قوم شعيب عليه السّلام أو طائفه من قومه كانوا يسكنون الغيظه، و يؤيده قوله تعالى ذيلًا: «وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مِّنَ الْأَيْكَةِ» أى مكانا قوم لوط و أصحاب الأيكه لفى طريق واضح فإن الذى على طريق المدينة الى الشام هى بلاد قوم لوط و قوم شعيب الخربه أهلكهم الله بكفرهم و تكذبيهم لدعوه شعيب عليه السّلام و قد تقدمت قصتهم فى سوره هود. و قوله:

«فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ» الضمير لأصحاب الأيكه و قيل: لهم و لقوم لوط. و معنى الآيتين ظاهر.

قوله تعالى: وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُؤْمِنِينَ -الى قوله- مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ أصحاب الحجر هم ثمود قوم صالح، و الحجر اسم بلده كانوا يسكنونها و عدّهم

مكذبين لجميع المرسلين و هم إنما كذبوا صالحا المرسل اليهم إنما هو لكون دعوه الرسل دعوه واحده،و المكذب لواحد منهم مكذب للجميع.

وقوله: وَ آتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ إن كان المراد بالآيات المعجزات و الخوارق- كما هو الظاهر- فالمراد بها الناقه و شربها و ما ظهر لهم بعد عقرها الى أن أهلكوا،و قد تقدمت القصة فى سورة هود،و إن كان المراد بها المعارف الإلهيه التى بلغها صالح عليه السلام و نشرها فيهم أو المجموع من المعارف الحقه و الآيه المعجزه فالأمر واضح.

وقوله: وَ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ أى كانوا يسكنون الغيران و الكهوف المنحوته من الحجاره آمنين من الحوادث الأرضيه و السماويه بزعمهم.

وقوله: فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَهُ مُصِيبَةً أى صيحه العذاب التى كان فيها هلاكهم، و قد تقدمت الإشارة الى مناسبه اجتماع الأمن مع الصيحه فى الآيتين لقوله فى صدر الآيات:

«وَ أَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ» .

وقوله: فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ أى من الأعمال لتأمين سعادتهم فى الحياه.

[سوره الحجر (١٥): الآيات ٨٥ الى ٩٩]

اشاره

وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَهُ فَاصِحَ الصَّفْحِ الْجَمِيلِ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦) وَ لَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمِدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ اخْفِضْ جَنَاحَيْكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَ قُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضًا مِنْ (٩١) فَو رَبِّكَ لَنَسْتَلِنَّهْمُ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِذَا كَفَيْتَكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَ لَقَدْ نَعَلْنَاكَ إِذْ مَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)

قوله تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ بِالْبَاءِ فِي قَوْلِهِ: «بِالْحَقِّ» للمصاحبه أى إن خلقها جميعا لا ينفك عن الحق و يلزمه فللخلق غايه سيرجع إليها قال تعالى: إِنَّ إِلَهِي رَبُّكَ الرَّجْعِي (العلق ٨/)، و لو لا ذلك لكان لعا باطلا قال تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (الدخان ٣٩/)، و قال: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا (ص ٢٧/)، و من الدليل على كون المراد بالحق ما يقابل اللعب الباطل تذييل الكلام بقوله: «وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ» و هو ظاهر.

قوله تعالى: فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ قال في المفردات: صفح الشيء عرضه و جانبه كصفحه الوجه و صفحه السيف و صفحه الحجر و الصفح ترك الثريب و هو أبلغ من العفو و لذلك قال: «فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ» و قد يعفو الإنسان و لا يصفح قال تعالى: فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ أَمْضِرْبُ عَنْكُمْ الذُّكْرَ صَفْحًا .

و صفحت عنه أوليته صفحه جميله معرضا عن ذنبه، أو لقيت صفحته متجافيا عنه أو تجاوزت الصفحه التي أثبت فيها ذنبه من الكتاب الى غيرها من قولك تصفحت الكتاب، و قوله: «إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَهُ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ» فأمر له عليه السلام أن يخفف كفر من كفر كما قال:

«وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ» و المصافحه الإفضاء بصفحه اليد. انتهى.

و سيأتي ما فى الروايه من تفسير على عليه السلام الصفح بالعفو من غير عتاب.

و قوله: فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ تفريع على سابقه أى إذا كانت الخلقه بالحق و هناك يوم فيه يحاسبون و يجازون لا ريب فيه فلا تشغل نفسك بما ترى منهم من التكذيب و الاستهزاء و اعف عنهم من غير أن تقع فيهم بعتاب أو مناقشه و جدال فإن ربك الذى خلقك و خلقهم هو عليم بحالك و حالهم و وراءهم يوم لا يفوتونه.

و من هنا يظهر أن قوله: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ تعليل لقوله: «فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ» .

و هذه الآيات الحافه لقوله: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ» تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و تطيب ل نفسه ليأخذ قوله: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ» موقعه فقد عرفت فى أول السوره أن الغرض الأصيل منها هو الأمر بإعلان الدعوه و عرفت أيضا بالتدبر فى الآيات السابقه أنها مسروده ليتخلص بها الى تسليته صلى الله عليه و آله و سلم عما لقي من قومه من الإيذاء و الإهانه و الاستهزاء و يتخلص من ذلك الى الأمر المطلوب.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ السبع المثنائي هي سورة الحمد على ما فسّر في عدّه من الروايات المأثوره عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم وَ أئمه أهل البيت عليهم السّلام فلا يصغى الى ما ذكره بعضهم: أنها السبع الطوال، و ما ذكره بعض آخر أنها الحواميم السبع، و ما قيل: إنها سبع صحف من الصحف النازله على الأنبياء، فلا دليل على شيء منها من لفظ الكتاب و لا من جهه السنّه.

و قد كثر اختلافهم في قوله: مِنَ الْمَثَانِي من جهه كون من للتبعيض او للتبيين و في كيفية اشتقاق لفظه المثنائي و وجه تسميتها بالمثنائي.

و الذي ينبغي أن يقال- و الله أعلم- إن «مِنَ» للتبعيض فإنه سبحانه سمى جميع آيات كتابه مثنائي إذ قال: كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ (الزمر/ ٢٣) و آيات سورة الحمد من جملتها فهي بعض المثنائي لا كلها.

و الظاهر أن المثنائي جمع مثنيه اسم مفعول من الثني بمعنى اللوى و العطف و الإيعاده قال تعالى: يَتَّبِعُونَ صِدْقَهُمْ (هود/٥)، و سميت الآيات القرآنيه مثنائي لأن بعضها يوضح حال البعض و يلوى و يعطف عليه كما يشعر به قوله: «كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي» حيث جمع بين كون الكتاب متشابها يشبه بعض آياته بعضا و بين كون آياته مثنائي، و في كلام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم في صفه القرآن «يصدق بعضه بعضا» و عن علي عليه السّلام فيه «ينطق بعضه ببعض و يشهد بعضه على بعض» او هي جمع مثني بمعنى التكرير و الإيعاده كناية عن بيان بعض الآيات ببعض.

و في قوله: سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ من تعظيم أمر الفاتحه و القرآن ما لا يخفى أما القرآن فلتوصيفه من ساحه العظمه و الكبرياء بالعظيم، و أما الفاتحه فلمكان التعبير عنه بالنكره غير الموصوفه «سَبْعًا» و فيه من الدلاله على عظمه قدرها و جلاله شأنها ما لا يخفى و قد قوبل بها القرآن العظيم و هي بعضه.

و الآيه- كما تبين في مقام الامتان و هي مع ذلك لوقوعها في سياق الدعوه الى الصفح

و الإعراض تفيد أن في هذه الموهبه العظمى المتضمنه لحقائق المعارف الإلهيه الهاديه الى كل كمال و سعادته بإذن الله عدّه أن تحملك على الصفح الجميل و الاشتغال بربك و التوغل فى طاعته.

قوله تعالى: لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ -الى قوله- الْمُبِينُ الْآيَاتَانِ؛ فى مقام بيان الصفح الجميل الذى تقدم الأمر به، و لذلك جىء بالكلام فى صورته الاستئناف.

و المذکور فيهما أربعة دساتير: منفيان و مثبتان فقوله: لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ مدّ العينين الى ما متّعوا به من زهره الحياه الدنيا كناية عن التعدى عن قصر النظر على ما آتاه الله من نعمه، و المراد بالأزواج الأزواج من الرجال و النساء أو الأصناف من الناس كالوثنيين و اليهود و النصرارى و المجوس، و المعنى لا تتجاوز عن النظر عما أنعمناك به من النعم الظاهره و الباطنه الى ما متّعنا به أزواجاً قليله أو أصنافاً من الكفار.

و ربما أخذ بعضهم قوله: لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ كناية عن إطاله النظر و إدامته، و أنت تعلم أن الغرض على أى حال النهى عن الرغبه و الميل و التعلق القلبى بما فى أيديهم من أمتعته الحياه كالمال و الشوكه و الصيت و الذى يكفى به عن ذلك هو النهى عن أصل النظر اليه لا عن إطالته و إدامته، و يشهد به ما سنقله من آيه الكهف.

و قوله: وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ أَى من جهه تماديهم فى التكذيب و الاستهزاء و إصرارهم على أن لا يؤمنوا بك.

و قوله: وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ قَالُوا: هو كناية عن التواضع و لين الجانب، و الأصل فيه أن الطائر إذا أراد أن يضم اليه أفراده بسط جناحه عليها ثم خفضه لها، هذا.

و قوله: وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ أَى لا دعوى لى إلا أنى نذير أنذركم بعذاب

اللّٰهُ سبحانه مبين آيين لكم ما تحتاجونه الى بيانه، وليس لى وراء ذلك من الأمر شىء.

فهذه الامور الأربعة أعنى ترك الرغبه بما فى أيديهم من متاع الحياه الدنيا و ترك الحزن عليهم إذا كفروا و استهزءوا، و خفض الجناح للمؤمنين و إظهار أنه نذير مبين هو الصفح الجميل الذى يليق بالنبي صلّى الله عليه و آله و سلم، و لو أسقط منها واحد لاختل الأمر.

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ، الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قال فى المجمع: عضين جمع عضه و أصله عضوه فنقصت الواو و لذلك جمعت عضين بالنون كما قيل: عزوه و عزون و الأصل عزوه، و التعضيه: التفريق مأخوذ من الأعضاء يقال: عضّيت الشىء أى فرقته و بعضه قال رؤبه: و ليس دين الله بالمعضّى، انتهى موضع الحاجه.

و قوله: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ لا يخلو السياق من دلاله على أنه متعلق بمقدّر يلوح اليه قوله: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ أى بعذاب منزل ينزل عليكم كما أنزلنا على المقتسمين، و المراد بالمقتسمين هم الذين يصفهم قوله بعد: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ و هم على ما وردت به الروايه قوم من كفار قريش جزءوا القرآن أجزاء فقالوا: سحر، و قالوا:

أساطير الأولين، و قالوا: مفترى، و تفرقوا فى مداخل طرق مكه أيام الموسم يصدون الناس الواردين عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم كما سيأتى فى البحث الروائى إن شاء الله.

فالظاهر أن الآيتين تذكران قوما نهضوا فى أوائل البعثه على إطفاء نور القرآن و بعضوه أبعاضا ليصدوا عن سبيل الله فأنزل الله عليهم العذاب و أهلكتهم، و هم الذين ذكروا فى الآيتين

ثم يذكر الله مآل أمرهم بقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال فى المجمع:

الصدع و الفرق و الفصل نظائر، و صدع بالحق إذا تكلم به جهارا، انتهى.

و الآيه تفرّيع على ما تقدم، و من حقها أن تتفرّع لأنها الغرض فى الحقيقه من السوره أى إذا كان الأمر على ما ذكر و أمرت بالصفح الجميل و كنت نذيرا بعذابنا كما أنزلنا على المقتسمين

فأظهر كلمه الحق و أعلن الدعوه.

و بذلك يظهر أن قوله: «إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ» في مقام التعليل لقوله: «فَاضِدْعُ» الخ؛ كما يشعر الكلام أو يدل على أن هؤلاء المستهزئين هم المقتسمون المذكورون قبل، و معنى الآية إذا كان الأمر كما ذكرناه و كنت نذيرا بعدابنا كما أنزلناه على المقتسمين «فَاضِدْعُ بِمَا تُؤْمَرُ» و أعلن الدعوه و أظهر الحق «وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا» أى لأننا «كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ» بإنزال العذاب عليهم و هم «الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» .

قوله تعالى: وَ لَقَدْ نَعَلْنَاكَ أَنْتَ يَضِيْقُ صِدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ رَجِعْ ثَانِيَا إِلَىٰ حَزَنِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلِمَ وَ ضَيْقُ صَدْرِهِ مِنْ اسْتَهْزَائِهِمْ لِمَزِيدِ الْعِنَايَةِ بِتَسْلِيَتِهِ وَ تَطْيِيبِ نَفْسِهِ وَ تَقْوِيهِ رُوحَهُ، وَ قَدْ أَكْثَرَ سُبْحَانَهُ فِي كَلَامِهِ وَ خَاصَّهُ فِي السُّورِ الْمَكِّيَةِ مِنْ ذَلِكَ لِشِدَّةِ الْأَمْرِ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلِمَ.

قوله تعالى: فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ وَ صَاهُ سُبْحَانَهُ بِالتَّسْبِيحِ وَ التَّحْمِيدِ وَ السُّجُودِ وَ الْعِبَادَةِ أَوْ إِدَامَةِ الْعِبُودِيَةِ مَفْرَعًا ذَلِكَ عَلَىٰ ضَيْقِ صَدْرِهِ بِمَا يَقُولُونَ فَفِي ذَلِكَ اسْتِعَانَهُ عَلَىٰ الْغَمِّ وَ الْمَصِيبِ، وَ قَدْ أَمَرَهُ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ بِالصَّفْحِ وَ الصَّبْرِ، وَ يَسْتَفَادُ الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ أَيْضًا مِنْ قَوْلِهِ: «وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» فَإِنْ ظَاهَرَهُ الْأَمْرُ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ الْعِبُودِيَةِ حَتَّىٰ حِينَ، وَ بِذَلِكَ يَصِيرُ الْكَلَامُ قَرِيبَ الْمَضْمُونِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ لِدَفْعِ الشَّدَائِدِ وَ الْمَقَاوِمِ عَلَىٰ مَرِّ الْحَوَادِثِ: إِشْرَافًا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ (البقرة ١٥٣).

و بذلك يتأيد أن المراد بالساجدين المصلون و أنه أمر بالصلاة و قد سميت سجودا تسميه لها باسم أفضل أجزائها و يكون المراد بالتسبيح و التحميد اللفظي منهما كقول سبحان الله و الحمد لله أو ما فى معناهما نعم لو كان المراد بالصلاة فى آيه البقره التوجه الى الله سبحانه أمكن أن يكون المراد بالتسبيح و التحميد- أو بهما و بالسجود- المعنى اللغوى و هو تنزيه تعالى عما يقولون و الثناء عليه بما أنعم به عليه من النعم و التذلل له تذلل العبوديه.

و أما قوله: وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ فَإِن كَانَ الْمُرَادُ بِهِ الْأَمْرُ بِالْعِبَادَةِ كَانَ كَالْمُفْسِّرِ لِلآيَةِ السَّابِقَةِ وَ إِن كَانَ الْمُرَادُ الْأَخْذَ بِالْعِبُودِيَّةِ - كَمَا هُوَ ظَاهِرُ السِّيَاقِ، وَ خَاصَّهُ سِيَاقُ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ الْأَمْرُ بِالصَّفْحِ وَ الْإِعْرَاضِ وَ لِأَزْمَهُمَا الصَّبْرُ كَانَ بَقْرِينَهُ تَقْيِيدَهُ بِقَوْلِهِ:

«حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» أَمْرًا بِانْتِهَاجِ مَنْهَجِ التَّسْلِيمِ وَ الطَّاعَةِ وَ الْقِيَامِ بِلِوَاظِمِ الْعِبُودِيَّةِ.

وَ عَلَى هَذَا فَالْمُرَادُ بِإِتْيَانِ الْيَقِينِ حُلُولُ الْأَجْلِ وَ نَزُولُ الْمَوْتِ الَّذِي يَتَبَدَّلُ بِهِ الْغَيْبُ مِنَ الشَّهَادَةِ وَ يَعُودُ بِهِ الْخَيْرُ عِيَانًا، وَ يُؤَيِّدُ ذَلِكَ تَفْرِيعُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: «فَاضْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ» عَلَى قَوْلِهِ: «وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ إِنَّ السَّاعَةَ لَمَأْتِيَةٌ» فَإِنَّهُ بِالْحَقِيقَةِ أَمْرٌ بِالْعَفْوِ وَ الصَّبْرِ عَلَى مَا يَقُولُونَ لِأَنَّ لَهُمْ يَوْمًا يَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ يَجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ فَيَكُونُ مَعْنَى الْآيَةِ دَمًا عَلَى الْعِبُودِيَّةِ وَ اصْبِرْ عَلَى الطَّاعَةِ وَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ وَ عَلَى مَرٍّ مَا يَقُولُونَ حَتَّى يَدْرَكَكَ الْمَوْتُ وَ يَنْزِلُ عَلَيْكَ عَالَمُ الْيَقِينِ فَتَشَاهِدُ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِهِمْ رَبِّكَ.

وَ فِي التَّعْبِيرِ بِمِثْلِ قَوْلِهِ: حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ إِشْعَارٌ أَيْضًا بِذَلِكَ فَإِنَّ الْعِنَايَةَ فِيهِ بِأَنَّ الْيَقِينَ طَالِبٌ لَهُ وَ سَيَدْرَكَهُ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ حَتَّى يَدْرَكَهُ وَ يَصِلَ إِلَيْهِ، وَ هَذَا هُوَ عَالَمُ الْآخِرَةِ الَّذِي هُوَ عَالَمُ الْيَقِينِ الْعَامِّ بِمَا وَرَاءَ الْحِجَابِ دُونَ الْإِعْتِقَادِ الْيَقِينِيِّ الَّذِي رُبَّمَا يَحْصُلُ بِالنَّظَرِ أَوْ بِالْعِبَادَةِ (١).

ص: ٥٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 أَتَىٰ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ
 عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ
 الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَ لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ
 تُرْيَحُونَ وَ حِينَ تَسْرِحُونَ (٦) وَ تَحْمِلُ أُنْفُسَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْإِغْيَابِ إِلَّا لِيُبَشِّرَ الْأَنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَ الْخَيْلَ وَ
 الْبُغَالَ وَ الْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَ زِينَةً وَ يَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَ عَلَىٰ اللَّهِ قِضْدُ السَّبِيلِ وَ مِنْهَا جَائِزٌ وَ لَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ
 الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنَابَ وَ مِنْ
 كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَ سَيَخْرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَحَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي
 ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَ مَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ
 الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرُجُوا مِنْهُ حَلِيَّةً يَلْبَسُونَهَا وَ تَرَىٰ الْفُلُوكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَ لِيَبْتَلِيَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَ
 أَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهَارًا وَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَ عَلَامَاتٍ وَ بِاللَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَ فَمَنْ يَخْلُقُ
 كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَ فَلَآ تَذَكَّرُونَ (١٧) وَ إِنْ تَعِدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ
 (١٩) وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَ مَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١)

الغالب على الظنّ - إذا تدبرنا السوره - أن صدر السوره مما نزلت في أواخر عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بمكة قبيل الهجرة، وهي أربعون آية يذكر الله سبحانه في شطر منهما أنواع نعمه السماويه والأرضيه مما تقوم به حياه الإنسان و ينتفع به في معاشه نظاما متقنا و تدبيرا متصلا يدل على وحدانيته تعالى في ربوبيته.

و يحتج في شطر آخر على بطلان مزاعم المشركين و خيبه مساعيهم و أنه سيجازيهم كما جازى أمثالهم من الامم الماضيه و سيفصل القضاء بينهم يوم القيامة.

و

قد افتتح سبحانه هذه الآيات بقوله: «أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ» مفرعا آيات الاحتجاج على ما فيه من التنزيه و التسييح و من ذلك يعلم أن عمدته الغرض في صدر السوره الإنباء بإشراف الأمر الإلهي و دتوه منهم و قرب نزوله عليهم، و فيه إبعاد للمشركين فقد كانوا يستعجلون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - استهزاء به - لما كانوا يسمعون كلام الله سبحانه يذكر كثيرا نزول أمره تعالى و يندرهم به و فيه مثل قوله للمؤمنين: فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ و ليس إلا أمره تعالى بظهور الحق على الباطل و التوحيد على الشرك و الإيمان على الكفر، هذا ما يعطيه التدبر في صدر السوره.

و أما ذيلها و هي ثمان و ثمانون آية من قوله: وَ الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا إِلَىٰ آخِرِ السُّورَةِ عَلَىٰ مَا بَيْنَهَا مِنَ الْإِتِّصَالِ و الارتباط فسياق الآيات فيه يشبه أن تكون مما نزلت في أوائل عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالمدينه بعيد الهجرة - فصدر السوره و ذيلها متقاربا

النزول و ذلك لما فيها من آيات لا تنطبق مضامينها إلا على بعض الحوادث الواقعة بعيد الهجرة كقوله تعالى: وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ الْآيَةَ؛ وقوله: وَ لَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ الْآيَةَ النازلة على قول في سلمان الفارسي و قد آمن بالمدينة، وقوله: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ الْآيَةَ النازلة في عمار- كما سيأتي- وكذا الآيات النازلة في اليهود و الآيات النازلة في الأحكام كل ذلك يفيد الظن بكون الآيات مدنيه.

و مع ذلك فاختلاف النزول لائح من بعضها كقوله: وَالَّذِينَ هَاجَرُوا الخ (الآية ٤١)، و قوله: وَإِذَا يَدُّنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ (الآية ١٠١) الى تمام آيتين أو خمس آيات، و قوله: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ (الآية ١٠٦) و عده آيات تلوها.

و الإنصاف- بعد ذلك كله- أن قوله تعالى: وَالَّذِينَ هَاجَرُوا (الآية ٤١) الى تمام آيتين؛ و قوله: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ (الآية ١٠٦) و بضع آيات بعدها، و قوله:

وَإِنْ عَمَّاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا (الآية ١٢٦) و آيتان بعدها مدنيه لشهادته سياقها بذلك، و الباقي أشبه بالمكيه منها بالمدينه. و هذا و إن لم يوافق شيئا من المأثور لكن السياق يشهد به و هو أولى بالتباع. و قد مرّ في تفسير آيه ١١٨ من سورة الأنعام احتمال أن تكون نازله بعد سورة النحل و هي مكيه. و الغرض الذي هو كالجامع لآيات ذيل السوره أن فيها أمرا بالصبر و وعدا حسنا على الصبر في ذات الله.

و غرض السوره الإخبار بإشراف أمر الله و هو ظهور الدين الحق عليهم، و يوضح تعالى ذلك ببيان أن الله هو الإله المعبود لا غير لقيام تدبير العالم به، كما أن الخلقه قائمه به و لانتهاه جميع النعم اليه، و انتفاء ذلك عن غيره، فالواجب أن يعبد الله و لا يعبد غيره، و بيان أن الدين الحق لله فيجب أن يؤخذ به و لا يشرع دونه دين و رد ما أبداه المشركون من الشبهه على النبوه و التشريع و بيان أمور من الدين الإلهي.

هذا هو الذي يرومه معظم آيات السوره و تنعطف الى بيانه مره بعد مره و في ضمنها آيات

تعرض لأمر الهجره و ما يناسب ذلك مما يحوم حولها.

قوله تعالى: **أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ظاهر السياق أن الخطاب للمشركين لأن الآيات التاليه مسوقه احتجاجا عليهم، الى قوله في الآيه الثانيه و العشرين: **إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** و وجه الكلام فيها الى المشركين، و هى جميعا كالمتفرعه على قوله فى ذيل هذه الآيه: **«سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ»** و مقتضاه أن يكون الأمر الذى أخبر بإتيانه أمرا يطهر ساحه الربوبيه من شركهم بحسم مادته، و لم تقع فى كلامه حكايه استعجال من المؤمنين فى أمر، بل المذكور استعجال المشركين بما كان يذكر فى كلامه تعالى من أمر الساعه و أمر الفتح و أمر نزول العذاب، كما يشير اليه قوله: **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ** -الى قوله- **وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُوبِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ** (يونس ٥٣) الى غير ذلك من الآيات.

و على هذا فالمراد بالأمر ما وعد الله النبى صلى الله عليه و آله و سلم و الذين آمنوا و أوعد المشركين مره بعد مره فى كلامه أنه سينصر المؤمنين و يخزى الكافرين و يعذبهم و يظهر دينه بأمر من عنده كما قال: **فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ** (البقره ١٠٩). و اليه يعود أيضا ضمير **«فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ»** على ما يفيدته السياق أو يكون المراد بإتيان الأمر إشرافه على التحقق و قربه من الظهور، و هذا شائع فى الكلام قال لمن ينتظر ورود الأمير: هذا الأمير جاء و قد دنا مجيئه و لم يجىء بعد.

و على هذا أيضا يكون قوله: **«سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ»** من قبيل الالتفات من الخطاب الى الغيبه إشاره الى أنهم ينبغي أن يعرض عن مخاطبتهم و مشافهتهم لانحطاط أفهامهم لشركهم و لم يستعجلوا نزول الأمر إلا لشركهم استهزاء و سخرية.

قوله تعالى: **يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** الى آخر الآيه؛ الناس على اختلافهم الشديد قديما و حديثا فى حقيقه الروح لا يختلفون فى

أنهم يفهمون منه معنى واحداً وهو ما به الحياه التي هي ملاك الشعور و الاراده فهذا المعنى هو المراد فى الآيه الكريمه.

و أما حقيقته إجمالاً فالذى يفيدته مثل قوله تعالى: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلَائِكَةُ صَفًّا (النبا ٣٨)، وقوله: تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ (المعارج ٤) وغيرهما أنه موجود مستقل ذو حياه و علم و قدره و ليس من قبيل الصفات و الأحوال القائمه بالأشياء كما ربما يتوهم، وقد أفاد بقوله: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» أنه من سنخ أمره، و عرف أيضاً أمره بمثل قوله: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (يس ٨٣)، فدل على أنه كلمه الإيجاد التى يوجد سبحانه بها الأشياء أى الوجود الذى يفيضه عليها لكن لا من كل جهه بل من جهه استناد اليه تعالى بلا ماده و لا زمان و لا مكان كما يفيدته قوله: وَ مَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصِيرِ (القمر ٥٠) فإن هذا التعبير إنما يورد فيما لا- تدريج فيه أى لا- ماده و لا حركه له، و ليكن هذا الإجمال عندك حتى يرد عليك تفصيله فيما سيأتى إن شاء الله فى تفسير سوره الإسراء.

فتحصّل أن الروح كلمه الحياه التى يلقيها الله سبحانه الى الأشياء فيحييها بمشيئته، و لذلك سمّاه وحيا و عدّ إلقاءه و إنزاله على نبيّه إحياء فى قوله: وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا (الشورى ٥٢)، فإن الوحي هو الكلام الخفى و التفهيم بطريق الإشاره و الإيماء فيكون إلقاء كلمته تعالى- كلمه الحياه- الى قلب النبي صلّى الله عليه و آله و سلم وحيا للروح اليه، فافهم ذلك.

فقوله تعالى: «يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ» الباء للمصاحبه او للسببيه و لا- كثير تفاوت بينهما فى المآل كما هو ظاهر عند المتأمل فإن تنزيل الملائكه بمصاحبه الروح إنما هو لإلقائه فى روع النبي صلّى الله عليه و آله و سلم ليفيض عليه المعارف الإلهيه و كذا تنزيلهم بسبب الروح لأن كلمته تعالى أعنى كلمه الحياه تحكّم فى الملائكه و تحييم كما تحكّم فى الإنسان و تحييه، و ضمير «يُنزِّلُ» له تعالى و الجملة استئناف تفيد تعليل قوله فى الآيه السابقه: «سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا

و المعنى: أن الله منزّه و متعال عن شركهم او عن الشريك الذى يدعونه له و لتزّهه و تعاليه عن الشريك ينزل سبحانه الملائكة بمصاحبه الروح الذى هو من سنخ أمره و كلمته فى الإيجاد - او بسببه - على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون.

و قوله: عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَى إن بعث الرسل و تنزل الملائكة بالروح من أمره عليهم متوقف على مجرد المشيه الإلهيه من غير أن يقهره تعالى فى ذلك قاهر غيره فيجبره على الفعل او يمنعه من الفعل كما فى سائر أفعاله تعالى فإنه تعالى يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

و قوله: أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ بيان لقوله: «يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ» لكونه فى معنى الوحي أو بيان للروح بناء على كونه بمعنى الوحي، و الإنذار هو إخبار فيه تخويف، كما أن التبشير هو إخبار فيه سرور على ما ذكره الراغب او إعلام بالمحذور كما ذكره غيره، و التقدير على الأول أخبروهم مخوفين بوحدايتى فى الالهيه و وجوب تقواى، و على الثانى أعلموهم ذلك، على أن يكون «أنه» مفعولا ثانيا لا منصوبا بنزع الخافض.

و قد علم بذلك أن قوله: «فَاتَّقُونِ» متفرع على قوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا» و الجملتان جميعا مفعول ثان او فى موضعه لقوله: «أَنْذِرُوا» و يوضح ذلك أن لا إله و هو الذى يبتدى منه و ينتهى اليه كل شىء او المعبود بالحق من لوازم صفه ألوهيته أن يتقيه الإنسان لتوقف كل خير و سعاده اليه، فلو فرض أنه واحد لا شريك له فى ألوهيته كان لازمه أن يتقى وحده لأن التقوى و هو إصلاح مقام العمل فرع لما فى مقام الاعتقاد و النظر، فعباده الآلهه الكثيرين و الخضوع لهم لا يجامع الاعتقاد بآله واحد لا شريك له الذى هو القيوم على كل شىء و بيده زمام كل أمر، و لذا لم يؤمر نبي أن يدعو الى توحيد من غير عمل او الى عمل من غير توحيد،

قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (الأنبياء ٢٥).

فالذى أمر الرسل بالإنذار به فى الآيه هو مجموع قوله: «أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ» و هو تمام الدين لاندرج الاعتقادات الحقه فى التوحيد و الأحكام العمليه جميعا فى التقوى، و لا يعاب بما ذكره بعضهم ان قوله: «فَاتَّقُونِ» للمستعجلين من الكفار المذكورين فى الآيه الاولى او لخصوص كفار قريش من غير أن يكون داخلا فيما أمر به الرسل من الإنذار.

قوله تعالى: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ تقدم معنى خلق السماوات و الأرض بالحق، و لازم خلقها بالحق أن لا يكون للباطل فيها أثر، و لذلك عقبه بتنزيهه عن الشركاء الذين يدعونهم ليشفعوا لهم عند الله و يهدوهم الى الخير و يقوهم الشر فإنهم من الباطل الذى لا أثر له.

و فى الآيه و الآيات التاليه لها احتجاج على وحدانيته تعالى فى الالوهيه و الربوبيه من جهتى الخلق و التدبير جميعا فإن الخلق و الإيجاد آيه الالوهيه و كون الخلق بعضها نعمه بالنسبه الى بعض آيه الربوبيه لأن الشىء لا يكون نعمه بالنسبه الى آخر إلا عن ارتباط بينهما و اتصال من أحدهما بالآخر يودى الى نظام جامع بينهما و تدبير واحد يجمعهما، و وحده التدبير آيه وحده المدبر فكون ما فى السماوات و الأرض من مخلوق نعماً للإنسان يدل على أن الله سبحانه وحده ربه و رب كل شىء.

قوله تعالى: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ المراد به الخلق الجارى فى النوع الإنسانى و هو جعل نسله من النطفه فلا يشمل آدم و عيسى عليهما السلام.

و الخصيم صفه مشبهه من الخصومه و هى الجدل، و الآيه و إن أمكن أن تحمل على الامتتان حيث إن من عظيم المن أن يبذل الله سبحانه بقدرته التامه قطره من ماء مهين إنسانا كامل الخلقه منطقيا متكلما ينبى عن كل ما جل و دق بيانه البليغ لكن كثره الآيات التى توحي

الإنسان و تقرّعه على وقاحته فى خصامه فى ربه كقوله تعالى: أَوْ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانَ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ، وَ ضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ (يس ٧٨) ترّجح أن يكون المراد بذيل الآيه بيان وقاحه الإنسان.

و يؤيد ذلك أيضا بعض التأييد ما فى ذيل الآيه السابقه من تنزيهه تعالى من شركهم.

قوله تعالى: وَ الْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَ مَنَافِعٌ وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ الْأَنْعَامَ جمع نعم و هى الإبل و البقر و الغنم سمّيت بذلك لنعمه مسّيهـا بخلاف الحافر الذى يصلب كذا فى المجمع، و فى المفردات: الدفء خلاف البرد. انتهى. و كأن المراد بالدفء ما يحصل من جلودها و أوصافها و أوبارها من الحراره للاتقاء من البرد، أو المراد بالدفء ما يدفأ به.

و المراد بالمنافع سائر ما يستفاد منها لغير الدفء من أوصافها و أوبارها و جلودها و ألبانها و شحومها و غير ذلك، و قوله: «لَكُمْ» يمكن أن يكون متعلقا بقوله: «خَلَقَهَا» و يكون قوله:

«فِيهَا دِفْءٌ وَ مَنَافِعٌ» حالا من ضمير «خَلَقَهَا» و يمكن أن يكون «لَكُمْ» ظرفا مستقرا متعلقا بالجمله الثانيه أى فى الأنعام دَفء كائنا لكم.

قوله تعالى: وَ لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ الْجَمَالَ الزينه و حسن المنظر، قال فى المجمع: الإراحه ردّ الماشيه بالعشى من مراعيها الى منازلها و المكان الذى تراح فيه مراح، و السروح خروج الماشيه الى المرعى بالغداه، يقال: سرحت الماشيه سرحا و سروحا و سرحها أهلها. انتهى.

يقول تعالى: و لكم فى الأنعام منظر حسن حين تردّونها بالعشى الى منازلها و حين تخرجونها بالغداه الى مراعيها.

قوله تعالى: وَ تَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُفٌ رَحِيمٌ الأثقال جمع ثقل و هو المتاع الذى يتقل حمله، و المراد بقوله:

«بِشِقِّ الْأَنْفُسِ» مشقه تتحملها الأنفس فى قطع المسافات البعيده و المسالك الصعبه.

و المراد أن الأنعام كالإبل و بعض البقر تحمل أمتعتكم الثقيله الى بلد ليس يتيسر لكم بلوغها إلا بمشقه تتحملها أنفسكم فرفع عنكم المشاق بخلقها و تسخيرها لكم إن ربكم رؤف رحيم.

قوله تعالى: وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَهُ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ معطوف على الأنعام فيما مرّ أي و الخيل و البغال و الحمير خلقها لكم لتركبوها، و زينه أي إن في خلقها ارتباطا بمنافعكم و ذلك أنكم تركبونها و تتخذونها زينه و جمالا، و قوله: «و يَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ» أي يخلق ما لا علم لكم به من الحيوان و غيره، و سخّرها لكم لتنتفعوا بها، و الدليل على ما قدرناه هو السياق.

قوله تعالى: وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَ مِنْهَا جَائِزٌ وَ لَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ القصد على ما ذكره الراغب و غيره -استقامه الطريق و هو كونه قيما على سالكيه يوصلهم الى الغايه، و الظاهر أن المصدر بمعنى الفاعل و الإضافه من إضافه الصفه الى موصوفها و المراد السبيل القاصد بدليل مقابله بقوله: «و مِنْهَا جَائِزٌ» أي و من السبيل ما هو جائز أي مائل عن الغايه يورد سالكيه غيرها و يضلهم عنها.

و المراد بكون قصد السبيل على الله و جوب جعل سبيل قاصد عليه تعالى يسلكه عباده فيوردهم مورد السعاده و الفلاح و إذ لا حاكم غيره يحكم عليه فهو الذي أوجب على نفسه أن يجعل لهم طريقا هذا نعته ثم يهديهم اليه أما الجعل فهو ما جهز الله كل موجود و منها الإنسان من القوى و الأدوات بما لو استعملها كما نظمت أدته الى سعاده و كماله المطلوب قال تعالى:

الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (طه ٥٠)، و قال في الإنسان خاصه: فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ (الروم ٣٠/١).

ص: ٥٣٦

١-١). النحل ١-٢١: بحث في السبيل القاصد، تشاجر الاشاعره و المعتزله في الآيه «و عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ» .

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجْرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ شروع فى نوع آخر من النعم وهى النعم النباتيه التى يقتات بها الإنسان وغيره وما سخر له لتدبير أمرها كالليل والنهار والشمس والقمر وما يحذو حذوها، ولذلك غير السياق فقال: هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَالْحُمْرَ وَالْأَنْعَامَ وَالْأَنْعَابَ وَالْأَعْنَابَ وَالْزَيْتُونَ وَالزَّرْعَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجْرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ

وقوله: تُسِيمُونَ من الإسامه وهى رعى المواشى ومنه السائمه للماشيه الراعيه و«مِنْ» الاولى تبعيضيّه والثانيه نشويه والشجر من النبات ما له ساق وورق وربما توسع فاطلق على ذى الساق وغيره جميعا، ومنه الشجر المذكور فى الآيه لمكان قوله: «فِيهِ تُسِيمُونَ» والباقي واضح.

قوله تعالى: يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ الخ؛ الزيتون شجر معروف و يطلق على ثمره أيضا يقال: إنه اسم جنس جمعى واحده زيتونه، وكذا النخيل، و يطلق على الواحد والجمع، والأعناب جمع عنبه وهى ثمره شجره الكرم و يطلق على نفس الشجره كما فى الآيه، والسياق يفيد أن قوله: «وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ» تقديره و من كل الثمرات أنبت أشجارها. ولعل التصريح بأسماء هذه الثمرات الثلاث بخصوصها و عطف الباقي عليها لكونها مما يقتات بها غالبا.

ولما كان فى هذا التدبير العام الواسع الذى يجمع شمل الإنسان والحيوان فى الارتزاق به حجه على وحدانيته تعالى فى الربوبيه ختم الآيه بقوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» .

قوله تعالى: وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ الخ الى آخر الآيه قد تكرر الكلام فى معنى تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، و لكون كل من المذكورات وكذا مجموع الليل والنهار ومجموع الشمس والقمر والنجوم ذا خواص و آثار فى نفسه من شأنه أن يستقل بإثبات وحدانيته فى ربوبيته تعالى ختم الآيه بقوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ

لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» فجمع الآيات في هذه الآيه بخلاف الآيتين السابقيه و اللاحقه.

قوله تعالى: وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ الذره الخلق، و اختلاف ألوان ما ذراه في الأرض غير ما مرّ كما يختلف ألوان المعادن و سائر المركبات العنصريه التي ينتفع بها الانسان في معاشه و لا يبعد أن يكون اختلاف الألوان كناية عن الاختلاف النوعي بينها فتقرب الآيه مضمونا من قوله تعالى:

وَ فِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَ جَنَابٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَ زُرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِهْمَانٌ وَ غَيْرُ صِهْمَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَ نَفَضْلٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ (الرعد ٤)، و قد تقدم تقريب الاستدلال به.

و اختلاف الألوان فيما ذرا في الأرض كإنبات الشجر و الثمر أمر واحد يستدل به على وحدانيته في الربوبيه و لذا قال: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً» و لم قل: لآيات.

و هذه حجج ثلاث نسب الاولى الى الذين يتفكرون، و الثانيه الى الذين يعقلون، و الثالثه الى الذين يتذكرون، و ذلك أن الحججه الاولى مؤلفه من مقدمات ساذجه يكفى في إنتاجها مطلق التفكير، و الثانيه مؤلفه من مقدمات علميه لا يتيسر فهمها إلا لمن غار في أوضاع الأجرام العلويه و السفليه و عقل آثار حركاتها و انتقالاتها، و الثالثه مؤلفه من مقدمات كليه فلسفيه إنما ينالها الإنسان يتذكر ما للوجود من الأحكام العامه الكليه كاحتياج هذه النشأ المتغيره الى الماده و كون الماده العامه واحده متشابهه الأمر، و وجوب انتهاء هذه الاختلافات الحقيقيه الى أمر آخر وراء الماده الواحده المتشابهه.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا مِّنْ حَبْلِ الْجَنِّ وَ هَذَا فَصْلٌ آخِرٌ مِنَ النِّعَمِ الْإِلَهِيَّةِ وَ هُوَ نِعْمَ الْبَحْرُ وَ الْجِبَالُ وَ الْأَنْهَارُ وَ السَّبِيلُ وَ الْعَلَامَاتُ وَ كَأَنَّ مَا تَقْدِمُهُ مِنَ الْفَصْلِ مُشْتَمَلًا عَلَى نِعْمِ الْبَرِّ وَ السَّهْلِ مِنَ الْأَشْجَارِ وَ الْأَثْمَارِ وَ نَحْوِهَا، وَ لَذَلِكَ قَالَ: وَ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ وَ لَمْ يَقُلْ: وَ سَخَّرَ، الخ.

و الطرى فعيل من الطراوه و هو الغصّ الجديد من الشىء على ما ذكره فى المفردات، و المخر شقّ الماء عن يمين و شمال، يقال: مخرت السفينه تمخر مخرافهى ماخره و مخر الأرض أيضا شقها للزراعه، على ما فى المجمع و المراد بأكل اللحم الطرى من البحر هو أكل لحوم الحيتان المصطاده منه، و باستخراج حليه تلبسونها ما يستخرج منه بالغوص من أمثال اللؤلؤ و المرجان التى تتحلى و تترّين بها النساء.

و قوله: وَ تَرَى الْفُلْكَ مَوَآخِرَ فِيهِ أَى تشهد السفائن تشق ماءه عن اليمين و الشمال، و لعل قوله: «وَ تَرَى» من الخطابات العامه التى لا يقصد بها مخاطب خاص و كثيرا ما يستعمل كذلك و معناه يراه كل راء و يشاهده كل من له أن يشاهد فليس من قبيل الالتفات من خطاب الجمع السابق الى خطاب الواحد.

و قوله: وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أَى و لتطلبوا بعض رزقه فى ركوب البحر و إرسال السفائن فيه، و الجملة معطوفه على محذوف و التقدير و ترى الفلك مواخر فيه لتنالوا بذلك كذا و كذا و لتبتغوا من فضله، و هو كثير النظير فى كلامه تعالى.

و قوله: وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أَى و من الغايات فى تسخير البحر و إجراء الفلك فيه شكركم له المرجو منكم إذ هو من زيادته تعالى فى النعمه فقد أغناكم بما أنعم عليكم فى البر عن أن تتصرفوا فى البحر بالغوص و إجراء السفن و غير ذلك لكنه تعالى زادكم بتسخير البحر لكم نعمه لعلكم تشكرونه على هذا الزائد فإن الإنسان قليلا ما يتتبه فى الضروريات أنها نعمه موهوبه من لدنه سبحانه و لو شاء لقطعها و أما الزوائد النافعه فهى أقرب من هذا التنبه و الانتقال.

قوله تعالى: وَ أَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهَاراً وَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ قال فى المجمع: الميّد الميل يمينا و شمالا و هو الاضطراب ماد يميد ميّدا.

انتهى.

وقوله: أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ أَي كراهه أن تميد بكم أو أن لا- تميد بكم و المراد أنه طرح على الأرض جبالا- ثوابت لثلا تضطرب و تميل يمينا و شمالا فيختل بذلك نظام معاشكم.

وقوله: وَأَنْهَاراً أَي و جعل فيها أنهارا تجرى بمائها و تسوقه الى مزارعكم و بساتينكم و تسقيكم و ما عندكم من الحيوان الأهلئ.

وقوله: وَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ معطوف على قوله: وَأَنْهَاراً أَي و جعل سبلا لغايه الاهتداء المرجو منكم، و السبل منها ما هي طبيعیه و هي المسافات الواقعه بين بقعتين من الأرض الواصله إحداهما بالأخرى من غير أن يقطع ما بينهما بحاجب او مانع كالسهل بين الجبلين، و منها ما هي صناعیه و هي التي تتكون بعبور المارّه و آثار الأقدام او يعملها الإنسان.

و الظاهر من السياق عموم السبل لكلا القسمين، و لا ضير في نسبه ما جعله الإنسان الى جعله تعالى كما نسب الأنهار و العلامات الى جعله تعالى و أكثرها من صنع الإنسان و كما نسب ما عمله الإنسان من الأصنام و غيرها الى خلقه تعالى في قوله: وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ (الصافات ٩٦).

و ذلك أنها كائنه ما كانت من آثار مجعولاته تعالى و جعل الشئ ذى الأثر جعل لأثره بوجه و إن لم يكن جعلاً مستقيماً من غير واسطه.

قوله تعالى: وَ عَلامَاتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ العلامات جمع علامه و هي ما يعلم به الشئ، و هو معطوف على قوله: «أَنْهَاراً» أَي و جعل علامات تستدلون بها على الأشياء الغائبه عن الحس و هي كل آيه و أماره طبيعیه أو وضعیه تدل على مدلولها و منها الشواخص و النصب و اللغات و الإشارات و الخطوط و غيرها.

ثم ذكر سبحانه الاهتداء بالنجوم فقال: وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ و لعل الالتفات فيه من الخطاب الى الغيبه للتحرز عن تكرار «تَهْتَدُونَ» بصيغه الخطاب في آخر الآيتين.

و الآيه السابقه «وَ عَلَى اللَّهِ قَضِيْدُ السَّبِيْلِ وَ مِنْهَا جَزَائِرٌ وَ لَوْ شَاءَ لَهَرِدَّاكُمْ أَجْمَعِيْنَ» المتضمنه لمسأله الهدايه المعنويه التي هي كالمعترضه بين الآيات العادّه للنعم الصوريه و إن كان الأنسب ظاهرا أن يوضع بعد هذه الآيه أعنى قوله: «وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ» المتعرضه هي و ما قبلها للهدايه الصوريه غير أن ذلك لم يكن خاليا من اللبس و إيهام التناقض بخلاف موقعها الذي هي واقعه فيه و إن كانت كالمعترضه كما هو ظاهر.

قوله تعالى: أَمْ مَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا- يَخْلُقُ -الى قوله- إِيَّاهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ والآيات تقرير إجمالي للحجه المذكوره تفصيلا في ضمن الآيات الست عشره الماضيه و استنتاج للتوحيد و هي حجه واحده أقيمت لتوحيد الربوبيه، و ملخصها أن الله سبحانه خالق كل شيء فهو الذي أنعم بهذه النعم التي لا يحيط بها الإحصاء التي ينتظم بها نظام الكون، و هو تعالى عالم بسرّها و علنها فهو الذي يملك الكل و يدبر الأمر فهو ربها، و ليس شيء مما يدعونه على شيء من هذه الصفات فليست أربابا فالإله واحد لا غير و هو الله عز اسمه.

و إنما سيقت آيات الخلقه لتثبيت أمر النعمه إذ من البين أنه إذا كان الله سبحانه خالقا لكل شيء موجودا له كانت آثار وجودات الأشياء و هي النعم التي يتنعم بها له سبحانه كما أن وجوداتها له ملكا طلقا لا يقبل بطلانا و لا نقلا و لا تبديلا فهو سبحانه المنعم بها حقيقه لا غيره من شيء حتى الذي نفس النعمه من آثار وجوده فإنه و ما له من أثر هو لله وحده.

و لذلك ضمّ الى حديث الخلق و الإنعام قوله تعالى: «وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُؤْنَ وَ مَا تُعْلِنُونَ» لأن مجرد استناد الخلق و الإنعام الى شيء لا يستلزم ربوبيته و لا يستوجب عبادته لو لا انضمام العلم اليهما ليتم بذلك أنه مدبر يهدي كل شيء الى كماله المطلوب له و سعادته المكتوبه في صحيفه عمله، و من المعلوم أنّ العباده إنما تستقيم عباده إذا كان المعبود موسوما بسمه العلم عالما بعباده من يعبده شاهدا لخضوعه.

فمجموع ما تتضمنه الآيات من حديث الخلق و النعمه و العلم مقدمات لحجه واحده أقيمت على توحيد الربوبية الذى ينكره الوثنيه كما عرفت.

فقوله: أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا- يَخْلُقُ أَفَلَا- تَذَكَّرُونَ قياس ما له سبحانه من النعت الى ما لغيره منه و نفى للمساواه، و الاستفهام للإبتكار، و المراد بمن لا يخلق آلهمم الذين يدعونهم من دون الله.

و بيانه- كما ظهر مما تقدم- أن الله سبحانه يخلق الأشياء و يستمر فى خلقها فلا يستوى هو و من لا يخلق شيئاً فإنه تعالى لخلقه الأشياء يملك وجوداتها و آثار وجوداتها التى هى الأنظمه الخاصه بها و النظام العام الجارى عليها.

و قوله: وَ إِن تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا الخ؛ إشاره الى كثره النعم الإلهيه كثره خارجه عن حيطه الإحصاء، و بالحقيقه ما من شىء إلا و هو نعمه إذا قيس الى النظام الكلى و إن كان ربما وجد بينها ما ليس بنعمه إذا قيس الى بعض آخر.

و قد علل سبحانه ذلك بقوله: إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ و هو من ألطف التعليل و أود فأفاد سبحانه أن خروج النعمه عن حد الاحصاء إنما هو من بركات اتصافه تعالى بصفتى المغفره و الرحمه فإنه بمغفرته- و المغفره هى الستر- يستر ما فى الأشياء من وبال النقص و شوهه القصور، و برحمته- و الرحمه إتمام النقص و رفع الحاجه- يظهر فيها الخير و الكمال و يحلّيا بالجمال فيبسط المغفره و الرحمه على الأشياء يكون كل شىء نافعا فى غيره خيرا مطلوبا عنده فيصير نعمه بالنسبه اليه فالأشياء بعضها نعمه لبعض فللنعمه الإلهيه من السعه و العرض ما لمغفرته و رحمته من ذلك: فإن تعدوا نعمه الله لا تحصوها، فافهم ذلك.

و الآيه من الموارد التى استعملت فيها المغفره فى غير الذنب و المعصيه للأمر المولوى كما هو المعروف عند المتشرعه.

وقوله: وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ إشاره الى الركن الثالث من أركان الربوبية و هو العلم فإن الإله لو كان غير متصف بالعلم استوت العباده و اللاعباده بالنسبه اليه فكانت عبادته لغوا لا أثر لها.

وقوله: وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ إشاره الى فقدان الركن الأول من أركان الربوبية فى آلهتهم الذين يدعون من دون الله و يتفرع عليه الركن الثانى و هو إيتاء النعمه،فليس الذين يدعونهم آلهه و أربابا و الله الرب.

وقوله: أَمْ مَاتَ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ إشاره الى فقدان الركن الثالث من أركان الربوبية فى أصنامهم و هو العلم بما يسرّون و ما يعلنون و قد بالغ فى نفى ذلك فنفى أصل الحياه المستلزم لنفى مطلق العلم فضلا عن نوعه الكامل الذى هو العلم بما يسرّون و ما يعلنون فقال: «أَمْ مَاتَ غَيْرُ أَحْيَاءٍ» فأثبت الموت أولا و هو لا يجامع الشعور ثم أكده بنفى الحياه ثانيا.

و خصّ من وجوه جهلهم عدم شعورهم متى يبعث عبادهم من الناس فقال: «وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ» أى ما يدرى الأصنام أيان يبعث عبادهم فإن العباده هى التى يجزى بها الإنسان يوم البعث فمن الواجب فى الإله المعبود أن يعلم متى يوم البعث حتى يجزى عباده فيه عن عبادتهم،و هؤلاء لا يدرون شيئا من ذلك.

وقوله: إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ بيان لنتيجة الحجه التى أقيمت فى الآيات السابقه أى إذا كان الله سبحانه هو الواجد لما تتوقف عليه الالوهيه و هى المعبوديه بالحق،و غيره تعالى ممن يدعون من دونه غير واجد لشيء مما تتوقف عليه و هو الخلق و الإنعام و العلم فالهكم الذى يحق له أن يعبد واحد و لازم معناه أنه الله عز اسمه (١).

ص: ٥٤٣

إِلَهُكُمْ إِلَهًا وَاحِدًا فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا لَسَا طَيْرٌ الْأُولَى (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَّا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ مِنَ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَاذْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِلَّذِينَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَذْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) هِيَ لَ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسِهِمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤) وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أُعِيدُوا لِلَّهِ وَاجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَمِنْهُمْ مَنِ اتَّبَعَ مَا فِي الْأَرْضِ فَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (٣٦) إِنَّ تَخْرِيصَ عَلِيِّ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٧) وَأَفْسَحُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠)

قوله تعالى: **إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ** قد تقدم الكلام فى قوله: **«إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ»** و أنه نتيجة الحجّة التى أقيمت فى الآيات السابقة.

وقوله: **فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ الخ**؛ تفرّيع عليه، و افتتاح لفصل جديد من الكلام حول أعمال الكفّار من أقوالهم و أعمالهم الناشئة عن عدم إيمانهم بالله سبحانه و إنما ذكر عدم إيمانهم بالآخرة و لم يذكر عدم إيمانهم بالله وحده لأن الذى أقيمت عليه الحجّة هو التوحيد الكامل و هو وجوب الاعتقاد بإله عليم قدير خلق كل شىء و أتمّ النعمة لا لغوا باطلا بل لحق ليرجعوا اليه فيحاسبهم على ما عملوا و يجازيهم بما اكتسبوا مما عهدده اليهم من الأمر و النهى بواسطة الرسل.

فالتوحيد المندوب اليه فى الآيات الماضيه هو القول بوحدانيته تعالى و الإيمان بما أتى به رسل الله و الإيمان بيوم الحساب و الجزاء، و لذلك و صفهم الكفار بعدم الإيمان بالآخرة لأن الإيمان بها يستلزم الإيمان بالوحدانيته و الرساله.

و قوله: **قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ** أى للحق و قوله: **«وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ»** أى عن الحق، و الاستكبار-على ما ذكره-طلب الترفع بترك الإذعان للحق.

و المعنى: إلهكم واحد على ما تدل عليه الآيات الواضحة في دلالتها، وإذا كان الأمر على هذا الوضوح و الجلاء لا يستتر بستر و لا يرتاب فيه فهم فالذين لا يؤمنون بالآخره قلوبهم منكره للحق جاحده له عنادا و هم مستكبرون عن الانقياد للحق من غير حجه و لا برهان.

قوله تعالى: لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ «لَا جَرَمَ» كلمه مركبه باقيه على حاله واحده يفيد معنى التحقيق على ما ذكره الخليل و سيبويه و اليه يرجع ما ذكره غيرهما و إن اختلفوا فى أصل تركبه قال الخليل:

و هو كلمه تحقيق و لا يكون إلا جوابا يقال: فعلوا كذا فيقول السامع: لا جرم يندمون.

و المعنى من المحقق-أو حق-أن الله يعلم ما يسرون و ما يعلنون، و هو كناية و تهديد بالجزاء السيئ أى إنه يعلم ما يخفونه من أعمالهم و ما يظهره فسيجزبهم بما عملوا و يؤاخذهم على ما أنكروا و استكبروا إنه لا يحب المستكبرين.

قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ قال الراغب فى المفردات: السطر و السطر-بفتح السكون أو بفتحتين-السطر من الكتابه و من الشجر المغروس و من القوم الوقوف-الى أن قال-و جمع السطر أسطر و سطور و أسطار.

قال: و أما قوله: «أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» فقد قال المبرد: هى جمع اسطوره نحو أرجوحه و أثفيه و أثافى و أحداثه و أحاديث، و قوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» أى شىء كتبه كذبا و مينا فيما زعموا نحو قوله تعالى: «أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» اكتبها فهى تملأ عليه بكرة و أصيلاً انتهى و قال غيره: أساطير جمع أسطار و أسطار جمع سطر فهو جمع الجمع.

و قوله: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رَبُّكُمْ» يمكن أن يكون القائل بعض المؤمنين و إنما قاله اختبارا لحالهم و استفهاما لما يروونه فى الدعوه النبويه، و يمكن أن يكون من المشركين و إنما قاله لهم ليقلدتهم فيما يروونه، و عبر عن القرآن بمثل قوله: «مَاذَا أُنزِلَ رَبُّكُمْ» لنوع من

التهكم و الاستهزاء، و يمكن أن يكون شاكا متحيرا باحثا، و الآيه التاليه و كذا قوله فيما سيأتى:

«وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ» يؤيد أحد الوجهين الأخيرين.

و قوله: قَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أى الذى يسأل عنه أكاذيب خرافيه كتبها الأولون و أثبتوها و تركوها لمن خلفهم، و لازم هذا القول دعوى أنه ليس نازلا من عند الله سبحانه.

قوله تعالى: لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قال فى المفردات: الوزر-بفتحيتين-الملجأ الذى يلتجأ اليه من الجبل، قال تعالى: «كَأَلَّا لَا وَزَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ» و الوزر-بالكسر فالسكون-الثقل تشبيها بوزر الجبل، و يعبر بذلك عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل، قال تعالى: «لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً» الآيه؛ كقوله:

«وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ أُنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ» .

قال: و حمل وزر الغير بالحقيقه هو على نحو ما أشار اليه صلى الله عليه و آله و سلم بقوله: «من سنَّ سنه حسنه كان له أجرها و أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجره شىء، و من سنَّ سنه سيئه كان له وزرها و وزر من عمل بها» أى مثل وزر من عمل بها، و قوله: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ» أى لا تحمل وزره من حيث يتعزى المحمول عنه، انتهى.

و الذى ذكره من الحديث النبوى مروى من طرق الخاصه و العامه جميعا و يصدقه من الكتاب العزيز مثل قوله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ مَا أَلْتَأْتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ أُمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينًا» (الطور ٢١)، و قوله: «و نَكُتِبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَرَهُمْ» (يس ١٢) و الآيات فى هذا المعنى كثيره.

و أما قوله فى تفسير قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «كان له وزرها و وزر من عمل بها» أى مثل وزر من عمل بها فكلام ظاهرى لا- بأس بأن يوجه به الآيه و الروايه لرفع التناقض بينهما و بين مثل قوله تعالى: «لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ» (الأنعام ١٦٤)، و قوله: لِيُؤْفِقَهُمْ رَبُّكَ

أَعْمَالُهُمْ (هود ١١١)، إذ لو حمل الأمر وزر السيئه و عذب بعذابها دون الفاعل ناقض ذلك الآية الاولى، و لو قسم بينهما و حمل كل منهما بعض الوزر و عذب ببعض العذاب ناقض الآية الثانية، و أما لو حمل السانّ و الأمر مثل ما للعامل الفاعل لم يناقض شيئاً.

و فى تقييد قوله: لِيُحْمَلُوا أَوْزَارَهُمْ بقوله: كَامِلَةً دفع لتوهم التقسيم و التبعض بأن يحملوا بعضاً من أوزار أنفسهم و بعضاً من أوزار الذين يضلونهم فيعود الجميع أوزارا كامله بل يحملون أوزار أنفسهم كامله ثم من أوزار الذين يضلونهم.

و قوله: وَ مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ من تبعضيه لأنهم لا يحملون جميع أوزارهم بل أوزارهم التى ترتبت على إضلالهم خاصة بشهادته السياق فالتبعض إنما هو لتمييز الأوزار المترتبة على الإضلال من غيرها لا- للدلاله على تبعض كل وزر من أوزار الإضلال و حمل بعضه على هذا و بعضه على ذاك و لا تقسيم مجموع أوزار الإضلال و حمل قسم منه على هذا و قسم منه على ذاك مع تعريته عن القسم الآخر فإن أمثال قوله تعالى: وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الزلزال ٨) تنافى ذلك فافهم.

و تقييده سبحانه قوله: يُضِلُّونَهُمْ بقوله: بغير علم للدلاله على أن الذين أضلهم هؤلاء المشركون الذين قالوا: أساطير الأولين إنما ضلوا باتباعهم لهم تقليدا و بغير علم فالقائلون أنهم الضلال و هؤلاء الضلال أتباعهم و مقلدوهم ثم ختم سبحانه الآية بدمهم و تقييد أمرهم جميعا فقال: «أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ» .

قوله تعالى: قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ الخ؛ إتيانه تعالى بنيانهم من القواعد هو حضور أمره تعالى عنده بعد ما لم يكن حاضرا، و هذا شائع فى الكلام و خرورج السقف سقوطه على الأرض و انهدامه.

و الظاهر- كما يشعر به السياق- أن قوله: فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ كناية عن إبطال كيدهم و إفساد مكرهم من حيث لا

يتوقعون كمن يتقى أمامه و يراقبه فيأتيه العدو من خلفه فالله سبحانه يأتي مكرهم من ناحيه قواعده و هم مراقبون سقفه مما يأتيه من فوق فينهدم عليهم السقف لا بهادم يهدمه من فوقه بل بانهدام القواعد.

و على هذا فقوله: **وَ أَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ** عطف تفسيري يفسر قوله: «فَأَتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمُ» الخ؛ والمراد بالعذاب العذاب الدنيوي.

و في الآيه تهديد للمشركين الذين كانوا يمكرون بالله و رسوله بتذكيرهم ما فعل الله بالماكرين من قبلهم من مستكبري الامم الماضيه حيث ردّ مكرهم الى أنفسهم فكانوا هم الممكورين.

قوله تعالى: **ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَ يَقُولُ أَإِنَّ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمُ الْإِخْرَاءَ مِنَ الْخِزْيِ وَ هُوَ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الرَّاعِبُ الذَّلِ الَّذِي يَسْتَحْيِي مِنْهُ، وَ الْمَشَاقَّةَ مِنَ الشَّقِّ وَ هُوَ قَطْعُ بَعْضِ الشَّيْءِ وَ فَصْلُهُ مِنْهُ فَهِيَ الْمَخَاصِمَةُ وَ الْمَعَادَاةُ وَ الْاِخْتِلَافُ مِمَّنْ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَأْتَلَفَ وَ يَتَّفِقَ فَمَشَاقَّةُ الْمُشْرِكِينَ فِي شُرَكَائِهِمْ هُوَ اِخْتِلَافُهُمْ مَعَ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَ هُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ فَطَهَّرَهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا عَلَى التَّوْحِيدِ وَ دِينَ الْحَقِّ وَ مَخَاصِمَتِهِمْ لَهُمْ وَ انْفِصَالُهُمْ عَنْهُمْ.**

و المعنى: أن الله سبحانه سيخزيهم يوم القيامة و يضرب عليهم الذله و الهوان بقوله: **أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ أَهْلَ الْحَقِّ فِيهِمْ وَ تَخَاصُمُونَهُمْ وَ تَوْجِدُونَ الْاِخْتِلَافَ فِي دِينِ اللَّهِ.**

قوله تعالى: **قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَ السُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ الْخِزْيَ ذَلَّةُ الْمَوْقِفِ وَ السُّوءَ الْعَذَابَ عَلَى مَا يَفِيدهُ السِّيَاقُ.**

و هؤلاء الذين وصفهم الله بأنهم اوتوا العلم و أخبر أنهم يتكلمون بكذا هم الذين رزقوا العلم بالله و انكشفت لهم حقيقته التوحيد فإن ذلك هو الذي يعطيه السياق من جهه المقابله بينهم مع وصفهم بالعلم و بين المشركين الذين ينكشف لهم يومئذ أنهم ما كانوا يعبدون إلا

على أن الله سبحانه يخبر عنهم أنهم يتكلمون يومئذ و يقولون كذا و قد قال فى وصف اليوم:

لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَدِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (النبا ٣٨) و القول لا يكون صوابا بحق المعنى إلا مع كون قائله مصونا من خطاه و لغوه و باطله، و لا يكون مصونا فى قوله إلا إذا كان مصونا فى فعله و فى علمه فهؤلاء قوم لا يرون إلا الحق و لا يفعلون إلا الحق و لا ينطقون إلا بالحق.

قوله تعالى: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ الى آخر الآيه؛ الظاهر أنه تفسير للكافرين الواقع فى آخر الآيه السابقه كما أن قوله الآتى:

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ الخ؛ تفسير للمتقين الواقع فى آخر الآيه التى قبله، و لا يستلزم كونه بيانا للكافرين كونه من تمام قول الذين اتوا العلم حتى يختل نظم الكلام بقولهم:

«إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ» الخ؛ ثم بيانهم بقولهم: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ الخ؛ دون أن يقولوا: الذين توفاهم الملائكه كما لا يخفى.

وقوله: فَأَلْقَوْا السَّلَمَ أى الاستسلام و هو الخضوع و الانقياد، و ضمير الجمع للكافرين و المعنى الكافرون هم الذين تتوفاهم الملائكه و يقبضون أرواحهم و الحال أنهم ظالمون لأنفسهم بكفرهم بالله فألقوا السلم و قدموا الخضوع و الانقياد مظهرين بذلك أنهم ما كانوا يعملون من سوء، فيرد عليهم قولهم و يكذبون و يقال لهم: بلى قد فعلتم و عملتم إن الله عليم بما كنتم تعملون قبل ورودكم هذا المورد و هو الموت.

قوله تعالى: فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ الخطاب للمجموع كما كان قوله: «إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَ الشُّوَاءَ عَلَى الْكَافِرِينَ» و كذا قوله: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ» الخ؛ ناظرا الى جماعه الكافرين دون كل واحد واحد منهم.

و على هذا يعود معناه الى مثل قولنا: ليدخل كل واحد منكم بابا من جهنم يناسب عمله و موقفه من الكفر لا أن يدخل كل واحد منهم جميع الأبواب او أكثر من واحد منها، و قد تقدم الكلام فى معنى أبواب جهنم فى تفسير قوله تعالى: لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (الحجر ٤٤).

و المتكبرون هم المستكبرون بحسب المصداق و إن كانت العناية اللفظية مختلفه فيهما كالمسلم و المستسلم فالمستكبر هو الذى يطلب الكبر لنفسه بإخراجه من القوه الى الفعل و إظهاره لغيره، و المتكبر هو الذى يقبله لنفسه و يأخذه صفه.

قوله تعالى: وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا الى آخر الآيه؛ أخذ المسئول عنهم هم الذين اتقوا أى الذين شأنهم فى الدنيا أنهم تلبسوا بالتقوى و هم المتصفون به المستمرون بدليل إعادته ذكرهم بعد لفظ المتقين مرتين فيكون المسئول عنهم من هذه الطائفة خيارهم الكاملين فى الإيمان كما كان المسئول عنهم فى الطائفة الاخرى شرارهم الكاملين فى الكفر و هم المستكبرون.

و قوله: قَالُوا خَيْرًا أى أنزل خيرا لأنه أنزل قرآنا يتضمن معارف و شرائع فى أخذها و العمل بها خير الدنيا و الآخرة و فى قولهم: «خَيْرًا» اعتراف بكون القرآن نازلا- من عنده تعالى مضافا الى وصفهم له بالخيريه و فى ذلك إظهار منهم المخالفه للمستكبرين حيث أجابوا بقولهم: أساطير الأولين أى هو أساطير و لو قال المتقون: خير بالرفع لم يكن فيه اعتراف بالنزول كما أنه لو قال المستكبرون: أساطير الأولين بالنصب كان فيه اعتراف بالنزول. كذا قيل.

و قوله: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَ لِدَارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ظاهر السياق أنه بيان لقولهم: «خَيْرًا» و هل هو تتمه قولهم أو بيان منه تعالى؟ ظاهر قوله: «وَ لِنَعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ جَنَّاتٌ عَدْنٌ» الى آخر الآيه؛ أنه كلام منه تعالى يبين به وجه الخيره فيما أنزله اليهم

فإنه أشبه بكلام الرب تعالى منه بكلام المربوب و خاصة المتقين الذين لا يجترءون على أمثال هذه الاقتراحات.

و المراد بالحسنه المثوبه الحسنه و ذلك لأنهم بالإحسان الذى هو العمل بما يتضمنه الكتاب يرزقون مجتمعا صالحا يحكم فيه العدل و الإحسان و عيشه طيبه مبنيه على الرشد و السعاده ينالون ذلك جزاء دنيويا لإحسانهم لقوله: «لَهُمْ فِي الدُّنْيَا» و لدار الحياه الآخره خير جزاء لأن فيها بقاء بلا فناء و نعمه من غير نقمه و سعاده ليس معها شقاء.

و معنى الآيه: و قيل للمتقين من المؤمنين ما ذا أنزل ربكم من الكتاب و ما شأنه؟ قالوا أنزل خيرا، و كونه خيرا هو أن للذين أحسنوا- أى عملوا بما فيه فوضع الإحسان موضع الأخذ و العمل بما فى الكتاب إيماء الى أن الذى يأمر به الكتاب أعمال حسنه- فى هذه الدنيا مثوبه حسنه و لدار الآخره خير لهم جزاء.

ثم مدح دارهم ليكون تأكيدا للقول فقال: «وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ» ثم بين دار المتقين بقوله:

«جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ» و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ بيان للمتقين كما كان قوله: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ» الخ؛ بيانا للمستكبرين.

و الطيب تعزى الشىء مما يختلط به فيكدره و يذهب بخلوصه و محوضته يقال: طاب لى العيش أى خلص و تعزى مما يكدره و ينغصه و القول الطيب ما كان عاريا من اللغو و الشتم و الخشونه و سائر ما يوجب فيه غضاظه، و الفرق بين الطيب و الطهاره أن الطهاره كون الشىء على طبعه الأصلى بحيث يخلو عما يوجب التنفر عنه و الطيب كونه على أصله من غير أن يختلط به ما يكدره و يفسد أمره سواء تنفّر عنه أم لا و لذلك قوبل الطيب بالخبيث المشتمل على

الخبث الزائد، قال تعالى: الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ (النور ٢٦)، وقال: وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ بِآيَاتِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا (الأعراف ٥٨).

و على هذا فالمراد بكون المتقين طيبين في حال توفيقهم خلوصهم من خبث الظلم في مقابل المستكبرين الذين وصفهم بالظلم حال التوفيق في قوله السابق: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ» و يكون معنى الآية أن المتقين هم الذين تتوفاهم الملائكة متعززين عن خبث الظلم-الشرك و المعاصي-يقولون لهم سلام عليكم-و هو تأمين قولى لهم-ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون-و هو هدايه لهم إليها-.

قوله تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ الخ؛ رجوع الى حديث المستكبرين من المشركين و ذكر بعض أحوالهم و أقوالهم و قياسهم ممن سبقهم من طغاه الامم الماضين و ما آل اليه أمرهم.

و قوله: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ سياق الآية و خاصه ما فى الآية التاليه من حديث العذاب ظاهر فى أنها مسوقه للتهديد فالمراد بإتيان الملائكة نزولهم لعذاب الاستئصال و ينطبق على مثل قوله: مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنظَرِينَ (الحجر ٨)، و المراد بإتيان أمر الرب تعالى قيام الساعة و فصل القضاء و الانتقام الإلهي منهم.

و أما كون المراد بإتيان الأمر ما تقدم فى أول السوره من قوله: «أَتَى أَمْرُ اللَّهِ» و قد قرّبنا هناك أن المراد به مجيء النصر و ظهور الاسلام على الشرك فلا يلائم اللحن الشديد الذى فى الآية تلك الملائمه، و أيضا سيأتى فى ذيل الآيات ذكر إنكارهم للبعث و إصرارهم على نفيه و الرد عليهم، و هو يؤيد كون المراد بإتيان الأمر قيام الساعة.

و قد أضاف الرب الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم فقال: أَمْرٌ رَبِّكَ و لم يقل: أمر الله أو أمر ربهم ليدل

به على أن فيه انتصارا له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وقضاء له عليهم.

وقوله: كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ تَأْكِيدًا لِلتَّهْدِيدِ وَتَأْيِيدًا لِلنَّظِيرِ أَيْ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ فَعَلِهِمْ مِنَ الْجُحُودِ وَالِاسْتِهْزَاءِ مِمَّا فِيهِ بِحَسَبِ الطَّبَعِ انْتِظَارَ عَذَابِ اللَّهِ «فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا» الخ.

وقوله: وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ معترضه يبين بها أن الذي نزل بهم من العذاب لهم يستوجبه إلا الظلم، غير أن هذا الظلم كان هو ظلمهم أنفسهم لا ظلما منه تعالى و تقدس، و لم يعذبهم الله سبحانه عن ظلم وقع منهم مره أو مرتين بل أمهلهم إذ ظلموا حتى استمروا في ظلمهم و أصروا عليه - كما يدل عليه قوله: كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ - فعند ذلك أنزل عليهم العذاب، ففي قوله: «وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ» الخ؛ إثبات الاستمرار على الظلم عليهم و نفي أصل الظلم عن الله سبحانه.

قوله تعالى: فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ حاق بهم أي حل بهم، وقيل: معناه نزل بهم و أصابهم، و الذي كانوا به يستهزئون هو العذاب الذي كانت رسلهم يندرونهم به و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لَا آبَاؤُنَا وَ لَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ الخ؛ الذي تورده الآية شبهه على النبوه من الوثنيين المنكرين لها، و لذلك عرفهم بنعتهم الصريح حيث قال: «وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا» و لم يكتف بالضمير و لم يقل: و قالوا كما في الآيات السابقة ليعلم أن الشبهه لهم بعينهم.

وقوله: لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا جملته شرطيه حذف فيها مفعول «شاء» لدلاله الجزاء عليه، و التقدير لو شاء الله أن لا نعبد من دونه شيئا ما عبدنا، الخ.

وقوله: مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ لفظه من الاولى بيانيه و الثانيه زائده

لتأكيد الاستغراق في النفي، والمعنى ما عبدنا شيئاً دونه، ونظير ذلك قوله: «وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ» .

وقوله: نَحْنُ وَ لَا آبَاؤُنَا بيان لضمير التكلم في «عَبَدْنَا» للدلالة على أنهم يتكلمون عنهم و عن آبائهم جميعاً لأنهم كانوا يقتدون في عبادة الأصنام بآبائهم، وقد تكرر في القرآن حكاية مثل قولهم: إِذَا وَحَدَّثْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّهِ وَإِذَا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (الزخرف ٢٣).

وقوله: وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ عطف على قوله: «عَبَدْنَا» الخ؛ أي و لو شاء الله أن لا نحرم من دونه من شيء أو نحل ما حرّمناه ما حرّمناه، الخ؛ والمراد البحيره و السائبه و غيرهما مما حرّموه.

ثم إن قولهم: لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ الخ؛ ظاهر من جهة تعليق نفي العبادة على نفس مشيئته تعالى في أنهم أرادوا بالمشيه إرادته التكوينية التي لا تتخلف عن المراد البتة و لو أرادوا غيرها لقالوا: لو شاء الله كذا لأطعناه و استجبنا دعوته أو ما يفيد هذا المعنى.

فكأنهم يقولون: لو كانت الرسالة حقه و كان ما جاء به الرسل من النهي عن عبادة الأصنام و الأوثان و النهي عن تحريم البحيره و السائبه و الوصيله و غيرها نواهي لله سبحانه كان الله سبحانه شاء أن لا نعبد شيئاً غيره و أن لا نحرم من دونه شيئاً، و لو شاء الله سبحانه أن لا نعبد غيره و لا نحرم شيئاً لم نعبد و لم نحرم لاستحاله تخلف مراده عن إرادته لكننا نعبد غيره و نحرم أشياء فليس يشاء شيئاً من ذلك فلا نهى و لا أمر منه تعالى و لا شريعته و لا رساله من قبله.

قوله تعالى: كَذَلِكَ فَعَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ، خطاب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بأمره أن يبلغ رسالته بلاغاً مبيناً و لا يعتنى بما لفقوه من

الحججه فإنها داخضه و الحججه تامه عليهم بالبلاغ و فيه إشاره إجماليه الى دحض حججهم.

فقوله: كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَى عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ الَّذِى سَلَكَ هَؤُلَاءِ سَلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَعَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ وَ حَرَّمُوا مَا لَمْ يَحْرِمَهُ اللَّهُ ثُمَّ إِذَا جَاءَتْهُمْ رِسَالَةٌ مِنْهُمْ يَنْهَوْنَهُمْ عَنْ ذَلِكَ قَالُوا: لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لَا آبَاؤُنَا وَ لَا حَرَّمَنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ فَالْجمله كقوله تعالى: كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ (الأنفال ٥٢).

و قوله: فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ أَى بَلَّغَهُمُ الرِّسَالَةَ بِلَاغًا مُبِينًا تَتِمُّ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ فَإِنَّمَا وَظِيفَهُ الرِّسَالُ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ وَ لَيْسَ مِنْ وَظِيفَتِهِمْ أَنْ يَلْجِئُوا النَّاسَ إِلَى مَا يَدْعُونَهُمْ إِلَيْهِ وَ يَنْهَوْنَهُمْ عَنْهُ وَ لَا- أَنْ يَحْمِلُوا مَعَهُمْ إِرَادَةَ اللَّهِ الْمَوْجِبَةَ الَّتِى لَا- تَتَخَلَّفُ عَنِ الْمُرَادِ وَ لَا أَمْرَهُ الَّذِى إِذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ حَتَّى يَحْوِلُوا بِذَلِكَ الْكُفْرَ إِلَى الْإِيمَانِ وَ يَضْطَرُّوا الْعَاصِىَ عَلَى الْإِطَاعَةِ.

فإنما الرسول بشر مثلهم و الرساله التى بعث بها إنذار و تبشير و هى مجموعه قوانين اجتماعيه أوحاها اليه الله فيها صلاح الناس فى دنياهم و آخرتهم صورتها صورته الأوامر و النواهي المولويه و حقيقتها الإنذار و التبشير، قال تعالى: قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا- أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ (الأنعام ٥٠)، فهذا ما أمر به نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن يبلغهم و قد أمر به نوحا و من بعده من الرسل عليهم السلام أن يبلغوه أممهم كما فى سورة هود و غيرها.

و قال أيضا مخاطبا نبيه صلى الله عليه و آله و سلم: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَ لَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (الكهف / ١١٠).

فهذا هو الذى يشير اليه على سبيل الإجمال بقوله: كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ فَإِنْ ظَاهِرُهُ كَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ سَابِقًا أَنْ هَذِهِ حُجَّةٌ

دائرته بينهم قديما و حديثا، و على هذا ليس من شأن الرسول إجبار الناس و إجناؤهم على الإيمان و الطاعه بل البلاغ المبين بالإنذار و التبشير و حجتهم لا- تدفع ذلك فبلغ ما أرسلت به بلاغا مبينا و لا تطمع فى هدايه من ضلّ منهم، و ستفصل الآياتان التاليتان ما أجملته هذه الآيه و توضحانها.

قوله تعالى: **وَ لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاَ أَنْ اِعْبُدُوا اللَّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ** الخ؛ الطاغوت فى الأصل مصدر كالطغيان و هو تجاوز الحدّ بغير حق، و اسم المصدر منه الطغوي، قال الراغب: الطاغوت عباره عن كل متعدّ و كل معبود من دون الله، و يستعمل فى الواحد و الجمع، قال تعالى: **فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ وَهُمْ الطَّاغُوتُ** . انتهى.

و قوله: **وَ لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاَ** إشاره الى أن بعث الرسول أمر لا يختص به امه دون امه بل هو سنّه إلهيه جاريه فى جميع الناس بما أنهم فى حاجه اليه و هو يدرّكهم أينما كانوا كما أشار الى عمومه فى الآيه السابقه إجمالا بقوله: **« كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ »** .

و قوله: **أَنْ اِعْبُدُوا اللَّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** بيان لبعث الرسول على ما يعطيه السياق أن ما كانت حقيقه بعث الرسول إلّا- أن يدعوهم الى عباده الله و اجتناب الطاغوت لأن الأمر و كذا النهى من البشر و خاصه إذا كان رسولا ليس إلّا دعوه عاديه لا إلهاء و اضطرارا تكوينيا، و لا أن للرسول أن يدعى ذلك حتى يرد عليه أنه لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء و إذ لم يشأ فلا معنى للرساله.

و قوله: **فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ** أى كانت كل من هذه الامم مثل هذه الامه منقسمه الى طائفتين فبعضهم هو من هداه الله الى ما دعاهم اليه الرسول من عباده الله و اجتناب الطاغوت.

و ذلك أن الهدايه من الله سبحانه لا يشاركه فيها غيره و لا تنسب الى أحد دونه إلا بالتبع كما قال: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (القصص ٥٦) و سنشير اليه فى الآيه التاليه: إِنَّ تَحْرِصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَ الْآيَاتِ فى حصر الهدايه فيه تعالى كثيره، و لا يستلزم ذلك كونها أمرا اضطراريا لا صنع فيه للعبد أصلا فإنها اختياريه بالمقدمه كما يشير اليه قوله: وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (العنكبوت ٦٩) يفيد أن للهدايه الإلهيه طريقا ميسرا للانسان و هو الإحسان فى العمل و أن الله لمع المحسنين لا يدعهم يضلون.

و بعض هذه الامم-الطائفه الثانيه منهم-هو من حقت عليه الضلاله أى ثبتت و لزمت، و هذه الضلاله هى التى من قبل العبد بسوء اختياره و ليست بالتى تتبعها مجازاه من الله فإن الله يصفها بقوله: حقت ثم يضيفها فى الآيه التاليه الى نفسه إذ يقول: فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ فَقَدْ كَانَتْ هُنَاكَ ضَلَالَةٌ ثُمَّ حَقَّتْ وَ ثَبَّتَتْ بِإِثْبَاتِ اللَّهِ مَجَازَاهُ فَصَارَتْ هِيَ التَّى مِنْ قَبْلِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ مَجَازَاهُ، فْتَبَصَّرَ.

و لم ينسب الله سبحانه فى كلامه الى نفسه إضلالا إلا ما كان مسبوقا لظلم من العبد أو فسق أو كفر أو تكذيب أو نظائرها كقوله: وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (الجمعه ٥) و عدم الهدايه هو الإضلال، و قوله: وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (إبراهيم ٢٧)، و قوله: وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦)، و قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَ لَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ (النساء ١٦٨)، و قوله: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ (الصف ٥)، الى غير ذلك من الآيات.

و لم يقل سبحانه: فمنهم من هدى الله و منهم من أضله مع كون ضلالهم ضلال مجازاه لا مانع من إضافته اليه تعالى دفعا لإيهام نسبه أصل الضلال اليه بل ذكر أولا من هداه ثم قابله بمن كان من حقه أن يضل-و هو الذى اختار الضلاله على الهدى أى اختار أن لا يهتدى- فلم

يهده الله وحق له ذلك.

وقوله: فَسَيَرَوْا فِي الْأَرْضِ فَمَا نَظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ظاهر السياق أن الخطاب للذين أشركوا القائلين «لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ» والاتفات الى خطابهم لكونه أشد تأثيرا فلي تثبت القول و إتمام الحجج.

و الكلام متفرع على ما بين جوابا لحجتهم إجمالا- و تفصيلا و محصلا المعنى أن الرسالة و الدعوه النبويه ليست من الإبراهه التكوينية الملجئه الى ترك عباده الأصنام و تحريم ما لم يحرمه الله حتى يستدلوا بعدم وجود الإلجاء على عدم وجود الرسالة و كذب مدعيها بل هي دعوه عاديه بعث الله سبحانه بها رسلا يدعونكم الى عباده الله و اجتناب الطاغوت و حقيقته الإنذار و التبشير، و من الدليل على ذلك آثار الامم الماضيه الظالمه التي تحكى عن نزول العذاب عليهم فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبه المكذبين حتى يتبين لكم أن الدعوه النبويه التي هي إنذار حق و أن الرسالة ليست كما تزعمون.

قوله تعالى: إِنَّ تَحَرُّصَ عَلِيٍّ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ لما بين أن الامم الماضين انقسموا طائفتين و كانت إحدى الطائفتين هم الذين حقت عليهم الضلاله و كانت هؤلاء الذين أشركوا و قالوا ما قالوا كالذين من قبلهم منهم بين فى هذه الآيه أن ثبوت الضلاله فى حقهم إنما هو ثبوت لا- زوال معه و تحتم لا- يقبل التغيير فإنه لا هادى بالحقيقه إلا الله فإن جاز هداهم كان الله هو هادهم لكنه لا يهديهم فإنه يضلهم و لا يجتمع الهدى و الضلال معا، و ليس هناك ناصر ينصرهم على الله فيقهره على هداهم فليؤيس منهم.

ففى الآيه تعزیه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و إرشاد له أن لا يحرص فى هداهم، و إعلام له أن القضاء قد مضى فى حقهم و ما يبذل القول لديه و ما هو بظلام للعبيد.

فقوله: إِنَّ تَحَرُّصَ عَلِيٍّ هُدَاهُمْ الخ؛ فى تقدير إن تحرص على هداهم لم ينفعهم

حرصك شيئاً فليسوا ممن يمكن له الاهتداء فإن الله هو الذى يهدى من اهتدى، وهو لا يهديهم فإنه يضلهم ولا يناقض تعالى فعل نفسه، وليس لهم ناصرون ينصرونهم عليه.

و فى هذه الآيات الثلاث مشاجرات طويله بين المجبّره و المفوّضه و كل يفسرها بما يقتضيه مذهبه حتى قال الامام الرازى: إن المشركين أرادوا بقولهم: لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء، الخ؛ أنه لما كان الكل من التوحيد و الشرك و الهدى و الضلال من الله كانت بعثه الأنبياء عبثاً فنقول: هذا اعتراض على الله و جار مجرى طلب العله فى أحكامه و أفعاله تعالى و ذلك باطل فلا يقال له: لم فعلت هذا و لم لم تفعل ذلك؟

قال: فثبت أن الله تعالى إنما ذمّ هؤلاء القائلين لأنهم اعتقدوا أن كون الأمر كذلك يمنع عن جواز بعثه الرسل لا لأنهم كذبوا فى قولهم ذلك. انتهى ملخصاً.

و فى قوله: **وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** دلالة على أن لغيرهم ناصرين كثيرين و ذلك أن السياق يدل على أنه ليس لهم ناصر أصلاً لا واحد و لا كثير فنفى الناصرين بصيغه الجمع يكشف عن عنايه زائده بذلك أى أن هناك ناصرين لكنهم ليسوا لهم بل لغيرهم و ليس إلا من يهتدى بهدى الله، و نظير الآية ما حكاه الله سبحانه عن المجرمين يوم القيامة: **فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ** (الشعراء ١٠٠/).

و هؤلاء الناصرون هم الملائكة الكرام و سائر أسباب التوفيق و الهدايه و الله سبحانه من ورائهم محيط، قال تعالى: **إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ** (المؤمن ٥١/).

قوله تعالى: **وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ**؛ قال فى المفردات: الجهد و الجهد-بفتح الجيم و ضمها-الطاقة، و المشقه أبلغ من الجهد بالفتح، قال: و قال تعالى: **«وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ»** أى حلفوا و اجتهدوا فى الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما فى وسعهم. انتهى.

و قال فى المجمع فى معنى قوله: وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ أَى بلغوا فى القسم كل مبلغ. انتهى.

و قولهم: لا- يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ إنكار للحشر، و الجملة كناية عن أن الموت فناء فلا يتعلق به بعده خلق جديد، و هذا لا ينافى قول كلهم أو جلهم بالتناسخ فإنه قول بتعلق النفس بعد مفارقتها البدن ببدن آخر إنسانى أو غير إنسانى و عيشها فى الدنيا، و هو قولهم بالتولد بعد التولد.

و قوله: بَلَى وَ عَرِداً عَلَيْهِ حَقًّا أَى ليس الأمر كما يقولون بل يبعث الله من يموت وعده وعدا ثابتا عليه حقا أى إن الله سبحانه أوجه على نفسه بالوعد الذى وعد عباده، و أثبتته إثباتا فلا يتخلف و لا يتغير.

و قوله: وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ أَى لا يعلمون أنه من الوعد الذى لا يخلف و القضاء الذى لا يتغير لإعراضهم عن الآيات الداله عليه الكاشفه عن وعده و هى خلق السماوات و الأرض و اختلاف الناس بالظلم و الطغيان و العدل و الإحسان و التكليف النازل فى الشرائع الإلهيه.

قوله تعالى: لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ اللام للغايه و الغرض أى يبعث الله من يموت ليبين لهم، الخ؛ و الغايتان فى الحقيقه غايه واحده فإن الثانيه من متفرعات الاولى و لوازمها فإن الكافرين إنما يعلمون أنهم كانوا كاذبين فى نفى المعاد من جهه تبين الاختلاف الذى ظهر بينهم و بين الرسل بسبب إثبات المعاد و نفيه و ظهور المعاد لهم عيانا.

و تبين ما اختلف فيه الناس من شئون يوم القيامة، و قد تكرر فى كلامه هذا التعبير و ما فى معناه تكرارا صحّ معه جعل تبين الاختلاف معرّفا لهذا اليوم الذى ثقل فى السماوات و الأرض، و على ذلك يتفرع ما قصه الله سبحانه فى كلامه من تفاصيل ما يجرى فيه من المرور

على الصراط و تطاير الكتب و وزن الأعمال و السؤال و الحساب و فصل القضاء.

قوله تعالى: **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** هو نظير قوله في موضع آخر: **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** (يس ٨٢)، و منه يعلم أنه تعالى يسمي أمره قولاً- كما يسمي أمره وقوله من حيث قوته و إحكامه و خروجه عن الإبهام و كونه مراداً حكماً و قضاء، قال تعالى: **وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أُلْحِمْنَا لَهُ إِلَّا اللَّهُ** (يوسف ٦٧)، و قال: **وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هُوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ** (الحجر ٦٦)، و قال: **وَإِذَا قُضِيَ الْأَمْرُ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** (البقره ١١٧)، و كما يسمي قوله الخاص كلمه، قال تعالى: **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِجَانِبِنَا أَنْ نَكُونَ لَكُمْ مِنَ الْمُحْضَرِينَ** (الصافات ١٧٢)، و قال: **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** (آل عمران ٥٩)، ثم قال في عيسى عليه السلام: **وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ** (النساء ١٧١).

[سورة النحل (١٦): الآيات ٤١ إلى ٦٤]

إشارة

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسْبَهُ وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسِئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧) أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُونَ ظِلَالَهُ عَنِ الْأَيْمَنِ وَ الشَّمَائِلِ سِجِّدًا لِلَّهِ وَ هُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَ الْمَلَائِكَةُ وَ هُمْ لَا يَشْتَكِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠) وَ قَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا الْإِهِينَ إِنْثِينَ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِنِّي آتِي فَارْهَبُونَ (٥١) وَ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَ مَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) وَ يَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيْبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَشَيْئَلْنُ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهِ وَ لَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْمَأْتِلِ ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَ لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) وَ لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَ لَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَفْتِدُونَ (٦١) وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَ أَنََّّهُمْ مُفْرَطُونَ (٦٢) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَصِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤)

قوله تعالى: وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ وعد جميل للمهاجرين، وقد كانت من المؤمنين هجرتان عن مكة: إحداهما الى حبشه عدّه من المؤمنين بالنبي صلّى الله عليه وآله وسلم بإذن من الله و رسوله إليها و لبثوا فيها حيناً في أمن و راحة من أذى مشركى مكة و عذابهم

و الثانيه هجرتهم من مكه الى المدينه بعد مهاجره النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و الظاهر أن المراد بالهجره فى الآيه هى الهجره الثانيه فسياق الآيتين أكثر ملاءمه لها من الاولى و هو ظاهر.

□
و قوله: فى الله متعلق بهاجروا، و المراد بكون المهاجره فى الله أن يكون طلب مرضاته محيطا بهم فى مهاجرتهم لا يخرجون منه الى غرض آخر كما يقال: سافر فى طلب العلم و خرج فى طلب المعيشه أى لا- غايه له إلا- طلب العلم و لا- بغيه له إلا- طلب المعيشه، و السياق يعطى أن قوله: «مَنْ بَعْدَ مَا ظَلَمُوا» أيضا مقيد بذلك معنى، و التقدير: و الذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا فيه، و إنما حذف اختصارا و إنما اكتفى به قيما للمهاجره لأنها محل الابتلاء فتخصيصه بإيضاح الحال أولى.

و قوله: لَتَبَوَّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً قِيلَ: أى بلده حسنه بدلا مما تركوه من وطنهم كمكه و حوالها دليل قوله: «لَتَبَوَّئَنَّهُمْ» فإنه من بَوَّأَتْ له مكانا أى سَوَّيَتْ و أقررته فيه.

و قيل: أى حاله حسنه من الفتح و الظفر و نحو ذلك فيكون قوله: لَتَبَوَّئَنَّهُمْ الخ؛ من الاستعاره بالكنايه.

و الوجهان متحدان مآلا فإنهم إنما كانوا يهاجرون ليعقدوا مجتمعا إسلاميا طيبا لا يبعد فيه إلا الله، و لا يحكم فيه إلا العدل و الإحسان أو ليدخلوا فى مجتمع هذا شأنه فلو رجوا فى مهاجرهم غايه حسنه أو وعدوا بغايه حسنه كان ذلك هذا المجتمع الصالح، و لو حمدوا البلده التى يهاجرون إليها لكان حمدهم للمجتمع الاسلامى المستقر فيها لا لمائها أو هوائها فالغايه الحسنه التى يعدهم الله فى الدنيا هى هذا المجتمع سواء اريد بالحسنه البلده أو الغايه.

□
و قوله: وَ لَمَّا جُرِّمَ آخِرَهُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ تميم للوعد و إشاره الى أن أجر الآخره أفضل من هذا الأجر الدنيوى لو كانوا يعلمون ما أعد الله لهم فيها من النعم فإن

فيها سعادته من غير شقاء و خلودا من غير فناء و لذّه غير مشوبه بألم و جوار رب العالمين.

قوله تعالى: الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ لا يبعد أن يستفاد من سياق الآيتين أن جملة العناية فيهما الى وعد المهاجرين في الله وعدا حسنا في الدنيا و الآخرة من غير نظر الى الإخبار بتحقيق المهاجرة قبل حال الخطاب فيكون الكلام في معنى الاشتراط: من يهاجر في الله فله كذا و كذا، و تكون العناية في قوله: «الَّذِينَ صَبَرُوا» الخ؛ بتوصيف المهاجرين بالصبر و التوكل من غير نظر الى ما تحقق منهم من ذلك أيام توقفهم في أوطانهم بين المشركين قبال أذاهم و فتنهم.

و العناية بالتوصيف إنما هي لكون كلتا الصفتين دخيلتين في الغاية الحسنه التي وعدوا بها إذ لو لم يصبروا على مّرّ الجهاد و أظهروا الجزع عند هجوم العظام و لم يتأيّدوا بالتوكل على الله و اعتمدوا على أنفسهم الضعيفه أحيط بهم و لم يتهيأ لهم المستقر و فزقهم العدو المصّر على عداوته بددا و تلاشى المجتمع الصالح الذي أقاموه في مهاجرهم هذا في الدنيا، و أما أمر الآخرة ففساده بفساد المجتمع أو تلاشيه أوضح.

و لو كان المراد وعد المهاجرين الذين تحقق منهم الهجره قبل نزول الآيه تطيبا لنفوسهم و تسليه لهم عما أخرجوا من ديارهم و أموالهم و قاسوا الفتن و المحن كان قوله: «الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» مدحا لهم بما ظهر منهم ايام إقامتهم بمكّه و غيرها من الصبر في الله على أذى المشركين و التوكل على الله فيما عزموا عليه من الاسلام لله.

قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَشِئْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ رجوع ثان الى بيان كيفية إرسال الرسل و إنزال الكتب حتى يتضح للمشركين أنه لم تكن الدعوة الدينيه إلاّ دعوه عاديه من رجال يوحى اليهم من البشر يندبون الى ما فيه صلاح الناس في دنياهم و عقباهم.

و أنه لم يدع أحد من الرسل و لا ادعى في كتاب من كتب الشرائع أن الدعوة الدينيه ظهور

للقدره الغيبية القاهره لكل شىء و الاراده التكوينية لهدم النظام الجارى و نقض سنه الاختيار و إبطالها حتى يقول القائل منهم «لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ» الخ.

و على هذا فقولہ سبحانہ: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مَسْوِقًا لِحَصْرِ الرِّسَالَةِ عَلَى الْبَشَرِ الْعَادِي مِنْ رِجَالِ يُوْحَى إِلَيْهِمْ قَبَالَ مَا ادْعَاهُ الْمَشْرُكُونَ أَنَهَا لَوْ كَانَتْ لَكَانَتْ نَقْضًا لِنِظَامِ الطَّبِيعَةِ وَ إِبْطَالًا لِلِاخْتِيَارِ وَ الْإِسْتِطَاعَةِ.

و الحق أن الآيه وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا إِنَّمَا هِيَ فِي مَقَامِ بَيَانِ أَنَّ الرِّسَالَاتِ كَانُوا رِجَالًا مِنَ الْبَشَرِ الْعَادِي مِنْ غَيْرِ عِنَايَةٍ بِكُونِهِمْ أَوَّلَ مَا بَعَثُوا لِلرِّسَالَةِ أَفْرَادًا بِالْغَيْنِ مَبْلَغِ الرِّجَالِ فَالْغَرَضُ أَنَّ نُوحًا وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى وَ يَحْيَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَ هُمُ الرِّسَالَةُ كَانُوا رِجَالًا يُوْحَى إِلَيْهِمْ وَ لَمْ يَكُونُوا أَشْخَاصًا مَجْهُزِينَ بِقَدْرِهِ قَاهِرِهِ غَيْبِيَةٍ وَ إِرَادَةِ إِلَهِيَةٍ تَكْوِينِيَةٍ.

و يقرب من الآيه قوله تعالى في موضع آخر: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (الأنبياء/٨).

و قوله: فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ الظاهر أنه خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم و لقومه، وقد كان الخطاب في سابق الكلام للنبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصه و المعنى موجه الى الجميع فهو تعميم الخطاب للجميع ليتخذ كل من المخاطبين سبيله فمن كان لا يعلم ذلك كبعض المشركين راجع أهل الذكر و أسألهم و من كان يعلم ذلك كالنبي صلى الله عليه وآله وسلم و آله و سلم و المؤمنين به كان في غنى عن الرجوع و السؤال.

و الذكر حفظ معنى الشىء أو استحضاره، و يقال لما به يحفظ أو يستحضر قال الراغب في المفردات: الذكر تارة يقال و يراد به هيئته للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من معرفته و هو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتبارا بإحرازه و الذكر يقال اعتبارا باستحضاره، و تارة يقال لحضور الشىء في القلب أو القول و لذلك قيل: الذكر ذكران: ذكر بالقلب، و ذكر

باللسان، و كل واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان و ذكر لا عن نسيان بل عن إدامه الحفظ، انتهى موضع الحاجة.

و الظاهر أن الأصل فيه ما هو للقلب و إنما يسمى اللفظ ذكرا اعتبارا بإفادته المعنى و إلقائه إياه فى الذهن، و على هذا المعنى جرى استعماله فى القرآن غير أن مورده فيه ذكر الله تعالى فالذكر إذا أطلق فيه و لم يتقيد بشيء هو ذكره.

و بهذه العناية أيضا سُمى القرآن وحي النبوه و الكتب المنزله على الأنبياء ذكرا، و الآيات فى ذلك كثيره لا حاجه الى إيرادها فى هذا الموضع. و قد سمي الله سبحانه فى الآية التاليه القرآن ذكرا.

فالقرآن الكريم ذكر كما أن كتاب نوح و صحف إبراهيم و توراه موسى و زبور داود و إنجيل عيسى عليهم السلام - و هى الكتب السماويه المذكوره فى القرآن - كلها ذكر، و أهلها المتعاطون لها المؤمنون بها أهل الذكر.

و لما كان أهل الشىء و خاصته أعرف بحاله و أبصر بأخباره كان على من يريد التبصر فى أمره أن يرجع الى أهله، و أهل الكتب السماويه القائمون على دراستها و تعلمها و العمل بشرائعها هم أهل الخبره بها و العالمون بأخبار الأنبياء الجائين بها فعلى من أراد الاطلاع على شىء من أمرهم أن يراجعهم و يسألهم.

لكن المشركين المخاطبين بمثل قوله: فَسَيُتْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ لِمَا كَانُوا لَا يَسْلَمُونَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم النبوه و لا يصدقونه فى دعواه و يستهزءون بالقرآن ذى الذكر كما يذكره تعالى فى قوله: وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (الحجر ٦)، لم ينطبق قوله:

«فَسَيُتْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ» بحسب المورد إلا على أهل التوراه، و خاصه من حيث كونهم أعداء للنبي صلى الله عليه و آلِهِ و سلم رادين لنبوته و كانت نفوس المشركين طيبه بهم لذلك، و قد قالوا فى المشركين:

هُؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (النساء ٥١).

قوله تعالى: بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ متعلق بمقدّر يدلّ عليه ما فى الآيه السابقه من قوله:

«وَمَا أَرْسَلْنَا» أى أرسلناهم بالبينات و الزبر و هى الآيات الواضحه الداله على رسالتهم و الكتب المنزله عليهم.

و ذلك أن العنايه فى الآيه السابقه إنما هى بيان كون الرسل بشرا على العاده فحسب فكأنه لما ذكر ذلك اختلج فى ذهن السامع أنهم بما ذا أرسلوا؟ فاجيب عنه فقيل: بالبينات و الزبر أما البيّنات فلا ثبات رسالتهم و أما الزبر فلحفظ تعليماتهم.

و قيل: و هو متعلق بقوله: وَمَا أَرْسَلْنَا أى و ما أرسلنا بالبينات و الزبر إلا- رجالا- نوحى اليهم. و فيه أنه لا بأس به فى نفسه لكنه مفوّت لما تقدّم من النكته.

قوله تعالى: وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ لا شك أن تنزيل الكتاب على الناس و إنزال الذكر على النبي صلّى الله عليه و آله و سلم واحد بمعنى أن تنزيله على الناس هو إنزاله اليه ليأخذوا به و يوردوه مورد العمل كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (النساء ١٧٤/)، و قال: لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَ فَلَآ تَعْقِلُونَ (الأنبياء ١٠/).

فيكون محصّل المعنى أن القصد بنزول هذا الذكر الى عامه البشر و أنك و الناس فى ذلك سواء، و إنما اخترناك لتوجيه الخطاب و إلقاء القول لا لنحملك قدره غيبه و إرادته تكوينيه إلهيه فنجعلك مسيطرا عليهم و على كل شىء بل لأمرين:

أحدهما: أن تبين للناس ما نزل تدريجا اليهم لأن المعارف الإلهيه لا ينالها الناس بلا واسطه فلا بد من بعث واحد منهم للتبيين و التعليم، و هذا هو غرض الرساله ينزل اليه الوحي فيحمله ثم يؤمر بتبليغه و تعليمه و تبينه.

و الثانى: رجاء أن يتفكروا فيك فيتبصّروا أن ما جئت به حق من عند الله فإن الأوضاع المحيطه بك و الحوادث و الأحوال الوارده عليك فى مدى حياتك من اليتيم و خمود الذكر

و الحرمان من التعلم و الكتابه و فقدان مربّ صالح و الفقر و الاحتباس بين قوم جهله أخصاء صفر الأيدي من مزايا المدنيه و فضائل الإنسانيه كانت جميعا أسبابا قاطعه أن لا تذوق من عين الكمال قطره، و لا تقبض من عرى السعاده على مسكه، لكن الله سبحانه أنزل اليك ذكرا تتحدّى به على الجن و الإنس مهيمنا على سائر الكتب السماويه تيانا لكل شىء و هدى و رحمه و برهانا و نورا مبينا.

فالتفكر فيك نعم الدليل الهادى الى أن ليس لك فيما جئت به صنع و لا لك من الأمر شىء و أن الله أنزله بعلمه و أيديك لذلك بقدرته من غير أن يداخله من الأسباب العاديه شىء.

هذا ما تفيده الآيه الكريمه نظرا الى سياقها و سياق ما قبلها و محصّيه أن قوله: «لَتُبَيِّنَنَّ» الخ؛ غايه للإنزال لا لنفسه بل من حيث تعلّقه بشخص النبي صلّى الله عليه و آله و سلم، و أن متعلق «يَتَفَكَّرُونَ» المحذوف هو نحو قولنا: فيك لا قولنا: فى الذكر.

و فى الآيه دلالة على حجّيه قول النبي صلّى الله عليه و آله و سلم فى بيان الآيات القرآنيه، و أما ما ذكره بعضهم أن ذلك فى غير النص و الظاهر من المتشابهات أو فيما يرجع الى أسرار كلام الله و ما فيه من التأويل فمما لا ينبغى أن يصغى اليه.

هذا فى نفس بيانه صلّى الله عليه و آله و سلم و يلحق به بيان أهل بيته لحديث الثقلين المتواتر و غيره و أما سائر الامه من الصحابه أو التابعين أو العلماء فلا حجّيه لبيانهم لعدم شمول الآيه و عدم نص معتمد عليه يعطى حجّيه بيانهم على الإطلاق.

و أما قوله تعالى: «فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» فقد تقدم أنه إرشاد الى حكم العقلاء بوجوب رجوع الجاهل الى العالم من غير اختصاص الحكم بطائفه دون طائفه.

هذا كله فى نفس بيانهم المتلقى بالمشافهه، و أما الخبر الحاكى له فما كان منه بيانا متواترا أو محفوفا بقريته قطعيه و ما يلحق به فهو حجّيه لكونه بيانهم، و أما ما كان مخالفا للكتاب أو غير مخالف لكنه ليس بمتواتر و لا محفوفا بالقريته فلا حجّيه فيه لعدم كونه بيانا فى الأول و عدم

إحراز البيانیه فی الثانی و للتفصیل محل آخر.

قوله تعالى: أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ هذه الآيه و الآيتان بعدها إنذار و تهديد للمشركين و هم الذين يعبدون غير الله سبحانه و يشرعون لأنفسهم سننا يستنون بها فى الحياه فما يعملون من الأعمال مستقلين فيها بأنفسهم معرضين عن شرائع الله النازله من طريق النبوه استنادا الى حجج داحضه اخلقوها لأنفسهم كلها سيئات و ما يتقبلون فيها مدى حياتهم من حركه أو سكون و أخذ أو رد و فعل أو ترك و هم على ما هم عليه من استكبار و غرور، كلها ذنوب يقترفونها مكرًا بالله ربهم و برسله الداعين الى الأخذ بدين الله و لزوم سبيله.

فقوله: السَّيِّئَاتِ مفعول مَكْرُوا بتضمينه بمعنى عملوا أى عملوا السيئات ماكرين؛ و ما احتمله بعضهم من كون السيئات وصفا سادًا مسدًا المفعول المطلق و التقدير:

يمكرون المكرات السيئات بعيد من السياق.

و بالجملة الكلام لتهديد المشركين و إنذارهم بالعذاب الإلهي و يدخل فيهم مشركوا مكة، و الكلام متفرع على ما تقدم كما يدل عليه قوله: «أَفَأَمِنَ» بفاء التفرع.

و المعنى—و الله أعلم—فإذا دلت الآيات البيئات على أن الله هو ربهم لا شريك له فى ربوبيته و أن رساله ليست بأمر محال بل هى دعوه الى ما فيه صلاح معاشهم و معادهم و خير دنياهم و أخراهم من رجال هم أمثالهم يبعثهم الله و يوحى اليهم بما تشتمل عليه الدعوه، فهؤلاء الذين يعرضون عن ذلك و يمكرون بالله و رسله بالتشبث بهذه الحجج الواهيه لتسويه الطريق الى ترك دين الله و تشريع ما يوافق أهواءهم و يعملون السيئات هل آمنوا أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتهم العذاب و هم لا يشعرون، أى يفاجئهم من غير أن يتنبهوا بتوجيه اليهم قبل نزوله.

ص: ٥٧٢

قوله تعالى: أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ الفاعل هو الله سبحانه و قد كثرت في القرآن نسبة الأخذ إليه، و قيل: الضمير للعذاب، و التقلب هو التحول من حال الى حال و المراد به تحوّل المشركين في مقاصدهم و أعمالهم السيئه و انتقالهم من نعمه الى نعمه اخرى من نعم الحياه الدنيا، قال تعالى: لَا يُغْرِنُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ بُسَسَ الْمِهَادُ (آل عمران ١٩٧).

فالمراد بأخذهم في تقلبهم أن يأخذهم في عين ما يتقلبون فيه من السيئات مكرًا بالله و رسله بالعذاب أو المعنى يعذبهم بنفس ما يتقلبون فيه فيعود النعمه نغمه، و هذا أنسب بالنظر الى قوله: «فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ» .

و قوله: فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ في مقام التعليل لأخذهم في تقلبهم و مكرهم السيئات أى لأنهم ليسوا بمعجزين لله فيما أراد بالتغلب عليه أو بالفرار من حكمه، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرْؤُفٌ رَحِيمٌ التخوف تمكن الخوف من النفس و استقراره فيها فالأخذ على تخوف هو العذاب مبنيًا على المخافه بأن يشعروا بالعذاب فيتقوه و يحذروه بما استطاعوا من توبه و ندامه و نحوهما فيكون الأخذ على تخوف مقابلا لإتيان العذاب من حيث لا يشعرون.

و قوله: فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرْؤُفٌ رَحِيمٌ في مقام التعليل أى يأخذهم على تخوف و يتنزّل في عذابهم الى هذا النوع من العذاب الذى هو أهون الأنواع المعدوده لأنه رؤف رحيم، و فى التعبير بقوله: «رَبُّكُمْ» إشاره الى ذلك، و كونه فى مقام التعليل بالنسبه الى الوجهين الأولين ظاهر، و أما بالنسبه الى الثالث فلأن الأخذ بالنقص لا يخلو من مهله و فرصه يتنبه فيها من تنبهه فىأخذ بالحذر بتوبه أو غيرها.

و الكلام فى تعداد أنواع العذاب المذكوره ليس مسوقا للحصر كما تنبه به بعضهم بل إحصاء لأنواع منه.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّيُونَ ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ المراد بالرؤية الرؤية البصريه و النظر الحسى الى الأشياء الجسمانيه لأن المطلوب إلفات النظر الى الأجسام فوات الأظلال.

و التفتؤ من الفىء و هو الظل راجعاً، و لذا قيل: إن الظل هو ما فى أول النهار الى زوال الشمس و الفىء هو ما يكون بعد زوال الشمس الى آخر النهار، و الظاهر أن الظل أعم من الفىء كما تقدم و تؤيده الآيه. فالتفتؤ رجوع الظل بعد زواله.

و الشمائل جمع شمأل و هو خلاف اليمين، و جمعه باعتبار أخذ كل سمت مفروض خلف الشىء و عن يساره جهه شمال على حده فهى شمائل تقابل اليمين كما أن عدّ كل شىء ذا أظلال بهذه العنايه أخذاً للظل بالنسبه الى كل جهه من اليمين و الشمائل ظلا- غيره بالنسبه الى جهه اخرى لا- لأن الشىء المذكور جمع بحسب المعنى و إن كان مفرداً بحسب اللفظ. و الدخور هو الخضوع و الصغار.

□
فمعنى الآيه- و الله أعلم- «أَوْ لَمْ يَرَوْا» هؤلاء المشركون لتوحيد الربوبيه و لدعوه النبوه أو لم ينظروا «إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ» من هذه الأجسام القائمه على بسيط الأرض من جبل أو بناء أو شجر أو أى جسم منتصب «يَتَفَتَّيُونَ» و يرجع و يدور ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ واقعه على الأرض تذلاً و تعبداً له سبحانه «وَهُمْ دَاخِرُونَ» خاضعون صاغرون.

□
و قد تقدم الكلام فى معنى سجده الظلال ذيل قوله تعالى: وَ ظِلَالُهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ (الرعد ١٥/١)، فى الجزء الحادى عشر من الكتاب.

□
قوله تعالى: وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَ الْمَلَائِكَةُ الى آخر الآيتين؛ ذكرت الآيه السابقه سجود الظلال و هو معنى مشهود فيها يمثل معنى السجود لله، و تذكر هذه الآيه سجود ما فى السماوات و الأرض من دابه- و الدابه ما

يدبّ و يتحرك بالانتقال من مكان الى مكان-بحقيقه السجود التي هي نهايه التذلل و التواضع قبال العظمه و الكبرياء فإن صورته السجده التي هي خرور الإنسان و وقوعه على وجهه على الأرض إنما تعدّ عباده إذا أريد بها تمثيل هذا المعنى فحقيقه السجده هي التذلل المذكور.

و يدخل في عموم الدابه الإنسان و كذا الجن لأنه سبحانه يصفهم في كلامه بما يفيد أن لهم ديبيا كما لسائر الدواب من الإنسان و الحيوان، و لم يدخل سبحانه الملائكه في عموم الدابه و أفردهم بالذكر، و في ذلك من التلويح الى ما نسب اليهم في كلامه تعالى من النزول و الصعود و الذهاب و المجيء مما ظاهره نقله و الحركه المكانيه ليس من نوع ما للدواب من الديدب و الانتقال المكاني ما لا يخفى.

فقوله تعالى: **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ أَى لَهُ يَخْضَعُ وَ يَنْقَادُ خَضُوعًا وَ انْقِيَادًا ذَاتيًا هِيَ حَقِيقَةُ السَّجُودِ** فمن حقه تعالى أن يعبد و يسجد له.

و في الآيه دلالة على أن في غير الأرض من السماوات شيئًا من الدواب يسكنها و يعيش فيها.

و قوله: **وَالْمَلَائِكَةُ وَ هُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ** الاستكبار و التكبر من الإنسان أن يعدّ نفسه كبيرا و يضعه موضع الكبر و ليس به و لذلك يعدّ في الرذائل لكن التكبر ربما يطلق على ما لله سبحانه من الكبرياء بالحق و هو الكبير المتعال فهو تعالى كبير متكبر و ليس يقال: مستكبر و لعل ذلك كذلك اعتبارا باللفظ فإن الاستكبار بحسب أصل هيئته طلب الكبر و لازمه أن لا يكون ذلك حاصلًا للطالب من نفسه و إنما يطلب الكبر و العلوّ على غيره دعوى فكان مذمومًا، و أما التكبر فهو الظهور بالكبرياء سواء كانت له في نفسه كما لله سبحانه و هو التكبر الحق أو لم يكن له إلاّ دعوى و غرورا كما في غيره.

فتبين بذلك أن الاستكبار مذموم دائما أما استكبار المخلوق على مخلوق آخر فلأن الفقر

و الحاجة قد استوعبهما جميعا و شىء منهما لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا و لا لغيره فاستكبار أحدهما على الآخر خروج منه عن حدّه و تجاوز عن طوره و ظلم و طغيان.

و أما قوله: **وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** فإشاره الى عدم استكبارهم فى مقام الفعل و قد تقدم أنه إذا لم يستكبر عليه تعالى فى ذات لم يستكبر عليه فى فعل فهم لا- يعصون الله سبحانه فى أمر بل يفعلون ما يؤمرون، و فى إتيان قوله: «يُؤْمَرُونَ» مبنيا للمجهول من التعظيم و التفضيم لمقامه سبحانه ما لا يخفى.

فتبين أن الملائكه نوع من خلق الله تعالى لا تأخذهم غفله عن مقام ربهم و لا يطرأ عليهم ذهول و لا سهو و لا نسيان عن ذلك و لا يشغلهم عنه شاغل، و هم لا يريدون إلا ما يريد الله سبحانه.

و إنما خص سبحانه الملائكه من بين الساجدين المذكورين فى الآيه بذكر شأنهم و تعريف أوصافهم و تفصيل عبوديتهم لأن أكثر آلهه الوثنيين من الملائكه كإله السماء و إله الأرض و إله الرزق و إله الجمال و غيرهم، و للدلاله على أنهم- بالرغم من زعم الوثنيين- أمعن خلق الله تعالى فى عبوديته و عبادته.

قوله تعالى: **وَ قَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنََّّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِتَيَا فَارَهُبُونَ** الرهبه الخوف و تقابل الرغبه كما ان الخوف يقابل به الرجاء.

و الكلام معطوف على قوله: **وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ** و قيل: معطوف على قوله: **«وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ»** و قيل: على قوله: **«مَا خَلَقَ اللَّهُ»** على طريقه قوله: (علفتها تبنا و ماء باردا) اى سقيتها ماء باردا، و التقدير فى الآيه أو لم يروا الى ما خلق الله من شىء و أ لم يسمعوا الى ما قال الله: **«لَا تَتَّخِذُوا»** الخ؟ و الأول هو الوجه.

و قوله: **لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ** اريد به- و الله اعلم- النهى عن التعدى عن الإله الواحد باتخاذ غيره معه فيشمل الاثنين و ما فوقه من العدد، و يؤيده تأكيد بقوله: **إِنَّمَا**

هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَائْتِنِينَ وَإِلَهَيْنِ كَمَا أَنَّ وَاحِدٌ صِفَةُ إِلَهٍ جِيءَ بِهِمَا لِلإيضاحِ وَالتَّبِينِ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ الأَمْرَ بِالرَّهْبَةِ كُنْيَاةٌ عَنِ الأَمْرِ بِالْعِبَادَةِ وَ إِنَّمَا اخْتَصَّتِ الرَّهْبَةَ بِالذِّكْرِ لِإِوَافِقِ مَا تَقْدَمُ فِي حَدِيثِ سَجْدَةِ الكُلِّ الَّتِي هِيَ الأَصْلُ فِي تَشْرِيعِ الْعِبَادَةِ مِنْ خَوْفِ المَلَائِكَةِ، وَعَلَى هَذَا فَالظَّاهِرُ أَنَّ المَرَادَ بِالرَّهْبَةِ مَا هِيَ رَهْبَةٌ إِجْلَالٌ وَ مَهَابَةٌ لَا مَا هِيَ رَهْبَةٌ مُؤَاخَذَةٌ وَعَذَابٌ، فَافْهَمِ ذَلِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَ لَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللّهِ تَتَّقُونَ» قَالَ فِي المَفْرَدَاتِ: الوَصْبُ السَّقْمُ اللَّازِمُ وَ قَدْ وَصَبَ فُلَانٌ فَهُوَ وَصَبٌ وَ أَوْصَبَهُ كَذَا فَهُوَ يَتَوَصَّبُ نَحْوُ يَتَوَجَّعُ، قَالَ تَعَالَى: «وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ» «وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً» فَتَوَعَّدَ لِمَنْ اتَّخَذَ إِلَهَيْنِ وَ تَنَبَّأَهُ أَنَّ جَزَاءَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ عَذَابٌ لَازِمٌ شَدِيدٌ.

وَ يَكُونُ الدِّينُ هَاهُنَا الطَّاعَةَ، وَ مَعْنَى الوَاصِبِ الدَّائِمِ أَيْ حَقَّ الإِنْسَانِ أَنَّ يَطِيعُهُ دَائِماً فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ كَمَا وَصَفَ بِهِ المَلَائِكَةُ حَيْثُ قَالَ: «لَا يَعْصُونَ اللّهُ مَا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» وَ يُقَالُ: وَصَبَ وَ صَوَّبَا دَامَ، وَ وَصَبَ الدِّينَ وَجِبَ، وَ مَفَازُهُ وَاصِبُهُ بَعِيدُهُ لَا غَايَةَ لَهَا. انْتَهَى.

وَ الآيَةُ وَ مَا بَعْدَهَا تَحْتَجُّ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ تَعَالَى فِي الإِلَوهِيَّةِ بِمَعْنَى المَعْبُودِيَّةِ بِالْحَقِّ وَ أَنَّ الدِّينَ لَهُ وَحْدَهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَشْرَعَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً وَ لَا- أَنْ يَطَّاعَ فِيهَا شَرْعاً فَالآيَةُ وَ مَا بَعْدَهَا فِي مَقَامِ التَّعْلِيلِ لِقَوْلِهِ: «وَ قَالَ اللّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ» إِلَى آخِرِ الآيَةِ؛ وَ احْتِجَاجَ عَلَى مَضْمُونِهَا وَ عَوْدَ بَعْدَ عَوْدِ إِلَى مَا تَقْدَمُ بَيَانُهُ مِنَ التَّوْحِيدِ وَ النُّبُوَّةِ الَّذِينَ يَنْكُرُهُمَا المَشْرِكُونَ.

فَقَوْلُهُ: «وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ» احْتِجَاجٌ عَلَى تَوْحِيدِهِ تَعَالَى فِي الرُّبُوبِيَّةِ فَإِنَّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ مَمْلُوكٌ لَهُ بِحَقِيقَتِهِ مَعْنَى المَلِكِ إِذْ مَا فِي العَالَمِ المَشْهُودِ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ بِمَا لَهُ مِنَ الصِّفَاتِ وَ الأَفْعَالِ، قَائِمٌ بِهِ تَعَالَى مَوْجُودٌ بِإِيجَادِهِ وَ ظَاهِرٌ بِإِظْهَارِهِ لَا يَسَعُهُ أَنْ يَنْقَطِعَ مِنْهُ وَ لَا لِحِظِهِ فَالأَشْيَاءُ قَائِمَةٌ بِهِ قِيَامَ المَلِكِ بِمَالِكِهِ مَمْلُوكُهُ لَهُ مَلِكاً

حقيقيا لا يقبل تغييرا و لا انتقالا كما هو خاصه الملك الحقيقى كملك الإنسان لسمعه و بصره مثلا.

و إذا كان كذلك كان هو تعالى المدبر لأمر العالم إذ لا معنى لكون العالم مملوكا له بهذا الملك ثم يستقل غيره بتدبير أمره و التصرف فيه و ينزل هو تعالى عما خلقه و ملكه، و إذا كان هو المدبر لأمره كان هو الرب له إذ الرب هو المالك المدبر، و إذا كان هو الرب كان هو الذى يجب أن يتقى و يخضع له بالعباده.

و قوله: **وَلَهُ الدِّينُ وَأَصَبًا** أى دائما لازما، و ذلك أنه لما كان تعالى هو الرب الذى يملك الأشياء و يدبر أمرها و من واجب التدبير أن يستن العالم الإنسانى بسنّه يبلغ به الجرى عليها غايتها و يهديه الى سعادته- و هذه السنّه و الطريقه هى التى يسميها القرآن دينا- كان من الواجب أن يكون تعالى هو القائم على وضع هذه السنّه و تشريع هذه الطريقه فهو تعالى المالك للدين كما قال: **«وَلَهُ الدِّينُ وَأَصَبًا»** و عليه أن يشرّع ما يصلح به التدبير كما قال فيما مرّ:

□
«وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ» الآية.

و قوله: **أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ** استفهام إنكارى- متفرع على الجملتين جميعا- على الظاهر، و المعنى: و إذا كان كذلك فهل غيره تعالى تتقون و تعبدون؟ و ليس يملك شيئا و لا يدبر أمرا حتى يعبد، و ليس من حقه أن يشرّع دينا فيطاع فيما وضعه و شرّعه.

قوله تعالى: **وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ** بيان آخر لوحدايته تعالى فى الربوبيه يفرّع سبحانه عليه ذمهم و توبيخهم على شركهم بالله و على تشريعهم امورا من عند أنفسهم من غير إذن منه و رضى و يجرى الكلام فى هذا المجرى الى تمام بعض آيات.

و المراد بالضر سوء الحال من جهه فقدان النعمه التى تصلح بها الحال، و الجوار بضم الجيم صوت الوحوش استعير لرفع الصوت بالدعاء و التضرع و الاستغاثة تشبيها له به.

وقوله: **وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** الكلام مسوق للعموم وليس مجرد دعوى غير مستدل فقد بين ذلك فى الآيات السابقه.على أن السامعين يسلّمون ذلك و يقولون به و يدلّ عليه جؤارهم و استغاثتهم اليه عند ميسس الضر بفقدان نعمه من النعم.

فالمعنى: أن جميع النعم التى عندكم من إنعامه تعالى عليكم و أنتم تعلمون ذلك ثم إذا حلّ بكم شىء من الضر و سوء حال يسير رفعتم أصواتكم بالتضرع و جأرتم اليه لا الى غيره و لو كان لغيره صنيعه عندكم لتوجهتم اليه فهو سبحانه منعم النعمه و كاشف الضر فما بالكم لا تخصّونه بالعباده و لا تطيعونه.

قوله تعالى: **ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ** شروع فى ذمهم و توبيخهم و ينتهى الى إيعادهم و حق لهم ذلك لأن الذى يستدعيه كشف الضر عن استغاثتهم و رجوعهم الفطرى الى ربهم أن يوحده بالربوبيه بعد ما انكشفت لهم الحقيقه باندفاع البليّه و نزول الرحمه لكن فريقا منهم تفاجئهم الشقوه فيعودون الى التعلق بالأسباب فينتبه عندئذ الراقد من رذائل ملكاتهم فيشير لهم الأهواء و يشركون بربهم غيره، و منه الأسباب التى يتعلقون بها، و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: **لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** اللام للغايه أى إنهم إنما يشركون بربهم ليكفروا بما أعطيناهم من النعمه بكشف الضر عنهم و لا يشكروه.

و جعل الكفر بالنعمه غايه للشرك إنما هو بدعوى أنهم لا غايه لهم فى مسير حياتهم إلا الكفر بنعمه الله و عدم شكره على ما أولى فإن اشتغالهم بالحس و الماده أورثهم فى قلوبهم ملكه التعلق بالأسباب الظاهره و إسناد النعم الإلهيه إليها و ضربهم إياها حجابا تخينا على عرفان الفطره فأنساهم ذلك توحيد ربهم فى ربوبيته فصاروا يذكرون عند كل نعمه أسبابها الظاهره دون الله، و يتعلقون بها و يخشون انقطاعها و يخضعون لها دون الله فكأنهم بل إنهم لا غايه لهم إلا كفر نعمه الله و عدم شكرها.

فالكفر بالله سبحانه هو غايتهم العامه فى كل شأن أبدوه و كل عمل أتوا به فإذا أشركوا بربهم بعد كشف الضرّ بالخضوع لسائر الأسباب فإنما أشركوا ليكفروا بما آتاهم من النعمه.

و لما كان كفرانهم هذا-و هو كفر دائم يصرون عليه و استكبار على الله، و قد قال تعالى:

لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (إبراهيم ٧) آثار ذكر ذلك الغضب الإلهى فعديل عن خطاب النبى صلى الله عليه و آله و سلم و هم على نعت الغيبه الى خطابهم و إيعادهم من غير توسط فقال: «فَتَمَتُّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» .

و لم يذكر ما يتمتعون به ليفيد بالإطلاق أن كل ما تمتعوا به سيؤاخذون عليه و لا ينفعهم شىء منه، و لم يذكر ما يعلمونه-و هو لا- محاله أمر يسوؤهم- ليكونوا على جهل منه حتى يحل بهم مفاجأه و يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون و فيه تشديد للإيعاد.

قوله تعالى: وَ يَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَشَتْلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ذكروا أنه معطوف على سائر جنياتهم التى دلت عليها الآيات السابقه و التقدير أنهم يفعلون ما قصصناه من جنياتهم و يجعلون لما لا يعلمون نصيبا، و الظاهر أن «ما» فى «لِما لا يعلمون» موصوله و المراد به آلهتهم و ضمير الجمع يعود الى المشركين و مفعول «لا- يعلمون» محذوف و المعنى و يجعل المشركون لآلهتهم التى لا يعلمون من حالها أنها تضر و تنفع نصيبا مما رزقناهم.

و المراد من هذا الجعل ما ذكره سبحانه فى سورة الأنعام بقوله: وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَ مَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (الأنعام ١٣٦)، هذا ما ذكره و لا يخلو عن تكلف.

و يمكن أن يكون معطوفا على ما مرّ من قوله: «يُشْرِكُونَ» و التقدير إذا فريق منكم بربهم يشركون و يجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم، و المراد بما لا يعلمون الأسباب الظاهره

التي ينسبون إليها الآثار على سبيل الاستقلال و هم جاهلون بحقيقه حالها و لا علم لهم جازما أنها تضر و تنفع مع ما يرون من تخلفها عن التأثير أحيانا.

و إنما نسب اليهم أنهم يجعلون لها نصيبا من رزقهم مع أنهم يسندون الرزق إليها بالاستقلال من غير أن يذكروا الله معها و مقتضاه نفي التأثير عنه تعالى رأسا لا إشراكه معها لأن لهم علما فطريا بأن الله سبحانه له تأثير في الأمر و قد ذكر عنهم آفا أنهم يجأرون اليه عند مس الضر و إذا اعتبر اعترافهم هذا مع إسنادهم التأثير الى الأسباب أنتج ذلك أن الأسباب عندهم شركاء لله في الرزق و لها نصيب فيه ثم أوعدهم بقوله: «تَاللَّهِ لَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ» .

قوله تعالى: وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَ لَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ عتاب آخر لهم في حكم حكموا به جهلا- من غير علم فاحترموا لأنفسهم و أساءوا الأدب مجترئين على الله سبحانه حيث اختاروا لأنفسهم البنين و كرهوا البنات لكنهم نسبوا الى الله سبحانه.

فقوله: وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ هو أخذهم الآلهه دون الله أو بعض الآلهه إناثا، و قولهم: إنهن بنات الله، و قد قيل: إن خزاعه و كنانه كانوا يقولون: إن الملائكه بنات الله.

و كانت الوثنيه البرهميه و البوذيه و الصابئه يثبتون آلهه كثيره من الملائكه و الجن إناثا و هن بنات الله، و في القرآن الكريم: وَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إناثاً (الزخرف ١٩)، و قال تعالى: وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّهٖ نَسْباً (الصافات ١٥٨).

و قوله: وَ لَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ظاهر السياق أنه معطوف على «لِلَّهِ الْبَنَاتِ» و التقدير و يجعلون لهم ما يشتهون، أى يثبتون لله سبحانه البنات باعتقاد أن الملائكه بناته و يثبتون لأنفسهم ما يشتهون و هم البنون بقتل البنات و وأدها و المحصل أنهم يرضون لله بما لا يرضون به لأنفسهم.

قوله تعالى: وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ اسوداد الوجه كناية عن الغضب، والكظيم هو الذى يتجرع الغيظ، والجمله حاله أى ينسبون الى ربهم البنات و الحال أنهم إذا بشر أحدهم بالانثى ف قيل: ولدت لك بنت اسود وجهه من الغيظ و هو يتجرع غيظه.

قوله تعالى: يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ التوارى الاستخفاء و التخفى و هو مأخوذ من الوراء، و الهون الذله و الخزى، و الدس الإخفاء.

و المعنى: يستخفى هذا المبشر بالبنات من القوم من سوء ما بشر به على عقيدته و يتفكر فى أمره: أى يمسك ما بشر به و هى البنات على ذله من إمساكه و حفظه أم يخفيه فى التراب كما كان ذلك عادتهم فى المواليد من البنات كما قيل: إن أحدهم كان يحفر حفيره صغيره فإذا كان المولود انثى جعلها فى الحفيره و حشا عليها التراب حتى تموت تحته، و كانوا يفعلون ذلك مخافه الفقر عليهن فيطمع غير الأكفاء فيهن.

و أول ما بدا لهم ذلك أن بنى تميم غزوا كسرى فهزمهم و سبى نساءهم و ذراريهم فأدخلهن دار الملك و اتخذ البنات جوارى و سرايا ثم اصطلحوا بعد برهه و استردوا السبايا فخيرن فى الرجوع الى أهلهن فامتنعت عدّه من البنات فأغضب ذلك رجال بنى تميم فعزموا لا تولد لهم أنثى إلا و أدوها و دفنوها حيّه ثم تبعهم فى ذلك بعض من دونهم فشاع بينهم وأد البنات.

و قوله: أَلَا - سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ هو حكمهم أن له البنات و لهم البنون لا لهوان البنات و كرامه البنين فى نفس الأمر بل معنى هذا الحكم عندهم أن يكون لله ما يكرهون و لهم ما يحبون، و قيل: المراد بالحكم حكمهم بوجوب وأد البنات و كون إمساكهن هونا، و أول الوجهين أوفق و أنسب للآيه التاليه.

قوله تعالى: لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ المثل هو الصفه و منه سمى المثل السائر مثلا لأنه صفه تسير فى

الألسن و تجرى فى كل موضع تناسبه و تشابهه.

و السوء-بالفتح و السكون-مصدر ساء يسوء كما أن السوء بالضم اسمه و إضافه المثل الى السوء تفيد التنويع فإن الأشياء إنما توصف إما من جهه حسنها و إما من جهه سوئها و قبحها فالمثل مثلان:مثل الحسن و مثل السوء.

و الحسن و القبح ربما كانا من جهه الخلقه لا صنع للإنسان و لا مدخل لاختياره فيهما كحسن الوجه و دمامه الخلقه،و ربما لحقا من جهه الأعمال الاختياريه كحسن العدل و قبح الظلم،و إنما يحمد و يذمّ العقل ما كان من القسم الثانى دون القسم الأول فيدور الحمد و الذم بحسب الحقيقه مدار العمل بما تستحسنه و تأمر به الفطره الإنسانيه من الأعمال التى توصله الى ما فيه سعادته و ترك العمل بها و هو الذى يتضمنه الدين الحق من أحكام الفطره.

و من المعلوم أن الطبع الإنسانى لا- رادع له عن اقتراف العمل السيئ إلا- أليم المؤاخذه و شديد العقاب و إذعانه بإيقاعه و إنجازه،و أما الذم فإنه يتبدل مدحا إذا شاع الفعل و خرج بذلك عن كونه منكرا غير معروف.

و قوله: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ مسوق لإفاده الحصر و تعليل ما تقدمه أى و هو الذى له كل العزه فلا تعتريه ذله أصلا لأن كل ذله فهو فقد عزه ما و ليس يفقد عزه ما،و له كل الحكمه فلا يعرضه جهاله لأنها فقد حكمه ما ليس يفقد شيئا من الحكمه.

و إذ لا سبيل لذله و لا جهاله اليه فلا يتصف بشيء من صفات النقص،و لا ينعت بشيء من نعت الذمّ و أمثال السوء،لكن الكافر دليل فى ذاته جهول فى نفسه فتلحقه و تلازمه صفات النقص و يتصف بصفات الذم و أمثال السوء فللذين لا يؤمنون بالآخره مثل السوء.

و المؤمن و إن كان ذليلا- فى ذاته جهولا- فى نفسه كالكافر إلا- أنه لدخوله فى ولايه الله أعزه ربه بعزته و أظهره على الجهاله بتأييده بروح منه،قال تعالى: وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (آل عمران ٦٨/١)،و قال: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ (المنافقون ٨/١)،و قال:

أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ (المجادله ٢٢).

قوله تعالى: وَ لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ ضمير «عَلَيْهَا» عائد الى الأرض لدلاله «النَّاسِ» عليها.

و لا يبعد أن يدعى أن السياق يدل على كون المراد بالدابة الإنسان فقط من جهة كونه يدب و يتحرك، و المعنى و لو أخذ الله الناس بظلمهم مستمرا على المؤاخذه ما ترك على الأرض من إنسان يدب و يتحرك، أما جل الناس فإنهم يهلكون بظلمهم و أما الأشد الأندر و هم الأنبياء و الأئمة المعصومون من الظلم فهم لا يوجدون الهلاك آبائهم و امهاتهم من قبل.

و القوم أخذوا الدابة فى الآيه بإطلاق معناها و هو كل ما يدب على الأرض من إنسان و حيوان فعاد معنى الآيه الى أنه لو يؤاخذهم بظلمهم لأهلك البشر و كل حيوان على الأرض فتوجه اليه: أن هذا هو الإنسان يهلك بظلمه فما بال سائر الحيوان يهلك و لا ظلم له أن يهلك بظلم من الإنسان؟

و أوجه ما أجيب به عنه قول بعضهم بإصلاح منا: إن الله تعالى لو أخذهم بظلمهم بكفر أو معصيه لهلك عامه الناس بظلمهم إلا المعصومين منهم و أما المعصومون على شدوذهم و قله عددهم فإنهم لا يوجدون لهلاك آبائهم و امهاتهم من قبل، و إذا هلك الناس و بطل النسل هلكت الدواب من سائر الحيوان لأنها مخلوقه لمنافع العباد و مصالحهم كما يشعر به قوله تعالى:

خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً (البقره ٢٩).

و قوله: وَ لَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ استدراك عن مقدر يدل عليه الجملة الشرطيه فى صدر الآيه و التقدير: فلا يعاجل فى مؤاخذتهم و لكن يؤخرهم الى أجل مسمى و الأجل المسمى بالنسبه الى الفرد من الإنسان موته المحتوم، و بالنسبه الى الامه يوم انقراضها و بالنسبه الى عامه البشر نفخ الصور و قيام الساعة، و لكل منها ذكر فى كلامه تعالى قال: وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلُ

وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى (المؤمن ٦٧)، وقال: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْتِدُّمُونَ (الأعراف ٣٤)، و قال: وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَيَّ لَأَجَلَ مُّسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (الشورى ١٤).

قوله تعالى: وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى إلى آخر الآيه؛ عود الى نسبة المشركين اليه تعالى البنات و اختيارهم لأنفسهم البنين و هم يكرهون البنات و يحبون البنين و يستحسنونهم.

فقوله: وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ يعنى البنات و قوله: «وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ» أى تخبر ألسنتهم الخبر الكاذب و هو «أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى» أى العاقبة الحسنى من الحياه و هى أن يخلفهم البنون، و قيل: المراد بالحسنى الجنه على تقدير صحه البعث و صدق الأنبياء فيما يخبرون به كما حكاه عنهم فى قوله: وَ لَئِنْ أَدْقْنَا رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْأٍ مَسَّتُهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى (حم السجده / ٥٠)، و هذا الوجه لا بأس به لو لا ذيل الآيه بما سيجىء من معناه.

و قوله: لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَ أَنََّّهُمْ مُّفْرَطُونَ أى المقدمون الى عذاب النار يقال فرط و أفرط أى تقدم و الإفراط و الإسراف فى التقدم كما أن التفريط التقصير فيه، و الفرط بفتحتين هو الذى يسبق السياره لتهيئه المسكن و الماء، و يقال: أفرطه أى قدّمه.

و لما كان قولهم كذبا و افتراء إن لله ما يكرهون و لهم الحسنى فى معنى دعوى أنهم سبقوا ربهم الى الحسنى و تركوا له ما يكرهون أو عداهم بحقيقه هذا الزعم جزاء لكذبهم و هو أن لهم النار و أنهم مقدمون إليها حقا و ذلك قوله: «لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ» الخ.

قوله تعالى: تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيَّ أُمَمًا مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ظاهر السياق أن المراد باليوم يوم نزول الآيه و المراد بكون الشيطان وليا لهم يومئذ اتفاقهم على الضلال فى زمان الوحي و المراد

قوله تعالى: وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا الْخ؛ يريد إنبات الأرض بعد ما انقطعت عنه بحلول الشتاء بماء السماء الذى او المطر فتأخذ أصول النباتات و بذورها فى النمو بعد سكونها، و هى حياه من سنخ الحياه الحيوانيه و إن كانت أضعف منها، و قد اتضح بالأبحاث الحديثه أن للنبات من جراثيم الحياه ما للحيوان و إن اختلفتا صورته و أثرا.

و قوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ المراد بالسمع قبول ما من شأنه أن يقبل من القول فإن العاقل الطالب للحق إذا سمع ما يتوقع فيه الحق أصغى و استمع اليه ليعيه و يحفظه، قال تعالى: الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (الزمر ١٨).

فإذا ذكر من فيه قريحه قبول الحق حديث إنزال الله المطر و إحيائه الأرض بعد موتها كان له فى ذلك آيه للبعث و أن الذى أحيها لمحى الموتى.

قوله تعالى: وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً الْخ؛ الفرث هو الثفل الذى ينزل الى الكرش و الإمعاء فإذا دفع فهو سرجين و ليس فرثا، و السائغ اسم فاعل من السوغ يقال:

ساغ الطعام و الشراب إذا جرى فى الحلق بسهولة.

و قوله: وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً أَى لكم فى الإبل و البقر و الغنم لأمرأ أمكنكم أن تعتبروا به و تتعضوا ثم بين ذلك الأمر بقوله: «نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ» الْخ؛ أى بطون

ما ذكر من الأنعام أخذ الكثير شيئا واحدا.

وقوله: مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمِ الْفَرْثِ فِي الْكُرْشِ وَ أَلْبَانِ الْأَنْعَامِ مَكَانَهَا مَوْخِرُ الْبَطْنِ بَيْنَ الرَّجْلَيْنِ، وَ الدَّمِ مَجْرَاهَا الشَّرَائِبُ وَ الْأُورْدَةُ وَ هِيَ مُحِيطَةٌ بِهِمَا جَمِيعًا فَأَخَذَ اللَّبَنُ شَيْئًا هُوَ بَيْنَ الْفَرْثِ وَ الدَّمِ كَأَنَّهُ بِاعْتِبَارِ مَجَاوَرَتِهِ لِكُلِّ مِنْهُمَا وَ اجْتِمَاعِ الْجَمِيعِ فِي دَاخِلِ الْحَيَوَانِ وَ هَذَا كَمَا يُقَالُ:

اخترت زيدا من بين القوم و دعوته و أخرجته من بينهم إذا اجتمع معهم في مكان واحد و جاورهم فيه و إن كان جالسا في حاشية القوم لا وسطهم، و المراد بذلك أنى ميّزته من بينهم و قد كان غير متميز.

و المعنى: نسقيكم مما في بطونه لبنا خارجا من بين فرث و دم خالصا غير مختلط و لا مشوب بهما و لا مستصحب لشيء من طعمهما و رائحتهما سائغا للشاربين فذلك عبره لمن اعتبر و ذريعه الى العلم بكمال القدره و نفوذ الإراده، و أن الذي خلص اللبن من بين فرث و دم لقادر على أن يبعث الإنسان و يحييه بعد ما صار عظاما رميما و ضلّت في الأرض أجزاءه.

قوله تعالى: وَ مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَيْكَرًا وَ رِزْقًا حَسَنًا الى آخر الآية؛ قال في المفردات: السكر- بضم السين- حاله تعرض بين المرء و عقله- الى أن قال- و السكر- بفتح السين- ما يكون منه السكر، قال تعالى: «تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَيْكَرًا وَ رِزْقًا حَسَنًا» انتهى.

و قال في المجمع: السكر في اللغة على أربعة أوجه: الأول ما أسكر من الشراب، و الثاني ما طعم من الطعام، قال الشاعر: «جعلت عيب الأ-كرمين سكرًا» أي جعلت ذمهم طعاما لك، و الثالث السكون و منه ليله ساكره أي ساكنه، قال الشاعر: «و ليست بطلق و لا ساكره» و يقال: سكرت الريح سكنت، قال: «و جعلت عين الحرور تسكر»، و الرابع المصدر من قولك: سكر سكرًا و منه التسكير التحيير في قوله: «سَيِّكْرَتْ أَبْصَارُنَا» انتهى. و الظاهر أن الأصل في معناه هو زوال العقل باستعمال ما يوجب ذلك، و سائر ما ذكره من المعاني مأخوذه

منه بنوع من الاستعاره و التوسّع.

و قوله: وَ مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنَابِ إِما جمله اسميه معطوفه على قوله:

«وَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» كقوله فى الآيه السابقه: «وَ إِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً»، و التقدير:

و من ثمرات النخيل و الأعناب- أو (1) شىء- تتخذون منه، الخ؛ قالوا: و العرب ربما يضم ما الموصوله كثيرا، و منه قوله تعالى: وَ إِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَ مُلْكًا كَبِيرًا (الدهر / ٢٠)، و التقدير رأيت ما ثم، أو التقدير و من ثمرات النخيل و الأعناب شىء تتخذونه منه، بناء على عدم جواز حذف الموصول و إبقاء الصله على ما ذهب اليه البصريون من النحاه.

و إمّا جمله فعليه معطوفه على قوله: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ» كما فى الآيه التاليه «وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ» و التقدير خلق لكم أو آتاكم من ثمرات النخيل و الأعناب، و قوله: «تَتَّخِذُونَ مِنْهُ» الخ؛ بدل منه أو استئناف كأن قائلا يقول: ما ذا نستفيد منه فقيل: تتخذون منه سكرا و رزقا حسنا، و أفراد ضمير «منه» بتأويل المذكور كقوله: «مِمَّا فِى بُطُونِهِ» فى الآيه السابقه.

و قوله: تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَيْكْرًا وَ رِزْقًا حَسِينًا أى تتخذون مما ذكر من ثمرات النخيل و الأعناب ما هو مسكر كالخمر بأنواعها و رزقا حسنا كالتمر و الزبيب و الدبس و غير ذلك مما يقتات به.

ثم ختم سبحانه الآيه بقوله: إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ حثا على التعقل و الإمعان فى أمر النبات و ثمراته.

قوله تعالى: وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّخِيلِ أَنْ أَنْجِذِى مِنَ الْجِبَالِ يُبُوتًا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِينَ، الوحى- كما قال الراغب- الإشاره السريعه و ذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز أو بصوت مجرّد عن التركيب أو بإشاره و نحوها، و المحصّل من موارد استعماله أنه إلقاء

ص: ٥٩٠

(١-١). الترديد مبنى على المذهبين فى حذف الموصوف كما سيأتى.

المعنى بنحو يخفى على غير من قصد إفهامه فالإلهام بإلقاء المعنى فى فهم الحيوان من طريق الغريزه من الوحي و كذا ورود المعنى فى النفس من طريق الرؤيا أو من طريق الوسوسه أو بالإشاره كل ذلك من الوحي، وقد استعمل فى كلامه تعالى فى كل من هذه المعانى كقوله:

«وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ» الآية، وقوله: «وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ (القصص ٧)، وقوله: «إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ (الأنعام ١٢١)، وقوله: «فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (مريم ١١)، و من الوحي التكليم الإلهى لأنبياؤه و رسله، قال تعالى: «وَ مَا كُنَّا لِنَشِيرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا (الشورى ٥١)، و قد قرّر الأديب الدينى فى الإسلام أن لا يطلق الوحي على غير ما عند الأنبياء و الرسل من التكليم الإلهى.

قال فى المجمع: و الذلل جمع الذلول، يقال: دابه ذلول بين الذل و رجل ذلول بين الذل و الذله. انتهى.

وقوله: «وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ» أى ألهمه من طريق غريزته التى أودعها فى بنيته، و أمر النحل و هو زنبور العسل فى حياته الاجتماعيه و سيرته و صنعته لعجيب، و لعل بداعه أمره هو الموجب لصرف الخطاب عنهم الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم إذ قال: «وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ» .

وقوله: «أَنْ اتَّخَذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ» هذا من مضمون الوحي الذى أوحى اليه، و الظاهر أن المراد بما يعرشون هو ما يبنون لبيوت العسل.

وقوله: «ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ» الأمر بأن تأكل من كل الثمرات مع أنها تنزل غالبا على الأزهار إنما هو لأنها إنما تأكل من مواد الثمرات أول ما تتكوّن فى بطون الأزهار و لما تكبر و تنضج.

وقوله: «فَاسْتَلِمِي سَبِيلَ رَبِّكَ ذُلًّا» تفرّعه على الأمر بالأكل يؤيد أن المراد به رجوعها الى بيوتها لتودع فيها ما هيأته من العسل المأخوذ من الثمرات و إضافه السبل الى الرب للدلاله على أن الجميع بإلهام إلهى.

و قوله: **يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ الخ**؛ استئناف بعد ذكر جملة ما أمرت به يبين فيه ما يترتب على مجاهدتها في امتثال أمر الله سبحانه ذللاً و هو أنه يخرج من بطونها أى بطون النحل «شَرَابٌ» و هو العسل «مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ» بالبياض و الصفرة و الحمرة الناصعه و ما يميل الى السواد فيه شفاءً لِلنَّاسِ من غالب الأمراض.

و تفصيل القول فى حياه النحل هذه الحشره الفطنه التى بنت حياتها على مدنيه عجيبه فاضله لا تكاد تحصي غرائبها و لا يحاط بدقائقها ثم الذى تهينه ببالغ مجاهدتها و ما يشتمل عليه من الخواص خارج عن وسع هذا الكتاب فليراجع فى ذلك ميطان تحقيقه.

ثم ختم الآيه بقوله: **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** و قد اختلف التعبير بذلك فى هذه الآيات فخص الآيه فى إحياء الأرض بعد موتها بقوم يسمعون، و فى ثمرات النخيل و الأعناب بقوم يعقلون، و فى أمر النحل بقوم يتفكرون.

قوله تعالى: **وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً الخ**؛ الأردل اسم تفضيل من الرذاله و هى الرداءه، و الرذل الدون و الردىء، و المراد بأردل العمر بقريته قوله: **لِكَيْ لَا يَعْلَمَ الخ**؛ سن الهرم التى فيها انحطاط قوى الشعور و الإدراك، و هى تختلف باختلاف الأزجه و تبتدى على الأغلب من الخمس و السبعين.

و المعنى: و الله خلقكم معشر الناس ثم يتوفاكم فى متوسط و منكم من يرد الى سن الهرم فينتهى الى أن لا يعلم بعد علم شيئاً لضعف القوى، و هذه آيه أن حياتكم و موتكم و كذا شعوركم و علمكم ليست بأيديكم و إلا اخترتم البقاء على الوفاء و العلم على عدمه بل ذلك على ما له من عجب النظام منته الى علمه و قدرته تعالى، و لهذا علمه بقوله: **«إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ»**.

قوله تعالى: **وَ اللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ الى آخر الآيه؛**

فَضَّلَ بَعْضَ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ فِي ارْزَاقِهِ وَهُوَ مَا تَبَقِيَ بِهِ الْحَيَاةُ رُبَّمَا كَانَ مِنْ جِهَةِ الْكَمِيَّةِ كَالْغَنِيِّ الْمَفْضَلِ بِالْمَالِ الْكَثِيرِ عَلَى الْفَقِيرِ، وَرُبَّمَا كَانَ مِنْ جِهَةِ الْكَيْفِيَّةِ كَأَنْ يَسْتَقِلَّ بِالتَّصَرُّفِ فِيهِ بَعْضُهُمْ وَيَتَوَلَّى أَمْرَ الْآخَرِينَ مِثْلَ مَا يَسْتَقِلُّ الْمَوْلَى الْحَرَّ بِمَلِكِهِ مَا فِي يَدِهِ وَالتَّصَرُّفِ فِيهِ بِخِلَافِ عَبْدِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ أَنْ يَتَّصِرَ فِي شَيْءٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَكَذَا الْأَوْلَادُ الصِّغَارَ بِالنَّسَبِ إِلَى وَلِيِّهِمْ وَ الْأَنْعَامِ وَالْمَوَاشِي بِالنَّسَبِ إِلَى مَالِكِهَا.

وَقَوْلُهُ: فَمَا الَّذِينَ فَضَّلُوا بِرِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ قَرِينَهُ عَلَى أَنْ الْمَرَادُ هُوَ الْقِسْمُ الثَّانِي مِنَ التَّفْضِيلِ وَهُوَ أَنْ بَعْضُهُمْ فَضَّلَ بِالْحَرِيَّةِ وَالِاسْتِقْلَالِ بِمَلِكِهِ مَا رَزَقَ وَ لَيْسَ يَخْتَارُ أَنْ يَرُدَّ مَا رَزَقَ بِاسْتِقْلَالِهِ وَ حَرِيَّتِهِ إِلَى مَا يَمْلِكُهُ وَ يَمْلِكُ رِزْقَهُ، وَ لَا أَنْ يَبْذُلَ لَهُ مَا أَوْتِيَهُ مِنْ نِعْمَةٍ حَتَّى يَتَسَاوَى وَ يَتَشَارَكَ فِي بَطْلِ مَلِكِهِ وَ يَذْهَبُ سُودَدَهُ.

فَهَذِهِ نِعْمَةٌ لَيْسُوا بِمَغْمُضِينَ عَنْهَا وَ لَا بِرَادِّينَ لَهَا عَلَى غَيْرِهِمْ، وَ لَيْسَتْ إِلَّا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَإِنْ أَمَرَ الْمَوْلِيَّةَ وَ الرَّقِيَّةَ وَ إِنْ كَانَ مِنَ الشُّثُونِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي ظَهَرَتْ عَنْ آرَاءِ النَّاسِ وَ السُّنَنِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْجَارِيَةِ فِي مَجْتَمَعَاتِهِمْ لَكِنْ لَهُ أَصُولٌ طَبِيعِيَّةٌ تَكْوِينِيَّةٌ هِيَ الَّتِي بَعَثَتْ آرَاءَهُمْ عَلَى اعْتِبَارِهِ كَسَائِرِ الْأُمُورِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْعَامَةِ.

وَ الْمَعْنَى - وَ اللَّهُ أَعْلَمُ - وَ اللَّهُ فَرَّقَ بَيْنَكُمْ بِأَنْ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَبَعْضُكُمْ حَرٌّ مُسْتَقِلٌّ فِي التَّصَرُّفِ فِيهِ، وَ بَعْضُكُمْ عَبْدٌ تَبِعَ لَهُ لَا يَتَّصِرُ إِلَّا عَنْ إِذْنِ فُلَيْسِ الَّذِي فَضَّلُوا بِرِزْقِهِمُ الَّذِي رَزَقُوهُ عَلَى سَبِيلِ الْحَرِيَّةِ وَ الْإِسْتِقْلَالِ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمَفْضَلُ وَ الْمَفْضُولُ وَ الْمَفْضَلُ عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ سَوَاءٌ فَلَيْسُوا سَوَاءٌ بَلْ هِيَ نِعْمَةٌ تَخْتَصُّ بِالْمَفْضُولِينَ أَوْ فَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنًا وَ حَفَدَةً إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قَالَ فِي الْمَفْرَدَاتِ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنًا وَ حَفَدَةً جَمَعَ حَافِدٌ وَ هُوَ الْمَتَحَرِّكُ الْمَسْرُوعُ بِالْخِدْمَةِ أَقْرَابُ

كانوا أو أجنب. قال المفسرون: هم الأسباط و نحوهم و ذلك أن خدمتهم أصدق-الى أن قال-قال الأصمعي: أصل الحفد مداركه الخطو. انتهى.

و فى المجمع: و أصل الحفد الإسراع فى العمل-الى أن قال-و منه قيل للأعوان حفده لإسراعهم فى الطاعة. انتهى. و المراد بالحفده فى الآيه الأعوان الخدم من البنين لمكان قوله:

«وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ» و لذا فسر بعضهم قوله: «بَيْنَ وَحَفْدَةٍ» بصغار الأولاد و كبارهم، و بعضهم بالبنين و الأسباط و هم بنو البنين.

و المعنى: و الله جعل لكم من أنفسكم أزواجا تألفونها و تأنسون بها، و جعل لكم من أزواجكم بالإيلاء بنين و حفده و أعوانا تستعينون بخدمتهم على حوائجكم و تدفون بهم عن أنفسكم المكاره و رزقكم من الطيبات و هى ما تستطيعونه من أمتعته الحياه و تنالونه بلا علاج و عمل كالماء و الثمرات أو بعلاج و عمل كالأطعمه و الملابس و نحوها، و «مِنْ» فى «مِنَ الطَّيِّبَاتِ» للتبويض و هو ظاهر.

ثم وبخهم بقوله: أَفَبِالْبَاطِلِ يُعْبَدُونَ و هى الأصنام و الأوثان و من ذلك القول بالبنات لله، و الأحكام التى يشرعها لهم أئمتهم أئمة الضلال «يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ» و النعمه هى جعل الأزواج من أنفسهم و جعل البنين و الحفده من أزواجهم فإن ذلك من أعظم النعم و أجلاها لكونه أساسا تكوينيا يبنى عليه المجتمع البشرى، و يظهر به فيهم حكم التعاون و التعاضد بين الأفراد، و ينتظم به لهم أمر تشريك الأعمال و المساعى فيتيسر لهم الظفر بسعادتهم فى الدنيا و الآخرة.

و لو أن الإنسان قطع هذا الرابط التكويني الذى أنعم الله به عليه و هجر هذا السبب الجميل، و إن توسل بأى وسيله غيره لتلاشى جمعه و تشتت شمله و فى ذلك هلاك الإنسانيه.

قوله تعالى: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ عَظْفَ عَلَى مَوْضِعِ الْجَمَلِ السَّابِقِ وَ الْمَعْنَى يَكْفُرُونَ

بنعمه الله و يعبدون من دون الله ما لا يملك، الخ.

و قد ذكروا أن رَزَقًا مصدر و شَيْئًا مفعوله و المعنى لا يملك لهم أن يرزق شيئاً، و قيل: الرزق بمعنى المرزوق و شَيْئًا بدل منه، و قيل: إن شَيْئًا مفعول مطلق و التقدير: لا يملك شيئاً من الملك. و خير الوجوه أوسطها.

و فى الآيه رجوع الى التخلص لبيان الغرض من تعداد النعم و هو التوحيد و إثبات النبوه بمعنى التشريع و المعاد يجرى ذلك الى تمام أربع آيات ينهى فى اولها عن ضربهم الأمثال لله سبحانه، و يضرب فى الثانيه مثل تبين به وحدانيته تعالى فى ربوبيته، و فى الثالثه مثل يتبين به أمر النبوه و التشريع، و يتعرض فى الرابعه لأمر المعاد.

قوله تعالى: **فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** الظاهر السابق الى الذهن أن المراد بضرب الأمثال التوصيف المصطلح عليه بالاستعاره التمثيليه و هى إجراء الأوصاف عليه تعالى بضرب من التشبيه كقولهم: إن له بنات كالإنسان، و إن الملائكه بناته، و إن بينه و بين الجنه نسبا و صهرا، و إنه كيف يحيى العظام و هى رميم الى غير ذلك، و هذا هو المعنى المعهود من هذه الكلمه فى كلامه تعالى، و قد تقدم فى خلال الآيات السابقه قوله: **«الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّءِ وَ لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى»**.

فالمعنى: إذا كان الأمر على ما ذكر فلا- تصفوه سبحانه بما تشبهونه بغيره و تقيسونه الى خلقه لأن الله يعلم و أنتم لا تعلمون حقائق الامور و كنهه تعالى.

قوله تعالى: **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛** ما فى الآيه من المثل المضروب يفرض عبدا مملوكا لا يقدر على شىء، و آخر رزق من الله رزقا حسنا ينفق منه سرا و جهرا ثم يسأل هل يستويان؟ و اعتبار التقابل بين المفروضين يعطى أن كلا من الطرفين مقيد بخلاف ما فى الآخر من الوصف مع تبين الأوصاف بعضها لبعض.

فالعبد المفروض مملوك غير مالك لا لنفسه و لا لشيء من متاع الحياه و هو غير قادر على التصرف فى شيء من المال، و الذى فرض قبالة حر يملك نفسه و قد رزقه الله رزقا حسنا و هو ينفق منه سرا و جهرا و على قدره منه على التصرف بجميع أقسامه.

و قوله: هَلْ يَشِيْتُوْنَ سؤال عن تساويهما، و من البديهي أن الجواب هو نفى التساوى و يثبت به أن الله سبحانه و هو المالك لكل شيء المنعم بجميع النعم لا يساوى شيئا من خلقه و هم لا يملكون لا أنفسهم و لا غيرهم و لا يقدرّون على شيء من التصرف فمن الباطل قولهم: إن مع الله آلهه غيره و هم من خلقه.

و التعبير بقوله: يَشِيْتُوْنَ دون أن يقال: يستويان للدلاله على أن المراد من ذلك الجنس من غير أن يختص بمولى و عبد معينين كما قيل.

□
و قوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ أى له عزّ اسمه جنس الحمد و حقيقته و هو الثناء على الجميل الاختيارى لأن جميل النعمه من عنده و لا يحمد إلا الجميل فله تعالى كل الحمد كما أن له جنسه فافهم ذلك.

□
و قوله: يَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أى أكثر المشركين لا- يعلمون أن النعمه كلها لله لا- يملك غيره شيئا و لا يقدر على شيء بل يثبتون لأولياهم شيئا من الملك و القدره على سبيل التفويض فيعبدونهم طمعا و خوفا، هذا حال أكثرهم و أما أقلهم من الخواص فانهم على علم من الحق لكنهم يحيدون عنه بغيا و عنادا.

□
قوله تعالى: وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ الى آخر الآيه؛ قال فى المجمع: الأبكم الذى يولد أخرس لا يفهم و لا يفهم، و قيل: الأبكم الذى لا يقدر أن يتكلم و الكلّ الثقل يقال: كلّ عن الأمر يكّل كلا إذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه.

و كلّت السكين كلولا- إذا غلظت شفرتها، و كلّ لسانه إذا لم ينبعث فى القول لغلظه و ذهاب حدّه فالأصل فيه الغلظ المانع من النفوذ، و التوجيه: الإرسال فى وجه من الطريق، يقال:

وجّهته الى موضع كذا فتوجه اليه. انتهى.

فقوله: وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ مَقَايِسَهُ أُخْرَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ مَفْرُوضِينَ مُتَقَابِلِينَ فِي أَوْصَافِهِمَا الْمَذْكُورِ.

وقوله: أَحَدُهُمَا أَبُكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ أَي مَحْرُومٌ مِنْ أَنْ يَفْهَمَ الْكَلَامَ وَيَفْهَمَ غَيْرَهُ بِالْكَلامِ لِكُونِهِ أَبُكَمٌ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَنْطِقُ فَهُوَ فَاقِدٌ لِجَمِيعِ الْفَعْلِيَّاتِ وَالْمَزَايَا الَّتِي يَكْتَسِبُهَا الْإِنْسَانُ مِنْ طَرِيقِ السَّمْعِ الَّذِي هُوَ أَوْسَعُ الْحَوَاسِ نِطاقًا، بِهِ يَتِمَّكِنُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْعِلْمِ بِأَخْبَارِ مَنْ مَضَى وَمَا غَابَ عَنِ الْبَصَرِ مِنَ الْحَوَادِثِ وَمَا فِي ضَمَائِرِ النَّاسِ وَيَعْلَمُ الْعُلُومَ وَالصَّنَاعَاتِ، وَبِهِ يَتِمَّكِنُ مِنَ الْإِقَاءِ مَا يَدْرِكُهُ مِنَ الْمَعَانِي الْجَلِيلَةِ وَالْمَدْقِيقَةِ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا يَقْوَى الْأَبُكَمُ عَلَى دَرْكِ شَيْءٍ مِنْهَا إِلَّا النَّزْرَ الْيَسِيرَ مِمَّا يَسَاعِدُ عَلَيْهِ الْبَصَرُ بِإِعَانِهِ مِنَ الْإِشَارَةِ.

فقوله: لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مَخْصَصٌ عَمُومُهُ بِالْأَبُكَمِ أَي لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُ الْأَبُكَمِ وَهُوَ جَمَلُهُ مَا يَحْرَمُهُ الْأَبُكَمُ مِنْ تَلَقُّي الْمَعْلُومَاتِ وَالْإِقَائِهَا.

وقوله: وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَي ثَقْلٌ وَعِيَالٌ عَلَى مَنْ يَلِي وَيُدْبِرُ أَمْرَهُ فَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْبِرَ أَمْرَ نَفْسِهِ، وَقَوْلُهُ: «أَيُّنَمَا يُوجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ» أَي إِلَى أَيِّ جِهَةٍ أَرْسَلَهُ مَوْلَاهُ لِحَاجَتِهِ مِنْ حَوَائِجِ نَفْسِهِ أَوْ حَوَائِجِ مَوْلَاهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى رَفْعِهَا فَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفَعُ غَيْرَهُ كَمَا لَا يَنْفَعُهُ نَفْسُهُ، فَهَذَا أَعْنَى قَوْلِهِ: «أَحَدُهُمَا أَبُكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ» النِّخ؛ مِثْلُ أَحَدِ الرَّجُلَيْنِ، وَ لَمْ يَذْكَرْ سَبْحَانَهُ مِثْلَ الْآخَرِ لِحَصُولِ الْعِلْمِ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ: «هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ» النِّخ؛ وَفِيهِ إِيجَازٌ لَطِيفٌ.

وقوله: هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى وَصْفِ الرَّجُلِ الْمَفْرُوضِ وَ سِئَالٌ عَنِ اسْتِوَائِهِمَا إِذَا قَوَّيَسَ بَيْنَهُمَا وَعَدَمَهُ.

أما الوصف فقد ذكر له منه آخر ما يمكن أن يتلبس به غير الأبكم من الخير والكمال الذي يحلى نفسه و يعدو الى غيره وهو العدل الذي هو التزام الحد الوسط في الأعمال واجتناب

الإفراط و التفریط فإن الأمر بالعدل إذا جرى على حقيقته كان لازمه أن يتمكن الصلاح من نفس الانسان ثم ينسبط على أعماله فيلتزم الاعتدال في الامور ثم يجب انبساطه على أعمال غيره من الناس فيأمرهم بالعدل و هو- كما عرفت-مطلق التجنب عن الإفراط و التفریط أى العمل الصالح أعم من العدل فى الرعيه.

ثم وصفه بقوله: وَ هُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَ هُوَ السبيل الواضح الذى يهذى سالكيه الى غايتهم من غير عوج، و الانسان الذى هو فى مسير حياته على صراط مستقيم يجرى فى أعماله على الفطره الانسانيه من غير أن يناقض بعض أعماله بعضاً أو يتخلف عن شىء مما يراه حقاً، و بالجمله لا تخلف و لا اختلاف فى أعماله.

قوله تعالى: وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الغيب يقابل الشهاده فى إطلاقات القرآن الكريم و قد تكرر فيه «عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ» و قد تقدم مرارا أنهما أمران إضافيان فالأمر الواحد غيب و غائب بالنسبه الى شىء و شهاده و مشهود بالنسبه الى آخر.

و إذ كان من الأشياء ما هو ذو وجوه يظهر ببعض منها لغيره و يخفى ببعض أعنى أنه متضمن غيباً و شهاده كانت إضافه الغيب و الشهاده الى الشىء تاره بمعنى اللام فيكون مثلاً غيب السماوات و الأرض ما هو غائب عنهما خارج من حدودهما، و يلحق بهذا الباب الإضافه لنوع من الاختصاص، كما فى قوله: فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (الجن ٢٦).

و تاره بمعنى «من» أو ما يقرب منه فيكون المراد بغيب السماوات و الأرض الغيب الذى يشتملان عليه نوعاً من الاشتمال قبال ما يشتملان عليه من الشهاده و بعباره اخرى ما يغيب عن الأفهام من أمرهما قبال ما يظهر منهما.

و الساعه هى من غيب السماوات و الأرض بهذا المعنى الثانى.

فقوله: وَ مَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ أى بالنسبه اليه و إلا

فقد استعظم سبحانه أمرها بما يهون عنده كل أمر خطير و وصفها بأوصاف لا يعادلها فيها غيرها، قال تعالى: ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (الأعراف/١٨٧).

و تشبيه أمرها بلمح البصر إنما هو من جهة أن اللمح و هي مدّ البصر و إرساله للرؤية أخف الأعمال عند الإنسان و أقصرها زمانا فهو تشبيه بحسب فهم السامع و لذلك عقبه بقوله:

«أَوْ هُوَ أَقْرَبُ» فإن مثل هذا السياق يفهم منه الإضراب فكأنه تعالى يقول: إن أمرها في خفه المؤنه و الهوان و السهولة بالنسبه الينا يشبه لمح أحدكم ببصره، و إنما أشبهه به رعايه لحالككم و تقريبا الى فهمكم و إلا فالأمر أقرب من ذلك، كما قال فيها: وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ (الأنعام/٧٣)، فأمر الساعه بالنسبه الى قدرته و مشيئته تعالى كأمر أيسر الخلق و أهونه.

و علل تعالى ذلك بقوله: إِنَّ اللَّهَ عَلِيُّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فقد رته على كل شيء توجب أن تكون الأشياء بالنسبه اليه سواء.

و إياك أن تتوهم أن عموم القدره لا يستوجب ارتفاع الاختلاف من بين الأشياء من حيث النسبه، فقله الاسباب المتوسطه بين الفاعل و فعله و الشرائط و الموانع و كثرتها لهما تأثير في ذلك لا محاله، فالإنسان مثلا قادر على التنفس و حمل ما يطيقه من الاثقال و ليسا سواء بالنسبه اليه و على هذا القياس.

[سوره النحل (١٦): الآيات ٧٨ الى ٨٩]

إشارة

وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَ جَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَ يَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَ مِمَّنْ أَوْجَاهُهَا وَ أَوْبَارُهَا وَ أَشْعَارُهَا أَثَاثًا وَ مَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَ جَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَ جَعَلَ لَكُم سِرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَ سِرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسَلِّمُونَ (٨١) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَ أَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣) وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَ إِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَ لَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥) وَ إِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَآلَقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَ آلَقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلْمَ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ زِنَانًا هُمْ عَذَابٌ فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً وَ بُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ (٨٩)

قوله تعالى: وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا إِلَى آخِرِ آيَةِ. الامهات جمع أم و الهاء زائده نظير إهراق و أصله أراق و قد تأتي أمات، وقيل: الامهات فى الانسان و الامات فى غيره من الحيوان، و الأفئدة جمع قله للفؤاد و هو القلب و اللب، و لم يبين له جمع كثره.

و قوله: أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ إشاره الى التولد و «لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا» حال من ضمير الخطاب أى أخرجكم من أرحامهن بالتولد و الحال أن نفوسكم خاليه من هذه المعلومات التى أحرزتموها من طريق الحس و الخيال و العقل بعد ذلك.

و الآيه تؤيد ما ذهب اليه علماء النفس أن لوح النفس خاليه عن المعلومات أول تكوّنها ثم تنتقش فيها شيئاً فشيئاً- كما قيل - وهذا فى غير علم النفس بذاتها فلا- يطلق عليه عرفاً «يعلم شيئاً» و الدليل عليه قوله تعالى فى خلال الآيات السابقه فيمن يردّ الى أرذل العمر: «لَكِنِّي لَا يَعْلمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا» فإن من الضرورى أنه فى تلك الحال عالم بنفسه.

و احتج بعضهم بعموم الآيه على أن العلم الحضورى يعنى به علم الإنسان بنفسه كسائر العلوم الحصيليه مفقود فى بادئ الحال حادث بعد ذلك ثم ناقش فى أدله كون علم النفس بذاتها حضورياً مناقشات عجيبه.

و فيه أن العموم منصرف الى العلم الحصولى و يشهد بذلك الآيه المتقدمه.

و قوله: وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إشاره الى مبادئ العلم الذى أنعم بها على الإنسان فمبدأ التصور هو الحس، و العمده فيه السمع و البصر و إن كان هناك غيرهما من اللمس و الذوق و الشم، و مبدأ الفكر هو الفؤاد.

قوله تعالى: أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ الخ؛ قال في المجمع: الجو الهواء البعيد من الأرض. انتهى. يقول: أ لم ينظروا الى الطير حال كونها مسخرات لله سبحانه في جو السماء و الهواء البعيد من الأرض، ثم استأنف فقال مشيرا الى ما هو نتيجة هذا النظر: «مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ» .

و إثبات الإمساك لله سبحانه و نفيه عن غيره مع وجود أسباب طبيعیه هناك مؤثره في ذلك و كلامه تعالى يصدق ناموس العليه و المعلوليه إنما هو من جهه أن توقف الطير في الجو من دون أن تسقط كيفما كان و إلى أى سبب استند هو و سببه و الرابطه التي بينهما جميعا مستنده الى صنعه تعالى فهو الذى يفيض الوجود عليه و على سببه و على الرابطه التي بينهما فهو السبب المفيض لوجوده حقيقه و إن كان سببه الطبيعي القريب معه يتوقف هو عليه.

و معنى توقفه في وجوده على سببه ليس أن سببه يفيد وجوده بعد ما استفاد وجود نفسه منه تعالى بل إن هذا المسبب يتوقف في أخذه الوجود منه تعالى الى أخذ سببه الوجود منه تعالى قبل ذلك، و قد تقدم بعض الكلام في توضيح ذلك من قريب.

و هذا معنى توحيد القرآن، و الدليل عليه من جهه لفظه أمثال قوله: [□]أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ (الأعراف ٥٤)، و قوله: [□]أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (البقره ١٦٥)، و قوله: [□]اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (الزمر ٦٢)، و قوله: [□]إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (النحل ٧٧).

و الدليل على ما قدمناه في معنى النفي و الإثبات في الآيه قوله تعالى: «مُسَخَّرَاتٍ» فإن التسخير إنما يتحقق بقهر أحد السببين الآخر في فعله على ما يريده السبب القاهر ففي لفظه دلالة على أن للمقهور نوعا من السببيه.

و ليس طيران الطائر في جو السماء بالحقيقه بأعجب من سكن الإنسان في الأرض فالجميع ينتهي الى صنعه تعالى على حد سواء لكن ألفه الإنسان لبعض الامور و كثره عهده به توجب خمود قريحه البحث عنه فإذا صادف ما يخالف ما ألفه و كثر عهده به كالمستثنى من

الكليه انتبه لذلك و انتزعت القريحه للبحث عنه و الإنسان يرى الأجسام الأرضيه الثقيله معتمده على الأرض مجذوبه إليها فإذا وجد الطير مثلا- تنقض كليه هذا الحكم بطيرانها تعجب منه و انبسط للبحث عنه و الحصول على علتة،و للحق نصيب من هذا البحث و هذا هو أحد الأسباب فى أخذ هذا النوع من الامور فى القرآن مواد للاحتجاج.

□ و قوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ أى فى كونها مسخرات فى جو السماء فإن للطير و هو فى الجو دفيفا و صفيفا و بسطا لأجنتها و قبضا و سكونا و انتقالا و صعودا و نزولا و هى جميعا آيات لقوم يؤمنون كما ذكره الله.

□ قوله تعالى: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا الى آخر الآيه؛ فى المفردات:

البيت مأوى الإنسان بالليل لأنه يقال: بات أقام بالليل كما يقال: ظل بالنهار. ثم قد يقال:

للمسكن بيت من غير اعتبار الليل فيه، و جمعه أبيات و بيوت لكن البيوت بالمسكن أخص و الأبيات بالشعر، قال: و يقع ذلك على المتخذ من حجر و مدر و صوف و وبر. انتهى موضع الحاجة.

و السكن ما يسكن اليه، و الظعن الارتحال و هو خلاف الإقامة، و الصوف للضأن و الوبر للإبل كالشعر للإنسان و يسمى ما للمعز شعرا كالإنسان، و الأثاث متاع البيت الكثير و لا- يقال للواحد منه أثاث، قال فى المجمع: و لا- واحد للأثاث كما أنه لا واحد للمتاع. انتهى.

و المتاع أعم من الأثاث فإنه مطلق ما يتمتع به و لا يختص بما فى البيت.

□ و قوله: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا أى جعل لكم بعض بيوتكم سكنا تسكنون اليه، و من البيوت ما لا يسكن اليه كالمتخذ لادخار الأموال و اختزان الأمتعه و غير ذلك و قوله: «وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا» الخ؛ أى من جلودها بعد الدبغ و هى الأنطاع و الأدم «بُيُوتًا» و هى القباب و الخيام «تَسْتَخِفُّونَهَا» أى تعدونها خفيفه من جهه الحمل «يَوْمَ ظَغْنِكُمْ» و ارتحالكم «وَ يَوْمَ إِقَامَتِكُمْ» من غير سفر و ظعن.

وقوله: «مِنْ أَضْوَابِهَا» وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا الخ؛ معطوف على موضع «مِنْ جُلُودٍ» أى و جعل لكم «مِنْ أَضْوَابِهَا» و هى للضأن و «أَوْبَارِهَا» و هى للابل «وَأَشْعَارِهَا» و هى للمعز «أَثَانًا» تستعملونه فى بيوتكم «وَمَتَاعًا» تتمتعون به «إِلَى حِينٍ» محدود، قيل:

و فيه إشارة الى أنها فانيه دائره فلا ينبغى للعاقل أن يختارها على نعيم الآخره.

قوله تعالى: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الظرفان أعنى قوله: «لَكُمْ» و «مِمَّا خَلَقَ» متعلقان بجعل و تعليق الظلال بما خلق لكونها أمرا عدميا محققا بتبع غيره و هى مع ذلك من النعم العظيمة التى أنعم الله بها على الإنسان و سائر الحيوان و النبات فما الانتفاع بالظل للإنسان و غيره بأقل من الانتفاع بالنور و لولا الظل و هو ظل الليل و ظل الأبنية و الأشجار و الكهوف و غيرها لما عاش على وجه الأرض عايش.

وقوله: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا الْكُنَّ» ما يستتر به الشيء حتى أن القميص كن للابسه، و أكنان الجبال هى الكهوف و الثقب الموجوده فيها.

وقوله: «وَجَعَلَ لَكُمْ سِرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ» أى قميصا يحفظكم من الحر، قال فى المجمع: و لم يقل: و تقيكم البرد لأن ما وقى الحر وقى البرد، و إنما خص الحر بذلك مع أن وقايتها للبرد أكثر لأن الذين خوطبوا بذلك أهل حر فى بلادهم فحاجتهم الى ما يقى الحر أكثر، عن عطاء.

قال: على أن العرب يكتفى بذكر أحد الشئيين عن الآخر للعلم به قال الشاعر:

و ما أدرى إذا يمت أرضا

أريد الخير أيهما يلينى

فكنى عن الشر و لم يذكره لأنه مدلول عليه، ذكره الفراء انتهى.

و لعل بعض الوجه فى ذكره الحر و الاكتفاء به أن البشر الأولى يسكنون المناطق الحاره من الأرض فكان شدة الحر أمس بهم من شدة البرد و تنبهم لاتخاذ السراويل إنما هو للاتقاء مما كان الابتلاء به أقرب اليهم و هو الحر و الله أعلم.

و قوله: وَ سَرَّابِيلٌ تَقِيَكُم بِأَسْكَمَ الظاهر أن المراد به درع الحديد و نحوه.

و قوله: كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ امتنان عليهم بإتمام النعم التي ذكرها، و كانت الغايه المرجوه من ذلك إسلامهم لله عن معرفتها فإن المترقب المتوقع ممن يعرف النعم و إتمامها عليه أن يسلم لإرادته منعمه و لا يقابله بالاستكبار لأن منعما هذا شأنه لا يريد به سوء.

قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ قال فى المجمع: البلاغ الاسم و التبليغ المصدر مثل الكلام و التكليم، انتهى.

لما فرغ عن ذكر ما أريد ذكره من النعم و الاحتجاج بها ختمها بما مدلوها العتاب و اللوم و الوعيد على الكفر و يتضمن ذكر وحدانيته تعالى فى الربوبية و المعاد و النبوه، و بدأ ذلك ببيان وظيفه النبي صلى الله عليه و آله و سلم فى رسالته و هو البلاغ فقال: «فَإِنْ تَوَلَّوْا» أى يتفرع على هذا البيان الذى ليس فيه إلا دعوتهم الى ما فيه صلاح معاشهم و معادهم من غير أن يتبعه إجبار أو إكراه أنهم إن تولوا و أعرضوا عن الإصغاء اليه و الاهتداء به «فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» و التبليغ الواضح الذى لا إبهام فيه و لا ستر عليه لأنك رسول و ما على الرسول إلا ذلك.

و فى الآيه تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و بيان وظيفه له.

قوله تعالى: يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَ أَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ المعرفة و الإنكار متقابلان كالعلم و الجهل و هذا هو الدليل على أن المراد بالإنكار و هو عدم المعرفة لانزم معناه و هو الإنكار فى مقام العمل و هو عدم الإيمان بالله و رسوله و اليوم الآخر أو الجحود لسانا مع معرفتها قلبا، لكن قوله: «وَ أَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ» يخص الجحود بأكثرهم كما سيجىء فىبقى للإنكار المعنى الأول.

و قوله: وَ أَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ دخول اللام على «الْكَافِرُونَ» يدل على الكمال أى إنهم كافرون بالنعم الإلهيه أو بما تدل عليه من التوحيد و غيره جميعا لكن أكثرهم كاملون فى

كفرهم و ذلك بالجحود عنادا و الإصرار عليه و الصدّ عن سبيل الله.

و المعنى: يعرفون نعمه الله بعنوان أنها نعمه منه و مقتضاه أن يؤمنوا به و برسوله و اليوم الآخر و يسلموا فى العمل إذا وردوا مورد العمل عملوا بما هو من آثار الإنكار دون المعرفة، و أكثرهم لا يكتفون بمجرد الإنكار العملى بل يزيّدون عليه بكمال الكفر و العناد مع الحق و الجحود و الإصرار عليه.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ قَالَ فى المجمع: قال الزّجاج: و العتب الموجد يقال: عتب عليه يعتب إذا وجد عليه فإذا فاضه ما عتب عليه قالوا: عتابه، و إذا رجع الى مسرّته قيل: أعتب، و الاسم العتبيّ و هو رجوع المعتوب عليه الى ما يرضى العتاب، و استعته طلب منه أن يعتب. انتهى.

و قوله: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا يفيد السياق أن المراد بهذا اليوم القيامة، و بهؤلاء الشهداء الذين يبعث كل واحد منهم من أمه، شهداء الأعمال الذين تحمّلوا حقائق أعمال أمّتهم فى الدنيا و هم يستشهد بهم و يشهدون عليهم يوم القيامة، و قد تقدم بعض الكلام فى معنى هذه الشهادة فى تفسير قوله: لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (البقره ١٤٣/). فى الجزء الأول من الكتاب.

و لا دلالة فى لفظ الآية على أن المراد بشهيد الامه نبيها، و لا أن المراد بالامه أمه الرسول فمن الجائز أن يكون غير النبي من أمته كالإمام شهيدا كما يدلّ عليه آيه البقره السابقه و قوله تعالى: وَ جِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَدَاءِ (الزمر ٦٩/). و على هذا فالمراد بكل أمه أمه الشهيد المبعوث و أهل زمانه.

و قوله: ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ذكر بعث شهداء الامم دليل على أنهم يشهدون على أممهم بما عملوا فى الدنيا، و قرينه على أن المراد من نفى الإذن للكافرين أنهم لا يؤذن لهم فى الكلام و هو الاعتذار لا محاله، و نفى الإذن فى الكلام إنما هو تمهيد

لأداء الشهود شهادتهم كما تلوح إليه آيات أخر كقوله: أَلْيَوْمَ نَخِمْ عَلَىٰ أَقْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ (يس ٦٥)، و قوله: هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ (المرسلات ٣٦).

على أن سياق قوله: «ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ» الخ؛ يفيد أن المراد بهذا الذى ذكر نفى ما يتقى به الشر يومئذ من الحيل و بيان أنه لا سبيل الى تدارك ما فات منهم و إصلاح ما فسد من أعمالهم فى الدنيا يومئذ و هو أحد أمرين: الاعتذار أو استئناف العمل، أما الثانى فيتكفله قوله: «وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ» و لا يبقى للأول و هو الاعتذار بالكلام إلا قوله: «ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا» .

قوله تعالى: وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ كانت الآية السابقة بالحقيقه مسوقه لبيان الفرق بين يوم الجزاء الذى هو يوم القيامة و بين سائر ظروف الجزاء فى الدنيا بأن جزاء يوم القيامة لا- يرتفع و لا- يتغير باعتذار و لا باستعتاب، و هذه الآية بيان فرق عذاب اليوم مع العذابات الدنيويه التى تتعلق بالظالمين فى الدنيا فإنها تقبل بوجه التخفيف أو الإنظار بتأخير ما و عذاب يوم القيامة لا يقبل تخفيفا و لا إنظارا.

فقوله: وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ ذكر الظلم فى الصلحه دون الكفر و نحوه للدلاله على سبب الحكم و ملاكته، و المراد برؤيه العذاب إشرافه عليهم و إشرافهم عليه بعد فصل القضاء كما يفيد السياق، و المراد بالعذاب عذاب يوم القيامة و هو عذاب النار. و المعنى- و الله أعلم- و إذا قضى الأمر بعذابهم و أشرفوا على العذاب بمشاهده النار فلا مخلص لهم عنه بتخفيف أو بإنظار و إمهال.

قوله تعالى: وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ مضى فى حديث يوم البعث، و قوله: «وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا» و هم فى عرف القرآن عبده الأصنام

و الأوثان قرينه على أن المراد بقوله: «شُرَكَاءُهُمْ» الذين أشركوهم بالله زعما منهم أنهم شركاء لله و افتراء و يدل أيضا عليه ذيل الآيه و الآيه التاليه.

فتسميتهم شركاءهم و هم يسمونهم شركاء الله للدلاله بها على أن ليس لهم من الشركه إلا الشركه بجعلهم بحسب وهمهم فليس لإشراكهم شركاءهم من الحقيقه إلا أنها لا حقيقه لها.

و قوله: قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ معناه ظاهر و هو تعريف منهم إياهم لربهم، و لا حاجه الى البحث عن غرض المشركين فى تعريفهم فإن اليوم يوم أحاط بهم الشقاء و العذاب من كل جانب، و الانسان فى مثل ذلك يلوى الى كل ما يخطر بباله من طرق السعى فى خلاص نفسه و تنفيس كربه.

و قوله: فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ قال فى المجمع: تقول: ألقىت الشئ إذا طرحته، و اللقى الشئ الملقى، و ألقىت اليه مقاله إذا قلتها له، و تلقاها إذا قبلها، انتهى.

و المعنى: أن شركاءهم ردوا اليهم و كذبوهم، و قد عبّر سبحانه فى موضع آخر عن هذا التكذيب بالكفر كقوله: وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ (فاطر ١٤) و قوله حكاية عن مخاطبه الشيطان لهم يوم القيامة: إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ (إبراهيم ٢٢).

قوله تعالى: وَ أَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلْمَ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ السلم الإسلام و الاستسلام، و كأن فى التعبير بإلقاء السلم إشارة الى انضمام شئ من الخضوع و المقهوريه بالقهر الإلهى الى سلمهم.

و ضمير «أَلْقُوا» عائد الى الذين أشركوا بقرينه قوله بعد: «وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ» فالمراد أن المشركين يسلمون يوم القيامة لله و قد كانوا يدعون الى الاسلام فى الدنيا و هم يستكبرون.

و الآيه المبحوث عنها أعنى قوله: وَ أَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلْمَ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ صدرها يشير الى إسلامهم و ذيلها الى كون ذاك الإسلام اضطراريا لا ينفعهم لأنهم كانوا يرون لله ألوهيه و لشركائهم ألوهيه فاختاروا تسليم شركائهم و عبادتهم على التسليم لله ثم لما ظهر لهم الحق يوم القيامة و كذبهم شركائهم بطل ما زعموه و ضل عنهم ما افتروه فلم يبق للتسليم إلا الله سبحانه فسلموا له مضطرين و انقادوا له كارهين.

قوله تعالى: الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ استئناف متعرض لحال أئمة الكفر بالخصوص بعد ما أشار الى حال عامه الظالمين و المشركين فى الآيات السابقه.

و السامع إذا سمع ما شرحه الله من حالهم يوم القيامة فى هذه الآيات و أنهم معذبون جميعا من غير أن يخفف عنهم أو ينظروا فيه، و قد سمع منه أن منهم طائفه هم أشد كفرا و أشقى من غيرهم إذ يقول «وَ أَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ» خطر بباله طبعا أنهم هل يساوون غيرهم فى العذاب الموعود و هم يزيدون عليهم فى السبب و هو الكفر.

فاستؤنف الكلام جوابا عن ذلك فقيل «الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» بالعناد و اللجاج فأكملوا فى الكفر و اقتدى بهم غيرهم «زِدْنَاهُمْ عَذَابًا» و هو الذى للصد و هم يختصون به «فَوْقَ الْعَذَابِ» و هو الذى بإزاء مطلق الظلم و الكفر و يشاركون فيه عامه إخوانهم، و كأن اللام فى العذاب للعهد الذكري يشار بها الى ما ذكر فى قوله: «وَ إِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ» الخ؛ «بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ» تعليل لزياده العذاب.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ الخ؛ صدر الآيه تكرر ما تقدم قبل بضع آيات من قوله: «وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا» غير أنه كان هناك توطئه و تمهيدا لحديث عدم الإذن لهم فى الكلام يومئذ، و هو هاهنا توطئه و تمهيد لذكر شهادته صلى الله عليه و آله و سلم لهؤلاء يومئذ و هو فى الموضعين مقصود

لغيره لا لنفسه.

و كيف كان فقوله: «و يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ» يدل على بعث واحد في كل أمة للشهادة على أعمال غيره و هو غير البعث بمعنى الإحياء للحساب بل بعث بعد البعث، و إنما جعل من أنفسهم ليكون أتم للحججه و أقطع للمعذره كما يفيد السيق و ذكره المفسرون حتى أنهم ذكروا شهادة لوط على قومه و لم يكن منهم نسبا و وجهوه بأنه كان تأهل فيهم و سكن معهم فهو معدود منهم.

و قوله: وَ جِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ يفيد أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ شهيد على هؤلاء، و استظهروا أن المراد بهؤلاء هم أمته، و أيضا إنهم قاطبه من بعث اليه من لدن عصره الى يوم القيامة ممن حضره و من غاب و من عاصره و من جاء بعده من الناس.

و آيات الشهاده من معضلات آيات القيامة على ما في جميع آيات القيامة من الإعضال و صعوبه المنال، و قد تقدم في ذيل قوله: لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (البقره ١٤٣/١) في الجزء الأول من الكتاب نبذه من الكلام في معنى هذه الشهاده (١).

و قوله: وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً وَ بُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ذكروا أنه استئناف يصف القرآن بكرائم صفاته فصفته العامه أنه تبيان لكل شيء و التبيان و البيان واحد- كما قيل- و إذ كان كتاب هدايه لعامه الناس و ذلك شأنه كان الظاهر أن المراد بكل شيء كل ما يرجع الى أمر الهدايه مما يحتاج اليه الناس في اهتدائهم من المعارف الحقيقه المتعلقه بالمبدإ و المعاد و الأخلاق الفاضله و الشرائع الإلهيه و القصص و المواعظ فهو تبيان لذلك كله.

ص: ٦١٠

إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرٍ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَ أَوْفُوا
 بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعِيدَ تَوَكُّيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا
 كَالَّذِي نَفَقَتْ غَزَلُهَا مِنْ بَعِيدٍ فُوهُ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ
 لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلِيَتَّبِعَ
 أُولَٰئِكَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعِيدٌ ثُبُوتُهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَكُمْ
 عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلَا تَشْرَوْا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ
 بَاقٍ وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً
 وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ
 عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ
 آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ
 آمَنُوا وَ هُدًى وَ بَشِيرًا لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَ لَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هَذَا لِسَانٌ
 عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 بِآيَاتِ اللَّهِ وَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ابْتدأ سبحانه بهذه الأحكام الثلاثة التي هي بالترتيب أهم ما يقوم به صلب المجتمع الإنساني لما أن

ص: ٦١٢

صلاح المجتمع العام أهم ما يبتغيه الاسلام فى تعاليمه المصلحه فإن أهم الأشياء عند الانسان فى نظر الطبيعه و إن كان هو نفسه الفرديه، لكن سعادته الشخص مبنيه على صلاح الظرف الاجتماعى الذى يعيش هو فيه، و ما أصعب أن يفلح فرد فى مجتمع فاسد أحاط به الشقاء من كل جانب.

و لذلك اهتم فى إصلاح المجتمع اهتماما لا- يعادله فيه غيره و بذل الجهد البالغ فى جعل الدساتير و التعاليم الدينيه حتى العبادات من الصلاه و الحج و الصوم اجتماعيه ما أمكن فيها ذلك، كل ذلك ليستصلح الإنسان فى نفسه و من جهة ظرف حياته.

فقوله: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ** أمر بالعدل و يقابله الظلم، قال فى المفردات: العداله و المعادله لفظ يقتضى معنى المساواه، و يستعمل باعتبار المضايقه، و العدل-بفتح العين- و العدل-بكسرها- يتقاربان لكن العدل-بفتح العين- يستعمل فيما يدرك بالبصيره كالأحكام، و على ذلك قوله تعالى: **«أَوْ عَدْلٌ ذَلِكُمْ صِدْقًا»** و العدل-بكسر العين- و العدل فيما يدرك بالحاسه كالموزونات و المعدودات و المكيلات، فالعدل هو التقسيط على سواء.

قال: و العدل ضربان: مطلق يقتضى العقل حسنه، و لا يكون فى شىء من الأزمنه منسوخا و لا يوصف بالاعتداء بوجه نحو الإحسان الى من أحسن اليك و كف الأذى عنك، و عدل يعرف كونه عدلا بالشرع و يمكن أن يكون منسوخا فى بعض الأزمنه كالقصاص و اروش الجنایات و أصل مال المرتد، و لذلك قال: **«فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ»**، و قال: **«وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا»** فسمى اعتداء و سيئه.

و هذا النحو هو المعنى بقوله: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ** فإن العدل هو المساواه فى المكافاه إن خيرا فخير و إن شرا فشر، و الإحسان أن يقابل الخير بأكثر منه و الشر بأقل منه، انتهى موضع الحاجه.

و قوله: **وَالْإِحْسَانِ** الكلام فيه من حيث اقتضاء السياق كسابقه فالمراد به

الإحسان الى الغير دون الإحسان بمعنى إتيان الفعل حسنا، و هو إيصال خير أو نفع الى غير لا على سبيل المجازاه و المقابله كأن يقابل الخير بأكثر منه و يقابل الشر بأقل منه- كما تقدم- و يوصل الخير الى غير متبرعا به ابتداء.

و الإحسان على ما فيه من إصلاح حال من أذلت المسكنه و الفاقه أو اضطرتة النوازل، و ما فيه من نشر الرحمه و إيجاد المحبه يعود محمود أثره الى نفس المحسن بدوران الثروه فى المجتمع و جلب الأمن و السلامه بالتحبيب.

و قوله: «وَ إِيْتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ» أى إعطاء المال لذوى القرباه و هو من أفراد الإحسان خص بالذكر ليدل على مزيد العناية بإصلاح هذا المجتمع الصغير الذى هو السبب بالحقيقه لانعقاد المجتمع المدنى الكبير كما أن مجتمع الازدواج الذى هو أصغر بالنسبه الى مجتمع القرباه سبب مقدم مكون له فالمجتمعات المدنيه العظيمة إنما ابتدأت من مجتمع بيتى عقده الازدواج ثم بسطه التوالد و التناسل و وسعه حتى صار قبيله و عشيره و لم يزل يتزايد و يتكاثر حتى عادت امه عظيمه فالمراد بذى القربى الجنس دون الفرد و هو عام لكل قرباه كما ذكروه.

و فى التفسير المأثور عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام أن المراد بذى القربى الإمام من قربه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم، و المراد بالإيتاء إعطاء الخمس الذى فرضه الله سبحانه فى قوله: وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ الْآيَه (الأنفال / ٤١) و قد تقدم تفسيرها.

و لعل التعبير بالإفراد حيث قيل ذى القُربى و لم يقل: ذوى القربى أو اولى القربى كما فى قوله: وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينُ (النساء ٨/)، و قوله:

وَ آتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ (البقره ١٧٧/) يؤيد ذلك.

و احتمال إرادته الجنس من ذى القربى يبعده ما وقع فى سياق آيه الخمس من ذكر اليتامى و المساكين معه بصيغه الجمع مع عدم ظهور نكته يختص بها ذوى القربى أو اليتامى و المساكين

على أن الآيه لا قرينه واضحه فيها على كون المراد بالإيتاء هو الإحسان ثم بالإحسان مطلق الإحسان. والله أعلم.

قوله تعالى: **وَ يَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** قال فى المفردات: الفحش و الفحشاء و الفاحشه ما عظم قبحه من الأفعال و الأقوال. انتهى و لعل الأصل فى معناه الخروج عن الحد فيما لا ينبغى يقال: غبن فاحش أى خارج عن حد التحمل و الصبر و السكوت.

و المنكر ما لا يعرفه الناس فى مجتمعهم من الأعمال التى تكون متروكه عندهم لقبحها أو إثمها كالمواقعه أو كشف العوره فى مشهد من الناس فى المجتمعات الإسلاميه.

و البغى الأصل فى معناه الطلب و كثر استعماله فى طلب حق التغيير بالتعدى عليه فيفيد معنى الاستعلاء و الاستكبار على الغير ظلما و عتوا، وربما كان بمعنى الزنا و المراد به فى الآيه هو التعدى على الغير ظلما.

قوله تعالى: **وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَ لَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعِيدَ تَوْكِيدِهَا** الخ؛ قال فى المفردات: العهد حفظ الشىء و مراعاته حالا. بعد حال، و سمي الموثق الذى يلزم مراعاته عهدا. قال: و عهد فلان الى فلان يعهد أى ألقى اليه العهد و أوصاه بحفظه، انتهى.

و ظاهر إضافه العهد الى الله تعالى فى قوله: **«وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ»** أن المراد به هو العهد الذى يعاهد فيه الله على كذا دون مطلق العهد و يأتى نظير الكلام فى نقض اليمين.

و قوله: **«وَ لَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعِيدَ تَوْكِيدِهَا»** نقض اليمين نكته و مخالفه مقتضاه و المراد باليمين هو اليمين بالحلف بالله سبحانه كأن ما عدا ذلك ليس بيمين و الدليل عليه قوله بعد: **«وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا»**.

و المراد بتوكيدها إحكامها بالقصد و العزم و كونها لأمر راجح بخلاف قولهم: لا- و الله و بلى و الله و غيره من لغو الأيمان، فالتوكيد فى هذه الآية يفيد ما يفيدته التعقيد فى قوله تعالى: لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ (المائدة ٨٩).

و نقض اليمين بحسب الاعتبار أشنع من نقض العهد و إن كان منها عنهما جميعا على أن العناية بالحلف فى الشرع الاسلامى أكثر كما فى باب القضاء.

و بهذا يظهر معنى قوله تعالى: وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا فَإِنِ الحَالِفِ إِذَا قَالَ: وَ اللَّهُ لِأَفْعَلَنَّ كَذَا أَوْ لِأَتْرُكَنَّ كَذَا فَقَدْ عَقَّ مَا حَلَفَ عَلَيْهِ نَوْعًا مِنَ التَّعْلِيقِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ جَعَلَهُ كَفِيلًا عَنْهُ فِي الوَفَاءِ بِمَا عَقَدَ عَلَيْهِ الِيمينِ، فَإِنِ نَكَثَ وَ لَمْ يَفِ كَانَ لِكَفِيلِهِ أَنْ يُؤَدِّيَهُ إِلَى الْجَزَاءِ وَ الْعُقُوبَةِ، فَفِي نَكَثِ الِيمينِ إِهَانَةٌ وَ إِرْزَاءٌ بِسَاحَةِ الْعِزَّةِ وَ الْكِرَامَةِ مُضَافًا إِلَى مَا فِي نَقْضِ الِيمينِ وَ الْعَهْدِ مَعَ مِنَ الْإِنْقِطَاعِ وَ الْإِنْفِصَالِ عَنْهُ سُبْحَانَهُ بَعْدَ تَوْكِيدِ الْإِتِّصَالِ.

فقوله: «وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ» الخ؛ حال من ضمير الجمع فى قوله: «وَ لَا تَنْقُضُوا» و قوله: «وَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِمَا يَفْعَلُونَ» فى معنى تأكيد النهى بأن العمل مبغوض و هو به عليم.

قوله تعالى: وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَّضَتْ غَزَلَهُمْ مِنْ بَعِيدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ النقص و يقابله الإبرام إفساد ما أحكم من حبل أو غزل بالقتل فنقض الشيء المبرم كحل الشيء المعقود، و النكث النقص، قال فى المجمع: و كل شيء نقض بعد الفتل فهو أنكاث حبل- كان أو غزلا، و الدخل بفتح الحاء فى الاصل كل ما دخل الشيء و ليس منه، و يكتنى به عن الدغل و الخدعة و الخيانة، كما قيل: و أربى أفعال من الربا و هو الزيادة.

و قوله: وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَّضَتْ غَزَلَهُمْ مِنْ بَعِيدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا فى معنى التفسير لقوله فى الآية السابقة: «وَ لَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا» و هو تمثيل بمرأه تغزل الغزل بقوه ثم تعود فتنقض ما أتبع نفسها فيه و غزله من بعد قوه و تجعله أنكاثا لا فتل فيه و لا إبرام.

و نقل عن الكلبي أنها امرأة حمقاء من قريش كانت تغزل مع جواربها الى انتصاف النهار ثم تأمرهن أن ينقضن ما غزلن و لا يزال ذلك دابها، و اسمها ريطه بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مره، و كانت تسمى خرقاء مكه.

و قوله: **تَتَّخِذُونَ أَيِّمَانَكُمْ دَخَلًا** بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ أَى تتخذون أيمانكم وسيله للغدر و الخدعه و الخيانه تطيبون بها نفوس الناس ثم تخونون و تخدعونهم بنقضها، و إنما يفعلون ذلك لتكون امه- و هم الحالفون-أربى و أزيد سهما من زخارف الدنيا من أمه- و هم المحلوف لهم-.

فالمراد بالدخل و سيلته من تسميه السبب باسم المسبب و «أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ» مفعول له بتقدير اللام، و الكلام نوع بيان لنقض اليمين أو لكونهم كالتى نقضت غزلها من بعد قوه أنكاثا، و محصل المعنى أنكم كمثلها إذ تتخذون أيمانكم دخلا بينكم فتؤكدونها و تعقدونها ثم تخونون و تخدعون بنقضها و نكثها و الله ينهاكم عنه.

و ذكر بعضهم أن قوله: «تَتَّخِذُونَ أَيِّمَانَكُمْ» الخ؛ جملة استفهاميه محذوفه الأداة و الاستفهام للإنكار.

و قوله: **إِنَّمَا يَبْلُغُكُمُ اللَّهُ بِهِ** الخ؛ أى إن ذلك امتحان إلهى يمتحنكم به و أقسم ليبيّن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون فتعلمون عند ذلك ما حقيقه ما أنتم عليه اليوم من التكالب على الدنيا و سلوك سبيل الباطل لإماطه الحق و دحضه و يتبين لكم يومئذ من هو الضالّ و من هو المهتدى.

قوله تعالى: **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً** وَ لَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ الخ؛ لما انجز الكلام الى ذكر اختلافهم عقب ذلك بيان أن اختلافهم ليس بناقض للغرض الإلهى فى خلقهم و لا أنهم معجزون له سبحانه و لو شاء لجعلهم أمه واحده لا اختلاف بينهم و لكن الله سبحانه جعلهم مختلفين بالهدايه و الإضلال فهدى قوما

و أضلّ آخرين.

و ذلك أنه تعالى وضع سعادته الانسان و شقائه على أساس الاختيار و عرفهم الطاعة المفضية الى غايه السعاده و المعصيه المؤديه الى غايه الشقاء فمن سلك مسلك المعصيه و اجتاز للضلال جازاه الله ذلك، و من ركب سبيل الطاعة و اختار الهدى جازاه الله ذلك و سيسألهم جميعا عما عملوا و اختاروا.

و أن قوله: **وَ لَتَسْتِئْتَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** لدفع ما يسبق الى الوهم أن استناد الضلال و الهدى اليه سبحانه يبطل تأثير اختيارهم في ذلك و تبطل بذلك رساله و تلغو الدعوه فاجيب بأن السؤال باق على حاله لما أن اختياركم لا يبطل بذلك بل الله سبحانه يمد لكم من الضلال و الهدى ما أنتم تختارونه بالركون الى معصيته أو بالإقبال الى طاعته.

قوله تعالى: **وَ لَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَالًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعِيدَ ثُبُوتِهَا** الى آخر الآيه؛ قال في المفردات: الصدود و الصد قد يكون انصرافا عن الشيء و امتناعا نحو «يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا» و قد يكون صرفا و منعا نحو «وَ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ». انتهى.

و الآيه نهى عن اتخاذ الأيمان دخلا بعد النهى عن أصل نقض الأيمان لأن لخصوص اتخاذها دخلا مفسده مستقلة هي ملاك النهى غير المفسده التي لأصل نقض الأيمان و قد أشار الى مفسده أصل النقض بقوله: «وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا» الخ؛ و يشير في هذه الآيه الى مفسده اتخاذها دخلا بقوله: «فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَ تَذُوقُوا الشُّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

و قوله: **وَ تَذُوقُوا الشُّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** معطوف على قوله: «فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا» الخ؛ و بيان نتيجته كما أنه بيان نتيجته و عاقبه لقوله: «تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَالًا» و بذلك يظهر أن قوله: «بِمَا صَدَدْتُمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ» بمنزله التفسير لقوله:

و المراد بالصدود عن سبيل الله الإعراض و الامتناع عن السنه الفطريه التى فطر الله الناس عليها و دعت الدعوه النبويه إليها من التزام الصدق و الاستقامه و رعايه العهود و المواثيق و الأيمان و التجنب عن الدغل و الخدعه و الخيانه و الكذب و الزور و الغرور.

و المراد بذوق السوء العذاب، و قوله: «وَ لَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» حال عن فاعل «تَذُوقُوا» و يمكن أن يكون المراد بذوق السوء ما ينالهم من آثار الضلاله السيئه فى الدنيا، و قوله: «وَ لَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» إخبارا عما يحل بهم فى الآخره، هذا ما يستفاد من ظاهر الآيه الكريمه.

فالمعنى: لا تتخذوا أيمانكم وسيله دخل بينكم حتى يؤديكم ذلك الى الزوال عما ثبتم عليه و نقض ما أبرمتموه، و فيه إعراض عن سبيل الله الذى هو التزام الفطره و التحرز عن الغدر و الخدعه و الخيانه و الدغل و بالجمله الإفساد فى الأرض بعد إصلاحها، و يؤديكم ذلك الى أن تذوقوا السوء و الشقاء فى حياتكم الدنيا و لكم عذاب عظيم فى الاخرى.

قوله تعالى: «وَ لَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» قال فى المفردات: كل ما يحصل عوضا عن شىء فهو ثمنه، انتهى.

و الظاهر أن الآيه نهى عن نقض العهد بعد ما تقدم الأمر بالوفاء به اعتناء بشأنه كما جرى مثل ذلك فى نقض الأيمان، و الآيه مطلقه، و المراد بعهد الله العهد الذى عوهد به الله مطلقا، و المراد بالاشتراء به ثمنا قليلا بقرينه ذيل الآيه أن يبدل العهد من شىء من حطام الدنيا فينقض لئله فسمى المبدل منه ثمنا لأنه عوض كما تقدم، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ» فى مقام التعليل لقوله فى الآيه السابقه: «ما عند الله هو خير لكم» و قد وجهه بأن الذى عندكم أى فى الحياه الدنيا التى هى حياه ماديه قائمه على أساس التبدل و التحول منعه بنعت الحركه و التغير زائل نافذ، و ما عند الله سبحانه مما يعد المتقين منكم باق لا يزول و لا يفنى و الباقي خير من النافذ بصريح

و اعلم أن قوله: **مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ** على ما فى لفظه من الإطلاق قاعده كليه غير منقوضه باستثناء، تحتها جزئيات كثيره من المعارف الحقيقيه.

قوله تعالى: **وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** لما كان الوفاء بالعهد مستلزما للصبر على مرّ مخالفه هوى النفس فى نقضه و الاسترسال فيما تشتتهيه، صرف الكلام عن ذكر أجر خصوص الموفين بالعهد الى ذكر أجر مطلق الصابرين فى جنب الله.

فقوله: **وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ** وعد مؤكد على مطلق الصبر سواء كان صبيرا على الطاعه أو على المعصيه أو عند المصيبه غير أنه يجب أن يكون صبيرا فى جنب الله و لوجه الله فإن السياق لا يساعد على غيره.

و قوله: **بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** الباء للمقابله كما فى قولنا: بعث هذا بهذا، و ليس المراد بأحسن ما كانوا يعملون الأحسن من أعمالهم فى مقابل الحسن منها بأن يميز الله سبحانه بين أعمالهم الحسنه فيقسّمها الى حسن و أحسن ثم يجزيهم بأحسنها و يلغى الحسن كما ذكره بعضهم فإن المقام لا يؤيده، و آيات الجزاء تنفيه و الرحمه الواسعه الإلهيه تأباه.

و ليس المراد به الواجبات و المستحبات من أعمالهم قبال المباحات التى أتوا بها فإنها لا تخلو من حسن كما ذكره آخرون.

فإن الكلام ظاهر فى أن المراد بيان الأجر على الأعمال المأتى بها فى ظرف الصبر مما يرتبط به ارتباطا، و واضح أن المباحات التى يأتى بها الصابر فى الله لا ارتباط لها بصبره فلا وجه لاعتبارها بين الأعمال ثم اختيار الأحسن من بينها.

على أنه لا- مطمع لعبد فى أن يثيبه الله على ما أتى به من المباحات حتى يبين له أن الثواب فى مقابل ما أتى به من الواجبات و المستحبات التى هى أحسن مما أتى به من المباحات فيكون

و من هنا يظهر أن ليس المراد به النوافل بناء على عدم الإلزام فيها فتكون أحسن ما عمل فإن كون الواجب مشتملا من المصلحه الموجه للحسن على أزيد من النقل معلوم من الخطابات التشريعيه بحيث لا يرتاب فيه.

بل المراد بذلك أن العمل الذى يأتون به و له فى نوعه ما هو حسن و ما هو أحسن فالله سبحانه يجزيه من الأجر على ما أتى به ما هو أجر الفرد الأحسن من نوعه فالصلاه التى يصلّيها الصابر فى الله يجزيه الله سبحانه لها أجر الفرد الأحسن من الصلاه و إن كانت ما صلاها غير أحسن و بالحقيقه يستدعى الصبر أن لا يناقش فى العمل و لا يحاسب ما هو عليه من الخصوصيات المقتضيه لخسته و رداءته كما يفيدته قوله تعالى: **إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ** .

قوله تعالى: **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً** الى آخر الآيه؛ وعد جميل للمؤمنين إن عملوا عملا صالحا و بشرى للإناث أن الله لا يفرق بينهن و بين الذكور فى قبول إيمانهن و لا أثر عملهن الصالح الذى هو الإحياء بحياه طيبه و الأجر بأحسن العمل على الرغم مما بنى عليه أكثر الوثنيه و أهل الكتاب من اليهود و النصرارى من حرمان المرأه من كل مزياه دينيه أو جلها و حط مرتبتها من مرتبه الرجل و وضعها وضعا لا يقبل الرفع البته.

فقوله: **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ** حكم كلى من قبيل ضرب القاعده لمن عمل صالحا أى من كان و قد قيده بكونه مؤمنا و هو فى معنى الاشتراط فإن العمل ممن ليس مؤمنا حابط لا يترتب عليه أثر، كما قال تعالى: **وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ** (المائد 5)، و قال: **وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (هود 16).

وقوله: فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَئٰةً طَيِّبَةً الْاِحْيَاءُ اِلْقَاءُ الْحِيَاةِ فِي الشَّيْءِ و اِفَاضَتْهَا عَلَيْهِ فَالْجَمْلَةُ بِلَفْظِهَا دَالَةٌ عَلٰى اَنْ اللّٰهَ سَبَّحَانَهُ يَكْرُمُ الْمُؤْمِنَ الَّذِى يَعْمَلُ صَالِحًا بِحَيَاةٍ جَدِيدَةٍ غَيْرَ مَا يَشَارِكُهُ سَائِرُ النَّاسِ مِنَ الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ، و لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ تَغْيِيرُ صِفَةِ الْحَيَاةِ فِيهِ وَ تَبْدِيلُ الْخَبِيثَةِ مِنَ الطَّيِّبَةِ مَعَ بَقَاةِ اَصْلِ الْحَيَاةِ عَلٰى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، و لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَقِيلَ: فَلَنُطَيِّبَنَّ حَيَاتِهِ.

فَالآيَةُ نَظِيرُهُ قَوْلُهُ: اَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَاحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ (الْاَنْعَامُ ١٢٢/١)، و تَفِيدُ مَا يَفِيدُهُ مِنْ تَكْوِينِ حَيَاةٍ اِبْتَدَائِيَّةٍ جَدِيدَةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالٰى: فَاِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ الْاِسْتِعَاذَةُ طَلَبُ الْمَعَاذِ، و الْمَعْنٰى: اِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاطْلُبْ مِنْهُ تَعَالٰى مَا دَمْتَ تَقْرُؤُهُ اَنْ يَعِيذَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ اَنْ يَغْوِيَكَ، فَالْاِسْتِعَاذَةُ الْمَأْمُورُ بِهَا حَالُ نَفْسِ الْقَارِئِ مَا دَامَ يَقْرَأُ وَ قَدْ اَمْرٌ اَنْ يُوْجِدَهَا لِنَفْسِهِ مَا دَامَ يَقْرَأُ، و اَمَّا قَوْلُ الْقَارِئِ: اَعُوْذُ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ اَوْ مَا يَشَابَهُهُ مِنَ الْلَفْظِ فَهُوَ سَبَبٌ لِاِجْعَادِ مَعْنٰى الْاِسْتِعَاذَةِ فِي النَّفْسِ وَ لَيْسَ بِنَفْسِهَا اِلَّا بِنَوْعٍ مِنَ الْمَجَازِ، وَ قَدْ قَالَ سَبَّحَانَهُ: اِسْتَعِذْ بِاللّٰهِ، و لَمْ يَقُلْ: قُلْ اَعُوْذُ بِاللّٰهِ.

قَوْلُهُ تَعَالٰى: اِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰنٌ عَلٰى الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا وَ عَلٰى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ فِي مَقَامِ التَّعْلِيْلِ لِلاَمْرِ الْوَارِدِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ اِى اِسْتِعَاذَ بِاللّٰهِ حِيْنَ الْقِرَاةِ لِيعِيْذَكَ مِنْهُ لِاَنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطٰنٌ عَلٰى مَنْ اٰمَنَ بِاللّٰهِ وَ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ.

قَوْلُهُ تَعَالٰى: اِنَّمَا سُلْطٰنُهُ عَلٰى الَّذِيْنَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِيْنَ هُمْ بِهٖ مُشْرِكُوْنَ ضَمَائِرُ الْاِفْرَادِ الثَّلَاثَةِ لِلشَّيْطَانِ اِى يَنْحَصِرُ سُلْطٰنُ الشَّيْطَانِ فِي الَّذِيْنَ يَتَّخِذُوْنَهُ و لِيَا لَهُمْ يَدْبُرُ اَمُوْرَهُمْ كَمَا يَرِيْدُ، و هُمْ يَطِيعُوْنَهُ، و فِي الَّذِيْنَ يَشْرِكُوْنَ بِهِ اِذَا يَتَّخِذُوْنَهُ و لِيَا مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ وَ رَبِّا مَطَاعًا غَيْرِهِ فَاِنْ الطَّاعَةَ عِبَادَةً كَمَا يَشِيْرُ اِلَيْهِ قَوْلُهُ: اَلَمْ اَعْهَدْ اِلَيْكُمْ يَا بَنِيْ اٰدَمَ اَنْ لَا تَعْبُدُوْا الشَّيْطٰنَ اِنَّهٗ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِيْنٌ و اَنْ اَعْبُدُوْنِيْ (يَس ٦١/٦).

قَوْلُهُ تَعَالٰى: وَ اِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَ اللّٰهُ اَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوْا اِنَّمَا اَنْتَ

مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ إشاره الى النسخ و حكمته، و جواب عما اتهموه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم به من الافتراء على الله، و الظاهر من سياق الآيات أن القائلين هم المشركون و إن كانت اليهود هم المتصلبين فى نفي النسخ و من المحتمل أن تكون الكلمه مما تلقفه المشركون من اليهود فكثيرا ما كانوا يراجعونهم فى أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم.

و قوله: وَإِذَا يَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ قَالَ فِي الْمَفْرَدَات: الإبدال و التبديل و التبدل و الاستبدال جعل شىء مكان آخر، و هو أعم من العوض فإن العوض هو أن يصير لك الثانى بإعطاء الأول، و التبديل قد يقال للتغير مطلقا و إن لم يأت ببدله قال تعالى: فَيَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ -الى أن قال- و قال تعالى: فَمَنْ يَدَّلْهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ وَإِذَا يَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَ يَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ انتهى موضوع الحاجه.

فالتبديل بمعنى التغير يخالف التبديل بمعناه المعروف فى أن مفعوله الأول هو المأخوذ و المطلوب بخلافه بالمعنى المعروف فمعنى قوله: «وَ إِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ» معناه وضعنا الآيه الثانيه مكان الاولى بالتغير فكانت الثانيه المبدله هى الباقيه المطلوبه.

و قوله: وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ كُنَايَه عَنْ أَنَّ الْحَقَّ لَمْ يَتَّعَدْ مُورِدَه وَ أَنَّ الَّذِي أَنْزَلَه هُوَ الْحَقِيقُ بِأَنَّ يَنْزِلُ فَإِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُمْ، و الجملة حالیه.

و قوله: قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ الْقَوْلَ لِلْمَشْرِكِينَ يَخَاطَبُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و يتهمونه بأنه يفترى على الله الكذب فإن تبديل قول مكان قول، و الثبات على رأى ثم العدول عنه مما ينتزه عنه ساحه رب العزه.

و قد بالغوا فى قولهم إذ لم يقولوا: افتريت فى هذا التبديل و النسخ بل قالوا: «إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ» فقصروه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم فى الافتراء، و أتوا بالجملة الاسميه و سموه مفتريا، و قد بنوا ذلك على أن ما جاء به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم من سنخ واحد و هو يسند الجميع الى ربه و يقول: إنما أنا نذير فإذا كان مفتريا فى

واحد كان مفتريا في الجميع فليس إلا مفتريا.

وقوله: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» أى أكثر هؤلاء المشركين الذين يتهمونك بقوله: «إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ» لا يعلمون حقيقه هذا التبديل والحكمه المؤديه اليه على ما سينكشف فى الجواب أن الأحكام الإلهيه تابعه لمصالح العباد و من المصالح ما يتغير بتغير الأوضاع و الأحوال و الأزمنه فمن الواجب أن يتغير الحكم بتغير مصلحته فينسخ الحكم الذى ارتفعت مصلحته الموجه له بحكم آخر حدثت مصلحته.

فأكثر هؤلاء غافلون عن هذا الأمر و أما الأقل منهم فهم واقفون على حقيقه الأمر و لو إجمالا غير أنهم مستكبرون على الحق معاندون له و إنما يلقون القول إلقاء من غير رعايه جانب الحق.

قوله تعالى: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هُدًى وَ بُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ قد تقدمت فى أول السوره إشاره الى معنى الروح، و القدس الطهاره و النزاهه و الظاهر أن الإضافه للاختصاص أى روح طاهره عن قذارات الماده نزيهه عن الخطأ و الغلط و الضلال، و هو المسمى فى موضع آخر من كلامه تعالى بالروح الأمين، و فى موضع آخر بجبريل من الملائكه قال تعالى: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَيَّ قَلْبِكَ (الشعراء ١٩٤/)، و قال: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ (البقره ٩٧/).

فقوله: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ أمر بالجواب و الأسبق الى الذهن أن يكون الضمير راجعا الى القرآن من جهه كونه ناسخا أى الآيه الناسخه، و يمكن أن يكون راجعا الى مطلق القرآن، و فى التعبير بالتنزيل دون الإنزال إشاره الى التدرج.

و كان من طبع الكلام أن يقال: من ربي لكن عدل عنه الى قوله: «مِنْ رَبِّكَ» للدلاله على كمال العنايه و الرحمه فى حقه صلى الله عليه و آله و سلم كأنه لا يرضى بانقطاع خطابه فيغتنم الفرصه لتكليمه أينما

أمكن، و ليدل على أن المراد بالقول المأمور به إخبارهم بذلك لا مجرد التلفظ بهذه الألفاظ فافهم.

وقوله: لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا التثبيت تحكيم الثبات و تأكيده بإلقاء الثبات بعد الثبات عليهم كأنهم بأصل إيمانهم بالله و رسوله و اليوم الآخر ثبتوا على الحق و بتجدد الحكم حسب تجدد المصلحه يؤتون ثباتا على ثبات من غير أن يضعف ثباتهم الأول بالمضى على أعمال لا تطابق مصلحه الوقت فإن من الواضح أن من أمر بسلوك سبيل لمصلحه غايه فأخذ بسلوكه عن إيمان بالآمر الهادى فقطع قطعه منه على حسب ما يأمره به رعايه لمصلحه الغايه بسرعه أو ببطء أو فى ليل أو نهار ثم تغير نحو المصلحه فلو لم يغير الأمر الهادى نحو السلوك و استمر على أمره السابق لضعف إيمان السالك و انسلب أركانه لكن لو أمر بنحو جديد من السلوك يوافق المصلحه و يضمن السعاده زاد إيمانه ثباتا على ثبات.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ افترأ آخر منهم على النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم و هو قولهم: «إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ» و هو كما يلوح اليه سياق اعتراضهم و ما ورد فى الجواب عنه أنه كان هناك رجل أعجمى غير فصيح فى منطقه عنده شىء من معارف الأديان و أحاديث النبوه ربما لاقاه النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم فاتهموه بأنه يأخذ ما يدعيه و حيا منه و الرجل هو الذى يعلمه و هو الذى حكاه الله تعالى من قولهم: «إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ» و فى القول إيجاز، و تقديره: إنما يعلمه بشر و ينسب ما تعلمه منه الى الله افتراء عليه، و هو ظاهر.

و من المعلوم أن الجواب عنه بمجرد أن لسان الرجل أعجمى و القرآن عربى مبين لا- يحسم ماده الشبهه من أصلها لجواز أن يلقى اليه المطالب بلسانه الأعجمى ثم يسبكها هو صَلَّى الله عليه و آله و سلم ببلاغه منطقه فى قالب العربيه الفصيحه بل هذا هو الأسبق الى الذهن من قولهم: «إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ» حيث عبروا عن ذلك بالتعليم دون التلقين و الإملاء، و التعليم أقرب الى المعانى منه الى

و بذلك يظهر أن قوله: «لِسَانَ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ -الى قوله- مُبِينٌ» ليس وحده جوابا عن شبهتهم بل ما يتلوه من الكلام الى تمام آيتين من تمام الجواب.

و ملخص الجواب مأخوذ من جميع الآيات الثلاث أن ما اتهمتموه به أن بشرا يعلمه ثم هو ينسبه الى الله افتراء إن أردتم أنه يعلمه القرآن بلفظه بالتلقين عليه و أن القرآن كلامه لا كلام الله فجوابه أن هذا الرجل لسانه أعجمى و هذا القرآن عربى مبین.

و إن أردتم أن الرجل يعلمه معانى القرآن-و اللفظ لا محاله للنبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم-و هو ينسبه الى الله افتراء عليه فالجواب عنه أن الذى يتضمنه القرآن معارف حقّه لا يرتاب ذو لبّ فيها و تضطرّ العقول الى قبولها قد هدى الله النبي إليها فهو مؤمن بآيات الله إذ لو لم يكن مؤمنا لم يهده الله و الله لا يهدى من لا يؤمن بآياته و إذ كان مؤمنا بآيات الله فهو لا يفترى على الله الكذب فإنه لا- يفترى عليه إلا من لا يؤمن بآياته،فليس هذا القرآن بمفترى،و لا مأخوذا من بشر و منسوبا الى الله سبحانه كذبا.

فقوله: «لِسَانَ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» جواب عن أول شقّي الشبهه و هو أن يكون القرآن بلفظه مأخوذا من بشر على نحو التلقين،و المعنى: أن لسان الرجل الذى يلحدون أى يميلون اليه و ينوونه بقولهم: «إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ» أعجمى أى غير فصيح بين و هذا القرآن المتلو عليكم لسان عربى مبین و كيف يتصوّر صدور بيان عربى بليغ من رجل أعجمى اللسان؟

و قوله: «إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛جواب عن ثانى شقّي الشبهه و هو أن يتعلم منه المعانى ثم ينسبها الى الله افتراء.

و المعنى: أن الذين لا يؤمنون بآيات الله و يكفرون بها لا يهديهم الله اليه و الى معارفه الحقه الظاهره و لهم عذاب أليم،و النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم مؤمن بآيات الله لأنه مهدي بهدايه الله،و إنما يفترى

الكذب و ينسبه الى الله الذين لا يؤمنون بآيات الله و أولئك هم الكاذبون المستمرون على الكذب، و أما مثل النبي صلى الله عليه و آله و سلم المؤمن بآيات الله فإنه لا يفترى الكذب و لا يكذب فالآيتان كنايةتان عن أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم مهدي بهدائه الله مؤمن بآياته و مثله لا يفترى و لا يكذب (١).

[سوره النحل (١٦): الآيات ١٠٦ الى ١١١]

اشاره

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ سَمِعَهُمْ وَ أَبْصَرَهُمْ وَ أَبْصَرَهُمْ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لَا جَزْمَ لَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَ تُؤْفَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)

ص: ٦٢٧

١-١). النحل ٩٠-١٠٥: بحث روائى حول الآيه «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسَانِ»؛ الحياه الطيبه.

قوله تعالى: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ الاطمئنان السكون والاستقرار، والشرح البسط، قال في المفردات: أصل الشرح بسط اللحم ونحوه، يقال:

شرحت اللحم وشرحته، ومنه شرح الصدر أى بسطه بنور إلهي وسكينته من جهة الله وروح منه، قال تعالى: رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ أَمْ مَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ وَشَرَحَ الْمَشْكَلَ مِنَ الْكَلَامِ بسطه وإظهار ما يخفى من معانيه. انتهى.

وقوله: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ شرط جوابه قوله: «فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ» و عطف عليه قوله: «وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» و ضمير الجمع في الجزاء عائد الى اسم الشرط «مَنْ» لكونه بحسب المعنى كلياً إذا أفراد.

وقوله: إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ استثناء من عموم الشرط والمراد بالإكراه الإجبار على كلمة الكفر والتظاهر به فإن القلب لا يقبل الإكراه والمراد أستثنى من أكره على الكفر بعد الإيمان فكفر في الظاهر وقلبه مطمئن بالإيمان.

وقوله: «وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا» أى بسط صدره للكفر فقبله قبول رضى ووعاه، والجمله استدراك من الاستثناء فيعود الى معنى المستثنى منه فإن المعنى ما أريد بقولى «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ» من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن أريد به من شرح بالكفر صدرا، و فى مجموع الاستثناء والاستدراك بيان كامل للشرط، وهذه هى النكته لاعتراض الاستثناء بين الشرط والجزاء وعدم تأخيره الى أن تتم الشرطيته.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ بيان لسبب حلول غضب الله بهم و ثبوت العذاب العظيم عليهم

و هو أنهم اختاروا الحياه الدنيا و هى الحياه الماديه التى لا غايه لها إلا التمتع الحيوانى و الاشتغال بمشتهيات النفس على الآخره التى هى حياه دائمه مؤبده فى جوار رب العالمين و هى غايه الحياه الإنسانيه.

و بعباره اخرى هؤلاء لم يريدوا إلا الدنيا و انقطعوا عن الآخره و كفروا بها و الله لا يهدى القوم الكافرين و إذ لم يهدهم الله ضلوا عن طريق السعاده و الجنه و الرضوان فوقعوا فى غضب من الله و عذاب عظيم.

قوله تعالى: **أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ سَمِعِهِمْ وَ أَبْصَارِهِمْ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** إشاره الى أن اختيار الحياه الدنيا على الآخره و الحرمان من هدايه الله سبحانه هو الوصف الذى يوصف به الذين طبع الله على قلوبهم و سمعهم و أبصارهم و الذين يسمون غافلين.

فإنهم باختيارهم الحياه الدنيا غايه لأنفسهم و حرمانهم من الاهتداء الى الاخرى انقطعوا عن الآخره و تعلقوا بالدنيا و جعلوها غايه لأنفسهم فوقف حسهم و عقلهم فيها دون أن يتعدياها الى ما وراءها و هو الآخره فليسوا يبصرون ما يعتبرون به و لا يسمعون عظه يتعظون بها و لا يعقلون حجه يهتدون بها الى الآخره.

قوله تعالى: **لَا جَزْمَ لَنَا فِيهِمْ** فى الآخره **هُمُ الْخَاسِرُونَ** لأنهم ضيعوا رأس مالهم فى الدنيا فبقوا لا زاد لهم يعيشون به فى اخراهم، و قد وقع فى نظير المقام من سوره هود:

لَا جَزْمَ لَنَا فِيهِمْ فى الآخره **هُمُ الْآخِسِرُونَ** (هود ٢٢)، و لعل وجه التشديد هناك أنه تعالى أضاف الى صفاتهم هناك أنهم صدوا عن سبيل الله فراجع.

قوله تعالى: **ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهِدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** الفتنة فى الأصل إدخال الذهب النار ليظهر جودته ثم استعمل فى مطلق البلاء و التعذيب، و قد كانت قريش و مشركوا مكه يفتنون

المؤمنين ليردوهم عن دينهم و يعذبونهم بأنواع العذاب حتى ربما كانوا يموتون تحت العذاب كما فتنوا عمارا و أباه و أمه فقتل أبواه و ارتد عمار ظاهرا ففتصى منهم بالتقيه، و فى ذلك نزلت الآيات السابقة كما سيأتى إن شاء الله فى البحث الروائى.

فقوله: **ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا وَعَدَّ جَمِيلًا لِلْمُهَاجِرِينَ مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَبَالَ مَا أُوْعِدُوا غَيْرِهِمْ بِالْخُسْرَانِ التَّامِ يَوْمَئِذٍ وَقَدْ قِيدَ ذَلِكَ بِالْجِهَادِ وَالصَّبْرِ بَعْدَ الْمُهَاجِرَةِ.**

و قوله: **«إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ»** بمنزله تلخيص صدر الكلام-لطوله-ليلحق به ذيله، و يفيد فائده التأكيد كقولنا: زيد فى الدار زيد فى الدار كذا و كذا، و يفيد أن لما ذكر من قيود الكلام دخلا فى الحكم فالله سبحانه لا يرضى عنهم إلا أن يهاجروا و لا عن هجرتهم إلا أن يجاهدوا بعدها و يصبروا.

قوله تعالى: **يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَ تُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ** إتيان النفس يوم القيامة كناية عن حضورها عند الملك الديان، كما قال: **فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (الصافات ١٢٧/)**، و الضمير فى قوله: **«عَنْ نَفْسِهَا»** للنفس و لا ضمير فى إضافه النفس الى ضمير النفس فإن النفس ربما يراد بها الشخص الإنسانى كقوله: **مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ (المائدة ٢٢/)**، و ربما يراد بها التأكيد و يتحدد معناها بما تقدمها من المؤكد سواء كان إنسانا أو غيره، كما يقال: الإنسان نفسه و الفرس نفسه و الحجر نفسه و السواد نفسه، و يقال: نفس الإنسان و نفس الفرس و نفس الحجر و نفس السواد، و قوله: **«عَنْ نَفْسِهَا»** المراد فيه بالمضاف المعنى الثانى و بالمضاف اليه المعنى الأول، و قد دفع التعبير بالضمير بشاعه تكرار اللفظ بالإضافه، و فى هذا المقدار كفايه عن الأبحاث الطويله التى أوردها المفسرون.

و قوله: **يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا الظرف متعلق بقوله فى الآيه**

السابقه: «لَغْفُورٌ رَحِيمٌ» و مجادله النفس عن نفسها دفاعها عن نفسها و قد نسيت كل شيء وراء نفسها على خلاف ما كانت عليه فى الدنيا من التعلق بكل شيء دون نفسها بنسيانها و ليس ذلك إلا لظهور حقيقه الأمر عليها و هى أن الإنسان لا سبيل له الى ما وراء نفسه، و ليس له فى الحقيقه إلا أن يشتغل بنفسه.

فاليوم تأتى النفس و تحضر للحساب و هى تجادل و تصر على الدفاع عن نفسها بما تقدر عليه من الأعدار.

و قوله: «و تُوْفَى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَ هُمْ لَا يُظَلِّمُونَ التَّوْفِيَةَ إِعْطَاءَ الْحَقِّ تَامًا مِنْ غَيْرِ تَنْقِيسٍ، وَ قَدْ عُلِقَ التَّوْفِيَةُ عَلَى نَفْسِ الْعَمَلِ إِذْ قِيلَ «مَا عَمِلْتَ» فَافِيدُ أَنَّ الَّذِي أُعْطِيَتْهُ نَفْسُ الْعَمَلِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْصَرِفَ فِيهِ بِتَغْيِيرٍ أَوْ تَعْوِيضٍ، وَ فِيهِ كِمَالُ الْعَدْلِ حَيْثُ لَمْ يُضْفَ إِلَى مَا اسْتَحَقَّتْهُ شَيْءٌ وَ لَا نَقْصٌ مِنْهُ وَ لِذَلِكَ عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ: «وَ هُمْ لَا يُظَلِّمُونَ» (١).

[سورة النحل (١٦): الآيات ١١٢ الى ١٢٨]

إشاره

وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمَنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَ هُمْ ظَالِمُونَ (١١٣) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَ أَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنْ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ مَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ أُضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥) وَ لَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَ هَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَدَّاعٌ قَلِيلٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ إِجْتِبَاءً وَ هِدَاةً إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَ آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنْ مَا جَعَلَ السَّبْتَ عَلَى الَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِيهِ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤) أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَ إِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَ اصْبِرْ وَ مَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨)

ص: ٦٣١

١- ١). النحل ١٠٦-١١١: بحث روائى فى امر رسول الله المسلمين بالهجرة؛ التقية؛ ايداء المشركين بالالا؛ اخذ المشركين عمار بن ياسر؛ تقية عمار بن ياسر.

وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَوْمًا كَانَتْ آمِنَهُ مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الرغد من العيش هو الواسع الطيب.

هذا مثل ضرب به الله تعالى فوصف فيه قومه آتاهما ما تحتاج اليه من نعم الحياه، و أتم ذلك كله بنبي بعثه اليهم يدعوهم الى ما فيه صلاح دنياهم و أخرهم فكفروا بأنعمه و كذبوا رسوله فبدل الله نعمته نقمه و عدبهم بما ظلموا بتكذيب رسوله، و فى المثل تحذير عن كفران نعمه الله بعد إذ بذلت و الكفر بآياته بعد إذ أنزل.

و فيه توطئه و تمهيد لما سيذكره من محلات الأكل و محرّماته و ينهى عن تشريع الحلال و الحرام بغير إذن الله كل ذلك بالاستفاده من سياق الآيات فإن كل سابقه منها تسوق النظر الى اللاحقه.

و قوله: فَكَفَرْتُ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ التعبير بأنعم الله و هو جمع قله للإشاره بها الى الأصناف المذكوره و هى ثلاثه: الأمن و الاطمئنان و إتيان الرزق، و الإذاقه استعاره للايصال اليسير فإذاقه الجوع و الخوف مشعر بأن الذى

يوصلهما قادر على تضعيف ذلك و تكثيره بما لا يقدر بقدر كيف لا؟ و هو الله الذى له القدره كلها.

ثم إضافه اللباس الى الجوع و الخوف و فيها دلالة على الشمول و الإحاطه كما يشمل اللباس البدن، و يحيط به، تشعر بأن هذا المقدار اليسير من الجوع و الخوف الذى أذاقهم شملهم كما يشمل اللباس بدن الإنسان و هو سبحانه قادر على أن يزيد على ذلك فهو المتناهى فى قهره و غلبته و هم المتناهون فى ذلتهم و هوانهم.

ثم ختم الآيه بقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ للدلاله على أنه سنه المجازاه فى الشكر و الكفر قائمه على ساق.

و المعنى: ضرب الله مثلا مثل قريه كان أهلها آمنين من كل شر و سوء يهددهم فى نفوسهم و أعراضهم و أموالهم ساكنين غير مضطرين يأتيتهم رزقهم طيبا و اسعا من كل مكان من غير أن يضطروا الى السفر و الاغتراب فكفر أهلها بهذه النعم الإلهيه و لم يشكروه سبحانه فأنالهم الله شيئا يسيرا من نعمته-بسلب هذه النعم-و هو الجوع و الخوف اللذان عماهم و شملاهم قبال ما استمروا عليه بكفران الأنعم جزاء لكفرانهم.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَ هُمْ ظَالِمُونَ و هذا هو النعمه المعنويه التى أضافها الى نعمه الماديه المذكوره، و كان فيها صلاح معاشهم و معادهم و تحذير لهم من الكفران بأنعم الله و شرح ما فيه من الشؤم و الشقاء لكنهم كذبوا رسولهم الذى هو منهم يعرفونه و يدرون أنه إنما يدعوهم لأمر إلهي و يهديهم الى سبيل الرشاد و سعاده الجد فظلموا ذلك فأخذهم العذاب بظلمهم.

و بهذا التقرير يظهر ما فى القيود المأخوذه فى الآيه من النكات.

قوله تعالى: فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا الى آخر الآيه، تفريع على ما تحصل من المثل نتيجة، و التقدير إذا كان الحال هذا الحال و كان فى كفران هذا الرزق الرغد

عذاب و في تكذيب الدعوه عذاب فكلوا مما رزقكم الله حال كونه حلالا طيبا أى لستم بممنوعين منه و أنتم تستطيونونه فكلوا منه و اشكروا نعمه الله إن كنتم إياه تعبدون.

قوله تعالى: إِنَّهَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ مَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ تقدم الكلام فى معنى الآيه فى تفسير سورة البقره الآيه ١٧٣ و سورة المائده الآيه ٣ و سورة الأنعام الآيه ١٤٥.

و الآيه بمعناها على اختلاف ما فى لفظها واقعه فى أربعة مواضع من القرآن: فى سورتي الأنعام و النحل و هما مكيتان من أوائل ما نزلت بمكه و أواخرها، و فى سورتي البقره و المائده و هما من أوائل ما نزلت بالمدينه و أواخرها، و هى تدلّ على حصر محرّمات الأكل فى الأربع المذكوره: الميته و الدم و لحم الخنزير و ما أهلّ لغير الله به كما نبه عليه بعضهم.

لكن بالرجوع الى السنّه يظهر أن هذه هى المحرّمات الأصلية التى عنى بها فى الكتاب و ما سوى هذه الأربع من المحرّمات مما حرّمه النبي صلّى الله عليه و آله و سلم بأمر من ربه و قد قال تعالى: مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (الحشر ٧)، و قد تقدم بعض الروايات الدالّه على هذا المعنى.

قوله تعالى: وَ لَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَ هَذَا حَرَامٌ لِيَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ الخ؛ «ما» فى قوله: «لِمَا تَصِفُ» مصدرية و الكذب مفعول «تَصِفُ» أى لا تقولوا هذا حلال و هذا حرام بسبب وصف ألسنتكم لغايه افتراء الكذب على الله.

ثم قال سبحانه فى مقام تعليل النهى: «إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ» ثم بيّن حرمانهم من الفلاح بقوله: «مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» .

قوله تعالى: وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ الخ؛

المراد بقوله: ﴿مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ - كما قيل - ما قصه تعالى على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم في سورة الأنعام - وقد نزلت قبل سورة النحل بلا إشكال - بقوله: وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرِ إِلَى آخِرِ آيَةِ؛ (الأنعام ١٤٦).

و الآية في مقام دفع الدخل و فيها عطف على مسأله النسخ المذكوره سابقا كأن قائلا يقول:

فإذا كانت محرّمات الأكل منحصره في الأربع المذكوره: الميتة و الدم و لحم الخنزير و ما أهل لغير الله به، و كان ما وراءها حلالا فما هذه الأشياء المحرّمه على بنى إسرائيل من قبل؟ هل هذا إلا ظلم بهم؟

فأجاب عنه بأنا حرّمنا عليهم ذلك و ما ظلمناهم في تحريمه و لكنهم كانوا يظلمون أنفسهم فنحرّم عليهم بعض الأشياء أى إنه كان محللا لهم ما ذونا فيه لكنهم ظلموا أنفسهم و عصوا ربهم فجزيناهم بتحريمه عقوبه كما قال سبحانه فى موضع آخر: فَبُظِّلِمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرْمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُنَّ الْآيَةُ؛ و لو أنهم بعد ذلك كله رجعوا الى ربهم و تابوا عن معاصيهم تاب الله عليهم و رفع الحظر عنهم و أذن لهم فيما منعم عنه إنه لغفور رحيم.

قوله تعالى: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ الْجَهَالَةَ وَ الْجَهْلَ وَاحِدٌ وَ هُوَ فِي الْأَصْلِ مَا يُقَابِلُ الْعِلْمَ لَكِنِ الْجَهَالَةُ كَثِيرًا مَا تَسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى عَدَمِ الْإِنْكَشَافِ التَّامِ لِلْوَاقِعِ وَ إِنْ لَمْ يَخْلُ الْمَحَلُّ عَنِ الْعِلْمِ مَا مَصْحُوحٌ لِلتَّكْلِيفِ كَحَالِ مَا يَقْتَرِفُ الْمُحْرَمَاتِ وَ هُوَ يَعْلَمُ بِحُرْمَتِهَا لَكِنِ الْأَهْوَاءُ النَّفْسَانِيَّةُ تَغْلِبُهُ وَ تَحْمِلُهُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَ لَا تَدْعُهُ يَتَفَكَّرُ فِي حَقِيقَةِ هَذِهِ الْمَخَالَفَةِ وَ الْمَعْصِيَةِ فَلَهُ عِلْمٌ بِمَا ارْتَكَبَ وَ لِذَلِكَ يُؤَاخِذُ وَيُعَاقِبُ عَلَى مَا فَعَلَ وَ هُوَ مَعَ ذَلِكَ جَاهِلٌ بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ وَ لَوْ تَبَصَّرَ تَمَامَ التَّبَصُّرِ لَمْ يَرْتَكِبْ.

و المراد بالجهالة فى الآية هذا المعنى إذ لو كان المراد هو الأول و كان ما ذكر من عمل السوء مجهولا من حيث حكمه أو من حيث موضوعه لم يكن العمل معصية حتى يحتاج الى التوبه

و قوله فى ذيل الآيه: «إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا» تلخيص لتفصيل قوله فى صدرها: «إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ» الخ؛ و فائدته حفظ فهم السامع عن التشوش و الضلال و إبراز العناية ببعديه المغفره و الرحمه بالنسبه الى التوبه نظير ما مرّ من قوله: «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» .

قوله تعالى: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الآيه؛ و ما يتلوها على اتصالها بما تقدم من حصر محرمات الأكل فى الأربع و تحليل ما وراءها، و هذه الآيه الى تمام أربع آيات بمنزله التفصيل لما تقدمها كأنه قيل: هذا حال مله موسى التى حرّمنا فيها على بنى إسرائيل بعض ما أحلّ لهم من الطيبات، و أما هذه المله التى أنزلناها اليك فإنما هى المله التى تحقق بها إبراهيم فاجتبه الله و هداه الى صراط مستقيم و أصلح بها دنياه و آخرته، و هى مله معتدله جاريه على الفطره تحلل الطيبات و تحرّم الخبائث يجلب العمل بها من الخير ما جلبه لإبراهيم عليه السلام منه.

فقوله: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قال فى المفردات: و قوله: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ» أى قائما مقام جماعه فى عباده الله نحو قولهم: فلان فى نفسه قبيله، انتهى؟ و هو قريب مما نقل عن ابن عباس، و قيل: معناه الإمام المقتدى به، و قيل: إنه كان أمه منحصره فى واحد مده من الزمان لم يكن على الأرض موحد يوحد الله غيره.

و قوله: قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ القنوت: الإطاعة و العباده أو دوامها، و الحنف: الميل من الطرفين الى حاق الوسط و هو الاعتدال.

قوله تعالى: شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتِبَاءً وَ هِدَاةً إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ الاجتباء من الجبايه و هو الجمع و اجتباء الله الإنسان هو إخلاصه لنفسه و جمعه من التفرق فى المذاهب المختلفه. و فى تعقيب قوله: «شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ» بقوله: «اجْتِبَاءً» الخ؛ مفصولا إشعار بالعليه

و ذلك يؤيد ما تقدم فى سورة الأعراف فى تفسير قوله: وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (الأعراف ١٧)، أن حقيقه الشكر هو الإخلاص فى العبوديه.

قوله تعالى: وَ آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ إِنَّا فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ الحسنه هى المعيشه الحسنه فقد كان عليه السلام ذا مال كثير و مروّه عظيمه.

و قد بسطنا الكلام فى معنى الاجتباء فى تفسير سورة يوسف عند الآيه ٦، و فى معنى الهدايه و الصراط المستقيم فى تفسير الفاتحه عند قوله: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (الآيه ٦)، و فى معنى قوله: وَ إِنَّا فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (البقره ١٣٠)، فراجع.

و فى توصيفه تعالى إبراهيم عليه السلام بما وصفه من الصفات إشاره الى أنها من مواهب هذا الدين الحنيف، فإن اتحل به الإنسان ساقه الى ما ساق اليه إبراهيم عليه السلام.

قوله تعالى: ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ تكرر اتّصافه بالحنف و نفى الشرك لمزيد العناية به.

قوله تعالى: إِذْ مَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ إِلَى آخِرِ الآيَةِ؛ قال فى المفردات: أصل السبت القطع و منه سبت السير قطعه و سبت شعره حلقه، و أنفه اصطلمه، و قيل: سمى يوم السبت لأن الله تعالى ابتداء بخلق السماوات و الأرض يوم الأحد فخلقها فى ستة أيام كما ذكره فقطع عمله يوم السبت فسمى بذلك.

و سبت فلان صار فى السبت، و قوله: «يَوْمَ سَبَّوْهُمْ شُرْعًا» قيل: يوم قطعهم للعمل «وَ يَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ» قيل: معناه لا يقطعون العمل و قيل: يوم لا يكونون فى السبت و كلاهما إشاره الى حاله واحده، و قوله: «إِذْ مَا جُعِلَ السَّبْتُ» أى ترك العمل فيه «وَ جَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا» أى قطعاً للعمل و ذلك إشاره الى ما قال فى صفه الليل: «لَتَسْكُنُوا فِيهِ» انتهى.

فالمراد بالسبت على ما ذكره نفس اليوم لكن معنى جعله جعل ترك العمل فيه و تشريعه، و يمكن أن يكون المراد به المعنى المصدرى دون اليوم المجعول فيه ذلك كما هو ظاهر قوله:

تَأْتِيهِمْ حِيَتَانُهُمْ يَوْمَ سَنِيَّتِهِمْ شُرْعًا وَ يَوْمَ لَا يَسْتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ (الأعراف ١٦٣).

و كيف كان فقد كان من طبع الكلام أن يقال: إنما جعل السبت للذين، حتى يفيد نوعا من الاختصاص و الملك و أن الله شرع لهم في كل أسبوع أن يقطعوا العمل يوما يفرغون فيه لعباده ربهم و هو يوم السبت كما جعل للمسلمين في كل اسبوع يوما يجتمعون فيه للعباده و الصلاه و هو يوم الجمعة.

فقوله: **إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ** بتعديه جعل بعلى دون اللام من قبيل قولهم: لى عليك دين و هذا عليك لا لك فتفيد معنى التكليف و التشديد و الابتلاء أى إنما جعل للتشديد عليهم و ابتلائهم و امتحانهم فقد كان هذا الجعل عليهم لا لهم كما انجر أمرهم فيه الى لعن طائفه منهم و مسخ آخرين و قد أشير الى ذلك فى سورة البقره الآيه ٦٥ و سورة النساء الآيه ٤٧.

و الأنسب على هذا أن يكون المراد بقوله: **«اخْتَلَفُوا فِيهِ»** أى فى السبت اختلافهم فيه بعد التشريع فإنهم تفرقوا فيه فرقا ممن قبله و ممن رده و ممن احتال للعمل فيه على ما اشير الى قصصهم فى سور البقره و النساء و الأعراف لا اختلافهم فيه قبل التشريع بأن يعرض عليهم أن يسبتوا فى كل اسبوع يوما للعباده ثم يجعل ذلك اليوم هو الجمعة فيختلفوا فيه فيجعل عليهم يوم السبت كما وقع فى بعض الروايات.

و المعنى إنما جعل يوم السبت أو قطع العمل للعباده يوما فى كل اسبوع تشديدا و ابتلاء و فتنه و كلفه على اليهود الذين اختلفوا فيه بعد تشريعه بين من قبله و من رده و من احتال فيه للعمل مع التظاهر بقبوله و إن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

و بالبناء على هذا يكون وزن الآيه وزان قوله السابق: **«وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا»** الخ؛ فى أنها فى معنى الجواب عن سؤال مقدر عطفًا على ما مر من حديث النسخ، و التقدير و أما جعل السبت لليهود فإنما جعل لا لهم بل عليهم لئبليهم الله و يفتنهم به و يشدد عليهم كما قد

تكرر نظائره فيهم لكونهم عاتين معتدين مستكبرين و بالجمله الآيه ناظره الى الاعتراض بتشريع بعض الأحكام غير الفطريه على اليهود و نسخه فى هذه الشريعه.

و إنما لم يضم الى قوله سابقا: «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا» الخ؛ لكون مسأله السبب مغايره لسنخ مسأله تحليل الطيبات و استثناء محرمات الأكل، و قد عرفت أن الكلام على اتصاله من قوله: «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا» الى قوله: «وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» سبع آيات تامه ثم اتصلت بها هذه الآيه و هى ثامتها الملحقه بها.

و من هنا يظهر الجواب عما اعترض به أن توسط جعل السبب بين حكايه أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ باتباع مله إبراهيم عليه السلام و بين أمره عليه السلام بالدعوه إليها و بعبارة اخرى وقوع قوله: «إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ» الخ؛ بين قوله: «ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» الخ؛ و قوله: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ» الخ؛ كالفصل بين الشجر و لحائه.

و محصل الجواب أن قوله: «ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ» الآيه؛ من تمام السياق السابق، و قوله: «إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ» الآيه؛ متصل بما تقدمه كما عرفت، و أما قوله: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ» الآيه؛ فهو استئناف و أمر بالدعوه الى سبيل الله بفنون الخطاب لا- الى مله إبراهيم حتى يتصل بالآيه السابقه نوع اتصال و إن كان سبيل الله هو مله إبراهيم بعينها لكن للفظ حكم و للمعنى بحسب المآل حكم آخر، فافهم.

قوله تعالى: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ الى آخر الآيه لا شك فى أنه يستفاد من الآيه أن هذه الثلاثه: الحكمه و الموعظه و المجادله من طرق التكليم و المفاوضه فقد أمر بالدعوه بأحد هذه الامور فهى من أنحاء الدعوه و طرقها و إن كان الجدل لا يعد دعوه بمعناها الأخص.

و قد فسرت الحكمه- كما فى المفردات- بإصاله الحق بالعلم و العقل، و الموعظه- كما عن الخليل- بأنه التذكير بالخير فيما يرق له القلب، و الجدل- كما فى المفردات- بالمفاوضه على

و التأمل فى هذه المعانى يعطى أن المراد بالحكمه-و الله أعلم-الحجه التى تنتج الحق الذى لا مريه فيه و لا وهن و لا إبهام و الموعظه هو البيان الذى تلىن به النفس و يرق له القلب،لما فيه من صلاح حال السامع من الغبر و العبر و جميل الثناء و محمود الأثر و نحو ذلك.

و الجدل هو الحجه التى تستعمل لقتل الخصم عما يصرّ عليه و ينازع فيه من غير أن يريد به ظهور الحق بالمؤاخذه عليه من طريق ما يتسلمه هو و الناس أو يتسلمه هو وحده فى قوله أو حجته.

فينطبق ما ذكره تعالى من الحكمه و الموعظه و الجدل بالترتيب على ما اصطلحوا عليه فى فن الميزان بالبرهان و الخطابه و الجدل.

غير أنه سبحانه قيد الموعظه بالحسنه و الجدل بالتى هى أحسن،ففيه دلالة على أن من الموعظه ما ليست بحسنه و من الجدل ما هو أحسن و ما ليس بأحسن و لا حسن،و الله تعالى يأمر من الموعظه بالموعظه الحسنه و من الجدل بأحسنه.

ثم إن فى قوله: «بِالْحِكْمَةِ وَ الْمُوعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ الْجِدَالِ الْبِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» أخذاً بالترتيب من حيث الأفراد فالحكمه مأذون فيها بجميع أفرادها،و الموعظه منقسمه الى حسنه و غير حسنه و المأذون فيها منهما هى الموعظه الحسنه،و المجادله منقسمه الى حسنه و غير حسنه ثم الحسنه الى التى هى أحسن و غيرها و المأذون فيها منها التى هى أحسن،و الآيه ساكتة عن توزيع هذه الطرق بحسب المدعّوين بالدعوه فالملاك فى استعمالها من حيث المورد حسن الأثر و حصول المطلوب و هو ظهور الحق.

قوله تعالى: «وَ إِنِ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ» قال فى المفردات:العقوبه و العقاب و المعاقبه تختص بالعذاب،انتهى.و الأصل فى معناه العقب و هو مؤخر الرّجل و عقيب الشىء و عاقبه الأمر ما يليه من ورائه أو آخره،

و التعقيب الإتيان بشيء عقيب شيء و معاقبتك غيرك أن تأتي بما يسوؤه عقيب إتيانه بما يسوؤك فينطبق على المجازاه و المكافأه بالعذاب.

فقوله: وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوِقِبْتُمْ بِهِ الْخَطَاب فِيهِ لِلْمُسْلِمِينَ -عَلَى مَا يَفِيدُهُ السِّيَاقُ- وَ لَازِمُهُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْمَعَاقِبَةِ مَجَازَاهُ الْمَشْرِكِينَ وَ الْكُفَّارِ، وَ بِقَوْلِهِ:

«عُوِقِبْتُمْ بِهِ» عِقَاب الْكُفَّارِ إِيَاهُمْ وَ مَجَازَاتِهِمْ لَهُمْ بِمَا آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَفَضُوا آلِهَتِهِمْ.

و المعنى: و إن أردتم مجازاه الكفار و عذابهم فجازوهم على ما فعلوا بكم بمثل ما عذبوكم به مجازاه لكم على إيمانكم و جهادكم في الله.

و قوله: وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ أَى صَبَرْتُمْ عَلَى مَرٍّ مَا عُوِقِبْتُمْ بِهِ وَ لَمْ تَعَاقِبُوا وَ لَمْ تَكَاْفِتُوا لَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ بِمَا أَنْكُمْ صَابِرُونَ لَمَا فِيهِ مِنْ إِثَارِ رِضَى اللَّهِ وَ ثَوَابِهِ فِيمَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْمُحَنِّهِ وَ الْمُصِيبِيهِ عَلَى رِضَى أَنْفُسِكُمْ بِالتَّشْفَى بِالْإِنْتِقَامِ فَيَكُونُ الْعَمَلُ خَالِصًا لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَ لَمَا فِي الصَّبْحِ وَ الْعَفْوِ مِنْ إِعْمَالِ الْفِتْوَى وَ لَهَا آثَارُهَا الْجَمِيلَةُ.

قوله تعالى: وَ اصْبِرْ وَ مَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ أَمْرٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بِالصَّبْرِ وَ بَشْرَى لَهُ أَنْ اللَّهُ قَوَاهُ عَلَى الصَّبْرِ عَلَى مَرٍّ مَا يَلْقَاهُ فِي سَبِيلِهِ فَإِنَّهُ تَعَالَى يَذْكُرُ أَنْ صَبْرَهُ إِنَّمَا هُوَ بِحَوْلٍ وَ قُوَّةٍ مِنْ رَبِّهِ ثُمَّ يَأْمُرُهُ بِالصَّبْرِ وَ لَازِمُ الْأَمْرِ قَدْرُهُ الْمَأْمُورِ عَلَى الْمَأْمُورِ بِهِ فَقَوْلُهُ: «وَ مَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ» إِشَارَةٌ إِلَى أَنْ اللَّهُ قَوَاكُ عَلَى مَا أَمَرَكَ بِهِ.

و قوله: وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ أَى عَلَى الْكَافِرِينَ لِكُفْرِهِمْ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ هَذَا الْمَعْنَى سَابِقًا فِي السُّورَةِ وَ غَيْرِهَا.

و قوله: «وَ لَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ» الظاهر أن المراد النهى عن التحرج من مكرهم في الحال أو على سبيل الاستمرار دون مجرد الاستقبال.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ أَى إِنْ التَّقْوَى وَ الْإِحْسَانَ كُلَّ مِنْهُمَا سَبَبٌ مُسْتَقِلٌّ فِي مَوْهَبَةِ النُّصْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَ إِبْطَالِ مَكْرِ أَعْدَاءِ الدِّينِ وَ دَفْعِ

كيدهم فالآيه تعليل لقوله: «وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ» و وعد بالنصر.

و هذه الآيات الثلاث أشبه مضمونا بالآيات المدنيه منها بالمكيه و قد وردت روايات من طرق الفريقين أنها نزلت في منصرف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ عن أحد و سيأتي في البحث الروائي و إن كان من الممكن توجيه اتصالها بما قبلها بوجه كما تصدى له بعضهم.

و مما يجب أن يتنبه له أن الآيه التي قبل الثلاثه أجمع لغرض السوره من هذه الثلاث، و أن لآيات السوره مع الإغماض عن قوله: «وَالَّذِينَ هَارَوا» الآيه، و قوله: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ» الى تمام بضع آيات، و قوله: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ» الى آخر السوره، سياقاً واحداً متصلاً.

ص: ٦٤٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ
لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)

السوره تتعرض لأمر توحيدده تعالى عن الشريك مطلقا و مع ذلك يغلب فيها جانب التسييح على جانب التحميد كما بدئت به
فقيل «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ» الآية؛ و كرر ذلك فيها مره بعد مره كقوله: «سُبْحَانَہُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُقُولُونَ» الآية ٤٣ و قوله: «قُلْ
سُبْحَانَ رَبِّي» الآية ٩٣، و قوله: «وَ يَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا» الآية ١٠٨ حتى ان الآية الخاتمه للسوره:

«قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَ كَبْرُهُ تَكْبِيرًا» تحمد الله على
تنزهه عن الشريك و الولي و اتخاذ الولد.

و السوره مكيه لشهاده مضامين آياتها بذلك، و عن بعضهم كما فى روح المعانى استثناء آيتين منها و هما «وَ إِنْ كَادُوا لَيَفْتُنُونَكَ» الآيه؛ و قوله: «وَ إِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزُونَكَ» الآيه؛ و عن بعضهم إلا اربع آيات و هى الآيتان المذكورتان و قوله: «وَ إِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ» الآيه، و قوله: «وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ» الآيه.

و عن الحسن أنها مكيه إلا خمس آيات منها و هى قوله: «وَ لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ» الآيه؛ «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ» «أَقِمِ الصَّلَاةَ» و آتِ ذَا الْقُرْبَى» الآيه.

و عن مقاتل: مكيه إلا خمس «وَ إِنْ كَادُوا لَيَفْتُنُونَكَ» الآيه «وَ إِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزُونَكَ» الآيه؛ «وَ إِذْ قُلْنَا لَكَ» الآيه؛ «وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي» الآيه؛ «إِنَّ الَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ» الآيه.

و عن قتاده و المعدل عن ابن عباس مكيه إلا ثمانى آيات و هى قوله: «وَ إِنْ كَادُوا لَيَفْتُنُونَكَ» الآيه؛ الى قوله: «وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ» الآيه.

و لا- دلالة فى مضامين الآيات على كونها مدنيه، و لا الأحكام المذكوره فيها مما يختص نزولا بالمدينه و قد نزلت نظائرها فى السور المكيه كالأنعام و الأعراف.

و قد افتتحت السوره فيما ترومه من التسييح بالإشاره الى معراج النبی صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم فذكر إسراؤه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى و هو بيت المقدس و الهيكل الذى بناه داود و سليمان عليهما السلام و قدسه الله لبنى إسرائيل.

ثم سبق الكلام بالمناسبه الى ما قدره الله لمجتمع بنى إسرائيل من الرقى و الانحطاط و العزه و الذله فكلما أطاعوا رفعهم الله و كلما عصوا خفضهم الله، و قد أنزل عليهم الكتاب و أمرهم بالتوحيد و نفى الشريك.

ثم عطف فيها الكلام على حال هذه الأمه و ما أنزل عليهم من الكتاب بما يشاكل حال بنى إسرائيل و أنهم إن أطاعوا أثيبوا و إن عصوا عوقبوا فإنما هى الأعمال يعامل الإنسان بما عمل منها، و على ذلك جرت السنه الإلهيه فى الامم الماضين.

ثم ذكرت فيها حقائق جمه من المعارف الراجعة الى المبدأ و المعاد و الشرائع العامه من الأوامر و النواهي و غير ذلك.

و من غرر الآيات فيها قوله تعالى: ﴿قُلْ اذْعُوا لِلّٰهِ اَوْ اذْعُوا الرَّحْمٰنَ اَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْمَسْجِدُ الْحُسَيْنِ﴾ الآية ١١٠ من السوره، و قوله: ﴿كُلًّا نَّمِدُّ هُوَآءٍ وَ هُوَآءٍ مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ الآية ٢٠ منها، و قوله: ﴿وَ اِنْ مِّنْ قَرْيَةٍ اِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ الآية ٥٨ منها و غير ذلك.

قوله تعالى: سُيَبِّحَانَ الَّذِي اَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا الى آخر الآية؛ سبحانه اسم مصدر للتسبيح بمعنى التنزيه و يستعمل مضافا و هو مفعول مطلق قائم مقام فعله فتقدير «سبحان الله» سبحت الله تسيحا أى نزهته عن كل ما لا يليق بساحه قدسه و كثيرا ما يستعمل للتعجب لكن سياق الآيات إنما يلائم التنزيه لكونه الغرض من البيان و إن أصر بعضهم على كونه للتعجب.

و الإسراء و السرى السير بالليل يقال: سرى و أسرى أى سار ليلا و سرى و أسرى به أى سار به ليلا، و السير يختص بالنهار أو يعمه و الليل.

و قوله: «لَيْلًا» مفعول فيه و يفيد من الفائدة أن هذا الإسراء تم له بالليل فكان الرواح و المجرى فى ليله واحده قبل أن يطلع فجرها.

و قوله: اِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى هو بيت المقدس بقربه قوله: الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ. و القصى البعد و قد سمي المسجد الاقصى لكونه أبعد مسجد بالنسبه الى مكان النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و من معه من المخاطبين و هو مكه التى فيها المسجد الحرام.

و قوله: لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا بيان غايه الإسراء و هى إراءه بعض الآيات الإلهيه -لمكان من- و فى السياق دلالة على عظمه هذه الآيات التى أراها الله سبحانه كما صرح به فى موضع آخر من كلامه يذكر فيه حديث المعراج بقوله: لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى

وقوله: إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ تعليل لإسرائئه به لإراءه آياته أى إنه سميع لأقوال عبادته بصير بأفعالهم وقد سمع من مقال عبده و رأى من حاله ما استدعى أن يكرمه هذا الإكرام فيسرى به ليلا و يريه من آياته الكبرى.

و فى الآيه التفات من الغيبه الى التكلم مع الغير فى قوله: «بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا» ثم رجوع الى الغيبه السابقه و الوجه فيه الإشاره الى أن الإسرائ و ما ترتب عليه من إراءه الآيات إنما صدر عن ساحه العظمه و الكبرياء و موطن العزه و الجبروت فعملت فيه السلطنه العظمى و تجلى الله له بآياته الكبرى، و لو قيل: ليريه من آياته أو غير ذلك لفاتت النكته.

و المعنى: لينزه تنزيها من أسرى بعظمته و كبريائه و بالغ قدرته و سلطانه بعبده محمد فى جوف ليله واحده من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى و هو بيت المقدس الذى بارك حوله ليريه بعظمته و كبريائه آياته الكبرى، و إنما فعل به ذلك لأنه سميع بصير علم بما سمع من مقاله و رأى من حاله أنه خليق أن يكرم هذه التكرمه.

بحث روائى:

فى تفسير القمى عن أبيه عن ابن أبى عمير عن هشام بن سالم عن أبى عبد الله عليه السلام قال:

جاء جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل بالبراق الى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فأخذ واحد باللجام و واحد بالركاب و سوى الآخر عليه ثيابه فتضععت البراق فلطمها جبرائيل ثم قال لها: اسكنى يا براق فما ركبك نبى قبله و لا يركبك بعده مثله.

قال: فرقت به و رفعته ارتفاعا ليس بالكثير و معه جبرئيل يريه الآيات من السماء و الأرض. قال: فيينا أنا فى مسيرى إذ نادى مناد عن يمينى: يا محمد فلم أجبه و لم التفت اليه ثم نادى مناد عن يسارى: يا محمد فلم أجبه و لم التفت اليه ثم استقبلتنى امرأه كاشفه عن

ذراعيها عليها من كل زينه الدنيا فقالت: يا محمد انظرنى حتى اكلمك فلم التفت إليها ثم سرت فسمعت صوتا أفرغني فجاوزت فنزل بي جبرئيل فقال: صل فصليت فقال: تدرى أين صلت؟ قلت: لا، فقال: صليت بطور سيناء حيث كلم الله موسى تكليما ثم ركبت فمضينا ما شاء الله ثم قال لى: انزل فصل فنزلت و صليت فقال لى: تدرى أين صليت؟ فقلت: لا، قال: صليت فى بيت لحم، و بيت لحم بناحية بيت المقدس حيث ولد عيسى بن مريم.

ثم ركبت فمضينا حتى انتهينا الى بيت المقدس فربطت البراق بالحلقه التى كانت الأنبياء تربط بها فدخلت المسجد و معى جبرئيل الى جنبى فوجدنا ابراهيم و موسى و عيسى فيمن شاء الله من أنبياء الله عليهم السلام فقد جمعوا إلى و أقيمت الصلاة و لا أشك إلا و جبرئيل سيتقدمنا فلما استووا أخذ جبرئيل بعضدى فقدمنى و أمتهم و لا فخر.

ثم أتانى الخازن بثلاثة أوانى إناء فيه لبن و إناء فيه ماء و إناء فيه خمر، و سمعت قائلا يقول:

إن أخذ الماء غرق و غرقت امته، و إن أخذ الخمر غوى و غويت امته و إن أخذ اللبن هدى و هديت امته قال: فأخذت اللبن و شربت منه فقال لى جبرئيل: هديت و هديت امتك.

ثم قال لى: ما ذا رأيت فى مسيرك؟ فقلت: نادانى مناد عن يمينى فقال: أو أجبته فقلت: لا- و لم ألتفت اليه فقال: داعى اليهود لو أجبته لتهودت امتك من بعدك ثم قال ما ذا رأيت؟ فقلت نادانى مناد عن يسارى فقال لى: أو أجبته؟ فقلت: لا و لم التفت اليه فقال: ذاك داعى النصارى و لو أجبته لتنصرت امتك من بعدك. ثم قال: ما ذا استقبلك؟ فقلت: لقيت امرأه كاشفه عن ذراعيها عليها من كل زينه الدنيا فقالت: يا محمد انظرنى حتى اكلمك. فقال:

أو كلمتها؟ فقلت: لم اكلمها و لم التفت إليها فقال: تلك الدنيا و لو كلمتها لاختارت امتك الدنيا على الآخرة.

ثم سمعت صوتا أفرغني، فقال لى جبرئيل: أسمع يا محمد؟ قلت: نعم قال: هذه صخره

قذفتها عن شفير جهنم منذ سبعين عاما فهذا حين استقرت قالوا: فما ضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى قبض.

قال: فصعد جبرئيل وصعدت معه الى السماء الدنيا وعليها ملك يقال له: اسماعيل وهو صاحب الخطفه التي قال الله عز وجل: «إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ» وتحت سبعون الف ملك تحت كل ملك سبعون الف ملك.

فقال: يا جبرئيل! من هذا الذى معك؟ فقال: محمد رسول الله قال: وقد بعث؟ قال: نعم ففتح الباب فسلمت عليه وسلم على واستغفرت له واستغفر لى وقال: مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح، وتلقنتى الملائكة حتى دخلت السماء الدنيا فما لقينى ملك إلا ضاحكا مستبشرا حتى لقينى ملك من الملائكة لم أر أعظم خلقا منه كريبه المنظر ظاهر الغضب فقال لى مثل ما قالوا من الدعاء إلا أنه لم يضحك ولم أر فيه من الاستبشار ما رأيت من ضحك الملائكة فقلت:

من هذا يا جبرئيل فإنى قد فرغت منه؟ فقال: يجوز أن يفزع منه فكلنا نفزع منه إن هذا مالك خازن النار لم يضحك قط، ولم يزل منذ أن ولاه الله جهنم يزداد كل يوم غضبا وغيظا على أعداء الله وأهل معصيته فينتقم الله به منهم، ولو ضحك الى أحد قبلك أو كان ضاحكا الى أحد بعدك لضحك اليك فسلمت عليه فرد السلام على وبشرنى بالجنه.

فقلت لجبرئيل وجبرئيل بالمكان الذى وصفه الله «مُطَاعٌ تَمَّ أَمِينٌ»: أ لا تأمره أن يرينى النار؟ فقال له جبرئيل: يا مالك أرمحمدا النار فكشف عنها غطاءها وفتح بابا منها فخرج منها لهب ساطع فى السماء وفارت وارتفعت حتى ظننت ليتهاولنى مما رأيت فقلت: يا جبرئيل اقل له فليرد عليها غطاءها فأمره فقال لها: ارجعى فرجعت الى مكانها الذى خرجت منه.

ثم مضيت فرأيت رجلا آدما جسيما فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا أبوك آدم فإذا هو يعرض عليه ذريته فيقول: روح طيبه وريح طيبه من جسد طيب ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

سوره المطففين على رأس سبع عشره آيه «كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيِّنَ وَمَا أَذْرَاكَ لِمَا عَلَيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ» الى آخرها؛قال:فسلمت على أبى آدم و سلم على و استغفرت له و استغفر لى،وقال:مرحبا بالابن الصالح و النبى الصالح البعوث فى الزمن الصالح.

قال:ثم مررت بملك من الملائكه جالس على مجلس و اذا جميع الدنيا بين ركبتيه و إذا بيده لوح من نور ينظر فيه مكتوب فيه كتاب ينظر فيه لا يتلفت يمينا و لا شمالا،مقبلا عليه كهيهه الحزين فقلت:من هذا يا جبرئيل؟قال:هذا ملك الموت دائب فى قبض الأرواح فقلت:يا جبرئيل أدنى منه حتى اكلمه فأدنانى منه فسلمت عليه،و قال له جبرئيل:هذا محمد نبى الرحمه الذى أرسله الله الى العباد فرحب بى و حيانى بالسلام و قال:أبشر يا محمد فإنى أرى الخير كله فى امتك فقلت:الحمد لله المنان ذى النعم على عباده ذلك من فضل ربه و رحمته على فقال جبرئيل:هو أشد الملائكه عملا فقلت:أكل من مات أو هو ميت فيما بعد هذا تقبض روحه؟فقال:نعم.قلت:و تراهم حيث كانوا و تشهدهم بنفسك؟فقال:نعم.فقال ملك الموت:ما الدنيا كلها عندى فيما سخره الله لى و مكنتى عليها إلا كالدهرم فى كف الرجل يقلبه كيف يشاء،و ما من دار إلا و أنا أتصفحه كل يوم خمس مرات،و أقول اذا بكى أهل الميت على ميتهم:لا تبكوا عليه فإن لى فيكم عوده و عوده حتى لا يبقى منكم أحد فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم:كفى بالموت طامه يا جبرئيل فقال جبرئيل:إن ما بعد الموت أطم و أطم من الموت.

قال:ثم مضيت فإذا أنا بقوم بين أيديهم موائد من لحم طيب و لحم خبيث يأكلون اللحم الخبيث و يدعون الطيب فقلت:من هؤلاء يا جبرئيل؟فقال:هؤلاء الذين يأكلون الحرام و يدعون الحلال و هم من امتك يا محمد.

فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم:ثم رأيت ملكا من الملائكه جعل الله أمره عجيبا نصف جسده

الناس و النصف الآخر تلج فلا النار تذيب الثلج و لا الثلج تطفى النار و هو ينادى بصوت رفيع و يقول: سبحان الذى كف حر هذه النار فلا تذيب الثلج و كف برد هذا الثلج فلا يطفى حر هذه النار اللهم يا مؤلف بين الثلج و النار ألف بين قلوب عبادك المؤمنين فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا ملك و كله الله بأكناف السماء و اطراف الأرضين و هو انصح ملائكة الله لأهل الأرض من عباده المؤمنين يدعو لهم بما تسمع منذ خلق.

و رأيت ملكين يناديان فى السماء احدهما يقول: اللهم اعط كل منفق خلفا و الآخر يقول:

اللهم اعط كل ممسك تلفا.

ثم مضيت فإذا أنا بأقوام لهم مشافر كمشافر الإبل يقرض اللحم من جنوبهم و يلقى فى أفواههم فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ فقال: هؤلاء الهمازون اللمازون.

ثم مضيت فإذا أنا بأقوام ترسخ رءوسهم بالصخر فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ فقال:

هؤلاء الذين ينامون عن صلاة العشاء.

ثم مضيت فإذا أنا بأقوام تقذف النار فى أفواههم و تخرج من ادبارهم فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا و سيصلون سعيرا.

ثم مضيت فإذا أنا بأقوام يريد احدهم ان يقوم فلا يدر من عظم بطنه فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس. و إذا هم بسبيل آل فرعون يعرضون على الناس غدوا و عشيا يقولون ربنا متى تقوم الساعة؟.

قال: ثم مضيت فإذا أنا بنسوان معلقات بثديهن فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ فقال:

هؤلاء اللواتى يورثن أموال أزواجهن أولاد غيرهم. ثم قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: اشتد غضب الله على امرأه أدخلت على قوم فى نسبهم من ليس منهم فاطلع على عوراتهم و أكل خزائنهم.

ثم قال: مررنا بملائكته من ملائكة الله عزّ وجل خلقهم الله كيف شاء و وضع وجوههم كيف شاء، ليس شىء من أطباق أجسادهم إلّا- و هو يسبح الله و يحمده من كل ناحيه باصوات مختلفه اصوات مرتفعه بالتحميد و البكاء من خشيه الله فسألت جبرئيل عنهم فقال: كما ترى خلقوا إن الملك منهم الى جنب صاحبه ما كلمهم كلمه قط و لا رفعوا رءوسهم الى ما فوقها و لا خفضوها الى ما تحتها خوفا من الله و خشوعا فسلمت عليهم فردوا على ايماء برءوسهم لا ينظرون إلى من الخشوع فقال لهم جبرئيل: هذا محمد نبي الرحمة أرسله الله الى العباد رسولا و نبيا. و هو خاتم النبيين و سيدهم أ فلا تكلمون؟ قال: فلما سمعوا ذلك من جبرئيل أقبلوا على بالسلام و أكرموني و بشروني بالخير لى و لامتى.

قال: ثم صعدنا الى السماء الثانيه فاذا فيها رجلان متشابهان فقلت: من هذان يا جبرئيل؟ فقال لى: ابنا الخاله يحيى و عيسى عليهما السلام فسلمت عليهما و سلما على و استغفرت لهما و استغفرا لى و قالا: مرحبا بالأخ الصالح و النبي الصالح و إذا فيها من الملائكه و عليهم الخشوع قد وضع الله وجوههم كيف شاء ليس منهم ملك الا يسبح الله بحمده بأصوات مختلفه.

ثم صعدنا الى السماء الثالثه فاذا فيها رجل فضل حسنه على سائر الخلق كفضل القمر ليله البدر على سائر النجوم فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا أخوك يوسف فسلمت عليه و سلم على و استغفرت له و استغفر لى، و قال: مرحبا بالنبي الصالح و الأخ الصالح و المبعوث فى الزمن الصالح، و إذا فيها ملائكه عليهم من الخشوع مثل ما وصفت فى السماء الاولى و الثانيه، و قال لهم جبرئيل فى أمرى ما قال للآخرين و صنعوا فى مثل ما صنع الآخرون.

ثم صعدنا الى السماء الرابعه و إذا فيها رجل فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا إدريس رفعه الله مكانا عليا فسلمت عليه و سلم على و استغفرت له و استغفر لى، و إذا فيها من الملائكه الخشوع مثل ما فى السموات التى عبرناها فبشرونى بالخير لى و لامتى، ثم رأيت ملكا جالسا على سرير تحت يديه سبعون الف ملك تحت كل ملك سبعون الف ملك فوقه فى نفس رسول

اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ هُوَ فَصَاحَ بِهِ جِبْرِئِيلُ فَقَالَ: قُمْ فَهُوَ قَائِمٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

ثمَّ صَعَدْنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَإِذَا فِيهَا رَجُلٌ كَهَلٍ عَظِيمِ الْعَيْنِ لَمْ أَرْ كَهَلًا - أَعْظَمَ مِنْهُ حَوْلُهُ ثَلَاثَةٌ مِنْ أُمَّتِهِ فَأَعْجَبَنِي كَثْرَتُهُمْ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جِبْرِئِيلُ؟ فَقَالَ: هَذَا الْمُحِبُّ فِي قَوْمِهِ هَارُونَ بْنُ عِمْرَانَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيٌّ وَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ وَاسْتَغْفَرَ لِي وَإِذَا فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْخَشُوعِ مِثْلَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ.

ثمَّ صَعَدْنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ وَإِذَا فِيهَا رَجُلٌ آدَمٌ طَوِيلٌ كَأَنَّهُ مِنْ شَنُوهٍ وَ لَوْ أَنَّ لَهُ قَمِيصِينَ لَنَفَذَ شَعْرَهُ فِيهِمَا وَ سَمِعْتَهُ يَقُولُ: يَزْعَمُ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنِّي أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى اللَّهِ وَ هَذَا رَجُلٌ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْهُ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جِبْرِئِيلُ؟ فَقَالَ: هَذَا أَخُوكَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيٌّ وَ اسْتَغْفَرْتُ لَهُ وَ اسْتَغْفَرَ لِي، وَ إِذَا فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْخَشُوعِ مِثْلَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ.

قَالَ: ثُمَّ صَعَدْنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَمَا مَرَرْتُ بِمَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ احْتَجِمْ وَ امْرَأَتُكَ بِالْحِجَامَةِ، وَ إِذَا فِيهَا رَجُلٌ أَشْمَطُ الرَّأْسِ وَ اللَّحْيَةِ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ فَقُلْتُ: يَا جِبْرِئِيلُ مَنْ هَذَا الَّذِي فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ عَلَى بَابِ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ فِي جَوَارِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَبُوكَ إِبْرَاهِيمٌ وَ هَذَا مَحَلُّكَ وَ مَحَلٌّ مِنْ اتَّقَى مِنْ أُمَّتِكَ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيٌّ وَ قَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَ الْبَنِ الصَّالِحِ وَ الْمَبْعُوثِ فِي الزَّمَنِ الصَّالِحِ وَ إِذَا فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْخَشُوعِ مِثْلَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ فَبَشَّرُونِي بِالْخَيْرِ لِي وَ لَأُمَّتِي.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: وَرَأَيْتُ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بَحَارًا مِنْ نُورٍ تَتَلَأَلُ تَلَأُلًا يَخْطَفُ بِالْأَبْصَارِ، وَ فِيهَا بَحَارٌ مِنْ ظِلْمَةٍ وَ بَحَارٌ مِنْ ثَلْجٍ تَرَعْدُ فَكَلِمًا فَزَعَتْ وَرَأَيْتُ هَوْلًا سَأَلْتُ جِبْرِئِيلَ فَقَالَ: ابْشُرْ يَا مُحَمَّدُ وَ اشْكُرْ كَرَامَةَ رَبِّكَ وَ اشْكُرْ اللَّهَ بِمَا صَنَعَ إِلَيْكَ قَالَ: فَثَبَّتَنِي اللَّهُ بِقُوَّتِهِ وَ عَوْنِهِ حَتَّى كَثُرَ قَوْلِي لِجِبْرِئِيلَ وَ تَعَجَّبِي.

فَقَالَ جِبْرِئِيلُ: يَا مُحَمَّدُ تَعْظِمُ مَا تَرَى؟ إِنَّمَا هَذَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ رَبِّكَ فَكَيْفَ بِالْخَالِقِ الَّذِي

خلق ما ترى و ما لا ترى أعظم من هذا من خلق ربك إن بين الله و بين خلقه سبعين ألف حجاب و أقرب الخلق الى الله أنا و إسرافيل و بيننا و بينه أربعة حجب حجاب من نور و حجاب من الظلمه و حجاب من الغمامه و حجاب من الماء.

قال: و رأيت من العجائب التى خلق الله و سخر على ما أراده ديكا رجلاه فى تخوم الأرضين السابعة و رأسه عند العرش و هو ملك من ملائكة الله تعالى خلقه الله كما أراد رجلاه فى تخوم الأرضين السابعة ثم أقبل مصعدا حتى خرج فى الهواء الى السماء السابعة و انتهى فيها مصعدا حتى انتهى قرنه الى قرب العرش و هو يقول: سبحان ربي حيثما كنت لا تدري أين ربك من عظم شأنه، و له جناحان فى منكبها إذا نشرهما جاوزا المشرق و المغرب فاذا كان فى السحر نشر جناحيه و خفق بهما و صرخ بالتسبيح يقول: سبحان الله الملك القدوس، سبحان الله الكبير المتعال لا إله إلا الله الحى القيوم و إذا قال ذلك سبحت ديوك الأرض كلها و خفقت باجنحتها و أخذت بالصراخ فاذا سكت ذلك الديك فى السماء سكت ديوك الأرض كلها، و لذلك الديك زغب أخضر و ريش أبيض كاشد بياض ما رأيت قط، و له زغب أخضر أيضا تحت ريشه الابيض كاشد خضره ما رأيتها قط.

قال: ثم مضيت مع جبرئيل فدخلت البيت المعمور فصليت فيه ركعتين و معى اناس من اصحابى عليهم ثياب جدد و آخرين عليهم خلقان فدخل أصحاب الجدد و جلس أصحاب الخلقان.

ثم خرجت فانقاد لى نهران نهر يسمى الكوثر و نهر يسمى الرحمه فشربت من الكوثر و اغتسلت من الرحمه ثم انقادا لى جميعا حتى دخلت الجنة و إذا على حافتيها بيوتى و بيوت أهلى و إذا ترابها كالمسك، و اذا جاريه تنغمس فى أنهار الجنة فقلت: لمن أنت يا جاريه؟ فقالت: لزيد بن حارثه فبشرته بها حين أصبحت، و اذا بطيرها كالبخت، و اذا رمانها مثل الدلى العظام، و اذا شجره لو ارسل طائر فى اصلها ما دارها سبعمائه سنه، و ليس فى الجنة منزل

الا وفيه غصن منها فقلت: ما هذه يا جبرئيل؟ فقال: هذه شجرة طوبى قال الله: «طوبى لهما و حُسن مآبٍ» .

قال رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم: فلما دخلت الجنة رجعت الى نفسى فسألت جبرئيل عن تلك البحار و هولها و أعاجيبها فقال: هى سرادقات الحجب التى احتجب الله تبارك و تعالى بها و لو لا تلك الحجب لتهتك نور العرش كل شىء فيه.

و انتهيت الى صدره المنتهى فاذا الورقة منها تظل امه من الاعمم فكنت منها كما قال الله تعالى: «قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» فنادانى «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ» فقلت أنا مجيبا عنى و عن امتى: «وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رَسُولِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رَسُولِهِ وَ قَالُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ» فقال الله: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ» فقلت: «رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا» فقال الله: لا أوأخذك، فقلت «رَبَّنَا وَ لَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا» فقال الله: احملك فقلت: «رَبَّنَا وَ لَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَ اغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» فقال الله تبارك و تعالى: قد اعطيتك ذلك لك و لامتك، فقال الصادق عليه السلام: ما وفد الى الله تعالى احد اكرم من رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم حين سأل لامته هذه الخصال.

فقال رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم: يا رب أعطيت أنبياءك فضائل فاعطنى فقال الله: قد أعطيتك فيما اعطيتك كلمتين من تحت عرشى: لا حول و لا قوة الا بالله، و لا منجى منك الا اليك.

قال: و علمتنى الملائكة قولا ا قوله اذا اصبحت و أمسيت: اللهم ان ظلمى اصبح مستجيرا بعفوك، و ذنبى اصبح مستجيرا بمغفرتك و ذلى اصبح مستجيرا بعزتك، و فقرى اصبح مستجيرا بغناك و وجهى الفانى اصبح مستجيرا بوجهك الباقي الذى لا يفنى، و اقول ذلك اذا امسيت.

ثم سمعت الأذان فإذا ملك يؤذن لم ير في السماء قبل تلك الليله فقال:الله أكبر الله أكبر فقال الله:صدق عبدى أنا أكبر من كل شىء فقال:«أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله» فقال الله:صدق عبدى أنا الله لا إله إلا أنا و لا إله غيرى فقال:«أشهد أن محمدا رسول الله أشهد أن محمدا رسول الله»فقال الله:صدق عبدى إن محمدا عبدى و رسولى انا بعثته و انتجبتة فقال:«حى على الصلاه حى على الصلاه»فقال:صدق عبدى دعا الى فريضتى فمن مشى إليها راغبا فيها محتسبا كانت له كفاره لما مضى من ذنوبه فقال:«حى على الفلاح حى على الفلاح»فقال الله:هى الصلاح و النجاح و الفلاح.ثم أمت الملائكه فى السماء كما أمت الأنبياء فى بيت المقدس.

قال:ثم غشيتنى ضبابه فخررت ساجدا فنادانى ربى أنى قد فرضت على كل نبى كان قبلك خمسين صلاه و فرضتها عليك و على امتك فقم بها انت فى امتك قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم:

فانحدرت حتى مررت على ابراهيم فلم يسألنى عن شىء حتى انتهيت الى موسى فقال:ما صنعت يا محمد؟فقلت:قال ربى:فرضت على كل نبى كان قبلك خمسين صلاه و فرضتها عليك و على امتك.فقال موسى:يا محمد ان امتك آخر الأمم و أضعفها و إن ربك لا يزيده شىء و إن امتك لا تستطيع أن تقوم بها فارجع الى ربك فأسأله التخفيف لامتك.

فرجعت الى ربى حتى انتهيت الى صدره المنتهى فخررت ساجدا ثم قلت:فرضت على و على امتى خمسين صلاه و لا أطيق ذلك و لا- امتى فخفف عنى فوضع عنى عشرا فرجعت الى موسى فأخبرته فقال:ارجع لا- تطيق فرجعت الى ربى فوضع عنى عشرا فرجعت الى موسى فأخبرته فقال:ارجع و فى كل رجعه أرجع اليه آخر ساجدا حتى رجع الى عشر صلوات فرجعت الى موسى و أخبرته فقال:لا تطيق فرجعت الى ربى فوضع عنى خمسا فرجعت الى موسى و أخبرته فقال:لا تطيق فقلت:قد استحييت من ربى و لكن اصبر عليها فنادانى مناد:

كما صبرت عليها فهذه الخمس بخمسين كل صلاه بعشر،و من هم من امتك بحسنه يعملها

فعملها كتبت له عشرا و إن لم يعمل كتبت له واحده، و من هم من امتك بسيئه فعلها كتبت عليه واحده و إن لم يعملها لم أكتب عليه.

فقال الصادق عليه السّلام: جزی الله موسى عن هذه الامه خيرا فهذا تفسير قول الله: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» .

اقول: وقد ورد ما يقرب مما قصته هذه الروايه في روايات كثيره جدا من طرق الشيعة و أهل السنه، و قوله في الروايه: «رجلا آدم» يقال: رجل آدم أى أسمر اللون، و الطامه هى الأمر الشديد الذى يغلب ما سواه، و لذلك سميت القيامه بالطامه، و الأكتاف جمع كتف و المراد الأطراف و النواحي، و قوله: «فوقع فى نفس رسول الله أنه هو» أى أنه الملك الذى يدبر أمر العالم و ينتهى اليه كل أمر.

و قوله: شنوه بالشين و النون و الواو و ربما يهمز قبيله كانوا معروفين بطول القامه، و قوله:

«أشمط الرأس و اللحيه» الشمط بياض الشعر يخالطه سواد، و الزغب أول ما يبدو من الشعر و الريض و صغارهما، و البخت الإبل الخراسانى و الدلى بضم الدال و كسر اللام و تشديد الياء جمع دلو على فعول، و الصبابه بفتح الصاد لمهمله و الباء الموحده الشوق و الهوى الرقيق و بالمعجمه مضمومه الغيم الرقيق.

و فى أمالى الصدوق عن أبيه عن على عن أبيه عن ابن أبى عمير عن أبان بن عثمان عن أبى عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السّلام قال: لَمَّا أُسْرَى بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم الى بيت المقدس حمله جبرئيل على البراق فأتيا بيت المقدس و عرض عليه محاريب الأنبياء و صَلَّى بها و ردّه فمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم فى رجوعه بعير لقريش و اذا لهم ماء فى آنيه و قد أضلّوا بعيرا لهم و كانوا يطلبونه فشرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم من ذلك الماء و أهرق باقيه.

فلَمَّا أصبح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم قال لقريش: إِنَّ اللَّهَ جَلَّ جلاله قد اسرى بى الى بيت المقدس

و أرانى آثار الأنبياء و منازلهم، و إنى مررت بعير لقريش فى موضع كذا و كذا و قد أضلوا بعيرا لهم فشربت من مائهم و أهرقت باقى ذلك فقال أبو جهل: قد أمكنتكم الفرصه منه فاسألوه كم الأساطين فيها و القناديل؟ فقال: يا محمد إن هاهنا من قد دخل بيت المقدس فصف لنا كم أساطينه و قناديله و محاريبه؟ فجاء جبرئيل فعلق صورته بيت المقدس تجاه وجهه فجعل يخبرهم بما يسألونه عنه فلما أخبرهم، قالوا: حتى يجىء العير و نسألهم عما قلت، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: تصديق ذلك أن العير يطلع عليكم مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق.

فلما كان من الغد أقبلوا ينظرون الى العقبه و يقولون هذه الشمس تطلع الساعه فينما هم كذلك إذ طلعت عليهم العير حين طلع القرص يقدمها جمل أورق فاخبروهم عما قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقالوا: لقد كان هذا: ضل جمل لنا فى موضع كذا و كذا، و وضعنا ماء فأصبحنا و قد أهريق الماء فلم يزدهم ذلك إلا عتوا.

أقول: و فى معناها روايات اخرى من طريق الفريقين.

و فيه بإسناده عن عبد الله بن عباس قال: إن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لما أسرى به الى السماء انتهى به جبرئيل الى نهر يقال له النور و هو قوله عزّ و جل: «جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَ النُّورَ» فلما انتهى به الى ذلك قال له جبرئيل: يا محمد اعبر على بركه الله فقد نور الله لك بصرك و مر لك أمامك فإن هذا نهر لم يعبره أحد لا ملك مقرب و لا نبي مرسل غير أن لى فى يوم اغتماسه فيه ثم أخرج منه فأنفض أجنحتى فليس من قطره تقطر من أجنحتى إلا خلق الله تبارك و تعالى منها ملكا مقربا له عشرون ألف وجه و أربعون ألف لسان كل لسان يلفظ بلغه لا يفقهها اللسان الآخر.

فعبر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم حتى انتهى الى الحجب و الحجب خمس مائه حجاب من الحجاب الى الحجاب مسيره خمسمائه عام ثم قال: تقدم يا محمد فقال له: يا جبرئيل و لم لا تكون معنى؟ قال: ليس لى أن أجوز هذا المكان فتقدم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ما شاء الله أن يتقدم حتى سمع ما قال الرب تبارك و تعالى: أنا المحمود و أنت محمد شققت اسمك من اسمى فمن وصلك وصلته و من

قطعك بتكته انزل الى عبادى فأخيرهم بكرامتى إياك و أنى لم أبعث نبيا إلا جعلت له وزيرا و إنك رسولى و إن عليا وزيرك.

و فى المناقب عن ابن عباس فى خبر: و سمع يعنى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم صوتا «آمنا برب العالمين» قال يعنى جبرئيل: هؤلاء سحره فرعون، و سمع لبيك اللهم لبيك قال: هؤلاء الحجاج، و سمع التكبير قال: هؤلاء الغزاه، و سمع التسييح قال: هؤلاء الأنبياء.

فلما بلغ الى صدره المنتهى و انتهى الى الحجب، قال جبرئيل: تقدم يا رسول الله ليس لى أن أجوز هذا المكان و لو دنوت أنمله لاحتقرت.

و فى الاحتجاج عن ابن عباس قال: قال النبى صلى الله عليه و آله و سلم فيما احتج على اليهود: حملت على جناح جبرئيل حتى انتهيت الى السماء السابعة فجاوزت صدره المنتهى عندها جنه المأوى حتى تعلقت بساق العرش فنوديت من ساق العرش: إني أنا الله لا إله إلا أنا السلام للمؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الرؤوف الرحيم فرأيته بقلبي و ما رأيته بعيني. الخبر.

و فى الكافى بإسناده عن أبى الربيع قال: حججنا مع أبى جعفر عليه السلام فى السنه التى كان حج فيها هشام بن عبد الملك و كان معه نافع مولى عمر بن الخطاب فنظر نافع الى أبى جعفر عليه السلام فى ركن البيت و قد اجتمع اليه الناس فقال نافع: يا أمير المؤمنين من هذا الذى قد تداك عليه الناس؟ فقال: هذا نبى أهل الكوفه هذا محمد بن على فقال: اشهد لآتينه فلا سألنه من مسائل لا يجيبني فيها إلا نبى أو وصى أو ابن نبى. قال: فاذهب اليه و أسأله لعلك تخجله.

فجاء نافع حتى اتكأ على الناس ثم أشرف على أبى جعفر عليه السلام و قال: يا محمد ابن على إني قرأت التوراه و الإنجيل و الزبور و الفرقان و قد عرفت حلالها و حرامها، و قد جئت أسألك عن مسائل لا يجيب فيها إلا نبى أو وصى أو ابن نبى. قال: فرفع أبو جعفر عليه السلام رأسه و قال: سل عما بدا لك.

فقال: أخبرنى كم بين عيسى و بين محمد من سنه؟ قال: أخبرك بقولى أو بقولك قال:

أخبرني بالقولين جميعا قال: أما في قولي فخمسمائه سنه، وأما في قولك فستمائه سنه، قال:

فأخبرني عن قول الله عزّ وجل: وَ سَيَّلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَ جَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ من الذى سأله محمد صلى الله عليه وآله وسلم و كان بينه و بين عيسى عليه السلام خمسمائه سنه؟.

قال: فتلا أبو جعفر عليه السلام هذه الآية: سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا فكان من الآيات التي أراها الله تبارك و تعالى محمدا صلى الله عليه وآله وسلم حيث أسرى به الى البيت المقدس أن حشر الله الأولين و الآخرين من النبيين و المرسلين ثم أمر جبرئيل فأذن شفعا و أقام شفعا، و قام فى أذانه حتى على خير العمل ثم تقدم محمد صلى الله عليه وآله وسلم فصلى بالقوم.

فلما انصرف قال لهم: على ما تشهدون؟ ما كنتم تعبدون؟ قالوا: نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و أنك رسول الله اخذ على ذلك عهدنا و موثيقنا. فقال: نافع: صدقت يا أبا جعفر.

و فى العليل باسناده عن ثابت بن دينار قال: سألت زين العابدين على بن الحسين عليه السلام عن الله جل جلاله هل يوصف بمكان؟ فقال: تعالى الله عن ذلك. قلت: فلم أسرى بنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم الى السماء؟ قال: ليريه ملكوت السماوات و ما فيها من عجائب صنعه و بدائع خلقه.

قلت: فقول الله عزّ وجل: ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى قال: ذاك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دنا من حجب النور فرأى ملكوت السماوات ثم تدلى فنظر من تحت الى ملكوت الأرض حتى ظن أنه فى القرب من الأرض كقاب قوسين أو أدنى.

و فى تفسير القمى باسناده عن إسماعيل الجعفى قال: كنت فى المسجد الحرام قاعدا و أبو جعفر عليه السلام فى ناحيه فرفع رأسه فنظر الى السماء مره و الى الكعبه مره ثم قال: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى» و كرر ذلك ثلاث مرات ثم

التفت إلى فقال: أى شىء يقولون أهل العراق فى هذه الآيه يا عراقى؟ قلت: يقولون اسرى به من المسجد الحرام الى البيت المقدس. فقال: ليس هو كما يقولون و لكنه اسرى به من هذه الى هذه و أشار بيده الى السماء و قال: ما بينهما حرم.

قال: فلما انتهى به الى صدره المنتهى تخلف عنه جبرئيل فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: يا جبرئيل أفى مثل هذا الموضوع تخذلى؟ فقال: تقدم أمامك فو الله لقد بلغت مبلغاً لم يبلغه خلق من خلق الله قبلك فرأيت ربي و حال بينى و بينه السبحه قلت: و ما السبحه جعلت فداك؟ فأوماً بوجهه الى الأرض و أوماً بيده الى السماء و هو يقول: جلال ربي جلال ربي، ثلاث مرات. قال: يا محمد قلت: لبيك يا رب قال: فيم اختصم الملائه الأعلى؟ قلت سبحانك لا علم لى إلا ما علمتنى.

قال: فوضع يده بين ثديي فوجدت بردها بين كتفي. قال: فلم يسألنى عما مضى و لا عما بقى الا علمته فقال: يا محمد فيم اختصم الملائه الأعلى؟ قال: قلت: فى الدرجات و الكفارات و الحسنات فقال: يا محمد انه قد انقضت نبوتك و انقطع أكلك فمن وصيك؟ فقلت: يا رب انى قد بلوت خلقك فلم أر فيهم من خلقك أحد أطوع لى من على فقال: و لى يا محمد فقلت:

يا رب انى قد بلوت خلقك فلم أر من خلقك أحداً أشد حبا لى من على بن أبى طالب قال: و لى يا محمد فبشره بأنه آيه الهدى و امام أوليائى و نور لمن أطاعنى و الكلمه الباقية التى ألزمتها المتقين من أحبه أحببى و من أبغضه أبغضنى معما أنى أخصه بما لم أخص به أحداً فقلت: يا رب أخى و صاحبى و وزيرى و وارثى فقال: انه أمر قد سبق انه مبتلى به معما أنى قد نحلته و نحلته و نحلته و نحلته أربعة أشياء عقدها بيده و لا يفصح بما عقدها.

أقول: قوله عليه السلام: «و لكنه أسرى به من هذه الى هذه» أى من الكعبه الى البيت المعمور، و ليس المراد به نفى الإسراء الى بيت المقدس و لا- تفسير المسجد الأقصى فى الآيه بالبيت المعمور بل المراد نفى أن ينتهى الإسراء الى بيت المقدس و لا يتجاوزه فقد استفاضت الروايات

وقوله صَلَّى الله عليه وآله وسلم: «فرأيت ربي» أى شاهدهته بعين قلبى كما تقدم فى بعض الروايات السابقه و يؤيده تفسير الرؤيه بذلك فى روايات أخر.

وقوله: «و حالتي بينى وبينه السبحه» أى بلغت من القرب و الزلفى مبلغا لم يبق بينى وبينه إلا - جلاله، وقوله: فوضع يده بين تديى، الخ؛ كناية عن الرحمه الإلهيه، و محصله نزول العلم من لدنه تعالى على قلبه بحيث يزيل كل ريب و شك.

و فى الدر المنثور أخرج ابن أبى شيبه و مسلم و ابن مردويه من طريق ثابت عن أنس أنّ رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم قال: أتيت بالبراق و هو دابه أبيض طويل فوق الحمار و دون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقه التى يربط بها الأنبياء ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين.

ثم خرجت فجاءنى جبريل بإناء من خمر و إناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل:

اخترت الفطره، ثم عرج بنا الى سماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل قيل: و من معك؟ قال: محمد، قيل: و قد بعث اليه؟ قال: قد بعث اليه ففتح لنا فإذا أنا بأدم فرحب بى و دعا لى بخير.

ثم عرج بنا الى السماء الثانيه فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل قيل: و من معك؟ قال: محمد، قيل: و قد بعث اليه؟ قال: قد بعث اليه ففتح لنا فإذا أنا بابنى الخاله عيسى بن مريم و يحيى بن زكريا فرحبا بى و دعوا لى بخير.

ثم عرج بنا الى السماء الثالثه فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل قيل: و من معك؟ قال: محمد، قيل: و قد بعث اليه؟ قال: قد بعث اليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف و إذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب بى و دعا لى بخير.

ثم عرج بنا الى السماء الرابعه فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: و من

معك؟ قال: محمد، قيل: و قد بعث اليه، قال: قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بإدريس فرحب بي و دعا لي بخير.

ثم عرج بنا الى السماء الخامسة فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: و من معك؟ قال: محمد، قيل: و قد بعث اليه؟ قال: قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بهارون فرحب بي و دعا لي بخير.

ثم عرج بنا الى السماء السادسة فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: و من معك؟ قال: محمد، قيل: و قد بعث اليه؟ قال: قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بموسى فرحب بي و دعا لي بخير.

ثم عرج بنا الى السماء السابعة فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: و من معك؟ قال: محمد، قيل: و قد بعث اليه؟ قال: قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بإبراهيم مسند ظهره الى البيت المعمور و إذا يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون اليه.

ثم ذهب بي الى صدره المنتهى فاذا ورقها فيها كأذان الفيله و اذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها فأوحى إليّ ما أوحى و فرض عليّ خمسين صلاة فى كل يوم و ليله فنزلت حتى انتهيت الى موسى فقال: ما فرض ربك على امتك؟ قلت: خمسين صلاة قال: ارجع الى ربك فأسأله التخفيف فإن امتك لا تطيق ذلك فانى قد بلوت بنى اسرائيل و خبرتهم.

فرجعت الى ربي فقلت: يا رب خفف عن امتى فحط عنى خمسا فرجعت الى موسى فقلت:

حط عنى خمسا فقال: إن امتك لا- يطيقون ذلك فارجع الى ربك فأسأله التخفيف قال: فلم أزل أرجع بين ربي و موسى حتى قال: يا محمد إنهن خمس صلوات لكل يوم و ليله لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة، و من هم بحسنه فلم يعملها كتبت له حسنه فإن عملها كتبت له عشر، و من هم بسيئه فلم يعملها لم يكتب شيئا فإن عملها كتبت سيئه واحده فنزلت حتى انتهيت الى

موسى فأخبرته فقال:ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فقلت:قد رجعت الى ربي حتى استحييت منه.

أقول:وقد روى الخبر عن أنس بطرق مختلفه منها ما عن البخارى و مسلم و ابن جرير و ابن مردويه من طريق شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن أنس قال:ليله أسرى برسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم من مسجد الكعبه جاءه ثلاثه نفر قبل أن يوحى اليه و هو نائم فى المسجد الحرام فقال أولهم:أيهم هو؟فقال أوسطهم:هو خيرهم فقال أحدهم خذوا خيرهم فكانت تلك الليله فلم يرههم حتى أتوه ليله اخرى فيما يرى قلبه و تنام عيناه و لا ينام قلبه و كذلك الأنبياء تنام أعينهم و لا ينام قلوبهم فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل فشق جبريل ما بين نحره الى لبتة حتى فرغ من صدره و جوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ثم أتى بطست من ذهب محشوا إيمانا و حكمه فحشا به صدره و لغايديه يعنى عروق حلقه ثم أطبقه ثم عرج به الى سماء الدنيا ثم ساق الحديث نحو ما تقدم.

و الذى وقع فيه من شق بطن النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم و غسله و إنقائه ثم حشوه إيمانا و حكمه حال مثاليه شاهدها و ليس بالأمر المادى كما ربما يزعم،و يشهد به حشوه إيمانا و حكمه و أخبار المعراج مملوءه من المشاهدات المثاليه و التمثلات الروحيه،وقد ورد هذا المعنى فى عده من أخبار المعراج المرويّه من طرق القوم و لا ضير فيه كما لا يخفى.

و ظاهر الروايه أن معراجه صَلَّى الله عليه و آله و سلم كان قبل البعثه و أنه كان فى المنام أما كونه قبل البعثه فيدفعه معظم الروايات الوارده فى الإسراء و هى أكثر من أن تحصى و قد اتفق على ذلك علماء هذا الشأن.

على أن الحديث نفسه يدفع كون الإسراء قبل البعثه و قد اشتمل على فرض الصلوات و كونها أولا خمسين ثم سؤال التخفيف بإشاره من موسى عليه السّلام و لا معنى للفرض قبل النبوه فمن الحرى أن يحمل صدر الحديث على أن الملائكه أتوه أولا قبل أن يوحى اليه ثم تركوه ثم جاءوه

ليه اخرى بعد بعثته و قد ورد فى بعض رواياتنا أن الذين كانوا نائمين معه فى المسجد ليه أسرى به هم حمزه بن عبد المطلب و جعفر و على ابنا أبى طالب.

و أما ما وقع فيه من كون ذلك فى المنام فيمكن-على بعد-أن يكون ناظرا الى ما ذكر فيه من حديث الشق و الغسل لكن الأظهر أن المراد به وقوع الإسراء بجملته فى المنام كما يدل عليه ما يأتى من الروايات.

و فى الدر المنثور أيضا أخرج ابن إسحاق و ابن جرير عن معاوية بن أبى سفيان أنه كان إذا سئل عن مسرى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال: كانت رؤيا من الله صادقه.

اقول: و ظاهر الآيه الكريمة: **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ** -الى قوله- **لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا** يرده، و كذا آيات صدر سوره النجم و فيها مثل قوله: **مَا زَاغَ الْبَصِيرُ** و **مَا طَغَى** لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى على أن الآيات فى سياق الامتنان و فيها ثناء على الله سبحانه بذكر بديع رحمته و عجب قدرته، و من الضرورى أن ذلك لا يتم برؤيا يراها النبي صلى الله عليه و آله و سلم و الرؤيا يراها الصالح و الطالح و ربما يرى الفاسق الفاجر ما هو ابداع مما يراه المؤمن المتقى و الرؤيا لا تعد عند عامه الناس إلا نوعا من التخيل لا يستدل به على شىء من القدره و السلطنه بل غايه ما فيها أن يتفائل بها فيرجى خيرها أو يتطير بها فيتخاف شرها.

و فيه أخرج ابن اسحاق و ابن جرير عن عائشه قالت: ما فقدت جسد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و لكن الله أسرى بروحه.

اقول: و يرد عليه ما ورد على سابقه على أنه يكفى فى سقوط الروايه اتفاق كلمه الرواه و أرباب السير على أن الإسراء كان قبل الهجره بزمان و أنه صلى الله عليه و آله و سلم بنى بعائشه فى المدينه بعد الهجره بزمان لم يختلف فى ذلك اثنان و الآيه أيضا صريحه فى إسرايه صلى الله عليه و آله و سلم من المسجد الحرام.

و فيه أخرج الترمذى و حسنه و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن مسعود: قال: قال رسول

اللّٰهُ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ: لَقِيْتُ اِبْرَاهِيْمَ لَيْلَةَ اسْرِي بِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اقْرَأْ اَمْتِكَ مِنْهُ السَّلَامَ وَ اَخْبِرْهُمْ اَنْ الْجَنَّةَ طَيِّبَةٌ التَّرْبَةُ عَذْبَةٌ الْمَاءُ وَ اَنْهَا قِيَعَانٌ وَ اَنْ غِرَاسَهَا سَبْحَانُ اللّٰهِ وَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ وَ لَا اِلَهَ اِلَّا اللّٰهُ وَ اللّٰهُ اَكْبَرُ لَا حَوْلَ وَ لَا قُوَّةَ اِلَّا بِاللّٰهِ.

وَ فِيهِ اُخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُوْلُ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ: لَمَّا اسْرَى بِي اِلَى السَّمَاءِ ادْخَلْتُ الْجَنَّةَ فَوَقَعْتُ عَلَى شَجَرَةٍ مِنْ اَشْجَارِ الْجَنَّةِ لَمْ اُرْ فِي الْجَنَّةِ اَحْسَنَ مِنْهَا وَ لَا اَبْيَضَ وَرَقًا وَ لَا اَطْيَبَ ثَمْرَةً فَتَنَاوَلْتُ ثَمْرَهُ مِنْ ثَمَرِهَا فَاَكَلْتُهَا فَصَارَتْ نَظْفَةً فِي صُلْبِي فَلَمَّا هَبَّتْ اِلَى الْاَرْضِ وَاقَعْتُ خَدِيْجَةَ فَحَمَلَتْ بِفَاطِمَةَ فَاِذَا اَنَا اسْتَقْتُ اِلَى رِيْحِ الْجَنَّةِ شَمِمْتُ رِيْحَ فَاطِمَةَ.

وَ فِي تَفْسِيْرِ الْقَمِيٍّ عَنْ اَبِيهِ عَنْ ابْنِ مَحْبُوْبٍ عَنْ ابْنِ رِثَابٍ عَنْ اَبِي عِيْبِدَةَ عَنْ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: كَانَ رَسُوْلُ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ يَكْثُرُ تَقْبِيْلَ فَاطِمَةَ فَاَنْكَرْتُ ذَلِكَ عَائِشَةَ فَقَالَ رَسُوْلُ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ: يَا عَائِشَةُ اِنِّي لَمَّا اسْرَى بِي اِلَى السَّمَاءِ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَاَدْنَانِيْ جَبْرِيْلُ مِنْ شَجَرَةٍ طَوْبِي وَ نَاوَلْنِيْ مِنْ ثَمَرِهَا فَاَكَلْتُهُ فَحَوْلَ اللّٰهُ ذَلِكَ مَاءً فِي ظَهْرِيْ فَلَمَّا هَبَّتْ اِلَى الْاَرْضِ وَاقَعْتُ خَدِيْجَةَ فَحَمَلَتْ بِفَاطِمَةَ فَمَا قَبَلْتُهَا قَطُّ اِلَّا وَجَدْتُ رَائِحَةَ شَجَرَةٍ طَوْبِي مِنْهَا.

وَ فِي الدَّرِّ الْمَنْشُوْرِ اُخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْاَوْسَطِ عَنْ ابْنِ عَمْرٍ اَنْ النَّبِيَّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ لَمَّا اسْرَى بِهِ اِلَى السَّمَاءِ اَوْحَى اِلَيْهِ بِالْاَذَانِ فَتَنَزَّلَ بِهِ فَعَلِمَهُ جَبْرِيْلُ.

وَ فِيهِ اُخْرَجَ ابْنُ مَرْدُوِيَهٍ عَنْ عَلِيٍّ اَنْ النَّبِيَّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ عَلَّمَ الْاَذَانَ لَيْلَةَ اسْرِي بِهِ وَ فَرَضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ.

وَ فِي الْعُلَلِ بِاِسْنَادِهِ عَنْ اِسْحَاقَ بْنِ عَمَارٍ قَالَ: سَأَلْتُ اَبَا الْحَسَنِ مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَيْفَ صَارَتْ الصَّلَاةُ رُكْعَةً وَ سَجْدَتَيْنِ؟ وَ كَيْفَ اِذَا صَارَتْ سَجْدَتَيْنِ لَمْ تَكُنْ رُكْعَتَيْنِ؟ فَقَالَ: اِذَا سَأَلْتَ عَنْ شَيْءٍ فَفَرِّغْ قَلْبِكَ لِتَفْهَمَ. اِنْ اَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَاةً رَسُوْلُ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ اِنَّمَا صَلَاةً فِي السَّمَاءِ بَيْنَ يَدَيِ اللّٰهِ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى قَدَامَ عَرْشِهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

وَ ذَلِكَ اَنَّهُ لَمَّا اسْرَى بِهِ وَ صَارَ عِنْدَ عَرْشِهِ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ ادْنُ مِنْ صَادِ

فاغتسل مساجدك و طهرها و صل لربك فدنا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم الى حيث أمره الله تبارك و تعالى فتوضأ فأسغ وضوءه ثم استقبل الجبار تبارك و تعالى قائما فأمره بافتتاح الصلاة ففعل.

فقال: يا محمد اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الى آخرها ففعل ذلك ثم أمره أن يقرأ نسبه ربه تبارك و تعالى بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد الله الصمد ثم أمسك عنه القول فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: قل هو الله أحد الله الصمد فقال: قل: لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد فأمسك عنه القول فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: كذلك الله ربي كذلك الله ربي.

فلما قال ذلك قال: اركع يا محمد لربك فركع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقال له و هو راكم: قل سبحان ربي العظيم و بحمده ففعل ذلك ثلاثا، ثم قال: ارفع رأسك يا محمد ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقام منتصبا بين يدي الله فقال: اسجد يا محمد لربك فخر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ساجدا فقال: قل سبحان ربي الأعلى و بحمده ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ثلاثا فقال: استو جالسا يا محمد ففعل فلما استوى جالسا ذكر جلال ربه جل جلاله فخر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ساجدا من تلقاء نفسه لا لأمر أمره ربه عزّ و جل فسبح أيضا ثلاثا فقال: انتصب قائما ففعل فلم يرى ما كان رأى من عظمه ربه جل جلاله.

فقال له: اقرأ يا محمد و افعل كما فعلت في الركعة الاولى ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ثم سجد سجده واحده فلما رفع رأسه ذكر جلال ربه تبارك و تعالى فخر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ساجدا من تلقاء نفسه لا لأمر أمره ربه عزّ و جل فسبح أيضا ثم قال له: ارفع رأسك ثبتك الله و اشهد أن لا إله إلاّ و أن محمدا رسول الله و أن الساعة آتية لا ريب فيها و أن الله يبعث من فى القبور اللهم صل على محمد و آل محمد كما صليت و باركت و ترحمت على إبراهيم و آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم تقبل شفاعته فى امته و ارفع درجته ففعل.

فقال: يا محمد و استقبل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ربه تبارك و تعالى وجهه مطرقا فقال: السلام

عليك فأجابه الجبار جل جلاله فقال: و عليك السلام يا محمد بنعمتي قويتك على طاعتي و بعصمتي اتخذتك نبيا و حبيبا.

ثم قال أبو الحسن عليه السلام: و إنما كانت الصلاة التي امر بها ركعتين و سجدتين و هو صَلَّى الله عليه و آله و سلم إنما سجد سجدتين في كل ركعه كما أخبرتك من تذكره لعظمه ربه تبارك و تعالى فجعله الله عزّ و جل فرضا.

قلت: جعلت فداك و اما صاد الذي امر أن يغتسل منه؟ فقال: عين تنفجر من ركن من أركان العرش يقال له: ماء الحياه و هو ما قال الله عزّ و جل: ص وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ وَيَقْرَأَ وَيُصَلِّي.

أقول: و في معناها روايات أخر.

و في الكافي بإسناده عن علي بن أبي حمزه قال: سألت أبو بصير أبا عبد الله عليه السلام و أنا حاضر فقال: جعلت فداك كم عرج برسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم؟ فقال: مرتين فأوقفه جبرئيل موقفا فقال له:

مكانك يا محمد فلقد وقفت موقفا ما وقفه ملك قط و لا نبي إن ربك يصلي فقال: يا جبرئيل و كيف يصلي؟ فقال: يقول: سبح قدوس أنا رب الملائكة و الروح سبقت رحمتي غضبي فقال: اللهم عفوك عفوك.

قال: و كان كما قال الله: قاب قوسين أو أدنى فقال له أبو بصير: جعلت فداك و ما قاب قوسين أو أدنى؟ قال: ما بين سيتها الى رأسها فقال: بينهما حجاب يتلألأ- و لا- أعلمه إلا- و قد قال: من زبرجد فنظر في مثل سم الإبره الى ما شاء الله من نور العظمه. الحديث.

أقول: و آيات صدر سوره النجم تؤيد ما في الروايه من وقوع المعراج مرتين ثم الاعتبار يساعد على ما في الروايه من صلواته تعالى فإن الأصل في معنى الصلاة الميل و الانعطاف، و هو من الله سبحانه الرحمه و من العبد الدعاء كما قيل، و اشتمال ما أخبر به جبرئيل من صلواته تعالى على قوله: «سبقت رحمتي غضبي» يؤيد ما ذكرناه و لذلك أيضا أوقفه جبرئيل في الموقف

الذى أوقفه و ذكر له أنه موطأ ما وطئه أحد قبله و ذلك أن لازم ما وصفه بهذا الوصف أن يكون الموقف هو الحد الفاصل بين الخلق و الخالق و آخر ما ينتهى اليه الانسان من الكمال فهو الحد الذى يظهر فيه الرحمه الإلهيه و تفاض على ما دونه و لهذا اوقف صلى الله عليه و آله و سلم لمشاهدته.

و فى المجمع- و هو ملخص من الروايات- أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم قال: أتانى جبرائيل و أنا بمكة فقال: قم يا محمد فقمتم معه و خرجت الى الباب فإذا جبرئيل و معه ميكائيل و إسرافيل فأتى جبرائيل بالبراق و كان فوق الحمال و دون البغل خده كخذ الإنسان و ذنبه كذنب البقر و عرفه كعرف الفرس و قوائمه كقوائم الإبل عليه رحل من الجنة و له جناحان من فخذه خطوه منتهى طرفه فقال: اركب فركبت و مضيت حتى انتهيت الى بيت المقدس.

ثم ساق الحديث الى أن قال: فلما انتهيت الى بيت المقدس إذا ملائكه نزلت من السماء بالبشاره و الكرامه من عند رب العزه و صليت فى بيت المقدس، و فى بعضها- بشر لى إبراهيم- فى رهط من الأنبياء ثم وصف موسى و عيسى ثم أخذ جبرائيل بيدي إلى الصخره فأقعدنى عليها فإذا معراج الى السماء لم أر مثلها حسنا و جمالا.

فصعدت الى السماء الدنيا و رأيت عجائبها و ملكوتها و ملائكتها يسلمون على ثم صعد بي جبرائيل الى السماء الثانيه فرأيت فيها عيسى بن مريم و يحيى بن زكريا. ثم صعد بي الى السماء الثالثه فرأيت فيها يوسف. ثم صعد بي الى السماء الرابعه فرأيت فيها ادريس. ثم صعد بي الى السماء الخامسه فرأيت فيها هارون ثم صعد بي الى السماء السادسه فإذا فيها خلق كثير يموج بعضهم فى بعض و فيها الكروبيون ثم صعد بي الى السماء السابعه فأبصرت فيها خلقا و ملائكه - و فى حديث أبى هريره رأيت فى السماء السادسه موسى، و رأيت فى السماء السبعه ابراهيم.

قال: ثم جاوزناها متصاعدين الى أعلى عليين- و وصف ذلك الى أن قال- ثم كلمنى ربي و كلمته، و رأيت الجنة و النار، و رأيت العرش و سدرة المنتهى ثم رجعت الى مكه فلما أصبحت حدثت به الناس فكذبنى أبو جهل و المشركون و قال مطعم بن عدى: أترعم أنك سرت

مسيره شهرين فى ساعه؟ أشهد أنك كاذب.

قالوا: ثم قالت قريش: أخبرنا عما رأيت فقال: مررت بعير بنى فلان وقد أضلوا بعيرا لهم وهم فى طلبه وفى رحلهم قعب (١) مملوء من ماء فشربت الماء ثم غطيته فاسألوهم هل وجدوا الماء فى القدح؟ قالوا: هذه آيه واحده.

قال: و مررت بعير بنى فلان فنفرت بكره فلان فانكسرت يدها فاسألوهم عن ذلك فقالوا: هذه آيه اخرى قالوا: فأخبرنا عن غيرنا قال: مررت بها بالنعيم و بين لهم أحمالها و هيآتها و قال: يقدمها جمل أورق عليه فزارتان محيطتان و تطلع عليكم عند طلوع الشمس قالوا: هذه آيه اخرى.

ثم خرجوا يشهدون نحو التيه و هم يقولون: لقد قضى محمد بيننا و بينه قضاء بينا، و جلسوا ينتظرون متى تطلع الشمس فيكذبوه؟ فقال قائل: و الله إن الشمس قد طلعت، و قال آخر:

و الله هذه الإبل قد طلعت يقدمها بعير أورق فبهتوا و لم يؤمنوا.

و فى تفسير العياشى عن هشام بن الحكم عن أبى عبد الله عليه السلام قال: إن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم صلى العشاء الآخرة و صلى الفجر فى الليله التى اسرى به بمكه.

أقول: و فى بعض الأخبار أنه صلى الله عليه و آله و سلم صلى المغرب بالمسجد الحرام ثم اسرى به و لا منافاه بين الروايتين و كذا لا- منافاه بين كونه صلى المغرب او العشاء الآخرة و الفجر بمكه و بين كون الصلوات الخمس فرضت عليه فى السماء ليله الإسراء فإن فرض أصل الصلاه كان قبل ذلك، و أما أنها كم ركعه كانت فغير معلوم غير أن الآثار تدل على أنه صلى الله عليه و آله و سلم كان يقيم الصلاه منذ بعثه الله نبيا و فى سورة العلق: أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عِبْدًا إِذَا صَلَّى و قد روى أنه صلى الله عليه و آله و سلم كان يصلى بعلى و خديجه عليهما السلام بالمسجد الحرام قبل أن يعلن دعوته بمدته.

ص: ٦٧٠

١- ١). القعب: القدح الضخم الغليظ.

و فى الكافى عن العامرى عن أبى جعفر عليه السّلام قال: لما عرج برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم نزل بالصلاه عشر ركعات ركعتين ركعتين فلما ولد الحسن والحسين عليهما السّلام زاد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم سبع ركعات شكرا لله فأجاز الله له ذلك و ترك الفجر لم يزد فيها لأنه يحضرها ملائكه الليل و ملائكه النهار فلما أمره الله بالتقصير فى السفر وضع عن امته ست ركعات و ترك المغرب لم ينقص منه شيئا، وإنما يجب السهو فيما زاد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم فمن شك فى أصل الفرض فى الركعتين الأوليين استقبل صلاته.

و روى الصدوق فى الفقيه باسناده عن سعيد بن المسيب أنه سأل على بن الحسين عليه السّلام فقال: متى فرضت الصلاه على المسلمين على ما هى اليوم عليه؟ فقال: بالمدينه حين ظهرت الدعوه و قوى الإسلام و كتب الله على المسلمين الجهاد زاد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم فى الصلاه سبع ركعات فى الظهر ركعتين و فى العصر ركعتين و فى المغرب ركعه و فى العشاء الآخره ركعتين، و أقر الفجر على ما فرضت بمكه. الحديث.

و فى الدر المنثور أخرج أحمد و النسائى و البزار و الطبرانى و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم: لما اسرى بى مرت بى رائحه طيبه فقلت: يا جبريل ما هذه الرائحه الطيبه؟ قال: ماشطه بيت فرعون و أولادها كانت تمشطها فسقط المشط من يدها فقالت: بسم الله فقالت ابنه فرعون: أبى؟ قال: بلى ربي و ربك و رب أبيك قالت: أو لك رب غير أبى؟ قال: نعم قالت: فأخبر بذلك أبى؟ قال: نعم.

فأخبرته فدعاها فقال: أ لك رب غيرى؟ قالت: نعم ربي و ربك الله الذى فى السماء فأمر بيقره من نحاس فأحميت ثم أمر بها لتلقى فيها و أولادها. قالت: إن لى اليك حاجه قال: و ما هى؟ قال: تجمع عظامى و عظام ولدى فتدفنه جميعا. قال: ذلك لك لما لك علينا من حق فألقوا واحدا واحدا حتى بلغ رضيعا فيهم قال: نعى يا أمه و لا تقاعسى فإنك على الحق فألقيت هى و ولدها.

قال ابن عباس: و تكلم أربعة و هم صغار: هذا و شاهد يوسف و صاحب جريح و عيسى بن مريم.

اقول: و روى من وجه آخر عن ابن عباس عن ابى بن كعب عن النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم.

و فيه أخبر ابن مردويه عن أنس أن النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم قال: ليله اسرى بى مررت بناس يقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت عادت كما كانت فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء امتك الذين يقولون ما لا يفعلون.

اقول: و هذا النوع من التمثلات البرزخيه التى تصور الأعمال بتنائجها و العذابات المعده لها كثيره الورود فى أخبار الإسراء و قد تقدم شطر منها فى ضمن الروايات.

و اعلم أن ما أوردناه من أخبار الإسراء نبذه يسيره منها و هى كثيره بالغه حد التواتر رواها جم غفير من الصحابه كأنس بن مالك و شداد بن الأوس و على بن أبى طالب عليه السّلام و أبو سعيد الخدرى و أبو هريره و عبد الله بن مسعود و عمر بن الخطاب و عبد الله بن عمر و عبد الله بن عباس و ابى بن كعب و سمره بن جندب و بريده و صهيب ابن سنان و حذيفه بن اليمان و سهل بن سعد و أبو أيوب الأنصارى و جابر بن عبد الله و أبو الحمراء و أبو الدرداء و عروه و ام هانى و ام سلمه و عائشه و أسماء بنت أبى بكر كلهم عن رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم و روتها جماعه كثيره من رواه الشيعة عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام.

و قد اتفقت أقوال من يعنى بقوله من علماء الإسلام على أن الإسراء كان بمكه قبل الهجره كما يستفاد من قوله تعالى: **سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الْآيَةَ**؛ و يدل عليه ما اشتملت عليه كثير من الروايات من إخباره صَلَّى الله عليه و آله و سلم قريشا بذلك صبيحه ليلته و انكارهم ذلك عليه و اخباره اياهم بأساطين المسجد الاقصى و ما لقيه فى الطريق من العير و غير ذلك.

ثم اختلفوا فى السنه التى اسرى به صَلَّى الله عليه و آله و سلم فيها فقول: فى السنه الثانيه من البعثه كما عن ابن

عباس، و قيل فى السنه الثالثه منها كما فى الخرائج عن على عليه السلام. و قيل فى السنه الخامسه او السادسه، و قيل بعد البعثه بعشر سنين و ثلاثه أشهر، و قيل: فى السنه الثانيه عشره منها، و قيل: قبل الهجره بسنه و خمسه أشهر، و قيل: قبلها بسنه و ثلاثه أشهر، و قيل: قبلها بسته أشهر.

و لا يهمنى الغور فى البحث عن ذلك و لا عن الشهر و اليوم الذى وقع فيه الإسراء و لا مستند يصح التعويل عليه لكن ينبغى أن يتنبه أن من الروايات المأثوره عن أمه أهل البيت عليهم السلام ما يصرح بوقوع الإسراء مرتين، و هو المستفاد من آيات سوره النجم حيث يقول سبحانه: **وَ لَقَدْ رَأَاهُ نَزَّلَهُ أُخْرَىٰ ۖ** الآيات؛ على ما سيوافيك ان شاء الله من تفسيره.

و على هذا فمن الجائز أن يكون ما وصفه صلى الله عليه و آله و سلم فى بعض الروايات من عجيب ما شاهده راجعا الى ما شاهده فى الاسراء الأول و بعض ما وصفه فى بعض آخر راجعا الى الإسراء الثانى، و بعضه مما شاهده فى الإسراءين معا.

ثم اختلفوا فى المكان الذى اسرى به صلى الله عليه و آله و سلم منه فقيل: اسرى به من شعب أبى طالب و قيل: اسرى به من بيت ام هانى و فى بعض الروايات دلالة على ذلك و قد اولو قوله تعالى:

أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الى أن المراد بالمسجد الحرام الحرم كله مجازا فيشمل مكة، و قيل: اسرى به من نفس المسجد الحرام لظهور الآيه الكريمة فيه و لا دليل على التأويل.

و من الجائز بالنظر الى ما نبهنا به من كون الإسراء مرتين أن يكون أحد الاسراءين من المسجد الحرام و الآخر من بيت ام هانى، و أما كونه من الشعب فما ذكر فيما ذكر فيه من الروايات أن أبا طالب كان يطلبه طول ليلته و انه اجتمع هو و بنو هاشم فى المسجد الحرام ثم سل سيفه و هدد قريشا إن لم يحصل على النبی صلى الله عليه و آله و سلم ثم نزوله من السماء و مجيئه اليهم و إخباره قريشا بما رأى كل ذلك لا يلائم ما كان هو صلى الله عليه و آله و سلم و بنو هاشم جميعا عليه من الشده و البليه أيام كانوا فى

و على أى حال فالاسراء الذى تعطيه الآية: **سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ** و هو الاسراء الذى كان الى بيت المقدس كان مبدؤه المسجد الحرام لكمال ظهور الآيه و لا موجب للتأويل.

ثم اختلفوا فى كيفية الإسراء ف قيل: كان اسراؤه عليه السّلام بروحه و جسده من المسجد الحرام الى بيت المقدس ثم منه الى السماوات و عليه الاكثر و قيل: كان بروحه و جسده من مكة الى بيت المقدس ثم بروحه من بيت المقدس الى السماوات و عليه جمع، و قيل: كان بروحه عليه السّلام و هو رؤيا صادقه أراها الله نبيه و نسب الى بعضهم.

قال فى المناقب: اختلف الناس فى المعراج فالخوارج ينكرونه، و قال الجهميه: عرج بروحه دون جسمه على طريق الرؤيا، و قالت الإماميه و الزيديه و المعتزله: بل عرج بروحه و بجسمه الى بيت المقدس لقوله تعالى: **إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ** و قال آخرون: بل عرج بروحه و بجسمه الى السماوات روى ذلك عن ابن عباس و ابن مسعود و جابر و حذيفه و انس و عائشه ام هانى.

و نحن لا- ننكر ذلك إذا قامت الدلاله، و قد جعل الله معراج موسى الى الطور: **وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ لِإِبْرَاهِيمَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا: وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَ لِعِيسَىٰ إِلَى الرَّابِعَةِ:**

بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَ لَادْرِيسَ إِلَى الْجَنَّةِ: وَ رَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا وَ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَمٍ: فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ وَ ذَلِكَ لَعَلَّوْهُمته. انتهى.

و الذى ينبغى أن يقال ان اصل الاسراء مما لا سبيل الى انكاره فقد نص عليه القرآن و تواترت عليه الاخبار عن النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَمٍ وَ الْأئِمَّةِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَام.

و اما كيفية الإسراء فظاهر الآيه و الروايات بما يحتف بها من القرائن ظهورا لا يقبل الدفع أنه اسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى بروحه و جسده جميعا، و اما العروج الى

السموات فظاهر آيات سورة النجم كما سيأتى ان شاء الله فى تفسيرها و صريح الروايه على كثرها البالغه وقوعه، و لا سبيل الى إنكاره من اصله غير انه من الجائز ان يقال بكونه بروحه لكن لا على النحو الذى يراه القائلون به من كون ذلك من قبيل الأحلام و من نوع ما يراه النائم من الرؤى، و لو كان كذلك لم يكن لما يدل عليه الآيات بسياقها من اظهار المقدره و الكرامه معنى، و لا لذاك الإنكار الشديد الذى اظهرته قريش عند ما قص عليه السلام لهم القصة وجهه، و لا لما اخبرهم به من حوادث الطريق مفهوم معقول.

بل ذلك- إن كان- بعروجه صلى الله عليه و آله و سلم بروحه الشريفه الى ما وراء هذا العالم المادى مما يسكنه الملائكه المكرمون و ينتهى اليه الأعمال و يصدر منه الأقدار و رأى عند ذلك من آيات ربه الكبرى و تمثلت له حقائق الأشياء و نتائج الأعمال و شاهد ارواح الأنبياء العظام و فاضهم و لقي الملائكه الكرام و سامرهم، و رأى من الآيات الإلهيه ما لا يوصف إلا بالأمثال كالعرش و الحجب و السرادقات.

و القوم لذهابهم الى أصله الوجود المادى و قصر الوجود غير المادى فيه تعالى لما وجدوا الكتاب و السنه يصفان امورا غير محسوسه بتمثيلها فى خواص الأجسام المحسوسه كالملائكه الكرام و العرش و الكرسي و اللوح و القلم و الحجب و السرادقات حملوا ذلك على كونها أجساما ماديه لا يتعلق بها الحس و لا يجرى فيها احكام الماده، و حملوا ايضا ما ورد من التمثيلات فى مقامات الصالحين و معارج القرب و بواطن صور المعاصى و نتائج الأعمال و ما يناظر ذلك الى نوع من التشبيه و الاستعاره فوقعوا فى ورطه السفسطه بتغليب الحس و اثبات الروابط الجزافيه بين الأعمال و نتائجها و غير ذلك من المحاذير.

و لذلك ايضا لما نفى النافون منهم كون عروجه صلى الله عليه و آله و سلم الى السماوات بجسمه المادى اضطروا الى القول بكونه فى المنام و هو عندهم خاصه ماديه للروح المادى و اضطروا لذلك الى تأويل الآيات و الروايات بما لا تلائمها و لا واحده منها.

قال فى مجمع البيان: فأما الموضوع الذى أسرى إليه أين كان؟ فإن الأسراء الى بيت المقدس، وقد نص به القرآن و لا يدفعه مسلم، و ما قاله بعضهم: ان ذلك كان فى النوم فظاهر البطلان اذ لا معجز يكون فيه و لا برهان.

وقد وردت روايات كثيرة فى قصة المعراج فى عروج نبينا صلى الله عليه و آله و سلم الى السماء و رواها كثير من الصحابه مثل ابن عباس و ابن مسعود و انس و جابر بن عبد الله و حذيفه و عائشه و ام هانى و غيرهم عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم و زاد بعضهم و نقص بعض و تنقسم جملتها الى اربعة اوجه.

أحدهما: ما يقطع على صحتها لتواتر الأخبار به و إحاطه العلم بصحته.

و ثانيها: ما ورد فى ذلك مما يجوز العقول و لا ياباه الاصول فنحن نجوزه ثم نقطع على أن ذلك كان فى يقظته دون منامه.

و ثالثها: ما يكون ظاهره مخالفا لبعض الاصول إلا انه يمكن تأويلها على وجه يوافق المعقول فالأولى تأويله على وجه يوافق الحق و الدليل.

و رابعها: ما لا يصح ظاهره و لا يمكن تأويله إلا على التعسف البعيد فالأولى أن لا نقبله.

فأما الأول المقطوع به فهو انه أسرى به على الجملة، و أما الثانى فمنه ما روى انه طاف فى السماوات و رأى الانبياء و العرش و سدره المنتهى و الجنة و النار و نحو ذلك. و أما الثالث فنحو ما روى انه رأى قوما فى الجنة يتنعمون فيها و قوما فى النار يعذبون فيها فيحمل على انه رأى صفتهم او أسمائهم، و ما الرابع فنحو ما روى انه صلى الله عليه و آله و سلم كلم الله جهره و رآه و قعد معه على سريره و نحو ذلك مما يوجب ظاهره التشبيه، و الله سبحانه متقدس عن ذلك، و كذلك ما روى انه شق بطنه و غسله لأنه صلى الله عليه و آله و سلم كان طاهرا مطهرا من كل سوء و عيب و كيف يطهر القلب و ما فيه من الاعتقاد بالماء. انتهى.

و ما ذكره من التقسيم فى محله غير ان غالب ما اورده من الامثلة للأقسام منظور فيه فما

ذكره من الطواف و رؤيه الانبياء و نحو ذلك تماثلت برزخيه او روحيه و كذا ما ذكره من حديث شق البطن و الغسل تمثل برزخى لا ضير فيه و احاديث الأسراء مملوءه من ذكر هذا النوع من التمثل كتمثل الدنيا فى هيئه مرآه عليها من كل زينه الدنيا، و تمثل دعوه اليهوديه و النصرانيه و ما شاهده من انواع النعيم و العذاب لأهل الجنه و النار و غير ذلك.

و مما يؤيد هذا الذى ذكرناه ما فى ألسنه هذه الاخبار من الاختلاف فى بيان حقيقه واحده كما فى بعضها من صعوده صلى الله عليه و آله و سلم الى السماء بالبراق و فى آخر على جناح جبريل و فى آخر بمعراج منصوب على صخره بيت المقدس الى السماء الى غير ذلك مما يعثر عليه الباحث المتدبر فى خلال هذه الروايات.

فهذه و أمثالها ترشد الى ان هذه البيانات موضوعه على التمثيل او التمثل الروحى، و وقوع هذه التمثيلات فى ظواهر الكتاب و السنه مما لا سبيل الى انكاره البتة.

[سوره الإسراء (١٧): الآيات ٢ الى ٨]

اشاره

وَ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ جَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكَيْلًا (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) وَ قَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ تَتَّخِذُنَّ عَلْوًا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَ كَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَ أَمِيدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَيْنَ وَ جَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَبْتُمْ أَحْسَبْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرِ لِيُسْوُوا وَ جُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيَتَّبِعُوا مَا عَلَّمْتُمْ تَنْبِيْرًا (٧) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَ جَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨)

قوله تعالى: «وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا» الكتاب كثيرا ما يطلق في كلامه تعالى على مجموع الشرائع المكتوبة على الناس القاضيه بينهم فيما اختلفوا فيه من الاعتقاد والعمل ففيه دلاله على اشتماله على الوظائف الاعتقاديه والعملية التي عليهم ان يأخذوها ويتلبسوا بها، ولعله لذلك قيل: «وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ» و لم يقل التوراه ليدل به على اشتماله على شرائع مفترضة عليهم.

و بذلك يظهر ان قوله: «وَ جَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ» بمنزله التفسير لإيتائه الكتاب.

و كونه هدى اى هاديا لهم هو بيانه لهم شرائع ربهم التي لو أخذوها وعملوا بها لاهتدوا الى الحق و نالوا سعادته الدارين.

قوله: «أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا» ان: فيه للتفسير و مدخولها محصل ما يشتمل عليه الكتاب الذى جعل هدى لهم فيئول المعنى الى أن محصل ما كان الكتاب يبينه لهم و يهديهم اليه هو نهيه إياهم ان يشركوا بالله شيئا و يتخذوا من دونه و كيلا فقوله: «أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا» تفسيراً لقوله: «وَ جَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ» إن كان ضمير «أَلَّا تَتَّخِذُوا»

عائدا اليهم كما هو الظاهر، و تفسير لجميع ما تقدمه إن احتمل رجوعه الى موسى و بنى إسرائيل جميعا.

قوله تعالى: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا تطلق الذرية على الأولاد بعنايه كونهم صغارا ملحقين بأبائهم، و هى - على ما يهدى اليه السياق - منصوبه على الاختصاص و يفيد الاختصاص عنايه خاصه من المتكلم به فى حكمه فهو بمنزله التعليل كقوله تعالى: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ (الأحزاب ٣٣) أى ليفعل بكم ذلك لأنكم أهل بيت النبوه.

فقوله: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ يفيد فائده التعليل بالنسبه الى ما تقدمه كما أن قوله: «إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا» يفيد فائده التعليل بالنسبه اليه.

فيتلخص معنى الآيتين فى مثل قولنا: انا جزينا نوحا بما كان عبدا شكورا لنا أنا ابقينا دعوته و اجرينا سنته و طريقته فى ذريه من حملناهم معهم فى السفينه و من ذلك انا انزلنا على موسى الكتاب و جعلناه هدى لبنى اسرائيل.

و يظهر من قوله فى الآيه: «ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ» و من قوله: «وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ» ان الناس ذريه نوح عليه السلام من جهة الابن و البنت معا، و لو كانت الذرية منتهيه الى ابنائه فقط و كان المراد بقوله: «مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ» ابناؤه فقط كان الأحسن بل المتعين ان يقال: ذريه نوح و هو ظاهر.

قوله تعالى: وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ تَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا قال الراغب فى المفردات: القضاء فصل الأمر قولا كان ذلك أو فعلا، و كل واحد منهما على وجهين: الهى و بشرى فمن القول الإلهى قوله: وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ أى امر بذلك، و قال: وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ فهذا قضاء بالاعلام و الفصل فى الحكم أى اعلمناهم و اوحينا اليهم و حيا جزما و على هذا: وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ

ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنْ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ .

و من الفعل الإلهي قوله: وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ وَقوله: فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ
اشاره الى ايجاده الابداعي و الفراغ منه نحو:

بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

قال: و من القول البشري نحو قضى الحاكم بكذا فان حكم الحاكم يكون بالقول، و من الفعل البشري: فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ ثُمَّ
لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَدْوَرَهُمْ انتهى موضع الحاجة.

و العلو هو الارتفاع و هو في الآيه كناية عن الطغيان بالظلم و التعدي و يشهد بذلك عطفه على الإفساد عطف التفسير، و في هذا
المعنى قوله: إِنَّ فِيهِ عَوْنٌ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا .

و معنى الآيه و أخبرنا و أعلمنا بنى اسرائيل إخبارا قاطعا في الكتاب و هو التوراه: اقسم و احق هذا القول انكم شعب اسرائيل
ستفسدون في الارض و هي ارض فلسطين و ما يتبعها مرتين مره بعد مره و تملون علوا كبيرا و تطغون طغيانا عظيما.

قوله تعالى: فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا الْخ؛ قال الراغب:

البؤس و البأس و البأساء الشده و المكروه الا ان البؤس في الفقر و الحرب اكثر و البأس و البأساء في النكايه نحو و الله اشد بأسا
و اشد تنكيلا. انتهى موضع الحاجة.

و في المجمع: الجوس التخلل في الديار يقال: تركت فلان يجوس بنى فلان و يدوسهم و يطؤهم، قال ابو عبيد: كل
موضع خالطته و وطأته فقد حسته و جستته قال:

و قيل: الجوس طلب الشيء باستقصاء. انتهى.

و قوله: فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا تفریع على قوله: «لَتَفْسِدُنَّ» الخ؛ و ضمير التثنيه راجع الى المرتين و هما الإفسادتان فالمراد بها
الإفساده الاولى، و المراد بوعده اولاهما ما

وعدهم الله من النكال و النقمه على افسادهم فالوعد بمعنى الموعد، و مجيء الوعد كناية عن وقت انجازه، و يدل ذلك على انه وعدهم على افسادهم مرتين و عدين و لم يذكر انجازا فكأنه قيل: لتفسدن في الأرض مرتين و نحن نعدكم الانتقام على كل منهما فإذا جاء وعد المره الاولى، الخ؛ كل ذلك معونه السياق.

و قوله: **بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ** اي انهضناهم و ارسلناهم اليكم ليدلوكم و ينتقموا منكم، و الدليل على كون البعث الانتقام و الإذلال قوله: **أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ** الخ.

و قوله: **وَ كَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا** تأكيد لكون القضاء حتما لازما و المعنى فإذا جاء وقت الوعد الذى وعدناه على المره الاولى من افسادكم مرتين بعثنا و انهضنا عليكم من الناس عبادا لنا اولى بأس و شده شديده فدخلوا بالقهر و الغلبه ارضكم و توسطوا فى دياركم فأدلوكم و أذهبوا استقلالكم و علوكم و سؤددكم و كان وعدا مفعولا لا محيص عنه.

قوله تعالى: **ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَ آمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَيْنَ وَ جَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا** قال فى المجمع: الكره معناه الرجعه و الدوله، و النفير العدد من الرجال قال الزجاج: و يجوز أن يكون جمع نفر كما قيل: العبيد و الضئيين و المعيز و الكليب، و نفر الانسان و نفره و نفيره و نافرته رهطه الذين ينصرونه و ينفرون معه انتهى.

و معنى الآيه ظاهر، و ظاهرها أن بنى اسرائيل ستعود الدوله لهم على أعدائهم بعد وعد المره الأولى فيغلبونهم و يقهرونهم و يتخلصون من استعبادهم و استرقاقهم و أن هذه الدوله سترجع اليهم تدريجا فى برهه معتد بها من الزمان كما هو لازم امدادهم بأموال و بينين و جعلهم اكثر نفيرا.

و فى قوله فى الآيه التاليه: **إِنْ أَحْسَيْتُمْ أَحْسَيْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** اشعار بل دلالة بمعونه السياق ان هذه الواقعه و هى رد الكره لبنى اسرائيل على أعدائهم انما

كانت لرجوعهم الى الإحسان بعد ما ذاقوا وبال اساءتهم قبل ذلك كما ان إنجاز وعد الآخريه انما كان لرجوعهم ثانيا الى الإساءه بعد رجوعهم هذا الى الإحسان.

قوله تعالى: **إِنْ أَحْسَيْتُمْ أَحْسَيتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا اللام في «لِأَنْفُسِكُمْ» و «فَلَهَا» للاختصاص اي ان كلا من احسانكم و إساءتكم يختص بأنفسكم دون ان يلحق غيركم، و هي سنه الله الجاريه ان العمل يعود اثره و تبعته الى صاحبه ان خيرا و ان شرا فهو كقوله: **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ (البقره ١٤١).****

فالمقام مقام بيان ان اثر العمل لصاحبه خيرا كان او شرا، و ليس مقام بيان ان الإحسان ينفع صاحبه و الإساءه تضر حتى يقال: و إن أسأتم فعليها كما قيل: **لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (البقره ٢٨٦).**

قوله تعالى: **فَإِذَا جَاءَ وَعِيدُ الْآخِرِهِ لِيَسْؤُوا وَجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيُبَيِّرُوا مَا عَلَوْا تَبْيِيرًا الْإِهْلَاكِ مِنَ التَّبَارِ بِمَعْنَى الْهَلَاكِ وَ الدَّمَارِ.**

و قوله: **لِيَسْؤُوا وَجُوهَكُمْ** من المساءه يقال: ساء زيد فلانا اذا احزنه و هو على ما قيل متعلق بفعل مقدر محذوف للإيجاز، و اللام للغايه و التقدير بعثناهم ليسؤوا و جوهكم بظهور الحزن و الكأبه فيها و بدو آثار الذله و المسكنه و صغار الاستعبار عليها بما يرتكبونه فيكم من القتل الذريع و السبي و النهب.

و قوله: **وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ** المراد بالمسجد هو المسجد الأقصى -بيت المقدس- و لا يعاب بما ذكره بعضهم ان المراد به جميع الأرض المقدسه مجازا، و في الكلام دلالة أولا انهم في وعد المره الاولى ايضا دخلوا المسجد عنوه و إنما لم يذكر قبلا للإيجاز، و ثانيا ان دخولهم المسجد انما كان للهتك و التخريب، و ثالثا يشعر الكلام بأن هؤلاء المهاجمين المبعوثين لمجازاه بنى اسرائيل و الانتقام منهم هم الذين بعثوا

عليهم اولا.

وقوله: **وَلِيَتَّبِعُوا مَا عَلَّمُوا تَتَّبِعُوا** أى ليهلكوا الذى غلبوا عليه إهلاكا فيقتلوا النفوس و يحرقوا الاموال و يهدموا الابنيه و يخربوا البلاد، و احتمال ان يكون ما مصدرية بحذف مضاف و تقدير الكلام: و ليتبروا مده علوهم تتبيرا، و المعنى الاول اقرب الى الفهم و أوفق بالسياق.

و المقايسه بين الوعدين اعنى قوله: **بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا** الخ؛ و قوله: **لِيَسْؤُوا وُجُوهَكُمْ** الخ؛ يعطى ان الثانى كان اشد على بنى اسرائيل و امر و قد كادوا ان يفنوا و يببداوا فيه عن آخرهم و كفى فى ذلك قوله تعالى: **«وَلِيَتَّبِعُوا مَا عَلَّمُوا تَتَّبِعُوا»** .

و المعنى فإذا جاء وعد المره الآخره و هى الثانيه من الإفسادتين بعثناهم ليسؤوا و جوهكم بظهور الحزن و الكأبه و بدو الذله و المسكنه و ليدخلوا المسجد الاقصى كما دخلوه اول مره و ليهلكوا الذى غلبوا عليه و يفنوا الذى مروا عليه اهلاكا و افناء.

قوله تعالى: **عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَ جَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا** الحصير من الحصر و هو -على ما ذكره- التضييق و الحبس قال تعالى: **وَ اخْضَرُّوهُمْ** (التوبه ٥) أى ضيقوا عليهم.

و قوله: **عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ** أى بعد البعث الثانى على ما يفيدہ السياق و هو ترج للرحمه على تقدير ان يتوبوا و يرجعوا الى الطاعه و الإحسان بدليل قوله: **وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ** أى و ان تعودوا الى الافساد و العلو، بعد ما رجعتم عنه و رحمتكم ربكم نعد الى العقوبه و النكال، و جعلنا جهنم للكافرين حصيرا و مكانا حابسا لا يستطيعون منه خروجا.

و فى قوله: **عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ** التفات من التكلم مع الغير الى الغيبه و كأن الوجه فيه الاشاره الى ان الأصل الذى يقتضيه ربوبيته تعالى ان يرحم عباده ان جروا على

ما يقتضيه خلقتهم و يرشد اليه فطرتهم الا- ان ينحرفوا عن خط الخلقه و يخرجوا عن صراط الفطره، و الايماء الى هذه النكته
يوجب ذكر وصف الرب فاحتاج السياق ان يتغير عن التكلم مع الغير الى الغيبه ثم لما استوفيت النكته بقوله: «عَسَىٰ رَبُّكُمْ اَنْ
يَزَحْمَكُمْ» عاد الكلام الى ما كان عليه (١).

[سوره الإسراء (١٧): الآيات ٩ الى ٢٢]

اشاره

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَ أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) وَ يَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١) وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ آيَاتَيْنِ
فَمَحْوِنًا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَ لِتَعْلَمُوا عِيدَ السَّنِينَ وَ الْحِسَابَ وَ كُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَا تَفْصِيلًا
(١٢) وَ كُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَشْهُورًا (١٣) اِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ
حَسِيبًا (١٤) مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَ مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ
رَسُولًا (١٥) وَ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا أَمْزَنًا مُتْرَفِيهَا فَفَسَدُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ
مَنْ بَعْدَ نُوحٍ وَ كَفَىٰ بِرَبِّكَ بِعْدُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ
جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَ مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كَلَّا نُمَدِّدُ
هُؤُلَاءِ وَ هُوَ لَاءٍ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَ لِلآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَ
أَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١) لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعَّدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (٢٢)

ص: ٦٨٤

قوله تعالى: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ أَى للمله التى هى أقوم كما قال تعالى: قُلْ إِنِّى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قَيْمًا مِّلَهُ إِِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا (الأنعام / ١٦١).

و الأقوم أفعل تفضيل و الاصل فى الباب القيام ضد القعود الذى أو أحد أحوال الانسان و اوضاعه، و هو أعدل حالاته يتسلط به على ما يريد من العمل بخلاف القعود و الاستلقاء

و الانبطاح و نحوها ثم كنى به عن حسن تصديه للامور إذا قوى عليها من غير عجز و عى و أحسن ادارتها للغايه يقال: قام بأمر كذا إذا تولاه و قام على امر كذا أى راقبه و حفظه و راعى حاله بما يناسبه.

و قد وصف الله سبحانه هذه المله الحنيفيه بالقيام كما قال: فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ (الروم ٣٠)، و قال:

فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ (الروم ٤٣).

و ذلك لكون هذا الدين مهيمنا على ما فيه خير دنياهم و آخرتهم قيما على اصلاح حالهم فى معاشهم و معادهم، و ليس الا لكونه موافقا لما تقتضيه الفطره الإنسانيه و الخلقه التى سواه الله سبحانه عليها و جهزه بحسبها بما يهديه الى غايته التى اريدت له، و سعاده التى هيئت لأجله.

قوله تعالى: وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا الصالحات صفه محذوف موصوفها اختصارا و التقدير و عملوا الأعمال الصالحات.

و فى الآيه جعل حق للمؤمنين الذين آمنوا و عملوا الصالحات على الله سبحانه كما يؤيده تسميه ذلك أجرا و يؤيده أيضا قوله فى موضع آخر: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (حم السجده ٨) و لا محذور فى ان يكون لهم على الله حق اذا كان سبحانه هو الجاعل له، و نظيره قوله: ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ (يونس ١٠٣).

و العناية فى الآيه ببيان الوعد المنجز كما ان الآيه التاليه تعنى ببيان الوعيد المنجز و هو العذاب لمن يكفر بالآخره، و أما من آمن و لم يعمل الصالحات فليس ممن له على الله أجر منجز و حق ثابت بل أمره مراعى بتوبه أو شفاعه حتى يلحق بذلك معشر الصالحين من المؤمنين قال تعالى: وَ آخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَ آخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ

عَلَيْهِمْ (التوبه ١٠٢/١) وقال: وَ آخِرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ (التوبه ١٠٦/١).

□
نعم لهم ثبات على الحق بإيمانهم كما قال تعالى: وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ (يونس ٢/١) وقال: يُبَيِّنُ اللَّهُ
الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الآخِرَةِ (إبراهيم ٢٧/١).

□
قوله تعالى: وَ أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الإعتاد الإعداد و التهيئه من العتاد بالفتح و هو على ما ذكره
الراغب ادّخار الشيء قبل الحاجه اليه كالإعداد.

و ظاهر السياق أنه عطف على قوله فى الآيه السابقه: «أَنَّ لَهُمْ» الخ؛ فيكون التقدير و يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن
الذين لا يؤمنون، الخ؛ و كون ذلك بشاره للمؤمنين من حيث إنه انتقام إلهى من أعدائهم فى الدين.

و إنما خص بالذكر من أوصاف هؤلاء عدم ايمانهم بالآخره مع جواز أن يكفروا بغيرها كالتوحيد و النبوه لأن الكلام مسوق
لبين الأثر الذى يعقبه الدين القيم، و لا موقع للدين و لا فائده له مع انكار المعاد و ان اعترف بوحدانيه الرب تعالى و غيرها من
المعارف، و لذلك عد سبحانه نسيان يوم الحساب أصلاً لكل ضلال فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ
بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (ص ٢٦/١).

□
قوله تعالى: وَ يَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا المراد بالدعاء على ما يستفاد من السياق مطلق الطلب سواء
كان بلفظ الدعاء كقوله: اللهم ارزقنى مالا- و ولدا و غير ذلك أو من غير دعاء لفظى بل بطلب و سعى فإن ذلك كله دعاء و
سؤال من الله سواء اعتقد به الانسان و تنبه له أم لا- إذ لا- معطى و لا- مانع فى الحقيقه إلا الله سبحانه، قال تعالى: يَسْئَلُهُ مَنْ فِي
السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ (الرحمن ٢٩/١) وقال: وَ اتَّكُم

مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ (إبراهيم ٣٤) فالدعاء مطلق الطلب و الباء فى قوله: «بِالشَّرِّ» و «بِالخَيْرِ» للصله و المراد أن الانسان يدعو الشر و يسأله دعاء كدعائه الخير و سؤاله و طلبه.

و على هذا فالمراد بكون الإنسان عجباً أنه لا يأخذ بالأناه إذا أراد شيئاً حتى يتروى و يتفكر فى جهات صلاحه و فاسده حتى يتبين له وجه الخير فيما يريد من الأمر فيطلبه و يسعى اليه بل يستعجل فى طلبه بمجرد ما ذكره و تعلق به هواه فربما كان شراً فتضرر به و ربما كان خيراً فانتفع به.

قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوُودًا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قال فى المجمع: مبصره أى مضيئه منيره نيره قال أبو عمرو:

أراد يبصر بها كما يقال: ليل نائم و سر كاتم، و قال الكسائى: العرب تقول: أبصر النهار إذا أضاء. انتهى موضع الحاجة.

الليل و النهار هما النور و الظلمه المتعاقبان على الأرض من جهه مواجهه الشمس بالطلوع و زوالها بالغروب و هما كسائر ما فى الكون من أعيان الأشياء و أحوالها آيتان لله سبحانه تدلان بذاتهما على توحده بالربوبيه.

و قوله: لَتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ متفرع على قوله: «وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً» أى جعلناها مضيئه لتطلبوا فيه رزقا من ربكم فإن الرزق فضله و عطاؤه تعالى.

و قوله: وَ لَتَعْلَمُوا عَمْدَ السُّنَنِ وَ الْحِسَابَ أى لتعلموا بمحو الليل و إبصار النهار عدد السنين بجعل عدد من الأيام واحدا يعقد عليه، و تعلموا بذلك حساب الأوقات و الآجال، و ظاهر السياق أن علم السنين و الحساب متفرع على جعل النهار مبصراً نظير تفرع ما تقدمه من ابتغاء الرزق على ذلك و ذلك أنا إنما نتنبه للاعدام و الفقدانات من ناحيه الوجودات لا بالعكس و الظلمه فقدان النور و لولا النور لم تنتقل لا الى نور و لا الى ظلمه،

و نحن و إن كنا نستمد في الحساب بالليل و النهار معا و نميز كلا منهما بالآخر ظهرا لكن ما هو الوجودى منهما أعنى النهار هو الذى يتعلق به إحساسنا أولا ثم نتنبه لما هو العدمى منها أعنى الليل بنوع من القياس، و كذلك الحال فى كل وجودى و عدمى مقيس اليه.

قوله تعالى: وَ كُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ قَالَ فى المجمع: الطائر هنا عمل الإنسان شبه بالطائر الذى يسبح و يتبرك به و الطائر الذى يبرح فيتشام به، و السانح الذى يجعل ميامنه الى مياسرك، و البارح الذى يجعل مياسره الى ميامنك، و الأصل فى هذا أنه إذ كان سانحا أمكن الرامى و إذا كان بارحا لم يمكنه قال أبو زيد: كل ما يجرى من طائر أو ظبى أو غيره فهو عندهم طائر. انتهى.

و فى الكشاف: أنهم كانوا يتفألون بالطير و يسمونه زجرا فإذا سافروا و مر بهم طير زجروه فإن مر بهم سانحا بأن مر من جهة اليسار الى اليمين تيمنوا و إن مر بارحا بأن مر من جهة اليمين الى الشمال تشأموا و لذا سمي تطيرا. انتهى.

و قال فى المفردات: تطير فلان و أطير أصله التفأل بالطير ثم يستعمل فى كل ما يتفأل به و يتشام «قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ» و لذلك قيل: لا طير إلا طيرك و قال: «إِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا» أى يتشاموا به «أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ» أى شؤمهم ما قد أعد الله لهم بسوء أعماله، و على ذلك قوله: «قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ» «قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ» «قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ» «وَ كُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ» أى عمله الذى طار عنه من خير و شر و يقال:

تطايروا إذا أسرعوا و يقال إذا تفرقوا. انتهى.

و بالجمله سياق ما قبل الآيه و ما بعدها و خاصه قوله: «مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ» الخ؛ يعطى أن المراد بالطائر ما يستدل به على اليمينه و المشأمه و يكشف عن حسن العاقبه و سوئها فلكل إنسان شىء يرتبط بعاقبه حاله يعلم به كيفيتها من خير أو شر.

و إلزام الطائر جعله لازما له لا يفارقه، و إنما جعل الإلزام فى العنق لأنه العضو الذى لا

يمكن أن يفارقه الإنسان أو يفارقه هو الإنسان بخلاف الأطراف كاليد و الرجل، و هو العضو الذى يوصل الرأس بالصدر فيشاهد ما يعلق عليه من قلاده أو طوق أو غل أول ما يواجه الإنسان.

فالمراد بقوله: «وَكُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ» أن الذى يستعقب لكل إنسان سعادته أو شقائه هو معه لا يفارقه بقضاء من الله سبحانه فهو الذى ألزمه إياه، وهذا هو العمل الذى يعمل الإنسان لقوله تعالى: «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ» (النجم ٤١).

فالطائر الذى ألزمه الله الإنسان فى عنقه هو عمله، و معنى إلزامه إياه أن الله قضى أن يقوم كل عمل بعامله و يعود اليه خيره و شره و نفعه و ضرره من غير أن يفارقه الى غيره، و قد استفيد من قوله تعالى: «وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْءِدُهُمْ أَجْمَعِينَ... إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ الْآيَاتِ (الحجر ٤٥)» أن من القضاء المحتوم أن حسن العاقبه للايمان و التقوى و سوء العاقبه للكفر و المعصيه.

و لانزم ذلك أن يكون مع كل إنسان من عمله ما يعين له حاله فى عاقبه أمره معيه لازمه لا يتركه و تعيينا قطعيا لا يخطئ و لا يغلط لما قضى به أن كل عمل فهو لصاحبه ليس له إلا هو و أن مصير الطاعه الى الجنه و مصير المعصيه الى النار.

و بما تقدم يظهر أن الآيه إنما تثبت لزوم السعاده و الشقاء للانسان من جهه أعماله الحسنه و السيئه المكتسبه من طريق الاختيار من دون أن يبطل تأثير العمل فى السعاده و الشقاء بإثبات قضاء أزلئ يحتم للانسان سعاده أو شقاء سواء عمل أم لم يعمل و سواء أطاع أم عصى كما توهمه بعضهم.

قوله تعالى: «وَنُخْرِجْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا» يوضح حال هذا الكتاب قوله بعده: «أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا» حيث يدل أولا على أن

الكتاب الذى يخرج له هو كتابه نفسه لا يتعلق بغيره، و ثانياً أن الكتاب متضمن لحقائق أعماله التى عملها فى الدنيا من غير أن يفقد منها شيئاً كما فى قوله: يَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صِفَافَهُ وَلَا كَبِيرَهُ إِلَّا أَحْصَاهَا (الكهف ٤٩)، و ثالثاً أن الأعمال التى أحصاها باديها بحقائقها من سعادته أو شقاء ظاهره بنتائجها من خير أو شر ظهوراً لا يستتر بستر ولا يقطع بعدر، قال تعالى: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق ٢٢).

و بالجمله فى قوله: وَ نُخْرِجُ لَهُ إِشَارَهُ إِلَى أَنْ كِتَابِ الْأَعْمَالِ بِحَقَائِقِهَا مُسْتَوْرٍ عَنِ إِدْرَاكِ الْإِنْسَانِ مُحْجُوبٍ وَرَاءَ حِجَابِ الْغَفْلَةِ وَ إِنَّمَا يُخْرِجُهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لِلْإِنْسَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُطَلِّعُهُ عَلَى تَفَاصِيلِهِ، وَ هُوَ الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: «يَلْقَاهُ مَنْشُورًا».

قوله تعالى: اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا أى يقال له: اقرأ كتابك، الخ.

و قوله: كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْبَاءُ فِيهِ زَائِدَةٌ لِلتَّكْثِيرِ وَ أَصْلُهُ كَفَتِ نَفْسُكَ وَ إِنَّمَا لَمْ يُوْنِثِ الْفِعْلُ لِأَنَّ الْفَاعِلَ مُؤنْثٌ مُجَازِيٌّ يَجُوزُ مَعَهُ التَّذْكِيرُ وَ التَّنْثِيثُ، وَ رَبَّمَا قِيلَ: إِنَّهُ اسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَى اكْتَفَى وَ الْبَاءُ غَيْرُ زَائِدَةٍ، وَ رَبَّمَا وَجَّهَ بِغَيْرِ ذَلِكَ.

و فى الآيه دلالة على أن حجة للكتاب قاطعه بحيث لا يرتاب فيها قارئه و لو كان هو المجرم نفسه و كيف لا؟ و فيه معانيه نفس العمل و به الجزاء، قال تعالى: لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (التحریم ٧).

و الحال أن العمل سواء كان خيراً أو شراً لازم لصاحبه لا يفارقه و هو أيضاً محفوظ عليه فى كتاب سيخرج له يوم القيامة و ينشر بين يديه و يحاسب عليه، و إذا كان كذلك كان من الواجب على الإنسان أن لا يبادر الى اقتحام كل ما يهواه و يشتهيه و لا يستعجل ارتكابه بل يتوقف فى الامور و يتروى حتى يميز بينها و يفرق خيراً من شراً فيأخذ بالخير و يتحرز الشر.

قوله تعالى: مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ قَالَ فِي الْمَفْرَدَاتِ: الوزر الثقل تشبيها بوزر الجبل، ويعبر بذلك عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل قال تعالى: لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً الْآيَةَ؛ كقوله:

وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ قَالَ: وقوله: وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ أَي لَا- تحمل وزره من حيث يتعرى المحمول عنه. انتهى.

و الآية في موضع النتيجة لقوله: «وَكُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ» السخ؛ والجمله الثالثه «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ» تأكيد للجمله الثانيه «وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا».

و المعنى إذا كان العمل خيرا كان أو شرا يلزم صاحبه و لا يفارقه و هو محفوظ على صاحبه سيشاهده عند الحساب فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه و ينتفع به نفسه من غير أن يتبع غيره.

و من ضل عن السبيل فإنما يضل على نفسه و يتضرر به نفسه من دون أن يفارقه فيلحق غيره، و لا تتحمل نفس حامله حمل نفسه اخرى لا كما ربما يخيل لاتباع الضلال أنهم إن ضلوا فوبال ضلالهم على أئمتهم الذين أضلوههم و كما يتوهم المقلدون لآبائهم و أسلافهم أن آثامهم و أوزارهم لآبائهم و أسلافهم لا لهم.

نعم لأئمة الضلال مثل أوزار متبعيهم، و لمن سن سنه سيئه أوزار من عمل بها و لمن قال:

اتبعونا لنحمل خطاياكم آثام خطاياهم لكن ذلك كله وزر الإمامه و جعل السنه و تحمل الخطايا لا عين ما للعامل من الوزر بحيث يفارق عامله و يلحق المتبوع بل إن كان عينه فمعناه أن يعذب بعمل واحد اثنان.

قوله تعالى: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ظَاهِرَ السِّيَاقِ الْجَارِي فِي الْآيَةِ وَ مَا يَتْلُوهَا مِنَ الْآيَاتِ بَلْ هِيَ وَ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْمُعَذِّبِ التَّعْذِيبَ الدُّنْيَوِيَّ بِعَقُوبَةِ الْاسْتِئْصَالِ، وَ يُؤَيِّدُهُ خُصُوصَ سِيَاقِ النَّفْسِ «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ» حَيْثُ لَمْ يَقُلْ:

و لسننا معذبين و لا نعذب و لن نعذب بل قال: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ» الدال على استمرار النفس في

الماضى الظاهر فى انه كانت السنه الإلهيه فى الامم الخاليه الهالكه جاريه على أن لا يعذبهم إلا بعد أن يبعث اليهم رسولا يندرهم بعذاب الله.

قوله تعالى: وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا مَّا كُنَّا مُتْرَفِيهَا فَفَسَدُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَا تَدْمِيرًا قَالَ الرَّاعِبُ: الترفه التوسع فى النعمه يقال: أترف فلان فهو مترف-الى أن قال فى قوله: أمرنا مترفيها-هم الموصوفون بقوله سبحانه: فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ائْتَهَى. وقال فى المجمع: الترفه النعمه، قال ابن عرفه: المترف المتروك يصنع ما يشاء و لا يمنع منه، وقال: التدمير الإهلاك و الدمار الهلاك.

انتهى.

وقوله: وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا مَّا كُنَّا مُتْرَفِيهَا أى إذا دنا وقت هلاكهم من قبيل قولهم: إذا أراد العليل أن يموت كان كذا، وإذا أرادت السماء أنى مطر كان كذا، أى إذا دنا وقت موته و إذا دنا وقت إمطارها فإن من المعلوم أنه لا يريد الموت بحقيقه معنى الإراده و أنها لا تريد الإمطار كذلك، و فى القرآن: فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ الْآيَةَ.

و يمكن أن يراد به الإراده الفعلية و حقيقتها توافق الأسباب المقتضيه للشئ و تعاضدها على وقوعه، و هو قريب من المعنى الأول و حقيقته تحقق ما لهلاكهم من الأسباب و هو كفران النعمه و الطغيان بالمعصيه كما قال سبحانه: لئن شكرتم لأزيدنكم و لئن كفرتم إن عذابى لشديد (إبراهيم ٧)، و قال: الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ بِالْمُزْصَادِ (الفجر ١٤).

وقوله: أَمْرًا مَّا كُنَّا مُتْرَفِيهَا فَفَسَدُوا فِيهَا من المعلوم من كلامه تعالى أنه لا يأمر بالمعصيه أمرا تشريعيا فهو القائل: قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ (الأعراف ٢٨) و أما الأمر التكويني فعدم تعلقه بالمعصيه من حيث إنها معصيه أوضح لجعله الفعل ضروريا يبطل معه تعلقه باختيار الإنسان و لا معصيه مع عدم الاختيار قال تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا

أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس ٨٢).

فمتعلق الأمر فى قوله: «أَمْرًا» إن كان هو الطاعه كان الأمر بحقيقه معناه و هو الأمر التشريعى و كان هو الأمر الذى توجه اليهم بلسان الرسول الذى يبلغهم أمر ربهم و ينذرهم بعذابه لو خالفوا و هو الشأن الذى يختص بالرسول كما تقدمت الاشاره اليه فإذا خالفوا و فسقوا عن أمر ربهم حق عليهم القول و هو أنهم معذبون إن خالفوا فاهلكوا و دمروا تدميرا.

و إن كان متعلق الأمر هو الفسق و المعصيه كان الأمر مرادا به الاكثار من إفاضه النعم عليهم و توفيرها على سبيل الاملاء و الاستدراج و تقريبهم بذلك من الفسق حتى يفسقوا فيحق عليهم القول و ينزل عليهم العذاب.

و هذان وجهان فى معنى قوله: «أَمْرًا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا» يجوز توجيهه بكل منها لكن يبعد أول الوجهين أولا أن قولنا: أمرته ففعل و أمرته ففسق ظاهره تعلق الأمر بعين ما فرع عليه، و ثانيا عدم ظهور وجه لتعلق الأمر بالمترفين مع كون الفسق لجميع أهل القرية و إلا لم يهلكوا.

و قرئ «أمرنا» بالمد و نسب الى على عليه السلام و الى عاصم و ابن كثير و نافع و غيرهم و هو من الإيمان بمعنى إكثار المال و النسل أو بمعنى تكليف إنشاء فعل، و قرئ أيضا «أمرنا» بتشديد الميم من التأمير بمعنى توليه الإمارة و نسب ذلك الى على و الحسن و الباقر عليهم السلام و الى ابن عباس و زيد بن على و غيرهم.

قوله تعالى: وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَ كَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا قال فى المفردات: القرن القوم المقترنون فى زمن واحد و جمعه قرون قال: وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ أَنْتَهَى و معنى الآيه ظاهر، و فيها تثبيت ما ذكر فى الآيه السابقه من سنه الله الجاربه فى إهلاك القرى بالاشاره الى القرون الماضيه الهالكه.

و الآيه لا تخلو من إشعار بأن سنه الاهلاك إنما شرعت فى القرون الانسانيه بعد نوح عليه السلام و هو كذلك، و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ (البقره ٢١٣/) فى الجزء الثانى من الكتاب أن المجتمع الانسانى قبل زمن نوح عليه السلام كانوا على سذاجه الفطره ثم اختلفوا بعد ذلك.

قوله تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا العاجله صفه محذوفه الموصوف و لعل موصوفها الحياه بقرينه مقابلتها الآخره فى الآيه التاليه و هى الحياه الآخره، و قيل: المراد النعم العاجله و قيل: الأعراج الدينويه العاجله.

و فى المفردات: أصل الصلى لا يقاد النار. قال: و قال الخليل: صلى الكافر النار قاسى حرها يَصْلُونَهَا فَبُئِسَ الْمَصِيرُ و قيل: صلى النار دخل فيها، و أصلها غيره قال: فَسَوْفَ نُضِلُّهُ نَارًا أَنْتَهَى. و فى المجمع: الدحر الابعاد و المدحور المبعد المطرود يقال: اللهم ادحر عنا الشيطان أى أبعده أنتهى.

لما ذكر سبحانه سنته فى التعذيب الدينوى إثر دعوه رساله و أنه يهدى الامم الانسانيه الى الايمان و العمل الصالح حتى إذا فسدوا و أفسدوا بعث اليهم رسولا فإذا طغوا و فسقوا عذبهم عذاب الاستئصال، عاد الى بيان سنته فى التعذيب الأخرى و الإثابه فيها فى هذه الآيه و الآيتين بعدها يذكر فى آيه ملاك عذاب الآخره، و فى آيه ملاك ثوابها، و فى آيه محصل القول و الأصل الكلى فى ذلك.

فقوله: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ أى الذى يريد الحياه العاجله و هى الحياه الدنيا، و إرادته الحياه الدنيا إنما هى طلب ما فيها من المتاع الذى تلتذ به النفس و تعلق به القلب، و التعلق بالعاجله و طلبها إنما يعد طلبا لها إذا كان مقصوده بالاستقلال لا لأجل التوسل بها الى سعادته الاخرى و إلا كانت إرادته للآخره فإن الآخره لا يسلك إليها إلا من طريق الدنيا فلا

يكون الانسان مريداً للدنيا إلا إذا أعرض عن الآخرة و نسيها فتمحضت إرادته في الدنيا، و يدل عليه أيضا خصوص التعبير في الآية «مَنْ كَانَ يُرِيدُ» حيث يدل على استمرار الاراده.

و هذا هو الذى لا يرى لنفسه إلا هذه الحياه الماديه الدنيويه و ينكر الحياه الآخره، و بلغو بذلك القول بالنبوه و التوحيد إذا لا أثر للايمان بالله و رسله و التدين لو لا الاعتقاد بالمعاد، قال تعالى: فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ (النجم ٣٠).

و قوله: عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ أى أسرعنا فى إعطائه ما يريد فى الدنيا لكن لا بإعطائه ما يريد بل بإعطائه ما نريده بالأمر الينا لا اليه و الأثر لارادتنا لا لإرادته، و لا بإعطاء ما نعطيه لكل من يريد بل لمن نريد فليس يحكم فينا إرادته الأشخاص بل إرادتنا هى التى تحكم فيهم.

و إرادته سبحانه الفعلية لشيء هو اجتماع الأسباب على كينونته و تحقق العله التامه لظهوره فالآيه تدل على أن الانسان و هو يريد الدنيا يرزق منها على حسب ما يسمح له الأسباب و العوامل التى أجزاها الله فى الكون و قدر لها من الآثار فهو ينال شيئا مما يريد و يسأله بلسان تكوينه لكن ليس له إلا ما يهدى اليه الأسباب و الله من ورائهم محيط.

قوله تعالى: وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا قال الراغب: السعى المشى السريع و هو دون العدو، و يستعمل للجد فى الأمر خيرا كان أو شرا، انتهى موضع الحاجة.

و قوله: وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ أى الحياه الآخره نظير ما تقدم من قوله: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ» و الكلام فى قول من قال: يعنى من أراد بعمله الآخره نظير الكلام فى مثله فى الآيه السابقه.

و قوله: وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا اللام للاختصاص و كذا إضافه السعى الى ضمير

الآخره،و المعنى و سعى وجد للآخره السعى الذى يختص بها،و يستفاد منه أن سعيه لها يجب أن يكون سعيًا يليق بها و يحق لها كأن يكون يبذل كمال الجهد فى حسن العمل و أخذه من عقل قطعى أو حجه شرعيه.

و قوله: وَ هُوَ مُؤْمِنٌ أَى مؤمن بالله و يستلزم ذلك توحيد و الإذعان بالنبوه و المعاد فإن من لا يعترف بإحدى الخصال الثلاث لا يعده الله سبحانه فى كلامه مؤمنا به و قد تكاثرت الآيات فيه.

على أن نفس التقييد بقوله: وَ هُوَ مُؤْمِنٌ يكفى فى التقييد المذكور فان من أراد الآخره و سعى لها سعيها فهو مؤمن بالله و بنشأه وراء هذه النشأه الدينويه قطعاً فلولا أن التقييد بالإيمان لإفاده وجوب كون الإيمان صحيحاً و من صحته أن يصاحب التوحيد و الإذعان بالنبوه لم يكن للتقييد وجه فمجرد التقييد بالإيمان يكفى مؤونه الاستعانه بآيات أخر.

و قوله: فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً أى يشكره الله بحسن قبوله و الثناء على ساعيه،و شكره تعالى على عمل العبد تفضل منه على تفضل فإن أصل إثابته العبد على عمل عمله تفضل لأن من وظيفه العبد أن يعبد مولاه من غير وجوب الجزاء عليه فالإثابه تفضل، و الثناء عليه بعد الإثابه تفضل على تفضل و الله ذو الفضل العظيم.

و فى الآيتين دلالة على ان الأسباب الاخرويه و هى الأعمال لا تتخلف عن غاياتها بخلاف الأسباب الدينويه فإنه سبحانه يقول فىمن عمل للآخره فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً و يقول فىمن عمل للدنيا عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ .

قوله تعالى: كَلَّا نَبْدُدُ هَؤُلَاءِ وَ هَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً قال فى المفردات: أصل المد الجر و منه المده للوقت الممتد و مده الجرح و مد النهر و مده نهر آخر و مددت عيني الى كذا قال تعالى: وَ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَدَدَتِهِ فى غيه...

وَأَمَدَدَتِ الْجَيْشَ بِمَدَدِ الْإِنْسَانِ بِطَعَامٍ قَالَ: وَ أَكْثَرَ مَا جَاءَ الْإِمْدَادُ فِي الْمَحْبُوبِ وَ الْمَدِّ فِي الْمَكْرُوهِ نَحْوُ: وَ أَمَدَدْنَا هُمْ بِفَاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَ نَمَدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا وَ نَمْدُهُمْ فِي طَغْيَانِهِمْ وَ إِخْوَانُهُمْ يَمْدُونَهُمْ فِي الْغَيِّ انْتَهَى بِتَلْخِصٍ مِنَّا.

فإمداد الشيء و مده أن يضاف اليه من نوعه مثلاً ما يمتد به بقاءه و يدوم به وجوده و لولا ذلك لانقطع كالعين من الماء التي تستمد من المنبع و يضاف إليها منه الماء حيناً بعد حين و يمتد بذلك جريانها.

و قوله: هَوْلَاءٌ وَ هَوْلَاءٌ أَي هَوْلَاءُ الْمَعْجَلِ لَهُمْ وَ هَوْلَاءُ الْمَشْكُورِ سَعِيهِمْ بِمَا أَنْ لِكُلِّ مِنْهُمَا نَعْتُهُ الْخَاصُّ بِهِ، وَ يَثْوِلُ الْمَعْنَى إِلَى أَنْ كَلَامًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ تَحْتَ التَّرْبِيَةِ الْإِلَهِيَّةِ يَفِيضُ عَلَيْهِمْ مِنْ عَطَائِهِ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ غَيْرِ أَنْ أَحَدَهُمَا يَسْتَعْمَلُ النِّعْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ لِابْتِغَاءِ الْآخِرَةِ فَيَشْكُرُ اللَّهَ سَعِيَهُ، وَ الْآخَرُ يَسْتَعْمَلُهَا لِابْتِغَاءِ الْعَاجِلِ وَ يَنْسَى الْآخِرَةَ فَلَا يَبْقَى لَهُ فِيهَا إِلَّا الشَّقَاءُ وَ الْخَيْبَةُ.

و قوله: مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ فَإِنْ جَمِيعٌ مَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْهُ فِي أَعْمَالِهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ لَا صَنْعَ لَهُمْ وَ لَا لغيرهم من المخلوقين فيه بل الله سبحانه هو الموجد لها و مالكها فهي من عطائه.

و قوله: وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا أَي مَمْنُوعًا- وَ الْحِظْرُ الْمَنْعُ- فَأَهْلُ الدُّنْيَا وَ أَهْلُ الْآخِرَةِ مَسْتَمِدُونَ مِنْ عَطَائِهِ مَنْعُونَ بِنِعْمَتِهِ مَمْنُونُونَ بِمَنْتِهِ.

و في الآيه دلالة على أن العطاء الإلهي مطلق غير محدد بحد لمكان إطلاق العطاء و نفى الحظر في الآيه فما يوجد من التحديد و التقدير و المنع باختلاف الموارد فإنما هو من ناحيه المستفيض و خصوص استعداده للاستفاضه أو فقدانه من رأس لا من ناحيه المفيض.

قوله تعالى: أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَ لِلْمَآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفَضُّلاً إِشَارَةً إِلَى تَفَاوُتِ الدَّرَجَاتِ بِتَفَاوُتِ الْمَسَاعَى حَتَّى لَا- يَتَوَهَّمُ أَنْ قَلِيلَ الْعَمَلِ وَ كَثِيرَهُ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ وَ يَسِيرَ السَّعْيِ وَ السَّعْيَ الْبَالِغَ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا فَإِنْ تَسْوِيَهُ الْقَلِيلُ وَ الْكَثِيرُ وَ الْجِدُّ وَ الرَّدَى فِي الشُّكْرِ وَ الْقَبُولِ رَدٌّ فِي الْحَقِيقَةِ لِمَا يَزِيدُ بِهِ الْأَفْضَلَ عَلَى غَيْرِهِ.

وقوله: «نُظِرَ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ أَي بَعْضُ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ فِي الدُّنْيَا، وَالْقَرِينَةُ عَلَى هَذَا التَّقْيِيدِ قَوْلُهُ بَعْدَ: «وَ لِلَّٰخِرَةِ أَكْبَرُ» وَ التَّفْضِيلُ فِي الدُّنْيَا هُوَ مَا يَزِيدُ بِهِ بَعْضُ أَهْلِهَا عَلَى بَعْضٍ مِنْ أَعْرَاضِهَا وَ أَمْتَعَتِهَا كَالْمَالِ وَ الْجَاهِ وَ الْوَلَدِ وَ الْقُوَّةِ وَ الصِّيتِ وَ الرَّئَاسَةِ وَ السُّودِدِ وَ الْقَبُولِ عِنْدَ النَّاسِ.

وقوله: «وَ لِلَّٰخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلاً أَي هِيَ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا فِي الدَّرَجَاتِ وَ التَّفْضِيلِ فَلَا يَتَوَهَّمُ مَتَوَهَّمُ أَنَّ أَهْلَ الْآخِرَةِ فِي عَيْشِهِ سَوَاءٌ وَ لَا أَنَّ التَّفَاوُتَ بَيْنَ مَعَايِشِهِمْ كَتَّفَاوُتِ أَهْلِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ بَلِ الدَّارُ أَوْسَعُ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا لَا يُقَاسُ وَ ذَلِكَ أَنَّ سَبَبَ التَّفْضِيلِ فِي الدُّنْيَا هِيَ اخْتِلَافُ الْأَسْبَابِ الْكُونِيَّةِ وَ هِيَ مَحْدُودَةٌ وَ الدَّارُ دَارُ التَّرَاحُمِ وَ سَبَبُ التَّفْضِيلِ وَ اخْتِلَافُ الدَّرَجَاتِ فِي الْآخِرَةِ هُوَ اخْتِلَافُ النُّفُوسِ فِي الْإِيمَانِ وَ الْإِحْلَاصِ وَ هِيَ مِنْ أَحْوَالِ الْقُلُوبِ، وَ اخْتِلَافُ أَحْوَالِهَا أَوْسَعُ مِنْ اخْتِلَافِ أَحْوَالِ الْأَجْسَامِ بِمَا لَا يُقَالُ قَالَ تَعَالَى:

إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ (البقرة ٢٨٤) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَا لَكُمْ وَلَا بُنُونَ إِلَّا مَنِ اتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (الشعراء ٨٩).

ففي الآيه أمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَا بَيْنَ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنَ التَّفَاضُلِ وَ الْإِعْتِبَارِ لِيَجْعَلَ ذَلِكَ ذَرِيْعَةً إِلَى فَهْمِ مَا بَيْنَ أَهْلِ الْآخِرَةِ مِنْ تَفَاوُتِ الدَّرَجَاتِ وَ التَّفَاضُلِ فِي الْمَقَامَاتِ فَإِنَّ اخْتِلَافَ الْأَحْوَالِ فِي الدُّنْيَا يُؤَدِّي إِلَى اخْتِلَافِ الْإِدْرَاكَاتِ الْبَاطِنَةِ وَ النِّيَّاتِ وَ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَتَيَسَّرُ لِلنَّاسِ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا وَ اخْتِلَافُ ذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى اخْتِلَافِ الدَّرَجَاتِ فِي الْآخِرَةِ.

قوله تعالى: لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعَدَ مَذْمُومًا مَحْدُولًا قَالَ فِي الْمَفْرَدَاتِ: الْخِذْلَانُ تَرَكَ مِنْ يَظُنُّ بِهِ أَنْ يَنْصُرَ نَصْرَتَهُ انْتَهَى.

وَ الْآيَةُ بِمَنْزِلَةِ النَتِيْجَةِ لِلآيَاتِ السَّابِقَةِ الَّتِي ذَكَرْتُ سَنَةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَ خَتَمْتُ فِي أَنَّ مَنْ أَرَادَ مِنْهُمْ الْعَاجِلَةَ انْتَهَى بِهِ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَصِلِيَ جَهَنَّمَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا، وَ مَنْ أَرَادَ مِنْهُمْ الْآخِرَةَ شَكَرَ اللَّهَ سَعِيَةَ الْجَمِيلِ، وَ الْمَعْنَى لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ حَتَّى يُؤَدِيكَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ تَقْعَدَ وَ تَحْتَبِسَ عَنِ

السير الى درجات القرب و انت مذموم لا ينصرک الله و لا ناصر دونه و قيل: القعود كناية عن المذلة و العجز (١)(٢).

[سوره الإسراء (١٧): الآيات ٢٣ الى ٣٩]

اشاره

وَ قَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَ لَا تَنْهَرُهُمَا وَ قُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَ اخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَ آتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَ الْمَسْكِينِ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ لَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَ إِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ إِيْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (٢٨) وَ لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَ لَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (٢٩) إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَ لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطَاً كَبِيرًا (٣١) وَ لَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَ سَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَ لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ مَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣) وَ لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنْ الْعَهْدُ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُنْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقِسْطِ أَسْوَ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَ لَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصِيرَ وَ الْفؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَ لَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (٣٩)

ص: ٧٠٠

١- ١. الاسراء ٩-٢٢: بحث روائى فى القرآن.

٢- ٢. الاسراء ٩-٢٢: كلام فى القضاء فى فصول (فى تحصيل معناه و تحديده؛ نظره فلسفيه فى معنى القضاء) بحث فلسفى فى وجود الواجب تعالى.

قوله تعالى: وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴿١٦٣﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا ﴿١٦٤﴾ الخ؛ نفى و استثناء و «أن» مصدرية و يجوز ان يكون نهيا استثناء و أن مصدرية أو مفسره، و على أى حال ينحل مجموع المستثنى و المستثنى منه الى جملتين كقولنا: تعبدونه و لا تعبدون غيره و ترجع الجملتان بوجه آخر الى حكم واحد و هو الحكم بعبادته عن اخلاص.

و القول سواء كان منحلا الى جملتين أو عائدا الى جملة واحده متعلق القضاء و هو القضاء التشريعى المتعلق بالاحكام و القضايا التشريعية، و يفيد معنى الفصل و الحكم القاطع المولوى، و هو كما يتعلق بالأمر يتعلق بالنهى و كما يبرم الأحكام المثبتة يبرم الأحكام المنفية، و لو كان بلفظ الأمر فقيل: و أمر ربك ان لا تعبدوا الا اياه، لم يصح الا بنوع من التأويل و التجوز.

و الأمر باخلاص العبادة لله سبحانه أعظم الأوامر الدينيه و الاخلاص بالعباده أوجب الواجبات كما أن معصيته و هو الشرك بالله سبحانه أكبر الكبائر الموبقه، قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (النساء ٤٨).

و اليه يعود جميع المعاصى بحسب التحليل اذ لو لا- طاعه غير الله من شياطين الجن و الإنس و هوى النفس و الجهل لم يقدم الانسان على معصيه ربه فيما أمره به أو نهاه عنه و الطاعه عباده قال تعالى: أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ (يس ٦٠)، و قال:

أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴿٢٣﴾، حتى أن الكافر المنكر للصانع مشرك بالقائه زمام تدبير العالم الى الماده او الطبيعه او الدهر او غير ذلك و هو مقر بسداجه فطرته بالصانع

تعالى.

و لعظم أمر هذا الحكم قدمه على سائر ما عد من الأحكام الخطيره شأننا كعقوق الوالدين و منع الحقوق الماليه و التبذير و قتل الأولاد و الزنا و قتل النفس المحترمه و أكل مال اليتيم و نقض العهد و التطفيف فى الوزن و اتباع غير العلم و الكبير ثم ختمها بالنهى ثانيا عن الشرك.

قوله تعالى: وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا عطف على سابقه أى و قضى ربك بأن تحسنوا بالوالدين إحسانا او ان أحسنوا بالوالدين احسانا و الإحسان فى الفعل يقابل الإساءه و هذا بعد التوحيد لله من أوجب الواجبات كما أن عقوقهما أكبر الكبائر بعد الشرك بالله، و لذلك ذكره بعد حكم التوحيد و قدمه على سائر الأحكام المذكوره المعدوده و كذلك فعل فى عده مواضع من كلامه.

قوله تعالى: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ و لَا تَنْهَرْهُمَا و قُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا «إِمَّا» مركب من «إن» الشرطيه و «ما» الزائده و هى المصححه لدخول نون التأكيد على فعل الشرط، و الكبير هو الكبير فى السن و أف كلمه تفيد الضجر و الانزعاج، و النهر هو الزجر بالصياح و رفع الصوت و الاغلاظ فى القول.

فالآيه تدل على وجوب إكramهما و رعايه الأدب التام فى معاشرتهما و محاورتهما فى جميع الأوقات و خاصه فى وقت يشند حاجتهما الى ذلك و هو وقت بلوغ الكبير من احدهما او كليهما عند الولد و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: وَ اخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ و قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا خفض الجناح كناية عن المبالغه فى التواضع و الخضوع قولاً- و فعلاً- مأخوذ من خفض فرخ الطائر جناحه ليستعطف أمه لتغذيتها، و لذا قيده بالذل فهو دأب أفراخ الطيور إذا أرادت الغذاء من امهاتها، فالمعنى واجههما فى معاشرتك و محاورتك مواجهه يلوح منها تواضعك و خضوعك لهما و تذللك قبالهما رحمه بهما.

ص: ٧٠٣

هذا ان كان الذل بمعنى المسكنه و ان كان بمعنى المطاوعه فهو مأخوذ من خفض الطائر جناحه ليجمع تحته افراخه رحمه بها و حفظا لها.

وقوله: وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَحِمْتَ بَنِي صِدْقٍ أَي اذكر تربيتهما لك صغيرا فادع الله سبحانه أن يرحمهما كما رحماك و ربياك صغيرا.

قال في المجمع: و في هذا دلالة على أن دعاء الولد لوالده الميت مسموع و إلا لم يكن للامر به معنى. انتهى. و الذي يدل عليه كون هذا الدعاء في مظنه الإجابة و هو أدب ديني ينتفع به الولد و ان فرض عدم انتفاع والديه به على أن وجه تخصيص استجابته الدعاء بالوالد الميت غير ظاهر و الآيه مطلقه.

قوله تعالى: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا السياق يعطى أن تكون الآيه متعلقه بما تقدمها من إيجاب إحسان الوالدين و تحريم عقوقهما، و على هذا فهي متعرضه لما إذا بدرت من الولد بادره في حق الوالدين من قول أو فعل يتأذيان به، و إنما لم يصرح به للإشارة الى أن ذلك مما لا ينبغي أن يذكر كما لا ينبغي أن يقع.

فقوله: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ أَي أعلم منكم به، و هو تمهيد لما يتلوه من قوله: إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فيفيد تحقيق معنى الصلاح أي إن تكونوا صالحين و علم الله من نفوسكم ذلك فإنه كان، الخ؛ و قوله: فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا أَي للراجعين اليه عند كل معصيه و هو من وضع البيان العام موضع الخاص.

و المعنى: إن تكونوا صالحين و علم الله من نفوسكم و رجعتم و تبتم اليه في بادره ظهرت منكم على والديكم غفر الله لكم ذلك إنه كان للأوابين غفورا.

قوله تعالى: وَ آتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَ الْمَسْكِينِ وَ ابْنَ السَّبِيلِ تقدم الكلام فيه في نظائره، و بالآيه أن إيتاء ذى القربى و المسكين و ابن السبيل مما شرع قبل الهجرة لأنها آيه

مكيه من سوره مكيه.

قوله تعالى: وَلَا تُبْذِرْ تَبْدِيرًا إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: التبذير التفريق بالإسراف، وأصله أن يفرق كما يفرق البذر إلا أنه يختص بما يكون على سبيل الإفساد، وما كان على وجه الإصلاح لا يسمى تبذيرا وإن كثر. انتهى.

وقوله: إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ تعليل للنهي عن التبذير، والمعنى لا تبذر إنك إن تبذر كنت من المبذرين و المبذرون إخوان الشياطين، وكان وجه المواخاه بينهم أن الواحد منهم يصير ملازما لشیطانه و بالعكس كالأخوين الذين هما شقيقان متلازمان في أصلهما الواحد كما يشير إليه قوله تعالى: وَ قَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ (حم السجده / ٢٥)، وقوله: أُخْشِرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَرْوَاهُمْ (الصافات / ٢٢) أي قرناءهم: وقوله:

وَ إِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (الأعراف / ٢٠٢).

و من هنا يظهر أن تفسير من فسر الآيه بأنهم قرناء الشياطين أحسن من قول من قال:

المعنى أنهم أتباع الشياطين سالكون سبيلهم.

و أما قوله: «وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا» فالمراد بالشیطان فيه هو ابليس الذي أو أبو الشياطين و هم ذريته و قبيله و اللام حينئذ للعهد الذهني و يمكن أن يكون السلام للجنس و المراد به جنس الشيطان و على أي حال كونه كفورا لربه من جهة كفرانه بنعم الله حيث أنه يصرف ما آتاه من قوه و قدره و استطاعه في سبيل إغواء الناس و حملهم على المعصيه و دعوتهم الى الخطيئه و كفران النعمه.

وقد ظهرت مما تقدم النكته في جمع الشيطان أولا و إفراده ثانيا فإن الاعتبار أولا بأن كل مبذر أخو شيطانه الخاص فالجميع إخوان للشياطين و الاعتبار ثانيا بابليس الذي هو أبو الشياطين أو بجنس الشيطان.

ص: ٧٠٥

قوله تعالى: وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا أَوَّلَهُ إِنَّ تَعْرِضَ عَنْهُمْ وَ«مَا» زَائِدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ وَ النون للتأكيد.

و السياق يشهد بأن الكلام في إنفاق الأموال فالمراد بقوله: «وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ» الإعراض عن سألته شيئاً من المال ينفقه له و يسد به خلته؛ وليس المراد به كل إعراض كيف اتفق بل الإعراض عند ما ليس عنده شيء من المال يبذله له و ليس بآيس من وجدانه بدليل قوله: ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا أَي كُنْتَ تَعْرِضُ عَنْهُمْ لِأَنَّكَ لَكُنْتَ مَلِيئًا بِالْمَالِ شَحِيحًا بِهِ؛ وَ لَا لِأَنَّكَ فَاقِدٌ لَهُ آيسٌ مِنْ حَصُولِهِ بَلْ لِأَنَّكَ فَاقِدٌ لَهُ مَبْتَغٍ وَ طَالِبٌ لِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا يَعْنِي الرِّزْقَ.

و قوله: فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا أَي سهلاً لينا أَي لا- تغلظ في القول و لا- تجف في الرد كما قال تعالى: وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (الضحى ١٠) بل رده بقول سهل لين.

قال في الكشاف: و قوله: «ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ» إما أن يتعلق بجواب الشرط مقدماً عليه أَي فقل لهم قولاً سهلاً لينا وعدهم وعداً جميلاً رحمه لهم و تطيباً لقلوبهم ابتغاء رحمه من ربك أي ابتغ رحمه الله التي ترجوها برحمتك عليهم، و إما أن يتعلق بالشرط أَي و إن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك- فسمى الرزق رحمه- فرددوا جميلاً فوضع الابتغاء موضع الفقد لأن فاقد الرزق مبتغ له فكان الفقد سبب الابتغاء و الابتغاء مسبباً عنه فوضع المسبب موضع السبب. انتهى.

قوله تعالى: وَ لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَ لَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعِدَ مَلُومًا مَحْسُورًا جعل اليد مغلوله الى العنق كناية عن الإمساك كمن لا يعطى و لا يهب شيئاً لبخله و شح نفسه، و بسط اليد كل البسط كناية عن إنفاق الإنسان كل ما في وجهه بحيث لا- يبقى شيئاً كمن يبسط يده كل البسط بحيث لا- يستقر عليها شيء ففي الكلام نهى بالغ عن التفريط و الإفراط في الإنفاق.

وقوله: فَتَقَعْدَ مَلُومًا مَحْسُورًا متفرع على قوله: «وَلَا تَبْسُطْهَا» الخ؛ والحسر هو الانقطاع أو العرى أى ولا تبسط يدك كل البسط حتى يتعقب ذلك أن تقعد ملوما لنفسك وغيرك منقطعاً عن واجبات المعاش أو عريانا لا تقدر على أن تظهر للناس وتعاشرهم و تراودهم.

قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ظاهر السياق أن الآية فى مقام التعليل لما تقدم فى الآية السابقة من النهى عن الإفراط والتفريط فى إنفاق المال و بذله.

و المعنى: أن هذا دأب ربك و سنته الجارية ببسط الرزق لمن يشاء و يقدر لمن يشاء فلا يبسطه كل البسط و لا يمسك عنه كل الإمساك رعايه لمصلحه العباد إنه كان بعباده خبيراً بصيراً و ينبغى لك أن تتخلق بخلق الله و تتخذ طريق الاعتدال و تتجنب الافراط و التفريط.

قوله تعالى: وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا الاملاق الفاقة و الفقر، و قال فى المفردات: الخطأ العدول عن الجهد و ذلك أضرَب: أحدها أن تريد غير ما تحسن ارادته و فعله، و هذا هو الخطأ التام المأخوذ به الانسان يقال: خطئ يخطأ و خطأه، قال تعالى: إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا و قال: وَ إِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ و الثانى أن يريد ما يحسن فعله و لكن يقع منه خلاف ما يريد فيقال: أخطأ اخطاء فهو مخطئ و هذا قد أصاب فى الاراده و أخطأ فى الفعل، و هذا المعنى بقوله: وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطْأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، و الثالث أن يريد ما لا يحسن فعله و يتفق منه خلافه فهذا مخطئ فى الإراده مصيب فى الفعل فهو مذموم بقصده غير محمود على فعله.

و جملة الأمر أن من أراد شيئاً فاتفق منه غيره يقال: أخطأ، و ان وقع منه كما أراد يقال:

أصاب، و قد يقال لمن فعل فعلاً لا يحسن أو أراد اراده لا يجمل: انه أخطأ، و لذا يقال: أصاب الخطأ و أخطأ الصواب و أصاب الصواب و أخطأ الخطأ و هذه اللفظه مشتركه كما ترى متردده

بين معان يجب لمن يتحرى الحقائق أو يتأملها. انتهى بتلخيص.

و فى الآيه نهى شديد عن قتل الأولاد خوفا من الفقر و الحاجه و قوله: «نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ» تعليل للنهى و تمهيد لقوله بعد: «إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا» .

و المعنى و لا- تقتلوا أولادكم خوفا من أن تبتلوا بالفقر و الحاجه فيؤديهم ذلك الى ذل السؤال أو ازدواج بناتكم من غير الأكفاء أو غير ذلك مما يذهب بكرامتكم فإنكم لستم ترزقونهم حتى تفقدوا الرزق عند فقركم و اعساركم بل نحن نرزقهم و اياكم ان قتلهم كان خطأ كبيرا.

و أما الآيه التى نحن فيها و أترابها فإنها تنهى عن قتل الأولاد خشيه إملاق، و لا موجب لحمل الأولاد على البنات مع كونه أعم، و لا- حمل الهون على خوف الفقر مع كونهما متغايرين فالحق أن الآيه تكشف عن سنه سيئه اخرى غير وأد البنات دفعا للهون و هى قتل الأولاد من ذكر و انثى خوفا من الفقر و الفاقه و الآيات تنهى عنه.

قوله تعالى: وَ لَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَ سَاءَ سَبِيلًا نهى عن الزنا و قد بالغ فى تحريمه حيث نهاهم عن أن يقربوه، و عله بقوله: «إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً» فأفاد أن الفحش صفة لازمه له لا- يفارقه، و قوله: «وَ سَاءَ سَبِيلًا» فأفاد أنه سبيل سيئ يودى الى فساد المجتمع فى جميع شئونه حتى ينحل عقده و يختل نظامه و فيه هلاك الإنسانيه و قد بالغ سبحانه فى وعيد من أتى به حيث قال فى صفات المؤمنين: وَ لَا يَزْنُونَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ يُخَلَّدُ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا (الفرقان ٧٠) (١).

قوله تعالى: وَ لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ

ص: ٧٠٨

(١- ١). الاسراء ٢٣-٣٩: كلام فى حرمه الزنا و هو بحث قرآنى اجتماعى.

أَشَدَّهُ نَهَى عَنْ أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَ هُوَ مِنَ الْكِبَائِرِ الَّتِي أَوْعَدَ اللَّهُ عَلَيْهَا النَّارَ قَالَ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّهُمْ يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَ سَيَصْلُونَ سَعِيرًا (النساء / ١٠).

و فى النهى عن الاقتراب مبالغه لإفاده اشتداد الحرمة.

و قوله: بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أَى بالطريقة التى هى أحسن و فيه مصلحة إنماء ماله، و قوله: «حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ» هو أوان البلوغ و الرشد و عند ذلك يرتفع عنه اليتيم فالتحديد بهذه الجملة لكون النهى عن القرب فى معنى الأمر بالصيانة و الحفظ كأنه قيل: احتفظوا على ماله حتى يبلغ أشده فتردوه إليه، و بعبارة أخرى الكلام فى معنى قولنا: لا تقربوا مال اليتيم ما دام يتيما، و قد تقدم بعض ما يناسب المقام فى سورة الأنعام آية ١٥٢.

قوله تعالى: وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئَلًا- أَى مسئول عنه و هو من الحذف و الإيصال السائغ فى الكلام، و قيل: المراد السؤال عن نفس العهد فان من الجائز أن تمثل الأعمال يوم القيامة فتشهد للانسان أو عليه و تشفع له أو تخصصه.

قوله تعالى: وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَ زُنُوتًا بِالْقِيسِ طاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا القسطاس بكسر القاف و ضمها هو الميزان قيل: رومى معرب و قيل:

عربى، و قيل مركب فى الأصل من القسط و هو العدل و طاس و هو كفه الميزان و القسطاس المستقيم هو الميزان العادل لا يخسر فى وزنه.

و قوله: ذَلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا- الخير هو الذى يجب أن يختاره الإنسان إذا تردد الأمر بينه و بين غيره، و التأويل هو الحقيقة التى ينتهى إليها الأمر، و كون إيفاء الكيل و الوزن بالقسطاس المستقيم خيرا لما فيه من الاتقاء من استراق أموال الناس و اختلاسها من حيث لا يشعرون و جلب و ثوقهم.

و كونهما أحسن تأويلا لما فيهما من رعايه الرشد و الاستقامة فى تقدير الناس معيشتهم فان

معايشهم تقوم في التمتع بأمته الحياه على أصلين اكتساب الأمتعه الصالحه للتمتع و المبادله على الزائد على قدر حاجتهم فهم يقدرون معيشتهم على قدر ما يسعهم أن يبذلوه من المال عينا أو قيمه، و على قدر ما يحتاجون اليه من الأمتعه المشتره فإذا خسروا بالتطيف و نقص الكيل و الوزن فقد اختلت عليهم الحياه من الجهتين جميعا، و ارتفع الأمن العام من بينهم.

و أما إذا أقيم الوزن بالقسط فقد أطل عليهم الرشد و استقامت أوضاعهم الاقتصاديه بإصابه الصواب فيما قدروا عليه معيشتهم و اجتلب و ثوقهم الى أهل السوق و استقر بينهم الأمن العام.

قوله تعالى: «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصِيرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا» القراءه المشهوره «لَا تَقْفُ» بسكون القاف و ضم الفاء من قفا يقفوا قفوا اذا اتبعه و منه قافيه الشعر لكونها في آخر المصراع تابعه لما تقدمها، و قرئ «لَا تَقْفُ» بضم القاف و سكون الفاء من قاف بمعنى قفا، و لذلك نقل عن بعض أهل اللغه أن قاف مقلوب قفا مثل جبذ مقلوب جذب، و منه القيافه بمعنى اتباع أثر الأقدام.

و الآيه تنهى عن اتباع ما لا علم به، و هى لاطلاقها تشمل الاتباع اعتقادا و عملا، و تحصل في مثل قولنا: لا تعتقد ما لا علم لك به و لا تقل ما لا علم لك به و لا تفعل ما لا علم لك به لأن في ذلك كله اتباعا.

قوله تعالى: «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا» المره شده الفرح بالباطل - كما قيل - و لعل التقييد بالباطل للدلاله على خروجه عن حد الاعتدال فإن الفرح الحق هو ما يكون ابتهاجا بنعمه من نعم الله شكرا له و هو لا يتعدى حد الاعتدال، و اما اذا فرح و اشتد منه ذلك حتى خف عقله و ظهر آثاره في افعاله و اقواله و قيامه و قعوده و خاصه في مشيه فهو من الباطل.

و قوله: «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا» نهى عن استعظام الانسان نفسه بأكثر

مما هو عليه لمثل البطر و الأشر و الكبر و الخيلاء، و انما ذكر المشى فى الأرض مرحا لظهور ذلك فيه.

و قوله: إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كناية عن ان فعالك هذا و انت تريد به اظهار القدره و القوه و العظمه انما هو و هم تتوهمه فإن هناك ما هو أقوى منك لا- يخترق بقدميك و هى الأرض و ما هو أطول منك و هى الجبال فاعترف بذلك أنك وضيع مهين فلا شىء مما يبتغيه الإنسان و يتنافس فيه فى هذه النشأه من ملك و عزه و سلطنه و قدره و سؤدد و مال و غيرها إلا- امور وهميه لا- حقيقه لها وراء الإدراك الإنسانى سخر الله النفوس للتصديق بها و الاعتماد فى العمل عليها لتعمير النشأه و تمام الكلمه، و لولا هذه الأوهام لم يعيش الإنسان فى الدنيا و لا تمت كلمته تعالى: وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (البقره ٣٦).

قوله تعالى: كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا الإشاره بذلك الى ما تقدم من الواجبات و المحرمات- كما قيل- و الضمير فى «سَيِّئُهُ» يرجع الى ذلك، و المعنى كل ما تقدم كان سيئه- و هو ما نهى عنه و كان معصيه من بين المذكورات- عند ربك مكروها لا يريد الله تعالى.

و فى غير القراءه المعروفه «سَيِّئُهُ» بفتح الهمزه و التاء فى آخرها و هى على هذه القراءه خبر كان و المعنى واضح.

قوله تعالى: ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمِ ذَلِكَ إِشَارَه الى ما تقدم من تفصيل التكاليف و فى الآيه إطلاق الحكمة على الأحكام الفرعيه و يمكن أن يكون لما تشتمل عليه من المصالح المستفاده إجمالاً من سابق الكلام.

قوله تعالى: وَ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا كرر سبحانه النهى عن الشرك و قد نهى عنه سابقاً اعتناء بشأن التوحيد و تفخيماً

لأمره، وهو كالوصله يتصل به لاحق الكلام بسابقه، ومعنى الآية ظاهر (١).

[سوره الإسراء (١٧): الآيات ٤٠ الى ٥٥]

إشاره

أَفَاصِفًاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠) وَلَقَدْ صَدَقَ رَبُّنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتِغَوْا إِلَيَّ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَ وَتَعَالَى عَمَّا يُقُولُونَ غُلُوبًا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسِيئًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسِيحُورًا (٤٧) أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨) وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أِذَا لَمَبَعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا (٥٣) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُزَحِّمَكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (٥٥)

ص: ٧١٢

بيان:

قوله تعالى: أَفَأَصْرَفْتُمْ رُبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا الإصفاء الإخلاص قال فى المجمع: تقول: أصفيت فلانا بالشىء آثرته به. انتهى.

خطاب لمن يقول منهم: ان الملائكة بنات الله أو بعضهم بنات الله و الاستفهام للانكار، و لعله بدل البنات من الاناث لكونهم يعدون الانوثة من صفات الخسه.

ص: ٧١٣

و المعنى اذا كان سبحانه ربكم لا رب غيره و هو الذى يتولى أمر كل شىء فهل تقولون انه آثركم بكرامه لم يتكرم به هو نفسه و هو انه خصكم بالبنيين و لم يتخذ لنفسه من الود الا الاناث و هم الملائكة الكرام الذين تزعمون انهم اناث انكم لتقولون قولاً عظيماً من حيث استتباعه التبعه السيئه.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا** قال فى المفردات:الصرف رد الشىء من حاله الى حاله او ابداله بغيره.قال:و التصريف كالصرف الا- فى التكثير،و اكثر ما يقال فى صرف الشىء من حاله الى حاله و من امر الى امر، و تصريف الرياح هو صرفها من حال الى حال قال تعالى: **وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا** منه تصريف الكلام و تصريف الدراهم.انتهى.

و قال:النفر الانزعاج من الشىء و الى الشىء كالفزع الى الشىء و عن الشىء يقال:نفر عن الشىء نفورا قال تعالى: **مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا** انتهى.

فقوله: **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا** معناه بشهادة السياق:و اقسام لقد رددنا الكلام معهم فى امر التوحيد و نفى الشرك من وجه الى وجه و حولناه من لحن الى لحن فى هذا القرآن فأوردناه بمختلف العبارات و بيناه بأقسام البيانات ليتذكروا و يتبين لهم الحق.

و قوله: **وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا** اى ما يزيدهم التصريف الا انزعاجا كلما استؤنف جىء ببيان جديد ورثهم نفره جديده.

قوله تعالى: **قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا** أعرض عن مخاطبتهم فصرف الخطاب الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم بأمره أن يكلمهم فى أمر التوحيد و نفى الشرك.و الذى يقولون به أن هناك آلهه دون الله يتولون جهات التدبير فى العالم على اختلاف مراتبهم و الواحد منهم رب لما يدبره كإله السماء و إله الأرض و إله الحرب و إله

و إذ كانوا شركاء من جهة التدبير لكل واحد منهم الملك على حسب ربوبيته و الملك من توابع الخلق الذى يختص به سبحانه حتى على معتقدهم (١) كان الملك مما يقبل فى نفسه أن يقوم به غيره تعالى و حب الملك و السلطنه ضرورى لكل موجود كانوا بالضرورة طالبين أن يناعوه فى ملكه و يتزعوه من يده حتى ينفرد الواحد منهم بالملك و السلطنه، و يتعين بالعزه و الهيمنه تعالى الله عن ذلك.

فملخص الحجج أنه لو كان معه آلهه كما يقولون و كان يمكن أن ينال غيره تعالى شيئاً من ملكه الذى هو من لزوم ذاته الفياضه لكل شىء و حب الملك و السلطنه مغروز فى كل موجود بالضرورة لطلب اولئك الآلهه أن ينالوا ملكه فيعزلوه عن عرشه و يزدادوا ملكا على ملك لحبهم ذلك ضروره لكن لا سبيل لأحد اليه تعالى عن ذلك.

فقوله: «إِذَا لَا يَبْتَغُوا إِلَهِي ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا» أى طلبوا سبيلاً- اليه ليغلبوه على ماله من الملك، و التعبير عنه تعالى بذى العرش و هو من الصفات الخاصه بالملك للدلاله على أن ابتغاءهم السبيل اليه انما هو لكونه ذا العرش و هو ابتغاء سبيل الى عرشه ليستقروا عليه.

و من هنا يظهر أن قول بعضهم ان الحجج فى الآيه هى فى معنى الحجج التى فى قوله تعالى:

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا الْآيَةَ (الأنبياء ٢٢) فى غير محله.

قوله تعالى: سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا التعالى هو العلو البالغ و لهذا وصف المفعول المطلق أعنى «عُلُوًّا» بقوله: «كَبِيرًا» فالكلام فى معنى تعالى تعاليا:

و الآيه تنزيه له تعالى عما يقولونه من ثبوت الآلهه و كون ملكه و ربوبيته مما يمكن أن يناله

١ - ١). كما نقل انهم كانوا يقولون فى التلبيه: لبيك لا- شريك لك الا شريكا هو لك تملكه و ما ملك و الكتب المقدسه البرهمنيه و البوذيه مملوءه ان الملك كله لله سبحانه.

غيره.

قوله تعالى: **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** الخ؛ الآيه و ما قبلها و ان كانت واقعه موقع التعظيم كقوله: **وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِئَامًا سُبْحَانَهُ** لكنها تفيد بوجه في الحجة المتقدمه فإنها بمنزله المقدمه المتممه لقوله: **«لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ»** الخ؛ فإن الحجة بالحقيقه قياس استثنائي و الذي بمنزله الاستثناء هو ما في الآيه من تسبيح الأشياء له سبحانه كأنه قيل: لو كان معه آلهه لكان ملكه في معرض المنازعه و المهاجمه لكن الملك من السماوات و الأرض و من فيهن ينزهه عن ذلك و يشهد أن لا شريك له في الملك فإنها لم تبدأ الا منه و لا تنتهى الا اليه و لا تقوم الا به و لا تخضع سجدا الا له فلا يتلبس بالملك و لا يصلح له الا هو فلا رب غيره.

و التسبيح تنزيه قولى كلامى و حقيقه الكلام الكشف عما فى الضمير بنوع من الإشاره اليه و الدلاله عليه غير أن الإنسان لما لم يجد الى اراده كل ما يريد الإشاره اليه من طريق التكوين طريقا التجأ الى استعمال الألفاظ و هى الأصوات الموضوعه للمعانى، و دل بها على ما فى ضميره، و جرت على ذلك سنه التفهيم و التفهم، و ربما استعان على بعض مقاصده بالإشاره بيده أو رأسه أو غيرهما، و ربما استعان على ذلك بكتابه أو نصب علامه.

و بالجمله فالذى يكشف به عن معنى مقصود قول و كلام و قيام الشىء بهذا الكشف قول منه و تكليم و ان لم يكن بصوت مقروع و لفظ موضوع، و من الدليل عليه ما ينسبه القرآن اليه تعالى من الكلام و القول و الأمر و نحو ذلك مما فيه معنى الكشف عن المقاصد و ليس من قبيل القول و الكلام المعهود عندنا معشر المتلسنين باللغات و قد سماه الله سبحانه قولا و كلاما.

و عند هذه الموجودات المشهوده من السماء و الأرض و من فيهما ما يكشف كشافا صريحا عن وحدانيه ربها فى ربوبيته و ينزهه تعالى عن كل نقص و شين فهى تسبح الله سبحانه.

ص: ٧١٦

و ذلك أنها ليست لها فى أنفسها إلا محض الحاجة و صرف الفاقه اليه فى ذاتها و صفاتها و أحوالها. و الحاجة أقوى كاشف عما اليه الحاجة لا- يستقل المحتاج دونه و لا ينفك عنه فكل من هذه الموجودات يكشف بحاجته فى وجوده و نقصه فى ذاته عن موجوده الغنى فى وجوده التام الكامل فى ذاته و بارتباطه بسائر الموجودات التى يستعين بها على تكميل وجوده و رفع نقائصه فى ذاته أن موجوده هو ربه المتصرف فى كل شىء المدبر لأمره.

ثم النظام العام الجارى فى الأشياء الجامع لشتاتها الرابط بينها يكشف عن وحده موجودها، و أنه الذى اليه بوحدته يرجع الأشياء و به بوحدته ترتفع الحوائج و النقائص فلا- يخلو من دونه من الحاجة، و لا- يتعزى ما سواه من النقيصه و هو الرب لا رب غيره و الغنى الذى لا فقر عنده و الكمال الذى لا نقص فيه.

فكل واحد من هذه الموجودات يكشف بحاجته و نقصه عن تنزه ربه عن الحاجة و براءته من النقص حتى أن الجاهل المثبت لربه شركاء من دونه أو المناسب اليه شيئاً من النقص و الشين تعالى و تقدس يثبت بذلك تنزهه من الشريك و ينسب بذلك اليه البراءه من النقص فإن المعنى تصور فى ضمير هذا الإنسان و اللفظ الذى يلفظه لسانه و جميع ما استخدمه فى تأديه هذا المقصود كل ذلك مور موجوده تكشف بحاجتها الوجوديه عن رب واحد لا شريك له و لا نقص فيه.

فمثل هذا الإنسان الجاحد فى كون جحوده اعترافاً مثل ما لو ادعى إنسان أن لا إنسان متكلماً فى الدنيا و شهد على ذلك قولاً فإن شهادته أقوى حجه على خلاف ما ادعاه و شهد عليه و كلما تكررت الشهاده على هذا النمط و كثر الشهود تأكدت الحجه من طريق الشهاده على خلافها.

فإن قلت: مجرد الكشف عن التنزه لا يسمى تسييحاً حتى يقارن القصد و القصد مما يتوقف على الحياه و أغلب هذه الموجودات عادمه للحياه كالأرض و السماء و أنواع الجمادات فلا

مخلص من حمل التسييح على المجاز فتسييحها دلالتها بحسب وجودها على تنزه ربها.

قلت: كلامه تعالى مشعر بأن العلم سار في الموجودات مع سريان الخلقه فلكل منها حظ من العلم على مقدار حظه من الوجود، و ليس لازم ذلك أن يتساوى الجميع من حيث العلم أو يتحد من حيث جنسه و نوعه أو يكون عند كل ما عند الإنسان من ذلك أو أن يفقه الإنسان بما عندها من العلم قال تعالى حكاية عن أعضاء الإنسان: **قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (حم السجده ٢١)** وقال: **فَقَالَ لَهُمْ وَاللْمَأْرُضِ اثْبَاتًا وَطُوعًا أَوْ كَرَاهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (حم السجده ١١)** والآيات في هذا المعنى كثيرة، و سيوافيك كلام مستقل في ذلك إن شاء الله تعالى.

و إذا كان كذلك فما من موجود مخلوق إلا و هو يشعر بنفسه بعض الشعور و هو يريد بوجوده إظهار نفسه المحتاجه الناقصه التي يحيط بها غنى ربه و كماله لا رب غيره فهو يسبح ربه و ينزهه عن الشريك و عن كل نقص ينسب اليه.

و بذلك يظهر أن لا- وجه لحمل التسييح في الآيه على مطلق الدلاله مجازا فالمجاز لا- يصار اليه إلا- مع امتناع الحمل على الحقيقه، و نظيره قول بعضهم: إن تسييح بعض هذه الموجودات قالى حقيقى كتسييح الملائكه و المؤمنين من الإنسان و تسييح بعضها حالى مجازى كدلاله الجمادات بوجودها عليه تعالى و لفظ التسييح مستعمل في الآيه على سبيل عموم المجاز، و قد عرفت ضعفه آنفا.

و الحق أن التسييح في الجميع حقيقى قالى غير أن كونه قاليا لا يستلزم أن يكون بألفاظ موضوعه و أصوات مقروعه كما تقدمت الإشاره اليه و قد تقدم في آخر الجزء الثانى من الكتاب كلام في الكلام نافع في المقام.

فقوله تعالى: **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ** يثبت لها تسييحا حقيقيا و هو تكلمها بوجودها و ما له من الارتباط بسائر الموجودات الكائنه و بيانها

تنزه ربها عما ينسب اليه المشركون من الشركاء و جهات النقص.

□
و قوله: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ تَعْمِيمَ التَّسْبِيحِ لِكُلِّ شَيْءٍ وَ قَدْ كَانَتْ الْجُمْلَةُ السَّابِقَةُ عَدَّتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَ تَزِيدُ عَلَيْهَا بِذِكْرِ الْحَمْدِ مَعَ التَّسْبِيحِ فَتَفِيدُ أَنْ كُلِّ شَيْءٍ كَمَا يَسْبُحُهُ تَعَالَى كَذَلِكَ يَحْمَدُهُ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِجَمِيلِ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ.»

و ذلك أنه كما أن عند كل من هذه الأشياء شيئاً من الحاجة و النقص عائدا الى نفسه كذلك عنده من جميل صنعه و نعمته تعالى شىء راجع اليه تعالى موهوب من لدنه، و كما أن إظهار هذه الأشياء لنفسها فى الوجود إظهار لحاجتها و نقصها كشف عن تنزه ربها عن الحاجة و النقص، و هو تسبيحها كذلك إبرازها لنفسها إبراز لما عندها من جميل فعل ربها الذى وراءها جميل صفاته تعالى فهو حمدها فليس الحمد إلا الثناء على الجميل الاختيارى فهى تحمد ربها كما تسبحه و هو قوله: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ.»

و بلفظ آخر اذا لوحظ الأشياء من جهه كشفها عما عند ربها بإبرازها ما عندها من الحاجة و النقص مع ما لها من الشعور بذلك كان ذلك تسييحا منها، و اذا لوحظت من جهه كشفها ما لربها باظهارها ما عندها من نعمه الوجود و سائر جهات الكمال فهو حمد منها لربها و اذا لوحظ كشفها ما عند الله سبحانه من صفه جمال أو جلال مع قطع النظر عن علمها و شعورها بما تكشف عنه كان ذلك دلالة منها عليه تعالى و هى آياته.

و هذا نعم الشاهد على أن المراد بالتسبيح فى الآيه ليس مجرد دلالتها عليه تعالى بنفى الشريك و جهات النقص فإن الخطاب فى قوله: «وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ» إما للمشركين و إما للناس أعم من المؤمن و المشرك و هم على أى حال يفقهون دلالة الأشياء على صانعها مع أن الآيه تنفى عنهم الفقه.

و لا يصغى الى قول من قال: إن الخطاب للمشركين و هم لعدم تدبرهم فيها و قله انتفاعهم بها كان فهمهم بمنزله العدم، و لا الى دعوى من يدعى أنهم لعدم فهمهم بعض المراد من

التسييح جعلوا ممن لا يفقه الجميع تغليبا.

و ذلك لأن تنزِيل الفهم منزله العدم او جعل البعض كالجَميع لا- يلائم مقام الاحتجاج و هو سبحانه يخاطبهم فى سابق الآيه بالحجه على التنزيه على أن هذا النوع من المسامحه بالتغليب و نحوه لا يحتمله كلامه تعالى.

و أما ما وقع فى قوله بعد هذه الآيه: وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِ؛ من نفى الفقه عن المشركين فليس يؤيد ما ذكره فإن الآيات تنفى عنهم فقه القرآن و هو غير نفى فقه دلالة الأشياء على تنزهه تعالى إذ بها تتم الحجه عليهم.

فالحق أن التسييح الذى تثبته الآيه لكل شىء هو التسييح بمعناه الحقيقى و قد تكرر فى كلامه تعالى إثباته للسموات و الأرض و من فيهن و ما فيهن و فيها موارد لا تحتمل إلا الحقيقه كقوله تعالى: وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ (الانباء ٧٩)، و قوله: إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْرَاقِ (ص ١٨)، و يقرب منه قوله: يَا جِبَالَ أُوبَىٰ مَعَهُ وَ الطَّيْرَ (سبأ ١٠)، فلا معنى لحملها على التسييح بلسان الحال.

و قد استفاضت الروايات من طرق الشيعة و أهل السنه أن للأشياء تسييحا و منها روايات تسييح الحصى فى كف رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و سيوافيك بعضها فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله تعالى.

و قوله: إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا أى يمهل فلا يعاجل بالعقوبه و يغفر من تاب و رجع اليه، و فى الوصفين دلالة على تنزهه تعالى عن كل نقص فإن لازم الحلم أن لا يخاف الفوت، و لازم المغفره أن لا يتضرر بالمغفره و لا بإفاضه الرحمه فملكه و ربوبيته لا يقبل نقصا و لا زوالا.

و قد قيل فى وجه هذا التذييل أنه إشاره الى أن الإنسان فى قصوره عن فهم هذا التسييح الذى لا يزال كل شىء مشتغلا به حتى نفسه بجميع أركان وجوده بأبلغ بيان، مخطئ من حقه

أن يؤاخذ به لكن الله سبحانه بحلمه مغفرتة لا يعاجله و يعفو عن ذلك إن شاء.

و هو وجه حسن و لازمه أن يكون الإنسان فى وسعه أن يفقه هذا التسييح من نفسه و من غيره، و لعلنا نوفق لبيانه إن شاء الله فى موضع يليق به.

قوله تعالى: **وَ إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّشْتُورًا** ظاهر توصيف الحجاب بالمستور أنه حجاب مستور عن الحواس على خلاف الحجابات المتداوله بين الناس المعموله لستر شىء عن شىء فهو حجاب معنى مضروب بين النبى صلى الله عليه و آله و سلم بما أنه قار للقرآن حامل له و بين المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة يحجبه عنهم فلا يستطيعون أن يفقهوا حقيقه ما عنده من معارف القرآن و يؤمنوا به و لا أن يدعوا بأنه رسول من الله جاءهم بالحق، و لذلك تولوا عنه إذا ذكر الله وحده و بالغوا فى إنكاره المعاد و رموه بأنه رجل مسحور، و الآيات التاليه تؤيد هذا المعنى.

و إنما وصف المشركين بقوله: **الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ** لأن إنكار الآخرة يلغو معه الإيمان بالله وحده و بالرساله فالكفر بالمعاد يستلزم الفر بجميع اصول الدين، و ليكون تمهيدا لما سيذكر من إنكارهم البعث.

و المعنى: إذا قرأت القرآن و تلوته عليهم جعلنا بينك و بين المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة— و فى توصيفهم بذلك ذم لهم— حجابا معنى محجوبا عن فهمهم فلا يسعهم أن يسمعوا ذكره تعالى وحده، و لا أن يعرفوك بالرساله الحقه، و لا أن يؤمنوا بالمعاد و يفقهوا حقيقته.

قوله تعالى: **وَ جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَ إِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحِيدَهُ وَ لَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا** الا-كنه جمع كن بالكسر و هو على ما ذكره الراغب ما يحفظ فيه الشىء و يستر به عن غيره، و الوقر الثقيل فى السمع، و فى المجمع: النفور جمع نافر، و هذا الجمع قياس فى كل فاعل اشتق من فعل مصدره على فعول مثل

ركوع و سجود و شهود. انتهى.

و قوله: **وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً** الخ؛ كالبيان للحجاب المذكور سابقا أى أعشينا قلوبهم بأغشيه و حجب حذار أن يفقهوا القرآن و جعلنا فى آذانهم وقرا و ثقلا أن يسمعه فهم لا يسمعون القرآن سمع قبول و لا يفقهونه فقه إيمان و تصديق كل ذلك مجازاه لهم بما كفروا و فسقوا.

و قوله: **وَ إِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَخِذَهُ** أى على نعت التوحيد و نفى الشريك ولوا على أديبارهم نافرين و أعرضوا عنه مستدبرين.

قوله تعالى: **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ** الى آخر الآيه؛ النجوى مصدر و لذا يوصف به الواحد و المثنى و المجموع و المذكر و المؤنث و هو لا يتغير فى لفظه.

و الآيه بمنزله الحجه على ما ذكر فى الآيه السابقه أنه جعل على قلوبهم أكنه أن يفقهوه و فى آذانهم وقرا فقوله: **«نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ»** الخ؛ ناظر الى جعل الوقر و قوله: **«وَ إِذْ هُمْ نَجْوَى»** الخ؛ ناظر الى جعل الأكنه.

يقول تعالى: نحن أعلم بآذانهم التى يستمعون بها اليك و بقلوبهم التى ينظرون بها فى أمرك - و كيف لا؟ و هو تعالى خالقها و مدبر أمرها فأخباره أنه جعل على قلوبهم أكنه و فى آذانهم وقرا أصدق و أحق بالقبول - فنحن أعلم بما يستمعون به و هو آذانهم فى وقت يستمعون اليك، و نحن أعلم أى بقلوبهم إذ هم نجوى إذ يناجى بعضهم بعضا متحرزين عن الإجهار و رفع الصوت و هم يرون الرأى إذ يقول الظالمون أى يقول القائلون منهم و هم ظالمون فى قولهم: إن تتبعون إلا رجلا مسحورا، و هذا تصديق أنهم لم يفقهوا الحق.

و فى الآيه إشعار بل دلالة على أنهم كانوا لا يأتونه صلى الله عليه و آله و سلم لاستماع القرآن علنا حذرا من اللائمه و إنما يأتونه متسترين مستخفين حتى إذا رأى بعضهم بعضا على هذا الحال تلاوموا

بالنجوى خوفاً أن يحس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و المؤمنون بموقفهم فقال بعضهم لبعض: إن تتبعون إلا- رجلاً مسحوراً، وبهذا يتأيد ما ورد في أسباب النزول بهذا المعنى، و سنورده إن شاء الله في البحث الروائي الآتى.

قوله تعالى: **أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَبِيحُونَ سَيِّئاً الْمَثَلُ بِمَعْنَى الْوَصْفِ، وَ ضَرَبَ الْأَمْثَالَ التَّوْصِيفَ بِالصِّفَاتِ وَ** معنى الآيه ظاهر، و هى تفيد أنهم لا- مطمع فى إيمانهم كما قال تعالى: **وَ سَيِّئَاءَ عَلَيْهِمْ أَمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا- يُؤْمِنُونَ** (يس ١٠).

قوله تعالى: **وَ قَالُوا أَ إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَ رُفَاتًا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا** قال فى المجمع: الرفات ما تكسر و بلى من كل شىء، و يكثر بناء فعال فى كل ما يحطم و يرضض يقال: حطام و دقاق و تراب و قال المبرد: كل شىء مدقوق مبالغ فى دقه حتى انسحق فهو رفات. انتهى.

فى الآيه مضى فى بيان عدم فقههم بمعارف القرآن حيث استبعدوا البعث و هو من أهم ما يثبت القرآن و أوضح ما قامت عليه الحجج من طريق الوحي و العقل حتى وصفه الله فى مواضع من كلامه بأنه «لا- ريب فيه» و ليس لهم حجة على نفيه غير أنهم استبعدوه استبعاداً.

و من أعظم ما يزين فى قلوبهم هذا الاستبعاد زعمهم أن الموت فناء للانسان و من المستبعد أن يتكون الشىء من عدم بحت كما قالوا: إذا كنا عظاماً و رفاتاً بفساد أبداننا عن الموت حتى إذا لم يبق منها إلا العظام ثم رمت العظام و صارت رفاتاً أنا لفى خلق جديد نعود أناسى كما كنا؟ ذلك رجح بعيد و لذلك رده سبحانه اليهم بتذكيرهم القدره المطلقه و الخلق الأول كما سيأتى.

قوله تعالى: **قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فى صُدُورِكُمْ** جواب عن استبعادهم، و قد عبروا فى كلامهم بقوله: «أ إذا كنا» فأمر سبحانه

نبه صلى الله عليه وآله وسلم أن يأمرهم أمر تسخير أن يكونوا حجاره أو حديدا، الخ؛ مما تبديله الى الإنسان أبعد وأصعب عندهم من تبديل العظام لرفات اليه.

فيكون إشاره الى أن القدره المطلقه الإلهيه لا يشقها شيء تريد تجديد خلقه سواء أ كان عظاما ورفاتا أو حجاره أو حديدا أو غير ذلك.

و المعنى: قل لهم ليكونوا شيئا أشد من العظام و الرفات حجاره أو حديدا أو مخلوقا آخر من الأشياء التي تكبر في صدورهم و يبالغون في استبعاد أن يخلق منه الإنسان- فليكونوا ما شاءوا فإن الله سيعيد اليهم خلقهم الأول و يعيدهم.

قوله تعالى: فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَى فَإِذَا أُجِبْتَ عَنْ اسْتِعَادِهِمْ بِأَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ أَيَامَا كَانُوا وَ إِلَى أَى حَالٍ وَ صَفِهِ تَحَوَّلُوا سَيَسْأَلُونَكَ وَ يَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا إِلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ الْخَلْقِ الْإِنْسَانِيَّةِ؟ فَاذْكُرْ لَهُمُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَ ذَكَرَهُمْ مِنْ وَصْفِهِ بِمَا لَا يَبْقَى مَعَهُ لِاسْتِعَادِهِمْ مَحَلٌ وَ هُوَ فَطَرَهُ إِيَّاهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لَمْ يَكُونُوا شَيْئًا وَ قُلْ: يُعِيدُكُمْ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

ففى تبديل لفظ الجلاله من قوله: «الذى خلقكم أول مره» إثبات الإمكان و رفع الاستبعاد براءه المثل.

قوله تعالى: فَسَيُيْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤْسَهُمْ وَ يَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا قَالَ الرَّاعِبُ: الْإِنْغَاظُ تَحْرِيكُ الرَّأْسِ نَحْوَ الْغَيْرِ كَالْمَتَعَجَبِ مِنْهُ. انتهى.

و المعنى: إذا قرعتم بالحجه و ذكرتهم بقدره الله على كل شيء و فطره إياهم أول مره وجدتهم يحركون اليك رءوسهم تحريك المستهزئ المستخف بك المستهين له و يقولون متى هو؟ قل عسى أن يكون قريبا فإنه لا سبيل الى العلم به و هو من الغيب الذى لا يعلمه إلا- الله لكن وصف اليوم معلوم باعلامه تعالى و لذا وصفه لهم واضعا الصفه مكان الوقت فقال: يوم يدعوكم فتستجيون بحمده، الآية.

قوله تعالى: **يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَ تَظُنُّونَ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا «يَوْمَ»** منصوب بفعل مضمر أى تبعثون يوم كذا و كذا و الدعوه هى أمره تعالى لهم أن يقوموا ليوم الجزاء و استجابتهم هى قبولهم الدعوه الإلهيه، وقوله: **«بِحَمْدِهِ»** حال من فاعل تستجيبون و التقدير تستجيبون متلبسين بحمده أى حامدين له تعدون البعث و الإعادة منه فعلا جميلا يحمد فاعله و يثنى عليه لأن الحقائق تنكشف لكم اليوم فيتين لكم أن من الواجب فى الحكمة الإلهيه أن يبعث الناس للجزاء و ان تكون بعد الاولى اخرى.

□
و قوله: **وَ تَظُنُّونَ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا** أى تزعمون يوم البعث أنكم لم تلبثوا فى القبور بعد الموت الا زمانا قليلا و ترون أن اليوم كان قريبا منكم جدا.

□
و قد صدقهم الله فى هذه المزعمه و ان خطأهم فيما ضربوا له من المده قال تعالى: **قَالَ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** (المؤمنون ١١٤)، و قال: **وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ** **وَ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ** (الروم ٥٦) الى غير ذلك من الآيات.

□
و فى التعرض لقوله: **«وَ تَظُنُّونَ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا»** تعريض لهم فى استبطائهم اليوم و استهزائهم به، و تأييد لما مر من رجاء قربه فى قوله: **قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا** أى و انكم ستعدونه قريبا، و كذا فى قوله: **«فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ»** تعريض لهم فى استهزائهم به و تعجبهم منه أى و انكم ستحمدونه يوم البعث و انتم اليوم تستبعدونه و تستهزون بأمره.

□
قوله تعالى: **وَ قُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمُ الْخَبْثَ يَلُوحُ مِنَ السَّيَاقِ** أن المراد بعبادى هم المؤمنون فالإضافه للتشريف، و قوله:

□
«قُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا» الخ؛ أى مرهم أن يقولوا فهو أمر و جواب أمر مجزوم، و قوله: **«الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»** أى الكلمه التى هى أحسن، و هو اشتمالها على الأدب الجميل و تعريها عن الخشونه و الشتم و سوء الأمر.

قوله تعالى: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأُ يَرْحَمَكُمْ أَوْ إِنَّ يَشَأُ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا قَدْ تَقَدَّمَ أَنْ الْآيَةَ وَمَا بَعْدَهَا تَتِمُّهُ السِّيَاقُ السَّابِقُ، وَعَلَى ذَلِكَ فَصَدَرَ الْآيَةَ مِنْ تَمَامِ كَلَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الَّذِي أَمَرَ بِالْقَائِمَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: «قُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا» الخ؛ وَذِيلُ الْآيَةِ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ خَاصَّةً فَلَا تُفْتَاتُ فِي الْكَلَامِ.

وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ فِي صَدْرِ الْآيَةِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا بِتَغْلِيْبِ جَانِبِ خِطَابِهِ عَلَى غَيْبَتِهِمْ، وَهَذَا أَنْسَبُ بِسِيَاقِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ وَتَلَاْحُقِ الْكَلَامِ، وَالْكَلَامُ لِلَّهِ جَمِيعًا.

وَكَيْفَ كَانَ قَوْلُهُ: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأُ يَرْحَمَكُمْ أَوْ إِنَّ يَشَأُ يُعَذِّبْكُمْ» فِي مَقَامِ تَعْلِيلِ الْأَمْرِ السَّابِقِ ثَانِيًا، وَيُفِيدُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَحَرَّزُوا مِنْ اغْلَاظِ الْقَوْلِ عَلَى غَيْرِهِمْ وَالْقَضَاءِ بِمَا اللَّهُ أَعْلَمُ بِهِ مِنْ سَعَادَةٍ أَوْ شِقَاءٍ كَمَا يَقُولُوا: فَلَانٌ سَعِيدٌ بِمَتَابَعِهِ النَّبِيِّ وَفَلَانٌ شَقِيٌّ وَفَلَانٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَفَلَانٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَرْجِعُوا الْأَمْرَ وَيَفُوضُوهُ إِلَى رَبِّهِمْ فَرَبِّكُمْ - وَالْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ وَغَيْرِهِ - أَعْلَمُ بِكُمْ وَهُوَ يَقْضِي فِيكُمْ عَلَى مَا عَلِمَ مِنْ اسْتِحْقَاقِ الرَّحْمَةِ أَوْ الْعَذَابِ إِنْ يَشَأُ يَرْحَمَكُمْ وَلَا يَشَأُ ذَلِكَ إِلَّا مَعَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ عَلَى مَا بَيْنَهُ فِي كَلَامِهِ أَوْ إِنْ يَشَأُ يُعَذِّبْكُمْ وَلَا يَشَأُ ذَلِكَ إِلَّا مَعَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ، وَمَا جَعَلْنَاكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا مَفُوضًا إِلَيْهِمْ أَمْرَهُمْ حَتَّى تَخْتَارَ لِمَنْ تَشَاءُ مَا تَشَاءُ فَتُعْطَى هِدَاةً وَتُحْرَمَ ذَاكَ.

وَمِنْ ذَلِكَ يَظْهَرُ أَنَّ التَّرْدِيدَ فِي قَوْلِهِ: «إِنَّ يَشَأُ يَرْحَمَكُمْ أَوْ إِنَّ يَشَأُ يُعَذِّبْكُمْ» بِاعْتِبَارِ الْمَشِيهِ الْمَخْتَلَفِ بِاخْتِلَافِ الْمَوَارِدِ بِالْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالطَّالِحِ وَأَنَّ قَوْلَهُ: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا» لِرَدِّعِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنْ يَتَعَمَّدُوا فِي نَجَاتِهِمْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالِانْتِسَابِ إِلَى قَبُولِ دِينِهِ نَظِيرَ قَوْلِهِ: لَيْسَ بِأُمَّتِيكُمْ وَلَا أُمَّانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزَى بِهِ (النِّسَاءُ/ ١٢٣) وَقَوْلِهِ: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ (البقرة ٦٢) وَأَيَّاتٍ أُخْرَى فِي هَذَا الْمَعْنَى.

قوله تعالى: وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا صَدَرَ الْآيَةِ تَوْسِعَهُ فِي مَعْنَى التَّعْلِيلِ السَّابِقِ كَأَنَّهُ قِيلَ: وَ كَيْفَ لَا يَكُونُ أَعْلَمُ بِكُمْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ أَنْتُمْ مِنْهُمْ.

و قوله: وَ لَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ كَأَنَّهُ تَمْهِيدٌ لِقَوْلِهِ: «وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا» وَ الْجُمْلَةُ تَذَكُّرُ فَضْلِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكُتَابِهِ الَّذِي هُوَ زَبُورٌ وَ فِيهِ أَحْسَنُ الْكَلِمَاتِ فِي تَسْبِيحِهِ وَ حَمْدِهِ تَعَالَى، وَ فِيهِ تَحْرِيزٌ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَرْغَبُوا فِي أَحْسَنِ الْقَوْلِ وَ يَتَأَدَّبُوا بِالْأَدَبِ الْجَمِيلِ فِي الْمَحَاوِرَةِ وَ الْكَلَامِ (١).

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٥٦ إلى ٦٥]

إشارة

قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَ لَا تَخْوِيلًا (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَ يَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) وَ إِنْ مِنْ قَوْمٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهُمْ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) وَ مَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَ آتَيْنَا نُوحًا الْبَيِّنَاتِ فَرَّ فَلَمَّا بَلَغْنَا الْأَنْبِيَاءَ الْأُمَّةَ وَ مَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَ نُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ إِذْ هَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣) وَ اسْتَفْزَزْ مِنْهُ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصُورِكَ وَ أَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجَلَكَ وَ شَارَكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَ عَدَهُمْ وَ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَ كَفَى بِرَبِّكَ وَ كَيْلًا (٦٥)

ص: ٧٢٧

(١-١). الاسراء ٤٠-٥٥: بحث روائي في تسييح الاشياء لله تعالى؛ ذكر الله.

قوله تعالى: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا. الزعم بتثيit الزاى مطلق الاعتقاد ثم غلب استعماله فى الاعتقاد الباطل، ولذا نقل عن ابن عباس أن ما كان فى القرآن من الزعم فهو كذب.

و الدعاء و النداء واحد غير أن النداء إنما هو فيما إذا كان معه صوت و الدعاء ربما يطلق على ما كان بإشاره أو غيرها، و ذكر بعضهم فى الفرق بينهما أن النداء قد يقال إذا قيل: يا أو أيا أو

نحوهما من غير أن يضم اليه الاسم، والدعاء لا يكاد يقال إلا إذا كان معه الاسم نحو يا فلان.

انتهى.

و الآية تحتج على نفى الوهيه آلهتهم من دون الله بأن الرب المستحق للعباده يجب أن يكون قادرا على إيصال النفع و دفع الضر إذ هو لازم ربوبيه الرب على أن المشركين مسلمون لذلك و إنما اتخذوا الآلهه و عبدوهم طمعا فى نفعهم و خوفا من ضررهم لكن الذين يدعونهم من دون الله لا يستطيعون ذلك فليسوا بآلهه، و الشاهد على ذلك أن يدعوهم هؤلاء الدين يعبدونهم لكشف ضرر مسهم أو تحويله عنهم الى غيرهم فإنهم لا يملكون كشفا و لا تحويلا.

و كيف يملكون من عند أنفسهم كشف ضرر أو تحويله و يستقلون بقضاء حاجه و رفع فاقه و هم فى أنفسهم مخلوقون لله يبتغون اليه الوسيله يرجون رحمته و يخافون عذاب باعتراف من المشركين.

قوله تعالى: **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ** الى آخر الآية؛ **«أُولَئِكَ»** مبتدأ و **«الَّذِينَ»** صفة له و **«يَدْعُونَ»** صلته و ضميره عائد الى المشركين، و **«يَبْتَغُونَ»** خبر **«أُولَئِكَ»** و ضمير و سائر ضمائر الجمع الى آخر الآية راجعه الى **«أُولَئِكَ»** و قوله: **«أَيُّهُمْ أَقْرَبُ»** بيان لابتغاء الوسيله لكون الابتغاء فحصا و سؤالا فى المعنى هذا ما يعطيه السياق.

و الوسيله على ما فسروه هى التوصل و التقرب، و ربما استعملت بمعنى ما به التوصل و التقرب و لعله هو الأنسب بالسياق بالنظر الى تعقيبه بقوله: **«أَيُّهُمْ أَقْرَبُ»** .

و المعنى -و الله أعلم- أولئك الذين يدعوهم المشركون من الملائكة و الجن و الإنس يطلبون ما يتقربون به الى ربهم يستعلمون أيهم أقرب؟ حتى يسلكوا سبيله و يقتدوا بأعماله ليتقربوا اليه تعالى كتقربه و يرجون رحمته من كل ما يستمدون به فى وجودهم و يخافون

عذاب فيطيعونه ولا يعصونه ان عذاب ربك كان محذورا يجب التحرز منه.

قوله تعالى: وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ذكروا أن المراد بالعذاب الشديد عذاب الاستئصال فيبقى للإهلاك المقابل له الإمامة بحتف أنف فالمعنى ما من قرية إلا نحن نميت أهلها قبل يوم القيامة أو نعذبهم عذاب الاستئصال قبل يوم القيامة إذ لا قرية بعد طى بساط الدنيا بقيام الساعة وقد قال تعالى: وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (الكهف ٨) ولذا قال بعضهم: إن الإهلاك للقرى الصالحة و التعذيب للقرى الطالحة.

وقوله: كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا أى اهلاك القرى او تعذيبها عذابا شديدا كان فى الكتاب مسطورا و قضاء محتوما، و بذلك يظهر أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ الذى يذكر القرآن أن الله كتب فيه كل شىء كقوله: وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (يس ١٢)، و قوله: وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (يونس ٦١).

فالحق ان الكتاب المبين هو متن (١) الأعيان بما فيه من الحوادث من جهه ضروره ترتب المعلولات على عللها، و هو القضاء الذى لا- يرد و لا- يبدل لا- من جهه امكان المادة و قوتها، و التعبير عنه بالكتاب و اللوح لتقريب الأفهام الى حقيقه المعنى بالتمثيل، و سنستوفى الكلام فى هذا البحث ان شاء الله فى موضع يناسبه.

قوله تعالى: وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ الى آخر الآيه؛ قد تقدم وجه اتصال الآيه بما قبلها و محصله ان الآيه السابقه افادت ان الناس -و آخر و هم كأوليهم- مستحقون بما فيهم من غريزه الفساد و الفسق لحلول الهلاك و سائر

ص: ٧٣٠

(١- ١). بما لها من الثبوت فى مرتبه عللها لا فى مرتبه انفسها «منه».

انواع العذاب الشديد، وقد قضى الله على القرى ان تهلك او تعذب عذاباً شديداً و هذا هو الذى منعنا ان نرسل بالآيات التى يقترونها فإن السابقين منهم اقترحوها فأرسلناها اليهم فكذبوا بها فأهلكناهم، وهؤلاء اللاحقون فى خلق سابقهم فلو أرسلنا بالآيات حسب اقتراحهم لكذبوا بها فحل الهلاك بهم لا محاله كما حل بسابقهم، وما يريد الله سبحانه ان يعاجلهم بالعقوبه.

□
□[□] و قوله: **إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ** التعبير عن الأمم الهالكة بالـأوليين المضايق للآخرين فيه ايماء الى ان هؤلاء آخر اولئك الأولين فهم فى الحقيقة امه واحده لآخرها من الخلق و الغريزه ما لأولها، و لديها من الحكم ما لصدرها و لذلك كانوا يقولون **مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ** (المؤمنون ٢٤) و يكررون ذكر هذه الكلمه.

و كيف كان فمعنى الآيه انا لم نرسل الآيات التى يقترونها-و المقترحون هم قريش-لأننا لو أرسلناها لم يؤمنوا و كذبوا بها فيستحقوا عذاب الاستئصال كما انا أرسلناها الى الأولين بعد اقتراحهم اياها فكذبوا بها فأهلكناهم لكننا قضينا على هذه الامه أن لا نعذبهم الا بعد مهله و نظره كما يظهر من مواضع من كلامه تعالى.

□[□] و قوله: **وَ آتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا** ثمود هم قوم صالح و لقد آتاهم الناقه آيه، و المبصره الظاهره اليه على حد ما فى قوله تعالى: **وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً** (الإسراء ١٢)، و هى صفه الناقه او صفه لمحذوف و التقدير آيه مبصره و المعنى و آتينا قوم ثمود الناقه حالكونها ظاهره بينه او حالكونها آيه ظاهره بينه فظلموا أنفسهم بسببها او ظلموا مكذبين بها.

□[□] و قوله: **وَ مَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً** أى ان الحكمه فى الإرسال بالآيات التخويف و الإنذار فإن كانت من الآيات التى تستتبع عذاب الاستئصال ففيها تخويف بالهلاك فى الدنيا و عذاب فى الآخرة، و إن كانت من غيرها ففيها تخويف و إنذار بعقوبه العقبي.

و ليس من البعيد ان يكون المراد بالتخويف إيجاد الخوف و الوحشه بارسال ما دون عذاب الاستئصال على حد ما فى قوله تعالى: أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (النحل ٤٧) فيرجع محصل معنى الآية انا لا نرسل بالآيات المقترحة لأننا لا نريد ان نعذبهم بعذاب الاستئصال و إنما نرسل ما نرسل من الآيات تخويفا ليحذروا بمشاهدتها عما هو اشد منها و افضع و نسب الوجه الى بعضهم.

قوله تعالى: وَ إِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحْسَبُ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَ نَخَوُّهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا فقرات الآية و هى اربع و اضحه المعانى لكنها بحسب ما بينها من الاتصال و ارتباط بعضها ببعض لا تخلد من إجمال و السبب الأصلى فى ذلك الفقرتين الوسطيين الثانيه و الثالثه.

فلم يبين سبحانه ما هذه الرؤيا التى أراها نبيه صلى الله عليه و آله و سلم و لم يقع فى سائر كلامه ما يصلح لأن يفسر به هذه الرؤيا، و الذى ذكره من رؤياه فى مثل قوله: إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَ لَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَيْتُمْ (الأنفال ٤٣) و قوله: لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ (الفتح ٢٧) من الحوادث الواقعة بعد الهجره و هذه الآية مكيه نازله قبل الهجره.

فالذى يهدى اليه الإمامان فى البحث أن المراد بالشجره الملعونه قوم من المنافقين المتظاهرين بالإسلام يتعرفون بين المسلمين إما بالنسل و إما بالعقیده و المسلك هم فتنه للناس، و لا ينبغى أن يرتاب فى أن فى سياق الآية تلويحا بالارتباط بين الفقرتين أعنى قوله:

«وَ مَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ» و خاصه بعد الإمامان فى تقدم قوله: «وَ إِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحْسَبُ بِالنَّاسِ» و تذييل الفقرات جميعا بقوله: «وَ نَخَوُّهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا» فإن ارتباط الفقرات بعضها ببعض ظاهر فى أن الآية بصدد الإشاره

الى أمر واحد هو سبحانه محيط به و لا ينفذ فيه عظه و تخويف إلا زياده فى الطغيان.

و يستفاد من ذلك أن الشأن هو أن الله سبحانه أرى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم فى الرؤيا هذه الشجره الملعونه و بعض أعمالهم فى الإسلام ثم بين لرسوله أن ذلك فتنه.

فقوله: **وَ إِذْ قُلْنَا لَكَ كَذًا و كَذًا و المعنى و اذكر للتثبت فيما ذكرنا لك فى هذه الآيات أن شيمه الناس الاستمرار فى الفساد و الفسوق و اقتداء أخلافهم بأسلافهم فى الإعراض عن ذكر الله و عدم الاعتناء بآيات الله، وقتنا قلنا لك ان ربك أحاط بالناس علما و علم أن هذه السنه ستجرى بينهم كما كانت تجرى.**

و قوله: **وَ مَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ** محصل معناه على ما تقدم أنه لم نجعل الشجره الملعونه فى القرآن التى تعرفها بتعريفنا، و ما أريناك فى المنام من أمرهم إلا- فتنه للناس و امتحانا و بلاء نمتحنهم و نبلوهم به و قد أحطنا بهم.

و قوله: **وَ نُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا** ضميرا الجمع للناس ظاهرا و المراد بالتخويف اما التخويف بالموعظه و البيان أو بالآيات المخوفه التى هى دون الآيات المهلكه المبيده، و المعنى و نخوف الناس فما يزيدهم التخويف الا طغيانا و لا أى طغيان كان بل طغيانا كبيرا أى انهم لا يخافون من تخويفنا حتى ينتهوا عما هم عليه بل يجيبوننا بالطغيان الكبير فهم يبالغون فى طغيانهم و يفرطون فى عنادهم مع الحق.

و سياق الآيه سياق التسليه فالله سبحانه يعزى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم فيها بأن الذى أراه من الأمر، و عرفه من الفتن، و قد جرت سنته تعالى على امتحان عباده بالمحن و الفتن، و قد اعترف بذلك غير واحد من المفسرين.

و يؤيد جميع ما تقدم ما ورد من طرق أهل السنه و اتفقت عليه أحاديث أئمه أهل

البيت عليهم السّلام أن المراد بالرؤيا فى الآيه هى رؤيا رآها النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى بنى اميه و الشجره شجرتهم و سيوافيك الروايات فى البحث الروائى الآتى ان شاء الله تعالى (١).

قوله تعالى: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَ أَسْبِغُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَسْبِغُ لِمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ فَنسُوهُنَّ مِنْ طِينٍ إِنَّهُ عَلَىٰ غَوَاةٍ شَدِيدٍ. قوله تعالى: وَأَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ أَي لَأَوْلَادِكُمْ وَقِيلَ: إِنَّهُ مَنْصُوبٌ عَلَى التَّمْيِيزِ. انتهى.

فالمعنى: و اذكر اذ قال ربك للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس، فكأنه قيل: فما ذا صنع؟ او فما ذا قال؟ اذ لم يسجد؟ فقيل: انه انكر الأمر بالسجده و قال أ أسجد-و الاستفهام للانكار-لمن خلقته من طين و قد خلقتنى من نار و هى اشرف من الطين.

قوله تعالى: قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لِنُؤْمِنُ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَخْتِنِكَ ذُرِّيَّتُهُ إِلَّا قَلِيلًا الْكَافِ فِي «أَرَأَيْتَكَ» زائده لا- محل لها من الإعراب و انما تفيد معنى الخطاب كما فى أسماء الإشاره، و المراد بقوله: «هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ» آدم عليه السلام و تكريمه على ابليس تفضيله عليه بأمره بالسجده و رجمه حيث أبى.

و من هنا يظهر أنه فهم التفضيل من أمر السجده كما أنه اجترأ على اراده اغواء ذريته مما جرى فى محاورته تعالى الملائكة من قولهم: أ تَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ (البقره ٣٠/١)، و قد تقدم تفسير الآيه ما ينفع هاهنا.

و الاحتناك-على ما فى المجمع-الاقطاع من الأصل، يقال: احتنك فلان ما عند فلان من مال أو علم اذا استقصاه فأخذه كله، و احتنك الجراد المزرع اذا أكله كله، و قيل: انه من قولهم:

ص: ٧٣٤

حنك الدابه بحبلها اذا جعل فى حنكها الأسفل حبلا- يقودها به، و الظاهر أن المعنى الأخير هو الأصل فى الباب، و الاحتناك الإلجام.

و المعنى: قال ابليس بعد ما عصى و أخذه الغضب الإلهى رب أ رأيت هذا الذى فضلته بأمرى بسجده و رجمى بمعصيته اقسام لئن اخرتنى الى يوم القيامة و هو مده مكث بنى آدم فى الأرض لألجمن ذريته الا قليلا منهم و هم المخلصون.

قوله تعالى: **قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا** قيل: الأمر بالذهاب ليس على حقيقته و إنما هو كناية عن تخليته و نفسه كما تقول لمن يخالفك: افعل ما تريد، و قيل: الأمر على حقيقته و هو تعبير آخر لقوله فى موضع آخر:

فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ و الموفور المكمل فالجزاء الموفور الجزاء الذى يوفى كله و لا يدخر منه شىء، و معنى الآية واضح.

قوله تعالى: **وَاسْتَفْزِرُ مِنْ أَسِيٍّ تَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَ أَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجَلَكَ** الى آخر الآية؛ الاستفزاز الازعاج و الاستنهاض بخفه و إسراع، و الإجلاب كما فى المجمع السوق بجلبه من السائق و الجلبه شدة الصوت، و فى المفردات: أصل الجلب سوق الشىء يقال: جلبت جلبا قال الشاعر: «و قد يجلب الشىء البعيد الجواب» و أجلبت عليه صحت عليه بقهر، قال الله عزّ و جل: **«وَ أَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجَلَكَ»** انتهى.

و الخيل-على ما قيل-الأفراس حقيقه و لا- واحد له من لفظه و يطلق على الفرسان مجازا، و الرجل بالفتح فالكسر هو الراجل كحذر و حاذر و كامل و كامل و هو خلاف الراكب، و ظاهر مقابله بالخيل أن يكون المراد به الرجاله و هم غير الفرسان من الجيش.

فقوله: **وَاسْتَفْزِرُ مِنْ أَسِيٍّ تَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ** أى استنهض للمعصيه من استطعت أن تستنهضه من ذريه آدم- و هم الذين يتولونه منهم و يتبعونه كما ذكره فى سوره الحجر- بصوتك، و كأن الاستفزاز بالصوت كناية عن استخفافهم بالوسوسه الباطله من غير

حقيقه، و تمثيل بما يساق الغنم و غيره بالنعيق و الزجر و هو صوت لا معنى له.

و قوله: «وَ أَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجْلِكَ أَى وَ صَحَّ عَلَيْهِمْ لِسُوْقِهِمْ إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ بِأَعْوَانِكَ وَ جِيوشِكَ فِرْسَانِهِمْ وَ رَجَالَتِهِمْ وَ كَأَنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ قَبِيلَهُ وَ أَعْوَانَهُ مِنْهُمْ مَنْ يَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ بِسُرْعَةٍ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْفِرْسَانِ فِي مَعْرَكَةِ الْحَرْبِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعْمَلُ فِي غَيْرِ مَوَارِدِ الْحَمَلَاتِ السَّرِيعَةِ كَالرَّجَالِ، فَالْخَيْلِ وَ الرَّجُلِ كَنَائِهِ عَنِ الْمُسْرَعِينَ فِي الْعَمَلِ وَ الْمَبْطُئِينَ فِيهِ وَ فِيهِ تَمَثِيلٌ نَحْوَ عَمَلِهِمْ.

و قوله: «وَ شَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ» الشَّرِكَةُ إِنَّمَا يَتَصَوَّرُ فِي الْمَلِكِ وَ الْإِخْتِصَاصِ وَ لَا يَزِمُهُ كَوْنُ الشَّرِيكِ سَهِيْمًا لِشَرِيكِهِ فِي الْإِنْتِفَاعِ الَّذِي هُوَ الْغَرَضُ مِنْ اتِّخَاذِ الْمَالِ وَ الْوَلَدِ فَإِنَّ الْمَالَ عَيْنَ خَارِجِيٍّ مُنْفَصِلٍ مِنَ الْإِنْسَانِ وَ كَذَا الْوَلَدِ شَخْصٌ إِنْسَانِيٌّ مُسْتَقِلٌّ عَنِ وُلْدِيهِ، وَ لَوْ لَا غَرَضُ الْإِنْتِفَاعِ لَمْ يَعْتَبَرِ الْإِنْسَانُ مَالِيَهُ لِمَالٍ وَ لَا إِخْتِصَاصًا بِوَلَدِهِ.

و قوله: «وَ عَدُّهُمْ وَ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا أَى مَا يَعِدُهُمْ إِلَّا وَعْدًا غَارًا يَبْظَاهِرُ الْخَطَأَ فِي صَوْرِهِ الصَّوَابِ وَ الْبَاطِلَ عَلَى هَيْئِهِ الْحَقِّ فَالْغُرُورُ مُصَدَّرٌ بِمَعْنَى اسْمِ الْفَاعِلِ لِلْمَبَالِغَةِ.

قوله تعالى: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَ كَفَىٰ بِرَبِّكَ وَ كَيْلًا» المراد بعبادى أعم من المخلصين الذين استثناهم إبليس بقوله: «إِلَّا قَلِيلًا» بل غير الغاوين من أتباع إبليس كما قال فى موضع آخر: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ» (الحجر ٤٢) و الإضافة للتشريف.

و قوله: «وَ كَفَىٰ بِرَبِّكَ وَ كَيْلًا أَى قَائِمًا عَلَى نَفْسِهِمْ وَ أَعْمَالِهِمْ حَافِظًا لِمَنْفَعَتِهِمْ مُتَوَلِيًا لِأَمْرِهِمْ فَإِنَّ الْوَكِيلَ هُوَ الْكَافِلُ لِأُمُورِ الْغَيْرِ الْقَائِمِ مَقَامَهُ فِي تَدْبِيرِهَا وَ إِدَارَةِ رَحَائِهَا، وَ ذَلِكَ يَظْهَرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ وَ كَالْتِهَ الْخَاصَّةُ لِغَيْرِ الْغَاوِينَ مِنْ عِبَادِهِ كَمَا هُوَ فِي سُورَةِ الْحَجْرِ.

و قد تقدمت أبحاث مختلفه حول قصه سجده آدم نافعہ فى هذا المقام فى مواضع متفرقه من

اشاره

رُبُّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفُلُكَ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًا فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِبًا فَاصْبِرْ لِمَنْ رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِي رِجِّئِكُمْ لَأَبَدًا تَحَدُّوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَا هُمْ فِي الْوَجْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَا هُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَا هُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظَلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢)

ص: ٧٣٧

قوله تعالى: رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا الازجاء على ما فى مجمع البيان سوق الشىء حالاً- بعد حال فالمراد به إجراء السفن فى البحر بإرسال الرياح ونحوه وجعل الماء رطبا مائعا يقبل الجرى و الخرق، و الفلك جمع الفلكه و هى السفينه.

و ابتغاء الفضل طلب الرزق فإن الجواد إنما وجود غالبا بما زاد على مقدار حاجه نفسه و فضل الشىء ما زاد و بقى منه و من ابتدائه، و ربما قيل: إنها للتبعيض، و ذيل الآيه تليل للحكم بالرحمه، و المعنى ظاهر. و الآيه تمهيد لتاليها.

قوله تعالى: وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الضر الشده، و مس الضر فى البحر هو خوف الغرق بالاشراف عليه بعصف الرياح و تقاذف الأمواج و نحو ذلك.

و قوله: ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ المراد بالضلال-على ما ذكروا-الذهاب عن الخواطر دون الخروج عن الطريق و قيل: هو بمعنى الضياع من قولهم: ضل عن فلان كذا أى ضاع عنه و يعود على أى حال الى معنى النسيان.

و المراد بالدعاء دعاء المسأله دون دعاء العباده فيعم قوله: «مَنْ تَدْعُونَ» الإله الحق و الآلهه الباطله التى يدعوها المشركون، و الاستثناء متصل، و المعنى و إذا اشتد عليكم الأمر فى البحر بالإشراف على الغرق نسيتم كل إله تدعون و تسألونه حوائجكم إلا الله.

و الظاهر أن المراد بالضلال معناه المعروف و هو خلاف الهدى و الكلام مبنى على تمثيل لطيف كأن الإنسان إذا مسه الضر فى البحر و وقع فى قلبه أن يدعو لكشف ضره قصده آلهته الذين كان يدعوهم و يستمر فى دعائهم قبل ذلك و أخذوا يسعون نحوه و يتسابقون فى قطع

الطريق الى ذكره ليذكرهم و يدعوهم و يستغيث بهم لكنهم جميعا يضلون الطريق و لا ينتهون الى ذكره فينساهم و الله سبحانه مشهود لقلبه حاضر في ذكره يذكره الإنسان عند ذلك فيدعوه و قد كان معرضا عنه فيجيبه و ينجيه الى البر.

و بذلك يظهر أن المراد بالضلال معناه المعروف، و بمن تدعون آلهتهم من دون الله فحسب و أن الاستثناء منقطع و الوجه في جعل الاستثناء منقطعا أن الذى يبتنى عليه الكلام من معنى التشبيه لا يناسب ساحه قدسه تعالى لتزهره من السعى و الوقوع فى الطريق و قطعه و نحو ذلك.

مضافا الى أن قوله: **فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ** ظاهر فى أن المراد بالدعوه دعاء المسأله و أنهم فى البر أى فى حالهم العادى غير حال الضر معرضون عنه تعالى لا يدعونه فقوله: **«مَنْ تَدْعُونَ»** الظاهر فى استمرار الدعوه المراد به آلهتهم الذين كانوا يدعونهم فاستثناؤه تعالى استثناء منقطع.

و قوله: **«فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ»** أى فلما نجاكم من الغرق و كشف عنكم الضر رادا لكم الى البر اعرضتم عنه او عن دعائه و فيه دلالة على أنه تعالى غير مغفول عنه للإنسان فى حال و أن فطرته تهديه الى دعائه فى الضراء و السراء و الشده و الرخاء جميعا فإن الإعراض إنما يتحقق عن أمر ثابت موجود فقوله: إن الإنسان يدعوه فى الضر و يعرض عنه بعد كشفه فى معنى أنه مهدي اليه بالفطره دائما.

و قوله: **وَ كَانَ الْإِنْسَانُ كُفُورًا** أى إن الكفران من دأب الإنسان من حيث ان له الطبيعه الإنسانيه فإنه يتعلق بالأسباب الظاهريه فينسى مسبب الأسباب فلا يشكره تعالى و هو يتقلب فى نعمه الظاهره و الباطنه.

قوله تعالى: **أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً** خسوف القمر استتار قرصه بالظلمه و الظل و خسف الله به

الأرض اى ستره فيها،و الحاصب-كما فى المجمع-الرياح التى ترمى بالحصباء و الحصى الصغار و قيل:الحاصل الرياح المهلكه فى البر و القاصف الرياح المهلكه فى البحر.

و الاستفهام للتوبيخ يوبخهم الله تعالى على إعراضهم عن دعائه فى البر فإنهم لا مؤمن لهم من مهلكات الحوادث فى البر كما لا مؤمن لهم حال مس الضر فى البحر إذ لا علم لهم بما سيحدث لهم و عليهم فمن الجائز أن يخسف الله بهم جانب البر أو يرسل عليهم ريحا حاصبا فيهلكهم بذلك ثم لا يجدوا لأنفسهم وكيلا يدفع عنهم الشده و البلاء و يعيد إليهم الأمن و السلام.

قوله تعالى: أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ القصف الكسر بشده و قاصف الرياح هى التى تكسر السفن و الأبنيه،و قيل:القاصف الرياح المهلكه فى البحر و التبع هو التابع يتبع الشىء،و ضمير «فيه» للبحر و ضمير «به» للغرق أو للارسال أولهما معا باعتبار ما وقع و لكل قائل،و الآية من تمام التوبيخ.

و المعنى أم هل أمنت ببنجاتكم الى البر أن يعيدكم الله فى البحر تاره اخرى فيرسل عليكم ريحا كاسره للسفن أو مهلكه فيغرقكم بسبب كفركم ثم لا تجدوا بسبب الإغراق أحدا يتبع الله لكم عليه فيسأله لم فعل هذا بكم؟ و يؤاخذة على ما فعل.

و فى قوله: ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْهَا بِه تَبِيعًا التفتات من الغيبه الى التكلم بالغير و كأن النكته فيه الظهور على الخصم بالعظمه و الكبرياء.و هو المناسب فى المقام،و ليكون مع ذلك توطئه لما فى الآيات التالیه من سياق التكلم بالغير.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ كَرَّمْنَا بَيْنَى آدَمَ وَ حَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا الْآيَةِ مسوقه للامتنان مشوبا بالعتاب كأنه تعالى لما ذكر وفور نعمه و تواتر فضله و رحمته على الانسان،و حمله فى البحر ابتغاء فضله و رزقه،و رفاه حاله فى البر ثم نسيانه لربه و اعراضه عن دعائه إذا نجاه

و كشف ضره كفرانا مع أنه متقلب دائما بين نعمه التي لا تحصى نبه على جملة تكريمه و تفضيله ليعلم بذلك مزيد عنايته بالإنسان و كفران الإنسان لنعمه على كثرتها و بلوغها.

و قوله: وَ حَمَلْنَاَهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ أَي حملناهم على السفن و الدواب و غير ذلك يركبونها الى مقاصدهم و ابتغاء فضل ربهم و رزقه، و هذا أحد مظاهر تكريمهم.

و قوله: وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَي من الأشياء التي يستطيبونها من أقسام النعم من الفواكه و الثمار و سائر ما يتنعمون به و يستلذونه مما يصدق عليه الرزق، و هذا أيضا أحد مظاهر التكريم فمثل الانسان في هذا التكريم الإلهي مثل من يدعى الى الضيافة و هي تكريم ثم يرسل إليه مركوب يركبه للحضور لها و هو تكريم ثم يقدم عليه أنواع الأغذية و الأطعمه اللذيذه و هو تكريم.

و بذلك يظهر أن عطف قوله: «وَ حَمَلْنَاَهُمْ» الخ؛ و قوله: «وَ رَزَقْنَاهُمْ» الخ؛ على التكريم من قبيل عطف المصاديق المترتبة على العنوان الكلي المنتزع منها.

و قوله: وَ فَضَّلْنَاَهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً لا يبعد أن يكون المراد بمن خلقناهم أنواع الحيوان ذوات الشعور و الجن الذي يثبته القرآن فإن الله سبحانه يعد أنواع الحيوان امما أرضيه كالامه الإنسانية و يجريها مجرى اولى العقل كما قال: وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .

و هذا هو الأنسب بمعنى الآية و قد عرفت أن الغرض منها بيان ما كرم الله به بنى آدم و فضلهم على سائر الموجودات الكونية و هي -فيما نعلم- الحيوان و الجن و أما الملائكة فليسوا من الموجودات الكونية الواقعة تحت تأثير النظام المادى الحاكم فى عالم المادة.

فالمعنى: و فضلنا بنى آدم على كثير مما خلقنا و هم الحيوان و الجن و أما غير الكثير و هم الملائكة فهم خارجون عن محل الكلام لأنهم موجودات نوريه غير كونه و لا داخله فى مجرى

النظام الكونى، والآيه إنما تتكلم فى الإنسان من جهة أنه أحد الموجودات الكونيه و قد انعم عليه بنعم نفسه و إضافيه (١).

قوله تعالى: يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمَّ الْيَوْمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالظُّرْفُ مَتَّعٌ بِمَقْدَرِ أَيِّ أَذْكَرِ يَوْمٍ كَذَا، و الإمام المقتدى و قد سَمَى اللهُ سبحانه بهذا الاسم أفراداً من البشر يهدون الناس بأمر الله كما فى قوله: قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا (البقره ١٢٤) و قوله:

وَجَعَلْنَا هُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا (الأنبياء ٧٣) و أفراداً آخرين يقتدى بهم فى الضلال كما فى قوله: فَقاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ (التوبه ١٢).

و سَمَى به أيضا التوراه كما فى قوله: وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَ رَحْمَةً (هود ١٧)، و ربما استفيد منه أن الكتب السماويه المشتمله على الشريعه ككتاب نوح و إبراهيم و عيسى و محمد عليه السلام جميعا أئمه.

و سَمَى به أيضا اللوح المحفوظ كما هو ظاهر قوله تعالى: وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (يس ٦٢).

و لما كان ظاهر الآيه أن لكل طائفة من الناس إماما غير ما غيرها فإنه المستفاد من إضافه الإمام الى الضمير الراجع الى كل اناس لم يصلح أن يكون المراد بالإمام فى الآيه اللوح لكونه واحدا لا اختصاص له باناس دون أناس.

و أيضا ظاهر الآيه أن هذه الدعوه تعم الناس جميعا من الأولين و الآخرين و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ (البقره ٢١٣) أن أول الكتب السماويه المشتمله على الشريعه هو كتاب نوح عليه السلام و لا كتاب قبله فى هذا الشأن، و بذلك يظهر عدم صلاحيه كون الإمام فى الآيه مرادا به الكتاب

ص: ٧٤٢

و إلا خرج من قبل نوح من شمول الدعوه فى الآيه.

فالمتمعين أن يكون المراد بإمام كل اناس من يأتون به فى سبيلى الحق و الباطل كما تقدم أن القرآن يسميهما إمامين أو إمام الحق خاصه و هو الذى يجتبيه الله سبحانه فى كل زمان لهدايه أهله بأمره نبيا كان كإبراهيم و محمد عليهما الصلاه و السلام أو غير نبى، و قد تقدم تفصيل الكلام فيه فى تفسير قوله: **وَ إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** (البقره ١٢٤).

لكن المستفاد من مثل قوله فى فرعون و هو من أئمه الضلال: **يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ** (هود ٩٨) و قوله: **لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُضُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ** (الأنفال ٣٧) و غيرهما من الآيات و هى، كثيره أن أهل الضلال لا يفارقون أولياءهم المتبوعين يوم القيامة، و لازم ذلك أن يصاحبوهم فى الدعوه و الإحضار.

على أن قوله: **«بِإِمَامِهِمْ»** مطلق لم يقيد بالإمام الحق الذى جعله الله إماما هاديا بأمره، و قد سمي مقتدى الضلال إماما كما سمي مقتدى الهدى إماما و سياق ذيل الآيه و الآيه الثانيه أيضا مشعر بأن الإمام المدعو به هو الذى اتخذته الناس إماما و اقتدارا به فى الدنيا لا من اجتهاده الله للإمامه و نصبه لهدايه بأمره سواء اتبعه الناس أو رفضوه.

فالظاهر أن المراد بإمام كل أناس فى الآيه من ائتموا به سواء كان إمام حق أو إمام باطل، و ليس كما يظن أنهم ينادون بأسماء أئمتهم فيقال: يا أمه إبراهيم و يا أمه محمد و يا آل فرعون و يا آل فلان فإنه لا يلائمه ما فى الآيه من التفریع أعنى قوله: **فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ وَ مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ** الخ؛ إذ لا تفرع بين الدعوه بالإمام بهذا المعنى و بين إعطاء الكتاب باليمين أو العمى.

بل المراد بالدعوه-على ما يعطيه سياق الذيل-هو الإحضار فهم محضرون بإمامهم ثم

يأخذ من اقتدى بامام حق كتابه يمينه و يظهر عمى من عمى عن معرفه الإمام الحق فى الدنيا و اتباعه، هذا ما يعطيه التدبر فى الآيه.

قوله تعالى: **فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ فَأُولَئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَ لَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا** الفتيلا هو المفتول الذى فى شق النواه، وقيل: الفتيلا هو الذى فى بطن النواه و النقىر فى ظهرها و القطمير شق النواه.

و تفريع التفصيل على دعوتهم بامامهم دليل على أن ائتمامهم هو الموجب لانقسامهم الى قسمين و تفرقهم فريقين: من اوتى كتابه يمينه و من كان أعمى و أضل سبيلا فالإمام إمامان:

امام هدى و إمام ضلال، و هذا هو الذى قدمناه أن تفريع التفصيل يشهد بكون المراد بالإمام أعم من إمام الهدى.

و يشهد به أيضا تبديل إيتاء الكتاب بالشمال أو من وراء الظهر كما وقع فى غير هذا الموضع من قوله: **وَ مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى** الخ.

و المعنى -باعانه من السياق- فيتفرقون حينئذ فريقين فالذين أعطوا صحيفه أعمالهم بأيمانهم فاولئك يقرءون كتابهم فرحين مستبشرين مسرورين بالسعاده و لا يظلمون مقدار فتيل بل يوفون اجورهم تامه كامله.

قوله تعالى: **وَ مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَ أَضَلُّ سَبِيلًا** المقابله بين قوله: «**فِي هَذِهِ**» و «**فِي الْآخِرَةِ**» دليل على أن الإشاره بهذه الى الدنيا كما أن كون الآيه مسوقه لبيان التطابق بين الحياه الدنيا و الآخره دليل على أن المراد بعمى الآخره عمى البصيره كما أن المراد بعمى الدنيا ذلك قال تعالى: **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** و يؤيد ذلك أيضا تعقيب عمى الآخره بقوله: «**وَ أَضَلُّ سَبِيلًا**» .

إشارة

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَا أَنْ تَبْتَئَكَ لَقَدْ كَدْتُمْ تَزَكُّنَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذَا كَادَفْتَاكَ ضَعْفَ الْحَيَاءِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْمَارِضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سَيِّئَةٌ مِمَّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) أَقِمِ الصَّلَاةَ لِادِّلُوكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)

قوله تعالى: وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ حَلِيلًا إِنَّ مَخْفَفَهُ بِدَلِيلِ اللَّامِ فِي «لَيَفْتِنُونَكَ» و الفتنة الازلال و الصرف، و الخيل من الخله بمعنى الصداقه و ربما قيل: هو من الخله بمعنى الحاجه و هو بعيد.

و ظاهر السياق أن المراد بالذى أوحينا إليك القرآن بما يشتمل عليه من التوحيد و نفى الشريك و السيره الصالحه و هذا يؤيد ما ورد فى بعض أسباب النزول أن المشركين سألوا النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم أن يكف عن ذكر آلهم بسوء و يبعد عن نفسه عبيدهم المؤمنين به و السقاط حتى يجالسوه و يسمعوا منه فنزلت الآيات.

و المعنى: و إن المشركين اقتربوا أن يزلوك و يصرفوك عما أوحينا إليك لتتخذ من السيره و العمل ما يخالفه فيكون فى ذلك افتراء علينا لانتسابه بعملك إلينا و إذا لاتخذوك صديقا.

قوله تعالى: وَ لَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا الثبيت- كما يفيدہ السياق- هو العصمه الإلهيه و جعل جواب لو لا- قوله: «لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ» دون نفس الركون و الركون هو الميل أو أدنى الميل كما قيل دليل على أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم لم يركن و لم يكده، و يؤكده إضافة الركون إليهم دون إجابتهم الى ما سألوه.

و المعنى: و لو لا- أن تبتناك بعصمتنا دنوت من أن تميل إليهم قليلا- لكننا تبتناك فلم تدن من أدنى الميل إليهم فضلا من أن تجيبهم الى ما سألوا فهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم لم يجبهم الى ما سألوا و لا مال إليهم شيئا قليلا و لا كاد أن يميل.

قوله تعالى: إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَ ضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا الآية سياق توعده فالمراد بضعف الحياه و الممات المضاعف من عذاب الحياه و الممات، و المعنى لو قارنت أن تميل إليهم بعض الميل لأذقناك الضعف من العذاب الذى

نعذب به المجرمين فى حياتهم و الضعف مما نعذبهم به فى مماتهم أى ضعف عذاب الدنيا و الآخرة.

و نقل فى المجمع عن أبان بن تغلب أن المراد بالضعف العذاب المضاعف ألمه و المعنى لأذقناك عذاب الدنيا و عذاب الآخرة، و أنشد قول الشاعر:

لمقتل مالك إذ بان منى

أبيت الليل فى ضعف أليم

أى فى عذاب أليم.

و ما فى ذيل الآيه من قوله: «ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا» تشديد فى الإيعاد أى إن العذاب واقع حينئذ لا مخلص منه.

قوله تعالى: «وَإِنْ كَادُوا لَيْسَ بِتَفْرِؤِنَاكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا» الاستفزاز الإزعاج و التحريك بخفه و سهوله، و اللام فى «الْأَرْضِ» للعهد و المراد بها مكة، و الخلاف بمعنى بعد، و المراد بالقليل اليسير من الزمان.

و المعنى و إن المشركين قاربوا أن يزعجوك من أرض مكة لإخراجك منها و لو كان منهم و خرجت منها لم يمكنوا بعدك فيها إلا قليلا فهم هالكون لا محاله.

قوله تعالى: «سِنَّةٌ مِّنْ قَدِّ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَ لَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا» التحويل نقل الشىء من حال الى حال، و قوله: «سِنَّةٌ» أى كسنة من قد أرسلنا و هو متعلق بقوله: «لَا يَلْبَثُونَ» أى لا يلبثون بعدك إلا قليلا كسنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا.

و هذه السنة و هى إهلاك المشركين لذين أخرجوا رسولهم من بلادهم و طردوه من بينهم سنة لله سبحانه، و إنما نسبها الى رسله لأنها مسنونه لأجلهم بدليل قوله بعد: «و لن تجد لسننتنا تحويلا» و قد قال تعالى: «و قال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لنعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين» (إبراهيم ١٣).

و المعنى: و إذا نهلكهم لنستنا التي سنناها لأجل من قد أرسلنا قبلك من رسلنا و أجريناها و لست تجد لسننا تحويلا و تبديلا.

قوله تعالى: **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا** قال فى مجمع البيان: الدلوک الزوال، و قال المبرد: دلوک الشمس من لدن زوالها الى غروبها، و قيل: هو الغروب و أصله من الدلك فسمى الزوال دلوکا لأن الناظر إليها يدلك عينه لشده شعاعها، و سمي الغروب دلوکا لأن الناظر يدلك عينه ليثبتها. انتهى.

و قال فيه: غسق الليل ظهور ظلامه يقال: غسقت القرحة إذا انفجرت فظهر ما فيها.

انتهى، و فى المفردات: غسق الليل شده ظلمته. انتهى.

و قد اختلف المفسرون فى تفسير صدر الآيه و المروى عن أئمة أهل البيت عليهم السلام من طرق الشيعة تفسير دلوک الشمس بزوالها و غسق الليل بمنتصفه، و سيجىء الإشارة الى الروايات فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله.

و عليه فالآيه تشمل من الوقت ما بين زوال الشمس و منتصف الليل، و الواقع فى هذا المقدار من الوقت من الفرائض اليومية أربع صلاة الظهر و العصر و المغرب و العشاء الآخرة.

و بانضمام صلاة الصبح المدلول عليها بقوله: **«وَقُرْآنَ الْفَجْرِ»** الخ؛ إليها تتم الصلوات الخمس اليومية.

و قوله: **«وَقُرْآنَ الْفَجْرِ»** معطوف على الصلاة أى و أقم قرآن الفجر و المراد به صلاة الصبح لما تشتمل عليه من القراءة و قد اتفقت الروايات على ان صلاة الصبح هى المراد بقرآن الفجر.

و كذا اتفقت الروايات من طرق الفريقين على تفسير قوله ذيلًا: **«إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا»** بأنه يشهده ملائكة الليل و ملائكة النهار، و سنشير الى بعض هذه الروايات عن

قريب إن شاء الله.

قوله تعالى: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا» التهجد من الهجود وهو النوم في الأصل و معنى التهجد التيقظ و السهر بعد النوم على ما ذكره غير واحد منهم، و الضمير فى «به» للقرآن أو للبعض المفهوم من قوله: «وَمِنَ اللَّيْلِ» و النافله من النفل و هو الزيادة، و ربما قيل: إن قوله: «وَمِنَ اللَّيْلِ» من قبيل الاغراء نظير قولنا: عليك بالليل، و الفاء فى قوله: «فَتَهَجَّدْ بِهِ» نظير قوله: «فَأَيُّ فَارَهْبُونَ» (النحل ٥١).

و المعنى: و اسهر بعض الليل بعد نومتك بالقرآن- و هو الصلاة- حال كونها صلاه زائده لك على الفريضة.

و قوله: «عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا» من الممكن أن يكون المقام مصدرا ميميا و هو البعث فيكون مفعولا مطلقا من غير لفظه، و المعنى عسى أن يبعثك ربك بعثا محمودا، و من الممكن أن يكون اسم مكان و البعث بمعنى الاقامه أو مضمنا معنى الاعطاء و نحوه، و المعنى عسى أن يقيم ربك فى مقام محمود أو يبعثك معطيا لك مقاما محمودا أو يعطيك باعثا مقاما محمودا.

و قد وصف سبحانه مقامه بأنه محمود و أطلق القول من غير تقييد و هو يفيد أنه مقام يحمده الكل و لا يثنى عليه الكل إلا إذا استحسنته الكل و انتفع به الجميع و لذا فسروا المقام المحمود بأنه المقام الذى يحمده عليه جميع الخلائق و هو مقام الشفاعة الكبرى له صلى الله عليه و آله و سلم يوم القيامة و قد اتفقت على هذا التفسير الروايات من طرق الفريقين عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم و أئمة أهل البيت عليهم السلام.

قوله تعالى: «وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا» المدخل بضم الميم و فتح الخاء مصدر ميمي

بمعنى الادخال و نظيره المخرج بمعنى الاخراج، والعنايه فى إضافه الادخال و الاخراج الى الصدق أن يكون الدخول و الخروج فى كل أمر منعوتاً بالصدق جارياً على الحقيقه من غير أن يخالف ظاهره باطنه أو يضاد بعض أجزائه بعضاً كأن يدعو الانسان بلسانه الى الله و هو يريد بقلبه أن يسود الناس أو يخلص فى بعض دعوته لله و يشرك فى بعضها غيره.

و بالجمله هو أن يرى الصدق فى كل مدخل منه و مخرج و يستوعب وجوده فيقول ما يفعل و يفعل ما يقول و لا يقول و لا يفعل إلا ما يراه و يعتقد به، و هذا مقام الصديقين. و يرجع المعنى الى نحو قولنا: اللهم تول أمرى كما تتولى أمر الصديقين.

و قوله: «وَ اجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا» اى سلطنه بنصرتى على ما أهم به من الامور و اشتغل به من الأعمال فلا أغلب فى دعوتى بحجه باطله، و لا أفتن بفتنه أو مكر يمكرنى به أعداؤك و لا أضل بنزغ شيطان و وسوسته.

و الآيه- كما ترى- مطلقه تأمر النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أن يسأل ربه أن يتولى أمره فى كل مدخل و مخرج بالصدق و يجعل له سلطاناً من عنده ينصره فلا- يزيغ فى حق و لا- يظهر بباطل فلا وجه لما ذكره بعض المفسرين أن المراد بالدخول و الخروج دخول المدينه بالهجره و الخروج منها الى مكه للفتح أو أن المراد بهما دخول القبر بالموت و الخروج منه بالبعث.

نعم لما كانت الآيه بعد قوله: «وَ إِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ» و «وَ إِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ» و فى سياقهما، لوحى الى أمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أن يلتجئ الى ربه فى كل أمر يهم به أو يشتغل به من امور الدعوه، و فى الدخول و الخروج فى كل مكان يسكنه أو يدخله او يخرج منه و هو ظاهر.

قوله تعالى: وَقُلْ لِّجَاءِ الْحَقِّ وَ زَهَقِ الْبَاطِلِ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا قَالَ فى المجمع: الزهوق هو الهلاك و البطلان يقال: زهقت نفسه اذا خرجت فكأنها قد خرجت الى الهلاك. انتهى و المعنى ظاهر.

و فى الآيه أمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بإعلام ظهور الحق و هو لوقوع الآيه فى سياق ما مر من قوله: «وَ إِنْ

كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ» الى آخر الآيات؛ أمر بایناس المشركين من نفسه و تسيههم أن يوقنوا أن لا مطمع لهم فيه صلى الله عليه و آله و سلم.

و فى الآيه دلالة على أن الباطل لا- دوام له كما قال تعالى فى موضع آخر: وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (إبراهيم ٢٦) (١).

[سوره الإسراء (١٧): الآيات ٨٢ الى ١٠٠]

إشارة

وَ نُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) وَ إِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَأَى بِجَانِبِهِ وَ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يُوسِئًا (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرْبُكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (٨٤) وَ يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَ مَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) وَ لئنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦) إِلَّا- رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧) قُلْ لئنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَ لَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩) وَ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَ الْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِزَيْجِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣) وَ مَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا- أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًَا رَسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يَضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَ نُكَمَا وَ صَمًّا مَاؤَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِمَا نَهَمُ كَفَرُوا بآيَاتِنَا وَ قَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَ رُفَاتًا إِذَا لَمْبَعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوْ لَسَمُ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (١٠٠)

ص: ٧٥١

قوله تعالى: وَ نُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً من بيانه تبين الموصول أعنى قوله: «مَا هُوَ شِفَاءٌ» الخ؛ أى و نزل ما هو شفاء و رحمه و هو القرآن.

وعد القرآن شفاء و الشفاء انما يكون عن مرض دليل على أن للقلوب أحوالا نسبه القرآن إليها نسبه الدواء الشافى الى المرض، و هو المستفاد من كلامه سبحانه حيث ذكر أن الدين الحق فطرى للانسان فكما أن للبنيه الانسانيه التى سويت على الخلقه الأصلية قبل أن يلحق بها أحوال منافيه و آثار مغايره للتسويه الأوليه استقامه طبيعیه تجرى عليها فى أطوار الحياه كذلك لها بحسب الخلقه الأصلية عقائد حقه فى المبدأ و المعاد و ما يتفرع عليهما من اصول المعارف، و أخلاق فاضله زاكيه تلائمها و يترتب عليها من الأحوال و الأعمال ما يناسبها.

فلانسان صحه و استقامه روحيه معنويه كما أن له صحه و استقامه جسميه صوريه، و له

أمراض و أدواء روحيه باختلال أمر الصحه الروحيه كما أن له أمراضا و أدواء جسميه باختلال أمر الصحه الجسميه و لكل داء دواء و لكل مرض شفاء.

و قد ذكر الله سبحانه في اناس من المؤمنين أن في قلوبهم مرضا و هو غير الكفر و النفاق الصريحين كما يدل عليه قوله: لئن لم ينته المنافقون و الذين في قلوبهم مرض و المرجفون في المدينه لنغرینک بهم (الأحزاب ٦٠) و قوله: و ليقول الذين في قلوبهم مرض و الكافرون ما ذا أراد الله بهذا مثلا (المدثر ٣١).

و ليس هذا المسمى مرضا الا- ما يختل به ثبات القلب و استقامه النفس من أنواع الشك و الريب الموجه لاضطراب الباطن و تزلزل السر و الميل الى الباطل و اتباع الهوى مما يجامع ايمان عامه المؤمنين من أهل أدنى مراتب الايمان و مما هو معدود نقصا و شركا بالاضافه الى مراتب الايمان العاليه، و قد قال تعالى: و ما يؤمن أكثرهم بالله إلا و هم مشركون (يوسف ١٠٦) و قال: فلا و ربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت و يسلموا تسليما (النساء ٦٥).

و القرآن الكريم يزيل بحججه القاطعه و براهينه الساطعه أنواع الشكوك و الشبهات المعترضه في طريق العقائد الحقه و المعارف الحقيقه و يدفع بمواعظه الشافيه و ما فيه من القصص و العبر و الأمثال و الوعد و الوعيد و الانذار و التبشير و الأحكام و الشرائع عاهات الأفتده و آفاتها فالقرآن شفاء للمؤمنين.

و اما كونه رحمه للمؤمنين- و الرحمه افاضه ما يتم به النقص و يرتفع به الحاجه- فلأن القرآن ينور القلوب بنور العلم و اليقين بعد ما يزيل عنها ظلمات الجهل و العمى و الشك و الريب، و يحليها بالملكات الفاضله و الحالات الشريفه الزاكيه بعد ما يغسل عنها أوساخ الهيئات الرديه و الصفات الخسيسه.

فهو بما انه شفاء يزيل عنها انواع الأمراض و الأدواء، و بما انه رحمه يعيد إليها ما افتقدته

من الصحة و الاستقامه الأصلية الفطريه فهو بكونه شفاء يطهر المحل من الموانع المضاده للسعاده و يهيئها لقبولها، و بكونه رحمه يلبسه لباس السعاده و ينعم عليه بنعمه الاستقامه.

فالقرآن شفاء و رحمه للقلوب المريضة كما انه هدى و رحمه للنفوس غير الآمنه من الضلال، و بذلك يظهر النكته فى ترتيب الرحمه على الشفاء فى قوله: ﴿ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ كَقَوْلِهِ: هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف ١١١) و قوله: وَ مَغْفِرَةٌ وَ رَحْمَةٌ (النساء ٩٦).

فمعنى قوله: «وَ نُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ» و نزل اليك امرا يشفى امراض القلوب و يزيلها و يعيد إليها حاله الصحة و الاستقامه فتتمتع من نعمه السعاده و الكرامه.

و قوله: «وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا» دال على ان المراد به بيان ما للقرآن من الأثر فى غير المؤمنين قبال ما له من الأثر الجميل فى المؤمنين فالمراد بالظالمين غير المؤمنين و هم الكفار دون المشركين خاصه كما يظهر من بعض المفسرين و انما علق الحكم بالوصف اعنى الظلم ليشعر بالتعليل اى ان القرآن انما يزيدهم خسارا لمكان ظلمهم بالكفر.

و الخسار هو النقص فى رأس المال فللكفار رأس مال بحسب الأصل و هو الدين الفطرى تلهم به نفوسهم الساذجه ثم إنهم بكفرهم بالله و آياته خسروا فيه و نقصوا. ثم إن كفرهم بالقرآن و إعراضهم عنه بظلمهم يزيدهم خسارا على خسار و نقصا على نقص إن كانت عندهم بقيه من موهبه الفطره، و الى هذه النكته يشير سياق النفى و الاستثناء حيث قيل: «وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا» و لم يقل: و يزد الظالم خسارا.

و به يظهر أن محصل معنى الآية أن القرآن يزيد المؤمنين صحه و استقامه على صحتهم و استقامتهم بالإيمان و سعاده على سعادتهم و إن زاد الكافرين شيئا فإنما يزيدهم نقصا

قوله تعالى: وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يُؤْسَأُ قَالَ فِي الْمَفْرَدَات: العرض خلاف الطول و أصله أن يقال في الأجسام ثم يستعمل في غيرها-الى أن قال-و أعرض أظهر عرضه أى ناحيته فاذا قيل:أعرض لى كذا أى بدا عرضه فأمكن تناوله،و إذا قيل:أعرض عنى فمعناه و لى مبدئا عرضه.انتهى موضع الحاجه.

و النأى البعد و نأى بجانبه أى اتخذ لنفسه جهه بعيده منا،و مجموع قوله: «أَعْرَضَ وَ نَأَىٰ بِجَانِبِهِ» يمثل حال الإنسان فى تباعده و انقطاعه من ربه عند ما ينعم عليه. كمن يحول وجهه عن صاحبه و يتخذ لنفسه موقفا بعيدا منه،و ربما ذكر بعض المفسرين أن قوله: «نَأَىٰ بِجَانِبِهِ» كناية عن الاستكبار و الاستعلاء.

و قوله: وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يُؤْسَأُ أى و إذا أصابه الشر إصابه خفيفه كالمس كان آيسا منقطع الرجال عن الخير و هو النعمه،و لم ينسب الشر إليه تعالى كما نسب النعمه تنزيها له تعالى من أن يسند إليه الشر،و لأن وجود الشر أمر نسبي لا نفسى فما يتحقق من الشر فى العالم كالموت و المرض و الفقر و النقص و غير ذلك انما هو شر بالنسبه الى مورده،و أما بالنسبه الى غيره و خاصه النظام العام الجارى فى الكون فهو من الخير الذى لا- مناص عنه فى التدبير الكلى فما كان من الخير فهو مما تعلقت به بعينه العناية الإلهيه و هو مراد بالذات،و ما كان من الشر فهو مما تعلقت به العناية لغيره و هو مقضى بالعرض.

فالمعنى إنا إذا أنعمنا على الإنسان هذا الموجود الواقع فى مجرى الأسباب اشتغل بظواهر الأسباب و اخلد إليها فنسينا فلم يذكرنا و لم يشكرنا،و إذا ناله شىء يسير من الشر فسلب منه الخير و زالت عنه أسبابه و رأى ذلك كان شديدا اليأس من الخير لكونه متعلقا بأسبابه

و هو يرى بطلان أسبابه و لا يرى لربه فى ذلك صنعا (١).

قوله تعالى: قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا المشاكلة-على ما فى المفردات-من الشكل و هو تقييد الدابه، و يسمى ما يقيده به شكالا بكسر الشين، و الشاكلة هى السجيه سمي بها لتقييدها الإنسان أن يجرى على ما يناسبها و تقتضيه.

و فى المجمع:الشاكلة الطريقه و المذهب يقال:هذا طريق ذو شواكل أى ينشعب منه طرق جماعه و انتهى.و كأن تسميتها بها لما فيها من تقييد العابرين و المنتحلين بالتزامها و عدم التخلف عنها و قيل:الشاكلة من الشكل بفتح الشيخ بمعنى المثل و قيل:إنها من الشكل بكسر الشين بمعنى الهيئه.

و كيف كان فالآيه الكريمه ترتب عمل الإنسان على شاكلته بمعنى أن العمل يناسبها و يوافقها،فهى بالنسبه الى العمل كالروح الساريه فى البدن الذى يمثل بأعضائه و أعماله هيآت الروح المعنويه و قد تحقق بالتجارب و البحث العلمى أن بين الملكات و الأحوال النفسانيه و بين الأعمال رابطه خاصه فليس يتساوى عمل الشجاع الباسل و الجبان إذا حضرا موقفا هائلا،و لا عمل الجواد الكريم و البخيل اللئيم فى مواد الانفاق و هكذا،و أن بين الصفات النفسانيه و نوع تركيب البنيه الإنسانيه رابطه خاصه فمن الأمزجه ما يسرع اليه الغضب و حب الانتقام بالطبع و منها ما تغلى و تفور فيه شهوه الطعام أو النكاح أو غير ذلك بحيث تنوق نفسه بأذى سبب يدعوه و يحركه،و منها غير ذلك فيتخلف انعقاد الملكات بحسب ما يناسب المورد سرعه و بطء (٢)(٣).

ص: ٧٥٧

١-١. الاسراء ٨٢-١٠٠:بحث فلسفى فى الشرور.

٢-٢. الاسراء ٨٢-١٠٠:بحث فى:شاكلة الانسان؛الارتباط بين الاعمال و الملكات و بين الذوات.

٣-٣. الاسراء ٨٢-١٠٠:بحث فلسفى فى سنخيه وجوديه و رابطه ذاتيه بين الفعل و فاعله.

قوله تعالى: وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا الروح على ما يعرف فى اللغه هو مبدأ الحياه الذى به يقوى الحيوان على الإحساس و الحركة الإراديه و لفظه يذكر و يؤنث، و ربما يتجوز فيطلق على الامور التى يظهر بها آثار حسنه مطلوبه كما يعد العلم حياه للنفوس قال تعالى: أَمْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ (الأنعام ١٢٢/أى بالهدايه الى الإيمان و على هذا المعنى حمل جماعه مثل قوله: يُنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ (النحل ٢/أى بالوحى و قوله: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا (الشورى ٥٢/أى القرآن الذى هو وحى فذكروا أنه تعالى سمي الوحى أو القرآن روحاً لأن به حياه النفوس الميته كما أن الروح المعروف به حياه الأجساد الميته (١).

قوله تعالى: وَلَئِنْ شِئْنَا لَنُدْهِبَنَّ بِمَا لَدَى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا الكلام متصل بما قبله فإن الآيه السابقه و إن كانت متعرضه لأمر مطلق الروح و هو ذو مراتب مختلفه إلا أن الذى ينطبق عليه منه بحسب سياق الآيات السابقه المسوقه فى أمر القرآن هو الروح السماوى النازل على النبى صلى الله عليه و آله و سلم الملقى اليه القرآن.

فالمعنى -و الله أعلم- الروح النازل عليك الملقى بالقرآن اليك من أمرنا غير خارج من قدرتنا، و أقسم لئن شئنا لنذهبن بهذا الروح الذى هو كلمتنا الملقاه إليك ثم لا تجد أحداً يكون وكيلاً به لك علينا يدافع عنك و يطالبنا به و يجبرنا على رد ما أذهبنا به.

قوله تعالى: إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا استثناء من محذوف يدل عليه السياق، و التقدير فما اختصاصت بما اختصاصت به و لا اعطيت ما اعطيت من نزول الروح و ملازمته إياك إلا رحمه من ربك، ثم علله بقوله: «إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا» و هو وارد مورد الامتنان.

ص: ٧٥٨

قوله تعالى: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً الظاهر هو المعين مأخوذ من الظاهر كالرئيس من الرأس، وقوله: «بِمِثْلِهِ» من وضع الظاهر موضع المضمرة وضميره عائد الى القرآن.

و في الآيه تحد ظاهر، و هي ظاهره في أن التحدى بجميع ما للقرآن من صفات الكمال الراجعه الى لفظه و معناه لا بفصاحته و بلاغته وحدها فإن انضمام غير أهل اللسان اليهم لا ينفع في معارضه البلاغه شيئاً و قد اعتنت الآيه باجتماع الثقلين و إعانه بعضهم لبعض.

على أن الآيه ظاهره في دوام التحدى و قد انقرضت العرب العرباء أعلام الفصاحه و البلاغه اليوم فلا أثر منهم، و القرآن باق على إعجازه متحد بنفسه كما كان.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ صَيَّرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً تصريف الأمثال ردها و تكرارها و تحويلها من بيان الى بيان و من اسلوب الى اسلوب، و المثل هو وصف المقصود بما يمثله و يقربه من ذهن السامع، و «مِنْ» في قوله: «مِنْ كُلِّ مَثَلٍ» لا ابتداء الغايه، و المراد من كل مثل يوضح لهم سبيل الحق و يمهد لهم طريق الإيمان و الشكر بقريته قوله: «فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً» و الكلام مسوق للتوبيخ و الملامه.

و في قوله: «أَكْثَرُ النَّاسِ» وضع الظاهر موضع المضمرة و الأصل أكثرهم و لعل الوجه فيه الإشاره الى أن ذلك مقتضى كونهم ناساً كما مر في قوله: وَ كَانَ الْإِنْسَانُ كُفُوراً (الإسراء / ٦٧).

و المعنى: و أقسم لقد كررنا للناس في هذا القرآن من كل مثل يوضح لهم الحق و يدعوهم الى الإيمان بنا و الشكر لنعمننا فأبى أكثر الناس إلا ان يكفروا و لا يشكروا.

قوله تعالى: وَ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبوعاً -الى

قوله - كِتَابًا نَقَرُوهُ الفجر الفتح و الشق و كذلك التفجير إلا- انه يفيد المبالغه و التكثير، و ينبوع العين التي لا- ينضب ماؤها، و خلال الشىء وسطه و اثنائه، و الكسف جمع كسفه كقطع جمع قطعه وزنا و معنى، و القبيل هو المقابله كالعشير و المعاشر، و الزخرف الذهب، و الرقى الصعود و الارتقاء.

و الآيات تحكى الآيات المعجزه التي اقترحتها قريش على النبي صلى الله عليه و آله و سلم و علقوا ايمانهم به عليها مستهينه بالقرآن الذي هو معجزه خالده.

و المعنى «وَقَالُوا» اى قالت قريش: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ» يا محمد «حَتَّى تَفْجَرَ» و تشق «لَنَا مِنَ الْأَرْضِ» ارض مكه لقله مائها «يَبْثُوعًا» عينا لا- ينضب ماؤها «أَوْ تَكُونَ» بالإعجاز لك جَنَّةٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ عِنَبٍ فَتَفْجَرَ الْأَنْهَارَ اى تشقها او تجريها «خِلَالَهَا» اى وسط تلك الجنة و اثناءها «تَفْجِيرًا» «أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتُمْ» اى مماثلا لما زعمت يشيرون (1) به الى قوله تعالى: «أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ (سبأ ٩)» «عَلَيْنَا كِسْفًا» و قطعا «أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَ الْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا» مقابلا- نعاينهم و نشاهدهم «أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ» و ذهب «أَوْ تَرْقَى» و تصعد «فِي السَّمَاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرَبِّكَ» و صعودك «حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا» منها «كِتَابًا نَقَرُوهُ» و نتلوه.

قوله تعالى: قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا فيه امره صلى الله عليه و آله و سلم ان يجيب عما اقترحوه عليه و ينههم على جهلهم و مكابرتهم فيما لا يخفى على ذى نظر فإنهم سألوه امورا عظاما لا يقوى على اكثرها إلا القدره الغيبه الإلهيه و فيها ما هو مستحيل بالذات كالإتيان بالله و الملائكه قبلا- و لم يرضوا بهذا المقدار و لم يقنعوا به دون ان جعلوه هو المسئول المتصدى لذلك المجيب لما سألوه فلم يقولوا لن نؤمن لك حتى تسأل ربك ان يفعل كذا و كذا بل

ص: ٧٦٠

١- ١). فالآيه لا تخلو من دلالة على تقدم سوره سبأ على هذه السوره نزولا.

قالوا: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ» الخ؛ «أَوْ تَكُونَ لَكَ» الخ؛ «أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ» الخ؛ «أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ» الخ؛ «أَوْ يَكُونَ لَكَ» الخ؛ «أَوْ تَرْقِيَ فِي السَّمَاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ» .

قوله تعالى: وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا لَلنَّكَارِ، وجملة «قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ» الخ؛ حكاية حالهم بحسب الاعتقاد و ان لم يتكلموا بهذه الكلمة بعينها.

و انكار النبوه و الرساله من اثبات الإله من عقائد الوثنيه، و هذه قرينه على أن المراد بالناس الوثنيون، و المراد بالإيمان الذي منعه هو الإيمان بالرسول.

فمعنى الآية و ما منع الوثنيين -و كانت قريش و عامه العرب يومئذ منهم- أن يؤمنوا بالرساله -أو برسالتك- إلا إنكارهم لرساله البشر، و لذلك كانوا يردون على رسالهم دعوتهم -كما حكاها الله- بمثل قولهم: لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (حم السجده ١٤).

قوله تعالى: قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا أَمْرًا سَبِحَانَهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم أن يرد عليهم قولهم و إنكارهم لرساله البشر و نزول الوحي بأن العناية الإلهيه قد تعلقت بهدايه أهل الأرض و لا يكون ذلك إلا بوحي سماوى لا من عند أنفسهم فالبحر القاطنون فى الأرض لا غنى لهم عن وحي سماوى بنزول ملك رسول إليهم و يختص بذلك نبيهم.

و هذه خاصه الحياه الأرضيه و العيشه الماديه المفتقره الى هدايه إلهيه لا سبيل إليها إلا بنزول الوحي من السماء حتى لو أن طائفه من الملائكه سكنوا الأرض و أخذوا يعيشون عيشه أرضيه ماديه لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا كما نزل على البشر ملكا رسولا.

و العناية فى الآية الكريمه -كما ترى- متعلقه بجهتين إحداهما كون الحياه أرضيه ماديه،

و الاخرى كون الهدايه الواجبه بالعنايه الإلهيه بوحي نازل من السماء برساله ملك من الملائكه.

و الأمر على ذلك، فهاتان الجهتان أعنى كون حياه النوع أرضيه ماديه و وجوب هدايتهم بواسطه سماويه و ملك علوى هما المقدمتان الأصليتان فى البرهان على وجود الرساله و لزومها (١).

و الآيه بما تعطى من معنى الرساله يؤيد ما ورد عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام فى الفرق بين الرسول و النبى أن الرسول هو الذى يرى الملك و يسمع منه، و النبى يرى المنام و لا يعاين، و قد أوردنا بعض هذه الأخبار فى خلال أبحاث النبوه فى الجزء الثانى من الكتاب.

و من أطف التعبير فى الآيه و أجزه تعبيره عن الحياه الأرضيه بقوله: «فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ» فإن الانتقال المكانى على الأرض مع الوقوع تحت الجاذبه الأرضيه من أوضح خواص الحياه الماديه الأرضيه.

قوله تعالى: قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا لما احتج عليهم بما احتج و بين لهم ما بين فى أمر معجزه رسالته و هى القرآن الذى تحدى به و هم على عنادهم و جحودهم و عنتهم لا- يعتنون به و يقترحون عليه بأمر جزافيه اخرى و لا- يحترمون لحق و لا- ينقطعون عن باطل أمر أن يرجع الأمر الى شهاده الله فهو شهيد بما وقع منه و منهم فقد بلغ ما ارسل به و دعا و احتج و أعذر و قد سمعوا و تمت عليهم الحجه و استكبروا و عتوا فالكلام فى معنى اعلام قطع المحاجه و ترك المخاصمه و رد الأمر الى مالك الامر فليقض ما هو قاض.

ص: ٧٦٢

(١-١). الاسراء ٨٢-١٠٠: بحث فى وجوب كون الرسول من جنس المرسل اليهم و من انفسهم كالانسان و الملك للملك.

و تكذيب آياته فهو قادر على بعثهم و الانتقام منهم بما صنعوا.

فقوله: «وَجَعَلْ لَهُمْ أَجَلًا - لَا رَيْبَ فِيهِ» ناظر الى قوله في صدر الآيه السابقه: ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا فهو نظير قوله: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسَبِ بِتَدْرِجِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ - الى أن قال- أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ - الى أن قال- وَ أَنَّ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (الأعراف ١٨٥).

قوله تعالى: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ حَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا فسر القتل بالبخيل المبالغ في الامساك و قال في المجمع:

القتل التضيق و القتل فعول منه للمبالغه، و يقال: قتر يقر و تقتر و أقر و قتر إذا قدر في النفقه. انتهى.

و هذا توبيخ لهم على منعهم رساله البشر المنقول عنهم سابقا بقوله: وَ مَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا و معنى الآيه ظاهر (١).

[سوره الإسراء (١٧): الآيات ١٠١ الى ١١١]

اشاره

وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسِئَلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَهْلَكْنَا هَوْلًا إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ بَصِيرٌ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أُوذِيَ النَّاسُ مِنْكُمْ وَإِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْنَا الْقُرْآنَ بِالْحَقِّ وَ مَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَ قُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ أُسْكِنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جَنَّا بِكُمْ لَفِيْفًا (١٠٤) وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا (١٠٥) وَ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ حُكْمٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذِقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَ يَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَ يَخِرُّونَ لِلْآذِقَانِ يَسْجُدُونَ وَ يَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩) قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَ لَا تَجْهَرُوا بِصِيغَاتِكُمْ وَ لَا تَخَافُوهَا وَ ابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الدُّلِّ وَ كَبْرُهُ تَكْبِيرًا (١١١)

ص: ٧٦٤

قوله تعالى: **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَمَسَّأَلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا** الذي اوتى موسى عليه السلام من الآيات على ما يقصه القرآن أكثر من تسع غير أن الآيات التي أتى بها لدعوه فرعون فيما يذكره القرآن تسع وهي: العصا و اليد و الطوفان و الجراد و القمل و الضفدع و الدم و السنون و نقص من الثمرات فالظاهر أنها هي المراده بالآيات التسع المذكوره فى الآيه و خاصه مع ما فيها من محكى قول موسى لفرعون: **لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ** و أما غير هذه الآيات كالبحر و الحجر و إحياء المقتول بالبقره و إحياء من أخذته

الصاعقه من قومه و نتق الجبل فوقهم و غير ذلك فهى خارجه عن هذه التسع المذكوره فى الآيه.

ولا- ينافى ذلك كون الآيات إنما ظهرت تدريجاً فإن هذه المحاوره مستخرج من مجموع ما تخاصم به موسى و فرعون طول دعوته.

و لعل مخالفه التوراه لظاهر القرآن فى الآيات التسع هى الموجه لترك تفصيل الآيات التسع فى الآيه ليستقيم الأمر بالسؤال من اليهود لأنهم مع صريح المخالفه لم يكونوا ليصدقوا القرآن بل كانوا يبادرون الى التكذيب قبل التصديق.

قوله تعالى: **إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا** أى سحرت فاختل عقلك و هذا فى معنى قوله المنقول فى موضع آخر: **إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ** (الشعراء ٢٧) وقيل: المراد بالمسحور الساحر نظير الميمون و المشؤم بمعنى اليامن و الشائم و أصله استعمال وزن الفاعل فى النسبه و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: **قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا** المشبور الهالك و هو من الثبور بمعنى الهلاك، و المعنى قال موسى مخاطباً لفرعون: لقد علمت يا فرعون ما أنزل هؤلاء الآيات البينات إلا- رب السموات و الأرض أنزلها بصائر يتبصر بها لتمييز الحق من الباطل و إنى لأظنك يا فرعون هالكا بالأخره لعنادك و جحودك.

و إنما أخذ الظن دون اليقين لأن الحكم لله و ليوافق ما فى كلام فرعون: **«إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ»** الخ؛ و من الظن ما يستعمل فى مورد اليقين.

قوله تعالى: **فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَ هُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَاعْرَفْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا** الاستفزاز الازعاج و الإخراج بعنف، و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: **وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ**

الْمَآخِرَةَ جَنَّاتٍ بِكُمْ لَفِيْفًا الْمَرَادُ بِالْأَرْضِ الَّتِي أَمَرُوا أَنْ يَسْكُنُوهَا هِيَ الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ الَّتِي كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُمْ بِشَهَادَةِ قَوْلِهِ: «أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ (المائدة ٢١)»، وَغَيْرَ ذَلِكَ كَمَا أَنَّ الْمَرَادُ بِالْأَرْضِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ مُطْلَقُ الْأَرْضِ أَوْ أَرْضَ مِصْرَ بِشَهَادَةِ السِّيَاقِ.

وَ قَوْلِهِ: فَإِذَا جَاءَ وَعِدُ الْمَآخِرَةَ أَي وَعِدَ الْكَرْهَ الْآخِرَةَ أَوْ الْحَيَاةَ الْآخِرَةَ وَ الْمَرَادُ بِهِ عَلَي مَا ذَكَرَهُ الْمُفَسِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَ قَوْلِهِ: «جَنَّاتٍ بِكُمْ لَفِيْفًا» أَي مَجْمُوعًا مُلَفُوفًا بِبَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ.

وَ الْمَعْنَى: وَ قَلْنَا مِنْ بَعْدِ فِرْعَوْنَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ - وَ كَانَ فِرْعَوْنَ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَفْزِهِمْ مِنَ الْأَرْضِ - فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَنَّاتٍ بِكُمْ مُلْتَفِينَ مُجْتَمِعِينَ لِلْحِسَابِ وَ فَصَلَ الْقَضَاءِ.

وَ لَيْسَ بِبَعِيدٍ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ بِوَعْدِ الْآخِرَةِ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ فِيمَا قَضَى إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِقَوْلِهِ: فَإِذَا جَاءَ وَعِدُ الْمَآخِرَةَ لِيُسَوِّوْا وَجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيَتَّبِعُوا مَا عَلَّمْتُمْ بِتَّيْبَرًا .

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا لِمَا فَرَّغَ مِنَ التَّنْظِيرِ رَجَعَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ بَيَانِ حَالِ الْقُرْآنِ وَ ذَكَرَ أَوْصَافَهُ فَذَكَرَ أَنَّهُ أَنْزَلَهُ أَنْزَالَ مُصَاحِبًا لِلْحَقِّ وَ قَدْ نَزَلَ هُوَ مِنْ عِنْدِهِ نَزُولًا مُصَاحِبًا لِلْحَقِّ فَهُوَ مَصُونٌ مِنَ الْبَاطِلِ مِنْ جِهَةٍ مِنْ أَنْزَلَهُ فَلَيْسَ مِنْ لُغُو الْقَوْلِ وَ هَذَرِهِ وَ لَا دَاخِلَهُ شَيْءٌ يُمْكِنُ أَنْ يَفْسُدَ يَوْمًا وَ لَا شَارَكَهُ فِيهِ أَحَدٌ حَتَّى يَنْسَخَهُ فِي قُوَّةٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ وَ لَيْسَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ إِلَّا رَسُولًا مِنْهُ تَعَالَى يَبْشُرُ بِهِ وَ يَنْذِرُ وَ لَيْسَ لَهُ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِيهِ بِزِيَادَةٍ أَوْ نَقِيصَةٍ أَوْ يَتْرَكَهُ كَلًّا - أَوْ بَعْضًا بِاقْتِرَاحِ مِنَ النَّاسِ أَوْ هَوَى مِنْ نَفْسِهِ أَوْ يَعْضُضُ عَنْهُ فَيَسْأَلُ اللَّهُ آيَةً أُخْرَى فِيهَا هَوَاهُ أَوْ هَوَى النَّاسِ أَوْ يَدَاهُنْهُمْ فِيهِ أَوْ يَسَامِحُهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ مَعَارِفِ وَ أَحْكَامِهِ كُلِّ ذَلِكَ لِأَنَّهُ حَقٌّ صَادِرٌ عَنْ مَصْدَرٍ

حق، وما ذا بعد الحق الا الضلال.

فقوله: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا بِالْحَقِّ؛ متمم للكلام السابق، ومحصله أن القرآن آيه حقه ليس لأحد أن يتصرف فيه شيئاً من التصرف و النبي و غير في ذلك سواء.

قوله تعالى: وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا معطوف على ما قبله أى أنزلناه بالحق و فرقناه قرآناً، قال فى المجمع: معنى فرقناه فصلناه و نزلناه آيه آيه و سوره سوره و يدل عليه قوله: «عَلَى مُكْثٍ» و المكث -بضم الميم- و المكث - بفتحها- لغتان. انتهى.

فاللفظ بحسب نفسه يعم نزول المعارف القرآنيه التى هى عند الله فى قالب الألفاظ و العبارات التى لا تتلقى الا بالتدرىج و لا تتعاطى الا- بالمكث و التؤده ليسهل على الناس تعقله و حفظه على حد قوله: إِذَا جَعَلْنَا قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ (الزخرف ٤/٤).

قوله تعالى: قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ الْثَلَاثِ، و المراد بالذين اتوا العلم من قبله هم الذين تحققوا بالعلم بالله و آياته من قبل نزول القرآن سواء كانوا من اليهود او النصارى أو غيرهم فلا موجب للتخصيص اللهم الا ان يقال: ان السياق يفيد كون هؤلاء من اهل الحق و الدين غير المنسوخ يومئذ هو دين المسيح عليه السلام فهم أهل الحق من علماء النصرانية الذين لم يزيغوا و لم يبدلوا.

و على أى حال المراد من كونهم اتوا العلم من قبله أنهم استعدوا لفهم كلمه الحق و قبولها لتجهزهم بالعلم بحقيقه معناه و ايرائه اياهم وصف الخشوع فيزيدهم القرآن المتلو عليهم خشوعاً.

و قوله: يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ لِلَّذِينَ أُذِقُوا جِدًّا لِلْأَذْقَانِ جمع ذقن و هو مجمع اللحين من الوجه، و الخرور للأذقان السوق على الأرض على أذقانهم للسجده كما بيئنه قوله: «سُجِّدًا» و انما

اعتبرت الأذقان لأن الذقن أقرب أجزاء الوجه من الأرض عند الخرور عليها للسجده، وربما قيل: المراد بالأذقان الوجوه اطلاقاً للجزء على الكل مجازاً.

وقوله: وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا أَي يَنْزَهُونَهُ تَعَالَى عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَنْ خَلْفِ الْوَعْدِ خَاصَةً وَيُعْطَى سِيَاقَ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَعْدِ وَعَدَهُ سُبْحَانَهُ بِالْبَعْثِ وَهَذَا فِي قِبَالِ أَصْرَارِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى نَفْيِ الْبَعْثِ وَانْكَارِ الْمَعَادِ كَمَا تَكَرَّرَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ.

وقوله: وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ أَنْ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا تَكَرَّرَ الْخُرُورُ لِلْأَذْقَانِ وَاضْفَاتَهُ إِلَى الْبُكَاءِ لِإِفَادَةِ مَعْنَى الْخُضُوعِ وَهُوَ التَّذَلُّلُ الَّذِي يَكُونُ بِالْبَدَنِ كَمَا أَنَّ الْجُمْلَةَ الثَّانِيَةَ لِإِفَادَةِ مَعْنَى الْخُشُوعِ وَهُوَ التَّذَلُّلُ الَّذِي يَكُونُ بِالْقَلْبِ فَمَحْصَلُ الْآيَةِ أَنَّهُمْ يَخْضَعُونَ وَيَخْشَعُونَ.

وقوله تعالى: قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى لَفْظُهُ أَوْ لِلتَّسْوِيَةِ وَالْإِبَاحَةِ فَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: «اللَّهُ» وَ «الرَّحْمَنُ» الْأَسْمَاءُ الدَّالَّةُ عَلَى الْمَسْمُومِ دُونَ الْمَسْمُومِ، وَالْمَعْنَى ادْعُوا بِاسْمِ اللَّهِ أَوْ بِاسْمِ الرَّحْمَنِ فَالِدَعَاءُ دَعَاؤُهُ.

وقوله: «أَيًّا مَا تَدْعُوا» شَرْطٌ وَ «مَا» صَلَهِ لِلتَّأَكِيدِ نَظِيرُ قَوْلِهِ: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ (آل عمران ١٥٩). وقوله: عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (المؤمنون ٤٠) وَ «أَيًّا» شَرْطِيَّةٌ وَ هِيَ مَفْعُولٌ «تَدْعُوا» .

وقوله: فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى جَوَابُ الشَّرْطِ، وَهُوَ مِنْ وَضْعِ السَّبَبِ مَوْضِعِ الْمَسْبُوبِ وَالْمَعْنَى أَيَّ اسْمٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ تَدْعُوهُ فَهُوَ اسْمٌ أَحْسَنُ لَهُ لِأَنَّ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى كُلُّهَا لَهُ فَالْأَسْمَاءُ الدَّالَّةُ عَلَى الْمَسْمُومَاتِ مِنْهَا حَسَنَةٌ تَدُلُّ عَلَى مَا فِيهِ حَسَنٌ وَمِنْهَا قَبِيحَةٌ بِخِلَافِهَا وَ لَا سَبِيلَ لِلْقَبِيحِ إِلَيْهِ تَعَالَى، وَالْأَسْمَاءُ الْحَسَنَةُ مِنْهَا مَا هُوَ أَحْسَنُ لِأَنَّ شَوْبَ نَقْصٍ وَ قَبِيحٌ فِيهِ كَالْغَنَى الَّذِي لَا فَقْرَ مَعَهُ وَ الْحَيَاةُ الَّتِي لَا مَوْتَ مَعَهَا وَ الْعِزَّةُ الَّتِي لَا ذُلَّ دُونَهَا وَ مِنْهَا مَا هُوَ حَسَنٌ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْحَسَنُ مِنْ غَيْرِ مَحْوُضِهِ وَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى، وَ هِيَ كُلُّ اسْمٍ هُوَ أَحْسَنُ الْأَسْمَاءِ فِي

معناه كما يدل عليه قول أئمة الدين: ان الله تعالى غنى لا كالأغنياء، حى لا كالأحياء، عزيز لا كالأعزّه، عليم لا كالعلماء و هكذا أى له من كل كمال صرفه و محضه الذى لا يشوبه خلافه.

و الضمير فى قوله: «أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى» عائد الى الذات المتعالیه من كل اسم و رسم، و ليس براجع الى شىء من الاسمين: الله و الرحمن لأن المراد بهما- كما تقدم- الاسمان دون الذات المتعالیه التى هى مسماه بهما و لا معنى لأن يقال: أيا من الاسمين تدعوا فان ذلك الاسم جميع الأسماء الحسنی أو باقى الاسماء الحسنی بل المعنى أيا من اسمائه تدعوا فلا مانع منه لأنها جميعا أسماؤه لأنها اسماء حسنی و له الأسماء الحسنی فهى طرق دعوته و دعوتها دعوته فإنها اسمائه و الاسم مرآه المسمى و عنوانه فافهم ذلك.

قوله تعالى: «وَلَا تَجْهَرُ بِصَوْتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهِمَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا» الجهر و الإخفات و صفان متضائفان، يتصف بهما الأصوات، و ربما يعتبر بينهما خصله ثالثه هى بالنسبه الى الجهر إخفات و بالنسبه الى الإخفات جهر فيكون الجهر هو المبالغه فى رفع الصوت، و الإخفات هو المبالغه فى خفضه و ما بينهما هو الاعتدال فيكون معنى الآية لا تبالغ فى صلاتك فى الجهر و لا فى الإخفات بل اسلك فيما بينهما سبيلا و هو الاعتدال و تسميته سبيلا لأنه سنه يستن بها هو و من يقتدى به من امته المؤمنين به.

هذا لو كان المراد بالصلاه فى قوله: «بِصَوْتِكَ» للاستغراق و المراد به كل صلاه صلاه، و أما لو اريد المجموع و لعله الأظهر كان المعنى لا- تجهر فى صلواتك كلها و لا تخافت فيها كلها بل اتخذ سبيلا وسطا تجهر فى بعض و تخافت فى بعض، و هذا المعنى أنسب بالنظر الى ما ثبت فى السنه من الجهر فى بعض الفرائض اليوميه كالصبح و المغرب و العشاء و الإخفات فى غيرها. و لعل هذا الوجه أوفق بالنظر الى اتصال ذيل الآية بصدرها فالجهر بالصلاه يناسب كونه تعالى عليا متعاليا و الإخفات يناسب كونه قريبا أقرب من جبل الوريد فاتخاذ الخصلتين

جميعاً في الصلوات أداء لحق أسمائه جميعاً.

قوله تعالى: وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَ كَبِّرُهُ تَكْبِيرًا معطوف على قوله في الآيه السابقه: «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ» و يرجع محصل الكلام الى أن قل إن ما تدعونها من الأسماء و تزعمون أنها آلهه معبودون غيره إنما هي أسماؤه و هي مملوكة له لا تملك أنفسها و لا شيئاً لأنفسها فدعاؤها فهو المعبود على كل حال.

و ختم سبحانه الآيه بقوله: «وَ كَبِّرُهُ تَكْبِيرًا» و قد اطلق إطلاقاً بعد التوصيف و التنزيه فهو تكبيره من كل وصف، و لذا فسر «الله أكبر» بأنه أكبر من أن يوصف على ما ورد عن الصادق عليه السلام، و لو كان المعنى أنه أكبر من كل شيء لم يخل من إشراك الأشياء به تعالى في معنى الكبير و هو أعز ساحة أن يشاركه شيء في أمر.

و من لطيف الصنعه في السوره افتتاح أول آيه منها بالتسبيح و اختتام آخر آيه منها بالتكبير مع افتتاحها بالتحميد (١)(٢).

ص: ٧٧١

١-١. الاسراء ١٠١-١١١: بحث روائي في اسماء الله الحسنی.

٢-٢. الاسراء ١٠١-١١١: بحث روائي و قرآنی حول قوله تعالى: «وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكْثٍ».

الجزء الرابع

اشاره

ص: ١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ;lt;br>الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيَّ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَا كَثُرَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِابْنِهِمْ كِبَرٌ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَيَّ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)

السوره تتضمن الدعوه الى الاعتقاد الحق و العمل الصالح بالإنذار و التبشير كما يلوح اليه ما افتتحت به من الآيتين و ما اختتمت به من قوله تعالى: **فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** .

و فيها مع ذلك عنايه بالغه بنفى الولد كما يدل على ذلك تخصيص إنذار القائلين بالولد بالذكر ثانيا بعد ذكر مطلق الإنذار أولا أعنى وقوع قوله: **«وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا»** بعد قوله: **«لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ»** .

فوجه الكلام فيها الى الوثنيين القائلين ببنوه الملائكه و الجن و المصلحين من البشر و النصرى القائلين ببنوه المسيح عليه السلام و لعل اليهود يشار كونهم فيه حيث يذكر القرآن عنهم أنهم قالوا: عزير ابن الله.

و غير بعيد أن يقال إن الغرض من نزول السوره ذكر القصص الثلاث العجيبه التى لم تذكر فى القرآن الكريم إلا فى هذه السوره و هى قصه أصحاب الكهف و قصه موسى و فتاه فى مسيرهما الى مجمع البحرين و قصه ذى القرنين ثم استفيد منها ما استفرد فى السوره من الكلام فى نفى الشريك و الحث على تقوى الله سبحانه.

و السوره مكيه على ما يستفاد من سياق آياتها و قد استثنى منها قوله: **«وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ»** الآية؛ و سيجىء ما فيه من الكلام.

قوله تعالى: **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قِيمًا الْعِوَجَ بفتح العين و كسرهما الانحراف، قال فى المجمع: العوج بالفتح فيما يرى**

كالقناه و الخشبه و بالكسر فيما لا يرى شخصا قائما كالدين و الكلام.انتهى.

و لعل المراد بما يرى و ما لا- يرى ما يسهل رؤيته و ما يشكل كما ذكره الراغب فى المفردات بقوله:العوج-بالفتح-يقال فيما يدرك بالبصر سهلا كالخشب المنتصب و نحوه و العوج -بالكسر-يقال فيما يدرك بالفكر و البصيره كما يكون فى أرض بسيط يعرف تفاوته بالبصيره و كالدين و المعاش انتهى.فلا يرد عليه ما فى قوله تعالى: **لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا** -بكسر العين- **وَلَا أَمْتًا** (طه/١٠٧) فافهم.

و قوله: **وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا** الضمير للكتاب و الجملة حال عن الكتاب و قوله:

«قِيمًا» حال بعد حال على ما يفيد السياق فإنه تعالى فى مقام حمد نفسه من جهة تنزيهه كتابا موصوفا بأنه لا عوج له و أنه قيم على مصالح المجتمع البشرى فالعنايه متعلقه بالوصفين موزعه بينهما على السواء و هو مفاد كونهما حالين من الكتاب.

و وقوع «عِوَجًا» و هو نكره فى سياق النفي يفيد العموم فالقرآن مستقيم فى جميع جهاته فصيح فى لفظه،بلغ فى معناه،مصيب فى هدايته،حى فى حججه و براهينه،ناصح فى أمره و نهيه،صادق فيما يقصه من قصصه و أخباره،اصل فيما يقضى به،محفوظ من مخالطه الشياطين،لا اختلاف فيه،و لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه.

و القيم هو الذى يقوم بمصلحه الشىء و تدبير أمره كقيم الدار و هو القائم بمصالحها و يرجع اليه فى امورها،و الكتاب إنما يكون قيما بما يشتمل عليه من المعانى،و الذى يتضمنه القرآن هو الاعتقاد الحق و العمل الصالح كما قال تعالى: **يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ** **وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ** (الأحقاف/٣٠)،و هذا هو الدين و قد وصف تعالى دينه فى مواضع من كتابه بأنه قيم قال:

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ (الروم/٤٣)و على هذا فتوصيف الكتاب بالقيم لما يتضمنه من الدين القيم على مصالح العالم الإنسانى فى دنياهم و اخراهم.

قوله تعالى: **لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ**

الصَّالِحَاتِ الْآيَةِ؛ أَى لِيُنذِرَ الْكَافِرِينَ عَذَابًا شَدِيدًا صَادِرًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ كَذَا قِيلَ وَالظَّاهِرُ بِقَرِينِهِ تَقْيِيدَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُبَشِّرِينَ بِقَوْلِهِ: «الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ» أَنَّ التَّقْدِيرَ لِيُنذِرَ الَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَعْمَ مَنْ لَا يُؤْمِنُ أَوْ أَصْلًا أَوْ يُؤْمِنُ وَيَفْسُقُ فِي عَمَلِهِ.

وَالجَمَلَةُ عَلَى أَى حَالٍ بَيَانٌ لِتَنْزِيلِهِ الْكِتَابَ عَلَى عَبْدِهِ مُسْتَقِيمًا قِيمًا إِذْ لَوْ لَا اسْتِقَامَتُهُ فِي نَفْسِهِ وَ قِيمَوْمَتُهُ عَلَى غَيْرِهِ لَمْ يَسْتَقِيمِ إِنْذَارُ وَلَا تَبْشِيرٌ وَ هُوَ ظَاهِرٌ.

وَالْمُرَادُ بِالْأَجْرِ الْحَسَنِ الْجَنَّةَ بِقَرِينِهِ قَوْلُهُ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ: «مَا كَثِيرٌ فِيهِ أَبَدًا» وَالْمَعْنَى ظَاهِرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا وَ هُمْ عَامَهُ الْوَثْنِيِّينَ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَبْنَاءَ أَوْ بَنَاتٍ لَهُ وَ رَبَّمَا قَالُوا بِذَلِكَ فِي الْجَنِّ وَ الْمُصَلِحِينَ مِنَ الْبَشَرِ وَ النَّصَارَى الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ وَ قَدْ نَسَبَ الْقُرْآنُ إِلَى الْيَهُودِ أَنَّهُمْ قَالُوا: عَزِيرَ ابْنِ اللَّهِ.

وَ ذَكَرَ إِنْذَارَهُمْ خَاصَةً ثَانِيًا بَعْدَ ذِكْرِهِ عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ أَوْلَا بِقَوْلِهِ: «لِيُنذِرَ بِأَسَا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ» لِمَزِيدِ الْإِهْتِمَامِ بِشَأْنِهِمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبِرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ كَانَتْ عَامَتَهُمْ يَرِيدُونَ بِقَوْلِهِمْ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا حَقِيقَةً التَّوْلِيدِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: أُنَى يَكُونُ لَهُ وَ لَدًّا وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ (الأنعام ١٠١).

وَ قَدْ رَدَّ سَبْحَانَهُ قَوْلَهُمْ عَلَيْهِمْ أَوْلَا بِأَنَّهُ قَوْلٌ مِنْهُمْ جَهْلًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ ثَانِيًا بِقَوْلِهِ فِي آخِرِ الْآيَةِ: «إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا».

وَ كَانَ قَوْلُهُ: «مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ» شَامِلًا لَهُمْ جَمِيعًا مِنْ آبَاءٍ وَ أَبْنَاءٍ لَكِنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا يُحِيلُونَ الْعِلْمَ بِهِ إِلَى آبَائِهِمْ قَائِلِينَ إِنَّ هَذِهِ مِلَّةُ آبَائِنَا وَ هُمْ أَعْلَمُ مِنَّا وَ لَيْسَ لَنَا إِلَّا- أَنْ تَتَّبِعَهُمْ وَ نَقْتَدِي بِهِمْ فَفَرَّقَ تَعَالَى بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ آبَائِهِمْ فَفَنَى الْعِلْمَ عَنْهُمْ أَوْلَا- وَ عَنِ آبَائِهِمْ الَّذِينَ كَانُوا يَرْتَكِبُونَ الْيَهُودِيَّةَ ثَانِيًا لِيَكُونَ إِبْطَالًا لِقَوْلِهِمْ وَ لِحُجَّتِهِمْ جَمِيعًا.

وَ قَوْلُهُ: «كَبِرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ» ذَمُّ لَهُمْ وَ إِعْظَامُ لِقَوْلِهِمْ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا لَمَّا فِيهِ مِنْ

عظيم الاجتراء على الله سبحانه بنسبه الشريك و التجسم و التركب و الحاجة الى المعين و الخليفه اليه، تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

قوله تعالى: فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ هَذَا الْخَبِيثِ اَسِفًا البخوع و البخع القتل و الإهلاك و الآثار علامت أقدام الماره على الأرض، و الأسف شده الحزن و المراد بهذا الحديث القرآن.

و الآيه و اللتان بعدها فى مقام تعزیه النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم و تسليته و تطيب نفسه و الفاء لتفريع الكلام على كفرهم و جحدهم بآيات الله المفهوم من الآيات السابقه و المعنى يرجى منك أن تهلك نفسك بعد إعراضهم عن القرآن و انصرافهم عنك من شده الحزن، و قد دل على إعراضهم و توليهم بقوله: على آثارهم و هو من الاستعاره.

قوله تعالى: إِنَّا جَعَلْنَا مَاءً عَلَى الْمَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِيَتَلَوَّهُمْ مِنْهُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِينَ. الزينه الأمر الجميل الذى ينضم الى الشىء فيفيده جمالا يرغب اليه لأجله و الصعيد ظهر الأرض و الجزز على ما فى المجمع-الأرض التى لا تنبت كأنها تأكل النبات أكلا.

و قوله: مَاءً عَلَيْهِمْ من قبيل وضع الظاهر موضع المضمرة و كان من طبع الكلام أن يقال: «و إنا لجاعلوه»، و لعل النكته مزيد العناية بوصف كونه على الأرض.

[سوره الكهف (١٨): الآيات ٩ الى ٢٦]

إشارة

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَ هَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَصَرَّفْنَا عَلَىٰ أَدَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْهُمُ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْسَنٌ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنَا لَهُمُ هُدًى (١٣) وَ رَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَ إِذِ اعْتَرَّتْهُمُ هُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَخْرَجًا (١٦) وَ تَرَى السَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَ إِذَا عَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يَضِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (١٧) وَ تَحْسَبُهُمْ آيَاتِنَا وَعِبًا رُقُودًا وَ تَقْلِبُهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَ ذَاتَ الشَّمَالِ وَ كَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَ لَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) وَ كَذَلِكَ بَعَثْنَا لَهُمْ نُبَأَهُمْ لِتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالِ قَاتِلْ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَ لِيَتَلَطَّفْ وَ لَا يُشْعِرَنَّ بَكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠) وَ كَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِغُلْمَاؤِ أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَ أَنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيهِمْ إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ

رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلَا تَقُولَنَّ لِيْشَىءٍ إِنْى فَاعِلٌ
ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسَيْتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ
ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ
وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦)

قوله تعالى: أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا الحسبان هو الظن، والكهف هو المغاره فى الجبل إلا أنه أوسع منها فإذا صغر سمي غارا، والرقيم من الرقم وهو الكتابه و الخط فهو فى الأصل فعيل بمعنى المفعول كالجريح و القتل بمعنى المجروح و المقتول، والعجب مصدر بمعنى التعجب اريد به معنى الوصف مبالغه.

و ظاهر سياق القصة أن أصحاب الكهف و الرقيم جماعه بأعينهم و القصة قصتهم جميعا فهم المسمون أصحاب الكهف و أصحاب الرقيم أما تسميتهم أصحاب الكهف فلدخولهم الكهف و وقوع ما جرى عليهم فيه.

و أما تسميتهم أصحاب الرقيم فقد قيل: إن قصتهم كانت منقوشه فى لوح منصوب هناك أو محفوظ فى خزانة الملوك فبذلك سموا أصحاب الرقيم، وقيل: إن الرقيم اسم الجبل الذى فيه الكهف، او الوادى الذى فيه الجبل او البلد الذى خرجوا منه الى الكهف او الكلب الذى كان معهم أقوال خمس، و سيأتى فى الكلام على قصتهم ما يؤيد القول الأول.

قوله تعالى: إِذْ أَوْىءُ الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ إِلَى الْآيَةِ؛ الاوى الرجوع و لا كل رجوع بل رجوع الإنسان أو الحيوان الى محل يستقر فيه أو يستقر فيه و الفتية جمع سماعى لفتى و الفتى الشاب و لا تخلو الكلمه من شائبه مدح.

و التهيئه الإعداد قال البيضاوى: و أصل التهيئه إحداث هيئه الشىء. انتهى و الرشد بفتح تين أو الضم فالسكون الاهتداء الى المطلوب، قال الراغب: الرشد و الرشد خلاف الغى يستعمل استعمال الهدايه. انتهى.

و قوله: فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً تَفْرِيعَ لِدَعَائِهِمْ عَلَى أَوْيِهِمْ كَانَهُمْ

اضطروا لفقد القوه و انقطاع الحيله الى المبادره الى المسأله، و يؤيده قولهم: «مِنْ لَدُنْكَ» فلولا أن المذاهب أعتهم و الاسباب تقطعت بهم و اليأس أحاط بهم ما قيدوا الرحمه المسئوله أن تكون من لدنه تعالى بل قالوا: آتانا رحمه كقول غيرهم رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً (البقره ٢٠١) رَبَّنَا وَ آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ (آل عمران ١٩٤) فالمراد بالرحمه المسئوله التأيد الإلهي إذ لا مؤيد غيره.

و يمكن أن يكون المراد بالرحمه المسئوله من لدنه بعض المواهب و النعم المختصه به تعالى كالهدايه التي يصرح في مواضع من كلامه بأنها منه خاصه، و يشعر به التقييد بقوله:

«مِنْ لَدُنْكَ»، و يؤيده ورود نظيره في دعاء الراسخين في العلم المنقول في قوله: رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَ هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً (آل عمران ٨) فما سألوا إلا الهدايه.

و قوله: وَ هَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا المراد من أمرهم الشأن الذي يخصهم و هم عليه و قد هربوا من قوم يتتبعون المؤمنين و يسفكون دماءهم و يكرهونهم على عباده غير الله، و التجئوا الى كهف و هم لا يدرون ما ذا سيجرى عليهم؟ و لا يهتدون أى سبيل للنجاه يسلكون؟ و من هنا يظهر أن المراد بالرشد الاهتداء الى ما فيه نجاتهم.

فالجمله أعنى قوله: «وَ هَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا» على أول الاحتمالين السابقين في معنى الرحمه عطف تفسير على قوله: «آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً» و على ثانيهما مسأله بعد مسأله.

قوله تعالى: فَضْرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا قال في الكشاف:

أى ضربنا عليها حجابا من أن تسمع يعنى أنمناهم إنامه ثقيله لا تنبهم فيها الاصوات كما ترى المستثقل في نومه يصاح به فلا يسمع و لا يستنبه فحذف المفعول الذي هو الحجاب كما يقال: بنى على امرأته يريدون بنى عليها القبه. انتهى.

و قال في المجمع: و معنى ضربنا على آذانهم سلطنا عليهم النوم، و هو من الكلام البالغ في

الفصاحه يقال:ضربه الله بالفالج إذا ابتلاه الله به،قال قطرب:هو كقول العرب:ضرب الأمير على يد فلان إذا منعه من التصرف،قال الأسود بن يعفر و قد كان ضريرا:

و من الحوادث لا أبا لك أننى

ضربت على الارض بالأسداد

وقال:هذا من فصيح لغات القرآن التى لا- يمكن أن يترجم بمعنى يوافق اللفظ انتهى،و ما ذكره من المعنى أبلغ مما ذكره الزمخشري.

و هنا معنى ثالث و إن لم يذكره:و هو أن يكون إشاره الى ما تصنعه النساء عند إنامه الصبى غالبا من الضرب على اذنه بدق الاكف او الانامل عليها دقا نعيما لتتجمع حاسته عليه فيأخذه النوم بذلك فالجمله كناية عن إنامتهم سنين معدوده بشفقه و حنان كما تفعل الام المرضع بطفلها الرضيع.

و قوله: «سِتَيْنَ عِدَدًا» ظرف للضرب،و العدد مصدر كالعِد بمعنى المعدود فالمعنى سنين معدوده،وقيل بحذف المضاف و التقدير ذوات عدد.

و قد قال فى الكشاف:إن توصيف السنين بالعدد يحتمل أن يراد به التكثير أو التقليل لأن الكثير قليل عنده كقوله:لم يلبثوا إلا ساعه من نهار،و قال الزجاج:ان الشيء إذا قل فهم مقدار عدده فلم يحتج أن يعد و إذا كثر احتاج الى أن يعد.انتهى ملخصا.

و ربما كانت العناية فى التوصيف بالعدد هى أن الشيء إذا بلغ فى الكثره عسر عدده فلم يعد عادة و كان التوصيف بالعدد أماره كونه قليلا يقبل العد بسهولة،قال تعالى: وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ (يوسف ٢٠/اى قليله).

و كون الغرض من التوصيف بالعدد هو التقليل هو الملائم للسياق على ما مر فإن الكلام مسرود لنفى كون قصتهم عجبا و إنما يناسبه تقليل سنى لبثهم لا تكثيرها و معنى الآية ظاهر و قد دل فيها على كونهم نائمين فى الكهف طول المده لا ميتين.

قوله تعالى: ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنُعَلِّمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا المراد

بالبعث هو الايقاظ دون الاحياء بقرينه الآيه السابقه، قال الراغب: الحزب جماعه فيها غلط.

انتهى.

وقال: الأمد و الأبد يتقاربان لكن الأبد عباره عن مده الزمان التى ليس لها حد محدود و لا يتقيد لا يقال: أمد كذا، و الأمد مده لها حد مجهول إذا اطلق، و قد ينحصر نحو أن يقال: أمد كذا كما يقال: زمان كذا. و الفرق بين الأمد و الزمان أن الأمد يقال باعتبار الغايه و الزمان عام فى المبدأ و الغايه، و لذلك قال بعضهم: المدى و الأمد يتقاربان. انتهى.

و المراد بالعلم العلم الفعلى و هو ظهور الشىء و حضوره بوجوده الخاص عند الله، و قد كثر ورود العلم بهذا المعنى فى القرآن كقوله: لِيُعَلِّمَ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ (الحديد ٢٥)، و قوله: لِيُعَلِّمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ (الجن ٢٨) و اليه يرجع قول بعضهم فى تفسيره: أن المعنى ليظهر معلومنا على ما علمناه.

و قوله: «لِيُعَلِّمَ أَيُّ الْحَزْبَيْنِ أَحْصَى» الخ؛ تعليل للبعث و اللام للغايه و المراد بالحزبين الطائفتان من أصحاب الكهف حين سأل بعضهم بعضا بعد البعث: قائلًا كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم على ما يفيدته قوله تعالى فى الآيات التاليه:

«وَ كَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ» الخ.

و قوله: أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمِيداً فعل ماض من الإحصاء، و «أَمِيداً» مفعوله و الظاهر أن «لِمَا لَبِثُوا» قيد لقوله: «أَمِيداً» و ما مصدرية أى أَيُّ الْحَزْبَيْنِ عد أمد لبثهم و قيل:

أحصى اسم تفضيل من الاحصاء بحذف الزوائد كقولهم: هو أحصى للمال و أفلس من ابن المذلق (١) و أمدنا منصوب بفعل يدل عليه «أَحْصَى» و لا يخلو من تكلف، و قيل غير ذلك.

و معنى الآيات الثلاث أعنى قوله: «إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ» الى قوله: «أَمِيداً» إذ رجع الشبان الى

ص: ١٧

الكهف فسألوا عند ذلك ربهم قائلين: ربنا هب لنا من لدنك ما ننجو به مما يهددنا بالتخيير بين عباده غيرك و بين القتل و أعد لنا من أمرنا هدى نهتدى به الى النجاه فأنمناهم فى الكهف سنين معدوده ثم أيقظناهم ليتبين أى الحزبين عد أمدا للبثهم.

قوله تعالى: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ شروع فى ذكر ما يهيم من خصوصيات قصتهم تفصيلا، و قوله: «إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ» أى آمنوا إيمانا مرضيا لربهم و لو لا ذلك لم ينسبه اليهم قطعا.

و قوله: «وَزِدْنَا لَهُمُ هُدًى» الهدى بعد أصل الإيمان ملازم لارتقاء درجه الإيمان الذى فيه اهتداء الإنسان الى كل ما ينتهى الى رضوان الله قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ (الحديد ٢٨).

قوله تعالى: وَ رَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ الثلاث؛ الربط هو الشد، و الربط على القلوب كناية عن سلب القلق و الاضطراب عنها، و الشطط الخروج عن الحد و التجاوز عن الحق، و السلطان الحجج و البرهان.

و قوله: لَنْ نَدْعُوًا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا بعد قوله: «رَبَّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» - هو جحد و إنكار فيه إشعار و تلويح الى أنه كان هناك تكليف إجبارى بعباده الأوثان و دعاء غير الله.

و قوله: إِذْ قَامُوا فَقَالُوا الخ؛ يشير الى أنهم فى بادئ قولهم كانوا فى مجلس يصدر عنه الأمر بعباده الأوثان و الإجبار عليها و النهى عن عباده الله و السياسه المنتحليه بالقتل و العذاب كمجلس الملك أو ملاءه أو ملاء- عام كذلك فقاموا و أعلنوا مخالفتهم و خرجوا و اعتزلوا القوم و هم فى خطر عظيم يهددهم و يهجم عليهم من كل جانب كما يدل عليه قولهم: وَ إِذْ اغْتَرَلْتُمُوهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأُؤُوا إِلَى الْكَهْفِ .

و هذا يؤيد ما وردت به الروايه - و سيجىء الخبر - أن سته منهم كانوا من خواص الملك

يستشيرهم في اموره فقاموا من مجلسه و أعلنوا التوحيد و نفى الشريك عنه تعالى.

قوله تعالى: وَإِذِ اعْرَظْتُمْهُمْ وَإِنَّمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الاعتزال و التعزل التنحي عن أمر، و النشر البسط، و المرفق بكسر الميم و فتح الفاء و بالعكس و بفتحهما المعامله بلطف.

هذا هو الشطر الثاني من محاورتهم جرت بينهم بعد خروجهم من بين الناس و اعتزالهم إياهم و ما يعبدون من دون الله و تنحيهم عن الجميع يشير به بعضهم عليهم أن يدخلوا الكهف و يتستروا فيه من أعداء الدين.

و قد تفرسوا بهدى الهى أنهم لو فعلوا ذلك عاملهم الله من لطفه و رحمته بما فيه نجاتهم من تحكم القوم و ظلمهم و الدليل على ذلك قولهم بالجزم: فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ الْخ؛ و لم يقولوا: عسى أن ينشر أو لعل.

و و هذا اللذان تفرسوا بهما من نشر الرحمه و تهيئه المرفق هما اللذان سألوهما بعد دخول كهف إذ قالوا- كما حكى الله- رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَ هَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا .

و الاستثناء فى قوله: «وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ» استثناء منقطع فإن الوثنيين لم يكونوا يعبدون الله مع سائر آلهتهم حتى يفيد الاستثناء إخراج بعض ما دخل أولا- فى المستثنى منه فىكون متصلا فقول بعضهم: إنهم كانوا يعبدون الله و يعبدون الأصنام كسائر المشركين. و كذا قول بعض آخر: يجوز إنه كان فيهم من يعبد الله مع عباده الأصنام فىكون الاستثناء متصلا فى غير محله، إذ لم يعهد من الوثنيين عباده الله سبحانه مع عباده الأصنام، و فلسفتهم لا تجيز ذلك، و قد أشرنا الى حجتهم فى ذلك آنفا.

قوله تعالى: وَ تَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرَضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ إِلَى آخِرِ الْآيَتِينَ؛ التزاور هو التمايل مأخوذ من الزور بمعنى الميل و القرض القطع، و الفجوه المتسع من الأرض و ساحه الدار و المراد بذات اليمين

و ذات الشمال الجبهه التى تلى اليمين أو الشمال أو الجبهه ذات اسم اليمين أو الشمال و هما جهتا اليمين و الشمال.

و هاتان الآيتان تمثلان الكهف و مستقرهم منه و منظرهم و ما يتقلب عليهم من الحال أيام لبثهم فيه و هم رقاد و الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بما أنه سامع لا بما أنه هو، و هذا شائع فى الكلام، و الخطاب على هذا النمط يعم كل سامع من غير أن يختص بمخاطب خاص.

فقوله: «وَ تَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوِرُّ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ» يصف موقع الكهف و موقعهم فيه و هم نائمون و أما إنامتهم فيه بعد الاوى اليه و مده لبثهم فيه فقد اكتفى فى ذلك بما أشير اليه فى الآيات السابقة من إنامتهم و لبثهم و ما سيأتى من قوله: «وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ» الخ؛ إثارة للإيجاز.

و المعنى: و ترى أنت و كل راء يفرض اطلاعه عليهم و هم فى الكهف يرى الشمس إذا طلعت تتراور و تتمايل عن كهفهم جانب اليمين فيقع نورها عليه، و إذا غربت تقطع جانب الشمال فيقع شعاعها عليه و هم فى متسع من الكهف لا تناله الشمس.

و قوله: «وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَ هُمْ رُقُودٌ أَيْقَاظٌ جَمْعٌ يَقِظٌ وَ يَقِظَانٌ وَ الرُقُودُ جَمْعٌ رَاقِدٌ وَ هُوَ النَّائِمُ، وَ فِى الْكَلَامِ تَلْوِيحٌ إِلَى أَنَّهُمْ كَانُوا مَفْتُوحَى الْأَعْيُنِ حَالِ نَوْمِهِمْ كَالْأَيْقَاظِ.»

و قوله: «وَ نُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَ ذَاتَ الشَّمَالِ أَيْ وَ نُقَلِّبُهُمْ جِهَةَ الْيَمِينِ وَ جِهَةَ الشَّمَالِ، وَ الْمُرَادُ نُقَلِّبُهُمْ تَارَهُ مِنَ الْيَمِينِ إِلَى الشَّمَالِ وَ تَارَهُ مِنَ الشَّمَالِ إِلَى الْيَمِينِ لثَلَاثَ أَكْلِهِمُ الْأَرْضِ، وَ لَا تَبْلَى ثِيَابَهُمْ، وَ لَا تَبْطُلُ قَوَاهِمُ بَدَنِيهِمُ بِالرُّكُودِ وَ الْخُمُودِ طَوْلُ الْمَكْتِثِ.»

و قوله: «وَ كَلَّبَهُمْ بِأَسْطٍ ذُرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ الْوَصِيدُ فَنَاءُ الْبَيْتِ وَ قِيلَ: عَتَبَهُ الدَّارُ وَ الْمَعْنَى كَانُوا عَلَى مَا وَصَفَ مِنَ الْحَالِ وَ الْحَالُ أَنَّ كَلْبَهُمْ مَفْتَرَشٌ بِذُرَاعِيهِ بِأَسْطٍ لِهَمَّا بِفَنَاءِ الْكَهْفِ وَ فِيهِ إِخْبَارٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا لَهُمْ كَلْبٌ يَلْزَمُهُمْ وَ كَانَ مَا كُنَّا مَعَهُمْ طَوْلُ مَكْتَبِهِمْ فِى الْكَهْفِ.»

و قوله: «لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَ لَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا بَيَانٌ

أنهم و حالهم هذا الحال كان لهم منظر موحش هائل لو أشرف عليهم الإنسان فر منهم خوفا من خطرهم تبعدا من المكروه المتوقع من ناحيتهم و ملاء قلبه الروع و الفزع رعبا و سرى الى جميع الجوارح فملاً الجميع رعبا، و الكلام فى الخطاب الذى فى قوله: «لَوَلَّيْتِ» و قوله:

«وَلَمَلَيْتِ» كالكلام فى الخطاب الذى فى قوله: «وَتَرَى الشَّمْسَ» .

قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ التَّسَاؤُلُ سؤَالُ بَعْضِ الْقَوْمِ بَعْضًا، و الورق بالفتح فالكسر: الدراهم، و قيل هو الفضة مضروبه كانت أو غيرها، و قوله: إن يظهروا عليكم أى إن يطلعوا عليكم أو إن يظفروا بكم.

و الإشارة بقوله: «وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ» الى إنامتهم بالصورة التى مثلتها الآيات السابقة أى كما أنماهم فى الكهف دهرا طويلا على هذا الوضع العجيب المدهش الذى كان آيه من آياتنا كذلك بعثناهم و أيقظناهم ليتساءلوا بينهم.

و قوله: «قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ السَّائِلَ عَنْ لَبِثِهِمْ كَانَ وَاحِدًا مِنْهُمْ خَاطِبُ الْبَاقِينَ و سألهم عن مدة لبثهم فى الكهف نائمين و كأن السائل استشعر طولا فى لبثهم مما وجده من لوته النوم الثقيل بعد التيقظ فقال: كم لبثتم؟

و قوله: «قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ» ترددوا فى جوابهم بين اليوم و بعض اليوم و كأنهم بنوا الجواب على ما شاهدوا من تغير محل وقوع الشمس كأن أخذوا فى النوم أوائل النهار و انتهوا فى أواسطه أو أواخره ثم شكوا فى مرور الليل عليهم فيكون مكثهم يوما و عدم مروره فيكون بعض يوم فأجابوا بالترديد بين يوم و بعض يوم و هو على أى حال جواب واحد.

و قوله تعالى: «قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ أَى قَالَ بَعْضُ آخِرِ مَنْهُمْ رَدًا عَلَى الْقَائِلِينَ: «لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ»: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ» و لو لم يكن ردا لقالوا ربنا أعلم بما لبثنا.

و بذلك يظهر أن إحواله العلم الى الله تعالى فى قولهم: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ» ليس لمجرد مراعاة

حسن الأدب كما قيل بل لبيان حقيقته من حقائق معارف التوحيد و هي أن العلم بحقيقته معنى الكلمه ليس إلا الله سبحانه فإن الإنسان محجوب عما وراء نفسه لا يملك بإذن الله إلا نفسه و لا يحيط إلا بها و إنما يحصل له من العلم بما هو خارج عن نفسه ما دلت عليه الأمارات الخارجيه و بمقدار ما ينكشف بها و أما الإحاطه بعين الأشياء و نفس الحوادث و هو العلم حقيقته فإنما هو لله سبحانه المحيط بكل شيء الشهيد على كل شيء و الآيات الداله على هذه الحقيقه لا تحصى.

و الظاهر أن القائلين منهم: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ» غير القائلين: «لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ» فإن السياق سياق المحاوره و المجاوبه كما قيل و لانزمه كون المتكلمين ثانيا غير المتكلمين أولا و لو كانوا هم الأولين بأعيانهم لكان من حق الكلام أن يقال: ثم قالوا ربنا أعلم بما لبثنا بدل قوله: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ» الخ.

و من هنا يستفاد أن القوم كانوا سبعة أو أزيد إذ قد وقع في حكاية محاورتهم «قَالَ» مره و «قَالُوا» مرتين و أقل الجمع ثلاثه فقد كانوا لا يقل عددهم من سبعة.

و قوله تعالى: فَابْتَعُوا أَيْدِيَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرُوا أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ من تتمه المحاوره و فيه أمر أو عرض لهم أن يرسلوا رسولا منهم الى المدينه ليشتري لهم طعاما يتغذون به و الضمير في «أَيُّهَا» راجع الى المدينه و المراد بها أهلها من الكسبه استخداما.

و زكاء الطعام كونه طيبا و قيل: كونه حاللا و قيل: كونه طاهرا و وروده بصيغه أفعال التفضيل «أَزْكَى طَعَامًا» لا يخلو من إشعار بالمعنى الأول.

و الضمير في «مِنْهُ» للطعام المفهوم من الكلام و قيل: للأزكى طعاما و«من» للابتداء أو التبويض أى ليأتكم من ذلك الطعام الأزكى برزق ترتزقون به، و قيل: الضمير للورق و«من» للبدايه و هو بعيد لإحواجه الى تقدير ضمير آخر يرجع الى الجملة السابقه و كونه

ضمير التذكير و قد اشير الى الورق بلفظ التانيث من قبل.

وقوله تعالى: **وَ لَيَتَلَطَّفْ وَ لَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا** التلطف إعمال اللطف و الرفق و إظهاره فقوله: **«وَ لَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا»** عطف تفسيري له و المراد على ما يعطيه السياق:

ليتكلف اللطف مع أهل المدينة في ذهابه و مجيئه و معاملته لهم كيلا- يقع خصومه أو منازعه لتؤدي الى معرفتهم بحالكم و إشعارهم بكم، و قيل المعنى ليتكلف اللطف في المعاملة و إطلاق الكلام يدفعه.

وقوله تعالى: **إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَيَّدًا** تعليل للأمر بالتلطف و بيان لمصلحته.

ظهر على الشيء بمعنى اطلع عليه و علم به و بمعنى ظفر به و قد فسرت الآية بكل من المعنيين و الكلمه على ما ذكره الرغب مأخوذه من الظهر بمعنى الجارحه مقابل البطن فكان هو الأصل ثم استعير للأرض فقيل: ظهر الأرض مقابل بطنها ثم اخذ منه الظهور بمعنى الانكشاف مقابل البطن للملازمه بين الكون على وجه الأرض و بين الرؤيه و الاطلاع و كذا بينه و بين الظفر و كذا بينه و بين الغلبه عاده فقيل: ظهر عليه أى اطلع عليه و علم بمكانه أو ظفر به أو غلبه ثم اتسعوا في الاشتقاق فقالوا: أظهر و ظاهر و تظاهر و استظهر الى غير ذلك.

و ظاهر السياق أن يكون **«يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ»** بمعنى يطلعوا عليكم و يعلموا بمكانكم فانه أجمع المعانى لأن القوم كانوا ذوى أيد و قوه و قد هربوا و استخفوا منهم فلو اطلعوا عليهم ظفروا بهم و غلبوهم على ما أرادوا.

وقوله: **يَرْجُمُوكُمْ** أى يقتلوكم بالحجاره و هو شر القتل و يتضمن معنى النفره و الطرد، و فى اختيار الرجم على غيره من أصناف القتل إشعار بأن أهل المدينة عامه كانوا يعادونهم لدينهم فلو ظهروا عليهم بادروا اليهم و تشاركوا فى قتلهم و القتل الذى هذا شأنه يكون بالرجم عاده.

و قوله: «أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمُ الظاهر أن الإعادة مضمن معنى الإدخال و لذا عدى بفي دون الى.

و كان لازم دخولهم في ملتهم عادة و قد تجاهاوا برفضها و سموها شططا من القول و افتراء على الله بالكذب-أن لا يقنع القوم بمجرد اعترافهم بحقيه المله صوره دون أن يثقوا بصدقهم في الاعتراف و يراقبوهم في أعمالهم فيشاركوا الناس في عباده الأوثان و الإتيان بجميع الوظائف الدينيه التي لهم و الحرمان عن العمل بشيء من شرائع الدين الإلهي و التفوه بكلمه الحق.

و هذا كله لا بأس به على من اضطر على الإقامة في بلاد الكفر و الانحصار بين أهله كالأسير المستضعف بحكم العقل و النقل و قد قال تعالى: «إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ (النحل ١٠٦)» و قال تعالى: «إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً (آل عمران ٢٨)» فله أن يؤمن بقلبه و ينكره بلسانه و أما من كان بنجوه منهم و هو حر في اعتقاده و عمله ثم ألقى بنفسه في مهلكه الضلال و تسبب الى الانحصار في مجتمع الكفر فلم يستطع التفوه بكلمه الحق و حرم التلبس بالوظائف الدينيه الإنسانيه فقد حرم على نفسه السعاده و لن يفلح أبدا قال تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجَرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا (النساء / ٩٧).

و بهذا يظهر وجه ترتب قول: «و لَنْ تُقْلِحُوا إِذَا أَيْدَاءً» على قوله: «أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ» و يندفع ما قيل: إن إظهار الكفر بالاكراه مع إبطان الإيمان معفو عنه في جميع الأزمان فكيف رتب على العود في ملتهم عدم الفلاح أبدا مع أن الظاهر من حالهم الكره هذا فانهم لو عرضوا بأنفسهم عليهم أو دلوهم بوجه على مكانهم فأعادوهم في ملتهم و لو على كره كان ذلك منهم تسببا اختياريا الى ذلك و لم يعذروا البته.

وقوله تعالى: «بِوَرَقِكُمْ لِلَّهِ» على ما فيه من الإضافة والإشارة المعنيه لشخص الورق مشعر بعنايه خاصه بذكرها فإن سياق استدعاء أن يبعثوا أحدا لا شراء طعام لهم لا يستوجب بالطبع ذكر الورق التي يشتري بها الطعام والإشارة إليها بشخصها ولعلها إنما ذكرت في الآية مع خصوصيه الاشاره لأنها كانت هي السبب لظهور أمرهم و انكشاف حالهم لأنها حين أخرجها رسومها ليدفعها ثمنا للطعام كانت من مسكوكات عهد مرت عليها ثلاثه قرون و ليس في آيات القصة ما يشعر بسبب ظهور أمرهم و انكشاف حالهم إلا هذه اللفظه.

وقوله تعالى: وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ قَالِ فِي الْمَفْرَدَاتِ: عشر الرجل يعثر عثرا و عثورا إذا سقط و يتجوز به فيمن يطلع على أمر من غير طلبه قال تعالى: فإن عثر على أنهما استحقا إنما يقال: عثرت على كذا قال: «وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ» أي وقفناهم عليهم من غير أن طلبوا. انتهى.

وقوله: إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ ظرف لقوله: «أَعْتَرْنَا» أو لقوله: «لِيَعْلَمُوا» و التنازع التخاصم قبل: أصل التنازع التجاذب و يعبر به عن التخاصم و هو باعتبار اصل معناه يتعدى بنفسه، و باعتبار التخاصم يتعدى بفي كقوله تعالى: فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ انتهى.

و المراد بتنازع الناس بينهم أمرهم تنازعهم في أمر البعث و إنما اضيف اليهم إشعارا باهتمامهم و اعتنائهم بشأنه فهذه حال الآيه من جهه مفرداتها بشهاده بعضها على بعض.

و المعنى على ما مر: و كما أنماهم ثم بعثناهم لكذا و كذا أطلعنا الناس عليهم في زمان يتنازعون أي الناس بينهم في أمر البعث ليعلموا أن وعد الله بالبعث حق أن الساعة لا ريب فيها.

أو المعنى أعترا عليهم ليعلم الناس مقارنا لزمان يتنازعون فيه بينهم في أمر البعث أن

وعد الله بالبعث حق.

و أما دلاله بعثهم عن النوم على أن البعث يوم القيامة حق فانما هو من جهه أن انتزاع أرواحهم عن أجسادهم ذاك الدهر الطويل و تعطيل شعورهم و ركود حواسهم عن أعمالها و سقوط آثار القوى البدنيه كالنشو و النماء و نبات الشعر و الظفر و تغير الشكل و ظهور الشيب و غير ذلك و سلامه ظاهر أبدانهم و ثيابهم عن الدثور و البلى ثم رجوعهم الى حالهم يوم دخلوا الكهف بعينها يماثل انتزاع الارواح عن الاجساد بالموت ثم رجوعها الى ما كانت عليها، و هما معا من خوارق العاده لا يدفعهما إلا الاستبعاد من غير دليل.

و قد حدث هذا الأمر فى زمان ظهر التنازع بين طائفتين من الناس موحد يرى مفارقه الارواح الاجساد عند الموت ثم رجوعها إليها فى البعث و مشرك (1) يرى مغايره الروح البدن و مفارقتها له عند الموت لكنه لا يرى البعث و ربما رأى التناسخ.

فحدوث مثل هذه الحادثه فى مثل تلك الحال لا يدع ريبا لاولئك الناس أنها آيه إلهيه قصد بها إزاله الشك عن قلوبهم فى أمر البعث بالدلاله بالمماثل على المماثل و رفع الاستبعاد بالوقوع.

و يقوى هذا الحدس منهم و يشتد بموتهم بعيد الانبعاث فلم يعيشوا بعده إلا سويحات لم تسع أزيد من اطلاع الناس على حالهم و اجتماعهم عليهم و استخبارهم عن قصتهم و إخبارهم بها.

و من هنا يظهر وجه آخر لقوله تعالى: «إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرُهُمْ» و هو رجوع الضميرين الأولين الى الناس و الثالث الى أصحاب الكهف و كون «إِذْ» ظرفا لقوله:

«لِيَعْلَمُوا» و يؤيده قوله بعده: «رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ» على ما سيجىء.

ص: ٢٦

١- ١). و هذا مذهب عامه الوثنيين فهم لا يرون بطلان الإنسان بالموت و انما يرون نفى البعث و اثبات التناسخ.

و الاعتراض على هذا الوجه أولاً: بأنه يستدعى كون التنازع بعد الإعتار و ليس كذلك، و ثانياً: بأن التنازع كان قبل العلم و ارتفع به فكيف يكون وقته و قته، مدفوع بأن التنازع على هذا الوجه فى الآيه هو تنازع الناس فى أمر أصحاب الكهف و قد كان بعد الإعتار و مقارنة للعلم زماناً، و الذى كان قبل الاعتار و قبل العلم هو تنازعهم فى أمر البعث و ليس بمراد على هذا الوجه.

و قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمُ الْقَائِلُونَ هُمُ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْقَوْمِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ بَعْدَهُ: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ و المراد ببناء البنيان عليهم على ما قيل أن يضرب عليهم ما يجعلون به وراءه و يسترون عن الناس فلا يطلع عليهم مطلع منهم كما يقال: بنى عليه جداراً إذا حوطه و جعله وراءه.

و فى قوله: ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ إشاره الى وقوع خلاف بين الناس المجتمعين عليهم أمرهم، فإنه كلام آيس من العلم بهم و استكشاف حقيقه أمرهم يلوح منه أن القوم لم تنازعوا فى شىء مما يرجع اليهم فتبصر فيه بعضهم و لم يسكن الآخرون الى شىء و لم يرتضوا رأى مخالفيهم فقالوا: ابنا لهم بنيانا ربهم أعلم بهم.

فمعنى الجملة أعنى قوله: ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ يتفاوت بالنظر الى الوجهين المتقدمين فى قوله:

﴿إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ إذ للجملة على أى حال نوع تفرع على تنازع بينهم كما عرفت آنفاً فإن كان التنازع المدلول عليه بقوله: ﴿إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ هو التنازع فى أمر البعث بالإقرار و الإنكار لكون ضمير «أَمْرَهُمْ» للناس كان المعنى انهم تنازعوا فى أمر البعث فأعثرناهم عليهم ليعلموا أن وعد الله حق و أن الساعة لا ريب فيها لكن المشركين لم ينتهوا بما ظهرت لهم من الآيه فقالوا: ابنا على أصحاب الكهف بنيانا و اتركوهم على حالهم ينقطع عنهم الناس فلم يظهر لنا من أمرهم شىء و لم نظفر فيهم على يقين ربهم أعلم بهم، و قال الموحدون: أمرهم ظاهر و آيتهم بينه و لتتخذن عليهم مسجداً يعبد فيه الله و يبقى ببقائه

ذكرهم.

و ان كان التنازع هو التنازع فى أصحاب الكهف و ضمير «أمرهم» راجعا اليهم كان المعنى أنا أعرنا الناس عليهم بعد بعثهم عن نومتهم ليعلم الناس أن وعد الله حق و أن الساعه لا ريب فيها عند ما توفاهم الله بعد اعمار الناس عليهم و حصول الغرض و هم أى الناس يتنازعون بينهم فى أمرهم أى أمر أصحاب الكهف كأنهم اختلفوا: أ نيام القوم أم أموات؟ و هل من الواجب أن يدفنوا و يقبروا أو يتركوا على هيئتهم فى فجوه الكهف فقال المشركون:

ابنوا عليهم بنيانا و اتركوهم على حالهم ربهم أعلم بهم أ نيام أم أموات؟ قال الموحدون:

«لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا» .

لكن السياق يؤيد المعنى الاول لأن ظاهره كون قول الموحدين: «لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا» ردا منهم لقول المشركين: «ابنوا لهم بنيانا» الخ؛ و القولان من الطائفتين انما يتنافيان على المعنى الاول، و كذا قولهم: «رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ» و خاصه حيث قالوا: «رَبُّهُمْ» و لم يقولوا:

ربنا أنسب بالمعنى الاول.

و قوله: قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا هؤلاء القائلون هم الموحدون و من الشاهد عليه التعبير عما اتخذه بالمسجد دون المعبد فإن المسجد فى عرف القرآن هو المحل المتخذ لذكر الله و السجود له قال تعالى: وَ مَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ (الحج ٤٠).

و قد جاء الكلام بالفصل من غير عطف لكونه بمنزله جواب عن سؤال مقدر كأن قائل يقول فما ذا قال غير المشركين؟ فقيل: قال الذين غلبوا، الخ؛ و أما المراد بغلبتهم على أمرهم فإن كان المراد بأمرهم هو الامر المذكور فى قوله: «إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ» و الضمير للناس فالمراد بالغلبه غلبه الموحدين بنجاحهم بالآيه التى قامت على حقيه البعث، و ان كان الضمير للفتيه فالغلبه من حيث التصدى لامرهم و الغالبون هم الموحدون و قيل: الملك

ص: ٢٨

و أعوانه، وقيل: أولياؤهم من أقاربهم و هو أسخف الأقوال.

و ان كان المراد بأمرهم غير الأمر السابق و الضمير للناس فالغلبه أخذ زمام امور المجتمع بالملك و ولايه الامور، و الغالبون هم الموحدون أو الملك و أعوانه و ان كان الضمير عائدا الى الموصول فالغالبون هم الولاء و المراد بغلبتهم على امورهم أنهم غالبون على ما أرادوه من الامور قادرون هذا، و أحسن الوجوه أولها.

قوله تعالى: سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ -الى قوله- وَ ثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ يذكر تعالى اختلاف الناس فى عدد اصحاب الكهف و اقوالهم فيه، و هى على ما ذكره تعالى -و قوله الحق- ثلاثة مترتبة متصاعده احدها انهم ثلاثة رابعهم كلبهم و الثانى انهم خمسة و سادسهم كلبهم و قد عقبه بقوله: «رَجْمًا بِالْغَيْبِ» اى قولاً بغير علم.

و هذا التوصيف راجع الى القولين جميعا: و لو اختص بالثانى فقط كان من حق الكلام أن يقدم القول الثانى و يؤخر الأول و يذكر مع الثالث الذى لم يذكر معه ما يدل على عدم ارتضائه.

و القول الثالث أنهم سبعة و ثامنهم كلبهم، و قد ذكره الله سبحانه و لم يعقبه بشيء يدل على تزييفه، و لا يخلو ذلك من اشعار بأن القول الحق، و قد تقدم فى الكلام على محاورتهم المحكيه بقوله تعالى: «قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ» أنه مشعر بل دال على أن عددهم لم يكن بأقل من سبعة.

و من لطيف صنع الآيه فى عد الأقوال نظمها العدد من ثلاثة الى ثمانية نظما متواليا ففيها ثلاثة رابعها خمسة سادسها سبعة و ثامنها.

و أما قوله: «رَجْمًا بِالْغَيْبِ» تمييز يصف القولين بأنهما من القول بغير علم و الرجم هو الرمى بالحجاره و كأن المراد بالغيب الغائب و هو القول الذى معناه غائب عن العلم لا يدرى قائله أ هو صدق أم كذب؟ فشبه الذى يلقى كلاما ما هذا شأنه بمن يريد الرجم بالحجاره فيرمى ما

لا يدري أحجر هو يصيب غرضه أم لا؟ ولعله المراد بقول بعضهم: رجما بالغيب أى قذفا بالظن لأن المظنون غائب عن الظان لا علم له به.

وقد قال تعالى: «ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ» وقال: «خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ» فلم يأت بواو ثم قال: «سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ» فأتى بواو قال فى الكشاف: و ثلاثة خبر مبتدأ محذوف أى هم ثلاثة، و كذلك خمسة و سبعة، رابعهم كلبهم جملة من مبتدأ و خبر واقعه صفة لثلاثة، و كذلك سادسهم كلبهم و ثامنهم كلبهم.

قوله تعالى: قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ الى آخر الآيه؛ أمر للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يقضى فى عدتهم حق القضاء و هو أن الله أعلم بها و قد لوح فى كلامه السابق الى القول و هذا نظير ما حكى عن الفتية فى محاورتهم و ارتضاء اذ قال قائل منهم كم لبثتم؟ قالوا:

لبثنا يوما أو بعض يوم. قالوا: ربكم أعلم بما لبثتم.

و مع ذلك فى الكلام دلالة على أن بعض المخاطبين بخطاب النبي صلى الله عليه و آله و سلم «رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ» الخ؛ كان على علم من ذلك فإن قوله: «مَا يَعْلَمُهُمْ» و لم يقل: لا يعلمهم يفيد نفى الحال فالاستثناء منه بقوله: «إِلَّا قَلِيلٌ» يفيد الإثبات فى الحال و اللائح منه على الذهن أنهم من أهل الكتاب.

و بالجمله مفاد الكلام أن الاقوال الثلاثة كانت محققة فى عهد النبي صلى الله عليه و آله و سلم و على هذا فقوله:

«سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ» الخ؛ المفيد للاستقبال، و كذا قوله: «و يَقُولُونَ خَمْسَةٌ» الخ؛ و قوله:

«و يَقُولُونَ سَبْعَةٌ» الخ؛ ان كانا معطوفين على مدخول السين فى «سَيَقُولُونَ» تفيد الاستقبال القريب بالنسبة الى زمن نزول الآيات أو زمن وقوع الحادثه فافهم ذلك.

و قوله تعالى: فَلَا تَمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا قال الراغب: المريه التردد فى الامر و هو أخص من الشك، قال: و الامتراء و المماراه المحاجه فيما فيه مريه قال: و أصله من مريت الناقه اذا مسحت ضرعها للحلب. انتهى. فتسميه الجدل مماراه لما فيه من اصرار

الممارى بالبحث ليفرغ خصمه كل ما عنده من الكلام فينتهى عنه.

و المراد بكون المرء ظاهرا أن لا- يتعمق فيه بالاختصار على ما قصه القرآن من غير تجهيل لهم و لا- رد كما قيل، وقيل: المرء الظاهر ما يذهب بحجه الخصم يقال: ظهر اذا ذهب، قال الشاعر:

و تلك شكاه ظاهر عنك عارها

و المعنى: و اذا كان ربك أعلم و قد أنبأك نبأهم فلا- تحاجهم فى الفتيه الا- محاجه ظاهره غير متعمق فيها- أو محاجه ذاهبه لحجتهم- و لا تطلب الفتيا فى الفتيه من أحد منهم فربك حسبك.

قوله تعالى: **وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** الآية الكريمة سواء كان الخطاب فيها للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خاصة أو له و لغيره متعرضه للأمر الذى يراه الانسان فعلا لنفسه و يخبر بوقوعه منه فى مستقبل الزمان.

و الذى يراه القرآن فى تعليمه الإلهى ان ما فى الوجود من شىء ذاتا كان او فعلا و اثرا فإنما هو مملوك لله و حده له ان يفعل فيه ما يشاء و يحكم فيه ما يريد لا- معقب لحكمه، و ليس لغيره ان يملك شيئا الا- ما ملكه الله تعالى منه و اقدره عليه و هو المالك لما ملكه و القدر على ما عليه اقدره و الآيات القرآنيه الداله على هذه الحقيقه كثيره جدا لا حاجه الى ايرادها.

فما فى الكون من شىء له فعل أو اثر- و هذه هى التى نسميها فواعل و اسبابا و عللا فعاله- غير مستقل فى سببته و لا مستغن عنه تعالى فى فعله و تأثيره لا يفعل و لا يؤثر الا ما شاء الله ان يفعل و يؤثره اى اقدره عليه و لم يسلب عنه القدره عليه باراده خلافه.

و بتعبير آخر كل سبب من الأسباب الكونيه ليس سببا من تلقاء نفسه و باقتضاء من ذاته بل باقداره تعالى على الفعل و التأثير و عدم ارادته خلافه، و إن شئت فقل: بتسهيله تعالى له سبيل الوصول اليه، و ان شئت فقل باذنه تعالى فالاذن هو الاقدار و رفع المانع و قد تكاثرت

الآيات الداله على ان كل عمل من كل عامل موقوف على اذنه تعالى قال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنِهِ أَوْ تَرَكْتُمْوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ (الحشر ٥)﴾ وقال: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (التغابن ١١)﴾ وقال: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ بِبِئْرِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ (الأعراف ٥٨)﴾ وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (آل عمران ١٤٥)﴾ وقال:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (يونس ١٠٠)﴾ وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِنُطَاعِ بِإِذْنِ اللَّهِ (النساء ٦٤)﴾ الى غير ذلك من الآيات الكثيره.

فعلى الانسان العارف بمقام ربه المسلم له ان لا يرى نفسه سببا مستقلا لفعله مستغنيا فيه عن غيره بل مالكا له بتمليك الله قادرا عليه باقداره و أن القوه لله جميعا و اذا عزم على فعل ان يعزم متوكلا على الله قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَاذْعَبْ﴾ و أخبر عما سيفعله أن يقيده باذن الله أو بعدم مشيئه خلافه.

و هذا المعنى هو الذى يسبق الى الذهن المسبوق بهذا الحقيقه القرآنيه اذا قرع بابه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْعَبْ﴾ و خاصه بعد ما تقدم فى آيات القصه من بيان توحده تعالى فى الوهيته و ربوبيته و ما تقدم قبل آيات القصه من كون ما على الأرض زينه لها سيجعله الله صعيدا جززا. و من جمله ما على الأرض افعال الانسان التى هى زينه جالبه للانسان يمتحن بها و هو يراها مملوكه لنفسه.

و ذلك ان قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ نهى عن نسبته فعله الى نفسه، و لا بأس بهذه النسبه قطعا فانه سبحانه كثيرا ما ينسب فى كلامه الافعال الى نبيه و الى غيره من الناس و ربما يأمره ان ينسب افعالا الى نفسه قال تعالى: ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ (يونس ٤١)﴾، و قال: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ (الشورى ١٥)﴾.

فأصل نسبه الفعل الى فاعله مما لا ينكره القرآن الكريم و إنما ينكر دعوى الاستقلال فى الفعل و الاستغناء عن مشيئه و اذنه تعالى فهو الذى يصلحه الاستثناء أعنى

و من هنا يظهر أن الكلام على تقدير باء الملابسه و هو استثناء مفرغ عن جميع الأحوال أو جميع الأزمان، و تقديره: و لا تقولن لشيء-أى لأجل شيء تعزم عليه-انى فاعل ذلك غدا فى حال من الأحوال أو زمان من الأزمنة الا فى حال او فى زمان يلابس قولك المشيه بأن تقول:

انى فاعل ذلك غدا ان شاء الله أن أفعله أو الا ان يشاء الله ان لا افعله، و المعنى على أى حال: ان أذن الله فى فعله.

قوله تعالى: وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا اتصال الآيه و اشتراكها مع ما قبلها فى سياق التكليف يقضى أن يكون المراد من النسيان نسيان الاستثناء، و عليه يكون المراد من ذكر ربه ذكره بمقامه الذى كان الالتفات اليه هو الموجب للاستثناء و هو أنه القائم على كل نفس بما كسبت الذى ملكه الفعل و أقدره عليه و هو المالك لما ملكه و القادر على ما عليه أقدره.

و المعنى: إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت أنك نسيته فاذا ذكر ربك متى كان ذلك بما لو كنت ذاكرا لذكرته به و هو تسليم الملك و القدره اليه و تقييد الأفعال بإذنه و مشيته.

و إذ كان الأمر بالذكر مطلقا لم يتعين فى لفظ خاص فالمندوب اليه هو ذكره تعالى بشأنه الخاص سواء كان بلفظ الاستثناء بأن يلحقه بالكلام، إن ذكره و لما يتم الكلام أو يعيد الكلام و يستثنى أو يضمم الكلام ثم يستثنى إن كان فصل قصير أو طويل كما ورد فى بعض (1) الروايات أنه لما نزلت الآيات قال النبى صلى الله عليه و آله و سلم: ان شاء الله أو كان الذكر باستغفار و نحوه.

و قوله: وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا حديث الاتصال و الاشتراك فى سياق التكليف بين جمل الآيه يقضى هنا أيضا أن تكون الإشارة بقوله: «هذا»

الى الذكر بعد النسيان، والمعنى وارج أن يهديك ربك الى أمر هو أقرب رشدا من النسيان ثم الذكر و هو الذكر الدائم من غير نسيان فيكون من قبيل الآيات الداعية له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الى دوام الذكر كقوله تعالى: **وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْأَصَالِ وَ لَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ** (الأعراف ٢٠٥/) و ذكر الشيء كما نسي ثم ذكر و التحفظ عليه كره بعد كره من أسباب دوام ذكره.

قوله تعالى: **وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ اَزْدَادُوا تِسْعًا** بيان لمدته لبثهم في الكهف على حال النوم فإن هذا اللبث هو متعلق العناية في آيات القصة و قد اشير الى إجمال مدته اللبث بقوله في أول الآيات: **«فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا»** .

و قوله: «سِنِينَ» ليس بمميز للعد و إلا لقليل: ثلاثمائة سنة بل هو بدل من ثلاثمائة كما قالوا، و في الكلام مضاهاه لقوله فيما أجمل في صدر الآيات: «سِنِينَ عَدَدًا» .

و لعل النكته في تبديل «سنة» من «سِنِينَ» استكثار مده اللبث، و على هذا فقوله:

«وَ اَزْدَادُوا تِسْعًا» لا يخلو من معنى الإضراب كأنه قيل: و لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة هذه السنين المتماديه و الدهر الطويل بل ازدادوا تسعا، و لا ينافي هذا ما تقدم في قوله: «سِنِينَ عَدَدًا» أن هذا الاستقلال عدد السنين و استحقاره لأن المقامين مختلفان بحسب الغرض فإن الغرض هناك كان متعلقا بنفى العجب من آيه الكهف بقياسها الى آيه جعل ما على الأرض زينه لها بالأنسب به استحقار المده، و الغرض هاهنا بيان كون اللبث آيه من آياته و حجه على منكرى البعث و الأنسب به استكثار المده، و المده بالنسبتين تحتل الوصفين فهي بالنسبه اليه تعالى شيء هين و بالنسبه اليها دهر طويل.

و إضافة تسع سنين الى ثلاثمائة سنة مده اللبث تعطى أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة شمسيه فإن التفاوت في ثلاثمائة سنة إذا أخذت تاره شمسيه و اخرى قمرية بالغ هذا المقدار تقريبا و لا ينبغي الارتياح في أن المراد بالسنين في الآيه السنون القمرية لأن السنه في عرف

القرآن هي القمرية المؤلفه من الشهور الهلاليه و هي المعبره فى الشريعه الإسلاميه.

قوله تعالى: قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ مَضَى فِي حَدِيثِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ بِالْإِشَارَةِ إِلَى خِلَافِ النَّاسِ فِي ذَلِكَ وَ أَنَّ مَا قَصَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ قِصَّتِهِمْ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ.

فقوله: «قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا» مشعر بأن مده لبثهم المذكوره فى الآيه السابقه لم تكن مسلمه عند الناس فأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يحتج فى ذلك بعلم الله و أنه أعلم بهم من غيره.

و قوله: لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ تعليل لكونه تعالى أعلم بما لبثوا، واللام للاختصاص الملكى و المراد أنه تعالى وحده يملك ما فى السماوات و الارض من غيب غير مشهود فلا يفوته شىء و ان فات السماوات و الأرض، و إذ كان مالكا للغيب بحقيقه معنى الملك و له كمال البصر و السمع فهو أعلم بلبثهم الذى هو من الغيب.

و على هذا فقوله: «أَبْصَرَ بِهِ وَ أَسْمِعَ» - و هما من صيغ التعجب معناهما كمال بصره و سمعه - لتتميم التعليل كأنه قيل: و كيف لا يكون أعلم بلبثهم و هو يملكهم على كونهم من الغيب و قد رأى حالهم و سمع مقالهم.

و قوله: «لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ الْخ» المراد بالجملة الاولى منه نفى ولايه غير الله لهم مستقلا بالولايه دون الله، و بالثانيه نفى ولايه غيره بمشاركته إياه فيها أى ليس لهم ولى غير الله لا مستقلا بالولايه و لا غير مستقل.

و الضمير فى قوله: «لَهُمْ» لاصحاب الكهف أو لجميع ما فى السماوات و الأرض المفهوم من الجملة السابقه بتغليب جانب اولى العقل أو لمن فى السماوات و الأرض و الوجوه الثلاثه مترتبه جوده و أجودها أولها.

[سوره الكهف (١٨): الآيات ٢٧ الى ٣١]

إشاره

وَ أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَ كَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا (٢٨) وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَ إِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَ سَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِذَا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عِدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا أَنْهَارٌ يُحَلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ يَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ النَّوَابُ وَ حَسَنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١)

بيان:

قوله تعالى: **وَآتِلْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ**؛ في المجمع: لحد اليه و التحد أي مال انتهى فالملتحد اسم مكان من الالتحاد بمعنى الميل و المراد بكتاب ربك القرآن أو اللوح

ص: ٣٦

المحفوظ، و كأن الثاني أنسب بقوله: «لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ» .

قوله تعالى: وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ قال الراغب: الصبر الإمساك في ضيق يقال: صبرت الدابة حبستها بلا- علف، و صبرت فلانا خلفته خلفه لا- خروج له منها، و الصبر حبس النفس على ما يقتضيه العقل و الشرف أو عما يقتضيان حبسها عنه. انتهى مورد الحاجة.

و وجه الشيء ما يواجهك و يستقبلك به، و الأصل في معناه الوجه بمعنى الجارح، و وجهه تعالى أسماؤه الحسنی و صفاته العليا التي بها يتوجه إليه المتوجهون و يدعوه الداعون و يعبدوه العابدون قال تعالى: وَ لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا (الأعراف ١٨٠)، و أما الذات المتعالیه فلا سبيل إليها، و إنما يقصده القاصدون و يريدوه المریدون لأنه إله رب على عظيم ذو رحمة و رضوان إلى غير ذلك من اسمائه و صفاته.

و المراد بدعائهم ربهم بالغداه و العشى الاستمرار على الدعاء و الجرى عليه دائما لأن الدوام يتحقق بتكرر غداه بعد عشى و عشى بعد غداه على الحس فالكلام جار على الكنايه. و قيل:

المراد بدعاء الغداه و العشى صلاه طرفى النهار و قيل: الفرائض اليوميه و هو كما ترى.

و قوله تعالى: وَ لَا تَعِدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا اصل معنى العدو كما صرح به الراغب التجاوز و هو المعنى السارى فى جميع مشتقاته و موارد استعماله قال فى القاموس: يقال: عدا الأمر و عنه جاوزه و تركه انتهى فمعنى «لَا تَعِدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ» لا تجاوزهم و لا تتركهم عيناك و الحال انك تريد زينه الحياه الدنيا.

و قوله تعالى: وَ لَا- تُطْعَمَ مَيْنَ أَغْفَلًا قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِنَا المراد باغفال قلبه تسليط الغفله عليه و إنسانه ذكر الله سبحانه على سبيل المجازاه حيث انهم عاندوا الحق فأضلهم الله باغفالهم عن ذكره فإن كلامه تعالى فى قوم هذه حالهم نظير ما سيأتى فى ذيل الآيات من قوله: «إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَ إِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا

وقوله تعالى: وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَ كَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: الْفُرْطُ التَّجَاوُزُ لِلْحَقِّ وَ الْخُرُوجُ عَنْهُ مِنْ قَوْلِهِمْ: افْرُطَ إِفْرَاطًا إِذَا اسْرَفَ وَ انْتَهَى، وَ اتَّبَعَ الْهَوَى وَ الْإِفْرَاطُ مِنْ آثَارِ غَفْلَةِ الْقَلْبِ، وَ لِذَلِكَ كَانَ عَطْفُ الْجَمَلَتَيْنِ عَلَى قَوْلِهِ: «أَغْفَلْنَا» بِمَنْزِلِهِ عَطْفُ التَّفْسِيرِ.

قوله تعالى: وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ عَطْفُ عَلَى مَا عَطْفُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «وَ اتُّلُّ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ» وَ قَوْلُهُ: «وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ» فَالسِّيَاقُ سِيَاقُ تَعْدَادِ وَظَائِفِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قِبَالَ كُفْرِهِمْ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ وَ إِصْرَارِهِمْ عَلَيْهِ وَ الْمَعْنَى لَا تَأْسَفْ عَلَيْهِمْ وَ اتُّلْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْفُقَرَاءِ، وَ قُلْ لِلْكَافِرِينَ: الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لَا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ فَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْمِنَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ أَنْ يَكْفُرَ فَلْيَكْفُرْ فَلَيْسَ يَنْفَعُنَا إِيمَانُهُمْ وَ لَا يَضُرُّنَا كُفْرُهُمْ بَلْ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ نَفْعٍ أَوْ ضَرَرٍ وَ ثَوَابٍ أَوْ تَبَعَةٍ عَذَابٍ عَائِدٍ إِلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ فَلْيَخْتَارُوا مَا شَاءُوا فَقَدْ اعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ كَذَا وَ كَذَا وَ لِلصَّالِحِينَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ كَذَا.

قوله تعالى: إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: السَّرَادِقُ الْفَسْطَاطُ الْمَحِيطُ بِمَا فِيهِ، وَ يُقَالُ: السَّرَادِقُ ثَوْبٌ يَدَارُ حَوْلَ الْفَسْطَاطِ، وَ قَالَ: الْمَهْلُ خِثَارُهُ الزَّيْتُ، وَ قِيلَ: هُوَ النَّحَاسُ الذَّائِبُ، وَ قَالَ: الْمَرْتَفِقُ الْمَتَكُّ مِنَ الْمَرْفِقِ يُقَالُ: ارْتَفَقَ إِذَا اتَّكَأَ عَلَى مَرْفِقِهِ انْتَهَى وَ الشَّيْءُ النَّضِجُ يُقَالُ: شَوَى يَشْوَى شَيْئًا إِذَا نَضَجَ.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِذَا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا- بَيَانٌ لِحِزَاءِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى إِيمَانِهِمْ وَ عَمَلِهِمْ الصَّالِحِ وَ إِنَّمَا قَالَ: «إِنَّا لَا نُضِيعُ» الْخ؛ وَ لَمْ يَقُلْ: وَ اعْتَدْنَا لَهُؤُلَاءِ كَذَا وَ كَذَا لِيَكُونَ دَالًا عَلَى الْعِنَايَةِ بِهِمْ وَ الشُّكْرِ لَهُمْ.

وَ قَوْلُهُ: «إِنَّا لَا نُضِيعُ» الْخ؛ فِي مَوْضِعِ خَبَرٍ، وَ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ وَضْعِ السَّبَبِ مَوْضِعِ الْمَسْبُوبِ وَ التَّقْدِيرُ: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُوفِيهِمْ أَجْرَهُمْ فَإِنَّهُمْ مُحْسِنُونَ إِنَّا لَا

نضع أجر من أحسن عملا.

و إذ عد في الآيه العقاب أثرا للظلم ثم عد الثواب في مقابله أجرا للإيمان و العمل الصالح استفدنا منه أن لا ثواب للإيمان
المجرد من صالح العمل بل ربما أشعرت الآيه بأنه من الظلم.

قوله تعالى: أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إلى آخر الآيه؛ العدن هو الإقامة و جنات عدن جنات إقامه، و
الأساور قيل: جمع أسوره و هي جمع سوار بكسر السين و هي حليه المعصم، و ذكر الراغب أنه فارسي معرب و أصله دستواره، و
السندس ما رق من الدياتج، و الاستبرق ما غلظ منه، و الاراتك جمع أريكه و هي السرير، و معنى الآيه ظاهر.

[سوره الكهف (١٨): الآيات ٣٢ الى ٤٦]

اشاره

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَ حَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَ
لَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَ فَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (٣٣) وَ كَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَ أَعَزُّ نَفْرًا (٣٤) وَ دَخَلَ
جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَ لَنْ رُدُّدْتُ إِلَى رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا
(٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هِيَ أَلَلَّهُ رَبِّي وَ لَا
أَشْرِكَ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَ لَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَ وَلَمَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ
رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَ يُرْسِلَ عَلَيْهَا حُمْلَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحُ مَاؤها غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا
(٤١) وَ أُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبِحْ يَقْلُوبُ كَفَيْهِ عَلَيَّ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَيَّ غُرُوشًا وَ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَ
لَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَا كَانَ مُنْتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) وَ اضْرِبْ لَهُمْ
مَثَلِ الْجِبَاهِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَ كَانَ اللَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا
(٤٥) الْمَالُ وَ النَّبُونُ زِينَةُ الدُّنْيَا وَ الْجِبَاهُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ أَمَلًا (٤٦)

ص: ٣٩

ليتبين لهم أنهم لم يتعلقوا في ذلك إلا بسراب وهمى لا واقع له.

وقوله: جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْدَابٍ أَي من كروم فالثمره كثيرا ما يطلق على شجرتها وقوله: «وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ» أَي جعلنا النخل محيطه بهما حافه من حولهما وقوله: «وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا» أَي بين الجنين ووسطهما، وبذلك تواصلت العماره و تمت واجتمعت له الأوقات و الفواكه.

قوله تعالى: كَلْتِمَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهُمَا الْآيَةَ؛ الأكل بضم التين المأكول، والمراد بإيتائهما الأكل إثمار أشجارهما من الأعناب و النخيل.

وقوله: وَ لَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا الظلم النقص، و الضمير للاكل أى و لم تنقص من أكله شيئا بل أثمرت ما فى وسعها من ذلك، وقوله: «وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا» أَي شققنا وسطهما نهرا من الماء يسقيهما و يرفع حاجتهما الى الشرب بأقرب و سيله من غير كلفه.

قوله تعالى: وَ كَانَ لَهُ ثَمْرٌ الضمير للرجل و الثمر أنواع المال كما فى الصحاح و عن القاموس، و قيل: الضمير للنخل و الثمر ثمره، و قيل: المراد كان للرجل ثمر ملكه من غير جنته.

و أول الوجوه اوجهها ثم الثانى و يمكن ان يكون المراد من إيتاء الجنتين اكلها من غير ظلم بلوغ أشجارهما فى الرشد مبلغ الإثمار و أوانه، و من قوله: «وَ كَانَ لَهُ ثَمْرٌ» وجود الثمر على اشجارهما بالفعل كما فى الصيف و هو وجه خال عن التكلف.

قوله تعالى: فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَ أَعَزُّ نَفْرًا المحاوره المخاطبه و المراجعة فى الكلام، و نفر الأشخاص يلازمون الإنسان نوع ملازمه سموا نفرا لأنهم ينفرون معه و لذلك فسره بعضهم بالخدم و الولد، و آخرون بالرهط و العشيره، و الأول اوفق بما سيحكيه الله من قول صاحبه له: «إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَ وُلْدًا» حيث بدل نفر من الولد، و المعنى فقال الذى جعلنا له الجنتين لصاحبه و الحال انه يحاوره: انا اكثر منك مالا و اعز نفرا أى ولدا و خدما.

و هذا الذى قاله لصاحبه يحكى عن مزعمه خاصه عنده منحرفه عن الحق فإنه نظر الى نفسه و هو مطلق التصرف فيما خوله الله من مال و ولد لا يزاحم فيما يريد في ذلك فاعتقد انه مالكه و هذا حق لكنه نسى ان الله سبحانه هو الذى ملكه و هو المالك لما ملكه و الذى سخره الله له و سلطه عليه من زينه الحياه الدنيا التى هى فتنه و بلاء يمتحن بها الإنسان ليميز الله الخيىث من الطيب بل اجتذبت الزينه نفسه إليها فحسب انه منقطع عن ربه مستقل بنفسه فيما يملكه، و ان التأثير كله عند الأسباب الظاهرية التى سخرت له.

فنسى الله سبحانه و ركن الى الأسباب و هذا هو الشرك ثم التفت الى نفسه فرأى أنه يتصرف فى الأسباب مهيمنا عليها فظن ذلك كرامه لنفسه و أخذه الكبر فاستكبر على صاحبه.

قوله تعالى: **وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ الضمائر الأربع راجعه الى الرجل، و الراد بالجنه جنسها و لذا لم تن، و قيل: لأن الدخول لا يتحقق فى الجنتين معا فى وقت واحد، و إنما يكون فى الواحد بعد الواحد.**

و قال فى الكشف: فإن قلت: فلم أفرد الجنه بعد التثنيه؟ قلت: معناه و دخل ما هو جنته ما له جنه غيرها يعنى أنه لا نصيب له فى الجنه التى وعد المؤمنون فما ملكه فى الدنيا هو جنته لا غير، و لم يقصد الجنتين و لا واحده منهما. انتهى و هو وجه لطيف.

و قوله: **وَ هُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ** و إنما كان ظالماً لأنه تكبر على صاحبه إذ قال: **«أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً»** الخ؛ و هو يكشف عن إعجابه بنفسه و شركه بالله بنسيانه و الركون الى الأسباب الظاهرية، و كل ذلك من الرذائل المهلكه.

و قوله: **قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبْدًا** البید و البیدوده الهلاك و الفناء و الإشاره بهذه الى الجنه، و فصل الجمله لكونها فى معنى جواب سؤال مقدر كأنه لما قيل: و دخل جنته قيل: فما فعل؟ فقيل: قال: ما أظن أن تبید، الخ.

وقد عبر عن بقاء جنته بقوله: «مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ» الخ؛ ونفى الظن بأمر كنايه عن كونه فرضاً وتقديراً لا يلتفت إليه حتى يظن به و يمال إليه فمعنى ما أظن أن تبعد هذه أن بقاءه و دوامه مما تطمئن إليه النفس و لا تتردد فيه حتى تتفكر في بيده و تظن أنه سيفنى.

و قوله: «مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً» هو مبنى على ما مر من التأييد فى قوله: «مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا» فإنه يورث استبعاد تغير الوضع الحاضر بقيام الساعة، و كل ما حكاه الله سبحانه من حجج المشركين على نفي المعاد مبنى على الاستبعاد كقولهم: مَنْ يُخِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ (يس ٧٨)، و قولهم: أ إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (الم السجده ١٠).

و قوله: «وَلَيْتَ لِرُدُّدْتُمْ إِلَيَّ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا» مبنى على ما تقدم من دعوى كرامه النفس و استحقاق الخير، و يورث ذلك فى الإنسان رجاء كاذباً بكل خير و سعادته من غير عمل يستدعيه يقول: من المستبعد أن تقوم الساعة و لئن قامت و رددت الى ربي لأجدن بكرامه نفسى - و لا يقول: يؤتىنى ربي - خيراً من هذه الجنة منقلبا أنقلب اليه.

و قد خدعت هذا القائل نفسه فيما ادعت من الكرامه حتى أقسم على ما قال كما يدل عليه لام القسم فى قوله: «وَلَيْتَ لِرُدُّدْتُمْ» و لام التأكيد و نونها فى قوله: «لَأَجِدَنَّ» و قال: «رُدُّدْتُمْ» و لم يقل: ردنى ربي اليه، و قال: «لَأَجِدَنَّ» و لم يقل: آتانى الله.

و الآيتان كقوله تعالى: «وَلَيْتَ أَذَقْنَا رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْبٍ مَسَّئِهِ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً» و لَيْتَ رُجِعْتُ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى (حم السجده ٥٠).

قوله تعالى: «قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا آيَهُ» و ما بعدها الى تمام أربع آيات رد من صاحب الرجل يرد به قوله: «أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَ أَعَزُّ نَفَرًا» ثم قوله إذ دخل جنته: «مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا» و قد حلل الكلام من حيث غرض المتكلم الى جهتين: إحداهما استعلاؤه على الله

سبحانه بدعوى استقلاله فى نفسه و فيما يملكه من مال و نفر و استثناءؤه بما عنده من القدره و القوه، و الثانيه استعلاؤه على صاحبه و استهانتة به بالقله و الذله ثم رد كلا من الدعويين بما يحسم مادتها و يقطعها من اصلها فقوله: «أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ -إلى قوله- إِلَّا بِاللَّهِ» ورد لاولى الدعويين، و قوله: «إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ -إلى قوله- طَلَبًا» رد للثانيه.

فقوله: «قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ» فى إعاده جملة «وَهُوَ يُحَاوِرُهُ» إشاره الى أنه لم ينقلب عما كان عليه من سكينه الإيمان و وقاره باستماع ما استمعه من الرجل بل جرى على محاورته حافظا آدابه و من أبده إرفاقه به فى الكلام و عدم خشونته بذكر ما يعد دعاء عليه يسوؤه عاده فلم يذكر ولده بسوء كما ذكر جنته بل اكتفى فيه بما يرمز اليه ما ذكره فى جنته من إمكان صيرورتها صعيدا زلقا و غور مائها.

و قوله: «أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ» الخ؛ الاستفهام للانكار ينكر عليه ما اشتمل عليه كلامه من الشرك بالله سبحانه بدعوى الاستقلال لنفسه و للأسباب و المسببات كما تقدمت الإشاره اليه و من فروع شرکه استبعاده قيام الساعه و تردده فيه.

و أما ما ذكره فى الكشاف أنه جعله كافرا بالله جاحدا لأنعمه لشكه فى البعث كما يكون المكذب بالرسول كافرا فغير سديد كيف؟ و هو يذكر فى استدراكه نفي الشرك عن نفسه، و لو كان كما قال لذكر فيه الإيمان بالمعاد.

قوله تعالى: لِكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا القراءه المشهوره «لكن» بفتح النون المشدده من غير الف فى الوصل و اثباتها وقفا. و اصله على ما ذكره «لكن أنا» حذفتم الهمزه بعد نقل فتحتها الى النون و أدغمت النون فى النون فالوصل بنون مشدده مفتوحه من غير الف و الوقف بالألف كما فى «أنا» ضمير التكلم.

قوله تعالى: وَ لَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ مِنْ تَمَمَ قَوْلِ الْمُؤْمِنِ لِصَاحِبِهِ الْكَافِرِ، وَ هُوَ تَحْضِيضٌ وَ تَوْبِيخٌ لِصَاحِبِهِ إِذْ قَالَ لَمَّا دَخَلَ جَنَّتَهُ:

﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ لِلْهَدْيِ أَبَدًا﴾ و كان عليه أن يبده من قوله: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ فينسب الأمر كله الى مشيه الله و يقصر القوه فيه تعالى مبنا على ما بينه له أن كل نعمه بمشيه الله و لا قوه إلا به.

و قوله: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ إما على تقدير: الأمر ما شاء الله، أو على تقدير: ما شاء الله كائن، و ما على التقديرين موصوله و يمكن أن تكون شرطيه و التقدير ما شاء الله كان، و الأوفق بسياق الكلام هو أول التقادير لأن الغرض بيان رجوع الامور الى مشيه الله تعالى قبل من يدعى الاستقلال و الاستغناء.

و قوله: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ يفيد قيام القوه بالله و حصر كل قوه فيه بمعنى أن ما ظهر في مخلوقاته تعالى من القوه القائمه بها فهو بعينه قائم به من غير أن ينقطع ما أعطاه منه فيستقل به الخلق قال تعالى: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (البقره ١٦٥).

و قد تم بذلك الجواب عما قاله الكافر لصاحبه و ما قاله عند ما دخل جنته.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقْلَ مِنْكَ مَالًا وَ وُلْدًا﴾ الى آخر الآيتين؛ قال في الجمع:

أصل الحسبان السهام التي ترمى لتجرى في طلق واحد و كان ذلك من رمى الأساوره، و أصل الباب الحساب، و إنما يقال لما يرمى به: حسان لأنه يكثر كثره الحساب. قال: و الزلق الأرض الملساء المستويه لا نبات فيها و لا شيء و أصل الزلق ما تزلق عنه الأقدام فلا تثبت عليه. انتهى.

و قد تقدم أن الصعيد هو سطح الأرض مستويا لا نبات عليه، و المراد بصيروره الماء غورا صيرورته غائرا ذاهبا في باطن الارض.

و معنى الآية ان ترنى أنا أقل منك مالا و ولدا فلا بأس و الأمر في ذلك الى ربي فعسى ربي أن يؤتيني خيرا من جنتك و يرسل أى على جنتك مرامى من عذابه السماوى كبرد أو ريح سموم أو صاعقه أو نحو ذلك فتصبح أرضا خاليه ملساء لا شجر عليها و لا زرع، أو يصبح ماؤها غائرا

فلن تستطيع أن تطلبه لإمعانه في الغور.

قوله تعالى: «وَ أَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الإحاطة بالشئ كناية عن هلاكه، وهى مأخوذة من احاطه العدو و استدارته به من جميع جوانبه بحيث ينقطع عن كل معين و ناصر و هو الهلاك، قال تعالى: وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ (يونس ٢٢)».

و قوله: «فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ» كناية عن الندامة فإن الندام كثيرا ما يقرب كفيه ظهر البطن، و قوله: «وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا» كناية عن كمال الخراب كما قيل فإن البيوت الخربة المنهدمه تسقط أولا عروشها و هى سقوفها على الأرض ثم تسقط جدرانها على عروشها الساقطة و الخوى السقوط و قيل:الأصل فى معناه الخلو.

و قوله: «وَ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا» أى يا ليتنى لم أتعلق بما تعلقت به و لم أركن و لم أطمئن الى هذه الأسباب التى كنت أحسب أن لها استقلالاً فى التأثير و كنت أرجع الأمر كله الى ربي فقد ضل سعيى و هلكت نفسى.

و المعنى:و أهلك أنواع ماله أو فسد ثمر جنته فأصبح نادماً على المال الذى أنفق و الجنة خربه و يقول يا ليتنى لم اشرك بربى أحداً و لم أسكن الى ما سكنت اليه و اغتررت به من نفسى و سائر الأسباب التى لم تنفعنى شيئاً.

قوله تعالى: «وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَا كَانَ مُنْتَصِرًا الْفِئَةُ الْجَمَاعَةُ، و المنتصر الممتنع.

و كما كانت الآيات الخمس الاولى أعنى قوله: «قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ -الى قوله- طَلَبًا» بيانا قوليا لخطأ الرجل فى كفره و شركه كذلك هاتان الآيتان أعنى قوله: «وَ أَحِيطَ بِثَمَرِهِ -الى قوله- وَ مَا كَانَ مُنْتَصِرًا» بيان فعلى له أما تعلقه بدوام الدنيا و استمرار زينتها فى قوله: «مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا» فقد جلى له الخطأ فيه حين احيط بثمره فأصبحت جنته خاويه على

عروشها، و أما سكونه الى الأسباب و ركونه إليها و قد قال لصاحبه: «أنا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَ أَعَزُّ نَفْراً» فبين خطأؤه فيه بقوله تعالى: «وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ» و أما دعوى استقلاله بنفسه و تبجحه بها فقد أشير الى جهه بطلانها بقوله تعالى: «وَ مَا كَانَ مُتَتَصِراً» .

قوله تعالى: هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَ خَيْرٌ عُقْباً القراءه المشهوره «الْوَلَايَةُ» بفتح الواو و قرئ بكسرهما و المعنى واحد، و ذكر بعضهم أنها بفتح الواو بمعنى البصره و بكسرهما بمعنى السلطان، و لم يثبت و كذا «الْحَقُّ» بالجبر، و الثواب مطلق التبعه و الأجر و غلب فى الأجر الحسن الجميل، و العقب بالضم فالسكون و بضمين: العاقبه.

ذكر المفسرون أن الإشاره بقوله: «هُنَالِكَ» الى معنى قوله: «أُحِيطَ بِثَمَرِهِ» أى فى ذلك الموضع أو فى ذلك الوقت و هو موضع الإهلا-ك و وقته الولايه لله، و أن الولايه بمعنى النصره أى إن الله سبحانه هو الناصر للانسان حين يحيط به البلاء و ينقطع عن كافه الأسباب لا ناصر غيره.

و هذا معنى حق فى نفسه لكنه لا- يناسب الغرض المسوق له الآيات و هو بيان أن الأمر كله لله سبحانه و هو الخالق لكل شىء المدبر لكل أمر، و ليس لغيره إلا- سراب الوهم و تزيين الحياه لغرض الابتلاء و الامتحان، و لو كان كما ذكره كان الأنسب توصيفه تعالى فى قوله: «لِلَّهِ الْحَقُّ» بالقوه و العزه و القدره و الغلبه و نحوها لا- بمثل الحق الذى يقابل الباطل، و أيضا لم يكن لقوله: «هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَ خَيْرٌ عُقْباً» وجه ظاهر و موقع جميل.

و الحق و الله أعلم أن الولايه بمعنى مالكيه التدبير و هو المعنى السارى فى جميع اشتقاقاتها كما مر فى الكلام على قوله تعالى: «إِنَّمَا وَدَّعْتُمُ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ (المائدہ ٥٥)» أى عند إحاطه الهلاك و سقوط الأسباب عن التأثير و تبين عجز الإنسان الذى كان يرى لنفسه الاستقلال و الاستغناء و لايه أمر الإنسان و كل شىء و ملك تدبيره لله لأنه إله حق له التدبير و التأثير بحسب واقع الأمر و غيره من الأسباب الظاهرية المدعوه شركاء له فى التدبير و التأثير باطل

فى نفسه لا- يملك شيئاً من الأثر إلا ما أذن الله له و ملكه إياه، و ليس له من الاستقلال إلا اسمه بحسب ما توهمه الإنسان فهو باطل فى نفسه حق بالله سبحانه و الله هو الحق بذاته المستقل الغنى فى نفسه.

قوله تعالى: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ النُّخْلَ؛ هذا هو المثل الثانى ضرب لتمثيل الحياة الدنيا بما يقارنها من الزينة السريعة الزوال.

و الهشيم فعيل بمعنى مفعول من الهشم، و هو على ما قال الراغب كسر الشىء الرخو كالنبات، و ذرا يذروا ذروا أى فرق، و قيل: أى جاء به و ذهب، و قوله: «فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ» و لم يقل: اختلط بنبات الأرض إشارة الى غلبته فى تكوين النبات على سائر أجزائه، و لم يذكر مع ماء السماء غيره من مياه العيون و الأنهار لأن مبدأ الجميع ماء المطر، و قوله: «فَأَضْيَبَ حَشِيمًا» أصبح فيه- كما قيل- بمعنى صار فلا يفيد تقييد الخبر بالصباح.

و المعنى: و اضرب لهؤلاء المتوليين بزينة الدنيا المعرضين عن ذكر ربهم مثل الحياة الدنيا كما أنزلناه من السماء و هو المطر فاختلط به نبات الأرض فرف نضاره و بهجه و ظهر بأجمل حليه فصار بعد ذلك هشيمًا مكسرا متقطعا تعبت به الرياح تفرقه و تجيء به و تذهب و كان الله على كل شىء مقتدرا.

قوله تعالى: الْمَالُ وَ النَّبُوتَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الى آخر الآية؛ الآية بمنزلة النتيجة للمثل السابق و هى أن المال و البنين و إن تعلقت بها القلوب و تآقت إليها النفوس تتوقع منها الانتفاع و تحف بها الآمال لكنها زينة سريعه الزوال غاره لا يسعها أن تشبهه و تنفعه فى كل ما أرادها منها و لا أن تصدقه فى جميع ما يأمله و يتمناه بل و لا فى أكثره ففى الآية- كما ترى- انعطاف الى بدء الكلام أعنى قوله: «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا» الآيتين.

و قوله وَ الْبَالِيغَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ أَمْلًا- المراد بالباقيات الصالحات الأعمال الصالحة فإن أعمال الانسان محفوظة له عند الله بنص القرآن

فهى باقيه و إذا كانت صالحه فهى باقيات صالحات، و هى عند الله خير ثوابا لأن الله يجازى الانسان الجائى بها خير الجزاء، و خير أملا- لأن ما يؤمل بها من رحمه الله و كرامته ميسور للانسان فهى أصدق أملا من زينات الدنيا و زخارفها التى لا تفى للانسان فى أكثر ما تعد، و الآمال المتعلقة بها كاذبه على الأغلب و ما صدق منها غار خدوع.

و قد ورد من طرق الشيعة و أهل السنه عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم و من طرق الشيعة عن أئمه أهل البيت عليهم السلام عدّه من الروايات: أن الباقيات الصالحات التسبيحات الأربع: سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر، و فى أخرى انها الصلاه و فى أخرى موده اهل البيت و هى جميعا من قبل الجرى و الانطباق على المصدق.

[سوره الكهف (١٨): الآيات ٤٧ الى ٥٩]

اشاره

و يَوْمَ نَسِيبُ الْجِبَالِ وَ تَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَ حَشَرْنَا لَهُمْ فَلَمَّ نَعَادِرُ مِنْهُمْ أَحَادًا (٤٧) وَ عَرَضُوا عَلَيَّ رَبِّكَ صِفًا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨) وَ وَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَ يَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صِفْخِرَةً وَ لَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَ وَجِدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَ لَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠) مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَ مَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) وَ يَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (٥٢) وَ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا وَ لَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣) وَ لَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) وَ مَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأُولِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) وَ مَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ يُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَ اتَّخَذُوا آيَاتِي وَ مَا أَنْذَرُوا هُزُومًا (٥٦) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَ نَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨) وَ تِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (٥٩)

قوله تعالى: «وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا الظرف متعلق بمقدر و التقدير «و اذكر يوم نسير» و تسيير الجبال بزوالها عن مستقرها و قد عبر سبحانه عنه بتعبيرات مختلفه كقوله: وَ كَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيْبًا مَهِيْلًا (المزمل ١٤/)، و قوله: وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (القارعه ٥/)، و قوله:

فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا (الواقعه ٦/)، و قوله: وَ سُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (النبا ٢٠/).

و المستفاد من السياق أن بروز الأرض مترتب على تسيير الجبال فإذا زالت الجبال و التلال ترى الأرض بارزه لا تغيب ناحيه منها عن اخرى بحائل حاجز و لا يستتر صقع منها عن صقع بساتر، و ربما احتمل أن تشير الى ما فى قوله: وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا (الزمر ٦٩/).

و قوله: «وَ حَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا» أى لم نترك منهم أحدا فالحشر عام للجميع.

قوله تعالى: «وَ عَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَيِّفًا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ الْخ؛ السياق يشهد على أن ضمير الجمع فى قوله: «عَرَضُوا» و كذا ضمير الجمع فى الآيه السابقه للمشركين و هم الذين اطمانوا الى أنفسهم و الأسباب الظاهرية التى ترتبط بها حياتهم، و تعلقوا بزينة الحياه كالمعلق بأمر دائم باق فكان ذلك انقطاعا منهم عن ربهم، و إنكارا للرجوع اليه، و عدم مبالاه بما يأتون به من الأعمال أَرْضَى اللَّهُ أَمْ أَسْخَطَهُ.

فقوله: «وَ عَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَيِّفًا» اشاره أولا- الى أنهم ملجئون الى الرجوع الى ربهم و لقاءه فيعرضون عليه عرضا من غير أن يختاروه لأنفسهم، و ثانيا أن لا كرامه لهم فى هذا اللقاء، و يشعر به قوله: «عَلَى رَبِّكَ» و لو أكرموا ل قيل: ربهم كما قال: جَزَأَوْهُمْ عِنْدَ

رَبِّهِمْ جَنَاتٌ عَدْنٍ (البينه ٨) وقال: إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ (هود ٢٩)، أو قيل: عرضوا علينا جريا على سياق التكلم السابق، و ثالثا أن أنواع التفاضل و الكرامات الدنيويه التي اختلقتها لهم الأوهام الدنيويه من نسب و مال و جاه قد طاحت عنهم فصفوا صفا واحدا لا تميز فيه لعال من دان و لا لغنى من فقير و لا لمولى من عبد، وإنما الميز اليوم بالعمل و عند ذلك بتبين لهم أنهم أخطئوا الصواب فى حياتهم الدنيا و ضلوا السبيل فيخاطبون بمثل قوله: «لَقَدْ جِئْتُمُونَا» الخ.

و قوله: لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ مَقُولُ الْقَوْلِ وَ التَّقْدِيرِ وَ قَالَ لَهُمْ أَوْ قَلْنَا لَهُمْ: لَقَدْ جِئْتُمُونَا، الخ؛ و فى هذا بيان خطئهم و ضلالهم فى الدنيا إذ تعلقوا بزيتها و زخرفها فشغلهم ذلك عن سلوك سبيل الله و الأخذ بدينه.

و قوله: يَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا فى معنى قوله: أَمْ فَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (المؤمنون ١١٥)، و الجملة إن كانت إضرابا عن الجملة السابقه على ظاهر السياق فالتقدير ما فى معنى قولنا: شغلتمكم زينه الدنيا و تعلقكم بأنفسكم و بظاهر الأسباب عن عبادتنا و سلوك سبيلنا بل ظننتم أن لن نجعل لكم موعدا تلقوننا فيه فتحاسبوا و بتعبير آخر: إن اشتغالكم بالدنيا و تعلقكم بزيتها و إن كان سببا فى الاعراض عن ذكرنا و اقرار الخبيثات لكن كان هناك سبب هو أقدم منه و هو الأصل و هو أنكم ظننتم أن لن نجعل لكم موعدا فنسيان المعاد هو الأصل فى ترك الطريق و فساد العمل قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (ص / ٢٦).

و من الجائز ان يكون قوله: «بل ظننتم أن لن نجعل لكم موعدا» إضرابا عن اعتذار لهم مقدر بالجهل و نحوه و الله اعلم.

قوله تعالى: وَ وُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَ يَقُولُونَ

يَا وَيَلْتَنَّا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ وَضَعِ الْكِتَابَ نَصْبَهُ لِيَحْكُمَ عَلَيْهِ، وَ مَشْفِقِينَ مِنْ الشَّفَقَةِ وَ اصْلَهَا الرِّقَّةُ، قَالَ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ: الْإِشْفَاقُ عِنَايَةٌ مُخْتَلِطَةٌ بِخَوْفٍ لِأَنَّ الْمَشْفِقَ يُحِبُّ الْمَشْفُوقَ عَلَيْهِ وَ يَخَافُ مَا يَلْحَقُهُ قَالَ تَعَالَى: وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ فَإِذَا عَدَى بِمَنْ فَمَعْنَى الْخَوْفِ فِيهِ أَظْهَرَ، وَ إِذَا عَدَى بِمَعْنَى الْعِنَايَةِ فِيهِ أَظْهَرَ، قَالَ تَعَالَى: إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ مُشْفِقُونَ مِنْهَا أَنْتَهَى.

وَ الْوَيْلُ الْهَلَاكُ، وَ نِدَاؤُهُ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ - كَمَا قِيلَ - كِنَايَةٌ عَنِ كَوْنِ الْمَصِيبَةِ أَشَدَّ مِنَ الْهَلَاكِ فَيَسْتَغَاثُ بِالْهَلَاكِ لِيُنْجِيَ مِنَ الْمَصِيبَةِ كَمَا رُبَّمَا يَتَمَنَّى الْمَوْتَ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ قَالَ تَعَالَى: يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا (مَرْيَمُ ٢٣).

وَ قَوْلُهُ: وَ وُضِعَ الْكِتَابُ ظَاهِرُ السِّيَاقِ أَنَّهُ كِتَابٌ وَاحِدٌ يَوْضَعُ لِحِسَابِ أَعْمَالِ الْجَمِيعِ وَ لَا يَنَافِي ذَلِكَ وَضَعُ كِتَابٍ خَاصٍ بِكُلِّ إِنْسَانٍ وَ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ دَالَةٌ عَلَيْهِ أَنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ كِتَابًا وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ كِتَابًا وَ لِلِكُلِّ كِتَابًا قَالَ تَعَالَى: وَ كُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْتَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا بِالْآيَةِ؛ (الْإِسْرَاءُ ١٣) وَ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِيهَا، وَ قَالَ: كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَىٰ كِتَابِهَا (الْجَاثِيَةُ ٢٨) وَ قَالَ: هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ (الْجَاثِيَةُ ٢٩)، وَ سَيَجِيءُ الْكَلَامُ فِي الْآيَتَيْنِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَ قَوْلُهُ: فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ تَفْرِيعُ الْجُمْلَةِ عَلَى وَضَعِ الْكِتَابِ وَ ذِكْرِ إِشْفَاقِهِمْ مِمَّا فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى كَوْنِهِ كِتَابَ الْأَعْمَالِ أَوْ كِتَابًا فِيهِ الْأَعْمَالُ، وَ ذَكَرَهُمْ بِوَصْفِ الْأَجْرَامِ لِلإِشَارَةِ إِلَىٰ عِلَّةِ الْحُكْمِ وَ أَنَّ إِشْفَاقَهُمْ مِمَّا فِيهِ لِكَوْنِهِمْ مُجْرِمِينَ فَالْحُكْمُ يَعْمُ كُلَّ مُجْرِمٍ وَ إِنْ لَمْ يَكُنْ مُشْرَكًا.

وَ قَوْلُهُ: وَ يَقُولُونَ يَا وَيَلْتَنَّا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَيْغِرَهُ وَ لَا كَبِيرَهُ إِلَّا أَحْصَاهَا الصَّغِيرَهُ وَ الْكَبِيرَهُ وَ صَفَانِ قَامَتَا مَقَامَ مَوْصُوفِهِمَا وَ هُوَ الْخَطِيئَةُ أَوْ الْمَعْصِيَةُ أَوْ الْهِنَةُ وَ نَحْوُهَا.

وقوله: وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ظاهر السياق كون الجملة تأسيسا لا عطف تفسير لقوله: «لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً» الخ؛ و عليه فالحاضر عندهم نفس الأعمال بصورها المناسبة لها لا كتابتها كما هو ظاهر أمثال قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (التحریم ٧)، و يؤيده قوله بعده: «وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا» فإن انتفاء الظلم بناء على تجسم الأعمال أوضح لأن ما يجزون به إنما هو عملهم يرد اليهم و يلحق بهم لا صنع في ذلك لأحد فافهم ذلك.

قوله تعالى: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ تذكير ثان لهم بما جرى بينه تعالى و بين ابليس حين أمر الملائكة بالسجود لأبيهم آدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن فتمرد عن أمر ربه.

أى و اذكر هذه الواقعة حتى يظهر لهم أن ابليس -و هو من الجن- ذريته عدو لهم لا يريدون لهم الخير فلا ينبغي لهم أن يفتنوا بما يزينه لهم هو و ذريته من ملاذ الدنيا و شهواتها و الاعراض عن ذكر الله و لا أن يطيعوهم فيما يدعونهم اليه من الباطل.

وقوله: أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ تفریع على محصل الواقعة و الاستفهام للانكار أى و يتفرع على الواقعة أن لا تتخذوه و ذريته أولياء و الحال انهم اعداء لكم معشر البشر، و على هذا فالمراد بالولاية و لايه الطاعة حيث يطيعونه و ذريته فيما يدعونهم فقد اتخذوهم مطاعين من دون الله، و هكذا فسرها المفسرون.

و ليس من البعيد أن يكون المراد بالولاية و لايه الملك و التدبير و هو الربوبية.

قوله تعالى: مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَ مَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ظاهر السياق كون ضميرى الجمع لا بليس و ذريته و المراد بالإشهاد الإحضر و الإعلام عيانا كما أن الشهود هو المعايينه حضورا، و العضد ما بين المرفق و الكتف من الانسان و يستعار للمعين كاليد و هو المراد هاهنا.

وقد اشتملت الآيه فى نفي ولايه التدبير عن إبليس و ذريته على حجتين إحداهما: أن ولايه تدبير امور شىء من الأشياء تتوقف على الإحاطه العلميه-بتمام معنى الكلمه-بتلك الامور من الجبهه التى تدبر فيها و بما لذلك الشىء و تلك الامور من الروابط الداخليه و الخارجيه بما يتدئ منه و ما يقارنه و ما ينتهى اليه و الارتباط الوجودى سار بين أجزاء الكون؛ و هؤلاء و هم إبليس و ذريته لم يشهدهم الله سبحانه خلق السماوات و الأرض و لا خلق أنفسهم فلا كانوا شاهدين إذ قال للسماوات و الأرض: كن فكانت و لا- إذ قال لهم: كونوا فكانوا فهم جاهلون بحقيقه السماوات و الأرض و ما فى أوعيه وجوداتها من اسرار الخلقه حتى بحقيقه صنع أنفسهم فكيف يسعهم أن يلوا تدبير أمرها أو تدبير امر شطر منها فيكونوا آلهه و أربابا من دون الله و هم جاهلون بحقيقه خلقتها و خلقه أنفسهم.

و أما أنهم لم يشهدوا خلقها فلأن كلا- منهم شىء محدود لا- سبيل له الى ما وراء نفسه فغيره فى غيب منه مضروب عليه الحجاب، و هذا بين و قد أنبأ الله سبحانه عنه فى مواضع من كلامه؛ و كذا كل منهم مستور عنه شأن الاسباب التى تسبق وجوده و اللواحق التى ستلحق وجوده.

و هذه حجه برهانيه غير جدليه عند من أجاد النظر و أمعن فى التدبر حتى لا يختلط عنده هذه الالعوبه الكاذبه التى نسميها تدبيرا بالتدبير الكونى الذى لا يلحقه خطأ و لا ضلال، و كذا الظنون و المزاعم الواهيه التى نتداولها و نركن إليها بالعلم العيانى الذى هو حقيقه العلم و كذا العلم بالامور الغائبه عنا بالظفر على أماراتها الأغلبيه بالعلم بالغيب الذى يتبدل به الغيب شهاده.

و الثانيه أن كل نوع من أنواع المخلوقات متوجه بفطرته نحو كماله المختص بنوعه و هذا ضرورى عند من تتبعها و أمعن النظر فى حالها فالهدايه الالهيه عامه للجميع كما قال: الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (طه ٥٠/) و الشياطين أشرار مفسدون مضلون فتصديهم تدبير شىء من السماوات و الأرض أو الإنسان- و لن يكون إلا بإذن من الله سبحانه- مؤد الى

نفضه السنه الالهيه من الهدايه العامه اى توسله تعالى الى الاصلاح بما ليس شأنه إلا الافساد و الى الهدايه بما خاصته الاضلال و هو محال.

و هذا معنى قوله سبحانه: «وَمَا كُنْتُمْ تُخِذُ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا» الظاهر فى أن سنته تعالى أن لا يتخذ المضلين عضدا فافهم.

و فى قوله: «مَا أَشْهَدْتُهُمْ» وقوله: «وَمَا كُنْتُمْ» و لم يقل: و ما شهدوا و ما كانوا دلالة على أنه سبحانه هو القاهر المهيمن عليهم على كل حال، و القائلون بإشراك الشياطين أو الملائكة أو غيرهم بالله فى أمر التدبير لم يقولوا باستقلالهم فى ذلك بل بأن أمر التدبير مملوك لهم بتملكك من الله تعالى مفوض اليهم بتفويض منه و أنهم أرباب و آلهه و الله رب الأرباب و إله الآلهه.

و ما تقدم من معنى الآية مبنى على حمل الاشهاد على معناه الحقيقى و إرجاع الضميرين فى «مَا أَشْهَدْتُهُمْ» و «أَنْفُسِهِمْ» الى إبليس و ذريته كما هو الظاهر المتبادر من السياق.

قوله تعالى: «وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ هَذَا تَذَكُّيرٌ لِّمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» فيه ظهور بطلان الرابطه بين المشركين و بين شركائهم يوم القيامة و يتأكد بذلك أنهم ليسوا على شىء مما يدعيه لهم المشركون.

فقوله: «وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ» و اذكر لهم يوم يقول الله لهم نادوا شركائى الذين زعمتم أنهم لى شركاء فدعوهم فلم يستجيبوا لهم و بان أنهم ليسوا لى شركاء و لو كانوا لاستجابوا.

و قوله: «وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا الْمَوْبِقَ» بكسر الباء اسم مكان من وبق وبقا بمعنى هلك، و المعنى جعلنا بين المشركين و شركائهم محل هلاك و قد فسر القوم هذا الموبق و المهلك بالنار أو بمحل من النار يهلك فيه الفريقان المشركون و شركاءهم لكن التدبر فى كلامه تعالى لا يساعد عليه فإن الآية قد اطلقت الشركاء و فيهم- و لعلهم الأكثر- الملائكة

و بعض الأنبياء و الأولياء، و أرجع اليهم ضمير اولى العقل مره بعد مره، و لا دليل على اختصاصهم بمرده الجن و الإنس، و كون جعل الموبق بينهم دليلا على الاختصاص أول الكلام.

فلعل المراد من جعل موبق بينهم إبطال الرابطه و رفعها من بينهم و قد كانوا يرون فى الدنيا أن بينهم و بين شركائهم رابطه الربوبيه و المربوبيه أو السببيه و المسببيه فكنى عن ذلك بجعل موبق بينهم يهلك فيه الرابطه و العلقه من غير أن يهلك الطرفان، و يومى الى ذلك بلطيف الإشاره تعبيره عن دعوتهم أولا بالنداء حيث قال: «نَادُوا شُرَكَائِي» و النداء إنما يكون فى البعيد فهو دليل على بعد ما بينهما.

و الى مثل هذا المعنى يشير قوله تعالى فى موضع آخر من كلامه: «وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُفِّ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (الأنعام ٩٤/١)، و قوله تعالى: ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَ قَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ (يونس ٢٨/١).

قوله تعالى: «وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوقَعُونَ فِيهَا» و لَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا فى أخذ المجرمين مكان المشركين دلالة على أن الحكم عام لجميع أهل الإجمام، و المراد بالظن هو العلم-على ما قيل- و يشهد به قوله: «وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا» .

و المراد بمواقعه النار الوقوع فيها-على ما قيل و لا- يبعد أن يكون المراد حصول الوقوع من الجانبين فهم واقعون فى النار بدخولهم فيها و النار واقعه فيهم باشتعالهم بها. و قوله: «وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا» المصرف بكسر الراء اسم مكان من الصرف أى لم يجدوا محلا ينصرفون اليه و يعدلون عن النار و لا مناص.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ صَيَّرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا قَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فى نظير صدر الآيه فى سورة أسرى آيه ٨٩

و الجدل الكلام على سبيل المنازعه و المشاجرہ و الآيه الى تمام ست آيات مسوقه للتهديد بالعذاب بعد التذكيرات السابقه.

قوله تعالى: وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ وَ «يَسْتَغْفِرُوا» عطف على قوله: «يُؤْمِنُوا» أى و ما منعهم من الإيمان و الاستغفار حين مجيء الهدى.

و قوله: إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْمَأُولِينَ أَى إِلَّا- طلب أن تأتيهم السنه الجاريه فى الامم الأولين و هى عذاب الاستئصال، و قوله: «أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا» عطف على سابقه أى أو طلب أن يأتيهم العذاب مقابله و عيانا و لا ينفعهم الإيمان حينئذ لأنه إيمان بعد مشاهدته البأس الإلهى قال تعالى: فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ (المؤمن ٨٥).

فمحصل المعنى أن الناس لا يطلبون إيمانا ينفعهم و الذى يريدونه أن يأخذهم عذاب الاستئصال على سنه الأولين فيهلكوا و لا يؤمنوا أو يقابلهم العذاب عيانا فيؤمنوا اضطرارا فلا ينفعهم الإيمان.

و هذا المنع و الاقتضاء فى الآيه أمر ادعائى يراد به أنهم معرضون عن الحق لسوء سريرتهم فلا جدوى للإطنا ب الذى وقع فى التفاسير فى صحه ما مر من التوجيه و التقدير إشكالا و دفعا.

قوله تعالى: وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ الخ؛ تعزیه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أن لا يضيق صدره من إنكار المنكرين و إعراضهم عن ذكر الله فما كانت وظيفه المرسلين إِلَّا- التبشير و الإنذار و ليس عليهم وراء ذلك من بأس ففیه انعطاف الى مثل ما مر فى قوله فى أول السوره: فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا و فى الآيه أيضا نوع تهديد للكفار المستهزئين.

و الدحض الهلاك و الإدحاض الإهلاك و الإبطال، و الهزوء: الاستهزاء و المصدر بمعنى اسم المفعول و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَ نَسَىٰ مَا قَدَّمَتْ يَدَاۥهُ إِعْظَامًا وَ تَكْبِيرًا لِّظُلْمٍ وَ الظلم يعظم و يكبر بحسب متعلقه، و إذا كان هو الله سبحانه بآياته فهو أكبر من كل ظلم.

و المراد بنسيان ما قدمت يدها عدم مبالاته بما يأتيه من الاعراض عن الحق و الاستهزاء به و هو يعلم أنه حق، و قوله: إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا كأنه تعليل لإعراضهم عن آيات الله أوله و لنسيانهم ما قدمت أيديهم، و قد تقدم الكلام فى معنى جعل الأكنه على قلوبهم و الوقر فى آذانهم فى الكتاب مرارا.

و قوله: وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا إيثاس من إيمانهم بعد ما ضرب الله الحجاب على قلوبهم و آذانهم فلا يسعهم بعد ذلك أن يهتدوا بأنفسهم بتعقل الحق و لا أن يسترشدوا بهدايه غيرهم بالسمع و الاتباع، و الدليل على هذا المعنى قوله: «وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا» حيث دل على تأييد النفى و قيده بقوله: «إِذًا» و هو جزاء و جواب.

قوله تعالى: وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ الآيات- كما سمعت- مسروده لتهديدهم بالعذاب و هم فاسدون فى أعمالهم فسادا لا يرجى منهم صلاح و هذا مقتضى لنزول العذاب و أن يكون معجلا لا يمهلهم إذ لا أثر لبقائهم إلا الفساد لكن الله سبحانه لم يجعل لهم العذاب و إن قضى به قضاء حتم بل أخره الى أجل مسمى عينه بعلمه.

فقوله: «وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ» صدرت به الآيه المتضمنه لصريح القضاء فى تهديدهم ليعدل به بواسطه اشتماله على الوصفين: الغفور ذى الرحمة ما يقتضى العذاب المعجل فيقضى و يمضى أصل العذاب أداء لحق مقتضيه و هو عملهم، و يؤخر وقوعه لأن الله

فالجمله أعنى قوله: «الْغُفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ» مع قوله: «لَمَّا يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ» بمنزله متخاصمين متنازعين يحضران عند القاضى، وقوله: «بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا» أى ملجأً ليجئون منه اليه بمنزله الحكم الصادر عنه بما فيه إرضاء الجانبيين و مراعاة الحقين فاعطى وصف الانتقام الإلهى باستدعاء مما كسبوا أصل العذاب، واعطيت صفة المغفرة و الرحمه أن يؤجل العذاب و لا يعجل؛ و عند ذلك أخذت المغفرة الالهيه تمحو أثر العمل الذى هو استعجال العذاب، و الرحمه تفيض عليهم حياه معجله.

و محصل المعنى: لو يؤاخذهم ربك لعجل لهم العذاب لكن لم يعجل لأنه الغفور ذو الرحمه بل حتم عليهم العذاب بجعله لهم موعداً لا- ملجأً لهم ليجئون منه اليه. فقوله: «بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ» الخ؛ كلمه قضاء و ليس بحكايه محضه و إلا- قيل: بل جعل لهم موعداً، الخ؛ فافهم ذلك.

و الغفور صيغه مبالغه تدل على كثره المغفره، و ذو الرحمه- و لامه للجنس- صفة تدل على شمول الرحمه لكل شىء فهى أشمل معنى من الرحمن و الرحيم الدالين على الكثره أو الثبوت و الاستمرار فالغفور بمنزله الخادم لذى الرحمه فإنه يصلح المورد لذى الرحمه يامحاء ما عليه من و صمه الموانع فإذا صلح شمله ذو الرحمه، فللغفور السعى و كثره العمل و لذى الرحمه الانبساط و الشمول على ما لا مانع عنده، و لهذه النكته جىء فى المغفره بالغفور و هو صيغه مبالغه و فى الرحمه بذى الرحمه الحاوى لجنس الرحمه فأفهم ذلك و دع عنك ما أطنبوا فيه من الكلام فى الاسمين.

قوله تعالى: وَ تِلْكَ الْقُرَىٰ أَمْهَلَكُنَّاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا المراد بالقرى أهلها مجازاً بدليل الضمائر الراجعه إليها، و المهلك بكسر اللام اسم زمان.

و معنى الآيه ظاهر و هى مسوقه لبيان أن تأخير مهلكهم و تأجيله ليس ببدع منا بل السنه

الالهيه فى الامم الماضين الذين اهلكهم الله لما ظلموا كانت جاريه على ذلك فكان الله يهلكهم و يجعل لمهلكهم موعدا.

[سوره الكهف (١٨): الآيات ٦٠ الى ٨٢]

اشاره

وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حَوْتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنَسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّ عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَى هِيَ لَأَنْتَ عَلَّمْتَنِي أَن تَكَلِّمَ النَّاسَ لَمَّا كُنَّا فِي الْغَارِ فَلَمَّا أَتَيْنَاهَا إِذِ الْمَنَّانُ يَنصُرُهُمَا رَبُّهُمْ كَيْفَ يُشَاءُ لَهُ الْغُيُوبُ (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُزهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَفِيًّا غُلَامًا فَفَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا لَهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَابِقَكَ بَتَّوِيلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَ أَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَ كُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَوَةً وَ أَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَ أَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَ كَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَ كَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْرِخَرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَ مَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرُحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا الظرف متعلق بقدر، و الجملة معطوفة على ما عطف عليه التذكيرات الثلاثة المذكوره سابقا، وقوله: «لا- أبرح» بمعنى لا- أزال و هو من الأفعال الناقصة حذف خبره إجازا لدلاله قوله: «حَتَّىٰ أَبْلُغَ» عليه و التقدير لا- أبرح أمشى أو أسير، و مجمع البحرين قيل: هو الذى ينتهى اليه بحر الروم من الجانب الشرقى و بحر الفرس من الجانب (1) الغربى، و الحقب الدهر و الزمان و تنكيره يدل على وصف محذوف و التقدير حقا طويلا.

و المعنى -و الله أعلم- و اذكر إذ قال موسى لفاته: لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى دهرًا طويلا.

قوله تعالى: فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ

ص: ٦٣

١- ١). فجمع البحرين على هذا ما بينهما سمي مجعاً بنوع من التوسع.

سَرَبًا الظاهر أن قوله: «مَجْمَعٌ بَيْنَهُمَا» من إضافه الصفه الى الموصوف و أصله بين البحرين الوصف بأنه مجمعهما.

و قوله: «نَسِيًا حَوْتَهُمَا» الآيتان التاليتان تدلان على أنه كان حوتا مملوحا أو مشويا حملاه ليرتزقا به فى المسير و لم يكن حيا و إنما حى هناك و اتخذ سبيله فى البحر و رآه الفتى و هو حى يغوص فى البحر و نسى أن يذكر ذلك لموسى و نسى موسى أنه يسأله عنه أين هو؟ و على هذا فمعنى «نَسِيًا حَوْتَهُمَا» بنسبه النسيان اليهما معا: نسيا حال حوتهما فموسى نسى كونه فى المكتل فلم يتفقده و الفتى نسيه إذ بلم يخبر موسى بعجيب ما رأى من أمره. هذا ما ذكره.

و قوله: «فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا» السرب المسلك و المذهب و السرب و النفق الطريق المحفور فى الأرض لا نفاذ فيه كأنه شبه السبيل الذى اتخذه الحوت داخل الماء بالسرب الذى يسلكه السالك فيغيب فيه.

قوله تعالى: فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: النصب و الوصب و التعب نظائر، و هو الوهن الذى يكون عن كد انتهى، و المراد بالغداء ما يتغدى به و فيه دلالة على أن ذلك كان فى النهار.

و المعنى: و لما جاوزا مجمع البحرين أمر موسى فتاه أن يأتى بالغداء و هو الحوت الذى حملاه ليتغدىا به و لقد لقا من سفرهما تعبًا.

قوله تعالى: قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ إِلَى الْآيَةِ؛ يريد حال بلوغهم مجمع البحرين و مكثهم هناك فقد كانت الصخره هناك و الدليل عليه قوله: «وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ» الخ؛ و قد ذكر فى ما مر أنه كان بمجمع البحرين، يقول لموسى: لا غداء عندنا نتغدى به فإن غداءنا و هو الحوت حى و دخل البحر و ذهب حينما بلغنا مجمع البحرين و أينا الى الصخره التى كانت هناك و إني نسيت أن اخبرك بذلك.

فقوله: «أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ» يذكره حال اويهما الى الصخره و نزولهما عندها

ليستريحا قليلا، و قوله: «فَأِنِّي نَسَيْتُ الْحُوتَ» أى نسيت حال الحوت التى شاهدها منه فلم أذكرها لك، والدليل على هذا- كما قيل- قوله: «وَمَا أَنَسَانِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أذْكُرَهُ» فان «أَنْ أذْكُرَهُ» بدل من ضمير «أَنَسَانِيَهُ» و التقدير «و ما أنساني ذكر الحوت لك إلا الشيطان» فهو لم ينس نفس الحوت و إنما نسي أن يذكر حاله التى شاهد منه لموسى.

و لا- ضمير فى نسبه الفتى نسيانه الى تصرف من الشيطان بناء على أنه كان يوشع بن نون النبى و الأنبياء فى عصمه إلهيه من الشيطان لأنهم معصومون مما يرجع الى المعصيه و أما مطلق إيذاء الشيطان فيما لا يرجع الى معصيه فلا دليل يمنعه قال تعالى: وَ أَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (ص ٤١).

و قوله: وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا أى اتخذها عجباً، فعجباً وصف قام مقام موصوفه على المفعوليه المطلقه، و قيل: إن قوله: «وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ» قول الفتى و قوله:

«عَجَبًا» من قول موسى، و السياق يدفعه.

و اعلم أن ما تقدم من الاحتمال فى قوله: «نَسِيًا حُوتَهُمَا» الخ؛ جار هاهنا و الله أعلم.

قوله تعالى: قَالَ ذَلِكُمْ مِمَّا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا الْبَغْيُ الطلَب، و الارتداد العود على بدء، و المراد بالآثار آثار أقدمهما، و القصص اتباع الأثر و المعنى قال موسى: ذلك الذى وقع من أمر الحوت هو الذى كنا نطلبه فرجعا على آثارهما يقصانها قصصا و يتبعانها اتباعا.

و قوله: «ذَلِكُمْ مِمَّا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّا» يكشف عن أن موسى كان مأمورا من طريق الوحي ان يلقى العالم فى مجمع البحرين و كان علامه المحل الذى يجده و يلقاه فيه ما وقع من أمر الحوت إما خصوص قضيه حياته و ذهابه فى البحر أو بنحو الابهام و العموم كفقده الحوت أو حياته أو عود الميت حيا و نحو ذلك، و لذلك لما سمع موسى من فتاه ما سمع من أمر الحوت قال ما قال، و رجعا الى المكان الذى فارقه فوجدا عبدا، الخ.

قوله تعالى: **فَوَحَّيْنَا عِبَادَنَا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا** الخ. كل نعمه فإنها رحمه منه تعالى لخلقه لكن منها ما تتوسط فيه الأسباب الكونية وتعمل فيه كالنعم الظاهرية بأنواعها، ومنها ما لا يتوسط فيه شيء منها كالنعم الباطنية من النبوه والولاية بشعبها ومقاماتها، وتقييد رحمه بقوله: **«مِنْ عِنْدِنَا»** الظاهر في أنها من موهبته لا صنع لغيره فيها يعطى أنها من القسم الثاني أعنى النعم الباطنية ثم اختصاص الولاية بحقيقتها به تعالى كما قال: **فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ** (الشورى ٩/١)، وكون النبوه مما للملائكة الكرام فيه عمل كالوحي ونحوه يؤيد أن يكون المراد بقوله: **«رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا»** حيث جرى بنون العظمة ولم يقل: من عندي هو النبوه دون الولاية، وبهذا يتأيد تفسير من فسر الكلمه بالنبوه والله أعلم.

و أما قوله: **وَ عَلَّمْنَاهُ مِنْ لَمَدْنَا** علماً فهو أيضاً كالرحمه التي من عنده علم لا صنع فيه للأسباب العاديه كالحس والفكر حتى يحصل من طريق الاكتساب والدليل على ذلك قوله: **«مِنْ لَمَدْنَا»** فهو علم وهبى غير اكتسابى يختص به أولياءه و آخر الآيات يدل على أنه كان علماً بتأويل الحوادث.

قوله تعالى: **قَالَ لَهُ مُوسَى هَيْلًا أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا** الرشده خلاف الغى وهو إصابه الصواب، وهو فى الآيه مفعول له أو مفعول به، والمعنى قال له موسى: هل اتبعك اتباعاً مبنياً على هذا الأساس وهو أن تعلمنى مما علمت لأرشد به أو تعلمنى مما علمت أمراً ذا رشد.

قوله تعالى: **قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسِيَّطِيْعَ مَعِيَ صَبْرًا** نفى مؤكداً لصبره عليه السلام على شيء مما يشاهده منه فى طريق التعليم والدليل عليه تأكيد الكلام بأن، وإيراد الصبر نكره فى سياق النفى الدال على إرادته العموم، ونفى الصبر بنفى الاستطاعه التى هى القدره فهو أكد من أن يقال: لن تصبر، وإيراد النفى بـ **لن** و **لم** يقل: لا تصبر و للفعل توقف على القدره فهو نفى الفعل بنفى أحد أسبابه ثم نفى الصبر بنفى سبب القدره عليه وهو إحاطه الخبر والعلم بحقيقه الواقعه

و تأويلها حتى يعلم أنها يجب أن تجرى على ما جرت عليه.

قوله تعالى: وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا الخبر العلم و هو تمييز و المعنى لا يحيط به خبرك.

قوله تعالى: قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا وعده الصبر لكن قيده بالمشيه فلم يكذب إذ لم يصبر، وقوله: «وَلَا أَعْصِي» الخ؛ عطف على «صَابِرًا» لما فيه من معنى الفعل فعدم المعصيه الذى وعده أيضا مقيد بالمشيه و لم يخلف الوعد إذ لم ينتهى بنهيه عن السؤال.

قوله تعالى: قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا الظاهر أن «مِنْهُ» متعلق بقوله: «ذِكْرًا» و إحداث الذكر من الشىء الابتداء به من غير سابقه و المعنى فإن اتبعتنى فلا- تسألنى عن شىء تشاهده من أمرى تشق عليك مشاهدته حتى أبتدى أنا بذكر منه، و فيه إشاره الى أنه سيشاهد منه امورا تشق عليه مشاهدتها و هو سيبينها له لكن لا ينبغى لموسى أن يبتدئه بالسؤال و الاستخبار بل ينبغى أن يصبر حتى يبتدئه هو بالإخبار.

قوله تعالى: فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَ حَقَّتْ لِي عُقُوبَةٌ لِّأَهْلِهَا لَمَّذَجْتُ لِي مِنْهَا لَقْمًا وَإِذِ الْمَوْجُ يَدْفَعُهُمْ قَالَا إِنَّا فَتَقْنَاكَ وَإِنَّا لَبَاغُونَ العظيمه، و قوله: «فَأَنْطَلَقَا» تفریع على ما تقدمه، و المنطلقان هما موسى و الخضر و هو ظاهر فى أن موسى لم يصحب فتاه فى سيره مع الخضر، و اللام فى قوله: «لِيُعْرِقَ أَهْلَهَا» للغايه فإن الغرق و إن كان عاقبه للخرق و لم يقصده الخضر البتة لكن العاقبه الضروريه ربما تؤخذ غايه مقصوده ادعاه لوضوحها كما يقال: أ تفعل كذا لتهلك نفسك؟ و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا إنكار لسؤال موسى و تذكير لما قاله من قبل: «إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ» الخ.

قوله تعالى: قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُزْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا الرَّهَقِ الْغَثِيانِ بِالْقَهْرِ وَالْأَرْهَاقِ التَّكْلِيفِ، وَالْمَعْنَى لَا تُؤَاخِذْنِي بِنَسْيَانِي الْوَعْدِ وَغَفْلَتِي عَنْهُ وَلَا تَكْلِفْنِي عُسْرًا مِنْ أَمْرِي، وَرَبَّمَا يَفْسِرُ النِّسْيَانَ بِمَعْنَى التَّرْكَ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرَ، وَالْكَلَامُ اعْتِدَارٌ عَلَى أَى حَالٍ.

قوله تعالى: فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا فِي الْكَلَامِ بَعْضُ الْحَذْفِ لِلإِيجَازِ وَالتَّقْدِيرِ: فَخَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ وَانْطَلَقَا.

و فِي قَوْلِهِ: «حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ» الْخ؛ «فَقَتَلَهُ» مَعْطُوفٌ عَلَى الشَّرْطِ بِفَاءِ التَّفْرِيعِ وَ «قَالَ» جَزَاءُ «إِذَا» عَلَى مَا هُوَ ظَاهِرُ الْكَلَامِ: وَبِذَلِكَ يَظْهَرُ أَنَّ الْعَمْدَةَ فِي الْكَلَامِ ذَكَرَ اعْتِرَاضَ مُوسَى لِأَنَّ ذِكْرَ الْقَتْلِ، وَنَظِيرَتَهُ الْآيَةَ الْوَاحِدَةَ «فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ» إِلَى قَوْلِهِ - قَالَ لَوْ شِئْتُمْ «الْخ؛ بِخِلَافِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ: «فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبْنَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ» فَإِنَّ جَزَاءَ «إِذَا» فِيهَا «خَرَقَهَا» وَ قَوْلِهِ: «قَالَ» كَلَامٌ مَفْصُولٌ مُسْتَأْنَفٌ.

و قَوْلِهِ: «أَقْتَلْتَنِي زَكِيَّةً» الزَّكِيَّةُ الطَّاهِرَةُ، وَ الْمُرَادُ طَهَارَتِهَا مِنَ الذَّنُوبِ لِعَدَمِ الْبُلُوغِ كَمَا يَشْعُرُ بِهِ قَوْلُهُ: «غُلَامًا» وَ الْاسْتِفْهَامُ لِلانْكَارِ، وَ الْقَائِلُ مُوسَى.

و قَوْلُهُ: «بِغَيْرِ نَفْسٍ» أَى بِغَيْرِ قَتْلِ مِنْهَا لِنَفْسٍ قَتْلًا - مَجُوزًا لِقَتْلِهَا قِصَاصًا وَ قُودًا فَإِنَّ غَيْرَ الْبَالِغِ لَا - يَتَحَقَّقُ مِنْهُ الْقَتْلُ الْمَوْجِبُ لِلْقِصَاصِ، وَ رَبَّمَا اسْتَفِيدَ مِنْ قَوْلِهِ: «بِغَيْرِ نَفْسٍ» أَنَّهُ كَانَ شَابًا بِالْغَا، وَ لَا دَلَالَةَ فِي إِطْلَاقِ الْغُلَامِ عَلَيْهِ عَلَى عَدَمِ بُلُوغِهِ لِأَنَّ الْغُلَامَ يُطْلَقُ عَلَى الْبَالِغِ وَ غَيْرِهِ فَالْمَعْنَى أَقْتَلْتُ بِغَيْرِ قِصَاصِ نَفْسِ بَرِيئِهِ مِنَ الذَّنُوبِ الْمَسْتَوْجِبَةِ لِلْقَتْلِ؟ إِذْ لَمْ يَظْهَرِ لِهَمَا مِنَ الْغُلَامِ شَيْءٌ يَسْتَوْجِبُهُ.

و قَوْلُهُ: لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا أَى مَنكَرًا يَسْتَنَكِرُهُ الطَّبِيعُ وَ لَا يَعْرِفُهُ الْمَجْتَمَعُ وَ قَدْ عَدَّ خَرَقَ السَّفِينَةِ إِمْرًا أَى دَاهِيَةً يَسْتَعْقِبُ مَصَائِبَ لَمْ يَقَعِ شَيْءٌ مِنْهَا بَعْدَ وَ قَتْلِ النَّفْسِ نَكَرًا أَوْ مَنكَرًا

و هو أفضح و أفجع عند الناس من الخرق الذى يستوجب عادة هلاك النفوس لكن لا بالمباشرة فعلا.

قوله تعالى: **قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسِيَّطِعَ مَعِيَ صَبْرًا** معناه ظاهر و زياده «لَكَ» نوع تقريع له أنه لم يصنع الى وصيته و إيماء الى كونه كأنه لم يسمع قوله له أول مره: «إِنَّكَ لَنْ تَسِيَّطِعَ مَعِيَ صَبْرًا» أو سمعه و حسب أنه لا- يعنيه بل يقصد به غيره كأنه يقول:

إنما عنيت بقوله: إنك لن تستطيع، الخ؛ إياك دون غيرك.

قوله تعالى: **قَالَ إِنْ سَأَلْتِكَ عَنْ شَيْءٍ بَعِيدًا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا** الضمير فى «بَعِيدًا» راجع الى هذه المره أو المسأله اى ان سألتك بعد هذه المره او هذه المسأله فلا تصاحبني اى يجوز لك ان لا تصاحبني.

و قوله: **قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا** اى بلغت عذرا و وجدته كائنا ذلك من لدنى اذ بلغ عذرک النهايه من عندى.

قوله تعالى: **فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛** الكلام فى قوله: «فَانْطَلَقَا» «فَأَتَيَا» «فَوَجَدَا» «فَأَقَامَهُ» كالكلام فى قوله فى الآيه السابقه:

«فَانْطَلَقَا»

«فَقَاتَلَهُ» .

و قوله: «اسْتَطَعَا أَهْلُهَا» صفة لقريه و لم يقل «استطعماهم» لرداءه قولنا: قريه استطعماهم بخلاف مثل قولنا: أتى قريه على إرادته أتى أهل قريه لأن للقريه نصيبا من الاتيان فيجوز وضعها موضع أهلها مجازا بخلاف الاستطعام لأنه لأهلها خاصه، و على هذا فليس قوله: «أَهْلُهَا» من وضع الظاهر موضع المضمير.

و لم يقل: حتى إذ أتيا قريه استطعما أهلها لأن القريه كانت تتمحض حينئذ فى معناها الحقيقى و الغرض العمده- كما عرفت- متعلق بالجزاء أعنى قوله: «قَالَ لَوْ شِئْتُ لَاتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا» و فيه ذكر أخذ الأجر و هو إنما يكون من أهلها لا منها فقوله: «أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ» دليل

على أن إقامة الجدار كانت بحضور من أهل القرية و هو الذى أغنى أن يقال: لو شئت لتخذت عليه منهم أو من أهلها أجراً، فافهم ذلك.

و المراد بالاستطعام طلب الطعام بالإضافة و لذا قال: «فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا» و قوله:

«فَوَجِدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ» الانقضاض السقوط، و إرادته الانقضاض مجاز عن الاشراف على السوق و الانهدام، و قوله: «فَأَقَامَهُ» أى أثبتته الخضر باصلاح شأنه و لم يذكر سبحانه كيف أقامه؟ بنحو خرق العاده أم ببناء أو ضرب دعامة؟ غير أن قول موسى «لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً» مشعر بأن كان بعمل غير خارق فإن المعهود من أخذ الأجر، ما كان على العاديات.

و قوله: «قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ (1) عَلَيْهِ أَجْراً» و أخذ بمعنى واحد، و ضمير «عَلَيْهِ» للاقامه المفهومه من «فَأَقَامَهُ» و هو مصدر جائز الوجهين، و السياق يشهد أنهما كانا جائعين فذكره موسى أخذ الاجره على عمله إذ لو كان أخذ أجراً أمكنهما أن يشتريا به شيئاً من الطعام يسدان به جوعهما.

قوله تعالى: «قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْهَيْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً» الإشاره بهذا الى قول موسى أى هذا القول سبب فراق بينى و بينك أو الى الوقت أى هذا الوقت وقت فراق بينى و بينك كما قيل، و يمكن أن تكون الإشاره الى نفس الفراق، و المعنى هذا الفراق قد حضر كأنه كان أمراً غائباً فحضر عند قول موسى «لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ» الخ؛ و قوله: «بَيْنِي وَ بَيْنِكَ» و لم يقل بيننا للتأكيد، و إنما قال الخضر هذا القول بعد الاعتراض الثالث لأن موسى كان قبل ذلك يعتذر اليه كما فى الأول أو يستمهله كما فى الثانى، و أما الفراق بعد الاعتراض الثالث فقد أعذره موسى فيه إذ قال بعد الاعتراض الثانى: «إِنْ

ص : ٧٠

(١- ١). قرئ بالتشديد من «اتخذ» و بالتخفيف من «تخذ».

سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي» الخ؛ و الباقي ظاهر.

قول تعالى أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ الخ؛ شروع فى تفصيل ما وعد إجمالاً بقوله: «سَأَلْتُكَ» الخ؛ وقوله: «أَنْ أَعِيبَهَا» أى أجعلها معيبة و هذه قرينه على أن المراد بلك سفينه كل سفينه غير معيبة.

وقوله: وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ وراء بمعنى الخلف و هو الظرف المقابل للظرف الآخر الذى يواجهه الانسان و يسمى قدام و أمام لكن ربما يطلق على الظرف الذى يغفل عنه الانسان و فيه من يريد به سوء أو مكروه و إن كان قدامه أو فيه ما يعرض عنه الانسان أو فيه ما يشغل الانسان بنفسه عن غيره كأن الانسان ولى وجهه الى جهه تخالف جهته قال تعالى:

فَمَنْ ابْتَغَىٰ وِرَاءَ ذٰلِكَ فَؤُودًا لِّتَكُ هُمْ الْعَادُونَ (المؤمنون ٧٧)، و قال: وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وِرَاءِ حِجَابٍ (الشورى ٥١)، و قال: وَاللَّهُ مِنْ وِرَائِهِمْ (البروج ٢٠).

و محصل المعنى: أن السفينه كانت لعدده من المساكين يعملون بها فى البحر و يتعيشون به و كان هناك ملك جبار أمر بغصب السفن فأردت بخرقها أن أحدث فيها عيباً فلا يطمع فيها الجبار و يدعها لهم.

قوله تعالى: وَ أَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَ كُفْرًا الأظهر من سياق الآيه و ما سيأتى من قوله: «وَ مَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي» أن يكون المراد بالخشية التحذر عن رأفه و رحمه مجازاً لا معناه الحقيقى الذى هو التأثير القلبى الخاص المنفى عنه تعالى و عن أنبيائه كما قال: وَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ (الأحزاب ٣٩)، و أن يكون المراد بقوله: «أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَ كُفْرًا» أن يغشيهما ذلك أى يحمل والديه على الطغيان و الكفر بالاغواء و التأثير الروحى لمكان حبهما الشديد له لكن قوله فى الآيه التالىة:

«وَ أَقْرَبَ رُحْمًا» لا تخلو من تأييد لكون «طُغْيَانًا وَ كُفْرًا» تمييزين عن الارهاق أى وصفين

للغلام دون أبويه.

قوله تعالى: فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا المراد بكونه خيرا منه زكاه كونه خيرا منه صلاحا و ايمانا بقرينه مقابلته الطغيان و الكفر فى الآيه السابقه، و أصل الزكاه فيما قيل الطهاره، و المراد بكونه أقرب منه رحما كونه أوصل للرحم و القرابه فلا يرهقهما، و أما تفسيره بكونه أكثر رحمه بهما فلا يناسبه قوله: «أقرب منه» تلك المناسبه، و هذا- كما عرفت- يؤيد كون المراد من قوله: «يُرْهِقُهُمَا طُغْيَانًا وَ كُفْرًا» فى الآيه السابقه إرهاقه اياهما بطغيانه و كفره لا تكليفه إياهما الطغيان و الكفر و إغشاؤهما ذلك.

و الآيه- على أى حال- تلوح الى أن إيمان أبويه كان ذا قدر عند الله و يستدعى ولدا مؤمنا صالحا يصل رحمهما و قد كان المقضى فى الغلام خلاف ذلك فأمر الله الخضر بقتله ليبدلها خيرا منه زكاه و أقرب رحما.

قوله تعالى: وَ أَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَ كَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَ كَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا لَا يُبْعَدُ أَنْ يُسْتَظْهَرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ الْمَدِينَةَ الْمَذْكُورَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ غَيْرَ الْقَرِيَةِ الَّتِي وَجَدَا فِيهَا الْجِدَارَ فَأَقَامَهُ، اذ لو كانت هى هى لم يكن كثير حاجه الى ذكر كون الغلاميين اليتيمين فيها فكأن العنايه متعلقه بالاشاره الى أنهما و من يتولى أمرهما غير حاضرين فى القرية.

و ذكر يتم الغلاميين و وجود كنز لهما تحت الجدار و لو انقض لظهر و ضاع و كون أبيهما صالحا كل ذلك توطئه و تمهيد لقوله: «فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَ يَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا» و قوله:

«رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» تعليل للاراده.

و فى الآيه دلالة على أن صلاح الإنسان ربما ورث أولاده أثرا جميلا و أعقب فيهم السعاده و الخير فهذه الآيه فى جانب الخير نظيره قوله تعالى: وَ لِيُخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُ ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ (النساء/٩).

و قوله: **وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي** كناية عن أنه إنما فعل ما فعل عن أمر غيره و هو الله سبحانه لا عن أمر أمرته به نفسه.

و قوله: **ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا** أى ما لم تستطع عليه صبرا من استطاع يسطيع بمعنى استطاع يستطع و قد تقدم فى أول تفسير سوره آل عمران أن التأويل فى عرف القرآن هى الحقيقه التى يتضمنها الشىء و يؤول إليها و يبتنى عليها كتأويل الرؤيا و هو تعبيرها، و تأويل الحكم و هو ملاكه و تأويل الفعل و هو مصلحته و غايته الحقيقه، و تأويل الواقعه و هو علتها الواقعه و هكذا.

فقوله: **«ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا»** الخ؛ إشاره منه الى أن الذى ذكره للوقائع الثلاث و أعماله فيها هو السبب الحقيقى لها لا ما حسبه موسى من العناوين المترائيه من أعماله كالتسبب الى هلاك الناس فى خرق السفينه و القتل من غير سبب موجب فى قتل الغلام و سوء تدبير المعاش فى إقامة الجدار (١٠٢).

[سوره الكهف (١٨): الآيات ٨٣ الى ١٠٢]

إشارة

و يَسْتَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَ آتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا (٨٤) فَاتَّبَعَ سَبِيًّا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَ وَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ تُعَذِّبُ وَإِنَّمَا أَنْتَ تُتَخَذُ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا (٨٧) وَ أَمَا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جِزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَ سَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ اتَّبَعَ سَبِيًّا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا (٩٠) كَذَلِكَ وَ قَدْ أَحْطَيْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ اتَّبَعَ سَبِيًّا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا (٩٦) فَمَا اسِيطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَ مَا اسِيطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَ كَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَ تَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَ عَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَ كَانُوا لَا يَسْتَفِيدُونَ سَمْعًا (١٠١) أَ فَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢)

ص: ٧٣

١- ١). الكهف ٦٠-٨٢: بحث تاريخى فى فصلين (قصه موسى و الخضر فى القرآن، قصه الخضر).

٢- ٢). الكهف ٦٠-٨٢: بحث روائى حول قصه موسى و الخضر.

قوله تعالى: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا أَى يسألونك عن شأن ذى القرنين. و الدليل على ذلك جوابه عن السؤال بذكر شأنه لا تعريف شخصه حتى اكتفى بلقبه فلم يتعد منه الى ذكر اسمه.

و الذكر إما مصدر بمعنى المفعول و المعنى قل سأتلو عليكم منه أى من ذى القرنين شيئاً مذكوراً، و إما المراد بالذكر القرآن -و قد سماه الله في مواضع من كلامه بالذكر و المعنى قل سأتلو عليكم منه أى من ذى القرنين أو من الله قرآنا و هو ما يتلو هذه الآية من قوله: «إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ» الى آخر القصه؛ و المعنى الثانى أظهر.

قوله تعالى: إِذَا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَ آتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا التمكن الإقدار يقال: مكنته و مكنت له أى أقدرته فالتمكن فى الأرض القدره على التصرف فيه

بالمملك كيفما شاء و أراد. وربما يقال: إنه مصدر مصوغ من المكان بتوهم أصاله الميم فالتمكين إعطاء الاستقرار و الثبات بحيث لا يزيله عن مكانه أى مانع مزاحم.

و السبب الوصله و الوسيله فمعنى إيتائه سببا من كل شىء لله أن يؤتى من كل شىء يتوصل به الى المقاصد الهامه الحيويه ما يستعمله و يستفيد منه كالعقل و العلم و الدين و قوه الجسم و كثره المال و الجند وسعه الملك و حسن التدبير و غير ذلك و هذا امتنان منه تعالى على ذى القرنين و إعظام لأمره بأبلغ بيان، و ما حكاه تعالى من سيرته و فعله و قوله المملوءه حكمه و قدره يشهد بذلك.

قوله تعالى: فَأَتَّبَعَ سَبَبًا الْاِتِّبَاعِ اللَّحُوقِ أَى لِحَقِ سَبَبًا و اتخذ وصله وسيله يسير بها نحو مغرب الشمس.

قوله تعالى: حَيْتَى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَحَيْثُ دَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَحَيْثُ دَعْنَدَهَا قَوْمًا تَدَلَّ «حَيْتَى» على فعل مقدر و تقديره «فسار حتى إذا بلغ» و المراد بمغرب الشمس آخر المعموره يومئذ من جانب الغرب بدليل قوله: «وَ وَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا» .

و ذكروا أن المراد بالعين الحمئه العين ذات الحمأه و هى الطين الأسود، و أن المراد بالعين البحر فربما تطلق عليه، و أن المراد بوجودان الشمس تغرب فى عين حمئه أنه وقف على ساحل بحر لا مطمع فى وجود بر وراءه فرأى الشمس كأنها تغرب فى البحر لمكان انطباق الافق عليه قيل: و ينطبق هذه العين الحمئه على المحيط الغربى و فيه الجزائر الخالدات التى كانت مبدأ سابقا ثم غرقت.

و قرئ «فى عين حاميه» أى حاره، و ينطبق على النقاط القريبه من خط الاستواء من المحيط الغربى المجاوره لإفريقيه و لعل ذا القرنين فى رحلته الغربيه بلغ سواحل إفريقيه.

قوله تعالى: قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذَّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا

القول المنسوب اليه تعالى في القرآن يستعمل في الوحي النبوي و في الابلاغ بواسطه الوحي كقوله تعالى: وَ قُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ
(البقره ٣٥) وقوله: وَ إِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ (البقره ٥٨)، و يستعمل في الالهام الذي ليس من النبوه كقوله: وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ
مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ (القصص ٧).

و به يظهر أن قوله: «قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْيَيْنِ» الخ؛ لا يدل على كونه نبيا يوحي اليه لكون قوله تعالى أعم من الوحي المختص بالنبوه و لا
يخلو قوله: «ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ» الخ؛ حيث أورد في سياق الغيبه بالنسبه اليه تعالى من إشعار بأن مكالمته كانت بتوسط نبى
كان معه فملكه نظير ملك طالوت فى بنى إسرائيل بإشاره من نبينهم و هدايته.

و قوله: «إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسَيْنًا» أى إما أن تعذب هؤلاء القوم و إما أن تتخذ فيهم أمرا ذا حسن، فحسنا مصدر
بمعنى الفاعل قائم مقام موصوفه أو هو وصف للمبالغه، و قد قيل: إن فى مقابله العذاب باتخاذ الحسن إيماء الى ترجيحه و الكلام
ترديد خبرى بداعى الاباحه فهو إنشاء فى صورته الإخبار، و المعنى لك أن تعذبهم و لك أن تعفو عنهم كما قيل، لكن الظاهر أنه
استخبار عما سيفعله بهم من سياسه أو عفو، و هو الأوفق بسياق الجواب المشتمل على التفصيل بالتعذيب و الإحسان «إِمَّا مَنْ ظَلَمَ
فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ» الخ؛ إذ لو كان قوله: «إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ» الخ؛ حكما تخييريا لكان قوله: «إِمَّا مَنْ ظَلَمَ» الخ؛ تقريراً له و إيداناً بالقبول و لا
كثير فائده فيه.

و محصل المعنى: استخبرناه ما ذا تريد أن تفعل بهم من العذاب و الإحسان و قد غلبتهم و استوليت عليهم؟ فقال: نعذب الظالم
منهم ثم يرد الى ربه فيعذبه العذاب النكر، و نحسن الى المؤمن الصالح و نكلفه بما فيه يسر.

و لم يذكر المفعول فى قوله: «إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ» بخلاف قوله: «إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسَيْنًا» لأن جميعهم لم يكونوا ظالمين، و ليس من
الجائز تعميم العذاب لقوم هذا شأنهم بخلاف تعميم

قوله تعالى: **أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا** المنكر غير المعهود أى يعذبه عذابا لا عهد له به، ولا يحتسبه و يترقبه.

وقد فسر الظلم بالإشراك. و التعذيب بالقتل فمعنى **«أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ»** أما من أشرك و لم يرجع عن شركه فسوف نقتله، و كأنه مأخوذ من مقابله **«مَنْ ظَلَمَ»** بقوله: **«مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا»** لكن الظاهر من المقابلة أن يكون المراد بالظالم أعم ممن أشرك و لم يؤمن بالله أو آمن و لم يشرك لكنه لم يعمل صالحا بل أفسد فى الأرض، و لو لا تقييد مقابله بالإيمان لكان ظاهر الظلم هو الافساد من غير نظر الى الشرك لأن المعهود من سيره الملوك إذا عدلوا أن يطهروا أرضهم من فساد المفسدين، و كذا لا دليل على تخصيص التعذيب بالقتل.

قوله تعالى: **وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ** الخ؛ **«صَالِحًا»** وصف اقيم مقام موصوفه و كذا الحسنى، و **«جَزَاءً»** حال أو تمييز أو مفعول مطلق و التقدير: و أما من آمن و عمل عملا صالحا فله المثوبه الحسنى حال لكونه مجزيا أو من حيث الجزاء أو نجزيه جزاء.

و قوله: **وَ سَيَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسِيرًا** اليسر بمعنى الميسور وصف اقيم مقام موصوفه و الظاهر أن المراد بالأمر الأمر التكليفى و تقدير الكلام: و سنقول له قولا ميسورا من أمرنا أى نكلفه بما يتيسر له و لا يشق عليه.

قوله تعالى: **ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا** حتى إذا بلغ مطلع الشمس الخ؛ أى ثم هيا سببا للسير فسار نحو المشرق حتى إذا بلغ الصحراء من الجانب الشرقى فوجد الشمس تطلع على قوم بدويين لم نجعل لهم من دونها سترا.

و المراد بالستر ما يستتر به من الشمس، و هو البناء و اللباس أو خصوص البناء أى كانوا يعيشون على الصعيد من غير أن يكون لهم بيوت يأوون إليها و يستترون بها من الشمس

و عراه لا- لباس عليهم، و إسناد ذلك الى الله سبحانه في قوله: «لَمْ نَجْعَلْ لَهُمُ» الخ؛ إشاره الى أنهم لم يتنبهوا بعد لذلك و لم يتعلموا بناء البيوت و اتخاذ الخيام و نسج الأثواب و خياطتها.

قوله تعالى: كَذَلِكَ وَ قَدْ أَحْطَأ بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا الظاهر أن قوله: «كَذَلِكَ» إشاره الى وصفهم المذكور فى الكلام، و تشبيه الشىء بنفسه مبنيًا على دعوى المغايره يفيد نوعا من التأكيد، و قد قيل فى المشار اليه بذلك وجوه آخر بعيدة عن الفهم.

و قوله: «وَ قَدْ أَحْطَأ بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا» الضمير لذى القرنين، و الجملة حاله و المعنى أنه اتخذ و سيله السير و بلغ مطلع الشمس و وجد قوما كذا و كذا فى حال أحاط فيها علمنا و خبرنا بما عنده من عده و عده و ما يجريه أو يجرى عليه، و الظاهر أن إحاطه علمه تعالى بما عنده كناية عن كون ما اختاره و أتى به بهدايه من الله و أمر، فما كان يرد و لا يصدر إلا عن هدايه يهتدى بها و أمر يأتى به كما أشار الى مثل هذا المعنى عند ذكر مسيره الى المغرب بقوله: «قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ» الخ.

فالآيه أعنى قوله: «وَ قَدْ أَحْطَأ» الخ؛ فى معناها الكنائى نظيره قوله: «وَ اصْبِرْ فُلُوكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحِينَا» (هود ٣٧)، و قوله: «أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ» (النساء ١٦٦)، و قوله: «وَ أَحْطَأ بِمَا لَدَيْهِمْ» (الجن ٢٨).

قوله تعالى: ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ السد الجبل و كل حاجز يسد طريق العبور و كأن المراد بهما الجبلان، و قوله: «وَ وَجَدَ مِنْ دُونَهُمَا قَوْمًا» أى قريبا منهما، و قوله: «لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا» كناية عن بساطتهم و سداجه فهمهم، و ربما قيل: كناية عن غرابه لغتهم و بعدها عن اللغات المعروفة عندهم، و لا يخلو عن بعد.

قوله تعالى: قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ الخ؛ الظاهر أن القائلين هم القوم الذين وجدهم من دون الجبلين، و يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ جيلان من الناس

كانوا يأتونهم من وراء الجبلين فيغيرون عليهم و يعمونهم قتلا و سبيا و نهبا و الدليل عليه السياق بما فيه من ضمائر اولى العقل و عمل السد بين الجبلين و غير ذلك.

و قوله: «فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا» الخرج ما يخرج من المال ليصرف فى شىء من الحوائج عرضوا عليه أن يعطوه مالا على أن يجعل بينهم و بين يأجوج و مأجوج سدا يمنع من تجاوزهم و تعديهم عليهم.

قوله تعالى: «قَالَ مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْمًا أَصْل «مَكَّنِّي» مَكَّنِي ثم ادغمت إحدى النونين فى الاخرى، و الردم السد و قيل السد القوى، و على هذا فالتعبير بالردم فى الجواب و قد سألوه سدا إجابته و وعد بما هو فوق ما استدعوه و أملوه.

و قوله: «قَالَ مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ» استغناء من ذى القرنين عن خرجهم الذى عرضوه عليه على أن يجعل لهم سدا يقول: ما مكننى فيه و أقرنى عليه ربي من السعه و القدره خير من المال الذى تعدوننى به فلا حاجه لى اليه.

و قوله: «فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ» الخ؛ القوه ما يتقوى به على الشىء و الجملة تفريع على ما يتحصل من عرضهم و هو طلبهم منه أن يجعل لهم سدا، و محصل المعنى أما الخرج فلا حاجه لى اليه، و أما السد فإن أردتموه فأعينونى بما أتقوى به على بنائه كالرجال و ما يستعمل فى بنائه- و قد ذكر منها زبر الحديد و القطر و النفخ بالمنافخ- أجعل لكم سدا قويا.

قوله تعالى: «آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ» الى آخر الآيه؛ الزبر بالضم فالفتح جمع زبره كغرف و غرفه و هى القطعه، و ساوى بمعنى سوى على ما قيل و قرئ «سوى» و الصدفين تشبيه الصدف و هو أحد جانبي الجبل ذكر بعضهم أنه لا يقال إلا إذا كان هناك جبل آخر يوازيه بجانبه فهو من الأسماء المتضايقه كالزوج و الضعف و غيرهما و القطر النحاس أو الصفر المذاب و إفراغه صبه على الثقب و الخلل و الفرج.

وقوله: «آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ» أى أعطونى إياها لأستعملها فى السد و هى من القوه التى استعانهم فيها، و لعله خصها بالذكر و لم يذكر الحجارة و غيرها من لوازم البناء لأنها الركن فى استحكام بناء السد فجمله «آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ» بدل البعض من الكل من جملة «فَاعِينُونِي بِقُوَّةٍ» او الكلام بتقدير قال، و هو كثير فى القرآن.

وقوله: «حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا فِي الْكَلَامِ إِيحَازًا بِالْحَدَفِ وَالتَّقْدِيرِ فَاَعَانُوهُ بِقُوَّةٍ وَآتَوْهُ مَا طَلَبَهُ مِنْهُمْ فَبَنَىٰ لَهُمُ السَّدَ وَرَفَعَهُ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ: انْفُخُوا.

وقوله: «قَالَ انْفُخُوا» الظاهر أنه من الإعراض عن متعلق الفعل للدلالة على نفس الفعل و المراد نصب المنافخ على السد لإحماء ما وضع فيه من الحديد و إفراغ القطر على خلله و فرجه.

وقوله: «حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ» الخ؛ فى الكلام حذف و إيجاز، و التقدير فنفخ حتى إذا جعله أى المنفوخ فيه أو الحديد نارا أى كالنار فى هيئته و حرارته فهو من الاستعاره.

وقوله: «قَالَ آتُونِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ قَطْرًا» أى آتونى قطرا افرغه و أصبه عليه ليسد بذلك خلله و يصير السد به مصمتا لا ينفذ فيه نافذ.

قوله تعالى: «فَمَا اسْتَبَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَ مَا اسْتَبَاعُوا لَهُ نَقْبًا اسْتَطَاعَ وَ اسْتَطَاعَ وَاحِدًا، وَ الظهور العلو و الاستعلاء، و النقب الثقب، قال الراغب فى المفردات: النقب فى الحائط و الجلد كالثقب فى الخشب انتهى و ضمائر الجمع ليأجوج و مأجوج. و فى الكلام حذف و إيجاز، و التقدير فبنى السد فما استطاع يأجوج و مأجوج أن يعلوه لارتفاعه و ما استطاعوا ان ينقبوه لاستحكامه.

قوله تعالى: «قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعَيْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَ كَانَ وَعَيْدُ رَبِّي حَقًّا الدكاء الدك و هو أشد الدق مصدر بمعنى اسم المفعول، و قيل:

المراد الناقه الدكاء و هي التي لا سنام لها و هو على هذا من الاستعاره و المراد به خراب السد كما قالوا.

و قوله: «قَالَ هَذَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّي» أى قال ذو القرنين-بعد ما بنى السد-:هذا أى السد رحمه من ربي أى نعمه و وقايه يدفع به شر يأجوج و مأجوج عن امم من الناس.

و قوله: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ» فى الكلام حذف و إيجاز و التقدير و تبقى هذه الرحمه الى مجيء وعد ربي فإذا جاء وعد ربي جعله مدكوكا و سوى به الأرض.

و المراد بالوعد إما وعد منه تعالى خاص بالسد أنه سيندك عند اقتراب الساعه فيكون هذا ملحمة أخبر بها ذو القرنين،و إما وعده تعالى العام بقيام الساعه الذى يدك الجبال و يخرب الدنيا،و قد أكد القول بجمله «وَ كَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا» .

قوله تعالى: «وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ الخ؛ظاهر السياق أن ضمير الجمع للناس و يؤيده رجوع ضمير «فَجَمَعْنَاهُمْ» الى الناس قطعاً لأن حكم الجمع عام.

و فى قوله: «بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ» استعاره،و المراد أنهم يضطربون يومئذ من شده الهول اضطراب البحر باندفاع بعضه الى بعض فيرتفع من بينهم النظم و يحكم فيهم الهرج و المرج و يعرض عنهم ربهم فلا- يشملهم برحمته،و لا- يصلح شأنهم بعنايته.

و الآيه من كلام الله سبحانه و ليست من تمام كلام ذى القرنين و الدليل عليه تغيير السياق من الغيبه الى التكلم مع الغير الذى هو سياق كلامه «إِذَا مَكَانًا لَهُ» «قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ»، و لو كان من تمام كلام ذى القرنين ل قيل:و ترك بعضهم على حذاء قوله: «جَعَلَهُ دَكَّاءَ» .

و قوله: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ الخ؛هى النفخه الثانيه التى فيها الإحياء بدليل قوله:

«فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا وَ عَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا» .

قوله تعالى: الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَ كَانُوا لَا

يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا تَفْسِيرًا لِلْكَافِرِينَ وَ هَوْلًا هُمْ الَّذِينَ ضَرَبَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ذِكْرِهِ سَدًا حَاجِزًا وَ بِهَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ تَعْرُضُ لِحَالِهِمْ بَعْدَ ذِكْرِ سَدِ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ - فَجَعَلَ أَعْيُنَهُمْ فِي غَطَاءٍ عَنِ ذِكْرِهِ وَ أَخَذَ اسْتَطَاعَةَ السَّمْعِ عَنِ آذَانِهِمْ فَانْقَطَعَ الطَّرِيقُ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْحَقِّ وَ هُوَ ذِكْرُ اللَّهِ.

فإن الحق إنما ينال إما من طريق البصر بالنظر الى آيات الله سبحانه و الاهتداء الى ما تدل عليه و تهدي اليه، و إما من طريق السمع باستماع الحكمة و المواعظ و القصص و العبر، و لا بصر لهؤلاء و لا سمع.

قوله تعالى: أَ فَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ الخ؛ الاستفهام للانكار قال في المجمع: معناه أ فحسب الذين جحدوا توحيد الله أن يتخذوا من دوني أربابا ينصرونهم و يدفعون عقابي عنهم قال: و يدل على هذا المحذوف قوله: «إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا» انتهى.

و قوله: «إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا» أى شيئاً يتمتعون به عند أول نزولهم الدار الآخرة شبه الدار الآخرة بالدار ينزلها الضيف و جهنم بالنزل الذى يكرم به الضيف النزى لدى أول وروده، و يزيد هذا التشبيه لطفاً و جمالاً ما سيأتى بعد آيتين أنهم لا يقيم لهم وزن يوم القيامة فكأنهم لا يلبثون دون ان يدخلوا النار، و فى الآيه من التهكم ما لا يخفى، و كأنما قوبل به ما سيحكى من تهكمهم فى الدنيا بقوله: «وَ اتَّخَذُوا آيَاتِي وَ رُسُلِي هُزُوًا» (١)(٢).

ص: ٨٣

١- ١). الكهف ٨٣-١٠٢: بحث روائى حول ذى القرنين.

٢- ٢). الكهف ٨٣-١٠٢: كلام حول قصه ذى القرنين و هو بحث قرآنى و تاريخى فى فصول (قصه ذى القرنين فى القرآن؛ ذكرى ذى القرنين و السد و يأجوج و مأجوج؛ من هو ذو القرنين و اين سده؛ بناء السد؛ يأجوج و مأجوج).

إشارة

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوعًا (١٠٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا (١٠٨)

بيان:

قوله تعالى: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا- ظاهر السياق أن الخطاب للمشركين و هو مسوق سوق الكنايه و هم المعنيون بالتوصيف و سيقرب من التصريح في قوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ» فالمنكرون للنبوه و المعاد هم المشركون.

قوله تعالى: الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا إنباء بالأخسرين أعمالا و هم الذين عرض في الآيه السابقه على المشركين أن ينبئهم بهم و يعرفهم إياهم فعرفهم بأنهم الذين ضل سعيهم في الحياه الدنيا، و ضلال السعي خسران ثم عقبه بقوله: «وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» و بذلك تم كونهم

قوله تعالى: **أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ** تعريف ثانٍ و تفسير بعد تفسير للأخسرين أعمالاً، والمراد بالآيات-على ما يقتضيه إطلاق الكلمه-آياته تعالى فى الآفاق و الأنفس و ما يأتى به الأنبياء و الرسل من المعجزات لتأييد رسالتهم فالكفر بالآيات كفر بالنبوه، على أن النبى نفسه من الآيات، والمراد بلقاء الله الرجوع اليه و هو المعاد.

قال تعريف الأخسرين أعمالاً الى أنهم المنكرون للنبوه و المعاد و هذا من خواص الوثنيين.

قوله تعالى: **فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا** وجه حبط أعمالهم أنهم لا يعملون عملاً لوجه الله و لا يريدون ثواب الدار الآخرة و سعادته حياتهم و لا أن الباعث لهم على العمل ذكر يوم الحساب و قد مر كلام فى الحبط فى مباحث الأعمال فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

و قوله: **«فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا»** تفريع على حبط أعمالهم الوزن يوم القيامة بثقل الحسنات على ما يدل عليه قوله تعالى: **وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** وَ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ (الأعراف ٩)، و إذ لا حسنه للحبط فلا ثقل فلا وزن.

قوله تعالى: **ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ** بِمَا كَفَرُوا وَ اتَّخَذُوا آيَاتِي وَ رُسُلِي هُزُؤًا الإشاره الى ما أورده من وصفهم، و اسم الإشاره خبر لمبتدأ محذوف و التقدير: الأمر ذلك أى حالهم ما وصفناه و هو تأكيد و قوله: **«جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ»** كلام مستأنف ينبئ عن عاقبه أمرهم. وقوله: **«بِمَا كَفَرُوا وَ اتَّخَذُوا آيَاتِي وَ رُسُلِي هُزُؤًا»** فى معنى بما كفروا و ازدادوا كفراً استهزاءً آياتى و سلى.

قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ**

الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا- الفردوس يذكر و يؤنث قيل: هي البستان بالرومية، وقيل: الكرم بالنبطيه و أصله فرداسا، وقيل: جنه الأعناب بالسريانيه، وقيل الجنه بالحشيه، وقيل:

عريبه و هي الجنه الملتفه بالأشجار و الغالب عليه الكرم.

و قد استفاد بعضهم من عده جنات الفردوس نزلا و قد عد سابقا جهنم للكافرين نزلا أن وراء الجنه و النار من الثواب و العقاب ما لم يوصف بوصف و ربما أيده أمثال قوله تعالى: لَّهُمْ مَا يَشَاؤُنَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ (ق ٣٥) و قوله: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ (الم السجده ١٧)، و قوله: وَ بَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ .

قوله تعالى: خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا بغيري الطلب، و الحول التحول، و الباقي ظاهر.

[سوره الكهف (١٨): آيه ١٠٩]

اشاره

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)

بيان:

قوله تعالى: قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي الى آخر الآيه، الكلمه تطلق على الجملة كما تطلق على المفرد و منه قوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ الْآيَه (آل عمران ٦٤)، و قد استعملت كثيرا فى القرآن الكريم فيما قاله الله و حكم به كقوله: وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا (الأعراف ١٣٧)، و قوله: كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (يونس ٣٣)، و قوله: وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ (يونس / ١٩) الى غير ذلك من الآيات الكثيره جدا.

و من المعلوم انه تعالى لا يتكلم بشق الفم و إنما قوله فعله و ما يفيضه من وجود كما قال:

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (النحل ٤٠) و إنما تسمى كلمه لكونها آيه داله عليه تعالى و من هنا سمي المسيح كلمه فى قوله: إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ (النساء ١٧١).

و من هنا يظهر أنه ما من عين يوجد أو واقعه تقع إلا- و هى من حيث كونها آيه داله عليه كلمه منه إلا- أنها خصت فى عرف القرآن بما دللته ظاهره لا خفاء فيها و لا بطلان و لا تغيير كما قال: وَ الْحَقُّ أَقُولُ (ص ٨٤)، و قال: مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ (ق ٢٩)، و ذلك كالمسيح عليه السلام و موارد القضاء المحتوم.

و قوله: وَ لَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا أَى و لو أمددنا ببحر آخر لنفد أيضا قبل أن تنفذ كلمات ربي.

[سوره الكهف (١٨): آيه ١١٠]

إشارة

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَ لَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)

بيان:

قوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ الْقَصْرُ الْأَوَّلُ قَصْرَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فِي الْبَشَرِيَّةِ الْمِمَاتِلَةِ الْبَشَرِيَّةِ النَّاسِ لَا يَزِيدُ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ وَ لَا يَدْعِبُهُ لِنَفْسِهِ قَبَالَ مَا كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُ إِذَا ادَّعَى النَّبِيُّ فَقَدْ ادَّعَى كَيْنُونَهُ إِلَهِيَّةً وَ قَدْرَهُ غَيْبِيَّةً وَ لَذَا كَانُوا يَقْتَرِحُونَ عَلَيْهِ بِمَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ وَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ لَكِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ نَفَى ذَلِكَ كُلَّهُ بِأَمْرِ اللَّهِ عَنِ

نفسه و لم يثبت لنفسه إلا أنه يوحى اليه.

و القصر الثانى قصر الإله الذى هو إلههم فى إله واحد و هو التوحيد الناطق بأن إله الكل إله واحد.

و قوله: **فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ** الخ؛ مشتمل على إجمال الدعوه الدينيه و هو العمل الصالح لوجه الله وحده لا شريك له و قد فرعه على رجاء لقاء الرب تعالى و هو الرجوع اليه إذ لو لا الحساب و الجزاء لم يكن للأخذ بالدين و التلبس بالاعتقاد و العمل موجب يدعو اليه كما قال تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** (ص ٢٦).

و قد رتب على الاعتقاد بالمعاد العمل الصالح و عدم الإشراك بعباده الرب لأن الاعتقاد بالوحدانيه مع الاشراك فى العمل متناقضان لا يجتمعان فالإله تعالى لو كان واحدا فهو واحد فى جميع صفاته و منها المعبوديه لا شريك له فيها.

و قد رتب الأخذ بالدين على رجاء المعاد دون القطع به لأن احتمالاه كاف فى وجوب التحذر منه لوجوب دفع الضرر المحتمل، و ربما قيل: إن المراد باللقاء لقاء الكرامه و هو مرجو لا مقطوع به.

و قد فرع رجاء لقاء الله على قوله: **«أَنْتُمْ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ»** لأن رجوع العباد الى الله سبحانه من تمام معنى الألوهيه فله تعالى كل كمال مطلوب و كل وصف جميل و منها فعل الحق و الحكم بالعدل و هما يقتضيان رجوع عباده اليه و القضاء بينهم قال تعالى: **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا بِإِطْلَاقٍ ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** (ص ٢٨).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِياً (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِمُدْعَاكَ رَبِّ شَقِيّاً (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً (٦) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ إِسْمُهُ يُحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً (١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً (١١) يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً (١٢) وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً (١٣) وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً (١٤) وَسِلَماً عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً (١٥)

غرض السوره على ما ينبى عنه قوله تعالى فى آخرها: «فَأَنَّمَا يُسْرِنَا إِلَيْكَ بِلسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا» الخ؛ هو التبشير و الإنذار غير أنه ساق الكلام فى ذلك سوقا بديعا فأشار أولا- الى قصه زكريا و يحيى و قصه مريم و عيسى و قصه إبراهيم و إسحاق و يعقوب و قصه موسى و هارون و قصه إسماعيل و قصه إدريس و ما خصّهم به من نعمه الولاية كالنبوه و الصدق و الإخلاص ثم ذكر أن هؤلاء الذين أنعم عليهم كان المعروف من حالهم الخشوع و الخشوع لربهم لكن أخلافهم أعرضوا عن ذلك و أهملوا أمر التوجه الى ربهم و اتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا و يضل عنهم الرشد إلا أن يتوب منهم تائب و يرجع الى ربه فإنه

يلحق بأهل النعمة.

ثم ذكر نبذه من هفوات أهل الغي و تحكّماتهم كنفى المعاد، و قولهم: اتخذ الله ولدا، و عبادتهم الأصنام، و ما يلحقهم بذلك من النكال و العذاب.

فالبيان فى السوره أشبه شىء ببيان المدعى بإيراد أمثله كأنه قيل: إن فلانا و فلانا و فلانا الذين كانوا أهل الرشد و الموهبه كانت طريقتهم الانقلاع عن شهوات النفس و التوجه الى ربهم و سييلهم الخضوع و الخشوع إذا ذكروا بآيات ربهم فهذا طريق الإنسان الى الرشد و النعمه لكن أخلافهم تركوا هذا الطريق بالإعراض عن صالح العمل، و الإقبال على مذموم الشهوه و لا يؤديهم ذلك إلا الى الغي خلاف الرشد، و لا يقمّهم إلا على باطل القول كنفى الرجوع الى الله و إثبات الشركاء لله و سدّ طريق الدعوه و لا يهديهم إلا الى النكال و العذاب.

فالسوره كما ترى تفتح بذكر أمثله ثم تعقبها باستخراج المعنى الكلى المطلوب بيانه و ذلك قوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» الآيات، فالسوره تقسم الناس الى ثلاث طوائف: الذين أنعم الله عليهم من النبيين و أهل الإجتباء و الهدى. و أهل الغي، و الذين تابوا و آمنوا و عملوا صالحا و هم ملحقون بأهل النعمه و الرشد ثم تذكر ثواب التائبين المسترشدين و عذاب الغاوين و هم قرناء الشياطين و أولياؤهم.

و السوره مكيه بلا ريب تدل على ذلك مضامين آياتها و قد نقل على ذلك اتفاق المفسرين.

قوله تعالى: كهيعص قد تقدم فى تفسير أول سوره الأعراف أن السور القرآنيه المصدّره بالحروف المقطعه لا تخلو من ارتباط بين مضامينها و بين تلك الحروف المشتركه تكشف عن مضامين مشتركه.

و يؤيد ذلك ما نجده من المناسبه و المجانسه بين هذه السوره و سوره ص فى سرد قصص الأنبياء، و سيوافيك بحث جامع إن شاء الله فى روابط مقطّعات الحروف و مضامين السور التى

صدرت بها، وكذا ما بين السور المشتركة في بعض هذه الحروف كهذه السوره و سوره يس و قد اشتركتا في الياء، وهذه السوره و سوره الشورى و قد اشتركتا في العين.

قوله تعالى: ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِياً ظاهر لسياق أن الذكر خبر لمبتدأ محذوف و المصدر بمعنى المفعول، و المآل بحسب التقدير: هذا خبر رحمه ربك المذكور، و المراد بالرحمه استجابته سبحانه دعاء زكريا على التفصيل الذى قصه بدليل قوله تلوا: «إِذْ نَادَى رَبَّهُ». .

قوله تعالى: إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا الظرف متعلق بقوله: «رَحْمَهُ رَبِّكَ» و النداء و المناداه الجهر بالدعوه خلاف المناجاه، و لا ينافيه توصيفه بالخفاء لإمكان الجهر بالدعوه فى خلاء من الناس لا يسمعون معه الدعوه، و يشعر بذلك قوله الآتى: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ». .

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ تمهيد لما سيسأله و هو قوله: «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا». .

و قد قدم قوله: «رَبِّ» للاسترحام فى مفتتح الدعاء، و التأكيد بأن للدلاله على تحققه بالحاجه، و الوهن هو الضعف و نقصان القوه و قد نسبه الى العظم لأنه الدعامه التى يعتمد عليها البدن فى حركته و سكونه، و لم يقل: العظام منى و لا عظمى للدلاله على الجنس و ليأتى بالتفصيل بعد الإجمال.

و قوله: وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا الاشتعال انتشار شواظ النار و لهيها فى الشىء المحترق قال فى المجمع: و قوله: «وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا» من أحسن الاستعارات و المعنى اشتعل الشيب فى الرأس و انتشر، كما ينتشر شعار النار، و كأن المراد بالشعار الشواظ و اللهب.

و قوله: وَ لَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا الشقاوه خلاف السعاده، و كأن المراد بها

الحرمان من الخير و هو لازم الشقاوه أو هو هي، و قوله: «بِدُعَائِكَ» متعلق بالشقى و الباء فيه للسببيه أو بمعنى فى و المعنى و كنت سعيدا بسبب دعائى إياك كلما دعوتك استجبت لى من غير أن تشقيني و تحرمنى، أو لم أكن محروما خائبا فى دعائى إياك عودتنى الإجابة إذا دعوتك و التقبل إذا سألتك، و الدعاء على أى حال مصدر مضاف الى المفعول.

و فى تكرار قوله: «رَبِّ» و وضعه متخللا- بين اسم كان و خبره فى قوله: «وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبًّا شَقِيًّا» من البلاغه ما لا يقدر بقدر، و نظيره قوله: «وَ اجْعَلْهُ رَبًّا رَضِيًّا» .

قوله تعالى: «وَ إِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَ كَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا» تتمه التمهيد الذى قدمه لدعائه، و المراد بالموالى العمومه و بنو العم، و قيل: الكلاله و قيل: العصبه، و قيل: بنو العم فحسب، و قيل: الورثه، و كيف كان فهم غير الأولاد من صلب و المراد خفت فعل الموالى من ورائى أى بعد موتى و كان عليه السلام يخاف أن يموت بلا عقب من نسله فيرثوه، و هو كناية عن خوفه أن يموت بلا عقب.

و قوله: «وَ كَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا» العاقر المرأه التى لا تلد يقال: امرأه عاقر لا تلد و رجل عاقر لا يولد له ولد. و فى التعبير بقوله: «وَ كَانَتِ امْرَأَتِي» دلالة على أن امرأته على كونها عاقرا جازت حين الدعاء سن الولاده.

و ظاهر عدم تكرار إن فى قوله: «وَ كَانَتِ امْرَأَتِي» الخ؛ أن الجملة حالیه و مجموع الكلام أعنى قوله: «وَ إِنِّي خِفْتُ» -الى قوله- «عَاقِرًا» فصل واحد أريد به أن كون امرأتى عاقرا اقتضى أن أخاف الموالى من ورائى و بعد وفاتى، فمجموع ما مهده للدعاء يثول الى فصلين أحدهما أن الله سبحانه عوده الاستجابة مدى عمره حتى شاخ و هرم و الآخر أنه خاف الموالى بعد موته من جهة عقر امرأته، و يمكن تصوير الكلام فصولا ثلاثة بأخذ كل من شيخوخته و عقر امرأته فصلا مستقلا.

قوله تعالى: فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ

رَبِّ رَضِيًّا هَذَا هُوَ الدَّعَاءُ، وَ قَدْ قَيَّدَ الْمَوْهَبَةَ الْإِلَهِيَّةَ الَّتِي سَأَلَهَا بِقَوْلِهِ: «مِنْ لَدُنْكَ» لَكُونَهُ آيَسًا مِنَ الْأَسْبَابِ الْعَادِيَةِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهُ وَ هِيَ نَفْسُهُ وَ قَدْ صَارَ شَيْخًا هَرَمًا سَاقِطَ الْقُوَى.

وَ امْرَأَتُهُ وَ قَدْ شَاخَتْ وَ كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ عَاقِرًا.

وَ وُلِيَ الْإِنْسَانَ مِنْ يَلَى أَمْرِهِ، وَ وُلِيَ الْمَيِّتَ هُوَ الَّذِي يَقُومُ بِأَمْرِهِ وَ يَخْلُفُهُ فِيمَا تَرَكَ، وَ آلَ الرَّجُلِ خَاصَّتَهُ الَّذِينَ يَثُولُ إِلَيْهِ أَمْرَهُمْ كَوَلَدِهِ وَ أَقَارِبِهِ وَ أَصْحَابِهِ وَ قِيلَ: أَصْلُهُ أَهْلٌ، وَ الْمُرَادُ بِعُقُوبٍ عَلَى مَا قِيلَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَ قِيلَ هُوَ يَعْقُوبُ بْنُ مَائِثَانَ أَخُو عِمْرَانَ بْنِ مَائِثَانَ أَبِي مَرْيَمَ وَ كَانَتْ امْرَأَتُهُ زَكْرِيَّا أُخْتُ مَرْيَمَ وَ عَلَى هَذَا يَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ: «يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» يَرِثُنِي وَ يَرِثُ امْرَأَتَهُ وَ هِيَ بَعْضُ آلِ يَعْقُوبَ، وَ الْأَشْبَهُ حِينَئِذٍ أَنْ تَكُونَ «مِنْ» فِي قَوْلِهِ: «مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» لِلتَّبَعِيضِ وَ إِنْ صَحَّ كَوْنُهَا ابْتِدَائِيَّةً أَيْضًا.

وَ قَوْلُهُ: «وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» الرِّضَى بِمَعْنَى الْمَرْضَى، وَ إِطْلَاقُ الرِّضَا يَقْتَضِي شُمُولَهُ لِلْعِلْمِ وَ الْعَمَلِ جَمِيعًا فَالْمُرَادُ بِهِ الْمَرْضَى فِي اعْتِقَادِهِ وَ عَمَلِهِ أَيْ اجْعَلْهُ رَبِّ مَحَلِّيً بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ (١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا فِي الْكَلَامِ حَذْفُ إِجْزَاءِ، وَ التَّقْدِيرُ «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ نَادَيْنَاهُ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ» السُّخ؛ وَ قَدْ وَرَدَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْقِصَّةِ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ وَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى (الأنبياء ٩٠)، وَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَ هُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى (آل عمران ٣٩).

وَ تَشْهَدُ آيَةُ آلِ عِمْرَانَ عَلَى أَنْ قَوْلُهُ: «يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ» السُّخ؛ كَانَ وَحْيًا بِتَوْسِطِ الْمَلَائِكَةِ فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى أَدَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ إِلَى زَكَرِيَّا، وَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ ثَانِيًا: «قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ

ص: ٩٤

عَلَى هَيِّئُ» الخ؛ أظهر.

و فى الآيه دلالة على أن الله سبحانه هو الذى سَمَّاه يحيى، و هو قوله: «اسْمُهُ يَحْيَى» و أنه لم يسم بهذا الاسم قبله أحد، و هو قوله: «لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا» أى شريكا فى الاسم.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ انى يكون لى غلامٌ و كانت امرأتى عاقراً و قد بلغت من الكبر عتياً قال الراغب: الغلام الطار الشارب (١) يقال: غلام بين الغلومه و الغلوميه، قال تعالى: «انى يكون لى غلامٌ». قال: و اغتلم الغلام: إذا بلغ حد الغلمه. انتهى.

و قال فى المجمع: العتّى و العسّى بمعنى يقال: عتا يعتو عتوا و عتياً و عسا يعسو عسوا و عسياً فهو عات و عاس إذا غيره طول الزمان الى حال اليبس و الجفاف. انتهى. و بلوغ العتّى كناية عن بطلان شهوه النكاح و انقطاع سبيل الإيلااد.

و استفهامه عليه السلام عن كون الغلام مع عقر امرأته و بلوغه العتّى مع كره الأمرين فى ضمن دعائه إذ قال: «رَبِّ انى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنى» الخ؛ مبنى على استعجاب البشرى و استفسار خصوصياتها دون الاستبعاد و الإنكار فإن من بشر بما لا يتوقعه لتوفر الموانع و فقدان الأسباب تضطرب نفسه بادئ ما يسمعها فى أخذ فى السؤال عن خصوصيات ما بشر به ليطمئن قلبه و يسكن اضطراب نفسه و هو مع ذلك على يقين من صدق ما بشر به فإن الخطورات النفسانية ربما لا تنقطع مع وجود العلم و الإيمان و قد تقدم نظيره فى تفسير قوله تعالى: «وَ إِذْ قَالَ إِبراهيمُ رَبِّ انى كَيْفَ تُحْيى الْمَوْتى قالَ أ و لَمْ تُؤْمِنْ قالَ بلى وَ لَكِنْ لِيُطْمئنَّ قَلْبى (البقره ٢٦٠)».

قوله تعالى: قَالَ كَذَلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيِّئُ وَ قد خَلَقْتِكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً جواب عما استفهمه و استفسره لتطيب به نفسه، و يسكن جأشه، و ضمير قال

ص: ٩٥

راجع اليه تعالى، وقوله: «كَذَلِكَ» مقول القول و هو خير مبتدأ محذوف و التقدير «هو كذلك» أى الأمر واقع على ما أخبرناك به فى البشرى لا ريب فيه.

و قوله: «قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ» مقول ثان لقال الأول، و هو بمنزله التعليل لقوله:

«كَذَلِكَ» يرتفع به أى استعجاب فلا يتخلف عن إرادته مراد و إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن، فخلق غلام من رجل بالغ فى الكبر و امرأه عاقر هين سهل عليه.

قوله تعالى: «قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ لِيَالٍ سَوِيًّا قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْقِصَّةِ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ أَنْ إِقْدَاءَ الْبَشْرَى إِلَى زَكْرِيَّا كَانَ بِتَوْسُطِ الْمَلَائِكَةِ «فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَ هُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى»، و هو عليه السَّلام إنما سأل الآيه لِيَتَمَيَّزَ بِهِ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ فَتَدَلُّهُ عَلَى أَنْ مَا سَمِعَهُ مِنَ الْوَحْيِ مَلَكِي لَا إِقْدَاءَ شَيْطَانِي وَ لِذَلِكَ أُجِيبُ بِآيَةِ إِلَهِي لَا سَبِيلَ لِلشَّيْطَانِ إِلَيْهَا وَ هُوَ أَنْ لَا يَنْطَلِقَ لِسَانُهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ بِعَصْمَةِ إِلَهِي لَيْسَ لِلشَّيْطَانِ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِي نَفْسِهِمْ».

فقوله: «قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً» سؤال لآيه مميزه، وقوله: «قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ لِيَالٍ سَوِيًّا» إجابته ما سأل، و هو أن يعتقل لسانه ثلاثه أيام من غير ذكر الله و هو سوى أى صحيح سليم من غير مرض و آفه.

فالمراد بعدم تكليم الناس عدم قدره على تكليمهم، من قبيل إطلاق اللازم و إرادته الملزوم كناية، و المراد بثلاث ليال ثلاث ليال بأيامها و هو شائع فى الاستعمال فكان عليه السَّلام يذكر الله فنون الذكر و لا يقدر على تكليم الناس إلا رمزا و إشاره، و الدليل على ذلك كله قوله تعالى فى القصة من سورة آل عمران: «قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَ اذْكُرْ رَبُّكَ كَثِيرًا وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكَارِ (آل عمران ٤١)».

قوله تعالى: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: وَ سَمَى الْمِحْرَابَ مِحْرَابًا لِأَنَّ الْمَتْوَجَّهَ إِلَيْهِ فِي صَلَاتِهِ كَالْمِحْرَابِ»

الشيطان على صلاته، والأصل فيه مجلس الأشراف الذى يحارب دونه ذبا عن أهله. وقال:

الإيحاء إلقاء المعنى الى النفس فى خفيه بسرعه، وأصله من قولهم: الوحي الوحي أى الإسراع الإسراع. انتهى ومعنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ قَدْ تَكْرَّرَ فِي كَلَامِهِ تَعَالَى ذَكَرَ أَخَذَ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَالْأَمْرُ بِهِ كَقَوْلِهِ: فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا (الأعراف / ١٤٥)، وقوله: خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ (البقره / ٦٣)، وقوله: خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا (البقره / ٩٣) الى غير ذلك من الآيات، والسابق الى الذهن من سياقها أن المراد من أخذ الكتاب بقوه التحقق بما فيه من المعارف والعمل بما فيه من الأحكام بالعايه والاهتمام.

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْكِتَابَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً فَسَّرَ الْحُكْمَ بِالْفَهْمِ وَالْعَقْلِ وَالْحِكْمَةَ وَمَعْرِفَةَ آدَابِ الْخِدْمَةِ وَبِالْفِرَاسَةِ الصَّادِقَةِ وَالنَّبُوَّةِ، لَكِنِ الْمُسْتَفَادُ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ (الجاثيه / ١٦)، وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ (الأنعام / ٨٩)، وغيرهما من الآيات أن الحكم غير النبوه، فتفسير الحكم بالنبوه ليس على ما ينبغي، وكذا تفسيره بمعرفته آداب الخدمه أو بالفراسه الصادقه أو بالعقل إذ لا دليل من جهه اللفظ ولا من جهه المعنى على شىء من ذلك.

نعم ربما يستأنس من مثل قوله: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ (البقره / ١٢٩)، وقوله: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ (الجمعه / ٢)، -والحكمة بناء نوع من الحكم- أن المراد بالحكم العلم بالمعارف الحقه الإلهيه و انكشاف ما هو تحت أستار الغيب بالنسبه الى الأنظار العاديه ولعله اليه مرجع تفسير الحكم بالفهم. وعلى هذا يكون المعنى إنا أعطيناك العلم بالمعارف الحقيقه وهو صبي لم يبلغ

الحلم بعد.

و قوله: «وَ حَنَانًا مِنْ لَدُنَّا» معطوف على الحكم أى و أعطيناه حنانا من لدننا و الحنان:

العطف و الإشفاق، قال الراغب: و لكون الإشفاق لا ينفك من الرحمه عبّر عن الرحمه بالحنان

فى قوله تعالى: «وَ حَنَانًا مِنْ لَدُنَّا» و منه قيل: الجَنَانُ المَنَّانُ و حنانيك إشفاقا بعد إشفاق.

و فسر الحنان فى الآيه بالرحمه و لعل المراد بها النبوه أو الولايه كقول نوح عليه السلام وَ آتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ (هود ٢٨)، و قول صالح: وَ آتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً (هود ٦٣).

و فسر بالمحبه و لعل المراد بها محبه الناس له على حد قوله: وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي (طه ٣٩)، أى كان لا يراه أحد إلا أحبه.

و فسر بتعطفه على الناس و رحمته و رفته عليهم فكان رءوفا بهم ناصحا لهم يهديهم الى الله و يأمرهم بالتوبه و لذا سمى فى العهد الجديد بيوحنا المعمد.

و فسر بحنان الله عليه كان إذا نادى ربه لباه الله سبحانه على ما فى الخبر فيدلّ على أنه كان لله سبحانه حنان خاص به على ما يفيدته تنكير الكلمه.

و الذى يعطيه السياق و خاصه بالنظر الى تقييد الحنان بقوله: «مِنْ لَدُنَّا» - الكلمه إنما تستعمل فيما لا مجرى فيه للأسباب الطبيعیه العاديه أو لا- نظر فيه إليها- أن المراد به نوع عطف و انجذاب خاص إلهى بينه و بين ربه غير مألوف و بذلك يسقط التفسير الثانى و الثالث ثم تعقبه بقوله: «زَكَاةً» و الأصل فى معناه النمو الصالح، و هو لا يلائم المعنى الأول كثير ملاءمه فالمراد به إما حنان من الله سبحانه اليه بتولى أمره و العناية بشأنه و هو ينمو عليه، و إما حنان و انجذاب منه الى ربه فكان ينمو عليه، و النمو نمو الروح.

قوله تعالى: وَ كَانَ تَقِيًّا وَ بَرًّا بِالِدَيْهِ وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا التقى صفة مشبهه من التقوى مثال واوى و هو الورع عن محارم الله و التجنب عن اقتراف المناهى المؤدى الى عذاب الله، و البر بفتح الباء صفة مشبهه من البر بكسر الباء و هو الإحسان، و الجبار قال

فى المجمع: الذى لا يرى لأحد عليه حقا و فيه جبريه و جبروت، و الجبار من النخل ما فات اليد. انتهى. فيقول معناه الى أنه المستكبر المستعلى الذى يحمل الناس ما أراد و لا يتحمل عنهم، و يؤيده تعقيبه بالعصى فإنه صفة مشبهه من العصيان و الأصل فى معناه الامتناع.

قوله تعالى: وَ سَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا السَّلام قريب المعنى من الأمن، و الذى يظهر من موارد استعمالها فى الفرق بينهما أن الأمن خلوّ المحل مما يكرهه الإنسان و يخاف منه و السَّلام كون المحل بحيث كل ما يلقاه الإنسان فيه فهو يلائمه من غير أن يكرهه و يخاف منه.

و تنكير السَّلام لإفاده التفخيم أى سلام فخيم عليه مما يكرهه فى هذه الأيام الثلاثة التى كل واحد منها مفتتح عالم من العوالم التى يدخلها الإنسان و يعيش فيها فسلام عليه يوم ولد فلا يمسه مكروه فى الدنيا يزاحم سعادته، و سلام عليه يوم يموت، فسيعيش فى البرزخ عيشه نعيمه، و سلام عليه يوم يبعث حيا فيحيا فيها بحقيقه الحياه و لا نصب و لا تعب.

و اختلاف التعبير فى قوله: «وُلِدَ» «يَمُوتُ» «يُبْعَثُ» لتمثيل أن التسليم فى حال حياته عليه السَّلام (١)(٢)(٣).

[سوره مريم (١٩): الآيات ١٦ الى ٤٠]

إشارة

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَعْجًا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَ رَحْمَةً مِنَّا وَ كَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَ كُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا (٢٣) فَوَدَّعَهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ سَرِيًّا (٢٤) وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَ اشْرَبِي وَ قَرِي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦) فَآتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَ مَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْجًا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَ جَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَ بَرًّا بِوَالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَ السَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أُمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَ ابْصُرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنَ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٨) وَ أَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَ هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْهَا وَ إِنَّا يُرْجِعُونَ (٤٠)

- ١-١) مريم ١-١٥: بحث روائي حول الحروف المقطعه (كهيعص)، دعاء زكريا عليه السلام، قصه يحيى عليه السلام.
- ٢-٢) مريم ١-١٥: قصه زكريا في القرآن (وصفه، تاريخ حياته).
- ٣-٣) مريم ١-١٥: قصه يحيى عليه السلام في القرآن (الثناء عليه، تاريخ حياته، قصه زكريا و يحيى في الانجيل).

قوله تعالى: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا المراد بالكتاب القرآن أو السوره فهى جزء من الكتاب و جزء الكتاب كتاب و الاحتمالان من حيث المآل واحد فلا كثير جدوى فى اصرار بعضهم على تقديم الاحتمال الثانى و تعيينه.

و النبذ-على ما ذكره الراغب-طرح الشىء الحقيق لا يعبأ به يقال نبذه إذا طرحه مستحقرا له غير معتن به، و الانتباز الاعتزال من الناس و الانفراد.

و مريم هى ابنه عمران أم المسيح عليهما السلام، و المراد بمريم نبأ مريم و قوله: «إذا» ظرف له،

وقوله: «اتَّيَيْدَتْ» الى آخر القصه تفضيل المظروف الذى هو نبأ مريم، والمعنى واذكر يا محمد فى هذا الكتاب نبأ مريم حين اعتزلت من أهلها فى مكان شرقى، و كأنه شرقى المسجد.

قوله تعالى: فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا الْحِجَابُ مَا يَحْجُبُ الشَّيْءَ لَلَّهِ وَيَسْتَرُهُ عَنْ غَيْرِهِ، وَ كَأَنَّهَا اتَّخَذَتْ الْحِجَابَ مِنْ دُونِ أَهْلِهَا لِتَنْقَطِعَ عَنْهُمْ وَ تَعْتَكِفَ لِلْعِبَادَةِ كَمَا يَشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ: كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا (آل عمران ٣٧) وَ قَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ.

وَ أَمَّا قَوْلُهُ: إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ - إِلَى أَنْ قَالَ - قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران ٤٧).

وَ إِضَافَةُ الرُّوحِ إِلَيْهِ تَعَالَى لِلتَّشْرِيفِ مَعَ إِشْعَارٍ بِالتَّعْظِيمِ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ كَلَامٌ فِي مَعْنَى الرُّوحِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ الْآيَةَ (الإسراء ٨٥) (١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا ابْتَدَرْتُ إِلَى تَكْلِيمِهِ لَمَّا أَدْهَشَهَا حُضُورُهُ عِنْدَهَا وَ هِيَ تَحْسَبُ أَنَّهُ بَشَرٌ هَجَمَ عَلَيْهَا لِأَمْرِ يَسُوؤُهَا وَ اسْتِعَاذَتْ بِالرَّحْمَنِ اسْتِدْرَارًا لِلرَّحْمَةِ الْعَامَّةِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي هِيَ غَايَةُ آمَالِ الْمُنْقَطِعِينَ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الْقَنُوتِ.

وَ اشْتِرَاطُهَا بِقَوْلِهَا: «إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا» مِنْ قَبِيلِ الْإِشْتِرَاطِ بِوَصْفِ يَدَّعِيَةِ الْمُخَاطَبِ لِنَفْسِهِ أَوْ هُوَ مُحَقَّقٌ فِيهِ لِيَفِيدَ إِطْلَاقَ الْحُكْمِ الْمَشْرُوطِ وَ عَلَيْهِ الْوَصْفُ لِلْحُكْمِ، وَ التَّقْوَى وَصْفٌ جَمِيعٌ يَشُقُّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَنْفِيَهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ يَعْتَرِفُ بِفَقْدِهِ فَيَتَوَلَّى الْمَعْنَى إِلَى مِثْلِ قَوْلِنَا: إِنِّي أَعُوذُ وَ أَعْتَصِمُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا وَ مِنْ الْوَاجِبِ أَنْ تَكُونَ تَقِيًّا فَلْيُرِدْ عَكَ تَقْوَاكَ عَنْ أَنْ تَتَعَرَّضَ بِي وَ تَقْصِدَنِي بِسُوءٍ.

ص: ١٠٢

فَالْآيَةِ مِنْ قَبِيلِ خُطَابِ الْمُؤْمِنِينَ بِمِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ» (المائدة ٥٧)، وقوله: «وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ» (المائدة ٢٣).

قوله تعالى: «قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا» جواب الروح لمريم وقد صدر الكلام بالقصر ليفيد أنه ليس ببشر كما حسبه فيزول بذلك روعها ثم يطيب نفسها بالبشرى، والزكى هو النامى نموا صالحا والنابت نباتا حسنا.

ومن لطيف التوافق فى هذه القصص المورده فى السوره أنه تعالى ذكر زكريا وأنه وهب له يحيى، و ذكر مريم وأنه وهب لها عيسى، و ذكر إبراهيم وأنه وهب له إسحاق ويعقوب، و ذكر موسى وأنه وهب له هارون عليه السلام.

قوله تعالى: «قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا» مسّ البشر بقريته مقابلته للبغى وهو الزنا كناية عن النكاح وهو فى نفسه أعم ولذا اكتفى فى القصه من سوره آل عمران بقوله: «وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ» والاستفهام للتعجب أى كيف يكون لى ولد ولم يخالطنى قبل هذا الحين رجل لا من طريق الحلال بالنكاح ولا من طريق الحرام بالزنا.

و السياق يشهد أنها فهمت من قوله: «لَأَهَبَ لَكِ غُلَامًا» الخ؛ أنه سيهبه حالا ولذا قالت:

«وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا» فنفت النكاح والزنا فى الماضى.

قوله تعالى: «قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ» الخ؛ أى قال الروح: الأمر كذلك أى كما وصفته لك ثم قال: «قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ»، وقد تقدم فى قصه زكريا ويحيى عليهما السلام توضيح ما للجملتين.

وقوله: «وَلْيَكُنْ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا» ذكر بعض ما هو الغرض من خلق المسيح على هذا النهج الخارق، وهو معطوف على مقدر أى خلقناه بنفخ الروح من غير أب لكذا وكذا ولنجعل آية للناس بخلقته ورحمة منا برسالته والآيات الجارية على يده وحذف بعض

الغرض و عطف بعضه المذكور عليه كثير في القرآن كقوله تعالى: وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (الأنعام ٧٥)، و في هذه الصنعة إيهام أن الأغراض الإلهية أعظم من أن يحيط بها فهم أو يفى بتمامها لفظ.

□ و قوله: وَ كَانَ أَمْرًا مَفْضِيًّا إشاره الى تحتم القضاء في أمر هذا الغلام الزكى فلا يردّ بإباء أو دعاء.

□ قوله تعالى: فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا القصى البعيد أى حملت بالولد فانفردت و اعتزلت به مكانا بعيدا من أهله.

□ قول تعالى فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلِ الى آخر الآيه؛ الإجاءه إفعال من جاء يقال: أجاهه و جاء به بمعنى و هو فى الآيه كناية عن الدفع و الإلجاء، و المخاض و الطلق و جمع الولاده، و جذع النخلة ساقها، و النسي بفتح النون و كسرهما كالوتر و الوتر هو الشىء الحقيق الذى من شأنه أن ينسى، و المعنى -أنها لما اعتزلت من قومها فى مكان بعيد منهم- دفعها و ألجأها الطلق الى جذع نخله كان هناك لوضع حملها- و التعبير بجذع النخلة دون النخلة مشعر بكونها يابسه غى مخضره- و قالت استحياء من الناس: يا ليتنى مت قبل هذا و كنت نسيا و شيئا لا يعبا به منسيا لا يذكر فلم يقع فيه الناس كما سيقع الناس فى.

□ قوله تعالى: فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي الى آخر الآيتين؛ ظاهر السياق أن ضمير الفاعل فى «فناداها» لعيسى عليه السلام لا لروح السابق الذكر، و يؤيده تقييده بقوله: «مِنْ تَحْتِهَا» فإن هذا القيد أنسب لحال المولود مع والدته حين الوضع منه لحال الملك المنادى مع من يناديه، و يؤيده أيضا احتفاهه بالضمائر الراجعه الى عيسى عليه السلام.

□ و قوله: «أَلَّا تَحْزَنِي» تسليه لها لما أصابها من الحزن و الغم الشديد فإنه لا مصيبه هى أمر و أشق على المرأه الزاهده المتنسكه و خاصه إذا كانت عذراء بتولا من أن تتهم فى عرضها و خاصه إذا كانت من بيت معروف بالعفه و النزاهه فى حاضر حاله و سابق عهد و خاصه إذا

كانت تهمه لا سبيل لها الى الدفاع عن نفسها و كانت الحجّه للخصم عليها، و لذا أشار أن لا تتكلم مع أحد و تكفل هو الدفاع عنها و تلك حجه لا يدفعها دافع.

و قوله: قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سِرِّيًّا السرى جدول الماء، و السرى هو الشريف الرفيع، و المعنى الأول هو الأنسب للسياق، و هو القرينه عليه قوله بعد: «فَكَلِي وَ اشْرَبِي» كما لا يخفى.

و قوله: وَ هُزِّي إِلَيْكَ بِجَذَعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا الهز هو التحريك الشديد، و نقل عن الفراء أن العرب تقول: هزّه و هزّ به، و المساقطه هى الإسقاط، و ضمير «تُسَاقِطُ» للنخله، و نسبه الهز الى الجذع و المساقطه الى النخله لا تخلو من إشعار بأن النخله كانت يابسه و إنما اخضرت و أورقت و أثمرت رطبا جنيًا لساعتها، و الرطب هو نضيج البسر، و الجنى هو المجنى و ذكر فى القاموس-على ما نقل- أن الجنى إنما يقال لما جنى من ساعته.

قوله تعالى: فَكَلِي وَ اشْرَبِي وَ قَرِي عَيْنًا قرار العين كناية عن المسره يقال: أقرّ الله عليك أى سرّك، و المعنى: فكلى من الرطب الجنى الذى تسقط و اشربى من السرى الذى تحتك و كونى على مسره من غير أن تحزنى، و التمتع بالأكل و الشرب من أمارات السرور و الابتهاج فإن المصاب فى شغل من التمتع بلذيذ الطعام و مرىء الشراب و مصييته شاغله، و المعنى: فكلى من الرطب الجنى و اشربى من السرى و كونى على مسره-مما حباك الله به-من غير أن تحزنى، و أما ما تخافين من تهمه الناس و مساءلتهم فالزمى السكوت و لا تكلمى أحدا فأنا أكفيكمهم.

قوله تعالى: فَإِذَا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا المراد بالصوم الصمت كما يدلّ عليه التفريع الذى فى قوله:

«فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا» و كذا يستفاد من السياق أنه كان أمرا مسنونا فى ذلك الوقت و لذاك

أرسل عذرا إرسال المسلم، والإنسى منسوب الى الإنس مقابل الجن و المراد به الفرد من الإنسان.

وقوله: **فَأَمَّا تَرِينٌ** ما زائده و الأصل إن ترى بشرا فقولى، الخ؛ و المعنى: إن ترى بشرا و كلمك أو سألك عن شأن الولد فقولى، الخ؛ و المراد بالقول التفهيم بالإشارة فربما يسمى التفهيم بالإشارة قولاً، و عن الفراء أن العرب تسمى كل ما وصل الى الإنسان كلاماً بأى طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر فإذا أكد لم يكن إلا حقيقه الكلام.

و ليس ببعيد أن يستفاد من قوله: «**فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا**» بمعونه السياق أنه أمرها أن تنوى الصوم لوقتها و تنذره لله على نفسها فلا يكون إخباراً بما لا حقيقه له.

وقوله: «**فَأَمَّا تَرِينٌ**» الخ، على أى حال متفرع على قوله: «**وَقَرَى عَيْنًا**» و المراد لا تكلمى بشراً و لا تجيبى أحداً سألك عن شأنى بل ردى الأمر الى فأنا أكفيك جواب سؤالهم و أدافع خصامهم.

قوله تعالى: **فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا الضميران فى «بِهِ» و «تَحْمِلُهُ»** ليعسى، و الاستفهام إنكارى حملهم عليه ما شاهدوه من عجيب أمرها مع ما لها من سابقه الزهد و الاحتجاب و كانت ابنه عمران و من آل هارون القديس، و الفرى هو العظيم البديع و قيل: هو من الافتراء بمعنى الكذب كناية عن القبيح المنكر و الآيه التالیه تؤيد المعنى الأول، و معنى الآيه واضح.

قوله تعالى: **يَا أُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا** ذكر فى المجمع أن فى المراد من هارون أربعة أقوال: أحدها: أنه كان رجلاً صالحاً من بنى إسرائيل ينسب اليه كل صالح، و على هذا فالمراد بالآخوه الشباهه و معنى «**يَا أُخْتُ هَارُونَ**» يا شبيهه هارون، و الثانى: أنه كان أخاها لأبيها لا من امها، و الثالث: أن المراد به هارون أخو موسى الكليم و على هذا فالمراد بالآخوه الانتساب كما يقال: أخو تميم، و الرابع: أنه كان رجلاً

معروفا بالعهر و الفساد انتهى ملخصا و البغى الزانية، و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا إشارتها إليها إرجاع لهم اليه حتى يجيبهم و يكشف لهم عن حقيقته الأمر، و هو جرى منها على ما أمرها به حينما ولد بقوله: «فَأَمَّا تَرِينٌ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا» على ما تقدم البحث عنه.

و المهد السرير الذى يهيا للصبي فيوضع فيه و ينوم عليه، و قيل: المراد بالمهد فى الآية حجر أمه، و قيل المرباه أى المرجحه، و قيل المكان الذى استقر عليه كل ذلك لأنها لم تكن هيأت له مهدها، و الحق أن الآية ظاهره فى ذلك و لا دليل على أنها لم تكن هيأت وقتئذ له مهدها فلعل الناس هجموا عليها و كلموها بعد ما رجعت الى بيتها و استقرت فيه و هيأت له مهدها أو مرجحه و تسمى أيضا مهدها.

قوله تعالى: قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا شروع منه عليه السلام فى الجواب و لم يتعرض لمشكله الولاده التى كانوا يكرّون بها على مريم عليها السلام لأن نطقه على صباه و هو آيه معجزه و ما أخبر به من الحقيقه لا يدع ريبا لمرتاب فى أمره على أنه سلم فى آخر كلامه على نفسه فشهد بذلك على نزاهته و أمته من كل قذاره و خباثه و من نزاهته طهاره مولده.

و قد بدأ بقوله: «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ» اعترافا بالعبوديه لله ليبطل به غلّو الغالين و تتمّ الحجه عليهم، كما ختمه بمثل ذلك إذ يقول «وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ» .

و فى قوله: «آتَانِيَ الْكِتَابَ» إخبار بإعطاء الكتاب و الظاهر أنه الإنجيل و فى قوله:

«وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا» إعلام بنبوته، و قد تقدم فى مباحث النبوه فى الجزء الثانى من الكتاب الفرق بين النبوه و الرساله، فقد كان يومئذ نبيا فحسب ثم اختاره الله للرساله، و ظاهر الكلام أنه كان أوتى الكتاب و النبوه لا أن ذلك إخبار بما سيقع.

قوله تعالى: وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا كونه عليه السلام مباركا أينما كان هو كونه محلا لكل بركة و البركه نماء الخير كان نفاعا للناس يعلمهم العلم النافع و يدعوهم الى العمل الصالح و يرئهم تربيته زاكيه و يبرئ الأكمه و الأبرص و يصلح القوى و يعين الضعيف.

و قوله: «وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ» الخ؛ إشاره الى تشريع الصلاه و الزكاه فى شريعته، و الصلاه هى التوجه العبادى الخاص الى الله سبحانه و الزكاه الإنفاق المالى و هذا هو الذى استقرّ عليه عرف القرآن كلما ذكر الصلاه و الزكاه و قارن بينهما و ذلك فى نيف و عشرين موضعا فلا يعتدّ بقول من قال: إن المراد بالزكاه تزكيه النفس و تطهيرها دون الإنفاق المالى.

قوله تعالى: وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا أى جعلنى حنينا رءوفا بالناس و من ذلك أنى برّ بوالدتي و لست جبارا شقيا بالنسبه الى سائر الناس، و الجبار هو الذى يحمل الناس و لا يتحمل منهم، و نقل عن ابن عطاء أن الجبار الذى لا ينصح و الشقى الذى لا ينتصح.

قوله تعالى: وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أُمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا تسليم منه على نفسه فى المواطن الثلاثه الكليه التى تستقبله فى كونه و وجوده، و قد تقدم توضيحه فى آخر قصه يحيى المتقدمه.

نعم بين التسليمتين فرق، فالسلام فى قصه يحيى نكره يدلّ على النوع، و فى هذه القصه محلى بلام الجنس يفيد بإطلاقه الاستغراق، و فرق آخر و هو أن المسلم على يحيى هو الله سبحانه و على عيسى هو نفسه.

قوله تعالى: ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ الظاهر أن هذه الآيه و التى تليها معترضتان، و الآيه الثالثه «وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ» من تمام قول عيسى عليه السلام.

وقوله: «ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» الإشارة فيه الى مجموع ما قصّ من أمره و شرح من وصفه أى ذلك الذى ذكرنا كيفيه ولادته و ما وصفه هو للناس من عبوديته و إيتائه الكتاب و جعله نبيا هو عيسى بن مريم.

وقوله: «قَوْلَ الْحَقِّ» منصوب بمقدّر أى أقول قول الحق، وقوله: «الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ» أى يشكّون أو يتنازعون، وصف لعيسى، والمعنى: ذلك عيسى بن مريم الذى يشكّون أو يتنازعون فيه.

قوله تعالى: «مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ نَفَىٰ وَإِبْطَالٌ لِمَا قَالَتْ بِهِ النَّصَارَىٰ مِنْ بَنَوِّهِ الْمَسِيحِ، وَقَوْلُهُ: «إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ» حجة اقيمت على ذلك، وقد عبر بلفظ القضاء للدلالة على ملاك الاستحالة.

و ذلك أن الولد إنما يراد للاستعانة به فى الحوائج، والله سبحانه غنى عن ذلك لا تتخلف مراد عن إرادته إذ قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون.

و أيضا الولد هو أجزاء من وجود الوالد يعزلها ثم يربيه بالتدرج حتى يصير فردا مثله، والله سبحانه غنى عن التوسل فى فعله الى التدرج ولا مثل له بل ما أراده كان كما أراده من غير مهله و تدرج من غير أن يماثله، وقد تقدم نظير هذا المعنى فى تفسير قوله: «وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ الْآيَةَ (البقره ١١٦) فى الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: «وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ» وَهُوَ مِنْ قَوْلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ وَقُوعُ الْآيَةِ بِعَيْنِهَا فِي الْمَحَكِّيِّ مِنْ دَعْوَتِهِ قَوْمَهُ فِي قِصَّتِهِ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، وَنَظِيرُهُ فِي سُورَةِ الزَّخْرَفِ حَيْثُ قَالَ:

«إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاسْتَخْلَفَ الْمَأْخِزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ (الزخرف ٦٥).

قوله تعالى: فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ الأ-حزاب جمع حزب و هو الجمع المنقطع فى رأيه عن غيره فاختلف الأحزاب هو قول كل منهم فيه عليه السلام خلاف ما يقوله الآخرون، وإنما قال: «مِنْ بَيْنِهِمْ» لأن فيهم من ثبت على الحق، وربما قيل «مِنْ» زائده و الأصل اختلف الأحزاب بينهم، و هو كما ترى.

قوله تعالى: أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ أى ما أسمعهم و أبصرهم بالحق يوم يأتونا و يرجعون إلينا و هو يوم القيامة فيتبين لهم وجه الحق فيما اختلفوا فيه كما حكى اعترافهم به فى قوله: رَبَّنَا أَبْصِرْنَا وَ سَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (الم السجده ١٢/).

و أما الاستدراك الذى فى قوله: «لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» فهو لدفع توهم أنهم إذا سمعوا و أبصروا يوم القيامة و انكشف لهم الحق سيهتدون فيسعدون بحصول المعرفة و اليقين فاستدرك أنهم لا- ينتفعون بذلك و لا يهتدون بل الظالمون اليوم فى ضلال مبين لظلمهم.

و ذلك أن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل فلا يواجهون اليوم إلا ما قدموه من العمل و أثره و ما اكتسبوه فى أمسهم ليومهم و أما أن يستأنفوا يوم القيامة عملا- يتوقعون جزاءه غدا فليس لليوم غدا، و بعبارة أخرى هؤلاء رسخت فيهم ملكة الضلال فى الدنيا و انقطعوا عن موطن الاختيار بحلول الموت فليس لهم إلا أن يعيشوا مضطرين على ما هيئوا لأنفسهم من الضلال لا معدل عنه فلا ينفعهم انكشاف الحق و ظهور الحقيقة.

قوله تعالى: وَ أَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَ هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ظاهر السياق أن قوله: «إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ» بيان لقوله: «يَوْمَ الْحَسْرَةِ» ففيه إشارة الى أن الحسرة إنما تأتئهم من ناحيه قضاء الأمر و القضاء إنما يوجب الحسرة إذا كان بحيث

يفوت به عن المقضى عليه ما فيه قره عينه و أمنيه نفسه و مَخَّ سعادته الذى كان يقدر حصوله لنفسه و لا يرى طيبا للعيش دونه لتعلق قلبه به و تولهه فيه، و معلوم أن الإنسان لا يرضى لفوت ما هذا شأنه و إن احتمل فى سبيل حفظه أى مكروه إلا أن يصرفه عنه الغفله فيفترط فى جنبه و لذلك عقب الكلام بقوله: «وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» .

فالمعنى -و الله أعلم- و خوفهم يوما يقضى فيه الأمر فيتحتم عليهم الهلاك الدائم فينقطعون عن سعادتهم الخالده التى فيها قره أعينهم فيتحسرون عليها حسره لا تقدر بقدر إذ غفلوا فى الدنيا فلم يسلكوا الصراط الذى يهديهم و يوصلهم إليها بالاستقامه و هو الإيمان بالله وحده و تنزيهه عن الولد و الشريك.

و فيما قدمناه كفايه عن تفاريق الوجوه التى أوردوها فى تفسير الآيه و الله الهادى.

قوله تعالى: إِذَا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْهَا وَ إِنَّا لَنُزْجِعُونَ قَالَ الراغب فى المفردات: الوراثة و الإرث انتقال قنيه اليك عن غيرك من غير عقد و لا ما يجرى العقد و سُمى بذلك لمنتقل عن الميت -الى أن قال- و يقال: ورثت مالا عن زيد و ورثت زيدا. انتهى.

و الآيه -كأنها- تثبت و نوع تقريب لقوله فى الآيه السابقه: «قُضِيَ الْأَمْرُ» فالمعنى و هذا القضاء سهل يسير علينا فإننا نرث الأرض و إياهم و الينا يرجعون و وراثه الأرض أنهم يتركونها بالموت فيبقى لله تعالى و وراثه من عليها أنهم يموتون فيبقى ما بأيديهم لله سبحانه، و على هذا فالجملتان «نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْهَا» فى معنى جملة واحده «نرث عنهم الأرض».

و يمكن أن نحمل الآيه على معنى أدق من ذلك و هو أن يراد أن الله سبحانه هو الباقي بعد فناء كل شىء فهو الباقي بعد فناء الأرض يملك عنها ما كانت تملكه من الوجود و آثار الوجود و هو الباقي بعد فناء الإنسان يملك ما كان يملكه كما قصر الملك لنفسه فى قوله: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ

لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (المؤمن ١٦)، و قوله: وَ نَرِيهِ مَا يَقُولُ وَ يَأْتِينَا فَوْدًا (مريم ٨٤).

و يرجع معنى هذه الوراثه الى رجوع الكل و حشرهم اليه تعالى فيكون قوله: «وَ إِذِذَا يُرْجَعُونَ» عطف تفسير و بمنزله التعليل للجمله الثانيه أو لمجموع الجملتين بتغليب أولى العقل على غيرهم او لبروز كل شىء يومئذ أحياء عقلاء.

و هذا الوجه أسلم من شبهه التكرار اللازم للوجه الأول فإن الكلام عليه نظير أن يقال:

ورثت مال زيد و زيدا.

و اختتام الكلام على قصه عيسى عليه السلام بهذه الآيه لا يخلو عن مناسبه فإن وراثته تعالى من الحجج على نفى الولد فإن الولد إنما يراد ليكون وارثا لوالده فالذى يرث كل شىء فى غنى عن الولد (١).

[سوره مريم (١٩): الآيات ٤١ الى ٥٠]

إشارة

وَ أذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَ لَا يُبْصِرُ وَ لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ لِمَ أَرْجُمَنَّكَ وَ أَهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَ أَعْتَرَلَكُمْ وَ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ أَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ هَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ كَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَ وَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَ جَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)

ص: ١١٢

١-١). مريم ١٦-٤٠: بحث روائى حول قصه مريم و ولاده عيسى عليه السلام؛ الجنة و النار.

قوله تعالى: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ اِبْرَاهِيمَ اِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا الظاهر أن الصّدِّيق اسم مبالغه من الصدق فهو الذى يبالغ فى الصدق فيقول ما يفعل و يفعل ما يقول لا مناقضه بين قوله و فعله، و كذلك كان إبراهيم عليه السّلام قال بالتوحيد فى عالم وثنى و هو وحده فحاجّ أباه و قومه و قاوم ملك بابل و كسر الآلهه و ثبت على ما قال حتى ألقى فى النار ثم اعتزلهم و ما يعبدون كما وعد أباه أول يوم فوهب الله له إسحاق و يعقوب الى آخر ما عدّه تعالى من مواهبه.

و النبى على وزن فعيل مأخوذ من النبأ سمى به النبى لأنه عنده نبأ الغيب بوحي من الله، و قيل: هو مأخوذ من النبوه بمعنى الرفعه سمي به لرفعه قدره.

قوله تعالى: اذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ظرف لإبراهيم حيث إن المراد بذكره و ذكر نبائه و قصته كما تقدم نظيره فى

قوله: «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ» و أما قول من قال بكونه ظرفاً لقوله: «صِدِّيقًا» أو قوله:

«نَبِيًّا» فهو تكلف يستبشعه الطبع السليم.

و قد نبه إبراهيم أباه فيما ألقى اليه من الخطاب أولاً ان طريقه الذى يسلكه بعباده الأصنام لغو باطل، و ثانياً أن له من العلم ما ليس عنده فليتبعه ليهديه الى طريق الحق لأنه على خطر من ولايه الشيطان.

فقوله: «يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ» الخ؛ إنكار توبيخى لعبادته الأصنام و قد عدل من ذكر الأصنام الى ذكر أوصافها «مَا لَا يَسْمَعُ» الخ؛ ليشير الى الدليل فى ضمن إلقاء المدلول و يعطى الحجة فى طىّ المدعى و هو أن عباده الأصنام لغو باطل من وجهين: أحدهما أن العبادة إظهار الخضوع و تمثيل التذلل من العابد للمعبود فلا يستقيم إلا مع علم المعبود بذلك، و الأصنام جمادات مصوّره فاقده للشعور لا تسمع و لا تبصر فعبادتها لغو لا أثر لها، و هذا هو الذى أشار اليه بقوله: «لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ» .

و ثانيهما: أن العبادة و الدعاء و رفع الحاجه الى شىء إنما ذلك ليحلب للعابد نفعاً أو يدفع عنه ضرراً فيتوقف و لا محاله على قدره فى المعبود على ذلك، و الأصنام لا قدره لها على شىء فلا تغنى عن عابدها شيئاً بحلب نفع أو دفع ضرر فعبادتها لغو لا أثر لها، و هذا هو الذى أشار اليه بقوله: «وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا» .

و قد تقدم فى تفسير سورة الأنعام أن هذا الذى كان يخاطبه إبراهيم عليه السلام بقوله: «يَا أَبَتِ» لم يكن والده و إنما كان عمه أو جده لأمه أو زوج أمه بعد وفاه والده فراجع.

و المعروف من مذهب النحاه فى لفظ «يَا أَبَتِ» أن التاء عوض من ياء المتكلم و مثله «يا أمّت» و يختص التعويض بالنداء فلا يقال مثلاً قال أبت و قالت أمّت.

قوله تعالى: «يَا أَبَتِ إِنَّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنى أهدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا لِمَا بَيْنَ لَه بَطْلَانِ عِبَادَتِهِ لِلْأَصْنَامِ وَ لَغْوَيْتَهَا وَ كَانَ لَازِمَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ سَالِكُ طَرِيقِ

غير سوى عن جهل نبيه أن له علما بهذا الشأن ليس عنده و عليه أن يتبعه حتى يهديه الى صراط-و هو الطريق الذى لا يضل
سالكه لوضوحه-سوى هو فى غفله من أمره،ولذا نكره إذ قال: «أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا» و لم يقل:أهدك الصراط سوى كأنه
يقول:إذ كنت تسلك صراطا و لا محاله من سلوكه فلا تسلك هذا الصراط غير سوى بجهاله بل اتبعنى أهدك صراطا سويا
فإنى لذو علم بهذا الشأن.

و فى قوله: «قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ» دليل على أنه أوتى بالحق قبل دعوته و حاجته هذه و فيه تصديق ما قدمناه فى قصته عليه
السلام من سورة الأنعام أنه أوتى العلم بالله و مشاهده ملكوت السماوات و الارض قبل أن يلقى أباه و قومه و يحاجهم.

و المراد بالهدايه فى قوله: «أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا» الهدايه بمعنى إراءه الطريق دون الإيصال الى المطلوب فإنه شأن الإمام و لم
يجعل إماما بعد،و قد فصلنا القول فى هذا المعنى فى تفسير قوله تعالى: قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا (البقره ١٣٤).

قوله تعالى: يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا الى آخر الآيتين؛الوثنيون يرون وجود الجن-و إبليس من
الجن-و يعبدون أصنامهم كما يعبدون أصنام الملائكة و القديسين من البشر،غير أنه ليس المراد بالنهى النهى عن العباده بهذا
المعنى إذ لا- موجب لتخصيص الجن من بين معبوديهم بالنهى عن عبادتهم بل المراد بالعباده الطاعه كما فى قوله تعالى: أَلَمْ
أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ الْآيَه (يس ٦٠)،فالنهى عن عباده الشيطان نهى عن طاعته فيما يأمر به و مما يأمر به
عباده غير الله.

لما دعاه الى اتباعه ليهديه الى صراط سوى أراد أن يحرضه على الاتباع بقلعه عما هو عليه فنبهه على أن عباده الاصنام ليست
مجرد لغو لا يضر و لا ينفع بل هى فى معرض أن تورث صاحبها مورد الهلاك و تدخله تحت ولايه الشيطان التى لا مطمع بعدها
فى صلاح و فلاح و لا

و ذلك أن عبادتها-و المستحق للعباده هو الله سبحانه لكونه رحمانا تنتهى اليه كل رحمته- و التقرب إليها إنما هي من الشيطان و تسويله، و الشيطان عصي للرحمن لا يأمر بشيء فيه رضاه و إنما يوسوس بما فيه معصيته المؤديه الى عذابه و سخطه و العكوف على معصيته و خاصه فى أخص حقوقه و هي عبادته وحده، فيه مخافه أن ينقطع عن العاصي رحمته و هي الهدايه الى السعاده و ينزل عليه عذاب الخذلان فلا يتولى الله أمره فيكون الشيطان هو مولاه و هو ولي الشيطان و هو الهلاك.

فمعنى الآيتين-و الله أعلم-يا أبت لا تطع الشيطان فيما يأمرك به من عباده الأصنام لأن الشيطان عصي مقيم على معصيه الله الذى هو مصدر كل رحمته و نعمه فهو لا- يأمر إلا- بما فيه معصيته و الحرمان عن رحمته، و إنما أنهاك عن معصيته فى طاعه الشيطان لأنى أخاف يا أبت أن يأخذك شىء من عذاب خذلانه و ينقطع عنك رحمته فلا يبقى لتولى أمرك إلا الشيطان فتكون وليا للشيطان و الشيطان مولاك.

قوله تعالى: قَالَ أَ رَأَيْتَ أَ رَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ لَأَرْجُمَنَّكَ وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا الرَّغْبَةُ عَنِ الشَّيْءِ نَقِيضُ الرَّغْبَةِ فِيهِ كَمَا فِي الْمَجْمَعِ، وَ الْإِنْتِهَاءُ: الْكَفُّ عَنِ الْفِعْلِ بَعْدَ النَّهْيِ، وَ الرَّجْمُ: الرَّمْيُ بِالْحِجَارِ، وَ الْمَعْرُوفُ مِنْ مَعْنَاهِ الْقَتْلُ بِرَمْيِ الْحِجَارِ، وَ الْهَجْرُ هُوَ التَّرِكُ وَ الْمَفَارِقَةُ، وَ الْمَلِيًّا: الدَّهْرُ الطَّوِيلُ.

و فى الآية تهديد لإبراهيم بأخزى القتل و أذله و هو الرجم الذى يقتل به المطرودون، و فيها طرد آزر لإبراهيم عن نفسه.

قوله تعالى: قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا الْحَفِيُّ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الرَّاعِبُ: الْبَرُّ اللَّطِيفُ وَ هُوَ الَّذِي يَتَّبِعُ دَقَائِقَ الْحَوَائِجِ فَيُحَسِّنُ وَ يَرْفَعُهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، يُقَالُ: حَفَا يَحْفُو حَفْوً وَ حَفْوَهُ، وَ إِحْفَاءُ السُّؤَالِ وَ الْإِحْفَاءُ فِيهِ: الْإِلْحَاحُ

قابل إبراهيم عليه السلام أباه فيما أساء اليه و هدّده و فيه سلب الأمن عنه من قبله بالسلام الذي فيه إحسان و إعطاء أمن، و وعده أن يستغفر له ربه و أن يعتزلهم و ما يدعون من دون الله كما أمره أن يهجره ملياً.

أما السلام فهو من دأب الكرام قابل به جهاله أبيه إذ هدّده بالرجم و طرده لكلمه حق قالها، قال تعالى: **وَ إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا** (الفرقان ٧٢)، و قال: **وَ إِذَا حَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا** (الفرقان ٦٣)، و أما ما قيل: إنه كان سلام توديع و تحية مفارقه و هجره امتثالاً لقوله: «اهْجُرْنِي مَلِيًّا» ففيه أنه اعتزله و قومه بعد مده غير قصيره.

و أما استغفاره لأبيه و هو مشرك فظاهر قوله: **يَا أَبَتِ إِنَّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا** أنه عليه السلام لم يكن وقتئذ قاطعاً بكونه من أولياء الشيطان أي مطبوعاً على قلبه بالشرك جاحداً معانداً للحق عدواً لله سبحانه و لو كان قاطعاً لم يعبر بمثل قوله: «إِنِّي أَخَافُ» بل كان يحتمل أن يكون جاهلاً مستضعفاً لو ظهر له الحق اتبعه، و من الممكن أن تشمل الرحمة الإلهية لأمثال هؤلاء قال تعالى: **إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَشَاءُ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَهُ وَ لَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُوَ عَنْهُمْ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا** (النساء ٩٩)، فاستعطفه عليه السلام بوعده الاستغفار و لم يحتم له المغفرة بل أظهر الرجاء بدليل قوله: «إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا» و قوله تعالى: **إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَ مَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ** (المتحنه ٤).

و يؤيد ما ذكر قوله تعالى: **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**، و ما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن مواعده و وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم (التوبة /)، فتبرّيه بعد تبين عداوته دليل على أنه كان قبل ذلك عند المواعده يرجو أن يكون غير

عدو لله مع كونه مشركا، وليس ذلك إلا الجاهل غير المعاند.

ويؤيد هذا النظر قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ -التي أن قال- لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ الخ (الممتحنة/٨).

قوله تعالى: وَاعْتَرَلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِمَدْعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا وعد باعتزالهم و الابتعاد منهم و من أصنامهم ليخلو بربه و يخلص الدعاء له رجاء أن لا يكون بسبب دعائه شقيا و إنما أخذ بالرجاء لأن هذه الأسباب من الدعاء و التوجه الى الله و نحوه ليست بأسباب موجبه عليه تعالى شيئا بل الإثابه و الإسعاد و نحوه بمجرد التفضل منه تعالى. على أن الامور بخواتمها لا يعلم الغيب إلا الله فعلى المؤمن أن يسير بين الخوف و الرجاء.

قوله تعالى: فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا الى آخر الآيتين. لعل الاقتصار على ذكر إسحاق لتعلق الغرض بذكر توالى النبوه فى الشجره الإسرائيليه و لذلك عقب إسحاق بذكر يعقوب فإن فى نسله جما غفيرا من الأنبياء، و يؤيد ذلك أيضا قوله: «وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا» .

و قوله: وَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا من الممكن أن يكون المراد به الإمامه كما وقع فى قوله:

وَ هَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا (الأنبياء ٧٣)، أو التأييد بروح القدس كما يشير اليه قوله: وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ الْآيَةِ (الأنبياء ٧٣) على ما سيجىء من معناه أو مطلق الولاية الإلهيه.

و قوله: وَ جَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا اللسان -على ما ذكروا- هو الذكر بين الناس بالمدح أو الذم و إذا أضيف الى الصديق فهو الثناء الجميل الذى لا كذب فيه، و العلى هو الرفيع و المعنى و جعلنا لهم ثاء جميلا صادقا رفيع القدر.

اشاره

وَ اذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَ نَادَيْتَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْاَيْمَنِ وَ قَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَ وَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا اَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَ اذْكَرُ فِي الْكِتَابِ اِسْمَاعِيْلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَ كَانَ يَأْمُرُ اَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ وَ كَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) وَ اذْكَرُ فِي الْكِتَابِ اِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَ رَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧)

بيان:

قوله تعالى: وَ اذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا قد تقدم معنى المخلص بفتح اللام و أنه الذي أخلصه الله لنفسه فلا- نصيب لغيره تعالى فيه لا- في نفسه و لا- في عمله، و هو أعلى مقامات العبودية. و تقدم أيضا الفرق بين الرسول و النبي.

قوله تعالى: وَ نَادَيْتَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْاَيْمَنِ وَ قَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا الْاَيْمَنِ: صفة لجانب أى الجانب الأيمن من الطور، و فى المجمع: النجى بمعنى المناجى كالجلس و الضجيع.

و ظاهر أن تربيته عليه السلام كان تقريبا معنويا و إن كانت هذه الموهبة الإلهية فى مكان و هو الطور ففيه كان التكليم، و مثاله من الحسن أن ينادى السيد العزيز عبده الذليل فيقرّبه من

مجلسه حتى يجعله نجياً ينجيه ففيه نيل ما لا سبيل لغيره اليه.

قوله تعالى: وَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا إِشَارَةً إِلَى إِجَابَةِ مَا دَعَا بِهِ مُوسَى عِنْدَ مَا أَوْحَى إِلَيْهِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي الطُّورِ إِذْ قَالَ: وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي أَشُدُّ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي (طه ٣٢).

قوله تعالى: وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ اختلفوا في «إِسْمَاعِيلَ» هذا فقال الجمهور هو إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن، وإنما ذكر وحده ولم يذكر مع إسحاق ويعقوب اعتناء بشأنه، وقيل: هو غيره، وهو إسماعيل بن حزقيل من أنبياء بني إسرائيل، ولو كان هو ابن إبراهيم لذكر مع إسحاق ويعقوب.

و يضعف ما وجه به قول الجمهور: إنه استقلّ بالذكر اعتناء بشأنه، أنه لو كان كذلك لكان الأنسب ذكره بعد إبراهيم وقبل موسى عليهم السلام لا بعد موسى.

قوله تعالى: وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا المراد بأهله خاصته من عترته وعشيرته وقومه كما هو ظاهر اللفظ، وقيل: المراد بأهله أمته وهو قول بلا دليل.

و المراد بكونه عند ربه مرضياً كون نفسه مرضياً دون عمله كما ربما فسره به بعضهم فإن إطلاق اللفظ لا يلائم تقييد الرضا بالعمل.

قوله تعالى: وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إلى آخر الآيتين؛ قالوا: إن إدريس النبي كان اسمه أخنوخ وهو من أجداد نوح عليهما السلام على ما ذكر في سفر التكوين من التوراه، وإنما اشتهر بإدريس لكثرة اشتغاله بالدرس.

وقوله: وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا من الممكن أن يستفاد من سياق القصص المسروده في السوره وهى تعدّ مواهب النبوه والولاية وهى مقامات إلهيه معنويه أن المراد بالمكان العلى الذى رفع اليه درجه من درجات القرب إذ لا- مزيه فى الارتفاع المادى و الصعود الى أقاصى

اشاره

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣)

ص: ١٢١

١-١. مريم ٥١-٥٧: قصه اسماعيل صادق الوعد.

٢-٢. مريم ٥١-٥٧: قصه ادريس النبي عليه السلام.

قوله تعالى: **أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ الْخ:** الإشارة بقوله:

«**أُولَئِكَ**» الى المذكورين قبل الآية في السورة وهم زكريا ويحيى ومريم وعيسى وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى و هارون وإسماعيل وإدريس عليهم السلام.

وقوله: «**مِنَ النَّبِيِّينَ**» من فيه للتبعيض و عديله قوله الآتى: «**وَمِمَّنْ هَدَيْتَنَا وَاجْتَبَيْتَنَا**» على ما سيأتى توضيحه. وقد جوز المفسرون كون «**مِنَ**» بيانية و أنت خير بأن ذلك لا يلائم كون «**أُولَئِكَ**» مشير الى المذكورين من قبل، لأن النبيين أعم، اللهم إلا أن يكون إشاره اليهم بما هم أمثله لأهل السعادة و يكون المعنى أولئك المذكورون و أمثالهم الذين أنعم الله عليهم هم النبيون و من هدينا و اجتبينا.

وقوله: **مِنَ ذُرِّيَّةِ آدَمَ** فى معنى الصفه للنبيين و من فيه للتبعيض أى من النبيين الذين هم بعض ذرية آدم، و ليس بيانا للنبيين لاختلال المعنى بذلك.

وقوله: **وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ** معطوف على قوله: «**مِنَ ذُرِّيَّةِ آدَمَ**» و المراد بهم المحمولون فى سفينه نوح عليه السلام و ذريتهم و قد بارك الله عليهم، و هم من ذرية نوح لقوله تعالى:

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (الصافات ٧٧).

وقوله: **وَمِنَ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ** معطوف كسابقه على قوله: «**مِنَ النَّبِيِّينَ**» .

وقد قسم الله تعالى الذين أنعم عليهم من النبيين على هذه الطوائف الأربع أعنى ذرية آدم و من حملة مع نوح و ذرية إبراهيم و ذرية إسرائيل و قد كان ذكر كل سابق يغنى عن ذكر لاحقه لكون ذريته إسرائيل من ذرية إبراهيم و الجميع ممن حمل مع نوح و الجميع من ذرية آدم عليهم السلام.

وقوله: **وَمِمَّنْ هَدَيْتَنَا وَاجْتَبَيْتَنَا** معطوف على قوله: «**مِنَ النَّبِيِّينَ**» و هؤلاء غير

النبيين من الذين أنعم الله عليهم فإن هذه النعمة غير خاصه بالنبيين ولا منحصره فيهم بدليل قوله تعالى: وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (النساء ٦٩) وقد ذكر الله سبحانه بين من قص قصته مريم عليها السلام معتنيا بها إذ قال: «وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ» وليست من النبيين فالمراد بقوله: «وَ مِمَّنْ هَدَيْتَنَا وَاجْتَبَيْنَاهَا» غير النبيين من الصديقين والشهداء والصالحين لا- محاله، وكانت مريم من الصديقين لقوله تعالى: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ (المائدة ٧٥).

وقوله: إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا السجد جمع ساجد و البكى على فعول جمع باكى و الجملة خبر للذين فى صدر الآية و يحتمل أن يكون الخرور سجدا و بكيا كناية عن كمال الخضوع و الخشوع فإن السجده ممثل لكمال الخضوع و البكاء لكمال الخشوع و الأنسب على هذا أن يكون المراد بالآيات و تلاوتها ذكر مطلق ما يحكى شأننا من شئونه تعالى.

و أما قول القائل إن المراد بتلاوه الآيات قراءه الكتب السماويه مطلقا أو خصوصا ما يشتمل على عذاب الكفار و المجرمين، أو أن المراد بالسجود الصلاة أو سجده التلاوه أو أن المراد بالبكاء البكاء عند استماع الآيات أو تلاوتها فكما ترى.

فمعنى الآية-و الله أعلم-أولئك المنعم عليهم الذين بعضهم من النبيين من ذريه آدم و ممن حملنا مع نوح و من ذريه إبراهيم و إسرائيل و بعضهم من أهل الهدايه و الاجتباء خاضعون للرحمن خاشعون إذا ذكر عندهم و تليت آياته عليهم.

و لم يقل: كانوا إذا تلى عليهم، الخ؛ لأن العناية فى المقام متعلقه ببيان حال النوع من غير نظر الى ماضى الزمان و مستقبه بل بتقسيمه الى سلف صالح و خلف طالح و ثالث تاب و آمن و عمل صالحا و هو ظاهر.

قوله تعالى: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا قَالُوا: الخلف بسكون اللام البدل السيئ و يفتح اللام ضده وربما يعكس على ندره، و ضياع الشيء فساده أو افتقاده بسبب ما كان ينبغي أن يتسلط عليه يقال: أضاع المال إذا أفسده بسوء تدبيره أو أخرجه من يده بصرفه فيما لا ينبغي صرفه فيه، و الغى خلاف الرشد و هو إصابه الواقع و هو قريب المعنى من الضلال خلاف الهدى و هو ركوب الطريق الموصل الى الغايه المقصوده.

فقوله: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ الخ؛ أى قام مقام اولئك الذين أنعم الله عليهم و كانت طريقتهم الخضوع و الخشوع لله تعالى بالتوجه اليه بالعباده قوم سوء أضاعوا ما أخذوا منهم من الصلاه و التوجه العبادى الى الله سبحانه بالتهاون فيه و الإعراض عنه، و اتبعوا الشهوات الصارفه لهم عن المجاهده فى الله و التوجه اليه.

و قوله: (فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) أى جزاء غيهم على ما قيل فهو كقوله: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا» .

و من الممكن أن يكون المراد به نفس الغى بفرض الغى غايه للطريق التى يسلكونها و هى طريق إضاعه الصلاه و اتباع الشهوات فإذا كانوا يسلكون طريقا غايتها الغى فسيلقونه إذا قطعوها إما بانكشاف غيهم لهم يوم القيامة حيث ينكشف لهم الحقائق أو برسوخ الغى فى قلوبهم و صيرورتهم من أولياء الشيطان كما قال: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (الحجر ٤٢/١)، و كيف كان فهو استعاره بالكنايه لطيفه.

قوله تعالى: إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا استثناء من الآيه السابقه فهؤلاء الراجعون الى الله سبحانه ملحقون باولئك الذين أنعم الله عليهم و هم معهم لا منهم كما قال تعالى: وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصُّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولَئِكَ

و قوله: «فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ» من وضع المسبب موضع السبب و الأصل فاولئكك يوفون أجرهم، و الدليل على ذلك قوله بعده: «وَلَا يُظَلَّمُونَ شَيْئًا» فإنه من لوازم توفيه الأجر لا من لوازم دخول الجنة.

قوله تعالى: جَنَاتٍ عِدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا العدن الإقامة ففي تسميتها به إشاره الى خلودها لداخلها، و الوعد بالغيب هو الوعد بما ليس تحت إدراك الموعود له، و كون الوعد مأتيا عدم تخلفه، قال في المجمع: و المفعول هنا بمعنى الفاعل لأن ما أتته فقد أتاك و ما أتاك فقد أتته يقال: أتيت خمسين سنة و أتت علي خمسون سنة، و قيل: إن الموعود الجنة و الجنة يأتيها المؤمنون انتهى.

قوله تعالى: لَا يَسِيْرُ مَعُونَ فِيهَا لَغَوًا إِلَّا سَلَامًا وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا عدم سمع اللغو من أخص صفات الجنة و قد ذكره الله سبحانه و امتنّ به في مواضع من كلامه و سنفصل القول فيه إن شاء الله في موضع يناسبه، و استثناء السلام منه استثناء منفصل، و السلام قريب المعنى من الأمن - و قد تقدم الفرق بينهما - فقولك: أنت منى فى أمن معناه لا منى ما يسوؤك، و قولك: سلام منى عليك معناه كل ما تلقاه منى لا - يسوؤك. و إنما يسمعون السلام من الملائكة و من رفقاءهم فى الجنة، قال تعالى حكاية عن الملائكة:

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ (الزمر ٧٣)، و قال: فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (الواقعه / ٩١).

و قوله: «وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا» الظاهر أن إتيان الرزق بكره و عشيا كناية عن تواليه من غير انقطاع.

قوله تعالى: تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا الإرث و الوراثه هو أن ينتقل مال أو ما يشبهه من شخص الى آخر بعد ترك الأول له بموت أو جلاء أو

نحوهما، و إذ كانت الجنه في معرض العطاء لكل إنسان بحسب الوعد الإلهي المشروط بالإيمان و العمل الصالح فاختصاص المتقين بها بعد حرمان غيرهم عنها بإضاعه الصلاه و اتباع الشهوات ورائته المتقين، و نظير هذه العناية ما في قوله تعالى: أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (الأنبياء ١٠٥)، و قوله: وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مَنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (الزمر ٧٤)، و الآية- كما ترى- جمعت بين الإيراث و الأجر.

[سوره مريم (١٩): الآيات ٦٤ الى ٦٥]

اشاره

وَمَا تَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)

بيان:

قوله تعالى: وَمَا تَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ إلى آخر الآية؛ التنزل هو النزول على مهل و تؤده فإن تنزل مطاوع نزل يقال: نزله فتنزل و النفى و الاستثناء يفيدان الحصر فلا- يتنزل الملائكه إلا- بأمر من الله كما قال: لا- يَعْبُودُونَ اللَّهَ إِلَّا بِأَمْرِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (التحریم / ٦٠).

و قوله: لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ يقال: كذا قدامه و أمامه و بين يديه و المعنى واحد غير أن قولنا: بين يديه إنما يطلق فيما كان بقرب منه و هو مشرف عليه له فيه نوع من التصرف و التسلط فظاهر قوله: «مَا بَيْنَ أَيْدِينَا» أن المراد به ما نشرف عليه مما

هو مكشوف علينا مشهود لنا: و ظاهر قوله: «وَمَا خَلَقْنَا» بالمقابل ما هو غائب عنا مستور علينا.

و على هذا فلو أريد بقوله: «مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَ مَا خَلْفَنَا وَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ» المكان شمل بعض المكان الذى أمامهم و المكان الذى هم فيه و جميع المكان الذى خلفهم و لم يشمل كل مكان، و كذا لو أريد به الزمان شمل الماضى كله و الحال و المستقبل القريب فقط و سياق قوله: «لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَ مَا خَلْفَنَا وَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ»، ينادى بالإحاطه و لا يلائم التبعض.

فالوجه حمل «مَا بَيْنَ أَيْدِينَا» على الأعمال و الآثار المتفرعه على وجودهم التى هم قائمون بها متسلطون عليها، و حمل «مَا خَلْفَنَا» على ما هو من أسباب وجودهم مما تقدمهم و تحقق قبلهم، و حمل «مَا بَيْنَ ذَلِكَ» على وجودهم أنفسهم و هو من أبداع التعبير و ألطفه و بذلك تتم الإحاطه الإلهيه بهم من كل جهه لرجوع المعنى الى أن الله تعالى هو المالك لوجودنا و ما يتعلق به وجودنا من قبل و من بعد.

قوله تعالى: رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا صدر الآيه أعنى قوله: «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا» تعليل لقوله فى الآيه السابقه: «لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَ مَا خَلْفَنَا» الى آخر الآيه؛ أى كيف لا يملك ما بين أيدينا و ما خلفنا و ما بين ذلك و كيف يكون نسيا و هو تعالى رب السماوات و الأرض و ما بينهما؟ و رب الشىء هو مالكه، المدبر لأمره، فملكه و عدم نسيانه مقتضى ربوبيته.

و قوله: «فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ» تفریع على صدر الآيه و المعنى إذا كنا لا نتنزل إلا بأمر ربك و قد نزلنا عليك هذا الكلام المتضمن للدعوه الى عبادته فالكلام كلامه و الدعوه دعوته فاعبده وحده و اصطرِبْ لعبادته فليس هناك من يسمّى ربا غير ربك حتى لا تصطرِبْ على عبادته ربك و تنتقل الى عبادته ذلك الغير الذى يسمّى ربا فتكتفى بعبادته عن عبادته ربك أو تشرك به و ربما قيل: إن الجملة تفریع على قوله: «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» أو على قوله:

«وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا» أى لم ينسك ربك فاعبده، الخ؛ والوجهان كما ترى.

[سوره مريم (١٩): الآيات ٦٦ الى ٧٢]

أشاره

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوْ لَا- يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَو رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أُمَّةً أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَأَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا- وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا (٧٢)

بيان:

قوله تعالى: وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا إنكار للبعث فى صورته الاستبعاد، وهو قول الكفار من الوثنيين و من يلحق بهم من منكرى الصانع بل مما يميل اليه طبع الانسان قبل الرجوع الى الدليل، قيل: ولذلك نسب القول الى الانسان حينما كان مقتضى طبع الكلام أن يقال: ويقول الكافر، أو: ويقول الذين كفروا، الخ؛ وفيه أنه لا يلائم قوله الآتى: «فَو رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ -الى قوله- صِلِيًّا» .

و ليس ببعيد أن يكون المراد بالانسان القائل ذلك هو الكافر المنكر للبعث و إنما عبّر بالانسان لكونه لا يترقب منه ذلك و قد جهّزه الله تعالى بالإدراك العقلى و هو يذكر أن الله خلقه من قبل و لم يك شيئا، فليس من البعيد أن يعيده ثانيا فاستبعاده مستبعد منه، و لذا كرّر

ص: ١٢٨

لفظ الانسان حيث أخذ في الجواب قائلاً: «أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئًا» أى إنه إنسان لا ينبغي له أن يستبعد وقوع ما شاهد وقوع مثله و هو غير ناسيه.

و لعل التعبير بالمضارع فى قوله: «وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ» للإشارة الى استمرار هذا الاستبعاد بين المنكرين للمعاد و المرتابين فيه.

قوله تعالى: أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئًا الاستفهام للتعجب و الاستبعاد و معنى الآية ظاهر و قد أخذ فيها برفع الاستبعاد بذكر وقوع المثل ليثبت به الإمكان، فالآية نظيره قوله تعالى فى موضع آخر: وَ ضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ -الى أن قال- أَوْ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ (يس ٨١).

قوله تعالى: فَو رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثًّا الْجِثِّي فى أصله على فعول جمع جاثى و هو البارك على ركبته، و نسب الى ابن عباس أنه جمع جثوه و هو المجتمع من التراب و الحجارة، و المراد أنهم يحضرون زمرا و جماعات متراكما بعضهم على بعض، و هذا المعنى أنسب للسياق.

و ضمير الجمع فى «لَنَحْشُرَنَّهُمْ» و «لَنُحْضِرَنَّهُمْ» للكفار، و الآية الى تمام ثلاث آيات متعرضه لحالهم يوم القيامة و هو ظاهر و ربما قيل: إن الضميرين للناس أعم من المؤمن و الكافر كما أن ضمير الخطاب فى قوله الآتى: «وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا» كذلك و فيه أن لحن الآيات الثلاث و هو لحن السخط و العذاب يأبى ذلك.

و المراد بقوله: «لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّيَاطِينَ» جمعهم خارج القبور مع أوليائهم من الشياطين لأنهم لعدم إيمانهم غاؤون كما قال: «فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا» و الشياطين أولياؤهم قال تعالى:

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا - مِنْ أَتْبَعِكَ مِنَ الْغَاوِينَ (الحجر ٤٢)، و قال: إِذَا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (الأعراف ٢٧)، أو المراد حشرهم مع قرنائهم

من الشياطين كما قال: وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ، وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (الزخرف ٣٩).

و المعنى: فاقسم بربك لنجمعنهم-يوم القيامة- أو ولياءهم أو قرنائهم من الشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم لإذاقه العذاب وهم باركون على ركبهم من الذله أو وهم جماعات و زمرة زمرة.

و فى قوله: «فَو رَبُّكَ» التفات من التكلم مع الغير الى لغيبه و لعل النكته فيه ما تقدم فى قوله: «بِأَمْرِ رَبِّكَ» و نظيره قوله الآتى: «كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا» .

قوله تعالى: ثُمَّ لَنْ نَزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أُمَّةً أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا النزع هو الاستخراج، و الشيعة الجماعة المتعاونون على أمر أو التابعون لعقيده و العتى على فعول مصدر بمعنى التمرد فى العصيان و الظاهر أن قوله: «أُمَّةً أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا» جملة استفهاميه وضع موضع مفعول لنتزعن للدلالة على العناية بالتعيين و التمييز فهو نظير قوله:

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ (الإسراء ٥٧).

و المعنى: ثم لنستخرجن من كل جماعة متشكلة أشدهم تمردا على الرحمن و هم الرؤساء و أئمة الضلال، و قيل المعنى لنستخرجن الأشد ثم الأشد حتى يحاط بهم.

و فى قوله: «عَلَى الرَّحْمَنِ» التفات و النكته تلويح أن تمردهم عظيم كونه تمردا على من شملت رحمته كل شىء و هم لم يلقوا منه إلا الرحمة و التمرد على من هذا شأنه عظيم.

قوله تعالى: ثُمَّ لَنْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِدْقًا لِيَا الصَّلَىٰ فى الأصل على فعول مصدر يقال: صلى النار يصلها صليا و صلينا إذا قاسى حرها فالمعنى ثم أقسم لنحن أعلم بمن أولى بالنار مقاساه لحرها أى إن الأمر فى دركات عذابهم و مراتب استحقاقهم لا يشتهه علينا.

قوله تعالى: «وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا- وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا الْخَطَابُ لِلنَّاسِ عَامَهُ مُؤْمِنِيهِمْ وَكَافِرِيهِمْ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ: «ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا» وَ الضَّمِيرُ فِي «وَارِدُهَا» لِلنَّارِ، وَرَبَّمَا قِيلَ: إِنَّ الْخَطَابَ لِلْكَفَّارِ الْمَذْكُورِينَ فِي الْآيَاتِ الثَّلَاثِ الْمَاضِيَةِ وَ فِي الْكَلَامِ التَّفَاتِ مِنَ الْغَيْبِ إِلَى الْحُضُورِ وَ فِيهِ أَنْ سِيَاقُ الْآيَةِ التَّالِيَةِ يُبَيِّنُ ذَلِكَ.

و الورد خلاف الصدور و هو قصد الماء على ما يظهر من كتب اللغة قال الراغب في المفردات: الورد أصله قصد الماء ثم يستعمل في غيره يقال: وردت الماء أردته، ووروداً فأنا وارد و الماء مورود، و قد أوردت الإبل الماء قال تعالى: «وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ» و الورد الماء المرشح للورود، و الورد خلاف الصدر، و الورد يوم الحتمي إذا وردت، و استعمل في النار على سبيل الفضاة قال تعالى: «فَأَوْرَدَهُمُ الدَّارَ» «وَبَشِّرِ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ إِذْ أُوتُوا الدَّارَ» «إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا» «أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ» «مَّا وَرَدُوها» و الوارد الذي يتقدم القوم فيسقى لهم قال تعالى: «فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ» أي ساقبهم من الماء المورود انتهى موضع الحاجة.

و الى ذلك استند من قال من المفسرين أن الناس إنما يحضرون النار و يشرفون عليها من غير أن يدخلوها و استدلوا عليه بقوله تعالى: «وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْتَقُونَ» (القصص ٢٣)، و قوله: «فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ» (يوسف ١٩)، و قوله:

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا (الأنبياء / ١٠٢).

و فيه أن استعماله في مثل قوله: «وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ» و قوله: «فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ» في الحضور بعلاقه الإشراف لا ينافي استعماله في الدخول على نحو الحقيقة كما ادعى في آيات أخرى، و أما قوله: «أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا» فمن الجائز أن يكون الإبعاد بعد الدخول كما سيظهر من قوله: «ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرْنَا الظَّالِمِينَ فِيهَا»، و أن يحجب الله بينهم و بين أن يسمعوا حسيسها إكراماً لهم كما حجب بين إبراهيم و بين حراره النار، إذ قال

للنار: كوني بردا و سلاما على إبراهيم.

و قال آخرون و لعلمهم أكثر المفسرين بدلالة الآية على دخولهم النار استنادا الى مثل قوله تعالى: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا (الأنبياء ٩٩/)، وقوله في فرعون: يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ (هود ٩٨/)، و يدل عليه قوله في الآية التالية: «ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا» أى نتركهم باركين على ركبهم و إنما يقال: نذر و نترك فيما إذا كان داخلا مستقرا فى المحل قبل الترك ثم أبقي على ما هو عليه و لعدة من الروايات الواردة فى تفسير الآية.

و هؤلاء بين من يقول بدخول عامه الناس فيها و من يقول بدخول غير المتقين مدعيا أن قوله: «منكم» بمعنى منهم على حد قوله: وَ سَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا، إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً (الدهر ٢٢/)، هذا و لكن لا يلائمه سياق قوله: «ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا» الآية.

و فيه أن كون الورد فى مثل قوله: «لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا» بمعنى الدخول ممنوع بل الأنسب كونه بمعنى الحضور و الإشراف فإنه أبلغ كما هو ظاهر و كذا فى قوله: «فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ» فإن شأن فرعون و هو من أئمه الضلال هو أن يهدى قومه الى النار و أما إدخالهم فيها فليس اليه.

و أما قوله: «ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا» فالآية دالة على كونهم داخلين فيها بدليل قوله: «نَذَرُ» لكن دلالتها على كونهم داخلين غير كون قوله: «وَأَوْرَدَهُمُ» مستعملا فى معنى الدخول، و كذا تنجيه المتقين لا تستلزم كونهم داخلين فيها فإن النتيجة كما تصدق مع إنقاذ من دخل المهلكة تصدق مع إبعاد من أشرف على الهلاك و حضر المهلكة من ذلك.

و أما الروايات فإنما وردت فى شرح الواقعة لا- فى تشخيص ما استعمل فيه لفظ «وَأَوْرَدَهُمُ» فى الآية فالاستدلال بها على كون الورد بمعنى الدخول ساقط.

فإن قلت: لم لا يجوز أن يكون المراد شأنه الدخول والمعنى: ما من أحد منكم إلا من شأنه أن يدخل النار و إنما ينجو من ينجو بإنحاء الله على حد قوله: **وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا** (النور ٢١).

قلت: معناه كون الورود مقتضى طبع الانسان من جهة أن ما يناله من خير و سعادته فمن الله و لا يبقى له من نفسه إلا الشر و الشقاء لكن ينافيه ما فى ذيل الآية من قوله: **«كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا»** فإنه صريح فى أن هذا الورود بإيراد من الله و بقضائه المحتوم لا باقتضاء من طبع الأشياء.

و الحق أن الورود لا يدل على أزيد من الحضور و الإشراف عن قصد-على ما يستفاد من كتب اللغة-فقوله: **«وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا»** إنما يدل على القصد و الحضور و الإشراف، و لا ينافى دلالة قوله فى الآية التالية: **«ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا»** على دخولهم جميعا أو دخول الظالمين خاصة فيها بعد ما وردوها.

و قوله: **«كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا»** ضمير كان للورود او للجمله السابقه باعتبار أنه حكم، و الحتم و الجزم و القطع بمعنى واحد أى هذا الورود او الحكم كان واجبا عليه تعالى مقضيا فى حقه و إنما قضى ذلك نفسه على نفسه إذ لا حاكم يحكم عليه.

قوله تعالى: **«ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا»** قد تقدم الإشاره الى أن قوله: **«وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا»** يدل على كون الظالمين داخلين فيها ثم يتركون على ما كانوا عليه، و أما تنجيه الذين اتقوا فلا تدل بلفظها على كونهم داخلين إذ التنجيه ربما تحققت بدونه اللهم إلا أن يستظهر ذلك من ورود اللفظين مقترنين فى سياق واحد.

و فى التعبير بلفظ الظالمين إشاره الى عليه الوصف للحكم.

و معنى الآيتين: ما من أحد منكم-متق أو ظالم-إلا و هو سيرد النار كان هذا الإيراد واجبا مقضيا على ربك ثم ننجى الذين اتقوا منها و نترك الظالمين فيها لظلمهم باركين على

اشاره

وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَ رِئِيًّا (٧٤) قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَ إِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَ أضعفُ جُنْدًا (٧٥) وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَ الْبَاطِلَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦) أَمْ فَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَ قَالَ لِمَأْوَتَيْنِ مَا لِيَ وَ وَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَ نَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَ يُأْتِنَا فَوْدًا (٨٠)

بيان:

قوله تعالى: وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا إِلَى آخر الآية؛ المقام اسم مكان من القيام

ص: ١٣٤

١-١). مريم ٦٦-٧٢: بحث روائي حول معنى ورود الناس في جهنم.

٢-٢). مريم ٦٦-٧٢: كلام في معنى وجوب الفعل و جوازه و عدم جوازه على الله سبحانه.

فهو المسكن، والندى هو المجلس وقيل خصوص مجلس المشاوره، ومعنى «قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا» أنهم خاطبواهم فاللام للتبليغ كما قيل، وقيل: تفيد معنى التعليل أى قالوا لأجل الذين آمنوا أى لأجل إغوائهم و صرفهم عن الإيمان، والأول أنسب للسياق كما أن الأنسب للسياق أن يكون ضمير عليهم راجعا الى الناس أعم من الكفار و المؤمنين دون الكفار فقط حتى يكون قوله: «قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا» من قبيل وضع الظاهر موضع المضمّر.

وقوله: أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا أى للاستفهام و الفريقان هما الكفار و المؤمنون، و كان مرادهم أن الكفار هم خير مقاما و أحسن نديًا من المؤمنين الذين كان الغالب عليهم العبيد و الفقراء لكنهم أوردوه فى صورته السؤال و كَتَبُوا عن الفريقين لدعوى أن المؤمنين عالمون بذلك يجيبون بذلك لو سئلوا من غير تردد و ارتياب.

و المعنى: و إذا تتلى على الناس -و هم الفريقان الكفار و المؤمنون- آياتنا و هى ظاهرات فى حجتها و اوضحات فى دلالتها لا تدع ريبا لمرتاب، قال فريق منهم و هم الذين كفروا للفريق الآخر و هم الذين آمنوا: أى هذين الفريقين خير من جهة المسكن و أحسن من حيث المجلس -و لا محاله هم الكفار- يريدون أن لازم ذلك أن يكونوا هم سعداء فى طريقتهم و ملتهم إذ لا سعاده وراء التمتع بأمته الحياه الدنيا فالحق ما هم عليه.

قوله تعالى: وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَ رِءْيَا الْقَرْنَ:

الناس المقترنون فى زمن واحد، و الأثاث: متاع البيت، قيل: لا- يطلق إلا- على الكثير و لا- واحد له من لفظه، و الرئى بالكسر فالسكون: ما رئى من المناظر، نقل فى مجمع البيان عن بعضهم: أنه اسم لما ظهر و ليس بالمصدر و إنما المصدر الرأى و الرؤيه يدلّ على ذلك قوله:

«يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ» فالرأى: الفعل، و الرئى: المرئى كالطحن و الطحن و السقى و الرمى و الرمى. انتهى.

قوله تعالى: قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا الى آخر

الآية؛ لفظه كان في قوله: «مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ» تدلُّ على استمرارهم في الضلاله لا مجرد تحقق ضلاله ما، وبذلك يتم التهديد بمجازاتهم بالإمداد والاستدراج الذي هو إضلال بعد الضلال.

وقوله: «فَلْيَمْدُدْ» صيغه أمر غائب و يثول معناه الى أن من الواجب على الرحمن أن يمدّه مدّاً، فإن أمر المتكلم مخاطبه أن يأمره بشيء معناه إيجاب المتكلم ذلك على نفسه.

و المد و الإمداد واحد لكن ذكر الراغب في المفردات أن أكثر ما جاء الإمداد في المحبوب و المدّ في المكروه و المراد أن من استقرت عليه الضلاله و استمر هو عليها-و المراد به الكفار كناية-فقد أوجب الله على نفسه أن يمدّه بما منه ضلالته كالزخارف الدنيويّه في مورد الكلام فينصرف بذلك عن الحق حتى يأتيه أمر الله من عذاب أو ساعه بالمفاجأه و المباهته فيظهر له الحق عند ذلك و لن ينتفع به.

فقوله: حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ الخ؛ دليل على أن هذا المد خذلان في صورته إكرام و المراد به أن ينصرف عن الحق و اتباعه بالاشتغال بزهره الحياه الدنيا الغارّه فلا يظهر له الحق إلا في وقت لا ينتفع به و هو وقت نزول البأس أو قيام الساعه.

كما قال تعالى: فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سِنَّتْ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ (المؤمن ٨٥)، وقال: يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا (الأنعام ١٥٨).

و في إرجاع ضمير الجمع في قوله: «رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ» الى «مَنْ» رعايه جانب معناه كما أن في إرجاع ضمير الافراد في قوله: «فَلْيَمْدُدْ لَهُ» اليه رعايه جانب لفظه.

و قوله: «فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَ أَضْعَفُ جُنْدًا» قوبل به قولهم السابق: «أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا» أما مكانهم حين يرون العذاب-و الظاهر أن المراد به

عذاب الدنيا- فحيث يحل بهم عذاب الله و قد كان مكان صنديد قريش المتلو عليهم الآيات حين نزول العذاب، قلب بدر التي ألقيت فيها أجسادهم و أما مكانهم يوم يرون الساعة فالنار الخالده التي هي دار البوار، و أما ضعف جندهم فلأنه لا عاصم لهم اليوم من الله و يعود كل ما هيئوه لأنفسهم من عده و عده سدى لا أثر له.

□
قوله تعالى: وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى إِلَى آخِرِ الْأَيَّامِ، الباقيات الصالحات الأعمال الصالحه التي تبقى محفوظه عند الله و تستعقب جميل الشكر و عظيم الأجر و قد وعد الله بذلك في مواضع من كلامه.

و الثواب جزاء العمل قال في المفردات: أصل الثوب رجوع الشيء الى حالته الاولى التي كان عليها أو الى الحاله المقدره المقصوده بالفكره- الى أن قال- و الثواب ما يرجع الى الانسان من جزاء أعماله فيسمى الجزاء ثوابا تصورا أنه هو- الى أن قال- و الثواب يقال في الخير و الشر لكن الأكثر المتعارف في الخير. انتهى و المراد اسم مكان من الردّ و المراد به الجنه.

و في قوله: «عِنْدَ رَبِّكَ» إشاره الى أن الحكم بخيريّه ما للمؤمنين من ثواب و مرد حكم إلهي لا يخطئ و لا يغلط البته.

قوله تعالى: أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَ قَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَ وَلَدًا كَمَا أَنَّ سِيَاقَ الْآيَاتِ الْآتِيَةِ السَّابِقَةَ يَعطى أن الحجه الفاسده المذكوره قول بعض المشركين ممن تلى عليه القرآن فقال ما قال دحضا لكلمه الحق و استغواء و استخفافا للمؤمنين كذلك سياق هذه الآيات الأربع و قد افتتحت بكلمه التعجيب و اشتملت بقول يشبه القول السابق و اختتمت بما يناسبه من الجواب يعطى أن بعض الناس ممن آمن بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أو كان في معرض ذلك بعد ما سمع قول الكفار مال اليهم و لحق بهم قائلان- لأوتين مالا- و ولدا يعنى في الدنيا باتباع مله الشرك كأن في الإيمان بالله شؤما و في اتخاذ الآلهه ميمنه. فردّه الله سبحانه بقوله:

«أَطَّلَعَ الْغَيْبَ» الخ.

قوله تعالى: «أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا رَدَّ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «لَا أُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا بِكُفْرِي» بِأَنَّهُ رَجِمَ بِالْغَيْبِ لَا طَرِيقَ لَهُ إِلَى الْعِلْمِ فَلَيْسَ بِمَطَّلَعٍ عَلَى الْغَيْبِ حَتَّى يَعْلَمَ بِأَنَّهُ سَيُؤْتَى بِكُفْرِهِ مَا يَأْمَلُهُ وَلَا بِمُتَّخِذِ عَهْدٍ عِنْدَ اللَّهِ حَتَّى يَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ، وَ قَدْ جَاءَ بِالنَّفْيِ فِي صُورِهِ الْاسْتِفْهَامَ الْإِنْكَارِيَّ.

قوله تعالى: «كَلَّا سَيَنكِتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا كَلَّا كَلِمَةٌ رَدَعٌ وَزَجْرٌ وَذِيلٌ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَرُدُّ بِهَا مَا يَتَضَمَّنُهُ قَوْلُ هَذَا الْقَائِلِ مِنْ تَرْتِبِ إِيْتَاءِ الْمَالِ وَالْوَلَدِ عَلَى الْكُفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ مُحْصَلُهُ أَنَّ الَّذِي يَتَرْتَّبُ عَلَى قَوْلِهِ هَذَا لَيْسَ هُوَ إِيْتَاءُ الْمَالِ وَالْوَلَدِ فَإِنَّ لَذَلِكَ أَسْبَابًا أُخْرَبِلَ هُوَ مَدُّ الْعَذَابِ عَلَى كُفْرِهِ وَ رَجْمُهُ فَهُوَ يَطْلُبُ بِمَا يَقُولُ فِي الْحَقِيقَةِ عَذَابًا مَمْدُودًا يَتَلَوُّ بَعْضُهُ بَعْضًا لِأَنَّهُ هُوَ تَبَعُهُ قَوْلُهُ لَا إِيْتَاءَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ وَ سَنَكْتُبُ قَوْلُهُ وَ نَرْتَّبُ عَلَيْهِ أَثْرَهُ الَّذِي هُوَ مَدُّ الْعَذَابِ فَالْآيَةُ نَظِيرُهُ قَوْلُهُ: «فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ» (العلق ١٨).

قوله تعالى: «وَ نَرِيْتُهُ مَا يَقُولُ وَ يَأْتِينَا فَرْدًا» المراد بورائه ما يقول أنه سيموت و يفنى و يترك قوله: «لَا أُوتِينَ مَالًا وَ وُلْدًا»، و قد كان خطيئه لازمه له لزوم المال للانسان محفوظه عند الله كأنه مال ورثه بعده ففي الكلام استعاره لطيفه.

و قوله: «وَ يَأْتِينَا فَرْدًا» أى وحده و ليس معه شىء مما كان ينتصر به و يركن اليه بحسب و همه فمحصل الآية أنه سيأتينا وحده و ليس معه إلا قوله الذى حفظناه عليه فنحاسبه على ما قال و نمد له من العذاب مدا.

[سورة مريم (١٩): الآيات ٨١ الى ٩٦]

إشارة

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُوزُهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعِدُّ لَهُمْ عَذَابًا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفِدًّا (٨٥) وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧) وَ قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخْرُجُ الْجِبَالُ هَيْدًا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَ مَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦)

ص: ١٣٨

قوله تعالى: وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا هُوَ الْآلِهَةُ هَم

الملائكة و الجنّ و القديسون من الإنس و جبابره الملوك فإن أكثرهم كانوا يرون الملك قداسه سماويه.

و معنى كونهم لهم عزا كونهم شفعاء لهم يقربونهم الى الله بالشفاعة فينالون بذلك العزه فى الدنيا ينجرّ اليهم الخير و لا يمسهم الشر، و من فسّر كونهم لهم عزا بشفاعتهم لهم فى الآخرة خفى عليه أن المشركين لا يقولون بالبعث.

قوله تعالى: **كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا** الضد بحسب اللغه المنافى الذى لا يجتمع مع الشىء، و عن الأخفش أن الضد يطلق على الواحد و الجمع كالرسول و العدو و أنكر ذلك بعضهم و وجه إطلاق الضد فى الآيه و هو مفرد على الآلهه و هى جمع بأنها لما كانت متفقه فى عداوه هؤلاء و الكفر بعبادتهم كانت فى حكم الواحد و صحّ بذلك إطلاق المفرد عليها.

و ظاهر السياق أن ضميرى «سَيَكْفُرُونَ» و «يَكُونُونَ» للآلهه و ضميرى «بِعِبَادَتِهِمْ» و «عَلَيْهِمْ» للمشركين المتخذين للآلهه و المعنى: سيكفر الآلهه بعباده هؤلاء المشركين و يكون الآلهه حال كونهم على المشركين لا لهم، ضدا لهم يعادونهم و لو كانوا لهم عزا لثبتوا على ذلك دائما و قد وقع ذلك فى قوله تعالى: **وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَّكَاهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ** (النحل ٨٦)،.

و أوضح منه قوله: **وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ، إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ** (فاطر ١٤).

و المراد بكفر الآلهه يوم القيامة بعبادتهم و كونهم عليهم ضدا هو ظهور حقيقه الأمر يومئذ فإن شأن يوم القيامة ظهور الحقائق فيه لأهل الجمع لا حدودها و لو لم تكن الآلهه كافرين بعبادتهم فى الدنيا و لا عليهم ضدا بل بدا لهم ذلك يوم القيامة لم تتم حجه الآيه فافهم ذلك، و على هذا المعنى يترتب قوله: «أَلَمْ تَرَ» على قوله: «كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادَتِهِمْ» الخ.

قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا الْأَزَّ وَالْهَزَّ بِمَعْنَى وَاحِدٍ وَهُوَ التَّحْرِيكُ بِشَدَّةٍ وَإِزْعَاجٌ وَالْمُرَادُ تَهْيِيجُ الشَّيَاطِينِ إِيَّاهُمْ إِلَى الشَّرِّ وَالْفَسَادِ وَتَحْرِيزُهُمْ عَلَى اتِّبَاعِ الْبَاطِلِ وَإِضْلَالُهُمْ بِالتَّرْتِيزِ عَنِ الثَّبَاتِ وَالِاسْتِقَامَةِ عَلَى الْحَقِّ.

وَالْأَمْرُ فِي نَسْبِهِ إِسْرَافَ الشَّيَاطِينِ إِلَيْهِ تَعَالَى بَعْدَ مَا كَانَ عَلَى طَرِيقِ الْمَجَازَةِ فَإِنَّهُمْ كَفَرُوا بِالْحَقِّ فَجَازَاهُمْ اللَّهُ بِزِيَادَةِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ وَيَشْهَدُ بِذَلِكَ قَوْلُهُ: «عَلَى الْكَافِرِينَ» وَ لَوْ كَانَ إِضْلَالًا ابْتِدَائِيًّا لَقِيلَ «عَلَيْهِمْ» مِنْ غَيْرِ أَنْ يُوضَعَ الظَّاهِرُ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِّ.

وَالْآيَةُ وَهِيَ مَصْدَرُهُ بِقَوْلِهِ: «أَلَمْ تَرَ» الْمَفِيدُ مَعْنَى الْإِسْتِشْهَادِ مَسْوُوقَةً لِتَأْيِيدِ مَا ذَكَرَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ مِنْ كَوْنِ آلِهِتِهِمْ عَلَيْهِمْ ضِدًّا، فَإِنَّ تَهْيِيجَ الشَّيَاطِينِ إِيَّاهُمْ لِلشَّرِّ وَالْفَسَادِ وَاتِّبَاعِ الْبَاطِلِ مَعَادَاهُ وَضِدِّيهِ وَالشَّيَاطِينِ وَهُمْ مِنَ الْجَنِّ مِنْ جَمَلِهِ آلِهِتِهِمْ وَ لَوْ لَمْ يَكُنْ هَؤُلَاءِ الْآلِهَةُ عَلَيْهِمْ ضِدًّا مَا دَعَوْهُمْ إِلَى مَا فِيهِ هَلَاكُهُمْ وَشَقَاؤُهُمْ.

فَالْآيَةُ بِمَنْزِلَةِ أَنْ يَقَالَ: هَؤُلَاءِ الْآلِهَةُ الَّذِينَ يَحْسُبُونَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ عِزًّا هُمْ عَلَيْهِمْ ضِدٌّ وَتَصْدِيقٌ ذَلِكَ أَنَّ الشَّيَاطِينِ وَهُمْ مِنْ آلِهِتِهِمْ يَحْرُكُونَهُمْ بِإِزْعَاجٍ نَحْوِ مَا فِيهِ شَقَاؤُهُمْ وَ لَيْسُوا مَعَ ذَلِكَ مُطْلَقِي الْعِنَانِ بَلْ إِنَّمَا هُوَ بِإِذْنِ اللَّهِ يُسَمَّى إِسْرَافًا وَ عَلَى هَذَا فَالْآيَةُ مُتَّصِلَةٌ بِسَابِقَتِهَا وَ هُوَ ظَاهِرٌ.

وَ جَعَلَ صَاحِبُ رُوحِ الْمَعَانِي هَذِهِ الْآيَةَ مُتَرْتِبَةً عَلَى مَجْمُوعِ الْآيَاتِ مِنْ قَوْلِهِ: «وَ يَقُولُ الْإِنْسَانُ أَ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا» إِلَى قَوْلِهِ: «وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا» وَ مُتَّصِلَةٌ بِهِ وَ أَطْنَبَ فِي بَيَانِ كَيْفِيَةِ الْإِتِّصَالِ بِمَا لَا يَجْدَى نَفْعًا وَ أَفْسَدَ بِذَلِكَ سِيَاقَ الْآيَاتِ وَ اتِّصَالَ مَا بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا قَبْلَهَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّ مَا نَعِدُّ لَهُمْ عِدًّا الْعَدُّ هُوَ الْإِحْصَاءُ وَ الْعَدُّ يَفْنَى الْمَعْدُودَ وَ يَنْفَدُهُ وَ بِهَذِهِ الْعِنَايَةِ قَصِدَ بِهِ إِفْنَادَ أَعْمَارِهِمْ وَ الْإِنْتِهَاءَ إِلَى آخِرِ أَنْفُسِهِمْ كَأَنَّ أَنْفُسَهُمْ كَانَتْ أَنْفُسَهُمْ الْمَمْدَةَ لِأَعْمَارِهِمْ مَذْخُورَةٌ بَعْدُهَا عِنْدَ اللَّهِ فَيَنْفَدُهَا بِإِسْرَافِهَا وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ حَتَّى تَنْتَهِيَ وَ هُوَ

اليوم الموعود عليهم.

قوله تعالى: يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا الْوَفْدِ هُم الْقَوْمُ الْوَارِدُونَ لزيارته أو استنجاز حاجته أو نحو ذلك ولا يسمون وفدا إلا إذا كانوا ركبانا وهو جمع واحده وافد.

وربما استفيد من مقابله قوله في هذه الآية: «إِلَى الرَّحْمَنِ» قوله في الآية التالية: «إِلَى جَهَنَّمَ» أن المراد بحشرهم الى الرحمن حشرهم الى الجنة وإنما سمى حشرا الى الرحمن لأن الجنة مقام قربه تعالى فالحشر إليها حشر اليه. ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا فَيَسِرُ الْوَرْدَ بِالْعَطَاشِ وَكَأَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ وَرُودِ الْمَاءِ أَيْ قَصْدُهُ لِيَشْرَبَ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا عَنْ عَطَشٍ فَجَعَلَ بِذَلِكَ الْوَرْدَ كَنَاءً عَنِ الْعَطَاشِ، وَفِي تَعْلِيْقِ السُّوقِ إِلَى جَهَنَّمَ بِوَصْفِ الْإِجْرَامِ إِشْعَارًا بِالْعَلِيَّةِ وَنَظِيرَهُ تَعْلِيْقُ الْحَشْرِ إِلَى الرَّحْمَنِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ بِوَصْفِ التَّقْوَى. وَمَعْنَى الْآيَةِ ظَاهِرٌ.

قوله تعالى: لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا وَهَذَا جَوَابُ ثَانٍ عَنْ اتِّخَاذِهِمُ الْآلِهَةَ لِلشَّفَاعَةِ وَهُوَ أَنْ لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَهْوَى الْإِنْسَانَ شَفَاعَتَهُ فَاتَّخَذَهُ إِلَهًا لِيَشْفَعَ لَهُ يَكُونُ شَفِيعًا بَلْ إِنَّمَا يَمْلِكُ الشَّفَاعَةَ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ وَلَا عَهْدَ إِلَّا لِأَحَادٍ مِنْ مَقْرَبِي حَضْرَتِهِ، قَالَ تَعَالَى: وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (الزخرف ٨٦).

قوله تعالى: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا مِنْ قَوْلِ الْوَثْنِيِّينَ وَبَعْضُ خَاصَتِهِمْ، وَإِنْ قَالَ بِنُؤَيْهِ الْآلِهَةُ أَوْ بَعْضُهُمْ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ تَشْرِيفًا أَوْ تَجْلِيلًا. لَكِنْ عَامَتُهُمْ وَبَعْضُ خَاصَتِهِمْ فِي مَقَامِ التَّعْلِيمِ - قَالَ بِذَلِكَ تَحْقِيقًا بِمَعْنَى الْإِشْتِقَاقِ مِنْ حَقِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَاسْتِمَالِ الْوَلَدِ عَلَى جَوْهَرِهِ وَالِدِهِ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِالْآيَةِ وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ التَّعْبِيرُ بِالْوَلَدِ دُونَ الْإِبْنِ، وَكَذَا مَا فِي قَوْلِهِ: «إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» إِلَى تَمَامِ ثَلَاثِ آيَاتٍ مِنَ الْإِحْتِجَاجِ عَلَى نَفِيهِ.

ص: ١٤٢

قوله تعالى: لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا الى تمام ثلاث آيات، الإيد بكسر الهمزة: الشئ المنكر الفظيع، و التفطر الانشقاق، و الخور السقوط، و الهد الهدم.

و الآيات فى مقام إعظام الذنب و إكبار تبعته بتمثيله بالمحسوس يقول: لقد أتيتم بقولكم هذا أمرا منكرا فظيعا تكاد السماوات يتفطرن و ينشققن منه و تشق الأرض و تسقط الجبال على السهل سقوط انهدام أن دعوا للرحمن ولدا.

قوله تعالى: وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ ذَلًّا وَلَدًا إِنَّ كُلَّ مِيزَانٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا الى تمام أربع آيات. المراد بإتيان كل منهم عبدا له توجه الكل اليه و مثوله بين يديه فى صفة المملوكية المحضه فكل منهم مملوك له لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرًا و لا موتا و لا حياه و لا نشورا و ذلك أمر بالفعل ملازم له ما دام موجودا، و لذا لم يقيد الإتيان فى الآية بالقيامه بخلاف ما فى الآية الرابعه.

و المراد بإحصائهم و عدّهم تثبيت العبوديه لهم فإن العبيد إنما لهم أرزاقهم و تتبين وظائفهم و الامور التى يستعملون فيها بعد الإحصاء و عدّهم و ثبتهم فى ديوان العبيد و به تسجل عليهم العبوديه.

و المراد بإتيانه له يوم القيامه فردا إتيانه يومئذ صفر الكفر لا يملك شيئا مما كان يملكه بحسب ظاهر النظر فى الدنيا و كان يقال: إن له حولا و قوه و مالا و ولدا و أنصارا و وسائل و أسبابا الى غير ذلك فيظهر يومئذ إذ تنقطع بهم الأسباب أنه فرد ليس معه شئ يملكه و أنه كان عبدا بحقيقه معنى العبوديه لم يملك قط و لن يملك أبدا فشان يوم القيامه ظهور الحقائق فيه.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا الْوَدَّ وَ الْموده المحبه و فى الآية وعد جميل منه تعالى أنه سيجعل للذين آمنوا و عملوا الصالحات موده فى القلوب و لم يقيد بما بينهم أنفسهم و لا بغيرهم و لا بدنيا و لا بآخره أو جنه

فلا موجب لتقييد بعضهم ذلك بالجنه و آخرين بقلوب الناس فى الدنيا الى غير ذلك.

وقد ورد فى أسباب النزول من طرق الشيعة و أهل السنه أن الآيه نزلت فى على عليه السلام، و فى بعضها ما ورد من طرق أهل السنه أنها نزلت فى مهاجرى الحبشه و فى بعضها غير ذلك و سيجىء فى البحث الروائى الآتى.

و على أى حال فعموم لفظ الآيه فى محله، و الظاهر أن الآيه متصله بقوله السابق:

«سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا»

(١)

[سوره مريم (١٩): الآيات ٩٧ الى ٩٨]

اشاره

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (٩٧) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)

بيان:

قوله تعالى: فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا التيسير و هو التسهيل بنبى عن حال سابقه ما كان يسهل معها تلاوته و لا فهمه و قد أنبا سبحانه عن مثل هذه الحاله لكتابه فى قوله: وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فى أُمِّ الْكِتَابِ لَمَدِينًا لَعَلَّى حَكِيمٍ (الزخرف ٤)، فأخبر أنه لو أبقاها على ما كان عليه عنده—و هو الآن كذلك—من غير أن يجعله عربيا مقروًا لم يرج أن يعقله الناس و كان كما كان عليا حكيما أى آيبا متعصيا أن يرقى اليه أفهامهم و ينفذ فيه عقولهم.

ص: ١٤٤

(١- ١). مريم ٨١-٩٦: بحث روائى فى المشركين و آلهتهم؛ حشر المتقين الى الرحمن وفدا، معنى الود الذى جعل الله للمؤمنين.

و من هنا يتأيد أن معنى تيسيره بلسانه تنزيله على اللسان العربي الذى كان هو لسانه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فتنبئ الآيه أنه تعالى يسره بلسانه ليتيسر له التبشير و الإنذار.

و قوله: «و تُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا» المراد قومه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و اللد جمع ألد من اللدد و هو الخصومه.

قوله تعالى: وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا الْإِحْسَاسُ هُوَ الْإِدْرَاكُ بِالْحَسِّ، وَ الرِّكْزُ هُوَ الصَّوْتُ، قِيلَ: وَ الْأَصْلُ فِي مَعْنَاهُ الْحَسُّ، وَ حَصَّلَ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ وَإِنْ كَانُوا خِصْمَاءَ مُجَادِلِينَ لَكِنَّهُمْ غَيْرَ مُعْجِزِي اللَّهِ بِخِصَامِهِمْ فَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ فَبَادُوا فَلَا يَحْسُ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَ لَا يَسْمَعُ لَهُمْ صَوْتٌ.

ص: ١٤٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذَكْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٣) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ
وَ السَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ
تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨)

غرض السوره التذكره من طريق الإنذار تغلب فيها آيات الإنذار و التخويف على آيات التبشير غلبه واضحه، فقد اشتملت على قصص تختتم بهلا-ك الطاغين و المكذبين لآيات الله و تضمنت حججا بينه تلزم العقول على توحيده تعالى و الإجابة لدعوه الحق و تنتهى الى بيان ما سيستقبل الإنسان من أهوال الساعه و مواقف القيامة و سوء حال المجرمين و خسران الظالمين.

و قد افتتحت الآيات-على ما يلوح من السياق-بما فيه نوع تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أن لا يتعب نفسه الشريفه فى حمل الناس على دعوته التى يتضمنها القرآن فلم ينزل ليتكلف به بل هو تنزيل إلهى يذكّر الناس بالله و آياته رجاء أن تستيقظ غريزه خشيتهم فيتذكروا فيؤمنوا به و يتقوا فليس عليه إلا-التبليغ فحسب فإن خشوا و تذكروا و إلا-غشيتهم غاشيه عذاب الاستئصال أو ردوا الى ربهم فأدر كهم و وبال ظلمهم و فسقهم و وفيت لهم أعمالهم من غير أن يكونوا معجزين لله سبحانه بطغيانهم و تكذيبهم.

و سياق آيات السوره تعطى أن تكون مكيه و فى بعض الآثار أن قوله: فَاصْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ (الآيه ١٣٠ مدنيه) و فى بعضها الآخر أن قوله: لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ (الآيه ١٣١ مدنيه)، و لا دليل على شىء من ذلك من ناحيه اللفظ.

و من غرر الآيات فى السوره قوله تعالى: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ» .

قوله تعالى: طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ طه حرفان من الحروف المقطعه افتتحت بهما السوره كسائر الحروف المقطعه التى افتتحت بهما سورها نحو الم الر و نظائرها و قد نقل عن جماعه من المفسرين فى معنى الحرفين أمور ينبغى أن يجلّ البحث التفسيري عن إيرادها و الغور فى أمثالها، و سنلوح إليها فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله تعالى.

و الشقاوه خلاف السعاده قال الراغب: و الشقاوه كالسعاده من حيث الإضافه فكما أن السعاده فى الأصل ضربان: سعاده أخرويه و سعاده دنيويه ثم السعاده الدنيويه ثلاثه أضرب: سعاده نفسه و بدنيه و خارجيه كذلك الشقاوه على هذه الأضرب-الى أن قال- قال بعضهم: قد يوضع الشقاء موضع التعب نحو شقيت فى كذا، و كل شقاوه تعب، و ليس كل تعب شقاوه، فالتعب أعم من الشقاوه. انتهى، فالمعنى ما أنزلنا القرآن لتتعب نفسك فى سبيل تبليغه بالتكلف فى حمل الناس عليه.

□
قوله تعالى: «إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ يَخْشَى تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّمَاوَاتِ الْعُلَى التذكرة هى إيجاد الذكر فىمن نسى الشىء و إذ كان الإنسان ينال حقائق الدين الكليه بفطرته كوجوده تعالى و توحيده فى وجوده و ألوهيته و ربوبيته و النبوه و المعاد و غير ذلك كانت أمورا مودعه فى الفطره غير أن إخلاد الإنسان الى الأرض و إقباله الى الدنيا و اشتغاله بما يهواه من زخارفها اشتغالا لا يدع فى قلبه فراغا أنساه ما أودع فى فطرته و كان إلقاء هذه الحقائق إلفاتا لنفسه إليها و تذكره له بها بعد نسيانها.

□
و الاستثناء فى قوله: «إِلَّا تَذَكَّرَ» استثناء منقطع-على ما قالوا-و المعنى ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب به نفسك و لكن ليكون مذكرا يتذكر به من من شأنه أن يخشى فيخشى فيؤمن بالله و يتقى.

فالسباق على رسله يستدعى كون «تَذَكَّرَ» مصدرا بمعنى الفاعل و مفعولا له لقوله: «مَا أَنْزَلْنَا» كما يستدعى كون قوله: تَنْزِيلًا» بمعنى اسم المفعول حالا من ضمير «تَذَكَّرَ» الراجع الى القرآن، و المعنى ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب به نفسك و لكن لتذكر الخاشعين بكلام إلهي منزل من عنده.

و قوله: تَنْزِيلًا- مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّمَاوَاتِ الْعُلَى العلى جمع عليا مؤنث أعلى كفضلى و فضل، و اختيار خلق الأرض و السماوات صله للموصول و بيانا لإبهام المنزل

لمناسبته معنى التنزيل الذى لا يتم إلا بعلو و سفلى يكونان مبدأ و منتهى لهذا التسيير، و قد خصصا بالذكر دون ما بينهما إذ لا غرض يتعلق بما بينهما و إنما الغرض بيان مبدأ التنزيل و منتهاه بخلاف قوله: «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» إذ الغرض بيان شمول الملك للجمع.

قوله تعالى: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى استئناف يذكر فيه مسأله توحيد الربوبية التى هى مخ الغرض من الدعوه و التذكرة و ذلك فى أربع آيات «الرَّحْمَنُ -الى قوله- لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى» .

و قد تقدم فى قوله تعالى: ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ (الأعراف ٥٤)، أن الاستواء على العرش كناية عن الاحتواء على الملك و الأخذ بزمام تدبير الامور و هو فيه تعالى على ما يناسب ساحه كبريائه و قدسه-ظهور سلطنته على الكون و استقرار ملكه على الأشياء بتدبير امورها و إصلاح شئونها.

فاستواؤه على العرش يستلزم إحاطه ملكه بكل شىء و انبساط تدبيره على الأشياء سماويها و أرضيها جليلها و دقيقها خطيرها و يسيرها، فهو تعالى رب كل شىء المتوحد بالربوبية إذ لا نعى بالرب إلا المالك للشىء المدبر لأمره، و لذلك عقب حديث الاستواء على العرش بحديث ملكه لكل شىء و علمه بكل شىء و ذلك فى معنى التعليل و الاحتجاج على الاستواء المذكور.

و معلوم أن «الرَّحْمَنُ» و هو مبالغه من الرحمه التى هى الإفاضه بالإيجاد و التدبير و هو يفيد الكثرة أنسب بالنسبه الى الاستواء من سائر الأسماء و الصفات و لذلك اختص من بينها بالذكر.

و قد أشبعنا الكلام فى معنى العرش فى ذيل الآيه ٥٤ من سورة الأعراف فى الجزء الثامن من الكتاب، و سيأتى بعض ما يختص بالمقام فى البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: لَّهُ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ الثَّرَىٰ الشَّرَىٰ على ما قيل: هو التراب الرطب أو مطلق التراب، فالمراد بما تحت الثرى ما فى جوف الأرض دون التراب و يبقى حينئذ لما فى الأرض ما على بسطها من أجزائها و ما يعيش فيها مما نعلمه و نحسّ به كالانسان و أصناف الحيوان و النبات و ما لا نعلمه و لا نحسّ به.

و إذا عمّ الملك ما فى السماوات و الأرض و من ذلك أجزاءهما عمّ نفس السماوات و الأرض فليس الشيء إلا نفس أجزائه.

و قد بين فى هذه الآيه أحد ركنى الربوبية و هو الملك، فإن معنى الربوبية كما تقدم آنفا هو الملك و التدبير.

قوله تعالى: وَإِنْ تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى الْجَهْرُ بِالْقَوْلِ رفع الصوت به، و الإسرار خلافه، قال تعالى: وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ (الملك ١٣)، و السرّ هو الحديث المكتوم فى النفس، و قوله: «وَأَخْفَى» أفعل التفضيل من الخفاء على ما يعطيه سياق الترقى فى الآيه و لا يصغى الى قول من قال: إن «أَخْفَى» فعل ماض فاعله ضمير راجع اليه تعالى، و المعنى: إنه يعلم السر و أخفى علمه. هذا. و فى تنكير «أَخْفَى» تأكيد للخفاء.

و ذكر الجهر بالقول فى الآيه أولا ثم إثبات العلم بما هو أدق منه و هو السر و الترقى الى أخفى يدلّ على أن المراد إثبات العلم بالجميع، و المعنى: و إن تجهر بقولك و أعلنت ما تريده—و كأن المراد بالقول ما فى الضمير من حيث إن ظهوره إنما هو بالقول غالبا—أو أسرته فى نفسك و كتمته أو كان أخفى من ذلك بأن كان خفيا حتى عليك نفسك فإن الله يعلمه.

فالأصل ترديد القول بين المجهور به و السر و أخفى و إثبات العلم بالجميع ثم وضع إثبات العلم بالسر و أخفى موضع الترديد الثانى و الجواب إيجازا. فدلّ على الجواب فى شقى الترديد معا و على معنى الأولويه بأوجز بيان كأنه قيل: و إن تسأل عن علمه بما تجهر به من قولك فهو

يعلمه و كيف لا يعلمه؟ و هو يعلم السر و أخفى منه فهو فى الكلام من لطيف الصنعه.

قوله تعالى: **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** بمنزله النتيجة لما تقدم من الآيات و لذلك كان الأنسب أن يكون اسم الجلاله خبرا لمبتدأ محذوف و التقدير هذا المذكور فى الآيات السابقه هو **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ... الخ**؛ و إن كان الأقرب بالنظر الى استقلال الآيه و جامعيتها فى مضمونها أن يكون اسم الجلاله مبتدأ و قوله: **«لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»** خبره، و قوله:

«لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى» خبرا بعد خبر.

و كيف كان فقوله: **«اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»** يمكن أن يعلل بما ثبت فى الآيات السابقه من توحيده تعالى بالربوبيه المطلقه و يمكن أن يعلل بقوله بعده: **«لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى»**.

أما الأول فلأن معنى الإله فى كلمه التهليل إما المعبود و إما المعبود بالحق فمعنى الكلام **اللَّهُ** لا معبود حق غيره أو لا معبود بالحق موجود غيره و المعبوديه من شئون الربوبيه و لواحقها فإن العباده نوع تمثيل و ترسيم للعبوديه و المملوكيه و إظهار للحاجه اليه فمن الواجب أن يكون المعبود مالكا لعبده مدبرا أمره أى ربا له و إذ كان تعالى رب كل شىء لا رب سواه فهو المعبود لا معبود سواه.

و أما الثانى فلأن العباده لأحد ثلاث خصال إما رجاء لما عند المعبود من الخير فيعبد طمعا فى الخير الذى عنده لينال بذلك، و إما خوفا مما فى الإعراض عنه و عدم الاعتناء بأمره من الشر و إما لأنه أهل للعباده و الخضوع.

و **اللَّهُ** سبحانه هو المالك لكل خير لا يملك شىء شيئا من الخير إلا ما ملكه هو إياه و هو المالك مع ذلك لما ملكه و القادر على أقدره و هو المنعم المفضل المحيى الشافى الرازق الغفور الرحيم الغنى العزيز و له كل اسم فيه معنى الخير فهو سبحانه المستحق للعباده رجاء لما عنده من الخير دون غيره.

و **اللَّهُ** سبحانه هو العزيز القاهر الذى لا يقوم لقهرة شىء و هو المنتقم ذو البطش شديد

العقاب لا شرّ لأحد عند أحد إلا ياذنه فهو المستحق لأن يعبد خوفا من غضبه لو لم يخضع لعظمته و كبريائه.

و الله سبحانه هو الأهل للعبادة وحده لأن أهليه الشيء لأن يخضع له لنفسه ليس إلا لكمال فالكمال وحده هو الذى يخضع عنده النقص الملازم للخضوع و هو إما جمال تنجذب اليه النفس انجذابا أو جلال يخزّ عنده اللبّ و يذهب دونه القلب و له سبحانه كل الجمال و ما من جمال إلا و هو آيه لجماله، و له سبحانه كل الجلال و كل ما دونه آيته. فالله سبحانه لا إله إلا هو و لا معبود سواه لأنه له الأسماء الحسنى.

و معنى ذلك أن كل اسم هو أحسن الأسماء التى هى نظائره له تعالى، توضيح ذلك أن توصيف الاسم بالحسن يدل على أن المراد به ما يسمى فى اصطلاح الصرف صفه كاسم الفاعل و الصفه المشبهه دون الاسم بمعنى علم الذات لأن الاعلام إنما شأنها الإشارة الى الذوات و الاتصاف بالحسن أو القبح من شأن الصفات باشتغالها على المعانى كالعادل و الظالم و العالم و الجاهل، فالمراد بالأسماء الحسنى الألفاظ الدالّة على المعانى الوصفية الجميله البالغه فى الجمال كالحى و العليم و القدير، و كثيرا ما يطلق التسميه على التوصيف، قال تعالى: «قل سمّوهن» أى صفوهن.

و يدلّ على ذلك أيضا قوله تعالى: **وَلِلّٰهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنٰى فَادْعُوهُ بِهَا وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ** (الأعراف ١٨٠)، أى يميلون من الحق الى الباطل فيطلقون عليه من الأسماء ما لا يليق بساحه قدسه.

فالمراد بالأسماء الحسنى ما دلّ على معان و صفيه كالإله و الحىّ و العليم و القدير دون اسم الجلاله الذى هو علم الذات، ثم الأسماء تنقسم الى قبيحه كالظالم و الجائر و الجاهل، و الى حسنه كالعادل و العالم، و الأسماء الحسنه تنقسم الى ما فيه كمال ما و إن كان غير خال عن شوب النقص و الإمكان نحو صبيح المنظر و معتدل القامه و جعد الشعر و ما فيه الكمال من غير

(٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨)

ص: ١٥٣

١ - ١. طه ٨-١: بحث روائي حول: حروف المقطعه (طه)؛ معنى الآية «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ»؛ العرش و الكرسي؛ تفسير القرآن.

قوله تعالى: وَ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ الاسْتِفْهَامُ للتقرير و الحديث، القصة.

قوله تعالى: إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ المكث اللبث، و الإيناس إبصار الشيء أو وجدانه و هو من الانس خلاف النفور و لذا قيل: إنه إبصار شيء يونس به فيكون أبصاراً قويا، و القبس بفتحتين هو الشعلة المقتبسه على رأس عود و نحوه و الهدى مصدر بمعنى اسم الفاعل أو مضاف اليه لمضاف مقدر أى ذا هدايه، و المراد -على أى حال- من قام به الهدايه.

و سياق الآية و ما يتلوها يشهد أن كان فى منصرفه من مدين الى مصر و معه أهله و هم بالقرب من وادى طوى فى طور سيناء فى ليله شاتيه مظلمه و قد ضلوا الطريق إذ رأى نارا فرأى أن يذهب إليها فإن وجد عندها أحدا سأله الطريق و إلا أخذ قبسا من النار ليضرموا به

نارا فيصطلوا بها.

و في قوله: «فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا» إشعار بل دلالة على أنه كان مع أهله غيره كما أن في قوله:

«إِنِّي آنَسْتُ نَارًا» مع ما يشتمل عليه من التأكيد و التعبير بالإيناس دلالة على أنه إنما رآها هو وحده و ما كان يراها غيره من أهله و يؤيد ذلك قوله أيضا أولا: «إِذْ رَأَى نَارًا»، و كذا قوله:

«لَعَلِّي آتِيكُمْ» الخ؛ يدل على أن في الكلام حذفًا و التقدير امكثوا لأذهب إليها لعلِّي آتاكم منها بقبس أو أجد على النار هاديا نهتدي بهداه.

قوله تعالى: فَلَمَّا آتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ -الى قوله- طُوبَى طوى اسم لواد بطور و هو الذى سمّاه الله سبحانه بالوادى المقدس، و هذه التسميه و التوصيف هى الدليل على أن أمره بخلع النعلين إنما هو لاحترام الوادى أن لا يداس بالنعل ثم تفرّيع خلع النعلين مع ذلك على قوله: «إِنِّي أَنَا رَبُّكَ» يدلّ على أن تقديس الوادى إنما هو لكونه حظيره لقرب و موطن الحضور و المناجاة فيؤول معنى الآيه الى مثل قولنا نودى يا موسى ها أنا ذا ربك و أنت بمحضر منى و قد تقدّس الوادى بذلك فالتزم شرط الأدب و اخلع نعليك.

و على هذا النحو يقدّس ما يقدّس من الأمكنه و الأزمنه كالكعبه المشرفه و المسجد الحرام و سائر المساجد و المشاهد المحترمه فى الإسلام و الأعياد و الأيام المتبركه فإنما ذلك قدس و شرف اكتسبته بالانتساب الى واقعه شريفه وقعت فيها أو نسك و عباده مقدّسه شرّعت فيها و إلا فلا تفاضل بين أجزاء المكان و لا بين أجزاء الزمان.

و لما سمع موسى عليه السلام قوله تعالى: «يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ» فهم من ذلك فهم يقين أن الذى يكلمه هو ربه و الكلام كلامه و ذلك أنه كان و حيا منه تعالى و قد صرّح تعالى بقوله: «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ» (الشورى ٥١/)، أن لا واسطه بينه تعالى و بين من يكلمه من حجاب أو رسول إذا كان تكليم وحي و إذ لم يكن هناك أى واسطه مفروضه لم يجد الموحى اليه مكلما لنفسه و لا

توهمه إلا- الله و لم يجد الكلام إلا- كلامه و لو احتمل أن يكون المتكلم غيره أو الكلام كلام غيره لم يكن تكليما ليس بين الإنسان و بين ربه غيره.

و هذا حال النبي و الرسول في أول ما يوحى اليه بالنبوه و الرساله لم يختلجه شك و لا اعتراضه ريب في أن الذى يوحى اليه هو الله سبحانه من غير أن يحتاج الى أعمال نظر أو التماس دليل أو إقامة حجه و لو افتقر الى شىء من ذلك كان اكتسابا بواسطه القوه النظرية لا تلقيا من الغيب من غير توسط واسطه.

فإن قلت: قوله تعالى في القصه في موضع آخر من كلامه: «وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا» .

و قوله في موضع آخر: «من جانب الطور الأيمن من الشجره» يثبت الحجاب في تكليمه عليه السلام.

قلت: نعم لكن ثبوت الحجاب أو الرسول في مقام التكليم لا ينافى تحقق التكليم بالوحى فإن الوحى كسائر أفعاله تعالى لا يخلو من واسطه و إنما يدور الأمر مدار التفات المخاطب الذى يتلقى الكلام فإن التفات الى الواسطه التى تحمل الكلام و احتجب بها عنه تعالى كان الكلام رساله أرسل اليه بملك مثلا و وحيا من الملك، و إن التفات الى تعالى كان وحيا منه و إن كان هناك واسطه لا يلتفت إليها، و من الشاهد على ما ذكرنا قوله فى الآية التاليه خطابا لموسى:

«فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ» فسماه وحيا، و قد أثبت فى سائر كلامه فيه الحجاب.

و بالجمله قوله: «إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ الْخ» تنبيه لموسى على أن الموقف موقف الحضور و مقام المشافهه و قد خلى به و خصه من نفسه بمزيد العناية، و لذا قيل: «إني أنا ربك»، و لم يقل: «أنا الله أو أنا رب العالمين»، و لذا أيضا لم يلزم من قوله ثانيا: «إِنِّي أَنَا اللَّهُ» تكرار، لأن الأول تخليه للمقام من الأغيار لإلقاء الوحى، و الثانى من الوحى.

و فى قوله: «نُودِيَ» حيث طوى ذكر الفاعل و لم يقل: نادينا أو ناداه الله من اللطف ما

لا يقدر بقدر، وفيه تلويح أن ظهور هذه الآية لموسى كان على سبيل المفاجأة.

قوله تعالى: «وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ» الاختيار مأخوذ من الخير، وحقيقته أن يتردد أمر الفعل مثلا بين أفعال يجب أن يرجح واحدا منها ليفعله فيميز ما هو خيرها ثم يبنى على كونه خيرا من غيره فيفعله، فبناؤه على كونه خيرا من غيره هو اختيار فالاختيار دائما لغايه هو غرض الفاعل من فعله.

فاختياره تعالى لموسى إنما هو لغايه إلهيه و هي إعطاء النبوه و الرساله و يشهد بذلك قوله على سبيل التفريع على الاختيار: «فَأَسْمِعْ لِمَا يُوحَىٰ» فقد تعلق المشيه الإلهيه ببعث إنسان يتحمل النبوه و الرساله و كان موسى في علمه تعالى خيرا من غيره و أصلح لهذا الغرض فاختره عليه السلام.

و قوله: «وَأَنَا اخْتَرْتُكَ» على ما يعطيه السياق من قبيل إصدار الأمر بنبوته و رسالته فهو إنشاء لا إخبار، و لو كان إخبارا لقليل: و قد اخترتك لكنه إنشاء الاختيار للنبوه و الرساله بنفس هذه الكلمه ثم لما تحقق الاختيار بإنشائه فرع عليه الأمر بالاستماع للوحي المتضمن لنبوته و رسالته فقال: «فَأَسْمِعْ لِمَا يُوحَىٰ» و الاستماع لما يوحى الإصغاء اليه.

قوله تعالى: «إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي هَذَا هُوَ الْوَحْيُ الَّذِي أَمَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْإِسْتِمَاعِ لَهُ فِي إِحْدَى عَشْرَةَ آيَةٍ تَشْتَمِلُ عَلَى النَّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ مَعًا أَمَّا النَّبُوَّةُ فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ وَالْآيَتِينَ بَعْدَهُ، وَأَمَّا الرِّسَالَةُ فَتَأْخُذُ مِنْ قَوْلِهِ: «وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ» وَتَنْتَهِي فِي قَوْلِهِ: «أَذْهَبْ إِلَيَّ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ» وَ قَدْ نَصَّ تَعَالَى أَنَّهُ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا مَعًا فِي قَوْلِهِ: «وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (مريم ٥١)».

و قوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي» كلمه التوحيد مرتبه على قوله: «إِنِّي أَنَا اللَّهُ» لفظا لترتبه عليه حقيقه فإنه إذا كان هو الذى منه يبدأ كل شىء و به يقوم و اليه يرجع فلا- ينبغى أن يخضع خضوع العباده إلا- له فهو الإله المعبود بالحق لا إله غيره و لذا فرّع على ذلك الأمر

بعبادته حيث قال: «فَاعْبُدْنِي» .

وقوله: «وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي» خص الصلاة بالذكر- وهو من باب ذكر الخاص بعد العام اعتناء بشأنه- لأن الصلاة أفضل عمل يمثل به الخضوع العبودي و يتحقق بها ذكر الله سبحانه تحقق الروح بقلبه.

و على هذا المعنى فقوله: «لِذِكْرِي» من إضافة المصدر الى مفعوله و اللام للتعليل و هو متعلق بأقم محصله أنه: حقق ذكرك لى بالصلاة، كما يقال: كل لتشبع و اشرب لتروى و هذا هو المعنى السابق الى الذهن من مثل هذا السياق.

قوله تعالى: إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادٌ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ لتعليل لقوله فى الآيه السابقه: «فَاعْبُدْنِي» و لا يناقض ذلك كون «فَاعْبُدْنِي» متفرعا على كلمه التوحيد المذكوره قبله لأن وجوب عبادته تعالى و إن كان بحسب نفسه متفرعا على توحيده لكنه لا- يؤثر أثرا لولا- ثبوت يوم يجزى فيه الإنسان بما عمله و يتميز فيه المحسن من المسىء و المطيع من العاصى فيكون التشريع لغوا و الأمر و النهى سدى لا أثر لهما، و لذلك كانت مقضيه قضاء حتما و تكرر فى كلامه تعالى نفى الريب عنها.

وقوله: أَكَادٌ أُخْفِيهَا ظاهر إطلاق الإخفاء أن المراد يقرب أن أخفيها و أكتمها فلا أخبر عنها أصلا حتى يكون وقوعها أبلغ فى المباغته و أشد فى المفاجأه و لا تأتى إلا فجأه كما قال تعالى: لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْتَةً (الأعراف ١٨٧)، أو يقرب أن لا- أخبر بها حتى يتميز المخلصون من غيرهم فإن أكثر الناس إنما يعبدونه تعالى رجاء فى ثوابه أو خوفا من عقابه جزاء للطاعه و المعصيه، و أصدق العمل ما كان لوجه الله لا طمعا فى جنه أو خوفا من نار و لو أخفى و كتم يوم الجزاء تميز عند ذلك من يأتى بحقيقه العباده من غيره.

وقوله: «لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ» متعلق بقوله: «آتِيَةٌ» و المعنى واضح.

قوله تعالى: فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى الصَّدِّ

الصدق، و الردى الهلاك، و الضميران في «عَنْهَا» و «بِهَا» للساعة، و معنى الصدّ عن الساعة الصرف عن ذكرها بما لها من الشأن و هو أنها يوم تجزى فيه كل نفس بما تسعى، و كذا معنى عدم الإيمان بها هو الكفر بها بما لها من الشأن.

و قوله: وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ كعطف التفسير بالنسبه الى قوله: «مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا» أى إن عدم الإيمان بها مصداق اتباع الهوى و إذ كان مع ذلك صالحا للتعليل أفاد الكلام عليه الهوى لعدم الإيمان بها، و استفيد من ذلك بالالتزام أن الإيمان بالساعة هو الحق المخالف للهوى و المنجى من الردى.

فمحصل معنى الآية أنه إذا كانت الساعة آتية و الجزاء واقعا فلا يصرفنك عن الإيمان بها و ذكرها بما لها من الشأن الذين اتبعوا أهواءهم فصاروا يكفرون بها و يعرضون عن عباده ربهم فلا يصرفنك عنها حتى تنصرف فتهلك.

و لعل الإتيان في قوله: «وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ» بصيغه الماضى مع كون المعطوف عليه بصيغه المضارع للتلويح الى عليه اتباع الهوى لعدم الإيمان.

قوله تعالى: وَ مَا تَلَمَّكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى شروع في وحى الرسالة و قد تمّ وحى النبوه في الآيات الثلاث الماضيه و الاستفهام للتقرير، سئل عليه السلام عما في يده اليمنى و كانت عصاه، ليستميتها و يذكر أوصافها فيتبين أنها جماد لا حياه له حتى يأخذ بتديلها حيه تسعى مكانه في نفسه عليه السلام.

و الظاهر أن المشار اليه بقوله: «تِلْكَ» العوده أو الخشبه، و لو لا ذلك لكان من حق الكلام أن يقال: و ما ذلك بجعل المشار اليه هو الشيء لمكان التجاهل بكونها عصا و إلا لم يستقم الاستفهام كما في قوله: فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَتْ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ (الأنعام: ٧٨).

قوله تعالى: قَالَتْ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَ أَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَ لِي فِيهَا مِآرِبٌ أُخْرَى العصا معروفه و هى من المؤنثات السماعيه، و التوكى و الاتكاء على

العصا الاعتماد عليها، والهش هو خبط ورق الشجره و ضربه بالعصا لتساقط على الغنم فيأكله،و المآرب جمع مأربه مثلثه الرء و هى الحاجه،و المراد بكون مأربه فيها تعلق حوائجه بها من حيث إنها وسيله رفعها.و معنى الآيه ظاهر.

و إطنابه عليه السّلام بالاطاله فى ذكر أوصاف العصا و خواصها قبل:لأن المقام و هو مقام المناجاه و المسارّه مع المحبوب يقتضى ذلك لأن مكالمه المحبوب لذيدّه و لذا ذكر أولاً أنه عصاه ليرتب عليه منافعها العامه و هذه هى النكته فى ذكر أنها عصاه.

و قد قدمنا فى ذيل الآيه السابقه وجهها آخر لهذا الاستفهام و جوابه و ليس الكلام عليه من باب الاطناب و خاصه بالنظر الى جمعه سائر منافعها فى قوله: «وَلِيَّ فِيهَا مَّأْرِبٌ أُخْرَى» .

قوله تعالى: قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى -الى قوله- سِيرَتَهَا الْأُولَى السيره الحاله و الطريقه و هى فى الأصل بناء نوع من السير كجلسه لنوع من الجلوس.

أمر سبحانه موسى أن يلقى عصاه عن يمينه و هو قوله: «قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى» فلما ألقى العصا صارت حيه تتحرك بجهد و جلاده و ذلك أمر غير مترقب من جماد لا حياه له و هو قوله:

«فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى» و قد عبر تعالى عن سعيها فى موضع آخر من كلامه بقوله:

رَأَاهَا تَهْتَرُ كَأَنَّهُا جَانٌّ (القصص ٣١)،و عبر عن الحيه أيضا فى موضع آخر بقوله:

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (الأعراف ١٠٧)،(الشعراء ٣٢)و الثعبان:الحيه العظيمه.

و قوله: قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سِنْعِيْدُهَا سِيرَتَهَا أى حالتها «الأولى» و هى أنها عصا فيه دلالة على خوفه عليه السّلام مما شاهده من حيه ساعيه و قد قصه تعالى فى موضع آخر إذ قال: فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَرُ كَأَنَّهُا جَانٌّ وَلَى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ (القصص ٣١)،و الخوف و هو الأخذ بمقدمات التحرز عن الشر غير الخشيّه التى هى تأثر القلب و اضطرابه فإن الخشيّه رذيله تنافى فضيله الشجاعه بخلاف الخوف الأنبياء عليهم السّلام

يجوز عليهم الخوف دون الخشية كما قال الله تعالى: الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ (الأحزاب/٣٩).

قوله تعالى: وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَىٰ الضم الجمع، والجناح جناح الطائر و اليد و العضد و الابط و لعل المراد به المعنى الأخير ليثول الى قوله فى موضع آخر: «أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ» و السوء كل رداءه و قبح قيل: كنى به فى الآيه عن البرص و المعنى أجمع يدك تحت ابطك أى أدخلها فى جيبك تخرج بيضاء من غير برص أو حاله سيئه أخرى.

و قوله: آيَةٌ أُخْرَىٰ حال من ضمير تخرج و فيه اشاره الى أن صيروره العصا حيه آيه أولى و اليد البيضاء آيه أخرى و قال تعالى فى ذلك: فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ (القصص/٣٢).

قوله تعالى: لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ اللام للتعليل و الجملة متعلقة بمقدر كأنه قيل: أجرينا ما أجرينا على يدك لنريك بعض آياتنا الكبرى.

قوله تعالى: إِذْ هَبَّ إِلَيْنَا فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ هذا هو أمر الرسالة و كانت الآيات السابقة «وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ» الخ؛ مقدمه له.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي -الى قوله- إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا الآيات- و هى إحدى عشره آيه-متن ما سأله موسى عليه السلام ربه حين سجل عليه حكم الرسالة و هى بظاهاها مربوطه بأمر رسالته لأنه أحوج ما يكون إليها فى تبليغ الرسالة الى فرعون و ملائته و إنجاء بنى إسرائيل و إداره أمورهم لا فى أمر النبوه.

و قوله: وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي سؤال له آخر يرجع الى عقده فى لسانه و التنكير فى «عُقْدَةً» للدلاله على النوعيه فله وصف مقدر و هو الذى يلوح من قوله:

«يَفْقَهُوا قَوْلِي» أى عقده تمنع من فقه قولى.

وقوله: وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي سؤال له آخر وهو رابع الأسئلة و آخرها، و الوزير فعيل من الوزر بالكسر فالسكون بمعنى الحمل الثقيل سمى الوزير وزيرا لأنه يحمل ثقل حمل الملك، و قيل: من الوزر بفتحين بمعنى الجبل الذى يلتجأ اليه سمي به لأن الملك يلتجئ اليه فى آرائه و أحكامه.

و بالجمله هو يسأل ربه أن يجعل له وزيرا من أهله و يتبينه أنه هارون أخى و إنما يسأل ذلك لأن الأمر كثير الجوانب متباعده الأطراف لا يسع موسى أن يقوم به وحده بل يحتاج الى وزير يشاركه فى ذلك فيقوم ببعض الأمر فيخفف عنه فيما يقوم به هذا الوزير و يكون مؤيدا لموسى فيما يقوم به موسى و هذا معنى قوله-و هو بمنزله التفسير لجعله وزيرا-: «أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي وَ أَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي» .

فمعنى قوله: «وَ أَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي» سؤال الإشراك فى أمر كان يخصه و هو تبليغ ما بلغه من ربه بادى مره فهو الذى يخصه و لا يشاركه فيه أحد سواه و لا له أن يستنيب فيه غيره و أما تبليغ الدين أو شىء من أجزائه بعد بلوغ بتوسط النبى فليس مما يختص بالنبى بل هو وظيفه كل من آمن به ممن يعلم شيئا من الدين و على العالم أن يبلغ الجاهل و على الشاهد أن يبلغ الغائب و لا معنى لسؤال إشراك أخيه معه فى أمر لا يخصه بل يعمه و أخاه و كل من آمن به من الإرشاد و التعليم و البيان و التبليغ فتبين أن معنى إشراكه فى أمره أن يقوم بتبليغ بعض ما يوحى اليه من ربه عنه و سائر ما يختص به من عند الله كافتراض الطاعة و حجية الكلمه.

و أما الإشراك فى النبوه خاصه بمعنى تلقى الوحي من الله سبحانه فلم يكن موسى يخاف على نفسه التفرد فى ذلك حتى يسأل الشريك و إنما كان يخاف التفرد فى التبليغ و إداره الامور فى إنجاء بنى إسرائيل و ما يلحق بذلك، و قد نقل ذلك عن موسى نفسه فى قوله: وَ أَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلُهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي (القصص ٣٤).

على أنه صح من طرق الفريقين أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم دعا بهذا الدعاء بألفاظه فى حق على عليه السلام

و لم يكن نيبا.

وقوله: كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ظاهر السياق وقد ذكر في الغايه تسييحهما معا و ذكرهما معا أن الجملة غايه لجعل هارون وزيرا له إذ لا تعلق لتسييحهما معا و ذكرهما معا بمضامين الأدعيه السابقه و هي شرح صدره و تيسير أمره و حل عقده من لسانه و يترتب على ذلك أن المراد بالتسييح و الذكر تنزيههما معا لله سبحانه و ذكرهما له بين الناس علنا لا في حال خلوتهما أو في قلبيهما سرا إذ لا تعلق لذلك أيضا بجعله وزيرا بل المراد أن يسبحاه و يذكره معا بين الناس في مجامعهم و نواديهم و أي مجلس منهم حلا فيه و حضرا فتكثر الدعوه الى الإيمان بالله و رفض الشركاء.

و بذلك يرجع ذيل السياق الى صدره كأنه يقول: إن الأمر خطير و قد غرّ هذا الطاغيه و ملأه و أمته عزهم و سلطانهم و نشب الشرك و الوثنيه بأعراقه في قلوبهم و أنساهم ذكر الله من أصله و قد امتلئت أعين بني إسرائيل بما يشاهدونه من عزه فرعون و شوكة ملئه و اندهشت قلوبهم من سطوه آل فرعون و ارتاعت نفوسهم من سلطتهم فنسوه الله و لا يذكرون إلا الطاغيه، فهذا الأمر أمر الرساله و الدعوه في نجاحه و مضيه في حاجه شديده الى تنزيهك بنفى الشريك كثيرا و الى ذكرك بالربوبيه و الالوهيه بينهم كثيرا ليتبصروا فيؤمنوا و هذا أمر لا أقوى عليه و حدى فاجعل هارون وزيرا لي و أيدني به و أشركه في أمرى كي نسبحك كثيرا و نذكرك كثيرا لعل السعى ينجع و الدعوه تنفع.

وقوله: إِنَّكَ كُنْتَ بِنًا بَصِيرًا هو بظاهره تعليل كالحجه على قوله: «كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا» الخ؛ أي إنك كنت بصيرا بي و بأخي منذ خلقتنا و عرفتنا نفك و تعلم أننا لم نزل نعبدك بالتسييح و الذكر ساعيين مجددين في ذلك فإن جعلته وزيرا لي و أيدتني به و أشركته في أمرى تم أمر الدعوه و سبحناك كثيرا و ذكرناك كثيرا، و المراد بقوله: «بِنًا» على هذا هو و أخوه. و يمكن أن يكون المراد بالضمير في «بِنًا» أهله، و المعنى: إنك كنت بصيرا بنا أهل البيت أنا أهل

تسيح و ذكر فإن جعلت هارون أخی، و هو من أهلی، وزیرا لی سبْحناك كثيرا و ذكرناك كثيرا، و هذا الوجه أحسن من سابقه لأنه یفی بیان النكته فی ذكر الأهل فی قوله السابق:

«وَ اجْعَلْ لِي وَ زِيْرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي» أيضا فافهم ذلك.

قوله تعالى: «قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ» إجابته لجميعا و هو إنشاء نظير ما مرّ من قوله: «وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ» .

قوله تعالى: «وَ لَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ» -الى قوله- كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ يذكّره تعالى بمنّ آخر له عليه قبل أن يختاره للنبوه و الرساله و يؤتّى سؤله و هو منه عليه حينما تولد فقد كان بعض الكهنة أخبر فرعون أن سيولد فى بنى إسرائيل مولود يكون بيده زوال ملكه فأمر فرعون بقتل كل مولود يولد فيهم فكانوا يقتلون المواليد الذكور حتى إذا ولد موسى أوحى الله الى أمه أن لا تخاف و ترضعه فإذا خافت عليه من عمال فرعون و جلاوزته تقذفه فى تابوت فنقذفه فى النيل فيلقيه اليم الى الساحل حيال قصر فرعون فيأخذه فيتخذه ابنا له و كان لا عقب له و لا يقتله ثم إن الله سيرده إليها.

ففعلت كما أوحى إليها فلما جرى التابوت بجرىان النيل أرسل بنتا لها و هى أخت موسى أن تجس أخباره فكانت تطوف حول قصر فرعون حتى وجدت نفرا يطلبون بأمر فرعون مرضعا ترضع موسى فدلّتهم أخت موسى على أمها فاسترضعوها له فأخذت ولدها و قرّت به عينها و صدق الله وعده و قد عظم منه على موسى.

فقوله: «وَ لَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ» امتنان بما صنعه به أول عمره و قد تغير السياق من التكلم وحده الى التكلم بالغير لأن المقام مقام إظهار العظمه و هو ينبئ عن ظهور قدرته التامه بتخييب سعى فرعون الطاغية و إبطال كيده لإخماد نور الله و ردّ مكره اليه و تربيته عدوه فى حجره، أما موقف نداء موسى و تكليمه إذ قال: «يَا مُوسَىٰ إِنَّي أَنَا رَبُّكَ» الخ؛ فسياق التكلم وحده أنسب له.

و قوله: إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ المراد به الالهام و هو نوع من القذف فى القلب فى يقظه أو نوم، و الوحى فى كلامه تعالى لا ينحصر فى وحى النبوه كما قال تعالى:

وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّخْلِ (النحل ٦٨/١)، و أما وحى النبوه فالنساء لا- يتنبأ و لا يوحى اليهن بذلك قال تعالى: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ (يوسف ١٠٩/١)

و قوله: «أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ» الى آخر الآيه؛ هو مضمون ما أوحى الى ام موسى و «أَنْ» للتفسير، و قيل: مصدرية متعلق باوحى و التقدير أوحى بأن اقذفيه، و قيل:

مصدرية و الجمله بدل من «مَا يُوحَىٰ» .

و التابوت الصندوق و ما يشبهه و القذف الوضع و الإلقاء و كأن القذف الأول فى الآيه بالمعنى الأول و القذف الثانى بالمعنى الثانى و يمكن أن يكونا معا بالمعنى الثانى بعنايه أن وضع الطفل فى التابوت و إلقاءه فى اليم إلقاء و طرح له من غير أن يعبا بحاله، و اليم البحر: و قيل:

البحر العذب، و الساحل شاطئ البحر و جانبه من البر، و الصنع و الصنيعة الإحسان.

و قوله: فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ أمر عبّر به إشاره الى تحقق وقوعه و مفاده أننا أمرنا اليم بذلك أمرا تكوينيا فهو وقع حتما مقضيا، و كذا قوله: «يَأْخُذُهُ عَدُوٌّ لِي» الخ؛ و هو جزاء مترتب على هذا الأمر.

و معنى الآيتين إذ أوحينا و ألهمنا امك بما يوحى ويلهم و هو أن ضعيه- أو ألقيه فى التابوت و هو الصندوق فألقيه فى اليم و البحر و هو النيل فمن المقضى من عندنا أن يلقىه البحر بالساحل و الشاطئ يأخذه عدو لى و عدو له و هو فرعون لأنه كان يعادى الله بدعوى الالوهيه و يعادى موسى بقتله الأطفال و كان طفلا هذا ما أوحينا الى امك.

و قوله: وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَ لُتْصِيْعَ عَلَيَّ عَيْنِي ظاهر السياق أن هذا الفصل الى قوله: «وَ لَا تَخْزَنَ» فصل ثان تال للفصل السابق متم له و المجموع بيان للمشار اليه بقوله: «وَ لَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ»

فالفصل الأول يقص الوحي الى أمه بقذفه في التابوت ثم في البحر لينتهي الى فرعون فيأخذه عدو الله و عدوه و الفصل الثاني يقص إلقاء المحبه عليه لينصرف فرعون عن قتله و يحسن اليه حتى ينتهي الأمر الى رجوعه الى أمه و استقراره في حجرها لتقر عينها و لا تحزن و قد وعدها الله ذلك كما قال في سورة القصص: **فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ** (القصص ١٣/١)، و لازم هذا المعنى كون الجمله أعنى «**وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ**» الخ؛ معطوفا على قوله: «**أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ**» .

و معنى إلقاء محبه منه عليه كونه بحيث يحبه كل من يراه كأن المحبه الإلهيه استقرت عليه فلا- يقع عليه نظر ناظر إلا- تعلق المحبه بقلبه و جذبته الى موسى، ففي الكلام استعاره تخيليه و فى نكير المحبه إشاره الى فخامتها و غرابه أمرها.

و اللام فى قوله: «**وَ لَتُضَيِّنَّ عَلَيَّ عَيْنِي**» للغرض، و الجمله معطوفه على **مَقْدَرٍ وَ التَّقْدِيرُ** ألقى عليك محبه منى لامور كذا و كذا و ليحسن اليك على عيني أى بمرأى منى فإنى معك أراقب حالك و لا أغفل عنك لمزيد عنايتى بك و شفقتى عليك. و ربما قيل: إن المراد بقوله:

«**وَ لَتُضَيِّنَّ عَلَيَّ عَيْنِي**» الإحسان اليه بإرجاعه الى أمه و جعل تربيته فى حجرها.

و كيف كان فهذا اللسان و هو لسان كمال العنايه و الشفقه يناسب سياق التكلم وحده و لذا عدل اليه من لسان التكلم بالغير.

و

قوله: **إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ** الظرف- على ما يعطيه السياق- متعلق بقوله:

«**لَتُضَيِّنَنَّ**» و المعنى: و ألقى عليك محبه منى يحبك كل من يراك لكذا و كذا و ليحسن اليك بمرأى منى و تحت مراقبتى فى وقت تمشى اختك لتجوس خبرك و ترى ما يصنع بك فتجد عمال فرعون يطلبون مرضعا ترضعك فتقول لهم- و الاستقبال فى الفعل لحكايه الحال الماضيه- عارضه عليهم: هل أدلكم على من يكفله بالحضانه و الإرضاع فرددناك الى امك كى تسر و لا

تحن.

و قوله: فَرَجَعْنَاكَ بِصَيْغِهِ المتكلم مع الغير رجوع الى السياق السابق و هو التكلم بالغير و ليس بالثفات.

قوله تعالى: وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، إشاره الى مَنْ أَوْ مِنْ أُخْرَى ملحقه بالمتين السابقين و هو قصه قتله عليه السلام القبطى و ائتمار الملاء أن يقتلوه و فراره من مصر و تزوجه هناك بنت شعيب النبى و بقائه عنده بين أهل مدين عشر سنين أجيرا يرمى غنم شعيب، و القصه مفصلة مذكوره فى سوره القصص.

فقوله: وَقَتَلْتَ نَفْسًا هُوَ قَتَلَهُ القبطى بمصر، و قوله: «فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ» و هو ما كان يخافه أن يقتله الملاء من آل فرعون فأخرجه الله الى أرض مدين فلما أحضره شعيب و ورد عليه و قصص عليه القصص قال: لا تخف نجوت من القوم الظالمين.

و قوله: وَفَتْنَاكَ فُتُونًا أَى ابتليناك و اختبارناك ابتلاء و اختبارا، قال الراغب فى المفردات: أصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، و استعمال فى إدخال الإنسان النار، قال: «يَوْمَ هُمْ عَلَى الدَّارِ يُفْتَنُونَ» «ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ» أَى عذابكم، قال: و تاره يسمون ما يحصل عنه العذاب فتنه فيستعمل فيه نحو قوله: «أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا» و تاره فى الاختبار، نحو «وَفَتْنَاكَ فُتُونًا» و جعلت الفتنه كالبلاء فى أنهما تستعملان فيما يدفع اليه الإنسان من شدة و رخاء و هما فى الشدة أظهر معنى و أكثر استعمالا و قد قال فيهما: «وَنَبَلُّوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً» انتهى موضع الحاجه من كلامه.

و قوله: فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ متفرع على الفتنه. و قوله: «ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى» لا يبعد أن يستفاد من السياق أن المراد بالقدر هو المقدر و هو ما حصّله من العلم و العمل عن الابتلاءات الوارده عليه فى نجاته من الغم بالخروج من مصر و لبثه فى أهل مدين.

ص: ١٦٩

و على هذا فمجموع قوله: وَ قَتَلْتَ نَفْسًا فَجَجَيْنَاكَ -الى قوله- يَا مُوسَىٰ مِنْ وَاحِدٍ وَ هُوَ أَنَّهُ ابْتَلَىٰ ابْتِلَاءً بَعْدَ ابْتِلَاءٍ حَتَّىٰ جَاءَ عَلِيٌّ قَدْرًا وَ هُوَ مَا اِكْتَسَبَهُ مِنْ فَعْلِيهِ الْكَمَالِ.

قوله تعالى: وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي الاصطناع افتعال من الصنع بمعنى الإحسان -على ما ذكروا- يقال: صنعه أى أحسن اليه و اصطنعه أى حقق إحسانه اليه و ثبته فيه، و نقل عن القفال أن معنى الاصطناع أنه يقال: اصطنع فلان فلانا إذا أحسن اليه حتى يضاف اليه فيقال: هذا صنيع فلان و خريجه. انتهى.

و على هذا يؤول معنى اصطناعه إياه الى اخلاصه تعالى إياه لنفسه و يظهر موقع قوله:

«لِنَفْسِي» أتم ظهور و أما على المعنى الأول فالأنسب بالنظر الى السياق أن يكون الاصطناع مضمنا معنى الاخلاص، و المعنى على أى حال و جعلتك خالصا لنفسى فيما عندك من النعم فالجميع منى و إحسانى و لا يشاركنى فيك غيرى فأنت لى مخلصا و ينطبق ذلك على قوله:

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا (مريم ٥١).

قوله تعالى: اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآيَاتِنَا وَ لَا تَبَيِّنَا فِي ذِكْرِي تَجْدِيدًا لِلأَمْرِ السَّابِقِ خَطَابًا لِمُوسَىٰ وَ حده فى قوله: «اذْهَبْ إِلَيَّ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ» بتغيير ما فيه بإلحاق أخى موسى به لتغيير ما فى المقام بإيتاء سؤال موسى أن يشرك هارون فى أمره فوجه الخطاب ثانيا اليهما معا.

و أمرهما أن يذهبا بآياته و لم يؤت وقتئذ إلا آيتين وعد جميل بأنه مؤيد بغيرهما و سيئاته حين لزومه، و أما القول بأن المراد هما الآيتان و الجمع ربما يطلق على الآيتين، أو أن كلا من الآيتين ينحل الى آيات كثيرة مما لا ينبغى الركون اليه.

و قوله: وَ لَا تَبَيِّنَا فِي ذِكْرِي نهى عن الونى و هو الفتور، و الأنسب للسياق السابق أن يكون المراد بالذكر الدعوه الى الايمان به تعالى وحده لا ذكره بمعنى التوجه اليه قلبا أو لسانا كما قيل.

قوله تعالى: اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ جمعهما في الامر ثانيا فخطب موسى و هارون معا و كذلك في النهى الذى قبله فى قوله: «وَلَا تَتَّبِعُوا» و قد مهّد لذلك يالحاق هارون بموسى فى قوله: «اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ» و ليس ببعيد أن يكون نقلا لمشافهه اخرى و تخاطب وقع بينه تعالى و بين رسوليّه مجتمعين أو متفرّقين بعد ذاك الوقف و يؤيده سياق قوله بعد: «قَالَ رَبُّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا» الخ.

و المراد بقوله: فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا المنع من أن يكلماه بخشونه و عنف و هو من أوجب آداب الدعوه.

و قوله: لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ رجاء لتذكره أو خشيته و هو قائم بمقام المحاوره لا به تعالى العالم بما سيكون، و التذكر مطاوعه التذكير فيكون قبولا و التزاما لما تقتضيه حجه المذكر و إيمانه به و الخشيه من مقدمات القبول و الإيمان فمآل المعنى لعله يؤمن أو يقرب من ذلك فيجيبكم الى بعض ما تسألانه.

قوله تعالى: قَالَ رَبُّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ الفرط التقدم و المراد به بقرينه مقابلته الطغيان أن يعجّل بالعقوبه و لا يصبر الى إتمام الدعوه و إظهار الآيه المعجزه، و المراد بأن يطغى أن يتجاوز حدّه فى ظلمه فيقابل الدعوه بتشديد عذاب بنى إسرائيل و الاجترأ على ساحه القدس بما كان لا يجترئ عليه قبل الدعوه و نسبه الخوف اليهما لا بأس بها كما تقدم الكلام فيها فى تفسير قوله تعالى: «قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ» .

قوله تعالى: قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَ أَرَىٰ أَى لَا تخافا من فرطه و طغيانه إننى حاضر معكما أسمع ما يقال و أرى ما يفعل فأنصركما و لا- أخذلكما فهو تأمين بوعد النصره، فقوله: «لَا- تَخَافَا» تأمين، و قوله: «إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَ أَرَىٰ» تعليل للتأمين بالحضور و السمع و الرؤيه، و هو الدليل على أن الجملة كناية عن المراقبه و النصره و إلا- فنفس الحضور و العلم يعم جميع الأشياء و الأحوال.

قوله تعالى: فَأَيُّهَا فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ الى آخر الآية؛ جدد أمرهما بالذهاب الى فرعون بعد تأمينهما و وعدهما بالحفظ و النصر و بين تمام ما يكلفان به من الرسالة و هو أن يدعوا فرعون الى الإيمان و الى رفع اليد عن تعذيب بنى إسرائيل و إرسالهما معهما فكلما تحوّل حال فى المحاوره جدد الأمر حسب ما يناسبه و هو قوله أولا لموسى: «اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ»، ثم قوله ثانيا لما ذكر أسئلته و أجيب إليها: «اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ» «اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ»، ثم قوله لما ذكر خوفهما و أجيبا بالأمن: «فَأَيُّهَا فَقُولَا» الخ؛ و فيه تفصيل ما عليهما أن يقولا له.

فقوله: «فَأَيُّهَا فَقُولَا» إِذَا رَسُولَا رَبِّكَ» تبلغ أنهما رسولا الله، و فى قوله بعد: «وَ السَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ» الخ؛ دعوته الى بقية أجزاء الإيمان.

و قوله: فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَا تُعَذِّبْهُمْ تكليف فرعى متوجه الى فرعون.

و قوله: قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ استناد الى حجه تثبت رسالتهما و فى تنكير الآية سكوت عن العدد و إشاره الى فخامه أمرها و كبر شأنها و وضوح دلالتها.

و قوله: وَ السَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ كالتحية للوداع يشار به الى تمام الرسالة و يبين به خلاصه ما تتضمنه الدعوة الدينيه و هو أن السلامه منبسط على من اتبع الهدى و السعاده لمن اهتدى فلا- يصادف فى مسير حياته مكروها يكرهه لا فى دنيا و لا فى عقبى.

و قوله: إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّىٰ فى مقام التعليل لسابقه أى إنما نسلّم على المهتدين فحسب لأن الله سبحانه أوحى الينا أن العذاب و هو خلاف السلام على من كذب بآيات الله-أو بالدعوة الحقه التى هى الهدى-و تولى

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عَلَّمَهَا
 عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَدِّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
 فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ
 وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى
 (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ
 يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحَى (٥٩) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَاحَكُمْ بِعَذَابٍ
 وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ
 بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى (٦٣) فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صِيفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى (٦٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ
 تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِجَابُهُمْ وَعَصَى يُهْمُ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ إِنَّهَا تَسْمَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي
 نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَالْقَى فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَبَّ نَعْوًا إِمَّا صَبَّ نَعْوًا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا
 يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ
 لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي هُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ آيَاتُنَا أَسَدُّ عَذَابًا وَ
 أَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَيْنَا مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا
 بِرَبِّنَا لِنُغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا
 يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
 فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦) وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا
 تَخْشَى (٧٧) فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا عَشَيْتُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩)

قوله تعالى: قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَىٰ حكاية لمحاورة موسى و فرعون و قد علم مما نقله تعالى من أمره تعالى لهما أن يذهبا الى فرعون و يدعوا الى التوحيد و يكلماه فى إرسال بنى إسرائيل معهما، ما قال له فهو محذوف و ما نقل من كلام فرعون جوابا دالّ عليه.

فقول فرعون «فَمَنْ رَبُّكُمْ؟» ليس إنكارا لوجود خالق الكل و لا- إنكار أن يكون له إله كما يظهر من قوله: وَيَذَرَكْ وَ آلِهَتِكَ (الأعراف ١٢٧)، و إنما هو طلب منه للمعرفة بحال من اتخذاه إلهها و ربا من هو غيره؟ و هذا معنى ما تقدم أن فرعون يتغافل فى قوله هذا عن دعوتهما الى الله سبحانه و هما فى أول الدعوه فهو يقدر و لو كتقدير المتجاهل أن موسى و أخاه يدعوانه الى بعض الآلهة التى يتخذ فيهما بينهم ربا من دون الله فيسأل عنه، و قد كان من دأب الوثنيين

التفنن فى اتخاذ الآلهة يتخذ كل منهم من يهواه إلهها و ربما بدل إلهها من إله فتلك طريقتهم و سيأتى قول الملائكة «وَيَذُوبًا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى» نعم، ربما تفوه عامتهم ببعض ما لا يوافق اصولهم كنسبه الخلق و التدبير الى نفس الأصنام دون أربابها.

قوله تعالى: قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿١٠٠﴾ سياق الآية - و هى واقعه فى جواب سؤال فرعون «فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَىٰ» - يعطى أن «خَلَقَهُ» بمعنى اسم المصدر و الضمير للشىء فالمراد الوجود الخاص بالشىء.

و الهدايه إراءه الشىء الطريق الموصل الى مطلوبه أو إيصاله الى مطلوبه و يعود المعنيان فى الحقيقة الى معنى واحد و هو نوع من إيصال الشىء الى مطلوبه إما بإيصاله اليه نفسه أو الى طريقه الموصل اليه. و قد اطلق الهدايه من حيث المهدي و المهدي اليه، و لم يسبق فى الكلام إلا الشىء الذى اعطى خلقه فالظاهر أن المراد هدايه كل شىء - المذكور قبلا - الى مطلوبه و مطلوبه هو الغايه التى يرتبط بها وجوده و ينتهى إليها و المطلوب هو مطلوبه من جهه خلقه الذى اعطيه و معنى هدايته له إليها تسييره نحوها كل ذلك بمناسبه البعض للبعض.

فيؤول المعنى الى إلقاءه الرابطه بين كل شىء بما جهز به فى وجوده من القوى و الآلات و بين آثره التى تنتهى به الى غايه وجوده فالجنين من الإنسان مثلا و هو نطفه مصوره بصوره مجهز فى نفسه بقوى و أعضاء تناسب من الأفعال و الآثار ما ينتهى به الى الإنسان الكامل فى نفسه و بدنه فقد اعطيت النطفه الإنسانيه بما لها من الاستعداد خلقها الذى يخصها و هو الوجود الخاص بالإنسان ثم هديت و سيرت بما جهزت به من القوى و الأعضاء نحو مطلوبها و هو غايه الوجود الإنساني و الكمال الأخير الذى يختص به هذا النوع.

قوله تعالى: قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿١٠١﴾ قيل: البال فى الأصل بمعنى الفكر و منه قولهم: خطر ببالي كذا، ثم استعمل بمعنى الحال، و لا يثنى و لا يجمع، و قولهم: بالات، شاذ.

فقوله: ﴿فَمَا بِآلِ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ أى ما حال الامم و الأجيال الإنسانية الماضيه التى ماتوا و فنوا لا خبر عنهم و لا أثر كيف يجزون بأعمالهم و لا عامل فى الوجود و لا عمل و ليسوا اليوم إلا أحاديث و أساطير؟ فالآيه نظيره ما نقل عن المشركين فى قوله: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَمَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (الم السجده ١٠)، و ظاهر الكلام أنه مبنى على الاستبعاد من جهة انتفاء العلم بهم بأعمالهم للموت و الفوت كما يشهد به جواب موسى عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿قَالَ عَلِمَهَا﴾ عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ أَجَابَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ سُؤَالِهِ بِإِثْبَاتِ عِلْمِهِ تَعَالَى الْمَطْلُوقِ بِتَفَاصِيلِ تِلْكَ الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ فَقَالَ:

«عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي» فَأَطْلَقَ الْعِلْمَ بِهَا فَلَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ مِنْ أَشْخَاصِهِمْ وَ أَعْمَالِهِمْ وَ جَعَلَهَا عِنْدَ اللَّهِ فَلَا تَغِيْبُ عَنْهُ وَ لَا تَفُوتُهُ، وَ قَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بِاقٍ﴾ ثُمَّ قَيَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿فِي كِتَابٍ﴾ - وَ كَأَنَّهُ حَالٌ مِنَ الْعِلْمِ - لِيُؤَكِّدَ بِهِ أَنَّهُ مُثَبَّتٌ مَحْفُوظٌ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَغَيَّرَ عَنْ حَالِهِ وَ قَدْ نَكَرَ الْكِتَابَ لِيَدُلَّ بِهِ عَلَى فَخَامِهِ أَمْرَهُ مِنْ جِهَةِ سَعَةِ إِحْاطَتِهِ وَ دَقَّتْهَا فَلَا يَغَادِرُ صَغِيرَهُ وَ لَا كَبِيرَهُ إِلَّا أَحْصَاهَا.

فيؤول معنى الكلام الى أن جزاء القرون الاولى إنما يشكل لو جهل و لم يعلم بها لكنها معلومه لربى محفوظه عنده فى كتاب لا يتطرق اليه خطأ و لا تغيير و لا غيبه و زوال.

و قوله: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ نفى للجهل الابتدائى و الجهل بعد العلم على ما نقل عن بعضهم و لكن الظاهر أن الجمله مسوقه لنفى الجهل بعد العلم بقسميه فإن الضلال هو قصد الغايه بسلك سبيل لا يؤدى إليها بل الى غيرها فيكون الضلال فى العلم هو أخذ الشىء مكان غيره و إنما يتحقق ذلك بتغير المعلوم من حيث هو معلوم عما كان عليه فى العلم أولاً، و النسيان خروج الشىء من العلم بعد دخوله فيه فهما معا من الجهل بعد العلم، و نفيه هو المناسب لإثبات العلم أولاً فيفيد مجموع الآيه أنه عالم بالقرون الاولى و لا سبيل اليه للجهل بعد العلم فيجازيهم على ما علم.

قوله تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا - الى قوله - لآيَاتٍ لِأُولَى النَّهْيِ قد عرفت أن لسؤاله «فَمَا بِالْقُرُونِ الْأُولَى؟» ارتباطا بما وصف الله به من الهدية العامه التي منها هدايه الإنسان الى سعادته فى الحياه و هو الحياه الخالده الاخرويه و كذا الجواب عنه بقوله: «عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي» السخ؛ مرتبط فقوله: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا» مضى فى الحديث عن الهدايه العامه و ذكر شواهد بارزه فى ذلك.

و الباء فى «به» للسببيه و فيه تصديق السببيه و المسببيه بين الامور الكونيه، و المراد بكونه النبات أزواجا كونها أنواعا و أصنافا متقاربه كما فسره القوم أو حقيقه الازدواج بين الذكور و الإناث من النبات و هى من الحقائق التي تبه عليها الكتاب العزيز.

و قوله: فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ لِبَاتٍ شَتَّى فِيهِ التفتات من الغيبه الى التكلم بالغير، قيل: و الوجه فيه ما فى هذا الصنع العجيب و إبداع الصور المتشتمه و الأزواج المختلفه على ما فيها من تنوع الحياه من ماء واحد، من العظمه و الصنع العظيم لا يصدر إلا من العظيم و العظماء يتكلمون عنهم و عن غيرهم من أعوانهم و قد ورد الالتفات فى معنى إخراج النبات بالماء فى مواضع من كلامه تعالى كقوله: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا (فاطر ٢٧)، و قوله: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ (النمل ٦٠)، و قوله: وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ لِبَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ (الأنعام ٩٩).

و قوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولَى النَّهْيِ النهى جمع نهيه بالضم فالسكون:

و هو العقل سَمَى به لنهيه عن اتباع الهوى.

قوله تعالى: مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَ مِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى الضمير للأرض و الآيه تصف ابتداء خلق الإنسان من الأرض ثم إعادته فيها و صيرورته جزء منها ثم إخراجه منها للرجوع الى الله ففيها دوره الكامله من هدايه الإنسان.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَ أَبِي الظاهر أن المراد بالآيات العصا و اليد و سائر الآيات التي أراها موسى فرعون أيام دعوته قبل الغرق كما مرّ في قوله:

«أَذْهَبَ أَنْتَ وَ أَحْوَكُ بآيَاتِي» فالمراد جميع الآيات التي أريها و إن لم يؤت بها جميعا في أول الدعوه كما أن المراد بقوله: «فَكَذَّبَ وَ أَبِي» مطلق تكذيبه و إباطه لا ما أتى به منهما في أول الدعوه.

قوله تعالى: قَالَ أَ جِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى الضمير لفرعون و قد اتهم موسى أولا بالسحر لثلاثا يلزمه الاعتراف بصدق ما جاء به من الآيات المعجزه و حقيقه دعوته، و ثانيا بأنه يريد إخراج القبط من أرضهم و هي أرض مصر، و هي تهمة سياسيه يريد بها صرف الناس عنه و إثارة أفكارهم عليه بأنه عدو يريد أن يطردهم من بيئتهم و وطنهم بمكيدته و لا حياه لمن لا بيئه له.

قوله تعالى: فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لَا أَنْتَ مَكَانًا سِوَى الظاهر كما يشهد به الآيه التاليه أن الموعد اسم زمان و إخلاف الوعد عدم العمل بمقتضاه، و مكان سوى بضم السين أى واقع فى المنتصف من المسافه أو مستوى الأطراف من غير ارتفاع و انخفاض، قال فى المفردات: و مكان سوى و سواء وسط، و يقال: سواء و سوى و سوى-بضم السين و كسرهما- أى يستوى طرفاه، و يستعمل ذلك وصفا و ظرفا، و أصل ذلك مصدر. انتهى.

و المعنى: فاقسم لناأتينك بسحر يماثل سحرك لقطع حجّتك و إبطال إرادتك فاجعل بيننا و بينك زمان وعد لا نخلفه فى مكان بيننا أو فى مكان مستوى الأطراف أو اجعل بيننا و بينك مكانا كذلك.

قوله تعالى: قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحَى الضمير لموسى و قد جعل الموعد يوم الزينه، و يظهر من السياق أنه كان يوما لهم يجرى بينهم مجرى

العید، و يظهر من لفظه أنهم كانوا يتزينون فيه و يزینون الأسواق، و حشر الناس -على ما ذكره الراغب- إخراجهم عن مقرهم و إزعاجهم عنه الى الحرب و نحوها، و الضحى وقت انبساط الشمس من النهار.

□ و قوله: **وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى** معطوف على الزينه أو على يوم بتقدير اليوم أو الوقت و نحوه و المعنى قال موسى موعدكم يوم الزينه و يوم حشر الناس فى الضحى، و ليس من لبعيد أن يكون مفعولاً -معه و المعنى موعدكم يوم الزينه مع حشر الناس فى الضحى و يرجع لى الاشتراط. و إنما اشترط ذلك ليكون ما يأتى به و يأتون به على أعين الناس فى ساعه بصره.

□ قوله تعالى: **فَتَيَوَّلَىٰ مُدْبِرًا نَّظِيرًا كَيْدَهُ ثَمَّ أَتَىٰ** ظاهر السياق أن المراد بتولى فرعون انصرافه عن مجلس المواعده للتهيؤ لما واعد، و المراد بجمع كيده جمع ما يكاد به من السحره و سائر ما يتوسل به الى تعميهِ الناس و التلبيس عليهم و يمكن أن يكون المراد بجمع كيده جمع ذوى كيده بحذف المضاف و المراد بهم السحره و سائر عماله و أعوانه و قوله: **«ثُمَّ أَتَىٰ»** أى ثم أتى الوعد و حضره.

□ قوله تعالى: **قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَبَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ** الويل كلمه عذاب و تهديد، و الأصل فيه معنى العذاب و معنى ويلكم عذبكم الله عذاباً، و السحت بفتح السين استيصال الشعر بالحلق و الإسحات الاستئصال و الإهلاك.

□ و قوله: **قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا** ضمائر الجمع غيبه و خطاباً لفرعون و كيده و هم السحره و سائر أعوانه على موسى عليه السلام و قد مرّ ذكرهم فى الآيه السابقه، و أما رجوعها الى السحره فقط فلم يسبق لهم ذكر و لا دل عليهم دليل من جهة اللفظ.

وقوله: **فَيْسُحِّتَكُم بِعَذَابٍ تَفْرِيعٍ عَلَى النَّهْيِ أَى لَا تَشْرَكُوا بِاللَّهِ حَتَّى يَسْتَأْصِلَكُم وَيَهْلِكَكُم بِعَذَابٍ بِسَبَبِ شُرُكِكُمْ**، و تنكير العذاب للدلاله على شدته و عظمته.

قوله: **وَ قَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى الْخَيْبَةَ الْيَأْسَ مِنْ بُلُوغِ التَّيْجِ الْمَأْمُولِ** و قد وضعت الجمله فى الكلام وضع الأصل الكلى الذى يتمسك به و هو كذلك فإن الافتراء من الكذب و سببته سببه كاذبه و الأسباب الكاذبه لا تهتدى الى مسببات حقه و آثار صادقه فتأنيجها غير صالحه للبقاء و لا هي تسوق الى سعادته فليس فى عاقبتها إلا الشؤم و الخسران فالآيه أشمل معنى من قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ** (يونس ٦٩).

لإثباتها الخيبه فى مطلق الافتراء بخلاف الآيه الثانيه و قد تقدم كلام فى أن الكذب لا يفلح فى ذيل قوله: **وَ جَاءُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ** (يوسف ١٨) فى الجزء الحادى عشر من الكتاب.

قوله تعالى: **فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسْرُوا النَّجْوَى** -الى قوله- **مَنْ اسْتَعْلَى التَّنَازَعِ قَرِيبَ الْمَعْنَى مِنَ الْاِخْتِلَافِ**، من النزاع بمعنى جذب الشىء من مقره لينقلع نه و التنازع يتعدى بنفسه كما فى الآيه و بفى كقوله: **فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ (النساء ٥)**.

و النجوى الكلام الذى يسار به، و أصله مصدر بمعنى المناجاة و هى المسارّه فى الكلام، و المثلى مؤنث أمثل كفضلى و أفضل و هو الأقرب الأشبه و الطريقه المثلى السنه التى هى أقرب من الحق أو من امنيتهم و هى سنه الوثنيه التى كانت مصر اليوم تدار بها و هى عباده الآلهه و فى مقدمتها فرعون إله القبط، و الإجماع -على ما ذكره الراغب- جمع الشىء عن فكر و ترو، و الصف جعل الأشياء على خط مستو كالإنسان و الاشجار و نحو ذلك و يستعمل مصدرا و اسم مصدر و قوله: **«ثُمَّ اتَّوَا صَفًّا»** يحتمل أن يكون مصدرا، و أن يكون بمعنى صافين أى اتتوه فاتحاد و اتفاق من دون أن تختلفوا و تفرقوا فتضعفوا و كونوا كيد واحده عليه.

وقوله: وَ أَسْرُوا النَّجْوَى^١ إشارة الى مسارتهم فى أمر موسى و اجتهادهم فى رفع الاختلاف الناشئ من استماعهم وعظ موسى عليه السلام، وقوله: «قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ يُرِيدُ أَنْ يَسْحَرَ بِالنَّجْوَى الَّذِي أَسْرَوْهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَقَدْ مَرَّ تَوْضِيحٌ مَعْنَاهُ».

وقوله: إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ الْقِرَاءَةُ الْمَعْرُوفَةُ «إِنَّ» بِكسْرِ الهمزة و سكون النون و هى «إِنَّ» المشبهة بالفعل خفت فالغيت عن العمل بنصب الاسم و رفع الخبر.

قوله تعالى: قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى إِلَى آخِرِ الْآيَةِ التَّالِيَةِ، الْحَبَالُ جَمْعُ حَبْلٍ وَ الْعَصَى جَمْعُ عَصَا، وَ قَدْ كَانَ السِّحْرُ اسْتَعْمَلَهَا لِيُصَوِّرُوا بِهَا فِى أَعْيُنِ النَّاسِ حَيَاتٍ وَ ثَعَابِينَ أَمْثَالَ مَا كَانَ يَظْهَرُ مِنْ عَصَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقوله: فَإِذَا جَابَلَهُمْ وَ عَصَيْتُهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فِيهِ حَذْفٌ، وَ التَّقْدِيرُ: فَأَلْقُوا إِذَا جَابَلَهُمْ وَ عَصَيْتُهُمْ، الْخ؛ وَ إِنَّمَا حَذْفٌ لِتَأْكِيدِ الْمَفْاجَأَةِ كَأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قَالَ لَهُمْ: بَلِّغُوا، لَمْ يَلْبَثْ دُونَ أَنْ شَاهَدَ مَا شَاهَدَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَوَسَّطَ هُنَاكَ إِلْقَاؤُهُمُ الْحَبَالَ وَ الْعَصَى.

و الذى خَيَّلَ إِلَى مُوسَى خَيَّلَ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ النَّاطِرِينَ مِنَ النَّاسِ كَمَا ذَكَرَهُ فِى مَوْضِعٍ آخَرَ سَيَحْرُوْا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَبْرَهَبُوهُمْ (الأعراف ١١٦)، غَيْرَ أَنَّهُ ذَكَرَ هَاهُنَا مُوسَى مِنْ بَيْنَهُمْ وَ كَانَ ذَلِكَ لِيَكُونَ تَمْهِيدًا لِمَا فِى الْآيَةِ التَّالِيَةِ.

قوله تعالى: فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خَيْفَهُ مُوسَى قَالَ الرَّاعِبُ فِى الْمَفْرَدَاتِ:

الوجس الصوت الخفى، و التوجس التسمع، و الإيجاس وجود ذلك فى النفس، قال:

«فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خَيْفَهُ» فَالْوَجَسُ هُوَ حَالُهُ تَحْصُلُ مِنَ النَّفْسِ بَعْدَ الْهَاجَسِ لِأَنَّ الْهَاجَسَ مَبْتَدَأُ التَّفَكِيرِ ثُمَّ يَكُونُ الْوَجَسُ الْخَاطِرَ. انْتَهَى.

فإيجاس الخيفة فى النفس إحساسها فيها و لا يكون إلا خفيفا خفيا لا يظهر أثره فى ظاهر البشره و يتبع وجوده فى النفس ظهور خاطر سوء فيها من غير إذعان بما يوجبه من تحدر

و تحرّز و إلا- لظهر أثره في ظاهر البشره و عمل الإنسان قطعاً، و الى ذلك يومئ تنكير الخيفه كأنه قيل: أحسّ في نفسه نوعاً من الخوف لا يعبا به، و من العجيب قول بعضهم: إن التنكير للتفخيم و كان الخوف عظيماً و هو خطأ و لو كان كذلك لظهر أثره في ظاهر بشرته و لم يكن لتقييد الخيفه بكونها في نفسه وجه.

فظهر أن الخيفه التي أوجسها في نفسه كانت إحساساً آتياً لها نظيره الخاطر الذي عقبها فقد خطرت بقلبه عظمه سحرهم و أنه بحسب التخيل مماثل أو قريب من آيته فأوجس الخيفه من هذا الخطور و هو كنفس الخطور لا أثر له.

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ - الى قوله - حَيْثُ أَتَى نَهَى بداعى التقويه و التأييد و قد علله بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ فالمعنى: إنك فوقهم من كل جهه و إذا كان كذلك لم يضر ك شىء من كيدهم و سحرهم فلا موجب لأن تخاف.

و قوله: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَيَّرُوا خِمًّْا﴾ أمر باللقاء العصا لتكون حيه و تلقف ما صنعوا بالسحر و التعبير عن العصا بما في يمينك من ألطف التعبير و أعمقه فإن فيه إشاره الى أن ليس للشىء من الحقيقه إلا ما أراد الله فإن أراد لما في اليمين أن يكون عصا كان عصا و إن أراد أن يكون حيه كان حيه فما له من نفسه شىء ثم التعبير عن حياتهم و ثعابينهم بقوله: ﴿مَا صَنَعُوا﴾ يشير الى أن المغالبه واقع بين تلك القدره المطلقه التي تتبعها الأشياء في أساميتها و حقائقها و بين هذا الصنع البشرى الذي لا يعدو أن يكون كيدا باطلا و كلمه الله هي العليا و الله غالب على أمره فلا ينبغي له أن يخاف.

و في هذه الجملة أعنى قوله: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ بيان لكونه عليه السلام أعلى بحسب ظاهر الحس كما أن في ذيله بيانا لكونه أعلى بحسب الحقيقه إذ لا حقيقه للباطل فمن كان على الحق فلا ينبغي له أن يخاف الباطل على حقه.

و قوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ تعليل بحسب اللفظ لقوله:

«تَلَقَّفَ مَا صَيَّنَعُوا» و «مَا» مصدرية أو موصولة و بيان بحسب الحقيقة لكونه عليه السلام أعلى لأن ما معهم كيد ساحر لا حقيقة له و ما معه آية معجزه ذات حقيقة و الحق يعلو و لا يعلو عليه.

و قوله: «وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى» بمنزله الكبرى لقوله: «إِنَّمَا صَيَّنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ» فإن الذى يناله الساحر بسحره خيال من الناظرين باطل لا حقيقة له و لا فلاح و لا سعادة حقيقه يظفر بها فى أمر موهوم لا واقع له.

فقوله: «وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى» نظير قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (الأنعام ١١٤٤)»، وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ (المائدة ١٠٨)، و غيرهما و الجميع من فروع إن الباطل كَانَ زَهُوقًا (الإسراء ٨١)، وَ يَمِحُ اللَّهُ البَاطِلَ وَ يُحِقُّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ (الشورى ٢٤)، فلا يزال الباطل يزيد أمورا و يشبهها بالحق و لا يزال الحق يمحوه و يلقف ما أظهره لوهم الناظرين سريعا أو بطيئا فمثل عصا موسى و سحر الساحر يجرى فى كل باطل يبدو و حق يلغفه و يزهقه، و قد تقدّم فى تفسير قوله: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا (الرعد ١٧)»، كلام نافع فى المقام.

قوله تعالى: «فَأَلْقَى السَّحْرَهُ سَاجِدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى» فى الكلام حذف و إيجاز و التقدير فألقى ما فى يمينه فتلقف ما صنعوا فالقى السحره و فى التعبير بقوله: «فَأَلْقَى السَّحْرَهُ» بالبناء للمفعول دون أن يقال: فسجد السحره إشارة الى إذلال القدره الإلهيه لهم و غشيان الحق بظهوره إياهم بحيث لم يجدوا بدًا دون أن يخروا على الأرض ساجدا كأنهم لا إرادته لهم فى ذلك و إنما ألقاهم ملق غيرهم دون أن يعرفوه من هو؟.

و قولهم: «آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى» شهادة منهم بالإيمان و إنما أضافوه تعالى الى موسى و هارون ليكون فيه الشهاده على ربوبيته تعالى و رساله موسى و هارون معا و فصل قوله: «قَالُوا» الخ؛ من غير عطف لكونه كالجواب لسؤال مقدر كأنه قيل: فما قالوا فقيل:

قالوا، الخ.

ص: ١٨٤

قوله تعالى: **قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛** الكبير الرئيس و قطع الأيدي و الأرجل من خلاف أن يقطع اليد اليمنى و الرجل اليسرى و التصليب تكثير الصلب و تشديده كالتقطع الذي هو تكثير القطع و تشديده و الجذوع جمع جذع و هو ساقه النخل.

و قوله: **«آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ»** تهديد من فرعون للسحره حيث آمنوا و الجملة استفهاميه محذوفه الأداة و الاستفهام للإنكار أو خبريه مسوقه لتقرير الجرم، و قوله: **«إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ»** رمى لهم بتوطئه سياسيه على المجتمع القبطى فى أرض مصر كأنهم تواطئوا مع رئيسهم أن يتبأ موسى فيدعو أهل مصر الى الله و يأتى فى ذلك بسحر فيستنصروا بالسحره حتى إذا حضروه و اجتمعوا على مغالبتة تخاذلوا و انهزموا عنه و آمنوا و اتبعتهم العامه فذهبت طريقتهم المثلى من بينهم و أخرج من لم يؤمن منهم قال تعالى فى موضع آخر: **إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا** (الأعراف ١٢٣)، و إنما رماهم بهذا القول تهييجا للعامه عليهم كما رمى موسى عليه السلام بمثله فى أول يوم.

و قوله: **فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ،** إيعاد لهم و تهديد بالعذاب الشديد و لم يذكر تعالى فى كلامه أنجز فيهم ذلك أم لا؟

قوله تعالى: **قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلٰى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** كلام بليغ فى منطوقه بالغ فى مفهومه بعيد فى معناه رفيع فى منزلته يغلى و يفور علما و حكمه، فهؤلاء قوم كانوا قبل ساعه و قد ملأت هيبه فرعون و أبهته قلوبهم و أذلت زينات الدنيا و زخارفها التى عنده - ليست إلا أكاذيب خيال و أباطيل و هم - نفوسهم يسمونه ربا أعلى و يقولون حينما ألقوا بحالهم و عصيهم **«بِعِزِّهِ فِرْعَوْنُ إِذْ نَا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ»** فما لبثوا دون أن ظهرت لهم آيات الحق فبهرت أبصارهم فطاحت عند ذلك ما كانوا يرون لفرعون من عزه و سلطان و لما عنده من زينه الدنيا

و زخرفها من قدر و منزله و غشيت قلوبهم فأزالت منها رذيله الجبن و الملق و أتباع الهوى و التولّه الى سراب زينه الحياه الدنيا و مكنت فيها التعلق بالحق و الدخول تحت ولايه الله و الاعتزاز بعزته فلا يريدون إلا ما أراد الله و لا يرجون إلا الله و لا يخافون إلا الله عز اسمه.

و فى قولهم: «مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ» تلويح الى أنهم عدّوا ما شاهدوه من أمر العصا آيات عديده كصيرورتها ثعبانا و تلقفها الحبال و العصى و رجوعها ثانيا الى حالتها الاولى، و يمكن أن يكون «مِنْ» للتبعيض فيفيد أنهم شاهدوا آيه واحده و آمنوا بأن لله آيات اخرى كثيره و لا يخلو من بعد.

قوله تعالى: «إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتْنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى الْخَطَايَا جَمْعَ خَطِيئَةٍ وَ هِيَ قَرِيبَةٌ مِّنَ السَّيِّئَةِ، وَ قَوْلُهُ: «وَمَا أَكْرَهْتْنَا عَلَيْهِ» معطوف على «خَطَايَانَا» و «مِنَ السِّحْرِ» بيان له و المعنى و ليغفر لنا السحر الذى أكرهتنا عليه و فيه دلالة على أنهم أكرهوا عليه إما حين حشروا الى فرعون من خلال ديارهم و إما حين تنازعوا أمرهم بينهم و أسروا النجوى فحملوا على المقابله و المغالبه.

و أول الآيه تعليل لقولهم: «لَنْ نُؤْتِرَكَ» الخ؛ أى إنما اخترنا الله الذى فطرنا عليك و آمنا به ليغفر لنا خطايانا و السحر الذى أكرهتنا عليه، و ذيل الآيه «وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى» من تمام البيان و بمنزله التعليل لصدرها كأنه قيل: و إنما آثرنا غفرانه على إحسانك لأنه خير و أبقى، أى خير من كل خير و أبقى من كل باق-لمكان الإطلاق-فلا يؤثر عليه شىء و فى هذا الذليل نوع مقابله لما فى ذيل كلام فرعون «وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى» .

و قد عبروا عنه تعالى أولا بالذى فطرنا، و ثانيا بربنا، و ثالثا بالله، أما الأول فلأن كونه تعالى فاطرا لنا اى مخرجا لنا عن كتم العدم الى الوجود و يتبعه انتهاء كل خير حقيقى اليه و ان ليس عند غيره إذا قوبل به إلا سراب البطلان، منشأ كل ترجيح و المقام مقام الترجيح بينه تعالى و بين فرعون.

و اما الثانى فلأن فيه إخبارا عن الإيمان به و أمس صفاته تعالى بالإيمان و العبوديه صفه ربوبيته المتضمنه لمعنى الملك و التدبير.

و أما الثالث فلأن ملاك خيريه الشىء لكمال و عنده تعالى جميع صفات الكمال القاضيه بخيريته المطلقه فناسب التعبير بالعلم الدال على الذات المستجمعه لجميع صفات الكمال، و على هذا فالكلام فى المقامات الثلاثه على بساطته ظاهرا مشتمل على الحجه على المدعى و المعنى بالحقيقه: لن نؤثر ك على الذى فطرنا لأنه فطرنا، و إنا آمننا بربنا لأنه ربنا، و الله خير لأنه الله عز اسمه.

قوله تعالى: إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۚ نَجِيبٌ تَعْلِيلٌ لَجَعَلْ غَفْرَانَ الْخَطَايَا غَايَةَ لِلْإِيمَانِ بِاللَّهِ أَيْ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَغْفِرْ خَطَايَاهُ كَانَ مُجْرِمًا وَ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا، الخ.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ۗ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ التَّالِيَةِ؛ الدَّرَجَةُ- عَلَىٰ مَا ذَكَرَهُ الرَّاعِبُ- هِيَ الْمَنْزِلَةُ لَكِنْ يُعْتَبَرُ فِيهَا الصُّعُودُ كَدَرَجَاتِ السُّلْمِ وَ تَقَابُلُهَا الدَّرَكَةُ فَهِيَ الْمَنْزِلَةُ حُدُورًا وَ لِذَا يُقَالُ: دَرَجَاتُ الْجَنَّةِ وَ دَرَكَاتُ النَّارِ، وَ التَّرَكِيُّ هُوَ التَّنْمِيُّ بِالمَاءِ الصَّالِحِ وَ الْمُرَادُ بِهِ أَنْ يَعِيشَ الْإِنْسَانُ بِاعْتِقَادِ حَقِّ وَ عَمَلِ صَالِحٍ.

و الآيتان تصفان ما يستتبعه الإيمان و العمل الصالح كما كانت الآيه السابقه تصف ما يستتبعه الإجرام الحاصل بكفر أو معصيه و الآيات الثلاث الواصفه لتبعه الإجرام و الإيمان ناظره الى وعيد فرعون و وعده لهم فقد أوعدهم فرعون على إيمانهم لموسى بالقطع و الصلب و ادعى أنه أشد العذاب و أبقاه فقابلوه بأن للمجرم عند ربه جهنم لا يموت فيها و لا يحيى لا يموت فيها حتى ينجو من مقاساه ألم عذابها لكن منتهى عذاب الدنيا الموت و فيه نجاه المجرم المعذب، و لا يحيى فيها إذ ليس فيها شىء مما تطيب به الحياه و لا خير مرجوا فيها حتى يقاسى

و وعدهم قبل ذلك المنزله يجعلهم من مقرّبيه و الأجر كما حكى الله تعالى قالوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (الأعراف ١١٤/)، فقابلوا ذلك بأن من يأتاه مؤمنا قد عمل الصالحات فاولئك-و في الإشاره البعيده تفخيم شأنهم- لهم الدرجات العلى- و هذا يقابل وعد فرعون لهم بالتقريب-جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ذلك جزاء من تركى-بالإيمان و العمل الصالح و هذا يقابل وعده لهم بالأجر.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا -الى قوله- وَ مَا هَدَىٰ. الإسراء السير بالليل و المراد بعبادى بنو إسرائيل و قوله: فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا» قيل المراد الضرب بالعصا كما يدل عليه كلامه تعالى فى غير هذا الموضع و إن «طَرِيقًا» مفعول به لا ضرب على الاتساع و هو مجاز عقلى و الأصل اضرب البحر ليكون لهم طريقا. انتهى. و يمكن أن يكون المراد بالضرب البناء و الإقامه من باب ضربت الخيمه و ضربت القاعده.

و اليبس-على ما ذكره الراغب-المكان الذى كان فيه ماء ثم ذهب، و الدرّك بفتحيتين تبعه الشىء، و فى نسبه الغشيان الى ما الموصوله المبهمه و جعله صله لها أيضا من تمثيل هول الموقف ما لا يخفى، قيل: و فى قوله: «وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ مَا هَدَىٰ» تكذيب لقول فرعون لقومه فيما خاطبهم وَ مَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (المؤمن ٢٩/)، و على هذا فقوله: «وَ مَا هَدَىٰ» ليس تأكيدا و تكرارا لمعنى قوله: «وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ» .

[سوره طه (٢٠): الآيات ٨٠ الى ٩٨]

إشارة

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَ وَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَ السَّلْوى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ لَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَ مَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢) وَ مَا أَعْجَلَكُ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَ عَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ اضْلَمَهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَ فَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَ لَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَ إِلَهَ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَ فَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَ لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا (٨٩) وَ لَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَ إِن رَبَّكُمْ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَ أَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَا تَتَّبِعَنِ أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا بَنُ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَ لَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَ كَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَ إِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَ أَنْظِرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨)

قوله تعالى: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ كَأَنَّ الْكَلَامَ بِتَقْدِيرِ الْقَوْلِ أَيْ قَلْنَا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَوْلُهُ: «قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ» الْمُرَادُ بِهِ فِرْعَوْنَ أَعْرَقَهُ اللَّهُ وَأَنْجَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْهُ بَعْدَ طَوْلِ الْمُحَنَةِ.

وقوله: وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ بِنُصْبِ أَيْمَنِ عَلَى أَنَّهُ صَفْهُ جَانِبٍ وَ لَعَلَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْمَوَاعِدِ مَوَاعِدَهُ مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً لِإِنْزَالِ التَّوْرَةِ وَقَدْ مَرَّتِ الْقِصَّةُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَغَيْرِهَا وَ كَذَا قِصَّةُ إِنْزَالِ الْمَنَّانِ وَالسَّلْوَى.

وقوله: كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ إِبَاحَةً فِي صُورِهِ الْأَمْرُ وَإِضَافَةُ الطَّيِّبَاتِ إِلَى «مَا رَزَقْنَاكُمْ» مِنْ إِضَافَةِ الصَّفْهِ إِلَى الْمَوْصُوفِ إِذْ لَا مَعْنَى لِأَنَّ يَنْسَبُ الرِّزْقَ إِلَى نَفْسِهِ ثُمَّ يَقْسَمُهُ إِلَى طَيِّبٍ وَغَيْرِهِ كَمَا يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ فِي آخِرِ: وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ (الْجَاثِيَةُ ١٦).

قوله: وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِيْ ضَمِير فِيهِ رَاجِعٌ إِلَى الْأَكْلِ الْمُتَعَلِّقِ بِالطَّيِّبَاتِ وَ ذَلِكَ بِكُفْرَانِ النِّعْمَةِ وَ عَدَمِ أَدَاءِ شُكْرِهِ
كَمَا قَالُوا: يَا مُوسَىٰ لَنْ نُّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَ
بَصَلِهَا (البقره ٦١).

و قوله: «فَيَحِلُّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي» أى يجب غضبى و يلزم من حلّ الدين يحلّ من باب ضرب إذا وجب أدائه، و الغضب من صفاته
تعالى الفعلية مصداقه إرادته تعالى إصابه المكروه للعبد بتهيئه الأسباب لذلك عن معصيه عصاها.

و قوله: وَ مَنْ يَخْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ أى سقط من الهوى بمعنى السقوط و فسّر بالهلاك.

قوله تعالى: وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ وَعَدَ بِالرَّحْمَةِ الْمُؤَكَّدَةِ عَقِيبَ الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ وَ لَذَا وَصَفَ
نَفْسَهُ بِكَثْرَةِ الْمَغْفَرَةِ فَقَالَ: «وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ» وَ لَمْ يَقُلْ: وَ أَنَا غَافِرٌ أَوْ سَافِرٌ.

و التوبه و هى الرجوع كما تكون عن المعصيه الى الطاعه تكون من الشرك الى التوحيد، و الإيمان أيضا كما يكون بالله
كذلك يكون بآيات الله من أنبيائه و رسله و كل حكم جاءوا به من عند الله تعالى، و قد كثر استعمال الإيمان فى القرآن فى
كل من المعنيين كما كثر استعمال التوبه فى كل من المعنيين المذكورين و بنو إسرائيل كما تلبسوا بمعاصى فسقوا بها كذلك
تلبسوا بالشرك كعباده العجل و على هذا فلا موجب لصرف الكلام عن ظاهر إطلاقه فى التوبه عن الشرك و المعصيه جميعا و
الإيمان بالله و آياته كذلك إطلاقه بالنسبه الى التائبين و المؤمنين من بنى إسرائيل و غيرهم و إن كان بنو إسرائيل مورد الخطاب
فإن الصفات الإلهيه كالمغفره لا تختص بقوم دون قوم.

فمعنى الآية-و الله أعلم-و إنى لكثير المغفره لكل انسان تاب و آمن سواء تاب عن شرك أو

عن معصيه و سواء آمن بى أو بآياتى من رسلى، أو ما جاءوا به من أحكامى بأن يندم على ما فعل و يعمل عملا صالحا بتبديل المخالفه و التمرد فيما عصى فيه بالطاعه فيه و هو المحقق لأصل معنى الرجوع من شىء و قد مرّ تفصيل القول فيه فى تفسير قوله: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ (النساء ١٧)، فى الجزء الرابع من الكتاب.

و أما قوله: ثُمَّ اهْتَدَى فالاهتداء يقابل الضلال كما يشهد به قوله تعالى: مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدَى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا (الإسراء ١٥)، و قوله: لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ (المائدة ١٠٥)، فهل المراد أن لا- يضلّ فى نفس ما تاب فيه بأن يعود الى المعصيه ثانيا فيفيد أن التوبه عن ذنب إنما تنفع بالنسبه الى ما اقترفه قبل التوبه و لا تكفى عنه لو عاد اليه ثانيا أو المراد أن لا يضلّ فى غيره فيفيد أن المغفره إنما تنفعه بالنسبه الى المعصيه التى تاب عنها و بعبارة أخرى إنما تنفعه نفعاً تاماً إذا لم يضل فى غيره من الأعمال، أو المراد ما يعمّ المعنيين؟.

فقوله: وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحاً ينطبق على آيه النساء و يبقى فيه شرط زائد يقيد حكم المغفره و هو مدلول قوله: «ثُمَّ اهْتَدَى» و هو الاهتداء الى الطريق و يظهر أن المغفره إنما يسمح بها للمؤمن العامل بالصالحات إذا قصد ذلك من طريقه و دخل عليه من بابه.

و لا نجد فى كلامه تعالى ما يقيد الإيمان بالله و العمل الصالح فى تأثيره و قبوله عند الله إلا الإيمان بالرسول بمعنى التسليم له و طاعته فى خطير الامور و يسيرها و أخذ الدين عنه و سلوك الطريق التى يخطها و اتباعه من غير استبداد و ابتداء يثول الى اتباع خطوات الشيطان و بالجمله ولايته على المؤمنين فى دينهم و دنياهم فقد شرع الله تعالى ولايته و فرض طاعته و أوجب الأخذ عنه و التأسى به فى آيات كثيرة جدا لا حاجة الى إيرادها و لا مجال لاستقصائها فالنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

و كان جل بنى إسرائيل على إيمانهم بالله سبحانه و تصديقهم رساله موسى و هارون متوقفين فى ولايتهما أو كالمتوقف كما هو صريح عامه قصصهم فى كتاب الله و لعل هذا هو الوجه فى وقوع الآية-و إنى لغفار لمن تاب و آمن و عمل صالحا ثم اهتدى بعد نهيهم عن الطغيان و تخويفهم من غضب الله.

فقد تبين أن المراد بالاهتداء فى الآية على ما يهدى اليه سائر الآيات هو الإيمان بالرسول باتباع فى أمر الدين و الدنيا و بعبارة اخرى هو الاهتداء الى ولايته.

قوله تعالى: **وَ مَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى** -الى قوله- **لِتَرْضَى** حكاية مكالمه وقعت بينه تعالى و بين موسى عليه السلام فى ميعاد الطور الذى نزلت عليه فيه التوراه كما قصّ فى سوره الاعراف تفصيلا.

و ظاهر السياق أنه سؤال عن السبب الذى أوجب لموسى أن يستعجل عن قومه فيحضر ميعاد الطور قبلهم كأنه كان المترقب أن يحضروا الطور جميعا فتقدم عليهم موسى فى الحضور و خلفهم فقيل له **«وَ مَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى»** فقال: **«هُمْ أَوْلَاءِ عَلِيٍّ أَثْرَى»** أى إنهم لسائرون على أثرى و سيلحقون بى عن قريب **«وَ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى»** أى و السبب فى عجلى هو أن احصل رضاك يا رب.

و الظاهر أن المراد بالقوم و قد ذكر أنهم على أثره هم السبعون رجلا الذين اختارهم لميقات ربه، فإن ظاهر تخليفه هارون على قومه بعده و سائر جهات القصة و قوله: **«أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ»** أنه لم يكن من القصد أن يحضر بنو إسرائيل كلهم الطور.

قوله تعالى: **قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ** الفتنه الامتحان و الاختبار و نسبه الإضلال الى السامرى-و هو الذى سبك العجل و أخرجه لهم فعبدوه و ضلّوا-لأنه أحد أسبابه العامله فيه.

و الفاء فى قوله: **«فإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ»** للتعليل يعلل به ما يفهم من سابق الكلام فإن المفهوم

من قول موسى «هُمُ أَوْلَاءِ عَلِيٍّ أَثْرَى» أن قومه على حسن حال لم يحدث فيهم ما يوجب قلقا فكأنه قيل: لا تكن واثقا على ما خَلَفْتَهُمْ فِيهِ فَإِنَا قَدْ فَتَنَاهُمْ فَضَلُّوا.

و قوله: «قَوْمِيكَ» من وضع الظاهر موضع المضمرة و لعل المراد غير المراد به في الآية السابقة أن يكون ما هاهنا عامه القوم و ما هناك السبعون رجلا الذين اختارهم موسى للميقات.

قوله تعالى: فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا - الى قوله - فَأَخْلَقْتُمْ مَوْعِدِي الْغَضْبَانَ صفة مشبهة من الغضب، و كذا الاسف من الاسف بفتح الحين و هو الحزن و شدة الغضب، و الموعد الوعد، و إلا فهم موعده هو تركهم ما وعدوه من حسن الخلافة بعده حتى يرجع اليهم، و يؤيده قوله في موضع آخر: «بِسْمَا خَلَقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي» .

و المعنى: فرجع موسى الى قومه و الحال أنه غضبان شديد الغضب - أو حزين - و أخذ يلومهم على ما فعلوا، قال يا قوم أ لم يعدكم ربكم وعدا حسنا - و هو أن ينزل عليهم التوراه فيها حكم الله و فى الأخذ بها سعادته دنياهم و أخراهم - أو وعده تعالى أن ينجيهم من عدوهم و يمكّنهم فى الأرض و يخصّهم بنعمه العظام «أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ» و هو مده مفارقه موسى إياهم حتى يكونوا آيسين من رجوعه فيختل النظم بينهم «أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ» فطغوتم بالكفر به بعد الإيمان و عبدتم العجل «فَأَخْلَقْتُمْ مَوْعِدِي» و تركتم ما وعدتمونى من حسن الخلافة بعدى.

قوله تعالى: قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا الى آخر الآية الملك بالفتح فالسكون مصدر ملك يملك و كأن المراد بقولهم: «مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا» ما خالفناك و نحن نملك من أمرنا شيئا - كما قيل - و من الممكن أن يكون المراد أنا لم نصرف فى صوغ العجل شيئا من أموالنا حتى نكون قاصدين لهذا الأمر متعمدين فيه و لكن كنا حاملين لأثقال من خلّى القوم فطرحناها فأخذها السامرى و ألقاها فى النار فأخرج العجل.

و الأوزار جمع وزر و هو الثقل، و الزينه الحلى كالعقد و القرط و السوار و القذف و الإلقاء و النبذ متقاربه معناها الطرح و الرمى.

و معنى قوله: «و لَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا» الخ؛ لكن كانت معنا أنقال من زينه القوم و لعل المراد به قوم فرعون- فطرحناها فكذلك ألقى السامرى- ألقى ما طرحناها فى النار أو ألقى ما عنده كما القينا ما عندنا مما حملنا- فأخرج العجل.

قوله تعالى: فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ فِي لَفْظِ الْإِخْرَاجِ دَلَالَهُ عَلَىٰ أَنْ كَيْفِيهِ صَنَعَ الْعِجْلُ كَانَتْ خَفِيهِ عَلَى النَّاسِ فِي غَيْرِ مَرَأَى مِنْهُمْ حَتَّىٰ فَاجَأَهُمْ بِإِظْهَارِهِ وَإِرَاءَتِهِ، وَ الْجَسَدُ هُوَ الْجِثَّةُ الَّتِي لَا رُوحَ فِيهِ فَلَا يُطْلَقُ الْجَسَدُ عَلَىٰ ذِي الرُّوحِ الْبَتَّةِ، وَ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الْعِجْلَ لَمْ يَكُنْ لَهُ رُوحٌ وَلَا- فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْحَيَاةِ، وَ الْخُورُ بِضَمِّ الْخَاءِ صَوْتُ الْعِجْلِ.

و ربما أخذ قوله: «فَكَذَّبَكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ» الخ؛ كلاما مستقلا إما من كلام الله سبحانه باختتام كلام القوم فى قولهم: «فَقَدَفْنَاهَا» و إما من كلام القوم و على هذا فضمير «قالوا» لبعض القوم و ضمير «فَأَخْرَجَ لَهُمْ» لبعض آخر كما هو ظاهر.

و ضمير «نسى» قيل: لموسى و المعنى قالوا هذا إلهكم و إله موسى فنسى موسى إلهه هذا و هو هنا و ذهب يطلبه فى الطور و قيل: الضمير للسامرى و المراد به نسيانه تعالى بعد ذكره و الإيمان به أى نسى السامرى ربه فأتى بما أتى و أضل القوم.

و ظاهر قوله: «فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ» حيث نسب القول الى الجمع أنه كان مع السامرى فى هذا الأمر من يساعده.

قوله تعالى: أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا تَوْبِيخًا لَهُمْ حَيْثُ عَبْدُوهُ وَ هُمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يَرْجِعُ قَوْلًا بِأَنْ يَسْتَجِيبَ لِمَنْ يَدْعُوهُ، وَ لَا- يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا فَيُدْفَعُهُ عَنْهُمْ وَ لَا نَفْعًا بِأَنْ يَجْلِبَهُ وَ يُوَصِّلَهُ إِلَيْهِمْ، وَ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ عَقُولِهِمْ أَنَّ الرَّبَّ يَجِبُ

أن يستجيب لمن دعاه لدفع ضرر أو لجلب نفع و أن يملك الضر و النفع لمربوبه.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي تَأْكِيدَ لَتُوبِيخِهِمْ** و زياده تقرير لجرمهم،و المعنى:

أنهم مضافا الى عدم تذكّرهم به ضروره عقولهم و عدم انتهائهم عن عباده العجل الى البصر و العقل لم يعتنوا بما قرعهم من طريق السمع أيضا،فلقد قال لهم نبيهم هارون إنه فتنه فتنوا به و إن ربهم الرحمن عزّ اسمه و إن من الواجب عليهم أن يتبعوه و يطيعوا أمره.

فردّوه على هارون قائلين: لن نبرح و لن نزال عليه عاكفين أى ملازمين لعبادته حتى يرجع الينا موسى فنرى ما ذا يقول فيه و ما ذا يأمرنا به.

قوله تعالى: **قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي رَجِعْ عَلَيْهِ السَّلَامِ** بعد تكليم القوم فى أمر العجل الى تكليم أخيه هارون إذ هو أحد المسئولين الثلاثة فى هذه المحنه استخلفه و أوصاه حين كان يوادعه قائلا «اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ» .

و كأن قوله: «مَنَعَكَ» مضمّن معنى دُعاك، أى ما دعاك الى أن لا تتبعنا مانعا لك عن الاتباع أو ما منعك داعيا لك الى عدم اتباعى فهو نظير قوله: **قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ** (الأعراف ١٢).

و المعنى: قال موسى معاتباً لهارون: ما منعك عن اتباع طريقي و هو منعهم عن الضلال و الشده فى جنب الله أفعصيت أمرى أن تتبعنى و لا تتبع سبيل المفسدين؟

قوله تعالى: **قَالَ يَا بَنُ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي الخ؛ «يَا بَنُ أُمَّ»** أصله يا بن أمى و هى كلمه استرحام و استترآف قالها لإسكات غضب موسى، و يظهر من قوله:

«لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي» أنه أخذ بلحيته و رأسه غضبا ليضربه كما أخبر به فى موضع آخر و **أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ** (الأعراف ١٥٠).

وقوله: إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَلَّمْتَ قَوْلِي تَعْلِيلَ لِمَحْذُوفٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ وَمَحْصَلُهُ لَوْ كُنْتَ مَانِعْتَهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْعَجَلِ وَقَاوَمْتَهُمْ بِالْغَيْهِ مَا بَلَغْتَ لَمْ يَطْعَنِي إِلَّا بَعْضُ الْقَوْمِ وَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى تَفَرُّقِهِمْ فَرَقْتَيْنِ: مَوْمِنٌ مَطْعِمٌ، وَمَشْرُكٌ عَاصٍ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ إِفْسَادُ حَالِ الْقَوْمِ بِتَبْدِيلِ اتِّحَادِهِمْ وَاتِّفَاقِهِمُ الظَّاهِرَ تَفَرُّقًا وَاجْتِلَافًا وَرَبَّمَا انْجَرَّ إِلَى قِتَالٍ وَقَدْ كُنْتُ أَمْرَتُنِي بِالْإِصْلَاحِ إِذْ قُلْتُ لِي «أَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ» فَخَشِيتُ أَنْ تَقُولَ حِينَ رَجَعْتَ وَشَاهَدْتَ مَا فِيهِ الْقَوْمُ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالتَّحْزَبِ: فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَلَّمْتَ قَوْلِي. هَذَا مَا اعْتَذَرَ بِهِ هَارُونَ وَقَدْ عَذَرَهُ مُوسَى وَدَعَا لَهُ وَنَفْسَهُ كَمَا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ بِقَوْلِهِ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَادْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (الأعراف ١٥١).

قوله تعالى: قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ رجوع منه عليه السلام بعد الفراغ من تكليم أخيه إلى تكليم السامري وهو أحد المسئولين الثلاثة وهو الذي أضل القوم.

و الخطب: الأمر الخطير الذي يهتكك، يقول: ما هذا الأمر العظيم الذي جئت به؟

قوله تعالى: قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَهُ مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي قَالَ الرَّابِعُ فِي الْمَفْرَدَاتِ: الْبَصْرُ يُقَالُ لِلْجَارِحَةِ النَّاضِرَةِ نَحْوُ قَوْلِهِ: «كَلِمَاتُ الْبَصِيرِ» (وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ) وَلِلْقُوَّةِ الَّتِي فِيهَا، يُقَالُ لِقُوَّةِ الْقَلْبِ الْمَدْرُكَةِ بَصِيرَةٌ وَبَصْرٌ نَحْوُ قَوْلِهِ: «فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَّرْنَاكَ الْيَوْمَ حَدِيدًا» وَقَالَ: «مَا زَاغَ الْبَصِيرُ وَمَا طَغَى» وَجَمَعَ الْبَصْرَ أَبْصَارَهُمْ وَجَمَعَ الْبَصِيرَةَ بَصَائِرًا، قَالَ تَعَالَى: «فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سِيْمَعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ» وَلَا يَكَادُ يُقَالُ لِلْجَارِحَةِ: بَصِيرَةٌ، وَيُقَالُ مِنَ الْأُولَى: أَبْصَرْتُ، وَمِنَ الثَّانِي: أَبْصَرْتَهُ وَبَصَرْتَهُ، وَقَلَّمَا يُقَالُ فِي الْحَاسَةِ بَصَرْتُ إِذَا لَمْ تَضَامَّهُ رُؤْيَاهُ الْقَلْبِ. انتهى.

وقوله: «فَقَبَضْتُ قَبْضَهُ» قِيلَ: إِنْ الْقَبْضُ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى اسْمِ الْمَفْعُولِ وَأُورِدَ عَلَيْهِ أَنَّ الْمَصْدَرَ إِذَا اسْتَعْمَلَ كَذَلِكَ لَمْ تَلْحَقْ بِهِ التَّاءُ، يُقَالُ: هَذِهِ حَلَّةٌ نَسَجَ الْيَمَنُ، وَلَا يُقَالُ: نَسَجَهُ

اليمن، فالمتعين حملة في الآيه على أنه مفعول مطلق. و رد بأن الممنوع لحوق التاء الداله على التحديد و المره لا- على مجرد التأنيث كما هنا، وفيه أن كون التاء هنا للتأنيث لا دليل عليه فهو مصادره.

و قوله: «مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ» الاثر شكل قدم الماره على الطريق بعد المرور، و الأصل في معناه ما بقى من الشىء بعده بوجه بحيث يدل عليه كالبناء أثر البانى و المصنوع أثر الصانع و العلم أثر العالم و هكذا، و من هذا القبيل أثر الأقدام على الأرض من الماره.

و الرسول هو الذى يحمل رساله و قد أطلق في القرآن على الرسول البشرى الذى يحمل رساله الله تعالى الى الناس و أطلق بهذه اللفظه على جبريل ملك الوحي، قال تعالى: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (التكوير ١٩)، و كذا أطلق لجمع من الملائكه الرسول كقوله: بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْفُيُونَ (الزخرف ٨٠)، و قال أيضا في الملائكه: جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنِحَةٍ (فاطر ١).

و الآيه تتضمن جواب السامرى عما سأله موسى عليه السلام بقوله: «فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ» و هو سؤال عن حقيقه ذاك الأمر العظيم الذى أتى به و ما حملة على ذلك، و السياق يشهد على أن قوله: «وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي» جوابه عن السبب الذى دعاه اليه و حملة عليه و أن تسويل نفسه هو الباعث له الى فعل ما فعل و أما بيان حقيقه ما صنع فهو الذى يشير اليه بقوله:

«بَصِيرَةٌ بَلَىٰ لَمْ يُبْصِرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَهُ مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ» و لا- نجد فى كلامه فى هذه القصة و لا فيما يرتبط بها فى الجملة ما يوضح المراد منه و لذا اختلفوا فى تفسيره.

ففسره الجمهور وفاقا لبعض الروايات الواردة فى القصة أن السامرى رأى جبريل و قد نزل على موسى للوحى أو رآه و قد نزل راكبا على فرس من الجنة قدام فرعون و جنوده حين دخلوا البحر فاغرقوا فأخذ قبضه من تراب أثر قدمه أو أثر حافر فرسه و من خاصه هذا التراب أنه لا يلقى على شىء إلا حلت فيه الحياه و دخلت فيه الروح فحفظ التراب حتى إذا

صنع العجل ألقى فيه من التراب فحى و تحرك و خار.

قوله تعالى: قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ هَذِهِ مَجَازَاهُ لَهُ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ ثَبُوتِ الْجُرْمِ.

فقوله: «قَالَ فَادْهَبْ» قضاء بطرده عن المجتمع بحيث لا يخالط القوم و لا يمس أحدا و لا يمسه أحد بأخذ أو عطاء أو إيواء أو صحبه أو تكليم و غير ذلك من مظاهر الاجتماع الإنساني و هو من أشق أنواع العذاب، وقوله: «فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ» -محصله أنه تقرّر و حقّ عليك أن تعيش فردا ما دمت حيا- كناية عن تحسره المداوم من الوحده و الوحشه.

و قوله: وَ إِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ ظَاهِرُهُ أَنَّهُ إِخْبَارٌ عَنْ هَلَاكِهِ فِي وَقْتِ عَيْنِ اللَّهِ وَ قِضَاءُ مَحْتَمَا وَ يَحْتَمِلُ الدَّعَاءُ عَلَيْهِ، وَ قِيلَ: الْمُرَادُ بِهِ عَذَابُ الْآخِرَةِ.

قوله تعالى: «وَ أَنْظِرْ إِلَىٰ إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنْ نَحْرُقَ ثَمَّ لَنْ نَسِفَنَّ فِي الْيَمِّ نَسِيفًا» قال في المجمع: يقال: نسف فلان الطعام إذا ذراه بالمنسف ليطير عنه قشوره. انتهى.

و قوله: وَ أَنْظِرْ إِلَىٰ إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا أَي ظَلَلْتَ وَ دَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لِأَزْمَا، وَ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَ اتَّخَذَهُ إِلْهًا لَهُ بَعْدَهُ.

و قوله: «لَنْ نَحْرُقَ ثَمَّ لَنْ نَسِفَنَّ فِي الْيَمِّ نَسِيفًا» أَي أَقْسَمَ لِنَحْرُقَهُ بِالنَّارِ ثُمَّ لِنَذِيرْتَهُ فِي الْبَحْرِ ذُرُوءًا، وَ قَدْ اسْتَدَلَّ بِحَدِيثِ إِحْرَاقِهِ عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَ حَيَوَانًا ذَا لَحْمٍ وَ دَمٍ وَ لَوْ كَانَ ذَهَابًا لَمْ يَكُنْ لِإِحْرَاقِهِ مَعْنَىٰ، وَ هَذَا يُؤَيِّدُ تَفْسِيرَ الْجُمْهُورِ السَّابِقَ أَنَّهُ صَارَ حَيَوَانًا ذَا رُوحٍ بِإِلْقَاءِ التَّرَابِ الْمَأْخُودِ مِنْ أَثَرِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ. لَكِنِ الْحَقُّ أَنَّهُ إِذَا يَدَلُّ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ذَهَابًا خَالِصًا لِأَخِيرٍ.

قوله تعالى: إِنَّكُمْ إِلْهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلْهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا الظاهر أنه من تمام كلام موسى عليه السَّلَامُ يخاطب به السامري و بنى إسرائيل و قد قرّر بكلامه هذا توّحده تعالى في ألوهيته فلا يشاركه فيها غيره من عجل أو أي شريك مفروض، و هو بسياقه من لطيف الاستدلال فقد استدللّ فيه بأنه تعالى هو الله على أنه لا إله إلا هو و بذلك على أنه لا

اشاره

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤) وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)

ص ٢٠٠:

قوله تعالى: كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا الظاهر أن الإشاره الى خصوصيه قصه موسى و المراد بما قد سبق الامور و الحوادث الماضيه و الامم الخاليه أى على هذا النحو قصصنا قصه موسى و على شاكلته نقصّ عليك من أخبار ما قد مضى من الحوادث و الامم.

و قوله: وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا المراد به القرآن الكريم أو ما يشتمل عليه من المعارف المتنوعه التى يذكر بها الله سبحانه من حقائق و قصص و عبر و أخلاق و شرائع و غير ذلك.

قوله تعالى: مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَبِإِنِّهِ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ضمير «عنه» للذكر و الوزر الثقل و الإثم و الظاهر بقريته الحمل إرادته المعنى الأول و تنكيهه للدلاله على عظم خطره، و المعنى: من أعرض عن الذكر فإنه يحمل يوم القيامة ثقلا- عظيم الخطر و مرّ الأثر، شبه الإثم من حيث قيامه بالإنسان بالثقل الذى يحمله الإنسان و هو شاق عليه

فاستعير له اسمه.

قوله تعالى: خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا المراد من خلودهم فى الوزر خلودهم فى جزائه و هو العذاب بنحو الكنايه و التعبير فى «خَالِدِينَ» بالجمع باعتبار معنى قوله: «مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ» كما أن التعبير فى «أَعْرَضَ» و «فَإِنَّهُ يَحْمِلُ» فاعتبار لفظه، فالآيه كقوله: وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا (الجن ٢٣).

و مع الغض عن الجهات اللفظيه فقوله: «مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا خَالِدًا فِيهِ» من أوضح الآيات دلالة على أن الإنسان إنما يعذب بعمله و يخلد فيه و هو تجسّم الأعمال.

و قوله: «وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا» ساء من أفعال الذم كبتس، و المعنى: و بس الحمل حملهم يوم القيامة، و الحمل بكسر الحاء و فتحها واحد، غير أن ما بالكسر هو المحمول فى الظاهر كالمحمول على الظهر و ما بالفتح هو المحمول فى الباطن كالولد فى البطن.

قوله تعالى: يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا «يَوْمَ يُنْفَخُ» الخ؛ بدل من يوم القيامة فى الآيه السابقه، و نفخ فى الصور كنايه عن الإحضار و الدعوه و لذا أتبعه فيما سياتى بقوله: يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ (الآيه ١٠٨) من السوره.

و الزرق جمع أزرق من الزرقه و هى اللون الخاص، و عن الفراء أن المراد بكونهم زرقا كونهم عميا لأن العين إذا ذهب نورها أزرق ناظرها و هو معنى حسن و يؤيده قوله تعالى:

وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَ (الإسراء ٩٧).

قوله تعالى: يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا - الى قوله - إِلَّا يَوْمًا التخافت تكليم القوم بعضهم بعضا بخفض الصوت و ذلك من أهل المحشر لهول المطلع، و قوله:

«إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا» بيان لكلامهم الذى تخافتون فيه، و معنى الجملة على ما يعطيه السياق:

يقولون ما لبثتم فى الدنيا قبل المحشر إلا عشره أيام، يستقلون لبثهم فيها بقياسه الى ما يلوح

لهم من حكم الخلود و الأبدية.

و قوله: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَهُ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا» أى لنا إحاطه علميه بجميع ما يقولون فى تقرير لبتهم إذ يقول أمثلهم طريقه أى الأقرب منهم الى الصدق إن لبتتم فى الأرض إلا- يوما و إنما كان قائل هذا القول أمثل القوم طريقه و أقربها الى الصدق لأن اللبث المحدود الأرضى لا مقدار له إذا قيس من اللبث الأبدى الخالد، و عدّه يوما و هو أقل من العشره أقرب الى الواقع من عدّه عشره، و القول مع ذلك نسبى غير حقيقى و حقيقه القول فيه ما حكاه سبحانه فى قوله: «وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبُعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبُعْثِ وَ لَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (الروم ٥٦)»، و سيجىء استيفاء البحث فى معنى هذا اللبث فى تفسير الآيه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: «وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ - الى قوله- وَ لَا أَمْتًا تَدُلُّ الْآيَةَ عَلَى أَنَّهُمْ سَأَلُوهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلِمَ عَنْ حَالِ الْجِبَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَاجِيبْ عَنْهُ بِالْآيَاتِ».

و قوله: «فَقُلْ يَسِّرْهَا رَبِّي نَسِيفًا أَى يَذْرُؤُهَا وَ يَثِيرُهَا فَلَا يَبْقَى مِنْهَا فِى مَسْتَقَرِّهَا شَيْءٌ»، و قوله: «فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا مَا الْقَاعِ الْأَرْضِ الْمَسْتَوِيَةِ وَ الصَّفْصَفُ الْأَرْضُ الْمَسْتَوِيَةُ الْمَلْسَاءُ»، و المعنى فيتركها أرضا مستويه ملساء لا شىء عليها، و كأن الضمير للأرض باعتبار أنها كانت جبالا، و قوله: «لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَ لَا أَمْتًا» قيل: العوج ما انخفض من الأرض و الأمت ما ارتفع منها، و الخطاب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلِمَ وَ المراد كل من له أن يرى و المعنى لا يرى راء فيها منخفضا كالأودية و لا مرتفعا كالروابي و التلال.

قوله تعالى: «يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَ خَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا نَفَى الْعِوَجِ إِنْ كَانَ مُتَعَلِّقًا بِالْإِتْبَاعِ - بأن يكون «لَا عِوَجَ لَهُ» حالا عن ضمير الجمع و عامله يتبعون- فمعناه أن ليس لهم إذا دعوا إلا الاتباع محضا من غير أى توقف أو استكاف أو تثبط أو مساهله فيه لأن ذلك كله فرع القدره و الاستطاعه أو

توهم الإنسان ذلك لنفسه و هم يعاينون اليوم أن الملك و القدره لله سبحانه لا شريك له قال تعالى: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (المؤمن ١٦)، وقال: وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (البقره ١٦٥).

و إن كان متعلقا بالداعى كان معناه أن الداعى لا يدع أحدا إلا دعاه من غير أن يهمل أحدا بسهو أو نسيان أو مساهله فى الدعوه.

لكن تعقيب الجملة بقوله: «وَ خَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ» الخ؛ يناسب المعنى الأول فإن ارتفاع الأصوات عند الدعوه و الاحضار إنما يكون للتمرد و الاستكبار عن الطاعه و الاتباع.

و قوله: «وَ خَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا» قال الراغب:

الهمس الصوت الخفى و همس الاقدام أخفى ما يكون من صوتها قال تعالى: «فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا». انتهى. و الخطاب فى قوله: «فَلَا تَسْمَعُ» للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و المراد كل سامع يسمع و المعنى و انخفضت الأصوات لاستغراقهم فى المدله و المسكنه لله فلا يسمع السامع إلا صوتا خفيا.

قوله تعالى: يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا نَفَى نفع الشفاعة كناية عن أن القضاء بالعدل و الحكم الفصل على حسب الوعد و الوعيد الإلهيين جار نافذ يومئذ من غير أن يسقط جرم مجرم أو يغمض عن معصيه عاص لمانع يمنع منه فمعنى نفع الشفاعة تأثيرها.

و قوله: «إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا» الاستثناء يدل على أن العنايه فى الكلام متعلقه بنفى الشفعاء لا بتأثير الشفاعة فى المشفوع لهم، و المراد الإذن فى الكلام للشفاعة كما بيئنه قوله بعده: «وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا» فإن التكلم يومئذ منوط بإذنه تعالى، قال:

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ (هود ١٠٥)، و قال: لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَ قَالَ صَوَابًا (النبا ٣٨). و قد مر القول فى معنى الإذن فى التكلم فى تفسير سوره هود فى الجزء العاشر من الكتاب.

و أما كون القول مرضيا فمعناه أن لا يخالطه ما يسخط الله من خطأ أو خطيئه قضاء لحق الإطلاق و لا يكون ذلك إلا ممن أخلص الله سريره من الخطأ في الاعتقاد و الخطيئه في العمل و طهر نفسه من رجس الشرك و الجهل في الدنيا أو من الحقه بهم فإن البلاء و الابتلاء اليوم مع السرائر قال تعالى: «يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ» و للبحث ذيل طويل سيمرّ بك بعضه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا إن كان ضمائر الجمع في الآيه راجعه الى «مَنْ أَدْرَكَ لَهُ» باعتبار معناه كان المراد أن مرضى قولهم لا يخفى على الله فإن علمه محيط بهم و هم لا يحيطون به علما فليس في وسعهم أن يغزوه بقول مزوّق غير مرضى.

و إن كانت راجعه الى المجرمين فالآيه تصف علمه تعالى بهم في موقف الجزاء و هو ما بين أيديهم و قبل أن يحضروا الموقف في الدنيا حيا أو ميتا و هو ما خلفهم فهم محاطون لعلمه و لا يحيطون به علما فيجزئهم بما فعلوا و قد عنت وجوههم للحى القيوم فلا يستطيعون ردا لحكمه و عند ذلك خيبتهم. و هذا الاحتمال أنس لسياق الآيات.

قوله تعالى: وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ الْعَنُوهُ هى الذله قبال قهر القاهر و هى شأن كل شىء دون الله سبحانه يوم القيامة بظهور السلطنه الإلهيه كما قال: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (المؤمن ١٦)، فلا يملك شىء شيئا بحقيقه معنى الكلمه و هو الذله و المسكنه على الإطلاق و إما نسبت العنوه الى الوجوه لأنها أول ما تبدوا تظهر فى الوجوه، و لازم هذه العنوه أن لا يمنع حكمه و لا نفوذه فيهم مانع و لا يحول بينه و بين ما أراد بهم حائل.

و اختير من أسمائه الحى القيوم لأن مورد الكلام الأموات أحيوا ثانيا و قد تقطعت عنهم الأسباب اليوم و المناسب لهذا الظرف من صفاته حياته المطلقه و قيامه بكل أمر.

قوله تعالى: وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ

مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا بَيَانٌ لجزائهم أما قوله: «وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا» فالمراد بهم المجرمون غير المؤمنين فلهم الخيبة بسوء الجزاء لا كل من حمل ظلما ما أى ظلم كان من مؤمن أو كافر فإن المؤمن لا يخيب يومئذ بالشفاعة.

و لو كان المراد العموم و أن كل من حمل ظلما ما فهو خائب فالمراد بالخبية الخيبة من السعادة التى يضادها ذلك دون الخيبة من السعادة مطلقا.

و أما قوله: «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ» الخ؛فهو بيان استترادى لحال المؤمنين الصالحاء جىء به لاستيفاء الأقسام و تتميم القول فى الفريقين الصالحاء و الجرمين، و قد قيد العمل الصالح بالإيمان لأن الكفر يحبط العمل الصالح بمقتضى آيات الحبط، و الهضم هو النقص، و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ظاهراً سياقها أن الإشاره بكذلك الى خصوصيات بيان الآيات، و «قُرْآنًا عَرَبِيًّا» حال من الضمير فى «أَنْزَلْنَاهُ»، و التصريف هو التحويل من حال الى حال، و المعنى و على ذلك النحو من البيان المعجز أنزلنا الكتاب و الحال أنه قرآن مقرر عربى و أتينا فيه ببعض ما أوعدناهم فى صورته بعد صورته.

و قوله: «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا» قد أورد فيما تقدم من قوله: «لعله يذكر أو يخشى» الذكر مقابلاً للخشية و يستأنس منه أن المراد بالاتقاء هاهنا هو التحرز من المعاداة و اللجاج الذى هو لازم الخشية باحتمال الضرر دون الاتقاء المترتب على الإيمان بإتيان الطاعات و اجتناب المعاصى، و يكون المراد بإحداث الذكر لهم حصول التذكر فيهم و تتم المقابلة بين الذكر و التقوى من غير تكلف.

و المعنى -و الله أعلم- لعلمهم يتحرزون المعاداة مع الحق لحصول الخشية فى قلوبهم باحتمال الخطر لاحتمال كونه حقا أو يحدث لهم ذكرا للحق فيعتقدوا به.

قوله تعالى: فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ تَسْبِيحٌ وَتَنْزِيهٌ لَهُ عَنِ كُلِّ مَا لَّا يَلِيْقُ بِسَاحَةِ قُدْسِهِ، وَهُوَ يَقْبَلُ التَّفَرُّعَ عَلَىٰ أَنْزَالِ الْقُرْآنِ وَتَصْرِيفِ الْوَعِيدِ فِيهِ لِهَدَايَةِ النَّاسِ وَالتَّفَرُّعِ عَلَيْهِ وَ عَلَىٰ مَا ذَكَرَ قَبْلَهُ مِنْ حَدِيثِ الْحَشْرِ وَالْجَزَاءِ وَ هَذَا هُوَ الْأَنْسَبُ نَظْرًا إِلَىٰ انْسِلَاكِ الْجَمِيعِ فِي سَبْكِ وَاحِدٍ وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَىٰ مَلِكٌ يَتَصَرَّفُ فِي مَلِكِهِ بِهَدَايَةِ النَّاسِ إِلَىٰ مَا فِيهِ صَلاَحٌ أَمْرَهُمْ ثُمَّ إِحْضَارَهُمْ وَجَزَائِهِمْ عَلَىٰ مَا عَمَلُوا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ.

قوله تعالى: وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا السِّيَاقُ يَشْهَدُ بِأَنَّ الْكَلَامَ تَعَرُّضًا لِتَلْقَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ وَحَى الْقُرْآنَ، فَضَمِيرُ «وَحْيُهُ» لِلْقُرْآنِ، وَقَوْلُهُ: «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ» نَهَى عَنِ الْعَجَلِ بِقِرَاءَتِهِ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: «مَنْ قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ» مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتِمَّ وَحْيُهُ مِنْ مَلِكِ الْوَحْيِ.

فَيُفِيدُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ كَانَ إِذَا جَاءَهُ الْوَحْيُ بِالْقُرْآنِ يَعْجَلُ بِقِرَاءَتِهِ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ الْوَحْيُ فَهِيَ عَنْ أَنْ يَعْجَلَ فِي قِرَاءَتِهِ قَبْلَ انْقِضَاءِ الْوَحْيِ وَ تَمَامِهِ فَيَكُونُ الْآيَةُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (الْقِيَامَةُ ١٨).

وَ يُؤَيِّدُ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ بَعْدَ: «وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا» فَإِنَّ سِيَاقَ قَوْلِهِ: لَا تَعْجَلْ بِهِ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي، يُفِيدُ أَنَّ الْمُرَادَ هُوَ الْاسْتِبْدَالُ أَيْ بَدَلُ الْاسْتَعْجَالِ فِي قِرَاءَتِهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بَعْدَ، طَلْبِكَ زِيَادَةَ الْعِلْمِ وَ يُؤَوِّلُ الْمَعْنَى إِلَىٰ أَنَّكَ تَعْجَلُ بِقِرَاءَتِهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بَعْدَ لِأَنَّ عِنْدَكَ عِلْمًا بِهِ فِي الْجُمْلَةِ لَكِنْ لَا تَكْتَفِ بِهِ وَ اطْلُبْ مِنَ اللَّهِ عِلْمًا جَدِيدًا بِالصَّبْرِ وَ اسْتِمَاعِ بَقِيَةِ الْوَحْيِ.

وَ هَذِهِ الْآيَةُ مِمَّا يُؤَيِّدُ مَا وَرَدَ مِنَ الرِّوَايَاتِ أَنَّ لِلْقُرْآنِ نَزُولًا دَفْعَةً وَاحِدَةً غَيْرَ نَزُولِهِ نَجْمًا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ فَلَوْلَا عِلْمُ مَا مِنْهُ بِالْقُرْآنِ قَبْلَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِعَجَلِهِ بِقِرَاءَتِهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ مِنْهُ بَعْدَ مَعْنَى.

اشاره

وَ لَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَكُلْنَا
 يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِرِزْقِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَ لَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَ أَنْتَ لَا
 تَظْمَأُ فِيهَا وَ لَا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لَآبَدٍ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا
 فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِمَا عَلَىٰهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ عَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَىٰ
 (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَ لَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَ مَنْ
 أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥)
 قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسىٰ (١٢٦)

قوله تعالى: **وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** المراد بالعهد الوصيه و بهذا المعنى يطلق على الفرامين و الدساتير العهود، و النسيان معروف و ربما يكنى به عن الترك لأنه لازمه إذ الشيء إذا نسى ترك، و العزم القصد الجازم الى الشيء قال تعالى: **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** (آل عمران ١٥٩/)، و ربما أطلق على الصبر و لعله لكون الصبر أمرا شاقا على النفوس فيحتاج الى قصد أرسخ و أثبت فسمى الصبر باسم لازمه قال تعالى: **«إِنَّ ذَلِكُمْ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ»** .

فالمعنى و أقسم لقد وصينا آدم من قبل فترك الوصيه و لم نجد له قصدا جازما الى حفظها أو صبرا عليها و العهد المذكور-على ما يظهر من قصته عليه السلام فى موضع من كلامه تعالى-هو النهى عن أكل الشجره، بمثل قوله: **لَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ** (الأعراف ١٩/).

قوله تعالى: **وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ** معطوف على مقدر و التقدير اذكر عهدنا اليه و اذكر وقتنا أمرنا الملائكه بالسجود له فسجدوا إلا إبليس حتى يظهر أنه نسى و لم يعزم على حفظ الوصيه، و قوله: **«أَبَىٰ»** جواب سؤال مقدر تقديره ما ذا فعل إبليس؟ فقيل: أبى.

قوله تعالى: **فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَ لَزُوجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ** تفریع على إباء إبليس عن السجده أى فلما أبى قلنا إرشاد لآدم الى ما فيه صلاح أمره و نصحا: إن هذا الأبى عن السجده-إبليس-عدو لك و لزوجك الخ.

و قوله: **«فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ»** توجيه نهى إبليس عن إخراجهما من الجنة الى آدم كناية عن نهيه عن طاعته أو عن الغفله عن كيده و الاستهانه بمكره أى لا تطعه أو لا تغفل عن و تسويله حتى يتسلط عليكما و يقوى على إخراجكما من الجنة و إشقاكما.

و قوله: فَتَشَقَّى تفریع علی خروجهما من الجنة و المراد بالشقاء التعب أى فتتعب إن خرجتما من الجنة و عشتما فى غيرها و هو الارض عيشه أرضیه لتهاجم الحوائج و سعيك فى رفعها كالحاجه الى الطعام و الشراب و اللباس و المسكن و غيرها.

و الدليل على أن المراد بالشقاء التعب الآيتان التاليتان المشيرتان الى تفسيره «إن لك أن لا تجوع فيها و لا تعرى و أنك لا تظمؤا فيها و لا تضحى».

و هو أيضا دليل على أن النهى إرشادى ليس فى مخالفته إلا الوقوع فى المفسده المترتبه على نفس الفعل و هو تعب السعى فى رفع حوائج الحياه و اكتساب ما يعاش به و ليس بمولوى تكون نفس مخالفته مفسده يقع فيها العبد و تستتبع مؤاخذه أخرويه. على أنك عرفت أنه عهد قبل تشريع أصل الدين الواقع عند الأمر بالخروج من الجنة و الهبوط الى الأرض.

و أما أفراد قوله: «فَتَشَقَّى» و لم يقل فتشقىا بصيغه التثنيه فلأن العهد إنما نزل على آدم عليه السلام و كان التكليم متوجها اليه، و لذلك جىء بصيغه الإفراد فى جميع ما يرجع اليه كقوله: «فَنَسِيَّ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا» «فَتَشَقَّى» «أن لا تجوع فيها و لا تعرى» «لا تَظْمُؤْا فِيهَا وَ لا تَضْحَى» «فَوْسُوسَ إِلَيْهِ» الخ؛ «فَعَصَى» الخ؛ «ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ» نعم جىء بلفظ التثنيه فيما لا غنى عنه كقوله: «عَدُوُّ لَكَ وَ لَزُوجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا» «فَأَكَلَا مِنْهَا فَيَدَتْ لَهُمَا» «وَ طَفِقَا يَخْصِمَانِ عَلَيْهِمَا» «قال اهبطا منها جميعاً بغضكم لبعض عدو» فتدبر فيه.

قوله تعالى: إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَ لا تَعْرَى وَ أَنَّكَ لا تَظْمُؤْا فِيهَا وَ لا تَضْحَى يقال: ضحى يضحى كسعى يسعى ضحوا و ضحيا إذا أصابته الشمس أو برز لها و كأن المراد بعدم الضحو أن ليس هناك أثر من حراره الشمس حتى تمس الحاجه الى الاكتنان فى مسكن يقى من الحرّ و البرد.

قوله تعالى: فَوْسُوسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلَى الشَّيْطَانُ هو الشرير لقّب به إبليس لشرارته، و المراد بشجره

الخلد الشجره المنهيه و البلى صيروره الشىء خلقا خلاف الجديد.

و المراد بشجره الخلد شجره يعطى أكلها خلود الحياه، و المراد بملك لا يبقى سلطنه لا تتأثر عن مرور الدهور و اصطكاك المزاومات و الموانع فيؤول المعنى الى نحو قولنا هل أدلك على شجره ترزق بأكل ثمرتها حياه خالده و ملكا دائما فليس قوله: «لَا يَبْلَى» تكرارا لإفاده التأكيد كما قيل.

و الدليل على ما ذكره ما فى سوره الأعراف فى هذا المعنى من قوله: مَا نَهَاكُمْ رَبُّكُمْ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونُوا مِنَ الْخَالِدِينَ (الأعراف ٢٠) و لا منافاه بين جمع خلود الحياه و دوام الملك هاهنا بواو الجمع و بين الترديد بينهما فى سوره الأعراف لإمكان أن يكون الترديد هناك لمنع الخلو لا لمنع الجمع، أو يكون الجمع هاهنا باعتبار الاتصاف بهما جميعا و الترديد هناك باعتبار تعلق النهى كأنه يقيل: إن فى هذه الشجره صفتين و إنما نهاكما ربكما عنها إما لهذه أو لهذه، أو إنما نهاكما ربكما عنها أن لا تخلدا فى الجنه مع ملك خالد أو أن لا تخلدا بناء على أن الملك الخالد يستلزم حياه خالده فافهم ذلك و كيف كان فلا منافاه بين الترديد فى آيه و الجمع فى أخرى.

قوله تعالى: فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ تقدم تفسيره فى سوره الأعراف.

قوله تعالى: وَ عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى الغى خلاف الرشده الذى هو بمعنى إصابه الواقع و هو غير الضلال الذى هو الخروج من الطريق، و الهدى يقابلهما و يكون بمعنى الإرشاد إذا قابل الغى كما فى الآيه التاليه و بمعنى إراءه الطريق، أو الإيصال الى المطلوب بتركيب الطريق إذا قابل الضلال فليس من المرضى تفسير الغى فى الآيه بمعنى الضلال.

و معنى آدم ربه- كما أشرنا اليه آنفا و قد تقدم تفصيله- إنما هى معصيه أمر إرشادى لا مولوى و الأنبياء عليهم السلام معصومون من المعصيه و المخالفه فى أمر يرجع الى الدين الذى يوحى

اليهم من جهه تلقيه فلا- يخطئون،و من جهه حفظه فلا- ينسون و لا- يحرفون،و من جهه إلقائه الى الناس و تبليغه لهم قولا- فلا يقولون إلا- الحق الذى أوحى اليهم و فعلا- فلا- يخالف فعلهم قولهم و لا يقترفون معصيه صغيره و لا كبيره لأن فى لفعل تبليغا كالقول،و أما المعصيه بمعنى مخالفه الأمر الإرشادى الذى لا- داعى فيه إلا إحراز الأمور خيرا أو منفعه من خيرات حياته و منافعها بانتخاب الطريق الأصح كما يأمر و ينهى المشير الناصح نصحا فإطاعته و معصيته خارجتان من مجرى أدله العصمه و هو ظاهر.

قوله تعالى: **ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَىٰ** الإجتباء- كما تقدم مرارا- بمعنى الجمع على طريق الاصطفاء ففيه جمعه تعالى عبده لنفسه لا يشاركه فيه أحد و جعله من المخلصين بفتح اللام،و على هذا المعنى يتفرع عليه قوله: **«فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَىٰ»**، كأنه كان ذا أجزاء متفرقه متشتمه فجمعها من هنا و هناك الى مكان واحد ثم تاب عليه و رجع اليه و هداه و سلك به الى نفسه.

و إنما فسّرنا قوله: **«هَدَىٰ»** و هو مطلق بهدائته الى نفسه بقرينه الاجتباء،و لا ينافى مع ذلك إطلاق الهدايه لأن الهدايه اليه تعالى أصل كل هدايه و محتدها،نعم يجب تقييد الهدايه بما يكون فى أمر الدين من اعتقاد حق و عمل صالح،و الدليل عليه تفرع الهدايه فى الآيه على الاجتباء،فافهم ذلك.

قوله تعالى: **قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** تقديم تفسير مثله فى سورتى البقره و الأعراف.

و فى قوله: **«قَالَ اهْبِطْ»** التفات من التكلم مع الغير الى الغيبه و الإفراد و لعل الوجه فيه اشتمال الآيه على القضاء و الحكم و هو مما يختص به تعالى قال: **وَ اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ** (المؤمن ٢٠)،و قال: **إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ** (يوسف ٦٧).

قوله تعالى: **فَأَمَّا يَا تَيْنُكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَ لَا**

يَشْقَى فِي الْآيَةِ قِضَاءٌ مِنْهُ تَعَالَى مُتَفَرِّعٌ عَلَى الْهَبُوطِ وَ لَذَا عَطْفٌ بِفَاءِ التَّفْرِيعِ، وَ أَصْلُ قَوْلِهِ:

«فَأَمَّا يَا تَيْتَنُكُمْ» فَإِنْ يَأْتِكُمْ زَيْدٌ عَلَيْهِ مَا وَ نُونُ التَّأَكِيدِ لِلإِشَارَةِ إِلَى وَقُوعِ الشَّرْطِ كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنْ يَأْتِكُمْ مِنْى هَدَى- وَ هُوَ لَا مَحَالَةَ آتٍ- فَمَنْ اتَّبَعَ، الْخ.

وَ فِي قَوْلِهِ: «فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَاىَ» نَسَبَهُ الْإِتْبَاعَ إِلَى الْهَدَى عَلَى طَرِيقِ الْإِسْتِعَارَةِ بِالْكَنَايَةِ، وَ أَصْلُهُ: مَنْ اتَّبَعَ الْهَادِيَ الَّذِى يَهْدِى بِهَدَاىَ.

وَ قَوْلُهُ: «فَلَا يَضِلُّ وَ لَا يَشْقَى» أَى لَا يَضِلُّ فِي طَرِيقِهِ وَ لَا يَشْقَى فِي غَايَتِهِ الَّتِى هِىَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ، وَ إِطْلَاقُ الضَّلَالِ وَ الشَّقَاءِ يَقْضِى بِنَفْسِ الضَّلَالِ وَ الشَّقَاءِ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ جَمِيعًا وَ هُوَ كَذَلِكَ فَإِنَّ الْهَدَى الْإِلَهِيَّ هُوَ الدِّينُ الْفَطْرِيَّ الَّذِى دَعَا إِلَيْهِ بِلِسَانِ أَنْبِيَائِهِ، وَ دِينُ الْفَطْرِ هُوَ مَجْمُوعُ الْإِعْتِقَادَاتِ وَ الْأَعْمَالِ الَّتِى تَدْعُو إِلَيْهَا فَطْرُهُ الْإِنْسَانِ وَ خَلَقْتَهُ بِحَسَبِ مَا جَهَّزَهُ بِهِ مِنَ الْجِهَازَاتِ، وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ سَعَادَةَ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ مَا تَسْتَدْعِيهِ خَلْقَتُهُ بِمَا لَهَا مِنَ التَّجْهِيزِ لَا سَعَادَةَ لَهُ وَرَاءَهُ، قَالَ تَعَالَى: فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ (الرُّومُ ٣٠).

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ الرَّاعِبُ: الْعَيْشُ الْحَيَاةُ الْمُخْتَصَمَةُ بِالْحَيَوَانَ وَ هُوَ أَخْصٌ مِنَ الْحَيَاةِ لِأَنَّ الْحَيَاةَ يُقَالُ فِي الْحَيَوَانَ وَ فِي الْبَارِي تَعَالَى وَ فِي الْمَلِكِ وَ يَشْتَقُّ مِنْهُ الْمَعِيشَةُ لَمَّا يَتَعَيْشُ مِنْهُ، قَالَ تَعَالَى: «نَحْنُ قَسِدٌ مِمَّا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» «مَعِيشَةً ضَنْكًا» أَنْتَهَى، وَ الضَّنْكَ هُوَ الضِّيْقُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَ يَسْتَوِى فِيهِ الْمَذْكَرُ وَ الْمَوْثُ، يُقَالُ: مَكَانٌ ضَنْكٌَ وَ مَعِيشَةٌ ضَنْكٌَ وَ هُوَ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرٌ ضَنْكٌَ يَضْنُكَ مِنْ بَابِ شَرَفٍ يَشْرَفُ أَى ضَاقَ.

وَ قَوْلُهُ: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى يُقَابَلُ قَوْلُهُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ: «فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَاىَ» وَ كَانَ مُقْتَضَى الْمَقَابَلَةِ أَنْ يُقَالَ: «وَ مَنْ لَمْ يَتَّبِعْ هُدَاىَ» وَ إِنَّمَا عَدَلَ عَنْهُ إِلَى ذِكْرِ الْإِعْرَاضِ عَنِ الذِّكْرِ لِإِشِيرَةِ بِهِ إِلَى عِلَّةِ الْحُكْمِ لِأَنَّ نَسْيَانَهُ تَعَالَى وَ الْإِعْرَاضُ عَنْ ذِكْرِهِ هُوَ السَّبَبُ لِضَنْكَ

العيش و العمى يوم القيامة، و ليكون توطئه و تمهيدا لما سيدكر من نسيانه تعالى يوم القيامة من نسيه فى الدنيا.

و المراد بذكره تعالى إما المعنى المصدرى فقوله: «ذِكْرِي» من إضافه المصدر الى مفعوله أو القرآن أو مطلق الكتب السماويه كما يؤيده قوله الآتى: «أَتَتَّكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا» أو الدعوه الحقه و تسميتها ذكرا لأن لازم اتباعها و الأخذ بها ذكره تعالى.

و قوله: فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً أى ضيقه و ذلك أن من نسى ربه و انقطع عن ذكره لم يبق له إلا أن يتعلق بالدنيا و جعلها مطلوبه الوحيد الذى يسعى له و يهتم بإصلاح معيسته و التوسع فيها و التمتع منها، و المعيشه التى أوتىها لا تسعه سواء كانت قليله أو كثيره لأنه كلما حصل منها و اقتناها لم يرض نفسه بها و انتزعت الى تحصيل ما هو أزيد و أوسع من غير أن يقف منها على حد فهو دائما فى ضيق صدر و حنق مما وجد متعلق القلب بما وراءه مع ما يهجم عليه من الهم و الغم و الحزن و القلب و الاضطراب و الخوف بنزول النوازل و عروض العوارض من موت و مرض و عاهه و حسد حاسد و كيد كائد و خيبه سعى و فراق حبيب.

و لو أنه عرف مقام ربه ذاكرا غير ناس أيقن أن له حياه عند ربه لا- يخالطها موت و ملكا لا يعتريه زوال و عزه لا يشوبها ذله و فرحا و سرورا و رفعه و كرامه لا تقدر بقدر و لا تنتهى الى أمد و أن الدنيا دار مجاز و ما حياتها فى الآخره إلا متاع فلو عرف ذلك قنعت نفسه بما قد عرف له من الدنيا و وسعه ما أوتيه من المعيشه من غير ضيق و ضنك.

و قيل: المراد بالمعيشه الضنك عذاب القبر و شقاء الحياه البرزخيه بناء على أن كثيرا من المعرضين عن ذكر الله ربما نالوا من المعيشه أوسعها و ألفت اليهم أمور الدنيا بأزمّتها فهم فى عيشه و سيعه سعيده.

و فيه أنه مبنى على مقايسه معيشه الغنى من معيشه الفقير بالنظر الى نفس المعيشتين و الإمكانيات التى فيهما و لا يتعلق نظر القرآن بهما من هذه الجبهه البتة، و إنما تبحث الآيات فيهما

بمقاييسه المعيشه المضافه الى المؤمن و هو مسلح بذكر الله و الإيمان به من المعيشه المضافه الى الكافر الناسى لربه المتعلق النفس بالحياه الدنيا الأ-عزل من الإيمان و لا-ريب أن للمؤمن حياه حره سعيده يسعه ما أكرمه ربه به من معيشه و إن كانت بالعفاف و الكفاف أو دون ذلك، و ليس للمعرض عن ذكر ربه إلا عدم الرضا بما وجد و التعلق بما وراءه.

نعم عذاب القبر من مصاديق المعيشه الضنك بناء على كون قوله: «فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا» متعرضا لبيان حالهم فى الدنيا و قوله: «وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى» لبيان حالهم فى الآخره و البرزخ من أذنب الدنيا.

و قوله: «وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى» أى بحيث لا يهتدى الى ما فيه سعاده و هو الجنه و الدليل على ذلك ما يأتى فى الآيتين التاليتين.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا يسبق الى الذهن أن عمى يوم القيامة يتعلق ببصر الحس فإن الذى يسأل عنه هو ذهاب البصر الذى كان له فى الدنيا و هو بصر الحس دون بصر القلب الذى هو البصيره، فيشكل عليه ظاهر ما دل على أن المجرمين يبصرون يوم القيامة أهوال اليوم و آيات العظمه و القهر كقوله تعالى: إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا (الم السجده ١٢)، و قوله: اقْرَأْ كِتَابِيكَ (الإسراء ١٤)، و لذلك ذكر بعضهم أنهم يحشرون أولا- مبصرين ثم يعمون، و بعضهم أنهم يحشرون مبصرين ثم عميا ثم مبصرين.

و هذا قياس أمور الآخره و أحوالها بما لها من نظير فى الدنيا و هو قياس مع الفارق فإن من الظاهر المسلّم من الكتاب و السنه أن النظام الحاكم فى الآخره غير النظام الحاكم فى الدنيا الذى نألفه من الطبيعه و كون البصير مبصرا لكل مبصر و الأعمى غير مدرك لكل ما من شأنه أن يرى كما هو المشهود فى النظام الدنيوى لا دليل على عمومه للنظام الاخرى فمن الجائز أن يتبعض الأمر هناك فيكون المجرم أعمى لا يبصر ما فيه سعاده حياته و فلاحه و فوزه

بالكرامه و هو يشاهد ما يتم به الحجه عليه و ما يفزعه من أهوال القيامة و ما يشتد به العذاب عليه من النار و غيرها، قال تعالى:
إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (المطففين: ١٥).

قوله تعالى: قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَ بِهَا وَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى الآيه جواب سؤال السائل: رب لم حشرتنى أعمى و قد كنت بصيرا؟ و الإشاره فى قوله: «كَذَلِكَ أَتَتْكَ» الى حشره أعمى المذكور فى السؤال، و فى قوله: «وَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ» الى معنى قوله:

«أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَ بِهَا» و لمعنى قال: كما حشرناك أعمى أتتك آياتنا فنسيتها و كما أتتك آياتنا فنسيتها نساك اليوم أى إن حشرك اليوم أعمى و تركك لا تبصر شيئا مثل تركك آياتنا فى الدنيا كما يترك الشىء المنسى و عدم اهتدائك بها مثل تركنا لك اليوم و عدم هدايتك بجعلك بصيرا تهتدى الى النجاه، و بعبارة أخرى إنما جازيناك فى هذا اليوم بمثل ما فعلت فى الدنيا كما قال تعالى: وَ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا (الشورى ٤٠).

و قد سمى الله سبحانه معصيه المجرمين و هم المعرضون عن ذكره التاركون لهواه نسيانا لآياته، و مجازاتهم بالإعلاء يوم القيامة نسيانا منه لهم و انعطف بذلك آخر الكلام الى أوله و هو معصيه آدم التى سماها نسيانا لعهد إذ قال: «وَ لَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى» فكان قصه جنه آدم بما لها من الخصوصيات كانت مثلا من قبل يمثل به ما سيجرى على بنيه من بعده الى يوم القيامة فيمثل بنهيه عن اقتراب الشجره الدعوه الدينيه و لهدى الإلهى بعده، و بمعصيته التى كانت نسيانا للعهد معاصى بنيه التى هى نسيان لذكره تعالى و آياته المذكرة، و إنما الفرق أن ابتلاء آدم كان قبل تشريع الشرائع فكان النهى المتوجه اليه إرشاديا و ما ابتلى به من المخالفه من قبيل ترك الاولى بخلاف الأمر فى بنيه (١).

ص: ٢١٦

١- (١). طه ١١٥-١٢٦: بحث روائى حول قصه آدم عليه السلام، بدء خلق الانسان، من يحشره الله يوم القيامة اعمى.

اشاره

وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (۱۲۷) أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (۱۲۸) وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (۱۲۹) فَاصْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (۱۳۰) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (۱۳۱) وَ أَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَ اضْطَبَّرَ عَلَيْهَا لَا نَسِئُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَزِقُكَ وَ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (۱۳۲) وَ قَالُوا لَوْ لَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوْ لَمْ تَأْتِنَهُمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (۱۳۳) وَ لَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزَى (۱۳۴) قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسْتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَ مَنْ اهْتَدَى (۱۳۵)

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى الإسراف التجاوز عن الحد و الظاهر أن الواو فى قوله: «وَكَذَلِكَ» للاستيناف، والإشارة الى ما تقدم من مؤاخذه من أعرض عن ذكر الله و نسى آياته ربه فإنه تجاوز منه عن حد العبوديه و كفر آيات ربه فجزاؤه جزاء من نسى آيات ربه و تركها بعد ما عهد اليه معرضا عن ذكره.

و قوله: «وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى» أى من عذاب الدنيا و ذلك لكونه محيطا بباطن الإنسان كظاهره و لكونه دائما لا يزول.

قوله تعالى: أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ الخ؛ الظاهر أن «يَهْدِ» مضمّن معنى يبين، والمعنى أ فلم يبين لهم طريق الاعتبار و الإيمان بالآيات كثره إهلاكنا القرون التى كانوا قبلهم و هم يمشون فى مساكنهم كما كانت تمر أهل مكه فى أسفارهم بمساكن عاد بأحقاف اليمن و مساكن ثمود و أصحاب الأيكة بالشام و مساكن قوم لوط بفلسطين «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى» أى أرباب العقول.

قوله تعالى: وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى مقتضى السياق السابق أن يكون «لِزَامًا» بمعنى الملازمه و هما مصدرا لازم يلازم، و المراد بالمصدر معنى اسم الفاعل و على هذا فاسم كان هو الضمير الراجع الى الهلاك المذكور فى الآيه السابقه، و أن قوله: «وَ أَجَلٌ مُّسَمًّى» معطوف على «كَلِمَةٌ سَبَقَتْ» و التقدير و لو لا كلمه سبقت من ربك و أجل مسمى لكان الهلاك ملازما لهم إذ أسرفوا و لم يؤمنوا بآيات ربهم.

و قوله: وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ تكرر هذه الكلمه منه سبحانه فى حق بنى إسرائيل و غيرهم فى مواضع من كلامه كقوله: وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ

بَيْنَهُمْ (يونس ١٩)/(هود ١١٠)/(حم السجده ٤٥)، وقد عاها بالأجل المسمى فى قوله: وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِّىَ بَيْنَهُمْ (الشورى ١٤)، وقد تقدم فى تفسير سورتى يونس و هود أن المراد بها الكلمه التى قضى بها عند إهباط آدم الى الأرض بمثل قوله: وَ لَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (الأعراف ٢٤).

فالناس آمنون من الهلاك و عذاب الاستئصال على إسرافهم و كفرهم ما بين استقرارهم فى الارض و أجلهم المسمى إلا أن يجيئهم رسول فيقضى بينهم، قال تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (يونس ٤٧) و إليه يرجع عذاب الاستئصال عن الآيات المقترحه إذا لم يؤمن بها بعد ما جاءت و هذه الامه حالهم حال سائر الامم فى الأمن من عذاب الاستئصال بوعد سابق من الله، و أما القضاء بينهم و بين النبى صلى الله عليه و آله و سلم فقد أخره الله الى أمد كما تقدم استفادته من قوله: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ الْآيَه من سوره يونس.

و قوله: وَ أَجَلٌ مُّسَمًّى قد تقدم فى تفسير أول سوره الأنعام أن الأجل المسمى هو الأجل المعين بالتسميه الذى لا يتخطا و لا يتخلف كما قال تعالى: مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلُهَا وَ مَا يَسْتَأْخِرُونَ (الحجر ٥)، و ذكر بعضهم أن المراد بالأجل المسمى يوم القيامة، و قال آخرون: إن الأجل المسمى هو الكلمه التى سبقت من الله فيكون عطف الأجل على الكلمه من عطف التفسير، و لا معول على القولين لعدم الدليل.

فمحصل معنى الآيه أنه لو لا أن الكلمه التى سبقت من ربك-و فى إضافه الرب الى ضمير الخطاب إغزاز و تأييد للنبى صلى الله عليه و آله و سلم-تقضى بتأخير عذبهم و الأجل المسمى يعين وقته فى ظرف التأخير لكان الهلاك ملازما لهم بمجرد الإسراف و الكفر.

و من هنا يظهر أن مجموع الكلمه التى سبقت و الأجل المسمى سبب واحد تام لتأخير العذاب عنهم لا أن كل واحد منهما سبب مستقل فى ذلك كما اختاره كثير منهم.

قوله تعالى: فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا؛ يا أمره بالصبر على ما يقولون ويفرعه على ما تقدم كأنه قيل: إذا كان من قضاء الله أن يؤخر عذابهم ولا يعاجلهم بالانتقام على ما يقولون فلا يبقى لك إلا أن تصبر راضيا على ما قضاء الله من الأمر و تنزهه عما يقولون من كلمه الشرك و يواجهونك به من السوء، و تحمده على ما تواجهه من آثار قضاؤه فليس إلا الجميل فاصبر على ما يقولون و سبِّح بحمد ربك لعلك ترضى.

و قوله: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» أى نزهه متلبسا بحمده و الثناء عليه فإن هذه الحوادث التى يشق تحملها و الصبر عليها لها نسبه الى فواعلها و ليست إلا سيئه يجب تنزيهه تعالى عنها و لها نسبه بالإذن اليه تعالى و هى بهذه النسبه جميله لا يترتب عليها إلا مصالح عامه يصلح بها النظام الكونى ينبغى أن يحمد الله و يشنى عليه بها.

و قوله: «قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا» ظرفان متعلقان بقوله: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» .

و قوله: «وَمِنْ آذَانِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ الْجَمْلَةَ نَظِيرَهُ قَوْلُهُ: «وَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ» (البقره ٤٠)، و الآناء على أفعال جمع إنى أو إنو بكسر الهمزه بمعنى الوقت و «مِنْ» للتبعيض و الجار و المجرور متعلق بقوله: «فَسَبِّحْ» دال على ظرف فى معناه متعلق بالفعل و التقدير و بعض آناء الليل سبِّح فيها.

و قوله: «وَأَطْرَافَ النَّهَارِ مَنْصُوبٌ بِنَزْعِ الْخَافِضِ عَلَى مَا ذَكَرُوا مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ:

«وَمِنْ آذَانِ» و التقدير و سبِّح فى أطراف النهار، و هل المراد بأطراف النهار ما قبل طلوع الشمس و ما قبل غروبها، أو غير ذلك؟ اختلفت فيه كلمات المفسرين و سنشير اليه.

و قوله: «لَعَلَّكَ تَرْضَى» السياق السابق و قد ذكر فيه إعراضهم عن ذكر ربهم و نسيانهم آياته و إسرافهم فى أمرهم و عدم إيمانهم ثم ذكر تأخير الانتقام منهم و أمره بالصبر و التسبيح و التحميد يقضى أن يكون المراد بالرضا الرضا بقضاء الله و قدره، و المعنى: فاصبر

و سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ لِيَحْصَلَ لَكَ الرِّضَا بِمَا قَضَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ فَيَعُودَ إِلَيْكَ مِثْلَ مَعْنَى قَوْلِهِ:

«وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ» .

و الوجه فيه أن تكرار ذكره تعالى بتنزيه فعله عن النقص و الشين و ذكره بالثناء الجميل و المداومه على ذلك يوجب أنس النفس به و زيادته و زياده الانس بجمال فعله و نزاهته توجب رسوخه فيها و ظهوره في نظرها و زوال الخطورات المشوشه للإدراك و الفكر، و النفس مجبولة على الرضا بما تحبه و لا تحب غير الجميل المنزه عن القبح و الشين فإدامه ذكره بالتسبيح و التحميد تورث الرضا بقضائه.

قوله تعالى: «وَلَا تَمِدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ الْخَبْرُ»؛ مد العين مد نظرها و إطالته ففيه مجاز عقلي ثم مد النظر و إطالته الى شيء كناية عن التعلق به و حبه، و المراد بالأزواج - كما قيل - الأصناف من الكفار أو الأزواج من النساء و الرجال منهم و يرجع الى البيوتات و تنكير الأزواج للتقليل و إظهار أنهم لا يعبا بهم.

و قوله: «زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» بمنزل التفسير لقوله: «مَا مَتَّعْنَا بِهِ» و هو منصوب بفعل مقدر و التقدير نعنى به - أو جعلنا لهم - زهره الحياه الدنيا و هى زينتها و بهجتها، و الفتنة الامتحان و الاختبار، و قيل: المراد بها العذاب لأن كثرة الأموال و الأولاد نوع عذاب من الله كما قال:

«وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ (التوبه ٨٥)» .

و قوله: «وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقَى» المراد به بقرينه مقابلته لما متعوا به من زهره الحياه الدنيا هو رزق الآخرة و هو خير و أبقى.

و المعنى: لا تطل النظر الى زينه الحياه الدنيا و بهجتها التى متعنا بها أصنافا أو أزواجا معدوده منهم لمتحنهم فيما متعنا به، و الذى سيرزقك ربك فى الآخرة خير و أبقى.

قوله تعالى: وَ أَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَ اضْيَاطِرُّ عَلَيْهَا لَا نَسِيئُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَزُوقُكَ وَ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى الْآيَةَ ذات سياق يلتئم بسياق سائر آيات السورة فهى مكيه كسائرهما على أَنَا لم نظفر بمن يستثنيها و يعدّها مدنيه، و على هذا فالمراد بقوله: «أَهْلَكَ» بحسب انطباقه على وقت النزول خديجه زوج النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم و على عليه السّلام و كان من أهله و فى بيته أو هما و بعض بنات النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم.

و قوله: «لَا نَسِيئُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَزُوقُكَ» ظاهر المقابله بين الجملتين أن المراد سؤال تعالى الرزق لنفسه و هو كناية عن أَنَا فى غنى منك و أنت المحتاج المفتقر الينا فيكون فى معنى قوله:

وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ، مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ مَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (الذاريات ٥٦-٥٨)، و أيضا هو من جهه تذييله بقوله:

«وَ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى» فى معنى قوله: لَنْ يَدَّالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَ لَا دِمَائُهَا وَ لَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ (الحج ٣٧)، بتفسيرهم سؤال الرزق بسؤال الرزق للخلق أو لنفس النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم ليس بسديد.

قوله تعالى: وَ قَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوْ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ فِي الصُّحُفِ الْأُولَى حكاية قول مشركى مكه و إنما قالوا هذا تعريضا للقرآن أنه ليس بآيه دالّ على النبوه فليأتنا بآيه كل أرسل الأولون و البيئه الشاهد المبين أو البين و قيل هو البيان.

و كيف كان فقولهم: «لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ» تحضيض بداعى إهانته القرآن و تعجيز النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم باقتراح آيه معجزه اخرى، و قوله: «أَوْ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ» السخ؛ جواب عنه و معناه على الوجه الأول من معنى البيئه: أ و لم تأتهم بينه و شاهد يشهد على ما فى الصحف الاولى - و هى التوراه و الإنجيل و سائر الكتب السماويه - من حقائق المعارف و الشرائع و يبينها و هو القرآن و قد أتى به رجل لا عهد له بمعلم يعلمه و لا ملقن يلقنه ذلك.

و على الوجه الثانى: أ و لم تأتهم بيان ما فى الصحف الاولى من أخبار الامم الماضين الذين

اقترحوا على أنبيائهم الآيات المعجزه فأتوا بها و كان إتيانها سببا لهلاكهم و استئصالهم لما لم يؤمنوا بها بعد إذ جاءتهم فلم لا ينتهون عن اقتراح آيه بعد القرآن؟ و لكل من المعنيين نظير فى كلامه تعالى.

قوله تعالى: **وَ لَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِّنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَحْزَى الظاهر أن ضمير «مِنْ قَبْلِهِ» للبينه-فى الآيه السابقه-باعتبار أنها القرآن، و المعنى لا و لو أننا أهلكناهم لإسرافهم و كفرهم بعذاب من قبل أن تأتيمهم البينه لم تتم عليهم الحججه و لكانت الحججه لهم علينا و لقالوا ربنا لو لا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك و هى التى تدلّ عليها البينه من قبل أن نذلّ بعذاب الاستئصال و نحزى.**

و قيل الضمير للرسول المعلوم من مضمون الآيه السابقه بشهاده قولهم: **«لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا»** و هو قريب من جهه اللفظ و المعنى الأول من جهه المعنى و يؤيده قوله: **«فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ»** و لم يقل: فتتبع رسولك.

قوله تعالى: **قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَيَتَّعَلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصُّرَاطِ السَّوِيِّ وَ مَنْ اهْتَدَى التَّرَبُّصِ الانتظار، و الصراط السوى الطريق المستقيم، و قوله:**

«كُلُّ مُتَرَبِّصٍ» أى كل منا و منكم متربص منتظر فنحن ننتظر ما وعده الله لنا فيكم و فى تقدم دينه و تمام نوره و أنتم تنتظرون بنا الدوائر لتبطلوا الدعوه الحقه و كل منا و منكم يسلك سبيلا الى مطلوبه فتربصوا و انتظروا و فيه تهديد فستعلمون أى طائفه منا و منكم أصحاب الطريق المستقيم الذى يوصله الى مطلوبه و من الذين اهدوا الى المطلوب و فيه ملحمه و إخبار بالفتح.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُخْبِرًا إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَ اسَيَّرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَمْ فَتَاتُونَ السَّحَرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِالْبَيِّنَاتِ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ (٥) مَا آمَنْتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمِهِ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وَ مَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَ مَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاَهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَ مَنْ نَشَاءُ وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠) وَ كَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَوْمِهِ كَانَتْ ظَالِمَةً وَ أَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَّ بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَ ارْجِعُوا إِلَيْنَا أُنزِلْنَا فِيهِ وَ مَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)

غرض السوره الكلام حول النبوه بانيا ذلك على التوحيد و المعاد فتفتتح بذكر اقتراب الحساب و غفله الناس عن ذلك و إعراضهم عن الدعوه الحقه التى تتضمن الوحي السماوى فهى ملاك حساب يوم الحساب و تنتقل من هناك الى موضوع النبوه و استهزاء الناب بنبوه النبى صلى الله عليه و آله و سلم و رميهم إياه بأنه بشر ساحر بل ما أتى به أضغاث أحلام بل مفتر بل شاعر! فترد ذلك بذكر أوصاف الأنبياء الماضين الكليه إجمالاً و أن النبى لا يفقد شيئاً مما وجدوه و لا ما جاء به يغير شيئاً مما جاءوا به.

ثم تذكر قصص جماعه من الأنبياء تأييدا لما تقدم من الإجمال و هم موسى و هارون و إبراهيم و إسحاق و يعقوب و لوط و نوح و داود و سليمان و أيوب و إسماعيل و إدريس و ذو الكفل و ذو النون و زكريا و يحيى و عيسى.

ثم تتخلص الى ذكر يوم الحساب و ما يلقاه المجرمون و المتقون فيه، و أن العاقبه للمتقين و أن الأرض يرثها عباده الصالحون ثم تذكر أن إعراضهم عن النبوه إنما هو لإعراضهم عن التوحيد فتقيم الحجه على ذلك كما تقيمها على النبوه و الغلبه فى السوره للوعيد على الوعد و للإنداز على التبشير. و السوره مكيه بلا خلاف فيها و سياق آياتها يشهد بذلك.

قوله تعالى: **اِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ** الاقتراب افتعال من القرب و اقترب و قرب بمعنى واحد غير أن اقترب أبلغ لزياده بنائه و يدل على مزيد عنايه بالقرب، و يتعدى القرب و الاقتراب بمن و إلى يقال: قرب أو اقترب زيد من عمرو أو إلى عمرو و الأول يدل على أخذ نسبه القرب من عمرو و الثانى على أخذها من زيد لأن الأصل فى معنى من ابتداء الغايه كما أن الأصل فى معنى الى انتهاؤها.

و من هنا يظهر أن اللام فى «لِلنَّاسِ» بمعنى إلى لا- بمعنى «من» لأن المناسب للمقام أخذ نسبه الاقتراب من جانب الحساب لأنه الذى يطلب الناس بالاقتراب منهم و الناس فى غفله معرضون.

و المراد بالحساب- هو محاسبه الله سبحانه أعمالهم يوم القيامه- نفس الحساب لا زمانه بنحو التجوز أو بتقدير الزمان و إن أصر بعضهم عليه و وجهه بعض آخر بأن الزمان هو الأصل فى القرب و البعد و إنما ينسب القرب و البعد إلى الحوادث الواقعه فيه بتوسطه.

و ذلك لأن الغرض فى المقام متعلق بتذكرة نفس الحساب لتعلقه بأعمال الناس إذ كانوا مسئولين عن أعمالهم فكان من الواجب فى الحكمة أن ينزل عليهم ذكر من ربهم ينبههم على ما فيه مسئوليتهم، و من الواجب عليهم أن يستمعوا له مجدين غير لاعبين و لا لاهيه قلوبهم نعم

لو كان الكلام مسوقا لبيان أهوال الساعه و ما أعدّ من العذاب للمجرمين كان الأنسب التعبير بيوم الحساب أو تقدير الزمان و نحو ذلك.

و المراد بالناس الجنس و هو المجتمع البشرى الذى كان أكثرهم مشركين يومئذ لا-المشركون خاصه و إن كان ما ذكر من أوصافهم كالغفله و الإعراض و الاستهزاء و غيرها أوصاف المشركين فليس ذلك من نسبه حكم البعض الى الكل مجازا بل من نسبه حكم المجتمع الى نفسه حقيقه ثم استثناء البعض الذى لا يتصف بالحكم كما يلوح اليه أمثال قوله:

«وَ أَسِرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» و قوله: «فَأَنْجِيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ» على ما هو دأب القرآن فى خطاباتة الاجتماعيه من نسبه الحكم الى المجتمع ثم استثناء الأفراد غير المتصفه به.

و بالجمله فرق بين أخذ المجتمع موضوعا للحكم و استثناء أفراد منه غير متصفه به و بين أخذ أكثر الأفراد موضوع الحكم ثم نسبه حكمه الى الكل مجازا و ما نحن فيه من القبيل الأول دون الثانى.

و قوله: «وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ» ذلك أنهم تعلقوا بالدنيا و اشتغلوا بالتمتع فامتأمت قلوبهم من حبه فلم يبق فيها فراغ يقع فيها ذكر الحساب و قوعا تتأثر به حتى أنهم لو ذكروا لم يذكروا و هو الغفله فإن الشىء كما يكون مغفولا عنه لعدم تصوّره من أصله قد يكون مغفولا عنه لعدم تصوّره كما هو حقه بحيث تتأثر النفس به.

قوله تعالى: «لَمَّا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُّحَدِّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ لَأَهَبَهُ قُلُوبُهُمْ الْآيَهُ بِمَنْزِلِهِ التعليل لقوله: «وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ» إذ لو لم يكونوا فى غفله معرضين لم يلعبوا و لم يتلّوها عند استماع الذكر الذى لا ينبههم إلا على ما يهمهم التنبيه له و يجب عليهم التهيؤ له، و لذلك جىء بالفصل من غير عطف.

و المراد بالذكر ما يذكر به الله سبحانه من وحي إلهى كالكتب السماويه و منها القرآن الكريم، و المراد بإتيانه لهم نزوله على النبى و إسماعه و تبليغه، و محدث بمعنى جديد و هو معنى إضافى و هو

وصف ذكر فالقرآن مثلا- ذكر جديد أتاهم بعد الإنجيل و الإنجيل كان ذكرا جديدا أتاهم بعد التوراه و كذلك بعض سور القرآن و آياته ذكر جديد أتاهم بعد بعض.

و قوله: **إِلَّا اسْتَمَعُوهُ** استثناء مفرغ عن جميع أحوالهم و «**اسْتَمَعُوهُ**» حال و «**هُمْ يَلْعَبُونَ**» **لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ**» حالان من ضمير الجمع في «**اسْتَمَعُوهُ**» فهما حالان متداخلتان.

و اللعب فعل منتظم الأجزاء لا غايه له إلا الخيال كلعب الأطفال و اللهو اشتغالك عما يهملك يقال: ألها كذا أى شغله عما يهمله و لذلك تسمى آلات الطرب آلات اللهو و ملاهى، و اللهو من صفه القلب و لذلك قال: «**لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ**» فنسبه الى قلوبهم.

و معنى الآية: و ما يأتيهم-بالنزول و البلوغ-ذكر جديد من ربهم فى حال من الأحوال !:

و الحال أنهم لا-عبون لاهيه قلوبهم فاستمعوه فيها أى إن إحداث الذكر و تجديده لا يؤثر فيهم و لا أثرا قليلا و لا يمنعهم عن الاشتغال بلعب الدنيا عما وراءها و هذا كناية عن أن الذكر لا يؤثر فيهم فى حال لا أن جديده لا يؤثر و قديمه يؤثر و هو ظاهر.

و استدلال بظاهر الآية على كون القرآن محدثا غير قديم، و أولها الأشاعره بأن توصيف الذكر بالمحدث من جهة نزوله و هو لا ينافى قدمه فى نفسه و ظاهر الآية عليهم و للكلام تتمه نوردها فى بحث مستقل (1).

قوله تعالى: **وَ اسْرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِّثْلُكُمْ** **أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ** الإسرار يقابل الإعلان فإسرار القول يفيد وحده معنى النجوى فإضافته الى النجوى تفيد المبالغه.

و ضمير الفاعل فى «**أَسْرُّوا النَّجْوَى**» راجع الى الناس غير أنه لما لم يكن الفعل فعلا لجميعهم و لا لأكثرهم فإن فيهم المستضعف و من لا شغل له به و إن كان منسوبا الى الكل من

ص: ٢٢٨

جبهه ما فى مجتمعهم من الغفله و الإعراض أوضح النسبه بقوله: «الَّذِينَ ظَلَمُوا» فهو عطف بيان دل به على أن النجوى إنما كان من الذين ظلموا منهم خاصة.

و قوله: «هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَ فَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» هو الذى تناجوا به، و قد كانوا يصرحون بتكذيب النبى صلى الله عليه و آله و سلم و يعلنون بأنه بشر و أن القرآن سحر من غير أن يخفوا شيئاً من ذلك لكنهم إنما أسروا فى نجواهم إذ كان ذلك منهم شورى يستشير بعضهم فيه بعضاً ما ذا يقابلون به النبى صلى الله عليه و آله و سلم و يجيبون عما يسألهم من الإيمان بالله و برسالته؟فما كان يسعهم إلا كتمان ما يذكر فيما بينهم و إن كانوا أعلنوا به بعد الاتفاق على رد الدعوه.

و قد اشتمل نجواهم على قولين قطعوا عليهما أوردوهما بطريق الاستفهام الإنكارى و هما قوله: «هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ» و قد اتخذوه حجه لإبطال نبوته و هو أنه كما تشاهدونه-و قد أتوا باسم الإشاره دون الضمير فقالوا:هل هذا؟و لم يقولوا:هل هو؟للدلاله على العلم به بالمشاهده-بشر مثلكم لا يفارقكم فى شىء يختص به فلو كان ما يدّعيه من الاتصال بالغيب و الارتباط باللاهوت حقاً لكان عندكم مثله لأنكم بشر مثله،فإذ ليس عندكم من ذلك نبأ فهو مثلكم لا خير عنده فليس بنبى كما يدّعى.

و قولهم: «أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» و هو تفرع بفاء التفریع على نفى النبوه بإثبات البشریه فيرجع المعنى الى أنه لما لم يكن نبيا متصلاً بالغيب فالذى أتاكم به مدّعياً أنه آية النبوه ليس بآيه معجزه من الله بل سحر تعجزون عن مثله،و لا ينبغى لذى بصر سليم أن يدعن بالسحر و يؤمن بالساحر.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ فى السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أى إنه تعالى محيط علماً بكل قول سرا أو جهراً و فى أى مكان و هو السميع لأقوالكم العليم بأفعالكم فالأمر اليه و ليس لى من الأمر شىء.

و الآيه حكاية قول النبى صلى الله عليه و آله و سلم لهم لما أسروا النجوى و قطعوا على تكذيب نبوته و رمى

بشيء مما اقترحوه من آيات الأولين.

و محصل المعنى على ما يعطيه السياق أنهم كاذبون في وعدهم و لو أنزلنا شيئاً مما اقترحوه من آيات الأولين لم يؤمنوا بها و كان فيها هلاكهم فإن الأولين من أهل القرى اقترحوها فأنزلناها فلم يؤمنوا بها فأهلكناهم، و طباع هؤلاء طباع أوليهم فى الإسراف و الاستكبار فليسوا بمؤمنين فالآيه بوجه مثل قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ (يونس / ٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسِئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ جواب عما احتجوا به على نفي نبوته صلى الله عليه و آله و سلم بقولهم: «هل هذا إلا بشرٌ مثلكم» بأن الماضين من الأنبياء لم يكونوا إلا رجلاً من البشر فالبشرية لا تنافى النبوه.

و توصيف «رجالاً» بقوله: «نوحى إليهم» للإشارة الى الفرق بين الأنبياء و غيرهم و محصله أن الفرق الوحيد بين النبي و غيره هو أننا نوحى الى الأنبياء دون غيرهم و الوحي موهبه و من خاص لا يجب أن يعم كل بشر فيكون إذا تحقق تحقق فى الجميع و إذا لم يوجد فى واحد لم يوجد فى الجميع حتى تحكموا بعدم وجدانه عندكم على عدم وجوده عند النبي صلى الله عليه و آله و سلم و ذلك كسائر الصفات الخاصه التى لا توجد إلا فى الواحد بعد الواحد من البشر ما لا سبيل الى إنكارها.

و قوله: «فَسِئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» تأييد و تحكيم لقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ أى إن كنتم تعلمون به فهو و إن لم تعلموا فارجعوا الى أهل الذكر و اسألوهم هل كانت الأنبياء الأولون إلا رجلاً من البشر؟.

و المراد بالذكر الكتاب السماوى و بأهل الذكر أهل الكتاب فإنهم كانوا يشايعون المشركين فى عداوه النبي صلى الله عليه و آله و سلم و كان المشركون يعظموهم و ربما شاوروهم فى أمره و سألوهم عن مسائل يمتحنونه بها و هم القائلون للمشركين على المسلمين هؤلاء أهدى من الذين آمنوا

سَيِّئًا (النساء ٥١/)، و الخطاب فى قوله: «فَسَيِّئُوا» الخ؛ للنبى صلى الله عليه وآله وسلم و كل من يقرع سمعه هذا الخطاب عالما كان أو جاهلا و ذلك لتأييد القول و هو شائع فى الكلام.

قوله تعالى: وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ - الى قوله- الْمُسْرِفِينَ أى هم رجال من البشر و ما سلبنا عنهم خواص البشرىه بأن نجعلهم جسدا خاليا من روح الحياه لا يأكل و لا يشرب و لا عصمناهم من الموت فيكونوا خالدين بل هم بشر ممن خلق يأكلون الطعام و هو خاصه ضروريه و يموتون و هو مثل الأكل.

قوله تعالى: ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ عطف على قوله المتقدم: «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا» و فيه بيان عاقبه إرسالهم و ما انتهى اليه أمر المسرفين من أممهم المقترحين عليهم الآيات، و فيه أيضا توضيح ما أشير اليه من هلاكهم فى قوله: «مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا» و تهديد للمشركين.

و المراد بالوعد فى قوله: «ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ» ما وعدهم من النصره لدينهم و إعلاء كلمتهم كلمه الحق كما فى قوله: وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (الصافات ١٧٣/)، الى غير ذلك من الآيات.

و قوله: «فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمِنْ نَشَاءُ» أى الرسل و المؤمنين و قد وعدهم النجاه كما تدلّ عليه قوله: حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ (يونس ١٠٣/)، و المسرفون هم المشركون المتعدّون طور العبوديه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ امتنان منه تعالى بإنزال القرآن على هذه الامه، فالمراد بذكرهم الذكر المختص بهم اللائق بحالهم و هو آخر ما تسعه حوصله الإنسان من المعارف الحقيقيه العاليه و أقوم ما يمكن أن يجرى فى المجتمع البشرى من الشريعه الحنيفيه و الخطاب لجميع الامه.

قوله تعالى: وَ كَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ الْخَمْسِ،

القسم فى الأصل الكسر، يقال: قسم ظهره أى كسره، ويكنى به عن الهلاك، والإنشاء الإيجاد، والإحساس الإدراك من طريق الحس، والبأس العذاب، والرخص العدو بشده الوطء، والإتراف التوسعه فى النعمه، والحصيد المقطوع و منه حصاد الزرع، والخمود السكون و السكوت.

و المعنى «و كَمَ قَصِيْمًا» و أهلكتنا «مِنْ قَزِيِيَه» أى أهلها «كَانَتْ ظَالِمَةً» لنفسها بالإسراف و الكفر «وَ أَنْشَأْنَا» و أوجدنا «قَوْمًا آخِرِينَ فَلَمَّا أَحْسُوا» و وجدوا بالحس أى أهل القرية الظالمه «بَأْسِنَا» و عذابنا «إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ» و يعدون هاربين كالمنهزمين فيقال لهم توبيخا و تقريعا: «لَا تَرْكُضُوا وَ ارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ» من النعم «وَ مَسَاكِنِكُمْ» و الى مساكنكم «لَعَلَّكُمْ تُسْمَلُونَ» أى لعل المساكين و أرباب الحوائج يهجمون عليكم بالسؤال فتستكبروا عليهم و تختالوا أو تحتجبوا عنهم و هذا كناية عن اعتزازهم و استعلائهم و عدّ المتبوعين أنفسهم أربابا للتابعين من دون الله.

«قَالُوا» تندما «يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ» و هى كلمتهم يا ويلنا المشتمله على الاعتراف بربوبيته تعالى و ظلم أنفسهم «دَعَاؤُهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاَهُمْ حَصِيدًا» محصودا مقطوعا «خَامِدِينَ» ساكنين ساكتين كما تخمد النار لا يسمع لهم صوت و لا يذكر لهم صيت.

[سوره الأنبياء (٢١): الآيات ١٦ الى ٣٣]

إشارة

وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَاتَّخِذْنَاَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَ لَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ لَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠) أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُشْتَرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ (٢٣) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعَىٰ وَ ذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤) وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) وَ قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَ هُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَمَا نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) أَمْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَ جَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَ جَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سِيلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَ جَعَلْنَا السَّمَاءَ سَافًا مَحْفُوظًا وَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)

قوله تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَهْوًا لَاتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ الْآيَاتِ تَوْجِهَانِ نَزُولِ الْعَذَابِ عَلَى الْقَرَى الظَّالِمَةِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ قَصْمَهَا، وَهُمَا بَعَيْنُهُمَا - عَلَى مَا يُعْطِيهِ السِّيَاقُ السَّابِقُ - حُجَّةٌ بَرَهَانِيَّةٌ عَلَى ثُبُوتِ الْمَعَادِ ثُمَّ فِي ضَوْئِهِ النَّبُوَّةُ وَهِيَ الْغَرَضُ الْأَصِيلُ مِنْ سَرْدِ الْكَلَامِ فِي السُّورَةِ.

فمحصل ما تقدم - أن هناك معادا سيحاسب فيه أعمال الناس فمن الواجب أن يميزوا بين الخير والشر وصالح الأعمال وطالحها بهدايه إلهيه و هي الدعوه الحلقه المعتمده على النبوه و لو لا - ذلك لكانت الخلقه عبثا و كان الله سبحانه لاعبا لاهيا بها تعالى عن ذلك.

فمقام الآيتين - كما ترى - مقام الاحتجاج على حقيته المعاد لتثبت بها حقيه دعوه النبوه لأن دعوه النبوه - على هذا - من مقتضيات المعاد من غير عكس.

و حجه الآيتين - كما ترى - تعتمد على معنى اللعب و اللهو و اللعب هو الفعل المنتظم الذي له غايه خياليه غير واقعيه كملاعب الصبيان التي لا أثر لها إلا مفاهيم خياليه من تقدم و تأخر و ربح و خساره و نفع و ضرر كلها بحسب الفرض و التوهم و إذ كان اللعب بما تنجذب النفس

اليه يصرفها عن الأعمال الواقعيه فهو من مصاديق اللهو هذا.

فلو كان خلق العالم المشهود لا لغايه يتوجه إليها و يقصد لأجلها و كان الله سبحانه لا يزال يوجد و يعدم و يحيى و يميت و يعمر و يخرب لا- لغايه تترتب على هذه الأفعال و لا- لغرض يعمل لأجله ما يعمل بل إنما يفعلها لأجل نفسها و يريد أن يراها واحدا بعد واحد فيشتغل بها دفعا لضجر أو ملل أو كسل أو فرارا من الوحده أو انطلاقا من الخلوه كحالتنا نحن إذا اشتغلنا بعمل نلعب به و تتلهى لندفع به نقضا طراً علينا و عارضه سوء لا نستطيعها لأنفسنا من ملال أو كلال أو كسل أو فشل و نحو ذلك.

فاللعب بنظر آخر لهو، و لذلك نراه سبحانه عبر في الآيه الاولى باللعب «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا لِأَعِينٍ» ثم بدله- في الآيه الثانيه التي هي في مقام التعليل لها- لهوا فوضع اللهو مكان اللعب لتتم الحججه.

و تلهيه تعالى بشيء من خلقه محال لأن الله لا يتم لهوا إلا برفع حاجه من حوائج اللاهى و دفع نقيصه من نقائصه نفسه فهو من الأسباب المؤثره، و لا معنى لتأثير خلقه تعالى فيه و احتياجه الى ما هو محتاج من كل جهه اليه فلو فرض تلهيه تعالى بلهو لم يجوز أن يكون أمرا خارجا من نفسه، و خلقه فعله، و فعله خارج من نفسه، بل و جب أن يكون بأمر غير خارج من ذاته.

و بهذا يتم البرهان على أن الله ما خلق السماء و الارض و ما بينهما لعبا و لهوا و ما أبدعها عبثا و لغير غايه و غرض،

و هو قوله: «لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَاتَّخَذْنَا مِنْ لَدُنَّا» .

و أما اللهو بأمر غير خارج عن ذاته فهو و إن كان محالا في نفسه لاستلزامه حاجه في ذاته الى ما يشغله و يصرفه عما يجده في نفسه فيكون ذاته مركبه من حاجه حقيقيه متقررره فيها و أمر رافع لتلك الحاجه، و لا- سبيل للنقص و الحاجه الى ذاته المتعالیه لكن البرهان لا يتوقف عليه لأنه في مقام بيان أن لا لعب و لا لهو في فعله تعالى و هو خلقه، و أما أنه لا لعب و لا لهو في

ذاته تعالى فهو خارج عن غرض المقام و إنما أشير الى نفي هذا الاحتمال بالتعبير بلفظه «لَوْ» الدالّ على الامتناع ثم أكده بقوله: «إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ» فافهم ذلك.

و بهذا البيان يظهر أن قوله: «لَوْ أَرَدْنَا» الخ؛ في مقام التعليل للنفي في قوله: «وَمَا خَلَقْنَا» الخ؛ و أن قوله: «مِنْ لَدُنَّا» معناه من نفسنا، و في مرحلة الذات دون مرحلة الخلق الذى هو فعلنا الخارج من ذاتنا، و أن قوله: «إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ» إشاره استقلاليه الى ما يدل عليه لفظه «لَوْ» فى ضمن الجملة فيكون نوعا من التأكيد.

و بهذا البيان يتم البرهان على المعاد ثم النبوه و يتصل الكلام بالسياق المتقدم و محصله أن للناس رجوعا الى الله و حسابا على أعمالهم ليجاوزوا عليها ثوابا و عقابا فمن الواجب أن يكون هناك نبوه و دعوه ليدلّوا بها الى ما يجازون عليه من الاعتقاد و العمل فالمعاد هو الغرض من الخلقه الموجب للنبوه و لو لم يكن معاد لم يكن للخلق غرض و غايه فكانت الخلقه لعبا و لهوا منه تعالى و هو غير جائز، و لو جاز عليه اتخاذ اللهو لوجب أن يكون بأمر غير خارج من نفسه لا بالخلق الذى هو فعل من ذاته لأن من المحال أن يؤثر غيره فيه و يحتاج الى غيره بوجه و إذ لم يكن الخلق لعبا فهناك غايه و هو المعاد و يستلزم ذلك النبوه و من لوازمه أيضا نكال بعض الظالمين إذا ما طغوا و أسرفوا و توقف عليه إحياء الحق كما يشير اليه قوله بعد: «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ» .

و قوله: «إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ» الظاهر أن «أَنْ» شرطيه كما تقدمت الإشارة اليه، و على هذا فجزاؤه محذوف يدل عليه قوله: «لَا تَخَذَنَاهُ مِنْ لَدُنَّا» ، و قال بعضهم: إن «أَنْ» نافية و الجملة نتيجة البيان السابق، و عن بعضهم أن إن النافية لا تفارق غالبا اللام الفارقة، و قد ظهر مما تقدم من معنى الآيه أن كون إن شرطيه أبلغ بحسب المقام من كونها نافية.

قوله تعالى: «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَ لَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ الْقَذْفَ الرمى البعيد، و الدمغ -على ما فى مجمع البيان- شجّ الرأس

حتى يبلغ الدماغ، يقال: دماغه يدماغه إذا أصاب دماغه، و زهوق النفس تلفها و هلاكها، يقال:

زهق الشيء يزهق أى هلك.

و الحق و الباطل مفهومان متقابلان، فالحق هو الثابت العين، و الباطل ما ليس له عين ثابتة لكنه يتشبهه بالحق تشبهاً فيظن أنه هو حتى إذا تعارضا بقى الحق و زهق الباطل كالماء الذى هو حقيقه من الحقائق، و السراب الذى ليس بالماء حقيقه لكنه يتشبه به فى نظر الناظر فيحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

و المعنى: ما خلقنا العالم لعب أو لم نرد اتخاذ اللهو بل سئنا أن نرمى بالحق على الباطل رمياً بعيداً فيهلكه فيفاجئه الذهاب و التلف، فإن كان الباطل حجه أو عقيدته فحجه الحق تبطلها، و إن كان عملاً و سنه كما فى القرى المسرفه الظالمه فالعذاب المستأصل يستأصله و يبطله، و إن كان غير ذلك فغير ذلك.

و قوله: «و لَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ» و عيد للناس المنكرين للمعاد و النبوه على ما تقدم من توضيح مقتضى السياق.

و يظهر من الآيه حقيقه الرجوع الى الله تعالى و هو أنه تعالى لا يزال يقذف بالحق على الباطل فيحق الحق و يخلصه من الباطل الذى يشوبه أو يستره حتى لا يبقى إلا الحق المحض و هو الله الحق عز اسمه قال: «و يَغْلِيُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (النور ٢٥)»، فيسقط يومئذ ما كان يظن للأسباب من استقلال التأثير و يزعم لغيره من القوه و الملك و الأمر كما قال: «لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ مِمَّا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (الأنعام ٩٤)»، و قال: «أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (البقره ١٦٥)»، و قال: «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (المؤمن ١٦)»، و قال: «و الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (الانفطار ١٩)»، و الآيات المشيره الى هذا المعنى كثيره.

قوله تعالى: «و لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ دَفْعَ الْأَحْتِمَالَاتِ الْمَنَافِيهِ لِلْمَعَادِ فِي الْجَمَلِ وَ هُوَ أَنْ لَا يَتَسَلَطَ سَبْحَانَهُ عَلَى بَعْضٍ أَوْ كُلِّ النَّاسِ فَيَنْحُو مِنْ لَا يَمْلِكُهُ مِنْ

الرجوع اليه و الحساب و الجزاء فاجيب بأن ملكه تعالى عام شامل لجميع من فى السماوات و الأرض فله أن يتصرف فيها أى تصرف أراد.

و من المعلوم أن هذا الملك حقيقى من لوازم الإيجاد بمعنى قيام الشىء بسببه الموجد له بحيث لا يعصيه فى أى تصرف تصرف فيه، و الإيجاد يختص بالله سبحانه لا يشاركه فيه غيره حتى عند الوثنيين المثبتين لآلهه اخرى للتدبير و العباده فكل من فى السماوات و الأرض مملوك لله لا مالك غيره.

قوله تعالى: **وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ** الى آخر الآيه التالیه، قال فى مجمع البيان: الاستحسار الانقطاع عن الإعياء يقال: بعير حسير أى معى، و أصله من قولهم: حسر عن ذراعيه، فالمعنى أنه كشف قوته بإعياء. انتهى.

و المراد بقوله: **«وَمَنْ عِنْدَهُ»** المخصوصون بموهبه القرب و الحضور و ربما انطبق على الملائكه المقربين، و قوله: **«يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ»** بمنزله التفسير لقوله: **«وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ»** أى لا يأخذهم عى و كلال بل يسبحون الليل و النهار من غير فتور، و التسبيح بالليل و النهار كناية عن دوام التسبيح من غير انقطاع.

يصف تعالى حال المقربين من عباده و المكرمين من ملائكته أنه مستغرقون فى عبوديته مكبون على عبادته لا يشغلهم عن ذلك شاغل و لا يصرفهم صارف، و كأن الكلام مسوق لبيان خصوصيه مالكيته و سلطنته المذكوره فى صدر الآيه.

قوله تعالى: **أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِئُونَ** الإنشأون إحياء الموتى فالمراد به المعاد، و فى الآيه دفع احتمال آخر ينافى المعاد و الحساب المذكور سابقا و هو الرجوع الى الله بأن يقال: إن هناك آلهه أخرى دون الله يعثون الأموات و يحاسبونهم و ليس لله سبحانه من أمر المعاد شىء حتى نخافه و نضطر الى إجابته رسله و اتباعهم فى دعوتهم بل نعبدهم و لا جناح.

و تقييد قوله: «أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً» بقوله: «مِنَ الْأَرْضِ» قيل: ليشير به الى أنهم إذا كانوا من الأرض كان حكمهم حكم عامه أهل الأرض من الموت ثم البعث فمن الذى يميئهم ثم يبعثهم؟.

ويمكن أن يكون المراد اتخاذ آلهه من جنس الأرض كالأصنام المتخذة من الحجارة والخشب والفلزات فيكون فيه نوع من التهكم والتحقير و يؤول المعنى الى أن الملائكة الذين هم الآلهه عندهم إذا كانوا من عباده تعالى و عباده و انقطع هؤلاء عنهم و يسوا من ألوهيتهم ليلتجئوا اليهم فى أمر المعاد فهل يتخذون أصنامهم و تماثيلهم آلهه من دون الله مكان أرباب الأصنام و التماثيل.

قوله تعالى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ قد تقدم فى تفسير سوره هود و تكررت الإشارة اليه بعده أن النزاع بين الوثنيين و الموحدين ليس فى وحده الإله و كثرته بمعنى الواجب الوجود الموجود لذاته الموجود لغيره فهذا مما لا نزاع فى أنه واحد لا شريك له، و إنما النزاع فى الإله بمعنى الرب المعبود و الوثنيون على أن تدبير العالم على طبقات أجزاء مفوضه الى موجودات شريفه مقربين عند الله ينبغى أن يعبدوا حتى يشفعوا لعبادهم عند الله و يقربوهم اليه زلفى كرب السماء و رب الأرض و رب الإنسان و هكذا و هم آلهه من دونهم و الله سبحانه إله الآلهه و خالق الكل كما يحكيه عنهم قوله: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (الزخرف ٨٧) و قوله: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (الزخرف ٩).

و الآيه الكريمة إنما تنفى الإلهيه من دون الله فى السماء و الأرض بهذا المعنى لا بمعنى الصانع الموجود الذى لا قائل بتعددده، و المراد بكون الإله فى السماء و الأرض تعلق ألوهيته بالسماء و الأرض لأسكناه فيهما فهو كقوله تعالى: هُوَ الَّذِى فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلَهٌ (الزخرف ٨٤).

و تقرير حجه الآيه أنه لو فرض للعالم آلهه فوق الواحد لكانوا مختلفين ذاتا متبائنين حقيقه و تباين حقائقهم يقضى بتباين تدبيرهم فيتفاسد التدبيرات و تفسد السماء و الأرض لكن النظام الجارى نظام واحد متلائم الأجزاء فى غاياتها فليس للعالم آلهه فوق الواحد و هو المطلوب.

قوله تعالى: فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ تنزيه له تعالى عن وصفهم و هو أن معه آلهه هم ينشرون أو أن هناك آلهه من دونه يملكون التدبير فى ملكه فالعرش كناية عن الملك، وقوله: «عَمَّا يَصِفُونَ» «ما» فيه مصدرية و المعنى: عن وصفهم. و للكلام تتمه ستوافيك.

قوله تعالى: لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ الضمير فى «لَا يُسْئَلُ» له تعالى بلا إشكال، و الضمير فى «وَهُمْ يُسْئَلُونَ» للآلهه الذين يدعونهم أو للآلهه و الناس جميعا أو للناس فقط، و أحسن الوجوه أولها لأن ذلك هو المناسب للسياق و الكلام فى الآلهه الذين يدعونهم من دونه، فهم المسئولون و الله سبحانه لا يسأل عن فعله.

و السؤال عن الفعل هو قولنا لفاعله: لم فعلت كذا؟ و هو سؤال عن جهه المصلحه فى الفعل فإن الفعل المقارن للمصلحه لا مؤاخذه عليه عند العقلاء، و الله سبحانه لما كان حكيما على الإطلاق كما وصف به نفسه فى مواضع من كلامه، و الحكيم هو الذى لا يفعل فعلا إلا لمصلحه مرجحه لا جرم لم يكن معنى للسؤال عن فعله بخلاف غيره فإن من الممكن فى حقهم أن يفعلوا الحق و الباطل و أن يقارن فعلهم المصلحه و المفسده فجاز فى حقهم السؤال حتى يؤاخذوا بالذم العقلى أو العقاب المولوى إن لم يقارن الفعل المصلحه.

هذا ما ذكره جماعه من المفسرين فى توجيه الآيه و هو معنى صحيح فى الجملة لكن يبقى عليه أمران:

الأمر الأول: أن الآيه مطلقه لا دليل فيها من جهه اللفظ على كون المراد فيها هو هذا المعنى

فإن كون المعنى صحيحا في نفسه لا يستلزم كونه هو المراد من الآية.

و لذلك وجه بعضهم عدم السؤال بأنه مبنى على كون أفعال الله لا- تعلق بالأغراض لأن الغرض ما يبعث الفاعل الى الفعل ليستكمل به و ينتفع و إذ كان تعالى أجل من أن يحتاج الى ما هو خارج عن ذاته و يستكمل بالانتفاع من غيره فلا يقال له: لم فعلت كذا سؤالا عن الغرض الذي دعاه الى الفعل.

و إن رد بأن الفاعل التام الفاعليه إنما يصدر عنه الفعل لذاته فذاته هي غايته و غرضه في فعله من غير حاجه الى غرض خارج عن ذاته كالإنسان البخيل الذي يكثر الإنفاق ليحصل ملكه الجود حتى إذا حصلت الملكة صدر عنها الإنفاق لذاتها لا لتحصيل ما هو حاصل فنفسها غايه لها في فعلها.

و لذلك أيضا وجه بعض آخر عدم السؤال في الآية بأن عظمته تعالى و كبريائه و عزته و بهاءه تقهر كل شيء من أن يسأله عن فعله أو يعترض له في شيء من شئون إرادته فغيره تعالى أذل و أحقر من أن يجترئ عليه بسؤال أو مؤاخذه على فعل لكن له سبحانه أن يسأل كل فاعل عن فعله و يؤاخذ كل من حقت عليه المؤاخذه هذا.

و إن كان مردودا بأن عدم السؤال من جهه أن ليس هناك من يتمكن من سؤاله اتقاء من قهره و سخطه كالمملوك الجبارين و الطغاه المتفرعين غير كون الفعل بحيث لا يتسم بسمه النقص و الفتور و لا يعتريه عيب و قصور، و الذي يدل عليه عامه كلامه تعالى أن فعله من القبيل الثاني دون الأول كقوله: **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (الم السجده ٧)**، و قوله:

لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (الحشر ٢٤)، و قوله: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا (يونس / ٤٤)**، الى غير ذلك من الآيات.

و بالجمله قولهم: إنه تعالى إنما لا يسأل عن فعله لكونه حكيما على الإطلاق يؤول الى أن عدم السؤال عن فعله ليس لذات فعله بما هو فعله بل لأمر خارج عن ذات الفعل و هو كون

فاعله حكيمًا لا- يفعل إلا ما فيه مصلحة مرجحه، وقوله: لا يسأل عما يفعل و هم يسألون لا دلالة في لفظه على التقييد بالحكمة فكان عليهم أن يقيموا عليه دليلًا.

و لو جاز الخروج في تعليل عدم السؤال في الآية لفظها لكان أقرب منه التمسك بقوله- وهو متصل بالآية-: «فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ» فإن الآية تثبت له الملك المطلق و الملك متبع في إرادته مطاع في أمره لأنه ملك- أى لذاته- لا لأن فعله أو قوله موافق لمصلحه مرجحه و إلا لم يكن فرق بينه و بين أدنى رعيته و كانت المصلحة هي المتبعة و لم تكن طاعته مفترضة في بعض الأحيان، و كذلك المولى متبع و مطاع لعبده فيما له من المولوية من جهة أنه مولى ليس للعبد أن يسأله فيما يريد منه و يأمره به عن وجه الحكمة و المصلحة فالملك على ما له من السعة مبدأ لجواز التصرفات و سلطنه عليها لذاته.

فألله سبحانه ملك و مالك لكل و الكل مملوكون له محضاً فله أن يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد و ليس لغيره ذلك، و له أن يسألهم عما يفعلون و ليس لغيره أن يسأله عما يفعل نعم هو سبحانه أخبرنا أنه حكيم لا يفعل إلا ما فيه مصلحة و لا يريد إلا ذلك فليس لنا أن نسيء به الظن فيما ينسب إليه من الفعل بعد هذا العلم الإجمالى بحكمته المطلقة فضلاً عن سؤاله عما يفعل، و من أطف الآيات دلالة على هذا الذى ذكرنا قوله حكاية عن عيسى بن مريم: **إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ** وَ **إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (المائدة ١١٨) حيث يوجه عذابهم بأنهم مملوكون له و يوجه مغفرتهم بكونه حكيمًا.

و من هنا يظهر أن الحكمة بوجه ما أعم من قوله: **«لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ»** بخلاف الملك فالملك أقرب الى توجيه الآية منها كما أشرنا إليه.

الأمر الثانى: أن الآية على ما وجهها به خفيه الاتصال بالسياق السابق و غايه ما قيل فى اتصالها بما قبلها ما فى مجمع البيان: أنه تعالى لما بين التوحيد عطف عليه بيان العدل، و أنت خبير بأن مآله الاستطراد و لا موجب له.

و نظيره ما نقل عن أبي مسلم أنها تتصل بقوله في أول السوره: «اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ» و الحساب هو السؤال عما أنعم الله عليهم به، و هل قابلوا نعمه بالشكر أم قابلوها بالكفر؟ و فيه أن للآيات التاليه لهذه الآيه اتصالا واضحا بما قبلها فلا معنى لاتصالها وحدها بأول السوره.

على أن قوله على تقدير تسليمه يوجه اتصال ذيل الآيه و الصدر باق على ما كان.

و أنت خبير أن توجيه الآيه بالملك دون الحكمة كما قدمناه يكشف عن اتصال الآيه بما قبلها من قوله: «فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ» فالعرش - كما تقدم - كناية عن الملك فتتصل الآيتان و يكون قوله: «لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ» بالحقيقه برهاننا على ملكه تعالى كما أن ملكه و عدم مسؤوليته برهان على ربوبيته، و برهاننا على مملوكتهم كما أن مملوكتهم و مسؤوليتهم برهان على عدم ربوبيتهم فإن الفاعل الذى ليس بمسئول عن فعله بوجه هو الذى يملك الفعل مطلقا لا محاله، و الفاعل الذى هو مسئول عن فعله هو الذى لا يملك الفعل إلا إذا كان ذا مصلحة و المصلحه هى التى تملكه و ترفع المؤاخذه عنه، و رب العالم أو جزء من أجزائه هو الذى يملك تدبيره باستقلال من ذاته أى لذاته لا بإعطاء من غيره فالله سبحانه هو رب العرش و غيره مربوبون له (١).

قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ» تثبيت لما قيل فى الآيه السابقه إن الذكر يذكر توحيدَه و وجوب عبادته و لا يخلو من تأييد ما للمعنى الثانى من معنى الذكر.

و قوله: «نُوحِي إِلَيْهِ» مفيد للاستمرار، و قوله: «فَاعْبُدُونِ» خطاب للرسول و من معهم من أممهم و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ» ظاهر

ص: ٢٤٤

(١-١). الانبياء ١٦-٣٣: بحث فى حكمته تعالى و معنى كون فعله مقارنا للمصلحه و هو بحث فلسفى و قرآنى.

السياق يشهد أنه حكاية قول الوثنيين إن الملائكة أولاده سبحانه فالمراد بالعباد المكرمين الملائكة، وقد نزه الله نفسه عن ذلك بقوله: «سُبْحَانَهُ» ثم ذكر حقيقته حالهم بالإضراب.

و إذ كان قوله بعد: «لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ» الخ؛ بيان كمال عبوديتهم من حيث الآثار و صفاتها من جهة الخواص و التبعات و قد ذكر قبلا- كونهم عبادا كان ظاهر ذلك أن المراد بإكرامهم إكرامهم بالعبودية لا بغيرها فيؤول المعنى الى أنهم عباد بحقيقته معنى العبودية و من الدليل عليه صدور آثارها الكاملة عنهم.

فالمراد بكونهم عبادا- و جميع أرباب الشعور عباد الله- إكرامهم في أنفسهم بالعبودية فلا يشاهدون من أنفسهم إلا أنهم عباد، و المراد بكونهم مكرمين إكرامه تعالى لهم بإفضاه العبودية الكاملة عليهم، و هذا نظير كون البعد مخلصا- بكسر اللام- لربه و مقابلته تعالى ذلك بجعله مخلصا- بفتح اللام- لنفسه، و إنما الفرق بين كرامه الملائكة و البشر أنها في البشر اكتسابي بخلاف ما في الملائكة، و أما إكرامه تعالى فهو موهبي في القبيلين جميعا فافهم ذلك.

قوله تعالى: «لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ لَا يَسْبِقُ فُلَانٌ فُلَانًا بِالْقَوْلِ أَى لَا يَقُولُ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ يَقُولَهُ فَقَوْلُهُ تَبِعَ، وَ رَبَّمَا يَكْنَى بِهِ عَنِ الْإِرَادَةِ وَ الْمَشِيَّةِ أَى إِرَادَتِهِ تَبِعَ إِرَادَتَهُ، وَ قَوْلُهُ: «وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» الظرف متعلق بـيَعْمَلُونَ قَدَّمَ عَلَيْهِ لِإِفَادَةِ الْحَصْرِ أَى يَعْمَلُونَ بِأَمْرِهِ لَا- بغير أمره، و ليس المراد لا- يعملون بأمر غيره ففعلهم تابع لأمره أَى لِإِرَادَتِهِ كَمَا أَنَّ قَوْلَهُمْ تَابِعَ لِقَوْلِهِ فَهَمْ تَابِعُونَ لِرَبِّهِمْ قَوْلًا وَ فِعْلًا.

و بعبارة أخرى إرادتهم و عملهم تابعان لإرادته- نظرا الى كون القول كناية عن الإرادة- فلا يريدون إلا ما أراد و لا يعملون إلا ما أراد و هو كمال العبودية فإن لازم عبودية العبد أن يكون إرادته و عمله مملوكين لمولاه.

هذا ما يفيد ظاهر الآية على أن يكون المراد بالأمر ما يقابل النهى، و تفيد الآية أن الملائكة لا يعرفون النهى إذ النهى فرع جواز الإتيان بالفعل المنهى عنه و هم لا يفعلون إلا عن

ويمكن أن يستفاد من قوله تعالى: **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (يس ٨٣)، وقوله: **وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَفَحٍ بِالْبَصِيرِ** (القمر ٥٠)، حقيقة معنى أمره تعالى وقد تقدم في بعض المباحث السابقة كلام في ذلك وسيجيء استيفاء البحث في كلام خاص بالملائكة فيما يعطيه القرآن في حقيقة الملك.

قوله تعالى: **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ** فَسِرُوا **«مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ»** بما قدموا من أعمالهم وما آخروا، والمعنى: يعلم ما عملوا وما هم عاملون.

فقوله: **«يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ»** استئناف في مقام التعليل لما تقدمه من قوله: **«لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ»** **وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** كأنه قيل: إنما لم يقدموا على قول أو عمل بغير أمره تعالى لأنه يعلم ما قدموا من قول وعمل وما آخروا فلا يزالون يراقبون أحوالهم حيث إنهم يعلمون ذلك.

وهو معنى جيد في نفسه لكنه إنما يصلح لتعليل عدم إقدامهم على المعصية لا- لتعليل قصر عملهم على مورد الأمر وهو المطلوب، على أن لفظ الآية لا دلالة فيه على أنهم يعلمون ذلك ولو لا ذلك لم يتم البيان.

وقوله: **وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ** تعرض لشفاعتهم لغيرهم وهو الذي تعلق به الوثنيون في عبادتهم الملائكة كما ينبىء عنه قولهم: **«هُؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ»** **«مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ»** فردّ تعالى عليهم بأن الملائكة إنما يشفعون لمن ارتضاه الله والمراد به ارتضاه دينه لقوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** (النساء ٤٨)، فالإيمان بالله من غير شرك هو الارتضاء، والوثنيون مشركون، ومن عجيب أمرهم أنهم يشركون بنفس الملائكة الذين لا يشفعون إلا لغير المشركين من

وقوله: وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ هي الخشية من سخطه و عذابه مع الأمن منه بسبب عدم المعصية و ذلك لأن جعله تعالى إياهم في أمن من العذاب بما أفاض عليهم من العصمة لا يحدد قدرته تعالى و لا يتزعزع الملك من يده، فهو يملك بعد الأمن عين ما كان يملكه قبله، و هو على كل شيء قدير، و بذلك يستقيم معنى الآية التالية.

قوله تعالى: وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ أَي من قال كذا كان ظالماً و نجزيه جهنم لأنها جزاء الظالم، و الآية قضيه شرطيه و الشرطيه لا تقتضى تحقق الشرط.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَ فَلَا يُؤْمِنُونَ المراد بالرؤية العلم الفكرى و إنما عبّر بالرؤية لظهوره من حيث إنه نتيجة التفكير فى أمر محسوس.

و الرتق و الفتق معنيان متقابلان، قال الراغب فى المفردات: الرتق الضم و الالتحام خلقه كان أم صنعه، قال تعالى: كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا و قال: الفتق الفصل بين المتصلين و هو ضد الرتق. انتهى. و ضمير التثنيه فى « كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا » للسماوات و الأرض بعد السماوات طائفه و الأرض طائفه فهما طائفتان اثنتان، و مجيء الخبر أعنى رتقا مفردا لكونه مصدرا و إن كان بمعنى المفعول و المعنى كانت هاتان الطائفتان منضمتين متصلتين ففصلناهما.

و هذه الآيه و الآيات الثلاث التالية لها برهان على توحيده تعالى فى ربوبيته للعالم كله أوردتها بمناسبه ما انجز الكلام الى توحيده و نفى ما اتخذوها آلهه من دون الله و عدوا الملائكه و هم من الآلهه عندهم أولادا له، بانين فى ذلك على أن الخلقه و الإيجاد لله و الربوبيه و التدبير للآلهه. فأورد سبحانه فى هذه الآيات أشباء من الخليقه خلقتها ممزوجه بتدبير أمرها فتبين بذلك أن التدبير لا ينفك عن الخلقه فمن الضرورى أن يكون الذى خلقها هو الذى يدبر أمرها

و ذلك كالسماوات و الأرض و كل ذى حياه و الجبال و الفجاج و الليل و النهار و الشمس و القمر فى خلقها و أحوالها التى ذكرها سبحانه.

فقوله: «أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا» المراد بالذين كفروا-بمقتضى السياق-هم الوثنيون حيث يفرقون بين الخلق و التدبير بنسبه الخلق الى الله سبحانه و التدبير الى الآلهه من دونه و قد بين خطأهم فى هذه التفرقه بعطف نظرهم الى ما لا- يرتاب فيه من فتق السماوات و الأرض بعد رتقهما فإن فى ذلك خلقا غير منفك عن التدبير، فكيف يمكن قيام خلقهما بواحد و قيام تدبيرهما بآخرين.

و

قوله تعالى: «وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ» قال فى المجمع: الرواسى الجبال رست ترسو رسوا إذا ثبتت بثقلها فهى راسيه كما ترسو السفينه إذا وقفت متمكنه فى وقوفها، و المييد الاضطراب بالذهاب فى الجهات، و الفج الطريق الواسع بين الجبلين. انتهى.

و المعنى: و جعلنا فى الأرض جبالا ثابتا لئلا تميل و تضطرب الأرض بهم و جعلنا فى تلك الجبال طرقا واسعة هى سبل لعلمهم يهتدون منها الى مقاصدهم و مواطنهم.

و فيه دلالة على أن للجبال ارتباطا خاصا بالزلازل و لولاها لاضطربت الأرض بقشرها.

قوله تعالى: «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سِدْرًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ» كأن المراد بكون السماء محفوظه حفظها من الشياطين كما قال: «وَ حَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ» (الحجر ١٧/)، و المراد بآيات السماء الحوادث المختلفه السماويه التى تدل على وحدته التدبير و استناده الى موجدتها الواحد.

قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» الآية ظاهره فى إثبات الفلك لكل من الليل و هو الظل المخروطى الملازم لوجه

الأرض المخالف لمسامته الشمس، و النهار و هو خلاف الليل، و للشمس و القمر فالمراد بالفلك مدار كل منها.

و المراد مع ذلك بيان الأوضاع و الأحوال الحادثة بالنسبه الى الأرض و فى جوها و إن كانت حال الأجرام الأخر على خلاف ذلك فلا ليل و لا نهار يقابله للشمس و سائر الثوابت، التى هى تيره بالذات و للقمر و سائر السيارت الكاسبه للنور من الليل و النهار غير ما لنا.

و قوله: «يَسْبِحُونَ» من السبح بمعنى الجرى فى الماء بخرقه قيل: و إنما قال: يسبحون لأنه أضاف إليها فعل العقلاء كما قال: وَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتَهُمْ لِي سَاجِدِينَ (يوسف ٤/١).

[سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٣٤ الى ٤٧]

إشاره

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبَلُّوكُم بِالْمَلِئِ سَرٍّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِنَّا نُرْجِعُونَ (٣٥) وَ إِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أ هَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَ لَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَ لَا هُمْ يُنصِرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَ لَا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠) وَ لَقَدْ أَسْتَهْرَيْتُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١) قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَ لَا هُمْ مَنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَ فَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أ فَهُمْ الْغَالِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَ لَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦) وَ نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَ إِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَ كَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)

ص: ٢٤٩

(١-١). الانبياء ١٦-٣٣: بحث روائى فى الحق و الباطل، و وصف الملائكه، معنى قوله تعالى «لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ».

قوله تعالى: وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ يُلوح من الآيه أنهم كانوا يسألون أنفسهم بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سيموت فيتخلصون من دعوته و تنجو آلهتهم من طعنه كما حكى ذلك عنهم فى قولهم: نَتَرَبَّصُ بِه رَيْبَ الْمُؤْمِنِينَ (الطور / ٣٠)، فأجاب عنه بأنا لم نجعل لبشر من قبلك الخلد حتى يتوقع ذلك لك بل إنك ميت و إنهم

ميتون، و لا ينفعهم موتك شيئاً فلا أنهم يقبضون على الخلود بموتك، فالجميع ميتون، و لا أن حياتهم القصيره المؤجله تخلو من الفتنة و الامتحان الإلهى فلا يخلو منه إنسان فى حياته الدنيا، و لا أنهم خارجون بالآخره من سلطاننا بل الينا يرجعون فنحاسبهم و نجزيهم بما عملوا.

و قوله: «أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ» و لم يقل: فهم خالدون و الاستفهام للإنكار يفيد نفى قصر القلب كأنه قيل: إن قولهم: نتربص به ريب المنون كلام من يرى لنفسه خلوداً أنت مزاحمه فيه فلو مت لذهب بالخلود و قبض عليه و عاش عيشه خالد طيبه ناعمه و ليس كذلك بل نفس ذائقه الموت، و الحياه الدنيا مبنيه على الفتنة و الامتحان، و لا معنى للفتنة الدائمه و الامتحان الخالد بل يجب أن يرجعوا الى ربهم فيجازيهم على ما امتحنهم و ميّزهم.

قوله تعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبِّئُكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ لفظ النفس -على ما يعطيه التأمل فى موارد استعماله- أصل معناه هو معنى ما أضيف اليه فنفس الشىء معناه الشىء و نفس الإنسان معناه هو الإنسان و نفس الحجر معناه هو الحجر فلو قطع عن الإضافه لم يكن له معنى محصل، و على هذا المعنى يستعمل لتأكيد اللفظى كقولنا: جاءنى زيد نفسه أو لإفاده معناه كقولنا: جاءنى نفس زيد.

و بهذا المعنى يطلق على كل شىء حتى عليه تعالى كما قال: كَتَبَ عَلَيَّ نَفْسِهِ الرَّحْمَهُ (الأنعام ١١٢)، و قال: وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ (آل عمران ٢٨)، و قال: تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَ لَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ (المائدة ١١٦).

ثم شاع استعمال لفظها فى شخص الإنسان خاصه و هو الموجود المركب من روح و بدن فصار ذا معنى فى نفسه و إن قطع عن الإضافه قال تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا أَي من شخص إنسانى واحد، و قال: مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَ مَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا (المائدة ٣٢)،

أى من قتل إنسانا و من أحيا إنسانا، وقد اجتمع المعنيان في قوله: كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا فالنفس الاولى بالمعنى الثانى و الثانى بالمعنى الأول.

ثم استعملوها في الروح الإنسانى لما أن الحياه و العلم و القدره التى بها قوام الإنسان قائمه بها و منه قوله تعالى: أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ (الأنعام ٩٣).

و لم يطرد هذان الإطلاقان أعنى الثانى و الثالث في غير الإنسان كالنبات و سائر الحيوان إلا بحسب الاصطلاح العلمى فلا يقال للواحد من النبات و الحيوان عرفا نفس و لا للمبدإ المدبر لجسمه نفس نعم ربما سميت الدم نفسا لأن الحياه توقفا عليها و منه النفس السائله.

و كذا لا- يطلق النفس في اللغه بأحد الإطلاقين الثانى و الثالث على الملك و الجن و إن كان معتقدهم أن لهما حياه، و لم يرد استعمال النفس فيهما في القرآن أيضا و إن نطقت الآيات بأن للجن تكليفا كالإنسان و موتا و حشرا قال: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (الذاريات ٥٦)، و قال: فِي أُمَّمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ (الأحقاف / ١٨)، و قال: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ (الأنعام / ١٢٨)، هذا ما يتحصل من معنى النفس بحسب عرف اللغه.

و أما الموت فهو فقد الحياه و آثارها من الشعور و الإراده عما من شأنه أن يتصف بها قال تعالى: وَكُنْتُمْ أََمْواتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ (البقره ٢٨)، و قال في الأصنام: أََمْواتٌ غَيْرُ أَْحْيَاءٍ (النحل ٢١)، و أما أنه مفارقه النفس للبدن بانقطاع تعلقها التدبيرى كما يعرفه الأبحاث العقلية أو أنه الانتقال من دار الى دار كما في الحديث النبوى فهو معنى كشف عنه العقل أو النقل غير ما استقر عليه الاستعمال و من المعلوم أن الموت بالمعنى الذى ذكر إنما يتصف به الإنسان المركب من الروح و البدن باعتبار بدنه فهو الذى يتصف بفقدان الحياه بعد وجدانه و أما الروح فلم يرد في كلامه تعالى ما ينطق باتصافه بالموت كما لم يرد ذلك في الملك، و أما قوله: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ (القصص ٨٨)، و قوله: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ

مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ (الزمر ٦٨) فسيجيء إن شاء الله أن الهلاك و الصعق غير الموت و إن انطبعا عليه أحيانا.

فقد تبين مما قدمناه أولا: أن المراد بالنفس في قوله: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» الإنسان - و هو الاستعمال الثاني من استعمالاتها الثلاث - دون الروح الإنساني إذ لم يعهد نسبة الموت إلى الروح في كلامه تعالى حتى تحمل عليه.

و ثانيا: أن الآيه إنما تعم الإنسان لا - غير كالمملك و الجن و سائر الحيوان و إن كان بعضها مما يتصف بالموت كالجن و الحيوان، و من القرينه على اختصاص الآيه بالإنسان قوله قبله: «وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ و قوله بعده: «وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً عَلَى مَا سَنُوضِّحُهُ».

قوله تعالى: «وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَنْتَحِدُونَكَ إِلَّا هُزُوعًا هَذَا الَّذِي يَذُكُرُ آلِهَتَكُمْ وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ» إن نافية و المراد بقوله: «إِنْ يَنْتَحِدُونَكَ إِلَّا هُزُوعًا» قصر معاملتهم معه على اتخاذهم إياه هزوا أي لم يتخذوك إلا هزوا يستهزئ به.

و قوله: «أَهَذَا الَّذِي يَذُكُرُ آلِهَتَكُمْ» - و التقدير يقولون أو قائلين: أ هذا الذي، الخ؛ حكاية كلمه استهزائهم، و الاستهزاء في الإشاره إليه بالوصف، و مرادهم ذكره آلتهم بسوء و لم يصرحوا به أدبا مع آلتهم و هو نظير قوله: «قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ الْآيَةَ ٦٠ من السوره».

و قوله: «وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ» في موضع الحال من ضمير «إِنْ يَنْتَحِدُونَكَ» أو من فاعل يقولون المقدر و هو أقرب و محصله أنهم يأنفون لآلتهم عليك إذ تقول فيها إنها لا تنفع و لا تضر - و هو كلمه حق - فلا يواجهونك إلا بالهزاء و الإهانه و لا يأنفون لله إذ يكفر بذكره و الكافرون هم أنفسهم.

و المراد بذكر الرحمن ذكره تعالى بأنه مفيض كل رحمه و منعم كل نعمه و لازمه كونه تعالى هو الرب الذى تجب عبادته، و قيل: المراد بالذكر القرآن.

و المعنى: و إذ رآك الذين كفروا و هم المشركون ما يتخذونك و لا يعاملون معك إلا بالهزاء و السخرية قائلين بعضهم لبعض أ هذا الذى يذكر آلهتكم أى بسوء فيأنفون لآلهتهم حيث تذكرها و الحال أنهم بذكر الرحمن كافرون و لا يعدونه جرما و لا يأنفون له.

قوله تعالى: خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ كَانَ المشركون على كفرهم بالدعوة النبويه يستهزءون بالنبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم كلما رأوه، و هو زياده فى الكفر و العتو، و الاستهزاء بشيء إنما يكون بالبناء على كونه هزلا غير جد فيقابل الهزل بالهزل لكنه تعالى أخذ استهزاءهم هذا أخذ جد غير هزل فكان الاستهزاء بعد الكفر تعرضا للعذاب الإلهى بعد تعرض و هو الاستعجال بالعذاب فإنهم لا يقنعون بما جاءتهم من الآيات و هم فى عافيه و يطلبون آيات تجازيهم بما صنعوا، و لذلك عد سبحانه استهزاءهم بعد الكفر استعجالا برؤيه الآيات و هى الآيات الملازمه للعذاب و أخبرهم أنه سيريبهم إياها.

فقوله: خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ كناية عن بلوغ الانسان فى العجل كأنه خلق من عجل و لا يعرف سواه نظير ما يقال: فلان خير كله أو شر كله و خلق من خير أو من شر و هو أبلغ من قولنا، ما أعجله و ما أشد استعجاله، و الكلام وارد مورد التعجيب. و فيه استهانته بأمرهم و أنه لا يعجل بعذابهم لأنهم لا يفوتونه.

و قوله: سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ الآيه الآتية تشهد بأن المراد بإرادته الآيات تعذيبهم بنار جهنم و هى قوله: لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ الْخ.

قوله تعالى: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ القائلون هم الذين كفروا و المخاطبون هم النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم و المؤمنون و كان مقتضى الظاهر أن يقولوا؟ إِنْ كُنْتُمْ من الصادقين لكنهم عدلوا الى ما ترى ليضيفوا الى تعجيز النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم بمطالبتة ما لا يقدر عليه

إضلال المؤمنين به و إغراءهم عليه، و الوعد هو ما اشتملت عليه الآيه السابقه و تفسره الآيه اللاحقه.

قوله تعالى: لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهم الدَّارَ وَ لَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَ لَا هُمْ يُنصِرُونَ «لَوْ» للتمنى و «حِينَ» مفعول يعلم على ما قيل، و قوله: «لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهم النَّارَ وَ لَا عَنْ ظُهُورِهِمْ» أى لا يدفعونها حيث تأخذهم من قدامهم و من خلفهم و فيه إشاره الى إحاطتها بهم.

و قوله: «وَ لَا هُمْ يُنصِرُونَ» معطوف على ما تقدمه لرجوع معناه الى الترديد بالمقابله و المعنى لا يدفعون النار باستقلال من أنفسهم و لا ينصر من ينصرهم على دفعه.

و الآيه فى موضع الجواب لسؤالهم عن الموعد، و المعنى ليت الذين كفروا يعلمون الوقت الذى لا يدفعون النار عن وجوههم و لا عن ظهورهم لا باستقلال من أنفسهم و لا هم ينصرون فى دفعها.

قوله تعالى: بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَهُ فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَشْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَ لَا هُمْ يُنظَرُونَ الذى يقتضيه السياق أن فاعل تأتيتهم ضمير راجع الى النار دون الساعه كما ذهب اليه بعضهم، و الجملة إضراب عن قوله فى الآيه السابقه: «لَا يَكْفُونَ» الخ؛ لا عن مقدر قبله تقديره لا تأتيتهم الآيات بحسب اقتراحهم بل تأتيتهم بغته، و لا عن قوله: لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بدعوى أنه فى معنى النفى و التقدير لا يعلمون ذلك بل تأتيتهم بغته فإن هذه كلها وجوه يأبى عنها السياق.

و معنى إتيان النار بغته أنها تفاجئهم حيث لا يدرون من أين تأتيتهم و تحيط بهم فإن ذلك لازم ما وصفه الله من أمرها بقوله: نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (الهمزه ٧)، و قوله: الدَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ (البقره ٢٤)، و قوله: إِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ (الآيه ٩٨ من السوره)، و النار التى هذا شأنه تأخذ باطن الإنسان كظاهره

على حد سواء لا كئار الدنيا حتى تتوجه من جهه الى جهه و تأخذ الظاهر قبل الباطن و الخارج قبل الداخل حتى تمهلهم بقطع مسافه أو بتدرج فى عمل أو مفارقه فى جهه فيحتال لدفعها بتجاف أو تجنب أو إبداء حائل أو الالتجاء الى ركن بل هى معهم كما أن أنفسهم معهم لا تستطيع ردا إذ لا اختلاف جهه و لا تقبل مهله إذ لا مسافه بينها و بينهم فلا تسمح لهم فى نزولها عليهم إلا البهت و الحيره.

فمعنى الآيه -و الله أعلم- لا يدفعون النار عن وجوههم و ظهورهم بل تأتيهم من حيث لا يشعرون بها و لا يدرون فتكون مباغته لهم فلا يستطيعون ردها و لا يمهلون فى إتيانها.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ اسْتِهْزَأَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ قال فى المجمع: الفرق بين السخرية و الهزاء أن فى السخرية معنى طلب الدله لأن التسخير التذليل فأما الهزاء فيقتضى طلب صغر القدر بما يظهر فى القول. انتهى و الحيق الحلول، و المراد بما كانوا به يستهزءون، العذاب و فى الآيه تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و تخويف و تهديد للذين كفروا.

قوله تعالى: قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ الكلاءه الحفظ و المعنى أسألهم من الذى يحفظهم من الرحمن إن أراد أن يعذبهم ثم أضرب عن تأثير الموعظه و الإنذار فيهم فقال: «بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ» أى القرآن «مُعْرِضُونَ» فلا يعتنون به و لا يريدون أن يصغوا اليه إذا تلوته عليهم و قيل المراد بالذكر مطلق المواعظ و الحجج.

قوله تعالى: أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ أم منقطعه و الاستفهام للإنكار، و كل من «تَمْنَعُهُمْ» و «مِنْ دُونِنَا» صفه آلهه، و المعنى بل أسألهم ألهم آلهه من دوننا تمنعهم منا.

و قوله: «لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ» الخ؛ تعليل للنفى المستفاد من الاستفهام الإنكارى

و لذا جىء بالفصل و التقدير ليس لهم آلهه كذلك لأنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم بأن ينصر بعضهم بعضا و لا هم منا يجارون و يحفظون فكيف ينصرون عبادهم من المشركين أو يجيرونهم، و ذكر بعضهم أن ضمائر الجمع راجعه الى المشركين و السياق يأباه.

قوله تعالى: **يَلْ مَتَعْنَا هَؤُلَاءِ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ** الى آخر الآيه؛ هو إضراب عن مضمون الآيه السابقه كما كان قوله: **«بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ»** إضرابا عما تقدمه و المضامين - كما ترى - متقاربه.

و قوله: **«حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ»** غايه لدوام التمتع المدلول عليه بالجمله السابقه و التقدير بل متعنا هؤلاء المشركين و آباءهم و دام لهم التمتع حتى طالب عليهم العمر فاغترتوا بذلك و نسوا ذكر الله و أعرضوا عن عبادته، و كذلك كان مجتمع قريش فإنهم كانوا بعد أبيهم إسماعيل قاطنين فى حرم آمن متمتعين بأنواع النعم التى تحمل اليهم حتى تسلطوا على مكه و أخرجوا جرهما منها فنسوا ما هم عليه من دين أبيهم إبراهيم و عبدوا الأصنام.

و قوله: **أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا** الأنسب للسياق أن يكون المراد من نقص الأرض من أطرافها هو انقراض بعض الامم التى تسكنها فإن لكل أمه أجلا ما تسبق من أمه أجلها و ما يستأخرون - و قد تقدمت الإشارة الى أن المراد بطول العمر عليهم طول عمر مجتمعهم.

و المعنى: أ فلا يرون أن الأرض تنقص منها أمه بعد أمه بالانقراض بأمر الله فما ذا يمنعه أن يهلكهم أفهم الغالبون إن أرادهم الله سبحانه بضر أو هلاك و انقراض.

قوله تعالى: **قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَ لَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ** أى إن الذى أُنذركم به وحى إلهى لا ريب فيه و إنما لا يؤثر فيكم أثره و هو الهدايه لأن فيكم صما لا تسمعون الإنذار فالنقص فى ناحيتكم لا فيه.

قوله تعالى: **وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا**

ظَالِمِينَ النَّفْحَةَ لَوَقَعَهُ مِنَ الْعَذَابِ، وَ الْمُرَادُ أَنَّ الْإِنذَارَ بِآيَاتِ الذِّكْرِ لَا يَنْفَعُهُمْ بَلْ هُوَ لَاءٌ يَحْتَاجُونَ إِلَى نَفْحِهِ مِنَ الْعَذَابِ حَتَّى يَضْطَرُّوا فَيُؤْمِنُوا وَيَعْتَرِفُوا بِظُلْمِهِمْ.

قوله تعالى: وَ نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً الْقِسْطُ الْعَدْلُ وَ هُوَ عَطْفٌ بَيَانٌ لِلْمَوَازِينِ أَوْ صِفَةٌ لِلْمَوَازِينِ بِتَقْدِيرِ مِضَافٍ وَ التَّقْدِيرُ الْمَوَازِينُ ذَوَاتُ الْقِسْطِ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي مَعْنَى الْمِيزَانِ الْمُنْصُوبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ.

وَ قَوْلُهُ: وَ إِنَّ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا الضَّمِيرُ فِي «وَ إِنَّ كَانَ» لِلْعَمَلِ الْمَوْزُونِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ بِذِكْرِ الْمَوَازِينِ أَى وَ إِنَّ كَانَ الْعَمَلُ الْمَوْزُونُ مِقْدَارُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فِي ثِقَلِهِ أَتَيْنَا بِهَا وَ كَفَى بِنَا حَاسِبِينَ وَ حَبَّةُ الْخَرْدَلِ يَضْرِبُ بِهَا الْمِثْلُ فِي دَقَّتِهَا وَ صَغَرِهَا وَ حَقَارَتِهَا، وَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْوِزْنَ مِنَ الْحِسَابِ.

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٤٨ الى ٧٧]

إشارة

وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَ هَارُونَ الْفُرْقَانَ وَ ضِيَاءً وَ ذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَ هَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٠) وَ لَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَا هَذِهِ الْكُتُبُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَ حَيْدْنَا أَبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَ جِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنْ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتَةِ إِنَّهُ لِمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أ أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَةِ يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُؤْسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هُوَ إِلَّا هُوَ يَنْطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أَفُ لَكُمْ وَ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَ انصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَ سِلَافًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَ أَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَ نَجَّيْنَاهُ وَ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ نَافِلَةً وَ كَلَّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَ جَعَلْنَاهُمْ أئِمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ آتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) وَ لُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخِلْيَابَ إِثْنًا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِيءٍ فَاسْتَجَبْنَا لَهَا وَ أَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) وَ نُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَ نَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِيءٍ فَاعْرِفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧)

قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَ هَارُونَ الْفُرْقَانَ وَ ضِيَاءً وَ ذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ رجوع بوجه الى تفصيل ما أجمل في قوله سابقا: وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمُ الْآيَةَ؛ بذكر ما أوتى النبيون من المعارف و الشرائع و أيدوا بإهلاك أعدائهم بالقضاء بالقسط.

و الآية التاليه تشهد أن المراد بالفرقان و الضياء و الذكر التوراه آتاها الله موسى و أخاه هارون شريكه في النبوه.

و الفرقان مصدر كالفرق لكنه أبلغ من الفرق، و ذكر الراغب أنه على ما قيل اسم لا مصدر و تسميه التوراه الفرقان لكونها فارقه أو لكونها يفرق بها بين الحق و الباطل في الاعتقاد و العمل، و الآية نظيره قوله: وَ إِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ الْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (البقره/ ٥٣) و تسميتها ضياء لكونها مضيئه لمسيرهم الى السعاده و الفلاح في الدنيا و الآخره، و تسميتها ذكرا لاشتمالها على ما يذكر به الله من الحكم و المواعظ و العبر.

و لعل كون الفرقان أحد أسماء التوراه هو الموجب لإتيانه باللام بخلاف ضياء و ذكر،

و بوجه آخر هي فرقان للجميع لكنها ضياء و ذكر للمتقين خاصه لا ينتفع بها غيرهم و لذا جىء بالضياء و الذكر منكرين ليتقيدا بقوله: «لِلْمُتَّقِينَ» بخلاف الفرقان و قد سميت التوراه نورا و ذكرا فى قوله تعالى: فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ (المائده ٤٤/) و قوله: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ (الآيه ٧ من السوره).

قوله تعالى: وَ هَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ الإشاره بهذا الى القرآن و إنما سمي ذكرا مباركا لأنه ثابت دائم كثير البركات ينتفع به المؤمن و الكافر فى المجتمع البشرى و تنتعم به الدنيا سواء عرفته أو أنكرته أقرت بحقه أو جحدته.

يدل على ذلك تحليل ما نشاهد اليوم من آثار الرشد و الصلاح فى المجتمع العام البشرى و الرجوع بها القهقرى الى عصر نزول القرآن فما قبله فهو الذكر المبارك الذى يسترشد بمعناه و ان جهل الجاهلون لفظه، و أنكر الجاحدون حقه و كفروا بعظيم نعمته، و أعانهم على ذلك المسلمون بإهمالهم فى أمره، و قال الرسول يا رب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عَالِمِينَ انعطاف الى ما قبل موسى و هارون و نزول التوراه كما يفيد قوله: «مِنْ قَبْلُ» و المراد أن إيتاء التوراه لموسى و هارون لم يكن بدعا من أمرنا بل أقسم لقد آتينا قبل ذلك إبراهيم رشده.

و الرشد خلاف الغى و هو إصابه الواقع، و هو فى إبراهيم عليه السلام اهتداؤه الفطرى التام الى التوحيد و سائر المعارف الحقه، و إضافه الرشد الى الضمير الراجع الى إبراهيم تفيد الاختصاص و تعطى معنى اللياقه، و يؤيد ذلك قوله بعده: «وَ كُنَّا بِهِ عَالِمِينَ» و هو كناية عن العلم بخصوصيه حاله و مبلغ استعداده.

و المعنى: و أقسم لقد أعطينا إبراهيم ما يستعد له و يليق من الرشد و إصابه الواقع و كنا عالمين بمبلغ استعداده و لياقته، و الذى آتاه الله سبحانه- كما تقدم- هو ما أدركه بصفاء فطرته و نور بصيرته من حقيقه التوحيد و سائر المعارف الحقه من غير تعليم معلم أو تذكير مذكر أو

قوله تعالى: إِذْ قَالَ لِأَيِّهِمْ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ التمثال الشيء المصور و الجمع تماثيل، و العكوف الإقبال على الشيء و ملازمته على سبيل التعظيم له كذا ذكره الراغب فيهما.

يريد عليه السلام بهذه التماثيل الأصنام التي كانوا نصبوها للعبادة و تقرب القرايين و كان سؤاله عن حقيقتها ليعرف ما شأنها و قد كان أول وروده في المجتمع و قد ورد في مجتمع ديني يعبدون التماثيل و الأصنام، و السؤال مع ذلك مجموع سؤالين اثنين و سؤاله أباه عن الأصنام كان قبل سؤاله قومه على ما أشير إليه في سورة الأنعام و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: قَالُوا وَحَيْدُنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ هو جواب القوم و لما كان سؤاله عليه السلام عن حقيقة الأصنام راجعا بالحقيقه الى سؤال السبب لعبادتهم اياها تمسكوا في التعليل بذيل السنه القوميه فذكروا أن ذلك من سنه آباءهم و جدودهم يعبدونها.

قوله تعالى: قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ و وجه كونهم في ضلال مبين ما سيورده في محاجه القوم بعد كسر الأصنام من قوله: «أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ» .

قوله تعالى: قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ سؤال تعجب و استبعاد و هو شأن المقلد التابع من غير بصيره إذا صادف إنكارا لما هو فيه استبعد و لم يكذب يدعن بأنه مما يمكن أن ينكره منكر و لذا سأله أ جئنا بالحق أم أنت من اللاعبين و المراد بالحق-على ما يعطيه السياق-الجد أى أ تقول ما تقوله جدا أم تلعب به؟

قوله تعالى: قَالَ بَلْ رُبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ هو عليه السلام-كما ترى-يحكم بأن ربهم هو رب السماوات و أن هذا الرب هو الذى فطر السماوات و الأرض و هو الله سبحانه، و فى ذلك مقابله تامه لمذهبهم فى

الربوبية و الالوهيه فإنهم يرون أن لهم إلهًا أو آلهه غير ما للسموات و الأرض من الإله أو الآلهه، و هم جميعا غير الله سبحانه و لا يرونه تعالى إلهًا لهم و لا لشيء من السموات و الأرض بل يعتقدون أنه إله الآلهه و رب الأرباب و فاطر الكل.

فقوله: **بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ** رد لمذهبهم في الالوهيه بجميع جهاته و إثبات أن لا إله إلا الله و هو «التوحيد».

ثم كشف عليه السلام بقوله: **«وَ أَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ»** عن أنه معترف مقر بما قاله ملتزم بلوازمه و آثاره شاهد عليه شهادته إقرار و التزام فإن العلم بالشيء غير الالتزام به و ربما تفارقا كما قال تعالى: **وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ (النمل ١٤)**.

و بهذا التشهد يتم الجواب عن سؤالهم أ هو مجد فيما يقول أم لاعب؟ و الجواب لا بل أعلم بذلك و أتدين به.

هذا ما يعطيه السياق في معنى الآية، و لهم في تفسيرها أقاويل أخرى، و كذا في معاني آيات القصه السابقه و اللاحقه وجوه آخر أضربنا عنها لعدم جدوى في التعرض لها فلا سياق الآيات يساعد عليها و لا مذاهب الوثنيه توافقها.

قوله تعالى: **وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَانَكُمْ بَعِيدَ أَنْ تُؤَلُّوا مُدْبِرِينَ** معطوف على قوله: **«بَلْ رَبُّكُمْ»** الخ؛ أى قال لأكيدن أصنامكم، الخ؛ و الكيد التدبير الخفى على الشيء بما يسوؤه، و فى قوله: **«بَعِيدَ أَنْ تُؤَلُّوا مُدْبِرِينَ»** دلالة على أنهم كانوا يخرجون من البلد أو من بيت الأصنام أحيانا بعيد كان لهم أو نحوه فيبقى الجو خاليا.

قوله تعالى: **فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ** قال الراغب:

الجد كسر الشيء و تفتيته و يقال لحجاره الذهب المكسوره و لفتات الذهب جذاذا و منه قوله تعالى: **«فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا»** انتهى فالمعنى فجعل الأصنام قطعاً مكسوره إلا صنما كبيرا من بينهم.

وقوله: لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ظاهر السياق أن هذا الترجي لبيان ما كان يمثله فعله أى كان فعله هذا حيث كسر الجميع إلا واحدا كبيرا لهم فعل من يريد بذلك أن يرى القوم ما وقع على أصنامهم من الجذو ويجدوا كبيرهم سالما بينهم فيرجعوا اليه و يتهموه فى أمرهم كمن يقتل قوما و يترك واحدا منهم ليتهم فى أمرهم.

و على هذا فالضمير فى قوله: «إِلَيْهِ» راجع الى «كَبِيرًا لَهُمْ» و يؤيد هذا المعنى أيضا قول إبراهيم الآتى «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا» فى جواب قولهم: «أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَانَا» .

قوله تعالى: قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتَانَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ استفهام بداعى التأسف و تحقيق الأمر للحصول على الفاعل المرتكب للظلم و يؤيد ذلك قوله تلوا: قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ الْحَقُّ فَقَوْلُ بَعْضِهِمْ: «إِنْ مِنْ مَوْصُولِهِ» ليس بسديد.

وقوله: إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قضاء منهم بكونه ظالما يجب أن يساس على ظلمه إذ قد ظلم الآلهة بالتعدى الى حقهم و هو التعظيم و ظلم الناس بالتعدى الى حقهم و هو احترام آلهتهم و تقديس مقدساتهم و ظلم نفسه بالتعدى الى ما ليس له بحق و ارتكاب ما لم يكن له أن يرتكبه.

قوله تعالى: قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ المراد بالذكر-على ما يستفاد من المقام-الذكر بالسوء أى سمعنا فتى يذكر الآلهة بالسوء فإن يكن فهو الذى فعل هذا بهم إذ لا يتجرأ لارتكاب مثل هذا الجرم إلا مثل ذاك المتجرى.

وقوله: يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ برفع إبراهيم و هو خير لمبتدأ محذوف و التقدير هو إبراهيم كذا ذكره الزمخشري.

قوله تعالى: قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ المراد بإتيانه على أعين الناس إحضاره فى مجمع من الناس و مرآهم و هو حيث كسرت الأصنام كما يظهر من قول إبراهيم عليه السلام «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا» بالإشارة الى كبير الأصنام.

و كأن المراد بشهادتهم أن يشهدوا عليه بأن كان يذكرهم بالسوء فيكون ذلك ذريعه الى أخذ الإقرار منه بالجد و الكسر، و أما ما قيل: أن المراد شهادتهم عقاب إبراهيم على ما فعل فبعيد.

قوله تعالى: **قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَةِ يَا إِبْرَاهِيمَ** الاستفهام - كما قيل - للتقرير بالفاعل فإن أصل الفعل مفروغ عنه معلوم الوقوع، و فى قولهم: **«بِالْهَيْتَةِ»** تلويح الى أنهم ما كانوا يعدونه من عبده الأصنام.

قوله تعالى: **قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ** إن كانوا ينطقون ما أخبر عليه السلام به بقوله: **«بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا»** دعوى بداعى إلزام الخصم و فرض و تقدير قصد به إبطال ألوهيتها كما سيصرح به فى قوله: **«أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لَا يَضُرُّكُمْ»** الخ؛ و ليس بخبر جدى البتة، و هذا كثير الورد فى المخاصمات و المناظرات فالمعنى قال: بل شاهد الحال و هو صيروره الجميع جذاذا و بقاء كبيرهم سالما يشهد أن قد فعله كبيرهم هذا و هو تمهيد لقوله: **«فَسَأَلُوهُمْ»** الخ.

و قوله: **«فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ»** أمر بأن يسألوا الأصنام عن حقيقه الحال و أن الذى فعل بهم هذا من هو؟ فيخبروهم به إن كانوا ينطقون فقوله: **«إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ»** شرط جزاؤه محذوف يدل عليه قوله: **«فَسَأَلُوهُمْ»**.

فتحصل أن الآيه على ظاهرها من غير تكلف إضمار أو تقديم و تأخير أو محذور تعقيد، و أن صدرها المتضمن لدعوى استناد الفعل الى كبيرهم إلزام للخصم و توطئه و تمهيد لذيلها و هو أمرهم بسؤال الأصنام إن نطقوا لينتهى الى اعتراف القوم بأنهم لا ينطقون.

قوله تعالى: **فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ** تفريع على قوله: **«فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ»** فإنهم لما سمعوا منه ذلك و هم يرون أن الأصنام جمادات لا شعور لها و لا نطق تمت عند ذلك عليهم الحجه ففضى كل منهم على نفسه أنه هو الظالم دون

ابراهيم فقوله: «فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ» استعاره بالكناية عن تنبههم و تفكرهم في أنفسهم، و قوله: «فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ» أى قال كل نفسه مخاطبا لها: إنك أنت الظالم حيث تعبد جمادا لا ينطق.

قوله تعالى: «ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَىٰ رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ» قال الراغب: النكس قلب الشيء على رأسه و منه نكس الولد إذا خرج رجله قبل رأسه قال تعالى: «ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَىٰ رُؤُسِهِمْ». انتهى فقوله: «ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَىٰ رُؤُسِهِمْ» كناية أو استعاره بالكناية عن قلبهم الباطل على مكان الحق الذى ظهر لهم و الحق على مكان الباطل كأن الحق علا فى قلوبهم الباطل فنكسوا على رؤوسهم فرفعوا الباطل و هو كون ابراهيم ظالما على الحق و هو كونهم هم الظالمين فخصموا ابراهيم بقوله: «لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ»

و معنى قولهم: «لَقَدْ عَلِمْتُمْ» الخ؛ أن دفاعك عن نفسك برمى كبير الأصنام بالفعل و هو الجذ و تعليق ذلك باستنطاق الآلهة مع العلم بأنهم لا ينطقون دليل على أنك أنت الفاعل الظالم فالجملة كناية عن ثبوت الجرم و قضاء على ابراهيم.

قوله تعالى: «قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ» -الى قوله- «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» لما تفوهوا بقولهم: «مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ» و سمعه ابراهيم لم يشتغل بالدفاع فلم يكن قاصدا لذلك من أول بل استفاد من كلامهم لدعوته الحقه فخصمهم بلازم قولهم و أتم الحججه عليهم فى كونهم أصنامهم غير مستحقه للعباده أى غير آلهه.

فما حصل تفريع قوله: «أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ» أن لازم كونهم لا ينطقون أن لا يعلموا شيئا و لا يقدروا على شىء، و لازم ذلك أن لا ينفعوكم شيئا و لا يضرؤكم، و لازم ذلك أن يكون عبادتهم لغوا إذ العباده إما لرجاء خير أو لخوف شرّ و ليس عندهم شىء من ذلك فليسوا بآلهه.

و قوله: «أَفْ لَكُمْ وَ لِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ تَزَجْرُ وَ تَبْرَّ مِنْهُمْ» و من آلهتهم بعد

إبطال ألوهيتها، وهذا كشهادته على وحدانيته تعالى بعد إثباتها في قوله فيما مر: **وَ أَنَا عَلِيٌّ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ**، وقوله: **«أَفَلَا تَعْقِلُونَ»** توبيخ لهم.

قوله تعالى: **«قَالُوا حَرِّقُوهُ وَ انصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ** هو عليه السلام و إن أبطل بكلامه السابق ألوهية الأصنام و كان لازمه الضمني أن لا يكون كسرهم ظلما و جرما لكنه لَوَّح بكلامه الى أن رميه كبير الأصنام بالفعل و أمرهم أن يسألوا الآلهة عن ذلك لم يكن لدفع الجرم عن نفسه بل كان تمهيدا لإبطال ألوهية الإلهية و بهذا المقدار من السكوت و عدم الرد قضاوا عليه بثبوت الجرم و أن جزاءه أن يحرق بالنار.

و لذلك قالوا: حرقوه و انصروا آلِهَتكم بتعظيم أمرهم و مجازاه من أهان بهم و قولهم: **«إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ»** تهيج و إغراء.

قوله تعالى: **«قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَ سَلَامًا عَلَيَّ** إبراهيم خطاب تكويني للنار تبدلت به خاصه حرارتها و إحراقها و إنفائها بردا و سلاما بالنسبه الى إبراهيم عليه السلام على طريق خرق العاده، و بذلك يظهر أن لا- سبيل لنا الى الوقوف على حقيقه الأمر فيه تفصيلا إذ الأبحاث العقلية عن الحوادث الكونية إنما تجرى فيما لنا علم بروابط العلية و المعلوليه فيه من العاديات المتكرره، و أما الخوارق التي نجهل الروابط فيها فلا- مجرى لها فيها. نعم نعلم إجمالا- أن لهمم النفوس دخلا- فيها و قد تكلمنا في ذلك في مباحث الإعجاز في الجزء الأول من الكتاب.

و الفصل في قوله: **«قُلْنَا»** الخ؛ لكونه في معنى جواب سؤال مقدر و تقدير الكلام بما فيه من الحذف إيجازا نحو من قولنا: فأضرموا نارا و ألقوه فيها فكأنه قيل: فماذا كان بعده فقيل: قلنا يا نور كوني بردا و سلاما على إبراهيم، و على هذا النحو الفصل في كل **«قَالَ»** و **«قَالُوا»** في الآيات السابقه من القصه.

قوله تعالى: **«وَ أَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ** أي احتالوا عليه ليطفئوا

نوره و يبطلوا حجته فجعلناهم الأخرين حيث خسروا بطلان كيدهم و عدم تأثيره و زادوا خساره حيث أظهره الله عليهم بالحفظ و الإنجاء.

قوله تعالى: وَ نَجِّنَا لَهُ وَ لُوطاً إِلَى الْمَأْزِجِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ الْأَرْضِ الْمَذْكُورَةِ هِيَ أَرْضُ الشَّامِ الَّتِي هَاجَرَ إِلَيْهَا إِبْرَاهِيمُ، وَ لُوطٌ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ هَاجَرَ مَعَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَ قَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي (العنكبوت ٢٦).

قوله تعالى: وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ نَافِلَةً النَّافِلَةُ الْعَطِيَّةُ وَ قَدْ تَكَرَّرَ الْبَحْثُ عَنْ مَضْمُونِ الْآيَتَيْنِ.

قوله تعالى: وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الظاهر - كما يشير إليه ما يدل من (١) الآيات على جعل الإمامه في عقب إبراهيم عليه السلام - رجوع الضمير في «جَعَلْنَاهُمْ» إلى إبراهيم و إسحاق و يعقوب.

و ظاهر قوله: أئمة يهتدون بأمرنا أن الهدايه بالأمر يجرى مجرى المفسر لمعنى الإمامه، و قد تقدم الكلام فى معنى هدايه الإمام بأمر الله فى الكلام على قوله تعالى: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا (البقره ١٢٤) فى الجزء الأول من الكتاب.

و الذى يخص المقام أن هذه الهدايه المجهوله من شئون الإمامه ليست هى بمعنى إراءه الطريق لأن الله سبحانه جعل إبراهيم عليه السلام إماماً بعد ما جعله نبياً - كما أوضحناه فى تفسير قوله: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا فيما تقدم - و لا تنفك النبوه عن الهدايه بمعنى إراءه الطريق فلا - يبقى للإمامه إلا - الهدايه بمعنى الإيصال الى المطلوب و هى نوع تصرف تكوينى فى النفوس بتسييرها فى سير الكمال و نقلها من موقف معنوى الى موقف آخر.

و إذ كانت تصرفاً تكوينياً و عملاً باطنياً فالمراد الذى تكون به الهدايه ليس هو الأمر

ص: ٢٦٨

١ - ١). كقوله تعالى: «وَ جَعَلْنَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ» (الزخرف ٢٨) و غيره.

التشريعي الاعتباري بل ما يفسره في قوله: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسَيُبْحَنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (يس ٨٣) فهو الفيوضات المعنويه و المقامات الباطنيه التي يهتدى إليها المؤمنون بأعمالهم الصالحه و يتلبسون بها رحمه من ربهم.

و إذ كان الإمام يهدى بالأمر-و الباء للسببيه أو الآله-فهو متلبس به أولاً و منه ينتشر في الناس على اختلاف مقاماتهم فالإمام هو الرابط بين الناس و بين ربهم في إعطاء الفيوضات الباطنيه و أخذها كما أن النبي رابط بين الناس و بين ربهم في أخذ الفيوضات الظاهرية و هي الشرائع الإلهيه تنزل بالوحي على النبي و تنتشر منه و بتوسطه الى الناس و فيهم،و الإمام دليل هاد للنفوس الى مقاماتها كما أن النبي دليل يهدى الناس الى الاعتقادات الحقه و الأعمال الصالحه،و ربما تجتمع النبوه و الإمامه كما في إبراهيم و ابنه.

و قوله: وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ إضافة المصدر الى معموله تفيد تحقق معناه في الخارج فإن أريد أن لا يفيد الكلام ذلك جيء بالقطع عن الإضافة أو بأن و أن الدالتين على تأويل المصدر نص على ذلك الجرجاني في دلائل الإعجاز فقولنا: يعجبني إحسانك و فعلك الخير، و قوله تعالى: مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ (البقره ٤٣) يدل على الوقوع قبلاً، و قولنا: يعجبني أن تحسن و أن تفعل الخير و قوله تعالى:

أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ (البقره ١٨٤) لا يدل على تحقق قبله، و لذا كان المؤلف في آيات الدعوه و آيات التشريع و الإتيان بأن و الفعل دون المصدر المضاف كقوله: أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ (الرعد ٣٦)، و أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ (يوسف ٤٠) وَ أَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ (الأنعام ٧٢).

و على هذا فقوله: «وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ» الخ؛ يدل على تحقق الفعل أى أن الوحي تعلق بالفعل الصادر عنهم أى أن الفعل كان يصدر عنهم بوحي مقارن له و دلالة إلهيه باطنيه هو غير الوحي المشرّع الذي يشرّع الفعل أولاً و يترتب عليه إتيان الفعل على ما

شَرَع.

و يؤيد هذا الذى ذكره قوله بعد: «وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ» فإنه يدل بظاهره على أنهم كانوا قبل ذلك عابدين لله ثم أيدوا بالوحي و عبادتهم لله إنما كانت بأعمال شرعها لهم الوحي المشرع قبلا- فهذا الوحي المتعلق بفعل الخيرات وحي تسديد ليس وحي تشريع.

فالمحصل أنهم كانوا مؤيدين بروح القدس و الظهاره مسددين بقوه ربانيه تدعوهم الى فعل الخيرات و إقام الصلاه و إيتاء الزكاه و هى الإنفاق المالى الخاص بشريعتهم.

قوله تعالى: وَ لَوْطاً آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ. الحكم بمعنى فصل الخصومات أو بمعنى الحكمة و القرية التى كانت تعمل الخبائث سدوم التى نزل بها لوط فى مهاجرته مع إبراهيم عليهما السلام، و المراد بالخبائث الأعمال الخبيثة، و المراد بالرحمه الولايه أو النبوه و لكل وجه، و قد تقدمت قصه لوط عليه السلام فى تفسير سوره هود من الكتاب.

قوله تعالى: وَ نُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلِهِ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ، أى و اذكر نوحا إذ نادى ربه قبل إبراهيم و من ذكر معه فاستجبنا له، و نداؤه ما حكاه سبحانه من قوله:

رَبِّهِ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ و المراد بأهله خاصته إلا- امرأته و ابنه الغريق، و الكرب الغم الشديد، و قوله: «وَ نَصَيْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ» كأن النصر مضمن معنى الإنجاء و نحوه و لذا عدى بمن، و الباقي ظاهر.

و قد تقدمت قصه نوح عليه السلام فى تفسير سوره هود من الكتاب (١).

[سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٧٨ الى ٩١]

إشارة

وَ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَخُكِّمَانِ فِي الْحَرْبِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَ كَذَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَ كَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ وَ كُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَ عَلَّمْنَاهُ صِنْعَهُ لِيُبَسِّطَ لَكُمْ لِيُحَصِّنْكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَ كَذَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَ مِنْ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَ كُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢) وَ أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ ذَكَرُوا لِلْعَابِدِينَ (٨٤) وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكُفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَ ادْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَنْقُذَهُ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَ كَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ وَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَ أَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ يَدْعُونَ تَرَجًا وَ رَهَبًا وَ كَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) وَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَ جَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١)

١-١). الانبياء ٤٨-٧٧: بحث روائي في قصة ابراهيم عليه السلام و قومه.

قوله تعالى: وَ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ -الى قوله- حُكْمًا وَ عِلْمًا الْحَرْثِ الزَّرْعِ وَ الْحَرْثِ أَيضًا الْكَرْمُ، وَ النَّفْسُ رَعَى الْمَاشِيَةَ بِاللَّيْلِ، وَ فِي الْمَجْمَعِ: النَّفْسُ بَفَتْحِ الْفَاءِ وَ سَكُونِهَا أَنْ تَنْتَشِرَ الْإِبِلُ وَ الْغَنَمُ بِاللَّيْلِ فَتَرعى بِلَا رَاعٍ. انتهى.

و قوله: وَ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ السِّيَاقُ يَعطى أَنهَا وَاقِعُهُ وَاحِدُهُ بِعَيْنِهَا رَفَعَ حُكْمَهَا إِلَى دَاوُدَ لِكَوْنِهِ هُوَ الْمَلِكُ الْحَاكِمُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ قَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ خَلِيفَهُ فِي الْأَرْضِ كَمَا قَالَ: يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ (ص / ٢٦)، فَإِنْ كَانَ سُلَيْمَانٌ يَدْخُلُ فِي حُكْمِ الْوَاقِعِ فَمِنْ إِذْنِ مَنْهُ وَ لِحُكْمِهِ مَا وَ لَعَلَّهَا إِظْهَارُ أَهْلِيَّتِهِ لِلْخِلَافَةِ بَعْدَ دَاوُدَ.

و من المعلوم أن لا- معنى لحكم حاكمين في واقعه واحد شخصيه مع استقلال كل واحد منهما في الحكم و نفوذه، و من هنا يظهر أن المراد بقوله: «إِذْ يَحْكُمَانِ» إِذْ يَتَنَاضَرَانِ أَوْ يَتَشَاوِرَانِ فِي الْحُكْمِ لَا إِصْدَارَ الْحُكْمِ النَّافِذِ، وَ يُؤَيِّدُهُ كَمَالُ التَّأْيِيدِ التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ: «إِذْ يَحْكُمَانِ» عَلَى نَحْوِ حِكَايَةِ الْحَالِ الْمَاضِيَةِ كَأَنَّهُمَا أَخَذَا فِي الْحُكْمِ أَخَذَا تَدْرِيجِيًّا لَمْ يَتِمَّ بَعْدَ وَ لَنْ يَتِمَّ إِلَّا حُكْمًا وَاحِدًا

نافذا و كان الظاهر أن يقال: إذ حكما.

و يؤيده أيضا قوله: «وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ» فإن الظاهر أن ضمير «لِحُكْمِهِمْ» للأنبياء و قد تكرر في كلامه تعالى أنه آتاهم الحكم لا- كما قيل: إن الضمير لداود و سليمان و المحكوم لهم إذ لا وجه يوجه به نسبة الحكم الى المحكوم لهم أصلا، فكان الحكم حكما واحدا هو حكم الأنبياء و الظاهر أنه ضمان صاحب الغنم للمال الذي أتلفته غنمه.

فكان الحكم حكما واحدا اختلفا في كيفية إجراءاته عملا إذ لو كان الاختلاف في أصل الحكم لكان فرض صدور حكمين منهما بأحد وجهين إما بكون كلا الحكمين حكما واقعا لله ناسخا أحدهما- و هو حكم سليمان- الآخر و هو حكم داود لقوله تعالى: «فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ» و إما بكون الحكمين معا عن اجتهاد منهما بمعنى الرأى الظنى مع الجهل بالحكم الواقعى و قد صدق تعالى اجتهاد سليمان فكان هو حكمه.

أما الأول و هو كون حكم سليمان ناسخا لحكم داود فلا- ينبغى الارتياح في أن ظاهر جمل الآية لا يساعد عليه إذ النسخ و المنسوخ متباينان و لو كان حكماهما من قبيل النسخ و متباينين لقل: و كنا لحكهما أو لحكميهما ليدل على التعدد و التباين و لم يقل: «وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ» المشعر بوحده الحكم و كونه تعالى شاهدا له الظاهر في صونهم عن الخطاء، و لو كان داود حكم في لواقعه بحكم منسوخ لكان على الخطاء، و لا يناسبه أيضا قوله: «وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا» و هو مشعر بالتأييد ظاهر في المدح.

و أما الثانى و هو كون الحكمين عن اجتهاد منهما مع الجهل بحكم الله الواقعى فهو أبعد من سابقه لأنه تعالى يقول «فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ» و هو العلم بحكم الله الواقعى و كيف ينطبق على الرأى الظنى بما أنه رأى ظنى. ثم يقول: و كلا- آتينا حكما و علما فيصدق بذلك أن الذى حكم به داود أيضا كان حكما علميا لا ظنيا و لو لم يشمل قوله: «وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا» حكم داود في لواقعه لم يكن وجه لإيراد الجملة فى المورد.

على أنك سمعت أن قوله: «وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ» لا يخلو من إشعار بل دلالة على أن الحكم كان واحداً ومصوناً عن الخطأ. فلا يبقى إلا أن يكون حكمهما واحداً في نفسه مختلفاً من حيث كيفية الإجراء و كان حكم سليمان أوفق و أرفق.

و قد وردت في روايات الشيعة و أهل السنه ما إجماله أن داود حكم لصاحب الحرث برقاب الغنم و سليمان حكم له بمنافعها في تلك السنه من ضرع و صوف و نتاج.

و لعل الحكم كان هو ضمان ما أفسدته الغنم من الحرث على صاحبها و كان ذلك مساوياً لقيمه رقاب الغنم فحكم داود لذلك برقابها لصاحب الحرث، و حكم سليمان بما هو أرفق منه و هو أن يستوفى ما أتلفت من ماله من منافعها في تلك السنه و المنافع المستوفاه من الغنم كل سنه تعدل قيمتها قيمه الرقبه عاده.

فقوله: «وَدَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ أَي و اذكر داود و سليمان «إِذْ» حين يحكمان في الحرث «إِذْ» حين «نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ» أي تفرقت فيه ليلاً و أفسدته «وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ» أي لحكم الأنبياء، و قيل: الضمير راجع الى داود و سليمان و المحكوم له، و قد عرفت ما فيه، و قيل:

الضمير لداود و سليمان لأن الاثنين جمع و هو كما ترى «شَاهِدِينَ» حاضرين نرى و نسمع و نوقفهم على وجه الصواب فيه «فَفَهَّمْنَاهَا» أي الحكومه و القضيه «سُلَيْمَانَ وَ كُلاً» من داود و سليمان «آتِينَاهُ حَكْمًا و علماً» و ربما قيل: إن تقدير صدر الآيه «و لقد آتينا داود و سليمان علماً» إذ يحكمان، الخ.

قوله تعالى: «وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ وَ كُنَّا فَاعِلِينَ التسخير هو تدليل الشيء بحيث يكون عمله على ما هو عليه في سبيل مقاصد المسخر - بكسر الخاء - وهذا غير الإجبار و الإكراه و القسر فإن الفاعل فيها خارج عن مقتضى اختياره أو طبقه بخلاف الفاعل المسخر - بفتح الخاء - فإنه جار على مقتضى طبعه و اختياره كما أن إحراق الإنسان الحطب بالنار فعل تسخيري من النار و ليست بمقسوره و كذا فعل

الأجير لمؤجره فعل تسخيري من الأجير و ليس بمجبر و لا مكره.

و من هنا يظهر أن معنى تسخير الجبال و الطير مع داود يسبحن معه أن لهما تسبيحا في نفسيهما و تسخيرهما أن يسبحن مع داود بمواطاه تسبيحه فقوله: «يسبحن معه» بيان لقوله:

«وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ» و قوله: «وَ الطَّيْرَ» معطوف على الجبال.

و قوله: «وَ كُنَّا فَاعِلِينَ» أى كانت أمثال هذه المواهب و العناية من سنتنا و ليس ما أنعمنا به عليهما ببدع منا.

قوله تعالى: «وَ عَلَّمْنَاهُ صِنْعَهُ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخَصِّصَ نَكْمُكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ» قال فى المجمع: اللبوس اسم للسلاح كله عند العرب-الى أن قال-وقيل: هو الدرع انتهى. و فى المفردات: و قوله تعالى: «صَنَعَهُ لَبُوسٍ لَكُمْ» يعنى به الدرع.

و البأس شده القتال و كأن المراد به فى الآيه شده وقع السلاح و ضمير «وَ عَلَّمْنَاهُ» لداود كما قال فى موضع آخر: «وَ أَلَّنَا لَهُ الْحَدِيدَ» و المعنى و علمنا داود صنعه درعكم-أى علمناه كيف يصنع لكم الدرع لتحرككم و تمنعكم شده وقع السلاح و قوله: «فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ» تقرير على الشكر.

قوله تعالى: «وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ الْخ» عطف على قوله:

«لِداوُدَ» أى و سخرنا لسليمان الريح عاصفه أى شديده الهبوب تجرى الريح بأمره الى الأرض التى باركنا فيها و هى أرض الشام التى كان يأوى إليها سليمان و كنا عالمين بكل شىء.

و ذكر تسخير الريح عاصفه مع أن الريح كانت مسخره له فى حالتى شدتها و رخائها كما قال: «رُخَاءٌ حَيْثُ أَصَابَ» (ص ٣٦) لأن تسخير الريح عاصفه أعجب و أدل على القدره.

قوله تعالى: «وَ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يُغْوِصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَ كُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ» كان الغوص لاستخراج أمتعه البحر من اللئالى و غيرها، و المراد

بالعمل الذى دون ذلك ما ذكره بقوله: يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَ تَمَائِيلَ وَ جِفَانَ كَالْجَوَابِ وَ قُدُورٍ رَاسِيَاتٍ (سبأ ١٣)، و المراد بحفظ الشياطين حفظهم فى خدمته و منعهم من أن يهربوا أو يمتنعوا أو يفسدوا عليه الأمر، و المعنى ظاهر و ستجىء قصتا داود و سليمان عليهما السلام فى سورة سبأ إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: وَ أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ الضر بالضم خصوص ما يمس النفس من الضرر كالمرض و الهزال و نحوهما و بالفتح أعم.

و قد شملته عليه السلام البليه فذهب ماله و مات أولاده و ابتلى فى بدنه بمرض شديد مده مديده ثم دعا الله و شكى اليه حاله فاستجاب الله له و نجاه من مرضه و أعاد عليه ماله و ولده و مثلهم معهم

و هو قوله فى الآيه التاليه: «فَأَسَدِّ تَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ» أى نجيناه من مضره و شفيناه «وَ آتَيْنَاهُ أَهْلَهُ» أى من مات من أولاده «وَ مَثَلُهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ ذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ» ليتذكروا و يعلموا أن الله يبتلى أولياءه امتحانا منه لهم ثم يؤتيهم أجرهم و لا يضيع أجر المحسنين.

و ستجىء قصه أيوب عليه السلام فى سورة ص إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكُفْلِ الخ؛ أما إدريس عليه السلام فقد تقدمت قصته فى سورة مريم، و أما إسماعيل فستجىء قصته فى سورة الصافات، و تأتى قصه ذى الكفل فى سورة ص إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ الخ؛ النون الحوت و ذو النون هو يونس النبى ابن متى صاحب الحوت الذى بعث الى أهل نينوى فدعاهم فلم يؤمنوا فسأل الله أن يعذبهم فلما أشرف عليهم العذاب تابوا و آمنوا فكشفه الله عنهم ففارقهم يونس فابتلاه الله أن ابتلعه حوت فناداه تعالى فى بطنه فكشف عنه و أرسله ثانيا الى

و قوله: وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ أَى و اذكر ذا النون إذ ذهب مغاضبا أى لقومه حيث لم يؤمنوا به فظن أن لن نقدر عليه أى لن نضيق عليه من قدر عليه رزقه أى ضاق كما قيل .

و يمكن أن يكون قوله: «إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ» واردا مورد التمثيل أى كان ذهابه هذا و مفارقه قومه ذهاب من كان مغاضبا لمولاه و هو يظن أن مولاه لن يقدر عليه و هو يفوته بالابتعاد منه فلا يقوى على سياسته و أما كونه عليه السلام مغاضبا لربه حقيقه و ظنه أن الله لا يقدر عليه جدا فمما يجلب ساحه الأنبياء الكرام عن ذلك قطعا و هم معصومون بعصمه الله .

و قوله: فَذَادَى فِي الظُّلُمَاتِ الخ؛فيه إيجاز بالحذف و الكلام متفرع عليه و التقدير فابتلاه الله بالحوت فالتقمه فى بطنه ربه،و الظاهر أن المراد بالظلمات كما قيل -ظلمه البحر و ظلمه بطن الحوت و ظلمه الليل .

و قوله: أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ تبر منه عليه السلام مما كان يمثله ذهابه لوجهه و مفارقه قومه من غير أن يؤمر فان ذهابه ذلك كان يمثله -و إن لم يكن قاصدا ذلك متعمدا فيه- أن هناك مرجعا يمكن أن يرجع اليه غير ربه فتبرأ من ذلك بقوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» و كان يمثله أن من الجائر أن يعترض على فعله فيغاضب منه و أن من الممكن أن يفوته تعالى فائت فيخرج من حيطه قدرته فتبرأ من ذلك بتنزيهه بقوله: سبحانك .

و قوله: إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ اعتراف بالظلم من حيث إنه أتى بعمل كان يمثله الظلم و إن لم يكن ظلما فى نفسه و لا هو عليه السلام قصد به الظلم و المعصيه غير أن ذلك كان تأديبا منه تعالى و تربيته لنبيه ليظاً بساط القرب بقدم مبرأه فى مشيتها من تمثيل الظلم فضلا عن نفس الظلم .

قوله تعالى: فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَ كَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ

هو عليه السلام وإن لم يصرح بشيء من الطلب و الدعاء، وإنما أتى بالتوحيد و التنزيه و اعترف بالظلم لكنه أظهر بذلك حاله و أبدى موقفه من ربه و فيه سؤال النجاه و العافيه فاستجاب الله له.

و نجاه من الغم و هو الكرب الذى نزل به.

و قوله: وَ كَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ وعد بالإنجاء لمن ابتلى من المؤمنين بغم ثم نادى ربه بمثل ما نادى به يونس عليه السلام و ستجىء قصته عليه السلام فى سورة الصافات إن شاء الله.

قوله تعالى: وَ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ معطوف على ما عطف عليه ما قبله أى و اذكر زكريا حين نادى ربه يسأل ولدا و قوله: «رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا» بيان لندائه، و المراد بتركه فردا أن يترك و لا ولد له يرثه.

و قوله: وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ثناء و تحميد له تعالى بحسب لفظه و نوع تنزيه له بحسب المقام إذ لما قال: «لَا تَذَرْنِي فَرْدًا» و هو كناية عن طلب الوارث و الله سبحانه هو الذى يرث كل شيء نزهه تعالى عن مشاركة غيره له فى معنى الوراثه و رفعه عن مساواه غيره فقال: «وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ» .

قوله تعالى: فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ هَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَ أَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ الخ؛ ظاهر الكلام أن المراد بإصلاح زوجه أى زوج زكريا له جعلها شابه ولودا بعد ما كانت عاقرا كما يصرح به فى دعائه وَ كَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا (مريم/٨).

و قوله: إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ يَدْعُونَنا رَغْبًا وَ رَهْبًا وَ كَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ظاهر السياق أن ضمير الجمع لبيت زكريا، و كأنه تعليل لمقدر معلوم من سابق الكلام و التقدير نحو من قولنا: انعمنا عليهم لأنهم كانوا يسارعون فى الخيرات.

و الرغب و الرهب مصدران كالرغبه و الرهبه بمعنى الطمع و الخوف و هما تمييزان إن كانا باقين على معناهما المصدرى و حالان إن كانا بمعنى الفاعل، و الخشوع هو تأثير القلب من مشاهدته العظمه و الكبرياء.

و المعنى: أنعمنا عليهم لأنهم كانوا يسارعون في الخيرات من الأعمال و يدعوننا رغبة في رحمتنا أو ثوابنا رهبة من غضبنا أو عقابنا أو يدعوننا راغبين راهبين و كانوا لنا خاشعين بقلوبهم.

و قد تقدمت قصه زكريا و يحيى عليهما السلام فى أوائل سورة مريم.

قوله تعالى: وَ الَّتِي أَحْصَيْتِ نَفْسَ فَرْجِهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَ جَعَلْنَاهَا وَ ابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ المراد بالتي أحصنت فرجها مريم ابنة عمران و فيه مدح لها بالعفة و الصيانة و ردّ لما اتهمها به اليهود.

و قوله: فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا الضمير لمريم و النفخ فيها من الروح كناية عن عدم استناد ولاده عيسى عليه السلام الى العاده الجارية فى كينونه الولد من تصور النطفه أولا ثم نفخه الروح فيها فإذا لم يكن هناك نطفه مصوره لم يبق إلا نفخ الروح فيها و هى الكلمه الإلهيه كما قال: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران / ٥٩) أى مثلهما واحد فى استغناء خلقهما عن النطفه.

و قوله: وَ جَعَلْنَاهَا وَ ابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ أفرد الآيه فعدهما أعنى مريم و عيسى عليهما السلام معا آيه واحده للعالمين لأن الآيه هى الولاده كذلك و هى قائمه بهما معا و مريم أسبق قدما فى إقامه هذه الآيه و لذا قال تعالى: (وَ جَعَلْنَاهَا وَ ابْنَهَا آيَةً) و لم يقل: جعلنا ابنها و إياها آيه. و كفى لها فخرا أن يدخل ذكرها فى ذكر الأنبياء عليهم السلام فى كلامه تعالى و ليست منهم (١).

[سورة الأنبياء (٢١): الآيات ٩٢ الى ١١٢]

إشارة

إِنَّ هَدِيهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّهُ وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهِنَا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَكْفُرْ بِآيَاتِهِ وَ إِذَا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤) وَ حَرَامٌ عَلَى قَرْبِيهِ أَهْلُكُنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَاْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) إِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَ كُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفيرٌ وَ هُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَ هُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْمَأكِبِرُ وَ تَتَلَقَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِلِّ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَ عِيداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَ يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَ إِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَ مَتَاعٌ إِلَيَّ حِينَ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَ رَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢)

١-١) الانبياء ٧٨-٩١: بحث روائي في قصة داود و سليمان و ذا النون.

قوله تعالى: إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ الامه جماعه يجمعها مقصد واحد، والخطاب فى الآيه على ما يشهد به سياق الآيات-خطاب عام يشمل جميع الأفراد المكلفين من الإنسان، والمراد بالامه النوع الانسانى الذى هو نوع واحد، و تأنيث الإشاره فى قوله: «هَذِهِ أُمَّتُكُمْ» لتأنيث الخبر.

و المعنى: أن هذا النوع الإنسانى أمتكم معشر البشر و هى أمه واحده و أنا-لله الواحد عز اسمه-ربكم إذ ملكتكم و دبرت أمركم فاعبدونى لا غير.

و فى قوله: أُمَّةً وَاحِدَةً إشاره الى حجه الخطاب بالعباده لله سبحانه فإن النوع الإنسانى لما كان نوعا واحدا و أمه واحده ذات مقصد واحد و هو سعادته الحياه الإنسانيه لم

يكن له إلا رب واحد إذ الربوبية والالوهية ليست من المناصب التشريفيه الوضعيه حتى يختار الإنسان منها لنفسه ما يشاء وكم يشاء وكيف يشاء بل هي مبدئيه تكوينيه لتدبير أمره، و الإنسان حقيقه نوعيه واحده، والنظام الجارى فى تدبير أمره نظام واحد متصل مرتبط بعضى أجزاءه ببعض، ونظام التدبير الواحد لا يقوم به إلا مدبر واحد فلا معنى لأن يختلف الإنسان فى أمر الربوبيه فيتخذ بعضهم ربا غير ما يتخذه الآخر أو يسلك قوم فى عبادته غير ما يسلكه الآخرون فالإنسان نوع واحد يجب أن يتخذ ربا واحد هو رب بحقيقه الربوبيه.

و هو الله عز اسمه.

قوله تعالى: «وَتَقَطُّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ راجِعُونَ التَّقَطُّعُ عَلَى مَا قَالَ فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ بِمَعْنَى التَّقَطُّعِ وَهُوَ التَّفْرِيقُ، وَقِيلَ: هُوَ بِمَعْنَى الْمَتَبَادِرِ وَهُوَ التَّفَرُّقُ وَالْاِخْتِلَافُ وَ«أَمْرَهُمْ» مَنْصُوبٌ بِنَزْعِ الْخَافِضِ، وَالتَّقَدِيرُ فَتَقَطُّعُوا فِي أَمْرِهِمْ وَقِيلَ «تَقَطُّعُوا» مُضْمَنٌ مَعْنَى الْجَعْلِ وَلِذَا عَدِيَ إِلَى الْمَفْعُولِ بِنَفْسِهِ.

و كيف كان فقوله: «فَتَقَطُّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ» استعاره بالكنايه والمراد به أنهم جعلوا هذا الأمر الواحد و هو دين التوحيد المندوب اليه من طريق النبوه و هو أمر وحدانى قطعاً متقطعه وزعوه فيما بينهم أخذ كل منهم شيئاً منه وترك شيئاً كالوثنيين واليهود والنصارى والمجوس والصابئين على اختلاف طوائفهم وهذا نوع تقريع للناس و ذم لاختلافهم فى الدين و تركهم الأمر الإلهى أن يعبدوه وحده.

وقوله: «كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ راجِعُونَ» فيه بيان أن اختلافهم فى أمر الدين لا يترك سدى لا أثر له بل هؤلاء راجعون الى الله جميعاً وهم مجزيون حسب ما اختلفوا كما يلوح اليه التفصيل المذكور فى قوله بعد: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ» الخ.

و الفصل فى جملة «كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ راجِعُونَ» لكونها فى معنى الجواب عن سؤال مقدر كأنه قيل: فإلى م ينتهى اختلافهم فى أمر الدين؟ و ما ذا ينتج؟ فقيل: كل الينا راجعون فنجازيهم كما

قوله تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ وَإِذَا لَهُ كَاتِبُونَ تفصيل لحال المختلفين بحسب الجزاء الاخرى و سياتى ما فى معنى تفصيل جزائهم فى الدنيا من قوله: «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ» .

فقوله: فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ أى من يعمل منهم شيئا من الأعمال الصالحات و قد قيد عمل بعض الصالحات بالإيمان إذ قال: «وَهُوَ مُؤْمِنٌ» فلا أثر للعمل الصالح بغير إيمان.

و المراد بالإيمان-على ما يظهر من السياق و خاصه قوله فى الآيه الماضيه: «وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ»-الإيمان بالله قطعاً غير أن الإيمان بالله لا يفارق الإيمان بأنبيائه من دون استثناء لقوله: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ -الى قوله- أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا (النساء ١٥١/).

و قوله: فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ أى لا ستر على ما عمله من الصالحات و الكفران يقابل الشكر و لذا عبر عن هذا المعنى فى موضع آخر بقوله: وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (الدهر / ٢٢).

و قوله: وَإِذَا لَهُ كَاتِبُونَ أى مثبتون فى صحائف الأعمال إثباتاً لا ينسى معه فالمراد بقوله: «فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ» أن عمله الصالح لا ينسى و لا يكفر.

و الآيه من الآيات الداله على أن قبول العمل الصالح مشروط بالإيمان كما تؤيده آيات حبط الأعمال مع الكفر، و تدل أيضا على أن المؤمن العامل لبعض الصالحات من أهل النجاه.

قوله تعالى: وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ الذى يستبق من

الآية الى الذهن بمعونه من سياق التفصيل أن يكون المراد أن أهل القرية التي أهلكتها لا يرجعون ثانيا الى الدنيا ليحصلوا على ما فقدوه من نعمه الحياه و يتداركوا ما فوتوه من الصالحات و هو واقع محل أحد طرفي التفصيل الذي تضمن طرفه الآخر قوله: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ» الخ؛ فيكون الطرف الآخر من طرفي التفصيل أن من لم يكن مؤمنا قد عمل من الصالحات فليس له عمل مكتوب و سعى مشكور و إنما هو خائب خاسر ضل سعيه في الدنيا و لا سبيل له الى حياه ثانيه في الدنيا يتدارك فيها ما فاته.

غير أنه تعالى وضع المجتمع موضع الفرد إذ قال: «وَ حَرَامٌ عَلَيَّ قَوْلِيهِ أَهْلَكْتُهَا» و لم يقل:

و حرام على من أهلكتها لأن فساد الفرد يسرى بالطبع الى المجتمع و ينتهى الى طغيانهم فيحق عليهم كلمه العذاب فيهلكون كما قال: «وَ إِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا (الإسراء ٥٨)».

و يمكن -على بعد- أن يكون المراد بالإهلاك الإهلاك بالذنوب بمعنى بطلان استعداد السعاده و الهدى كما فى قوله: «وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ (الأنعام ٢٦)» فتكون الآية فى معنى قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ (النحل ٣٧)»، و المعنى و حرام على قوم أهلكتهم بذنوبهم و قضينا عليهم الضلال أن يرجعوا الى التوبه و حال الاستقامه.

و معنى الآية و القرية التي لم تعمل من الصالحات و هى مؤمنه و انجز أمرها الى الإهلاك ممتنع عليهم أن يرجعوا فيتداركوا ما فاتهم من السعى المشكور و العمل المكتوب المقبول.

و أما قوله: «أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ» و كان الظاهر أن يقال: أنهم يرجعون فالحق أنه مجاز عقلى وضع فيه نتيجة تعلق الفعل بشيء -أعنى ما يؤول اليه حال المتعلق بعد تعلقه به- موضع نفس المتعلق فنتيجة تعلق الحرمة برجوعهم عدم الرجوع فوضعت هذه النتيجة موضع نفس الرجوع الذى هو متعلق الحرمة و فى هذا الصنع إفاده نفوذ الفعل كأن الرجوع يصير بمجرد تعلق الحرمة عدم رجوع من غير تخلل فصل.

قوله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ الحدب بفتحين الارتفاع من الأرض بين الانخفاض، و النسول الخروج بإسراع و منه نسلان الذئب، و السياق يقتضى أن يكون قوله: «حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ» الخ؛ غايه للتفصيل المذكور فى قوله: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ» الى آخر الآيتين؛ و أن يكون ضمير الجمع راجعا الى يَأْجُوجُ و مأْجُوجُ.

و المعنى: لا- يزال الأمر يجرى هذا المجرى نكتب الأعمال الصالحة للمؤمنين و نشكر سعيهم و نهلك القرى الظالمة و نحرم رجوعهم بعد الهلاك الى الزمان الذى يفتح فيه يَأْجُوجُ و مأْجُوجُ أى سدهم أو طريقيهم المسدود و هم أى يَأْجُوجُ و مأْجُوجُ يخرجون الى سائر الناس من ارتفاعات الأرض مسرعين نحوهم و هو من أشرط الساعه و أمارات القيامه كما يشير اليه بقوله: فَمَآذَا جَاءَ وَعِيدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّآءَ وَ كَانَ وَعِيدُ رَبِّي حَقًّا وَ تَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (الكهف/٩٩) و قد استوفينا الكلام فى معنى يَأْجُوجُ و مأْجُوجُ و السد المضروب دونهم فى تفسير سوره الكهف.

قوله تعالى: وَ اقْتَرَبَ الْوَعِيدُ الْحَقُّ فَمَآذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا الخ؛ المراد بالوعد الحق الساعه، و شخوص البصر نظره بحيث لا- تطرف أجفانه، و كذا ذكره الراغب و هو لازم كمال اهتمام الناظر بما ينظر اليه بحيث لا يشتغل بغيره و يكون غالبا من الشر الذى يظهر للإنسان بغيته.

و قوله: يَا وَيْلَتَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا حَكَايَه قول الكفار إذا شاهدوا الساعه بغيته فدعوا لأنفسهم بالويل مدعين أنهم غفلوا عما يشاهدونه كأنهم أغفلوا إغفالا ثم أضربوا عن ذلك بالاعتراف بأن الغفله لم تنشأ إلا عن ظلمهم بالاشتغال بما ينسى الآخره و يغفل عنها من أمور الدنيا فقالوا: «بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ» .

قوله تعالى: إِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا

وَأَرِدُونَ الْحَصْبَ الْوَقُودَ، وَقِيلَ: الْحَطْبُ، وَقِيلَ: أَصْلُهُ مَا يرمى فِي النَّارِ فَيَكُونُ أَعْمَ.

والمراد بقوله: وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ و لم يقل: و من تعبدون-مع تعبيره تعالى عن الأصنام في أغلب كلامه بألفاظ تختص بأولى العقل كما في قوله بعد: «مَا وَرَدُوهَا» - الأصنام و التماثيل التي كانوا يعبدونها دون المعبودين من الأنبياء و الصلحاء و الملائكة كما قيل و يدل على ذلك قوله بعد: «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ» الخ.

و الظاهر أن هذه الآيات من خطابات يوم القيامة للكفار و فيها القضاء بدخولهم في النار و خلودهم فيها لا أنها إخبار في الدنيا بما سيجرى عليهم في الآخرة و استدلال على بطلان عبادة الأصنام و اتخاذهم آلهة من دون الله.

و قوله: أَنْتُمْ لَهُمْ وَإِرْدُونَ اللَّامِ لِتَأْكِيدِ التَّعْدِي أَوْ بِمَعْنَى الْي، و ظاهر السياق أن الخطاب شامل للكفار و الآلهة جميعا أي أنتم و آلهتكم تردون جهنم أو تردون إليها.

قوله تعالى: لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَ كُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ تفریع و إظهار لحقيقته حال الآلهة التي كانوا يعبدونها لتكون لهم شفعاء، و قوله: «وَ كُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ» أي كل منكم و من الآلهة.

قوله تعالى: لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ هُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ الزفير هو الصوت برد النفس الى داخل و لذا فسر بصوت الحمار، و كونهم لا يسمعون جزاء عدم سمعهم في الدنيا كلمة الحق كما أنهم لا يبصرون جزاء لإعراضهم عن النظر في آيات الله في الدنيا.

و في الآيه عدول عن خطاب الكفار الى خطاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم إعراضا عن خطابهم ليبين سوء حالهم لغيرهم، و عليه فضمائر الجمع للكفار خاصة لا لهم و لآلهة معا.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ الْحُسْنَىٰ مؤنث أحسن و هي وصف قائم مقام موصوفه و التقدير العده أو الموعدة الحسنی بالنجاه أو بالجنه و الموعدة بكل منهما وارد في كلامه تعالى قال: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ

الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِّيًّا (مريم ٧٢)، و قال: وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ (التوبه / ٧٢).

قوله تعالى: لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً بِهَا - الى قوله- تُوعَدُونَ الحسيس الصوت الذى يحس به، و الفزع الأكبر الخوف الأعظم و قد أخبر سبحانه عن وقوعه فى نفخ الصور حيث قال: وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ (النمل ٨٧).

و قوله: وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ» أى بالبشرى و هى قولهم: «هذا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» .

قوله تعالى: يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِلِّ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ الى آخر الآيه؛ قال فى المفردات: و السجل قيل: حجر كان يكتب فيه ثم سمي كل ما يكتب فيه سجلا قال تعالى: «كَطَيِّ السَّجِلِّ لِلْكِتَابِ» أى كطيه لما كتب فيه حفظا له، انتهى.

و هذا أوضح معنى قيل فى معنى هذه الكلمه و أبسطه.

و على هذا فقوله: لِلْكِتَابِ مفعول طى كما أن السجل فاعله و المراد أن السجل و هو الصحيفة المكتوب فيها الكتاب إذا طوى انطوى بطيه الكتاب و هو الألفاظ أو المعانى التى لها نوع تحقق و ثبوت فى السجل بتوسط الخطوط و النقوش فغاب الكتاب بذلك و لم يظهر منه عين و لا أثر كذلك السماء تنطوى بالقدره الإلهيه كما قال: وَ السَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ (الزمر / ٦٧) فتغيب عن غيره و لا يظهر منها عين و لا أثر غير أنها لا تغيب عن عالم الغيب و إن غاب عن غيره كما لا يغيب الكتاب عن السجل و إن غاب عن غيره.

فطى السماء على هذا رجوعها الى خزائن الغيب بعد ما نزلت منها و قدرت كما قال تعالى:

وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر ٢١) و قال مطلقا:

وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (آل عمران ٢٨) و قال: إِنَّ إِلَهِي رَبِّيكَ الرَّجْعِيُّ (العلق ٨).

و لعله بالنظر الى هذا المعنى قيل: إن قوله «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ» ناظر الى رجوع كل

شيء الى حاله التي كان عليه حين ابتدئ خلقه و هي أنه لم يكن شيئاً مذكوراً كما قال تعالى:

وَ قَدْ خَلَقْتِكُمْ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً (مريم ٩)، و قال: هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (الدهر ١).

و قوله: وَ عِدّاً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ أَي وعدناه وعد الزمنا ذلك و وجب علينا الوفاء به و إنا كنا فاعلين لما وعدنا و سنتنا ذلك.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْمَأْرُضَ يَرِيئُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ الظاهر أن المراد بالزبور كتاب داود عليه السلام و قد سمي بهذا الاسم في قوله:

وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً (النساء ١٦٣)، (الإسراء ٥٥)، و قيل: المراد به القرآن، و قيل:

مطلق الكتب المنزلة على الأنبياء أو على الأنبياء بعد موسى و لا دليل على شيء من ذلك.

و المراد بالذكر قيل: هو التوراه و قد سماها الله به في موضعين من هذه السوره و هما قوله:

فَسَيَلُّوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (الآيه ٧) و قوله: وَ ذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (الآيه ٤٨)، و قيل: هو القرآن و قد سماه الله ذكرا في مواضع من كلامه و كون الزبور بعد الذكر على هذا القول بعديه رتبيه لا زمانيه و قيل: هو اللوح المحفوظ و هو كما ترى.

و قوله: أَنَّ الْأَرْضَ يَرِيئُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ الوراثة و الإرث على ما ذكره الراغب انتقال قنيه اليك من غير معامله.

و المراد من وراثه الأرض انتقال التسلط على منافعها اليهم و استقرار بركات الحياه بها فيهم، و هذه البركات إما دنيويه راجعه الى الحياه الدنيا كالتمتع الصالح بأمعتها و زيناتها فيكون مؤدى الآيه أن الأرض ستتطهر من الشرك و المعصيه و يسكنها مجتمع بشري صالح يعبدون الله و لا- يشركون به شيئاً كما يشير اليه قوله تعالى: وَ عِبَادَ اللَّهِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ - الى قوله - يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً (النور ٥٥).

و إما أخروييه و هى مقامات القرب التى اكتسبوها فى حياتهم الدنيا فإنها من بركات الحياه الأرضيه و هى نعيم الآخره كما يشير اليه قوله تعالى حكاية عن أهل الجنة: وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْزَنَّا الْأَرْضَ نَبِيًّا وَمِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ (الزمر ٧٤)، و قوله: أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ (المؤمنون ١١).

قوله تعالى: إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ البلاغ هو الكفايه، و أيضا ما به بلوغ البغيه، و أيضا نفس البلوغ، و معنى الآيه مستقيم على كل من المعانى الثلاثه، و الإشاره بهذا الى ما بين فى السوره من المعارف.

و المعنى: أن فيما بيناه فى السوره- أن الرب واحد لا رب غيره يجب أن يعبد من طريق النبوه و يستعد بذلك ليوم الحساب، و أن جزاء المؤمنين كذا و كذا و جزاء الكافرين كيت و كيت- كفايه لقوم عابدين إن أخذوه و عملوا به كفاهم و بلغوا بذلك بغيتهم.

قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ أى أنك رحمه مرسله الى الجماعات البشرىه كلهم- و الدليل عليه الجمع المحلى اللام- و ذلك مقتضى عموم الرساله.

و هو صَلَّى الله عليه و آله و سلم رحمه لأهل الدنيا من جهة إتيانه بدين فى الأخذ به سعادته أهل الدنيا فى دنياهم و أخراهم.

و هو صَلَّى الله عليه و آله و سلم رحمه لأهل الدنيا من حيث الآثار الحسنه التى سرت من قيامه بالدعوه الحقه فى مجتمعاتهم مما يظهر ظهورا بالغيا بقياس الحياه العامه البشرىه اليوم الى ما قبل بعثته صَلَّى الله عليه و آله و سلم و تطبيق إحدى الحياتين على الاخرى.

قوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ أى إن الذى يوحى الى من الدين ليس إلا التوحيد و ما يتفرع عليه و ينحل اليه سواء كان عقيدته أو حكما و الدليل على هذا الذى ذكرنا ورود الحصر و ظهوره فى الحصر الحقيقى.

قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتَكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ الْإِيذَانِ- كما قيل -إفعال من الإذن و هو العلم بالإجازة فى شىء و ترخيصه ثم تجوز به عن مطلق العلم و اشتق منه الأفعال و كثيرا ما يتضمن معنى التحذير و الإنذار.

و قوله: عَلَىٰ سَوَاءٍ الظاهر أنه حال من مفعول «آذَنْتَكُمْ» و المعنى فإن أعرضوا عن دعوتك و تولوا عن الإسلام لله بالتوحيد فقل: أعلمتكم أنكم على خطرهما لكونكم مساوين فى الإعلام أو فى الخطر، و قيل: أعلمتكم بالحرب و هو بعيد فى سورة مكيه.

قوله تعالى: وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبَٰ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعِدُونَ إِنَّهُ يَغْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَغْلَمُ مَّا تَكْتُمُونَ تتمه قول النبى صلى الله عليه و آله و سلم المأمور به.

و المراد بقوله: «مَّا تُوعِدُونَ» ما يشير اليه قوله: «آذَنْتَكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ» من العذاب المهدد به أمر صلى الله عليه و آله و سلم أولا أن يعلمهم الخطر إن تولوا عن الإسلام، و ثانيا أن ينفى عن نفسه العلم بقرب وقوعه و بعده و يعلله بقصر العلم بالجهر من قولهم -و هو طعنهم فى الإسلام و استهزاؤهم علنا- و ما يكتمون من ذلك، فى الله سبحانه فهو العالم بحقيقه الأمر.

و منه يعلم أن منشأ توجه العذاب اليهم هو ما كانوا يطعنون به فى الإسلام فى الظاهر و ما يبطنون من المكر كأنه قيل: إنهم يستحقون العذاب بإظهارهم القول فى هذه الدعوه الإلهيه و إضمارهم المكر عليه فهددهم به لكن لما كنت لا تحيط بظاهر قولهم و باطن مكرهم و لا تقف على مقدار اقتضاء جرمهم العذاب من جهه قرب الأجل و بعده فأنف العلم بخصوصيه قربه و بعده عن نفسك و ارجع العلم بذلك الى الله سبحانه و وحده.

و قد علم بذلك أن المراد بالجهر من القول ما أظهره المشركون من القول فى الإسلام طعنا و استهزاء، و بما كانوا يكتمون ما أبطنوه عليه من المكر و الخدعه.

قوله تعالى: وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ من تتمه قول النبى صلى الله عليه و آله و سلم المأمور به و ضمير «لَعَلَّهُ» على ما قيل كناية عن غير مذكور و لعله راجع الى

الإيذان المأمور به، والمعنى و ما أدري لعل هذا الإيذان الذى أمرت به أى مراده تعالى من أمره لى بإعلام الخطر امتحان لكم ليظهر به ما فى باطنكم فى أمر الدعوه فهو يريد به أن يمتحنكم و يمتعكم الى حين و أجل استدراجا و إمهالا.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَ رَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ الضمير فى «قَالَ» للنبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم و الآيه حكاية قول النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم عن دعوتهم الى الحق و ردهم له و توليهم عنه فكأنه صَلَّى الله عليه و آله و سلم لما دعاهم و بلغ اليهم ما أمر بتبليغه فأنكروا و شددوا فيه أعرض عنهم الى ربه منيبا اليه و قال: «رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ» و تقييد الحكم بالحق توضيحي لا احترازي فإن حكمه تعالى لا يكون إلا حقا فكأنه قيل: رب احكم بحكمك الحق و المراد ظهور الحق لمن كان و على من كان.

ثم التفت صَلَّى الله عليه و آله و سلم اليهم و قال: «وَ رَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ» و كأنه يشير به الى سبب إعراضه عنهم و رجوعه الى الله سبحانه و سؤاله أن يحكم بالحق فهو سبحانه ربه و ربهم جميعا فله أن يحكم بين مربوبيه، و هو كثير الرحمة لا يخيب سائله المنيب اليه، و هو الذى يحكم لا معقب لحكمه و هو الذى يحق الحق و يبطل الباطل بكلماته فهو صَلَّى الله عليه و آله و سلم فى كلمته «رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ» راجع الذى هو ربه و ربهم و سأله برحمته أن يحكم بالحق و استعان به على ما يصفونه من الباطل و هو نعتهم دينهم بما ليس فيه و طعنهم فى الدين الحق بما هو برىء من ذلك (١).

ص: ٢٩١

١- ١). الانبياء ٩٢-١١٢: بحث روائى فى المشركين و ما يعبدون من دون الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرُؤُنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا
أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَ مَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَ لَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)

السوره تخاطب المشركين بأصول الدين إنذارا و تخويفا كما كانوا يخاطبون في السور النازله قبل الهجره في سياق يشهد بأن لهم بعد شوكة و قوه، و تخاطب المؤمنين بمثل الصلاه و مسائل الحج و عمل الخير و الإذن في القتال و الجهاد في سياق يشهد بأن لهم مجتمعا حديث العهد بالانعقاد قائما على ساق لا يخلو من عده و عده و شوكة.

و يتعين بذلك أن السوره مدنيه نزلت بالمدينه ما بين هجره النبي صلى الله عليه و آله و سلم و غزوه بدر

و غرضها بيان أصول الدين بيانا تفصيليا ينتفع بها المشرك و الموحد و فروعها بيانا اجماليا ينتفع بها الموحدون من المؤمنين إذ لم يكن تفاصيل الأحكام الفرعية مشرعه يومئذ إلا مثل الصلاة و الحج كما فى السوره.

و لكون دعوه المشركين الى الاصول من طريق الإنذار و كذا ندب المؤمنين الى إجمال الفروع بلسان الأمر بالتقوى بسط الكلام فى وصف يوم القيامة و افتتح السوره بالزلزله التى هى من أشراطها و بها خراب الأرض و اندكاك الجبال.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ الزلزله و الزلزال شده الحركه على الحال الهائله و كأنه مأخوذ بالاشتقاق الكبير من زل بمعنى زلق فكرر للمبالغه و الإشاره الى تكرار الزله، و هو شائع فى نظائره مثل ذب و ذبذب و دم و دمدم و كب و كبكب و دك و دكدك و رف و رفرف و غيرها.

الخطاب يشمل الناس جميعا من مؤمن و كافر و ذكر و أنثى و حاضر و غائب و موجود بالفعل و من سيوجد منهم، و ذلك بجعل بعضهم من الحاضرين وصله الى خطاب الكل لاتحاد الجميع بالنوع.

و هو أمر الناس أن يتقوا ربهم فيتقيه الكافر بالإيمان و المؤمن بالتجنب عن مخالفه أوامره و نواهيه فى الفروع، و قد علل الأمر بعظم زلزله الساعه فهو دعوه من طريق الإنذار.

و إضافة الزلزله الى الساعه لكونها من أشراطها و أماراتها، و قيل: المراد بزلزله الساعه شدتها و هولها، و لا يخلو من بعد من جهة اللفظ.

قوله تعالى: يَوْمَ تَرُؤْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ الذهول الذهاب عن الشىء مع دهشه، و الحمل بالفتح الثقل المحمول فى الباطن كالولد فى البطن و بالكسر الثقل المحمول فى الظاهر كحمل بعير قاله الراغب. و قال فى مجمع البيان: الحمل بفتح الحاء ما كان فى بطن أو على رأس شجره، و الحمل بكسر الحاء ما كان على ظهر أو على رأس.

قال في الكشاف: إن قيل: لم قيل «مُرَضَّةٌ بِهِ» دون مرضع؟ قلت: المرضعه التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي، والمرضع التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشِر الإرضاع في حال وصفها به فقيل: مرضعه ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد أَلَقَمَت الرضيع ثديها نزعتة عن فيه لما يلحقها من الدهشه.

وقال: فإن قلت: لم قيل أولاً: ترون ثم قيل: ترى على الافراد؟ قلت: لأن الرؤيه أولاً علقته بالزلزله فجعل الناس جميعاً رائيين لها، وهي معلقه أخيراً بكون الناس على حال السكر فلا بد أن يجعل كل واحد منهم رانيا لسائرهم. انتهى.

وقوله: وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَ مَا هُمْ بِسُكَارَىٰ نَفَى السُّكْرِ بَعْدَ إِثْبَاتِهِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ سُكْرَهُمْ وَ هُوَ ذَهَابُ الْعُقُولِ وَ سَقُوطُهَا فِي مَهْبَطِ الدَّهْشَةِ وَ الْبَهْتِ لَيْسَ مَعْلُولًا لِلخَمْرِ بَلْ شَدَّه عَذَابُ اللَّهِ هِيَ الَّتِي أَوْقَعْتَهَا فِيمَا وَقَعَتْ وَ قَدْ قَالَ تَعَالَى: إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (هود ١٠٢).

و ظاهر الآيه أن هذه الزلزله قبل النفخه الاولى التي يخبر تعالى عنها بقوله: وَ نَفِخْ فِي الصُّورِ فَصَيَحَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ يَنْظُرُونَ (الزمر ٦٨) وذلك لأن الآيه تفرض الناس في حال عاديهِ تفاجئهم فيها زلزله الساعة فتقلب حالهم من مشاهدتها الى ما وصف، وهذا قبل النفخه التي تموت بها الأحياء قطعاً.

[سورة الحج (٢٢): الآيات ٣ الى ١٦]

إشارة

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مِّمَّ غَيْرِ مَخْلُقَةٍ وَ غَيْرِ مَخْلُقَةٍ لِّتَبَيَّنَ لَكُمْ وَ نُفِزُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِئَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَّتْ وَ أَنتَبَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧) وَ مِنَ الدَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لَا هُدًى وَ لَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ (٨) ذَانِ عِظْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ نُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصَابَتْهُ فَتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَ مَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُوا لِمَنْ ضُرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبَسِّ الْمَوْلَىٰ وَ لِبَسِّ الْعَشِيرِ (١٣) إِنْ اللَّهُ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ فَلْيَمِذْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ (١٥) وَ كَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَ أَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١٦)

قوله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ الْخَبِيثِثِ وَقِيلَ: المتجرد و المعرى من الخير، و المجادله فى الله بغير علم التكلم فيما يرجع اليه تعالى من صفاته و أفعاله بكلام مبنى على الجهل بالاصرار عليه.

و قوله: وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ بيان لمسلكه فى الاعتقاد و العمل بعد بيان مسلكه فى القول كأنه قيل: إنه يقول فى الله بغير علم و يصر على جهله، و يعتقد بكل باطل و يعمل به و إذ كان الشيطان هو الذى يهدى الإنسان الى الباطل و الإنسان إنما يميل اليه بإغوائه فهو يتبع فى كل ما يعتقد و يعمل به الشيطان فقد وضع اتباع الشيطان فى الآيه موضع الاعتقاد

و العمل للدلالة على الكيفيه و ليعين فى الآيه التاليه أنه ضال عن طريق الجنه سالك الى عذاب السعير.

و قد قال تعالى: **وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ** و لم يقل: و يتبع الشيطان المرید و هو إبليس للدلالة على تلبسه بفنون الضلال و أنواعه فإن أبواب الباطل مختلفه و على كل باب شيطاناً من قبيل إبليس و ذريته و هناك شياطين من الإنس يدعون الى الضلال فيقلدهم أولياؤهم الغاؤون و يتبعونهم و إن كان كل تسويل و وسوسه منتهاها الى إبليس لعنه الله.

و الكلمه أعنى قوله: **(وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ)** مع ذلك كناية عن عدم انتهائه فى اتباع الباطل الى حد يقف عليه لبطان استعداده للحق و كون قلبه مطبوعاً عليه فهو فى معنى قوله: **وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا** وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا (الأعراف / ١٤٦).

قوله تعالى: **كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ** التولى أخذه و ليا متبعاً، و قوله: **«فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ»** الخ؛ مبتدأ محذوف الخبر، و المعنى و يتبع كل شيطان مرید من صفته أنه كتب عليه أن من اتخذه و ليا و اتبعه فإضلاله له و هدايته إياه الى عذاب السعير ثابت لازم.

و المراد بكتابتة عليه القضاء الإلهى فى حقه بإضلاله متبعيه أولاً و إدخاله إياهم النار ثانياً، و هذان القضاءان هما اللذان أشار اليهما فى قوله: **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ وَ إِنْ جَهَنَّمَ لَمَوْءِدُهُمْ أَجْمَعِينَ** (الحجر ٤٣) و قد تقدم الكلام فى توضيح ذلك فى الجزء الثانى عشر من الكتاب.

قوله تعالى: **إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ** -الى قوله- شَيْئاً المراد بالبعث إحياء الموتى و الرجوع الى الله سبحانه و هو ظاهر، و العلقه القطعه من الدم الجامد، و المضغه القطعه من اللحم المضوغه و الخلقه على ما قيل

-تامه الخلقه و غير المخلقه غير تامتها و ينطبق على تصوير الجنين الملازم لنفخ الروح فيه، و عليه ينطبق القول بأن المراد بالتخليق التصوير.

و قوله: لُتَبَيَّنَ لَكُمْ ظاهر السياق أن المراد لتبين لكم أن البعث ممكن و نزيل الريب عنكم فإن مشاهدته الانتقال من التراب الميت إلى النطفه ثم إلى العلقه ثم إلى المضغه ثم إلى الإنسان الحى لا تدع ريبا فى إمكان تلبس الميت بالحياه و لذلك وضع قوله: «لُتَبَيَّنَ لَكُمْ» فى هذا الموضوع و لم يؤخر إلى آخر الآيه.

و قوله: وَ نُفِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَيَّءٍ أَى و نقر فيها ما نشاء من الأجنه و لا نسقطه الى تمام مده الحمل ثم نخرجكم طفلا، قال فى المجمع: أى نخرجكم من بطون أمهاتكم و أنتم أطفال، و الطفل الصغير من الناس، و إنما وحد و المراد به الجمع لأنه مصدر كقولهم: رجل عدل و رجال عدل، و قيل: أراد ثم نخرج كل واحد منكم طفلا. انتهى، و المراد ببلوغ الأشد حال اشتداد الأعضاء و القوى.

و قوله: وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ المقابله بين الجملتين تدل على تقييد الاولى بما يميزها من الثانيه و التقدير و منكم من يتوفى من قبل أن يرد الى أزدل العمر، و المراد بأردل العمر أحقره و أهونه و ينطبق على حال الهرم فإنه أزدل الحياه إذا قيس الى ما قبله.

و قوله: لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا أَى شيئا يعتد به أرباب الحياه و يبنون عليه حياتهم، و اللام للغايه أى ينتهى أمره الى ضعف القوى و المشاعر بحيث لا يبقى له من العلم الذى هو أنفوس محصول للحياه شىء يعتد به لها.

قوله تعالى: وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَرَّتْ وَ رَبَّتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ قال الراغب: يقال: همدت النار طففت، و منه أرض هامده لا نبات فيها، و نبات هامد يابس، قال تعالى: «وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً» انتهى و يقرب

منه تفسيرها بالأرض الهالكه.

وقال أيضا: الهز التحريك الشديد يقال: هزرت الرمح فاهتز و اهتز النبات إذا تحرك لنضارته، وقال أيضا: ربا إذا زاد و علا، قال تعالى: «فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَّتْ» أى زادت زياده المتربى. انتهى بتلخيص ما.

وقوله: وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ أى و أنبتت الأرض من كل صنف من النبات متصف بالبهجه و هى حسن اللون و ظهور السرور فيه، أو المراد بالزوج ما يقابل الفرد فإن كلامه يثبت للنبات ازدواجا كما يثبت له حياه، و قد وافقته العلوم التجريبيه اليوم.

و المحصل أن للأرض فى إنباتها و إنمائها له شأن يماثل شأن الرحم فى إنباته الحيوى للتراب الصائر نطفه ثم علقه ثم مضغه الى أن يصير إنسانا حيا.

قوله تعالى: ذَلِكُمْ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ذلك إشاره الى ما ذكر فى الآيه السابقه من خلق الإنسان و النبات و تدبير أمرهما حدوثا و بقاء خلقا و تدبيرا واقعيين لا ريب فيهما.

و الذى يعطيه السياق أن المراد بالحق نفس الحق-أعنى أنه ليس وصفا قائما مقام موصوف محذوف هو الخبر-فهو تعالى نفس الحق الذى تحقق كل شىء حق و يجرى فى الأشياء النظام الحق فكونه تعالى حقا يتحقق به كل شىء حق هو السبب لهذه الموجودات الحقه و النظمات الحقه الجاربه فيها، و هى جميعا تكشف عن كونه تعالى هو الحق.

وقوله: وَ أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى معطوف على ما قبله أى المذكور فى الآيه السابقه من صيروره التراب الميت بالانتقال الى حال إنسانا حيا و كذا صيروره الأرض الميتة بنزول الماء نباتا و استمرار هذا الأمر بسبب أن الله يحيى الموتى و يستمر منه ذلك.

وقوله: وَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ معطوف على سابقه كسابقه و المراد أن ما ذكرناه بسبب أن الله على كل شىء قدير و ذلك أن إيجاد الإنسان و النبات و تدبير أمرهما فى الحدوث

والبقاء مرتبط بما فى الكون من وجود أو نظام جار فى الوجود و كما أن إيجادهما و تدبير أمرهما لا يتم إلا مع القدره عليهما كذلك القدره عليهما لا تتم إلا مع القدره على كل شىء فخلقهما و تدبير أمرهما بسبب عموم القدره و إن شئت فقل: ذلك يكشف عن عموم القدره.

قوله تعالى: **وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ الْجَمَلَتَانِ مَعُوفَتَانِ عَلَى «أَنْ» فِي قَوْلِهِ: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ» .**

و أما الوجه فى اختصاص هذه النتائج الخمس المذكوره فى الآيتين بالذكر مع أن بيان السابقه ينتج نتائج أخرى مهمه فى أبواب التوحيد كربوبيته تعالى و نفى شركاء العباده كونه تعالى عليما و منعما و جوادا و غير ذلك.

فالذى يعطيه السياق-والمقام مقام إثبات البعث-و عرض هذه الآيات على سائر الآيات المثبتة للبعث أن الآيه تؤم إثبات البعث من طريق إثبات كونه تعالى حقا على الإطلاق فإن الحق المحض لا يصدر عنه إلا الفعل الحق دون الباطل، و لو لم يكن هناك نشأه أخرى يعيش فيها الإنسان بماله من سعادته أو شقاءه و اقتصر فى الخلقه على الإيجاد ثم الإعدام ثم الإعدام و هكذا كان لعبا باطلا- فكونه تعالى حقا لا يفعل إلا الحق يستلزم نشأه البعث استلزاما بينا فإن هذه الحياه الدنيا تنقطع بالموت فبعدها حياه أخرى باقيه لا محاله.

فالأيه أعني قوله: **«فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ»** -الى قوله- **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ»** فى مجرى قوله: **«وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (الدخان / ٣٩)»**، و قوله: **«وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا (ص / ٢٧)»** و غيرهما من الآيات المتعرضه لإثبات المعاد، و إنما الفرق أنها تثبتته من طريق حقيه فعله تعالى و الآيه المبحوث عنها تثبتته من طريق حقيته تعالى فى نفسه المستلزمه لحقيه فعليه.

ثم لما كان من الممكن أن يتوهم استحاله إحياء الموتى فلا ينفع البرهان حينئذ دفعه بقوله:

«وَ أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى» فَأَحْيَاوَهُ تَعَالَى الْمَوْتَى بِجَعْلِ التُّرَابِ الْمَيِّتِ إِنْسَانًا حَيًّا وَ جَعَلَ الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ نَبَاتًا حَيًّا وَاقِعَ مُسْتَمِرٍّ مَشْهُودٍ فَلَا رَيْبَ فِي إِمْكَانِهِ وَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ أَيْضًا فِي مَجْرَى قَوْلِهِ تَعَالَى:

قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ (يس ٧٩) وَ سَائِرُ الْآيَاتِ الْمَثْبُتَةِ لِإِمْكَانِ الْبَعْثِ وَ الْإِحْيَاءِ ثَانِيًا مِنْ طَرِيقِ ثُبُوتِ مِثْلِهِ أَوَّلًا.

ثُمَّ لَمَّا أَمْكَنَ أَنْ يَتَوَهَّمُ أَنْ جَوَّازَ الْإِحْيَاءِ الثَّانِي لَا يَسْتَلْزِمُ الْوُقُوعَ بِتَعَلُّقِ الْقُدْرَةِ بِهِ اسْتِتْعَادًا لَهُ وَ اسْتِصْعَابًا دَفَعَهُ بِقَوْلِهِ: «وَ أَنَّهُ عَلَيَّ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» فَإِنَّ الْقُدْرَةَ لَمَّا كَانَتْ غَيْرَ مَتَنَاهِيَةٍ كَانَتْ نَسْبَتُهَا إِلَى الْإِحْيَاءِ الْأَوَّلِ وَ الثَّانِي وَ مَا كَانَ سَهْلًا فِي نَفْسِهِ أَوْ صَعْبًا عَلَى حَدِّ سِوَاهُ فَلَا يَخَالِطُهَا عَجْزٌ وَ لَا يَطْرَأُ عَلَيْهَا عَيْ وَ تَعَبٌ.

وَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ أَيْضًا فِي مَجْرَى قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ (ق ١٥) وَ قَوْلِهِ: إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَيَّ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (حم السجده ٣٩)، وَ سَائِرُ الْآيَاتِ الْمَثْبُتَةِ لِلْبَعْثِ بِعُمُومِ الْقُدْرَةِ وَ عَدَمِ تَنَاهِيَتِهَا.

فَهَذِهِ أَعْنَى مَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ» إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ نَتَائِجُ ثَلَاثِ مُسْتَخْرَجَةٍ مِنَ الْآيَةِ السَّابِقَةِ عَلَيْهَا مَسْوَغَةٌ جَمِيعًا لِمَعْنَى وَاحِدَةٍ وَ هِيَ ذِكْرُ مَا يَثْبُتُ بِهِ الْبَعْثُ وَ هُوَ الَّذِي تَتَضَمَّنُهُ الْآيَةُ الْآخِرَةُ «وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ».

وَ لَمْ تَتَضَمَّنِ الْآيَةُ إِلَّا- بَعْثَ الْأَمْوَاتِ وَ الظَّرْفَ الَّذِي يَبْعَثُونَ فِيهِ فَأَمَّا الظَّرْفُ وَ هُوَ السَّاعَةُ فَذَكَرَهُ فِي قَوْلِهِ: «وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا» وَ لَمْ يَنْسَبِ إِتْيَانَهَا إِلَى نَفْسِهِ بِأَنَّ يُقَالُ مِثْلًا:

وَ أَنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّاعَةِ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ وَ لَعَلَّ الْوَجْهَ فِي ذَلِكَ اعْتِبَارَ كَوْنِهَا لَا تَأْتِي إِلَّا بَعْتَهُ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ عِلْمٌ قَطُّ كَمَا قَالَ: «لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَعْتُهُ».

وَ قَالَ: قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا عِنْدَ اللَّهِ» (الأعراف ١٨٧) وَ قَالَ: إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا (طه ١٥) فَكَانَ عَدَمُ نَسْبَتِهَا إِلَى فَاعِلٍ كَعَدَمِ ذِكْرِ وَقْتِهَا وَ كِتْمَانِ مَرَسَاها مَبَالِغُهُ فِي إِخْفَائِهَا وَ تَأْيِيدِهَا لِكَوْنِهَا مَبَاغِتُهُ، وَ قَدْ كَثُرَ ذِكْرُهَا فِي كَلَامِهِ وَ لَمْ يَذْكَرْ فِي شَيْءٍ مِنْهَا لَهَا

فاعل بل كان التعبير مثل «آيَتِهِ» «تَأْتِيهِمْ» «قَائِمَةٌ» «تَقُومُ» و نحو ذلك.

و أما المظروف و هو إحياء الموتى من الإنسان فهو المذكور فى قوله: «وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ» .

قوله تعالى: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لَا هُدًى وَ لَا كِتَابٍ مُنِيرٍ صنف آخر من الناس المعرضين عن الحق، قال فى كشف الكشاف على ما نقل: إن الأظهر فى النظم و الأوفق للمقام أن هذه الآيه فى المقلدين بفتح اللام و الآيه السابقه «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ» -الى قوله- مَرِيدٍ فى المقلدين بكسر اللام انتهى محصلا.

و هو كذلك بدليل قوله هنا ذيلًا: «لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» و قوله هناك: «وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ» و الإضلال من شأن المقلد بفتح اللام و الاتباع من شان المقلد بكسر اللام.

قوله تعالى: ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ الى آخر الآيه؛ الثنى الكسر و العطف بكسر العين الجانب، و ثنى العطف كناية عن الإعراض كأن المعرض يكسر أحد جانبيه على الآخر.

و قوله: لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ متعلق بقوله: «يُجَادِلُ» و اللام للتعليل أى يجادل فى الله بجهل منه مظهر للإعراض و الاستكبار ليتوصل بذلك الى إضلال الناس و هؤلاء هم الرؤساء المتبوعون من المشركين.

و قوله: لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ نُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ تهديد بالخزى-و هو الهوان و الذله و الفضيحة-فى الدنيا، و الى ذلك آل أمر صنديق قريش و أكابر مشركى مكه، و إبعاد بالعذاب فى الآخرة.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ إشاره الى ما تقدم فى الآيه السابقه من الإيعاد بالخزى و العذاب، و الباء فى «بِمَا قَدَّمْتَ» للمقابلة كقولنا:

بعث هذا بهذا أو للسببيه أى إن الذى تشاهده من الخزى و العذاب جزاء ما قدمت يداك أو

بسبب ما قدمت يداك من المجادله في الله بغير علم و لا هدى و لا كتاب معرضا مستكبرا لإضلال الناس و فى الكلام التفات من الغيبه الى الخطاب لتسجيل اللوم و العتاب.

و قوله: **وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** معطوف على **«بِمَا قَدَّمْتُمْ»** أى ذلك لأن الله لا يظلم عباده بل يعامل كلا منهم بما يستحقه بعمله و يعطيه ما يسأله بلسان حاله.

قوله تعالى: **وَ مَنَ النَّاسِ مَن يَعْجُزُ اللَّهُ عَلَيَّ** حَرْفِ الى آخر الآيه؛ الحرف و الطرف و الجانب بمعنى، و الاطمئنان: الاستقرار و السكون، و الفتنة- كما قيل- المحنة و الانقلاب الرجوع.

و هذا صنف آخر من الناس غير المؤمنين الصالحين و هو الذى يبعد الله سبحانه بانبا عبادته على جانب واحد دون كل جانب و على تقدير لا- على كل تقدير و هو جانب الخير و لازمه استخدام الدين للدنيا فإن أصابته خير استقر بسبب ذلك الخير على عباده الله و اطمأن إليها، و إن أصابته فتنة و محنة انقلب و رجع على وجهه من غير أن يلتفت يمينا و شمالا و ارتد عن دينه تشؤما من الدين أو رجاء أن ينجو بذلك من المحنة و المهلكة و كان ذلك دأبهم فى عبادتهم الأصنام فكانوا يعبدونها لينالوا بذلك الخير أو ينجو من الشر بشفاعتهم فى الدنيا و أما الآخرة فما كانوا يقولون بها فهذا المذبذب المنقلب على وجهه خسر الدنيا بوقوعه فى المحنة و المهلكة، و خسر الآخرة بانقلابه عن الدين على وجهه و ارتداده و كفره ذلك هو الخسران المبين.

هذا ما يعطيه التدبر فى معنى الآيه، و عليه فقوله: **«يَعْجُزُ اللَّهُ عَلَيَّ حَرْفِ»** من قبيل الاستعاره بالكنايه، و قوله: **«فَإِنَّ أَصَابَهُ خَيْرٌ»** الخ؛ تفسير لقوله: **«يَعْجُزُ اللَّهُ عَلَيَّ حَرْفِ»** و تفصيل له، و قوله: **«خَسِرَ الدُّنْيَا»** أى بإصابه الفتنة، و قوله: **«وَ الْآخِرَةَ»** أى بانقلابه على وجهه.

قوله تعالى: **يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَ مَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ**

الضَّلَالُ البَعِيدُ المدعو هو الصنم فإنه لفقدته الشعور و الإرادة لا يتوجه منه الى عباده نفع أو ضرر و الذى يصيب عباده من ضرر و خسران فإنما يصيبه من ناحيه العباده التى هى فعل له منسوب اليه.

قوله تعالى: يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبَيْسِ الْمَوْلَى وَ لِبَيْسِ الْعَشِيرِ المولى الولى الناصر، و العشيرى الصاحب المعاشر.

ذكروا فى تركيب جمل الآيه أن «يَدْعُوا» بمعنى يقول، و قوله: «لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ» الخ؛ مقول القول، و «لِمَنْ» مبتدأ دخلت عليه لام الابتداء و هو موصول صلته «ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ». و قوله: «لِبَيْسِ الْمَوْلَى وَ لِبَيْسِ الْعَشِيرِ» جواب قسم محذوف و هو قائم مقام الخبر دال عليه.

و المعنى: يقول هذا الذى يعبد الأصنام يوم القيامة واصفا لصنمه الذى اتخذه مولى و عشيرا، الصنم الذى ضره أقرب من نفعه مولى سوء و عشيرى سوء أقسم لبئس المولى و لبئس العشيرى.

و إنما يعد ضره أقرب من نفعه لما يشاهد يوم القيامة ما تستتبعه عبادته له من العذاب الخالد و الهلاك المؤبد.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ الخ؛ لما ذكر الأصناف الثلاثة من الكفار و هم الأئمة المتبوعون المجادلون فى الله بغير علم و المقلده التابعون لكل شيطان مرید المجادلون كأئمتهم و المذبذبون العابدون لله على حرف، و وصفهم بالضلال و الخسران قابلهم بهذا الصنف من الناس و هم الذين آمنوا و عملوا الصالحات و وصفهم بكريم المثنوى و حسن المنقلب و أن الله يريد بهم ذلك.

و ذكر هؤلاء الأصناف كالتوطئه لما سيدكر من القضاء بينهم و بيان حالهم تفصيلا.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْخ؛ المراد بالذين آمنوا بقرينه المقابله هم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم و كتابهم القرآن.

والذين هادوا هم المؤمنون بموسى و من قبله من الرسل الواقفون فيه و كتابهم التوراه و قد أحرقتها بخت نصر ملك بابل حينما استوى عليهم فى أوساط القرن السابع قبل المسيح فافتقدوها برهه ثم جدد كتابتها لهم عزراء الكاهن فى أوائل القرن السادس قبل المسيح حينما فتح كوروش ملك إيران بابل و تخلص بنو إسرائيل من الإساره و رجعوا الى الأرض المقدسه.

و الصابئون ليس المراد بهم عبده الكواكب من الوثنيه بدليل ما فى الآيه من المقابله بينهم و بين الذين أشركوا بل هم-على ما قيل- قوم متوسطون بين اليهوديه و المجوسيه و لهم كتاب ينسبونه الى يحيى بن زكريا النبى و يسمى الواحد منهم اليوم عند العامه «صبى» و قد تقدم لهم ذكر فى ذيل قوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ (البقره ٦٢).

و النصارى هم المؤمنون بالمسيح عيسى بن مريم عليه السّلام و من قبله من الأنبياء و كتبهم المقدسه الأناجيل الأربعة لوقا و مرقس و متى و يوحنا و كتب العهد القديم على ما اعتبرته و قدسته الكنيسه لكن القرآن يذكر أن كتابهم الإنجيل النازل على عيسى عليه السّلام.

و المجوس المعروف أنهم المؤمنون بزرتشت و كتبهم المقدس «أوستا» غير أن تاريخ حياته و زمان ظهوره مبهم جدا كالمنقطع خبره و قد افتقدوا الكتاب باستيلاء اسكندر على إيران ثم جددت كتابته فى زمن ملوك ساسان فأشكل بذلك الحصول على حاق مذهبهم؛ و المسلم أنهم يثبتون لتدبير العالم مبدأين مبدأ الخير و مبدأ الشر-يزدان و أهريمن أو النور و الظلمه- و يقدسون الملائكه و يتقربون اليهم من غير أن يتخذوا لهم أصناما كالوثنيه، و يقدسون البسائط العنصريه و خاصه النار و كانت لهم بيوت نيران بايران و الصين و الهند و غيرها و ينهون الجميع الى «اهورا مزدا» موجد الكل.

و الذين أشركوا هم الوثنيه عبده الأصنام، و أصول مذاهبهم ثلاثه: الوثنيه الصابئه، و البرهمانيه، و البوذيه، و قد كان هناك أقوام آخرون يعبدون من الأصنام ما شاءوا كما شاءوا من غير أن يبنوه على أصل منظم كعرب الحجاز و طوائف فى أطراف المعموره و قد تقدم تفصيل القول فيهم فى الجزء العاشر من الكتاب.

□
و قوله: إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَراد به فصل القضاء فيما اختلف فيه أصحاب هذه المذاهب و اختصموا فيفصل المحق منهم و يتميز من المبطل انفصالا و تميزا لا يستره ساتر و لا يحجبه حاجب.

و تكرار إن فى الآيه للتأكيد دعا الى ذلك الفصل بين «إِنَّ» فى صدر الآيه و بين خبرها و نظيره ما فى قوله: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهِدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (النحل ١١٠)، و قوله: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (النحل ١١٩).

وقوله: إِنَّ اللَّهَ عَلِيٌّ كُلُّ شَيْءٍ شَهِيدٌ تَعْلِيلٌ لِلْفَصْلِ أَنَّهُ فَصَلَ بِالْحَقِّ.

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الظاهر أن الخطاب لكل من يرى ولا يصلح لأن يخاطب، والمراد بالرؤية العلم، ويمكن أن يختص بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم ويكون المراد بالرؤية القلبية كما قال فيه: مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتِمَارُونَهُ عَلِيٌّ مَا يَرَى (النجم ١٢).

و تعميم السجده لمثل الشمس والقمر والنجوم والجبال من غير أولى العقل دليل على أن المراد بها السجده لتكوينيه وهى التذلل والصغار قبال عزته وكبريائه تعالى وتحت قهره وسلطنته، ولازمه أن يكون «مَنْ فِي الْأَرْضِ» شاملا لنوع الإنسان من مؤمن وكافر إذ لا استثناء فى السجده التكوينية والتذلل الوجودى.

و عدم ذكر نفس السماوات والأرض فى جملة الساجدين مع شمول الحكم لهما فى الواقع يعطى أن معنى الكلام: أن المخلوقات العلوية والسفلية من ذى عقل وغير ذى عقل ساجده لله متذلل فى وجودها تجاه عزته وكبريائه، ولا تزال تسجد له تعالى سجودا تكوينيا اضطراريا.

وقوله: وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عَظِفَ عَلِيٌّ «مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ» الخ؛ أى ويسجد له كثير من الناس، وإسناد السجود الى كثير من الناس بعد شموله فى الجملة السابقة لجميعهم دليل على أن المراد بهذا السجود نوع آخر من السجود غير السابق وإن كانا مشتركين فى أصل معنى التذلل، وهذا النوع هو السجود التشريعى الاختيارى بالخروج على الأرض تمثيلا للسجود والتذلل التكوينى الاضطرارى وإظهارا لمعنى العبودية.

وقوله: وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ الْمَقَابَلَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَابِقِهِ يعطى أن معناه وكثير منهم يأبى عن السجود، وقد وضع موضعه ما هو أثره اللازم المترتب عليه وهو ثبوت العذاب على من استكبر على الله وأبى أن يخضع له تعالى، وإنما وضع ثبوت العذاب موضع الإباء عن

السجده للدلاله على أنه هو عملهم يرد اليهم، و ليكون تمهيدا لقوله تلوا «وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ» الدال على أن ثبوت العذاب لهم إثر إبتائهم عن السجود هوان و خزي يتصل بهم ليس بعده كرامه و خير.

فإبأؤهم عن السجود يستتبع بمشيه الله تعالى ثبوت العذاب لهم و هو إهانته ليس بعده إكرام أبدا إذ الخير كله بيد الله كما قال: بِيَدِكَ الْخَيْرُ (آل عمران ٢٦) فإذا منعه أحدا لم يكن هناك من يعطيه غيره.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ كناية عن عموم قدره و تعليل لما تقدمه من حديث إثباته العذاب للمستكبرين عن السجود له و إهانته إهانته لا إكرام بعده.

فالمعنى -و الله أعلم- أن الله يميز يوم القيامة بين المختلفين فإنك تعلم أن الموجودات العلوية و السفليه يخضعون و يتذللون له تكويننا لكن الناس بين من يظهر في مقام العبودية الخضوع و التذلل له و بين من يستكبر عن ذلك و هؤلاء هم الذين حق عليهم العذاب و أهانهم الله إهانته لا إكرام بعده و هو قادر على ما يشاء فعال لما يريد. و من هنا يظهر أن لآييه اتصالا بما قبلها.

قوله تعالى: هَذَانِ خَصِمَانِ اِخْتَصِمَا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ شِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُمْسِكُونَ بِرُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «هَذَانِ» الى القبيلين الذين دل عليهما قوله سابقا: «إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» و قوله بعده: «و كثير من الناس و كثير حق عليهم العذاب».

و يعلم من حضر المختلفين على كثره أديانهم و مذاهبهم في خصمين اثنين أنهم جميعا منقسمون الى محق و مبطل إذ لو لا الحق و الباطل لم ينحصر الملل و النحل على تشتها في اثنين البته، و المحق و المبطل هما المؤمن بالحق و الكافر به فهذه الطوائف على تشتها أقوالهم ينحسرون في خصمين اثنين و على انحصارهم في خصمين اثنين لهم أقوال مختلفه فوق

اثنين فما أحسن تعبيره بقوله: «خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا» حيث لم يقل: خصوم اختصموا و لم يقل:

خصمان اختصما.

وقد جعل اختصامهم فى ربهم أى أنهم اختلفوا فى وصف ربوبيته تعالى فإلى وصف الربوبية يرجع اختلافات المذاهب بالغه ما بلغت فهم بين من يصف ربه بما يستحقه من الأسماء والصفات وما يليق به من الأفعال فيؤمن بما وصف و هو الحق و يعمل على ما يقتضيه وصفه و هو العمل الصالح فهو المؤمن العامل بالصالحات، و من لا يصفه بما يستحقه من الأسماء والصفات كمن يثبت له شريكا أو ولدا فينفى وحدانيته أو يسند الصنع والإيجاد الى الطبيعة أو الدهر أو ينكر النبوه أو رساله بعض الرسل أو ضروريا من ضروريات الدين الحق فيكفر بالحق و يستره و هو الكافر فالمؤمن بربه و الكافر بالمعنى الذى ذكرهما الخصمان.

ثم شرع فى جزاء الخصمين و بين عاقبه أمر كل منهما بعد فصل القضاء و قدم الذين كفروا فقال: «فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ^{لِيَابٌ} مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ» أى الماء الحار المغلى.

قوله تعالى: يُصْهِرُ بِهِ ^{مَا} فِي بَطُونِهِمْ وَ الْجُلُودُ الصَّهْرُ إِذْ أَبَهَ أَى يذوب و ينضج بذاك الحميم ما فى بطونهم من الأمعاء و الجلود.

قوله تعالى: وَ لَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ المقامع جمع مقمعه و هى المدقه و العمود.

قوله تعالى: كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ضمير «مِنْهَا» للنار و «مِنْ غَمٍّ» بيان له أو من بمعنى السببيه و الحريق بمعنى المحرق كالأليم بمعنى المؤلم.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الْأَسَاوِرَ عَلَى مَا قِيلَ - جمع أسوره و هى جمع سوار و هو على ما ذكره الراغب معاب «دستواره» و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: وَ هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَ هُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ

ص: ٣١١

الطيب من القول ما لا - خباثه فيه و خبيث القول باطله على أقسامه، وقد جمع القول الطيب كله قوله تعالى إخبارا عنهم: دَعَاَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (يونس ١٠) فهدايتهم الى الطيب من القول تيسيره لهم، و هدايتهم الى صراط الحميد و الحميد من أسمائه تعالى أن لا يصدر عنهم إلا محمود الفعل كما لا يصدر عنهم إلا طيب القول.

و بين هذه الآيه و قوله: «كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ» مقابله ظاهره (١).

[سوره الحج (٢٢): الآيات ٢٥ الى ٣٧]

إشارة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَ الْبَادِ وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢٥) وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقَائِمِينَ وَ الرُّكْعِ السُّجُودِ (٢٦) وَ أَدِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَ يُذَكِّرُوا إِسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقْتَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَ اطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَ لِيُطَوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذَلِكَ وَ مَنْ يُعْظَمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ أُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَلِكَ وَ مَنْ يُعْظَمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيُذَكَّرُوا إِسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقْتَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَ الْمَقِيمِي الصَّلَاةِ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥) وَ الْبَيْدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا إِسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَ اطْعَمُوا الْقَانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاكُمْ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَ لَا دِمَاؤُهَا وَ لَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)

ص: ٣١٢

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصِيدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَخًّا وَالصَّدَقَاتِ الْمَنَعِ، وَ «سَوَاءً» مصدر بمعنى الفاعل، والعكوف في المكان الإقامه فيه، والبادى من البدو و هو الظهور، والمراد به -كما قيل- الطارئ أى الذى يقصده من خارج فيدخله، والإلحاد الميل الى خلاف الاستقامه و أصله إلحاد حافر الدابه.

و المراد بالذين كفروا مشركوا مكه الذين كفروا بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ فى أول البعثه قبل الهجره و كانوا يمنعون الناس عن الإسلام و هو سبيل الله و المؤمنین عن دخول المسجد الحرام لطواف الكعبه و إقامه الصلاه و سائر المناسك فقوله: «يَصِيدُونَ» للاستمرار و لا ضمير فى عطفه على الفعل الماضى فى قوله: «الَّذِينَ كَفَرُوا» و المعنى الذين كفروا قبل و يستمرون على منع الناس عن سبيل الله و المؤمنین عن المسجد الحرام.

و بذلك يظهر أن قوله: «وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» عطف على «سَبِيلِ اللَّهِ» و المراد بصددهم منعهم المؤمنین عن أداء العبادات و المناسك فيه و كان من لوازمه منع القاصدين للبيت من خارج مكه من دخولها.

و به يتبين أن المراد بقوله: «الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ» -و هو وصف المسجد الحرام- جعله لعباده الناس لا تمليك رقبته لهم فالناس يملكون أن يبعدوا الله فيه ليس لأحد أن يمنع أحدا من ذلك ففيه إشارة الى أن منعهم و صددهم عن المسجد الحرام تعد منهم الى حق الناس و إلحاد بظلم كما أن إضافة السبيل الى الله تعد منهم الى حق الله تعالى.

و يؤيد ذلك أيضا تعقيبه بقوله: «سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ» أى المقيم فيه و الخارج منه مساويان فى أن لهما حق العباده فيه لله، و المراد بالإقامه فيه و فى الخارج منه إما الإقامه بمكه

و فى الخارج منها على طريق المجاز العقلى أو ملازمه المسجد للعباده و الطرو عليه لها.

و قوله: وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدِقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ بيان لجزاء من ظلم الناس فى هذا الحق المشروع لهم فى المسجد و لازمه تحريم صد الناس عن دخوله للعباده فيه و مفعول «يُرِدْ» محذوف للدلاله على العموم، و الباء فى «بِالْحَادِ» للملابسه و فى «بِظُلْمٍ» للسببيه و الجملة تدل على خبر قوله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» فى صدر الآيه.

و المعنى الذين كفروا و لا يزالون يمنعون الناس عن سبيل الله و هو دين الإسلام و يمنعون المؤمنين عن المسجد الحرام الذى جعلناه معبدا للناس يستوى فيه العاكف فيه و البادى نذيقهم من عذاب أليم لأنهم يريدون الناس فيه بالحاد بظلم و من يرد الناس فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم.

قوله تعالى: وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَ طَهَّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقَائِمِينَ وَ الرَّكْعِ السُّجُودِ بوء له مكانا كذا أى جعله مباءه و مرجعا له يرجع اليه و يقصده، و المكان ما يستقر عليه الشىء فمكان البيت القطعه من الأرض التى بنى فيها، و المراد بالقائمين على ما يعطيه السياق هم الناصبون أنفسهم للعباده و الصلاه. و الركع جمع راع كسجد جمع ساجد و السجود جمع ساجد كالركوع جمع راع.

و قوله: وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ الظرف فيه متعلق بمقدر أى و اذكر وقت كذا و فيه تذكير لقصه جعل البيت معبدا للناس ليتضح به أن صد المؤمنين عن المسجد الحرام ليس إلا إحادا بظلم.

و تبوئته تعالى مكان البيت لإبراهيم هى جعل مكانه مباءه و مرجعا لعباده لا لأن يتخذه بيت سكنى يسكن فيه، و يلوح اليه قوله بعد: «ظهر بيتى» بإضافه البيت الى نفسه، و لا ريب أن هذا الجعل كان و حيا لإبراهيم فقوله: «بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ» فى معنى قولنا: أوحينا الى إبراهيم أن اتخذ هذا المكان مباءه و مرجعا لعبادتي و إن شئت فقل: أوحينا اليه أن اقصد

هذا المكان لعبادتي، وعباره أخرى أن اعبدني في هذا المكان.

و بذلك يتضح أنّ «أَنْ» في قوله: «أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً» مفسره تفسر الوحي السابق باعتباره أنه قول من غير حاجه الى تقدير أوحينا أو قلنا و نحوه.

و يتضح أيضا أن قوله: «أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً» ليس المراد به-و هو واقع في هذا السياق- النهي عن الشرك مطلقا و إن كان منها عنه مطلقا بل المنهى عنه فيه هو الشرك في العباده التي يأتي بها حينما يقصد البيت للعباده و بعباره واضحه الشرك فيما يأتي به من أعمال الحج كالتلبيه للأوثان و الإهلال لها و نحوهما.

و كذا قوله: وَ طَهَّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَ الْقَائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ وَ التَّطَهِيرِ إِزَالَهُ الْأَقْدَارِ وَ الْأَدْنَسِ عَنِ الشَّيْءِ ليعود الى ما يقتضيه طبعه الأولى، و قد أضاف البيت الى نفسه إذ قال: «بَيْتِي» أي بيتا يختص بعبادتي، و تطهير المعبد بما أنه معبد تنزيهه من الأعمال الدنسه و الأرجاس التي تفسد العباده و ليست إلا الشرك و مظاهره.

فتطهير بيته إما تنزيهه من الأرجاس المعنويه خاصه بأن يشرع إبراهيم عليه السّلام للناس و يعلمهم طريقا من العباده لا يداخلها قذاره شرك و لا- يدنسها دنسه كما امر لنفسه بذلك، و إما إزاله مطلق النجاسات عن البيت أعم من الصوريه و المعنويه لكن الذي يمس سياق الآيه منها هو الرجس المعنوى فمحصل تطهير المعبد عن الأرجاس المعنويه و تنزيهه عنها للعباد الذين يقصدونه بالعباده وضع عباده فيه خالصه لوجه الله لا يشوبها شائب شرك يعبدون الله سبحانه بها و لا يشركون به شيئا.

فالمعنى بناء على ما يهدى اليه السياق و اذكر إذ أوحينا الى إبراهيم أن اعبدني في بيتي هذا بأخذه مباءه و مرجعا لعبادتي و لا تشرك بي شيئا في عبادتي و سن لعبادي القاصدين بيتي من الطائفين و القائمين و الركع السجود عباده في بيتي خالصه من الشرك.

قوله تعالى: وَ أَدِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ

يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ التَّائِدِينَ: الإعلام برفع الصوت و لذا فسّر بالنداء، و الحج القصد سمي به العمل الخاص الذي شرعه أولاً إبراهيم عليه السّلام و جرت عليه شريعته محمد صلى الله عليه و آله و سلم لما فيه من قصد البيت الحرام، و رجال جمع راجل خلاف الراكب، و الضامر المهزول الذي أضمره السير، و الفج العميق - على ما قيل - الطريق البعيد.

و قوله: وَ أَدْنَىٰ فِي الدَّاسِ بِالْحَجِّ أَي نَادِ النَّاسِ بِقِصْدِ الْبَيْتِ أَوْ بِعَمَلِ الْحَجِّ وَ الْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى قَوْلِهِ: «لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا» وَ الْمَخَاطَبُ بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مَا قِيلَ: إِنَّ الْمَخَاطَبَ بَيْنَنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بَعِيدٌ مِنَ السِّيَاقِ.

و قوله: يَأْتُوكَ رِجَالًا السَّخَّ؛ جَوَابُ الْأَمْرِ أَي أَدْنَىٰ فِيهِمْ وَ إِنْ تَوَذَّنَ فِيهِمْ يَأْتُوكَ رَاجِلِينَ وَ عَلَى كُلِّ بَعِيرٍ مَهْزُولٌ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ بَعِيدٍ، وَ لَفْظُهُ «كُلٌّ» تَفِيدُ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَوَارِدِ مَعْنَى الْكَثْرَةِ دُونَ الْاسْتِغْرَاقِ.

قوله تعالى: لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ السَّخَّ؛ اللام للتعليل أو الغايه و الجار و المجرور متعلق بقوله: «يَأْتُوكَ» و المعنى يأتوك لشهادته منافع لهم أو يأتوك فيشهدوا منافع لهم و قد أطلقت المنافع لهم و لم تنقيد بالدينيوه أو الاخرويه.

و قوله: وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَرَّةٍ رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ قَالَ الرَّاعِبُ: وَ الْبَهِيمَةُ مَا لَا نَطْقُ لَهُ وَ ذَلِكَ لِمَا فِي صَوْتِهِ مِنَ الْإِبْهَامِ لَكِنْ خَصَّ فِي التَّعَارُفِ بِمَا عَدَا السَّبَاعِ وَ الطَّيْرِ فَقَالَ تَعَالَى: «أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ». انتهى.

و قال: وَ النِّعْمُ مَخْتَصٌّ بِالْإِبِلِ وَ جَمَعَهُ أَنْعَامٌ وَ تَسْمِيَتُهُ بِذَلِكَ لِكَوْنِ الْإِبِلِ عِنْدَهُمْ أَكْثَرُ نِعْمَةٍ، لَكِنْ الْأَنْعَامُ تَقَالُ لِلْإِبِلِ وَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ، وَ لَا يُقَالُ لَهَا: أَنْعَامٌ حَتَّى تَكُونَ فِي جَمَلَتِهَا الْإِبِلُ. انتهى.

فالمراد ببهيمه الأنعام الأنواع الثلاثة: الإبل و البقر و الغنم من معز أو ضأن و الإضافة بيانيه.

و الجملة أعنى قوله: «وَ يَذْكُرُوا» الخ؛ معطوف على قوله: «لِيَشْهَدُوا» أى و ليذكروا اسم الله فى أيام معلومات أى فى أيام التشريق على ما فسرها أئمة أهل البيت عليهم السلام و هى يوم الأضحى عاشر ذى الحجة و ثلاثه أيام بعده.

و ظاهر قوله: «عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ» أنه متعلق بقوله: «يَذْكُرُوا» و قوله: «مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ» بيان للموصول و المراد ذكرهم اسم الله على البهيمه-الاضحيه-عند ذبحها أو نحرها على خلاف ما كان المشركون يهلونها لأصنامهم.

و قوله: «فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ» البائس من البؤس و هو شدة الضر و الحاجة، و الذى اشتمل عليه الكلام حكم ترخيصى إلزامى.

قوله تعالى: ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لِيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ وَ لِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ التفت شعث البدن، و قضاء التفت إزالة ما طرأ بالإحرام من الشعث بتقليم الأظفار و أخذ الشعر و نحو ذلك و هو كناية عن الخروج من الإحرام.

و المراد بقوله: «وَ لِيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ» إتمام ما لزمهم بنذر أو نحوه، و بقوله: «وَ لِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» طواف النساء على ما تفسير أئمة أهل البيت عليهم السلام فإن الخروج من الإحرام يحلل له كل ما حرم به إلا النساء فتحل بطواف النساء و هو آخر العمل.

و البيت العتيق هو الكعبه المشرفه سميت به لقدمه فإنه أول بيت بنى لعباده الله كما قال تعالى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَ هُدًى لِّلْعَالَمِينَ (آل عمران ٩٦/)، و قد مضى على هذا البيت اليوم زهاء أربعة آلاف سنه و هو معمور و كان له يوم نزول الآيات أكثر من ألفين و خمسمائه سنه.

قوله تعالى: ذَلِكُمْ وَ مَنْ يُعْظَمُ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِلَىٰ آخِرِ آيَاتِهِ؛ الحرمة مما لا يجوز انتهاكه و وجب رعايته، و الأوثان جمع وثن و هو الصنم، و الزور الميل عن الحق و لذا يسمى الكذب و قول الباطل زورا.

وقوله: ذَلِكَ أَى الأمر ذلك أَى الذى شرعناه لإبراهيم عليه السّلام و من بعده من نسك الحج هو ذلك الذى ذكرناه و أشرنا اليه من الإحرام و الطواف و الصلاه و التضحية بالإخلاص لله و التجنب عن الشرك.

□
و قوله: وَمَنْ يُعْظَمَ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ نَدب الى تعظيم حرّمات الله و هى الامور التى نهى عنها و ضرب دونها حدودا منع عن تعديها و اقرارها ما وراءها و تعظيمها الكف عن التجاوز إليها.

□
و الذى يعطيه السياق أن هذه الجملة توطئه و تمهيد لما بعدها من قوله: «و أُحِلَّتْ لَكُمْ الأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ» فإن انضمام هذه الجملة الى الجملة قبلها يفيد أن الأنعام-على كونها مما رزقهم الله و قد أحلها لهم-فيها حرمة إلهيه و هى التى يدل عليها الاستثناء-إلا ما يتلى عليكم-.

□
و المراد بقوله: «مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ» استمرار التلاوه، فإن محرّمات الأكل نزلت فى سورة الأنعام و هى مكيه و فى سورة النحل و هى نازله فى آخر عهده صلّى الله عليه و آله و سلم بمكه و أول عهده بالمدينه، و فى سورة البقره و قد نزلت فى أوائل الهجره بعد مضى سته أشهر منها-على ما روى-و لا موجب لجعل «يُتْلَى» للاستقبال و أخذه إشاره الى آيه سورة المائده كما فعلوه.

و الآيات المتضمنه لمحرّمات الأكل و إن تضمنت منها عدّه امور كالميته و الدم و لحم الخنزير و ما أهلّ به لغير الله إلا أن العناية فى الآيه بشهاده سياق ما قبلها و ما بعدها بخصوص ما أهلّ به لغير الله فإن المشركين كانوا يتقربون فى حجهم-و هو السنّه الوحيدة الباقية بينهم من مله إبراهيم-بالأصنام المنصوبه على الكعبه و على الصفا و على المروه و بمنى و يهلّون بضحاياهم لها فالتجنب منها و من الإهلال بذكر أسمائها هو الغرض المعنى به من الآيه و إن كان أكل الميته و الدم و لحم الخنزير أيضا من جملة حرّمات الله.

□
و يؤيد ذلك أيضا تعقيب الكلام بقوله: «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ

الزُّورِ» فَإِنْ اجْتَنَابَ الْأَوْثَانَ وَاجْتَنَابَ قَوْلَ الزُّورِ وَإِنْ كَانَ مِنْ تَعْظِيمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ وَ لِذَلِكَ تَفَرَّعَ «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ» عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: «وَمَنْ يُعْظَمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ» لَكِنْ تَخْصِيصُ هَاتَيْنِ الْحُرْمَتَيْنِ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْحُرْمَاتِ فِي سِيَاقِ آيَاتِ الْحَجِّ بِالذِّكْرِ لَيْسَ إِلَّا لِكُونِهِمَا مَبْتَلَىٰ بِهِمَا فِي الْحَجِّ يَوْمئِذٍ وَ إِصْرَارِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى التَّقَرُّبِ مِنَ الْأَصْنَامِ هُنَاكَ وَ إِهْلَالِ الضَّحَايَا بِاسْمِهَا.

وَ بِذَلِكَ يَظْهَرُ أَنَّ قَوْلَهُ: «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ» نَهَىٰ عَمَّا عَنِ التَّقَرُّبِ إِلَى الْأَصْنَامِ وَ قَوْلِ الْبَاطِلِ أُوْرِدَ لِعَرَضِ التَّقَرُّبِ إِلَى الْأَصْنَامِ فِي عَمَلِ الْحَجِّ كَمَا كَانَتْ عَادَةُ الْمُشْرِكِينَ جَارِيَةً عَلَيْهِ، وَ عَنِ التَّسْمِيَةِ بِاسْمِ الْأَصْنَامِ عَلَى الذَّبَائِحِ مِنَ الضَّحَايَا، وَ عَلَى ذَلِكَ يَبْتَنِي التَّفْرِيعُ بِالْفَاءِ.

وَ فِي تَعْلِيْقِ حُكْمِ الْاجْتِنَابِ أَوْلَا- بِالرِّجْسِ ثُمَّ بَيَّانُهُ بِقَوْلِهِ: «مِنَ الْأَوْثَانِ» إِشْعَارًا بِالْعَلِيَّةِ كَأَنَّهُ قِيلَ: اجْتَنِبُوا الْأَوْثَانَ لِأَنَّهَا رِجْسٌ، وَ فِي تَعْلِيْقِهِ بِنَفْسِ الْأَوْثَانِ دُونَ عِبَادَتِهَا أَوْ التَّقَرُّبِ أَوْ التَّوَجُّهِ إِلَيْهَا أَوْ مَسِّهَا وَ نَحْوِ ذَلِكَ- مَعَ أَنَّ الْاجْتِنَابَ إِنَّمَا يَتَعَلَّقُ عَلَى الْحَقِيقَةِ بِالْأَعْمَالِ دُونَ الْأَعْيَانِ- مَبَالِغُهُ ظَاهِرٌ.

وَ قَدْ تَبَيَّنَ بِمَا مَرَّ أَنَّ «مَنْ» فِي قَوْلِهِ: «مِنَ الْأَوْثَانِ» بَيَّانُهُ، وَ ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهَا ابْتِدَائِيَّةٌ، وَ الْمَعْنَى: اجْتَنِبُوا الرِّجْسَ الْكَائِنَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَ هُوَ عِبَادَتُهَا، وَ ذَكَرَ آخَرُونَ أَنَّهَا تَبْعِيضِيَّةٌ، وَ الْمَعْنَى: اجْتَنِبُوا الرِّجْسَ الَّذِي هُوَ بَعْضُ جِهَاتِ الْأَوْثَانِ وَ هُوَ عِبَادَتُهَا، وَ فِي الْوَجْهَيْنِ مِنَ التَّكْلِيفِ وَ إِخْرَاجِ مَعْنَى الْكَلَامِ عَنِ اسْتِقَامَتِهِ مَا لَا يَخْفَىٰ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ الْخ؛ الْحُنْفَاءُ جَمْعُ حَنِيفٍ وَ هُوَ الْمَائِلُ مِنَ الْأَطْرَافِ إِلَى حَاقِ الْوَسْطِ. وَ كُونُهُمْ حُنْفَاءَ لِلَّهِ مِيلُهُمْ عَنِ الْأَغْيَارِ وَ هِيَ الْآلِهَةُ مِنْ دُونَ اللَّهِ إِلَيْهِ فَيَتَّحِدُ مَعَ قَوْلِهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ مَعْنَى.

و هما أعنى قوله: «حُنْفَاءَ لِلَّهِ» وقوله: «غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ» حالان عن فاعل «فَاجْتَنِبُوا» أى اجتنبوا التقرب من الأوثان و الإهلال لها حال كونكم مائلين اليه ممن سواه غير مشركين به فى حجكم فقد كان المشركون يلبون فى الحج بقولهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه و ما ملك.

وقوله: وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أى تأخذه بسرعه، شبه المشرك فى شركه و سقوطه به من أعلى درجات الإنسانيه الى هاويه الضلال فيصيده الشيطان، بمن سقط من السماء فتأخذه الطير.

وقوله: أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ أى بعيد فى الغايه و هو معطوف على «فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ» تشبيه آخر من جهه البعد.

قوله تعالى: ذَلِكَ وَ مَنْ يُعْظَمَ شُعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ «ذَلِكَ» خبر لمبتدأ محذوف أى الأمر ذلك الذى قلنا، و الشعائر جمع شعيره و هى العلامه، و شعائر الله الأعلام التى نصبها الله تعالى لطاعته كما قال: إِنَّ الصِّفَا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شُعَائِرِ اللَّهِ، و قال: «وَ الْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شُعَائِرِ اللَّهِ» الآية.

و المراد بها البدن التى تساق هديا و تشعر أى يشق سنامها من الجانب الأيمن ليعلم أنها هدى على ما فى تفسير أئمه البيت عليهم السلام و يؤيده ظاهر قوله تلوا: «لَكُمْ فِيهَا مَذَاقٌ» الخ؛ و قوله: «وَ الْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا» الآية، و قيل: المراد بها جميع الأعلام المنصوبه للطاعه، و السياق لا يلائمه.

وقوله: فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ أى تعظيم الشعائر الإلهيه من التقوى، فالضمير لتعظيم الشعائر المفهوم من الكلام ثم كأنه حذف المضاف و أقيم المضاف اليه مقامه فارجع اليه الضمير.

و إضافه التقوى الى القلوب للإشاره الى أن حقيقه التقوى و هى التحرز و التجنب عن

سخطه تعالى و التورع عن محارمه أمر معنوى يرجع الى القلوب و هى النفوس و ليست هى جسد الأعمال التى هى حركات و سكنات فإنها مشتركة بين الطاعة و المعصية كالمس فى النكاح و الزنا، و إزهاق الروح فى القتل قصاصا أو ظلما و الصلاة المأتى بها قربه أو رياء و غير ذلك، و لا هى العناوين المنتزعه من الأفعال كالإحسان و الطاعة و نحوها.

قوله تعالى: لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ المحل بكسر الحاء اسم زمان بمعنى وقت حلول الأجل، و ضمير «فيها» للشعائر، و المعنى على تقديم كون المراد بالشعائر بدن الهدى أن لكم فى هذه الشعائر—و هى البدن—منافع من ركوب ظهرها و شر ألبانها عند الحاجة الى أجل مسمى هو وقت نحرها ثم محلها أى وقت حلول أجلها للنحر منته الى البيت العتيق أو بانتهائها اليه، و الجملة فى معنى قوله:

«هَذَا بَالِغُ الْكُعْبَةِ» هذا على تفسير أئمه أهل البيت عليهم السلام.

و أما على القول بكون المراد بالشعائر مناسك الحج فقول: المراد بالمنافع التجاره الى أجل مسمى ثم محل هذه المناسك و منتهاها الى البيت العتيق لأن آخر ما يأتى به من الأعمال الطواف بالبيت.

قوله تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ المنسك مصدر ميمى و اسم زمان و مكان، و ظاهر قوله:

«لِيذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ» الخ؛ أنه مصدر ميمى بمعنى العبادة و هى العبادة التى فيها ذبح و تقرب قربان.

و المعنى: و لكل أمة—من الأمم السالفه المؤمنه—جعلنا عباده من تقرب القرابين ليدكروا اسم الله على بهيمه الأنعام التى رزقهم الله أى لستم معشر أتباع إبراهيم أول أمة شرعت لهم التضحية و تقرب قربان فقد شرعنا لمن قبلكم ذلك.

و قوله: فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا أى إذ كان الله سبحانه هو الذى شرع لكم

و للامم قبلكم هذا الحكم فإلهكم و إله من قبلكم إله واحد فأسلموا و استسلموا له يا خلاص عملكم له و لا تتقربوا في قرايبكم الى غيره فالفاء في «فَالِهَكُمْ» لتفريع السبب على المسبب و في قوله: «فَلَهُ أَسْلَمُوا» لتفريع المسبب على السبب.

و قوله: وَ بَشَّرِ الْمُخْبِتِينَ فيه تلويح الى أن من أسلم لله في حجه مخلصا فهو من المخبتين، و قد فسره بقوله: «الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَ الْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» و انطباق الصفات المعدودة في الآية و هي الوجل و الصبر و إقامة الصلاة و الإنفاق، على من حج البيت مسلما لربه معلوم.

قوله تعالى: وَ الْيَدَيْنِ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ الى آخر الآية؛ البدن بالضم فالسكون جمع بدنه بفتحيتين و هي السمينه الضخمه من الإبل، و السياق أنها من الشعائر باعتبار جعلها هديا.

و قوله: فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ الصَّوِافِّ جمع صافه و معنى كونها صافه أن تكون قائمه قد صفت يداها و رجلاها و جمعت و قد ربطت يداها.

و قوله: فَإِذَا وَجِبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَ أَطْعَمُوا الْقَانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ الوجوب السقوط يقال: وجبت الشمس أى سقطت و غابت، و الجنوب جمع جنب، و المراد بوجوب جنوبها سقوطها على الأرض على جنوبها و هو كناية عن موتها، و الأمر فى قوله: «فَكُلُوا مِنْهَا» للاباحه و ارتفاع الحظر، و القانع هو الفقير الذى يقنع بما أعطيه سواء سأل أم لا، و المعتر هو الذى أتاك و قصدك من الفقراء، و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَ لَا دِمَائِهَا وَ لَكِنْ يَبَالُ التَّقْوَى مِنْكُمْ الى آخر الآية؛ بمنزله دفع الدخل كأن متوهما بسيط الفهم يتوهم أن لله سبحانه نفعا فى هذه الضحايا و لحومها و دمائها فاجيب ان الله سبحانه لن يناله شىء من لحومها و دمائها لتنزهه عن الجسميه و عن كل حاجه و إنما يناله التقوى نيلا معنويا فيقرب المتصفين به منه تعالى.

أو يتوهم أن الله سبحانه لما كان منزها عن الجسميه و عن كل نقص و حاجه و لا ينتفع بلحم أو دم فما معنى التضحيه بهذه الضحايا فاجيب بتقرير الكلام و أن الأمر كذلك لكن هذه التضحيه يصحبها صفه معنويه لمن يتقرب بها و هذه الصفه المعنويه من شأنها أن تنال الله سبحانه بمعنى أن تصعد اليه تعالى و تقرب صاحبها منه تقريبا لا يبقى معه بينه و بينه حجاب يحجبه عنه.

و قوله: كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ الظاهر أن المراد بالتكبير ذكره تعالى بالكبرياء و العظمه، فالهدايه هي هدايته الى طاعته و عبوديته و المعنى كذلك سخرها لكم ليكون تسخيرها وصله الى هدايتكم الى طاعته و التقرب اليه بتضحيتها فتذكروه بالكبرياء و العظمه على هذه الهدايه.

و قوله: وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ أى الذين يأتون بالأعمال الحسنه أو بالإحسان و هو الانفاق فى سبيل الله (١).

[سوره الحج (٢٢): الآيات ٣٨ الى ٥٧]

إشارة

إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْنَهُمْ ظَلَمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَ لَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ الدَّاسِ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١) وَ إِنَّ يَكْذِبُونَكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عَادٌ وَ ثَمُودٌ (٤٢) وَ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَ قَوْمِ لُوطٍ (٤٣) وَ أَصْحَابِ مَدْيَنَ وَ كَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيُّنَ مِنْ قَوْمِهِ أَهْلَكْنَاهُمْ وَ هِيَ ظَالِمَةٌ فِيهِمْ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهِمْ وَ بَرٌّ مُعْطَلَةٌ وَ قَصِيرٌ مَشِيدٌ (٤٥) أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُوا لَهُمْ قُلُوبًا يَعْقِلُونَ بِهِمْ أَوْ آذَانًا يَسْمَعُونَ بِهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) وَ يَسِيْرٌ يَجْعَلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ إِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَ كَأَيُّنَ مِنْ قَوْمِهِ أَمَلَيْتُ لَهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتَهَا وَ إِلَى الْمَصِيرِ (٤٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤) وَ لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيضَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٥٥) أَلَمْ لَكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥٧)

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ المدافعه مبالغه فى الدفع، والخَوَّان اسم مبالغه من الخيانه و كذا الكفور من الكفران و المراد بالذين آمنوا المؤمنون من الامة و إن انطبق بحسب المورد على المؤمنين فى ذلك الوقت لأن الآيات تشرع القتال و لا يختص حكمه بطائفه دون طائفه، و المورد لا يكون

و المراد بكل خوآن كفور المشركون، و إنما كانوا مكثرين فى الخيانه و الكفران لأن الله حملهم أمانه الدين الحق و جعلها وديعه عند فطرتهم لينالوا بحفظه و رعايته سعادته الدارين و عرفهم إياه من طريق رساله فخانو به بالجدد و الإنكار و غمرهم بنعمه الظاهره و الباطنه فكفروا بها و لم يشكروه بالعبوديه.

و فى الآيه تمهيد لما فى الآيه التاليه من الإذن فى القتال و فذكر تمهيدا أن الله يدافع عن الذين آمنوا و إنما يدفع عنهم المشركين لأن يحب هؤلاء و لا يحب أولئك لخياتهم و كفرهم فهو إنما يحب هؤلاء لأمانتهم و شكرهم فهو إنما يدافع عن دينه الذى عند المؤمنين.

فهو تعالى مولاهم و وليهم الذى يدفع عنهم أعداءه كما قال: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (سوره محمد ١١).

قوله تعالى: أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصِيرِهِمْ لَقَدِيرٌ ظاهر السياق أن المراد بقوله: «أُوذِنَ» إنشاء الإذن دون الاخبار عن إذن سابق و إنما هو إذن فى القتال كما يدل عليه قوله: «لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ» الخ؛ و لذا بدّل قوله: «الَّذِينَ آمَنُوا» من قوله: «الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ» ليدل على المأذون فيه.

و القراءه الدائره «يقاتلون» بفتح التاء مبني للمفعول أى الذين يقاتلهم المشركون لأنهم الذين أرادوا القتال و بدؤهم به، و الباء فى «بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا» للسببيه و فيه تعليل الإذن فى القتال أى أذن لهم فيه بسبب أنهم ظلموا، و أما ما هو الظلم فتفسيره قوله: «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ» الخ.

و فى عدم التصريح بفاعل «أُوذِنَ» تعظيم و تكبير و نظيره ما فى قوله: «وَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصِيرِهِمْ لَقَدِيرٌ» من ذكر القدره على النصر دون فعليته فإن فيه إشاره الى أنه مما لا يهتم به لأنه هين على من هو على كل شىء قدير.

و المعنى أذن-من جانب الله-للذين يقاتلهم المشركون و هم المؤمنون بسبب أنهم ظلموا -من جانب المشركين-و إن الله على نصرهم لقدير،و هو كناية عن النصر.

قوله تعالى: الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ إِلَىٰ آخِرِ آيَةٍ؛ بيان جهه كونهم مظلومين و هو أنهم أُخرجوا من ديارهم و قد أخرجهم المشركون من ديارهم بمكه بغير حق يجوز لهم إخراجهم.

و لم يخرجوهم بحمل و تسفير بل آذوهم و بالغوا في إيذائهم و شدوا بالتعذيب و التفتين حتى اضطروهم الى الهجره من مكه و التغرب عن الوطن و ترك الديار و الأموال فقوم الى الحبشه و آخرون الى المدينه بعد هجره النبي صلى الله عليه و آله و سلم،فإخراجهم إياهم إلجاؤهم الى الخروج.

و قوله: إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ استثناء منقطع معناه و لكن أُخرجوا بسبب أن يقولوا ربنا الله،و فيه إشاره الى أن المشركين انحرفوا في فهمهم و ألدوا عن الحق الى حيث جعلوا قول القائل ربنا الله و هو كلمه الحق يبيح لهم أن يخرجوه من داره.

و قوله: وَلَا دَفْعَ لِلِّهِ النَّاسَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا الصوامع جمع صومعه و هى بناء فى أعلاه حده كان يتخذ فى الجبال و البرارى و يسكنه الزهاد و المعتزلون من الناس للعباده، و البيع جمع بيعه بكسر الباء معبد اليهود و النصرارى،و الصلوات جمع صلاه و هى مصلى اليهود سمي بها تسميه للمحل باسم الحال كما أريد بها المسجد فى قوله تعالى: لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَ أَنْتُمْ سُكَارَىٰ -الى قوله- وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ .

و قوله: وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ قسم مع تأكيد بالغ على نصره تعالى من ينصره بالقتال ذبا عن الدين الالهى و لقد صدق الله وعده فنصر المسلمين فى حروبهم و مغازيهم فأيدهم على أعدائه و رفع ذكره ما كانوا ينصرونه.

و المعنى أقسم لينصرن الله من ينصره بالدفاع عن دينه إن الله لقوى لا يضعفه أحد و لا

يمنعه شيء عما أراد عزيز منيع الجانب لا يتعدى إلى ساحه عزته و لا يعادله شيء في سلطنته و ملكه.

و من يظهر من الآيه أنه كان في الشرائع السابقه حكم دفاعى فى الجمه و ان لم يبين كيفيته.

قوله تعالى: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ الخ؛ توصيف آخر للذين آمنوا المذكورين فى أول الآيات، و هو توصيف المجموع من حيث هو مجموع من غير نظر الى الأشخاص و المراد من تمكينهم فى الأرض إقذارهم على اختيار ما يريدونه من نحو الحياه من غير مانع يمنعهم أو مزاحم يزاحمهم.

يقول تعالى: إِنْ مِنْ صِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ إِنْ تَمَكَّنُوا فِي الْأَرْضِ وَ أَعْطُوا الْحَرِيَّةَ فِي اخْتِيَارِ مَا يَسْتَحِبُّونَهُ مِنْ نَحْوِ الْحَيَاةِ عَقَدُوا مَجْتَمَعًا صَالِحًا تَقَامُ فِيهِ الصَّلَاةُ وَ تُؤْتَى فِيهِ الزَّكَاةُ وَ يُؤْمَرُ فِيهِ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَى فِيهِ عَنِ الْمُنْكَرِ، و تخصيص الصلاه من بين الجهات العباديه و الزكاه من بين الجهات الماليه بالذكر لكون كل منهما عمده فى بابها.

و إذ كان الوصف للذين آمنوا المذكورين فى صدر الآيات و المراد به عقد مجتمع صالح و حكم الجهاد غير خاص بطائفه خاصه فالمراد بهم عامه المؤمنين يومئذ بل عامه المسلمين الى يوم القيامه و الخصيصه خصيصةهم بالطبع فمن طبع المسلم بما هو مسلم الصلاح و إن كان ربما غشيته الغواشى.

و ليس المراد بهم خصوص المهاجرين بأعيانهم سواء كانت الآيات مكيه أو مدنيه و إن كان المذكور من جهه المظلوميه هو إخراجهم من ديارهم و ذلك لمنافاته عموم الموصوف المذكور فى صدر الآيات و عموم حكم الجهاد لهم و لغيرهم قطعاً.

على أن المجتمع الصالح الذى عقد لأول مره فى المدينه ثم انبسط فشمّل عامه جزيره العرب فى عهد النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و هو أفضل مجتمع متكون فى تاريخ الاسلام تقام فيه الصلاه و تؤتى فيه

الزكاه و تؤمر فيه بالمعروف و تنهى فيه عن المنكر مشمول للآيه قطعاً و كان السبب الأول ثم العامل الغالب فيه الأنصار دون المهاجرين.

و لم يتفق فى تاريخ الاسلام للمهاجرين، خاصه أن يعقدوا و حدهم مجتمعاً من غير شركه من الأنصار فيقيموا الحق و يميظوا الباطل فيه اللهم إلا أن يقال: إن المراد بهم أشخاص الخلفاء الراشدين أو خصوص على عليه السلام على الخلاف بين أهل السنه و الشيعة، و فى ذلك إفساد معنى جميع الآيات.

على أن التاريخ يضبط من أعمال الصدر الأول و خاصه المهاجرين منهم أموراً لا يسعنا أن نسميها إحياء للحق و إيماته للباطل سواء قلنا بكونهم مجتهدين معذورين أم لا فليس المراد توصيف أشخاصهم بل المجموع من حيث هو مجموع.

□ □
و قوله: وَ لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ تأكيد لما تقدم من الوعد بالنصر و إظهار المؤمنين على أعداء الدين الظالمين لهم.

قوله تعالى: وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ -الى قوله- فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ فِيهِ تعزیه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أن تكذيب قومه له ليس ببدع فقد كذبت أمم قبلهم لأنبيائهم. و إنذار و تخويف للمكذبين بالإشاره الى ما انتهى اليه تكذيب من قبلهم من الامم و هو الهلاك بعذاب من الله تعالى.

و قد عدّ من تلك الامم قوم نوح و عاداً و هم قوم هود و ثمود و هم قوم صالح و قوم إبراهيم و قوم لوط و أصحاب مدين و هم قوم شعيب، و ذكر تكذيب موسى. قيل: و لم يقل: و قوم موسى لأن قومه بنو إسرائيل و كانوا آمنوا به، و إنما كذبه فرعون و قومه.

□ □
و قوله: فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ الإملاء الإمهال و تأخير الأجل، و النكير الإنكار، و المعنى فأمهلت الكافرين-الذين كذبوا رسلهم من هذه الامم- ثم أخذتهم و هو كناية عن العقاب فكيف كان إنكارى لهم فى تكذبيهم و كفرهم؟ و هو

كنايه عن بلوغ الإنكار و شده الأخذ.

قوله تعالى: فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَ بئْرٌ مُعَطَّلَةٌ وَ قَصْرٌ مَشِيدٌ قريه خاويه على عروشها أى ساقطه جدرانها على سقوفها فهى خربه، و البئر المعطله الخاليه من الواردين و المستقين و شاد القصر أى جصصه و الشيد بالكسر الجصّ.

و قوله: فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ظاهر السياق أنه بيان لقوله فى الآيه السابقه: «فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» و قوله: «وَ بئْرٌ مُعَطَّلَةٌ وَ قَصْرٌ مَشِيدٌ» عطف على قريه.

و المعنى: فكم من قريه أهلكتنا أهلها حال كونهم ظالمين فهى خربه ساقطه جدرانها على سقوفها، و كم من بئر معطله باد النازلون عليها فلا وارد لها و لا مستقى منها، و كم من قصر مجصص هلك سكانها لا يرى لهم أشباح و لا يسمع منهم حسيس، و أصحاب الآبار أهل البدو و أصحاب القصور أهل الحضر.

قوله تعالى: أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا الخ: حثّ و تحضيض على الاعتبار بهذه القرى الهالكه و الآثار المعطله و القصور المشيده التى تركتها تلك الامم البائده بالسير فى الأرض فإن السير فيها ربما بعث الإنسان الى أن يتفكر فى نفسه فى سبب هلاكهم و يستحضر الحجج فى ذلك فيتذكر أن الذى وقع بهم إنما وقع لشركهم بالله و إعراضهم عن آياته و استكبارهم على الحق بتكذيب الرسل فيكون له قلب يعقل به و يردعه عن الشرك و الكفر هذا إن وسعه أن يستقل بالتفكير.

و إن لم يسعه ذلك بعثه الاعتبار الى أن يصغى الى قول المشفق الناصح الذى لا يريد به إلا الخير و عظه الواعظ الذى يميز له ما ينفعه مما يضره و لا عظه ككتاب الله و لا ناصح كرسوله فيكون له أذن يسمع بها ما يهتدى به الى سعاده.

قوله تعالى: وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ إِنَّ يَوْمًا عِنْدَ

رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ كَانَ الْقَوْمَ يَكْذِبُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَخْبَرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَعَدَهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ فَكَانُوا يَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ اسْتَهْزَاءً بِهِ وَتَعْجِيزًا لَهُ قَائِلِينَ: مَتَى هَذَا الْوَعْدُ؟ فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: «وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ» فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْعَذَابِ عَذَابَ مُشْرِكِي مَكَّةَ فَالَّذِي وَعَدَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ هُوَ مَا ذَاقُوهُ يَوْمَ بَدْرٍ وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ مَا يَقْضَى بِهِ بَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ أُمَّتِهِ بِعَذَابٍ مُوَعَّدٍ لَمْ يَنْزَلْ بَعْدَ وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ:

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ (يونس ٤٧/٤٧) إلى آخر الآيات.

وقوله: «وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ حِكْمًا بِتَسَاوَى الْيَوْمِ الْوَاحِدِ وَالْأَلْفِ سَنَةٍ عِنْدَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فَلَا يَسْتَقِلُّ هَذَا وَلَا يَسْتَكْثُرُ ذَلِكَ حَتَّى يَتَأَثَّرَ مِنْ قِصْرِ الْيَوْمِ الْوَاحِدِ وَطُولِ الْأَلْفِ سَنَةٍ فَلَيْسَ يَخَافُ الْفُوتَ حَتَّى يَعْجَلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ هُوَ حَلِيمٌ ذُو أَنْهٍ يَمْهَلُهُمْ حَتَّى يَسْتَكْمِلُوا دَرَكَاتِ شِقَاؤِهِمْ ثُمَّ يَأْخُذُهُمْ فِيمَا قَدَّرَ لَهُمْ مِنْ أَجْلِ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ» وَلِذَا عَقَّبَ الْكَلَامَ بِقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ: «وَكَأَيِّنْ مِنْ قَوْمٍ أَمْلَيْتُ لَهُمْ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ».

وقوله «وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ» رَدَّ لاسْتَعْجَالِهِمْ بِالْعَذَابِ أَنَّ اللَّهَ يَسْتَوِي عِنْدَهُ قَلِيلُ الزَّمَانِ وَكَثِيرُهُ، كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ: «وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ» تَسْلِيهِ وَتَأْيِيدَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَرَدَّ لِتَكْذِيبِهِمْ لَهُ فِيمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مِنْ وَعْدِ اللَّهِ وَتَعْجِيزِهِمْ لَهُ وَاسْتَهْزَاءِهِمْ بِهِ.

قوله تعالى: «وَكَأَيِّنْ مِنْ قَوْمٍ أَمْلَيْتُ لَهُمْ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ الْآيَةَ» - كَمَا مَرَّ - مَتَمِّمَهُ لِقَوْلِهِ: «وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ» بِمَنْزِلِهِ الشَّاهِدِ عَلَى صِدْقِ الْمَدْعَى، وَالْمَعْنَى: قَلِيلُ الزَّمَانِ وَكَثِيرُهُ عِنْدَ رَبِّكَ سَوَاءٌ وَقَدْ أَمَلَى لِكَثِيرٍ مِنَ الْقَرَى الظَّالِمَةِ وَآمَهَلَهَا ثُمَّ أَخَذَهَا بَعْدَ مَهَلٍ.

وقوله: «وَإِلَى الْمَصِيرِ» بَيَانٌ لَوْجِهٍ عَدَمِ تَعْجِيلِهِ الْعَذَابَ لِأَنَّ مَا كَانَ مَصِيرَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَيْهِ فَلَا يَخَافُ الْفُوتَ حَتَّى يَأْخُذَ الظَّالِمِينَ بِعَجَلٍ.

قوله تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ -الى قوله- أَصْحَابُ الْجَحِيمِ أمر بإعلام الرساله بالإنذار و بيان ما للإيمان به و العمل الصالح من الأجر الجميل و هو المغفره بالإيمان و الرزق الكريم و هو الجنة بما فيها من النعيم،بالعمل الصالح،و ما للكفر و الجحود من التبعه السيئه و هى صحابه الجحيم من غير مفارقه.

و قوله: سَبَّحُوا فِي آيَاتِنَا مُعَازِينَ السَّعَى الإسراع فى المشى و هو كناية عن بذل الجهد فى أمر آيات الله لإبطالها و إطفاء نورها بمعاجزه الله،و التعبير بلفظ المتكلم مع الغير رجوع فى الحقيقه الى السابق بعد إفاء الالتفات فى الآيه السابقه أعنى قوله: «أَمَلَيْتُ لَهَا» الخ.

قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْتِيَّتِهِ السَّخَّ،التمنى تقدير الإنسان وجود ما يحبه سواء كان ممكنا أو ممتنعا كتمنى الفقير أن يكون غنيا و من لا ولد له أن يكون ذا ولد،و تمنى الإنسان أن يكون له بقاء لا فناء معه و أن يكون له جناحان يطير بهما،و يسمى صورته الخياليه التى يلتذ بها أميته، و الأصل فى معناه المنى بالفتح فالسكون بمعنى التقدير،و قيل:ربما جاء بمعنى القراءه و التلاوه يقال:تمنيت الكتاب أى قرأته.و الإلقاء فى الامنيه المداخله فيها بما يخرجها عن صرافتها و يفسد أمرها.

و معنى الآيه على أول المعنيين و هو كون التمنى هو تمنى القلب:و ما أرسلنا من قبلك من رسول و لا نبي إلا إذا تمنى و قدر بعض ما يتمناه من توافق الأسباب على تقدم دينه و إقبال الناس عليه و إيمانهم به ألقى الشيطان فى أميته و داخل فيها بوسوسه الناس و تهيج الظالمين و إغراء المفسدين فأفسد الأمر على ذلك الرسول أو النبي و أبطل سعيه فينسخ الله و يزيل ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته بإنجاح سعى الرسول أو النبي و إظهار الحق و الله عليم حكيم.

و المعنى:على ثانى المعنيين و هو كون التمنى بمعنى القراءه و التلاوه:و ما أرسلنا من قبلك من

رسول ولا نبي إلا إذا تلا وقرأ آيات الله ألقى الشيطان شبهها مضله على الناس بالوسوسة ليجادلوه بها وفسدوا على المؤمنين إيمانهم فيبطل الله ما يلقى الشيطان من الشبه و يذهب به بتوفيق النبي لردّه أو بإنزال ما يردّه.

و في الآيه دلالة واضحة على اختلاف معنى النبوه و الرساله لا بنحو العموم و الخصوص مطلقا كما اشتهر بينهم أن الرسول هو من بعث و أمر بالتبليغ و النبي من بعث سواء أمر بالتبليغ أم لا، إذ لو كان كذلك لكان من الواجب أن يراد بقوله في الآيه: «و لا نبي» غير الرسول أعني من لم يؤمر بالتبليغ، و ينافيه قوله: «و ما أرسلنا» .

و قد قدّمنا في مباحث النبوه في الجزء الثاني من الكتاب ما يدل من روايات أئمه أهل البيت عليهم السّلام أن الرسول هو من ينزل عليه الملك بالوحي فيراه و يكلمه و النبي هو من يرى المنام و يوحى اليه فيه، و قد استفدنا مضمون هذه الروايات من قوله تعالى: قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (الإسراء ٩٥/٩٥) في الجزء الثالث عشر من الكتاب.

و في قوله: فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ التّفات من التّكلم بالغير الى الغيبه، و الوجه فيه العناية بذكر لفظ الجلاله و إسناد النسخ و الإحكام الى من لا يقوم له شيء، و لذلك بعينه أعاد لفظ الجلاله ثانيا مع أنه من وضع الظاهر موضع المضمّر و منه أيضا إعادة لفظ الشيطان ثانيا دون ضميره ليشار الى أن الملقى هو الشيطان الذي لا يعبا به و بكيده في قبالة تعالى، و كان الظاهر أن يقال: فينسخ ما يلقى ثم يحكم آياته.

قوله تعالى: لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ الخ؛ مرض القلب عدم استقامه حاله في التعقل بأن لا يدعن بما من شأنه أن يدعن به من الحق و هو الشك و الارتياب، و قساوه القلب صلابته و غلظه مأخوذ من الحجر القاسى أى الصلب. و صلابته بطلان عواطفه الرقيقه المعينه في إدراك المعانى الحقه

كالخشوع و الرحمه و التواضع و المحبه فالقلب المريض سريع التصور للحق بطيء الاذعان به، و القلب القسى بطيئهما معا، و كلاهما سريع القبول للوساوس الشيطانيه.

و الإلقاءات الشيطانيه التى تفسد الامور على الحق و أهله و تبطل مساعى الرسول و الأنبياء دون أن تؤثر أثرها و إن كانت مستنده الى الشيطان نفسه لكنها كسائر الآثار لما كانت واقعه فى ملكه تعالى، و لا يقع أثر من مؤثر أو فعل من فاعل إلا بإذنه، و لا يقع شىء بإذنه إلا استند اليه استنادا ما بمقدار الإذن، و لا يستند اليه إلا ما فيه خير لا يخلو من مصلحه و غايه.

لذا ذكر سبحانه فى هذه الآيه أن لهذه الإلقاءات الشيطانيه مصلحه و هى أنها محنه يمتحن بها الناس عامه و الامتحان من النواميس الإلهيه العامه الجاريه فى العالم الإنسانى و يتوقف عليه تلبس السعيد بسعاده و الشقى بشقائه، و فتنه يفتتن بها الذين فى قلوبهم مرض و القاسيه قلوبهم خاصه فإن تلبس الأشقياء بكمال شقائهم من التريه الإلهيه المقصوده فى نظام الخلقه، قال تعالى: كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَ هَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (الإسراء ٢٠).

و هذا معنى قوله: «لِيَجْعَلَ مَا يُلقى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ» فاللام فى «لِيَجْعَلَ» للتعليل يعلل بها إلقاء الشيطان فى أمنيه الرسول و النبى أى يفعل الشيطان كذا ليفعل الله كذا و معناه أنه مسخر لله كذا و معناه أنه مسخر لله سبحانه لغرض امتحان العباد و فتنه أهل الشك و الجحود و غرورهم.

و قد تبين أن المراد بالفتنه الابتلاء و الامتحان الذى ينتج الغرور و الضلال و بالذين فى قلوبهم مرض أهل الشك من الكفار و بالقاسيه قلوبهم أهل الجحود و العناد.

و قوله: وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ الشقاق و المشاقه المباينه و المخالفه و توصيفه بالبعد توصيف له بحال موصوفه، و المعنى: و إن الظالمين-و هم أهل الجحود على ما

يعطيه السياق أوهم و أهل الشك جميعا-لفى مباينه و مخالفه بعيد صاحبها من الحق و أهله.

قوله تعالى: وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ الخ؛ المتبادر من السياق أنه عطف على قوله: «لِيَجْعَلَ» و تعليل لقوله: «فَيَسِيخُ اللَّهُ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ» و الضمير فى «أَنَّهُ» على هذا لما يتمناه الرسول و النبى المفهوم من قوله: «إِذَا تَمَنَّى» الخ؛ و لا دليل على إرجاعه الى القرآن.

و المعنى: فينسخ الله ما يلقيه الشيطان ثم يحكم آياته ليعلم الذين أوتوا العلم بسبب ذاك النسخ و الإحكام أن ما تمناه الرسول أو النبى هو الحق من ربك لبطلان ما يلقيه الشيطان فيؤمنوا به فتخبت أى تلين و تخشع له قلوبهم.

و يمكن أن يكون قوله: «وَ لِيَعْلَمَ» معطوفا على محذوف و مجموع المعطوف و المعطوف عليه تعليلا لما بينه فى الآيه السابقه من جعله تعالى هذا الإلقاء فتنه للذين فى قلوبهم مرض و القاسيه قلوبهم.

و المعنى: إنما بينا هذه الحقيقه لغايه كذا و كذا و ليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك، الخ؛ على حد قوله: وَ تِلْكَ الْآيَاتُ نُذُورٌ لِّهَا بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا (آل عمران / ١٤٠)، و هو كثير الورد فى القرآن.

و قوله: وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُمَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فى مقام التعليل لكون علم الذين أوتوا العلم غايه مترتبه على فعله تعالى فيفيد أنه تعالى إنما فعل ما فعل ليعلموا أن الأمر حق لأنه هاد يريد أن يهديهم فيهديهم بهذا التعليم الى صراط مستقيم.

قوله تعالى: وَ لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْخَبَرُ؛ الآيه - كما ترى - تخبر عن حرمان هؤلاء الذين كفروا من الإيمان مدى حياتهم فليس المراد بهم مطلق الكفار لقبول بعضهم الإيمان بعد الكفر فالمراد به عده من صناديد قريش الذين لم

يوفقوا للإيمان ما عاشوا كما فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (البقره٦/٦).

و عقم اليوم كونه بحيث لا يخلف يوما بعده و هو يوم الهلاك أو يوم القيامة، و المراد به فى الآيه على ما يعطيه سياق الآيه الثالثه يوم القيامة.

و المعنى و يستمر الذين كفروا فى شك من القرآن حتى يأتيهم يوم القيامة أو يأتيهم عذاب يوم القيامة و هو يوم يأتي بغته لا يمهلهم حتى يحتالوا له بشيء و لا يخلف بعده يوما حتى يقضى فيه ما فات قبله.

و إنما ردد بين يوم القيامة و بين عذابه لأنهم يعترفون عند مشاهدته كل منهما بالحق و يطيح عنهم الريب و المريبه قال تعالى: قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (يس٥٢/٥٢)، و قال: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَ رَبُّنَا (الأحقاف٣٤/٣٤).

و قد ظهر بما تقدم أن تقييد اليوم تاره بكونه بغته و تاره بالعقم للدلاله على كونه بحيث لا- ينفع معها حيله و لا يقع بعدها تدارك لما فات قبله.

قوله تعالى: الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ -الى قوله- عَذَابٌ مُّهِينٌ قد تقدم مرارا أن المراد بكون الملك يومئذ لله، ظهور كون الملك له تعالى لأن الملك له دائما و كذا ما ورد من نظائره من أوصاف يوم القيامة فى القرآن ككون الأمر يومئذ لله و كون القوه يومئذ لله و هكذا.

و لسنا نعى به أن المراد بالملك مثلا فى الآيه ظهور الملك مجازا بل نعى به أن الملك قسمان ملك حقيقى و ملك مجازى صورى، و للأشياء ملك مجازى صورى ملكها الله ذلك و له تعالى مع ذلك الملك الحق بحقيقه معناه حتى إذا كان يوم القيامة ارتفع كل ملك صورى عن الشيء المتلبس به و لم يبق من الملك إلا حقيقته و هو لله وحده فمن خاصه يوم القيامة أن الملك يومئذ

لله و على هذا القياس .

و قوله: يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ أَى و لا- حاكم غيره لأن الحكم من فروع الملك فإذا لم يكن يومئذ لأحد نصيب فى الملك لم يكن له نصيب فى الحكم.

و قوله: فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي حَيَاتِ النَّعِيمِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا - و هؤلاء المعاندون المستكبرون- فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ بيان لحكمه تعالى (١).

[سوره الحج (٢٢): الآيات ٥٨ الى ٦٦]

اشاره

وَ الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَبِيرٌ الرَّازِقِينَ (٥٨) لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذَلِكَ وَ مَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٦٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ أَلْبَابُ اللَّيْلِ فِيهِ النَّهَارِ وَ يُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ أَنْ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَ أَنْ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصَيَّرَ بِحِ الْآرْضِ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْآرْضِ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْآرْضِ وَ الْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ يُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْآرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥) وَ هُوَ الَّذِي أَخْلَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦)

ص: ٣٣٨

(١ - ١). الحج ٣٨-٥٧: بحث روائى فى اىذاء المشركين المسلمين؛ اذن القتال للمسلمين؛ النبى و الرسول.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيُزَوِّدَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسِينًا لَمَا ذَكَرَ إِخْرَاجَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ دِيَارِهِمْ ظَلَمًا عَقَبَهُ بِذِكْرِ مَا يُشِيهِمُ بِهِ عَلَى مَهَاجِرَتِهِمْ وَمَحْتَتِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَهُوَ وَعْدُ حَسَنِ بِرِزْقٍ حَسَنٍ.

و قد قيد الهجره بكونها في سبيل الله لأن المثوبه إنما تترتب على صالح العمل، و إنما يكون العمل صالحا عند الله بخلوص النيه فيه و كونه في سبيله لا في سبيل غيره من مال أو جاه أو غيرهما من المقاصد الدنيويه، و بمثل ذلك يتقيد قوله: «ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا» أى قتلوا في سبيل الله أو ماتوا و قد تغربوا في سبيل الله.

و قوله: وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ختم للآيه يعلل به ما ذكر فيها من الرزق الحسن و هو النعمه الاخرويه إذ موطنها بعد القتل و الموت، و في الآيه إطلاق الرزق على نعم الجنه كما في قوله: أَهْلِيَاءَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ (آل عمران ١٦٩).

قوله تعالى: لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ المدخل بضم

الميم و فتح الخاء اسم مكان من الإدخال، و احتمال كونه مصدرا ميميا لا يناسب السياق تلك المناسبة.

و توصيف هذا المدخل و هو الجنه بقوله: «يَرْضَوْنَهُ» و الرضا مطلق، دليل على اشتمالها على أقصى ما يريده الإنسان كما قال: لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُنَ (الفرقان ١٦).

و قوله: «لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ» بيان لقوله: «لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسِينًا» و إدخالهم إياه مدخلا يرضونه و لا يكرهونه على الرغم من إخراج المشركين إياهم إخراجا يكرهونه و لا يرضونه و لذا علله بقوله: «وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ» أى عليم بما يرضيهم فيعدّه لهم إعدادا حلِيم فلا يعاجل العقوبه لأعدائهم الظالمين لهم.

قوله تعالى: ذَلِكْ وَ مَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيُنْصِرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ذَلِكَ خبر لمبتدأ محذوف أى الأمر ذلك الذى أخبرناك به و ذكرناه لك، و العقاب مؤاخذه الإنسان بما يكرهه بإزاء فعله ما لا يرتضيه المعاقب و إنما سمي عقابا لأنه يأتى عقيب الفعل.

و العقاب بمثل العقاب كناية عن المعاملة بالمثل و لما يكن هذه المعاملة بالمثل حسنا إلا فيما كان العقاب الأول من غير حق قيده بكونه بغيا فعطف قوله: «بُغِيَ عَلَيْهِ» بتم عليه.

و قوله: لِيُنْصِرَهُ اللَّهُ ظاهر السياق -و المقام مقام الإذن فى الجهاد- أن المراد بالنصر هو إظهار المظلومين على الظالمين الباغين و تأييدهم عليهم فى القتال لكن يمكن أن يستظهر من مثل قوله: وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (الإسراء ٣٣) أن المراد بالنصر هو تشريع حكم للمظلوم يتدارك به ما وقع عليه من و صمه الظلم و البغى فإن فى إذنه أن يعامل الظالم الباغى عليه بمثل ما فعل بسطا ليده على من بسط عليه اليد.

و بهذا يتضح معنى تعليل النصر بقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ» فإن الإذن و الإباحه فى موارد

الاضطرار و الحرج و ما شابه ذلك من مقتضيات صفتى العفو و المغفرة كما تقدم مرارا فى أمثال قوله تعالى: فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصِهِ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (المائدة ٣) و قد أوضحنا ذلك فى المجازاه و العفو فى آخر الجزء السادس من الكتاب.

و المعنى-على هذا-و من عامل من عاقبه بغيا عليه بمثل ما عاقب نصره الله بإذنه فيه و لم يمنعه عن المعامله بالمثل لأن الله عفو غفور يمحو ما تستوجه هذه المعامله و الانتقام من السماء و التبعه كأن العقاب و إيصال المكروه الى الناس مبغوض فى نظام الحياه غير أن الله سبحانه يمحو ما فيه من المبغوضيه و يستر على أثره السيئ إذا كان عقابا من مظلوم لظالمه الباغى عليه بمثل ما بغى عليه، فيجيز له ذلك و لا يمنعه بالتحريم و الحظر.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ إيلاج كل من الليل و النهار فى الآخر حلوله محل الآخر كورود ضوء الصباح على ظلمه الليل كشيء يلج فى شيء ثم اتساعه و إشغال النهار من الفضاء ما أشغله الليل، و ورود ظلمه المساء على نور النهار كشيء يلج فى شيء ثم اتساعها و شمول الليل.

و المشار اليه بذلك-بناء على ما تقدم من معنى النصر-ظهور المظلوم بعقابه على الظالم الباغى عليه، و المعنى أن ذلك النصر بسبب أن من سنَّه الله أن يظهر أحد المضادين و المتزاحمين على الآخر كما يولج الليل فى النهار و يولج النهار فى الليل و إن الله سميع لأقوالهم بصير بأعمالهم فينصر المظلوم و هو مهضوم الحق بعينه و ما يسأله بلسان حاله فى سمعه.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ الإشاره بذلك الى النصر أو اليه و الى ما ذكر من سببه.

و الحصران فى قوله: «بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ» و قوله: «وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ» إما بمعنى أنه تعالى حق لا يشوبه باطل و أن ما يدعون من دونه و هى الأصنام باطل لا يشوبه حق

فهو قادر على أن يتصرف فى تكوين الأشياء و أن يحكم لها و عليها بما شاء.

و إما بمعنى أنه تعالى حق بحقيقه معنى الكلمه مستقلا بذلك لا- حق غيره إلا- ما حققه هو، و أن ما يدعون من دونه و هى الأصنام بل كان ما يركن اليه و يدعى للحاجه من دون الله هو الباطل لا غيره إذ مصداق غيره هو الله سبحانه فافهم ذلك، و إنما كان باطلا إذ كان لا حقيقه له باستقلاله.

و المعنى-على أى تقدير-أن ذلك التصرف فى التكوين و التشريع من الله سبحانه بسبب أنه تعالى حق يتحقق بمشيئته كل حق غيره، و أن آلهتهم من دون الله و كل ما يركن اليه ظالم باغ من دونه باطل لا يقدر على شىء.

□
و قوله: وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ علوه تعالى بحيث يعلو و لا يعلى عليه و كبره بحيث لا يصغر لشىء بالهوان و المذله من فروع كونه حقا أى ثابتا لا يعرضه زوال و موجودا لا يمسه عدم.

□ □ □ □ □
قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ استشهاد على عموم القدره المشاره إليها آنفا بإنزال الماء من السماء -و المراد بها جهه العلو- و صيروره الأرض بذلك مخضرة.

□
و قوله: إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ تعليل لجعل الأرض مخضرة بإنزال الماء من السماء فتكون نتيجة هذا التعليل و ذاك الاستشهاد كأنه قيل: إن الله ينزل كذا فيكون كذا لأنه لطيف خبير و هو يشهد بعموم قدرته.

□ □ □ □ □
قوله تعالى: لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ظاهره أنه خبر بعد خبر لأن فهو تتمه التعليل فى الآيه السابقه كأنه قيل: إن الله لطيف خبير مالِك لما فى السماوات و ما فى الأرض يتصرف فى ملكه كما يشاء بلطف و خبره، و يمكن أن يكون استئنافا يفيد تعليلًا باستقلاله.

وقوله: وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ يفيد عدم حاجته الى شىء من تصرفاته بما هو غنى على الإطلاق و هو مع ذلك جميله نافعهم يحمد عليها بما هو حميد على الإطلاق فمفاد الاسمين معا أنه تعالى لا يفعل إلا ما هو نافع لكن لا يعود نفعه اليه بل الى الخلق أنفسهم.

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ الخ؛ استشهاد آخر على عموم القدره، و المقابله بين تسخير ما فى الأرض و تسخير الفلك فى البحر يؤيد أن المراد بالأرض البر مقابل البحر، و على هذا فتعقيب الجملتين بقوله: «وَيُؤَمِّسُكُمُ السَّمَاءُ» الخ؛ يعطى أن محصل المراد أن الله سخر لكم ما فى السماء و الأرض برّها و بحرّها.

و المراد بالسماء جهه العلو و ما فيها فالله يمسكها أن تقع على الأرض إلا بإذنه مما يسقط من الأحجار السماويه و الصواعق و نحوها.

و قد ختم الآيه بصفى الرأفة و الرحمة تميماً للنعمه و امتناناً على الناس.

قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ سياق الماضى فى «أَحْيَاكُمْ» يدل على أن المراد به الحياه الدنيا و أهميه المعاد بالذكر تستدعى أن يكون المراد من قوله: «ثُمَّ يُحْيِيكُمْ» الحياه الآخره يوم البعث دون الحياه البرزخيه.

و هذه الحياه ثم الموت ثم الحياه من النعم الإلهيه العظمى ختم بها الامتنان و لذا عقبها بقوله:

«إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ» .

[سوره الحج (٢٢): الآيات ٦٧ الى ٧٨]

إشارة

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُونَكَ فِي الْأَمْرِ وَ أَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَ مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) وَ إِذَا تَتَلَّىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا يَكْفُرُونَ بِهَا وَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْمُطُونَ بِالَّذِينَ يَتُلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أ فَأْتِيكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَمُ النَّارِ وَ عَذَابِ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ بئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَ لَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَشَاءُ يُغْفِقُوا لَهُمْ الذُّبَابَ شَيْئًا لَا يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ ضَرْبٌ مَطْلَبٌ وَ الْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ إِلَيْهِ اللَّهُ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ أَسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَ جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هَذَا لِيُكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَ نِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)

قوله تعالى: لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسِيًّا كَمَا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ المنسك مصدر ميمي بمعنى النسك وهو العبادة و يجيده قوله: «هُم نَاسِكُوهُ» أى يعبدون تلك العبادة، وليس اسم مكان كما احتمله بعضهم.

و المراد بكل أمه هى الامه بعد الامه من الامم الماضين حتى تنتهى الى هذه الامه دون الامم المختلفه الموجوده فى زمانه صلى الله عليه و آله و سلم كالعرب و العجم و الروم لوحده الشريعه و عموم النبوه.

و قوله: فَلَا يُنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ نَهَىٰ لِلْكَافِرِينَ بِدَعْوَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ مَنَازِعَتَهُ فِي الْمَنَاسِكِ الَّتِي أَتَىٰ بِهَا وَ هُمْ وَ إِنْ كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِدَعْوَتِهِ وَ لَا يَرُونَ لِمَا أَتَىٰ بِهِ مِنْ الْأَوَامِرِ وَ النَّوَهِىِ وَقَعَا يَسْلَمُونَ لَهُ وَ لَا أَثَرَ لِنَهْيِهِ مِنْ لَا يَسْلَمُ لِلنَّاهِي طَاعَهُ وَ لَا مَوْلُوِيَهُ لَكِنْ هَذَا النَّهْيُ لِمَا كَانَ مَعْتَمِدًا عَلَى الْحُجَّةِ لَمْ يَصِرْ لِعَوَالٍ أَثَرَ لَهُ وَ هِيَ صَدْرُ الْآيَةِ.

فكأن الكفار من أهل الكتاب أو المشركين لما رأوا من عبادات الإسلام ما لا عهد لهم به فى الشرائع السابقه كشريعه اليهود مثلا نازعوه فى ذلك من أين جئت به و لا- عهد به فى الشرائع السابقه و لو كان من شرائع النبوه لعرفه المؤمنون من أمم الأنبياء الماضين؟ فأجاب الله سبحانه عن منازعتهم بما فى الآية.

و معناها ان كلا من الامم كان لهم منسك هم ناسكوه و عباده يعبدونها و لا يتعداهم الى غيرهم لما أن الله سبحانه بَدَل منسك السابقين مما هو أحسن منه في حق اللاحقين لتقدمهم في الرقيّ الفكرى و استعدادهم فى اللاحق لما هو أكمل و أفضل من السابق فالمناسك السابقه منسوخه فى حق اللاحقين فلا معنى لمنازعه النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم فيما جاء به من المنسك المغاير لمناسك الامم الماضين.

و لما كان نهيمهم عن منازعته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم فى معنى أمره بطيب النفس من قبل نزاعهم و نهيه عن الاعتناء به عطف عليه قوله: «وَ ادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ» كأنه قيل: طب نفسا و لا تعبا بمنازعتهم و اشتغل بما أمرت به و هو الدعوه الى ربك.

و علل ذلك بقوله: «إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ» و توصيف الهدى بالاستقامه و هى وصف الصراط الذى اليه الهدايه من المجاز العقلى.

قوله تعالى: وَ إِنِّ لَجَادِلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ سياق الآيه السابقه يؤيد أن المراد بهذا الجدل المجادله و المراء فى أمر اختلاف منسكه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم مع الشرائع السابقه بعد الاحتجاج عليه بنسخ الشرائع، و قد أمر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بإرجاعهم الى حكم الله من غير أن يشتغل بالمجادله معهم بمثل ما يجادلون.

و قوله: فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ توطئه و تمهيد الى إرجاعهم الى حكم الله أى الله أعلم بعملكم و يحكم حكم من يعلم بحقيقه الحال، و إنما يحكم بينكم يوم القيامه فيما كنتم فيه تختلفون و تخالفون الحق و أهلهم- و الاختلاف و التخالف بمعنى كالاستباق و التسابق-.

قوله تعالى: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ تعليل لعلمه تعالى بما يعملون أى إن ما يعملون بعض ما فى السماء و الأرض و هو يعلم جميع ما فيهما فهو يعلم بعلمهم.

و قوله: «إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ» تأكيد لما تقدمه أى إن ما علمه من شىء مثبت فى كتاب فلا

يزول ولا ينسى ولا يسهو فهو محفوظ على ما هو عليه حين يحكم بينهم، وقوله: «إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» أى ثبت ما يعلمه فى كتاب محفوظ هين عليه.

قوله تعالى: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ السخ؛ الباء فى «به» بمعنى مع، والسلطان البرهان والحججه والمعنى و يعبد المشركون من دون الله شيئا- وهو ما اتخذه شريكا له تعالى- لم ينزل الله معه حججه حتى يأخذوها و يحتجوا بها ولا أن لهم به علما.

وقوله: وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ قيل: هو تهديد للمشركين والمراد أنه ليس لهم ناصر ينصرهم فيمنعهم من العذاب.

والظاهر-على ما يعطيه السياق-أنه فى محل الاحتجاج على أن ليس لهم برهان على شركائهم ولا علم، بأن لو كان لهم حججه أو علم لكان لهم نصير ينصرهم إذ البرهان نصير لمن يحتج به والعلم نصير لكنهم ظالمون و ما للظالمين من نصير فليس لهم برهان ولا علم، وهذا من أطف الاحتجاجات القرآنيه.

قوله تعالى: وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَشِيطُونَ السخ؛ المنكر مصدر ميمى بمعنى الإنكار، والمراد بمعرفه الإنكار فى وجوههم معرفه أثر الإنكار والكراهه، و «يَشِيطُونَ» من السطوه وهى على ما فى مجمع البيان: إظهار الحال الهائله للإخافه يقال: سطا عليه يسطو سطوه و سطا به و الإنسان مسطو عليه، و السطوه و البطشه بمعنى. انتهى.

والمعنى: و إذا تلى عليهم آيتنا و الحال أنها واضحات الدلاله تعرف و تشهد فى وجوه الذين كفروا أثر الإنكار يقربون من أن يبطشوا على الذين يتلون و يقرءون عليهم آياتنا لما يأخذهم من الغيظ.

وقوله: قُلْ أَفَأَتَّبِعُكُمْ بِشْرٍ مِنْ ذَلِكَُمْ تفریع على إنكارهم و تحرزهم من استماع

الحيوانات التي فيها شيء من الشعور و القدره.

قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قدر الشيء هندسته و تعيين كميته و يكتنى عن منزله الشيء تقتضيها أوصافه و نعوته يقال: قدر الشيء حق قدره أى نزله المنزله التي يستحقها و عامله بما يليق به.

و قدره تعالى حق القدر أن يلتزم بما يقتضيه صفاته العليا و يعامل كما يستحقه بأن يتخذ ربا لا رب غيره و يعبد وحده لا معبود سواه لكن المشركين ما قدروه حتى قدره إذ لم يتخذوه ربا و لم يعبدوه بل اتخذوا الأصنام أربابا من دونه و عبدوها دونه و هم يرون أنها لا تقدر على خلق ذباب و يمكن أن يستدلها ذباب فهي من الضعف و الذله فى نهايتهما، و الله سبحانه هو القوى العزيز الذى اليه ينتهى الخلق و الأمر و هو القائم بالإيجاد و التدبير.

فقوله: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إشاره الى عدم التزامهم بربوبيته تعالى و إعراضهم عن عبادته ثم اتخذهم الأصنام أربابا من دونه يعبدونها خوفا و طمعا دونه تعالى.

و قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ تعليل للنفي السابق و قد أطلق القوه و العزه فأفاد أنه قوى لا يعرضه ضعف و عزيز لا تعتريه ذله كما قال: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ (البقره ١٦٥/)، و قال: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ (النساء ١٣٩/)، و إنما خصّ الاسمين بالذكر لمقابلتهما ما فى المثل المضروب من صفه آلهتهم و هو الضعف و الذله فهؤلاء استهانوا أمر ربهم إذ عدلوا بينه تعالى و هو القوى الذى يخلق ما يشاء و العزيز الذى لا يغلبه شيء و لا يستدله من سواه و بين الأصنام و الآلهه الذين يضعفون من خلق ذباب و يستدلهم ذباب ثم لم يرضوا بذلك حتى قدموهم عليه تعالى فاتخذوهم أربابا يعبدونهم دونه تعالى.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَجِيعٌ بِصِيرِ الْأَصْطَفَاءِ أَخَذَ صَفْوَهُ الشَّيْءَ وَ خَالَصْتَهُ، قَالَ الرَّاغِبُ: الْأَصْطَفَاءُ تَنَاوَلْ صَفْوَهُ الشَّيْءَ

كما أن الاختيار تناول خيره و الإجتباء تناول جبايته.انتهى.

فاصطفاه الله تعالى من الملائكة رسلا و من الناس اختياره من بينهم من يصفو لذلك و يصلح.

و هذه الآيه و التى بعدها تبيان و جوب جعل الرساله و صفتها و صفه الرسل و هى العصمه، و للكلام فيها بعض الاتصال بقوله السابق: «لُكُلُّ أُمَّه جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ» لإنبائه عن الرساله.

تبيّن الآيه أولاً أن لله رسلا من الملائكة و من الناس، و ثانياً أن هذه الرساله ليست كيفما اتفقت و ممن اتفق بل هى بالاصطفاء و تعيين من هو صالح لذلك.

□
و قوله: «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» تعليل لأصل الإرسال فإن الناس أعنى النوع الإنسانى يحتاج حاجه فطريه الى أن يهديهم الله سبحانه نحو سعادتهم و كمالهم المطلوب من خلقهم كسائر الأنواع الكونيه فالحاجه نحو الهدايه عامه، و ظهور الحاجه فيهم و إن شئت فقل: إظهارهم الحاجه من أنفسهم سؤال منهم و استدعاء لما ترتفع به حاجتهم و الله سبحانه سميع بصير يرى ببصره ما هم عليه من الحاجه الفطريه الى الهدايه و يسمع بسمعه سؤالهم ذلك.

فمقتضى سمعه و بصره تعالى أن يرسل اليهم رسولا- و يهديهم به الى سعادتهم التى خلقوا لنيلها و التلبس بها فما كل الناس بصالحين للاتصال بعالم القدس و فيهم الخبيث و الطيب و الطالح و الصالح، و الرسول رسولان رسول ملكى يأخذ الوحي منه □
تعالى و يؤديه الى الرسول الإنسانى و رسول إنسانى يأخذ الوحي من الرسول الملكى و يلقيه الى الناس و بالجملة قوله: «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» يتضمن الحجه على لزوم أصل الإرسال، و أما معنى الاصطفاء و الحجه على لزومه فهو ما يشير اليه قوله: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ» .

□
قوله تعالى: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

ظاهر السياق أن ضمير الجمع في الموضوعين للرسول من الملائكة والناس، ويشهد وقوع هذا التعبير فيهم في غير هذا لموضع كقوله تعالى حكاية عن ملائكة الوحي: ﴿مَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا الْآيَةَ (مريم ٦٤)﴾، وقوله: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَيَّ غَيْبِي أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسِيلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ رَصِيدًا لِيُعَلِّمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ (الجن ٢٨)﴾.

والآية- كما ترى- تنادي بأن ذكر علمه بما بين أيديهم وما خلفهم للدلالة على أنه تعالى مراقب للطريق الذي يسلكه الوحي فيما بينه وبين الناس حافظ له أن يختل في نفسه بنسيان أو تغيير أو يفسد بشيء من مكائد الشياطين و تسويلاتهم كل ذلك لأن حملة الوحي من الرسل بعينه و بمشهد منه يعلم ما بين أيديهم و ما خلفهم و هو بالمرصاد.

و من هنا يظهر أن المراد بما بين أيديهم هو ما بينهم و بين من يؤدون اليه فما بين أيدي الرسول الملكى هو ما بينه و بين الرسول الإنسانى و ما بين يدي الرسول الإنسانى هو ما بينه و بين الناس، و المراد بما خلفهم هو ما بينهم و بين الله سبحانه و الجميع سائرون من جانب الله الى الناس.

فالوحي في ما من إلهى منذ يصدر من ساحه العظمه و الكبرياء الى أن يبلغ الناس و لازمه أن الرسل معصومون في تلقى الوحي و معصومون في حفظه و معصومون في إبلاغه للناس.

وقوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ في مقام التعليل لعلمه بما بين أيديهم و ما خلفهم أى كيف يخفى عليه شيء من ذلك؟ و اليه يرجع جميع الامور و إذ ليس هذا الرجوع رجوعا زمانيا حتى يجوز معه خفاء حاله قبل الرجوع و إنما هو مملوكيه ذاته له تعالى فلا استقلال له منه و لا خفاء فيه له فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الأمر بالركوع و السجود أمر بالصلاه و مقتضى المقابله أن يكون

المراد بقوله: «وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ» الأمر بسائر العبادات المشرّعه في الدين كالحج و الصوم و يبقى لقوله: «وَافْعَلُوا الْخَيْرَ» سائر الأحكام و القوانين المشرّعه فإن في إقامتها و العمل بها خير المجتمع و سعادة الأفراد و حياتهم كما قال: إِشِيْتَجِيْبُوا لِلّٰهِ وَ لِلرَّسُوْلِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيْكُمْ (الأنفال ٢٤).

و في الآيه أمر بإجمال الشرائع الإسلاميه من عبادات و غيرها.

قوله تعالى: وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ إلى آخر الآيه؛ الجهاد بذل الجهد و استفراغ الوسع في مدافعه العدو، و يطلق في الأكثر على المدافعه بالقتال لكن ربما يتوسع في معنى العدو حتى يشمل كل ما يتوقع منه الشر كالشيطان الذي يضل الإنسان و النفس الأماره بالسوء و غير ذلك فيطلق اللفظ على مخالفه النفس في هواها و الاجتناب عن طاعه الشيطان في وسوسته، و قد سمى النبي صلّى الله عليه و آله و سلم مخالفه النفس جهادا أكبر.

و الظاهر أن المراد بالجهاد في الآيه هو المعنى الأعم و خاصه بالنظر إلى تقييده بقوله: «فِي اللَّهِ» و هو كل ما يرجع إليه تعالى، و يؤيده أيضا قوله: وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا (العنكبوت ٦٩).

و على ذلك فمعنى كون الجهاد فيه حق جهاد أن يكون متمحضا في معنى الجهاد و يكون خالصا لوجهه الكريم لا يشاركه فيه غيره نظير تقوى الله حق تقواه في قوله: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ (آل عمران ١٢٤).

و قوله: هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ امتنان منه تعالى على المؤمنين بأنهم ما كانوا لينالوا سعادة الدين من عند أنفسهم و بحولهم غير أن الله من عليهم إذ وفقهم فاجتباهم و جمعهم للدين، و رفع عنهم كل حرج في الدين امتنانا سواء كان حرجا في أصل الحكم أو حرجا طارئا عليه اتفاقا فهي شريعته سهله سمحه مله أبيهم إبراهيم الحنيف الذي أسلم لربه.

و إنما سمي إبراهيم أبا المسلمين لأنه عليه السلام أول من أسلم لله كما قال تعالى: إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ (البقره ١٣١/)، وقال حاكيا عنه عليه السلام: فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي (إبراهيم ٣٦/) فنسب اتباعه الى نفسه، وقال أيضا: وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (إبراهيم ٣٥/)، و مراده بينه المسلمون دون المشركون قطعا و قال: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا (آل عمران ٦٨/).

و قوله: هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هَذَا امْتِنَانٌ ثَانٍ مِنْهُ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بعد الامتنان بقوله: «هُوَ اجْتَبَاكُمْ» فالضمير له تعالى و قوله: «مِنْ قَبْلُ» أى من قبل نزول القرآن و قوله: «وَ فِي هَذَا» أى و فى هذا الكتاب و فى امتنانه عليهم بذكر أنه سماهم المسلمين دلالة على قبوله تعالى إسلامهم.

و قوله: لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ المراد به شهادته الأعمال و قد تقدم الكلام فى معنى الآية فى سورة البقره الآية ١٤٣ و غيرها و فى الآية تعليل ما تقدم من حديث الاجتباء و نفى الحرج و تسميتهم مسلمين.

و قوله: فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ تَفْرِيعَ عَلَى جَمِيعٍ مَا تَقَدَّمَ مِمَّا امْتَنَ بِهِ عَلَيْهِمْ أى فعلى هذا يجب عليكم أن تقيموا الصلاة و تؤتوا الزكاة- و هو إشاره الى العمل بالأحكام العباديه و المالىه- و تعتصموا بالله فى جميع الأحوال فتأتمروا بكل ما أمر به و تنتهوا عن جميع ما نهى عنه و لا- تنقطعوا عنه فى حال لأنه مولا-كم و ليس للعبد أن ينقطع عن مولاة فى حال و لا للإنسان الضعيف أن ينقطع عن ناصره- بوجه على الاحتمالين فى معنى المولى-.

فقوله: هُوَ مَوْلَاكُمْ فى مقام التعليل لما قبله من الحكم، و قوله: «فَنِعَمَ الْمَوْلَى وَ نِعَمَ النَّصِيرُ» كلمه مدح له تعالى و تطيب لنفوس المؤمنين و تقويه لقلوبهم بأن مولاهم و نصيرهم هو الله الذى لا مولى غيره و لا نصير سواه.

و اعلم أن الذى أوردناه من معنى الاجتباء و كذا الإسلام و غيره فى الآيه هو الذى ذكره جل المفسرين بالبناء على ظاهر الخطاب بيا أيها الذين آمنوا فى صدر الكلام و شموله عامه المؤمنين و جميع الامه.

و قد بينا غير مره أن الاجتباء بحقيقه معناه يساوق جعل العبد مخلصا-بفتح اللام- مخصوصا بالله لا نصيب لغيره تعالى فيه، و هذه صفة لا توجد إلا فى آحاد معدودين من الامه دون الجميع قطعاً، و كذا الكلام فى معنى الإسلام و الاعتصام، و المعنى بحقيقته مراد فى الكلام قطعاً.

و على هذا فنسبه الاجتباء و الإسلام و الشهاده الى جميع الامه توسع من جهة اشتمالهم على من يتصف بهذه الصفات بحقيقتها نظير قوله فى بنى إسرائيل: وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكًا (المائدة ٢٠)، و قوله فيهم: وَ فَضَّلْنَاَّهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (الجاثية ١٦) و نظائره كثيره فى القرآن.

ص: ٣٥٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(۱) الَّذِينَ هُمْ فِي صِلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (۲) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ
(۳) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (۴) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (۵) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ
(۶) فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (۷) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (۸) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ (۹) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (۱۰) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۱۱)

فى السوره دعوه الى الايمان بالله و اليوم الآخر و تمييز المؤمنين من الكفار بذكر ما لهؤلاء من جميل صفات العبوديه و ما لاولئك من رذائل الأخلاق و سفاسف الأعمال، و تعقيب ذلك بالتبشير و الإنذار، و قد تضمن الإنذار ذكر عذاب الآخرة و ما غشى الامم المكذبين للدعوه الحقه من عذاب الاستئصال فى مسير الدعوه آخذاً من زمن نوح الى زمن المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام.

و السوره مكيه، و سياق آياتها يشهد بذلك.

قوله تعالى: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ قال الراغب: الفلح- بالفتح فالسكون- الشق، و قيل: الحديد بالحديد يفلح أى يشق، و الفلاح الظفر و إدراك بغيه و ذلك ضربان: دنيوى و أخروى، فالدنيوى الظفر بالسعادات التى تطيب بها الحياه الدنيا و هو البقاء و الغنى و العز، و الا-خروى أربعه أشياء: بقاء بلا- فناء، و غنى بلا- فقر، و عز بلا- ذل، و علم بلا- جهل، و لذلك قيل: لا عيش إلا عيش الآخرة. انتهى ملخصاً. فتسميه الظفر بالسعاده فلاحاً بعنايه أن فيه شقا للمانع و كشفاً عن وجه المطلوب.

و الايمان هو الإذعان و التصديق بشىء بالالتزام بلوازمه، فالإيمان بالله فى عرف القرآن التصديق بوحدانيته و رسله و اليوم الآخر و بما جاءت به رسله مع الاتباع فى الجملة، و لذا نجد القرآن كلما ذكر المؤمنين بوصف جميل أو أجر جزيل شفع الايمان بالعمل الصالح كقوله: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً (النحل ٩٧)، و قوله:

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَ حَسُنَ مَا بَدَّ (الرعد ٢٩)، الى غير ذلك من الآيات و هى كثيره جداً.

و ليس مجرد الاعتقاد بشىء إيماناً به حتى مع عدم الالتزام بلوازمه و أثره فإن الايمان علم

بالشئ مع السكون و الاطمئنان اليه و لا- ينفك السكون الى الشئ من الالتزام بلوازمه لكن العلم ربما ينفك من السكون و الالتزام ككثير من المعتادين بالأعمال الشنيعة أو المضره فإنهم يعترفون بشناعه عملهم أو ضرره لكنهم لا يتركونها معتذرين بالاعتیاد و قد قال تعالى:

وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ (النمل ١٤).

و الإيمان و إن جاز أن يجتمع مع العصيان عن بعض لوازمه فى الجملة لصارف من الصوارف النفسانيه يصرف عنه لكنه لا يتخلف عن لوازمه بالجملة.

قوله تعالى: الَّذِينَ هُمْ فِي صِيَالَتِهِمْ خَاشِعُونَ الخشوع تأثر خاص من المقهور قبال القاهر بحيث ينقطع عن غيره بالتوجه اليه و الظاهر أنه من صفات القلب ثم ينسب الى الجوارح أو غيرها بنوع من العناية كقوله صلى الله عليه و آله و سلم-على ما روى- فيمن يعث بلحيته فى الصلاة: أما إنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه، و قوله تعالى: وَ خَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ (طه ١٠٨).

و الخشوع بهذا المعنى جامع لجميع المعانى التى فسّر بها الخشوع فى الآيه، كقول بعضهم:

هو الخوف و سكون الجوارح، و قول آخرين: غصّ البصر و خفض الجناح، أو تنكيس الرأس، أو عدم الالتفات يمينا و شمالا، أو إعظام المقام و جمع الاهتمام، أو التذلل الى غير ذلك.

و هذه الآيه الى تمام ثمانى آيات تذكر من أوصاف المؤمنين ما يلازم كون وصف الإيمان حيا فعّالا يترتب عليه آثاره المطلوبه منه ليرتب عليه الغرض المطلوب منه و هو الفلاح فإن الصلاة توجه ممن ليس له إلا الفقر و الذلّ الى ساحه العظمه و الكبرياء و منبع العزه و البهاء و لازمه أن يتأثر الإنسان الشاعر بالمقام فيستغرق فى الذلّ و الهوان و ينتزع قلبه عن كل ما يلهوه و يشغله عما يهّمه و يواجهه، فلو كان إيمانه إيمانا صادقا جعل همّه حين التوجه الى ربه همّا واحدا و شغله الاشتغال به عن الالتفات الى غيره فماذا يفعل الفقير المحض إذا لقي غنى لا يقدر بقدر؟ و الدليل إذا واجه عزه مطلقه لا يشوبها ذلّ و هوان؟

و هذا معنى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم فى حديث الحارثه بن النعمان المروى فى الكافى و غيره: إن لكل حق حقيقه و لكل صواب نوارا. الحديث (١).

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ اللغو من الفعل هو ما لا فائده فيه و يختلف باختلاف الامور التى تعود عليها الفائده فربّ فعل هو لغو بالنسبه الى أمر و هو بعينه مفيد مجد بالنسبه الى أمر آخر.

فاللغو من الأفعال فى نظر الدين الأعمال المباحه التى لا ينتفع بها فى الآخره أو فى الدنيا بحيث ينتهى أيضا الى الآخره كالأكل و الشرب بداعى شهوه التغذى اللذين يتفرع عليهما التقوى على طاعه الله و عبادته، فإذا كان الفعل لا ينتفع به فى آخر و لا فى دنيا تنتهى بنحو الى آخره فهو اللغو و بنظر أدق هو ما عدا الواجبات و المستحبات من الأفعال.

و لم يصف سبحانه المؤمنين بترك اللغو مطلقا فإن الانسان فى معرف العثره و مزله الخطيئه و قد عفا عن السيئات إذا اجتنبت الكبائر كما قال: **إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا** (النساء ٣١).

بل وصفهم بالإعراض عن اللغو دون مطلق تركه و الإعراض يقتضى أمرا بالفعل يدعو الى الاشتغال به فيتركه الانسان صارفا وجهه عنه الى غيره لعدم اعتداده به و اعتنائه بشأنه، و لازمه ترفع النفس عن الأعمال الخسيسه و اعتلاؤها عن الاشتغال بما ينافى الشرف و الكرامه و تعلقها بعظام الامور و جلائل المقاصد.

و من حق الإيمان أن يدعو الى ذلك فإن فيه تعلقا بساحه العظمه و الكبرياء و منبع العزه و المجد و البهاء و المتصف به لا يهتم إلا- بحياه سعيده أبدية خالده فلا يشتغل إلا بما يستعظمه الحق و لا يستعظم ما يهتم به سفله الناس و جهلتهم، و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما، و إذا

ص: ٣٥٨

(١-١). المؤمنون ١-١١: كلام فى معنى تأثير الإيمان.

مَرَوْا بِاللُّغُو مَرَّوَا كَرَامًا.

و من هنا يظهر أن وصفهم بالإعراض عن اللغو كناية عن علو همّتهم و كرامه نفوسهم.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ذكر الزكاة مع الصلاة قرينه على كون المراد بها الإنفاق المالى دون الزكاة بمعنى تطهير النفس بإزاله ردائل الأخلاق عنها و لعل المراد بالزكاة المعنى المصدري و هو تطهير المال بالإنفاق من دون المقدار المخرج من المال فإن السوره مكيه و تشريع الزكاة المعهوده فى الإسلام إنما كان بالمدينه ثم صار لفظ الزكاة علما بالغلبه للمقدار المعين المخرج من المال.

و بهذا يستصحّ تعلق «لِلزَّكَاةِ» بقوله: «فَاعِلُونَ» و المعنى:الذين هم فاعلون للإنفاق المالى،و أما لو كان المراد بالزكاة نفس المال المخرج لم يصحّ تعلقه به إذ المال المخرج ليس فعلا متعلقا بفاعل،و لذا قدّر بعض من حمل الزكاة على هذا المعنى لفظ التأديه فكان التقدير عنده و الذين هم لتأديه الزكاة فاعلون،و لذا أيضا فسّر بعضهم الزكاة بتطهير النفس عن الأخلاق الرذيله فرارا من تعلق «لِلزَّكَاةِ» بقوله: «فَاعِلُونَ» .

و فى التعبير بقوله: «لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ» دون أن يقول:للزكاة مؤدّون أو ما يؤدى معناه دلالة على عنايتهم بها كقول القائل:إنى شارب لمن أمره بشرب الماء فإذا أراد أن يفيد عنايته به قال:إنى فاعل.

و من حق الإيمان بالله أن يدعو الى هذا الإنفاق المالى فإن الانسان لا ينال كمال سعادته إلا فى مجتمع سعيد ينال فيه كل ذى حق حقه و لا- سعادته لمجتمع إلا- مع تقارب الطبقات فى التمتع من مزايا الحياه و أمتعته العيش،و الإنفاق المالى على الفقراء و المساكين من أقوى ما يدرك به هذه البغيه.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ هُمْ لِأَفْطُونِ حَالِهِمْ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَفْطُونِ حَالِهِمْ إلى آخر الآيات الثلاث؛الفروج جمع فرج و هو-على ما قيل-ما يسوء ذكره من الرجال و النساء،و حفظ الفروج كناية عن

الاجتناب عن مواقعه سواء كانت زنا أو لواطاً أو يأتیان البهائم و غير ذلك.

□ و قوله: إِيَّاكُمْ عَلَىٰ أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ استثناء من حفظ الفروج، والأزواج الحلائل من النساء، و ما ملكت أيمانهم الجوارى المملوكة فإنهم غير ملومين في مسّ الأزواج الحلائل و الجوارى المملوكة.

□ و قوله: فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ تفريع على ما تقدم من الاستثناء و المستثنى منه أى إذا كان مقتضى الإيمان حفظ الفروج مطلقاً إلا- عن طائفتين من النساء هما الأزواج و ما ملكت أيمانهم، فمن طلب وراء ذلك أى مسّ غير الطائفتين فأولئك هم المتجاوزون عن الحد الذى حدّه الله تعالى لهم.

□ و قد تقدم كلام ما فيما يستعقبه الزنا من فساد النوع فى ذيل قوله: وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْنَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً و سَاءَ سَبِيلًا (الإسراء ٣٢) فى الجزء الثالث عشر من الكتاب.

□ قوله تعالى: وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ الأمانة مصدر فى الأصل و ربما أريد به ما ائتمن عليه من مال و نحوه، و هو المراد فى الآيه، و لعل جمعه للدلالة على أقسام الأمانات الدائره بين الناس، و ربما قيل بعموم الأمانات لكل تكليف إلهى أو ائتمن عليه الانسان و ما أو ائتمن عليه من أعضائه و جوارحه و قواه أن يستعملها فيما فيه رضى الله و ما ائتمنه عليه الناس من الأموال و غيرها، و لا يخلو من بعد بالنظر الى ظاهر اللفظ و إن كان صحيحاً من جهة تحليل المعنى و تعميمه.

□ و العهد بحسب عرف الشرع ما التزم به بصيغه العهد شقيق النذر و اليمين، و يمكن أن يراد به مطلق التكليف المتوجه الى المؤمن فإن الله سبحانه سمى إيمان المؤمن به عهداً و ميثاقاً منه على ما توجه اليه من تكاليفه تعالى بقوله: أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهِدُوا عَهْدًا نَبَدَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ (البقره / ١٠٠)، و قوله: وَ لَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَارَ (الأحزاب / ١٥)، و لعل إرادته هذا المعنى هو السبب فى إفراد العهد لأن جميع التكاليف يجمعها عهد واحد بإيمان واحد.

و الرعايه الحفظ، و قد قيل: إن أصل الرعى حفظ الحيوان إما بغذائه الحافظ لحياته أو بذبّ العدو عنه ثم استعمل في الحفظ مطلقاً. انتهى. و لعل العكس أقرب الى الاعتبار.

و بالجمله الآيه تصف المؤمنين بحفظ الأمانات من أن تخان و العهد من أن ينقض، و من حق الإيمان أن يدعو الى ذلك فإن في إيمانه معنى السكون و الاستقرار و الاطمئنان فإذا آمن أحد في أمانه أو دعها عنده أو عهد عاهده و قطع على ذلك استقرّ عليه و لم يتزلزل بخيانه أو نقض.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صِيْلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ جمع الصلاه و تعليق المحافظه عليه دليل على أن المراد المحافظه على العدد فهم يحافظون على أن لا يفوتهم شيء من الصلوات المفروضه و يراقبونها دائماً و من حق إيمانهم أن يدعوهم الى ذلك.

و لذلك جمعت الصلاه هاهنا و أفردت في قوله: «فِي صِيْلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ» لأن الخشوع في جنس الصلاه على حدّ سواء فلا موجب لجمعها.

قوله تعالى: أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ الفردوس أعلى الجنان، و قد تقدم معناها و شيء من وصفها في ذيل قوله تعالى:

كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (الكهف ١٠٧).

و قوله: الَّذِينَ يَرِثُونَ الْخَيْبَةَ؛ بيان لقوله: «الْوَارِثُونَ» و وراثتهم الفردوس هو بقاؤها لهم بعد ما كانت في معرض أن يشاركهم فيها غيرهم أو يملكها دونهم لكنهم زالوا عنها فانتقلت اليهم، و قد ورد في الروايات أن لكل إنسان منزلاً في الجنة و منزلاً في النار فإذا مات و دخل النار ورث أهل الجنة منزله، و ستوافيك إن شاء الله في بحث روائي (١)(٢).

ص: ٣٦١

١-١. المؤمنون ١-١١: بحث روائي في الخشوع في الصلاه؛ نکاح المتعه.

٢-٢. المؤمنون ١-١١.

إشاره

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا
 الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعِيدٌ ذَلِكَ لَمَعْنُونَ (١٥) ثُمَّ
 إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامِ تَبْعُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ
 فَأَسْكَبْنَا فِي الْمَآرِضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَابٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْدَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهِ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا
 تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةٌ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِللَّاكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا
 وَ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)

قوله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: السُّلَالَةُ اسْمٌ لِمَا يَسْلُ مِنَ الشَّيْءِ كَالْكِسَاحِ اسْمٌ لِمَا يَكْسَحُ أَنْتَهَى. وَظَاهِرُ السِّيَاقِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِنْسَانِ هُوَ النَّوْعُ فَيَشْمَلُ آدَمَ وَ مِنْ دُونِهِ وَ يَكُونُ الْمُرَادُ بِالْخَلْقِ الْخَلْقَ الْإِبْتِدَائِيَّ الَّذِي خَلَقَ بِهِ آدَمُ مِنَ الطِّينِ ثُمَّ جَعَلَ النَّسْلَ مِنَ النَّطْفَةِ، وَ تَكُونُ الْآيَةُ وَ مَا بَعْدَهَا فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: «وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ» (الم السجده ٨).

و يؤيد قوله بعد: «ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً» إذ لو كان المراد بالإنسان ابن آدم فحسب و كان المراد بخلقه من طين انتهاء النطفة الى الطين لكان الظاهر أن يقال: ثم خلقناه نطفة كما قيل: ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغه، الخ.

و بذلك يظهر أن قول بعضهم: إن المراد بالإنسان جنس بني آدم، و كذا القول بأن المراد به آدم عليه السلام غير سديد.

و أصل الخلق - كما قيل - التقدير يقال: خلقت الثوب إذا قسته لتقطع منه شيئاً من اللباس فالمعنى و لقد قدرنا الإنسان أولاً من سلالة من أجزاء الأرض المخلوطة بالماء.

قوله تعالى: «ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ» النطفة القليل من الماء و ربما يطلق على مطلق الماء، و القرار مصدر أريد به المقر مبالغه و المراد به الرحم التي تستقر فيها النطفة، و المكين المتمكن و صفت به الرحم لتمكنها في حفظ النطفة من الضيعة و الفساد أو لكون النطفة مستقره متمكنه فيها.

و لمعنى ثم جعلنا الإنسان نطفة في مستقر متمكن هي الرحم كما خلقناه أولاً من سلالة من طين أى بدلنا طريق خلقه من هذا الى ذاك.

قوله تعالى: «ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً» - الى قوله - «فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا»

تقدم بيان مفردات الآيه فى الآيه ٥ من سوره الحج فى الجزء السابق من الكتاب و فى قوله:

﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ استعاره بالكنايه لطيفه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ الْإِنشَاءِ﴾ - كما ذكره الراغب - إيجاد الشىء و تربيته كما أن النشء و النشأه إحدائه و تربيته كما يقال للشباب الحديث السن ناشئ.

و قد غير السياق من الخلق الى الإنشاء فقال: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ دون أن يقال: ثم خلقناه، الخ؛ للدلاله على حدوث أمر حديث ما كان يتضمنه و لا يقارنه ما تقدمه من ماده فإن العلقه مثلا و إن خالفت النطفه فى أوصافها و خواصها من لون و طعم و غير ذلك إلا- أن فى النطفه مكان كل من هذه الأوصاف و الخواص ما يجانسها و إن لم يماثلها كالبياض مكان الحمرة و هما جميعا لون بخلاف ما أنشأه الله أخيرا و هو الإنسان الذى له حياه و علم و قدره فإن ما له من جوهر الذات و هو الذى نحكى عنه بأنا لم يسبق من سنخه فى المراحل السابقه أعنى النطفه و العلقه و المضغه و العظام المكسوه لحما شىء، و لا سبق فيها شىء يناظر ما له من الخواص و الأوصاف كالحياه و القدره و العلم فهو منشأ حادث مسبق بالعدم.

و الضمير فى «أَنْشَأْنَاهُ» - على ما يعطيه السياق - للإنسان المخلوق عظاما مكسوه باللحم فهو الذى أنشئ و أحدث خلقا آخر أى بدّل و هو ماده ميتة جاهله عاجزه موجودا ذا حياه و علم و قدره، فقد كان ماده لها صفاتها و خواصها ثم برز و هو يغير سابقته فى الذات و الصفات و الخواص، فهو تلك الماده السابقه فإنها التى صارت إنسانا، و ليس بها إذ لا- يشار كها فى ذات و لا صفات، و إنما له نوع اتحاد معها و تعلق بها يستعملها فى سبيل مقاصدها استعمال ذى الآله لآله كالكتاب للقلم.

و هذا هو الذى يستفاد من مثل قوله: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَمَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ (الم السجده / ١١)، فالمتوفى و المأخوذ عند الموت هو الإنسان، و المتلاشى الضال فى الأرض هو البدن

و ليس به.

و قد اختلف العطف فى مفردات الآيه بالفاء و ثم، و قد قيل فى وجهه أن ما عطف بـثم له بينونه كامله مع ما عطف عليه كما فى قوله: «ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ نُطْفَةً» «ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً»، «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ»، و ما لم يكن بتلك بينونه و البعد عطف بالفاء كقوله: «فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا» .

قوله تعالى: فَبَارَكْ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ قال الراغب: أصل البرك-بالفتح فالسكون-صدر البعير. قال: و برك البعير ألقى ركبته و اعتبر منه معنى اللزوم. قال: و سمي محبس الماء بركه-بالكسر فالسكون-و البركه ثبوت الخير الإلهي فى الشئ قال تعالى:

لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ سَمَى بِذَلِكَ لثبوت الخير فيه ثبوت الماء فى البركه، و المبارك ما فيه ذلك الخير.

قال: و لما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا-يحس و على وجه لا-يحصى و لا-يحصر قيل لكل ما يشاهد منه زياده غير محسوسه هو مبارك و فيه بركه. انتهى.

فالتبارك منه تعالى اختصاصه بالخير الكثير الذى وجود به و يفيضه على خلقه و قد تقدم أن الخلق فى أصله بمعنى التقدير فهذا الخير الكثير كله فى تقدير و هو إيجاد الأشياء و تركيب أجزائها بحيث تتناسب فيما بين أنفسها و تناسب ما وراءها و من ذلك ينتشر الخير للكثير.

و وصفه تعالى بأحسن الخالقين يدل على عدم اختصاص الخلق به و هو كذلك لما تقدم أن معناه التقدير و قياس الشئ من الشئ لا-يختص به تعالى، و فى كلامه تعالى من الخلق المنسوب الى غيره قوله: «وَ إِذْ تَخَلَّقْتَ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ» (المائدة ١١٠)، و قوله:

وَ تَخْلُقُونَ إِيَّاهُ (العنكبوت ١٧).

قوله تعالى: ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ بيان لتمام التدبير الإلهي و أن الموت من المراحل التى من الواجب أن يقطعها الإنسان فى مسير التقدير، و أنه حق كما تقدم فى قوله

تعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبَلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً (الأنبياء ٣٥).

قوله تعالى: ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ و هذا تمام التدبير و هو أعنى البعث آخر مرحله فى مسير الإنسان إذا حل بها لزمها و لا يزال قاطنا بها.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَ مَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ المراد بالطرائق السبع بقريته قوله: «فَوْقَكُمْ» السماوات السبع و قد سماها طرائق -جمع طريقه- و هى السبيل المطروقه لأنها ممر الامر النازل من عنده تعالى الى الأرض، قال تعالى: يَنْتَزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ (الطلاق ١٢)، و قال: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَغْرُجُ إِلَيْهِ (الم السجده ٥). و السبيل التى تسلكها الأعمال فى صعودها إلى الله و الملائكه فى هبوطهم و عروجهم كما قال: إِلَيْهِ يَصِيءُ عَدُوُّ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحِ يَرْفَعُهُ (فاطر / ١٠)، و قال: وَ مَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ (مريم ٦٤).

قوله تعالى: وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ المراد بالسما جبهه العلو فإن ما علاك و أظلك فهو سماء، و المراد بالماء النازل منها ماء المطر.

و فى قوله: «بِقَدَرٍ» دلالة على أن الذى نزل إنما نزل على حسب ما يقتضيه التدبير التام الإلهى الذى يقدره بقدره لا يزيد قطره على ما قدر و لا ينقص، و فى تلميح أيضا الى قوله:

وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر ٢١).

و المعنى: و أنزلنا من جبهه العلو ماء بقدر و هو ماء المطر فأسكناه فى الأرض و هو الذخائر المدخرة من الماء فى الجبال و السهول تتفجر عنه العيون و الأنهار و تكشف عنه الآبار، و إنا لقادرون على أن نذهب بهذا الماء الذى أسكناه فى الأرض نوعا من الزهاب لا تهتدون الى علمه.

قوله تعالى: فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنَابٍ الى آخر الآيه؛

إنشاء الجنات إحدائها و تربيتها، و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: وَ شَجَرَهُ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَ صَبِغٌ لِلآكِلِينَ مَعطوف على «جَنَاتٍ» أى و أنشأنا لكم به شجره فى طور سيناء، و المراد بها شجره الزيتون التى تكثر فى طور سيناء، و قوله: «تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ» أى تنمر ثمره فيها الدهن و هو الزيت فهى تنبت بالدهن، و قوله: «وَ صَبِغٌ لِلآكِلِينَ» أى و تنبت بصبغ للآكلين، و الصبغ بالكسر فالسكون الإدام الذى يؤتدم به، و إنما خصّ شجره الزيتون بالذكر لعجيب أمرها، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسِيتُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا السخ؛ العبره الدلاله يستدل بها على أنه تعالى مدبر لأمر خلقه حين بهم رؤف رحيم، و المراد بسقيه تعالى مما فى بطونها أنه رزقهم من ألبانها، و المراد بالمنافع الكثيره ما ينتفعون من صوفها و شعرها و وبرها و جلودها و غير ذلك، و منها يأكلون.

قوله تعالى: وَ عَلَيْهَا وَ عَلَى الْفَلَكَ تَحْمِلُونَ ضمير «عَلَيْهَا» للأنعام و الحمل على الأنعام هو الحمل على الإبل، و هو حمل فى البر يقابله الحمل فى البحر و هو الحمل على الفلك، فالآيه فى معنى قوله: وَ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ (الإسراء ٧٠)، و الفلك جمع فلكه و هى السفينه.

[سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٢٣ الى ٥٤]

إشارة

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى (٢٤) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحِينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَ فَارَ الْتَنُورِ فَاسْتَلِكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَ لَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَ إِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَ أَنْتَرَفَتْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِذِ الْخَاسِرُونَ (٣٤) أَعْبَدُكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُرَابًا وَ عِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا وَ مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَ مَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَآخَذْتُهُمْ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غَنَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّه أَجْلَهَا وَ مَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَا جَاءَ أُمَّه رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَ جَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعِيدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَ أَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ (٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أُنزِلْنَا مِنْ سَمَوَاتِنَا بِسُحُورٍ مِثْلِنَا وَ قَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّه آيَةً وَ آوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَ مَعِينٍ

(٥٠) يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ
(٥٢) فَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرُهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤)

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ قد تقدم في قصص نوح عليه السلام من سورة هود أنه أول أولى العزم من الرسل أصحاب الكتب و الشرائع المبعوثين الى عامه البشر و الناهضين للتوحيد و نفى الشرك، فالمراد بقومه أمته و أهل عصره عامه.

و قوله: «اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» دعوه الى عباده الله و رفض عباده الآلهه من دونه فإن الوثنيين إنما يعبدون غيره من الملائكة و الجنّ و القديسين بدعوى ألوهيتهم أى كونهم معبودين من دونه.

فقوله عليه السلام لقومه الوثنيين: «اعْبُدُوا اللَّهَ» فى معنى أن يقال: اعبدوا الله وحده كما ورد فى سورة هود «أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» ، و قوله: «مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» فى معنى أن يقال: مالكم من معبود سواه لأنه لا رب غيره يدبر أمركم حتى تعبدوه رجاء لرحمته أو خوفا من سخطه، و قوله بالتفريع على ذلك: «أَفَلَا تَتَّقُونَ» أى إذا لم يكن لكم رب يدبر أموركم دونه أ فلا تتقون عذابه حيث لا تعبدونه و تكفرون به؟

قوله تعالى: فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ - الى قوله - حَتَّىٰ حِينٍ مَلَأَ الْقَوْمَ أَشْرَافَهُمْ، و وصفهم بقوله: «الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ» و وصف

توضيحي لا- احترازي إذ لم يؤمن به من ملأ- قومه أحد بدليل قولهم على ما حكاه الله: وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ
يَبْادِيَ الرَّأْيِ (هود ٢٧).

و السياق يدل على أن الملأ كانوا يخاطبون بمضمون الآيتين عامه الناس لصرف وجوههم عنه و إغرائهم عليه و تحريضهم على
إيذائه و إسكاته، و ما حكاه تعالى من أقاويلهم في الآيتين وجوه أربعة أو خمسة من فريه أو مغالطه لفقوها و احتجوا بها على
بطلان دعوته.

الأول قولهم: «مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ» و محصيه له أنه بشر مثلكم فلو كان صادقا فيما يدعيه من الوحي
الإلهي و الاتصال بالغيب كان نظير ما يدعيه متحققا فيكم إذ لا تنقصون منه في شيء من البشريه و لوازمها، و لم يتحقق فهو
كاذب و كيف يمكن أن يكون كمال في وسع البشر أن يناله ثم لا يناله إلا واحد منهم فقط ثم يدعيه من غير شاهد يشهد
عليه؟ فلم يبق إلا أنه يريد بهذه الدعوه أن يتفضل عليكم و يترأس فيكم و يؤيده أن يدعوكم الى اتباعه و طاعته و هذه الحججه
تنحل في الحقيقه الى حجتين مختلفتين.

و الثاني قولهم: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً» و حصّله أن الله سبحانه لو شاء أن يدعونا بدعوه غيبه لاختار لذلك الملائكه الذين
هم المقربون عنده و الشفعاء الروابط بيننا و بينه فأرسلهم الينا لا- بشرا ممن لا نسبه بينه و بينه. على أن في نزولهم و اعترافهم
بوجوب العباده له تعالى وحده و عدم جواز اتخاذهم أربابا و آلهه معبودين آيه بينه على صحه الدعوه و صدقها.

و التعبير عن إرسال الملائكه بإنزالهم إنما هو لكون إرسالهم يتحقق بالإنزال و التعبير بلفظ الجمع دون الأفراد لعله لكون المراد
بهم الآلهه المتخذة منهم و هم كثيرون.

و الثالث قولهم: «وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى» و محصله أنه لو كانت دعوته حقه لا- تفق لها نظير فيما سلف من تاريخ
الإنسانيه، و آباؤنا كانوا أفضل منا و أعقل و لم يتفق لهم و في أعصارهم ما يناظر هذه الدعوه فليست إلا بدعه و أحدوثه كاذبه.

و الرابع قولهم: «إِنَّ هُوَ إِلَّا- رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ»، الجِنَّةُ إما مصدر أى به جنون أو مفرد الجن أى حل به من الجن من يتكلم على لسانه لأنه يدعى ما لا يقبله العقل السليم و يقول ما لا يقوله إلا مصاب فى عقله فتربصوا و انتظروا به الى حين ما لعله يفيق من حاله جنونه أو يموت فستريح منه.

و هذه حجج مختلفه ألقاها ملاً قومه الى عامتهم أو ذكر كلا منها بعضهم و هى و إن كانت حججا جدليه مدخوله لكنهم كانوا ينتفعون بها حينما يلقونها الى الناس فيصرفون وجوههم عنه و يغرونهم عليه و يمدون فى ضلالهم.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي سؤال منه للنصر و الباء فى قوله: «بِمَا كَذَّبْتَنِي» للبدليه و المعنى انصُرْنِي بدل تكذبيهم لى أو لئلا و عليه فالمعنى انصُرْنِي بالذى كذبونى فيه و هو العذاب فإنهم قالوا: فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (هود ٣٢)، و يؤيده قول نوح رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا (نوح ٢٦)، و فصل الآيه لكونها فى معنى جواب السؤال.

قوله تعالى: فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحَيْنَا إِلَىٰ آخِرِ الْأَيَّهِ؛ متفرع على سؤال النصر، و معنى صنع الفلك بأعينه صنعه بمرأى منه و هو كناية عن كونه تحت مراقبته تعالى و محافظته، و معنى كون الصنع بوحيه كونه بتعليمه الغيبى حالا بعد حال.

و قوله: فَأِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَ فَارَ التَّنُورُ المراد بالأمر- كما قيل -حكمه الفصل بينه و بين قومه و قضاؤه فيهم بالغرق، و السياق يشهد على كون فوران التَّنُورِ بالماء أماره نزول العذاب عليهم و هو أعنى فوران الماء من التَّنُورِ و هو محل النار من عجيب الأمر فى نفسه.

و قوله: فَاسْمُكَ فِيهَا مِنْ كَأَلٍ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ القراءه الدائرته «من كل» بالتنوين و القطع عن الإضافة، و التقدير من كل نوع من الحيوان، و السلوك فيها الإدخال فى الفلك و الظاهر أن «من» لا ابتداء الغايه و المعنى فأدخل فى الفلك زوجين اثنين: ذكر و أنثى من

كل نوع من الحيوان.

□
و قوله: «وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ» معطوف على قوله: «رُوحَيْنِ» و ما قيل: إن عطف «أَهْلَكَ» على «رُوحَيْنِ» يفسد المعنى المراد لرجوع التقدير حينئذ الى قولنا: و اسلك فيها من كل نوع أهلك فالأولى تقدير «أسلك» ثانيا قبل «أَهْلَكَ» و عطفه على «فَأَسْلُوكَ» يدفعه أن «مَنْ كُفِلَ» فى موضع الحال من «رُوحَيْنِ» فهو متأخر عنه رتبة كما قدمنا تقديره فلا يعود ثانيا على المعطوف.

و المراد بالأهل خاصته، و الظاهر أنهم أهل بيته المؤمنون به فقد ذكرهم فى سورة هود مع الأهل و لم يذكر هاهنا إلا الأهل فقط.
و المراد بمن سبق عليه القول منهم امرأته الكافره على ما فهم نوح عليه السّلام و هى و ابنه الذى أبى ركوب السفينه و غرق حينما أوى الى جبل فى الحقيقه، و سبق القول هو القضاء المحتوم بالغرق.

□□
و قوله: «وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرَقُونَ» النهى عن مخاطبته تعالى كناية عن النهى الشديد عن الشفاعة لهم، بدليل تعليق المخاطبه بالذين ظلموا و تعليل النهى بقوله: «إِنَّهُمْ مُعْرَقُونَ» فكأنه قيل: أنهاك عن أصل تكليمى فيهم فضلا أن تشفع لهم فقد شملهم غضبى شمولاً لا يدفعه دافع.

قوله تعالى: «فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِينَ» علمه أن يحمد الله بعد الاستواء على الفلك على تنجيته تعالى من القوم الظالمين و هذا بيان بعد بيان لكونهم هالكين مغرقين حتما، و أن يسأله أن ينجيه من الطوفان و ينزله على الأرض إنزالاً مباركاً ذا خير كثير ثابت فإنه خير المنزلين.

و فى أمره عليه السّلام أن يحمده و يصفه بالجميل دليل على أنه من عباده المخلصين فإنه تعالى منزه عما يصفه غيرهم كما قال:
سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (الصافات)

قوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ خطاب في آخر القصة للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وبيان أن هذه الدعوه مع ما جرى معها كانت ابتلاء أى امتحانا و اختبارا إليها.

قوله تعالى: ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ؛ القرن أَهْلٌ عَصْرٌ وَاحِدٌ، وقوله: «أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ» تفسير لإرسال الرسول من قبيل تفسير الفعل بنتيجته كقوله تعالى: تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا (حم السجده / ٣٠).

قوله تعالى: وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الْآخِرَةِ وَآتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا هؤلاء أشرافهم المتوغلون في الدنيا المخلدون الى الأرض يغرون بقولهم هذا عامتهم على رسولهم.

وقد وصفهم الله بصفات ثلاث و هي: الكفر بالله بعباده غيره، والتكذيب بقاء الآخرة - أى بقاء الحياه الآخرة بقريته مقابلتها لقوله: «فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» -، ول كفرهم بالمبدأ و المعاد انقطعوا عما وراء الدنيا فانكبوا عليها ثم لما أترفوا في الحياه الدنيا و تمكنوا من زخارفها و زيناتها المملده اجتذبتهم الدنيا الى نفسها فاتبعوا الهوى و نسوا كل حق و حقيقه، و لذلك تفوهوا تاره بنفى التوحيد و الرساله و تاره بإنكار المعاد و تاره ردوا الدعوه بإضرارها دنياهم و حرمتهم فى اتباع هواهم.

و اعلم أن فى قوله فى صدر الآيات: «وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الْآخِرَةِ وَآتَرَفْنَاهُمْ» قدم قوله: «مِنْ قَوْمِهِ» على «الَّذِينَ كَفَرُوا» بخلاف ما فى القصة السابقه من قوله:

«فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ» لأنهم لو وقع بعد «الَّذِينَ كَفَرُوا» اختلّ به ترتيب الجمل المتواليه «كَفَرُوا» و «كَذَّبُوا» و «آتَرَفْنَاهُمْ» و لو وقع بعد الجميع طال الفصل.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ تقدم تفسيره فى القصة السابقه.

قوله تعالى: قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُضِيَ بَحْنٌ نَادِمِينَ استجابته لدعوه الرسول و صيرورتهم نادمين كناية عن حلول عذاب الاستئصال بهم، و قوله: «عَمَّا قَلِيلٍ» عن بمعنى بعد و«ما» للتأكيد القله و لضمير الجمع للقوم، و الكلام مؤكد بلام القسم و نون التأكيد، و المعنى: أقسم لتأخذنهم الندامه بعد قليل من الزمان بمشاهده حلول العذاب.

قوله تعالى: فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُنَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ الباء فى «بِالْحَقِّ» للمصاحبه و هو متعلق بقوله: «فَأَخَذْتَهُمُ» أى أخذتهم الصيحه أخذا مصاحبا للحق، أو للسببيه، و الحق وصف أقيم مقام موصوفه المحذوف و التقدير فأخذتهم الصيحه بسبب الأمر الحق أو القضاء الحق كما قال: فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ (المؤمن ٧٨).

و الغناء بضم الغين و ربما شددت التاء: ما يحمله السيل من يابس النبات و الورق و العيدان الباليه، و قوله: «فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» إبعاد و لعن لهم أو دعاء عليهم.

و المعنى: فأنجزنا للرسول ما وعدنا من عذابهم فأخذتهم الصيحه السماويه و هى العذاب فأهلكناهم و جعلناهم كغناء السيل فليبعد القوم الظالمون بعدا.

و لم يصرح باسم هؤلاء القوم الذين أنشأهم بعد قوم نوح ثم أهلكتهم و لا باسم رسولهم، و ليس من البعيد أن يكونوا هم ثمود قوم صالح عليه السلام فقد ذكر الله سبحانه فى قصتهم فى مواضع من كلامه أنهم كانوا بعد قوم نوح و قد أهلکوا بالصيحه.

قوله تعالى: ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّه أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ تقدم توضيح مضمون الآيتين كرارا.

قوله تعالى: ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّه رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ يقال: جاءوا تترى أى فرادى يتبع بعضهم بعضا، و منه التواتر و هو تتابع الشىء و ترا و فرادى، و عن الأصمعى: و اتترت الخبر أتبع بعضه بعضا و بين الخبرين هنيهة انتهى.

و الكلام من تنمه قوله: «ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا» و «ثُمَّ» للتراخي بحسب الذكر دون الزمان، و القصه إجمال منتزع من قصص الرسل و أممهم بين أمه نوح و الامه الناشئه بعدها و بين أمه موسى.

يقول تعالى: ثم أنشأنا بعد تلك الامه الهالكه بالصيحه بعد أمه نوح قرونا و أمما آخرين و أرسلنا اليهم رسلنا متتابعين يتبع بعضهم بعضا كلما جاء أمه رسولها المبعوث منها إليها كذبوه فأتبعنا بعضهم أى بعض هذه الامم بعضا أى بالعذاب و جعلناهم أحاديث أى صيرناهم قصصا و أخبارا بعد ما كانوا أعيانا ذوات آثار فليعد قوم لا يؤمنون.

و الآيات تدل على أنه كان من سنه الله إنشاء قرن بعد قرن و هدايتهم الى الحق بإرسال رسول بعد رسول و هى سنه الابتلاء و الامتحان، و من سنه القرون تكذيب الرسول بعد الرسول ثم من سنه الله ثانيا- و هى سنه المجازاه- تعذيب المكذبين و اتباع بعضهم بعضا.

و قوله: وَ جَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ أَبْلَغَ كَلِمَةٍ تَفْصَحُ عَنِ الْقَهْرِ الإلهى الذى يغشى أعداء الحق و المكذبين لدعوته حيث يمحو العين و يعفو الأثر و لا يبقى إلا الخبر.

قوله تعالى: ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ الآيات هى العصا و اليد البيضاء و سائر الآيات التى أراها موسى فرعون و قومه، و السلطان المبين الحجه الواضحه، و تفسير بعضهم السلطان بالعصا غير سديد.

قوله تعالى: إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا عَالِينَ قِيلَ: إنما ذكر ملاء فرعون و اكتفى بهم عن ذكر قومه لأنهم الأشراف المتبوعون و سائر القوم أتباع يتبعونهم.

و المراد بكونهم عالين أنهم كانوا يعلون على غيرهم فيستعبدونهم كما علوا على بنى إسرائيل و استعبدوهم فالعلو فى الأرض كناية عن التطاول على أهلها و قهرهم على الطاعه.

قوله تعالى: فَقَالُوا أَ نُنُومٌ لِّبَشَرٍ مِّثْلِنَا وَ قَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ المراد

بكونهما بشرين مثلهم نفى أن يكون لهما فضل عليهم، و يكون قومهما عابدين فضلهم عليهما كما فضلوا على قومهما فإذا كان الفضل لهم عليهما كان من الواجب أن يعبداهم كما عبدهم قومهما لا أن يؤمنوا بهما كما قال فرعون لموسى: لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ ثُمَّ ختم تعالى القصة بذكر هلاكهم فقال: «فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ» ثم قال: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ» والمراد بهم بنو إسرائيل لأن التوراه إنما نزلت بعد هلاك فرعون و ملائه.

قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً وَ آوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَ مَعِينٍ تقدم أن الآيه هى ولاده عيسى عليه السلام الخراقه للعادة و إذ كانت أمرا قائما به و بامه معا عدا جميعا آيه واحده.

و الإيواء من الاوى و أصله الرجوع ثم استعمل فى رجوع الإنسان الى مسكنه و مقره، و آواه الى مكان كذا أى جعله مسكنا له و الربوه المكان المرتفع المستوى الواسع، و المعين الماء الجارى.

و المعنى: و جعلنا عيسى بن مريم و أمه مريم آيه داله على ربوبيتنا و أسكناهما فى مكان مرتفع مستو و سيع فيه قرار و ماء جار.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ اعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ خطاب لعامه الرسل بأكل الطيبات و كأن المراد بالأكل منها الارتزاق بها بالتصرف فيها سواء كان بأكل أو غيره و هو استعمال شائع.

و السياق يشهد بأن فى قوله: «كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ» امتنانا منه تعالى عليهم، ففى قوله عقيبه: «وَ اعْمَلُوا صَالِحًا» أمر بمقابله المنه بصالح العمل و هو شكر للنعمة و فى تعليه بقوله:

«إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ» تحذير لهم من مخالفه أمره و بعث الى ملازمه التقوى.

قوله تعالى: وَ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ تقدم تفسير

نظيره الآيه فى سورة الأنبياء.

قوله تعالى: فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ فى المجمع أن التقطع و التقطيع بمعنى واحد، و الزبر بضمين جمع زبور و هو الكتاب، و الكلام متفرع على ما تقدمه، و المعنى أن الله أرسل اليهم رسله تترى و الجميع أمه واحده لهم رب واحد دعاهم الى تقواه لكنهم لم يأتروا بأمره و قطعوا أمرهم بينهم قطعاً و جعلوه كتباً اختص بكل كتاب حزب و كل حزب بما لديهم فرحون.

و فى قراءه ابن عامر «زُبُرًا» بفتح الباء و هو جمع زبره و هى الفرقه، و المعنى و تفرقوا فى أمرهم جماعات و أحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون، و هى أرجح.

قوله تعالى: فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ قال فى المفردات: الغمره معظم الماء الساتره لمقرها و جعل مثلاً للجهاله التى يغمر صاحبها، انتهى. و فى الآيه تهديد بالعذاب، و قد تقدمت إشاره الى أن من سنته تعالى المجازاه بالعذاب بعد تكذيب الرساله، و فى تنكير «حِينٍ» إشاره الى إتيان العذاب الموعود بغته.

[سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٥٥ الى ٧٧]

إشارة

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشِيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَ الَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ هُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) وَ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَ لَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) يَلِ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ مِنْ هَذَا وَ لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعِذَابِ إِذَا هُمْ يَجْرَأُونَ (٦٤) لَا تَجْرَأُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنْدًا لَا تَنْصِرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تَنْكِبُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرَهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَ لَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَ إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣) وَ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَا كِبُونَ (٧٤) وَ لَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَ كَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُودُ فِي طِعَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَ لَقَدْ أَخَذْنَا هُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَعَاذُوا لِرَبِّهِمْ وَ مَا يَنْصُرُهُمْ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧)

ص: ٣٧٨

قوله تعالى: أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُمدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ نَسَارِعِ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ «نُمدُّهُمْ» -بضم النون- من الإمداد و المد و الإمداد بمعنى واحد و هو تتميم نقص الشيء و حفظه من أن ينقطع أو ينفد، قال الراغب: و أكثر ما يستعمل الإمداد في المحبوب و المد في المكروه، فقوله: «نُمدُّهُمْ» من الإمداد المستعمل في المكروه و المسارعه لهم في الخيرات إفاضه الخيرات بسرعه لكرامتهم عليه فيكون الخيرات على ظنهم هي المال و البنون سورع لهم فيها.

و المعنى: أَيْظن هؤلاء أن ما نعطيهم في مده المهله من مال و بنين خيرات نَسارِع لهم فيها لرضانا عنهم أو حبنا لأعمالهم أو كرامتهم علينا؟

لا، بل لا- يشعرون أى إن الأمر على خلاف ما يظنون و هم فى جهل بحقيقه الأمر و هو أن ذلك إمداء منا و استدراج و إنما نمدّهم فى طغيانهم يعمهون كما قال تعالى: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَ أُمَلِّى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (الأعراف ١٨٣).

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ الى آخر الآيات

الخمسة؛ يبين تعالى في هذه الآيات الخمس بمعونه ما تقدم أن الذى يظن هؤلاء الكفار أن المال و البنين خيرات نساوع لهم فيها خطأ منهم فليست هى من الخيرات فى شىء بل استدراج و إملاء و إنما الخيرات التى يسارع فيها هى ما عند المؤمنين بالله و رسله و اليوم الآخر الصالحين فى أعمالهم.

فأفصح تعالى عن وصفهم فقال: «إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشِيهِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ»، قال الراغب:

الإشفاق عناية مختلطة بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه و يخاف ما يلحقه، قال تعالى:

وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ فَإِذَا عَدَىٰ بِمَنْ فَمَعْنَى الْخَوْفِ فِيهِ أَظْهَرَ، وَإِذَا عَدَىٰ بِفِي فَمَعْنَى الْعِنَايَةِ فِيهِ أَظْهَرَ، قَالَ: «إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ» «مُشْفِقُونَ مِنْهَا» انتهى.

و الآية تصفهم بأنهم اتخذوا الله سبحانه ربا يملكهم و يدبر أمرهم، و لازم ذلك أن يكون النجاه و الهلاك دائرين مدار رضاه و سخطه يخشونه فى أمر يحبونه و هو نجاتهم و سعادتهم فهم مشفقون من خشيته و هذا هو الذى يبعثهم الى الإيمان بآياته و عبادته، و قد ظهر بما مر من المعنى أن الجمع فى الآية بين الخشية و الإشفاق ليس تكرارا مستدركا.

ثم قال: وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ و هى كل ما يدل عليه تعالى بوجه و من ذلك رسله الحاملون لرسالته و ما أيدوا به من كتاب و غيره و ما جاءوا به من شريعة لأن إشفاقهم من خشية الله يبعثهم الى تحصيل رضاه و يحملهم على إجابته الى ما يدعوهم اليه و ائتمارهم لما يأمرهم به من طريق الوحي و الرساله.

ثم قال: وَ الَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ و الإيمان بآياته هو الذى دعاهم الى نفي الشركاء فى العباده فإن الإيمان بها إيمان بالشريعة التى شرعت عباده تعالى و الحجج التى دلت على توحيده فى ربوبيته و ألوهيته.

على أن جميع الرسل و الأنبياء عليهم السلام إنما جاءوا من قبله و إرسال الرسل لهدايه الناس الى الحق الذى فيه سعادتهم من شئون الربوبية، و لو كان له شريك لأرسل رسولا، و من لطيف

كلام على عليه أفضل السلام قوله: لو كان لربك شريك لأنتك رسله.

ثم قال: وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ الوجل الخوف، وقوله: «يُؤْتُونَ مَا آتَوْا» أى يعطون ما أعطوا من المال بالإففاق فى سبيل الله وقيل: المراد بإيتاء ما آتوا إتيانهم بكل عمل صالح، وقوله: «وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ» حال من فاعل «يُؤْتُونَ» .

و المعنى و الذين ينفقون ما أنفقوا أو يأتون بالأعمال الصالحة و الحال أن قلوبهم خائفه من أنهم سيرجعون الى ربهم أى إن الباعث لهم على الإففاق فى سبيل الله أو على صالح العمل ذكرهم رجوعهم المحتوم الى ربهم على على وجل منه.

و فى الآيه دلالة على إيمانهم باليوم الآخر و إتيانهم بصالح العمل و عند ذلك تعينت صفاتهم أنهم الذين يؤمنون بالله وحده لا شريك له و برسله و باليوم الآخر و يعملون الصالحات.

ثم قال: أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ هُمْ لَهُمْ سَابِقُونَ الظاهر أن اللام فى «لها» بمعنى «الى» و «لها» متعلق بسابقون، و المعنى اولئك الذين وصفناهم هم يسارعون فى الخيرات من الأعمال و هم سابقون إليها أى يتسابقون فيها لأن ذلك لازم كون كل منهم مريدا للسبق إليها.

فقد بين فى الآيات أن الخيرات هى الأعمال الصالحة المبتنيه على الاعتقاد الحق الذى عند هؤلاء المؤمنين و هم يسارعون فيها و ليست الخيرات ما عند اولئك الكفار و هم يعدونها بحسبانهم مسارعه من الله سبحانه لهم فى الخيرات.

قوله تعالى: وَلَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَ لَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ الذى يعطيه السياق أن فى الآيه ترغيبا و تحضيضا على ما ذكره من صفات المؤمنين و دفعا لما ربما ينصرف الناس بتوهمه عن التلبس بكرامتها من وجهين أحدهما أن التلبس بها أمر سهل فى وسع النفوس و ليس بذاك الصعب الشاق الذى يستوعره المترفون،

و الثاني أن الله لا يضيع عملهم الصالح و لا ينسى أجرهم الجزيل.

فقوله: **وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** نفى للتكليف الحرجى الخارج عن وسع النفوس أما فى الاعتقاد فإنه تعالى نصب حججا ظاهره و آيات باهره تدل على ما يريد الإيمان به من حقائق المعارف و جهز الإنسان بما من شأنه أن يدركها و يصدق بها و هو العقل ثم راعى حال العقول فى اختلافها من جهه قوه الإدراك و ضعفه فأراد من كل ما يناسب مقدار تحمله و طوقه فلم يرد من العامه ما يرده من الخاصه و لم يسأل الأبرار عما سأل عنه المقربين و لا ساق المستضعفين بما ساقه به المخلصين.

و أما فى العمل فإنما ندب الإنسان منه الى ما فيه خيره فى حياته الفرديه و الاجتماعيه الدنيويه و سعاده فى حياته الاخرويه، و من المعلوم أن خير كل نوع من الأنواع و منها الإنسان إنما يكون فيما يتم به حياته و ينتفع به فى عيشته و هو مجهز بما يقوى على إتيانه و عمله، و ما هذا شأنه لا يكون حرجيا خارجا عن الوسع و الطاقه.

فلا- تكليف حرجيا فى دين الله بمعنى الحكم الحرجى فى تشريعه مبنيا على مصلحه حرجيه، و بذلك امتن الله سبحانه على عباده، و طيب نفوسهم و رغبهم الى من وصفه من حال المؤمنين.

و الآيه **وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** تدل على ذلك و زياده فإنها تدل على نفى التكليف المبني على الحرج فى أصل تشريعه كتشريع الرهبانيه و التقرب بذبح الأولاد مثلا، و نفى التكليف الذى هو فى نفسه غير حرجى لكن اتفق أن صار بعض مصاديقه حرجيا لخصوصيه فى المورد كالقيام فى الصلاه للمريض الذى لا يستطيعه فالجميع منفى بالآيه و إن كان الامتتان و الترغيب المذكوران يتمان بنفى القسم الأول.

و الدليل عليه فى الآيه تعلق نفى التكليف بقوله: «نَفْسًا» و هو نكره فى سياق النفى يفيد العموم، و عليه فأى نفس مفروضه فى أى حادثه لا تكلف إلا وسعها و لا يتعلق بها حكم

حرجى سواء كان حرجيا من أصله أو صار حرجيا فى خصوص المورد.

وقد ظهر أن فى الآيه إمضاء لدرجات الاعتقاد بحسب مراتب العقول و رفعا للحرج سواء كان فى أصل الحكم أو طارئا عليه.

وقوله: **وَ لَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ترغيب لهم بتطيب نفوسهم بأن عملهم لا يضيع و أجرهم لا يتخلف و المراد بنطق الكتاب إعرابه عما أثبت فيه إعرابا لا لبس فيه و ذلك لأن أعمالهم مثبتة فى كتاب لا ينطق إلا بما هو حق فهو مصون عن الزيادة و النقيصه و التحريف، و الحساب مبنى على ما أثبت فيه كما يشير اليه قوله: **«يَنْطِقُ»** و الجزء مبنى على ما يستنتج من الحساب كما يشير اليه قوله: **«وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ»** فهم فى أمن من الظلم بنسيان أجرهم أو بترك إعطائه أو بنقصه أو تغييره كما أنهم فى أمن من أن لا يحفظ أعمالهم أو تنسى بعد الحفظ أو تتغير بوجه من وجوه التغير.

قوله تعالى: **يَلِ لِقُلُوبِهِمْ فِى غَمْرِهِ مِنْ هَذَا وَ لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ** المناسب لسياق الآيات أن يكون **«هَذَا»** إشارة الى ما و صفته الآيات السابقة من حال المؤمنين و مسارعتهم فى الخيرات، و يمكن أن يكون إشارة الى القرآن كما يؤيده قوله بعد: **«قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ»** و الغمره الغفله الشديده أو الجهل الشديد الذى غمرهم، و قوله: **«وَ لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ»** الخ؛ أى من غير ما وصفناه من حال المؤمنين و هو كناية عن أن لهم شاغلا يشغلهم عن هذه الخيرات و الأعمال الصالحة و هو الأعمال الرديئه الخبيثه التى هم لها عاملون.

و المعنى: بل الكفار فى غفله شديده أو جهل شديد عن هذا الذى وصفنا به المؤمنين و لهم أعمال رديئه خبيثه من دون ذلك هم لها عاملون فى شاغلتهم و مانعتهم.

قوله تعالى: **حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعِذَابِ إِذَا هُمْ يَجْرَأُونَ الْجِوَارِ - بضم الجيم - صوت الوحش كالظباء و نحوها عند الفرع كنى به عن رفعهم الصوت**

بالاستغاثه و التضرّع، و قيل: المراد به ضجّتهم و جزعهم و الآيات التاليه تؤيد المعنى الأول.

و إنما جعل مترفيهم متعلق العذاب لأن الكلام فيمن ذكره قبلا بقوله: «أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ» و هم الرؤساء المتنعمون منهم و غيرهم تابعون لهم.

قوله تعالى: «لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنْهُ لَا تَنْصُرُونَ الْعُدُولَ عَنْ سِيَاقِ الْغَيْبِ إِلَى الْخُطَابِ لِتَشْدِيدِ التَّوْبِيخِ وَ التَّقْرِيعِ وَ لِقَطْعِ طَمَعِهِمْ فِي النِّجَاحِ بِسَبَبِ الْإِسْتِغَاثَةِ وَ أَى رَجَاءٍ وَ أَمَلٍ لَهُمْ فِيهَا فَإِنْ إِخْبَارِ الْوَسَائِطِ أَنَّهُمْ لَا يَنْصُرُونَ لِدَعَاءٍ أَوْ شَفَاعَةٍ لَا يَقْطَعُ طَمَعَهُمْ فِي النِّصْرِ كَمَا يَقْطَعُهُ إِخْبَارُ مَنْ إِلَيْهِ النِّصْرُ نَفْسَهُ.

قوله تعالى: «قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ» -الى قوله- تَهْجُرُونَ النُّكُوصَ:

الرجوع القهقري، و السامر من السمر و هو التحديث بالليل، قيل: السامر كالحاضر يطلق على المفرد و الجمع، و قرئ «سَمْرًا» -بضم السين و تشديد الميم- جمع سامر و هو أرجح، و قرئ أيضا «سَمَارًا» -بالضم و التشديد-، و الهجر: الهديان.

و الفصل فى قوله: «قَدْ كَانَتْ آيَاتِي» الخ؛ لكونه فى مقام التعليل، و المعنى: إنكم منا لا تنصرون لأنه قد كانت آياتى تتلى و تقرا عليكم فكنتم تعرضون عنها و ترجعون الى أعقابكم القهقري مستكبرين بنكوصكم تحدّثون فى أمره فى الليل تهجرون و تهذون، و قيل: ضمير «به» عائذ الى البيت أو الحرم و هو كما ترى.

قوله تعالى: «أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ شُرُوعَ فِي قَطْعِ أَعْذَارِهِمْ فِي الْإِعْرَاضِ عَنِ الْقُرْآنِ النَّازِلِ لِهَدَايَتِهِمْ وَ عَدَمِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِلدَّعْوَةِ الْحَقَّةِ الَّتِي قَامَ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

فقوله: «أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ» الاستفهام فيه للإنكار و اللام فى «الْقَوْلَ» للعهد و المراد به القرآن المتلو عليهم، و الكلام متفرع على ما تقدمه من كونهم فى غفله منه و شغل يشغلهم عنه، و المعنى: هل إذا كانوا على تلك الحال لم يدبّروا هذا القول المتلو عليهم حتى يعلموا أنه

حق من عند الله فيؤمنوا به.

وقوله: «أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأُولِينَ» «أَمْ» فيه و فيما بعده منقطعه في معنى الإضراب، و المعنى: بل أجاهم شيء لم يأت آباءهم الأولين فيكون بدعا ينكر و يحترز منه.

و كون الشيء بدعا محدثا لا يعرفه السابقون و إن لم يستلزم كونه باطلا غير حق على نحو الكليه لكن الرساله الإلهيه لما كانت لغرض الهدايه لو صحّت و جبت في حق الجميع فلو لم يأت الأولين كان ذلك حجه قاطعه على بطلانها.

قوله تعالى: أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ المراد بمعرفه الرسول معرفته بنسبه و حسبه و بالجمله بسجاياه الروحيه و ملكاته النفسيه من اكتسابيه و موروثه حتى يتبين به أنه صادق فيما يقول مؤمن بما يدعو اليه مؤيد من عند الله و قد عرفوا من النبي صلى الله عليه و آله و سلم سوابق حاله قبل البعثه، و قد كان يتيما فاقدا للأبوين لم يقرأ و لم يكتب و لم يأخذ أدبا من مؤدب و لا تربيه من مرب ثم لم يجدوا عنده ما يستقبحه عقل أو يستنكره طبع أو يستهجنه رأى و لا طمعا في ملك أو حرصا على مال أو ولعا بجاه، و هو على ما هو سنين من عمره فإذا هو ينادى للفلاح و السعاده و يندب الى حقائق معارف تبهر العقول و يدعو الى شريعته تحيّر الألباب و يتلو كتابا.

فهم قد عرفوا رسولهم صلى الله عليه و آله و سلم بنعوته الخاصه المعجزه لغيره، و لو لم يكونوا يعرفونه لكان لهم عذرا في إعراضهم عن دينه و استنكافهم عن الإيمان به لأن معنى عدم معرفته كذلك وجدانه على غير بعض هذه النعوت أو عدم إحرازه فيه، و من المعلوم أن إلقاء الزمام الى من هذا شأنه مما لا يجوز العقل.

قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ وَ هَذَا عذر آخر لهم تشبّثوا به إذ قالوا: يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (الحجر ٦) ذكره و رده بلازم قوله: «بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ» .

فمدلول قوله: **بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** إضراب عن جملة محذوفه و التقدير إنهم كاذبون في قولهم: «بِهِ جِنَّةٌ» و اعتذارهم عن عدم إيمانهم به بذلك بل إنما كرهوا الإيمان به لأنه جاء بالحق و أكثرهم للحق كارهون.

و لانزمه رد قولهم بحجه يلوح إليها هذا الاضراب، و هي أن قولهم: «بِهِ جِنَّةٌ» لو كان حقا كان كلامه مختلّ النظم غير مستقيم المعنى مدخولا فيه كما هو مدخول في عقله، غير رام الى مرمى صحيح، لكن كلامه ليس كذلك فلا يدعو إلا الى حق، و لا يأتي إلا بالحق، و أين ذلك من كلام مجنون لا يدرى ما يريد و لا يشعر بما يقول.

و إنما نسب الكراهه الى أكثرهم لأن فيهم مستضعفين لا يعبأ بهم أرادوا أو كرهوا.

قوله تعالى: **وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ** بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ لما ذكر أن أكثرهم للحق كارهون و إنما يكرهون الحق لمخالفته هواهم فهم يريدون من الحق أى الدعوه الحقه أن يتبع أهواءهم و هذا مما لا يكون البتة.

إذ لو اتبع الحق أهواءهم فتركوا و ما يهوونه من الاعتقاد و العمل فعبدوا الأصنام و اتخذوا الأرباب و نفوا الرساله و المعاد و اقترفوا ما أرادوه من الفحشاء و المنكر و الفساد جاز أن يتبعهم الحق فى غير ذلك من الخليقه و النظام الذى يجرى فيها بالحق إذ ليس بين الحق و الحق فرق فاعطى كل منهم ما يشتهييه من جريان النظام و فيه فساد السماوات و الأرض و من فيهن و اختلال النظام و انتفاض القوانين الكليه الجاربه فى الكون فمن البين أن الهوى لا يقف على حد و لا يستقر على قرار.

قوله تعالى: **أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَجَ رَبُّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرٌ الرَّازِقِينَ** قال فى مجمع البيان: أصل الخراج و الخرج واحد و هو الغله التى يخرج على سبيل الوظيفه انتهى.

و هذا رابع الأعدار التي ذكرت في هذه الآيات وردت و وبخوا عليها و قد ذكره الله بقوله:

«أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا» أى مالا- يدفعونه اليك على سبيل الرسم و الوظيفة ثم ذكر غنى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بقوله: «فَخَرَّاجٌ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرٌ الرَّازِقِينَ» أى إن الله هو رازقك و لا- حاجه لك الى خرجهم، و قد تكرر الأمر بإعلامهم ذلك فى الآيات قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا (الأنعام/٩٠)/(الشورى/٢٣).

و قد تمت بما ذكر فى الآيه أربعة من الأعدار المردوده اليهم و هى مختلفه فأولها «أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ» راجع الى القرآن و الثانى «أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأُولِينَ» الى الدين الذى اليه الدعوه، و الثالث «أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ» الى نفس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و الرابع «أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا» الى سيرته.

قوله تعالى: وَ إِنَّكَ لَتِيدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَا كِبُونَ النكب و النكوب العدول عن الطريق و الميل عن الشىء.

قد تقدم فى تفسير سوره الفاتحه أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذى لا يختلف و لا يتخلف فى حكمه و هو إيصاله سالكيه الى الغايه المقصوده، و هذه صفه الحق فإن الحق واحد لا يختلف أجزاءه بالتناقض و التدافع و لا يتخلف فى مطلوبه الذى يهدى اليه فالحق صراط مستقيم، و إذ ذكر أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم يهدى الى الحق كان لازمه هذا الذى ذكره أنه يهدى الى صراط مستقيم.

ثم إن الذين كفروا لما كانوا كارهين للحق كما ذكره فهم عادلون عن الصراط أى الصراط المستقيم مائلون الى غيره.

و إنما أورد من أوصافهم عدم إيمانهم بالآخره و اقتصر عليه لأن دين الحق مبنى على أساس أن للإنسان حياه خالده لا تبطل بالموت و له فيها سعاده يجب أن تقتنى بالاعتقاد الحق

و العمل الصالح و شقاوه يجب أن تجتنب، و هؤلاء لنفيهم الحياه الآخره يعدلون عن الحق و الصراط المستقيم.

و بتقرير آخر: دين الحق مجموع تكاليف اعتقاديه و عمليه و التكليف لا يتم إلا بحساب و جزاء، و قد عين لذلك يوم القيامه، و إذ لا يؤمن هؤلاء بالآخره لغى الدين عندهم فلا يرون من الحياه إلا الحياه الدنيا الماديه و لا يبقى من السعاده عندهم إلا نيل اللذائذ الماديه و هو التمتع بالبطن فما دونه، و لازم ذلك أن يكون المتبع عندهم الهوى وافق الحق أو خالفه.

فمحصل الآيتين أنهم ليسوا بمؤمنين بك لأنك تدعو الى صراط مستقيم و هم لا هم لهم إلا العدول و الميل عنه.

قوله تعالى: **وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ** - الى قوله - **وَمَا يَتَضَرَّعُونَ** اللجاج التمادى و العناد فى تعاطى الفعل المزجور عنه، و العمه التردد فى الأمر من التحير، ذكرهما الراغب، و فى المجمع: الاستكانه الخضوع و هو استفعل من الكون، و المعنى ما طلبوا الكون على صفة الخضوع. انتهى.

و قوله: **وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ** بيان و تأييد لنكوبهم عن الصراط بأنا لو رحمناهم و كشفنا ما بهم من ضر لم يرجعوا بمقابله ذلك الشرك أصروا على تمردهم عن الحق و تمادوا يترددون فى طغيانهم فلا- ينفعهم رحمه بكشف الضر كما لا ينفعهم تخويف بعذاب و نقمه فإننا قد أخذناهم بالعذاب فما خضعوا لربهم و ما يتضرعون اليه فهؤلاء لا ينفعهم و لا يركبهم صراط الحق لا رحمه بكشف الضر و لا نقمه و تخويف بالأخذ بالعذاب.

و المراد بالعذاب العذاب الخفيف الذى لا- ينقطع به الإنسان عن عامه الأسباب بقريته ما فى الآيه التاليه فلا يرد أن الرجوع الى الله تعالى عند الاضطراب و الانقطاع عن الأسباب من غريزيات الإنسان كما تكرر ذكره فى القرآن الكريم فكيف يمكن أن يأخذهم العذاب ثم لا يستكينوا و لا يتضرعوا؟

و قوله فى الآيه الاولى: «مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ» وفى الثانى «وَلَقَدْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ» يدل على أن الكلام ناظر الى عذاب قد وقع و لما يرتفع حين نزول الآيات، و من المحتمل أنه الجذب الذى ابتلى به أهل مكه و قد ورد ذكر منه فى الروايات.

قوله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ أى هم على حالهم هذه لا ينفع فيهم رحمه و لا عذاب حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد و هو الموت بما يستتبعه من عذاب الآخرة-على ما يعطيه سياق الآيات و خاصة الآيات الآتية-فيفاجئوهم الإبلاس و اليأس من كل خير.

و قد ختم هذا الفصل من الكلام أعنى قوله: «أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ» الخ؛ بنظير ما ختم به الفصل السابق أعنى قوله: «أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ» الى آخر الآيات؛ و هو ذكر عذاب الآخرة، و سيعود اليه ثانيا.

[سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٧٨ الى ٩٨]

إشارة

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ لَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا وَ عِظَامًا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّنْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَ لَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سِبْغَانِ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (٩١) عَالَمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيئِنِي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَ إِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لِقَادِرُونَ (٩٥) إِذْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يُصِفُونَ (٩٦) وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَ أَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨)

قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ افتتح سبحانه من نعمه التي أنعمها عليهم بذكر إنشاء السمع والبصر وهما نعمتان خصّ بهما جنس الحيوان خلقنا فيه إنشاء وإبداعا لا- عن مثال سابق إذ لا توجدان في الأنواع البسيطة التي قبل الحيوان كالنبات والجماد والعناصر.

وبحصول هذين الحسنيين يقف الوجود المجهز بهما موقفا جديدا و يتسع مجال فعاليته بالنسبة الى ما هو محروم منهما اتساعا لا يتقدر بقدر فيدرك خيره و شره و نفعه و ضارّه و يعطى معهما الحركة الإرادية الى ما يريد و عما يكرهه، و يستقر في عالم حديث طرى فيه مجالى الجمال و اللذة و العزه و الغلبه و لمحبه مما لا خبر عنه فيما قبله.

و إنما اقتصر من الحواس بالسمع والبصر-قيل-لأن الاستدلال يتوقف عليهما و يتم بهما.

ثم ذكر سبحانه الفؤاد و المراد به المبدأ الذى يعقل من الإنسان و هو نعمه خاصه بالإنسان من بين سائر الحيوان و مرحله حصول الفؤاد مرحله وجوديه جديده هى أرفع درجه و أعلى منزله و أوسع مجالا من عالم الحيوان الذى هو عالم الحواس فيتسع به أولا شعاع عمل الحواس مما كان عليه فى عامه الحيوان بما لا يتقدر بقدر فإذا الإنسان يدرك بهما ما غاب و ما حضر و ما مضى و ما غبر من أخبار الأشياء و آثارها و أوصافها بعلاج و غير علاج.

ثم يرقى بفؤاده أى بتعقله الى ما فوق المحسوسات و الجزئيات فيتعقل الكليات فيحصل القوانين الكليه، و يغور متفكرا فى العلوم النظرية و المعارف الحقيقيه، و ينفذ بسلطان التدبر فى أقطار السماوات و الأرض.

ففى ذلك كله من عجب التدبير الإلهى بإنشاء السمع و الأبصار و الأفئده ما لا يسع الإنسان أن يستوفى شكره.

و قوله: «قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ» فيه بعض العتاب و معناه تشكرون شكرا قليلا فقوله:

«قَلِيلًا» وصف للمفعول المطلق قائم مقامه.

قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ قال الراغب:

الذرا إظهار الله تعالى ما أبداه يقال: ذرأ الله الخلق أى أوجد أشخاصهم. و قال: الحشر إخراج الجماعة عن مقرهم و إزعاجهم عنه الى الحرب و نحوها. انتهى.

فالمعنى: أنه لما جعلكم ذوى حس و عقل أظهر وجودكم فى الأرض متعلقين بها ثم يجمعكم و يرجعكم الى لقائه.

قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ معنى الآية ظاهر، و قوله: «وَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ» مترتب بحسب المعنى على الجملة التى قبله أى لما جعلكم ذوى علم و أظهر وجودكم فى الأرض الى حين حتى تحشروا اليه لزمتم ذلك سنه الإحياء و الإماتة إذ العلم متوقف على الحياه و الحشر متوقف على الموت.

و قوله: «وَ لَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» مترتب على ما قبله فإن الحياه ثم الموت لا تتم إلا بمرور الزمان و ورود الليل بعد النهار و النهار بعد الليل حتى ينقضى العمر و يحل الأجل المكتوب، هذا لو أريد باختلاف الليل و النهار و ورود الواحد منهما بعد الواحد، و لو أريد به اختلافهما فى الطول و القصر كانت فيه إشاره الى إيجاد فصول السنه الأربعة المتفرعه على طول الليل و النهار و قصرهما و بذلك يتم أمر أرزاق الحيوان و تدبير معاشها كما قال: «وَ قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (حم السجده ١٠)».

قوله تعالى: بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ إضراب عن نفى سابق يدلّ عليه الاستفهام المتقدم أى لم يعقلوا بل قالوا كذا و كذا.

و فى تشبيه قولهم بقول الأولين إشاره الى أن تقليد الآباء منعهم عن اتباع الحق و أوقعهم فيما

لا- يبقى معه للدين جدوى و هو نفى المعاد،و الإخلاص الى الأرض و الانغمار فى الماديات سنه جاريه فيهم فى آخرهم و أوليهم.

قوله تعالى: قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا وَ عِظَامًا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ بَيَان لقوله:

«قَالُوا» فى الآيه السابقه و الكلام مبنى على الاستبعاد.

قوله تعالى: لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ الأساطير الأباطيل و الأحاديث الخرافيه و هى جمع أسطوره كأكاذيب جمع أكذوبه و أعاجيب جمع أعجوبه و إطلاق الأساطير و هو جمع على البعث و هو مفرد بعنايه أنه مجموع عدات كل واحد منهما أسطوره كالإحياء و الجمع و الحشر و الحساب و الجنه و النار و غيرها،و الإشاره بهذا الى حديث البعث و قوله: «مِنْ قَبْلُ» متعلق بقوله: «وَعَدْنَا» على ما يعطيه سياق الجمله.

و المعنى: أن وعد البعث وعد قديم ليس بحديث نقسم لقد وعدناه من قبل نحن و آباؤنا ليس البعث الموعود إلا أحاديث خرافيه وضعها و نظمها الأناسى الأولون فى صوره إحياء الأموات و حساب الأعمال و الجنه و النار و الثواب و العقاب.

قوله تعالى: قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ لما ذكر استبعادهم للبعث ثم إنكارهم له شرع فى الاحتجاج على إمكانه من طريق الملك و الربوبيه و السلطنه، و وجه الكلام الى الوثنيين المنكرين للبعث و هم معترفون به تعالى بمعنى أنه الموجد للعالم و رب الأرباب و الآلهه المعبودون دونه من خلقه،و لذا أخذ وجوده تعالى مسلماً فى ضمن الحججه.

فقوله: «قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهَا» أمر للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يسألهم عن مالك الأرض و من فيها من أولى العقل من هو؟و معلوم أن السؤال إنما هو عن الملك الحقيقى الذى هو قيام وجود شىء بشىء بحيث لا يستقل الشىء المملوك عن مالكة بأى وجه فرض دون الملك الاعتبارى

الذى وضعناه معاشر المجتمعين لمصلحه الاجتماع و هو يقبل الصحه و الفساد و يقع موردا للبيع و الشرى، و ذلك لأن الكلام مسوق لإثبات صحه جميع التصرفات التكوينية و ملاكها الملك التكويني الحقيقى دون التشريعى الاعتبارى.

قوله تعالى: سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ إخبار عن جوابهم و هو أن الأرض و من فيها مملوكه لله، و لا- مناص لهم عن الاعتراف بكونها لله سبحانه فإن هذا النوع من الملك لا يقوم إلا بالعله الموجد لمعلولها حيث يقوم وجود المعلول بها قياما لا يستقل عنها بوجه من الوجوه، و العله الموجد للأرض و من فيها هو الله سبحانه وحده لا شريك له حتى باعتراف الوثنيين.

و قوله: أَفَلَا تَذَكَّرُونَ أمر بعد تسجيل الجواب أن يوبخهم على عدم تذكرهم بالحجه الداله على إمكان البعث، و المعنى قل لهم فإذا كان الله سبحانه مالك الأرض و من فيها لم لا تتذكرون أن له- لمكان مالكيته- أن يتصرف فى أهلها بالإحياء بعد الإماتة.

قوله تعالى: قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أمره ثانيا أن يسألهم عن رب السماوات السبع و رب العرش العظيم من هو؟

و المراد بالعرش هو المقام الذى يجتمع فيه ازمه الامور و يصدر عنه كل تدبير، و تكرار لفظ الرب فى قوله: «وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» للإشاره إلى أهميه أمره و رفعه محله كما وصفه الله بالعظمه، و قد تقدم البحث عنه فى تفسير سوره الأعراف فى الجزء الثامن من الكتاب.

ذكروا أن قولنا: لمن السماوات السبع و قولنا: من رب السماوات السبع بمعنى واحد كما يقال:

لمن الدار و من رب الدار فقوله تعالى: «مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ؟» سؤال عن مالكيها، و لذا حكى الجواب عنهم بقوله: «سَيَقُولُونَ لِلَّهِ» على المعنى و لو أنه أجيب عنه فقيل «الله» كما فى القراءه الاخرى كان جوابا على اللفظ.

فمعنى الآيه- و الله أعلم- قل: من رب السماوات السبع التى منها تنزل أقدار الامور

و أفضيتها و رب العرش العظيم الذى منه يصدر الأحكام لعامه ما فى العالم من الملائكة فمن دونهم؟ فإنهم و ما يملكونهم باعتقادهم مملوكه لله و هو الذى ملكهم ما ملكوه.

قوله تعالى: سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ حكاية لجوابهم بالاعتراف بأن السماوات السبع و العرش العظيم لله سبحانه.

و المعنى: سيجيبوك بأنها لله قل لهم تبكيئا و توييخا: فإذا كان السماوات السبع منها ينزل الأمر و العرش العظيم منه يصدر الأمر لله سبحانه فلم لا تتقون سخطه إذ تنكرون البعث و تعدونه من أساطير الأولين و تسخرون من أنبيائه الذين و عدوكم به؟ فإن له تعالى أن يصدر الأمر ببعث الأموات و إنشاء النشأ الآخرة للانسان و ينزل الأمر به من السماء.

و من لطيف تعبير الآيه التعبير بقوله: «لله» فإن الحجة تتم بالملك و إن لم يعترفوا بالربوبية.

قوله تعالى: قُلْ مَنْ يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الملكوت هو الملك بمعنى السلطنة و الحكم، و يفيد مبالغه فى معناه و الفرق بين الملك بالفتح و الكسر و بين المالك أن المالك هو الذى يملك المال و الملك يملك المالك و ماله، فله ملك فى طول ملك و له التصرف بالحكم فى المال و مالكة.

و قد فسر تعالى ملكوته بقوله: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (يس ١٨٣)، فملكوت كل شىء هو كونه عن أمره تعالى بكلمه كن و بعبارة اخرى وجوده عن إيجاده تعالى.

فكون ملكوت كل شىء بيده كناية استعاريه عن اختصاص إيجاد كل ما يصدق عليه الشىء به تعالى كما قال: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (الزمر ٦٢)، فملكه تعالى محيط بكل شىء و نفوذ أمره و مضى حكمه ثابت على كل شىء.

و لما كان من الممكن أن يتوهم أن عموم الملك و نفوذ الأمر لا ينافى إخلال بعض ما أوجده

من الأسباب و العلل بأمره فيفعل ببعض خلقه ما لا يريد أو يمنعه عما يريد تمم قوله: «بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ» بقوله: «وَهُوَ يُجِيرُ وَ لَا يُجَارُ عَلَيْهِ» و هو في الحقيقة توضيح لاختصاص الملك بأنه بتمام معنى الكلمه فليس لشيء شيء من الملك في عرض ملكه و لو بالمنع و الإخلال و الاعتراض فله الملك و له الحكم.

و قوله: «وَهُوَ يُجِيرُ وَ لَا يُجَارُ عَلَيْهِ» من الجوار، و هو في أصله قرب المسكن ثم جعلوا للجوار حقا و هو حمايه الجار لجاره عمن يقصده بسوء لكرامه الجار على الجار بقرب الدار و اشتق منه الأفعال يقال: استجاره فأجاره أى سأله الحمايه فحماه أى منع عنه من يقصده بسوء.

و هذا جار في جميع أفعاله تعالى فما من شيء يخصه الله بعطيه حدودا أو بقاء إلا و هو يحفظه على ما يريد و بمقدار ما يريد من غير أن يمنعه مانع إذ منع المانع- لو فرض- إنما هو بإذن منه و مشيه فليس منعا له تعالى بل منعا منه و تحديدا لفعل منه بفعل آخر، و ما من سبب من الأسباب يفعل فعلا إلا و له تعالى أن يتصرف فيه بما لا يريد لأنه تعالى هو الذى ملكه الفعل بمشيته فله أن يمنعه منه أو من بعضه.

فالمراد بقوله: «وَهُوَ يُجِيرُ وَ لَا يُجَارُ عَلَيْهِ» أنه يمنع السوء عمن قصده و لا يمنعه شيء إذا أراد شيئا بسوء عما أراد.

و معنى الآية قل لهؤلاء المنكرين للبعث: من الذى يختص به إيجاد كل شيء بما له من الخواص و الآثار و هو يحمى من استجار به و لا يحمى عنه شيء إذا أراد شيئا بسوء؟ إن كنتم تعلمون.

قوله تعالى: سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُشَاهِرُونَ قِيلَ: إن المراد بالسحر أن يخيل الشيء للانسان على خلاف ما هو عليه فهو من الاستعاره أو الكنايه.

و المعنى: سيجيونك أن الملكوت لله قل لهم تبكيئا و توييخا: فإلى متى يخيل لكم الحق

باطلا- فإذا كان الملك المطلق لله سبحانه فله أن يوجد النشأ الآخـره و يعيد الأموات للحساب و الجزاء بأمر يأمره و هو قوله: «كن».

و اعلم أن الاحتجاجات الثلاثه كما تثبت إمكان البعث كذلك تثبت توحيده تعالى في الربوبيه فإن الملك الحقيقي لا يتخلف عن جواز التصرفات، و المالك المتصرف هو الربّ.

قوله تعالى: **يَلِئَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** إضراب عن النفي المفهوم من الحجج التي أقيمت في الآيات السابقه، و المعنى فإذا كانت الحجج المبنيه تدل على البعث و هم معترفون بصحتها فليس ما وعدهم رسلنا باطلا بل جئناهم بلسان الرسل بالحق و إنهم لكاذبون في دعواهم كذبهم و نفيهم للبعث.

قوله تعالى: **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَ لَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ الْخَبْرَ** القول بالولد كان شائعا بين الوثنيين يعدّون الملائكه أو بعضهم و بعض الجن و بعض القديسين من البشر أولادا لله سبحانه و تبعهم النصرى في قولهم: المسيح ابن الله، و هذا النوع من الولاده و البنوه مبنى على اشتمال الابن على شىء من حقيقه اللاهوت و جوهره و انفصاله منه بنوع من الاشتقاق فيكون المسمى بالابن إلها مولودا من إله.

و أما البنوه الادعائيه بالتبني و هو أخذ ولد الغير ابنا لتشريف أو لغرض آخر فلا يوجب اشتمال الابن على شىء من حقيقه الأب كقول اليهود نحن أبناء الله و أحبائهم، و ليس الولد بهذا المعنى مرادا لأن الكلام مسوق لنفى تعدّد الآلهه، و لا يستلزم هذا النوع من البنوه ألوهيه و إن كان التسمى و التسميه بها ممنوعا.

فالمراد باتخاذ الولد إيجاد شىء بنحو التبعض و الاشتقاق يكون مشتملا بنحو على شىء من حقيقه الموجد لا تسميه شىء موجودا بنا و ولدا لغرض من الأغراض كما ذكره بعضهم.

و الولد- كما عرفت- أخصّ مصداقا عندهم من الإله فإن بعض آلهتهم ليس بولد عندهم

فقوله: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ تَرَقَّ مِنْ نَفَى الْأَخْصِ إِلَى نَفَى الْأَعْمِّ وَ لَفْظُهُ «مِنْ» فِي الْجُمْلَتَيْنِ زَائِدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ.

و قوله: إِذَا لَمَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ حَجَّهُ عَلَى نَفَى التَّعَدُّدِ بَيَانٌ مَحْذُورُهُ إِذَا لَا يَتَّصِرُ تَعَدُّدُ الْأَلْهَةِ إِلَّا بَيْنُونَتِهَا بِوَجْهِهِ مِنَ الْوَجْهِهِ بِحَيْثُ لَا- تَتَّحِدُ فِي مَعْنَى أَلُوْهِيَّتِهَا وَ رَبُوِيَّتِهَا، وَ مَعْنَى رَبُوِيَّةِ الْإِلَهِ فِي شَطْرٍ مِنَ الْكُونِ وَ نَوْعٍ مِنَ أَنْوَاعِهِ تَفْوِيضُ التَّدْبِيرِ فِيهِ إِلَيْهِ بِحَيْثُ يَسْتَقِلُّ فِي أَمْرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْتَاجَ فِيهِ إِلَى شَيْءٍ غَيْرِ نَفْسِهِ حَتَّى يَأْتِيَ مِنَ الْوَضْعِ إِلَيْهِ الْأَمْرُ، وَ مِنَ الْبَيِّنِ أَيْضًا أَنَّ الْمُتَبَايِنِينَ لَا يَتَرَشَّحُ مِنْهُمَا إِلَّا أَمْرَانِ مُتَبَايِنَانِ.

وَ لَا يَزِمُ ذَلِكَ أَنْ يَسْتَقِلَّ كُلُّ مِنَ الْأَلْهَةِ بِمَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ مِنْ نَوْعِ التَّدْبِيرِ وَ تَنْقَطِعُ رَابِطَةُ الْإِتِّحَادِ وَ الْإِتِّصَالِ بَيْنَ أَنْوَاعِ التَّدْبِيرِ الْجَارِيَةِ فِي الْعَالَمِ كَالنِّظَامِ الْجَارِي فِي الْعَالَمِ الْإِنْسَانِيِّ عَنِ الْأَنْظُمَةِ الْجَارِيَةِ فِي أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ وَ النَّبَاتِ وَ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ السَّهْلِ وَ الْجَبَلِ وَ الْأَرْضِ وَ السَّمَاءِ وَ غَيْرِهَا وَ كُلُّ مِنْهَا عَنِ كُلِّ مِنْهَا، وَ فِيهِ فُسَادُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا فِيهِنَّ، وَ وَحْدَةُ النِّظَامِ الْكُونِيِّ وَ التَّمَامِ أَجْزَائِهِ وَ اتِّصَالُ التَّدْبِيرِ الْجَارِي فِيهِ يَكْذِّبُهُ.

وَ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: «إِذَا لَمَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ» أَيِ انْفِصَالِ بَعْضِ الْأَلْهَةِ عَنِ بَعْضٍ بِمَا يَتَرَشَّحُ مِنْهُ مِنَ التَّدْبِيرِ.

وَ قَوْلُهُ: وَ لَعَلَّا- بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ مَحْذُورٌ آخِرٌ لَازِمٌ لِتَعَدُّدِ الْأَلْهَةِ تَتَأَلَّفُ مِنْهُ حَجَّهُ أُخْرَى عَلَى النَفْيِ، بَيَانُهُ أَنَّ التَّدْبِيرَ الْجَارِيَةَ فِي الْكُونِ مَخْتَلِفَةً مِنْهَا التَّدْبِيرُ الْعَرْضِيَّةُ كَالتَّدْبِيرِ الْجَارِيِّ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ التَّدْبِيرِ الْجَارِيِّ فِي الْمَاءِ وَ النَّارِ، وَ مِنْهَا التَّدْبِيرُ الطَّوْلِيَّةُ الَّتِي تَنْقَسِمُ إِلَى تَدْبِيرٍ عَامٍ كُلِّيِّ حَاكِمٍ وَ تَدْبِيرٍ خَاصِّ جَزْئِيِّ مَحْكُومٍ كَتَّدْبِيرِ الْعَالَمِ الْأَرْضِيِّ وَ تَدْبِيرِ النَّبَاتِ الَّتِي فِيهِ، وَ كَتَّدْبِيرِ الْعَالَمِ السَّمَاوِيِّ وَ تَدْبِيرِ كَوْكَبٍ مِنَ الْكَوَاكِبِ الَّتِي فِي السَّمَاءِ، وَ كَتَّدْبِيرِ الْعَالَمِ الْمَادِيِّ بِرُمَّتِهِ وَ تَدْبِيرِ نَوْعٍ مِنَ الْأَنْوَاعِ الْمَادِيَّةِ.

فَبَعْضُ التَّدْبِيرِ وَ هُوَ التَّدْبِيرُ الْعَامُ الْكُلِّيُّ يَعْلُو بَعْضًا بِمَعْنَى أَنَّهُ بِحَيْثُ لَوْ انْقَطَعَ عَنْهُ مَا دُونَهُ

بطل ما دونه لتقومه بما فوقه، كما أنه لو لم يكن هناك عالم أرضى أو التدبير الذى يجرى فيه بالعموم لم يكن عالم إنسانى ولا التدبير الذى يجرى فيه بالخصوص.

و لازم ذلك أن يكون الإله الذى يرجع اليه نوع عال من التدبير عاليا بالنسبه الى الإله الذى فوض اليه من التدبير ما هو دونه و أخص منه و أحسن و استعلاء الإله على الإله محال.

لا لأن الاستعلاء المذكور يستلزم كون الإله مغلوبا لغيره أو ناقصا فى قدرته محتاجا فى تمامه الى غيره أو محدودا و المحدوديه تفضى الى التركيب، و كل ذلك من لوازم الإمكان المنافى لوجوب وجود الإله فيلزم الخلف- كما قرره المفسرون- فإن الوثنيين لا يرون لآلهتهم من دون الله و جوب الوجود بل هى عندهم موجودات ممكنه عاليه فوض اليهم تدبير أمر ما دونها، و هى مربوبيه لله سبحانه و أرباب لما دونها و الله سبحانه رب الأرباب و إله الآلهه و هو الواجب الوجود بالذات وحده.

بل استحاله الاستعلاء إنما هو لاستلزامه بطلان استقلال المستعلى عليه فى تدبيره و تأثيره إذ لا يجامع توقف التدبير على الغير و الحاجه اليه الاستقلال فيكون السافل منها مستمدا فى تأثيره محتاجا فيه الى العالى فيكون سببا من الأسباب التى يتوسل بها الى تدبير ما دونه لا إلهها مستقلا بالتأثير دونه فيكون ما فرض إلهها غير إله بل سببا يدبر به الأمر هذا خلف.

قوله تعالى: **عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** صفه لاسم الجلاله فى قوله: **«سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ»** و تأخيرها للدلاله على علمه بتنزهه عن وصفهم إياه بالشركه- على ما يعطيه السياق- فيكون فى معنى قوله: **قُلْ أَتَسْبُحُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** (يونس ١٨).

و يرجع فى الحقيقه الى الاحتجاج على نفى الشركاء بشهادته تعالى أنه لا يعلم لنفسه شريكا كما أن قوله: **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ (آل عمران ١٨)** احتجاج بالشهاده على

وقيل: إنه برهان آخر راجع الى إثبات العلوّ و لزوم الجهل الذى هو نقص و ضد العلوّ لأن المتعددين لا سبيل لهما الى أن يعلم كل واحد حقيقه الآخر كعلم ذلك الآخر بنفسه بالضرورة و هو نوع جهل و قصور. انتهى.

و فيه أن ذلك كسائر ما قرره من البراهين ينفى تعدّد الإله الواجب الوجود بالذات، و الوثنيون لا يلتزمون فى آلهتهم من دون الله بذلك. على أن بعض مقدمات ما قرر من الدليل ممنوع.

و قوله: **فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** تفريع على جميع ما تقدم من الحجج على نفى الشركاء.

قوله تعالى: **قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيئِي مَا يُوعَدُونَ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** لما فرغ من نقل ما تفوهوا به من الشرك بالله و إنكار البعث و الاستهزاء بالرسول و أقام الحجج على إثبات حقيقتها رجع الى ما تقدم من تهديدهم بالعذاب فأمر نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن يسأله أن ينجيه من العذاب الذى أوعدهم به إن أراه ذلك العذاب.

فقوله: **قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيئِي مَا يُوعَدُونَ** أمر بالدعاء و الاستغاثة، و تكرار «رَبِّ» لتأكيد التضرع و ما فى قوله: **«إِمَّا تُرِيئِي»** زائده و هى المصححة لدخول نون التأكيد على الشرط و أصله: إن ترنى. و فى قوله: **«مَا يُوعَدُونَ»** دلالة على أن بعض ما تقدم فى السورة من الإيعاد بالعذاب إيعاد بعذاب دنيوى.

و ما فى قوله: **«رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»** من الكون فيهم كناية عن شمول عذابهم له.

قوله تعالى: **وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لِقَادِرُونَ** تطيب لنفس النبى صلى الله عليه و آله و سلم بقدره ربه على أن يكشف عنه بإراءته ما يعدهم من العذاب، و لعل المراد به ما عذبهم الله به يوم بدر و قد أراه الله ذلك و أراه المؤمنين و شفى به غليل صدورهم.

قوله تعالى: إِذْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُ فَوْنٌ أَى ادفع السيئه التي تتوجه اليك منهم بالحسنه و اختر للدفع من الحسنات أحسنها، و هو دفع السيئه بالحسنه التي هي أحسن مثل أنه لو أساءوا اليك بالإيذاء أحسن اليهم بغايه ما استطعت من الإحسان ثم ببعض الإحسان فى الجملة و لو لم يسعك ذلك فبالصفح عنهم.

و قوله: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُ فَوْنٌ» نوع تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أن لا- يسوآئه ما يلقاه و لا- يحزنه ما يشاهد من تجزيهم على ربهم فإنه أعلم بما يصفون.

قوله تعالى: وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ، قال فى مجمع البيان: الهمزه شده الدفع، و منه الهمزه للحرف الذى يخرج من أقصى الحلق باعتماد شديد و دفع، و همزه الشيطان دفعه بالإغواء الى المعاصى انتهى. و فى تفسير القمى عنه عليه السلام: أنه ما يقع فى قلبك من وسوسه الشياطين.

و فى الآيتين أمره صلى الله عليه و آله و سلم أن يستعيذ بربه من إغواء الشياطين و من أن يحضروه، و فيه إيهام الى أن ما ابتلى به المشركون من الشرك و التكذيب من همزات الشياطين و إحاطتهم بهم بالحضور.

[سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٩٩ الى ١١٨]

إشارة

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ الْدَارُ وَ هُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلُو عَلَيْنَكُمْ فَكُنتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَ كُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ إِحْسُوا فِيهَا وَ لَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَ كُنتُمْ مِنْهُمْ تُصَحِّحُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١) قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَسِئَلِ الْعَادِينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَ مَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)

قوله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿حَتَّىٰ﴾ متعلق بما تقدم من وصفهم له تعالى بما هو منزّه منه و شركهم به، و الآيات المتخلله اعتراض فى الكلام أى لا يزالون يشركون به و يصفونه بما هو منزّه منه و هم مغترّون بما نمدهم به من مال و بنين حتى إذا جاء أحدهم الموت.

و قوله: قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ الظاهر أن الخطاب للملائكة المتصدّين لقبض روحه و «رَبِّ» استغاثه معترضه بحذف حرف النداء و المعنى قال-و هو يستغيث بربه-ارجعون.

قوله تعالى: لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴿لَعَل﴾ للترجى و هو رجاء تعلقوا به بمعانيه العذاب المشرف عليهم كما ربما ذكروا الرجوع بوعد العمل الصالح كقولهم: فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا (السجده ١٢/١)، و ربما ذكروه بلفظ التمنى كقولهم: يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَ لَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا (الأنعام ٢٧/١).

و قوله: أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ أى أعمل عملاً صالحاً فيما تركت من المال بإنفاقه فى البرّ و الإحسان و كل ما فيه رضى الله سبحانه.

و قوله: كَلَّا- إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا أى لا يرجع الى الدنيا إن هذه الكلمة «ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ» كلمة هو قائلها أى لا أثر لها إلا أنها كلمة هو قائلها، فهو كناية عن عدم إجابته مسأله.

قوله تعالى: وَ مَن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ البرزخ هو الحاجز بين الشيتين كما فى قوله: بَيْنَهُمْ بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيانِ (الرحمن ٢٠/١)، و المراد بكونه وراءهم كونه أمامهم محيطاً بهم و سمى وراءهم بعنايه أنه يطلبهم كما أن مستقبل الزمان أمام الإنسان و يقال:

وراءك يوم كذا بعنايه أن الزمان يطلب الإنسان ليمرّ عليه و هذا معنى قول بعضهم: إن فى

«وراء» معنى الإحاطه، قال تعالى: وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَضْبًا (الكهف / ٧٩).

و المراد بهذا البرزخ عالم القبر و هو عالم المثال الذى يعيش فيه الإنسان بعد موته الى قيام الساعه على ما يعطيه السياق و تدل عليه آيات أخر و تكاثرت فيه الروايات من طرق الشيعة عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم و أئمه أهل البيت عليهم السلام و كذا من طرق أهل السنه، و قد تقدم البحث عنه فى الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ المراد به النفخه الثانيه التى تحيا فيها الأموات دون النفخه الاولى التى تموت فيها الأحياء كما قاله بعضهم لكون ما يترتب عليها من انتفاء الأنساب و التساؤل و ثقل الميزان و خفته الى غير ذلك من آثار النفخه الثانيه.

و قوله: فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ نفى لآثار الأنساب بنفى أصلها فإن الذى يستوجب حفظ الأنساب و اعتبارها هى الحوائج الدنيويه التى تدعو الإنسان الى الحياه الاجتماعيه التى تبنى على تكون البيت، و المجتمع المنزلى يستعقب التعارف و التعاطف و أقسام التعاون و التعاضد و سائر الأسباب التى تدوم بها العيشه الدنيويه و يوم القيامه ظرف جزاء الأعمال و سقوط الأسباب التى منها الأعمال فلا موطن فيه للأسباب الدنيويه التى منها الأنساب بلوازمها و خواصها و آثارها.

و قوله: وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ذكر لأظهر آثار الأنساب، و هو التساؤل بين المنتسبين بسؤال بعضهم عن حال بعض، للإعانه و الاستعانه فى الحوائج لجلب المنافع و دفع المضار.

و لا ينافى الآيه ما وقع فى مواضع أخر من قوله تعالى: وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (الصفافات ٢٧)، فإن حكاية تساؤل أهل الجنه بعد دخولها و تساؤل أهل النار بعد دخولها و هذه الآيه تنفى التساؤل فى ظرف الحساب و القضاء.

قوله تعالى: فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إلى آخر الآيتين؛ الموازين جمع الميزان أو جمع الموزون و هو العمل الذى يوزن يومئذ، و قد تقدم الكلام فى معنى الميزان و ثقله و خفته فى تفسير سورة الأعراف.

قوله تعالى: تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَ هُمْ فِيهَا كَالِحُونَ قال فى المجمع: اللفح و النفع بمعنى إلا أن اللفح أشد تأثيرا و أعظم من النفع، و هو ضرب من السموم للوجه و النفع ضرب الريح الوجه، و الكلوح تقلص الشفتين عن الأسنان حتى تبدوا الأسنان. انتهى.

و المعنى: يصيب وجوههم لهب النار حتى تقلص شفاههم و تنكشف عن أسنانهم كالرءوس المشويه.

قوله تعالى: أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ النَّارُ؟ أى يقال لهم: أ لم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون.

قوله تعالى: قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَ كُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ الشقوه و الشقاوه و الشقاء خلاف السعاده، و سعاده الشىء ما يختص به من الخير، و شقاوته فقد ذلك و إن شئت فقل: ما يختص به من الشر.

و قوله: «غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا» أى قهرنا و استولت علينا شقوتنا، و فى إضافه الشقوه الى أنفسهم تلويح الى أن لهم صنعا فى شقوتهم من جهه اكتسابهم ذلك بسوء اختيارهم، و الدليل عليه قولهم بعد: «رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ» إذ هو وعد منهم بالحسنات و لو لم يكن لها ارتباط باكتسابهم الاختيارى لم يكن للوعد معنى لكون حالهم بعد الخروج مساويه لما قبل الخروج.

و قد عدوا أنفسهم مغلوبه للشقوه فقد أخذوها ساذجه فى ذواتها صالحه للحقوق السعاده و الشقاوه غير أن الشقوه غلبت فأشغلت المحل و كانت الشقوه شقوه أنفسهم أى شقوه لازمه لسوء اختيارهم و سيئات أعمالهم لأنهم فرضوا أنفسهم خاليه عن السعاده و الشقوه لذاتها

فانتساب الشقوه الى أنفسهم و ارتباطها بها إنما هي من جهه سوء اختيارهم و سيئات أعمالهم.

و بالجملة هو اعتراف منهم بتمام الحججه و لحوق الشقوه على ما يشهد به وقوع الآيه بعد قوله: «أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ» الخ.

ثم عقبوا قولهم: «عَلَبْتَ عَلَيْنَا شِقْوَتَنَا» بقولهم: «وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ» تأكيداً لاعترافهم، و إنما اعترفوا بالذنب ليتوسلوا به الى التخلص من العذاب و الرجوع الى الدنيا لكسب السعاده فقد شاهدوا في الدنيا أن اعتراف العاصي المتمرد بذنبه و ظلمه توبه منه مطهره له تنجيه من تبعه الذنب و هم يعلمون أن اليوم يوم جزاء لا- يوم عمل و التوبه و الاعتراف بالذنب من الأعمال لكن ذلك من قبيل ظهور الملكات كما أنهم يكذبون يومئذ و ينكرون أشياء مع ظهور الحق و معاينته لاستقرار ملكه الكذب و الإنكار في نفوسهم، قال تعالى:

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ (المجادله١٨/). و قال: ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا (المؤمن / ٧٤).

قوله تعالى: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ سؤال منهم للرجوع الى الدنيا على ما تدل عليه آيات أخر فهو من قبيل طلب المسبب بطلب سببه، و مرادهم أن يعملوا صالحاً بعد ما تابوا بالاعتراف المذكور فيكونوا بذلك ممن تاب و عمل صالحاً.

قوله تعالى: قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا قَالَ الرَّاغِب: خسأت الكلب فخساً أى زجرته مستهيناً به فانزجر و ذلك إذا قلت له: اخساً انتهى. ففي الكلام استعاره بالكنايه، و المراد زجرهم بالتباعد و قطع الكلام.

قوله تعالى: إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ هؤلاء هم المؤمنون في الدنيا و كان إيمانهم توبه و رجوعاً الى الله كما سماه الله في كلامه توبه، و كان سؤالهم شمول الرحمه- و هي الرحمه الخاصه

بالمؤمنين البتة-سؤالا منهم أن يوفقهم للسعادة فيعملوا صالحا فيدخلوا الجنة، وقد توسلوا اليه باسمه خير الراحمين.

فكان ما قاله المؤمنون في الدنيا معناه التوبه و سؤال الفوز بالسعادة و ذلك عين ما قاله هؤلاء مما معناه التوبه و سؤال الفوز بالسعادة و إنما الفرق بينهما من حيث الموقف.

قوله تعالى: فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ضَمَائِرُ الْخَطَابِ لِلْكَافِرِ وَ ضَمَائِرُ الْغَيْبِ لِلْمُؤْمِنِينَ، و السياق يشهد أن المراد من «ذِكْرِي» قول المؤمنين «رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا» الخ؛ و هو معنى قول الكفار في النار.

و قوله: حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي أى أنسى اشتغالكم سخرية المؤمنين و الضحك منهم ذكري، ففي نسبة الإنساء الى المؤمنين دون سخريتهم إشاره الى أنه لم يكن للمؤمنين عندهم شأن من الشؤون إلا أن يتخذوهم سخريا.

قوله تعالى: إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ المراد باليوم يوم الجزاء، و متعلق الصبر معلوم من السياق محذوف للإيجاز أى صبروا على ذكرى مع سخريتكم منهم لأجله، و قوله: «أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ» مسوق للحصر أى هم الفائزون دونكم.

و هذه الآيات الأربع «قَالَ اخْسُوا» -الى قوله- هُمُ الْفَائِزُونَ» إيئاس قطعى للكفار من الفوز بسبب ما تعلقوا به من الاعتراف بالذنب و سؤال الرجوع الى الدنيا و محصية لها أن اقنطوا مما تطلبونه بهذا القول و هو الاعتراف و السؤال فإنه عمل إنما كان ينفع فى دار العمل و هى الدنيا، و قد كان المؤمنون من عبادى يتخذونه وسيلة الى الفوز و كنتم تسخرون و تضحكون منهم حتى تركتموه و بدلتموه من سخريتهم حتى إذا كان اليوم و هو يوم الجزاء لا- يوم عمل فازوا بجزاء ما عملوا يوم العمل و بقيتم صفر الأكف تريدون أن تتوسلوا بالعمل اليوم و هو يوم الجزاء دون العمل.

قوله تعالى: قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ مما يسأل الله الناس عنه

يوم القيامة مده لبثهم في الأرض و قد ذكر في مواضع من كلامه و المراد به السؤال عن مده لبثهم في القبور كما يدل عليه قوله تعالى: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ (الروم ٥٥/)، وقوله: كَذَلِكَ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ (الأحقاف ٣٥/). وغيرها من الآيات، فلا محل لقول بعضهم: إن المراد به المكث في الدنيا، و احتمال بعضهم أنه مجموع اللبث في الدنيا و البرزخ.

قوله تعالى: قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسِئَلُ الْعَادِّينَ ظاهر السياق أن المراد باليوم هو الواحد من أيام الدنيا و قد استقلوا اللبث في الأرض حينما قايسوه بالبقاء الابدى الذى يلوح لهم يوم القيامة و يعاينونه.

و يؤيده ما وقع فى موضع آخر من تقديرهم ذلك بالساعة، و فى موضع آخر بعشيه أو ضحاها.

و قوله: «فَسِئَلِ الْعَادِّينَ» أى نحن لا نحسن إحصاءها فاسأل الذين يعدونه و فسر بالملائكة العادين للأيام و ليس ببعيد.

قوله تعالى: قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ القائل هو الله سبحانه، و فى الكلام تصديق لهم فى استقلالهم المكث فى القبور و فيه توطئه لما يلحق به من قوله: «لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» بما فيه من التمنى.

و المعنى: قال الله: الأمر كما قلتى فما مكثتم إلا قليلا فليتكم كنتم تعلمون فى الدنيا أنكم لا تلبثون فى قبوركم إلا قليلا ثم تبعثون حتى لا تنكروا البعث و لم تبتلوا بهذا العذاب الخالد، و التمنى فى كلامه تعالى كالترجى راجع الى المخاطب أو المقام.

و جعل بعضهم «لَوْ» فى الآية شرطيه و الجملة شرطيا محذوف الجزاء و تكلف فى تصحيح الكلام بما لا يرتضيه الذوق السليم و هو بعيد عن السياق كما هو ظاهر و أبعد منه جعل «لَوْ» وصلية مع أن «لَوْ» الوصلية لا تجيء بغير واو العطف.

قوله تعالى: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا -الى قوله- رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ بعد ما بين ما سيستقبلهم من أحوال الموت ثم اللبث فى البرزخ ثم البعث بما فيه من الحساب و الجزاء وبخهم على حسابانهم أنهم لا- يعثون فإن فيه جراه على الله بنسبه البعث اليه ثم أشار الى برهان العبث.

فقوله: أَفَحَسِبْتُمْ الخ؛معناه فإذا كان الأمر على ما أخبرناكم من تحسركم عند معاينه الموت ثم البعث فى القبور ثم البعث فالحساب و الجزاء فهل تظنون إنما خلقناكم عبثا تحيون و تموتون من غير غايه باقيه فى خلقكم و أنكم الينا لا ترجعون؟

و قوله: فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ إشاره الى برهان يثبت البعث و يدفع قولهم بالنفى،فى صوره التنزيه،فإنه تعالى وصف نفسه فى كلمه التنزيه بالأوصاف الأربعة:أنه ملك و أن حق و أنه لا إله إلا هو و أنه رب العرش الكريم.

فله أن يحكم بما شاء من بدء و عود و حياه و موت و رزق نافذا حكمه ماضيا أمره لملكه، و ما يصدر عنه من حكم فإنه لا يكون إلا حقا فإنه حق و لا يصدر عن الحق بما هو حق إلا حق دون أن يكون عبثا باطلا ثم لما أمكن أن يتصور أن معه مصدر حكم آخر يحكم بما يبطل به حكمه وصفه بأنه لا إله-أى لا معبود-إلا هو،و الإله معبود لربوبيته فإذا لا إله غيره فهو رب العرش الكريم-عرش العالم-الذى هو مجتمع أزمه الامور و منه يصدر الأحكام و الأوامر الجاربه فيه.

فتلخص أنه هو الذى يصدر عنه كل حكم و يوجد منه كل شىء و لا يحكم إلا بحق و لا يفعل إلا حقا فلأشياء رجوع اليه و بقاء به و إلا لكانت عبثا باطله و لا عبث فى الخلق و لا باطل فى الصنع.

و الدليل على اتصافه بالأوصاف الأربعة كونه تعالى هو الله الموجود لذاته الموجد لغيره.

قوله تعالى: وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ، المراد من دعاء إله آخر مع الله دعاؤه مع وجوده تعالى لا دعاؤه تعالى و دعاء إله آخر مع إله آخر فإن المشركين جُلهم أو كلهم لا يدعون الله تعالى وإنما يدعون ما أثبتوه من الشركاء، ويمكن أن يكون المراد بالدعاء الإثبات فإن إثبات إله آخر لا ينفك عن دعائه.

و قوله: لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ قِيد تَوْضِيحِي لِإِلَهٍ آخَرَ إِذْ لَا إِلَهَ آخَرَ يَكُونُ بِهِ بُرْهَانٌ بَلِ الْبُرْهَانُ قَائِمٌ عَلَى نَفْيِ الْإِلَهِ الْآخَرَ مُطْلَقًا.

و قوله: فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ كَلِمَةٌ تَهْدِيدٌ وَ فِيهِ قَصْرٌ حِسَابُهُ بِكَوْنِهِ عِنْدَ رَبِّهِ لَا يَدَاخِلُهُ أَحَدٌ فِيمَا اقْتَضَاهُ حِسَابُهُ مِنْ جِزَاءٍ - وَ هُوَ النَّارُ كَمَا صَرَّحَتْ بِهِ الْآيَاتُ السَّابِقَةُ - فَإِنَّهُ يَصِيبُهُ لَا مَحَالَةَ، وَ مَرْجِعُهُ إِلَى نَفْيِ الشَّفَعَاءِ وَ الْإِيَّاسِ مِنْ أَسْبَابِ النِّجَاحِ وَ تَمَمَهُ بِقَوْلِهِ: «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ».

قوله تعالى: وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ خاتمه السوره و قد أمر فيها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَنْ يَقُولَ مَا حَكَاهُ عَنْ عِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَهُ فِي الدُّنْيَا وَ أَنَّ جِزَاءَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقًا مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ الْخ: الْآيَتَانِ ١٠٩ وَ ١١١ مِنَ السُّورَةِ.

و بذلك يختتم الكلام بما افتتح به في أول السوره «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ» و قد تقدم الكلام في معنى الآية (١).

ص: ٤١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ; سورة أنزلناها و فرضاها و أنزلنا فيها آياتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا
كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَدَاِبُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ
الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) وَالَّذِينَ
يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا
الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاحَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ
أَحَدِهِمْ أَرْبَعٌ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرُؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ
تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)

غرض السوره ما ينبى عنه مفتتحها «سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» فهى تذكره نبذه من الأحكام المروضه المشرعه ثم جمله من المعارف الإلهيه تناسبها و يتذكر بها المؤمنون.

و هى سوره مدنيه بلا خلاف و سياق آياتها يشهد بذلك و من غرر الآيات فيها آيه النور.

قوله تعالى: سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ السوره طائفه من الكلام يجمعها غرض واحد سيقت لأجله و لذا اعتبرت تاره نفس الآيات بما لها من المعانى فقيل «فَرَضْنَاهَا»، و تاره ظرفا لبعض الآيات ظرفيه المجموع لبعض فقيل «أَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ» و هى مما وضعه القرآن و سمى به طائفه خاصه من آياته و تكرر استعمالها فى كلامه تعالى، و كأنه مأخوذ من سور البلد و هو الحائط الذى يحيط به سميت به سوره القرآن لإحاطتها بما فيها من الآيات أو بالغرض الذى سيقت له.

وقال الراغب: الفرض قطع الشيء الصلب و التأثير فيه كفرض الحديد و فرض الزند و القوس. قال: و الفرض كالإيجاب لكن الإيجاب يقال اعتبارا بوقوعه و ثباته، و الفرض بقطع الحكم فيه، قال تعالى: «سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا» أى أوجبنا العمل بها عليك. قال: و كل موضع ورد «فرض الله عليه» ففى الإيجاب الذى أدخل الله فيه، و ما ورد «فَرَضَ اللَّهُ لَهُ» فهو فى أن لا يحظره على نفسه نحو «مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ». انتهى.

فقوله: سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا أى هذه سوره أنزلناها و أوجبنا العمل بما فيها من الأحكام فالعمل بالحكم الإيجابى هو الإتيان به و بالحكم التحريمى الانتهاء عنه.

و قوله: «وَ أَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» المراد بها- بشهادة السياق- آيه النور و ما يتلوها من الآيات المبينه لحقيقه الإيمان و الكفر و التوحيد و الشرك المذكوره لهذه المعارف الإلهيه.

قوله تعالى: الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ الْآيَةَ، الزنا المواقعه من غير عقد أو شبهه عقد أو ملك يمين، و الجلد هو الضرب بالسوط و الرأفه الحزن و التعطف و قيل: هى رحمه فى توجع، و الطائفه فى الأصل هى الجماعه كانوا يطوفون بالارتحال من مكان الى مكان قيل: و ربما تطلق على الاثنين و على الواحد.

و قوله: الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِي الخ؛ أى المرأه و الرجل اللذان تحقق منهما الزنا فاضربوا كل واحد منهما مائه سوط، و هو حدّ الزنا بنص الآيه غير أنها مخصصه بصور: منها أن يكونا محصنين ذوى زوج أو يكون أحدهما محصنا فالرجم و منها أن يكونا غير حزينين أو أحدهما رقا فنصف الحد.

قيل: و قدمت الزانيه فى الذكر على الزانى لأن الزنا منهن أشنع و لكون الشهوه فيهن أقوى و أكثر، و الخطاب فى الأمر بالجلد متوجه الى عامه المسلمين فيقوم بمن قام بأمرهم من ذوى الولايه من النبى و الإمامه و من ينوب منابه.

وقوله: وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ الْخَالِصِ؛ النهي عن الرأفة النهي عن المسبب بالنهي عن سببه إذ الرأفة بمن يستحق نوعاً من العذاب توجب التساهل في إذاقته ما يستحقه من العذاب بالتخفيف فيه وربما أدى الى تركه، ولذا قيده بقوله: «فِي دِينِ اللَّهِ» أي حال كون الرأفة أي المساهله من جهتها في دين الله و شريعته.

وقيل: المراد بدين الله حكم كما في قوله تعالى: مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ (يوسف ٧٦) أي في حكمه أي لا تأخذكم بهما رأفة في إنفاذ حكم الله وإقامه حده.

وقوله: إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَي إِنْ كُنْتُمْ كَذَا و كَذَا فَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ و لَا تَسَاهَلُوا فِي أَمْرِهِمَا و فِيهِ تَأْكِيدٌ لِلنَّهْيِ.

وقوله: وَلَا يُشْهِدُ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ أَي و ليحضر و لينظر الى ذلك جماعه منهم ليعتبروا بذلك فلا يقتربوا الفاحشه.

قوله تعالى: الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَ الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَ حُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ظاهر الآيه و خاصه بالنظر الى سياق ذيلها المرتبط بصدرها أن الذي تشمل عليه حكم تشريعي تحريمي و إن كان صدرها واردا في صورته الخبر فإن المراد النهي تأكيداً للطلب و هو شائع.

و المحضّل من معناها بتفسير من السنه من طرق أئمه أهل البيت عليهم السّلام أن الزاني إذا اشتهر منه الزنا و أقيم عليه الحد و لم تتبين منه التوبه يحرم عليه نكاح غير الزانيه و المشركه، و الزانيه إذا اشتهر منها الزنا و أقيم عليه الحد و لم تتبين منه التوبه يحرم أن ينكحها إلا زان أو مشرك.

فالآيه محكمه باقيه على إحكامها من غير نسخ و لا تأويل، و تقييدها بإقامه الحد و تبين التوبه مما يمكن أن يستفاد من السياق فإن وقوع الحكم بتحريم النكاح بعد الأمر بإقامه الحد يلوّح الى أن المراد به الزاني و الزانيه المجلودان، و كذا إطلاق الزاني و الزانيه على من ابتلى بذلك ثم تاب توبه نصوحاً و تبين منه ذلك، بعيد من دأب القرآن و أدبه.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ يَزُمُونَ الْمُدْحِجَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً الرمي معروف ثم استعير لنسبه أمر غير مرضى الى الإنسان كالزنا والسرقة وهو القذف، والسياق يشهد أن المراد به نسبه الزنا الى المرأة المحصنه العفيفه، والمراد بالإتيان بأربعة شهداء وهم شهود الزنا إقامه الشهاده لإثبات ما قذف به، وقد أمر لله تعالى بإقامه الحد عليهم إن لم يقيموا الشهاده، وحكم بفسقهم وعدم قبول شهاداتهم أبداً.

والمعنى: والذين يقذفون المحصنات من النساء بالزنا ثم لم يقيموا أربعة من الشهود على صدقهم في قذفهم فاجلدوهم ثمانين جلده على قذفهم وهم فاسقون لا تقبلوا شهادتهم على شيء أبداً.

والآية كما ترى مطلقه تشمل من القاذف الذكر والانثى والحر والعبد، وبذلك تفسرها روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام.

قوله تعالى: إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ الاستثناء راجع الى الجملة الأخيره وهى قوله: «وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» لكنها لما كانت تفيد معنى التعليل بالنسبه الى قوله: «وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا» -على ما يعطيه السياق- كان لازم ما تفيده من ارتفاع الحكم بالفسق ارتفاع الحكم بعدم قبول الشهاده أبداً، و لازم ذلك رجوع الاستثناء بحسب المعنى الى الجملتين معاً.

والمعنى: إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا أعمالهم فإن الله غفور رحيم يغفر ذنبهم و يرحمهم فيرتفع عنهم الحكم بالفسق و الحكم بعدم قبول شهادتهم أبداً.

و ذكر بعضهم: أن الاستثناء راجع الى الجملة الأخيره فحسب فلو تاب القاذف و أصلح بعد إقامه الحد عليه غفر له ذنبه لكن لا تقبل شهادته أبداً خلافاً لمن قال برجوع الاستثناء الى الجملتين معاً.

و الظاهر أن خلافهم هذا مبني على المسأله الاصوليه المعنونه بأن الاستثناء الواقع بعد الجمل المتعدده هل يتعلق بالجميع أو بالجمله الأخيره و الحق فى المسأله أن الاستثناء فى نفسه صالح للأمرين جميعا و تعين أحدهما منوط بما تقتضيه قرائن الكلام، و الذى يعطيه السياق فى الآيه التى نحن فيها تعلق الاستثناء بالجمله الأخيره غير أن إفادتها للتعليل تستلزم تقيّد الجمله السابقه أيضا بمعناه كالأخيره على ما تقدم.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يَزُمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ -الى قوله- مِنَ الْكَافِرِينَ أَي لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ يَشْهَدُونَ مَا شَهِدُوا فَيَتَحَمَّلُوا الشَّهَادَةَ ثُمَّ يُوَدُّوهُا إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، و قوله: «فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ» أى شهاده أحدهم يعنى القاذف و هو واحد أربع شهادات متعلقه بالله إنه لمن الصادقين فيما يخبر به من القذف.

و معنى الآيتين: و الذين يقذفون أزواجهم و لم يكن لهم أربعة من الشهداء يشهدون ما شهدوا-و من طبع الأمر ذلك على تقدير صدقهم إذ لو ذهبوا يطلبون الشهداء ليحضروهم على الواقعه فيشهدوهم عليها فات الغرض بتفرّقهما-فالشهاده التى يجب على أحدهم أن يقيمها هى أن يشهد أربع شهادات أى يقول مره بعد مره «أشهد الله على صدقى فيما أقذفه به» أربع مرات و خامستها أن يشهد و يقول: لعنه الله علىّ إن كنت من الكاذبين.

قوله تعالى: وَ يَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ الدرء الدفع و المراد بالعذاب حد الزنا، و المعنى أن المرأه إن شهدت خمس شهادات بإزاء شهادات الرجل دفع ذلك عنه حد الزنا، و شهاداتها أن تشهد أربع مرات تقول فيها: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين ثم تشهد خامسه فتقول: لعنه الله علىّ إن كان من الصادقين، و هذا هو اللعان الذى ينفصل به الزوجان.

قوله تعالى: وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ جواب لو لا محذوف يدل عليه ما أخذ فى شرطه من القيود إذ معناه لو لا فضل الله و رحمته

و توبته و حكمته لحلّ بكم ما دفعته عنكم هذه الصفات و الأفعال فالتقدير على ما يعطيه ما فى الشرط من القيود لو لا ما أنعم الله عليكم من نعمه الدين و توبته لمذنبكم و تشريعه الشرائع لنظم أمور حياتكم لزمتمكم الشقوه، و أهلكتم المعصيه و الخطيئه، و اختلّ نظام حياتكم بالجهاله. و الله أعلم (١).

[سوره النور (٢٤): الآيات ١١ الى ٢٦]

إشارة

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْ لَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَقَوْلُكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمْ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَ لَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَوْنَهُ بِالسَّبْتِ تَكْتُمُ وَ تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَ لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَ لَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَ لَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَ لَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلَى الْقُرُوبَى وَ الْمَسْكِينِ وَ الْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لِيُغْفِرُوا وَ لِيُغْفَرُوا أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيُّدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَ الْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَ الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)

ص: ٤١٨

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ الخ؛ الإفك على ما ذكره الراغب الكذب مطلقا و الأصل فى معاه أنه كل مصروف عن وجهه الذى يحق أن يكون عليه كالاتقاد المصروف عن الحق الى الباطل -و الفعل المصروف عن الجميل الى القبيح، و القول المصروف عن الصدق الى الكذب، و قد استعمل فى كلامه تعالى فى جميع هذه المعانى.

و ذكر أيضا أن العصبه جماعه متعصبه متعاضده، و قيل: إنها عشره الى أربعين.

و الخطاب فى الآيه و ما يتلوها من الآيات لعامه المؤمنين ممن ظاهره الإيمان أعم من المؤمن بحقيقه الإيمان و المنافق و من فى قلبه مرض، و أما قول بعضهم: إن المخاطب بالخطابات الأربعة الأول أو الثانى و الثالث و الرابع النبى صلى الله عليه و آله و سلم و المقذوفه و المقذوف فيه تفكيك بين الخطابات الواقعه فى الآيات العشر الاول و هى نيف و عشرين خطابا أكثرها لعامه المؤمنين بلا ريب.

و أسوأ حالا منه قول بعض آخر إن الخطابات الأربعة أو الثلاثه المذكوره لمن ساء ذلك من المؤمنين فإنه مضافا الى استلزامه التفكيك بين الخطابات المتواليه مجازفه ظاهره.

و المعنى: إن الذين أتوا بهذا الكذب -و اللام فى الإفك للعهد- جماعه معدوده منكم مرتبط بعضهم ببعض، و فى ذلك إشاره الى أن هناك تواطؤا منهم على إذاعه هذا الخبر ليطعنوا به فى نراهه بيت النبى صلى الله عليه و آله و سلم و يفضحوه بين الناس.

و هذا هو فائده الخبر فى قوله: «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ» لا تسليه النبى صلى الله عليه و آله و سلم

قوله تعالى: لَوْلَا جَاءُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ فَاذْنًا لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ أى لو كانوا صادقين فيما يقولون و يرمون لأقاموا عليه الشهادة و هى فى الزنا بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فهم محكومون شرعا بالكذب لأن الدعوى من غير بينه كذب و إفك.

قوله تعالى: وَ لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إفاضه القوم فى الحديث خوضهم فيه.

و قوله: وَ لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ الْخِ عطف على قوله: «لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ» الخ؛ و فيه كره ثانیه على المؤمنين، و فى تقييد الفضل و الرحمه بقوله: «فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ» دلالة على كون العذاب المذكور ذليلا هو عذاب الدنيا و الآخرة.

و المعنى: و لولا فضل الله عليكم و رحمته فى الدنيا و الآخرة لوصل اليكم بسبب ما خضتم فيه من الإفك عذاب عظيم فى الدنيا و الآخرة.

قوله تعالى: إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ الْخِ؛ الظرف متعلق بقوله: «أَفَضْتُمْ» و تلقى الإنسان القول أخذه القول الذى ألقاه اليه غيره، و تقييد التلقى بالألسنة للدلالة على أنه كان مجرد انتقال القول من لسان الى لسان من غير تثبت و تدبر فيه.

و على هذا فقوله: وَ تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ من قبيل عطف التفسير، و تقييده أيضا بقوله: «بِأَفْوَاهِكُمْ» للإشارة الى أن القول لم يكن عن تثبت و تبين قلبى و لم يكن له موطن إلا الأفواه لا يتعدها.

و المعنى: أفضتم و خضتم فيه إذ تأخذونه و تنقلونه لسانا عن لسان و تتلفظون بما لا علم لكم به.

و قوله: وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ أى تظنون التلقى بألسنتكم

و القول بأفواهكم من غير علم سهلا و هو عند الله عظيم لأنه بهتان و افتراء، على أن الأمر مرتبط بالنبى صلى الله عليه و آله و سلم و شيوخ إفك هذا شأنه بين الناس يفضحه عندهم و يفسد أمر الدعوه الدينيه.

قوله تعالى: **وَ لَوْ لَا إِذِ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ** عطف بعد عطف على قوله: **«لَوْ لَا إِذِ سَمِعْتُمُوهُ»** الخ؛ و فيه كرهه ثالثه على المؤمنين بالتوبيخ، و قوله: **«سُبْحَانَكَ»** اعتراض بالتنزيه لله سبحانه و هو من أدب القرآن أن ينزه الله بالتسبيح عند تنزيه كل منزه.

و البهتان الافتراء سمي به لأنه يبهت الإنسان المفترى عليه و كونه بهتانا عظيما لأنه افتراء فى عرض و خاصه إذ كان متعلقا بالنبى صلى الله عليه و آله و سلم و إنما كان بهتانا لكونه إخبارا من غير علم و دعوى من غير بينه كما تقدم فى قوله: **«فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ»** و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: **يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا** الى آخر الآيتين؛ موعظه بالنهاى عن العود لمثله، و معنى الآيتين ظاهر.

قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا** الى آخر الآية؛ إن كانت الآية نازله فى جملة آيات الإفك و متصله بما تقدمها و موردها الرمى بالزنا بغير بينه كان مضمونها تهديد الرامين المفيضين فى الإفك لكونه فاحشه و إشاعته فى المؤمنين حبا منهم لشيوع الفاحشه.

فالمراد بالفاحشه مطلق الفحشاء كالزنا و القذف و غير ذلك، و حب شيوعها و منها القذف فى المؤمنين يستوجب عذابا أليما لمحبيه فى الدنيا و الآخرة.

و على هذا فلا موجب لحمل العذاب فى الدنيا على الحد إذ حب شيوع الفحشاء ليس مما يوجب الحد، نعم لو كان اللام فى **«الْفَاحِشَةُ»** للعهد و المراد بها القذف و كان حب الشيوع

كنايه عن قصد الشيوخ بالإفاضة و التلقى بالألسن و النقل أمكن حمل العذاب على الحد لكن السياق لا يساعد عليه.

على أن الرمی بمجرد تحققه مره موجب للحد و لا موجب لتقييده بقصد الشيوخ و لا نكته تستدعى ذلك.

و قوله: **وَ اللَّهُ يَغْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** تأكيد و إعظام لما فيه من سخط الله و غضبه و إن جهله الناس.

قوله تعالى: **وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ تَكَرَّرَا لِلْإِئْتِنَانِ وَ مَعْنَاهُ ظَاهِرٌ.**

قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ** تقدم تفسير الآيه فى الآيه ٢٠٨ من سورة البقره فى الجزء الثانى من الكتاب.

قوله تعالى: **وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا** الى آخر الآيه؛ رجوع بعد رجوع الى الامتنان بالفضل و الرحمه، لا يخلو هذا الاهتمام من تأييد لكون الإفك متعلقا بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم و ليس إلا لكرامته على الله سبحانه.

و قد صرح فى هذه المره الثالثه بجواب لو لا و هو قوله: **«مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا»** و هذا مما يدل عليه العقل فإن مفيض الخير و السعاده هو الله سبحانه، و التعليم القرآنى أيضا يعطيه كما قال تعالى: **بِيَدِكَ الْخَيْرُ (آل عمران ٢٦)**، و قال: **«مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ (النساء ٧٩)**.

و قوله: **وَ لَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** اضراب عما تقدمه فهو تعالى يزكى من يشاء فالأمر الى مشيئته، و لا يشاء إلا تزكيه من استعد لها و سأله بلسان استعداده ذلك، و اليه يشير قوله: **«وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»** أى سميع لسؤال من سأله التزكيه عليم بحال من استعد لها.

قوله تعالى: وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْخ؛ الايتلاء التقصير و الترك و الحلف، و كل من المعانى الثلاثه لا- يخلو من مناسبه، و المعنى لا يقصر أولو الفضل منكم و السعه يعنى الأغنياء فى إيتاء اولى القرابه و المساكين و المهاجرين فى سبيل الله من مالهم أو لا يترك إيتاءهم أو لا يحلف أن لا يؤتيهم-و ليعفوا عنهم و ليصفحوا-ثم حرضهم بقوله: «أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» .

و فى الآيه-على تقدير نزولها فى جملة الآيات و اتصالها بها-دلاله على أن بعض المؤمنين عزم على أن يقطع ما كان يؤتبه بعض أهل الإفك فنهاه الله عن ذلك و حثه على إدامه الإيتاء كما سيجىء.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَزُمُونَ الْمُدْحَجِينَ الْعُفْلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ أخذ الصفات الثلاث الإحصان و الغفله و الإيمان للدلاله على عظم المعصيه فإن كلا من الإحصان بمعنى العفه و الغفله و الإيمان سبب تام فى كون الرمى ظلما و الرامى ظالما و المرميه مظلومه فإذا اجتمعت كان الظلم أعظم ثم أعظم، و جزاؤه اللعن فى الدنيا و الآخرة و العذاب العظيم، و الآيه عامه و إن كان سبب نزولها لو نزلت فى جملة آيات الإفك خاصا.

قوله تعالى: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَ أَيُّدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ الظرف متعلق بقوله فى الآيه السابقه: «وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» .

و المراد بقوله: بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ كما يقتضيه إطلاقه مطلق الأعمال السيئه- كما قيل- لا خصوص الرمى بأن تشهد ألسنتهم و أيديهم و أرجلهم على رميهم فالمراد بالشهاده شهاده الأعضاء على السيئات و المعاصى بحسب ما يناسبها فما كان منها من قبيل الأقوال كالقذف و الكذب و الغيبه و نحوها شهدت عليه الألسنه، و ما كان منها من قبيل الأفعال

كالسرقة و المشى للنميمة و السعاية و غيرهما شهدت عليه بقيه الأعضاء، و إذ كان معظم المعاصي من الأفعال للأيدي و الأرجل اختصتا بالذكر.

قوله تعالى: **يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ** المراد بالدين الجزاء كما فى قوله: **مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ** (الحمد ٤/٤)، و توفيه الشىء بذله تاما كاملا، و المعنى: يوم القيامة يؤتيهم الله جزاءهم الحق إيتاء تاما كاملا و يعلمون أن الله هو الحق المبين.

هذا بالنظر الى اتصال الآيه بما قبلها و وقوعها فى سياق ما تقدمها، و أما بالنظر الى استقلالها فى نفسها فمن الممكن ان يراد بالدين ما يرادف المله و هو سنه الحياه، و هو معنى عال يرجع الى ظهور الحقائق يوم القيامة للانسان، و يكون أكثر مناسبه لقوله: **«وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ»**.

و الآيه من غرر الآيات القرآنيه تفسر معنى معرفه الله فى قوله: **«وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ»** ينبى أنه تعالى هو الحق لا ستره عليه بوجه من الوجوه و لا على تقدير من التقادير فهو من أبده البديهيات التى لا يتعلق بها جهل لكن البديهى ربما يغفل عنه فالعلم به تعالى هو ارتفاع الغفله عنه الذى ربما يعبر عنه بالعلم، و هذا هو الذى يبدو لهم يوم القيامة فيعلمون أن الله هو الحق المبين.

و الى مثله يشير قوله تعالى: **لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ** (ق ٢٢).

قوله تعالى: **الْخَيْثَاتُ لِلْخَيْثِينَ وَ الْخَيْثُونَ لِلْخَيْثَاتِ وَ الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ** الخ؛ ذيل الآيه **«أُولَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ»** دليل على أن المراد بالخيشات و الخيشين و الطيبات و الطيبين نساء و رجال متلبسون بالخباثه و الطيب فالآيه من تمام آيات الإفك متصله بها مشاركه لها فى سياقها، و هى عامه لا مخصص لها من جهه

فالمراد بالطيب الذى يوجب كونهم مبرئين مما يقولون على ما تدل عليه الآيات السابقة هو المعنى الذى يقتضيه تلبسهم بالإيمان والإحسان فالمؤمنون والمؤمنات مع الإحسان طيبون وطيبات يختص كل من الفريقين بصاحبه، وهم بحكم الإيمان والإحسان مصونون مبرءون شرعا من الرمى بغير بينه، محكومون من جهه إيمانهم بأن لهم مغفره كما قال تعالى:

وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ (الأحقاف ٣١) و لهم رزق كريم، وهو الحياه الطيبه فى الدنيا و الأجر الحسن فى الآخرة كما قال: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (النحل ٩٧).

و المراد بالخبث فى الخبيثين و الخبيثات و هم غير المؤمنين هو الحال المستقذره التى يوجبها لهم تلبسهم بالكفر و قد خصيت خبيثاتهم بخبيثهم و خبيثوهم بخبيثاتهم بمقتضى المجانسه و المساخره و ليسوا بمبرئين عن التلبس بالفحشاء- نعم هذا ليس حكما بالتلبس - (١).

[سوره النور (٢٤): الآيات ٢٧ الى ٣٤]

إشارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَ تَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَ إِنْ قِيلَ لَكُمْ ائْذِنُوا فَاذْجَبُوا وَ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا تَكْتُمُونَ (٢٩) قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَ قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَ يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَ لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ لِيُضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَ لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِلْبَابِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَ لَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) وَ أَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَ إِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَ لِيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَ آتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَ لَا تُكْرَهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَنْ يُكْرِهْنَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣) وَ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَ مَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤)

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَيَّ أَهْلِهَا الخ؛ الانس بالشىء و اليه الالفه و سكون القلب اليه، و الاستيناس طلب ذلك بفعل يؤدى اليه كالاستيناس لدخول بيت بذكر الله و التنحنح و نحو ذلك ليتتبه صاحب البيت أن هناك من يريد الدخول عليه فيستعد لذلك فربما كان في حال لا يحب أن يراه عليها أحد أو يطلع عليها مطلع.

و منه يظهر أن مصلحه هذا الحكم هو الستر على عورات الناس و التحفظ على كرامه الإيمان فإذا استأنس الداخل عند إرادته الدخول على بيت غير بيته فأخبر باستيناسه صاحب البيت بدخوله ثم دخل فسلم عليه فقد أعانه على ستر عورته، و أعطاه الأمن من نفسه.

قوله تعالى: فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ الخ؛ أى إن علمتم بعدم وجود أحد فيها- و هو الذى يملك الإذن- فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم من قبل من يملك الإذن، و ليس المراد به أن يتطلع على البيت و ينظر فيه فإن لم ير فيه أحدا كفف عن الدخول فإن السياق يشهد على أن المنع فى الحقيقه عن النظر و الاطلاع على عورات الناس.

و هذه الآيه تبين حكم دخول بيت الغير و ليس فيه من يملك الإذن، و الآيه السابقه تبين حكم الدخول و فيه من يملك الإذن و لا- يمنع، و أما دخوله و فيه من يملك الإذن و يمنع و لا- يأذن فيه فيبين حكمه قوله تعالى: «وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ اذْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ» .

قوله تعالى: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ الخ؛ ظاهر السياق كون قوله: «فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ» صفة بعد صفة لقوله: «بُيُوتًا» لا جمله مستأنفه معلله لقوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ»، و الظاهر أن المتاع بمعنى الاستمتاع.

ففيه تجويز الدخول في بيوت معدّه لأنواع الاستمتاع و هي غير مسكونه بالطبع كالخانات و الحمامات و الأرحيه و نحوها فإن كونها موضوعه للاستمتاع إذن عام في دخولها.

قوله تعالى: قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ الغَضُّ إطباق الجفن على الجفن، و الأبصار جمع بصر و هو العضو الناظر، و من هنا يظهر أن «مِنْ» في «مِنْ أَبْصَارِهِمْ» لا ابتداء الغايه لا- مزيده و لا للجنس و لا للتبعيض كما قال بكل قائل، و المعنى يأتوا بالغض آخذاً من أبصارهم.

فقوله: قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ لما كان «يَغُضُّوا» مترتبا على قوله:

«قُلْ» ترتب جواب الشرط عليه دلّ ذلك على كون القول بمعنى الأمر و المعنى مرهم يغضوا من أبصارهم و التقدير مرهم بالغض إنك إن تأمرهم به يغضوا، و الآيه أمر بغض الأبصار و إن شئت فقل: نهى عن النظر الى ما لا يحل النظر اليه من الأجنبي الأجنبيه لمكان الإطلاق.

و قوله: وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ أى و مرهم يحفظوا فروجهم، و الفرجه و الفرج الشق بين الشيتين، و كنى به عن السوأه، و على ذلك جرى استعمال القرآن الملىء في أدبا و خلقا ثم كثر استعماله فيها حتى صار كالنص كما ذكره الراغب.

والمقابله بين قوله: «يَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ» و «يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ» يعطى أن المراد بحفظ الفروج سترها عن النظر لا حفظها عن الزنا و اللواطه كما قيل، وقد ورد في الروايه عن الصادق عليه السّلام أن كل آيه في القرآن في حفظ الفروج فهى من الزنا إلا هذه الآيه فهى من النظر.

و على هذا يمكن أن تتقيد أولى الجملتين بثنائيتها و يكون مدلول الآيه هو النهى عن النظر الى الفروج و الأمر بسترها.

ثم أشار الى وجه المصلحه فى الحكم و حثهم على المراقبه فى جنبه بقوله: «ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ» .

قوله تعالى: «وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ الْخُصْمَ الْكَلَامِ فِي قَوْلِهِ: «وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ» نظير ما مر فى قوله: «قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ» فلا يجوز لهن النظر الى ما لا يجوز النظر اليه و يجب عليهن ستر العوره عن الأجنبى و الاجنبيه.

و أما قوله: «وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا» فالإبداء الإظهار، و المراد بزيتنهن مواضع الزينه لأن نفس ما يترين به كالقرط و السوار لا يحرم إبدائها فالمراد بإبداء الزينه إبداء مواضعها من البدن.

و قد استثنى الله سبحانه منها ما ظهر، و قد وردت الروايه أن المراد بما ظهر منها الوجه و الكفان و القدمان كما سيجىء إن شاء الله.

و قوله: «وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ» الخمر بضمّين جمع خمار و هو ما تغطى به المرأه رأسها و ينسدل على صدرها، و الجيوب جمع جيب بالفتح فالسكون و هو معروف و المراد بالجيوب الصدور، و المعنى و ليلقين بأطراف مقانعهن على صدورهن ليسترنها بها.

وقوله: وَلَا يُبَدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ -الى قوله- أَوْ بَنَى أَخَوَاتِهِنَّ البعوله هم أزواجهن، و الطوائف السبع الآخر محارمهن من جهة النسب و السبب، و أجداد البعوله حكمهم حكم آبائهم و أبناء أبناء البعوله حكمهم حكم الأبناء.

وقوله: أَوْ نِسَائِهِنَّ فى الاضافه إشاره الى أن المراد بهن المؤمنات من النساء فلا يجوز لهن التجرد لغيرهن من النساء و قد وردت به الروايات عن أئمه أهل البيت عليهم السلام.

وقوله: أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ إطلاقه يشمل العبيد و الإماء، و قد وردت به الروايه كما سيأتى إن شاء الله، و هذا من موارد استعمال «ما» فى اولى العقل.

وقوله: أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أَوْلَىٰ الْأَرْبَةِ مِنَ الرَّجَالِ الإربه هى الحاجه، و المراد به الشهوه التى تحوج الى الازدواج، و «مِنَ الرَّجَالِ» بيان للتابعين، و المراد بهم كما تفسره الروايات البله المولى عليهم من الرجال و لا شهوه لهم.

وقوله: أَوْ الطُّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ أى جماعه الأطفال- و اللام للاستغراق-الذين لم يقووا و لم يظهروا-من الظهور بمعنى الغلبه-على امور يسوء التصريح بها من النساء، و هو-كم قيل-كنايه عن البلوغ.

وقوله: وَلَا يَضْرِبْنَ بَأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ذلك بتصوت أسباب الزينه كالخلخال و العقد و القرط و السوار.

وقوله: وَ تَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ المراد بالتوبه-على ما يعطيه السياق-الرجوع اليه تعالى بامثال أوامره و الانتهاء عن نواهيه و بالجمله أتباع سبيله.

قوله تعالى: وَ أَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَ إِمَائِكُمْ الإنكاح التزويج، و الأيامى جمع أيم بفتح الهمزه و كسر الياء المشدده و هو الذكر الذى لا انثى معه و الانثى التى لا ذكر معها و قد يقال فى المرأه أيمه، و المراد بالصالحين الصالحون للتزويج لا

وقوله: إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَعَدَّ جَمِيلًا بِالْغِنَى وَسَعَةِ الرِّزْقِ وَقَدْ أَكَدَهُ بِقَوْلِهِ: «وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» وَ الرِّزْقُ يَتَّبِعُ صِلَاحِيهِ الْمَرْزُوقُ بِمَشِيهِ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ سِيَوَافِيكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَوَ رَبِّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ (الذاريات ٢٣) كَلَامٌ فِي مَعْنَى سَعَةِ الرِّزْقِ.

قوله تعالى: وَ لَيْسَ تَعْفَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ الْاسْتِعْفَاءَ وَ التَّعْفُفُ قَرِيبًا الْمَعْنَى، وَ الْمُرَادُ بِعَدَمِ وَجِدَانِ النِّكَاحِ عَدَمُ الْقُدْرَةِ عَلَى الْمَهْرِ وَ النِّفْقَةِ، وَ مَعْنَى الْآيَةِ الْأَمْرُ بِالتَّعْفُفِ لِمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى النِّكَاحِ وَ التَّحْرُزِ عَنِ الْوُقُوعِ فِي الزَّوْنِ حَتَّى يَغْنِيَهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَا تَبَوْهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا؛ الْمُرَادُ بِالْكِتَابِ الْمَكَاتِبِ، وَ ابْتِغَاءُ الْمَكَاتِبِ أَنْ يَسْأَلَ الْعَبْدَ مَوْلَاهُ أَنْ يَكَاتِبَهُ عَلَى إِيْتَائِهِ الْمَوْلَى مَا لَا عَلَى أَنْ يَعْتَقَهُ، وَ فِي الْآيَةِ أَمْرٌ لِلْمَوْلَى بِإِجَابَتِهِمْ إِنْ عَلِمُوا فِيهِمْ خَيْرًا وَ هُوَ كُنْيَاهُ عَنِ إِحْرَازِ صِلَاحِيَتِهِمْ لِذَلِكَ.

وقوله: وَ آتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ إِشَارَةٌ إِلَى إِيْتَائِهِمْ مَالِ الْمَكَاتِبِ مِنَ الزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ فَسَهْمٌ مِنْ سَهَامِ الزَّكَاةِ لَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَ فِي الرِّقَابِ (التوبة ٦٠) أَوْ إِسْقَاطُ شَيْءٍ مِنْ مَالِ الْمَكَاتِبِ.

و في هذه الآيات والآيات السابقة مباحث فقهية جمه ينبغي أن يراجع فيها كتب الفقه.

قوله تعالى: وَ لَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا الْفَتِيَّاتُ الْإِمَاءُ وَ الْوَلَائِدُ، وَ الْبِغَاءُ الزَّوْنُ وَ هُوَ مَفَاعَلَةٌ مِنَ الْبَغَى، وَ التَّحَصُّنُ وَ التَّعْفُفُ وَ الْإِزْدِوَاجُ وَ ابْتِغَاءُ عَرْضِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا طَلَبُ الْمَالِ، وَ الْمَعْنَى ظَاهِرٌ.

و إنما اشترط النهي عن الإكراه بإرادته التحصن لأن الإكراه لا يتحقق فيمن لا يريد

التحصن، ثم وعدهن المغفرة على تقدير الإكراه بقوله: «وَمَنْ يُكْرِهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ» و معناه ظاهر.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ المثل الصفة، و من الممكن أن يكون قوله: «وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا» الخ؛ حالا- من فاعل قوله: «تَوَبُّوا» فى الآية السابقة أو استينافا و المعنى و أقسم لقد أنزلنا اليكم آيات تبين لكم من معارف الدين ما تفلحون به، و صفة من السابقين أختيارهم و أشرارهم يتميز بها لكما ينبغى أن تأخذوا به مما ينبغى لكم أن يجتنبوا، و موعظه للمتقين منكم (١).

[سورة النور (٢٤): الآيات ٣٥ الى ٤٦]

إشارة

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي ثُبُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعِهِ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كظلماتٍ في بحرٍ لججٍ يعشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها و من لم يجعل الله له نورا فما له من نور (٤٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صِلَاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيَصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦)

ص: ٤٣٤

قوله تعالى: **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** الى آخر الآية؛ المشكاه على ما ذكره الراغب وغيره: كونه غير نافذه و هي ما يتخذ في جدار البيت من الكؤ لوضع بعض الأثاث كالمصباح وغيره عليه و هو غير الفانوس.

و الدرّي: من الكواكب العظيم الكثير النور، و هو معدود في السماء، و الإيقاد: الإشعال، و الزيت: الدهن المتخذ من الزيتون.

و قوله: **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** النور معروف و هو الذى يظهر به الأجسام الكثيفه لأبصارنا فالأشياء ظاهره به و هو ظاهر مكشوف لنا بنفس ذاته فهو الظاهر بذاته المظهر لغيره من المحسوسات للبصر. هذا أول ما وضع عليه لفظ النور ثم عمم لكل ما ينكشف به شىء من المحسوسات على نحو الاستعاره أو الحقيقه الثانيه فعدّ كل من الحواس نورا أو ذا نور يظهر به محسوساته كالسمع و الشم و الذوق و اللمس. ثم عمم لغير المحسوس فعدّ العقل نورا يظهر به المعقولات كل ذلك بتحليل معنى النور المبصر الى الظاهر بذاته المظهر لغيره.

و إذ كان وجود الشىء هو الذى يظهر به نفسه لغيره من الأشياء كان مصداقا تاما للنور، ثم لما كانت الأشياء الممكنه الوجود إنما هي موجوده بإيجاد الله تعالى كان هو المصداق الأتم للنور فهناك وجود و نور يتصف به الأشياء و هو وجودها و نورها المستعار المأخوذ منه تعالى و وجود و نور قائم بذاته يوجد و يستنير به الأشياء.

فهو سبحانه نور يظهر به السماوات والأرض، وهذا هو المراد بقوله: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» حيث أضيف النور الى السماوات والأرض ثم حمل على اسم الجلاله، وعلى هذا ينبغي أن يحمل قول من قال: إن المعنى الله منور السماوات والأرض، وعمده الغرض منه أن ليس المراد بالنور المستعار القائم بها وهو الوجود الذي يحمل عليها تعالى الله عن ذلك وتقديسه.

ومن ذلك يستفاد أنه تعالى غير مجهول لشيء من الأشياء إذ ظهور كل شيء لنفسه أو لغيره إنما هو عن إظهاره تعالى فهو الظاهر بذاته له قبله، وإلى هذه الحقيقة يشير قوله تعالى بعد آيتين: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ» إذ لا معنى للتسبيح والعلم به وبالصلاة مع الجهل بمن يصلون له ويسبحونه فهو نظير قوله: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (الإسراء/ ٤٤)»، وسوا فيك البحث عنه إن شاء الله.

فقد تحصل أن المراد بالنور في قوله: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» نوره تعالى من حيث يشرق منه النور العام الذي يستنير به كل شيء وهو مساو لوجود كل شيء وظهوره في نفسه ولغيره وهي الرحمة العامه.

وقوله: «مَثَلُ نُورِهِ يَصِفُ تَعَالَى نوره»، وإضافه النور الى الضمير الراجع اليه تعالى - وظاهره الإضافه اللاميه - دليل على أن المراد ليس هو وصف النور الذي هو الله بل النور المستعار الذي يفيضه، وليس هو النور العام المستعار الذي يظهر به كل شيء وهو الوجود الذي يستفيضه منه الأشياء وتتصف به، والدليل عليه قوله بعد تميم المثل: «يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ» إذ لو كان هو النور العم لم يختص به شيء دون شيء بل هو نوره الخاص بالمؤمنين بحقيقه الإيمان على ما يفيد الكلام.

وقد نسب تعالى في سائر كلامه الى نفسه نورا كما في قوله: «يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ»

بَأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ (الصف ٨/)، و قوله: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا (الأنعام ١٢٢/١) و قوله: يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ (الحديد ٢٨/١)، و قوله: أَمْ مَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ (الزمر ٢٢/١)، و هذا هو النور الذي يجعله الله لعباده المؤمنين يستضيئون به في طريقهم الى ربهم و هو نور الإيمان و المعرفة.

و ليس المراد به القرآن كما قاله بعضهم فإن الآيه تصف حال عامه المؤمنين قبل نزول القرآن و بعده. على أن هذا النور و وصف لهم يتصفون به كما يشير اليه قوله: لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ (الحديد ١٩/١) و قوله: يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا (التحریم ٨/١)، و القرآن ليس وصفا لهم و إن لوحظ باعتبار ما يكشف عنه من المعارف رجع الى ما قلناه.

و قوله: كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجِهِ الْمَشْبَهُ بِهِ مَجْمُوعٌ مَا ذَكَرَ مِنْ قَوْلِهِ: «كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ» الخ، لا مجرد المشكاه و إلا فسد المعنى، و هذا كثير في تمثيلات القرآن.

و قوله: الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ تشبيه الزجاجه بالكوكب الدرّي من جهه ازدياد لمعان نور المصباح و شروقه بتركيب الزجاجه على المصباح فتزيد الشعلة بذلك سكونا من غير اضطراب بتموج الأهويه و ضرب الرياح فهي كالكوكب الدرّي في تألؤ نورها و ثبات شروقتها.

و قوله: يُوقَدُ مِنْ شَجَرِهِ مَبَارَكِهِ زَيْتُونَهُ لَا شَرْقِيَّهُ وَلَا غَرْبِيَّهُ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ خَبِرَ بَعْدَ خَبَرٍ لِلْمِصْبَاحِ أَى المصباح يشتعل آخذا اشتعاله من شجره مباركه زيتونه أى إنه يشتعل من دهن زيت مأخوذ منها، و المراد بكون الشجره لا شرقيه و لا غربيه أنها ليست نابتة في الجانب الشرقي و لا في الجانب الغربي حتى تقع الشمس عليها في أحد طرفي النهار و يفيئ الظل عليها في الطرف الآخر فلا تنضج ثمرتها فلا يصفو

الدهن المأخوذ منها فلا تجود الإضاءة بل هي ضاحيه تأخذ من الشمس حظها طول النهار فيجود دهنها لكمال نضج ثمرتها.

و الدليل على هذا المعنى قوله: «يَكَادُ زَيْتُهَا يُضَيُّءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسِسْهُ نَارٌ» فإن ظاهر السياق أن المراد به صفاء الدهن و كمال استعداده للاشتعال و أن ذلك متفرع على الوصفين: لا شقيقه و لا غريبه.

و قوله: نُورٌ عَلِيٌّ نُورٌ خَيْرٌ لِمَبْتَدِئٍ مَحْذُوفٍ و هو ضمير راجع الى نور الزجاجه المفهوم من السياق، و المعنى نور الزجاجه المذكور نور عظيم على نور كذلك أى فى كمال التلمع.

و المراد من كون النور على النور قيل: هو تضاعف النور لا تعدده فليس المراد به أنه نور معين أو غير معين فوق نور آخر مثله، و لا أنه مجموع نورين اثنين فقط بل أنه نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه و هذا التعبير شائع فى الكلام.

و هذا معنى لا- يخلو من جوده و إن كان إرادته التعدد أيضا لا- تخلو من لطف و دقه فإن للنور الشارق من المصباح نسبه اليه بالأصالة و الحقيقه و نسبه الى الزجاجه التى عليه بالاستعاره و المجاز، و يتغاير النور بتغاير النسبتين و يتعدّد بتعددهما و إن لم يكن بحسب الحقيقه إلا للمصباح و الزجاجه صفر الكف منه فللزجاجه بالنظر الى تعدد النسب نور غير نور المصباح و هو قائم به و مستمد منه.

و هذا الاعتبار جار بعينه فى الممثل له فإن نور الإيمان و المعرفة نور مستعار مشرق على قلوب المؤمنين مقتبس من نوره تعالى قائم به مستمد منه.

فقد تحصل أن الممثل له هو نور الله المشرق على قلوب المؤمنين و المثل هو المشبه به النور المشرق من زجاجه على مصباح موقد من زيت جيّد صاف و هو موضوع فى مشكاه فإن نور المصباح المشرق من الزجاجه و المشكاه تجمعه و تعكسه على المستنيرين به يشرق عليهم فى

فأخذ المشكاه للدلاله على اجتماع النور فى بطن المشكاه و انعكاسه الى جو البيت، و اعتبار كون الدهن من شجره زيتونه لا شرقيه و لا غريبه للدلاله على صفاء الدهن و جودته المؤثر فى صفاء النور المشرق عن اشتعاله و جوده الضياء على ما يدل عليه كون زيتيه يكاد يضىء و لو لم تمسسه نار، و اعتبار كون النور على النور للدلاله على تضاعف النور أو كون الزجاجه مستمده من نور المصباح فى إنارتها.

و قوله: يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ استئناف يعلل به اختصاص المؤمنين بنور الإيمان و المعرفه و حرمان غيرهم، فمن المعلوم من السياق أن المراد بقوله: «مَن يَشَاءُ» القوم الذين ذكرهم بقوله بعد: «رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ» الخ؛ فالمراد بمن يشاء المؤمنون بوصف كمال إيمانهم.

و المعنى: أن الله إنما هدى المتلبسين بكمال الإيمان الى نوره دون المتلبسين بالكفر-الذين سيدكرهم بعد-لمجرد مشيئته، و ليس المعنى أن الله يهدى بعض الأفراد الى نوره دون بعض بمشيئته ذلك يحتاج فى تنميته الى القول بأنه إنما يشاء الهدايه إذا استعد المحل الى الهدايه بحسن السريره و السيره، و ذلك مما يختص به أهل الإيمان دون أهل الكفر فافهمه.

و الدليل على ذلك ما سيأتى من قوله: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» الى آخر الآيات؛ بالبيان الآتى إن شاء الله.

و قوله: وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ إشاره الى أن المثل المضروب تحته طور من العلم، و إنما اختيار المثل لكونه أسهل الطرق لتبيين الحقائق و الدقائق و يشترك فيه العالم و العامى فىأخذ منه كل ما قسم له، قال تعالى: وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (العنكبوت ٤٣).

قوله تعالى: فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُذْنَبُ فِي الشَّيْءِ

هو إعلام ارتفاع المانع عن فعله، والمراد بالرفع رفع القدر و المنزله و هو التعظيم،و إذ كانت العظمه و العلوّ لله تعالى لا يشاركه في ذلك غيره إلا أن ينتسب اليه،و بمقدار ما ينتسب اليه فالإذن منه تعالى في أن ترفع هذه البيوت إنما هو لانتساب ما منها اليه.

و بذلك يظهر أن السبب لرفعها هو ما عطف عليه من ذكر اسمه فيها،و السياق يدل على الاستمرار أو التهيؤ له فيعود المعنى الى مثل قولنا «أن يذكر فيها اسم فيرتفع قدرها بذلك».

و قوله: في بيوت متعلق بقوله في الآيه السابقه: «كَمْشُكَاهٍ» أو قوله: «يَهْدِي اللَّهُ» الخ؛و المآل واحد،و من المتيقن من هذه البيوت المساجد فإنها معده لذكر اسمه فيها ممحضه لذلك،و قد قال تعالى: وَ مَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا (الحج ٤٠).

قوله تعالى: يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ الى آخر الآيه؛تسيحه تعالى تنزيهه عن كل ما لا يليق بساحه قدسه،و الغدو جمع غداه و هو الصبح و الآصال جمع أصيل و هو العصر،و الإلهاء صرف الإنسان عما يعنيه و يهمله،و التجاره على ما قاله الراغب:

التصرف في رأس المال طلبا للربح.قال:و ليس في كلامهم تاء بعدها جيم غير هذا اللفظ.

و البيع على ما قال:إعطاء المثلن أخذ الثمن،و قلب الشيء على ما ذكره صرف الشيء من وجه الى وجه،و التقليب مبالغه فيه و التقليب قوله فتقلب القلوب و الأبصار تحوّل منها من وجه من الإدراك الى وجه آخر.

و قوله: يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ صفه لبيوت أو استئناف لبيان قوله:

«وَ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُهُ» ،و كون التسيح بالغدو و الآصال كناية عن استمرارهم فيه لا أن التسيح مقصور في الوقتين لا يسبح له في غيرهما.

و الاكتفاء بالتسيح من غير ذكر التحميد معه لأنه تعالى معلوم بجميع صفاته الكماليه لا ستره عليه إذ المفروض أنه نور و النور هو الظاهر بذاته المظهر لغيره و إنما يحتاج خلوص

المعرفة الى نفى النقائص عنه و تنزيهه عما لا- يليق به فإذا تمّ التسييح لم يبق معه غيره و تمّت المعرفة ثم إذا تمت المعرفة وقع الثناء و الحمد و بالجملة التوصيف بصفات الكمال موقعه بعد حصول المعرفة كما قال تعالى: **سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ** (الصفات / ١٦٠)، فنزّهه عما يصفونه به إلا ما وصفه به من أخلصهم لنفسه من عباده، وقد تقدم فى تفسير سورة الحمد كلام فى معنى حمده تعالى.

و بيان آخر حمده تعالى و هو ثنائه بصفه الكمال مساوق لحصول نور المعرفة و تسييحه و هو التنزيه بنفى ما لا يليق به عنه مقدّمه لحصوله، و الآية فى مقام بيان خصالهم التى تستدعى هدايتهم الى نوره فلا جرم اقتصر فيها بذكر ما هى المقدمه و هو التسييح، فافهم ذلك.

و قوله: **رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ** التجاره إذا قوبلت بالبيع كان المفهوم منها بحسب العرف الاستمرار فى الاكتساب بالبيع و الشراء و البيع هو العمل الاكتسابى الدفعى فالفرق بينهما هو الفرق بين الدفعه و الاستمرار فمعنى نفى البيع بعد نفى التجاره مع كونه منفيًا بنفيها الدلاله على أنهم لا يلهون عن ربهم فى مكاسبهم دائما و لا فى وقت من الأوقات، و بعبارة اخرى لا تنسيهم ربهم تجاره مستمره و لا بيع ما من البيوع التى يوقعونها مده تجارتهم.

و قيل: الوجه فى نفى البيع بعد نفى إلهاء التجاره أن الربح فى البيع ناجز بالفعل بخلاف التجاره التى هى الحرفه، فعدم إلهاء التجاره لا يستلزم عدم إلهاء البيع الرابع بالفعل، و لذلك نفى البيع ثانيا بعد نفى إلهاء التجاره و لذلك كرّرت لفظه «لا» لتذكير النفى و تأكيده، و هو وجه حسن.

و قوله: **عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ إِقَامِ الصَّلَاةِ وَ إِيْتَاءِ الزَّكَاةِ** الإقامه هو الإقامه بحذف التاء تخفيفا.

و المراد بإقامه الصلاة و إيتاء الزكاه الإتيان بجميع الأعمال الصالحه التي كلف الله تعالى عباده بإتيانها فى حياتهم الدنيا، و إقامه الصلاة ممثله لإتيان ما للعبد من وظائف العبوديه مع الله سبحانه، و إيتاء الزكاه ممثل لوظائفه مع الخلق و ذلك لكون كل منها ركنا فى بابه.

و المقابله بين ذكر الله و بين إقام الصلاة و إيتاء الزكاه و هما- و خاصه الصلاة- من ذكر الله يعطى أن يكون المراد بذكر الله الذكر القلبي الذى يقابل النسيان و الغفله و هو ذكر علمى كما أن أمثال الصلاة و الزكاه ذكر عملى.

فالمقابله المذكوره تعطى أن المراد بقوله: «عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ إِقَامِ الصَّلَاةِ وَ إِيْتَاءِ الزَّكَاةِ» أنهم لا يشتغلون بشىء عن ذكرهم المستمر بقلوبهم لربهم و ذكرهم الموقت بأعمالهم من الصلاة و الزكاه، و عند ذلك يظهر حسن التقابل بين التجاره و البيع و بين ذكر الله و إقام الصلاة، الخ، لرجوع المعنى الى أنهم لا يلهيهم مله مستمر و لا موقت عن الذكر المستمر و الموقت، فافهم ذلك.

و قوله: يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصَارُ هذا هو يوم القيامه، و المراد بالقلوب و الأبصار ما يعم قلوب المؤمنين و الكافرين و أبصارهم لكون القلوب و الأبصار جمعا محلّى باللام و هو يفيد العموم.

و أما تقلب القلوب و الأبصار فالآيات الواصفه لشأن يوم القيامه تدل على أنه يظهر حقيقه الأمر و انكشاف الغطاء كما قال تعالى: فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَ كَفَبَصْرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق ٢٢)، و قال: وَ بَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (الزمر ٤٧)، الى غير ذلك من الآيات.

فتنصرف القلوب و الأبصار يومئذ عن المشاهده و الرؤيه الدنيويه الشاغله عن الله الساتره للحق و الحقيقه الى سنخ آخر من المشاهده و الرؤيه و هو الرؤيه بنور الايمان و المعرفه فيتبصر المؤمن بنور ربه و هو نور الايمان و المعرفه فينظر الى كرامه الله، و يعمى الكافر و لا يجد

إلا ما يسوؤه قال تعالى: وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا (الزمر ٦٩) وقال:

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بَأْيَمَانِهِمْ (الحديد ١٢)، وقال: وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهِيَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى (الإسراء ٧٢)، وقال: وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (القيامة ٢٣) وقال: كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (المطففين ١٥).

وقد تبين بما مر:

أولاً: وجه اختصاص هذه الصفة أعنى تقلب القلوب و الأبصار من بين أوصاف يوم القيامة بالذكر و ذلك أن الكلام مسوق لبيان ما يتوسل به الى هدايته تعالى الى نوره و هو نور الإيمان و المعرفة الذي يستضاء به يوم القيامة و يبصر به.

و ثانياً: أن المراد بالقلوب و الأبصار النفوس و بصائرهما.

و ثالثاً: أن توصيف اليوم بقوله: «تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصَارُ» لبيان سبب الخوف فهم إنما يخافون اليوم لما فيه من تقلب القلوب و الأبصار، و إنما يخافون هذا التقلب لما في أحد شقيه من الحرمان من نور الله و النظر الى كرامته و هو الشقاء الدائم و العذاب الخالد و في الحقيقة يخافون أنفسهم.

قوله تعالى: لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ الظاهر أن لام «لِيَجْزِيََهُمُ» للغايه، و الذي ذكره الله في خلال الكلام هو أعمالهم الصالحة و الأجر الجميل على كل صالح مما ينص عليه كلامه تعالى فقوله: إنه يجزيهم أحسن ما عملوا معناه أنه يجزيهم بإزاء عملهم في كل باب جزاء أحسن عمل في ذلك الباب، و مرجع ذلك الى أنه تعالى يزكى أعمالهم فلا يناقش فيها بالمؤاخذه في جهات توجب نقصها و انحطاط قدرها فيعد الحسن منها أحسن.

و يؤيد هذا المعنى قوله في ذيل الآية: «وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» فإن ظاهره عدم

المداقه فى حساب الحسنات بالإغماض عن جهات نقصها فىلحق الحسن بالأحسن.

وقوله: وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ الْفَضْلَ الْعَطَاءُ، وهذا نص فى أنه تعالى يعطيهم من فضله ما ليس بإزاء أعمالهم الصالحة، وأوضح منه قوله تعالى فى موضع آخر: لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (ق ٣٥)، حيث إن ظاهره أن هذا المزيد الموعود أمر وراء ما تتعلق به مشيتهم.

وقد دل كلامه سبحانه أن أجرهم أن لهم ما يشاءون قال تعالى: أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (الزمر ٣٤)، وقال: أَمْ جِنَّةَ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَ مَصِيرًا لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ (الفرقان ١٦)، وقال: لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (النحل ٣١).

فهذا المزيد الذى هو وراء جزاء الأعمال أمر أعلى وأعظم من أن تتعلق به مشيه الإنسان أو يوصل اليه سعيه، وهذا أعجب ما يعده القرآن المؤمنين و يبشرهم به فأجد التدبر فيه.

وقوله: وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ استئناف مآله تعليل الجملتين السابقتين بالمشيه نظير قوله فيما تقدم: «يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ» على ما مر بيانه.

و محصله أنهم عملوا صالحا و كان لهم من الأجر ما يعادل عملهم كما هو ظاهر قوله:

و تُوْفِيَ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ (النحل ١١)، و ما فى معناه من الآيات لكنه تعالى يجزيهم بكل عمل من أعمالهم جزاء أحسن عمل يؤتى به فى باب من غير أن يداق فى الحساب فهذه موهبه ثم يرزقهم أمرا هو أعلى و أرفع من أن تتعلق به مشيتهم و هذه أيضا موهبه و رزق بغير حساب، و الرزق من الله موهبه محضه من غير أن يملك المرزوقون منه شيئا أو يستحقوه عليه فله تعالى أن يخص منه ما يشاء لمن يشاء.

غير أنه تعالى وعدهم الزرق و أقسم على إنجازه فى قوله: فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ (الذاريات ٢٣)، فملكهم الاستحقاق لأصله و هو الذى يجزيهم به على قدر أعمالهم

و أما الزائد عليه فلم يملكهم ذلك فله أن يختص به من يشاء فلا يعلل ذلك إلا بمشيئه، و للكلام تتمه ستوافيك إن شاء الله في بحث مستقل.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً إِلَىٰ آخِرِ آيَةٍ؛ السراب هو ما يلمع في المفاز كالماء و لا حقيقه له، و القيع و القاع هو المستوى من الأرض و مفرداهما القيعه و القاعه كالتينه و التمره، و الظمان هو العطشان.

لما ذكر سبحانه المؤمنين و وصفهم بأنهم ذاكرون له في بيوت معظمه لا- تلهيهم عنه تجاره و لا- بيع، و أن الله الذي هو نور السماوات و الأرض يهديهم الى نوره فيمكرهم بنور معرفته قابل ذلك بذكر الذين كفروا فوصف أعمالهم تاره بأنها لا حقيقه لها كسراب بقيعه فلا غايه لها تنتهي إليها، و تاره بأنها كظلمات بعضها فوق بعض لا نور معها و هي حاجز عن النور، و هذه الآيه هي التي تتضمن الوصف الأول.

فقوله: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا شَبِهَ أَعْمَالَهُمْ- و هي التي يأتون بها من قرابين و أذكار و غيرهما من عباداتهم يتقربون بها الى آلهتهم- بسراب بقيعه يحسبه الإنسان ماء و لا حقيقه له يترتب عليها ما يترتب على الماء من رفع العطش و غير ذلك.

و إنما قيل: يحسبه الظمان ماء مع أن السراب يتراءى ماء لكل راء لأن المطلوب بيان سيره اليه و لا يسيره اليه إلا الظمان يدفعه اليه ما به من ظماء، و لذلك رتب عليه قوله: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا» كأنه قيل: كسراب بقيعه يتخيله الظمان ماء فيسير اليه و يقبل نحوه ليرتوى و يرفع عطشه به، و لا يزال يسير حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

و التعبير بقوله: «جَاءَهُ» دون أن يقال: بلغه أو وصل اليه أو انتهى اليه و نحوها للإيماء إلى أن هناك من يريد مجيئه و ينتظره انتظاراً و هو الله سبحانه، و لذلك أردفه بقوله: «وَ وَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابًا» فأفاد أن هؤلاء يريدون بأعمالهم الظفر بأمر تبعثهم نحوه فطرتهم

و جبلتهم و هو السعاده التى يريدها كل إنسان بفطرته و جبلته لكن أعمالهم لا توصلهم اليه، و لا أن الآلهه يبتغون بأعمالهم جزاء حسنا منهم لهم حقيقه بل الذى ينتهى اليه أعمالهم و يحيط هو بها و يجزيهم هو الله سبحانه فيوفيه حسابهم، و توفيه الحساب كناية عن الجزاء بما يستوجب حساب الأعمال و إيصال ما يستحقه صاحب الأعمال.

ففى الآيه تشبيه أعمالهم بالسراب، و تشبيهم بالظمان يريد الماء و عنده عذب الماء لكنه يعرض و لا يصغى الى مولاه الذى ينصحه و يدعو الى شربه بل يحسب السراب ماء فيسير اليه و يقبل نحوه، و تشبيه مصيرهم الى الله سبحانه بحلول الآجال و عند ذلك تمام الأعمال بالظمان السائر الى السراب إذا جاءه و عنده مولاه الذى كان ينصحه و يدعو الى شرب الماء.

فهؤلاء قوم ألهوا عن ذكر ربهم و الأعمال الصالحه الهاديه الى نوره و فيه سعادتهم و حسبوا أن سعادتهم عند غيره من الآلهه الذين يدعونهم، و الأعمال المقربه اليهم و فيها سعادتهم فأكبوا على تلك الأعمال السرايه و استوفوا ما يمكنهم أن يأتوا بها مده أعمارهم حتى حلت آجالهم و شارفوا الدار الآخره فلم يجدوا شيئاً مما يؤملونه من أعمالهم و لا أثرا من الوهيه آلهتهم فوفاهم الله حسابهم و الله سريع الحساب.

□
و قوله: وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ إنما هو لإحاطه علمه بالقليل و الكثير و الحقيق و الخطير و الدقيق و الجليل و المتقدم و المتأخر على حد سواء.

قوله تعالى: أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَيِّحَابٌ تَشْبِيهِ ثَانٍ لِأَعْمَالِهِمْ يَظْهَرُ بِهِ أَنَّهَا حَجَبٌ مِتْرَاكِمَةٌ عَلَى قُلُوبِهِمْ تَحْجِبُهُمْ عَنِ نُورِ الْمَعْرِفَةِ، و قد تكرر فى كلامه تعالى أنهم فى الظلمات كقوله: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ (البقره ٢٥٧/)، كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا (الأنعام ١٢٢/)، و قوله: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

كَأَنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (المطففين ١٥).

و قوله: «أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ» معطوف على «كَسْرَابٍ» في الآية السابقة، والبحر اللجّي هو البحر المتردّد أمواجه منسوب الى لجه البحر و هي تردّد أمواجه، والمعنى: أعمالهم كظلمات كائنه في بحر لجّي.

و قوله: «يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَيْحَابٌ» صفة البحر جيء بها لتقرير الظلمات المفروضة فيه فصفته أنه يغشاه و يحيط به موج كائن من فوقه موج آخر كائن من فوقه سحب يحجبته جميعا من الاستضاءة بأضواء الشمس و القمر و النجوم.

و قوله: «ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ» تقرير لبيان أن المراد بالظلمات المفروضة الظلمات المتراكمة بعضها على بعض دون المتفرقة، و قد أكد ذلك بقوله: «إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا» فَإِنْ أَقْرَبَ مَا يَشَاهِدُهُ الْإِنْسَانُ مِنْهُ هُوَ نَفْسُهُ وَ هُوَ أَقْدَرُ عَلَى رُؤْيِهِ مِنْهُ عَلَى سَائِرِ أَعْضَائِهِ لِأَنَّهُ يَقْرَبُهَا تَجَاهَ بَاصِرَتِهِ كَيْفَمَا أَرَادَ فَإِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ وَ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا كَانَتْ الظلمه بالغه.

فهؤلاء و هم سائرون الى الله و صائرون اليه من جهه أعمالهم كراكب بحر لجّي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحب في ظلمات متراكمه كأشد ما يكون و لا نور هناك يستضيء به فيتهدى الى ساحل النجاه.

و قوله: «وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ» نفي للنور عنهم بأن الله لم يجعله لهم، كيف لا؟ و جاعل النور هو الله الذي هو نور كل شيء، فإذا لم يجعل لشيء نورا لم يكن له نور إذ لا جاعل غيره تعالى.

قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ لَمَا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ نُورٌ تَسْتَنِيرُ بِهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَ أَنَّهُ يَخْتَصُّ بِمَزِيدٍ نُورَهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ عِبَادِهِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا نَصِيبَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَرَعٌ يَحْتَجُّ عَلَى ذَلِكَ بِمَا فِي

هذه الآيه و الآيات الأربع التاليه لها.

فكونه تعالى نور السماوات و الأرض يدلّ عليه أن ما فى السماوات و الأرض موجود بوجود ليس من عنده و لا من عند شىء مما فيهما لكونه مثله فى الفاقه، فوجود ما فيهما من موجود من الله الذى ينتهى اليه الحاجات.

فوجود كل شىء مما فيهما كما يظهر به نفس الوجود يدل على من يظهره بما أفاض عليه من الوجود فهو نور يستنير به الشىء و يدل على منوره بما أشرق عليه من النور و أن هناك نورا يستنير به كل شىء فكل شىء مما فيهما يدل على أن وراءه شيئا منزها من الظلمه التى غشيتها، و الفاقه التى لزمته، و النقص الذى لا ينفك عنه، و هذا هو تسبيح ما فى السماوات و الأرض له سبحانه، و لازمه نفى الاستقلال عن كل من سواه و سلب أى إله و رب يدبر الأمر دونه تعالى.

و الى ذلك يشير قوله: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صِيْلَاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ» و به يحتج تعالى على كونه نور السماوات و الأرض لأن النور هو ما يظهر به الشىء المستنير ثم يدل بظهوره على مظهره، و هو تعالى يظهر و يوجد بإظهاره و إيجاد الأشياء ثم يدل على ظهوره و وجوده.

و تزيد الآيه بالإشاره الى لطائف يكمل بها البيان:

منها: اختصاصها من فى السماوات و الأرض و الطير صافات و هم العقلاء و بعض ذوات الروح بالذكر مع عموم التسبيح لغيرهم لقوله: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ» .

و لعل ذلك من باب اختيار أمور من أعاجيب الخلقه للذكر فإن ظهور الموجود العاقل الذى يدل عليه لفظ «من السماوات و الأرض» من عجيب أمر الخلقه الذى يدهش لب ذى اللب، كما أن صفيف الطير الصافات فى الجو من أعجب ما يرى من أعمال الحيوان ذى الشعور و أبدعه.

و يظهر من بعضهم أن المراد بقوله: «مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ» الخ؛ جميع الأشياء و إنما عبّر بلفظ أولى العقل لكون التسييح المنسوب إليها من شئون أولى العقل أو للتنبية على قوه تلك الدلالة و وضوح تلك الإشارة تنزيلا للسان الحال منزله المقال.

و فيه أنه لا يلائم إسناد العلم إليها في قوله بعد: «كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتُهُ وَ تَسْبِيحُهُ» .

و منها: تصدير الكلام بقوله: «أَلَمْ تَرَ» و فيه دلالة على ظهور تسييحهم و وضوح دلالتهم على التنزيه بحيث لا يرتاب فيه ذو ريب فكثيرا ما يعبر عن العلم الجازم بالرؤيه كما في قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ (إبراهيم ١٩)، و الخطاب فيه عام لكل ذى عقل و إن كان خاصا بحسب اللفظ.

و من الممكن أن يكون خطابا خاصا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و قد كان أراه الله تسييح من في السماوات و الأرض و الطير صافات فيما أراه من ملكوت السماوات و الأرض و ليس بيدع منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و قد أرى الناس تسييح الحصاه في كفه كما وردت به الأخبار المعبره.

و منها: أن الآيه تعمم العلم لكل ما ذكر في السماوات و الأرض و الطير، و قد تقدم بعض البحث عنه في تفسير قوله: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (الإسراء ٤٤)، و ستجىء تتمه الكلام فيه في تفسيره سورة حم السجده إن شاء الله.

و قول بعضهم: إن الضمير في قوله: «قَدْ عَلِمَ» راجع اليه تعالى، يدفعه عدم ملائمته للسياق و خاصه لقوله بعده: «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ» و نظيره قول آخرين: إن إسناد العلم الى مجموع ما تقدم من المجاز بتنزيل غير العالم منزله العالم لقوه دلالتة على تسييحه و تنزيهه.

و منها: تخصيصها التسييح بالذکر مع أن الأشياء تشير الى صفات كماله تعالى و هو التحميد كما تسبّحه على ما يدل عليه البرهان و يؤيده قوله: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ» و لعل الوجه فيه كون الآيات مسوقه للتوحيد و نفى الشركاء و ذلك بالتنزيه أمس فإن من يدعو من

دون الله إلهها آخر أو يركن إلى غيره نوعاً من الركون إنما يكفر بإثبات خصوصيه وجود ذلك الشيء للإله تعالى فنفيه إنما يتأتى بالتنزيه دون التحميد فافهمه.

و أما قوله: كُلُّ قَدْ عَلِمَ صِيْلَاتَهُ وَ تَسْبِيْحَهُ فَصَلَاتُهُ دَعَاؤُهُ وَ الدَّعَاءُ تَوْجِيْهُ مِنَ الدَّاعِي لِلْمَدْعُو إِلَى حَاجَتِهِ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى حَاجَتِهِ عِنْدَ الدَّاعِي الْمَدْعُو فِي غَنَى عَنْهَا فَهُوَ أَقْرَبُ إِلَى الدَّلَالَةِ عَلَى التَّنْزِيْهِ مِنْهُ عَلَى الثَّنَاءِ وَ التَّحْمِيدِ.

و منها: أن الآيه تنسب التسييح و العلم به إلى من في السماوات و الأرض فيعمّ المؤمن و الكافر، و يظهر بذلك أن هناك نورين: نور عام يعم الأشياء و المؤمن و الكافر فيه سواء، و إلى ذلك تشير آيات كآيه الذر و أشهدهم على أنفسهم أ لست برّبكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين (الأعراف ١٧٢)، و قوله: فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق ٢٢) إلى غير ذلك، و نور خاص و هو الذي تذكره الآيات و يختص بأوليائه من المؤمنين.

فالنور الذي ينور تعالى به خلقه كالرحمة التي يرحمهم بها قسمان: عام و خاص و قد قال تعالى: وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ (الأعراف ١٥٦)، و قوله: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيَدْخُلُهُمْ رُبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ (الجاثية ٣٠)، و قد جمع بينهما في قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا (الحديد ٢٨)، و ما ذكر فيه من النور هو النور على نور بحذاء الثاني من كفلي الرحمة.

و قوله: وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ وَ مِنْ فَعْلِهِمْ تَسْبِيْحُهُمْ لَهُ سُبْحَانَهُ، و هذا التسييح و إن كان في بعض المراحل هو نفس وجودهم لكن صدق اسم التسييح يجوز أن يعدّ فعلاً لهم بهذه العناية.

و في ذكر علمه تعالى بما يفعلون عقيب ذكر تسييحهم ترغيب للمؤمنين و شكر لهم بأن ربهم يعلم ذلك و سيجزيهم جزاء حسناً، و إيدان بتمام الحجة على الكافرين، فإن من مراتب

علمه تعالى كتب الأعمال و الكتاب المبين التي تثبت فيها أعمالهم فيثبت فيها تسيحهم بوجودهم ثم إنكارهم بألسنتهم.

قوله تعالى: **وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ** الآية و قد وقعت بين قوله: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ» الخ؛ و هو احتجاج على شمول نوره العام لكل شيء، و بين قوله: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي» الخ؛ و ما يتعقبه و هو احتجاج على اختصاص النور الخاص، يعطى أنها كالمتوسط بين القبيلين أعنى بين الأمرين يحتج بها على كليهما، فملكه تعالى لكل شيء و كونه مصيرا لها هو دليل على تعميمه نوره لعام و تخصيصه نوره الخاص يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

فقوله: **«وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ»** يخص الملك و يقصره فيه تعالى فله أن يفعل ما يشاء و يحكم بما يريد لا يسأل عما يفعل و هم يسألون، و لازم قصر الملك فيه كونه هو المصير لكل شيء، و إذ كان لا ملك إلا هو و اليه مرجع كل شيء و مصيره فله أن يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد.

و من هنا يظهر أن المراد-و الله أعلم- بقوله: **«وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ»** مرجعيته تعالى فى الامور دون المعاد نظير قوله: **«أَلَا-إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ»** (الشورى ٥٣).

قوله تعالى: **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛** الإزجاج هو الدفع، و الركام المتراكم بعضه على بعض، و الودق هو المطر، و الخلال جمع الخلل و هو الفرجه بين الشيئين.

و الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بعنوان أنه سامع فيشمل كل سامع، و المعنى: أ لم تر أنت و كل من يرى أن الله يدفع بالرياح سحابا متفرقا ثم يؤلف بينه ثم يجعله متراكما بعضه على بعض فتري المطر يخرج من خلله و فرجه فينزل على الأرض.

و قوله: **«وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ»**

وَ يَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ السَّمَاءِ جِهَهُ الْعُلُو، و قوله:

«مِنْ جِبَالٍ فِيهَا» بيان للسماء، و الجبال جمع جبل و هو معروف، و قوله: «مِنْ بَرْدٍ» بيان للجبال، و البرد قطعات الجمد النازل من السماء، و كونه جبالا فيها كناية عن كثرتة و تراكمه، و السنا بالقصر الضوء.

و الكلام معطوف على قوله: «يُزْجِي»، و المعنى: أ لم تر أن الله ينزل من السماء من البرد المتراكم فيها كالجبال فيصيب به من يشاء فيفسد المزراع و البساتين و ربما قتل النفوس و المواشى و يصرفه عمن يشاء فلا يتضررون به يقرب ضوء برقه من أن يذهب بالأبصار.

و الآيه-على ما يعطيه السياق-مسوقة لتعليل ما تقدم من اختصاصه المؤمنين بنوره، و المعنى: أن الأمر فى ذلك الى مشيئته تعالى كما ترى أنه إذا شاء نزل من السماء مطرا فيه منافع الناس لنفوسهم و مواشيهم و مزرعهم و بساتينهم، و إذا شاء نزل بردا فيصيب به من يشاء و يصرفه عمن يشاء.

قوله تعالى: يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ بيان آخر لرجوع الأمر الى مشيئته تعالى فقط. و تقليب الليل و النهار تصريفهما بتبديل أحدهما من الآخر، و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: وَ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ بيان آخر لرجوع الأمر الى مشيئته تعالى محضا حيث يخلق كل دابة من ماء ثم تختلف حالهم فى المشى فمنهم من يمشى على بطنه كالحيات و الديدان، و منهم من يمشى على رجلين كالأناسى و الطيور و منهم من يمشى على أربع كالبهائم و السباع، و اقتصر سبحانه على هذه الأنواع الثلاثة-و فيهم غير ذلك-إيجازا لحصول الغرض بهذا المقدار.

و قوله: يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ تعليل لما تقدم من اختلاف الدواب، مع وحده المادة

التي خلقت منها يبين أن الأمر الى مشيه الله محضاً فله أن يعمم فيضاً من فيوضه على جميع خلقه كالنور العام و الرحمه العامه، و له أن يختص بفيض من فيوضه بعضاً من خلقه دون بعض كالنور الخاص و الرحمه الخاصه.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تعليل لقوله: «يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ» فإن إطلاق القدره على كل شيء يستوجب أن لا يتوقف شيء من الأشياء في كينونته على أمر وراء مشيته و إلا كانت قدرته عليه مشروطه بحصول ذلك الأمر و هذا خلف. و هذا باب من التوحيد دقيق سيتضح بعض الاتضاح إن شاء الله بما في البحث الآتي (١).

قوله تعالى: لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ يريد آيه النور و ما يتلوها المبينه لصفه نوره تعالى و الصراط المستقيم سبيله التي لا سبيل للغضب و الضلال الى من اهتدى إليها كما قال: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ (الحمد ٧/٧)، و قد تقدم الكلام فيه في تفسيره سورة الحمد.

و تذييل الآيه بقوله: «وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» هو الموجب لعدم تقييد قوله: «لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ» بلفظه اليكم بخلاف قوله قبل آيات: «لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَ مَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ» .

إذ لو قيل: لقد أنزلنا اليكم آيات مبینات و الله يهدى. تبادر إلى الذهن أن البيان اللفظي هدايه الى الصراط المستقيم و أن المخاطبين عامه مهديون إلى الصراط المستقيم و فيهم المنافق و الذين في قلوبهم مرض و الله العالم (٢).

ص: ٤٥٤

-
- ١- ١). النور ٣٥-٤٦: بحث فلسفي في الارتباط الوجودي بين كل شيء و بين علله الممكنه.
٢- ٢). النور ٣٥-٤٦: بحث روائي حول قوله تعالى: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ»؛ معنى النور.

إشارة

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعِيدٍ ذَلِكَ وَ مَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ
 رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ
 يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ بَيْلٌ أَوْلَيْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّهُمْ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ
 بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَ أَوْلَيْكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشِ اللَّهَ وَ يَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ
 (٥٢) وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجْنَ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَهُ مَعْرُوفَهُ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ
 أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) وَ عَدَدُ
 اللَّهِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيْسَ يُخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا إِسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي
 ارْتَضَى لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعِيدٍ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَ
 أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَ
 لَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)

قوله تعالى: وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْخُيَا نَا؛ بيان حال بعض المنافقين حيث أظهرُوا الإيمان والطاعة أولاً ثم تولوا ثانياً فالإيمان بالله هو العقد على توحيدِهِ و ما شرع من الدين، والإيمان بالرسول هو العقد على كونه رسولاً - مبعوثاً من عند ربه أمره ونهيه و حكمه حكمه من غير أن يكون له من الأمر شيء، وطاعه الله هي تطبيق العمل بما شرعه، وطاعه الرسول الائتثار والانتهاى عند أمره ونهيه وقبول ما حكم به وقضى عليه.

فالإيمان بالله وطاعته مورد هما نفس الدين والتشريع به، والإيمان بالرسول وطاعته مورد هما ما أخبر به الرسول من الدين بما أنه يخبر به و ما حكم به وقضى عليه فى المنازعات والانتقادات له فى ذلك كله.

فبين الإيمانين والطاعتين فرق ما من حيث سعه المورد و ضيقه، ويشير الى ذلك ما فى العبارة من نوع من التفصيل حيث قيل «آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ» فاشير إلى تعدد الإيمان

و الطاعه و لم يقل: آمنا بالله و الرسول بحذف الباء، و الإيمانان مع ذلك متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، قال تعالى: وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ (النساء ١٥٠/).

فقوله: وَ يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنَا أَى عقدنا القلوب على دين الله و تشرعنا به و على أن الرسول لا يخبر إلا بالحق و لا يحكم إلا بالحق.

و قوله: ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَى ثم يعرض طائفه من هؤلاء القائلين «آمنا بالله وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنَا» عن مقتضى قولهم من بعد ما قالوا ذلك.

و قوله: وَ أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ أَى ليس أولئك القائلون بالمؤمنون، و المشار اليه باسم الإشارة القائلون جميعا لا خصوص الفريق المتولين على ما يعطيه السياق لأن الكلام مسوق لذم الجميع.

قوله تعالى: وَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ يشهد سياق الآيه أن الآيات إنما نزلت فى بعض من المنافقين دعوا الى حكم النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى منازعه وقعت بينه و بين غيره فأبى الرجوع الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم و فى ذلك نزلت الآيات.

و النبى صلى الله عليه و آله و سلم إنما كان يحكم بينهم بحكم الله على ما أراه الله كما قال تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ (النساء ١٠٥/). فللحكم نسبه اليه بالمباشره و نسبه الى الله سبحانه من حيث كان الحكم فى ضوء شريعته و بنصبه النبى صلى الله عليه و آله و سلم للحكم و القضاء.

و بذلك يظهر أن المراد بالدعوه الى الله ليحكم بينهم هى الدعوه الى المتابعه لما يقتضيه شرعه تعالى فى مورد النزاع، و بالدعوه الى رسوله ليحكم بينهم هى الدعوه الى متابعه ما يقضى عليه بالمباشره، و أن الظاهر أن ضمير «لِيَحْكُمَ» للرسول، و إنما أفرد الفاعل و لم يثن إشارة إلى أن حكم الرسول حكمه تعالى.

و الآيه بالنسبه إلى الآيه السابقه كالخاص بالنسبه إلى العام فهي تقصّ إعراضنا معينا منهم و الإعراض المذكور فى الآيه السابقه منهم إعراض مطلق.

قوله تعالى: وَ إِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ الإذعان الانقياد، و ظاهر السياق و خاصه قوله: «يَأْتُوا إِلَيْهِ» أن المراد بالحق حكم الرسول بدعوى أنه حتى لا- ينفك عنه، و المعنى و إن يكن الحق الذى هو حكم الرسول لهم لا- عليهم يأتوا إلى حكمه منقادين فليسوا بمعرضين عنه إلا لكونه عليهم لا لهم، و لازم ذلك أنهم يتبعون الهوى و لا يريدون اتباع الحق.

قوله تعالى: أَمْ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الحيف الجور.

و ظاهر سياق الآيات أن المراد بمرض القلوب ضعف الإيمان كما فى قوله تعالى: فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ (الأحزاب ٣٢)، و قوله: لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ (الأحزاب ٦٠)، و غير ذلك من الآيات.

و أما كون المراد بمرض القلوب النفاق كما فسّر به فيدفعه قوله فى صدر الآيات: «وَمَا أُؤَلِّتُكَ بِالْمُؤْمِنِينَ» فإنه حكم بنفاقهم، و لا معنى مع إثبات النفاق للاستفهام عن النفاق ثم الإضراب عنه بقوله: «بَلْ أُؤَلِّتُكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» .

و قوله: أَمْ ارْتَابُوا ظاهر إطلاق الارتياب و هو الشكّ أن يكون المراد هو شكهم فى دينهم بعد الإيمان دون الشك فى صلاحيه النبي صلّى الله عليه و آله و سلم للحكم أو عدله و نحوه ذلك لكونها بحسب الطبع محتاجه الى بيان بنصب قرينه.

و قوله: أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ أَى أم يعرضون عن ذلك لأنهم يخافون أن يجور الله عليهم و رسوله لكون الشريعة الإلهيه التى يتبعها حكم النبي صلّى الله عليه و آله و سلم

مبتيه على الجور و إمامته الحقوق الحقه، أو لكون النبي صلى الله عليه و آله و سلم لا يراعى الحق فى قضائه.

وقوله: بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ إضراب عن التردد السابق بشقوقه الثلاثه و ذلك أن سبب إعراضهم لو كان مرض قلوبهم أو ارتيابهم لم يأتوا اليه مذعنين على تقدير كون الحق لهم بل كانوا يعرضون كان الحق لهم أو عليهم، و أما الخوف من أن يحيف الله عليهم و رسوله فلا- موجب له فالله برىء من الحيف و رسوله فليس إعراضهم عن إجابته الدعوه إلى حكم الله و رسوله إلا لكونهم حق عليهم أنهم ظالمون.

و الظاهر أن المراد بالظلم التعدى عن طور الإيمان مع الإقرار به قولاً كما قال آنفاً: «وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ» أو خصوص التعدى الى الحقوق غير المالیه، و لو كان المراد مطلق الظلم لم يصح الإضراب عن الشقوق الثلاثه السابقه اليه لأنها من مطلق الظلم و يدل عليه أيضاً الآيه التاليه.

قوله تعالى: إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا إلى آخر الآيه؛ سياق قوله: «إنما قول المؤمنين» و قد أخذ فيه «كَانَ» و وصف الإيمان فى «الْمُؤْمِنِينَ» يدل على أن ذلك من مقتضيات طبيعه الإيمان فإن مقتضى الإيمان بالله و رسوله و عقد القلب على اتباع ما حكم به الله و رسوله التلبيه للدعوه الى حكم الله و رسوله دون الرد.

و على هذا فالمراد بقوله: «إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ» دعوه بعض الناس ممن ينازعهم كدعوه بعض المتنازعين المتخاصمين الآخر الى التحاكم الى الله و رسوله ليحكم بينهم، و يدل عليه تصدير الجمله بلفظه «إِذَا» و لو كان المراد به دعوه الله و رسوله بمعنى إيجاب رجوع المؤمنين فى منازعاتهم الى حكم الله و رسوله كان ذلك حكماً مؤبداً لا حاجه فيه الى التقييد بالزمان.

و قد ختمت الآيه بقوله: «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» و فيه قصر الفلاح فيهم لا قصرهم فى

قوله تعالى: وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشَ اللَّهَ وَ يَتَّقَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ وورد الآيه فى سياق الآيات السابقه و انضمامها الى سابقتها يعطى أنها فى مقام التعليل - كالكبرى الكليه - للآيه السابقه حيث حكمت بفلاح من أجب الدعوه الى حكم الله و رسوله بالسمع و الطاعه بقيد الإيمان كأنه قيل: إنما أفلح من أجب الى حكم الله و رسوله و هو مؤمن لأنه مطيع لله و لرسوله و هو مؤمن حقاً فى باطنه خشيه الله و فى ظاهره تقواه و من يطع الله و رسوله فيما قضى عليه و يخش الله و يتقه فاولئك هم الفائزون، و الفوز هو الفلاح.

و تشمل الآيه الداعى الى حكم الله و رسوله من المتنازعين كما يشمل المدعو منهما إذا أجب بالسمع و الطاعه فيها زياده على تعليل حكم الآيه السابقه تعميم الوعد الحسن للداعى و المدعو جميعاً.

قوله تعالى: وَ أَقْسِمُ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لئنِ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجَنَّ قُلُوبَهُمْ لَا تُقْسِمُوهَا طَاعَةً مَعْرُوفَةً الى آخر الآيه؛ الجهد الطاقه، و التقدير فى قوله: «أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ» أقسموا بالله مبلغ جهدهم فى أيمانهم و المراد أقسموا بأغلظ أيمانهم.

و الظاهر أن المراد بقوله: «لَيَخْرُجَنَّ» الخروج الى الجهاد على ما وقع فى عدّه من الآيات كقوله: وَ لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَانَهُمْ فَشَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا (التوبه ٤٧).

و قوله: قُلُوبَهُمْ لَا تُقْسِمُوهَا نهى عن الإقسام، و قوله: «طَاعَةً مَعْرُوفَةً» خير لمبتدئ محذوف هو الضمير الراجع الى الخروج و بالجمله فى مقام التعليل للنهى عن الإقسام و لذا جىء بالفصل، و قوله: «إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» من تمام التعليل.

و معنى الآيه: و أقسموا بالله بأغلظ أيمانهم لئن أمرتهم بالخروج الى الجهاد ليخرجن قلوبهم: لا تقسموا بالخروج الى الجهاد طاعه معروفه من الدين - و هو واجب لا حاجه الى إيجابه

بيمين مغلظ-و إن تكونوا تقسمون لأجل أن ترضوا الله و رسوله بذلك فالله خبير بما تعملون لا يعزّه إغلاظكم فى الأيمان.

قوله تعالى: قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ مِمَّا حُمِّلْتُمْ الى آخر الآيه؛ أمر بطاعه الله فيما أنزل من الدين، و أمر بطاعه الرسول فيما يأتيهم به من ربهم و يأمرهم به فى أمر دينهم و دنياهم، و تصدير الكلام بقوله: «قُلْ» إشاره الى أن الطاعه جميعا لله، و قد أكده بقوله: «وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ» دون أن يقول: و أطيعونى لأن طاعه الرسول بما هو طاعه الرسول طاعه المرسل، و بذلك تتم الحججه.

و لذلك عقب الكلام:

أولا بقوله: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ مِمَّا حُمِّلْتُمْ أى فإن تتولوا و تعرضوا عن طاعه الرسول لم يضر ذلك الرسول فإنما عليه ما حمّل من التكليف و لا- يمسيكم منه شىء و عليكم ما حمّلت من التكليف و لا- يمسه منه شىء فإن الطاعه جميعا لله سبحانه.

و ثانيا بقوله: وَ إِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا أى و إن كان لكل منكم و منه ما حمّل لكن إن تطيعوا الرسول تهتدوا لأن ما يجىء به اليكم و ما يأمركم به من الله و بأمره، و الطاعه لله و فيه الهدايه.

و ثالثا بقوله: وَ مِمَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا- الْبَلَاغُ الْمُبِينُ و هو بمنزله التعليل لما تقدّمه أى إن ما حمّله الرسول من التكليف هو التبليغ فحسب فلا بأس عليه إن خالفتم ما بلّغ، و إذ كان رسولا لم يحتمل إلا التبليغ فطاعته طاعه من أرسله و فى طاعه من أرسله و هو الله سبحانه اهتداؤكم.

قوله تعالى: وَ عَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ الى آخر الآيه.

ظاهر وقوع الآيه موقعها أنها نزلت في ذيل الآيات السابقه من السوره و هي مدنيه و لم تنزل بمكه قبل الهجره على ما يؤيده سياقها و خاصه ذيلها.

فالآيه-على هذا-وعد جميل للذين آمنوا و عملوا الصالحات أن الله تعالى سيجعل لهم مجتمعا صالحا يخص بهم فيستخلفهم في الأرض و يمكن لهم دينهم و يبدلهم من بعد خوفهم أمنا لا يخافون كيد منافق و لا صد كافر يعبدونه لا يشركون به شيئا.

فقوله: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فِيهِ تَبَعِيضِيَهُ لَا بَيَانِيَهُ وَالْخَطَابُ لِعَامَةِ الْمُسْلِمِينَ وَ فِيهِمُ الْمَنَاقِقُ وَ الْمُؤْمِنُ وَ فِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ مَنْ يَعْمَلُ الصَّالِحَاتِ وَ مَنْ لَا يَعْمَلُ الصَّالِحَاتِ، وَ الْوَعْدُ خَاصٌ بِالَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مُحْضًا.

و قوله: لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ إِنْ كَانَ الْمَرَادُ بِالْاِسْتِخْلَافِ إِعْطَاءَ الْخِلَافَةِ الْإِلَهِيَةِ كَمَا وَرَدَ فِي آدَمَ وَ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، قَالَ تَعَالَى:

إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (البقره ٣٠)، و قَالَ: يَا دَاوُدُ إِذَا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ (ص ٢٦)، و قَالَ: وَ وَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ (النمل ١٦)، فَالْمَرَادُ بِالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ خُلَفَاءَ اللَّهِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَ أَوْلِيَائِهِ وَ لَا يَخْلُو مِنْ بَعْدِ كَمَا سَيَأْتِي.

و إِنْ كَانَ الْمَرَادُ بِهِ إِبْرَاثِ الْأَرْضِ وَ تَسْلِيْطِ قَوْمٍ عَلَيْهَا بَعْدَ قَوْمٍ كَمَا قَالَ: إِنْ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (الأعراف ١٢٨)، و قَالَ: أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (الأنبياء ١٠٥)، فَالْمَرَادُ بِالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أُمَّمِ الْأَنْبِيَاءِ الْمَاضِينَ الَّذِينَ أَهْلَكَ اللَّهُ الْكَافِرِينَ وَ الْفَاسِقِينَ مِنْهُمْ وَ نَجَّى الْخَلَصَ مِنْ مُؤْمِنِهِمْ كَقَوْمِ نُوحٍ وَ هُودٍ وَ صَالِحٍ وَ شَعِيبٍ كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعْرِوْدَنَّ فِي مَلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَ لَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَ خَافَ وَعِيدِ (إبراهيم ١٤)، فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَخْلَصُوا لِلَّهِ

فَنَجَّاهُمْ فَعَقَدُوا مَجْتَمَعًا صَالِحًا وَعَاشُوا فِيهِ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ.

وقوله: «وَلَيَمَكَّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ تَمَكِينَ الشَّيْءِ إِقْرَارَهُ فِي مَكَانٍ وَهُوَ كُنَايَةٌ عَنْ ثَبَاتِ الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ زَوَالٍ وَاضْطِرَابٍ وَتَزَلُّزٍ بِحَيْثُ يُوَثِّرُ أَثَرُهُ مِنْ غَيْرِ مَانِعٍ وَلَا حَاجِزٍ فَتَمَكَّنَ الدِّينَ هُوَ كَوْنُهُ مَعْمُولًا بِهِ فِي الْمَجْتَمَعِ مِنْ غَيْرِ كُفْرٍ بِهِ وَاسْتِهَانَةٍ بِأَمْرِهِ، وَمَأْخُذًا بِأَصُولِ مَعَارِفِهِ مِنْ غَيْرِ اخْتِلَافٍ وَتَخَاصُمٍ وَقَدْ حَكَّمَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ فِي مَوَاضِعٍ مِنْ كَلَامِهِ أَنَّ الْاِخْتِلَافَ فِي الدِّينِ بَغْيُ الْمُخْتَلِفِينَ كَقَوْلِهِ: «وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ» (البقرة ٢١٣).

و المراد بدينهم الذي ارتضى لهم دين الإسلام، وأضاف الدين اليهم تشريفا لهم و لكونه من مقتضى فطرتهم.

وقوله: «وَلَيَبْدِلَنَّ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا هُوَ كَقَوْلِهِ: «وَلَيَمَكَّنَنَّ لَهُمْ» عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «لَيَسِّرَنَّ تَخْلِفَنَّهُمْ» وَأَصْلُ الْمَعْنَى: وَ لَيَبْدِلَنَّ خَوْفَهُمْ أَمْنًا فَنَسَبَهُ التَّبْدِيلَ إِلَيْهِمْ إِمَّا عَلَى الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ أَوْ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ» وَ التَّقْدِيرُ وَ لَيَبْدِلَنَّ خَوْفَهُمْ، أَوْ كَوْنِ «أَمْنًا» بِمَعْنَى: آمِينَ.

و المراد بالخوف على أى حال، ما كان يقاسيه المؤمنون في صدر الإسلام من الكفار والمنافقين.

وقوله: «يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا الْأَوْفَقُ بِالسِّيَاقِ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ ضَمِيرِ «وَلَيَبْدِلَنَّ لَهُمْ» أَيْ وَ لَيَبْدِلَنَّ خَوْفَهُمْ أَمْنًا فِي حَالِ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا.

وقوله: «وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» ظَاهِرُ السِّيَاقِ كَوْنُ «ذَلِكَ» إِشَارَةً إِلَى الْمَوْعُودِ وَالْأَنْسَبُ عَلَى ذَلِكَ كَوْنُ «كَفَرَ» مِنَ الْكُفْرَانِ مُقَابِلَ الشُّكْرِ، وَ الْمَعْنَى: وَ مَنْ كَفَرَ وَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ بَعْدَ تَحَقُّقِ هَذَا الْوَعْدِ بِالْكَفْرِ أَوْ النِّفَاقِ أَوْ سَائِرِ الْمَعَاصِي الْمَوْبِقَةِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ الْكَامِلُونَ فِي الْفَسْقِ وَ هُوَ الْخُرُوجُ عَنِ زِي الْعُبُودِيَّةِ.

و الذى يعطيه سياق الآيه الكريمه على ما تقدم من البحث بالتحرز عن المسامحات التى ربما يرتكبها المفسرون فى تفسير الآيات هو أن الوعد لبعض الامه لا- لجميعها ولا- لأشخاص خاصه منهم و هم الذين آمنوا منهم و عملوا الصالحات فالآيه نص فى ذلك، ولا قرينه من لفظ او عقل يدل على كونهم هم الصحابه أو النبى و أئمه أهل البيت عليهم الصلاه و السلام، ولا على أن المراد بالذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات جميع الامه و إنما صرف الوعد الى طائفه خاصه منهم تشريفا لهم أو لمزيد العناية بهم فهذا كله تحكّم من غير وجه.

و المراد باستخلافهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم عقد مجتمع مؤمن صالح منهم يرثون الأرض كما ورثها الذين من قبلهم من الامم الماضين أولى القوه و الشوكه، وهذا الاستخلاف قائم بمجتمعهم الصالح من دون أن يختص به أشخاص منهم كما كان كذلك فى الذين من قبلهم، و أما إرادته الخلافه الإلهيه بمعنى الولايه على المجتمع كما كان لداود و سليمان و يوسف عليهم السلام و هى السلطنه الإلهيه فمن المستبعد أن يعبر عن أنبيائه الكرم بلفظ «الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» و قد وقعت هذه اللفظه أو ما بمعناها فى أكثر من خمسين موضعا من كلامه تعالى و لم يقصد و لا فى واحد منها الأنبياء الماضون مع كثره ورود ذكرهم فى القرآن، نعم ذكرهم الله بلفظ «رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ» أو «رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي» أو نحوهما بالإضافة الى الضمير الراجع الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

و المراد بتمكين دينهم الذى ارتضى لهم كما مرّ ثبات الدين على ساقه بحيث لا يزلزله اختلافهم فى أصوله، و لا مساهلتهم فى إجراء أحكامه، و العمل بفروعه و خلوص المجتمع من وصمه النفاق فيه.

و المراد من تبديل خوفهم أمنا انبساط الأمن و السلام على مجتمعهم بحيث لا يخافون عدوا فى داخل مجتمعهم أو خارجه متجاهرا أو مستخفيا على دينهم أو دنياهم.

قوله تعالى: وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ

تُزَحْمُونَ مناسبه مضمون الآيه لما سيقتم لبيانه الآيات السابقه تعطى أنها من تمامها.

فقوله: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ» أمر في الحقيقة بطاعته تعالى فيما شرعه لعباده، و تخصيص الصلاة و الزكاة بالذكر لكونهما ركنين في التكليف الراجع الى الله تعالى و الى الخلق، و قوله: «وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ» إنفاذ لولايته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ في القضاء و الحكمه.

و قوله: لَعَلَّكُمْ تُزَحْمُونَ تعليل للأمر بما في المأمور به من المصلحه، و المعنى-على ما يعطيه السياق-: أطيعوا الله و أطيعوا الرسول فإن في هاتين الطاعتين رجاء أن تشملكم الرحمه الإلهيه فينجز لكم وعده أو يعجل لكم إنجازه فإن ارتفاع النفاق من بين المسلمين و عموم الصلاح و الاتفاق على كلمه الحق مفتاح انعقاد مجتمع صالح يدرّ عليهم بكل خير.

قوله تعالى: لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَ لَبِئْسَ الْمَصِيرُ من تمام الآيات السابقه، و فيها تأكيد ما مرّ من وعد الاستخلاف في الأرض و تمكين الدين و تبديل الخوف أمنا.

يخاطب تعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ بعد الوعد-بخطاب مؤكّد-أن لا يظن أن الكفار معجزون لله في الأرض فيمنعونه بما عندهم من القوه و الشوكه من أن ينجز وعده، و هذا في الحقيقة بشرى خاصه بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ بما أكرم به أمته و أن أعداءه سينهزمون و يغلبون و لذلك خصّه بالخطاب على طريق الالتفات.

و لكون النهي المذكور في معنى أن الكفار سينتهون عن معارضه الدين و أهله عطف عليه قوله: «وَمَا يَأْوَهُمُ الدَّارُ» الخ؛ كأنه قيل: هم مقهورون في الدنيا و مسكنهم النار في الآخره و بسّ المصير (1).

ص: ٤٦٥

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ بِتَأْذِينِكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ﴾؛ وضع الثياب خلعتها و هو كناية عن كونهم على حال ربما لا يحبون أن يراهم عليها الأجنبي. و الظهيره وقت الظهر، و العوره السوأه سميت بها لما يلحق الإنسان من انكشافها من العار و كأن المراد بها فى الآيه ما ينبغى ستره.

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ السخ؛ تعقيب لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا﴾ الخ؛ القاضى بتوقف دخول البيت على الإذن و هو كاستثناء من عمومه فى العبيد و الأطفال بأنه

يكفيهم الاستيذان ثلاث مرات في اليوم.

وقوله: «لَيْسَ تَأْذِنُكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» أى مروهم أن يستأذنوكم للدخول، وظاهر الذين ملكت أيمانكم العبيد دون الإماء و إن كان اللفظ لا يأبى عن العموم بعنايه التغليب، و به وردت الروايه كما سيجىء.

وقوله: «وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ» يعنى المميزين من الأطفال قبل البلوغ، و الدليل على تقييدهم بالتمييز قوله بعد: «ثَلَاثٌ عَوْرَاتٍ لَكُمْ» .

وقوله: «ثَلَاثٌ مَرَاتٍ» أى كل يوم بدليل تفصيله بقوله: «مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ -أى وقت الظهر- وَ مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ» و قد أشار الى وجه الحكم بقوله: «ثَلَاثٌ عَوْرَاتٍ لَكُمْ» أى الأوقات الثلاثة ثلاث عورات لكم لا ينبغي بالطبع أن يطلع عليكم فيها غيركم.

وقوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ» أى لا مانع لكم من أن لا تأمروهم بالاستيذان و لا لهم من أن لا يستأذنوكم فى غير هذه الأوقات، و قد أشار الى جهه نفي الجناح بقوله: «طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ» أى هم كثير الطوف عليكم بعضكم يطوف على بعض للخدمه فالاستيذان كلما دخل حرج عاده فليكتفوا فيه بالعورات الثلاث.

ثم قال: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ» أى أحكام دينه التى هى آيات داللة عليه «وَاللَّهُ عَلِيمٌ» يعلم أحوالكم و ما تستدعيه من الحكم «حَكِيمٌ» يراعى مصالحكم فى أحكامه.

قوله تعالى: «وَ إِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا الْخ» بيان أن حكم الاستيذان ثلاث مرات فى الأطفال مغنياً بالبلوغ فإذا بلغ الأطفال منكم الحلم بأن بلغوا فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم و هو البالغون من الرجال و النساء الأحرار «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» .

قوله تعالى: «وَ الْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ»

القواعد جمع قاعده و هي المرأه التي قعدت عن النكاح فلا ترجوه لعدم الرغبه فى مباشرتها لكبرها،فقوله: «اللَّاتِي لَا يَزُجُونَ نِكَاحًا» وصف توضيحي،وقيل:هي التي يئست من الحيض،و الوصف احترازي.

و فى المجمع:التبرج إظهار المرأه من محاسنها ما يجب عليها ستره،و أصله الظهور و منه البرج البناء العالى لظهوره.

و الآيه فى معنى الاستثناء من عموم حكم الحجاب،و المعنى:و الكبائر المسننه من النساء فلا- بأس عليهن أن لا- يحتجن حال كونهن غير متبرجات بزينه.

و قوله: «وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ كُنَايَه عَنْ الْاِحْتِجَابِ اى الاحتجاب خير لهن من وضع الثياب،و قوله: «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» تعليل لما شرع بالاسمين اى هو تعالى سميع يسمع ما يسألنه بفطرتهن عليم يعلم ما يحتجن اليه من الأحكام.

قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ -الى قوله- أَوْ صِدْقِكُمْ ظاهرا الآيه أن فيها جعل حق للمؤمنين أن يأكلوا من بيوت قراباتهم أو التي ائتمنوا عليها أو بيوت أصدقائهم فهم مأذونون فى أن يأكلوا منها بمقدار حاجتهم من غير إسراف و إفساد.

فقوله: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ -الى قوله- وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فى عطف «عَلَى أَنْفُسِكُمْ» على ما تقدمه دلالة على أن عدّ المذكورين ليس لاختصاص الحق بهم بل لكونهم أرباب عاهات يشكل عليهم أن يكتسبوا الرزق بعمل أنفسهم أحيانا و إلا فلا فرق بين الأعمى و الأعرج و المريض و غيرهم فى ذلك.

و قوله: مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ الخ؛فى عدّ «بُيُوتِكُمْ» مع بيوت الأقرباء و غيرهم إشاره الى نفي الفرق فى هذا الدين المبني على كون المؤمنين بعضهم أولياء بعض بين

بيوتهم أنفسهم و بيوت أقربائهم و ما ملكوا مفاتحه و بيوت أصدقائهم.

على أن «بُيُوتِكُمْ» يشمل بيت الابن و الزوج كما وردت به الروايه، و قوله: «أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ» المفاتيح جمع مفتاح و هو المخزن، و المعنى: أو البيت الذى ملكتم أى تسلطتم على مخازنه التى فيها الرزق كما يكون الرجل قتيما على بيت أو وكيلًا أو سلّم اليه مفاتحه.

و قوله: أَوْ صَدِيقِكُمْ معطوف على ما تقدمه بتقدير بيت على ما يعلم من سياقه، و التقدير أو بيت صديقكم.

قوله تعالى: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً الأشتات جمع شت و هو مصدر بمعنى التفرّق استعمل بمعنى المتفرق مبالغه ثم جمع أو صنفه بمعنى المتفرق كالحق، و المعنى: لا إثم عليكم أن تأكلوا مجتمعين و بعضكم مع بعض أو متفرقين، و الآيه عامه و إن كان نزولها لسبب خاص كما روى.

و للمفسرين فى هذا الفصل من الآيه و فى الفصل الذى قبلها اختلافات شديده رأينا الصّفح عن إيرادها و الغور فى البحث عنها أولى، و ما أوردناه من المعنى فى الفصلين هو الذى يعطيه سياقهما.

قوله تعالى: فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّهٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ الخ؛ لما تقدم ذكر البيوت فرّع عليه ذكر أدب الدخول فيها فقال: «فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا» .

فقوله: فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ المراد فسلموا على من كان فيها من أهلها و قد بدل من قوله: «عَلَى أَنْفُسِكُمْ» للدلاله على أن بعضهم من بعض فإن الجميع إنسان و قد خلقهم الله من ذكر و أنثى على أنهم مؤمنون و الإيمان يجمعهم و يوحدهم أقوى من الرحم و أى شىء آخر.

و ليس ببعيد أن يكون المراد بقوله: «فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» أن يسلم الداخل على أهل

البيت و يردّوا السلام عليه.

□
و قوله: تَحِيَّهٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ أَى حال كون السلام تحيه من عند الله شرّعها الله و أنزل حكمها ليحيي بها المسلمون و هو مبارك ذو خير كثير باق و طيب يلائم النفس فإن حقيقه هذه التحيه بسط الأمن و السلامه على المسلم عليه و هو أطيب أمر يشترك فيه المجتمعان.

□
ثم ختم سبحانه الآيه بقوله: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ» و قد مرّ تفسيره «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» أَى تعلموا معالم دينكم فتعملوا بها كما قيل.

□
قوله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ذَكَرَ قَوْلَهُ: «الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ» بيانا للمؤمنين على ظهور معناه للدلاله على اتصافهم بحقيقه لمعنى أَى إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله و رسوله بحقيقه الإيمان و أيقنوا بتوحيده تعالى و اطمأنت نفوسهم و تعلقت قلوبهم برسوله.

□
و لذلك عقبه بقوله: «وَ إِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ» و الأمر الجامع هو الذى يجمع الناس للتدبر فى أطرافه و التشاور و العزم عليه كالحرب و نحوها.

و المعنى: و إذا كانوا مع الرسول بالاجتماع عنده على أمر من الامور العامه لم يذهبوا و لم ينصرفوا من عند الرسول حتى يستأذنوه للذهاب.

□
و لذلك أيضا عقبه بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ» و هو بمنزله عكس صدر الآيه للدلاله على الملازمه و عدم الانفكاك.

و قوله: فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ تَخْيِيرَ مِنْهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ فَى أَنْ يَأْذِنَ لِمَنْ شَاءَ وَ لَا يَأْذِنَ لِمَنْ لَمْ يَشَأْ.

□
و قوله: وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَمْرٌ لَهُ بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ تَطِيْبًا

لنفوسهم و رحمه بهم.

قوله تعالى: لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، دعاء الرسول هو دعوته الناس الى أمر من الامور كدعوتهم الى الإيمان والعمل الصالح، و دعوتهم ليشاورهم فى أمر جامع، و دعوتهم الى الصلاه جامعه، أو مرهم بشىء فى أمر دنياهم أو أخراهم فكل ذلك دعاء و دعوه منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

و يشهد بهذا المعنى قوله ذيلًا: «قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا» و ما يتلوه من تهديد مخالفى أمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كما لا يخفى. و هو أنسب لسياق الآيه السابقه فإنها تمدح الذين يلتون دعوته و يحضرون عنده و لا يفارقونه حتى يستأذنوه و هذه تذمّ و تهدّد الذين يدعوهم فيتسللون عنه لو اذا غير مهتمّين بدعائه و لا معتنين.

و قوله: قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا التسلل: الخروج من البين برفق و احتيال من سلّ السيف من غمده، و اللواذ: الملاوذه و هو أن يلوذ الإنسان و يلتجئ الى غيره فيستتر به، و المعنى: أن الله يعلم منكم الذين يخرجون من بين الناس و الحال أنهم يلوذون بغيرهم و يسترون به فيصرفون فلا يهتمون بدعاء الرسول و لا يعتنون به.

و قوله: فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ظاهر سياق الآيه بما تقدم من المعنى أن ضمير «عَنْ أَمْرِهِ» للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و هو دعاؤه، ففى الآيه تحذير لمخالفى أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و دعوته من أن تصيبهم فتنه و هى البليهه أو يصيبهم عذاب أليم.

قوله تعالى: أَلَا - إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ اخْتِامَ لِسُورِهِ نَاطِرَ إِلَى قَوْلِهِ فِي مَفْتَحِهَا: «سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَ فَرَضْنَاهَا وَ أَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ» فما فى مختمها كالتعليل لما فى مفتحتها.

فقوله: أَلَا - إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ بيان لعموم الملك و أن كل شىء

مملوك لله سبحانه قائم به فهي معلومه له بجميع خصوصيات وجودها فيعلم ما تحتاج اليه، و الناس من جمله ما يعلم بحقيقته حاله و ما يحتاج اليه فالذى يشرعه لهم من الدين مما يحتاجون اليه في حياتهم كما أن ما يرزقهم من المعيشه مما يحتاجون اليه في بقائهم.

فقوله: **قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ** - أى من حقيقه الحال المنبئه عن الحاجه- بمنزله النتيجة المترتبه على الحجه أى ملكه لكم و لكل شىء يستلزم علمه بحالكم و بما يحتاجون اليه من شرائع الدين فيشرعه لكم و يفرضه عليكم.

و قوله: **وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** معطوف على قوله: **«مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ»** أى و يعلم يوما يرجعون اليه و هو يوم القيامة فيخبرهم بحقيقه ما عملوا و الله بكل شىء عليم.

و فى هذا الذيل حث على الطاعه و الانقياد لما شرعه و فرضه من الأحكام و العمل به من جهه أنه سيخبرهم بحقيقه ما عملوا به كما أن فى الصدر حثا على القبول من جهه أن الله إنما شرعها لعلمه بحاجتهم إليها و أنها التى ترفع بها حاجتهم (1).

ص: ٤٧٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا (٢) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣)

غرض السوره بيان أن دعوه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ دعوه حقه عن رساله من جانب الله تعالى و كتاب نازل من عنده و فيها عنايه بالغه بدفع ما أورده الكفار على كون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رسولاً من جانب الله و كون كتابه نازلاً من عنده و رجوع اليه كره بعد كره.

وقد استتبع ذلك شيئاً من الاحتجاج على التوحيد و نفى الشريك و ذكر بعض أوصاف يوم القيامة و ذكر نبذه من نعوت المؤمنين الجميله، و الكلام فيها جار على سياق الإنذار و التخويف دون التبشير.

و السوره مكيه على ما يشهد به سياق عامه آياتها نعم ربما استثنى منها ثلاث آيات و هى قوله تعالى: «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ -الى قوله- غَفُورًا رَحِيمًا» .

و لعل الوجه فيه اشتمالها على تشريع حرمه الزنا لكنك قد عرفت فيما أوردناه من أخبار آيه الخمر من سوره المائده أن الزنا و الخمر كانا معروفين بالتحريم فى الإسلام من أول ظهور الدعوه الإسلاميه.

قوله تعالى: تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا البركه بفتحين ثبوت الخير فى الشىء كثبوت الماء فى البركه بالكسر فالسكون مأخوذ من برك البعير إذا ألقى صدره على الأرض و استقرّ عليها، و منه التبارك بمعنى ثبوت الخير الكثير و فى صيغته دلالة على المبالغه على ما قيل، و هو كالمختص به تعالى لم يطلق على غيره إلا على سبيل الندره.

و الفرقان هو الفرق سمى به القرآن لنزول آياته متفرقه أو لتمييزه الحق من الباطل و يؤيد هذا المعنى إطلاق الفرقان فى كلامه تعالى على التوراه أيضاً مع نزولها دفعه، قال الراغب فى المفردات: و الفرقان أبلغ من الفرق لأنه يستعمل فى الفرق بين الحق و الباطل، و تقديره كتقدير رجل قنعان يقنع به فى الحكم، و هو اسم لا مصدر فيما قيل، و الفرق يستعمل فيه و فى غيره.

انتهى.

و العالمون جمع عالم و معناه الخلق قال فى الصحاح: العالم الخلق و الجمع العوالم، و العالمون أصناف الخلق انتهى. و اللفظه و إن كانت شامله لجميع الخلق من الجماد و النبات و الحيوان و الإنسان و الجن و الملك لكن سياق الآيه -و قد جعل فيها الإنذار غايه لتنزيل القرآن- يدل

على كون المراد بها المكلفين من الخلق وهو الثقلان: الإنس و الجن فيما نعلم.

و بذلك يظهر عدم استقامه ما ذكره بعضهم أن الآيه تدل على عموم رسالته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم لجميع ما سوى الله فإن فيه غفله عن وجه التعبير عن رساله بالإنذار و نظير الآيه قوله تعالى:

وَ اضْطَفَاكَ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (آل عمران ٤٢) و قوله: وَ فَضَّلْنَا هُمَ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ (الجاثية ١٦).

و النذير بمعنى المنذر على ما قيل، و الإنذار قريب المعنى من التخويف.

فقوله تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ» أى ثبت و تحقق خير كثير فيمن نزل الفرقان على عبده محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم، و ثبوت الخير الكثير العائد الى الخلق فيه تعالى كناية عن فيضانه منه على خلقه حيث نزل على عبده كتابا فارقا بين الحق و الباطل منقذا للعالمين من الضلال سائقا لهم الى الهدى.

و الجمع فى الآيه بين نزول القرآن من عنده تعالى و كون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم رسولا منه نذيرا للعالمين مع تسميه القرآن فرقانا بين الحق و الباطل و توصيف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بكونه عبدا له نذيرا للعالمين المشعر بكونه مملوكا مأمورا لا- يملك من نفسه شيئا كل ذلك تمهيد لما سيحكى عن المشركين من طعنهم فى القرآن بأنه افتراء على الله اختلقه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و أعانه على ذلك قوم آخرون، و من طعنهم فى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بأنه يأكل الطعام و يمشى فى الأسواق و سائر ما تفوهوا به- و ما يدفع به مطاعنهم.

فالمحصيل أنه كتاب يفرق بحجته الباهره بين الحق و الباطل فلا يكون إلا حقا إذ الباطل لا يفرق بين الحق و الباطل و إنما يشبهه الباطل بالحق ليلبس على الناس، و أن الذى جاء به عبد مطيع لله ينذر به العالمين و يدعوهم الى الحق فلا يكون إلا على الحق و لو كان مبطلا لم يدع الى الحق بل حاد عنه و انحرف على أن الله سبحانه يشهد فى كلامه المعجز بصدق رسالته و أن الذى جاء به من الكتاب منزل من عنده.

وقوله تعالى: لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا اللام للتعليل و تدل على أن غايه تنزيل الفرقان على عبده أن يكون منذرا لجميع العالمين من الإنس و الجن، و الجمع المحلّى باللام يفيد الاستغراق، و لا يخلو الإتيان بصيغه الجمع المحلّى باللام من إشاره الى أن للجميع إليها واحدا لا كما يذهب اليه الوثنيون حيث يتخذ كل قوم إليها غير ما يتخذه الآخرون.

و الاكتفاء بذكر الإنذار دون التبشير لأن الكلام فى السوره مسوق سوق الإنذار و التخويف.

قوله تعالى: الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الملك بكسر الميم و فتحها قيام شىء بشىء بحيث يتصرف فيه كيف شاء سواء كان قيام رقبته به كقيام رقبه المال بمالكة بحيث كان له أنواع التصرف فيه أو قيامه به باستيلائه عليه بالتصرف بالأمر و النهى و أنواع الحكم كاستيلاء الملك على الناس من رعيته و ما فى أيديهم، و يطلق على القسم الثانى الملك بضم الميم.

فالملك بكسر الميم أعم من الملك بضمها كما قال الراغب الملك-بفتح الميم و كسر اللام- هو المتصرف بالأمر و النهى فى الجمهور، و ذلك يختص بسياسه الناطقين، و لهذا يقال: ملك الناس و لا يقال: ملك الأشياء-الى أن قال-فالملك بالضم-ضبط الشىء المتصرف فيه بالحكم، و الملك-بالكسر- كالجنس للملك فكل ملك-بالضم-ملك بالكسر- و ليس كل ملك-بالكسر- ملكا-بالضم-انتهى.

و ربما يخص الملك بالكسر بما يتعلق بالرقبه، و الملك بالضم بغيره.

فقوله تعالى: الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ و اللام للاختصاص-يفيد أن السماوات و الأرض مملوكه له غير مستقله بنفسها فى جهه من جهاتها و لا- مستغنيه عن التصرف فيها بالحكم و أن الحكم فيها و إداره رحاها يختص به تعالى فهو الملك المتصرف بالحكم فيها على الإطلاق.

و بذلك يظهر ترتب قوله: «وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا» على ما تقدمه فإن الملك على الإطلاق لا يدع حاجه الى اتخاذ الولد إذ اتخاذ الولد لأحد أمرين إما لكون الشخص لا يقوى على إداره رحي جميع أموره و لا يملك تدبيرها جميعا فيتخذ الولد ليستعين به على بعض حوائجه و الله سبحانه يملك كل شيء و يقوى على ما أراد،و إما لكون الشخص محدود البقاء لا يملك ما يملك إلا في أمد محدود فيتخذ الولد ليخلفه فيقوم على أموره بعده و الله سبحانه يملك كل شيء سرمدًا و لا يعتريه فناء و زوال فلا حاجه له الى اتخاذ الولد البتة و فيه رد على المشركين و النصارى.

و كذا قوله تعالى بعده: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ» فان الحاجه الى الشريك إنما هي فيما إذا لم يستوعب الملك الامور كلها و ملكه تعالى عام لجميع الأشياء محيط بجميع جهاتها لا يشذ منه شاذ،و فيه رد على المشركين.

و قوله تعالى: وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا بَيَانٍ لِرُجُوعِ تَدْبِيرِ عَامِهِ الْأُمُورِ إِلَيْهِ تَعَالَى وَحْدَهُ بِالْخَلْقِ وَ التَّقْدِيرِ فَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَا رَبَّ سِوَاهُ.

قوله تعالى: وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ الْخ؛ لَمَا نَعْتُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ مَقْدَرُهُ وَ أَنَّ لَهُ مَلِكَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هَكَذَا كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْإِلَهَ الْمَعْبُودَ، أشار الى ضلاله المشركين حيث عبدوا أصنامًا ليست بخالقه شيئًا بل هي مخلوقه مصنوعه لهم و لا مالكة شيئًا لأنفسهم و لا لغيرهم.

و ضمير «وَ اتَّخَذُوا» للمشركين على ما يفيد السباق و إن لم يسبق لهم ذكر و مثل هذا التعبير يفيد التحقير و الاستهان.

و قوله: مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ يريد به أصنامهم التي صنعوها بأيديهم بنحت او نحوه، و توصيفها بالآلهه مع تعقيبها بمثل قوله: «لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ» إشاره الى أن ليس لها من الالهيه إلا اسم سمّوها به من غير أن تتحقق من

حقيقتها بشيء كما قال تعالى: **إِن هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ (النجم ٢٣).**

و وضع النكره فى قوله: «**لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً**» فى سياق النفى مبالغه فى تفريعهم حيث أعرضوا عن الله سبحانه و هو خالق كل شىء و تعلقوا بأصنام لا يخلقون و لا شيئاً من الأشياء بل هم أردأ حالاً من ذلك حيث إنهم مصنوعون لعبادهم مخلوقون لأوھامهم، و نظير الكلام جار فى قوله: «**ضَرّاً وَ لَا نَفْعاً**» و قوله: «**مَوْتاً وَ لَا حَيَاةً وَ لَا نُشُوراً**» .

و قوله: **وَ لَا يَمْلِكُونَ لَأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَ لَا نَفْعاً** نفى للملك عنهم و هو ضرورى فى الإله إذ كان عبادهم إنما يعبدونهم ليدفعوا عنهم الضر و يجلبوا إليهم النفع و إذ كانوا لا يملكون ضرا و لا نفعاً حتى لأنفسهم لم تكن عبادتهم إلا خبلا و ضلالاً.

و بذلك يظهر أن فى وقوع «**لَأَنْفُسِهِمْ**» فى السياق زياده تفريع و الكلام فى معنى الترقى أى لا يملكون لأنفسهم ضرا حتى يدفعوه و لا نفعاً حتى يجلبوه فكيف لغيرهم؟ و قد قدّم الضر على النفع لكون دفع الضر أهم من جلب النفع.

و قوله: **وَ لَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَ لَا حَيَاةً وَ لَا نُشُوراً** أى لا يملكون موتاً حتى يدفعوه عن عبادهم او عمن شاءوا و لا حياه حتى يسلبوها عمن شاءوا او يفيضوها على من شاءوا و لا- نشورا حتى يبعثوا الناس فيجازوهم على أعمالهم، و ملك هذه الامور من لوازم الالوهيه.

[سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٤ الى ٢٠]

اشاره

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا **إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَ أَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلماً وَ زوراً (٤)** وَ قَالَوا **أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** **إِكْتَسَبَهَا** فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً (٥) **قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفوراً رَحِيماً (٦)** وَ قَالَوا **مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَ يَمْسَى فِي الْأَسْوَاقِ لَوْ لَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذيراً (٧)** أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَ قَالَ الظَّالِمُونَ **إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسِيحُوراً (٨)** **أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٩)** **بَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ يُجْعِلُ لَكَ قُصُوراً (١٠)** **بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَ أَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعيراً (١١)** **إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظاً وَ زَفيراً (١٢)** **وَ إِذَا أَلْقَاوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً (١٣)** **لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَ ادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً (١٤)** **قُلْ أَذِلَّكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخَالِدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَ مَصِيراً (١٥)** **لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُنَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُلاً (١٦)** **وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧)** **وَ أَلْوَا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَ لَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَ كَانُوا قَوْماً ثُبُوراً (١٨)** **فَقَدْ كَذَّبُواكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَ لَا نَصراً وَ مَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً (١٩)** **وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَ جَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَ تُصْبِرُونَ وَ كَانَ رَبُّكَ بَصِيراً (٢٠)**

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ خ؛ في التعبير بمثل قوله: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا» من غير أن يقال: وقالوا: مع تقدم ذكر الكفار في قوله: «وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً» تلويح الى أن القائلين بهذا القول هم كفار العرب دون مطلق المشركين.

و المشار اليه بقولهم: «إِنَّ هَذَا» القرآن الكريم، وإنما اکتفوا بالإشارة دون أن يذكره باسمه أو بشيء من أوصافه ازدراء به و حطا لقدره.

و الإفك هو الكلام المصروف عن وجهه، و مرادهم بكونه إفكا افتراء كونه كذبا اختلقه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و نسبه الى الله سبحانه.

و السياق لا يخلو من إيماء الى أن المراد بالقوم الآخريين بعض أهل الكتاب و قد ورد في بعض الآثار أن القوم الآخريين هم عداس مولى حويطب بن عبد العزى و يسار مولى العلاء بن الحضرمى و جبر مولى عامر كانوا من أهل الكتاب يقرءون التوراه أسلموا و كان

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يتعهدهم فقيلاً ما قيل.

وقوله: فَقَدْ جَاؤُ ظُلْمًا وَ زُورًا قَالَ فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ: إِنْ جَاءَ وَ أَتَى رَبَّمَا كَانَا بِمَعْنَى فَعَلَ فَيَتَعَدَّيَانِ مِثْلَهُ فَعْنَى الْآيَةِ فَقَدْ فَعَلُوا ظُلْمًا وَ كَذَبًا، وَ قِيلَ: إِنْ ظَلَمْنَا مَنْصُوبٌ بِنَزْعِ الْخَافِضِ وَ التَّقْدِيرِ فَقَدْ جَاءُوا بِظُلْمٍ، وَ قِيلَ: حَالٌ وَ التَّقْدِيرِ فَقَدْ جَاءُوا ظَالِمِينَ وَ هُوَ سَخِيفٌ.

وَ فِيهِ أَيْضًا: وَ مَتَى قِيلَ: كَيْفَ اكْتَفَى بِهَذَا الْقَدْرِ مِنْ جَوَابِهِمْ؟ قُلْنَا: لَمَّا تَقَدَّمَ التَّحْدِي وَ عَجَزَ عَنْ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ اكْتَفَى هَاهُنَا بِالتَّنْبِيهِ عَلَى ذَلِكَ. انْتَهَى وَ الظَّاهِرُ أَنَّ الْجَوَابَ عَنْ قَوْلِهِمْ: «إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ أَفْتَرَاهُ» السَّخُّ؛ وَ قَوْلِهِمْ: «أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَبَّهَا» السَّخُّ؛ جَمِيعًا هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ» السَّخُّ؛ عَلَى مَا سَنَبِّينُ وَ الْجُمْلَةُ أَعْنَى قَوْلِهِ: «فَقَدْ جَاؤُ ظُلْمًا وَ زُورًا» رَدَ مَطْلَقَ لِقَوْلِهِمْ وَ هُوَ فِي مَعْنَى الْمَنْعِ مَعَ السَّنَدِ وَ سَنَدِ الْآيَاتِ الْمَشْتَمَلَةِ عَلَى التَّحْدِي.

وَ بِالْجُمْلَةِ مَعْنَى الْآيَةِ: وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْعَرَبِ لَيْسَ هَذَا الْقُرْآنُ إِلَّا كَلَامًا مَصْرُوفًا عَنْ وَجْهِهِ—حَيْثُ إِنَّهُ كَلَامُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ قَدْ نَسَبَهُ إِلَى اللهِ—افْتَرَى بِهِ عَلَى اللهِ وَ أَعَانَهُ عَلَى هَذَا الْكَلَامِ قَوْمٌ آخَرُونَ وَ هُمْ بَعْضُ أَهْلِ الْكِتَابِ فَقَدْ فَعَلَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِقَوْلِهِمْ هَذَا ظُلْمًا وَ كَذَبًا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ قَالَوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَبَّهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً الْأَسْطِيرُ جَمْعُ أُسْطُورِهِ بِمَعْنَى الْخَبْرِ الْمَكْتُوبِ وَ يَغْلِبُ اسْتِعْمَالُهُ فِي الْأَخْبَارِ الْخُرَافِيَّةِ وَ الْاِكْتِتَابِ هُوَ الْكِتَابَةُ وَ نَسَبَتْهُ إِلَيْهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَعَ كَوْنِهِ أَمِيًّا لَا يَكْتُبُ إِنَّمَا هِيَ بِنُوعٍ مِنَ التَّجْوِزِ كَكَوْنِهِ مَكْتُوبًا بِاسْتِدْعَاءِ مَنْهُ كَمَا يَقُولُ الْأَمِيرُ كَتَبْتُ إِلَى فُلَانٍ كَذَا وَ كَذَا وَ إِنَّمَا كَتَبَهُ كَاتِبُهُ بِأَمْرِهِ، وَ الدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ بَعْدَ: «فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً» إِذْ لَوْ كَانَ هُوَ الْكَاتِبُ لَمْ يَكُنْ مَعْنَى لِلْأَمَلَاءِ، وَ قِيلَ: الْاِكْتِتَابُ بِمَعْنَى الْاِسْتِكْتَابِ.

وَ الْإِمْلَاءُ إِلقاءُ الْكَلَامِ إِلَى الْمُخَاطَبِ بِلَفْظِهِ لِيَحْفَظَهُ وَ يَعْهَدُ أَوْ إِلَى الْكَاتِبِ لِيَكْتُبَهُ وَ الْمُرَادُ بِهِ فِي

الآية هو المعنى الأول لى ما يعطيه سياق «اكتسبها» فهي تملى عليه» إذ ظاهره تحقق الاكتاب دفعه و الإملاء تدريجا على نحو الاستمرار فهي مكتوبه مجموعه عنده تقرأ عليه وقتا بعد وقت و هو يعيها فيقرأ على الناس ما وعاه و حفظه.

و البكره و الأصيل الغداه و العشى، و هو كناية عن الوقت بعد الوقت، و قيل المراد أول النهار قبل خروج الناس من منازلهم و آخر النهار بعد دخولهم فى منازلهم و هو كناية عن أنها تملى عليه خفيه.

قوله تعالى: قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا أمر للنبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم برد قولهم و تكذيبهم فيما رموا به القرآن أنه إفك مفترى و أنه أساطير الأولين اكتسبها فهي تملى عليه وقتا بعد وقت.

و توصيفه تعالى بأنه يعلم السر أى خفيات الامور و بواطنها فى السماوات و الأرض للإيدان بأن هذا الكتاب الذى أنزله منطو على أسرار مطويه عن عقول البشر، و فيه تعريض بمجازاتهم على جناياهم التى منها رميهم القرآن بأنه إفك مفترى و أنه من الأساطير و هو مما يعلمه تعالى.

و قوله: إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا تعليل لما هو المشاهد من إمهالهم و تأخير عقوبتهم على جناياهم و تكذيبهم للحق و جرأتهم على الله سبحانه.

و المعنى: قل إن القرآن ليس إفكا مفترى و لا من الأساطير كما يقولون بل كتاب منزل من عند الله سبحانه ضمّنه أسرار خفيه لا تصل الى كنهها عقولكم و لا تحيط بها أحلامكم، و رميكم إياه بالإفك و الأساطير و تكذيبكم لحقائقه جنايه عظيمه تستحقون بها العقوبه غير أن الله سبحانه أمهلكم و أخر عقوبه جنائتكم لأنه متصف بالمغفره و الرحمه و ذلك يستتبع تأخير العذاب، هذا ملخص ما ذكره فى معنى الآية.

و فيه أن السياق لا يساعد عليه فإن محصل معنى الآية على ما فسّره يرجع الى رد دعوى

الكفار كون القرآن إفكا مفترى و من الأساطير بدعوى أنه منزل من عند الله منطو على أسرار خفيه لا سبيل لهم الى الوقوف عليها لا مساغ فى مقام المخاصمه لرد الدعوى بدعوى أخرى مثلها او هى أخفى منها.

على أن التعليل بقوله: «إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً» إنما يناسب انتفاء العقوبه من أصلها دون الإمهال و التأخير و إنما المناسب للإمهال و التأخير من الأسماء هو مثل الحليم و العليم و الحكيم دون الغفور الرحيم.

و الأوفق لمقام المخاصمه و الدفاع بإبانه الحق و التعليل بالمغفره و الرحمه أن يكون قوله:

«إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً» تعليلاً لإنزال الكتاب و قد ذكر قبل ذلك أنه أنزله على عبده ليكون للعالمين نذيراً و هذه هى النبوه، و يكون حيثذ وصفه تعالى بعلم السر فى السماوات و الأرض للإيماء الى أن فى سرهم ما يستدعى شمول المغفره و الرحمه الإلهيتين لحالهم و هو طلبهم بفطرتهم و جبلتهم للسعاده و العاقبه الحسنى التى ليست حقيقتها إلا- السعاده الإنسانيه بشمول المغفره و الرحمه و إن أخطأ كثير منهم فى تطبيقها على التمتع بالحياه الدنيا و زينتها الدائره فيكون حجه برهانيه على حقيه الدعوه النبويه المشتمله عليها القرآن، و بطلان دعوى كونه إفكا من أساطير الأولين.

و تقرير الحجه أن الله سبحانه يعلم السر فى السماوات و الأرض و هو يعلم أن فى سرهم المستقر فى سرائركم المجبوله عليه فطرتكم حبا للسعاده و طلبا و انتزاعا للعاقبه الحسنى و حقيقتها فوز الدنيا و الآخره، و كان سبحانه غفورا رحيماً و مقتضى ذلك أن يجيبكم الى ما تسألونه فى سرهم و بلسان فطرتكم فيهدىكم الى سبيله التى تضمن لكم السعاده.

و هذا كتاب ينطق عليكم بسبيله فليس إفكا مفترى على الله و لا من قبيل الأساطير بل هو كتاب يتضمن ما تسألونه بفطرتكم و تستدعونه فى سرهم فإن استجبتم لداعيه شملتكم المغفره و الرحمه و إن توليتم حرمتكم ذلك فهو كتاب منزل من عند الله و لو لم يكن نازلاً من عنده

كما يخبر عنه لم يهد الى حقيقه السعاده و لم يدع الى محض الحق و لاختلفت بياناته فدعاكم تاره الى ما فيه خيركم و نفعكم و هو الذى يجلب اليكم المغفره و الرحمه، و تاره الى ما هو شر لكم و ضارّ و هو الذى يثير عليكم السخط الإلهى و يستوجب لكم العقوبه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْ لَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ مَعَهُ نَدِيرًا أَوْ يُرْسِلُ إِلَيْنَا كِتَابًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ هذه حكاية ما طعنوا به فى الرسول بعد ما حكى طعنهم فى القرآن بقوله:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾ الخ.

و تعبيرهم عنه صلى الله عليه و آله و سلم بقولهم: ﴿لِهَذَا الرَّسُولِ﴾ مع تكذيبهم برسالته مبنى على التهكم و الاستهزاء.

و قولهم: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ استفهام للتعجب و الوجه فيه أن الوثنيين يرون أن البشر لا يسوغ له الاتصال بالغيب و هو متعلق الوجود بالماده منغمر فى ظلماتها، و متلوث بقذاراتها، و لذا يتوسلون فى التوجه الى اللاهوت بالملائكة فيعبدونهم ليشفعوا لهم عند الله و يقربوهم من الله زلفى فالملائكة هم المقربون عند الله المتصلون بالغيب المتعينون للرسالة لو كانت هناك رساله، و ليس للبشر شىء من ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ المراد بالظالمين هم المقترحون السابقو الذكر- كما قيل فهو من وضع الظاهر موضع المضمرة و وصفهم بالظلم للدلاله على بلوغهم فى الظلم و الاجترار على الله و رسوله.

و قولهم: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ﴾ الخ؛ خطاب منهم للمؤمنين تعبيراً لهم و إغواء عن طريق الحق، و مرادهم بالرجل المسحور النبى صلى الله عليه و آله و سلم يريدون أنه مسحور سحره بعض السحره فصار يخيل اليه أنه رسول يأتيه ملك الوحي بالرساله و الكتاب.

قوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾

سَبِيلًا الْأَمْثَالَ الْأَشْبَاهِ وَرَبْمَا قِيلَ: إِنَّ الْمَثَلَ هُنَا بِمَعْنَى الْوَصْفِ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ (سوره محمد ١٥)، وَالمَحْصَلُ: أَنْظِرْ كَيْفَ وَصَفُوكَ فَضَلُّوا فِيكَ ضَلَالًا لَا يَرْجَى مَعَهُ اهْتِدَاؤُهُمْ إِلَى الْحَقِّ كَقَوْلِهِمْ إِنَّهُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ فَلَا يَصْلِحُ لِلرِّسَالَةِ لِأَنَّ الرَّسُولَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ شَخْصًا غَيْبِيًّا لَا تَعَلَّقُ لَهُ بِالْمَادَةِ وَلَا أَقْلٌ مِنْ عَدَمِ احْتِيَاجِهِ إِلَى الْأَسْبَابِ الْعَادِيَةِ فِي تَحْصِيلِ الْمَعَاشِ، وَكَقَوْلِهِمْ: إِنَّهُ رَجُلٌ مَسْحُورٌ.

وَ قَوْلُهُ: فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا أَى تَفَرَّعَ عَلَى هَذِهِ الْأَمْثَالَ الَّتِي ضَرَبُوهَا لَكَ أَنَّهُمْ ضَلُّوا ضَلَالًا لَا يَسْتَطِيعُونَ مَعَهُ أَنْ يَرُدُّوا سَبِيلَ الْحَقِّ وَلَا يَرْجَى لَهُمْ مَعَهُ الْاِهْتِدَاءَ فَإِنْ مِنْ أَخْطَأَ الطَّرِيقَ رَبْمَا أَخْطَأَهَا بِانْحِرَافٍ يَسِيرٍ يَرْجَى مَعَهُ رُكُوبَهَا ثَانِيًا، وَرَبْمَا اسْتَدْبَرَهَا فَصَارَ كَلِمًا أَمْعَنَ فِي مَسِيرِهِ زَادَ مِنْهَا بَعْدًا، وَ مِنْ سَمَى كِتَابَ اللَّهِ بِالْأَسَاطِيرِ وَ وَصَفَ رَسُولَهُ بِالْمَسْحُورِ وَ لَمْ يَزَلْ يَزِيدُ تَعَنَّتَا وَ لِحَاجَا وَ اسْتَهْزَأَ بِالْحَقِّ كَيْفَ يَرْجَى اهْتِدَاؤُهُ وَ حَالَهُ هَذِهِ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ يَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾ الْإِشَارَةُ فِي قَوْلِهِ: «مِنْ ذَلِكَ» إِلَى مَا اقْتَرَحُوهُ مِنْ قَوْلِهِمْ: «أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا» أَوْ إِلَى مَجْمُوعِ مَا ذَكَرُوهُ مِنَ الْكُنْزِ وَ الْجَنَّةِ.

وَ الْقُصُورُ جَمْعُ قَصْرٍ وَ هُوَ الْبَيْتُ الْمَشِيدُ الْعَالِي، وَ تَنْكِيرُ «قُصُورًا» لِلدَّلَالَةِ عَلَى التَّعْظِيمِ وَ التَّفْخِيمِ.

وَ الْآيَةُ بِمَنْزِلَةِ الْجَوَابِ عَنْ طَعْنِهِمْ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ اقْتَرَحَهُمْ أَنْ يَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ أَوْ يَلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ يَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ غَيْرَ أَنْ فِيهَا التَّفَاتَا مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبِ فَلَمْ يَقُلْ: قُلْ إِنْ شَاءَ رَبِّي جَعَلَ لِي كَذَا وَ كَذَا بَلْ عَدَلَ إِلَى قَوْلِهِ: «بَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ الْخ.»

وَ فِيهِ تَلْوِيحٌ إِلَى أَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ جَوَابًا وَ لَا يَصْلِحُونَ لِأَنَّ يَخَاطَبُوا لِأَنَّهُمْ عَلَى عِلْمِ بَفْسَادِ مَا اقْتَرَحُوا بِهِ عَلَيْهِ فَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لَمْ يَذْكَرْ لَهُمْ إِلَّا أَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلَهُمْ يُوْحَى إِلَيْهِ، وَ لَمْ يَدَّعِ أَنْ لَهُ قَدْرٌ

غيبه و سلطنه إلهيه على كل ما يريد أو يراد منه، كما قال تعالى بعد ما حكى بعض اقتراحاتهم فى سورة الإسراء: قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (الإسراء ٩٣).

فأعرض سبحانه عن مخاطبتهم و عن الجواب عما اقترحوه، و انما ذكر لنبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن ربه الذى اتخذه رسولا و أنزل عليه الفرقان ليكون للعالمين نذيرا قادر على أعظم ما يقترحونه فإن شاء جعل له خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار، و يجعل له قصورا لا يبلغ وصفها و اصف و ذلك خير من أن يكون له جنه يأكل منها أو يلقي اليه كنز ليصرفه فى حوائجه.

و بهذا المقدار يتحصل جوابهم فيما اقترحوه من الكنز و الجنه، و أما نزول الملك اليه ليشاركة فى الانذار و يعينه على التبليغ فلم يذكر جواب عنه لظهور بطلانه، و قد أجاب تعالى عنه فى مواضع من كلامه بأجوبه مختلفه كقوله: وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَ لَلْبَشَرِئْنَا عَلَيْهِمْ مَا يُلَبِّسُونَ (الأنعام ٩)، و قوله: قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (الإسراء ٩٥)، و قوله: مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ مَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ (الحجر ٨)، و قد تقدم تقرير حجه كل من الآيات فى ضمن تفسيرها.

و من هنا يظهر أن المراد بجعل الجنات و القصور له صلى الله عليه و آله و سلم جعله فى الدنيا على ما يقتضيه مقام المخاصمه و رد قولهم فإن المحصل من السياق أنهم يقترحون عليك كيت و كيت و هم يريدون تعجيزك و تبكيتهك و إن ربك قادر على أعظم من ذلك فإن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار، الخ؛ و هى لا محاله فى الدنيا و إلا لم ينقطع به الخصام.

قوله تعالى: بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَ أَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا، اضراب عن طعنهم فيه صلى الله عليه و آله و سلم و اعتراضهم عليه بأكل الطعام و المشى فى الأسواق بما يتضمن معنى التكذيب أى ما كذبوك و ردوا نبوتك لأنك تأكل الطعام و تمشى فى الأسواق فإنما هو كلام منهم صورى بل السبب الأصلى فى إنكارهم نبوتك و طعنهم فيك أنهم كذبوا بالساعة و أنكروا

المعاد، و من المعلوم أن لا وقع للنبوه مع إنكار الساعه و لا معنى للدين و الشريعه لو لا المحاسبه و المجازاه.

فالإشاره الى السبب الأصلي بعد ذكر الاعتراض و الاقتراح و الجواب هاهنا نظير ما وقع فى سوره الإسراء بعد ذكر الاقتراحات ثم الجواب من ذكر السبب الاصلى فى قوله: «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا» .

و قوله تعالى: وَ أَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا وَضِعَ الْمَوْصُولِ وَ الصلوه مكان الضمير الراجع للدلاله على أن الجزاء بالسعير ثابت فى حق كل من كذب بالساعه هم و غيرهم فيه سواء، و على أن سبب إعتاد السعير عليه فيهم تكذيبهم بالساعه.

و وضع الساعه ثانيا موضع ضميرها ليكون أنصّ و أصرح فهو المناسب لمقام التهديد، و السعير النار المشتعله الملتهبه.

قوله تعالى: إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَ زَفِيرًا فِي الْمَفْرَدَاتِ: الغيظ أشد غضب-الى أن قال-و التغيط هو إظهار الغيظ، و قد يكون ذلك مع صوت مسموع كما قال: «سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَ زَفِيرًا» انتهى، و فيه أيضا: الزفير تردد النفس حتى تنتفخ الضلوع منه، انتهى.

و الآيه تمثل حال النار بالنسبه اليهم اذا برزوا لها يوم الجزاء أنها تشتد إذا ظهروا لها كالأسد يزأر إذا رأى فريسته.

قوله تعالى: وَ إِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا «مَكَانًا» منصوب بتقدير فى، و الثبور الويل و الهلاك.

و التقرين التصفيد بالأغلال و السلاسل و قيل: هو جعلهم مع قرناء الشياطين و هو بعيد من اللفظ. و المعنى و إذا ألقوا يوم الجزاء فى مكان ضيق من النار و هم مصفدون بالأغلال دعوا

هنالك ثبورا لا يوصف و هو قولهم:وا ثبورا.

قوله تعالى: لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَلَا حِدًّا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا الاستغاثه بالويل و الثبور نوع احتيال للتخلص من الشده و إذ كان اليوم يوم الجزاء فحسب لا ينفع فيه عمل و لا يجدى فيه سبب البته لم ينفعهم الدعاء بالثبور أصلا و لذا قال تعالى: «لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ الخ؛فهو كناية عن أن الثبور لا- ينفعكم اليوم سواء استقلتم منه أو استكثرتم.فهو فى معنى قوله تعالى: اِضْمَلُوها فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ (الطور ١٦)،و قوله حكاية عنهم: سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ (إبراهيم ٢١).

قوله تعالى: قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ -الى قوله- مَسْئُلاً الإشاره الى السعير بما له من الوصف،أمر نبيه صَلَّى الله عليه و آله و سلم أن يسألهم أيهما أرجح السعير أم جنه الخلد؟و السؤال سؤال فى أمر بديهى لا يتوقف فى جوابه عاقل و هو دائر فى المناظره و المخاصمه يردد الخصم بين أمرين أحدهما بديهى الصحه و الآخر بديهى البطلان فيكلف ان يختار أحدهما فإن اختار الحق فقد اعترف بما كان ينكره،و إن اختار الباطل افتضح.

و قوله: أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ اضافه الجنه الى الخلد و هو الدوام للدلاله على كونها فى نفسها خالده لا تفنى كما أن قوله بعد: «خَالِدِينَ» للدلاله على ان أهلها خالدين فيها لا سبيل للفناء اليهم.

قوله: وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تقديره وعدها المتقون لان وعد يتعدى لمفعولين و المتقون مفعول ثان ناب مناب الفاعل.

و قوله: كَأَنْتَ لَهُمْ جَزَاءً وَ مَصِيرًا أى جزاء لتقواهم و منقلبا ينقلبون اليه بما هم متقون كما قال تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ -الى أن قال- وَ مِمَّا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (الحجر ٤٨)،و هو من الأفضيه التى قضاها يوم خلق آدم و أمر الملائكه و إبليس بالسجود

له، و يتعين به جزاء المتقين و مصيرهم كما تقدم فى تفسير سورة الحجر.

و قوله: «لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ» أى انهم يملكون فيها بتملك من الله لهم كل ما تتعلق به مشيتهم، و لا تتعلق مشيتهم إلا بما يحبونه و يشتهونه على خلاف أهل النار كما قال تعالى فيهم: وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ (سبأ ٥٤/)، و لا يحبون و لا يشتهون إلا ما من شأنه أن يتعلق به الحب واقعا و هو الذى يحبه الله لهم و هو ما يستحقونه من الخير و السعادة مما يستكملون به و لا يستضرون به لا هم و لا غيرهم فافهم ذلك.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ ضمائر الجمع الأربعة عائدة الى الكفار، و المراد بما يعبدون الملائكة و المعبودون من البشر و الاصنام ان كان «ما» أعم من غير اولى العقل، و الا فالاصنام فقط.

و المشار اليهم المعينون بقوله: «عِبَادِي هَؤُلَاءِ» الكفار و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ الخ؛ جواب المعبودين عن قوله: «أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ» الخ؛ و قد بدءوا بالتسبيح على ما هو من أدب العبودية فى موارد يذكر فيها شرك أهل الشرك او ما يوهم ذلك بوجه.

و قوله: «مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ أَى مَا صَحَّ و ما استقام لنا أن نتجاوزك الى غيرك فنتخذ من دونك من أولياء و هم الذين عبدونا و اتخذونا أولياء من دونك، و قوله: «وَلَكِنْ مَتَّعْتُهُمْ وَ أَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَ كَانُوا قَوْمًا بُورًا» البور جمع بائر و هو الهالك و قيل: الفاسد.

لما نفى المعبودون المسئولون عن سبب ضلال عبادهم نسبة الإضلال الى أنفسهم أخذوا فى نسبتها الى الكفار أنفسهم مع بيان السبب الذى أضلهم و هو أنهم كانوا قوما هالكين او فاسدين و قد متعتهم و آباءهم من أمتعه الحياه الدنيا و نعمها حتى طال عليهم التمتع امتحانا

و ابتلاء فتمتعوا منها و اشتغلوا بها حتى نسوا الذكر الذى جاءت به الرسل فعدلوا عن التوحيد الى الشرك.

فكونهم قوما هالكين او فاسدين بسبب انكبابهم على الدنيا و انهماكهم فى الشهوات هو السبب فى استغراقهم فى التمتع و انصراف همهم الى الاشتغال بالأسباب و هو السبب لسيانهم الذكر و العدول عن التوحيد الى الشرك.

قوله تعالى: فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَبْرًا وَلَا نَصِيرًا الى آخر الآيه؛ كلام له تعالى يلقيه الى المشركين بعد براءه المعبودين منهم، و أما كلام المعبودين فقد تم فى قوله: «وَ كَانُوا قَوْمًا بُورًا» .

و المعنى: فقد كذبكم المعبودون بما تقولون فى حقهم إنهم آلهه من دون الله يصرفون عن عبادتهم السوء و ينصرونهم، و إذ كذبوكم و نفوا عن أنفسهم الالهيه و الولايه فلا تستطيعون أنتم أيها العبداء أن تصرفوا عن أنفسكم العذاب بسبب عبادتهم، و لا تستطيعون نصرا لأنفسكم بسببهم.

و التردد بين الصريف و النصر كأنه باعتبار استقلال المعبودين فى دفع العذاب عنهم و هو الصريف. و عدم استقلالهم بأن يكونوا جزء السبب و هو النصر.

و قرأ غير عاصم من طريق حفص «يستطيعون» بالياء المشناه من تحت و هى قراءه حسنه ملائمه لمقتضى السياق، و المعنى: فقد كذبكم المعبودون بما تقولون إنهم آلهه يصرفون عنكم السوء أو ينصرونكم و يتفرع على ذلك أنهم لا يستطيعون لكم صرفا و لا نصرا.

و قوله: «وَ مَنْ يَظْلِمُ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا» المراد بالظلم مطلق الظلم و المعصيه و إن كان مورد الآيات السابقه خصوص الظلم الذى هو الشرك، فقوله: «وَ مَنْ يَظْلِمُ مِنْكُمْ» الخ؛ من قبيل وضع القانون العام موضع الحكم الخاص، و لو كان المراد به الحكم الخاص بهم لكان من حق الكلام أن يقال: «و نذيقكم بما ظلمتم عذابا كثيرا» لأنهم كلهم ظالمون ظلم

و النكته فيه الإشاره الى أن الحكم الإلهي نافذ جار لا مانع منه ولا معقب له كأنه قيل: وإن كذبكم المعبودون و ما استطاعوا صرفا و لا- نصرا فالحكم العالم الإلهي «مَنْ يَظْلِمُ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا» على نفوذه و جريانه لا مانع منه و لا معقب له فأنتم ذائقون العذاب البته.

قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ أجب تعالى عن قولهم: «مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ» الخ؛ أولا بقوله: «تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ» الخ؛ مع ما يلحقه من قوله: «بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ» الخ؛ و هذا جواب ثان محصيه له أن هذا الرسول ليس بأول رسول أرسل الى الناس بل أرسل الله قبله جما غفيرا من المرسلين و قد كانوا على العاده البشريه الجاريه بين الناس يأكلون الطعام و يمشون في الأسواق و لم يخلق لهم جنه يأكلون منها و لا ألقى إليهم كنز و لا أنزل معهم ملك، و هذا الرسول إنما هو كأحدهم و لم يأت بأمر بدع حتى يتوقع منه ما لا يتوقع من غيره.

فالآيه في معنى قوله: قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ (الأحقاف ٩)، و قريبه المعنى من قوله: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ (الكهف ١١٠).

و قوله تعالى: وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ متمم للجواب السابق بمنزله التعليل لكون الرسل كسائر الناس في الخواص البشريه من غير أن تتميز حياتهم أو دعوتهم بخواص سماويه تورث القطع بكونهم حاملين للرساله الإلهيه كإنزال ملك عليهم أو إلقاء كنز اليهم او خلق جنه لهم فكأنه قيل: و السبب في كون الرسل جارين في حياتهم على ما يجرى عليه الناس أنا جعلنا بعض الناس لبعض فتنه يمتحنون بها فالرسل فتنه لسائر الناس يمتحنون بهم فيتميز بهم أهل الريب من أهل الإيمان و المتبعون للأهواء الذين لا يصبرون على

مرّ الحق من طلاب الحق الصابرين في طاعه الله و سلوك سبيله.

و قوله تعالى: وَ كَانَ رَبُّكَ بِصِيرَةٍ أَى عَالِمًا بِالصَّوَابِ فِي الْأُمُورِ فَيُضَعُّ كُلَّ أَمْرٍ فِي الْمَوْضِعِ الْمُنَاسِبِ لَهُ وَ يَجْرِي بِذَلِكَ أَمْرَ النَّظْمِ فَهَدَفَ النَّظْمَ الْإِنْسَانِي كَمَالَ كُلِّ فَرْدٍ بِقَطْعِهِ طَرِيقَ السَّعَادَةِ أَوْ الشَّقَاوَةِ عَلَى حَسَبِ مَا يَسْتَعِدُّ لَهُ وَ يَسْتَحِقُّهُ وَ لِأَزْمِهِ بَسْطَ نِظَامِ الْإِمْتِحَانِ بَيْنَهُمْ وَ لِأَزْمِهِ ارْتِفَاعَ التَّمَايِزِ بَيْنَ الرُّسُلِ وَ غَيْرِهِمْ.

[سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٢١ الى ٣١]

اشاره

وَ قَالَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ لِقَاءَنَا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْنَا الْآيَاتُ الْكُبْرَىٰ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢) وَ قَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤) وَ يَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاوَاتُ بِالْغَمَامِ وَ نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥) الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَبِيرُ (٢٦) وَ كَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩) وَ قَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَ كَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَ نَصِيرًا (٣١)

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا قَالَ فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ:

الرجاء ترقب الخير الذي يقوى في النفس وقوعه و مثله اطمع و الأمل، و اللقاء المصير الى الشىء من غير حائل، و العتو الخروج الى أفحش الظلم. انتهى.

و المراد باللقاء الرجوع الى الله يوم القيامة سَمَى به لبروزهم اليه تعالى بحيث لا يبقى فى البين حائل جهل أو غفله لظهور العظمه الإلهيه كما قال تعالى: «وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ» .

فالمراد بعدم رجائهم اللقاء إنكارهم للمعاد و تكذيبهم بالساعه و لم يعبر عنه بتكذيب الساعه و نحوه كما عبر فى الآيات السابقه لمكان ذكرهم مشاهده الملائكه و رؤيه الرب تعالى و تقدس ففيه إشاره الى أنهم إنما قالوا ما قالوا و طلبوا إنزال الملائكه أو رؤيه الرب ليأسهم و زعمهم استحاله ذلك فقد ألزمو بما هو مستحيل على زعمهم.

فقولهم: لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا اعتراض منهم على رساله الرسول أو ردوه فى صورته التحضيض كقولهم فى موضع آخر: لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (الحجر ٧)، و تقرير الحجه كما تقدمت الإشاره اليه أنه لو كانت الرساله

-و هي نزول الملائكة بالوحى أو تكليمه تعالى البشر بالمشافهه-مما يتيسر للبشر نيله و نحن بشر أمثال هذا المدعى للرساله فما بالنا لا ينزل علينا الملائكه و لا نرى ربنا؟ فهلا أنزل علينا الملائكه أو نرى ربنا.

و يؤيد ما ذكرناه من التقرير إطلاق إنزال الملائكه و رؤيه الرب من غير أن يقولوا: لو لا أنزل علينا الملائكه فيصدقك أو نرى ربنا فيصدقك. على أنهم ذكروا فى اعتراضهم السابق نزول الملك ليكون معه نذيرا و فيه تصديقه.

و فى التعبير عنه تعالى بلفظ ربنا نوع تهكم منهم فإن المشركين ما كانوا يرونه تعالى ربا لهم بل كان عندهم أن أربابهم ما كانوا يعبدونهم و الله رب الأرباب فكأنهم قالوا للنبي صلى الله عليه و آله و سلم:

إنك ترى أن الله ربك و قد حنّ اليك فخصك بالمشافهه و التكليم، و أنه ربنا، فليحن الينا و ليشافهنا بالرؤيه كما فعل بك.

على أنهم إنما عدلوا عن عباده أرباب الأصنام و هم الملائكه و روحانيات الكواكب و نحوهم الى عباده الأصنام و التماثيل لتكون محسوسه غير غائبه عن المشاهده عند العباده و التقرب بالقرايين.

و قوله تعالى: لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا أَى أقسم لقد طلبوا الكبر لأنفسهم بغير حق و طغوا طغيانا عظيما.

قوله تعالى: يَوْمَ يَرُونَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا فى المفردات: الحجر الممنوع منه بتحريمه قال تعالى: «وَ قَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَ حَزْئٌ حِجْرٌ» «وَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا» كان الرجل إذا لقى من يخاف يقول ذلك فذكر تعالى أن الكفار إذا رأوا الملائكه قالوا ذلك ظنا أن ذلك ينفعهم. انتهى.

و عن الخليل كان الرجل يرى الرجل الذى يخاف منه القتل فى الجاهليه فى الأشهر الحرم فيقول: حجرا محجورا أى حرام عليك التعرض لى فى هذا الشهر فلا يبدؤه بشر و عن أبى

عبده: هي عودته للعرب يقولها من يخاف آخر في الحرم أو في شهر حرام إذا لقيه و بينهما تره.

فقوله: **يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ** يوم-على ما قيل - ظرف لقوله: «**لَا بُشْرَىٰ**» و قوله: «**يَوْمَئِذٍ**» تأكيد له، والمراد بقوله: «**لَا بُشْرَىٰ**» نفى للجنس، والمراد بالمجرمين كل متصف بالإجرام غير أن مورد الكلام إجرام الشرك و المجرمون هم الذين لا يرجون اللقاء، وقد تقدم ذكرهم و المعنى: يوم يرى هؤلاء الذين لا يرجون لقاء الملائكة لا بشري-على طريق نفى الجنس-يومئذ للمجرمين و هم منهم.

و قوله: **وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا** فاعل يقولون هم المشركون أى يقول المشركون يومئذ للملائكة و هم قاصدوهم بالعذاب: حجرا محجورا أى لنكن فى معاذ منكم، و قيل: ضمير الجميع للملائكة، و المعنى: و يقول الملائكة للمشركين حراما محرما عليكم سماع البشرى، أو حراما محرما عليكم أن تدخلوا الجنة أو حراما محرما عليكم أن تتعوضوا من العذاب الى شىء فلا معاذ لكم هذا، و المعنى: الأول أقرب الى السياق.

و الآيه فى موضع الجواب عن قولهم: «لو لا- أنزل الينا الملائكة» و قد عرضت عن جواب قولهم: «**أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا**» فإن الرؤيه التى كانوا يقصدونها بقولهم هى الرؤيه البصريه التى تستلزم التجسم و الماديه تعالى عن ذلك، و أما الرؤيه بعين اليقين و هى الرؤيه القليله فلم يكونوا ممن يفقه ذلك و على تقديره ما كانوا يقصدونه.

قوله تعالى: **وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا** قال الراغب فى المفردات: العمل كل فعل يكون من الحيوان بقصد فهو أخص من الفعل لأن الفعل قد ينسب الى الحيوانات التى يقع منها فعل بغير قصد و قد ينسب الى الجمادات، و العمل فلما ينسب الى ذلك، و لم يستعمل العمل فى الحيوانات إلا فى قولهم: البقر العوامل. انتهى.

و قال: الهباء دقائق التراب و ما انبث فى الهواء فلا يبدو إلا فى أثناء ضوء الشمس فى الكوّه.

انتهى. و النثر التفريق.

و المعنى: و أقبلنا الى كل عمل عملوه -و العمل هو الذى يعيش به الإنسان بعد الموت- ففرقناه تفريقا لا ينتفعون به كالهباء المنثور، و الكلام مبنى على التمثيل مثل به استيلاء القهر الإلهى على جميع أعمالهم التى عملوها لسعاده الحياه و إبطالها بحيث لا يؤثر فى سعاده حياتهم المؤبده شيئا بتشبيهه بسطان غلب عدوه فحلّ داره بعد ما ظهر عليه فخرب الدار و هدم الآثار و أحرق المتاع و الأثاث فأفنى منه كل عين و أثر.

و لا- منافاه بين ما تدل عليه الآيه من حبط الأعمال يومئذ و بين ما تدل عليه آيات أخر أن أعمالهم أحبطت حينما عملوها فى الدنيا بكفرهم و إجرامهم فإن معنى الإحباط بعد الموت ظهور الحبط لهم بعد ما كان خفيا فى الدنيا عليهم و قد تقدم كلام مشبع فى معنى الحبط فى الجزء الثانى من الكتاب فراجع.

قوله تعالى: أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا المراد بأصحاب الجنه المتقون فقد تقدم قوله قبل آيات: «قُلْ أَدْرِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ»، و المستقر و المقيل اسما مكان من الاستقرار و معناه ظاهر و من القيلولة و هى الاستراحة فى منتصف النهار سواء كان معها نوم أم لا-على ما قيل-و الجنه لا نوم فيه.

و كلمتا «خَيْرٌ» و «أَحْسَنُ» منسلخان عن معنى التفضيل كما فى قوله تعالى: وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ (الروم ٢٧/)، و قوله: مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ (الجمعه ١١/). كذا قيل، و ليس يبعد أن يقال: إن «أَفْعَلٌ» أو ما هو فى معناه كخير بناء على ما رجحنا أنه صفة مشبهه تدل على التفضيل بمادته لا- بهيئته فى مثل هذه الموارد غير منسلخ عن معنى التفضيل و العنايه فى ذلك أنهم لما اختاروا الشرك و الإجرام و استحسنا ذلك و لازمه النار فى الآخره فقد أثبتوا لها خيريه و حسنا فقبلوا بأن الجنه و ما فيها خير و أحسن حتى على لازم قولهم فعليهم أن يختاروها على النار و أن يختاروا الإيمان على الكفر على أى حال، و قيل: إن التفضيل مبنى على التهكم.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءِ بِالْغَمَامِ وَ نَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا الظاهر أن الظرف منصوب بفعل مقدر، والمعنى و اذكر يوم كذا و كذا فإنهم يرون الملائكة فيه أيضا و هذا اليوم هو يوم القيامة بدليل قوله بعد: «الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ»، و قيل فى متعلق الظرف وجوه آخر لا فائده فى نقلها.

و «تَشَقَّقُ» أصله تشقق من باب النفل من الشق بمعنى الخرم و التشقق التفتح، و الغمام السحاب سمي به لستره ضوء الشمس مأخوذ من الغم بمعنى الستر.

و الباء فى قوله: «تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ» إما للملابسه و المعنى تفتتح السماء متلبسه بالغمام أى متغيمه، و إما بمعنى عن و المعنى تفتتح عن الغمام أى من قبل الغمام أو تشققه.

و كيف كان فظاهر الآيه أن السماء تنشق يوم القيامة بما عليها من الغمام الساتر لها و نزل منها الملائكة الذين هم سكانها فيشاهدونهم فالآيه قريبه المعنى من قوله فى موضع آخر:

وَ انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ وَ الْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا (الحاقه ١٧).

و ليس من البعيد أن يكون الكلام كناية عن انكشاف غمه الجهل و بروز عالم السماء و هو من الغيب و بروز سكانها و هم الملائكة و نزولهم الى العالم الأرضى موطن الإنسان.

و التعبير عن الواقع بالتشقق دون التفتح و ما يماثله للتهيل، و كذا التنوين فى قوله:

«تَنْزِيلًا» للدلاله على التفعيم.

قوله تعالى: الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَ كَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا أى الملك المطلق يومئذ حق ثابت للرحمن و ذلك لبطلان الأسباب و زوال ما بينها و بين مسبباتها من الروابط المتنوعه، و قد تقدم غير مره أن المراد بذلك فى يوم القيامة هو ظهور أن الملك و الحكم لله و الأمر اليه وحده، و أن لا استقلال فى شىء من الأسباب على خلاف ما كان يتراءى من ظاهر حالها فى نشأه الدنيا قبل قيام الساعة و رجوع كل شىء اليه تعالى.

وقوله: وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا الوجه فيه ركونهم الى ظواهر الأسباب و إخلاصهم الى الحياه الأرضيه البائده الدائره و انقطاعهم عن السبب الحقيقي الذى هو مالك الملك بالحقيقه و عن حياتهم الباقيه المؤبده فيصبحون اليوم و لا ملاذ لهم و لا معاذ.

فعلى هذا يكون الملك مبتدأ و الحق خبره عرّف لإفاده الحصر، و يومئذ ظرف لثبوت الخبر للمبتدأ، و فائده التقييد للدلاله على ظهور حقيقه الامر يومئذ فإن حقيقه الملك لله سبحانه دائما، و إنما يختلف يوم القيامه مع غيره بزوال الملك الصورى عن الاشياء فيه و ثبوته لها فى غيره.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا. قال الراغب فى المفردات:العض أزم بالاسنان،قال تعالى: «عَصُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ» و «يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ» و ذلك عباره عن الندم لما جرى به عاده الناس أن يفعلوه عند ذلك.انتهى.و لذلك يتمنى عنده ما فات من واجب العمل كما حكى الله تعالى عنهم قولهم:«يا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا».

و الظاهر أن المراد بالظالم جنسه و هو كل من لم يهتد بهدى الرسول،و كذا المراد بالرسول جنسه و إن انطبق الظالم بحسب المورد على ظالمى هذه الامه و الرسول على محمد صلّى الله عليه و آله و سلم.

و المعنى:و اذكر يوم يندم الظالم ندما شديدا قائلا- من فرط ندمه يا ليتنى اتخدت مع الرسول سبيلا ما الى الهدى أى سبيل كانت.

قوله تعالى: يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا. تتمه تمنى الظالم النادم على ظلمه،و فلان كناية عن العلم المذكور و فلانه عن العلم المؤنث،قال الراغب:فلان و فلانه كنایتان عن الإنسان،و الفلان و الفلانه-باللام-كنایتان عن الحيوانات.انتهى.

و المعنى:يا ويلتى-يا هلاكى-ليتنى لم اتخذ فلانا-و هو من اتخذه صديقا يشاوره و يسمع منه و يقلده-خليلا.

و من لطيف التعبير قوله فى الآيه السابقه: ﴿يَا لَيْتَنى اتَّخَذْتُ﴾ الخ؛ و فى هذه الآيه ﴿يَا وَيْلَتى لَيْتَنى لَمَّ اتَّخَذْتُ﴾ الخ؛ فإن فى ذلك تدرجاً لطيفاً فى النداء و الاستغاثه فحذف المنادى فى الآيه السابقه يلوح الى أنه يريد أى منج ينجيه مما هو فيه من الشقاء و ذكر الويل بعد ذلك- فى هذه الآيه يدل على أنه بان له أن لا يخلصه من العذاب شىء قط إلا الهلاك و الفناء، و لذلك نادى الويل.

قوله تعالى: لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعِيدٍ إِذْ جَاءَنِى وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا تعليل للتمنى السابق، و المراد بالذكر مطلق ما جاءت به الرسل أو خصوص الكتب السماويه و ينطبق بحسب المورد على القرآن.

و قوله: وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا من كلامه تعالى و يمكن أن يكون تتمه الكلام الظالم ذكره تأسفاً و تحسرا.

و الخذلان بضم الخاء ترك من يظن به أن ينصر نصرته، و خذلانه أنه يعد الإنسان أن ينصره على كل مكروه إن تمسك بالأسباب و نسى ربه فلما تقطعت الأسباب بظهور القهر الإلهى يوم الموت جزئياً و يوم القيامة كلياً خذله و سلمه الى الشقاء، قال تعالى: كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكَ (الحشر ١٦)، و قال فيما يحكى عن الشيطان يوم القيامة: مَا أَنَا بِمُضْرِحِكُمْ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُضْرِحِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ (إبراهيم ٢٢).

و فى هذه الآيات الثلاث إشعار بل دلالة على أن السبب العمده فى ضلال أهل الضلال و لايه أهل الأهواء و أولياء الشيطان، و المشاهده يؤيد ذلك.

قوله تعالى: وَ قَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِى اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا المراد بالرسول محمد صلى الله عليه و آله و سلم بقرينه ذكر القرآن، و عبر عنه بالرسول تسجيلاً لرسالته و إرغاماً لأولئك القادحين فى رسالته و كتابه و الهجر بالفتح فالسكون الترك.

و ظاهر السياق أن قوله: «وَقَالَ الرَّسُولُ» الخ؛ معطوف على «يَعِصُ الظَّالِمُ» و القول مما يقوله الرسول يوم القيامة لربه على طريق البث و الشكوى، و على هذا فالتعبير بالماضى بعنايه تحقق الوقوع، و المراد بالقوم عامه العرب بل عامه الامه باعتبار كفرتهم و عصاتهم.

و أما كونه استئنافاً أو عطفاً على قوله: «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا» و كون ما وقع بينهما اعتراضاً فبعيد من السياق، و عليه فلفظه قال على ظاهر معناها و المراد بالقوم هم القادحون فى رسالته الطاعنون فى كتابه.

و نظيره فى الضعف قول بعضهم: إن المهجور من الهجر بمعنى: الهديان. و هو ظاهر.

قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَ كَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَ نَصِيرًا أَي كَمَا جَعَلْنَا هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمِينَ عَدُوًّا لَكَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنْهُمْ أَي هَذِهِ مِنْ سُنَّتِنَا الْجَارِيَةِ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَ أَمَّهُمْ فَلَا يَسُوءُ نِكَ مَا تَلْقَى مِنْ عِدَاوَتِهِمْ وَ لَا يَشْقِنَ عَلَيْكَ ذَلِكَ، فففيه تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم.

و معنى: جعل العدو من المجرمين أن الله جازاهم على معاصيهم بالختم على قلوبهم فعاندوا الحق و أبغضوا الداعى اليه و هو النبي فلعداوتهم نسبه اليه تعالى المجازاه.

و قوله: «وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَ نَصِيرًا» معناه-على ما يعطيه السياق-لا يهولنك أمر عنادهم و عداوتهم و لا تخافنهم على اهتداء الناس و نفوذ دينك فيهم و بينهم فحسبك ربك كفى به هادياً يهدى من استحق من الناس الهدايه و استعد له و إن كفر هؤلاء و عتوا فليس اهتداء الناس منوطاً باهتدائهم و كفى به نصيراً ينصرك و ينصر دينك الذى بعثك به و إن هجره هؤلاء و لم ينصروك و لا دينك فالجمله مسوقه لإظهار الاستغناء عنهم.

فظهر أن صدر الآيه مسوق لتسلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و ذيله للاستغناء عن المجرمين من قومه، و فى قوله: «وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ» حيث أخذ بصفه الربوبيه: مضافه الى ضمير الخطاب و لم يقل: و كفى

[سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٣٢ الى ٤٠]

إشارة

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نَزَّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَ لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَ أَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ جَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَ زِيْرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَ جَعَلْنَا هُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَ عَادًا وَ ثَمُودَ وَ أَصْحَابَ الرَّسِّ وَ قُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَ كَلَّا ضَرْبًا لَهُ الْأَمْثَالُ وَ كَلَّا تَبَرْنَا تَنْبِيرًا (٣٩) وَ لَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا فَلَمْ يَكُونُوا يَرُونَهَا بَلْ كَانُوا لِا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠)

بيان:

قوله تعالى: وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نَزَّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً

ص: ٥٠٢

المراد بهم مشركو العرب الرادون لدعوه القرآن كما فى قدحهم السابق المحكى بقوله: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ» الخ.

وقوله: لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْإِنْزَالَ وَالتَّنْزِيلَ إِنَّمَا يَفْتَرِقَانِ فِي أَنَّ الْإِنْزَالَ يَفِيدُ الدَّفْعَةَ وَالتَّنْزِيلَ يَفِيدُ التَّنْزِيلَ لَكِن ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّ التَّنْزِيلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَنْسَلَخٌ عَنْ مَعْنَى التَّنْزِيلِ لِأَدَائِهِ إِلَى التَّدْفِيعِ إِذْ يَكُونُ الْمَعْنَى عَلَى تَقْدِيرِ إِرَادَةِ التَّنْزِيلِ:

لو لا- فَرَّقَ الْقُرْآنَ جَمْلَةً وَاحِدَةً وَ التَّفْرِيقَ يَنَافَى الْجَمْلِيَّةَ بَلِ الْمَعْنَى هَلَّا- أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَيْهِ دَفْعَةً غَيْرَ مَفْرُقٍ كَمَا أَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ الزَّبُورَ.

قوله تعالى: كَذَلِكَ لِنُبَيِّنَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا وَ لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيرًا الثَّبَاتُ ضِدُّ الزَّوَالِ، وَ الْإِثْبَاتُ وَ التَّثْبِيتُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ وَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا بِالْدَّفْعَةِ وَ التَّنْزِيلِ، وَ الْفُؤَادُ الْقَلْبُ وَ الْمُرَادُ بِهِ كَمَا مَرَّ غَيْرُ مَرَّةٍ الْأَمْرَ الْمُدْرِكُ مِنَ الْإِنْسَانِ وَ هُوَ نَفْسُهُ، وَ التَّرْتِيلُ- كَمَا قَالُوا- التَّرْسِيلُ وَ الْإِتْيَانُ بِالشَّيْءِ عَقِيبَ الشَّيْءِ، وَ التَّفْسِيرُ- كَمَا قَالَ الرَّاعِبُ- الْمَبَالِغَةُ فِي إِظْهَارِ الْمَعْنَى الْمَعْقُولِ كَمَا أَنَّ الْفَسْرَ بِالْفَتْحِ فَالْفَتْحُ إِظْهَارُ الْمَعْنَى الْمَعْقُولِ.

وَ ظَاهِرُ السِّيَاقِ أَنَّ قَوْلَهُ: «كَذَلِكَ» مُتَعَلِّقٌ بِفِعْلِ مُقَدَّرٍ يَعْلَلُهُ قَوْلُهُ: «لِنُبَيِّنَ» وَ يَعْطِفُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «وَ رَتَّلْنَاهُ» وَ التَّقْدِيرُ نَزَّلْنَاهُ أَى الْقُرْآنَ كَذَلِكَ أَى نَجْمًا مُتَفَرِّقَةً لَا جَمْلَةً وَاحِدَةً لِنُبَيِّنَ بِهِ فُؤَادَكَ، وَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: «إِنَّ «كَذَلِكَ» مِنْ تَمَامِ قَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا سَخِيفٌ جِدًّا.

فَقَوْلُهُ: كَذَلِكَ لِنُبَيِّنَ بِهِ فُؤَادَكَ بَيَانٌ تَامٌ لِسَبَبِ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ نَجْمًا مُتَفَرِّقَةً وَ بَيَانٌ ذَلِكَ أَنَّ تَعْلِيمَ عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ وَ خَاصَّةً مَا كَانَ مُرْتَبِطًا بِالْعَمَلِ بِإِلْقَاءِ الْمَعْلَمِ مَسْأَلَةً وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ إِلَى الْمُتَعَلِّمِ حَتَّى تَتِمَّ فِصُولُهُ وَ أَبْوَابُهُ إِنَّمَا يَفِيدُ حَصُولًا مَا لَصُورَ مَسْأَلَةٍ عِنْدَ الْمُتَعَلِّمِ وَ كَوْنُهَا مَذْخُورَةٌ بِوَجْهِ مَا عِنْدَهُ يَرَاغِبُهَا عِنْدَ مَسِيَسِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، وَ أَمَّا اسْتِقْرَارُهَا فِي النَّفْسِ بِحَيْثُ تَنْمُو النَّفْسُ عَلَيْهَا وَ تَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا آثَارُهَا الْمَطْلُوبَةُ مِنْهَا فَيَحْتَاجُ إِلَى مَسِيَسِ الْحَاجَةِ

و الإشراف على العمل و حضور وقته.

ففرق بين أن يلقي الطبيب المعلم مثلاً مسأله طيبه الى متعلم الطب إلقاء فحسب و بين أن يلقيها اليه و عنده مريض مبتلى بما يبحث عنه من الداء و هو يعالجه فيطابق بين ما يقول و ما يفعل.

و من هنا يظهر أن إلقاء أى نظره علميه عند ميسس الحاجه و حضور وقت العمل الى من يراد تعليمه و تربيته أثبت فى النفس و أوقع فى القلب و أشد استقراراً و أكمل رسوخاً فى الذهن و خاصه فى المعارف التى تهدى إليها الفطره فإن الفطره إنما تستعد للقبول و تنهياً للإذعان إذا أحست بالحاجه.

فتبين بما تقدم أن قوله: «كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ - الى قوله- وَ أَحْسَنَ تَفْسِيرًا» جواب عن قولهم: «لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً» بوجهين:

أحدهما: بيان السبب الراجع الى النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و هو تثبيت فؤاده بالتنزيل التدريجى.

و ثانيهما: بيان السبب الراجع الى الناس و هو بيان الحق فيما يوردون على النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم من المثل و الوصف الباطل، و التفسير بأحسن الوجوه فيما يوردون عليه من الحق المعير عن وجهه المحرف عن موضعه.

و يلحق بهذا الجواب قوله تلواً: «الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَ أَضَلُّ سَبِيلًا» فهو كالمنعم للجواب على ما سيجىء بيانه.

و تبين أيضاً أن الآيات الثلاث مسوقه جميعاً لغرض واحد و هو الجواب عما أوردوه من القدح فى القرآن هذا، و المفسرون فرقوا بين مضامين الآيات الثلاث فجعلوا قوله: «كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ» جواباً عن قولهم: «لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً»، و قوله: «وَ رَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا» خبراً عن ترسيه فى النزول او فى القراءه على النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم من غير ارتباط بما تقدمه.

قوله تعالى: «الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا»

وَ أَضَلَّ سَبِيلًا اتِّصَالَ الْآيَةِ بِمَا قَبْلَهَا مِنَ الْآيَاتِ عَلَى مَا لَهَا مِنَ السِّيَاقِ يُعْطَى أَنْ هَؤُلَاءِ الْقَادِحِينَ فِي الْقُرْآنِ اسْتَنْجَبُوا مِنْ قَدْحِهِمْ مَا لَا يَلِيقُ بِمَقَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فَذَكَرُوهُ وَاصْفَيْنَ لَهُ بِسُوءِ الْمَكَانِهِ وَ ضَلَالِ السَّبِيلِ فَلَمْ يَذْكُرْهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ضَمَنِ مَا حَكَى مِنْ قَوْلِهِمْ فِي الْقُرْآنِ صَوْنًا لِمَقَامِ النَّبِيِّ أَنْ يَذْكَرَ بِسُوءٍ، وَ إِنَّمَا أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ فِي مَا أُورِدَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ بِطَرِيقِ التَّكْنِيهِ.

فَقَوْلُهُ: الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ كُنَايَهُ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْقَادِحِينَ فِي الْقُرْآنِ الْوَاصِفِينَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بِمَا وَصَفُوا، وَ الْكُنَايَةَ أَبْلَغُ مِنَ التَّصْرِيحِ.

فَالْمُرَادُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَادِحِينَ فِي الْقُرْآنِ الْوَاصِفِينَ لَكَ هُمْ شَرُّ مَكَانًا وَ أَضَلُّ سَبِيلًا لَا أَنْتَ فَالْكَلَامُ مَبْنَى عَلَى قَصْرِ الْقَلْبِ، وَ لَفْظَتَا «شَرٌّ» وَ «أَضَلُّ» مَنْسَلَخَتَانِ عَنِ مَعْنَى التَّفْضِيلِ أَوْ مَفِيدَتَانِ عَلَى التَّهْكَامِ وَ نَحْوِهِ.

وَ قَدْ كُنِيَ عَنْهُمْ بِالْمَحْشُورِينَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ وَ هُوَ وَصْفٌ مِنْ أَضْلِهِ اللَّهُ مِنَ الْمُتَعَتِّينَ الْمُنْكَرِينَ لِلْمَعَادِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يَضَلِّمْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَ بُكْمًا وَ صُمًّا مَاؤَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا الْخ (الإسراء ٩٨).

فَفِي هَذِهِ التَّكْنِيهِ مِضَافًا إِلَى كَوْنِهَا أَبْلَغُ، تَهْدِيدٌ لَهُمْ بِشَرِّ الْمَكَانِ وَ أَلِيمِ الْعَذَابِ وَ أَيْضًا هِيَ فِي مَعْنَى الْاِحْتِجَاجِ عَلَى ضَلَالِهِمْ إِذْ لَا ضَلَالَةَ أَضَلُّ مِنْ أَنْ يَسِيرَ الْإِنْسَانُ عَلَى وَجْهِهِ وَ هُوَ لَا يَشْعُرُ بِمَا فِي قَدَامِهِ، وَ هَذَا الضَّلَالَةُ الَّتِي حَشَرَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ مِمَّا مِثْلُ الضَّلَالَةِ الَّتِي كَانَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا فَكَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الضَّالُّونَ فَإِنَّهُمْ مَحْشُورُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ، وَ لَا يَبْتَلَى بِذَلِكَ إِلَّا مَنْ كَانَ ضَالًّا فِي الدُّنْيَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ جَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا اسْتَشْهَادًا عَلَى رَسُولِهِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ نَزُولِ الْكِتَابِ عَلَيْهِ قَبَالَ تَكْذِيبِ الْكُفَّارِ بِهِ وَ بَكْتَابِهِ بِرَسُولِهِ

موسى و إيتائه الكتاب و إشراك هارون فى أمره للتخلص الى ذكر تعذيب آل فرعون و إهلاكهم، و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: فَقُلْنَا اذْهَبْ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَاهُمْ تَدْمِيرًا قَالَ فى مجمع البيان: التدمير الإهلاك لأمر عجيب، و منه التنكيل يقال: دمر على فلان إذا هجم عليه بالمكروه. انتهى.

و المراد بالآيات آيات الآفاق و الأنفس الداله على التوحيد التى كذبوا بها، و ذكر أبو السعود فى تفسيره أن الآيات هى المعجزات التسع المفصّلات الظاهره على يدى موسى عليه السلام و لم يوصف القوم لهما عند إرسالهما إليهم بهذا الوصف ضروره تأخر تكذيب الآيات عن إظهار المتأخر عن ذهابهما المتأخر عن الأمر به بل إنما وصفوا بذلك عند الحكايه لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بيانا لعله استحقاقهم لما يحكى بعده من التدمير أى فذهب إليهم فأرياهم آياتنا كلها فكذبوها تكذيبا مستمرا فدمرناهم. انتهى. و هو حسن لو تعين حمل الآيات على آيات موسى عليه السلام.

و وجه اتصال الآيتين بما قبلهما هو تهديد القادحين فى كتاب النبى صلى الله عليه و آله و سلم و رسالته بتنظير الأمر بأمر موسى حيث آتاه الله الكتاب و أرسله مع أخيه الى قوم فرعون فكذبوه فدمرهم تدميرا.

و لهذه النكته قدّم ذكر إيتاء الكتاب على إرسالهما الى القوم و تدميرهم مع أن التوراه إنما نزلت بعد غرق فرعون و جنوده فلم يكن الغرض من القصه إلا الإشاره الى إيتاء الكتاب و رساله لموسى و تدمير القوم بالتكذيب.

قوله تعالى: وَقَوْمِ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَعْرَفْنَاهُمْ وَ جَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا الظاهر أن قوله: «قَوْمِ نُوحٍ» منصوب بفعل مقدّر يدل عليه قوله: «أَعْرَفْنَاهُمْ» .

و المراد بتكذيبهم الرسل تكذيبهم نوحا فإن تكذيب الواحد من رسل الله تكذيب للجميع لاتفاقهم على كلمه الحق.على أن هؤلاء الامم كانوا أقواما و ثنين و هم ينكرون النبوه و يكذبون الرساله من رأس.

و قوله: وَ جَعَلْنَاَهُمُ لِلنَّاسِ آيَةً أَي لِمَنْ بَقِيَ بَعْدَهُمْ مِنْ ذُرَارِيهِمْ، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: وَ عَادًا وَ ثَمُودَ وَ أَصْحَابَ الرَّسِّ وَ قُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا قَالَ فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ:الرِس البئر التي لم تطو ذكروا أنهم كانوا قوما بعد ثمود نازلين على بئر أرسل الله اليهم رسولا فكذبوا به فأهلكهم الله، و قيل هو اسم نهر كانوا على شاطئه و فى روايات الشيعة ما يؤيد ذلك.

و قوله: وَ عَادًا الْخ؛ معطوف على «قَوْمِ نُوحٍ» و التقدير: و دمرنا أو و أهلكنا عادا و ثمود و أصحاب الرس، الخ.

و قوله: وَ قُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا القرن أهل عصر واحد و ربما يطلق على نفس العصر و الإشاره بذلك الى من مر ذكرهم من الأقسام أولهم قوم نوح و آخرهم أصحاب الرس او قوم فرعون، و المعنى و دمرنا او و أهلكنا عادا و هم قوم هود، و ثمود و هم قوم صالح، و أصحاب الرس، و قرونا كثيرا متخللين بين هؤلاء الذين ذكرناهم و هم قوم نوح فمن بعدهم.

قوله تعالى: وَ كَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَ كَلَّا تَبَرْنَا تَبِيرًا كَلَّا مَنْصُوبٌ بِفَعْلٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ» فَإِنْ ضَرَبَ الْأَمْثَالَ فِي مَعْنَى التَّذْكِيرِ وَ الْمَوْعِظَةِ وَ الْإِنْذَارِ، وَ التَّبِيرِ التَّفْتِيتِ، وَ مَعْنَى الْآيَةِ.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا أَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَتَّجِرُونَ نُشُورًا هذه القرية هي قرية قوم لوط أمطر الله عليهم حجاره من سجيل و قد مر تفصيل قصصهم فى السور السابقه.

و قوله: «أَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا» استفهام توبيخى فإن القرية كانت على طريق أهل الحجاز

وقوله: **يَلَّ كَانُوا لَا يَزُجُونَ نُشُوراً** أى لا يخافون معادا أو كانوا آيسين من المعاد، وهذا كقوله تعالى فيما تقدم: **«بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ»** والمراد به أن المنشأ الأصل لتكذيبهم بالكتاب والرسالة وعدم اتعاضهم بهذه المواعظ الشافية وعدم اعتبارهم بما يعتبر به المعبرون أنهم منكرون للمعاد فلا ينجح فيهم دعوته ولا تقع في قلوبهم حكمه ولا مواعظه (١).

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٤١ الى ٦٢]

إشارة

وَ إِذَا رَأَوْكَ إِِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَمْ هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَمْ رَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا (٤٣) أَمْ تَحْسِبُ أَنْ أَكْثَرَهُمْ يَشْعُرُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤) أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَ النَّوْمَ سُبَاتًا وَ جَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَ نُشْفِقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَ أَنْاسِيًّا كَثِيرًا (٤٩) وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ لِيُذَكِّرُوا فَابْيَ أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كَفُورًا (٥٠) وَ لَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تَطْعَمُ الْكَافِرِينَ وَ جَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) وَ هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُورًا وَ هَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣) وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَ صِهْرًا وَ كَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَ لَا يَضُرُّهُمْ وَ كَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥) وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَهِي سَبِيلًا (٥٧) وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَ كَفَىٰ بِهِ بَدُنُوبٍ عِبَادَةً خَيْرًا (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مِمَّا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسِئَلُ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَ مَا الرَّحْمَنُ أَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَ زَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠) تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَ جَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَ قَمَرًا مُنِيرًا (٦١) وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)

قوله تعالى: وَإِذَا رَأَوْكَ إِتَّخَذُونَكَ إِهْزُؤًا هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ضَمِيرَ الْجَمْعِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا السَّابِقَ ذَكَرَهُمْ، وَ الْهَزْؤُ الْاسْتِهْزَاءُ وَ السَّخْرِيَه فَالْمَصْدَرُ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ، وَ الْمَعْنَى: وَ إِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا مَهْزُؤًا بِهِ.

و قوله: أ هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا بَيَانٌ لاسْتِهْزَائِهِمْ أَى يَقُولُونَ كَذَا اسْتِهْزَاءً بِكَ.

قوله تعالى: إِنَّ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنَّ صَبَرْنَا عَلَيْهَا الْخ؛ «إِنَّ» مَخْفَفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَ الْإِضْلَالُ كَأَنَّهُ مُضْمَنٌ مَعْنَى الصَّرْفِ وَ لَذَا عَدَى بَعْنٌ، وَ جَوَابٌ لَوْلَا مَحذُوفٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا تَقَدَّمَ، وَ الْمَعْنَى أَنَّهُ قَرِبَ أَنْ يَصْرِفَنَا عَنْ آلِهَتِنَا مُضِلًّا لَنَا لَوْلَا أَنَّ صَبَرْنَا عَلَى آلِهَتِنَا أَى عَلَى عِبَادَتِهَا لَصْرِفْنَا عَنْهَا.

و قوله: «وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا» تَوْعِدٌ وَ تَهْدِيدٌ مِنْهُ تَعَالَى لَهُمْ وَ تَنْبِيهُ أَنَّهُمْ عَلَى غَفْلَةٍ مِمَّا سَيَسْتَقْبِلُهُمْ مِنْ مَعَايِنَةِ الْعَذَابِ وَ الْيَقِينِ بِالضَّلَالِ وَ الْغَى.

قوله تعالى: أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا الْهُوَى

ميل النفس إلى الشهوة من غير تعديله بالعقل، والمراد باتخاذ الهوى إلها طاعته واتباعه من دون الله وقد أكثر الله سبحانه في كلامه ذم اتباع الهوى وعد طاعه الشيء عباده له في قوله:

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي (يس ٦١).

وقوله: أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا استفهام إنكارى أى لست أنت وكيلا عليه قائما على نفسه و باموره حتى تهديه الى سبيل الرشده فليس فى مقدرتك ذلك وقد أضله الله و قطع عنه أسباب الهدايه و فى معناه قوله: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ (القصص ٥٦)، و قوله: وَمَا أَنْتَ بِمُشِيعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (فاطر ٢٢)، و الآيه كالأجمال للتفصيل الذى فى قوله: أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ (الجاثية ٢٣).

و يظهر مما تقدم من المعنى أن قوله: «اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ» على نظمه الطبيعى أى إن «اتَّخَذَ» فعل متعد إلى مفعولين و «إِلَهَهُ» مفعوله الأول و «هَوَاهُ» مفعول ثان له فهذا هو الذى يلائم السياق و ذلك أن الكلام حول شرك المشركين و عدولهم عن عباده الله إلى عباده الأصنام، و إعراضهم عن طاعه الحق التى هى طاعه الله إلى طاعه الهوى الذى يزين لهم الشرك، و هؤلاء يسلمون أن لهم إلها مطاعا و قد أصابوا فى ذلك، لكنهم يرون أن هذا المطاع هو الهوى فيتخذونه مطاعا بدلا من أن يتخذوا الحق مطاعا فقد وضعوا الهوى موضع الحق لا أنهم وضعوا المطاع موضع غيره فافهم.

قوله تعالى: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمِعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا أم منقطعه، و الحسبان بمعنى الظن و ضمائر الجمع راجعه إلى الموصول فى الآيه السابقه باعتبار المعنى. و الترديد بين السمع و العقل من جهه أن وسيله الإنسان إلى سعادته الحياه أحد أمرين إما أن يستقل بالتعقل فيعقل الحق فيتبعه أو يرجع إلى قول من يعقله

و ينصحه فيتبعه ان لم يستقل بالتعقل فالطريق الى الرشد سمع أو عقل فالآيه فى معنى قوله:

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (الملك ١٠).

و المعنى: بل أ تظن أن أكثرهم لهم استعداد استماع الحق ليتبعه أو استعداد عقل الحق ليتبعه فترجو اهتداءهم فتبالغ فى دعوتهم.

و قوله: إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَيَانٌ لِلجمله السابقه فإنه فى معنى: أن أكثرهم لا يسمعون و لا يعقلون فتنبه أنهم ليسوا إلا كالأنعام و البهائم فى أنها لا تعقل و لا تسمع إلا اللفظ دون المعنى.

و قوله: يَلُ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا- أى من الأنعام و ذلك أن الأنعام لا- تقتحم على ما يضرها و هؤلاء يرجحون ما يضرهم على ما ينفعهم، و أيضا الأنعام إن ضلت عن سبيل الحق فإنها لم تجهز فى خلقها بما يهديها اليه و هؤلاء مجهزون و قد ضلوا.

قوله تعالى: أَلَمْ تَرِ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَ لَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاَهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا هَاتَانِ الآيتان و ما بعدهما إلى تمام تسع آيات فى معنى التنظير لما تضمنته الآيتان السابقتان بل الآيات الأربع السابقه من أن الله سبحانه جعل رساله الرسول لهدايه الناس إلى سبيل الرشد و إنقاذهم من الضلال فيهدى بها بعضهم ممن شاء الله و أما غيرهم ممن اتخذ إلهه هواه فصار لا يسمع و لا يعقل فليس فى وسع أحد أن يهديهم من بعد الله.

فهى تبين أن ليس هذا بسدع من الله سبحانه ففى عجائب صنعه و بينات آيات نظائر لذلك ففعله متشابه و هو على صراط مستقيم، و ذلك كمد الظل و جعل الشمس دليلا عليه تنسخه، و كجعل الليل لباسا و النوم سباتا و النهار نشورا، و كجعل الرياح بشرا و إنزال المطر و إحياء الأرض الميتة و إرواء الأنعام و الأناسى به.

ثم ما مثل المؤمن و الكافر فى اهتداء هذا و ضلال ذاك- و هم جميعا عباد الله يعيشون فى

أرض واحده-إلا- كمثل الماءين العذب الفرات و الملح الاجاج مرجهما الله تعالى لكن جعل بينهما برزخا و حجرا محجورا، و كالماء خلق الله سبحانه منه بشرا ثم جعله نسبا و صهرا فاختلف بذلك الموالي و كان ربك قديرا.

هذا ما يهدى اليه التدبر فى مضامين الآيات و خصوصيات نظمها، و به يظهر وجه اتصالها بما تقدمها، و أما ما ذكره من أن لآيات مسوقه لبيان بعض أدله التوحيد إثر بيان جهاله المعرضين عنها و ضلالهم فالسياق لا يساعد عليه و سنزيد ذلك إيضا.

فقوله: أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَ لَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا تُنظِرُ- كما تقدمت الإشارة اليه- لشمول الجهل و الضلال للناس و رفعه تعالى ذلك بالرسالة و الدعوه الحقه كما يشاء و لازم ذلك أن يكون المراد بمد الظل ما يعرض الظل الحادث بعد الزوال من التمدد شيئا فشيئا من المغرب إلى المشرق حسب اقتراب الشمس من الاقح حتى إذا غربت كانت فيه نهايه الامتداء و هو الليل، و هو فى جميع أحواله متحرك و لو شاء الله لجعله ساكنا.

و قوله: «ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا» و الدليل هى الشمس من حيث دلالتها بنورها على أن هناك ظلا و بانبساطه شيئا فشيئا على تمدد الظل شيئا فشيئا و لولاها لم يتنبه لوجود الظل فإن السبب العام لتمييز الإنسان بعض المعانى من بعض تحوّل الأحوال المختلفه عليه من فقدان و وجدان فإذا فقد شيئا كان يجده تنبّه لوجوده و اذا وجد ما كان يفقده تنبّه لعدمه، و أما الأمر الثابت الذى لا تتحول عليه الحال فليس الى تصوّره بالتنبه سبيل.

و قوله: «ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا» أى أزلنا الظل بإشراق الشمس و ارتفاعها شيئا فشيئا حتى ينسخ بالكلية، و فى التعبير عن الإزاله و النسخ بالقبض، و كونه اليه، و توصيفه باليسير دلالة على كمال القدره الإلهيه و أنها لا يشق عليها فعل، و أن فقدان الأشياء بعد وجودها ليس بالانعدام و البطلان بل بالرجوع اليه تعالى.

و فى قوله: «ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا رَجُوعًا إِلَى السِّيَاقِ»

السابق، و في ذلك مع ذلك من إظهار العظمة و الدلاله على الكبرياء ما لا يخفى.

و الكلام فى قوله الآتى: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ» الخ؛ و قوله: «وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ» و قوله: «وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ» و قوله: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا» ، كالكلام فى قوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ» و الكلام فى قوله «وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» الخ؛ و قوله:

«وَلَقَدْ صَرَّفْنَا بَيْنَهُمْ» ، و قوله: «وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا» ، كالكلام فى قوله: «ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ» .

قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَ النَّوْمَ سُبَاتًا وَ جَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا كون الليل لباسا إنما هو ستره الإنسان بغشيان الظلمه كما يستر اللباس لابسه.

و قوله: وَ النَّوْمَ سُبَاتًا أى قطعاً للعمل، و قوله: «وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا» أى جعل فيه الانتشار و طلب الرزق على ما ذكره الراغب فى معنى اللفظتين.

و حال ستره تعالى الناس بلباس الليل و قطعهم به عن العمل و الحركة ثم نشرهم للعمل و السعى بإظهار النهار و بسط النور كحال مد الظل ثم جعل الشمس عليه دليلاً و قبض الظل بها اليه.

قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا البشر بالضم فالسكون مخفف بشر بضمين جمع بشور بمعنى مبشر أى هو الذى أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته و هى المطر.

و قوله: وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا أى من جهه العلو و هى جو الأرض ماء طهوراً أى بالغاً فى طهارته فهو طاهر فى نفسه مطهر لغيره يزيل الأوساخ و يذهب بالأرجاس و الأحداث فالطهور على ما قيل صيغه مبالغه-.

قوله تعالى: لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَ نُشَقِّيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَ أَنْاسِيَ كَثِيرًا، البلده معروفه قيل: و أريد بها المكان كما فى قوله: وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ لِبَاتِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ (الأعراف ٥٨)، و لذا اتصف بالميت و هو مذكر و المكان الميت ما لا نبات فيه و إحياءه

إنباته، و الأناسى جمع إنسان، و معنى الآيه ظاهر.

و حال شمول الموت للأرض و الحاجه الى الشرب و الرى للأنعام و الأناسى ثم إنزاله تعالى من السماء ماء طهورا ليحيى به بلده ميتا و يسقيه أنعاما و أناسى كثيرا من خلقه كحال مد الظل ثم الدلاله عليه بالشمس و نسخه بها كما تقدم.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ صَرَّفْنَاُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ **إِلَّا كُفُّوا** ظاهراً اتصال الآيه بما قبلها أن ضمير «صَرَّفْنَاُ» للماء و تصريفه بينهم صرفه عن قوم الى غيرهم تاره و عن غيرهم اليهم أخرى فلا- يدوم فى نزوله على قوم فيهلكوا و لا- ينقطع عن قوم دائما فيهلكوا بل يدور بينهم حتى ينال كل نصيبه بحسب المصلحه، و قيل: المراد بالتصريف التحويل من مكان الى مكان.**

و قوله: **لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ **إِلَّا كُفُّوا** تعليلاً للتصريف أى و أقسم لقد صَرَّفْنَا الماء بتقسيمه بينهم ليتذكروا فيشكروا فأبى و امتنع أكثر الناس إلا كفران النعمه.**

قوله تعالى: **وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا** أى لو أردنا أن نبعث فى كل قريه نذيرا ينذرهم و رسولا يبلغهم رسالاتنا لبعثنا و لكن بعثناك الى القرى كلها نذيرا و رسولا لعظيم منزلتك عندنا. هكذا فسرت الآيه و لا تخلو الآيه التاليه من تأييد لذلك، و هذا المعنى لما وجهنا به اتصال الآيات أنسب.

أو أن المراد أننا قادرون على أن نبعث فى كل قريه رسولا و إنما اخترناك لمصلحه فى اختيارك.

قوله تعالى: **فَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَ جَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا** متفرع على معنى الآيه السابقه، و ضمير «به» للقرآن بشهادته سياق الآيات، و المجاهده و الجهاد بذل الجهد و الطاقه فى مدافعه العدو و إذ كان بالقرآن فالمراد تلاوته عليهم و بيان حقائقه لهم و إتمام حججه عليهم.

فمحصل مضمون الآيه أنه إذا كان مثل رساله الإلهيه فى رفع حجاب الجهل و الغفله المضروب على قلوب الناس يظهار الحق لهم و إتمام الحجه عليهم مثل الشمس فى الدلاله على الظل الممدود و نسخه بأمر الله، و مثل النهار بالنسبه الى الليل و سبته، و مثل المطر بالنسبه الى الأرض الميتة و الأنعام و الأناسى الظامئه، و قد بعثناك لتكون نذيرا لأهل القرى فلا تطع الكافرين لأن طاعتهم تبطل هذا الناموس العام المضروب للهدايه. و ابذل مبلغ جهدك و وسعك فى تبليغ رسالتك و إتمام حجتك بالقرآن المشتمل على الدعوه الحقه و جاهدهم به مجاهده كبيره.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُورَاتٌ وَ هَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَ حِجْرًا مَحْجُوراً المَرَجُ الخلط و منه أمر مريج أى مختلط، و العذب من الماء ما طاب طعمه، و الفرات منه ما كثر عذوبته، و الملح هو الماء المتغير طعمه.

و الاجاج شديد الملوحة، و البرزخ هو الحد الحاجز بين شيئين، و حجرا محجورا أى حراما محرما أن يختلط أحد الماءين بالآخر.

و قوله: وَ جَعَلَ بَيْنَهُمَا السَّخْرَ؛ قرينه على أن المراد بمرج البحرين إرسال الماءين متقارنين لا الخلط بمعنى ضرب الأجزاء بعضها ببعض.

و الكلام معطوف على ما عطف عليه قوله: «وَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ» السخ؛ و فيه تنظير لامر الرساله من حيث تأديتها الى تمييز المؤمن من الكافر مع كون الفريقين يعيشان على أرض واحده مختلطين و هما مع ذلك غير متمازجين كما تقدمت الإشارة اليه فى أول الآيات التسع.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَ صِهْرًا وَ كَانَ رُبُّكَ قَدِيرًا الصهر على ما نقل عن الخليل الختن و أهل بيت المرأه فالنسب هو التحرم من جهه الرجل و الصهر هو التحرم من جهه المرأه- كما قيل- و يؤيده المقابله بين النسب

و المعنى: و هو الذى خلق من النطفه- و هى ماء واحد- بشرا فقسّمه قسمين ذا نسب و ذا صهر يعنى الرجل و المرأه و هذا تنظير آخر يفيد ما تفيد الآيه السابقه أن لله سبحانه أن يحفظ الكثره فى عين الوحده و التفرق فى عين الاتحاد و هكذا يحفظ اختلاف النفوس و الآراء بالإيمان و الكفر مع اتحاد المجتمع البشرى بما بعث الله الرسل لكشف حجاب الضلال الذى من شأنه غشيانه لو لا الدعوه الحقه.

و قوله: وَ كَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا فى إضافه الرب الى ضمير الخطاب من النكته نظير ما تقدم فى قوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ» .

قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَ كَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا معطوف على قوله: «وَ إِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا» .

و الظهير بمعنى المظاهر على ما قيل و المظاهره المعاونه.

و المعنى: و يعبدون- هؤلاء الكفار المشركون- من دون الله ما لا ينفعهم بإيصال الخير على تقدير العباده و لا يضرهم بإيصال الشر على تقدير ترك العباده و كان الكافر معاونا للشيطان على ربه.

و كون هؤلاء المعبودين و هم الأصنام ظاهرا لا ينفعون و لا يضررون لا ينافى كون عبادتهم مضره فلا يستلزم نفى الضرر عنهم أنفسهم حيث لا يقدرن على شىء نفى الضرر عن عبادتهم المضره المؤديه للإنسان الى شقاء لازم و عذاب دائم.

قوله تعالى: ﴿وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا أَى لم نجعل فى رسالتك إلا التبشير و الإنذار و ليس لك وراء ذلك من الأمر شىء فلا عليك إن كانوا معاندين لربهم مظاهرين لعدوه عليه فليسوا بمعجزين لله و ما يمكرون إلا بأنفسهم، هذا هو الذى يعطيه السياق.

و عليه فقوله: ﴿وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا هذا الفصل من الكلام نظير

قوله: «أفأنت تكون عليهم وكيلا» في الفصل السابق.

و منه يظهر أن أخذ بعضهم الآيه تسليه منه تعالى لنبيه صلى الله عليه و آله و سلم حيث قال و المراد ما أرسلناك إلا مبشرا للمؤمنين و نذيرا للكافرين فلا تحزن على عدم إيمانهم. غير سديد.

قوله تعالى: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَيَّ رِبًّا سَبِيلًا ضَمِير «عَلَيْهِ» للقرآن بما أن تلاوته عليهم تبلغ للرساله كما قال تعالى: إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَيَّ رِبًّا سَبِيلًا (المزمل ١٩/١٩)، و قال: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (ص ٨٧/).

و قوله: إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَيَّ رِبًّا سَبِيلًا- استثناء منقطع في معنى المتصل فإنه في معنى إلا أن يتخذ الى ربه سبيلا من شاء ذلك على حد قوله تعالى: يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَ لَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (الشعراء ٨٩/٨٩)، أى إلا أن يأتى الله بقلب سليم من أتاه به.

ففيه وضع الفاعل و هو من اتخذ السبيل موضع فعله و هو اتخاذ السبيل شكرا له ففي الكلام عدّ اتخاذهم سبيلا الى الله سبحانه باستجابته الدعوه أجرا لنفسه ففيه تلويح الى نهايه استغنائه عن أجر مالى أو جاهى منهم، و أنه لا- يريد منهم وراء استجابتهم للدعوه و اتباعهم للحق شيئا آخر من مال أو جاه أو أى أجر مفروض فليطوبوا نفسا و لا يتهموه فى نصيحته.

و قد علّق اتخاذ السبيل على مشيتهم للدلاله على حرمتهم الكامله عن قبله صلى الله عليه و آله فلا إكراه و لا إجبار إذ لا وظيفه له عن قبل ربه وراء التبشير و الإنذار و ليس عليهم بوكيل بل الامر الى الله يحكم فيهم ما يشاء.

فقوله: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ الْخِزْيَانَةَ؛ بعد ما سجل لنبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن ليس له إلا الرساله بالتبشير و الإنذار يأمره أن يبلغهم أن لا بغيه له فى دعوتهم إلا أن يستجيبوا له و يتخذوا الى ربهم سبيلا من غير غرض زائد من الاجر أيا ما

كان، و أن لهم الخيره فى أمرهم من غير أى إجبار و إكراه فهم و الدعوه إن شاءوا فليؤمنوا و إن شاءوا فليكفروا.

هذا ما يرجع اليه صلى الله عليه و آله و سلم و هو تبليغ الرساله فحسب من غير طمع فى أجر و لا تحميل عليهم بإكراه أو انتقام منهم بنكال، و أما ما وراء ذلك فهو لله فليرجعه اليه و ليتوكل عليه كما أشار اليه فى الآيه التاليه «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ» .

قوله تعالى: وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَ سَيَّبِحْ بِحَمْدِهِ وَ كَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا لما سجل على نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن ليس له من أمرهم شىء إلا الرساله و أمره أن يبلغهم أن لا بغيه له فى دعوتهم إلا الاستجابه لها و أنهم على خيره من أمرهم إن شاءوا آمنوا و إن شاءوا كفروا تم ذلك بأمره صلى الله عليه و آله و سلم أن يتخذة تعالى و كيلا فى أمرهم فهو تعالى عليهم و على كل شىء و كيل و بذنوب عباده خبير.

فقوله: وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ أى اتخذه و كيلا فى أمرهم يحكم فيهم ما يشاء و يفعل بهم ما يريد فإنه الوكيل عليهم و على كل شىء و قد عدل عن تعليق التوكل بالله الى تعليقه بالحي الذى لا يموت ليفيد التعليل فإن الحي الذى لا يموت لا يفوته فائت فهو المتعين لأن يكون و كيلا.

و قوله: وَ سَيَّبِحْ بِحَمْدِهِ أى نزهه عن العجز و الجهل و كل ما لا يليق بساحه قدسه مقارنا ذلك للثناء عليه بالجميل فإن أمهلهم و استدرجهم بنعمه فليس عن عجز فعل بهم ذلك و لا عن جهل بذنوبهم و إن أخذهم بذنوبهم فبحكمه اقتضته و باستحقاق منهم استدعى ذلك فسبحانه و بحمده.

و قوله: وَ كَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا مسوق للدلاله على توحيده فى فعله و صفته فهو الوكيل المتصرف فى أمور عباده وحده و هو خبير بذنوبهم و حاكم فيهم وحده من غير حاجه الى من يعينه فى علمه أو فى حكمه.

و من هنا يظهر أن الآيه التاليه «الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» متممه لقوله: «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ» الخ؛ لاشتمالها على توحيده فى ملكه و تصرفه كما يشتمل قوله:

«وَكَفَى بِهِ» الخ؛ على علمه و خبرته و بالحياه و الملك و العلم معا يتم معنى الوكاله و سنشير اليه.

قوله تعالى: «الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسئَلُ بِهِ خَبِيرًا» ظاهر السياق أن الموصول صفه لقوله فى الآيه السابقه: «الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ» و بهذه الآيه يتم البيان فى قوله: «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ» فإن الوكاله كما تتوقف على حياه الوكيل تتوقف على العلم، و قد ذكره فى قوله: «وَكَفَى بِهِ بِعْدُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا» و تتوقف على السلطنه على الحكم و التصرف و هو الذى تتضمنه هذه الآيه بما فيها من حديث خلق السماوات و الارض و الاستواء على العرش.

و قد تقدم تفسير صدر الآيه فى مواضع من السور السابقه، و أما قوله: «الرَّحْمَنُ فَسئَلُ بِهِ خَبِيرًا» فالذى يعطيه السياق و يهدى اليه النظم أن يكون الرحمن خبرا لمبتدأ محذوف و التقدير هو الرحمن، و قوله: «فَسئَلُ» متفرعا و الفاء للتفريع، و الباء فى قوله: «بِهِ» للتعديه مع تضمين السؤال معنى الاعتناء. و قوله: «خَبِيرًا» حال من الضمير.

و المعنى: هو الرحمن-الذى استوى على عرش الملك و الذى برحمته و إفاضته يقوم الخلق و الأمر و منه يبتدى كل شىء و اليه يرجع-فاسأله عن حقيقه الحال يخبرك بها فإنه خبير.

فقوله: «فَسئَلُ بِهِ خَبِيرًا» كناية عن أن الذى أخبر به حقيقه الأمر التى لا معدل عنها و هذا كما يقول من سئَل عن أمر: سألنى أجيبك إن كذا و كذا و من هذا الباب قولهم: على الخبير سقطت.

و لهم فى قوله: «الرَّحْمَنُ فَسئَلُ بِهِ خَبِيرًا» أقوال أخرى كثيره: فقيل: إن الرحمن

مرفوع على القطع للمدح، وقيل: مبتدأ خبره قوله: «فَسَدِّئْ بِهِ»، وقيل: خير مبتدؤه «الَّذِي» في صدر الآية، وقيل: بدل من الضمير المستكن في «اسْتَوَى» .

قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَّا سَجُدٌ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا هذا فصل آخر من معاملتهم السوء مع الرسول و دعوته الحقه يذكر فيه استكبارهم عن السجود لله سبحانه إذا دعوا اليه و نفورهم منه و للآيه اتصال خاص بما قبلها من حيث ذكر الرحمن فيها و قد وصف في الآيه السابقه بما وصف و لعل اللام فيه للعهد.

فقوله: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ الضمير للكفار، و القائل هو النبي صلى الله عليه و آله و سلم بدليل قوله بعد: «أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا» و لم يذكر اسمه ليتوجه استكبارهم الى الله سبحانه وحده.

و قوله: قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ سؤال منهم عن هويته و مائتته مبالغه منهم فى التجاهل به استكبارا منهم على الله و لو لا ذلك لقالوا: و من الرحمن، و هذا كقول فرعون لموسى لما دعاه الى رب العالمين وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (الشعراء ٢٣)، و قول إبراهيم لقومه مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (الأنبياء ٥٢)، و مراد السائل فى مثل هذا السؤال أنه لا معرفه له من المسئول عنه بشىء أزيد من اسمه كقول هود لقومه أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ (الأعراف ٧١).

و قوله حكاية عنهم: «أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا» فى تكرار التعبير عنه تعالى بما إصرار على الاستكبار، و التعبير عن طلبه عنهم السجده بالأمر لا يخلو من تهكم و استهزاء.

و قوله: وَزَادَهُمْ نُفُورًا معطوف على جواب إذا و المعنى: و إذا قيل لهم اسجدوا استكبروا و زادهم ذلك نفورا ففاعل (زادهم) ضمير راجع الى القول المفهوم من سابق الكلام.

قوله تعالى: **تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا** الظاهر أن المراد بالبروج منازل الشمس والقمر من السماء أو الكواكب التي عليها كما تقدم في قوله: **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزِينَاتٍ لِلنَّازِحِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ** (الحجر ١٧)، وإنما خصت بالذكر في الآية للإشارة إلى الحفظ والرجم المذكورين.

والذي يعطيه التدبر أن قوله: **«تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا»** الخ؛ مسوق سوق التعرز والاستغناء، وأنهم غير معجزين باستكبارهم على الله واستهزائهم بالرسول بل هؤلاء ممنوعون عن الاقتراب من حضره وقربه والصعود إلى سماء جواره والمعارف الإلهية مضيئه مع ذلك لأهله وعباده بما نورها الله سبحانه بنور هدايته وهو نور الرسالة.

و على هذا فقد أثنى الله سبحانه على نفسه بذكر تباركه بجعل البروج المحفوظة الراجمه للشياطين بالشهب في السماء المحسوسة وجعل الشمس المضيئه والقمر المنير فيها لإضاءة العالم المحسوس، وأشار بذلك إلى ما يناظره في الحقيقة من إضاءة العالم الإنساني بنور الهداية من الرسالة ليتبصر به عباده، كما يذكر حالهم بعد هذه الآيات ودفع أولياء الشياطين عن الصعود إليه بما هيأ لدفعهم من بروج محفوظه راجمه.

هذا ما يعطيه السياق وعلى هذا النمط من البيان سقت هذه الآيات والتي قبلها كما تقدمت الإشارة إليه في تفسير قوله: **«أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ»** فليس ما ذكرناه من التأويل بمعنى صرف الآيات عن ظاهرها.

قوله تعالى: **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا** الخلفه هي الشيء يسد مسد شيء آخر و بالعكس و كأنه بناء نوع أريد به معنى الوصف فكون الليل والنهار خلفه أن كلا منهما يخلف الآخر، وتقييد الخلفه بقوله: **«لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا»** للدلاله على نيابه كل منهما عن الآخر في التذكر والشكر.

والمقابلة بين التذكر و الشكر يعطى أن المراد بالتذكر الرجوع الى ما يعرفه الإنسان بفطرته من الحجج الداله على توحيد ربه و ما يليق به تعالى من الصفات و الأسماء و غايته الإيمان بالله، و بالشكور القول او الفعل الذى ينبى عن الثناء عليه بجميل ما أنعم، و ينطبق على عبادته و ما يلحق بها من صالح العمل.

و على هذا فالآيه اعتزاز او امتنان بجعله تعالى الليل و النهار بحيث يخلف كل صاحبه فمن فاته الإيمان به فى هذه البرهه من الزمان تداركه فى البرهه الاخرى منه، و من لم يوفق لعباده او لأى عمل صالح فى شىء منهما أتى به فى الآخر.

هذا ما تفيده الآيه و لها مع ذلك ارتباط بقوله فى الآيه السابقه: «وَجَعَلَ فِيهَا سِرَّاجًا وَقَمْرًا مُنِيرًا» ففيه إشاره الى أن الله سبحانه و إن دفع أولئك المستكبرين عن الصعود الى ساحه قربه لكنه لم يمنع عباده عن التقرب اليه و الاستضاءه بنوره فجعل نهارا ذا شمس طالعه و ليلا ذا قمر منير و هما ذوا خلفه من فاته ذكر أو شكر فى أحدهما أتى به فى الآخر.

[سوره الفرقان (٢٥): الآيات ٦٣ الى ٧٧]

إشاره

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَ لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لَا يَزْنُونَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ يُخَلَّدُ فِيهِ مُهْتَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ فَمَعْمَلٌ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَ مَنْ تَابَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَ إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَ عُيُوتًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَ ذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَ اجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَ يُلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَ سَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسِبْتُمْ أَنْ تُتَّخَذُوا كَذِبًا لَوْ لَا دُعَاؤُكُمْ لَفَقَدْنَاكُمْ كَذِبًا فَسَوْفَ يُكُونُ لَكُمْ أَعْتَابًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبُؤُكُمْ رَبِّي لَوْ لَا دُعَاؤُكُمْ لَفَقَدْنَاكُمْ كَذِبًا فَسَوْفَ يُكُونُ لَكُمْ أَعْتَابًا (٧٧)

بيان:

قوله تعالى: وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا لما ذكر في الآيه السابقه
استكبارهم على الله سبحانه

ص: ٥٢٤

و إهانتهم بالاسم الكريم: الرحمن، قابله في هذه الآية بذكر ما يقابل ذلك للمؤمنين و سماهم عبادا و أضافهم الى نفسه متسما باسم الرحمن الذى كان يحيد عنه الكفار و ينفرون.

و قد وصفتهم الآية بوصفين من صفاتهم:

أحدهما: ما اشتمل عليه قوله: «الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُونَاً» و الهون على ما ذكره الراغب التذلل، و الأشبه حينئذ أن يكون المشى على الأرض كناية عن عيشتهم بمخالطه الناس و معاشرتهم فهم فى أنفسهم متذللون لربهم و متواضعون للناس لما أنهم عباد الله غير مستكبرين على الله و لا مستعلين على غيرهم بغير حق، و أما التذلل لأعداء الله ابتغاء ما عندهم من العزه الوهميه فحاشاهم و إن كان الهون بمعنى الرفق و اللين فالمراد أنهم يمشون من غير تكبر و تبخر.

و ثانيهما: ما اشتمل عليه قوله: «وَ إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً» أى إذ خاطبهم الجاهلون خطابا ناشئا عن جهلهم مما يكرهون أن يخاطبوا به أو يثقل عليهم كما يستفاد من تعلق الفعل بالوصف أجابوهم بما هو سالم من القول و قالوا لهم قولا سلاما خاليا عن اللغو و الإثم، قال تعالى: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَ لَا تَأْتِيهِمْ إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً (الواقعه ٢٦)، و يرجع الى عدم مقابلتهم الجهل بالجهل.

و هذه- كما قيل- صفه نهارهم إذا انتشروا فى الناس و أما صفه ليلهم فهى التى تصنفها الآية التالیه.

قوله تعالى: «الَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُلُوكاً وَ قِيَاماً الْبَيْتِ» متعلق بقوله: «سُلُوكاً» و السجد و القيام جمعا ساجد و قائم، و المراد عبادتهم له تعالى بالخروج على الأرض و القيام على السوق، و من مصاديقه الصلاة.

و المعنى: و هم الذين يدركون الليل حال كونهم ساجدين فيه لربهم و قائمين يتراوحن سجودا و قياما، و يمكن أن يراد به التهجد بنوافل الليل.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا الغرام ما ينوب الانسان من شده أو مصيبه فيلزمه و لا يفارقه و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا الضمير لجهنم و المستقر و المقام اسما مكان من الاستقرار و الإقامة، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا، الإنفاق بذل المال و صرفه في رفع حوائج نفسه أو غيره، و الإسراف الخروج عن الحد و لا يكون إلا في جانب الزيادة، و هو في الإنفاق التعدى عما ينبغى الوقوف عليه في بذل المال، و القتر بالفتح فالتقليل في الإنفاق و هو بإزاء الاسراف على ما ذكره الراغب، و القتر و الاقتار و التقتير بمعنى.

و القوم بالفتح الواسط العدل، و بالكسر ما يقوم به الشيء و قوله: «بَيْنَ ذَلِكَ» متعلق بالقوام، و المعنى: و كان إنفاقهم وسطا عدلا بين ما ذكر من الاسراف و القتر فقوله: «وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا» تنصيص على ما يستفاد من قوله: «إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا»، فصدر الآيه ينفي طرفى الافراط و التفريط فى الإنفاق، و ذيلها يثبت الوسط.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ هذا هو الشرك و أصول الوثنيه لا تجيز دعاءه تعالى و عبادته أصلا لا وحده و لا مع آلهتهم و إنما توجب دعاء آلهتهم و عبادتهم ليقربوهم الى الله زلفى و يشفعوا لهم عنده.

فالمراد بدعائهم مع الله إلها آخر إما التلويح الى أنه تعالى إله مدعو بالفطره على كل حال فدعاء غيره دعاء لإله آخر معه و إن لم يذكر الله.

أو أنه تعالى ثابت فى نفسه سواء دعى غيره أم لا فالمراد بدعاء غيره دعاء إله آخر مع وجوده و بعبارة أخرى تعديه الى غيره.

أو إشاره الى ما كان يفعله جهله مشركى العرب فإنهم كانوا يرون أن دعاء آلهتهم إنما

ينفعهم في البر و أما البحر فإنه لله لا يشاركه فيه أحد فالمراد دعاؤه تعالى في ورد كما عند شدائد البحر من طوفان و نحوه و دعاء غيره مع في مورد و هو البر، و أحسن الوجوه أوسطها.

و قوله: **وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ** أى لا يقتلون النفس الإنسانية التي حرم الله قتلها في حال من الأحوال إلا حال تلبس القتل بالحق كقتلها قصاصا و حداً.

و قوله تعالى: **وَلَا يَزْنُونَ** أى لا يطئون الفرج الحرام و قد كان شائعاً بين العرب في الجاهلية، و كان الإسلام معروفاً بتحريم الزنا و الخمر من أول ما ظهرت دعوته.

و قوله: **وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا** الإشارة بذلك الى ما تقدم ذكره و هو الشرك و قتل النفس المحترمه بغير حق و الزنا، و الأثام الإثم و هو وبال الخطيئه و هو الجزاء بالعذاب الذى سيلقاه يوم القيامة المذكور فى الآيه التالىة.

قوله تعالى: **يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** و **وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا** بيان للقاء الأثام، و قوله: **«وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا»** أى يخلد فى العذاب قد وقعت عليه الإهانه.

و الخلود فى العذاب فى الشرك لا- ريب فيه، و أما الخلود فيه عند قتل النفس المحترمه و الزنا و هما من الكبائر و قد صرح القرآن بذلك فيهما و كذا فى أكل الربا فيمكن أن يحمل على اقتضاء طبع المعصية ذلك كما ربما استفيد من ظاهر قوله: **«إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ»**.

أو يحمل الخلود على المكث الطويل أعم من المنقطع و المؤيد أو يحمل قوله: **«وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ»** على فعل جميع الثلاثة لأن الآيات فى الحقيقة تنزه المؤمنين عما كان الكفار مبتلين به و هو الجميع دون البعض.

قوله تعالى: **إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا** استثناء من لقى الأثام و الخلود فيه،

وقد أخذ في المستثنى التوبه و الإيمان و إتيان العمل الصالح، أما التوبه و هى الرجوع عن المعصيه و أقل مراتبها الندم فلو لم يتحقق لم ينتزع العبد عن المعصيه و لم يزل مقيماً عليها، و أما إتيان العمل الصالح فهو مما تستقر به التوبه و به تكون نصوحاً.

و أما أخذ الإيمان فيدل على أن الاستثناء إنما هو من الشرك فتختص الآية بمن أشرك و قتل و زنا او بمن أشرك سواء أتى معه بشيء من القتل المذكور و الزنا و لم يأت، و أما من أتى بشيء من القتل و الزنا من غير شرك فالمتكفل لبيان حكم توبته الآية التاليه.

و قوله: **فَأُولَٰئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ** تفریح على التوبه و الإيمان و العمل الصالح يصف ما يترتب على ذلك من جميل الأثر و هو أن الله يبذل سيئاتهم حسنات.

و الذى يفيد ظاهر قوله: **«يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ»** و قد ذيله بقوله: **«وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا»** أن كل سيئه منهم نفساً تتبدل حسنه، و ليست السيئه هى متن الفعل الصادر من فاعله و هو حركات خاصه مشتركه بين السيئه و الحسنه كعمل المواقعه مثلاً المشترك بين الزنا و النكاح، و الأكل المشترك بين أكل المال غضباً و بإذن من مالكه بل صفة الفعل من حيث موافقته لأمر الله و مخالفته له مثلاً من حيث إنه يتأثر به الإنسان و يحفظ عليه دون الفعل الذى هو مجموع حركات متصرمه متقضيه فانيه و كذا عنوان القائم به الفانى بفنائيه.

و هذه الآثار السيئه التى يتبعها العقاب أعنى السيئات لازمه للإنسان حتى يؤخذ بها يوم تبلى السرائر.

و لو لا شوب من الشقوه و المساءه فى الذات لم يصدر عنها عمل سيئ إذ الذات السعيده الطاهره من كل وجه لا يصدر عنها سيئه قدره فالأعمال السيئه إنما تلحق ذاتاً شقيته خبيثه بذاتها او ذاتاً فيها شوب من شقاء و خباثه.

و لازم ذلك إذا تطهرت بالتوبه و طابت بالإيمان و العمل الصالح فتبدلت ذاتاً سعيده ما فيها شوب من قذاره الشقاء أن تتبدل آثارها اللازمه التى كانت سيئات قبل ذلك فتناسب الآثار

للذات بمغفره من الله و رحمه و كان الله غفورا رحيمًا.

و الى مثل هذا يمكن أن تكون الإشارة بقوله: «فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» .

قوله تعالى: وَ مَنْ تَابَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا المتاب مصدر ميمي للتوبه، و سياق الآية يعطى أنها مسوقه لرفع استغراب تبدل السيئات حسنات بتعظيم أمر التوبه و أنها رجوع خاص الى الله سبحانه فلا بدع فى أن يبدل السيئات حسنات و هو الله يفعل ما يشاء.

و فى الآية مع ذلك شمول للتوبه من جميع المعاصى سواء قارنت الشرك أم فارقته، و الآية السابقه- كما تقدمت الإشارة اليه- كانت خفيه الدلاله على حال المعاصى إذا تجردت من الشرك.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَ إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا قال فى مجمع البيان: أصل الزور تمويه الباطل بما يوهم أنه حق. انتهى. فيشمل الكذب و كل لهو باطل كالغناء و الفحش و الخناء بوجه، و قال أيضا: يقال: تكرم فلان عما يشينه إذا تنزه و أكرم نفسه منه انتهى.

فقوله: وَ الَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ إن كان المراد بالزور الكذب فهو قائم مقام المفعول المطلق و التقدير لا يشهدون شهاده الزور، و إن كان المراد اللغو الباطل كالغناء و نحوه كان مفعولا به و المعنى لا يحضرون مجالس الباطل، و ذيل الآية يناسب ثانى المعنيين.

و قوله: وَ إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا اللغو ما لا يعتد به من الأفعال و الأقوال لعدم اشتماله على غرض عقلاى و يعم- كما قيل- جميع المعاصى، و المراد بالمرور باللغو المرور بأهل اللغو و هم مشتغلون به.

و المعنى: و إذا مروا بأهل اللغو و هم يلغون مروا معرضين عنهم منزهين أنفسهم عن

الدخول فيهم و الاختلاط بهم و مجالستهم.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا الْخُرُورَ عَلَى الْأَرْضِ السَّقُوطَ عَلَيْهَا وَ كَأَنهَا فِي الْآيَةِ كِنَايَةٌ عَنِ لَزُومِ الشَّيْءِ وَ الْإِنْكَبَابِ عَلَيْهِ.

و المعنى: و الذين إذا ذكروا بآيات ربهم من حكمه أو موعظه حسنه من قرآن أو وحى لم يسقطوا عليه و هم صم لا يسمعون و عميان لا يبصرون بل تفكروا فيها و تعقلوها فأخذوا بها من بصيره فآمنوا بحكمتها و اتعظوا بموعظتها و كانوا على بصيره من أمرهم و بينه من ربهم.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَ اجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا قَالَ الرَّابِعُ فِي الْمَفْرَدَاتِ: قَرَّتْ عَيْنُهُ تَقَرَّتْ قَالَ تَعَالَى:

«كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا» و قيل لمن يسر به قره عين قال: «قره عين لى و لك» و قوله تعالى: «هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَ ذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ» قيل: أصله من القرأى البرد فقرت عينه قيل: معناه بردت فصحت، و قيل: بل لأن للسرور دمه بارد قاره و للحنن دمه حاره و لذلك يقال فيمن يدعى عليه: أسخن الله عينه، و قيل: هو من الفرار و المعنى أعطاه الله ما يسكن به عينه فلا تطمح الى غيره انتهى.

و مرادهم بكون أزواجهم و ذرياتهم قره عين لهم أن يسروهم بطاعه الله و التجنب عن معصيته فلا حاحه لهم فى غير ذلك و لا إربه و هم أهل حق لا يتبعون الهوى.

و قوله: وَ اجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أى متسابقين الى الخيرات سابقين الى رحمتك فيتبعنا غيرنا من المتقين كما قال تعالى: فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ (البقره ١٤٨)، و قال:

سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ (الحديد ٢١)، و قال: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (الواقعه ١١). و كأن المراد أن يكونوا صفا واحدا متقدما على غيرهم من المتقين و لذا جيء بالإمام بلفظ الأفراد.

قوله تعالى: **أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا** الغرفة- كما قيل -البناء فوق البناء فهو الدرجة العاليه من البيت، و هى كناية عن الدرجة العاليه فى الجنة، و المراد بالصبر الصبر على طاعة الله و عن معصيته فهذان القسمان من الصبر هما المذكوران فى الآيات السابقه لكن لا ينفك ذلك عن الصبر عند النوائب و الشدائد.

و المعنى: أولئك الموصوفون بما وصفوا يجزون الدرجة الرفيعه من الجنة يلقون فيها أى يتلقاهم الملائكه بالتحية و هو ما يقدم للإنسان مما يسره و بالسلام و هو كل ما ليس فيه ما يخافه و يحذره، و فى تنكير التحية و السلام دلالة على التفخيم و التعظيم، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: **قُلْ مَا يَعْجُبُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا** قال فى المفردات: ما عبأت به أى لم أبال به، و أصله من العبء أى الثقل كأنه قال: ما أرى له وزنا و قدرا، قال تعالى: **«قُلْ مَا يَعْجُبُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ»** و قيل: عبأت الطيب كأنه قيل: ما يبيقيكم لو لا دعاؤكم. انتهى.

و المعنى: قل لا قدر و لا منزله لكم عند ربى فوجودكم و عدمكم عنده سواء لأنكم كذبتم فلا خير يرجى فيكم فسوق يكون هذا التكذيب ملازما لكم أشد الملازمه، إلا أن الله يدعوكم لیتّم الحجه عليكم أو يدعوكم لعلكم ترجعون عن تكذيبكم. و هذا معنى حسن.

و الآيه خاتمه السوره و تنعطف الى غرض السوره و محصل القول فيه و هو الكلام على اعتراض المشركين على الرسول و على القرآن النازل عليه و تكذيبهما.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(١) تَلْعَلَّكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بِأَخْبَعِ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنَّ نَشَأَ
نُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُخْبِتٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥)
فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ الْبُؤَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ (٦) أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)

غرض السوره تسليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قبال ما كَذَّبَهُ قومه و كَذَّبُوا بكتابه النازل عليه من ربه -على ما يُلَوِّح اليه صدر السوره: تلك آيات الكتاب المبين- وقد رموه تاره بأنه مجنون و أخرى بأنه شاعر، و فيها تهديدهم مشفَعًا ذلك بإيراد قصص جمع من الأنبياء و هم موسى و إبراهيم و نوح و هود و صالح و لوط و شعيب عليهم السَّلام و ما انتهت اليه عاقبه تكذيبهم لتتسلى به نفس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و لا يحزن بتكذيب أكثر قومه و ليعتبر المكذبون.

و السوره من عتائق السور المكيه و أوائلها نزولا و قد اشتملت على قوله تعالى: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ. و ربما أمكن أن يستفاد من وقوع هذه الآيه فى هذه السوره و وقع قوله:

فَاضِدَعِ بِمَا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فى سوره الحجر و قياس مضمونها كل مع الاخرى أن هذه السوره أقدم نزولا من سوره الحجر و ظاهر سياق آيات السوره أنها جميعا مكيه و استثنى بعضهم الآيات الخمس التى فى آخرها، و بعض آخر قوله: أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَلْعَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ سيجىء الكلام فيهما.

قوله تعالى: طسّم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ الإِشَارَةُ بِتِلْكَ إِلَى آيَاتِ الْكِتَابِ مِمَّا سَيَنْزِلُ بِنَزُولِ السُّورَةِ وَ مَا نَزَلَ قَبْلَ، وَ تَخْصِيصُهَا بِالِإِشَارَةِ الْبَعِيدَةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى عُلُوِّ قَدْرِهَا وَ رَفْعِهِ مَكَانَتِهَا، وَ الْمُبِينِ مِنْ أَبَانَ بِمَعْنَى ظَهَرَ وَ انْجَلَى.

و المعنى: تلك الآيات العالیه قدر الرفيعه مكانا آيات الكتاب الظاهر الجلى كونه من عند الله سبحانه بما فيه من سمه الإعجاز و إن كَذَّبَ به هؤلاء المشركون المعاندون و رموه تاره بأنه من إلقاء شياطين الجن و أخرى بأنه من الشعر.

قوله تعالى: لَعَلَّكَ بِمَنْعِ نَفْسِكَ أَلَّا يُكُونُوا مُؤْمِنِينَ الْبُخُوعُ هُوَ إِهْلَاكُ النَّفْسِ عَنْ وَجْدٍ، وَ قَوْلُهُ: «أَلَّا يُكُونُوا مُؤْمِنِينَ» تَعْلِيلٌ لِلْبُخُوعِ، وَ الْمَعْنَى: يَرْجَى مِنْكَ أَنْ تَهْلِكَ نَفْسُكَ

بسبب عدم إيمانهم بآيات هذا الكتاب النازل عليك.

و الكلام مسوق سوق الإنكار و الغرض منه تسليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم.

قوله تعالى: **إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ** متعلق المشيئة محذوف لدلاله الجزاء عليه، وقوله: **«فَظَلَّتْ»** الخ؛ ظلّ فعل ناقص اسمه **«أَعْنَاقُهُمْ»** و خبره **«خَاضِعِينَ»** و نسب الخضوع الى أعناقهم و هو وصفهم أنفسهم لأن الخضوع أول ما يظهر في عنق الإنسان حين يطأطئ رأسه تخضعا فهو من المجاز العقلي.

و المعنى: إن نشأ أن نزل عليهم آية تخضعهم و تلجئهم الى القبول و تضطرهم الى الإيمان نزل عليهم آية كذلك فظلوا خاضعين لها خضوعا بينا بانحناء أعناقهم.

قوله تعالى: **وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُجِدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ** بيان لاستمرارهم على تكذيب آيات الله و تمكن الإعراض عن ذكر الله في نفوسهم بحيث كلما تجدد عليهم ذكر من الرحمن و دعوا اليه دفعه بالإعراض.

فالغرض بيان استمرارهم على الإعراض عن كل ذكر أتاهم لا أنهم يعرضون عن محدث الذكر و يقبلون الى قديمه و في ذكر صفه الرحمن إشاره الى أن الذكر الذي يأتيهم إنما ينشأ عن صفه الرحمه العامه التي بها صلاح دنياهم و أخراهم.

و قد تقدم في تفسير أول سورة الأنبياء كلام في معنى الذكر المحدث فراجع.

قوله تعالى: **فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَلْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** تفريع على ما تقدم من استمرار إعراضهم، وقوله: **«فَسَيَأْتِيهِمْ»** الخ؛ تفريع على التفريع و الأنبياء جمع نبأ و هو الخبر الخطير، و المعنى لما استمر منهم الإعراض عن كل ذكر يأتيهم تحقق منهم و ثبت عليهم أنهم كذبوا، و إذ تحقق منهم التكذيب فسَيَأْتِيهِمْ أبناء ما كانوا به يستهزئون من آيات الله، و تلك الأبناء العقوبات العاجله و الآجله التي ستحقيق بهم.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمَا أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ الاستفهام للإنكار التويخي و الجملة معطوف على مقدر يدل عليه المقام و التقدير أصروا و استمروا على الإعراض و كذبوا بالآيات و لم ينظروا الى هذه الأزواج الكريمه من النباتات التي أنبتناها فى الأرض.

فالرؤية فى قوله: أَوْ لَمْ يَرَوْا مضمينه معنى النظر و لذا عدت بآلى، و الظاهر أن المراد بالزوج الكريم. و هو الحسن على ما قيل: النوع من النبات و قد خلق الله سبحانه أنواعه أزواجاً، و قيل: المراد بالزوج الكريم الذى أنبتة الله يعم الحيوان و خاصه الانسان بدليل قوله:

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ لِبَاتًا﴾ .

قوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَمَآيَةٍ وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ الاشارة بذلك الى ما ذكر فى الآيه السابقه من إنبات كل زوج كريم حيث أن فيه إيجادا لكل زوج منه و تتميم نقائص كل من الزوجين بالآ-خر و سوقهما الى الغايه المقصوده من وجودهما و فيه هدايه كل الى سعادته الأخيره و من كانت هذه سنته فكيف يهمل أمر الانسان و لا يهديه الى سعادته و لا يدعوه إلى ما فيه خير دنياه و آخرته. هذا ما تدل عليه آيه النبات.

و قوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى لم يكن المترقب من حال أكثرهم بما عندهم من ملكه الاعراض و بطلان الاستعداد أن يؤمنوا فظاهر الآيه نظير ظاهر قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ (يونس ٧٤). و تعليل الكفر و الفسوق برسوخ الملكات الرذيله و استحكام الفساد فى السريره من قبل فى كلامه تعالى أكثر من أن تحصى.

و من هنا يظهر أن قول بعضهم: إن المراد ما كان فى علم الله أن لا- يؤمنوا غير سديد لأنه مضافا الى كونه خلاف المتبادر من الجملة، مما لا- دليل على أنه المراد من اللفظ بل الدليل على خلافه لسبق الدلالة على أن ملكه الاعراض راسخه لم تنزل فى نفوسهم.

و عن سيبويه أن «كَانَ» فى قوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ صله زائده و المعنى: و ما

أكثرهم مؤمنين. وفيه أنه معنى صحيح في نفسه لكن المقام بما تقدم من المعنى أوفق.

قوله تعالى: وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ فهو تعالى لكونه عزيزا غير مغلوب يأخذ المعرضين عن ذكره المكذبين لآياته المستهزئين بها و يجازيهم بالعقوبات العاجله و الآجله، و لكونه رحيمًا ينزل عليهم الذكر ليهديهم و يغفر للمؤمنين به و يمهل الكافرين (١).

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٠ الى ٦٨]

إشارة

وَ إِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صِدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسِيَّانِي فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُشْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهُمَا إِذَا وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَزَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَ تَلَمَكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَدَىٰ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنْ اتَّخَذتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَ أَخَاهُ وَ ابْنَتِي فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَا تُوتُوكَ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجَمَعَ السِّحْرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨) وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هِزِلٌ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّآ تَتَّبِعُ السِّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْعَالِيِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السِّحْرَةَ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَ إِنْ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِيِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَ عَصَاهُمْ وَ قَالَ فِرْعَوْنُ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأَلْقَىٰ السِّحْرَةَ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْلَمُونَ لِمَ أَقْطَعْنَ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجَلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِذَا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَ إِنَّهُمْ لَنَا لِعَاظُونَ (٥٥) وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (٥٧) وَ كُنُوزٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَ أَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنْ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ إِصْرِبْ بَعْصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقْ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَ أَرْزَقْنَا ثَمَّ الْأَخْرِينَ (٦٤) وَ أَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ (٦٦) إِنْ فِي ذَلِكِ لَمَآئِيَةٌ وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)

١-١) الشعراء ١-٩: بحث عقلى متعلق بالعلم فى علم الله الازلى.

بيان:

قوله تعالى: وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ - أَلَا يَتَّقُونَ أَي و اذكر وقتا نادى فيه ربك موسى و بعثه بالرساله الى قوم فرعون لإنجاء بنى إسرائيل على ما فصله فى سوره طه و غيرها.

و قوله: أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ نوع تفسير للنداء، و توصيفهم أولا بالظالمين ثم

بيانه ثانيا بقوم فرعون للإشارة الى حكمه الإرسال و هي ظلمهم بالشرك و تعذيب بنى إسرائيل كما فى سورة طه من قوله: اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ - إِلَىٰ أَنْ قَالَ - فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ (طه ٤٧).

و قوله: أَلَا- يَتَّقُونَ بصيغته الغيبة، و هو توبيخ غياىى منه تعالى لهم و إيراده فى مقام عقد الرسالة لموسى عليه السلام فى معنى قولنا: قل لهم إن ربي يوبخكم على ترك التقوى و يقول: أَلَا تَتَّقُونَ.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ - الى قوله- فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ، قال فى مجمع البيان: الخوف انزعاج النفس بتوقع الضرر و نقيضه الأمان و هو سكون النفس الى خلوص النفع، انتهى. و أكثر ما يطلق الخوف على إحساس الشر بحيث يؤدى الى الاتقاء عملا و إن لم تضطرب النفس، و الخشيه على تأثر النفس من توقع الشر بحيث يورث الاضطراب و القلق، و لذا نفى الله الخشيه من غيره عن أنبيائه و ربما أثبت الخوف فقال: وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ (الأحزاب ٣٩)، و قال: وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِطِيَاءَ (الأنفال ٥٨).

و قوله: قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ أى ينسبني قوم فرعون الى الكذب، و قوله: «وَيَضِيقُ صَدْرِي وَ لَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي» الفعلان مرفوعان و هما معطوفان على قوله:

«أَخَافُ» فالذى اعتلّ به أمور ثلاثه: خوف التكذيب و ضيق الصدر و عدم انطلاق اللسان، و فى قراءه يعقوب و غيره يضيق و ينطلق بالنصب عطفا على «يكذبون» و هو أوفق بطبع المعنى، و على فالعله واحده و هى خوف التكذيب الذى يترتب عليه ضيق الصدر و عدم انطلاق اللسان. و يطابق ما سيجىء من آيه القصص من ذكر عله واحده هى خوف التكذيب.

و قوله: فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ أى أرسل ملك الوحي الى هارون ليكون معينا لى

على تبليغ الرساله يقال لمن نزلت به نائبه أو أشكل عليه أمر: أرسل الى فلان أى استمد منه و اتخذهُ عوناً لك.

فالجمله أعنى قوله: فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ متفرعه على قوله: «إِنِّي أَخَافُ» الخ؛ و ذكر خوف التّكذيب مع ما معه من ضيق الصدر و عدم انطلاق اللسان توطئه و تقدمه لذكرها و سؤال موهبه الرساله لهارون.

و إنما اعتلّ بما اعتلّ به و سأل الرساله لأخيه ليكن شريكاً له فى أمره، معينا مصدقاً له فى التبليغ لا فرارا عن تحمل أعباء الرساله، و استعفاء منها، قال فى روح المعانى: و من الدليل على أن المعنى على ذلك لا أنه تعلل وقوع «فَأَرْسِلْ» بين الأوائل و بين الرابعه أعنى قوله: «وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ» الخ؛ فأذن بتعلقه بها و لو كان تعللاً لاخر، انتهى.

و هو حسن و أوضح منه قوله تعالى فى سوره القصص فى القصة: قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ، وَ أَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْضَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (القصص ٣٤).

قوله تعالى: وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ قال الراغب فى المفردات:

الذنب فى الأصل الأخذ بذنب الشىء يقال: ذنبتهُ أصبت ذنبه، و يستعمل فى كل فعل يستوخم عقباه اعتباراً لما يحصل من عاقبته. انتهى.

و فى الآيه إشاره الى قصه قتله عليه السّلام، و كونه ذنباً لهم عليه إنما هو بالبناء على اعتقادهم أو الاعتبار بمعناه اللغوى المذكور آنفاً، و أما كونه ذنباً بمعنى معصيه الله تعالى فلا دليل عليه و سيوافيك فيه كلام عند تفسير سوره القصص إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: قَالَ كَلَّا- فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ كلاً للردع و هو متعلق بما ذكره من خوف القتل، ففيه تأمين له و تطيب لنفسه أنهم لا يصلون اليه، و أما سؤاله الإرسال الى هارون فلم يذكر ما أجيب به عنه، غير أن قوله: «فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا» دليل على

إجابه مسؤله.

و قوله: فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا متفرع على الردع فيفيد أن اذها اليه بآياتنا و لا تخافا، و قد علل ذلك بقوله: «إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ» و المراد بضمير الجمع موسى و هارون و القوم الذين أرسلنا اليهم، و لا يعبا بقول من قال: إن المراد به موسى و هارون بناء على كون أقل الجمع اثنين فإنه مع فساده في أصله لا تساعد عليه ضمائر التثنيه قبله و بعده كما قيل.

و الاستماع هو الإصغاء الى الكلام و الحديث و هو كناية عن الحضور و كمال العناية بما يجرى بينهما و بين فرعون و قومه عند تبليغ الرساله كما قال في القصة من سوره طه: لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (طه ٤٦).

و محصل المعنى: كلا- لا- يقدران على قتلكما فاذها اليهم بآياتنا و لا تخافا إنا حاضرون عندكم شاهدون عليكم معتنون بما يجرى بينكم.

قوله تعالى: فَأَيُّهَا فِرْعَوْنُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ بَيَان لقوله في الآيه السابقه: «فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا» .

و قوله: فَقُولَا- إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ تفریع على إتيان فرعون، و التعبير بالرسول بلفظ المفرد إما باعتبار كون رسالتهما واحده و هى قولهما: «أَنْ أَرْسِلَ» الخ؛ أو باعتبار أن الرسول مصدر في الأصل فالأصل أن يستوى فيه الواحد و الجمع، و التقدير إنا ذوا رسول رب العالمين أى ذوا رسالته كما قيل.

و قوله: أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ تفسير للرساله المفهومه من السياق و المراد بإرسالهم إطلاقهم لكن لما كان المطلوب أن يعودوا الى الأرض المقدسه التى كتب الله لهم و هى أرض آبائهم إبراهيم و إسحاق و يعقوب عليهم السلام سمى إطلاقهم ليعودوا إليها إرسالاً منه لهم إليها.

قوله تعالى: قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ

ص: ٥٤٢

الاستفهام للإنكار التوبيخي، و «نُزِبَكَ» من التريه، و الوليد الصبي.

لما أقبل فرعون على موسى و هارون و سمع كلامهما عرف موسى و خصه بالخطاب قائلاً أ لم نربك، الخ؛ و مراده الاعتراض عليه أولاً من جهة دعواه الرساله يقول: أنت الذى ربيناك و أنت وليد و لبثت فينا من عمرك سنين عديده نعرفك باسمك و نعتك و لم ننس شيئاً من أحوالك فمن أين لك هذه الرساله و أنت من نعرفك و لا نجهل أصلك؟

قوله تعالى: وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ الْفَعْلَةُ بفتح الفاء بناء مره من الفعل، و توصيف الفعله بقوله: «الَّتِي فَعَلْتَ» للدلاله على عظم خطره و كثره شناعته و فظاعته نظير ما فى قوله: فَعَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا عَشِيَهُمْ (طه ٧٨)، و مراده بهذه الفعله قتله عليه السلام القبطى.

و قوله: وَ أَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ظاهر السياق على ما سيأتى الإشاره اليه أن مراده بالكفر كفران النعمه و أن قتله القبطى و إفساده فى أرضه كفران لنعمته عليه بالخصوص بما له عنده من الصنيعه حيث كف عن قتله كسائر المواليد من بنى إسرائيل و رباه فى بيته بل لأنه من بنى إسرائيل و هو يراهم عبيدا لنفسه و يرى نفسه ربا منعما عليهم فقتل الواحد منهم رجلا من قومه و إفساده فى الأرض خروج من طور العبوديه و كفر بنعمته.

فمحصل اعتراضه المشار اليه فى الآيتين أنك الذى ربيناك صيبا صغيرا و لبثت فينا من عمرك سنين، و أفسدت فى الأرض بقتل النفس فكفرت بنعمتى و أنت من عبيدى الإسرائيليين فمن أين جاءتك هذه الرساله؟ و كيف تكون رسولا و أنت هذا الذى نعرفك؟.

قوله تعالى: قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَى أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ضَمِير «فَعَلْتُهَا» راجع الى الفعله، و الظاهر أن «إِذَا» مقطوع عن الجواب و الجزاء و يفيد معنى حينئذ كما قيل، و عبده تعبيدا و أعبده إعبادا إذا اتخذها عبدا

و الآيات الثلاث جواب موسى عليه السلام عما اعترض به فرعون، و التطبيق بين جوابه عليه السلام و ما اعترض به فرعون يعطى أنه عليه السلام حلل كلام فرعون الى القدرح فى دعواه للرسالة من ثلاثة أوجه: أحدها استغراب رسالته و استبعادها و هو الذى يعلم حاله و قد أشار اليه بقوله: «ألم نربك فينا وليدا و لثبت فينا من عمرك سنين» و الثانى استقباح فعلته و رميه بالإفساد و الجرم بقوله: «وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ» و الثالث المن عليه بأنه من عبده و يستفاد ذلك من قوله:

«وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ» و قد اقتضى طبع ما يذكره فى الجواب أن يغير الترتيب فى الجواب فيجيب أولا عن اعتراضه الثانى ثم عن الأول ثم عن الثالث.

فقوله: فَعَلْتَهَا إِذَا وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ جواب عن اعتراضه بقتل القبطى و قد استعظمه حيث لم يصرح باسمه بل كنى عنه بالفعل الذى فعلت صوتنا للأسماع أن تفرع باسمه فتألم.

و التدبر فى متن الجواب و مقابلته الاعتراض يعطى أن قوله: «فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا» من تمام الجواب عن القتل فيتقابل الحكم و الضلال و يتضح حينئذ أن المراد بالضلال الجهل المقابل للحكم و الحكم إصابه النظر فى حقيقه الأمر و إتقان الرأى فى تطبيق العمل عليه فيرجع معناه إلى القضاء الحق فى حسن الفعل و قبحة و تطبيق العمل عليه، و هذا هو الذى كان يؤتاه الأنبياء، قال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ» .

فالمراد أنى فعلتها حينئذ و الحال أنى فى ضلال من الجهل بجهه المصلحه فى و الحق الذى يجب أن يتبع هناك فأقدمت على الدفاع عمن استنصرنى و لم أعلم أنه يؤدى الى قتل الرجل و يؤدى ذلك الى عاقبه و خيمه تحوجنى الى خروجى من مصر و فرارى الى مدين و التغرب عن الوطن سنين.

و قوله: فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا متفرع على قصه

القتل، والسبب في خوفه و فراره ما أخبر الله به في سورة القصص بقوله: **وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ (القصص ٢١).**

و أما الحكم فالمراد به- كما استظهرناه- إصابه النظر في حقيقه الأمر و إتقان الرأى فى العمل به.

و قوله: **وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُزْسِلِينَ** جواب عن الاعتراض الأول و هو استغراب رسالته و استبعادها و هم يعرفونه، و قد شاهدوا أحواله حينما كانوا يربونه فيهم وليدا و لبث فيهم من عمره سنين، و تقريره أن استغرابهم و استبعادهم رسالته استنادا الى سابق معرفتهم بحاله إنما يستقيم لو كانت الرسالة أمرا اكتسابيا يمكن أن يحدث به أو يتوقع حصول مقدماته الاختيارية، و ليس الأمر كذلك بل هى أمر وهبى لا تأثير للأسباب العاديه فيها و قد جعله الله من المرسلين كما وهب له الحكم بغير اكتساب هذا ما يعطيه التدبر فى السياق.

و قوله: **وَتَلَعَكَ نِعْمَةً تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ** جواب عن منه عليه و تقريره بأنه من عبده و قد كفر نعمته و تقرير الجواب أن هذا الذى تعدّه نعمه و تقرّ عنى بكفرانها سلطه ظلم و تغلب إذ عبّدت بنى إسرائيل و التعبيد ظلما و تغلبا ليس من النعمه فى شىء.

فالجمله استفهاميه مسوقه للإنكار و «أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ» بيان لما أشير اليه بقوله:

«تَلَعَكَ» و المحصّل أن الذى تشير اليه بقولك «وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ» من أن لك على نعمه كفرتها إذ كنت ولي نعمتى و سائر بنى إسرائيل-أو إذ كنت ولي نعمتنا معشر بنى إسرائيل-ليس بحق إذ كونك وليا منعما ليس إلا استنادا الى التعبيد، و التعبيد ظلم و الولايه المستنده اليه أيضا ظلم و حاشا أن يكون الظالم وليا منعما له على من عبّده نعمه و إلا- كان التعبيد نعمه و ليس نعمه، ففى قوله: «أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ» وضع السبب موضع المسبب.

قوله تعالى: **قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ** -الى قوله- **مِنَ الْمَسِيحِينَ لَمَّا كَلَّمَ فِرْعَوْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَعْنَى رِسَالَتِهِ قَادِحًا** فيها فتلقى الجواب بما كان فيه إفحامه أخذ يكلمه فى خصوص مرسله وقد أخبره أن الذى أرسله هو رب العالمين فراجعه فيه و استوضحه بقوله: **«وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟»** الى تمام سبع آيات.

و اتضح المراد منها يتوقف على تذكر أصول مذاهب الوثنيه فى أمر الربوبية وقد تقدمت الإشارة إليها فى خلال الأبحاث السابقة من هذا الكتاب كرارا.

فقوله: **«قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ»** سؤال منه عن حقيقه رب العالمين بيانه أن فرعون كان وثنيا يعبد الأصنام و هو مع ذلك يدعى الالهيه، أما عبادته الأصنام فلقوله تعالى:

وَ يَذَرِكْ وَ آلِهَتِكَ (الأعراف ١٢٧/)، و أما دعواه الالهيه فلايه المذكوره و لقوله تعالى:

فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (النازعات ٢٤/).

و لا منافاه عند الوثنيه بين كون الشىء إلها ربا و بين كونه مربوبا لرب آخر لأن الربوبيه هو الاستقلال فى تدبير شىء من العالم و هو لا- ينافى الإمكان و الربوبيه لشىء آخر و كل رب عندهم مربوب لآخر إلا الله سبحانه فهو رب الأرباب لا رب فوقه و إله الآلهه لا إله له.

و كان الملك عند الوثنيه ظهورا من اللاهوت فى بعض النفوس البشريه بالسلطه و نفوذ الحكم فكان يعبد الملوك كما يعبد أرباب الأصنام و كذلك رؤساء البيوت فى بيوتهم، و كان فرعون و ثنيا يعبد الآلهه و هو ملك القبط يعبده قومه كسائر الآلهه.

فلما سمع من موسى و هارون قولهما: **«إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ»** تعجب منه إذ لم يعقل له معنى محصلا إذ لو أريد به الواجب و هو الله سبحانه فهو عنده رب عالم الأرباب دون جميع العالمين و لو أريد به بعض الممكنات الشريفه من الآلهه كبعض الملائكه و غيرهم فهو أيضا عنده رب عالم من عوالم الخلقه دون جميع العالمين فما معنى رب العالمين.

و لذلك قال: **«وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ»** فسأل عن حقيقه الموصوف بهذه الصفه بما هو موصوف

بهذه الصفه و لم يسأل عن حقيقه الله سبحانه فإن لو ثبته كان معتقدا بوجوده مدعنا له و هو يرى كسائر الوثنيين أنه لا سبيل الى إدراك حقيقته كيف؟ و هو أساس مذهبهم الذى يبنون عليه عباده سائر الآلهه و الأرباب كما سمعت.

وقوله: قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنتُمْ مُوقِنِينَ جواب موسى عليه السلام عن سؤاله «وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ» و هو خبر لمبتدأ محذوف، و محصل المعنى على ما يعطيه المطابقه بين السؤال و الجواب: هو رب السماوات و الأرض و ما بينهما التى تدل بوجود التدبير فيها و كونه تدبيرا واحدا متصلا مرتبطا على أن لها مدبرا-ربا-واحدا على ما يراه الموقنون السالكون سبيل اليقين من البرهان و الوجدان.

و بتعبير آخر مرادى بالعالمين السماوات و الأرض و ما بينهما التى تدل بالتدبير الواحد الذى فيها على أن لها ربا مدبرا واحدا، و مرادى برب العالمين ذلك الرب الواحد الذى تدل عليه و هذه دلالة يقينيه يجدها أهل اليقين الذين يتعاطون البرهان و الوجدان. و قوله: قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ أى ألا تصغون الى ما يقول موسى؟ و الاستفهام للتعجب يريد أن يصغوا اليه فيتعجبوا من قوله حيث يدعى رساله رب العالمين و إذا سئل ما رب العالمين؟ أعاد الكلمه ثانيا و لم يزد على ما بدأ به شيئا.

و هذا تمويه منه عليهم يريد به الستر على الحق الذى لاح من كلام موسى عليه السلام فإنه إنما قال:

إن جميع العالمين تدل بوحده التدبير الذى يشاهده أهل اليقين فيها على أن لها ربا مدبرا واحدا هو الذى تسألنى عنه، و هو يفسر كلامه أنه يقول: أنا رسول رب العالمين، فإذا سألته ما رب العالمين؟ يجيبنى بأنه رب لعالمين.

وقوله: قَالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ جواب موسى عليه السلام ثانيا فإنه لما رأى تمويه فرعون على من حوله و قد كان أجاب عن سؤاله «وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ» بتفسير العالمين من العالم الكبير كالسماوات و الأرض و ما بينهما عدل ثانيا الى ما يكون أصرح فى المقصود فذكر

ربوبيته تعالى لعالمى الإنسانيه فإن العالم الجماعه من الناس أو الأشياء فعالمو الإنسان هو الجماعات من الحاضرين و الماضين و لذلك قال: «رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» .

و كان محصل تمويه فرعون أن موسى لم يجبه بشيء إذ كرّر اللفظ فأجابه موسى ثانيا بالتصريح على أن رب العالمين هو رب عالمى الإنسانيه من الحاضرين و الماضين و بذلك تنقطع حيلته.

و قوله: □ قال إنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قول فرعون ثانيا و قد سمي موسى رسولا تهكما و استهزاء و إضافه الى من حوله ترفعا من أن يكون رسولا اليه، و قد رماه بالجنون مستندا الى قوله عليه السلام: «رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْخ.»

و قوله: □ قال لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمْعُونَ أى ألا تصغون إلى ما يقول موسى؟ و الاستفهام للتعجب يريد أن يصغوا اليه فيتعجبوا من قوله حيث يدعى رساله رب العالمين و إذا سئل ما رب العالمين؟ أعاد الكلمه ثانيا و لم يزد على ما بدأ به شيئا.

و هذا تمويه منه عليهم يريد به الستر على الحق الذى لاح من كلام موسى عليه السلام فإنه إنما قال إن جميع العالمين تدلّ بوحده التدبير الذى يشاهده أهل اليقين عليها على أن لها ربا مدبرا واحدا هو الذى تسألنى عنه، و هو يفسر كلامه أنه يقول أنا رسول رب العالمين، فإذا سألته ما رب العالمين؟ يجيبني بأنه رب العالمين.

و قوله قال رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ جواب موسى عليه السلام ثانيا فإنه لما رأى تمويه فرعون على من حوله و قد كان أجاب عن سؤاله «وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ» بتفسير العالمين من العالم الكبير كالسماوات و الأرض و ما بينهما عدل ثانيا إلى ما يكون أصرح فى المقصود فذكر ربوبيته تعالى لعالمى الإنسانيه فإن العالم الجماعه من الناس أو الأشياء فعالمو الإنسان هو الجماعات من الحاضرين و الماضين و لذلك قال: «رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» .

و كان محصل تمويه فرعون أن موسى لم يجبه بشيء إذ كرّر اللفظ فأجابه موسى ثانيا

بالتصريح على أنه رب العالمين هو رب عالمى الإنسانيه من الحاضرين و الماضين و بذلك تنقطع حيلته.

و قوله: **قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ** قول فرعون ثانيا و قد سمي موسى رسولا تهكما و استهزاء و أضافه إلى من حوله ترفعا من أن يكون رسولا اليه، و قد رماه بالجنون مستندا إلى قوله عليه السلام: «رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمْ» الخ.

كأنه يقول: إنه لمجنون لما فى كلامه من الاختلال الكاشف عن الاختلال فى عقله يدعى رساله رب العالمين فأسأله ما رب العالمين؟ فيكرر اللفظ تقريبا أولا ثم يفسره بأنه ربكم و رب آبائكم الأولين.

و قوله: **قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَ مَا بَيْنَهُمَا** **إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ** ظاهر السياق أن المراد بالمشرق جهة شروق الشمس و سائر الأجرام التيهره السماويه و طلوعها و بالمغرب الجهه التى تغرب فيها بحسب الحس، و بما بينهما ما بين الجهتين فيشمل العالم المشهود و يساوى السماوات و الأرض و ما بينهما.

فيكون إعادته لمعنى الجواب الأول بتقرير آخر و هو مشتمل على ما اشتمل عليه من نكته اتصال التدبير و اتحاده فإن للشروق ارتباطا بالغروب و المشرق و المغرب يتحققان طرفين لوسط بينهما، كما أن للسماء أرضا و لهما أمر بينهما و هذا النوع من الاتحاد لا يقبل إلا تدبيرا متصلا واحدا، و كما أن كل أمه حاضره لها ارتباط و جودى بالامم الماضيه ارتباط الأخلاف بالأسلاف فالنوع واحد و التدبير واحد فالمدبر واحد.

و قد بدّل قوله فى الجواب الأول: «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» من قوله هاهنا: «إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ» تعريضا له حيث قال لمن حوله: «أَلَا تَسْتَعْمُونَ» استهزاء به و إهانته له، ثم رماه ثانيا بالجنون و اختلال الكلام فأشار عليه السلام بقوله: «إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ» الى أنهم هم المحرومون من نعمه التعقل و التفقه و لو كانوا يعقلون لفهموا أن جوابه الأول ليس بتكرار غير مفيد و لكفاهم حجه على

توحيد الرب و أن القائم بتدبير جميع العالمين من السماوات و الأرض و ما بينهما مدبّر واحد لا مدبّر سواه و لا رب غيره.

و قد تبين بما ذكر أن الآيه أعنى قوله: «رَبُّ الْمَشْرِقِ» الخ؛ تقرير آخر لقوله في الجواب الأول: «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا» و أنه برهان على وحده المدبر من طريق وحده التدبير و في ذلك تعريف لرب العالمين بأنه المدبّر الواحد الذى يدل عليه التدبير و الواحد فى جميع العالمين، نعم البيان الذى يشير اليه هذه الآيه أوضح لاشتماله على معنى الشروق و الغروب و كونهما من التدبير ظاهر.

و قوله: «قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ» تهديد منه لموسى عليه السلام لو دام على ما يقول به من ربوبيه رب العالمين مدّعيًا أنه رسول منه و هذا دأب الجاهل المعاند إذا انقطع عن الحجه أخذ فى التهديد و تشبّث بالوعيد.

و اتخاذه إله غيره كناية عن القول بربوبيه رب العالمين الذى يدعو اليه موسى و إنما لم يذكره صوتنا للسانه عن التفوّه باسمه، و لم يعبأ بسائر الآلهه التى كانوا يعبدونها استكبارا و علوّا، و كأن السجن كان جزاء المعرضين عنه المنكرين لالوهيته.

قوله تعالى: «قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ الْقَائِلُ هُوَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ الْمُرَادُ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ شَيْءٌ يَبِينُ وَ يَظْهَرُ صَحْهُ دَعْوَاهُ وَ هُوَ آيَةُ الرَّسَالَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى صَحْهِ دَعْوَى الرَّسَالَةِ مِنْ مَدَّعِيهِ فَإِنَّ الْآيَةَ الْمَعْجِزَةَ إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ فِي دَعْوَاهُ الرَّسَالَةَ وَ أَمَّا الْمَعَارِفُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا كَالْتَوْحِيدِ وَ الْمَعَادِ وَ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِمَا فَالسَّبِيلُ إِلَى إِثْبَاتِهِ الْحُجَّةُ الْبُرْهَانِيَّةُ وَ عَلَى ذَلِكَ كَانَتْ تَجْرَى سِيرَةُ الْأَنْبِيَاءِ فِي دَعْوَتِهِمْ وَ قَدْ تَقَدَّمَ كَلَامٌ فِيهِ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنَ الْكِتَابِ.

و المعنى: قال موسى: أ تجعلنى من المسجونين و لو أتيتك بشيء و يوضح صدقى فيما ادّعت من الرسالة.

قوله تعالى: «قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ الْقَائِلُ فِرْعَوْنُ وَ قَدْ فُرِعَ أَمْرُهُ

بإتيانه على استفهام موسى المشعر بأنه يدعى أن عنده شيئاً مبيناً و لذا قيد الأمر بالإتيان بقوله: «إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» أى إن كنت صادقا فى أن عندك شيئاً كذلك.

قوله تعالى: فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ هاتان الآيتان اللتان أوتيهما موسى ليله الطور، و الثعبان: الحية العظيمة و كونه مبيناً ظهور واقعيته بحيث لا- يرتاب فيه، و المراد بنزع يده نزع من جيبه بعد وضعها فيه كما فى سورتي: النمل الآية ١٢ و القصص الآية ٣٢.

قوله تعالى: قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ القائل فرعون و قد قال لموسى: «فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» رجاء أن يأتى بأمر فيه موضع معارضه و مناقشه فلما أتى بما لا مغمض فيه لم يجد بدا دون أن يبهته بأنه ساحر عليم.

و لذا أتبع رمية بالسحر بقوله: «يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ» إغراء لهم عليه و حثا لهم على أن يتفقوا معه على دفعه بأى وسيلة ممكنه.

و قوله: فَمَاذَا تَأْمُرُونَ لعل المراد بالأمر الإشارة عليه لما أن المشير يشير على من يستشيره بلفظ الأمر فالمعنى إذا كان الشأن هذا فماذا تشيرون على أن أعامله به حتى أعمل به و ذلك أنه كان يرى نفسه ربهم الأعلى و يراهم عبيده و لا يناسب ذلك حمل الأمر على معناه المتعارف.

قوله تعالى: قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَ ابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَا تُوَكَّ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ القائلون هم الملأ حوله و هم أشراف قومه، و قوله: «أرجه» بسكون الهاء على القراءه الدائره و هو أمر من الإرجاء بمعنى التأخير أى أخر موسى و أخاه و أمهلهما و لا تعجل اليهما بسياسه أو سجن و نحوه حتى تعارض سحرهما بسحر مثله.

و قرئ «أرجه» بكسر الهاء و«أرجئه» بالهمزه و ضم الهاء و هما أفصح من القراءه

الدائرة، والمعنى واحد على أى حال.

وقوله: وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ المداين جمع مدينه و هى البلده و الحاشر من الحشر و هو إخراج الى مكان بإزعاج أى ابعث فى البلاد عده من شرطائك و جنودك يحشرون كل سحار عليم فيها و يأتوك بهم لتعارضهما بسحرهم.

و التعبير بالسحارون الساحر للإشاره الى أن هناك من هو أعلم منه بفنون السحر و أكثر عملا.

قوله تعالى: فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ، هو يوم الزينه الذى اتفق موسى و فرعون على جعله ميقاتا للمعارضه كما فى سوره طه ففى الكلام إيجاز و تلخيص.

قوله تعالى: وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَيْلٌ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ لَعَلَّكُمْ تَتَّبِعُونَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ الاستفهام لحث الناس و ترغيبهم على الاجتماع.

قال فى الكشاف ما حاصله أن المراد باتباع السحره اتباعهم فى دينهم-و كانوا متظاهرين بعباده فرعون كما يظهر من سياق الآيات التاليه-و ليس مرادهم بذلك إلا أن لا يتبعوا موسى لا اتباع السحره،و إنما ساقوا كلامهم مساق الكنايه ليحملوا به السحره على الاهتمام و الجد فى المغالبه.

قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْجُرُكَ إِنَّا كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ الاستفهام فى معنى الطلب،و قد قالوا: «إِنَّا كُنَّا» و لم يقولوا،إذا كنا نحن الغالبيين ليفسد القطع بالغلبه كما يفيد قولهم بعد: «بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ» بل ألقوه فى صوره الشك لكون أدعى لفرعون الى جعل الأجر.

و قد أثر ذلك أثره حيث جعل لهم أجرا و زاد عليه الوعد بجعلهم من المقربين.

قوله تعالى: قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا -الى قوله- تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ الحبال جمع حبل،و العصى جمع عصى،و اللقف الابتلاع بسرعه،و ما يأفكون من الإفك بمعنى صرف

الشيء عن وجهه سمى السحر إفكا لأن فيه صرف الشيء عن صورته الواقعيه الى صورته خياليه، ومعنى الآيات ظاهر.

قوله تعالى: فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ يريد أن السحرة لما رأوا ما رأوا من الآيات الباهره بهرهم و أدهشهم ذلك فلم يتمالكوا أنفسهم دون أن خرّوا على الأرض ساجدين لله سبحانه فاستعير الإلقاء لخرورهم على الأرض للدلاله على عدم تمالك أنفسهم كأنهم قد طرحوا على الأرض طرحا.

وقوله: قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ فيه إيمان بالله سبحانه إيمان توحيد لما تقدّم أن الاعتراف بكونه تعالى رب العالمين لا يتم إلا مع التوحيد و نفى الآلهه من دونه.

وقوله: رَبِّ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ فيه إشاره الى الإيمان بالرساله مضافا الى التوحيد.

قوله تعالى: قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ الى آخر الآيه: القائل فرعون، والمراد بقوله: «آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ» آمتم من دون إذن منى كما فى قوله تعالى: «لَنُقَدِّمَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَعَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي» و ليس مفاده أن الإذن كان ممكنا أو متوقعا منه كما قيل.

وقوله: إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ بهتان آخر يبهت به موسى عليه السلام ليصرف به قلوب قومه و خاصه ملاهم عنه.

وقوله: «فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» تهديد لهم فى سياق الإبهام للدلاله على أنه فى غنى عن ذكره و أما هم فسوف يعلمونه.

وقوله: لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأَلْصِقَ لِبَتِّكُمْ أَجْمَعِينَ القطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو بالعكس و التصليب جعل المجرم على الصليب، وقد تقدم نظير الآيه فى سورتي الأعراف و طه.

قوله تعالى: قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَهِي رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ الضير هو الضرر، وقوله: «إِنَّا

إِلَىٰ رَبِّنَا مُتَّقِلُونَ» تعليل لقولهم: لا ضير أى إنا لا نستضر بهذا العذاب الذى توعدنا به لأننا نصبر و نرجع بذلك الى ربنا و ما أكرمه من رجوع!.

قوله تعالى: إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ تعليل لما يستفاد من كلامهم السابق أنهم لا يخافون الموت و القتل بل يشتاقون الى لقاء ربهم يقولون: لا نخاف من عذابك شيئاً لأننا نرجع به الى ربنا و لا نخاف الرجوع لأننا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا بسبب كوننا أول المؤمنين بموسى و هارون رسولى ربنا.

و فتح الباب فى كل خير له أثر من الخير لا- يرتاب فيه العقل السليم فلو أن الله سبحانه أكرم مؤمنا لإيمانه و الرحمة لم تظفر مغفرته و رحمته أول الفاتحين لهذا الباب و الواردين هذا المورد.

قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ شروع فى سرد الشطر الثانى من القصة و هو وصف عذاب آل فرعون بسبب ردهم دعوه موسى و هارون عليه السلام، و قد كان الشطر الأول رساله موسى و هارون اليهم و دعوتهم الى التوحيد، و الإسراء و السرى السير بالليل، و المراد بعبادى بنو إسرائيل و فى هذا التعبير نوع إكرام لهم.

و قوله: إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ تعليل للأمر أى سر بهم ليلا- ليتبعكم آل فرعون و فيه دلالة على أن لله فى اتباعهم أمرا و أن فيه فرج بنى إسرائيل و قد صرح بذلك فى قوله: فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ وَ اتَّزَكِ الْبَحْرَ رَهْوَاً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّعْرَقُونَ (الدخان ٢٤).

قوله تعالى: فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ -الى قوله- ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ قصه غرق آل فرعون و إنجاء بنى إسرائيل فى أربع عشره آيه و قد أوجز فى الكلام بحذف بعض فصول القصة لظهوره من سياقها كخروج موسى و بنى إسرائيل ليلا من مصر لدلاله قوله: «أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي» عليه و على هذا القياس.

فقال تعالى: فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ أَي فَأَسْرَىٰ مُوسَىٰ بِعِبَادِي فَلَمَّا عَلِمَ فِرْعَوْنَ بِذَلِكَ

أرسل «فِي الْمَدَائِنِ» التي تحت سلطانه رجالا «حَاشِرِينَ» يحشرون الناس و يجمعون الجموع قائلين للناس «إِنَّ هَؤُلَاءِ» بنى إسرائيل «لَشَرٌّ ذِمَّةٌ قَلِيلُونَ» و الشرذمه من كل شيء بقيته القليله فتوصيفها بالقله تأكيد «وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ» يأتون من الأعمال ما يغيظونا به «وَإِنَّا لَجَمِيعٌ» مجموع متفق فيما نعزم عليه «حَاذِرُونَ» نحذر العدو أن يفتالنا أو يمكر بنا و إن كان ضعيفا قليلا، و المطلوب بقولهم هذا و هو لا محاله بلاغ من فرعون حث الناس عليهم.

فَأَخْرَجْنَاَهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ فِيهِ قَصُورُهُمُ الْمَشِيدَةُ وَبُيُوتُهُمُ الرَّفِيعَةُ، و لما كان خروجهم عن مكر إلهي بسبب داعيه الاستعلاء و الاستكبار التي فيهم نسب الى نفسه أنه أخرجهم «كَذَلِكَ» أى الأمر كذلك «وَ أَوْرَثْنَاَهُمْ» أى تلك الجنات و العيون و الكنوز و المقام الكريم «بَنِي إِسْرَائِيلَ» حيث أهلكنا فرعون و جنوده و أبقينا بنى إسرائيل بعدهم فكانوا هم الوارثين.

فَاتَّبَعُوهُمْ أى لحقوا بنى إسرائيل «مُشْرِقِينَ» أى داخلين فى وقت شروق الشمس و طلوعها «فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ» أى دنا بعضهم من بعض فرأى كل من الجمعين جمع فرعون و جمع موسى الآخر، «قَالَ أَصِيحَابُ مُوسَى» من بنى إسرائيل خائفين فزعين «إِنَّا لَمُدْرِكُونَ» سيدركنا جنود فرعون.

«قال موسى كلاً» لن يدركونا «إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ» و المراد بهذه المعية معيه الحفظ و النصره و هى التي وعدا له ربه أول ما بعثه و أخاه الى فرعون «إِنِّي مَعَكُمْ» و أما معيه الإيجاد و التدبير فالله سبحانه مع موسى و فرعون على نسبه سواء، و قوله: «سَيَهْدِينِ» أى سيدلنى على طريق لا يدركنى فرعون معها.

فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْفَلَقَ و الانفلاق انشقاق الشيء و بينونه بعضه من بعض «فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ» أى قطعه منفصله من الماء «كَالطُّودِ» و هو القطعه من الجبل «الْعَظِيمِ» فدخلها موسى و من معه من بنى إسرائيل.

«وَأَزَلَفْنَا ثُمَّ» أى وقربنا هناك «الْمَآخِرِينَ» وهم فرعون و جنوده «وَأُنَجِّيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ» بحفظ البحر على حاله و هيئته حتى قطعوه و خرجوا منه، «ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ» بإطباق البحر عليهم و هم فى فلقه.

قوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَمَآيَةٍ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ظاهر السياق-و يؤيده سياق القصص الآتية-أن المشار اليه مجموع ما ذكر فى قصه موسى من بعثه و دعوته فرعون و قومه و إنجاء بنى إسرائيل و غرق فرعون و جنوده،ففى ذلك كله آيه تدل على توخده تعالى بالربوبية و صدق الرساله لمن تدبر فيها.

و قوله: وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ أى و ما كان أكثر هؤلاء الذين ذكرنا قصتهم مؤمنين مع ظهور ما دل عليه من الآيه و على هذا فقوله بعد كل من القصص المورده فى السوره:

«وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» بمنزله أخذ النتيجة و تطبيق الشاهد على المستشهد له كأنه يقال بعد إيراد كل واحده من القصص:هذه قصتهم المتضمنه لآياته تعالى و ما كان أكثرهم مؤمنين كما لم يؤمن أكثر قومك فلا تحزن عليهم فهذا دأب كل من الامم التى بعثنا اليهم رسولا فدعاهم الى توحيد الربوبية.

[سوره الشعراء (٢٦): الآيات ٦٩ الى ١٠٤]

إشارة

وَ أَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَاقِبِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَأَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَ يَسْقِينِي (٧٩) وَ إِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي (٨٠) وَ الَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي (٨١) وَ الَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَعْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَ اجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَ اجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَ لَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَ أَرْزَلْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُنْتَظِرِينَ (٩٠) وَ بَرَزْتَ الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُذِّبُوا فِيهَا هُمْ وَ الْعَاوُونَ (٩٤) وَ جُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَ هُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نَسَّوْكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَ مَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَ لَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)

قوله تعالى: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ غَيْرِ السِّيَاقِ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ أَوَّلَ الْقِصَّةِ «وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ» الخ؛ لمكان قوله: «عَلَيْهِمْ» فَإِنَّ الْمَطْلُوبَ تَلَاوَتَهُ عَلَىٰ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَعَمَدَتِهِمْ قَرِيشَ وَإِبْرَاهِيمَ هَذَا أَبُوهُمْ وَقَدْ قَامَ لِنَشْرِ التَّوْحِيدِ وَإِقَامَةِ الدِّينِ الْحَقِّ وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ مَنْ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَنَصَرَ اللَّهُ وَنَصَرَهُ حَتَّىٰ ثَبَتَتْ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ وَفِي الْحِجَازِ.

فلم يكن ذلك كله إلا- عن دعوته من الفطرية وبعث من الله سبحانه ففي ذلك آية لله فليعتبروا به وليتبرءوا به من دين الوثنية كما تبرأ منه ومن أبيه وقومه المنتحلين به أبوهم إبراهيم عليه السلام.

قوله تعالى: **إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ** مخاصمته و مناظرته عليه السّلام مع أبيه غير مخاصمته مع قومه و احتجاجه عليهم كما حكاه الله تعالى فى سورة الأنعام و غيرها لكن البناء هاهنا على الإيجاز و الاختصار و لذا جمع بين المحاجتين و سبكهما محاجه واحده أورد فيها ما هو القدر المشترك بينهما.

و قوله: **مَا تَعْبُدُونَ** سؤال عن الحقيقه بوضع نفسه موضع من لا يعرف شيئا من حقيقتها و سائر شئونها و هذا من طرق المناظره سبيل من يريد أن يبين الخصم حقيقه مدّعا و سائر شئونه حتى يأخذه بما سمع من اعترافه.

على أن هذه المحاجه كانت من إبراهيم أول ما خرج من كهفه و دخل فى مجتمع أبيه و قومه و لم يكن شهد شيئا من ذلك قبل اليوم فحاجّهم عن فطره ساذجه طاهره كما تقدم تفصيل القول فى تفسير سورة الأنعام.

قوله تعالى: **قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَاكِفِينَ** ظلّ بمعنى دام، و العكوف على الشىء ملازمته و الإقامة عنده، و اللام فى «لها» للتعليل أى ندوم عاكفين عليها لأجلها و هو تفرّيع على عباده الأصنام.

و بالجملة فجوابهم عن سؤال إبراهيم **«مَا تَعْبُدُونَ»** بقولهم: **«نَعْبُدُ أَصْنَامًا»** إبانه أن هذه الأجسام المعبوده ممثلات مقصوده لغيرها لا لنفسها، و قد أخذ إبراهيم قولهم: **«نَعْبُدُ»** و خاصمهم به فإن استقلال الأصنام بالمعبوديه لا يجمع كونها أصناما ممثله للغير فإذ كانت مقصوده بالعباده فمن الواجب أن يشتمل على ما هو الغرض المقصود منها من جلب نفع أو دفع ضرر بالتوجه العبادى و الدعاء و المسأله و الأصنام بمعزل من أن تعلم بمسأله أو تجيب مضطرا بإيصال نفع أو صرف ضرر و لذلك سألهم إبراهيم بقوله: **«هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ»** الخ.

قوله تعالى: **قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضَرُّونَ** اعترض عليه السّلام عليهم فى عبادتهم الأصنام من جهتين:

إحداهما: أن العبادة تمثيل لذلّه العابد و حاجته الى المعبود فلا- يخلو من دعاء من العابد للمعبود، و الدعاء يتوقف على علم المعبود بذلك و سمعه ما يدعوه به، و الأصنام أجسام جماديه لا سمع لها فلا معنى لعبادتها.

و الثانيه: أن الناس إنما يعبدون الإله إما طمعا فى خيره و نفعه و إما اتقاء من شرّه و ضرّه و الأصنام جمادات لا قدره لها على إيصال نفع أو دفع ضرر.

فكل من الآيتين يتضمن جهه من جهتي الاعتراض، و قد أوردتهما فى صورته الاستفهام ليضطربهم على الاعتراف.

قوله تعالى: قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ كَانَ مَقْتَضَى الْمَقَامِ أَنْ يَجِيبُوا عَنْ سُؤَالِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالنَّفْيِ لَكِنَّهُ لَمَّا كَانَ يَنْتَهِجُ خِلَافَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِتِّحَالِ بِالْوَثْنِيَةِ أَضْرَبُوا عَنْهُ إِلَى التَّشْبِيهِ بِذِيْلِ التَّقْلِيدِ فَذَكَرُوا أَنَّهُمْ لَا مُسْتَنْدَ لَهُمْ فِي عِبَادَتِهَا إِلَّا تَقْلِيدَ الْآبَاءِ مُحْضًا.

و قوله: وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ أى فعلنا كما كانوا يفعلون و عبدناهم كما كانوا يعبدون، و لم يعدل عن قوله: «كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ» الى مثل قولنا: يعبدونها ليكون أصرح فى التقليد كأنهم لا يفهمون من هذه العبادات إلا أنها أفعال كأفعال آبائهم من غير أن يفقهوا منها شيئاً أزيد من أشكالها و صورها.

قوله تعالى: قَالُوا فَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَادُوا لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ لَمَّا انْتَهَتْ مُحَاجَّتُهُ مَعَ أَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِلَى أَنْ لَا حُجَّةَ لَهُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ الْأَصْنَامَ إِلَّا تَقْلِيدَ آبَائِهِمْ مُحْضًا تَبَرُّاً عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ آلِهَتِهِمْ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ آبَائِهِمْ بِقَوْلِهِ: «أَفَرَأَيْتُمْ» الخ.

فقوله: أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ تَفْرِيعٌ عَلَى مَا ظَهَرَ مِمَّا تَقَدَّمَ مِنْ عَدَمِ الدَّلِيلِ عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ إِلَّا التَّقْلِيدَ بَلْ بَطْلَانِهَا مِنْ أَصْلِهَا أَى إِذَا كَانَتْ

باطله لا حجه لكم عليها إلا تقليد آباءكم فهذه الأصنام التي رأيتموها أى هذه بأعيانها التي تعبدونها أنتم و آباؤكم الأقدمون فإنها عدو لى لأن عبادتها ضاره لدينى مهلكه لنفسى فليست إلا عدوا لى.

و ذكر آباءهم الأقدمين للدلاله على أنه لا يأخذ بالتقليد كما أخذوا و أن لا وقع عنده عليه السلام لتقدم العهد، و لا أثر للسبق الزمانى فى إبطال حق أو إحقاق باطل، و إرجاع ضمير أولى العقل الى الأصنام لمكان نسبه العباده إليها و هى تستلزم الشعور و العقل، و هو كثير الوقوع فى القرآن.

□
و قوله: **إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ** استثناء منقطه من قوله: **«فَأَنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي»** أى لكن رب العالمين ليس كذلك.

قوله تعالى: **الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ** -الى قوله- **يَوْمَ الدِّينِ** لما استثنى رب العالمين جل اسمه وصفه بأوصاف تتم بها الحجه على أنه تعالى ليس عدوا له بل رب رحيم ذو عناية بحاله منعم عليه بكل خير دافع عنه كل شر فقال: **«الَّذِي خَلَقَنِي»** الخ؛ و أما قول القائل: إن قوله: **«الَّذِي خَلَقَنِي»** الخ؛ استيناف من الكلام لا يعبا به.

فقوله: **الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ** بدأ بالخلق لأن المطلوب بيان استناد تدبير أمره اليه تعالى بطريق إعطاء الحكم بالدليل، و البرهان على قيام التدبير به تعالى قيام الخلق و الإيجاد به لوضوح أن الخلق و التدبير لا ينفكان فى هذه الموجودات الجسمانيه التدريجييه الوجود التى تستكمل الوجود على التدرج فليس من المعقول أن يقوم الخلق بشىء و التدبير بشىء و إذ كان الخلق و الإيجاد لله سبحانه فالتدبير له أيضا.

و لهذا عطف الهدايه على الخلق بفاء التفرع، فدل على أنه تعالى هو الهادى لأنه هو الخالق.

و ظاهر قوله: **فَهُوَ يَهْدِينِ** -و هو مطلق- أن المراد به مطلق الهدايه الى المنافع

دنيويه كانت أو أخرويه و التعبير بلفظ المضارع لإفاده الاستمرار فالمعنى أنه الذى خلقنى و لا يزال يهدينى الى ما فيه سعاده حياتى منذ خلقنى و لن يزال كذلك. فيكون الآيه فى معنى ما حكاه الله عن موسى إذ قال لفرعون: رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (طه / ٥٠)، أى هداه الى منافعه و هى الهدايه العامه.

و هذا هو الذى أشير اليه فى أول السوره بقوله: «أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً» و قد مر تقرير الحجه فيه.

و على هذا فما سيأتى فى قوله: «وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي» الخ؛ من الصفات المعدوده من قبيل ذكر الخاص بعد العام فإنها جميعا من مصاديق الهدايه العامه بعضها هدايه الى منافع دنيويه و بعضها هدايه الى ما يرجع الى الآخره.

و لو كان المراد بالهدايه الهدايه الخاصه الدينيه فالصفات المعدوده على رسلها و ذكر الهدايه بعد الخلقه، و تقديمها على سائر النعم و المواهب لكونها أفضل النعم بعد الوجود.

و قوله: «وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَ يَشْقِينِ وَ إِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ» هو كالكنايه عن جمله النعم الماديه التى يرزقه الله اياها لتتميم النواقص و رفع الحوائج الدنيويه، و قد خصّ بالذكر منها ما هو أهمها و هو الإطعام و السقى و الشفاء إذا مرض.

و من هنا يظهر أن قوله: «وَ إِذَا مَرِضْتُ» توطئه و تمهيد لذكر الشفاء، فالكلام فى معنى يطعمنى و يسقيني و يشفينى، و لذا نسب المرض الى نفسه لثلاثه - يختل المراد بذكر ما هو سلب النعمه بين النعم، و أما قول القائل: إنه إنما نسب المرض الى نفسه مع كونه من الله للتأدب فليس بذاك.

و إنما أعاد الموصول فقال: «الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي» الخ؛ و لم يعطف الصفات على ما فى قوله:

«الذى خلقتنى فهو يهدين» للدلاله على أن كلا من الصفات المذكوره فى هذه الجملة المترتبه كان فى إثبات كونه تعالى هو الرب المدبّر لأمره و القائم على نفسه المجيب لدعوته.

وقوله: وَ الَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ يريد الموت المقضى لكل نفس المدلول عليه بقوله: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ (الأنبياء ٣٥)، و ليس بانعدام و فناء بل انتقال من دار الى دار من جملة التدبير العام الجارى، و المراد بالإحياء إفاضه الحياه بعد الموت.

وقوله: وَ الَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يُعْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ أى يوم الجزاء و هو يوم القيامة، و لم يقطع بالمغفره كما قطع فى الامور المذكوره قبلها لأن المغفره ليست بالاستحقاق بل هى فضل من الله فليس يستحق أحد على الله سبحانه شيئا لكنه سبحانه قضى على نفسه الهدايه و الرزق و الإمامته و الإحياء لكل ذى نفس و لم يقض المغفره لكل ذى خطيئه فقال:

فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ (الذاريات ٢٣)، و قال: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ (الأنبياء ٣٥)، و قال: إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا (يونس ٤)، و قال فى المغفره:

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (النساء ٤٨).

و نسبه الخطيئه الى نفسه و هو عليه السّلام نبى معصوم من المعصيه دليل على أن المراد بالخطيئه غير المعصيه بمعنى مخالفه الأمر المولوى فإن للخطيئه و الذنب مراتب تتقدر حسب حال البعد فى عبوديته كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين، و قد قال تعالى لنبيه صلى الله عليه و آله و سلم: «وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ» .

فالخطيئه من مثل إبراهيم عليه السّلام اشتغاله عن ذكر الله محضا بما تقتضيه ضروريات الحياه كالنوم و الأكل و الشرب و نحوها و إن كانت بنظر آخر طاعه منه عليه السّلام كيف؟ و قد نص تعالى على كونه عليه السّلام مخلصا لله لا يشاركه تعالى فيه شىء إذ قال: «إنا أخلصناهم بالخالصه ذكرى الدار» (ص ٤٦)، و قد قدمنا كلاما له تعلق بهذا المقام فى آخر الجزء السادس و فى قصص إبراهيم فى الجزء السابع من الكتاب.

قوله تعالى: رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ لما ذكر عليه السّلام نعم ربه المستمره المتواليه المتراكمه عليه منذ خلق الى ما لا نهايه له من أمد البقاء و صوّر بذلك شمول

اللطف و الحنان الإلهي أخذته جاذبه الرحمه الملتئمه بالفقر العبودي فدعته الى إظهار الحاجه و بثّ المسأله فالتفت من الغيبه الى الخطاب فسأل ما سأل.

فقوله: رَبِّ أَضَافِ الرَّبَّ إِلَى نَفْسِهِ بَعْدَ مَا كَانَ يَصِفُهُ بِمَا أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِثَارَهُ لِلرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَ تَهْيِيجًا لِلْعَنَائِهِ الرَّبَّانِيَّةِ لِاسْتِجَابِهِ دَعَائِهِ وَ مَسْأَلَتِهِ.

و قوله: هَبْ لِي حُكْمًا يريد بالحكم ما تقدم في قول موسى عليه السّلام فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا الْآيَةَ ٢١ من السوره و هو- كما تقدم- إصابه النظر والرأى فى المعارف الاعتقاديه و العمليه الكليه و تطبيق العمل عليها كما يشير اليه قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا- نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (الأنبياء ٢٥)، و هو وحى المعارف الاعتقاديه و العمليه التى يجمعها التوحيد و التقوى، و قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (الأنبياء ٧٣)، و هو وحى التسديد و الهدايه الى الصلاح فى مقام العمل، و تنكير الحكم لتفخيم أمره.

و قوله: وَ أَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ الصلاح- على ما ذكره الراغب- يقابل الفساد الذى هو تغير الشىء عن مقتضى طبعه الأصلى فصلاحه كونه على مقتضى الطبع الأصلى فيترتب عليه من الخير و النفع ما من شأنه أن يترتب عليه من غير أن يفسد فيحرم من آثاره الحسنه.

و إذ كان «بِالصَّالِحِينَ» غير مقيّد بالعمل و نحوه فالمراد به الصالحون ذاتا لا عملا فحسب و إن كان صلاح الذات لا ينفك عنه صلاح العمل، قال تعالى: أَلْبَدُّ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ (الأعراف ٥٨).

فصلاح الذات كونها تامه الاستعداد لقبول الرحمه الإلهيه و إفاضه كل خير و سعادته من شأنها أن تتلبس به من يغر أن يقارنها ما يفسدها من اعتقاد باطل أو عمل سيئ و بذلك يتبين أن الصلاح الذاتى من لوازم موهبه الحكم بالمعنى الذى تقدم و إن كان الحكم أخص

فمسأله الإلحاق بالصالحين من لوازم مسأله موهبه الحكم و فروعها المترتبه عليها فيعود معنى قوله: «رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» الى مثل قولنا: رب هب لي حكما و تتم أثره في و هو الصلاح الذاتي.

و قد تقدم في تفسير قوله تعالى: وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (البقره ١٣٠/١) في الجزء الأول من الكتاب كلام له تعلق بهذا المقام.

قوله تعالى: وَ اجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ إضافه اللسان الى الصديق لاميّه تفيد اختصاصه بالصديق بحيث لا يتكلم إلا به، و ظاهر جعل هذا اللسان له أن يكون مختصا به كلسانه لا يتكلم إلا بما في ضميره مما يتكلم هو به فيقول المعنى الى مسأله أن يبعث الله في الآخرين من يقوم بدعوته و يدعو الناس الى ملته و هي دين التوحيد.

فتكون الآيه في معنى قوله في سوره الصافات بعد ذكر إبراهيم عليه السلام: وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (الصافات ١٠٨/١)، و قد ذكر هذه الجملة بعد ذكر عده من الأنبياء غيره كنوح و موسى و هارون و إلياس، و كذا قال تعالى في سوره مريم بعد ذكر زكريا و يحيى و عيسى و إبراهيم و موسى و هارون: وَ جَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (مريم ٥٠/١) فالمراد على أى حال إبقاء دعوتهم بعدهم بعدهم ببعث رسل أمثالهم.

قوله تعالى: وَ اجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ تقدم معنى وراثه الجنة في تفسير قوله تعالى: أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (المؤمنون ١٠/١).

قوله تعالى: وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ استغفار لأبيه حسب ما وعده في قوله: سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي (مريم ٤٧/١)، و ليس ببعيد أن يستفاد من قوله تعالى: وَ مَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ (التوبه ١١٤/١)، أنه دعا لأبيه بهذا الدعاء و هو حتى بعد، و على هذا فمعنى قوله:

«إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ» أنه كان قبل الدعاء بزمان من أهل الضلال.

قوله تعالى: «وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» الخزي عدم النصر ممن يؤمل منه النصر، والضمير في «يُبْعَثُونَ» للناس ولا يضره عدم سبق الذكر لكونه معلوما من خارج.

و يعلم من سؤاله عدم الإخزاء يوم القيامة أن الإنسان في حاجة الى النصر الإلهي يومئذ فهذه البنية الضعيفة لا تقوم دون الأحوال التي تواجهها يوم القيامة إلا بنصر و تأييد منه تعالى.

وقوله: «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ الظرف بدل من قوله: «يَوْمَ يُبْعَثُونَ» و به يندفع قول من قال: إن قول إبراهيم قد انقطع في «يُبْعَثُونَ» والآية الى تمام خمسة عشر آية من كلام الله تعالى.

وقوله: «إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» قال الراغب: السلم و السلامة التعرّى من الآفات الظاهرة و الباطنة. انتهى. و السياق يعطى أنه عليه السلام في مقام ذكر معنى جامع يتميز به اليوم من غيره و قد سأل ربه أولاً أن ينصره و لا يخزيه يوم لا ينفعه ما كان ينفعه في الدنيا من المال و البنين، و مقتضى هذه التوطئة أن يكون المطلوب بقوله: «إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» بيان ما هو النافع يومئذ و قد ذكر فيه الإتيان بالقلب السليم.

فالاستثناء منقطع، و المعنى: لكن من أتى الله بقلب سليم فإنه ينتفع به، و المحصل أن مدار السعادة يومئذ على سلامه القلب سواء كان صاحبه ذا مال و بنين في الدنيا أو لم يكن.

قوله تعالى: «وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ» الازلافة التقريب و التبريز الاظهار، و في المقابلة بين المتقين و الغاوين و اختيار هذين الوصفين لهاتين الطائفتين إشاره الى ما قضى به الله سبحانه يوم رجم إبليس عند إبائه أن يسجد لآدم كما ذكر في سورة الحجر: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ

لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ -الى أن قال- إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (الحجر ٤٥).

قوله تعالى: وَقِيلَ لَهُمْ أَيُّنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ أَي هل يدفعون الشقاء و العذاب عنكم او عن أنفسكم، و المحصل أنه يتبين لهم أنهم ضلوا في عبادتهم غير الله.

قوله تعالى: فَكُذِّبُوا فِيهَا هُمْ وَ الْغَاوُونَ وَ الْجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ يقال: كبه فانكب أى ألقاه على وجهه و كببه أى ألقاه على وجهه مره بعد اخرى فهو يفيد تكرار الكب كذب و دبذب و ذب و ذبذب و زال و ذلزل و دك و دكدك.

و ضمير الجمع فى قوله: «فَكُذِّبُوا فِيهَا هُمْ» للأصنام كما يدل عليه قوله: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ (الأنبياء ٩٨) و هؤلاء إحدى الطوائف الثلاث التى تذكر الآيه أنها تكذب فى جهنم يوم القيامة، و الطائفة الثانية الغاؤون المقضى عليهم ذلك كما فى آيه الحجر المنقوله آفءاء، و الطائفة الثالثة جنود إبليس و هم قرناء الشياطين الذين يذكر القرآن أنهم لا يفارقون أهل الغوايه حتى يدخلوا النار، قال تعالى: وَ مَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ -الى أن قال- وَ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (الزخرف ٣٩).

قوله تعالى: قَالُوا وَ هُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ -الى قوله- إِلَّا الْمُجْرِمُونَ الظاهر أن القائلين هم الغاؤون، و الاختصام واقع بينهم يخاصمون أنفسهم و الشياطين على ما ذكره الله سبحانه فى مواضع من كلامه.

و قوله: تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ اعتراف منهم بالضللال، و الخطاب فى قوله: «إِذْ نُسَّوْكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ» للالهة من الأصنام و هم معهم فى النار، أو لهم و للشياطين أو لهما و للمتبعين و الرؤساء من الغاوين و خير الوجوه أولها.

و قوله: وَ مَا أَضَلَّتْ إِلَّا الْمُجْرِمُونَ الظاهر أن كلا من القائلين يريد بالمجرمين

غيره من إمام ضلال اقتدى به فى الدنيا وداع دعاه الى الشرك فاتبعه و آباء مشركين قلدتهم فيه و خليل تشبه به، و المجرمون على ما يستفاد من آيات القيامة هم الذين ثبت فيهم الإجماع و قضى عليهم بدخول النار قال تعالى: وَ اَمْتَاَزُوا الْيَوْمَ اَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (يس ٥٦).

قوله تعالى: فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَ لَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ الْحَمِيمِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الرَّاِغِبُ الْقَرِيبُ الْمَشْفُقُ.

و هذا الكلام تحسّر منهم على حرمانهم من شفاعه الشافعين و إغاثة الأصدقاء و فى التعبير بقوله: «فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ» إشاره الى وجود شافعين هناك يشفعون بعض المذنبين، و لو لا ذلك لكان من حق الكلام أن يقال: فما لنا من شافع إذ لا نكته تقتضى الجمع، و قد روى أنهم يقولون ذلك لما يرون الملائكه و الأنبياء و المؤمنين يشفعون.

قوله تعالى: فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ تمن منهم أن يرجعوا الى الدنيا فيكونوا من المؤمنين حتى ينالوا ما ناله المؤمنون من السعاده.

قوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ؛ أى فى قصه إبراهيم عليه السلام و لزومه عن فطرته الساذجه دين التوحيد و توجيه وجهه نحو رب العالمين و تبرّيه من الأصنام و احتجاجه على الوثنيين و عبده الأصنام آيه لمن تدبّر فيها على أن فى سائر قصصه من محنه و ابتلاءاته التى لم تذكر هاهنا كإلقائه فى النار و نزول الضيف من الملائكه عليه و قصه إسكانه إسماعيل و أمه بوادى مكه و بناء الكعبه و ذبح إسماعيل آيات لاولى الأبواب.

و قوله: وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ أى و ما كان أكثر قوم إبراهيم مؤمنين و الباقي ظاهر مما تقدم.

[سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٠٥ الى ١٢٢]

إشارة

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا (١٠٨) وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا (١١٠) قَالُوا أَ نُوْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَ مَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَ مَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحًا وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجِنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)

قوله تعالى: كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ قَالَ فِي الْمَفْرَدَات: القوم جماعه الرجال

ص: ٥٦٩

فى الأصل دون النساء، و لذلك قال: «لَا يَسِيخِرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ» الآية؛ قال الشاعر: أقوم آل حصن أم نساء، و فى عاثة القرآن أريدوا به و النساء جميعا. انتهى.

و لفظ القوم قيل: مذكر و تأنيث الفعل المسند اليه بتأويل الجماعه و قيل: مؤنث و قال فى المصباح: يذكر و يؤنث.

و عد القوم مكذبين للمرسلين مع أنهم لم يكذبوا إلا واحدا منهم و هو نوح عليه السلام إنما هو من جهه أن دعوتهم واحده و كلمتهم متفقه على التوحيد فيكون المكذب للواحد منهم مكذبا للجميع و لذا عد الله سبحانه الإيمان ببعض رسله دون بعض كفرا بالجميع قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنُكْفِرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا (النساء ١٥١).

قوله تعالى: إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ المراد بالأخ النسب كقولهم:

اخو تميم و اخو كليب و الاستفهام للتوبيخ.

قوله تعالى: إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ أى رسول من الله سبحانه أمين على ما حملته من الرسالة لا أبلغكم إلا ما أمرنى ربي و اراده منكم، و لذا فرع عليه قوله: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ» فأمرهم بطاعته لأن طاعته طاعه الله.

قوله تعالى: وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ مسوق لنفى الطمع الدنيوى بنفى سؤال الأجر فيثبت بذلك انه ناصح لهم فيما يدعوههم اليه لا يخونهم و لا يغشهم فعليهم ان يطيعوه فيما يأمرهم، و لذا فرع عليه ثانيا قوله: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ» .

و العدول فى قوله: «إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ» عن اسم الجلاله الى «رَبِّ الْعَالَمِينَ» للدلاله على صريح التوحيد فإنهم كانوا يرون انه تعالى إله عالم الآلهه و كانوا يرون لكل عالم إله آخر يعبدونه من دون الله فإثباته تعالى ربا للعالمين جميعا تصريح بتوحيد العباده و نفى

بمنزله التعليل للاولى و المجموع متمم للبيان السابق و المعنى: لا شأن لى إلا الإنذار و الدعوه فلست أترد من أقبل على و آمن بى و لست أتفحص عن سابق أعمالهم لا حاسبهم عليها فحاسبهم على ربي و هو رب العالمين لا على.

قوله تعالى: **قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ** المراد بالانتهاء ترك الدعوه، و الرجم هو الرمى بالحجاره، و قيل: المراد به الشتم و هو بعيد، و هذا مما قالوه فى آخر العهد من دعوتهم يهددونه عليه السلام بقول جازم كما يشهد به ما فى الكلام من وجوه التأكيد.

قوله تعالى: **قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتَحًا** الخ؛ هذا استفتاح منه عليه السلام و قد قدم له قوله: **«رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ»** على سبيل التوطئه أى تحقق منهم التكذيب المطلق الذى لا مطمع فى تصديقهم بعده كما يستفاد من دعائه عليهم إذ يقول **رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَارًا إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَ لَا يَلْدُوا إِلَّا فَاغْرًا كَفَّارًا** (نوح ٢٧).

و قوله: **فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتَحًا** كناية عن القضاء بينه و بين قومه كما قال تعالى: **وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قَضَىٰ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ** (يونس ٤٧).

و أصله من الاستعاره بالكنايه كأنه و أتباعه و الكفار من قومه اختلطوا و اجتمعوا من غير تميز فسأل ربه أن يفتح بينهم بإيجاد فسحه بينه و بين قومه يبتعد بذلك أحد القبيلين من الآخر و ذلك كناية عن نزول العذاب و ليس يهلك إلا القوم الفاسقين و الدليل عليه قوله بعد: **«وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»**.

و قيل: الفتح بمعنى الحكم و القضاء من الفتاحه بمعنى الحكومه.

قوله تعالى: **فَأَنْجَيْنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ** أى المملوء منهم و من

قوله تعالى: كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ قوم عاد من العرب العاربه الاولى كانوا يسكنون الأحقاف من جزيره العرب لهم مدنيه راقيه و أراض خصبه و ديار معموره فكذبوا الرسل و كفروا بأنعم الله و طغوا فأهلكهم الله بالريح العقيم و خرب ديارهم و عفا آثارهم. و عاد فيما يقال اسم أبيهم فتسميتهم بعاد من قبيل تسميه القوم باسم أبيهم كما يقال تميم و بكر و تغلب و يراد بنو تميم و بنو بكر و بنو تغلب.

و قد تقدم فى نظير الآيه من قصه نوح وجه عد القوم مكذبين للمرسلين و لم يكذبوا ظاهرا إلا واحدا منهم.

قوله تعالى: إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ -الى قوله- رَبِّ الْعَالَمِينَ تقدم الكلام فيها فى نظائرها من قصه نوح عليه السلام.

قوله تعالى: أَتَبْنُونَ بُكُلًّا رِيحَ آيَةٍ تَعْبُثُونَ الرِّيحَ هو المرتفع من الأرض و الآيه علامه، و العبث الفعل الذى لا غايه له، و كأنهم كانوا يبنون على قلل الجبال و كل مرتفع من الأرض ابنيه كالأعلام يتنزهون فيها و يفاخرون بها من غير ضروره تدعوه الى ذلك بل لهوا و اتباعا للهوى فوبخهم عليه.

وقد ذكر للآيه معان آخر لا دليل عليها من جهه اللفظ و لا ملاءمه للسياق اضربنا عنها.

قوله تعالى وَ تَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، المصانع على ما قيل: الحصون المنيعه و القصور المشيده و الأبنيه العاليه واحدها مصنع.

و قوله: «لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ» فى مقام التعليل لما قبله أى تتخذون هذه المصانع بسبب أنكم ترجون الخلود و لو لا رجاء الخلود ما عملتم مثل هذه الأعمال التى من طبعها أن تدوم دهرا طويلا لا يفى به أطول الأعمار الإنسانيه، و قيل فى معنى الآيه و مفرداتها وجوه أخرى أغمضنا عنها.

قوله تعالى: وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ قَالَ فى المجمع: البطش العسف قتلا غيره بعظيم سلطانه. و هو فى صفه الله سبحانه

أى اتقوا الله يمدكم بنعمه لأنه يمدكم بها فيجب عليكم أن تشكروه بوضع نعمه فى موضعها من غير إتراف و استكبار فإن كفران النعمة يستعقب السخط و العذاب قال تعالى: لِيُنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لِيُنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (إبراهيم ٧).

و قد ذكر النعم إجمالاً بقوله أولاً: «أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ» ثم فصلها بقوله ثانياً: «أمدكم بأموال و بنين و جنات و عيون».

و فى قوله: أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ نكته أخرى هى أنكم تعلمون أن هذه النعم من إمداده تعالى و صنعه لا يشاركه فى إيجادها و الإمداد بها غيره فهو الذى يجب لكم أن تتقوه بالشكر و العبادة دون الأوثان و الأصنام فالكلام متضمن للحجه.

قوله تعالى: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ تعليل للأمر بالتقوى أى إنى آمركم بالتقوى شكراً لأنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم إن تكفروا و لم تشكروا، و الظاهر أن المراد باليوم العظيم يوم القيامة و إن جوّز بعضهم أن يكون المراد به يوم عذاب الاستئصال.

قوله تعالى: قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ نفى لأثر كلامه و إيتاس له من إيمانهم بالكلية.

قيل: الكلام لا يخلو من مبالغه فقد كان مقتضى الترديد أن يقال: أوعظت أم لم تعظ ففى العدول عنه الى قوله: «أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ» النافى لأصل كونه واعظاً ما لا يخفى من المبالغه.

قوله تعالى: إِنَّ هَذَا إِلا خُلِقَ الْأَوَّلِينَ الخلق بضم الخاء و اللام أو سكونها قال الراغب: الخلق و الخلق - أى بفتح الخاء و ضمها - فى الأصل واحد كالشرب و الشرب و الصرم و الصرم لكن خصّ الخلق - بفتح الخاء - بالهيئات و الأشكال و الصور المدركه بالبصر، و خصّ الخلق - بضم الخاء - بالقوى و السجايا المدركه بالبصيره، قال تعالى: «إِنَّكَ

لَعَلِّي خُلِقَ عَظِيمٌ» و قرئ «إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلِقَ الْأَوَّلِينَ» انتهى.

و الإشارة بهذا الى ما جاء به هود و قد سموه وعظا و المعنى: ليس ما تلبست به من الدعوه الى التوحيد و الموعظه إلا عاده البشر الأولين الماضين من أهل الأساطير و الخرافات، و هذا كقولهم: إن هذا إلا أساطير الأولين.

و يمكن أن تكون الإشارة بهذا الى ما هم فيه من الشرك و عباده الآلهه من دون الله اقتداء بآبائهم الأولين كقولهم: «وَحِيدًا أَبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ» .

و احتمال بعضهم أن يكون المراد ما خلقنا هذا إلا- خلق الأولين نحيا كما حيوا و نموت كما ماتوا و لا بعث و لا حساب و لا عذاب. و هو بعيد من السياق.

قوله تعالى: «وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ» إنكار للمعاد بناء على كون المراد باليوم العظيم فى كلام هود عليه السلام يوم القيامة.

قوله تعالى: فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً -الى قوله- الرَّحِيمِ معناه ظاهر مما تقدم.

[سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٤١ الى ١٥٩]

إشارة

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا- تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا (١٤٤) وَ مَا أَسئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَ تَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (١٤٧) وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُهَا هَضْبٌ يَمُّ (١٤٨) وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا (١٥٠) وَ لَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَ لَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩)

قوله تعالى: كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ - الى قوله - رَبِّ الْعَالَمِينَ قد اتضح معناها مما تقدم.

قوله تعالى: أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ الظاهر أن الاستفهام للانكار و «مَا» موصوله و المراد بها النعم التي يفصلها بعد قوله: «فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ» الخ؛ و «هَاهُنَا» إشاره الى المكان الحاضر القريب و هو أرض ثمود و «آمِنِينَ» حال من نائب فاعل «تُتْرَكُونَ» .

و المعنى: لا تتركون في هذه النعم التي أحاطت بكم في أرضكم هذه و أنتم مطلقو العنان لا

غلب على عقله، وقيل: إن السحر أعلى البطن و المسخر من له جوف فيكون كناية عن أنك بشر مثلنا تأكل و تشرب فيكون قوله بعده: «وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا» تأكيداً له، وقيل:

المسخر من له سحر أى رئه كأن مرادهم أنك متنفس بشر مثلنا.

قوله تعالى: «مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا» -الى قوله- عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ الشرب بكسر الشين النصيب من الماء، و الباقي ظاهر و قد تقدمت تفصيل القصة فى سورة هود.

قوله تعالى: فَعَقَّرُوها فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ نسبة العقر الى الجميع -و لم يعقرها إلا واحد منهم- لرضاهم بفعله، و فى نهج البلاغه: أيها الناس إنما يجمع الناس الرضى و السخط و إنما عقر ناقه ثمود رجل واحد فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا فقال سبحانه: «فَعَقَّرُوها فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ» .

و قوله: فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ لعل ندمهم إنما كان عند مشاهدتهم ظهور آثار العذاب و إن قالوا له بعد العقر تعجيزاً و استهزاء: يَا صَالِحُ إِنَّا بِمَا تَعْدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (الأعراف ٧٧).

قوله تعالى: فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ -الى قوله- الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ اللام للعهد أى أخذهم العذاب الموعود فإن صالحاً وعدهم نزول العذاب بعد ثلاثة أيام كما فى سورة هود، و الباقي ظاهر.

[سورة الشعراء (٢٦): الآيات ١٦٠ الى ١٧٥]

إشارة

كَذَّبَتْ قَوْمٌ لُوطٌ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا (١٦٣) وَ مَا أَسئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَ تَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَ تَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ يَلِ آنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنجَّناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ (١٧٢) وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنْ فِي ذَلكَ لآيَةٌ وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَ إِنْ رَبُّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)

قوله تعالى: كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ -الى قوله- رَبِّ الْعَالَمِينَ ،تقدم تفسيره.

قوله تعالى: أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ الاستفهام للانكار و التوبيخ و الذكران جمع ذكر مقابل الانثى و إتيانهم كناية عن اللواط و قد كان شاع فيما بينهم،و العالمين جمع عالم و هو الجماعه من الناس.

وقوله: مِنَ الْعَالَمِينَ يمكن ان يكون متصلا بضمير الفاعل في «تأتون» والمراد أ تأتون أنتم من بين العالمين هذا العمل الشنيع؟ فيكون في معنى قوله في موضع آخر: مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (الأعراف ٨٠)، (العنكبوت ٢٨).

و يمكن ان يكون متصلا بقوله: «الذِّكْرَانَ» والمعنى على هذا أ تنكحون من بين العالمين -على كثرتهم و اشتغالهم على النساء- الرجال فقط؟.

قوله تعالى: وَ تَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ الْخ؛ «تَذَرُونَ» بمعنى تتركون و لا ماضى له من مادته.

و المتأمل في خلق الإنسان و انقسام أفراده الى صنفى الذكر و الانثى و ما جهز به كل من الصنفين من الأعضاء و الأدوات و ما يختص به من الخلقه لا يرتاب في ان غرض الصنع و الإيجاد من هذا التصوير المختلف و إلقاء غريزه الشهوه في القبيلين و تفريق أمرهما بالفعل و الانفعال أن يجمع بينهما بالنكاح ليتوسل بذلك الى التناسل الحافظ لبقاء النوع حتى حين.

فالرجل من الإنسان بما هو رجل مخلوق للمرأة منه لا لرجل مثله و المرأة من الإنسان بما هي امرأه مخلوقه للرجل منه لا لامرأه مثلها و ما يختص به الرجل في خلقته للمرأة و ما تختص به المرأة في خلقتها للرجل و هذه هي الزوجية الطبيعية التي عقدها الصنع و الإيجاد بين الرجل و المرأة من الإنسان فجعلهما زوجين.

ثم الأغراض و الغايات الاجتماعيه أو الدينيه سنّت بين الناس سنه النكاح الاجتماعى الاعتبارى الذى فيه نوع من الاختصاص بين الزوجين و قسم من التحديد للزوجيه الطبيعیه المذكوره فالفطره الإنسانيه و الخلقه الخاصه تهديه الى ازدواج الرجال بالنساء دون الرجال و ازدواج النساء بالرجال دون النساء، و أن الازدواج مبنى على أصل التوالد و التناسل دون الاشتراك فى مطلق الحياه.

و من هنا يظهر أن الأقرب أن يكون المراد بقوله: «مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ» العضو المباح للرجال من النساء بالازدواج و اللام للملك الطبيعي، و ان من في قوله: «مِنْ أَرْوَاجِكُمْ» للتبعيض و الزوجيه هي الزوجيه الطبيعيه و إن أمكن ان يراد بها الزوجيه الاجتماعيه الاعتباريه بوجه.

و أما تجويز بعضهم ان يراد بلفظه «ما» النساء و يكون قوله: «مِنْ أَرْوَاجِكُمْ» بيانا له فبعيد.

و قوله: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ اى متجاوزون خارجون عن الحد الذى خطته لكم الفطره و الخلقه فهو فى معنى قوله: أَيْنُكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ (العنكبوت / ٢٩).

و قد ظهر فى جميع ما مر أن كلامه عليه السلام مبنى على حجه برهانيه أشير إليها.

قوله تعالى: قَالُوا لئن لم تنته يا لوط لنتكونن من المخرجين اى المبعدين المنفيين من قريتنا كما نقل عنهم فى موضع آخر «أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَوَّيْتِكُمْ» .

قوله تعالى: قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ المراد بعملهم -على ما يعطيه السياق- إتيان الذكران و ترك الاناث. و القالى المبغض، و مقابله تهديدهم بالنفى بمثل هذا الكلام من غير تعرّض للجواب عن تهديدهم يفيد من المعنى أنى لا أخاف الخروج من قريتكم و لا- أكثرث به بل مبغض لعملكم راغب فى النجاه من وباله النازل بكم لا- محاله، و لذا أتبعه بقوله: «رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ» .

قوله تعالى: رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ اى من أصل عملهم الذى يأتون به بمرأى و مسمع منه فهو منزجر منه او من وبال عملهم و العذاب الذى سيتبعه لا محاله.

و إنما لم يذكر إلا- نفسه و أهله إذ لم يكن آمن به من أهل القرية أحد، قال تعالى فى ذلك: فَمَا وَحَدَّثْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (الذاريات / ٣٦).

قوله تعالى: فَنجِيتَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ -الى قوله- الْآخِرِينَ الْغَابِرِ كَمَا قِيلَ الْبَاقِي بَعْدَ ذَهَابِ مَنْ كَانَ مَعَهُ، وَالتَّدْمِيرُ الْإِهْلَاكُ، وَ الْبَاقِي ظَاهِرٌ.

قوله تعالى: وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا الْخَبْرُ؛ وَ هُوَ السَّجِيلُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (الحجر ٧٤).

قوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً -الى قوله- الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ تقدم تفسيره.

[سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٧٦ الى ١٩١]

إشارة

كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالُوا لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَّا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا
(١٧٩) وَ مَا أَسئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَ زِنُوا
بِالْقِسَاطِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَ لَا تَبْخَسُوا الذَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَ لَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَ اتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الْجِيلَةَ
الْأُولَى (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسِحَّرِينَ (١٨٥) وَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَ إِنْ نُنْظَنُكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا
مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ
عَظِيمٍ (١٨٩) إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَةٌ وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠) وَ إِنْ رَبِّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١)

قوله تعالى: كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ - الى قوله - رَبُّ الْعَالَمِينَ الأيكه الغيضة الملتف شجرها. قيل: إنها كانت غيضة بقرب مدين يسكنها طائفه و كانوا ممن بعث اليهم شعيب عليه السلام، و كان أجنبيا منهم و لذلك قيل «إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ» و لم يقل: أخوهم شعيب بخلاف هود و صالح فقد كانا نسيبين الى قومهما و كذا لوط فقد كان نسيبا الى قومه بالمصاهره و لذا عبّر عنهم بقوله: «أَخُوهُمْ هُودٌ» «أَخُوهُمْ صَالِحٌ» «أَخُوهُمْ لُوطٌ» .

و قد تقدم تفسير باقى الآيات.

قوله تعالى: أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَ زِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ. الكيل ما يقدر به المتاع من جهه حجمه و إيفأؤه أن لا ينقص الحجم، و القسطاس الميزان الذى يقدر به من جهه وزنه و استقامته أن يزن بالعدل، و الآيتان تأمران بالعدل فى الأخذ و الإعطاء بالكيل و الوزن.

قوله تعالى: وَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَ لَا تَعْتُوا فِي الْمَآرِضِ مُمْسِكِينَ البخس النقص فى الوزن و التقدير كما أن الإخسار النقص فى رأس المال.

و ظاهر السياق أن قوله: «وَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ» أى سلعهم و أمتعتهم قيد متمم لقوله: «وَ زِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ» كما أن قوله: «وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ» قيد متمم لقوله:

«أَوْفُوا الْكَيْلَ» و قوله: «وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» تأكيد للنهيين جميعا أعنى قوله:

«لَا تُخْسِرُوا» و قوله: «لَا تَبْخَسُوا» و بيان لتبعه التطفيف السيئه المشومه.

و قوله: «وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ الْعَثَى وَ الْعَيْثُ الْإِفْسَادُ، فقوله:

«مُفْسِدِينَ» حال مؤكد و قد تقدم فى قصه شعيب من سوره هود و فى قوله: «وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا» (الآيه ٣٥ من سوره الإسراء) كلام فى كيفية إفساد التطفيف المجتمع الإنسانى، فراجع.

قوله تعالى: «وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ» قال فى المجمع: الجبله الخليقه التى طبع عليها الشىء. انتهى. فالمراد بالجبله ذوو الجبله أى اتقوا الله الذى خلقكم و آباءكم الأولين الذين فطرهم و قرر فى جبلتهم تقبيح الفساد و الاعتراف بشؤمه.

و لعل هذه الذى أشرنا اليه من المعنى هو الموجب لتخصيص الجبله بالذكر، و فى الآيه على أى حال دعوه الى توحيد العباده فإنهم لم يكونوا يتقون الخالق الذى هو رب العالمين.

قوله تعالى: «قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَيَّرِينَ» -الى قوله- «وَإِنْ نُنْظَنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ» تقدم تفسير الصدر، و «إِنْ» فى قوله: «إِنْ نُنْظَنُّكَ» مخففه من الثقيله.

قوله تعالى: «فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ الْخَافِ كَسْفِ» الكسف بالكسر فالفتح -على ما قيل- جمع كسفه و هى القطعه، و الأمر مبنى على التعجيز و الاستهزاء.

قوله تعالى: «قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ» جواب شعيب عن قولهم و اقتراحهم منه إتيان العذاب، و هو كناية عن أنه ليس له من الأمر شىء و إنما الأمر الى الله لأنه أعلم بما يعملون و أن عملهم هل يستوجب عذابا؟ و ما هو العذاب الذى يستوجهه إذا استوجب؟ فهو كقول هود لقومه «إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ» (الأحقاف ٢٣).

قوله تعالى: «فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ الْخَافِ» يوم الظله يوم عذب فيه قوم شعيب بظله من الغمام، و قد تقدم تفصيل قصتهم فى سوره هود.

قوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً -الى قوله- الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ تقدم تفسيره.

[سوره الشعراء (٢٦): الآيات ١٩٢ الى ٢٢٧]

إشاره

وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَيْلًا نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّا جَعَلْنَا نَارَ الظَّالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَرُولُونَ (٢١٢) فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَإِخْفُضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلْبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠) هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَآكُتْرُهُمْ كَذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)

ص: ٥٨٧

قوله تعالى: وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ الضمير للقرآن، وفيه رجوع الى ما في صدر السوره من قوله: «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ» و تعقيب لحديث كفرهم به كما في قوله بعد ذلك: «وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُخْبَرًا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ، فَقَدْ كَذَّبُوا» الآية.

و التنزيل و الإنزال بمعنى واحد، غير أن الغالب على باب الإفعال الدفعه و على باب التفعيل التدريج، و أصل النزول في الأجسام انتقال الجسم من مكان عال الى ما هو دونه و في غير الأجسام بما يناسبه.

و تنزيله تعالى إخراج الشيء من عنده الى موطن الخلق و التقدير و قد سمي نفسه بالعلی العظيم و الكبير المتعال و رفيع الدرجات و القاهر فوق عباده فيكون خروج الشيء بإيجاده من عنده الى عالم الخلق و التقدير - وإن شئت فقل: إخراجة من عالم الغيب الى عالم الشهادة - تنزيلا منه تعالى له.

و قد استعمل الإنزال و التنزيل في كلامه تعالى في أشياء بهذه العناية كقوله تعالى: يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ (الأعراف ٢٦)، و قوله: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ (الزمر ٦)، و قوله: وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ (الحديد ٢٥)، و قوله: مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ (البقره ١٠٥)، و قد أطلق القول في قوله: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر ٢١).

و من الآيات الداله على اعتبار هذا المعنى في خصوص القرآن في قوله: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا

عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ (الزخرف ٤).

وقد أضيف التنزيل الى رب العالمين للدلالة على توحيد الرب تعالى لما تكرر مرارا أن المشركين إنما كانوا يعترفون به تعالى بما أنه رب الأرباب ولا يرون أنه رب العالمين.

قوله تعالى: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَيَّ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ^{بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} المراد بالروح الأمين هو جبريل ملك الوحي بدليل قوله: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ (البقره ٩٧/١)، وقد سماه فى موضع آخر بروح القدس قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ (النحل ١٠٢/١)، وقد تقدم فى تفسير سورتي النحل والإسراء ما يتعلق بمعنى الروح من الكلام.

وقد وصف الروح بالأمين للدلالة على أنه مأمون فى رسالته منه تعالى الى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم لا يغير شيئا من كلامه تعالى بتبديل أو تحريف بعمد أو سهو أو نسيان كما أن توصيفه فى آيه أخرى بالقدس يشير الى ذلك.

وقوله: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ الباء للتعديه أى نزله الروح الأمين، وأما قول من قال: إن الباء للمصاحبه والمعنى نزل معه الروح فلا يلتفت اليه لأن العنايه فى المقام بنزول القرآن لا بنزول الروح مع القرآن.

و الضمير فى «نَزَلَ بِهِ» للقرآن بما أنه كلام مؤلف من ألفاظ لها معانيها الحقه فإن ألفاظ القرآن نازله من عنده تعالى كما أن معانيها نازله من عنده على ما هو ظاهر قوله: فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (القيامه ١٨/١)، وقوله: تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ (آل عمران ١٠٨/١)، (الجاثيه ٦/٦)، الى غير ذلك.

و المراد بالقلب المنسوب اليه الإدراك والشعور فى كلامه تعالى هو النفس الإنسانيه التى لها الإدراك وإليها تنتهى أنواع الشعور والإراداه دون اللحم الصنوبرى المعلق عن يسار الصدر الذى هو أحد الأعضاء الرئيسه كما يستفاد من مواضع فى كلامه تعالى، كقوله: وَبَلَغَتْ

الْقُلُوبِ الْحَنَاجِرَ (الأحزاب ١٠)، أى الأرواح، وقوله: فَإِنَّهُ آتِمٌ قَلْبُهُ (البقره ٢٨٣)، أى نفسه إذ لا- معنى لنسبه إلا- ثم الى العضو الخاص.

و لعل الوجه فى قوله: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ» دون أن يقول: عليك هو الإشاره الى كيفية تلقيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ القرآن النازل عليه، وأن الذى كان يتلقاه من الروح هو نفسه الشريفه من غير مشاركة الحواس الظاهره التى هى الأدوات المستعمله فى إدراك الامور الجزئيه.

فكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يرى و يسمع حينما كان يوحى اليه من غير أن يستعمل حاستى البصر و السمع كما روى أنه كان يأخذه شبه إغماء يسمى برجاء الوحى.

فكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يرى الشخص و يسمع الصوت مثل ما نرى الشخص و نسمع الصوت غير أنه ما كان يستخدم حاستى بصره و سمعه الماديتين فى ذلك كما نستخدمها.

و لو كان رؤيته و سمعه بالبصر و السمع الماديين لكان ما يجده مشتركاً بينه و بين غيره فكان سائر الناس يرون ما يراه و يسمعون ما يسمعه، و النقل القطعى يكذب ذلك فكثيراً ما كان يأخذه برجاء الوحى و هو بين الناس فيوحى اليه و من حوله لا يشعرون بشيء و لا يشاهدون شخصاً يكلمه و لا كلاماً يلقي اليه.

و القول بأن من الجائز أن يصرف الله تعالى حواس غيره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من الناس عن بعض ما كانت تناله حواسه و هى الامور الغيبية المستوره عنا.

هدم لبنيان التصديق العلمى إذ لو جاز مثل هذا الخطأ العظيم على الحواس و هى مفتاح العلوم الضرورىه و التصديقات البديهييه و غيرها لم يبق وثوق على شيء من العلوم و التصديقات.

على أن هذا الكلام مبنى على أصاله الحس و أن لا وجود إلا لمحسوس و هو من أفحش الخطأ و قد تقدم فى تفسير سوره مريم كلام فى معنى تمثل الملك نافع فى المقام.

و للبحث تتمه لعل الله سبحانه يوفقنا لاستيفائها بإيراد كلام جامع فى الملك و آخر فى

وقوله: لَتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ أى من الداعين الى الله سبحانه بالتخويف من عذابه وهو المراد بالإنذار فى عرف القرآن دون النبى او الرسول بالخصوص، قال تعالى فى مؤمنى الجن: وَإِذْ صِرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِنَ الْجِنِّ يَشِيْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (الأحقاف ٢٩/)، وقال فى المتفقهين من المؤمنين:

لَيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لَيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ (التوبه ١٢٢/).

و إنما ذكر إنذاره صَلَّى الله عليه و آله و سلم غايه لإنزال القرآن دون نبوته أو رسالته لأن سياق آيات السوره سياق التخويف و التهديد.

وقوله: بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ أى ظاهر فى عربيته او مبين للمقاصد تمام البيان و الجار و المجرور متعلق بنزل اى أنزله بلسان عربى مبين.

و جوز بعضهم ان يكون متعلقا بقوله: «منذرين» و المعنى أنزله على قلبك لتدخل فى زمرة الأنبياء من العرب و قد ذكر منهم فى القرآن هود و صالح و إسماعيل و شعيب عليهم السلام و أول الوجهيين أحسنهما.

قوله تعالى: وَ إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ الضمير للقرآن أو نزوله على النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم و الزبر جمع زبور و هو الكتاب و المعنى و إن خبر القرآن او خبر نزوله عليك فى كتب الماضين من الأنبياء.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ضمير «أَنْ يَعْلَمَهُ» لخبر القرآن او خبر نزوله على النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم اى أ و لم يكن علم علماء بنى إسرائيل بخبر القرآن او نزوله عليك على سبيل البشاره فى كتب الأنبياء الماضين آيه للمشركين على صحه نبوتك و كانت اليهود تبشر بذلك و تستفتح على العرب به كما مر فى قوله تعالى: وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا (البقره ٨٩/).

وقد أسلم عده من علماء اليهود فى عهد النبى صلى الله عليه وآله وسلم واعترفوا بأنه مبشر به فى كتبهم، و السوره من أوائل السور المكيه النازله قبل الهجره و لم تبلغ عداوه اليهود للنبى صلى الله عليه وآله وسلم مبلغها بعد الهجره و كان من المرجو أن ينطقوا ببعض ما عندهم من الحق و لو بوجه كلى.

قوله تعالى: **وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ** قال فى المفردات: العجمه خلاف الإبانه و الاعجام الابهام-الى أن قال- و العجم خلاف العرب و العجمى منسوب اليهم، و الأعجم من فى لسانه عجمه عربيا كان أو غير عربى اعتبارا بقله فهمهم عن العجم، و منه قيل للبهيمه عجماء و الأعجمى منسوب اليه قوله تعالى:

«وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ» على حذف الياءات انتهى.

و مقتضى ما ذكره- كما ترى- أن أصل الأعجمين الأعجميين ثم حذفت ياء النسبه و به صرح بعض آخر، و ذكر بعضهم ان الوجه ان أعجم مؤنثه عجماء و أفعل فعلاء لا يجمع جمع السلامه لكن الكوفيين من النحاه يجوزون ذلك و ظاهر اللفظ يؤيد قولهم فلا موجب للقول بالحذف.

و كيف كان فظاهر السياق اتصال الآيتين بقوله: «بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ»، فتكونان فى مقام التعليل له و يكون المعنى: نزلناه عليك بلسان عربى ظاهر العربيه واضح الدلاله ليؤمنوا به و لا- يتعللوا بعدم فهمهم مقاصده و لو نزلناه على بعض الأعجميين بلسان أعجمى ما كانوا به مؤمنين و ردوه بعدم فهم مقاصده.

فيكون المراد بنزوله على بعض الأعجميين نزوله أعجميا و بلسانه، و الآيتان و التى بعدهما فى معنى قوله تعالى: **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبِيًّا لَعَالُوا لَوَالًا** - **فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۗ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى** (حم السجده ٤٤/).

قوله تعالى: **كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ** الإشاره بقوله: «كَذَلِكَ»

الى الحال التى عليها القرآن عند المشركين و قد ذكرت فى الآيات السابقه و هى أنهم معرضون عنه لا يؤمنون به و إن كان تنزيلا من رب العالمين و كان عربيا مبينا غير أعجمى و كان مذكورا فى زبر الأولين يعلمه علماء بنى إسرائيل.

و السلوك الإدخال فى الطريق و الإمرار، و المراد بالمجرمين هم الكفار و المشركون و ذكرهم بوصف الإجرام للإشارة الى عله الحكم و هو سلوكه فى قلوبهم على هذه الحال المبغوضه و المنفوره و أن ذلك مجازاه إلهيه جازاهم بها عن إجرامهم و ليعم الحكم بعموم العله.

و المعنى على هذه الحال- و هى أن يكون بحيث يعرض عنه و لا يؤمن به- ندخل القرآن فى قلوب هؤلاء المشركين و نمّره فى نفوسهم جزاء لإجرامهم و كذلك كل مجرم.

قوله تعالى: لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ -الى قوله- مُنْظَرُونَ تفسير و بيان لقوله: «كَذَلِكَ نَسْأَلُكَ» الخ؛ هذا على الوجه الأول و الثالث من الوجوه المذكوره فى الآيه السابقه و أما على الوجه الثانى فهو استئناف غير مرتبط بما قبله.

و قوله: حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ أى حتى يشاهدوا العذاب الأليم فيلجئهم الى الإيمان الاضطرارى الذى لا ينفعهم، و الظاهر أن المراد بالعذاب الأليم ما يشاهدونه عند الموت و احتمال بعضهم ان يكون المراد به ما أصابهم يوم بدر من القتل، لكن عموم الحكم فى الآيه السابقه لمشركى مكه و غيرهم لا يلائم ذلك.

و قوله: فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ كالتفسير لقوله: «حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» إذ لو لم يأتهم بغته و علموا به قبل مواعده لاستعدوا له و آمنوا باختيار منهم غير ملجئين اليه.

و قوله: فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ كلمه تحسّر منهم.

قوله تعالى: أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ توبيخ و تهديد.

قوله تعالى: أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ -الى قوله- يُمَتِّعُونَ متصل بقوله:

«فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ» و محصل المعنى أن تمنى الإمهال و الإنظار تمنى أمر لا ينفعهم لو وقع على ما يتمنونه و لم يغن عنهم شيئاً لو أجيوا الى ما سألوه فإن تمتيعهم أمدا محدودا طال أو قصر لا يرفع العذاب الخالد الذى قضى فى حقهم.

و هو قوله: أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ معدوده ستقضى «ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ» من العذاب بعد انقضاء سنى الإنظار و الإمهال «مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتِّعُونَ» أى تمتيعهم أمدا محدودا.

قوله تعالى: وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ؛ الخ؛ الأقرب ان يكون قوله: «لَهَا مُنْذِرُونَ» حالا من «قَرْيَةٍ» و قوله: «ذِكْرِي» حالا من ضمير الجمع فى «مُنْذِرُونَ» أو مفعولا مطلقا عامله «مُنْذِرُونَ» لكونه فى معنى مذكرون و المعنى ظاهر، و قيل غير ذلك مما لا جدوى فى ذكره و إطاله البحث عنه.

و قوله: وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ و ررد النفى على الكون دون ان يقال: و ما ظلمناهم و نحو ذلك يفيد نفى الشأنيه اى و ما كان من شأننا و لا المترقب منا ان نظلمهم.

و الجمله فى مقام التعليل للحصر السابق و المعنى: ما أهلكنا من قريه إلا فى حال لها منذرون مذكرون تتم بهم الحججه عليهم لأننا لو أهلكناهم فى غير هذه الحال لكننا ظالمين لهم و ليس من شأننا أن نظلم أحدا فالآيه فى معنى قوله تعالى: وَمَا كُنَّا مُعْذِبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (الإسراء ١٥) (١).

قوله تعالى: وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ -الى قوله- لَمَعْرُوْلُونَ شروع فى الجواب عن قول المشركين: إِنَّ لِمُحَمَّدٍ جَنَّا يَأْتِيهِ بِهَذَا الْكَلَامِ، و قولهم: إنه شاعر، و قدّم الجواب

ص: ٥٩٥

عن الأول وقد وجه الكلام أولاً الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَيَبِينُ لَهُ أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ مِنْ تَنْزِيلِ الشَّيَاطِينِ وَطَيَّبَ بِذَلِكَ نَفْسَهُ ثُمَّ وَجَّهَ الْقَوْلَ إِلَى الْقَوْمِ فَيَبِينُهُ لَهُمْ بِمَا فِي وَسْعِهِمْ أَنْ يَفْقَهُوه.

فقوله: وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ أَي مَا نَزَلَتْهُ وَالْآيَةُ مُتَّصِلَةٌ بِقَوْلِهِ: «وَإِنَّهُ لَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ» وَجَّهَ الْكَلَامَ كَمَا سَمِعْتَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِدَلِيلٍ قَوْلُهُ تَلَا: «فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ» إِلَى آخِرِ الْخَطَابَاتِ الْمُخْتَصَّةِ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الْمُتَفَرِّعَةَ عَلَى قَوْلِهِ: «وَإِنَّمَا تَنْزَلَتْ بِهِ» الْخ؛ عَلَى مَا سَيَجِيءُ بَيَانُهُ.

وَإِنَّمَا وَجَّهَ الْكَلَامَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ دُونَ الْقَوْمِ لِأَنَّهُ مَعْلَلٌ بِمَا لَا يَقْبَلُونَهُ بِكُفْرِهِمْ أَعْنَى قَوْلِهِ:

«إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُؤُونَ» وَالشَّيْطَانُ الشَّرِيرُ وَجَمْعُهُ الشَّيَاطِينُ وَالْمُرَادُ بِهِمْ أَشْرَارُ الْجِنِّ.

وَقَوْلُهُ: وَمَا يَتَّبِعِي لَهُمْ أَي لِلشَّيَاطِينِ. قَالَ فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ: وَمَعْنَى قَوْلِ الْعَرَبِ:

يَتَّبِعِي لَكَ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا أَنَّهُ يَطْلُبُ مِنْكَ فَعْلَهُ فِي مَقْتَضَى الْعَقْلِ مِنَ الْبَغْيَةِ الَّتِي هِيَ الطَّلَبُ. انْتَهَى.

وَالْوَجْهَ فِي أَنَّهُ لَا يَتَّبِعِي لَهُمْ أَنْ يَتَنَزَّلُوا بِهِ أَنَّهُمْ خَلَقُوا شَرِيرًا لَا هَمَّ لَهُمْ إِلَّا الشَّرُّ وَالْفَسَادُ وَالْأَخْذُ بِالْبَاطِلِ وَتَصْوِيرُهُ فِي صُورِهِ الْحَقِّ لِيُضِلُّوا بِهِ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْقُرْآنُ كَلَامٌ حَقٌّ لَا سَبِيلَ لِلْبَاطِلِ إِلَيْهِ فَلَا يَنَاسِبُ جَبَلَتَهُمُ الشَّيْطَانِيَّةُ أَنْ يَلْقَوْهُ إِلَى أَحَدٍ.

وَقَوْلُهُ: وَمَا يَشِيءُ تَطِيْعُونَ أَي وَمَا يَقْدِرُونَ عَلَى التَّنَزُّلِ بِهِ لِأَنَّهُ كَلَامٌ سَمَاوِيٌّ تَتَلَقَّاهُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ رَبِّ الْعِزَّةِ فَيُنزِّلُونَهُ بِأَمْرِهِ فِي حِفْظٍ وَحِرَاسَةٍ مِنْهُ تَعَالَى كَمَا قَالَ: فَهَإِنَّهُ يَسْئَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصِيدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أْبَلَّغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ (الجن / ٢٨)، وَإِلَى ذَلِكَ يُشِيرُ قَوْلُهُ: «إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ» الْخ.

وَقَوْلُهُ: إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُؤُونَ أَي إِنْ الشَّيَاطِينُ عَنِ السَّمْعِ الْأَخْبَارِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْإِطْلَاعِ عَلَى مَا يَجْرِي فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى مَعزُولُونَ حَيْثُ يَقْدِفُونَ بِالشَّهْبِ الثَّاقِبِ لَوْ تَسْمَعُوا كَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي مَوَاضِعٍ مِنْ كَلَامِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ خُطَابٌ

للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ينهاه عن الشرك بالله متفرع على قوله: «وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ» الخ؛ أى إذا كان هذا القرآن تنزيلاً من رب العالمين ولم تنزل به الشياطين وهو ينهى عن الشرك ويوعده عليه العذاب فلا تشرك بالله فينالك العذاب الموعود عليه و تدخل في زمرة المعدبين.

و كونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ معصوماً بعصمه إلهيه يستحيل معها صدور المعصية منه لا ينافي نهيهِ عن الشرك فإن العصمه لا توجب بطلان تعلق الأمر و النهى بالمعصوم و ارتفاع التكليف عنه بما أنه بشر مختار في الفعل و الترك متصور في حقه الطاعه و المعصيه بالنظر الى نفسه، و قد تكاثرت الآيات في تكليف الأنبياء عليهم السّلام في القرآن الكريم كقوله في الأنبياء عليهم السلام: «وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (الأنعام ٨٨)، و قوله في النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ» (الزمر ٦٥)، و الآيتان في معنى النهى.

قوله تعالى: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» في مجمع البيان: عشيره الرجل قرابته سموا بذلك لأنه يعاشرهم و هم يعاشرونه انتهى. و خص عشيرته و قرابته الأقربين بالذكر بعد نهى نفسه عن الشرك و إنذاره تنبيهاً على أنه لا استثناء في الدعوه الدينيه و لا مداهنه و لا- مساهله كما هو معهود في السنن الملوكيه فلا- فرق في تعلق الإنذار بين النبي و امته، و لا بين الأقارب و الأجانب، فالجميع عبيد و الله مولاهم.

قوله تعالى: «وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» أى اشتغل بالمؤمنين بك و اجمعهم و ضمهم اليك بالرافه و الرحمه كما يجمع الطير أفراخه اليه بخفض جناحه لها، و هذا من الاستعاره بالكنايه تقدم نظيره في قوله: «وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ» (الحجر ٨٨).

و المراد بالاتباع الطاعه بقريته قوله في الآيه التاليه: «فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ» فملخص معنى الآيتين: إن آمنوا بك و اتبعوك فاجمعهم اليك بالرافه و اشتغل بهم بالتربيه و إن عصوك فتبرأ من عملهم.

قوله تعالى: وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ أى ليس لك من أمر طاعتهم و معصيتهم شىء وراء ما كلفناك فكل ما وراء ذلك الى الله سبحانه فإنه لعزته سيعذب العاصين و برحمته سينجى المؤمنين المتبعين.

و فى اختصاص اسمى العزيز و الرحيم إلفات للذهن الى ما تقدم من القصص ختمت واحده بعد واحده بالاسمين الكريمين.

فهو فى معنى أن يقال: توكل فى أمر المتبعين و العاصين جميعا الى الله فهو العزيز الرحيم الذى فعل بقوم نوح و هود و صالح و إبراهيم و لوط و شعيب و قوم فرعون ما فعل مما قصصناه فسنته أخذ العاصين و إنجاء المؤمنين.

قوله تعالى: الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَ تَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ ظاهر الآيتين -على ما يسبق إلى الذهن- أن المراد بالساجدين الساجدون فى الصلاة فيكون المعنى:

الذى يراك و أنت بعينه فى حالتى قيامك و سجودك متقلبا فى الساجدين و أنت تصلى مع المؤمنين.

و فى معنى الآية روايات من طرق الشيعة و أهل السنة ستعرض لها فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله.

قوله تعالى: إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ تعليل لقوله: «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ» و فى الآيات -على ما تقدم من معناها- تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و بشرى للمؤمنين بالنجاه و إبعاد للكفار بالعذاب.

قوله تعالى: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلُ الشَّيَاطِينُ -الى قوله- كَاذِبُونَ ، تعريف لمن تنزل عليه الشياطين بما يخصه من الصفه ليعلم أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم ليس منهم و لا أن القرآن من إلقاء الشياطين، و الخطاب متوجه الى المشركين.

فقوله: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلُ الشَّيَاطِينُ فى معنى هل أعرّفكم الذين

تتنزل عليهم شياطين الجن بالأخبار؟

وقوله: تَنْزَلُ عَلَيَّ كُلُّ أِفَّاكٍ أَثِيمٍ قال فى مجمع البيان: الأفاك الكذاب و أصل الإفك القلب و الأفاك الكثير القلب للخبر عن جهه الصدق الى جهه الكذب، و الأثيم الفاعل للقيح يقال: أثم يأثم إذا ارتكب القبيح و تأثم إذا ترك الإثم انتهى.

و ذلك أن الشياطين لا شأن لهم إلا إظهار الباطل فى صوره الحق و تزيين القبيح فى زى الحسن فلا يتنزلون إلا على أفاك أثيم.

وقوله: يُلْقَوْنَ السَّمْعَ وَ أَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ الظاهر أن ضميرى الجمع فى «يُلْقَوْنَ» و «أَكْثَرُهُمْ» معا للشياطين، و السمع مصدر بمعنى المسموع و المراد به ما سمعه الشياطين من أخبار السماء و لو ناقصا فإنهم ممنوعون من الاستماع مرميون بالشهب فما استرقوه لا يكون إلا ناقصا غير تام و لا كامل و لذا يتسرب اليه الكذب كثيرا.

وقوله: وَ أَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ أى أكثر الشياطين كاذبون لا يخبرون بصدق أصلا و هذا هو الكثرة بحسب الأفراد و يمكن أن يكون المراد الكثرة من حيث التنزل أى أكثر المتنزلين منهم كاذبون أى أكثر أخبارهم كاذبه.

و محصل حجه الآيات الثلاث أن الشياطين لا ابتناء جبلتهم على الشر لا يتنزلون إلا على كل كذاب فاجر و أكثرهم كاذبون فى أخبارهم، و النبى صلى الله عليه و آله و سلم ليس بأفاك أثيم و لا ما يوحى اليه من الكلام كذبا مختلقا فليس ممن تنزل عليه الشياطين و لا الذى يتنزل عليه شيطانا، و لا القرآن النازل عليه من إلقاء الشياطين.

قوله تعالى: وَ الشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ -الى قوله- لا- يَفْعَلُونَ جواب عن رمى المشركين للنبى صلى الله عليه و آله و سلم بأنه شاعر، نبه عليه بعد الجواب عن قولهم إن له شيطانا يوحى اليه القرآن.

و هذان أعنى قولهم: إن من الجن من يأتيه، و قولهم: إنه شاعر، مما كانوا يكررونه فى

أُستتهم بمكه قبل الهجره يدفعون به الدعوه الحقه، وهذا مما يؤيد نزول هذه الآيات بمكه خلافا لما قيل إنها نزلت بالمدينه.

على أن الآيات مشتمله على ختام السوره أعنى قوله: «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ» و لا- معنى لبقاء سوره هى من أقدم السور المكيه سنين على نعت النقص ثم تمامها بالمدينه، و لا دلالة فى الاستثناء على أن المستثنى هم شعراء المؤمنين بعد الهجره.

و كيف كان فالغى خلاف الرشد الذى هو إصابه الواقع فالرشيده هو الذى لا يهتم إلا بما هو حق واقع، و الغوى هو السالك سبيل الباطل و المخطئ طريق الحق، و الغوايه مما يختص به صناعه الشعر المبنيه على التخيل و تصوير غير الواقع فى صورته الواقع و لذلك لا- يهتم به إلا- الغوى المشعوف بالتزيينات الخياليه و التصويرات الوهميه الملهيه عن الحق الصارفه عن الرشد، و لا يتبع الشعراء الذين يبتنى صناعتهم على الغى و الغوايه إلا الغاؤون و ذلك قوله تعالى: «وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ» .

و قوله: أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ يقال: هام يهيم هيمانا إذا ذهب على وجهه و المراد بهيمانهم فى كل واد استرسالهم فى القول من غير أن يقفوا على حد فربما مدحوا الباطل المذموم كما يمدح الحق المحمود و ربما هجوا الجميل كما يهجي القبيح الدميم و ربما دعوا الى الباطل و صرفوا عن الحق و فى ذلك انحراف عن سبيل الفطره الانسانيه المبنيه على الرشد الداعيه الى الحق، و كذا قولهم ما لا يفعلون من العدول عن صراط الفطره.

و ملخص حجه الآيات الثلاث أنه صلّى الله عليه و آله و سلم ليس بشاعر لأن الشعراء يتبعهم الغاؤون لابتناء صناعتهم على الغوايه و خلاف الرشد لكن الذين يتبعونه إنما يتبعونه ابتغاء للرشد و إصابه الواقع و طلبا للحق لابتناء ما عنده من الكلام المشتمل على الدعوه على الحق و الرشد دون الباطل و الغى.

قوله تعالى: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا الخ؛ استثناء من الشعراء المذمومين، والمستثنون هم شعراء المؤمنين فإن الإيمان وصالحات الأعمال تردع الانسان بالطبع عن ترك الحق واتباع الباطل ثم الذكر الكثير لله سبحانه يجعل الانسان على ذكر منه تعالى مقبلا الى الحق الذى يرتضيه مدبرا عن الباطل الذى لا يحب الاشتغال به فلا يعرض لهؤلاء ما كان يعرض لاولئك.

و بهذا البيان يظهر وجه تقييد المستثنى بالإيمان و عمل الصالحات ثم عطف قوله: «و ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا» على ذلك.

و قوله: «و انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا الانتصار الانتقام، قيل: المراد به ردّ الشعراء من المؤمنين على المشركين أشعارهم التى هجوا بها النبى صلى الله عليه و آله و سلم أو طعنوا فيها فى الدين و قدحوا فى الاسلام و المسلمين، و هو حسن يؤيده المقام.

و قوله: «و سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ المنقلب اسم مكان أو مصدر ميمى، و المعنى: و سيعلم الذين ظلموا- و هم المشركون على ما يعطيه السياق- الى أى مرجع و منصرف يرجعون و ينصرفون و هو النار أو ينقلبون أى انقلاب.

و فيه تهديد للمشركين و رجوع مختتم السوره الى مفتحتها و قد وقع فى أولها قوله: «فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَجْبَاءٌ مِمَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» (١).

ص: ٦٠١

(١-١). الشعراء ١٩٢-٢٢٧: بحث روائى حول رؤيا النبى صلى الله عليه و آله و سلم، قوله تعالى: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
طس
تلك آيات القرآن و كتاب مبین (١) هدى و بشرى للمؤمنين (٢) الذين يقيمون الصلاة
و يؤتون الزكاة و هم بالآخرة هم يوفون (٣) إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيننا لهم أعمالهم فهم يعمهون (٤) أولئك الذين لهم
سوء العذاب و هم فى الآخرة هم الأخسرون (٥) و إنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم (٦)

غرض السوره-على ما تدل عليه آيات صدرها و الآيات الخمس الخاتمه لها-التبشير

و الإنذار و قد استشهد لذلك بطرف من قصص موسى و داود و سليمان و صالح و لوط عليهم السلام ثم عقبها ببيان نبذه من أصول المعارف كوحديته تعالى فى الربوبية و المعاد و غير ذلك.

قوله تعالى: تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَ كِتَابٍ مُّبِينٍ الإِشَارَةُ بِتِلْكَ - كما مر فى أول سورة الشعراء- إلى آيات السورة مما ستنزل بعد و ما نزلت قبل، و التعبير باللفظ الخاص بالبعيد للدلالة على رفعه قدرها و بعد منالها.

و القرآن اسم الكتاب باعتبار كونه مقروءاً، و المبين من الإبانة بمعنى الإظهار، و تنكير «قرآن» للتفخيم أى تلك الآيات الرفيعة القدر التى نزلها آيات الكتاب و آيات كتاب مقروء عظيم الشأن مبین لمقاصده من غير إبهام و لا تعقيد.

قال فى مجمع البيان: وصفه بالصفتين يعنى الكتاب و القرآن ليفيد أنه مما يظهر بالقراءة و يظهر بالكتابة و هو بمنزلة الناطق بما فيه من الأمرين جميعاً، و وصفه بأنه مبین تشبيهه له بالناطق بكذا. انتهى.

قوله تعالى: هُدًى وَ بُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ المصردان أعنى «هُدًى وَ بُشْرَى» بمعنى اسم الفاعل أو المراد بهما المعنى المصدري للمبالغة.

قوله تعالى: الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ الخ؛ المراد إتيان الأعمال الصالحة و إنما اقتصر على الصلاة و الزكاة لكون كل منهما ركناً فى بابه فالصلاة فيما يرجع الى الله تعالى و الزكاة فيما يرجع الى الناس و بنظر آخر الصلاة فى الأعمال البدنية و الزكاة فى الأعمال المالية.

و قوله: وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ وصف آخر للمؤمنين معطوف على ما قبله جىء به للإشارة الى أن هذه الأعمال الصالحة إنما تقع موقعها و تصيب غرضها مع الإيقان بالآخرة فإن العمل يحبط مع تكذيب الآخرة، قال تعالى: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ (الأعراف ١٤٧/).

و تكرار الضمير فى قوله: «وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ» الخ؛ للدلاله على أن هذا الإيقان من شأنهم و هم أهله المترقب منهم ذلك.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ العمه التحير فى الأمر و معنى تزيين العمل جعله بحيث ينجذب اليه الإنسان و الذين لا يؤمنون بالآخرة لما أنكروها و هى غايه مسيرهم بقوا فى الدنيا و هى سبيل لا غايه فتعلقوا بأعمالهم فيها و كانوا متحيرين فى الطريق لا غايه لهم يقصدونها.

قوله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ الخ؛ إيعاد بمطلق العذاب من دنيوى و أخروى بدليل ما فى قوله: «وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ» و لعل وجه كونهم أخسر الناس أن سائر العصاه لهم صحائف أعمال مثبتة فيها سيئاتهم و حسناتهم يجازون بها و أما هؤلاء فسيئاتهم محفوظه عليهم يجازون بها و حسناتهم حابطه.

قوله تعالى: وَ إِنَّكَ لَتَلَقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ التلقيه قريبه المعنى من التلقين، و تنكير «حَكِيمٍ عَلِيمٍ» للتعظيم، و التصريح بكون هذا القرآن من عنده تعالى ليكون ذلك حجه على الرساله و تأييدا لما تقدم من المعارف و لصحه ما سيذكره من قصص الأنبياء عليهم السلام.

و تخصيص الاسمين الكريمين للدلاله على نزوله من ينبوع الحكمة فلا ينقضه ناقض و لا يوهنه موهن، و منبع العلم فلا يكذب فى خبره و لا يخطئ فى قضائه.

[سوره النمل (٢٧): الآيات ٧ الى ١٤]

إشارة

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نارا سآتِيكم منها بخبرٍ أو آتِيكم بشهابٍ قسٍ لعلكم تضيطلون (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي الذَّارِقِ وَ سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَ لَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١) وَ أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَ عُلوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)

قوله تعالى: إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ الخ؛ المراد بأهله امرأته و هي بنت شعيب على ما ذكره الله تعالى في سورة القصص قال في المجمع: إن خطابها بقوله: «آتَيْكُمْ» بصيغه الجمع لإقامتها مقام الجماعة في الانس بها في الأمكنة الموحشه. انتهى و من المحتمل أنه كان معها غيرها من خادم أو مكار أو غيرهما.

و في المجمع: الإيناس الإبصار، وقيل: آنست أى أحسست بالشىء من جهة يؤنس بها و ما آنست به فقد أحسست به مع سكون نفسك اليه. انتهى و الشهاب على ما فى المجمع نور كالعمود من النار و كل نور يمتد كالعمود يسمى شهابا و المراد الشعلة من النار، و فى المفردات:

الشهاب الشعلة الساطعه من النار الموقده و من العارض فى الجو و فى المفردات أيضا: القبس

المتناول من الشعلة، والاصطلاء بالنار الاستدفاء بها.

قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَي فلما أتى النار وحضر عندها نودي أن بورك، الخ.

و المراد بالمباركة إعطاء الخير الكثير يقال: باركه و بارك عليه و بارك فيه أي ألبسه الخير الكثير و حباه به، و قد وقع في سوره طه في هذا الموضع من القصة قوله: فَلَمَّا آتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (طه ١٣). و يستأنس منه أن المراد بمن حول النار موسى أو هو ممن حول النار، و مباركته اختياره بعد تقديسه.

و أما المراد بمن في النار فقد قيل: إن معناه من ظهر سلطانه و قدرته في النار فإن التكليم كان من الشجره-على ما في سوره القصص-و قد أحاطت بها النار، و على هذا فالمعنى: تبارك من تجلّى لك بكلامه من النار و بارك فيك، و يكون قوله: «وَ سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» تنزيها له سبحانه من أن يكون جسما أو جسمانيا يحيط به المكان أو يجاوره الحدثان لا لتعجيب موسى كما قيل.

قوله تعالى: يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ تعرّف منه تعالى لموسى عليه السّلام ليعلم أن الذى يشافهه بالكلام ربه تعالى فهذه الآيه فى هذه السوره تحاذى قوله من سوره طه: «نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ» الخ؛ فارجع الى سوره طه و تدبّر فى الآيات.

قوله تعالى: وَ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَ لَمْ يُعَقِّبْ الخ؛ الاهتزاز التحرك الشديد، و الجان الحيه الصغيره السريعه الحرکه، و الإدبار خلاف الإقبال، و التعقيب الكرّ بعد الفر من عقب المقاتل إذا كرّ بعد فراره.

قوله تعالى: يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ حكاية

نفس الخطاب الصادر هناك و هو فى معنى قال الله يا موسى لا تخف، الخ.

و قوله: لا- تَخَفُ نهي مطلق يؤمنه عن كل ما يسوء مما يخاف منه ما دام فى حضره القرب و المشافهه سواء كان المخوف منه عصا أو غيرها و لذا عمل النهى بقوله: «إِنِّي لَا- يَخَافُ لَمَدَى الْمُرْسَلُونَ» فإن تقييد النفى بقوله: «لَمَدَى» يفيد أن مقام القرب و الحضور يلازم الأمن و لا يجمع مكروها يخاف منه، و يؤيده تبديل هذه الجملة فى القصة من سوره القصص من قوله:

«إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ» فيتحصل المعنى: لا تخف من شىء إنك مرسل و المرسلون- و هم لمدى فى مقام القرب- فى مقام الأمن و لا خوف مع الأمن.

و أما فرار موسى عليه السلام من العصا و قد تصوّرت بتلك الصورة الهائله و هى تهتز كأنها جان فقد كان جريا منه على ما جبل الله طبيعه الإنسانيه عليه إذا فاجأه من المخاطر ما لا سبيل له الى دفعه عن نفسه إلا الفرار و قد كان أعزل لا سلاح معه إلا عصاه و هى التى يخافها على نفسه و لم يرد عليه من جانبه تعالى أمر سابق أن يلزم مكانه أو نهى عن الفرار مما يخافه على نفسه إلا قوله تعالى: «وَأَلْقِ عَصَاكَ» و قد امتثله، و ليس الفرار من المخاطر العظيمه التى لا دافع لها إلا الفرار، من الجبن المذموم حتى يذم عليه.

و أما أن الأنبياء و المرسلين لا- يخافون شيئا و هم عند ربهم- على ما يدل عليه قوله: «إِنِّي لَا يَخَافُ لَمَدَى الْمُرْسَلُونَ» فهم لا يملكون هذه الكرامه من عند أنفسهم بل إنما ذلك بتعليم من الله و تأديب و إذ كان موقف ليله الطور أول موقف من موسى قربه الله اليه فيه و خصه بالتكليم و جباه بالرساله و الكرامه فقوله: «لا- تَخَفُ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ» و قوله: «لا- تَخَفُ إِنِّي لَا يَخَافُ لَمَدَى الْمُرْسَلُونَ» تعليم و تأديب إلهى له عليه السلام.

فتبين بذلك أن قوله: «لا- تَخَفُ إِنِّي لَا- يَخَافُ لَمَدَى الْمُرْسَلُونَ» تأديب و تربيه إلهيه لموسى عليه السلام و ليس من التوبيخ و التأنيب فى شىء.

قوله تعالى: «إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ»

الذى ينبغي أن يقال-والله أعلم-أن الآيه السابقه لما أخبرت عن أن المرسلين آمنون لا- يخافون فهم منه أن غيرهم من أهل الظلم غير آمنين لهم أن يخافوا استدرك فى هذه الآيه حال أهل التوبه من جمله أهل الظلم فبين أنهم لتوبتهم و تبديلهم ظلمهم-و هو السوء-حسنا بعد سوء مغفور لهم مرحومون فلا يخافون أيضا.

فالاستثناء من المرسلين و هو استثناء منقطع و المراد بالظلم مطلق المعصيه و بالحسن بعد السوء التوبه بعد المعصيه أو العمل الصالح بعد السيئ،و المعنى:لكن من ظلم باقتراف المعصيه ثم بدّل ذلك حسنا بعد سوء و توبه بعد معصيه أو عملا صالحا بعد سيئ فإنى غفور رحيم أغفر ظلمه و أرحمه فلا يخافن من بعد ذلك شيئا.

قوله تعالى: وَ أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ الْخ؛ فسّر السوء بالبرص و قد تقدم،و قوله: «فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ» يمكن أن يستظهر من السياق أولا أن «فِي تِسْعِ» حال من الآيتين جميعا،و المعنى:آيتك هاتين الآيتين-و العصا و اليد-حال كونهما فى تسع آيات.

و ثانيا:أن الآيتين من جمله الآيات التسع،و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ (الإسراء ١٠١/)،كلام فى تفصيل الآيات التسع،و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ الْمَبْصِرَةُ بِمَعْنَى الْوَاضِحَةِ الْجَلِيهِ،و فى قولهم: «هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ» إزراء و إهانه بالآيات حيث أهملوا الدلاله على خصوصيات الآيات حتى العدد فلم يعبا بها إلا بمقدار أنها أمر ما.

قوله تعالى: وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَ عُلُوًّا الْخ؛قال الراغب:الجحد نفى ما فى القلب إثباته و إثبات ما فى القلب نفيه.انتهى.و الاستيقان و الإيقان بمعنى.

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تَحِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَوَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) قَالِ سَيَنْظُرُ أَ صَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفُهَا إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ إِنِّي أُلْفِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأُتُونِي مَسْلُومِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةٍ وَأُولَا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَاجَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسِلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) اِرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلِ لَهُمْ بِهَا وَنَخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالِ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالِ عَفْرِتٌ مِّنَ الْجِنَّ أَنَا آتَيْكَ بِهَ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالِ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَنِّي كَرِيمٌ (٤٠) قَالِ نَكَرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَ تَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَ هَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالِ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)

قوله تعالى: **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا** الخ؛ في تنكير العلم إشارة إلى تفخيم أمره، و مما أشير فيه إلى علم داود من كلامه تعالى قوله: **وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلْنَا الْخِطَابَ** (ص ٢٠). و مما أشير فيه إلى علم سليمان قوله: **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا** (الأنبياء ٧٩)، و ذيل الآية يشملهما جميعاً.

و قوله: **وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ** المراد بالفضل إما التفضيل بالعلم على ما ربما يؤديه سياق الآية، وإما التفضيل بمطلق ما خصَّ بهما الله به من المواهب كتسخير الجبال و الطير لداود و تليين الحديد له و إيتائه الملك، و تسخير الجن و الوحش و الطير و كذا الريح لسليمان و تعليمه منطق الطير و إيتائه الملك على ما يستدعيه إطلاق التفضيل.

و الآية أعنى قوله: **«وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ»** الخ؛ على أى حال بمنزله حكاية اعترافهما على التفضيل الإلهي فيكون كالشاهد على المدعى الذى تشير إليه بشاره صدر السوره أن الله سبحانه سيخص المؤمنين بما تقرّ به عيونهم و مثلها ما سيأتى من اعترافات سليمان فى مواضع من كلامه.

قوله تعالى: **وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ** الخ؛ أى ورثه مالكة و ملكه، و أما قول بعضهم: المراد به وراثه النبوه و العلم ففيه أن النبوه لا تقبل الوراثة لعدم قبولها الانتقال، و العلم و إن قبل الانتقال بنوع من العناية غير أنه إنما يصحّ فى العلم الفكرى الاكتسابى و العلم الذى يختص به الأنبياء و الرسل كرامه من الله لهم و هبى ليس مما يكتسب بالفكر فغير النبى يرث العلم من النبى لكن النبى لا يرث علمه من نبى آخر و لا من غير نبى.

وقوله: وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ظاهراً السياق أنه عليه السلام يباهى عن نفسه وأبيه وهو منه عليه السلام تحديث بنعمه الله كما قال تعالى: وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (الضحى ١١/)، وأما إصرار بعض المفسرين على أن الضمير فى قوله: «عَلَّمْنَا» و «أُوتِينَا» لنفسه لا له ولأبيه على ما هو عادة الملوك والعظماء فى الإخبار عن أنفسهم-فإنهم يخبرون عنهم وعن خدمهم وأعوانهم رعايه لسياسة الملك-فالسباق السابق لا يساعد عليه كل المساعده.

وقوله: وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أى أعطينا من كل شىء، و «كُلُّ شَيْءٍ» وإن كان شاملاً لجميع ما يفرض موجوداً-لأن مفهوم شىء من أعمّ المفاهيم وقد دخل عليه كلمه الاستغراق-لكن لما كان المقام مقام التحديث بالنعمه ولا كل نعمه بل النعمه التى يمكن أن يؤتاها الانسان فيتنعم بها تقيده معنى كل شىء و كان معنى الجملة: وأعطانا الله من كل نعمه يمكن أن يعطاها الانسان فيتنعم بها مقداراً معتداً به كالعلم والنوّه والملك والحكم وسائر النعم المعنويه والماديه.

وقوله: هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ شكر و تأكيد للتحديث بالنعمه من غير عجب ولا كبر و اختيال لاسناده الجميع الى الله بقوله: «عَلَّمْنَا» و «أُوتِينَا»، واحتمل بعضهم أن تكون الجملة من كلام الله سبحانه لا من كلام سليمان و السياق يأباه.

قوله تعالى: وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ الحشر هو جمع الناس و إخراجهم لأمر يازعاج و الوزع المنع و قيل الحبس، و المعنى كما قيل: و جمع لسليمان جنوده من الجن و الانس و الطير فهم يمنعون من التفرّق و اختلاط كل جمع بآخر برد أولهم الى آخرهم و حبس كل فى مكانه.

و يستفاد من الآيه أنه كان له جنود من الجن و الطير يسرون معه كجنوده من الإنس.

و كلمه الحشر و وصف المحشورين بأنهم جنود، و سياق الآيات التاليه كل ذلك دليل على

أن جنوده كانوا طوائف خاصه من الجن و الإنس و الطير سواء كانت «مِنَ» فى الآيه للتبعيض او للبيان.

قوله تعالى: حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ الْآيَةَ؛ «حَتَّى» غايه لما يفهم من الآيه السابقه، و ضمير الجمع لسليمان و جنوده، و تعديده الإتيان بعلى قيل: لكون الإتيان من فوق، و وادى النمل واد بالشام على ما قيل، و قيل: فى أرض الطائف، و قيل: فى أقصى اليمن، و الحطم الكسر.

و المعنى: فلما سار سليمان و جنوده حتى أتوا على وادى النمل قالت نملة مخاطبه لسائر النمل:

يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يكسرنكم سليمان و جنوده أى لا يطأنكم بأقدامهم و هم لا يشعرون. و فيه دليل على أنهم كانوا يسيرون على الأرض.

قوله تعالى: فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ قيل: التبسم دون الضحك، و على هذا فالمراد بالضحك هو الإشراف عليه مجازا.

و لا- منافاه بين قوله عليه السلام: «عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ» و بين فهمه كلام النمله إذ لم ينف فهمه كلام سائر الحيوان او كلام بعضها كالنمله.

و قد تسلّم جمع منهم دلالة قوله: «عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ» على نفي ما عداه فتكلفوا فى توجيه فهمه عليه السلام قول النمله تاره بأنه كانت قضيه فى واقعه، و أخرى بتقدير أنها كانت نملة ذات جناحين و هى من الطير، و ثالثه بأن كلامها كان من معجزات سليمان عليه السلام، و رابعه بأنه عليه السلام لم يسمع منها صوتا قط و إنما فهم ما فى نفس النمله إلهاما من الله تعالى هذا.

و ما تقدم من معنى منطق الحيوان يزاح به هذه الأوهام. على أن سياق الآيات وحده كاف فى دفعها.

و قوله: وَقَالَ رَبُّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ الإيزاع الإلهام. تبسم عليه السلام مبتهجا مسرورا بما أنعم

اللّٰه عليه حتى أوقفه هذا الموقف و هي النبوه و العلم بمنطق الحيوان و الملك و الجنود من الجنّ و الإنس و الطير فسأل اللّٰه أن يلهمه شكر نعمته و أن يعمل بما فيه رضاه سبحانه.

و قد جعل الشكر للنعمه التي أنعم اللّٰه تعالى بها على نفسه مختصه به، و للنعمه التي أنعم بها على والديه فإن الإنعام على والديه إنعام عليه بوجه لكونه منهما و قد أنعم اللّٰه تعالى على أبيه داود بالنبوه و الملك و الحكمة و فصل الخطاب و غيرها و أنعم على أمه حيث زوّجها من داود النبي و رزقها سليمان النبي و جعلها من أهل بيت النبوه.

و في كلامه هذا دليل على أن والدته من أهل الصراط المستقيم الذين أنعم اللّٰه عليهم (١) و هم احدى الطوائف الأربع المذكورين في قوله تعالى: الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصُّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ (النساء ٦٩).

و قوله: وَ أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ عطف على قوله: «أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ» و مسأله هذه «أوزعنى أن أعمل» الخ؛ أمر أرفع قدرا و أعلى منزله من سؤال التوفيق للعمل الصالح فإن التوفيق يعمل في الأسباب الخارجيه بترتيبها بحيث توافق سعادته الإنسان و الإيزاع الذى سأله دعوه باطنيه فى الإنسان الى السعاده، و على هذا فليس من البعيد أن يكون المراد به الوحي الذى أكرم اللّٰه به إبراهيم و آله فيما يخبر عنه بقوله: وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ الْآيَةَ (الأنبياء ٧٣)، و هو التأييد بروح القدس على ما مر فى تفسير الآيه.

و قوله: وَ أَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ أى اجعلنى منهم، و هذا الصلاح لما لم يتقيد بالعمل كان هو صلاح الذات و هو صلاح النفس فى جوهرها الذى يستعد به لقبول أى كرامه إلهيه.

ص: ٦١٥

١- ١). و فيه تبرئه ساحتها عما فى التوراه الدائره فى التوراه أنها كانت امرأه اوريا فجر بها داود ثم كاد فى قتل اوريا فقتل فى بعض الحروب فأدخلها فى أزواجه فولدت له سليمان.

و من المعلوم أن صلاح الذات أرفع قدرا من صلاح العمل ففي قوله: «وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأُدْخِلَنِي بِرَحْمَتِكَ فِي جَنَّاتِكَ الصَّالِحِينَ» تدرج في المسألة من الأدنى الى الأعلى و قد كان صلاح العمل منسوبا الى صنعه و اختياره بوجه دون صلاح الذات و لذا سأل صلاح الذات من ربه و لم يسأل نفس صلاح العمل بل أن يوزعه أن يعمل.

و في تبديله سؤال صلاح الذات من سؤال أن يدخله في عباده الصالحين إيدان بسؤاله ما خصهم الله به من المواهب و أغزرها العبودية و قد وصفه الله بها في قوله: نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (ص ٣٠).

قوله تعالى: وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ قال الراغب: التفتقد التعهد لكن حقيقه التفتقد تعرف فقدان الشيء و التعهد تعرف العهد المتقدم قال تعالى: «وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ». انتهى.

استفهم أولا- متعجبا من حال نفسه إذ لا- يرى الهدهد بين الطير كأنه لم يكن من المظنون في حقه أن يغيب عن موكبه و يستنكف عن امتثال أمره ثم أضرب عن ذلك بالاستفهام عن غيبته.

و المعنى: ما بالي لا أرى الهدهد بين الطيور الملازمه لموكبي بل أ كان من الغائبين.

قوله تعالى: لَأَعَذَّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنَّكَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ اللامات للقسم و السلطان المبين البرهان الواضح، يقضى عليه السلام على الهدهد أحد ثلاث خصال:

العذاب الشديد و الذبح و فيهما شقاؤه، و الإتيان بحجه واضحة و فيه خلاصه و نجاته.

قوله تعالى: فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ضمير «فَمَكَتْ» لسليمان و يحتمل أن يكون للهدهد و يؤيد الأول سابق السياق و الثاني لاحقه، و المراد بالإحاطه العلم الكامل، و قوله: «وَ جِئْتُكَ» الخ؛ بمنزله عطف التفسير لقوله: «أَحَطْتُ» الخ؛ و سبأ بلده باليمن كانت عاصمته يومئذ و النبأ الخبر الذي له

أهميه، واليقين ما لا شك فيه.

والمعنى: فمكث سليمان - أو فمكث الهدهد - زمانا غير بعيد - ثم حضر فسأله سليمان عن غيبته وعاتبه - فاقبل - فأحطت من العلم بما لم تحط به و جئتك من سبأ بخبر مهم لا شك فيه.

قوله تعالى: **إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ الضمير في «تَمْلِكُهُمْ» لأهل سبأ و ما يتبعها و قوله: «وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» وصف لسعه ملكها و عظمته و هو القرينه على أن المراد بكل شيء في الآية كل شيء هو من لوازم الملك العظيم من حزم و عزم و سطوه و مملكه عريضة و كنوز و جنود مجنده و رعيه مطيعه، و خصص بالذكر من بينها عرشها العظيم.**

قوله تعالى: **وَجَدْتُنَّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ الخ؛** أي إنهم من عبدة الشمس من الوثنيين.

و قوله: **وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ** بمنزله عطف التفسير لما سبقه و هو مع ذلك توطئه لقوله بعد: **«فَصَدَّ اللَّهُ عَنْ السَّبِيلِ»** لأن تزوين الشيطان لهم أعمالهم التي هي سجدتهم و سائر تقرباتهم هو الذي صرفهم و منعهم عن سبيل الله و هي عبادته وحده.

و في إطلاق السبيل من غير إضافتها اليه تعالى إشاره الي أنها السبيل المتعينة للسبيليه بنفسها للانسان بالنظر الي فطرته بل لكل شيء بالنظر الي خلقه العامه.

و قوله: **فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ** تفرع على صدّهم عن السبيل إذ لا سبيل مع الصدّ عن السبيل فلا اهتداء، فافهمه.

قوله تعالى: **أَلَا- يَسْتَجِدُّوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمِّ- وَأَوَاتٍ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَ مَا تُغْلِبُونَ** القراءه الدائره «ألا» - بتشديد اللام - مؤلف من «أن و لا» و هو عطف بيان من «أَعْمَالَهُمْ»، و المعنى: زين لهم الشيطان أن لا يسجدوا لله، و قيل:

بتقدير لام التعليل، و المعنى: زين لهم الشيطان ضلالتهم لئلا يسجدوا لله.

و الخبء على ما فى مجمع البيان المخبوء و هو ما أحاط به غيره حتى منع من إدراكه و هو مصدر وصف به يقال: خبأته أخبئه خبأ و ما يوجده الله تعالى فيخرجه من العدم الى الوجود يكون بهذه المنزله. انتهى.

ففى قوله: يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ استعاره كأن الأشياء مخبوءه مستوره تحت أطباق العدم فيخرجها الله تعالى الى الوجود واحدا بعد آخر فيكون تسميه الإيجاد بعد العدم إخراجا للخبء قريبا من تسميته بالفطره و توصيفه تعالى بأنه فاطر السماوات و الأرض و الفطر هو الشق كأنه يشق العدم فيخرج الأشياء.

و يمكن حمل الجملة على الحقيقيه من غير استعاره لكنه مفتقر الى بيان موضعه غير هذا الموضع. و قيل: المراد بالخبء الغيب و إخراج العلم به و هو كما ترى.

و قوله: وَ يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ بالتاء على الخطاب أى يعلم سرّكم و علائقكم، و قرأ الأ-كثرون بالياء على الغيبه و هو أرجح.

و ملخص الحججه: انهم إنما يسجدون للشمس دون الله تعظيما لها على ما أودع الله سبحانه فى طباعها من الآثار الحسنه و التدبير العام للعالم الأرضى و غيره، و الله الذى أخرج جميع الأشياء من العدم الى الوجود و من الغيب الى الشهاده فترتب على ذلك نظام التدبير من أصله - و من جملتها الشمس و تدبيرها - أولى بالتعظيم و أحق ان يسجد له، مع أنه لا معنى لعباده ما لا شعور له بها و لا شعور للشمس بسجدهم و الله سبحانه يعلم ما يخفون و ما يعلنون فالله سبحانه هو المتعين للسجده و التعظيم لا غير.

و بهذا البيان تبين وجه اتصال قوله تلوا: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» الخ.

قوله تعالى: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ من تمام كلام الهدهد و هو بمنزله التصريح بنتيجه البيان الضمنى السابق و إظهار الحق قبال باطلهم و لذا أتى أولا بالتهليل الدال على توحيد العباده ثم ضم اليه قوله: «رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» الدال على انتهاء تدبير الأمر

اليه فإن العرش الملكي هو المقام الذى تجتمع عنده ازمه الامور و تصدر منه الأحكام الجاريه فى الملك.

و فى قوله: رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ مناسبة محاذاه اخرى مع قوله فى وصف ملكه سبأ: «وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ» و لعل قول الهدهد هذا الذى دعا- او هو من جمله ما دعا- سليمان عليه السلام ان يأمر ان يأتوا بعرشها اليه ليخضع لعظمه ربه كل عظمه.

قوله تعالى: قَالَ سَيَنْظُرُ أَ صَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ الضمير لسليمان عليه السلام. أحال القضاء فى أمر الهدهد الى المستقبل فلم يصدقه فى قوله لعدم بينه عليه بعد و لم يكذبه لعدم الدليل على كذبه بل وعده ان يجزّب و يتأمل.

قوله تعالى: اِذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ حكاية قول سليمان خطابا للهدهد كأنه قيل: فكتب سليمان كتابا ثم قال للهدهد:

اذهب بكتابى هذا إليهم أى الى ملكه سبأ و مألها فألقه إليهم ثم تولّ عنهم أى تنحّ عنهم وقع فى مكان تراهم فانظر ما ذا يرجعون أى ما ذا يرد بعضهم من الجواب على بعض إذا تكلموا فيه.

و قوله: فَأَلْقِهْ بسكون الهاء وصلا و وقفا فى جميع القراءات و هى هاء السكت، و مما قيل فى الآية: أن قوله: «ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ» الخ؛ من قبيل التقديم و التأخير و الأصل فانظر ما ذا يرجعون ثم تولّ عنهم: و هو كما ترى.

قوله تعالى: قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فى الكلام حذف و إيجاز و التقدير فأخذ الهدهد الكتاب و حملة الى ملكه سبأ حتى إذا أتاها ألقاه إليها فأخذتها و لما قرأتها قالت لملئها و أشراف قومها: يا أيها الملأ، الخ.

فقوله: قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ حكاية ذكرها لملئها

أمر الكتاب و كيفية وصوله إليها و مضمونه، و قد عظّمته إذ وصفته بالكرم.

□
و قوله: **وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ظاهره أنه تعليل لكون الكتاب كريماً أي و السبب فيه أنه من سليمان و لم يكذب يخفى عليها جبروت سليمان و ما أوتيته من الملك العظيم و الشوكة العجيبه كما اعترفت بذلك في قولها على ما حكاه الله بعد: «و أوتينا العلم من قبله و كنا مسلمين».

و إنه بسم الله الرحمن الرحيم: أي الكتاب باسمه تعالى فهو كريم لذلك و الوثنيون جميعاً قائلون بالله سبحانه يرونه رب الأرباب و إن لم يعبدوه، و عبده الشمس منهم و هم من شعب الصابئين يعظّمونه و يعظّمون صفاته و إن كانوا يفسّرون الصفات بنفى النقائص و الأعدام فيفسرون العلم و قدره و الحياه و الرحمه مثلاً بانتفاء الجهل و العجز و الموت و القسوه فكون الكتاب باسم الله الرحمن الرحيم يستدعي كونه كريماً، كما أن كونه من سليمان العظيم يستدعي كونه كريماً، و على هذا فالكتاب أي مضمونه هو قوله: **«أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَ أَتُونِي مُسْلِمِينَ»** و أن مفسره.

□
قوله تعالى: **«أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَ أَتُونِي مُسْلِمِينَ»** أن مفسره تفسر مضمون كتاب سليمان كما تقدمت الإشارة اليه.

و المراد بعلوهم عليه استكبارهم عليه، و بقوله: **«وَ أَتُونِي مُسْلِمِينَ»** إسلامهم بمعنى الانقياد على ما يؤيده قوله: **«أَنَّ لَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ»** دون الإسلام بالمعنى المصطلح و هو الإيمان بالله سبحانه و إن كان إتيانهم منقادين له يستلزم إيمانهم بالله على ما يستفاد من سياق قول الهدهد و سياق الآيات الآتية، و لو كان المراد بالإيمان المعنى المصطلح كان المناسب له أن يقال: أن لا تعلموا على الله.

و كون سليمان عليه السلام نبياً شأنه الدعوه الى الإسلام لا ينافي ذلك فإنه كان ملكاً رسولاً و كانت دعوته الى الانقياد المطلق تستلزم ذلك كما تقدم و قد انتهت الى إسلامها لله كما حكى الله تعالى

عنها «وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» .

قوله تعالى: **قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ** الإفتاء إظهار الفتوى و هي الرأى، و قطع الأمر القضاء به و العزم عليه و الشهادة الحضور و هذا استشاره منها لهم تقول: أشيروا على فى هذا الأمر الذى واجهته -و هو الذى يشير إليه كتاب سليمان- و إنما أستشيركم فيه لأنى لم أكن حتى اليوم استبد برأى فى الامور بل أفضى و أعزم عن إشاره و حضور منكم.

قوله تعالى: **قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَ أَوْلُوا بِبِئْسَ شَدِيدٍ وَ أَلَمَّا نُرِيكِ فَمَا نُنْظِرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ** القوه ما يتقوى به على المطلوب و هي هاهنا الجند الذى يتقوى به على دفع العدو و قتاله، و البأس الشده فى العمل و المراد به النجده و الشجاعه.

و الآيه تتضمن جواب الملا لها يسمعونها أولا ما يطيب له نفسها و يسكن به قلقها ثم يرجعون إليها الأمر يقولون: طيبى نفسا و لا تحزنى فإن لنا من القوه و الشده ما لا نهاب به عدوا و إن كان هو سليمان ثم الأمر اليك مرى بما شئت فنحن مطيعوك.

قوله تعالى: **قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَ جَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذَلَّهُ وَ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ** إفساد القرى تخريبها و إحراقها و هدم أبنيتها، و إذلال أعزه أهلها هو بالقتل و الأسر و السبى و الإجلاء و التحكم.

كان رأيا على ما يستفاد من هاتين الآيتين -زياده التبصر فى أمر سليمان عليه السلام بأن ترسل اليه من يختبر حاله و يشاهد مظاهر نبوته و ملكه فيخبر الملكة بما رأى حتى تصمم هى العزم على أحد الأمرين: الحرب أو السلم و كان الظاهر من كلام الملا حيث بدءوا فى الكلام معها بقولهم نحن اولو قوه و اولو بأس شديد، أنهم يميلون الى القتال لذلك أخذت أولا تدم الحرب ثم نصت على ما هو رأيا فقالت: «إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا» الخ؛ أى إن الحرب لا تنتهى إلا الى غلبه أحد المتحاربين و فيها فساد القرى و ذله أعزتها فليس من الحزم و الإقدام

عليها مع قوه العدو و شوكته مهما كانت الى السلم و الصلح سبيل إلا لضروره و رأى الذى أراه ان أرسل اليهم بهديه ثم انظر بما ذا يرجع المرسلون من الخبر و عند ذلك أقطع بأحد الأمرين الحرب او السلم.

فقوله: إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا الْخَيْبَ تَوَطَّئُوا لِقَوْلِهِ بَعْدَ: «وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ» الْخ.

و قوله: وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً أَبْلَغَ وَ أَكْثَرَ مِنْ قَوْلِنَا مِثْلًا: اسْتَذَلُّوا أَعِزَّتَهَا لِأَنَّهُ مَعَ الدَّلَالَةِ عَلَى تَحَقُّقِ الذَّلَّةِ يَدُلُّ عَلَى تَلْبَسِهِمْ بِصِفَةِ الذَّلَّةِ.

و قوله: وَ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ مَسْوِقٌ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الاستمرار بعد دلالة قوله:

«أَفْسِدُوا وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً» عَلَى اَصْلِ الْوَقْعِ، وَقِيلَ: إِنَّ الْجُمْلَةَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ لَا مِنْ تَمَامِ كَلَامِ مَلِكِهِ سَبَأً، وَ لَيْسَ بِسَدِيدٍ إِذْ لَا اِقْتِضَاءَ فِي الْمَقَامِ لِمِثْلِ هَذَا التَّصْدِيقِ.

قوله تعالى: وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسِلُونَ اى مرسله الى سليمان و هذا نوع من التجبر و الاعتزاز الملوكى تصون لسانها عن اسمه و تنسب الأمر اليه و الى من معه جميعا و ايضا تشير به الى انه يفعل ما يفعل بأيدي اعضاده و جنوده و إمداد رعيته.

و قوله: فَنَاظِرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسِلُونَ اى حتى اعلم عند ذلك بما تقتضيه الحال و هذا- كما تقدم- هو رأى ملكه سبأ، و يعلم من قوله: «الْمُرْسِلُونَ» أَنِ الْحَامِلَ لِلْهَدِيَّةِ كَانَ جَمْعًا مِنْ قَوْمِهَا كَمَا يَسْتَفَادُ مِنْ قَوْلِ سُلَيْمَانَ بَعْدَ «ارْجِعْ إِلَيْهِمْ» أَنَّهُ كَانَ لِلْقَوْمِ الْمُرْسِلِينَ رَئِيسَ يَرَأْسُهُمْ.

قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَ تُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرًا مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ضمير جاء للمال الذى أهدي اليه او للرسول الذى جاء بالهدية.

و الاستفهام فى قوله: «أَتَمَدُّونِنِ بِمَالٍ» للتوبيخ و الخطاب للرسول و المرسل بتغليب الحاضر على الغائب، و توبيخ القوم من غير تعيين الملكة من بينهم نظير قولها فيما تقدم: «وَ إِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ» كما أشرنا اليه.

و جَوَز ان يكون الخطاب للمرسلين و كانوا جماعه و هو خطأ فإن الإمداد لم يكن من المرسلين بل ممن أرسلهم فلا معنى لتوجيه التوبيخ اليهم خاصة، و تنكير المال للتحقير، و المراد بما آتانى الله الملك و النبوه.

و المعنى: أتمدوني بمال حقير لا- قدره له عندى فى جنب ما آتانى الله فما آتانى الله من النبوه و الملك و الثروه خير مما آتاكم.

و قوله: بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ إضراب عن التوبيخ بإمداده بالمال الى التوبيخ بفرحهم بهديتهم أى إن إمدادكم إياى بمال لا قدر له عندى فى جنب ما آتانى الله قبيح و فرحكم بهديتكم لاستعظامكم لها و إعجابكم بها أقبح.

قوله تعالى: اِرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَ لَنَخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَ هُمْ صَاغِرُونَ الخطاب لرئيس المرسلين، و ضمائر الجمع راجعه الى ملكه سبأ و قومها، و القبل الطاقه، و ضمير «بها» لسبأ، و قوله: «وَ هُمْ صَاغِرُونَ» تأكيد لما قبله، و اللام فى «فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ» و «لَنَخْرِجَنَّهُمْ» للقسم.

لما كان ظاهر تبديلهم امتثال أمره- و هو قوله: «أتونى مسلمين»- من إرسال الهديه هو الاستنكاف عن الاسلام قَدْر بحسب المقام انهم غير مسلمين له فهددهم بإرسال جنود لا قبل لهم بها و لذلك فرغ إتيانهم بالجنود على رجوع الرسول من غير أن يشترطه بعدم إتيانهم مسلمين فقال: «ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ» الخ؛ و لم يقل: ارجع فإن لم يأتونى مسلمين فلنأتينهم، الخ؛ و إن كان مرجع المعنى اليه فإن إرسال الجنود و إخراجهم من سبأ على حال الذله كان مشروطا به على أى حال.

و السياق يشهد أنه عليه السلام رد اليهم هديتهم و لم يقبلها منهم.

قوله تعالى: **قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ** كلام تكلم به بعد رد الهدية و إرجاع الرسل، و فيه إخباره انهم سيأتونه مسلمين و إنما أراد الإتيان بعرشها قبل حضورها و قومها عنده ليكون دلاله ظاهره على بلوغ قدرته الموهوبه من ربه و معجزه باهره لنبوته حتى يسلموا لله كما يسلمون له و يستفاد ذلك من الآيات التاليه.

قوله تعالى: **قَالَ عَفَرْتُ مِنَ الْجِنَّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ** العفريت-على ما قيل-المارد الخيث، و قوله: «آتِيكَ بِهِ» اسم فاعل او فعل مضارع من الإتيان، و الأول أنسب للسياق لدلالته على التلبس بالفعل و كونه أنسب لعطف قوله: «وَإِنِّي عَلَيْهِ» الخ؛ و هو جمله اسميه عليه. كذا قبل.

و قوله: **وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ** الضمير للإتيان أى أنا للإتيان بعرشها لقوى لا يثقل على حمله و لا يجهدنى نقله، أمين لا أخونك فى هذا الأمر.

قوله تعالى: **قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ** مقابله لمن قبله دليل على انه كان من الإنس، و قد وردت الروايات عن أئمه أهل البيت عليهم السلام انه كان آصف بن برخيا وزير سليمان و وصيه، و قيل: هو الخضر، و قيل: رجل كان عنده اسم الله الأعظم الذى إذا سئل به أجاب، و قيل: جبريل، و قيل: هو سليمان نفسه، و هى وجوه لا دليل على شىء منها.

و أيا ما كان و أى من كان ففصل الكلام مما قبله من غير أن يعطف عليه للاعتناء بشأن هذا العالم الذى أتى بعرشها اليه فى أقل من طرفه العين، و قد اعتنى بشأن عمله أيضا إذ نكر فقيل:

علم من الكتاب أى علم لا يحتمل اللفظ وصفه.

و المراد بالكتاب الذى هو مبدأ هذا العلم العجيب إما جنس الكتب السماويه او اللوح

المحفوظ، و العلم الذى أخذه هذا العالم منه كان علما يسهل له الوصول الى هذه البغية و قد ذكر المفسرون أنه كان يعلم اسم الله الأَـعظم الذى إذا سئل به أجاب، و ربما ذكر بعضهم أن ذلك الاسم هو الحى القيوم، و قيل: ذو الجلال و الإكرام، و قيل: الله الرحمن، و قيل: هو بالعبرانية آهيا شراهيا، و قيل: إنه دعا بقوله: يا إلهنا و إله كل شىء إلهها واحدا لا إله إلا أنت ايتنى بعرشها. الى غير ذلك مما قيل.

و قوله: أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ الطرف-على ما قيل-اللحظ و النظر و ارتداد الطرف وصول المنظور اليه الى النفس و علم الإنسان به، فالمراد أنا آتيك به فى أقل من الفاصله الزمانيه بين النظر الى الشىء و العلم به.

و الخطاب فى قوله: «أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ» لسليمان عليه السّلام فهو الذى يريد الإتيان به اليه و هو الذى يراد الإتيان به اليه.

قوله تعالى: فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ أى لما رأى سليمان العرش مستقرا عنده قال هذا، أى حضور العرش و استقراره عندى فى أقل من طرفه العين من فضل ربي من غير استحقاق منى ليلونى أى يمتحننى أ أشكر نعمته أم أكفر و من شكر فإنما يشكر لنفسه أى يعود نفعه اليه لا الى ربي و من كفر فلم يشكر فإن ربي غنى كريم-و فى ذيل الكلام تأكيد لما فى صدره من حديث الفضل-.

قوله تعالى: قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ، قال فى المفردات: تنكير الشىء من حيث المعنى جعله بحيث لا يعرف، قال تعالى: «قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا» و تعريفه جعله بحيث يعرف. انتهى.

و السياق يدل على أن سليمان عليه السّلام إنما قاله حينما قصدته ملكه سبأ و ملأها لما دخلوا عليه، و إنما أراد بذلك اختبار عقلها كما أنه أراد بأصل الإتيان به إظهار آيه باهره من آيات نبوته لها، و لذا امر بتنكير العرش ثم رتب عليه قوله: «نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي» الخ؛ و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: فَلَمَّا لَجَأَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ أَي فلما جاءت الملكة سليمان عليه السلام قيل له من جانب سليمان «أَهَكَذَا عَرْشُكَ» وهو كلمه اختبار.

و لم يقل: أ هذا عرشك بل زيد في التنكير فقيل: أ هكذا عرشك؟ فاستفهم عن مشابهه عرشها لهذا العرش المشار اليه في هيئته و صفاته، و في نفس هذه الجملة نوع من التنكير.

و قوله: قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ المراد به أنه هو و إنما عبرت بلفظ التشبيه تحرزا من الطيش و المبادرة الى التصديق من غير تثبت، و يكتفى عن الاعتقادات الابتدائية التي لم يتثبت عليها غالبا بالتشبيه.

و قوله: وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَ كُنَّا مُسْلِمِينَ ضمير «قَبْلِهَا» لهذه الآية أى الإتيان بالعرش او لهذه الحالة اى رؤيتها له بعد ما جاءت، و ظاهر السياق أنها تتمه كلام الملكة فهى لما رأت العرش و سئلت عن امره احست أن ذلك منهم تلويح الى ما أتى الله سليمان من القدره الخارقه للعاده فأجابت بقولها: «وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا» الخ؛ أى لا حاجه الى هذا التلويح و التذكير فقد علمنا بقدرته قبل هذه الآية او هذه الحالة و كنا مسلمين لسليمان طائعين له.

قوله تعالى: وَ صَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ الصد: المنع و الصرف، و متعلق الصد الإسلام لله و هو الذى ستشهد به حين تؤمر بدخول الصرح فتقول: أسلمت مع سليمان لله رب العالمين، و أما قولها فى الآية السابقيه: «وَكُنَّا مُسْلِمِينَ» فهو إسلامها و انقيادها لسليمان عليه السلام.

هذا ما يعطيه سياق الآيات و للقوم وجوه آخر فى معنى الآية أضربنا عنها.

و قوله: إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ فى مقام التعليل للصد، و المعنى: و منعها عن الإسلام لله ما كانت تعبد من دون الله و هى الشمس على ما تقدم فى نبأ الهدهد و السبب فيه أنها

كانت من قوم كافرين فاتبعتهم فى كفرهم.

قوله تعالى: قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ الى آخر الآية؛الصرح هو القصر و كل بناء مشرف و الصرح الموضع المنبسط المنكشف من غير سقف،و اللجه المعظم من الماء و الممرد اسم مفعول من التمريد و هو التمليس،و القوارير الزجاج.

و قوله: قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ إلى آخر الآية؛الصرح هو القصر و كل بناء مشرف و الصرح الموضع المنبسط المنكشف من غير سقف،و اللجه المعظم من الماء و الممرد اسم مفعول من التمريد و هو التمليس،و القوارير الزجاج.

و قوله: قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ كأن القائل بعض خدم سليمان مع حضور من سليمان ممن كان يهديها الى الدخول عليه على ما هو الدأب فى وفود الملوك و العظماء على أمثالهم.

و قوله: فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ كَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا اى لما رأت الصرح ظنت انه لجه لما كان عليه الزجاج من الصفاء كالماء و كشفت عن ساقها بجمع ثيابها لثلا تبتل بالماء أذيالها.

و قوله: قَالَ إِنَّهُ صَيْرُوحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرِ الْقَائِلِ هو سليمان نبهها انه ليس بلجه بل صرح مملس من زجاج فلما رأت ما رأت من عظمه ملك سليمان و قد كانت رأت سابقا ما رأت من أمر هدهد و رد الهديه و الإتيان بعرشها لم تشك ان ذلك من آيات نبوته من غير ان يؤتى بحزم او تدبير و قالت عند ذلك:رب إنى ظلمت نفسى،الخ.

و قوله: قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ،استغاثت أولا بربها بالاعتراف إذ لم تعبد الله من بدء او من حين رأت هذه الآيات ثم شهدت بالإسلام لله مع سليمان.

و فى قوله: وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ التفت بالنسبه اليه تعالى من الخطاب الى

الغيبه و وجهه الانتقال من إجمال الإيمان بالله إذ قالت: رب إنى ظلمت نفسى الى التوحيد الصريح فإنها تشهد ان إسلامها لله مع سليمان فهو على نهج إسلام سليمان و هو التوحيد ثم تؤكد التصريح بتوصيفه تعالى برب العالمين فلا رب غيره تعالى لشيء من العالمين و هو توحيد الربوبية المستلزم لتوحيد العباده الذى لا يقول به مشرك (١).

[سوره النمل (٢٧): الآيات ٤٥ الى ٥٣]

إشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَ كَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِذَا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَ مَكْرُوا مَكْرًا وَ مَكْرَنَا مَكْرًا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)

ص: ٦٢٨

١ - ١). النمل ١٥-٤٤: كلام فى قصه سليمان عليه السلام (ما ورد من قصصه فى القرآن، الشاء عليه فى القرآن، ذكره عليه السلام فى العهد العتيق، الروايات الوارده فى قصصه عليه السلام).

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا - الى قوله - يَخْتَصِمُونَ الاختصام و التخاصم التنازع و توصيف التثنيه بالجمع أعنى قوله: «فَرِيقَانِ» بقوله:

«يَخْتَصِمُونَ» لكون المراد بالفريقين الامه و «إذا» فجائيه.

و المعنى: أقسم لقد أرسلنا الى قوم ثمود أخاهم و نسييهم صالحا و كان المرجو ان يجتمعوا على الإيمان لكن فاجأهم أن تفرقوا فريقين مؤمن و كافر يختصمون و يتنازعون فى الحق كل يقول: الحق معى، و لعل المراد باختصامهم ما حكاه الله عنهم فى موضع آخر بقوله: قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسِلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَتُّمْ بِهِ كَافِرُونَ (الأعراف / ٧٦).

و من هنا يظهر ان أحد الفريقين جمع من المستضعفين آمنوا به و الآخر المستكبرون و باقى المستضعفين ممن اتبعوا كبارهم.

قوله تعالى: قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ الخ؛ الاستعجال بالسيئه قبل الحسنه المبادره الى سؤال العذاب قبل الرحمه التى سببها الإيمان و الاستغفار.

و به يظهر أن صالحا عليه السلام إنما وبخهم بقوله هذا بعد ما عقروا الناقه و قالوا له: يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين فيكون قوله: «لَوْ لَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» تحضيضا الى

الإيمان و التوبه لعل الله يرحمهم فيرفع عنهم ما وعدهم من العذاب وعدا غير مكذوب.

قوله تعالى: **قَالُوا أَطِئِرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ** قَالَ **طَائِرُكُمْ** **عِنْدَ اللَّهِ** **الْخ؛** التطير هو التشأم، و كانوا يتشأمون كثيرا بالطير و لذا سموا التشأم تطيرا و نصيب الإنسان من الشر طائرا كما قيل.

فقولهم خطابا لصالح: **«أَطِئِرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ»** أى تشأمننا بك و بمن معك ممن آمن بك و لزمك لما ان قيامك بالدعوه و إيمانهم بك قارن ما ابتلينا به من المحن و البلايا فلسنا نؤمن بك.

و قوله خطابا للقوم: **طَائِرُكُمْ** **عِنْدَ اللَّهِ** أى نصيبكم من الشر و هو الذى تستوجه أعمالكم من العذاب عند الله سبحانه.

و لذا أضرب عن قوله: **«طَائِرُكُمْ** **عِنْدَ اللَّهِ»** بقوله: **«بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ»** أى تختبرون بالخير و الشر ليمتاز مؤمنكم من كافركم و مطيعكم من عاصيكم.

و معنى الآية: قال القوم: تطيرنا بك يا صالح و بمن معك فلن نؤمن و لن نستغفر قال صالح:

طائرکم الذى فيه نصيبكم من الشر عند الله و هو كتاب أعمالكم و لست أنا و من معى ذوى أثر فيكم حتى نسوق اليكم هذه الابتلاءات بل أنتم قوم تختبرون و تمتحنون بهذه الامور ليمتاز مؤمنكم من كافرکم و مطيعكم من عاصيكم.

قوله تعالى: **وَ كَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ** الخ؛ قال الراغب: الرهط العصابة دون العشره و قيل الى الأربعين انتهى، و قيل: الفرق بين الرهط و نفر ان الرهط من الثلاثه او السبعه الى العشره و نفر من الثلاثه الى التسعه انتهى.

قيل: المراد بالرهط الأشخاص و لذا وقع تميزا للتسعه لكونه فى معنى الجمع فقد كان المتقاسمون تسعه رجال.

قوله تعالى: **قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ** **وَ أَهْلَهُ** **ثُمَّ لَنَقُولَنَّ** **لَوْلِيَّهِ** **مَا** **شَهِدْنَا** **مَهْلِكَ** **أَهْلِهِ** **وَ إِنَّا** **لَصَادِقُونَ** **الْمُشَارِكَةَ** **فِي** **الْقِسْمِ**، و التبييت القصد بالسوء ليلا،

و أهل الرجل من يجمعه و إياهم بيت او نسب او دين، و لعل المراد بأهله زوجته و ولده بقريته قوله بعد: «ثم نقول لوليه ما شهدنا»، و قوله: «وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ» معطوف على قوله: «مَا شَهِدْنَا» فيكون من مقول القول.

و المعنى: قال الرهط المفسدون و قد تقاسموا بالله: لنقتله و أهله بالليل ثم نقول لوليه إذا عقبنا و طلب الثار: ما شهدنا هلاك أهله و إنا لصادقون في هذا القول، و نفى مشاهدته مهلك أهله نفى لمشاهدته مهلك نفسه بالملازمه او الأولويه، على ما قيل.

قوله تعالى: وَ مَكَرُوا مَكْرًا وَ مَكَرْنَا مَكْرًا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ أما مكرهم فهو النواطي على تبيته و أهله و التقاسم بشهادة السياق السابق و أما مكره تعالى فهو تقديره هلاكهم جميعا بشهادة السياق اللاحق.

قوله تعالى: فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ التدمير الاهلاك، و ضمائر الجمع للرهط، و كون عاقبه مكرهم هو إهلا-كهم و قومهم من جهه أن مكرهم استدعى المكر الالهى على سبيل المجازاه، و استوجب ذلك إهلا-كهم و قومهم.

قوله تعالى: فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا الخ؛ الخاويه الخاليه من الخواء بمعنى الخلاء، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: وَ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ فيه تبشير للمؤمنين بالانجاء، و قد أردفه بقوله: «وَ كَانُوا يَتَّقُونَ» إذ التقوى كالمجن للايمان و قد قال تعالى: وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (الأعراف ١٢٨)، و قال: وَ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (طه ١٣٢).

[سوره النمل (٢٧): الآيات ٥٤ الى ٥٨]

إشارة

وَ لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا مِنْ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨)

قوله تعالى: **وَلَوْ طَآءُ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَ أَنتُمْ تُبْصِرُونَ** معطوف على موضع «أَرْسَلْنَا» فى القصة السابقة بفعل مضمّر و التقدير و لقد أرسلنا لوطا. كذا قيل، و يمكن ان يكون معطوفا على أصل القصة بتقدير اذكر و الفاحشه هى الخصلة البالغه فى الشناعه و المراد بها اللواط.

و قوله: **وَ أَنتُمْ تُبْصِرُونَ** اى و أنتم فى حال يرى بعضكم بعضا و ينظر بعضكم الى بعض حين الفحشاء فهو على حد قوله فى موضع آخر: **وَ تَأْتُونَ فِى نَادِيكُمْ الْمُنْكَرِ** (العنكبوت ٢٩/٧)، و قيل: المراد ابصار القلب و محصله العلم بالشناعه و هو بعيد.

قوله تعالى: **أَ إِنُّكُمْ لَتَيَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ** بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ الاستفهام للإنكار، و دخول أداتى التأكيد-إن و اللام-على الجملة الاستفهاميه للدلاله على ان مضمون الجملة من الاستبعاد بحيث لا يصدقه أحد و الجملة على اى حال فى محل التفسير للفحشاء.

و قوله: **بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** اى مستمرون على الجهل لا فائده فى توبيخكم و الإنكار عليكم فلستم بمرتدعين، و وضع «تَجْهَلُونَ» بصيغه الخطاب موضع «يجهلون» من

وضع المسبب موضع السبب كأن قيل «بل أنتم قوم يجهلون فأنتم تجهلون».

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْتَهَرُونَ﴾ أى يتنزهون عن هذا العمل و هو وارد مورد الاستهزاء.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ المراد بأهله أهل بيته لقوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الذاريات ٣٦)، وقوله:

﴿قَدَرْنَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أى جعلناها من الباقين فى العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ المراد بالمطر الحجاره من سجيل لقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سَجِيلٍ﴾ (الحجر ٧٤)، فقوله: «مطرًا» يدل بتكثيره على النوعيه أى أنزلنا عليهم مطرا له نبا عظيم.

[سوره النمل (٢٧): الآيات ٥٩ الى ٨١]

إشارة

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلَىٰ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَ جَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَ جَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلَىٰ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَّرَّ إِذَا دَعَاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مَنْ يَزُوقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ الْأَرْضِ أ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَ مَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلَىٰ إِذْ أَرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْمَآخِزِ بَلَىٰ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلَىٰ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦) وَ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا أ إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَ أَبْوَآءًا أ إِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَ يَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَ إِنْ رَبِّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَ إِنْ رَبِّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَ مَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥) إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَفُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَحْتَلِفُونَ (٧٦) وَ إِنَّهُ لَهْدَىٰ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنْ رَبِّكَ يَفْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنْكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنْكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ وَ لَا تَسْمَعُ الضَّمَمَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَ مَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ صَلَاتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١)

قوله تعالى: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَيِّئَاتُ الْعَالَمِينَ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرُكُونَ ۗ لِمَا قَصَّ مِنْ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَمْهَمَهُمْ مَا قَصَّ وَ فِيهَا بَيَانٌ لِسُنَّتِهِ الْجَارِيَةِ فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَ مَا فَعَلَ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْإِصْطِفَاءِ وَ مَزِيدَ الْإِحْسَانِ كَمَا فِي الْأَنْبِيَاءِ مِنْهُمْ وَ مَا فَعَلَ بِالْكَافِرِينَ مِنَ الْعَذَابِ وَ التَّدْمِيرِ- وَ لَمْ يَفْعَلْ إِلَّا الْخَيْرَ الْجَمِيلَ وَ لَا جَرَتْ سُنَّتُهُ إِلَّا عَلَى الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ-انْتَقَلَ مِنْهَا إِلَى أَمْرِ نَبِيِّهِ بِأَنْ يُحَمِّدَهُ وَ يَثْنَى عَلَيْهِ وَ إِنْ يَسْلَمُ عَلَى الْمُصْطَفِينَ مِنْ عِبَادِهِ وَ قَرَّرَ أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمَتَعِنُ لِلْعِبَادَةِ.

فهو انتقل من القصص الى التحميد و التسليم و التوحيد و ليس باستنتاج و إن كان في حكمه و إلقاء: فقل الحمد لله، الخ؛ او فالله خير، الخ.

فقوله: «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» أمر بتحميده و فيه إرجاع كل حمد اليه تعالى لما تقرر بالآيات السابقة ان مرجع كل خلق و تدبير اليه و هو المفيض كل خير بحكمته و الفاعل لكل جميل

بقدرته.

و قوله: وَ سَلَامٌ عَلَيَّ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ معطوف على ما قبله من مقول القول و فى التسليم لاولئك العباد المصطفين نفى كل ما فى نفس المسلم من جهات التمانع و التضاد لما عندهم من الهدايه الإلهيه و آثارها الجميله-على ما يقتضيه معنى السلام-فى الأمر بالسلام أمر ضمنى التهيؤ لقبول ما عندهم من الهدى و آثاره فهو بوجه فى معنى قوله تعالى:

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ (الأنعام ٩٠/١)، فافهمه.

و قوله: اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ من تمام الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و الاستفهام للتقرير و محصل المراد انه إذا كان الثناء كله لله و هو المصطفى لعباده المصطفين فهو خير من آلهتهم الذين يعبدونهم و لا خلق و لا تدبير لهم يحمدون عليه و لا خير بأيديهم يفيضونه على عبادهم.

قوله تعالى: أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ الحقائق جمع حقيقه و هى البستان المحدود المحوِّط بالحيطان و ذات بهجه صفه حقائق، قال فى مجمع البيان: ذات بهجه أى ذات منظر حسن يبتهج به من رآه و لم يقل: ذات بهجه لأنه أراد تأنيث الجماعه و لو أراد تأنيث الأعيان لقال: ذوات. انتهى.

و أم فى الآيه منقطعه تفيد معنى الاضطراب، و «مِنْ» مبتدأ خبره محذوف و كذا الشق الآخر من الترديد و الاستفهام للتقرير و حملهم على الإقرار بالحق و التقدير على ما يدل عليه السياق بل أمن خلق السماوات و الأرض، الخ؛ خير أم ما يشركون. و الأمر على هذا القياس فى الآيات الأربع التاليه.

و معنى الآيه: بل أمن خلق السماوات و الأرض و أنزل لكم أى لنفعمكم من السماء و هى جهه العلو ماء و هو المطر فأنبتنا به أى بذلك الماء بساتين ذات بهجه و نضاره ما كان لكم أى لا- تملكون و ليس فى قدرتكم ان تنبتوا شجرها أ إله آخر مع الله سبحانه- و هو إنكار و توبيخ.

ص: ٦٣٦

قوله تعالى: أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ القرار مصدر بمعنى اسم الفاعل أى القارّ المستقر، و الخلال جمع خلل بفتحين و هو الفرجه بين الشيئين، و الرواسى جمع راسيه و هى الثابته و المراد بها الجبال الثابتات، و الحاجز هو المانع المتخلل بين الشيئين.

و المعنى: بل أَمَّنْ جعل الأرض مستقره لا تميد بكم و جعل فى فرجها التى فى جوفها أنهاراً و جعل لها جبالا ثابتة و جعل بين البحرين مانعا من اختلاطهما و امتزاجهما هو خير أم ما يشركون؟ و الكلام فى قوله: «أَ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» كالكلام فى نظيره من الآيه السابقه.

قوله تعالى: أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَ يُكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَيْ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ المراد بإجابه المضطر إذا دعاه استجابه دعاء الداعين و قضاء حوائجهم و إنما أخذ وصف الاضطرار ليتحقق بذلك من الداعى حقيقه الدعاء و المسأله إذا ما لم يقع الإنسان فى مضيقه الاضطرار و كان فى مندوحوه من المطلوب لم يتمحض منه الطلب و هو ظاهر.

ثم قيده بقوله: «إِذَا دَعَاهُ» للدلاله على أن المدعو يجب أن يكون هو الله سبحانه و إنما يكون ذلك عند ما ينقطع الداعى عن عامه الأسباب الظاهريه و يتعلق قلبه بربه وحده و أما من تعلق قلبه بالأسباب الظاهريه فقط او بالمجموع من ربه و منها فليس يدعو ربه و إنما يدعو غيره.

فإذا صدق فى الدعاء و كان مدعوه ربه وحده فإنه تعالى يجيبه و يكشف السوء الذى اضطره الى المسأله كما قال تعالى: أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ (المؤمن ٦٠)، فلم يشترط للاستجابه إلا أن يكون هناك دعاء حقيقه و أن يكون ذلك الدعاء متعلقا به وحده، و قال أيضا: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ (البقره ١٨٦)، و قد فصّلنا القول فى معنى الدعاء فى الجزء الثانى من الكتاب فى ذيل الآيه.

و بالجمله فمورد قوله: «فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ» لما كان مما يمكن ان يكون الطلب فيه حقيقيا او غير حقيقى كان من اللازم تقييد الكشف و الإجابة فيه بالمشيّه فيكشف الله عنهم إن شاء و ذلك فى مورد حقيقه الطلب و الإيمان و لا يكشف إن لم يشأ و هذا غير مورد آيه المضطر و سائر آيات إجابته الدعوه الذى يتضمن حقيقه الدعاء من الله سبحانه وحده.

و قوله: «وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ الَّذِي يعطيه السياق أن يكون المراد بالخلافه الخلافه الأرضيه التى جعلها الله للانسان يتصرف بها فى الأرض و ما فيها من الخليقه كيف يشاء كما قال تعالى: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» (البقره ٣٠).

و ذلك أن تصرفاته التى يتصرف بها فى الأرض و ما فيها بخلافته امور مرتبطه بحياته متعلقه بمعاشه فالسوء الذى يوقعه موقع الاضطرار و يسأل الله كشفه لا محاله شىء من الأشياء التى تمنعه التصرف او بعض التصرف فيها و تغلق عليه باب الحياه و البقاء و ما يتعلق بذلك او بعض أبوابها ففى كشف السوء عنه تميم لخلافته.

و قوله: «قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ» خطاب توبيخى للكفار، و قرئ «يذكرون» بالياء للغيبه و هو أرجح لموافقته ما فى ذيل سائر الآيات الخمس كقوله: «بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ» «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» و غيرها، فإن الخطاب فيها جميعا للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بطريق الالتفات كما مر بيانه.

قوله تعالى: «أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا فِي ظُلُمَاتٍ الْأُبْرَ وَالْبُحْرِ وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ الْخ»؛ و المراد بظلمات البر و البحر ظلمات الليالى فى البر و البحر ففيه مجاز عقلى، و المراد بإرسال الرياح بشرا إرسالها مبشرات بالمطر قبيل نزوله، و الرحمه المطر، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا فِي ظُلُمَاتٍ الْأُبْرَ وَالْبُحْرِ وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ الْخ»؛ و المراد بإرسال الرياح بشرا إرسالها مبشرات بالمطر قبيل نزوله، و الرحمه المطر، و الباقي ظاهر.

وَ الْأَرْضِ الْخ؛ بدء الخلق إيجاده ابتداء لأول مره و إعادته إرجاعه اليه بالبعث و تبكيث المشركين بالبدء و الإعاده مع إنكارهم البعث كما سيذكره بقوله: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا» الخ؛ بناء على ثبوت المعاد بالأدله القاطعه فى كلامه فاخذ كالمسلم ثم استدرك إنكارهم له أو شكهم فيه فى الآيات التاليه.

و قوله: «وَمَنْ يَرْزُقْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ» إشاره الى ما وقع من تدبيره لأمرهم بين البدء و العود و هو رزقهم بأسباب سماويه كالأمطار و أسبابها و الأرضيه كعامه ما يتغذى به الإنسان من الأرضيات.

و قوله: «قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» لما ذكر سبحانه فصولا مشتمله على عامه الخلق و التدبير مع الإشاره الى ارتباط التدبير بعضه ببعض و ارتباط الجميع الى الخلق و عاد الخلق و التدبير بذلك أمرا واحدا منتسبا اليه قائما به تعالى و ثبت بذلك انه تعالى هو رب كل شىء وحده لا شريك له و كان لازم ذلك إبطال ألوهيه الآلهه التى يدعونها من دون الله.

و ذلك ان الالوهيه و هى استحقاق العباده تتبع الربويه التى هى تدبر عن ملك فالعباده على ما يتداولونها إما لتكون شكرا للنعمه او اتقاء للنقمه و على أى حال ترتبط بالتدبير الذى هو من شئون الربويه.

و كان إبطال ألوهيه الآلهه من دون الله هو الغرض من الفصول المورده فى هذه الآيات كما يدل على ذلك قوله بعد إيراد كل واحد من الفصول: «أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ» .

أمر نبيه صلى الله عليه و آله و سلم بقوله: «قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ» أن يطالبهم بالبرهان على ما يدعونه من ألوهيه آلهتهم ليظهر بانقطاعهم أنهم مجازفون فى دعواهم إذ لو استدلووا على ألوهيتها بشىء كان من الواجب أن ينسبوا إليها شيئا من تدبير العالم و الحال أن جميع الخلق و التدبير له تعالى وحده.

قوله تعالى: قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ لما أمره صَلَّى الله عليه وآله وسلم بعد إبطال ألوهية آلهتهم بانتساب الخلق والتدبير اليه تعالى وحده أن يطالبهم بالبرهان على ما يدعونه أمره ثانيا أن يواجههم ببرهان آخر على بطلان ألوهية آلهتهم وهو عدم علمهم بالغيب وعدم شعورهم بالساعة وأنهم أيان يبعثون مع أنه لا يعلم أحد ممن في السماوات والارض- ومنهم آلهتهم الذين هم الملائكة والجن وقديسو البشر-الغيب وما يشعرون أيان يبعثون، ولو كانوا آلهه لهم تدبير أمر الخلق-و من التدبير الجزاء يوم البعث-لعلموا بالساعة.

قوله تعالى: بَلِ إِذْ أَرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ إِذْ أَرَاكَ فِي الْأَصْلِ تَدَارَكَ وَالتَّدَارَكَ تَتَابَعِ أَجْزَاءِ الشَّيْءِ بَعْضُهَا بَعْدَ بَعْضٍ حَتَّى تَنْقَطِعَ وَلَا يَبْقَى مِنْهَا شَيْءٌ، ومعنى تدارك علمهم في الآخرة أنهم صرفوا ما عندهم من العلم في غيرها حتى نفذ علمهم فلم يبق منه شيء يدركون به أمر الآخرة على حد قوله تعالى:

فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ (النجم / ٣٠) و«عَمُونَ» جمع عمى.

لما انتهى احتجاجه تعالى الى ذكر عدم شعور أحد غيره تعالى بوقت البعث و تبكيت المشركين بذلك رجع الى نبيه صَلَّى الله عليه وآله وسلم و ذكره انهم في معزل عن الخطاب بذلك إذ لا خبر لهم عن شيء من امور الآخرة فضلا عن وقت قيام الساعة و ذلك انهم صرفوا ما عندهم من العلم من جهات الحياه الدنيا فهم في جهل مطلق بالنسبه الى امور الآخرة بل هم في شك من الآخرة يرتابون في أمرها كما يظهر من احتجاجاتهم على نفيها المبنيه على الاستبعاد بل هم منها عمون و الله أعمى قلوبهم عن التصديق بها و الاعتقاد بوجودها.

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَ أَبَاؤُنَا أَ إِنَّا لَمُخْرَجُونَ -الى قوله- الْأَوَّلِينَ حكاية حجه منهم لنفي البعث مبنيه على الاستبعاد أى كيف يمكن أن

نخرج من الأرض بشرا تامين كما نحن اليوم وقد متنا و كنا ترابا نحن و آباؤنا كذلك؟

وقوله: لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ حَاجَهُ أُخْرَى مِنْهُمْ مَبْنِيهِ عَلَى الْاِسْتِبْعَادِ أَى لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا وَ هُوَ الْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا وَعَدُوهُ قَبْلَ أَنْ يَعْدَنَا هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ وَعَدُوا قَبْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ الْمَاضُونَ فَهُوَ وَعْدٌ قَدِيمٌ لَمْ يَنْزَلْ نَوْعُهُ بِهِ وَ لَوْ كَانَ خَبْرًا صَادِقًا وَ وَعَدًا حَقًّا لَوَقَعَ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ وَ إِذْ لَمْ يَقَعْ فَهُوَ مِنَ الْخِرَافَاتِ الَّتِي اخْتَلَقَهَا الْأُولُونَ وَ كَانُوا مَوْلَعِينَ بِاخْتِلَاقِ الْأَوْهَامِ وَ الْخِرَافَاتِ وَ الْإِصْغَاءِ بِهَا.

قوله تعالى: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ إِنْذَارٌ وَ تَخْوِيفٌ لَهُمْ عَلَى إِنْكَارِهِمْ وَعَدِ الْأَنْبِيَاءِ بِالْبَعْثِ بِأَمْرِهِمْ أَنْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمَجْرِمِينَ الْمَكْذِبِينَ لِلْأَنْبِيَاءِ الْمُنذِرِينَ لَهُمْ بِالْبَعْثِ فَإِنْ فِي النَّظَرِ إِلَى عَاقِبَةِ أَمْرِهِمْ عَلَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مَسَاكِنُهُمُ الْخَرِبَةُ وَ دِيَارُهُمُ الْخَالِيَةُ كَفَايَةٌ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنْ أَوْلَى الْأَبْصَارِ، وَ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْمَكْذِبِينَ بِالْمَجْرِمِينَ لَطْفٌ بِالْمُؤْمِنِينَ فِي تَرْكِ الْجَرَائِمِ. كَذَا قِيلَ.

و يمكن أن تقرر الآيه حجه تدل على المعاد و تقربها أن انتهاء عاقبه أمر المجرمين الى عذاب الاستئصال دليل على أن الإجماع و الظلم من شأنه أن يؤخذ عليه و أن العمل إحسانا كان او إجراما محفوظ على عامله سيحاسب عليه و إذ لم تقع عامه هذا الحساب و الجزاء -و خاصه على الأعمال الصالحه- في الدنيا فذلك لا محاله في نشأه اخرى و هي الدار الآخرة.

فتكون الآيه في معنى قوله تعالى: أَمْ نَجْعِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعِلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (ص ٢٨/١)، و يؤيد هذا التقرير قوله: «عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ» و لو كان المراد تهديد مكذبي الرسل و تخويفهم كان الأنسب أن يقال: عاقبه المكذبين، كما تقدمت الإشارة اليه.

قوله تعالى: وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ أَى لَا

يحزنك إصرارهم على الكفر والجحود ولا يضق صدرك من مكرهم لإبطال دعوتك وصدّهم الناس عن سبيل الله فإنهم بعين الله و ليسوا بمعجزيه و سيجزيهم بأعمالهم.

فآليه مسوقه لتطيب نفس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وقوله: «وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ» الخ؛ معطوف على ما قبله عطف التفسير.

قوله تعالى: «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ الظاهر أن المراد بالوعد الوعد بعذاب المجازاه أعم من الدنيا والآخرة، و السياق يؤيد ذلك و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ قالوا: إن اللام في «رَدِفَ لَكُمْ» مزيده للتأكيد، كالباء في قوله: «وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» (البقره ١٩٨/١)، والمعنى تبعكم و لحق بكم، وقيل: إن ردف مضمن معنى فعل يعدى باللام.

و المراد ببعض الذى يستعجلونه هو عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة فإنهم كانوا يستعجلون إنجاز ما وعدهم الله من الحكم الفصل، و هو ملازم لعذابهم، و عذابهم فى الدنيا بعض العذاب الذى يستعجلونه باستنجاز الوعد، و لعل مراد الآيه به عذاب يوم بدر كما قيل.

قالوا: إن «عسى و لعل» من الله تعالى واجب لأن حقيقه الترجى مبنيه على الجهل و لا يجوز عليه تعالى ذلك فمعنى قوله: «عسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ» سيردكم و يأتيكم العذاب محققا.

و معنى الآيه: قل لهؤلاء السائلين عن وقت الوعد: أرجو ان يكون تبعكم بعض الوعد الذى تستعجلونه و هو عذاب الدنيا الذى يقربكم من عذاب الآخرة و يؤديكم اليه، و فى التعبير بقوله: «رَدِفَ لَكُمْ» إيماء الى قربه.

قوله تعالى: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ» معنى الآيه فى نفسها ظاهر و وقوعها فى سياق التهديد و التخويف يفيد ان

تأخيره تعالى العذاب عنهم مع استحقاقهم ذلك إنما هو فضل منه عليهم يجب عليهم شكره عليه لكنهم لا يشكرونه و يسألون تعجيله.

قوله تعالى: وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ أَى إن تأخير العذاب ليس عن جهل منه تعالى بحالهم و ما يستحقونه بالكفر و الجحود فإنه يعلم ما تستره و تخفيه صدورهم و ما يظهره.

ثم أكد ذلك بأن كل غائبه-و هى ما من شأنه ان يغيب و يخفى فى أى جهه من جهات العالم كان-مكتوب محفوظ عنده تعالى و هو قوله: «وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ».

قوله تعالى: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ -الى قوله- الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ تطيب لنفس النبي صلى الله عليه و آله و سلم و تمهيد لما سيذكره من حقيه دعوته و تقويه لإيمان المؤمنين به، و بهذا الوجه يتصل بقوله قبلا: «وَلَا تَحْزَنُ عَلَيْهِمْ» الخ؛ المشعر بحقيه دعوته.

فقوله: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ يشير الى ما يقصه القرآن من قصص الأنبياء و يبين الحق فيما اختلفوا فيه من أمرهم و منه أمر المسيح عليه السلام و يبين الحق فيما اختلفوا فيه من المعارف و الأحكام.

و قوله: وَ إِنَّهُ لَهْدَىٰ وَ رَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ يشير الى أنه يهدى المؤمنين بما قصه على بنى إسرائيل الى الحق و أنه رحمه لهم تطمئن بهم قلوبهم و يثبت الإيمان بذلك فى نفوسهم.

و قوله: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ إشاره الى أن القضاء بينهم الى الله فهو ربه العزيز الذى لا يغلب فى أمره العليم لا يجهل و لا يخطئ فى حكمه فهو القاضى بينهم بحكمه فلترض نفس النبي صلى الله عليه و آله و سلم بربه العزيز العليم قاضيا حكما و لترجع الأمر اليه كما ينبغى أن تفعل مثل ذلك فى حق المشركين و لا تحزن عليهم و لا تكون فى ضيق مما

يمكنون.

قوله تعالى: فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ تفرّيع على مجموع ما أمر به قبال كفر المشركين و اختلاف بنى إسرائيل أى إن أمرهم جميعا الى الله لا اليك فاتخذه وكيلا فهو كافيك و لا تخافن شيئا إنك فى أمن من الحق.

قوله تعالى: إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى -الى قوله- فَهُمْ مُسْمِعُونَ تعليل الأمر بالتوكل أى إنما أمرناك بالتوكل على الله فى أمر إيمانهم و كفرهم لأنهم موتى و ليس فى وسعك أن تسمع الموتى دعوتك و إنهم صم لا يسمعون و عمى ضالون لا تقدر على إسماع الصم إذا ولّوا مدبرين-و لعله قيد عدم إسماع الصم بقوله: «إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ» لأنهم لو لم يكونوا مدبرين لأمكن تفهيمهم بنوع من الاشارة-و لا على هدايه العمى عن ضلالتهم،و إنما الذى تقدر عليه هو أن تسمع من يؤمن بآياتنا الداله علينا و تهديهم فإنهم لإذعانهم بتلك الحجج الحقه مسلمون لنا مصدقون بما تدلّ عليه (١).

[سوره النمل (٢٧): الآيات ٨٢ الى ٩٣]

إشارة

وَ إِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهُمْ قَالُوا أَسَدَّثْتُمْ بِآيَاتِنَا وَ لَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آذَانًا لَّيْسَ لَكُم بَأْسٌ مِّمَّنْ كَفَرْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسًا كُنُوفِهِمُ وَ النَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَ كُفِّلَ آتُوهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَ تَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَ هِيَ تَمُرٌّ مَرَّ السَّحَابِ صُبَّحَ اللَّهُ الَّذِى أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨٨) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَ هُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَيْتٌ وَ جُوهُهُمْ فِي الدَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أُعْبِدَ رَبَّ هَادِيَ الْبَلَدِ الَّذِى حَرَّمَهَا وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَ أَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِىٰ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)

ص: ٦٤٤

(١-١). النمل ٥٩-٨١: بحث روائى حول قوله تعالى: «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا»؛ خلافه الانسان؛ اطاعه الله.

بيان:

قوله تعالى: وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ مقتضى السياق- بما أن الآيه متصله بما قبلها من

ص: ٦٤٥

الآيات الباعثة عن أمر المشركين المعاصرين للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أو خصوص أهل مكة من قريش وقد كانوا أشدّ الناس عداوة للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ودعوته-أن ضمائر «عَلَيْهِمْ» و «لَهُمْ» و «تُكَلِّمُهُمْ» للمشركين المحدث عنهم لكن لا لخصوصهم بل بما أنهم ناس معتبون بالدعوه فالمراد بالحقيقه عامه الناس من هذه الامه من حيث وحدتهم فيلحق بأولهم من الحكم ما يلحق بآخرهم وهذا النوع من العناية كثير الورد في كلامه تعالى.

و المراد بوقوع عليهم تحقق مصداق القول فيهم و تعينهم لصدقه عليهم كما في الآيه التاليه «وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا» أى حقّ عليهم العذاب، فالجمله فى معنى «حق عليهم القول» وقد كثر وروده فى كلامه تعالى، و الفرق بين التعبيرين أن العناية فى «وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ» بتعينهم مصداقا للقول و فى «حق عليهم القول» باستقرار القول و ثبوته فيهم بحيث لا يزول.

و أما ما هو هذا القول الواقع عليهم فالذى يصلح من كلامه تعالى لأن يفسر به قوله:

سُنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (حم السجده ٥٣/) فإن المراد بهذه الآيات التى سيريهم غير الآيات السماويه و الأرضيه التى هى بمرآهم و مسمعهم دائما قطعا بل بعض آيات خارقه للعاده تخضع لها و تضطر للإيمان بها أنفسهم فى حين لا يوقنون بشىء من آيات السماء و الأرض التى هى تجاه أعينهم و تحت مشاهدتهم.

و بهذا يظهر أن قوله: «أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ» تعليل لوقوع القول عليهم و التقدير لأن الناس، و قوله: «كَانُوا» لإفاده استقرار عدم الإيقان فيهم و المراد بالآيات المشهوده من السماء و الأرض غير الآيات الخارقه، و قرئ «إن» بكسر الهمزه و هى أرجح من قراءه الفتح فيؤيد ما ذكرناه و تكون الجمله بلفظها تعليلا من دون تقدير اللام.

و قوله: أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ بَيِّنَاتٍ لِّأَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (الأنبياء ١٠٤) و قوله: «سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» و فى كونه

وصفاً لأمر خارق للعادة دلالة على أن المراد بالإخراج من الأرض إما الإحياء و البعث بعد الموت و إما أمر يقرب منه، و أما كونها دابة تكلمهم فالدابة ما يدبّ في الأرض من ذوات الحيات إنسانا كان او حيوانا غيره فإن كان إنسانا كان تكليمه الناس على العادة و إن كان حيوانا أعجم كان تكليمه كخروجه من الأرض خرقاً للعادة.

و لا نجد في كلامه تعالى ما يصلح لتفسير هذه الآية و أن هذه الدابة التي سيخرجها لهم من الأرض فتكلمهم ما هي؟ و ما صفتها؟ و كيف تخرج؟ و ما ذا تتكلم به؟ بل سياق الآية نعم الدليل على أن القصد الى الإيهام فهو كلام مرموز فيه.

و محصل المعنى: أنه إذا آل أمر الناس -و سوف يثول- الى أن كانوا لا يوقنون بآياتنا المشهودة لهم و بطل استعدادهم للإيمان بنا بالتعقل و الاعتبار آن وقت أن نريهم ما وعدنا إراءته لهم من الآيات الخارقة للعادة المبيّنة لهم الحق بحيث يضطرون الى الاعتراف بالحق فأخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم.

قوله تعالى: وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ الفرج - كما ذكره الراغب - الجماعة المارة المسرعة، و الإيزاع إيقاف القوم و حبسهم بحيث يرد أولهم على آخرهم.

و قوله: وَيَوْمَ نَحْشُرُ مَنْصُوبٌ عَلَى الظرفية لمقدر و التقدير و اذكر يوم نحشر و المراد بالحشر هو الجمع بعد الموت لأن المحشورين فوج من كل امه و لا اجتماع لجميع الامم في زمان واحد و هم أحياء، و «مِنْ» في قوله: «مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ» للتبعيض، و في قوله: «مِمَّنْ يُكَذِّبُ» للتبيين أو للتبعيض.

و المراد بالآيات في قوله: «يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا» مطلق الآيات الداله على المبدأ و المعاد و منها الأنبياء و الأئمة و الكتب السماوية دون الساعة و ما يقع فيها و عند قيامها و دون الآيات القرآنية فقط لأن الحشر ليس مقصوراً على الامه الإسلاميه بل أفواج من امم شتى.

و ظاهر الآيه أن هذا الحشر فى غير يوم القيامة لأنه حشر للبعض من كل امه لا لجميعهم وقد قال تعالى فى صفه الحشر يوم القيامة: وَ حَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (الكهف / ٤٧).

و فيه أنه لو كان المراد الحشر الى العذاب لزم ذكر هذه الغايه دفعا للابهام كما فى قوله تعالى:

وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا (حم السجده ٢٠/٧)، مع أنه لم يذكر فيما بعد هذه الآيه إلا العتاب و الحكم الفصل دون العذاب و الآيه كما ترى مطلقه لم يشر فيها الى شىء يلوح الى هذا الحشر الخاص المذكور و يزيد بها إطلاقا قوله بعدها: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا» فلم يقل: حتى اذا جاءوا العذاب أو النار أو غيرها.

قوله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا قَالَ أَمْ كَذَبْتُمْ بآيَاتِي وَ لَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ المراد بالمجىء-بإعانه من السياق-هو الحضور فى موطن الخطاب المدلول عليه بقوله: «قَالَ أَمْ كَذَبْتُمْ» الخ؛ و المراد بالآيات-كما تقدم فى الآيه السابقه-مطلق الآيات الداله على الحق، و قوله: «وَ لَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا» جملة حالیه أى كذبتم بها حال كونكم لا علم لكم بها لإعراضكم عنها فكيف كذبتم بما لا تعلمون أى رमितموها بالكذب و عدم الدلاله من غير علم، و قوله: «أَمْ ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أى غير التكذيب.

و المعنى: حتى اذا حضروا فى موطن الخطاب قال الله سبحانه لهم: أَمْ كَذَبْتُمْ بآيَاتِي حال كونكم لم تحيطوا بها علما أم أى شىء كنتم تعملون غير التكذيب، و فى ذلك عتابهم بأنهم لم يشتغلوا بشىء غير تكذيبهم بآيات الله من غير أن يشغلهم عنه شاغل معذر.

قوله تعالى: وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ الباء فى «بِمَا ظَلَمُوا» للسببيه و«ما» مصدریه أى وقع القول عليهم بسبب كونهم ظالمين، و قوله: «فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ» تفریع على وقوع القول عليهم.

و بذلك يتأيد أن المراد بالقول الذى يقع عليهم قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الظَّالِمِينَ (الأنعام ١٤٤)، والمعنى: و لكونهم ظالمين في تكذيبهم بالآيات لم يهتدوا الى ما يعتذرون به فانقطعوا عن الكلام فهم لا ينطقون.

قوله تعالى: أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ لما وصف في الآيات السابقه أن كثيرا من الناس في صمم و عمى من استماع كلمه الحق و النظر في آيات اللّٰه و الاعتبار بهما، ثم ذكر دابه الأرض و أنه سيخرجها آيه خارقه للعادة تكلمهم، ثم ذكر أنه سيحشر فوجا من كل أمه من المكذبين فيعاتبهم فتم عليهم الحجه بقولهم بغير علم بالآيات لإعراضهم عنها و بّخهم في هذه الآيه و لامهم على تكذيبها بالآيات مع الجهل أنهم كانوا يرون الليل الذى يسكنون فيه بالطبع و أن هناك نهارا مبصرا يظهر لهم بها آيات السماء و الأرض فلم لم يتبصروا؟.

و قوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ أى فى جعل الليل سكنا يسكنون فيه و النهار مبصرا يبصرون فيه آيات السماء و الأرض آيات لقوم فيهم خاصه الإذعان و التصديق للحق اللائح لهم.

و المراد بالآيات العلامات و الجهات الدّاله فيهما على التوحيد و ما يتبعه من حقائق المعارف، و من جمله ذلك دلالتها على أن الإنسان عليه أن يسكن فيما من شأنه أن يسكن فيه، و هو الليل الذى يضرب بحجاب ظلمته على الأبصار، و يتحرك فيما من شأنه أن يتحرك فيه و هو النهار المبصر الذى يظهر به الأشياء التى تتضمن منافع الحياه للأبصار.

فعلى الإنسان أن يسكت عما حجبته عنه ظلمه الجهل و لا يقول بغير علم و لا يكذب بما لا يحيط به علما و أن يقول و يؤمن بما تجلّيه له بينات الآيات التى هى كالنهر المبصره.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرَعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَ كُلُّ أَتَوُّهُ دَاخِرِينَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ كناية عن إعلام الجماعه الكثيرين كالعسكر بما يجب عليهم أن يعملوا به جمعا كالحضور و الارتحال و غير ذلك،

و الفرع كما قال الراغب انقباض و نفار يعترى الانسان من الشيء المخيف و هو من جنس الجزع، و الدخور الذله و الصغار.

و الظاهر أن المراد بقوله: «و كَلُّ أُنُوهٍ دَاخِرِينَ» رجوع جميع من فى السماوات و الأرض حتى المستثنين من حكم الفرع و حضورهم عنده تعالى، و أما قوله: فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (الصافات ١٢٧)، فالظاهر أن المراد نفي إحصارهم فى الجمع للحساب و السؤال لا- نفي بعضهم و رجوعهم الى الله و حضورهم عنده فأيات القيامة ناصه على عموم البعث لجميع الخلائق بحيث لا يشذ منهم شاذ.

و نسبه الدخور و الذله الى أوليائه تعالى لا تنافى ما لهم من العزه عند الله فإن عزه العبد عند الله ذلته عنده و غناه بالله فقره اليه نعم ذله أعدائه بما يرون لأنفسهم من العزه الكاذبه ذله هوان.

قوله تعالى: وَ تَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ الآية بما أنها واقعه فى سياق آيات القيامة محفوفه بها تصف بعض ما يقع يومئذ من الآيات و هو سير الجبال و قد قال تعالى فى هذا المعنى أيضا: وَ سُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (النبا ٢٠)، الى غير ذلك.

فقوله: وَ تَرَى الْجِبَالَ الْخَطَابَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم و المراد به تمثيل الواقعه، كما فى قوله:

وَ تَرَى النَّاسَ سُيَّكَارَى (الحج ٢)، أى هذا حالها المشهوده فى هذا اليوم تشاهدها لو كنت مشاهدا، و قوله: «تَحْسَبُهَا جَامِدَةً» أى تظنها الآن و لم تقم القيامة بعد جامده غير متحركه، و الجملة معترضه أو حاله.

و قوله: وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ حال من الجبال و عاملها «تَرَى» أى تراها إذا نفخ فى الصور حال كونها تسير سير السحاب فى السماء.

و قوله: صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ مَفْعُولٌ مطلق لمقدّر أى صنعه صنعا و فى

الجملة تلويح الى أن هذا الصنع و الفعل منه تعالى تخريب للدينا و هدم للعالم، لكنه فى الحقيقه تكميل لها و إتقان لنظامها لما يترتب عليه من إنهاء كل شىء الى غايته و إيصاله الى وجهته التى هو مولئها من سعاده أو شقاوه لأن ذلك صنع الله الذى أتقن كل شىء فهو سبحانه لا يسلب الإتقان عما أتقنه و لا يسلب الفساد على ما أصلحه فى تخريب الدنيا تعمير الآخرة.

و قوله: إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ قيل: إنه تعليل لكون ما ذكر من النفخ فى الصور و ما بعده صنعا محكما له تعالى فإن علمه بظواهر أفعال المكلفين و بواطنها مما يستدعى إظهارها و بيان كفياتها على ما هى عليه من الحسن و السوء و ترتيب آثارها من الثواب و العقاب عليها بعد البعث و الحشر و تسيير الجبال.

و أنت ترى ما فيه من التكلف و أن السياق بعد ذلك كله لا يقبله.

و قيل: إن قوله: «إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ» استئناف فى حكم الجواب عن سؤال مقدر كأنه قيل: فما ذا يكون بعد هذه القوارع؟ فقيل: إن الله خير بعمل العاملين فيجازيهم على أعمالهم و فضل بقوله: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا» الى آخر الآيتين.

و هاهنا وجه آخر مستفاد من الإمعان فى سياق الآيات السابقه فإن الله سبحانه أمر فيها نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن يتوكل عليه و يرجع أمر المشركين و بنى إسرائيل اليه فإنه إنما يستطيع هدايه المؤمنين بآياته المستسلمين للحق و أما المشركون فى جحودهم و بنو إسرائيل فى اختلافهم فإنهم موتى لا يسمعون و صم عمى لا يسمعون و لا يهتدون الى الحق بالنظر فى آيات السماء و الأرض و الاعتبار بها باختيار منهم.

ثم ذكر ما سيواجههم به—و حالهم هذه الحال لا يؤثر فيهم الآيات—و أنه سيخرج لهم دابه من الأرض تكلمهم و هى آيه خارقه تضطرهم الى قبول الحق و أنه يحشر من كل أمه فوجا من المكذبين فيتم عليهم الحجه، و بالآخرة هو خير بأفعالهم سيجزى من جاء بحسنه او سيئه بعمله يوم ينفخ فى الصور ففزعوا و أتوه داخرين.

و بالتأمل فى هذا السياق يظهر أن الأنسب كون «يَوْمٌ يُنْفَخُ» ظرفاً لقوله: «إنه خير بما يفعلون» و قراءه «يفعلون» بيان الغيبه أرجح من القراءه المتداوله على الخطاب.

و المعنى: و إنه تعالى خير بما يفعله أهل السماوات و الأرض يوم ينفخ فى الصور و يأتونه داخرين يجرى من جاء بالحسنه بخير منها و من جاء بالسيئه بكبّ و جوههم فى النار كلّ مجزى بعمله، و على هذا تكون الآيه فى معنى قوله تعالى: أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رِجَالٌ فِي الْقُبُورِ وَ حُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (العاديات ١١)، و قوله: يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ (المؤمن ١٦)، و يكون قوله: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ» الخ، تفصيلاً لقوله:

«إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ» من حيث لازم الخبره و هو الجزاء بما فعل و عمل كما أشار اليه ذيلاً بقوله: «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» و الالتفات من الغيبه الى الخطاب فى قوله: «هَلْ تُجْزَوْنَ» الخ؛ لتشديد التقرير و التأنيب.

و فى الآيه أعنى قوله: «و تَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ» الخ؛ قولان آخران:

أحدهما: حملها على الحركة الجوهرية و أن الأشياء كالجبال تتحرك بجوهرها الى غايه وجودها و هى حشرها و رجوعها الى الله سبحانه.

و هذا المعنى أنسب بالنظر الى ما فى قوله: «تَحْسَبُهَا جَامِدَةً» من التلويح الى أنها اليوم متحركة و لما تقم القيامة، و أما جعل يوم القيامة ظرفاً لحسبان الجمود و للمرور كالسحاب جميعاً فمما لا يلتفت اليه.

و ثانيهما: حملها على حركة الأرض الانتقاليه و هو بالنظر الى الآيه فى نفسها معنى جيد إلا أنه أولاً: يوجب انقطاع الآيه عما قبلها و ما بعدها من آيات القيامة و ثانياً: ينقطع بذلك اتصال قوله: «إنه خير بما يفعلون» بما قبله.

قوله تعالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَ هُمْ مِنْ فِرْعَ يَوْمَئِذٍ

آمِنُونَ هذه الآيه و ما بعدها- كما تقدمت الإشارة اليه- تفصيل لقوله: «إنه خير بما يفعلون» من حيث أثره الذى هو الجزاء، والمراد بقوله: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا» أن له جزاء هو خير مما جاء به من الحسنه و ذلك لأن العمل أيا ما كان مقدمه للجزاء مقصود لأجله و الغرض و الغايه على أى حال أفضل من المقدمه.

و قوله: وَ هُمْ مِنْ فِرْعَ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ظاهر السياق أن هذا الفزع هو الفزع بعد نفخ الصور الثانى دون الأول فيكون فى معنى قوله: لَا يَحْزَنُهُمُ الْفِرْعُ الْأَكْبَرُ وَ تَتَلَفَأُهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (الأنبياء ١٠٣/).

قوله تعالى: وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُتِبَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ يقال: كُتِبَ عَلَى وَجْهِهِ فَانكَبَ أى ألقاه على وجهه فوقع عليه فنسبه الكب الى وجوههم من المجاز العقلى و الأصل فكبوا على وجوههم.

و قوله: هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ الاستفهام للانكار، و المعنى: ليس جزاؤكم هذا إلا نفس العمل الذى عملتموه ظهر لكم فلزمكم فلا ظلم فى الجزاء و لا جور فى الحكم.

و الآيتان فى مقام بيان ما فى طبع الحسنه و السيئه من الجزاء ففيهما حكم من جاء بالحسنه فقط و من أحاطت به الخطيئه و استغرقت السيئه و أما من حمل حسنه و سيئه فيعلم بذلك حكمه إجمالاً و أما التفصيل ففى غير هذا الموضع.

قوله تعالى: إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ الْآيَاتِ الثَّلاث- من هنا الى آخر السوره- ختام السوره يبين فيها أن هذه الدعوه الحقه تبشير و إنذار فيه إتمام للحجه من غير أن يرجع اليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم من أمرهم شىء و إنما الأمر الى الله و سيريهم آياته فيعرفونها ليس بغافل عن أعمالهم.

و فى قوله: إِنَّمَا أُمِرْتُ الْخ؛ تكلم عن لسان النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم فهو فى معنى: قل إنما أمرت

أن أعبد رب هذه البلده، و المشار إليها بهذه الإشاره مكه المشرفه، و فى الكلام تشریفها من وجهين: إضافة الرب إليها، و توصیفها بالحرمة حيث قال: رب هذه البلده الذى حرّمها. و فيه تعريض لهم حيث كفروا بهذه النعمة نعمه حرمة بلدتهم و لم يشركوا الله بعبادته بل عدلوا الى عباده الأصنام.

و قوله: وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ اشاره الى سعه ملكه تعالى دفعا لما يمكن أن يتوهم أنه إنما يملك مكه التى هو ربها فيكون حاله حال سائر الأصنام يملك الواحد منها على عقيدتهم جزءا من أجزاء العالم كالسما و الأرض و بلده كذا و قوم كذا و أسره كذا، فيكون تعالى معبودا كأحد الآلهة واقعا فى صفتهم و فى عرضهم.

و قوله: وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أى من الذين أسلموا له فيما أراد و لا يريد إلا ما يهدى اليه الخلقه و يهتف به الفطره و هو الدين الحنيف الفطرى الذى هو مله إبراهيم.

قوله تعالى: وَ أَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدَى لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ معطوف على قوله: «أَنْ أَعْبُدَ» أى أمرت أن أقرأ القرآن و المراد تلاوته عليهم بدليل تفریع قوله: «فَمَنْ اهْتَدَى» الخ؛ عليه.

و قوله: «فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدَى لِنَفْسِهِ» أى فمن اهتدى بهذا القرآن فالذى ينتفع به هو نفسه و لا يعود نفعه إلى.

و قوله: وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ أى و من لم يهتد به بالإعراض عن ذكر ربه و هو الضلال فعليه ضلاله و وبال كفره لا على لآنى لست إلا منذرا مأمورا بذلك و لست عليه و كيلا و الله هو الوكيل عليه.

فالعدول عن مثل قولنا: و من ضل فإنما أنا من المنذرين و هو الذى كان يقتضيه الظاهر الى قوله: «فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ» لتذكيره صلى الله عليه و آله و سلم بما تقدم من العهد اليه أنه ليس إلا منذرا

و ليس اليه من أمرهم شىء فعليه أن يتوكل على ربه و يرجع أمرهم اليه كما قال: «فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ إِنَّكَ لَا تُسْجِعُ الْمَوْتَى» الخ؛ فكأنه قيل: و من ضل فقل له قد سمعت أن ربي لم يجعل على إلا الإنذار فلست بمسئول عن ضلال من ضل.

قوله تعالى: وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ معطوف على قوله: «فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ» و فيه انعطاف الى ما ذكره بعد أمر نبيه صلى الله عليه و آله و سلم بالتوكل عليه فى أمرهم من أنه سيجعل للمشركين عاقبه سوء و يقضى بين بنى إسرائيل فيما اختلفوا فيه و يريهم من آياته ما يضطرون الى تصديقه ثم يجزيهم بأعمالهم.

و محصل المعنى: و قل الثناء الجميل لله تعالى فيما يجريه فى ملكه حيث دعى الناس الى ما فيه خيرهم و سعادتهم و هدى الذين آمنوا بآياته و أسلموا له و أما المكذبون فأمات قلوبهم و أصم آذانهم و أعمى أبصارهم فضلوا و كذبوا بآياته.

و قوله: سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا إشارة الى ما تقدم من قوله: «وَ إِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ» و ما بعده، و ظهور قوله: «آيَاتِهِ» فى العموم دليل على شموله لجميع الآيات التى تضطرهم الى قبول الحق مما يظهر لهم قبل قيام الساعة و بعده.

و قوله: وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و هو بمنزلة التعليل لما تقدمه أى إن أعمالكم معاشر العباد بعين ربك فلا يفوته شىء مما تقتضيه الحكمة قبال أعمالكم من الدعوه و الهدايه و الإضلال و إراءه الآيات ثم جزاء المحسنين منكم و المسيئين يوم القيامة.

و قرئ «عما يعملون» بيان الغيبه و لعلها أرجح و مفادها تهديد المكذبين و فى قوله:

«رَبُّكَ» بإضافه الرب الى الكاف تطيب لنفس النبي صلى الله عليه و آله و سلم و تقويه لجانبه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ; طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُمُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَ نُمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرَى فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَ لَا تَخَافِي وَ لَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَ قَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنٌ لِي وَ لَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَ أَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِعًا إِنْ كَادَتْ لِتَبْذُرَهُ بِهٖ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَ قَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهٖ عَنْ جُنْبٍ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَ حَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤)

غرض السوره الوعد الجميل للمؤمنين و هم بمكه قبل الهجره شردمه قليلون يستضعفهم

ص: ٦٥٧

فراعنه قريش و طغاتها و اليوم يوم شده و عسره و فتنه بأن الله سيمنّ عليهم و يجعلهم الوارثين و يمكن لهم و يرى طغاه قومهم منهم ما كانوا يحذرون يقص تعالى للمؤمنين من قصه موسى و فرعون أنه خلق موسى في حين كان فرعون في أوج قدرته يستضعف بنى إسرائيل يذبح أبناءهم و يستحيى نساءهم فرّاه في حجر عدو، حتى إذا استوى و بلغ أشده نجاه و أخرجه من بينهم الى مدين ثم رده اليهم رسولا- منه بسطان مبین حتى إذا أغرق فرعون و جنوده أجمعين و جعل بنى إسرائيل هم الوارثين و أنزل التوراه على موسى هدى و بصائر للمؤمنين.

و على هذا المجرى يجرى حال المؤمنين و فيه وعد لهم بالملك و العزه و السلطان و وعد للنبي صلى الله عليه و آله و سلم برده الى معاد.

و انتقل من القصة الى بيان أن من الواجب في حكمه الله أن ينزل كتابا من عنده للدعوه الحقه ثم ذكر طعنهم في دعوه القرآن بقولهم: لو لا- أوتى مثل ما أوتى موسى و الجواب عنه، و تعللهم عن الإيمان بقولهم: إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا و الجواب عنه و فيه التمثل بقصه قارون و خسفه.

و السوره مكيه كما يشهد بذلك سياق آياتها، و ما أوردناه من الآيات فصل من قصه موسى و فرعون من يوم ولد موسى الى بلوغه أشده.

قوله تعالى: **طَسَمَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ** تقدم الكلام فيه في نظائره.

قوله تعالى: **نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبِيٍّ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** «من» للتبويض و «بالحق» متعلق بقوله: «نَتْلُوا» أى نتلو تلاوه متلبسه بالحق فهو من عندنا و بوحي منا من غير أن يداخل من إلقاءه الشياطين، و يمكن أن يكون متعلقا بنأى أى حال كون النبأ الذى نتلوه عليك متلبسا بالحق لا مريه فيه.

و قوله: **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** اللام فيه للتعليل و هو متعلق بقوله: «نَتْلُوا» أى نتلو عليك

من نبأهما لأجل قوم يؤمنون بآياتنا.

و محصل المعنى: نتلو عليك بعض نبأ موسى و فرعون تلاوه بالحق لأجل أن يتدبر فيه هؤلاء الذين يؤمنون بآياتنا ممن اتبعوك و هم طائفه أذلاء مستضعفون فى أيدى فراعنه قريش و طغاه قومهم فيتحققوا أن الله الذى آمنوا به و برسوله و تحمّلوا كل أذى فى سبيله هو الله الذى أنشأ موسى عليه السلام لإحياء الحق و إنجاء بنى إسرائيل و إعزازهم بعد ذلتهم هاتيك الذلة يذبح أبناءهم و يستحيى نساءهم و قد علا فرعون و أنشب فيهم مخالبا قهره و أحاط بهم بجوره.

أنشأه و الجوى ذلك الجوى المظلم الذى لا مطمع فيه فرباه فى حجر عدوه ثم أخرجهم من مصر ثم أعاده اليهم بسطان فأنجا به بنى إسرائيل و أفنى بيده فرعون و جنوده و جعلهم أحاديث و أحلاما.

فهو الله جل شأنه يقص على نبيه قصتهم و يرمز له و لهم بقوله: «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» أنه سيفعل بهؤلاء مثل ما فعل باولئك و يمن على هؤلاء المستضعفين و يجعلهم أئمة و يجعلهم الوارثين حذو ما صنع بنى إسرائيل.

قوله تعالى: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعُّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ الْخَالِطِينَ فِي الْأَرْضِ كِنَايَةً عَنِ التَّجْبِيرِ وَ الْإِسْتِكْبَارِ، و الشيع جمع شيعه و هى الفرقة، قال فى المجمع: الشيع: الفرق و كل فرقه شيعه و سموا بذلك لأن بعضهم يتابع بعضا.

انتهى. و كأن المراد بجعل أهل الأرض -و كأنهم أهل مصر و اللام للعهد- فرقا إلقاء الاختلاف بينهم لئلا يتفق كلمتهم فيثوروا عليه و يقلبوا عليه الامور على ما هو من دأب الملوك فى بسط القدره و تقويه السلطه، و استحياء النساء إبقاء حياتهن.

و محصل المعنى: أن فرعون علا فى الأرض و تفوق فيها ببسط السلطه على الناس و إنفاذ القدره فيهم و جعل أهلها شيعا و فرقا مختلفه لا تجتمع كلمتهم على شىء و بذلك ضعف عامه

قوتهم على المقاومة دون قوته و الامتناع من نفوذ إرادته.

قوله تعالى: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ -الى قوله- يَحْذَرُونَ الْأَصْلَ فِي مَعْنَى الْمَن-على ما يستفاد من كلام الراغب-الثقل و منه تسميه ما يوزن به مناء، و المنة النعمة الثقيله و منّ عليه منا أى أثقله بالنعمة.قال: و يقال ذلك على وجهين أحدهما بالفعل كقوله: «وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا» أى نعطيهم من النعمة ما يتقلهم و الثانى بالقول كقوله: «يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا» و هو مستقبح إلا عند كفران النعمة.

انتهى ملخصا.

و تمكينهم فى الأرض إعطاؤهم فيها مكانا يملكونه و يستقرون فيه، و عن الخليل أن المكان مفعول من الكون و لكثرتة فى الكلام أجرى مجرى فعال.ف قيل:تمكن و تمسكن نحو تمنزل انتهى.

و قوله: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ الْخ؛ الأنسب أن يكون حالا من «طَائِفَةً» و التقدير يستضعف طائفه منهم و نحن نريد أن نمن على الذين استضعفوا، الخ؛ و قيل:معطوف على قوله: «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ» و الأول أظهر، و «نُرِيدُ» على أى حال لحكاية الحال الماضيه.

و قوله: وَ نَجْعَلُهُمْ أُثْمَةً عطف تفسير على قوله: «نَمُنَّ» و كذا ما بعده من الجمل المتعاقبه.

و المعنى: أن الظرف كان ظرف علو فرعون، و تفريقه بين الناس و استضعافه لبنى إسرائيل استضعافا بيدهم و يفنيهم و الحال أنا نريد أن ننعمة على هؤلاء الذين استضعفوا من كل وجه نعمة تثقلهم و ذلك بأن نجعلهم أئمة يقتدى بهم فيكونوا متبوعين بعد ما كانوا تابعين، و نجعلهم الوارثين لها بعد ما كانت بيد غيرهم و نمكن لهم فى الأرض بأن نجعل لهم مكانا يستقرون فيه و يملكونه بعد ما لم يكن لهم من المكان إلا ما أراد غيرهم أن يبوأهم فيه و يقرهم عليه، و نرى

ص: ٦٦٠

فرعون و هو ملك مصر و هامان و هو وزيره و جنودهما منهم أى من هؤلاء الذين استضعفوا ما كانوا يحذرون و هو أن يظهرها عليهم فيذهبوا بملكهم و مالهم و سنتهم كما قالوا فى موسى و أخيه لما أرسلوا اليهم: يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى (طه ٦٣).

قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ الى آخر الآية؛ الإيحاء هو التكليم الخفى و يستعمل فى القرآن فى تكليمه تعالى بعض خلقه بنحو الإلهام و الإلقاء فى القلب كما فى قوله: يَا نَّ رَبُّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (الزلزال ٥)، و قوله: وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ (النحل ٦٨)، و قوله فى أم موسى: «وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ» الآية؛ أو بنحو آخر كما فى الأنبياء و الرسل، و فى غيره تعالى كما فى قوله: إِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ (الأنعام ١٢١)، و الإلقاء الطرح، و اليم البحر و النهر الكبير.

و قوله: وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ فى الكلام إيجاز بالحذف و التقدير و حبلت أم موسى به- و الحال هذه الحال من الشده و الحده- و وضعته و أوحينا إليها، الخ.

و المعنى: و قلنا بنوع من الإلهام لام موسى لما وضعته: أَرْضِعِيهِ ما دمت لا تخافين عليه من قبل فرعون فإذا خفت عليه- أن يطلع عليه آل فرعون فيأخذوه و يقتلوه- فألقيه فى البحر و هو النيل على ما وردت به الروايه و لا تخافى عليه القتل و لا تحزنى لفقده و مفارقتة إياك إنا رادوه اليك بعد ذلك و جاعلوه من المرسلين فيكون رسولا الى آل فرعون و بنى إسرائيل.

فقوله: إِذَا رَادُوهُ إِلَيْكَ تَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ فى قوله: «وَ لَا- تَحْزَنِي» كما يشهد به أيضا قوله بعد: «فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ» و الفرق بين الخوف و الحزن بحسب المورد أن الخوف إنما يكون فى مكروه محتمل الوقوع و الحزن فى مكروه قطعى الوقوف.

قوله تعالى: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ

وَالْهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ اللَّتْقَاطِ إِصَابَهُ الشَّيْءِ وَأَخَذَهُ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ، وَمِنْهُ اللَّقْطَةُ وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ: «لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا» لِلْعَاقِبَةِ عَلَى مَا قِيلَ - وَالْحَزْنَ بَفَتْحَتَيْنِ وَالْحَزْنَ بِالضَّمِّ فَالسُّكُونُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ كَالسَّقَمِ وَالسَّقَمُ، وَالْمُرَادُ بِالْحَزَنِ سَبَبُ الْحَزَنِ فِإِطْلَاقِ الْحَزَنِ عَلَيْهِ مَبَالِغُهُ فِي سَبَبِيَّتِهِ لِحَزْنِهِمْ.

وَالْخَاطِئِينَ اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ خَطِئَ يَخْطِئُ خَطْئًا كَعَلِمَ يَعْلَمُ عِلْمًا كَمَا أَنَّ الْمَخْطِئَ اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ أَخْطَأَ يَخْطِئُ إِخْطَاءً، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْخَاطِئِ وَالْمَخْطِئِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الرَّاعِبُ أَنَّ الْخَاطِئَ يُطْلَقُ عَلَى مَنْ أَرَادَ فِعْلًا - لَا - يَحْسِنُهُ فَعَلَهُ قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا»، وَقَالَ: «وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ»، وَالْمَخْطِئُ يَسْتَعْمَلُ فِيمَنْ أَرَادَ فِعْلًا يَحْسِنُهُ فَوْقَ مَنْ غَيْرِهِ وَاسْمُ مَصْدَرِهِ الْخِطْأُ بِفَتْحَتَيْنِ، قَالَ تَعَالَى: «وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطْئًا (النساء ٩٢/١)، وَالْمَعْنَى الْجَامِعُ هُوَ الْعَدُولُ عَنِ الْجِهَةِ. انْتَهَى مَلَخَصًا.

فَقَوْلُهُ: «إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ» أَيُ فِيمَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ فِي أَبْنَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمُوسَى تَحْذَرًا مِنْ انْتِهَادِ مَلِكِهِمْ وَذَهَابِ سُلْطَانِهِمْ بِيَدِهِمْ إِرَادَةً لِتَغْيِيرِ الْمَقَادِيرِ عَنْ مَجَارِيهَا فَقَتَلُوا الْجَمَّ الْغَفِيرَ مِنَ الْأَبْنَاءِ وَلَا شَأْنَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ وَتَرَكَوا مُوسَى حَيْثُ التَّقْطُوهُ وَرَبُوهُ فِي حَجُورِهِمْ وَكَانَ هُوَ الَّذِي بِيَدِهِ انْقِرَاضُ دَوْلَتِهِمْ وَزَوَالُ مَلِكِهِمْ.

وَالْمَعْنَى: فَاصَابَهُ آلُ فِرْعَوْنَ وَأَخَذُوهُ مِنَ الْيَمِّ وَكَانَ غَايَهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَسَبَبُ حَزْنِ إِنْ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ فِي قَتْلِ الْأَبْنَاءِ وَتَرَكَ مُوسَى: أَرَادُوا أَنْ يَقْضُوا عَلَى مَنْ سَيَقْضَى عَلَيْهِمْ فَعَادُوا يَجْتَهِدُونَ فِي حِفْظِهِ وَيَجِدُّونَ فِي تَرْبِيَّتِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ شَفَاعَهُ مِنْ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَ قَدْ كَانَتْ عِنْدَهُ حِينَمَا جَاءُوا إِلَيْهِ بِمُوسَى - وَ هُوَ طِفْلٌ مَلْتَقِطٌ مِنَ الْيَمِّ - تَخَاطَبَ فِرْعَوْنَ بِقَوْلِهِ: «قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ» أَيُ هُوَ قَرُّ عَيْنٍ لَنَا «لَا تَقْتُلُوهُ» وَ إِنَّمَا خَاطَبَ بِالْجَمْعِ لِأَنَّ شُرَكَاءَ الْقَتْلِ كَانُوا كَثِيرِينَ مِنْ سَبَبِ

و مباشر و آمر و مأمور.

و إنما قالت ما قالت لأن الله سبحانه ألقى محبه منه في قلبها فعادت لا تملك نفسها دون أن تدفع عنه القتل و تضمه إليها، قال تعالى فيما يمن به على موسى عليه السلام: **وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ لُتُصَنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي** (طه ٣٩).

و قوله: **عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَنْجِيَهُ وَلَمَّا قَالَتْ لَمَّا رَأَتْ فِي وَجْهِهِ مِنْ آثَارِ الْجَلَالِ وَ سِيمَاءِ الْجَذْبَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَ فِي قَوْلِهَا: «أَوْ نَنْجِيَهُ وَلَمَّا»** دلالة على أنهما كانا فاقدين للابن.

و قوله: **وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** جملة حاله أى قالت ما قالت و شفعت له و صرفت عنه القتل و القوم لا يشعرون ما ذا يفعلون و ما هى حقيقة الحال و ما عاقبته؟

قوله تعالى: **وَ أَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** الإبداء بالشىء إظهاره، و الربط على الشىء شدة و هو كناية عن التثبيت.

و المراد بفراغ فؤاد أم موسى فراغه و خلوه من الخوف و الحزن و كان لازم ذلك أن لا يتوارد عليه خواطر مشوشة و أوهام متضاربة يضطرب بها القلب فيأخذها الجزع فتبدي ما كان عليها أن تخفيه من أمر ولدها.

و ذلك أن ظاهر السياق أن سبب عدم إبدائها له فراغ قلبها و سبب فراغ قلبها الربط على قلبها و سبب الربط هو قوله تعالى لها فيما أوحى إليها: **«لَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ»** الخ.

و قوله: **إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا** الخ؛ «إِنْ» مخففه من الثقيله أى إنها قربت من أن تظهر الأمر و تفسى السر لو لا أن ثبتنا قلبها بالربط عليه، و قوله: **«لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»** أى الواثقين بالله فى حفظه فتصبر و لا تجزع عليه فلا يبدو أمره.

و المجموع أعنى قوله: **«إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ»** الى آخر الآية؛ فى مقام البيان لقوله: **«وَ أَصْبَحَ**

فَوَإِذْ أُمُّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ وَ مَحْصَلُ مَعْنَى الْآيَةِ وَ صَارَ قَلْبُ أُمِّ مُوسَىٰ بِسَبَبِ وَحِينَا خَالِيَا مِنَ الْخَوْفِ وَ الْحَزَنِ الْمُؤَدِّيَيْنِ إِلَىٰ إِظْهَارِ الْأَمْرِ، لَوْ لَا أَنَّ ثَبَتْنَا قَلْبَهَا بِسَبَبِ الْوَحْيِ لَتَكُونُ وَائِقَةً بِحِفْظِ اللَّهِ لَهُ لَقَرِبَتْ مِنْ أَنْ تَظْهَرَ أَمْرُهُ لَهُمْ بِالْجَزَعِ عَلَيْهِ.

قوله تعالى: ۖ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: الْقِصَصُ اتِّبَاعُ الْأَثَرِ وَ مِنْهُ الْقِصَصُ فِي الْحَدِيثِ لِأَنَّهُ يَتَّبَعُ فِيهِ الثَّانِي الْأَوَّلَ. وَ قَالَ: وَ مَعْنَى بَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ أَبْصَرْتَهُ عَنْ جَنَابِهِ أَيْ عَنْ بَعْدِ. انْتَهَى.

وَ الْمَعْنَى: وَ قَالَتْ أُمُّ مُوسَىٰ لِأُخْتِهَا: اتَّبَعِي أَثَرَ مُوسَىٰ حَتَّىٰ تَرِيَنِ إِلَىٰ مَا يَثُولُ أَمْرَهُ فَرَأَتْهُ عَنْ بَعْدٍ وَ قَدْ أَخَذَهُ خَدَمُ فِرْعَوْنَ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِأَنَّهَا تَقْصُّهُ وَ تَرَاهُ.

قوله تعالى: ۖ وَ حَرَّمَ ذَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ نَاصِحَةٌ حُونَ التَّحْرِيمِ فِي الْآيَةِ تَكْوِينِي لَا تَشْرِيْعِي وَ مَعْنَاهُ جَعَلَهُ بِحَيْثُ لَا يَقْبَلُ ثَدْيَ مَرَضِعٍ وَ يَمْتَنِعُ مِنْ ارْتِضَاعِهَا.

وَ قَوْلُهُ: مِنْ قَبْلٍ أَيْ مِنْ قَبْلِ حُضُورِهَا هُنَاكَ وَ مَجِيئِهَا إِلَيْهِمْ وَ الْمَرَاضِعُ جَمْعُ مَرَضِعَةٍ كَمَا قِيلَ.

وَ قَوْلُهُ: ۖ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ نَاصِحَةٌ حُونَ تَفْرِيعٍ عَلَىٰ مَا تَقَدَّمَ غَيْرَ أَنَّ السِّيَاقَ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ هُنَاكَ حَذْفًا كَأَنَّهُ قِيلَ: وَ حَرَّمَ ذَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ غَيْرَ أُمِّهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَجِيءَ أُمَّهُ فَكَلِمَا أَتَوْا لَهُ بِمَرَضِعٍ لِتَرْضَعَهُ لَمْ يَقْبَلْ ثَدْيَهَا فَلَمَّا جَاءَتْ أُمَّهُ وَ رَأَتْ الْحَالَ قَالَتْ عِنْدَ ذَلِكَ لِآلِ فِرْعَوْنَ: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لِنَفْعِكُمْ وَ هُمْ لَهُ نَاصِحُونَ؟

قوله تعالى: ۖ فَزِدْنَاهُ إِلَيْنَا أُمَّهُ كَيْ تَفَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ تَفْرِيعٍ عَلَىٰ مَا تَقَدَّمَ مَعَ تَقْدِيرِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ، وَ الْمَحْصَلُ أَنَّهَا قَالَتْ: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ كَذَا فَأَنْعَمُوا لَهَا بِالْقَبُولِ فَدَلَّتْهُمْ عَلَىٰ أُمِّهِ فَسَلَّمُوهُ

إليها فرددناه الى أمه بنظم هذه الأسباب.

وقوله: كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَ لَتَعْلَمَ الْخِتَالُ لِرُدِّهِمْ إِلَى اللَّهِ وَعِدْتُهُمْ بِمَا عَصَوْا وَالْحَاقُّ إِلَى اللَّهِ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (٢٠) حق و كانت مؤمنه و إنما أريد بالرد أن توفن بالمشاهده أن وعد الله حق.

و المراد بوعد الله مطلق الوعد الالهى بدليل لوقه «و لكن أكثر الناس لا يعلمون» أى لا يوقنون بذلك و يرتابون فى مواعده تعالى و لا تطمئن إليها نفوسهم، و محصله أن توقع بمشاهده حقيه هذا الذى وعدها الله به أن مطلق وعده تعالى حق.

قوله تعالى: وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ بلوغ الأشد أن يعمر الانسان ما تشتد عند ذلك قواه و يكون فى الغالب فى الثمان عشره، و الاستواء الاعتدال و الاستقرار فالاستواء فى الحياه استقرار الانسان فى أمر حياته و يختلف فى الأفراد و هو على الأغلب بعد بلوغ الأشد، و قد تقدم الكلام فى معنى الحكم و العلم و إيتائهما و معنى الاحسان فى مواضع من الكتاب (١).

[سوره القصص (٢٨): الآيات ١٥ الى ٢١]

إشارة

وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا وَ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَدْعَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَنِي نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَ مَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْطَلِحِينَ (١٩) وَ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١)

ص: ٦٦٥

قوله تعالى: وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا الْخَبْرُ؛ لا ريب أن المدينة التي دخلها على حين غفله من أهلها هي مصر، وأنه كان يعيش عند فرعون، ويستفاد من ذلك أن القصر الملكي الذي كان يسكنه فرعون كان خارج المدينة و أنه خرج منه و دخل المدينة على حين غفله من أهلها، و يؤيد ما ذكرنا ما سيأتى من قوله: وَ جَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى عَلَى مَا سَيَجِيءُ مِنَ الْاسْتِظْهَارِ.

و حين الغفله من أهل المدينة هو حين يدخل الناس بيوتهم فتتعطل الأسواق و تخلو الشوارع و الأزقة من المارة كالظهيره و أواسط الليل.

و قوله: فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ أَي يَتَنَازَعَانِ وَ يَتَضَارِبَانِ، و قوله: «هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ» حكاية حال تمثل به الواقعة، و معناه: أن أحدهما كان إسرائيليًا من متبعية في دينه-فإن بنى إسرائيل كانوا ينتسبون يومئذ الى آبائهم إبراهيم و إسحاق و يعقوب عليهم السّلام في دينهم و إن كان لم يبق لهم منه إلا- الاسم و كانوا يتظاهرون بعبادة فرعون- و الآخر قبطيا عدوا له لأن القبط كانوا أعداء بنى إسرائيل، و من الشاهد أيضا على كون هذا الرجل قبطيا قوله في موضع آخر يخاطب ربه: وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (الشعراء ١٤).

و قوله: فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَيَّ الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ الاستغاثة:

الاستنثار من الغوث بمعنى النصره أى طلب الإسرائيلى من موسى أن ينصره على عدوه القبطى.

و قوله: فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ضَمِيرًا «وكرهه» و «عَلَيْهِ» للذى من عدوه و الوكر-على ما ذكره الراغب و غيره-الطعن و الدفع و الضرب بجمع الكف، و القضاء هو الحكم و القضاء عليه كناية عن الفراغ من أمره بموته، و المعنى: فدفعه أو ضربه موسى بالوكر فمات، و كان قتل خطأ و لو لا ذلك لكان من حق الكلام أن يعبر بالقتل.

و قوله: قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ الإشارة بهذا الى ما وقع بينهما من الاقتتال حتى أدى الى موت القبطى و قد نسبه نوع نسبه الى عمل الشيطان إذ قال: «هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» و «مِنْ» ابتدائية تفيد معنى الجنس أو نشوئية، و المعنى: هذا الذى وقع من المعاداة و الاقتتال من جنس العمل المنسوب الى الشيطان أو ناش من عمل الشيطان فإنه هو الذى أوقع العداوة و البغضاء بينهما و أغرى على الاقتتال حتى أدى ذلك الى مداخله موسى و قتل القبطى بيده فأوقعه ذلك فى خطر عظيم و قد كان يعلم أن الواقعة لا تبقى خفيته مكتومه و أن القبط سيثورون عليه و أشرفهم و ملؤهم و على رأسهم فرعون

سينتقمون منه و من كل من تسبب الى ذلك أشد الانتقام.

فعند ذلك تنبه عليه السيِّلام أنه أخطأ فيما فعله من الوكز الذى أورده مورد الهلكه و لا ينسب الوقوع فى الخطأ الى الله سبحانه لأنه لا يهدى إلا الى الحق و الصواب ففضى أن ذلك منسوب الى الشيطان.

و فعله ذاك و إن لم يكن معصيه منه لوقوعه خطأ و كون دفاعه عن الإسرائيلى دفعا لكافر ظالم، لكن الشيطان كما يوقع بوسوسته الإنسان فى الإثم و المعصيه كذلك يوقعه فى أى مخالفه للصواب يقع بها فى الكلفه و المشقه كما أوقع آدم و زوجه فيما أوقع من أكل الشجره المنهيّه فأدى ذلك الى خروجهما من الجنه.

فقوله: هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ أَنْزَجَارٍ مِنْهُ عَمَّا وَقَعَ مِنَ الْاِقْتِتَالِ الْمُؤْدِي إِلَى قَتْلِ الْقَبْطِيِّ وَ وَقُوعِهِ فِي عَظِيمِ الْخَطَرِ وَ نَدَمٍ مِنْهُ عَلَى ذَلِكَ، وَقَوْلُهُ: «إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ» إشاره منه الى ان فعله كان من الضلال المنسوب الى الشيطان و إن لم يكن من المعصيه التى فيها إثم و مؤاخذه بل خطأ محضا لا ينسب الى الله بل الى الشيطان الذى هو عدو مضل مبين، فكان ذلك منه نوعا من سوء التدبير و ضلال السعى يسوقه الى عاقبه و خيمه و لذا لما اعترض عليه فرعون بقوله: «وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ» أجابه بقوله: فَعَلْتُهَا إِذَا وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (الشعراء ٢٠/).

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ اعتراف منه عند ربه بظلمه نفسه حيث أوردها مورد الخطر و ألقاها فى التهلكه، و منه يظهر أن المراد بالمغفره المسئوليه فى قوله: «فَاغْفِرْ لِي» هو إلغاء تبعه فعله و إنجاؤه من الغم و تخليصه من شر فرعون و ملاءه، كما يظهر من قوله تعالى: وَ قَتَلْتَ نَفْسًا فَجَجْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ (طه ٤٠/).

و هذا الاعتراف بالظلم و سؤال المغفره نظير ما وقع من آدم و زوجه المحكى فى قوله تعالى:

قَالَ رَبُّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (الأعراف / ٢٣).

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ قيل:

الباء فى قوله: «بِمَا أَنْعَمْتَ» للسببىه و المعنى رب بسبب ما أنعمت على، لك على أن لا أكون معيناً للمجرمين فىكون عهداً منه لله تعالى وقيل: الباء للقسم و الجواب محذوف و المعنى: أقسم بما أنعمت على لأتوبن أو لأمتنعن فلن أكون ظهيرا للمجرمين، و قيل: القسم استعطافى و هو القسم الواقع فى الإنشاء كقولك بالله زرنى، و المعنى أقسمك أن تعطف على و تعصمنى فلن أكون ظهيرا للمجرمين.

و الوجه الأول هو الأوجه لأن المراد بقوله: «بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ» -على ما ذكره- إما إنعامه تعالى عليه إذ حفظه و خلصه من قتل فرعون و رده الى أمه، و إما إنعامه عليه إذ قبل توبته من قتل القبطى و غفر له بناء على أنه علم مغفرته تعالى بإلهام أو رؤيا أو نحوهما و كيف كان فهو إقسام بغيره تعالى، و المعنى أقسم بحفظك إياى أو أقسم بمغفرتك لى، و لم يعهد فى كلامه تعالى حكاية قسم من غيره بغيره بهذا النحو.

و قوله: فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ قيل: المراد بالمجرم من أوقع غيره فى الجرم أو من أدت إيعانته الى جرم كالإسرائيلى الذى خصمه القبطى فأوقعت إيعانته موسى فى جرم القتل فىكون فى لفظ المجرمين مجاز فى النسبه من حيث تسميه السلب الموقع فى الجرم مجرماً.

وقيل: المراد بالمجرمين فرعون و قومه و المعنى: أقسم بإنعامك على لأتوبن فلن أكون معيناً لفرعون و قومه بصحبتهم و ملازمتهم و تكثير سوادهم كما كنت أفعله الى هذا اليوم.

و رد هذا الوجه الثانى بأنه لا يناسب المقام.

و الحق أن قوله: «رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ» عهد من موسى عليه السلام أن

لا يعين مجرماً على إجرامه شكراً لله تعالى على ما أنعم عليه، والمراد بالنعمة و قد أطلقت إطلاقاً الولاية الإلهية على ما يشهد به قوله تعالى: فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ (النساء ٦٩).

وهؤلاء أهل الصراط المستقيم مأمونون من الضلال والغضب لقوله تعالى: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (الفاتحة ٧)، وترتب الامتناع عن إعانة المجرمين على الإنعام بهذا المعنى ظاهر لا ستره عليه.

ومن هنا يظهر أن المراد بالمجرمين أمثال فرعون وقومه دون أمثال الإسرائيليين الذي أعانه فلم يكن في إعانته جرم ولا كان وكز القبطى جرماً حتى يتوب عليه السّلام منه كيف؟ وهو عليه السّلام من أهل الصراط المستقيم الذين لا يضلون بمعصيته، وقد نص تعالى على كونه من المخلصين الذين لا سبيل للشيطان اليهم بالإغواء حيث قال: إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا (مريم/ ٥١).

وقد نص تعالى أيضاً بأنه آتاه حكماً وعلماً وأنه من المحسنين ومن المتقين من أمره أن لا تستخفه عصبية قومية أو غضب من غير ما ينبغي أو إعانه ونصره لمجرم في إجرامه.

وقد كرر «قال» ثلاثاً حيث قيل: قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ ذَلِكَ لاختلاف السياق في الجمل الثلاث فالجمله الاولى قضاء منه و حكم، و الجمله الثانيه استغفار و دعاء، و الجمله الثالثه عهد و التزام.

قوله تعالى: فَأَصْبَحَ بَاحٍ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ تقييداً «أصبح» بقوله: «فِي الْمَدِينَةِ» دليل على أنه بقي في المدينة و لم يرجع الى قصر فرعون، و الاستصراخ الاستغاثة برفع الصوت من الصراخ بمعنى الصياح، و الغوايه إخطاء الصواب خلاف الرشد.

و المعنى: فأصبح موسى فى المدينة -و لم يرجع الى بلاط فرعون- و الحال أنه خائف من فرعون ينتظر الشر ففاجأه أن الإسرائيلى الذى استنصره على القبطى بالأمس يستغيث به رافعا صوته على قبطى آخر قال موسى للإسرائيلى توبيخا و تأنيبا: إنك لغوى مبین لا تسلك سبيل الرشد و الصواب لأنه كان يخاصم و يقتتل قوما ليس فى مخاصمتهم و المقاومه عليهم إلا الشر كل الشر.

قوله تعالى: فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ ذكر جل المفسرين أن ضمير «قال» للإسرائيلى الذى كان يستصرخه و ذلك أنه ظن أن موسى إنما يريد أن يبطش به لما سمعه يعاتبه قبل بقوله: «إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ» فهاله ما رأى من إرادته البطش فقال: «يَا مُوسَى أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ» الخ؛ فعلم القبطى عند ذلك أن موسى هو الذى قتل القبطى بالأمس فرجع الى فرعون فأخبره الخبر فائتمروا بموسى و عزموا على قتله.

و ما ذكروه فى محله لشهادته السياق بذلك فلا يعبأ بما قيل: إن القائل هو القبطى دون الاسرائيلى، هذا و معنى باقى الآيه ظاهر. و فى قوله: «أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا» تعريض للتوراه الحاضره حيث تذكر أن المتقاتلين هذين كانا جميعا إسرائيلىين، و فيه أيضا تأييد أن القائل «يَا مُوسَى أَ تُرِيدُ» الخ؛ الاسرائيلى دون القبطى لأن سياقه سياق اللوم و الشكوى.

قوله تعالى: وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ الْخِ؛ الائتمار المشاوره، و النصيحه خلاف الخيانه.

و الظاهر كون قوله: «مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ» قيد لقوله: «جَاءَ» فسياق القصة يعطى أن الائتمار كان عند فرعون و بأمر منه، و أن هذا الرجل جاء من هناك و قد كان قصر فرعون فى أقصى المدينة و خارجها فأخبر موسى بما قصدوه من قتله و أشار عليه بالخروج من

و هذا الاستئناس من الكلام يؤيد ما تقدم أن قصر فرعون الذى كان يسكنه كان خارج المدينه، و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ فيه تأييد أنه ما كان يرى قتله القبطى خطأ جرماً لنفسه (١).

[سوره القصص (٢٨): الآيات ٢٢ الى ٢٨]

اشاره

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدَرَ الرِّعَاءُ وَابُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْسِيًّا عَلَى اسْتِخْلَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجَ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمِنْ أُمَّةٍ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَبَّحْنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلِينَ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا نَقُولُ وَكَيْلٌ (٢٨)

ص: ٦٧٢

قوله تعالى: **وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ** قال في المجمع: تلقاء الشيء حذاؤه، و يقال: فعل ذلك من تلقاء نفسه أى من حذاء داعى نفسه. وقال: سواء السبيل وسط الطريق انتهى.

و مدين-على ما فى مراصد الاطلاع-مدينة قوم شعيب و هى تجاه تبوك على بحر القلزم بينهما ست مراحل و هى أكبر من تبوك و بها البئر التى استقى منها موسى لغنم شعيب عليهما السلام انتهى، و يقال: إنه كان بينهما و بين مصر مسيره ثمان و كانت خارجه من سلطان فرعون و لذا توجه إليها.

و المعنى: و لما صرف وجهه بعد الخروج من مصر حذاء مدين قال: أرجو من ربي أن يهدينى وسط الطريق فلا أضل بالعدول عنه و الخروج منه الى غيره.

و السياق-كما ترى-يعطى أنه عليه السلام كان قاصدا لمدين و هو لا يعرف الطريق الموصله إليها فترجى أن يهديه ربه.

قوله تعالى: **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجِدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْتَأْذِنُونَ** الخ؛ الذود الحبس و المنع، و المراد بقوله: «تَأْذِنُونَ» أنهما يحسبان أغنامهما من أن ترد الماء أو تختلط

بأغنام القوم كما أن المراد بقوله: «يَسْقُونَ» سقيهم أغنامهم و مواشيهم، والرعاء جمع الراعى و هو الذى يرعى الغنم.

و المعنى: و لما ورد موسى ماء مدين وجد على الماء جماعه من الناس يسقون أغنامهم و وجد بالقرب منهم مما يليه امرأتين تحبسان أغنامها و تمنعانها أن ترد المورد قال موسى مستفسرا عنهما- حيث و جدهما تذودان الغنم و ليس على غنمهما رجل-: ما شأنكما؟ قالتا:

لا نسقى غنمنا أى عادتنا ذلك حتى يصدر الراعون و يخرجوا أغنامهم و أبونا شيخ كبير- لا يقدر أن يتصدى بنفسه أمر السقى- و لذا تصدينا الأمر.

قوله تعالى: فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فهم عليه السلام من كلامهما أن تأخرهما فى السقى نوع تعفف و تحجب منهما و تعد من الناس عليهما فبادر الى ذلك و سقى لهما.

و قوله: «ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» أى انصرف الى الظل ليسترىح فيه و الحر شديد و قال ما قال، و قد حمل الأكثرون قوله: «رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ» الخ؛ على سؤال طعام يسدّ به الجوع، و عليه فالأولى أن يكون المراد بقوله: «لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ» القوه البدنيه التى كان يعمل بها الأعمال الصالحه التى فيها رضى الله كالدفاع عن الإسرائيلى و الهرب من فرعون بقصد مدين و سقى غنم شعيب و اللام فى «لِمَا أَنْزَلْتَ» بمعنى الى و إظهار الفقر الى هذه القوه التى أنزلها الله اليه من عنده بالإفاضه كناية عن إظهار الفقر الى شىء من الطعام تستبقى به هذه القوه النازله الموهوبه.

قوله تعالى: فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ ضمير إحداهما للمرأتين، و تنكير الاستحياء للتفخيم و المراد بكون مشيها على استحياء ظهور التعفف من مشيتها، و قوله: «لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا» ما مصدره أى يعطيك جزاء سقيك لنا، و قوله: «فَلَمَّا جَاءَهُ وَ قَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ» الخ؛ بلّوح الى ان شعيبا

استفسره حاله فقص عليه قصته فطيب نفسه بأنه نجى منهم إذ لا سلطان لهم على مدين.

و عند ذلك تمت استجابته تعالى لموسى عليه السلام أذعته الثلاثه فقد كان سأل الله تعالى عند خروجه من مصر أن ينجيه من القوم الظالمين فأخبره شعيب عليه السلام بالنجاه و ترجى أن يهديه سواء السبيل و هو فى معنى الدعاء فورد مدين، و سأل الرزق فدعاه شعيب ليجزيه أجر ما سقى و زاد تعالى فكفا رزق عشر سنين و وهب له زوجا يسكن إليها.

قوله تعالى: **قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ** إطلاق الاستيجار يفيد أن المراد استخدامه لمطلق حوائجه التى تستدعى من يقوم مقامه و إن كانت العهده باقتضاء المقام رعى الغنم.

و قوله: **إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْخَيْرُ** فى مقام التعليل لقوله: «**اسْتَأْجِرْهُ**» و هو من وضع السبب موضع المسبب التقدير استأجره لأنه قوى أمين و خير من استأجرت هو القوى الأمين.

و فى حكمها بأنه قوى أمين دلالة على أنها شاهدت من نحو عمله فى سقى الأغنام ما استدلت به على قوته و كذا من ظهور عفته فى تكليمهما و سقى أغنامهما ثم فى صحبتها لها عند ما انطلق الى شعيب حتى أتاه ما استدلت به على أمانته.

و من هنا يظهر أن هذه القائله «**يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ**» الخ؛هى التى جاءته و أخبرته بدعوه أبيها له كما وردت به روايات أئمه أهل البيت عليهم السلام و ذهب اليه جمع من المفسرين.

قوله تعالى: **قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَّاجٍ** الخ؛عرض من شعيب لموسى عليه السلام أن يأجره نفسه ثمانى سنين أو عشرا قبال تزويجه إحدى ابنتيه و ليس بعقد قاطع و من الدليل عدم تعين المعقوده فى كلامه عليه السلام.

فقوله: **إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ** دليل على حضورهما إذ ذاك، و قوله: «**عَلَيَّ أَنْ**

تَأْجِرُنِي ثَمَانِي حِجَجٍ» أى على أن تأجرني نفسك أى تكون أجيرا لى ثمانى حجج، و الحجج جمع حجه و المراد بها للسنة بعنايه أن كل سنه فيها حجه لبيت الحرام، و به يظهر أن حج البيت -و هو من شريعه إبراهيم عليه السلام- كان معمولا به عندهم.

و قوله: فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ أى فإن أتممته عشر سنين فهو من عندك و باختيار منك من غير أن تكون ملزما من عندى.

و قوله: وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ إخبار عن نحو ما يريد منه من الخدمه و أنه عمل غير موصوف بالمشقه و أنه مخدوم صالح.

و قوله: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ أى إني من الصالحين و ستجدنى منهم إن شاء الله فالاستثناء متعلق بوجودان موسى إياه منهم لا بكونه فى نفسه منهم.

قوله تعالى: قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلِيمٌ مَا نَقُولُ وَكَيْلُ الضمير لموسى عليه السلام.

و قوله: ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أى ذلك الذى ذكرته و قررته من المشارطه و المعاهده و عرضته على ثابت بيننا ليس لى و لا لك أن نخالف ما شارطناه، و قوله: «أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ» بيان للأجل المردد المضروب فى كلام شعيب عليه السلام و هو قوله: «ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ» أى لى أن أختار أى الأجلين شئت فإن اخترت الثمانى سنين فليس لك أن تعدو على و تلزمنى بالزيادة و إن اخترت الزيادة و خدمتك عشرا فليس لك أن تعدو على بالمنع من الزيادة.

و قوله: وَاللَّهُ عَلِيمٌ مَا نَقُولُ وَكَيْلُ توكيل له تعالى فيما يشارطان يتضمن إشهاده تعالى على ما يقولان و إرجاع الحكم و القضاء بينهما اليه لو اختلفا، و لذا اختار التوكيل على الإشهاد لأن الشهاده و القضاء كليهما اليه تعالى، و هذا كقول يعقوب عليه السلام حين أخذ الموثق من بنيه أن يردوا اليه ابنه فيما يحكيه الله فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْتَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلِيمٌ مَا نَقُولُ وَكَيْلُ

اشاره

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ
 مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا آتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ
 الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَدٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ
 (٣١) أَسِطْرُكَ يَدُكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ
 فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي
 لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَيِّدُ قَالَتْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصْعَلُونَ
 إِلَيْكُمَا بَأْيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي
 آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ
 فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أُطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي
 لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُزْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ
 فِي الْيَمِّ فَاظْطَرُّوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ
 الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)

ص: ٦٧٧

قوله تعالى: فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا نَارًا الخ؛ المراد بقضائه الأجل إتمامه مده خدمته لشعيب عليه السلام و المروى أنه قضى أطول الأجلين، و الإيناس الإبصار و الرؤيه، و الجذوه من النار القاطعه منها، و الاصطلاء الاستدفاء.

و السياق يشهد أن الأمر كان الليل و كانت ليله شديده البرد و قد ضلوا الطريق فرأى من جانب الطور و قد أشرفوا عليه نارا فأمر أهله أن يمكثوا ليذهب الى ما آنسه لعله يجد هناك من يخبره بالطريق أو يأخذ قطعه من النار فيصطلوا بها، و قد وقع فى القصه من سوره طه موضع قوله: «لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ» الخ؛ قوله: لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٌ عَلَى النَّارِ هُدًى (طه ١٠)، و هو أدل على كونهم ضلوا الطريق.

و كذا فى قوله خطابا لأهله: «امْكُثُوا» الخ؛ شهاده على أنه كان معها من يصحّ معه خطاب (١)الجمع.

قوله تعالى: فَلَمَّا آتَاهَا نُودَىٰ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ الخ؛ قال فى المفردات: شاطئ الوادى جانبه، و قال: أصل الوادى الموضع الذى يسيل منه الماء و منه سمي المنفرج بين الجبلين واديا و جمعه أوديه انتهى و البقعه القطعه من الأرض على غير هيئه التى الى جنبها.

و المراد بالأيمن الجانب الأيمن مقابل الأيسر و هو صفه الشاطئى و لا يعبأ بما قاله بعضهم:

إن الأيمن من اليمين مقابل الأشأم من الشؤم.

و البقعه المباركه قطعه خاصه من الشاطئى الأيمن فى الوادى كانت فيه الشجره التى نودى منها، و مباركتها لتسرفها بالتقريب و التكليم الإلهى و قد أمر بخلع نعليه فيها لتقدسها كما قال تعالى فى القصه من سوره طه: فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (طه ١٢).

و لا ريب فى دلالة الآيه على أن الشجره كانت مبدأ للنداء و التكليم بوجه غير أن الكلام و هو كلام الله سبحانه لم يكن قائما بها كقيام الكلام بالمتكلم منا فلم تكن إلا حجابا احتجب سبحانه به فكلمه من ورائه بما يليق بساحه قدسه من معنى الاحتجاب و هو على كل شىء

ص: ٦٧٩

١- ١. و فى التوراه الحاضره أنه حمل معه الى مصر امرأته و بنيه (سفر الخروج الاصحاح الرابع آيه ٢٠).

محيط، قال تعالى: وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ (الشورى ٥١).

وقوله: أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أن فيه تفسيريه، وفيه إنباء عن الذات المتعالية المسماة باسم الجلاله الموصوفه بوحديته الربويه النافيه لمطلق الشرك إذ كونه ربا للعالمين جميعا-والرب هو المالك المدبر لملكه الذى يستحق العباده من مملوكيه-لا يدع شيئا من العالمين يكون مربوبا لغيره حتى يكون هناك رب غيره و إله معبود سواه.

ففى الآيه إجمال ما فصله فى سوره طه فى هذا الفصل من النداء من الإشاره الى الاصول الثلاثه أعنى التوحيد و النبوه و المعاد إذ قال: إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ الْآيَاتُ؛ (طه ١٤-١٦).

قوله تعالى: وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ تقدم تفسيره فى سوره النمل.

قوله تعالى: يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ بتقدير القول أى قيل له: أقبل و لا تخف إنك من الآمين، و فى هذا الخطاب تأمين له، و به يظهر معنى قوله فى هذا الموضع من القصة فى سوره النمل: يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (النمل / ١٠) و أنه تأمين معناه إنك مرسل و المرسلون آمنون لدى و ليس من العتاب و التوبيخ فى شىء.

قوله تعالى: أَسِئَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ المراد بسلوك يده فى جيبه إدخاله فيه، و المراد بالسوء-على ما قيل-البرص.

و الظاهر أن في هذا التقييد تعريضا لما في التوراه الحاضره في هذا (١)الموضع من القصة: ثم قال له الرب أيضا: ادخل يدك في عبك فأدخل يده في عبه ثم أخرجها و إذا يده برصاء مثل الثلج.

قوله تعالى: **وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ** الى آخر الآيه؛ الرهب بالفتح فالسكون و بفتحتين و بالضم فالسكون الخوف، و الجناح قيل: المراد به اليد و قيل: العضد.

قيل: المراد بضم الجناح اليه من الرهب أن يجمع يديه على صدره إذا عرضه الخوف عند مشاهدته انقلاب العصا حيه ليذهب ما في قلبه من الخوف.

و قيل: إنه لما ألقى العصا و صارت حيه بسط يديه كالمتقى و هما جناحاه فقيل له: اضمم اليك جناحك أى لا تبسط يديك خوف الحيه فإنك آمن من ضررها.

و الوجهان- كما ترى- مبنيان على كون الجملة أعنى قوله: «وَ اضْمُمْ» الخ؛ من تتمه قوله:

«أَقْبِلْ وَ لَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْمَأْمِينِينَ» و هذا لا- يلائم تخلل قوله: «إِنَّ لَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ» الخ؛ بين الجملتين بالفصل من غير عطف.

و قيل: الجملة كناية عن الأمر بالعزم على ما أراه الله سبحانه منه و الحث على الجد في أمر الرساله لثلا- يمنعه ما يغشاه من الخوف في بعض الأحوال.

و لا يبعد أن يكون المراد بالجملة الأمر بأن يأخذ لنفسه سيماء الخاشع المتواضع فإن من دأب المتكبر المعجب بنفسه أن يفرج بين عضديه و جنبيه كالتمطى في مشيته فيكون في معنى ما أمر الله به النبي صلى الله عليه و آله و سلم من التواضع للمؤمنين بقوله: **وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** (الحجر ٨٨) على بعض المعانى.

قوله تعالى: **قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ** إشاره الى

ص: ٦٨١

قتله القبطى بالوكز و كان يخاف أن يقتلوه قصاصا.

قوله تعالى: وَ أَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: يقال: فلان رده فلان إذا كان ينصره و يشد ظهره. انتهى.

و قوله: إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ تعليل لسؤاله إرسال هارون معه، و السياق يدل على أنه كان يخاف أن يكذبه فيغضب و لا يستطيع بيان حجته ولكنه كانت فى لسانه لا أنه سأل إرساله لئلا يكذبه فإن من يكذبه لا يبالي أن يكذب هارون معه و من الدليل على ذلك ما وقع فى سورة الشعراء فى هذا الموضع من القصه من قوله: قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ (الشعراء ١٣).

فمحضيل المعنى: أن أخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معينا لى يبين صدقى فى دعواى إذا خصموني إني أخاف أن يكذبوني فلا أستطيع بيان صدق دعواى.

قوله تعالى: قَالَ سَيَنْشُدُ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِيحُ لِمَنْ إِلَيْكُمَا بآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَ مَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ شد عضده بأخيه كناية عن تقويته به، و عدم الوصول اليهما كناية عن عدم التسلط عليهما بالقتل و نحوه كأن الطائفتين يتسابقان و إحداهما متقدمه دائما و الاخرى لا تدر كههم بالوصول اليهم فضلا أن يسبقوهم.

و المعنى: قال: سنقويك و نعينك بأخيك هارون و نجعل لكما سلطه و غلبه عليهم فلا- يتسلطون عليكما بسبب آياتنا التى نظهر كما بها. ثم قال: «أَنْتُمَا وَ مَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ» و هو بيان لقوله: «وَ نَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا» الخ؛ يوضح أن هذا السلطان يشملهما و من اتبعهما من الناس.

قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَىٰ خ؛ أى سحر موصوف بأنه مفترى و المفترى اسم مفعول بمعنى المختلق أو مصدر

ميمي وصف به السحر مبالغه.

و الإشارة في قوله: «مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى» الى ما جاء به من الآيات أى ليس ما جاء به من الخوارق إلا سحرا مختلقا افتعله فنسبه الى الله كذبا.

و الإشارة في قوله: «وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ» الى ما جاء به من الدعوه و أقام عليها حجه الآيات، و أما احتمال أن يراد بها الإشارة الى الآيات فلا يلائمه تكرار اسم الإشارة على أنهم كانوا يدعون أنهم سيأتون بمثلها كما حكى الله عن فرعون في قوله: فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ (طه ٥٨)، على أن عدم معهوديه السحر و عدم مسبقيته بالمثل لا ينفعهم شيئا حتى يدعوه.

فالمعنى: أن ما جاء به موسى دين مبتدع لم ينقل عن آبائنا الأولين أنهم اتخذوه في وقت من الأوقات، و يناسبه ما حكى في الآية التالية من قول موسى «رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى» الخ.

قوله تعالى: وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ الْخ؛ مقتضى السياق كونه جوابا من موسى عن قولهم: «وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ» في رد دعوى موسى، و هو جواب مبنى على التحدى كأنه يقول: إن ربي - هو رب العالمين له الخلق و الأمر - هو أعلم منكم بمن جاء بالهدى و من تكون له عاقبه الدار و هو الذى أرسلنى رسولا جائيا بالهدى - هو دين التوحيد - و عدنى أن من أخذ بدينى فله عاقبه الدار، و الحجه على ذلك الآيات البينات التى آتانيها من عنده.

فقوله: رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ يريد به نفسه و المراد بالهدى الدعوه الدينيه التى جاء بها.

و قوله: وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ المراد بعاقبه الدار إما الجنه التى هى الدار الآخرة التى يسكنها السعداء كما قال تعالى حكاية عنهم: وَ أَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ

حَيْثُ نَشَاءُ (الزمر ٧٤)، وإما عاقبه الدار الدنيا كما في قوله: قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (الأعراف / ١٢٨)، وإما الأعم الشامل للدنيا والآخرة، والثالث أحسن الوجوه ثم الثاني كما يؤيده تعليقه بقوله: «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» .

و في قوله: إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ تعريض لفرعون وقومه وفيه نفى أن تكون لهم عاقبه الدار فإنهم بنوا سنه الحياه على الظلم و فيه انحراف عن العدالة الاجتماعيه التي تهدي إليها فطره الإنسان الموافقه للنظام الكونى.

قوله تعالى: وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ فيه تعريض لموسى بما جاء به من الدعوه الحقه المؤيده بالآيات المعجزه يريد أنه لم يتبين له حقيقه ما يدعو اليه موسى و لا كون ما أتى به من الخوارق آيات معجزه من عند الله و أنه ما علم لهم من إله غيره.

فقوله: مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي سوق للكلام في صورته الإنصاف ليقع في قلوب الملأ موقع القبول كما هو ظاهر قوله المحكى في موضع آخر: مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (المؤمن ٢٩).

فمحصل المعنى: أنه ظهر للملأ- أنه لم يتضح له من دعوه موسى و آياته أن هناك إلهها هو رب العالمين و لا حصل له علم بأن هناك إلهها غيره ثم أمر هامان أن يبني له صرحا لعله يطلع الى إله موسى.

و قوله: فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صِرْحًا المراد بالإيقاد على الطين تأجيج النار عليه لصنعه الآجر المستعمل فى الأبنيه، و الصرح البناء العالى المكشوف من صرح الشىء إذا ظهر ففى الجملة أمر باتخاذ الآجر و بناء قصر عال منه.

و قوله: لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ نسب الإله الى موسى بعنايه أنه هو الذى

يدعو اليه، والكلام من وضع النتيجة موضع المقدمه و التقدير: اجعل لي صرحا أصعد الى أعلى درجاته فأنظر الى السماء لعلى أطلع الى إله موسى كأنه كان يرى أنه تعالى جسم ساكن فى بعض طبقات الجو أو الأفلاك فكان يرجو إذا نظر من أعلى الصرح أن يطلع اليه أو كان هذا القول من قبيل التعميه على الناس و إضلالهم.

و يمكن أن يكون المراد أن يبنى له رسدا يترصد الكواكب فىرى هل فيها ما يدل على بعثه رسول أو حقيته ما يصفه موسى عليه السلام، و يؤيد هذا قوله على ما حكى فى موضع آخر: يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ الْأَسْبَابِ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا (المؤمن من ٣٧).

و قوله: وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ترق منه من الجهل الذى يدل عليه قوله: «مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي» الى الظن بعدم الوجود و قد كان كاذبا فى قوله هذا و لا يقوله إلا تمويها و تعميه على الناس و قد خاطبه موسى بقوله: لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ (الإسراء ١٠٢).

و ذكر بعضهم أن قوله: «مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي» من قبيل نفى المعلوم بنفى العلم فيما لو كان لبان فيكون نظير قوله: قُلْ أَ تَسْتُبُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ (يونس / ١٨)، و أنت خير بأنه لا يلائم ذيل الآيه.

قوله تعالى: وَ اسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمُ الْإِنْتَابُ يُرْجَعُونَ أى كانت حالهم حال من يترجح عنده عدم الرجوع و ذلك أنهم كانوا موقنين فى أنفسهم كما قال تعالى: «وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَ عُتْوًا» .

قوله تعالى: فَأَخَذْنَا هُوَ وَ جُنُودَهُ الْخَبْءَ الطَّرْحِ، و اليم البحر و الباقي ظاهر. و فى الآيه من الاستهانه بأمرهم و تهويل العذاب الواقع بهم ما لا يخفى.

قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا هُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ

الدعوة الى النار هي الدعوة الى ما يستوجب النار من الكفر و المعاصى لكونها هي التى تتصور لهم يوم القيامة نارا يعذبون فيها أو المراد بالنار ما يستوجبها مجازا من باب إطلاق المسبب و إرادته سببه.

و معنى جعلهم أئمة يدعون الى النار، تصيرهم سابقين فى الضلال يقتدى بهم اللاحقون و لا ضير فيه لكونه بعنوان المجازاه على سبقهم فى الكفر و الجحود و ليس من الإضلال الابتدائى فى الشىء.

و قوله: «و يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ» أى لا تنالهم شفاعته من ناصر.

قوله تعالى: «وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ» بيان للآية السابقة فهم لكونهم أئمة يقتدى بهم من خلفهم فى الكفر و المعاصى و لا يزال يتبعهم ضلال الكفر و المعاصى من مقتديهم و متبعيهم و عليهم من الأوزار مثل ما للمتبعين فيتبعهم لعن مستمر باستمرار الكفر و المعاصى بعدهم.

فآية فى معنى قوله: «وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ أَنْتَقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ» (العنكبوت ١٣) وقوله:

«وَ نَكُتُّبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ» (يس ١٢)، و تنكير العنه للدلالة على تفخيما و استمرارها.

و كذا لما لم ينلهم يوم القيامة نصر ناصر كانوا بحيث يتنفر و يشمئز عنهم النفوس و يفر منهم الناس و لا يدنو منهم أحد و هو معنى القبح و قد وصف الله تعالى من قبح منظرهم شيئا كثيرا فى كلامه (١)(٢).

ص: ٦٨٦

١- ١). القصص ٢٩-٤٢: بحث روائى فى قصه و خروجه من مدين الى مصر و بعثته بالرسالة.

٢- ٢). القصص ٢٩-٤٢: كلام حول قصص موسى و هارون عليهما السّلام فى فصول (منزله موسى عند الله و موقفه العبودى؛ قصص موسى عليه السّلام فى القرآن، منزله هارون عليه السّلام عند الله و موقفه العبودى؛ قصص موسى عليه السّلام فى التوراه الحاضرة).

وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَآئِرٍ لِلنَّاسِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) وَ مَا كُنْتَ بِجَانِبِ
 الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَ مَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَ لَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَ مَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ
 مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَ لَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَ مَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَ لَكِن رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا آتَاهُمْ مِنْ
 نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَ لَوْ لَا أَنْ تَصَّيَبَهُمْ مُصَٰبُهُ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ
 آيَاتِكَ وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْ لَا أُوْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ
 مُوسَىٰ مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَ قَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
 الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَ لَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَ إِذَا يُتْلَىٰ
 عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِذَا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَ يَدْرُونَ بِالْحَسَنَةِ
 الَّتِيَّئِنَّهُ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَ إِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سِوَالِئَامٍ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِ
 الْجَاهِلِينَ (٥٥) إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦)

قوله تعالى: **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَائِرٍ لِلنَّاسِ الْخَالِصِ** لقد أعطينا موسى الكتاب و هو التوراه بوحيه اليه.

و قوله: **مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ** أى الأجيال السابقه على نزول التوراه كقوم نوح و من بعدهم من الامم الهالكه و لعل منهم قوم فرعون، و فى هذا التقييد إشاره الى مسيس الحاجه حينئذ الى نزول الكتاب لاندراس معالم الدين الإلهى بمضى الماضين و ليشار فى الكتاب الإلهى الى قصصهم و حلول العذاب الإلهى بهم بسبب تكذيبهم لآيات الله ليعتبر به المعتبرون و يتذكر به المتذكرون.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ الثاوي المقيم يقال: ثوى فى المكان إذا أقام فيه، و الضمير فى «عَلَيْهِمْ» لمشركى مكه الذى كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يتلو عليهم آيات الله التى تقصص ما جرى على موسى عليه السلام فى مدين زمن كونه فيه.

و قوله: ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ استدراك من النفى فى صدر الآية.

و المعنى: و ما كنت مقيما فى أهل مدين-و هم شعيب و قومه-مشاهدا لما جرى على موسى هناك تتلو على المشركين آياتنا القاصه لخبره هناك و لكننا كنا مرسلين لك الى قومك موحين بهذه الآيات اليك لتتلوها عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَهُ مِنْ رَبِّكَ﴾ الى آخر الآية؛ الظاهر من مقابله الآية لقوله السابق: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعُزْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا﴾ الخ؛ أن المراد بهذا النداء ما كان من الشجره فى الليله التى آنس فيها من جانب الطور نارا.

و قوله: ﴿وَلَكِنْ رَحِمَهُ مِنْ رَبِّكَ﴾ الخ؛ استدراك عن النفى السابق، و الظاهر أن «رَحِمَهُ» مفعول له، و الالتفات عن التكلم بالغير الى الغيبه فى قوله: «مِنْ رَبِّكَ» للدلاله على كمال عنايته تعالى به صلى الله عليه وآله وسلم.

و قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الظاهر أن المراد بهذا القوم أهل عصر الدعوه النبويه أو هم و من يقارنهم من آباؤهم فإن العرب خلت فيهم رسل منهم كهود و صالح و شعيب و إسماعيل عليهم السلام.

و المعنى: و ما كنت حاضرا فى جانب الطور إذ نادينا موسى و كلمناه و اخترناه للرساله حتى تخبر عن هذه القصة إخبار الحاضر المشاهد و لكن لرحمه منا أخبرناك بها لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا﴾

الخ؛ المراد بما قدمت أيديهم ما اكتسبوه من السيئات من طريق الاعتقاد والعمل بدليل ذيل الآيه، والمراد بالمصيبة التي تصيبهم أعم من مصيبة الدنيا والآخرة فإن الإعراض عن الحق بالكفر والفسوق يستتبع المؤاخذة الإلهية في الدنيا كما يستتبعها في الآخرة، وقد تقدم بعض الكلام فيه في ذيل قوله: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (الأعراف ٩٦)» وغيره.

وقوله: «فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ رَسُولًا مِّن قَبْلِنَا» ما تقدمه على ما تقدمه على تقديم عدم إرسال الرسول وجواب لولا- محذوف لظهوره و التقدير: ولما أرسلنا رسولا.

و محصل المعنى: أنه لو لا أنه تكون لهم الحجة علينا على تقديم عدم إرسال الرسول وأخذهم بالعذاب بما قدمت أيديهم من الكفر والفسوق لما أرسلنا اليهم رسولا- لكنهم قولون ربنا لولا- أرسلت إلينا رسولا فتتبع آياتك التي يتلوها علينا ونكون من المؤمنين.

قوله تعالى: «فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ» الخ؛ أي فأرسلنا اليهم الرسول بالحق وأنزلنا الكتاب فلما جاءهم الحق من عندنا والظاهر أنه الكتاب النازل على الرسول وهو القرآن النازل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

و المراد بقولهم: «لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ» أي لو لا أوتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثل التوراه التي أوتيها موسى عليه السلام، وكانهم يريدون به أن ينزل القرآن جملة واحده كما حكى الله تعالى عنهم بقوله: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً (الفرقان / ٣٢)».

وقد أجاب الله عن قولهم بقوله: «أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا» يعنون القرآن و التوراه «وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ». و الفرق بين القولين أن الأول كفر بالكتابين و الثاني كفر بأصل النبوه و لعله الوجه لتكرار «قَالُوا» في الكلام.

قوله تعالى: «قُلْ فَاتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ

لِلَّذِينَ تَفْرِيعَ عَلَى كَوْنِ الْقُرْآنِ وَ التَّوْرَةِ سَحْرِينَ تَظَاهِرًا، وَ لَا- يَصِحُّ هَذَا التَّفْرِيعُ إِلَّا إِذَا كَانَ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ النَّاسِ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ يَهْدِيهِمْ وَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ اتِّبَاعُهُ فَإِذَا كَانَا سَحْرِينَ بَاطِلِينَ كَانَ الْحَقُّ غَيْرَهُمَا، وَ هُوَ كَذَلِكَ عَلَى مَا تَبَيَّنَ بِقَوْلِهِ: «وَلَوْ لَا أَنْ تُصَيَّبَهُمْ مُصَيَّبِيَهُ» الخ؛ أَنْ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابُ وَ يَرْسِلَ إِلَيْهِمُ الرَّسُولَ، وَ لَذَلِكَ أَمَرَ تَعَالَى نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَنْ يَطَالِبَهُمْ بِكِتَابٍ غَيْرِهِمَا هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا لِيَتَّبِعَهُ.

ثُمَّ الْكِتَابَانِ لَوْ كَانَا سَحْرِينَ تَظَاهِرًا كَانَ بَاطِلِينَ مُضِلِّينَ لَا هَدَى فِيهِمَا حَتَّى يَكُونَ غَيْرَهُمَا مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي يَأْتُونَ بِهِ أَهْدَى مِنْهُمَا-لِاسْتِزْمَانِ صِيغَةِ التَّفْضِيلِ اشْتِرَاكَ الْمَفْضُولِ وَ الْمَفْضُولِ عَلَيْهِ فِي أَصْلِ الْوَصْفِ-لَكِنَّ الْمَقَامَ لَمَّا كَانَ مَقَامَ الْمَحَاجَةِ ادْعَى أَنْ الْكِتَابَيْنِ هَادِيَانِ لَا مَزِيدَ عَلَيْهِمَا فِي الْهَدَايَةِ فَإِنْ لَمْ يَقْبَلِ الْخَصْمُ ذَلِكَ فَلِيَأْتِ بِكِتَابٍ يَزِيدُ عَلَيْهِمَا فِي مَعْنَى مَا يَشْتَمَلَانِ عَلَيْهِ مِنْ بَيَانِ الْوَاقِعِ فَيَكُونُ أَهْدَى مِنْهُمَا.

وَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَ إِنْ كَانَ يَصْرِّحُ بِتَسْرُّبِ التَّحْرِيفِ وَ الْخَلَلِ فِي التَّوْرَةِ الْحَاضِرَةِ وَ ذَلِكَ لَا يِلَاقِي عَدَّهَا كِتَابَ هَدَى بِقَوْلٍ مُطْلَقٍ لَكِنَّ الْكَلَامَ فِي التَّوْرَةِ الْوَاقِعِيَةِ النَّازِلَةَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ هِيَ الَّتِي يَصَدَّقُهَا الْقُرْآنُ.

عَلَى أَنْ مَوْضُوعَ الْكَلَامِ هُمَا مَعَا وَ الْقُرْآنُ يَقُومُ التَّوْرَةَ الْحَاضِرَةَ بَيَانًا مَا فِيهَا مِنَ الْخَلَلِ فَهِيَ مَعَا هَدَى لَا كِتَابَ أَهْدَى مِنْهُمَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: فَإِنْ لَمْ يَسْئَلْ تَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الْاسْتِجَابَةُ وَ الْإِجَابَةُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، قَالَ فِي الْكَشَافِ: هَذَا الْفِعْلُ يَتَّعَدَى إِلَى الدَّعَاءِ بِنَفْسِهِ وَ إِلَى الدَّعَايِ بِاللَّامِ، وَ يَحْذِفُ الدَّعَاءَ إِذَا عَدَّى إِلَى الدَّعَايِ فِي الْغَالِبِ فَيَقَالُ: اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ أَوْ اسْتَجَابَ لَهُ، وَ لَا يَكَادُ يَقَالُ: اسْتَجَابَ لَهُ دَعَاءَهُ. انْتَهَى.

فَقَوْلُهُ: فَإِنْ لَمْ يَسْئَلْ تَجِيبُوا لَكُمْ تَفْرِيعٌ عَلَى قَوْلِهِ: «قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ» أَيْ فَإِنْ قُلْتَ لَهُمْ كَذَا وَ كَلَّفْتَهُمْ بِذَلِكَ فَلَمْ يَأْتُوا بِكِتَابٍ هُوَ أَهْدَى مِنَ الْقُرْآنِ

والتوراه و تعین أن لا هدى أتم و أكمل من هداهما و هم مع ذلك يرمونها بالسحر و يعرضون عنهما فاعلم انهم ليسوا فى طلب الحق و لا- بصدد اتباع ما هو صريح حجه العقل و إنما يتبعون أهواءهم و يدافعون عن مشتبهات طباعهم بمثل هذه الأباطيل «سِحْرَانِ تَظَاهَرَا» «إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ وَّ نَ» .

و يمكن أن يكون المراد بقوله: «أَتَمَّا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ» انهم إن لم يأتوا بكتاب هو أهدي منهما و هم غير مؤمنين بهما فاعلم أنهم إنما يبنون سنه الحياه على اتباع الأهواء و لا يعتقدون بأصل النبوه و أن لله دينا سماويا نازلا عليهم من طريق الوحي و عليهم ان يتبعوه و يسلكوا مسلك الحياه بهدى ربهم، و ربما أيد هذا المعنى قوله بعد: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ» الخ.

و قوله: «مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ» استفهام إنكارى و المراد به استنتاج انهم ضالون، و قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» تعليل لكونهم ضالين باتباع الهوى فإن اتباع الهوى إغراض عن الحق و انحراف عن صراط الرشده و ذلك ظلم و الله لا يهدى القوم الظالمين و غير المهتدى هو الضال.

و محضيل الحجه انهم إن لم يأتوا بكتاب هو أهدي منهما و ليسوا مؤمنين بهما فهم متبعون للهوى، و متبع الهوى ظالم و الظالم غير مهتد و غير المهتدى ضال فهم ضالون.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» التوصيل تفعليل من الوصل يفيد التكرير كالقطع و التقطيع و القتل و التقتيل، و الضمير لمشركى مكه و المعنى أنزلنا عليهم القرآن موصولا بعضه ببعض: الآية بعد الآية، و السوره إثر السوره من وعد و وعيد و معارف و أحكام و قصص و عبر و حكم و مواظ لعلم يتذكرون.

قوله تعالى: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ» الضميران للقرآن و قيل: للنبي صلى الله عليه و آله و سلم. و الأول أوفق للسياق، و فى الآية و ما بعدها مدح طائفه من مؤمنى

أهل الكتاب بعد ما تقدم فى الآيات السابقه من ذم المشركين من أهل مكه.

و سياق ذيل الآيات يشهد على أن هؤلاء الممدوحين طائفه خاصه من أهل الكتاب آمنوا به فلا يعبأ بما قيل إن المراد بهم مطلق المؤمنين منهم.

قوله تعالى: وَإِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا الْحَقُّ فِي «الْحَقِّ» للعهد والمعنى وإذا يقرأ القرآن عليهم قالوا: آمنا به إنه الحق الذى نعهده من ربنا فإنه عرفناه من قبل.

وقوله: إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ تعليل لكونه حقا معهودا عندهم أى إنا كنا من قبل نزوله مسلمين له أو مؤمنين للدين الذى يدعو اليه و يسميه إسلاما.

قوله تعالى: أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَ يَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ الْخ؛ فى الآيه وعد جميل لهم على ما فعلوا و مدح لهم على حسن سلوكهم و مداراتهم مع جهله المشركين و لذا كان الأقرب الى الفهم أن يكون المراد بإيتائهم أجرهم مرتين إيتاؤهم أجر الإيمان بكتابهم و أجر الإيمان بالقرآن و صبرهم على الإيمان بعد الايمان بما فيهما من كلفه مخالفه الهوى.

وقوله: وَ يَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ الْخ؛ الدرء الدفع، و المراد بالحسنه و السيئه قيل: الكلام الحسن و الكلام القبيح، و قيل: العمل الحسن و السيئ و هما المعروف و المنكر، و قيل: الخلق الحسن و السيئ و هما الحلم و الجهل، و سياق الآيات أوفق للمعنى الأخير فيرجع المعنى الى أنهم يدفعون أذى الناس عن أنفسهم بالمداراه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ الْخ؛ المراد باللغو لغو الكلام بدليل تعلقه بالسمع، و المراد سقط القول الذى لا- ينبغى الاشتغال به من هذر أو سب و كل ما فيه خشونه، و لذا لما سمعوه أعرضوا عنه و لم يقابلوه بمثله و قالوا: لنا أعمالنا و لكم أعمالكم و هو متاركة، و قوله: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» أى أمان

منا لكم، وهو أيضا متاركة و توديع تكرّما كما قال تعالى: «وَ إِذَا خَاطَبْتَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا» .

وقوله: لا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ أَي لا نطلبهم بمعاشره و مجالسه، و فيه تأكيد لما تقدمه، و هو حكاية عن لسان حالهم إذ لو تلفظوا به لكان من مقابلة السيئ بالسيئ.

قوله تعالى: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ المراد بالهدايه الإيصال الى المطلوب و مرجعه الى إفاضه الإيمان على القلب و معلوم أنه من شأنه تعالى لا يشاركه فيه أحد، و ليس المراد بها إراءه الطريق فإنه من وظيفه الرسول لا معنى لئفيه عنه، و المراد بالاهتداء قبول الهدايه.

لما بين في الآيات السابقه حرمان المشركين و هم قوم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم من نعمه الهدايه و ضلالهم باتباع الهوى و استكبارهم عن الحق النازل عليهم و إيمان أهل الكتاب به و اعترافهم بالحق ختم القول في هذا الفصل من الكلام بأن أمر الهدايه الى الله لا اليك يهدى هؤلاء و هم من غير قومك الذين تدعوهم و لا يهدى هؤلاء و هم قومك الذين تحب اهتداءهم و هو أعلم بالمهتدين (١).

[سوره القصص (٢٨): الآيات ٥٧ الى ٧٥]

إشارة

وَ قَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تَنَخُّطُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِ بَطْرَتْ مَعِيشَتَهَا فَنَلَكَّ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَ كُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَ مَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا يَلْتَمِسُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَ مَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَ أَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) وَ مَا أَوْتَيْنَا مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ زَيَّنَّا لَهَا وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقَى أَفْلا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَ فَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) وَ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ رَأَوْا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ يَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَ رَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَ هُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمِدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيءًا أَفْلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمِدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ لَيْلًا تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفْلا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَ نَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥)

١-١). القصص ٤٣-٥٦: بحث روائي في فضل محمد صلى الله عليه وآله وسلم و امته؛ ايمان أبي طالب.

قوله تعالى: وَقَالُوا إِن تَبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ التخطف الاختلاس بسرعته، وقيل الخطف و التخطف الاستلاب من كل وجه، و كأن تخطفهم من أرضهم استعاره أريد به القتل و السبي و نهب الأموال كأنهم و ما يتعلق بهم من أهل و مال يؤخذون فتخلو منهم أرضهم، و المراد بالأرض أرض مكة و الحرم بدليل قوله بعد: «أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا» و القائل بعض مشركى مكة.

و الجملة مسوقه للاعتذار عن الإيمان بأنهم إن آمنوا تخطفتهم العرب من أرضهم أرض مكة لأنهم مشركون لا يرضون بإيمانهم و رفض أوثانهم فهو من قبيل إبداء المانع ففيه اعتراف بحقيه أصل الدعوه و أن الكتاب بما يشتمل عليه حق لكن خطر التخطف مانع من قبوله

و الإيمان به، و لهذا عبّر بقوله: «إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ» و لم يقل: إن نتبع كتابك أو دينك أو ما يقرب من ذلك.

و قوله: أَوْ لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا قيل: التمكين مضمّن معنى الجعل و المعنى أو لم نجعل لهم حرماً آمناً ممكنين إياهم، و قيل: حرماً منصوباً على الظرفية و المعنى: أو لم نمكّن لهم فى حرم، و «آمناً» صفة «حَرَمًا» أى حرماً ذا أمن، و عدّ الحرم ذا أمن - و المتلبس بالأمن أهله - من المجاز فى النسبه، و الجملة معطوفه على محذوف و التقدير أو لم نعصمهم و نجعل لهم حرماً آمناً ممكنين إياهم.

و هذا جواب أول منه تعالى لقولهم: «إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَتَّخِطُفُ مِنْ أَرْضِنَا» و محصّيه: أنا مكنّاهم فى أرض جعلناها حرماً ذا أمن تحترمه العرب فلا موجب لخوفهم أن يتخطفوا منها إن آمنوا.

و قوله: يُجِبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتٌ كُلُّ شَيْءٍ الْجَبَايِهِ الْجَمْع، و الكل للتكثير لا للعموم لعدم إرادته العموم قطعاً، و المعنى: يجمع الى الحرم ثمرات كثير من الأشياء، و الجملة صفة لحرماً جىء بها لما عسى أن يتوهم انهم يتضررون إن آمنوا بانقطاع الميره.

و قوله: رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا مَفْعُولٌ مَطْلُوقٌ أو حال من ثمرات، و قوله: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» استدراك عن جميع ما تقدم أى إنا نحن حفظناهم فى أمن و رزقناهم من كل الثمرات لكن أكثرهم جاهلون بذلك فيحسبون أن الذى يحفظهم من تخطف العرب هو شركهم و عبادتهم الأصنام.

قوله تعالى: وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا الى آخر الآيه؛ البطر الطغيان عند النعمه، و «مَعِيشَتَهَا» منصوب بنزع الخافض أى و كم أهلكتنا من قريه طغت فى معيشتها.

و قوله: فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا أى إن مساكنهم

الخرابه الخاويه على عروشها مشهوده لكم نصب أعينكم باقيه على خرابها لم تعمر و لم تسكن بعد هلاكهم إلا قليلا منها.

و بذلك يظهر أن الأنسب كون «إِلَّا قَلِيلًا» استثناء من «مَسَاكِينُهُمْ» لا من قوله: «مِنْ بَعْدِهِمْ» بأن يكون المعنى لم تسكن من بعدهم إلا زمانا قليلا إذا لا يسكنها إلا المارّه يوما أو بعض يوم في الأسفار.

و قوله: «وَ كَذًا نَحْنُ الْوَارِثِينَ» حيث ملكوها ثم تركوها فلم يخلفهم غيرنا فنحن ورثناهم مساكنهم، و في الجملة أعنى قوله: «كُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ» عنايه لطيفه فإنه تعالى هو المالك لكل شىء ملكا حقيقيا مطلقا فهو المالك لمساكنهم و قد ملكها إياهم بتسليطهم عليها ثم نزعها من أيديهم بإهلاكهم و بقيت بعدهم لا مالك لها إلا هو فسمى نفسه وارثا لهم بعنايه أنه الباقي بعدهم و هو المالك لما كان بأيديهم كأن ملكهم الاعتبارى انتقل اليه و لا- انتقال هناك بالحقيقه و إنما ظهر ملكه الحقيقى بزوال ملكهم الاعتبارى.

و الآيه جواب ثان منه تعالى لقولهم: «إِنْ تَبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا» و محصله أن مجرد عدم تخطف العرب لكم من أرضكم لا- يضمن لكم البقاء و لا يحفظ لكم أرضكم و التمتع فيها كما تشاءون فكم من قريه بالغه فى التمتع ذات أشر و بطر أهلكتنا أهلها و بقيت مساكنهم خاليه غير مسكونه لا وارث لها إلا الله.

قوله تعالى: «وَ مَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا أَمْ الْقُرَىٰ هِيَ أَصْلُهَا وَ كَبِيرَتُهَا الَّتِي تَرْجِعُ إِلَيْهَا وَ فِي الْآيَةِ بَيَانُ السَّنَةِ الْإِلَهِيَةِ فِي عَذَابِ الْقُرَىٰ بِالْإِسْتِئْصَالِ وَ هُوَ أَنَّ عَذَابَ الْإِسْتِئْصَالِ لَا يَقَعُ مِنْهُ تَعَالَىٰ إِلَّا بَعْدَ إِتْمَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِإِرْسَالِ رَسُولٍ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللَّهِ، وَ إِلَّا بَعْدَ كَوْنِ الْمَعْذِبِينَ ظَالِمِينَ بِالْكَفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ تَكْذِيبِ رَسُولِهِ.

قوله تعالى: «وَ مَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّاعٌ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْخ؛ الْإِيتَاءُ: الْإِعْطَاءُ

و «مِنْ شَيْءٍ» بيان لما لافاده العموم أى كل شىء أوتيموه،و المتاع ما يتمتع به و الزينه ما ينضم الى الشىء ليفيده جمالا و حسنا،و الحياه الدنيا الحياه المؤجله المقطوعه التى هى أقرب الحياتين منا و تقابلها الحياه الآخره التى هى خالده مؤبده،و المراد بما عند الله الحياه الآخره السعيده التى عند الله و جواره و لذا عدّ خيرا و أبقى.

و المعنى: أن جميع النعم الدنيويه التى أعطاكم الله إياها متاع و زينه زينت بها هذه الحياه الدنيا التى هى أقرب الحياتين منكم و هى بائده فانیه و ما عند الله من ثوابه فى الدار الآخره المترتب على اتباع الهدى و الإيمان بآيات الله خير و أبقى فينبغى أن تؤثره على متاع الدنيا و زينتها أ فلا تعقلون.

و الآيه جواب ثالث عن قولهم: «إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا» محصله لنسلم انكم إن اتبعتم الهدى تخطفكم العرب من أرضكم لكن الذى تفقدونه هو متاع الحياه الدنيا و زينتها الفانيه فما بالكم تؤثرونه على ما عند الله من ثواب اتباع الهدى و سعاده الحياه الآخره و هى خير و أبقى.

قوله تعالى: أَمْ مَنْ وَعَدْنَا وَغَدَاً حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ الآيه؛الى تمام سبع آيات إيضاح لمضمون الآيه السابقه-و هو أن إثار اتباع الهدى أولى من تركه و التمتع بمتاع الحياه الدنيا-بيان آخر فيه مقايسه حال من اتبع الهدى و ما يلقاه من الوعد الحسن الذى وعده الله،من حال من لم يتبعه و اقتصر على التمتع من متاع الحياه الدنيا و سيستقبله يوم القيامه الإحضار و تبرى آلهته منه و عدم استجابتهم لدعوته و مشاهده العذاب و السؤال عن إجابتهم الرسل.

فقوله: أَمْ مَنْ وَعَدْنَا وَغَدَاً حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ الاستفهام إنكارى،و الوعد الحسن هو وعده تعالى بالمغفره و الجنه كما قال تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (المائدة ٩)، ولا يكذب وعده تعالى قال: أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ (يونس ٥٥).

وقوله: كَمَنْ مَنَّعَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أى وهو محروم من ذلك الوعد الحسن لاقتصاره على التمتع بمتاعها، والدليل على هذا التقيد المقابله بين الوعد و التمتع.

وقوله: ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ أى للعذاب، او للسؤال و المؤاخذه و «ثُمَّ» للترتيب الكلامى و إتيان الجملة اسميه كما فيما يقابلها من قوله: «فَهُوَ لِأَقْبِهِ» للدلاله على التحقق.

قوله تعالى: وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ الشركاء هم الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا و كونهم شركاء عندهم لكونهم يعطونهم أو ينسبون اليهم بعض ما هو من شئونه تعالى كالعباده و التدبير، و فى قوله: «يُنَادِيهِمْ» إشاره الى بعدهم و خذلانهم يومئذ.

قوله تعالى: قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا آلِهِمْ الذين يرونهم شركاء لله سبحانه صنفان صنف منهم عباد لله مكرمون كالملائكة المقربين و عيسى بن مريم عليه السلام، و صنف منهم كعتاه الجن و مدعى الالوهيه من الإنس كفرعون و نمرود و غيرهما و قد ألحق الله سبحانه بهم كل مطاع فى باطل كإبليس و قرناء الشياطين و أئمه الضلال كما قال: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ -الى أن قال- وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا (يس ٦٢)، و قال: أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ (الجاثية ٢٣)، و قال: اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ (التوبه ٣١).

و الذين يشير اليهم قوله: «قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ» هم من الصنف الثانى بدليل ذكرهم إغواءهم و تبريهم من عبادتهم و هؤلاء المشركون و إن كانوا أنفسهم أيضا ممن حق

عليهم القول كما يشير إليه قوله: حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (الم السجده ١٣)، و لكن المراد بهم فى الآيه المبحوث عنها المتبوعون منهم الذين ينتهى اليهم الشرك و الضلال.

و إيراد قول هؤلاء الشركاء مع عدم ذكر أن المسئولين أشاروا اليهم لعله للإشاره الى انهم ضلوا عنهم فى هذا الموقف كما فى قوله تعالى: وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ إِيْن شُرَكَائِي قَالُوا آذْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ (حم السجده ٤٨).

و قوله: رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا اى هؤلاء-يشيرون الى المشركين-هم الذين أغويناهم و الجملة توطئه للجملة التاليه.

و قوله: أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا اى كانت غوايتهم بإغوائنا لغوايتنا أنفسنا فكما كنا غوينا باختيارنا من غير إلجاء كذلك هم غووا باختيار منهم من غير الإلجاء، و الدليل على هذا المعنى ما حكاه الله عن ابليس يومئذ اذ قال: وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَ لَوْمُوا أَنفُسَكُمْ (إبراهيم ٢٢)، و قال حاكيا لتساؤل الظالمين و قرنائهم: وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنْ الْيَمِينِ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَ مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (الصافات ٣٢)، أى ما كان ليصل اليكم منا و نحن غاؤون غير الغوايه.

و من هنا يظهر أن لقولهم: «أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا» معنى آخر، و هو أنهم اكتسبوا نظير الوصف الذى كان فينا غير أننا نتبرأ منهم حيث لم نلجئهم الى الغوايه ما كانوا يعبدوننا بإلجاء.

و قوله: تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ تَبَرَّ مِنْهُمْ مطلقا حيث لم يكن لهم أن يلجئوهم و يسلبوا منهم الاختيار، و قوله: «مَا كَانُوا إِيْنَانَا يَعْبُدُونَ» اى بإلجاء منا، أو لتبرأنا من أعمالهم فإن من تبرأ من عمل لم ينتسب اليه و الى هذا المعنى يثول قوله تعالى فى مواضع من كلامه فى وصف هذا

الموقف: وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (الأنعام ٢٤/) وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ (حم السجده ٤٨/) وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَ قَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيانا تَعْبُدُونَ (يونس ٢٨/)، الى غير ذلك من الآيات فافهم.

و لكون كل من قوله «تبرّأ أنا اليك» «ما كانوا إيانا يعبدون» فى معنى قوله: «أغويّناهم كما غويّنا» جىء بالفصل من غير عطف.

قوله تعالى: وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُم فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ رَأُوا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ المراد بشركائهم الآلهة التى كانوا شركاء لله بزعمهم و لذا أضافهم اليهم. و المراد بدعوتهم دعوتهم إياهم لينصروهم و يدفعوا عنهم العذاب و لذا قال: «وَ رَأُوا الْعَذَابَ» بعد قوله: «فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ» .

و قوله: لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ قيل: جواب لو محذوف لدلاله الكلام عليه و التقدير لو أنهم كانوا يهتدون لرأوا العذاب أى اعتقدوا أن العذاب حق، و يمكن أن يكون لو للتمنى أى ليتهم كانوا يهتدون.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يَنادِيهِمْ فَيَقُولُ مَا ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ معطوف على قوله السابق: «وَ يَوْمَ يَنادِيهِمْ» الخ؛ سئلوا أولاً: عن شركائهم و أمروا أن يستنصروهم، و ثانياً: عن جوابهم للمرسلين اليهم من عند الله.

و المعنى: ما ذا قلتم فى جواب من أرسل اليكم من رسل الله فدعوكم الى الايمان و العمل الصالح؟

قوله تعالى: فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ العمى استعاره عن جعل الإنسان بحيث لا يهتدى الى خبر، و كان مقتضى الظاهر أن ينسب العمى اليهم لا الى الأنباء لكن عكس الأمر فقيل: «فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ» للدلاله على أخذهم من كل جانب

و سدّ جميع الطرق و تقطع الأسباب بهم كما قال: وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (البقره ١٦٦)، فلسقوط الأسباب عن التأثير يومئذ لا تهتدى اليهم الأخبار و لا يجدون شيئا يعتذرون به للتخلص من العذاب.

و قوله: فَهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ تفرّج على عمى الأنبياء من قبيل تفرّج بعض أفراد العام عليه أى لا يسأل بعضهم بعضا ليعذّوا به عذرا يعتذرون به عن تكذيبهم الرسل و ردّهم الدعوه.

و قد فسّر صدر الآيه و ذيلها بتفاسير كثيره مختلفه لا جدوى فى التعرض لها فرأينا الصّفح عنها أولى.

قوله تعالى: فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ أى هذه حال من كفر و لم يرجع الى الله سبحانه فأما من رجع و آمن و عمل صالحا فمن المرجو أن يكون من المفلحين، و عسى - كما قيل - للتحقيق على عاده الكرام او للترجى من قبل التائب، و المعنى: فليتوقع الفلاح.

قوله تعالى: وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ يَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ الخيره بمعنى التخيير كالطيره بمعنى التطير.

و الآيه جواب رابع عن قولهم: «إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفَ مِنْ أَرْضِنَا» و الذى يتضمنه حجه قاطعه.

و الظاهر أن قوله: «يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ» إشاره الى اختياره التكوينى فإن معنى إطلاقه أنه لا تقصر قدرته عن خلق شىء و لا يمنعه عما يشاءه و بعبارة أخرى لا يمتنع عن مشيته شىء لا بنفسه و لا بمانع يمنع و هذا هو الاختيار بحقيقه معناه، و قوله: «وَ يَخْتَارُ» إشاره الى اختياره التشريعى الاعتبارى و يكون عطفه على قوله: «يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ» من عطف المسبب على سببه لكون التشريع و الاعتبار متفرعا على التكوين و الحقيقه.

و يمكن حمل قوله: «يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ» على الاختيار التكويني وقوله: «وَ يَخْتَارُ» على الأعم من الحقيقة و الاعتبار لكن الوجه السابق أوجه، و من الدليل عليه كون المنفى فى قوله الآتى:

مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ هُوَ الْاِخْتِيَارُ الشَّرِيعَى الْعَبْتَارَى، و الاختيار المثبت فى قوله:

«وَ يَخْتَارُ» يقابله فالمراد إثبات الاختيار التشريعى الاعتبارى.

و هذا هو المراد بقوله: «مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ» أى لا- اختيار لهم إذا اختار الله سبحانه لهم شيئاً من فعل أو ترك حتى يختاروا لأنفسهم ما يشاءون و إن خالف ما اختاره الله و الآيه قريه المعنى من قوله تعالى: «وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يُكَونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ (الأ-حزاب ٣٦)»، و للقوم فى تفسير الآيه أقاويل مختلفه غير مجديه أغمضنا عنها من أراد الوقوف عليها فعليه بالرجوع الى المطولات.

و قوله: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ» أى عن شركهم باختيارهم أصناما آلهه يعبدونها من دون الله.

و هاهنا معنى آخر أدق أى تنزه و تعالى عن شركهم بادعاء أن لهم خيره بالنسبه الى ما يختاره تعالى بقبوله أو رده فإن الخيره فهذا المعنى لا تتم إلا بدعوى الاستقلال فى الوجود و الاستغناء عنه تعالى و لا تتم إلا مع الاشتراك معه تعالى فى صفه الالوهيه.

و فى قوله: «وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ» التفات من التكلم بالغير الى الغيبه و النكته فيه تأييد النبى صلى الله عليه و آله و سلم و تقويته و تطيب نفسه بإضافه صفه الرب اليه فإن معناه إن ما أرسله به من الحكم ماض غير مردود فلا خيره لهم فى قبوله و رده، و لأنهم لا يقبلون ربوبيته.

و فى قوله: «سُبْحَانَ اللَّهِ» وضع الظاهر موضع المضمرة و النكته فيه إرجاع الأمر الى الذات المتعاليه التى هى المبدأ للتنزه و تعالى عن كل ما لا يليق بساحه قدسه فإنه تعالى يتصف بكل كمال و يتنزه عن كل نقص لأنه هو الله عز اسمه.

قوله تعالى: «وَ رَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مَا يُعْلِنُونَ الْإِكْنَانَ الْإِخْفَاءِ»

و الإعلان الإظهار، و لكون الصدر يعدّ مخزنا للأسرار نسب الإكنان الى الصدور و الإعلان اليهم أنفسهم.

و لعل تعقيب الآيه السابقه بهذه الآيه للإشاره الى أنه تعالى إنما اختار لهم ما اختار لعلمه بما فى ظاهرهم و باطنهم من أوساخ الشرك و المعصيه فظهرهم بذلك بحكمته.

قوله تعالى: **لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ظاهر السياق أن الضمير فى صدر الآيه راجع الى «رَبُّكَ» فى الآيه السابقه، و الظاهر على هذا أن اللام فى اسم الجلاله للتلميح الى معنى الوصف، و قوله: **«لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»** تأكيد للحصر المستفاد من قوله: **«هُوَ اللَّهُ»** كأنه قيل: و هو الإله-المتصف وحده بالالوهيه-لا إله إلا هو.

و على ذلك فالآيه كالمتمم لبيان الآيه السابقه كأنه قيل: هو سبحانه مختار له أن يختار عليهم أن يعبدوه وحده، و هو يعلم ظاهرهم و باطنهم فله أن يقضى عليهم أن يعبدوه وحده و هو الإله المستحق للعباده وحده فيجب عليهم أن يعبدوه وحده.

و يكون ما فى ذيل الآيه من قوله: **«لَهُ الْحَمْدُ»** الخ؛ وجوها ثلاثة توجه كونه تعالى معبودا مستحقا للعباده وحده.

أما قوله: **لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ** فلأن كل كمال موجود فى الدنيا و الآخره نعمه نازله منه تعالى يستحق بها جميل الثناء، و كل جميل من هذه النعم الموهوبه مترشح من كمال ذاتى من صفاته الذاتيه يستحق بها الثناء فله كل الثناء و لا يستقل شىء غيره بشىء من الثناء يثنى عليه به إلا و ينتهى اليه و العباده ثناء بقول أو فعل فهو المعبود المستحق للعباده وحده.

و أما قوله: **وَ لَهُ الْحُكْمُ** فلأنه سبحانه هو المالك على الإطلاق لا يملك غيره إلا ما ملكه إياه و هو الملك لما ملكه و هو سبحانه مالك فى مرحله التشريع و الاعتبار كما أنه مالك فى

مرحلة التكوين و الحقيقة، و من آثار ملكه أن يقضى على عبده و مملوكيه أن لا يعبدوا إلا إياه.

و أما قوله: وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فلأن الرجوع للحساب و الجزاء و إذا كان هو المرجع فهو المحاسب المجازى و إذ كان هو المحاسب المجازى وحده فهو الذى يجب أن يعبد وحده و له دين يجب أن يتعبد به وحده.

قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ السرمد على فعلل بمعنى الدائم، و قيل: هو من السرد و الميم زائده و معناه المتتابع المطرد، و تقييده بيوم القيامة إذ لا ليل بعد يوم القيامة.

و قوله: مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَى من الإله الذى ينقض حكمه تعالى و يأتيكم بضياء تستضيئون به و تسعون فى طلب المعاش، هذا ما يشهد به السياق، و يجرى نظيره فى قوله الآتى: «مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بَلِيلٍ» الخ.

و تنكير «ضياء» يؤيد ما ذكر من الوجه، و قد أوردوا وجوها اخرى فى ذلك لا تخلو من تعسف.

و قوله: أَمْ فَلَا تَسْمَعُونَ أَى سمع تفهم و تفكر حتى تتفكروا فتفهموا أن لا إله غيره تعالى.

قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَى تستريحون فيه مما أصابكم من تعب السعى للمعاش.

و قوله: أَمْ فَلَا تُبْصِرُونَ أَى إبصار تفهم و تذكر و إذ لم يبصروا و لم يسمعوا فهم عمى صم، و من اللطيف تذييل الآيتين بقوله: «أَمْ فَلَا تَسْمَعُونَ» «أَمْ فَلَا تُبْصِرُونَ» و لعل آيه النهار خص بالإبصار لمناسبه ضوء النهار الإبصار و بقى السمع لآيه الليل و هو لا يخلو من

قوله تعالى: «وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» الآية؛ بمنزله نتيجة الحجج المذكوره فى الآيتين السابقتين سيقى بعد إبطال دعوى الخصم فى صورته الإخبار الابتدائى لثبوته من غير معارض.

وقوله: «لِتَسْكُنُوا فِيهِ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» أى و جعل لكم الليل لتستريحوا فيه، وقوله: «لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» أى و جعل لكم النهار لتطلبوا من رزقه الذى هو عطيته فرجوع «لِتَسْكُنُوا» و «لِتَبْتَغُوا» الى الليل و النهار بطريق اللف و النشر المرتب، وقوله: «وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» راجع اليهما جميعا.

وقوله: «وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» فى معنى قولنا: جعل لكم ذلك رحمه منه و فيه إشاره الى أن التكوين كالتسكون و الابتغاء و التشريع و هو هدايتهم الى الشكر من آثار صفه رحمته تعالى فافهم ذلك.

قوله تعالى: «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ» تقدم تفسيره و قد كررت الآية لحاجه مضمون الآية التالىة إليها.

قوله تعالى: «وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ» الى آخر الآية؛ إشاره الى ظهور بطلان مزعمتهم لهم يوم القيامة، و المراد بالشهيد شهيد الأعمال- كما تقدمت الإشاره اليه مرارا- و لا ظهور للآيه فى كونه هو النبى المبعوث الى الامه نظرا الى أفراد الشهيد و ذكر الامه إذ الامه هى الجماعه من الناس و لا ظهور و لا نصوصيه له فى الجماعه الذين أرسل اليهم نبى و إن كانت من مصاديقها.

وقوله: «فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ» أى طالبناهم بالحجج القاطعه على ما زعموا أن لله شركاء.

و قوله: فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ أى غاب عنهم زعمهم الباطل أن لله سبحانه شركاء فعلموا عند ذلك أن الحق فى الالوهيه لله وحده فالمراد بالضلال الغيبه على طريق الاستعاره. كذا فسروه، وفى الكلام تقديم و تأخير و الأصل فضل عنهم ما كانوا يفترون فعلموا أن الحق لله.

و على هذا فقولہ: «أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ» نظير ما يقال فى القضاء بين المتخاصمين إذا تداعيا فى حق يدعيه كل لنفسه: إن الحق لفلان لا لفلان كأنه تعالى يخاصم المشركين حيث يدعون أن الالوهيه بمعنى المعبوديه حق لشركائهم فيدعى تعالى أنه حقه فيطالبهم البرهان على دعواهم فيضلل عنهم البرهان فيعلمون عندئذ أن هذا الحق لله فالالوهيه حق ثابت لا ريب فيه فإذا لم يكن حقا لغيره تعالى فهو حق له.

و من الممكن أن يكون «الْحَقُّ» فى قوله: «فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ» مصدرا فيرجع معنى الجملة الى معنى قوله: وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (النور ٢٥)، فكون الحق لله هو كونه تعالى حقا إن أريد به الحق فى ذاته أو كونه منتهيا اليه قائما به إن أريد به غيره، كما قال تعالى:

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ (آل عمران ١٦٠)، و لم يقل: الحق مع ربك.

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٧٦ الى ٨٤]

إشارة

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَ آتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَ ابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَ أَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَ لَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَو لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعًا وَ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَكُنُوزٌ لَهُ لَعَدُوٌّ عَظِيمٌ (٧٩) وَ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا وَ لَا يُلَاقَهَا إِلَّا الْصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسِفْنَا بِهِ وَ بِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِتْنَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَ أَصْرَبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَانَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ لَوْ لَا أَنَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوقًا فِي الْأَرْضِ وَ لَا فَسَادًا وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤)

قوله تعالى: إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ

الْكَنْوَزِ ۖ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتُنَوَّى بِالْعُضِيِّ بِهِ أَوْلَى الْقُوَّةِ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: الْبَغْيُ طَلَبُ الْعَتْوِ بِغَيْرِ حَقِّ. قَالَ: وَ الْمَفَاتِحُ جَمْعُ مَفْتَحٍ وَ الْمَفَاتِحُ جَمْعُ مَفْتَحٍ وَ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ وَ هُوَ عِبَارَةٌ عَمَّا يَفْتَحُ بِهِ الْأَغْلَاقَ. قَالَ: وَ نَاءٌ بِحَمَلِهِ يَنْوَأُ نَوَاءً إِذَا نَهَضَ بِهِ مَعَ ثِقَلِهِ عَلَيْهِ. وَ أَنْتَهَى. وَ قَالَ غَيْرُهُ: نَاءٌ بِهِ الْحَمْلُ إِذَا أَثْقَلَهُ حَتَّى أَمَالَهُ وَ هُوَ الْأَوْفَقُ لِلآيَةِ.

وَ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ أَيْضًا: الْعَصْبَةُ الْجَمَاعَةُ الْمَلْتَفُ بِعَضُهَا بَعْضٌ. وَ قَالَ: وَ اخْتَلَفَ فِي مَعْنَى الْعَصْبَةِ فَقِيلَ: مَا بَيْنَ عَشْرَةٍ إِلَى خَمْسَةِ عَشْرٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَ قِيلَ: مَا بَيْنَ عَشْرَةٍ إِلَى أَرْبَعِينَ عَنْ قَتَادَةَ، وَ قِيلَ: أَرْبَعُونَ رَجُلًا عَنْ أَبِي صَالِحٍ (١)، وَ قِيلَ: مَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الْعَشْرِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَ قِيلَ: إِنَّهُمْ الْجَمَاعَةُ يَتَعَصَّبُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ. وَ يَزِيْفُ غَيْرَ الْقَوْلِينَ الْأَخِيرِينَ قَوْلَ إِخْوِهِ يُوسُفَ وَ نَحْنُ عُضِيَّةٌ (يُوسُفَ ٨)، وَ هُمْ تِسْعَةٌ نَفَرٍ.

وَ الْمَعْنَى: إِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَطَلَبَ الْعَتْوَ عَلَيْهِمْ بِغَيْرِ حَقِّ وَ أَعْطَيْنَاهُ مِنَ الْكَنْوَزِ مَا إِنْ مَفَاتِحِهِ لَتَثْقُلَ الْجَمَاعَةُ ذَوَى الْقُوَّةِ، وَ ذَكَرَ جَمْعٌ مِنَ الْمَفْسَرِينَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمَفَاتِحِ الْخَزَائِنَ، وَ لَيْسَ بِذَاكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ فَسِرَّ الْفَرِحَ بِالْبَطْرِ وَ هُوَ لَا زِمَ الْفَرِحَ وَ السَّرُّ الْمَفْرُطُ يَمْتَنِعُ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ تَعَلُّقٍ شَدِيدٍ بِالدُّنْيَا يَنْسَى الْآخِرَةَ وَ يورثُ الْبَطْرَ وَ الْأَشْرَ، وَ لَذَا قَالَ تَعَالَى: وَ لَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (الْحَدِيدُ ٢٣).

وَ لَذَا أَيْضًا عِلَلُ النَّهْيِ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ».

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ ابْتَغِ فِيْمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ أَيْ وَ اطْلُبْ فِيْمَا أَعْطَاكَ اللَّهُ مِنْ مَالِ الدُّنْيَا تَعْمِيرَ الدَّارِ الْآخِرَةِ بِإِنْفَاقِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ وَضَعَهُ فِيْمَا فِيهِ

ص: ٧١١

مرضاته تعالى.

وقوله: وَلَا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا أَى لَا تترك ما قسم الله لك و رزقك من الدنيا ترك المنسى و اعمل فيه لآخرتك لأن حقيقه نصيب الإنسان من الدنيا هو ما يعمل به لآخرته فهو الذى يبقى له.

وقوله: وَ أَحْسِنْ كَلِمًا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ أَى أنفقه لغيرك إحسانا كما آتاكه الله إحسانا من غير أن تستحقه و تستوجهه، و هذه الجملة من قبيل عطف التفسير لقوله: «وَلَا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا» على أول الوجهين السابقين و متممه له على الوجه الثانى.

وقوله: وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ أَى لا تطلب الفساد فى الأرض بالاستعانه بما آتاك الله من مال و ما اكتسبت به من جاه و حشمه إن الله لا يحب المفسدين لبناء الخلقه على الصلاح و الإصلاح.

قوله تعالى: قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ لا شك أن قوله:

«إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي» جواب عن جميع ما قاله المؤمنون من قومه و نصحوه به و كان كلامهم مبنيًا على أن ماله من الثروه إنما آتاه الله إحسانا اليه و فضلا منه من غير استيجاب و استحقاق فيجب عليه أن يتغى فيه الدار الآخرة و يحسن به الى الناس و لا يفسد فى الأرض بالاستعلاء و الاستكبار و البطر.

فأجاب بنفى كونه إنما أوتيه إحسانا من غير استحقاق و دعوى أنه إنما أوتيه على استحقاق بما عنده من العلم بطرق اقتناء المال و تدبيره و ليس عند غيره ذلك، و إذا كان ذلك باستحقاق فقد استقل بملكه و له أن يفعل فيما اقتناه من المال بما شاء و يستدره فى أنواع التنعم و بسط السلطه و العلو و البلوغ الى الآمال و الأمانى.

و فى قوله: إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ من غير إسناد الإيتاء الى الله سبحانه كما فى قول الناصحين له «فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ» نوع إعراض عن ذكره تعالى و إزراء بساحه كبريائه.

ص: ٧١٢

وقوله: أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعًا استفهام توبيخي و جواب عن قوله: «إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلِيًّا عَلِيمًا عِنْدِي» بأيسر ما يمكن أن يتنبه به لفساد قوله فإنه كان يرى أن الذي اقتنى به المال و هو يبقيه له و يمتعه منه هو علمه الذي عنده و هو يعلم أنه كان فيمن قبله من القرون من هو أشد منه قوه و أكثر جمعا، و كان ما له من القوه و الجمع عن علم عنده على زعمه، و قد أهلكه الله بجرمه، فلو كان العلم الذي يغتر و يتبجح به هو السبب الجامع للمال الحافظ له الممتع منه و لم يكن بإيتاء الله فضلا و إحسانا لنجاهم من الهلاك و متعهم من أموالهم و دافعوا بقوتهم و انتصروا بجمعهم.

□ و قوله: وَلَا يُسْتَبَلُّ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ظاهر السياق أن المراد به بيان السنه الإلهيه فى تعذيب المجرمين و إهلاكهم بذنوبهم فيكون كناية عن عدم إمهالهم و الإصغاء الى ما لفقوه من المعاذير أو هيئوه من التذلل و الإنابه ليرجو بذلك النجاه كما أن أولى الطول و القوه من البشر إذا أرادوا تعذيب من يتحكمون عليه سألوه عن ذنبه ليقضوا عليه بالجرم ثم العذاب، و ربما صرف المجرم بما لفقه من المعاذير عذابهم عن نفسه لكن الله سبحانه لعلمه بحقيقه الحال لا يسأل المجرمين عن ذنوبهم و إنما يقضى عليهم قضاء فيأتهم عذاب غير مردود.

□ قوله تعالى: فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ الحظ هو النصيب من السعاده و البخت.

□ و قوله: يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا أى يجعلونها الغايه المطلوبه فى مساعيهم ليس لهم وراءها غايه فهم على جهل من الآخره و ما أعد الله لعباده فيها من الثواب قال تعالى:

□ فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ (النجم / ٣٠) و لذلك عدوا ما اوتيه قارون من المال سعاده عظيمه له من دون قيد و شرط.

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا نَخ؛ الويل الهلاك و يستعمل للدعاء بالهلاك و زجرا عما لا يرتضى، و هو فى المقام زجرا عن التمنى.

و القائلون بهذا القول هم المؤمنون أهل العلم بالله يخاطبون به أولئك الجهله الذين تمنوا أن يؤتوا مثل ما أوتى قارون و عدوه سعاده عظيمه على الإطلاق، و مرادهم أن ثواب الله خير لمن آمن و عمل صالحا مما أوتى قارون فإن كانوا مؤمنين صالحين فليتمنوه.

و قوله: وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ التلقيه التفهيم و التلقى التفهم و الأخذ، و الضمير -على ما قالوا- للكلمه المفهومه من السياق، و المعنى: و ما يفهم هذه الكلمه -و هى قولهم:

ثواب الله خير لمن آمن و عمل صالحا- إلا الصابرون.

و الصابرون هم المتلبسون بالصبر عند الشدائد و على الطاعات و عن المعاصى، و وجه كونهم هم المتلقين لهذه الكلمه أو السيره أو طريقه أن التصديق بكون ثواب الآخره خيرا من الحظ الدنيوى -و هو لا ينفك عن الإيمان و العمل الصالح الملازمين لترك كثير من الأهواء و الحرمان عن كثير من المشتتهات- لا يتحقق إلا ممن له صفة الصبر على مراره مخالفه الطبع و عصيان النفس الأماره.

قوله تعالى: فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ الضميران لقارون و الجملة متفرعه على بغيه.

و قوله: فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يُصِيرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ الفئه الجماعه يميل بعضهم الى بعض، و فى النصر و الانتصار معنى المنع و الامتناع، و محصل المعنى: فما كان له جماعه يمنعونه العذاب و ما كان من الممتنعين على خلاف ما كان يظن أن الذى يجلب اليه الخير و يدفع عنه الشر هو قوته و جمعه اللذان اكتسبهما بعلمه فلم يقه جمعه و لم تفده قوته من دونه الله و بان أن الله سبحانه هو الذى آتاه ما آتاه.

فالفاء فى قوله: «فَمَا كَانَ» لتفريع الجملة على قوله: «فَخَسَفْنَا بِهِ» الخ؛ أى فظهر بخسفننا به و بداره الأرض بطلان ما كان يدّعيه لنفسه من الاستحقاق و الاستغناء عن الله سبحانه و أن الذى يجلب اليه الخير و يدفع عنه الشر هو قوته و جمعه و قد اكتسبهما بنبوغه العلمى.

قوله تعالى: وَ أَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآئِنَ اللَّهُ يُبْسِطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ الخ؛ ذكروا أن «وى» كلمة تندم و ربما تستعمل للتعجب و كلا المعنيين يقبلان الانطباق على المورد و إن كان التندم أسبق الى الدهن.

و قوله: وَيَكَآئِنَ اللَّهُ يُبْسِطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ اعتراف منهم بطلان ما كان يزعمه قارون و هم يصدّقونه أن القوه و الجمع فى الدنيا بنبوغ الإنسان فى علمه و جوده تدييره و لا بفضل من الله سبحانه بل سعه الرزق و ضيقه بمشيئه من الله.

و المقام مقام التحقيق دون التشبيه المناسب للشك و التردد لكنهم إنما استعملوا فى كلامهم «وَيَكَآئِنَ» للدلالة على ابتداء ترددهم فى قول قارون و قد قبلوه و صدّقوه من قبل و هذه صنعه شائعه فى الاستعمال.

و الدليل على ذلك قولهم بعده: «لَوْ لَا أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا» على طريق الجزم و التحقيق.

و قوله: وَيَكَآئِنَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ تندم منهم ثانيا و انتزاع مما كان لازم تمنيههم مكان قارون.

قوله تعالى: تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لَا فَسَاداً وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ الآيه؛ و ما بعدها بمنزله النتيجة المستخرجه من القصه.

و قوله: تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ الإشاره إليها بلفظ البعيد للدلالة على شرفها و بهائها

و علو مكانتها و هو الشاهد على أن المراد بها الدار الآخرة السعيدة و لذا فسروها بالجنة.

و قوله: نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا أَي نخصها بهم و إرادته العلو هو الاستعلاء و الاستكبار على عباد الله و إرادته الفساد فيها ابتغاء معاصي الله تعالى فإن الله بنى شرائعه التي هي تكاليف للإنسان على مقتضيان فطرته و خلفته و لا تقتضى فطرته إلا ما يوافق النظام الأحسن الجارى فى الحياه الإنسانيه الأرضيه فكل معصيه تقتضى الى فساد فى الأرض بلا واسطه أو بواسطه، قال تعالى: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ (الروم ٤١).

و من هنا ظهر أن إرادته العلو من مصاديق إرادته الفساد و إنما أفردت و خصت بالذكر اعتناء بأمرها، و محصل المعنى: تلك الدار الآخرة السعيدة نخصها بالذين لا يريدون فسادا فى الأرض بالعلو على عباد الله و لا بأى معصيه اخرى.

و الآيه عامه يخصصها قوله تعالى: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَفَّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا (النساء ٣١).

و قوله: وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ أَي العاقبه المحموده الجميله و هى الدار الآخرة السعيدة أو العاقبه السعيدة فى الدنيا و الآخرة لكن سياق الآيتين يؤيد الأول.

قوله تعالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا أَي لأنها تتضاعف له بفضل من الله، قال تعالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا (الأنعام ١٦٠).

قوله تعالى: وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أَي لا يزيدون على ما عملوا شيئا و فيه كمال العدل، كما أن فى جزاء الحسنه بخير منها كمال الفضل.

و كان مقتضى الظاهر فى قوله: «فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا» الخ؛ الإضمار و لعل فى وضع الموصول موضع الضمير إشاره الى أن هذا الجزاء إنما هو لمن أكثر من اقتراف المعصيه

و أحاطت به الخطيئه كما يفيدده جمع السيئات، وقوله: «كَانُوا يَعْمَلُونَ» الدال على الإصرار و الاستمرار، و أما من جاء بالسيئه و الحسنة فمن المرجو أن يغفر الله له كما قال: وَ آخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَ آخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (التوبه ١٠٢).

و ليعلم أن الملاك في الحسنه و السيئه على الأثر الحاصل منها عند الإنسان و بها تسمى الأعمال حسنه أو سيئه و عليها-لا على متن العمل الخارجى الذى هو نوع من الحركة-يثاب الانسان أو يعاقب، قال تعالى: وَ إِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُوا يَحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ (البقره ٢٨٤) (١).

[سوره القصص (٢٨): الآيات ٨٥ الى ٨٨]

اشاره

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَ مَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (٨٦) وَ لَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَ أَدْعُ إِلَيَّ رَبِّكَ وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَ لَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)

ص: ٧١٧

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الفرض -على ما ذكره- بمعنى الإيجاب فمعنى «فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ» أى أوجب عليك العمل به أى بما فيه من الأحكام ففيه مجاز فى النسبه.

و أحسن منه قول بعضهم: إن المعنى أوجب عليك تلاوته و تبليغه و العمل به و ذلك لكونه أوفق لقوله: «لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ» بما سيحىء من معناه.

و قوله: لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ المعاد اسم مكان أو زمان من العود و قد اختلفت كلماتهم فى تفسير هذا المعاد فقيل: هو مكه فالآيه وعد له أن الله سيرده بعد هجرته الى مكه ثانيا، و قيل: هو الموت، و قيل: هو القيامة، و قيل: هو المحشر، و قيل: هو المقام المحمود و هو موقف الشفاعة الكبرى، و قيل: هو الجنه، و قيل: هو بيت المقدس، و هو فى الحقيقه وعد بمعراج ثان يعود فيه الى بيت المقدس بعد ما كان دخله فى المعراج الأول: و قيل: هو الأمر المحبوب فيقبل الانطباق على جل الأقوال السابقه أو كلها.

و الذى يعطيه التدبر فى سياق آيات السوره هو أن تكون الآيه تصريحاً بما كانت القصه المسروده فى أول السوره تلوح اليه ثم الآيات التاليه لما تؤيده.

فمعنى الآيه؛ أن الذى فرض عليك القرآن لتقرأه على الناس و تبلغه و تعملوا به سيردك و يصيرك الى محل تكون هذه الصيروره منك اليه عوداً و يكون هو معاداً لك كما فرض التوراه على موسى و رفع به قدره و قدر قومه، و من المعلوم أنه صلى الله عليه و آله و سلم كان بمكه على ما فيها من الشده و الفتنة ثم هاجر منها ثم عاد إليها فاتحا مظفراً و ثبتت قواعد دينه و استحكمت أركان ملته و كسرت الأصنام و انهدم بنيان الشرك و المؤمنون هم الوارثون للأرض بعد ما كانوا أذلاء معديين.

و في تنكير قوله: «مَعَادٍ» إشاره الى عظمه قدر هذا العود و أنه لا يقاس الى ما قبله من القطن بها و التاريخ يصدقه.

و قوله: قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ يؤيد ما قدمنا من المعنى فإنه يحاذى قول موسى عليه السلام- لما كذبوه و رموا آياته البينات بأنها سحر مفترى- «رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ» فأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَنْ يَقُولَ لِلْفِرَاعِنَةِ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِهِ لَمَّا كَذَّبُوهُ وَ رَمَوْهُ بِالسَّحْرِ لِلتَّشَابُهِ التَّامِ بَيْنَ مَبْعَثِهِمَا وَ سِيرِ دَعْوَتِهِمَا كَمَا يَظْهَرُ مِنَ الْقِصَّةِ وَ يَظْهَرُ ذَلِكَ تَمَامَ الظُّهُورِ بِالتَّأَمُّلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (المزمع ١٥).

و لعل الاكتفاء بالشرط الأول من قول موسى عليه السلام و السكوت عن الشرط الثاني أعنى قوله:

«وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ» لبناء الكلام بحسب سياقه على أن لا- يتعدى حد الإشاره و الإيماء كما يستشتم من سياق قوله: «لَرَأَدُكَ إِلَيَّ مَعَادٍ» أيضا حيث خص الخطاب بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ نَكَرَ مَعَادًا.

و كيف كان فالمراد بقوله: «مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ» النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ نفسه و بقوله: «وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» المشركون من قومه، و اختلاف سياق الجملتين- حيث قيل في جانبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ «مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ» و في جانبهم «مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» فقبول بين ضلالهم و بين مجيئه بالهدى لا بين ضلالهم و اهتدائه- لكون تكذيبهم متوجها بالطبع الى ما جاء به لا الى نفسه.

قوله تعالى: وَ مَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ صدر الآيه تقرير للوعد الذي في قوله: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَيَّ مَعَادٍ» أى إنه سيردك الى معاد- و ما كنت ترجوه كما ألقى اليك الكتاب و ما كنت ترجوه-.

قوله تعالى: «وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ كَالْتَفْسِيرِ لِقَوْلِهِ: «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» .

قوله تعالى: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» كلمه الإخلاص فى مقام التعليل لقوله قبله: «وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ» أى لأنه لا إله غيره و ما بعدها فى مقام التعليل بالنسبه إليها كما سيتضح.

وقوله: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ الشَّيْءُ مَسَاوٍ لِلْمَوْجُودِ وَيَطْلُقُ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ مَوْجُودٍ حَتَّى عَلَيْهِ تَعَالَى كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: قُلْ أَىُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ (الأنعام / ١٩)، و الهلاك البطلان و الانعدام.

و الوجه و الجبهه واحده كالوعد و العده، و وجه الشئ فى العرف العام ما يستقبل به غيره و يرتبط به اليه كما أن وجه الجسم السطح الظاهر منه و وجه الإنسان النصف المقدم من رأسه و وجهه تعالى ما يستقبل به غيره من خلقه و يتوجه اليه خلقه به و هو صفاته الكريمة من حياه و علم و قدره و سماع و بصر و ما ينتهى إليها من صفات الفعل كالخلق و الرزق و الإحياء و الإماتة و المغفرة و الرحمة و كذا آياته الداله عليه بما هي آياته.

فكل شئ هالك فى نفسه باطل فى ذاته لا حقيقه له إلا ما كان عنده مما أفاضه الله عليه و أما ما لا ينسب اليه تعالى فليس إلا ما اختلقه و هم المتوهم او سرابا صوره الخيال و ذلك كالأصنام ليس لها من الحقيقه إلا أنها حجاره او خشبه او شئ من الفلزات و أما أنها أرباب او آلهه او نافع او ضاره او غير ذلك فليست إلا أسماء سماها عبدتهم و كالإنسان ليس له من الحقيقه إلا ما أودعه فيه الخلقه من الروح و الجسم و ما اكتسبه من صفات الكمال و الجميع منسوبه الى الله سبحانه و أما ما يضيفه اليه العقل الاجتماعى من قوه و سلطه و رئاسه و وجاهه و ثروه و عزه و أولاد و أعضاء فليس إلا سرابا هالكا و امنيه كاذبه و على هذا السبيل سائر الموجودات.

فليس عندها من الحقيقه إلا ما أفاض الله عليها بفضله و هي آياته الداله على صفاته الكريمه من رحمه و رزق و فضل و إحسان و غير ذلك.

فالحقيقه الثابته فى الواقع التى ليست هالكه باطله من الأشياء هى صفاته الكريمه و آياته الداله عليها و الجميع ثابتة بثبوت الذات المقدسه.

هذا على تقدير كون المراد بالهالك فى الآيه الهالك بالفعل و على هذا يكون محصل تعليل كلمه الإخلاص بقوله: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» أن الإله و هو المعبود بالحق إنما يكون إليها معبودا إذا كان أمرا ذا حقيقه واقعيه غير هالك و لا باطل له تدبير فى العالم بهذا النعت و كل شىء غيره تعالى هالك باطل فى نفسه إلا ما كان وجهها له منتسبا اليه فليس فى الوجود إله غيره سبحانه.

و الوثنيون و إن كانوا يرون وجود آلهتهم منسوبا اليه تعالى و من جهته إلا أنهم يجعلونها مستقلة فى التدبير مقطوعه النسبه فى ذلك عنه من دون أن يكون حكمها حكمه، و لذلك يعبدونها من دون الله، و لا استقلال لشيء فى شىء عنه تعالى فلا يستحق العباده إلا هو.

و هاهنا وجه آخر أدق منه بناء على أن المراد بالوجه ذات الشىء فقد ذكر بعضهم ذلك من معانى الوجه كما يقال: وجه النهار و وجه الطريق لنفسهما و إن أمكنت المناقشه فيه، و ذكر بعض آخر: أن المراد به الذات الشريفه كما يقال: وجوه الناس أى أشرافهم و هو من المجاز المرسل او الاستعاره و على كلا التقديرين فالمراد أن غيره تعالى من الموجودات ممكنه و الممكن و إن كان موجودا بإيجاده تعالى فهو معدوم بالنظر الى حد ذاته هالك فى نفسه و الذى لا سبيل للبطلان و الهلاك اليه هو ذاته الواجبه بذاتها.

و محصل التعليل على هذا المعنى: أن الإله المعبود بالحق يجب أن يكون ذاتا بيده شىء من تدبير العالم، و التدبير الكونى لا ينفك عن الخلق و الإيجاد فلا معنى لأن يوجد الحوادث شىء و يدبر أمرها شىء آخر—وقد أوضحناه مرارا فى هذا الكتاب—و لا يكون الخلق الموجد إلا

واجب الوجود و لا واجب إلا هو تعالى فلا إله إلا هو.

و قولهم: إنه تعالى أجل من أن يحيط به عقل او وهم فلا- يمكن التوجه العبادى اليه فلا بد أن يتوجه بالعباده الى بعض مقربى حضرته من الملائكه الكرام و غيرهم ليكونوا شفعاء عنده.

مدفوع بمنع توقف التوجه بالعباده على العلم الإحاطى بل يكفى فيه المعرفه بوجه و هو حاصل بالضروره.

و أما على تقدير كون المراد بالهلاك ما يستقبله الهلاك و الفناء بناء على ما قيل: إن اسم الفاعل ظاهر فى الاستقبال فظاهر الآيه أن كل شىء سيستقبله الهلاك بعد وجوده إلا وجهه.

نعم استقبال الهلاك يختلف باختلاف الأشياء فاستقباله فى الزمانيات انتهاء أمد وجودها و بطلانها بعده و فى غيرها كون وجودها محاطا بالفناء من كل جانب.

و هلاك الأشياء على هذا بطلان وجودها الابتدائى و خلؤ النشأ الاولى عنها بانتقالها الى النشأ الاخرى و رجوعها الى الله و استقرارها عنده، و أما البطلان المطلق بعد الوجود فصريح كتاب الله ينفيه فالآيات متتابعه فى أن كل شىء مرجعه الى الله و أنه المنتهى و اليه الرجعى و هو الذى يبدئ الخلق ثم يعيده.

فمحصل معنى الآيه- لو أريد بالوجه صفاته الكريمه- أن كل شىء سيخلى مكانه و يرجع اليه إلا صفاته الكريمه التى هى مبادئ فيضه فهى تفيض ثم تفيض الى ما لا نهايه له و الإله يجب أن يكون كذلك لا بطلان لذاته و لا انقطاع لصفاته الفيضيه و ليس شىء غيره تعالى بهذه الصفه فلا إله إلا هو.

و لو أريد بوجهه الذات المقدسه فالمحصل أن كل شىء سيستقبله الهلاك و الفناء بالرجوع الى الله سبحانه إلا ذاته الحقه الثابته التى لا- سبيل للبطلان إليها- و الصفات على هذا محسوبه من صقع الذات- و الإله يجب أن يكون بحيث لا يتطرق الفناء اليه و ليس شىء غيره بهذه الصفه فلا إله إلا هو.

قال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ (النحل ٩٦)، وقال: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ (آل عمران ١٩٨)، وقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (الأنعام ١٢٤)، ونظيرتهما خزائن الرحمة كما قال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ (الحجر ٢١)، وكذا اللوح المحفوظ كما قال: ﴿وَ عِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ (ق ٤).

و أما ما ذكروه من العرش فقد تقدم الكلام فيه في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ (الأعراف ٥٤).

و يمكن أن يراد بالوجه جهته تعالى التي تنسب إليه و هي الناحية التي يقصد منها و يتوجه إليه بها، و تؤيده كثره استعمال الوجه في كلامه تعالى بهذا المعنى كقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الأنعام ٥٢)، و قوله: ﴿إِلَّا اتَّبِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ (الليل ٢٠)، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة جدا.

و عليه فتكون عبارته عن كل ما ينسب إليه وحده فإن كان الكلام على ظاهر عمومته انطبق على الوجه الأول الذي أوردناه و يكون من مصاديقه أسماؤه و صفاته و أنبيأؤه و خلفأؤه و دينه الذي يؤتى منه.

و إن خصّ الوجه بالدين فحسب - كما وقع في بعض الروايات إن لم يكن من باب التطبيق - كان المراد بالهلاك الفساد و عدم الأثر، و كانت الجملة تعليلا لقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ و كان ما قبلها قرينه على أن المراد بالشىء الدين و الأعمال المتعلقة به و كان محصل المعنى: و لا تتدين بغير دين التوحيد لأن كل دين باطل لا أثر له إلا دينه.

و الأنسب على هذا أن يكون الحكم في ذيل الآية بمعنى الحكم التشريعى أو الأعم منه و من التكويني و المعنى: كل دين هالك إلا دينه لأن تشريع الدين إليه و إليه ترجعون لا إلى مشرعى

و قوله: لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ الحكم هو قضاءه النافذ في الأشياء و عليه يدور التدبير في نظام الكون، و أما كونه بمعنى فصل القضاء يوم القيامة فيبعده تقديم الحكم في الذكر على الرجوع اليه الذي هو يوم القيامة فإن فصل القضاء متفرع عليه.

و كلتا الجملتين مسوقتان للتعليل و كل واحده منهما وحدها حجه تامه على توحيدته تعالى بالالوهيه صالحه للتعليل كلمه الإخلاص، و قد تقدم إمكان أخذ الحكم على بعض الوجوه بمعنى الحكم التشريعي.

ص: ٧٢٥

(١ - ١). القصص ٨٥-٨٨: نظرات المفسرين في معنى وجه الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 (١) أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ
 قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَنْ
 كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَ مَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَ
 الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَ
 إِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مِمَّا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَ لَئِنْ جَاءَ
 نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ
 (١١) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَ لَنَحْمِلَ خَطَايَاكُمْ وَ مَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢)
 وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَ لَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)

يلوح من سياق آيات السوره و خاصه ما فى صدرها من الآيات أن بعضا ممن آمن بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم بمكه قبل الهجره رجع عنه خوفا من فتنه كانت تهدده من قبل المشركين فإن المشركين كانوا يدعونهم الى العود الى ملتهم و يضمنون لهم أن يحملوا خطاياهم إن اتبعوا سبيلهم فإن أبوا فتنوهم و عدّبوهم ليعيدوهم الى ملتهم.

يشير الى ذلك قوله تعالى: **وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَ لَنَحْمِلَ**

خَطَايَاكُمْ الْآيَةَ؛ وَقَوْلُهُ: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ الْآيَةَ.

و كأن فى هؤلاء الراجعين عن إيمانهم من كان رجوعه بمجاهده من والديه على أن يرجع و إلحاح منهما عليه فى الارتداد ك بعض أبناء المشركين على ما يستشم من قوله تعالى:

وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا الْآيَةَ؛ وَقَدْ نَزَلَتِ السُّورَةُ فِي شَأْنِ هَؤُلَاءِ.

فغرض السورة على ما يستفاد من بدئها و ختامها و السياق الجارى فيها أن الذى يريده الله سبحانه من الإيمان ليس هو مجرد قولهم: آمنا بالله بل هو حقيقه الإيمان التى لا تحركها عواصف الفتن و لا تغيرها غير الزمن و هى إنما تثبت و تستقر بتوارد الفتن و تراكم المحن، فالناس غير متروكين بمجرد أن يقولوا: آمنا بالله دون أن يفتنوا و يمتحنوا فيظهر ما فى نفوسهم من حقيقه الإيمان أو و صمه الكفر فليعلمن الله الذين صدقوا و يعلم الكاذبين.

فالفتنه و المحنه سنّه إلهيه لا معدل عنها تجرى فى الناس الحاضرين كما جرت فى الامم الماضين كقوم نوح و عاد و ثمود و قوم إبراهيم و لوط و شعيب و موسى فاستقام منهم من استقام و هلك منهم من هلك و ما ظلمهم الله و لكن كانوا أنفسهم يظلمون.

فعلى من يقول: آمنت بالله أن يصبر على إيمانه و يعبد الله وحده فإن تعذر عليه القيام بوظائف الدين فليهاجر الى أرض يستطيع فيها ذلك فأرض الله واسعة و لا يخف عسر المعاش فإن الرزق على الله و كآئن من دابه لا تحمل رزقها الله يرزقها و إياه.

و أما المشركون الذين يفتنون المؤمنين من غير جرم أجرموه إلا أن يقولوا ربنا الله فلا يحسبوا أنهم يعجزون الله و يسبقونه فأما فتنتهم للمؤمنين و إيذاؤهم و تعذيبهم فإنما هى فتنه لهم و للمؤمنين غير خارجه عن علم الله و تقديره، فهى فتنه و هى محفوظه عليهم إن شاء أخذهم بوبالها فى الدنيا و إن شاء أخرهم الى يوم يرجعون فيه اليه و ما لهم من محيص.

و أما ما لفقوه من الحجج و ركنوا اليه من باطل القول فهو داحض مردود اليهم و الحجج قائمه تامه عليهم.

فهذا محصل غرض السوره و مقتضى ذلك كون السوره كلها مكيهه، و قول القائل: إنها مدنيه كلها أو معظمها أو بعضها- و سيجيء في البحث الروائى التالى- غير سديد، فمضامين آيات السوره لا تلائم إلا زمن العسر و الشده قبل الهجره.

قوله تعالى: الم، أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ الْحَسْبَانَ هُوَ الظن، و جمله «أَنْ يُتْرَكُوا» قائمه مقام مفعوليه، و قوله: «أَنْ يَقُولُوا» بتقدير باء السببيه، و الفتنه الامتحان و ربما تطلق على المصيبه و العذاب، و الأوفق للسياق هو المعنى الأول، و الاستفهام للإنكار.

و لا- معنى: أظن الناس أن يتركوا فلا- يتعرض لحالهم و لا- يمتحنوا بما يظهر به صدقهم أو كذبهم فى دعوى الإيمان بمجرد قولهم: آمنا؟

قوله تعالى: وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ اللامان للقسم، و قوله: «وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» حال من الناس فى قوله: «أَحْسِبَ النَّاسُ» أو من ضمير الجمع فى قوله: «لَا يُفْتَنُونَ» و على الأول فالإنكار و التوبيخ متوجه الى ظنهم أنهم لا- يفتنون مع جريان السنه الإلهيه على الفتنه و الامتحان و على الثانى الى ظنهم الاختلاف فى فعله تعالى حيث يفتن قوما و لا يفتن آخرين، و لعل الوجه الأول أوفق للسياق.

فالظاهر أن المراد بقوله: «وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» أن الفتنه و الامتحان سنه جاريه لنا و قد جرت فى الذين من قبلهم و هى جاريه فيهم و لن تجد لسنه الله تبديلا.

و قوله: فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا الخ؛ تعليل لما قبله، و المراد بعلمه تعالى بالذين صدقوا بالكاذبين ظهور آثار صدقهم و كذبهم فى مقام العمل بسبب الفتنه و الامتحان

الملازم لثبوت الإيمان في قلوبهم حقيقه و عدم ثبوته فيها حقيقه فإن السعاده التي تترتب على الإيمان المدعو اليه و كذا الثواب إنما تترتب على حقيقه الإيمان الذي له آثار ظاهره من الصبر عند المكاره و الصبر على طاعه الله و الصبر على معصيه الله لا على دعوى الإيمان المجرده.

و يمكن أن يكون المراد بالعلم علمه تعالى الفعلى الذي هو نفس الأمر الخارجى فإن الامور الخارجيه بنفسها من مراتب علمه تعالى، و أما علمه تعالى الذاتى فلا يتوقف على الامتحان البته.

و المعنى: أحسبوا أن يتركوا و لا- يفتنوا بمجرد دعوى الإيمان و إظهاره و الحال أن الفتنه سنتنا و قد جرت فى الذين من قبلهم فمن الواجب أن يتميز الصادقون من الكاذبين بظهور آثار صدق هؤلاء و آثار كذب أولئك الملازم لاستقرار الإيمان فى قلوب هؤلاء و زوال صورته الكاذبه عن قلوب أولئك.

قوله تعالى: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» أم منقطعه، و المراد بقوله: «الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ» المشركون الذين كانوا يفتنون المؤمنين و يصدونهم عن سبيل الله كما أن المراد بالناس فى قوله: «أَمْ حَسِبَ النَّاسُ» هم الذين قالوا: آمنا و هم فى معرض الرجوع عن الإيمان خوفا من الفتنه و التعذيب.

و المراد بقوله: «أَنْ يَسْبِقُونَا» الغلبه و التعجيز بسبب فتنه المؤمنين و صدّهم عن سبيل الله - على ما يعطيه السياق.

و قوله: «سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ تَخَطُّهُ لظنهم أنهم يسبقون الله بما يمكرون من فتنه و صدّ فإن ذلك بعينه فتنه من الله لهم أنفسهم و صدّ لهم عن سبيل السعاده و لا يحق المكر السيئ إلا بأهله.

قوله تعالى: مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَ هُوَ السَّمِيعُ

فى تأكيد القول بتذييله بقوله: «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» إذ هو تعالى لما كان سميعاً لأقوالهم عليهما بأحوالهم فلا ينبغي أن يقول القائل: آمنت بالله إلا عن ظهر القلب ومع الصبر على كل فتنة و محنه.

ومن هنا يظهر أن ذيل الآية «فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ» الخ؛ من قبيل وضع السبب موضع المسبب كما كان صدرها «مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ» أيضا كذلك، والأصل من قال: آمنت بالله.

فليقله مستقيماً صابراً عليه مجاهداً فى ربه.

وقوله: «وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» المجاهد مبالغه من الجهد بمعنى بذل الطاقه، وفيه تنبيه لهم أن مجاهدتهم فى الله بلزوم الإيمان والصبر على المكاره دونه ليست مما يعود نفعه الى الله سبحانه حتى لا يهتمهم و يلغو بالنسبه اليهم أنفسهم بل إنما يعود نفعه اليهم أنفسهم لغناه تعالى على العالمين فعليهم أن يلزموا الإيمان و يصبروا على المكاره دونه.

فقوله: «وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ» تأكيد لحجه الآية السابقه، وقوله:

«إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» تعليل لما قبله.

وقوله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ» بيان لعاقبه إيمانهم حق الإيمان المقارن للجهد و يتبين به أن نفع إيمانهم يعود اليهم لا الى الله سبحانه و أنه عطيه من الله و فضل.

و على هذا فالآيه لا تخلو من دلالة ما على أن الجهد فى الله هو الإيمان و العمل الصالح فإنها فى معنى تبديل قوله فى الآية السابقه: «وَمَنْ جَاهَدَ» من قوله فى هذه الآية: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» .

و تكفير السيئات هو العفو عنها و الأصل فى معنى الكفر هو الستر، وقيل: تكفير السيئات هو تبديل كفرهم السابق إيماناً و معاصيهم السابقه طاعات، و ليس بذاك.

و جزاؤهم بأحسن الذين كانوا يعملون هو رفع درجاتهم الى ما يناسب أحسن أعمالهم أو عدم المناقشه فى أعمالهم عند الحساب إذا كانت فيها جهات رداءه و خسه فيعاملون فى كل واحد من أعمالهم معامله من أتى بأحسن عمل من نوعه فتحتسب صلاتهم أحسن الصلاة و إن اشتملت على بعض جهات الرداءه و هكذا.

قوله تعالى: وَصَيَّنَا الْإِنْسَانَ بِإِلَادِيهِ حُسِينًا وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا الخ؛ التوصيه العهد و هو هاهنا الأمر، و قوله: «حُسِينًا» مصدر فى معنى الوصف قائم مقام مفعول مطلق محذوف و التقدير: و صَيَّنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدِيهِ تَوْصِيَهُ حَسَنَهُ أَوْ ذَاتَ حَسَنٍ أَى أَمْرِنَاهُ أَنْ يَحْسِنَ إِلَيْهِمَا وَ هَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ: «وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسِينًا» أَى قَوْلًا حَسَنًا أَوْ ذَا حَسَنٍ، وَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ وَضَعُ الْمَصْدَرِ مَوْضِعَ الْوَصْفِ لِلْمَبَالِغَةِ نَحْوَ زَيْدٍ عَدْلٌ، وَ رَبَّمَا وَجَّهَ بِتَوْجِيهَاتٍ أُخْرَى.

و قوله: وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي الخ؛ تتميم للتوصيه بخطاب شفاهى للانسان بنهيه عن إطاعه والديه إن دعواه الى الشرك و الوجه فى ذلك أن التوصيه فى معنى الأمر فكأنه قيل: و قلنا للانسان أحسن الى والديك و إن جاهدك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما.

و لم يقل: و أن لا- يطيعهما إن جاهداه على أن يشرك الخ؛ لما فى الخطاب من الصراحه و ارتفاع الإبهام و لذلك قال أيضا: «لِتُشْرِكَ بِي» بضمير المتكلم وحده فافهمه و يثول معنى الجملة الى أننا نهيناه عن الشرك طاعه لهما و رفعنا عنه كل إبهام.

و فى قوله: مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إشاره الى عله النهى عن الطاعه فإن دعوتهما الى الشرك بعباده إله من دون الله دعوه الى الجهل و عباده ما ليس له به علم افتراء على الله و قد نهى الله عن اتباع غير العلم قال: وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ (الإسراء ٣٨)، و بهذه المناسبه ذيلها بقوله: «إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» أَى سَاعَلْمَكُم مَا مَعْنَى أَعْمَالِكُم

و منها عبادتكم الأصنام و شرككم بالله سبحانه.

و معنى الآية؛ و عهدنا الى الإنسان فى والديه عهدا حسنا- و أمرناه أن أحسن الى والديك- و إن بذلا جهدهما أن تشرك بى فلا تطعهما لأنه اتباع ما ليس لك به علم.

و فى الآية- كما تقدمت الإشارة اليه- توبيخ تعريضى لبعض ما كان قد آمن ثم رجع عن إيمانه بمجاهده من والديه.

قوله تعالى: **وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ** معنى الآية ظاهر، و فى وقوعها بعد الآية السابقة و فى سياقها، دلالة على وعد جميل منه تعالى و تطيب نفس لمن ابتلى من المؤمنين بوالدين مشركين يجاهدانه على الشرك فعصاهما و فارقهما، يقول سبحانه: إن جاهداه على الشرك فعصاهما و هجرهما ففاتاه لم يكن بذلك بأس فإننا سنرزقه خيرا منهما و ندخله بإيمانه و عمله الصالح فى الصالحين و هم العباد المنعمون فى الجنة، قال تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَ ادْخُلِي جَنَّتِي** (الفجر ٣٠).

قوله تعالى: **وَ مِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ**؛ لما كان إيمان هؤلاء مقيدا بالعافية و السلامه معيا بالإيذاء و الابتلاء لم يعده إيمانا بقول مطلق و لم يقل: و من الناس من يؤمن بالله بل قال:

«وَ مِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ» فالآية بوجه نظيره قوله: **وَ مِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ** (الحج ١١).

و قوله: **فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ** أى أودى لأجل الإيمان بالله بناء على أن فى للسببه كما قيل و فيه عناية كلاميه لطيفه بجعله تعالى- أى جعل الإيمان بالله- ظرفا للإيذاء و لمن يقع عليه الإيذاء ليفيد أن الإيذاء منتسب اليه تعالى انتساب المظروف الى ظرفه و ينطبق على معنى السببه و الغرضيه و نظيره قوله: **يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ** (الزمر/

(٥٦)، وقوله: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا (العنكبوت ٦٩).

وقوله: جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ أَي نزل العذاب والإيذاء الذى يصيبه من الناس فى وجوب التحرز منه منزله عذاب الله الذى يجب أن يتحرز منه فرجع عن الإيمان الى الشرك خوفا وجزعا من فتنهم مع أن عذابهم يسير منقطع الآخر بنجاه أو موت ولا يقاس ذلك بعذاب الله العظيم المؤبد الذى يستتبع الهلاك الدائم.

وقوله: وَلَئِنْ جَاءَ نَصِيرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَي لئن أتاكم من قبله تعالى ما فيه فرج و يسر لكم من بعد ما أنتم فيه من الشده و العسره من قبل أعداء الله ليقولن هؤلاء إنا كنا معكم فلنا منه نصيب.

و «لَيَقُولُنَّ» بضم اللام صيغه جمع، والضمير راجع الى «مِنَ» باعتبار المعنى كما أن ضمائر الأفراد الآخر راجعه إليها باعتبار اللفظ.

وقوله: أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ استفهام إنكارى فيه رد دعواهم أنهم مؤمنون بأن الله أعلم بما فى الصدور و لا تنطوى قلوب هؤلاء على إيمان.

و المراد بالعالمين الجماعات من الإنسان أو الجماعات المختلفه من أولى العقل إنسانا كان أو غيره كالجن و الملك، و لو كان المراد به جميع المخلوقات من ذوى الشعور و غيرهم كان المراد بالصدور البواطن و هو بعيد.

وقوله تعالى: وَ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ من تتمه الكلام فى الآيه السابقه و المحصل أن الله مع ذلك يميز بين المؤمنين و المنافقين بالفتنه و الامتحان.

و فى الآيه إشاره الى كون هؤلاء منافقين و ذلك لكون إيمانهم مقيدا بعدم الفتنه و هم يظهرونه مطلقا غير مقيد و الفتنه سنه إلهيه جاريه لا معدل عنها.

و أما قوله تعالى: «وَمَنْ جَاهَدَ» الخ؛ فقد اتضح مما تقدم أن المراد به جهاد النفس دون

مقاتله الكفار فالحق أن لا دلاله فى شىء من الآيات على كون السوره أو بعضها مدنيه.

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ المراد بالذين كفروا مشركوا مكه الذين أبدوا الكفر أول مره بالدعوه الحقه، وبالذين آمنوا المؤمنون بها أول مره و قولهم لهم: «اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ» نوع استماله لهم و تطيب لنفوسهم أن لو رجعوا الى الشرك و اتبعوا سبيلهم لم تكن عليهم تبعه على أى حال: إذ لو لم تكن فى ذلك خطيئه فهو، و إن كانت فهم حاملون لها عنهم، و لذلك لم يقولوا: و لنحمل خطاياكم لو كانت بل أطلقوا القول من غير تقييد.

فكأنهم قالوا: لنفرض أن اتباعكم لسبيلنا خطيئه فإننا نحملها عنكم و نحمل كل ما يتفرع عليه من الخطايا أو إنا نحمل عنكم خطاياكم عامه و من جملتها هذه الخطيئه.

و قوله: وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ رد لقولهم: و لنحمل خطاياكم و هو رد محفوف بحجه إذ لو كان اتباعهم لسبيلهم و رجوعهم عن الإيمان بالله خطيئه كان خطيئه عند الله لا حقه بالراجعين و انتقالها عن عهدتهم الى غيرهم يحتاج الى إذن من الله و رضى فهو الذى يؤاخذهم به و يجازيهم و هو سبحانه يصرح و يقول: «مَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ» و قد عمم النفى لكل شىء من خطاياهم.

و قوله: إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ تكذيب لهم لما أن قولهم: «و لنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ» يشتمل على دعوى ضمنى أن خطاياهم تنتقل اليهم لو احتملوا و أن الله يجيز لهم ذلك.

قوله تعالى: وَ لِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَ لِيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ من تمام القول السابق فى ردهم و هو فى محل الاستدراك اى إنهم لا- يحملون خطاياهم بعينها فهى لا زمه لفاعليها لكنهم حاملون أثقالا و أحمالا من الأوزار مثل أوزار فاعليها من غير أن ينقص من فاعليها فيحملونها مضافا الى أثقال أنفسهم و أحمالها لما أنهم

فَالآيَةَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ (النحل ٢٥).

و قوله: «وَ لِيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ» فشرکہم افتراء على الله سبحانه و كذا دعواہم القدره على إنجاز ما وعدوه و أن الله يجيز لهم ذلك (١).

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ١٤ الى ٤٠]

إشارة

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سِنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَ هُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَ أَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَ جَعَلْنَاهُمْ آيَةً لِلْعَالَمِينَ (١٥) وَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أُعْبِدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَ تَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَاتَّبِعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرَّزْقَ وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَ إِنْ تَكْذِبُوا فَتَمْدِ كَذِبَ أُمَّمٍ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨) أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (٢٢) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ لقَائِهِ أُولَئِكَ يَسْتَوُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) فَكُلُوا مِنْ حُوبِ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَ قَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَ مَا أُولَئِكَ إِلَّا فِي النَّارِ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٥) فَامَنْ لَهُ لُوطٌ وَ قَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَ هَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ جَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتَابَ وَ آتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) وَ لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَفَعَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَ لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَ لَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَ ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَ قَالُوا لَا تَخَفْ وَ لَا تَحْزَنْ إِذَا مُنْجُوكَ وَ أَهْلَمَكَ إِلَّا امْرَأَتُكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِذَا مُنْزَلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَ لَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيْنَهُمْ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥) وَ إِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ ارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ لَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧) وَ عَادًا وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاجِدِهِمْ وَ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّدَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَ فَارُوقَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَ مَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكَلَّمْنَا بَدَنِيهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)

١-١). العنكبوت ١-١٣: بحث روائي حول الآية «أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا» الفتنه؛ لقاء الله.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ**، في المجمع: الطوفان الماء الكثير الغامر لأنه يطوف بكثرتة في نواحي الأرض، انتهى. وقيل: هو كل ما يطوف بالشئ على كثره و شدة من السيل و الريح و الظلام و الغالب استعماله في طوفان الماء.

و التعبير بألف سنه إلا خمسين عاما دون أن يقال: تسعمائه و خمسين سنه للتكثير و الآية ظاهره في أن الألف إلا خمسين مده دعوه نوح عليه السلام ما بين بعثته الى أخذ الطوفان فيغاير ما في التوراه الحاضره أنها مده عمره عليه السلام و قد تقدمت الإشاره الى ذلك في قصصه عليه السلام في تفسير سوره هود، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: **فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ** أى فانجينا نوحا و أصحاب السفينه الراكبين معه فيها و هم أهله و عده قليله من المؤمنين به و لم يكونوا ظالمين.

و قوله: **وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ** الظاهر أن الضمير للواقعه أو للنجاه و أما رجوعه الى السفينه فلا- يخلو من بعد، و العالمين الجماعات الكثيره المختلفه من الأجيال

اللاحقه بهم.

قوله تعالى: وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ معطوف على قوله: «تُوحًا» أى و أرسلنا إبراهيم الى قومه.

و قوله لقومه: اُعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ دعوه الى التوحيد و إنذار بقريته الآيات التاليه فتفيد الجملة فائده الحصر.

على أن الوثنيه لا يعبدون الله سبحانه و إنما يعبدون غيره زعما منهم أنه تعالى لا يمكن أن يعبد إلا من طريق الأسباب الفعاله فى العالم المقربه عنده كالملائكه و الجن و لو عبد لكان معبودا وحده من غير شريك فدعوتهم الى عباده الله بقوله: «اعْبُدُوا اللَّهَ» تفيد الدعوه اليه وحده و إن لم تقيد بأداه الحصر.

قوله تعالى: إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَ تَخْلُقُونَ إِفْكًا الى آخر الآيه؛ الأوثان جمع وثن بفتحتين و هو الضم، و الإفك الأمر المصروف عن وجهه قولاً أو فعلاً.

و قوله: «إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا» بيان لبطلان عباده الأوثان و يظهر به كون عباده الله هى العباده الحقه و بالجملة انحصار العباده الحقه فيه تعالى «أَوْثَانًا» منكر للدلاله على وهن أمرها و كون ألوهيتها دعوى مجرّده لا حقيقه وراءها، أى لا تعبدون من دون الله إلا أوثاناً من أمرها كذا و كذا.

و لذا عقب الجملة بقوله: «وَ تَخْلُقُونَ إِفْكًا» أى و تفتعلون كذباً بتسميتها آلهه و عبادتها بعد ذلك فهناك إله تجب عبادته لكنه هو الله الواحد دون الأوثان.

و قوله: إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا تعليل لما ذكر من افتعالهم الكذب بتسميه الأوثان آلهه و عبادتها و محصّيه أنه هؤلاء الذين تعبدون من دون الله و هم الأوثان بما هم تماثيل المقرّبين من الملائكه و الجن إنما تعبدونهم لجلب النفع و هو

ص: ٧٤١

أن يرضوا عنكم فيرزقوكم و يدزوا عليكم الرزق لكنهم ليسوا يملكون لكم رزقا فإن الله هو الذى يملك رزقكم الذى هو السبب الممدد لبقائكم لأنه الذى خلقكم و خلق رزقكم فجعله ممدا لبقائكم و الملك تابع للخلق و الإيجاد.

□
و لذلك عقبه بقوله: «فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ» أى فاطلبوا الرزق من عند الله لأنه هو الذى يملكه فلا تعبدوهم بل اعبدوا الله و اشكروا له على ما رزقكم و أنعم عليكم بألوان النعم فمن الواجب شكر المنعم على ما أنعم.

و قوله: إِيَّاهُ تَرْجِعُونَ فى مقام التعليل لقوله: «وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ» و لذا جىء بالفصل من غير عطف، و فى هذا التعليل صرفهم عن عبادة الإله ابتغاء للرزق الى عبادته للرجوع و الحساب إذ لو لا المعاد لم يكن لعباده الإله سبب محصل لأن الرزق و ما يجرى مجراه له أسباب خاصه كونه غير العبادات و القربات و لا- يزيد و لا- ينقص بإيمان أو كفر لكن سعادته يوم الحساب تختلف بالإيمان و الكفر و العبادة و الشكر و خلافهما فليكن الرجوع الى الله هو الباعث الى العبادة و الشكر دون ابتغاء الرزق.

قوله تعالى: «وَ إِن تَكْفُرُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ أُمَّةً مِّن قَبْلِكُمْ وَ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ الظاهر أنه من تمام كلام إبراهيم عليه السلام، و ذكر بعضهم أنه خطاب منه تعالى لمشركى قريش و لا يخلو من بعد.

و معنى الشرط و الجزاء فى صدر الآيه أن التكذيب هو المتوقع منكم لأنه كالتسنة الجارية فى الامم المشركه و قد كذب من قبلكم و أنتم منهم و فى آخرهم و ليس على بما أنا رسول إلا البلاغ المبين.

و يمكن أن يكون المراد أن حالكم فى تكذيبكم كحال الامم من قبلكم لم ينفعهم تكذيبهم شيئا حل بهم عذاب الله و لم يكونوا بمعجزين فى الأرض و لا- فى السماء و لم يكن لهم من دون الله من ولى و لا- نصير، فكذلكم أنتم، و قوله: «وَ عَلَى الرَّسُولِ» يناسب الوجهين جميعا.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ هذه الآية الى تمام خمس آيات من كلامه تعالى واقعه فى خلال القصة تقيم الحجة على المعاد و ترفع استبعادهم له متعلقه بما تقدم من حيث إن العمدة فى تكذيبهم الرسل إنكارهم للمعاد كما يشير اليه قول إبراهيم «إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَإِنْ تَكْذَبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ» .

فقوله: أَوْ لَمْ يَرَوْا الخ؛ الضمير فيه للمكذبين من جميع الامم من سابق و لا- حق و المراد بالرؤية النظر العلمى دون الرؤية البصريه، و قوله: «كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» فى موضع المفعول لقوله: «يروا» بعطف «يُعِيدُهُ» على موضع «يُبْدِئُ» خلافا لمن يرى عطفه على «أَوْ لَمْ يَرَوْا» و الاستفهام للتوبيخ.

و المعنى: أو لم يعلموا كيفية الإبداء ثم الإعادة أى إنهما من سنخ واحد هو إنشاء ما لم يكن، و قوله: «إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» الإشارة فيه الى الإعادة بعد الإبداء و فيه رفع الاستبعاد لأنه إنشاء بعد إنشاء و إذ كانت القدره المطلقة تتعلق بالإيجاد فهى جائزه تتعلق بالإنشاء بعد الإنشاء و هى فى الحقيقه نقل للخلق من دار الى دار و إنزال للسائرين اليه فى دار القرار.

قوله تعالى: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ يَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الآية الى تمام ثلاث آيات أمر النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يخاطبهم بما يتم به الحجة عليهم فيرشدهم الى السير فى الأرض لينظروا الى كيفية بدء الخلق و إنشائهم على اختلاف طبائعهم و تفاوت ألوانهم و أشكالهم من غير مثال سابق و حصر أو تحديد فى عدتهم و عدتهم ففيه دلالة على عدم التحديد فى القدره الإلهيه فهو ينشئ النشأه الآخره كما أنشأ النشأه الاولى فالآيه فى معنى قوله: وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (الواقعه ٦٢).

قوله تعالى: يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ من مقول

القول، والظاهر أنه بيان لقوله: «يُنشئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ» و قلب الشيء تحويله عن وجهه أو حاله كجعل أسفله أعلاه و جعل باطنه ظاهره و هذا المعنى الأخير يناسب قوله تعالى: يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (الطارق ٩).

و فسروا القلب بالرد قال فى المجمع: و القلب هو الرجوع و الرد فمعناه أنكم تردون الى حال الحياه فى الآخرة حيث لا يملك فيه النفع و الضر إلا- الله. انتهى و هذا معنى لطيف يفسر به معنى الرجوع الى الله و الرد اليه و هو وقوفهم متوقفا تنقطع فيه عنهم الأسباب و لا- يحكم فيه إلا- الله سبحانه فالآيه فى معنى قوله: وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَآ كَانُوا يَفْتَرُونَ (يونس ٣٠).

و محصل المعنى: أن النشأ الآخرة هى نشأ يعذب الله فيها من يشاء و هم المجرمون و يرحم من يشاء و هم غيرهم و اليه تردون فلا يحكم فيكم غيره.

قوله تعالى: وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ من مقول القول و توصيف لشأنهم يوم القيامة كما أن الآيه السابقه توصيف لشأنه تعالى يومئذ.

فقوله: وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ أى إنكم لا- تقدرتون أن تعجزوه تعالى يومئذ بالفوت منه و الخروج من حكمه و سلطانه بالفرار و الخروج من ملكه و النفوذ من أقطار الأرض و السماء، فالآيه تجرى مجرى قوله: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فَانْفُذُوا (الرحمن ٣٣).

و قوله: وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ أى ليس لكم اليوم ولى من دون الله يتولى أمركم فيغنيكم من الله و لا نصير ينصركم فيقوى جانبكم و يتمم ناقص قوتكم فيظهركم عليه سبحانه.

فالآيه- كما ترى- تنفى ظهورهم على الله و تعجزهم له بالخروج و الامتناع عن حكمه

بأقسامه فلا هم يستقلون بذلك و هو قوله: «وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» الخ؛ و لا غيرهم يستقل بذلك و هو قوله: «وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ» و لا المجموع منهم و من غيرهم يعجزه تعالى و هو قوله: «وَلَا نَصِيرٌ» .

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ لِقَائِهِ أَُولَئِكَ يَسُؤُوا مِنْ رَحْمَتِي وَ أَُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» خطاب مصروف الى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم خارج من مقول القول السابق «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ» الخ؛ و المطلوب فيه أن ينبئه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم صريح الحق فيمن يشقى و يهلك يوم القيامة فإنه أبهم ذلك في قوله أولا: «يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ» .

و من الدليل عليه الخطاب في «أُولَئِكَ» مرتين و لو كان من كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم لقليل:

«اولئكم».

و يؤيد ذلك أيضا قوله: «مِنْ رَحْمَتِي» فإن الانتقال من مثل قولنا: اولئك يسؤوا من رحمه الله أو من رحمته بسياق الغيبة على ما يقتضيه المقام الى قوله: «أُولَئِكَ يَسُؤُوا مِنْ رَحْمَتِي» يفيد التصديق و الاعتراف مضافا الى أصل الإخبار فيفيد صريح التعيين لأهل العذاب، و يؤيد ذلك أيضا تكرار الاشارة و ما في السياق من التأكيد.

و كان في تخصيص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم بهذا الاخبار تقويه لنفسه الشريفه و عزلا لهم عن صلاحه السمع لمثله و هم لا يؤمنون.

و المراد بآيات الله-على ما يفيد إطلاق اللفظ-جميع الأدلة الداله على الوحدانيه و النبوه و المعاد من الآيات الكونيه و المعجزات النبويه و منها القرآن فالكفر بآيات الله يشمل بعمومه الكفر بالمعاد فذكر الكفر باللقاء و هو المعاد بعد الكفر بالآيات من ذكر الخاص بعد العام و الوجه فيه الاشارة الى أهميه الايمان بالمعاد إذ مع إنكار المعاد يلغو أمر الدين الحق من أصله و هو ظاهر.

و المراد بالرحمه ما يقابل العذاب و يلازم الجنه و قد تكرر في كلامه تعالى إطلاق الرحمه

عليها بالملازمه كقوله: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ (الجاثية ٣٠)، وقوله: يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (الانسان ٣١).

و المراد بإسناد اليأس اليهم إما تلبسهم به حقيقه فإنهم لجحدهم الحياه الآخره آيسون من السعاده المؤبده و الجنه الخالده و إما إنه كناية عن قضائه تعالى المحتوم أن الجنه لا يدخلها كافر.

و المعنى: و الذين جحدوا آيات الله الداله على الدين الحق و خاصه المعاد اولئك يئسوا من الرحمه و الجنه و اولئك لهم عذاب أليم.

قوله تعالى: فَمَا كَانَ حَؤَابٍ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ الخ؛ تفریع على قوله فى صدر القصة: وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ .

و ظاهر قوله: قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ أن كلا من طرفى الترديد قول طائفه منهم و المراد بالقتل القتل بالسيف و نحوه فهو قولهم أول ما ائتمروا ليجازوه و إن اتفقوا بعد ذلك على إحراقه كما قال: قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ (الأنبياء ٦٨)، و يمكن أن يكون الترديد من الجميع لترددهم فى أمره أولا ثم اتفقهم على إحراقه.

و قوله: فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ فيه حذف و إيجاز و تقديره ثم اتفقوا على إحراقه فأضرموا نارا فألقوه فيها فأنجاه الله منها، و قد فصلت القصة فى مواضع من كلامه تعالى.

قوله تعالى: وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الى آخر الآيه إذ كان لا حجه عقليه لهم على اتخاذ الأوثان لم يبق لهم مما يستنون به إلا الاستنان بسنه من يعظمونه و يحترمون جانبه كالآباء للأبناء و الرؤساء المعظمين لأتباعهم و الأصدقاء لأصدقائهم و بالأخره الامه لأفرادها فهذا السبب الرابط هو

عمده ما يحفظ السنن القوميہ معمولاً بها قائمه على ساقها.

فالاستنان بسنه الوثنيه بالحقيقه من آثار المودات الاجتماعيه يرى العامه ذلك بعضهم من بعض فتبعته الموده القوميہ على تقليده و الاستنان به مثله ثم هذا الاستنان نفسه يحفظ الموده القوميہ و يقيم الاتحاد و الاتفاق على ساقه.

هذه حال العامه منهم و أما الخاصه فربما ركنوا في ذلك الى ما يحسبونه حجه و ما هو بحجه كقولهم: إن الله سبحانه أجل من أن يحيط به حس أو وهم أو عقل فلا- يتعلق به توجهنا العبادي فمن الواجب أن نتقرب الى بعض من له به عنايه كالملائكه و الجن ليقربونا اليه زلفى و يشفعوا لنا عنده.

فقوله: إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خطاب منه عليه السلام لعامه قومه في أمر اتخاذهم الأوثان للموده القوميہ ليصلحوا به شأن حياتهم الدنيا الاجتماعيه، و قد أجابوه بذلك حيث سألهم عن شأنهم إذ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ، قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (الأنبياء ٥٣)، قَالَ هِيَ لِيَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (الشعراء ٧٤).

ثم عقب عليه السلام بقوله: «إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ» الخ؛ بقوله: «ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا» يبين لهم عاقبه اتخاذهم الأوثان للموده و هو باطن هذه الموده المقصوده التي سيظهر يوم تبلى السرائر فإنهم توسلوا الى هذا المتاع القليل بالشرك الذي هو أعظم الظلم و أكبر الكبائر الموبقه و اجتمعوا عليه و توافقوا لكنهم سيبدو لهم حقيقه عملهم و يلحق بهم وباله فيتبرأ بعضهم من بعض و ينكره بعضهم على بعض.

و المراد بكفر بعضهم ببعض كفر آلهتهم بهم و تبريهم منهم، كما قال تعالى: سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادِنَا إِذْ يَبْغُؤْنَ عَلَيْهِمْ ضِرًّا (مريم ٨٢)، و قال: وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ

(فاطر ١٤/)، و في معناه: تبرى المتبوعين من تابعيهم، كما قال تعالى: إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوْا الْعَذَابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (البقره ١٦٦/)، و المراد بلعن بعضهم بعضا لعن كل بعض صاحبه، قال تعالى: كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا (الأعراف/ ٣٨).

ثم عقب ذلك بقوله: «وَ مَاؤَاكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ» إشاره الى لحوق الوبال و وقوع الجزاء و هو النار التي فيها الهلاك المؤبد و لا ناصر ينصرهم و يدفع عنهم العذاب فهم إنما توسلوا الى الموده ليتناصروا و يتعاونوا و يتعاضدوا في الحياه لكنها عادت يوم القيامة معاداه و مضاده و أورثت تبريا و خذلانا.

قوله تعالى: فَمَا مَنَ لَهُ لُوطٌ وَ قَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أَي آمن به لوط و الإيمان يتعدى باللام كما يتعدى بالباء و المعنى واحد.

و قوله: وَ قَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي قِيلَ الضمير راجع الى لوط، و قيل: راجع الى إبراهيم و يؤيده قوله تعالى حكاية عن إبراهيم: وَ قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (الصافات ٩٩/).

و كان المراد بالمهاجره الى الله هجره وطنه و خروجه من بين قومه المشركين الى أرض لا يعترضه فيها المشركون و لا يمنعونه من عباده ربه فعَدَّ المهاجره مهاجره الى الله من المجاز العقلي.

و قوله: إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ أَي عزيز لا يذل من نصره حكيم لا يضيع من حفظه.

قوله تعالى: وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ جَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتَابَ معناه ظاهر.

قوله تعالى: وَ آتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ الأجر هو الجزاء الذي يقابل العمل و يعود الى عامله و الفرق بينه و بين الاجره أن الاجره

تختص بالجزاء الدنيوى والأجر يعم الدنيا والآخرة، والفرق بينه وبين الجزاء أن الأجر لا يقال إلا فى الخير والنافع، والجزاء يعم الخير والشر والنافع والضار.

والغالب فى كلامه تعالى استعمال لفظ الأجر فى جزاء العمل العبودى الذى أعدّه الله سبحانه لعباده المؤمنين فى الآخرة من مقامات القرب و درجات الولايه و منها الجنة، نعم وقع فى قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (يوسف ٩٠)، وقوله: وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (يوسف ٥٦) إطلاق الأجر على الجزاء الدنيوى الحسن.

فقوله: وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا يمكن أن يكون المراد به إيتاء الأجر الدنيوى الحسن و الأنسب على هذا أن يكون «فى الدنيا» متعلقا بالأجر لا بالإيتاء وربما تأيد هذا المعنى بقوله تعالى فيه عليه السلام فى موضع آخر: وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (النحل ١٢٢)، فإن الظاهر أن المراد بالحسنه الحياه الحسنه أو العيشه الحسنه و إيتاؤها فعليه إعطائها دون تقديرها و كتابتها.

و يمكن أن يكون المراد به تقديم ما أعد لعامة المؤمنين فى الآخرة من مقامات القرب فى حقه عليه السلام و إيتائه ذلك فى الدنيا و قد تقدم إحصاء ما يذكره القرآن الكريم من مقاماته عليه السلام فى قصصه من تفسير سورة الأنعام.

وقوله: وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ تقدم الكلام فيه فى تفسير قوله تعالى: وَ لَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (البقره ١٣٠) فى الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: وَ لَوْ طَأَّ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ أَى و أرسلنا لوطا أو و اذكر لوطا إذ قال لقومه، وقوله: «إِنَّكُمْ لَأْتُونَ

أَلْفَاحِشَه» إخبار بداعى الاستعجاب و الإنكار، و المراد بالفاحشه إتيان الذكران.

و قوله: مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ استئناف يوضح معنى الفاحشه و يؤكد، و كأن المراد أن هذا العمل لم يشع فى قوم قبلهم هذا الشيوع أو الجملة حال من فاعل «لَتَأْتُونَ» .

قوله تعالى: أَلَا إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ الى آخر الآيه؛ استفهام من أمر من الحرى أن لا يصدقه سامع و لا يقبله ذو لب و لذا أكد بالنون و اللام، و هذا السياق يشهد أن المراد بإتيان الرجل اللواط و بقطع السبيل إهمال طريق التناسل و إلغاؤها و هى إتيان النساء، فقطع السبيل كناية عن الإعراض عن النساء و ترك نكاحهن، و بإتيانهم المنكر فى ناديتهم -و النادى هو المجلس الذى يجتمعون فيه و لا يسمى ناديا إلا إذا كان فيه أهله- الإتيان بالفحشاء أو بمقدماتها الشنيعة بمراى من الجماعه.

و قوله: فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ استهزاء و سخرية منهم، و يظهر من جوابهم أنه كان ينذرهم بعذاب الله و قد قال الله فى قصته فى موضع آخر: وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتْنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (القمر ٣٦).

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ سؤال للفتح و دعاء منه عليهم، و قد عدّهم مفسدين لعملهم الذى يفسد الأرض و يقطع النسل و يهدد الإنسانيه بالفناء.

قوله تعالى: وَ لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ إجمال قصه هلاك قوم لوط، و قد كان ذلك برسل من الملائكه أرسلهم الله أولا الى إبراهيم عليه السّلام فبشّروه و بشّروا امرأته ياسحاق و يعقوب ثم أخبروه بأنهم مرسلون لإهلاك قوم لوط، و القصه مفصّله فى سوره هود و غيرها.

وقوله: **قَالُوا إِذَا مَهْلِكُوا أَهْلَ لِهَذِهِ الْقَرْيَةِ أَى قَالُوا لِإِبْرَاهِيمَ، وَ فَى الْإِنْتِيَانِ بَلْفِظِ الْإِشَارَهِ الْقَرْيَه-هَذَه الْقَرْيَه-دَلَالَه عَلَى قَرْيَهَا مِنْ الْأَرْضِ الَّتَى كَانِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَازِلَا بِهَا، وَ هى الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَه.**

وقوله: **إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ** تعليل لإهلا-كهم بأنهم ظالمون قد استقرت فيهم رذيله الظلم، وقد كان مقتضى الظاهر أن يقال: إنهم كانوا ظالمين فوضع المظهر موضع المضمرة للإشارة إلى أن ظلمهم ظلم خاص بهم يستوجب الهلاك وليس من مطلق الظلم الذى كان الناس مبتلين به يومئذ كأنه قيل: إن أهلها بما أنهم أهلها ظالمون.

قوله تعالى: **قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ** ظاهر السياق أنه عليه السلام كان يريد بقوله: **«إِنَّ فِيهَا لُوطًا»** أن يصرف العذاب أن فيها لوطا وإهلاك أهلها يشمله فأجابوه بأنهم لا يخفى عليهم ذلك بل معه غيره ممن لا يشمله العذاب وهم أهله إلا امرأته.

لكنه عليه السلام لم يكن ليجهل أن الله سبحانه لا يعذب لوطا وهو نبي مرسل، وإن شمل العذاب جميع من سواه من أهل قريته ولا أنه يخوفه ويزعزه ويفزعه بقهره عليهم بل كان عليه السلام يريد بقوله: **«إِنَّ فِيهَا لُوطًا»** أن يصرف العذاب عن أهل القريه كرامه للوط أن يدفعه عن لوط، فاجيب بأنهم مأمورون بإنجائه وإخراجه من بين أهل القريه ومعهم أهله إلا-امرأته كانت من الغابرين.

و الدليل على هذا الذى ذكرنا قوله تعالى فى سورة هود فى هذا الموضع من القصه: **فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَ جَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ، يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيَهُمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (هود ٧٦)،** فالآيات أظهر ما يكون فى أن إبراهيم عليه السلام كان يدافع عن قوم لوط لا عن لوط نفسه.

فظاهر كلامه عليه السلام فى الآيه التى نحن فيها الدفاع عن لوط وعلى ذلك جراه الرسل فأبقوا

كلامه على ظاهره و أجابوا بأنهم ما كانوا ليجهلوا ذلك فهم أعلم بمن فيها و عالمون بأن فيها لوطا و معه أهله ممن لا ينبغي أن يعذب لكنهم سينجونه و أهله إلا امرأته، لكن الذى أراد إبراهيم عليه السلام بكلامه دفع العذاب عن أهل القرية فاجيب بأنه من الأمر المحتوم على ما تشير اليه آيات سورة هود.

و للقوم فى قوله: «إِنَّ أَهْلَهُمَا كَانُوا ظَالِمِينَ» و قوله: «قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا» مشاجرات طويله أعرضنا عن التعرض لها لعدم الجدوى، و من أراد الوقوف عليها فليراجع المطولات.

قوله تعالى: «وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ ضمير الجمع فى «سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ» للرسول و الباء للسببيه أى أخذته المساءه و هى سوء الحال بسببهم و ضاقت طاقتهم بسببهم لكونهم فى صور شبان حسان مرد يخاف عليهم من القوم ثم قصد القوم إيهم بالسوء و ضعف لوط من أن يدفعهم عنهم و هم ضيف له نازلون بداره.

و قوله: «وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ أَى لا- خطر محتملا- يهددك و لا- مقطوعا يقع عليك فإن الخوف إنما هو فى المكروه الممكن و الحزن فى المكروه الواقع.

و قوله: «إِنَّا مُنْجُوكَ وَ أَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ أَى الباقين فى العذاب تعليل لئفى الخوف و الحزن.

قوله تعالى: «إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ بيان لما يشير اليه قوله: «إِنَّا مُنْجُوكَ وَ أَهْلَكَ» من العذاب، و الرجز العذاب.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ضمير التأنيث للقرية و الترك الإبقاء أى أبقينا من القرية علامه واضح لقوم يعقلون ليعتبروا بها فيتقوا الله و هى الآثار الباقية منها بعد خرابها بنزول العذاب.

و هى اليوم مجهوله المحل لا أثر منها و ربما يقال: إن الماء غمرها بعد و هى بحر لوط، لكن

الآية ظاهره- كما ترى- أنها كانت ظاهره معروفه فى زمن نزول القرآن و أوضح منها قوله تعالى: **وَإِنَّهَا لِبِسْبِيلٍ مُّقِيمٍ** (الحجر ٧٦)، و قوله: **وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَ بِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ** (الصفات ١٣٨).

قوله تعالى: **وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ ارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ لَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** يدعوهم الى عباده الله و هو التوحيد و الى رجاء اليوم الآخر و هو الاعتقاد بالمعاد و أن لا يفسدوا فى الأرض و كانت عمدته إفسادهم فيها- على ما ذكر فى قصتهم فى مواضع آخر- نقص الميزان و المكيال.

قوله تعالى: **فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ** الرجفه الاضطراب الشديد على ما ذكره الراغب، و الجثم و الجثوم فى المكان القعود فيه أو البروك على الأرض و هو كناية عن الموت و المعنى: فكذبوا شعيبا فأخذهم الاضطراب الشديد أو الزلزله الشديده فأصبحوا فى دارهم ميتين لا حراك بهم.

و قال فى قصتهم فى موضع آخر: **وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ** (هود ٩٤). و يستظهر من ذلك أنهم أهلكوا بالصيحه و الرجفه.

قوله تعالى: **وَ عَادًا وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ غَيْرِ السِّيَاقِ تَفَنَّنَا فَبَدَأَ بِذِكْرِ عَادَ وَ ثَمُودَ وَ كَذَا فِي الْآيَةِ** التاليه بدأ بذكر قارون و فرعون و هامان بخلاف قصص الامم المذكورين سابقا حيث بدأ بذكر أنبيائهم كنوح و إبراهيم و لوط و شعيب.

و قوله: **«وَ عَادًا وَ ثَمُودَ»** منصوبان بفعل مقدر تقديره و اذكر عادا و ثمود.

و قوله: **وَ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ** تزيين الشيطان لهم أعمالهم كناية استعاريه عن تحبيب أعمالهم السيئه اليهم و تأكيد تعلقهم بها و صده إياهم عن السبيل صرفهم عن سبيل الله التى هى سبيل الفطره، و لذا قال بعضهم: إن المراد بكونهم مستبصرين أنهم كانوا قبل ذلك على الفطره

لكن الظاهر كما تقدم فى تفسير قوله: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ (البقره ٢١٣/٢) أن عهد الفطره الساذجه كان قبل بعثه نوح عليه السلام و عاد و ثمود كانوا بعد نوح فكونهم مستبصرين قبل انصدادهم عن السبيل عن كونهم يعيشون على عباده الله و دين التوحيد و هو دين الفطره.

قوله تعالى: وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ السبق استعاره كناية من الغلبه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ أى كل واحده من الامم المذكورين أخذناها بذنبيها ثم أخذ فى التفصيل فقال: «فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا» و الحاصب الحجاره و قيل:الريح التى ترمى بالحصا و على الأول فهم قوم لوط، و على الثانى قوم عاد «وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ» و هم قوم ثمود و قوم شعيب «وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ» و هو قارون «وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا» و هم قوم نوح و فرعون و هامان و قومهما.

ثم عاد سبحانه الى كافه القصص المذكوره و ما انتهى اليه أمر تلك الامم من الأخذ و العذاب فبين بيان عام أن الذى أوقعهم فيما وقعوا لم يكن بظلم منه سبحانه بل بظلم منهم لأنفسهم فقال: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» أى فيجازيهم الله على ظلمهم لأن الدار دار الفتنه و الامتحان و هى السنه الالهيه التى لا معدل عنها فمن أهتدى فقد اهتدى لنفسه و من ضلّ فعليها (١).

مَثَلِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِئْتًا وَإِنْ أُوْهِنَ الْبُيُوتِ لَبِثُتِ الْعَنْكَبُوتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) أُنزِلَ مِنْ أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩) وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ لَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَعْثُهُمْ وَأَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَعْسُوهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥)

قوله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعُنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ العنكبوت معروف و يطلق على الواحد و الجمع و يذكر

و يؤنث.

العنايه فى قوله: «مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا» الخ؛ باتخاذ الأولياء من دون الله و لذا جىء بالموصول و الصله كما أن العنايه فى قوله: «كَمَثَلِ الْعُنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا» الى اتخاذها البيت فيثول المعنى أن صفه المشركين فى اتخاذهم من دون الله أولياء كصفه العنكبوت فى اتخاذها بيتا له نبأ، و هو الوصف الذى يدل عليه تنكير «بَيْتًا» .

و يكون قوله: «وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعُنكَبُوتِ بَيَانًا لصفه البيت الذى أخذته العنكبوت و لم يقل: إن أوهن البيوت لبيتها كما هو مقتضى الظاهر أخذًا للجمله بمنزله المثل السائر الذى لا يتغير.

و المعنى: أن اتخاذهم من دون الله أولياء و هم آلهتهم الذين يتولونهم و يركنون اليهم كاتخاذ العنكبوت بيتا هو أوهن البيوت إذ ليس له من آثار البيت إلا- اسمه لا- يدفع حرًا و لا بردا و لا يكنّ شخصا و لا يقى من مكروه كذلك ليس لولايه أوليائهم إلا الاسم فقط لا ينفعون و لا يضرّون و لا يملكون موتا و لا حياه و لا نشورا.

و مورد المثل هو اتخاذ المشركين آلهه من دون الله، فتبديل الآلهه من الأولياء لكون السبب الداعى لهم الى اتخاذ الآلهه زعمهم أن لهم ولايه لأمرهم و تدبيرًا لشأنهم من جلب الخير اليهم و دفع الشر عنهم و الشفاعه فى حقهم.

و الآيه-مضافا الى إيفاء هذه النكته-تشمّل بإطلاقها كل من اتخذ فى أمر من الامور و شأن من الشئون وليا من دون الله يركن اليه و يراه مستقلا فى أثره الذى يرجوه منه و إن لم يعدّ من الأصنام إلا أن يرجع ولايته الى ولايه الله كولايه الرسول و الأئمه و المؤمنين كما قال تعالى:

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (يوسف ١٠٦).

و قوله: «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» أى لو كانوا يعلمون أن مثلهم كمثل العنكبوت ما اتخذوهم أولياء. كذا قيل.

ص: ٧٥٧

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ يمكن أن يكون «مَا» في «مَا يَدْعُونَ» موصوله أو نافية أو استفهامية أو مصدرية و «مِنْ» في «مِنْ شَيْءٍ» على الاحتمال الثاني زائده للتأكيد و على الباقي للتبيين و أرجح الاحتمالات الأولان و أرجحهما أولهما.

و المعنى: على الثاني أن الله يعلم أنهم ليسوا يدعون من دونه شيئاً أى أن الذى يعبدونه من الآلهة لا حقيقه له فيكون كما قال صاحب الكشاف توكيدا للمثل و زياده عليه حيث لم يجعل ما يدعونه شيئاً.

و المعنى: على الأول أن الله يعلم الشيء الذى يدعون من دونه و لا- يجهل ذلك فيكون كناية عن أن المثل الذى ضربه فى محله، و ليس لأوليائهم من الولايه إلا اسمها.

و يؤكد هذا المعنى الاسمان الكريمان: العزيز الحكيم فى آخر الآيه فهو تعالى العزيز الذى لا يغلبه شىء فلا يشاركه فى تدبير ملكه أحد كما لا يشاركه فى الخلق و الإيجاد أحد، الحكيم الذى يأتى بالمتقن من الفعل و التدبير فلا يفوض تدبير خلقه الى أحد، و هذا كالتمهيد لما سيبين فى قوله: «خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ» .

قوله تعالى: وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ يشير الى أن الأمثال المضروبه فى القرآن على أنها عامه تفرع أسماع عامه الناس، لكن الإشراف على حقيقه معانيها و لب مقاصدها خاصه لأهل العلم ممن يعقل حقائق الامور و لا ينجمد على ظواهرها.

و الدليل على هذا المعنى قوله: «و لا يعقلها» دون أن يقول: و ما يؤمن بها أو ما فى معناه.

فالأمثال المضروبه فى كلامه تعالى يختلف الناس فى تلقىها باختلاف أفهامهم فمن سامع لا حظ له منها إلا تلقى ألفاظها و تصور مفاهيمها الساذجه من غير تعمق فيها و سبر لأغوارها، و من سامع يتلقى بسمعه ما يسمعه هؤلاء ثم يغور فى مقاصدها العميقه و يعمل حقائقها

و فيه تنبيه على أن تمثيل اتخاذهم أولياء من دون الله باتخاذ العنكبوت بيتا هو أوهن البيوت ليس مجرد تمثيل شعري و دعوى خاليه من البينه بل متك على حجه برهانيه و حقيقه حقه ثابتة و هي التي تشير اليه الآيه التاليه.

قوله تعالى: خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ المراد بكون خلق السماوات و الأرض بالحق نفى اللعب في خلقها، كما قال تعالى:

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (الدخان ٣٩).

فخلق السماوات و الأرض على نظام ثابت لا يتغير و سنه إلهيه جاريه لا تختلف و لا تتخلف، و الخلق و التدبير لا يختلفان حقيقه و لا ينفك أحدهما عن الآخر (١)، و إذ كان الخلق و الصنع ينتهي اليه تعالى انتهاء ضروريا و لا محيص فالتدبير أيضا له و لا محيص و ما من شيء غيره تعالى إلا و هو مخلوقه القائم به المملوك له لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا، و من المحال قيامه بشيء من تدبير أمر نفسه أو غيره بحيث يستقل به مستغنيا في أمره عنه تعالى هذا هو الحق الذي لا لعب فيه و الجد الذي لا هزل فيه.

فلما تولى بعض خلقه أمر بعض لم يكن ذلك منه ولايه حق لكونه لا يملك شيئا بحقيقه معنى الملك بل كان ذلك منه جاريا على اللعب و تفويضه تعالى أمر التدبير اليه لعبا منه تعالى و تقدس إذ ليس إلا فرضا لا حقيقه له و وهما لا واقع له و هو معنى اللعب.

و منه يظهر أن ولايه من يدعون ولايته ليس لها إلا اسم الولاية من غير مسمى كما أن بيت

ص: ٧٥٩

١- ١). و ذلك أن موطن التدبير الحوادث الجاريه في الكون و معناه تعقيب حادث بحادث آخر على نظم و ترتيب يؤدي الى غايات حقه و حقيقته خلق حادث بعد حادث فالتدبير هو الخلق و الايجاد باعتبار قياس الشيء الى آخر مثله و انضمامه اليه فليس وراء الخلق و الايجاد شيء منه.

العنكبوت كذلك.

وقوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ تخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الآية لهم و لغيرهم لكون المنتفعين بها هم المؤمنون دون غيرهم.

قوله تعالى: أُنزِلَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ الْخَيْرِ؛ لما ذكر إجمال قصص الامم و ما انتهى اليه شركهم و ارتكابهم الفحشاء و المنكر من الشقاء اللازم و الخسران الدائم انتقل من ذلك - مستأنفا للكلام- الى أمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بتلاوه ما أوحى اليه من الكتاب لكونه خير رادع عن الشرك و ارتكاب الفحشاء و المنكر بما فيه من الآيات البينات التي تتضمن حججا نيره على الحق و تشتمل على القصص و العبر و المواعظ و التبشير و الإنذار و الوعد و الوعيد يرتدع بتلاوه آياته تاليه و من سمعه.

و شفعه بالأمر بإقامه الصلاة التي هي خيل العمل و علل ذلك بقوله: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» و السياق يشهد أن المراد بهذا النهي ردع طبيعه العمل عن الفحشاء و المنكر بنحو الاقتضاء دون العليه التامه.

فطبيعه هذا التوجه العبادى- إذ أتى به العبد و هو يكرره كل يوم خمس مرات و يداوم عليه و خاصه إذا زاول عليه فى مجتمع صالح يؤتى فيه بمثل ما أتى به و يهتم فيه بما اهتم به- أن يردعه عن كل معصيه كبيره يستشعنه الذوق الدينى كقتل النفس عدوانا و أكل مال اليتيم ظلما و الزنا و اللواط، و عن كل ما ينكره الطبع السليم و الفطره المستقيمه ردعا جامعا بين التلقين و العمل.

و ذلك أنه يلقيه أولا بما فيه من الذكر الإيمان بوحدانيتها تعالى و رساله و جزاء يوم الجزاء و أن يخاطب ربه بإخلاص العباده و الاستعانه به و سؤال الهدايه الى صراطه المستقيم متعوذا من غضبه و من الضلال، و يحمله ثانيا على أن يتوجه بروحه و بدنه الى ساحه العظمه

ص : ٧٦٠

و الكبرياء و يذكر ربه بحمده و الثناء عليه و تسيحه و تكبيره ثم السلام على نفسه و أتراه و جميع الصالحين من عباد الله.

مضافا الى حملة إياه على التطهر من الحدث و الخبث فى بدنه و الطهاره فى لباسه و التحرز عن الغضب فى لباسه و مكانه و استقبال بيت ربه فالإنسان لو داوم على صلاته مده يسيره و استعمل فى إقامتها بعض الصدق أثبت ذلك فى نفسه ملكه الارتداع عن الفحشاء و المنكر البته، و لو أنك و كلت على نفسك من يربيه صالحه تصلح بها لهذا الشأن و تتحلى بأدب العبوديه لم يأمرك بأزيد مما تأمرك به الصلاه و لا روضك بأزيد مما تروضك به.

و قد استشكل على الآيه بأنا كثيرا ما نجد من المصلين من لا يبالي ارتكاب الكبائر و لا يرتدع عن المنكرات فلا تنهاه صلاته عن الفحشاء و المنكر.

فإن الذى يعطيه السياق أن الأمر بإقامه الصلاه إنما علل بقوله: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ» ليفيد أن الصلاه عمل عبادى يورث إقامته صفه روحيه فى الإنسان تكون رادعه له عن الفحشاء و المنكر فتنزه النفس عن الفحشاء و المنكر و تتطهر عن قذاره الذنوب و الآثام.

فالمراد به التوسل الى ملكه الارتداع التى هى من آثار طبيعه الصلاه بنحو الاقتضاء لا أنها أثر بعض أفراد طبيعه الصلاه كما فى الواجب الثانى، و لا أنها أثر الاشتغال بالصلاه ما دام مشتغلا بها كما فى الجواب الثالث، و لا أن المراد هو التوسل الى تلقى نهى الصلاه فحسب من غير نظر الى الانتهاء عن نهىها كأنه قيل أقم الصلاه لتسمع نهىها كما فى الجواب الرابع، و لا أن المراد أقم الصلاه لينهاك الذكر الذى تشتمل عليه عن الفحشاء و المنكر كما فى الجواب الخامس.

فالحق فى الجواب أن الردع أثر طبيعه الصلاه التى هى توجه خاص عبادى الى الله سبحانه و هو بنحو الاقتضاء دون الاستيجاب و العليه التامه فربما تخلف عن أثرها لمقارنه بعض الموانع

التي تضعف الذكر و تقربه من الغفله و الانصراف عن حاق الذكر فكلما قوى الذكر و كمل الحضور و الخشوع و تمحض الإخلاص زاد أثر الردع عن الفحشاء و المنكر و كلما ضعف ضعف الأثر.

و أنت إذا تأملت حال بعض من تسمى بالإسلام من الناس و هو تارك الصلاة و جدته يضع بإضاعه الصلاة فريضه الصوم و الحج و الزكاه و الخمس و عامه الواجبات الدينيه و لا يفرق بين طاهر و نجس و حلال و حرام فيذهب لوجهه لا يلوى على شيء ثم إذا قست اليه حال من يأتي بأدنى مراتب الصلاة مما يسقط به التكليف، و جدته مرتدعا عن كثير مما يقترفه تارك الصلاة غير مكترث به ثم إذا قست اليه من هو فوقه في الاهتمام بأمر الصلاة و جدته أكثر ارتدعا منه و على هذا القياس.

□
و قوله: وَ لَمَذَكَّرَ اللَّهُ أَكْبَرُ قَالَ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ: الذِّكْرُ تَارَهُ يُقَالُ وَ يَرَادُ بِهِ هَيْئُهُ لِلنَّفْسِ بِهَا يُمْكِنُ لِلنَّاسِ أَنْ يَحْفَظَ مَا يَقْتَنِيهِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَ هُوَ كَالْحَفِظِ إِلَّا أَنْ الْحَفِظَ يُقَالُ اعْتَبَارًا بِأَحْرَازِهِ وَ الذِّكْرُ يُقَالُ اعْتَبَارًا بِاسْتِحْضَارِهِ. وَ تَارَهُ يُقَالُ لِحُضُورِ الشَّيْءِ الْقَلْبَ أَوْ الْقَوْلَ وَ لِذَلِكَ قِيلَ: الذِّكْرُ ذِكْرَانِ ذَكَرَ عَنْ نَسِيَانٍ وَ ذَكَرَ لَا عَنْ نَسِيَانٍ بَلْ عَنْ إِدَامَةِ الْحَفِظِ، وَ كُلُّ قَوْلٍ يُقَالُ لَهُ ذَكَرَ. انْتَهَى.

و الظاهر أن الأصل في معناه هو المعنى الأول و تسميه اللفظ ذكرا إنما هو لاشتماله على المعنى القلبي و الذكر القلبي بالنسبه الى اللفظي كالأثر المترتب على سببه و الغايه المقصوده من الفعل.

و الصلاة تسمى ذكرا لاشتمالها على الأذكار القولية من تهليل و تحميد و تنزيه و هي باعتبار آخر مصداق من مصاديق الذكر لأنها بمجموعها ممثل لعبوديه العبد لله سبحانه كما قال: □ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ (الجمعه ٩)، و هي باعتبار آخر أمر يترتب عليه الذكر ترتب الغايه على ذى الغايه يشير اليه قوله تعالى: □ وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ

و الذكى الذى هو غايه مترتبه على الصلاه أعنى الذكر القلبى بمعنى استحضار المذكور فى ظرف الإدراك بعد غيبته نسيانا أو إدامه استحضاره، أفضل عمل يتصور صدوره عن الإنسان و أعلاه كعبا و أعظمه قدرا و أثرا فإنه السعاده الأخيره التى هيئت للانسان و مفتاح كل خير.

ثم إن الظاهر من سياق قوله: «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» أن قوله: «وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ» متصل به مبين لأثر آخر للصلاه و هو أكبر مما بين قبله، فيقع قوله:

«وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ» موقع الاضراب و الترقى و يكون المراد الذكر القلبى الذى يترتب على الصلاه ترتب الغايه على ذى الغايه فكأنه قيل: أقم الصلاه لتردعك عن الفحشاء و المنكر بل الذى تفيده من ذكر الله الحاصل بها أكبر من ذلك أى من النهى عن الفحشاء و المنكر لأنه أعظم ما يناله الإنسان من الخير و هو مفتاح كل خير و النهى عن الفحشاء و المنكر بعض الخير.

و من المحتمل أن يراد بالذكر ما تشتمل عليه الصلاه من الذكر أو نفس الصلاه و الجمله أيضا واقعه موقع الإضراب، و المعنى: بل الذى تشتمل عليه الصلاه من ذكر الله أو نفس الصلاه التى هى ذكر الله أكبر من هذا الأثر الذى هو النهى عن الفحشاء و المنكر لأن النهى أثر من آثارها الحسنه و «لَذِكْرُ اللَّهِ» هو النهى عن الفحشاء و المنكر.

و قوله: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ» أى ما تفعلونه من خير أو شر فعليكم أن تراقبوه و لا تغفلوا عنه ففيه حث و تحريض على المراقبه و خاصه على القول الأول.

قوله تعالى: «وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ لَمَّا أَمُرُ فِي قَوْلِهِ: «اتُّلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ» الخ؛ بالتبليغ و الدعوه من طريق تلاوه الكتاب عقبه بيان كيفية الدعوه فنهى عن مجادله أهل الكتاب و هم على ما يقتضيه الإطلاق

اليهود و النصارى و يلحق بهم المجوس و الصابئون-إلا بالمجادله-التي هي أحسن المجادله.

و المجادله إنما تحسن إذا لم تتضمن إغلاظا و طعنا و إهانة، فمن حسنها أن تقارن رفقا ولينا فى القول لا يتأذى به الخصم و أن يقترب المجادل من خصمه و يدنو منه حتى يتفقا و يتعاضدا لإظهار الحق من غير لجاج و عناد فإذا اجتمع فيها لين الكلام و الاقتراب بوجه زادت حسنا على حسن فكانت أحسن.

و لهذا لما نهى عن مجادلتهم إلا بالتي هي أحسن استثنى منه الذين ظلموا منهم، فإن المراد بالظلم بقرينه السياق كون الخصم بحيث لا ينفعه الرفق و اللين و الاقتراب فى المطلوب بل يتلقى حسن الجدل نوع مذله و هوان للمجادل و يعتبره تمويها و احتيالا لصرفه عن معتقده فهؤلاء الظالمون لا ينجح معهم المجادله بالأحسن.

و لهذا أيضا عقب الكلام ببيان كيفية الاقتراب معهم و بناء المجادله على كلمه يجتمع فيها الخصمان فيتقاربان معه و يتعاضدان على ظهور الحق فقال: «وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَيْنَا وَإِلَيْكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ أى على تلك الصفة و هى الاسلام لله و تصديق كتبه و رسله أنزلنا اليك القرآن.

وقيل: المعنى: مثل ما أنزلنا الى موسى و عيسى الكتاب أنزلنا اليك الكتاب و هو القرآن.

فقوله: فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ الخ؛ تفریع على نحو نزول الكتاب أى لما كان القرآن نازلا فى الاسلام لله و تصديق كتبه و رسله فأهل الكتاب يؤمنون به بحسب الطبع لما عندهم من الإيمان بالله و تصديق كتبه و رسله، و من هؤلاء و هم المشركون من عبده الأوثان من يؤمن به و ما يجحد بآياتنا و لا ينكرها من أهل الكتاب و هؤلاء المشركين إلا الكافرون و هم الساترون للحق بالباطل.

و فى قوله: وَ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ نَوْعِ اسْتِقْلَالٍ لِمَنْ آمَنَ بِهِ مِنَ الْمَشْرِكِينَ.

قوله تعالى: وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذْ لَأَرْتَابُ الْمُبْطِلُونَ التلاوه هى القراءه سواء كانت عن حفظ أو عن كتاب مخطوط، و المراد به فى الآيه الثانى بقريته المقام، و الخط الكتابه، و المبطلون جمع مبطل و هو الذى يأتى بالبطل من القول، و يقال أيضا للذى يبطل الحق أن يدعى بطلانه، و الأنسب فى الآيه المعنى الثانى و إن جاز أن يراد المعنى الأول.

و ظاهر التعبير فى قوله: «وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا» الخ؛ نفى العاده أى لم يكن من عادتك أن تتلو و تخط كما يدل عليه قوله فى موضع آخر: فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ (يونس ١٦).

و تقييد قوله: «وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا» بقوله: «بِيَمِينِكُمْ» نوع من التمثيل يفيد التأكيد كقول القائل:

رأيتہ بعينى و سمعته باذننى.

و المعنى: و ما كان من عادتك قبل نزول القرآن أن تقرأ كتابا و لا كان من عادتك أن تخط كتابا و تكتبه- أى ما كنت تحسن القراءه و الكتابه لكونك أميا- لو كان كذلك لارتاب هؤلاء المبطلون الذين يبطلون الحق بدعوى أنه باطل لكن لما لم تحسن القراءه و الكتابه و استمرت على ذلك و عرفوك على هذه الحال لمخالطتك لهم و معاشرتكم معهم لم يبق محل ريب لهم فى أمر القرآن النازل اليك أنه كلام الله تعالى و ليس تلفيقا لفقته من كتب السابقين و نقلته من أقاصيصهم و غيرهم حتى يرتاب المبطلون و يعتذروا به.

قوله تعالى: بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ إضراب عن مقدر يستفاد من الآيه السابقه كأنه لما نفى عنه صلى الله عليه و آله و سلم التلاوه و الخط معا تحصل من ذلك أن القرآن ليس بكتاب مؤلف مخطوط فأضرب عن هذا المقدر بقوله: «بَلْ هُوَ - أى القرآن - آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» .

و قوله: وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ المراد بالظلم بقريته المقام الظلم

لآيات الله بتكذيبها والاستكبار عن قبولها عنادا و تعنتا.

قوله تعالى: وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ لما ذكر الكتاب و أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم أن يتلوه و يدعوهم اليه به و أن منهم من يؤمن به و منهم من لا يؤمن به و هم الكافرون الظالمون أشار فى هذه الآيه و الآيتين بعدها الى عدم اعتنائهم بالقرآن الذى هو آيه النبوه و اقتراحهم على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم أن يأتيهم بآيات غيره و الجواب عنه.

فقوله: وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ اقتراح منهم أن يأتيهم بآيات غير القرآن تعريضا منهم أنه ليس بآيه و زعما منهم أن النبي يجب أن يكون ذا قوه إلهيه غيبيه يقوى على كل ما يريد، و فى قولهم: لولا أنزل عليه، دون أن يقولوا: لولا يأتينا بآيات نوع سخرية كقولهم: يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (الحجر ٧).

و قوله: قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ جواب عن زعمهم ان من يدعى الرساله يدعى قوه غيبيه يقدر بها على كل من أراد بأن الآيات عند الله ينزلها متى ما أراد و كيفما شاء لا يشاركه فى القدره عليها غيره فليس الى النبي شىء إلا أن يشاء الله ثم زاده بيانا بقصر بشأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم فى الإنذار فحسب بقوله: «إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ» .

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ الى آخر الآيه؛ توطئه و تمهيد للجواب عن تعريضهم بالقرآن أنه ليس بآيه، و الاستفهام للانكار و الخطاب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم أى يكفيهم آيه هذا الكتاب الذى أنزلناه عليك و هو يتلى عليهم فيسمعونه و يعرفون مكانته من الإعجاز و هو مملو رحمة و تذكره للمؤمنين.

قوله تعالى: قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ شَهِيداً إلقاء جواب الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم ليحييهم به و هو أن الله سبحانه شهيد بيني و بينكم فيما نتخاصم فيه و هو أمر الرساله فإنه

سبحانه يشهد في كلامه الذى أنزله على رسالتي و هو تعالى يعلم ما فى السماوات و الأرض من غير أن يجهل شيئاً و كفى بشهادته لى دليلاً على دعواى.

و ليس لهم أن يقولوا إنه ليس بكلام الله لمكان تحديه مره بعد مره فى خلال الآيات و منه يعلم أن قوله: «قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ» ليس دعوى مجردة أو كلاماً خطابياً بل هو بيان استدلالى و حجه قاطعه على ما عرفت.

و قوله: وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَ كَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ قصر الخسران فيهم لعدم إيمانهم بالله بالكفر بكتابه الذى فيه شهادته على رساله و هم بكفرهم بالله الحق يؤمنون بالباطل و لذلك خسروا فى إيمانهم.

قوله تعالى: وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَ لَوْ لَأَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَ لِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ إشاره الى قولهم كقول متقدميهم: ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين، و قد حكى الله عنهم استعجالهم فى قوله: وَ لَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّهٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ (هود ٨٠).

و المراد بالأجل المسمى هو الذى قضاه لبنى آدم حين أهبط آدم الى الأرض فقال: وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (البقره ٣٦)، و قال: وَ لِكُلِّ أُمَّهٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ (الأعراف ٣٤).

و هذا العذاب الذى يحول بينه و بينهم الأجل المسمى هو الذى يستحقونه لمطلق أعمالهم السيئه كما قال عز من قائل: وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقاً (الكهف ٥٨)، و لا ينافى ذلك تعجيل العذاب بنزول الآيات المقترحه على الرسول من غير إمهال و إنظار، قال تعالى: وَ مَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ (الإسراء ٥٩).

قوله تعالى: يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ يَوْمَ

يُغْشَاهُمْ الْعَذَابُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ تَكَرَّرَ «يَسْتَعْجِلُونَكَ» لِلدَّلَالَةِ عَلَى كَمَالِ جَهْلِهِمْ وَفَسَادِ فَهْمِهِمْ وَأَنَّ اسْتَعْجَالَهِمْ اسْتَعْجَالَ لِأَمْرٍ مُؤَجَّلٍ لَا مَعْجَلَ أَوْلَا وَاسْتَعْجَالَ لِعَذَابٍ وَقَعَ لَا صَارَفَ لَهُ عَنْهُمْ لِأَنَّهُمْ مُعْزِيُونَ بِأَعْمَالِهِمُ الَّتِي لَا تَفَارِقُهُمْ ثَانِيًا.

وَالْغِشَاوَةُ وَالْغِشَايَةُ التَّغْطِيَةُ بِنَحْوِ الْإِحَاطَةِ، وَقَوْلُهُ: «يَوْمَ يُغْشَاهُمْ» ظَرْفٌ لِقَوْلِهِ:

«لَمُحِيطَةٌ» وَالْبَاقِي ظَاهِرٌ (١).

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٥٦ إلى ٦٠]

إشاره

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرٍ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيُّنَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠)

بيان:

قَوْلُهُ تَعَالَى: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ تَوْجِيهُ لِلخُطَابِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ وَقَعُوا فِي أَرْضِ الْكُفْرِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى التَّظَاهَرِ بِالذِّينِ الْحَقِّ وَالِاسْتِنَانِ بِسُنَّتِهِ وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ذِيلُ الْآيَةِ.

وَقَوْلُهُ: إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ الَّذِي يَظْهَرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَرْضِ هَذِهِ الْأَرْضُ

ص: ٧٤٨

(١- ١). العنكبوت ٤١-٥٥: بحث روائي في الصلاة؛ احب الاعمال الى الله؛ الذين اتوا العلم.

التي نعيش عليها و إضافتها الى ضمير التكلم للإشارة الى أن جميع الأرض لا فرق عنده في أن يعبد في أى قطعه منها كانت، و وسعه الأرض كناية عن أنه إن امتنع فى ناحيه من نواحيها أخذ الدين الحق و العمل به فهناك نواح غيرها لا يمتنع فيها ذلك فعبادته تعالى وحده ليست بممتنعه على أى حال.

و قوله: **فَأَيُّ آيٍ فَاعْبُدُونِ** الفاء الاولى للتفريع على سعه الأرض أى إذا كان كذلك فاعبدونى وحدى و الفاء الثانية فاء الجزاء للشرط المحذوف المدلول عليه بالكلام و الظاهر أن تقديم «إياى» لإفاده الحصر فيكون قصر قلب و المعنى: لا تعبدوا غيرى بل اعبدونى، و قوله: «فَاعْبُدُونِ» قائم مقام الجزاء.

و محصل المعنى: أن أَرْضِي واسع إن امتنع عليكم عبادتى فى ناحيه منها تسعكم لعبادتى اخرى منها فإذا كان كذلك فاعبدونى وحدى و لا تعبدوا غيرى فإن لم يمكنكم عبادتى فى قطعه منها فهاجروا الى غيرها و اعبدونى وحدى فيها.

قوله تعالى: **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** الآية؛ تأكيد للأمر السابق فى قوله: «فَأَيُّ آيٍ فَاعْبُدُونِ» و كالتوطئه لقوله الآتى: «الَّذِينَ صَبَرُوا» الخ.

و قوله: **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** من الاستعارة بالكناية و المراد أن كل نفس ستموت لا- محاله، و الالتفات فى قوله: «ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ» من سياق التكلم وحده الى سياق التكلم مع الغير للدلالة على العظمة.

و محصل المعنى: أن الحياه الدنيا ليست إلا أياما قلائل و الموت وراءه ثم الرجوع الينا للحساب فلا يصدنكم زينه الحياه الدنيا- و هى زينه فانيه- عن التهيؤ للقاء الله بالإيمان و العمل فففيه السعاده الباقيه و فى الحرمان منه هلاك مؤبد مخلد.

قوله تعالى: **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا** الخ؛ بيان لأ-جر الإيمان و العمل الصالح بعد الموت و الرجوع الى الله و فيه حث و ترغيب

للمؤمنين على الصبر في الله و التوكل على الله، و التبوئه الإنزال على وجه الاقامه، و الغرف جمع غرفه و هى فى الدار، العليه العاليه.

و قد بين تعالى أولا ثواب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ثم سماهم عاملين إذ قال: «و نَعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ» ثم فسر العاملين بقوله: «الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فعاد بذلك الصبر و التوكل سمه خاصه للمؤمنين فدل بذلك كله أن المؤمن إنما يرضى عن إيمانه إذا صبر فى الله و توكل عليه، فعلى المؤمن أن يصبر فى الله على كل أذى و جفوه ما يجد الى العيشه الدينيه سيلا فإذا تعذرت عليه إقامه مراسم الدين فى أرضه فليخرج و ليهاجر الى أرض غيرها و ليصبر على ما يصيبه من التعب و العناء فى الله.

قوله تعالى: الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وصف للعالمين، و الصبر أعم من الصبر عند المصيبه و الصبر على الطاعه و الصبر على المعصيه، و إن كان المورد مورد الصبر عند المصيبه فهو المناسب لحال المؤمنين بمكه المأمورين بالهجره.

قوله تعالى: وَكَأَيُّنْ مِنْ دَابَّهِ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ كَأَيْنَ للتكثير، و حمل الرزق هو ادخاره كما يفعل الانسان و النمل و الفار و النحل من سائر الحيوان.

و فى الآيه تطيب لفس المؤمنين و تقويه لقلوبهم أنهم لو هاجروا فى الله أتاهم رزقهم أينما كانوا و لا يموتون جوعا فرازقهم رزقهم دون أوطانهم، يقول: و كثير من الدواب لا رزق مدخر لها يرزقها الله و يرزقكم معاشر الآدميين الذين يدخرون الأرزاق و هو السميع العليم.

و فى تذييل الآيه بالاسمين الكريمين السميع العليم إشاره الى الحجه على مضمونها و هو أن الانسان و سائر الدواب محتاجون الى الرزق يسألون الله ذلك بلسان حاجتهم اليه و الله سبحانه سميع للدعاء عليم بحوائج خلقه و مقتضى الاسمين الكريمين أن يرزقهم.

اشاره

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٤٢) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤٣) وَ مَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤٤) فَاِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٤٥) لِيُكْفَرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٤٦) أَوْ لَمْ يَهَيِّؤْا إِذْنا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَ يَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَ فَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٤٧) وَ مِمَّنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٤٨) وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٤٩)

قوله تعالى: **وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ** .

خلق السماوات و الأرض من الابداد و تسخير الشمس و القمر-و ذلك بتحويل حالاتهما بالطلوع و الغروب و القرب و البعد من الأرض-من التدبير الذى يفرع عليه كينونه أرزاق الإنسان و سائر الحيوان و هذا الخلق و التدبير لا ينفك أحدهما عن الآخر فمن اعترف بأحدهما فليعترف بالآخر.

و إذا كان الله هو الخالق و بيده تدبير السماوات و يتبعه تدبير الأرض و كينونه الأرزاق كان هو الذى يجب أن يدعى للرزق و سائر التدبير فمن العجب حينئذ أن يصرف عنه الإنسان الى غيره ممن لا يملك شيئاً و هو قوله: «فَأَنَّى تُصَيَّرُفُونَ» أى فإذا كان الخلق و تدبير الشمس و القمر اليه تعالى فكيف يصرف هؤلاء الى دعوته غيره من الأصنام و عبادته.

قوله تعالى: **اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** فى الآية تصريح بما تلوح اليه الآية السابقة، و القدر التضيق و يقابله البسط و المراد به لازم معناه و هو التوسعه، و وضع الظاهر موضع المضمرة فى قوله: «إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» للدلالة على تعليل الحكم، و المعنى: و هو بكل شىء عليم لأنه الله.

و المعنى: الله يوسع الرزق على من يشاء من عباده و يضيقه على من يشاء-و لا يشاء إلا على طبق المصلحة-لأنه بكل شىء عليم لأنه الله الذى هو الذات المستجمع لجميع صفات الكمال.

قوله تعالى: **وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا -الى قوله- لا يَعْقِلُونَ** المراد بإحياء الأرض بعد موتها إنبات النبات فى

و قوله: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ أَيُّ أَحْمَدِ اللَّهِ عَلَى تَمَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِاعْتِرَافِهِمْ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُدَبِّرُ لِأَمْرِ خَلْقِهِ فَلَزِمَهُمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَأَرْبَابِ الْأَصْنَامِ.

و قوله: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» أَي لَا يَتَدَبَّرُونَ الْآيَاتِ وَلَا يَحْكُمُونَ الْعُقُولَ حَتَّى يَعْرِفُوا اللَّهَ وَيَمِيزُوا الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ فَهَمَّ لَا يَعْقِلُونَ حَقَّ التَّعْقَلِ.

قوله تعالى: وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ اللَّهُ مَا يَلْهِيكَ وَ يَشْغَلُكَ عَمَّا يَهْمُكَ فَالْحَيَاةُ الدُّنْيَا مِنَ اللَّهِ لِأَنَّهَا تَلْهَى الْإِنْسَانَ وَ تَشْغَلُهُ بِزِينَتِهَا الْمَزُوقَةِ الْفَانِيَةِ عَنِ الْحَيَاةِ الْخَالِدَةِ الْبَاقِيَةِ.

و اللعب فعل أو أفعال منتظمة انتظاما خياليا لغايه خياليه كملعب الصبيان و الحياه الدنيا لعب لأنها فانيه سريعه البطلان كلعب الصبيان يجتمعون عليه و يتولعون به ساعه ثم يتفرقون و سرعان ما يتفرقون.

على أن عامه المقاصد التي يتنافس فيها المتنافسون و يتكالب عليه الظالمون أمور وهميه سرايه كالأموال و الأزواج و البنين و أنواع التقدم و التصدر و الرئاسة و المولويه و الخدم و الأنصار و غيرها فالإنسان لا يملك شيئا منها إلا في ظرف الوهم و الخيال.

و أما الحياه الآخره التي يعيش فيها الإنسان بكماله الواقعي الذي اكتسبه بإيمانه و عمله الصالح فهي المهمه التي لا لهو في الاشتغال بها و الجد الذي لا لعب فيها و لا لغو و لا تأثيم، و البقاء الذي لا فناء معه، و اللذة التي لا ألم عندها، و السعادة التي لا شقاء دونها، فهي الحياه بحقيقه معنى الكلمه.

و هذا معنى قوله سبحانه: «وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ» .

و في الآيه- كما ترى- قصر الحياه الدنيا في اللهو و اللعب و الإشاره إليها بهذه المفيده

للتحقير وقصر الحياه الآخرون فى الحيوان و هى الحياه و تأكيده بأدوات التأكيد كإِنَّ و اللام و ضمير الفصل و الجملة الاسميه.

و قوله: لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أى لو كانوا يعلمون لعلموا أن الأمر كما وصفنا.

قوله تعالى: فَإِذَا رَكَبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ تفریع على ما تحصل من الآيات السابقه من شأنهم و هو أنهم يؤفكون و أن كثيرا منهم لا يعقلون أى لما كانوا يؤفكون و يصرفون عن عبادته الى عباده غيره و أكثرهم لا يعقلون و يناقضون أنفسهم بالاعتراف و الجحد فإذا ركبوا، الخ.

و الركوب الاستعلاء بالجلوس على الشىء المتحرك و هو متعدّد بنفسه و تعديته فى الآيه بفى لتضمنه معنى الاستقرار أو ما يشبهه، و المعنى: فإذا ركبوا مستقرين فى الفلك أو استقروا فى الفلك راكبين، و معنى الآيه ظاهر و هى تحكى عنهم تناقضا آخر و كفرانا للنعمه.

قوله تعالى: لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ اللام فى «لِيَكْفُرُوا» و «لِيَتَمَتَّعُوا» لام الأمر و أمر الأمر بما لا يرتضيه تهديد و إنذار كقولك لمن تهده «افعل ما شئت»، قال تعالى: اِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (حم السجده ٤٠/).

و احتمال كون اللام للغايه، و المعنى: أنهم يأتون بهذه الأعمال لتنتهى بهم الى كفران النعمه التى آتيناهاهم و الى التمتع، و أول الوجهين أوفق لقوله فى ذيل الآيه: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ»، و يؤيده قوله فى موضع آخر: لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (الروم ٣٤/)، و لذا قرأه من قرأ «وَ لِيَتَمَتَّعُوا» بسكون اللام إذ لا يسكن غير لام الأمر.

قوله تعالى: أَمْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَ يُنْخَطِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ الْحَرَمَ الْآمِنَ هُوَ مَكَّةُ وَ مَا حَوْلُهَا وَ قَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ مَأْمِنًا بدعاء إبراهيم عليه السّلام و التخطف كالخطب استلاب الشىء بسرعه و اختلاسه و قد كانت العرب يومئذ تعيش فى التغاور و التناهب و لا يزالون يغير بعضهم على بعض بالقتل و السبى و النهب لكنهم يحترمون الحرم و لا

يتعرضون لمن أقام بها فيها.

و المعنى: أو لم ينظروا أنا جعلنا حرما آمنا لا يتعرض لمن فيه بقتل أو سبى أو نهب و الحال أن الناس يختلسون من حلوهم خارج الحرم.

و قوله: أَلَمْ يَلْبِطِ لِيُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ توبيخ آخر لهم حيث يقابلون هذه النعمة و هى نعمه عظيمه بالكفران لكنهم يؤمنون بالأصنام و هى باطله ليس لها إلا الاسم.

قوله تعالى: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ تهديد لهم بالناس بتوسيمهم بأشد الظلم و أعظمه و هو افتراء الكذب على الله بالقول بالآلهه و أن الله اتخذهم شركاء لنفسه، و تكذيب الإنسان بالحق لما جاءه و الوصفان جميعا موجودان فيهم فقد عبدوا الأصنام و كذبوا بالقرآن لما جاءهم فهم كافرون و مثنوى الكافرين و محل إقامتهم فى الآخرة جهنم.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ الجهد الوسع و الطاقه و المجاهده استفراغ الوسع فى مدافعه العدو و الجهاد ثلاثه أضرب: مجاهده العدو الظاهر، و مجاهده الشيطان، و مجاهده النفس كذا ذكره الراغب.

و قوله: جَاهَدُوا فِينَا أى استقر جهادهم فينا و هو استعاره كناية عن كون جهده مبدولا فيما يتعلق به تعالى من اعتقاده و عمل، فلا ينصرف عن الإيمان به و الائتمار بأوامره و الانتهاء عن نواهي بصارف يصرفه.

و قوله: لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا أثبت لنفسه سبلا و هى أياما كانت تنتهى اليه تعالى فإنما السبيل سبيل لتأديته الى ذى السبيل و هو غايتها فسبله هى الطرق المقربه منه و الهدايه اليه تعالى، و إذ كانت نفس المجاهده من الهدايه كانت الهدايه الى السبيل هدايه على هدايه فتطبق على مثل قوله تعالى: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى (محمد ١٧).

و مما تقدم يظهر أن لا حاجة في قوله: «فِينَا» الى تقدير مضاف كشأن و التقدير في شأننا.

□
و قوله: وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ قيل: أى معيه النصره و المعونه و تقدم الجهاد المحتاج اليهما قرينه قويه على إرادته ذلك. انتهى. و هو وجه حسن و أحسن منه أن يفسر بمعيه الرحمه و العنايه فيشمل معيه النصره و المعونه و غيرهما من أقسام العنايات التى له سبحانه بالمحسنين من عباده لكمال عنايته بهم و شمول رحمته لهم، و هذه المعيه أخص من معيه الوجود الذى ينبى عنه قوله تعالى: وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ (الحديد ٤).

و قد تقدمت الإشارة الى أن الآية خاتمه للسوره منعطفه على فاتحتها.

الجزء الخامس

اشاره

ص: ١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) غَلَبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بَنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مَنِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مَنِ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَذَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لَكِنَّ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاؤُا السُّوَايَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَ كَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)

تفتتح السوره بوعد من الله و هو أن الروم ستغلب الفرس فى بضع سنين بعد انهزامهم أيام نزول السوره عن الفرس ثم تنتقل منه الى ذكر ميعاد أكبر و هو الوعد بيوم يرجع الكل فيه الى الله و تقيم الحجه على المعاد ثم تنعطف الى ذكر آيات الربوبيه و تصف صفاته تعالى الخاصه به ثم تختتم السوره بوعد النصر للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و تؤكد القول فيه إذ تقول: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ و قد قيل قبيل ذلك: وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ .

فغرض السوره هو الوعد القطعى منه تعالى بنصره دينه و قد قدّم عليه نصر الروم على الفرس فى بضع سنين من حين النزول ليستدل بإنجاز هذا الوعد على إنجاز ذلك الوعد، و كذا يحتج به و من طريق العقل على أنه سينجز وعده بيوم القيامه لا ريب فيه.

قوله تعالى: غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ الروم جيل من الناس على ساحل البحر الأبيض بالمغرب كانت لهم امبراطوريه و سيعه منبسطه الى الشامات وقعت بينهم و بين الفرس حرب عوان فى بعض نواحي الشام قريبا من الحجاز فغلبت الفرس و انهزمت الروم، و الظاهر أن المراد بالأرض أرض الحجاز و اللام للعهد.

قوله تعالى: وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ ضمير الجمع الأول للروم و كذا الثالث و أما الثانى فقد قيل إنه للفرس و المعنى: و الروم من بعد غلبه الفرس سيغلبون، و يمكن أن يكون الغلب من المصدر المبني للمفعول و الضمير للروم كالضميرين قبلها و بعدها فلا تختلف الضمائر و المعنى: و الروم من بعد مغلوبيتهم سيغلبون. و البضع من العدد من ثلاثه الى تسعه.

قوله تعالى: لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدِ قَبْلُ و بعد مبنيان على الضمّ فهناك مضاف اليه مقدّر و التقدير لله الأمر من قبل أن غلبت الروم و من بعد أن غلبت يأمر بما يشاء

فينصر من يشاء و يخذل من يشاء.

وقيل: المعنى لله الأمر من قبل كونهم غالبين و هو وقت كونهم مغلوبين و من بعد كونهم مغلوبين و هو وقت كونهم غالبين أى وقت كونهم مغلوبين و وقت كونهم غالبين و المعنى الأول أرجح إن لم يكن راجحا متعينا.

قوله تعالى: وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الظرف متعلق بيفرح و كذا قوله: «يَنْصُرُ» و المعنى: و يوم إذ يغلب الروم يفرح المؤمنون بنصر الله الروم، ثم استأنف و قال: «يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ» تقريراً لقوله: «لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ» .

و قوله: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ أى عزيز يعز بنصره من يشاء رحيم يخص برحمته من يشاء.

قوله تعالى: وَعِدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعِدَهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ «وَعِدَ اللَّهُ» مفعول مطلق محذوف العامل و التقدير وعد الله وعدا و إخلاف الوعد خلاف إنجازه و قوله: «وَعِدَ اللَّهُ» تأكيد و تقرير للوعد السابق فى قوله: «سَيَغْلِبُونَ» و «يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ» كما أن قوله: «لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعِدَهُ» تأكيد و تقرير لقوله: «وَعِدَ اللَّهُ» .

و قوله: لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعِدَهُ كقوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَاتِ (الرعد ٣١) و خلف الوعد و إن لم يكن قبيحا بالذات لأنه ربما يحسن عند الاضطرار لكنه سبحانه لا يضطره ضروره فلا يحسن منه خلف الوعد فى حال.

على أن خلف الوعد يلازم النقص دائما و يستحيل النقص عليه تعالى.

على أنه تعالى أخبر فى كلامه بأنه لا يخلف الميعاد و هو أصدق الصادقين و هو القائل عز من قائل: وَ الْحَقُّ أَقُولُ (ص ٨٤).

و قوله: وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ أى هم جهلاء بشئونه تعالى لا يثقون

بوعده و يقيسونه الى أمثالهم ممن يصدق و يكذب و ينجز و يخلف.

قوله تعالى: **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** جملة «يَعْلَمُونَ» على ما ذكره في الكشف بدل من قوله: «لَا يَعْلَمُونَ» و في هذا الإبدال من النكته أنه أبدله منه و جعله بحيث يقوم مقامه و يسد مسده ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل و بين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا انتهى.

و قيل: الجملة استثنائية لبيان موجب جهلهم بأن وعد الله حق و أن لله الأمر من قبل و من بعد و أنه ينصر المؤمنين على الكافرين. انتهى و هذا أظهر.

و تنكير «ظاهراً» للتحقير و ظاهر الحياة الدنيا ما يقابل باطنها و هو الذي يناله حواسهم الظاهرة من زينه الحياة فيرشدهم الى اقتنائها و العكوف عليها و الإخلاق إليها و نسيان ما وراءها من الحياة الآخرة و المعارف المتعلقة بها و الغفلة عما فيه خيرهم و نفعهم بحقيقته معنى الكلمة.

قوله تعالى: **أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى** الخ؛ المراد من خلق السماوات و الأرض و ما بينهما - ذلك جملة العالم المشهود - بالحق أنها لم تخلق عبثاً لا غاية لها وراءها بأن يوجد و لعدم ثم يوجد ثم يعدم من غير غرض و غاية فهو تعالى إنما خلقها لغاية تترتب عليها.

ثم إن العالم بأجزائها ليس بدائم الوجود غير منقطع الآخر حتى يحتمل كون كل جزء لا حق غاية للجزء السابق و كل آت خلفا لماضيه بل هو بأجزائه فان بائد فهناك غاية مقصوده من خلق العالم ستظهر بعد فناء العالم و هذا المعنى هو المراد بتقييد قوله: **«مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا»** بقوله: **«وَأَجَلٍ مُّسَمًّى»** بعد تقييده بقوله: **«إِلَّا بِالْحَقِّ»**.

فقوله: **أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ** الاستفهام للتعجب، و كونهم في أنفسهم استعاره كناية عن فراغ البال و حضور الذهن كأنهم عند اشتغالهم بامور الدنيا و سعيهم للمعيشة و تشوش البال يغيبون عن أنفسهم فيكونون عند حضور الذهن حاضرين مستقرين في أنفسهم فيكون تفكيرهم حينئذ مجتمعاً غير متفرق فيهديهم الى الحق و يرشدهم الى الواقع.

وقوله: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى هُوَ الْفِكْرَ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَمَعْنُوا فِيهِ النَّظْرَ فِي أَنفُسِهِمْ وَتَقْرِيرَهُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ مَا خَلَقَ هَذَا الْعَالَمَ كَلَا وَ لَا بَعْضًا إِلَّا خَلَقًا مَلَاسًا لِلْحَقِّ أَوْ مَصَاحِبًا لِلْحَقِّ أَي لَغَايَهُ حَقِيقِيهِ لَا- عِبَا لَا غَايَهُ لَهُ وَ لَا إِلَى أَجْلِ مَعِينٍ فَلَا يَبْقَى شَيْءٌ مِنْهَا إِلَى مَا لَا نَهَايَةَ لَهُ بَلْ يَفْنَى وَ يَنْقَطِعُ وَ إِذَا كَانَ كُلُّ مَنْ أَجْزَائِهِ وَ الْمَجْمُوعُ مَخْلُوقًا ذَا غَايَةَ تَتْرَبُ عَلَيْهَا وَ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا دَائِمًا الْوُجُودَ كَانَتْ غَايَتُهُ مَتْرَبَةً عَلَيْهِ بَعْدَ انْقِطَاعِ وَجُودِهِ وَ فَنَائِهِ، وَ هَذَا هُوَ الْآخِرُ الَّتِي سَتُظْهِرُ بَعْدَ انْقِضَاءِ الدُّنْيَا وَ فَنَائِهَا.

وقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ مسوق سوق التعجيب كما بدأت الآية باستفهام التعجب، والمراد بلقاء الله هو الرجوع إليه في المعاد، وقد عبر عنه باللقاء ليزداد كفرهم به عجباً فكيف يمكن أن يتبدوا منه ثم لا ينتهوا إليه، ولذلك أكده بأن إشارته إلى أن الكفر بالمعاد من شأنه في نفسه أن لا يصدق به.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ لَمَّا ذَكَرَ كَفَرَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِالْمَعَادِ وَ ذَلِكَ أَمْرٌ يَلْغُو مَعَهُ الدِّينَ الْحَقَّ ذَكَرَهُمْ حَالِ الْأُمَّمِ الْكَافِرَةِ وَ مَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَعْتَبِرُونَ بِهَا فَيَرْجِعُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ. وَ إِثَارَةُ الْأَرْضِ قَلْبَهَا ظَهَرَ الْبَطْنُ لِلْحَرْثِ وَ التَّعْمِيرِ وَ نَحْوِ ذَلِكَ.

وقوله: ﴿وَ لَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أى بالكفر والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسَؤُوا السُّوْأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ بيان لما انتهى إليه أمر أولئك الظالمين و لذا عبر بشم، و «عَاقِبَتُهُ» بالنصب خبر كان و اسمه «السُّوْأَى» قدّم الخبر عليه لإفادته الحصر و «أَسَؤُوا» مقطوع عن المتعلق بمعنى عملوا السوء، و السُّوْأَى الخلة التي يسوء صاحبها و المراد بها سوء العذاب و «أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ» بحذف لام التعليل و التقدير لتكذيبهم بآيات الله و استهزائهم بها.

و المعنى: ثم كان سوء العذاب هو الذى انتهى إليه أمر أولئك الذين عملوا السوء لم تكن لهم

عاقبه غيرها لتكذيبهم بآيات الله و استهزائهم بها.

قوله تعالى: **اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** بعد ما ذكر الحجه و تكذيب كثير من الناس لخصّ القول في نتيجتها و هو أن البدء و العود بيده سبحانه و سيرجع اليه الجميع، و المراد بالخلق المخلوقون، و لذا أرجع اليه ضمير الجمع في «**تُرْجَعُونَ**» .

قوله تعالى: **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْبِئُ الْمُجْرِمُونَ** ذكر حال المجرمين بعد قيام الساعه و هى ساعه الرجوع اليه تعالى للحساب و الجزاء، و الإبلas اليأس من الله و فيه كل الشقاء.

قوله تعالى: **وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ** يريد أنهم على يأسهم من الرحمه من ناحيه أعمالهم أنفسهم آيسون من آلهتهم الذين اتخذوهم شركاء لله فعبدوهم ليشفعوا لهم عند الله كما كانوا يقولون في الدنيا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله و كانوا بعباده شركائهم كافرين ساترين.

قوله تعالى: **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْبِئُ الْمُجْرِمُونَ** -الى قوله- **مُخْضَرُونَ** قال في المجمع: الروضه البستان المتناهي منظرا و طيبا. انتهى. و قال في المفردات: الجبر الأثر المستحسن -الى أن قال- و قوله عزّ و جل: «**فِي رَوْضِهِ يُحْبَرُونَ**» أى يفرحون حتى يظهر عليهم حبار نعيمهم. انتهى.

و المراد بتفرّق الخلق يومئذ تميّز المؤمنين الصالحين من المجرمين و دخول هؤلاء النار و دخول اولئك الجنة على ما يشير اليه الآيتان التاليتان.

و لزوم هذا التميّز و التفرّق في الوجود هو الذى أخذه الله سبحانه حجه على ثبوت المعاد حيث قال: **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَ مَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** (الجاثية ٢١).

قوله تعالى: **فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ** لما ذكر أنه يبدأ الخلق ثم يعيدهم

و يرجعهم للقائه فيفرقهم طائفتين: أهل الجنة و النعمه و أهل النار و العذاب، أما أهل الجنة فهم المؤمنون العاملون للصلوات و أما أهل النار فهم الكفار المكذبون لآيات الله و قد ذكر أنهم كانوا فى الدنيا أهل قوه و نعمه لكنهم نسوا الآخره و كذبوا بآيات الله و استهزءوا بها حتى انتهى بهم الأمر الى سوء العذاب عذاب الاستئصال جزاء لظلمهم أنفسهم و ما ظلمهم الله و لكن كانوا أنفسهم يظلمون.

فتحصّل من ذلك أن فى دار الخلقه تدبيراً إلهياً متقناً صالحاً جميلاً. على أجمل ما يكون و أن للانسان على توالى الأزمنه و الدهور آثاماً و خطيئات من العقيدته السيئه فى حق ربه و اتخاذ شركاء له و إنكار لقائه الى سائر المعاصى.

ذيل الكلام بتسبيحه كلما تجدد حين بعد و تحميده على صنعه و تدبيره فى السماوات و الأرض و هو مجموع العالم المشهود فهو سبحانه منزّه عن هذه الاعتقادات الباطله و الأعمال الرديّه و محمود فى جميع ما خلقه و دبّره فى السماوات و الأرض.

و من هناك يظهر:

أولاً: أن التسبيح و التحميد فى الآيتين إنشاء تنزيه و ثناء منه تعالى لا من غيره حتى يكون المعنى: قولوا سبحان الله و قولوا الحمد لله فقد تكرر فى كلامه تعالى تسبيحه و تحميده لنفسه كقوله: **سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ (الصفات ١٨٠/)** و قوله: **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ (الفرقان ١/)**.

و ثانياً: أن المراد بالتسبيح و التحميد معناهما المطلق دون الصلوات اليوميه المفروضه كما يقول به أكثر القائلين بكون القول مقدراً. و المعنى: قولوا سبحان الله و قولوا الحمد لله.

و ثالثاً: أن قوله: **«وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»** معترضه واقعه بين المعطوف و المعطوف عليه، و قوله: **«وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ»** معطوفان على محل **«حِينَ تُمَسُونَ»** لا. على قوله: **«فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»** حتى يختص المساء و الصباح بالتسبيح و السماوات و الأرض و العشى و الظهيره بالتحميد بل الأوقات و ما فيها للتسبيح و الأمكنه و ما فيها للتحميد.

فالسباق يشير الى أن ما فى السماوات و الأرض من خلق و أمر هو لله يستدعى بحسنه حمدا و ثناء لله سبحانه و أن للانسان على مر الدهور و تغير الأزمنه و الأوقات من الشرك و المعصيه ما يتنزه عنه ساحه قدسه تعالى و تقدر.

نعم هاهنا اعتبار آخر يتداخل فيه التحميد و التسبيح و هو أن الأزمنه و الأوقات على تغيرها و تصرّمها من جمله ما فى السماوات و الأرض فهى بوجودها يثنى على الله تعالى، ثم كل ما فى السماوات و الأرض بفقرها اليه تعالى و ذلتها دونه و نقصها بالنسبه الى كماله تعالى تسبحه كما قال: **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ (الإسراء ٤٤)**، لكن هذا الاعتبار غير منظور اليه فى الآيتين اللتين نحن فيهما.

قوله تعالى: **يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ** ظاهر إخراج الحى من الميت و بالعكس خلق ذوى الحياه من الأرض الميتة ثم تبديل ذوى الحياه أرضا ميتة، و قد فسّر بخلق المؤمن من الكافر و خلق الكافر من المؤمن فإنه يعدّ المؤمن حيا و الكافر ميتا، قال تعالى: **أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا (الأنعام ١٢٢)**.

و أما إحياء الأرض بعد موتها فهو انتعاش الأرض و ابتهاجها بالنبات فى الربيع و الصيف بعد خمودها فى الخريف و الشتاء، و قوله: **وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ** أى تبعثون و تخرجون من قبوركم بإحياء جديد كإحياء الأرض بعد موتها، و قد تقدم تفسير نظير صدر الآيه و ذيلها مرارا (١).

[سوره الروم (٣٠): الآيات ٢٠ الى ٢٦]

وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ (٢٢) وَ مِنْ آيَاتِهِ مَدَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ ابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَ مِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَ طَمَعًا وَ يُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَهُ مِنَ الْمَارِضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ كُلِّ لَهُ قَانِتُونَ (٢٦)

ص: ١٥

بيان:

قوله تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ المراد بالخلق من تراب انتهاء خلقه الإنسان الى الأرض فإن مراتب تكوّن الإنسان من مضغه أو علقه أو نطفه أو غيرها مركبات أرضيه تنتهي الى العناصر الأرضيه.

وقوله: ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ إِذَا فجائيه أى يفاجئكم أنكم اناسى تنتشرون فى الأرض أى يخلقكم من تركيبات أرضيه المترقب منها كينونه أرضيه ميتة أخرى

ص: ١٦

مثلها لكن يفاجئكم دفعه أنه يصير بشرا ذوى حياه و شعور عقلى ينتشرون فى الأرض فى سبيل تدمير أمر الحياه فقوله: «ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ» فى معنى قوله: ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ (المؤمنون ١٤).

فخلق الإنسان أى جمع أجزائه من الأرض و تأليفها آيه و كينونه هذا المجموع إنسانا ذا حياه و شعور عقلى آيه أو آيات أخر تدل على صانع حى عليم يدبر الأمر و يجرى هذا النظام العجيب.

و قد ظهر بهذا المعنى أن «ثُمَّ» للتراخى الرتبى و الجملة معطوفه على قوله: «خَلَقَكُمْ» لا على قوله: «أَنْ خَلَقَكُمْ» .

قوله تعالى: وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قال الراغب: يقال لكل واحد من القرينين من الذكر و الانثى من الحيوانات المتزاوجه: زوج و لكل قرينين فيها و فى غيرها: زوج، قال تعالى: فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنثَى وَ قَالَ: وَ زَوْجَكَ الْجَنَّةَ وَ زَوْجَهُ لَغَةً رَدِيئَةً وَ جَمَعَهَا زَوَاجَاتٍ- إلى أن قال- و جمع الزوج أزواج. انتهى.

فقوله: أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا أى خلق لأجلكم -أو لينفعكم- من جنسكم قرائن و ذلك أن كل واحد من الرجل و المرأه مجهز بجهاز التناسل تجهيزا يتم فعله بمقارنه الآخر و يتم بمجموعهما أمر التوالد و التناسل فكل واحد منهما ناقص فى نفسه مفتقر الى الآخر و يحصل من المجموع واحد تام له أن يلد و ينسل، و لهذا النقص و الافتقار يتحرك الواحد منهما الى الآخر حتى إذا اتصل به سكن اليه لأن كل ناقص مشتاق الى كماله و كل مفتقر مائل الى ما يزيل فقره و هذا هو الشبق المودع فى كل من هذين القرينين.

و قوله: وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً الموده كأنها الحب الظاهر أثره فى مقام العمل فنسبه الموده الى الحب كنسبه الخضوع الظاهر أثره فى مقام العمل الى الخضوع الذى هو

نوع تأثر نفسانى عن العظمه و الكبرياء.

و الرحمه نوع تأثر نفسانى عن مشاهده حرمان المحروم عن الكمال و حاجته الى رفع نقيصته يدعو الراحم الى إنجائه من الحرمان و رفع نقصه.

و من أجل موارد الموده و الرحمه المجتمع المنزلى فإن الزوجين يتلازمان بالموده و المحبه و هما معا و خاصه الزوجه يرحمان الصغار من الأولاد لما يريان ضعفهم و عجزهم عن القيام بواجب العمل لرفع الحوائج الحيويه فيقومان بواجب العمل فى حفظهم و حراستهم و تغذيتهم و كسوتهم و إيوائهم و تربيتهم و لو لا هذه الرحمه لا نقطع النسل و لم يعيش النوع قط.

و نظير هذه الموده و الرحمه مشهود فى المجتمع الكبير المدنى بين أفراد المجتمع فالواحد منهم يأنس بغيره بالموده و يرحم المساكين و العجزة و الضعفاء الذين لا يستطيعون القيام بواجبات الحياه.

و المراد بالموده و الرحمه فى الآيه الاوليان على ما يعطيه مناسبه السياق أو الأخيرتان على ما يعطيه إطلاق الآيه.

و قوله: **لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** لانهم إذا تفكروا فى الاصول التكوينية التى يبعث الإنسان الى عقد المجتمع من الذكوره و الانوثة الداعيتين الى الاجتماع المنزلى و الموده و الرحمه الباعثتين على الاجتماع المدنى ثم ما يترتب على هذا الاجتماع من بقاء النوع و استكمال الإنسان فى حياته الدنيا و الاخرى عثروا من عجائب الآيات الإلهيه فى تدبير أمر هذا النوع على ما يبهر به عقولهم و تدهش به أحلامهم.

قوله تعالى: **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ** الى آخر الآيه؛ الظاهر أن يكون المراد باختلاف الألسن اختلاف اللغات من العربيه و الفارسيه و الاردويه و غيرها و باختلاف الألوان اختلاف الامم فى ألوانهم كالبياض و السواد و الصفرة و الحمرة.

و يمكن أن يستفاد اختلاف الألسنه من جهه النغم و الأصوات و نحو التكلم و النطق و باختلاف الألوان اختلاف كل فردين من أفراد الانسان بحسب اللون لو دقق فيه النظر على ما يقول به علماء هذا الشأن.

فالباحثون عن العالم الكبير يعثرون فى نظام الخلقه على آيات دقيقه داله على أن الصنع و الإيجاد مع النظام الجارى فيه لا يقوم إلا بالله و لا ينتهى إلا اليه.

قوله تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛الفضل الزيادة على مقدار الحاجه و يطلق على العطيهِ لأن المعطى إنما يعطى ما فضل من مقدار حاجته،و المراد به فى الآيه الكريمه الرزق فابتغاء الفضل طلب الرزق.

و فى خلق الإنسان ذا قوى فعّاله تبعته الى طلب الرزق و رفع حوائج الحياه للبقاء بالحركه و السعى ثم هدايته الى الاستراحه و السكون لرفع متاعب السعى و تجديد تجهيز القوى و تخصيص الليل و النهار المتعاقبين للسعى و السكون و التسبيب الى وجود الليل و النهار بأوضاع سماويه قائمه بالأرض و الشمس لآيات نافعه لمن له سمع و اع يعقل ما يسمع فإذا وجده حقا اتبعه.

قوله تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبُرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا الظاهر أن الفعل نَزَلَ منزله المصدر و لذلك لم يصدر بأن المصدريه كما صدر به قوله: «أَنْ خَلَقَكُمْ» و قوله: «أَنْ خَلَقَ لَكُمْ» و تنزيل الفعل منزله المصدر لغه عربيه جيده و عليه يحمل المثل السائر«و تسمع بالمعيديّ خير من أن تراه»و لا ضير فى حمل كلامه تعالى عليه فهو تعالى يأتي فى مفتتح هذه الآيات بفنون التعبير كقوله:

﴿مَنَامُكُمْ﴾

﴿يُرِيكُمْ﴾

﴿أَنْ تَقُومَ﴾ .

و قوله: «خَوْفًا وَطَمَعًا» أى خوفًا من الصاعقه و طمعا فى المطر، و قوله: «و يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» تقدم تفسيره كرارا، و قوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ» أى إن أهل التعقل يفقهون أن هناك عنايه متعلقه بهذه المصالح فليس مجرد اتفاق و صدفه.

قوله تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ القيام مقابل القعود و لما كان أعدل حالات الانسان حيث يقوى به على عامه أعماله استعير لثبوت الشىء و استقراره على أعدل حالاته كما يستعار لتدبير الأمر، قال تعالى: أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ (الرعد/ ٣٣).

و المراد بقيام السماء و الأرض بأمر من الله ثبوتهما على حالهما من حركة و سكون و تغير و ثبات بأمره تعالى و قد عزّف أمره بقوله: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس/ ٨٢).

و قوله: ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ «إِذَا» الاولى شرطيه و «إِذَا» الثانيه فجائيه قائمه مقام فاء الجزاء و «مِنَ الْأَرْضِ» متعلق بقوله: «دَعْوَةً» و الجمله معطوفه على محل الجمله الاولى لأن المراد بالجمله أعنى قوله: «ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ» الخ؛ البعث و الرجوع الى الله و ليس فى عداد الآيات بل الجمله إخبار بأمر احتج عليه سابقا و سيحتج عليه لاحقا.

و أما قول القائل: إن الجمله على تأويل المفرد و هى معطوفه على «أَنْ تَقُومَ» و التقدير و من آياته قيام السماء و الأرض بأمره ثم خروجكم إذا دعاكم دعوه من الأرض.

فلازمه كون البعث معدودا من الآيات و ليس منها على أن البعث أحد الاصول الثلاثه التى يحتج بالآيات عليه، و لا يحتج به على التوحيد مثلا بل لو احتج فبالتوحيد عليه فافهم ذلك.

و قد رتبت الفواصل أعنى قوله: «يَتَفَكَّرُونَ» لِلْعَالَمِينَ «يَسْمَعُونَ» «يَعْقِلُونَ» على هذا

الترتيب لأن الإنسان يتفكر فيصير عالما ثم إذا سمع شيئا من الحقائق وعاه ثم عقله و الله أعلم.

قوله تعالى: وَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ كانت الآيات المذكوره مسوقه لإثبات ربوبيته تعالى و ألوهيته كما تقدمت الإشارة اليه و لما انتهى الكلام الى ذكر البعث و الرجوع الى الله عقب ذلك بالبرهان على إمكانه و الحجه مأخوذه من الخلق و التدبير المذكورين فى الآيات السابقه.

فقوله: وَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إشاره الى إحاطه ملكه الحقيقى لجميع من فى السماوات و الارض و هم المحشورون اليه و ذلك لان وجودهم من جميع الجهات قائم به تعالى قيام فقر و حاجه لا استقلال و لا استغناء لهم عنه بوجه من الوجوه و هذا هو الملك الحقيقى الذى أثره جواز تصرف المالك فى ملكه كيف شاء فله تعالى أن يتصرف فى مملوكيه بنقلهم من النشأه الدنيا الى النشأه الآخره.

و قد أكد ذلك بقوله: «كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ» و القنوت لزوم الطاعه مع الخضوع-على ما ذكره الراغب فى المفردات-و المراد بالطاعه مع الخضوع الطاعه التكوينيّه-على ما يعطيه السياق- دون التشريعيه التى ربما تخلفت.

و ذلك أنهم الملائكه و الجن و الإنس فأما الملائكه فليس عندهم إلا خضوع الطاعه، و أما الجن و الإنس فهم مطيعون منقادون للعلل و الاسباب الكونيه و كلما احتالوا فى الغاء أثر عله من العلل أو سبب من الاسباب الكونيه توسلوا الى عله أخرى و سبب آخر كونى ثم علمهم و ارادتهم كاختيارهم جميعا من الأسباب الكونيه فلا يكون إلا ما شاء الله أى الذى تمت عله فى الخارج و لا يتحقق مما شاءوا إلا ما أذن فيه و شاءه فهو المالك لهم و لا يملكونه.

[سوره الروم (٣٠): الآيات ٢٧ الى ٣٩]

وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) وَ إِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَ إِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَ إِن تَصَّبَّ بِهِمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَآتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَ مَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبٍّ لَيْرُبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَزُبُّوا عِنْدَ اللَّهِ وَ مَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاهٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)

قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ بَدَأَ الْخَلْقَ إِشْأَوْهُ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ وَالْإِعَادَةَ إِشْأَاءً بَعْدَ إِشْأَاءٍ.

وقوله: وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ الضمير الأول للإعادة المفهوم من قوله: «يُعِيدُهُ» والضمير الثاني راجع إليه تعالى على ما يتبادر من السياق (١).

والذي ينبغي أن يقال أن الجملة أعنى قوله: «وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» معلل بقوله بعده: «وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» فهو الحجة المثبتة لقوله: «وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» .

والمستفاد من قوله: «وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى» الخ؛ أن كل وصف كمالى يمثل به شىء فى السماوات والأرض كالحياه والقدره و العلم و الملك و الجود و الكرم و العظمه و الكبرياء و غيرها فلله سبحانه أعلى ذلك الوصف و أرفعها من مرتبه تلك الموجودات المحدوده كما قال: وَ لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ

و ذلك أن كل وصف من أوصاف الكمال اتصف به شيء مما في السماوات و الأرض فله في حد نفسه ما يقابله فإنه مما أفاضه الله عليه و هو في نفسه خال عنه فالحيّ منها ميت في ذاته و القادر منها عاجز في ذاته و لذلك كان الوصف فيها محدودا مقيدا بشيء دون شيء و حال دون حال، و هكذا فالعلم فيها مثلا- ليس مطلقا غير محدود بل محدود مخلوط بالجهل بما وراءه و كذلك الحياه و القدره و الملك و العظمه و غيرها.

و الله سبحانه هو المفيض لهذه الصفات من فضله و الذى له من معنى هذه الصفات مطلق غير محدود و صرف غير مخلوط فلا جهل في مقابل علمه و لا ممات يقابل حياته و هكذا فله سبحانه من كل صفة يتصف به الموجودات السماويه و الأرضيه- و هي صفات غير ممحضة و لا مطلقه- ما هو أعلاها أى مطلقها و محضها.

فكل صفة توجد فيه تعالى و فى غيره من المخلوقات، فالذى فيه أعلاها و أفضلها و الذى فى غيره مفضول بالنسبه الى ما عنده.

و لما كانت الإيعاده متصفه بالهون إذا قيس الى الإنشاء فيما عند الخلق فهو عنده تعالى أهون أى هون محض غير مخلوط بصعوبه و مشقه بخلاف ما عندنا معاشر الخلق و لا- يلزم منه أن يكون فى الإنشاء صعوبه و مشقه عليه تعالى لأن المشقه و الصعوبه فى الفعل تتبع قدره الفاعل بالتعاكس فكما قلت القدره كثرت المشقه و كلما كثرت قلت حتى إذا كانت القدره غير متناهيه انعدمت المشقه من رأس، و قدرته تعالى غير متناهيه فلا يشقّ عليه فعل أصلا و هو المستفاد من قوله: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيٌّ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» فإن القدره إذا جاز تعلقها بكل شيء لم تكن إلا غير متناهيه فافهم ذلك.

و قوله: «وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» تقدم أنه فى مقام الحجج بالنسبه الى قوله: «وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» و محصله أن كل صفة كماليه يتصف به شيء مما فى

السموات و الأرض من جمال أو جلال فإن لله سبحانه أعلاها أى مطلقها من غير تقييد و محضها من غير شوب و صرفها من غير خلط.

و قوله: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فى مقام التعليل بالنسبه الى قوله: «وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى» الخ؛ أى إنه تعالى عزيز واجد لكل ما يفقده غيره ممتنع من أن يمتنع عليه شىء حكيم لا- يعرض فعله فتور، و لو لم تكن صفه من صفاته مثلا- أعلى مما عند غيره من الممكنات كانت محدوده غير مطلقه و مخلوطه غير صرفه غير خاليه من النقص و القصور فاستدلّه ذاك القصور فلم يكن عزيزا على الإطلاق و أحدث ذاك النقص فى فعله ثلمه و فتورا فلم يكن حكيما على الإطلاق.

قوله تعالى: ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَيْلٌ لَكُمْ مِنْ مَلَكْتِكُمْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءِ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ الْخ؛ «مِنْ» فى قوله: «مِنْ أَنْفُسِكُمْ» لا ابتداء الغايه أى ضرب لكم مثلا متخذا من أنفسكم منتزعا من الحالات التى لديكم، و قوله: «هَيْلٌ لَكُمْ» شروع فى المثل المضروب و الاستفهام للإنكار، و «مَا» فى «مِنْ مَا مَلَكْتُمْ» للنوع أى من نوع ما ملكت أيمانكم من العبيد و الإماء، و «مِنْ» فى «مِنْ شُرَكَاءِ» زائده و هو مبتدأ، و قوله: «فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ» تفریع على الشركه، و «فَأَنْتُمْ» خطاب شامل للمالكين و المملوكين على طريق التغليب، و قوله: «تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ» أى تخافون المماليك الشركاء أن تستبدوا فى تصرف المال المشترك من غير إذن منهم و رضى كما تخافون أنفسكم من الشركاء الاحرار.

و هذا مثل ضربه الله لبيان بطلان ما يزعمون أن الله سبحانه مما خلق شركاء فى الالوهيه و الربوبيه و قد ألقى المثل فى صوره الاستفهام الإنكارى: هل يوجد بين ممالیککم من العبيد و الإماء من يكونون شركاء لكم فى الاموال التى رزقناکم - و الحال أنهم ممالیککم لكم تملكونهم و ما فى أيديهم - بحيث تخافونهم من التصرف فى أموالکم بغير اذن منهم و رضى كما تخافون

لا يكون ذلك أبداً ولا يجوز أن يكون المملوك شريكاً لمولاه في ماله و إذا لم يجز فكيف يجوز أن يكون بعض من خلقه الله كالملائكة و الجن و هم عبيده المملوكون شركاء له فيما يملك من مخلوقيه و آلهه و أربابا من دونه؟

ثم تمم الكلام بقوله: «كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» و فيه تمهيد لما يتلوه من الكلام.

قوله تعالى: بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ إضراب عما يستفاد من ذيل الآيه السابقه و التقدير و هؤلاء المشركون لم يبنوا شركهم على التعقل بل اتبعوا في ذلك أهواءهم بغير علم.

و كان مقتضى الظاهر أن يقال: بل اتبع الذين أشركوا و إنما بدله من قوله: «بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا» فوصفهم بالظلم ليتعلل به ما سببهم بالضلال في قوله: «فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ» فالظلم يستتبع الإضلال الإلهي، قال تعالى: يَتَّبِعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (إبراهيم ٢٧).

فقوله: فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ استفهام إنكارى مدلوله الإيأس من نعمه الهدايه للمشركين المتبعين لأهوائهم مع ظهور الحق لهم لمكان ظلمهم الموجب لإضلالهم و قد تكرر في كلامه تعالى «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» .

و قوله: وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ نفى لنجاتهم بنصره الناصرين لهم من غيرهم بعد ما لم ينالوا النجاه من الضلال و تبعاته من عند أنفسهم لإضلال الله لهم و نفى الجمع دليل على أن لغيرهم ناصرين كالشفعاء.

و قول القائل إن معنى نفى الناصرين لهم أنه ليس لواحد منهم ناصر واحد على ما هو المشهور من مقابله الجمع بالجمع غير مطرد.

و معنى الآيه: بل اتبع الذين ظلموا بشركهم أهواءهم بغير علم و تعقل فأضلهم الله بظلمهم

و لا هادى يهديهم و ليس لهم ناصرون ينصرونهم.

قوله تعالى: فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ الكلام متفرع على ما تحصيل من الآيات السابقة المثبته للمبدإ و المعاد أى إذا ثبت أن الخلق و التدبير لله وحده لا شريك له و هو سبيح و يحاسب و لا نجاه لمن أعرض عنه و أقبل على غيره فأقم وجهك للدين و الزمه فإنه الدين الذى تدعو اليه الخلقه الإلهيه.

فقوله: فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ المراد بإقامه الوجه للدين الإقبال عليه بالتوجه من غير غفله منه كالمقبل على الشىء بقصر النظر فيه بحيث لا يلتفت عنه يمينا و شمالا و الظاهر أن اللام فى الدين للعهد و المراد به الإسلام.

و قوله: حَنِيفًا حال من فاعل أقم و جوز أن يكون حالا من الدين أو حالا من الوجه و الأول أظهر و أنسب للسياق، و الحنف ميل القدمين الى الوسط و المراد به الاعتدال.

و قوله: فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا الفطره بناء نوع من الفطر بمعنى الإيجاد و الإبداع و «فِطْرَتَ اللَّهِ» منصوب على الإغراء أى الزم الفطره ففيه إشاره الى أن هذا الدين الذى يجب إقامه الوجه له هو الذى يهتف به الخلقه و يهدى اليه الفطره الإلهيه التى لا تبدل لها.

و ذلك أنه ليس الدين إلا سنّه الحياه و السبيل التى يجب على الإنسان أن يسلكها حتى يسعد فى حياته فلا غايه للانسان يتبعها إلا السعاده و قد هدى كل نوع من أنواع الخليقه الى سعاده التى هى بغيه حياته بفطرته و نوع خلقته و جهّز فى وجوده بما يناسب غايته من التجهيز، قال تعالى: رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (طه ٥٠)، و قال: الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (الأعلى ٣).

فالانسان كسائر الأنواع المخلوقه مفطور بفطره تهديه الى تتميم نواقصه و رفع حوائجه

و تهتف له بما ينفعه و ما يضره في حياته، قال تعالى: وَ نَفْسٍ وَّ مَا سَوَّاهَا فَالْتَهُمَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا (الشمس ٨)، و هو مع ذلك مجهز بما يتم له به ما يجب له أن يقصده من العمل، قال تعالى: ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (عبس ٢٠).

فلانسان فطره خاصه تهديه الى سنه خاصه في الحياه و سبيل معينه ذات غايه مشخصه ليس له إلا أن يسلكها خاصه و هو قوله: «فَطَرَتِ اللّٰهُ التّٰى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيَّهَا» و ليس الانسان العائش في هذه النشأه إلا نوعا واحدا لا يختلف ما ينفعه و ما يضره بالنظر الى هذه البنيه المؤلفه من روح و بدن فما للانسان من جهه أنه إنسان إلا سعادته واحده و شفاء واحد فمن الضروري حينئذ أن يكون تجاه عمله سنه واحده ثابتة يهديه إليها هاد واحد ثابت.

و ليكن ذاك الهادى هو الفطره و نوع الخلقه و لذلك عَقَّبَ قوله: «فَطَرَتِ اللّٰهُ التّٰى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيَّهَا» بقوله: «لَا تَبْدِيلَ لِحَلْقِ اللّٰهِ».

فلو اختلفت سعادته الانسان باختلاف أفراده لم ينعقد مجتمع واحد صالح يضمن سعادته الأفراد المجتمعين، و لو اختلفت السعاده باختلاف الأقطار التي تعيش فيها الامم المختلفه بمعنى أن يكون الأساس الوحيد للسنه الاجتماعيه أعنى الدين هو ما يقتضيه حكم المنطقه كان الانسان أنواعا مختلفه باختلاف الأقطار، و لو اختلفت السعاده باختلاف الأزمنه بمعنى أن تكون الأعصار و القرون هي الأساس الوحيد للسنه الدينيه اختلفت نوعيه كل قرن و جيل مع من ورثوا من آباءهم أو أخلفوا من أبناءهم و لم يسر الاجتماع الانساني سير التكامل و لم تكن الانسانيه متوجهه من النقص الى الكمال إذ لا يتحقق النقص و الكمال إلا مع أمر مشترك ثابت محفوظ بينهما.

و ليس المراد بهذا إنكار أن يكون لاختلاف الأفراد أو الأمكنه أو الأزمنه بعض التأثير في انتظام السنه الدينيه في الجمله بل إثبات أن الأساس للسنه الدينيه هو البنيه الانسانيه التي هي حقيقه واحده ثابتة مشتركه بين الأفراد، فلانسانيه سنه واحده ثابتة بثبات أساسها

الذى هو الانسان و هى التى تدير رضى الانسانيه مع ما يلحق بها من السنن الجزئيه المختلفه باختلاف الافراد أو الأمكنه أو الأزمنه.

و هذا هو الذى يشير الى قوله بعد: «ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» و سنزید المقام إيضاحاً فى بحث مستقل إن شاء الله تعالى (١).

قوله تعالى: مُبَيِّنَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ تعميم للخطاب بعد تخصيصه بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم نظير قوله: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ (الطلاق ١)، و قوله: فَاسْتَيْقِمْ كَلِمَاتُكَ أُمْرَتًا وَ مَنْ تَابَ مَعَكَ وَ لَا تَطْغَوْا (هود/ ١١٢)، فيثول المعنى الى نحو من قولنا: فأقم وجهك للدين حنيفاً أنت و من معك مبينين الى الله، و الإنابه الرجوع بالتوبه.

و قوله: وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ التقوى بحسب دلالة المقام يشمل امتثال أوامره و الانتهاء عن نواهيه تعالى فاختصاص إقامه الصلاه من بين سائر العبادات بالذكر للاعتناء بشأنها فهى عمود الدين.

و قوله: وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ القول فى اختصاصه من بين سائر المحرمات بالذكر نظير القول فى الصلاه فالشرك بالله أكبر الكبائر الموبقه، و قد قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (النساء ٤٨)، الى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيْعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ «مِنَ» للتبيين و «مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ» الخ؛ بيان للمشركين و فيه تعريفهم بأخص صفاتهم فى دينهم و هو تفرقهم فى دينهم و عودهم شيعه شيعه و حزبا حزبا يفرح و يسر كل شيعه و حزب بما عندهم من الدين و السبب فى ذلك ما ذكره قبيل هذا بقوله: بَلِ

ص: ٢٩

(١ - ١). الروم ٢٧-٣٩: بحث حول قوله تعالى: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا»؛ الفطره.

إَتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ فَبَيْنَ أَنَّهُمْ بَنَوْا دِينَهُمْ عَلَىٰ أُسَاسِ الْأَهْوَاءِ وَأَنَّهُ لَا يَهْدِيهِمْ وَلَا هَادِيَ غَيْرَهُ.

قوله تعالى: وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُبِينِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ التعبير بالمس للدلالة على القله والخفه وتنكير ضر ورحمه أيضا لذلك والمعنى: إذا أصاب الناس شيء من الضر ولو قليلا كمرض ما و فقر ما و شدة ما دعوا ربهم وهو الله سبحانه حال كونهم راجعين من غيره ثم إذا أذاقهم الله من عنده رحمه إذا فريق من هؤلاء الناس بربهم الذي كانوا يدعونه ويعترفون بربوبيته يشركون باتخاذ الأنداد والشركاء.

أى إنهم كفرون للنعمة طبعاً وإن اعترفوا بها عند الضرّ وقد أخذ لذلك فريقاً منهم لأن منهم من ليس كذلك.

قوله تعالى: لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ تهديد لاولئك المشركين عند إذاقه الرحمه واللام فى «لِيَكْفُرُوا» للأمر الغائب وقوله: «فَتَمَتَّعُوا» متفرع على سابقه وهو أمر آخر والأمران جميعاً للتهديد، والالتفات من الأمر الغائب الى الأمر الحاضر لثوران الوجد والسخط من تفریطهم فى جنب الله واستهانتهم بأمره فقد بلغ منهم ذلك أن يتضرعوا عند الضرر و يكفروا إذا كشف.

قوله تعالى: أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ «أَمْ» منقطعه والمراد بالإنزال الإعلام أو التعليم مجازاً، والسلطان البرهان، والمراد بالتكلم الدلالة مجازاً فالمعنى: بل أعلمناهم برهاناً فهو يدل على ما كانوا به يشركون أو بشركهم.

ويمكن أن يراد بالسلطان ذو السلطان وهو الملك فلا- مجاز فى الإنزال و التكلم والمعنى: بل أنزلنا عليهم ملكاً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون أو بشركهم.

قوله تعالى: وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا

قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ الإِذَاقَةَ كَالْمَسِّ تَدُلُّ عَلَى قَلِيلِ النَّيْلِ وَ يَسِيرِهِ، وَ الْقُنُوطُ الْيَأْسُ.

وَ إِذَا الْأُولَى شَرْطِيَّةٌ وَ الثَّانِيَّةُ فَجَائِيَّةٌ، وَ الْمَقَابِلَةُ بَيْنَ «إِذَا» فِي إِذَاقَةِ الرَّحْمَةِ وَ «إِنْ» فِي إِصَابَةِ السَّيْئَةِ لِأَنَّ الرَّحْمَةَ كَثِيرَةٌ قَطْعِيَّةٌ وَ السَّيْئَةُ قَلِيلَةٌ اِحْتِمَالِيَّةٌ، وَ نِسْبَةُ الرَّحْمَةِ إِلَيْهِ تَعَالَى دُونَ السَّيْئَةِ لِأَنَّ الرَّحْمَةَ وَجُودِيَّةٌ مَفَاضَةٌ مِنْهُ تَعَالَى وَ السَّيْئَةُ عَدَمِيَّةٌ هِيَ عَدَمُ الْإِفَاضَةِ وَ لِذَا عَلَّلَهَا بِقَوْلِهِ:

«بِمَا قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ»، وَ فِي تَعْلِيلِ السَّيْئَةِ بِذَلِكَ وَ عَدَمِ التَّعْلِيلِ فِي جَانِبِ الرَّحْمَةِ بِشَيْءٍ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الرَّحْمَةَ تَفْضَلُ.

وَ التَّعْبِيرُ فِي الرَّحْمَةِ بِقَوْلِهِ: «فَرِحُوا» وَ فِي السَّيْئَةِ بِقَوْلِهِ: «إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ» لِلدَّلَالَةِ عَلَى حَدُوثِ الْقُنُوطِ وَ لَمْ يَكُنْ بِمُتَرَقِّبٍ فِيَّانِ الرَّحْمَةَ وَ السَّيْئَةَ بِيَدِ اللَّهِ وَ الرَّحْمَةَ وَاسِعَةً وَ لِهَذَا عَبَّرَ بِالْمُضَارَعِ الدَّالِّ عَلَى الْحَالِ لِمُتَمَثِّلِ حَالِهِمْ.

وَ الْمُرَادُ بِالآيَةِ أَنَّ النَّاسَ لَا يَعْدُو نَظَرَهُمْ ظَاهِرٌ مَا يَشَاهِدُونَهُ مِنَ النِّعْمَةِ وَ النِّقْمَةِ إِذَا وَجَدُوا فَرَحُوا بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَبَصَّرُوا وَ يَعْقِلُوا أَنَّ الْأَمْرَ بِيَدِ غَيْرِهِمْ وَ بِمَشِيئِهِ مِنْ رَبِّهِمْ إِذَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَ إِذَا فَقَدُوا قَنَطُوا كَأَنَّ لَيْسَ ذَلِكَ بِإِذْنِ مَنْ رَبَّهُمْ وَ إِذَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَأْذَنْ وَ فَتَحَ بَابَ النِّعْمَةِ فَهَمَّ ظَاهِرِيُونَ سَطْحِيُونَ.

وَ بِهَذَا يَتَضَحُّ أَنَّ لَا تَدَافِعَ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَ بَيْنَ قَوْلِهِ السَّابِقِ: وَ إِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ؛ وَ ذَلِكَ أَنَّ مَدْلُولَ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ أَفْهَامَهُمْ سَطْحِيَّةٌ إِذَا وَجَدُوا فَرَحُوا وَ إِذَا فَقَدُوا قَنَطُوا وَ مَدْلُولُ تِلْكَ أَنَّهُمْ إِذَا وَجَدُوا فَرَحُوا وَ إِذَا فَقَدُوا دَعَا اللَّهَ وَ هُمْ قَانِطُونَ مِنَ الشَّيْءِ وَ أَسْبَابُهُ مُنِيبِينَ رَاجِعِينَ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ فَلَا تَدَافِعَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ بَيَانٌ لِحُطَّتْهُمْ فِي الْمُبَادَرَةِ إِلَى الْفَرَحِ وَ الْقُنُوطِ عِنْدَ إِذَاقَةِ الرَّحْمَةِ وَ إِصَابَةِ السَّيْئَةِ فَإِنَّ الرِّزْقَ فِي سَعْتِهِ وَ ضَيْقِهِ تَابِعٌ لِمَشِيئَةِ اللَّهِ فَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الرَّحْمَةَ الَّتِي

ذاقها و السيئه التي أصابته ممكنه الزوال بمشيئه الله سبحانه و لا موجب للفرح بما لا يؤمن فقدته و لا للقنوط مما يرجى زواله.

و أما أنه أمر ظاهر للانسان مقطوع به كأنه يراه فلأن الرزق الذى يناله الانسان أو يكتسبه متوقف الوجود على ألوف و ألوف من الأسباب و الشرائط ليس الانسان الذى يراه لنفسه إلا أحد تلك الأسباب و لا السبب الذى يركن اليه و يطيب به نفسا إلا بعض تلك الأسباب و عامه الأسباب منتهيه اليه سبحانه فهو الذى يعطى و يمنع و هو الذى يبسط و يقدر أى يوسع و يضيق، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: **فَمَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَ الْمَسْكِينِ وَ ابْنَ السَّبِيلِ الخ؛** ذو القربى صاحب القرابه من الأرحام و المسكين أسوأ حالا من الفقير و ابن السبيل المسافر ذو الحاجه، و إضافه الحق الى الضمير تدل على أن لذى القربى حقا ثابتا، و الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، فظاهر الآيه بما تحتف به من القرائن أن المراد بها الخمس و التكليف للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و يتبعه غيره ممن كلف بالخمس، و القرابه على أى حال قرابه النبي صلى الله عليه و آله و سلم كما فى آيه الخمس، هذا كله على تقدير كون الآيه مدنيه و أما على تقدير كونها مكيه كسائر آيات السوره فالمراد مطلق الإحسان للقرابه و المسكين و ابن السبيل.

و لعموم الآيه معنى عمم ذكره أثره الجميل فقال: **«ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَ أَوْلِيكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»**.

قوله تعالى: **وَ مَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّيَرْبُؤَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَ مَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ** الربا نماء المال، و قوله: **«لِّيَرْبُوا»** الخ؛ يشير الى وجه التسميه، فالمراد أن المال الذى تؤتونه الناس ليزيد فى أموالهم لا إرادته لوجه الله-بقريته ذكر إرادته الوجه فى مقابله-فليس يزيد و ينمو عند الله أى لا تثابون عليه لعدم قصد الوجه.

وقوله: **وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاهٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغَفُونَ** المراد بالزكاة مطلق الصدقة أى إعطاء المال لوجه الله من غير تمييز، والمضعف ذو الضعف، والمعنى: و ما أعطيتم من المال صدقة تريدون وجه الله فأولئك هم الذين يضعف لهم ما لهم أو ثوابهم.

فالمراد بالربا و الزكاة بقريته المقابله و ما احتف بهما من الشواهد، الربا الحلال و هو العطيته من غير قربه، و الصدقة و هى إعطاء المال مع قصد القربه. هذا كله على تقدير كون الآية مكيه و أما على تقدير كونها مدنيه فالمراد بالربا الربا المحرم و بالزكاة هى الزكاة المفروضه.

و هذه الآية و التى قبلها أشبه بالمدينيات منهما بالمكيات و لا اعتبار بما يدعى من الروايه أو الإجماع المنقول (١)(٢).

[سوره الروم (٣٠): الآيات ٤٠ الى ٤٧]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥) وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِيَجْزِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)

ص: ٣٣

١ - ١) الروم ٢٧-٣٩: بحث روائى فى: التوحيد؛ الدين الفطرى؛ فطره الله التى فطر الناس عليها؛ عله بكاء الاطفال؛ ذى القربى؛ فدك؛ حكمه بعض العبادات.

٢ - ٢) الروم ٢٧-٣٩: كلام فى معنى كون الدين فطريا فى فصول.

قوله تعالى: [□]اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ الخ؛ اسم الجلاله مبتدأ و «الَّذِي خَلَقَكُمْ» خبره، وكذا قوله: «مَنْ يَفْعَلُ» الخ؛ مبتدأ خبره «مَنْ شُرَكَائِكُمْ» المقدم عليه والاستفهام إنكارى وقد ذكر فى تركيب الآيه احتمالات أخر.

و المعنى: أن الله سبحانه هو الذى اتصف بكذا وكذا ووصفا من أوصاف الألوهيه و الربوبيه فهل من الآلهه الذين تدعون أنهم آلهه من يفعل شيئا من ذلكم يعنى من الخلق و الرزق و الإماتة و الإحياء و إذ ليس منهم من يفعل شيئا من ذلكم فالله سبحانه هو إلهكم و ربكم لا إله إلا هو.

قوله تعالى: [□]ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ

بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ الْآيَةَ؛ بظاهر لفظها عامه لا- تختص بزمان دون زمان أو بمكان أو بواقعه خاصه، فالمراد بالبرّ و البحر معناهما المعروف و يستوعبان سطح الكره الأرضيه.

و المراد بالفساد الظاهر المصائب و البلايا الظاهره فيهما الشامله لمنطقه من مناطق الأرض من الزلازل و قطع الأمطار و السنين و الأمراض الساريه و الحروب و الغارات و ارتفاع الأمن و بالجمله كل ما يفسد النظام الصالح الجارى فى العالم الأرضى سواء كان مستندا الى اختيار بعض الناس أو غير مستند اليه. فكل ذلك فساد ظاهر فى البر أو البحر مخل بطيب العيش الانسانى.

و قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ أَى بِسَبَبِ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا مِنْ شَرِكٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ الْآيَةَ (الأعراف ٩٦)»؛ و أيضا فى مباحث النبوه من الجزء الثانى من الكتاب أن بين أعمال الناس و الحوادث الكونيه رابطه مستقيمه يتأثر إحداهما من صلاح الاخرى و فسادها.

و قوله: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا اللّامَ لِلغايه، أَى ظَهَرَ مَا ظَهَرَ لِأَجْلِ أَنْ يُذِيقَهُمُ اللّهُ وَبِالْ بَعْضِ أَعْمَالِهِمُ السّيئه بل ليذيقهم نفس ما عملوا و قد ظهر فى صورهِ الوبال و إنما كان بعض ما عملوا لأن الله سبحانه برحمته يعفو عن بعض كما قال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (الشورى ٣٠)﴾.

و الآيه ناظره الى الوبال الدينوى و إذاقه بعضه لأ- كله من غير نظر الى وبال الأعمال الا-خروى فما قيل: إن المراد إذاقه الوبال الدينوى و تأخير الوبال الا-خروى الى يوم القيامه لا- دليل عليه و لعله جعل تقدير الكلام «ليذيقهم بعض جزاء ما عملوا» مع أن التقدير «ليذيقهم جزاء بعض ما عملوا»، لأن الذى يحوجنا الى تقدير المضاف- لو أحوجنا- هو أن الراجع

اليهم ثانيا في صورة الفساد هو جزاء اعمالهم لا نفس اعمالهم فالذى أذيقوا هو جزاء بعض ما عملوا لا بعض جزاء ما عملوا.

و قوله: لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أى يذيقهم ما يذيقهم رجاء أن يرجعوا من شركهم و معاصيهم الى التوحيد و الطاعة.

قوله تعالى: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ أَمْرًا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ أَنْ يَأْمُرَهُمْ أَنْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا إِلَى آثَارِ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ حَيْثُ خَرِبَتْ دِيَارَهُمْ وَ عَفَتْ آثَارُهُمْ وَ بَادُوا عَنْ آخِرِهِمْ وَ انْقَطَعَ دَابِرُهُمْ بِأَنْوَاعٍ مِنَ النَّوَائِبِ وَ الْبَلَايَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ بَعْضَ مَا عَمِلُوا لِيَعْتَبِرَ بِهِ الْمَعْتَبِرُونَ فَيَرْجِعُوا إِلَى التَّوْحِيدِ، فَالآيَةَ فِي مَقَامِ الْإِسْتِشْهَادِ لِمُضْمُونِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ.

قوله تعالى: فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ تَفْرِيعًا عَلَى مَا تَقَدَّمَ أَى إِذَا كَانَ الشَّرْكَ وَ الْكُفْرَ بِالْحَقِّ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ وَ لَهُ وَبَالَ سِيلِحِقٍ بِالْمَتَلْبَسِ بِهِ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ.

و قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ متعلق بقوله: «فَأَقِمَّ» و المراد مصدر ميمي بمعنى الرد و هو بمعنى الراد و اليوم الذى لا مرد له من الله يوم القيامة.

و قوله: يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ أَصْلَهُ يَتَصَدَّعُونَ، وَ التَّصَدُّعُ فِي الْأَصْلِ تَفَرُّقُ أَجْزَاءِ الْأَوَانِي ثُمَّ اسْتَعْمَلَ فِي مَطْلَقِ التَّفَرُّقِ كَمَا قِيلَ، وَ الْمُرَادُ بِهِ - كَمَا قِيلَ - تَفَرُّقَهُمْ يَوْمَئِذٍ إِلَى الْجَنَّةِ وَ النَّارِ.

قوله تعالى: مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ الظاهر أنه تفسير لقوله فى الآيه السابقه: «يَتَفَرَّقُونَ» و قوله: «مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ» أى وبال كفره بتقدير المضاف أو نفس كفره الذى سينقلب عليه نارا يخلد فيها و هذا أحد الفريقين.

و قوله: وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ مهد الفراش بسطه و إبطاؤه،

وهؤلاء الفريق الآخر الذين آمنوا و عملوا الصالحات، و قد جىء بالجزاء «فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ» جمعا نظرا الى المعنى، كما أنه جىء به مفردا فى الشرطيه السابقه «فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ» نظرا الى اللفظ، و اكتفى فى الشرط بذكر العمل الصالح و لم يذكر الإيمان معه لأن العمل إنما يصلح بالإيمان على أنه مذكور فى الآيه التاليه.

و المعنى: و الذين عملوا عملا صالحا-بعد الإيمان-فلاأنفسهم يوطئون ما يعيشون به و يستقرّون عليه.

قوله تعالى: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ قال الراغب:الجزاء الغناء و الكفايه، قال الله تعالى: لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا، و قال: لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا و الجزاء ما فيه الكفايه من المقابله إن خيرا فخير و إن شرا فشرّ، يقال:جزيته كذا و بكذا.

انتهى.

و قوله: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ اللام للغايه و لا ينافى عدّ ما يؤتيهم جزاء-و فيه معنى المقابله-عدّه من فضله و فيه معنى عدم الاستحقاق و ذلك لأنهم بأعيانهم و ما يصدر عنهم من أعمالهم ملك طلق لله سبحانه فلا يملكون لأنفسهم شيئا حتى يستحقوا به أجرا، و أين العبوديه من الملك و الاستحقاق فما يؤتونه من الجزاء فضل من غير استحقاق.

لكنه سبحانه بفضله و رحمته اعتبر لهم ملكا لأعمالهم فى عين أنه يملكهم و يملك أعمالهم فجعل لهم بذلك حقا يستحقونه، و جعل ما ينالونه من الجنه و الزلفى أجرا مقابلا لأعمالهم و هذا الحق المجعول أيضا فضل آخر منه سبحانه.

و منشأ ذلك حبه تعالى لهم لأنهم لما أحبوا ربهم أقاموا وجوههم للدين القيم و اتّبعوا الرسول فيما دعا اليه فأحبهم الله كما قال: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ

و لذا كانت الآيه تعد ما يؤتيهم الله من الثواب جزاء وفيه معنى المقابله و المبادله و تعد ذلك من فضله نظرا الى أن نفس هذه المقابله و المبادله فضل منه سبحانه و منشأه حبه تعالى لهم كما يومئ اليه تذييل الآيه بقوله: «إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ» .

قوله تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِيَجْزِيَ الْفُلُكَ بِأَمْرِهِ وَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، المراد بكون الرياح مبشرات تبشيرها بالمطر حيث تهب قبيل نزوله.

و قوله: وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ عطف على موضع مبشرات لما فيه من معنى التعليل و التقدير يرسل الرياح لتبشركم و ليذيقكم من رحمته و المراد بإذاقه الرحمه إصابه أنواع النعم المترتبه على جريان الرياح كتلقيح الأشجار و دفع العفونات و تصفيه الأجواء و غير ذلك مما يشمله إطلاق الجمله.

و قوله: وَ لِيَجْزِيَ الْفُلُكَ بِأَمْرِهِ أى لجريان الرياح و هبوبها. و قوله: «وَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ» أى لتطلبوا من رزقه الذى هو من فضله.

و قوله: وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ غايه معنويه كما أن الغايات المذكوره من قبل غايات صوريه، و الشكر هو استعمال النعمه بنحو ينبئ عن إنعام منعمه أو الثناء اللفظى عليه بذكر إنعامه، و ينطبق بالأخره على عبادته و لذلك جىء بلعل المفيده للرجاء فإن الغايات المعنويه الاعتباريه ربما تخلفت.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصِيرُ الْمُؤْمِنِينَ قال الراغب: أصل الجرم-بالفتح فالسكون-قطع الثمره عن الشجر-الى أن قال-و أجرم صار ذا جرم نحو أثمر و أتمر و ألبن و استعير ذلك لكل اكتساب مكروه، و لا يكاد يقال فى عامه كلامهم للكيس

و الآيه كالمعترضه و كأنها مسوقه لبيان أن للمؤمنين حقا على ربهم و هو نصرهم فى الدنيا و الآخره و منه الانتقام من المجرمين، و هذا الحق مجعول من قبله تعالى لهم على نفسه فلا- يرد عليه محذور لزوم كونه تعالى مغلوبا فى نفسه مقهورا محكوما لغيره.

و قوله: فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا الفاء فصيحه أى فآمن بعضهم و أجرم آخرون فانتقمنا من المجرمين و كان حقا علينا نصر المؤمنين بإنجائهم من العذاب و إهلاك مخالفينهم، و فى الآيه بعض الاشعار بأن الانتقام من المجرمين لأجل المؤمنين فإنه من النصر.

[سوره الروم (٣٠): الآيات ٤٨ الى ٥٣]

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سُدُوحًا فَيُبْسِطُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَتْرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَاَنْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣)

قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الإِثَارَةُ التَّحْرِيكُ وَ النُّشْرُ وَ السَّحَابُ الغَمَامُ وَ السَّمَاءُ جِهَةُ العُلُوِّ فَكُلُّ مَا عَلاكَ وَ أَظْلَكَ فَهُوَ سَمَاءٌ وَ الكَسْفُ بِالكَسْرِ فَالْفَتْحُ جَمْعُ كَسْفِهِ وَ هِيَ القِطْعَةُ وَ الودقُ القَطْرُ مِنَ المَطَرِ وَ الخِلالُ جَمْعُ خَلِهِ وَ هِيَ الفَرْجَةُ.

وَ المعنى: اللَّهُ الَّذِي يَرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتَحْرِكُ وَ تَنْشُرُ سَحَابًا وَ يَبْسُطُ ذَلِكَ السَّحَابَ فِي جِهَةِ العُلُوِّ مِنَ الجَوِّ كَيْفَ يَشَاءُ سَبْحَانَهُ وَ يَجْعَلُهُ قِطْعَاتٍ مَتْرَاكِبَهُ مَتْرَاكِمَهُ فَتَرَى قَطْرَ المَطَرِ يَخْرُجُ مِنَ فَرْجِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِذَلِكَ المَطَرِ مِنَ يَشَاءُ مِنَ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ لِأَنَّهُ مَادَةُ حَيَاتِهِمْ وَ حَيَاةُ الحَيَوَانَ وَ النِّبَاتِ.

قوله تعالى: وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ الْإِبْلَاسِ: الْيَأْسُ وَ القَنُوطُ.

وَ ضَمِيرُ «يُنْزَلَ» لِلْمَطَرِ وَ كَذَا ضَمِيرُ «مِنْ قَبْلِهِ» عَلَى مَا قِيلَ، وَ عَلَيْهِ يَكُونُ «مِنْ قَبْلِهِ» تَأْكِيدًا لِقَوْلِهِ: «مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ» وَ فَائِدُهُ التَّأْكِيدُ-عَلَى مَا قِيلَ-الإِعْلَامُ بِسُرْعَةِ تَقَلُّبِ قُلُوبِ البَشَرِ مِنَ الْيَأْسِ إِلَى الاسْتَبْشَارِ، وَ ذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ: «مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ» يَحْتَمِلُ الفَسْحَةَ فِي الزَّمَانِ فَجَاءَ «مِنْ قَبْلِهِ» لِلدَّلَالَةِ عَلَى الاتِّصَالِ وَ دَفْعِ ذَلِكَ الاحْتِمَالِ.

قوله تعالى: فَأَنْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَى وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الْآثَارُ جَمْعُ الأَثْرِ وَ هُوَ مَا يَبْقَى بَعْدَ الشَّيْءِ فَيَدُلُّ عَلَيْهِ كَأَثَرِ القَدَمِ وَ أَثَرِ البِنَاءِ وَ اسْتَعْيِيرٌ لِكُلِّ مَا يَنْفَرَعُ عَلَى شَيْءٍ، وَ المَرَادُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ المَطَرِ النَّاظِلِ مِنَ السَّحَابِ الَّذِي بَسَطْتَهُ الرِّيَّاحُ، وَ آثَارُهَا مَا يَتَرْتَبُ عَلَى نَزُولِ المَطَرِ مِنَ النِّبَاتِ وَ الأشْجَارِ وَ الأَثْمَارِ وَ هِيَ بَعِينُهَا آثَارُ حَيَاةِ الأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا.

و لذا قال: «فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» فجعل آثار الرحمة التي هي المطر كيفية إحياء الأرض بعد موتها، فحياء الأرض بعد موتها من آثار الرحمة و النبات و الأشجار و الأثمار من آثار حياتها و هي أيضا من آثار الرحمة و التدبير تدبير إلهي يتفرع على خلقه الرياح و السحاب و المطر.

و قوله: «إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتَى» الإشارة بذلك اليه تعالى بما له من الرحمة التي من آثارها إحياء الأرض بعد موتها، و في الإشارة البعيدة تعظيم، و المراد بالموتى موتى الإنسان أو الإنسان و غيره من ذوى الحياه.

و المراد بقوله: «إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتَى» الدلاله على المماثله بين إحياء الأرض الميتة و إحياء الموتى إذ في كل منهما موت هو سقوط آثار الحياه من شىء محفوظ و حياه هي تجدد تلك الآثار بعد سقوطها، و قد تحقق الإحياء فى الأرض و النبات و حياه الإنسان و غيره من ذوى الحياه مثلها و حكم الأمثال فيما يجوز و فيما لا يجوز واحد، فإذا جاز الإحياء فى بعض هذه الأمثال و هو الأرض و النبات فليجز فى البعض الآخر.

و قوله: «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» تقرير للإحياء المذكور ببيان آخر و هو عموم القدره فإن القدره غير محدوده و لا متناهيه فيشمل الإحياء بعد الموت و إلا لزم تقيدها و قد فرضت مطلقه غير محدوده.

قوله تعالى: «وَلئن أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصِيفًا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ» ضمير «فَرَأَوْهُ» للنبات المفهوم من السياق، و قوله: «لَظَلُّوا» جواب للقسم قائم مقام الجزاء، و المعنى: و أقسم لئن أرسلنا ريحا بارده فضربت زروعهم و أشجارهم بالصفار و رأوه لظلوا بعده كافرين بنعمه.

ففى الآيه توييخهم بالتقلب السريع فى النعمه و النقمه، فإذا لاحت لهم النعمه بادروا الى الاستبشار، و إذا أخذ بعض ما أنعم الله به من فضله لم يلبثوا دون أن يكفروا بالمسلّمات من

قوله تعالى: فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى -الى قوله- مُسْمِعُونَ تعليل لما يفهم من السياق السابق كأنه قيل: لا تشتغل و لا تحزن بهؤلاء الذين تتبدل بهم الأحوال من إبلاس و استبشار و كفر و من عدم الإيمان بآياتنا و عدم تعقلها فإنهم موتى و صم و عمى و أنت لا تقدر على إسماعهم و هدايتهم و إنما تسمع و تهدى من يؤمن بآياتنا أى يعقل هذه الحجج و يصدقها فهم مسلمون. و قد تقدم تفسير الآيتين فى سورة النمل.

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٥٤ الى ٦٠]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعِيدٍ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعِيدٍ قُوَّةً ضَعْفًا وَ شَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لَكِنَّا كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لَا يَسْتخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)

قوله تعالى: [□]اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً الْخِ؛ الضعف والقوه متقابلان، و «مِنْ» فى قوله: من ضعف للابتداء أى ابتداء خلقكم من ضعف أى ابتداءكم ضعفاء، و مصداقه على ما تفيداه المقابله أول الطفوليّه و إن أمكن صدقه على النطفه.

و المراد بالقوه بعد الضعف بلوغ الأشدّ و بالضعف بعد القوه الشيخوخه و لذا عطف عليه «شَيْبَةً» عطف تفسير، و تنكير «ضَعْفٍ» و «قُوَّةً» للدلاله على الإبهام و عدم تعيين المقدار لاختلاف الأفراد فى ذلك.

و قوله: [□]يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ [□]أى كما شاء الضعف فخلقه ثم القوه بعده فخلقها ثم الضعف بعدها فخلقه و فى ذلك أتمّ الإشاره الى أن تتالى هذه الأحوال من الخلق و إذ كان هذا النقل من حال الى حال فى عين أنه تدبير خلقا فهو لله الخالق للأشياء فليس لقائل منهم أن يقول: إن ذلك من التدبير الراجع الى إله الإنسان، مثلا كما يقوله الوثنيه.

ثم تم الكلام بالعلم و القدره فقال: «وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ» .

قوله تعالى: [□]وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِثُ الْمُجْرِمُونَ [□]مَا لَبِثُوا [□]غَيْرَ سَاعَةٍ [□]كَذَلِكَ [□]كَانُوا يُؤْفَكُونَ، هذه الآيات كالذنابه للآيات السابقه العاده للآيات و الحجج على وحدانيته تعالى و البعث، و كالتمهيد و التوطئه للآيه التى تختتم بها السوره فإنه لما عدّ شيئا من الآيات و الحجج و أشار الى أنهم ليسوا ممن يترقب منهم الإيمان أو يطمع فى إيمانهم أراد أن يبين أنهم فى جهل من الحق يتلقون الحديث الحق باطلا و الآيات الصريحه الدلاله منجزه عن دلالتها و كذلك يؤفكون و لا عذر لهم يعتذرون به.

و هذا الإفك و التقلب من الحق الى الباطل يدوم عليهم و يلازمهم حتى قيام الساعه

فيظنون أنهم لم يلبثوا في قبورهم فيما بين الموت و البعث غير ساعه من نهار فاشتبه عليهم أمر البعث كما اشتبه عليهم كل حق فظنوه باطلا.

فقوله: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ، يحكى عنهم اشتباه الأمر عليهم في أمر الفصل بين الدنيا و يوم البعث حتى ظنوه ساعه من ساعات الدنيا.

و قوله: كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ أى يصرفون من الحق الى الباطل فيدعون الى الحق و يقام عليه الحجج و الآيات فيظنونه باطلا من القول و خرافه من الرأى.

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبُعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبُعْثِ الْخ؛ ردّ منهم لقوم المجرمين «مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ» فإن المجرمين لإخلاصهم الى الأرض و توغلهم فى نشأه الدنيا يرون يوم البعث و الفصل بينه و بين الدنيا محكوما بنظام الدنيا فقدروا الفصل بساعه و هو مقدار قليل من الزمان كأنهم ظنوا أنهم بعد فى الدنيا لأنه مبلغ علمهم.

فرد عليهم أهل العلم و الإيمان أن اللبث مقدر بالفصل بين الدنيا و يوم البعث و هو الفصل الذى يشير اليه قوله: وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (المؤمنون ١٠٠/).

فاستنتجوا منه أن اليوم يوم البعث و لكن المجرمين لما كانوا فى ريب من البعث و لم يكن لهم يقين بغير الدنيا ظنوا أنهم لم يمر بهم إلا ساعه من ساعات الدنيا و هذا معنى قولهم: «لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبُعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبُعْثِ وَ لَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»، أى كنتم جاهلين مرتابين لا يقين لكم بهذا اليوم و لذلك اشتبه عليكم أمر اللبث.

و من هنا يظهر أن المراد بقوله: «أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ»، اليقين و الالتزام بمقتضاه و أن العلم بمعنى اليقين بالله و بآياته و الإيمان بمعنى الالتزام بمقتضى اليقين من الموهبه الإلهيه، و من هنا

يظهر أيضا أن المراد بكتاب الله الكتب (١) السماويه أو خصوص القرآن لا غيره و قول بعضهم:

إن في الآيه تقديما و تأخيرا و التقدير و قال الذين أوتوا العلم و الإيمان في كتاب الله لقد لبثتم الى يوم البعث لا يعتد به.

قوله تعالى: **فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعِيدَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ** الاستعتاب طلب العتبي، و العتبي إزاله العتاب أى لا ينفعهم المعذره عن ظلمهم و لا يطلب منهم أن يزيلوا العتاب عن أنفسهم.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ** الخ؛ إشاره الى كونهم مأفوكين مصروفين عن الحق حيث لا ينفعهم مثل يقرب الحق من قلوبهم لأنها مطبوع عليها، و لذا عقبه بقوله: **«وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطَلُونَ»** أى جاءون بالباطل و هذا القول منهم لأنهم مصروفون عن الحق يرون كل حق باطلا و وضع الموصول و الصله موضع الضمير للدلاله على سبب القول.

قوله تعالى: **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** أى يجهلون بالله و آياته و منها البعث و هم يصرون على جهلهم و ارتياهم.

قوله تعالى: **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ** ، أى فاصبر على ما يواجهونك به من قولهم: **«إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطَلُونَ»** و سائر تهكماتهم، إن وعد الله أنه ينصرك حق كما أوماً اليه بقوله: **«وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصِيرُ الْمُؤْمِنِينَ»** ، و لا يستخفك الذين لا يوقنون بوعد الله سبحانه.

ص: ٤٥

١- ١). و يمكن أن يكون المراد بكتاب الله اللوح المحفوظ فيكون ذلك استدلالا على قولهم بكتاب الله و يكون نظير ما فى قوله: **«هَذَا كِتَابُنَا يُنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ»** (الجاثية/٢٩) بناء على ما سياتى من معناه «منه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَيَّ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٦) وَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَ لِيَ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسُّهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَ عَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَ أَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١)

غرض السوره كما يومى اليه فاتحتها و خاتمتها و يشير اليه سياق عامه آياتها الدعوه الى التوحيد و الإيقان بالمعاد و الأخذ بكليات شرائع الدين.

و يلوح من صدر السوره أنها نزلت فى بعض المشركين حيث كان يصدّ الناس عن استماع القرآن بنشر بعض أحاديث مزوّقه ملهيه كما ورد فيه الأثر فى سبب نزول قوله: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ» الآية؛ و سيوافى حديثه. فنزلت السوره تبين أصول عقائد الدين و كليات شرائعه الحقه و قصّت شيئا من خبر لقمان الحكيم و مواعظه تجاه أحاديثهم الملهيه.

و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها. و من غرر الآيات فيها قوله تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ» الآية.

قوله تعالى: تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ -الى قوله- يُوقِنُونَ تقدم تفسير مفردات هذه الآيات فى السور السابقه.

و قد وصف الكتاب بالحكيم إشعارا بأنه ليس من لهو الحديث من شىء بل كتاب لا ائلام

فيه ليدخله لهو الحديث و باطل القول، و وصفه أيضا بأنه هدى و رحمه للمحسنين تتيما لصفه حكمته فهو يهدى الى الواقع الحق و يوصل اليه لا كاللهو الشاغل للانسان عما يهيمه، و هو رحمه لا نقمه صارفه عن النعمه.

و وصف المحسنين بإقامه الصلاه و إيتاء الزكاه اللتين هما العمدتان فى الأعمال و بالإيقان بالآخره و يستلزم التوحيد و الرساله و عامه التقوى، كل ذلك مقابله الكتاب للهو الحديث المصغى اليه لمن يستمع لهو الحديث.

قوله تعالى: [□] وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَهَا هُزُوًا [□] الخ؛ اللهو ما يشغلك عما يهّمك، و لهو الحديث: الحديث الذى يلهى عن الحق بنفسه كالحكايات الخرافيه و القصص الداعيه الى الفساد و الفجور، أو بما يقارنه كالتغنى بالشعر أو بالملاهى و المزامير و المعازف فكل ذلك يشمل لهو الحديد.

و قوله: [□] لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ مقتضى السياق أن يكون المراد بسبيل الله القرآن الكريم بما فيه من المعارف الحقه الاعتقاديه و العلميه و خاصه قصص الأنبياء و أمهم الخاليه فإن لهو الحديث و الأساطير المزوّقه المختلفه تعارض أولا هذه القصص ثم تهدم بنیان سائر المعارف الحقه و توهنها فى أنظار الناس.

و يؤيد ذلك قوله بعد: «وَ يَتَّخِذَهَا هُزُوًا» فإن لهو الحديث بما أنه حديث كما سمعت يعارض أولا الحديث و يتخذه سخريا.

فالمراد بسبيل الله القرآن بما فيه من القصص و المعارف و كأن مراد من كان يشتري لهو الحديث أن يضل الناس بصرفهم عن القرآن و أن يتخذ القرآن هزوا بأنه حديث مثله و أساطير كأساطيره.

و قوله: [□] بِغَيْرِ عِلْمٍ متعلق بـيُضِلُّ و هو فى الحقيقه وصف ضلال الضالين دون إضلال المضلين و إن كانوا أيضا لا- علم لهم ثم هددهم بقوله: «أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ» أى مذل

يوهنهم و يذلهم حذاء استكبارهم فى الدنيا.

قوله تعالى: وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلِيٰ مُسِيئَتِكُمْ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا لِّخ؛ وصف لذاك الذى يشتري لهو الحديث ليضل الناس عن القرآن و يهزأ به و الوقر الحمل الثقيل و المراد بكون الوقر على أذنيه أن يشدّ عليهما ما يمنع من السمع و قيل: هو كناية عن الصمم.

و المعنى: و إذا تلى على هذا المشتري لهو الحديث آياتنا أى القرآن ولى و أعرض عنها و هو مستكبر كأن لم يسمعها قط كأنه أصم فبشره بعذاب أليم.

و قد اعيد الى من يشتري ضمير الأفراد أولا- كما فى «يَشْتَرِي» و «لِيُضِلَّ» و «يَتَّخِذَهَا» باعتبار اللفظ و ضمير الجمع، ثانيا باعتبار المعنى ثم ضمير الأفراد باعتبار اللفظ كما فى «عَلَيْهِ» و غيره كذا قيل، و من الممكن أن يكون ضمير «لَهُمْ» فى الآيه السابقه راجعا الى مجموع المضل و الضالين المدلول عليهم بالسباق فتكون الضمائر الراجعه الى «مِنْ» مفرده جميعا.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَزَاءٌ نَّعِيمٌ -الى قوله- الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ رجوع بعد إنذار ذاك المشتري و تهديده بالعذاب المهين ثم العذاب الأليم الى تبشير المحسنين و تطيب أنفسهم بجنه النعيم الخالده الموعوده من قبله تعالى و وعده الحق.

و لما كان غرض من اشترى لهو الحديث أن يلتبس الأمر على من يضلّه بغير علم فيحسب القرآن من الأساطير الباطله كأساطيره و يهين به و كان لا يعتنى بما تلى عليه من الآيات مستكبرا و ذلك استهانه بالله سبحانه أكد أولا ما وعده للمحسنين بقوله: «وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا» ثم وصف ثانيا نفسه بالعزه المطلقه، فلا- يطرأ عليه ذله و إهانته و الحكمه المطلقه فلا- يداخل كلامه باطل و لا هزل و خرافه.

ثم وصفه ثالثا بأنه الذى يدبر أمر السماء و الأرض و النبات و الحيوان و الإنسان لأنه خالقها فله أن يعد هؤلاء بالجنه اولئك بالعذاب و هو قوله: «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا» الخ.

قوله تعالى: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا الخ؛ تقدم فى تفسير قوله تعالى:

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا (الرعد ٢)، أن قوله: «تَرْوُنَهَا» يحتمل أن يكون قيدا توضيحيا، والمعنى أنكم ترونها و لا أعمده لها، و أن يكون قيدا احترازيا و المعنى خلقها بغير أعمده مرثيه إشعارا بأن هناك أعمده غير مرثيه.

و قوله: وَ أَلْقَى فِي الْمَأْرُضِ رَوَّاسِيَّ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ، أى ألقى فيها جبالا- شامخه لئلا تضطرب بكم و فيه إشعار بأن بين الجبال و الزلازل رابطة مستقيمه.

و قوله: وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ أَى نشر فى الأرض من كل حيوان يدب عليها.

و قوله: وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ أَى و أنزلنا من جهه العلو ماء و هو المطر و أنبتنا فيها شيئا من كل زوج نباتى شريف فيه منافع و له فوائد، و فيه إشارة الى تزوج النبات و قد تقدم الكلام فيه فى نظيره.

و الالتفات فيها من الغيبه الى التكلم مع الغير للإشارة الى كمال العناية بأمره كما قيل.

قوله تعالى: هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ يَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، لما أراهم خلقه و تدبيره تعالى للسموات و الأرض و ما عليها فأثبت به ربوبيته و الوهيته تعالى كلفهم أن يروه شيئا من خلق آلهتهم إن كانوا آلهه و أربابا فإن لم يقدروا على إراءه شىء ثبت بذلك وحدانيته تعالى فى الوهيته و ربوبيته.

و إنما كلفهم بإراءه شىء من خلق آلهتهم- و هم يعترفون أن الخلق لله وحده و لا يسندون الى آلهتهم خلقا و إنما ينسبون اليهم التدبير فقط، لأنه نسب الى الله خلقا هو بعينه تدبير من غير انفكاك، فلو كان لآلهتهم تدبير فى العالم كان لهم خلق ما يدبرون أمره و إذ ليس لهم خلق

فليس لهم تدبير فلا إله إلا الله ولا رب غيره.

وقد سيقت الآيه خطابا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأن نوع هذا الخطاب «فأروني» ما ذا خلق الذين من دونه لا يستقيم من غيره صلى الله عليه وآله وسلم (١).

[سوره لقمان (٣١): الآيات ١٢ الى ١٩]

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشُّرُوكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَصَبِّئْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلِيًّا وَهَنَ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مِمَّا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبِهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صِيحْرِهِ أَوْ فِي السَّمَاءَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَامْرُءًا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِصْرٍ عَلَيَّ مَا أَصَابَكَ مِنْ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تَصْعَقْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْصِضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)

ص: ٥١

(١-١). لقمان ١-١١: بحث روائي في قوله تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ».

قوله تعالى: **وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ** الخ؛ الحكمة على ما يستفاد من موارد استعمالها هي المعرفة العلمية النافعة و هي وسط الاعتدال بين الجهل و الجزيره. و قوله: **«أَنْ اشْكُرْ لِي»** قيل: هو بتقدير القول أي و قلنا: أن اشكر لي.

و الظاهر أنه تفسير إيتائه الحكمة من غير تقدير القول، و ذلك أن حقيقة الشكر هي وضع النعم في موضعها الذي ينبغي له بحيث يشير الى إنعام المنعم، و إيقاعه كما هو حقه يتوقف على معرفه المنعم و معرفه نعمه بما هي نعمه و كيفيه وضعها موضعه بحيث يحكى عن إنعامه فإيتاؤه الحكمة بعث له الى الشكر فإيتاء الحكمة أمر بالشكر بالملازمه.

و في قوله: **أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ** التفات من التكلم مع الغير الى الغيبه و ذلك أن التكلم مع الغير من المتكلم إظهار للعظمه بالتكلم عن قبل نفسه و خدمه و قول أن اشكر لنا على هذا لا يناسب التوحيد في الشكر و هو ظاهر.

و قوله: **«وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ»** استغناء منه تعالى أن نفع الشكر إنما يرجع الى نفس الشاكر و الكفر لا يتضرر به إلا نفسه دونه سبحانه و من يشكر فإنما يوقع الشكر لنفع نفسه و لا ينتفع به الله سبحانه لغناه المطلق و من كفر فإنما يتضرر به نفسه إن الله غني لا يؤثر فيه الشكر نفعاً و لا ضرراً حميد محمود على ما أنعم سواء شكر أو كفر.

و في التعبير عن الشكر بالمضارع الدال على الاستمرار و في الكفر بالماضي الدال على المزمه إشعار بأن الشكر إنما ينفع مع الاستمرار لكن الكفر يتضرر بالزمه منه.

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ عظمه كل عمل بعظمه أثره و عظمه المعصيه بعظمه المعصى فإن مؤاخذه العظيم عظيمه فأعظم المعاصى معصيه الله لعظمته و كبريائه فوق كل عظمه و كبرياء بأنه الله لا شريك له و أعظم معاصيه معصيته فى أنه الله لا شريك له.

و قوله: إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ حيث أطلق عظمته من غير تقييد بقياسه الى سائر المعاصى يدل على أن له من العظمه ما لا يقدر بقدر.

قوله تعالى: وَصَيَّنَا الْإِنْسَانَ بِإِلَادِيهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ اعتراض واقع بين الكلام المنقول عن لقمان و ليس من كلام لقمان و إنما اطردها هنا للدلاله على وجوب شكر الوالدين كوجوب الشكر لله بل هو من شكره تعالى لانتهائه الى وصيته و أمره تعالى، فشكرهما عباده له تعالى و عبادته شكر.

و قوله: حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ذَكَرَ بَعْضُ مَا تَحَمَلَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْمَحْنَةِ وَالْأَذَى فِي حَمَلِهِ وَتَرْبِيَتِهِ لِيَكُونَ دَاعِيًا لَهُ إِلَى شُكْرِهِمَا وَخَاصِهِ الْإِمَامِ.

و الوهن الضعف و هو حال بمعنى ذات و هن أو مفعول مطلق و التقدير تهن و هنا على و هن، و الفصال الفطم و ترك الإرضاع، و معنى كون الفصال فى عامين بتحقيقه بتحقيق العامين فيئول الى كون الإرضاع عامين، و إذا ضم الى قوله تعالى: وَحَمَلَتْهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا (الأحقاف / ٤٦)، بقى لأقل الحمل ستة أشهر، و سكرر الإشارة اليه فيما سيأتى (١).

و قوله: أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ تفسير لقوله: «وَصَيَّنَا» الخ؛ فى

ص: ٥٣

١- ١). فى بحث روائى فى ذيل آيه الأحقاف.

أول الآيه أى كانت وصيتنا هو أمرنا بشكرهما كما أمرناه بشكر الله، وقوله: «إِلَى الْمَصِيرِ» إنذار و تأكيد للأمر بالشكر.

و القول فى الالتفات الواقع فى الآيه فى قوله: «أَنْ اشْكُرْ لِي وَ لِرَبِّكَ إِلَى الْمَصِيرِ» الخ؛ من سياق التكلم مع الغير الى سياق التكلم وحده كالقول فى الالتفات فى قوله السابق: «أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ» .

قوله تعالى: وَ إِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا الى آخر الآيه؛ أى إن ألحا عليك بالمجاهده أن تجعل ما ليس لك علم به أو بحقيقته شريكا لى فلا تطعهما و لا تشرك بى، و المراد بكون الشريك المفروض لا علم به كونه معدوما مجهولا مطلقا لا يتعلق به علم فيقول المعنى: لا تشرك بى ما ليس بشىء، هذا محصل ما ذكره فى الكشف و ربما أيدته قوله تعالى: أَلَمْ تَتَّبِعُوا اللَّهَ بِمَا لَمْ يَغْلَمْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ (يونس ١٨).

و قيل «تُشْرِكَ» بمعنى تكفر و «مَا» بمعنى الذى، و المعنى: و إن جاهداك أن تكفر بى كفرا لا حجه لك به فلا تطعهما و يؤيده تكرار نفي السلطان على الشريك فى كلامه تعالى كقوله: مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ (يوسف / ٤٠)، الى غير ذلك من الآيات.

و قوله: وَ صَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى الْجَمَلَتَانِ كالتلخيص و التوضيح لما تقدم فى الآيتين من الوصيه بهما و النهى عن إطاعتها إن جاهدا على الشرك بالله.

يقول سبحانه: يجب على الإنسان أن يصاحبهما فى الامور الدنيويه غير الدين الذى هو سبيل الله صحابا معروفا و معاشره متعارفه غير منكروه من رعايه حالهما بالرفق و اللين من غير جفاء و خشونه و تحمل المشاق التى تلحقه من جهتهما فليست الدنيا إلا أياما معدوده

متصرمه، و أما الدين فإن كانا ممن أناب الى الله فلتتبع سبيلهما و إلا فسبيل غيرهما ممن أناب الى الله.

و من هنا يظهر أن في قوله: «وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ» إيجازا لطيفا فهو يفيد أنهما لو كانا من المنيبين الى الله فلتتبع سبيلهما و إلا فلا يطاعا و لتتبع سبيل غيرهما ممن أناب الى الله.

و قوله: ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى هذا الذى ذكر، تكليفكم فى الدنيا ثم ترجعون الى يوم القيامة فاطهر لكم حقيقه أعمالكم التى عملتموها فى الدنيا فأقضى بينكم على حسب ما تقتضيه أعمالكم من خير أو شر.

و بما مرّ يظهر أن قوله: «فِي الدُّنْيَا» يفيد أولا قصر المصاحبه بالمعروف فى الامور الدنيويه دون الدينيه، و ثانيا: تهوين أمر الصحبه و أنها ليست إلا فى أيام قلائل فلا كثير ضير فى تحمل مشاق خدمتهما، و ثالثا المقابله ليوم الرجوع الى الله المشار اليه بقوله: «ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ» الخ.

قوله تعالى: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِن كُنْتُمْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ الْخَبْءَ ذَكَرُوا أَنَّ الضمير فى «إِنَّهَا» للخصله من الخير و الشر لدلاله السياق على ذلك و هو أيضا اسم كان و «مِثْقَالَ حَبَّةٍ» خبره، و المراد بكونها فى صخره اختفاؤها بالاستقرار فى جوف الصخره الصماء أو فى السماوات أو فى الأرض، و المراد بالإتيان بها إحضارها للحساب و الجزاء.

كان الفصل السابق من كلامه المنقول راجعا الى التوحيد و نفى الشريك و ما فى هذه الآيه فصل ثان فى المعاد و فيه حساب الأعمال، و المعنى: يا بنى إسرائيل إن تكن الخصله التى عملت من خير أو شر أخف الأشياء و أدقها كمثقال حبه من خردل فتكن تلك الخصله الصغيره مستقره فى جوف صخره أو فى أى مكان من السماوات و الأرض يأت بها الله للحساب و الجزاء لأن الله لطيف ينفذ علمه فى أعماق الأشياء و يصل الى كل خفى خبير يعلم كنه الموجودات.

قوله تعالى: يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَآمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَيَّ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ الْآيَةَ؛ وما بعدها من كلامه راجع الى نبذه من الأعمال و الأخلاق الفاضله.

فمن الأعمال الصلاه التي هي عمود الدين و يتلوها الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و من الأخلاق الصبر على ما يصيب من مصيبه.

و قوله: إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ الإشاره الى الصبر و الإشاره البعيده للتعظيم و الترفيع و قول بعضهم: إن الإشاره الى جميع ما تقدم من الصلاه و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و الصبر ليس فى محله لتكرر عدّ الصبر من عزم الامور فى كلامه تعالى كقوله: وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (الشورى ٤٣)، و قوله: إِنَّ تَصَابِرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (آل عمران ١٨٦).

و العزم-على ما ذكره الراغب-عقد القلب على إمضاء الأمر و كون الصبر-و هو حبس النفس فى الأمر-من العزم إنما هو من حيث إن العقد القلبي ما لم ينحل و ينفصم ثبت الإنسان على الأمر الذى عقد عليه فالصبر لازم الجد فى العقد و المحافظه عليه و هو من قدره النفس و شهامتها.

قوله تعالى: وَلَا تَصِيحْرُ لَكُمُ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ قال الراغب: الصعر ميل فى العنق و التصعير إمالته عن النظر كبرا قال: «وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ» و قال:المرح شده الفرح و التوسع فيه انتهى.

فالمعنى: لا تعرض بوجهك عن الناس تكبرا و لا تمش فى الأرض مشيه من اشتد فرحه إن الله لا يحب كل من تأخذه الخيلاء-و هو التكبر بتخيل الفضيله-و يكثر من الفخر. و قال بعضهم إن معنى «لَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ» لا تلو عنقك لهم تذلا عند الحاجه و فيه أنه لا يلائمه ذيل الآيه.

قوله تعالى: وَ أَقْصِدْ فِي مَشِيكَ وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ القصد في الشيء الاعتدال فيه و الغض - على ما ذكره الراغب - النقصان من الطرف و الصوت فغض الصوت النقص و القصر فيه.

و المعنى: و خذ بالاعتدال في مشيك و بالنقص و القصر في صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير لمبالغتها في رفعه (١)(٢).

[سوره لقمان (٣١): الآيات ٢٠ الى ٣٤]

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَ بَاطِنَةً وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لَا هُدًى وَ لَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٢٠) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَحَدَّثَنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَ إِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَ مَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ غَلِيظٍ (٢٤) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) وَ لَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَا خَلَقَكُمْ وَ لَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَ إِذَا غَشِيَهِمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ السُّدُنَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَ إِخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ لَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَ مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ عَدَاً وَ مَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)

ص: ٥٧

١-١. لقمان ١٢-١٩: بحث روائي في عقوق الوالدين؛ حق الله و حق الوالدين للانسان؛ الصلاة.

٢-٢. لقمان ١٢-١٩: كلام في قصه لقمان و نبذ من حكمه في فصلين.

قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً رَجوع الى ما قبل قصه لقمان و هو الدليل على أن الخطاب للمشركين و إن كان ذيل الآيه يشعر بعموم الخطاب.

و عليه فصدر الآيه من تتمه كلام النبي صَلَّى الله عليه و آله و سَلَّمَ و يتصل بقوله: «هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ» و لا التفات في قوله: «أَلَمْ تَرَوْا» .

و على تقدير كونه من كلامه تعالى ففي قوله: «أَلَمْ تَرَوْا» التفات من سياق الغيبه الذى فى قوله: «بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» الى الخطاب، و الالتفات فى مثل هذه الموارد يكون لاشتداد وجد المتكلم و تأكيد غيظه من جهل المخاطبين و تماديهم فى غيهم بحيث لا ينفعهم دلاله و لا ينجح فيهم إشاره فيواجهون بذكر ما هو بمرأى منهم و مسمع لعلهم يتنبهوا عن نومتهم و ينتزعوا عن غفلتهم.

و قوله: «وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً الإِسْبَاغُ الإِتْمَامُ و الإيساع أى أتم و أوسع عليكم نعمه، و النعم جمع نعمه و هو فى الأصل بناء النوع و غلب عليه استعماله فى ما يلائم الإنسان فيستلذ منه، و المراد بالنعم الظاهره و الباطنه بناء على كون الخطاب للمشركين النعم الظاهره للحس كالسمع و البصر و سائر الجوارح و الصحه و العافيه و الطيبات من الرزق و النعم الغائبه عن الحس كالشعور و الإراده و العقل.

و بناء على عموم الخطاب لجميع الناس الظاهره من النعم هى ما ظهر للحس كما تقدم و كالدين الذى به ينتظم أمور دنياهم و آخرتهم و الباطنه منها كما تقدم و كالمقامات المعنويه التى تنال بإخلاص العمل.

وقوله: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ رجوع الخطاب الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على ما كان فى السياق السابق، والمجادله المخاصمه النظرية بطريق المغالبه، والمقابله بين العلم والهدى والكتاب تلوح بأن المراد بالعلم ما هو مكتسب من حجه عقليه، وبالهدى ما يفيضه الله بالوحى أو الإلهام، وبالكتاب الكتاب السماوى المنتهى اليه تعالى بالوحى النبوى ولذلك وصفه بالمنير فهذه طرق ثلاث من العلم لا رابع لها.

فمعنى قوله: يجادل فى الله بغير كذا وكذا أنه يجادل فى وحدانيته تعالى فى الربوبيه والالوهيه بغير حجه يصح الركون إليها بل عن تقليد.

قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَحَدَّثَنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا الخ؛ ضمائر الجمع راجعه الى «مِنَ» باعتبار المعنى كما أن ضمير الأفراد فى الآيه السابقه راجع اليه باعتبار اللفظ.

وقوله: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فى التعبير بما أنزل الله من غير أن يقال: اتبعوا الكتاب أو القرآن إشاره الى كون الدعوه دعوه ذات حجه لا تحكم فيها لأن نزول الكتاب مؤيد بحجه النبوه فكأنه قيل: وإذا دعوا الى دين التوحيد الذى يدل عليه الكتاب المقطوع بنزوله من عند الله سبحانه، وبعبارة أخرى إذا ألقى اليهم القول مع الحجه قابلوه بالتحكم من غير حجه فقالوا نتبع ما وجدنا عليه آباءنا.

وقوله: أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ أى أيتبعون آباءهم ولو كان الشيطان يدعوهم بهذا الاتباع الى عذاب السعير؟ فالاستفهام للإنكار ولو وصله معطوفه على محذوف مثلها والتقدير أيتبعونهم لو لم يدعهم الشيطان ولو دعاهم.

و محصل الكلام: أن الاتباع إنما يحسن إذا كانوا على الحق وأما لو كانوا على الباطل و كان اتباعا يدعوهم به الى الشقاء و عذاب السعير و هو كذلك فإنه اتباع فى عباده غير الله و لا

قوله تعالى: وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ استئناف و يحتمل أن يكون حالا من مفعول «يَدْعُوهُمْ» و فى معنى الجملة الحالية ضمير عائد اليهم، والمعنى: أولو كان الشيطان يدعوهم الى كذا و الحال أن من أسلم وجهه الى الله كذا فقد نجا و أفلح و الحال أن عاقبه الامور ترجع الى الله فيجب أن يكون هو المعبود.

و إسلام الوجه الى الله تسليمه له و هو إقبال الإنسان بكليته عليه بالعباده و إعراضه عن سواه. و الإحسان الإتيان بالأعمال الصالحة عن إيقان بالآخرة كما فسره به فى أول السوره:

هُدًىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ و العروه الوثقى المستمسك الذى لا انفصام له.

و المعنى: و من حدّ الله و عمل صالحا مع اليقين بالمعاد فهو ناج غير هالك البتة فى عاقبه أمره لأنها الى الله و هو الذى يعده بالنجاه و الفلاح.

قوله تعالى: وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ - الى قوله - إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ تَسْلِيهِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَتَطْيِيبٍ لِنَفْسِهِ أَنْ لَا يَغْلِبَهُ الْحُزْنَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ رَاجِعُونَ إِلَيْهِ تَعَالَىٰ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَى يَظْهَرُ لَهُمْ حَقِيقَةُ أَعْمَالِهِمْ وَتَبَاعَتِهَا وَهِيَ النَّارُ.

و قوله: نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ كَشَفٍ عَنْ حَقِيقَةِ حَالِهِمْ بَيَانٌ آخِرٌ فَإِنَّ الْبَيَانَ السَّابِقَ «إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا» ربما أوهم أنهم ما داموا متنعمين فى الدنيا خارجون من قدره الله ثم إذا ماتوا أو بعثوا دخلوا فيما خرجوا منه فانتقم منهم بالعذاب جىء بهذا البيان للدلالة على أنهم غير خارجين من التدبير قط و إنما يمتعهم فى الدنيا قليلا ثم يضطرهم الى عذاب غليظ فهم مغلوبون مقهورون على كل حال و أمرهم الى الله دائما لن يعجزوا الله فى حال التمتع و لا غيرها.

قوله تعالى: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ إشاره الى أنهم مفطورون على التوحيد معترفون به من حيث لا يشعرون، فإنهم إن سئلوا عن خلق السماوات والأرض اعترفوا بأنه الله عز اسمه وإذا كان الخالق هو هو فالمدير لها هو هو لأن التدبير لا ينفك عن الخلق، وإذا كان مدير الأمر والمنعم الذي يبسط ويقبض ويرجى و يخاف هو فالمعبود هو هو وحده لا شريك له فقد اعترفوا بالوحده من حيث لا يعلمون.

و لذلك أمره صلى الله عليه وآله وسلم أن يحمد الله على اعترافهم من حيث لا يشعرون فقال: «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» ثم أشار الى أن كون أكثرهم لا يعلمون معنى اعترافهم أن الله هو الخالق وما يستلزمه فقال:

«يَلِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» نعم قليل منهم يعلمون ذلك ولكنهم لا يطاوعون الحق بل يجحدونه وقد أيقنوا به كما قال تعالى: وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ (النمل ١٤).

قوله تعالى: لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ لما كان اعترافهم بأن الخالق هو الله سبحانه إنما يثبت التوحد بالربوبية والالوهية إذا كان التدبير والتصرف اليه تعالى و كان نفس الخلق كافيا في استلزامه اكتفى به في تمام الحججه و استحمد النبي صلى الله عليه وآله وسلم و استجهل القوم لغفلتهم.

ثم احتج عليه ثانيا من طريق انحصار الملك الحقيقي فيه تعالى لكونه غنيا محمودا مطلقا و تقريره أنه تعالى مبدأ كل خلق و معطى كل كمال فهو واجد لكل ما يحتاج اليه الأشياء فهو غنى على الإطلاق إذ لو لم يكن غنيا من جهه من الجهات لم يكن مبدأ له معطيا لكماله هذا خلف، وإذا كان غنيا على الإطلاق كان له ما في السماوات والأرض فهو المالك لكل شيء على الإطلاق فله أن يتصرف فيها كيف شاء فكل تدبير و تصرف يقع في العالم فهو له إذ لو كان شيء من التدبير لغيره لا له كان ماله ذلك الغير دونه و إذا كان التدبير و التصرف له تعالى فهو رب العالمين والإله الذي يعبد ويشكر إنعامه وإحسانه.

و هذا هو الذى يشير اليه قوله: «لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ» فقوله: «لِلَّهِ مَا فِي» الخ؛ حجه على وحدانيته و قوله: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ» تعليل للملك.

و أما قوله: «الْحَمِيدُ» أى المحمود فى أفعاله فهو مبدأ آخر للحجه و ذلك أن الحمد هو الثناء على الجميل الاختيارى و كل جميل فى العالم فهو له سبحانه فاليه يعود الثناء فيه فهو حميد على الإطلاق و لو كان شىء من هذا التدبير المتقن الجميل من غيره تعالى من غير انتساب اليه لكان الحمد و الثناء لغيره تعالى لا له فلا يكون حميدا على الإطلاق و بالنسبه الى كل شىء و قد فرض أنه حميد على الإطلاق هذا خلف.

قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ الْخ»؛ «مِنْ شَجَرَةٍ» بيان للموصول و الشجره واحد الشجر و تفيد فى المقام-و هى فى سياق «لَوْ»-الاستغراق أى كل شجره فى الأرض، و المراد بالبحر مطلق البحر، و قوله: «يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ» أى يعينه بالانضياف اليه سبعة أمثال و الظاهر أن المراد بالسبعه التكثير دون خصوص هذا العدد و الكلمه هى اللفظ الدال على معنى، و قد أطلق فى كلامه تعالى على الوجود المفاض بأمره تعالى، و قد قال: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (يس ٨٢/)، و قد أطلق على المسيح عليه السلام الكلمه فى قوله: «وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ» (النساء ١٧١/).

فالمعنى: و لو جعل جميع أشجار الأرض أقلاما و أخذ البحر و أضيف اليه سبعة أمثاله و جعل المجموع مدادا فكتب كلمات الله- بتبديلها ألفاظا داله عليها-بتلك الأقلام من ذلك المداد لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات الله لكونها غير متناهيه.

قوله تعالى: «مَا خَلَقَكُمْ وَ لَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» سوق للكلام الى إمكان الحشر و خاصه من جهه استبعادهم المعاد لكثرة عدد الموتى و اختلاطهم بالأرض من غير تمييز بعضهم من بعض.

فقال تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفْئًا وَإِلَّا كَفْئًا وَاحِدًا فِي الْإِمَّاٰنِ وَالتَّاتِي فإنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن ولا يعجزه كثرة ولا يتفاوت بالنسبه اليه الواحد و الجمع، و ذكر الخلق مع البعث للدلاله على عدم الفرق بين البدء و العود من حيث السهوله و الصعوبه بل لا يتصف فعله بالسهوله و الصعوبه.

و يشهد لما ذكر إضافه الخلق و البعث الى ضمير الجمع المخاطب و المراد به الناس ثم تنظيره بالنفس الواحده، و المعنى: ليس خلقكم معاشر الناس على كثرتكم و لا بعثكم إلا كخلق نفس واحده و بعثها فأنتم على كثرتكم و النفس الواحده سواء لأنه لو أشكل عليه بعث الجميع على كثرتهم و البعث لجزاء الأعمال فإنما يشكل من جهه الجهل بمختلف أعمالكم على كثرتها و اختلاط بعضها ببعض لكنه ليس بجهل شيئاً منها لأنه سمع لأقوالكم بصير بأعمالكم و بعباره أخرى عليم بأعمالكم من طريق المشاهده.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّمُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُؤَلِّمُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلُّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الخ؛ استشهاد لما تقدم في الآيه السابقه من علمه بالأعمال بأن التدبير الجارى فى نظام الليل و النهار حيث يزيد هذا و ينقص ذاك و بالعكس بحسب الفصول المختلفه و بقاع الأرض المتفرقه فى نظم ثابت جار على اختلافه، و كذا التدبير الجارى فى الشمس و القمر على اختلاف طلوعهما و غروبهما و اختلاف جريانهما و مسيرهما بحسب الحس و كلّ منهما يجرى لأجل مسمى و لا اختلاف و لا تشوش فى النظام الدقيق الذى لهما فهذا كله مما يمتنع من غير علم و خبره من مدبرها.

فالمراد بإيلاج الليل فى النهار أخذ الليل فى الطول و إشغاله بعض ساعات النهار من قبل و بإيلاج النهار فى الليل عكس ذلك، و المراد بجريان الشمس و القمر المسخرين الى أجل مسمى انتهاء كل وضع من أوضاعهما الى وقت محدود مقدر ثم عودهما الى بدء فمن شاهد هذا النظام الدقيق الجارى و أمعن فيه لم يشك فى أن مدبره إنما يدبره عن علم لا يخالطه جهل

و ليس ذلك عن صدفه و اتفاق.

و قوله: **وَ أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** عطف على موضع **«أَنَّ اللَّهَ يُورِثُ»** و التقدير أ لم تر أن الله بما تعملون خبير و ذلك لأن من شاهد نظام الليل و النهار و الشمس و القمر لم يكذب يغفل عن كون صانعه عليما بجلائل أعماله و دقائقها، كذا قبل.

و فيه أن استنتاج العلم بالأعمال من العلم بالنظام الجارى فى الليل و النهار و الشمس و القمر و إن صحَّ فى نفسه فهو علم حدسى لا مصحح لتسميتها رؤيه و هو ظاهر.

و لعل المراد من مشاهدته خبرته تعالى بالأعمال أن الإنسان لو أمعن فى النظام الجارى فى أعمال نفسه بما أنها صادرة عن العالم الإنسانى موزَّعه من جهه الى الأعمال الصادرة عن القوى الظاهره من سَمْع و بصر و شَمَّ و ذوق و لمس و الصادره عن القوى الباطنه المدركه أو الفعَّياله أو من جهه الى بعض القوى و الأدوات أو كلها و من جهه الى جاذبه و دافعه و من جهه الى سنى العمر من طفوليه و رهاق و شباب و شيب الى غير ذلك.

ثم فى ارتباط بعضها ببعض و استخدام بعضها لبعض و اهتداء النفس الى وضع كلِّ فى موضعه الذى يليق به و حركته بهذه القافله من القوى و الأعمال نحو غايتها من الكمال و سعادتها فى المآل و تورَّطها فى ورطات عالم الماده و موطن الزينه و الفتنة فمن ناج أو هالك.

فإذا أمعن فى هذا النظام المحيِّر للأحلام لم يرتب أنه تقدير قدره ربه و نظام نظمه صانعه العليم التقدير و مشاهدته هذا النظام العلمى العجيب مشاهدته أنه بما يعملون خبير، و الله العالم.

قوله تعالى: **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** لما ذكر سبحانه أن منه بدء كل شىء فيستند اليه فى وجوده و تدبير أمره و أن اليه عود كل شىء من غير فرق بين الواحد و الكثير و أنه ليس الى من يدعون من دونه خلق و لا أمر، جمع الجميع تحت بيان واحد جامع فقال مشيرا الى ما تقدّم: **«ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ»** الخ.

توضيحه أن الحق هو الثابت من جهة ثبوته و الباطل يقابل الحق فهو اللاثابت من جهة عدم ثبوته، وقوله: «بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ» بما فيه من ضمير الفصل و تعريف الخبر باللام يفيد القصر أعنى حصر المبتدأ فى الخير.

فقوله: بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ قصر له تعالى فى الثبوت، أى هو ثابت لا يشوب ثبوته بطلان و بعبارة اخرى هو ثابت من جميع الجهات و بعبارة ثالثة هو موجود على كل تقدير فوجوده مطلق غير مقيد بقيد و لا مشروط بشرط فوجوده ضرورى و عدمه ممتنع و غيره من الموجودات الممكنة موجود على تقدير و هو تقدير وجود سببه و هو الوجود المقيد الذى يوجد بغيره من غير ضروره فى ذاته.

و إذا كان حقيه الشىء هو ثبوته فهو تعالى حق بذاته و غيره إنما يحق و يتحقق به.

و إذا تأملت هذا المعنى حق تأمله وجدت أولاً: أن الأشياء بأجمعها تستند فى وجودها اليه تعالى و أيضاً تستند فى النظام الجارى فيها عامه و فى النظمات الجزئيه الجاربه فى كل نوع من أنواعها و كل فرد من أفرادها اليه تعالى.

و ثانياً: أن الكمالات الوجوديه التى هى صفات الوجود كالعلم و القدره و الحياه و السمع و البصر و الوحده و الخلق و الملك و الغنى و الحمد و الخبره-مما عدّ فى الآيات السابقه أو لم يعدّ-صفات قائمه به تعالى على حسب ما يليق بساحه كبريائه و عز قدسه لأنها صفات وجوديه و الوجود قائم به تعالى فهى إما عين ذاته كالعلم و القدره و إما صفات خارجه عن ذاته متترعه عن فعله كالخلق و الرزق و الرحمه.

و ثالثاً: أن قبول الشريك فى ذاته أو فى تدبيره و كل ما يحمل معنى الفقد و النقص مسلوب عنه تعالى و هذه هى الصفات السلبيه كنفى الشريك و نفى التعدد و نفى الجسم و المكان و الزمان و الجهل و العجز و البطلان و الزوال الى غيرها.

فإن إطلاق وجوده و عدم تقيده بقيد ينفى عنه كل معنى عدمى أى إثبات الوجود مطلقاً

فإن مرجع نفى النفى الى الإثبات.

□
و لعل قوله: «وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» يفيد ثبوت الصفات له بكلتا مرحلتيها بناء على أن اسم «الْعَلِيُّ» يفيد معنى تنزهه عن ما لا يليق بساحته فهو مجمع الصفات السلبية و الكبير يفيد سعته لكل كمال وجودى فهو مجمع الصفات الثبوتيه.

و أن صدر الآيه برهان على ذيلها و ذيلها برهان على استجماعه تعالى الصفات الثبوتيه و السلبية جميعا على ما تقدم تقريره فهو الذات المستجمع لجميع صفات الكمال فهو الله عز اسمه.

و قوله: «وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ يَجْرَى فِيهِ مَا يَقَابِلُ مَا جَرَى فِي قَوْلِهِ:

□
«ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ» فالذى يدعونه من الآلهه ليس لهم من الحقيقه شىء و لا اليهم من الخلق و التدبير شىء لأن الشريك فى الالوهيه و الربوبيه باطلا لا حق فيه و إذ كان باطلا على كل تقدير فلا يستند اليه خلق و لا تدبير مطلقا.

و الحق و العلى و الكبير ثلاثه من الأسماء الحسنى و قد تحقق مما تقدم أن الحق فى معنى الواجب الوجود و أن العلى من الصفات السلبية و الكبير من الصفات الثبوتيه قريب المعنى من قولنا: المستجمع لصفات الكمال.

□
قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُوكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ الْبَخْبَاءِ» فى «بِنِعْمَتِ اللَّهِ» للسببيه و ذكر النعمه كالتوطئه لآخر الآيه و فيه تلويح الى وجوب شكره على نعمته لأن شكر المنعم واجب.

و المعنى: أ لم تر أن الفلك تجرى و تسير فى البحر بسبب نعمه الله و هى أسباب جريانها من الريح و رطوبه الماء و غير ذلك.

و احتمال بعضهم أن الباء للتعديه أو المعيه و المراد بالنعمه ما تحمله السفن من الطعام و سائر أمتعه الحياه.

وقد تمم الآية بقوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَلآيَاتِ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ» و الصَّبَّارُ الشكور أى كثير الصبر عند الضراء و كثير الشكر عند النعماء كناية عن المؤمن على ما قيل.

قوله تعالى: وَ إِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الخ؛ قال الراغب: الظله سحابه تظل و أكثر ما يقال فيما يستوخم و يكره، قال: «كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ» «عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ» انتهى.

و المعنى: و إذا غشيهم و أحاط بهم فى البحر موج كقطع السحاب انقطعوا الى الله و دعوه للنجاه حال كونهم مخلصين له الدين أى و فى ذلك دليل على أن فطرتهم على التوحيد.

و قوله: فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ المقصد سالك القصد أى الطريق المستقيم و المراد به التوحيد الذى دلتهم عليه فطرتهم إذ ذلك، و فى التعبير بمن التبعضيه استقلال عدتهم أى فلما نجى الله سبحانه هؤلاء الداعين بالإخلاص الى البر فقليل منهم المقتصدون.

و قوله: وَ مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ الختار مبالغه من الختر و هو شدة الغدر و فى السياق دليل على الاستكثار و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ لما ساق الحجج و المواعظ الشافيه الوافيه جمعهم فى خاتمتها فى خطاب عام يدعوهم الى التقوى و ينذرهم بيوم القيامة الذى لا يغنى فيه مغن إلا الإيمان و التقوى.

قال الراغب: الجزء الغنى و الكفايه، و قال: يقال: غررت فلانا أصبت غرته و نلت منه ما أريد و الغره غفله فى اليقظه و الغرار غفله مع غفوه، الى أن قال: فالغرور كل ما يغر الانسان من مال و جاه و شهوه و شيطان و قد فسر بالشیطان إذ هو أخبث الغارين و بالدنيا لما قيل: الدنيا تغر و تضر و تمر انتهى.

فمعنى الآية «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ» و هو الله سبحانه «وَ أَحْشَوْا يَوْمًا» و هو يوم القيامة

«لَا يَجْزِي» لا يفنى «وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لَأَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ» مِغْنِ كَافٍ «عَنْ وَالِدِهِ» شَيْئًا «إِنَّ وَعِيدَ اللَّهِ» بِالْبَعثِ «حَقٌّ» ثَابِتٌ لَا يَخْلَفُ «فَلَا تَعَزَّنْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا» بِزَيْنَتِهَا الْغَاوِرَةِ «وَلَا يُعَزَّنْكُمْ بِاللَّهِ الْعَزُورُ» أَيْ جِنْسٌ مَا يَغْرِ الْإِنْسَانَ مِنْ شَأْنِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَوْ خِصُوصَ الشَّيْطَانِ.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ الْغَيْثُ الْمَطَرُ وَمَعْنَى جَمَلِ الْآيَةِ ظَاهِرٌ.

وَقَدْ عَدَّ سَبْحَانَهُ أُمُورًا ثَلَاثَةً مِمَّا تَعَلَّقَ بِهِ عِلْمَهُ وَ هِيَ الْعِلْمُ بِالسَّاعَةِ وَ هُوَ مِمَّا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ عِلْمَهُ لِنَفْسِهِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ وَ يَدُ لَعْلَى الْقَصْرِ قَوْلُهُ: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ» وَ تَنْزِيلُ الْغَيْثِ وَ عِلْمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَ يَخْتَصُّ بِهٖ تَعَالَى إِلَّا أَنْ يَعْلَمَهُ غَيْرُهُ.

وَ عَدَّ أُمُورَيْنِ آخَرَيْنِ يَجْهَلُ بِهِمَا الْإِنْسَانُ وَ بِذَلِكَ يَجْهَلُ كُلُّ مَا سَيَجْرِي عَلَيْهِ مِنَ الْحَوَادِثِ وَ هُوَ قَوْلُهُ: «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ» وَ قَوْلُهُ: «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ».

وَ كَأَنَّ الْمُرَادَ تَذَكْرَهُ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ كُلُّ مَا دَقَّ وَ جَلَّ حَتَّى مِثْلَ السَّاعَةِ الَّتِي لَا يَتَيَسَّرُ عِلْمُهَا لِلخَلْقِ وَ أَنْتُمْ تَجْهَلُونَ أَهْمَ مَا يَهْمُكُمْ مِنَ الْعِلْمِ فَاللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ فَيَاكُمْ أَنْ تَشْرَكُوا بِهِ وَ تَتَمَرَّدُوا عَنْ أَمْرِهِ وَ تَعْرَضُوا عَنْ دَعْوَتِهِ فَتَهْلِكُوا بِجَهْلِكُمْ (١).

ص: ٦٩

(١ - ١). لِقْمَانِ ٢٠-٣٤: بَحْثٌ رَوَائِيٌّ حَوْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَ بَاطِنَةً»؛ الشُّكْرُ؛ الْحَيَاةُ فِي الدُّنْيَا؛ خَمْسَةٌ لَمْ يَطَّلِعَ اللَّهُ عَلَيْهَا أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتِّينَ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَلِكُمْ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسِيلَهُ مِنْ نُحْلٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مِمَّا تَشْكُرُونَ (٩) وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤)

غرض السوره تقرير المبدأ و المعاد و إقامة الحجه عليهما و دفع ما يختلج القلوب فى ذلك مع إشاره الى النبوه و الكتاب ثم بيان ما يتميز به الفريقان المؤمنون بآيات الله حقا و الفاسقون الخارجون عن زىّ العبوديه و وعد أولئك بما هو فوق تصوّر المتصورين من الثواب و وعيد هؤلاء بالانتقام الشديد بأليم العذاب المخلد و أنهم سيدوقون عذابا أدنى دون العذاب الأكبر، و تختتم السوره بتأكيد الوعيد و أمر النبي صلى الله عليه و آله و سلم بالانتظار كما هم منتظرون.

و هي مكيه إلا ثلاث آيات نزلت - كما قيل - بالمدينه و هي قوله تعالى: أَمْ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا الى تمام ثلاث آيات.

و الذى أوردناه من آياتها يتضمّن الفصل الأول من فصلى غرض السوره الذى أشرنا اليه.

قوله تعالى: تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أى هذا تنزيل الكتاب، و التنزيل مصدر بمعنى اسم المفعول و إضافته الى الكتاب من إضافه الصفه الى الموصوف، و المعنى: هذا هو الكتاب المنزّل لا ريب فيه.

و قوله: مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فيه براعه استهلال لما فى غرض السوره أن يتعاطى بيانه من الوجدانيه و المعاد اللذين ينكرهما الوثنيه لما مرّ مرارا أنهم لا يقولون برب العالمين بل يثبتون لكل عالم إلهها و لمجموع الآلهه إلهها هو الله تعالى عما يقولون علوا كبيرا.

قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ يَلْبَسُ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخ؛ أم منقطعه، و المعنى: بل يقولون افترى القرآن على الله و ليس من عنده فردّه بقوله: «بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ» الْخ.

و قوله: لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ قيل: يعنى قريشا فإنهم لم يأتهم نبي قبله صلى الله عليه و آله و سلم بخلاف غيرهم من قبائل العرب فإنهم أتاهم بعض الأنبياء كخالد بن سنان العيسى و حنظله على ما فى الروايات.

و قوله: لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ غايه رجائيه لإرسال الرسول و الترجى قائم بالمقام أو بالمخاطب دون المتكلم كما تقدم فى نظائره.

قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ - الى قوله - أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ تقدم الكلام فى تفسير قوله: «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» فى نظائره من الآيات و تقدم أيضا أن الاستواء على العرش كناية عن مقام تدبير الموجودات

بنظام عام إجمالى يحكم على الجميع و لذا أتبع العرش فى أغلب ما وقع فيه من الموارد بما فيه معنى التدبير كقوله: **ثُمَّ اسْتَوَىٰ** عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ (الأعراف / ٥٤) وقوله: **ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ** (يونس / ٣)، وقوله: **ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلُجُّ فِي الْأَرْضِ** (الحديد / ٤)، وقوله: **ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** (البروج / ١٦).

و الوجه فى ذكر الاستواء على العرش، بعد ذكر خلق السماوات و الأرض إن الكلام فى اختصاص الربوبية و الالهيه بالله وحده و مجرد استناد الخلقه اليه تعالى لا ينفع فى إبطال ما يقول به الوثنيه شيئا فإنهم لا ينكرون استناد الخلقه اليه وحده و إنما يقولون باستناد التدبير و هو الربوبية للعالم الى آلهتهم ثم اختصاص الالهويه و هى المعبوديه بآلهتهم و لله تعالى من الشأن أنه رب الأرباب و إله الآلهه.

فكان من الواجب عند إقامه الحججه لإبطال قولهم أن يذكر أمر الخلقه ثم يتعقب بأمر التدبير لمكان تلازمهما و عدم انفكاك أحدهما من الآخر حتى يكون موجد الأشياء و خالقها هو الذى يربها و يدبر أمرها فيكون ربا وحده و إلهها وحده كما أنه موجد خالق وحده.

و لذلك بعينه ذكر أمر التدبير بعد ذكر الخلقه فى الآيه التى نحن فيها إذ قيل «**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ**» فالولاية و الشفاعة كالاستواء على العرش من شئون التدبير.

و قوله: **مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ** الولى هو الذى يملك تدبير أمر الشىء و من المعلم أن أمورنا و الشئون التى تقوم به حياتنا قائمه بالوجود محكومته مدبره للنظام العام الحاكم فى الأشياء عامه و ما يخص بنا من نظام خاص، و النظام أيا ما كان من لوازم خصوصيات خلق الأشياء و الخلقه كيفما كانت مستنده اليه تعالى فهو تعالى و لينا القائم بأمرنا المدبر لشئوننا و أمورنا، كما هو ولى كل شىء كذلك وحده لا شريك له.

و الشفيع-على ما تقدم فى مباحث الشفاعة فى الجزء الأول من الكتاب-هو الذى ينضم الى سبب ناقص فيتم سببته و تأثيره،و الشفاعة تتميم السبب الناقص فى تأثيره و إذا طبقناها على الأسباب و المسببات الخارجيه كانت أجزاء الأسباب المركبه و شرائطها بعضها شفيعا لبعض لتتميم حصه من الأثر منسوبه اليه كما أن كلا من السحاب و المطر و الشمس و الظل و غيرها شفيع للنبات.

و إذ كان موجد الأسباب و أجزائها و الرابط بينها و بين المسببات هو الله سبحانه فهو الشفيع بالحقيقه الذى يتم نقصها و يقيم صلبها فالله سبحانه هو الشفيع بالحقيقه لا شفيع غيره.

و بيان آخر أدق قد تقدم فى البحث عن الأسماء الحسنى فى الجزء الثامن من الكتاب أن أسماءه تعالى الحسنى و سائط بينه و بين خلقه فى إيصال الفيض اليهم فهو تعالى يرزقهم مثلا- بما أنه رازق جواد غنى رحيم و يشفى المريض بما أنه شاف معاف رؤف رحيم و يهلك الظالمين بما أنه شديد البطش ذو انتقام عزيز و هكذا.

فما من شىء من المخلوقات المركبه الوجود إلا و يتوسط لوجوده عدده من الأسماء الحسنى بعضها فوق بعض و بعضها فى عرض بعض و كل ما هو أخص منها يتوسط بين الشىء و بين الأعم منها كما أن الشافى يتوسط بين المريض و بين الرؤف الرحيم و الرحيم يتوسط بينه و بين القدير و هكذا.

و التوسط المذكور فى الحقيقه تتميم لتأثير السبب فيه و إن شئت فقل هو تقريب للشىء من السبب لفعليه تأثيره و ينتج منه أنه تعالى شفيع ببعض أسمائه عند بعض فهو الشفيع ليس من دونه شفيع فى الحقيقه فافهم.

و قد تبين بما مر أن لا إشكال فى إطلاق الشفيع عليه تعالى بمعنى كونه شفيعا بنفسه عند نفسه و حقيقته توسط صفه من صفاته الكريمه بين الشىء و صفه من صفاته كما يستعاذ من

سخطه الى رحمته و من عدله الى فضله، و أما كونه تعالى شفيعا بمعنى شفاعته لشيء عند غيره فهو مما لا يجوز البتة.

و قوله: أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ استفهام توبيخي يوبخهم على استمرارهم على الإعراض عن أدله العقول حتى يتذكروا أن الملك و التدبير لله سبحانه و هو المعبود بالحق ليس لهم دونه ولى و لا شفيع كما يزعمون ذلك لآلهتهم.

قوله تعالى: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ تتميم لبيان أن تدبير أمر الموجودات قائم به سبحانه و هذا هو القرينه على أن المراد بالأمر في الآيه الشأن دون الأمر المقابل للنهى.

و التدبير وضع الشيء فى دابر الشيء و الإتيان بالأمر بعد الأمر ف يرجع الى إظهار وجود الحوادث واحدا بعد واحد كالسلسله المتصله بين السماء و الارض و قد قال تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر ٢١)، و قال: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (القمر ٤٩).

و قوله: ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ بعد قوله: «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ» لا- يخلو من إشعار بأن «يُدَبِّرُ» مضمن معنى التنزيل و المعنى: يدبر الأمر منزلا أو ينزله مدبرا- من السماء الى الأرض و لعله الأمر الذى يشير اليه قوله: فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا (حم السجده ١٢).

و فى قوله: يَعْرُجُ إِلَيْهِ إشعار بأن المراد بالسماء مقام القرب الذى تنتهى اليه أزمه الامور دون السماء بمعنى جهه العلو أو ناحيه من نواحى العالم الجسمانى فإن الأمر قد وصف قبل العروج بالنزول فظاهر العروج أنه صعود من الطريق التى نزل منها، و لم يذكر هناك إلا- علو هو السماء، و سفل هو الأرض و نزول و عروج فالنزول من السماء و العروج الى الله يشعر بأن السماء هو مقام الحضور الذى يصدر منه تدبير الأمر أو أن موطن تدبير الأمر الأرضى هو

السماء و الله المحيط بكل شيء ينزل التدبير الأرضى من هذا الموطن، و لعل هذا هو الأقرب الى الفهم بالنظر الى قوله: «وَ أَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا» .

و قوله: فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ معناه على أى حال أنه فى ظرف لو طبّق على ما فى الأرض من زمان الحوادث و مقدار حركتها انطبق على ألف سنه مما نعدّه فإن من المسلم أن الزمان الذى يقدره ما نعدّه من الليل و النهار و الشهور و السنين لا يتجاوز العالم الأرضى.

و إذ كان المراد بالسماء هو عالم القرب و الحضور و هو مما لا سبيل للزمان اليه كان المراد أنه وعاء لو طبّق على مقدار حركه الحوادث فى الأرض كان مقداره ألف سنه مما تعدّون.

و أما أن هذا المقدار هل هو مقدار النزول و اللبث و العروج أو مقدار مجموع النزول و العروج دون اللبث أو مقدار كل واحد من النزول و العروج أو مقدار نفس العروج فقط بناء على أن «فِي يَوْمٍ» قيد لقوله: «يَعْرُجُ إِلَيْهِ» فقط كما وقع فى قوله: تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (المعارج ٤/٤).

ثم على تقدير كون الظرف قيّدا للعروج هل العروج مطلق عروج الحوادث الى الله أو العروج يوم القيامة و هو مقدار يوم القيامة، و أما كونه خمسين ألف سنه فهو بالنسبه الى الكافر من حيث الشقه أو أن الألف سنه مقدار مشهد من مشاهد يوم القيامة و هو خمسون موقفا كل موقف مقداره ألف سنه.

ثم المراد بقوله: «مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ» هل هو التحديد حقيقه أو المراد مجرد التكثير كما فى قوله: يَوْمٌ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ (البقره ١٩٦/١)، أى يعمر عمرا طويلا جدا و إن كان هذا الاحتمال بعيدا من السياق.

و الآيه- كما ترى- تحتل الاحتمالات جميعا و لكل منها وجه و الأقرب من بينها الى الذهن كون «فِي يَوْمٍ» قيّدا لقوله: «ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ» و كون المراد بيوم عروج الأمر مشهدا من خمسين

مشهدا من مشاهد يوم القيامة، والله أعلم.

قوله تعالى: **ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** تقدم تفسير مفردات الآيه، و مناسبة الأسماء الثلاثة الكريمه للمقام ظاهره.

قوله تعالى: **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ** قال الراغب: الحسن عبارته عن كل مبهج-بصيغه الفاعل-مرغوب فيه و ذلك ثلاث أضرب: مستحسن من جهة العقل و مستحسن من جهة الهوى و مستحسن من جهة الحس. انتهى. و هذا تعريف له من جهة خاصته و انقسامه بانقسام الإدراكات الإنسانية.

و حقيقته ملاءمه أجزاء الشىء بعضها لبعض و المجموع للغرض و الغايه الخارجه منه فحسن الوجه تلاؤم أجزاءه من العين و الحاجب و الأنف و الفم و غيرها، و حسن العدل ملاءمته للغرض من الاجتماع المدنى و هو نيل كل ذى حق حقه، و هكذا.

التدبر فى خلقه الأشياء و كل منها فى نفسه متلائم الأجزاء بعضها لبعض و المجموع من وجوده مجهز بما يلائم كماله و سعاده تجهيزا لا أتم و لا أكمل منه يعطى أن كلا منها حسن فى نفسه حسنا لا أتم و أكمل منه بالنظر الى نفسه.

و أما ما نرى من المساءه و القبح فى الأشياء فلأحد أمرين: أما لكون الشىء السيئ ذا عنوان عدمى يعود اليه المساءه لا لوجوده فى نفسه كالظلم و الزنا فإن الظلم ليس بسىء قبيح بما أنه فعل من الأفعال بل بما أنه مبطل لحق ثابت و الزنا ليس بسىء قبيح من جهة نفس العمل الخارجى الذى هو مشترك بينه و بين النكاح بل بما أن فيه مخالفه للنهى الشرعى أو للمصلحه الاجتماعيه.

أو بقياسه الى شىء آخر فيعرضه المساءه و القبح من طريق المقاييسه كقياس الحنظل الى البطيخ و قياس الشوك الى الورد و قياس العقرب الى الإنسان فإن المساءه إنما تطرأ هذه الأشياء من طريق القياس الى مقابلاتها ثم قياسها الى طبعنا، و يرجع هذا الوجه من المساءه

الى الوجه الأول بالحقيقه.

و كيف كان فالشىء بما أنه موجود مخلوق لا- يتصف بالمساءه و يدل عليه الآيه «الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ» إذا انضمم الى قوله: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (الزمر ٦٢) فينتجان أولاً: أن الخلقه تلازم الحسن فكل مخلوق حسن من حيث هو مخلوق.

و ثانياً: ان كل سيئ و قبيح ليس بمخلوق من حيث هو سيئ قبيح كالمعاصي و السيئات من حيث هي معاص و سيئات و الأشياء السيئه من جهه القياس.

قوله تعالى: وَ يَدَّأَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ المراد بالإنسان النوع فالمبدو خلقه من طين هو النوع الذي ينتهي أفراده الى من خلق من طين من غير تناسل من أب و أم كآدم و زوجه عليهما السلام، و الدليل على ذلك قوله بعده: ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُيْلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ فالنسل الولاده بانفصال المولود عن الوالدين و المقابله بين بدء الخلق و بين النسل لا يلائم كون المراد ببدء الخلق بدء خلق الإنسان المخلوق من ماء مهين، و لو كان المراد ذلك لكان حق الكلام أن يقال: ثم جعله سلاله من ماء مهين فافهمه.

و قوله: ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُيْلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ السلاله كما فى المجمع الصفوه التى تنسل أى تنزع من غيرها و يسمى ماء الرجل سلاله لانسلاله من صلبه، و المهين من الهون و هو الضعف و الحقاره و ثم للتراخي الزمانى.

و المعنى: ثم جعل ولادته بطريق الانفصال من صفوه من ماء ضعيف أو حقير.

قوله تعالى: ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ التسويه التصوير و تتميم العمل، و فى قوله: «نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ» استعاره بالكنايه بتشبيهه الروح بالنفس الذى يتنفس به ثم نفخه فى قالب من سواه، و إضافه الروح اليه تعالى إضافه تشريفيه، و المعنى: ثم صور الإنسان المبدو خلقه من الطين و المجمعول نسله من سلاله من ماء مهين و نفخ فيه من روح شريف منسوب اليه تعالى.

قوله تعالى: وَ جَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ امتنان بنعمه الإدراك الحسى و الفكرى فالسمع و البصر للمحسوسات و القلوب للفكریات أعم من الإدراكات الجزئیه الخياليه و الكلیه العقليه.

و قوله: قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ أى تشكرون شكرا قليلا، و الجملة اعتراضيه فى محل التوبيخ و قيل: الجملة حالیه، و المعنى: جعل لكم الأبصار و الأفئده و الحال أنكم تشكرون قليلا، و الجملة على أى حال مسوقه للبت و الشكوى و التوبيخ.

قوله تعالى: وَ قَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ حجه من منكرى البعث مبنيه على الاستبعاد. و الضلال فى الأرض قيل: هو الضيعه كما يقال: ضلّت النعمه أى ضاعت، و قيل: هو بمعنى الغيبه، و كيف كان فمرادهم به، إنا إذا متنا و انتشرت أجزاء أبداننا فى الأرض و صرنا بحيث لا تميز لأجزائنا من سائر أجزاء الأرض و لا خبر عنا نقع فى خلق جديد و نخلق ثانيا خلقنا الأول؟

و الاستفهام للإنكار، و الخلق الجديد هو البعث.

و قوله: «بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ» إضراب عن فحوى قولهم: «أَ إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ» كأنه قيل: إنهم لا يجحدون الخلق الجديد لجحدهم قدرتنا عن ذلك أو لسبب آخر بل هم كافرون بالرجوع إلينا و لقائنا و لذا جىء فى الجواب عن قولهم بما يدل على الرجوع.

قوله تعالى: قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ توفى الشىء أخذه تاما كاملا كتوفى الحق و توفى الدّين من المديون.

و قوله: مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ قيل: أى و كل بإماتتكم و قبض أرواحكم و الآيه مطلقه ظاهره فى أعم من ذلك.

و قد نسب التوفى فى الآيه الى ملك الموت، و فى قوله: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا (الزمر ٤٢) إليه تعالى، و فى قوله: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا (الأنعام)

٦١)، وقوله: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ (النحل ٢٨)، إلى الرسل و الملائكة نظرا إلى اختلاف مراتب الأسباب فالسبب القريب الملائكة الرسل أعوان ملك الموت و فوقهم ملك الموت الأمر بذلك المجرى لأمر الله و الله من ورائهم محيط و هو السبب الأعلى و مسبب الأسباب فذلك بوجه كمثل كتابه الإنسان بالقلم فالقلم كاتب و اليد كاتبه و الإنسان كاتب.

و قوله: ثُمَّ إِلَيَّ رُبُّكُمْ تَرْجِعُونَ هو الرجوع الذى عبر عنه فى الآيه السابقه باللقاء و موطنه البعث المترتب على التوفى و المتراخى عنه، كما يدل عليه العطف بثم الداله على التراخى.

و الآيه-على أى تقدير-جواب عن الاحتياج بضلال الموتى فى الأرض على نفى البعث و من المعلوم أن إماته ملك الموت لهم ليس يحسم ماده الإشكال فيبقى قوله: «ثُمَّ إِلَيَّ رُبُّكُمْ تَرْجِعُونَ» دعوى خاليه عن الدليل فى مقابل دعواهم المدللّه و الكلام الإلهى أنزه ساحه أن يتعاطى هذا النوع من المحاجه.

لكنه تعالى أمر رسوله أن يجيب عن حجتهم المبنيه على الاستبعاد بأن حقيقه الموت ليس بطلانا لكم و ضلالا منكم فى الأرض بل ملك الموت الموكل بكم يأخذكم تامين كاملين من أجسادكم أى ينزع أرواحكم من أبدانكم بمعنى قطع علاقتها من الأبدان و أرواحكم تمام حقيقتكم فأنتم أى ما يعنى بلفظه «كم» محفوظون لا يضل منكم شىء فى الأرض و إنما يضل الأبدان و تتغير من حال إلى حال و قد كانت فى معرض التغير من اول كينونتها. ثم إنكم محفوظون حتى ترجعوا إلى ربكم بالبعث و رجوع الأرواح إلى أجسادها.

و بهذا يندفع حجتهم على نفى المعاد بضلالهم سواء قررت على نحو الاستبعاد أو قررت على أن تلاشى البدن يبطل شخصيه الإنسان فيعدم و لا معنى لإعاده المعدوم فإن حقيقه الإنسان هى نفسه التى يحكى عنها بقول «أنا» و هى غير البدن و البدن تابع لها فى شخصيته

و هي لا- تتلاشى بالموت و لا- تنعدم بل محفوظة في قدره الله حتى يؤذن في رجوعها الى ربها للحساب و الجزاء فيبعث على الشريطة التي ذكر الله سبحانه.

و ظهر بما تقدم أولا وجه اتصال قوله: «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ» الخ؛ بقوله: «إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ» الخ؛ و أنه جواب حاسم للإشكال قاطع للشبهه، و قد أشكل الأمر على بعض من فسر التوفى بمطلق الإماتة من غير التفات الى نكته التعبير بلفظ التوفى فتكلف في توجيه اتصال الآيتين بما لا يرتضيه العقل السليم.

و ثانيا: أن الآيه من أوضح الآيات القرآنيه الداله على تجرد النفس بمعنى كونها غير البدن أو شيء من حالات البدن.

قوله تعالى: «وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ نَكِسُ الرَّأْسِ إِطْرَاقَهُ وَطَأْطَأَتَهُ، و المراد بالمجرمين بقرينه ذيل الآيه خصوص المنكرين للمعاد فاللام فيه لا تخلو من معنى العهد أى هؤلاء الذين يجحدون المعاد و يقولون «أَ إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ» الخ.

و فى التعبير عن البعث بقوله: «عِنْدَ رَبِّهِمْ» محاذاه لما تقدم من قوله: «يَلُ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ» أى واقفون موقفا من اللقاء لا يسعهم إنكاره، و قولهم: «أَبْصَرْنَا وَ سَمِعْنَا» و مسألتهم الرجوع للعمل الصالح لما ينجلي لهم أن النجاه فى الإيمان و العمل الصالح و قد حصل لهم الإيمان اليقيني و بقى العمل الصالح و لذا يعترفون باليقين و يسألون الرجوع الى الدنيا ليعملوا صالحا فيتم لهم سببا النجاه.

و المعنى: و لو ترى إذ هؤلاء الذين يجرمون بإنكار لقاء الله مطرقو رءوسهم عند ربهم فى موقف اللقاء من الخزي و الذل و الندم يقولون ربنا أبصرنا بالمشاهده و سمعنا بالطاعة فارجعنا نعمل عملا صالحا إنا موقنون و المحصل أنك تراهم يجحدون اللقاء و لو تراهم إذ أحاط بهم الخزي و الذل فنكسوا رءوسهم و اعترفوا بما ينكرونه اليوم و سألوا العود الى هاهنا

و لن يعودوا.

قوله تعالى: **وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى** إلى آخر الآية؛ أى لو شئنا أن نعطي كل نفس أعم من المؤمنه و الكافره الهدى الذى يختص بها و يناسبها لأعطيناه لها بأن نشاء من طريق اختيار الكافر و إرادته أن يتلبس بالهدى فيتلبس بها من طريق الاختيار و الإراده كما شئنا فى المؤمن كذلك فتلبس بالهدى باختيار منه و إرادته من دون أن ينجر الى الإلجاء و الاضطرار فيبطل التكليف و يلغو الجزاء.

و قوله: **وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** أى و لكن هناك قضاء سابق منى محتوم و هو إملاء جهنم من الجنه و الناس أجمعين و هو قوله لإبليس لما امتنع من سجده آدم و قال: **فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا جِبَدَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ** (ص ٨٥)، فقضى أن يدخل متبعى إبليس العذاب المخلد.

و لازم ذلك أن لا يهديهم لظلمهم و فسقهم بالخروج عن زى العبوديه كما قال: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** و الله لا يهدى القوم الفاسقين (التوبه ٨٠)، الى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: **فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ** الى آخر الآية؛ تفريع على قوله: **وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي** و النسيان ذهول صورته الشىء عن الذاكره و يكتفى به عن عدم الاعتناء بما يهيم الشىء و هو المراد فى الآية.

و المعنى: فإذا كان من القضاء إذاقه العذاب لمتبعى إبليس فذوقوا العذاب بسبب عدم اعتنائكم بقاء هذا اليوم حتى جحدتموه و لم تعملوا صالحا تثابون به فيه لأننا لم نعتن بما يهيمكم فى هذا اليوم من السعاده و النجاه، و قوله: **«وَذُوقُوا عَذَابَ الخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»** تأكيد و توضيح لسابقه أى إن الذوق الذى أمرنا به ذوق عذاب الخلد و نسيانهم لقاء يومهم هذا

[سوره السجده (٣٢): الآيات ١٥ الى ٣٠]

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا حَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) أَمْ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَنَذِيقُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانْتَظَرُوا إِلَهُهُمْ مُنْتَظِرُونَ (٣٠)

١- ١). السجده ١-١٤: بحث روائى فى: سور العزائم، كيفية قبض روح المؤمن و الظالم.

٢- ٢). السجده ١-١٤: كلام فى كينونه الانسان الاول.

بيان:

قوله تعالى: **إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا حَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ** لما ذكر شطرا من الكلام في الكفار الذين يجحدون لقاءه و يستكبرون في الدنيا عن الإيمان و العمل الصالح أخذ في صفه الذين يؤمنون بآيات ربهم و يخضعون للحق لما ذكروا و وعظوا.

فقوله: **إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا** حصر للإيمان بحقيقته معناه فيهم و معناه أن علامه التهيؤ

ص: ٨٤

للإيمان الحقيقي هو كذا و كذا.

وقوله: الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ شَيْئًا مِنْ أَوْصَافِهِمْ وَ شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ، أما ما هو من أوصافهم فتذللهم لمقام الربوبية و عدم استكبارهم عن الخضوع لله و تسيبته و حمده و هو قوله: «إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ» أى الداله على وحدانيته فى ربوبيته و ألوهيته و ما يلزمها من المعاد و الدعوه النبويه الى الايمان و العمل الصالح «خَرُّوا سُجَّدًا» أى سقطوا على الأرض ساجدين لله تذللا و استكانه «وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ» أى نزهوه مقارنا للثناء الجميل عليه. و السجده و التسيب و التحميد و إن كانت من الأفعال لكنها مظاهر لصفه التذلل و الخضوع لمقام الربوبية و الالوهيه، و لذا أردفها بصفه تلازمها فقال: «وَهُمْ لَا يَشْتَكِبُونَ» .

قوله تعالى: تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَ طَمَعًا وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ هذا معرفهم من حيث أعمالهم كما أن ما فى الآيه السابقه كان معرفهم من حيث أوصافهم.

فقوله: تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ التَّجَافَى الشَّحَى و الجنوب جمع جنب و هو الشق، و المضاجع جمع مضجع و هو الفراش و موضع النوم، و التجافى عن المضاجع كناية عن ترك النوم.

وقوله: يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَ طَمَعًا حال من ضمير جنوبهم و المراد اشتغالهم بدعاء ربهم فى جوف الليل حين تنام العيون و تسكن الانفاس لا- خوفا من سخطه تعالى فقط حتى يغشيهم اليأس من رحمه الله و لا طمعا فى ثوابه فقط حتى يأمنوا غضبه و مكره بل يدعونه خوفا و طمعا فيؤثرون فى دعائهم أدب العبوديه على ما يعثهم اليه الهدى و هذا التجافى و الدعاء ينطبق على النوافل الليلية.

وقوله: وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ عمل آخر لهم و هو الإنفاق لله و فى سبيله.

قوله تعالى: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قُرِّهِ أَعْيُنٍ جِزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ تفرّيع لما لهم من الأوصاف و الأعمال يصف ما أعدّ الله لهم من الثواب.

و وقوع نفس و هى نكره فى سياق النفى يفيد العموم، و إضافه قرّه الى أعين لا- أعينهم تفيد أن فيما أفى لهم قرّه عين كل ذى عين.

و المعنى: فلا تعلم نفس من النفوس- أى هو فوق علمهم و تصوّرههم- ما أخفاه الله لهم مما تقرّ به عين كل ذى عين جزاء فى قبال ما كانوا يعملون فى الدنيا.

قوله تعالى: أَمْ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ الإيمان سكون علمى خاص من النفس بالشىء و لازمه الالتزام العملى بما آمن به و الفسق هو الخروج عن الالتزام المذكور من فسقت التمره إذا خرجت عن قشرها و مآل معناه الخروج عن زى العبوديه.

و الاستفهام فى الآيه للانكار، و قوله: «لَا يَسْتَوُونَ» نفى لاستواء الفريقين تأكيدا لما يفيدته الإنكار السابق.

قوله تعالى: أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ المأوى المكان الذى يأوى اليه و يسكن فيه الانسان، و النزول بضمّتين كل ما يعدّ للنازل فى بيت من الطعام و الشراب، ثم عمّم كما قيل لكل عطيه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: وَ أَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ الى آخر الآيه؛ كون النار مأواهم لازمه خلودهم فيها و لذلك عقبه بقوله: «كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا»، و قوله:

«وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ» دليل على أن المراد بالذين فسقوا هم منكروا المعاد و خطابهم و هم فى النار بهذا الخطاب شماته بهم و كثيرا ما كانوا يشمتون فى الدنيا بالمؤمنين لقولهم بالمعاد.

قوله تعالى: وَ لَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ لما كان غايه إذاقتهم العذاب رجوعهم المرجو و الرجوع المرجو هو الرجوع الى الله بالتوبه و الإنابه كان المراد بالعذاب الأدنى هو عذاب الدنيا النازل بهم للتخويف و الإنذار ليتوبوا دون عذاب الاستئصال و دون العذاب الذى بعد الموت و حينئذ المراد بالعذاب الأكبر عذاب يوم القيامة.

و المعنى: أقسم لنذيقنهم من العذاب الأدنى أى الأقرب مثل السنين و الأمراض و القتل و نحو ذلك قبل العذاب الأكبر يوم القيامة لعلهم يرجعون إلينا بالتوبه من شركهم و جحودهم.

قوله تعالى: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ كانه فى مقام التعليل لما تقدم من عذابهم بالعذاب الأكبر بما أنهم مكذبون فعلمه بأنهم ظالمون أشد الظلم بالإعراض عن الآيات بعد التذكرة فيكونون مجرمين و الله منتقم منهم.

فقوله: وَ مَنْ أَظْلَمُ الْخ؛ تعليل لعذابهم بأنهم ظالمون أشد الظلم ثم قوله: «إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ»، تعليل لعذاب الظالمين بأنهم مجرمون و العذاب انتقام منهم، و الله منتقم من المجرمين.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَ جَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ المراد بالكتاب التوراه و المريه الشك و الريب.

و قد اختلفوا فى مرجع الضمير فى قوله: «مِنْ لِقَائِهِ» و معنى الكلمه فقيل: الضمير لموسى و هو مفعول اللقاء و التقدير فلا تكن فى مريه من لقاءك موسى و لقد لقيه ليله المعراج كما وردت به الروايات فإن كانت السوره نازله بعد المعراج فهو تذكره لما قد وقع و إن كانت نازله قبله فهو وعد منه تعالى للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أنه سيراه.

و من الممكن -و الله أعلم- أن يرجع ضمير لقائه اليه تعالى و المراد بلقائه البعث بعنايه أنه

يوم يحضرون لربهم لا حجاب بينه وبينهم كما تقدم، وقد عبر عنه باللقاء قبل عده آيات في قوله: **بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ**، ثم عبر عنه بما في معناه في قوله: **«نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ»**.

فيكون المعنى: ولقد آتينا موسى الكتاب كما آتيناك القرآن فلا تكن في مريه من البعث الذي ينطق به القرآن بالشك في نفس القرآن وقد أيد نزول القرآن عليه صلى الله عليه وآله وسلم بنزول التوراه على موسى في مواضع من القرآن، ويؤيده قوله بعد: **«وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا»** الخ.

ويمكن أن يكون المراد بلقائه الانقطاع التام اليه تعالى عند وحى القرآن أو بعضه كما في بعض الروايات، فيكون رجوعا الى ما في صدر السوره من قوله: **«تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ»**، و ذيل الآية أشد تأييدا لهذا الوجه من سابقه والله أعلم. وقوله: **«وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ** أى هاديا فالمصدر بمعنى اسم الفاعل أو بمعناه المصدرى مبالغه.

قوله تعالى: **«وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** أى وجعلنا من بنى إسرائيل أئمة يهدون الناس بأمرنا وإنما نصبناهم أئمة هداه للناس حين صبروا فى الدين و كانوا قبل ذلك موقنين بآياتنا.

وقد تقدم البحث عن معنى الامامه و هدايه الامام بأمر الله فى تفسير قوله: **«قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا»** (البقره ١٢٤)، وقوله: **«وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا»** (الأنبياء / ٧٣)، وغير ذلك من الموارد المناسبه.

وقد تضمنت هاتان الآيتان من الرحمه المنبسطه بالتوراه أنها هدى فى نفسه يهدى من اتبعه الى الحق، و أنها أنشأت فى حجر تربيته أناسا اجتباهم الله للإمامه فصاروا يهدون بأمره فهى مباركه للعمل بها و مباركه بعد العمل.

قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ يريد اختلافهم في الدين وإنما كان ذلك بغيا بينهم كما يذكره في مواضع من كلامه كقوله: وَ لَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ - إلى أن قال - فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (الجاثية ١٧).

فالمراد بقوله: «يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ» القضاء الفاصل بين الحق و الباطل و المحق و المبطل و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ الخ؛ العطف على محذوف كأنه قيل: أ لم يبين لهم كذا و كذا، أو لم يهد لهم، الخ؛ و الهداية بمعنى التبيين أو من مضمّن معنى التبيين و لذا عدّى باللام.

و قوله: كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ مشير الى الفاعل قائم مقامه، و المعنى: أو لم يبين لهم كثره من أهلكتنا من القرون و الحال أنهم يمشون في مساكنهم.

و قوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ المراد بالسمع سمع المواعظ المؤدى الى طاعه الحق و قبوله.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ الخ؛ قال في المجمع: السوق الحث على السير من ساقه يسوقه، و قال: الجرز الارض اليابسه التى ليس فيها نبات لانقطاع الأمطار عنها.

انتهى. و الزرع مصدر فى الأصل و المراد به هنا المزروع.

و الآيه تذكر آيه أخرى من آيات الله سبحانه تدل على حسن تدبيره للأشياء و خاصه ذوى الحياه منها كالأنعام و الإنسان، و المراد بسوق الماء الى الأرض الخاليه من النبات سوق السحب الحامله للأمطار إليها، ففى نزول ماء المطر منها حياه الأرض و خروج الزرع و اغتذاء الإنسان و الأنعام التى يسخرها و يربّيها لمقاصد حياته.

وقوله: أَفَلَا يُبْصِرُونَ تنبيه و توبيخ و تخصيص هذه الآيه بالإبصار، و الآيه السابقه بالسمع لما أن العلم بإهلاك المم الماضين إنما هو بالاخبار التى تنال من طريق السمع و أما العلم بسوق الامطار الى الارض الجرز و إخراج الزرع و اغتذاء الانعام و الإنسان فالطريق اليه حاسه البصر.

قوله تعالى: وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هٰذَا الْفَتْحُ -الى قوله- وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ قال الراغب:الفتح إزالة الإغلاق و الإشكال-الى أن قال- و فتح القضية فتاحا فصل الأمر فيها و أزال الإغلاق عنها،قال: «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ». انتهى.

و يمكن أن يكون المراد هو القضاء بين النبي صلى الله عليه و آله و سلم و بين الامه و يكون ذلك فى آخر الزمان كما تقدمت الإشارة اليه فى تفسير قوله: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ الْآيَه؛(يونس ٤٧).

و كيف كان فالمراد بالآيتين استعجال المشركين بالفتح و الجواب أنه فتح لا ينفع حال الذين كفروا إيمانهم لأنه ظرف لا ينفع نفسا إيمانها و لا أن العذاب يمهلهم و ينظرهم.

قوله تعالى: فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَ انْتَبَظُوا إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ أمر بالإعراض عنهم و انتظار الفتح كما أنهم ينتظرون و إنما كانوا منتظرين موته أو قتله عليه السلام و بالجمله انقطاع دابر دعوته الحقه فلينتظر هو كما هم ينتظرون حتى يظهر الله الحق على الباطل و المحق على المبطل.

و من هذا السياق يظهر أن المراد بالفتح الفتح الدنيوى (١).

ص : ٩٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣) مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ أَلْيَاسِي تَظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيهَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥) النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَرْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦) وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِيُشَلَّلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨)

تتضمن السوره تفاريق من المعارف و الأحكام و القصص و العبر و المواعظ و فيها قصه غزوه الخندق و إشاره الى قصه بنى القريظه من اليهود، و سياق آياتها يشهد بأنها مما نزلت بالمدينه.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أمر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بتقوى الله و فيه تمهيد للنهي الذي بعده «وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ» .

و فى سياق النهى - و قد جمع فيه بين الكافرين و المنافقين و نهى عن إطاعتهم - كشف عن أن الكافرين كانوا يسألونه أمرا لا يرتضيه الله سبحانه و كان المنافقون يؤيدونهم فى مسألتهم و يلحون أمرا كان الله سبحانه بعلمه و حكمته قد قضى بخلافه و قد نزل الوحي الإلهى بخلافه،

أمرًا خطيرًا لا يؤمن مساعده الأسباب على خلافه إلا- أن يشاء الله فحذر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن إجابتهم الى ملتسمهم و أمر بمتابعه ما أوحى الله اليه و التوكل عليه.

و بهذا يتأيد ما ورد فى أسباب النزول أن عده من صنديد قريش بعد وقعه أحد دخلوا المدينة بأمان من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و سألوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يتركهم و آلهتهم فيتركوه و إلهه فنزلت الآيات و لم يجبهم النبي الى ذلك و سيأتى فى البحث الروائى التالى.

و بما تقدم ظهر وجه تذييل الآيه بقوله: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا» و كذا تعقيب الآيه بالآيتين بعدها.

قوله تعالى: وَ اتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا الآيه عامه فى حد نفسها لكنها من حيث وقوعها فى سياق النهى تأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ باتباع ما نزل به الوحي فيما يسأله الكافرون و المنافقون و اتباعه إجراؤه عملا بدليل قوله:

«إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» .

قوله تعالى: وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا الآيه كالآيه السابقه فى أنها عامه فى حد نفسها، لكنها لوقوعها فى سياق النهى السابق تدل على الأمر بالتوكل على الله فيما يأمره به الوحي و تشعر بأنه أمر صعب المنال بالنظر الى الأسباب الظاهرية لا يسلم القلب معه من عارضه المخافه و الاضطراب إلا المتوكل على الله سبحانه فإنه السبب الوحيد الذى لا يغلبه سبب مخالف.

قوله تعالى: مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ كُنَايَه عن امتناع الجمع بين المتنافيين فى الاعتقاد فإن القلب الواحد أى النفس الواحده لا يسع اعتقادين متنافيين و رأيين متناقضين فإن كان هناك متنافيان فهما لقلبين و ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه فالرجل الواحد لا يسعه أن يعتقد المتنافيين و يصدق بالمتناقضين و قوله: «فِي جَوْفِهِ» يفيد زياده التقرير كقوله: وَ لَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ

و معنى هدايته السبيل أنه يحمل من هدايه على سبيل الحق التي فيها الخير و السعاده و فى الجملتين تلويح الى أن دعوا أقوالكم و خذوا بقوله.

قوله تعالى: اذْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ اللام فى «لِآبَائِهِمْ» للاختصاص أى ادعوهم و هم مخصوصون بآبائهم أى انسبوهم الى آبائهم و قوله:

«هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ»، الضمير الى المصدر المفهوم من قوله: «اذْعُوهُمْ» نظير قوله: «اغْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» و «أَقْسَطُ» صيغه تفضيل من القسط بمعنى العدل.

و المعنى: انسبوهم الى آبائهم- إذا دعوتهم- لأن الدعاء لآبائهم أعدل عند الله.

و قوله: فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ مَوَالِيكُمْ، المراد بعدم علمهم آبائهم عدم معرفتهم أعيانهم، و الموالى هم الأولياء، و المعنى: و إن لم تعرفوا آبائهم فلا تنسبوهم الى غير آبائهم بل ادعوهم بالاخوة و الولايه الدينيه.

و قوله: وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ أَى لا- ذنب لكم فى الذى أخطأتم به لسهو أو نسيان فدعوتهم لغير آبائهم و لكن الذى تعمدته قلوبكم ذنب أو و لكن تعمد قلوبكم بذلك فيه الذنب.

و قوله: وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا راجع الى ما أخطئ به.

قوله تعالى: النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَ أَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ أَنفس المؤمنين هم المؤمنون فمعنى كون النبى أولى بهم من أنفسهم أنه أولى بهم منهم: و معنى الأولويه هو رجحان الجانب إذا دار الأمر بينه و بين ما هو أولى منه فالمحصّل أن ما يراه المؤمن لنفسه من الحفظ و الكلاءه و المحبه و الكرامه و استجابته الدعوه و إنفاذ الإراده فالنبى أولى بذلك من نفسه و لو دار الأمر بين النبى و بين نفسه فى شىء من ذلك كان جانب النبى أرجح من جانب نفسه.

ففيما إذا توجه شىء من المخاطر الى نفس النبى فليقه المؤمن بنفسه و يفده نفسه و ليكون

النبي أحب إليه من نفسه و أكرم عنده من نفسه و لو دعته نفسه الى شىء و النبي الى خلافه أو أرادت نفسه منه شيئاً و أراد النبي خلافه كان المتعين استجابة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ طاعته وَ تقديمه على نفسه.

و كذا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أولى بهم فيما يتعلق بالامور الدنيويه أو الدينيه كل ذلك لمكان الإطلاق فى قوله: «النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ» .

و قوله: وَ أَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ جعل تشريعى أى إنهن منهم بمنزله أمهاتهم فى وجوب تعظيمهن و حرمة نكاحهن بعد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ كما سيأتى التصريح به فى قوله: «وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا» .

فالتنزيل إنما هو فى بعض آثار الامومه لا- فى جميع الآثار كالتوارث بينهن و بين المؤمنين و النظر فى وجوههن كالامهات و حرمة بناتهن على المؤمنين لصيرورتهن أخوات لهم و كصيروره آبائهن و أمهاتهن أجدادا و جدات و إخوتهن و أخواتهن أخوالا و خالات للمؤمنين.

قوله تعالى: وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهَاجِرِينَ الخ؛ الأرحام جمع رحم و هى العضو الذى يحمل النطفه حتى تصير جنينا فيتولد، و إذ كانت القرابه النسبيه لازمه الانتهاء الى رحم واحده عبّر عن القرابه بالرحم فسمى ذوو القرابه أولى الأرحام.

و المراد بكون أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض، الأولويه فى التوارث، و قوله: «فِي كِتَابِ اللَّهِ» المراد به اللوح المحفوظ أو القرآن أو السوره، و قوله: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهَاجِرِينَ» مفضّل عليه و المراد بالمؤمنين غير المهاجرين منهم، و المعنى: و ذوو القرابه بعضهم أولى ببعض من المهاجرين و سائر المؤمنين الذين كانوا يرثون بالمؤاخاه الدينيه، و هذه الأولويه فى كتاب الله و ربما احتمل كون قوله: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهَاجِرِينَ» بيانا لقوله: «وَ أُولُوا

و الآيه ناسخه لما كان فى صدر الاسلام من التوارث بالهجره و الموالاه فى الدين .

و قوله: «إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيَّ أَوْ لِأَيْتَانِكُمْ مَعْرُوفًا» الاستثناء منقطع، و المراد بفعل المعروف الى الأولياء الوصيه لهم بشىء من التركه، و قد حدّ شرعا بثلث المال فما دونه، و قوله: «كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا» أى حكم فعل المعروف بالوصيه مسطور فى اللوح المحفوظ أو القرآن أو السوره .

قوله تعالى: وَ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنَا مِنْهُمُ مِيثَاقًا غَلِيظًا إضافة الميثاق الى ضمير النبيين دليل على أن المراد بالميثاق ميثاق خاص بهم كما أن ذكرهم بوصف النبوه مشعر بذلك فالميثاق المأخوذ من النبيين ميثاق خاص من حيث إنهم نبئون و هو غير الميثاق المأخوذ من عامه البشر الذى يشير اليه فى قوله: وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ (الأعراف ١٧٢) .

و قد ذكر النبيين بلفظ عام يشمل الجميع ثم سمى خمسة منهم بأسمائهم بالعطف عليهم فقال:

«وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ» و معنى العطف إخراجهم من بينهم و تخصيصهم بالذكر كأنه قيل: و إذ أخذنا الميثاق منكم أيها الخمسه و من باقى النبيين .

و لم يخصهم بالذكر على هذا النمط إلا لعظمه شأنهم و رفعه مكانهم فإنهم أولو عزم و أصحاب شرائع و كتب و قد عدّهم على ترتيب زمانهم: نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى بن مريم عليهم السّلام، لكن قدّم ذكر النبى صلى الله عليه و آله و سلّم و هو آخرهم زمانا لفضله و شرفه و تقدمه على الجميع .

و قوله: وَ أَخَذْنَا مِنْهُمُ مِيثَاقًا غَلِيظًا تأكيد و تغليظ للميثاق نظير قوله: وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ نَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (هود ٥٨) .

قوله تعالى: لَيْسَ بِمَثَلِ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا اللام في «لَيْسَ بِمَثَلِ» للتعليل أو للغايه و هو متعلق بمحذوف يدل عليه قوله: «وَإِذْ أَخَذْنَا» وقوله: «وَأَعَدَّ» معطوف على ذلك المحذوف، والتقدير فعل ذلك أى أخذ الميثاق ليمهد له سؤال الصادقين عن صدقهم و أعد للكافرين عذابا أليما.

و لم يقل: و ليعد للكافرين عذابا، إشاره أن عذابهم ليس من العلل الغائيه لأخذ الميثاق و إنما النقص من ناحيتهم و الخلف من قبلهم.

و أما سؤال الصادقين عن صدقهم فقول: المراد بالصادقين الأنبياء و سؤالهم عن صدقهم هو سؤالهم يوم القيامة عما جاءت به أممهم و كأنه مأخوذ من قوله تعالى: يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ (المائدة ١٠٩).

وقيل: المراد سؤال الصادقين فى توحيد الله و عدله و الشرائع عن صدقهم أى عما كانوا يقولون فيه، وقيل: المراد سؤال الصادقين فى أقوالهم عن صدقهم فى أفعالهم، وقيل: المراد سؤال الصادقين عما قصدوا بصدقهم أ هو وجه الله أو غيره؟ الى غير ذلك من الوجوه و هى كما ترى.

و التأمل فيما يفيدته قوله: «لَيْسَ بِمَثَلِ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ» يرشد الى خلاف ما ذكره، ففرق بين قولنا: سألت الغنى عن غناه و سألت العالم عن علمه، و بين قولنا: سألت زيدا عن ماله أو عن علمه، فالمتبادر من الأولين أنى طالبتة أن يظهر غناه و أن يظهر علمه، و من الأخيرين أنى طالبتة أن يخبرنى هل له مال أو هل له علم؟ أو يصف لى ما له من المال أو من العلم.

و على هذا فمعنى سؤال الصادقين عن صدقهم مطالبتهم أن يظهر ما فى باطنهم من الصدق فى مرتبه القول و الفعل و هو عملهم الصالح فى الدنيا فالمراد بسؤال الصادقين عن صدقهم توجيه التكليف على حسب الميثاق اليهم ليظهر منهم صدقهم المستبطن فى نفوسهم و هذا فى

الدنيا لا فى الآخرة فأخذ الميثاق فى نشأه اخرى قبل الدنيا كما يدل عليه آيات الدر و إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ الْآيَات.

و بالجمله الآيتان من الآيات المنبئه عن عالم الدر المأخوذ فيه الميثاق و تذكر أن أخذ الميثاق من الأنبياء عليهم السّلام و ترتب شأنهم و عملهم فى الدنيا على ذلك فى ضمن ترتب صدق كل صادق على الميثاق المأخوذ منه.

و لمكان هذا التعميم ذكر عاقبه أمر الكافرين مع أنهم ليسوا من قبيل النسيين و الكلام فى الميثاق المأخوذ منهم فكانه قيل: أخذنا ميثاقا غليظا من النسيين أن تتفق كلمتهم على دين واحد يبلغونه ليسأل الصادقين و يطالبهم بالتكليف و الهدايه إظهار صدقهم فى الاعتقاد و العمل ففعلوا فقدر لهم الثواب و أعدّ للكافرين عذابا أليما.

و من هنا يظهر وجه الالتفات من التكلم مع الغير الى الغيبه فى قوله: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ سَأَلْتَهُ الظَّالِمِينَ» الخ؛ و ذلك لأن الميثاق على عبادته وحده لا شريك له و إن كان أخذه منه تعالى بواسطه من الملائكه المصحح لقوله: «أَخَذْنَا» و «أَخَذْنَا» فالمطالب لصدق الصادقين و المعدّ لعذاب الكافرين بالحقيقه هو تعالى وحده ليعبد وحده فتدبر (١).

[سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٩ الى ٢٧]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَ إِذْ يَقُولُ الْمُبَدِّقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَ إِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَ مَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَ لَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فَتَنَّهُ لَاتَّبَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُمْ وَ لَآ تَوَّعُّبًا (١٤) وَ لَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَ كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَ إِذَا لَمْ تَمْتَعُوا إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لَآ يَسْتَعِينُ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لَآ نَصِيرًا (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْرُوقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَ لَآ يَأْتُونَكَ بِالْحَقِّ إِلا قَلِيلًا (١٨) أَشْجَحَهُ عَلَيْكُمْ فِإِذَا جَاءَ الْخَوْفَ رَأَيْتَهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ تَتَوَرَّأُ عَيْنُهُمْ كَالَّذِي يُغشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فِإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسَّيْفِ حَدَادٍ أَشْحَهَ عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَ إِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَلُونُ عَنْ أَتْيَانِكُمْ وَ لَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْمَآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَ لَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ مَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَ تَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ مَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يَعْذِبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤) وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْظِهِمْ لَمْ يَدُلُّوا خَيْرًا وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَ كَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا (٢٥) وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَ قَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيَارَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ وَ أَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)

١ - ١). الاحزاب ١-٨: بحث روائي حول قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾؛ وقوله تعالى: «النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ».

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودُ الْخِزْيَانِ تَذَكِّرُكُمُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ أَيَّامَ الْخِزْيَانِ وَبَنَصْرِهِمْ وَصَرَفَ جُنُودَ الْمُشْرِكِينَ عَنْهُمْ وَقَدْ كَانُوا جُنُودًا مُجَنَّدَةً مِنَ الشُّعُوبِ وَقِبَائِلَ شَتَّى كَغِظْفَانَ وَقَرِيشَ وَالْأَحَابِيشَ وَكِنَانَةَ وَيَهُودَ بَنِي قَرِيظَةَ وَالنَّضِيرَ أَحَاطُوا بِهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الرِّيحَ وَأَنْزَلَ مَلَائِكَتَهُ يَخْذَلُونَهُمْ.

وهو قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ ظَفَرْنَا لَكُمْ أَوْ لَثَبَتْكُمْ جُنُودًا﴾ من طوائف كل واحد منهم جند كغطفان وقريش وغيرهما «فَأَرْسَلْنَا» بيان للنعمه وهو الإرسال المتفرع علي مجيئهم «عَلَيْهِمْ رِيحًا» وهي الصبا و كانت بارده في ليل شاتيه «وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا» وهي الملائكة لخدلان المشركين «وَوَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا» .

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ الْخِزْيَانِ مِنَ فَوْقِهِمْ وَهُوَ الْجَانِبُ الشَّرْقِيُّ لِلْمَدِينَةِ غِظْفَانَ وَيَهُودَ بَنِي قَرِيظَةَ وَبَنِي النَّضِيرِ وَالْجِزْيَانِ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ وَهُوَ الْجَانِبُ الْغَرْبِيُّ لَهَا قَرِيشٌ وَمِنْ أَنْصَمَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَحَابِيشِ وَكِنَانَةَ فَقَوْلُهُ: «إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ» عطف بيان لقوله: «إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودًا» .

وقوله: «إِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ» ،عطف بيان آخر لقوله: «إِذْ جَاءَتْكُمْ» الخ؛ و زيع الأبصار ميلها والقلوب هي الأنفس والحناجر جمع حنجر وهو جوف الحلقوم.

و الوصفان أعنى زيغ الأبصار و بلوغ القلوب الحناجر كناية عن كمال غشيان الخوف لهم حتى حوّلهم الى حال المختصر الذى يزيغ بصره و تبلغ روحه الحلقوم.

□
و قوله: وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا أَى يظن المنافقون و الذين فى قلوبهم مرض الظنون فبعضهم يقول: إن الكفار سيغلبون و يستولون على المدينة، و بعضهم يقول: إن الإسلام سينمحق و الدين سيضيع، و بعضهم يقول: إن الجاهليه ستعود كما كانت، و بعضهم يقول: إن الله عزهم و رسوله الى غير ذلك من الظنون.

□
قوله تعالى: هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا هُنَالِكَ إشاره بعيده الى زمان أو مكان و المراد الإشاره الى زمان مجيء الجنود و كان شديدا عليهم لغايه بعيده، و الابتلاء الامتحان، و الزلزله و الزلزال الاضطراب، و الشده القوه و تختلفان فى أن الغالب على الشده أن تكون محسوسا بخلاف القوه، قيل: و لذلك يطلق القوى عليه تعالى دون الشديد.

و المعنى فى ذلك الزمان الشديد امتحن المؤمنون و اضطربوا خوفا اضطرابا شديدا.

□ □
قوله تعالى: وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ هم ضعفاء الإيمان من المؤمنين و هم غير المنافقين الذين يظهرون الإيمان و يبطنون الكفر، و إنما سمى المنافقون الرسول لمكان إظهارهم الإسلام.

و الغرور حمل الإنسان على الشر يراءته فى صوره الخير و الاغترار احتمالاه له. قال الراغب: يقال: غررت فلانا أصبت غرته و نلت منه ما أريد، و الغرّه -بكسر الغين- غفله فى اليقظه. انتهى.

و الوعد الذى يعدونه غرورا من الله و رسوله لهم بقريته المقام هو وعد الفتح و ظهور الإسلام على الدين كله و قد تكرر فى كلامه تعالى كما ورد ان المنافقين قالوا: يعدنا محمد أن

يفتح مدائن كسرى و قيصر و نحن لا نأمن أن نذهب الى الخلاء.

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا يثرب اسم المدينة قبل الإسلام ثم غلب عليه اسم مدينه الرسول بعد الهجره ثم المدينه، و المقام بضم الميم الإقامه، و قولهم: لا مقام لكم فارجعوا أى لا وجه لإقامتكم هاهنا قبال جنود المشركين فالغلبه لهم لا محاله فارجعوا ثم أتبعه بحكاية ما قاله آخرون فقال عاطفا على قوله:قالت طائفه: «وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ» أى من المنافقين و الذين فى قلوبهم مرض «النَّبِيِّ» فى الرجوع «يَقُولُونَ» استئذانا «إِنَّ بَيْنَهُمْ تَدَا عَوْرَةً» أى فيها خلل لا يمن صاحبها دخول السارق و زحف العدو «وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ» أى ما يريدون بقولهم هذا «إِلَّا فِرَارًا» .

قوله تعالى: وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ضمائر الجمع للمنافقين و المرضى القلوب، و الضمير فى «دُخِلَتْ» للبيوت و معنى دخلت عليهم دخل الجنود البيوت حال كونه دخولا عليهم، و الأقطار جمع قطر و هو الجانب، و المراد بالفتنه بقريته المقام الرده و الرجعه من الدين و المراد بسؤالها طلبها منهم، و التلبث التأخر.

و المعنى: و لو دخل جنود المشركين بيوتهم من جوانبها و هم فيها ثم طلبوا منهم أن يرتدوا عن الدين لأعطوهم مسئولهم و ما تأخروا بالرده إلا يسيرا من الزمان بمقدار الطلب و السؤال أى إنهم يقيمون على الدين ما دام الرخاء فإذا هجمت عليهم الشده و البأس لم يلبثوا دون أن يرجعوا.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَ كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئَلًا اللام لقسم، و قوله: «لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَارَ» أى لا يفرون عن القتال و هو بيان للعهد و لعل المراد بعهدهم من قبل هو بيعتهم بالإيمان بالله و رسوله و ما جاء به رسوله و مما جاء

به: الجهاد الذى يحرم الفرار فيه و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا إِذْ لَا بَدَ لِكُلِّ نَفْسٍ مِنَ الْمَوْتِ لِأَجْلِ مَقْضَىٰ مَحْتَمٍ لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ سَاعَةٌ وَلَا يَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ فَالْفِرَارُ لَا يُوَثِّرُ فِي تَأْخِيرِ الْأَجْلِ شَيْئًا.

و قوله: وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا أَي و إن نفعكم الفرار فمتعم بتأخر الأجل فرضا لا يكون ذلك التمتع إلا تمتعاً قليلاً أو فى زمان قليل لكونه مقطوع الآخر لا محاله.

قوله تعالى: قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا كانت الآيه السابقه تنبيهها لهم على أن حياه الإنسان مقضى مؤجل لا ينفع معه فرار من الزحف و فى هذه الآيه تنبيه على أن الشر و الخير تابعان لإيراده الله محضاً لا يمنع عن نفوذها سبب من الاسباب و لا يعصم الإنسان منها أحد فالحزم إيكال الأمر الى إرادته تعالى و القرار على أمره بالتوكل عليه.

و لما كانت قلوبهم مرضى أو مشغوله بكفر مستبطن عدل عن أمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم بتكليمهم الى تكليم نفسه فقال: «وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا» .

قوله تعالى: قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ -الى قوله- يَسِيرًا التَّعْوِيقُ التَّشْيِيطُ و الصرف، و هلم اسم فعل بمعنى أقبل، و لا يثنى و لا يجمع فى لغه الحجاز، و البأس الشده و الحرب، و أشح جمع شحيح بمعنى البخيل، و الذى يغشى عليه هو الذى أخذته الغشوه فغابت حواسه و أخذت عيناه تدوران، و السلق بالفتح فالسكون الضرب و الطعن.

و معنى الآيتين: أن الله ليعلم الذين يثبطون منكم الناس و يصرفونهم عن القتال و هم المنافقون و يعلم الذين يقولون من المنافقين لإخوانهم من المنافقين أو ضعفه الإيمان تعالوا و أقبلا و لا يحضرون الحرب إلا قليلاً بخلاء عليكم بنفوسهم.

فإذا جاء الخوف بظهور مخائل القتال تراهم ينظرون اليك من الخوف نظرا لا إرادته لهم فيه و لا استقرار فيه لأعينهم تدور أعينهم كالمغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف ضربوكم و طعنوكم بالسنه حداد قاطعه حال كونهم بخلاء على الخير الذى نلتموه.

أولئك لم يؤمنوا و لم يستقر الإيمان فى قلوبهم و إن أظهروه فى ألسنتهم فأبطل الله أعمالهم و أحبطها و كان ذلك على الله يسيرا.

قوله تعالى: يَحْسِبُونَ الْمُخْرَبَ لَمْ يَذْهَبُوا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ أى يظنون من شدة الخوف أن الأخراب-و هم جنود المشركين المتحزبون على النبي صلى الله عليه و آله و سلم-لم يذهبوا بعد «وَإِنْ يَأْتِ الْاُخْرَابُ» مره ثانيه بعد ذهابهم و تركهم المدينة «يَوَدُّوا» و يحبوا «أَنْهُمْ بِأُدُونٍ» أى خارجون من المدينة الى البدو «فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَأْذِنُونَ عَنِ الْبَائِكُمْ» و أخباركم «وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ» و لم يخرجوا منها بادين «فَاتُّلُوا إِلَّا قَلِيلًا» أى و لا كثير فائده فى لزومهم إياكم و كونهم معكم فإنهم لن يقاتلوا إلا قليلا فلا يعتد به.

قوله تعالى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا الْاِسْوَه الْقُدْوَه وَ هِيَ الْاِقْتِدَاءُ وَ الْاِتِّبَاعُ، و قوله:

«فِي رَسُولِ اللَّهِ» أى فى مورد رسول الله و الاسوه التى فى مورد هـ تأسيهم به و اتباعهم له و التعبير بقوله: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ» الدال على الاستقرار و الاستمرار فى الماضى إشاره الى كونه تكليفا ثابتا مستمرا.

و المعنى: و من حكم رساله الرسول و إيمانكم به أن تتأسوا به فى قوله و فعله و أنتم ترون ما يقاسيه فى جنب الله و حضوره فى القتال و جهاده فى الله حق جهاده.

و قوله: لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا بدل من ضمير الخطاب فى «لَكُمْ» للدلاله على أن التأسى برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم خصله جميله زاكيه لا يتصف بها كل من تسمى بالإيمان، و إنما يتصف بها جمع ممن تلبس بحقيقه الإيمان فكان يرجو

اللّٰهُ و الیوم الآخر اى تعلق قلبه باللّٰه فآمن به و تعلق قلبه بالیوم الآخر فعمل صالحا و مع ذلك ذكر اللّٰه كثيرا فكان لا يغفل عن ربه فتأسى بالنبي فى أفعاله و أعماله.

قوله تعالى: وَ لَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ، وصف لحال المؤمنین لما شاهدوا الأحزاب و نزول جيوشهم حول المدينة فكان ذلك سبب رشدهم و تبصرهم فى الإيمان و تصديقهم لله و لرسوله على خلاف ما ظهر من المنافقين و الذين فى قلوبهم مرض من الارتياب و سئى القول، و بذلك يظهر أن المراد بالمؤمنین المخلصون لإيمانهم باللّٰه و رسوله.

و قوله: قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ الْإِشَارَةُ بِهَذَا إِلَى مَا شَاهَدُوهُ مَجْرَدًا عَنْ سَائِرِ الْخُصُوصِيَّاتِ، كما فى قوله: فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَتْ هَذَا رَبِّي (الأنعام / ٢٨).

و الوعد الذى أشاروا اليه قيل: هو ما كان رسول اللّٰه صلّى اللّٰه عليه و آله و سلّم و قد وعدهم أن الأحزاب سيتظاهرون عليهم فلما شاهدوهم تبين لهم أن ذلك هو الذى وعدهم.

و قوله: وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ شَهَادَةُ مِنْهُمْ عَلَى صِدْقِ الْوَعْدِ، و قوله: «وَ مَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَ تَسْلِيمًا» أى إيماننا باللّٰه و رسوله و تسليما لأمر اللّٰه بنصره دينه و الجهاد فى سبيله.

قوله تعالى: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ مَا يَدُلُّوا تَبْدِيلًا، قال الراغب: النحب النذر المحكوم بوجوبه، يقال: قضى فلان نحبه أى و فى بنذره قال تعالى: «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ» ، و يعتبر بذلك عن مات كقولهم: قضى أجله و استوفى أكله و قضى من الدنيا حاجته. انتهى.

و قوله: صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ أى حققوا صدقهم فيما عاهدوه أن لا يفروا إذا لاقوا العدو، و يشهد على أن المراد بالعهد ذلك أن فى الآيه محاذاه لقوله السابق فى

المنافقين و الضعفاء الإيمان: «وَلَقَدْ كَانُوا لِحَاكِمَاتِ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَارَ» كما أن في الآيه السابقه محاذاه لما ذكر سابقا من ارتياب القوم و عدم تسليمهم لأمر الله.

و قوله: فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ النّخ؛ أى منهم من قضى أجله يموت أو قتل فى سبيل الله و منهم من ينتظر ذلك و ما بدّلوا شيئا مما كانوا عليه من قول أو عهد تبديلا.

قوله تعالى: لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا اللام للغايه و ما تضمنه الآيه غايه لجميع من تقدم ذكرهم من المنافقين و المؤمنين.

فقوله: لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ المراد بالصادقين المؤمنين و قد ذكر صدقهم قبل، و الباء فى «بِصِدْقِهِمْ» للسببيه أى ليجزى المؤمنين الذين صدقوا عهدهم بسبب صدقهم.

و قوله: وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أى و ليعذب المنافقين إِنْ شَاءَ تعذيبهم و ذلك فيما لو لم يتوبوا أو يتوب عليهم إِنْ تابوا إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا.

و فى الآيه من حيث كونها بيان غايه نكته لطيفه هى أن المعاصى ربما كانت مقدمه للسعاده و المغفره لا بما أنها معاص بل لكونها سائقه للنفس من الظلمه و الشقوه الى حيث تتوحش النفس و تتنبه فتتوب الى ربها و تنتزع عن معاصيها و ذنوبها فيتوب الله عليها فى الغايه.

قوله تعالى: وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَدُلُّوا خَيْرًا وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَ كَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا الغيظ الغم و الحنق و المراد بالخير ما كان يعده الكفار خيرا و هو الظفر بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين.

و المعنى: و ردّ الله الذين كفروا مع غمهم و حنقهم و الحال أنهم لم ينالوا ما كانوا يتمنونونه و كفى الله المؤمنين القتال فلم يقاتلوا و كان الله قويا على ما يريد عزيزا لا يغلب.

قوله تعالى: وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيّٰصِيهِمْ -الى

قوله- قديراً المظاهره المعاونه،و الصياصى جمع صيصيه و هى الحصن الذى يمتنع به و لعل التعبير بالإنزال دون الإخراج لأن المتحصنين يصعدون بروج الحصون و يشرفون منها و من أعالى الجدران على أعدائهم فى خارجها و محاصريهم.

و المعنى «وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ» أى عاونوا المشركين و هم بنو قريظه «مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» و هم اليهود «مِنْ صِيَاصِيهِمْ» و حصونهم «وَقَدَفَ» و ألقى «فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ» و الخوف «فَرِيقًا تَقْتُلُونَ» و هم الرجال «وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا» و هم الذرارى و النساء «وَأَوْرَثَكُمْ» أى و ملككم بعدهم «أَرْضَهُمْ وَ دِيَارَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ وَ أَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا» و هى أرض خيبر أو الأرض التى أفاء الله مما لم يوجب عليها بخيل و لا ركاب،و أما تفسيرها بأنها كل أرض ستفتح الى يوم القيامة أو أرض مكه أو أرض الروم و فارس فلا يلائمه سياق الآيتين «وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا» (١).

[سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٢٨ الى ٣٥]

إشارة

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجَكُ إِنْ كُنْتُمْ تُرَدُّنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتَّعُكُمْ وَ أُسْرِخُكُمْ سِرًّا حَاجِمِيًّا (٢٨) وَ إِنْ كُنْتُمْ تُرَدُّنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَ مَنْ يَفْعَلْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَ قُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَ قَوْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَ لَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَ اقْنَمْنَ الصَّلَاةَ وَ آتِينَ الزَّكَاةَ وَ اطَّعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَ أذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَ الْحِكْمَةِ إِنْ اللَّهُ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِمَاتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الْقَانِتِينَ وَ الْقَانِتَاتِ وَ الصَّادِقِينَ وَ الصَّادِقَاتِ وَ الصَّابِرِينَ وَ الصَّابِرَاتِ وَ الْخَاشِعِينَ وَ الْخَاشِعَاتِ وَ الْمُتَصَدِّقِينَ وَ الْمُتَصَدِّقَاتِ وَ الصَّائِمِينَ وَ الصَّائِمَاتِ وَ الْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ الْحَافِظَاتِ وَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَ الذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)

ص: ١٠٩

١ - ١). الاحزاب ٩-٢٧: بحث روائى فى غزوه الاحزاب؛ حفر الخندق؛ فضيله سلمان؛ براز على عليه السلام لعمر بن عبد ود و قتله؛ قول رسول الله فى ان عمل على عليه السلام أفضل من عباده امه محمد؛ دور نعيم بن مسعود فى غزوه الاحزاب؛ ذهاب الرسول الكريم صلى الله عليه و آله و سلم الى حرب بنى قريظه.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِلَىٰ تَمَامِ الْآيَاتِينَ، سِيَاقِ الْآيَاتِينَ يَلُوحُ أَنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ أَوْ بَعْضَهُنَّ كَانَتْ لَا تَرْتَضِي مَا فِي عَيْشَتِهِنَّ فِي بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ الضِّيقِ

ص: ١١٠

و الضنك فاشتكت اليه ذلك و اقترحت عليه أن يسعدهن فى الحياه بالتوسعه فيها و إيتائهن من زينتها؟

فأمر الله سبحانه نبيه أن يخيّرهن بين أن يفارقه و لهن ما يردن و بين أن يبقين عنده و لهن ما هن عليه من الوضع الموجود.

و قد ردّ أمرهن بين أن يرد الحياه الدنيا و زينتها و بين أن يردن الله و رسوله و الدار الآخره، و هذا التردد يدل أولاً: أن الجمع بين سعه العيش و صفائها بالتمتع من الحياه و زينتها و زوجيه النبي صلى الله عليه و آله و سلم و العيشه فى بيته مما لا يجتمعان.

و ثانياً: أن كلا من طرفى التردد مقيد بما يقابل الآخر، و المراد بإرادته الحياه الدنيا و زينتها جعلها هى الأصل سواء أريدت الآخره أو لم يرد، و المراد بإرادته الحياه الآخره جعلها هى الأصل فى تعلق القلب بها سواء توسعت معها الحياه الدنيا و نيلت الزينه و صفاء العيش أو لم يكن شىء من ذلك.

ثم الجزاء أعنى نتيجة اختيارهن كلا- من طرفى التردد مختلف فلهنّ على تقدير اختيارهن الحياه الدنيا و زينتها بمفارقة النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يطلّقهن و يمتعهن جمعاء من مال الدنيا، و على تقدير بقائهن على زوجيه النبي صلى الله عليه و آله و سلم و اختيار الآخره على الحياه الدنيا و زينتها الأجر العظيم عند الله لكن لا مطلقاً بل بشرط الإحسان و العمل الصالح.

و يتبين بذلك أن ليس لزوجيه النبي صلى الله عليه و آله و سلم من حيث هى زوجيه كرامه عند الله سبحانه و إنما الكرامه لزوجيه المقارنه للإحسان و التقوى و لذلك لما ذكر ثانياً علوّ منزلتهن قده أيضاً بالتقوى فقال: «لَسِيْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ» و هذا كقوله فى النبي و أصحابه: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا - إلى أن قال - وَ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرًا عَظِيمًا» حيث مدحهم عامه بظاهر أعمالهم أولاً ثم قيد و عدهم الأجر العظيم بالإيمان و العمل الصالح.

و بالجمله فإطلاق قوله: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ (الحجرات ١٠/١) على حاله غير منتقض بكرامه أخرى بسبب أو نسب أو غير ذلك.

فقوله: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجَكُمُ أَمْثَلُ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ (الحجرات ١٠/١) على زوجيته إن اخترن الله و رسوله و الدار الآخرة.

و قوله: إِنَّ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا بِمِثْلِ مَا كُنْتُمْ تَرْضَوْنَ الْحَيَاةَ الْآخِرَةَ (الحجرات ١٠/١) إن كنتم تحبونها و زينتها كمنه و ما كنتم ترضون الحياة الآخرة.

و قوله: فَتَعَالَى الْكَلِمَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أَسْرَحُكُمْ سِرًّا وَ أَعْلَمُ الْغُيُوبَ (الحجرات ١٠/١) أصل تعال أن يقوله من في المكان المرتفع لمن في المكان المستوطأ ثم كثرت حتى استعمله الأمكنه، و معنى تعالين أقبلن بإرادتك و اختيارك لأحد أمرين و لم يرد نهوضهن بأنفسهن كما تقول: أقبل يخاصمني و ذهب يكلمني و قام يهددني. انتهى.

و التمتع إعطاؤهن عند التطبيق ما لا يتمعن به التسريح هو التطبيق و السراح الجميل هو الطلاق من غير خصومه و مشاجره بين الزوجين.

و في الآيه أبحاث فقهيه أوردها المفسرون و الحق أن ما تتضمنه من الأحكام الشخصيه خاصه بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم و لا دليل من جهه لفظها على شموله لغيره و تفصيل القول في الفقه.

و قوله: وَ إِنَّ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا بِمِثْلِ مَا كُنْتُمْ تَرْضَوْنَ الْحَيَاةَ الْآخِرَةَ (الحجرات ١٠/١) و رسوله و الدار الآخرة فقد تقدم أن المقابله بين هذه الجملة و بين قوله: «إِنَّ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا» الخ؛ تفيد كلا منهما بخلاف الأخرى و عدمها، فمعنى الجملة: و إن كنتم ترضون و تختارون طاعه الله و رسوله و سعاده الدار الآخرة مع الصبر على ضيق العيش و الحرمان من زينه الحياه الدنيا و هي مع ذلك كناية عن البقاء في زوجيه النبي صلى الله عليه و آله و سلم و الصبر على ضيق العيش و إلا لم صح شرط الإحسان في الأجر الموعود و هو ظاهر.

فالمعنى: وإن كنتن تردن و تخترن البقاء على زوجيه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ الصبر على ضيق العيش فإن الله هياً لكن أجراً عظيماً بشرط أن تكن محسنات فى أعمالك مضافاً الى ارادتك الله و رسوله و الدار الآخرة فإن لم تكن محسنات لم يكن لكن إلا خسران الدنيا و الآخرة جميعاً.

قوله تعالى: يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ الْخ؛ عدل عن مخاطبه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ فيهن الى مخاطبتهن أنفسهن لتسجيل ما لهن من التكليف و زياده التوكيد، و الآيه و التى بعدها تقرير و توضيح بنحو لما يستفاد من قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا» إثباتاً و نفياً.

فقوله: مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ الفاحشه الفعله البالغه فى الشناعه و القبح و هى الكبيره كإيذاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و الافتراء و الغيبه و غير ذلك، و الميئنه هى الظاهره.

و قوله: يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ أى حال كونه ضعفين و الضعفان المثلان و يؤيد هذا المعنى قوله فى جانب الثواب بعد: «نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ» فلا يعبا بما قيل إن المراد بمضاعفه العذاب ضعفين تعذيبهم بثلاثه أمثاله بتقريب أن مضاعفه العذاب زيادته و إذا زيد على العذاب ضعفاه صار المجموع ثلاثه أمثاله.

و ختم الآيه بقوله: «وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا» للإشاره الى أنه لا مانع من ذلك من كرامه الزوجيه و نحوها إذ لا كرامه إلا للتعوى و زوجيه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ إنما تؤثر الأثر الجميل إذا قارن التقوى و أما مع المعصيه فلا تزيد إلا بعداً و وبالاً.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَقْنُتْ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ الْخ؛ القنوت الخضوع، و قيل: الطاعه و قيل: لزوم الطاعه مع الخضوع، و الإعتاد التهيئه، و الرزق الكريم مصداقه الجنه.

و المعنى: و من يخضع منكن لله و رسوله أو لزم طاعه الله و رسوله مع الخضوع و يعمل عملاً صالحاً نعطيها أجرها مرتين أى ضعفين و هيأنا لها رزقاً كريماً و هى الجنه.

و الالتفات من الغيبه الى التكلم بالغير فى قولها: «نُؤْتِيهَا» و «أَعْتَدْنَا» للإيذان بالقرب و الكرامه،خلاف البعد و الخزى المفهوم من قوله: «يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ» .

قوله تعالى: يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ اتَّقِيْنَ فَلَآ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ ۗ الْآيَهُ تَنْفَى مساواتهن لسائر النساء إن اتقين و ترفع منزلتهن على غيرهن ثم تذكر أشياء من النهى و الأمر متفرعه على كونهن لسن كسائر النساء كما يدل عليه قوله: فلا تخضعن بالقول و قرن و لا تبرجن، الخ؛ و هى خصال مشتركه بين نساء النبى صلى الله عليه و آله و سلم و سائر النساء.

فتصدير الكلام بقوله: «لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ اتَّقِيْنَ» ثم تفریع هذه التكاليف المشتركه عليه، يفيد تأكد هذه التكاليف عليهن كأنه قيل: لستن كغيركن فيجب عليك أن تبالغن فى امتثال هذه التكاليف و تحتطن فى دين الله أكثر من سائر النساء.

و تؤيد بل تدل على تأكد تكاليفهن مضاعفه جزائهن خيرا و شرا كما دلّت عليها الآيه السابقه فإن مضاعفه الجزاء لا تنفك عن تأكد التكليف.

قوله: فَلَآ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ بعد ما بين علو منزلتهن و رفعه قدرهن لمكانهن من النبى صلى الله عليه و آله و سلم و شرط فى ذلك التقوى فيبين أن فضيلتهن بالتقوى لا بالاتصال بالنبى صلى الله عليه و آله و سلم نهاهن عن الخضوع فى القول و هو ترفيق الكلام و تليينه مع الرجال بحيث يدعو الى الريبه و تثير الشهوه فيطمع الذى فى قلبه مرض و هو فقدانه قوه الإيمان التى تردعه عن الميل الى الفحشاء.

و قوله: وَقَلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا أى كلاما معمولا مستقيما يعرفه الشرع و العرف الإسلامى و هو القول الذى لا يشير بلحنه الى أزيد من مدلوله معرّى عن الإيحاء الى فساد و ريبه.

قوله تعالى: وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَ لَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى -الى

قوله- وَ أَطَعَنَ اللّٰهَ وَ رَسُوْلَهُ «قَرْنَ» من قر يقر إذا ثبت و أصله اقرن حذف إحدى الزاين أو من قار يقار إذا اجتمع كناية عن ثباتهن في بيوتهن و لزومهن لها، و التبرج الظهور للناس كظهور البروج لناظريها. و الجاهلية الاولى الجاهلية قبل البعثة فالمراد الجاهلية القديمة، و قول بعضهم: إن المراد به زمان ما بين آدم و نوح عليهما السلام ثمان مائه سنه، و قول آخرين إنها ما بين إدريس و نوح، و قول آخرين زمان داود و سليمان و قول آخرين أنه زمان ولاده إبراهيم، و قول آخرين إنه زمان الفتره بين عيسى عليه السلام و محمد صلى الله عليه و آله و سلم أقوال لا دليل يدل عليها.

و قوله: وَ أَقَمْنَ الصَّلَاةَ وَ آتَيْنَ الزَّكَاةَ وَ أَطَعْنَ اللّٰهَ وَ رَسُوْلَهُ أمر بامثال الأوامر الدينية و قد أفرد الصلاة و الزكاة بالذكر من بينها لكونهما ركنين في العبادات و المعاملات ثم جمع الجميع في قوله: «وَ أَطَعْنَ اللّٰهَ وَ رَسُوْلَهُ» .

و طاعة الله هي امثال تكاليفه الشرعية و طاعه رسوله فيما يأمر به و ينهى بالولايه المجعوله له من عند الله كما قال: «النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ» .

قوله تعالى: إِنَّمَا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيراً كلمه «إِنَّمَا» تدل على حصر الإراده في إذهاب الرجس و التطهير و كلمه أهل البيت سواء كان لمجرد الاختصاص أو مدحا أو نداء يدل على اختصاص إذهاب الرجس و التطهير بالمخاطبين بقوله: «عَنْكُمْ» ، ففي الآيه في الحقيقة قصران قصران الإيراده في إذهاب الرجس و التطهير و قصر إذهاب الرجس و التطهير في أهل البيت.

و ليس المراد بأهل البيت نساء النبي خاصة لمكان الخطاب الذي في قوله: «عَنْكُمْ» و لم يقل: عنكن فإما أن يكون الخطاب لهن و لغيرهن كما قيل: إن المراد بأهل البيت أهل البيت الحرام و هم المتقون لقوله تعالى: «إِنْ أَوْلِيَّاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ» أو أهل مسجد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أو أهل بيت النبي صلى الله عليه و آله و سلم و هم الذين يصدق عليهم عرفا أهل بيته من أزواجه و أقربائه و هم آل عباس و آل عقيل و آل جعفر و آل علي أو النبي صلى الله عليه و آله و سلم و أزواجه، و لعل هذا هو المراد مما نسب

الى عكرمه و عروه إنها فى أزواج النبى صلى الله عليه و آله و سلم خاصة.

أو يكون الخطاب لغيرهن كما قيل: إنهم أقرباء النبى من آل عباس و آل عقيل و آل جعفر و آل على.

و على أى حال فالمراد بإذهاب الرجس و التطهير مجرد التقوى الدينى بالاجتناب عن النواهى و امتثال الأوامر فيكون المعنى أن الله لا ينتفع بتوجيه هذه التكاليف اليكم و إنما يريد إذهاب الرجس عنكم و تطهيركم على حد قوله: **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُنِيبَكُمْ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ (المائدة ٦٦)**، و هذا المعنى لا يلائم شيئاً من معانى أهل البيت السابقه لمنافاته البينه للاختصاص المفهوم من أهل البيت لعمومه لعامه المسلمين المكلفين بأحكام الدين.

و إن كان المراد بإذهاب الرجس و التطهير التقوى الشديد البالغ و يكون المعنى: أن هذا التشديد فى التكاليف المتوجهه إليكن أزواج النبى و تضعيف الثواب و العقاب ليس لينتفع الله سبحانه به بل ليذهب عنكم الرجس و يطهركم و يكون من تعميم الخطاب لهن و لغيرهن بعد تخصيصه بهن، فهذا المعنى لا يلائم كون الخطاب خاصاً بغيرهن و هو ظاهر و لا عموم الخطاب لهن و لغيرهن فإن الغير لا يشار كهن فى تشديد التكليف و تضعيف الثواب و العقاب.

لا- يقال: لم لا- يجوز أن يكون الخطاب على هذا التقدير متوجها اليهن مع النبى صلى الله عليه و آله و سلم و تكليفه شديد كتكليفهن.

لأنه يقال: إنه صلى الله عليه و آله و سلم مؤيد بعصمه من الله و هى موهبه إلهيه غير مكتسبه بالعمل فلا معنى لجعل تشديد التكليف و تضعيف الجزاء بالنسبه اليه مقدمه أو سببا لحصول التقوى الشديد له امتنانا عليه على ما يعطيه سياق الآيه و لذلك لم يصرح بكون الخطاب متوجها اليهن مع النبى صلى الله عليه و آله و سلم فقط أحد من المفسرين و إنما احتملناه لتصحیح قول من قال: إن الآيه خاصة بأزواج النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

و إن كان المراد إذهاب الرجس و التطهير بإرادته تعالى ذلك مطلقا لا بتوجيه مطلق التكليف و لا بتوجيه التكليف الشديد بل إرادته مطلقه لإذهاب الرجس و التطهير لأهل البيت خاصة بما هم أهل البيت كان هذا المعنى منافيا لتقييد كرامتهن بالتقوى سواء كان المراد بالإرادة الإرادة التشريعية أو التكوينية.

و بهذا الذى تقدم يتأيد ما ورد فى أسباب النزول أن الآيه نزلت فى النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ على وَ فاطمه وَ الحسين عليهم السَّلام خاصة لا يشاركهم فيها غيرهم.

و هى روايات جمَّه تزيد على سبعين حديثا يربو ما ورد منها من طرق أهل السنه على ما ورد منها من طرق الشيعة فقد روتها أهل السنه بطرق كثيره عن أم سلمه و عائشه و أبى سعيد الخدرى و سعد و وائله بن الأسقع و أبى الحمراء و ابن عباس و ثوبان مولى النبى و عبد الله بن جعفر و على و الحسن بن على عليهما السَّلام فى قريب من أربعين طريقا.

و روتها الشيعة عن على و السجاد و الباقر و الصادق و الرضا عليهم السَّلام و أم سلمه و أبى ذر و أبى ليلى و أبى الأسود الدؤلى و عمرو بن ميمون الأودى و سعد بن أبى وقاص فى بضع و ثلاثين طريقا.

فإن قيل: إن الروايات إنما تدل على شمول الآيه لعلى و فاطمه و الحسين عليهم السَّلام و لا ينافى ذلك شمولها لأزواج النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ كما يفيد وقوع الآيه فى سياق خطابهن.

قلنا: إن كثيرا من هذه الروايات و خاصة ما رويت عن أم سلمه- و فى بيتها نزلت الآيه- تصرح باختصاصها بهم و عدم شمولها لأزواج النبى و سيجىء الروايات و فيها الصحاح.

فإن قيل: هذا مدفوع بنص الكتاب عن شمولها لهن كوقوع الآيه فى سياق خطابهن.

قلنا: إنما الشأن كل الشأن فى اتصال الآيه بما قبلها من الآيات فهذه الأحاديث على كثرتها البالغة ناصه فى نزول الآيه وجدها، و لم يرد حتى فى روايه واحده نزول هذه الآيه فى ضمن آيات نساء النبى و لا ذكره أحد حتى القائل باختصاص الآيه بأزواج النبى كما ينسب الى

عكرمه و عروه، فالآيه لم تكن بحسب النزول جزء من آيات نساء النبي و لا متصله بها و إنما وضعت بينها إما بأمر من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أو عند التأليف بعد الرحله، و يؤيده أن آيه «وَ قَرَنَ فِي بُيُوتِكُنَّ» على انسجامها و اتصالها لو قَدَّر ارتفاع آيه التطهير من بين جملها، فموقع آيه التطهير من آيه «وَ قَرَنَ فِي بُيُوتِكُنَّ» كموقع آيه «الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا» من آيه محرمات الأكل من سوره المائده، و قد تقدم الكلام في ذلك في الجزء الخامس من الكتاب.

و بالبناء على ما تقدم تصير لفظه أهل البيت اسما خاصا في عرف القرآن-بهؤلاء الخمسه و هم النبي و علي و فاطمه و الحسنان عليهم الصلاه و السلام لا يطلق على غيرهم، و لو كان من أقربائه الأقربين و إن صحَّ بحسب العرف العام إطلاقه عليهم.

و الرّجس-بالكسر فالسكون-صفه من الرجاسه و هي القذاره، و القذاره هيئه في الشئ توجب التجنب و التنفر منها، و تكون بحسب ظاهر الشئ كرجاسه الخنزير، قال تعالى:

أَوْ لَحِيمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ (الأنعام ١٢٥)، و بحسب باطنه-و هو الرجاسه و القذاره المعنويه-كالشرك و الكفر و أثر العمل السيئ، قال تعالى: وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَ مَا تَوَاوَأُوا لَهُمْ كَافِرُونَ (التوبه ١٢٥)، و قال: وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (الأنعام ١٢٥).

و أيا ما كان فهو إدراك نفساني و أثر شعوري من تعلق القلب بالاعتقاد الباطل أو العمل السيئ و إذهاب الرجس-و اللام فيه للجنس-إزاله كل هيئه خبيثه في النفس تخطئ حق الاعتقاد و العمل فتنتطب على العصمه الإلهيه التي هي صوره علميه نفسانيه تحفظ الإنسان من باطل الاعتقاد و سبي العمل.

على أنك عرفت أن إرادته التقوى أو التشديد في التكاليف لا- ثلاثم اختصاص الخطاب في الآيه بأهل البيت، و عرفت أيضا أن إرادته ذلك لا تناسب مقام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ من العصمه.

فمن المتعين حمل إذهاب الرجس في الآية على العصمه و يكون المراد بالتطهير في قوله:

«وَيُطَهِّرْكُمْ تَطْهِيراً» - وقد أكد بالمصدر-إزاله أثر الرجس بإيراد ما يقابله بعد إذهاب أصله، و من المعلوم أن ما يقابل الاعتقاد الباطل هو الاعتقاد الحق فتطهيرهم هو تجهيزهم بإدراك الحق في الاعتقاد و العمل، و يكون المراد بالإيراده أيضا غير الإيراده التشريعيه لما عرفت أن الإيراده التشريعيه التي هي توجيه التكليف الى المكلف لا تلائم المقام أصلا.

و المعنى: أن الله سبحانه تستمر إرادته أن يخصصكم بموهبه العصمه بإذهاب الاعتقاد الباطل و أثر العمل السيئ عنكم أهل البيت و إيراد ما يزيل أثر ذلك عليكم و هي العصمه.

قوله تعالى: «وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَ الْحِكْمِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا» ظاهر السياق أن المراد بالذكر ما يقابل النسيان إذ هو المناسب لسياق التأكيد و التشديد الذي في الآيات فيكون بمنزله الوصيه بعد الوصيه بامثال ما وجبه اليهن من التكاليف، و في قوله: «فِي بُيُوتِكُمْ» تأكيد آخر.

و المعنى: و احفظن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله و الحكمه و ليكن منكن في بال حتى لا تغفلن و لا تتخطين مما خط لكم من المسير.

و أما قول بعضهم: إن المراد و اشكرن الله إذ صيركن في بيوت يتلى فيهن القرآن و السنه فبعيد من السياق و خاصه بالنظر الى قوله في ذيل الآية: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا» .

قوله تعالى: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِمَاتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ الْخَيْرِ؛ الْإِسْلَامَ لَا يَفْرَقُ بَيْنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ فِي التَّلْبَسِ بِكَرَامَةِ الدِّينِ» و قد أشار سبحانه الى ذلك إجمالا في مثل قوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَىٰ وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ (الحجرات ١٣)»، ثم صرح به في مثل قوله: «أَنْتَىٰ لَا أُضَيِّعُ عَمَلَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ (آل عمران ١٩٥)»، ثم صرح به تفصيلا في هذه الآية.

فقوله: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ الْمُقَابِلَةَ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ تَفِيدُ مَغَايِرَتَهُمَا نَوْعًا مِنَ الْمَغَايِرَةِ وَالَّذِي يَسْتَفَادُ مِنْهُ نَحْوُ مَغَايِرَتَهُمَا قَوْلُهُ تَعَالَى:

قَالَتِ الْمَاعِرَاتُ آمَنَّا قُلْ لَمْ نُؤْمِنُوا وَ لَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ -الى أن قال- إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَزِدْوا بَأْسًا وَ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (الحجرات ١٥/)، يفيد أولاً أن الإسلام هو تسليم الدين بحسب العمل و ظاهر الجوارح و الإيمان أمر قلبى. و ثانياً: أن الإيمان الذى هو أمر قلبى اعتقاد و إذعان باطنى بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح.

فالإسلام هو التسليم العملى للدين بإتيان عامه التكليف و المسلمون و المسلمات هم المسلمون لذلك و الإيمان هو عقد القلب على الدين، بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح و المؤمنون و المؤمنات هم الذين عقدوا قلوبهم على الدين بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح فكل مؤمن مسلم و لا عكس.

و قوله: وَ الْقَائِمِينَ وَ الْقَائِمَاتِ الْقنوت على ما قيل لزوم الطاعة مع الخضوع و قوله: «وَ الصَّادِقِينَ وَ الصَّادِقَاتِ» الصدق مطابقه ما يخبر به الإنسان أو يظهره، للواقع. فهم صادقون فى دعواهم صادقون فى قولهم صادقون فى وعدهم.

و قوله: وَ الصَّابِرِينَ وَ الصَّابِرَاتِ فهم متلبسون بالصبر عند المصيبة و النائبه بالصبر على الطاعة و بالصبر عن المعصيه، و قوله: «وَ الخَاشِعِينَ وَ الخَاشِعَاتِ» الخشوع تدلل باطنى بالقلب كما أن الخضوع تدلل ظاهرى بالجوارح.

و قوله: وَ الْمُتَصِفِينَ بِدَقَاتٍ وَ الْمُتَصِفِينَ بِدَقَاتٍ وَ الصَّدَقَةَ إِنفاق المال فى سبيل الله و منه الزكاه الواجبه، و قوله: «وَ الصَّائِمِينَ وَ الصَّائِمَاتِ» بالصوم الواجب و المندوب، و قوله:

«وَ الْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ الْحَافِظَاتِ» أى لفروجهن و ذلك بالتجنب عن غير ما أحل الله لهم، و قوله: «وَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَ الذَّاكِرَاتِ» أى الله كثيراً حذف لظهوره و هم الذين يكثرن من

ذكر الله بلسانهم و جنانهم و يشمل الصلاة و الحج.

□
و قوله: «أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْرًا عَظِيمًا» التنكير للتعظيم.

بحث روائى:

فى تفسير القمى فى قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ كَانَ سبب نزولها أنه لما رجع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم من غزوه خيبر و أصاب كنز آل أبى الحقيق قلن أزواجه: أعطنا ما أصبت فقال لهن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: قسمته بين المسلمين على ما أمر الله عزّ و جل فغضبن من ذلك، و قلن: لعلك ترى أنك إن طلقنا أن لا نجد الأكفاء من قومنا يتزوجونا؟.

فأنف الله عزّ و جل لرسوله فأمره أن يعز لهن فاعتزلهن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فى مشربه أم إبراهيم تسعه و عشرين يوماً حتى حزن و طهرن ثم أنزل الله عزّ و جل هذه الآية و هى آية التخيير فقال: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ -الى قوله- أَجْرًا عَظِيمًا فقامت أم سلمه أول من قامت فقالت: قد اخترت الله و رسوله فقمى كلهن فعانقنه و قلن مثل ذلك الحديث.

أقول: و روى ما يقرب من ذلك من طرق أهل السنه و فيها أن أول من اختارت الله و رسوله منهن عائشه.

و فى الكافى بإسناده عن داود بن سرحان عن أبى عبد الله عليه السلام أن زينب بنت جحش قالت:

يرى رسول الله إن خلى سبيلنا أن لا نجد زوجا غير و قد كان اعتزل نساءه تسعه و عشرين ليله فلما قالت زينب الذى قالت بعث الله جبرائيل الى محمّد صلى الله عليه و آله و سلم فقال: «قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ» الآيتين كليهما فقلن: بل نختار الله و رسوله و الدار الآخرة.

و فيه بإسناده عن عيص بن القاسم عن أبى عبد الله عليه السلام قال: سألته عن رجل خير امرأته فاختارت نفسها بانته؟ قال: لا. إنما هذا شىء كان لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم خاصة أمر بذلك ففعل، و لو اخترن أنفسهن لطلقهن و هو قول الله عزّ و جل: قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرْذِنَ الْحَيَاةَ

الدُّلْيَا وَزِينَتِهَا، فَتَعَالَيْنِ أُمَتُّكُنَّ وَ أَسْرَحَكُنَّ سَرَّاحًا جَمِيلًا .

و فى الجمع روى الواحدى بالإسناد عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالسا مع حفصه فتشاجرا بينهما فقال لها: هل لك أن أجعل بينى وبينك رجلا؟

قالت: نعم.

فأرسل الى عمر فلما أن دخل عليها قال لها: تكلمى، فقالت: يا رسول الله تكلم و لا تقل إلا حقا فرفع عمر يده فوجا وجهها ثم رفع يده فوجا وجهها.

فقال له النبى صلى الله عليه وآله وسلم: كف، فقال عمر: يا عدوّه الله النبى لا يقول إلا حقا و الذى بعثه بالحق، لو لا مجلسه ما رفعت يدي حتى تموتى فقام النبى صلى الله عليه وآله وسلم فصعد الى غرفه فمكث فيها شهرا لا يقرب شيئا من نسائه يتغذى و يتعشى فيها فأنزل الله تعالى هذه الآيات.

و فى الخصال عن الصادق عليه السلام قال: تزوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخمس عشره امرأه و دخل بثلاث عشر امرأه منهن، و قبض عن تسع فأما اللتان لم يدخل بهما فعمره و سنا. و أما الثلاث عشره اللاتى دخل بهن فأولهن خديجه بنت خويلد ثم سوده بنت زمعه ثم أم سلمه و اسمها هند بنت أبى أميه ثم أم عبد الله عائشه بنت أبى بكر ثم حفصه بنت عمر ثم زينب بنت خزيمة بن الحارث أم المساكين، ثم زينب بنت جحش ثم أم حبيب رمله بنت أبى سفيان ثم ميمونه بنت الحارث ثم زينب بنت عميس ثم جويزيه بنت الحارث ثم صفيه بنت حبي بن أخطب و التى وهبت نفسها للنبي خوله بنت حكيم السلمى.

و كان له سريتان يقسم لهما مع أزواجه ماريه القبطيه و ريحانه الخندفيه.

و التسع اللاتى قبض عنهن عائشه و حفصه و أم سلمه و زينب بنت جحش و ميمونه بنت الحارث و أم حبيب بنت أبى سفيان و جويزيه و سوده و صفيه. و أفضلهن خديجه بنت خويلد ثم أم سلمه ثم ميمونه.

و فى المجمع قوله: يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ الْآيَاتِينَ؛ روى محمد بن أبى عمير عن

ابراهيم بن عبد الحميد عن علي بن عبد الله بن الحسين عن أبيه عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قال رجل: إنكم أهل بيت مغفور لكم. قال: فغضب وقال: نحن أحرى أن يجرى فينا ما أجرى الله في أزواج النبي من أن نكون كما تقول إنا نرى لمحسنا ضعفين من الأجر و لمسيئنا ضعفين من العذاب.

و في تفسير القمي مسندا عن أبي عبد الله عن أبيه عليهما السلام في هذه الآية «وَلَا تَبْرَجَنَّ الْجَاهِلِيَّةَ الْأُولَى» قال: أى ستكون جاهليه اخرى.

أقول: و هو استفاده لطيفه.

و في الدر المنثور أخرج الطبراني عن أم سلمه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لفاطمه: ائتينى بزوجهك و ابنه فجاءت بهم فألقى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليهم كساء فدكيا ثم وضع يده عليهم ثم قال: اللهم إن هؤلاء أهل محمد- و في لفظ آل محمد- فاجعل صلواتك و بركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

قالت ام سلمه: فرفعت الكساء لأدخل معهم فجزبه من يدي و قال: إنك على خير.

أقول: و رواه في غايه المرام عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه بإسناده عن ام سلمه.

و فيه أخرج ابن مردويه عن ام سلمه قالت: نزلت هذه الآية في بيتي: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** و في البيت سبعة جبرئيل و ميكائيل و علي و فاطمه و الحسن و الحسين و أنا على باب البيت. قلت: يا رسول الله أ لست من أهل البيت؟ قال: إنك على خير إنك من أزواج النبي.

و فيه أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن مردويه عن ام سلمه زوج النبي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان بيتهما على منامه له عليه كساء خيبرى فجاءت فاطمه ببرمه فيها خزيره فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ادعى زوجك و ابنيك حسنا و حسينا فدعتهم فينما هم يأكلون إذ نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ**

وَ يُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيراً .

فأخذ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بفضله إزاره فغشاهم إياها ثم أخرج يده من الكساء وَ أوماً بها الى السماء ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وَ خاصتي فأذهب عنهم الرجس وَ طهرهم تطهيراً، قالها ثلاث مرات.

قالت ام سلمه: فأدخلت رأسي في الستر فقلت: يا رسول الله وَ أنا معكم؟ فقال: إنك الى خير مرتين.

أقول: وَ روى الحديث في غايه المرام عن عبد الله بن أحمد بن حنبل بثلاث طرق عن أم سلمه وَ كذا عن تفسير الثعلبي.

وَ فيه أخرج ابن مردويه وَ الخطيب عن أبي سعيد الخدري قال: كان يوم أم سلمه أم المؤمنين فنزل جبريل الى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بهذه الآية: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** قال: فدعا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بحسن وَ حسين وَ فاطمه وَ علي فضمهم اليه وَ نشر عليهم الثوب، وَ الحجاب على أم سلمه مضروب، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي اللهم أذهب عنهم الرجس وَ طهرهم تطهيراً، قالت أم سلمه: فأنا معهم يا نبي الله؟ قال: أنت على مكانك وَ إنك على خير.

وَ فيه أخرج ابن جرير وَ ابن أبي حاتم وَ الطبراني عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ: نزلت هذه الآية في خمسة نبيّ وَ في علي وَ فاطمه وَ حسن وَ حسين: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**.

أقول: وَ رواه أيضاً في غايه المرام عن الثعلبي في تفسيره.

وَ فيه أخرج الترمذي وَ صححه وَ ابن جرير وَ ابن المنذر وَ الحاكم وَ صححه وَ ابن مردويه وَ البيهقي في سننه من طرق عن أم سلمه قالت: في بيتي نزلت: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** وَ في البيت فاطمه وَ علي وَ الحسن وَ الحسين فجللهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ

بكساء كان عليه ثم قال: هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا.

و فى غايه المرام عن الحميدى قال:الرابع و الستون من المتفق عليه من الصحيحين عن البخارى و مسلم من مسند عائشه عن مصعب بن شيبه عن صفيه بنت شيبه عن عائشه قالت:خرج النبى صلى الله عليه و آله و سلم ذات غداه و عليه مرط مرحل من شعر أسود فجاء الحسن بن على فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله معه ثم جاءت فاطمه فأدخلها ثم جاء على فأدخله ثم قال:

إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا.

أقول:و الحديث مروى عنها بطرق مختلفه.

و فى الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال:لما دخل على فاطمه جاء النبى صلى الله عليه و آله و سلم أربعين صباحا الى بابها يقول:السلام عليكم أهل البيت و رحمه الله و بركاته الصلاه رحمكم الله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا أنا حرب لمن حاربتم أنا سلم لمن سالمتم.

و فيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال:شهدنا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم تسعة أشهر يأتي كل يوم باب على بن أبى طالب عند وقت كل صلاه فيقول:السلام عليكم و رحمه الله و بركاته أهل البيت: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**.

أقول:و رواه أيضا عن الطبرانى عن أبى الحمراء و لفظه رأيت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يأتي باب على و فاطمه ستة أشهر فيقول: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ الْآيَةَ؛**و أيضا عن ابن جرير و ابن مردويه عن أبى الحمراء و لفظه حفظت من رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ثمانية أشهر بالمدينة ليس من مره يخرج الى صلاه الغداه إلا أتى الى باب على فوضع يده على جنبتي الباب ثم قال:الصلاه الصلاه **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ الْآيَةَ**.

و رواه أيضا عن ابن أبى شيبه و أحمد و الترمذى و حسنه و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و الحاكم و صححه و ابن مردويه عن أنس و لفظه أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم كان يمر بباب فاطمه إذا

خرج الى صلاه الفجر و يقول:الصلاه يا أهل البيت الصلاه إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا.

أقول:و الروايات فى هذه المعانى من طرق أهل السنه كثيره و كذا من طرق الشيعة،و من أراد الاطلاع عليها فليراجع غايه المرام للبحرانى و العباقت.

و فى غايه المرام عن الحموينى بإسناده عن يزيد بن حيان قال:دخلنا على زيد بن أرقم فقال:خطبنا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقال:ألا- إني تركت فيكم الثقليين أحدهما كتاب الله عزّ و جل من اتبعه كان على هدى و من تركه كان على ضلاله،ثم أهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى ثلاث مرات.

قلنا:من أهل بيته نساؤه؟قال:لا أهل بيته عصبته الذين حرموا الصدقه بعده آل على و آل عباس و آل جعفر و آل عقيل.

و فيه أيضا عن مسلم فى صحيحه بإسناده عن يزيد بن حيان عن زيد بن أرقم قال:قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم:إني تارك فيكم الثقليين أحدهما كتاب الله هو جبل الله من اتبعه كان على الهدى و من تركه كان على ضلاله،فقلنا:من أهل بيته نساؤه؟قال:لا- أيم الله إن المرأه تكون مع الرجل العصر ثم الدهر ثم يطلقها فترجع الى أهلها و قومها.أهل بيته أصله و عصبته الذين حرموا الصدقه بعده.

أقول:فسير البيت بالنسب كما يطلق عرفا على هذا المعنى،يقال:بيوتات العرب بمعنى الأنساب،لكن الروايات السابقه عن أم سلمه و غيرها تدفع هذا المعنى و تفسر أهل البيت بعلى و فاطمه و ابنيهما عليهم السلام.

و فى المجمع قال مقاتل بن حيان:لما رجعت أسماء بنت عميس من الحبشه مع زوجها جعفر بن أبى طالب دخلت على نساء رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقالت:هل نزل فينا شىء من القرآن؟ قلن:لا.

فأتت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: يا رسول الله إن النساء لفي خيبة و خسار، فقال صلى الله عليه وآله وسلم:

و مم ذلك؟ قالت: لأنهن لا يذكرن بخير كما يذكر الرجال، فأنزل الله تعالى هذه الآية «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ» الخ.

أقول: و في روايات أخر أن القائله هي أم سلمه.

[سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٣٦ الى ٤٠]

اشاره

وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَهَا لَكِنِّي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مُقَدُّورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠)

ص: ١٢٧

قوله تعالى: ﴿وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾؛ يشهد السياق على أن المراد بالقضاء هو القضاء التشريعي دون التكويني فقضاء الله تعالى حكمه التشريعي في شيء مما يرجع الى أعمال العباد أو تصرفه في شأن من شئونهم بواسطة رسول من رسله، وقضاء رسوله هو الثاني من القسمين وهو التصرف في شأن من شئون الناس بالولاية التي جعلها الله تعالى له بمثل قوله: النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ .

فقضاؤه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قضاء منه بولايته وقضاء من الله سبحانه لأنه الجاعل لولايته المنفذ أمره، ويشهد سياق قوله: ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ حيث جعل الأمر الواحد متعلقا لقضاء الله ورسوله معا، على أن المراد بالقضاء التصرف في شئون الناس دون الجعل التشريعي المختص بالله.

وقوله: ﴿وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ أَيُّ مَا صَحَّ وَلَا يَحِقُّ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ أَنْ يَثْبُتَ لَهُمُ الْإِخْتِيَارُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ بحيث يختارون ما شاءوا وقوله: ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ ظرف لنفي الاختيار.

و ضميرا الجمع في قوله: ﴿لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ للمؤمن و المؤمنة المراد بهما جميع المؤمنين و المؤمنات لوقوعهما في حيز النفي و وضع الظاهر موضع المضمرة حيث قيل «مِنْ أَمْرِهِمْ» و لم يقل: أن يكون لهم الخيره فيه للدلالة على منشأ توهم الخيره و هو انتساب الأمر اليهم.

و المعنى: ليس لأحد من المؤمنين و المؤمنات إذا قضى الله و رسوله بالتصرف في أمر من أمورهم أن يثبت لهم الاختيار من جهته لانتسابه اليهم و كونه أمرا من أمورهم فيختاروا منه

غير ما قضى الله ورسوله بل عليهم أن يتبعوا إرادة الله ورسوله.

و الآيه عامه لكنها لوقوعها في سياق الآيات التاليه يمكن أن تكون كالتمهيد لما سيجيء من قوله: «مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ» الآيه؛ حيث يلوح منه أن بعضهم كان قد اعترض على تزوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم بزواج زيد و تعبيره بأنها كانت زوج ابنه المدعو له بالتبني و سيجيء في البحث الروائي بعض ما يتعلق بالمقام.

قوله تعالى: «وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ الْمُرَادُ بِهَذَا الَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ الَّذِي كَانَ عَبْدًا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ثُمَّ حَرَّرَهُ وَ اتَّخَذَهُ ابْنًا لَهُ وَ كَانَ تَحْتَهُ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشِ بِنْتِ عَمِّهِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَتَى زَيْدُ النَّبِيَّ فَاسْتَشَارَهُ فِي طَلَاقِ زَيْنَبَ فَفَتَاهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عَنِ الطَّلَاقِ ثُمَّ طَلَقَهَا زَيْدٌ فَتَزَوَّجَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ نَزَلَتِ الْآيَاتُ.

فقوله: «أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ» أي بالهدايه الى الإيمان و تحبيبه الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم و قوله:

«وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ» أي بالإحسان اليه و تحريره و تخصيصه بنفسك، و قوله: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ» كناية عن الكف عن تطليقها، ولا يخلو من إشعار بإصرار زيد على تطليقها.

و قوله: «وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ أَيْ مَظْهَرُهُ» «وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ» ذيل الآيات أعنى قوله: «الَّذِينَ يُبْلَغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ دَلِيلٌ عَلَى أَنْ خَشِيْتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ النَّاسَ لَمْ تَكُنْ خَشِيْتَهُ عَلَى نَفْسِهِ بَلْ كَانَ خَشِيْتَهُ فِي اللَّهِ فَأَخْفَى فِي نَفْسِهِ مَا أَخْفَاهُ اسْتِشْعَارًا مِنْهُ أَنَّهُ لَوْ أَظْهَرَهُ عَابَهُ النَّاسُ وَ طَعَنَ فِيهِ بَعْضٌ مِنْ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ فَأَثَرُ ذَلِكَ أَثَرًا سَيِّئًا فِي إِيْمَانِ الْعَامَّةِ، وَ هَذَا الْخَوْفُ - كَمَا تَرَى - لَيْسَ خَوْفًا مَذْمُومًا بَلْ خَوْفٌ فِي اللَّهِ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ خَوْفٌ مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ.

فقوله: «وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ الظاهر في نوع من العتاب

ردع عن نوع من خشية الله و هي خشيته عن طريق الناس و هدايه الى نوع آخر من خشيته تعالى و أنه كان من الحرى أن يخشى الله دون الناس و لا يخفى ما فى نفسه ما الله مبديه و هذا نعم الشاهد على أن الله كان قد فرض له أن يتزوج زوج زيد الذى كان تبناه ليرتفع بذلك الحرج عن المؤمنين فى التزويج بأزواج الأدياء و هو صلى الله عليه و آله و سلم كان يخفيه فى نفسه الى حين مخافه سوء أثره فى الناس فأمنه الله ذلك بعتابه عليه نظير ما تقدم فى قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ -الى قوله- وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ الْآيَه.

فظاهر العتاب الذى يلوح من قوله: «وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ» مسوق لانتصاره و تأييد أمره قبال طعن الطاعنين ممن فى قلوبهم مرض نظير ما تقدم فى قوله: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعَلَّمَ الْكَافِرِينَ (التوبه ٤٣).

و من الدليل على أنه انتصار و تأييد فى صورته العتاب قوله بعد: «فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَهَا» حيث أخبر عن تزويجه إياها كأنه أمر خارج عن إرادته النبى صلى الله عليه و آله و سلم و اختياره ثم قوله: «وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا» .

فقوله: «فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَهَا» متفرع على ما تقدم من قوله: «وَ تَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ» و قضاء الوطر منها كناية عن الدخول و التمتع، و قوله: «لَكِنِّي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا» تعليل للتزويج و مصلحه للحكم، و قوله: «وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا» مشير الى تحقق الوقوع و تأكيد للحكم.

و من ذلك يظهر أن الذى كان النبى صلى الله عليه و آله و سلم يخفيه فى نفسه هو ما فرض الله له أن يتزوجها لا هواها و حبه الشديد لها و هى بعد مزوجه كما ذكره جمع من المفسرين و اعتذروا عنه بأنها حاله جبلية لا يكاد يسلم منها البشر، فإن فيه أولا- منع أن يكون بحيث لا- يقوى عليه التريه الإلهيه، و ثانيا: أنه لا معنى حينئذ للعتاب على كتمانها و إخفائه فى نفسه فلا مجوز فى الإسلام لذكر حلائل الناس و التشب بهن.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سِخِّ الْفُرْصِ﴾؛ الفرض هو التعيين والإسهام يقال: فرض له كذا أى عينه له و أسهمه به، وقيل: هو فى المقام بمعنى الإباحه و التجويز، و الحرج الكلفه و الضيق، و المراد بنفى الحرج نفى سببه و هو المنع عما فرض له.

و المعنى: ما كان على النبى من منع فيما عين الله له أو أباح الله له حتى يكون عليه حرج فى ذلك.

و قوله: ﴿سَيِّئَةٌ لِلَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ اسم موضوع موضع المصدر فيكون مفعولا مطلقا و التقدير سنّ الله ذلك سنّه، و المراد بالذين خلوا من قبل هم الأنبياء و الرسل الماضون بقريته قوله بعد: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ الخ.

و قوله: ﴿وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا﴾ أى يقدر من عنده لكل أحد ما يلائم حاله و يناسبها، و الأنبياء لم يمنعوا مما قدره الله و أباحه لغيرهم حتى يمنع النبى صلى الله عليه و آله و سلم من بعض ما قدر و أباح.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ الخ؛ الموصول بيان للموصول المتقدم أعنى قوله: ﴿الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ .

و الخشية هى تأثر خاص للقلب عن المكروه و ربما ينسب الى السبب الذى يتوقع منه المكروه، يقال: خشيت أن يفعل بى فلان كذا أو خشيت فلانا أن يفعل بى كذا، و الأنبياء يخشون الله و لا يخشون أحدا غيره لأنه لا مؤثر فى الوجود عندهم إلا الله.

و هذا غير الخوف الذى هو توقع المكروه بحيث يترتب عليه الاتقاء عملا- سواء كان معه تأثر قلبى أو لا- فإنه أمر عملى ربما ينسب الى الأنبياء كقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام:

﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ (الشعراء/٢١)، و قوله فى النبى صلى الله عليه و آله و سلم: ﴿وَ إِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ (الأنفال/٥٨)، و هذا هو الأصل فى معنى الخوف و الخشية و ربما استعملا

و مما تقدم يظهر أن الخشية منفيه عن الأنبياء عليهم السلام مطلقا و إن كان سياق قوله: «يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ» الخ؛ يُلَوِّحُ إلى أن المنفى هو الخشية في تبليغ الرسالة. على أن جميع أفعال الأنبياء كأقوالهم من باب التبليغ فالخشية في أمر التبليغ مستوعبه لجميع أعمالهم.

و قوله: وَ كَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا أَي محاسبا يحاسب على الصغيره و الكبيره فيجب أن يخشى و لا يخشى غيره.

قوله تعالى: مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ الخ؛ لا شك في أن الآية مسوقه لدفع اعتراضهم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بأنه تزوج زوج ابنه و محصل الدفع أنه ليس أبا زيد و لا أبا أحد من الرجال الموجودين في زمن الخطاب حتى يكون تزوجه بزواج أحدهم بعده تزوجا بزواج ابنه فالخطاب في قوله: «مِنْ رِجَالِكُمْ» للناس الموجودين في زمن نزول الآية، والمراد بالرجال ما يقابل النساء و الولدان و نفى الابوة نفى تكويني لا تشريعي و لا تتضمن الجملة شيئا من التشريع.

و المعنى: ليس محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أبا أحد من هؤلاء الرجال الذين هم رجالكم حتى يكون تزوجه بزواج أحدهم بعده تزوجا منه بزواج ابنه و زيد أحد هؤلاء الرجال فتزوجه بعد تطليقه ليس تزوجا بزواج الابن حقيقه و أما تنبيه زيدا فإنه لا يترتب عليه شيء من آثار الابوة و البنوة و ما جعل أدياءكم أبناءكم.

و أما القاسم و الطيب و الطاهر (1) و إبراهيم فإنهم أبناؤه حقيقه لكنهم ماتوا قبل أن يبلغوا فلم يكونوا رجالا حتى ينتقض الآية و كذا الحسن و الحسين و هما ابنا رسول الله فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قبض قبل أن يبلغا حد الرجال.

و مما تقدم ظهر أن الآيه لا تقتضى نفى أبوته صلى الله عليه وآله وسلم للقاسم و الطيب و الطاهر و إبراهيم و كذا للحسين لما عرفت أنها خاصه بالرجال الموجودين فى زمن النزول على نعت الرجوليه.

و قوله: **وَ لَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ** الخاتم بفتح التاء ما يختم به كالطابع و القالب بمعنى ما يطبع به و ما يقرب به و المراد بكونه خاتم النبيين أن النبوه اختتمت به صلى الله عليه وآله وسلم فلا نبى بعده.

و قد عرفت فيما مر معنى الرساله و النبوه و أن الرسول هو الذى يحمل رساله من الله الى الناس و النبى هو الذى يحمل نبأ الغيب الذى هو الدين و حقائقه و لازم ذلك أن يرتفع الرساله بارتفاع النبوه فإن الرساله من أنباء الغيب، فإذا انقطعت هذه الأنباء انقطعت الرساله.

و من هنا يظهر أن كونه صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين يستلزم كونه خاتما للرسول.

و فى الآيه إيماء الى أن ارتباطه صلى الله عليه وآله وسلم و تعلقه بكم تعلق الرساله و النبوه و أن ما فعله كان بأمر من الله سبحانه.

و قوله: **وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** أى ما بينه لكم إنما كان بعلمه (١).

بحث روائى:

فى الدر المشهور أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زينب بنت جحش لزيد بن حارثه فاستنكفت منه و قالت: أنا خير منه حسبا و كانت امرأه فيها حده فأنزل الله **«وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لَا لِمُؤْمِنَةٍ** الآيه كلها.

أقول: و فى معناها روايات أخر.

و فيه أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال: نزلت فى أم كلثوم بنت عقبه بن أبى معيط

ص: ١٣٣

١- ١). الاحزاب ٣٦-٤٠: بحث روائى فى تزويج الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم زينب بنت جحش بأمر الله.

و كانت أول امرأه هاجرت من النساء فوهبت نفسها للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فزوجها زيد بن حارثه فسخطت هي و أخوها و قالت: إنما أردنا رسول الله فزوجنا عبده فنزلت.

أقول: و الروايتان أشبه بالتطبيق منهما بسبب النزول.

و فى العيون فى باب مجلس الرضا عليه السَّلام عند المأمون مع أصحاب الملل فى حديث يجيب فيه عن مسأله على بن الجهم فى عصمه الأنبياء:

قال: و أما محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و قول الله عزَّ و جل: وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَرَّفَ نَبِيَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أسماء أزواجه فى دار الدنيا و أسماء أزواجه فى الآخرة و أنهن أمهات المؤمنين و أحد من سمى له زينب بنت جحش و هى يومئذ تحت زيد بن حارثه فأخفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ اسمها فى نفسه و لم يبيده لكيلا يقول أحد من المنافقين: إنه قال فى امرأه فى بيت رجل: أنها أحد أزواجه من أمهات المؤمنين و خشى قول المنافقين.

قال الله عزَّ و جل: وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ يَعْنَى فى نفسك الحديث.

أقول: و روى ما يقرب منه فيه عنه عليه السَّلام فى جواب مسأله المأمون عنه فى عصمه الأنبياء.

و فى المجمع فى قوله تعالى: «وَ تُوخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ» قيل: إن الذى أخفاه فى نفسه هو أن الله سبحانه أعلمه أنها ستكون من أزواجه و أن زيدا سيطلقها فلما جاء زيد و قال له: أريد أن أطلق زينب قال له: أمسك عليك زوجك، فقال سبحانه: لم قلت: أمسك عليك زوجك و قد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك؟ و روى ذلك عن على بن الحسين عليه السَّلام.

و فى الدر المنثور أخرج أحمد و عبد بن حميد و البخارى و الترمذى و ابن المنذر و الحاكم و ابن مردويه و البيهقى فى سننه عن أنس قال: جاء زيد بن حارثه يشكو زينب الى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فجعل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يقول: اتق الله و امسك عليك زوجك فنزلت: وَتُوخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ .

قال أنس: فلو كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كاتما شيئاً لكم هذه الآية، فتزوجها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

أقول: و الروايات كثيره فى المقام و إن كان كثير منها لا يخلو من شىء و فى الروايات: ما أولم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم على امرأه من نساءه ما أولم على زينب ذبح شاه و أطعم الناس الخبز و اللحم، و فى الروايات أنها كانت تفتخر على سائر نساء النبى بثلاث أن جدها و جد النبى صلى الله عليه و آله و سلم واحد فإنها كانت بنت أميمه بنت عبد المطلب عمه النبى صلى الله عليه و آله و سلم و أن الذى زوجها منه هو الله سبحانه و أن السفير جبرئيل.

و فى المجمع فى قوله تعالى: **وَ لَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ** : و صح الحديث عن جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم قال: إنما مثلى فى الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها و حسنها إلا موضع لبنة، فكان من دخلها و نظر إليها فقال: ما أحسنها إلا موضع هذه البنة. قال صلى الله عليه و آله و سلم:

فأنا موضع اللبنة ختم بى الأنبياء، أورده البخارى و مسلم فى صحيحهما.

أقول: و روى هذا المعنى غيرهما كالترمذى و النسائى و أحمد و ابن مردويه عن غير جابر كأبى سعيد و أبى هريره.

و فى الدر المنثور أخرج ابن الأنبارى فى المصاحف عن أبى عبد الرحمن السلمى قال: كنت أقرئ الحسن و الحسين فمر بى على بن أبى طالب و أنا أقرئهما فقال لى: أقرئهما فقال لى: أقرئهما و خاتم النبيين بفتح التاء.

[سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٤١ الى ٤٨]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَ مَلَائِكَتُهُ يُخْرِجُكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا (٤٥) وَ دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِرًّا مُنِيرًا (٤٦) وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَ لَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَ الْمُتَنَفِقِينَ وَ دَعْ أَذَاهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨)

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا الذِّكْرُ مَا يَقَابِلُ النِّسيَانَ وَهُوَ تَوْجِيهُ الإِدْرَاكِ نَحْوَ الْمَذْكُورِ وَأَمَّا التَّلْفِظُ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ فَهُوَ بَعْضُ مَصَادِيقِ الذِّكْرِ.

قوله تعالى: وَ سَبَّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً التَّسْبِيحُ هُوَ التَّنْزِيهِ وَهُوَ مِثْلُ الذِّكْرِ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى الْفِظِ وَإِنْ كَانَ التَّلْفِظُ بِمِثْلِ سُبْحَانَ اللَّهِ بَعْضُ مَصَادِيقِ التَّسْبِيحِ.

والبكره أول النهار والأصيل آخره بعد العصر وتقييد التسبيح بالبكره والأصيل لما فيهما من تحول الأحوال فيناسب تسبيحه و تنزيهه من التغير والتحول وكل نقص طار، ويمكن أن يكون البكره والأصيل معاً كناية عن الدوام كالليل والنهار في قوله: يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ (حم السجده ٣٨).

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ المعنى الجامع للصلاه على ما يستفاد من موارد استعمالها هو الانعطاف فيختلف باختلاف ما نسب اليه ولذلك قيل: إن الصلاه من الله الرحمه و من الملائكه الاستغفار و من

الناس الدعاء لكن الذى نسب من الصلاة الى الله سبحانه فى القرآن هو الصلاة بمعنى الرحمة الخاصه بالمؤمنين و هى التى تترتب عليها سعادته العقبى و الفلاح المؤيد و لذلك عللّ تصليته عليهم بقوله: «لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا» .

و قد رتب سبحانه فى كلامه على نسيانهم له نسيانه لهم و على ذكرهم له ذكره لهم فقال:

نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ (التوبه ٦٧)، و قال: فَادْكُرُونِي أَدْكُمْ (البقره ١٥٢) و تصليته عليهم ذكر منه لهم بالرحمه فإن ذكروه كثيرا و سبحوه بكره و أصيلا صلى عليهم كثيرا و غشيمهم بالنور و أبعدهم من الظلمات.

و من هنا يظهر أن قوله: «هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْنَا» الخ؛ فى مقام التعليل لقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا» و تفيد التعليل أنكم إن ذكرتم الله كثيرا ذكركم برحمته كثيرا و بالغ فى إخراجكم من الظلمات الى النور و يستفاد منه أن الظلمات إنما هى ظلمات النسيان و الغفله و النور نور الذكر.

و قوله: وَ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا وَضَع الظاهر موضع المضمّر، أعنى قوله:

«بِالْمُؤْمِنِينَ» و لم يقل: و كان بكم رحيمًا، ليدل به على سبب الرحمة و هو وصف الإيمان.

قوله تعالى: تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَ أَعِدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ظاهر السياق أن «تَحِيَّتُهُمْ» مصدر مضاف الى المفعول أى إنهم يحيون-بالبناء للمفعول-يوم يلقون ربهم من عند ربهم و من ملائكته بالسلام أى إنهم يوم اللقاء فى أمن و سلام لا- يصيبهم مكروه و لا يمسهم عذاب.

و قوله: وَ أَعِدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا أى و هيا الله لهم ثوابا جزيلا.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا شهادته عليه السلام على الأعمال أن يتحملها فى هذه النشأه و يؤديها يوم القيامة، و قد تقدم فى قوله: لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (البقره ١١٢)، و غيره من آيات الشهاده

أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شهيد الشهداء.

و كونه مبشرا و نذيرا تبشيره المؤمنين المطيعين لله و رسوله بثواب الله و الجنة و إنذاره الكافرين و العاصين بعذاب الله و النار.

قوله تعالى: **وَ دَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِرَاجًا مُنِيرًا** دعوته الى الله هي دعوته الناس الى الإيمان بالله وحده، و لازمه الإيمان بدين الله و تقيد الدعوه بإذن الله يجعلها مساوقه للبعثه.

و كونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ سراجا منيرا هو كونه بحيث يهتدى به الناس الى سعادتهم و ينجون من ظلمات الشقاء و الضلاله فهو من الاستعاره، و قول بعضهم: إن المراد بالسراج المنير القرآن و التقدير ذا سراج منير تكلف من غير موجب.

قوله تعالى: **وَ بَشَّرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا**، الفضل من العطاء ما كان من غير استحقاق ممن يأخذه و قد وصف الله عطاءه فقال: **مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا** (الأنعام ١٦٠)، و قال: **لَهُمْ مَا يَشَاؤُنَ فِيهَا وَ لَعَدْنَا مَزِيدًا** (ق ٣٥)، فبين أنه يعطى من الثواب ما لا يقابل العمل و هو الفضل و لا دليل فى الآية يدل على اختصاصه بالآخره.

قوله تعالى: **وَ لَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَ الْمُتَدَفِّقِينَ وَ دَعَا أَذَاهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** الخ؛ تقدم معنى طاعه الكافرين و المنافقين فى أول السوره.

و قوله: **وَ دَعَا أَذَاهُمْ** أى اترك ما يؤذونك بالإعراض عنه و عدم الاشتغال به و الدليل على هذا المعنى قوله: **«وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ»** أى لا تستقل بنفسك فى دفع أذاهم بل اجعل الله و كيلا فى ذلك و كفى بالله و كيلا (١).

ص: ١٣٨

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَعْرِوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتِ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتِ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠) تَزْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتِغَيْتَ مَخْنً عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَءَ عَيْنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاظِرِينَ إِنَاءَهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعَمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مَسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخَفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتِ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥) إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا (٥٨) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيْبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٩) لَيْسَ لِمَنْ يَنْتَهِي الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنْغَرِيْبِكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا نُفِجُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّهَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّهَ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢)

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدَةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسِرَّحُوهُنَّ سِرَّحًا جَمِيلًا المراد بنكاحهن العقد عليهن بالنكاح، و بالمس الدخول، و بالتمتع إعطاؤهن شيئاً من المال يناسب شأنهن و حالهن و التسريح بالجميل لإطلاقهن من غير خصومه و خشونه.

و المعنى: إذا طلقتم النساء بعد النكاح و قبل الدخول فلا عده لهن للطلاق و يجب تمتيعهن بشيء من المال و السراح الجميل.

و الآيه مطلقه تشمل ما إذا فرض لهن فريضة المهر و ما إذا لم يفرض فيقيدها قوله: وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ (البقره ٢٣٧/)، و تبقى حجه فيما لم يفرض لهن فريضه.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ

الى آخر الآيه؛ يذكر سبحانه لنبه صلى الله عليه وآله وسلم بالإحلال سبعة أصناف من النساء: الصنف الأول ما فى قوله: «أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ» والمراد بالاجور المهور، والثانى ما فى قوله:

«وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ» أى من يملكه من الإماء الراجعة اليه من الغنائم و الأنفال، و تقييد ملك اليمين بكونه مما أفاء الله عليه كتقييد الأزواج بقوله: «اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ» للتوضيح لا للاحتراز.

و الثالث و الرابع ما فى قوله: «وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ» قيل: يعنى نساء قريش، و الخامس و السادس ما فى قوله: «وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ» قيل: يعنى نساء بنى زهره، و قوله: «اللَّاتِي هَاجِرُونَ مَعَكَ» قال فى المجمع: هذا إنما كان قبل تحليل غير المهاجرات ثم نسخ شرط الهجره فى التحليل.

و السابع ما فى قوله: «وَامْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ وَإِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا» و هى المرأه المسلمه التى بذلت نفسها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بمعنى أن ترضى أن يتزوج بها من غير مصداق و مهر فإن الله أحلها له إن أراد أن يستنكحها، و قوله: «خَالِصَةٌ لِّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» إيدان بأن هذا الحكم - أى حليه المرأه للرجل ببذل النفس - من خصائصه لا يجرى فى المؤمنين، و قوله بعده: «قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ» تقرير لحكم الاختصاص.

و قوله: «لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ تَعْلِيلٌ لِقَوْلِهِ فِي صَدْرِ الْآيَةِ: «إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ» أو لما فى ذيلها من حكم الاختصاص و الأول أظهر و قد ختمت الآيه بالمغفره و الرحمه.

قوله تعالى: تُرْجَى مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوَى إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ الْخ؛ الإرجاء التأخير و التباعد، و هو كناية عن الرد، و الإيواء: الإشكال فى المكان و هو كناية عن القبول و الضم اليه.

و السياق يدل على أن المراد به أنه صلى الله عليه وآله وسلم على خيره من قبول من وهبت نفسها له أو

و قوله: وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ، الابتغاء هو الطلب أى و من طلبتها من اللاتى عزلتها و لم تقبلها فلا إثم عليك و لا لوم أى يجوز لك أن تضم اليك من عزلتها و رددتها من النساء اللاتى وهبن أنفسهن لك بعد العزل و الرد.

و يمكن أن يكون إشاره الى أن له صلى الله عليه و آله و سلم أن يقسم بين نسائه و أن يترك القسم فيؤخر من يشاء منهن و يقدم من يشاء و يعزل بعضهن من القسم فلا يقسم لها أو يبتغيها فيقسم لها بعد العزل و هو أوفق لقوله بعده: «وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ - أى أقرب - أَنْ تَقْرَأَ أَعْيُنُهُنَّ - أى يسررن - وَ لَا يَخْزَنَ وَ يَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ» و ذلك لسرور المتقدمه بما قسمت له و رجاء المتأخره أن تتقدم بعد.

و قوله: وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا أى يعلم مصالح عباده و لا يعاجل فى العقوبه.

و فى الآيه أقوال مختلفه آخر و الذى أوردناه هو الأوفق لوقوعها فى سياق سابقها متصله بها و به وردت الأخبار عن أئمه أهل البيت عليهم السلام كما سيحىء.

قوله تعالى: لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَ لَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَ لَوْ أَغْبَجَكَ حُسْنُهُنَّ الْخ؛ ظاهر الآيه لو فرضت مستقله فى نفسها غير متصله بما قبلها تحريم النساء له صلى الله عليه و آله و سلم إلا من خيرهن فاخترن الله و نفى جواز التبدل بهن يؤيد ذلك.

لكن لو فرضت متصله بما قبلها و هو قوله: «إِنَّا أَخْلَلْنَا لَكَ» الْخ؛ كان مدلولها تحريم ما عدا المعدودات و هى الأصناف الستة التى تقدمت.

و فى بعض الروايات عن بعض أئمه أهل البيت عليهم السلام أن المراد بالآيه محرمات النساء المحدوده فى قوله: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَ بَنَاتُكُمْ الْآيَه؛ (النساء ٢٣).

فقوله: لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ أى من بعد اللاتى اخترن الله و رسوله و هى التسعه على المعنى الأول أو من بعد من عددناه فى قولنا «إِنَّا أَخْلَلْنَا لَكَ» على المعنى الثانى أو

من بعد المحللات و هي المحرمات على المعنى الثالث.

وقوله: أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ أَى أَنْ تَطْلُقَ بَعْضَهُنَّ وَ تَزُوجَ مَكَانَهَا مِنْ غَيْرِهِنَّ، وَقَوْلُهُ: «إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ» يَعْنِي الْإِمَاءَ وَ هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مِنْ قَوْلِهِ فِي صَدْرِ آيَةِ: «لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ» .

و قَوْلُهُ: «وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا» مَعْنَاهُ ظَاهِرٌ وَ فِيهِ تَحْذِيرٌ عَنِ الْمَخَالَفَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ - إِلَى قَوْلِهِ - مِنَ الْحَقِّ بَيَانٌ لِأَدَبِ الدَّخُولِ فِي بُيُوتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، وَقَوْلُهُ: «إِلَّا - أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ» اسْتِثْنَاءٌ مِنَ النَّهْيِ، وَقَوْلُهُ: «إِلَى طَعَامٍ» مُتَعَلِّقٌ بِالْإِذْنِ، وَقَوْلُهُ: «غَيْرِ نَظِيرِينَ إِنَاءٌ» أَى غَيْرِ مُنْتَظَرِينَ لِرُودِ إِنْءِ الطَّعَامِ بِأَنْ تَدْخُلُوا مِنْ قَبْلِ فَتَطِيلُوا الْمَكْثَ فِي انْتِظَارِ الطَّعَامِ وَ يَبِينُهُ قَوْلُهُ: «وَ لَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ - أَى أَكَلْتُمْ - فَانْتَشِرُوا»، وَقَوْلُهُ: «وَ لَا مُسْتَأْنَسِينَ لِحَدِيثٍ» عَطَفَ عَلَى قَوْلِهِ: «غَيْرِ نَظِيرِينَ إِنَاءٌ» وَ هُوَ حَالٌ بَعْدَ حَالٍ، أَى غَيْرِ مَا كُنْتُمْ فِي حَالِ انْتِظَارِ الْإِنْءِ قَبْلَ الطَّعَامِ وَ لَا فِي حَالِ الْاسْتِنْسَانِ لِحَدِيثِ بَعْدَ الطَّعَامِ.

و قَوْلُهُ: إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ تَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ أَى لَا - تَمَكَّنُوا كَذَلِكَ لِأَنَّ مَكْثَكُمْ ذَلِكَ كَانَ يَتَأَذَى مِنْهُ النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ أَنْ يَسْأَلَ خُرُوجَ وَقَوْلُهُ: «وَ اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ» أَى مِنْ بَيَانِ الْحَقِّ لَكُمْ وَ هُوَ ذِكْرُ تَأْذِيهِ وَ التَّأْذِيبِ بِالْأَدَبِ اللَّاتِقِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ، ضَمِيرٌ «هِنَّ» لِأَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ سْؤَالُهُنَّ مَتَاعًا كُنَايَةٌ عَنِ تَكْلِيمِهِنَّ لِحَاجَتِهِنَّ أَى إِذَا مَسَّتْ الْحَاجَةُ إِلَى تَكْلِيمِكُمْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فَكَلِمَتُهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَقَوْلُهُ: «ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ» بَيَانٌ لِمَصْلَحَةِ الْحُكْمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَ لَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ

مِنْ بَعْدِهِ أَيْدَا الْخ؛ أَي لَيْسَ لَكُمْ إِذَاؤُهُ بِمُخَالَفِهِ مَا أَمَرْتُمْ فِي نِسَائِهِ وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ وَ لَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَنْكَحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبْدَا
إِنْ ذَلِكُمْ أَي نِكَاحِكُمْ أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا، وَفِي الْآيَةِ إِشْعَارٌ بِأَنْ بَعْضَهُمْ ذَكَرَ مَا يَشِيرُ إِلَى نِكَاحِهِمْ أَزْوَاجَهُ بَعْدَهُ
وَ هُوَ كَذَلِكَ كَمَا سَيَأْتِي فِي الْبَحْثِ الرَّوَائِي الْآتِي.

قوله تعالى: ^{□□} إِنْ تَبَدُّدُوا شَيْئًا أَوْ تَخَفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ^{□□} معناه ظاهر و هو في الحقيقة تنبيه تهديدي لمن كان يؤذى
النبي صلى الله عليه و آله و سلم أو يذكر نكاح أزواجه من بعده.

قوله تعالى: ^{□□} لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ^{□□} ضمير «عَلَيْهِنَّ» لنساء النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و الآية في معنى
الاستثناء من عموم حكم الحجاب و قد استثنى الآباء و الأبناء و الإخوان و أبناء الإخوان و أبناء الأخوات و هؤلاء محارم، قيل: و لم
يذكر الأعمام و الأخوال لأنهم من الممكن أن يصفوهم لأبنائهم.

و استثنى أيضا نساءهن و إضافه النساء الى ضميرهن يلوّح الى أن المراد النساء المؤمنات دون الكوافر كما مرّ في قوله تعالى: ^{□□} أَوْ
نِسَائِهِنَّ (النور ٣١/)، و استثنى أيضا ما ملكت أيماهن من العبيد و الإماء.

و قوله: ^{□□□□} وَ اتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ^{□□} كُلُّ شَيْءٍ شَهِيدًا فِيهِ تَأْكِيدُ الْحُكْمِ وَ خَاصَهُ مِنْ جِهَةِ الْاِلْتِفَاتِ مِنَ الْغَيْبِ إِلَى الْخُطَابِ فِي
«اتَّقِينَ اللَّهَ» .

قوله تعالى: ^{□□} إِنَّ اللَّهَ وَ مَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيمًا ^{□□} قد تقدم أن أصل الصلاة الانعطاف
فصلاته تعالى انعطافه عليه بالرحمة انعطافا مطلقا لم يقيد في الآية بشيء دون شيء و كذلك صلاة الملائكة عليه انعطاف عليه
بالتزكية و الاستغفار و هي من المؤمنين الدعاء بالرحمة.

و في ذكر صلته تعالى و صلاة ملائكته عليه قبل أمر المؤمنين بالصلاة عليه دلالة على أن

فى صلاه المؤمنىن له اتباعا لله سبحانه و ملائكته و تأكيدا للنهى الآتى.

و قد استفاضت الروايات من طرق الشيعة و أهل السنه أن طريق صلاه المؤمنىن أن يسألوا الله تعالى أن يصلى عليه و آله.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا من المعلوم أن الله سبحانه منزه من أن يناله الأذى و كل ما فيه و صمه النقص و الهوان فذكره مع الرسول و تشريكه فى إيدائه تشريف للرسول و إشاره الى أن من قصد رسوله بسوء فقد قصده أيضا بالسوء إذ ليس للرسول بما أنه رسول إلا ربه فمن قصده فقد قصد ربه.

و قد أوعدهم باللعن فى الدنيا و الآخرة و اللعن هو الإبعاد من الرحمه و الرحمه الخاصه بالمؤمنىن هى الهدايه الى الاعتقاد الحق و حقيقه الإيمان، و يتبعه العمل الصالح فالإبعاد من الرحمه فى الدنيا تحريمه عليه جزاء لعمله فيرجع الى طبع القلوب كما قال: لَعَنَاهُمْ وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً (المائدة ١٣)، و قال: وَ لَكِنَّ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (النساء ٤٦)، و قال: أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ (سوره محمد / ٢٣).

و أما اللعن فى الآخرة فهو الإبعاد من رحمه القرب فيها و قد قال تعالى: كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (المطففين ١٥).

ثم أوعدهم بأنه أعد لهم -أى فى الآخرة- عذابا مهينا و وصف العذاب بالمهين لأنهم يقصدون باستكبارهم فى الدنيا إهانته الله و رسوله فقبلوا فى الآخرة بعذاب يهينهم.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا تقييد إيدائهم بغير ما اكتسبوا لأن إيدائهم بما اكتسبوا كما فى القصاص و الحد و التعزير لا إثم فيه.

و أما إيذاؤهم بغير ما اكتسبوا و من دون استحقاق فيعدّه سبحانه احتمالا للبهتان و الإثم المبين، و البهتان هو الكذب على الغير يواجهه به، و وجه كون الإيذاء من غير اكتساب بهتاناً أن المؤذى إنما يؤديه لسبب عنده يعدّه جرماً له يقول: لم قال كذا؟ لم فعل كذا؟ و ليس بجرم فيبيته عند الإيذاء بنسبه الجرم اليه مواجهه و ليس بجرم.

و كونه إثماً مبيناً لأن الافتراء و البهتان مما يدرك العقل كونه إثماً من غير حاجه الى ورود النهى عنهما شرعاً.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزْوَاجِكُمْ وَ بَنَاتِكُمْ وَ نِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِ الْخِ؛ الْجَلَابِيبُ جمع جلباب و هو ثوب تشتمل به المرأة فيغطي جميع بدنها أو الخمار الذي تغطي به رأسها و وجهها.

و قوله: يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِ أَي يسترن بها فلا تظهر جيوبهن و صدورهن للناظرين.

و قوله: ذَلِكْ أَذْنِي أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَ أَي ستر جميع البدن أقرب الى أن يعرفن أنهم أهل الستر و الصلاح فلا يؤذِن أَي لا يؤذيهن أهل الفسق بالتعرض لهن.

و قيل: المعنى ذلك أقرب من أن يعرفن أنهم مسلمات حرائر فلا يتعرض لهن بحسبان أنهم إماء أو من غير المسلمات من الكتابيات أو غيرهن و الأول أقرب.

قوله تعالى: لئن لم ينته المنافقون و الذين في قلوبهم مرض و المرجفون في المدينة لتغريتك بهم الخ؛ الانتهاء عن الشيء الامتناع و الكف عنه، و الإرجاف إشاعه الباطل للاعتماد به و إلقاء الاضطراب بسببه، و الإغراء بالفعل التحريض عليه.

و المعنى: أقسم لئن لم يكف المنافقون و الذين في قلوبهم مرض عن الإفساد و الذين يشيعون الأخبار الكاذبه في المدينة لإلقاء الاضطراب بين المسلمين لنحرضنك عليهم ثم لا

يجاورونك فى المدينة بسبب نفيهم عنها إلا زمانا قليلا و هو ما بين صدور الأمر و فعله إجرائه.

قوله تعالى: **مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا** الثقف إدراك الشىء و الظفر به، و الجملة حال من المنافقين و من عطف عليهم أى حال كونهم ملعونين أينما وجدوا أخذوا و بولغ فى قتلهم فعمهم القتل.

قوله تعالى: **سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِ وَ لَنْ تَجِدَ لِسِنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا** السنه هى الطريقة المعموله التى تجرى بطبعها غالبا أو دائما.

يقول سبحانه هذا النكال الذى أوعدنا به المنافقين و من يحذو حذوهم من النفى و القتل الذريع هى سنه الله التى جرت فى الماضين فكلما بالغ قوم فى الإفساد و إلقاء الاضطراب بين الناس و تمادوا و طغوا فى ذلك أخذناهم كذلك و لم تجد لسنه الله تبديلا فتجرى فيكم كما جرت فى الامم من قبلكم (١).

[سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٦٣ الى ٧٣]

يَسْبِطُكَ الذَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي الدَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَ (٦٦) وَ قَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَ كِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَ الْعَنُوهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُضْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَ يُغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَ أَسْفَقْنَ مِنْهَا وَ حَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ وَ يُتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٣)

ص: ١٤٨

١ - ١). الاحزاب ٤٩-٦٢: بحث روائى فى الزواج و الطلاق؛ زوجات النبى صلى الله عليه و آله و سلم؛ معنى صلاه الله و صلاه الملائكة و صلاه المؤمن على رسول الله.

بيان:

قوله تعالى: يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا تَذَكَرَ الْآيَةَ سُؤَالَ النَّاسِ عَنِ السَّاعَةِ وَإِنَّمَا كَانُوا يَرِيدُونَ أَنْ يَقْدِرَ لَهُمْ زَمَنٌ وَقَوَّعَهَا وَأَنَّهَا قَرِيبَةٌ أَوْ بَعِيدَةٌ كَمَا يَوْمَى إِلَيْهِ التَّعْبِيرُ عَنْهَا بِالسَّاعَةِ فَامْرٌ أَنْ يَجِيبَهُمْ بِقَصْرِ الْعِلْمِ بِهَا فِي اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَعَلَى ذَلِكَ جَرَتْ الْحَالُ كُلَّمَا ذَكَرْتَ فِي الْقُرْآنِ.

وقوله: وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا زِيَادَةً فِي الْإِبْهَامِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ

ص: ١٤٩

النبى صَلَّى الله عليه وآله وسلم مثل غيره فى عدم العلم بها و ليس من الستر الذى أسرّه اليه و ستره من الناس.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا لعن الكفار إبعادهم من الرحمه، و الإعداد التهيئه، و السعير النار التى أشعلت فالتهبت، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا الفرق بين الولى و النصير أن الولى يلى بنفسه تمام الأمر و المولى عليه بمعزل، و النصير يعين المنصور على بعض الأمر و هو إتمامه فالولى يتولى الأمر كله و النصير يتصدى بعضه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَ تَقَلَّبَ وُجُوهُهُمْ فى النار تحولها لحال بعد حال فتصفر و تسودّ و تكون كالحه أو انتقالها من جهه الى جهه لتكون أبلغ فى مس العذاب كما يفعل باللحم المشوى.

و قولهم: «يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَ» كلام منهم على وجه التحسر و التمنى.

قوله تعالى: وَ قَالَوا رَبَّنَا إِذَا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَ كُبِرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا الساده جمع سيد و هو-على ما فى المجمع-المالك المعظم الذى يملك تدبير السواد الأعظم و هو الجمع الأكثر، و الكبراء جمع كبير و لعل المراد به الكبير سنا فالعامه تطيع و تقلد أحد رجلين إما سيد القوم و إما أسنهم.

قوله تعالى: رَبَّنَا آتِنِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَ الْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا الضعفان المثلان و إنما سألوها لهم ضعفى العذاب لأنهم ضلوا فى أنفسهم و أضلوا غيرهم، و لذلك أيضا سألوها لهم اللعن الكبير.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا نهى عن أن يكونوا كبعض بنى إسرائيل فيعاملوا نبيهم بمثل ما عامل به بنو إسرائيل من الإيذاء و ليس المراد مطلق الإيذاء بقول أو فعل و إن كان منها عنه بل قوله: «فَبَرَّأَهُ اللَّهُ» يشهد بأنه كان إيذاء من قبيل التهمه و الافتراء المحوج فى

و لعل السكوت عن ذكر ما آذوا به موسى عليه السلام يؤيد ما ورد في الحديث أنهم قالوا: ليس لموسى ما للرجال فبرأه الله من قولهم و سيوافيك.

و أوجه ما قيل في إيدائهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أنه إشاره الى قصه زيد و زينب، و إن يكن كذلك فمن إيدائه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ ما في كثير من روايات القصة من سردها على نحو لا يناسب ساحه قدسه.

و قوله: **وَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً** أى ذا جاه و منزله و الجملة مضافا الى اشتمالها على التبرئه إجمالاً تعلق تبرئته تعالى له و للآيه و ما بعدها نوع اتصال بالآيات الناهيه عن إيداء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ.

قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيداً**، السديد من السداد و هو الإصابه و الرشاد فالسديد من القول ما يجتمع فيه مطابقه الواقع و عدم كونه لغوا أو ذا فائده غير مشروعه كالنميمه و غير ذلك فعلى المؤمن أن يختبر صدق ما يتكلم به و أن لا يكون لغوا أو يفسد به إصلاح.

قوله تعالى: **يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً** رتب على ملازمه القول السديد إصلاح الأعمال و مغفره الذنوب و ذلك أن النفس إذا لازمت القول السديد انقطعت عن كذب القول و لغو الحديث و الكلام الذى يترتب عليه فساد، و برسوخ هذه الصفه فيها تنقطع طبعاً عن الفحشاء و المنكر و اللغو فى الفعل و عند ذلك يصلح أعمال الإنسان فيندم بالطبع على ما ضيعه من عمره فى موبقات الذنوب إن كان قد ابتلى بشيء من ذلك و كفى بالندم توبه.

و يحفظه الله فيما بقى من عمره عن اقتحام المهلكات و إن رام شيئاً من صغائر الذنوب غفر الله له فقد قال الله تعالى: **إِنْ تَجْتَبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ (النساء / ٣١)**، فملازمه القول السديد تسوق الإنسان الى صلاح الأعمال و مغفره الذنوب بإذن الله.

وقوله: وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا وعد جميل على الإتيان بجميع الأعمال الصالحة و الاجتناب عن جميع المناهى بترتيب الفوز العظيم على طاعه الله و رسوله.

و بذلك تختتم السوره فى معناها فى الحقيقه لأن طاعه الله و رسوله هى الكلمه الجامعه بين جميع الأحكام السابقه،من واجبات و محرمات و الآياتان التاليتان كالمتمم لمعنى هذه الآيه.

قوله تعالى: إِذَا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَ حَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا- الى قوله- غَفُورًا رَحِيمًا الأمانه-أيا ما كانت-شئء يودع عند الغير ليحفظ عليه ثم يرده الى من أودعه،فهذه الأمانه المذكوره فى الآيه شئء ائتمن الله الإنسان عليه ليحفظ على سلامته و استقامته ثم يرده اليه سبحانه كما أودعه.

و يستفاد من قوله: «لِيَعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ» الخ؛أنه أمر يترتب على حمله النفاق و الشرك و الإيمان،فينقسم حاملوه باختلاف كيفيه حملهم الى منافق و مشرك و مؤمن.

فهو لا محاله أمر مرتبط بالدين الحق الذى يحصل بالتلبس به و عدم التلبس به النفاق و الشرك و الإيمان.

فهل هو الاعتقاد الحق و الشهاده على توحده تعالى،أو مجموع الاعتقاد و العمل بمعنى أخذ الدين الحق بتفاصيله مع الغض عن العمل به،أو التلبس بالعمل به أو الكمال الحاصل للإنسان من جهة التلبس بواحد من هذه الامور.

و ليست هى الأول أعنى التوحيد فإن السماوات و الأرض و غيرها من شئء توحده تعالى و تسبِّح بحمده،و قد قال تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ (الإسراء ٤٤/١)،و الآيه تصرِّح بإبائها عنه.

و ليست هى الثانى أعنى الدين الحق بتفاصيله فإن الآيه تصرِّح بحمل الانسان كائنا من

كان من مؤمن وغيره له و من اليين أن أكثر من لا- يؤمن لا- يحمله و لا- علم له به، و بهذا يظهر أنها ليست بالثالث و هو التلبس بالعمل بالدين الحق تفصيلا.

و ليست هي الكمال الحاصل له بالتلبس بالتوحيد فإن السماوات و الأرض و غيرهما ناطقه بالتوحيد فعلا متلبسه به.

و ليست هي الكمال الحاصل من أخذ دين الحق و العلم به إذ لا يترتب على نفس الاعتقاد الحق و العلم بالتكاليف الدينيه نفاق و لا شرك و لا إيمان و لا يستعقب سعادته و لا شقاء و إنما يترتب الأثر على الالتزام بالاعتقاد الحق و التلبس بالعمل.

فبقي أنها الكمال الحاصل له من جهة التلبس بالاعتقاد و العمل الصالح و سلوك سبيل الكمال بالارتقاء من حضيض الماده الى أوج الإخلاص الذي هو أن يخلصه الله لنفسه فلا يشاركه فيه غيره فيتولى هو سبحانه تدبير أمره و هو الولاية الإلهيه.

فالمراد بالأمانه الولاية الإلهيه و بعرضها على هذه الأشياء اعتبارها مقيسه إليها و المراد بحملها و الإباء عنه وجود استعدادها و صلاحية التلبس بها و عدمه، و هذا المعنى هو القابل لأن ينطبق على الآيه فالسماوات و الأرض و الجبال على ما فيها من العظمه و الشده و القوه فاقده لاستعداد حصولها فيها و هو المراد بإبائهن عن حملها و إشفاقهن منها.

لكن الانسان الظلوم الجهول لم يأب و لم يشفق من ثقلها و عظم خطرها فحملها على ما بها من الثقل و عظم الخطر فتعقب ذلك أن انقسم الإنسان من جهة حفظ الأمانه و عدمه بالخيانة الى منافق و مشرك و مؤمن بخلاف السماوات و الأرض و الجبال فما منها إلا مؤمن مطيع.

فان قلت: ما بال الحكيم العليم حمل على هذا المخلوق الظلوم الجهول حملا لا يتحملة لثقله و عظم خطره السماوات و الأرض و الجبال على عظمتها و شدتها و قوتها و هو يعلم أنه أضعف من أن يطيق حملة و إنما حملة على قبولها ظلمه و جهله و أجرأه عليه غروره و غفلته عن عواقب الامور فما تحميلة الأمانه باستدعائه لها ظلما و جهلا إلا كتقليد مجنون و لايه عامه يأبى قبولها

العقلاء و يشفقون منها يستدعيها المجنون لفساد عقله و عدم استقامه فكره.

قلت:الظلم و الجهل فى الإنسان و إن كانا بوجه ملاك اللوم و العتاب فهما بعينهما مصحح حملة الأمانه و الولايه الإلهيه فإن الظلم و الجهل إنما يتصف بهما من كان من شأنه الاتصاف بالعدل و العلم فالجبال مثلا لا تتصف بالظلم و الجهل فلا يقال:جبل ظالم أو جاهل لعدم صحه اتصافه بالعدل و العلم و كذلك السماوات و الأرض لا يحمل عليها الظلم و الجهل لعدم صحه اتصافها بالعدل و العلم بخلاف الانسان.

و الأمانه المذكوره فى الآيه و هى الولايه الإلهيه و كمال صفه العبوديه إنما تتحصل بالعلم بالله و العمل الصالح الذى هو العدل و إنما يتصف بهذين الوصفين أعنى العلم و العدل الموضوع القابل للجهل و الظلم فكون الانسان فى حد نفسه و بحسب طبعه ظلوما جهولا هو المصحح لحمل الأمانه الإلهيه فافهم ذلك.

فمعنى الآيتين (1) ينظر بوجه معنى قوله تعالى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (التين ١٦).

فقوله تعالى: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ» أى الولايه الإلهيه و الاستكمال بحقائق الدين الحق علما و عملا و عرضها هو اعتبارها مقيسه الى هذه الأشياء.

و قوله: عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ أى هذه المخلوقات العظيمة التى خلقها أعظم من خلق الإنسان كما قال: لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ (المؤمن ٥٧)، و قوله: «فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا» إباؤها عن حملها و إشفاقها منها عدم اشتمالها على صلاحيه التلبس و تجايفها عن قبولها و فى التعبير بالحمل إيماء الى أنها ثقيله ثقلا لا يحتملها السماوات و الأرض و الجبال.

ص: ١٥٤

(١ - ١). فالآيه الاولى تحاذى الاولى و الثانية تحاذى الثانية و الثالثة.

وقوله: وَ حَمَلَهَا الْإِنْسَانُ أَى اشتمل على صلاحيتها و التهيؤ للتلبس بها على ضعفه و صغر حجمه «إِنَّه كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا» أَى ظالما لنفسه جاهلا بما تعقبه هذه الأمانه لو خانها من وخيم العاقبه و الهلاك الدائم.

و بمعنى أدق لكون الإنسان خاليا بحسب نفسه عن العدل و العلم قابلا للتلبس بما يفاض عليه من ذلك و الارتقاء من حضيض الظلم و الجهل الى أوج العدل و العلم.

و الظلوم و الجهول و صفان من الظلم و الجهل معانها من كان من شأنه الظلم و الجهل نظير قولنا: فرس شמוש و دابه جموح و ماء طهور أى من شأنها ذلك كما قاله الرازى أو معانها المبالغه فى الظلم و الجهل كما ذكر غيره، و المعنى مستقيم كيفما كانا.

و قوله: لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ اللَّامِ لِلْغَايَةِ أَى كانت عاقبه هذا الحمل أن يعذب الله المنافقين و المنافقات و المشركين و المشركات و ذلك أن الخائن للأمانه يتظاهر فى الأغلب بالصلاح و الأمانه و هو النفاق و قليلا ما يتظاهر بالخيانه لها و لعل اعتبار و هذا المعنى هو الموجب لتقديم المنافقين و المنافقات فى الآيه على المشركين و المشركات.

و قوله: وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا عطف على «لِيُعَذِّبَ» أَى و كان عاقبه ذلك أن يتوب الله على المؤمنين و المؤمنات، و التوبه من الله هى رجوعه الى عبده بالرحمه فيرجع الى الإنسان إذا آمن به و لم يخن بالرحمه و يتولى أمره و هو ولى المؤمنين فيهديه اليه بالستر على ظلمه و جهله و تحليته بالعلم النافع و العمل الصالح لأنه غفور رحيم.

فإن قلت: ما هو المانع من جعل الأمانه بمعنى التكليف و هو الدين الحق و كون الحمل بمعنى الاستعداد و الصلاحيه و الإباء هو فقده و العرض هو اعتبار القياس فيجرى فيه حينئذ جميع ما تقدم فى بيان الانطباق على الآيه.

قلت: نعم لكن التكليف إنما هو مطلوب لكونه مقدمه لحصول الولايه الإلهيه و تحقق صفه العبوديه الكامله فهى المعروضه بالحقيقه و المطلوبه لنفسها.

□
و الالتفات فى قوله: «لِيَعْبُدَ اللَّهُ» من التكلم الى الغيبه و الإتيان باسم الجلاله للدلاله على أن عواقب الامور الى الله سبحانه لأنه الله.

□
و وضع الظاهر موضع المضممر فى قوله: «وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ» للاشعار بكمال العنايه فى حقهم و الاهتمام بأمرهم.

ص: ١٥٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ
 الْخَبِيرُ (۱) يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَ مَا يَعْرُجُ فِيهَا وَ هُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ (۲) وَ قَالَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّمَاءُ قُلُوبًا وَ رَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ وَ لَا أَضِغْرُ مِنْ
 ذَلِكَ وَ لَا أَكْبْرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (۳) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۴) وَ الَّذِينَ سَعَوْا
 فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ (۵) وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَ يَهْدِي
 إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (۶) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (۷)
 أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَ الضَّلَالِ الْبَعِيدِ (۸) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا
 خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُنشِطْ عَلَيْهِمْ كَسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِكُلِّ عَجْدٍ مُنِيبٍ (۹)

تتكلم السوره حول الاصول الثلاثه أعنى الوجدانيه و النبوه و البعث فتذكرها و تذكر ما لمنكريها من الاعتراض فيها و الشبهه التى ألقوها ثم تدفعها بوجوه الدفع من حكمه و موعظه و مجادله حسنه و تهتم ببيان أمر البعث أكثر من غيره فتذكره فى مفتتح الكلام ثم تعود اليه عوده بعد عوده الى مختتمه.

و هى مكيه بشهاده مقاصد آياتها على ذلك.

قوله تعالى: **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** الخ؛ المطلوب بيان البعث و الجزاء بيانا لا يعتريه شك بالإشاره الى الحججه التى ينقطع بها الخصم و الأساس الذى يقوم عليه ذلك أمران أحدهما عموم ملكه تعالى لكل شىء من كل جهه حتى يصح له أى تصرف أراد فيها من إبداء و رزق و إماته و إحياء بالإعاده و جزاء، و ثانيهما كمال

علمه تعالى بالأشياء من جميع جهاتها علما لا يطرأ عليه عزوب و زوال حتى يعيد كل من أراد و يجزيه على ما علم من أعماله خيرا أو شرا.

وقد أشير الى أولى الأمرين فى الآيه الاولى التى نحن فيها و الى الثانية فى الآيه الثانية و بذلك يظهر أن الآيتين تمهيد لما فى الآيه الثالثة و الرابعه.

فقوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ثناء عليه على ملكه المنبسط على كل شىء بحيث له أن يتصرف فى كل شىء بما شاء و أراد.

وقوله: وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ تخصيص الحمد بالآخره لما أن الجملة الاولى تتضمن الحمد فى الدنيا فإن النظام المشهود فى السماوات و الأرض نظام دنيوى كما يشهد به قوله تعالى: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ (إبراهيم ٤٨).

وقوله: وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ختم الآيه بالاسمين الكريمين للدلاله على أن تصرفه فى نظام الدنيا ثم تعقيبه بنظام الآخره مبنى على الحكمة و الخبره فبحكمته عقب الدنيا بالآخره و إلا لغت الخلقه و بطلت و لم يتميز المحسن من المسىء كما قال: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ الْعَلِيمِ (ص ٢٨)، و بخبرته يحشرهم و لا يغادر منهم أحدا و يجزى كل نفس بما كسبت.

و الخبير من أسماء الله الحسنى مأخوذه من خبره و هى العلم بالجزئيات فهو أخص من العليم.

قوله تعالى: يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا الْوَلُوجُ مقابل الخروج و العروج مقابل النزول و كأن العلم بالولوج و الخروج و النزول و العروج كناية عن علمه بحركه كل متحرك و فعله و اختتام الآيه بقوله: «وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ» كأن فيه إشاره الى أن له رحمه ثابتة و مغفره ستصيب قوما

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ الْخَبِيرِ؛ يذكر إنكارهم لإتيان الساعة و هي يوم القيامة و هم ينكرونه مع ظهور عموم ملكه و علمه بكل شىء و لا مورد للارتباب فى إتيانها مع ذلك كما تقدم فضلا عن إنكار إتيانها و لذلك أمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن يجيب عن قولهم بقوله: «قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ» أى الساعة.

و لما كان السبب العمده فى إنكارهم هو اختلاط الأشياء و منها أبدان الأموات بعضها ببعض و تبدل صورها تبديلا بعد تبدل بحيث لا- خبر عن أعيانها فيمتنع إعادتها من دون تمييز بعضها من بعض أشار الى دفع ذلك بقوله: «عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ» أى لا يفوت «عن علمه مَثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ» .

و قوله: وَلَا أَضِغْرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ تعميم لعلمه لكل شىء و فيه مع ذلك إشاره الى أن للأشياء كائنه ما كانت ثبوتا فى كتاب مبین لا تتغير و لا تتبدل و إن زالت رسومها عن صفحه الكون و قد تقدم بعض الكلام فى الكتاب المبین فى سورة الأنعام و غيرها.

قوله تعالى: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ اللام فى «لِيَجْزِيَ» للتعليل و هو متعلق بقوله: «لَتَأْتِيَنَّكُمْ» و فى قوله: «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ» نوع محاذاه لقوله السابق: «وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغُفُورُ» .

و فى الآيه بيان أحد السببين لقيام الساعة و هو أن يجزى الله الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالمغفرة و الرزق الكريم و هو الجنة بما فيها و السبب الاخير ما يشير اليه قوله: «وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ» الخ.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ

أَلَيْمُ السَّعَى الْجَدُّ فِي الْمَشَى وَالْمَعَاظِرُ الْمَبَالِغَةُ فِي الْإِعْجَازِ وَقِيلَ: الْمَسَابِقَةُ وَالْكَلَامُ مَبْنِي عَلَى الْاسْتِعَارَةِ بِالْكُنْيَةِ كَأَنَّ الْآيَاتِ مَسَافَهُ يَسِيرُونَ فِيهَا سِيرًا حَثِيثًا لِيَعْجِزُوا اللَّهَ وَيَسْبِقُوهُ وَالرَّجْزُ كَالرَّجْسِ الْقَذْرُ وَلَعَلَّ الْمُرَادَ بِهِ الْعَمَلُ السَّيِّئُ فَيَكُونُ إِشَارَةً إِلَى تَبَدُّلِ الْعَمَلِ عَذَابًا أَلِيمًا عَلَيْهِمْ أَوْ سَبَابًا لِعَذَابِهِمْ، وَقِيلَ: الرَّجْزُ هُوَ سَيِّئُ الْعَذَابِ.

و فِي الْآيَةِ تَعْرِيفٌ لِلْكَفَّارِ الَّذِينَ يَصْرَوْنَ عَلَى انْكَارِ الْبَعْثِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ الْمَوْصُولُ الْأَوَّلُ فَاعِلٌ يَرَى وَالْمَوْصُولُ الثَّانِي مَفْعُولُهُ الْأَوَّلُ وَالْحَقُّ مَفْعُولُهُ الثَّانِي وَالْمُرَادُ بِالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الْعُلَمَاءُ بِاللَّهِ وَبِآيَاتِهِ، وَبِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْهِ الْقُرْآنُ النَّازِلُ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

و جَمَلُهُ «وَيَرَى» الْخ؛ اسْتِثْنَاءٌ مَتَعَرِّضٌ لِقَوْلِهِ السَّابِقِ: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا» أَوْ حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ كَفَرُوا، وَالْمَعْنَى: أَوْلَيْتُكَ يَقُولُونَ: لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ وَنَيْكُرُونَهَا جَهْلًا، وَالْعُلَمَاءُ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ يَرُونَ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ النَّازِلَ إِلَيْكَ الْمَخْبَرُ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ هِيَ الْحَقُّ.

و قَوْلُهُ: «وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ مَعْطُوفٌ عَلَى الْحَقِّ أَيْ وَيُرُونَ الْقُرْآنَ يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مِنْهُ هُوَ عَزِيزٌ لَا يَغْلِبُ عَلَى مَا يَرِيدُ مَحْمُودٌ يَتَنَبَّأُ عَلَى جَمِيعِ أَعْمَالِهِ لِأَنَّهُ لَا يَفْعَلُ مَعَ عِزَّتِهِ إِلَّا الْجَمِيلَ وَهُوَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ، وَفِي التَّوْصِيفِ بِالْعَزِيزِ الْحَمِيدِ مَقَابَلَةٌ لِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ فِي قَوْلِهِ: «الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ».

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبَيِّنُكُمْ إِذَا مَزَقْتُمْ كُلَّ مُمَزَقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» كَلَامٌ مِنْهُمْ وَارِدٌ مَوْجُودٌ فِي الْاسْتِهْزَاءِ يَعْرِفُونَ فِيهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ بِالْقَوْلِ بِالْمَعَادِ.

و التَّمْزِيقُ التَّقْطِيعُ وَالتَّفْرِيقُ، وَكَوْنُهُمْ فِي خَلْقٍ جَدِيدٍ اسْتِقْرَارُهُمْ فِيهِ أَيْ تَجْدِيدُ خَلْقَتِهِمْ بِأَحْيَائِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ وَوَجُودُهُمْ ثَانِيًا بَعْدَ عَدَمِهِمْ، وَقَوْلُهُ: «إِذَا مَزَقْتُمْ» ظَرْفٌ لِقَوْلِهِ: «إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ».

و المعنى: و قال الذين كفروا بعضهم لبعض على طريق الاستهزاء بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لإنذاره إياهم بالبعث و الجزاء: هل ندلكم على رجل و المراد به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ينبئكم و يخبركم أنكم ستستقرون فى خلق جديد و يتجدد لكم الوجود إذا فُزَّتْ أبدانكم كل التفريق و قطعت بحيث لا يتميز شىء منها من شىء.

قوله تعالى: أَفَتُرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ الْخ؛ الاستفهام للتعجب فإن القول ببعث الأجساد بعد فنائها عجيب عندهم لا يقول به عاقل إلا- لتلبس الأمر على الناس و إضلالهم لينال بعض ما عندهم و إلا فكيف يتلبس فيه الأمر على عاقل، و لهذا رددوا الأمر بين الافتراء و الجنه فى الاستفهام و المعنى: أ هو عاقل يكذب على الله افتراء عليه بالقول بالبعث أم به نوع جنون يتفوه بما بدا له من غير فكر مستقيم.

و قوله: يَلِ اللّٰذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَ الضَّلَالِ الْبَعِيدِ رد لقولهم و إضراب عن الترييد الذى أتوا به مستفهمين، و محصله أن ذلك ليس افتراء على الله و لا جنون فيه بل هؤلاء الكفار مستقرون فى عذاب سيظهر لهم و قد أبعدهم ذلك عن الحق فكانوا فى ضلال بعيد لا يسعهم مع ذلك أن يعقلوا الحق و يدعوا به.

و وضع الموصول موضع الضمير فى قوله: «بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ» للدلالة على أن عله وقوعهم فيما وقعوا فيه من العذاب و الضلال عدم إيمانهم بالآخرة.

قوله تعالى: أ فَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ نَسْأُ نَحْسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ الْخ؛ وعظ و إنذار لهم باستعظام ما اجترعوا عليه من تكذيب آيات الله و الاستهزاء برسوله فالمراد بقوله:

«مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ» إحاطه السماء و الأرض بهم من بين أيديهم و من خلفهم فأينما نظروا وجدوا سماء تظلمهم و أرضا تقلهم لا مفر لهم منهما.

و قوله: إِنَّ نَسْأُ نَحْسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ

أى إذ أحاط بهم الأرض و السماء و هما مدبرتان بتدبيرنا منقادتان مسخرتان لنا إن نشأ نخسف بهم الأرض فنهلكهم أو نسقط عليهم قطعه من السماء فنهلكهم فما لهم لا ينتهون عن هذه الأقاويل؟

و قوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ، أى فيما ذكر من إحاطه السماء و الأرض و كونهما مدبرتين لله سبحانه إن يشأ يخسف بهم الأرض أو يسقط عليهم كسفا من السماء لآيه لكل عبد منيب، راجع الى ربه بالطاعه، فهؤلاء لا يستهينون بهذه الامور و لا يجترءون على تكذيب هذه الآيات إلا لكونهم مستكبرين عاتين لا يريدون إنابه الى ربهم و رجوعا الى طاعته.

[سوره سبا (٣٤): الآيات ١٠ الى ٢١]

وَ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ وَ أَلْنَا لَهُ الْاَحْدِيدَ (١٠) أَنْ اِعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَ قَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَ اِعْمَلُوا صَالِحًا اِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَ رَوْاحُهَا شَهْرٌ وَ اَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَظْرِ وَ مِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِاِذْنِ رَبِّهِ وَ مَن يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ اَمْرِنَا نُنزِفُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مِمَّا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَ تَمَاثِيلَ وَ جِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَ قُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اِعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ سُكْرًا وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ اِلَّا دَابَّةُ الْاَرْضِ تَاكُلُ مِنْسَاتِهِ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ اَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْعَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَ شِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَ اَشْكُرُوا لَهُ بَلَدَهُ طَيِّبَةً وَ رَبُّ غَفُورٌ (١٥) فَاَعْرَضُوا فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ وَ بَدَّلْنَا هُمُ بَجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي اُكْحُلٍ خَمْطٍ وَ اَثَلٍ وَ شَيْءٌ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكُمْ جَزَاءُ هُمُ بِمَا كَفَرُوا وَ هَلْ نَجْزِي اِلَّا الْاَكْفُورَ (١٧) وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَ قَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرُوا فِيهَا لِيَالِي وَ اَيَّامًا اَمِينٍ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ اَسْفَارِنَا وَ ظَلَمُوا اَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَا هُمْ اَحَادِيثَ وَ مَرْفَأَهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ اِنَّ فِي ذَلِكَ لَلآيَاتِ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ اِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ اِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَ مَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ اِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَ رَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١)

بيان:

قوله تعالى: **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَآتَيْنَاهُ**

ص: ١٦٤

الْحَدِيدَ الْفَضْلَ الْعَطِيَّةَ وَ التَّأْوِيبَ التَّرْجِيعَ مِنَ الْأَوْبِ بِمَعْنَى الرَّجُوعِ وَ الْمُرَادُ بِهِ تَرْجِيعَ الصَّوْتِ بِالتَّسْيِيحِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ فِيهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: إِنَّا سَيَّخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْرَاقِ وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ (ص ١٩). وَ الطَّيْرَ مَعْطُوفٌ عَلَى مَحَلِّ الْجِبَالِ وَ مِنْهُ يَظْهَرُ فِسَادُ قَوْلِ بَعْضِهِمْ: أَنَّ الْأَوْبَ بِمَعْنَى السَّيْرِ وَ أَنَّ الْجِبَالَ كَانَتْ تَسِيرُ مَعَهُ حَيْثَمَا سَارَ.

وَ قَوْلُهُ: يَا جِبَالَ أَوْبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ بَيَانٌ لِلْفَضْلِ الَّذِي أُوتِيَ دَاوُدَ وَ قَدْ وَضَعَ فِيهِ الْخَطَابَ الَّذِي خَوَّطَتْ بِهِ الْجِبَالَ وَ الطَّيْرَ فَسَخَّرَتْهَا بِهِ مَوْضِعَ نَفْسِ التَّسْخِيرِ الَّذِي هُوَ الْعَطِيَّةُ وَ هُوَ مِنْ قَبِيلِ وَضَعِ السَّبَبِ مَوْضِعَ الْمَسَبِّبِ وَ الْمَعْنَى: سَخَّرْنَا الْجِبَالَ لَهُ تَأْوِيبَ مَعَهُ وَ الطَّيْرَ، وَ هَذَا هُوَ الْمَتَحَصَّلُ مِنْ تَسْخِيرِ الْجِبَالِ وَ الطَّيْرِ لَهُ كَمَا يَشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ: إِنَّا سَيَّخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْرَاقِ وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ (ص ١٩).

وَ قَوْلُهُ: وَ أَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ أَيَّ وَ جَعَلْنَاهُ لَنَا لَهُ عَلَى مَا بِهِ مِنَ الصَّلَابَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: أَنْ أَعْمَلُ سَابِغَاتٍ وَ قَدَّرُ فِي السَّرْدِ الْخ؛ السَابِغَاتُ جَمْعُ سَابِغَةٍ وَ هِيَ الدَّرْعُ الْوَاسِعَةُ، وَ السَّرْدُ نَسْجُ الدَّرْعِ، وَ تَقْدِيرُهُ الْاِقْتِصَادُ فِيهِ بِحَيْثُ تَتَنَاسَبُ حَلْقُهُ أَيَّ أَعْمَلُ دَرُوعًا وَاسِعَةً وَ اجْعَلْهَا مَتَنَاسِبَةَ الْحَلْقِ، وَ جَمَلُهُ «أَنْ أَعْمَلُ» الْخ؛ نَوْعٌ تَفْسِيرٌ لِإِلَانَةِ الْحَدِيدِ لَهُ.

وَ قَوْلُهُ: وَ أَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ مَعْنَى الْجَمَلَةِ فِي نَفْسِهَا ظَاهِرٌ وَ هِيَ لَوْقُوعُهَا فِي سِيَاقِ بَيَانِ إِتْيَاءِ الْفَضْلِ وَ عَدِّ النِّعَمِ تَفِيدُ مَعْنَى الْأَمْرِ بِالشُّكْرِ كَأَنَّهُ قِيلَ: وَ قَلْنَا اشْكُرِ النِّعَمَ أَنْتَ وَ قَوْمُكَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَ رَوَاحُهَا شَهْرٌ أَيَّ وَ سَخَّرْنَا لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ مَسِيرَ غَدُوِّ تِلْكَ الرِّيحِ - وَ هُوَ أَوَّلُ النَّهَارِ إِلَى الظُّهْرِ - مَسِيرَ شَهْرٍ وَ رَوَاحَ تِلْكَ الرِّيحِ - وَ هُوَ مِنَ الظُّهْرِ إِلَى آخِرِ النَّهَارِ - مَسِيرَ شَهْرٍ أَيَّ إِنَّهَا تَسِيرُ فِي يَوْمِ مَسِيرِ شَهْرَيْنِ.

وَ قَوْلُهُ: وَ أَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ الْإِسَالَةَ إِفْعَالٌ مِنَ السَّيْلَانِ بِمَعْنَى الْجَرِيَانِ وَ الْقَطْرِ

النحاس أى و أذنا له القطر فسالت كالعين الجارية.

قوله: وَمِنَ الْجِنَّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ، أى و جمع من الجن -بدليل قوله بعد «يَعْمَلُونَ لَهُ»- يعمل بين يديه بإذن ربه مسخرين له «وَمَنْ يَزِغْ» أى ينحرف «عَنْ أَمْرِنَا» و لم يطع سليمان «نُذِقُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ» ظاهر السياق أن المراد به عذاب النار فى الدنيا دون الآخرة، و فى لفظ الآيه دلالة على أن المسخر له كان بعض الجن لا جميعهم.

قوله تعالى: يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَ تَمَاثِيلَ وَ جِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَ قُدُورٍ رَاسِيَاتٍ الخ؛ المحارِب جمع محراب و هو مكان إقامة الصلاة و العباده، و التماثيل جمع تماثيل و هى الصوره المجسمه من الشىء و الجفان جمع جفنه و هى صحفه الطعام، و الجوابى جمع جابيه الحوض الذى يجبى أى يجمع فيه الماء، و القدور جمع قدر و هو ما يطبخ فيه الطعام، و الراسيات الثابتات و المراد بكون القدور راسيات كونها ثابتات فى أمكنتها لا يزلن عنها لعظمتها.

و قوله: إِعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا خطاب لسليمان و سائر من معه من آل داود أن يعملوا و يعبدوا الله شكرا له، و قوله: «وَ قَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ» أى الشاكر لله شكرا بعد شكر و الجملة إما فى مقام ترفيع مقام أهل الشكر بأن المتمكنين فى هذا المقام قليلون و هم الأوحيدون من الناس، و إما فى مقام التعليل كأنه قيل: إنهم قليل فكثروا عدتهم.

قوله تعالى: فَلَمَّا قَضَىٰ قِسْطَ ظُلْمِ جَعَلْنَا لِقِيسِ الْعِبَادِ وَالْإِنسَانِ عِلْمًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ الخ؛ المراد بدابه الأرض الأرضه على ما وردت به الروايات و المنسأه العصا و قوله: «فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْعَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ» الخروور السقوط على الأرض.

و يستفاد من السياق أنه عليه السلام لما قبض كان متكئا على عصاه فبقى على تلك الحال قائما

متكئا على عصاه زمانا لا يعلم بموته إنس و لا جن فبعث الله عز و جل أرضه فأخذت في أكل منسأته حتى إذا أكلت انكسرت العصا و سقط سليمان على الأرض فعلموا عند ذلك بموته و تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا بموت سليمان المستور عنهم و ما لبثوا هذا المقدار من الزمان -و هو من حين قبضه الى خروجه- فى العذاب المهين المذل لهم.

قوله تعالى: لَقَدْ كَانَ لِسَيِّئَةٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَ شِمَالٍ الخ؛ سبأ العرب العاربه باليمن سموا- كما قيل -باسم أبيهم سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، و قوله: «عَنْ يَمِينٍ وَ شِمَالٍ» أى عن يمين مسكنهم و شماله.

و قوله: كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ أمر بالأكل من جنتين و هو كناية عن رزقهم منهما، ثم بالشكر له على نعمته و رزقه، و قوله: «بَلْعَدَّةٍ طَيِّبَةٍ وَ رَبِّ غَفُورٍ» أى بلده ملائمه صالحه للمقام و رب كثير الغفران لا يؤاخذكم بسيئاتكم.

قوله تعالى: فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ وَ يَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَ أُثْلٍ وَ شَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ العرم المسنأه التى تحبس الماء، و قيل: المطر الشديد و قيل غير ذلك، و الاكل بضممتين كل ثمره مأكوله، و الخمط -على ما قيل- كل نبت أخذ طعما من المراره، و الأثل الطرفاء و قيل: شجر يشبهها أعظم منها لا ثمره له، و السدر معروف، و الأثل و شىء معطوف على «أُكُلٍ» لا على خمط.

و المعنى: فأعرضوا أى قوم سبأ عن الشكر الذى أمروا به فجازيناهم و أرسلنا عليهم سيل العرم فأغرق بلادهم و ذهب بجنتيهم و بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى ثمره مره و ذواتى طرفاء و شىء قليل من السدر.

قوله تعالى: ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَ هَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ «ذَٰلِكَ» إشارة الى ما ذكر من إرسال السيل و تبديل الجنتين و محله النصب مفعولا ثانيا لجزيانهم و الفرق بين الجزاء و المجازاه -كما قيل- أن المجازاه لا تستعمل إلا فى الشر و الجزاء أعم.

و المعنى: جزينا سبأ ذلك الجزاء بسبب كفرهم و إعراضهم عن الشكر- أو فى مقابله ذلك- و لا نجازى بالسوء إلا من كان كثير الكفران لأنعم الله.

قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً لِّلْخَبِثِ؛ ضمير «بَيْنَهُمْ» لسبأ و الكلام مسوق لبيان تتمه قصتهم المطلوب ذكرها و هو عطف على قوله: «كَانَ لِسَبَأٍ» و المراد بالقرى التى باركنا فيها القرى الشاميه، و المراد بكون القرى ظاهره كونها متقاربه يرى بعضها من بعض.

و قوله: وَ قَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ أى جعلنا السير فيها على نسبه مقدّره متناسبه غير مختلفه فالنسبه بين واحده منها و ما يليها كالنسبه بين ما يليها و ما يليه، و قوله: «سَيَّرُوا فِيهَا لِيَالِي وَ أَيَّاماً آمِنِينَ» على تقدير القول أى و قلنا: سيروا فى هذه القرى على أمن إن شئتم ليالى و إن شئتم أياما، و المراد قرّرنا فيها الأمن يسيرون فيها متى ما شاءوا من غير خوف و قلق.

قوله تعالى: فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ الْخَبِثِ؛ أى أنعمنا عليهم ما أنعمنا من وفور الفواكه و قرب المنازل و أمن الطرق و سهوله السير و رغد العيش فملوا ذلك و سئموه و قالوا: ربنا باعد بين أسفارنا أى اجعل أسفارنا ذوات مسافات بعيدة نركب فيها الرواحل و نقطع المفاوز و البوادي و هذا بغى منهم و كفران كما طلبت بنو إسرائيل الثوم و البصل مكان المن و السلوى.

و بالجملة أتم الله نعمه عليهم فى السفر بقرب المنازل و أمن الطرق و وفور النعمه كما أتم نعمه عليهم فى الحضر و أراد منهم الشكر على ذلك فكفروا بنعمه فى السفر كما كفروا بها فى الحضر، فأسرع الله فى إسعاف ما اقترحوه فخرّب بلادهم و فرّق جمعهم و شتت شملهم.

فقوله: فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا اقتراح ضمنى لتخريب بلادهم، و قوله:

«وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» أى بالمعاصى.

و قوله: فَجَعَلْنَا لَهُمْ أَحَادِيثَ وَ مَزَفَّنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ أى أزلنا أعيانهم

و آثارهم فلم يبق منهم إلا أحاديث يحدث بها فيما يحدث فعادوا أسماء لا مسمى لهم إلا فى وهم المتوهم و خيال المتخيل و فرّقاهم كل تفرق فلم يبق من أجزاء وجودهم جزءان مجتمعان إلا فرّقنا بينهما فصاروا كسدى لا شبح له بعد ما كانوا مجتمعاً ذا قوه و شوكة حتى ضرب بهم المثل «تفرقوا أيادى سباً».

و قوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أى فى هذا الذى ذكر من قصتهم آيات لكل من كثر صبره فى جنب الله و كثر شكره لنعمه التى لا تحصى يستدل بتلك الآيات على أن على الإنسان أن يعبد ربه شكراً لنعمه و أن وراءه يوماً يبعث فيه و يجزى بعمله.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ أى حقق إبليس عليهم ظنه أو وجد ظنه صادقاً عليهم إذ قال لربه: «لَأُغْوِيَنَّهُمْ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ» «وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ»، و قوله: «فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ» بيان لتصديقه ظنه.

و منه يظهر أن ضمير الجمع فى «عَلَيْهِمْ» هاهنا و كذا فى الآيه التالیه لعامه الناس لا لسباً خاصه و إن كانت الآيه منطبقه عليهم.

قوله تعالى: وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ظاهر السياق أن المراد أنهم لم يتبعوه عن سلطان له عليهم يضطروهم الى اتباعه حتى يكونوا معذورين بل إنما اتبعوه عن سوء اختيارهم فهم يختارون اتباعه فيتسلط عليهم لا أنه يتسلط فيتبعونه، قال تعالى: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (الحجر ٤٢)، و قال حاكياً عن إبليس يوم القيامة: وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْمُونِي وَ لَوْمُوا أَنفُسَكُمْ (إبراهيم/ ٢٢).

و منشأ اتباعهم له ريب و شك في قلوبهم من الآخرة يظهر منهم بظهور أثره الذي هو الاتباع لإبليس، فإذنه سبحانه لإبليس أن يتسلط عليهم من طريق اختيارهم هذا المقدار من التسلط ليمتاز به أهل الشك في الآخرة من أهل الإيمان به و لا يرفع ذلك مسئوليتهم في اتباعه لكونه عن اختيار منهم.

فقوله: وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ نَفِي لِكُلِّ سُلْطَانٍ، وقوله: «إِلَّا- لِنَعْلَمَ» أى لنميز «مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ» استثناء لسلطانه عليهم من طريق اتباعهم له عن اختيار منهم، وقد وضع فيه الغايه موضع ذى الغايه أى التمييز المذكور موضع التسلط من طريق الاتباع الاختيارى.

و تقييد الإيمان و الشك بالآخرة فى الآيه لمكان أن الرادع الوحيد عن المعصيه و الداعى الى الطاعه هو الإيمان بالآخرة دون الإيمان بالله و رسوله لو لا- الآخرة كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَصِفُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (ص ٢٦).

وقوله: وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ أى عالم علما لا يفوته المعلوم بنسيان أو سهو أو غير ذلك و فيه تحذير عن الكفران و المعصيه و إنذار لأهل الكفر و المعصيه (١).

[سوره سبا (٣٤): الآيات ٢٢ الى ٣٠]

قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسِئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠)

ص: ١٧٠

١- ١). سبا ١٠-٢١: بحث روائى فى قصه داود عليه السلام و سليمان عليه السلام؛ قبض روح سليمان عليه السلام؛ سبا.

قوله تعالى: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ إِلَىٰ آخِرِ آيَةٍ؛ أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَحْتَجَّ عَلَىٰ إِبْطَالِ أُلُوهِيهِ آلِهَتِهِمْ بِعَدَمِ قُدْرَتِهِمْ عَلَىٰ اسْتِجَابَةِ الدُّعَاءِ، فَقَوْلُهُ: «قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ» أَيِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمُوهُمِ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ - فَمَفْعُولًا «زَعَمْتُمْ» مَحذُوفًا لِدَلَالِهِ السِّيَاقَ عَلَيْهِمَا - وَدَعَاؤُهُمْ هُوَ مَسْأَلَتُهُمْ شَيْئًا مِنَ الْحَوَائِجِ.

وقوله: لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ وَاقِعَ مَوْجِعِ الْجَوَابِ كَأَنَّهُ قِيلَ: فَمَاذَا يَكُونُ إِذَا دَعَوْهُمْ؟ فِقِيلَ: لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ لِأَنَّهِمْ «لَا يَمْلِكُونَ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ» و لو ملكوا لاستجابوا، و لا تتم الربوبية و الالهيه إلا بأن يملك الرب و الإله شيئا مما يحتاج اليه الانسان فيملكه له و ينعم عليه به فيستحق بإزائه العباده شكرا له فيعبد، أما إذا لم يملك شيئا فلا يكون ربا و لا إلها.

و قوله: «وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ كَانَ الْمَلِكُ الْمُنْفَى فِي الْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ «لَا يَمْلِكُونَ» الخ؛ الملك المطلق المنبسط على الجميع و المنفى في هذه الجملة الملك المحدود المتبعض الذي ينسط على البعض دون الكل إما مشاعا أو مفروزا، لكن المشركين ما كانوا يقولون بالملك المشترك بينهم و بين الله سبحانه مشاعا بل كانوا يقولون بملك كل من آلهتهم نوع من الخلقه أو بعض منها، و أما الله سبحانه فهو رب الأرباب و إله الآلهه.

و على هذا كان من الواجب أن يستجيب آلهتهم إذا دعوا فيما يملكونه من الخلقه و عدم استجابتهم كاشف عن عدم ربوبيتهم و ألوهيتهم.

و قوله: «وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ أَيْ لَيْسَ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ مِنْهُمْ كَلَا أَوْ بَعْضًا مِنْ مَعِينٍ يَعْنِيهِ فِيمَا يَفْرَضُ فِيهِ عَجْزُهُ عَنِ الْقِيَامِ بِأَمْرِ تَدْبِيرِهِ إِذْ لَوْ كَانَ لَهُ مِنْهُمْ ظَهِيرٌ يَظْهَرُهُ عَلَى التَّدْبِيرِ كَانَ مَالِكًا فَيَسْتَجِيبُ إِذَا دُعِيَ فِيمَا هُوَ ظَهِيرٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ وَ إِذْ لَيْسَ فَلَيسَ.

فتبين مما تقدم أن احتجاج الآيه على نفى الملك بانتفاء استجابتهم دعاء الداعي يجرى في جميع الصور الثلاث و هي ملكهم لما في السماوات و ما في الأرض مطلقا و ملكهم على وجه الشركه مع الله سبحانه و كونهم أو بعضهم ظهيرا لله سبحانه.

قوله تعالى: «وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الْمَشْرُكُونَ كَانُوا يَقُولُونَ بِشَفَاعَةِ آلِهِمْ كَمَا حَكَاهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ (يونس ١٨/١)، و ليس مرادهم بالشفاعه شفاعه يوم القيامه التي يشتها القرآن الكريم فإنهم ما كانوا يقولون بالمعاد بل الشفاعه في الدنيا لعبادهم عند الله سبحانه ليسعدهم بقضاء حوائجهم و إصلاح شؤونهم بتوسط آلهتهم.

و إذ كانت الآلهة مخلوقين لله مملوكين له من وكل وجه فلا يملكون الشفاعة من عند أنفسهم مستقلين بها إلا أن يملكهم الله سبحانه ذلك و هو الإذن لهم في أن يشفعوا فأصل شفاعتهم لو شفَعُوا بِأذنِ اللَّهِ سبحانه.

□ وقوله: **إِلَّا لِمَنْ أذنَ لَهُ** يحتمل أن يكون اللام في «**لِمَنْ**» لام الملك و المراد بمن أذن له الشافع من الملائكة، والمعنى: لا تنفع الشفاعة إلا أن يملكه الشافع بالإذن من الله و أن يكون لام التعليل و المراد بمن أذن له المشفوع له، والمعنى: لا تنفع الشافع إلا لأجل من أذن له من المشفوع لهم، قال في الكشاف: و هذا يعنى الوجه الثانى وجه لطيف و هو الوجه. انتهى.

□ و هو الوجه فإن الملائكة على ما يستفاد من كلامه تعالى وسائط لإنفاذ الأمر الإلهي و إجرائه، قال تعالى: **لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** (الأنبياء ٢٧)، و قال:

□ **جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنِحَةٍ** (فاطر ١)، و الوساطة المذكورة من الشفاعة كما تقدم في مباحث الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب.

□ فالملائكة جميعا شفعاء لكن لا في كل أمر و لكل أحد بل في أمر أذن الله فيه و لمن أذن له فنفي شفاعتهم إلا مع الإذن يناسب المشفوع لهم دون الشفعاء، فالآية في معنى قوله: **وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ** (الأنبياء ٢٨)، لا في معنى قوله: **مَنْ شَفَعَ إِلَيْنَا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ** (يونس ٣).

□ قوله تعالى: **حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** التنزيح إزاله الفزع و كشفه و ضمائر الجمع -على ما يعطيه السياق- للشفعاء و هم الملائكة.

□ و لازم قوله: **حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ** -و هو غايه- أن يكون هناك أمر مغيب بها و هو كون قلوبهم في فزع ممتد في انتظار أمر الله سبحانه حتى يرتفع بصدور الأمر منه، فالآية في معنى قوله تعالى: **وَ لِلَّهِ يَسْتَجِذُّ** -الى أن قال- **وَ الْمَلَائِكَةُ وَ هُمْ لَا يَشْفَعُونَ** **يَخَافُونَ**

رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (النحل ٥٠)، فالفرع هو التأثر و الانقباض من الخوف هو المراد بسجدتهم تذللًا من خوف ربهم من فوقهم.

و بذلك يظهر أن المراد بفرعهم حتى يفرع عنهم أن التذلل غشى قلوبهم و هو تذللهم من حيث أنهم أسباب و شفعاء في نفوذ الأوامر الإلهية و وقوعه على ما صدر و كما أريد، و كشف هذا التذلل هو تلقّيهم الأمر الإلهي و اشتغالهم بالعمل كأنهم بحيث لا يظهر من وجودهم إلا فعلهم و طاعتهم لله فيما أمرهم به و أنه لا واسطه بين الله سبحانه و بين الفعل إلا أمره فافهم ذلك.

و إنما نسب الفرع و التفريع الى قلوبهم للدلالة على أنهم ذاهلون منصرفون عن أنفسهم و عن كل شيء إلا ربهم و هم على هذه الحالة لا يشعرون بشيء غيره حتى إذا كشف الفرع عن قلوبهم عند صدور الأمر الإلهي بلا مهل و لا تخلف فليس الأمر بحيث يعطل أو يتأخر عن الوقوع، قال تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس ٨٢)، فالمستفاد من الآية نظرا الى هذا المعنى أنهم في فرع حتى إذا أزيل فرعهم بصدور الأمر الإلهي.

و قوله: قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ طَوَائِفٌ كَثِيرُونَ يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَنِ الْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ بَعْدَ صَدُورِهِ وَ انْكَشَافِ الْفَرْعِ عَنِ الْقُلُوبِ السَّائِلِينَ.

و يتبين منه أن كشف الفرع و نزول الأمر الى بعضهم أسبق منه الى بعض آخر فإن لازم السؤال أن يكون المسئول عالما بما سئل عنه قبل السائل.

فلم مراتب مختلفه و مقامات متفاوتة بعضها فوق بعض تتلقى الدانية منها الأمر الإلهي من العالیه من غير تخلف و لا مهله و هو طاعه الداني منهم للعالی، كما يستفاد ذلك أيضا بالتدبر في قوله: وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (الصفات ١٦٤)، و قوله في وصف الروح الأمين:

ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ (التكوير ٢١).

قوله تعالى: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ الْخَبِيرُ

احتجاج آخر على المشركين من جهة الرزق الذى هو الملاك العمده فى اتخاذهم الآلهه فإنهم يتعللون فى عبادتهم الآلهه بأنها ترضيهم فيوسعون لهم فى رزقهم فيسعدون بذلك.

فأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَسْأَلَهُمْ مَنْ يَرْزُقُهُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ وَالْجَوَابُ عَنْهُ أَنَّهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِأَنَّ الرِّزْقَ خَلَقَ فِي نَفْسِهِ وَلاَ خَالِقَ -حَتَّى عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ- إِلاَّ -اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ- لِكُنْهَمُ يَسْتَنْكِفُونَ عَنِ الْإِعْتِرَافِ بِهِ بِالْإِسْنَتِهِمْ وَإِنْ أَدْعَتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ وَكَذَلِكَ أَمَرَ أَنْ يَنْوَبَهُمْ فِي الْجَوَابِ فَقَالَ: «قُلِ اللَّهُ» .

وقوله: **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**، تتمه قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَهَذَا الْقَوْلُ بَعْدَ إِقَاءِ الْحِجَّةِ الْقَاطِعَةِ وَوَضُوحِ الْحَقِّ فِي مَسْأَلَةِ الْإِلَهِيَّةِ مَبْنَى عَلَى سُلُوكِ طَرِيقِ الْإِنصَافِ، وَمَفَادُهُ أَنَّ كُلَّ قَوْلٍ إِمَّا هُدًى أَوْ ضَلَالٌ لا ثَالِثَ لِهَمَا نَفِيًا وَإِثْبَاتًا وَنَحْنُ وَأَنْتُمْ عَلَى قَوْلَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ لا يَجْتَمِعَانِ فِيمَا أَنَّ نَكُونَ نَحْنُ عَلَى هُدًى وَأَنْتُمْ فِي ضَلَالٍ وَإِمَّا أَنْ تَكُونُوا أَنْتُمْ عَلَى هُدًى وَنَحْنُ فِي ضَلَالٍ فَانظُرُوا بَعِينَ الْإِنصَافِ إِلَى مَا أَلْقَى إِلَيْكُمْ مِنَ الْحِجَّةِ وَمِيزُوا الْمَهْدَى مِنَ الضَّالِّ وَالْمَحْقُ مِنَ الْمَبْطَلِ.

وَإِخْتِلَافِ التَّعْبِيرِ فِي قَوْلِهِ «لَعَلَىٰ هُدًىٰ» وَ«فِي ضَلَالٍ» بِلَفْظِهِ عَلَى وَفِي -كَمَا قِيلَ- لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ الْمَهْتَدَى كَأَنَّهُ مُسْتَعْلٍ عَلَى مَنَارٍ يَتَطَّلَعُ عَلَى السَّبِيلِ وَغَايَتِهَا الَّتِي فِيهَا سَعَادَتُهُ، وَالضَّالُّ مُنْغَمَّرٌ فِي ظِلْمِهِ لا يَدْرِي أَيْنَ يَضَعُ قَدَمَهُ وَإِلَى أَيْنَ يَسِيرُ وَمَاذَا يَرَادُ بِهِ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: **قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ** أَيْ إِنْ الْعَمَلُ وَخَاصَّهُ عَمَلُ الشَّرِّ لا يَتَعَدَى عَنِ عَامِلِهِ وَلا يَلْحَقُ وَبِالهِ إِلاَّ بِهِ فَلا يَسْأَلُ عَنْهُ غَيْرُهُ فَلا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا بَلْ نَحْنُ الْمُسْئَلُونَ عَنْهُ وَلا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ بَلْ أَنْتُمْ الْمُسْئَلُونَ.

وَهَذَا تَمْهِيدٌ لِمَا فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ مِنْ حَدِيثِ الْجَمْعِ وَالْفَتْحِ فَإِنَّ الطَّائِفَتَيْنِ إِذَا اِخْتَلَفَا فِي الْأَعْمَالِ خَيْرًا وَشَرًّا كَانَ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ يَفْتَحَ بَيْنَهُمَا وَيَتَمَيَّزُ كُلٌّ مِنَ الْآخَرِ حَتَّى يَلْحَقَ بِهِ جِزَاءُ عَمَلِهِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ أَوْ سَعَادَةٍ أَوْ شِقَاءٍ وَالَّذِي يَفْتَحُ وَيَمَيَّزُ هُوَ الرَّبُّ تَعَالَى.

و فى التعبير عن عمل أنفسهم بالإجرام و فى ناحيه المشركين بقوله: «تَعْمَلُونَ» و لم يقل تجرمون أخذ بحسن الأدب فى المناظره.

قوله تعالى: قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَ هُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ لما كان من الواجب أن يلحق بكل من المحسن و المسىء جزاء عمله و كان لازمه التمييز بينهما بالجمع ثم الفرق كان ذلك شأن مدبر الأمر و هو الرب أمر نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن يذكرهم أن الذى يجمع بين الجميع ثم يفتح بينهم بالحق هو الله، فهو رب هؤلاء و أولئك فإنه هو الفاتح العليم يفتح بين كل شيئين بالخلق و التدبير فيتميز بذلك الشىء من الشىء كما قال: أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا (الأنبياء ٣٠)، و هو العليم بكل شىء.

فالآيه تثبت البعث لتمييز المحسن من المسىء أولاً- ثم انحصار التمييز و الجزاء فى جانبه تعالى بانحصار الربوبيه فيه و يبطل بذلك ربوبيه من اتخذه من الأرباب.

و الفتح من أسماء الله الحسنى و الفتح إيجاد الفصل بين شيئين لفائده تترتب عليه كفتح الباب للدخول بإيجاد الفصل بين مصراعيه و الفتح بين الشيئين لتمييز كل منهما عن الآخر بذاته و صفاته و أفعاله.

قوله تعالى: قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا- يَلُ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أمر آخر للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يسألهم أن يروه آلهتهم حتى يختبر هل فيهم الصفات الضرورية للإله المستحق للعباده من الاستقلال بالحياه و العلم و القدره و السمع و البصر؟ و هذا معنى قوله: «أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ» أى ألحقتموهم به شركاء له.

ثم ردع بنفسه و قال: كلاً لا يكونون شركاء له لأنهم إما أن يروه الأصنام بما أنها معبوده لهم معدوده آلهتهم و هى أجسام ميتة خاليه عن الحياه و العلم و القدره و إما أن يروه أرباب هذه الأصنام و هم الملائكه و غيرهم يجعل الأصنام تماثيل مشيره اليهم و هم و إن لم يخلوا عن حياه و علم و قدره إلا أن ما لهم من صفات الكمال مفاضه عليهم من الله سبحانه لا استقلال لهم فى

شئ من هذه الصفات و لا فى الأفعال المتفرعه عليها فأين الاستقلال فى التدبير الذى يدعون أنه مفوض اليهم؟ فالوجود الواجبي بكماله اللامتناهي يمنع أن يكون فى خلقه من يشاركه فى شئ من كماله.

اللهم إلا أن يدعوا أنه شاركهم فى بعض ما له من الشئون لتدبير خلقه من غير صلاحيه لهم ذاتيه و هذا ينافى حكمته تعالى.

و قد أشير الى هذه الحججه بقوله: «بل هو الله العزيز الحكيم» فإن عزته تعالى -و هو منع جانبه أن يعدو الى حريم كماله عاد لكونه لا- يحد بحد-تمنع أن يشاركه فى شئ من صفات كماله كالربوبيه و الالوهيه المنتهيتين الى الذات أحد غيره هذا لو كانت الشركه عن صلاحيه ذاتيه من الشريك و لو كانت عن إرادته جزافيه منه من غير صلاحيه حقيقه من الشريك فالحكمه الإلهيه تمنع ذلك.

و قد تبين بذلك أن الآيه متضمنه لحججه قاطعه برهانیه فأحسن التدبر فيها.

قوله تعالى: و ما أرسلناك إلا- كافه للناس بشيرا و نذيرا و لكن أكثر الناس لا يعلمون قال الراغب فى المفردات: الكف كف الإنسان و هى ما بها يقبض و يبسط و كفته أصبت كفه، و كفته أصبته بالكف و دفعته بها و تعورف الكف بالدفع على أى وجه كان بالكف كان أو غيرها حتى قيل: رجل مكفوف لمن قبض بصره، و قوله: و ما أرسلناك إلا كافه للناس أى كافا لهم عن المعاصى و الهاء فيه للمبالغه كقولهم: راويه و علامه و نسابه.

انتهى.

و يؤيد هذا المعنى توصيفه صلى الله عليه و آله و سلم بالبشير و النذير، فقوله: «بشيرا و نذيرا» حالان يبينان صفته لقوله: «كافه للناس» .

و اعلم أن منطوق الآيه و إن كان راجعا الى النبوه و فيها انتقال من الكلام فى التوحيد الى الكلام فى النبوه على حد الآيات التاليه، لكن فى مدلولها حججه أخرى على التوحيد و ذلك أن

الرساله من لوازم الربوبيه التي شأنها تدبير الناس في طريق سعادتهم و مسيرهم الى غايات وجودهم فعموم رسالته صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم و هو رسول الله تعالى لا رسول غيره دليل على أن الربوبيه منحصره في الله سبحانه فلو كان هناك رب غيره لجاؤهم رسوله و لم يعم رساله النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم أو عمتهم و احتاجوا معه الى غيره، وهذا معنى قول علي عليه السلام- على ما روى- لو كان لربك شريك لأتتك رسله.

و يؤيده ما في ذيل الآيه من قوله: «و لكن أكثر الناس لا يعلمون» فإن داله انحصار الرساله في رسل الله على انحصار الربوبيه في الله عز اسمه أمس بجهل الناس من كونه صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم رسولا كافا لهم عن المعاصي بشيرا و نذيرا.

فمفاد الآيه على هذا: لا يمكنهم أن يروك شريكا له و الحال أنا لم نرسلك إلا كافا لجميع الناس بشيرا و نذيرا و لو كان لهم إله غيرنا لم يسع لنا أن نرسلك اليهم و هم عباد لإله آخر و الله أعلم.

قوله تعالى: و يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين سؤال عن وقت الجمع و الفتح و هو البعث فالآيه متصله بقوله السابق: «قل يجمع بيننا ربنا» الآيه؛ و هذا أيضا من شواهد ما قدمنا من المعنى لقوله: «و ما أرسلناك إلا كافه» و إلا كانت هذه الآيه و التي بعدها متخلتين بين قوله: «و ما أرسلناك» الآيه؛ و الآيات التاليه المتعرضه لمسأله النبوه.

قوله تعالى: قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعه و لا تستقدمون أمر منه تعالى أن يجيبهم بأن لهم ميعاد يوم مقضى محتوم لا يتخلف عن الوقوع فهو واقع قطعا و لا يختلف وقت وقوعه البتة أى إن الله وعد به وعدا لا يخلفه إلا أن وقت وقوعه مستور لا يعلمه إلا الله سبحانه.

[سوره سبا (٣٤): الآيات ٣١ الى ٥٤]

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَ لَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أ نَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَ اسِيرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَ جَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) وَ مَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَ قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَ أَوْلَادًا وَ مَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَ مَا أَمْوَالُكُمْ وَ لَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ أَضْعَفُ بِمَا عَمِلُوا وَ هُمْ فِي الْعُرْفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ وَ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أ هَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَ لِيُنَّا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَ لَا ضَرًّا وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) وَ إِذَا تَنَلَّيْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرَىٰ وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٣) وَ مَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَ مَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ مَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ

فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدِهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشِيًّا وَفُرَادِيًّا ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَاقِمَ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ لَإِذَا جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِيهِ أَلْبَاطِلٌ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠) وَ لَوْ تَرَىٰ إِذِ فَرَغُوا فَلَافُونَ وَأُخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (٥٤)

قوله تعالى: وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه المراد بالذين كفروا المشركون والمراد بالذى بين يديه الكتب السماويه من التوراه والإنجيل وذلك أن المشركين وهم الوثنيون ليسوا قائلين بالنبوه ويتبعها الكتاب السماوى.

قوله تعالى: و لو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم الخ؛ الظاهر أن اللام فى «الظالمون» للعهد، وهذه الآية و الآيتان بعدها تشير الى أن وبال هذا الكفر-و أساسه ضلال أئمه الكفر و إضلالهم تابعيهم-سيلحق بهم و سيندمون عليه و لن ينفعهم الندم.

فقوله: «و لو ترى» خطاب النبى صلى الله عليه و آله و سلم إذ هم بمعزل عن فهم الخطاب «إذ الظالمون» و هم الكافرون بكتب الله و رسله،الذين ظلموا أنفسهم بالكفر «موقوفون عند ربهم» للحساب

و الجزءاء يوم القيامه «يرجع بعضهم الى بعض القول» أى يتحاوورون و يتراجعون فى الكلام متخاصمين «يقول الذين استضعفوا» بيان لرجوع بعضهم الى بعض فى القول و المستضعفون الأتباع الذين استضعفتهم المتبوعون «للذين استكبروا» و هم الأئمه القاده «لو لا أنتم لكنا مؤمنين» يريدون أنكم أجبرتمونا على الكفر و حلتهم بيننا و بين الإيمان.

«قال الذين استكبروا للذين استضعفوا» جوابا عن قولهم و ردًا لما اتهموهم به من الإيجار و الإكراه «أ نحن صددناكم» الاستفهام للانكار أى أ نحن صرفناكم «عن الهدى بعد إذ جاءكم» فبلوغه اليكم بالدعوه النبويه أقوى الدليل على أننا لم نحل بينه و بينكم و كتم مختارين فى الإيمان به و الكفر «بل كنتم مجرمين» متلبسين بالإجرام مستمرين عليه فأجرتم بالکفر به لما جاءكم من غير أن نجبركم عليه فكفركم منكم و نحن براء منه.

«و قال الذين استضعفوا للذين استكبروا» ردًا لقولهم و دعواهم البراءه «بل مكر الليل و النهار» أى مكركم بالليل و النهار حملنا على الكفر «إذ تأمرونا أن نكفر بالله و نجعل له أندادا» و أمثالا من الآلهه أى إنكم لم تزالوا فى الدنيا تمكرون الليل و النهار و تخطون الخطط لتستضعفونا و تتأمرؤا علينا فتحملونا على طاعتكم فيما تريدون، فلم نشعر إلا و نحن مضطرون على الائتمار بأمركم إذ تأمرونا بالكفر و الشكر.

«و أسروا» و أخفوا «الندامه لما رأوا العذاب» و شاهدوا أن لا مناص، و إخفاؤهم الندامه يوم القيامه-و هو يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء-نظير كذبهم على الله و إنكارهم الشرك بالله و حلفهم لله كان بين كل ذلك من قبيل ظهور ملكاتهم الرذيله التى رسخت فى نفوسهم فقد كانوا يسرّون الندامه فى الدنيا خوفا من شماته الأعداء و كذلك يفعلون يوم القيامه مع ظهور ما أسروا و اليوم يوم تبلى السرائر كما يكذبون بمقتضى ملكه الكذب مع ظهور أنهم كاذبون فى قولهم.

ثم ذكر سبحانه أخذهم للعذاب فقال: «و جعلنا الأغلال» السلاسل «فى أعناق الذين

كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون» فصارت أعمالهم أغلالا فى أعناقهم تحبسهم فى العذاب.

قوله تعالى: و ما أرسلنا فى قريه من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون المترفون اسم مفعول من الإتراف و هو الزيادة فى التنعيم، و فيه إشعار بأن الإتراف يفضى الى الاستكبار على الحق كما تفيد الآيه اللاحقه.

قوله تعالى: و قالوا نحن أكثر أموالا و أولادا و ما نحن بمعذبين ضمير الجمع للمترفين، و من شأن الإتراف و الترفه و التقلب فى نعم الدنيا أن يتعلق قلب الانسان بها و يستعظمها فيرى السعاده فيها سواء وافق الحق أم خالفه فلا يذكر إلا ظاهر الحياه و ينسى ما وراءه.

و لذا حكى سبحانه عنهم ذلك إذ قالوا: «نحن أكثر أموالا و أولادا» فلا سعاده إلا فيها و لا شقوه معها «و ما نحن بمعذبين» فى آخره، و لم ينفوا العذاب إلا للغفله و الانصراف عما وراء كثرة الأموال و الأولاد فإذا كانت هى السعاده و الفلاح فحسب فالعذاب فى فقدها و لا عذاب معها.

و هاهنا وجه آخر و هو أنهم لغرورهم بما رزقوا به من المال و الولد ظنوا أن لهم كرامه على الله سبحانه و هم على كرامتهم عليهم ما داموا، و المعنى: أننا ذوو كرامه على الله بما أوتينا من كثرة الأموال و الأولاد و نحن على كرامتنا فما نحن بمعذبين لو كان هناك عذاب.

فتكون الآيه فى معنى قوله: و لئن أذقناه رحمه منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى و ما أظن الساعه قائمه و لئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى (حم السجده ٥٠).

قوله تعالى: قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر و لكن أكثر الناس لا يعلمون الآيه و ما يتلوها الى تمام أربع آيات جواب عن قولهم: «نحن أكثر أموالا» الخ؛ و قد أجيب عنه بوجهين أحدهما أن أمر الرزق من الأموال و الأولاد سعه و ضيقا بيد الله

على ما تستدعيه الحكمة و المصلحه و هيا من الأسباب لا بمشيه الإنسان و لا لكرامه له على الله فربما بسط في رزق مؤمن أو كافر أو عاقل ذى حزم أو أحمق خفيف العقل، و ربما بسط على واحد ثم قدر له. فلا دلالة في الإتراف على سعادته أو كرامته.

و هذا معنى قوله: «قل إن ربي» نسبة الى نفسه لأنهم لم يكونوا يرون الله ربا لأنفسهم و الرزق من شئون الربوبية «يسط» أى يوسع «الرزق لمن يشاء» من عبادته بحسب الحكمة و المصلحه «و يقدر» أى يضيق «و لكن أكثر الناس لا يعلمون» فينسبون ما لم يؤتوه الى الأسباب الظاهرية الاتفاقيه ثم إذا أوتوه نسبه الى حزمهم و حسن تدبيرهم أنفسهم و كفى به دليلا على الحق.

قوله تعالى: و ما أموالكم و لا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى الى آخر الآيتين؛ هذا هو الجواب الثانى عن قولهم: «نحن أكثر أموالا و أولادا و ما نحن بمعدين» و محصله أن انتفاء العذاب المترتب على القرب من الله لا يترتب على الأموال و الأولاد إذ لا توجب الأموال و الأولاد قربا و زلفى من الله حتى ينتفى معها العذاب الإلهى فوضع تقرب المال فى الآيه موضع انتفاء العذاب من قبيل وضع السبب موضع السبب.

و هذا معنى قوله: و ما أموالكم و لا- أولادكم التي تعتمدون عليها فى السعاده و انتفاء عذاب الله «بالتى» أى بالجماعه التي «تقربكم عندنا زلفى» أى تقريبا.

«إلا- من آمن و عمل صالحا» فى ماله و ولده بأن أنفق من أمواله فى سبيل الله و بثّ الإيمان و العمل الصالح فى أولاده بتربيته دينيه «فاولئك لهم جزاء الضعف» لعله من إضافه الموصوف الى الصفه أى الجزاء المضاعف من جهه أنهم اهتموا و هدوا و أيضا من جهه تضعيف الحسنات الى عشر أضعافها و زياده «و هم فى الغرفات» أى فى القباب العالیه «آمنون» من العذاب فما هم بمعدين.

«و الذين يسعون فى آياتنا معاجزين -أى يجدون فى آياتنا و هم يريدون أن يعجزونا أو ان

يسبقونا- أولئك في العذاب محضرون» و إن كثرت أموالهم أولادهم.

و فى قوله: و ما أموالكم و لا أولادكم الخ؛انتقال الى خطاب عامه الناس من الكفار و غيرهم و الوجه فيه أن ما ذكره من الحكم حكم الأموال و الأولاد سواء فى ذلك المؤمن و الكافر فالمال و الولد إنما يؤثران أثرهما الجميل إذا كان هناك إيمان و عمل صالح فيهما و إلا فلا يزيدان إلا وبالا.

قوله تعالى: قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر له و ما أنفقتم من شىء فهو يخلفه و هو خير الرازقين قال فى مجمع البيان: يقال: أخلف الله له و عليه إذا أبدل له ما ذهب عنه. انتهى.

سياق الآية يدل على أن المراد بالإنفاق فيها الإنفاق فى وجه البر و المراد بيان أن هذا النحو من الإنفاق لا يضيع عند الله بل يخلفه و يرزق بدله.

فقوله فى صدر الآية: «قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر» للإشارة الى أن أمر الرزق فى سعته و ضيقه الى الله سبحانه لا ينقص بالإنفاق و لا- يزيد بالإمساك ثم قال: «و ما أنفقتم من شىء» قليلا- كان أو كثيرا و أيا ما كان من المال «فهو يخلفه» و يرزقكم بدله إما فى الدنيا و إما فى الآخرة «و هو خير الرازقين» فإنه يرزق جودا و رزق غيره معامله فى الحقيقة و معاوضه، و لأنه الرازق فى الحقيقة و غيره ممن يسمى رازقا واسطه لوصول الرزق.

قوله تعالى: و يوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون المراد بهم جميعا بشهادة السياق العابدون و المعبدون جميعا.

و قوله: ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ليس سؤال استخبار عن أصل عبادتهم لهم و لو كان كذلك لم يسعهم إنكارها لأنهم عبدوهم فى الدنيا و قد أنكروها كما فى الآية بل المراد السؤال عن رضاهم بعبادتهم على حد قوله تعالى لعيسى بن مريم: «أنت قلت للناس اتخذونى و أمى إلهين من دون الله» .

و الغرض من السؤال تبييت المشركين و إقناطهم من نصره الملائكه و شفاعتهم لهم و قد عبدوهم فى الدنيا لذلك.

قوله تعالى: قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون أخذت الملائكة فى جوابهم عن سؤاله تعالى بجوامع الأدب فنزهوه سبحانه أولا تنزيها مطلقا فيه تنزيهه من أن يعبدوا من دونه ثم نفوا رضاهم بعباده المشركين لهم لكن لا- بالتصريح بنفى الرضا بالعباده و لا- بالتفوّه بعبادتهم صونا لساحه المخاطبه عما يقرع السمع بذلك، و لو تصورا لا تصديقا بل أجابوا بقصر ولايتهم فيه تعالى و نفيها عنهم ليدل على نفي الرضا بعبادتهم لهم على طريق الكنايه فإن الرضا بعبادتهم لازمه الموالاه بينهم، و الموالاه بينهم تنافى قصر الولايه فى الله سبحانه فإذا انحصرت الولايه فيه تعالى لم تكن موالاه و إذا لم تكن موالاه لم يكن رضا.

ثم قالوا على ما حكاه الله سبحانه: «بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون» و الجن هم الطائفة الثانيه من الطوائف الثلاث التى يعبدهم الوثنيون و هم الملائكه و الجن و القديسون من البشر، و الأقدم فى استحقاق العباده عندهم هم الطائفتان الاوليان و الطائفة الثالثه ملحقه بهما بعد الكمال و إن كانوا أفضل منهما.

و الإضراب فى قولهم: «بل كانوا يعبدون الجن» يدل على أن الجن كانوا على رضى من عبادتهم لهم.

قوله تعالى: فالיום لا- يملك بعضكم لبعض نفعا و لا ضرا و نقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون نوع تفريع على تبرى الملائكة منهم و قد بين تبرى عامه المتبوعين من تابعيهم و التابعين من متبوعيهم فى مواضع كقوله تعالى: و يوم القيامه يكفرون بشر ككم (فاطر ١٤/)، و قوله: ثم يوم القيامه يكفر بعضكم ببعض و يلعن بعضكم بعضا (العنكبوت ٢٥/). و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ الخ؛ خطابهم هذا لعامتهم بعد استماع الآيات تنبيه لهم على الجد في التمسك بدين آبائهم و تحريض لهم عليه صلى الله عليه و آله و سلم، و فى توصيف الآيات بالبينات نوع عتبي كأنه قيل إذا تلى عليهم هذه الآيات و هى بينه لا ريب فيها فبدلاً من أن يدعوا عامتهم الى أتباعها حثوهم على الإصرار على تقليد آبائهم و حرصوهم عليه- و فى إضافة الآباء الى ضمير «كم» مبالغه فى التحريض و الإثارة.

و قوله: وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ مِمَّا عَفَوْا عَلَى «قَالُوا» أى و قالوا مشيراً الى الآيات البينات إشاره تحقير: ليس هذا الا كلاماً مصروفاً عن وجهه مكذوباً به على الله، بدلاً من أن يقولوا: إنها آيات بينات نازله من عند الله تعالى- و قد أشاروا الى الآيات البينات بهذا دلالة على أنهم لم يفهموا منها إلا أنها شىء ما لا أزيد من ذلك.

ثم غير سبحانه السياق و قال: «قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ» و مجيء الحق لهم بلوغه و ظهوره لهم، و الأخذ بوصف الكفر للإشعار بالتعليل و المعنى:

و الذين كفروا بعثهم الكفر الى أن يقولوا للحق الصريح الذى بلغهم و ظهر لهم هذا سحر ظاهر سحريته و بطلانه.

و أكد إصرارهم على دحض الحق باتباع الهوى من غير دليل يدل عليه بقوله: «وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ» و الجملة حاله أى و عدّ الذين كفروا- أى كفار قريش- الحق الصريح الظاهر لهم سحراً مبيناً و الحال انا لم نعظهم كتباً يدرسونها حتى يميزوا بها الحق من الباطل و لم نرسل اليهم قبلك من رسول ينذرهم و يبين لهم ذلك فيقولوا استناداً الى الكتاب الإلهى أو الى قول الرسول النذير: إنه حق أو باطل.

قوله تعالى: وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ضميراً الجمع الأول و الثانى لكفار قريش و من يتلوهم

و الثالث و الرابع للذين من قبلهم، و المعشار العشر و النكير الإنكار، و المراد به فى الآيه لازمه و هو الأخذ بالعذاب.

و المعنى: و كذب بالحق من الآيات الذين كانوا من قبل كفار قريش من الامم الماضيه و لم يبلغ كفار قريش عشر ما آتيناهم من القوه و الشده فكذب أولئك الأقسام رسلى فكيف كان أخذى بالعذاب و ما أهون أمر قريش. و الالتفات فى الآيه الى التكلم لاستعظام الجرم و تهويل المؤاخذة.

قوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدِهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْتَرِكِينَ وَأَنْ تَقْرَأُوا مَا بَصَحِبْتُمْ مِنْ جَنَّةِ الْمَوْعِظَةِ الْوَصِيَّةِ كُنَايَه أَوْ تَضْمِينَا، و قوله:

«أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ» أى تنهضوا لأجل الله و لوجهه الكريم، و قوله: «مَشْتَرِكِينَ وَأَنْ تَقْرَأُوا» أى اثنين اثنين و واحدا واحدا كناية عن التفرق و تجنب التجمع و الغوغاء فإن الغوغاء لا شعور لها و لا فكر و كثيرا ما تميت الحق و تحيى الباطل.

و قوله: «مَا بَصَحِبْتُمْ مِنْ جَنَّةِ اسْتِثْنَاءِ «مَا» نَافِيَه و يشهد بذلك قوله بعد: «إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» و يمكن أن يكون «مَا» استفهاميه أو موصوله و «مِنْ جَنَّةٍ» بيانا له.

و المراد بصاحبكم النبى صلى الله عليه و آله و سلم نفسه و الوجه فى التعبير به تذكرتهم بصحبته الممتده لهم أربعين سنه من حين ولادته الى حين بعثته ليتذكروا أنهم لم يعهدوا منه اختلالا فى فكر أو خفه فى رأى أو شىء يوهم أن به جنونا.

و المعنى: قل لهم: إنما أوصيكم بالعظه أن تنهضوا و تنتصبوا لوجه الله متفرقين حتى يصفو فكركم و يستقيم رأيكم اثنين اثنين و واحدا واحدا و تفكروا فى أمرى فقد صاحبكم طول عمري على سداد من الرأى و صدق و أمانه ليس فى من جنه. ما أنا إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد فى يوم القيامة فأنا ناصح لكم غير خائن.

قوله تعالى: قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ الْخ؛ كناية عن عدم سؤال أجر على الدعوه فإنه إذا وهبهم كل ما سألهم من أجر فليس له عليهم أجر مسئول ولازمه أن لا يسألهم وهذا تطيب لنفوسهم أن لا يتهموه بأنه جعل الدعوه ذريعه الى نيل مال أو جاه.

ثم تم القول بقوله: إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ لثلاثا يردّ عليه قوله بأنه دعوى غير مسموعه فإن الإنسان لا يروم عملا بغير غايه فدفعه بأن لعملى أجرا لكنه على الله لا عليكم وهو يشهد عملى وهو على كل شىء شهيد.

قوله تعالى: قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ الْقذف الرمى، وقوله:

«عَلَامُ الْغُيُوبِ» خبر بعد خبر أو خبر لمبتدأ محذوف وهو الضمير الراجع اليه تعالى.

و مقتضى سياق الآيات السابقه أن المراد بالحق المقذوف القرآن النازل اليه بالوحي من عنده تعالى الذى هو قول فصل يحق الحق و يبطل الباطل فهو الحق المقذوف اليه صلى الله عليه وآله وسلم من عند علام الغيوب فيدمغ الباطل و يزهقه، قال تعالى: بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ (الأنبياء ١٨)، وقال: قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (الإسراء ٨١).

قوله تعالى: قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَ مَا يُدْعِي الْبَاطِلُ وَ مَا يُعِيدُ الْمُرَاد بِمَجِيءِ الْحَقِّ عَلَى مَا تَهْدِي إِلَيْهِ الْآيَةُ السَّابِقَةُ نَزُولِ الْقُرْآنِ الْمَبْطَلِ بِحُجْجِهِ الْقَاطِعَةِ وَ بَرَاهِينِهِ السَّاطِعَةِ لِكُلِّ بَاطِلٍ مِنْ أَصْلِهِ.

و قوله: وَ مَا يُدْعِي الْبَاطِلُ وَ مَا يُعِيدُ أَى مَا يَظْهَرُ أَمْرًا ابْتِدَائِيًّا جَدِيدًا بَعْدَ مَجِيءِ الْحَقِّ وَ مَا يَعِيدُ أَمْرًا كَانَ قَدْ أَظْهَرَ مِنْ قَبْلِ إِظْهَارِهِ ثَانِيًا بِنَحْوِ الْإِعَادَةِ فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ بَطْلَانِ الْبَاطِلِ وَ سَقُوطِهِ عَنِ الْأَثَرِ مِنْ أَصْلِهِ بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ.

قوله تعالى: قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ بَيَانٌ لِأَثَرِ الْحَقِّ الَّذِي هُوَ الْوَحْيُ فَإِنَّهُ عَرَفَهُ حَقًّا

مطلقا فالحق إذا كان حقا من كل جهه لم يخطئ في إصابه الواقع في جهه من الجهات و إلا كان باطلا من تلك الجهه فالوحي يهدى و لا يخطئ البته.

و لذا قال تأكيدا لما تقدم: «قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ» و فرض منى ضلال «فَأَيْنَمَا أَضَلُّ» مستقرا ذلك الضلال «عَلَى نَفْسِي» فإن للإنسان من نفسه أن يضل «وَ إِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي» فوحيه حق لا يحتمل ضلالا و لا يؤثر إلا الهدى.

و قد علل الكلام بقوله: «إِنَّهُ سَيَمِيعٌ قَرِيبٌ» للدلاله على أنه يسمع الدعوه و لا يحجبه عنها حاجب البعد و قد مهد له قبلا وصفه تعالى في قذف الحق بأنه علام الغيوب فلا يغيب عنه أمر يخل بأمره و يمنع نفوذ مشيئه هدايه الناس بالوحي قال تعالى: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيُعَلِّمَ أَنْ قَدْ أُنَبِّئُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَ أَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (الجن ٢٨)».

قوله تعالى: «وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَ أَخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ظَاهِرِ السِّيَاقِ السَّابِقِ وَ يَشْعُرُ بِهِ قَوْلُهُ الْآتِي: «وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاءِهِمْ مِنْ قَبْلُ» أن الآيات الأربع وصف حال مشركى قريش و من يلحق بهم حال الموت.

فقوله: «وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا» أى حين فرغ هؤلاء المشركون عند الموت «فَلَا قُوَّةَ» أى لا- يفوتون الله بهرب أو تحصن أو أى حائل آخر.

و قوله: «وَ أَخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ» كناية عن عدم فصل بينهم و بين من يأخذهم و قد عبر بقوله: «أَخَذُوا» مبنيا للمفعول ليستند الأخذ اليه سبحانه، و قد وصف نفسه بأنه قريب، و كشف عن معنى قربه بقوله: «وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (الواقعه ٨٥)»، و أزيد منه فى قوله: «مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (ق ١٦)»، و أزيد منه فى قوله:

«أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ (الأنفال ٢٤)»، فبين أنه أقرب الى الانسان من نفسه و هذا الموقف هو المرصاد الذى ذكره فى قوله: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ (الفجر ١٤)»، فكيف يتصور

فوت الإنسان منه و هو أقرب اليه من نفسه؟ أو من ملائكته المكرمين الذين يأخذون الأمر منه تعالى من غير حاجب يحجبهم عنه أو واسط يتوسط بينه وبينهم.

فقوله: وَ أَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ نوع تمثيل لقربه تعالى من الإنسان بحسب ما نتصوره من معنى القرب لاحتباسنا في سجن الزمان و المكان و أنسنا بالامور الماديه و إلا فالأمر أعظم من ذلك.

قوله تعالى: وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ التناوش التناول و ضمير «به» للقرآن على ما يعطيه السياق.

و المراد بكونهم في مكان بعيد أنهم في عالم الآخرة و هي دار تعين الجزاء و هي أبعد ما يكون من عالم الدنيا التي هي دار العمل و موطن الاكتساب بالاختيار و قد تبدل الغيب شهاده لهم و الشهاده غيبا كما تشير اليه الآيه التاليه.

قوله تعالى: وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ حال من الضمير في «وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ» و المراد بقوله: «وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ» رميهم عالم الآخرة و هم في الدنيا بالظنون مع عدم علمهم به و كونه غائبا عن حواسهم إذ كانوا يقولون: لا بعث و لا جنه و لا نار، و قيل: المراد به رميهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بالسحر و الكذب و الافتراء و الشعر.

و العناية في إطلاق المكان البعيد على الدنيا بالنسبه الى الآخرة نظيره إطلاقه على الآخرة بالنسبه الى الدنيا و قد تقدمت الإشارة اليه.

و معنى الآيتين: و قال المشركون حينما أخذوا آمنا بالحق الذي هو القرآن و أتى لهم تناول الإيمان به-إيمانا يفيد النجاه-من مكان بعيد و هو الآخرة و الحال أنهم كفروا به من قبل في الدنيا و هم ينفون أمور الآخرة بالظنون و الأوهام من مكان بعيد و هو الدنيا.

قوله تعالى: وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ

إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكِّ مُرِيبٍ ظَاهِرِ السِّيَاقِ أَنْ الْمُرَادَ بِمَا يَشْتَهُونَ اللَّذَائِدَ الْمَادِيَةَ الدُّنْيَوِيَّةَ الَّتِي يَحَالُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا بِالْمَوْتِ، وَالْمُرَادُ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلِ أَشْبَاهِهِمْ مِنَ الْأُمَّمِ الْمَاضِيَةِ أَوْ مُوَافِقِهِمْ فِي الْمَذْهَبِ، وَقَوْلُهُ: «إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكِّ مُرِيبٍ» تَعْلِيلٌ لِقَوْلِهِ: «كَمَا فَعَلَ» الْخ.

وَالْمَعْنَى: وَوَقَعَتِ الْحِيلُولَةُ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ الْمَأْخُودِينَ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ مِنْ مَلَازِمِ الدُّنْيَا كَمَا فَعَلَ ذَلِكَ بِأَشْبَاهِهِمْ مِنْ مُشْرِكِي الْأُمَّمِ الدَّارِجَةِ مِنْ قَبْلِهِمْ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكِّ مُرِيبٍ مِنَ الْحَقِّ أَوْ مِنَ الْآخِرَةِ فَيَقْدِفُونَهَا بِالْغَيْبِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ مَا قَدَمْنَاهُ مِنَ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْأَرْبَعِ مَبْنِيٌّ عَلَى مَا يُعْطِيهِ ظَاهِرُ السِّيَاقِ وَ قَدْ اسْتَفَاضَتِ الرَّوَايَاتُ مِنْ طَرَقِ الشَّيْعَةِ وَ أَهْلِ السُّنَنِ أَنَّ الْآيَاتِ نَازِلَةٌ إِلَى خَسْفِ جَيْشِ السَّفِيَانِيِّ بِالْبَيْدَاءِ وَ هُوَ مِنْ عِلَاقَةِ ظَهْرِ الْمَهْدِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامِ الْمَتَّصِلَةَ بِهِ فَعَلَى تَقْدِيرِ نَزُولِ الْآيَاتِ فِي ذَلِكَ يَكُونُ مَا قَدَمْنَاهُ مِنَ الْمَعْنَى مِنْ بَابِ جَرَى الْآيَاتِ فِيهِ (١).

ص: ١٩٢

(١- ١). سبأ ٣١-٥٤: بحث روائي في: الانفاق؛ السفيناني؛ ظهور القائم عليه السلام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مِّثْنَىٰ وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ
يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱)

غرض السوره بيان الاصول الثلاثه: وحدانيته تعالى في ربوبيته و رساله الرسول و المعاد اليه و تقرير الحججه لذلك و قد توسل لذلك بعد جمل من نعمه العظيمه السماويه و الارضيه و الإشاره الى تدبيره المتقن لأمر العالم عامه و الإنسان خاصه.

و قد قدم على هذا التفصيل الإشاره الإجماليه الى انحصار فتح الرحمه و إمساكها و هو إفاضه النعمه و الكف عنها فيه تعالى بقوله: مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا آيَهُ.

و قدم على ذلك الإشارة الى وسائط هذه الرحمه المفتوحه و النعم الموهوبه و هم الملائكه المتوسطون بينه تعالى و بين خلقه فى حمل أنواع النعم من عنده تعالى و إيصالها الى خلقه فافتتح السوره بذكرهم.

و السوره مكيه كما يدل عليه سياق آياتها، و قد استثنى بعضهم آيتين و هما قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ الْآيَةَ؛ و قوله: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا الْآيَةَ؛ و هو غير ظاهر من سياق الآيتين.

قوله تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْفَطْرَ-على ما ذكره الراغب-هو الشق طولاً-فإطلاق الفاطر عليه تعالى بعنايه استعاريه كأنه شق العدم فأخرج من بطنها السماوات و الأرض فمحصل معناه أنه موجد السماوات و الأرض إيجاداً ابتدائياً من غير مثال سابق، فيقرب معناه من معنى البديع و المبدع و الفرق بين الإبداع و الفطر أن العنايه فى الإبداع متعلقه بنفى الحال السابق و فى الفطر بطرد العدم و إيجاد الشئ من رأس لا كالصانع الذى يؤلف مواد مختلفه فيظهر به صورته جديده لم تكن.

و المراد بالسماوات و الأرض مجموع العالم المشهود فيشمّلها و ما فيهما من مخلوق فيكون من قبيل إطلاق معظم الأجزاء و إرادته الكل مجازاً، أو المراد نفس السماوات و الأرض اعتناء بشأنهما لكبر خلقتهما و عجيب أمرهما كما قال: لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ (المؤمن ٥٧).

و كيف كان فقوله: «فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» من أسمائه تعالى أجرى صفه لله و المراد بالوصف الاستمرار دون الماضى فقط لأن الإيجاد مستمرّ و فيض الوجود غير منقطع و لو انقطع لانعدمت الأشياء.

و الإتيان بالوصف بعد الوصف للإشعار بأسباب انحصار الحمد فيه تعالى كأنه قيل: الحمد لله على ما أوجد السماوات و الأرض و على ما جعل الملائكه رسلاً أولى أجنحه فهو تعالى

محمود ما أتى فيما أتى إلا الجميل.

قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنِحَةٍ مِّثْلِي وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ الْمَلَائِكَةِ جَمَعُ مَلَكٍ بَفَتْحِ اللَّامِ وَ هُمْ مَوْجُودَاتُ خَلْقِهِمُ اللَّهُ وَ جَعَلَهُمْ وَسَائِطَ بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْعَالَمِ الْمَشْهُودِ وَ كُلَّهُمْ بِأَمْرِ الْعَالَمِ التَّكْوِينِيِّ وَ التَّشْرِيعِيِّ عِبَادَ مَكْرُمُونَ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ فِيمَا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ.

فقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ يشعر بل يدل على كون جميع الملائكة -و الملائكة جمع محلى باللام مفيد للعموم- رسلا وسائط بينه و بين خلقه فى إجراء أوامر التكوينية و التشريعية.

و لا- موجب لتخصيص الرسل فى الآيه بالملائكة النازلين على الأنبياء عليهم السّلام و قد أطلق القرآن الرسل على غيرهم من الملائكة كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ (الأنعام ٦١/)، و قوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ (يونس ٢١/)، و قوله:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ (العنكبوت ٣١/).

و الأجنحة جمع جناح و هو من الطائر بمنزله اليد من الإنسان يتوسل به الى الصعود الى الجو و النزول منه و الانتقال من مكان الى مكان بالطيران.

فوجود الملك مجهز بما يفعل به نظير ما يفعله الطائر بجناحه فينتقل به من السماء الى الأرض بأمر الله يعرج به منها إليها و من أى موضع الى أى موضع، و قد سماه القرآن جناحا و لا يستوجب ذلك إلا ترتب الغايه المطلوبه من الجناح عليه و أما كونه من سنخ جناح غالب الطير ذا ريش و زغب فلا يستوجه مجرد إطلاق اللفظ كما لم يستوجه فى نظائره كألفاظ العرش و الكرسي و اللوح و القلم و غيرها.

و قوله: ﴿أُولَىٰ أَجْنِحَةٍ مِّثْلِي وَ ثُلَاثَ وَ رُبَاعَ﴾ صفه للملائكة، و مثنى و ثلاث و رباع ألفاظ داله على تكرر العدد أى اثنين اثنين و ثلاثه ثلاثه و أربعة أربعة كأنه قيل: جعل

الملائكة بعضهم ذا جناحين و بعضهم ذا ثلاثة أجنحه و بعضهم ذا أربعة أجنحه.

و قوله: يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ لَا يَخْلُو مِنْ إِشْعَارٍ بِحَسَبِ السِّيَاقِ بِأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَزِيدُ أَجْنَحَتَهُ عَلَى أَرْبَعَةٍ.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تعليل لجميع ما تقدمه أو الجملة الأخيرة و الأول أظهر (١)(٢).

[سوره فاطر (٣٥): الآيات ٢ الى ٨]

مَا يَفْتِجُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨)

ص: ١٩٦

١-١. فاطر ١: بحث روائى فى: الملائكة؛ خلقه الملائكة؛ اجزاء الملائكة.

٢-٢. فاطر ١: كلام فى الملائكة.

قوله تعالى: **مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا** و **مَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ** الخ؛ المعنى أن ما يؤتاه الله الناس من النعمة و هو الرزق فلا مانع عنه و ما يمنع فلا مؤتى له فكان مقتضى الظاهر أن يقال: ما يرسل الله للناس، الخ؛ كما عبر في الجملة الثانية بالإرسال لكنه عدل عن الإرسال الى الفتح لما وقع مكررا في كلامه أن لرحمته خزائن كقوله: **أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ** (ص ٩/٩) وقوله: **قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ** (الإسراء ١٠٠/١) والتعبير بالفتح أنسب من الإرسال في الخزائن ففيه اشاره الى أن الرحمة التي يؤتاها الناس مخزونه في خزائن محيطه بالناس لا يتوقف نيلهم منها إلا الى فتحها من غير مئونه زائده.

وقد عبر عن الرزق الذي هو النعمة بالرحمة للدلالة على أن إفاضته تعالى لهذه النعمة ناشئه من مجرد الرحمة من غير توقع لنفع يعود اليه أو كمال يستكمل به.

وقوله: **وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ** أى و ما يمنع من الرحمة فلا مرسل له من دونه، و فى التعبير بقوله: **«مِنْ بَعْدِهِ»** إشاره الى أنه تعالى أول فى المنع كما أنه أول فى الإعطاء.

وقوله: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ تقرير للحكم المذكور في الآيه الكريمة بالاسمين الكريمين فهو تعالى لكونه عزيزا لا- يغلب اذا أعطى فليس لمانع أن يمنع عنه و اذا منع فليس لمعط أن يعطيه، و هو تعالى حكيم اذا أعطى أعطى عن حكمه و مصلحه و اذا منع منع عن حكمه و مصلحه و بالجمله لا معطى إلا الله و لا مانع إلا هو، و منعه و إعطائه عن حكمه.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ الخ؛ لما قرر في الآيه السابقه أن الإعطاء و المنع لله سبحانه لا يشاركه في ذلك أحد احتج في هذه الآيه بذلك على توحده في الربوبيه.

و تقرير الحجه أن الإله إنما يكون إلها معبودا لربوبيته و هى ملكه تدبير أمر الناس و غيرهم، و الذى يملك تدبير الأمر بهذه النعم التى يتقلب فيها الناس و غيرهم و يرتزقون بها هو الله سبحانه دون غيره من الآلهه التى اتخذوها لأنه سبحانه هو الذى خلقها دونهم و الخلق لا- ينفك عن التدبير و لا يفارقه فهو سبحانه إلهكم لا إله إلا هو لأنه ربكم الذى يدبر أمركم بهذه النعم التى تتقلبون فيها و إنما كان ربا مدبرا بهذه النعم لأنه خالقها و خالق النظام الذى يجرى عليها.

و بذلك يظهر أن المراد بالناس المخاطبين الوثنيون و غيرهم ممن اتخذ لله شريكا.

و قوله: اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ المراد بالذكر ما يقابل النسيان دون الذى الذكر اللفظى.

و قوله: هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ الرزق هو ما يمد به البقاء و مبدؤه السماء بواسطه الأشعه و الأمطار و غيرهما و الأرض بواسطه النبات و الحيوان و غيرهما.

و بذلك يظهر أيضا أن فى الآيه إجازا لطيفا فقد بدلت الرحمه فى الآيه السابقه نعمه فى هذه الآيه أولا ثم النعمه رزقا ثانيا و كان مقتضى سياق الآيتين أن يقال: هل من رازق أو هل من

منعم أو هل من راحم لكن بدل ذلك من قوله: «هَلْ مِنْ خَالِقٍ» ليكون إشاره الى برهان ثان ينقطع به الخصام، فإنهم يرون تدبير العالم لآلهتهم بإذن الله فلو قيل: هل من رازق أو منعم غير الله لم ينقطع الخصام و أمكن أن يقولوا نعم آلهتنا بتفويض التدبير من الله اليهم لكن لما قيل «هَلْ مِنْ خَالِقٍ» أشير بالوصف إلى أن الرازق و المدبر هو خالق الرزق لا غير فانقطع الخصام و لم يمكنهم إلا أن يجيبوا بنفى خالق غير الله يرزقهم من السماء و الأرض.

و قوله: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ اعْتِرَاضٌ بِالتَّوْحِيدِ يَفِيدُ التَّعْظِيمَ نَظِيرُ قَوْلِهِ: وَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ .

أى لا معبود بالحق إلا هو لأن المستحق للعبادة هو الذى ينعم عليكم و يرزقكم و ليس إلا الله.

و قوله: فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ توييح متفرع على ما سبق من البرهان أى فإذا كان الأمر هكذا و أنتم تقرون بذلك فإلى متى تصرفون عن الحق الى الباطل و من التوحيد الى الإشراك.

و فى إعراب الآيه أعنى قوله: «هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ» الخ؛ بين القوم مشاجرات طويله و الذى يناسب ما تقدم من تقرير البرهان أن «مِنْ» زائده للتعميم، و قوله: «غَيْرِ اللَّهِ» صفة لخالق تابع لمحلله، و كذا قوله: «يَرْزُقُكُمْ» الخ؛ و «مِنْ خَالِقٍ» مبتدأ محذوف الخبر و هو موجود، و قوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» اعتراض، و قوله: «فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ» تفریع على ما تقدمه.

قوله تعالى: وَ إِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أى و إن يكذبوك بعد استماع هذه البراهين الساطعه فلا تحزن فليس ذلك بيدع فقد كذبت رسل من قبلك كذبتهم أممهم و أقوامهم و الى الله ترجع عامه الامور فيجازيهم بما يستحقونه بتكذيبهم الحق بعد ظهوره فليسوا بمعجزين بتكذيبهم.

و من هنا يظهر أن قوله: «فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ» من قبيل وضع السبب موضع

المسبب و أن قوله: «وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» معطوف على قوله: «فَقَدْ كَذَّبْتَ» الخ؛

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ خطاب عام للناس يذكرهم بالمعاد كما كان الخطاب العام السابق يذكرهم بتوحيده تعالى في الربوبية والالوهية.

فقوله: «إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» أى وعده أنه يبعثكم فيجازى كل عامل بعمله إن خيرا و إن شرا حق أى ثابت واقع، وقد صرح بهذا الوعد فى قوله الآتى: «الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ» .

و قوله: فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا النهى و إن كان متوجها الى الحياه الدنيا صوره لكنه فى الحقيقه متوجه اليهم، والمعنى اذا كان وعد الله حقا فلا تغتروا بالحياه الدنيا بالاشتغال بزينتها و التهللى بما ينسيكم يوم الحساب من ملاذها و ملاحياها و الاستغراق فى طلبها و الإعراض عن الحق.

و قوله: وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ الغرور بفتح الغين صيغه مبالغه من الغرور بالضم و هو الذى يبالغ فى الغرور و من عادته ذلك، و الظاهر- كما قيل- أن المراد به الشيطان و يؤيده التعليل الواقع فى الآيه التالیه «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ» الخ.

و معنى غروره بالله توجيهه أنظارهم الى مظاهر حلمه و عفوه تعالى تاره و مظاهر ابتلائه و استدراجه و كيدته أخرى فيرون أن الاشتغال بالدنيا و نسيان الآخره و الإعراض عن الحق و الحقيقه لا يستعقب عقوبه و لا يستتبع مؤاخذه، و أن أبناء الدنيا كلما أمعنوا فى طلبهم و توغلوا فى غفلتهم و استغرقوا فى المعاصى و الذنوب زادوا فى عيشهم طيبا و فى حياتهم راحه و بين الناس جاها و عزه فيلقى الشيطان عند ذلك فى قلوبهم أن لا- كرامه إلا- فى التقدم فى الحياه الدنيا، و لا- خبر عما وراءها و ليس ما تتضمنه الدعوه الحقه من الوعد و الوعيد و تخبر به النبوه من البعث و الحساب و الجنه و النار إلا خرافه.

فالمراد بغرور الشيطان الإنسان بالله اغترار الإنسان بما يعامل به الله الإنسان على غفلته و ظلمه.

قوله تعالى: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا خَالِئًا لِلنَّهْيِ الْمَتَقَدِّمِ فِي قَوْلِهِ: «وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ» و المراد بعداؤه الشيطان أنه لا شأن له إلا إغواء الإنسان و تحريمه سعادته الحياه و حسن العاقبه، و المراد باتخاذ الشيطان عدوا التجنب من اتباع دعوته الى الباطل و عدم طاعته فيما يشير اليه في وساوسه و تسويلاته و لذلك علل عداوته بقوله:

«إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ» .

فقوله: إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ في مقام تعليل ما تقدمه و الحزب هو العده من الناس يجمعهم غرض واحد، و اللام في «لِيَكُونُوا» للتعليل فكونهم من أصحاب السعير عله غائيه لدعوته، و السعير النار المسعره و هو من أسماء جهنم في القرآن.

قوله تعالى: الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ هذا هو الوعد الحق الذي ذكره الله سبحانه، و تنكير العذاب للدلاله على التفيخيم على أن لهم دركات و مراتب مختلفه من العذاب باختلاف كفرهم و فسوقهم فالإبهام أنسب و يجرى نظير الوجهين في قوله: «مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ» .

قوله تعالى: أَمْ مَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسِينًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ تقرير و بيان للتقسيم الذي تتضمنه الآيه السابقه أعنى تقسيم الناس الى كافر له عذاب شديد و مؤمن عامل بالصلاحات له مغفره و أجر كبير و المراد أنهما لا يستويان فلا تستوى عاقبه أمرهما.

فقوله: أَمْ مَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسِينًا مبتدأ خبره محذوف أى كمن ليس كذلك، و الفاء لتفريع الجملة على معنى الآيه السابقه، و الاستفهام للإنكار، و المراد بمن

بهم إلا الحق ولا يجازيهم إلا بالحق.

[سوره فاطر (٣٥): الآيات ٩ الى ١٤]

وَ اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْفِنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ
الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصِدُّ الْعَلَمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ
(١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَرْوَاجًا وَمِمَّا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَ لَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمِمَّا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لَا
يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ وَ هَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَ
مِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حَلِيهً تَلْبَسُونَهَا وَ تَرَى الْفُلُكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ
اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَ الَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ
بِشْرِكِكُمْ وَ لَا يُبْنِيكَ مِثْلَ خَيْرٍ (١٤)

ص: ٢٠٣

قوله تعالى: وَ اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَثِيرُ سَـجَاباً فَسُقْمَاءُ إِلَى بَلَـدٍ مَّيِّتٍ الخ؛ العناية في المقام بتحقيق وقوع الأمطار و إنبات النبات بها، و لذلك قال: «اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ» و هذا بخلاف ما في سورة الروم من قوله: اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتَثِيرُ سَـجَاباً (الروم ٤٨).

و قوله: فَتَثِيرُ سَـجَاباً عطف على «أَرْسَلَ» و الضمير للرياح و الإتيان بصيغه المضارع لحكاية الحال الماضية و الإثارة إفعال من ثار الغبار يثور ثوراناً إذا انتشر ساطعاً.

و قوله: فَسُقْمَاءُ إِلَى بَلَـدٍ مَّيِّتٍ أى الى أرض لا- نبات فيها «فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» و أنبثنا فيها نباتاً بعد ما لم تكن، و نسبه الإحياء الى الأرض و إن كانت مجازيه لكن نسبته الى النبات حقيقة و أعمال النبات من التغذية و النمو و توليد المثل و ما يتعلق بذلك أعمال حيويه تنبعث من أصل الحياه.

و لذلك شبه البعث و إحياء الأموات بعد موتهم بإحياء الأرض بعد موتها أى إنبات النبات بعد توقفه عن العمل و ركوده فى الشتاء فقال: «كَذَلِكَ النُّشُورُ» أى البعث فالنشور بسط الأموات يوم القيامة بعد إحيائهم و إخراجهم من القبور.

و فى قوله: فَسُقْمَاءُ إِلَى بَلَـدٍ مَّيِّتٍ الخ؛ التفات من الغيبه الى التكلم مع الغير فهو تعالى فى قوله: «وَ اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ» بنعت الغيبه و فى قوله: «فَسُقْمَاءُ» الخ؛ بنعت التكلم مع الغير و لعل النكته فى ذلك هى أنه لما قال: «وَ اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ» أخذ لنفسه نعت الغيبه و يتبعه فيه الإرسال فإن فعل الغائب غائب، ثم لما قال: «فَتَثِيرُ سَـجَاباً» على نحو حكاية الحال الماضية صار المخاطب كأنه يرى الفعل و يشاهد الرياح و هى تثير السحاب و تنشره فى الجو فصار كأنه يرى من يرسل الرياح لأن مشاهدته الفعل كادت أن لا تنفك عن مشاهدته الفاعل فلما ظهر

تعالى بنعت الحضور غير سياق كلامه من الغيبة الى التكلم و اختار لفظ التكلم مع الغير للدلالة على العظمة.

و قوله: فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَلَمْ يَقُلْ: فَأَحْيَيْنَاهُ مَعَ كَفَايَتِهِ وَ كَذَا قَوْلُهُ: «بَعْدَ مَوْتِهَا» مَعَ جَوَازِ الْاِكْتِفَاءِ بِمَا تَقَدَّمَهُ لِلْأَخْذِ بِصَرِيحِ الْقَوْلِ الَّذِي لَا اِرْتِيَابَ دُونَهُ.

قوله تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا قَالَ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ:

العزّه حاله مانعه للإنسان من أن يغلب من قولهم: أرض عزاز أي صلبه قال تعالى: «أَيَّتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا» انتهى.

فالصلاية هو الأصل في معنى العزّه ثم توسع فاستعمل العزيز فيمن يقهر و لا يقهر كقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا (يوسف ٨٨). و كذا العزّه بمعنى الغلبه قال تعالى: وَ عَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (ص ٢٣) و العزّه بمعنى القله و صعوبه المنال، قال تعالى: وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (حم السجده ٤١) و العزّه بمعنى مطلق الصعوبه قال تعالى: عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ (التوبه ١٣٨) و العزّه بمعنى الأنفه و الحميه قال تعالى: بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَ شِقَاقٍ (ص ٢) الى غير ذلك.

ثم إن العزّه بمعنى كون الشيء قاهرا غير مقهور أو غالبا غير مغلوب تختص بحقيقه معناها بالله عزّ و جل إذ غيره تعالى فقير في ذاته ذليل في نفسه لا يملك لنفسه شيئا إلا- أن يرحمه الله و يؤتیه شيئا من العزّه كما فعل ذلك بالمؤمنين به قال تعالى: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ (المنافقون ٨).

و بذلك يظهر أن قوله: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا» ليس بمسوق لبيان اختصاص العزّه بالله بحيث لا ينالها غيره و أن من أرادها فقد طلب محالا و أراد ما لا يكون بل المعنى من كان يريد العزّه فيطلبها منه تعالى لأن العزّه له جميعا لا توجد عند غيره بالذات.

فوضع قوله: «فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا» في جزاء الشرط من قبيل وضع السبب موضع المسبب

و هو طلبها من عنده أى اكتسابها منه بالعبودية التى لا تحصل إلا بالإيمان و العمل الصالح.

قوله تعالى: **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ الْكَلِمُ** - كما قيل - اسم جنس جمعى يذكر و يؤنث، و قال فى المجمع: و الكلم جمع كلمه يقال؟ هذا كلم و هذه كلم فيذكر و يؤنث، و كل جمع ليس بينه و بين واحده إلا - الهاء يجوز فيه التذكير و التأنيث انتهى.

و المراد بالكلم على أى حال ما يفيد معنى تاما كلاميا و يشهد به توصيفه بالطيب فطيب الكلم هو ملاءمته لنفس سامعه و متكلمه بحيث تنبسط منه و تستلذه و تستكمل به و ذلك إنما يكون بإفادته معنى حقا فيه سعادته النفس و فلاحها.

و بذلك يظهر أن المراد به ليس مجرد اللفظ بل بما أن له معنى طيبا فالمراد به الاعتقادات الحقه التى يسعد الإنسان بالإذعان لها و بناء عمله عليها و المتيقن منها كلمه التوحيد التى يرجع إليها سائر الاعتقادات الحقه و هى المشموله لقوله تعالى: **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا - كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَضْرُؤُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا** (إبراهيم ٢٥) و تسميه الاعتقاد قولاً و كلمه أمر شائع بينهم.

و صعود الكلم الطيب اليه تعالى هو تقربه منه تعالى اعتلاء و هو العلى الأعلى رفيع الدرجات، و إذ كان اعتقاداً قائماً بمعتقده فتقربه منه تعالى تقرب المعتقد به منه، و قد فسروا صعود الكلم الطيب بقوله تعالى له و هو من لوازم المعنى.

ثم أن الاعتقاد و الإيمان إذا كان حق الاعتقاد صادقاً الى نفسه صدقه العمل و لم يكذبه أى يصدر عنه العمل على طبقه فالعمل من فرع العلم و آثاره التى لا - تنفك عنه، و كلما تكرر العمل زاد الاعتقاد رسوخاً و جلاء و قوى فى تأثيره فالعمل الصالح و هو العمل الحرى بالقبول الذى طبع عليه بذل العبوديه و الإخلاص لوجهه الكريم يعين الاعتقاد الحق فى ترتب أثره عليه و هو الصعود اليه تعالى و هو المعزى اليه بالرفع فالعمل الصالح يرفع الكلم الطيب.

فقد تبين بما مر معنى قوله: **«إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ»** و أن ضمير

«إِلَيْهِ» لله سبحانه و المراد بالكلم الطيب الاعتقاد الحق كالتوحيد، و بصعوده تقربه منه تعالى، و بالعمل الصالح ما كان على طبق الاعتقاد الحق و يلائمه و أن الفاعل في «يَزْفَعُهُ» ضمير مستكن راجع الى العمل الصالح و ضمير المفعول راجع الى الكلم الطيب.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ مَكْرٌ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ ذَكَرُوا أَنْ «السَّيِّئَاتِ» وصف قائم مقام موصوف محذوف و هو المكرات، و وضع اسم الإشارة موضع الضمير في «مَكْرٌ أُولَئِكَ» للدلالة على أنهم متعينون لا مختلطون بغيرهم و المعنى و الذين يمكرون المكرات السيئات لهم عذاب شديد و مكر أولئك الماكرين هو يبور و يهلك فلا يستعقب أثرا حيا فيه سعادتهم و عزتهم.

و قد بان أن المراد بالسيئات أنواع المكرات و الحيل التي يتخذها المشركون و وسائل لكسب العزه، و الآيه مطلقه، و قيل: المراد بالمكرات التي اتخذتها قريش على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم في دار الندوه و غيرها من إثبات أو إخراج أو قتل فرد الله كيدهم اليهم و أخرجهم الى بدر و قتلهم و أثبتهم في القلب فجمع عليهم الإثبات و الإخراج و القتل و هذا وجه حسن لكن الآيه مطلقه.

و وجه اتصال ذيل الآيه بصدرها أعنى اتصال قوله: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ» الى آخر الآيه بقوله:

«مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا» أن المشركين كانوا يعترفون بآلهتهم كما قال تعالى:

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (مريم ٨١) فدعاهم الله سبحانه و هم يطلبون العز الى نفسه بتذكيرهم أن العزه لله جميعا و بين تعالى ذلك بأن توحيده يصعد اليه و العمل الصالح يرفعه فيكتسب الإنسان بالتقرب منه عزه من منبع العزه و أما الذين يمكرون كل مكر سيئ لاكتساب العزه فلهم عذاب شديد و ما مكروه من المكر بائر هالك لا يصعد الى محل و لا يكسب لهم عزا.

قوله تعالى: وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا

الخ؛ يشير تعالى الى خلق الإنسان فابتدأ خلقه من تراب و هو المبدأ البعيد الذى تنتهى اليه الخلقه ثم من نطفه و هى مبدأ قريب تتعلق به الخلقه.

و الفرق بين الوجوه الثلاثه أن فى الأول نسبه الخلق من تراب اليهم على طريق المجاز العقلى، و فى الثانى المراد بخلقهم خلق آدم و لا- مجاز فى النسبه، و فى الثالث المراد خلق كل واحد من الأفراد من التراب حقيقه من غير مجاز إلا أنه خلق إجمالى لا تفصيلى و بهذا يفارق ما قدمناه من الوجه.

و يمكن تأييد القول الأول بقوله تعالى: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (الرحمن / ١٤)، و الثانى بنحو قوله: وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (السجده / ٨)، و الثالث بقوله: وَ لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ (الأعراف / ١١) و لكل وجه.

و قوله: ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ أَزْوَاجًا أى ذكورا و إناثا، و قيل: أى قدر بينكم الزوجيه و زوج بعضكم من بعض، و هو كما ترى، و قيل: أى أصنافا و شعوبا. و هو كسابقه.

و قوله: وَ مَا تَحْمِلُ مِنْ أُثْقَالٍ وَ لَا تَضَعُ إِلَّا- بِعِلْمِهِ من زائده لتأكيد النفي، و الباء فى «بِعِلْمِهِ» للمصاحبه و هو حال من الحمل و الوضع، و المعنى ما تحمل و لا تضع أثنى إلا و علمه يصاحب حمله و وضعه، و ذكر بعضهم أنه حال من الفاعل و أن كونه حالا من الحمل و الوضع و كذا من مفعوليهما أى المحمول و الموضوع خلاف الظاهر و هو ممنوع.

و قوله: وَ مَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لَا- يُنْقَضُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا- فى كتابٍ أى و ما يمد و يزداد فى عمر أحد فيكون معمرا و لا ينقص من عمره أى عمر أحد إلا فى كتاب.

فقوله: وَ مَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ من قبيل قوله: «إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا» (يوسف / ٢٤) فوضع معمر موضع نائب الفاعل و هو أحد بعنايه أنه بعد تعلق التعمير به يصير معمرا و إلا فتعمير المعمر لا معنى له.

وقوله: وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ الضَّمِيرُ فِي «عُمُرِهِ» رَاجِعٌ إِلَى «مُعَمَّرٍ» بِاعْتِبَارِ مَوْصُوفِهِ الْمَحذُوفِ وَهُوَ أَحَدٌ وَ الْمَعْنَى وَ لَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِ أَحَدٍ وَ إِلَّا فَنَقِصُ عُمُرَ الْمَفْرُوضِ مَعْمَرًا تَنَاقُضُ خَارِقٌ لِلْفَرَضِ.

وقوله: إِلَّا فِي كِتَابٍ وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ الَّذِي لَا سَبِيلَ لِلتَّغْيِيرِ إِلَيْهِ فَقَدْ كَتَبَ فِيهِ أَنْ فَلَانًا يَزَادُ فِي عُمُرِهِ كَذَا لِسَبَبِ كَذَا وَ فَلَانًا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ كَذَا لِسَبَبِ كَذَا وَ أَمَا كِتَابُ الْمَحْوِ وَ الْإِثْبَاتُ فَهُوَ مَرُودُ التَّغْيِيرِ وَ سِيَاقُ الْآيَةِ يَفِيدُ وَصْفَ الْعِلْمِ الثَّابِتِ وَ لَهُمْ فِي قَوْلِهِ: «وَ مَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ» وَجْهٌ آخَرٌ ضَعِيفٌ لَا جَدْوَى فِي التَّعْرُضِ لَهَا.

وقوله: إِنَّ ذَلِكْ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ تَعْلِيلٌ وَ تَقْرِيرٌ لِمَا فِي الْآيَةِ مِنْ وَصْفِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَ كَيْفِيَةِ إِحْدَاثِهِ وَ إِبْقَائِهِ وَ الْمَعْنَى أَنَّ هَذَا التَّدْبِيرَ الدَّقِيقَ الْمُتَيْنِ الْمُهَيْمِنِ عَلَى كَلِيَّاتِ الْحَوَادِثِ وَ جَزَائِئِهَا الْمَقْرَرِ كُلِّ شَيْءٍ فِي مَقَرِّهِ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِأَنَّهُ اللَّهُ الْعَلَمُ الْقَدِيرُ الْمَحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ بِعِلْمِهِ وَ قُدْرَتِهِ فَهُوَ تَعَالَى رَبُّ الْإِنْسَانِ كَمَا أَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ.

قوله تعالى: وَ مَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَ هَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قِيلَ: الْعَذْبُ مِنَ الْمَاءِ طَيِّبِهِ، وَ الْفُرَاتُ الْمَاءُ الَّذِي يَكْسِرُ الْعَطْشَ أَوْ الْبَارِدُ كَمَا فِي الْمَجْمَعِ، وَ السَّائِغُ هُوَ الَّذِي يَسْهَلُ انْحِدَارُهُ فِي الْحَلْقِ لِعَذُوبَتِهِ وَ الْأَجَاجُ الَّذِي يَحْرَقُ لِمَلُوحَتِهِ أَوْ الْمَرِّ.

وقوله: وَ مِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا اللَّحْمُ الطَّرِيُّ الْغَضُّ الْجَدِيدُ، وَ الْمَرَادُ لَحْمَ السَّمَكِ أَوْ السَّمَكِ وَ الطَّيْرِ الْبَحْرِيِّ، وَ الْحَلِيَّةُ الْمَسْتَخْرَجَةُ مِنَ الْبَحْرِ اللَّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجَانُ وَ الْأَصْدَافُ قَالَ تَعَالَى: يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجَانُ (الرَّحْمَنُ ٢٢).

وَ فِي الْآيَةِ تَمَثُّلٌ لِلْمُؤْمِنِ وَ الْكَافِرِ بِالْبَحْرِ الْعَذَابِ وَ الْمَالِحِ يَتَبَيَّنُ بِهِ عَدَمُ تَسَاوَى الْمُؤْمِنِ وَ الْكَافِرِ فِي الْكَمَالِ الْفَطْرِيِّ وَ إِنْ تَشَارَكَ فِي غَالِبِ الْخَوَاصِ الْإِنْسَانِيَةِ وَ آثَارِهَا فَالْمُؤْمِنُ بَاقٍ عَلَى

فطرته الأصلية ينال بها سعادته الحياه الدائمه و الكافر منحرف فيها متلبس بما لا تستطيه الفطره الإنسانيه و سيعذب بأعماله فمثلهما مثل البحرين المختلفين عدوبه و ملوحه فهما مختلفان من حيث البقاء على فطره الماء الأصلية و هى العدوبه و الخروج عنها بالملوحه و إن اشتركا فى بعض الآثار التى ينتفع بها، فمن كل منهما تأكلون لحما طريا و هو لحم السمك و الطير المصطاد من البحر و تستخرجون حليه تلبسونها كاللؤلؤ و المرجان و الأصداف.

فظاهر الآيه أن الحليه المستخرجه مشتركه بين البحر العذب و البحر المالح.

قوله تعالى: وَ تَرَى الْفُلُكَ فِيهِ مَوْأَجِرَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ضمير «فيه» للبحر، و مواخر جمع ماخره من المخر بمعنى الشق عدت السفينه ماخره لشقها الماء بجؤجؤتها.

قيل: إنما أفرد ضمير الخطاب فى قوله: «تَرَى» بخلاف الخطابات المتقدمه و المتأخره لأن الخطاب لكل أحد يتأتى منه الرؤيه دون المنتفعين بالبحرين فقط.

و قوله: لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أى مخر الفلك البحر بتسخيره لتطلبوا من عطائه و هو الرزق و رجاء أن تشكروا الله سبحانه، و قد تقدم أن الترجى الذى تفيده «لعل» فى كلامه تعالى قائم بالمقام دون المتكلم.

و قد قيل فى هذه الآيه «وَ تَرَى الْفُلُكَ فِيهِ مَوْأَجِرَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ» و فى سوره النحل وَ تَرَى الْفُلُكَ مَوْأَجِرَ فِيهِ وَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ فاختلفت الآيتان فى تقديم «فيه» على «مَوْأَجِرَ» و تأخيره منه و عطف «لِيَتَّبِعُوا» و عدمه.

و لعل النكته فى ذلك أن آيه النحل مصدره بكلمه التسخير فهى مسوقه لبيان كيفية التسخير و الأنسب لذلك تأخير «فيه» ليتعلق بمواخر و يشير الى مخر البحر فيصرح بالتسخير بخلاف ما هاهنا ثم التسخير له غايات كثيره منها ابتغاء الفضل و الأنسب لذلك عطف «لِيَتَّبِعُوا» على محذوف ليدل على عدم انحصار الغايه فى ابتغاء الفضل بخلاف ما هاهنا

فإن الغرض بيان أنه الرازق المدبر ليرتدع المكذبون- وقد تقدم ذكر تكذيبهم- عن تكذيبهم و يكفى فى ذلك بيان ابتغائهم الفضل غايه من غير حاجه الى العطف. والله أعلم.

وقال فى روح المعانى فى المقام: والذى يظهر لى فى ذلك أن آيه النحل سيقى لتعداد النعم كما يؤذن بذلك سوابقها و لواحقها و تعقيب الآيات بقوله سبحانه: «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا» فكان الأهم هناك تقديم ما هو نعمه و هو مخر الفلك للماء بخلاف ما هنا فإنه إنما سيقى استطرادا أو تتمه للتمثيل كما علمت آنفا فقدم فيه «فيه» إيذانا بأنه ليس المقصود بالذات ذلك، و كان الاهتمام بما هناك اقتضى أن يقال فى تلك الآيه: «وَ لَتَبْتَغُوا» بالواو و مخالفه ما هنا لذلك اقتضت ترك الواو فى قوله: «لَتَبْتَغُوا» انتهى.

قوله تعالى: يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى الخ؛ إيلاج الليل فى النهار قصر النهار بطول الليل و إيلاج النهار فى الليل قصر الليل بطول النهار، و المراد بالجمليتين الإشاره الى اختلاف الليل و النهار فى الطول و القصر المستمر فى أيام السنه بتغير الأيام و لذا عبر بقوله: «يُولِّجُ» الدال على استمرار التغير بخلاف جريان الشمس و القمر فإنه ثابت على حاله و لذا عبر فيه بقوله:

«وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى» و العنايه صوريه مسامحيه.

و قوله: ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ بِمَنْزِلِهِ النَّبِيُّ إِذَا كَانَ أَمْرٌ خَلَقَكُمْ وَ تَدْبِيرِكُمْ بَرًا وَ بَحْرًا وَ أَرْضًا وَ سَمَاءً مُنْتَسِبًا إِلَيْهِ مَدْبِرًا بِتَدْبِيرِهِ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الذى يملككم و يدبر أمركم.

و قوله: لَهُ الْمُلْكُ مُسْتَنْجٍ مِمَّا قَبْلَهُ وَ تَوَطُّهُ وَ تَمْهِيدٌ لِمَا بَعْدَهُ مِنْ قَوْلِهِ: «وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ» .

و قوله: وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ القَطْمِيرُ على ما قاله الراغب الأثر على رأس النواه و ذلك مثل للشىء الطفيف، و فى المجمع: القَطْمِيرُ لفافه النواه.

وقيل: الحبه فى بطن النواه انتهى و الكلام على أى حال مبالغه فى نفى أصل الملك.

و المراد بالذين تدعون من دون الله آلهتهم الذين كانوا يدعونها من الأصنام و أربابها.

قوله تعالى: **إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ** الخ؛ بيان و تقرير لما تقدم من قوله: **«وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ دُعَاءَكُمْ»** أى تصديق كونهم لا يملكون شيئاً أنكم إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم لأن الأصنام جمادات لا شعور لها و لا حس و أرباب الأصنام كالملائكه و القديسين من البشر فى شغل شاغل من ذلك على أنهم لا يملكون سمعا من عند أنفسهم فلا يسمعون إلا بإسماعه.

و قوله: **وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ** إذ لا قدره لهم على الاستجابة قولاً و لا فعلاً أما الأصنام فظاهر و أما أرباب الأصنام فقدرتهم من الله سبحانه و لن يأذن الله لأحد أن يستجيب أحداً يدعو بالربوبية قال تعالى: **لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا** (النساء / ١٧٢).

و قوله: **وَأَيُّومَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ** أى يردون عبادتكم اليكم و يتبرءون منكم بدلاً من أن يكونوا شفعاء لكم إذ تبرأ الذين أتبعوا من الذين أتبعوا (البقره / ١٦٦).

فألايه فى نفى الاستجابة و كفر الشركاء يوم القيامة فى معنى قوله: **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ** (الأحقاف / ٦).

و قوله: **وَلَا يُبْنِيكَ مِثْلُ خَبِيرٍ** أى لا يخبرك عن حقيقه الأمر مثل مخبر مثل مخبر خبير و هو خطاب خاص بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم بعد الإعراض عن خطابهم لعدم تفقههم بالبيان الحق أو خطاب عام فى صوره الخطاب الخاص خوطب به السامع أى من كان كقوله: **وَتَرَى الْفُلْكَ**

فيه مواخر الآيه السابقه؛ و قوله: وَ تَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ الْآيَةَ (الكهف ١٧)؛ و قوله: وَ تَحْسِبُهُمْ أُيُقَاظًا وَ هُمْ رُقُودٌ (الكهف ١٨).

[سوره فاطر (٣٥): الآيات ١٥ الى ٢٦]

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَ مَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَ لَا تَزُرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ مَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨) وَ مَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَ الْبَصِيرُ (١٩) وَ لَا الظُّلُمَاتُ وَ لَا النُّورُ (٢٠) وَ لَا الظُّلُّ وَ لَا الْحُرُورُ (٢١) وَ مَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَ لَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَ مَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَ بِالزُّبُرِ وَ بِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦)

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ لا ريب أن في الآيه نوع تمهيد بالنسبه الى الآيتين التاليتين يتبين بها مضمونها و هي مع ذلك مستقله في مفادها.

بيان ذلك: أن السياق يشعر بأن أعمال هؤلاء المكذبين كانت تكشف عن أنهم كانوا يتوهمون أن لهم أن يستغنوا عن الله سبحانه بعباده آلهتهم و أن لله اليهم حاجه و لذلك يدعوهم الى نفسه بالدعوه الإلهيه التي يقوم بها رسله فهناك غنى و فقر و لهم نصيب من الغنى و لله نصيب من الفقر تعالى عن ذلك.

فرد الله سبحانه زعمهم ذلك بقوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ» فقصر الفقر فيهم و قصر الغنى فيه سبحانه فكل الفقر فيهم و كل الغنى فيه سبحانه، و إذ كان الغنى و الفقر و هما الوجدان و الفقدان متقابلين لا يرتفعان عن موضوعهما كان لازم القصر السابق قصر آخر و هو قصرهم في الفقر و قصره تعالى في الغنى فليس لهم إلا الفقر و ليس له تعالى إلا الغنى.

فالله سبحانه غنى بالذات له أن يذهبهم و يستغنى عنهم و هم فقراء بالذات ليس لهم أن يستغنوا عنه بغيره.

و الملاك في غناه تعالى عنهم و فقرهم أنه تعالى خالقهم و مدبر أمرهم و اليه الإشاره بأخذ لفظ الجلاله في بيان فقرهم و بيان غناه، و الإشاره الى الخلق و التدبير في قوله: «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ» و كذا توصيفه تعالى بالحميد و هو المحمود في فعله الذي هو

فيعود معنى الكلام الى نحو من قولنا: يا أيها الناس أنتم بما أنكم مخلوقون مدبرون لله الفقراء الى الله فيكم كل الفقر و الحاجة و الله بما أنه الخالق المدبر، الغنى لا غنى سواه.

و تذييل الآيه بصفه الحميد للإشاره الى أنه غنى محمود الأفعال إن أعطى و إن منع لأنه إذا أعطى لم يعطه لبدل لغناه عن الجزاء و الشكر و كل بدل مفروض و إن منع لم يتوجه اليه لائمه إذ لا حق لأحد عليه و لا يملك منه شيء.

قوله تعالى: **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ** أى إن يرد إذهابكم يذهبكم أيها الناس لأنه غنى عنكم لا- يستتضر بذهابكم و يأت بخلق جديد يحمدونه و يثنون عليه لا- لحاجه منهم اليهم بل لأنه حميد و مقتضاه أن وجود فيحمد و ليس ذلك على الله بصعب لقدرة المطلقه لأنه الله عز اسمه.

فقد بان أن مضمون الآيه متفرعه على مضمون الآيه السابقه فقوله: **«إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ»** متفرع على كونه تعالى غنيا، وقوله: **«وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ»** متفرع على كونه تعالى حميدا، وقد فرع مضمون الجملتين فى موضع آخر على غناه و رحمته قال تعالى: **«وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ (الأنعام ١٣٣)»**.

قوله تعالى: **«وَلَا تَرَىٰ وَاِزْرَةً وَاِزْرَةً أُخْرَىٰ»** الخ؛ قال الراغب: الوزر-بفتحتين- الملجأ الذى يلتجأ اليه من الجبل، قال تعالى: **«كَأَلَا لَا وَاِزْرَةً»** و الوزر-بالكسر فالسكون- الثقل تشبيها بوزر الجبل، و يعبر به عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل قال تعالى: **«لِيُحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً»** الآيه؛ كقوله: **«لِيُحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ»**. انتهى فالمعنى لا تحمل نفس حامله للإثم إثم نفس أخرى و لازم ذلك أن لا تؤاخذ نفس إلا بما حملت من إثم نفسها و اكتسبته من الوزر.

فقوله: **«وَلَا تَرَىٰ وَاِزْرَةً وَاِزْرَةً أُخْرَىٰ»** أى لا تحمل نفس حامله للوزر و الإثم إثم

نفس أخرى حامله.

وقوله: وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهِمْ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ أَي و إن تدع نفس مثقله أثقلها حملها من الإثم غيرها إلى ما حملته من الإثم ليحمله عنها لا يستجاب لها ولا يحمل من حملها شيء و لو كان المدعو ذا قرى للداعى كالأب و الام و الأخ و الاخت.

وقوله: إِنَّهُمْ تَنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ أَي هؤلاء المكذبون لا ينتفعون بالإنذار و لا تتحقق معهم حقيقه الإنذار لأنهم مطبوع على قلوبهم إنما تنذر و ينفع إنذارك الذين يخشون ربهم بالغيب و يقيمون الصلاة التى هى أفضل العبادات و أهمها و بالجمله يؤمنون بالله و يعبدونه أى الذين يخشون ربهم بالغيب و يقيمون الصلاة إثر إنذارك لا أنهم يخشون ربهم و يصلون ثم يندرون بعد ذلك حتى يلزم تحصيل الحاصل فالآيه كقوله: إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا (يوسف ٣٦).

وقوله: وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ بدل الخشيته و إقامه الصلاة من التزكى للإشارة الى أن المطلوب بالدعوه و الإنذار هو التزكى و تزكيه النفس تلبسها بالخشية من الله على الغيب و إقامه الصلاة.

و فيه تقرير و تأكيد لما تقدم من كونه تعالى غنيا حميدا فهو تعالى لا ينتفع بما يدعو اليه من التزكى بل الذى تزكى فإنما يتزكى لنفع نفسه.

وقد ختم الآية بقوله: «وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ» للدلاله على أن تزكيه من تزكى لا يذهب سدى، فإن كلا من الفريقين صائرون الى ربهم لا محاله و هو يحاسبهم و يجازيهم فيجازى هؤلاء المتركين أحسن الجزاء.

قوله تعالى: وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَ الْبَصِيرُ الظاهر أنه عطف على قوله: «وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ» تعليل فى صورته التمثيل لعدم مساواه هؤلاء المتركين لاولئك المكذبين، و قيل:

عطف على قوله السابق: **وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ** .

قوله تعالى: **وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ** تكرر حروف النفي مره بعد مره فى الآيه و ما يليها لتأكيد النفي.

قوله تعالى: **وَلَا الظُّلُّ وَلَا الحَرُّورُ** شده حر الشمس على ما قيل وقيل:

هو السموم وقيل: السموم يهب نهارا و الحرور يهب ليلا و نهارا.

قوله تعالى: **وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ** الى آخر الآيه عطف على قوله: **«وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالبَصِيرُ»** و إنما كرر قوله: **«مَا يَسْتَوِي»** و لم يعطف **«الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ»** على قوله: **«الْأَعْمَى وَالبَصِيرُ»** كرابعته لطول الفصل فاعيد **«مَا يَسْتَوِي»** لثلا يغيب المعنى عن ذهن السامع فهو كقوله: **كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ** -الى أن قال- **كَيْفَ وَ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ** الخ (التوبه ٨).

و الجمل المتواليه المترتبه أعنى قوله: **«وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالبَصِيرُ»** -الى قوله- **«وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ»** تمثيلات للمؤمن و الكافر و تبعات أعمالهما.

و قوله: **إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ** و هو المؤمن كان ميتا فأحياه الله فأسمعه لما فى نفسه من الاستعداد لذلك قال تعالى: **أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا** (الأنعام / ١٢٢)، و أما النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلمَ فإنما هو وسيله و الهدى هدى الله.

و قوله: **«وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ»** أى الأموات و المراد بهم الكفار المطبوع على قلوبهم.

قوله تعالى: **إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ** قصر إضافى أى ليس لك إلا إنذارهم و أما هدايه من اهتدى منهم و إضلال من ضل و لم يهتد جزاء له بسىء عمله فإنما ذلك سبحانه. و لم يذكر البشير مع النذير مع كونه صَلَّى الله عليه و آله و سلمَ متلبسا بالوصفين معا لأن المقام مقام الإنذار فالمناسب هو التعرض لوصف الانذار مع أنه مذكور فى الآيه التاليه.

قوله تعالى: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ المفاد على ما يقتضيه السياق إنا أرسلناك بالتبشير والإنذار وليس بيدع مستغرب فما من أمه من الأمم إلا وقد خلا ومضى فيها نذير فذلك من سنن الله الجارية في خلقه.

و ظاهر السياق أن المراد بالنذير الرسول المبعوث من عند الله و فسر بعضهم النذير بمطلق من يقوم بالعظة والإنذار من نبي أو عالم غير نبي و هو خلاف ظاهر الآية.

نعم ليس من الواجب أن يكون نذير كل أمه من أفرادها فقد قال تعالى: «خَلَا فِيهَا» و لم يقل «خلا منها».

قوله تعالى: وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَ بِالزُّبُرِ وَ بِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ البينات هي الآيات المعجزة التي تشهد على حقيه الرسل، و الزبر جمع زبور و لعل المراد بها بقرينه مقابلتها للكتاب الصحائف و الكتب التي فيها ذكر الله تعالى من غير أن تتضمن الأحكام و الشرائع، و الكتاب المنير الكتاب المنزل من السماء المتضمن للشرائع ككتاب نوح و إبراهيم و تورا موسى و إنجيل عيسى عليهم السلام، و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ الْأَخْذِ كُنَايَه عَنِ التَّعْذِيبِ، وَ النُّكَيْرِ الْإِنْكَارِ، وَ الْبَاقِي ظَاهِرٌ (١).

[سوره فاطر (٣٥): الآيات ٢٧ الى ٣٨]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَ غَرَابِيبٌ سُودٌ (٢٧) وَ مِنَ النَّاسِ وَ الدَّوَابِّ وَ الْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَ عَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُؤْتُوا فِيهِمْ أَجُورَهُمْ وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) وَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَاتٌ عِدْنٍ يُدْخَلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لؤلُؤًا وَ لِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارٌ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَمُوتُوا وَ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ (٣٦) وَ هُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨)

ص: ٢١٨

بيان:

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا الخ؛ حجه أخرى على التوحيد و هو أن الله سبحانه ينزل الماء من السماء بالإمطار و هو أقوى العوامل المعينه لخروج الثمرات، و لو كان خروجها عن مقتضى طباع هذا العامل و هو واحد لكان جميعها ذا لون واحد فاختلف الألوان يدل على وقوع التدبير الإلهي.

و القول بأن اختلافها منوط باختلاف العوامل المؤثره فيها و منها اختلاف العناصر الموجوده فيها نوعا و قدرا و خصوصيه التأليف.

مدفوع بأن الكلام منقول حينئذ الى اختلاف نفس العناصر و هي منتهيه الى المادة المشتركه التي لا- اختلاف فيها فاختلف العناصر المكونه منها يدل على عامل آخر وراء المادة يدبر أمرها و يسوقها الى غايات مخلفه.

و الظاهر أن المراد باختلاف ألوان الثمرات اختلاف نفس ألوانها و يلزمه اختلافات أخر من حيث الطعم و الرائحة و الخواص، و قيل المراد باختلاف الألوان اختلاف الأنواع فكثيرا ما يطلق اللون فى الفواكه و الأطعمه على النوع كما يقال: قدم فلان ألوانا من الطعام و الفاكهه فهو من الكنايه، و قوله بعد: «وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَ حُمْرٌ» لا يخلو من تأييد للوجه الأول.

ص: ٢٢٠

و فى قوله: فَأَخْرَجْنَا بِهِ النخ؛ التفات من الغيبه الى التكلم. قيل: إن ذلك لكمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدره و الحكمه.

و نظير الوجه يجرى فى قوله السابق: «إِذَا أَرَسْنَاكَ بِالنَّحْقِ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا» و أما ما فى الآيه السابقه من قوله: «ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» فلعل الوجه فيه أن أمرهم الى الله لا يتخلل بينه و بينهم أحد حتى يشفع لهم أو ينصرهم فينجوا من العذاب.

و قوله: وَ مِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَ غَرَابِيبُ سُودٌ الجدد بالضم فالفتح جمع جده بضم الجيم و هى الطريقه و الجاده، و البيض و الحمر جمع ابيض و أحمر، و الظاهر أن قوله: «مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا» صفه لجدد و «أَلْوَانُهَا» فاعل «مُخْتَلِفًا» و لو كانت الجملة مبتدأ و خبرا ل قيل: مختلفه ألوانها كما قيل، و الغرابيب جمع غريب و هو الأسود الشديد السواد و منه الغراب و «سُودٌ» بدل أو عطف بيان لغرابيب.

و المعنى: أ لم تر أن من الجبال طرائق بيض و حمر و سود مختلف ألوانها، و المراد إما الطرق المسلوكة فى الجبال و لها ألوان مختلفه، و إما نفس الجبال التى هى خطوط مختلفه ممدوده على وجه الأرض بيض و حمر و سود مختلف ألوانها.

قوله تعالى: وَ مِنَ النَّاسِ وَ الدَّوَابِّ وَ الْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ أَى و من الناس و الدواب التى تدب فى الأرض و الأنعام كالإبل و الغنم و البقر بعض مختلف ألوانه بالبياض و الحمره و السواد كاختلاف الثمرات و الجبال فى ألوانها.

قوله تعالى: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ استئناف يوضح أن الاعتبار بهذه الآيات إنما يؤثر أثره و يورث الإيمان بالله حقيقه و الخشيه منه بتمام معنى الكلمه فى العلماء دون الجهال، و قد مر أن الإنذار إنما ينجح فيهم حيث قال: «إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ» فهذه الآيه كالموضحه لمعنى تلك تبين أن الخشيه حق الخشيه إنما توجد فى العلماء.

و المراد بالعلماء العلماء بالله و هم الذين يعرفون الله سبحانه بأسمائه و صفاته و أفعاله معرفه تامه تطمئن بها قلوبهم و تزيل و صمه الشك و القلق عن نفوسهم و تظهر آثارها في أعمالهم فيصدق فعلهم قولهم، و المراد بالخشيه حينئذ حق الخشيه و يتبعها خشوع في باطنهم و خضوع في ظاهرهم. هذا ما يستدعيه السياق في معنى الآيه.

□
و قوله: إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ يفيد معنى التعليل فلعزته تعالى و كونه قاهرا غير مقهور و غالبا غير مغلوب من كل جهه يخشاه العارفون، و لكونه غفورا كثير المغفره للآثام و الخطيئات يؤمنون به و يتقربون اليه و يشتاقون الى لقائه.

□
و قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ تلاوه الكتاب قراءه القرآن و قد أثنى عليها الله سبحانه، و إقامه الصلاه إدامه إتيانها و حفظها من أن تترك، و الإنفاق من الرزق سرا و علانيه بذل المال سرا تحذرا من الرياء و زوال الإخلاص في الإنفاق المسنون، و بذل المال علانيه ليشيع بين الناس كما في الإنفاق الواجب.

□
و قوله: يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ أَي لَن تَهْلِك بالخسران، و ذكر بعضهم أن قوله:

«يَرْجُونَ» الخ؛ خبر إن في صدر الآيه و عند بعضهم الخبر مقدر يتعلق به قوله: «لِيُؤْفِقَهُمُ» الخ؛ «أى فعلوا ما فعلوا ليؤفقيهم أجورهم» الخ.

قوله تعالى: لِيُؤْفِقَهُمُ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ متعلق بقوله: «يَتْلُونَ» و ما عطف عليه في الآيه السابقه أى أنهم عملوا ما عملوا لأن يؤفقيهم و يؤتيهم إيتاء تاما كاملا أجورهم و ثوابات أعمالهم.

□
و قوله: وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ يمكن أن يراد بهذه الزيادة تضعيف الثواب أضعافا كما في قوله: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَلِهَا (الأنعام ١٦٠) و قوله: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٍ وَ اللَّهُ يُضَاعِفُ

لِمَنْ يَشَاءُ (البقره ٢٦١/)، و يمكن أن يراد بها زياده ليست من سنخ ثواب الأعمال كما فى قوله: لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَ لَمَدِينًا مَزِيدٌ (ق ٣٥/).

و قوله: إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ تعليل لمضمون الآيه و زياده فهو تعالى لكونه غفورا يغفر زلاتهم و لكونه شكورا يشبههم و يزيد من فضله.

قوله تعالى: وَ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ ضَمِيرِ الْفَصْلِ وَ اللام فى قوله: «هُوَ الْحَقُّ» للتأكيد لا للقتصر أى هو حق لا يشوبه باطل.

قوله تعالى: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ يقال: أُوْرثته مالا كذا أى تركه فيهم يقومون بأمره بعده و قد كان هو القائم بأمره المتصرف فيه، و كذا إراث العلم و الجاه و نحوهما تركه عند الغير يقوم بأمره بعد ما كان عند غيره ينتفع به فايراث القوم الكتاب تركه عندهم يتناولونه خلفا عن سلف و ينتفعون به.

و تصح هذه النسبه و إن كان القائم به بعض القوم دون كلهم، قال تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَ أَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ هُدًى وَ ذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ (المؤمن ٥٤/)، و قال: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَ الرُّبَائِيُونَ وَ الْأَنْجِبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ (المائدة ٤٤/)، و قال: وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (الشورى ١٤/). فبنو إسرائيل أُوْرثوا الكتاب و إن كان المؤدون حقه القائمون بأمره بعضهم لا جميعهم.

و المراد بالكتاب فى الآيه على ما يعطيه السياق هو القرآن الكريم كيف؟ و قوله فى الآيه السابقه: «وَ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ» نص فيه، فاللام فى الكتاب للعهد دون الجنس فلا يعبأ بقول من يقول: إن اللام للجنس و المراد بالكتاب مطلق الكتاب السماوى المنزل على الأنبياء.

و الاصطفاء أخذ صفوه الشئ و يقرب من معنى الاختيار و الفرق أن الاختيار أخذ الشئ

من بين الأشياء بما أنه خيرها و الاصطفاء أخذه من بينها بما أنه صفوتها و خالصها.

و قوله: مِنْ عِبَادِنَا يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ «مِنْ» لِلتَّبِينِ أَوْ لِلابْتِدَاءِ أَوْ لِلتَّبَعِيضِ الْأَقْرَبِ إِلَى الذَّهْنِ أَنْ يَكُونَ بَيَانِيهِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: وَ سَلَامٌ عَلَيَّ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى (النمل / ٥٩).

و قوله: فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ضَمِيرُ «مِنْهُمْ» رَاجِعًا إِلَى «الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا» فَيَكُونُ الطَّوَائِفُ الثَّلَاثُ الظَّالِمِ لِنَفْسِهِ وَ الْمُقْتَصِدِ وَ السَّابِقِ بِالْخَيْرَاتِ شُرَكَاءَ فِي الْوَرَاثَةِ وَ إِنْ كَانَ الْوَارِثُ الْحَقِيقِيُّ الْعَالَمُ بِالْكِتَابِ وَ الْحَافِظُ لَهُ هُوَ السَّابِقُ بِالْخَيْرَاتِ.

و يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ رَاجِعًا إِلَى عِبَادِنَا- مِنْ غَيْرِ إِفَادِهِ الْإِضَافَةَ لِلتَّشْرِيفِ- فَيَكُونُ قَوْلُهُ:

«فَمِنْهُمْ» مَفِيدًا لِلتَّلْغِيلِ وَ الْمَعْنَى إِنَّمَا أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ بَعْضَ عِبَادِنَا وَ هُمُ الْمُصْطَفُونَ لِأَنَّ جَمِيعَ الْعِبَادِ لِأَنَّ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ هُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سَابِقٌ وَ لَا يَصْلُحُ الْكُلُّ لِلْوَرَاثَةِ.

وَ يُمْكِنُ تَأْيِيدُ أَوَّلِ الْإِحْتِمَالَيْنِ بِأَنَّ لَا مَانِعَ مِنْ نَسْبِهِ الْوَرَاثَةِ إِلَى الْكُلِّ مَعَ قِيَامِ الْبَعْثِ بِهَا حَقِيقَةً كَمَا نَجِدُ نَظِيرَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَ أَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (المؤمن / ٥٤).

وَ مَا فِي الْآيَةِ مِنَ الْمَقَابَلَةِ بَيْنِ الظَّالِمِ لِنَفْسِهِ وَ الْمُقْتَصِدِ وَ السَّابِقِ بِالْخَيْرَاتِ يَعْنِي أَنَّ الْمُرَادَ بِالظَّالِمِ لِنَفْسِهِ مَنْ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ السَّيِّئَاتِ وَ هُوَ مُسْلِمٌ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ لِكَوْنِهِ مُصْطَفَى وَ وَارِثًا، وَ الْمُرَادُ بِالْمُقْتَصِدِ الْمُتَوَسِّطِ الَّذِي هُوَ فِي قِصْدِ السَّبِيلِ وَ سِوَاءِ الطَّرِيقِ وَ الْمُرَادُ بِالسَّابِقِ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ مِنْ سَبَقِ الظَّالِمِ وَ الْمُقْتَصِدِ إِلَى دَرَجَاتِ الْقُرْبِ فَهُوَ أَمَامَ غَيْرِهِ بِإِذْنِ اللَّهِ سَبَبُ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ قَالَ تَعَالَى: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (الواقعه / ١١).

و قوله تعالى: ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ أَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْإِيرَاثِ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ مِنَ اللَّهِ لَا دَخَلَ لِلْكَسْبِ فِيهِ.

قوله تعالى: جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ

وَأُولَئِكَ وَبِئْسَ لَهُمُ فِيهَا حَرِيرٌ التحليه هي التزيين و الأساور جمع أسوره و هي جمع سوار بكسر السين قال الراغب: سوار المرأه
معرب و أصله دستواره. انتهى.

و قوله: «جَدَّاتٌ عَيْدِنٌ» الخ؛ ظاهره أنه بيان للفضل الكبير قال في المجمع: هذا تفسير للفضل كأنه قيل: ما ذلك الفضل؟ فقال: هي
جنات أى جزاء جنات أو دخول جنات و يجوز أن يكون بدلا من الفضل كأنه قال: ذلك دخول جنات. انتهى. و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ» قيل: المراد بالحزن الذى يحمدون الله على إذهابه
بإدخالهم الجنة الحزن الذى كان يتوجه اليهم فى الحياه الدنيا و ما يحف بها من الشدائد و النوائب.

و قيل: المراد به الحزن الذى كان قد أحاط بهم بعد الارتجال من الدنيا، و قيل الدخول فى جنه الآخره إشفاقا مما اكتسبوه من
السيئات.

و على هذا فالقول قول الظالم لنفسه منهم أو قوله و قول المقتصد و أما السابق بالخيرات منهم فلا سيئه فى صحيفه أعماله حتى
يعذب بها. و هذا الوجه أنسب لقولهم فى آخر حمدهم:

«إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ» .

قوله تعالى: «الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ» المقامه الإقامه، و دار المقامه المنزل الذى
لا خروج منه و لا تحول.

و النصب بفتحيتين التعب و المشقه، و اللغوب بضم اللام: العى و التعب فى طلب المعاش و غيره.

و المعنى: الذى جعلنا حالين فى دار الخلود من فضله من غير استحقاق منا عليه لا يمسنا فى هذه الدار و هي الجنة مشقه و تعب و
لا يمسنا فيها عى و لا كلال فى طلب ما نريد أى إنا لنا فيها ما نشاء.

و فى قوله: «مِنْ فَضْلِهِ» مناسبه خاصه مع قوله السابق: «ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» .

قوله تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ إِلَىٰ آخِرِ آيَةِ اللَّامِ فِي «لَهُمْ» للاختصاص و يفيد كون النار جزاء لهم لا ينفك عنهم، و قوله: «لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا» اى لا يحكم عليهم بالموت حتى يموتوا فهم احياء على ما هم فيه من شدة العذاب و لا يخفف عنهم من عذاب النار كذلك نجزي كل كفور شديد الكفران أو كثيره.

قوله تعالى: وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَىٰ آخِرِ آيَةِ؛ فى الجمع:

الاصطراخ الصياح و النداء بالاستغاثة افتعال من الصراخ انتهى.

و قوله: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَىٰ آخِرِ آيَةِ؛ بيان لاصطراخهم، و قوله: «أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ» الخ؛ جواب اصطراخهم و قوله: «فَذُوقُوا» و قوله: «فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» كل منهما متفرع على ما قبله.

و المعنى، و هؤلاء الذين فى النار من الكفار يصطرخون و يصيحون بالاستغاثة فيها قائلين: ربنا أخرجنا من النار نعمل صالحا غير سيئ غير الذى كنا نعمل فيقال لهم ردا عليه: -كلا- أو لم نعلمكم عمرا يتذكر فيه من تذكر و جاءكم النذير فأنذركم هذا العذاب فلم تتذكروا و لم تؤمنوا؟ فذوقوا العذاب فما للظالمين من نصير ينصروهم ليتخلصوا من العذاب.

قوله تعالى: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَىٰ آخِرِ آيَةِ؛ بيان لاصطراخهم، و قوله: «أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ» الخ؛ جواب اصطراخهم و قوله: «فَذُوقُوا» و قوله: «فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» كل منهما متفرع على ما قبله.

و المعنى، و هؤلاء الذين فى النار من الكفار يصطرخون و يصيحون بالاستغاثة فيها قائلين: ربنا أخرجنا من النار نعمل صالحا غير سيئ غير الذى كنا نعمل فيقال لهم ردا عليهم: -كلا- أو لم نعلمكم عمرا يتذكر فيه من تذكر و جاءكم النذير فأنذركم هذا العذاب فلم تتذكروا و لم تؤمنوا؟ فذوقوا العذاب فما للظالمين من نصير ينصروهم ليتخلصوا من

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ فيعاملكم بما في باطنكم من الاعتقاد و آثار الأعمال و يحاسبكم عليه سواء وافق ظاهركم باطنكم أو خالف قال تعالى: إِنَّ تَبَدُّوا مَّا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوا بِحَسَبِكُمْ بِهِ اللَّهُ (البقره ٢٨٤/٧)، وقال: يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (الطارق ٩/١).

[سوره فاطر (٣٥): الآيات ٣٩ الى ٤٥]

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا حَسَارًا (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمُ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسِكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) وَ أَفَسِمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِخْدَىٰ الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) إِسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرَ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَ لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَ لَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥)

ص: ٢٢٧

١ - ١. فاطر ٢٧-٣٨: بحث روائي حول قوله تعالى: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ»؛ الذين اصطفاهم الله من عباده؛ انواع العلم.

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ الخ؛ الخلائف جمع خليفه، وكون الناس خلائف في الأرض هو قيام كل لاحق منهم مقام سابقه و سلطته على التصرف و الانتفاع منها كما كان السابق مسلطاً عليه، و هم إنما نالوا هذه الخلافة من جهة نوع الخلقه و هو الخلقه من طريق النسل و الولاده فإن هذا النوع من الخلقه يقسم المخلوق الى سلف و خلف.

فجعل الخلافة الأرضيه نوع من التدبير مشوب بالخلق غير منفك عنه و لذلك استدل به على توحيده تعالى في ربوبيته لأنه مختص به تعالى لا مجال لدعواه لغيره.

فقوله: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ حجه على توحيده تعالى في ربوبيته انتفائها عن شركائهم: تقريره أن الذي جعل الخلافة الأرضيه في العالم الإنساني هو

ربهم المدبر لأمرهم، وجعل الخلافه لا ينفك عن نوع الخلقه فخالق الإنسان هو رب الإنسان لكن الخلاق هو الله سبحانه حتى عند الخصم فالله هو رب الإنسان.

وقوله: فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ أَى فالله سبحانه هو رب الإنسان فمن كفر و ستر هذه الحقيقه و نسب الربوبيه الى غيره تعالى فعلى ضرره كفره.

وقوله: وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا بيان لكون كفرهم عليهم و هو أن كفرهم يورث لهم مقتا عند ربهم و المقت شده البغض لأن فيه إعراضا عن عبوديته و استهانته بساحته، و يورث لهم خسارا فى أنفسهم لأنهم بدلوا السعاده الإنسانيه شقاء و وبالا سيصيبهم فى مسيرهم و منقلبهم الى دار الجزاء.

و إنما عبر عن أثر الكفر بالزيادة لأن الفطره الإنسانيه بسيطه ساذجه واقعه فى معرض الاستكمال و الازدياد فإن أسلم الإنسان زاده ذلك كمالا و قربا من الله و إن كفر زاده ذلك مقتا عند الله و خسارا.

و إنما قيد المقت بقوله: «عِنْدَ رَبِّهِمْ» دون الخسار لأن الخسار من تبعات تبديل الإيمان كفرا و السعاده شقاء و هو أمر عند أنفسهم و أما المقت و شده البغض فمن عند الله سبحانه.

و الحب و البغض المنسوبان الى الله سبحانه من صفات الأفعال و هى معان خارجة عن الذات غير قائمه بها، و معنى حبه تعالى لأحد انبساط رحمته عليه و انجذابها اليه و بغضه تعالى لأحد انقباض رحمته منه و ابتعادها عنه.

قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُفِّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ إضافة الشركاء اليهم بعنايه أنهم يدعون أنهم شركاء لله فهى إضافة لاميه مجازيه.

و فى الآيه تلقين النبى صلى الله عليه و آله و سلم الحجه على نفى ربوبيه آلهتهم الذين كانوا يعبدونهم و تقرير الحجه أنهم لو كانوا أربابا آلهه من دون الله لكان لهم شىء من تدبير العالم فكانوا خالقين لما

يدبرونه لأن الخلق والتدبير لا ينفك أحدهما عن الآخر و لو كانوا خالقين لدل عليه دليل و الدليل إما من العالم أو من قبل الله سبحانه أما العالم فلا شيء منه يدل على كونه مخلوقا لهم و لو بنحو الشركه و هو قوله: «أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ» .

و أما من قبله تعالى فلو كان لكان كتابا سماويا نازلا من عنده سبحانه يعترف بربوبيتهم و يجوز للناس أن يعبدوهم و يتخذوهم آلهه، و لم ينزل كتاب على هذه الصفه و هم معترفون بذلك و هو قوله: «أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ» .

و إنما عبر عن نفى خالقيتهم في الأرض بقوله: «أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ» و لم يقل:

أنبئوني ألهم شرك في الأرض؟ و عبر في السماوات بقوله: «أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ» و لم يقل:

أم ما ذا خلقوا من السماوات.

لأن المراد بالأرض-على ما يدل عليه سياق الاحتجاج-العالم الأرضي و هو الأرض بما فيها و ما عليها و المراد بالسماوات العالم السماوي المشتمل على السماوات و ما فيها و ما عليها فقوله: «مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ» في معنى ألهم شرك في الأرض و لا يكون إلا بخلق شيء منها، و قوله: «أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ» في معنى أم ما ذا خلقوا من السماوات، و قد اكتفى بذكر الخلق في جانب الأرض إشارة الى أن الشرك في الربوبية لا يكون إلا بخلق.

و قوله: «أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ أَىٰ بَل آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ أَىٰ عَلَىٰ حُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ مِنَ الْكِتَابِ أَنْ لَشُرَكَائِهِمْ مَعْنَاهُ وَ ذَلِكَ بِدَلَالَتِهِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ لِلَّهِ» .

و قد قال: «أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا» و لم يقل: أم لهم كتاب و نحو ذلك ليتأكد النفي و الإنكار فإن قولنا: أم لهم كتاب و نحو ذلك إنكار لوجود الكتاب لكن قوله: «أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا» إنكار لوجود الكتاب ممن ينزل الكتاب لو نزل.

و قد تبين بما تقدم أن ضمير الجمع في «آتَيْنَاهُمْ» و في «فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ» للمشركين فلا يعبا بما قيل: إن الضمير للشركاء.

وقوله: يَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا إضراب عما تقدم من الاحتجاج بأن الذى حملهم على الشرك ليس هو حجه تحملهم عليه و يعتمدون عليها بل غرور بعضهم بعضا بوعده الشفاعة و الزلفى فأسلافهم يغرون أخلافهم و رؤسائهم و أئمتهم يغرون مرءوسيهم و تابعيهم و يعدونهم شفاعة الشركاء عند الله سبحانه و لا حقيقه لها.

و حجه الآيه عامه على المشركين عبده الأصنام و هم الذين يعبدون الملائكه و الجن و قد يسيء البشر و يتخذون لهم أصناما يتوجهون إليها، و على الذين يعبدون روحاني الكواكب و يتوجهون الى الكواكب ثم يتخذون للكواكب أصناما، و على الذين يعبدون الملائكه و العناصر من غير أن يتخذوا لها أصناما كما ينقل عن الفرس القدماء، و على الذين يعبدون بعض البشر كالنصارى للمسيح عليه السلام.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَيْتَ كَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ الخ؛ قيل: إن الآيه استئناف مقرر لغايه قبح الشرك و هو له أى أن الله تعالى يحفظ السماوات و الأرض كراهه أن تزولا- أو لثلا- تزولا- و تضمحلا لأن الممكن كما يحتاج الى الواجب حال إيجاده يحتاج اليه حال بقاءه. انتهى.

و الظاهر أنه تعالى لما استدل على توحيده فى الربوبيه يجعل الخلافه فى النوع الإنسانى بقوله: «هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ» الآيه؛ ثم نفى الشركه مطلقا بالحجه عمم الحجه بحيث تشمل الخلق كله أعنى السماوات و الأرض فاحتج على توحيده بإبقاء الخلق بعد إحداثه فإن من البين الذى لا يرتاب فيه أن حدوث الشئ و أصل تلبسه بالوجود بعد العدم غير بقاءه و تلبسه بالوجود بعد الوجود على نحو الاستمرار فبقاء الشئ بعد حدوثه يحتاج الى إيجاد بعد إيجاد على نحو الاتصال و الاستمرار.

و إبقاء الشئ بعد إحداثه كما أنه إيجاد بعد الإيجاد كذلك هو تدبير لأمره فإنك إن دقت النظر وجدت أن النظام الجارى فى الكون إنما يجرى بالإحداث و الإبقاء فقط. و الموجد

و الخالق هو الله سبحانه حتى عند الخصم فالله سبحانه هو الخالق المدبر للسموات و الأرض وحده لا شريك له.

فقوله: إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا بِمَعْنَاهُ الْمَعْرُوفِ وَقَوْلُهُ: «أَنْ تَزُولَا» -و تقديره كراهه أن تزولا أو لئلا تزولا-متعلق به، وقيل:

الإمساك بمعنى المنع أو بمعنى الحفظ و على أى حال فالإمساك كناية عن الإبقاء و هو الإيجاد بعد الإيجاد على سبيل الاتصال و الاستمرار، و الزوال هو الاضمحلال و البطلان.

و نقل عن بعضهم أنه فسر الزوال بالانتقال المكانية، و المعنى أن الله يمنع السموات و الأرض من أن ينتقل شىء منهما عن مكانه الذى استقر فيه فيرتفع أو ينخفض انتهى و الشأن فى تصور مراده تصورا صحيحا.

و قوله: وَ لَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَيْتَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ السِّيَاقُ يَعْطَى أَنْ الْمُرَادُ بِالزَّوَالِ هَاهُنَا الْإِشْرَافُ عَلَى الزَّوَالِ إِذْ نَفْسُ الزَّوَالِ لَا يَجْتَمِعُ مَعَهُ الْإِمْسَاكُ وَ الْمَعْنَى وَ أَقْسَمُ لَنْ أَشْرَفْتَا عَلَى الزَّوَالِ لَمْ يَمْسِكْهُمَا أَحَدٌ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِذْ لَا مَفِيزُ لِلْوُجُودِ غَيْرِهِ وَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالزَّوَالِ مَعْنَاهُ الْحَقِيقَى وَ الْمُرَادُ بِالْإِمْسَاكِ الْقُدْرَةُ عَلَى الْإِمْسَاكِ وَ قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ «مِنْ» الْأُولَى زَائِدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ وَ الثَّانِيَةَ لِلْإِبْتِدَاءِ، وَ ضَمِيرُ «مِنْ بَعْدِهِ» رَاجِعٌ إِلَيْهِ تَعَالَى، وَ قِيلَ: رَاجِعٌ إِلَى الزَّوَالِ.

و قوله: إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا فَهُوَ لِحَلْمِهِ لَا يَعَجَلُ إِلَى أَمْرٍ وَ لِمَغْفِرِهِ يَسْتَرْجِعُ الْجِهَاتِ الْعَدَمَ فِي الْأَشْيَاءِ، وَ مَقْتَضَى الْأَسْمِينَ أَنْ يَمْسُكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا إِلَى أَجْلِ مَسْمَى.

و قال فى إرشاد العقل السليم: إنه كان حلِيمًا غفورًا غير معاجل بالعقوبه التى تستوجبها جنایاتهم حيث أمسكهما و كانتا جديرتين بأن تهذا هدا حسبما قال تعالى: تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ انتهى.

قوله تعالى: وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى

مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا قَالَ الرَّاعِبُ: الْجَهْدُ -بِفَتْحِ الْجِيمِ- وَالْجَهْدُ -بِضَمِّهَا- الطَّاقَةُ وَالْمَشَقَّةُ -إِلَى أَنْ قَالَ- وَقَالَ تَعَالَى: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ» أَي حَلَفُوا وَاجْتَهَدُوا فِي الْحَلْفِ أَنْ يَأْتُوا بِهِ عَلَى أْبْلَغِ مَا فِي وَسْعِهِمْ. انْتَهَى. وَقَالَ: النُّفْرُ الْانْتِزَاعُ عَنِ الشَّيْءِ وَالْإِشْرَاقُ إِلَى الشَّيْءِ كَالْفِرْعِ إِلَى الشَّيْءِ وَعَنِ الشَّيْءِ يَقَالُ: نَفَرَ عَنِ الشَّيْءِ نَفُورًا قَالَ تَعَالَى: «مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا» انْتَهَى.

قيل (1): بلغ قريشا قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى أنتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن آتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الامم انتهى، و سياق الآية يصدق هذا النقل و يؤيده.

فقوله: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ الضمير لقريش و قد حلفوا هذا الحلف قبل بعثه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بدليل قوله بعد: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ»، و المقسم به قوله: «لئن جاءهم نذيرٌ» الخ.

و قوله: «لئن جاءهم نذيرٌ ليكونن أهدى من إحدى الأمم أي إحدى الامم التي جاءهم نذير كاليهود والنصارى و إنما قال: «ليكونن أهدى من إحدى الأمم» و لم يقل: أهدى منهم لأن المعنى أنهم كانوا أمه ما جاءهم نذير ثم لو جاءهم نذير كانوا أمه ذات نذير كإحدى تلك الامم المنذره ثم بتصديق النذير يصيرون أهدى من التي ماثلوها و هو قوله: «أهدى من إحدى الأمم» فافهمه.

و قوله: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا المراد بالنذير النبي صلى الله عليه وآله وسلم و النفور التباعد و الهرب.

قوله تعالى: اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَ مَكْرَ السَّيِّئِ وَ لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ

ص: ٢٣٣

١-١). رواه في الدر المنثور عن أبي هلال و عن ابن جريج.

إِلَّا بِأَهْلِهِ قَالَ الرَّاعِبُ: الْمَكْرُ صَرْفُ الْغَيْرِ عَمَّا يَقْصِدُهُ بِحِيلِهِ، وَذَلِكَ ضَرْبَانِ: مَكْرٌ مَحْمُودٌ وَذَلِكَ أَنْ يَتَحَرَى بِذَلِكَ فَعَلَّ حَمِيلٌ وَ عَلَى ذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: «وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ» وَ مَذْمُومٌ وَ هُوَ أَنْ يَتَحَرَى بِهِ فَعَلَّ قَبِيحٌ قَالَ تَعَالَى: «لَا يَحِقُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ» أَنْتَهَى.

وَ قَالَ أَيْضًا: قَالَ عَزَّ وَ جَلَّ: «وَ لَا يَحِقُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ» أَى لَا يَنْزِلُ وَ لَا يَصِيبُ.

قِيلَ: وَ أَصْلُهُ حَقُّ فِقْلَبٍ نَحْوِ زَلٍ وَ زَالَ وَ قَدْ قُرئَ فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ وَ أَزَالَهُمَا وَ عَلَى هَذَا ذَمُّهُ وَ ذَامَهُ. أَنْتَهَى.

وَ قَوْلُهُ: «اسْتِكْبَارًا فِي الْمَأْرُضِ» مَفْعُولٌ لِأَجَلِهِ لِقَوْلِهِ: «نُفُورًا» أَى نَفَرُوا عَنْهُ وَ تَبَاعَدُوا لِلْاِسْتِكْبَارِ فِي الْأَرْضِ وَ قَوْلُهُ: «وَ مَكْرُ السَّيِّئِ» مَعْطُوفٌ عَلَى «اسْتِكْبَارًا» وَ مَفْعُولٌ لِأَجَلِهِ مِثْلَهُ، وَ قِيلَ: مَعْطُوفٌ عَلَى «نُفُورًا» وَ الْإِضَافَةُ فِيهِ مِنْ إِضَافَةِ الْمَوْصُوفِ إِلَى الصِّفَةِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ ثَانِيًا: «وَ لَا يَحِقُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ» الْخ.

وَ قَوْلُهُ: «وَ لَا يَحِقُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ» أَى لَا يَصِيبُ وَ لَا يَنْزِلُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ وَ لَا يَسْتَقِرُّ إِلَّا فِيهِ، فَانِ الْمَكْرُ السَّيِّئُ وَ إِنْ كَانَ رِبْمَا أَصَابَ بِهِ مَكْرُوهٌ لِلْمَمْكُورِ بِهِ، لَكِنَّهُ سَيُزُولُ وَ لَا يَدُومُ إِلَّا أَنْ أَثَرَهُ السَّيِّئِ بِمَا أَنَّهُ الْمَكْرُ سَيِّئٌ يَبْقَى فِي نَفْسِ الْمَاكِرِ وَ سَيُظْهِرُ فِيهِ وَ يَجْزَى بِهِ إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَ إِمَّا فِي الْآخِرَةِ الْبَتَّةَ، وَ لِهَذَا فَسَّرَ الْآيَةَ فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ بِقَوْلِهِ: وَ الْمَعْنَى لَا يَنْزِلُ جِزَاءَ الْمَكْرِ السَّيِّئِ إِلَّا بِمَنْ فَعَلَهُ.

وَ الْكَلَامُ مَرْسَلٌ إِرسَالِ الْمِثْلِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنَّمَا بَغَيْكُمُ عَلِيٌّ أَنفُسِكُمْ» (يُونُسُ ٢٣) / فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَيَّ نَفْسِهِ (الْفَتْحُ ١٠).

وَ قَوْلُهُ: «فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُبَّتَ الْأَوَّلِينَ النَّظَرَ وَ الْاِنْتِظَارَ بِمَعْنَى التَّوَقُّعِ وَ الْفَاءُ لِلتَّفْرِيعِ وَ الْجُمْلَةُ اسْتِنْتَاجٌ مِمَّا تَقَدَّمَهَا وَ الْاِسْتِفْهَامُ لِلْاِنْتِكَارِ وَ الْمَعْنَى وَ إِذْ مَكْرُوا الْمَكْرَ السَّيِّئَ وَ الْمَكْرَ السَّيِّئَ يَحِقُّ بِأَهْلِهِ فَهَمْ لَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا السَّنَةَ الْجَارِيَةَ فِي الْأَمَمِ الْمَاضِينَ وَ هِيَ الْعَذَابُ الْإِلَهِيُّ النَّازِلُ بِهِمْ إِثْرَ مَكْرِهِمْ وَ تَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ.

وقوله: فَلَنْ تَجِدَ لِسِنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسِنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا تبديل السنه أن توضع العافيه و النعمه موضع العذاب، و تحويلها أن ينقل العذاب من قوم يستحقونه الى غيرهم، و سنه الله لا- تقبل تبديلا و لا تحويلا لأنه تعالى على صراط مستقيم لا يقبل حكمه تبعضا و لا استثناء.

و قد أخذ الله بالعذاب هؤلاء المشركين الماكرين يوم بدر فقتل عامتهم. و الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أو لكل سامع.

قوله تعالى: أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً استشهاد على سنته الجاربه فى الامم الماضيه و قد كانوا أشد قوه من مشركى مكه فأخذهم الله بالعذاب لما مكروا و كذبوا.

قوله تعالى: وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا تتميم لسابق البيان لمزيد إنذارهم و تخويفهم، و المحصل ليتقوا الله و ليؤمنوا به و لا يمكروا به و لا يكذبوا فإن سنه الله فى ذلك هى العذاب كما يشهد به ما جرى فى الامم السابقه من الإهلاك و التعذيب و قد كانوا أشد قوه منهم و الله سبحانه لا يعجزه شىء فى السماوات و الأرض بقوه أو مكر فإنه عليم على الإطلاق لا يغفل و لا يجهل حتى ينخدع بمكر أو حيله قد ير على الإطلاق لا يقاومه شىء.

قوله تعالى: وَ لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ الْخ؛ المراد بالمؤاخذه الدنيويه كما يدل عليه قوله الآتى: «وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى» الْخ؛ و المراد بالناس جميعهم فإن الآيه مسبوقة بذكر مؤاخذه بعضهم و هم الماكرون المكذبون بآيات الله، و المراد بما كسبوا المعاصى التى اكتسبوها بقريته المؤاخذه التى هو العذاب و قد قال فى نظيره الآيه من سورة النحل: وَ لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ (النحل ٦١).

و المراد بظهرها ظهر الأرض لأن الناس يعيشون عليه على أن الأرض تقدم ذكرها فى الآيه السابقه.

و المراد بالدابه كل ما يدب فى الأرض من إنسان ذكر أو أنثى أو كبير أو صغير و احتمال أن يكون المراد كل ما يدب فى الأرض من حيوان و إهلاك غير الإنسان من أنواع الحيوان إنما هو لكونها مخلوقه للإنسان كما قال تعالى: خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً (البقره ٢٩).

و قول بعضهم: ذلك لشؤم المعاصى و قد قال تعالى: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً مَدْفُوعٌ بِأَنْ شِئِمَ الْمَعْصِيَةَ لَا يَتَعَدَى الْعَاصِيَ إِلَى غَيْرِهِ وَ قد قال تعالى: وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (فاطر ١٨) و أما الآيه أعنى قوله: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً (الأنفال ٢٥) فمدلولها على ما تقدم من تفسيرها اختصاص الفتنة بالذين ظلموا منهم خاصه لا عمومها لهم و لغيرهم فراجع.

و قوله: وَ لَكِنْ يُؤَخَّرُهُمْ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى وَ هو الموت أو القيامة و قوله: «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا» أى فيجازى كلا بما عمل فإنه بصير بهم عليم بأعمالهم لأنهم عباده و كيف يمكن أن يجهل الخالق خلقه و الرب عمل عبده؟

و قد بان بما تقدم أن قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا» من وضع السبب موضع المسبب الذى هو الجزاء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ; یس (۱) وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (۲) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (۳) عَلَيَّ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۴) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (۵) لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (۶) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَيَّ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (۷) إِذَا جَعَلْنَا فِيهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (۸) وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (۹) وَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (۱۰) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذُّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ (۱۱) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَرَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (۱۲)

غرض السوره بيان الاصول الثلاثة للدين فهي تبتدىء بالنبوه و تصف حال الناس فى قبول الدعوه و ردها و أن غايه الدعوه الحقه إحياء قوم بر كوبهم صراط السعاده و تحقيق القول على آخرين و بعباره أخرى تكميل الناس فى طريقى السعاده و الشقاء.

ثم تنتقل السوره الى التوحيد فتعد جملة من آيات الوحدانية ثم تنتقل الى ذكر المعاد فتذكر بعث الناس للجزاء و امتياز المجرمين يومئذ من المتقين و تصف ما تؤل اليه حال كل من الفريقين.

ثم ترجع الى ما بدأت فتلخص القول فى الاصول الثلاثة و تستدل عليها و عند ذلك تختتم السوره.

و من غرر الآيات فيها قوله تعالى: **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** فالسوره عظيمه الشأن تجمع أصول الحقائق و أعراقها و قد ورد من طرق العامه و الخاصه أن لكل شىء قلبا و قلب القرآن يس (١).

ص: ٢٣٨

١- (١). رواه الصدوق فى ثواب الاعمال عن ابى عبد الله عليه السلام و السيوطى فى الدر المنثور عن أنس و أبى هريره و معقل بن يسار عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها.

قوله تعالى: يس، وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ -الى قوله- فَهُمْ غَافِلُونَ إقسام منه تعالى بالقرآن الحكيم على كون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله و سَلَّمَ من المرسلين، و قد وصف القرآن بالحكيم لكونه مستقرا فيه الحكمه و هى حقائق المعارف و ما يتفرع عليها من الشرائع و العبر و المواعظ.

و قوله: إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ مقسم عليه كما تقدم.

و قوله: عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ خبر بعد خبر لقوله: «إِنَّكَ»، و تنكير الصراط -كما قيل- للدلاله على التفخيم و توصيفه بالمستقيم للتوضيح فإن الصراط هو الطريق الواضح المستقيم، و المراد به الطريق الذى يوصل عابريه الى الله تعالى أى الى السعاده الإنسانيه التى فيها كمال العبوديه لله و القرب، و قد تقدم فى تفسير الفاتحه بعض ما ينفع فى هذا المقام من الكلام.

و قوله: تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ وصف للقرآن مقطوع عن الوصفيه منصوب على المدح، و المصدر بمعنى المفعول و محصل المعنى أعى بالقرآن ذاك المنزل الذى أنزله الله العزيز الرحيم الذى استقر فيه العزه و الرحمه.

و التذييل بالوصفين للإشاره الى أنه قاهر غير مقهور و غالب غير مغلوب فلا يعجزه إعراض المعرضين عن عبوديته و لا يستذله جحود الجاحدين و تكذيب المكذبين، و أنه ذو رحمه واسع لمن يتبع الذكر و يخشاه بالغيب لا لينتفع بإيمانهم بل ليهديهم الى ما فيه سعادتهم و كمالهم فهو بعزته و رحمته أرسل الرسول و أنزل عليه القرآن الحكيم لينذر الناس فيحق كلمه العذاب على بعضهم و يشمل الرحمه منهم آخرين.

و قوله: لِيُنذِرَ قَوْمًا مِّنْهُمْ أَنْذَرَ آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ تعليل للإرسال و التنزيل و «مَا» نافية و الجملة صفة لقوله: «قَوْمًا» و المعنى إنما أرسلك و أنزل عليك القرآن لتنذر و تخوف قوما لم ينذر آباءهم فهو غافلون.

و المراد بالقوم إن كان هو قريش و من يلحق بهم فالمراد بأبائهم آباؤهم الأذنون فإن الأبعدين من آبائهم كان فيهم النبي إسماعيل ذبيح الله، وقد أرسل الى العرب رسل آخرون كهود و صالح و شعيب عليهم السلام، و إن كان المراد جميع الناس المعاصرين نظرا الى عموم الرساله فكذلك أيضا فأخر رسول معروف بالرساله قبله صلى الله عليه و آله و سلم هو عيسى عليه السلام و بينهما زمان الفتره.

و اعلم أن ما ذكرناه فى تركيب الآيات هو الذى يسبق منها الى الفهم و قد أوردوا فى ذلك وجوها أخر بعيده عن الفهم تركناها من أرادها فليراجع المطولات.

قوله تعالى: لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ اللام للقسم أى أقسم لقد ثبت و وجب القوم على أكثرهم، و المراد بثبوت القول عليهم صيرورتهم مصاديق يصدق عليهم القول.

و المراد بالقول الذى حق عليهم كلمه العذاب التى تكلم بها الله سبحانه فى بدء الخلقه مخاطبا بها إبليس فَالْحَقُّ وَ الْحَقُّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (ص / ٨٥) و المراد بتبعيه إبليس طاعته فيما يأمر به بالسوسه و التسويل بحيث تثبت الغوايه و ترسخ فى النفس كما يشير اليه قوله تعالى خطابا لإبليس: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (الحجر ٤٣).

قوله تعالى: إِذْ نَا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ الأعناق جمع عنق بضمعين و هو الجيد، و الأغلال جمع غل بالكسر و هى على ما قيل ما تشد به اليد الى العنق للتعذيب و التشديد، و مقمحون اسم مفعول من الإقماح و هو رفع الرأس كأنهم قد ملأت الأغلال ما بين صدورهم الى أذقانهم فبقيت رءوسهم مرفوعه الى السماء لا يتأتى لهم أن ينكسوها فينظروا الى ما بين أيديهم من الطريق فيعرفوها و يميزوها من غيرها.

و تنكير قوله: «أَغْلَالًا» للتفخيم و التهويل.

و الآية فى مقام التعليل لقوله السابق: «فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» .

قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ السد الحاجز بين الشيين، و قوله: «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ» كناية عن جميع الجهات، و الغشى و الغشيان التغطية يقال: غشيه كذا أى غطاه و أغشى الأمر فلانا أى جعل الأمر يغطيه، و الآية متممه للتعليل السابق و قوله: «جَعَلْنَا» معطوف على «جَعَلْنَا» المتقدم.

و عن الرازى فى تفسيره فى معنى التشبيه فى الآيتين أن المانع عن النظر فى الآيات قسمان:

قسم يمنع عن النظر فى الأنفس فشبه ذلك بالغل الذى يجعل صاحبه مقمحا لا يرى نفسه و لا يقع بصره على بدنه، و قسم يمنع عن النظر فى الآفاق فشبه ذلك بالسد المحيط فإن المحاط بالسد لا يقع على الآفاق فلا يظهر له ما فيها من الآيات فمن ابتلى بهما جرم عن النظر بالكلية.

و معنى الآيتين أنهم لا يؤمنون لأننا جعلنا فى أعناقهم أغلالا بها أيديهم على أعناقهم فهى الى الأذقان فهم مرفوعه رءوسهم باقون على تلك الحال و جعلنا من جميع جهاتهم سدا فجعلناه يغطيهم فهم لا يبصرون فلا يهتدون.

ففى الآيتين تمثيل لحالهم فى حرمانهم من الاهتداء الى الإيمان و تحريمه تعالى عليهم ذلك جزاء لكفرهم و غوايتهم و طغيانهم فى ذلك.

و قد تقدم فى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا (البقرة ٢٦) فى الجزء الأول من الكتاب أن ما وقع فى القرآن الكريم من هذه الأوصاف و نظائرها التى وصف بها المؤمنون و الكفار يكشف عن حياه أخرى للإنسان فى باطن هذه الحياه الدنيويه مستوره عن الحس المادى ستظهر له إذا انكشفت الحقائق بالموت أو البعث. و عليه فالكلام فى أمثال هذه الآيات جار فى مجرى الحقيقه دون المجاز كما عليه القوم.

قوله تعالى: وَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ عطف

تفسير و تقرير لما تتضمنه الآيات الثلاث المتقدمه و تلخيص للمراد و تمهيد لما يتلوه من قوله:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذُّكْرَ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذُّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشَّرَهُ بِمَغْفِرٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ الْقَصْرُ لِلْإِفْرَادِ، و المراد بالإنذار الإنذار النافع الذى له أثر، و بالذكر القرآن الكريم، و باتباعه تصديقه و الميل اليه إذا تليت آياته، و التعبير بالماضى للإشارة الى تحقق الوقوع، و المراد بخشيته الرحمن بالغيب خشيته تعالى من وراء الحجاب و قبل انكشاف الحقيقه بالموت أو البعث، و قيل: أى حال غيبته من الناس بخلاف المنافق و هو بعيد.

و قد عقلت الخشيته على اسم الرحمن الدال على صفه الرحمه الجالبه للرجاء للإشعار بأن خشيتهم خوف مشوب برجاء و هو الذى يقر العبد فى مقام العبوديه فلا يأمن و لا يقنط.

و تنكير «مغفر» و «أَجْرٍ كَرِيمٍ» للتفخيم أى فبشره بمغفره عظيمه من الله و أجر كريم لا يقادر قدره و هو الجنه، و الدليل على جميع ما تقدم هو السياق.

و المعنى: إنما تنذر الإنذار النافع الذى له أثر، من اتبع القرآن إذا تليت عليه آياته و ما اليه و خشى الرحمن خشيه مشوبه بالرجاء فبشره بمغفره عظيمه و أجر كريم لا يقادر قدره.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ الْمَرَادُ بِأَحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ إِحْيَاؤُهُمْ لِلْجَزَاءِ.

و المراد بما قدموا الأعمال التى عملوها قبل الوفاه فقدموها على موتهم، و آثارهم ما تركوها لما بعد موتهم من خير يعمل به كتعليم علم ينتفع به أو بناء مسجد يصلى فيه أو ميضاه يتوضا فيها، أو شر يعمل به كوضع سنه مبتدعه يستن بها أو بناء مفسقه يعصى الله فيها.

و المراد بكتابه ما قدموا و آثارهم ثبتها فى صحائف أعمالهم و ضبطها فيها بواسطه كتبه

الأعمال من الملائكة و هذه الكتابه غير كتابه الأعمال و إحصائها فى الامام المبين الذى هو اللوح المحفوظ و إن توهم بعضهم أن المراد بكتابه ما قدموا و آثارهم هو إحصاؤها فى الكتاب المبين و ذلك أنه تعالى يثبت فى كلامه كتابا يحصى كل شىء ثم لكل أمه كتابا يحصى أعمالهم ثم لكل إنسان كتابا يحصى أعماله كما قال: **وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (الأنعام/ ٥٩)**، و قال: **كُلُّ أُمَةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا (الجاثية ٢٨)**، و قال: **وَكُلِّلَ إِنْسَانٌ أَرْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (الإسراء ١٣)**، و ظاهر الآيه أيضا يقضى بنوع من البيئونه بين كتاب الأعمال و الإمام المبين حيث فرق بينهما بالخصوص و العموم و اختلاف التعبير بالكتابه و الإحصاء.

و قوله: **وَكُلِّلَ شَيْءٌ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ** هو اللوح المحفوظ من التغيير الذى يشتمل على تفصيل قضائه سبحانه فى خلقه فيحصى كل شىء و قد ذكر فى كلامه تعالى بأسماء مختلفه كاللوح المحفوظ و ام الكتاب و الكتاب المبين و الإمام المبين كل منها بعنايه خاصه.

و لعل العنايه فى تسميته إماما مبينا أنه لاشتماله على القضاء المحتوم متبوع للخلق مقتدى لهم و كتب الأعمال كما سيأتى فى تفسير سوره الجاثيه مستنسخه منه قال تعالى: **هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (الجاثية ٢٩)**.

و قيل: المراد بالإمام المبين صحف الأعمال و ليس بشىء، و قيل: علمه تعالى و هو كسابقه نعم لو أريد به العلم الفعلى كان له وجه **(١)**.

[سوره يس (٣٦): الآيات ١٣ الى ٣٢]

وَ إِضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذُوبُونَ (١٥) قَالُوا رَبَّنَا عَلِّمْنَا لَنَا لِكِتَابِكَ آيَاتٍ لَعَلَّ نَحْمَدُكَ وَإِنَّا بِكَ لَكَاثِرُونَ (١٦) وَمَا عَلَّمْنَا إِلَّا الْبَلَاغَ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَ لِنَمَسِّنَنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) وَ جَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَ هُمْ مُّهْتَدُونَ (٢١) وَ مَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَ لَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ مَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسِيرَةٌ عَلَىٰ عِزَابِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَ إِنْ كُلُّ لَمَامٍ جَمِيعٍ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢)

ص: ٢٤٣

قوله تعالى: وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ المثل كلام أو قصه يمثل به مقصد من المقاصد فيتضح للمخاطب، ولما كانت قصتهم توضح ما تقدم من الوعد والوعيد أمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يضربها مثلاً لهم.

و الظاهر أن «مَثَلًا» مفعول ثان لقوله: «اضْرِبْ» و مفعوله الأول قوله: «أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ» و المعنى و اضرب لهم أصحاب القرية و حالهم هذه الحال مثلاً و قد قدم المفعول الثانى تحريزا عن الفصل المخل.

قوله تعالى: إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ التعزيز من العزه بمعنى القوه و المنعه، و قوله: «إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ» بيان تفصيلى بقوله: «إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ» .

و المعنى: و اضرب لهم مثلاً أصحاب القرية و هم فى زمان أرسلنا اليهم رسولين اثنين من

رسلنا فكذبوهما أى الرسولين فقويناهما برسول ثالث فقالت الرسل إنا اليكم مرسلون من جانب الله.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾ كانوا يرون أن البشر لا ينال النبوه و الوحي، و يستدلون على ذلك بأنفسهم حيث لا يجدون من أنفسهم شيئاً من ذاك القبيل فيسرون الحكم الى نفوس الأنبياء مستندين الى أن حكم الأمثال واحد.

و على هذا التقرير يكون معنى قوله: «وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ» لم ينزل الله وحياً و لو نزل شيئاً على بشر لئلناه من نفوسنا كما تدعون أنتم ذلك، و تعبيرهم عن الله سبحانه بالرحمن إنما هو لكونهم كسائر الوثنيين معترفين بالله سبحانه و اتصافه بكرائم الصفات (1) كالخلق و الرحمة و الملك غير أنهم يرون أنه فوض أمر التدبير الى مقربى خلقه كالملائكة الكرام فهم الأرباب المدبرون و الآلهة المعبودون، و أما الله عز اسمه فهو رب الأرباب و إله الآلهة.

و من الممكن أن يكون ذكر اسم الرحمن فى الحكايه دون المحكى فيكون التعبير به لحلمه و رحمته تعالى قبالي إنكارهم و تكذيبهم للحق الصريح.

و قوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ بمنزله النتيجة لصدر الآيه، و محصل قولهم أنكم بشر مثلنا و لا نجد نحن على بشريتنا فى نفوسنا شيئاً من الوحي النازل الذى تدعونه و أنتم مثلنا فما أنزل الرحمن شيئاً من الوحي فدعواكم كاذبه و إذ ليس لكم إلا هذه الدعوى فإن أنتم إلا تكذبون.

و يظهر بما تقدم نكته الحصر فى قوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ و كذا الوجه فى نفي الفعل و لم يقل: إن أنتم إلا كاذبون لأن المراد نفي الفعل فى الحال دون الاستمرار و الاستقبال.

ص: ٢٤٦

(١-١). لكنهم مختلفون فى تفسيرها و الصابئون يفسرونها بالنفى فمعنى العالم و القادر عندهم من ليس بجاهل و عاجز.

قوله تعالى: قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ، وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ لم يحك الله سبحانه عن هؤلاء الرسل جواباً عن حجة قومهم، ما أنتم إلا بشر مثلنا، الخ. كما نقل عن الرسل المبعوثين إلى الأمم الدارجه لما احتجت أممهم بمثل هذه الحجة «إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا» فردتها رسلهم بقولهم: إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَيْنَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (إبراهيم ١١) و قد مر تقريره.

بل حكى عنهم أنهم ذكروا للقوم أنهم مرسلون اليهم مأمورون بتبليغ الرساله ليس عليهم إلا ذلك و أنهم فى غنى عن تصديقهم لهم و إيمانهم بهم و يكفيهم فيه أن يعلم ربهم بأنهم مرسلون لا حاجه لهم الى أزيد من ذلك.

فقوله: قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ إخبار عن رسالتهم و قد أكد الكلام بأن المشدده المكسوره و اللام، و الاستشهاد بعلم ربهم بذلك، و قوله: «رَبُّنَا يَعْلَمُ» معترض بمنزله القسم، و المعنى إنا مرسلون اليكم صادقون فى دعوى الرساله و يكفينا فى ذلكم علم ربنا الذى أرسلنا بها و لا حاجه لنا فيه الى تصديقكم لنا و لا نفع لنا فيه من أجر و نحوه و لا يهمننا تحصيله منكم بل الذى يهمننا هو تبليغ الرساله و إتمام الحجه.

و قوله: وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ هو التبليغ و المراد به تبليغ الرساله أى لم يؤمر و لم نكلف إلا- بتبليغ الرساله و إتمام الحجه.

قوله تعالى: قَالُوا إِذَا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَ لِنَمَسِّنَنَّكُمْ مِنْهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ القائلون أصحاب القرية و المخاطبون هم الرسل، و التطير هو التثام و قولهم:

«لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا» الخ؛ تهديد منهم للرسول.

و المعنى: قالت أصحاب القرية لرسولهم: إنا تشأ منا بكم و نقسم لئن لم تنتهوا عن التبليغ و لم تكفوا عن الدعوه لنرجمنكم بالحجاره و ليصلن اليكم و ليقعن بكم منا عذاب أليم.

قوله تعالى: قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أ إِنْ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِفُونَ

القائلون هم الرسل يخاطبون به أصحاب القرية.

□ وقوله: طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ الطائر في الأصل هو الطير و كان يتشاءم به ثم توسع و استعمل في كل ما يتشاءم به، و ربما يستعمل فيما يستقبل الإنسان من الحوادث، و ربما يستعمل في البخت الشقى الذى هو أمر موهوم يرونه مبدأ لشقاء الإنسان و حرمانه من كل خير.

□ و كيف كان فقوله: «طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ» ظاهر معناه أن الذى ينبغى أن تتشأموا به هو معكم و هو حاله إعراضكم عن الحق الذى هو التوحيد و اقبالكم الى الباطل الذى هو الشرك.

□ و قيل: المعنى طائركم أى حظكم و نصيبكم من الخير و الشر معكم من أفعالكم إن خيرا فخير و إن شرا فشر، هذا و هو أخذ الطائر بالمعنى الثانى لكن قوله بعد: «أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ» أنسب بالنسبه الى المعنى الأولى.

□ وقوله: أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ استفهام توبيخى و المراد بالتذكير تذكيرهم بالحق من وحدانيته تعالى و رجوع الكل اليه و نحوهما و جزاء الشرط محذوف فى الكلام تلويحاً الى أنه مما لا ينبغى أن يذكر أو يتفوه به و التقدير أ إن ذكرتم بالحق قابلتموه بمثل هذا الجحود الشفيح و الصنيع الفظيع من التطير و التوعد.

□ وقوله: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ أى مجاوزون للحد فى المعصية و هو إضرار عما تقدم و المعنى بل السبب الأصلى فى جحودكم و تكذيبكم للحق أنكم قوم تستمرون على الإسراف و مجاوزة الحد.

□ وقوله تعالى: وَجَاءَ مِنْ أَفْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى □ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ أَقْصَى الْمَدِينَةِ أَبْعَدُ مَوَاضِعِهَا بِالنَّسْبَةِ إِلَى مَبْدَأِ مَفْرُوضٍ، و قد بدلت القرية فى أول الكلام مدينه هنا للدلاله على عظمها و السعى هو الإسراع فى المشى.

□ و وقع نظير هذا التعبير فى قصه موسى و القبطى و فيها: وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَفْصَى الْمَدِينَةِ

يَسِيْعِي فَقَدِمَ «رَجُلٌ» هناك و آخر هاهنا و لعل النكته في ذلك أن الاهتمام هناك بمجىء الرجل و إخباره موسى بائتمار الملايقتله فقدم الرجل ثم أشير الى اهتمام الرجل نفسه بإيصال الخبر و إبلاغه فجيء بقوله: «يَسِيْعِي» حالا مؤخرا بخلاف ما هاهنا فالاهتمام بمجيئه من أقصى المدينة ليعلم أن لا تواطؤ بينه و بين الرسل في أمر الدعوه فقدم «مَنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ» و آخر الرجل و سعيه.

قوله تعالى: «اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسِيْعُكُمْ أَجْرًا وَ هُمْ مُهْتَدُونَ» بيان لقوله: «اتَّبِعُوا الْمُزْسِلِينَ» و في وضع قوله: «مَنْ لَا يَسِيْعُكُمْ أَجْرًا وَ هُمْ مُهْتَدُونَ» في هذه الآيه موضع قوله:

«الْمُزْسِلِينَ» في الآيه السابقه إشعار بالعليه و بيانها أن عدم جواز اتباع قائل في قوله إنما يكون لأحد أمرين: إما لكون قوله ضلالا و القائل به ضالا و لا يجوز اتباع الضال في ضلاله، و إما لأن القول و إن كان حقا و الحق واجب الاتباع لكن لقائله غرض فاسد يريد أن يتوسل اليه بكلمه الحق كافتناء المال و اكتساب الجاه و المقام و نحو ذلك، و أما إذا كان القول حقا و كان القائل بريئا من الغرض الفاسد منزها من الكيد و المكر و الخيانه كان من الواجب اتباعه في قوله، و هؤلاء الرسل مهتدون في قولهم: لا تعبدوا إلا الله، و هم لا يريدون منكم أجرا من مال أو جاه فمن الواجب عليكم أن تتبعوهم في قولهم.

أما أنهم مهتدون فلقيام الحجه على صدق ما يدعون اليه من التوحيد و كونه حقا، و الحجه هي قوله: «وَ مَا لِي لَا أَعْبُدُ» الى تمام الآيتين.

و أما أنهم لا يريدون منكم أجرا فلما دل عليه قولهم: «رَبَّنَا عَلِّمْنَا لِنَا إِلَيْكُم مَّسْئَلُونَ» و قد تقدم تقريره.

و بهذا البيان يتأيد ما قدمناه من كون قولهم: «رَبَّنَا عَلِّمْنَا لِنَا إِلَيْكُم مَّسْئَلُونَ» مسوقا لنفى إرادتهم من القوم أجرا أو غير ذلك.

قوله تعالى: «وَ مَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ

آلِهَهُ- الى قوله- وَ لَا يُنْفِدُونَ شَرَعَ فِي اسْتِفْرَاغِ الْحُجَّةِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَ نَفْيِ الْآلِهَةِ فِي آيَتَيْنِ وَ اخْتَارَ لِذَلِكَ سِيَاقَ التَّكْلِمْ وَحْدَهُ إِلَّا فِي جَمَلِهِ اعْتَرَضَ بِهَا فِي خِلَالِ الْكَلَامِ وَ هِيَ قَوْلُهُ: «وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» وَ ذَلِكَ بِإِجْرَاءِ الْحُكْمِ فِي نَفْسِهِ بِمَا أَنَّهُ إِنْسَانٌ أَوْجَدَهُ اللَّهُ وَ فَطَرَهُ حَتَّى يَجْرَى فِي كُلِّ إِنْسَانٍ هُوَ مِثْلُهُ وَ الْأَفْرَادِ أَمْثَالُ فَقَوْلُهُ: «وَ مَا لِي لَا أَعْبُدُ» الْخ؛ فِي مَعْنَى وَ مَا لِلْإِنْسَانِ لَا يَعْبُدُ، الْخ؛ أَيَتَّخِذُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً، الْخ.

وَ قَدْ عَبَّرَ عَنْهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: «الَّذِي فَطَرَنِي» لِلإِشْعَارِ بِالْعَلِيَّةِ فَإِنَّ فَطَرَهُ تَعَالَى لِلْإِنْسَانِ وَ إِيجَادَهُ لَهُ بَعْدَ الْعَدَمِ لِأَزْمِهِ رَجُوعَ كُلِّ مَا لِلْإِنْسَانِ مِنْ ذَاتٍ وَ صِفَاتٍ وَ أَفْعَالٍ إِلَيْهِ تَعَالَى وَ قِيَامَهُ بِهِ وَ مَلَكَهُ لَهُ فَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا الْعِبُودِيَّةُ مُحَضَّةٌ فَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَنْصَبَ نَفْسَهُ فِي مَقَامِ الْعِبُودِيَّةِ وَ يَظْهَرُهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ تَعَالَى وَ هَذَا هُوَ الْعِبَادَةُ فَعَلِيَّةٌ أَنْ يَعْبُدَهُ تَعَالَى لِأَنَّهُ أَهْلٌ لَهَا.

وَ هَذَا هُوَ الَّذِي أَشْرْنَا إِلَيْهِ أَنْفَا أَنْ الرَّجُلَ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ بِالْإِخْلَاصِ لَهُ لَا طَمَعًا فِي جَنَّةٍ وَ لَا خَوْفًا مِنْ نَارٍ بَلْ لِأَنَّهُ أَهْلٌ لِلْعِبَادَةِ.

وَ إِذْ كَانَ الْإِيمَانُ بِهِ تَعَالَى وَ عِبَادَتُهُ هَكَذَا أَمْرًا لَا يَنَالُهُ عَامَهُ النَّاسُ فَإِنَّ الْأَكْثَرِينَ مِنْهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ خَوْفًا أَوْ طَمَعًا أَوْ لِكُلَيْهِمَا التَّفَتِ الرَّجُلَ بَعْدَ بَيَانِ حَالِ نَفْسِهِ إِلَى الْقَوْمِ فَقَالَ: «وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» يَرِيدُ بِهِ إِذْئَارَهُمْ بِيَوْمِ الرَّجُوعِ وَ أَنَّهُ تَعَالَى سَيَحَاسِبُهُمْ عَلَى مَا عَمَلُوا فَيَجَازِيهِمْ بِمَسَاوِي أَعْمَالِهِمْ فَقَوْلُهُ: «وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» كَالْمَعْتَرِضِ الْخَارِجِ عَنِ السِّيَاقِ أَوْ هِيَ هِيَ.

ثُمَّ إِنَّ الْآيَتَيْنِ قَائِمَتَانِ عَلَى إِبْطَالِ مَا احْتَجَّ بِهِ الْوَثْنِيَّةُ وَ بَنُوا عَلَى ذَلِكَ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ وَ أَرْبَابَهَا.

تَوْضِيحُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ أَجَلَ مِنْ أَنْ يَحِيطَ بِهِ حَسٌّ أَوْ خِيَالٌ أَوْ عَقْلٌ لَا يَنَالُهُ شَيْءٌ مِنَ الْقُوَى الْإِدْرَاكِيَّةِ فَلَا يُمْكِنُ التَّوَجُّهُ إِلَيْهِ بِالْعِبَادَةِ فَسَبِيلُ الْعِبَادَةِ أَنْ نَتَوَجَّهُ إِلَى مَقْرَبِي حَضْرَتِهِ وَ الْأَقْوِيَاءِ مِنْ خَلْقِهِ كَالْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ وَ الْجِنِّ وَ الْقَدِيسِينَ مِنَ الْبَشَرِ حَتَّى يَكُونُوا شَفَعَاءَ لَنَا عِنْدَ اللَّهِ فِي إِصْصَالِ الْخَيْرَاتِ وَ دَفْعِ الشَّرُورِ وَ الْمَكَارِهِ.

و الجواب عن أولى الحجتين بما حاصله أن الإنسان و إن كان لا يحيط علما بالذات المتعالیه لكنه يعرفه تعالى بصفاته الخاصه به مثل كونه فاطرا له موجدا إياه فله أن يتوجه إليه من طريق هذه الصفات و إنكار إمكانه مكابره، و هذا الجواب هو الذى أشار إليه بقوله: «وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي» .

و عن الثانيه أن هؤلاء الآلهه إن كانت لهم شفاعه كانت مما أفاضه الله عليهم و الله سبحانه لا يعطيهم ذلك إلا فيما لا تتعلق به منه إرادته حاتمته و لازمه أن شفاعتهم فيما أذن الله لهم فيه كما قال:

مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ (يونس ٣) أما إذا أراد الله شيئا إرادته حتم فلا تنفع شفاعتهم شيئا فى المنع عن نفوذها فاتخاذهم آلهه و عدمه سواء فى عدم التأثير لجلب خير أو دفع شر، و الى ذلك أشار بقوله: «أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ» .

و تعبيره عنه تعالى بالرحمن إشاره الى سعه رحمته و كثرتها و أن النعم كلها من عنده و تدبير الخير و الشر اليه و يتحصل من هنا برهان آخر على وحدانيته تعالى فى الربوبيه، إذ لما كان جميع النعم و كذا النظام الجارى فيها، من رحمته و قائمه به من غير استقلال فى شىء منها كان المستقل بالتدبير هو تعالى حتى أن تدبير الملائكه لو فرض تدبيرهم لشىء من رحمته تدبيره تعالى و كانت الربوبيه له تعالى وحده و كذا الالوهيه.

قوله تعالى: إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ تسجيل للضلال على اتخاذ الآلهه.

قوله تعالى: إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ من كلام الرجل خطابا للرسل و قوله:

«فَاسْمَعُونِ» كناية عن الشهاده بالتحمل، و قوله: «إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ» الخ؛ تجديد الشهاده بالحق و تأكيد للإيمان فإن ظاهر السياق أنه إنما قال: «إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ» بعد محاجته خطابا للرسل ليستشهدهم على إيمانه و ليؤيدهم بإيمانهم بمرأى من القوم و مسمع.

قوله تعالى: قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ، بما عَفَرَ لِي

رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ الخطاب للرجل و هو- كما يفيد السياق- يلوح الى أن القوم قتلوه فنودي من ساحه العزه أن ادخل الجنة كما يؤيده قوله بعد: «وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ» الخ؛ فوضع قوله: «قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ» موضع الإخبار عن قتلهم إياه إشاره الى أنه لم يكن بين قتله بأيديهم و بين أمره بدخول الجنة أى فصل و انفكاك كأن قتله بأيديهم هو أمره بدخول الجنة.

و المراد بالجنة على هذا البرزخ دون جنه الآخرة، و قول بعضهم: إن المراد بها جنه الآخرة و المعنى سيقال له: ادخل الجنة. يوم القيامة و التعبير بالماضى لتحقق الوقوع تحكم من غير دليل كما قيل: إن الله رفعه الى السماء فقيل له ادخل الجنة فهو حى يتنعم فيها الى قيام السعه، و هو تحكم كسابقه.

و قوله: «قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ» استئناف كسابقه كالجواب عن سؤال مقدر كأنه قيل: ما ذا كان بعد تأييده للرسول؟ فقيل «قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ» ثم قيل: فما ذا كان بعد؟ فقيل «قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ» الخ؛ و هو نصح منه لقومه ميتا كما كان ينصحهم حيا.

و ما فى قوله: «بِمَا غَفَرَ لِي» الخ، مصدرية، و قوله: «وَ جَعَلَنِي» عطف على «غَفَرَ» و المعنى بمغفره ربي لى و جعله إياى من المكرمين.

و موهبه الإ-كرام و إن كانت وسيعه ينالها كثيرون كالأ-كرام بالنعمة كما فى قوله: «فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (الفجر ١٥)»، و قوله: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ (الحجرات ١٣)» فإن كرامه العبد عند الله إكرام منه له لكنه لم يعد من المكرمين بوصف الاطلاق إلا طائفتين من خلقه: الملائكة الكرام كما فى قوله: «بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْتَبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (الأنبياء ٢٧)»، و الكاملين فى إيمانهم من المؤمنين سواء كانوا من المخلصين بكسر اللام كما فى قوله: «أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ»

(المعارج ٣٥)، أو من المخلصين بفتح اللام كما فى قوله: **إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ** -الى أن قال- **وَهُمْ مُكْرَمُونَ** (الصفات ٤٢).

و الآيه من أدله وجود البرزخ.

قوله تعالى: **وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ** الضميران للرجل، و «مِنْ بَعْدِهِ» أى من بعد قتله، و «مِنْ» الاولى و الثالثه لابتداء الغايه، و الثانيه مزيده لتأكيد النفي.

و الآيه توطئه للآيه التاليه، و هى مسوقه لبيان هو ان أمر القوم و الانتقام منهم بإهلا-كهم على الله سبحانه و أنه لا- يحتاج فى إهلا-كهم الى عده و عده حتى ينزل من السماء جندا من الملائكه يقاتلونهم فيهلكونهم فلم يفعل ذلك فيهم و لا فعل ذلك فى إهلا-ك من أهلك من الامم الماضين و إنما أهلكهم بصيحه واحده تقضى عليهم.

قوله تعالى: **إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ** أى ما كان الأمر الذى كان سبب إهلا-كهم بمشيتنا إلا صيحه واحده، و تأنيث الفعل لتأنيث الخبر و تنكير «صَيْحَةً» و توصيفها بالوحده للاستحقاق، و الخمود السكون، و استئناف الجمله لكونها كالجواب لسؤال مقدر كأنه قيل: فما ذا كان سبب إهلا-كهم؟ فقيل: إن كانت إلا صيحه واحده.

و المعنى: كان سبب هلا-كهم أيسر أمر و هى صيحه واحده ففاجأهم السكون فصاروا ساكنين لا يسمع لهم حس و هم عن آخرهم موتى لا يتحركون.

قوله تعالى: **يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** أى يا ندامه العباد و نداء الحسره عليهم أبلغ من إثباتها لهم، و سبب الحسره ما يتضمنه قوله: «**مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ**» الخ.

و من هذا السياق يستفاد أن المراد بالعباد عامه الناس و تتأكد الحسره بكونهم عبادا فان رد العبد دعوه مولاه و تمرده عنه أشنع من رد غيره نصيحه الناصح.

قوله تعالى: أَلَمْ يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ توبيخ لاولئك الذين نودى عليهم بالحسره، و«مَنْ الْقُرُونِ» بيان لكم، والقرون جمع قرن و هو أهل عصر واحد.

و قوله: أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ بيان لقوله: «كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ» ضمير الجمع الأول للقرون و الثانى و الثالث للعباد.

و المعنى: أَلَمْ يَعْتَبِرُوا بكثره المهلكين بأمر الله من القرون الماضيه و أنهم مأخوذون بأخذ إلهى لا- يتمكنون من الرجوع الى ما كانوا يترفون فيه؟

و للقوم فى مراجع الضمائر و فى معنى الآيه أقوال آخر بعيدة عن الفهم تركنا إيرادها.

قوله تعالى: وَإِن كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ لفظه «إِن» حرف نفى و «كُلُّ» مبتداً تنويه عوض عن المضاف اليه، و«لَمَّا» بمعنى إلا، و جميع بمعنى مجموع، و لدينا ظرف متعلق به، و محضرون خبر بعد خبر و هو جميع، و احتمال بعضهم أن يكون صفة لجميع.

و المعنى: و ما كلهم إلا مجموعون لدينا محضرون للحساب و الجزاء يوم القيامة فالآيه فى معنى قوله: ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (هود ١٠٣/١).

[سوره يس (٣٦): الآيات ٣٣ الى ٤٧]

وَ آيَةٌ لَهُمُ الْمَارِضُ الْمُيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَ أَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَ جَعَلْنَا فِيهَا جَدَاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنَابٍ وَ فَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُيُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْمَرْوَجَ كُلَّهُ مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَ الْقَمَرُ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) وَ آيَةٌ لَهُمُ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَ خَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَ إِن نَشَاءُ نُغْرِقُهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَ لَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَ مَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ مَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَ مَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٧)

ص: ٢٥٤

قوله تعالى: وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ يذكر سبحانه في الآية و اللتين بعدها آيه من آيات الربوبية و هى تدبير أمر أرزاق الناس و تغذيتهم من أثمار النبات من الحبوب و التمر و العنب و غيرها.

فقوله: وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا و إن كان ظاهره أن الآية هى الأرض إلا أن الجملتين توطئتان لقوله: «وَ أَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا» الخ؛ و مسوقتان للإشارة الى أن هذه الأغذية النباتية من آثار نفخ الحياه فى الأرض الميتة و تبديلها حبا و ثمرا يأكلون من ذلك فالآيه بنظر هى الأرض الميتة من حيث ظهور هذه الخواص فيها و تمام تدبير أرزاق الناس بها.

و قوله: وَ أَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا أى و أخرجنا من الأرض يانبات النبات حبا كالحنطة و الشعير و الأرز و سائر البقوليات.

و قوله: فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ تفريع على إخراج الحب و بالأكل يتم التدبير، و ضمير «فَمِنْهُ» للحب.

قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَ فَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ قَالَ الراغب: الجنة كل بستان ذى شجر يستر بأشجاره الأرض انتهى. و النخيل جمع نخل و هو معروف، و الأعناب جمع عنب يطلق على الشجره و هى الكرم و على الثمره.

و قال الراغب: العين الجارحه-الى أن قال- و يستعار العين لمعان هى موجوده فى الجارحه بنظرات مختلفه-الى أن قال- و يقال لمنبع الماء عين تشبيها بها لما فيها من الماء انتهى، و التفجير فى الأرض شقها لإخراج المياه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ اللام

لتعليل ما ذكر في الآيه السابقه أى جعلنا فيها جنات و فجرنا فيها العيون بشقها ليأكل الناس من ثمره.

و قوله: «مِنْ ثَمَرِهِ» قيل:الضمير للمجوعول من الجنات و لذا أفرد و ذكر و لم يقل:من ثمرها أى من ثمر الجنات،أو من ثمرها أى من ثمر النخيل و الأعناب.

و قوله: وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمُ العمل هو الفعل و الفرق بينهما-على ما ذكره الراغب- أن اكثر ما يستعمل العمل فى الفعل المقارن للقصد و الإراده،و لذلك يشذ استعماله فى الحيوان و الجماد،و لذلك أيضا يتصف العمل بالصلاح و خلافه.فيقال عمل صالح و عمل طالح و لا يتصف بهما مطلق الفعل.

و «مَا» فى وَمَا عَمِلَتْهُ نافية و المعنى و لم يعمل الثمر أيديهم حتى يشاركونا فى تدبير الأرزاق بل هو مما اختصاصنا بخلقه و تميم التدبير به من دون أن تستعين بهم فما بالهم لا يشكرون.

و يؤيد هذا المعنى قوله تعالى فى أواخر السوره و هو بمتن عليهم بخلق الأنعام لتدبير أمر رزقهم و حياتهم: أَمْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا-الى أن قال- وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ .

و قوله: أَفَلَا يَشْكُرُونَ توبيخ و استقباح لعدم شكره،و شكره تعالى منهم على هذا التدبير إظهارهم جميل نعمه بذكره قولاً و فعلاً أى إظهارهم أنهم عباد له مدبرون بتدبيره و هو العباده فشكره تعالى هو الاعتراف بربوبيته و اتخاذه إلهاً معبوداً.

قوله تعالى: سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْمَرْوَجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ إنشاء لتزنيه تعالى،لما ذكر عدم شكرهم له على ما خلق لهم من أنواع النبات و رزقهم من الحبوب و الأثمار،و إنما عمل ذلك بتزويج بعض النبات بعضاً كما قال: وَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (ق٧)أشار الى ما هو أعظم و أوسع من خلق

أزواج النبات و هو خلق الأزواج كلها و تنظيم العالم المشهود باستيلاء كل شىء من فاعل و منفعل قبله هما أبواه كالذكر و الانثى من الإنسان و الحيوان و النبات، و كل فاعل و منفعل يتلاقيان فينتجان بتلاقيهما أمرا ثالثا، أشار تعالى الى ذلك فنزه نفسه بقوله: «سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا» الخ؛ فقوله: «سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا» إنشاء تسييح على ما يعطيه السياق لا إخبار.

و قوله: «مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ» هو و ما بعده بيان للأزواج و الذى تنبت الأرض هو النبات و لا يبعد شموله الحيوان و قد قال تعالى فى الإنسان و هو من أنواع الحيوان: «وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا» (نوح ١٧) و يؤيد ذلك أن ظاهر سياق البيان استيعابه للمبين مع عدم ذكر الحيوان فى عداد الأزواج.

و قوله: «وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ أَى النَّاسِ»، و قوله: «وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ» و هو الذى يجهله الإنسان من الخليقه أو يجهل كيفية ظهوره أو ظهور الكثره فيه.

قال الراغب: يقال لكل واحد من القرينين من الذكر و الانثى فى الحيوانات المترواجه:

زوج، و لكل قرينين فيها و فى غيرها: زوج كالخف و النعل، و لكل ما يقترن بآخر مماثلا له أو مضادا: زوج، قال: و قوله: «خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ» فبين أن كل ما فى العالم زوج من حيث إن له ضدا ما أو مثلا ما أو تركيبا ما بل لا ينفك بوجه من تركيب. انتهى.

فزوجيه الزوج هى كونه مفتقرا فى تحققه الى تألف و تركيب و لذلك يقال لكل واحد من القرينين من حيث هما قرينان: زوج لافتقاره الى قرينه، و كذا يقال لمجموع القرينين: زوج لافتقاره فى تحققه زوجا الى التألف و التركيب فكون الأشياء أزواجا مقارنة بعضها بعضا لإنتاج ثالث أو كونه مولدا من تألف اثنين.

قوله تعالى: «آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ» آيه أخرى من آيات الربوبية الداله على وقوع التدبير العام السماوى للعالم الإنسانى المذكوره فى

ولا- شك أن الآيه تشير الى مفاجأه الليل عقيب ذهاب النهار، و السلخ فى الآيه بمعنى الإخراج و لذلك عدى بمن و لو كان بمعنى النزاع كما فى قولنا: سلخت الإهاب عن الشاه تعين تعديه بعن دون من.

و يؤيد ذلك أنه تعالى عبر فى مواضع من كلامه عن ورود كل من الليل و النهار عقيب الآخر بإيلاجه فيه فقال فى مواضع من كلامه: يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ (الحج ٦١/٦١) فإذا كان ورود النهار بعد الليل إيلاجا للنهار فى الليل اعتبارا كان مفاجأه الليل بعد النهار إخراجا للنهار من الليل اعتبارا.

كأن الليل أطبق عليهم و أحاطت بهم ظلمته ثم ولج فيه النهار فوسعهم نوره و ضيأؤه ثم خرج منه ففاجأهم الليل ثانيا بانطباق الظلام و إحاطته بما أضاءه النهار ففى الكلام نوع من الاستعاره بالكنايه.

و لعل فيما ذكرناه من الوجه كفايه عما أطنبوا فيه من البحث فى معنى سلخ النهار من الليل ثم مفاجأه الليل.

قوله تعالى: وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ جريها حركتها و قوله: «لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا» اللام بمعنى الى أو للغايه، و المستقر مصدر ميمى أو اسم زمان أو مكان، و المعنى أنها تتحرك نحو مستقرها أو حتى تنتهى الى مستقرها اى استقرارها و سكونها بانقضاء أجلها أو زمن استقرارها أو محله.

و أما جريها و هو حركتها فظاهر النظر الحسى يثبت لها حركه دوريه حول الأرض لكن الأبحاث العلميه تقضى بالعكس و تكشف أن لها مع سياراتها حركه انتقاليه نحو النسر الواقع.

و كيف كان فمحصل المعنى أن الشمس لا- تزال تجرى ما دام النظام الدنيوى على حاله حتى تستقر و تسكن بانقضاء أجلها فتخرب الدنيا و يبطل هذا النظام، و هذا المعنى يرجع

بالمآل الى معنى القراءه المنسوبه الى أهل البيت و غيرهم «و الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا» كما قيل.

و أما حمل جريها على حركتها الوضعيه حول مركزها فهو خلاف ظاهر الجرى الدال على الانتقال من مكان الى مكان.

و قوله: [□]ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ أى الجرى المذكور تقدير و تدبير ممن لا يغلبه غالب فى إرادته و لا يجهل جهات الصلاح فى أفعاله.

قوله تعالى: [□]و الْقَمَرَ قَدَرْنَا مَدَازِلَ [□]حَتَّى [□]عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ المنازل جمع منزل اسم مكان من النزول و الظاهر أن المراد به المنازل الثمانيه و العشرون التى تقطعها القمر فى كل ثمانيه و عشرين يوما و ليله تقريبا.

و العرجون عود عذق النخله من بين الشمراخ الى منبته و هو عود أصفر مقوس يشبه الهلال، و القديم العتيق.

و قد اختلفت الأنظار فى معنى الآيه للاختلاف فى تركيبها، و أقرب التقديرات من الفهم قول من قال: إن التقدير و القمر قدرناه ذا منازل أو قدرناه له منازل حتى عاد هلالا يشبه العرجون العتيق المصفر لونه.

تشير الآيه الى اختلاف مناظر القمر بالنسبه الى أهل الأرض فإن نوره مكتسب من الشمس يستنير بها نصف كرته تقريبا و ما يقرب من النصف الآخر غير المسامت للشمس مظلم ثم يتغير موضع الاستناره و لا يزال كذلك حتى يعود الى الوضع الأول و يعرض ذلك أن يظهر لأهل الأرض فى صوره هلال ثم لا يزال ينبسط عليه النور حتى يتدبر ثم لا يزال ينقص حتى يعود الى ما كان عليه أوله.

و لاختلاف صوره آثار بارزه فى البر و البحر و حياه الناس على ما بين فى الأبحاث المربوطه.

فآية الكريمة تذكر من آية القمر أحواله الطارئة له بالنسبة الى الأرض و أهلها دون حاله فى نفسه و دون حاله بالنسبه الى الشمس فقط.

و من هنا لا يبعد أن يقال فى قوله تعالى: «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا» أن المراد بقوله:

«تَجْرِي» الإشارة الى ما يعطيه ظاهر الحس من حركتها اليومية و الفصلية و السنوية و هى حالها بالنسبه اليها، و بقوله: «لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا» حالها فى نفسها و هى سكونها بالنسبه الى سياراتها المتحركة حولها كأنه قيل: و آية لهم أن الشمس على استقرارها تجرى عليهم و قد دبر العزيز العليم بذلك كينونه العالم الأرضى و حياه أهله و الله أعلم.

قوله تعالى: لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَ كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبِقُونْ لفظه ينبغى تدل على الترجح و نفى ترجح الإدراك من الشمس نفى وقوعه منها، و المراد به أن التدبير ليس مما يجرى يوما و يقف آخر بل هو تدبير دائم غير مختل و لا منقوض حتى ينقضى الأجل المضروب منه تعالى لذلك.

فالمعنى أن الشمس و القمر ملازمان لما خط لهما من المسير فلا تدرك الشمس القمر حتى يختل بذلك التدبير المعمول بهما و لا الليل سابق النهار و هما متعاقبان فى التدبير فيتقدم الليل النهار فيجتمع ليلتان ثم نهاران بل يتعاقبان.

و لم يتعرض لنفى إدراك القمر للشمس و لا- لنفى سبق النهار الليل لأن المقام مقام بيان انحفاظ النظم الإلهى عن الاختلال و الفساد فنفى إدراك ما هو أعظم و أقوى و هو الشمس لما هو أصغر و أضعف و هو القمر، و يعلم منه حال العكس و نفى سبق الليل الذى هو افتقاده للنهار الذى هو ليله و الليل مضاف اليه متأخر طبعاً منه و يعلم به حال العكس.

و قوله: وَ كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبِقُونْ أى كل من الشمس و القمر و غيرهما من النجوم و الكواكب يجرون فى مجرى خاص به كما يسبح السمكه فى الماء فالفلك هو المدار الفضائى الذى يتحرك فيه الجرم العلوى، و لا يبعد حينئذ أن يكون المراد بالكل كل من الشمس و القمر

و الليل و النهار و إن كان لا يوجد فى كلامه تعالى ما يشهد على ذلك.

و الإتيان بضمير الجمع الخاص بالعقلاء فى قوله: «يَسْبِجُونَ» لعله للإشارة الى كونها مطاوعه لمشيئته مطيعه لأمره تعالى كالعقلاء كما فى قوله: ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَ هِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ انثَبَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (حم السجده ١١/).

قوله تعالى: وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ قال الراغب: الذريه أصلها الصغار من الأولاد، و تقع فى التعارف على الصغار و الكبار معا، و يستعمل للواحد و الجمع و أصله للجمع. انتهى، و الفلك السفينه، و المشحون المملوء.

آيه أخرى من آيات ربوبيته تعالى و هو جريان تدبيره فى البحر حيث يحمل ذريتهم فى الفلك المشحون بهم و بامتعتهم يجوزون به من جانب الى جانب للتجاره و غيرها، و لا- حامل لهم فيه و لا- حافظ لهم عن الغرق إلا هو تعالى و الخواص التى يستفيدون منها فى ركوب البحر أمور مسخره له تعالى منتهيه الى خلقه على أن هذه الأسباب لو لم تنته اليه تعالى لم تغن طائلا.

و إنما نسبت الحمل الى الذريه دونهم أنفسهم فلم يقل: إنا حملناهم لإثارة الشفقه و الرحمه.

قوله تعالى: وَ خَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ المراد به- على ما فسروه- الأنعام قال تعالى: وَ جَعَلْ لَكُمْ مِنَ الْفُلُكِ وَ الْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (الزخرف ١٢/). و قال:

وَ عَلَيْنَا وَ عَلَى الْفُلُكِ تُحْمَلُونَ (المؤمن ٨٠/).

و فسر بعضهم الفلك المذكور فى الآيه السابقه بسفينه نوح عليه السلام و ما فى هذه الآيه بالسفن و الزوارق المعموله بعدها و هو تفسير ردىء و مثله تفسير ما فى هذه الآيه بالإبل خاصه.

و ربما فسر ما فى هذه الآيه بالطيارات و السفن الجويه المعموله فى هذه الأعصار و التعميم أولى.

قوله تعالى: وَ إِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَ لَا هُمْ يُنْقَذُونَ الصريح هو

الذى يجيب الصراخ و يغيث الاستغاثة،و الإنقاذ هو الإنجاء من الغرق.

و الآيه متصله بقوله السابق: «أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ» أى إن الأمر الى مشيتنا فإن نشأ نغرقهم فلا يغيثهم مغيث و لا ينقذهم منقذ.

قوله تعالى: إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ استثناء مفرغ و التقدير لا ينجون بسبب من الأسباب و أمر من الامور إلا لرحمه منا تنالهم و لتمتع الى حين الأجل المسمى قدرناه لهم.

قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ مَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ لما ذكر الآيات الداله على الربوبيه ذمهم على عدم رعايتهم حقها و عدم إقبالهم عليها و عدم ترتيبهم عليها آثارها فإذا قيل لهم هذه الآيات البينات ناطقه أن ربكم الله فاتقوا معصيته فى حالكم الحاضره و ما قدمتم من المعاصى،أو عذاب الشرك و المعاصى التى أنتم مبتلون بها و ما خلفتم وراءكم،او اتقوا ما بين أيديكم من الشرك و المعاصى فى الحياه الدنيا و ما خلفكم من العذاب فى الآخره،أعرضوا عنه و لم يستجيبوا له على ما هو دأبهم فى جميع الآيات التى ذكروا بها.

قوله تعالى: وَ مَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ المراد بإتيان الآيات موافاتها لهم بالمشاهده أو بالتلاوه و الذكر،و أيضا هى أعم من أن تكون آيه آفاقيه أو أنفسيه،أو تكون آيه معجزه كالقرآن،فهم معرضون عنها جميعا.

قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ إِلَىٰ آخِرِ آيَةٍ كَانَ قَوْلُهُ:

«وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ مَا خَلْفَكُمْ» متعرضا لجوابهم إذا دعوا الى عباده الله و هى أحد ركنى الدين الحق،و هذه الآيه تعرضت لجوابهم إذا دعوا الى عباده الله و هى أحد ركنى الدين الحق،و هذه الآيه تعرضت لجوابهم إذا دعوا الى الشفقه على خلق الله و هو الركن الآخر و معلوم أن جوابهم الرد دون القبول.

فقوله: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ يَتَضَمَّنْ دَعْوَتَهُمْ إِلَى الْإِنْفَاقِ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَفِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْأَمْوَالِ بِمَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ إِشْعَارَ بَأَنَّ الْمَالِكَ لَهَا حَقِيقَةٌ هُوَ اللَّهُ الَّذِي رَزَقَهُمْ بِهَا وَسُلْطَهُمْ عَلَيْهَا، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينِ وَأَقَامَ حَاجَتَهُمْ إِلَى مَا عِنْدَ هَؤُلَاءِ مِنْ فَضْلِ الْمُؤْنِ الَّذِي لَا يَفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ فَلْيَنْفِقُوا عَلَيْهِمْ وَلِيَحْسِنُوا وَلِيَجْمَلُوا وَاللَّهُ يَحِبُّ الْإِحْسَانَ وَجَمِيلَ الْفِعْلِ.

وقوله: قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَلَنْ نُسَبِّحَ بِحَمْدِ اللَّهِ أَطْعَمَهُ جَوَابَهُمْ لِلدَّعْوَةِ إِلَى الْإِنْفَاقِ، وَإِنَّمَا أَظْهَرَ الْقَائِلَ-الَّذِينَ كَفَرُوا-وَمُقْتَضَى الْمَقَامِ الْإِضْمَارَ لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ كُفْرَهُمْ بِالْحَقِّ وَإِعْرَاضَهُمْ عَنْهُ بِاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ هُوَ الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَى الْإِعْتِدَارِ بِمِثْلِ هَذَا الْعُذْرِ الْمَبْنِيِّ عَلَى الْإِعْرَاضِ عَمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ الْفِطْرَةَ مِنَ الشَّفِيقَةِ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ وَإِصْلَاحِ مَا فَسَدَ فِي الْمَجْتَمَعِ كَمَا أَنَّ الْإِظْهَارَ فِي قَوْلِهِ: «لِلَّذِينَ آمَنُوا» لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ قَائِلَ «أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا.

وَفِي قَوْلِهِ: أَلَنْ نُسَبِّحَ بِحَمْدِ اللَّهِ أَطْعَمَهُ إِشْعَارَ بَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا قَالُوا لَهُمْ:

«أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» بِعِنَايَةِ اللَّهِ بِمَا يَشَاءُ اللَّهُ وَيُرِيدُهُ حَكْمًا دِينِيًّا فَرْدِيًّا بِأَنَّ إِرَادَةَ اللَّهِ لَا تَتَخَلَفُ عَنْ مَرَادِهِ فَلَوْ شَاءَ أَنْ يُطْعِمَهُمْ أَطْعَمَهُمْ أَى وَسِعَ فِي رِزْقِهِمْ وَجَعَلَهُمْ أَغْنِيَاءَ.

وَهَذِهِ مِغَالَطَةٌ مِنْهُمْ خَلَطُوا فِيهِ بَيْنَ الْإِرَادَةِ التَّشْرِيعِيَّةِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِمْتِحَانِ وَهُدَايَةِ الْعِبَادِ إِلَى مَا فِيهِ صَلَاحٌ حَالِهِمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ وَمِنَ الْجَائِزِ أَنْ تَتَخَلَفَ عَنِ الْمَرَادِ بِالْعَصِيَانِ، وَبَيْنَ الْإِرَادَةِ التَّكْوِينِيَّةِ الَّتِي لَا تَتَخَلَفُ عَنِ الْمَرَادِ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ وَإِرَادَتَهُ الْمُتَعَلِّقَةَ بِإِطْعَامِ الْفُقَرَاءِ وَالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَشِيئَةِ التَّشْرِيعِيَّةِ دُونَ التَّكْوِينِيَّةِ فَتَخَلَفُهَا فِي مَوْرَدِ الْفُقَرَاءِ إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى عَصِيَانِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَتَمَرْدِهِمْ عَمَّا أَمَرُوا بِهِ لَا عَلَى عَدَمِ تَعَلُّقِ الْإِرَادَةِ بِهِ وَكَذَبِ مَدْعِيهِ.

وَهَذِهِ مِغَالَطَةٌ بَنَوْا عَلَيْهَا جُلَّ مَا افْتَعَلُوهُ مِنْ سُنَنِ الْوَثْنِيَّةِ وَقَدْ حَكَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ ذَلِكَ عَنْهُمْ

فى قوله: وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ (النحل ٣٥)، و قوله: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ (الأنعام ١٤٨)، و قوله: وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ (الزخرف ٢٠).

و قوله: إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ من تمام قول الذين كفروا يخاطبون به المؤمنين أى إنكم فى ضلال مبين فى دعواكم أن الله أمرنا بالإنفاق و شاء منا ذلك (١).

[سوره يس (٣٦): الآيات ٤٨ الى ٦٥]

و يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً
وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَ نَفَخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا
مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا
وَلَا تَجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) إِنْ أَضْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْمَأْرَأِكِ
مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَ لَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ (٥٨) وَ امْتَاذُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ
إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَ أَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا
كَثِيرًا أَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) إِصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ
أَفْوَاهِهِمْ وَ تَكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)

ص: ٢٦٥

قوله تعالى: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ كلام منهم وارد مورد الاستهزاء مبنى على الإنكار، ولعله لذلك جيء باسم الإشارة الموضوعه للقريبه ولأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين كثيرا ما كانوا يسمعونهم حديث يوم القيامة و يذرونهم به، والوعد يستعمل فى الخير والشر إذا ذكر وحده وإذا قبل الوعيد تعين الوعد للخير والوعيد للشر.

قوله تعالى: مَّا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ النَّظْرَ بِمَعْنَى الْإِنْتِظَارِ، والمراد بالصيحة نفخه الصور الاولى باعانه السياق، وتوصيف الصيحة بالوحده للإشارة الى هوان أمرهم على الله جلّت عظمته فلا حاجة الى مثونه زائده،

و «يَخِصُّمُونَ» أصله يختصمون من الاختصاص بمعنى المجادله و المخاصمه.

و الآيه جواب لقولهم: «مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ» مسوقه سوق الاستهزاء بهم و الاستهانه بأمرهم كما كان قولهم كذلك، و المعنى ما ينتظر هؤلاء القائلون: متى هذا الوعد فى سؤالهم عن وقت الوعد النبى عن الانتظار إلا- صيحه واحده- يسيره علينا بلا مئونه و لا تكلف- تأخذهم فلا يسعهم أن يفروا و ينجوا منها و الحال أنهم غافلون عنها يختصمون فيما بينهم.

قوله تعالى: «فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ» أى يتفرع على هذه الصيحه بما أنها تفاجئهم و لا تمهلهم ان يموتوا من فورهم فلا يستطيعوا توصيه-على أن الموت يعمهم جميعا دفعه فلا يترك منهم أحدا يوصى اليه- و لا أن يرجعوا الى أهلهم إذا كانوا فى الخارج من بيوتهم مثلا.

قوله تعالى: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ» هذه هى نفخه الصور الثانيه التى بها الإحياء و البعث، و الأجداث جمع جدث و هو القبر و النسل الإسراع فى المشى و فى التعبير عنه بقوله: «إِلَىٰ رَبِّهِمْ» تقرير لهم لأنهم كانوا ينكرون ربوبيته و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ» و الإقامه، و المرقد محل الرقاد و المراد به القبر، و تعبيرهم عنه تعالى بالرحمن نوع استرحام و قد كانوا يقولون فى الدنيا «مَا الرَّحْمَنُ» (الفرقان ٦٠)، و قوله: «وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ» عطف على قوله: «هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ» و الجملة الفعليه قد تعطف على الاسميه.

و قولهم: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا مبنى على إنكارهم البعث و هم فى الدنيا و رسوخ أثر الإنكار و الغفله عن يوم الجزاء فى نفوسهم و هم لا يزالون مستغرقين فى الأهواء فإذا قاموا من قبورهم مسرعين الى المحشر فاجأهم الورود فى عالم لا يستقبلهم فيه إلا توقع الشر فأخذهم

الفرع الأ-كبر و الدهشه التي لا- تقوم لها الجبال و لذا يتبادرون أولا الى دعوه الويل و الهلاك كما كان ذلك دأبهم فى الدنيا عند الوقوع فى المخاطر ثم سألوا عمن بعثهم من مرقدهم لأن الذى أحاط بهم من الدهشه أذلهم من كل شىء.

ثم ذكروا ما كانت الرسل عليهم السلام يذكرونهم به من الوعد الحق بالبعث و الجزاء فشهدوا بحقيه الوعد و استعصموا بالرحمه فقالوا: «هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ» على ما هو دأبهم فى الدنيا حيث يكيدون عدوهم إذا ظهر عليهم بالتملق و إظهار الذله و الاعتراف بالظلم و التقصير ثم صدقوا الرسل بقولهم: «وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ» .

قوله تعالى: إِنَّ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُخَضَّرُونَ اسم كان محذوف و التقدير إن كانت الفعله أو النفعه إلا نفعه واحده تفاجئهم أنهم مجموع محضرون لدينا من غير تأخير و مهله.

و التعبير بقوله: «لَدَيْنَا» لأن اليوم يوم الحضور لفصل القضاء عند الله سبحانه.

قوله تعالى: فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ لَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى فى هذا اليوم يقضى بينهم قضاء عدلا و يحكم حكما حقا فلا تظلم نفس شيئا.

و قوله: وَ لَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ عطف تفسير لقوله: «فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئاً» و هو فى الحقيقه بيان برهانى لانتفاء الظلم يومئذ لدلالته على أن جزاء أعمال العاملين يومئذ نفس أعمالهم، و لا- يتصور مع ذلك ظلم لأن الظلم وضع الشىء فى غير موضعه و تحميل العامل عمله وضع الشىء فى موضعه ضروره.

و خطاب الآيه من باب تمثيل يوم القيامة و إحضار من فيه بحسب العناية الكلاميه، و ليس -كما توهم- حكايه عما سيقال لهم أو يخاطبون به من جانب الله سبحانه أو الملائكه أو المؤمنين يوم القيامة فلا موجب له من جهه السياق.

و المخاطب بقوله: «وَ لَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» السعداء و الأشقياء جميعا.

قوله تعالى: إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهِونَ الشغل الشأن الذى شغل الإنسان و يصرفه عما عداه، و الفاكه من الفاكهه و هى التحديث بما يسر أو التمتع و التلذذ و لا فعل له من الثلاثى المجرد على ما قيل.

و المعنى أن أصحاب الجنة فى هذا اليوم فى شأن يشغلهم عن كل شىء دونه و هو التمتع فى الجنة متمتعون فيها.

قوله تعالى: هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِونَ الظلال جمع ظل و قيل جمع ظله بالضم و هى الستره من الشمس من سقف أو شجر أو غير ذلك، و الأريكه كل ما يتكى عليه من وساده أو غيرها.

و المعنى: هم أى أصحاب الجنة و أزواجهم من حلائلهم المؤمنات فى الدنيا أو من الحور العين فى ظلال أو أستار من الشمس و غيرها متكئون على الأرائك اتكاء الأعزه.

قوله تعالى: لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَ لَهُمْ مَا يَدَّعُونَ الفاكهه ما يتفكه به من الثمرات كالتفاح و الاترج و نحوهما، و قوله: «يَدَّعُونَ» من الادعاء بمعنى التمنى أى لهم فى الجنة فاكهه و لهم فيها ما يتمنونه و يطلبونه.

قوله تعالى: سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ سلام مبتدأ محذوف الخبر و التنكير للتفخيم و التقدير سلام عليهم أو لهم سلام، و «قَوْلًا» مفعول مطلق لفعل محذوف و التقدير أقوله قولا من رب رحيم.

و الظاهر أن السلام منه تعالى و هو غير سلام الملائكه المذكور فى قوله: وَ الْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (الرعد ٢٤).

قوله تعالى: وَ اٰمَنَّا بِهَا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ أى و نقول اليوم للمجرمين امتازوا من أصحاب الجنة و هو تمييزهم منهم يوم القيامة و إنجاز لما فى قوله فى موضع آخر: أَمْ نَجْعِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعِلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (ص ١)

(٢٨)، وقوله: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ (الجاثية ٢١).

قوله تعالى: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ العهد الوصيه، والمراد بعباده الشيطان طاعته فيما يوسوس و يأمر به إذ لا طاعه إلا لله أو من أمر بطاعته، وقد علل النهي عن طاعته بكونه عدوا مبينا لأن العدو لا يريد بعدوه خيرا.

و إنما وجه الخطاب الى المجرمين بعنوان أنهم بنو آدم لأن عداوه الشيطان إنما نشبت أول ما نشبت بآدم حيث أمر أن يسجد له فأبى واستكبر فرجم ثم عاد ذريته بعداوته و أوعدهم كما حكاه الله تعالى إذ قال: أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَخْتَنَّكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (الإسراء ٦٢).

و أما عهده تعالى و وصيته الى بنى آدم أن لا- يطيعوه فهو الذى وصاهم به بلسان رسله و أنبيائه و حذرهم عن اتباعه كقوله تعالى: يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ (الأعراف ٢٧) وقوله: وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (الزخرف ٦٢).

قوله تعالى: وَ أَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ عطف تفسير لما سبقه، وقد تقدم كلام فى معنى الصراط المستقيم فى تفسير قوله: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ من سوره الفاتحه.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ الجبل الجماعه و قيل: الجماعه الكثيره و الكلام مبنى على التوبيخ و العتاب.

قوله تعالى: هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ أى كان يستمر عليكم الایعاد بها مره بعد مره بلسان الأنبياء و الرسل عليه السلام و أول ما أوعد الله سبحانه بها حين قال لإبليس: إِنَّ

عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (الحجر ٤٣) و في لفظ الآية إشارة الى إحضار جهنم يومئذ.

قوله تعالى: اِصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ الصلاة: اللزوم و الاتباع، وقيل:

مقاساه الحراره و يظهر بقوله: «بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» أن الخطاب للكفار و هم المراد بالمجرمين.

قوله تعالى: الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ أى يشهد كل منها بما كانوا يكسبونه بواسطته فالأيدي بالمعاصي التي كسبها بها و الأرجل بالمعاصي الخاصة بها على ما يعطيه السياق.

و من هنا يظهر أن كل عضو ينطق بما يخصه من العمل و أن ذكر الأيدي و الأرجل من باب الأنموذج و لذا ذكر في موضع آخر السمع و البصر و الفؤاد كما في سورة أسرى الآية ٣٦. و في موضع آخر الجلود كما في سورة حم السجده الآية ٢٠، و سيأتي بعض ما يتعلق به من الكلام في تفسير سورة حم السجده إن شاء الله (١).

[سورة يس (٣٦): الآيات ٦٦ الى ٨٣]

وَ لَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦) وَ لَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَبَاعُوا مِضْيًا وَ لَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَ فَلَا يَعْلَمُونَ (٦٨) وَ مَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَ مَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠) أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَاتٍ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَ دَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَ مِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَ لَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَ مَشَارِبٌ أَ فَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَخْرُجُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ (٧٦) أَوْ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَ ضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ (٨٠) أَوْ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)

ص: ٢٧١

(١ - ١). يس ٤٨-٦٥: بحث روائى حول قوله تعالى: «مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً»؛ بنفخ الصور؛ اصحاب الجنة.

قوله تعالى: **وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ** قال في مجمع البيان: الطمس محو الشيء حتى يذهب أثره فالطمس على العين كالطمس على الكتاب و مثله الطمس على المال و هو إذهابه حتى لا يقع عليه إدراك، و أعمى مطموس و طميس و هو أن يذهب الشق الذي بين الجفنين، انتهى.

فقوله: **وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ** أى لو أردنا لأذهبنا أعينهم فصارت ممسوحة لا أثر منها فذهبت به أبصارهم و بطل إبصارهم.

و قوله: **فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ** أى أرادوا السبق الى الطريق الواضح الذى لا يخطئ قاصده و لا يظل سالكه فلم يبصروه و لن يبصروه فالاستبعاد المفهوم من قوله: **«فَأَنَّى يُبْصِرُونَ»** كناية عن الامتناع.

قوله تعالى: **وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَبَاطُوا مَضِيًّا وَلَا يُرْجِعُونَ** قال فى المجمع: و المسح قلب الصورة الى خلقه مشوهه كما مسخ قوم قرده و خنازير و قال: و المكانه و المكان واحد. انتهى. المراد بمسحهم على مكانتهم تشويه خلقهم و هم قعود فى مكانهم الذى هم فيه من غير أن يغيرهم عن حالهم بعلاج و تكلف بل بمجرد المشيه فهو كناية عن كونه هينا سهلا عليه تعالى من غير أى صعوبه.

و قوله: **فَمَا اسْتَبَاطُوا مَضِيًّا وَلَا يُرْجِعُونَ** أى مضيا فى العذاب و لا يرجعون الى حالهم قبل العذاب و المسخ فالمضى و الرجوع كنايةتان عن الرجوع الى حال السلامه و البقاء على حال العذاب و المسخ.

قوله تعالى: **وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ** التعمير التطويل العمر، و التنكيس قلب الشيء بحيث يعود أعلاه أسفله و يتبدل قوته ضعفا و زيادته نقصا

و الإنسان فى عهد الهرم منكس الخلق يتبدل قوته ضعفا و علمه جهلا و ذكره نسيانا.

و الآيه فى مقام الاستشهاد بتنكيس الخلق على إمكان مضمون الآيتين السابقتين و المراد أن الذى ينكس خلق الإنسان إذا عمره قادر على أن يطمس على أعينهم و على أن يمسخهم على مكائهم.

و فى قوله: أ فَلَا يَعْقِلُونَ تويخهم على عدم التعقل و حثهم على التدبر فى هذه الامور و الاعتبار بها.

قوله تعالى: وَ مَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَ مَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُّبِينٌ عطف و رجوع الى ما تقدم فى صدر السوره من تصديق رساله النبى صلى الله عليه و آله و سلم و كون كتابه تنزيلا من عنده تعالى.

فقوله: وَ مَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ نفى أن يكون علمه الشعر و لازمه أن يكون بحيث لا يحسن قول الشعر لا أن يحسنه و يمتنع من قوله لنهى من الله متوجه اليه، و لا أن النازل من القرآن ليس بشعر و إن أمكنه صلى الله عليه و آله و سلم أن يقوله.

و به يظهر أن قوله: «وَ مَا يَنْبَغِي لَهُ» فى مقام الامتنان عليه بأنه نزّه عن أن يقول شعرا فالجمله فى مقام دفع الدخل و المحصل أن عدم تعليمنا إياه الشعر ليس يوجب نقصا فيه و لا أنه تعجيز له بل لرفع درجته و تنزيه ساحته عما يتعاوره العارف بصناعه الشعر فيقع فى معرض تزيين المعانى بالتخيالات الشعرية الكاذبه التى كلما أمعن فيها كان الكلام أوقع فى النفس، و تنظيم الكلام بأوزان موسيقية ليكون أوقع فى السمع، فلا ينبغى له صلى الله عليه و آله و سلم أن يقول الشعر و هو رسول من الله و آيه رسالته و متن دعوته القرآن المعجز فى بيانه الذى هو ذكر و قرآن مبين.

و قوله: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُّبِينٌ تفسير و توضيح لقوله: «وَ مَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَ مَا يَنْبَغِي لَهُ» بما أن لازم معناه أن القرآن ليس بشعر فالحصر المستفاد من قوله: «إِنْ هُوَ إِلَّا

ذِكْرُ» الخ؛ من قصر القلب و المعنى ليس هو بشعر ما هو إلا ذكر و قرآن مبين.

و معنى كونه ذكرا و قرآنا أنه ذكر مقرو من الله ظاهر ذلك.

قوله تعالى: لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ تعليل متعلق بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ﴾ و المعنى و لم نعلمه الشعر لينذر بالقرآن المنزه من أن يكون شعرا من كان حيا، الخ؛ أو متعلق بقوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ الخ؛ و المعنى ليس ما يتلوه على الناس إلا ذكرا و قرآنا مبينا نزلناه اليه لينذر من كان حيا، الخ؛ و مآل الوجهين واحد.

و الآيه- كما ترى- تعد غايه إرسال الرسول و إنزال القرآن إنذار من كان حيا- و هو كناية عن كونه يعقل الحق و يسمعه- و حقيه القول و وجوبه على الكافرين فمحاذاه الآيه لما فى صدر السوره من الآيات فى هذا المعنى ظاهر.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ذكر آيه من آيات التوحيد تدل على ربوبيته تعالى و تدبيره للعالم الإنسانى و هى نظيره ما تقدم فى ضمن آيات التوحيد السابقه من إحياء الأرض الميتة بإخراج الحب و الثمرات و تفجير العيون.

و المراد بكون الأنعام مما عملته أيديه تعالى عدم إشراكهم فى خلقها و اختصاصه به تعالى فعمل الأيدي كناية عن الاختصاص.

و قوله: فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ تفریع على قوله: «خَلَقْنَا لَهُمْ» فإن المعنى خلقنا لأجلهم فهى مخلوقه لأجل الإنسان و لازمه اختصاصها به و ينتهى الاختصاص الى الملك فإن الملك الاعتبارى الذى فى المجتمع من شعب الاختصاص.

قوله تعالى: وَ ذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَ مِنْهَا يَأْكُلُونَ تذليل الأنعام جعلها منقادهم غير عاصيه و هو تسخيرها لهم، و الركوب بفتح الراء الحموله كالابل و البقر، و قوله: «وَ مِنْهَا يَأْكُلُونَ» أى من لحمها يأكلون.

قوله تعالى: وَ لَهُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَ مَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ المراد بالمنافع ما ينتفعون به من شعرها و وبرها و جلودها و غير ذلك، و المشارب جمع مشرب-مصدر ميمي بمعنى المفعول-و المراد بها الألبان، و الكلام فى معنى الشكر كالكلام فيما تقدم فى قوله: «وَ مَا عَمِلْتُمْ أَيْدِيَهُمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ» .

و معنى الآيات الثلاث: أو لم يعلموا أنا خلقنا لأجلهم و لتدبير أمر حياتهم الدنيا أنعاما من الإبل و البقر و الغنم فتفرع على ذلك أنهم مالكون لها ملكا يصحح لهم أنواع تصرفاتهم فيها من غير معارض، و ذللتها لهم بجعلها مسخره لهم منقاد غير عاصيه فمنها ركوبهم الذى يركبونه، و منها أى من لحومها يأكلون، و لهم فيها منافع ينتفعون بأشعارها و أوبارها و جلودها و مشروبات من ألبانها يشربونها أفلا يشكرون الله على هذا التدبير الكامل الذى يكشف عن ربوبيته لهم؟ أ و لا يعبدونه شكرا لأنعمه؟

قوله تعالى: وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ضمائر الجمع للمشركين، و المراد بالآلهه الأصنام أو الشياطين و فراعنه البشر دون الملائكة المقربين و الأولياء من الإنسان لعدم ملاءمه ذيل الكلام «وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ» لذلك.

و إنما اتخذوهم آلهه رجاء أن ينصروا من ناحيتهم لأن عامتهم تتخذ إليها زعما منهم أن تدبير أمره مفوض الى من اتخذه إليها من خير أو شر فيعبده العابد منهم ليرضيه بعبادته فلا يسخط فيقطع النعمه أو يرسل النقمه.

قوله تعالى: لا- يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ أى لا- يستطيع هؤلاء الآلهه الذين اتخذوهم آلهه نصر هؤلاء المشركين لأنهم لا يملكون شيئا من خير أو شر.

و قوله: وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ الظاهر أن أول الضميرين للمشركين و ثانيهما للآلهه من دون الله و المراد أن المشركين جند للآلهه و ذلك أن من لوازم معنى الجنديه التبعية

و الملازمه و المشركون هم المعدودون أتباعا لآلهتهم مطيعين لهم دون العكس.

و المراد بالإحضار بالإحضار فى قوله: «مُحَضَّرُونَ» الإحضار للجزاء يوم القيامة قال تعالى: وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجَنَّةِ نَسِيْبًا وَ لَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةِ إِنَّهُمْ لَمُحَضَّرُونَ (الصافات ٥٧).

و محصل المعنى لا يستطيع الآلهه المتخذون نصر المشركين و هم أى المشركون لهم أى لآلهتهم أتباع مطيعون محضرون معهم يوم القيامة.

قوله تعالى: فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنْآ نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ الفاء لتفريع النهى عن الحزن على حقيقه اتخاذهم الآلهه من دون الله رجاء للنصر أى إذا كان هذا حقيقه حالهم أن الذين استنصروهم لا يستطيعون نصرهم أبدا و أنهم سيحضرون معهم للعذاب فلا يحزنك قولهم ما قالوا به من الشرك فإننا لسنا بغافلين عنهم حتى يعجزونا أو يفسدوا علينا بعض الأمر بل نعلم ما يسرون من أقوالهم و ما يعلنون، و فى تركيب الآيه بعض أقوال رديئه أضربنا عنه.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ رجوع الى ما تقدم من حديث البعث و الاحتجاج عليه إثر إنكارهم، و لا- يبعد أن يكون بيانا تفصيليا لقولهم المشار اليه فى قوله تعالى: «فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ» الخ؛ و المراد بالرؤيه العلم القطعى أى أو لم يعلم الإنسان علما قاطعا أنا خلقناه من نطفه، و تنكير نطفه للتحقير و الخصيم المصير على خصومته و جداله.

و الاستفهام للتعجب و المعنى من العجيب أن الإنسان يعلم أنا خلقناه من نطفه مهينه فيفاجئه أنه خصيم مجادل مبين.

قوله تعالى: وَ ضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ الرَّمِيمُ الرميم البالى من العظام، و «نَسِيَ خَلْقَهُ» حال من فاعل ضرب، و قوله: «قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ الرَّمِيمُ» بيان للمثل الذى ضربه الإنسان، و لذلك جىء به مفصولا من غير

عطف لأن الكلام فى معنى أن يقال: فما ذا ضرب مثلاً؟ فقيل: قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ.

و المعنى و ضرب الإنسان لنا مثلاً- و قد نسى خلقه من نطفه لأول مره، و لو كان ذاكره لم يضرب المثل الذى ضربه و هو قوله: «من يحيى العظام و هى باليه؟» لأنه كان يرد على نفسه و يجيب عن المثل الذى ضربه بخلقه الأول كما لقنه الله تعالى لنبيه صلى الله عليه و آله و سلم جوابا عنه.

قوله تعالى: قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ تلقين الجواب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم.

الإشياء هو الإيجاد الابتدائى و تقييده بقوله: «أَوَّلَ مَرَّةٍ» للتأكيد، و قوله: «وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» إشاره الى أنه تعالى لا ينسى و لا يجهل شيئا من خلقه فإذا كان هو خالق هذه العظام لأول مره و هو لا يجهل شيئا مما كانت عليه قبل الموت و بعده فإحياءه ثانيا بمكان من الإمكان لثبوت قدره و انتفاء الجهل و النسيان.

قوله تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ بيان لقوله: «الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ» و الإيقاد إشعال النار.

و الآيه مسوقه لرفع استبعاد جعل الشىء الموات شيئا ذا حياه و الحياه و الموت متنافيان و الجواب أنه لا استبعاد فيه فإنه هو الذى جعل لكم من الشجر الأخضر الذى يقطر ماء نارا فإذا أنتم منه توقدون و تشعلون النار، و المراد به على المشهور بين المفسرين شجر (1) المرخ و العفار كانوا يأخذون منهما على خضرتهما فيجعل العفار زندا أسفل و يجعل المرخ زندا أعلى فيسحق الأعلى على الاسفل فتندح النار بإذن الله فحصول الحى من الميت ليس بأعجب من انقداح النار من الشجره الخضراء و هما متضادان.

ص: ٢٧٨

١- ١). المرخ بالفتح فالسكون و الخاء المعجمه، و العفار بعين مفتوحه ثم الفاء ثم الراء المهمله شجرتان تشتعلان بسحق أحدهما على الآخر.

قوله تعالى: أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ الاستفهام للإنكار والآية بيان للحجة السابقة المذكورة في قوله: «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ» الخ؛ بيان أقرب الى الذهن و ذلك بتبديل إنشائهم أول مره من خلق السماوات و الأرض الذي هو أكبر من خلق الإنسان كما قال تعالى: «لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ» (المؤمن ٥٧).

فالآية في معنى قولنا: وكيف يمكن أن يقال: إن الله الذي خلق عوالم السماوات و الأرض بما فيها من سعه الخلقه البديعه و عجيب النظام العام المتضمن لما لا يحصى من الأنظمة الجزئية المدهشه للعقول المحيره للالباب و العالم الإنساني جزء يسير منها، لا يقدر أن يخلق مثل هؤلاء الناس، بلى و إنه خلاق عليم.

و المراد بمثلهم قيل: هم و أمثالهم و فيه أنه مغاير لمعنى مثل على ما يعرف من اللغة و العرف.

فالحق أن يقال: إن المراد بخلق مثلهم إعادتهم للجزاء بعد الموت كما يستفاد من كلام الطبرسي رحمه الله في مجمع البيان.

بيانه أن الإنسان مركب من نفس و بدن، و البدن في هذه النشأة في معرض التحلل و التبديل دائما فهو لا يزال يتغير أجزاءه و المركب ينتفى بانتهاء أحد أجزائه فهو في كلاً- آن غيره في الآن السابق بشخصه و شخصيه الإنسان محفوظه بنفسه-روح- المجرده المنزّهه عن المادة و التغيرات الطارئة من قبلها المأمونه من الموت و الفساد.

و المتحصل من كلامه تعالى أن النفس لا تموت بموت البدن و أنها محفوظة حتى ترجع الى الله سبحانه كما تقدم استفادته من قوله تعالى: وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (الم السجده ١١).

فالبدن اللاحق من الإنسان إذا أعتبر بالقياس الى البدن السابق منه كان مثله لا عينه لكن الإنسان ذا البدن اللاحق إذا قيس الى الإنسان ذى البدن السابق كان عينه لا مثله لأن الشخصيه بالنفس و هي واحده بعينها.

و لما كان استبعاد المشركين فى قولهم: «مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ» راجعا الى خلق البدن الجديد دون النفس أجاب سبحانه بإثبات إمكان خلق مثلهم و أما عودهم بأعيانهم فهو إنما يتم بتعلق النفوس و الأرواح المحفوظه عند الله بالأبدان المخلوقه جديدا، فتكون الأشخاص الموجودين فى الدنيا من الناس بأعيانهم كما قال تعالى: أَمْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْزِبْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَيِّتَاتِ (الأحقاف ٣٣) فعلق الإحياء على الموتى بأعيانهم فقال: على أن يحيى الموتى و لم يقل: على أن يحيى أمثال الموتى.

قوله تعالى: إِنَّهَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الآيه من غرر الآيات القرآنيه تصف كلمه الإيجاد و تبين أنه تعالى لا يحتاج فى إيجاد شىء مما أراده الى ما وراء ذاته المتعاليه من سبب يوجد له ما أراده أو يعينه فى إيجاده أو يدفع عنه مانعا يمنعه.

و قد اختلف تعبيره تعالى عن هذه الحقيقه فى كلامه فقال: إِنَّهَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (النحل ٤٠)، و قال: وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (البقره ١١٧).

فقوله: إِنَّهَا أَمْرُهُ الظاهر أن المراد بالأمر الشأن، و قوله فى آيه النحل المنقوله آنفا:

«إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ» إن كان يؤيد كون الأمر بمعنى القول و هو الأمر اللفظى بلفظه كن إلا أن التدبر فى الآيات يعطى أن الغرض فيها وصف الشأن الإلهى عند إرادته خلق شىء من الأشياء لا بيان أن قوله تعالى عند خلق شىء من الأشياء هذا القول دون غيره، فالوجه حمل القول على الأمر بمعنى الشأن بمعنى أنه جىء به لكونه مصداقا للشأن لا حمل الأمر على

القول بمعنى ما يقابل النهى.

□ □ وقوله: إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَى إِذَا أَرَادَ إِيجَادَ شَىءٍ كَمَا يَعْطِيهِ سِيَاقُ الْآيَةِ وَقَدْ وَرَدَ فِي عَدَّةٍ مِنَ الْآيَاتِ الْقَضَاءُ مَكَانَ الْإِرَادَةِ كَقَوْلِهِ: إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١) وَلَا ضَيْرَ فَالْقَضَاءُ هُوَ الْحَكْمُ وَالْقَضَاءُ وَالْحَكْمُ وَالْإِرَادَةُ مِنَ اللَّهِ شَىءٌ وَاحِدٌ وَهُوَ كَوْنُ (٢) الشَّيْءِ الْمَوْجُودِ بِحَيْثُ لَيْسَ لَهُ مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ إِلَّا أَنْ يَوْجَدَ فَمَعْنَى إِذَا أَرَدْنَاهُ إِذَا أَوْقَفْنَاهُ مَوْقِفَ تَعَلُّقِ الْإِرَادَةِ.

□ □ وقوله: أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ خَبْرٌ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَى يَخَاطَبُهُ بِكَلِمَةٍ كُنْ وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنْ لَيْسَ هُنَاكَ لَفْظٌ يَتَلَفَّظُ بِهِ وَ إِلَّا احْتِجَاجٌ فِي وَجُودِهِ إِلَى لَفْظٍ آخَرَ وَ هَلَمْ جَرًّا فَيَتَسَلَّلُ وَ لَا- أَنْ هُنَاكَ مَخَاطَبًا ذَا سَمْعٍ يَسْمَعُ الْخَطَابَ فَيُوجَدُ بِهِ لِأَدَائِهِ إِلَى الْخَلْفِ فَالْكَلَامُ تَمَثِيلٌ لِإِفَاضَتِهِ تَعَالَى وَ جُودِ الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى شَىءٍ آخَرَ وَرَاءَ ذَاتِهِ الْمُتَعَالِيَةِ وَ مِنْ غَيْرِ تَخَلُّفٍ وَ لَا مَهَلٍ.

□ □ قوله تعالى: فَسَيَبْحَثُ الَّذِي فِي يَدَيْهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ الْمَلَكُوتَ مَبَالِغُهُ فِي مَعْنَى الْمَلِكِ كَالرَّحْمَتِ وَ الرَّهْبِ فِي مَعْنَى الرَّحْمَةِ وَ الرَّهْبِ.

□ □ وَ انْضِمَامُ الْآيَةِ إِلَى مَا قَبْلَهَا يَعْنِي أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمَلَكُوتِ الْجِهَةِ التَّالِيَةِ لَهُ تَعَالَى مِنْ وَجْهِهِ وَ جُودِ الْأَشْيَاءِ، وَ بِالْمَلِكِ الْجِهَةِ التَّالِيَةِ لِلْخَلْقِ أَوْ الْأَعْمِ الشَّامِلِ لِلْوَجْهِينِ. وَ عَلَيْهِ يَحْمَلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:

□ □ وَ كَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلِكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (الأنعام ٧٥).

□ □ وقوله: أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ (الأعراف ١٨٥) وقوله: قُلْ مَنْ فِي يَدَيْهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (المؤمنون ٨٨).

□ □ وَ جَعَلَ الْمَلَكُوتَ بِيَدِهِ تَعَالَى لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ مُتَسَلِّطٌ عَلَيْهَا لَا نَصِيبَ فِيهَا لِغَيْرِهِ.

ص: ٢٨١

١- ١). البقرة: ١٧، آل عمران: ٤٧، مريم: ٣٥، المؤمن: ٦٨.

٢- ٢). فإن هذه الإرادة صفة فعلية خارجة عن الذات منتزعة عن مقام الفعل.

و مآل المعنى فى قوله: «فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ» تنزيهه تعالى عما استبعدوا منكروا للمعاد لغفلتهم عن أن ملكوت كل شىء بيده و فى قبضته.

و قوله: وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ خطاب لعمامه الناس من مؤمن و مشرك، و بيان لنتيجه البيان السابق بعد التنزيه (١).

ص: ٢٨٢

١ - ١ . يس ٦٦-٨٣: بحث روائى حول قوله تعالى: «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ» ؛ احياء الموتى؛ مكان روح المحسن و المسىء بعد الموت».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَ الصَّافَّاتِ صَيْفًا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ رَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بَرِيَّةً الْكَوَاكِبِ (٦) وَ حِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَ يُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) فَاسْتَفْتِهِمْ أَ هُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (١١)

فى السوره احتجاج على التوحيد، و إنذار للمشركين و تبشير للمخلصين من المؤمنين، و بيان ما يثول اليه حال كل من الفريقين ثم ذكر عده من عبادہ المؤمنین ممن من اللہ عليهم و قضى أن ينصرهم على عدوهم، و فى خاتمه السوره ما هو بمنزله محصل الغرض منها و هو تنزيهه السلام على عبادہ المرسلين و تحميده تعالى فيما فعل و السوره مكيه بشهادة سياقها.

قوله تعالى: وَالصَّافَّاتِ صِيفًا، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا الصافات-على ما قيل-جمع صافه و هى جمع صاف، و المراد بها على أى حال الجماعه التى تصطف أفرادها و الزاجرات من الزجر و هو الصرف عن الشىء بالتخويف بدم أو عقاب و التاليات من التلاوه بمعنى القراءه.

و قد أقسم اللہ تعالى بهذه الطوائف الثلاث: الصافات و الزاجرات و التاليات و قد اختلفت كلماتهم فى المراد بها:

فأما الصافات فقيل: إن المراد بها الملائكه تصف أنفسها فى السماء صفوفًا كصفوف المؤمنين فى الصلاه، و قيل: إنها الملائكه تصف أجنحتها فى الهواء إذا أرادت النزول الى الأرض واقفه فى انتظار أمر اللہ تعالى، و قيل: إنها الجماعه من المؤمنين يقومون فى الصلاه أو فى الجهاد مصطفين.

و أما الزاجرات فقيل: إنها الملائكه تزجر العباد عن المعاصى فيوصله اللہ الى قلوب الناس فى صورہ الخطرات كما يوصل وساوس الشياطين، و قيل: إنها الملائكه الموكله بالسحاب تزجرها و تسوقها الى حيث أراد اللہ سبحانه، و قيل: هى زواجر القرآن و هى آياته الناهيه عن القبائح، و قيل: هم المؤمنون يرفعون أصواتهم بالقرآن عند قراءته فيزجرون

الناس عن المنهيات.

و أما التاليات فقول: هم الملائكة يتلون الوحي على النبي الموحى اليه، وقيل: هي الملائكة تتلو الكتاب الذي كتبه الله و فيها ذكر الحوادث، وقيل: جماعه قراء القرآن يتلونه فى الصلاه.

و يحتمل -و الله العالم- أن يكون المراد بالطوائف الثلاث المذكوره فى الآيات طوائف الملائكة النازلين بالوحي المأمورين بتأمين الطريق و دفع الشياطين عن المداخله فيه و إيصاله إلى النبي مطلقاً أو خصوص محمد صلى الله عليه و آله و سلم كما يستفاد من قوله تعالى: **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِن خَلْفِهِ رَصَدًا لِّيُخَوِّفَ أُنْقَادًا بَلَّغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ (الجن ٢٨).**

و عليه فالمعنى أقسم بالملائكة الذين يصفون فى طريق الوحي صفاً فبالذين يزجرون الشياطين و يمنعونهم عن المداخله فى الوحي فبالذين يتلون على النبي الذكر و هو مطلق الوحي أو خصوص القرآن كما يؤيده التعبير عنه بتلاوه الذكر.

و يؤيد ما ذكرنا وقوع حديث رمى الشياطين بالشهب بعد هذه الآيات، و كذا قوله بعد:

«فَاسْتَفْتَيْهِمْ أَ هُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَن مَّنْ خَلَقْنَا» الآية؛ كما سنشير اليه.

و لا ينافى ذلك إسناد النزول بالقرآن الى جبريل وحده فى قوله: **مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ (البقره ٩٧)** و قوله: **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ (الشعراء / ١٩٤)** لأن الملائكة المذكورين أعوان جبريل فنزولهم به نزوله به و قد قال تعالى: **فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كَرَامٍ بَرَرَةٍ (عبس ١٦)**، و قال حكايه عنهم:

«وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ (مريم ٦٤)، و قال: **وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (الصفات ١٦٦)** و هذا كنسبه التوفى الى الرسل من الملائكة فى قوله: **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا (الأنعام ٦١)** و الى ملك الموت و هو رئيسهم فى قوله:

قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (السجده ١١).

و لا ضير فى التعبير عن الملائكه بلفظ الإناث: الصافات و الزاجرات و التاليات لأن موصوفها الجماعه، و التأنيث لفظى.

و هذه أول سورته فى القرآن صدرت بالقسم و قد اقسم الله سبحانه فى كلامه بكثير من خلقه كالسما و الأرض و الشمس و القمر و النجم و الليل و النهار و الملائكه و الناس و البلاد و الأثمار، و ليس ذلك إلا لما فيها من الشرف باستناد خلقها اليه تعالى و هو قيومها المنبع لكل شرف و بهاء.

قوله تعالى: إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ الْخَطَابِ لِعَامِهِ النَّاسِ وَ هُوَ مَقْسَمٌ بِهِ، وَ هُوَ كَلَامٌ مَسْجُودٌ بِدَلِيلٍ كَمَا سَيَأْتِي.

قوله تعالى: رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ رَبُّ الْمَشَارِقِ خَبْرٌ بَعْدَ خَبْرٍ لِأَنَّ، أَوْ خَبْرٌ لِمَبْتَدَأٍ مَحذُوفٍ وَ التَّقْدِيرُ هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ، الْخ؛ أَوْ بَدَلٌ مِنْ وَاحِدٍ.

و فى سوق الأوصاف إشعار بعلة كون الإله واحدا كما أن خصوصيه القسم مشعر بعلة كونه رب السماوات و الأرض و ما بينهما.

كأنه قيل إن إلهكم لواحد لأن الملائك فى الوهيه الإله و هى كونه معبودا بالحق أن يكون ربا يدبر الأمر على ما تعترفون و هو سبحانه رب السماوات و الأرض و ما بينهما الذى يدبر أمرها و يتصرف فى جميعها.

و كيف لا؟ و هو تعالى يوحى الى نبيه فيتصرف فى السماء و سكانها بإرسال ملائكه يصطفون بينها و بين الأرض و هناك مجال الشياطين فيزجرونهم و هو تصرف منه فيما بين السماء و الأرض و فى الشياطين ثم يتلون الذكر على نبيه و فيه تكميل للناس و تربيته لهم سواء صدقوا أم كذبوا ففى الوحي تصرف منه فى السماوات و الأرض و ما بينهما فهو على وحدانيته رب الجميع المدبر لأمرها و الإله الواحد.

وقوله: وَ رَبُّ الْمَشَارِقِ أَى مشارق الشمس باختلاف الفصول أو المراد مشارق مطلق النجوم أو مطلق المشارق، و فى تخصيص المشارق بالذكر مناسبه لطلوع الوحى بملائكته من السماء و قد قال تعالى: وَ لَقَدْ رَأَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (التكوير ٢٣)، و قال: وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (النجم ٧).

قوله تعالى: إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ المراد بالزينة ما يزين به، و الكواكب بيان أو بدل من الزينة و قد تكرر حديث تزيين السماء الدنيا بزينة الكواكب فى كلامه كقوله: وَ زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ (حم السجده ١٢) و قوله: وَ لَقَدْ زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ (الملك ٥)، و قوله: أ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَ زَيْنَاهَا (ق/ ٦).

و لا يخلو من ظهور فى كون السماء الدنيا من السماوات السبع التى يذكرها القرآن هو عالم الكواكب فوق الأرض و إن وجهه بعضهم بما يوافق مقتضى الهيئه القديمه أو الجديده.

قوله تعالى: وَ حِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ حفظا مفعول مطلق لفعل محذوف و التقدير و حفظناها حفظا من كل شيطان مارد، و المراد بالشيطان الشرير من الجن و المارد الخبيث العارى من الخير.

قوله تعالى: لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَ يُسْمَعُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ أَصْل «لَا يَسْمَعُونَ» لا يسمعون و التسمع الإصغاء، و هو كناية عن كونهم ممنوعين مدحورين و بهذه العناية صار وصفا لكل شيطان و لو كان بمعنى الإصغاء صريحا أفاد لغوا من الفعل إذ لو كانوا لا يصغون لم يكن وجه لقتذفهم.

و الملاء من الناس الأشراف منهم الذين يملئون العيون، و الملاء الأعلى هم الذين يريد الشياطين التسمع اليهم و هم الملائكه الكرام الذين هم سكنه السماوات العلى على ما يدل عليه كلامه تعالى كقوله: لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِنَّ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (الإسراء ٩٥).

و قصدهم من التسمع الى الملاء-الأعلى الاطلاع على أخبار الغيب المستورده عن هذا العالم الأرضى كالحوادث المستقبله و الأسرار المكنونه كما يشير اليه قوله تعالى: وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا يَبْغِي لَهُمْ وَمَا يَشْتَرُونَ عَنْهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعًا ذَوَاتًا (الشعراء ٢١٢)، وقوله حكاية عن الجن: وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً فَخَرْنَا شَدِيدًا وَشُهْبًا وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا (الجن ٩).

و قوله: وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ الْقَذْفَ الرَّمِيَّ وَالْجَانِبَ الْجَهَّه.

قوله تعالى: دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ الدُّخُورُ الطُّرْدُ وَالدَّفْعُ، وَهُوَ مُصَدَّرٌ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ مَنْصُوبٌ حَالًا-أَيُّ مَدْحُورِينَ أَوْ مَفْعُولٌ لَهُ أَوْ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ، وَالْوَأْصِبُ الْوَأْجِبُ الْإِلْزَامُ.

قوله تعالى: إِلَّا- مَنْ خَطَفَ الْخُطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ذَاقِبٌ الْخُطْفَةُ الْإِخْتِلَاسُ وَالِاسْتِلَابُ، وَالشُّهَابُ مَا يَرَى فِي الْجَوِّ كَالْكُوكَبِ الْمُنْقَضِ، وَالثُّقُوبُ الرُّكُوزُ وَاسْمُ الشُّهَابِ ثَاقِبًا لِأَنَّهُ لَا يَخْطِي هَدْفَهُ وَغَرَضَهُ.

و المراد بالخطفه اختلاس السمع و قد عبر عنه في موضع آخر باستراق السمع قال تعالى:

إِلَّا- مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (الحجر ١٨)، وَالِاسْتِنَاءُ مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ فِي قَوْلِهِ: «لَا يَسْمَعُونَ» وَجُوزَ بَعْضُهُمْ كَوْنِ الْإِسْتِنَاءِ مُنْقَطِعًا.

و معنى الآيات الخمس: إنا زينا السماء التي هي أقرب السماوات منكم-أو السماء السفلى بزينة و هي الكواكب، و حفظناها حفظًا من كل شيطان خبيث عار من الخير ممنوعين من الإصغاء الى الملاء الأعلى-للاطلاع الى ما يلقون بين أنفسهم من أخبار الغيب-و يرمون من كل جهه حال كونهم مطرودين و لهم عذاب لازم لا يفارقهم إلا من اختلس من أخبارهم

[سوره الصفات (٣٧): الآيات ١٢ الى ٧٠]

بَلْ عَجَبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أ
 إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوْ آبَاءُنَا الْأَوْلَؤُنَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا
 هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمَ الْفَضْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ (٢١) أَحْسَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ
 أَرْوَاهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مَنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْتَدُوا هُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا
 تَنصُرُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨)
 قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَلذَائِقُونَ (٣١)
 فَأَعْوَبْنَاكُمْ أَنَا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكْ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ
 لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَلَكُوتٌ مُّسَوِّغُونَ لِمَا كُفَرْنَا بِهٖ وَآبَاءُنَا الْأَوْلَؤُنَ (٣٦) وَإِنَّا لَمَلَكُوتٌ مُّسَوِّغُونَ لِمَا كُفَرْنَا بِهٖ
 لَمَلَكُوتٌ مُّسَوِّغُونَ لِمَا كُفَرْنَا بِهٖ وَآبَاءُنَا الْأَوْلَؤُنَ (٣٧) وَإِنَّا لَمَلَكُوتٌ مُّسَوِّغُونَ لِمَا كُفَرْنَا بِهٖ وَآبَاءُنَا الْأَوْلَؤُنَ (٣٨) وَمَا تَجَزَّوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١)
 فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) يَبِيضَاءُ لَهُدًى لِلشَّارِبِينَ
 (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى
 بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَ إِنَّا
 لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْت لَتَزِدِينَ (٥٦) وَ لَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّي
 لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَلَمْ نَحْنُ بِمَبْتُينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتِنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ
 هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) أَ ذَلِكْ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّرْقَوْمِ (٦٢) إِذَا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصِيلِ
 الْجَحِيمِ (٦٤) طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَبِأَنَّهُمْ لَمَّا كَلُوا مِنْهَا فَمَالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ
 (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠)

قوله تعالى: بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ أَى بَلْ عَجِبْتَ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاكَ مَعَ دَعْوَتِكَ إِيَّاهُمْ إِلَى كَلِمَةِ الْحَقِّ، وَهُمْ يَسْخَرُونَ وَيَهْزَعُونَ مَنْ تَعْجَبُكَ مِنْهُمْ أَوْ مِنْ دَعَائِكَ إِيَّاهُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَإِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَدِينِ الْحَقِّ لَا يَذْكُرُونَ وَلَا يَتَنَبَّهُونَ.

قوله تعالى: وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ: سَخِرَ وَاسْتَخَرَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ. انْتَهَى.

والمعنى: وَإِذَا رَأَوْا هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ آيَةَ مُعْجِزَةٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْمُعْجِزَةِ كَالْقُرْآنِ وَشَقِ الْقَمَرِ وَاسْتَهْزَعُونَ بِهَا.

قوله تعالى: وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ فِي إِشَارَتِهِمْ إِلَى الْآيَةِ بِلَفْظِهِ هَذَا إِشْعَارٌ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَفْقَهُونَ مِنْهَا إِلَّا أَنَّهَا شَيْءٌ مَا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَهُوَ مِنْ أَقْوَى الْإِهَانَةِ وَالِاسْتِسْخَارِ.

قوله تعالى: أ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أ وَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ إِنكَارٌ مِنْهُمْ لِلْبَعْثِ مَبْنَى عَلَى الْإِسْتِعَادِ فَمَنْ الْمُسْتَبْعَدُ عِنْدَ الْوَهْمِ أَنَّ يَمُوتَ الْإِنْسَانُ

فيتلاشى بدنه و يعود ترابا و عظاما ثم يعود الى صورته الاولى.

و من الدليل على أن الكلام مسوق لإفاده الاستبعاد تكرارهم الاستفهام الإنكارى بالنسبه الى آباءهم الأولين فإن استبعاد الوهم لبعثهم و قد انمحت رسومهم و لم يبق منهم إلا أحاديث أشد و أقوى من استبعاده بعثهم أنفسهم.

و لو كان إنكارهم البعث مبنيًا على أنهم يعدمون بالموت فتستحيل إعادتهم كان الحكم فيهم و فى آباءهم على نهج واحد و لم يحتج الى تجديد استفهام بالنسبه الى آباءهم.

قوله تعالى: قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ دَاخِرُونَ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ أمر تعالى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن يجيبهم بأنهم مبعوثون.

و قوله: وَ أَنْتُمْ دَاخِرُونَ أى صاغرون مهانون أذلاء، و هذا فى الحقيقة احتجاج بعموم قدره و نفوذ إرادته من غير مهله، فإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، و لذا عقبه بقوله: «فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ» و قد قال تعالى: وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (النحل / ٧٧).

و قوله: فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ الخ؛ الفاء لإفاده التعليل و الجملة تعليل لقوله:

«وَ أَنْتُمْ دَاخِرُونَ» و فى التعبير بزجره إشعار باستدلالهم.

قوله تعالى: وَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ هَذَا يَوْمُ الْفُضْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ معطوف على قوله: «يَنْظُرُونَ» المشعر بأنهم مبهوتون مدهوشون متفكرون ثم يتنبهون بكونه يوم البعث فيه الدين و الجزاء و هم يحذرون منه بما كفروا و كذبوا و لذا قالوا: يوم الدين، و لم يقولوا يوم البعث، و التعبير بالماضى لتحقق الوقوع.

و قوله: هَذَا يَوْمُ الْفُضْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ قيل هو كلام بعضهم لبعض و قيل: كلام الملائكة أو كلامه تعالى لهم، و يؤيده الآيه التاليه، و الفصل هو التمييز بين الشئين

و سَمِيَ يَوْمَ الْفِصْلِ لِكَوْنِهِ يَوْمَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِقَضَائِهِ وَحُكْمِهِ تَعَالَى أَوْ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمُجْرِمِينَ وَالْمُتَّقِينَ قَالَ تَعَالَى: وَ
اِمْتَأَزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (يس ٥٩).

قوله تعالى: أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ مِنْ كَلَامِهِ تَعَالَى
لِلْمَلَائِكَةِ وَالْمَعْنَى وَقَلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ: احشروهم وقيل: هو من كلام الملائكة بعضهم لبعض.

و الحشر-على ما ذكره الراجب-إخراج الجماعة عن مقرهم و إزعاجهم عنه الى الحرب و نحوها.

و المراد بالذين ظلموا على ما يؤيده آخر الآية المشركون و لا كل المشركين بل المعاندون للحق الصادون عنه منهم قال تعالى:
فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَنْهَوْنَهَا عَوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (الأعراف ٤٥)، و
التعبير بالماضى فى المقام يفيد فائده الوصف فليس المراد بالذين ظلموا من تحقق منه ظلم ما و لو مره واحده بل تعريف لهم
بِحاصل ما اكتسبوا فى حياتهم الدنيا كما لو قيل: ما ذا فعل فلان فى حياته فيقال ظلم، فالفعل يفيد فائده الوصف، و فى كلامه
تعالى من ذلك شىء كثير كقوله تعالى: وَ سَيِّقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا (الزمر ٧٣) وقوله: وَ سَيِّقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى
جَهَنَّمَ زُمَرًا (الزمر ٧١) وقوله: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَ زِيَادَةٌ (يونس / ٢٦).

و قوله: وَأَزْوَاجَهُمُ الظاهر أن المراد به قرناؤهم من الشياطين قال تعالى: وَ مَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِيضًا لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ
قَرِينٌ -الى أن قال- حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (الزخرف ٣٨).

و قوله: وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ الظاهر أن المراد به الأصنام التى يعبدونها نظرا الى ظاهر «مَا» فالآية نظيره قوله: إِنَّكُمْ وَمَا
تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ

و يمكن أن يكون المراد بلفظه «م» ما يعم اولى العقل من المعبودين كالفراعنه و النمارده، و أما الملائكه المعبودون و المسيح عليه السلام فيخرجهم من العموم قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (الأنبياء ١٠١/).

و قوله: فَأَهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ الْجَحِيمِ من أسماء جهنم فى القرآن و هو من الجحمة بمعنى شدة تأجج النار على ما ذكره الراغب.

و المراد بهدايتهم الى صراطها إيصالهم اليه و إيقاعهم فيه بالسوق، و قيل: تسميه ذلك بالهدايه من الاستهزاء، و قال فى مجمع البيان: إنما عبر عن ذلك بالهدايه من حيث كان بدلا من الهدايه الى الجنه كقوله: فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ من حيث إن هذه البشاره وقعت لهم بدلا من البشاره بالنعيم. انتهى.

قوله تعالى: وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ م لَكُمْ لَا تَنَاصِرُونَ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُشْتَسِلِمُونَ قال فى المجمع يقال: وقفت أنا و وقفت غيرى - أى يعدى و لا يعدى - و بعض بنى تميم يقول: أوقفت الدابه و الدار. انتهى.

فقوله: وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ أى احبسوهم لأنهم مسئولون أى حتى يسأل عنهم. و السياق يعطى أن هذا الأمر بالوقوف و السؤال إنما يقع فى صراط الجحيم.

فالسؤال عن عدم تناصرهم سؤال عن سبب الاستكبار الذى كانوا عليه فى الدنيا فقد تبين به أن المسئول عنه هو كل حق أعرضوا عنه فى الدنيا من اعتقاد حق أو عمل صالح استكبارا على الحق تظاهرا بالتناصر.

قوله تعالى: وَ أَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ - الى قوله - إِنْ أَرَادْنَا غَاوِينَ تَخَاصُمَ وَاقَعَ بَيْنَ الْأَتْبَاعِ و المتبوعين يوم القيامه، و التعبير عنه بالتساؤل لأنه فى معنى سؤال بعضهم بعضا تلاوما و تعابا يقول التابعون لمتبوعيههم: لم أضللتونا؟ فيقول

المتبوعون: لم قبلتم منا و لا سلطان لنا عليكم؟

فقوله: وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ الْبَعْضَ الْأَوْلَ هُمِ الْمَعْتَرِضُونَ وَ الْبَعْضُ الثَّانِي الْمَعْتَرِضُ عَلَيْهِمْ كَمَا يَعْطِيهِ سِيَاقُ التَّسَاؤُلِ وَ تَسَاؤُلُهُمْ تَخَاصُمُهُمْ.

و قوله: قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ أَى مِنْ جِهَةِ الْخَيْرِ وَ السَّعَادَةِ فَاسْتَعْمَلَ الْيَمِينَ فِيهَا شَائِعٌ كَثِيرٌ كَقَوْلِهِ: وَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (الواقعه ٢٧) وَ الْمَعْنَى أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا مِنْ جِهَةِ الْخَيْرِ وَ السَّعَادَةِ فَتَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ وَ تَحُولُونَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ الْخَيْرِ وَ السَّعَادَةِ وَ تَضِلُّونَا.

و قيل: المراد باليمين الدين و هو قريب من الوجه السابق، و قيل: المراد باليمين القهر و القوه كما فى قوله تعالى: فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (الصافات ٩٣) و لا يخلو من وجه نظرا الى جواب المتبوعين.

و قوله: قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَ مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ - الى قوله - غَاوِينَ جَوَابَ الْمَتْبُوعِينَ بِتَبْرئِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْ إِشْقَاءِ التَّابِعِينَ وَ أَنْ جَرْمَهُمْ مُسْتَنَدٌ إِلَى سَوْءِ اخْتِيَارِ أَنْفُسِهِمْ.

فقالوا: بل لم تكونوا مؤمنين أى لم نكن نحن السبب الموجب لإجرامكم و هلاككم بخلوكم عن الإيمان بل لم تكونوا مؤمنين لا أنا جردناكم من الإيمان.

ثم قالوا: «وَ مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ» وَ هُوَ فِي مَعْنَى الْجَوَابِ عَلَىٰ فِرْضِ التَّسْلِيمِ كَأَنَّهُ قِيلَ: وَ لَوْ فِرْضَ أَنَّهُ كَانَ لَكُمْ إِيمَانٌ فَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ حَتَّىٰ نَسْلِبَهُ مِنْكُمْ وَ نَجْرِدَكُمْ مِنْهُ. عَلَىٰ أَنْ سُلْطَانَ الْمَتْبُوعِينَ إِنَّمَا هُوَ بِالتَّابِعِينَ فَهَمُ الَّذِينَ يَعْطُونَهُمُ السُّلْطَةَ وَ الْقُوَّةَ فَيَتَسَلَطُونَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ.

ثم قالوا: «بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ» وَ الطَّغْيَانُ هُوَ التَّجَاوُزُ عَنِ الْحُدِّ وَ هُوَ إِضْرَابٌ عَنِ قَوْلِهِ:

«لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» كَأَنَّهُ قِيلَ: وَ لَمْ يَكُنْ سَبَبُ هَلَاكِكُمْ مَجْرَدُ الْخَلْوِ مِنَ الْإِيمَانِ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا

طاغين كما كنا مستكبرين طاغين فتعاضدنا جميعا على ترك سبيل الرشد و اتخاذ سبيل الغي فحق علينا كلمه العذاب التي قضى بها الله سبحانه قال تعالى: إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَابًا (النبا ٢٢/٢٢) وقال: فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ وَ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (النازعات ٣٩/٣٩).

و لهذا المعنى عقب قوله: «بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَّاغِينَ» بقوله: «فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَانِقُونَ» أى لذائقون العذاب.

ثم قالوا: «فَأَعْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ» و هو متفرع على ثبوت كلمه العذاب و آخر الأسباب لهلاكهم فإن الطغيان يستتبع الغواية ثم نار جهنم، قال تعالى لإبليس: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا- مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْءِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (الحجر / ٤٣).

فكأنه قيل: فلما تلبستم بالطغيان حل بكم الغواية بأيدينا من غير سلطان لنا عليكم إلا اتباعكم لنا و اتصالكم بنا فسرى اليكم ما فينا من الصفه و هى الغواية فالغاوى لا- يتأتى منه إلا الغواية و الإناء لا يتشرح منه إلا ما فيه، و بالجمله إنكم لم تجبروا و لم تسلبوا الاختيار منذ بدأتهم فى سلوك سبيل الهلاك الى أن وقعتهم فى ورطته و هى الغواية فحق عليكم القول.

قوله تعالى: فَأِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ -الى قوله- يَشْتَكِبُونَ ضَمِير «فَأِنَّهُمْ» للتابعين و المتبوعين فهم مشتركون فى العذاب لا اشتراكهم فى الظلم و تعاونهم على الجرم من غير مزيه لبعضهم على بعض.

و استظهر بعضهم أن المغوين أشد عذابا و ذلك فى مقابله أوزارهم و أوزار أمثال أوزارهم فالشركه لا تقتضى المساواه و الحق أن الآيات مسوقه لبيان اشتراكهم فى الظلم و الجرم و العذاب اللاحق بهم من قبله، و يمكن مع ذلك أن يلحق بكل من المتبوعين و التابعين ألوان من العذاب ناشئه عن خصوص شأنهم قال تعالى: وَ لِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ

(العنكبوت ١٣)، وقال: رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ (الاعراف ٣٨).

و قوله: إِنَّا كَذَبْنَاكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ تأكيد لتحقيق العذاب، و المراد بالمجرمين المشركون بدليل قوله بعد: «إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ» أى إذا عرض عليهم التوحيد أن يؤمنوا به أو كلمه الإخلاص أن يقولوها استمروا على استكبارهم و لم يقبلوا.

قوله تعالى: وَيَقُولُونَ أَإِنَّمَا نَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلِينَ قولهم هذا إنكار منهم للرسالة بعد استكبارهم عن التوحيد و انكارهم له. و قوله: «بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلِينَ» رد لقولهم: «لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ» حيث رموه عليه السلام بالشعر و الجنون و فيه رمى لكتاب الله بكونه شعرا و من هفوات الجنون فرد عليهم بأن ما جاء به حق و فيه تصديق الرسل السابقين فليس بباطل من القول كالشعر و هفوه الجنون و ليس ببدع غير مسبوق فى معناه.

قوله تعالى: إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ تهديد لهم بالعذاب لاستكبارهم و رميهم الحق بالباطل.

قوله تعالى: وَ مَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ أى لا ظلم فيه لأنه نفس عملكم يرد اليكم.

قوله تعالى: إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ -الى قوله- بَيِّضُ مَكْنُونٌ استثناء منقطع من ضمير «لَذَائِقُوا» أو من ضمير «مَا تُجْزَوْنَ» و لكل وجه و المعنى على الأول لكن عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم و ليسوا بذائقى العذاب الأليم و المعنى على الثانى لكن عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم وراء جزاء عملهم و سيجىء الإشاره الى معناه.

و احتمال كون الاستثناء متصلا ضعيف لا يخلو من تكلف.

و قد سماهم الله سبحانه عباد الله المخلصين فأثبت لهم عبوديه نفسه و العبد هو الذى لا يملك

لنفسه شيئاً من إرادته ولا عمل فهو لاء لا يريدون إلا ما أراد الله ولا يعملون إلا له.

ثم أثبت لهم أنهم مخلصون بفتح اللام أى إن الله تعالى أخلصهم لنفسه فلا يشاركه فيهم أحد فلا تعلق لهم بشيء غيره تعالى من زينه الحياه الدنيا ولا من نعم العقبي و ليس فى قلوبهم إلا الله سبحانه.

و من المعلوم أن من كانت هذه صفته كان التذاذه و تنعمه غير ما يلتذ و يتنعم غيره و ارتزاقه بغير ما يرتزق به سواء و إن شاركهم فى ضروريات المأكل و المشرب و من هنا يتأيد أن المراد بقوله: «أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ» الإشاره الى أن رزقهم فى الجنة-و هم عباد مخلصون-رزق خاص لا يشبه رزق غيرهم و لا يختلط بما يتمتع به من دونهم و إن اشتركا فى الاسم.

فقوله: «أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ» أى رزق خاص متعين ممتاز من رزق غيرهم فكونه معلوما كناية عن امتيازهم كما فى قوله: «وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ» (الصافات/ ١٦٤) و الإشاره بلفظ البعيد للدلاله على علو مقامهم.

و أما ما فسره بعضهم أن المراد بكون رزقهم معلوما كونه معلوم الخصائص مثل كونه غير مقطوع و لا ممنوع حسن المنظر لذيد الطعم طيب الرائحة، و كذا ما ذكره آخرون أن المراد أنه معلوم الوقت لقوله: «لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا» (مريم/ ٦٢) و كذا قول القائل: إن المراد به الجنة فهى وجوه غير سديده.

و من هنا يظهر أن أخذ قوله: «إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ» استثناء من ضمير «وَمَا تُجَزَوْنَ» لا يخلو من وجه كما تقدمت الإشاره اليه.

و قوله: «فَوَاكِهَ وَهُمْ مُكْرَمُونَ» فى جَدَاتِ النَّعِيمِ الفواكه جمع فاكهه و هى ما يتفكه به من الأثمار بيان لرزقهم المعلوم غير أنه تعالى شَفَّعَهُ بقوله: «وَهُمْ مُكْرَمُونَ» للدلاله على امتياز هذا الرزق أعنى الفاكهه مما عند غيرهم بأنها مقارنه لـكرام خاص يخصصهم قبال

اختصاصهم بالله سبحانه و كونه لهم لا يشاركهم فيه شىء.

و فى إضافه الجنات الى النعيم إشاره الى ذلك فقد تقدم فى قوله: فَأَوْلِيكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْآيَةَ (النساء ٦٩)، و قوله: وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْهِمْ نِعْمَتِي (المائدة ٣) و غيرهما أن حقيقه النعمه هى الولايه و هى كونه تعالى هو القائم بأمر عبده.

و قوله: عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ السرر جمع سرير و هو معروف و كونهم متقابلين معناه استثناس بعضهم ببعض و استمتاعهم بنظر بعضهم فى وجه بعض من غير أن يرى بعضهم قفا بعض.

و قوله: يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينِ الكأس إناء الشرب و نقل عن كثير من اللغويين أن إناء الشراب لا يسمى كأسا إلا و فيه الشراب فإن خلا منه فهو قدح و المعين من الشراب الظاهر منه من عان الماء إذا ظهر و جرى على وجه الأرض، و المراد بكون الكأس من معين صفاء الشراب فيها و لذا عقبه بقوله: «يَبْيَضَاءُ».

و قوله: لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ الغول الإضرار و الإفساد، قال الراغب: الغول إهلا-ك الشىء من حيث لا- يحس به انتهى. فنفى الغول عن الخمر نفى مضارها و الإنزاف فسر بالمسكر المذهب للعقل و أصله إذهاب الشىء تدريجا.

و محصل المعنى: أنه ليس فيها مضار الخمر التى فى الدنيا و لا اسكارها بإذهاب العقل.

و قوله: وَ عِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ وصف للحوار التى يرزقونها و قصور طرفهن كناية عن نظرهن نظره الغنج و الدلال و يؤيده ذكر العين بعده و هو جمع عيناء مؤنث أعين و هى الواسعه العين فى جمال.

و قيل: المراد بقاصرات الطرف أنهن قصرن طرفهن على أزواجهن لا يردن غيرهم لجنبهن

لهم، وبالعين أن أعينهن شديده فى سوادها شديده فى بياضها.

وقوله: كَأَنَّهِنَّ بَيْضٌ مَكُونٌ الْبَيْضُ معروف و هو اسم جنس واحده بيضه و المكنون هو المستور بالادخار قيل: المراد تشبيههن بالبيض الذى كنه الريش فى العش أو غيره فى غيره فلم تمسه الأيدى و لم يصبه الغبار، وقيل: المراد تشبيههن ببطن البيض قبل أن يقشّر و قبل أن تمسه الأيدى.

قوله تعالى: فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ -الى قوله- فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ حِكَايَهُ مَحَادِثَهُ تَقَعُ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَسْأَلُ بَعْضُهُمْ عَنْ أَحْوَالِ بَعْضٍ و يحدث بعضهم بما جرى عليه فى الدنيا و تنتهى المحادثه الى تكليمهم بعض أهل النار و هو فى سواء الجحيم.

فقوله: فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ضمير الجمع لأهل الجنة من عباد الله المخلصين و تسأولهم- كما تقدم- سؤال بعضهم عن بعض و ما جرى عليه.

وقوله: قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ أَى قَالَ قَائِلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْمَتَسَائِلِينَ إِنِّي كَانَ لِي فِي الدُّنْيَا مُصَاحِبٌ يَخْتَصُّ بِي مِنَ النَّاسِ. كذا يعطى السياق.

وقيل: المراد بالقرين القرين من الشياطين و فيه أن القرآن إنما يثبت قرناء الشياطين فى المعرضين عن ذكر الله و المخلصون فى عصمه إلهيه من قرين الشياطين و كذا من تأثير الشيطان فيهم كما حكى عن إبليس استثناءهم من الإغواء: فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (ص ٨٣) نعم ربما أمكن أن يتعرض لهم الشيطان من غير تأثير فيهم لكنه غير أثر القرين.

وقوله: يَقُولُ أَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ أ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا وَ عِظَامًا أ إِنَّا لَمَدِينُونَ ضمير «يَقُولُ» للقرين، و مفعول «الْمُصَدِّقِينَ» البعث للجزء و قد قام مقامه قوله: «أ إِذَا مِتْنَا» الخ؛ و المدينون المجزيون.

و المعنى: كان يقول لى قرينى مستعبدا منكرا أ إنك لمن المصدقين للبعث للجزاء أ إذا متنا و كنا ترابا و عظاما فتلاشت أبداننا و تغيرت صورها أ إنا لمجزيون بالإحياء و الإعادة؟ فهذا مما لا ينبغى أن يصدق.

و قوله: [□] قَالَ هَيْلَ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ [□] ضمير «قَالَ» للقائل المذكور قبلا، و الاطلاع الإشراف و المعنى ثم قال القائل المذكور مخاطبا لمحادثيه من أهل الجنة: هل أنتم مشرفون على النار حتى تروا قرينى و الحال التى هو فيها؟

و قوله: فَاطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ السواء الوسط و منه سواء الطريق أى وسطه و المعنى فأشرف القائل المذكور على النار فرآه أى قرينه فى وسط الجحيم.

و قوله: [□] قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ [□] «إِنْ» مخففة من القيله، و الإرداء السقوط من مكان عال كالشاهق و يكنى به عن الهلاك و المعنى أقسم بالله إنك قربت أن تهلكنى و تسقطنى فيما سقطت فيه من الجحيم.

و قوله: [□] وَ لَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ المراد بالنعمة التوفيق و الهدايه الإلهيه، و الإحضار الإشخاص للعذاب قال فى مجمع البيان: و لا يستعمل «أحضر» مطلقا إلا فى الشر.

و المعنى و لولا توفيق ربهى و هدايته لكنت من المحضرين للعذاب مثلك.

و قوله: [□] أَفَلَمْ نَحْنُ بِمَبْتَئِينَ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى [□] وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ الاستفهام للتقرير و التعجيب، و المراد بالموته الاولى هى الموته عن الحياه الدنيا و أما الموته عن البرزخ المدلول عليها بقوله: [□] رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ (المؤمن ١١) فلم يعبأ بها لأن الموت الذى يزعم الزاعم فيه الفناء و البطلان هو الموت الدينوى.

و المعنى-على ما فى الكلام من الحذف و الإيجاز- ثم يرجع القائل المذكور الى نفسه و أصحابه فيقول متعجبا أ نحن خالدون ممنعون فما نحن بمبتين إلا الموته الأولى و ما نحن

قال فى مجمع البيان: و يريدون به التحقيق لا الشك و إنما قالوا هذا القول لأن لهم فى ذلك سرورا مجددا و فرحا مضاعفا و إن كان قد عرفوا أنهم سيخلدون فى الجنة و هذا كما أن الرجل يعطى المال الكثير فيقول مستعجبا: كل هذا المال لى؟ و هو يعلم أن ذلك له و هذا كقوله:

أ بطحاء مكة هذا الذى

أراه عيانا و هذا أنا؟

قال: و لهذا عقبه بقوله: إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ انتهى.

و قوله: إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ هو من تمام قول القائل المذكور و فيه إعظام لموهبه الخلود و ارتفاع العذاب و شكر للنعمه.

و قوله: لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ظاهر السياق أنه من قول القائل المذكور و الإشاره بهذا الى الفوز أو الثواب أى لمثل هذا الفوز أو الثواب فليعمل العاملون فى دار التكليف، و قيل: هو من قول الله سبحانه و قيل: من قول أهل الجنة.

قوله تعالى: أ ذلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً- أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ -الى قوله- يُهْرَعُونَ مِثْلَهُ بَيْنَ مَا هِيَ اللَّهُ نَزْلاً لِأَهْلِ الْجَنَّةِ مِمَّا وَصَفَهُ مِنَ الرِّزْقِ الْكَرِيمِ و بين ما أعده نزلاً لأهل النار من شجره الزقوم التى طلعتها كأنه رءوس الشياطين و شراب من حميم.

فقوله: أ ذلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً- أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ الإشاره بذلك الى الرزق الكريم المذكوره سابقا المعد لورود أهل الجنة و النزول بضمين ما يهيا لورود الضيف فيقدم اليه إذا ورد من الفواكه و نحوها.

و الزقوم-على ما قيل-اسم شجره صغيره الورق مره كريهه الرائحه ذات لبن إذا أصاب جسد إنسان تورم تكون فى تهامه و البلاد المجدبه المجاوره للصحراء سميت به الشجره الموصوفه بما فى الآيه من الأوصاف، و قيل: إن قريشا ما كانت تعرفه و سيأتى ذلك فى البحث الروائى.

و لفظه خير فى الآيه بمعنى الوصف دون التفضيل إذ لا خيريه فى الزقوم أصلاً فهو كقوله:

مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو (الجمعه ١١/) والآيه على ما يعطيه السياق من كلامه تعالى.

و قوله: إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ الضمير لشجره الزقوم، و الفتنة المحنة و العذاب.

و قوله: إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْبِلِ الْجَحِيمِ وصف لشجره الزقوم، و أصل الجحيم قعرها، و لا عجب فى نبات شجره فى النار و بقائها فيها فحياء الإنسان و بقاؤها خالداً فيها أعجب و الله يفعل ما يشاء.

و قوله: طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ الطلع حمل النخله أو مطلق الشجره أول ما يبدو، و تشبيه ثمره الزقوم برءوس الشياطين بعنايه أن الأوهام العاميه تصور الشيطان فى أقبح صورته كما تصور الملك فى أحسن صورته و أجملها قال تعالى: مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (يوسف ٣١)، و بذلك يندفع ما قيل: إن الشئ إنما يشبه بما يعرف و لا معرفه لأحد برءوس الشياطين.

و قوله: فَإِنَّهُمْ لَمَّا كَلُونِ مِنْهَا فَمَا أَلْوَنَ مِنْهَا الْبُطُونَ الفاء للتعليل يبين به كونها نزلاً للظالمين يأكلون منها، و فى قوله: «فَمَا أَلْوَنَ مِنْهَا الْبُطُونَ» إشاره الى تسلط جوع شديد عليهم يحرصون به على الأكل كيفما كان.

و قوله: ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ الشوب المزيج و الخليط، و الحميم الماء الحار البالغ فى حرارته، و المعنى ثم إن لاولئك الظالمين -زيادة عليها- خليطاً مزيجاً من ماء حار بالغ الحرارة يشربونه فيختلط به ما ملئوا منه البطون من الزقوم.

و قوله: ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ أى إنهم بعد شرب الحميم يرجعون الى الجحيم فيستقرون فيها و يعذبون، و فى الآيه تلويح الى أن الحميم خارج الجحيم.

و قوله: إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ألفت كذا

أى وجدته وصادفته، والإهراع الإسراع والمعنى أن سبب أكلهم و شربهم ثم رجوعهم الى الجحيم أنهم صادفوا آباءهم ضالين- وهم مقلدون و أتباع لهم وهم أصلهم و مرجعهم- فهم يسرعون على آثارهم فجوزوا بنزل كذلك و الرجوع الى الجحيم جزاء وفاقا (١).

[سوره الصفات (٣٧): الآيات ٧١ الى ١١٣]

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (٨٢) وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَإِفْكَاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَلَمَّا ظَنَنْتُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنظَرْنَا نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَيِّئٌ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَى آلِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ (٩٤) قَالَ أَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمِمَّا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفَوْهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فآرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَّهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)

ص: ٣٠٥

١- ١). الصفات ١٢-٧٠: بحث روائي في مواقف يوم القيامة؛ اهل الجنة و اهل النار؛ معنى ذبح الموت يوم القيامة بين الجنة و النار.

بيان:

قوله تعالى: **وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ** -الى قوله- **الْمُخْلِصِينَ** كلام مسوق لإنذار مشركى هذه الامه بتنظيرهم للامم الهالكين من قبلهم فقد ضل أكثرهم كما ضل هؤلاء و أرسل اليهم رسل منذرون كما أرسل منذر الى هؤلاء فكذبوا فكان عاقبه أمرهم الهلاك إلا المخلصين منهم.

ص: ٣٠٧

و اللام فى «لَقَدْ ضَلَّ» للقسم و كذا فى «لَقَدْ أَرْسَلْنَا» و المنذرین الأول بكسر الهمزة المعجمه و هم الرسل و الثانى بفتح الهمزة المعجمه و هم الامم الأولون، و «إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ» إن كان المراد بهم من فى الامم من المخلصين كان استثناء متصلًا و إن عم الأنبياء كان منقطعًا إلا بتغليب غير الأنبياء عليهم و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ» اللامان للقسم و هو يدل على كمال العناية بنداء نوح و إجابته تعالى، و قد مدح تعالى نفسه فى إجابته فإن التقدير فلنعلم المجيبون نحن، و جمع المجيب لإفاده التعظيم و قد كان نداء نوح -على ما يفيد السياق- دعاءه على قومه و استغاثته بربه المنقولين فى قوله تعالى: «وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا» (نوح ٢٦)، و فى قوله تعالى: «فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ» (القمر / ١٠).

قوله تعالى: «وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ» الكرب -على ما ذكره الراغب- الغم الشديد و المراد به الطوفان أو أذى قومه، و المراد بأهله أهل بيته و المؤمنون به من قومه و قد قال تعالى فى سورة هود: «قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ» (هود ٤٠) و الأهل كما يطلق على زوج الرجل و بنيه يطلق على كل من هو من خاصته.

قوله تعالى: «وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ» أى الباقين من الناس بعد قرنهم و قد بحثنا فى هذا المعنى فى قصه نوح من سورة هود.

قوله تعالى: «وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ» المراد بالترك الإبقاء و بالآخرين الامم الغابره غير الأولين، و قد ذكرت هذه الجملة بعد ذكر إبراهيم عليه السلام أيضا فى هذه السوره و قد بدلت فى القصه بعينها من سورة الشعراء من قوله: «وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ» (الشعراء ٨٤) و استفدنا منه هناك أن المراد بلسان صدق كذلك أن يبعث الله بعده من يقوم

بدعوته و يدعو الى ملته و هى دين التوحيد.

فيتأيد بذلك أن المراد بالإبقاء فى الآخرين هو إحياءه تعالى دعوه نوح عليه السّلام الى التوحيد و مجاهدته فى سبيل الله عصرا بعد عصر و جيلا بعد جيل الى يوم القيامة.

قوله تعالى: **سَلَامٌ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ** المراد بالعالمين جميعها لكونه جمعا محلى باللام مفيدا للعموم، و الظاهر أن المراد به عالمو البشر و اممهم و جماعاتهم الى يوم القيامة فإنه تحية من عند الله مباركة طيبة تهدى اليه من قبل الامم الإنسانية ما جرى فيها شىء من الخيرات اعتقادا أو عملا فانه عليه السّلام أول من انتفض لدعوه التوحيد و دحض الشرك و ما يتبعه من العمل و قاسى فى ذلك أشد المحنة فيما يقرب من ألف سنه لا- يشاركه فى ذلك أحد فله نصيب من كل خير واقع بينهم الى يوم القيامة، و لا يوجد فى كلامه تعالى سلام على هذه السعه على أحد ممن دونه.

وقيل: المراد بالعالمين عوالم الملائكة و الثقلين من الجن و الإنس.

قوله تعالى: **إِنَّا كَذَلِكْ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** تعليل لما امتن عليه من الكرامه كإجابته ندائه و تنجيته و أهله من الكرب العظيم و إبقاء ذريته و تركه عليه فى الآخرين و السلام عليه فى العالمين، و تشبيه جزائه بجزاء عموم المحسنين من حيث أصل الجزاء الحسن لا فى خصوصياته فلا يوجب ذلك اشتراك الجميع فيما اختص به عليه السلام و هو ظاهر.

قوله تعالى: **إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ** تعليل لإحسانه المدلول عليه بالجمله السابقه و ذلك لأنه عليه السّلام لكونه عبدا لله بحقيقه معنى الكلمه كان لا يريد و لا يفعل إلا ما يريد الله، و لكونه من المؤمنين حقا كان لا يرى من الاعتقاد إلا الحق و سرى ذلك الى جميع أركان وجوده و من كان كذلك لا يصدر منه إلا الحسن الجميل فكان من المحسنين.

قوله تعالى: **ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ** ثم للتراخى الكلامى دون الزمانى و المراد بالآخرين قومه المشركون.

قوله تعالى: وَإِنَّ مِنْ شَيْعَتِهِ لِبِإِبْرَاهِيمَ الشَّيْعَةَ هُم الْقَوْمُ الْمَشَايِعُونَ لغيرهم الذاهبون على أثرهم و بالجمله كل من وافق غيره في طريقته فهو من شيعته تقدم أو تأخر قال تعالى: وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ (سبأ٥٤).

و ظاهر السياق أن ضمير «شَيْعَتِهِ» لنوح أى إن إبراهيم كان ممن يوافقه فى دينه و هو دين التوحيد، وقيل:الضمير لمحمد صلى الله عليه و آله و سلم و لا دليل عليه من جهة اللفظ.

قيل: و من حسن الإرداف فى نظم الآيات تعقيب قصه نوح عليه السلام و هو آدم الثانى أبو البشر بقصه إبراهيم عليه السلام و هو أبو الأنبياء اليه تنتهى أنساب جل الأنبياء بعده و على دينه تعتمد أديان التوحيد الحيه اليوم كدين موسى و عيسى و محمد صلى الله عليه و آله و سلم،و أيضا نوح عليه السلام نجاه الله من الغرق و إبراهيم عليه السلام نجاه الله من الحرق.

قوله تعالى: إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ مجيئه ربه كناية عن تصديقه له إيمانه به، و يؤيد ذلك أن المراد بسلامه القلب عروه عن كل ما يضر التصديق و الإيمان بالله سبحانه من الشرك الجلى و الخفى و مساوى الأخلاق و آثار المعاصى و أى تعلق بغيره ينجذب اليه الإنسان و يختل به صفاء توجهه اليه سبحانه.

و بذلك يظهر أن المراد بالقلب السليم ما لا تعلق له بغيره تعالى كما فى الحديث و سيجىء إن شاء الله فى البحث الروائى الآتى.

و الظرف فى الآيه متعلق بقوله سابقا: «مِنْ شَيْعَتِهِ» و الظروف يغتفر فيها ما لا يغتفر فى غيرها، و قيل متعلق بأذكر المقدر.

قوله تعالى: إِذْ قَالَ لِلَّيْلِ يَا رَبِّهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَي شَيْءٍ تَعْبُدُونَ؟ و انما سألهم عن معبودهم و هو يرى أنهم يعبدون الأصنام تعجبا و استغرابا.

قوله تعالى: أَمْ إِنْ كُنَّا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ أَي تَقْصِدُونَ آلِهَةً دُونَ اللَّهِ افكا و افتراء، انما قدم الإفك و الآلهه لتعلق عنايته بذلك.

قوله تعالى: فَظَنَرَ نَظْرَهُ فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَيَقِيمُ لَـ شَكَّ أَنْ ظَاهِرَ الْآيَاتِينَ أَنْ أَخْبَارَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّهُ سَقِيمٌ مُرْتَبِطٌ بِنَظْرَتِهِ فِي النُّجُومِ وَ مَبْنَى عَلَيْهِ وَ نَظْرَتِهِ فِي النُّجُومِ أَمَا لِتَشْخِصِ السَّاعَةِ وَ خُصُوصِ الْوَقْتِ كَمَنْ بِهِ حَمَى ذَاتَهُ نُوْبَهُ يَعِينُ وَقْتَهَا بِطُلُوعِ كَوْكَبٍ أَوْ غُرُوبِهَا أَوْ وَضْعِ خَاصٍ مِنَ النُّجُومِ وَ أَمَا لِلْوُقُوفِ عَلَى الْحَوَادِثِ الْمُسْتَقْبَلَةِ الَّتِي كَانَ الْمُنْجَمُونَ يَرُونَ أَنَّ الْأَوْضَاعَ الْفَلَكَيَّةَ تَدُلُّ عَلَيْهَا، وَ قَدْ كَانَ الصَّابِثُونَ مَبَالِغِينَ فِيهَا وَ كَانَ فِي عَهْدِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُمْ جَمٌّ غَفِيرٌ.

فعلى الوجه الأول لما أراد أهل المدينة أن يخرجوا كافة إلى عيد لهم نظر إلى النجوم و أخبرهم أنه سقيم ستعتريه العله فلا يقدر على الخروج معهم.

و على الوجه الثانى نظر عليه السَّلام حينذاك إلى النجوم نظره المنجمين فأخبرهم أنها تدل على أنه سيسقم فليس فى وسعه الخروج معهم.

و أول الوجهين أنسب لحاله عليه السَّلام و هو فى إخلاص التوحيد بحيث لا يرى لغيره تعالى تأثيراً، و لا دليل لنا قويا يدل على أنه عليه السَّلام لم يكن به فى تلك الأيام سقم أصلاً، و قد أخبر القرآن بإخباره بأنه سقيم و ذكر سبحانه قبيل ذلك أنه جاء ربه بقلب سليم فلا يجوز عليه كذب و لا لغو من القول.

قوله تعالى: فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ضَمِيرُ الْجَمْعِ لِلْقَوْمِ وَ ضَمِيرُ الْإِفْرَادِ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَى خَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَ خَلْفُوهُ.

قوله تعالى: فَارْأَيْتُمْ إِلَى آلِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ الرُّوْغُ وَ الرُّوَاغُ وَ الرُّوَاغَانُ الْحِيَادُ وَ الْمَيْلُ، وَقِيلَ أَصْلُهُ الْمَيْلُ فِي جَانِبٍ لِيُخَدَعَ مِنْ يَرِيدِهِ.

و فى قوله: «أَلَا تَأْكُلُونَ»؟ تأييد لما ذكروا أن المشركين كانوا يضعون أيام أعيادهم طعاماً عند آلهتهم.

و قوله: «أَلَا تَأْكُلُونَ؟ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ»؟ تكليم منه لآلهتهم و هى جماد و هو يعلم أنها

جماد لا تأكل و لا تنطق لكن الوجد و شده الغيظ حمله على أنه يمثل موقفها موقف العقلاء ثم يؤاخذها مؤاخذة العقلاء كما يفعل بالمجرمين.

فنظر إليها و هى ذوات أبدان كهيئه من يتغذى و يأكل و عندها شىء من الطعام فامتلاً غيظاً و جاش و جدا فقال: أ لا تأكلون؟ فلم يسمع منها جواباً فقال: «مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ» ؟ و أنتم آلهه يزعم عبادكم أنكم عقلاء قادرون مدبرون لامورهم فلما لم يسمع لها حسا راغ عليها ضربا باليمين.

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ أَى تفرع على ذاك الخطاب أن مال على آلهتهم يضربهم ضربا باليد اليمنى أو بقوه بناء على كون المراد باليمين القوه.

قوله تعالى: فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ الزف و الزيف الإسراع فى المشى أى فجاءوا الى إبراهيم و الحال أنهم يسرعون اهتماما بالحادثه التى يظنون أنه الذى أحدثها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَ تَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ فيه إيجاز و حذف من حديث القبض عليه و الإتيان به على أعين الناس و مسألته و غيرها.

و الاستفهام للتوبيخ و فيه مع ذلك احتجاج على بطلان طريقتهم فهو يقول: لا يصلح ما نحته الإنسان بيده أن يكون ربا للإنسان معبودا له و الله سبحانه خلق الإنسان و ما يعمل و الخلق لا ينفك عن التدبير فهو رب الإنسان و من السفه أن يترك هذا و يعبد ذاك.

و لا- ضير فى نسبه الخلق الى ما عمله الإنسان أو الى عمله لأن ما يريده الإنسان و يعمله من طريق اختياره مراد الله سبحانه من طريق إرادته الإنسان و اختياره و لا يوجب هذا النوع من تعلق الإراده بالفعل بطلان تأثير إرادته الإنسان و خروج الفعل عن الاختيار و صيرورته مجبرا عليه، و هو ظاهر.

و لو كان المراد نسبه خلق أعمالهم الى الله سبحانه بلا واسطه لا من طريق إرادتهم بل بتعلق إرادته بنفس عملهم و أفاد الجبر لكان القول أقرب الى أن يكون عذرا لهم من أن يكون

توبيخا و تقييحا، و كانت الحجبه لهم لا عليهم.

قوله تعالى: قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ الْبَنِيَانِ مَصَدْرُ بَنِي يَبْنِي وَ الْمَرَادُ بِهِ الْمَبْنِي، وَ الْجَحِيمِ النَّارُ فِي شِدَّةِ تَأْجِجِهَا.

قوله تعالى: فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ الْكَيْدُ الْحِيلَةُ وَ الْمَرَادُ احْتِيَالَهُمْ إِلَى إِهْلَاكِهِ وَ إِحْرَاقِهِ بِالنَّارِ.

و قوله: فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ كُنَايَةٌ عَنْ جَعْلِ إِبْرَاهِيمَ فَوْقَهُمْ لَا يُوْثِرُ فِيهِ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِذْ قَالَ سُبْحَانَهُ: يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَ سَلَامًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ (الأنبياء ٦٩).

و قد اختتم بهذا فصل من قصص إبراهيم عليه السّلام و هو انتهاضه أولا على عباده الأوثان و اختصاصه لعبادها و انتهاء أمره الى إلقاءه النار و إبطاله تعالى كيدهم.

قوله تعالى: وَ قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَصَلِّ آخِرُ مِنْ قِصَصِهِ عَلَيْهِ السّلام يَذْكَرُ عِزْمَهُ عَلَى الْمُهَاجِرَةِ مِنْ بَيْنِ قَوْمِهِ وَ اسْتِيْهَابِهِ مِنَ اللَّهِ وَلِدًا صَالِحًا وَ إِجَابَتِهِ إِلَىٰ ذَلِكَ وَ قِصَّةَ ذَبْحِهِ وَ نَزُولِ الْفِدَاءِ.

فقوله: وَ قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي الخ؛ كَالْإِنْجَازِ لِمَا وَعَدَهُمْ بِهِ مَخَاطِبًا لِأَزْرٍ وَ أَعْتَرَلُكُمْ وَ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ أَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (مريم ٤٨) وَ مِنْهُ يَعْلَمُ أَنَّ مَرَادَهُ بِالذَّهَابِ إِلَىٰ رَبِّهِ الذَّهَابَ إِلَىٰ مَكَانٍ يَتَجَرَّدُ فِيهِ لِعِبَادَتِهِ تَعَالَىٰ وَ دَعَائِهِ وَ هُوَ الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ.

قوله تعالى: رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ حِكَايَةُ دَعَاءِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السّلام وَ مَسْأَلَتِهِ الْوَلَدَ أَيَّ قَالَ: رَبِّ هَبْ لِي، الخ؛ وَ قَدْ قِيدَهُ بِكُونِهِ مِنَ الصَّالِحِينَ.

قوله تعالى: فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ أَيَّ فَبَشَّرْنَاهُ أَنَا سَنُرْزِقُهُ غُلَامًا حَلِيمًا وَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهُ يَكُونُ ذَكَرًا وَ يَبْلُغُ حَدَّ الْغُلَامَانِ، وَ أَخَذَ الْغُلُومَ فِي وَصْفِهِ مَعَ أَنَّهُ بَلَّغَ الْمَبْلُغَ الرَّجَالِ لِلإِشَارَةِ إِلَىٰ حَالِهِ الَّتِي يَظْهَرُ فِيهَا صِفَةُ كَمَالِهِ وَ صِفَاءُ ذَاتِهِ وَ هُوَ حَمَلُهُ الَّذِي مَكْنَاهُ مِنَ الصَّبْرِ فِي

ذات الله إذ قال: «يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ» .

و لم يوصف في القرآن من الأنبياء بالحلم إلا هذا النبي الكريم في هذه الآية و أبوه في قوله تعالى: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (هود ٧٥).

قوله تعالى: فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى الخ؛ الفاء في أول الآية فصيحته تدل على محذوف و التقدير فلما ولد له و نشأ و بلغ معه السعي، و المراد ببلوغ السعي بلوغه من العمر مبلغا يسعي فيه لحوائج الحياه عاده و هو سن الرهاق، و المعنى فلما راهق الغلام قال له: يا بني، الخ.

و قوله: قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ هي رؤيا إبراهيم ذبح ابنه، و قوله: «إِنِّي أَرَى» يدل على تكرر هذه الرؤيا له كما في قوله: وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى الْخ (يوسف ٣٣).

و قوله: فَانظُرْ مَاذَا تَرَى هو من الرأى بمعنى الاعتقاد أى فتفكر فيما قلت و عين ما هو رأيك فيه، و هذه الجملة دليل على أن إبراهيم عليه السلام فهم من منامه أنه أمر له بالذبح مثل له في مثال نتيجة الأمر و لذا طلب من ابنه الرأى فيه و هو يختبره بما ذا يجيبه؟

و قوله: قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ جواب ابنه، و قوله: «يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ» إظهار رضى بالذبح في صورته الأمر و قد قال:

افعل ما تؤمر و لم يقل: اذبحنى إشارة الى أن أباه مأمور بأمر ليس له إلا ائتماره و طاعته.

و قوله: سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ تطيب منه لنفس أبيه أنه لا يجزع منه و لا يأتى بما يهيج وجد الوالد عن ولده المزمحل بدمائه، و قد زاد في كلامه صفاء على صفاء إذ قيد وعده بالصبر بقوله: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» فأشار الى أن اتصافه بهذه الصفه الكريمه أعنى الصبر ليس له من نفسه و لا أن زمامه بيده بل هو من مواهب الله و مننه إن يشأ تلبس به و له أن لا يشاء فينزعه منه.

قوله تعالى: فَلَمَّا أَسْلَمَا وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ الإسلام الرضا و الاستسلام: و التل الضرع و الجبين أحد جانبي الجبهة و اللام فى «لِلْجَبِينِ» لبيان ما وقع عليه الصراع كقوله:

يَخْرُونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (الإسراء ١٠٧/١)، و المعنى فلما استسلما إبراهيم و ابنه لأمر الله و رضيا به و صرعه إبراهيم على جبينه.

و جواب لما محذوف إيماء الى شدة المصيبة و مراره الواقعة.

قوله تعالى: وَ نَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا معطوف على جواب لما المحذوف، و قوله: «قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا» أى أوردتها مورد الصدق و جعلتها صادقه و امتثلت الأمر الذى أمرناك فيها أى إن الأمر فيها كان امتحانيا يكفى فى امتثاله تهيؤ المأمور للفعول و إشرافه عليه فحسب.

قوله تعالى: إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ الإِشَارَةُ بِكَذَلِكَ الى قصة الذبح بما أنها محنة شاقه و ابتلاء شديد و الإِشَارَةُ بهذا إليها أيضا و هو تعليل لشدة الأمر.

و المعنى: إنا على هذه الوتيره نجزي المحسنين فممتحنهم امتحانات شاقه صوره هينه معنى فاذا أتموا الابتلاء جزيناهم أحسن الجزاء فى الدنيا و الآخرة، و ذلك لأن الذى ابتلينا به إبراهيم لهو البلاء المبين.

قوله تعالى: وَ فَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ أى و فدينا ابنه بذبح عظيم و كان كبشا أتى به جبريل من عند الله سبحانه فداء على ما فى الأخبار، و المراد بعظمه الذبح عظمه شأنه بكونه من عند الله سبحانه و هو الذى فدى به الذبيح.

قوله تعالى: وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ تقدم الكلام فيه.

قوله تعالى: سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ تحية منه تعالى عليه، و فى تنكير سلام تفخيم له.

قوله تعالى: كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ تقدم

قوله تعالى: وَبَشَّرْنَاهُ إِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ الضمير لإبراهيم عليه السلام.

و اعلم أن هذه الآية المتضمنه للبشرى بإسحاق بوقوعها بعد البشرى السابقة بقوله:

«فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ» المتعقبه بقوله: «فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ» الى آخر القصة ظاهره كالصريحه أو هي صريحه في أن الذبيح غير إسحاق و هو إسماعيل عليهما السلام و قد فصلنا القول في ذلك في قصص إبراهيم عليه السلام من سوره الأنعام.

قوله تعالى: وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ المباركه على شىء جعل الخير و النماء و الثبات فيه أى و جعلنا فيما أعطينا إبراهيم و إسحاق الخير الثابت و النماء.

و يمكن أن يكون قوله: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا» الخ؛ قرينه على أن المراد بقوله: «بَارَكْنَا» إعطاء البركه و الكثره في أولاده و أولاد إسحاق، و الباقي ظاهر.

[سوره الصفات (٣٧): الآيات ١١٤ الى ١٣٢]

وَ لَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ (١١٤) وَ نَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَ نَصَّيْنَاهُمْ فَمَا كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَ آتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَ هَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمْ مِمَّنْ عَبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) وَ إِنَّ إِلَیْسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَ تَدْعُونَ بَعْلًا وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (١٢٨) وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِمَّنْ عَبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)

بيان:

قوله تعالى: **وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ** المن الإنعام و من المحتمل أن يكون المراد به ما سيعده مما أنعم عليهما و على قومهما من التنجيه و النصر و إيتاء الكتاب و الهدايه و غيرها فيكون قوله: «**وَنَجَّيْنَاهُمَا**» الخ؛ من عطف التفسير.

قوله تعالى: **وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكُزْبِ الْعَظِيمِ** و هو الغم الشديد من استضعاف فرعون لهم يسومهم سوء العذاب و يذبح أبناءهم و يستحيى نساءهم.

قوله تعالى: **وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ** و هو الذى أدى الى خروجهم من مصر و جوازهم البحر و هلاك فرعون و جنوده.

ص: ٣١٧

و بذلك يندفع ما توهم أن مقتضى الظاهر أن يذكر النصر قبل التنجيه لتوقفها عليه، و ذلك أن النصر إنما يكون فيما إذا كان للمنصور قوه ما لكنها لا تكفى لدفع الشر فتتم بالنصر و كان لبنى إسرائيل عند الخروج من مصر بعض القوه فناسب إطلاق النصر على إعانتهم على ذلك بخلاف أصل تخليصهم من يد فرعون فإنهم كانوا أسراء مستعبدين لا قوه لهم فلا يناسب هذا الاعتبار إلا ذكر التنجيه دون النصر.

قوله تعالى: **وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ** أى يستبين المجهولات الخفيه فيسببها و هى التى يحتاج إليها الناس فى دنياهم و آخرتهم.

قوله تعالى: **وَ هَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** المراد بها الهدايه بتمام معنى الكلمه، و لذا خصصها بهما و لم يشرك فيها معهما قومهما، و لقد تقدم كلام فى معنى البدايه الى الصراط المستقيم فى سوره الفاتحه.

قوله تعالى: **وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرِينَ** -الى قوله- **الْمُؤْمِنِينَ** تقدم تفسيرها.

قوله تعالى: **وَ إِنَّ إِلِيَّاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ** قيل: إنه عليه السلام من آل هارون كان مبعوثا الى بعلبك (1) و لم يذكر فى كلامه ما يستشهد به عليه.

قوله تعالى: **إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ** أ تَدْعُونَ بَعْلًا وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ -الى قوله- **الْأُولِينَ** شطر من دعوته عليه السلام يدعو قومه فيها الى التوحيد و يوبخهم على عباده بعل-صنم كان لهم- و ترك عباده الله سبحانه.

و كلامه عليه السلام على ما فيه من التوبيخ و اللوم يتضمن حجه تامه على توحيدته تعالى فإن قوله: **«وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ»** يوبخهم أولا على ترك عباده

ص: ٣١٨

١- ١). و لعلهم أخذوه من بعل فقد قيل: أن بعلبك سمي به لأن بعلا كان منصوبا فى معبد فيه.

أحسن الخالقين، والخلق والإيجاد كما يتعلق بذوات الأشياء يتعلق بالنظام الجارى فيها الذى يسمى تدبيراً فكما أن الخلق اليه تعالى فالتدبير أيضا اليه فهو المدبر كما أنه الخالق؛ وأشار الى ذلك بقوله: «اللَّهُ رَبُّكُمْ» بعد وصفه تعالى بأحسن الخالقين.

ثم أشار الى أن ربوبيته تعالى لا تختص بقوم دون قوم كالأصنام التى يتخذ كل قوم بعضاً منها دون بعض فيكون صنم ربا لقوم دون آخرين بل هو تعالى رب لهم ولآبائهم الأولين لا يختص ببعض دون بعض لعموم خلقه و تدبيره، و اليه أشار بقوله: «اللَّهُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ» .

قوله تعالى: فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ أى مبعوثون ليحضروا العذاب، وقد تقدم أن الإحضار إذا أطلق أفاد معنى الشر.

قوله تعالى: إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ دليل على أنه كان فى قومه جمع منهم.

قوله تعالى: وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ -الى قوله- الْمُؤْمِنِينَ تقدم الكلام فى نظائرها (١).

[سورة الصافات (٣٧): الآيات ١٣٣ الى ١٤٨]

وَ إِنَّ لُوْطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ (١٣٦) وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَ بِاللَّيْلِ أَفْلًا تَعْقِلُونَ (١٣٨) وَ إِنَّ يُوْنُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْمَكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَلِسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْ لَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَتَبَدَّنَا بِالْعُرَاءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَ أَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨)

ص: ٣١٩

(١-١). الصافات ١١٤-١٣٢: كلام فى قصة الياس عليه السلام (قصته فى القرآن، الاحاديث فيه).

بيان:

قوله تعالى: وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ وَإِنَّمَا نَجَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْعَذَابِ النَّازِلِ عَلَى قَوْمِهِ وَهُوَ الْخَسْفُ وَ
إِمطار حجاره من سجل على ما ذكره الله تعالى في سائر كلامه.

قوله تعالى: إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ أَي فِي الْبَاقِينَ فِي الْعَذَابِ الْمَهْلِكِينَ بِهِ وَهِيَ امْرَأَةُ لُوطٍ.

قوله تعالى: ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ التدمير الاهلاك، والآخريين قومه الذين أرسل اليهم.

قوله تعالى: وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ فَإِنَّهُمْ

ص: ٣٢٠

على طريق الحجاز الى الشام،و المراد بالمرور عليهم المرور على ديارهم الخربه و هى اليوم مستوره بالماء على ما قيل.

قوله تعالى: وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ أَى السفينه المملوءه من الناس و الإباق هرب العبد من مولاه.

و المراد بإباقه الى الفلك خروجه من قومه معرضا عنهم و هو عليه السّلام و إن لم يعص فى خروجه ذلك ربه و لا كان هناك نهى من ربه عن الخروج لكن خروجه إذ ذاك كان ممثلا لإباق العبد من خدمه مولاه فأخذه الله بذلك،و قد تقدم بعض الكلام فى ذلك فى تفسير قوله تعالى: وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ (الأنبياء ٨٧).

قوله تعالى: فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ المساهمه المقارعه و الإدحاض الغلبه أى فقارع من فى السفينه فكان من المغلوبين،و قد كان عرض لسفيتهم الحوت فاضطروا الى أن يلقوا واحدا منهم فى البحر ليبتلعه و يخلى السفينه فقارعوا فأصابت يونس عليه السلام.

قوله تعالى: فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ الالتقام الابتلاع،و مليم من الألم أى دخل فى اللوم كأحرم إذا دخل فى الحرم أو بمعنى صار ذا ملامه.

قوله تعالى: فَلَوْلَا أَنَّهُ لَآءٍ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ عدّه من المسبحين و هم الذين تكرر منهم التسييح و تمكن منهم حتى صار وصفا لهم يدل على دوام تلبسه زمانا بالتسييح.قيل:أى من المسبحين قبل التقام الحوت إياه، و قيل:بل فى بطن الحوت،و قيل:أى كان من المسبحين قبل التقام الحوت و فى بطنه.

والذى حكى من تسييحه فى كلامه تعالى قوله فى سوره الأنبياء: فَنادى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (الأنبياء ٨٧)و لازم ذلك أن يكون من المسبحين فى بطن الحوت خاصه أو فيه و فيما قبله فاحتمال كون المراد تسييحه قبل التقام

الحوت مرجوح لا ينبغي أن يصار إليه.

على أن تسيحه مع اعترافه بالظلم في قوله: «سُبِّحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» - على ما سيجيء - تسيح له تعالى عما كان يشعر به (١) فعله من ترك قومه و ذهابه على وجهه، وقوله:

«فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ» الخ؛ يدل على أن تسيحه كان هو السبب المستدعى لنجاته، و لازم ذلك أن يكون إنما ابتلى بما ابتلى به لينزهه تعالى فينجو بذلك من الغم الذي ساقه إليه فعله الى ساحه العافيه.

و بذلك يظهر أن العناية في الكلام إنما هي بتسيحه في بطن الحوت خاصة فخير الأقوال الثلاثة أوسطها.

فالظاهر أن المراد بتسيحه نداؤه في الظلمات بقوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبِّحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» و قد قدم التهليل ليكون كالعلة المبينه لتسيحه كأنه يقول: لا معبود بالحق يتوجه اليه غيرك فأنت منزه مما كان يشعر به فعلى أنى آبق منك معرض عن عبوديتك متوجه الى سواك انى كنت ظالما لنفسى فى فعلى فيها أنا متوجه اليك متبرئ مما كان يشعر به فعلى من التوجه عنك الى غيرك.

فهذا معنى تسيحه و لو لا ذلك منه لم ينج أبدا إذ كان سبب نجاته منحصرا فى التسيح و التنزيه بالمعنى الذى ذكر.

و بذلك يظهر أن المراد بقوله: «لَلْبَثِّ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» تأييد مكثه فى بطنه الى أن يبعث فيخرج منه كالقبر الذى يقبر فيه الإنسان و يلبث فيه حتى يبعث فيخرج منه قال تعالى: «مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَ مِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى» (طه ٥٥).

و لا دلالة فى الآية على كونه عليه السلام على تقدير اللبث حيا فى بطن الحوت الى يوم يبعثون أو

ص: ٣٢٢

١- ١). و هو أن الله لا يقدر عليه كما قال تعالى: «فَطَنُّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ» .

ميتا و بطنه قبره مع بقاء بدنه و بقاء جسد الحوت على حالهما أو بنحو آخر فلا مساغ لاختلافهم فى كونه عليه السلام حيا على هذا التقدير أو ميتا و بطنه قبره، و أن المراد بيوم يبعثون النفخه الاولى التى فيها يموت الخلائق أو النفخه الثانيه أو التأجيل بيوم القيامه كناية عن طول اللبث.

قوله تعالى: فَتَيَذَّنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ النَّبَذُ طَرَحَ الشَّيْءَ وَ الرَّمَى بِهِ، وَ العَرَاءُ الْمَكَانَ الَّذِى لَا سِتْرَ فِيهِ يَسْتِظِلُّ بِهَا مِنْ سَقْفِ أَوْ خَبَاءِ أَوْ شَجَرٍ.

و المعنى على ما يعطيه السياق أنه صار من المسبحين فأخرجناه من بطن الحوت و طرحناه خارج الماء فى أرض لا ظل فيها يستظل به و هو سقيم.

قوله تعالى: وَ أَتَيْنَاهُ بِالْعَرَاءِ عَلَيْهِ شَجَرَةٌ مِنْ يَقْطِينٍ الْيَقْطِينُ مِنْ نَوْعِ الْقَرَعِ وَ يَكُونُ وَرَقُهُ عَرِيضًا مُسْتَدِيرًا وَ قَدْ أَتَيْتَاهُ اللَّهُ عَلَيْهِ لِيَسْتِظِلَّ بِوَرَقِهَا.

قوله تعالى: وَ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ أَوْ فِي مَوْرَدِ التَّرْقَى وَ تَفِيدُ مَعْنَى بَلٍ، وَ الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْجَمَاعَةِ أَهْلُ نَيْنَوَى.

قوله تعالى: فَأَمَّنُوا فَمَرَّغَتْهُمْ إِلَىٰ حِينٍ أَى آمَنُوا بِهِ فَلَمْ نَعْذِبْهُمْ وَ لَمْ نَهْلِكْهُمْ بِمَا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَذَابِ فَمَرَّغَتْهُمْ بِالْحَيَاةِ وَ الْبَقَاءِ إِلَىٰ أَجْلِهِمُ الْمُقَدَّرَ لَهُمْ.

وَ الْآيَةُ فِي إِشْعَارِهَا بِرَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ وَ تَمْتِيعِهِمْ تَشِيرُ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَرَّغَتْهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (يونس ٩٨).

وَ لَا يَخْلُو السِّيَاقُ مِنْ إِشْعَارِ-بَلٍ دَلَالَهُ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ إِرسَالِهِ فِي قَوْلِهِ: «وَ أَرْسَلْنَاهُ» أَمْرَهُ بِالذَّهَابِ ثَانِيًا إِلَىٰ الْقَوْمِ، وَ بِإِيمَانِهِمْ فِي قَوْلِهِ: «فَأَمَّنُوا» الْخ؛ إِيمَانِهِمْ بِتَصْدِيقِهِ وَ اتِّبَاعِهِ بَعْدَ مَا

[سوره الصافات (٣٧): الآيات ١٤٩ الى ١٨٢]

فَاسْتَفْتِهِمْ أَ لَرَّبُّكَ الْبَنَاتُ وَ لَهُمُ الْبُنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَ هُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا- إِنَّهُمْ مِنْ إِيكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَ لَدَّ اللَّهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَضِطَّفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَ فَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَآتُوا بِكُتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَ لَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةَ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَ مَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ (١٦٥) وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَ إِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْمَآوِلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَ إِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَ أَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَ فَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَابُحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨) وَ أَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَ سَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)

قوله تعالى: فَاسْمِعْتَهُمْ أَرْبَابَهُمُ الْبَنَاتُ وَ لَهُمُ الْبَنُونَ حلل سبحانه قولهم: إن الملائكة بنات الله الى ما يستلزمه من اللوازم و هي أن الملائكة أولاده، وأنهم بنات، و أنه تعالى خص نفسه بالبنات و هم مخصوصون بالبنيين ثم رد هذه اللوازم واحدا بعد واحد فرد قولهم:

إن له البنات و لهم البنيين بقوله: «فَاسْمِعْتَهُمْ أَرْبَابَهُمُ الْبَنَاتُ وَ لَهُمُ الْبَنُونَ» و هو استفهام إنكارى لقولهم بما يلزمه من تفضيلهم على الله لما أنهم يفضلون البنيين على البنات و يتنزهون منهن و يثدونهن.

قوله تعالى: أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَ هُمْ شَاهِدُونَ أَمْ مَنْقُطَعَةٌ أَمْ بَلْ أَخْلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَ هُمْ شَاهِدُونَ يشهدون خلقهم و لم يكونوا شاهدين خلقهم و لا- لهم أن يدعوا ذلك، و الذكور و الانوثة مما لا يثبت إلا بنوع من الحس، و هذا رد لقولهم بانوثة الملائكة.

قوله تعالى: أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَ لَمَدَ اللَّهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ رد لقولهم بالولادة بأنه من الإفك أى صرف القول عن وجهه الى غير وجهه أى من الحق الى الباطل فيوجهون خلقهم بما يعدونه و ولاده و يعبرون عنه بها فهم آفكون كاذبون.

قوله تعالى: أَصَيْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَ فَلَا تَذَكَّرُونَ كَرَّرَ الْإِنْكَارَ عَلَى اصْطِفَاءِ الْبَنَاتِ مِنْ بَيْنِ لَوَازِمِ قَوْلِهِمْ لَشَدِيدِ شِنَاعَتِهِ.

ثم وبخهم بقوله: «مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ» لكون قولهم حكما من غير دليل ثم عقبه بقوله:

«أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» توبيخا و إشاره الى أن قولهم ذلك-فضلا عن كونه مما لا دليل عليه-الدليل على خلافه و لو تذكروا لا تكشف لهم فقد تنزهت ساحتها تعالى عن أن يتجزى فيلد أو يحتاج فيتخذ ولدا، و قد احتج عليهم بذلك فى مواضع من كلامه.

قوله تعالى: أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ فَأَتُوا بِكُتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أم منقطعه و المراد بالسلطان و هو البرهان كتاب نازل من عند الله سبحانه يخبر فيه أن الملائكة بناته على ما يعطيه السياق إذ لما لم يثبت بعقل أو حس بقى أن يثبت بكتاب من عند الله نازل بالوحي فلو كانت دعواهم حقه و هم صادقون فيها كان لهم أن يأتوا بالكتاب.

و إضافه الكتاب اليهم بعنايه فرضه دالا على دعواهم.

قوله تعالى: وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَ لَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةِ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ جعل النسب بينه و بين الجنة قولهم: إن الجنة أولاده و قد تقدم تفصيل قولهم فى تفسير سوره هود فى الكلام على عباده الأصنام.

و قوله: وَ لَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةِ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ أى للحساب أو للنار على ما يفيدده إطلاق «لَمُحْضَرُونَ» و كيف كان فهم يعلمون أنهم مربوبون لله سيحاسبهم و يجازيهم بما عملوا فينهم و بين الله سبحانه نسبه الربوبيه و العبوديه لا-نسب الولاده و من كان كذلك لا يستحق العباده.

قوله تعالى: سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ضمير «يَصِفُونَ» -نظرا الى اتصال الآيه بما قبلها- راجع الى الكفار المذكورين قبل، و الاستثناء منه منقطع و المعنى هو منزه عن وصفهم- أو عما يصفه الكفار به من الأوصاف كالولاده و النسب و الشركه و نحوها- لكن عباد الله المخلصين يصفونه تعالى وصفا يليق به- أو بما يليق به من الأوصاف-.

و للآيتين باستقلالهما معنى أوسع من ذلك و أدق و هو رجوع ضمير «يَصِفُونَ» الى الناس، و الوصف مطلق يشمل كل ما يصفه به واصف، و الاستثناء متصل و المعنى هو منزه عن كل ما يصفه الواصفون إلا عباد الله المخلصين.

و ذلك أنهم إنما يصفونه بمفاهيم محدوده عندهم و هو سبحانه غير محدود لا يحيط به حد و لا

يدرکه نعت فکلما وصف به فهو أجل منه و کل ما توهم أنه هو فهو غيره لكن له سبحانه عباد أخلصهم لنفسه و خصهم بنفسه لا يشارکه فيهم أحد غيره فعرفهم نفسه و أنساهم غيره يعرفونه و يعرفون غيره به فإذا وصفوه في نفوسهم و صفوه بما يليق بساحه كبريائه و إذا وصفوه بألسنتهم-و الألفاظ قاصره و المعاني محدوده-اعترفوا بقصور البيان و أقرأوا بکلال اللسان كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ هو سيد المخلصين: لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك (1) فافهم ذلك.

قوله تعالى: فَاتَّبَعُوا مَا تَتَّبِعُونَ مَا تَتَّبِعُونَ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ تفریع على حکم المستثنى و المستثنى منه أو المستثنى خاصه، و المعنى لما كان ما وصفتموه ضلالا-و عباد الله المخلصون لا يضلون في وصفهم-فلستم بمضلين به إلا سالکی سبيل النار.

و الظاهر من السياق أن «مَا» في «مَا تَتَّبِعُونَ» موصوله و المراد بها الأصنام فحسب أو الأصنام و آلهه الضلال كشياطين الجن، و «مَا» في «مَا أَنتُمْ» نافية، و ضمير «عَلَيْهِ» لله سبحانه و الظرف متعلق بفاتنين، و فاتنين اسم فاعل من الفتته بمعنى الإضلال و «صَالٍ» من الصلو بمعنى الاتباع فصالى الجحيم هو المتبع للجحيم السالك سبيل النار، و الاستثناء مفرغ تقديره ما أنتم بفاتنين أحدا إلا من هو صال الجحيم.

و المعنى فإنکم و آلهه الضلال التي تعبدونها لستم جميعا بمضلين أحدا على الله إلا من هو متبع الجحيم.

قوله تعالى: وَ مَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ الآيات الثلاث-على ما يعطيه السياق-اعتراض من كلام جبريل أو هو

ص: ٣٢٨

(١-١). فقد أثنى على الله و تمم نقصه بأنه يريد ما يريد الله من الثناء على نفسه.

و أَعوانه من ملائكة الوحي نظير قوله تعالى في سورة مريم: ﴿ وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ الخ (مريم ٦٤).

و الآيات الثلاث مسوقه لرد قولهم بألوهيه الملائكه بإيراد نفس اعترافهم بما يتنفي به قول الكفار و هم لا ينفون العبوديه عن الملائكه بل يرون أنهم مربوطون لله سبحانه أرباب و آلهه لمن دونهم يستقلون بالتصرف فيما فوض اليهم من أمر العالم من غير أن يرتبط شىء من هذا التدبير الى الله سبحانه و هذا هو الذى ينفيه الملائكه عن أنفسهم لا كونهم أسبابا متوسطه بينه تعالى و بين خلقه كما قال تعالى: ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (الأنبياء ٢٧).

فقوله: ﴿ وَمَا مَدَّ إِلَيْنَا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ أى معين مشخص أقيم فيه ليس له أن يتعداه بأن يفوض اليه أمر فيستقل فيه بل مجبول على طاعه الله فيما يأمر به و عبادته.

وقوله: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصّٰفُّونَ ﴾ أى نصف عند الله فى انتظار أوامره فى تدبير العالم لنجربها على ما يريد. كما قال تعالى: ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ هذا ما يفيد السيق، و ربما قيل: إن المراد إنا نصف للصلاه عند الله و هو بعيد من الفهم لا شاهد عليه.

وقوله: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ أى المنزهون له تعالى عما لا يليق بساحه كبريائه كما قال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ (الأنبياء ٢٠).

فالآيات الثلاث تصف موقف الملائكه فى الخلقه و عملهم المناسب لخلقهم و هو الاصطفاف لتلقى أمره تعالى و التنزيه لساحه كبريائه عن الشريك و كل ما لا يليق بكمال ذاته المتعاليه.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّا عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأُولِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴾ رجوع الى السيق السابق.

و الضمير فى قوله: «وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ» لقرىش و من يتلوهم، و «إِنَّ» مخففه من الثقيله، و المراد بذكر من الأولين كتاب سماوى من جنس الكتب النازله على الأولين.

و المعنى لو أن عندنا كتابا سماويا من جنس الكتب النازله قبلنا على الأولين لاهتدينا و كنا عباد الله المخلصين يريدون أنهم معذورون لو كفروا لعدم قيام الحجه عليهم من قبل الله سبحانه.

و هذا فى الحقيقه هفوه منهم فإن مذهب الوثنيه يحيل النبوه و الرساله و نزول الكتاب السماوى.

قوله تعالى: فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ الفاء فصيحه، و المعنى فأنزلنا عليهم الذكر و هو القرآن الكريم فكفروا به و لم يفوا بما قالوا فسوف يعلمون وبال كفرهم و هذا تهديد منه تعالى لهم.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ كلمته تعالى لهم قوله الذى قاله فيهم و هو حكمه و قضاءه فى حقهم و سبق الكلمه تقدمها عهدا أو تقدمها بالنفوذ و الغلبه و اللام تفيد معنى النفع أى إنا قضينا قضاء محتوما فيهم أنهم لهم المنصورون و قد أكد الكلام بوجه من التأكيد.

و قد أطلق النصر من غير تقييده بدنيا أو آخره أو بنحو آخر بل القرينه على خلافه قال تعالى: إنا لننصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (المؤمن / ٥١).

فالرسل عليهم السلام منصورون فى الحجه لأنهم على الحق و الحق غير مغلوب.

و هم منصورون على أعدائهم اما بإظهارهم عليهم و اما بالانتقام منهم قال تعالى: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى -الى أن قال- حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصِيرُنَا فَنَجَّيْنَا مَنْ نَشَاءُ وَ لَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ

و هم منصورون فى الآخرة كما قال تعالى: **يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ** (التحریم ٨)، و قد تقدم آنفا آیه فى سوره المؤمن فى هذا المعنى.

قوله تعالى: **وَإِنَّ جُنُدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** الجند هو المجتمع الغليظ و لذا يقال للعسكر جند فهو قريب المعنى من الحزب (١) و قد قال تعالى فى موضع آخر من كلامه: **وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ** (المائدة ٥٦).

و المراد بقوله: «جُنُدَنَا» هو المجتمع المؤتمر بأمره المجاهد فى سبيله و هم المؤمنون خاصه أو الأنبياء و من تبعهم من المؤمنين و فى الكلام على التقدير الثانى تعميم بعد التخصيص، و كيف كان فالمؤمنون منصورون كمتبوعيهم من الأنبياء قال تعالى: **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** (آل عمران ١٣٩) و قد مر بعض الآيات الداله عليه آنفا.

و الحكم أعنى النصر و الغلبه حكم اجتماعى منوط على العنوان لا- غير أى إن الرسل و هم عباد أرسلهم الله و المؤمنون و هم جند لله يعملون بأمره و يجاهدون فى سبيله ما داموا على هذا النعت منصورون غالبون، و أما اذا لم يبق من الإيمان الا اسمه و من الانتساب الا حديثه فلا ينبغى أن يرجى نصر و لا غلبه.

قوله تعالى: **فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ** تفريع على حديث النصر و الغلبه ففيه وعد للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بالنصر و الغلبه و ايعاد للمشركين و لقريش خاصه.

و الأمر بالإعراض عنهم ثم جعله مغيا بقوله: «حَتَّى حِينٍ» يلوح الى أن الأمد غير بعيد و كان كذلك فهاجر النبي صلى الله عليه و آله و سلم بعد قليل و أباد الله صناديد قريش فى غزوه بدر و غيرها.

قوله تعالى: وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ الأمر بالإبصار و الإخبار بإبصارهم عاجلا و عطف الكلام على الأمر بالتولى معجلا يفيد بحسب القياس أن المعنى أنظرهم و أبصر ما هم عليه من الجحود و العناد قبال انذارك و تخويفك فسوف يبصرون وبال جحودهم و استكبارهم.

قوله تعالى: أَ فِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ توبيخ لهم لاستعجالهم و قولهم: متى هذا الوعد؟ متى هذا الفتح؟ و إيذان بأن هذا العذاب مما لا ينبغي أن يستعجل لأنه يعقب يوما بئيسا و صباحا مشئوما.

و نزول العذاب بساحتهم كناية عن نزوله بهم على نحو الشمول و الإحاطة، و قوله: «فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ» أى بئس صباحهم صباحا، و المنذرون هم المشركون من قريش.

قوله تعالى: وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ تأكيد لما مر بتكرار الآيتين على ما قيل، و احتمال بعضهم أن يكون المراد بما تقدم التهديد بعذاب الدنيا و بهذا، التهديد بعذاب الآخرة. و لا يخلو من وجه فإن الواقع فى الآية «وَ أَبْصِرْهُمْ» من غير مفعول كما فى الآية السابقة من قوله: «وَ أَبْصَارَهُمْ» و الحذف يشعر بالعموم و أن المراد إبصار ما عليه عامه الناس من الكفر و الفسوق و يناسبه التهديد بعذاب يوم القيامة.

قوله تعالى: سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ تنزيه له تعالى عما يصفه به الكفار المخالفون لدعوه النبى صلى الله عليه و آله و سلم مما تقدم ذكره فى السورة.

و الدليل عليه إضافه التنزيه الى قوله: «رَبِّكَ» أى الرب الذى تعبده و تدعو اليه، و إضافه الرب ثانيا الى العزه المفيد لاختصاصه تعالى بالعزه فهو منيع الجانب على الإطلاق فلا يذله مذل و لا يغلبه غالب و لا يفوته هارب فالمشركون أعداء الحق المهددون بالعذاب ليسوا له بمعجزين.

قوله تعالى: وَ سَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ تسليم على عامه المرسلين و صون لهم من أن

يُصِيبُهُمْ مِنْ قَبْلِهِ تَعَالَى مَا يَسُوؤُهُمْ وَيَكْرَهُونَهُ.

قوله تعالى: وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ تقدم الكلام فيه في تفسير سورة الفاتحة.

ص: ٣٣٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (۱) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَشِقَاقِي (۲) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَوْمٍ فَتَادُوا وَ لَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ (۳) وَ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَ قَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (۴) أَلْجَعَلِ اللَّهُ إِلَهًا وَاحِدًا إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (۵) وَ انطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امشُوا وَ اضْبُرُوا عَلَيَّ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (۶) مَا سِجْمَنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (۷) أَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ (۸) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (۹) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (۱۰) جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (۱۱) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عَادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (۱۲) وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (۱۳) إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (۱۴) وَ مَا يَنْظُرُ هُوَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فِوَاقِ (۱۵) وَ قَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (۱۶)

يدور الكلام فى السوره حول كون النبى صلى الله عليه وآله وسلم منذرا بالذكر النازل عليه من عند الله سبحانه الداعى الى التوحيد و إخلاص العبوديه له تعالى.

فتبدأ بذكر اعتزاز الكفار و شقاقهم و بالجمله استكبارهم عن اتباعه و الإيمان به و صد الناس عنه و تفوههم بباطل القول فى ذلك و رده فى فصل.

ثم تأمل النبى صلى الله عليه وآله وسلم بالصبر و ذكر قصص عباده الأولين فى فصل ثم يذكر مآل حال المتقين و الطاغين فى فصل. ثم تأمر النبى صلى الله عليه وآله وسلم بإبلاغ نذارته و دعوته الى توحيد الله و أن مآل اتباع الشيطان الى النار على ما قضى به الله يوم أمر الملائكه بالسجده لآدم فأبى إبليس فرجمه و قضى عليه و على من تبعه النار. فى فصل.

و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها.

قوله تعالى: ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَشِقَاقِ الْمَرَادِ بِالذِّكْرِ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَوْحِيدِهِ وَ مَا يَتَفَرَّعُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَارِفِ الْحَقَّةِ مِنَ الْمَعَادِ وَالنَّبَوَّةِ وَغَيْرِهِمَا، وَالْعِزَّةُ الْاِمْتِنَاعُ، وَالشِّقَاقُ الْمَخَالَفَةُ، قَالَ فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ: وَ اَصْلُهُ اَنْ يَصِيرَ كُلُّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ فِي شِقِّ اَيِّ فِي جَانِبٍ وَ مِنْهُ يُقَالُ: شَقَّ فُلَانٌ الْعَصَا اِذَا خَالَفَ اَنْتَهَى.

والمستفاد من سياق الآيات أن قوله: «وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ» قسم نظير ما في قوله: يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ن وَالْقَلَمِ لَا- عطف على ما تقدمه، و أما المقسم عليه فالذي يدل عليه الإضراب في قوله: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَ شِقَاقِ اَنْهُ اَمْرٌ يَمْتَنِعُ عَنْ قَبُولِهِ الْقَوْمُ وَ يَكْفُرُونَ بِهِ عِزَّهُ وَ شِقَاقًا وَ قَدْ هَلَكَ فِيهِ قُرُونٌ كَثِيرَةٌ ثُمَّ ذَكَرَ اِنْذَارَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ مَا قَالَ الْكُفَّارَ عَلَيْهِ وَ مَا اَمْرَهُمْ بِهِ مَلُؤُهُمْ حَوْلَ اِنْذَارِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ اَنْهُ اَعْنَى الْمَقْسَمِ عَلَيْهِ نَحْوُ مِنْ قَوْلِنَا:

إنك لمن المنذرين، و يشهد على ذلك أيضا التعرض في السورة بإنذاره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بِالذِّكْرِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى.

و المعنى -و الله أعلم- أقسم بالقرآن المتضمن للذكر- إنك لمن المنذرين- بل الذين كفروا في امتناع عن قبوله و اتباعه و مخالفته له.

قوله تعالى: كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَ لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ الْقَرْنِ أَهْلَ عَصْرٍ وَاحِدٍ، وَ الْمَنَاصُ بِالنُّونِ مَصْدَرٌ نَاصٌ يَنْوِصُ اَي تَأَخَّرَ كَمَا اَنْهُ بِالْبَاءِ الْمَوْحَدَةِ بِمَعْنَى التَّقَدُّمِ عَلَى مَا فِي الْمَجْمَعِ وَ قِيلَ: هُوَ بِمَعْنَى الْفِرَارِ.

و المعنى: كثيرا ما أهلكنا من قبل هؤلاء الكفار من قرن و أمه بتكذيبهم الرسل المنذرين فنادوا عند نزول العذاب بالويل كقولهم: يا ويلنا إنا كنا ظالمين أو بالاستغاثة بالله سبحانه و ليس الحين حين تأخر الأخذ و العذاب أو ليس الحين حين فرار.

قوله تعالى: وَ عَجِبُوا اَنْ اَجَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا سٰحِرٌ كٰذِبٌ اَي تَعَجَّبُوا مِنْ مَجِيءِ مُنْذِرٍ مِنْ نَوْعِهِمْ اَنْ كَانَ بَشَرًا فَاِنْ الْوَثْنِيَّةُ تَنْكُرُ رِسَالَهُ

وقوله: وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ يشيرون بهذا الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يرمونه بالسحر لكونهم عاجزين عن الإتيان بمثل ما أتى به وهو القرآن، وبالكذب لزعمتهم أنه يفترى على الله بنسبه القرآن وما فيه من المعارف الحقه اليه تعالى.

قوله تعالى: أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ العجَاب بتخفيف الجيم اسم مبالغه من العجب وهو بتشديد الجيم أبلغ.

وهو من تتمه قول الكافرين والاستفهام للتعجب والجعل بمعنى التصيير وهو كما قيل تصيير بحسب القول والاعتقاد والدعوى لا بحسب الواقع كما فى قوله تعالى: وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا تَأْتُوا بِالنَّبِيِّينَ أَجْزَاءً إِنَّهُمْ عَلَّمَتْهُمُ الْكَلِمَ الْكَلِيمَةَ لَعَلَّ يُعْذِرُ لِمَن حَرَّمَ عَلَيْهِمْ وَالطَّيِّبَاتِ عَلَى الْبَشَرِ إِنَّ رَبَّهُمْ لَذُو فَهْمٍ مُّبِينٍ وَإِن يُرِيدُ لِيُخَلِّقَ أَجْرَافًا (الزخرف ١٩) فمعنى جعله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا هو إبطاله الوهيه الْآلِهَةَ من دون الله وحكمه بأن الإله هو الله لا إله إلا هو.

قوله تعالى: وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ نسبة الانطلاق الى ملامهم وأشرفهم وقولهم ما قالوا يلوح الى أن اشراف قريش اجتمعوا على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ليحلوا مشكله دعوته الى التوحيد ورفض الْآلِهَةَ بنوع من الاستماله و كلموه فى ذلك فما وافقهم فى شىء منه ثم انطلقوا وقال بعضهم لبعض أو قالوا لأتباعهم أن امشوا و اصبروا، الخ؛ وهذا يؤيد ما ورد فى أسباب النزول مما سيجىء فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله.

وقوله: أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ بتقدير القول أى قائلين أن امشوا و اصبروا على آلِهَتِكُمْ ولا تتركوا عبادتها وإن عابها و قدح فيها، و ظاهر السياق أن القول قول بعضهم لبعض، و يمكن أن يكون قولهم لتبعتمهم.

وقوله: إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ظاهره أنه إشاره الى ما يدعو اليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و يطلبه و أن مطلوبه شىء يراد بالطبع وهو السيادة والرئاسه وإنما جعل الدعوه ذريعه اليه فهو نظير

قول الملا من قوم نوح لعامتهم: مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ (المؤمنون ٢٤).

قوله تعالى: مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمَلَأِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ أَرَادُوا بِالْمَلَأِ الْآخِرَةِ الْمَذْهَبَ الَّذِي تَدَاوَلَهُ الْآخَرُونَ مِنَ الْأُمَّمِ الْمَعَاصِرِينَ لَهُمْ أَوْ الْمُقَارِنِينَ لِعَصْرِهِمْ قِبَالَ الْمَلَأِ الْأُولَى الَّتِي تَدَاوَلَتْهَا الْأُولُونَ كَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: لَيْسَ هَذَا مِنَ الْمَلَأِ الْآخِرَةِ الَّتِي يَرْتَضِيهَا أَهْلُ الدُّنْيَا الْيَوْمَ بَلْ مِنْ أَسَاطِيرِ الْأُولِينَ.

وقيل: المراد بالمله الآخرة النصرانية لأنها آخر الملل وهم لا يقولون بالتوحيد بل التثليث. وضعفه ظاهر إذ لم يكن للنصرانية وقع عندهم كالإسلام.

وقوله: إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ أَيْ كَذِبٌ وَافْتِعَالٌ.

قوله تعالى: أَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا اسْتَفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ بِدَعَايِ التَّكْذِيبِ أَيْ لَا مَرَجِحَ عِنْدَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَتَرَجَّحُ بِهِ عَلَيْنَا فَيَنْزِلُ عَلَيْهِ الذِّكْرُ دُونَ مَا فَهُوَ فِي إِنْكَارِ الْإِخْتِصَاصِ بِنَزُولِ الذِّكْرِ نَظِيرَ قَوْلِهِمْ: مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فِي نَفْيِ الْإِخْتِصَاصِ بِالرِّسَالَةِ.

قوله تعالى: بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابَ إِضْرَابٍ عَنْ جَمِيعِ مَا قَالُوهُ أَيْ إِنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا عَنْ إِيمَانٍ وَاعْتِقَادٍ بِهِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي وَهُوَ الْقُرْآنُ.

وليس شكهم فيه من جهه خفاء دلالة آية النبوه و قصورها عن إفاده اليقين بل تعلق قلوبهم بما عندهم من الباطل و لزومهم التقليد يصرفهم عن النظر في دلالة الآية الإلهية المعجزه فشكوا في الذكر و الحال أنه آية معجزه.

وقوله: لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابَ إِضْرَابٍ عَنْ إِضْرَابٍ أَيْ لَيْسَ إِنْكَارُهُمْ وَعَدَمُ إِيمَانِهِمْ بِهِ عَنْ شَكٍّ مِنْهُمْ فِيهِ بَلْ لِأَنَّهُمْ لَعَنُوهُمْ وَاسْتَكْبَرُوهُمْ لَا يَعْتَرِفُونَ بِحَقِيَّتِهِ وَ لَوْ لَمْ يَكُنْ شَكٌّ، حَتَّى يَذُوقُوا عَذَابِي فَيُضْطَرُّوا إِلَى الْإِعْتِرَافِ كَمَا فَعَلَ غَيْرُهُمْ.

و في قوله: «لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابَ» أَيْ لَمْ يَذُوقُوا بَعْدَ عَذَابِي، تَهْدِيدٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ.

قوله تعالى: أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ الْكَلَامِ فِي مَوْجِ الْإِضْرَابِ وَ «أَمْ» مَنْقُطَعُهُ وَالْكَلامُ نَاطِرٌ إِلَى قَوْلِهِمْ: «أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا» أَيْ بَلْ أَعِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الَّتِي يَنْفَقُ مِنْهَا عَلَى مَنْ يَشَاءُ حَتَّى يَمْنَعُوكَ مِنْهَا بَلْ هِيَ لَهُ تَعَالَى وَ هُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ وَ يَخْصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ.

وَ تَدْبِيلُ الْكَلَامِ بِقَوْلِهِ: «الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ» لِتَأْيِيدِ مَحْصَلِ الْجُمْلَةِ أَيْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ لِأَنَّهُ عَزِيزٌ مَنْعٌ جَانِبُهُ لَا يَدْخُلُ فِي أَمْرِهِ أَحَدٌ، وَ لَا لَهُمْ أَنْ يَصْرِفُوا رَحْمَتَهُ عَنْ أَحَدٍ لِأَنَّهُ وَهَّابٌ كَثِيرُ الْهَبَاتِ.

قوله تعالى: أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ «أَمْ» مَنْقُطَعُهُ، وَ الْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ: «فَلْيَرْتَقُوا» لِلتَّعْجِيزِ وَ الْارْتِقَاءِ الصُّعُودِ، وَ الْأَسْبَابُ الْمَعَارِجُ وَ الْمَنَاهِجُ الَّتِي يَتَوَسَّلُ بِهَا إِلَى الصُّعُودِ إِلَى السَّمَاوَاتِ وَ يُمْكِنُ أَنْ يَرَادَ بَارْتِقَاءُ الْأَسْبَابِ التَّسَبُّبُ بِالْعِلَلِ وَ الْحِيلُ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا لَهُمْ الْمَنْعُ وَ الصَّرْفُ.

وَ الْمَعْنَى: بَلْ أَنَّهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فَيَكُونُ لَهُمْ أَنْ يَتَصَرَّفُوا فِيهَا فَيَمْنَعُوا نَزُولَ الْوَحْيِ السَّمَاوِيِّ إِلَى بَشَرٍ أَرْضِي فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَلْيَصْعِدُوا مَعَارِجَ السَّمَاوَاتِ أَوْ فَلْيَتَسَبَّبُوا الْأَسْبَابَ وَ لِيَمْنَعُوا مِنْ نَزُولِ الْوَحْيِ عَلَيْكَ.

قوله تعالى: جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ الْهَزِيمَةُ الْخِذْلَانُ وَ «مِنَ الْأَحْزَابِ» بَيَانٌ لِقَوْلِهِ: «جُنْدٌ مَا» وَ «مَا» لِلتَّقْلِيلِ وَ التَّحْقِيرِ، وَ الْكَلَامُ مَسْوقٌ لِتَحْقِيرِ أَمْرِهِمْ رَغْمًا لِمَا يَشْعُرُ بِهِ ظَاهِرُ كَلَامِهِمْ مِنَ التَّعَزُّزِ وَ الْإِعْجَابِ بِأَنْفُسِهِمْ.

يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ تَنْكِيرُ «جُنْدٌ» وَ تَتَمِيمُهُ بِلَفْظِهِ «مَا» وَ الْإِشَارَةُ إِلَى مَكَانَتِهِمْ بِهِنَالِكَ الدَّالِّ عَلَى الْبَعِيدِ وَعَدَّهُمْ مِنَ الْأَحْزَابِ الْمُتَحْزِبِينَ عَلَى الرِّسْلِ الَّذِينَ قَطَعَ اللَّهُ دَائِرَ الْمَاضِينَ مِنْهُمْ كَمَا سَيَذْكَرُ وَ لِذَلِكَ عَدَّ هَذَا الْجُنْدَ مَهْزُومًا قَبْلَ انْهِزَامِهِمْ.

وَ الْمَعْنَى: هُمْ جُنْدٌ مَا أَقْلَاءُ أَذْلَاءُ مِنْهَزْمُونَ هِنَالِكَ مِنْ أَوْلِيائِكَ الْأَحْزَابِ الْمُتَحْزِبِينَ عَلَى

الرسول الذين كذبوهم فحق عليهم عقابى.

قوله تعالى: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عَادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ -الى قوله- فَحَقَّ عِقَابِ ذُو الْأَوْتَادِ وَصَفَ فِرْعَوْنَ وَ الْأَوْتَادِ جَمْعٌ وَ تَدُّ وَ هُوَ مَعْرُوفٌ. قِيلَ: سُمِّيَ بَذَى الْأَوْتَادِ لِأَنَّهُ كَانَتْ لَهُ مَلَاعِبٌ مِنْ أَوْتَادٍ يَلْعَبُ لَهَا عَلَيْهَا، وَقِيلَ: لِأَنَّهُ كَانَ يَعْذِبُ مَنْ غَضِبَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَجْرِمِينَ بِالْأَوْتَادِ يُوْتَدُ يَدِيهِ وَ رِجْلِيهِ وَ رَأْسَهُ عَلَى الْأَرْضِ فَيَعْذِبُهُ وَ قِيلَ: مَعْنَاهُ ذُو الْجُنُودِ أَوْتَادِ الْمَلِكِ، وَقِيلَ: غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْوُجُوهِ، وَ لَا دَلِيلَ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا يَعُولُ عَلَيْهِ.

وَ أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ قَوْمٍ شَعِيبٍ وَ قَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْحَجْرِ وَ الشُّعْرَاءِ، وَ قَوْلُهُ: «فَحَقَّ عِقَابِ» أَيْ ثَبَتَ فِي حَقِّهِمْ وَ اسْتَقَرَّ فِيهِمْ عِقَابِي فَأَهْلَكَتَهُمْ.

قوله تعالى: وَ مَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فُوقِ النَّظَرِ الْإِنْتِظَارِ وَ الْفُوقِ الرَّجُوعِ وَ الْمَهَلَةُ الْيَسِيرَةُ، وَ الْمَعْنَى وَ مَا يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبُونَ مِنْ أَمْتِكَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَقْضِي عَلَيْهِمْ وَ تَهْلِكُهُمْ مَا لَهَا مِنْ رُجُوعٍ أَوْ مَهَلَةٍ وَ هِيَ عَذَابُ الْاسْتِئْصَالِ.

قوله تعالى: وَ قَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا لَنَا قَطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ الْقَطْ النَّصِيبُ وَ الْحِطُّ، وَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ اسْتِعْجَالٌ مِنْهُمْ لِلْعَذَابِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ اسْتِهْزَاءً بِحَدِيثِ يَوْمِ الْحِسَابِ وَ الْوَعِيدِ بِالْعَذَابِ فِيهِ (١).

[سوره ص (٣٨): الآيات ١٧ الى ٢٩]

إِضْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَ أَذْكَرَ عَيْنِنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْرَاقِ (١٨) وَ الطَّيْرِ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَ شَدَدْنَا مُلْكَهُ وَ آتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَ فَضَّلَ الْخِطَابِ (٢٠) وَ هَرَبَ آتَاكَ نَبَأُ الْخَضْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغِي بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَ لَا تَشْطِطْ وَ اهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَ عَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِيجِكَ إِلَىٰ بَعِيجِهِ وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ قَلِيلٌ مَا هُمْ وَ ظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ رَاكِعًا وَ أَنَابَ (٢٤) فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَ حُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعِلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)

ص: ٣٤٠

قوله تعالى: اِصْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْاَيْدِ اِنَّهُ اَوَابٌ اَلَيْدِ الْقُوهِ وَ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَا قُوهِ فِي تَسْبِيحِهِ تَعَالَى يَسْبِحُ وَ يَسْبَحُ مَعَهُ الْجِبَالُ وَ الطَّيْرُ وَ ذَا قُوهِ فِي مَلِكِهِ وَ ذَا قُوهِ فِي عِلْمِهِ وَ ذَا قُوهِ وَ بَطْشٍ فِي الْحُرُوبِ وَ قَدْ قَتَلَ جَالُوتَ الْمَلِكِ كَمَا قَصَهُ اللهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

و الأواب اسم مبالغه من الأوب بمعنى الرجوع و المراد به كثره رجوعه الى ربه.

قوله تعالى: اِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْاِشْرَاقِ الظاهر أن «مَعَهُ» متعلق بقوله: «يُسَبِّحْنَ» و جملة «مَعَهُ يُسَبِّحْنَ» بيان لمعنى التسخير و قدم الظرف لتعلق العناية بتبعيتها لداد و اقتدائها به فى التسييح لكن قوله تعالى فى موضع آخر: وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ (الأنبياء ٧٩) يؤيد تعلق الظرف بسخرنا، و قد وقع فى موضع آخر من كلامه تعالى: يَا جِبَالَ اُوبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ (سبأ ١٠) و العشى و الاشراف الرواح و الصباح.

و قوله: اِنَّا سَخَّرْنَا الخ؛ «ان» فيه للتعليل و الآيه و ما عطف عليها من الآيات بيان لكونه عليه السلام ذا ايد فى تسييحه و ملكه و علمه و كونه أوابا الى ربه.

قوله تعالى: وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلُّ لَّهُ اَوَابٌ الْمَحْشُورَةُ من الحشر بمعنى الجمع يازعاج أى و سخرنا معه الطير مجموعه له تسبح معه.

و قوله: «كُلُّ لَّهُ اَوَابٌ» استئناف يقرر ما تقدمه من تسييح الجبال و الطير أى كل من الجبال و الطير أواب أى كثير الرجوع اليها بالتسييح فإن التسييح من مصاديق الرجوع اليه

تعالى. و يحتمل رجوع ضمير «لَّهُ» الى داود على بعد.

و لم يكن تأييد داود عليه السلام في أصل جعله تعالى للجبال و الطير تسبيحا فإن كل شىء مسبح لله سبحانه قال تعالى: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (الإسراء ٤٤/١) بل في موافقه تسبيحها لتسبيحه و قرع تسبيحها أسمع الناس و قد تقدم كلام في معنى تسبيح الأشياء لله سبحانه في تفسير قوله تعالى: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ الآية؛ و أنه بلسان الحال.

قوله تعالى: وَ شَدَدْنَا مُلْكَهُ وَ آتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَ فَضَّلْنَا الْخِطَابَ قَالَ الرَّاعِبُ:

الشد العقد القوى يقال: شددت الشىء قويت عقده. انتهى فشد الملك من الاستعاره بالكنايه و المراد به تقويه الملك و تحكيم أساسه بالهيبة و الجنود و الخزائن و حسن التدبير و سائر ما يتقوى به الملك.

و الحكمة في الأصل بناء نوع من الحكم و المراد بها المعارف الحقه المتقنه التى تنفع الإنسان و تكمله، و قيل: المراد النبوه، و قيل الزبور و علم الشرائع، و قيل غير ذلك و هى وجوه رديه.

و فصل الخطاب تفكيك الكلام الحاصل من مخاطبه واحد لغيره و تمييز حقه من باطله و ينطبق على القضاء بين المتخاصمين فى خصامهم.

قوله تعالى: وَ هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ الْخَضْمُ مصدر كالخصومه اريد به القوم الذى استقر فيهم الخصومه، و التسور الارتقاء الى أعلى السور و هو الحائط الرفيع كالتسنىم بمعنى الارتقاء الى سنام البعير و التذرى بمعنى الارتقاء الى ذروه الجبل، و قد فسر المحراب بالغرفه و العليه، و الاستفهام و التشويق الى استماع الخبر.

و المعنى هل أتاك يا محمد خبر القوم المتخاصمين إذ علوا سور المحراب محراب داود عليه السلام.

قوله تعالى: إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ لفظه «إن» هذه

ظرف لقوله: «تَسَوَّرُوا» كما أن «إِذْ» الاولى ظرف لقوله: «تَبَيَّأَ الْخَصْمُ» و محصل المعنى أنهم دخلوا على داود و هو فى محرابه لا من الطريق العادى بل بتسوره بالارتقاء الى سوره و الورود عليه منه و لذا فرع منهم لما رأهم دخلوا عليه من غير الطريق العادى و بغير إذن.

و قوله: فَفَرَعَ مِنْهُمْ قال الراغب: الفرع انقباض و نفار يعترى الإنسان من الشىء المخيف و هو من جنس الجزع و لا يقال: فرعت من الله كما يقال: خفت منه. انتهى.

و قد تقدم أن الخشيه تأثير القلب بحيث يستتبع الاضطراب و القلق و هى رذيله مذمومه إلا الخشيه من الله سبحانه و لذا كان الأنبياء عليهم السلام لا يخشون غيره قال تعالى: وَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ (الأحزاب/٣٩).

و أن الخوف هو التأثير عن المكروه فى مقام العمل بتهيئه ما يتحرز من الشر و يدفع به المكروه لا فى مقام الإدراك فليس برذيله مذمومه لذاته بل هو حسن فيما يحسن الاتقاء قال تعالى خطابا لرسوله: وَ إِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً (الأنفال/٥٨).

و إذا كان الفرع هو الانقباض و النفار الحاصل من الشىء المخوف كان أمرا راجعا الى مقام العمل دون الإدراك فلم يكن رذيله بذاته بل كان فضيله عند تحقق مكروه ينبغى التحرز منه فلا ضير فى نسبته الى داود عليه السلام فى قوله: «فَفَرَعَ مِنْهُمْ» و هو من الأنبياء الذين لا يخشون إلا الله.

و قوله: قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِيْمًا بَغِيًّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ لما رأوا ما عليه داود عليه السلام من الفرع أرادوا تطيب نفسه و إسكان روعه فقالوا: «لَا تَخَفْ» و هو نهى عن الفرع بالنهى عن سببه الذى هو الخوف «خَصِيْمًا بَغِيًّا» الخ؛ أى نحن خصمان أى فريقان متخاصمان تجاوز بعضنا ظلما على بعض.

و قوله: فَأَحْكُمَ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَ لَا تُشْطِطْ الْخ؛ الشطط الجور أى فاحكم بيننا حكما مصاحبا للحق و لا تجر فى حكمك و دلنا على الوسط العدل من الطريق.

قوله تعالى: **إِنَّ هَذَا أَخِي** الى آخر الآيه بيان لخصومتهم و قوله: **«إِنَّ هَذَا أَخِي»** كلام لواحد من أحد الفريقين يشير الى آخر من الفريق الآخر **بِإِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ** الخ.

و قوله: **لَهُ تَسْمَعُ وَ تَسْمَعُونَ نَعَجَهُ وَ لِي نَعَجَهُ وَ أَحَدَهُ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَ عَزَّنِي فِي الْخِطَابِ النعجه الاثنى من الضأن، و «أَكْفَلْنِيهَا»** أى جعلها فى كفالتى و تحت سلطتى و **«عَزَّنِي فِي الْخِطَابِ»** أى غلبنى فيه و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: **قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ** -الى قوله- **وَ قَلِيلٌ مَّا هُمْ** جواب داود عليه السّلام، و لعله قضاء تقديرى قبل استماع كلام المتخاصم الآخر فإن من الجائز أن يكون عنده من القول ما يكشف عن كونه محقا فيما يطلبه و يقترحه على صاحبه لكن صاحب النعجه الواحده ألقى كلامه بوجه هيج الرحمه و العطوفه منه عليه السّلام فبادر الى هذا التصديق التقديرى فقال: **«لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ»**.

فاللام للقسم، و السؤال -على ما قيل- مضمن معنى الإضافه و لذا عدى الى المفعول الثانى بـ **إِلَى**، و المعنى اقسم لقد ظلمك بسؤال إضافه نعجتك الى نعاجه.

و قوله: **وَ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ قَلِيلٌ مَّا هُمْ** من تمام كلام داود عليه السلام يقرر به كلامه الأول و الخلطاء الشركاء المخالطون.

قوله تعالى: **وَ ظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتْنَاهُ فَاَسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ رَاكِعًا وَ أَنَابَ** أى علم داود أنما فتناه بهذه الواقعة أى أنها كانت فتنه فتناه بها و الفتنه الامتحان، و قيل: ظن بمعناه المعروف الذى هو خلاف اليقين و ذكر استغفاره و توبته مطلقين يؤيد ما قدمناه و لو كان الظن بمعناه المعروف كان الاستغفار و التوبه على تقدير كونها فتنه واقعا و إطلاق اللفظ يدفعه، و الخر على ما ذكره الراغب سقوط يسمع منه خريبر و الخريبر يقال لصوت الماء و الريح و غير ذلك مما يسقط من علو، و الركوع -على ما ذكره- مطلق الانحناء.

و الإنابة الى الله-على ما ذكره الراغب-الرجوع اليه بالتوبه و إخلاص العمل و هى من النوب بمعنى رجوع الشىء مره بعد أخرى.

و المعنى:و علم داود أن هذه الواقعة إنما كانت امتحانا امتحناه و أنه أخطأ فاستغفر ربه-مما وقع منه-و خر منحنيا و تاب اليه.

و أكثر المفسرين تبعا للروايات على أن هؤلاء الخصم الداخلين على داود عليه السّلام كانوا ملائكه أرسلهم الله سبحانه اليه ليتمتحنه و ستعرف حال الروايات.

لكن خصوصيات القصة كتسورهم المحراب و دخولهم عليه دخولا- غير عادى بحيث أفرعوه،و كذا تنبهه بأنه إنما كان فتنه من الله له لا- واقعه عاديه،و قوله تعالى بعد: «فَإِحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ» الظاهر فى أن الله ابتلاه بما ابتلى لىنبهه و يسدده فى خلافته و حكمه بين الناس، كل ذلك يؤيد كونهم من الملائكه و قد تمثلوا له فى صوره رجال من الإنس.

و على هذا فالواقعه تمثل تمثل فيه الملائكه فى صوره متخاصمين لأحدهما نعبه واحده يسألها آخر له تسع و تسعون نعبه و سأله القضاء فقال لصاحب النعبه الواحده: «لَقَدْ ظَلَمَكَ» الخ؛و كان قوله عليه السّلام-لو كان قضاء منجزا-حكما منه فى ظرف التمثل كما لو كان رآهم فيما يرى النائم فقال لهم ما قال و حكم فيهم بما حكم و من المعلوم أن لا تكليف فى ظرف التمثل كما لا- تكليف فى عالم الرؤيا و إنما التكليف فى عالمنا المشهود و هو عالم الماده و لم تقع الواقعة فيه و لا- كان هناك متخاصمان و لا- نعبه و لا- نجاج إلا- فى ظرف التمثل فكانت خطيئه داود عليه السّلام فى هذا الظرف من التمثل و لا تكليف هناك كخطيئه آدم عليه السّلام فى الجنه من أكل الشجره قبل الهبوط الى الأرض و تشريع الشرائع و جعل التكليف،و استغفاره و توبته مما صدر منه كاستغفار آدم و توبته مما صدر منه و قد صرح الله بخلافته فى كلامه كما صرح بخلافه آدم عليه السّلام فى كلامه و قد مر توضيح ذلك فى قصه آدم عليه السّلام من سوره البقره فى الجزء الأول من الكتاب.

و أما على قول بعض المفسرين من أن المتخاصمين الداخلين عليه كانوا بشرا و القصه على ظاهرها فينبغي أن يؤخذ قوله: «لَقَدْ ظَلَمَ بِكَ» الخ؛ قضاء تقديرها أى إنك مظلوم لو لم يأت خصيمك بحجه بينه، وإنما ذلك للحفظ على ما قامت عليه الحجه من طريقى العقل و النقل أن الأنبياء معصومون بعصمه من الله لا يجوز عليهم كبيره و لا صغيره.

على أن الله سبحانه صرح قبلا بأنه آتاه الحكمة و فصل الخطاب و لا يلائم ذلك خطأه فى القضاء.

قوله تعالى: وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَ حُسْنَ مِرَآبٍ الزلفه و الزلفى المنزله و الحظوه، و المآب المرجع، و تنكير «لَزُلْفَىٰ» و «مِرَآبٍ» للتفخيم، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ الظاهر أن الكلام بتقدير القول و التقدير فغفرنا له ذلك و قلنا يا داود، الخ.

و ظاهر الخلافه إنها خلافه الله فتنتطبق على ما فى قوله تعالى: وَ إِذِ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (البقره ٣٠) و من شأن الخلافه أن يحاكى الخليفه من استخلفه فى صفاته و أعماله فعلى خليفه الله فى الأرض أن يتخلق بأخلاق الله و يريد و يفعل ما يريد الله و يحكم و يقضى بما يقضى به الله -و الله يقضى بالحق- و يسلك سبيل الله و لا يتعدها.

و لذلك فرع على جعل خلافته قوله: «فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ» و هذا يؤيد أن المراد بجعل خلافته إخراجها من القوه الى الفعل فى حقه لا مجرد الخلافه الشأنيه لأن الله أكمله فى صفاته و آتاه الملك يحكم بين الناس.

و قوله: وَ لَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ العطف و المقابله بينه و بين ما قبله يعطيان أن المعنى و لا تتبع فى قضائك الهوى هوى النفس فيضلك عن الحق الذى هو سبيل الله فتفيد الآيه أن سبيل الله هو الحق.

قال بعضهم: إن فى أمره عليه السلام بالحكم بالحق و نهيه عن اتباع الهوى تنبيها لغيره ممن يلى

امور الناس أن يحكم بينهم بالحق و لا- يتبع الباطل و إلا- فهو عليه السّلام من حيث إنه معصوم لا- يحكم إلا- بالحق و لا- يتبع الباطل.

و فيه أن أمر تنبيه غيره بما وجه اليه من التكليف في محله لكن عصمه المعصوم و عدم حكمه إلا بالحق لا يمنع توجه التكليف بالأمر و النهى اليه فإن العصمه لا- توجب سلب اختياره و ما دام اختياره باقيا جاز بل و جب توجه التكليف اليه كما يتوجه الي غيره من الناس، و لو لا توجه التكليف الي المعصوم لم يتحقق بالنسبه اليه واجب و محرم و لم تتميز طاعه من معصيه فلغى معنى العصمه التي هي المصونيه عن المعصيه.

و قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ تعليل للنهي عن اتباع الهوى بأنه يلازم نسيان يوم الحساب و في نسيانه عذاب شديد و المراد بنسيانه عدم الاعتناء بأمره.

و في الآيه دلالة على أن كل ضلال عن سبيل الله سبحانه بمعصيه من المعاصي لا ينفك عن نسيان يوم الحساب.

قوله تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، لما انتهى الكلام الى ذكر يوم الحساب عطف عنان البيان عليه فاحتج عليه بحجتين إحداهما ما ساقه في هذه الآيه بقوله: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ» الخ؛ و هو احتجاج من طريق الغايات إذ لو لم يكن خلق السماء و الأرض و ما بينهما- و هي أمور مخلوقه مؤجله توجد و تفنى- مؤديا الى غايه ثابتة باقيه غير مؤجله كان باطلا و الباطل بمعنى ما لا غايه له ممتنع التحقق في الأعيان.

على أنه مستحيل من الحكيم و لا ريب في حكمته تعالى.

و ربما أطلق الباطل في أريد به اللعب و لو كان المراد ذلك كانت الآيه في معنى قوله: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (الدخان ٣٩).

و قوله: ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ أى خلق العالم

باطلا لا غاية له و انتفاء يوم الحساب الذى يظهر فيه ما ينتجه حساب الامور ظن الذين كفروا بالمعاد فويل لهم من عذاب النار.

قوله تعالى: **أَمْ نَجْعِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعِلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** هذه هي الحجة الثانية على المعاد و تقريرها أن للإنسان كسائر الأنواع كمالا بالضرورة و كمال الإنسان هو خروجه فى جانبى العلم و العمل من القوه الى الفعل بأن يعتقد الاعتقادات الحقه و يعمل الأعمال الصالحه اللتين يهديه اليهما فطرته الصحيحه و هما الإيمان بالحق و العمل الصالح اللذين بهما يصلح المجتمع الإنسانى الذى فى الأرض.

فالذين آمنوا و عملوا الصالحات و هم المتقون هم الكاملون من الإنسان و المفسدون فى الأرض بفساد اعتقادهم و عملهم و هم الفجار هم الناقصون الخاسرون فى إنسانيتهم حقيقه، و مقتضى هذا الكمال و النقص أن يكون بإزاء الكمال حياه سعيده و عيش طيب و بإزاء خلافه خلاف ذلك.

و من المعلوم أن هذه الحياه الدنيا التى يشتركان فيها هى تحت سيطره الأسباب و العوامل الماديه و نسبتها الى الكامل و الناقص و المؤمن و الكافر على السواء فمن أجاد العمل و وافقته الأسباب الماديه فاز بطيب العيش و من كان على خلاف ذلك لزمه الشقاء و ضنك المعيشه.

فلو كانت الحياه مقصوره على هذه الحياه الدنيويه التى نسبتها الى الفريقين على السواء و لم تكن هناك حياه تختص بكل منهما و تناسب حاله كان ذلك منافيا للعنايه الإلهيه بإيصال كل ذى حق حقه و إعطاء المقتضيات ما تقتضيه.

و إن شئت فقل: تسويه (١) بين الفريقين و إلغاء ما يقتضيه صلاح هذا و فساد ذلك خلاف عدله تعالى.

و الآيه- كما ترى- لا- تنفى استواء حال المؤمن و الكافر و إنما قررت المقابلة بين من آمن و عمل صالحا و بين من لم يكن كذلك سواء كان غير مؤمن أو مؤمنا غير صالح و لذا أتت بالمقابلة ثانيا بين المتقين و الفجار.

قوله تعالى: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ أى هذا كتاب من وصفه كذا و كذا، و توصيفه بالإنزال المشعر بالدفعه دون التنزيل الدال على التدرج لأن ما ذكر من التدبر و التذكر يناسب اعتباره مجموعا لا نجوما مفرقه.

و المقابلة بين «لِيَدَّبَّرُوا» و «لِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ» تفيد أن المراد بضمير الجمع الناس عامه.

و المعنى: هذا كتاب أنزلناه إليك كثير الخيرات و البركات للعامه و الخاصه ليتدبره الناس فيهدتوا به أو تتم لهم الحججه و ليتذكر به أولو الألباب فيهدتوا الى الحق باستحضار حجته و تلقيها من بيانه (٢)(٣).

[سوره ص (٣٨): الآيات ٣٠ الى ٤٠]

وَ وَهَبْنَا لِداوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِرَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَ الْأَعْنَاقِ (٣٣) وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَ أَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَخِيذٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَ الشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَ غَوَاصٍ (٣٧) وَ آخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَ حُسْنَ مَآبٍ (٤٠)

ص: ٣٥٠

(١-١). الحججه الاولى برهانيه و الثانيه جدييه.

(٢-٢). ص ١٧-٢٩: بحث روائي في نبأ داود عليه السلام و المتخاصمين.

(٣-٣). ص ١٧-٢٩: كلام في قصص داود في فصول (قصته في القرآن، جميل الثناء عليه في القرآن).

بيان:

قوله تعالى: **وَ هَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ** أى وهبناه له ولدا و الباقي ظاهر مما تقدم.

قوله تعالى: **إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ** العشى مقابل الغداه و هو آخر النهار بعد الزوال، و الصافنات على ما فى المجمع جمع الصافنه من الخيل و هى التى تقوم على ثلاث قوائم و ترفع إحدى يديها حتى تكون على طرف الحافر. قال: و الجياد جمع جواد و الياء هاهنا منقلبه عن واو و الأصل جواد و هى السراع من الخيل كأنها تجود بالركض.

انتهى.

ص: ٣٥١

قوله تعالى: فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ الضمير لسليمان، والمراد بالخير: الخيل-على ما قيل-فإن العرب تسمى الخيل خيرا و عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الخير معقود بنواصي الخيل الى يوم القيامة.

وقيل: المراد بالخير المال الكثير وقد استعمل بهذا المعنى في مواضع من كلامه تعالى كقوله:

إِنْ تَرَكَ خَيْرًا (البقره ١٨٠).

وقوله: إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي قَالُوا: إِنْ «أَحْبَبْتُ» مضمن معنى الإيثار و «عَنْ» بمعنى على، والمراد إني آثرت حب الخيل عن ذكر ربي و هو الصلاة محبا إياه أو أحببت الخيل حبا مؤثرا إياه على ذكر ربي-فاشتغلت بما عرض على من الخيل عن الصلاة حتى غربت الشمس.

وقوله: حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ الضمير على ما قالوا للشمس و المراد بتواريتها بالحجاب غروبها و استتارها تحت حجاب الافق، و يؤيد هذا المعنى ذكر العشى في الآية السابقة إذ لو لا ذلك لم يكن غرض ظاهر يترتب على ذكر العشى.

فمحصل معنى الآية أنى شغلنى حب الخيل-حين عرض الخيل على-عن الصلاة حتى فات وقتها بغروب الشمس، و إنما كان يحب الخيل فى الله ليتهيأ به للجهد فى سبيل الله فكان الحضور للعرض عباده منه فشغلته عباده عن عباده غير أنه يعد الصلاة أهم.

قوله تعالى: رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَ الْأَعْنَاقِ قيل: الضمير فى «رُدُّوْهَا» للشمس و هو امر منه للملائكة برد الشمس ليصلى صلاته فى وقتها، و قوله:

«فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَ الْأَعْنَاقِ» أى شرع يمسح ساقيه و عنقه و يأمر أصحابه أن يمسحوا سوقهم و أعناقهم و كان ذلك وضوءهم ثم صلى و صلوا، و قد ورد ذلك فى بعض الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَ أَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ

الجسد هو الجسم الذى لا روح فيه.

قيل: المراد بالجسد الملقى على كرسیه هو سليمان نفسه لمرض امتحنه الله به و تقدير الكلام ألقيناه على كرسیه جسدا أى كجسد لا روح فيه من شدة المرض.

و فيه أن حذف الضمير من «ألقيناه» وإخراج الكلام على صورته التى فى الآيه الظاهره فى أن الملقى هو الجسد مخل بالمعنى المقصود لا يجوز حمل أفصح الكلام عليه.

و لسائر المفسرين أقوال مختلفه فى المراد من الآيه تبعا للروايات المختلفه الوارده فيها و الذى يمكن أن يؤخذ من بينها إجمالا أنه كان جسد صبي له أماته الله و ألقى جسده على كرسیه، و لقوله: «ثُمَّ أَنَابَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي» إشعار أو دلالة على أنه كان له عليه السلام فيه رجاء أو امنيته فى الله فأماته الله سبحانه و ألقاه على كرسیه فنبهه أن يفوض الأمر الى الله و يسلم له.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَخِيذٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ظاهر السياق أن الاستغفار مرتبطه بما فى الآيه السابقه من إلقاء الجسد على كرسیه، و الفصل لكون الكلام فى محل الدخل كأنه لما قيل «ثُمَّ أَنَابَ» قيل:

فما ذا قال؟ فقيل: «قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي» الخ.

قوله تعالى: فَسَيَخْرُنَا لَهُ الرِّيحُ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ متفرع على سؤاله الملك و إخباره عن إجابته دعوته و بيان الملك الذى لا ينبغى لأحد غيره و هو تسخير الريح و الجن.

و الرخاء بالضم اللينه و الظاهر أن المراد بكون الريح تجرى بأمره رخاء مطاوعتها لأمره و سهوله جريانها على ما يريد عليه السلام فلا يرد أن توصيف الريح ها هنا بالرخاء يناقض توصيفه فى قوله: وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ عَاصِفَةٌ تَجْرِي بِأَمْرِهِ (الأنبياء ٨١) بكونها عاصفه.

و ربما أجيبت عنه بأن من الجائز أن يجعلها الله رخوه تاره و عاصفه اخرى حسب ما أراد سليمان عليه السلام.

وقوله: حَيْثُ أَصَابَ أَي حَيْثُ شَاءَ سَلِيمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَصْدٌ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِتَجْرِي.

قوله تعالى: وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ أَي وَسَخَرْنَا لَهُ الشَّيَاطِينَ مِنَ الْجِنِّ كُلِّ بَنَاءٍ مِنْهُمْ يَبْنِي لَهُ فِي الْبَرِّ وَكُلِّ غَوَّاصٍ يَعْمَلُ لَهُ فِي الْبَحْرِ فَيَسْتَخْرِجُ اللَّثَالِي وَغَيْرَهَا.

قوله تعالى: وَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ الْأَصْفَادُ جَمْعُ صَفْدٍ وَهُوَ الْغُلُّ مِنَ الْحَدِيدِ، وَالْمَعْنَى سَخَرْنَا لَهُ آخِرِينَ مِنْهُمْ مَجْمُوعِينَ فِي الْأَغْلَالِ مَشْدُودِينَ بِالسَّلَاسِلِ.

قوله تعالى: هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ أَي هَذَا الَّذِي ذَكَرَ مِنَ الْمَلِكِ عَطَاؤُنَا لَكَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِكَوْنِهِ بِغَيْرِ حِسَابٍ أَنَّهُ لَا يَنْفَدُ بِالْعَطَاءِ وَالْمَنْ وَلِذَا قِيلَ «فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ» أَي أَنَّهُمَا يَسْتَوِيَانِ فِي عَدَمِ التَّأْثِيرِ فِيهِ.

وقيل: المراد بغير حساب أنك لا تحاسب عليه يوم القيامة، وقيل: المراد أن إعطائه تفضل لا مجازاه وقيل غير ذلك.

قوله تعالى: وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ تَقْدِمُ مَعْنَاهُ (١).

[سوره ص (٣٨): الآيات ٤١ الى ٤٨]

وَ اذْكُرْ عِبَادَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) اذْكُرْ بِرَجُلِكَ هَذَا مَغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَ هَبْنَاهُ لَهُ أَهْلَهُ وَ مَثَلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّدًّا وَ ذِكْرَىٰ لِلْأُولَى الْأَلْبَابِ (٤٣) وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَ لَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) وَ اذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَ الْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَ اذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكُفْلِ وَ كُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ (٤٨)

ص: ٣٥٤

بيان:

قوله تعالى: وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ دعاء منه عليه السلام و سؤال للعافيه و أن يكشف عنه ربه ما أصابه من سوء الحال، و لم يصرح بما يريد و يسأله تواضعا و تدللا غير أن نداءه تعالى بلفظ ربي يشعر بأنه يناديه لحاجه.

و النصب التعب، و قوله: «إِذْ نَادَى» الخ؛ بدل اشتمال من «عَبْدَنَا» أو «أَيُّوبَ» و قوله:

«أَنِّي مَسَّنِيَ» الخ؛ حكاية ندائه.

و الظاهر من الآيات التاليه أن مراده من النصب و العذاب ما أصابه من سوء الحال في بدنه و أهله و هو الذى ذكره عنه عليه السلام فى سورة الأنبياء من ندائه أنى مسنى الضر و أنت أرحم الراحمين بناء على شمول الضر مصيبتة فى نفسه و أهله و لم يشر فى هذه السوره و لا فى سورة الأنبياء الى ذهاب ماله و إن وقع ذكر المال فى الروايات.

و الظاهر أن المراد من مس الشيطان له بالنصب و العذاب استناد نصبه و عذابه الى الشيطان بنحو من السببيه و التأثير و هو الذى يظهر من الروايات، و لا ينافى استناد المرض و نحوه الى الشيطان استناده أيضا الى بعض الأسباب العاديه الطبيعيه لأن السببين ليسا عرضيين

ص: ٣٥٥

متدافعين بل أحدهما فى طول الآخر وقد أوضحنا ذلك فى تفسير قوله تعالى: **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ (الأعراف ٩٦).**

ولا دليل يدل على امتناع وقوع هذا النوع من التأثير للشيطان فى الإنسان وقد قال تعالى:

إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ (المائدة ٩٠) فنسبها لنفسها إليه، وقال حاكيا عن موسى عليه السلام: **هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (القصص ١٥)** يشير الى الاقتتال.

و لو أغمض عن الروايات أمكن أن يحتمل أن يكون المراد بانتساب ذلك الى الشيطان إغراؤه الناس بوسوسته أن يتجنبوا من الاقتراب منه و ابتعادهم و طعنهم فيه أن لو كان نبيا لم تحط به البليه من كل جانب و لم يصر الى ما صار اليه من العاقبه السوأى و شماتتهم و استهزاؤهم به.

وقد أنكر فى الكشاف ما تقدم من الوجه قائلا: لا يجوز أن يسلط الله الشيطان على أنبيائه عليه السلام ليقضى من تعذيبهم و إتعابهم وطره و لو قدر على ذلك لم يدع صالحا إلا و قد نكبه و أهلكه، وقد تكرر فى القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسه فحسب. انتهى.

وفيه أن الذى يخص الأنبياء و أهل العصمه أنهم لمكان عصمتهم فى أمن من تأثير الشيطان فى نفوسهم بالوسوسه، و أما تأثيره فى أبدانهم و سائر ما ينسب اليهم بإيذاء أو إتعاب أو نحو ذلك من غير إضلال فلا دليل يدل على امتناعه، وقد حكى الله سبحانه عن فتى موسى و هو يوشع النبى عليه السلام: **فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ (الكهف ٦٣).**

ولا يلزم من تسلطه على نبى بالإيذاء و الإتعاب لمصلحه تقتضيه كظهور صبره فى الله سبحانه و أوبته اليه أن يقدر على ما يشاء فيمن يشاء من عباد الله تعالى إلا أن يشاء الله ذلك و هو ظاهر.

قوله تعالى: «أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ وَقَوْلُ الْآيَةِ عَقِيبُ نِدَائِهِ وَمَسْأَلَتُهُ يَعْنِي أَنَّهُ إِذْ بَانَ بِاسْتِجَابِهِ دَعَائِهِ وَأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: «أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ» الْخ؛ حَكَاهُ لَمَّا أَوْحَى إِلَيْهِ عِنْدَ الْكُشْفِ عَنِ الْاسْتِجَابَةِ أَوْ هُوَ بِإِضْمَارِ الْقَوْلِ وَالتَّقْدِيرِ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ قُلْنَا: أَرْكُضْ، الْخ؛ وَ سِيَاقُ الْأَمْرِ مَشْعَرٌ بَلْ كَاشَفَ عَنْ أَنَّهُ كَانَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْقِيَامِ وَ الْمَشْيِ بِقَدَمَيْهِ وَ كَانَ مُصَابِياً فِي سَائِرِ بَدَنِهِ فَأَبْرَأَ اللَّهُ مَا فِي رِجْلَيْهِ مِنْ ضَرٍّ وَ أَظْهَرَ لَهُ عَيْنَاهُ هُنَاكَ وَ أَمَرَهُ أَنْ يَغْتَسِلَ مِنْهَا وَ يَشْرَبَ حَتَّى يَبْرَأَ ظَاهِرَ بَدَنِهِ وَ بَاطِنَهُ وَ يَتَأَيَّدَ بِذَلِكَ مَا سَيَأْتِي مِنَ الرَّوَايَةِ.

قوله تعالى: «وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ وَ رَدَّ فِي الرَّوَايَةِ أَنَّهُ ابْتَلَى فِيمَا ابْتَلَى بِمَوْتِ جَمِيعِ أَهْلِهِ إِلَّا امْرَأَتَهُ وَ أَنَّ اللَّهَ أَحْيَاهُمْ لَهُ وَ وَهَبَهُمْ لَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ كَانُوا قَدْ تَفَرَّقُوا عَنْهُ أَيَّامَ ابْتِلَائِهِ فَجَمَعَهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ بَعْدَ بَرْنِهِ وَ تَنَاسَلُوا فَكَانُوا مِثْلِي مَا كَانُوا عِدداً.

و قوله: «رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ» مَفْعُولٌ لَهُ أَيْ فَعَلْنَا بِهِ مَا فَعَلْنَا لِيَكُونَ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ يَتَذَكَّرُونَ بِهِ.

قوله تعالى: «وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَ لَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَا صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ فِي الْمَجْمَعِ: الضَّغْثُ مَلءُ الْكَفِّ مِنَ الشَّجَرِ وَ الْحَشِيشِ وَ الشَّمَارِيخِ وَ نَحْوِ ذَلِكَ انْتَهَى، وَ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ حَلَفَ لئِنْ عَوَفَى أَنْ يَجْلِدَ امْرَأَتَهُ مَائَةَ جَلْدَةٍ لِأَمْرِ أَنْكَرِهِ عَلَيْهِ عَلَى مَا سَيَأْتِي مِنَ الرَّوَايَةِ فَلَمَّا عَافَاهُ اللَّهُ تَعَالَى أَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ بِيَدِهِ ضِغْثًا بَعْدَ مَا حَلَفَ عَلَيْهِ مِنَ الْجَلْدَاتِ فَيَضْرِبُهَا بِهِ وَ لَا يَحْنُثُ.

وَ فِي سِيَاقِ الْآيَةِ تَلْوِيحٌ إِلَى ذَلِكَ وَ إِنَّمَا طَوَى ذِكْرَ الْمَرْأَةِ وَ سَبَبَ الْحَلْفِ تَأْدِيبًا وَ رِعَايَةً لِحُجَّتِهِ.

و قوله: «إِنَّا وَجَدْنَا صَابِرًا» أَي فِيمَا ابْتَلَيْنَاهُ بِهِ مِنَ الْمَرَضِ وَ ذَهَابِ الْأَهْلِ وَ الْمَالِ، وَ الْجُمْلَةُ تَعْلِيلٌ لِقَوْلِهِ: «وَ أَدْكُرُ» أَوْ لِقَوْلِهِ: «عَبِيدْنَا» أَي لِنَسَمِيَّتِهِ عِبَادًا وَ إِضَافَتِهِ إِلَيْهِ تَعَالَى، وَ الْأَوَّلُ أَوْلَى.

و قوله: «نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ» مدح له عليه السلام.

قوله تعالى: وَ اذْكُرْ عِبَادَنَا اِبْرَاهِيمَ وَ اِسْحٰقَ وَ يَعْقُوبَ اُولٰٓئِذِى وَ الْاَبْصَارِ مَدْحَهُمْ بتوصيفهم بأن لهم الأيدي و الأبصار و يد الإنسان و بصره إنما يمدحان إذا كانا يد إنسان و بصر إنسان و استعمالاً فيما خلقا له و خدما الإنسان فى إنسانيته فتكتسب اليد صالح العمل و يجرى منها الخير على الخلق و يميز البصر طرق العافيه و السلامه من موارد الهلكه و يصيب الحق و لا يلتبس عليه الباطل.

فيكون كونهم اولى الأيدي و الأبصار كناية عن قوتهم فى الطاعه و إيصال الخير و تبصرهم فى إصابه الحق فى الاعتقاد و العمل و قد جمع المعنيين فى قوله تعالى: وَ وَهَبْنَا لَهُ اِسْحٰقَ وَ يَعْقُوبَ نَافِلَةً وَ كَلَّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَ جَعَلْنَاهُمْ اُمَّةً يَهْتَدُونَ بِاَمْرِنَا وَ اَوْحَيْنَا اِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ اِقَامَ الصَّلَاةِ وَ اِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (الأنبياء ٧٣) فجعلهم أئمة و الأمر و الوحي لأبصارهم و فعل الخيرات و إقام الصلاة و إيتاء الزكاه لأيديهم (١) و اليه يثول ما فى الروايه من تفسير ذلك باولى القوه فى العباده و البصر فيها.

قوله تعالى: اِنَّا اَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ الْاٰخِرَةِ وصف قائم مقام موصوفه، و الباء للسببيه و التقدير بسبب خصله خالصه، و ذكر الدار بيان للخصله و الدار هى الدار الآخرة.

و الآيه أعنى قوله: «اِنَّا اَخْلَصْنَاهُمْ» الخ؛ لتعليل ما فى الآيه السابقه من قوله: «أولى الأيدي و الأبصار» أو لقوله: «عِبَادَنَا» أو لقوله: «وَ اذْكُرْ» و أوجه الوجوه أولها، و ذلك لأن استغراق الإنسان فى ذكرى الدار الآخرة و جوار رب العالمين و ركوز همه فيها يلازم كمال معرفته فى جنب الله تعالى و إصابه نظره فى حق الاعتقاد و التبصر فى سلوك سبيل العبوديه

ص: ٣٥٨

(١- ١). رواها القمى فى تفسيره عن أبى الجارود عن أبى جعفر عليه السلام.

و التخلص عن الجمود على ظاهر الحياه الدنيا و زينتها كما هو شأن أبنائها قال تعالى:

فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ (النجم / ٣٠).

و معنى الآيه و إنما كانوا اولى الأيدي و الأبصار لأننا أخلصناهم بخصله خالصه غير مشوبه عظيمه الشأن هى ذكر الدار الآخره.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُضَيِّطِينَ الْأَخْيَارِ﴾ تقدم أن الاصطفاء يلزم الإسلام التام لله سبحانه، و فى الآيه إشاره الى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَ نُوحًا وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ وَ آلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (آل عمران ٣٣).

و الأخيار جمع خير مقابل الشر على ما قيل، و قيل: جمع خيرٍ بالتشديد أو التخفيف كأموات جمع ميت بالتشديد أو بالتخفيف.

قوله تعالى: وَ اذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكُفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ معناه ظاهر (١)(٢).

[سوره ص (٣٨): الآيات ٤٩ الى ٦٤]

هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مِآبٍ (٤٩) جَنَّاتٍ عِدْنٍ مُمْتَحَنَةٍ لَهُمْ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَ شَرَابٍ (٥١) وَ عِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ الْأَثْرَابِ (٥٢) هَذَا مَا تُوَعِّدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤) هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذوقوه حَمِيمٌ وَ غَسَاقٌ (٥٧) وَ آخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُقْتَضِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرِذَّةً عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَ قَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعِدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَا هُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤)

ص: ٣٥٩

١- ١. ص ٤١-٤٨: كلام فى قصه ايوب عليه السلام فى فصول (قصته فى القرآن، جميل ثنائيه، قصته فى الروايات).

٢- ٢. ص ٤١-٤٨: خبر اليسع و ذى الكفل.

بيان:

قوله تعالى: هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ الإِشَارَةُ بِهَذَا إِلَى مَا ذَكَرَ مِنْ قِصَصِ الْأَوَّابِينَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْكِرَامِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَ الْمُرَادُ بِالذِّكْرِ الشَّرْفُ وَ الثَّنَاءُ الْجَمِيلُ أَيْ هَذَا الَّذِي ذَكَرَ شَرَفٌ وَ ذَكَرَ جَمِيلٌ وَ ثَنَاءٌ حَسَنٌ لَهُمْ يَذْكُرُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا أَبَدًا وَ لَهُمْ حَسَنٌ مَآبٍ مِنْ ثَوَابِ الْآخِرَةِ. كَذَا قَالُوا.

و عَلَى هَذَا فَالْمُرَادُ بِالْمُتَّقِينَ هُمُ الْمَذْكُورُونَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بِالْخُصُوصِ أَوْ عَمُومِ أَهْلِ التَّقْوَى وَ هُمْ دَاخِلُونَ فِيهِمْ وَ يَكُونُ ذِكْرُ مَآبِ الطَّاعِينَ بَعْدَ مِنْ بَابِ الْإِسْتِطْرَادِ.

وَ الظَّاهِرُ أَنَّ الْإِشَارَةَ بِهَذَا إِلَى الْقُرْآنِ وَ الْمُرَادُ بِالذِّكْرِ مَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنَ الذِّكْرِ وَ فِي الْكَلَامِ

ص: ٣٦٠

عود الى ما بدئ به فى السوره من قوله: «وَ الْقُرْآنِ ذِي الدِّكْرِ» فهو فصل من الكلام يذكر فيه الله سبحانه ما فى الدار الآخره من ثواب المتقين و عقاب الطاغين.

و قوله: «وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَّآبٍ الْمآبِ الْمَرْجِعِ وَ التَّنْكِيرِ لِلتَّفْخِيمِ، وَ المعنى ظاهر.

قوله تعالى: جَنَّاتٍ عِدْنٍ مِّمْتَحَنَةٍ لَّهُمْ فِيهَا أَبْوَابٌ أَى جنات استقرار و خلود و كون الأبواب مفتحة لهم كناية عن أنهم غير ممنوعين عن شىء من النعم الموجوده فيها فهى مهياه لهم مخلوقه لأجلهم، و قيل: المراد أن أبوابها مفتحة لهم لا تحتاج الى الوقوف وراءها و دقها، و قيل: المراد أنها تفتح بغير مفتاح و تغلق بغير مغلاق.

و الآيه و ما بعدها بيان لحسن مآبهم.

قوله تعالى: مُتَّكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَ شَرَابٍ أَى حالكونهم جالسين فيها بنحو الاتكاء و الاستناد جلسه الأعزه و الأشراف.

و قوله: يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ الخ؛ أى يتحكمون فيها بدعوه الفاكهه و هى كثيره و الشراب فإذا دعيت فاكهه أو دعى شراب أجابهم المدعو فأتاهم من غير حاجه الى من يحمله و يناوله.

قوله تعالى: وَ عِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ الْأَتْرَابِ الضمير للمتقين و قاصرات الطرف صفه قائمه مقام الموصوف و التقدير و عندهم أزواج قاصرات الطرف و المراد قصور طرفهن على أزواجهن يرضين بهم و لا يرون غيرهم أو هو كناية عن كونهن ذوات غنج و دلال.

و الأتراب الأقران أى إنهن أمثال لا يختلفن سنا أو جمالا أو إنهن أمثال لأزواجهن فكلما زادوا نورا و بهاء زدن حسنا و جمالا.

قوله تعالى: هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ الإشاره الى ما ذكر من الجنه

و نعيمها، و الخطاب للمتقين فى الكلام التفات من الغيبه الى الخطاب و النكته فيه إظهار القرب منهم و الإشراف عليهم ليكمل نعمهم الصوريه بهذه النعمه المعنويه.

قوله تعالى: إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ النفاذ الفناء و الانقطاع، و الآيه من تمام الخطاب الذى فى الآيه السابقه على ما يعطيه السياق.

قوله تعالى: هَذَا وَ إِنَّ لِلطَّائِغِينَ لَشَرَّ مَأْتَبٍ الإشاره بهذا الى ما ذكر من مقام المتقين أى هذا ما للمتقين من المآب، و يمكن أن يكون هذا اسم فعل أى خذ هذا. و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: جَهَنَّمَ يَصِيءُونَ بِهَا فَيَنْسِفُ اللَّهُ الصُّلَى دخول النار و مقاساه حرارتها أو اتباعها و المهاد-على ما فى المجمع-الفراس الموطأ يقال: مهدت له تمهيدا مثل وطأت له توطئه، و الآيه و ما بعدها تفسير لمآب الطائغين.

قوله تعالى: هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ عَسَاقٌ الحميم الحار الشديد الحرارة و العساق-على ما فى المجمع-قيح شديد التتن، و فسر بتفاسير أخر، و قوله: «حَمِيمٌ وَ عَسَاقٌ» بيان لهذا، و قوله: «فَلْيَذُوقُوهُ» دال على إكراههم و حملهم على ذوقه و تقديم المخبر عنه و جعله اسم إشاره يؤكد ذلك، و المعنى هذا حميم و عساق عليهم أن يذوقوه ليس إلا.

قوله تعالى: وَ آخَرٌ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ شَكْلُ الشىء ما يشابهه و جنسه و الأزواج الأنواع و الأقسام أى و هذا آخر من جنس الحميم و العساق أنواع مختلفه ليذوقوها.

قوله تعالى: هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ -الى قوله- فى الدار الآيات الثلاث -على ما يعطيه السياق- حكاية ما يجرى بين التابعين و المتبوعين من الطائغين فى النار من التخاصم و المجاراه.

فقوله: هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ خطاب يخاطب به المتبوعون يشار به الى التابعين الذين يدخلون النار مع المتبوعين فوجا، و الاقتحام الدخول فى الشىء بشده

و قوله: لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ جواب المتبوعين لمن يخاطبهم بقوله:

«هَذَا فَوْجٌ» و مرحبا تحية للوارد معناه عرض رحب الدار وسعتها له فقولهم: «لَا مَرْحَبًا بِهِمْ» معناه نفى الرحب و السعه عنهم. و قولهم: «إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ» أى داخلوها و مقاسو حرارتها أو متبعوها تعليل لتحيتهم بنفى التحية.

و قوله: قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبَسَّ الْقَرَارُ نَقْلَ كَلَامِ التَّابِعِينَ وَ هُمُ الْقَائِلُونَ يَرُدُّونَ إِلَى مَتَّبِعِيهِمْ نَفَى التَّحِيهِ وَ يَذْمُونَ الْقَرَارَ فِي النَّارِ.

قوله تعالى: قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ لم يذكر تعالى جواب المتبوعين لقولهم: «أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا» الخ؛ و قد ذكره فى سورة الصافات فيما حكى من تساؤلهم بقوله: قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَ مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَآغِينَ الخ (الآيه ٣٠) فقولهم: «رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ» كلامهم بعد الانقطاع عن المخاصمه.

و جملة «مَنْ قَدَّمَ» الخ؛ شرط و جزاء، و الضعف المثل و «عَذَابًا ضِعْفًا» أى ذا ضعف و مثل أى ضعفين من العذاب.

قوله تعالى: وَ قَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعِدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ الْقَائِلُونَ -على ما يعطيه السياق- مطلق أهل النار، و مرادهم بالرجال الذين كانوا يعدونهم من الأشرار المؤمنون و هم فى الجنة فيطلبهم أهل النار فلا يجدونهم فيها.

قوله تعالى: أَتَّخَذْنَاَهُمْ سَيِّئًا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ أَى اتَّخَذْنَاَهُمْ سَخْرِيَا فى الدنيا فأخطأنا و قد كانوا ناجين أم عدلت أبصارنا فلا نراهم و هم معنا فى النار.

قوله تعالى: إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ إشاره الى ما حكى من تخاصمهم و بيان أن تخاصم أهل النار ثابت واقع لا ريب فيه و هو ظهور ما استقر فى نفوسهم فى الدنيا من

[سوره ص (٣٨): الآيات ٦٥ الى ٨٨]

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنِّي إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَبَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا- عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مَا أَسئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا- ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَ لَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)

قوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنِّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ -الى قوله- الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ فِي الْآيَتِينَ أَمْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِإِبْلَاحِ أَنَّهُ مُنذِرٌ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَاحِدٌ فِي الْإِلَوهِيَةِ فَقَوْلُهُ: «إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ» يَفِيدُ قَصْرَهُ فِي كَوْنِهِ مُنذِرًا وَنَفْيَ سَائِرِ الْأَغْرَاضِ الَّتِي رُبَّمَا تَتَلَبَّسُ بِهِ الدَّعْوَةُ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ طَلَبِ مَالٍ أَوْ جَاهٍ كَمَا يَشِيرُ إِلَيْهِ مَا فِي آخِرِ الْآيَاتِ مِنْ قَوْلِهِ: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ» .

وَقَوْلُهُ: وَمَا مِنِّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ إِلَى آخِرِ الْآيَتِينَ إِبْلَاحٌ لِتَوْحِيدِهِ تَعَالَى بِحُجَّةٍ يَدُلُّ عَلَيْهَا مَا أُورِدَ مِنْ صِفَاتِهِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهَا بِأَسْمَائِهِ.

فَقَوْلُهُ: وَمَا مِنِّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ نَفَى لِكُلِّ إِلَهٍ -وَالْإِلَهِ هُوَ الْمَعْبُودُ بِالْحَقِّ- غَيْرِهِ تَعَالَى وَأَمَّا ثُبُوتُ أَلُوهِتِهِ تَعَالَى فَهُوَ مُسَلَّمٌ بِانْتِفَاءِ الْوَهْيِيَةِ غَيْرِهِ إِذْ لَا نِزَاعَ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالشِّرْكَ فِي أَصْلِ ثُبُوتِ الْإِلَهِ وَإِنَّمَا النِّزَاعُ فِي أَنَّ الْإِلَهِ هُوَ الْمَعْبُودُ بِالْحَقِّ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى أَوْ غَيْرِهِ. عَلَى أَنَّ مَا

ذكر في الآيتين من الصفات متضمن لإثبات الوهيته كما أنها حجة على انتفاء الوهيه غيره تعالى.

وقوله: «الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ» يدل على توحده تعالى في وجوده وقهره كل شيء و ذلك أنه تعالى واحد لا يماثله شيء في وجوده ولا تناهى كماله الذى هو عين وجوده الواجب فهو الغنى بذاته و على الإطلاق و غيره من شيء فقير يحتاج اليه من كل جهة ليس له من الوجود و آثار الوجود إلا ما أنعم و أفاض فهو سبحانه القاهر لكل شيء على ما يريد و كل شيء مطيع له فيما أراد خاضع له فيما شاء.

و هذا الخضوع الذاتى هو حقيقه العباده فلو جاز أن يعبد شيء فى الوجود عملاً بأن يؤتى بعمل يمثل به العبوديه و الخضوع فهى عبادته سبحانه إذ كل شيء مفروض دونه فهو مقهور خاضع له لا يملك لنفسه و لا لغيره شيء و لا يستقل من الوجود و آثار الوجود بشيء فهو سبحانه الإله المعبود بالحق لا غير.

وقوله: «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا» يفيد حجه اخرى على توحده تعالى فى الالوهيه و ذلك أن نظام التدبير الجارى فى العالم برتمته نظام واحد متصل غير متبعض و لا متجز و هو آيه وحده المدبر، و قد تقدم كرارا أن الخلق و التدبير لا ينفكان فالتدبير خلق بوجه كما أن الخلق تدبير بوجه، و الخالق الموجد للسموات و الأرض و ما بينهما هو الله سبحانه -حتى عند الخصم- فهو تعالى ربها المدبر لها جميعا فهو وحده الإله الذى يجب أن يقصد بالعباده تمثيل عبوديه العابد و مملوكيته تجاه مولويه المعبود و مالكيته و تصرفه فى المعبود بإفاضه النعمه و دفع النقمه فهو سبحانه الإله فى السماوات و الأرض و ما بينهما لا إله غيره.

فافهم ذلك.

و يمكن أن يكون قوله: «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا» بيانا لقوله: «الْقَهَّارُ» أو «الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ» .

ص: ٣٦٦

وقوله: الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ يفيد حجه اخرى على توحده تعالى فى الالوهيه و ذلك أنه تعالى عزيز لا يغلبه شىء يا كراهه على ما لم يرد أو بمنعه عما أراد فهو العزيز على الإطلاق و غيره من شىء ذليل عنده قانت له و العباده إظهار للمذله و لا يستقيم إلا قبال العزه و لا عزه لغيره تعالى إلا به.

و أيضا غايه العباده و هى تمثيل العبوديه التقرب الى المعبود و رفع و صمه البعد عن العبد العابد و هو مغفره الذنب و الله سبحانه هو المستقل بالرحمه التى لا تنفد خزائنها و هو الذى يورد عباده العابدين له فى الآخره دار كرامته فهو الغفار الذى يجب أن يعبد طمعا فى مغفرته.

و يمكن أن يكون قوله: «الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ» تلويحا الى وجه الدعوه الى التوحيد أو وجوب الإيمان به المفهوم بحسب المقام من قوله: «وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» و المعنى أدعوكم الى توحيدهم فآمنوا به لأنه العزيز الذى لا يشوبه ذله الغفار للذنوب و هكذا يجب أن يكون الإله.

قوله تعالى: قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ مرجع الضمير ما ذكره من حديث الوجدانيه فى قوله: «وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ» الخ.

قوله تعالى: مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ الْمَلَأُ الْأَعْلَى جماعه الملائكه و كأن المراد باختصامهم ما أشار تعالى اليه بقوله: إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً لِي فِي الْآيَاتِ.

و كأن المعنى إنى ما كنت أعلم اختصام الملائكه حتى أوحى الله إلي ذلك فى كتابه فإنما أنا منذر أتبع الوحي.

قوله تعالى: إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا- أُنْمَأُ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ تأكيد لقوله: «إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ» و بمنزله التعليل لقوله: «مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى» و المعنى لم أكن أعلم ذلك لأن علمى ليس من قبل نفسى و إنما هو بالوحي و ليس يوحى إلى إلا ما يتعلق بالإنذار.

قوله تعالى: إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ الذى يعطيه

السياق أن الآيه و ما بعدها ليست تتمه لقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ «إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ» الخ؛ و الشاهد عليه قوله: «رَبُّكَ» فهو من كلامه تعالى يشير الى زمان اختصاص الملا الأعلى و الظرف متعلق بما تعلق به قوله: «إِذْ يَخْتَصِمُونَ» أو متعلق بمحذوف و التقدير «اذكر إذ قال ربك للملائكة» الخ؛ فان قوله تعالى للملائكة «إِنِّي لَجَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً وَ قَوْلَهُ لَهُمْ: «إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ» متقارنان وقعا في ظرف واحد.

و على هذا يثول معنى قوله: «إِذْ قَالَ رَبُّكَ» الخ؛ الى نحو من قولنا: اذكر وقتئذ قال ربك كذا و كذا فهو وقت اختصاصهم.

و قوله: «إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ» الخ؛ البشر الإنسان، قال الراغب: البشر ظاهر الجلد و الأدمه باطنه. كذا قال عامه الأدباء، قال: و عبر عن الإنسان بالبشر اعتبارا بظهور جلده من الشعر بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الوبر، و استوى في لفظ البشر الواحد و الجمع و ثنى فقال تعالى: «أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِنْ طِينٍ» الخ؛ و خص في القرآن كل موضع اعتبر من الإنسان جثته و ظاهره بلفظ البشر. انتهى.

و قد عد في الآيه مبدأ خلق الإنسان الطين، و في سورة الروم التراب و في سورة الحجر صلصال من حماء مسنون، و في سورة الرحمن صلصال كالفخار و لا ضير فإنها أحوال مختلفه لمادته الأصلية التي منها خلق و قد أشير في كل موضع الى واحده منها.

قوله تعالى: «فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» الخ؛ تسويه الإنسان تعديل أعضائه بتركيب بعضها على بعض و تميمها صورته إنسان تام، و نفخ الروح فيه جعله ذا نفس حيه إنسانية و إضافة الروح اليه تعالى تشريفيه و قوله: «فَقَعُوا» أمر من الوقوع و هو متفرع على التسويه و النفخ.

قوله تعالى: «فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ» الخ؛ ظاهر الدلالة على سجود الملائكة له من غير استثناء.

قوله تعالى: **إِلَّا-إِئْتِيَاسَ اسْتِكْبَرٍ وَكَأَنَّ مِنَ الْكَافِرِينَ** أى استكبر إبليس فلم يسجد له و كان قبل ذلك من الكافرين كما حكى سبحانه عنه فى سورة الحجر قوله: **لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ** (الحجر ٣٣).

قوله تعالى: **قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ** أم كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ نسبة خلقه الى اليد للتشريف بالاختصاص كما قال:

«وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» و تشنيه اليد كناية عن الاهتمام التام بخلقه و صنعه فان الإنسان إنما يستعمل اليدين فيما يهتم به من العمل فقوله: «**خَلَقْتُ بِإَيْدِي**» كقوله: **مِمَّا عَمِلْتَ** أَيْدِينَا (يس ٧١).

و قيل: المراد باليد القدره و التشنيه لمجرد التأكيد كقوله: **إِرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ** (الملك / ٣) و قد وردت به الروايه.

و قوله: **أَسْتَكْبَرْتَ** أم كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ استفهام توبيخ أى أ كان عدم سجودك لأنك استكبرت أم كنت من الذين يعلنون أى يعلو قدرهم أن يؤمروا بالسجود، و لذا قال بعضهم بالاستفاده من الآيه إن العالين قوم من خلقه تعالى مستغرقون فى التوجه الى ربهم لا يشعرون بغيره تعالى.

قوله تعالى: **قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** تعليل عدم سجوده بما يدعيه من شرافه ذاته و أنه لكون خلقه من نار خير من آدم المخلوق من طين، و فيه تلويح أن الأمر الإلهى إنما يطاع إذا كان حقا لا لذاته، و ليس أمره بالسجود له حقا، و يؤول الى إنكار إطلاق ملكه تعالى و حكمته و هو الأصل الذى ينتهى اليه كل معصيه فإن المعصيه إنما تقع بالخروج عن حكم عبوديته تعالى و مملوكيته و بالإعراض عن كون تركها أولى من فعلها و اقترافها.

قوله تعالى: **قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ**

الدِّينِ الرَّجْمِ الطَّرْدِ، وِ يَوْمِ الدِّينِ يَوْمِ الْجَزَاءِ.

و قوله: وَ إِنَّ عَلَيَّكَ لَعْنَتِي وَ فِي سُورَةِ الْحَجْرِ: وَ إِنَّ عَلَيَّكَ اللَّعْنَةُ (الآية ٣٥) قيل في وجهه: لو كانت اللام للعهد فلا فرق بين التعبيرين، و لو كانت للجنس فكذلك أيضا لأن لعن غيره تعالى من الملائكة و الناس عليه إنما يكون طردا له حقيقة و إبعادا من الرحمه إذا كان بأمر الله و بإبعاده من رحمته.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ - إلى قوله - إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ظاهر تغير الغايه في السؤال و الجواب حيث قال: «إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» فاجيب بقوله: «إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» أن ما اجيب اليه غير ما سأله فهو لا محاله آخر يوم يعصى فيه الناس ربهم و هو قبل يوم البعث، و الظاهر أن المراد باليوم الظرف فتفيد إضافته الى الوقت التأكيد.

قوله تعالى: قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ الباء في «فَبِعِزَّتِكَ» للقسم اقسام بعزته ليغوينهم أجمعين و استثنى منهم المخلصين و هم الذين أخلصهم الله لنفسه فلا نصيب فيهم لإبليس و لا لغيره.

قوله تعالى: قَالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقُّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ جوابه تعالى لإبليس و هو يتضمن القضاء عليه و على من تبعه بالنار.

فقوله: فَالْحَقُّ مبتدأ محذوف الخبر أو خبر محذوف المبتدأ، و الفاء لترتيب ما بعده على ما قبله، و المراد بالحق ما يقابل الباطل على ما يؤيده إعادته الحق ثانيا باللام و المراد به ما يقابل الباطل قطعاً و التقدير فالحق أقسم به لأملأن جهنم منك و ممن تبعك منهم، أو فقولي الحق لأملأن، الخ.

و قوله: وَ الْحَقُّ أَقُولُ جمله معترضه تشير الى حتميه القضاء و ترد على إبليس ما يلوح اليه قوله: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ» الخ؛ من كون قوله تعالى و هو أمره بالسجود غير حق، و تقديم

الحق في «وَالْحَقُّ أَقُولُ» و تحليته باللام لإفاده الحصر.

و قوله: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ متن القضاء الذى قضى به و كأن المراد بقوله: «مِنْكَ» جنس الشياطين حتى يشمل إبليس و ذريته و قبيله، و قوله: «وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ» أى من الناس ذريه آدم.

و قد أشبعنا الكلام فى نظائر الآيات من سورة الحجر و فى القصه من سور البقره و الأعراف و الإسراء فعليك بالرجوع إليها.

قوله تعالى: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ رجوع الى ما تقدم فى أول السوره و خلال آياتها أن القرآن ذكر و أن ليس النبى صلى الله عليه و آله و سلم إلا منذرا لا غير و رد لما رموه بقولهم: اِمْسُوا وَ اصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ .

فقوله: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ أى اجرا دنيويا من مال أو جاه، و قوله:

«وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ» أى من أهل التكلف و هو التصنع و التحلى بما ليس له.

قوله تعالى: إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ أى القرآن ذكر عام للعالمين من جماعات الناس و مختلف الشعوب و الامم و غيرهم لا يختص بقوم دون قوم حتى يؤخذ على تلاوته مال و على تعليمه أجر بل هو للجميع.

قوله تعالى: وَ لَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعِيدٍ حِينَ أَى لتعلمن ما أخبر به القرآن من الوعد و الوعيد و ظهوره على الأديان و غير ذلك بعد حين أى بعد مرور زمان.

قيل: المراد بعد حين يوم القيامة، و قيل: يوم الموت، و قيل: يوم بدر، و لا يبعد أن يقال: إن نبأه مختلف لا يختص بيوم من هذه الأيام حتى يكون هو المراد بل المراد به المطلق فلكل من أقسام نبأه حينه (١).

ص: ٣٧١

(١-١). ص ٦٥-٨٨: بحث روائى فى اختصام الملائكة الأعلى؛ سجود الملائكة لآدم و استكبار إبليس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 (١) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ
 الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا
 هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ
 الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ
 يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْهَا زَوْجَهَا وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ
 يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعِيدٍ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانْتَظِرُوا (٦) إِنَّ
 تَكْفُرًا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ
 فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ
 يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ سَبِيلَهُ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) آمَنُ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ
 سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩) قُلْ
 يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ
 (١٠)

بيان:

يظهر من خلال آيات السوره أن المشركين من قومه صلى الله عليه وآله وسلم سألوه أن ينصرف عما هو عليه

ص: ٣٧٣

من التوحيد و الدعوه اليه و التعرض لآلهتهم و خوفه بآلهتهم فنزلت السوره - و هي قرينه سوره ص بوجه - و هي تؤكد الأمر بأن يخلص دينه لله سبحانه و لا يعبأ بآلهتهم و أن يعلمهم أنه مأمور بالتوحيد و إخلاص الدين الذي تواترت الآيات من طريق الوحي و العقل جميعا عليه.

و لذلك نراه سبحانه يعطف الكلام عليه في خلال السوره مره بعد مره كقوله في مفتتح السوره: فَأَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ثم يرجع اليه و يقول: قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ الى قوله: قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ .

ثم يقول: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ الْخ؛ ثم يقول: أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَ يَخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ثم يقول: قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ثم يقول: قُلْ أَفَعَزَّ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ الى غير ذلك من الإشارات.

ثم عمم الاحتجاج على توحده تعالى في الربوبيه و الالوهيه من الوحي و من طريق البرهان و قايص بين المؤمنين و المشركين مقايسات لطيفه فوصف المؤمنين بأجمل أوصافهم و بشرهم بما سيصيبهم في الآخره مره بعد مره و ذكر المشركين و أندرهم بما سيلحقهم من الخسران و عذاب الآخره مضافا الى ما يصيبهم في الدنيا من وبال أمرهم كما أصاب الذين كذبوا من الامم الدارجه من عذاب الخزي في الحياه الدنيا و لعذاب الآخره أكبر.

و من ثم وصفت السوره يوم البعث و خاصه في مختتمها بأوضح الوصف و أتمه.

و السوره مكيه لشهاده سياق آياتها بذلك و كأنها نزلت دفعه واحده لما بين آياتها من الاتصال.

و الآيات العشر المنقوله تجمع الدعوه من طريق الوحي و الحججه العقليه بادئه بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

قوله تعالى: تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ» خبر لمبتدأ محذوف، وهو مصدر بمعنى المفعول فيكون إضافته الى الكتاب من إضافه الصفه الى موصوفها و «مِنَ اللَّهِ» متعلق بتنزيل و المعنى هذا كتاب منزل من الله العزيز الحكيم.

قوله تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ عبر بالإنزال دون التنزيل كما فى الآيه السابقه لأن القصد الى بيان كونه بالحق و هو يناسب مجموع ما نزل اليه من ربه.

و قوله: بِالْحَقِّ الْبَاءُ فِيهِ لِلْمَلَابِسَةِ أَى أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُلْتَبِسًا بِالْحَقِّ فَمَا فِيهِ مِنَ الْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ حَقٌّ، وَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى فَرَعَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ» وَ الْمَعْنَى فَإِذَا كَانَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ لِأَنَّ فِيهِ ذَلِكَ.

و المراد بالدين-على ما يعطيه السياق-العباده و يمكن أن يراد به سنه الحياه و هى الطريقه المسلوكه فى الحياه فى المجتمع الإنسانى، و يراد بالعباده تمثيل العبوديه بسلوك الطريق التى شرعها الله سبحانه و المعنى فأظهر العبوديه لله فى جميع شئون حياتك باتباع ما شرعه لك فيها و الحال أنك مخلص له دينك لا تتبع غير ما شرعه لك.

قوله تعالى: أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ إظهار و إعلان لما أضمر و أجمل فى قوله:

«بِالْحَقِّ» و تعميم لما خصص فى قوله: «فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ» أَى إِنْ الَّذِى أَوْحَيْنَاهُ إِلَيْكَ مِنْ إِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مَنْ سَمِعَ هَذَا النِّدَاءَ، وَ لِكُونَ الْجُمْلَةَ نِدَاءً مُسْتَقِلًّا أَظْهَرَ اسْمَ الْجَلَالَةِ وَ كَانَ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُضْمَرَ وَ يُقَالُ: لَهُ الدِّينُ الْخَالِصُ.

و معنى كون الدين الخالص له أنه لا يقبل العباده ممن لا يعبده وحده سواء عبده و غيره أو عبد غيره وحده.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِلَى اللَّهِ زُلْفَى يرون أن الله سبحانه أجل من أن يحيط به

الإدراك الإنساني من عقل أو وهم أو حسن فتنزه تعالى عن أن يقع عليه توجه عبادى منا.

فمن الواجب أن نتقرب اليه بالتقرب الى مقربيه من خلقه و هم الذين فوض اليهم تدبير شئون العالم فتتخذهم أربابا من دون الله ثم آلهه تعبدهم و نتقرب اليهم ليشفعوا لنا عند الله و يقربونا اليه زلفى و هؤلاء هم الملائكه و الجن و قديسو البشر و هؤلاء هم الأرباب و الآلهه بالحقيقه.

و قوله: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى تفسير لمعنى اتخاذ الأولياء من دون الله و هو حكاية لقولهم أو بتقدير القول أى يقولون: ما نعبدهم هؤلاء إلا ليقربونا بسبب عبادتنا لهم الى الله تقريبا فهم عادلون منه تعالى الى غيره، و إنما سموا مشركين لأنهم يشركون به تعالى غيره حيث يقولون بكونهم أربابا و آلهه للعالم و كونه تعالى ربا و إلهها لولئك الأرباب و الآلهه، و أما الشركه فى الخلق و الإيجاد فلم يقل به لا مشرك و لا موحد.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ قيل: ضمير الجمع للمشركين و أوليائهم أى إن الله يحكم بين المشركين و بين أوليائهم فيما هم فيه يختلفون، و قيل:

الضميران راجعان الى المشركين و خصمائهم من أهل الإخلاص فى الدين المفهوم من السياق، و المعنى أن الله يحكم بينهم المخلصين للدين.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ الكفار كثير الكفران نعم الله أو كثير الستر للحق، و فى الجملة إشعار بل دلالة على أن الحكم يوم القيامة على المشركين لا لهم و أنهم مسيرون الى العذاب، و المراد بالهدايه الإيصال الى حسن العاقبه.

قوله تعالى: لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ احتجاج على نفى قولهم: إن الله اتخذ ولدا، و قول بعضهم: الملائكه بنات الله. و القول بالولد دائر بين عامه الوثنيه على اختلاف مذاهبهم و قد قالت النصرى: المسيح ابن الله، و قالت اليهود على ما حكاه القرآن عنهم: عزيز ابن الله

و كأنها بنوه تشريفيه.

و البنوه كيفما كانت تقتضى شرکه ما بين الابن و الأب و الولد و الوالد فإن كانت بنوه حقيقه و هى اشتقاق شىء من شىء و انفصاله منه اقتضت الشرکه فى حقيقه الذات و الخواص و الآثار المنبعثه من الذات كبنوه إنسان لإنسان المقتضيه لشرکه الابن لأبيه فى الإنسانيه و لوازمها، و إن كانت اعتباريه كالبنوه الاجتماعيه و هو التبنى اقتضت الاشتراك فى الشئون الخاصه بالأب كالسؤدد و الملك و الشرف و التقدم و الوراثه و بعض أحكام النسب، و الحجج المسوقه فى الآيه تدل على استحاله اتخاذ الولد عليه تعالى بكلا المعنيين.

فقوله: لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا شَرَطَ صَدْرُ بَلْوِ الدَّالِ عَلَى الامْتِنَاعِ لِلامْتِنَاعِ، و قوله: «لَا ضَيْطَ فِى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ» أى لا اختار لذلك مما يخلق ما يتعلق به مشيئته على ما يفيد السيق و كونه مما يخلق لكون ما عداه سبحانه خلقا له.

و قوله: سُبْحَانَهُ تَنْزِيَهُ لَه سُبْحَانَهُ، و قوله: «هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» بيان لاستحاله الشرط و هو إرادته اتخاذ الولد ليرتب عليه استحاله الجزاء و هو اصطفاء ما يشاء مما يخلق و ذلك لأنه سبحانه واحد فى ذاته المتعاليه لا يشاركه فيها شىء و لا يماثله فيها أحد لأدله التوحيد، و واحد فى صفاته الذاتيه التى هى عين ذاته كالحياه و العلم و القدره، و واحد فى شئونه التى هى من لوازم ذاته كالخلق و الملك و العزه و الكبرياء لا يشاركه فيها أحد.

و هو سبحانه قهار يقهر كل شىء بذاته و صفاته فلا يستقبل قبال ذاته و وجوده شىء فى ذاته و وجوده و لا يستغنى عنه شىء فى صفاته و آثار وجوده فالكل أذلاء داخرون بالنسبه اليه مملوكون له فقراء اليه.

فمحصل حجه الآيه قياس استثنائى ساذج يستثنى فيه نقيض المقدم لينتج نقيض التالى و هو نحو من قولنا: لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى لذلك بعض من يشاء من خلقه لكن إرادته اتخاذ الولد ممتعه لكونه واحدا قهارا فاصطفاؤه لذلك بعض من يشاء من خلقه ممتنع.

قوله تعالى: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ لَا- يبعد أن يكون ما فيه من الإشارة الى الخلق و التدبير بيانا لقهاريته تعالى لكن اتصال الآيتين و ارتباطهما مضمونا و انتهاء الثانية الى قوله: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ» الخ؛ كالصريح فى أن ذلك استئناف بيان للاحتجاج على توحيد الربوبية.

فآليه و التى تليها مسوقتان لتوحيد الربوبية و قد جمع فيهما بين الخلق و التدبير لما مر مرارا أن إثبات وحده الخالق لا يستلزم عند الوثنى نفى تعدد الأرباب و الآلهة لأنهم لا ينكرون انحصار الخلق و الإيجاد فيه تعالى لكنه سبحانه فيما يحتج على توحده فى الربوبية و الالهيه فى كلامه يجمع بين الخلق و التدبير إشاره الى أن التدبير غير خارج من الخلق بل هو خلق بوجه كما أن الخلق تدبير بوجه و عند ذلك يتم الاحتجاج على رجوع التدبير اليه تعالى و انحصاره فيه برجوع الخلق اليه.

و قوله: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إشاره الى الخلقه، و فى قوله:

«بِالْحَقِّ» -و الباء للملابسه- إشاره الى البعث فإن كون الخلقه حقا غير باطل يلازم كونها لغايه تقصدها و تنساق إليها و هى البعث قال تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا (ص ٢٧).

و قوله: يَكْوَرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَ يَكْوَرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ قال فى المجمع:

التكوير طرح الشىء بعضه على بعض. انتهى فالمراد طرح الليل على النهار و طرح النهار على الليل فيكون من الاستعاره بالكنايه قريب المعنى من قوله: يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ (الأعراف ٥٤) و المراد استمرار توالى الليل و النهار بظهور هذا على ذاك ثم ذاك على هذا و هكذا، و هو من التدبير.

و قوله: وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَى سخر الشمس و القمر فأجراهما للنظام الجارى فى العالم الأرضى الى أجل مسمى معين لا يتجاوزانه.

وقوله: أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَفَّارُ يمكن أن يكون في ذكر الاسمين إشارة الى ما يحتج به على توحده تعالى في الربوبية و الالوهية فإن العزيز الذى لا يعتره ذله إن كان فهو الله و هو المتعين للعبادة لا غيره الذى تغشاه الذله و تغمره الفاقه و كذا الغفار للذنوب إذا قيس الى من ليس من شأنه ذلك.

و يمكن أن يكون ذكرهما تحضيضا على التوحيد و الإيمان بالله الواحد و المعنى انبهكم أنه هو العزيز فآمنوا به و اعتزوا بعزته، الغفار فآمنوا به يغفر لكم.

قوله تعالى: خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا الخ؛ الخطاب لعامة البشر، و المراد بالنفس الواحد-على ما تؤيده نظائره من الآيات- آدم أبو البشر، و المراد بزوجه امرأته التى من نوعها و تماثلها فى الإنسانيه، و «ثُمَّ» للتراخى بحسب رتبه الكلام.

و المراد أنه تعالى خلق هذا النوع و كثير أفراده من نفس واحده و زوجها.

وقوله: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ الْأَنْعَامِ هِى الْإِبِلُ وَ الْبَقَرُ وَ الضَّأْنُ وَ الْمَعَزُ، و كونها ثمانية أزواج باعتبار انقسامها الى الذكر و الأنثى.

و تسميه خلق الأنعام فى الأرض إنزالا لها باعتبار أنه تعالى يسمى ظهور الأشياء فى الكون بعد ما لم يكن إنزالا لها من خزائنه التى هى عنده و من الغيب الى الشهاده قال تعالى:

وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر ٢١).

وقوله: يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ بيان لكيفيه خلق من تقدم ذكره من البشر و الأنعام، و فى الخطاب تغليب اولى العقل على غيرهم، و الخلق من بعد الخلق التوالى و التوارد كخلق النطفه علقه و خلق العلقه مضغه و هكذا، و الظلمات الثلاث هى ظلمه البطن و الرحم و المشيمه كما قيل و رواه فى المجمع عن أبى جعفر عليه السلام.

وقيل: المراد بها ظلمه الصلب و الرحم و المشيمه و هو خطأ فإن قوله: «فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ» صريح في أن المراد بالظلمات الثلاث ما في بطون النساء دون أصلاب الرجال.

و قوله: ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ أى الذى وصف لكم فى الآيتين بالخلق و التدبير هو ربكم دون غيره لأن الرب هو المالك الذى يدبر أمر ما ملكه و إذ كان خالقا لكم و لكل شىء دونكم و للنظام الجارى فيكم فهو الذى يملككم و يدبر أمركم فهو ربكم لا غير.

و قوله: لَهُ الْمُلْكُ أى على جميع المخلوقات فى الدنيا و الآخرة فهو المليك على الإطلاق و تقديم الظرف يفيد الحصر، و الجملة خبر بعد خبر لقوله: «ذَلِكُمُ اللَّهُ» كما أن قوله:

«لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» كذلك، و انحصار الالهيه فيه تعالى فرع انحصار الربويه فيه لأن الإله إنما يعبد لأنه رب مدبر فيعبد إما خوفا منه أو رجاء فيه أو شكرا له.

و قوله: فَأَنى تُضْرَفُونَ أى فكيف تصرفون عن عبادته الى عبادته غيره و هو ربكم الذى خلقكم و دبر أمركم هو المليك عليكم.

قوله تعالى: إِنَّ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَ لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ الى آخر الآيه، مسوق لبيان أن الدعوه الى التوحيد و إخلاص الدين لله سبحانه ليست لحاجه منه تعالى الى إقبالهم اليه بالانصراف عن عبادته غيره بل لعنايه منه تعالى بهم فيدعوهم الى سعادتهم اعتناء بها كما يعنى برزقهم فيفيض النعم عليهم و كما يعنى بحفظهم فيلهمهم أن يدفعوا الآفات عن أنفسهم.

فقوله: إِنَّ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ الخطاب لعامة المكلفين أى إن تكفروا بالله فلم توحدوه فإنه غنى عنكم لذاته لا ينتفع بإيمانكم و طاعتكم و لا- يتضرر بكفركم و معصيتكم فالنفع و الضرر إنما يتحققان فى مجال الإمكان و الحاجه و أما الواجب الغنى بذاته فلا يتصور فى حقه انتفاع و لا تضرر.

و قوله: وَ لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ دفع لما ربما يمكن أن يتوهم من قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ

غَنِيَّ عَنْكُمْ» أنه إذا لم يتضرر بكفر و لم ينتفع بإيمان فلا موجب له أن يريد منا الإيمان و الشكر فدفعه بأن تعلق العناية الإلهيه بكم يقتضى أن لا يرضى بكفركم و أنتم عباده.

و المراد بالكفر كفر النعمه الذى هو ترك الشكر بقرينه مقابله قوله: «وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ» و بذلك يظهر أن التعبير بقوله: «لِلْعِبَادِهِ» دون أن يقول: لكم للدلاله على عله الحكم أعنى سبب عدم الرضا.

و المحصل أنكم عباد مملوكون لله سبحانه منغمرون فى نعمه و رابطه المولويه و العبوديه و هى نسبه المالكيه و المملوكيه لا تلائمه أن يكفر العبد بنعمه سيده فينسى ولايه مولاه و يتخذ لنفسه أولياء من دونه و يعصى المولى و يطيع عدوه و هو عبد عليه طابع العبوديه لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا.

و قوله: «وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ» الضمير للشكر نظير قوله تعالى: «إِغْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» (المائدة ٨) و المعنى و إن تشكروا الله بالجري على مقتضى العبوديه و إخلاص الدين له يرضى الشكر لكم و أنتم عباده، و الشكر و الكفر المقابل له ينطبقان على الإيمان و الكفر المقابل له.

و قوله: «وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» أى لا تحمل نفس حامله حمل نفس اخرى أى لا يؤاخذ بالذنب إلا من ارتكبه.

و قوله: «ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» أى هذا فى الدنيا من كفر أو شكر ثم يبعثكم الله فيظهر لكم حقيقه أعمالكم و يحاسبكم على ما فى قلوبكم و قد تكرر الكلام فى معانى هذه الجمل فيما تقدم (١).

قوله تعالى: «وَ إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ» الى آخر الآيه؛

ص: ٣٨١

الإنايه الرجوع، و التحويل العظيمة على وجه الهبه و هى المنحه.على ما فى المجمع.

لما مر فى الآيه السابقه ذكر من كفر النعمه و أن الله سبحانه على غناه من الناس لا يرضى لهم ذلك نبه فى هذه الآيه على أن الإنسان كفور بالطبع مع أنه يعرف ربه بالفطره و لا يلبث عند الاضطرار دون أن يرجع اليه فيسأله كشف ضره كما قال: وَ كَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (الإسراء ٦٧/١)، و قال: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (إبراهيم ٣٤/١).

فقوله: وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ أى إذا أصاب الإنسان ضر من شده أو مرض أو قحط و نحوه دعا ربه-و هو الله يعترف عند ذلك بربوبيته-راجعا اليه معرضا عن سواه يسأله كشف الضر عنه.

و قوله: ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ أى و إذا أعطاه ربه سبحانه بعد كشف الضر نعمه منه اشتغل به مستغرقا و نسى الضر الذى كان يدعو اليه أى الى كشفه من قبل إعطاء النعمه.

فما فى قوله: مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ موصوله و المراد به الضر و ضمير «إِلَيْهِ» له و قيل:

مصدرية و الضمير للرب سبحانه و المعنى نسى دعاءه الى ربه من قبل الإعطاء، و قيل:

موصوله و المراد به الله سبحانه و هو أبعد الوجوه.

و قوله: وَ جَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ الْأَنْدَادَ الْأَمْثَالَ و المراد بها-على ما قيل-الأصنام و أربابها، و اللام فى «لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ» للعاقبه، و المعنى و اتخذ لله أمثالا يشاركونه فى الربوبيه و الالهيه على مزعمته لينتهى به ذلك الى إضلال الناس عن سبيل الله لأن الناس مطبوعون على التقليد يتشبه بعضهم ببعض، و فى الفعل دعوه كالقول.

و لا يبعد أن يراد بالأنداد مطلق الأسباب التى يعتمد عليها الإنسان و يطمئن إليها و من جملتها أرباب الأصنام عند الوثنى و ذلك لأن الآيه تصف الإنسان و هو أعم من المشرك نعم مورد الآيه هو الكافر.

و قوله: قُلْ تَمَنَّعَ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ أَى تَمَتَّعَ قَلِيلًا لَا يَدُومُ لَكَ لِأَنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ مُصِيرِكَ إِلَيْهَا، وَ هُوَ أَمْرٌ تَهْدِيدِيٌّ فِي مَعْنَى الْإِخْبَارِ أَى إِنَّكَ إِلَى النَّارِ وَ لَا يَدْفَعُهَا عَنْكَ تَمَتُّعُكَ بِالْكَفْرِ أَيَامًا قَلِيلًا.

قوله تعالى: «أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ الْآيَةَ لَا تَخْلُو عَنْ مَنَاسِبِهِ وَ اتِّصَالَ بِقَوْلِهِ السَّابِقِ: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» فَإِنْ فَحَوَاهُ أَنْ الْكَافِرَ وَ الشَّاكِرَ لَا يَسْتَوِيَانِ وَ لَا يَخْتَلِطَانِ فَأَوْضَحَ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنَّ الْقَانِتَ الَّذِي يَخَافُ الْعَذَابَ وَ يَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ لَا يَسَاوِي غَيْرَهُ.

فقوله: «أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ» أَحَدُ شَقَى التَّرِيدِ مَحْذُوفٍ وَ التَّقْدِيرُ أَنَّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ خَيْرٌ أَمْ مِنْ هُوَ قَانِتٌ؟ الْخ.

وَ الْقَنُوتِ-عَلَى مَا ذَكَرَهُ الرَّاغِبُ-لِزُومِ الطَّاعَةِ مَعَ الْخُضُوعِ، وَ الْآنَاءِ جَمْعُ أُنَى وَ هُوَ الْوَقْتُ، وَ «يَحْذَرُ الْآخِرَةَ» أَى عَذَابَ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ قَالَ تَعَالَى: إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (الإسراء ٥٧/٥٧)، وَ قَوْلُهُ: «يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ» هُوَ وَ مَا قَبْلَهُ يَجْمَعَانِ خَوْفَ الْعَذَابِ وَ رَجَاءَ الرَّحْمَةِ، وَ لَمْ يَقِيدِ الرَّحْمَةَ بِالْآخِرَةِ فَإِنَّ رَحْمَةَ الْآخِرَةِ رُبَّمَا وَسَعَتْ الدُّنْيَا.

وَ الْمَعْنَى أَنَّ هَذَا الَّذِي هُوَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مِنْ هُوَ لِأَنَّ الطَّاعَةَ وَ الْخُضُوعَ لِرَبِّهِ فِي أَوْقَاتِ اللَّيْلِ إِذَا جَنَّ عَلَيْهِ سَاجِدًا فِي صَلَاتِهِ تَارَهُ قَائِمًا فِيهَا أُخْرَى يَحْذَرُ عَذَابَ الْآخِرَةِ وَ يَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ؟ أَى لَا يَسْتَوِيَانِ.

و قوله: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ الْعِلْمَ وَ عَدَمَهُ مُطْلَقَانِ لَكِنْ الْمُرَادُ بِهِمَا بِحَسَبِ مَا يَنْطَبِقُ عَلَى مَوْرَدِ الْآيَةِ الْعِلْمَ بِاللَّهِ وَ عَدَمَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي يَكْمُلُ بِهِ الْإِنْسَانُ وَ يَنْتَفِعُ بِحَقِيقَةِ مَعْنَى الْكَلِمَةِ وَ يَتَضَرَّرُ بِعَدَمِهِ، وَ غَيْرُهُ مِنَ الْعِلْمِ كَالْمَالِ يَنْتَفِعُ بِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَفْنَى بِفَنَائِهَا.

و قوله: إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ أَى ذُوو الْعُقُولِ وَ هُوَ فِي مَقَامِ التَّعْلِيلِ لِعَدَمِ

تساوى الفريقين بأن أحد الفريقين يتذكر حقائق الامور دون الفريق الآخر فلا يستويان بل يترجح الذين يعلمون على غيرهم.

قوله تعالى: قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، الجار والمجرور «فِي هَذِهِ الدُّنْيَا» متعلق بقوله: «أَحْسَنُوا» فالمراد بالجمله وعد الذين أحسنوا أى لزموا الأعمال الحسنه أن لهم حسنه لا يقدر وصفها بقدر.

وقد أطلق الحسنه فلم يقيدها بدنيا أو آخره و ظاهرها ما يعلم الدنيا فللمؤمنين المحسنين فى هذه الدنيا طيب النفس و سلامه الروح و صون النفوس عما يتقلب فيه الكفار من تشوش البال و تقسم القلب و غل الصدر و الخضوع للأسباب الظاهريه و فقد من يرجى فى كل نائبه و ينصر عند طروق الطارقه و يطمأن اليه فى كل نازله و فى الآخره سعاده دائمه و نعيم مقيم.

وقوله: وَ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً حَث و ترغيب لهم فى الهجره من مكه إذ كان التوقف فيها صعبا على المؤمنين بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و المشركون يزيدون كل يوم فى التشديد عليهم و فتنتهم، و الآيه بحسب لفظها عامه.

وقوله: إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ توفيه الأجر إعطاؤه تاما كاملا، و السياق يفيد أن القصر فى الكلام متوجه الى قوله: «بِغَيْرِ حِسَابٍ» فالجار و المجرور متعلق بقوله: «يُؤَفِّي» صفه لمصدر يدل عليه و المعنى لا يعطى الصابرون أجرهم إلا إعطاء بغير حساب، فالصابرون لا يحاسبون على أعمالهم و لا ينشر لهم ديوان و لا يقدر أجرهم بزنه عملهم.

وقد اطلق الصابرون فى الآيه و لم يقيد بكون الصبر على الطاعه أو عن المعصيه أو عند المصيبه و إن كان الذى ينطبق على مورد الآيه هو الصبر على مصائب الدنيا و خاصه ما يصيب من جهه أهل الكفر و السوق من آمن بالله و أخلص له دينه و اتقاه.

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلْمٌ مِنَ الْأَرْضِ وَمَنْ تَحْتِهِمْ ظُلْمٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَ عِبَادٍ فَاتَّقُوا (١٦) وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَمَشَرُوا عِبَادٍ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠)

بيان:

قوله تعالى: قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ - الى قوله - أَوَّلَ

المُسْلِمِينَ نحو رجوع الى قوله تعالى فى مفتتح السوره: **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ** بداعى أن يؤيسهم من نفسه، فلا يطمعوا فيه أن يترك دعوتهم و يوافقهم على الإشراك بالله كما يشير اليه أول سوره ص و آيات أخر.

فكأنه يقول: قل لهم إن الذى تلوت عليكم من أمره تعالى بعبادته بإخلاص الدين -و قد وجه به الخطاب الى- ليس المراد به مجرد دعوتكم الى ذلك بإقامتى فى الخطاب مقام السامع فىكون من قبيل «إياك أعنى و اسمعى يا جاره» بل أنا كأحدكم مأمور بعبادته مخلصاً له الدين، و لا- ذلك فحسب، بل مأمور بأن أكون أول المسلمين لما ينزل الى من الوحي فأسلم له أولاً ثم ابلغه لغيرى- فأنا أخاف ربي و أعبده بالإخلاص آمنتهم به أو كفرتم فلا تطمعوا فى.

فقوله: **«قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ»** إشاره الى أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ يشارك غيره فى الأمر بدون الإخلاص.

و قوله: **«وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ** إشاره الى أن فى الأمر المتوجه الى زياده على ما توجه اليكم من التكليف و هو أنى امرت بما امرت و قد توجه الخطاب الى قبلكم و الغرض منه أن أكون أول من أسلم لهذا الأمر و آمن به.

قيل: اللام فى قوله: **«لِأَنْ أَكُونَ»** للتعليل و المعنى و أمرت بذلك لأجل أن أكون أول المسلمين، و قيل: اللام زائده كما تركت اللام فى قوله تعالى: **«قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ (الأنعام ١٤)»**.

و مآل الوجهين واحد بحسب المعنى فإن كونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أول المسلمين يعطى عنواناً لإسلامه و عنوان الفعل يصح أن يجعل غايه للأمر بالفعل و أن يجعل متعلقاً للأمر فيؤمر به يقال: اضربه للتأديب، و يقال: أدبه بالضرب.

قال فى الكشاف: و فى معناه أوجه: أن أكون أول من أسلم فى زمانى و من قومى لأنه أول من خالف دين آباءه و خلع الأصنام و حطمها، و أن أكون أول الذين دعوتهم الى الإسلام

إسلاماً، وأن أكون أول من دعا نفسه الى ما دعا غيره لأكون مقتدى بي في قولى و فعلى جميعاً و لا تكون صفتى صفه الملوكة الذين يأمرؤن بما لا يفعلون، و أن أفعل ما أستحق به الأوليه من أعمال السابقين دلالة على السبب بالمسبب. انتهى.

و أنت خير بأن الأنسب لسياق الآيات هو الوجه الثالث و هو الذى قدمناه و يلزمه سائر الوجوه.

قوله تعالى: قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ المراد بمعصيه ربه بشهاده السياق مخالفه أمره بعبادته مخلصاً له الدين، و باليوم العظيم يوم القيامة و الآيه كالتوطئه لمضمون الآيه التاليه.

قوله تعالى: قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ تصريح بأنه ممثّل لأمر ربه مطيع له بعد التكنيه عنه فى الآيه السابقه، و إثناس لهم أن يطمعوا فيه أن يخالف أمر ربه.

و تقديم المفعول فى قوله: «قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ» يفيد الحصر، و قوله: «مُخْلِصاً لَهُ دِينِي» يؤكد معنى الحصر، و قوله: «فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ» أمر تهديدى بمعنى أنهم لا ينفعمهم ذلك فإنهم مصيبهم وبال إعراضهم عن عباده الله بالإخلاص كما يشير اليه ذيل الآيه «قُلِ إِنَّ الْخَاسِرِينَ» الخ.

قوله تعالى: قُلِ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الخ؛ الخسر و الخسران ذهاب رأس المال إما كلا أو بعضاً و الخسران أبلغ من الخسر، و خسران النفس هو إيرادها مورد الهلكه و الشقاء بحيث يبطل منها استعداد الكمال فيفوتها السعاده بحيث لا يطمع فيها و كذا خساره الأهل.

و فى الآيه تعريض للمشركين المخاطبين بقوله: «فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ» كأنه يقول:

فأيا ما عبدتم فإنكم تخسرون أنفسكم بإيرادها بالكفر مورد الهلكه و أهليكم و هم خاصتكم

بحملهم على الكفر و الشرك و هى الخسران بالحقيقه.

و قوله: أَلَا ذَلِكْ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ و ذلك لأن الخسران المتعلق بالدينيا- هو الخسران فى مال أو جاه-سريع الزوال منقطع الآخر بخلاف خسران يوم القيامة الدائم الخالد فإنه لا زوال له و لا انقطاع.

على أن المال أو الجاه إذا زال بالخسران أمكن أن يخلفه آخر مثله أو خير منه بخلاف النفس إذا خسرت.

هذا على تقدير كون المراد بالأهل خاصة الإنسان فى الدنيا، و قيل: المراد بالأهل من أعده الله فى الجنة للإنسان لو آمن و اتقى من أزواج و خدم و غيرهم و هو أوجه و أنسب للمقام فإن النسب و كل رابطة من الروابط الدينويه الاجتماعيه مقطوعه يوم القيامة قال تعالى: فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ (المؤمنون ١٠١) و قال: يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا (الانفطار ١٩) الى غير ذلك من الآيات.

و يؤيده أيضا قوله تعالى: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَ يَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (الانشقاق ٩).

قوله تعالى: لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ الخ؛ الظلل جمع ظلّه و هى - كما قيل -الستر العالى.

و المراد بكونها من فوقهم و من تحتهم إحاطتها بهم فإن المعهود من النار الجهتان و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَ أَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ قال الراغب: الطاغوت عباره عن كل متعد و كل معبود من دون الله و يستعمل فى الواحد و الجمع. انتهى، و الظاهر أن المراد بها فى الآيه الأوثان و كل معبود طاغ من دون الله.

و لم يقتصر على مجرد اجتناب عباده الطاغوت بل أضاف اليه قوله: «وَ أَنَابُوا إِلَى اللَّهِ»

إشاره الى أن مجرد النفى لا يجدى شيئا بل الذى ينفع الإنسان مجموع النفى و الإثبات،عباده الله و ترك عباده غيره و هو عبادته مخلصا له الدين.

و قوله: لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۖ إِنشَاءً بَشْرَىٰ و خبر لقوله: «و الَّذِينَ اجْتَبَأُوا» الخ.

قوله تعالى: فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ إِلَىٰ آخِرِ آيَةٍ؛ كان مقتضى الظاهر أن يقال: فبشرهم غير أنه قيل: فبشر عباد و اضيف الى ضمير التكلم لتشريفهم به و لتوصيفهم بقوله: «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ» الخ.

و المراد بالقول بقرينه ما ذكر من الاتباع ما له نوع ارتباط و مساس بالعمل فأحسن القول أرشده فى إصابه الحق و أنصحه للإنسان، و الإنسان إذا كان ممن يحب الحسن و ينجذب الى الجمال كان كلما زاد الحسن زاد انجذابا فإذا وجد قبيحا و حسنا مال الى الحسن، و إذا وجد حسنا و أحسن قصد ما هو أحسن، و أما لو لم يمل الى الأحسن و انجمد على الحسن كشف ذلك عن أنه لا ينجذب اليه من حيث حسنه و إلا زاد الانجذاب بزياده الحسن.

فتوصيفهم باتباع أحسن القول معناه أنهم مطبوعون على طلب الحق و إرادته الرشد و إصابه الواقع فكلما دار الأمر بين الحق و الباطل و الرشد و الغى اتبعوا الحق و الرشد و تركوا الباطل و الغى و كلما دار الأمر بين الحق و الأ-حق و الرشد و ما هو أكثر رشدا أخذوا بالأحق الأرشد.

فالحق و الرشد هو مطلوبهم و لذلك يستمعون القول و لا- يردون قولاً بمجرد ما قرع سمعهم اتباعاً لهوى أنفسهم من غير أن يتدبروا فيه و يفقهوه.

فقوله: الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ مَفَادُهُ أَنَّهُمْ طَالَبُوا الْحَقَّ وَ الرُّشْدَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ رَجَاءً أَنْ يَجِدُوا فِيهِ حَقًّا وَ خَوْفًا أَنْ يَفُوتَهُمْ شَيْءٌ مِنْهُ.

و قيل: المراد باستماع القول و اتباع أحسنه استماع القرآن و غيره و اتباع القرآن، و قيل:

المراد استماع أوامر الله تعالى و اتباع أحسنها كالقصاص و العفو فيتبعون العفو و إبداء الصدقات

و إخفاؤها فيتبعون الإخفاء؛ والقولان من قبيل التخصيص من غير مخصص.

و قوله: **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ** إشاره الى أن هذه الصفه هى الهدايه الإلهيه و هذه الهدايه أعنى طلب الحق و التهيؤ التام لاتباع الحق أينما وجد هى الهدايه الإجماليه و إليها تنتهى كل هدايه تفصيليه الى المعارف الإلهيه.

و قوله: **وَ أُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ** أى ذوو العقول و يستفاد منه أن العقل هو الذى به الاهتداء الى الحق و آيته صفه اتباع الحق، و قد تقدم فى تفسير قوله: **وَ مَنْ يَزْعُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ** (البقره ١٣٠/) أنه يستفاد منه أن العقل ما يتبع به دين الله.

قوله تعالى: **أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ** أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ثبوت كلمه العذاب وجوب دخول النار بالكفر بقوله عند إهباط آدم الى الأرض: **وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا** **أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (البقره ٣٩/) و ما فى معناه من الآيات.

و مقتضى السياق أن فى الآية إضممارا يدل عليه قوله: **«أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ»** و التقدير **أفمن حقت عليه كلمه العذاب ينجو منه و هو اولى من تقدير قولنا: خير أم من وجبت عليه الجنه.**

و قيل: المعنى **أفمن وجب عليه وعيده تعالى بالعقاب** أَفَأَنْتَ تخلصه من النار فاكتفى بذكر «من النار» عن ذكر الضمير العائد الى المبتدأ و جىء بالاستفهام مرتين للتأكيد تنبيها على المعنى.

قوله تعالى: **لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** الغرف جمع غرفه و هى المنزل الرفيع. قيل: و هذا فى مقابله قوله فى الكافرين: **«لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ»**.

و قوله: وَعَدَّ اللَّهُ أَي وَعَدَّهُمُ اللَّهُ ذَلِكَ وَعَدَا فَهُوَ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ قَائِمٌ مَقَامَ فَعْلِهِ وَ قَوْلُهُ:

«لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ» إِبْرَارٌ عَنِ سُنَّتِهِ تَعَالَى فِي مَوَاعِيدِهِ وَ فِيهِ تَطْيِيبٌ لِنَفْسِهِمْ.

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٢١ إلى ٣٧]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَنُجُودًا مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِزَّةً لِكُرْئِيٍّ لَأُولَى الْأَلْبَابِ (٢١) أَمْ مَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ
أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ
وَ قُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) أَمْ مَنْ يَتَّبِعِ بَوَاجِهُهُ سُوءَ الْعَذَابِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ قِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَادْفَعْهُمْ
اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَ رَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ
يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمِيدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ
(٣١) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَ كَذَبَ بِالصَّدَقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَ الَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَ
صَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاؤْنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَ
يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَ يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ
هَادٍ (٣٦) وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (٣٧)

بيان:

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ إِلَى آخِرِ آيَةٍ، قال في المجمع: ينبوع جمع ينبوع وهو الذى ينبع منه الماء يقال ينبع الماء من موضع كذا إذا فار منه، و الزرع ما ينبت على غير ساق و الشجر ما له ساق و أغصان النبات يعم الجميع، و هاج النبات يهيج هيجا إذا جف و بلغ نهايته فى اليبوسه، و الحطام فتات التبن

ص: ٣٩٢

و الحشيش. انتهى.

و قوله: فَسَلَكُهُ يَتَابِعُ فِي الْأَرْضِ أَي فَادْخَلَهُ فِي عِيُونِ وَ مَجَارِي فِي الْأَرْضِ هِيَ كَالْعُرُوقِ فِي الْأَبْدَانِ تَنْقُلُ مَا تَحْمَلُهُ مِنْ جَانِبِ إِلَى جَانِبٍ، وَ الْبَاقِي ظَاهِرٌ وَ الْآيَةُ - كَمَا تَرَى - تَحْتَجُّ عَلَى تَوْحِيدِهِ تَعَالَى فِي الرَّبُوبِيَّةِ.

قوله تعالى: أَمْ مَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ الْخ؛ لَمَا ذَكَرَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ أَنَّ فِيهَا ذَكَرَهُ مِنْ أَنْزَالِ الْمَاءِ وَ إِنْبَاتِ النَّبَاتِ ذَكَرَ لِأَوْلَى الْأَلْبَابِ وَ هُمْ عِبَادَةُ الْمُتَّقُونَ وَ قَدْ ذَكَرَ قَبْلَ أَنْهُمْ الَّذِينَ هَدَاهُمْ اللَّهُ ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنْهُمْ لَيْسُوا كغَيْرِهِمْ مِنَ الضَّالِّينَ وَ أَوْضَحَ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ وَ هُوَ أَنْهُمْ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِمْ يَبْصُرُونَ بِهِ الْحَقَّ وَ فِي قُلُوبِهِمْ لَيْنٌ لَا تَعْصِي عَنْ قَبُولِ مَا يَلْقَى إِلَيْهِمْ مِنْ أَحْسَنِ الْقَوْلِ.

فقوله: أَمْ مَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ خَبْرَهُ مَحْذُوفٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ» الْخ؛ أَي كَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَ الْاسْتِفْهَامُ لِلانْكَارِ أَي لَا يَسْتَوِيَانِ.

و شرح الصدر بسطه ليسع ما يلقى إليه من القول و إذ كان ذلك للإسلام و هو التسليم لله فيما أراد و ليس إلا الحق كان معناه كون الإنسان بحيث يقبل ما يلقى إليه من القول الحق و لا يردده، و ليس قبولاً من غير درايه و كيفما كان بل عن بصيره بالحق و عرفان بالرشد و لذا عقبه بقوله:

«فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ» فَجَعَلَهُ بِحَسَبِ التَّمْثِيلِ رَاكِبٌ نُورٍ يَسِيرُ عَلَيْهِ وَ يَبْصُرُ مَا يَمْرُ بِهِ فِي سَاحَةِ صَدْرِهِ الرَّحْبِ الْوَسِيعِ مِنَ الْحَقِّ فَيَبْصُرُهُ وَ يَمِيزُهُ مِنَ الْبَاطِلِ بِخِلَافِ الضَّالِّ الَّذِي لَا فِي صَدْرِهِ شَرْحٌ فَيَسْعُ الْحَقُّ وَ لَا هُوَ رَاكِبٌ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَيَبْصُرُ الْحَقَّ وَ يَمِيزُهُ.

و قوله: فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَفْرِيعٌ عَلَى الْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقَاسِيَةَ الْقُلُوبَ - وَ قَسَاوَهُ الْقَلْبَ وَ صَلَابَتَهُ لَازِمُهُ عَدَمُ شَرْحِ الصَّدْرِ وَ عَدَمُ النُّورِ - لَا يَتَذَكَّرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ فَلَا يَهْتَدُونَ إِلَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ، وَ لَذَا عَقَبَهُ بِقَوْلِهِ: «أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» .

و فى الآيه تعريف الهدايه بلازمها و هو شرح الصدر و جعله على نور من ربه، و تعريف الضلال بلازمه و هو قساوه القلب من ذكر الله.

و قد تقدم فى تفسير قوله: **فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ** (الأنعام ١٢٥) كلام فى معنى الهدايه فراجع.

قوله تعالى: **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي** الى آخر الآيه كالأجمال بعد التفصيل بالنسبه الى الآيه السابقه بالنظر الى ما يتحصل من الآيه فى معنى الهدايه و ان كانت بيانا لهدايه القرآن.

فقوله: **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ** هو القرآن الكريم و الحديث هو القول كما فى قوله تعالى: **فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ** (الطور ٣٤)، و قوله: **فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ** (المرسلات ٥٠) فهو أحسن القول لاشتماله على محض الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، و هو كلامه المجيد.

و قوله: **كِتَابًا مُتَشَابِهًا** أى يشبه بعض أجزاءه بعضا و هذا غير التشابه الذى فى المتشابه المقابل للمحكم فإنه صفة بعض آيات الكتاب و هذا صفة الجميع.

و قوله: **مَثَانِي** جمع مثنيه بمعنى المعطوف لانعطاف بعض آياته على بعض و رجوعه اليه بتبيين بعضها ببعض و تفسير بعضها لبعض من غير اختلاف فيها بحيث يدفع بعضه بعضا و يناقضه كما قال تعالى: **أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** (النساء ٨٢).

و قوله: **تَقَشَعْرُهُ** منه جلود الذين يخشون ربهم صفة الكتاب و ليس استئنافا، و الاقشعرار تقبض الجلد تقبضا شديدا لخشيه عارضه عن استماع أمر هائل أو رؤيته، و ليس ذلك إلا لأنهم على تبصر من موقف نفوسهم قبال عظمه ربهم فإذا سمعوا كلامه توجهوا الى ساحه العظمه و الكبرياء فغشيت قلوبهم الخشيه و أخذت جلودهم فى الاقشعرار.

وقوله: ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ «تَلَيْنُ» مضمونه معنى السكون و الطمأنينه و لذا عدى بالى و المعنى ثم تسكن و تطمئن جلودهم و قلوبهم الى ذكر الله لينه تقبله أو تلين له ساكنه اليه.

و لم يذكر القلوب فى الجملة السابقه عند ذكر الاقشعرار لأن المراد بالقلوب النفوس و لا اقشعرار لها و إنما لها الخشيه.

وقوله: ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ أَى مَا يَأْخُذُهُمْ مِنْ اقشعرار الجلود من القرآن ثم سكون جلودهم و قلوبهم الى ذكر الله هو هدى الله و هذا تعريف آخر للهدايه بلازمها.

وقوله: يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ أَى يَهْدِي بِهِدَاهِ مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ هُوَ الَّذِى لَمْ يَبْطُلْ اسْتِعْدَادُهُ لِلْاِهْتِدَاءِ وَ لَمْ يَشْغَلْ بِالْمَوَانِعِ عَنْهُ كَالْفَسْقِ وَ الظُّلْمِ وَ فِى السِّيَاقِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ الْهَدَايَةَ مِنْ فَضْلِهِ وَ لَيْسَ بِمَوْجِبٍ فِيهَا مَضْطَرٍ إِلَيْهَا.

فالهدايه كلها لله إما بلا واسطه أو بواسطه الهداه المهديين من خلقه و على هذا فمن أضله من خلقه بأن لم يهده بالواسطه و لا بلا واسطه فلا هادى له و ذلك قوله فى ذيل الآيه: «وَ مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ» و سيأتى الجملة بعد عدّه آيات و هى متكرره فى كلامه تعالى.

وقوله تعالى: أَمْ مَنْ يَتَّقِ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ مقايسه بين أهل العذاب يوم القيامة و الآمنين منه و الفريقان هما أهل الضلال و أهل الهدى و لذا عقب الآيه السابقه بهذه الآيه.

و الاستفهام للإنكار و خبر «من» محذوف و التقدير كمن هو فى أمن منه، و يوم القيامة متعلق بيتقى، و المعنى أ فمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة لكون يده التى بها كان يتقى المكاره مغلوله الى عنقه كمن هو آمن من العذاب لا يصيبه مكروه. كذا قيل.

وقوله: وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ القول لملائكه النار،

و الظاهر أن الجملة بتقدير قد أو بدونه و الأصل و قيل لهم ذوقوا، الخ؛ لكن وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على عله الحكم و هي الظلم.

قوله تعالى: كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَي من الجبهه التي لا يحتسبون ففوجئوا و أخذوا على غفله و هو أشد الأخذ، و فى الآيه و ما بعدها بيان لما أصاب بعض الكفار من عذاب الخزى ليكون عبره لغيرهم.

قوله تعالى: فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الخزى هو الذل و الصغار، و قد أذاقهم الله ذلك فى ألوان من العذاب أنزلنا عليهم كالغرق و الخسف و الصيحه و الرجفه و المسخ و القتل.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ أَي ضربنا لهم من كل نوع من الأمثال شيئاً لعلمهم يتنبهون و يعتبرون و يتعظون بتذكر ما تتضمنه.

قوله تعالى: قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرِ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ العوج الانحراف و الانعطاف، «قُرْآنًا عَرَبِيًّا» منصوب على المدح بتقدير أمدح أو أخص و نحوه أو حال معتمد على الوصف.

قوله تعالى: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَ رَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ الخ؛ قال الراغب: الشكس - بالفتح فالكسر - سبى الخلق، و قوله: «شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ» أى متشاجرون لشكاسه خلقهم. انتهى و فسروا السلم بالخالص الذى لا يشترك فيه كثيرون.

مثل ضربه الله للمشرك الذى يعبد أربابا و آلهه مختلفين فيشتركون فيه و هم متنازعون فى أمره هذا بما ينهاه عنه الآخر و كل يريد أن يتفرد فيه و يخصه بخدمه نفسه، و للموحد الذى هو خالص لمخدوم واحد لا يشاركه فيه غيره فيخدمه فيما يريد منه من غير تنازع يؤدى الى

الحيره فالمشرك هو الرجل الذى فيه شركاء متشاكسون و الموحد هو الرجل الذى هو سلم لرجل. لا يستويان بل الذى هو سلم لرجل أحسن حالا من صاحبه.

و هذا مثل ساذج ممكن الفهم لعامه الناس لكنه عند المداقه يرجع الى قوله تعالى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا (الأنبياء ٢٢/٢) و عاد برهاننا على نفى تعدد الأرباب و الآلهه.

و قوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ ثناء لله بما أن عبوديته خير من عبوديه من سواه.

و قوله: بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مزيه عبادته على عباده غيره على ما له من الظهور التام لمن له أدنى بصيره.

قوله تعالى: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ الآيه الاولى تمهيد لما يذكر فى الثانيه من اختصاصهم يوم القيامة عند ربهم و الخطاب فى «إِنَّكُمْ» للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و امته أو المشركين منهم خاصه و الاختصام- كما فى المجمع- رد كل واحد من الاثنين ما أتى به الآخر على وجه الإنكار عليه.

و المعنى: إن عاقبتك و عاقبتهم الموت ثم إنكم جميعا يوم القيامة بعد ما حضرتم عند ربكم تختصمون و قد حكى مما يلقيه النبي صلى الله عليه و آله و سلم: وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (الفرقان ٣٠/٣).

و الآيتان عامتان بحسب لفظهما لكن الآيات الأربع التاليه تؤيد أن المراد بالاختصام ما يقع بين النبي صلى الله عليه و آله و سلم و بين الكافرين من امته يوم القيامة.

قوله تعالى: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَ كَذَبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ فى الآيه و ما بعدها مبادره الى ذكر ما ينتهى اليه أمر اختصاصهم يوم القيامة و تلويح الى ما هو نتيجة القضاء بينهم كأنه قيل: و نتيجة ما يقضى به بينكم معلومه اليوم و أنه من هو الناجى منكم، و من هو الهالك؟ فإن القضاء يومئذ يدور مدار الظلم و الإحسان و لا أظلم من الكافر و المؤمن متق محسن و الظلم الى النار و الإحسان الى

الجنة. هذا ما يعطيه السياق.

فقوله: **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ** أى افترى عليه بأن ادعى أن له شركاء و الظلم يعظم بعظم من تعلق به و إذا كان هو الله سبحانه كان أعظم من كل ظلم و مرتكبه أظلم من كل ظالم.

و قوله: **وَ كَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ** المراد بالصدق الصادق من النبا و هو الدين الإلهى الذى جاء به الرسول بقريته قوله: **«إِذْ جَاءَهُ»**

و قوله: **أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ** المثوى اسم مكان بمعنى المنزل و المقام، و الاستفهام للتقرير أى إن فى جهنم مقام هؤلاء الظالمين لتكبرهم على الحق الموجب لافتراءهم على الله و تكذيبهم بصادق النبا الذى جاء به الرسول.

و الآيه خاصه بمشركى عهد النبى صلى الله عليه و آله و سلم أو بمشركى امته بحسب السياق و عامه لكل من ابتدع بدعه و ترك سنه من سنن الدين.

وَ الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ المراد بالمجىء بالصدق الإتيان بالدين الحق و المراد بالتصديق به الإيمان به و الذى جاء به النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

و قوله: **أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** لعل الإشاره الى الذى جاء به بصيغه الجمع لكونه جمعا بحسب المعنى و هو كل نبى جاء بالدين الحق و آمن بما جاء به بل و كل مؤمن آمن بالدين الحق و دعى اليه فإن الدعوه الى الحق قولاً و فعلاً من شئون اتباع النبى، قال تعالى: **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** (يوسف ١٠٨).

قوله تعالى: **لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ** هذا جزاؤهم عند ربهم و هو أن لهم ما تتعلق به مشيتهم فالمشيه هناك هى السبب التام لحصول ما يشاؤه الإنسان أيما كان بخلاف ما عليه الأمر فى الدنيا فإن حصول شىء من مقاصد الحياه فيها يتوقف-مضافا الى المشيه-على عوامل و أسباب كثيره منها السعى و العمل المستمد من

فآليه تدل أولاً على إقامتهم في دار القرب و جوار رب العالمين، وثانياً أن لهم ما يشاءون فهذان جزاء المتقين و هم المحسنون فإحسانهم هو السبب في إيتائهم الأجر المذكور و هذه هي النكته في إقامه الظاهر مقام الضمير في قوله: «وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ» و كان مقتضى الظاهر أن يقال: و ذلك جزاؤهم.

و توصيفهم بالإحسان و ظاهره العمل الصالح أو الاعتقاد الحق و العمل الحسن جميعاً يشهد أن المراد بالتصديق المذكور هو التصديق قولاً و فعلاً. على أن القرآن لا يسمى تارك بعض ما أنزله الله من حكم مصداقاً به.

قوله تعالى: لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ و من المعلوم أنه إذا كفر أسوأ أعمالهم كفر ما دون ذلك، و المراد بأسوأ الذي عملوا ما هو كالشرك و الكبائر.

قال في مجمع البيان في الآية: أي أسقط الله عنهم عقاب الشرك و المعاصي التي فعلوها قبل ذلك بإيمانهم و إحسانهم و رجوعهم إلى الله تعالى انتهى و هو حسن من جهة تعميم الأعمال السيئه، و من جهة تقييد التكفير بكونه قبل ذلك بالإيمان و الإحسان و التوبه فإن الآية تبين أثر تصديق الصدق الذي أتاهم و هو تكفير السيئات بالتصديق و الجزاء الحسن في الآخرة.

و قوله: وَ يَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ يمكن أن يقال: إن المراد أنه ينظر إلى أرفع أعمالهم درجة فيترفع درجتهم بحسبه فلا يضيع شيء مما هو آخر ما بلغه عملهم من الكمال لكن في جريان نظير الكلام في تكفير الأسوأ خفاء.

و قيل: صيغه التفضيل في الآية «أَسْوَأَ» و «بِأَحْسَنِ» مستعمله في الزيادة المطلقة من غير نظر إلى مفضل عليه فإن معصية الله كلها أسوأ و طاعته كلها أحسن.

قوله تعالى: أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَ يَخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ المراد

بالذين من دون آلهتهم من دون الله على ما يستفاد من السياق، والمراد بالعبد من مدحه الله تعالى في الآيات السابقة و يشتمل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شمولاً أولياً.

و الاستفهام للتقرير و المعنى هو يكفيهم، و فيه تأمّن للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قبال تخويفهم إياه بآلهتهم و كناية عن وعده بالكفايه كما صرح به في قوله: فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (البقره ١٣٧).

قوله تعالى: وَ مَنْ يُضِلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ الخ؛ جملتان كالمتمعاكستين مرسلتان إرسال الضوابط الكليه و لذا جيء فيهما باسم الجلاله و كان من قبيل وضع الظاهر موضع الضمير.

و في تعقيب قوله: «أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ» الخ؛ بقوله: «وَ مَنْ يُضِلِلِ اللهُ» الخ؛ إشاره الى أن هؤلاء المخوفين لا يهتدون بالإيمان أبداً و لن ينجح مساعهم و أنهم لن ينالوا بغيتهم و لا امنيتهم من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فإن الله لن يضلّه و قد هداه.

قوله: أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ استفهام للتقرير أى هو كذلك، و هو تعليل ظاهر لقوله: «وَ مَنْ يُضِلِلِ اللهُ» الخ؛ فإن عزته و كونه ذا انتقام يقتضيان أن ينتقم ممن جحد الحق و أصر على كفره فيضله و لا هادى يهديه لأنه تعالى عزيز لا يغلبه فيما يريد غالب، و كذا إذا هدى عبداً من عباده لتقواه و إحسانه لم يقدر على إضلاله مضل.

و في التعليل دلالة على أن الإضلال المنسوب الى الله تعالى هو ما كان على نحو المجازاه و الانتقام دون الضلال الابتدائي و قد مر مرارا.

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٣٨ الى ٥٢]

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْرِفُونَ (٣٩) ... s... eir...) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠) إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١) اللهُ يَتَوَفَّى الْمُنْفِقِينَ حِينَ مَوْتِهِمْ وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَ لَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَ حُدِّدَتْ إِشْمَارَاتُ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلِ اللهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ الْأَرْضِ مَا يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَ بَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨) فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَلْتَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلِ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَ مَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)

قوله تعالى: **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** إلى آخر الآية؛ شروع في إقامة الحجة و قد قدم لها مقدمه تبنتى الحجة عليها و هى مسلمه عند الخصم و هى أن خالق العالم هو الله سبحانه فإن الخصم لا نزاع له فى أن الخالق هو الله وحده لا شريك له و إنما يدعى لشركائه التدبير دون الخلق.

و إذا كان الخلق اليه تعالى فما فى السماوات و الأرض من عين و لا أثر إلا و ينتهى وجوده اليه تعالى فما يصيب كل شىء من خير أو شر كان وجوده منه تعالى و ليس لأحد أن يمسك خيرا يريدته تعالى له أو يكشف شرا يريدته تعالى له لأنه من الخلق و الإيجاد و لا شريك له تعالى فى الخلق و الإيجاد حتى يزاحمه فى خلق شىء أو يمنع من خلق شىء أو يسبقه الى خلق شىء

والتدبير نظم الامور و ترتيب بعضها على بعض خلق و إيجاد فالله الخالق لكل شىء كاف فى تدبير أمر العالم لأنه الخالق لكل شىء و ليس وراء الخلق شىء حتى يتوهم استناده الى غيره فهو الله رب كل شىء و إلهه لا رب سواه و لا إله غيره.

فقوله: قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَى أقم الحججه عليهم بانبا لها على هذه المقدمه المسلمه عندهم أن الله خالق كل شىء و قل مفرعا عليه أخبرونى عما تدعون من دون الله، و التعبير عن آلهتهم بلفظه «مَا» دون «مَنْ» و نحوه يفيد تعميم البيان للأصنام و أربابها جميعا فإن الخواص منهم و إن قصرُوا العباده على الأرباب من الملائكه و غيرهم و اتخذوا الأصنام قبله و ذريعه الى التوجه الى أربابها لكن عامتهم ربما أخذوا الأصنام نفسها أربابا و آلهه يعبدونها و نتيجه الحججه عامه تشمل الجميع.

و قوله: إِنَّ أَرَادَنِى اللَّهُ بِضُرٍّ هَيْلٍ هَيْنَ كَاشِحَاتٍ ضُرُّهُ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَيْلٍ هُنَّ مُّمْسِكَاتٌ رَحْمَتِهِ الضر كالمرض و الشده و نحوهما، و ظاهر مقابله الرحمه عمومه لكل مصيبه، و إضافه الضر و الرحمه الى ضميره تعالى فى «كَاشِحَاتٍ ضُرُّهُ» و «مُمْسِكَاتٌ رَحْمَتِهِ» لحفظ النسبه لأن المانع من كشف الضر و إمساك الرحمه هو نسبتها اليه تعالى.

و تخصيص الضر و الرحمه به صلى الله عليه و آله و سلم من عموم الحججه له و لغيره لكونه المخاصم الأصيل لهم و قد خوفوه بآلهتهم من دون الله.

و إرجاع ضمير الجمع المؤنث الى ما يدعونه من دون الله لتغليب جانب غير اولى العقل من الأصنام و هو يؤيد ما قدمناه فى قوله: «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» أن التعبير بما لتعميم الحججه للأصنام و أربابها.

و قوله: قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ أمر بالتوكل عليه تعالى كما يدل عليه قوله بعده: «عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ» و هو موضوع موضع نتيجته الحججه كأنه قيل: قل لهم: إني اتخذت الله و كيلا

لأن أمر تدبيرى اليه كما أن أمر خلقى اليه فهو فى معنى قولنا: فقد دلت الحجة على ربوبيته و صدقت ذلك عملا باتخاذة وكيلا فى امورى.

و قوله: عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ تقديم الظرف على متعلقه للدلالة على الحصر أى عليه يتوكلون لا على غيره، و إسناد الفعل الى الوصف من مادته للدلالة على كون المراد المتوكلين بحقيقته معنى التوكل فى الجملة ثناء عليه تعالى بأنه الأهل للتوكل عليه يتوكل أهل البصيره فى التوكل فلا لوم على إن توكلت عليه و قلت: حسبى الله.

قوله تعالى: قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ - الى قوله - عَذَابٌ مُّقِيمٌ المكانه هى المنزله و القدر و هى فى المعقولات كالمكان فى المحسوسات فأمرهم بأن يعملوا على مكانتهم معناه أمرهم أن يستمروا على الحاله التى هم عليها من الكفر و العناد و الصد عن سبيل الله.

و قوله: فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ الظاهر أن «مَنْ» استفهاميه لا موصوله لظهور العلم فيما يتعلق بالجملة لا بالمفرد.

و قوله: وَ يَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ أى دائم و هو المناسب للحلول، و تفكيك أمر العذابين يشهد أن المراد بالأول عذاب الدنيا و بالثانى عذاب الآخرة، و فى الكلام أشد التهديد.

و المعنى قل مخاطبا للمشركين من قومك: يا قوم اعملوا - مستمرين - على حالتكم التى أنتم عليها من الكفر و العناد إني عامل - كما أوامر غير منصرف عنه - فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه و يذله؟ و هو عذاب الدنيا كما فى يوم بدر و يحل عليه و لا يفارقه عذاب دائم و هو عذاب الآخرة.

قوله تعالى: إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ الى آخر الآيه. فى مقام التعليل للأمر الذى فى الآيه السابقه، و اللام فى قوله: «لِلنَّاسِ» للتعليل أى لأجل الناس أن

تتلوه عليهم و تبلغهم ما فيه، و الباء فى قوله: «بِالْحَقِّ» للملابسه أى ملابسا للحق لا يشوبه باطل.

و قوله: فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا أى يتفرع على هذا الإنزال أن من اهتدى فإنما يعود نفعه من سعادته الحياه و ثواب الدار الآخرة الى نفسه، و من ضل و لم يهتد به فإنما يعود شقاؤه و وبالله من عقاب الدار الآخرة الى نفسه فالله سبحانه أجل من أن يتنفع بهداهم أو يتضرر بضلالهم.

و قوله: وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ أى مفوضا اليه أمرهم قائما بتدبير شئونهم حتى توصل ما فيه من الهدى الى قلوبهم.

و المعنى إنما أمرناك أن تهددهم بما قلنا لأننا نزلنا عليك الكتاب بالحق لأجل أن تقرأه على الناس لا غير فمن اهتدى منهم فإنما يعود نفعه الى نفسه و من ضل و لم يهتد به فإنما يعود ضرره الى نفسه و ما أنت و كيلا من قبلنا عليهم تدبر شئونهم فتوصل الهدى الى قلوبهم فليس لك من الأمر شيء.

قوله تعالى: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا إِلَىٰ آخِرِ آيَاتِهِ، قال فى المجمع:

التوفى قبض الشيء على الإيفاء و الإتمام يقال: توفيت حقى من فلان و استوفيته بمعنى انتهى.

تقديم المسند اليه فى الآيه يفيد الحصر أى هو تعالى المتوفى لها لا غير و إذا انضمت الآيه الى مثل قوله تعالى: قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (السجده ١١/)، و قوله: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا (الأنعام ٦١/)، أفادت معنى الأصالة و التبعية أى إنه تعالى هو المتوفى بالحقيقه و ملك الموت و الملائكه الذين هم أعوانه أسباب متوسطه يعملون بأمره.

و قوله: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْمَآئِئَاتِ حِينَ مَوْتِهَا المراد بالأنفس الأرواح المتعلقة بالأبدان لا مجموع الأرواح و الأبدان لأن المجموع غير مقبوض عند الموت و إنما المقبوض هو

الروح يقبض من البدن بمعنى قطع تعلقه بالبدن تعلق التصرف و التدبير و المراد بموتها موت أبدانها إما بتقدير المضاف أو بنحو المجاز العقلي، و كذا المراد بمنامها.

وقوله: وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا معطوف على الأنفس في الجملة السابقة، و الظاهر أن المنام اسم زمان و في منامها متعلق بمتوفى و التقدير و يتوفى الأنفس التي لم تمت في وقت نومها.

ثم فصل تعالى في القول في الأنفس المتوفاه في وقت النوم فقال: «فَيَمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْآخِرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى» أي فيحفظ النفس التي قضى عليها الموت كما يحفظ النفس التي توفاه حين موتها و لا يردها الى بدنها، و يرسل النفس الاخرى التي لم يقض عليها الموت الى بدنها الى أجل مسمى تنتهي اليه الحياه.

و جعل الأجل المسمى غايه للإرسال دليل على أن المراد بالإرسال جنسه بمعنى أنه يرسل بعض الأنفس إرسالا واحدا و بعضها إرسالا بعد إرسال حتى ينتهي الى الأجل المسمى.

و يستفاد من الآيه أولا: أن النفس موجود مغاير للبدن بحيث تفارقه و تستقل عنه و تبقى بحيالها.

و ثانيا: أن الموت و النوم كلاهما توف و إن افترقا في أن الموت توف لا إرسال بعده و النوم توف ربما كان بعده إرسال.

ثم تم الآيه بقوله: «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» فيتذكرون أن الله سبحانه هو المدبر لأمرهم و أنهم اليه راجعون سيحاسبهم على ما عملوا.

قوله تعالى: أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ الْخ؛ «أم» منقطعه أي بل اتخذ المشركون من دون الله شفعا و هم آلهتهم الذين يعبدونهم ليشفعوا لهم عند الله سبحانه كما قال في أول السوره: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ و قال: يَقُولُونَ هُوَ لَآئِن شَفَعْنَا عِنْدَ

وقوله: قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ أمر بأن يردده عليهم بالمناقشه في إطلاق كلامهم فإن من البديهي أن الشفاعة تتوقف على علم في الشفيح يعلم به ما يريد؟ ومن يريد؟ ومن يريده؟ فلا معنى لشفاعه الجماد الذي لا شعور له و كذا تتوقف على أن يملك الشفيح الشفاعة و يكون له حق أن يشفع و لا ملك لغير اللّٰه إلا أن يملكه اللّٰه شيئاً و يأذن له في التصرف فيه فقولهم بشفاعه أوليائهم مطلقاً الشامل لما لا يملكونه و لا علم لهم بإذنه تعالى لهم فيها تخرص.

فالاستفهام في «أَوْ لَوْ كَانُوا» الخ؛ للإنكار و المعنى قل لهم: هل تتخذونهم شفعاء لكم و لو كانوا لا يملكون من عند أنفسهم شيئاً كالملائكة و لا يعقلون شيئاً كالأصنام؟ فإنه سفه.

قوله تعالى: قُلْ لِلّٰهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الخ؛ توضيح و تأكيد لما مر من قوله: «قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا» و اللام في «للّٰه» للملك، و قوله: «لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» في مقام التعليل الجملة السابقه، و المعنى كل شفاعة فإنها مملوكة لله فإنه المالك لكل شيء إلا أن يأذن لأحد في شيء منها فيملكه إياها، و أما استغلال بعض عباده كالملائكة يملك الشفاعة مطلقاً كما يقولون فمما لا يكون قال تعالى: «مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ (يونس ٣)».

و للآيه معنى آخر أدق إذا انضمت الى مثل قوله تعالى: لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ (الأنعام ٥١) و هو أن الشفيح بالحقيقه هو اللّٰه سبحانه و غيره من الشفعاء لهم الشفاعة بإذن منه فقد تقدم في بحث الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب أن الشفاعة ينتهى الى توسط بعض صفاته تعالى بينه و بين المشفوع له لإصلاح حاله كتوسط الرحمه و المغفره بينه و بين عبده المذنب لانجائه من وبال الذنب و تخليصه من العذاب.

و الفرق بين هذا الملك و ما في الوجه السابق أن المالك لا يتصف بمملوكه في الوجه السابق

كما فى ملك زىء للءار بءلاف الملك فى هءا الوجه فإن المالك فىه ىءصف بمملوكه كملك زىء الشءاع لشءاعته.

و قوله: ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ تعليل آخر لكونه يملك الشفاعة جميعا الدال على الحصر و ذلك أن الشفاعة إنما يملكها الذى ينتهى إليه أمر المشفوع له إن شاء قبلها و أصلح حال المشفوع له و أما غيره فإنما يملكها إذا رضى بها و أذن فيها و الله سبحانه هو الذى يرجع إليه العباد دون الذين يدعون من دون الله فالله هو المالك للشفاعة جميعا فقولهم يكون أوليائهم شفعاء لهم مطلقا ثم عبادتهم لهم كذلك بناء بلا مبنى يعتمد عليه.

قوله تعالى: وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَخِيدَهُ اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة الخ؛ المراد من ذكره تعالى وحده جعله مفردا بالذكر من غير ذكر آلهتهم و من مصاديقه قول لا إله إلا الله، و الاشمزاز الانقباض و النفور عن الشىء.

و إنما ذكر من وصفهم عدم إيمانهم بالآخرة لأن ذلك هو الأصل فى اشمزازهم و لو كانوا مؤمنين بالآخرة و أنهم يرجعون إلى الله فيجازيهم بأعمالهم عبدوه دون أوليائهم و لم يرغبوا عن ذكره وحده.

و قوله: وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَشْتَبِهُونَ المراد بالذين من دونه آلهتهم، و الاستبشار سرور القلب بحيث يظهر أثره فى الوجه.

قوله تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ الْخ؛ لما بلغ الكلام مبلغا لا يرجى معه فيهم خير لنسيانهم أمر الآخرة و إنكارهم الرجوع إليه تعالى حتى كانوا يشتمزون من ذكره تعالى وحده أمره صلى الله عليه و آله و سلم أن يذكره تعالى وحده و يذكرهم حكمه بين عباده فيما اختلفوا فيه فى صورته الالتجاء إليه تعالى على ما فيه من الإقرار بالبعث و قد وصف الله تعالى بأنه فاطر السماوات و الأرض أى مخرجها من كتم العدم إلى ساحة الوجود، و عالم الغيب و الشهادة فلا يخفى عليه شىء، و لازمه أن يحكم بالحق

و ينفذ حكمه.

قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الخ؛ المراد بالذين ظلموا هم الذين ظلموا في الدنيا فالفعل يفيد مفاد الوصف، و الظالمون هم المنكرون للمعاد كما قال: أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (الأعراف / ٤٥).

و المعنى: لو أن الظالمين المنكرين للمعاد ضعفى ما فى الأرض من أموال و ذخائر و كنوز لجعلوه فديه من سوء العذاب.

و قوله: وَ يَدَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ البداء و البدو بمعنى الظهور و الحساب و الحسبان العد، و الاحتساب الاعتداد بالشىء بمعنى البناء على عده شيئاً و كثيراً ما يستعمل الحسبان و الاحتساب بمعنى الظن كما قيل و منه قوله: «مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ» أى ما لم يكونوا يظنون لكن فرق الراغب بين الحسبان و الظن حيث قال:

و الحسبان أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله و يكون بعرض أن يعتريه فيه شك، و يقارب ذلك الظن لكن الظن أن يخطر النقيضين بباله فيغلب أحدهما على الآخر.

انتهى.

و مقتضى سياق الآيه أن المراد بيان أنهم سيواجهون يوم القيامة امورا على صفة هى فوق ما تصوروه و أعظم و أهول مما خطر ببالهم لا أنهم يشاهدون أمورا ما كانوا يعتقدونها و يدعون بها و بالجمله كانوا يسمعون أن الله حسابا و وزنا للأعمال و قضاء و نارا و ألوانا من العذاب فيقيسون ما سمعوه-على إنكار منهم له-على ما عهدوه من هذه الامور فى الدنيا فلما شاهدوها إذ ظهرت لهم وجدوها أعظم مما كان يخطر ببالهم من صفتها فهذه الآيه فى وصف عذابه نظير قوله فى وصف نعيم أهل الجنة: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ

ص: ٤٠٩

و أيضا مقتضى السياق أن البدو المذكور من قبيل الظهور بعد الخفاء والانكشاف بعد الاستتار كما يشير اليه قوله تعالى: لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَ كَيْفَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق ٢٢).

قوله تعالى: وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ أَي ظَهَرَ لَهُمْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِمْ بَعْدَ مَا كَانَتْ خَفِيَةً عَلَيْهِمْ فَهُوَ كَقَوْلِهِ: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ (آل عمران ٣٠).

قوله تعالى: وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ أَي وَنَزَلَ عَلَيْهِمْ وَأَصَابَهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا إِذَا سَمِعُوا مِنْ أَوْلِيَاءِ الدِّينِ مِنْ شِدَائِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهِ وَأَنْوَاعِ عَذَابِهِ.

قوله تعالى: فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ الْخ: الْآيَةِ فِي مَقَامِ التَّعْلِيلِ الْبَيَانِيِّ لَمَّا تَقَدَّمَ مِنْ وَصْفِ الظَّالِمِينَ وَلِذَا صَدَرَتْ بِالْفَاءِ لِتَفْرِعَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ تَفْرِعَ الْبَيَانَ عَلَى الْمَبِينِ.

فهو تعالى لما ذكر من حالهم أنهم أعرضوا عن كل آية داله على الحق و لم يصغوا الى الحجج المقامه عليهم و لم يسمعوا موعظه و لم يعتدوا بعبره فجحدا ربوبيته تعالى و أنكروا البعث و الحساب و بلغ بهم ذلك أن اشمأزت قلوبهم إذا ذكر الله وحده.

يَبِينُ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَسْتَدْعِيهِ طَبْعُ الْإِنْسَانِ الْمَائِلِ إِلَى اتِّبَاعِ هَوَى نَفْسِهِ وَ الْإِغْتِرَارِ بِمَا زِينَ لَهُ مِنَ نِعَمِ الدُّنْيَا وَ الْأَسْبَابِ الظَّاهِرِيهِ الْحَافِهِ بِهَا فَالْإِنْسَانُ حَلِيفُ النَّسِيَانِ إِذَا مَسَّهُ الضَّرُّ أَقْبَلَ إِلَى رَبِّهِ وَ أَخْلَصَ لَهُ وَ دَعَاهُ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ رَبُّهُ نِعْمَةً نَسَبَهُ إِلَى عِلْمِ نَفْسِهِ وَ خَبْرَتِهِ وَ نَسِيَ رَبَّهُ وَ جَهَلَ أَنَّهَا فَتْنَةٌ فَتَنَ بِهَا.

فقوله: فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ أَي مَرَضٌ أَوْ شَدَّةٌ «دَعَانَا» أَي خَصَّنَا بِالْإِعْدَاءِ

و انقطع عن غيرنا.

و قوله: ثُمَّ إِذَا حَوْلَتْ أُهُ نِعْمَهُ مَدًا قَالَ إِنْ مَا أُوتِيَتْهُ عَلِيٌّ عَلِمَ التَّخْوِيلَ الإِعْطَاءَ عَلِيٌّ نَحْوَ الْهَبِ، وَ تَقْيِيدَ النِّعْمَةِ بِقَوْلِهِ: «مِنَّا» لِلدَّلَالَةِ عَلِيٌّ كُونَ وَصِفَ النِّعْمَةِ مَحْفُوظًا لَهَا وَ الْمَعْنَى خَوْلَانَهُ نِعْمَهُ ظَاهِرًا كُونَهَا نِعْمَهُ.

وَ ضَمِيرُ «أُوتِيَتْهُ» لِلنِّعْمَةِ بِمَا أَنَّهُ شَيْءٌ أَوْ مَالٌ وَ الْعِنَايَةُ فِي ذَلِكَ بِالإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ لَا يَعْتَرِفُ بِكَوْنِهَا نِعْمَهُ مِنَّا بَلْ يَقْطَعُهَا عَنَّا فَيَسْمِيهَا شَيْئًا أَوْ مَالًا وَ نَحْوَهُ وَ لَا يَسْمِيهَا نِعْمَهُ حَتَّى يَضْطَرُّهُ ذَلِكَ إِلَى الْإِعْتِرَافِ بِمَنْعَمٍ وَ الإِشَارَةُ إِلَيْهِ كَمَا قَالَ: «أُوتِيَتْهُ» فَصَفَحَ عَنِ الْفَاعِلِ لِذَلِكَ وَ التَّعْبِيرُ أَنَّ أَعْنَى «نِعْمَهُ مِنَّا» «إِنْ مَا أُوتِيَتْهُ» مِنْ لَطِيفِ تَعْبِيرِ الْقُرْآنِ، وَ قَدْ وَجَّهُوا تَذْكَيرَ الضَّمِيرِ فِي «أُوتِيَتْهُ» بِوَجْهِهِ أُخْرٍ غَيْرِ مَوْجَّهٍ مِنْ أَرَادَهَا فَلْيَرْجِعْ إِلَى الْمَفْصَلَاتِ.

وَ الْمَلَائِمُ لِسِيَاقِ الْآيَةِ أَنَّ يَكُونُ مَعْنَى «عَلِيٌّ عَلِمَ» عَلِيٌّ عَلِمَ مِنْهُ أَيُّ أَوْتِيَتْ هَذَا الَّذِي أُوتِيَتْ عَلِيٌّ عَلِمَ مِنْهُ وَ خَبْرُهُ بِطَرَقِ كَسْبِ الْمَعَاشِ وَ اقْتِنَاءِ الثَّرْوَةِ وَ جَمْعِ الْمَالِ.

وَ قَوْلُهُ: بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَيُّ بَلِ النِّعْمَةِ الَّتِي خَوْلَانَهُ مِنْ فَتْنَةٍ أَيُّ ابْتِلَاءٍ وَ امْتِحَانٍ نَمْتَحِنُهُ بِذَلِكَ وَ لَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ بِذَلِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَاصَابُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ضَمِيرُ «قَدْ قَالَهَا» رَاجِعٌ إِلَى الْقَوْلِ السَّابِقِ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ مَقَالُهُ أَوْ كَلِمُهُ.

وَ الْآيَةُ رَدٌّ لِقَوْلِهِمْ وَ إِثْبَاتٌ لِكَوْنِهَا فِتْنَةٌ يَمْتَحِنُونَ بِهَا بِأَنَّهُمْ لَوْ أَوْتَوْهَا عَلِيٌّ عَلِمَ مِنْهُمْ وَ اِكْتَسَبُوهَا بِحَوْلِهِمْ وَ قَوْلُهُمْ لِأَعْنَى عَنْهُمْ كَسَبَهُمْ وَ لَمْ يَصِبْهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَ حَفْظُوهَا لِأَنْفُسِهِمْ وَ تَنَعَمُوا بِهَا وَ لَمْ يَهْلِكُوا دُونَهَا وَ لَيْسَ كَذَلِكَ فَهؤلاءِ الَّذِينَ قَبْلَهُمْ قَالُوا هَذِهِ الْمَقَالَةُ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ كَسَبَهُمْ وَ أَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا.

وَ الظَّاهِرُ أَنَّ الْآيَةَ تُشِيرُ بِقَوْلِهِ: «قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» إِلَى قَارُونَ وَ أَمْثَالِهِ وَ قَدْ حَكَى

عنه قول: «إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلِيٌّ عَلِمَ عِنْدِي» في قصته من سورة القصص.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيَصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ الإِشَارَةُ بِهِؤُلَاءِ إِلَى قَوْمِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالْمَعْنَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ قَوْمِكَ سَيَلْهُمُ سَبِيلٌ مِنْ قَبْلِهِمْ سَيَصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ كَسْبِهِمْ وَبِالْأَيْدِي عَمَلُهُمْ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ لَهُ.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ الخ؛ جواب آخر عن قول القائل منهم «إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلِيٌّ عَلِمَ» وقد كان الجواب الأول «فَمَدَّ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» الخ؛ جواباً من طريق النقص وهذا جواب من طريق المعارضه بالإشارة الى دلاله الدليل على أن الله سبحانه هو الذي يبسط الرزق و يقدر.

بيان ذلك: أن سعى الإنسان عن علم وإرادته لتحصيل الرزق ليس سبباً تاماً موجبا لحصول الرزق وإلا لم يتخلف و من البين خلافه فكم من طالب رجع آيساً وساع خاب سعيه.

فهناك علل و شرائط زمانيه و مكانيه و موانع مختلفه باختلاف الظروف خارجه عن حد الإحصاء إذا اجتمعت و توافقت أنتج ذلك حصول الرزق (١).

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٥٣ الى ٦١]

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَ أُنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ (٥٤) وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْبَ رَبِّي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَ اسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١)

ص: ٤١٢

(١-١). الزمر ٣٨-٥٢: بحث في بسط الرزق بمشيئته تعالى؛ بحث روائي في توفى الانفس حين موتها.

قوله تعالى: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ الْخ؛ أمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَدْعُوهُمْ مِنْ قَبْلِهِ وَيُنَادِيهِمْ بِلَفْظِهِ يَا عِبَادِيَ وَفِيهِ تَذْكَيرٌ بِحُجَّةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ دَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ عِبَادَتِهِمْ وَتَرْغِيبٌ لَهُمْ إِلَىٰ اسْتِجَابَةِ الدَّعْوَةِ أَمَّا التَّذْكَيرُ بِالْحُجَّةِ فَلِأَنَّهُ يَشِيرُ إِلَىٰ أَنَّهُمْ عِبَادُهُ وَهُوَ مَوْلَاهُمْ وَ مِنْ حَقِّ الْمَوْلَىٰ عَلَىٰ عَبْدِهِ أَنْ يَطِيعَهُ وَيَعْبُدَهُ فَلَهُ أَنْ يَدْعُوهُ إِلَىٰ طَاعَتِهِ وَ عِبَادَتِهِ، وَأَمَّا تَرْغِيبُهُمْ إِلَىٰ اسْتِجَابَةِ الدَّعْوَةِ فَلَمَّا فِيهِ مِنَ الْإِضَافَةِ إِلَيْهِ

تعالى الباعث لهم الى التمسك بذيل رحمته و مغفرته.

وقوله: الَّذِينَ اسْرِفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمُ الْإِسْرَافَ-على ما ذكره الراغب-تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان و إن كان ذلك في الإنفاق أشهر؛ و كأن الفعل مضمن معنى الجنايه أو ما يقرب منها و لذا عدى بعلی. و الإسراف على النفس هو التعدى عليها باقتراف الذنب أعم من الشرك و سائر الذنوب الكبيره و الصغيره على ما يعطيه السياق.

و قال جمع: إن المراد بالعباد المؤمنون و قد غلب استعماله فيهم مضافا اليه تعالى في القرآن فمعنى يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم أيها المؤمنون المذنبون.

و يدفعه أن قوله: «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ اسْرِفُوا» الى تمام سبع آيات ذو سياق واحد متصل يفصح عن دعوتهم و قوله فى ذيل الآيات: «بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكْ آيَاتِي فَكَذَّبَتْ بِهَا وَاسْتَكْبَرَتْ» الخ؛ كالصريح أو هو صريح فى شمول العباد للمشركين.

و ما ورد فى كلامه تعالى من لفظ «عِبَادِيَ» و المراد به المؤمنون بضعه عشر موردا جميعها محفوفه بالقرينه و ليس بحيث ينصرف عند الإطلاق الى المؤمنين كما أن الموارد التى أطلق فيها و اريد به الأعم من المشرك و المؤمن فى كلامه كذلك.

و بالجمله شمول «عِبَادِيَ» فى الآيه للمشركين لا- ينبغى أن يرتاب فيه، و القول بأن المراد به المشركون خاصه نظرا الى سياق الآيات كما نقل عن ابن عباس أقرب الى القبول من تخصيصه بالمؤمنين.

و قوله: لَا تَقْنُطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الْقَنُوطُ اليأس، و المراد بالرحمه بقرينه خطاب المذنبين و دعوتهم هو الرحمه المتعلقة بالآخره دون ما هى أعم الشامله للدنيا و الآخره و من المعلوم أن الذى يفتقر اليه المذنبون من شئون رحمه الآخره بلا واسطه هو المغفره فالمراد بالرحمه المغفره و لذا علل النهى عن القنوط من الرحمه بقوله: «إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا» .

و فى الآيه التفات من التكلم الى الغيبه حيث قيل «إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ» و لم يقل: إني أغفر و ذلك للإشاره الى أنه الله الذى له الأسماء الحسنى و منها أنه غفور رحيم كأنه يقول لا تقنطوا من رحمتى فإنى أنا الله أغفر الذنوب جميعا لأن الله هو الغفور الرحيم.

□
و قوله: إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً تعليل للنهى عن القنوط و إعلام بأن جميع الذنوب قابله للمغفره عامه لكنها تحتاج الى سبب مخصص و لا تكون جزافاً، و الذى عده القرآن سبباً للمغفره أمران: الشفاعة (1) و التوبه لكن ليس المراد فى قوله: «إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً» المغفره الحاصله بالشفاعه لأن الشفاعه لا تنال الشرك بنص القرآن فى آيات كثيره و قد مر أيضاً أن قوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (النساء / ٤٨) ناظر الى الشفاعه و الآيه أعنى قوله: «إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً» موردها الشرك و سائر الذنوب.

فلا يبقى إلا أن يكون المراد المغفره الحاصله بالتوبه و كلامه تعالى صريح فى مغفره الذنوب جميعا حتى الشرك بالتوبه.

على أن الآيات السبع- كما عرفت- كلام واحد ذو سياق واحد متصل ينهى عن القنوط -و هو تمهيد لما يتلوه- و يأمر بالتوبه و الإسلام و العمل الصالح و ليست الآيه الاولى كلاماً مستقلاً منقطعاً عما يتلوه حتى يحتمل عدم تقييد عموم المغفره فيها بالتوبه و أى سبب آخر مفروض للمغفره.

□
و الآيه أعنى قوله: «إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً» من معارك الآراء بينهم فقد ذهب قوم الى تقييد عموم المغفره فيها بالشرك و سائر الكبائر التى وعد الله عليها النار مع عدم تقييد العموم بالتوبه فالمغفره لا تنال إلا الصغائر من الذنوب.

ص: ٤١٥

١- ١). و قد مر الكلام فيها فى مباحث الشفاعه فى الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: «وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ عطف على قوله: «لَا تَقْنَطُوا»، و الإنايه الى الله الرجوع اليه و هو التوبه، و قوله: «إِلَىٰ رَبِّكُمْ» من وضع الظاهر موضع المضمرة و كان مقتضى الظاهر أن يقال: و أنبئوا اليه و الوجه فيه الإشاره الى التعليل فإن الملائك في عبادته الله سبحانه صفه ربويه.

و المراد بالإسلام التسليم لله و الانقياد له فيما يريد، و إنما قال: «وَأَسْلِمُوا لَهُ» و لم يقل:

و آمنوا به لأن المذكور قبل الآيه و بعدها استكبارهم على الحق و المقابل له الإسلام.

و قوله: «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ» متعلق بقوله: «وَأَنبِئُوا وَأَسْلِمُوا» و المراد بالعذاب عذاب الآخرة بقريته الآيات التاليه، و يمكن على بعد أن يراد مطلق العذاب الذى لا- تقبل معه التوبه و منه عذاب الاستئصال قال تعالى: «فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ (المؤمن ٨٥)».

و المراد بقوله: «ثُمَّ لَا- تُنصِرُونَ» أن المغفره لا- تدرككم بوجه لعدم تحقق سببها فالتوبه مفروضه العدم و الشفاعة لا- تشمل الشرك.

قوله تعالى: «وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لَا- تَشْعُرُونَ» الخطاب عام للمؤمن و الكافر كالخطابات السابقه و القرآن قد انزل الى الفريقين جميعا.

و فى الآيه أمر باتباع أحسن ما انزل من الله قيل: المراد به اتباع الأحكام من الحلال و الحرام دون القصص، و قيل: اتباع ما أمر به و نهى عنه كاتيان الواجب و المستحب و اجتناب الحرام و المكروه دون المباح، و قيل: الاتباع فى العزم و هى الواجبات و المحرمات، و قيل:

اتباع الناسخ دون المنسوخ، و قيل: ما أنزل هو جنس الكتب السماويه و أحسنها القرآن فاتباع أحسن ما انزل و هو اتباع القرآن.

و الإنصاف أن قوله فى الآيه السابقه: «وَأَسْلِمُوا لَهُ» يشمل مضمون كل من هذه الأقوال

فحمل قوله: «وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ» على شىء منها لا يخلو عن تكرار من غير موجب.

ولعل المراد من أحسن ما أنزل الخطابات التي تشير الى طريق استعمال حق العبوديه فى امتثال الخطابات الإلهيه الاعتقاديه و العمليه و ذلك كالخطابات الداعيه الى ذكر الله تعالى بالاستغراق و الى حبه و الى تقواه حق ثقافته و الى إخلاص الدين له فإن اتباع هذه الخطابات يحيى الإنسان حياه طيبه و ينفخ فيه روح الإيمان و يصلح أعماله و يدخله فى ولايه الله تعالى و هى الكرامه ليست فوقها كرامه.

و قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَعْتَهُ وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ أنسب لهذا المعنى فإن الدعوه الى عمل بالتخويف من مفاجاه الحرمان و مباغته المانع إنما تكون غالباً فيما يساهل المدعو فى أمره و يطيب نفسه بسوف و لعل، و هذا المعنى أمس بإصلاح الباطن منه بإصلاح الظاهر و الإيمان بأجساد الأعمال، و يقرب منه قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ (الأنفال / ٢٤).

قوله تعالى: أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ الخ؛ قال فى المجمع: التفريط إهمال ما يجب أن يتقدم فيه حتى يفوت وقته، و قال: التحسر الاغتمام مما فات وقته لانحساره عنه بما لا يمكن استدراكه. انتهى. و قال الراغب: الجنب الجارحه. قال: ثم يستعار فى الناحيه التي تليها لعادتهم فى استعاره سائر الجوارح لذلك نحو اليمين و الشمال. انتهى. فجنب الله جانبه و ناحيته و هى ما يرجع اليه تعالى مما يجب على العبد أن يعامله و مصداق ذلك أن يعبده وحده و لا يعصيه و التفريط فى جنب الله التقصير فى ذلك.

و قوله: وَ إِنْ كُنْتُ لِمِنَ السَّاخِرِينَ «أَنْ» مخففه من الثقيله، و الساخرين اسم فاعل من سخر بمعنى استهزأ.

و معنى الآية إنما نخطبكم بهذا الخطاب حذر أن تقول أو لثلا تقول نفس منكم يا حسرتا على ما قصرت في جانب الله و إنى كنت من المستهزئين، و مواطن القول يوم القيامة.

قوله تعالى: أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ضمير تقول للنفس، و المراد بالهدايه الإرشاد و إراءه الطريق، و المعنى ظاهر و هو قطع للعدر.

قوله تعالى: أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ لو للتمنى و الكره الرجعه، و المعنى أو تقول نفس متمنيه حين ترى العذاب يوم القيامة: ليت لى رجعه الى الدنيا فأكون من المحسنين.

قوله تعالى: بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكْ أَيْتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَ اسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ رد لها و جواب لخصوص قولها ثانيا: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» و موطن الجواب يوم القيامة كما أن موطن القول ذلك و لسياق الجواب شهاده عليه.

و قد فصل بين قولها و جوابه بقوله: «أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى» الخ؛ و لم يجب إلا عن قولها: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي» الخ.

و الوجه فى الفصل أن الأقوال الثلاثة المنقوله عنها مرتبه على ترتيب صدورها عن المجرمين يوم القيامة فإذا قامت القيامة و رأى المجرمون أن اليوم يوم الجزاء بالأعمال و قد فرطوا فيها و فاتهم وقتها تحسروا على ما فرطوا و نادوا بالحسره على تفریطهم «يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ» قال تعالى: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ تَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتْنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا (الأنعام ٣١).

ثم إذا حوسبوا و أمر المتقون بدخول الجنة و قيل وَ امَّا زُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (يس / ٥٩) تعلقوا بقولهم: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» .

ثم إذا امروا بدخول النار فأوقفوا عليها ثم ادخلوا فيها تمنوا الرجوع الى الدنيا ليحسنوا فيها فيسعدوا «أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً» قال تعالى: وَ لَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ

النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذَّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (الأَنْعَامُ ٢٧)، وقال حاكيا عنهم: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (المؤمنون ١٠٧).

ثم لما نقل الأقوال على ما بينها من الترتيب أخذ في الجواب و لو أخر القول المجاب عنه حتى يتصل بالجواب أو قدم الجواب حتى يتصل به اختل النظم (١).

وقد خص قولهم الثاني: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي» الخ؛ بالجواب و أمسك عن جواب قولهم الأول و الثالث لأن في الأول حديث استهزائهم بالحق و أهله و في الثالث تمنيتهم للرجوع الى الدنيا و الله سبحانه يزجر هؤلاء يوم القيامة و يمنعهم أن يكلموه و لا يجيب عن كلامهم كما يشير الى ذلك قوله: قَالُوا رَبَّنَا عَلَّمْنَا مَا لَا كُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ أَحْسَبُ فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونِ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَى وُكُومَ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَاعِفُونَ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاطِرُونَ (المؤمنون ١١١).

قوله تعالى: وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ الكذب على الله هو القول بأن له شريكا و أن له ولدا و منه البدعه في الدين.

و سواد الوجه آية الذلة و هي جزاء تكبرهم و لذا قال: «أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ» .

قوله تعالى: وَ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الظاهر أن مفازه مصدر ميمي بمعنى الفوز و هو الظفر بالمراد، و الباء في «بِمَفَازَتِهِمْ» للملابسه أو السببيه فالفوز الذي يقضيه الله لهم اليوم سبب تنجيتهم.

ص: ٤١٩

و قوله: «لَا يَمَسُّهُمْ» الخ؛ بيان لنتجيتهم كأنه قيل: ينجيهم لا يمسهم السود من خارجهم ولا هم يحزنون في أنفسهم.

و للآيه نظر الى قوله تعالى في ذيل آيات سوره المؤمنون المنقوله آنفا: «إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ» فتدبر و لا تغفل (١).

[سوره الزمر (٣٩): الآيات ٦٢ الى ٧٥]

اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَني أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكَتَ لَيَجْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهُ فَاعِلٌ وَرُكْنٌ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ يُنظَرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) وَ تَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)

ص: ٤٢٠

بيان:

قوله تعالى: **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** هذا هو الذى ذكر اعتراف المشركين به من قبل فى قوله: **وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** (الآيه ٣٨ من السوره) و بنى عليه استناد الأشياء فى تدبيرها اليه.

و الجملة فى المقام تمهيد لما يذكر بعدها من كون التدبير مستندا اليه لما تقدم مرارا أن الخلق

ص: ٤٢١

لا ينفك عن التدبير فانتقل في المقام من استناد الخلق اليه الى اختصاص الملك به و هو قوله:

«لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» و من اختصاص الملك به الى كونه هو الوكيل على كل شىء القائم مقامه فى تدبير أمره.

و قد تقدم فى ذيل قوله: ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (الأنعام ١٠٢/) فى الجزء السابع من الكتاب كلام فى معنى عموم الخلقه لكل شىء.

قوله تعالى: وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ و ذلك لأن انتهاء خلق كل شىء وجوده اليه يقتضى أن يكون تعالى هو المالك لكل شىء فلا يملك شىء من الأشياء لا نفسه و لا شيئاً مما يترشح من نفسه إلا بتمليك الله تعالى، فهو لفقره مطلقاً لا يملك تدبيراً و الله المالك لتدبيره.

و أما تمليكه تعالى له نفسه و عمله فهو أيضاً نوع من تدبيره تعالى مؤكداً لملكه غير ناف و لا مناف حتى أن توكيله الملائكة على شىء من الأمر من شئون و كالتة تعالى عليهم لا تفويض للأمر و إبطال للوكالة فافهم ذلك.

و بالجملة إذ كان كل شىء من الأشياء لا يملك لنفسه شيئاً كان سبحانه هو الوكيل عليه القائم مقامه المدبر لأمره و الأسباب و المسببات فى ذلك سواء فالله سبحانه هو ربها وحده.

فقد تبين أن الجملة مسوقه للإشارة الى توحده فى الربوبية و هو المقصود بيانه فقول بعضهم إن ذكر ذلك بعد قوله: «اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ» للدلالة على أنه هو الغنى المطلق و أن المنافع و المضار راجعه الى العباد، أو أن المراد أنه تعالى حفيظ على كل شىء فيكون إشاره الى أن الأشياء محتاجه اليه فى بقائها كما أنها محتاجه اليه فى حدوثها، أجنبى عن معنى الآية بالمره.

قوله تعالى: لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الخ؛ المقاليد- كما قيل- بمعنى المفاتيح و لا مفرد له من لفظه.

و مفاتيح السماوات و الأرض مفاتيح خزائنها قال تعالى: وَ لِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ

وَ الْأَرْضِ (المنافقون ٧) و خزائنها غيبها الذى يظهر منه الأشياء و النظام الجارى فيها فتخرج الى الشهاده قال تعالى: وَ إِن مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (الحجر ٢١).

و ملك مقاليد السماوات و الأرض كناية عن ملك خزائنها التى منها وجودات الأشياء و أرزاقها و أعمارها و آجالها و سائر ما يواجهها فى مسيرها من حين تبتدى منه تعالى الى حين ترجع اليه.

و هو أعنى قوله: «لَهُ مَقَالِيدُ» الخ؛ فى مقام التعليل لقوله: «وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ» و لذا جىء به مفصولا من غير عطف.

و قوله: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ قد تقدم أن قوله:

«اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ» -الى قوله- وَ الْأَرْضِ» ذكر خلاصه ما تفيده الحجج المذكوره فى خلال الآيات السابقه، و عليه فقوله: «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ» الخ؛ معطوف على قوله: «اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ» و المعنى الذى تدل عليه الآيات و الحجج المتقدمه أن الله سبحانه خالق فما لك فوكيل على كل شىء أى متوحد فى الربوبيه و الالهيه و الذين كفروا بآيات ربهم فلم يوحده و لم يعبدوه أولئك هم الخاسرون.

قوله تعالى: قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ لما أورد سبحانه خلاصه ما تنطق به الحجج المذكوره فى السوره من توحده تعالى بالخلق و الملك و التدبير و لازم ذلك توحده تعالى فى الربوبيه و الالهيه أمر نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن يخاطب المشركين المقترحين عليه أن يعبد آلهتهم أنه لا يبقى مع هذه الحجج الباهره الظاهره محل لعبادته غير الله و إجابته اقتراحهم و هل هى إلا الجهل.

فقوله: أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ الفاء لتفريع مضمون الجملة على قوله: «اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ» الى آخر الآيتين، و الاستفهام إنكارى، و «غير الله» مفعول «أعبد» قدم

عليه لتعلق العناية به، و«تَأْمُرُونِي» معترض بين الفعل و مفعوله و أصله تأمرؤني أدغمت فيه إحدى النونين فى الأخرى.

و قوله: أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ خطابهم بصفه الجهل للإشارة الى أن أمرهم إياه بعباده غير الله و اقتراحهم بذلك مع ظهور آيات وحدته فى الربوبية و الألوهية ليس إلا جهلا منهم.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ الْخ؛ فيه تأييد لمدلول الحجج العقلية المذكوره بالوحي كأنه قيل: لا تعبد غير الله فإنه جهل و كيف يسوغ لك أن تعبد و قد دل الوحي على النهى عنه كما دل العقل على ذلك.

فقوله: وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ اللام للقسام، و قوله: «لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ» بيان لما اوحى اليه، و تقدير الكلام و أقسم لقد أوحى اليك لئن أشركت، الخ؛ و إلى الذين من قبلك من الأنبياء و الرسل لئن أشركت ليحبطن عملكم و لتكونن من الخاسرين.

و خطاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و سائر الأنبياء عليهم السّلام بالنهى عن الشرك و إنذارهم بحبط العمل و الدخول فى زمرة الخاسرين خطاب و إنذار على حقيقه معناهما كيف؟ و غرض السوره- كما تقدمت الإشارة اليه- بيان أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مأمور بالإيمان بما يدعو المشركين الى الإيمان به مكلف بما يكلفهم و لا يسعه أن يجيبهم الى ما يقترحون به عليه من عباده آلهتهم.

و أما كون الأنبياء معصومين بعصمه إلهيه يمتنع معها صدور المعصيه عنهم فلا يوجب ذلك سقوط التكليف عنهم و عدم صحه توجهه اليهم و لو كان كذلك لم تتصور فى حقهم معصيه كسائر من لا تكليف عليه فلم يكن معنى لعصمتهم.

على أن العصمه- و هى قوه يمتنع معها صدور المعصيه- من شئون مقام العلم- كما تقدمت الإشارة اليه فى تفسير قوله تعالى: وَ مَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ (النساء ١١٣)- لا تنافى ثبوت الاختيار الذى هو من شئون مقام العمل و صحه صدور الفعل و الترك عن الجوارح.

فمنع العلم القطعى بمفسده شىء منعا قطعيا عن صدوره عن العالم به كمنع العلم بأثر السم عن شربه لا ينافى كون العالم بذلك مختارا فى الفعل لصحه صدوره و لا صدوره عن جوارحه فالعصمه لا تنافى بوجه التكليف.

وقوله: وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ظهر معناه مما تقدم و يمكن أن يكون اللام فى الخاسرين مفيدا للعهد، والمعنى و لتكونن من الخاسرين الذين كفروا بآيات الله و أعرضوا عن الحجج الداله على وحدانيته.

قوله تعالى: يَلِ اللَّهُ فَاعْتِدُوا وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ إضراب عن النهى المفهوم من سابق الكلام كأنه قيل: فلا تعبد غير الله بل الله فاعبد، و تقديم اسم الجلاله للدلاله على الحصر.

و الفاء فى «فَاعْتِدُوا» زائده للتأكيد على ما قيل، وقيل: هى فاء الجزاء و قد حذف شرطه و التقدير بل إن كنت عابدا أو عاقلا فاعبد الله.

وقوله: وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ أى و كن بعبادتك له من الذين يشكرونه على نعمه الداله على توحده فى الربوبيه و الالهيه، و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (آل عمران ١٤٤) وقوله: وَ لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَّاكِرِينَ (الأعراف ١٧) أن مصداق الشاكرين بحقيقه معنى الكلمه هم المخلصون بفتح اللام فراجع.

قوله تعالى: وَ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ الى آخر الآيه قدر الشىء هو مقداره و كميته من حجم أو عدد أو وزن و ما أشبه ذلك ثم استعير للمعنويات من المكانه و المنزله.

فقوله: «وَ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» تمثيل أريد به عدم معرفتهم به تعالى واجب المعرفة إذ لم يعرفوه من حيث المعاد و رجوع الأشياء اليه كما يدل عليه تعقيب الجمله بقوله: «وَ الْمَأْرُضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» الى آخر السوره حيث ذكر فيه انقطاع كل سبب دونه يوم القيامه، و قبضه الأرض و طيه السماوات و نفخ الصور لإيماته الكل ثم لإحيائهم و إشراق الأرض بنور

ربها و وضع الكتاب و المجيء بالنبيين و الشهداء و القضاء و توفيه كل نفس ما عملت و سوق المجرمين الى النار و المتقين الى الجنة فمن كان شأنه فى الملك و التصرف هذا الشأن و عرف بذلك أوجبت هذه المعرفة و الاقبال اليه بعبادته وحده و الإعراض عن غيره بالكليه.

لكن المشركين لما لم يؤمنوا بالمعاد و لم يقدروه حق قدره و لم يعرفوه واجب معرفته أعرضوا عن عبادته الى عباده من سواه.

و قوله: وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَى الْأَرْضُ بِمَا فِيهَا مِنَ الْأَجْزَاءِ وَ الْأَسْبَابِ الْفَعَالَهُ بَعْضُهَا فِى بَعْضٍ، وَ الْقَبْضَةُ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْمَقْبُوضَةِ، وَ الْقَبْضُ عَلَى الشَّيْءِ وَ كَوْنُهُ فِى الْقَبْضِ كِتَابَهُ عَنِ التَّسَلُّطِ التَّامِّ عَلَيْهِ أَوْ انْحِصَارِ التَّسَلُّطِ عَلَيْهِ فِى الْقَابِضِ وَ الْمُرَادُ هَاهُنَا الْمَعْنَى الثَّانِي كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (الانفطار ١٩) وَ غَيْرِهِ مِنَ الْآيَاتِ.

و قوله: وَ السَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ يَمِينُ الشَّيْءِ يَدُهُ الْيَمْنَى وَ جَانِبُهُ الْقَوَى وَ يَكْنَى بِهَا عَنِ الْقَدْرَةِ، وَ يَسْتَفَادُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ مُحْصَلَ الْجُمْلَتَيْنِ أَعْنَى قَوْلِهِ: «وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ السَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ» تَقَطُّعَ الْأَسْبَابِ الْأَرْضِيَّةِ وَ السَّمَاوِيَّةِ وَ سَقُوطِهَا وَ ظُهُورِ أَنَّ لَا مُؤَثِّرَ فِى الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ.

و قوله: سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ تَنْزِيَهُ لَهُ تَعَالَى عَمَّا أَشْرَكُوا غَيْرَهُ فِى رَبُوبِيَّتِهِ وَ الْوَهِيَّتِهِ فَنَسَبُوا تَدْبِيرَ الْعَالَمِ إِلَى آلِهَتِهِمْ وَ عِبَدُوهَا.

قوله تعالى: وَ نُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَبَّحَقَ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ الْخ؛ ظَاهِرٌ مَا وَرَدَ فِى كَلَامِهِ تَعَالَى فِى مَعْنَى نَفْخِ الصُّورِ أَنَّ النُّفْخَ نَفْخَتَانِ نَفْخَهُ لِلْإِمَاتَةِ وَ نَفْخَهُ لِلْإِحْيَاءِ، وَ هُوَ الَّذِى تَدُلُّ عَلَيْهِ رَوَايَاتُ أُمَّهِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَ بَعْضُ مَا وَرَدَ مِنْ طَرَفِ أَهْلِ السَّنَةِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ إِنْ كَانَ بَعْضُ آخَرِ مِنْ رَوَايَاتِهِمْ لَا يَخْلُو عَنْ إِبْهَامٍ وَ لَذَا اخْتَارَ بَعْضُهُمْ أَنَّهَا ثَلَاثُ نَفْخَاتٍ نَفْخَهُ لِلْإِمَاتَةِ وَ نَفْخَهُ لِلْإِحْيَاءِ وَ الْبَعْثِ وَ نَفْخَهُ لِلْفَرْعِ

و الصعق و قال بعضهم: إنها أربع نفخات و لكن دون إثبات ذلك من ظواهر الآيات خرط القتاد.

و لعل انحصار النفخ في نفختي الإمامة و الإحياء هو الموجب لتفسيرهم الصعق في النفخة الاولى بالموت مع أن المعروف من معنى الصعق الغشيه، قال في المصباح: يقال: صعق الرجل صعقا و تصاعقا أى غشى عليه و أصعقه غيره، ثم قال: و قوله تعالى: «فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ» أى مات. انتهى.

و قوله: إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ استثناء من أهل السماوات و الأرض و اختلف في من هم؟

نعم لو تصور لله سبحانه خلق وراء السماوات و الأرض جاز استثناءهم من أهلها استثناء منقطعاً أو قيل: إن الموت إنما يلحق الأجساد بانقطاع تعلق الأرواح بها و أما الأرواح فإنها لا تموت فالأرواح هم المستثنون استثناء متصل، و يؤيد هذا الوجه بعض (١) الروايات المرويه عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

و قوله: ثُمَّ نُفِّخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِيهَا يَنْظُرُونَ ضمير «فيه» للصور، و «أخرى» صفه محذوف موصوفها أى نفخه أخرى، و قيام جمع قائم و «يَنْظُرُونَ» أى ينتظرون أو من النظر بمعناه المعروف.

و المعنى: و نفخ في الصور نفخه اخرى فإذا هم قائمون من قبورهم ينتظرون ما يؤمرون أو ينتظرون ما ذا يفعل بهم أو فإذا هم قائمون ينتظرون نظر المبهوت المتحير.

و لا- ينافى ما في هذه الآيه من كونهم بعد النفخ قياما ينتظرون ما فى قوله: وَ نُفِّخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (يس ٥١) أى يسرعون، و قوله: يَوْمَ يُنْفَخُ فِي

ص: ٤٢٧

١- ١). و هو ما ورد فى قوله تعالى «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» المؤمن: ١٦ أن الجواب بقوله «لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» من أرواح الأنبياء و غير ذلك من الروايات.

الصُّورِ فَتَيَّاتُونَ أَفْوَاجًا (النبا ١٨)، وقوله: وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ (النمل ٨٧) فَإِنْ فزعهم فالنفخ و إسراعهم في المشى الى عرصه المحشر و إتيانهم إليها أفواجا كقيامهم ينظرون حوادث متقارنه لا يدفع بعضها بعضا.

قوله تعالى: وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا إلى آخر الآيه؛ إشراق الأرض إضاءتها، و النور معروف المعنى و قد استعمل النور في كلامه تعالى في النور الحسى كثيرا و اطلق أيضا على الإيمان و على القرآن بعنايه أن كلا منهما يظهر للمتلبس به ما خفى عليه لولاه قال تعالى: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ (البقره ٢٥٧)، و قال:

فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا (التغابن ٨).

و لا يبعد أن يراد-و الله أعلم-من إشراق الأرض بنور ربها ما هو خاصه يوم القيامة من انكشاف الغطاء و ظهور الأشياء بحقائقها و بدو الأعمال من خير أو شر أو طاعه أو معصيه أو حق أو باطل للناظرين، و إشراق الشىء هو ظهوره بالنور و لا ريب أن مظهرها يومئذ هو الله سبحانه إذ الأسباب ساقطه دونه فالأشياء مشرقه بنور مكتسب منه تعالى.

و هذا الإشراق و إن كان عاما لكل شىء يسعه النور لكن لما كان الغرض بيان ما للأرض و أهله يومئذ من الشأن خصها بالبيان فقال: «وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا» و ذكره تعالى بعنوان ربوبيه الأرض تعريضا للمشركين المنكرين لربوبيته تعالى للأرض و ما فيها.

و المراد بالأرض مع ذلك الأرض و ما فيها و ما يتعلق بها كما تقدم أن المراد بالأرض في قوله: «وَ الْأَرْضُ جَمِيعًا قَبِضَتُهُ» ذلك.

و يستفاد ما قدمناه من مواضع كثيره من كلامه تعالى كقوله تعالى: لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَ كَيْفَ بَصِيرَةٍ الْيَوْمَ حديد (ق ٢٢) و قوله: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ (آل عمران ٣٠)، و قوله: يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بَأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصُدُّ النَّاسَ أَسْتَاتًا لِّيُرَوَّا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

خَيْرًا يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الزلزال ٨) و آيات اخرى كثيرة تدل على ظهور الأعمال و تجسمها و شهاده الأعضاء و غير ذلك.

و قوله: وَ وُضِعَ الْكِتَابُ قِيلَ: المراد به الحساب و هو كما ترى و قيل: المراد به صحائف الأعمال التى يحاسب عليها و يقضى بها، و قيل: المراد به اللوح المحفوظ و يؤيده قوله تعالى: هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنْ أَنْ كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (الجاثية ٢٩).

و قوله: وَ جِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَدَاءِ أما النبيون فليسألوا عن أداء رسالتهم كما يشعر به السياق قال تعالى: فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (الأعراف / ٦)، و أما الشهداء و هم شهداء الأعمال فليؤدوا ما تحملوه من الشهادة قال تعالى: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (النساء ٤١).

و قوله: وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يظَلَمُونَ ضمير الجمع للناس المعلوم من السياق، و القضاء بينهم هو القضاء فيما اختلفوا فيه الوارد كرارا فى كلامه تعالى قال: إِنْ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (يونس ٩٣).

قوله تعالى: وَ وُضِعَ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ التوفيه الإعطاء بالتمام و قد علقته بنفس ما عملت دون جزائه و يقطع ذلك الريب فى كونه قسطا و عدلا من أصله و الآية بمنزله البيان لقوله: «وَ هُمْ لَا يظَلَمُونَ» .

و قوله: وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ أى ليس حكمه بهذا النمط من وضع الكتاب و المجيء بالنبيين و الشهداء عن جهل منه و حاجه بل لأن يجرى حكمه على القسط و العدل فهو أعلم بما يفعلون.

و الآية السابقة تتضمن القضاء و الحكم و هذه الآية إجراؤه و الآيات اللاحقه تفصيل إجرائه.

قوله تعالى: وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ إِلَى آخِرِ آيَةِ السُّجُودِ بِالْفَتْحِ

فالسكون-على ما فى المجمع-الحث على السير،و الزمر جمع زمره و هى-كما فى الصحاح-الجماعه من الناس.

و المعنى «وَسِيقَ» و حث على السير «الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا» جماعه بعد جماعه «حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا» بلغوها «فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا» لأجل دخولهم و هى سبعة قال تعالى: لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ (الحجر ٤٤) «وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا» و هم الملائكه الموكلون عليها يقولون لهم تهجينا و إنكارا عليهم «أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ» من نوعكم من البشر «يَتْلُونَ» و يقرءون «عَلَيْكُمْ آيَاتٍ رَبِّكُمْ» من الحجج الداله على وحدانيته و وجوب عبادته «قَالُوا» بلى قد جاءوا و تلوا «وَلَكِنْ» كفرنا و كذبنا و «حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ» و كلمه العذاب هى قوله تعالى حين أمر آدم بالهبوط: وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقره ٣٩).

قوله تعالى: قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ القائل-على ما يفيدہ السياق-خزنه جهنم،و فى قوله: «فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ» دلالة على أن هؤلاء الذين كفروا هم المكذبون بآيات الله المعاندون للحق.

قوله تعالى: وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا فَتِحَتْ أَبْوَابُهَا لم يذكر فى الآيه جواب إذا إشاره الى أنه أمر فوق ما يوصف و وراء ما يقدر بقدر، و قوله: «وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا» حال أى جاؤها و قد فتحت أبوابها،و قوله: «خَزَنَتُهَا» هم الملائكه الموكلون عليها.

و المعنى «وَسِيقَ» و حث على السير «الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا» جماعه بعد جماعه «حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا وَ» قد «فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَ» قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا» الموكلون عليها مستقبلين لهم «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» أنتم فى سلام مطلق لا يلقاكم إلا ما ترضون «طِبْتُمْ» و لعله تعليل لإطلاق السلام «فَادْخُلُوا خَالِدِينَ» فيها.و هو أثر طبيهم.

قوله تعالى: وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَ أَوْرَثْنَا الْأَرْضَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. القائلون هم المتقون و المراد بالوعد ما تكرر في كلامه تعالى و فيما اوحى الى سائر الأنبياء من وعد المتقين بالجنة قال: لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ (آل عمران ١٥) و قال: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (القلم ٣٤)، كذا قيل، و قيل: المراد بالوعد الوعد بالبعث و الثواب.

و لا- يبعد أن يراد بالوعد الوعد بإيراث الجنة كما في قوله: أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرْتُوبُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (المؤمنون ١١) و يكون قوله: «و أَوْرَثْنَا الْأَرْضَ» عطف تفسير لقوله: «صَدَقْنَا وَعَدَّهُ» .

و قوله: وَ أَوْرَثْنَا الْأَرْضَ المراد بالأرض-على ما قالوا-أرض الجنة و هى التى عليها الاستقرار فيها و قد تقدم فى أول سورة المؤمنون أن المراد بوراثتهم الجنة بقاؤها لهم بعد ما كانت فى معرض أن يشاركها غيرهم أو يملكها دونهم لكنهم زالوا عنها فاتقلت اليهم.

و قوله: تَتَّبِعُوا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ بيان لإيراثهم الأرض، و تبديل ضمير الأرض بالجنة للاشارة الى أنها المراد بالأرض.

و قيل: المراد بالأرض هى أرض الدنيا و هو سخييف إلا أن يوجه بأن الجنة هى عقبى هذه الدار قال تعالى: أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (الرعد ٢٢).
و المعنى و قال المتقون بعد دخول الجنة: الحمد لله الذى صدقنا وعده أن سيدخلنا أو أن سيورثنا الجنة نسكن منها حيث نشاء و نختار-فلهم ما يشاءون فيها-.

و قوله: فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ أى فنعمة الأجر أجر العاملين لله تعالى، و هو على ما يعطيه السياق قول أهل الجنة، و احتمال أن يكون من قوله تعالى.

قوله تعالى: وَ تَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الحف الإحداق و الإحاطة بالشىء، و العرش هو المقام الذى يصدر

منه الفرامين و الأوامر الإلهيه التي يدبر بها العالم، و الملائكته هم المجرون لمشيته العاملون بأمره، و رؤيه الملائكته على تلك الحال كناية عن ظهور ذلك و قد طويت السماوات.

و المعنى: و ترى يومئذ الملائكته و الحال أنهم محدقون بالعرش مطيفون به لإجراء الأمر الصادر منه و هم يسبحون بحمد ربهم.

و قوله: «و قُضِيَ بَيْنَهُمْ» احتمال رجوع الضمير الى الملائكته، و رجوعه الى الناس و الملائكته جميعا، و رجوعه الى جميع الخلائق، و رجوعه الى الناس فالقضاء بين أهل الجنة و أهل النار منهم أو بين الأنبياء و اممهم.

و يضعف الاحتمال الأخير أن القضاء بين الناس قد ذكر قبلا في قوله: «و قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يَظْلُمُونَ» فذكر القضاء بينهم ثانيا تكرر من غير موجب.

لكن ظاهر القضاء بين جماعه هو الحكم لبعضهم على بعض لوجود اختلاف ما بينهم و لا تحقق للاختلاف بين الملائكته، و هذا يؤيد أن يكون الضمير لغيرهم و القضاء بين الناس غير أن القضاء كما يطلق على نفس حكم الحاكم يصح إطلاقه على مجموع الحكم و مقدماته و تبعاته من حضور المتخاصمين و طرح الدعوى و شهاده الشهود و حكم الحاكم و إيفاء المحق حقه فمن الممكن أن يكون المراد بالقضاء المذكور أولا نفس الحكم الإلهي و بهذا القضاء المذكور ثانيا هو مجموع ما يجرى عليهم من حين يبعثون الى حين دخول أهل النار النار و أهل الجنة الجنة و استقرارهم فيهما و بذلك يندفع إشكال التكرار من غير موجب.

و قوله: «و قِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» كلمه خاتمه للبدء و العود و ثناء عام له تعالى أنه لم يفعل و لا يفعل إلا الجميل.

قيل: قائله المتقون و كان حمدهم الأول على دخولهم الجنة و الثاني للقضاء بينهم و بين غيرهم بالحق، و قيل: قائله الملائكته و لم ينسب اليهم صريحا لتعظيم أمرهم، و قيل: القائل جميع الخلائق.

و يؤيد الأول قوله تعالى في صفه أهل الجنة: وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (يونس ١٠) وهو حمد عام خاتم للخلقه كما سمعت.

ص: ٤٣٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي
الطَّلُوعِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهٌ الْمَمْتَرِ (٣) مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
نُوحٍ وَالْأَخْزَابُ مِنْ بَعِيدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ
(٥) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦)

تتكلم السوره فى استكبار الكافرين و مجادلتهم بالباطل ليدحضوا به الحق الذى يدعون اليه و لذلك نراها تذكر جدالهم و تعود اليه عوده بعد عوده ﴿م﴾ يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرَ مَقْتًا﴾ «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ» .

فتكسر سوره استكبارهم و جدالهم بذكر ما عاقب الله به الماضين من الامم المكذبين و ما أعد الله لهم من العذاب المهين بذكر طرف مما يجرى عليهم فى الآخره.

و تدحض باطل أقاويلهم بوجوه من الحجج الناطقه بتوحده فى الربوبيه و الالوهيه و تأمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم بالصبر و تعده و المؤمنين به بالنصر، و تأمرهم أن يؤذنه أن مسلم لربه غير تارك لعبادته فليأسوا منه.

و السوره مكيه كلها لاتصال آياتها و شهاده مضامينها بذلك، و ما قيل فيه من الآيات أنه نزل بالمدينه لا يعبا به و سيجىء الإشاره إليها إن شاء الله.

قوله تعالى: حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ التنزيل مصدر بمعنى المفعول فقوله: «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ» من قبيل إضافه الصفه الى موصوفها و التقدير هذا كتاب منزل من الله.

و تخصيص الوصفين «الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» بالذكر قيل للإشاره الى ما فى القرآن من الإعجاز و أنواع العلوم التى يضيق عنها نطاق الأفهام، و قيل: هو من باب التفتن.

و الوجه أن يقال: إن السوره لما كانت تتكلم حول جحد الجاحدين و مجادلتهم فى آيات الله بالباطل جهلا و هم يحسبونهم علما و يعتزون به كما حكى ذلك عنه فى خاتمه السوره بقوله: «فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ» و كما حكى عن فرعون قوله لقومه فى

موسى: «إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ» وقوله لهم: «مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ» .

افتتح الكلام في السوره بما فيه إشاره الى أن هذا الكتاب النازل عليهم تنزيل ممن هو عزيز على الإطلاق لا يغلبه غالب حتى يخاف على ما نزله من استعلائهم و استكبارهم بحسب أوهامهم، عليم على الإطلاق لا يداخل علمه جهل و ضلال فلا يقاوم جدالهم بالباطل ما نزله من الحق و بينه بحججه الباهره.

و يؤيد هذا الوجه ما فى الآيه التاليه من قوله: «غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ» الخ؛ على ما سنبين.

قوله تعالى: «غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ الْإِتْيَانِ بِصِيغِهِ اسم الفاعل فى «غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ» -لعله- للدلاله على الاستمرار التجددى فإن المغفره و قبول التوب من صفاته الفعلية و لا يزال تعالى يغفر الذنب ثم يغفر و يقبل التوب ثم يقبل.

و إنما عطف قابل التوب على ما قبله دون «شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ» لأن غافر الذنب و قابل التوب مجموعهما كصفه واحده متعلقه بالعباد المذنبين يغفر لهم تاره بتوبه و تاره بغيرها كالشفاعه.

و العقاب و المعاقبه المؤاخذه التى تكون فى عاقبه الذنب قال الراغب: و العقب و العقبى يختصان بالثواب نحو خير ثوابا و خير عقبا، و قال تعالى: و أولئك لهم عقبي الدار، و العاقبه إطلاقها يختص بالثواب نحو و العاقبه للمتقين، و بالإضافة قد تستعمل فى العقوبه نحو ثم كان عاقبه الذين أساءوا، و قوله: فكان عاقبتهما أنهما فى النار يصح أن يكون ذلك استعاره من ضده، و العقوبه و المعاقبه و العقاب تختص بالعذاب. انتهى.

فشديد العقاب كذى انتقام من أسماء الله الحسنی تحكى صفته تعالى فى جانب العذاب كما

يحكى الغفور و الرحيم صفته تعالى في جانب الرحمة.

و الطول-على ما في المجمع-الإنعام الذى تطول مدته على صاحبه فذو الطول من أسمائه الحسنى فى معنى المنعم لكنه أخص من المنعم لعدم شموله نعم القصار.

و ذكر هذه الأسماء الأربعة:غافر الذنب و قابل التوب شديد العقاب ذى الطول بعد اسم العليم للإشارة الى أن تنزيل هذا الكتاب المشتمل على دعوته الحقه المبنى على العلم مبنى على أساس ما تقتضيه مضامين هذه الأسماء الأربعة.

و قوله: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهِي الْمَصِيرُ ذكر كلمه التوحيد للإشارة الى وجوب عبادته وحده فلا تلغو الدعوه الدينيه بتنزيل الكتاب،و ذكر كون مصير الكل و رجوعهم اليه و هو البعث للإشارة الى أنه هو السبب العمده الداعى الى الإيمان بالكتاب و اتباعه فيما يدعوه اليه لأن الاعتقاد بيوم الحساب هو الذى يستتبع الخوف و الرجاء خوف العقاب و رجاء الثواب الداعيين الى عباده الله سبحانه.

قوله تعالى: مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزُوكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبِلَادِ لما ذكر تنزيل الكتاب و أشار الى الحججه الباهره على حقيته،المستفاده من صفاته الكريمه المعدوده فى الآيتين،الداله على أنه منزل بعلمه الذى لا يشوبه جهل و بالحق الذى لا يدحضه باطل تعرض لحال الذين قابلوا حججه الحقه بباطل جدالهم فلوح الى إن هؤلاء أهل العقاب و ليسوا بفائتين و لا مغفولا عنهم فإنهم كما نزل الكتاب ليغفر الذنب و يقبل التوب كذلك نزله ليعاقب أهل العقاب فلا يسوأن النبي صلى الله عليه و آله و سلم جدالهم و لا يغرنه ما يشاهده من حالهم.

فقوله: مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ لَمْ يَقُلْ: ما يجادل فيه أى فى القرآن ليدل على أن الجدل فى الحق الذى تدل عليه الآيات بما هى آيات.على أن طرف جدالهم هو النبي صلى الله عليه و آله و سلم و هو داع الى الحق الذى تدل الآيات فجدالهم لدفع الحق لا للدفاع عن الحق.على أن الجدل

فى الآيه التالىه مقيده بالباطل لإدحاض الحق.

فالمراد بالمجادله فى آيات الله هى المجادله لإدحاضها و دفعها و هى المذمومه و لا تشمل الجدال لإثبات الحق و الدفاع عنه كيف؟ و هو سبحانه يأمر نبيه صلى الله عليه و آله و سلم بذلك إذا كان جدالا بالتي هى أحسن قال تعالى: **وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** (النحل ١٢٥).

و قوله: **إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا** ظاهر السياق أنهم الذين رسخ الكفر فى قلوبهم فلا يرجى زواله، و قد قيل **«مَا يُجَادِلُ»** و لم يقل: لا يجادل، و كذا ظاهر قوله: **«فَلَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ»** أن المراد بهم الكفار المعاصرون للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و إن لم يكونوا من أهل مكة.

و تقلبهم فى البلاد انتقالهم من طور من أطوار الحياه الى طور آخر و من نعمه الى نعمه فى سلامه و صحه و عافيه، و توجيه النهى عن الغرور الى تقلبهم فى البلاد كناية عن نهى النبي صلى الله عليه و آله و سلم عن الاغترار بما يشاهده منهم أن يحسب أنهم أعجزوه سبحانه.

قوله تعالى: **كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ** الخ؛ فى مقام الجواب عما يسبق الى الوهم أنهم استكبروا و جادلوا فى آيات الله فلم يكن بهم بأس و سبقوا فى ذلك.

و محصل الجواب: أن الامم الماضين كقوم نوح و الأحزاب من بعدهم كعاد و ثمود و قوم لوط و غيرهم سبقوا هؤلاء الى مثل صنيعهم من التكذيب و الجدال بالباطل و هموا برسولهم ليأخذوه فحلّ بهم العقاب و كذلك قضى فى حق الكفار العذاب فتوهم أن هؤلاء سبقوا الله الى ما يريد توهم باطل.

فقوله: **«كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ»** دفع للدخل السابق و لذا جىء بالفصل، و قوله: **«وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ»** يقال: هم به أى قصده و يغلب فيه القصد بالسوء أى قصدوا رسولهم ليأخذوه بالقتل أو الإخراج أو غيرهما كما قصه الله تعالى فى قصصهم.

وقوله: وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ الْإِدْحَاضَ الْإِزَالَةَ وَالْإِبْطَالَ وَقوله: «فَأَخَذْتُهُمْ» أى عذبتهم، وفيه التفات من الغيبة الى التكلم وحده و النكتة فيه الإشاره الى أن أمرهم فى هذا الطغيان و الاستكبار الى الله وحده لا يدخل بينه و بينهم أحد بنصره أو شفاعه كما قال: فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (الفجر/ ١٤).

و قوله: فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ توجيه لذهن المخاطب الى ما يعلمه من كيفية إهلاكهم و قطع دابرهم ليحضر شده ما نزل بهم و قد قصه الله فيما قص من قصصهم.

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ظاهر السياق أن المشبه به هو ما فى الآيه السابقه من أخذهم و عقابهم، و المراد بالذين كفروا مطلق الكفار من الماضين، و المعنى كما أخذ الله المكذبين من الماضين بعذاب الدنيا كذلك حقت كلمته على مطلق الكافرين بعذاب الآخرة، و الذين كفروا من قومك منهم.

و فى قوله: كَلِمَةُ رَبِّكَ و لم يقل: كلمتى تطيب لى نفس النبى صلى الله عليه و آله و سلم و تأييد له بالإشاره الى أن الركن الذى يركن اليه هو الشديد القوى.

[سوره غافر (٤٠): الآيات ٧ الى ١٢]

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَادَوْنَ لَمَقَّتْ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذَلِكَمْ بَأْتَهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢)

بيان:

قوله تعالى: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. لم يعرف سبحانه هؤلاء الحاملين للعرش من هم؟ ولا في كلامه تصريح بأنهم من الملائكة لكن يشعر عطف قوله: «وَمَنْ حَوْلَهُ» عليهم وقد قال فيهم:

وَ تَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ (الزمر ٧٥) أن حمله العرش أيضا من الملائكة.

وقد تقدم تفصيل الكلام في معنى العرش في الجزء الثامن من الكتاب.

فقوله: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ أى الملائكة الذين يحملون العرش الذى منه تظهر الأوامر و تصدر الأحكام الإلهية التى بها يدبر العالم، والذين حول العرش من الملائكة و هم المقربون منهم.

وقوله: يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ أى ينزهون الله سبحانه و الحال أن تنزيههم له

ص : ٤٤٠

يصاحب ثناءهم لربهم فهم ينزهونه تعالى عن كل ما لا يليق بساحه قدسه و من ذلك وجود الشريك في ملكه و يتنون عليه على فعله و تدبيره.

و قوله: «و يُؤْمِنُونَ بِهِ إيمانهم به-و الحال هذه الحال عرش الملك و التدبير لله و هم حاملوه أو مطيفون حوله لتلقى الأوامر و ينزهونه عن كل نقص و يحمدونه على أفعاله-معناه الإيمان بوحدانيتها في ربوبيته و ألوهيته ففي ذكر العرش و نسبه التنزيه و التحميد و الإيمان الى الملائكة رد للمشركين حيث يعدون الملائكة المقربين شركاء لله في ربوبيته و ألوهيته و يتخذونهم أربابا آلهه يعبدونهم.

و قوله: «و يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا» أى يسألون الله سبحانه أن يغفر للذين آمنوا.

و قوله: رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا الخ؛حكاية متن استغفارهم و قد بدءوا فيه بالثناء عليه تعالى بسعه الرحمه و العلم،و إنما ذكروا الرحمه و شفعوها بالعلم لأنه برحمته ينعم على كل محتاج فالرحمه مبدأ إفاضه كل نعمه،و بعلمه يعلم حاجه كل محتاج مستعد للرحمه.

و قوله: فَاعْفُرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ تفريع على ما أثنوا به من سعه الرحمه و العلم،و المراد بالسبيل التى اتبعوها هو ما شرع لهم من الدين و هو الإسلام و اتباعهم له هو تطبيق عملهم عليه فالمراد بتوبتهم رجوعهم اليه تعالى بالإيمان و المعنى فاغفر للذين رجعوا اليك بالإيمان بوحدانيتك و سلوكك سبيلك الذى هو الإسلام و قهم عذاب الجحيم و هو غايه المغفره و غرضها.

قوله تعالى: رَبَّنَا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عِدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ الى آخر الآيه تكرار النداء بلفظه ربنا لمزيد الاستعطاف و المراد بالوعد وعده تعالى لهم بلسان رسله و فى كتبه.

و قوله: وَ مَنْ صِلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَ أَزْوَاجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ عطف على موضع الضمير فى قوله: «وَ أَدْخِلْهُمْ» و المراد بالصلوح صلاحيه دخول الجنة،و المعنى و أدخل من

صلح لدخول الجنة من آبائهم و أزواجهم و ذرياتهم جنات عدن.

ثم من المعلوم من سياق الآيات أن استغفارهم لعامة المؤمنين، و من المعلوم أيضا أنهم قسموهم قسمين اثنين قسموهم الى الذين تابوا و اتبعوا سبيل الله و قد وعدهم الله جنات عدن، و الى من صلح و قد جعلوا الطائفة الاولى متبوعين و الثانية تابعين.

و يظهر منه أن الطائفة الاولى هم الكاملون فى الإيمان و العمل على ما هو مقتضى حقيقته معنى قولهم: «لِلَّذِينَ تَابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ» فذكروهم و سألوه أن يغفر لهم و ينجز لهم ما وعدهم من جنات عدن، و الطائفة الثانية هؤلاء فى المنزلة ممن لم يستكمل الإيمان و العمل من ناقص الإيمان و مستضعف و سيئ العمل من منسوبى الطائفة الاولى فذكروهم و سألوه تعالى أن يلحقهم بالطائفة الاولى الكاملين فى جناتهم و يقيهم السيئات.

فالآية فى معنى قوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ مَا أَلْتُمَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ (الطور ٢١)» غير أن الآية التى نحن فيها أوسع و أشمل لشمولها الآباء و الأزواج بخلاف آية سورة الطور، و المأخوذ فيها الصلوح و هو أعم من الإيمان المأخوذ فى آية الطور.

و قوله: «إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» تعليلا لقولهم: «فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا» الى آخر مسألتهم، و كان الذى يقتضيه الظاهر أن يقال: إنك أنت الغفور الرحيم لكنه عدل الى ذكر الوصفين: العزيز الحكيم لأنه وقع فى مفتتح مسألتهم الثناء عليه تعالى بقولهم: «رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْمًا». و لازم سعه الرحمة و هى عموم الإعطاء أن له أن يعطى ما يشاء لمن يشاء و يمنع ما يشاء ممن يشاء و هذا معنى العزة التى هى القدره على الإعطاء و المنع، و لازم سعه العلم لكل شىء أن ينفذ العلم فى جميع أقطار الفعل فلا يداخل الجهل شيئا منها و لازمه إتقان الفعل و هو الحكمة.

فقوله: «إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» فى معنى الاستشفاع بسعه رحمته وسعه علمه تعالى

المذكورتين في مفتح المسأله تمهيدا و توطئه لذكر الحاجه و هى المغفره و الجنه.

قوله تعالى: **وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ الْخَيْرُ**؛ ظاهر السياق أن الضمير في «**قِهِمُ**» للذين تابوا و من صلح جميعا.

و المراد بالسيئات-على ما قيل-تبعات المعاصى و هى جزاؤها و سميت التبعات سيئات لأن جزاء السيئ سئى قال تعالى: **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا** (الشورى ٤٠).

وقيل: المراد بالسيئات المعاصى و الذنوب نفسها و الكلام على تقدير مضاف و التقدير و قهم جزاء السيئات أو عذاب السيئات.

و الظاهر أن الآيه من الآيات الداله على أن الجزاء بنفس الأعمال خيرها و شرها، و قد تكرر فى كلامه تعالى أمثال قوله: **إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** (التحریم ٧).

و كيف كان فالمراد بالسيئات التى سألوا و قايتهم عنها هى الأهوال و الشدائد التى تواجههم يوم القيامة غير عذاب الجحيم فلا تكرر فى قولهم «**وَقِهِمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ**» **وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ** .

وقيل: المراد بالسيئات نفس المعاصى التى فى الدنيا، و قولهم: «**يَوْمَئِذٍ**» إشاره الى الدنيا، و المعنى و احفظهم من اقتراف المعاصى و ارتكابها فى الدنيا بتوفيقك.

و فيه أن السياق يؤيد كون المراد بيومئذ يوم القيامة كما يشهد به قولهم: «**وَقِهِمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ**» و قولهم: «**وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ**» الخ؛ فالحق أن المراد بالسيئات ما يظهر للناس يوم القيامة من الأهوال و الشدائد.

و يظهر من هذه الآيات المشتمله على دعاء الملائكه و مسألتهم:

أولاً: أن من الأدب فى الدعاء أن يبدأ بحمده و الثناء عليه تعالى ثم يذكر الحاجه ثم يستشفع بأسمائه الحسنى المناسبه له.

و ثانياً: أن سؤال المغفره قبل سؤال الجنه و قد كثر ذكر المغفره قبل الجنه فى كلامه تعالى إذا

ذكر معا، وهو الموافق للاعتبار فإن حصول استعداد أى نعمه كانت بزوال المانع قبل حصول نفس النعمه.

و ذكر بعضهم أن فى قوله: «فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا» الآية دلالة على أن إسقاط العقاب عند التوبه تفضل من الله تعالى إذ لو كان واجبا لكان لا يحتاج فيه الى مسألتهم بل كان يفعله الله سبحانه لا محاله.

و فيه أن وجوب صدور الفعل عنه تعالى لا ينافى صحه مسألته و طلبه منه تعالى كما يشهد به قولهم بعد الاستغفار: «رَبَّنَا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ» فقد سألوا لهم الجنة مع اعترافهم بأن الله وعدهم إياها و وعده تعالى واجب الإنجاز فإنه لا يخلف الميعاد، و أصرح من هذه الآية قوله يحكى عن المؤمنين: رَبَّنَا وَ آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَ لَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (آل عمران ١٩٤).

و قبول التوبه مما أوجبه الله تعالى على نفسه و جعله حقا للتائبين عليه قال تعالى: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ (النساء ١٧) فطلب كل حق أوجبه الله تعالى على نفسه منه كسؤال المغفره للتائب هو فى الحقيقه رجوع اليه لاستنجاز ما وعده و إظهار اشتياق للفوز بكرامته.

و كذا لا يستلزم التفضل منه تعالى كون الفعل جائز الصدور غير واجبه فكل عطيه من عطايا تفضل سواء كانت واجبه الصدور أم لم تكن إذ لو كان فعل من أفعاله واجب الصدور عنه لم يكن إيجابه عليه بتأثير من غيره فيه و قهره عليه إذ هو المؤثر فى كل شىء لا- يؤثر فيه غيره بل كان ذلك بإيجاب منه تعالى على نفسه و يتول معناه الى قضائه تعالى فعل شىء من الأفعال و إفاضه عطيه من العطايا قضاء حتم فيكون سبحانه إنما يفعله بمشيئه من نفسه منزها عن إلزام الغير إياه عليه متفضلا به فالفعل تفضل منه و إن كان واجب الصدور، و أما لو لم يكن الفعل واجب الصدور فكونه تفضلا أوضح.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ المقت أشد البغض. لما ذكر المؤمنين ببعض ما لهم من جهة إيمانهم رجع الى ذكر الكافرين ببعض ما عليهم من جهة كفرهم.

و ظاهر الآيه و الآيه التاليه أن هذا النداء المذكور فيها إنما ينادون به فى الآخره بعد دخول النار حين يذوقون العذاب لكفرهم فيظهر لهم أن كفرهم فى الدنيا إذ كانوا يدعون من قبل الأنبياء الى الإيمان كان مقتا و شده بغض منهم لأنفسهم حيث أوردوها بذلك مورد الهلاك الدائم.

و ينادون من جانب الله سبحانه فيقال لهم: أقسم لمقت الله و شده بغضه لكم أكبر من مقتكم أنفسكم و شده بغضكم لها إذ تدعون-حكايه حال ماضيه-الى الإيمان من قبل الأنبياء فتكفرون.

قوله تعالى: قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ سِيَّئِ مَا قَبَلْنَا يَشْعُرُ بِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ هَذَا الْقَوْلَ بَعْدَ اسْتِمَاعِ النَّدَاءِ السَّابِقِ، و إنما يقولونه و هم فى النار بدليل قولهم: «فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ» .

و تقديم هذا الاعتراف منهم نوع تسييب و توسل الى التخلص من العذاب و لامت حين مناص؛ و ذلك أنهم كانوا-و هم فى الدنيا-فى ريب من البعث و الرجوع الى الله فأنكروه و نسوا يوم الحساب و كان نسيان ذلك سبب استرسالهم فى الذنوب و ذهابهم لوجوههم فى المعاصى و نسيان يوم الحساب مفتاح كل معصيه و ضلال قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (ص ٢٦).

ثم لما أماتهم الله إمامته بعد إمامته و أحياءهم إحياءه بعد إحياءه زال ارتيابهم فى أمر البعث و الرجوع الى الله بما عاينوا من البقاء بعد الموت و الحياه بعد الحياه و قد كانوا يرون أن الموت فناء، و يقولون إن هى إلا حياتنا الدنيا و ما نحن بمبعوثين.

و بالجمله زال عنهم الارتياح بحصول اليقين و بقيت الذنوب و المعاصي و لذلك توسلوا الى التخلص من العذاب بالاعتراف فتارة اعترفوا بحصول اليقين كما حكاها الله عنهم في قوله:

وَ لَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (الم السجده ١٢)، و تارة اعترفوا بذنوبهم كما في الآيه المبسوطة عنها و قد كانوا يرون أنهم أحرار مستقلون في إرادتهم و أفعالهم لهم أن يشاءوا ما شاءوا و أن يفعلوا ما فعلوا و لا حساب و لا ذنب.

و من ذلك يظهر وجه ترتب قولهم: «فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا» على قولهم: «أَمَنَّا ائْتَيْنَا وَ أَحْيَيْتَنَا ائْتَيْنَا» فالاعتراف في الحقيقة مترتب على حصول اليقين بالمعاد الموجب لحصول العلم بكون انحرافاتهم عن سبيل الله ضلالات و ذنوبا.

و المراد بقولهم: «أَمَنَّا ائْتَيْنَا وَ أَحْيَيْتَنَا ائْتَيْنَا» - كما قيل - الإيمانه عن الحياه الدنيا و الإحياء للبرزخ ثم الإيمانه عن البرزخ و الإحياء للحساب يوم القيامة فالآيه تشير الى الإيمانه بعد الحياه الدنيا و الإيمانه بعد الحياه البرزخيه و الى الإحياء في البرزخ و الإحياء ليوم القيامة و لو لا الحياه البرزخيه لم تتحقق الإيمانه الثانيه لأن كلا من الإيمانه و الإحياء يتوقف تحققه على سبق خلافه.

و لم يتعرضوا للحياه الدنيا و لم يقولوا: و أحيينا ثلاثا و إن كانت إحياء لكونها واقع بعد الموت الذي هو حال عدم ولوج الروح لأن مرادهم ذكر الإحياء الذي هو سبب الإيقان بالمعاد و هو الإحياء في البرزخ ثم في القيامة و أما الحياه الدنيويه فإنها و إن كانت إحياء لكنها لا توجب بنفسها يقينا بالمعاد فقد كانوا مرتابين في المعاد و هم أحياء في الدنيا.

و قولهم: فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ دعاء و مسأله في صورته الاستفهام، و في تنكير الخروج و السبيل إشاره الى رضاهم بأى نوع من الخروج كان من أى سبيل كانت فقد بلغ بهم الجهد و اليوم يوم تقطعت بهم الأسباب فلا سبب يرجى أثره في تخلصهم من العذاب.

قوله تعالى: **ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخِيدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا** الخ؛ خطاب تشديد للكفار موطنه يوم القيامة، و يحتمل أن يكون موطنه الدنيا خوطبوا بداعى زجرهم عن الشرك.

و الإشارة بقوله: **«ذَلِكُمْ»** الى ما هم فيه من الشده، و فى قوله: **«وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ»** دلالة على الاستمرار، و الكلام مسوق لبيان معاندتهم للحق و معاداتهم لتوحيدته تعالى فهم يكفرون بكل ما يلوح فيه أثر التوحيد و يؤمنون بكل ما فيه سمه الشرك فهم لا يراعون لله حقا و لا يحترمون له جانبا فالله سبحانه يحرم عليهم رحمته و لا يراعى فى حكمه لهم جانبا.

و بهذا المعنى يتصل قوله: **«فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ»** بأول الآية و يتفرع عليه كأنه قيل:

فإذا قطعتم عن الله بالمره و كفرتم بكل ما يريده و آمنتم بكل ما يكرهه فهو يقطع عنكم و يحكم فيكم بما يحكم من غير أى رعايه لحالكم.

فالأية فى معنى قوله: **نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ** (التوبه ٦٧)، و الجملة أعنى قوله: **«فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ»** خاصه بحسب السياق و إن كانت عامه فى نفسها، و فيها تهديد و يتأكد التهديد باختتامها بالاسمين العلى الكبير.

[سوره غافر (٤٠): الآيات ١٣ الى ٢٠]

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُحْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧) وَ أَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الَآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَلَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنَ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَ اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠)

بيان:

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ الْمُرَادُ بِالآيَاتِ هِيَ الْعَلَائِمُ وَالْحُجُجُ الدَّالَّةُ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّةِ تَعَالَىٰ فِي الرَّبُّوبِيَّةِ وَالْأَلُوْهِيَّةِ بِدَلِيلٍ مَا سَيُجَىٰءُ مِنْ تَفْرِيْعِ قَوْلِهِ:

«فَمَادُّعُوا اللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» عَلَيْهِ، وَالْآيَاتُ مَطْلُقُهُ شَامِلَةٌ لِلآيَاتِ الْكُونِيَّةِ الْمَشْهُودَةِ فِي الْعَالَمِ لِكُلِّ إِنْسَانٍ صَحِيْحِ الْإِدْرَاكِ وَالْآيَاتُ الَّتِي تَجْرَىٰ عَلَىٰ أَيْدِي الرُّسُلِ وَالْحُجُجِ الْقَائِمَةِ مِنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ.

وَالجَمْلَةُ مَشْتَمَلَةٌ عَلَىٰ حُجَّةٍ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ هُنَاكَ إِلَهٌ تَجِبُ عِبَادَتُهُ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ وَكَانَتْ عِبَادَتُهُ كِمَالًا لِلْإِنْسَانِ وَسَعَادَةٌ لَهُ كَانَ مِنَ الْوَاجِبِ فِي تَمَامِ التَّدْبِيرِ وَكَامِلِ الْعَنَاءِ أَنْ يَهْدِيَ الْإِنْسَانَ إِلَيْهِ، وَالَّذِي تَدُلُّ الْآيَاتُ الْكُونِيَّةُ عَلَىٰ رَبُّوبِيَّتِهِ وَأَلُوْهِيَّتِهِ وَيُؤَيِّدُ دَلَالَتَهَا الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ بِالذِّعْوَةِ وَالْإِتْيَانِ بِالْآيَاتِ هُوَ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ، وَأَمَّا آلِهَتُهُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ فَلَا آيَةَ مِنْ قَبْلِهِمْ تَدُلُّ عَلَىٰ شَيْءٍ فَاللّٰهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْإِلَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ، وَالْحُجَّةُ يَشِيرُ عَلَيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ

ص: ٤٤٨

فيما روى عنه: «لو كان لربك شريك لأتتك رسله».

وقوله: وَ يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا فَجِهَ أُخْرَى عَلَى وَحْدَانِيتهِ تَعَالَى مِنْ جِهَةِ الرِّزْقِ فَإِنَّ رِزْقَ الْعِبَادِ مِنْ شُؤْنِ الرَّبُّوبِيَّةِ وَالْأَلُوْهِيَّةِ وَالرِّزْقِ مِنَ اللَّهِ دُونَ شُرَكَائِهِمْ فَهُوَ الرَّبُّ الْإِلَهَ دُونِهِمْ.

وقد فسروا الرزق بالمطر، و السماء بوجهه العلوي، ولا يبعد أن يراد بالرزق نفس الأشياء التي يرتزق بها و بنزولها من السماء بروزها من الغيب الى الشهادة على ما يفيد قوله: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر ٢١).

وقوله: وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ معترضه تبين أن حصول التذکر بهذه الحجج إنما هو شأن إحدى الطائفتين المذكورتين من قبل و هم المنيبون الراجعون الى ربهم دون المجادلين الكافرين فإن الكفر و الجحود يبطل استعداد التذکر بالحجة و الاتباع للحق.

قوله تعالى: فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ الأنسب للسياق أن يكون الخطاب عامًا للمؤمنين و غيرهم متفرعا على الحجج السابقة غير أنه لا يشمل الكافرين المذكورين في آخر الآية و هم المكذبون المجادلون بالباطل.

كأنه قيل: إذا كانت الآيات تدل على وحدانيته تعالى و هو الرزاق فعلى غير الكافرين الذين كذبوا و جادلوا أن يدعوا الله مخلصين له الدين، و أما الكافرون الكارهون للتوحيد فلا مطمع فيهم و لا آية تفيدهم و لا حجة تقنعهم فاعبدوه بالإخلاص و دعوا الكافرين يكرهون ذلك.

قوله تعالى: رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِ عَلِيٍّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ الْخَبْرَ؛ صفات ثلاث له تعالى و كل منها خبر بعد خبر للضمير في قوله:

«هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ» و الآية و ما بعدها مسوقة للإنذار.

وقد أورد لقوله: «رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ» تفاسير شتى فقيل: معناه رافع درجات الأنبياء

و الأولياء فى الجنة، وقيل: رافع السماوات السبع التى منها تصعد الملائكة الى عرشه، وقيل:

رفيع مصاعد عرشه، وقيل: كناية عن رفعه شأنه و سلطانه.

و الذى يعطيه التدبر أن الآيه و ما بعدها يصفان ملكه تعالى على خلقه أن له عرشا تجتمع فيه أزمه أمور الخلق و ينتزل منه الأمر متعاليا بدرجات رفيعه هى مراتب خلقه و لعلها السماوات التى وصفها فى كلامه بأنها مساكن ملائكته و أن أمره ينتزل بينهم و هى التى تحجب عرشه عن الناس.

ثم إن له يوما هو يوم التلاقى يرفع فيه الحجاب ما بينه و بين الناس بكشف الغطاء عن بصائرهم و طى السماوات بيمينه و إظهار عرشه لهم فيكشف لهم أنه هو المليك على كل شىء لا ملك إلا ملكه فيحكم بينهم.

فالمراد بالدرجات الدرجات التى يرتقى منها الى عرشه و يعود قوله: «رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ» كناية استعاريه عن تعالى عرش ملكه عن مستوى الخلق و غيبته و احتجابه عنهم قبل يوم القيامة بدرجات رفيعه و مراحل بعيدة.

و قوله: يُلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إشارة الى أمر الرسالة التى من شأنها الإنذار، و تقييد الروح بقوله: «مَنْ أَمْرِهِ» دليل على أن المراد بها الروح التى ذكرها فى قوله: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي (الإسراء ٨٥/١)، و هى التى تصاحب ملائكة الوحي كما يشير اليه قوله: يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا (النحل ٢/١).

فالمراد باللقاء الروح على من يشاء تنزيلها مع ملائكة الوحي عليه، و المراد بقوله: «مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» الرسل الذين اصطفاهم الله لرسالته، و فى معنى الروح الملقاه على النبي أقوال أخر لا يعاب بها.

و قوله: لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ و هو يوم القيامة سمي به لالتقاء الخلائق فيه أو لالتقاء

الخالق و المخلوق أو لالتقاء أهل السماء و الأرض أو لالتقاء الظالم و المظلوم أو لالتقاء المرء و عمله و لكل من هذه الوجوه قائل.

و يمكن أن يتأيد القول الثانى بما تكرر فى كلامه تعالى من حديث اللقاء كقوله: **بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ** (الروم ٨/١)، و قوله: **إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ** (هود ٢٩/١)، و قوله: **يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ** (الانشقاق ٦/١) و معنى اللقاء تقطع الأسباب الشاغله و ظهور أن الله هو الحق المبين و بروزهم لله.

قوله تعالى: **يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ** الخ؛ تفسير ليوم التلاق، و معنى بروزهم لله ظهور ذلك لهم و ارتفاع الأسباب الوهميه التى كانت تجذبهم الى نفسها و تحجبهم عن ربهم و تغفلهم عن إحاطه ملكه و تفرد فى الحكم و توحده فى الربوبيه و الالوهيه.

فقوله: **يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ** إشاره الى ارتفاع كل سبب حاجب، و قوله: **لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ** تفسير لمعنى بروزهم لله و توضيح فقلوبهم و أعمالهم بعين الله و ظاهرهم و باطنهم و ما ذكروه و ما نسوه مكشوفه غير مستوره.

و قوله: **لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** سؤال و جواب من ناحيته سبحانه تبين بهما حقيقه اليوم و هى ظهور ملكه و سلطانه تعالى على الخلق على الإطلاق.

و فى توصيفه تعالى بالواحد القهار تعليل لانحصار الملك فيه لأنه إذ قهر كل شىء ملكه و تسلط عليه بسلب الاستقلال عنه و هو واحد فله الملك وحده.

قوله تعالى: **الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ** إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ الباء فى «بِمَا كَسَبَتْ» للصله و المراد بيان خصيصه اليوم و هى أن كل نفس تجزى عين ما كسبت فجزاؤها عملها، قال تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ** إِنَّمَا تُجْزَوْنَ **بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** (التحریم ٧/١).

وقوله: إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ تعليل لنفى الظلم فى قوله: «لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ» أى إنه تعالى سريع فى المحاسبه لا يشغله حساب نفس عن حساب أخرى حتى يخطئ فىجزى نفسا غير جزائها فيظلمها.

و هذا التعليل ناظر الى نفي الظلم الناشئ عن الخطاء و أما الظلم عن عمد و علم فانتفاؤه مفروغ عنه لأن الجزاء لما كان بنفس العمل لم يتصور معه ظلم.

قوله تعالى: وَ أَنْذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْمَآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَمَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ الى آخر الآيه.الآزفه من أوصاف القيامة و معناها القريبه الدانيه قال تعالى: إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَ يَرَاهُ قَرِيباً (المعارج ٧).

وقوله: إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ الحناجر جمع حنجره و هى رأس الغلصمه من خارج و كون القلوب لدى الحناجر كناية عن غايه الخوف كأنها تزول عن مقرها و تبلغ الحناجر من شدة الخوف، و كاظمين من الكظم و هو شدة الاغتمام.

وقوله: مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ الْحَمِيمِ الْقَرِيبِ أى ليس لهم قريب يقوم بنصرهم بحميه القرابه قال تعالى: فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ (المؤمنون / ١٠١)، و لا شفيع يطاع فى شفاعته.

قوله تعالى: يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ قيل: الخائنه مصدر كالخيانه نظيره الكاذبه و اللاغيه بمعنى الكذب و اللغو، و ليس المراد بخائنه الأعين كل معصيه من معاصيها بل المعاصى التى لا تظهر للغير كسارقه النظر بدليل ذكرها مع ما تخفى الصدور.

وقيل «خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ» من قبيل إضافه الصفه الى الموصوف، و لازمه كون العلم بمعنى المعرفه و المعنى يعرف الأعين الخائنه، و الوجه هو الأول.

وقوله: (وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) و هو ما تسره النفس و تستره من وجوه الكفر و النفاق

و هيئات المعاصي.

قوله تعالى: وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ الْحَقُّ هَذِهِ حُجَّةٌ أُخْرَى عَلَى تَوْحِيدِهِ تَعَالَى بِاللَّوْهِيَّةِ أَقَامَهَا بَعْدَ مَا ذَكَرَ حَدِيثَ انْحِصَارِ الْمَلِكِ فِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعِلْمِهِ بِخَائِنَةِ الْأَعْيُنِ وَمَا تَخْفَى الصُّدُورَ تَمْهِيدًا وَتَوَطُّةً.

و محصلها أن من اللازم الضروري في الألوهية أن يقضى الإله في عبادته وبينهم والله سبحانه هو يقضى بين الخلق وفيهم يوم القيامة والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء لأنهم عباد مملوكون لا يملكون شيئاً.

و من قضائه تعالى تدبيره جزئيات أمور عبادته بالخلق بعد الخلق فإنه مصداق القضاء والحكم قال تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس ٨٢/١)، وقال:

إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران ٤٧/١)، ولا نصيب لغيره تعالى في الخلق فلا نصيب له في القضاء.

و من قضائه تعالى تشريع الدين وارتضاؤه سبيلاً لنفسه قال تعالى: وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ (الإسراء ٢٣/١).

وقوله: إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ أَي لَهُ حَقِيقَةُ الْعِلْمِ بِالْمَسْمُوعَاتِ وَالْمَبْصُرَاتِ لِدَاتِهِ، وليس لغيره من ذلك إلا ما ملكه الله و أذن فيه لا لذاته (١).

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٢١ إلى ٥٤]

أَو لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِعَذُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ قَارُونَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَ مَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَ إِنَّ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِنَّ يَكُ صَادِقًا يُصِصْ بِكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَ مَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَ مَنْ يُضِلُّهُ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَ لَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أُنْبِغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَطَاطَعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَ كَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَ ضِيْدًا عَنِ السَّبِيلِ وَ مَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا

لَهُدَاهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) وَإِلَىٰ قَوْمٍ مَّا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيمِ الْغَفَارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنْتُمْ تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكْرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) وَإِذْ يَتَحَفَّضُونَ فِي الدَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَازِنَةِ الْجَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوْ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠) إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذرتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْزَنَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لِلأُولَى الْأَلْبَابِ (٥٤)

ص: ٤٥٣

(١-١). المؤمن ١٣-٢٠: بحث روائي في: روح القدس؛ يوم القيامة؛ قوله تعالى: «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ».

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَسْتَبِيروا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ الِاسْتِفْهَامِ إِنْكَارِي، و الواقى اسم فاعل من الوقايه بمعنى حفظ الشيء مما يؤذيه و يضره.

و المعنى: أ و لم يسيروا هؤلاء الذين أرسلناك اليهم «فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا» نظر تفكر و اعتبار «كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ» من الامم الدارجه المكذبين لرسولهم «كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً» أى قدره و تمكنا و سلطه «وَأَثَرًا» كالمدائن الحصينه و القلاع المنيعه و القصور العاليه المشيده «فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ» و أهلكتهم بأعمالهم «وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ» يقيهم و حافظ يحفظهم.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ الْخ؛ الإشاره بذلك الى الأخذ الإلهي، و المراد بالبينات الآيات الواضحات، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ لَعَلَّ الْخَوَارِقَ الْمَعْجِزَةَ الَّتِي أُرْسِلَ بِهَا كَالْعَصَا وَالْيَدِ وَغَيْرَهُمَا وَبِالسُّلْطَانِ الْمُبِينِ السُّلْطَانِ الْإِلَهِيِّ

القاهره التى أيد بها فمنعت فرعون أن يقتله و يطفئ نوره، و قيل: المراد بالآيات الحجج و الدلالات و بالسلطان معجزاته من العصا و اليد و غيرهما، و قيل: غير ذلك.

قوله تعالى: **إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ قَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ** فرعون جبار القبط و ملكهم، و هامان وزيره و قارون من طغاه بنى إسرائيل ذو الخزان المليئه؟ و إنما اختص الثلاثة من بين الامتين بالذكر لكونهم اصولا ينتهى اليهم كل فساد و فتنه فيهما.

قوله تعالى: **فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ الْخ**؛ مقيسه بين ما جاءهم به موسى و دعاهم اليه و بين ما قبلوه به من كيدهم فقد جاءهم بالحق و كان من الواجب أن يقبلوه لأنه حق و كان ما جاء به من عند الله و كان من الواجب أن يقبلوه و لا يردوه فقبلوه بالكيد و قالوا ما قالوا لئلا يؤمن به أحد لكن الله أضل كيدهم فلم يصب المؤمنين معه.

و يشعر السياق أن من القائلين بهذا القول قارون و هو من بنى إسرائيل و لا ضير فيه لأن الحكم بقتل الأبناء و استحياء النساء كان قبل الدعوه صادرا فى حق بنى إسرائيل عامه و هذا الحكم فى حق المؤمنين منهم خاصه فلعل قارون وافقهم عليه لعداوته و بغضه موسى و المؤمنين من قومه.

و فى قوله: **الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ** و لم يقل: آمنوا به إشارة الى مظاهرتهم موسى فى دعوته.

قوله تعالى: **وَ قَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ الْخ**؛ «ذَرُونِي» أى اتركونى، خطاب يخاطب به ملاءه، و فيه دلالة على أنه كان هناك قوم يشيرون عليه أن لا يقتل موسى و يكف عنه كما يشير اليه قوله تعالى: **قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ** (الشعراء ٣٦).

و قوله: **(وَ لِيَدْعُ رَبَّهُ)** كلمه قالها كبرا و عتوا يقول: اتركونى أقتله و ليدع ربه فلينجيه من يدي و ليخلصه من القتل إن قدر.

وقوله: إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ-تعليل لما عزم عليه من القتل وقد ذكر أنه يخافه عليهم من جهة دينهم ومن جهة دنياهم، أما من جهة دينهم- وهو عبادة الأصنام-فإن يبدله ويضع موضعه عبادة الله وحده، وأما من جهة دنياهم فكان يعظم أمره ويتقوى جانبه ويكثر متبعوه فيتظاهروا بالتمرد والمخالفة فيئول الأمر الى المشاجره والقتال وانسلااب الأمن.

قوله تعالى: وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبُّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ-مقابله منه عليه السلام لتهديد فرعون إياه بالقتل واستعاذه منه بربه، وقوله:

«عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبُّكُمْ» فيه مقابله منه أيضا لفرعون في قوله: «وَلْيَدْعُ رَبَّهُ» حيث خص ربوبيته تعالى بموسى فأشار موسى بقوله: «عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبُّكُمْ» الى أنه تعالى ربهم كما هو ربه نافذ حكمه فيهم كما هو نافذ فيه فله أن يقى عائذه من شرهم وقد وقى.

و من هنا يظهر أن الخطاب في قوله: «وَ رَّبُّكُمْ» لفرعون و من معه دون قومه من بنى إسرائيل.

وقوله: «مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ» يشير به الى فرعون و كل من يشاركه في صفتى التكبر و عدم الإيمان بيوم الحساب و لا يؤمن ممن اجتمعت فيه الصفتان شر أصلا.

قوله تعالى: وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ الى آخر الآيه.

ظاهر السياق أن «مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ» صفة رجل و «يَكْتُمُ إِيمَانَهُ» صفة اخرى فكان الرجل من القبط من خاصه فرعون و هم لا يعلمون بإيمانه لكتمانه إياهم ذلك تقيه.

وقيل: قوله: «مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ» مفعول ثان لقوله: «يَكْتُمُ» قدم عليه، والغالب فيه و إن كان التعدى الى المفعول الثانى بنفسه كما فى قوله: «وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (النساء ٤٢)/ لكنه قد يتعدى اليه بمن كما صرح به فى المصباح.

و فيه أن السياق يأباه فلا نكته ظاهره تقتضى تقدم المفعول الثانى على الفعل من حصر

و نحوه. على أن الرجل يكرر نداء فرعون و قومه بلفظه «يا قومى» و لو لم يكن منهم لم يكن له ذلك.

و قوله: أ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ إنكار لعزمهم على قتله، و فى قوله: «مِنْ رَبِّكُمْ» دليل على أن فى البيّنات التى جاء بها دلاله على أن الله ربهم أيضا كما اتخذه ربا فقتله قتل رجل جاء بالحق من ربهم.

و قوله: وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ قِيلَ: إن ذكره هذا التقدير تلتطف منه لا أنه كان شاكا فى صدقه.

و قوله: وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصَِّبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ فِيهِ تنزل فى المخاصمه بالاكْتفاء على أيسر التقادير و أقلها كأنه يقول: و إن يك صادقا يصبكم ما وعدكم من أنواع العذاب و لا أقل من إصابه بعض ما يعدكم مع أن لازم صدقه إصابه جميع ما وعد.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ تعليل للتقدير الثانى فقط و المعنى إن يك كاذبا كفاه كذبه و إن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم لأنكم حينئذ مسرفون متعدون طوركم كذابون فى نفى ربوبيه ربكم و اتخاذ أرباب من دونه و الله لا يهدى من هو مسرف كذاب، و أما على تقدير كذبه فلا ربوبيه لمن اتخذه ربا حتى يهديه أو لا يهديه.

و من هنا يظهر أن ما ذكره بعضهم من كون الجمله تعليلا للتقديرين جميعا متعلقه بكلتا الجملتين غير مستقيم.

قوله تعالى: يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ظُهُورُهُمْ غَلَبْتَهُمْ وَ عَلَوْهُمْ فِي الْأَرْضِ، و الأرض أرض مصر، و بأس الله أخذه و عذابه و الاستفهام للإنكار.

و المعنى: يا قوم لكم الملك حال كونكم غالبين عالين فى أرض مصر على من دونكم من بنى

إسرائيل فمن ينصرنا من أخذ الله و عذابه كما يعدنا به موسى إن جاءنا؟ وقد أدخل نفسه فيهم على تقدير مجيء البأس ليكون أبلغ في النصح و أوقع في قلوبهم أنه يريد لهم من العافيه ما يريد له نفسه.

قوله تعالى: قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ أَي طريق الصواب المطابقه للواقع يريد أنه على يقين مما يهدى اليه قومه من الطريق و هي مع كونها معلومه له مطابقه للواقع، وهذا كان تمويها منه و تجلدا.

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ -الى قوله- لِلْعِبَادِ الْمُرَادِ بِالذِي آمَنَ هُوَ مُؤْمِن آل فرعون، ولا يعبأ بما قيل:

إنه موسى لقوه كلامه، والمراد بالأحزاب الامم المذكورون فى الآيه التاليه قوم نوح و عاد و ثمود و الذين من بعدهم، وقوله: «مِثْلَ ذَابِ قَوْمِ نُوحٍ» بيان للمثل السابق و الدأب هو العاده.

و المعنى: يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأقسام الماضين مثل العاده الجاربه من العذاب عليهم واحدا بعد واحد لكفرهم و تكذيبهم الرسل، أو مثل جزاء عادتهم الدائمه من الكفر و التكذيب و ما الله يريد ظلما للعباد.

قوله تعالى: وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ -الى قوله- مِنْ هَادٍ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، و لعل تسميته بذلك لكون الظالمين فيه ينادى بعضهم بعضا و ينادون بالويل و الثبور على ما اعتادوا به فى الدنيا.

وقيل: المراد بالتنادى المناداه التى تقع بين أصحاب الجنه و أصحاب النار على ما ذكره الله تعالى فى سوره الأعراف، و هناك وجوه آخر ذكروها لا جدوى فيها.

و قوله: يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مِمَّا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ الْمُرَادِ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ و لعل المراد أنهم يفرون فى النار من شدة عذابها ليتخلصوا منها فردوا إليها كما قال

تعالى: كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (الحج / ٢٢).

وقوله: وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ بِمَنْزِلِهِ التعليل لقوله: «مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ» أى تفرون مدبرين ما لكم من عاصم و لو كان لكان من جانب الله و ليس و ذلك لأن الله أضلهم و من يضل الله فما له من هاد.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ لَمَا ذَكَرَ أَنَّ اللَّهَ أَضْلَهُمْ وَ لَا هَادِيَ لَهُمْ اسْتَشْهَدَ لَهُ بِمَا عَامَلُوا بِهِ يوسف عليه السلام فى رسالته اليهم حيث شكوا فى نبوته ما دام حيا ثم إذا مات قالوا: لا نبي بعده.

فالمعنى: و أقسم لقد جاءكم يوسف من قبل بالآيات البينات التى لا تدع ريبا فى رسالته من الله فما زلتم فى شك مما جاءكم به ما دام حيا حتى إذا هلك و مات قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا فناقضتم أنفسكم و لم تبالوا.

ثم أكده - و هو فى معنى التعليل - بقوله: «كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ» .

قوله تعالى: الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ الْخُصْمُ لِكُلِّ مُسْرِفٍ مُرْتَابٍ فَإِنْ مِنْ تَعْدَى طَوْرِهِ بِالْأَعْرَاضِ عَنِ الْحَقِّ وَ اتِّبَاعِ الْهَوَى وَ اسْتَقْرَافِ نَفْسِهِ الْارْتِيَابِ فَكَانَ لَا يَسْتَقِرُّ عَلَى عِلْمٍ وَ لَا يَطْمَئِنُّ إِلَى حُجَّةٍ تَهْدِيهِ إِلَى الْحَقِّ جَادِلٍ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ بَرَهَانٍ إِذَا خَالَفَتْ مَقْتَضَى هَوَاهُ.

وقوله: كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ يَفِيدُ أَنْ قُلُوبَهُمْ مَطْبُوعٌ عَلَيْهَا فَلَا يَفْقَهُونَ حُجَّةً وَ لَا يَرْتَدُّونَ إِلَى بَرَهَانٍ.

قوله تعالى: وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا - إلى قوله - فِي بَابِ أَمْرٍ مِنْهُ لَوْزِيرُهُ هَامَانُ أَنْ يَبْنِيَ لَهُ بِنَاءً يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الْإِطْلَاقِ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَ لَعَلَّهُ أَصْدَرَ هَذَا الْأَمْرَ أَثْنَاءَ مُحَاجَّتِهِ الَّذِي آمَنَ وَ بَعْدَ الْإِنْصِرَافِ عَنْ قَتْلِ مُوسَى وَ لِذَلِكَ وَقَعَ ذِكْرُهُ بَيْنَ مَوَاعِظِ

الذى آمن و احتججته.

و الصرح-على ما فى المجمع-البناء الظاهر الذى لا يخفى على عين الناظر و إن بعد، و الأسباب جمع سبب و هو ما تتوصل به الى ما يبتعد عنك.

و قوله: لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ فى معنى التعليل لأمره ببناء الصرح، و المعنى آمرِك ببنائه لأنى أرجو أن أبلغ بالصعود عليه الأسباب ثم فسر الأسباب بقوله: «أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ» و فرع عليه قوله: «فَأَطَّلِعُ إِلَى إِلَهٍ مُّوسَى» كأنه يقول: إن الإله الذى يدعو و يدعو اليه موسى ليس فى الأرض إذ لا إله فيها غيرى فلعله فى السماء فابن لى صرحا لعلى أبلغ بالصعود عليه الأسباب السماويه الكاشفه عن خبايا السماء فأطلع من جهتها الى إله موسى و إنى لأظنه كاذبا.

و قوله: وَ كَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَ صِيدَ عَنِ السَّبِيلِ مفاد السياق أنه فى معنى إعطاء الضابط لما واجه به فرعون الحق الذى كان يدعو اليه موسى فقد زين الشيطان له قبيح عمله فرآه حسنا و صده عن سبيل الرشاد فرأى انصداده عنها ركوبا عليها فجادل فى آيات الله بالباطل و أتى بمثل هذه الأعمال القبيحه و المكائد السفهيه لإدحاض الحق.

و لذلك ختمت الآيه بقوله: «وَ مَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ» أى هلاك و انقطاع.

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يدعوهم الى اتباعه ليهدىهم، و اتباعه اتباع موسى، و سبيل الرشاد السبيل التى فى سلوكها إصابه الحق و الظفر بالسعادة، و الهدايه بمعنى إرادته الطريق، و فى قوله: «أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ» تعريض لفرعون حيث قال: «وَ مَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ» و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ هذا هو السناد الذى يستند اليه سلوكك سبيل الرشاد و التدين بدين الحق لا غنى عنه

بحال و هو الاعتقاد بأن للإنسان حياه خالده مؤبده هي الحياه الآخره و أن هذه الحياه الدنيا متاع في الآخره و مقدمه مقصوده لأجلها، و لذلك بدئ به في بيان سبيل الرشاد ثم ذكر السيئه و العمل الصالح.

قوله تعالى: مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا إِلَى آخِرِ آيَةٍ. أى إن الذى يصيبه و يعيش به في الآخره يشاكل ما أتى به في هذه الحياه الدنيا التى هي متاع فيها فإنما الدنيا دار عمل و الآخره دار جزاء.

من عمل في الدنيا سيئه ذات صفه المساءه فلا يجزى في الآخره إلا مثلها مما يسوؤه و من عمل صالحا من ذكر أو انثى من غير فرق بينهما في ذلك و الحال أنه مؤمن فاولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب.

و فيه إشاره الى المساواه بين الذكر و الانثى في قبول العمل و تقييد العمل الصالح في تأثيره بالإيمان لكون العمل حبطا بدون الإيمان قال تعالى: وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ (المائدة/٥) الى غيرها من الآيات.

و قد جمع الدين الحق و هو سبيل الرشاد فى أوجز بيان و هو أن للإنسان دار قرار يجزى فيها بما عمل فى الدنيا من عمل سيئ أو صالح فليعمل صالحا و لا يعمل سيئا، و زاد بيانا إذ أفاد أنه إن عمل صالحا يرزق بغير حساب.

قوله تعالى: يَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاهِ وَ تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ - الى قوله- أَلْعَزِيزِ الْغَفَّارِ كَأَنَّهُ لَمَّا دَعَاهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ قَابَلُوهُ بِدَعْوَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ أَوْ قَدَّرَهَا لَهُمْ لَمَّا شَاهَدَ جِدَالَهُمْ بِالْبَاطِلِ وَ إِصْرَارَهُمْ عَلَى الشَّرْكِ فَنَسَبَ إِلَيْهِمُ الدَّعْوَةَ بِشَهَادَةِ حَالِهِمْ فَأَظْهَرَ الْعَجَبَ مِنْ مَقَابَلَتِهِمْ دَعْوَتَهُ الْحَقَّةَ بِدَعْوَتِهِمُ الْبَاطِلَةَ.

فقال: و يا قوم ما لى أدعوكم الى النجاه أى النجاه من النار و تدعوننى الى النار و قد كان يدعوهم الى سبب النجاه و يدعوهم الى سبب دخول النار فجعل الدعوه الى السببين دعوه الى

المسيبين أو لأن الجزاء هو العمل بوجه.

ثم فسر ما دعوه اليه و ما دعاهم اليه فقال: تدعونني لأكفر أى الى أن أكفر بالله و أشرك به ما ليس لى به علم أى أشرك به شيئاً لا حجه لى على كونه شريكاً فأفتري على الله بغير علم، و أنا أدعوكم الى العزيز الذى يغلب و لا يغلب، الغفار لمن تاب اليه و آمن به أى أدعوكم الى الإيمان به و الإسلام له.

قوله تعالى: **لَا جْرَمَ أَنتُمْ تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ** الخ؛ لا جرم بمعنى حقا أو بمعنى لا بد، و مفاد الآية إقامة الحجه على عدم كون ما يدعون اليه إلها من طريق عدم الدعوه اليه و فى ذلك تأييد لقوله فى الآية السابقه: **«مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ»**.

و المعنى: ثبت ثبوتاً أن ما تدعونني اليه ما تسمونه شريكاً له سبحانه ليس له دعوه فى الدنيا إذ لم يعهد نبي أرسل الى الناس من ناحيته ليدعوهم الى عبادته، و لا فى الآخرة إذ لا رجوع اليه فيها من أحد، و أما الذى أدعوكم اليه و هو الله سبحانه فإن له دعوه فى الدنيا و هى التى تصداها أنبياءه و رسله المبعوثون من عنده المؤيدون بالحجج و البينات، و فى الآخرة و هى التى يتبعها رجوع الخلق اليه لفصل القضاء بينهم، قال تعالى: **يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ (الإسراء ٥٢)**.

و من المعلوم كما قررناه فى ذيل قوله تعالى: **هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آيَاتِهِ (الآيه ١٣ من السوره)** أن الربوبيه لا تتم بدون دعوه فى الدنيا و نظيرتها الدعوه فى الآخرة، و إذ كان الذى يدعوهم اليه ذا دعوه فى الدنيا و الآخرة دون ما يدعونه اليه فهو الإله دون ما يدعون اليه.

و قوله: **وَ أَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ** معطوف على قوله: **«أَنْتُمْ تَدْعُونَنِي»** أى لا جرم أن مردنا الى الله فيجب الإسلام له و اتباع سبيله

و رعايه حدود العبوديه، ولا جرم أن المسرفون و هم المتعدون طور العبوديه-و هم أنتم- أصحاب النار فالذى أدعوكم اليه فيه النجاه دون ما تدعوننى اليه.

قوله تعالى: فَسَيَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ صدر الآيه موعظه و تخويف لهم و هو تفريع على قوله: «وَ أَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ» الخ؛ أى إذ كان لا بد من الرجوع الى الله و حلول العذاب بالمسرفين و أنتم منهم و لم تسمعوا اليوم ما أقول لكم فستذكرون ما أقول لكم حين عايتم العذاب و تعلمون عند ذاك أنى كنت ناصحا لكم.

و قوله: وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ التفويض على ما فسره الراغب هو الرد فتفويض الأمر الى الله رده إليه فيقرب من معنى التوكل و التسليم و الاعتبار مختلف:

فالتفويض من العبد رده ما نسب اليه من الأمر الى الله سبحانه و حال العبد حينئذ حال من هو أعزل لا أمر راجعا اليه، و التوكل من العبد جعله ربه و كيلا يتصرف فيما له من الأمر، و التسليم من العبد مطاوعته المحضه لما يريد الله سبحانه فيه و منه من غير نظر الى انتساب أمر اليه فهى مقامات ثلاث من مقامات العبوديه: التوكل ثم التفويض و هو أدق من التوكل ثم التسليم و هو أدق منهما.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ تعليل لتفويضه أمره الى الله، و فى وضع اسم الجلاله موضع ضميره-و كان مقتضى الظاهر الإضمار إشاره الى عله بصيرته بالعباد كأنه قيل: إنه بصير بالعباد لأنه الله عز اسمه.

قوله تعالى: فَوْقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا تَفْرِيعٌ عَلَى تَفْوِيضِهِ الْأَمْرَ إِلَى اللَّهِ فَكَفَاهُ اللَّهُ شَرَّهُمْ وَ وَقَاهُ سَيِّئَاتٍ مَكْرَهُمْ، و فيه إشاره الى أنهم قصدوه بالسوء لكن الله دفعهم عنه.

قوله تعالى: وَ حَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ -الى قوله- أَشَدَّ الْعَذَابِ

أى نزل بهم و أصابهم العذاب السيئ فسوء العذاب من إضافه الصفه الى موصوفها و فى التوصيف بالمصدر مبالغه، و آل فرعون أشياعه و أتباعه، و ربما يقال آل فلان و يشمل نفسه.

و قوله: النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ظاهر السياق أنه بيان لسوء العذاب و ليس من الاستئناف فى شىء.

و الآيه صريحه أولا فى أن هناك عرضا على النار ثم إدخالا فيها و الإدخال أشد من العرض، و ثانيا: فى أن العرض على النار قبل قيام الساعه التى فيها الإدخال و هو عذاب البرزخ-عالم متوسط بين الموت و البعث- و ثالثا: أن التعذيب فى البرزخ و يوم تقوم الساعه بشىء واحد و هو نار الآخره لكن البرزخين يعذبون بها من بعيد و أهل الآخره بدخولها.

و فى قوله: غُدُوًّا وَعَشِيًّا إشاره الى التوالى من غير انقطاع، و لعل لأهل البرزخ لعدم انقطاعهم عن الدنيا بالكلية نسبه ما الى الغداه و العشى.

و فى قوله: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ.

قوله تعالى: وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعْفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا -الى قوله- بَيْنَ الْعِبَادِ يَفِيدُ السِّيَاقُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي «يَتَحَاجُّونَ» لآلِ فِرْعَوْنَ و من الدليل على ذلك تغيير السياق فى قوله بعد: «وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ» و المعنى و حاق بآل فرعون سوء العذاب إذ يتحاجون فى النار أو و اذكر من سوء عذابهم إذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء منهم للذين استكبروا إنا كنا فى الدنيا لكم تبعا و كان لازم ذلك أن تكفونا فى الحوائج و تنصرونا فى الشدائد و لا شده أشد مما تحن فيه فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار و إن لم يكن جميع عذابها فقد قنعنا ببعض.

و هذا ظهور مما رسخ فى نفوسهم فى الدنيا من الالتجاء بكبرياتهم و متبوعهم من دون الله

يظهر منهم ذلك يوم القيامة و هم يعلمون أنهم في يوم لا تغنى فيه نفس عن نفس شيئا و الأمر يومئذ لله و له نظائر محكيه عنهم في كلامه تعالى من كذبهم يومئذ و خلفهم و إنكارهم أعمالهم و تكذيب بعضهم لبعض و غير ذلك.

و قوله: **قَالَ الَّذِينَ اشْتَكَبُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ** جواب من مستكبريهم عن قولهم و محصله أن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل فالأسباب ساقطه عن التأثير و قد طاحت منا ما كنا نتوهمه لأنفسنا في الدنيا من القوه و القدره فحالنا و حالكم - نحن جميعا في النار-واحد.

فقولهم: **«إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ»** مفاده أن ظهور الحكم الإلهي قد أبطل أحكام سائر الأسباب و تأثيراتها و أثبتنا على ما نحن فيه من الحال في حد سواء فلسنا نختص دونكم بقوه حتى نغنى عنكم شيئا من العذاب.

و مما قيل في الآيه أن الضمير في قوله: **«يَتَحَاجُّونَ»** لمطلق الكفار من أهل النار و هو بعيد كما عرفت، و قيل: الضمير لقريش و هو أبعد.

قوله تعالى: **وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ** مكالمه بين أهل النار -و منهم آل فرعون- و بين خزنة جهنم أوردها سبحانه تلو قصه آل فرعون، و هم إنما سألوا الخزنة أن يدعوا لهم ليأسهم من أن يستجاب منهم أنفسهم.

و المراد باليوم من العذاب ما يناسب من معنى اليوم لعالمهم الذي هم فيه، و يتول معناه الى قطعه من العذاب.

قوله تعالى: **قَالُوا أَوْ لَمْ تُكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ** أجابوهم بالاستخبار عن إتيان رسلهم إياهم بالبينات فاعترفوا بذلك و هو اعتراف منهم بأنهم كفروا بهم مع العلم بكونهم على الحق

و هو الكفر بالنبوه فلم يجبهم الخزنه فيما سألوهم من الدعاء إثباتا و لا نفيًا بل ردوهم الى أنفسهم مشيرين الى أنهم لا يستجاب لهم دعاء.

و قوله: وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ أَي إن دعاءهم قد أحاط به الضلال فلا يهتدى الى هدف الإجابة و هو تتمه كلام الخزنه على ما يعطيه السياق، و يحتمل أن يكون من كلامه تعالى، على بعد.

و الجملة على أى حال تفيد معنى التعليل و المحصل: ادعوا فلا يستجاب لكم فإنكم كافرون، و الكافرون لا يستجاب لهم دعاء.

و تعليق حكم عدم الاستجابة بوصف الكفر مشعر بعليته و ذلك أن الله سبحانه و إن وعد عباده وعدا قطعيا أن يجيب دعوه من دعاه منهم فقال: أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ (البقره ١٨٦)، و الدعاء إذا كان واقعا على حقيقته لا يرد البتة لكن الذى يتضمنه متن هذا الوعد هو أن يكون هناك دعاء و طلب حقيقه و أن يتعلق ذلك بالله حقيقه أى يدعو الداعى و يطلب جدا و ينقطع فى ذلك الى الله عن سائر الأسباب التى يسميها أسبابا.

و الكافر بعذاب الآخرة و هو الذى ينكرها و يستر حقيقتها لا يتمشى منه طلب جدى لرفعه أما فى الدنيا فظاهر، و أما فى الآخرة فلأنه و إن أيقن به بالمعاینه و انقطع الى الله سبحانه لما هو فيه من الشده و قد انقطعت عنه الأسباب لكن صفه الإنكار لزمته وبالا و قد جوزى بها فلا تدعه يطلب ما كان ينكره طلبا جديا.

على أن الكلام فى انقطاعه الى الله أيضا كالكلام فى طلبه الجدى للتخلص و أنى له الانقطاع الى الله هناك و لم يتلبس به فى الدنيا فافهمه.

و بذلك يظهر ضعف الاستدلال بالآيه على أن دعاء الكافر لا يستجاب مطلقا فإنك عرفت أن مدلول الآيه عدم استجابة دعائه فيما يكفر به و ينكره لا مطلقا كيف؟ و هناك آيات كثيره تذكر استجابة دعائه فى موارد الاضطرار.

قوله تعالى: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ الْأَشْهَادُ جمع شهيد بمعنى شاهد، والآيه وعد نوعى لا وعد شخصى لكل واحد شخصى منهم فى كل واقعه شخصيه، وقد تقدم كلام فى معنى النصر الإلهى فى تفسير قوله تعالى: إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (الصفات ١٧٢).

قوله تعالى: يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعِيدَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ تفسير ليوم يقوم الأشهاد، و ظاهر إضافه المصدر الى فاعله فى قوله: «مَعِيدَتُهُمْ» و لم يقل: أن يعتذروا، تحقق معذره ما منهم يومئذ، و أما قوله: هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَ لَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (المرسلات ٣٦) فمحمول على بعض مراحل يوم القيامة و عقباته لدلاله آيات اخرى على وقوع تكلم ما منهم يومئذ. و قوله: وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ أى البعد من رحمه الله، و قوله: «لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» أى الدار السيئه و هى جهنم.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَ أَوْزَنَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ -الى قوله- الْأَلْبَابِ خاتمه لما تقدم من إرسال موسى بالآيات و السلطان المبين و مجادله آل فرعون فى الآيات بالباطل و محاجه مؤمن آل فرعون، يشير بها و قد صدرت بلام القسم الى حقيه ما ارسل به و ظلمهم فيما قابلوه به.

و المراد بالهدى الدين الذى اوتيه موسى، و «بايرات بنى إسرائيل الكتاب» إبقاء التوراه بينهم يعملون بها و يهتدون.

و قوله: هُدًى وَ ذِكْرٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ أى حال كون الكتاب هدى يهتدى به عامتهم و ذكرى يتذكر به خاصتهم من اولى الألباب.

[سوره غافر (٤٠): الآيات ٥٥ الى ٦٠]

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكَارِ (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦) لَخَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَ مَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ لَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَمَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩) وَ قَالَ رَبُّكُمْ أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)

قوله تعالى: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ تفريع على ما تقدم من الأمر بالاعتبار في قوله: «أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ» و ما أورد بعده من قصه موسى و مآل أمر المستكبرين المجادلين بالباطل و نصره تعالى للحق و أهله.

و المعنى: إذا كان الأمر على ذلك فاصبر على إيذاء المشركين و مجادلتهم بالباطل إن وعد الله حق و سيفي لك بما وعد، و المراد بالوعد ما في قوله قبيل هذا: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا» الآية؛ من وعد النصر.

و قوله: وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ أَمْرٌ لَهُ بِالِاسْتِغْفَارِ لما يعد بالنسبه اليه ذنبا و إن لم يكن ذنبا بمعنى المخالفه للأمر المولوى لمكان عصمته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، و قد تقدم كلام فى معنى الذنب و المغفره فى أواخر الجزء السادس من الكتاب.

و للذنب المنسوب اليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ معنى آخر سنشير اليه فى تفسير أول سورة الفتح إن شاء اللهُ تعالى، و قيل: المراد بذنبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ ذنب امته أعطى الشفاعة فيه.

و قوله: وَ سَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكَارِ أَى نزهه سبحانه مصاحبا لحمده على جميل آلائه مستمرا متواليا بتوالى الأيام أو فى كل صباح و مساء، و كونه بالعشى و الإبكار على المعنى الأول من قبيل الكنايه.

و قيل: المراد به صلاتا الصبح و العصر، و الآيه مدنيه.

و فيه أن المسلم من الروايات و منها أخبار المعراج أن الصلوات الخمس فرضت جميعا بمكه قبل الهجره فلو كان المراد به الفريضتين كان ذلك بمكه قبل فرض بقيه الصلوات الخمس.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ الْخ؛ تأكيد لما تقدم فى الآيه السابقه من أمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بالصبر و تطيب نفسه بتأييد وعد النصر، و محصله أن هؤلاء المجادلين لا ينالون بغيتهم و لن ينالوا فلا يحزنك جدالهم و طب نفسا من ناحيتهم.

فقوله: إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ حصر للسب الموجب لمجادلتهم فى الكبر أى ليس عاملهم فى ذلك طلب الحق أو الارتباب فى آياتنا و الشك فيها حتى يريدوا بها ظهور الحق و لا حجه و لا سلطان عندهم حتى يريدوا إظهارها بل الذى فى صدورهم و هو الداعى لهم الى الجدل، الكبر، يريدون به إدحاض الحق الصريح.

و قوله: مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ الضمير لكبر باعتبار مسببه فإن الكبر سبب للجدال

و الجدل يراد به إبطال الحق و محق الدعوه الحقه،و المعنى ما هم ببالغى مرادهم و بغيتهم من الجدل الذى يأتون به لكبرهم.

و قوله: فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ أَى فاستعذ بالله منهم بما لهم من الكبر كما استعاذ موسى من كل متكبر مجادل كما قال: وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ .

و قوله: إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ أَى السميع لدعاء عباده البصير بحوائجهم و الذى يبصر ما هم فيه من شدة أو رخاء.

قوله تعالى: لَخَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ اللام للقسم،و المراد بالسموات و الأرض مجموع العالم،و معنى الآية حسب ما يعطيه المقام أنهم ليسوا ببالغى بغيتهم و ليسوا بمعجزين فإن الله الذى قدر على خلق مجموع العالم و لم يعجزه ذلك على ما فيه من العظمه ليس يعجزه جزء يسير منه و هو الناس المخلوقون الذين هم أهون عليه و لكن أكثر الناس جاهلون يظنون بجهلهم أنهم يعجزون الله بجدال يجادلونه أو أى كيد يكيدونه.

قوله تعالى: وَ مَا يَشِيئُوا أَعْمَىٰ وَ الْبَصِيرُ الْخ؛لما ذكر أن أكثر الناس لا يعلمون أكده بأنهم ليسوا على وتيره واحده فإن منهم الأعمى و البصير و لا يستويان و عطف عليهما الذين آمنوا و عملوا الصالحات و المسيء فالطائفه الاولى اولو بصيره يتذكرون بها و الثانيه أعمى الله قلوبهم فلا يتذكرون.

و قوله: قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ خطاب للناس بداعى التوبيخ و هو الوجه فى الالتفات من الغيبه الى الحضور.

قوله تعالى: إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَهُ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ذكّرهم تعالى فى هذه الآية بإتيان الساعه و فى الآية التاليه بدعوه ربهم إياهم الى دعائه

و عبادته كما نبه الذى آمن من آل فرعون فى القصة السابقه بإتيان الساعه و بأن لله الدعوه و ليس لآلهتهم دعوه فى الدنيا و لا فى الآخره.

قوله تعالى: وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ دَعْوَةَ اللَّهِ مِنْ تَعَالَى لِعِبَادِهِ وَ وَعَدَ بِالِاسْتِجَابَةِ، وَ قَدْ أَطْلَقَ الدَّعْوَةَ وَ الدَّعَاءَ وَ الاسْتِجَابَةَ إِطْلَاقًا، وَ قَدْ أَشْبَعْنَا الْكَلَامَ فِي مَعْنَى الدَّعَاءِ وَ الإِجَابَةِ فِي ذِيْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أُجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ (البقره/ ١٨٦) فى الجزء الأول من الكتاب.

و قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَكِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ الدخول الذله، و قد بدل الدعاء عباده فدل على أن الدعاء عباده.

[سوره غافر (٤٠): الآيات ٤١ الى ٤٨]

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَشْكُرُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٤١) ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانِي تُوَفِّكُونَ (٤٢) كَذَلِكَ يُؤَفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا بِالآيَاتِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ (٤٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَرَارًا وَ السَّمَاءَ بِنَاءً وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٤٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِربِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا- ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَ لَتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٤٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٨)

قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا الْآيَةَ؛ أى جعل لأجلكم الليل مظلمًا لتسكنوا فيه من التعب الذى عرض لكم وجه النهار من جهة السعى فى طلب الرزق، والنهار مبصرًا لتبتغوا من فضل ربكم و تكسبوا الرزق، وهذا من أركان تدبير الحياه الإنسانيه.

وقوله: إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ امتنان عليهم بالفضل و تقريع لهم بعدم شكرهم له قبال هذا الفضل العظيم و لو شكروه لعبدوه و وضع «الناس» الثانى موضع الضمير للإشاره الى أن من طبع الناس بما هم ناس كفران النعم كما قال: إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفَّارٌ (إبراهيم ٣٤).

قوله تعالى: ذِكْرُكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنى تُؤْفَكُونَ أى ذلكم الذى يدبر أمر حياتكم و رزقكم بسكون الليل و سعى النهار هو الله تعالى و هو ربكم لأن تدبير أمركم اليه.

وقوله: خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ أى و رب كل شىء لأنه خالق كل شىء و الخلق لا ينفك

عن التدبير و لانزم ذلك أن لا يكون فى الوجود رب غيره لا لكم و لا لغيركم و لذلك عقبه بقوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» أى فإذن لا معبود بالحق غيره إذ لو كان هناك معبود آخر كان رب آخر فإن الالوهيه من شئون الربوبيه.

و قوله: فَأَتَى تُؤَفِّكُونَ أى فكيف تصرفون عن عبادته الى عباده غيره.

قوله تعالى: كَذَلِكَ يُؤَفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ أى كمثل هذا الإفك يؤفك الجاحدون لآيات الله فإن الآيات ظاهره غير خفيه فالانصراف عن مدلولها لا سبب له إلا الجحد.

قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَ السَّمَاءَ بِنَاءً إلى آخر الآيه؛ القرار المستقر الذى يستقر عليه، و البناء-على ما قيل- القبه و منه أبنيه العرب للقباب المضروبه عليهم. يذكر تعالى نعمه استقرار الإنسان على الأرض و تحت السماء.

و قوله: وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ الفاء للتفسير و المعنى أحسن خلق صوركم و ذلك أن الإنسان جهز من دقائق التجهيز فى صورته بما يقوى به من الأعمال المتنوعه العجيبه على ما لا يقوى عليه شىء من سائر الموجودات الحيه، و يلتذ من مزايا الحياه بما لا يتيسر لغيره أبداً.

و قوله: وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ هى الأرزاق المتنوعه التى تلائم بطبائعها طبيعه الإنسان من الحبوب و الفواكه و اللحوم و غيرها، و ليس فى الحيوان متنوع فى الرزق كالإنسان.

و قوله: ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ أى المدبر لأمركم، و قوله: «فَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» ثناء عليه عزّ و جل بربوبيته لجميع العالمين، و قد فرعه على ربوبيته و تدبيره للإنسان إشاره الى أن الربوبيه واحده و تدبيره لأمر الإنسان عين تدبيره لأمر العالمين جميعاً فإن النظام الجارى نظام واحد روعى فى انطباقه على كل، انطباقه على الكل فهو سبحانه متبارك منشأ

للخير الكثير فتبارك الله رب العالمين.

قوله تعالى: هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الخ؛ فى جملة «هُوَ الْحَيُّ» إطلاق لا مقيد له لا عقلا ولا نقلا مضافا الى إفاده الحصر فمفادها أن له تعالى وحده حياه لا يداخلها موت ولا يزيلها فناء فهو تعالى حى بذاته و غيره كائنا ما كان حى بإحياء غيره.

و إذا فرض هناك حى بذاته و حى بغيره لم يستحق العباده بذاته إلا من كان حيا بذاته، و لذلك عقب قوله: «هُوَ الْحَيُّ» بقوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» .

و قد سيقت الجملتان توطئه للأمر بدعائه و لا مطلق دعائه بل دعائه بالتوحيد و إخلاص الدين له وحده لأنه الحى بذاته دون غيره و لأنه المعبود بالاستحقاق الذاتى دون غيره، و لذلك فرع على قوله: «هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» قوله: «فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» .

و قوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ثناء عليه بربوبيته للعالمين.

قوله تعالى: قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ معنى الآيه ظاهر، و فيه إيثار للمشركين من موافقته لهم فى عباده آلهتهم» و قد تكرر هذا المعنى فى سوره الزمر و يمكن أن يستأنس منه أن هذه السوره نزلت بعد سوره الزمر.

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ الخ؛ المراد بخلقهم من تراب خلق أبيهم آدم من تراب فإن خلق غيره ينتهى اليه فخلقهم من تراب هو خلقهم منه أو المراد بخلقهم من تراب تكوين النطفه من البسائط الأرضيه.

و قوله: ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ الخ؛ أى ثم خلقناكم من نطفه حقيره معلومه الحال «ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ» كذلك «ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ» من بطون امهاتكم «طِفْلاً» أى أطفالا، و الطفل - كما قيل - يطلق على الواحد و الجمع قال تعالى: أَوِ الطُّفْلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا عَلَيَّ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ

ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ اللّام للغايه و كأن متعلقها محذوف و التقدير ثم ينشئكم لتبلغوا أشدكم و هو من العمر زمان اشتداد القوى «ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا» معطوف على «لَتَبْلُغُوا» «وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ» فلا يبلغ أحد هذه المراحل من العمل كالشيخوخه و بلوغ الأشد و غيرهما.

وَ لَتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى و هو النهايه من الأمد المضروب الذى لا سبيل للتغير اليه أصلا، و هو غايه عامه لجميع الناس كيفما عمروا قال تعالى: وَ أَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ (الأنعام ٢). و لذلك لم تعطف الجملة بضم حتى تتميز من الغائتين المذكورتين سابقا.

و قوله: وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ أى تدركون الحق بالتعقل المغروز فيكم، و هذا غايه خلقه الإنسان بحسب حياته المعنويه كما أن بلوغ الأجل المسمى غايه حياته الدنيا الصوريه.

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ السخ؛ أى هو الذى يفعل الإحياء و الإماتة و فيهما نقل الأحياء من عالم الى عالم و كل منهما مبدأ لتصرفاته بالنعم التى يتفضل بها على من يدبر أمره.

و قوله: فَإِذَا قُضِيَٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ تقدم تفسيره كرارا.

[سوره غافر (٤٠): الآيات ٦٩ الى ٧٨]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُضَرَّفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَ بِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَ السَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) أُدْخِلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَسَبِّسْ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَأِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ قُضِيَٰ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصِرُّونَ «أَلَمْ تَرَ» مفيد للتعجب و «أَنَّى» بمعنى كيف، والمعنى ألا تعجب أو ألم تعجب من أمر هؤلاء المجادلين في آيات الله كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل و عن الهدى إلى الضلال.

والتعرض لحال المجادلين هاهنا من حيث الإشارة إلى كونهم مصروفين عن الحق و الهدى و مآل ذلك، وفيما تقدم من قوله: إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ مِنْ حَيْثُ إِنْ الداعى لهم إلى ذلك الكبر و أنهم لا يبلغون ما

يريدون فلا تكرر.

قوله تعالى: الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَيُوفَ يُعَلِّمُونَ الذى يعطيه سياق الآيات التالية أن المراد بهؤلاء المجادلين هم المجادلون من قوم النبى صلى الله عليه وآله وسلم، و عليه فالأنسب أن يكون المراد بالكتاب هو القرآن الكريم، و بقوله: «مِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا» ما جاءت به الرسل عليهم السلام من عند الله من كتاب و دين فالوثنيه منكرون للنبوه.

و قوله: «فَسَيُوفَ يُعَلِّمُونَ» تفریع على مجادلتهم و تكذيبهم و تهديد لهم أى سوف يعلمون حقيقه مجادلتهم فى آيات الله و تكذيبهم بالكتاب و بالرسل.

قوله تعالى: إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَ السَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ فى المجمع: الأغلال جمع غل و هو طوق يدخل فى العنق للذل و الألم و أصله الدخول، و قال: السلاسل جمع سلسله و هى الحلق منتظمه فى جهه الطول مستمره و قال: السحب جر الشىء على الأرض. هذا أصله، و قال: السجر أصله إلقاء الحطب فى معظم النار كالتنور الذى يسجر بالوقود. انتهى.

و قوله: إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَ السَّلَاسِلُ ظرف لقوله: «فَسَوْفَ يُعَلِّمُونَ» قيل: الإتيان بإذ- و هو للماضى» للدلاله على تحقق الوقوع و إن كان موقعه المستقبل فلا تنافى، فى الجمع بين سوف و إذ.

و «الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ» مبتدأ و خبر، و «السَّلَاسِلُ» معطوف على الأغلال، و «يُسْجَرُونَ فِي الْحَمِيمِ» خبر بعد خبر، و «فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ» معطوف على «يُسْجَرُونَ» .

و المعنى: سوف يعلمون حقيقه عملهم حين تكون الأغلال و السلاسل فى أعناقهم يجرون فى الماء الحار الشديد الحرارة ثم يقذفون فى النار.

و قيل: معنى قوله: «ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ» ثم يصيرون وقود النار، و يؤيده قوله تعالى فى

صفه جهنم: وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ (البقره ٢٤)، و قوله: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ (الأنبياء ٩٨).

قوله تعالى: ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ أَي قِيلَ لَهُمْ وَ هُمْ يَتَقَلَّبُونَ بَيْنَ السَّحْبِ وَ السَّجْرِ: أَيِن مَا كُنتُمْ تَشْرِكُونَ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَتَّى يَنْصُرُواكُمْ بِالْإِنجَاءِ مِنْ هَذَا الْعَذَابِ أَوْ يَشْفَعُوا لَكُمْ كَمَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ سَيُشْفَعُونَ لَكُمْ قَبَالَ عِبَادَتِكُمْ لَهُمْ؟

و قوله: قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا أَي غَابُوا عَنَّا مِنْ قَوْلِهِمْ: ضَلَّتِ الدَّابَّةُ إِذَا غَابَتْ فَلَمْ يَعْرِفْ مَكَانَهَا، وَ هَذَا جَوَابُهُمْ عَمَا قِيلَ لَهُمْ: أَيِن مَا كُنتُمْ تَشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

و قوله: بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا إِضْرَابٌ مِنْهُمْ عَنِ الْجَوَابِ الْأَوَّلِ لَمَا يَظْهَرُ لَهُمْ أَنَّ الْآلِهَةَ كَانُوا يَزْعُمُونَ لَهُمْ شُرَكَاءَ لَمْ يَكُونُوا إِلَى أَسْمَاءٍ لَا مَسْمِيَّاتٍ لَهَا وَ مَفَاهِيمٍ لَا يَطَابِقُهَا شَيْءٌ وَ لَمْ يَكُنْ عِبَادَتُهُمْ لَهَا إِلَّا سُدَى، وَ لِذَلِكَ نَفَوْا أَنْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَ شَيْئًا قَالَتْ تَعَالَى:

فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ (يونس ٢٨) وَ قَالَ: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (الأنعام ٩٤).

و قيل: هَذَا مِنْ كَذِبِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ: وَ اللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (الأنعام / ٢٣).

و قوله: كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ أَي إِضْلَالَهُ تَعَالَى لِلْكَافِرِينَ وَ هُمُ السَّاتِرُونَ لِلْحَقِّ يَشْبَهُ هَذَا الضَّلَالِ وَ هُوَ أَنَّهُمْ يَرُونَ الْبَاطِلَ حَقًّا فَيَقْصِدُونَهُ ثُمَّ يَتَّبِعُونَ لَهُمْ بَعْدَ ضَلَالِ سَعِيهِمْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا بَاطِلًا فِي صُورِهِ حَقٌّ وَ سَرَابًا فِي سِيَمَاءِ الْحَقِيقَةِ.

وَ الْمَعْنَى: عَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي أَعْنَى كَوْنِ قَوْلِهِمْ: «بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا» كَذِبًا مِنْهُمْ:

كَمَثَلِ هَذَا الْإِضْلَالِ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ فَيُؤَلِّمُ أَمْرَهُمْ إِلَى الْكُذْبِ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ مَعِ عِلْمُهُمْ بِأَنَّهُ لَا يَنْفَعُ.

قوله تعالى: **ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ** الفرح مطلق السرور، و المرح الإفراط فيه و هو مذموم، و قال الراغب: الفرح انشراح الصدر بلذه عاجله و أكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنيه، و قال: المرح شدة الفرح و التوسع فيه. انتهى.

و قوله: **ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ الْإِشْرَاحَ** الى ما هم فيه من العذاب و الباء في «بِمَا كُنتُمْ» للسببيه أو المقابله.

و المعنى: ذلكم العذاب الذي أنتم فيه بسبب كونكم تفرحون في الأرض بغير الحق من اللذات العاجله و بسبب كونكم تفرطون في الفرح و ذلك لتعلق قلوبهم بعرض الدنيا و زينتها و معاداتهم لكل حق يخالف باطلهم فيفرحون و يمرحون بإحياء باطلهم و إماته الحق و اضطهاده.

قال في المجمع: قيد الفرح و أطلق المرح لأن الفرح قد يكون بحق فيحمد عليه و قد يكون بالباطل فيذم عليه، و المرح لا يكون إلا باطلا. انتهى.

قوله تعالى: **أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ** أى ادخلوا أبوابها المقسومه لكم خالدين فيها فبئس مقام الذين يتكبرون عن الحق جهنم، و قد تقدم أن أبواب جهنم دركاتها.

قوله تعالى: **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ** لما بين مآل أمر المجادلين في آيات الله و هى النار و أن الله يضلهم بكفرهم فرع عليه أمر نبيه صلى الله عليه و آله و سلم بالصبر معللا ذلك بأن وعد الله حق.

و قوله: **فَأَمَّا نُورُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ** هو عذاب الدنيا «أَوْ نَتَوَفِّيكَ» بالموت فلم نرك ذلك «فَأَلَيْنَا يُرْجَعُونَ» و لا يفوتونا فننجز فيهم ما وعدناه.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ** الخ؛ بيان لكيفية النصر المذكور في الآيه السابقه أن آيه النصر

-التي جرت سنه الله على إنزالها للقضاء بين كل رسول و امته و إظهار الحق على الباطل كما يشير اليه قوله: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (يونس ٤٧)-لم يفوض أمرها الى رسول من الرسل من قبلك بل كان يأتي بها من يأتي منهم بإذن الله، و حالك حالهم، فمن الممكن أن نأذن لك في الإتيان بها فنريك بعض ما نعدهم، و من الممكن أن نتوفاك فلا نريك غير أن أمر الله إذا جاء قضى بينهم بالحق و خسر هنالك المبطلون. هذا ما يفيد السباق.

فقوله: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ مسوق للإشارة الى كون ما سيذكره سنه جاريه منه تعالى.

و قوله: وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ الْآيَةِ؛ و إن كانت أعم من الآيه المعجزه التي يؤتاها الرسول لتأييد رسالته، و الآيه التي تنصر الحق و تقضى بين الرسول و بين امته و الكل بإذن الله لكن مورد الكلام كما استفدناه من السياق القسم الثاني و هي القاضيه بين الرسول و امته.

و قوله: فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ أَي إِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ بِالْعَذَابِ قُضِيَ بِالْحَقِّ فَأُظْهِرَ الْحَقُّ وَ أَزْهَقَ الْبَاطِلَ وَ خَسِرَ عِنْدَ ذَلِكَ الْمَتَمَسِّكُونَ بِالْبَاطِلِ فِي دُنْيَاهُمْ بِالْهَلَاكِ وَ فِي آخِرَتِهِمْ بِالْعَذَابِ الدَّائِمِ.

و استدلل بالآيه على أن من الرسل من لم تذكر قصته في القرآن، و فيه أن الآيه مكيه لا تدل على أزيد من عدم ذكر قصه بعض الرسل الى حين نزولها بمكه، و قد ورد في سوره النساء:

وَ رُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ (النساء ١٦٤) و لم يذكر في السور النازله بعد سوره النساء اسم أحد من الرسل المذكورين بأسمائهم في القرآن.

و في المجمع و روى عن علي عليه السلام أنه قال: بعث الله نبيا أسود لم يقص علينا قصته، و روى في الدر المنثور عن الطبراني في الأوسط و ابن مردويه عنه ما في معناه.

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَ لِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَ عَلَيْهَا وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَ يُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (٨١) أ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَهُ وَ كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥)

بيان:

قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ذكر سبحانه مما ينتفع به الإنسان في حياته و يدبر به أمره الأنعام و المراد بها الإبل و البقر و الغنم، و قيل: المراد بها هاهنا الإبل خاصة.

فقوله: جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ الجعل هنا الخلق أو

ص: ٤٨٤

التسخير، واللام في «لِتَرْكَبُوا» للغرض و«من» للتبعية، والمعنى خلق لأجلكم أو سخر لكم الأنعام والغرض من هذا الجعل أن تركبوا بعضها كبعض الإبل وبعضها كبعض الإبل والبقر والغنم تأكلون.

قوله تعالى: وَ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ نَخ؛ كانتفاعكم بألبانها وأصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها وغير ذلك، وقوله: «وَ لَتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صِيْدُورِكُمْ» أى ومن الغرض من جعلها أن تبلغوا، حال كونكم عليها بالركوب، حاجه فى صدوركم وهى الانتقال من مكان الى مكان لأغراض مختلفه.

وقوله: وَ عَلَيْهَا وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ كناية عن قطع البر والبحر بالأنعام والفلك.

قوله تعالى: وَ يُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَآئِي آيَاتِ اللَّهِ تُنَكِّرُونَ تقدم معنى إراءته تعالى آياته فى تفسير أوائل السوره، و كأن الجملة أعني قوله: «وَ يُرِيكُمْ آيَاتِهِ» غير مقصوده لنفسها حتى يلزم التكرار وإنما هى تمهيد و توطئه للتوبيخ الذى فى قوله: «فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنَكِّرُونَ» أى أى هذه الآيات التى يريكم الله إياها عيانا و بيانا، تنكرون إنكارا يمهد لكم الإعراض عن توحيده.

قوله تعالى: أ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ تَوْبِيخَ لَهُمْ و عطف لأنظارهم الى ما جرى من سنه القضاء والحكم فى الامم السالفه، وقد تقدمت نظيره الآيه فى أوائل السوره و كان الغرض هنا أن يتبين لهم أن الله أخذ كلا منهم بذنوبهم لما كانت تأتيمهم رسلهم بالبينات فيكفرون بهم و لذا ذيل الآيه بقوله: «فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ» ، والغرض هاهنا أن يتبين لهم أنهم لم يغنهم ما كسبوا و لم ينفعهم فى دفع عذاب الله ما فرحوا به من العلم الذى عندهم و لا توبتهم و ندامتهم مما عملوا.

وقد صدرت الآيه بفاء التفريع فقيل «أ فَلَمْ يَسِيرُوا» الخ؛ مع الالتفات من الخطاب الى

الغيبه، و كأن الكلام تفریع علی قوله: «فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ» فكأنه لما ذمهم و أنكر إنكارهم لآياته رجع و انصرف عنهم الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ مشيراً الى سقوطه من منزله الخطاب و قال: إذا كانت آياته تعالى ظاهره بينه لا تقبل الإنكار و من جملتها ما فى آثار الماضين من الآيات الناطقه و هم قد ساروا فى الأرض و شاهدوها فلم لم ينظروا فيها فيتبين لهم أن الماضين مع كونهم أقوى من هؤلاء كما و كيفاً لم ينفعهم ما فرحوا به من علم و قوه.

قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ الْخَفِيِّ؛ ضمائر الجمع فى الآية - وهى سبع - للذين من قبلهم، و المراد بما عندهم من العلم ما وقع فى قلوبهم و شغل نفوسهم من زينه الحياه الدنيا و فنون التدبير للظفر بها و بلوغ لذاتها و قد عد الله سبحانه ذلك علماً لهم و قصر علمهم فيه، قال تعالى: يَعْلمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (الروم ٧)، و قال: فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ (النجم ٣٠).

و المراد بفرحهم بما عندهم من العلم شدة إعجابهم بما كسبوه من الخبره و العلم الظاهرى و انجذابهم اليه الموجب لإعراضهم عن المعارف الحقيقه التى جاءت بها رسلهم، و استهانتهم بها و سخريتهم لها، و لذا عقب فرحهم بما عندهم من العلم بقوله: «وَ حَقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ» .

قوله تعالى: فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ البأس شدة العذاب، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا الْخَفِيُّ؛ ذلك لعدم استناد الإيمان حينئذ الى الاختيار، و قوله: «سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ» أى سنّها الله سنّه ماضيه فى عباده أن لا تقبل توبه بعد رؤيه البأس «وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ» .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا
وَ نَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَ فِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنَا وَ بَيْنَكَ حِجَابٌ
فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦)
الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) قُلْ أَإِنكُمْ
لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَ بَارَكَ فِيهَا وَ
قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَ هِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ انثبيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا
أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أُوحِيَ فِي كُلِّ سَّمَاءٍ أَمْرٌهَا وَ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَ حِفْظًا ذَلِكُ
تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)

قوله تعالى: حم تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ خبر مبتدأ محذوف، والمصدر بمعنى المفعول، والتقدير هذا منزل من الرحمن الرحيم، والتعرض للصفتين الكريمتين: الرحمن الدال على الرحمة العامه للمؤمن والكافر، والرحيم الدال على الرحمة الخاصه بالمؤمنين للإشارة الى أن هذا التنزيل يصلح للناس دنياهم كما يصلح لهم آخرتهم.

قوله تعالى: كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ خبر بعد خبر، والتفصيل يقابل الإحكام والإجمال، والمراد بتفصيل آيات القرآن تمييز أبعاضه بعضها من بعض بإنزاله الى مرتبه البيان بحيث يتمكن السامع العارف بأساليب البيان من فهم معانيه و تعقل مقاصده و الى هذا يشير قوله تعالى: كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (هود ١)، وقوله: وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٍ (الزخرف ٤).

وقوله: «قُرْآنًا عَرَبِيًّا» حال من الكتاب أو من آياته، وقوله: «لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» اللام للتعليل أو للاختصاص، ومفعول «يَعْلَمُونَ» إما محذوف و التقدير لقوم يعلمون معانيه لكونهم عارفين باللسان الذي نزل به وهم العرب وإما متروك والمعنى لقوم لهم علم.

ولانزم المعنى الأول أن يكون هناك عنايه خاصه بالعرب في نزول القرآن عربيا وهو الذي يشعر به أيضا قوله الآتي: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُضِّلَتْ آيَاتُهُ أَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ» الآية؛ وقريب منه قوله: «وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ» (الشعراء ١٩٩).

ولا ينافي ذلك عموم دعوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لعامة البشر لأن دعوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كانت مرتبه على مراحل فأول ما دعا الناس بالموسم فقبول بإنكار شديد منهم ثم كان يدعو بعد ذلك سرا مده ثم أمر بدعوه عشيرته الأقربين كما يشير اليه قوله تعالى: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» (الشعراء ٢١٤) ثم أمر بدعوه قومه كما يشير اليه قوله: «فَاصْبِرْ دَعْوَاهُمْ بِمَا تُؤْمَرُ وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ» (الحجر ٩٤) ثم أمر بدعوه الناس عامه كما يشير اليه قوله: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا» (الأعراف ١٥٨)، وقوله: «وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ» (الأنعام ١٩).

على أن من المسلم تاريخا أنه كان من المؤمنين به سلمان و كان فارسيا، و بلال و كان حبشيا، و صهيب و كان روميا، و دعوته لليهود و وقائعه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ معهم، و كذا كتابه الى ملك إيران و مصر و حبشه و الروم في دعوتهم الى الإسلام كل ذلك دليل على عموم الدعوه.

قوله تعالى: «بَشِيرًا وَ نَذِيرًا فَاعْرَضْ أَكْثَرَهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ» «بَشِيرًا وَ نَذِيرًا» حالان من الكتاب في الآية السابقه، و المراد بالسمع المنفى سمع القبول كما يدل عليه قرينه الإعراض.

قوله تعالى: «وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ» قال

الراغب: الكن ما يحفظ فيه الشيء. قال: الكنان الغطاء الذي يكن فيه الشيء و الجمع أكنه نحو غطاء و أغطيه قال تعالى: «وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ» انتهى.

فقوله: قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ كناية عن كون قلوبهم بحيث لا تفقه ما يدعو صلى الله عليه وآله وسلم اليه من التوحيد كأنها مغطاه بأغطيه لا يتطرق إليها شيء من خارج.

وقوله: وَ فِي آذَانِنَا وَقْرٌ أَى ثقل من الصمم فلا تسمع شيئا من هذه الدعوه، وقوله: «وَمِنْ بَيْنِنَا وَ بَيْنِكَ حِجَابٌ» أى حاجز يحجزنا منك فلا نجتمع معك على شيء مما تريد فقد أياسوه صلى الله عليه وآله وسلم من قبول دعوته بما أخبروه أولا بكون قلوبهم فى أكنه فلا تقع فيها دعوته حتى يفقهوها، و ثانيا بكون طرق ورودها الى القلوب و هى الآذان مسدوده فلا تلجها دعوه و لا ينفذ منها إنذار و تبشير، و ثالثا بأن بينهم و بينه صلى الله عليه وآله وسلم حجابا مضروبا لا يجمعهم معه جامع و فيه تمام الإياس.

وقوله: فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ تفریع على ما سبق، و لا يخلو من شوب تهديد، و عليه فالمعنى إذا كان لا سبيل الى التفاهم بيننا فاعمل بما يمكنك العمل به فى إبطال أمرنا إننا عاملون فى إبطال أمرك.

قوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ فى مقام الجواب عن قولهم: «قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ» على ما يعطيه السياق فمحصله قل لهم: إنما أنا بشر مثلكم أعاشركم كما يعاشر بعضكم بعضا و أكلمكم كما يكلم أحدكم صاحبه فلست من جنس يباينكم كالملك حتى يكون بينى و بينكم حجاب مضروب أو لا ينفذ كلامى فى آذانكم أو لا- يرد قولى فى قلوبكم غير أن الذى أقول لكم و أدعوكم اليه و حى يوحى إليّ و هو أنما إلهكم الذى يستحق أن تعبدوه إله واحد لا آلهة متفرقون.

وقوله: فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ أى فإذا لم يكن إلا إله واحد لا شريك له

فاستوا اليه بتوحيده و نفى الشركاء عنه و استغفروه فيما صدر عنكم من الشرك و الذنوب.

قوله تعالى: وَ وَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ تهديد للمشركين الذين يثبتون لله شركاء و لا يوحّدونه، و قد وصفهم من أخص صفاتهم بصفتين هما عدم إيتائهم الزكاه و كفرهم بالآخرة.

و المراد بإيتاء الزكاه مطلق إنفاق المال للفقراء و المساكين لوجه الله فإن الزكاه بمعنى الصدقه الواجبه فى الإسلام لم تكن شرعت بعد عند نزول السوره و هى من أقدم السور المكيه.

و قوله: وَ هُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وصف آخر للمشركين هو من لوازم مذهبهم و هو إنكار المعاد، و لذلك أتى بضمير النصل ليفيد أنهم معروفون بالكفر بالآخرة.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ أى غير مقطوع بل متصل دائم كما فسره بعضهم، و فسره آخرون بغير معدود كما قال تعالى:

يُزَكُّونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (المؤمن ٤٠).

و جواز أن يكون المراد أنه لا أذى فيه من المن الذى يكدر الصنيعه، و يمكن أن يوجه هذا الوجه بأن فى تسميه ما يؤتونه بالأجر دلالة على ذلك لإشعاره بالاستحقاق و إن كان هذا الاستحقاق بجعل من الله تعالى لا لهم من عند أنفسهم قال تعالى: إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَ كَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (الدهر ٢٢).

و قوله تعالى: قُلْ أَ إِنكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا الْآيَه؛ أمره ثانيا أن يستفهم عن كفرهم بالله بمعنى شركهم مع ظهور آيات وحدانيه فى خلق السماوات و الأرض و تدبير أمرهما بعد ما أمره أولا بدفع قولهم:

«قُلُوبُنَا فِي أَكْثِهِ» الخ.

و الاستفهام للتعجب و لذا أكد المستفهم عنه بأن و اللام كأن المستفهم لا يكاد يدعن

بكفرهم بالله و قولهم بالأنداد مع ظهور المحجّه و استقامه الحجه.

و قوله: وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً تفسير لقوله: «لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ» الخ؛ و الأنداد جمع ند و هو المثل، و المراد بجعل الأنداد له اتخاذ شركاء له يماثلونه فى الربوبية و الالهيه.

و قوله: ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ فى الإشاره بلفظ البعيد رفع لساحته تعالى و تنزيهه عن أمثال هذه الأوهام فهو رب العالمين المدبر لأمر الخلق أجمعين فلا مسوغ لأن يتوهم رباً آخر سواه و إلها آخر غيره.

و المراد باليوم فى قوله: «خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ» برهه من الزمان دون مصداق اليوم الذى نعهده و نحن على بسيط أرضنا هذه و هو مقدار حركه الكره الأرضيه حول نفسها مره واحده فإنه ظاهر الفساد، و إطلاق اليوم على قطعه من الزمان تحوى حادثه من الحوادث كثير الورود شائع الاستعمال، و من ذلك قوله تعالى: وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ (آل عمران ١٤٠)، و قوله: فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ (يونس / ١٠٢)، و غير ذلك.

فاليومان اللذان خلق الله فيهما الأرض قطعتان من الزمان تم فيهما تكوّن الأرض أرضاً تامه، و فى عددهما يومين لا يوماً واحداً دليل على أن الأرض لاقت زمان تكونها الأولى مرحلتين متغايرتين كمرحله النىء و النضج أو الذوبان و الانعقاد أو نحو ذلك.

قوله تعالى: وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّ مِنْ قَوْقُبِهَا الى آخر الآيه. معطوف على قوله:

«خَلَقَ الْمَأْرُضَ فِي يَوْمَيْنِ» و لا ضير فى تخلل الجملتين «وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ» بين المعطوف و المعطوف عليه لأن الاولى تفسير لقوله: «لَتَكْفُرُونَ» و الثانيه تقرير للتعجب الذى فيه الاستفهام.

و الرواسى صفه لموصوف محذوف و التقدير جبالا رواسى أى ثابتات على الأرض و ضمائر

التأنيث الخمس فى الآيه للأرض.

وقوله: **وَبَارَكْ فِيهَا** أى جعل فيها الخير الكثير الذى ينتفع به ما على الأرض من نبات و حيوان و إنسان فى حياته أنواع الانتفاعات.

وقوله: **وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا** فى **أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ** قيل: الظرف أعنى قوله: «فى **أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ**» بتقدير مضاف و هو متعلق بتقدير، و التقدير قدر الأوقات فى تتمه أربعة أيام من حين بدء الخلق-فيومان لخلق الأرض و يومان- و هما تتمه أربعة أيام- لتقدير الأوقات.

و الذى ذكر فى هذه الآيات من أيام خلق السماوات و الأرض أربعة أيام يومان لخلق الأرض و يومان لتسوية السماوات سبعا بعد كونها دخانا و أما أيام الأوقات فقد ذكرت أياما لتقديرها لا لخلقها، و ما تكرر فى كلامه تعالى هو خلق السماوات و الأرض فى ستة أيام لا مجموع خلقها و تقدير أمرها فالحق أن الظرف قيد للجمله الأخيره فقط و لا حذف و لا تقدير فى الآيه و المراد بيان تقدير أوقات الأرض و أرزاقها فى الفصول الأربعة من السنه.

وقوله: **سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ** مفعول مطلق لفعل مقدر أى استوت الأوقات المقدره استواء للسائلين أو حال من الأوقات أى قدرها حال كونها مستويه للسائلين يقتاتون بها جميعا و تكفيهم من دون زياده أو نقيصه.

و السائلون هم أنواع النبات و الحيوان و الإنسان فإنهم محتاجون فى بقائهم الى الأرزاق و الأوقات فهم سائلون ربهم (1) قال تعالى: **يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ (الرحمن / ٢٩)**، و قال: **وَ اتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ (إبراهيم / ٣٤)**.

ص: ٤٩٣

١ - ١). ظاهر الآيتين و إن كان اختصاصهما بذوى العقول لكنهما و خاصه الثانيه تفيدان إن المراد بالسؤال هو الحاجه و الاستعداد و عليه فالآيه تعم النبات و الاتيان بضمير اولى العقل للتغليب.

قوله تعالى: ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ الاستواء-على ما ذكره الراغب-إذا عدى بعلى أفاد معنى الاستيلاء نحو الرحمن على العرش استوى، وإذا عدى يالى أفاد معنى الانتهاء اليه.

و أيضا فى المفردات أن الكره بفتح الكاف المشقة التى تنال الإنسان من خارج فيما يحمل عليه بإكراه، و الكره بضم الكاف ما تناله من ذاته و هو يعافه.

فقوله: «ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ» أى توجه إليها و قصدها بالخلق دون القصد المكانى الذى لا يتم إلا بانتقال القاصد من مكان الى مكان و من جهة الى جهة لتنزعه تعالى عن ذلك.

و ظاهر العطف بثم تأخر خلق السماوات عن الأرض لكن قيل: إن «ثُمَّ» لإفاده التراخى بحسب الخبر لا بحسب الوجود و التحقق و يؤيده قوله تعالى: أَمْ السَّمَاءُ بُنِيَتْ بِهَا - إلى أن قال- وَ الْمَأْرُضَ بَعِيدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَ مَرْعَاهَا وَ الْجِبَالَ أَرْسَاهَا (النازعات/٣٢) فإنه يفيد تأخر الأرض عن السماء خلقا.

و الاعتراض عليه بأن مفاده تأخر دحو الأرض عن بناء السماء و دحوها غير خلقها مدفوع بأن الأرض كرويه فليس دحوها و بسطها غير تسويتها كره و هو خلقها على أنه تعالى أشار بعد ذكر دحو الأرض الى إخراج مائها و مرعاها و إرساء جبالها و هذه بعينها جعل الرواسى من فوقها و المباركة فيها و تقدير أقواتها التى ذكرها فى الآيات التى نحن فيها مع خلق الأرض و عطف عليها خلق السماء بثم فلا مناص عن حمل ثم على غير التراخى الزمانى فإن قوله فى آيه النازعات: بَعِيدَ ذَلِكَ أَظْهَرَ فى التراخى الزمانى من لفظه «ثُمَّ» فيه فى آيه حم السجده و الله أعلم.

و قوله: وَ هِيَ دُخَانٌ حال من السماء أى استوى الى السماء بالخلق حال كونها شيئاً سماه الله دخانا و هو مادتها التى ألبسها الصورة و قضاها سبع سماوات بعد ما لم تكن معدوده

متميزا بعضها من بعض، و لذا أفرد السماء فقال: «أَسْتَوِي إِلَى السَّمَاءِ» .

و قوله: فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا تفريع على استوائه الى السماء و المورد مورد التكوين بلا شك فقوله لها و للأرض: «ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا» كلمة إيجاب و أمر تكويني كقوله لشيء أراد وجوده: كن، قال تعالى: إِنَّهَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ (يس ٨٣/).

و مجموع قوله لهما: «ائْتِيَا» الخ؛ و قولهما له: «أَتَيْنَا» الخ؛ تمثيل لصفه الإيجاد و التكوين على الفهم الساذج العرفي و حقيقته تحليليه بناء على ما يستفاد من كلامه تعالى من سرايه العلم فى الموجودات و كون تكليم كل شيء بحسب ما يناسب حاله، و قد أوردنا بعض الكلام فيه فيما تقدم من المباحث، و سيجىء شطر من الكلام فيه فى تفسير قوله: قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (الآية ٢١ من السورة) إن شاء الله.

و فى قوله: ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا إيجاب الإتيان عليهما و تخييرهما بين أن تفعل ذلك بطوع أو كره، و لعل المراد بالطوع و الكره- و هما بوجه قبول الفعل و نوع ملاءمه و عدمه- هو الاستعداد السابق للكون و عدمه فيكون قوله: «ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا» كناية عن وجوب إتيانها بلا- مناص و أنه أمر لا- يتخلف البتة أرادنا أو كرهتا سألتاه أو لم تسألا فأجابتا أنهما يمثلان الأمر عن استعداد سابق و قبول ذاتي و سؤال فطري إذ قالتا: أتينا طائعين.

و قوله: قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ جواب السماء و الأرض لخطابه تعالى باختيار الطوع، و التعبير باللفظ الخاص بأولى العقل- طائعين- لمكان المخاطبه و الجواب و هما من خواص أولى العقل، و التعبير بلفظ الجمع دون أن تقولوا: أتينا طائعتين لعله تواضع منهما بعد أنفسهما غير متميزه من سائر مخلوقاته تعالى المطيعه لأمره فأجابتا عن لسان الجميع، نظير ما قيل فى قوله تعالى: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (الحمد ٥/).

ثم إن تشريك الأرض مع السماء فى خطاب «ائْتِيَا» الخ؛ مع ذكر خلقها و تدبير أمرها قبلا لا

يخلو من إشعار بأن بينهما نوع ارتباط في الوجود و اتصال في النظام الجارى فيهما و هو كذلك فإن الفعل و الانفعال و التأثير و التأثير دائر بين أجزاء العالم المشهود.

و فى قوله: فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ تَلْوِيحَ عَلَى أَى حَالٍ إِلَى كَوْنِ «ثُمَّ» فِى قَوْلِهِ: «ثُمَّ اسْتَوَى» لِلتَّرَاخَى بِحَسَبِ رَتْبِهِ الْكَلَامِ.

قوله تعالى: فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرًا الْأَصْلُ فِي مَعْنَى الْقَضَاءِ فَصَلِّ الْأَمْرَ، وَ ضَمِيرُ «هِنَّ» لِلسَّمَاءِ عَلَى الْمَعْنَى، وَ «سَبْعَ سَمَاوَاتٍ» حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ وَ «فِي يَوْمَيْنِ» مُتَعَلِّقٌ بِقَضَائِهِنَّ فَتَفِيدُ الْجُمْلَةَ أَنَّ السَّمَاءَ لَمَّا اسْتَوَى سَبْحَانَهُ إِلَيْهَا وَ هِيَ دَخَانٌ كَانَ أَمْرُهَا مَبْهَمًا غَيْرَ مُشَخَّصٍ مِنْ حَيْثُ فَعَلِيهِ الْوُجُودُ فَفَصَلَ تَعَالَى أَمْرَهَا بِجَعْلِهَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ.

وَ الْآيَةُ وَ مَا قَبْلَهَا نَازِرَةٌ إِلَى تَفْصِيلِ مَا أَجْمَلَ فِي قَوْلِهِ: أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا (الأنبياء ٣٠).

و قوله: وَ أَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرًا قِيلَ: الْمُرَادُ بِأَمْرِ السَّمَاءِ مَا تَسْتَعِدُّ لَهُ أَوْ تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ فِيهَا مِنْ وَجُودِ مَلَكٍ أَوْ كَوْكَبٍ وَ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَ الْوَحْيُ هُوَ الْخَلْقُ الْإِبْجَادُ، وَ الْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى قَوْلِهِ: «فَقَضَاهُنَّ» مُقَيَّدَةٌ بِالْوَقْتِ الْمَذْكُورِ لِلْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ، وَ الْمَعْنَى وَ خَلَقَ فِي كُلِّ سَمَاءٍ مَا فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَ الْكَوَاكِبِ وَ غَيْرِهَا.

وَ أَنْتَ خَبِيرٌ بِأَنَّ إِرَادَةَ الْخَلْقِ مِنَ الْوَحْيِ وَ أَمْثَالَ الْمَلَكِ وَ الْكَوْكَبِ مِنَ الْأَمْرِ تَحْتَاجُ إِلَى عُنَايَةٍ زَائِدَةٍ لَا تَثْبِتُ إِلَّا بِدَلِيلٍ بَيِّنٍ، وَ كَذَا تَقْيِيدُ الْجُمْلَةِ الْمَعْطُوفَةِ بِالْوَقْتِ الْمَذْكُورِ فِي الْمَعْطُوفِ عَلَيْهَا.

وَ قِيلَ: الْمُرَادُ بِالْأَمْرِ التَّكْلِيفُ الْإِلَهِيُّ الْمَتَّوِّجُ إِلَى أَهْلِ كُلِّ سَمَاءٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَ الْوَحْيُ بِمَعْنَاهُ الْمَعْرُوفُ وَ الْمَعْنَى وَ أَوْحَىٰ إِلَى أَهْلِ كُلِّ سَمَاءٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنَ الْعِبَادَةِ.

وَ فِيهِ أَنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ وَ قَدْ قَالَ تَعَالَى: «فِي كُلِّ سَمَاءٍ» وَ لَمْ يَقُلْ: إِلَى كُلِّ سَمَاءٍ لَا يُوَافِقُهُ

وقيل: المراد بأمرها ما أَرَادَهُ اللهُ مِنْهَا، وهذا الوجه في الحقيقة راجع الى أحد الوجهين السابقين فإن أريد بالوحي الخلق والإيجاد رجع الى أول الوجهين وإن أريد به معناه المعروف رجع الى ثانيهما.

و الذى وقع فى كلامه تعالى من الأمر المتعلق بوجه بالسماء يلوح الى معنى أدق مما ذكره فقد قال تعالى: **يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ (الم السجده ٥/)**، وقال:

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ (الطلاق ١٢/)، وقال: **وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (المؤمنون ١٧/)**.

دلت الآية الاولى على أن السماء مبدأ لأمره تعالى النازل الى الأرض بوجه و الثانيه على أن الأمر يتنزل بين السماوات من سماء الى سماء حتى ينتهى الى الأرض، و الثالثه على أن السماوات طرائق لسلوك الأمر من عند ذى العرش أو لسلوك الملائكه الحاملين للأمر الى الأرض كما يشير اليه قوله: **تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (القدر ٤/)**، وقوله:

فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (الدخان ٤/).

و لو كان المراد بالأمر أمره تعالى التكويني و هو كلمه الإيجاد كما يستفاد من قوله: **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ (يس ٨٢/)**، أفادت الآيات بانضمام بعضها الى بعض أن الأمر الإلهي الذى مضيه فى العالم الأرضى هو خلق الأشياء و حدوث الحوادث تحمله الملائكه من عند ذى العرش تعالى و تسلك فى تنزيه طرق السماوات فتنزله من سماء الى سماء حتى تنتهى به الى الأرض.

و إنما تحمله ملائكه كل سماء الى من دونهم كما يستفاد من قوله: **حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (سبأ ٢٣/)** و قد تقدم الكلام فيه و السماوات مساكن الملائكه كما يستفاد من قوله: **وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ (النجم /)**

(٢٦)، وقوله: لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (الصفافات ٨).

فلأمر نسبه الى كل سماء باعتبار الملائكة الساكنين فيها، ونسبه الى كل قبيل من الملائكة الحاملين له باعتبار تحميلة لهم و هو وحيه اليهم فإن الله سبحانه سماه قولاً كما قال: إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ (النحل ٤٠).

فتحصّل بما مر أن معنى قوله: «وَ أَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا» أوحى في كل سماء الى أهلها من الملائكة الأمر الإلهي. المنسوب الى تلك السماء المتعلقة بها، و أما كون اليومين المذكورين في الآية ظرفاً لهذا الوحي كما هما ظرف لخلق السماوات سبعة فلا دليل عليه من لفظ الآية.

قوله تعالى: وَ زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَ حِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ توصيف هذه السماء بالدنيا للدلالة على أنها أقرب السماوات من الأرض و هي طباق بعضها فوق بعض كما قال: خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (الملك ٣).

و الظاهر من معنى تزيينها بمصابيح و هي الكواكب كما قال: إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ (الصفافات ٦) أن الكواكب في السماء الدنيا أو دونها كالفناديل المعلقة و لو كانت متفرقة في جميع السماوات من غير حجب بعضها بعضاً لكون السماوات شفافة كما قيل كانت زينة لجمعها و لم تختص الزينة ببعضها كما يفيد السياق فلا وجه لقول القائل: إنها في الجميع لكن لكونها ترى متألثة على السماء الدنيا عدت زينة لها.

و أما قوله: أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (نوح ١٦) فهو بالنسبة اليها معاشر المستضيئين بالليل و النهار كقوله:

وَ جَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا (النبأ ١٣).

و قوله: «ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» إشاره الى ما تقدم من النظم و الترتيب (١)(٢).

[سوره فصلت (٤١): الآيات ١٣ الى ٢٥]

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَهُ مِثْلَ صَاعِقِهِ عَادٍ وَ ثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَهُمُ الرَّسُولُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ
قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ قَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ
لَعَمْرُؤُا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصِرًا فِي أَيَّامٍ نَحِيسَاتٍ
لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ الْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَ هُمْ لَا يُنصِرُونَ (١٦) وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَيَّ
الْهُدَى فَآخَذْتَهُمْ صَاعِقَهُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ
إِلَى الذَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصَارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَ قَالُوا
لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَ مَا كُنْتُمْ تَسْتَوِرُونَ أَنْ
يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لَا أَبْصَارُكُمْ وَ لَا جُلُودُكُمْ وَ لَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَ ذَلِكَ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ
بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ فَمَا صَبَّحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالدَّارُ مَثْوَى لَهُمْ وَ إِنْ يَسْتَعْجِلُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) وَ قَيَضْنَا لَهُمْ
قُرْنَاءَ فَرِيضُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ
(٢٥)

ص: ٤٩٩

١- ١). حم السجده ١-١٢: بحث في السماوات السبع.

٢- ٢). حم السجده ١-١٢: بحث روائي حول: قصه اجتماع قريش و ارسالها عتبه بن ربيعه الى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم؛ خلق السماوات و الارض؛ امان اهل السماء؛ امان اهل الارض.

بيان:

قوله تعالى: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَ تَمُودَ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: الصَاعِقَةُ الْمَهْلِكَةُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَهَى، وَ
قَالَ الرَّاعِبُ: قَالَ بَعْضُ أَهْلِ

ص: ٥٠٠

اللغة:الصاعقه على ثلاثه أوجه:الموت كقوله: «فَصَيِّحَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ» و قوله: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ» و العذاب كقوله: «أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقِهِ عَادٍ وَ ثَمُودَ» و النار كقوله:

«وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ» و ما ذكره فهو أشياء حاصله من الصاعقه فإن الصاعقه هي الصوت الشديد من الجو ثم يكون نار فقط أو عذاب أو موت و هي في ذاتها شيء واحد، و هذه الأشياء تأثيرات منها. انتهى.

و على ما مر تنطبق الصاعقه على عذابي عاد و ثمود و هما الريح و الصيحه، و التعبير بالماضى في قوله: «أَنْذَرْتُكُمْ» للدلاله على التحقق و الوقوع.

قوله تعالى: إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ الْخ؛ ظرف لصاعقه الثانيه فإن الإنذار بالصاعقه بالحقيقه إنذار بوقوعها و حلولها فالمعنى مثل حلول صاعقه عاد و ثمود إذ جاءتهم، الخ.

و نسبه المجيء الى الرسل و هو جمع -مع أن الذى ذكر فى قصتهم رسولان هما هود و صالح- باعتبار أن الرسل دعوتهم واحده و المبعوث منهم الى قوم مبعوث لآخرين و كذا القوم المكذبون لأحدهم مكذبون لآخرين قال تعالى: كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ (الشعراء ١٢٣/) و قال: كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (الشعراء ١٤١/)، و قال: كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (الشعراء ١٦٠/) الى غير ذلك.

و قول بعضهم: إن إطلاق الرسل و هو جمع على هود و صالح عليهما السلام و هما اثنان من إطلاق الجمع على ما دون الثلاثه و هو شائع، و من هذا القبيل إرجاع ضمير الجمع فى قوله: «إِذْ جَاءَتْهُمْ» الى عاد و ثمود.

ممنوع بما تقدم، و أما إرجاع ضمير الجمع الى عاد و ثمود فإنما هو لكون مجموع الجمعين جمعا مثلهما.

و قوله: مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أى من جميع الجهات فاستعمال هاتين

الجهتين فى جميع الجهات شائع، و جَوَزَ أن يكون المراد به الماضى و المستقبل فقوله: «جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ» كناية عن دعوتهم لهم من جميع الطرق الممكنة خلوه و جلوه و فرادى و مجتمعين بالتبشير و الإنذار و لذلك فسر مجيئهم كذلك بعد بقوله: «أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» و هو التوحيد.

و قوله: «قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً رَدَّ مِنْهُمْ رِسَالَتَهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ لَوْ شَاءَ إِسْرَالَ رَسُولَ الْيَنَّا لِأَرْسَلَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ كَرَارًا مَعْنَى قَوْلِهِمْ هَذَا وَ أَنَّهُ مَبْنَى عَلَى إِنْكَارِهِمْ نُبُوَّةِ الْبَشَرِ.

و قوله: «فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ» تفریع على النفى المفهوم من الجملة السابقة أى فإذا لم يشأ و لم يرسل فإننا بما أرسلتم به و هو التوحيد كافرين.

قوله تعالى: «فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ النَّخِ؛ رَجُوعَ إِلَى تَفْصِيلِ حَالِ كُلِّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَلَى حَدِّتِهِ، مِنْ كُفْرِهِمْ وَ وَبِالذَّكَ، وَ قَوْلِهِ: «بِغَيْرِ الْحَقِّ» قِيدَ تَوْضِيحِي لِلْإِسْتِكْبَارِ فِي الْأَرْضِ فَإِنَّهُ بِغَيْرِ الْحَقِّ دَائِمًا، وَ الْبَاقِي ظَاهِرٌ.

قوله تعالى: «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصِرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ النَّخِ؛ فَسَّرَ الصَّرْصِرَ بِالرِّيْحِ الشَّدِيدِ السَّمُومِ، وَ بِالرِّيْحِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، وَ بِالرِّيْحِ الشَّدِيدِ الصَّوْتِ وَ تَلَازَمَ شِدَّةُ الْهَبُوبِ، وَ النَّحْسَاتِ بِكُسْرِ الْحَاءِ صَفَهُ مَشْبَهُهُ مِنْ نَحْسٍ يَنْحَسُ نَحْسًا خِلَافَ سَعْدٍ فَالْأَيَّامُ النَّحْسَاتِ الْأَيَّامُ الْمَشْتُومَاتِ.

و قيل: أيام نحسات أى ذوات الغبار و التراب لا يرى فيها بعضهم بعضا، و يؤيده قوله فى سورة الأحقاف: «فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيْحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (الأحقاف ٢٤)».

و قوله: «وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ» أى لا منج ينجيهم و لا شفيع يشفع لهم. و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: «وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى النَّخِ؛ الْمَرَادُ

بهدايتهم إراءتهم الطريق و دلالتهم على الحق بيان حق الاعتقاد و العمل لهم، و المراد بالاستحباب الإيثار و الاختيار، و لعله بالتضمين و لذا عدى الى المفعول الثانى بعلى و المراد بالعمى الضلال استعاره، و فى مقابله الهدى له إيماء الى أن الهدى بصر كما أن الضلاله عمى، و الهون مصدر بمعنى الذل و توصيف العذاب به للمبالغه أو بحذف ذى و التقدير صاعقه العذاب ذى الهون.

و المعنى: و أما قوم ثمود فدللتناهم على طريق الحق و عرفناهم الهدى بتمييزه من الضلال فاخترنا الضلال الذى هو عمى على الهدى الذى هو بصر فأخذتهم صيحه العذاب ذى المذله- أو أخذهم العذاب بناء على كون الصاعقه بمعنى العذاب و الإضافه بيانيه- بما كانوا يكسبون.

قوله تعالى: وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ وَ كَانُوا يَتَّقُونَ ضم التقوى الى الإيمان معبرا عن التقوى بقوله: «وَ كَانُوا يَتَّقُونَ» الدال على الاستمرار للدلاله على جمعهم بين الإيمان و العمل الصالح و ذلك هو السبب لنجاتهم من عذاب الاستئصال على ما وعده الله بقوله:

وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (الروم ٤٧).

و الظاهر أن الآيه متعلقه بالقصتين جميعا متممه لهما و إن كان ظاهر المفسرين تعلقها بالقصه الثانيه.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ الحشر إخراج الجماعه عن مقرهم و إزعاجهم عنه الى الحرب و نحوها. كذا قال الراغب، و «يُوزَعُونَ» من الوزع و هو حبس أول القوم ليلحق بهم آخرهم فيجتمعوا.

و المراد بأعداء الله- على ما قيل- المكذبون بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم من مشركى قومه لا مطلق الكفار و الدليل عليه قوله الآتى: «وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ» الآيه.

قوله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصَارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ

بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

«مَا» فِي «إِذَا مَا جَاؤُهَا» زائده للتأكيد والضمير للنار.

وشهادة الأعضاء أو القوى يوم القيامة ذكرها وإخبارها ما تحملته في الدنيا من معصية صاحبها فهي شهادة أداء لما تحملته، ولو لا التحمل في الدنيا حين العمل كما لو جعل الله لها شعورا ونطقا يوم القيامة فعلت ثم أخبرت بما عملته أو أوجد الله عندها صوتا يفيد معنى الإخبار من غير شعور منها به لم يصدق عليه الشهادة، ولا تمت بذلك على العبد المنكر حجه وهو ظاهر.

و ظاهر الآيه أن شهادة السمع والبصر أداؤهما ما تحملاه وإن لم يكن معصية مأتيا بها بواسطتهما كشهادة السمع أنه سمع آيات الله تتلى عليه فأعرض عنها صاحبه أو أنه سمع صاحبه يتكلم بكلمة الكفر، وشهادة البصر أنه رأى الآيات الداله على وحدانيه الله تعالى فأعرض عنها صاحبه أو أنه رأى صاحبه يستمع الى الغيبه أو سائر ما يحرم الإصغاء اليه فتكون الآيه على حد قوله تعالى: إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (الإسراء ٣٦).

و على هذا يختلف السمع والأبصار والجلود فيما شهدت عليه فالسمع والأبصار تشهد على معصية العبد وإن لم تكن بسببهما و الجلود تشهد على المعصية التي كانت هي آلات لها بالمباشرة، وهذا الفرق هو السبب لتخصيصهم الجلود بالخطاب في قولهم: «لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا» على ما سيجيء.

و المراد بالجلود على ظاهر إطلاق الآيه مطلق الجلود وشهادتها على أنواع المعاصي التي تتم بالجلود من التمتع المحرمه كالزنا ونحوه، ويمكن حينئذ أن تعمم الجلود بحيث تشمل شهادتها ما شهدت الأيدي والأرجل المذكوره في قوله: أَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ (يس ٦٥) على بعد.

وقيل: المراد بالجلود الفروج وقد كنى بها عنها تأدبا.

قوله تعالى: وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا اعتراض و عتاب منهم لجلودهم فى شهادتها عليهم، وقيل: الاستفهام للتعجب فهو سؤال عن السبب لرفع التعجب و إنما خصوها بالسؤال دون سماعهم و أبصارهم مع اشتراكها فى الشهادة لأن الجلود شهدت على ما كانت هى بنفسها أسبابا و آلات مباشرة له بخلاف السمع و الأبصار فإنها كسائر الشهداء تشهد بما ارتكبه غيرها.

وقيل: تخصيص الجلود بالذكر تفرير لهم و زياده تشنيع و فضاحه و خاصه لو كان المراد بالجلود الفروج و قيل غير ذلك.

قوله تعالى: قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ الْخَبْرُ؛ إرجاع ضمير اولى العقل الى الجوارح لمكان نسبه الشهاده و النطق إليها و ذلك من شئون اولى العقل.

و المتيقن من معنى النطق إذا استعمل على الحقيقه من غير تجوز هو إظهار ما فى الضمير من طريق التكلم فيتوقف على علم و كشفه لغيره، قال الراغب: و لا يكاد يستعمل النطق فى غير الإنسان إلا تبعا و بنوع من التشبيه و ظاهر سياق الآيات و ما فيها من ألفاظ القول و التكلم و الشهاده و النطق أن المراد بالنطق ما هو حقيقه معناه.

فشهادة الأعضاء على المجرمين كانت نطقا و تكلما حقيقه عن علم تحملته سابقا بدليل قولها: «أَنْطَقَنَا اللَّهُ». ثم إن قولها: «أَنْطَقَنَا اللَّهُ» جوابا عن قول المجرمين «لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا»؟ إراءه منها للسبب الذى أوجب نطقها و كشف عن العلم المدخر عندها المكنون فى ضميرها فهى ملجأه الى التكلم و النطق، و لا يضر ذلك نفوذ شهادتها و تمام الحججه بذلك فإنها إنما ألجئت الى الكشف عما فى ضميرها لا على الستر عليه و الإخبار بخلافه كذبا و زورا حتى ينافى جواز الشهاده و تمام الحججه.

و قوله: الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ توصيف لله سبحانه و إشاره الى أن النطق ليس مختصا بالأعضاء حتى تختص هى بالسؤال بل هو عام شامل لكل شئ و السبب الموجب له

وقوله: وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ من تنتمه الكلام السابق أو هو من كلامه، وهو احتجاج على علمه بأعمالهم وقد أنطق الجوارح بما علم.

يقول: إن وجودكم يبتدئ منه تعالى و ينتهى اليه تعالى فعند ما تظهرون من كنتم العدم -و هو خلقكم أول مره- يعطيكم الوجود و يملككم الصفات و الافعال فتنسب اليكم ثم ترجعون و تنتهون اليه فيرجع ما عندكم من ظاهر الملك الموهوب اليه فلا يبقى ملك إلا و هو لله سبحانه.

فهو سبحانه المالك لجميع ما عندكم أولا و آخرا فما عندكم من شىء فى أول وجودكم هو الذى أعطاكموه و ملكه لكم و هو أعلم بما أعطى و أودع، و ما عندكم من شىء حينما ترجعون اليه هو الذى يقبضه منكم اليه و يملكه فكيف لا يعلمه، و انكشافه له سبحانه حينما يرجع اليه إنطاقه لكم و شهادتكم على أنفسكم عنده.

و بما مر من البيان يظهر وجه تقييد قوله: «وَهُوَ خَلَقَكُمْ» بقوله: «أَوَّلَ مَرَّةٍ» فالمراد به أول وجودهم (١)(٢).

قوله تعالى: وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ الْخ؛ لا شك أن الله سبحانه خالق كل شىء لا يوجد غيره فلا يحول بين خلقه و بينه شىء و لا يحجب خلقه من حاجب فهو تعالى مع كل شىء أينما كان و كيفما كان قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (الحج ١٧) و قال: وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (الأحزاب ٥٢).

ص: ٥٠٦

١-١. حم السجده ١٣-٢٥: بحث اجمالى قرآنى فى ان العلم سار فى الموجودات عامه.

٢-٢. حم السجده ١٣-٢٥: بحث اجمالى فلسفى فى علم الموجودات.

فالإنسان أينما كان كان الله معه، و أى عمل عمله كان الله مع عمله، و أى عضو من أعضائه استعمله و أى سبب أو أداء أو طريق اتخذه لعمله كان مع ذلك العضو و السبب و الأداء و الطريق قال تعالى: وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ (الحديد ٤)، و قال: أَمْ مَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ (الرعد ٣٣)، و قال: إِنَّ رَبَّكَ لَبَلَمَّا لَمِزُ صَادٍ (الفجر ١٤).

و من هنا يستنتج أن الإنسان- و هو جار فى عمله- واقع بين مراصد كثيره يرصده من كل منها ربه و يرقبه و يشهده فمرتكب المعصيه و هو متوغل فى سيئته غافل عنه تعالى فى جهل عظيم بمقام ربه و استهانته به سبحانه و هو يرصده و يرقبه.

و هذه الحقيقه هى التى تشير اليه الآيه أعنى قوله: «وَ مَا كُنْتُمْ تَشْتَرُونَ» الخ؛ على ما يعطيه السياق.

فقوله: وَ مَا كُنْتُمْ تَشْتَرُونَ نفى لاستتارهم و هم فى المعاصى قبلا و هم فى الدنيا و قوله: «أَنْ يَشْهَدَ» الخ؛ منصوب بنزع الخافض و التقدير من أن يشهد، الخ.

و قوله: وَ لَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ اسْتِدْرَاكٍ فى معنى الاضطراب عن محذوف يدل عليه صدر الآيه، و التقدير و لم تظنوا أنها لا تعلم أعمالكم و لكن ظننتم، الخ، و الآيه تقرير و توبيخ للمشركين أو لمطلق المجرمين يوجه اليهم يوم القيامة من قبله تعالى.

و محصل المعنى و ما كنتم تستخفون فى الدنيا عند المعاصى من شهادة أعضائكم التى تستعملونها فى معصيه الله و لم يكن ذلك لظنكم أنها لا- إدراك فيها لعملكم بل لظنكم أن الله لا- يعلم كثيرا مما تعملون أى لم تستهينوا عند المعصيه بشهاده أعضائكم و إنما استهنتم بشهادتنا.

فلاستدراك و معنى الإضراب فى الآيه نظير ما فى قوله تعالى: وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى (الأنفال ١٧)، و قوله: وَ مَا ظَلَمُونَا وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (البقره ٥٧).

و قوله: كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ و لم يقل: لا يعلم ما تعملون و لعل ذلك لكونهم

معتقدين بالله و بصفاته العليا التي منها العلم فهم يعتقدون فيه العلم في الجملة لكن حالهم في المعاصي حال من لا يرى علمه بكثير من أعماله.

و يستفاد من الآية أن شهادته الشهود شهادته تعالى بوجه قال تعالى: **وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ** (يونس ٦١).

و لهم في توجيه معنى الآية أقوال آخر لا يساعد عليها السياق و لا تخلو من تكلف أضربنا عن التعرض لها.

قوله تعالى: **وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ** الإرداء من الردى بمعنى الهلاك، و «ذَلِكُمْ ظَنُّكُمْ» مبتدأ و خبر و «أَرْدَاكُمْ» خبر بعد خبر، و يمكن أن يكون «ظَنُّكُمْ» بدلا من ذلكم.

و معنى الآية على الأول و ذلكم الظن الذي ذكر ظن ظننتموه لا يغنى من الحق شيئا و العلم و الشهادة على حالها أهلككم ذلكم الظن فأصبحتم من الخاسرين.

و على الثاني و ظنكم الذي ظننتم بربكم أنه لا يعلم كثيرا مما تعملون أهلككم إذ هون عليكم أمر المعاصي و أدى بكم إلى الكفر فأصبحتم من الخاسرين.

قوله تعالى: **فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ** في المفردات: الثواء الإقامة مع الاستقرار. انتهى، و في المجمع الاستعتاب طلب العتبي و هي الرضا و هو الاسترضاء، و الإعتاب الإرضاء، و أصل الإعتاب عند العرب استصلاح الجلد بإعادته في الدباغ ثم استعير فيما يستعطف به البعض بعضا لإعادته ما كان من الألفه. انتهى.

و معنى الآية فإن يصبروا فالنار مأواهم و مستقرهم و إن يطلبوا الرضى و يعتذروا لينجوا من العذاب فليسوا ممن يرضى عنهم و يقبل إعتابهم و معذرتهم فالآية في معنى قوله: **إِصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ** (الطور ١٦).

قوله تعالى: وَ قَيَضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَزَيَّنُوا لَهُمْ ^{٣٣} بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ أصل التقييض - كما في المجمع - التبديل، و القرآن جمع قرين و هو معروف.

فقوله: وَ قَيَضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا إشارة إلى أنهم لو آمنوا و اتقوا لأيدهم الله بمن يسددهم و يهديهم كما قال: أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَ أَيْدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ (المجادلة ٢٢) لكنهم كفروا و فسقوا فبدل الله لهم قرآن من الشياطين يقارنونهم و يلازمونهم، و إنما يفعل ذلك بهم مجازاه لكفرهم و فسوقهم.

و قوله: فَزَيَّنُوا لَهُمْ ^{٣٣} بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ لعل المراد التمتع المادية التي هم مكبون عليها في الحال و ما تعلق به آمالهم و أمانيتهم في المستقبل.

و قوله: وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَ الْإِنْسِ أَى ثبت و وجب عليهم كلمة العذاب حال كونهم في امم مماثلين لهم ماضين قبلهم من الجن و الانس و كلمة العذاب قوله تعالى: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة ٣٩) كقوله: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (ص ٨٥). و قوله: «إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ» تعليل لوجوب كلمة العذاب عليهم أو لجميع ما تقدم.

و يظهر من الآية أن حكم الموت جار في الجن مثل الإنسان.

[سورة فصلت (٤١): الآيات ٢٦ إلى ٣٩]

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ (٢٦) فَلَنذيقنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَ لَنَجزيَنَّهُمْ أَشْوَابَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضِلْنَا مِنْ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَفْدَانِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَ لَا تَحْزَنُوا وَ أَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ لَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٣١) نَزَّلًا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَ عَمِلَ صَالِحًا وَ قَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَ لَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ إِذْفَعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عِدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَ مَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ مَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) وَ مِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهَارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لَا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ هُمْ لَا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَّتْ إِنْ الَّذِي أَحْلَاهَا لَمُحِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ اللغو من الأمر ما لا أصل له و من الكلام ما لا معنى له يقال: لغى يلغى و يلغو لغوا أى أتى باللغو، والإشارة الى القرآن مع ذكر اسمه دليل على كمال عنايتهم بالقرآن لإعفاء أثره.

و الآية تدل على نهايه عجزهم عن مخاصمه القرآن بإتيان كلام يعادله و يماثله أو إقامه حجه تعارضه حتى أمر بعضهم بعضا أن لا ينصتوا له و يأتوا بلغو الكلام عند قراءه النبي صلى الله عليه و آله و سلم القرآن ليختل به قراءته و لا تفرع أسماع الناس آياته فيلغو أثره و هو الغلبه.

قوله تعالى: فَلَنذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا الْخ؛ اللام للقسم، و المراد بالذين كفروا بحسب مورد الآية هم الذين قالوا: لا تسمعوا لهذا القرآن و إن كانت الآية مطلقه بحسب اللفظ.

و قوله: وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ قيل: المراد العمل السيئ الذى كانوا يعملون بتجريد أفعل عن معنى التفضيل، و قيل: المراد بيان جزاء ما هو أسوأ أعمالهم و سكت عن الباقي مبالغه فى الزجر.

قوله تعالى: ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ الْخ؛ «ذَلِكَ جَزَاءُ» مبتدأ و خبر

و «النَّارُ» بدل أو عطف بيان من «ذَلِكَ» أو خبر مبتدأ محذوف و التقدير هي النار أو مبتدأ خبره «لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ» .

و قوله: لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ أى النار محيطه بهم جميعا و لكل منهم فيها دار تخصه خالدا فيها.

و قوله: جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ مفعول مطلق لفعل مقدر، و التقدير يجزون جزاء أو للمصدر المتقدم أعنى قوله: «ذَلِكَ جَزَاءٌ» نظير قوله: فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (الإسراء ٦٣).

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّوْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ محكى قول يقولونه و هم فى النار، يسألون الله أن يريهم متبوعيههم من الجن و الإنس ليجعلوهما تحت أقدامهم إذلالا لهما و تشديدا لعذابهما كما يشعر به قولهم ذيلًا:

«نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ» .

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ الخ؛ قال الراغب: الاستقامه تقال فى الطريق الذى يكون على خط مستو، و به شبه طريق الحق نحو «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» . قال: و استقامه الإنسان لزومه المنهج المستقيم نحو قوله: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا» . انتهى. و فى الصحاح: الاستقامه الاعتدال يقال: استقام له الأمر. انتهى.

فالمراد بقوله: «ثُمَّ اسْتَقَامُوا» لزوم وسط الطريق من غير ميل و انحراف و الثبات على القول الذى قالوه، قال تعالى: فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ (التوبه ٧) و قال:

وَ اسْتَقِيمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ (الشورى ١٥) و ما ورد فيها من مختلف التفاسير يرجع الى ما ذكر.

و الآيه و ما يتلوها بيان حسن حال المؤمنين كما كانت الآيات قبلها بيان سوء حال

و قوله: تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ الْأَمْشِقَاتُ تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ إخبار عما سيستقبلهم به الملائكة من تقوية قلوبهم و تطيب نفوسهم و البشرى بالكرامه.

فالملائكة يؤمنونهم من الخوف و الحزن، و الخوف إنما يكون من مكروه متوقع كالعذاب الذى يخافونه و الحرمان من الجنة الذى يخشونه، و الحزن إنما يكون من مكروه واقع و شر لازم كالسيئات التى يحزنون من اكتسابها و الخيرات التى يحزنون لفوتها عنهم فيطيب الملائكة أنفسهم أنهم فى أمن من أن يخافوا شيئاً أو يحزنوا لشيء فالذنوب مغفوره لهم و العذاب مصروف عنهم.

ثم يبشرونهم بالجنة الموعوده بقولهم: «وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ» و فى قولهم:

«كُنتُمْ تُوعَدُونَ» دلالة على أن تنزلهم بهذه البشرى عليهم إنما هو بعد الحياه الدنيا.

قوله تعالى: نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ الخ؛ من تتمه البشاره، و على هذا فذكر ولايتهم لهم فى الحياه الدنيا مع انقضاء وقتها كما تقدم من باب التوطئه و التمهيد الى ذكر الآخرة للاشاره الى أن ولايه الآخرة مترتبه على ولايه الدنيا فكأنه قيل: نحن أولياؤكم فى الآخرة كما كنا-لما كنا-أولياءكم فى الحياه الدنيا و سنتولى أمركم بعد هذا كما توليناها قبل.

و كون الملائكة أولياء لهم لا- ينافى كونه تعالى هو الولي لأنهم وسائط الرحمه و الكرامه ليس لهم من الأمر شيء، و لعل ذكر ولايتهم لهم فى الآيه دون ولايته تعالى للمقابلة و المقايسه بين أوليائه تعالى و أعدائه إذ قال فى حق أعدائه: «وَقَيَضْنَا لَهُمْ قُرْنَاةً» الخ؛ و قال فى حق أوليائه عن لسان ملائكته: «نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ» .

و بالمقابله يستفاد أن المراد ولايتهم لهم بالتسديد و التأييد فإن الملائكة المسددين هم

المخصوصون بأهل ولايه الله، و أما الملائكه الحرس و موكلو الأرزاق و الآجال و غيرهم فمشتركون بين المؤمن و الكافر.

و قيل: الآيه من كلام الله دون الملائكه.

و قوله: «و لَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ضَمِيرٌ فِيهَا» فى الموضوعين للآخره، و أصل الشهوه نزوع النفس بقوه من قواها الى ما تريده تلك القوه و تلتذ به كشهوه الطعام و الشراب و النكاح، و أصل الادعاء-و هو افتعال من الدعاء- هو الطلب فالجمله الثانيه أعنى قوله: «و لَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ» أوسع نطاقا من الاولى أعنى قوله: «لَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ» فإن الشهوه طلب خاص و مطلق الطلب أعم منها.

فالآيه تبشرهم بأن لهم فى الآخره ما يمكن أن تتعلق به شهواتهم من أكل و شرب و نكاح و غير ذلك بل ما هو أوسع من ذلك و أعلى كعبا و هو أن لهم ما يشاءون فيها كما قال تعالى: لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا (ق ٣٥).

قوله تعالى: «و مَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا- مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَ عَمِلَ صَالِحًا وَ قَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِلآيه اتصال بقوله السابق: «وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ، وَ الْغَوَا فِيهِ» الآيه فإنهم كانوا يخاصمون النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كما ينازعون القرآن، و قد ذكر فى أول السوره قولهم: «قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّهِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ» الآيه فأيد سبحانه فى هذه الآيه نبيه بأن قوله و هو دعوته أحسن القول.

فقوله: «و مَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا- مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ الْمَرَادُ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ إِنْ كَانَ لَفِظُ الْآيَةِ يَعْمُ كُلَّ مَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَ لَمَّا أَمَكَّنَ أَنْ يَدْعُو الدَّاعِيَ إِلَى اللَّهِ لِعَرَضِ فَاسِدٍ وَ لَيْسَتْ الدَّعْوَةُ الَّتِي هَذَا شَأْنُهَا مِنَ الْقَوْلِ الْأَحْسَنِ قِيْدَهُ بِقَوْلِهِ: «وَ عَمِلَ صَالِحًا» فَإِنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ يَكْشِفُ عَنْ نِيَّةِ صَالِحِهِ غَيْرَ أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ لَا يَكْشِفُ عَنِ الْإِعْتِقَادِ الْحَقِّ وَ الْإِلْتِرَامِ بِهِ، وَ لَا حَسَنَ فِي قَوْلِ لَا يَقُولُ بِهِ صَاحِبِهِ وَ لِذَا قِيْدَهُ بِقَوْلِهِ: «وَ قَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ» وَ الْمَرَادُ بِالْقَوْلِ الرَّأْيِ وَ الْإِعْتِقَادِ

على ما يعطيه السياق.

قوله تعالى: **وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ** الآية لما ذكر أحسن القول و أنه الدعوه الى الله و القائم به حقا هو النبي صلى الله عليه و آله و سلم التفت اليه ببيان أحسن الطريق الى الدعوه و أقربها من الغايه المطلوبه منها و هى التأثير فى النفوس فخاطبه بقوله: **«لَا تَسْتَوِي»** الخ.

فقوله: **وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ** أى الخصله الحسنه و السيئه من حيث حسن التأثير فى النفوس، و **«لَا»** فى **«وَلَا السَّيِّئَةُ»** زائده لتأكيد النفي.

و قوله: **إِذْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** استئناف فى معنى دفع الدخول كأن المخاطب لما سمع قوله: **«لَا تَسْتَوِي»** الخ؛ قال: فما ذا أصنع؟ فقيل **«اذْفَعِ»** الخ؛ و المعنى اذفع بالخصله التى هى أحسن الخصله السيئه التى تقابلها و تضادها فادفع بالحق الذى عندك باطلهم لا يبطل آخر و بحلمك جهلهم و بعفوك إساءتهم و هكذا.

و قوله: **فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** بيان لأثر الدفع بالأحسن و نتيجه، و المراد أنك إن دفعت بالتي هى أحسن فجاك أن عدوك صار كأنه ولى شفيق. قيل **«الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدَاوَةٌ»** أبلغ من **«عدوك»** و لذا اختاره عليه مع اختصاره.

ثم عظم الله سبحانه الدفع بالتي هى أحسن و مدحه أحسن التعظيم و أبلغ المدح بقوله:

وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ مَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ أى ذو نصيب وافر من كمال الإنسانيه و خصال الخير.

و فى الآية مع ذلك دلالة ظاهره على أن الحظ العظيم إنما يوجد لأهل الصبر خاصه.

قوله تعالى: **وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** النزغ النخس و هو غرز جنب الدابه أو مؤخرها بقضيب و نحوه ليهيج، و **«ما»** فى **«إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ»** زائده و الأصل و إن ينزغنك فاستعد.

و النزغ هو الشيطان أو تسويله و وسوسته، و الأول هو الأنسب لمقام النبي صلى الله عليه و آله و سلم فإنه لا

سبيل للشيطان اليه بالسوسه غير أنه يمكن أن يقلب له الامور بالسوسه على المدعوين من أهل الكفر و الجحود فيالغوا في جحودهم و مشاقتهم و إيذائهم له فلا يؤثر فيهم الدفع بالأحسن و يثول هذا الى نزع من الشيطان بتشديد للعداوه في البين كما في قوله: مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي (يوسف ١٠٠/)، قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ الْآيَه (الحج ٥٢/).

و لو حمل على الوجه الثاني فالمتعين حمله على مطلق الدستور تتيما للأمر، و هو بوجه من باب «إياك أعنى و اسمعى يا جاره».

و قوله: فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ العوذ و العياذ بكسر العين و المعاذ و الاستعاذه بمعنى و هو الالتجاء و المعنى فالتجئ بالله من نزعه إنه هو السميع لمسألتك العليم بحالك أو السميع لأقوالكم العليم بأفعالكم.

قوله تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهَارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ الخ؛ لما ذكر سبحانه كون دعوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أحسن القول و وصاه أن يدفع بأحسن الخصال عاد الى أصل الدعوه فاحتج على الوحدانيه و المعاد في هذه الآيات الثلاث.

فقوله: وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهَارُ الخ؛ احتجاج بوحدته التدبير و اتصاله على وحده الرب المدبر، و بوحدته الرب على وجوب عبادته وحده، و لذلك عقبه بقوله: «لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لَا لِلْقَمَرِ» الخ.

فالكلام في معنى دفع الدخول كأنه لما قيل «وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهَارُ» الخ؛ فأثبت وحدته في ربوبيته قيل: فما ذا نصنع؟ فقيل «لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لَا لِلْقَمَرِ» هما مخلوقان مدبران من خلقه بل خصوه بالسجده و اعبدوه وحده، و عامه الوثنيين كانوا يعظمون الشمس و القمر و إن لم يعبدهما غير الصابئين على ما قيل، و ضمير «خَلَقَهُنَّ» لليل و النهار و الشمس و القمر.

و قوله: إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ أَى إِنْ عبادته لا تجماع عباده غيره.

قوله تعالى: فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ السَّامَةَ الملال، والمراد «الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ» الملائكة والمخلصون من عباد الله وقد تقدم كلام في ذلك في تفسير قوله: إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْبُحُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ (الأعراف ٢٠٦).

وقوله: يُسَبِّحُونَ لَهُ و لم يقل: يسبحونه للدلالة على الحصر والاختصاص أى يسبحونه خاصة، وقوله: «بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» أى دائما لا ينقطع فإن الملائكة ليس عندهم ليل ولا نهار.

و المعنى: فإن استكبر هؤلاء الكفار عن السجده لله وحده فعبادته تعالى لا ترتفع من الوجود فهناك من يسبحه تسيحا دائما لا ينقطع من غير سأمه وهم الذين عند ربك.

قوله تعالى: وَمِنَ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً الْخَشُوعَ التذلل، والاهتزاز التحرك الشديد، والربو النشوء والنماء والعلو، واهتزاز الأرض وربوها تحركها بنباتها وارتفاعه.

[سوره فصلت (٤١): الآيات ٤٠ الى ٥٤]

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّ لَهُمْ لَكِتَابًا عَزِيزًا (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا- مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا لَوْ لَا- فَصَلَّتْ آيَاتُهُ أَعْجَبِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ قَلِيلٌ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَ شِفَاءً وَ الَّذِينَ لَا- يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَنْ عَمَلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَ مَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦) إِلَهُ يَرُدُّ عِلْمَ السَّاعَةِ وَ مَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَ مَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَ لَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَ ظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٤٨) لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَ إِنَّ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَوْسُقُ فَنُوطٌ (٤٩) وَ لَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَ لَنُنَذِقَنَّهِنَّ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَ إِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَوَدَّ دُعَاءَ غَرِيضٍ (٥١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (٥٤)

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا الخ؛ سياق تهديد لملحدى هذه الأمة كما يؤيده الآيه التاليه، والإلحاد الميل.

و إطلاق قوله: «يُلْحِدُونَ» وقوله: «آيَاتِنَا» يشمل كل إلحاد فى كل آيه فىشمل الإلحاد فى الآيات التكوينية كالشمس والقمر وغيرهما فيعدونها آيات لله سبحانه ثم يعودون فيعبدها، ويشمل آيات الوحي والنبوه فيعدون القرآن افتراء على الله و تقولا من النبى صلى الله عليه وآله وسلم أو يلغون فيه لتختل تلاوته فلا يسمعه سامع أو يفسرونه من عند أنفسهم أو يؤولونه ابتغاء الفتنة فكل ذلك إلحاد فى آيات الله بوضعها فى غير موضعها و الميل بها الى غير مستقرها.

وقوله: أَمْ مَنْ يُلْقَى فِي الدَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إيدان بالجزاء و هو الإلقاء فى النار يوم القيامة قسرا من غير أى مؤمن متوقع كشفيع أو ناصر أو

ص: ٥١٩

عذر مسموع فليس لهم إلا- النار يلقون فيها، والظاهر أن قوله: «أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» لإبانه أنهما قبيلان لا ثالث لهما فمستقيم في الإيمان بالآيات و ملحد فيها و يظهر به أن أهل الاستقامة في أمن يوم القيامة.

و قوله: «إِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» تشديد في التهديد.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ» -الى قوله- مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ المراد بالذكر بالقرآن لما فيه من ذكر الله، و تقييد الجملة بقوله: «لَمَّا جَاءَهُمْ» يدل على أن المراد بالذين كفروا هم مشركوا العرب المعاصرين للقرآن من قريش و غيرهم.

و قد اختلفوا في خبر «إِنَّ» و يمكن أن يستظهر من السياق أنه محذوف يدل عليه قوله: «إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا» الخ؛ فإن الكفر بالقرآن من مصاديق الإلحاد في آيات الله فالتقدير إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم يلقون في النار يوم القيامة، و إنما حذف ليذهب فيه و هم السامع أى مذهب ممكن و الكلام مسوق للوعيد.

و الى هذا المعنى يرجع قول الزمخشري في الكشاف: إن قوله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» الخ؛ بدل من قوله: «إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا»

و قوله: «وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ» للضمير للذكر و هو القرآن، و العزيز عديم النظير أو المنيع الممتنع من أن يغلب، و المعنى الثانى أنسب لما يتعقبه من قوله: «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لَا مِنْ خَلْفِهِ» .

و قوله: «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لَا مِنْ خَلْفِهِ» إتيان الباطل اليه و روده فيه و صيروره بعض أجزاءه أو جميعها باطلا بأن يصير ما فيه من المعارف الحقه أو بعضها غير حقه أو ما فيه من الأحكام و الشرائع و ما يلحقها من الأخلاق أو بعضها لغى لا ينبغى العمل به.

و عليه فالمراد بقوله: «مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لَا مِنْ خَلْفِهِ» زمانا الحال و الاستقبال أى زمان

النزول و ما بعده الى يوم القيامة، وقيل: المراد بما بين يديه و من خلفه جميع الجهات، كالصباح و المساء كناية عن الزمان كله فهو مصون من البطلان من جميع الجهات و هذا العموم على الوجه الأول مستفاد من إطلاق النفي فى قوله: «لَا يَأْتِيهِ» .

و المدلول على أى حال أنه لا- تناقض فى بياناته، و لا كذب فى أخباره، و لا بطلان يتطرق الى معارفه و حكمه و شرائعه، و لا يعارض و لا يغير بإدخال ما ليس منه فيه أو بتحريف آيه من وجه الى وجه.

فالأية تجرى مجرى قوله: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (الحجر ٩).

و قوله: تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ بمنزله التعليل لكونه كتابا عزيزا لا يأتیه الباطل، الخ؛ أى كيف لا يكون كذلك و هو منزل من حكيم متقن فى فعله لا يشوب فعله وهن، محمود على الإطلاق.

قوله تعالى: مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا- مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ الخ؛ «مَا» فى «مَا يُقَالُ لَكَ» نافية، و القائلون هم الذين كفروا حيث قالوا: إنه ساحر أو مجنون أو شاعر لاغ فى كلامه أو يريد أن يتأمر علينا، و القائلون لما قد قيل للرسول امهم.

و المعنى: ما يقال لك من قبل كفار قومك حيث أرسلت اليهم فدعوتهم فرموك بما رموك إلا ما قد قيل للرسول من قبلك أى مثل ما قد قيل لهم.

و قوله: إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ فى موضع التهديد و الوعيد أى إن ربك ذو هاتين الصفتين أى فانظر أو فليظنوا ما ذا يصيبهم من ربهم و هم يقولون ما يقولونه لرسوله؟ أ هو مغفره أم عقاب؟ فالآيه فى معنى قوله: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» أى ما علمتم من حسنه أو سيئه أصابكم جزاؤه بعينه.

و قيل: المعنى ما يوحى اليك فى أمر هؤلاء الذين كفروا بالذكر إلا ما قد أوحى للرسول من قبلك و هو أن ربك لذو مغفره و ذو عقاب أليم فالمراد بالقول الوحى، و «إِنَّ رَبَّكَ» الخ؛ بيان لا

قوله تعالى: **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْ لَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ** قال الراغب: العجمه خلاف الإبانه. قال: والعجم خلاف العرب والعجمى منسوب اليهم، والأعجم من فى لسانه عجمه عربيا كان أو غير عربى اعتبارا بقله فهمهم عن العجم. انتهى. فالأعجمى غير العربى البليغ سواء كان من غير أهل اللغة العربيه أو كان منهم و هو غير مفصح ولكنه فى لسانه، وإطلاق الأعجمى على الكلام كإطلاق العربى من المجاز.

فالمعنى: و لو جعلنا القرآن أعجميا غير مبين لمقاصده غير بليغ فى نظمه لقال الذين كفروا من قومك: هلا فصلت و بينت آياته و أجزاءه فانفصلت و بانت بعضها من بعض بالعربيه و البلاغه أ كتاب مرسل أعجمى و مرسل اليه عربى؟ أى يتنافيان و لا يتناسبان.

و إنما قال: «عَرَبِيٌّ» و لم يقل: عربيون أو عربيه مع كون من أرسل اليه جمعا و هم جماعه العرب، إذ القصد الى مجرد العربيه من دون خصوصيه للكثيره بل المراد بيان التنافى بين الكلام و بين المخاطب به لا بيان كون المخاطب واحدا أو كثيرا.

و قوله: **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَ شِفَاءٌ** بيان أن أثر القرآن و خاصته لا يدور مدار لغته بل الناس تجاهه صنفان و هم الذين آمنوا و الذين لا يؤمنون، و هو هدى و شفاء للذين آمنوا يهديهم الى الحق و يشفى ما فى قلوبهم من مرض الشك و الريب. و هو عمى على الذين لا يؤمنون- و هم الذين فى آذانهم و قر- يعميهم فلا يبصرون الحق و سبيل الرشاد.

و فى توصيف الذين لا يؤمنون بأن فى آذانهم و قرا إيماء الى اعترافهم بذلك المنقول عنهم فى أول السوره «**وَ فِي آذَانِنَا وَقْرٌ**» .

و قوله: **أُولَئِكَ يَتَدَوَّنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ** أى فلا يسمعون الصوت و لا يرون الشخص و هو تمثيل لحالهم حيث لا يقبلون العظه و لا يعقلون الحججه.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ الْخ؛ تسليه للنبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم عن جحود قومه و كفرهم بكتابه.

و قوله: وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمُ الْكَلِمَةُ هِيَ قَوْلُهُ: وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (الأعراف ٢٤/).

و قوله: وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ أَي فِي شَكٍّ مُرِيبٍ مِنْ كِتَابِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

بيان حال قومه ليتسلى به النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم فيما يرى من قومه.

قوله تعالى: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا الخ؛ أَي إِنْ الْعَمَلُ قَائِمٌ بِصَاحِبِهِ نَاعَتْ لَهُ فَلَوْ كَانَ صَالِحًا نَافِعًا انْتَفَعَتْ بِهِ نَفْسُهُ وَ إِنْ كَانَ سَيِّئًا ضَارًا تَضَرَّرَتْ بِهِ نَفْسُهُ فَلَيْسَ فِي إِيْصَالِهِ تَعَالَى نَفْعُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ إِلَى صَاحِبِهِ وَ هُوَ الثَّوَابُ وَ لَا فِي إِيْصَالِ ضَرَرِ الْعَمَلِ السَّيِّئِ إِلَى صَاحِبِهِ وَ هُوَ الْعِقَابُ ظَلَمٌ وَ وَضِعٌ لِلشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ.

و لو كان ذلك ظلما كان تعالى في إثابته و تعذيبه من لا يحصى من العباد في ما لا يحصى من الأعمال ظلما للعبيد لكنه ليس بظلم و لا أنه تعالى ظلماً لعبيده و بذلك يظهر وجه التعبير باسم المبالغة في قوله: «وَ مَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ» و لم يقل: و ما ربك بظالم.

قوله تعالى: إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ - إلى قوله - إِلَّا بِعِلْمِهِ ارْتِدَادُ عِلْمِ السَّاعَةِ إِلَيْهِ اخْتِصَاصُهُ بِهِ فَلَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَ قَدْ تَكَرَّرَ ذَلِكَ فِي كَلَامِهِ تَعَالَى.

و قوله: وَ مَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامٍهَا «ثَمَرَاتٍ» فاعل «تَخْرُجُ» و «مِنْ» زائده للتأكيد كقوله: وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً (النساء ٧٩)، و أَكْمَامٌ جَمْعُ كَمٍّ وَ هُوَ وَعَاءُ الثَّمَرِهِ وَ «مَا» مَبْتَدَأُ خَبْرِهِ «إِلَّا بِعِلْمِهِ» وَ الْمَعْنَى وَ لَيْسَ تَخْرُجُ ثَمَرَاتٌ مِنْ أَوْعِيَّتِهَا وَ لَا تَحْمَلُ أَنْثَى وَ لَا تَضَعُ حَمْلَهَا إِلَّا مَصَاحِبَا لَعَلَّمَهُ أَي هُوَ تَعَالَى يَعْلَمُ جَزَائِلَ حَالَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ.

فهو تعالى على كونه خالقا للأشياء محولا- لأحوالها عالم بها و بجزئيات حالاتها مراقب لها، و هذا هو أحسن التدبير فهو الرب وحده، ففي الآيه إشارة إلى توحده تعالى في الربوبية

والالوهيه، ولذا ذُيِّل هذا الصدر بقوله: «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ» الخ.

قوله تعالى: «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا آذْنَاكَ مَا مَدَّأ مِنْ شَهِيدٍ» - إلى قوله - مِنْ مَحِيصِ الظرف متعلق بقوله: «قَالُوا» و قيل: ظرف لمضممر مؤخر قد ترك إيداناً بقصور البيان عنه كما في قوله تعالى: «يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ»، و قيل: متعلق بمحذوف نحو اذكر، ولعل الوجه الأول أنسب لصدر الآية بالمعنى الذى ذكرناه فتكون الآية مسوقة لنفى الشركاء ببيان قيام التدبير به تعالى و اعتراف المشركين بذلك يوم القيامة.

و الإيدان الإعلام، والمراد بالشهادة القولية أو الشهادة بمعنى الرؤيه الحضوريه و على الثانى فقوله: «وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ» عطف تفسير يبين به سبب انتفاء الشهاده.

وقوله: «و ظُنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصِ الظن» - على ما قيل - بمعنى اليقين، و المحيص المهرب و المفرو، و المعنى: و يوم ينادى الله المشركين: أين شركائى؟ - على زعمكم - قالوا:

أعلمناك ما منا من يشهد عليك بالشركاء - أو ما منا من يشاهد الشركاء و غاب عنهم ما كانوا يدعون من دون الله فى الدنيا، و أيقنوا أن ليس لهم مهرب من العذاب.

قوله تعالى: «لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُوسِسْ قَنُوطُ السَّامَةِ الْمَلالِ، و اليأس و القنوط بمعنى و هو انقطاع الرجاء، و الدعاء الطلب.

شروع فى ختم الكلام فى السوره ببيان ما هو السبب فى جحودهم و دفعهم الحق الصريح، و هو أن الإنسان مغتر بنفسه فإذا مسه شر يعجز عن دفعه يئس من الخير و تعلق بذيل الدعاء و المسأله و توجه الى ربه، و إذا مسه خير اشتغل به و أعجب بنفسه و أنساه ذلك كل حق و حقيقه.

و المعنى: لا يمل الإنسان من طلب الخير و هو ما يراه نافعا لحياته و معيشته و إن مسه الشر

فكثير اليأس و القنوط لما يرى من سقوط الأسباب التي كان يستند إليها، وهذا لا ينافي تعلق رجائه إذ ذاك بالله سبحانه كما سيأتي.

قوله تعالى: «وَلَيْسَ أَذِقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي الْخَيْرُ؛ الْأَصْلُ بِالنَّظَرِ إِلَى مضمون الآيه السابقه أن يقال: وإن ذاق خيرا قال: هذا لي لكن بدل ذاق من «أَذِقْنَاهُ» و «الْخَيْرِ» من قوله: «رَحْمَةً مِنَّا» ليبدل على أن الخير الذي ذاقه هو رحمه من الله إذ ذاقه إياها و ليس بمصيبه برأسه و لا هو يملكه و لو كان يملكه لم ينفك عنه و لم يمسه الضراء، و لذا قيد قوله: «وَلَيْسَ أَذِقْنَاهُ» الخ؛ بقوله: «مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ» .

و قوله: «لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي أَي أَنَا أملكه فلي أن أفعل فيه ما أشاء و أتصرف فيه كيف أريد، فليس لأحد أن يمنعني من شيء منه أو يحاسبني على فعل، و لهذا المعنى عقبه بقوله:

«وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً» فإن الساعه هي يوم الحساب.

و قوله: «وَلَيْسَ رُجِعْتُ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنِيِّ أَي للثوبه الحسنی أو للعاقبه الحسنی، و هذا مبني على ما يراه لنفسه من الكرامه و استحقاق الخير كأنه يقول: ما ملكته من الخير لو كان من الله فإنما هو لكرامه نفسى عليه و على هذا فإن قامت الساعه و رجعت الى ربى كانت لي عنده العاقبه الحسنی.

فالمعنى: و أقسم لئن أذقنا الإنسان رحمه هي منا و لا يستحقها و لا يملكها فأذقناها من بعد ضراء مسته و ذلك يدل على أنه لا يملك ما أذيقه نسي ما كان من قبل و قال: هذا لي -يشير الى شخص النعمه و لا يسميها رحمه- و ليس لأحد أن يمنعني عما أفعل فيه و يحاسبني عليه و ما أظن الساعه- و هي يوم الحساب- قائمه، و أقسم لئن رجعت الى ربى و قامت ساعه كانت لي عنده العاقبه الحسنی لكرامتي عليه كما أنعم علي من النعمه.

و الآيه نظيره قوله فى قصه صاحب الجنه: «مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَ لَيْسَ رُدُّدْتُ إِلَيَّ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (الكهف ٣٦)» و قد تقدم بعض

الكلام فيه.

و قوله: فَلَتَبْتَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَ لَنَذِيقَنَّهِمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ تهديد و وعيد.

قوله تعالى: وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ النأي الابتعاد، والمراد بالجانب الجارحه و هى الجنب أو المراد الجبهه و المكان فقوله: «نَأَى بِجَانِبِهِ» كناية عن الابتعاد بنفسه و هو كناية عن التكبر و الخيلاء، و المراد بالعريض الواسع، و الدعاء العريض كالدعاء الطويل كناية عما استمر و أصر عليه الداعي، و الآيه فى مقام ذم الإنسان و توبيخه أنه إذا أنعم الله عليه أعرض عنه و تكبر و إذا سلب النعمة ذكر الله و أقبل عليه بالدعاء مستمرا مصرا.

قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ «أَرَأَيْتُمْ» أى أخبرونى، و الشقاق و المشاقه الخلاف، و الشقاق البعيد الخلاف الذى لا يقارب الوفاق و هو شديده، و قوله: «مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ» كناية عن المشركين و لم يقل: منكم بل أتى بالموصول و الصله و ذلك فى معنى الصفه ليدل على عله الحكم و هو الشقاق البعيد من الحق.

و المعنى: قل للمشركين أخبرونى إن كان هذا القرآن من عند الله ثم كفرتم به من أضل منكم؟ أى لا- أضل منكم لأنكم فى خلاف فعيد من حق ما فوجه حق.

فمفاد الآيه أن القرآن يدعوكم الى الله ناطقا بأنه من عند الله فلا أقل من احتمال صدقه فى دعواه و هذا يكفى فى وجوب النظر فى أمره دفعا للضرر المحتمل و أى ضرر أقوى من الهلاك الأبدى فلا معنى لإعراضكم عنه بالكليه.

قوله تعالى: سَيُنزِئُهُمْ أَيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ الخ؛ الآفاق جمع أفق و هو الناحيه، و الشهيد بمعنى الشاهد أو بمعنى المشهود و هو

و ضمير «أَنَّهُ» للقرآن على ما يعطيه سياق الآيه و يؤيده الآيه السابقه التي تذكر كفرهم بالقرآن، و على هذا فالآيه تعد إراءه آيات فى الآفاق و فى أنفسهم حتى يتبين بها كون القرآن حقا، و الآيات التي شأنها إثبات حقيته القرآن هي الحوادث و المواعيد التي أخبر القرآن أنها ستقع كإخباره بأن الله سينصر نبيه صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين و يمكن لهم فى الأرض و يظهر دينهم على الدين كله و ينتقم من مشركى قريش الى غير ذلك.

فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم بالهجره الى المدينه و قد اشتد الأمر عليه و على من آمن به غايتها فلاسماء تظلمهم و لا أرض تقلهم ثم قتل صنديد قريش فى بدر و لم يزل يرفع ذكره و يفتح على يديه حتى فتح مكه و دانت له جزيره العرب ثم فتح بعد رحلته للمسلمين معظم المعموره فأرى سبحانه المشركين آياته فى الآفاق و هي النواحي التي فتحتها للمسلمين و نشر فيها دينهم، و فى أنفسهم و هو قتلهم الذريع فى بدر.

و ليست هذه آيات فى أنفسها فكم من فتح و غلبه يذكره التاريخ و مقاتل ذريعه يقصها لكنها آيات بما أن الله سبحانه و وعد بها و القرآن الكريم أخبر بها قبل وقوعها ثم وقعت على ما أخبر بها.

و يمكن أن يكون المراد بإراءه الآيات و تبين الحق بذلك ما يستفاد من آيات أخرى أن الله سيظهر دينه بتمام معنى الظهور على الدين كله فلا يعبد على الأرض إلا الله وحده و تظل السعاده على النوع الإنسانى و هي الغايه لخلقهم، و قد تقدم استفاده ذلك من قوله تعالى:

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ الْآيَه (النور / ٥٥)؛ و غيره و أيدناه بالدليل العقلى.

و الفرق بين الوجهين أن وجه الكلام على الأول الى مشركى مكه و من يتبعهم خاصه و على الثانى الى مشركى الامه عامه و الخطاب على أى حال اجتماعى، و يمكن الجمع بين

و يمكن أن يكون المراد ما يشاهده الإنسان في آخر لحظه من لحظات حياته الدنيا حيث تطير عنه الأوهام و تضل عنه الدعاوى و تبطل الأسباب و لا يبقى إلا الله عز اسمه و يؤيده ذيل الآيه و الآيه التاليه، و ضمير «أَنَّه الْحَقُّ» على هذا لله سبحانه.

و قوله: «أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ فَأَعْلَمَ يَكْفِي» هو «بِرَبِّكَ» و الباء زائده، و «أَنَّه عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» بدل من الفاعل، و الاستفهام للإنكار، و المعنى أو لم يكف في تبين الحق كون ربك مشهودا على كل شيء إذ ما من شيء إلا و هو فقير من جميع جهاته اليه متعلق به و هو تعالى قائم به قاهر فوقه فهو تعالى معلوم لكل شيء و إن لم يعرفه بعض الأشياء.

و اتصال الجمله أعنى قوله: «أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ» الخ؛ بقوله: «سَيُنزِّلُ عَلَيْهِمْ» الخ؛ على الوجه الأخير من الوجوه الثلاثة الماضيه ظاهر، و أما على الوجهين الأولين فلعل الوجه فيه أن المشركين إنما كفروا بالقرآن لدعوتهم الى التوحيد فانتقل من الدلاله على حقيقته القرآن للدلاله على حقيقته ما يدعو اليه الى الدلاله على حقيقته ما يدعو اليه مستقيما من غير واسطه كأنه قيل: سنريهم آياتنا ليتبين لهم أن القرآن الذى يخبرهم بها حق فيتبين أن ربك واحد لا شريك له ثم قيل: و هذا طريق بعيد هناك ما هو أقرب منه أو لم يكفهم أن ربك مشهود على كل شيء؟

قوله تعالى: «أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ» الخ؛ الذى يفيد السيق أن فى الآيه تنبيها على أنهم لا ينتفعون بالاحتجاج على وحدانيته تعالى بكونه شهيدا على كل شيء و هو أقوى براهين التوحيد و أوضحها لمن تعقل لأنهم فى مريه و شك من لقاء ربهم و هو كونه تعالى غير محجوب بصفاته و أفعاله عن شيء من خلقه.

ثم نبه بقوله: «أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ» على ما يرتفع به هذه المريه و تثبت من أصلها و هو

إحاطته تعالى بكل شيء على ما يليق بساحه قدسه و كبريائه فلا يخلو عنه مكان و ليس في مكان و لا يفقده شيء و ليس في شيء.

ص: ٥٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (۱) حم (۲) كَذَلِكَ يُوحى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۳) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (۴) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۵) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (۶)

تتكلم السوره حول الوحي الذى هو نوع تكليم من الله سبحانه لأنبيائه و رسله كما يدل عليه ما فى مفتحتها من قوله: «كَذَلِكَ يُوحى إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ» الآيه؛ و ما فى مختتمها من قوله: «وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحياً الخ؛ الآيات، و رجوع الكلام إليه مره بعد أخرى فى قوله: «وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا الآيه؛ و قوله: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا الآيه؛ و قوله: «اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِيزَانَ الآيه؛ و ما يتكرر فى السوره من حديث الرزق على ما سيجىء.

فالوحي هو الموضوع الذى يجرى عليه الكلام فى السوره و ما فيها من التعرض لآيات التوحيد و صفات المؤمنين و الكفار و ما يستقبل كلا من الفريقين فى معادهم و رجوعهم الى الله سبحانه مقصود بالقصد الثانى و كلام جره كلام.

و السوره مكيه و قد استثنى قوله: «وَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلرَّبِّهِمْ إِلَى تَمَامِ ثَلَاثِ آيَاتٍ، و قوله: «قُلْ لَا أَسئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى إِلَى تَمَامِ أَرْبَعِ آيَاتٍ و سيجىء الكلام فيها إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: «حم عسق من الحروف المقطعه الواقعه فى أوائل عده من السور القرآنيه، و ذلك من مختصات القرآن الكريم لا يوجد فى غيره من الكتب السماويه.

و قد اختلف المفسرون من القدماء و المتأخرين فى تفسيرها و قد نقل عنهم الطبرسى فى مجمع البيان أحد عشر قولاً فى معناها:

أحدها: أنها من المتشابهات التى استأثر الله سبحانه بعلمها لا يعلم تأويلها إلا هو.

الثانى: أن كلا منها اسم للسوره التى وقعت فى مفتحتها.

الثالث: أنها أسماء القرآن أى لمجموعه.

الرابع: أن المراد بها الدلالة على أسماء الله تعالى فقوله: «الم» معناه أنا الله أعلم، وقوله:

«المر» معناه أنا الله أعلم و أرى، وقوله: «المص» معناه أنا الله أعلم و أفصل، وقوله:

«كهيعص» الكاف من الكافي، و الهاء من الهادي، و الياء من الحكيم، و العين من العليم، و الصاد من الصادق، و هو مروى عن ابن عباس، و الحروف المأخوذة من الأسماء مختلفه فى أخذها فمنها ما هو مأخوذ من أول الاسم كالكاف من الكافي، و منها ما هو مأخوذ من وسطه كالياء من الحكيم، و منها ما هو مأخوذ من آخر الكلمه كالميم من أعلم.

الخامس: أنها أسماء لله تعالى مقطعه لو أحسن الناس تأليفها لعلموا اسم الله الأعظم تقول:

الروحم و ن يكون الرحمن و كذلك سائرهما إلا أنا لا نقدر على تأليفها و هو مروى عن سعيد بن جبير.

السادس: أنها أقسام الله بها فكأنه هو أقسم بهذه الحروف على أن القرآن كلامه و هى شريفه لكونها مباني كتبه المنزله، و أسمائه الحسنى و صفاته العليا، و اصول لغات الامم على اختلافها.

السابع: أنها إشارات الى آلائه تعالى و بلائه و مده الأتوام و أعمارها و آجالهم.

الثامن: أن المراد بها الإشاره الى بقاء هذه الامه على ما يدل عليه حساب الجمل.

التاسع: أن المراد بها حروف المعجم و قد استغنى بذكر ما ذكر منها عن ذكر الباقي كما يقال:

اب و يراد به جميع الحروف.

العاشر: أنها تسكيت للكفار لأن المشركين كانوا تواصلوا فيما بينهم أن لا يستمعوا للقرآن و أن يلغوا فيه كما حكاه القرآن عنهم بقوله: **لَا تَسْمَعُوا لَهُذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ الْآيَةَ**؛ فربما صفقوا و ربما غلطوا فيه ليغلطوا النبي صلى الله عليه و آله و سلم فى تلاوته، فأنزل الله تعالى هذه الحروف فكانوا إذا سمعوها استغربوها و استمعوا إليها و تفكروا فيها و اشتغلوا بها عن شأنهم فوقع القرآن فى مسامعهم.

الحادى عشر: أنها من قبيل تعداد حروف التهجى و المراد بها أن هذا القرآن الذى عجزتم عن معارضته هو من جنس هذه الحروف التى تتحاورون بها فى خطبكم و كلامكم فإذا لم تقدرُوا عليه فاعلموا أنه من عند الله تعالى، وإنما كررت الحروف فى مواضع استظهارها فى الحجج، و هو مروى عن قطرب و اختاره أبو مسلم الأصبهاني و اليه يميل جمع من المتأخرين.

فهذه أحد عشر قولاً- و فيما نقل عنهم ما يمكن أن يجعل قولاً آخر كما نقل عن ابن عباس فى «الم» أن الألف اشارة الى الله و اللام الى جبريل و الميم الى محمد صلى الله عليه و آله و سلم، و ما عن بعضهم أن الحروف المقطعه فى أوائل السور المفتحة بها إشاره الى الغرض المبين فيها كأن يقال: إن «ن» إشاره الى ما تشتمل عليه السوره من النصر الموعود للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و «ق» إشاره الى القرآن أو القهر الإلهى المذكور فى السوره، و ما عن بعضهم أن هذه الحروف للإيقاظ.

و الحق أن شيئاً من هذه الأقوال لا تطمئن اليه النفس:

أما القول الأول فقد تقدم فى بحث المحكم و المتشابه فى أوائل الجزء الثالث من الكتاب أنه أحد الأقوال فى معنى المتشابه، و عرفت أن الإحكام و التشابه من صفات الآيات التى لها دلالة لفظية على مداليلها، و أن التأويل ليس من قبيل المداليل اللفظية بل التأويلات حقائق واقعية تنبعث من مضامين البيانات القرآنية أعم من محكماتها و متشابهاتها، و على هذا فلا- هذه الحروف المقطعه متشابهات و لا معانيها المراد بها تأويلات لها.

و أما الأقوال العشره الأخر فإنما هى تصويرات لا تتعدى حد الاحتمال و لا دليل يدل على شىء منها.

نعم فى بعض الروايات المنسوبة الى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و أئمه أهل البيت عليهم السلام بعض التأييد للقول الرابع و السابع و الثامن و العاشر و سيأتى نقلها و الكلام فى مفادها فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله تعالى.

و الذى لا ينبغى أن يغفل عنه أن هذه الحروف تكررت فى سور شتى و هى تسع و عشرون

سوره افتتح بعضها بحرف واحد و هي ص و ق و ن، و بعضها بحرفين و هي سور طه و طس و يس و حم. و بعضها بثلاثه أحرف كما في سورتى «الم» و «الر» و طسم و بعضها بأربعه أحرف كما في سورتى «المص» و «المر» و بعضها بخمسه أحرف كما في سورتى «كهيعص» و «حم عسق» .

و تختلف هذه الحروف أيضا من حيث إن بعضها لم يقع إلا فى موضع واحد مثل «ن» و بعضها واقعه فى مفتتح عدده من السور مثل «الم» و «المر» و «طس» و «حم» .

ثم إنك إن تدبرت بعض التدبير فى هذه السور التى تشترك فى الحروف المفتتح بها مثل الميمات و الرءات و الطواسين و الحواميم، وجدت فى السور المشتركة فى الحروف من تشابه المضامين و تناسب السياقات ما ليس بينها و بين غيرها من السور.

و يؤكد ذلك ما فى مفتتح أغلبها من تقارب الألفاظ كما فى مفتتح الحواميم من قوله:

«تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ» أو ما هو فى معناه، و ما فى مفتتح الرءات من قوله: «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ» أو ما هو فى معناه، و نظير ذلك واقع فى مفتتح الطواسين، و ما فى مفتتح الميمات من نفى الريب عن الكتاب أو ما هو فى معناه.

و يمكن أن يحدس من ذلك أن بين هذه الحروف المقطعه و بين مضامين السور المفتتحه بها ارتباطا خاصا، و يؤيد ذلك ما نجد أن سوره الأعراف المصدرة بالمص فى مضمونها كأنها جامعه بين مضامين الميمات و ص، و كذا سوره الرعد المصدرة بالمر فى مضمونها كأنها جامعه بين مضامين الميمات و الرءات.

و يستفاد من ذلك أن هذه الحروف رموز بين الله سبحانه و بين رسوله صلى الله عليه و آله و سلم خفيه عنا لا سبيل لأفهامنا العاديه إليها إلا بمقدار أن نستشعر أن بينها و بين المضامين المودعه فى السور ارتباطا خاصا.

و لعل المتدبر لو تدبر فى مشتركات هذه الحروف و قايس مضامين السور التى وقعت فيها

بعضها الى بعض تبين له الأمر أزيد من ذلك.

و لعل هذا معنى ما روته أهل السنه عن على عليه السّلام-على ما فى المجمع-أن لكل كتاب صفوه و صفوه هذا الكتاب حروف التهجى.

قوله تعالى: كَذَلِكَ يُوحى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ -الى قوله- الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ مقتضى كون غرض السوره بيان الوحي بتعريف حقيقته و الإشاره الى غايته و آثاره أن تكون الإشاره بقوله: «كَذَلِكَ» الى شخص الوحي بإلقاء هذه السوره الى النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم فيكون تعريفا لمطلق الوحي بتشبيهه بفرد مشار اليه مشهود للمخاطب فيكون كقولنا فى تعريف الإنسان مثلا هو كزيد.

و عليه يكون قوله: «إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ» فى معنى اليكم جميعا، و إنما عبر بما عبر للدلاله على أن الوحي سنه إلهيه جاريه غير مبتدعه، و المعنى أن الوحي الذى نوحيه اليكم معشر الأنبياء-نبيا بعد نبي سنه جاريه-هو كهذا الذى تجده و تشاهده فى تلقى هذه السور.

و قد أخذ جمهور المفسرين قوله: «كَذَلِكَ» إشاره الى الوحي لا من حيث نفسه بل من حيث ما يشتمل عليه من المفاد فيكون فى الحقيقه إشاره الى المعارف التى تشتمل عليها السوره و تتضمنها و استنتجوا من ذلك أن مضمون السوره مما أوحاه الله تعالى الى جميع الأنبياء فهو من الوحي المشترك فيه، و قد عرفت أنه لا يوافق غرض السوره و يأباه سياق آياتها.

و قوله: الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ خمس من أسمائه الحسنى، و قوله: «لَهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» فى معنى المالك، و هو واقع موقع التعليل لأصل الوحي و لكونه سنه إلهيه جاريه فالذى يعطيه الوحي شرع إلهي فيه هدايه الناس الى سعادته حياتهم فى الدنيا و الآخره و ليس المانع أن يمنعه تعالى عن ذلك لأنه عزيز غير مغلوب فيما يريد، و لا هو تعالى يهمل أمر هدايه عباده لأنه حكيم

متقن فى أفعاله و من إتقان الفعل أن السياق الى غايته.

و من حقه تعالى أن يتصرف فيهم و فى امورهم كيف يشاء، لأنه مالكمهم و له أن يعبدهم و يستعبدهم بالأمر و النهى لأنه على عظيم فلكل من الأسماء الخمسه حظه من التعليل، و ينتج مجموعها أنه وليهم من كل جهه لا ولى غيره.

قوله تعالى: تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ الخ؛ التفطر التشقق من الفطر بمعنى الشق.

الذى يهدى اليه السياق و الكلام مسرود لبيان حقيقه الوحي و غايته و آثاره أن يكون المراد من تفطر السماوات من فوقهن تفطرها بسبب الوحي النازل من عند الله العلي العظيم المار بهن سماء سماء حتى ينزل على الأرض فإن مبدأ الوحي هو الله سبحانه و السماوات طرائق الى الأرض قال تعالى: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَ مَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (المؤمنون / ١٧).

و الوجه فى تقييد «يَتَفَطَّرْنَ» بقوله: «مِنْ فَوْقِهِنَّ» ظاهر فإن الوحي ينزل عليهن من فوقهن من عند من له العلو المطلق و العظمه المطلقه فلو تفطرن كان ذلك من فوقهن.

على ما فيه من إعظام أمر الوحي و إعلائه فإنه كلام العلي العظيم فلكونه كلام ذى العظمه المطلقه تكاد السماوات يتفطرن بنزوله و لكونه كلاما نازلا من عند ذى العلو المطلق يتفطرن من فوقهن لو تفطرن.

فالأية فى إعظام أمر كلام الله من حيث نزوله و مروره على السماوات نظيره قوله: حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنِ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (سبأ ٢٣) فى إعظامه من حيث تلقى ملائكه السماوات إياه، و نظيره قوله: لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ (الحشر ٢١) فى إعظامه على فرض نزوله على جبل و نظيره قوله: إِنَّا سَيَّلْنَا عَلَىٰ عَالِيكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (المزمل ٥) فى استثقاله و استصعاب حمله. هذا

ما يعطيه السياق.

و قوله: وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَى ينزهونه تعالى عما لا يليق بساحه قدسه و يشنون عليه بجميل فعله، و مما لا يليق بساحه قدسه أن يهمل أمر عباده فلا يهديهم بدين يشرعه لهم بالوحى و هو منه فعل جميل، و يسألونه تعالى أن يغفر لأهل الأرض، و حصول المغفره إنما هو بحصول سببها و هو سلوك سبيل العبوديه بالاهتداء بهدايه الله سبحانه فسؤالهم المغفره لهم مرجعه الى سؤال أن يشرع لهم ديناً يغفر لمن تدين به منهم فالمعنى و الملائكه يسألون الله سبحانه أن يشرع لمن فى الأرض من طريق الوحى ديناً يدينون به فيغفر لهم بذلك.

و يشهد على هذا المعنى وقوع الجمله فى سياق بيان صفة الوحى و كذا تعلق الاستغفار بمن فى الأرض إذ لا معنى لطلب المغفره منهم لمطلق أهل الأرض حتى لمن قال: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِئَامًا وَقَدْ حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ: وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا الْآيَةَ (المؤمن ٧) فالمتعين حمل سؤال المغفره على سؤال سببها و هو تشريع الدين لأهل الأرض ليغفر لمن تدين به.

و قوله: أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ أَى أن الله سبحانه لا تصافه بصفتى المغفره و الرحمه و تسميه باسمى الغفور الرحيم يليق بساحه قدسه أن يفعل بأهل الأرض ما ينالون به المغفره و الرحمه من عنده و هو أن يشرع لهم ديناً يهتدون به الى سعادتهم من طريق الوحى و التكليم.

قيل: و فى قوله: «أَلَا إِنَّ اللَّهَ» الخ؛ إشاره الى قبول استغفار الملائكه و أنه سبحانه يزيدهم على ما طلبوه من المغفره رحمه.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ لما استفيد من الآيات السابقه أن الله تعالى هو الولي لعباده لا ولى غيره

و هو يتولى أمر من فى الأرض منهم بتشريع دين لهم يرتضيه من طريق الوحى الى أنبيائه على ما يقتضيه أسماءه الحسنى و صفاته العليا، و لازم ذلك أن لا يتخذ عباده أولياء من دونه، أشار فى هذه الآية الى حال من اتخذ من دونه أولياء باتخاذهم شركاء له فى الربوبية و الألوهية فذكر أنه ليس بغافل عما يعملون و أن أعمالهم محفوظة عليهم سيؤاخذون بها، و ليس على النبى صلى الله عليه و آله و سلم إلا البلاغ من غير أن يكون وكيلا عليهم مسئولاً عن أعمالهم.

فقوله: **اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ** أى يحفظ عليهم شركهم و ما يتفرع عليه من الأعمال السيئة.

فقوله: **وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ** أى مفوضا اليك أعمالهم حتى تصلحها لهم بهدایتهم الى الحق، و الكلام لا يخلو من نوع من التسليه للنبى صلى الله عليه و آله و سلم (١).

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٧ الى ١٢]

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (٨) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَ هُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطْرُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَ مِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢)

ص: ٥٣٨

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا الْإِشَارَةُ إِلَى الْوَحْيِ الْمَفْهُومِ مِنْ سَابِقِ السِّيَاقِ، وَام الْقُرَى هِيَ مَكَّةُ الْمُشْرِفَةِ وَالْمُرَادُ بِإِنذَارِ ام الْقُرَى إِنذَارُ أَهْلِهَا، وَالْمُرَادُ بِمَنْ حَوْلَهَا سَائِرُ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ مِمَّنْ هُوَ خَارِجٌ مَكَّةَ كَمَا يُؤَيِّدُهُ تَوْصِيفُ الْقُرْآنِ بِالْعَرَبِيَّةِ.

وَذَلِكَ أَنَّ الدَّعْوَةَ النَّبَوِيَّةَ كَانَتْ ذَاتَ فِى تَوْسِعِهَا فَابْتَدَأَتْ الدَّعْوَةَ الْعَلْنِيَّةَ بِدَعْوَةِ الْعَشِيرَةِ الْأَقْرَبِينَ كَمَا قَالَ: وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (الشعراء/٢١٤) ثُمَّ تَوْسَعَتْ فَتَعَلَّقَتْ بِالْعَرَبِ عَامَةً كَمَا قَالَ: قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (حم السجدة/٣) ثُمَّ بِجَمِيعِ النَّاسِ كَمَا قَالَ: وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ لِنُنذِرَكُمْ بِهِ وَ مَن بَلَغَ .

وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْأَمْرِ بِالتَّوَسُّعِ تَدْرِيجًا قَوْلُهُ تَعَالَى: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ - إِلَى أَنْ قَالَ - إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (ص ٨٧) فَإِنَّ الْخُطَابَ عَلَى مَا يَعْطِيهِ سِيَاقُ السُّورَةِ لِكُفَّارِ قَرِيشٍ يَقُولُ سُبْحَانَهِ إِنَّهُ ذَكَرَ لِلْعَالَمِينَ لَا يَخْتَصُّ بِبَعْضِ دُونَ بَعْضٍ، فَإِذَا كَانَ لِلْجَمِيعِ فَلَا مَعْنَى لِأَنَّ يَسْأَلُ بَعْضَهُمْ - كَالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بَعْضًا عَلَيْهِ أَجْرًا.

على أن تعلق الدعوه بأهل الكتاب و خاصة باليهود و النصارى من ضروريات القرآن،

و كذا إسلام رجال من غير العرب كسلمان الفارسي و بلال الحبشي و صهيب الرومي من ضروريات التاريخ.

و قيل المراد بقوله: «مَنْ حَوْلَهَا» سائر الناس من أهل قرى الأرض كلها و يؤيده التعبير عن مكة بام القرى.

و الآيه- كما ترى- تعرف الوحي بغايته التي هي إنذار الناس من طريق الإلقاء الإلهي و هو النبوه فالوحي إلقاء إلهي لغرض النبوه و الإنذار.

قوله تعالى: وَ تُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ عطف على «تُنذِرَ» السابق و هو من عطف الخاص على العام لأهميته كأنه قيل:

لتنذر الناس و تخوفهم من الله و خاصه من سخطه يوم الجمع.

و قوله: يَوْمَ الْجُمُعِ مفعول ثان لقوله: «تُنذِرَ» و ليس بظرف له و هو ظاهر، و يوم الجمع هو يوم القيامة قال تعالى: ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ -الى أن قال- فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ (هود ١٠٥).

و قوله: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ في مقام التعليل و دفع الدخل كأنه قيل: لما ذا يندرهم يوم الجمع؟ فقيل «فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ» أى إنهم يتفرقون فريقين: سعيد مثاب و شقى معذب فلينذروا حتى يتحرزوا سبيل الشقاء و الهبوط في مهبط الهلكه.

قوله تعالى: وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً الى آخر الآيه لما كانت الآيه مسوقه لبيان لزوم الإنذار و النبوه من جهة تفرق الناس فريقين يوم القيامة كان الأسبق الى الذهن من جعلهم امه واحده مطلق رفع التفرق و التميز من بينهم بتسويتهم جميعا على صفه واحده من غير فرق و ميزه، و لم تقع عند ذلك حاجه الى النبوه و الإنذار.

و قوله: وَ لَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ

وَلَا نَصِيرَ اسْتَدْرَاكَ يَبِينُ فِيهِ أَنَّ سُنَّتَهُ تَعَالَى جَرَتْ عَلَى التَّفْرِيقِ وَ لَمْ يَشَأْ جَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: «يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ» الدَّالُّ عَلَى الْإِسْتِمْرَارِ، وَ لَمْ يَقُلْ: «لَكِنْ أَدْخَلَ وَ نَحْوَهُ».

وَ قَدْ قُوبِلَ فِي الْآيَةِ قَوْلُهُ: «مَنْ يَشَاءُ» بِقَوْلِهِ: «وَ الظَّالِمُونَ» فَالْمُرَادُ بِمَنْ يَشَاءُ غَيْرَ الظَّالِمِينَ وَ قَدْ فَسَّرَ الظَّالِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَوْلِهِ: فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصِيدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجًا وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (الأعراف ٤٥/٤٥) فَهَمَّ الْمَعَانِدُونَ الْمُنْكَرُونَ لِلْمَعَادِ.

وَ قُوبِلَ أَيْضًا بَيْنَ الْإِدْخَالِ فِي الرَّحْمَةِ وَ بَيْنَ نَفْيِ الْوَلِيِّ وَ النَّصِيرِ فَالْمُدْخَلُونَ فِي رَحْمَتِهِ هُمُ الَّذِينَ وَلِيَهُمُ اللَّهُ، وَ الَّذِينَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ هُمُ الَّذِينَ لَا يَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ، وَ أَيْضًا الرَّحْمَةُ هِيَ الْجَنَّةُ وَ انْتِفَاءُ الْوَلَايَةِ وَ النَّصْرَةُ يَلَازِمُ السَّعِيرَ.

فَمَحْمَلُ مَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ إِنَّمَا قَدَّرَ النَّبُوَّةَ وَ الْإِنذَارَ الْمَتَفَرِّعَ عَلَى الْوَحْيِ لِمَكَانٍ مَا سَيَعْتَرِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ التَّفَرُّقِ فَرِيقَيْنِ، لِيَتَحَرَّزُوا مِنَ الدَّخُولِ فِي فَرِيقِ السَّعِيرِ.

وَ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاسْتَوَتْ حَالُهُمْ وَ لَمْ يَتَفَرَّقُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرِيقَيْنِ فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ ذَلِكَ مَا تَقْتَضِيهِ النَّبُوَّةُ وَ الْإِنذَارُ فَلَمْ يَكُنْ وَحْيٌ لَكِنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَرِدْ ذَلِكَ بَلْ جَرَتْ سُنَّتُهُ عَلَى أَنْ يَتَوَلَّى أَمْرَ قَوْمٍ مِنْهُمْ وَ هُمُ غَيْرُ الظَّالِمِينَ فَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةُ وَ فِي رَحْمَتِهِ، وَ لَا يَتَوَلَّى أَمْرَ آخَرِينَ وَ هُمُ الظَّالِمُونَ فَيَكُونُوا الْوَالِيَّ لَهُمْ وَ لَا نَصِيرَ وَ يَصِيرُوا إِلَى السَّعِيرِ لَا مُخْلَصَ لَهُمْ مِنَ النَّارِ.

فَقَدْ تَحَصَّلَ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ الْمُرَادَ بِجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً هُوَ التَّسْوِيَةُ بَيْنَهُمْ بِإِدْخَالِ الْجَمِيعِ فِي الْجَنَّةِ وَ إِدْخَالِ الْجَمِيعِ فِي السَّعِيرِ أَيْ إِنَّهُ تَعَالَى لَيْسَ بِمُلْزَمٍ بِإِدْخَالِ السَّعِيدِ فِي الْجَنَّةِ وَ الْأَشْقِيَاءِ فِي النَّارِ فَلَوْ لَمْ يَشَأْ لَمْ يَفْعَلْ لَكِنَّهُ شَاءَ أَنْ يَفْرُقَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ وَ جَرَتْ سُنَّتُهُ عَلَى ذَلِكَ وَ وَعَدَ بِذَلِكَ وَ هُوَ لَا يَخْلِفُ الْمِعَادَ وَ مَعَ ذَلِكَ فَقَدَرْتَهُ الْمَطْلُوقَةَ بِأَقْبَهُ عَلَى حَالِهَا لَمْ تَنْسَلِبْ وَ لَمْ تَتَّغَيَّرْ فَقَوْلُهُ:

«وَ تُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبِّبَ فِيهِ» إِلَى تَمَامِ الْآيَتَيْنِ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ فِي سُورَةِ هُودٍ: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمَ مَجْمُوعٍ لَهُ النَّاسُ إِلَى تَمَامِ سَبْعِ آيَاتٍ فَرَاجِعٍ

قوله تعالى: أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ -الى قوله- فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ تَفِيدُ الْإِنْكَارَ كَمَا ذَكَرَهُ الزَّمْخَشَرِيُّ. لَمَّا أَفَادَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ يَتَوَلَّى أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً فَيَدْخُلُهُمْ فِي رَحْمَتِهِ وَأَنَّ الظَّالِمِينَ هُمُ الْكَافِرُونَ الْمَعَانِدُونَ لَا وَلِيَ لَهُمْ تَعْرُضُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِاتِّخَاذِهِمْ أَوْلِيَاءَ يَدِينُونَ لَهُمْ وَيَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ وَلِيًّا يَدِينُونَ لَهُ وَيَعْبُدُونَهُ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَاحْتَجَّ عَلَى وَجوب اتخاذه وليا بالحجه بعد الحججه و ذلك قوله: «فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ» الخ.

فقوله: فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ تعليل للانكار السابق لاتخاذهم من دونه اولياء فيكون حجه لوجوب اتخاذه وليا، و الجملة-فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ- تَفِيدُ حَصْرَ الْوَلَايَةِ فِي اللَّهِ وَ قَدْ تَبَيَّنَتِ الْحُجَّةُ عَلَى أَصْلِ وَلايَتِهِ وَ انْحِصَارِهَا فِيهِ مِنْ قَوْلِهِ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ: الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ كَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ.

و المعنى: أنه تعالى ولي ينحصر فيه الولاية فمن الواجب على من يتخذ وليا أن يتخذه وليا و لا يتعداه الى غيره إذ لا ولي غيره.

و قوله: وَ هُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى حجه ثانيه على وجوب اتخاذه تعالى وحده وليا، و محصله أن عمده الغرض في اتخاذ الولي و التدين له بعبوديته التخلص من عذاب السعير و الفوز بالجنة يوم القيامة و الميثب و المعاقب يوم القيامة هو الله الذي يحيي الموتى فيجمعهم فيجازيهم بأعمالهم فهو الذي يجب أن يتخذ وليا دون أوليائهم الذين هم أموات غير أحياء و لا يشعرون أيا ن يبعثون.

و قوله: وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ حجه ثالثه على وجوب اتخاذه تعالى وليا

دون غيره، ومحصله أن من الواجب في باب الولاية أن يكون للولي قدره على ما يتولاه من شئون من يتولاه و أموره، والله سبحانه على كل شيء قدير ولا قدره لغيره إلا مقدار ما أقدره الله عليه وهو المالك لما ملكه والقادر على ما عليه أقدره فهو الولي لا ولي غيره تعالى و تقدس.

□
وقوله: وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ حجه رابعه على كونه تعالى وليا لا ولي غيره، وحكم الحاكم بين المختلفين هو إحكامه و تثبيته الحق المضطرب بينهما بسبب تخالفهما بالإثبات و النفي، والاختلاف ربما كان في عقيدته كالاختلاف في أن الإله واحد أو كثير، وربما كان في عمل أو ما يرجع إليه كالاختلاف في أمور المعيشة و شئون الحياه فهو أعنى الحكم يساوق القضاء مصداقا و إن اختلفا مفهوما.

ثم الحكم و القضاء إنما يتم إذا ملكه الحاكم بنوع من الملك و الولاية و إن كان بتمليك المختلفين له ذلك كالمتنازعين إذا رجعا الى ثالث فاتخذاه حكما ليحكم بينهما و يتسلما ما يحكم به فقد ملكاه الحكم بما يرى و أعطياه من نفسهما القبول و التسليم فهو وليهما في ذلك.

و الله سبحانه هو المالك لكل شيء لا مالك سواه لكون كل شيء بوجوده و آثار وجوده قائما به تعالى فله الحكم و القضاء بالحق قال تعالى: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (القصص ٨٨)، و قال: إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (المائدة ٢) و قال: الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ (آل عمران ٦٠).

و حكمه تعالى إما تكويني و هو تحقيقه و تثبيته المسببات قبل الأسباب المجتمعه عليها المتنازعه فيها بتقديم ما نسميه سببا تاما على غيره قال تعالى حاكيا عن يعقوب عليه السلام: إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ (يوسف ٦٧) و إما تشريعي كالتكاليف الموضوعه في الدين الإلهي الراجعه الى الاعتقاد و العمل قال تعالى: إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ (يوسف ٤٠).

و هناك قسم ثالث من الحكم يمكن أن يعد من كل من القسمين السابقين بوجه و هو حكمه تعالى يوم القيامة بين عباده فيما اختلفوا فيه و هو إعلانه و إظهاره الحق يوم القيامة لأهل الجمع يشاهدونه مشاهده عيان و إيقان فيسعد به و بآثاره من كان مع الحق و يشقى بالاستكبار عليه و تبعات ذلك من استكبر عليه قال تعالى: **فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** (البقره ١١٣/).

ثم إن اختلاف الناس في عقائدهم و أعمالهم اختلاف تشريعي لا يرفعه إلا الأحكام و القوانين التشريعيه و لولا الاختلاف لم يوجد قانون كما يشير اليه قوله تعالى: **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ** (البقره ٢١٣/)، و قد تبين أن الحكم التشريعي لله سبحانه فهو الولي في ذلك فيجب أن يتخذ وحده وليا فيعبد و يدان بما أنزله من الدين.

و هذا معنى قوله: **«وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ»** و محصل الحججه أن الولي الذي يعبد و يدان له يجب أن يكون رافعا لاختلافات من يتولونه مصلحا لما فسد من شئون مجتمعهم سائقا لهم الى سعادته الحياه الدائمه بما يضعه عليهم من الحكم و هو الدين، و الحكم في ذلك الى الله سبحانه، فهو الولي الذي يجب أن يتخذ وليا لا غير.

قوله تعالى: **ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ** كلام محكى للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و الإشارة بذلكم الى من أقيمت الحجج في الآيتين على وجوب اتخاذه وليا و هو الله سبحانه، و لازم ولايته ربوبيته.

لما أقيمت الحجج على أنه تعالى هو الولي لا ولي غيره أمر صلى الله عليه و آله و سلم بإعلام أنه الله و أنه اتخذه وليا بالاعتراف له بالربوبية التي هي ملك التدبير ثم عقب ذلك بالتصريح بما للاتخاذ المذكور

من الآثار و هو قوله: «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ» .

و ذلك أن ولايه الربوبية تتعلق بنظام التكوين بتدبير الامور و تنظيم الأسباب و المسببات بحث يتعين بها للمخلوق المدبر كالإنسان مثلا- ما قدر له من الوجود و البقاء، و تتعلق بنظام التشريع و هو تدبير أعمال الإنسان بجعل قوانين و أحكام يراعيها الإنسان بتطبيق أعماله عليها في مسير حياته لتنتهي به الى كمال سعادته.

و لازم اتخاذه تعالى ربا و ليا من جهة التكوين إرجاع أمر التدبير اليه بالانقطاع عن الأسباب الظاهرية و الركون اليه من حيث إنه سبب غير مغلوب ينتهي اليه كل سبب و هذا هو التوكل، و من جهة التشريع الرجوع الى حكمه في كل واقعه يستقبله الإنسان في مسير حياته و هذا هو الإنابة فقوله: «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ» أى أرجع في جميع اموري، تصريح بإرجاع الأمر اليه تكويننا و تشريعا.

قوله تعالى: فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الى آخر الآيه؛ لما صرح بأنه تعالى هو ربه لقيام الحجج على أنه هو الولي و حده عقب ذلك بإقامه الحجج في هذه الآيه و التي بعدها على ربوبيته تعالى و حده.

و محصل الحجج: أنه تعالى موجد الأشياء و فاطرها بالإخراج من كتم العدم الى الوجود و قد جعلكم أزواجا فكثركم بذلك و جعل من الأنعام أزواجا فكثرها بذلك لتنتفعوا بها، و هذا خلق و تدبير، و هو سميع لما يساله خلقه من الحوائج فيقضى لكل ما يستحقه من الحاجة، بصير لما يعمله خلقه من الأعمال فيجازيهم بما عملوا و هو الذي يملك مفاتيح خزائن السماوات و الأرض التي ادخر فيها ما لها من خواص و وجودها و آثاره مما يتألف منها بظهورها النظام المشهود و هو الذي يرزق المرزوقين فيوسع في رزقهم و يضيق عن علم منه بذلك. و هذا كله من التدبير فهو الرب المدبر للامور.

فقوله: «فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» أى موجدها من كتم العدل على سبيل الإبداع.

وقوله: جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا و ذلك بخلق الذكر و الانثى للذين يتم بتزاوجهما أمر التوالد و التناسل و تكثر الأفراد «وَ مِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا» أى و جعل من الأنعام أزواجاً «يَذُرُّكُمْ فِيهِ» أى يكثركم فى هذا الجعل، و الخطاب فى «يَذُرُّكُمْ» للإنسان و الأنعام بتغليب جانب العقلاء على غيرهم كما ذكره الزمخشري.

و قوله: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ أى ليس مثله شىء، فالكاف زائده للتأكيد و له نظائر كثيره فى كلام العرب.

و قوله: وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ أى السميع لما يرفع اليه من مسائل خلقه البصير لأعمال خلقه قال تعالى: يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ (الرحمن ٢٩)، و قال:

وَ آتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ (إبراهيم ٣٤)، و قال: وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (الحديد ٤).

قوله تعالى: لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الى آخر الآيه المقاليد المفاتيح و فى إثبات المقاليد للسموات و الأرض دلالة على أنها خزائن لما يظهر فى الكون من الحوادث و الآثار الوجوديه.

و قوله: يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ بسط الرزق توسعته و قدره تضيقه و الرزق كل ما يمد به البقاء و يرتفع به حاجه من حوائج الوجود فى استمراره.

و تذييل الكلام بقوله: «إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» للإشارة الى أن الرزق و اختلافه فى موارد البسط و القدر ليس على سبيل المجازفه جهلا بل عن علم منه تعالى بكل شىء فرزق كل مرزوق على علم منه بما يستدعيه المرزوق بحسب حاله و الرزق بحسب حاله و ما يحف بهما من الأوضاع و الأحوال الخارجيه، و هذا هو الحكمه فهو يبسط و يقدر بالحكمه.

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْ لَا كَلِمَةُ سِبْقَتِ مَنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَذَلِكَ فَادُعْ وَاسْتَقِمْ كَلِمًا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦)

بيان:

قوله تعالى: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى يقال: شرع الطريق شرعا أى سواه طريقا واضحا بينا. قال الراغب: الوصيه التقدم الى الغير بما يعمل مقترنا بوعظ من قولهم: أرض واصيه متصله النبات و يقال: أوصاه و وصاه انتهى. و فى معناه إشعار بالأهميه فما كل أمر يوصى به و إنما يختار لذلك ما يهتم به الموصى و يعتنى بشأنه.

ص: ٥٤٧

فقله: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا» أى بين و أوضح لكم من الدين و هو سنه الحياه ما قدم و عهد الى نوح مهتما به، و اللائح من السياق أن الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و امته، و أن المراد مما وصى به نوحا شريعته نوح عليه السلام.

و قوله: «وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ظَاهِرَ الْمَقَابِلَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ الْمُرَادُ بِمَا أَوْحَى إِلَيْهِ مَا اخْتَصَتْ بِهِ شَرِيعَتُهُ مِنَ الْمَعَارِفِ وَ الْأَحْكَامِ، وَ إِنَّمَا عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِالْإِيحَاءِ دُونَ التَّوْصِيَةِ لِأَنَّ التَّوْصِيَةَ كَمَا تَقَدَّمَ إِنَّمَا تَتَّعَلَقُ مِنَ الْأُمُورِ بِمَا يَهْتَمُّ بِهِ وَ يَعْتَنِي بِشَأْنِهِ خَاصَةً وَ هُوَ أَهْمُ الْعُقَائِدِ وَ الْأَعْمَالِ، وَ شَرِيعَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ جَامِعَةٌ لِكُلِّ مَا جَلَّ وَ دَقَّ مَحْتَوِيَهُ عَلَى الْأَهْمِ وَ غَيْرِهِ بِخِلَافِ شَرَائِعِ غَيْرِهِ فَقَدْ كَانَتْ مَحْدُودَةً بِمَا هُوَ الْأَهْمُ الْمُنَاسِبُ لِحَالِ أُمَّمِهِمْ وَ الْمَوْافِقُ لِمَبْلَغِ اسْتِعْدَادِهِمْ.

و الالتفات فى قوله: «وَ الَّذِي أَوْحَيْنَا» من الغيبه الى التكلم مع الغير للدلاله على العظمه فإن العظماء يتكلمون عنهم و عن خدمهم و أتباعهم.

و قوله: «وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى عَطْفَ عَلَى قَوْلِهِ: «مَا وَصَّيْنَا بِهِ» وَ الْمُرَادُ بِهِ مَا شَرَعَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

و الترتيب الذى بينهم عليه السلام فى الذكر على وفق ترتيب زمنهم فنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليه السلام، و إنما قدم ذكر النبي صلى الله عليه و آله و سلم للتشريف و التفضيل كما فى قوله تعالى: «وَ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ (الأحزاب ٧)» و إنما قدم نوحا و بدأ به للدلاله على قدم هذه الشريعة و طول عهدها.

و استفاد من الآيه امور:

أحدها: أن السياق بما أنه يفيد الامتتان و خاصه بالنظر الى ذيل الآيه و الآيه التاليه يعطى أن الشريعة المحمديه جامعته للشرائع الماضيه و لا ينافيه قوله تعالى: «لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهَا جَاءَ (المائدة ٤٨)» لأن كون الشريعة شريعته خاصه لا ينافى جامعيتها.

الثانى: أن الشرائع الإلهيه المنتسبه الى الوحي إنما هى شريعته نوح و إبراهيم و موسى

و عيسى و محمد عليهم السلام إذ لو كان هناك غيرها لذكر قضاء لحق الجامعيه المذكوره.

و لازم ذلك أولا: أن لا شريعته قبل نوح عليه السلام بمعنى القوانين الحاكمه فى المجتمع الإنسانى الرافعه للاختلافات الاجتماعيه و قد تقدم نبذه من الكلام فى ذلك فى تفسير قوله تعالى: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ الْآيَةَ (البقره ٢١٣).

و ثانيا: أن الأنبياء المبعوثين بعد نوح كانوا على شريعته الى بعثه إبراهيم و بعدها على شريعته إبراهيم الى بعثه موسى و هكذا.

الثالث: أن الأنبياء أصحاب الشرائع و اولى العزم هم هؤلاء الخمسه المذكورون فى الآيه إذ لو كان معهم غيرهم لذكر فهؤلاء سادته الأنبياء و يدل على تقدمهم أيضا قوله: وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَىٰ وَ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ (الأحزاب ٧).

و قوله: «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لَا تَتَفَرَّقُوا» أن تفسيريه، و إقامه الدين حفظه بالاتباع و العمل و اللام فى الدين للعهد أى أقيموا هذا الدين المشروع لكم، و عدم التفرق فيه حفظ وحدته بالاتفاق عليه و عدم الاختلاف فيه.

لما كان شرع الدين لهم فى معنى أمرهم جميعا باتباعه و العمل به من غير اختلاف فسر به بالأمر بإقامه الدين و عدم التفرق فيه فكان محصله أن عليهم جميعا إقامه الدين جميعا و عدم التفرق و التشتت فيه بإقامه بعض و ترك بعض، و إقامته الإيمان بجميع ما أنزل الله و العمل بما يجب عليه العمل به.

فجميع الشرائع التى أنزلها الله على أنبيائه دين واحد يجب إقامته و عدم التفرق فيه فأما الأحكام السماويه المشترك فيها الباقية ببقاء التكليف فمعنى الإقامه فيها ظاهر و أما الأحكام المشرعه فى بعض هذه الشرائع المنسوخه فى الشريعه اللاحقه فحقيقه الحكم المنسوخ أنه حكم ذو أمد خاص بطائفه من الناس فى زمن خاص و معنى نسخه تبين انتهاء أمده لا ظهور بطلانه قال تعالى: وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقُّ وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (الأحزاب ٤) فالحكم المنسوخ

حق دائما غير أنه خاص بطائفة خاصه في زمن خاص يجب عليهم أن يؤمنوا به و يعملوا به و يجب على غيرهم أن يؤمنوا به فحسب من غير عمل و هذا معنى إقامته و عدم التفرق فيه.

فتبين أن الأمر بإقامه الدين و عدم التفرق فيه في قوله: «أَنْ أَفِيْمُوا الدِّينَ وَ لَا- تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» مطلق شامل لجميع الناس في جميع الأزمان.

و قوله: كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ المراد بقوله: «مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ» دين التوحيد الذى كان يدعو اليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لا أصل التوحيد فحسب على ما تشهد به الآيه التاليه، و المراد بكبره على المشركين تخرجهم من قبوله.

و قوله: اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ الاجتباء هو الجمع و الاجتلاب، و مقتضى اتساق الضمائر أن يكون ضمير «إِلَيْهِ» الثانى و الثالث راجعا الى ما يرجع اليه الأول و المعنى الله يجمع و يجتلب الى دين التوحيد-و هو ما تدعوهم اليه-من يشاء من عباده و يهدى اليه من يرجع اليه فيكون مجموع قوله: «كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ» فى معنى قوله: هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِِبْرَاهِيمَ (الحج ٧٨).

قوله تعالى: وَ مَا تَفَرَّقُوا إِلَّا- مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ الى آخر الآيه؛ ضمير «تَفَرَّقُوا» للناس المفهوم من السياق، و البغى الظلم أو الحسد، و تقييده بقوله:

«بَيْنَهُمْ» للدلاله على تداوله، و المعنى و ما تفرق الناس الذين شرعت لهم الشريعه باختلافهم و تركهم الاتفاق إلا حال كون تفرقهم آخذا-أو ناشئا-من بعد ما جاءهم العلم بما هو الحق ظلما أو حسدا تداولوه بينهم.

و هذا هو الاختلاف فى الدين المؤدى الى الانشعابات و التحزبات الذى ينسبه الله سبحانه فى مواضع من كلامه الى البغى، و أما الاختلاف المؤدى الى نزول الشريعه و هو الاختلاف فى شئون الحياه و التفرق فى امور المعاش فهو أمر عائد الى اختلاف طبائع الناس فى مقاصدهم

و هو الذريعه الى نزول الوحي و تشريع الشرع لرفعه كما يشير اليه قوله: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ (البقره ٢١٣) كما تقدم فى تفسير الآيه.

و قوله: وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَدَّدٍ لَقَضَيْتَ بَيْنَهُمُ الْمِرَادَ بِالْكَلِمَةِ مِثْلَ قَوْلِهِ: حِينَ إِهْبَاطِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْأَرْضِ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (البقره ٣٦).

و المعنى: و لو لا- أن الله قضى فيهم الاستقرار و التمتع فى الأرض الى أجل سماه و عينه لقضى بينهم إثر تفرقهم فى دينه و انحرافهم عن سبيله لأهلكهم باستدعاء من هذا الذنب العظيم.

و قوله: وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيَبٍ ضَمِيرٍ «مِنْ بَعْدِهِمْ» لا و لك الذين تفرقوا من بعد علم بغيا بينهم و هم الأسلاف، و الذين اورثوا الكتاب من بعدهم أخلافهم فمفاد الآيه أن البادئين بالاختلاف المؤسسين للتفرقه كانوا على علم من الحق و إنما أبدعوا ما أبدعوا، بغيا بينهم، و أخلافهم الذين اورثوا الكتاب من بعدهم فى شك مريب- موقع فى الريب- منه.

قوله تعالى: فَلَاذَلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ. تفرغ على ما ذكر من شرع دين واحد لجميع الأنبياء و امهم ثم انقسام امهم الى أسلاف اختلفوا فى الدين عن علم بغيا، و الى أخلاف شاكين مرتابين فيما اورثوه من الكتاب أى فلأجل أنه شرع لكم جميع ما شرع لمن قبلكم فادع و لأجل ما ذكر من تفرق بعضهم بغيا و ارتياب آخرين «فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ» .

و اللام فى قوله: «فَلَاذَلِكَ» للتعليل، و قيل: اللام بمعنى الى أى الى ما شرع لكم من الدين فادع و استقم كما أمرت، و الاستقامه- كما ذكر الراغب- لزوم المنهاج المستقيم، و قوله: «وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ» كالمفسر له.

و قوله: وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ تَسْوِيهِ بَيْنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ مِنْ

حيث تصديقها والإيمان بها وهى الكتب المنزله من عند الله المشتمله على الشرائع.

وقوله: «وَأْمُرْتُ لِأَعِيدَ لَكُمْ قِيلَ: اللام زائده للتأكيد نظير قوله: «وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (الأنعام ٧١)»، والمعنى: وأمرت أن أعدل بينكم أى اسوى بينكم فلا اقدم قويا على ضعيف ولا غنيا على فقير ولا كبيرا على صغير، ولا أفضل أبيض على أسود ولا عربيا على عجمي ولا هاشميا أو قرشيا على غيره فالدعوه متوجهه الى الجميع، والناس قبال الشرع الإلهي سواء.

فقوله: «آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ تَسْوِيهِ بَيْنَ الْكُتُبِ الْمُنزَلَةِ مِنْ حَيْثُ الْإِيمَانُ بِهَا»، وقوله: «وَأْمُرْتُ لِأَعِيدَ لَكُمْ» تسويه بين الناس من حيث الدعوه و توجه ما جاء به من الشرع.

وقوله: «اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ الْخ» فى مقام التعليل لما ذكر من التسويه بين الكتب و الشرائع فى الإيمان بها و بين الناس فى دعوتهم و شمول الأحكام لهم، ولذا جىء فى الكلام بالفصل من غير عطف.

فقوله: «اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ» يشير الى أن رب الكل هو الله الواحد تعالى فليس لهم أرباب كثيرون حتى يلحق كل بربه و يتفاضلوا بالأرباب و يقتصر كل منهم بالإيمان بشريعه ربه بل الله هو رب الجميع و هم جميعا عباده المملوكون له المدبرون بأمره و الشرائع المنزله على الأنبياء من عنده فلا موجب للإيمان ببعضها دون بعض كما يؤمن اليهود بشريعه موسى دون من بعده و كذا النصرارى بشريعه عيسى دون محمد صلى الله عليه و آله و سلم بل الواجب الإيمان بكل كتاب نازل من عنده لأنها جميعا من عنده.

وقوله: «لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ» يشير الى أن الأعمال و إن اختلفت من حيث كونها حسنه أو سيئه و من حيث الجزاء ثوابا أو عقابا إلا أنها لا تتعدى عاملها فلكل امرئ ما عمل فلا ينتفع أحد بعمل آخر و لا يتضرر بعمل غيره فليس له أن يقدم امراً للانتفاع بعمله

أو يؤخر أمراً للتضرر بعمله نعم في الأعمال تفاضل تختلف به درجات العاملين لكن ذلك الى الله فيما يحاسب به عباده لا الى الناس-النبى فمن دونه-الذين هم جميعا عباد مملوكون لا- يملك منهم نفس من نفس شيئا، وهذا هو الذى ذكره تعالى فى محاوره نوح عليه السلام قومه: **قَالُوا أ نُّؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ قَالِ وَ مَا عَلِمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ (الشعراء ١١٣)**، وكذا قوله يخاطب النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ مَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ (الأنعام ٥٢)**.

و قوله: **لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ لَعَلَّ الْمُرَاد أَنَّهُ لَا حُجَّة تَدُل عَلَى تَقَدُّمِ بَعْضٍ عَلَى بَعْضٍ تَكُونُ فِيمَا بَيْنَنَا يَقِيمُهَا بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ يَثْبُتُ بِهَا تَقَدُّمُهُ عَلَيْهِ.**

و يمكن أن يكون نفى الحجج كناية عن نفى لازمها و هو الخصومه أى لا خصومه بيننا بتفاوت الدرجات لأن ربنا واحد و نحن فى أننا جميعا عباده واحد و لكل نفس ما عملت فلا حجة فى البين أى لا خصومه حتى تتخذ لها حجة.

و قوله: **اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا** المراد بضمير التكلم فيه مجموع المتكلم و المخاطب فى الجمل السابقة، و المراد بالجمع جمعه تعالى إياهم يوم القيامة للحساب و الجزاء على ما قيل.

و غير بعيد أن يراد بالجمع جمعه تعالى بينهم فى الربوبية فهو رب الجميع و الجميع عباده فيكون قوله: **«اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا»** تأكيداً لقوله السابق: **«اللَّهُ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ»** و توطئه و تمهيدا لقوله:

«وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ» و يكون مفاد الجملتين أن الله هو مبدؤنا لأنه ربنا جميعا و اليه منتهانا لأنه اليه المصير فلا موجد لما بيننا إلا هو عز اسمه.

و كان مقتضى الظاهر فى التعليل أن يقال: **«اللَّهُ رَبِّى وَ رَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ عَلَى مَحَاذِهِ قَوْلُهُ: «آمَنْتُ» وَ أُمِرْتُ لِأَعْدَلَ»** لكن عدل عن المتكلم وحده الى المتكلم مع الغير لدلاله قوله السابق: **«شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا»** الخ؛ و قوله:

«اللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ» أن هناك قوما يؤمنون بما آمن به النبى صلى الله عليه وآله وسلم

و يلبون دعوته و يتبعون شريعته.

فالمراد بالمتكلم مع الغير فى «رَبَّنَا» و «لَنَا أَعْمَالُنَا» و «بَيْنَنَا» هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالمؤمنون به، وَ بالمخاطبين فى قوله: «وَرَبُّكُمْ» و «أَعْمَالُكُمْ» و «بَيْنَكُمْ» سائر الناس من أهل الكتاب وَالمشركين، وَ الآيه على وزن قوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (آل عمران ٦٤).

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ الْحِجَّةُ هِيَ الْقَوْلُ الَّذِى يَقْصِدُ بِهِ إِثْبَاتُ شَيْءٍ أَوْ إِبْطَالُهُ مِنَ الْحِجِّ بِمَعْنَى الْقَصْدِ، وَ الدَّحْضُ الْبَطْلَانُ وَ الزَّوَالُ.

و المعنى: -على ما قيل- وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ أى يَحْتَجُّونَ عَلَى نَفْسِ رَبوبيته أَوْ عَلَى إِبْطَالِ دِينِهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجَابَ النَّاسُ لَهُ وَ دَخَلُوا فِي دِينِهِ لظهور الحججه وَ وضوح المحججه حجتهم باطله زائله عند ربهم وَ عليهم غضب منه تعالى وَ لهم عذاب شديد.

وَ الظاهر أن المراد بالاستجابة له ما هو حق الاستجابة وَ هو التلقى بالقبول عن علم لا يداخله شك تضطر إليه الفطره الإنسانيه السليمه فإن الدين بما فيه من المعارف فطرى تصدقه وَ تستجيب له الفطره الحيه قال تعالى: إِنَّمَا يَشْتَرِي بِالسَّلَامَةِ وَالْأَنْعَامِ (٣٦)، وَ قَالَ: وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا (الشمس ٨/٨)، وَ قَالَ: فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا (الروم ٣٠).

وَ محصل الآيه: على هذا أن الذين يحاجون فيه تعالى أَوْ فى دِينِهِ بَعْدَ اسْتِجَابِهِ الْفِطْرَةَ السَّلِيمَةَ لَهُ أَوْ بَعْدَ اسْتِجَابِهِ النَّاسَ بِفِطْرَتِهِمُ السَّلِيمَةَ لَهُ حِجَّتُهُمْ بَاطِلُهُ زَائِلُهُ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنْهُ وَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ لَا يَقَادِرُ قَدْرُهُ.

وَ يؤيد هذا الوجه بعض التأييد سياق الآيات السابقه حيث تذكر أن الله شرع ديننا وَ وصى

به أنبياءه و اجتبى اليه من شاء من عباده فالمحاجه فى أن لله ديناً يستعبد به عباده داحضه و من الممكن حينئذ أن يكون قوله: «اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ» فى مقام التعليل و حجه مدحضه لحجتهم فتدبر فيه.

[سوره الشورى (٤٢): الآيات ١٧ الى ٢٦]

اشاره

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨) اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْ لَا كَلِمَةُ الْفَضْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦)

قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ الخ؛ كان مفتتح الفصول السابقة في سياق الفعل إخبارا عن الوحي و غرضه و آثاره كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ وَ قد غير السياق في مفتتح هذا الفصل فجاء بالجمله الاسميه المتضمنه لتوصيفه تعالى بانزال الكتاب و الميزان «اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ» الخ؛ و لازمه تعريف الوحي بنزول الكتاب و الميزان به.

و لعل الوجه فيه ما تقدم في الآيه السابقه من ذكر المحاجه في الله «وَ الَّذِينَ يُحِبُّونَ فِي اللَّهِ» فاستدعى ذلك تعريفه تعالى للمحاجين فيه بأنه الذي أنزل الكتاب بالحق و الميزان، و لازمه تعريف الوحي بأثره كما عرفت.

و كيف كان فالمراد بالكتاب هو الوحي المشتمل على الشريعه و الدين الحاكم في المجتمع

البشرى، وقد تقدم فى تفسير قوله تعالى: كَذَانَ الدَّاسُ أُمَّةٌ وَإِحْدَهُ الْآيَةُ (البقره ٢١٣)؛ أن هذا المعنى هو المراد بالكتاب فى الكتاب، وكون إنزاله بالحق نزوله مصاحبا للحق لا يخالطه اختلاف شيطانى و لا نفسانى.

و الميزان ما يوزن و يقدر به الأشياء، و المراد به بقريته ذيل الآيه و الآيات التالیه هو الدين المشتمل عليه الكتاب حيث يوزن به العقائد و الأعمال فتحاسب عليه و يجرى بحسبه الجزاء يوم القيامة فالميزان هو الدين باصوله و فروعه، و يؤيده قوله تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ (الحديد ٢٥)، على ما هو ظاهر قوله: «مَعَهُمْ» .

و قوله: وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ لما كان الميزان المشعر بالحساب و الجزاء يومى الى البعث و القيامة انتقل الى الكلام فيه و إنذارهم بما سيستقبلهم فيه من الأهوال و التبشير بما أعدّ فيه للصالحين.

و الإيدراء الإعلام، و المراد بالساعة-على ما قيل-إتيانها و لذا جىء بالخبر مذكرا، و المعنى: ما الذى يعلمك لعل إتيان الساعة قريب و الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بعنوان أنه سامع فيشمل كل من له أن يسمع و يعمّ الانذار و التخويف.

قوله تعالى: يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا الخ؛ المراد استعجالهم استعجال سخریه و استهزاء و قد تكرر فى القرآن نقل قولهم:

«مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» .

و الإشفاق نوع من الخوف، قال الراغب: الإشفاق عنايه مختلطة بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه و يخاف ما يلحقه، قال تعالى: «وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ» فإذا عدى بمن فمعنى الخوف فيه أظهر، و إذا عدى بفى فمعنى العنايه فيه أظهر، قال تعالى: إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ مُشْفِقُونَ مِنْهَا انتهى.

وقوله: أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ المماراه الإصرار على الجدل، والمراد إلحاحهم على إنكارها بالجدال، وإنما كانوا في ضلال بعيد لأنهم أخطئوا طريق الحياه التي إصابتها أهم ما يتصور للانسان فتوهموها حياه مقطوعه فانيه انكبوا فيها على شهوات الدنيا و إنما هي حياه خالده باقيه يجب عليهم أن يتروّدوا من دنياهم لاخراهم لكنهم ضلوا عن سبيل الرشده فوقعوا في سبيل الغي.

قوله تعالى: اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ في معنى اللطف شيء من الرفق و سهوله الفعل و شيء من الدقه في ما يقع عليه الفعل فإذا تم الرفق و الدقه و كان الفاعل يفعل برفق و سهوله و يقع فعله على الامور الدقيقه كان لطيفا كالهواء النافذ في منافذ الأجسام برفق و سهوله المماس لدقائق أجزائها الباطنه. و إذا القيت الخصوصيات الماديه عن هذا المعنى صح أن يتصف به الله سبحانه فإنه تعالى ينال دقائق الامور بإحاطته و علمه و يفعل فيها ما يشاء برفق فهو لطيف.

و قد رتب الرزق في الآيه على كونه تعالى لطيفا بعباده قويا عزيزا دلالة على أنه تعالى بلطفه لا يغيب عنه أحد ممن يشاء أن يرزق و لا يعصيه و بقوته عليه لا يعجز عنه و بعزته لا يمنعه مانع عنه.

و المراد بالرزق ما يعم موهبه الدين الذي يتلبس بها من يشاء من عباده على ما يشهد به الآيه التاليه، و لذا ألحق القول فيه بقوله: «اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ» .

قوله تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ الْخُبْرَ؛ الحَرْث الزرع و المراد به نتيجة الأعمال التي يؤتاها الإنسان في الآخرة على سبيل الاستعاره كأن الأعمال الصالحه بذور و ما تنتجه في الآخرة حَرْث.

و المراد بالزيادة له في حَرْثه تكثير ثوابه و مضاعفته، قال تعالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا (الأنعام ١٦٠)، و قال: وَ اللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ (البقره ٢٦١).

وقوله: وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ أَى و من كان يريد النتائج الدنيويه بأن يعمل للدنيا و يريد نتيجة ما عمله فيها دون الآخرة نُؤتته من الدنيا و ما له في الآخرة نصيب، و فى التعبير بإرادته الحرث إشاره الى اشتراط العمل لما يريده من الدنيا و الآخرة كما قال تعالى: وَ أَنْ لَيْسَ لِلنَّاسِ إِلَّا مَا سَعَى (النجم ٣٩).

و قد ابهم ما يعطيه من الدنيا إذ قال: «نُؤْتِهِ مِنْهَا» إشاره الى أن الأمر الى المشيه الإلهيه فر بما بسطت الرزق و ربما قدرت كما قال تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ (الإسراء ١٨).

و المحصل من معنى الآيتين: أن الله سبحانه لطيف بعباده جميعا ذو قوه مطلقه و عزه مطلقه يرزق عباده على حسب مشيته و قد شاء فى من أراد الآخرة و عمل لها أن يرزقه منها و يزيد فيه، و فيمن أراد الدنيا و عمل لها فحسب أن يُؤتته منها و ما له فى الآخرة من نصيب.

و يظهر من ذلك أن الآيه الاولى عامه تشمل الفريقين، و المراد بالعباد ما يعم أهل الدنيا و الآخرة، و كذا الرزق و أن الآيه الثانيه فى مقام تفصيل ما فى قوله: «يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ» من الإجمال.

قوله تعالى: أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ الى آخر الآيه لما بين أن الله سبحانه هو الذى أنزل الكتاب بالحق و شرع لهم الدين الذى هو ميزان أعمالهم و أنه بلطفه و قوته و عزته يرزق من أراد الآخرة و عمل لها ما أراد منها و يزيد، و أن من أراد الدنيا و نسى الآخرة لا نصيب له فيها سَجَل على من كفر بالآخرة عدم النصيب فيها بإنكار أن لا دين غير ما شرعه الله يدين به هؤلاء حتى يرزقوا بالعمل به مثل ما يرزق أهل الإيمان بالآخرة فيها إذ لا شريك لله حتى يشرع دينا غير ما شرعه الله من غير إذن منه تعالى فلا دين إلا لله و لا يرزق فى الآخرة رزقا حسنا إلا من آمن بها و عمل لها.

فقوله: أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ الْخ؛ فى مقام الإنكار، وقوله: «وَلَوْ لَا كَلِمَةُ الْفَضْلِ لَقَضَيْ بَيْنَهُمْ» إشاره الى الكلمه التى سبقت منه تعالى أنهم يعيشون فى الأرض الى أجل مسمى، وفيه إكبار لجرمهم و معصيتهم.

وقوله: وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وعيد لهم على ظلمهم، وإشاره الى أنهم لا يفوتونه تعالى فإن لم يقض بينهم و لم يعد بهم فى الدنيا فلهم فى الآخرة عذاب أليم.

وقوله تعالى: تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَ هُوَ واقع بهم الخ؛ الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بعنوان أنه سامع فيشمل كل من من شأنه أن يرى، والمراد بالظالمين التاركون لدين الله الذى شرعه لعباده المعرضون عن الساعه، والمعنى: يرى الرءون هؤلاء الظالمين يوم القيامة خائفين مما كسبوا من السيئات و هو واقع بهم لا مناص لهم عنه.

و الآيه من الآيات الظاهره فى تجسم الأعمال.

وقوله: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ فى المجمع: إن الروضه الأرض الخضره بحسن النبات، و الجنة الأرض التى تحفها الشجر فروضات الجنات الحدائق المشجره المخضره متونها.

وقوله: لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ أى إن نظام الأسباب مطوى فيها بل السبب الوحيد هو إرادتهم وحدها يخلق الله لهم من عنده ما يشاءون ذلك هو الفضل الكبير.

وقوله: ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ تبشير للمؤمنين الصالحين، و إضافه العباد تشريفيه.

وقوله تعالى: قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فى القُرْبَى الذى نفى سؤال الأجر عليه هو تبليغ الرساله و الدعوه الدينيه، و قد حكى الله ذلك عن عده ممن قبله صلى الله عليه و آله و سلم من الرسل كنوح و هود و صالح و لوط و شعيب فيما حكى مما يخاطب كل منهم امته:

وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ الشعراء و غيرها.

وقد حكى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك إذ قال: وَمَا تَسَاءَلْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ (يوسف ١٠٤/١)، وقد أمره صلى الله عليه وآله وسلم أن يخاطب الناس بذلك بتعبيرات مختلفه حيث قال: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ (ص ٨٦/١)، وقال: قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ (سبأ ٤٧/١)، وقال: قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (الأنعام ٩٠/١)، فأشار الى وجه النفي وهو أنه ذكرى للعالمين لا يختص ببعض دون بعض حتى يتخذ عليه الأجر.

وقال: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (الفرقان ٥٧/١)، ومعناه على ما مر في تفسير الآية: إلا أن يشاء أحد منكم أن يتخذ الى ربه سبيلا أى يستجيب دعوتى باختياره فهو أجرى أى لا شىء هناك وراء الدعوه أى لا أجر.

وقال تعالى في هذه السوره: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ» فجعل أجر رسالته الموده فى القربى، و من المتقين من مضامين سائر الآيات التى فى هذا المعنى أن هذه الموده أمر يرجع الى استجابته الدعوه إما استجابته كلها وإما استجابته بعضها الذى يهتم به و ظاهر الاستثناء على أى حال أنه متصل بدعوى كون الموده من الأجر و لا حاجه الى ما تمخّله بعضهم بتقريب الانقطاع فيه.

و أما معنى الموده فى القربى فقد اختلف فيه تفاسيرهم:

ف قيل -و نسب الى الجمهور- أن الخطاب لقريش و الأجر المسئول هو مودّتهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لقربته منهم و ذلك لأنهم كانوا يكذبونه و يبغضونه لتعرضه لآلهتهم على ما فى بعض الأخبار فامر صلى الله عليه وآله وسلم أن يسألهم: إن لم يؤمنوا به فليؤدوه لمكان قربته منهم و لا يبغضوه و لا يؤذوه فالقربى مصدر بمعنى القرباه، و فى اللسببيه.

و فيه أن معنى الأجر إنما يتم إذا قوبل به عمل يمتلكه معطى الأجر فيعطى العامل ما يعادل ما امتلكه من مال و نحوه فسؤال الأجر من قريش و هم كانوا مكذبين له كافرين بدعوته إنما

كان يصح على تقدير إيمانهم به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لأنهم على تقدير تكذيبه والكفر بدعوته لم يأخذوا منه شيئاً حتى يقابلوه بالأجر، وعلى تقدير الإيمان به-و النبوه أحد الاصول الثلاثة فى الدين-لا يتصور بغض حتى تجعل الموده اجرا للرساله و يسأل.

و بالجمله لا تحقق لمعنى الأجر على تقدير كفر المسئولين و لا تحقق لمعنى البغض على تقدير إيمانهم حتى يسألوا الموده.

و هذا الإشكال وارد حتى على تقدير أخذ الاستثناء منقطعاً فإن سؤال الأجر منهم على أى حال إنما يتصور على تقدير إيمانهم و الاستدراك على الانقطاع إنما هو عن الجمله بجميع قيودها فأجد التأمل فيه.

و قيل: المراد بالموده فى القربى ما تقدم و الخطاب للأنصار فقد قيل: إنهم أتوه بمال ليستعين به على ما نبوه فنزلت الآية فردّه، و قد كان له منهم قرابه من جهه سلمى بنت زيد النجارىه و من جهه أخوال أمه آمنه على ما قيل.

و فيه أن أمر الأنصار فى حبهم للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أوضح من أن يرتاب فيه ذو ريب و هم الذين سألوه أن يهاجر اليهم، و بؤءوا له الدار، و فدوه بالأنفس و الأموال و البنين و بذلوا كل جهدهم فى نصرته و حتى فى الإحسان على من هاجر اليهم من المؤمنين به، و قد مدحهم الله تعالى بمثل قوله: **وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَ لَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَ يُؤْتِرُونَ عَلَيْهِمْ أَنفُسِهِمْ وَ لَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ (الحشر ٩/١٠)**، و هذا مبلغ حبهم للمهاجرين اليهم لأجل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فما هو الظنّ فى حبهم له؟

و إذا كان هذا مبلغ حبهم فما معنى أن يؤمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يتوسل الى مودّتهم بقرابته منهم هذه القرابه البعيده؟

على أن العرب ما كانت تعتنى بالقرابه من جهه النساء ذاك الاعتناء و فيهم القائل:

بنونا بنو أبنائنا و بناتنا

بنوهنّ أبناء الرجال الأبعاد

ص: ٥٦٢

و القائل:

و إنما امهات الناس أوعيه

مستودعات و للأنساب آباء

و إنما هو الإسلام أدخل النساء في القرابه و ساوى بين أولاد البنين و أولاد البنات و قد تقدم الكلام في ذلك.

و قيل: الخطاب لقريش و المودّه في القربى هي المودّه بسبب القرابه غير أن المراد بها موده النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلّم لا موده قريش كما في الوجه الأول، و الاستثناء منقطع، و محصل المعنى: أنى لا أسألكم أجرا على ما أدعوكم اليه من الهدى الذى ينتهى بكم الى روضات الجنات و الخلود فيها و لا أطلب منكم جزاء لكن حبى لكم بسبب قرابتكم منى دفعنى الى أن أهديكم اليه و أدلكم عليه.

و فيه أنه لا يلائم ما يخده الله سبحانه له صَلَّى الله عليه و آله و سلّم في طريق الدعوه و الهدايه فإنه تعالى يسجل عليه في مواضع كثيره من كلامه أن الأمر في هدايه الناس الى الله و ليس له من الأمر شيء و أن ليس له أن يحزن لكفرهم و ردهم دعوته و إنما عليه البلاغ فلم يكن له أن يندفع الى هدايه أحد لحب قرابه أو يعرض عن هدايه آخرين لبغض أو كراهه و مع ذلك كله كيف يتصور أن يأمره الله بقوله: «قُلْ لَا أَشِئُكُمْ» الآية أن يخبر كفار قريش أنه إنما اندفع الى دعوتهم و هدايتهم بسبب حبه لهم لقرابتهم منه لا لأجر يسألهم إياه عليه.

و قيل: المراد بالموده في القربى موده الأقرباء و الخطاب لقريش أو لعامة الناس و المعنى: لا أسألكم على دعائى أجرا إلا أن تودوا أقرباءكم.

و فيه أن موده الأقرباء على إطلاقهم ليست مما يندب اليه في الإسلام قال تعالى: «لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَ آيَدَهُمْ بَرُوحٍ مِنْهُ (المجادله ٢٢)»، و سياق هذه الآية لا يلائم كونها مخصصه أو مقيدة لعموم قوله: «إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» أو

ص: ٥٦٣

إطلاقه حتى تكون الموده للأقرباء المؤمنين هي أجر الرسالة على أن هذه الموده الخاصه لا تلائم خطاب قريش أو عامه الناس.

بل الذى يفيد سباق الآيه أن الذى يندب اليه الإسلام هو الحب فى الله من غير أن يكون للقرايه خصوصيه فى ذلك، نعم هناك اهتمام شديد بأمر القرايه و الرحم لكنه بعنوان صله الرحم و إيتاء المال، على حبه ذوى القربى لا بعنوان موده القربى فلا حب إلا الله عز اسمه.

و لا- مساغ للقول بأن الموده فى القربى فى الآيه كناية عن صلتهم و الإحسان اليهم بإيتاء المال إذ ليس فى الكلام ما يدفع كون المراد هو المعنى الحقيقى غير الملائم لما ندب اليه الإسلام من الحب فى الله.

و قيل: معنى القربى هو التقرب الى الله، و الموده فى القربى هي التودد اليه تعالى بالطاعه و التقرب فالمعنى: لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تودوا اليه تعالى بالتقرب اليه.

و فيه أن فى قوله: «إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» على هذا المعنى إبهاما لا يصلح به أن يخاطب به المشركون فإن حاق مدلوله التودد اليه- أو وده تعالى- بالتقرب اليه و المشركون لا ينكرون ذلك بل يرون ما هم عليه من عباده الآلهه توددا اليه بالتقرب منه فهم القائلون على ما يحكيه القرآن عنهم: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى (الزمر ٢٣)، هُوَ لَأَشْفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ (يونس ١٨)

فسؤال التودد الى الله بالتقرب اليه من غير تقييده بكونه بعبادته وحده، و جعل ذلك أجرا مطلوبا ممن يرى شركه نوع تودد الى الله بالتقرب اليه، و خطابهم بذلك على ما فيه من الإبهام -و المقام مقام تمحيضه صلى الله عليه و آله و سلم نفسه فى دعوتهم الى دين التوحيد لا يسألهم لنفسه شيئا قط- مما لا يرتضيه الذوق السليم.

على أن المستعمل فى الآيه هو الموده دون التودد فالمراد بالموده حبهم لله فى التقرب اليه و لم يرد فى كلامه تعالى إطلاق الموده على حب العباد لله سبحانه و إن ورد العكس كما فى قوله: إِنَّ

رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (هود ٩٠/)، و قوله: وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (البروج ١٤/)، و لعل ذلك لما فى لفظ الموده من الإشعار بمراعاة حال المودود و تعاوده و تفقده، حتى قال بعضهم على ما حكاه الراغب- إن موده الله لعباده مراعاته لهم.

و الإشكال السابق على حاله و لو فسرت الموده فى القربى بمواده الناس بعضهم بعضا و محاببتهم فى التقرب الى الله بأن تكون القربات أسبابا للموده و الحب فيما بينهم فإن للمشركين ما يماثل ذلك فيما بينهم على ما يعتقدون.

و قيل: المراد بالموده فى القربى، موده قرابه النبي صلى الله عليه و آله و سلم و هم عترته من أهل بيته عليهم السلام و قد وردت به روايات من طرق أهل السنه و تكاثرت الأخبار من طرق الشيعة على تفسير الآية بمودتهم و موالاتهم، و يؤيده الأخبار المتواتره من طرق الفريقين على وجوب موالاته أهل البيت عليهم السلام و محبتهم.

ثم التأمل الكافى فى الروايات المتواتره الوارده من طرق الفريقين عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم المتضمنه لإرجاع الناس فى فهم كتاب الله بما فيه من اصول معارف الدين و فروعها و بيان حقائقه الى أهل البيت عليهم السلام كحديث الثقلين و حديث السفينه و غيرهما لا- يدع ريبا فى أن إيجاب مودتهم و جعلها أجرا للرساله إنما كان ذريعه الى إرجاع الناس اليهم فيما كان لهم من المرجعيه العلميه.

فالموده المفروضه على كونها أجرا للرساله لم تكن أمرا وراء الدعوه الدينيه من حيث بقائها و دوامها، فالآيه فى مؤداها لا تغاير مؤدى سائر الآيات النافيه لسؤال الأجر.

و يقول معناها الى أنى لا أسألكم عليه أجرا إلا أن الله لما أوجب عليكم موده عامه المؤمنين و من جملتهم قرابتي فإنى أحاسب مودتكم لقرابتي و أعدّها أجرا لرسالتي، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (مريم ٩٦/). و قال: وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ (التوبه ٧١/).

و بذلك يظهر فساد ما اورد على هذا الوجه أنه لا يناسب شأن النبوه لما فيه من التهمه فإن أكثر طلبه الدنيا يفعلون شيئا و يسألون عليه ما يكون فيه نفع لأولادهم و قراباتهم.

و أيضا فيه منافاه لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ (يوسف ١٠٤).

وجه الفساد أن إطلاق الأجر عليها و تسميتها به إنما هو بحسب الدعوى و أما بحسب الحقيقه فلا يزيد مدلول الآيه على ما يدل عليه الآيات الأخر النافيه لسؤال الأجر كما عرفت و ما فى ذلك من النفع عائد اليهم فلا مورد للتهمه.

على أن الآيه على هذا مدنيه خوطب بها المسلمون و ليس لهم أن يتهموا نبيهم المصون بعصمه إلهيه-بعد الإيمان به و تصديق عصمته-فيما يأتيهم به من ربهم و لو جاز اتهامهم له فى ذلك و كان ذلك غير مناسب لشأن النبوه لا يصلح لأن يخاطب به، لا طرد مثل ذلك فى خطابات كثيره قرآنيه كالأيات الداله على فرض طاعته المطلقه و الداله على كون الأنفال و الغنائم لله و لرسوله، و الداله على خمس ذوى القربى، و ما ابيح له فى أمر النساء و غير ذلك.

على أنه تعالى تعرض لهذه التهمه و دفعها فى قوله الآتى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ الآيه على ما سيأتى.

و هب أننا صرفنا الآيه عن هذا المعنى بحملها على غيره دفعا لما ذكر من التهمه فما هو الدافع لها عن الأخبار التى لا تحصى كثره الوارده من طرق الفريقين فى إيجاب موده أهل البيت عنه صلى الله عليه و آله و سلم؟

و أما منافاه هذه الوجه لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فقد اتضح بطلانه مما ذكرناه، و الآيه بقياس مدلولها الى الآيات النافيه لسؤال الأجر نظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (الفرقان ٥٧).

قال فى الكشف بعد اختياره هذا الوجه: فإن قلت: هلا قيل: إلا موده القربى أو إلا الموده للقربى، و ما معنى قوله: إلا الموده فى القربى؟

قلت: جعلوا مكانا للموده و مقرا لها كقولك: لى فى آل فلان موده، و لى فيهم هوى و حب شديد، تريد احبهم و هم مكان حبى و محله.

قال: و ليست فى بصله للموده كاللام إذا قلت: إلا- الموده للقربى. إنما هى متعلقه بمحذوف تعلق الطرف به فى قولك: المال فى الكيس، و تقديره: إلا الموده ثابتة فى القربى و متمكنه فيها.

انتهى.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسَيْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ الاقتراف الاكتساب، و الحسنه الفعله التى يرتضيها الله سبحانه و يثيب عليها، و حسن العمل ملاءمته لسعاده الإنسان و الغايه التى يقصدها كما أن مساءته و قبحه خلاف ذلك، و زياده حسنها إتمام ما نقص من جهاتها و إكماله و من ذلك الزياده فى ثوابها كما قال تعالى:

وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (العنكبوت ٧)، و قال: لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ (النور ٣٨).

و المعنى: و من يكتسب حسنه نزيد له فى تلك الحسنه حسنا- برفع نقائصها و زياده أجرها- إن الله غفور يمحو السيئات شكور يظهر محاسن العمل من عامله.

وقيل: المراد بالحسنه موده قربى النبى صلى الله عليه و آله و سلم و يؤيده ما فى روايات أئمه أهل البيت عليهم السلام أن قوله: «قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا» الى تمام أربع آيات نزلت فى موده قربى النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و لازم ذلك كون الآيات مدنيه و أنها ذات سياق واحد و أن المراد بالحسنه من حيث انطباقها على المورد هى الموده، و على هذا فالإشارة بقوله: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى» الخ؛ الى بعض ما تفوه به المنافقون ثقاقلا عن قبوله و فى المؤمنين سماعون لهم، و بقوله: «وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ» الى آخر الآيتين؛ الى توبه الراجعين منهم و قبولها.

و فى قوله: إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ التفات من التكلم الى الغيبه و الوجه فيه الإشارة الى عله الاتصاف بالمغفره و الشكر فإن المعنى: إن الله غفور شكور لأنه عز اسمه.

قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِلَى آخِرِ آيَةٍ أَمْ مَنْقُطَعَهُ، والكلام مسوق للتوبيخ و لازمه إنكار كونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ مفترياً على الله كذباً.

□
و قوله: فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ معناه على ما يعطيه السياق أنك لست مفترياً على الله كذباً فإنه ليس لك من الأمر شيء حتى تشاء الفريه فتأتى بها وإنما هو وحى من الله سبحانه من غير أن يكون لك فيه صنع و الأمر الى مشيئته تعالى فَإِنْ يَشَأِ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَ سَدَّ بَابَ الْوَحَى الْيَكِّ، لكنه شاء أن يوحى اليك و يبين الحق، و قد جرت سنّته أن يمحو الباطل و يحق الحق بكلماته.

□
فقوله: «فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ» كناية عن إرجاع الأمر الى مشيئه الله و تنزيهه لساحه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أن يأتي بشيء من عنده.

و هذا المعنى - كما سترى - أنسب للسياق بناء على كون المراد بالقربى قرابه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و التوبيخ متوجها الى المنافقين و مرضى القلوب.

□
و قوله: وَ يَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ: الإتيان بالمضارع - يمحو و يحق - للدلالة على الاستمرار، فمحو الباطل و إحقاق الحق بالكلمات سنّه جاريه له تعالى و المراد بالكلمات ما ينزل على الأنبياء من الوحي الإلهي و التكليم الربوبي و يمكن أن يكون المراد نفوس الأنبياء من حيث إنها مفصحه عن الضمير الغيبي.

□
و قوله: إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ تعليل لقوله: «وَ يَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ» الخ؛ أى إنه يمحو الباطل و يحق الحق بكلماته لأنه عليم بالقلوب و ما انطوت عليه فيعلم ما تستدعيه من هدى أو ضلال أو شرح أو ختم بإنزال الوحي و توجيه الدعوه.

□
قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَ يَغْفِرُ عَنِ السَّيِّئَاتِ وَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ يقال: قبل منه و قبل عنه قال فى الكشاف: يقال: قبلت منه الشيء و قبلته عنه فمعنى قبلته منه أخذته منه و جعلته مبدأ قبولى و منشأه، و معنى قبلته عنه عزلته و أبتته عنه.

انتهى.

و فى قوله: **وَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ** تحضيض على التوبه و تحذير عن اقتراقات السيئات و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: **وَ يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ الْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ** فاعل «يَسْتَجِيبُ» ضمير راجع اليه تعالى و «الَّذِينَ آمَنُوا» الخ؛ فى موضع المفعول بنزع الخافض و التقدير و يستجيب للذين آمنوا-على ما قيل- و قيل: فاعل «يَسْتَجِيبُ» هو «الَّذِينَ» و هو بعيد من السياق.

و الاستجابه إجابته الدعاء و لما كانت العباده دعوه له تعالى عبّر عن قبولها بالاستجابه لهم، و الدليل على هذا المعنى قوله: «وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» فإن ظاهره زياده الثواب و كذا مقابله استجابه المؤمنين بقوله: «وَ الْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ» .

بحث روائى:

فى المجمع روى زادن عن على عليه السلام قال: فىنا فى آل حم آيه لا يحفظ مودتنا إلا كل مؤمن.

ثم قرأ قل لا أسئلكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى .

قال الطبرسى: و إلى هذا أشار الكميت فى قوله:

وجدنا لكم فى آل حم آيه

تأولها منا تقى و مهرب

و فيه و صحّ عن الحسن بن على عليهما السلام أنه خطب الناس فقال فى خطبته: إنا من أهل البيت الذين افترض الله مودتهم على كل مسلم فقال: **قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى .**

و فى الكافى بإسناده عن عبد الله بن عجلان عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله تعالى: **«قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى»** قال: هم الأئمة.

أقول: والأخبار في هذا المعنى من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام كثيرة جدا مرويه عنهم.

و في الدر المشهور أخرج أحمد بن حميد و البخارى و مسلم و الترمذى و ابن جرير و ابن مردويه من طريق طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: «إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» فقال سعيد بن جبیر: هم قريبي آل محمد فقال ابن عباس: عجلت إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابه فقال: إلا أن تصلوا ما بينى و بينكم من القرابه.

أقول: و رواه أيضا عن ابن عباس بطرق أخرى غير هذا الطريق، و قد تقدم في بيان الآيه أن هذا المعنى غير مستقيم و لا منطبق على سياق الآيه، و من العجيب ما في بعض هذه الطرق أن الآيه منسوخه بقوله تعالى: قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ .

و فيه أخرج أبو نعيم و الديلمي من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ: لا أسألكم عليه أجرا إلا الموده في القربى أن تحفظوني في أهل بيتي و تودوهم لى.

و فيه أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآيه: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» قالوا: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت مودتهم قال: على و فاطمه و ولداها.

أقول: و رواه الطبرسى في المجمع و فيها «و ولداها» مكان «و ولداها».

و فيه أخرج ابن جرير عن أبى الديلم قال: لما جىء بعلى بن الحسين أسيرا فأقيم على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذى قتلكم و استأصلكم فقال له على بن الحسين: أقرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: أقرأت آل حم؟ قال: نعم قال: أما قرأت «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى»؟ قال: فإنكم لأنتم هم؟ قال: نعم.

و فيه أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس «و مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً» قال: الموده لآل محمد.

أقول: وروى ما فى معناه فى الكافى بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبى جعفر عليه السلام.

وفى تفسير القمى حدثنى أبى عن ابن أبى نجران عن عاصم بن حميد عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول فى قول الله عزّ وجل: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» يعنى فى أهل بيته.

قال: جاءت الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: إنا قد آوينا ونصرنا فخذ طائفه من أموالنا فاستعن بها على ما نابك فأنزل الله عزّ وجل «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» أى فى أهل بيته.

ثم قال: أ لا ترى أن الرجل يكون له صديق وفى نفس ذلك الرجل شىء على أهل بيته فلا يسلم صدره فأراد الله عزّ وجل أن لا يكون فى نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شىء على أمته ففرض الله عليهم الموده فى القربى فإن أخذوا أخذوا مفروضا، وإن تركوا تركوا مفروضا.

قال: فانصرفوا من عنده وبعضهم يقول: عرضنا عليه أموالنا فقال: لا. قاتلوا عن أهل بيتى من بعدى، وقال طائفه: ما قال هذا رسول الله و جحدوه وقالوا كما حكى الله عزّ وجل:

«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا» فقال عزّ وجل: «فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ» قال: لو افترت «وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ» يعنى يبطله «وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ» يعنى بالأئمه والقائم من آل محمد عليهم السلام إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

أقول: وروى قصه الأنصار السيوطى فى الدر المنثور عن الطبرانى وابن مردويه من طريق ابن جبير و ضعفه.

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٢٧ الى ٥٠]

وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْعَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسِقِّنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفَى عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٥) فَمَا أوتيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجِزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنْ اتَّصَرَ بِعَيْدٍ ظَلَمَهُ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَليٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأُوا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى اللَّهِ مَرَدٌّ مِنْ سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (٤٦) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ

أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا أَنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِذَا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (٤٨) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)

قوله تعالى: «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَعَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزَّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ» القدر مقابل البسط معناه التضييق و منه قوله السابق: «يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ» و القدر بفتح الدال و سكونها كميته الشيء و هندسته و منه قوله: «وَلَكِنْ يُنَزَّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ» أو جعل الشيء على كميته معينه و منه قوله: فَقَدَرْنَا فَنَعَمَ الْقَادِرُونَ (المرسلات ٢٣).

و البغى الظلم، و قوله: «بِعِبَادِهِ» من وضع الظاهر موضع الضمير، و النكته فيه الإشاره الى بيان كونه خيرا بصيرا بهم و ذلك أنهم عباده المخلوقون له القائمون به فلا يكونون محجوبين عنه مجهولين له، و كذا قوله السابق: «لِعِبَادِهِ» لا يخلو من إشاره الى بيان إيتاء الرزق و ذلك أنهم عباده و رزق العبد على مولاه.

و معنى الآية: و لو وسَّع الله الرزق على عباده فأشبع الجميع بإيتائه لظلموا في الأرض-لما أن من طبع سعه المال الأشر و البطر و الاستكبار و الطغيان كما قال تعالى: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ» (العلق ١٧)-و لكن ينزل ما يشاء من الرزق بقدر و كميته معينه إنه بعباده خبير بصير فيعلم ما يستحقه كل عبد و ما يصلحه من غنى أو فقر فيؤتاه ذلك.

ففى قوله: وَ لَكِنْ يُنَزَّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ بِيَانٍ لِّلسَّنَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِى إِيْتَاءِ الرِّزْقِ بِالنَّظَرِ إِلَى صِلَاحِ حَالِ النَّاسِ أَى إِنْ لَصِلَاحِ حَالِهِمْ أَثَرًا فِى تَقْدِيرِ أَرْزَاقِهِمْ، وَ لَا يَنَافِى ذَلِكَ مَا نَشَاهَدُ مِنْ طُغْيَانِ بَعْضِ الْمُثْرِينَ وَ نَمَاءِ رِزْقِهِمْ عَلَى ذَلِكَ فَإِنْ هُنَاكَ سَنَةٌ أُخْرَى حَاكِمَةٌ عَلَى هَذِهِ السَّنَةِ وَ هِىَ سَنَةُ الْإِبْتِلَاءِ وَ الْإِمْتِحَانِ، قَالَ تَعَالَى: إِنََّّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ (التَّغَابُنُ ١٥/)، وَ سَنَةٌ أُخْرَى هِىَ سَنَةُ الْمَكْرِ وَ الْإِسْتِدْرَاجِ، قَالَ تَعَالَى: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (الأَعْرَافُ ١٨٣/).

فَسَنَةُ الْإِصْلَاحِ بِتَقْدِيرِ الرِّزْقِ سَنَةٌ ابْتِدَائِيَّةٌ يَصْلُحُ بِهَا حَالُ الْإِنْسَانِ إِلَّا أَنْ يَمْتَحِنَهُ اللَّهُ كَمَا قَالَ: وَ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيَمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ (آلِ عِمْرَانَ ١٥٤/). أَوْ يَغْيِرُ النِّعْمَةَ وَ يَكْفُرُ بِهَا فَيَغْيِرُ اللَّهُ فِى حَقِّهِ سَنَتَهُ فَيُعْطِيهِ مَا يَطْغِيهِ، قَالَ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْيِرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغْيِرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (الرَّعْدُ ١١/).

وَ كَمَا أَنَّ إِيْتَاءَ الْمَالِ وَ الْبَنِينَ وَ سَائِرَ النِّعَمِ الصُّورِيَّةِ مِنَ الرِّزْقِ الْمَقْسُومِ كَذَلِكَ الْمَعَارِفِ الْحَقِّقَةِ وَ الشَّرَائِعِ السَّمَاوِيَّةِ الْمُنْتَهِيَةِ إِلَى الْوَحْيِ مِنْ حَيْثُ إِنْزَالِهَا وَ مِنْ حَيْثُ الْإِبْتِلَاءُ بِهَا وَ التَّلَبُّسُ بِالْعَمَلِ بِهَا مِنَ الرِّزْقِ الْمَقْسُومِ.

فَلَوْ نَزَلَتْ الْمَعَارِفُ وَ الْأَحْكَامُ عَنْ آخِرِهَا دَفْعُهُ وَاحِدَةً -عَلَى مَا لَهَا مِنَ الْإِحَاطَةِ وَ الشَّمُولِ لِجَمِيعِ شُؤْنِ الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ- لَشَقَّتْ عَلَى النَّاسِ وَ لَمْ يُؤْمَرْ بِهَا إِلَّا الْأَوْحَادِ مِنْهُمْ لَكِنَّ اللَّهَ سَبِّحَانَهُ أَنْزَلَهَا عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ تَدْرِيجًا وَ عَلَى مَكْثٍ وَ هَيْئًا بِذَلِكَ النَّاسِ بِقَبُولِ بَعْضِهَا لِقَبُولِ بَعْضٍ، قَالَ تَعَالَى: وَ قُرْآنًا فَرَقْنَا لِتَفْقَاهَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ (الْإِسْرَاءُ ١٠٦/).

وَ كَذَا الْمَعَارِفِ الْعَالِيَةِ الَّتِي هِىَ فِى بَطُونِ الْمَعَارِفِ السَّادِجَةِ الدِّينِيَّةِ لَوْ لَمْ يَضْرِبْ عَلَيْهَا بِالْحِجَابِ وَ بَيَّنَّتْ لِعَامَّةِ النَّاسِ عَلَى حَدِّ الظُّوَاهِرِ الْمُبِينِ لَهُمْ لَمْ يَتَحَمَلُوهَا وَ دَفَعَتْهُ أَفْهَامُهُمْ إِلَّا الْأَوْحَادِ مِنْهُمْ لَكِنَّ اللَّهَ سَبِّحَانَهُ كَلَّمَهُمْ فِى ذَلِكَ نَوْعِ تَكْلِيمٍ يَسْتَفِيدُ مِنْهُ كُلُّ عَلَى قَدَرِ فَهْمِهِ

و سعه صدره كما قال في مثل ضربه في ذلك: أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا (الرعد ١٧).

و كذلك الأحكام و التكاليف الشرعيه لو كلف بجميعها جميع الناس لتحرّجوا منها و لم يتحمّلوها لكنه سبحانه قسّمها بينهم حسب تقسيم الابتلاءات المقتضيه لتوجه التكاليف المتنوعه بينهم.

فالرزق بالمعارف و الشرائع من أى جهه فرض كالرزق الصورى مفروز بين الناس مقدّر على حسب صلاح حالهم.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ القنوط اليأس، و الغيث المطر، قال فى مجمع البيان: الغيث ما كان نافعا فى وقته، و المطر قد يكون نافعا و قد يكون ضارا فى وقته و غير وقته. انتهى. و نشر الرحمة تفريق النعمه بين الناس بإنبات النبات و إخراج الثمار التى يكون سببها المطر.

و فى الآيه انتقال من حديث الرزق الى آيات التوحيد التى لها تعلق ما بالأرزاق، و يتلوها فى هذا المعنى آيات، و تذييل الآيه بالاسمين: الولي الحميد و هما من أسمائه تعالى الحسنى للثناء عليه فى فعله الجميل.

قوله تعالى: وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ السخ؛ البث التفريق، و يقال: بثّ الريح التراب إذا أثاره، و الدابه كل ما يدبّ على الأرض فيعمّ الحيوانات جميعا، و المعنى ظاهر.

و ظاهر الآيه أن فى السموات خلقا من الدواب كالأرض، و قول بعضهم: إنما فى السموات من دابه هى الملائكه يدفعه أن إطلاق الدواب على الملائكه غير معهود.

و قوله: وَ هُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ إشاره الى حشر ما بثّ فيهما من دابه و قد عبّر بالجمع لمقابلته البث الذى هو التفريق، و لا دلالة فى قوله: «عَلَىٰ جَمْعِهِمْ» حيث أتى

بضمير أولى العقل على كون ما فى السموات من الدواب أولى عقل كالإنسان لقوله تعالى:

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ تُنَمُّ إِلَيْهِ رَبَّهُمْ يُحْشَرُونَ
(الأنعام ٣٨).

و القدير من أسمائه تعالى الحسنى و هو الذى أركزت فيه قدره و ثبتت، قال الراغب:

القدره إذا وصف بها الإنسان فاسم لهيئه له بها يتمكن من فعل شىء ما، و إذا وصف الله بها فهى نفى العجز عنه، و محال أن يوصف غير الله بالقدره المطلقه معنى و إن أطلق عليه لفظا بل حقه أن يقال: قادر على كذا، و متى قيل: هو قادر فعلى سبيل معنى التقييد، و لهذا لا أحد غير الله يوصف بالقدره من وجه إلا و يصح أن يوصف بالعجز من وجه و الله تعالى هو الذى ينتفى عنه العجز من كل وجه.

و القدير هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضى الحكمة لا زائدا عليه و لا ناقصا عنه و لذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله تعالى قال: «إنه على ما يشاء قدير»، و المقتدر يقاربه نحو «عِنْدَ مَلِيكَ مُقْتَدِرٍ» لكن قد يوصف به البشر، و إذا استعمل فى الله فمعناه معنى القدير و إذا استعمل فى البشر فمعناه المتكلف و المكتسب للقدره، انتهى.

و هو حسن غير أن فى قوله: إن القدره إذا وصف بها الله فهى نفى العجز عنه مساهله ظاهره فإن صفاته تعالى الذاتيه كالحياه و العلم و القدره لها معان إيجابيه هى عين الذات لا معان سلبيه حتى تكون الحياه بمعنى انتفاء الموت و العلم بمعنى انتفاء الجهل و القدره بمعنى انتفاء العجز على ما يقوله الصابئون و لازمه خلؤ الذات عن صفات الكمال.

فالحق أن معنى قدرته تعالى كونه بحيث يفعل ما يشاء، و لازم هذا المعنى الإيجابى انتفاء مطلق العجز عنه تعالى.

قوله تعالى: وَ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ الْمُصِيبَةُ النَّائِبَةُ تَصِيبُ الْإِنْسَانَ كَأَنَّهَا تَقْصِدُهُ، و المراد بما كسبت أيديكم المعاصى

و السيئات، وقوله: «وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ» أى عن كثير مما كسبت أيديكم و هى السيئات.

و الخطاب فى الآيه اجتماعى موجّه الى المجتمع غير منحلّ الى خطابات جزئيه و لازمه كون المراد بالمصيبه التى تصيبهم المصائب العامه الشامله كالفحط و الغلاء و الوباء و الزلازل و غير ذلك.

فيكون المراد أن المصائب و النوائب التى تصيب مجتمعكم و يصابون بها إنما تصيبكم بسبب معاصيكم و الله يصفح عن كثير منها فلا يأخذ بها.

فالآيه فى معنى قوله تعالى: **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَحْرِ وَ الْبَحْرُ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** (الروم ٤١)، وقوله: **وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ لَكِن كَذَّبُوا** (الأعراف ٩٦)، و قوله: **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** (الرعد ١١)، و غير ذلك من الآيات الداله على أن بين أعمال الإنسان و بين النظام الكونى ارتباطا خاصا فلو جرى المجتمع الإنسانى على ما يقتضيه الفطره من الاعتقاد و العمل لنزلت عليه الخيرات و فتحت عليه البركات و لو أفسدوا أفسد عليهم.

هذا ما تقتضيه هذه السنه الإلهيه إلا أن ترد عليه سنه الابتلاء أو سنه الاستدراج و الإملاء فينقلب الأمر، قال تعالى: **ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَ قَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ فَآخَذْنَاهُم بِعَثَّةٍ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ** (الأعراف ٩٥).

و يمكن أن يكون الخطاب فى الآيه عامًا منحلًا الى خطابات الأفراد فيكون ما يصاب كل إنسان بمصيبه فى نفسه أو ماله أو ولده أو عرضه و ما يتعلق به مستندا الى معصيه أتى بها و سيئه عملها و يعفو الله عن كثير منها.

و كيف كان فالخطاب فى الآيه لعامه الناس من المؤمن و الكافر و هو الذى يفيد السياق و تؤيده الآيه التاليه هذا أولا، و المراد بما كسبته الأيدي المعاصى و السيئات دون مطلق

الأعمال، وهذا ثانياً، والمصائب التي تصيب إنما هي آثار الأعمال في الدنيا لما بين الأعمال و بينها من الارتباط و التداعى دون جزاء الأعمال و هذا ثالثاً.

قوله تعالى: وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ، معنى الآية ظاهر و هى باتصالها بما قبلها تفيد أنكم لا تعجزون الله حتى لا تصيبكم المصائب لذنوبكم و ليس لكم من دونه من ولى يتولى أمركم فيدفع عنكم المصائب و لا نصير ينصركم و يعينكم على دفعها.

قوله تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ، الجوارى جمع جاريه و هى السفينه، و الأعلام جمع علم و هو العلامه و يسمى به الجبل و شبهت السفائن بالجمال لعظمها و ارتفاعها و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: إِنَّ يَشَأُ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ الخ؛ ضمير «يَشَأُ» لله تعالى، و ظل بمعنى صار، و «رَوَاكِدَ» جمع راكمه و هى الثالثه فى محلها و المعنى: إن يشأ الله يسكن الريح التى تجرى بها الجوارى فيصرن أى الجوارى ثوابت على ظهر البحر.

و قوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أصل الصبر الحبس و أصل الشكر إظهار نعمه المنعم بقول أو فعل، و المعنى: إن فيما ذكر من أمر الجوارى من كونها جاريه على ظهر البحر بسبب جريان الرياح ناقله للناس و أمتعتهم من ساحل الى ساحل لآيات لكل من حبس نفسه عن الاشتغال بما لا يعينه و اشتغل بالتفكر فى نعمه و التفكير فى النعمه من الشكر.

وقيل: المراد بكل صَبَّارٍ شكور المؤمن لأن المؤمن لا يخلو من أن يكون فى الضراء أو فى السراء فإن كان فى الضراء كان من الصابرين و إن كان فى السراء كان من الشاكرين.

قوله تعالى: أَوْ يُوبِقَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ الإيلاق الإهلاك، و ضمير التأنيث للجوارى و ضمير التذكير للناس، و يوبقهن و يعف معطوفات على «يُسْكِنُ»،

و المعنى: إن يشأ يهلك الجوارى بإغراقها بسبب ما كسبوا من السيئات و يعف عن كثير منها أى إن بعضها كاف فى اقتضاء الإهلاك و إن عفى عن كثير منها.

قوله تعالى: وَ يَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ قِيلَ:

هو غايه معطوفه على اخرى محذوفه، و التقدير نحو من قولنا: ليظهر به قدرته و يعلم الذين يجادلون فى آياتنا ما لهم من مفر و لا مخلص، و هذا كثير الورد فى القرآن الكريم غير أن المعطوف فيما ورد فيه مقارن للام الغايه كقوله: وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا (آل عمران / ١٤٠).

و قوله: وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (الأنعام / ٧٥).

و جواز بعضهم أن يكون معطوفا على جزاء الشرط بتقدير أن نحو إن جئتنى أكرمك و أعطيك كذا و كذا بنصب أعطيك، و المسأله نحويه خلافيه فليرجع الى ما ذكره فيه.

قوله تعالى: فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الخ؛ تفصيل لما تقدم ذكره من الرزق و تقسيم له الى ما عند الناس من رزق الدنيا الشامل للمؤمن و الكافر و ما عند الله من رزق الآخرة المختص بالمؤمنين، و فيه تخلص الى ذكر صفات المؤمنين و ذكر بعض ما يلقاه الظالمون يوم القيامة.

فقوله: فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الخطاب للناس على ما يفيد السباق دون المشركين خاصه، و المراد بما أُوتيتم من شىء جميع ما أعطيه للناس و رزقه من النعيم، و إضافه المتاع الى الحياه للإشاره الى انقطاعه و عدم ثباته و دوامه، و المعنى: فكل شىء أعطيتموه مما عندكم متاع تتمتعون به فى أيام قلائل.

و قوله: وَ مِمَّا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ المراد بما عند الله ما ادخره الله ثوابا ليثيب به المؤمنين، و اللام فى «لِلَّذِينَ آمَنُوا» للملك و الظرف لغو، و قيل اللام متعلق بقوله: «أَبْقَى» و الأول أظهر، و كون ما عند الله خيرا لكونه

خالصا من الألم و الكدر و كونه أبقى لكونه أدوم غير منقطع الآخر.

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ عطف على قوله: «لِلَّذِينَ آمَنُوا» والآيه و آيتان بعدها تعدّ صفات المؤمنين الحسنه و قول بعضهم أنه كلام مستأنف لا يساعد عليه السياق.

و كبائر الإثم المعاصى الكبيره التى لها آثار سوء عظيمه و قد عدّ تعالى منها شرب الخمر و الميسر، قال تعالى: «قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ» (البقره ٢١٩)، و الفواحش جمع فاحشه و هى المعصيه الشنيعه النكراء و قد عدّ تعالى منها الزنا و اللواط قال: «وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً» (الإسراء ٣٢)، و قال حاكيا عن لوط: «أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» (النمل ٥٤).

و قوله: يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ و هو فى سوره مكيه إشاره الى إجمال ما سيفصل من تشريع تحريم كبائر المعاصى و الفواحش.

و فى قوله: «وَ إِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ» إشاره الى العفو عند الغضب و هو من أخصّ صفات المؤمنين و لذا عبّر عنه بما عبّر و لم يقل: و يغفرون إذا غضبوا ففى الكلام جهات من التأكيد و ليس قصرا للمغفره عند الغضب فيهم.

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ الْخ»؛ الاستجابه هى الإجابه و استجابتهم لربهم إجابتهم لما يكلفهم به من الأعمال الصالحه-على ما يفيد السيق-و ذكر إقامه الصلاه بعدها من قبيل ذكر الخاص بعد العام لشرفه.

على أن الظاهر أن الآيات مكيه و لم يشرّع يومئذ أمثال الزكاه و الخمس و الصوم و الجهاد، و فى قوله: «وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ» من الإشاره الى إجمال الأعمال الصالحه المشرّعه نظير ما تقدّم فى قوله: «وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ» الخ؛ و نظير الكلام جار فى الآيات التاليه.

و قوله: «وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ» قال الراغب: و التشاور و المشاوره و المشوره

استخراج الرأى بمراجعته البعض الى البعض من قولهم: شرت العسل إذا أخذته من موضعه و استخرجته منه، قال تعالى: «و شاورهم فى الأمر» و الشورى الأمر الذى يتشاور فيه، قال تعالى: «و أمرهم شورى بينهم» انتهى. فالمعنى: الأمر الذى يعزمون عليه شورى بينهم يتشاورون فيه، و يظهر من بعضهم أنه مصدر، و المعنى: و شأنهم المشاوره بينهم.

و كيف كان ففيه إشاره الى أنهم أهل الرشد و إصابه الواقع يمعنون فى استخراج صواب الرأى بمراجعته العقول فالآيه قريبه المعنى من قول الله تعالى: الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ (الزمر ١٨).

و قوله: «و مما رزقناهم يُنْفِقُونَ» إشاره الى بذل المال لمرضات الله.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ قال الراغب: الانتصار و الاستنصار طلب النصره. انتهى. فالمعنى: الذين إذا أصاب الظلم بعضهم طلب النصره من الآخرين و إذا كانوا متفقين على الحق كنفس واحده فكأن الظلم أصاب جميعهم فطلبوا المقاومه قبله و أعدوا عليه النصره.

و عن بعضهم أن الانتصار بمعنى التناصر نظير اختصم و تخاصم و استبق و تسابق و المعنى عليه ظاهر.

و كيف كان فالمراد مقاومتهم لرفع الظلم فلا ينافى المغفره عند الغضب المذكوره فى جمله صفاتهم فإن المقاومه دون الظلم و سد بابه عن المجتمع لمن استطاعه و الانتصار و التناصر لأجله من الواجبات الفطريه، قال تعالى: وَ إِنِ اسْتَنْصَيْتُمُوهُمْ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ (الأنفال ٧٢)، و قال: فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ (الحجرات ٩).

قوله تعالى: وَ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا الى آخر الآيه بيان لما جعل للمنتصر فى انتصاره و هو أن يقابل الباغى بما يماثل فعله و ليس بظلم و بغى.

قيل: و سمي الثانيه و هى ما يأتى بها المنتصر سيئه لأنها فى مقابله الاولى كما قال تعالى:

فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ (البقره ١٩٤/١)، وقال الزمخشري: كلتا الفعلتين: الاولى و جزاؤها سيئه لأنها تسوء من تنزل به ففيه رعايه لتحقيقه معنى اللفظ و إشاره الى أن مجازاه السيئه بمثلها إنما تحمد بشرط المماثله من غير زياده.

و قوله: فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَعَدَّ جَمِيلٌ عَلَى الْعَفْوِ وَالْإِصْلَاحِ، و الظاهر أن المراد بالإصلاح إصلاحه أمره فيما بينه و بين ربه، و قيل: المراد إصلاحه ما بينه و بين ظالمه بالعفو و الإغضاء.

و قوله: إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ قيل: فيه بيان أنه تعالى لم يرغب المظلوم في العفو عن الظالم لميله الى الظالم أو لوجه إياه و لكن ليعرض المظلوم بذلك لجزيل الثواب، و لوجه تعالى الإحسان و الفضل.

قوله تعالى: وَ لَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَاتَ عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ -الى قوله- لَمَنْ عَزَمِ الْأُمُورِ ضَمِيرٌ «ظُلْمِهِ» راجع الى المظلوم، و الإيضافه من إضافه المصدر الى مفعوله.

الآيات الثلاث تبين و رفع لبس من قوله في الآيه السابقه: «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ» فمن الجائز أن يتوهم المظلوم أن في ذلك إلغاء لحق انتصاره فبين سبحانه بقوله أولاً:

«وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَاتَ عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ» أن لا سبيل على المظلومين و لا مجوز لإبطال حقهم في الشرع الإلهي، و إرجاع ضمير الأفراد الى الموصول أولاً باعتبار لفظه، و ضمير الجمع ثانيا باعتبار معناه.

و بين بقوله ثانيا: إِنَّمَّا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلُمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أَنَّ السَّبِيلَ كُلَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ في الانتقام منهم للمظلومين، و أكد ذلك ذيلاً بقوله: أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

و بين بقوله ثالثاً: وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ عَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ الْأُمُورِ أن الدعوه الى

الصبر و العفو ليست إبطالا لحق الانتصار و إنما هي إرشاد الى فضيله هي من أعظم الفضائل فإن في المغفرة الصبر الذى هو من عزم الامور، وقد أكد الكلام بلام القسم أولا و باللام فى خبر إن ثانيا لإفاده العناية بمضمونه.

قوله تعالى: **وَ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ** الخ؛ لما ذكر المؤمنين بأوصافهم و أنّ لهم عند الله رزقهم المدخر لهم و فيه سعاده عقباهم التى هداهم الله إليها التفت الى غيرهم و هم الظالمون الآيسون من تلك الهدايه الموصله الى السعاده المحرومون من هذا الرزق الكريم فيبين أن الله سبحانه أضلهم لكفرهم و تكذيبهم فلا ينتهون الى ما عنده من الرزق و لا يسعدهم به و ليس لهم من دونه من ولى حتى يتولى أمرهم و يرزقهم ما حرّمهم الله من الرزق، فهم صفر الأ-كف يتمنون عند مشاهدته العذاب الرجوع الى الدنيا ليعملوا صالحا فيكونوا أمثال المؤمنين.

فقوله: **وَ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ** الخ؛ من قبيل وضع السبب و هو إضلال الله لهم و عدم ولى آخر يتولى أمرهم فيهديهم و يرزقهم موضع المسبب و هو الهدايه و الرزق.

و قوله: **«و تَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَيْلًا إِلَيْنَا مَرَدًّا مِنْ سَبِيلٍ»** إشاره الى تمنيههم الرجوع الى الدنيا بعد اليأس عن السعاده و مشاهدته العذاب.

و تَرَى خطاب عام وجه الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بما أنه راء و معناه و ترى و يرى كل من هو راء، و فيه إشاره الى أنهم يتمنون ذلك على رءوس الأشهاد، و المرد هو الرد.

قوله تعالى: **وَ تَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ضَمِيرٍ «عَلَيْهَا»** للنار للدلاله المقام عليها و خفى الطرف ضعيفه و إنما ينظر من طرف خفى. الى المكاره المهوله من ابتلى بها فهو لا يريد أن ينصرف فيغفل عنها و لا يجترئ أن يمتلى بها بصره كالمبصور ينظر الى السيف، و الباقي ظاهر.

و قوله: **وَ قَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ**

يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيُّ إِنَّ الْخَاسِرِينَ كُلَّ الْخَسِرَانِ وَ بِحَقِيقَتِهِ هُمُ الَّذِينَ خَسَرُوا أَنفُسَهُمْ بِحِرْمَانِهَا عَنِ النَّجَاةِ وَ أَهْلِيهِمْ بِعَدَمِ الْإِنْتِفَاعِ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَ قِيلَ أَهْلُوهُمْ أَزْوَاجُهُمْ مِنَ الْحُورِ وَ خَدَمُهُمْ فِي الْجَنَّةِ لَوْ آمَنُوا وَ لَا يَخْلُو مِنْ وَجْهِ نَظَرِ الْآيَاتِ وَرَاثَةِ الْجَنَّةِ.

وَ هَذَا الْقَوْلُ الْمُنْسُوبُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا يَقُولُونَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - وَ التَّعْبِيرُ بِلَفْظِ الْمَاضِي لِتَحَقُّقِ الْوَقْعِ - لَا فِي الدُّنْيَا كَمَا يَظْهَرُ مِنْ بَعْضِهِمْ فَلَيْسَ لِاسْتِنَادِهِ تَعَالَى إِلَى مَقَالَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَجْهٌ فِي مِثْلِ الْمَقَامِ، وَ لَيْسَ الْقَائِلُونَ بِهِ جَمِيعُ الْمُؤْمِنِينَ كَانَتَيْنِ مِنْ كَانُوا وَ إِنَّمَا هُمُ الْكَامِلُونَ مِنْهُمْ الْمَأْذُونُ لَهُمْ فِي الْكَلَامِ النَّاطِقُونَ بِالْصَّوَابِ مُحْضًا كَأَصْحَابِ الْأَعْرَافِ وَ شُهَدَاءِ الْأَعْمَالِ قَالَ تَعَالَى: يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ (هُود ١٠٥). وَ قَالَ: لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ وَ قَالَ صَوَابًا (النَّبَأُ ٣٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ الْخ؛ هَذَا التَّعْبِيرُ أَعْنَى قَوْلِهِ: «وَ مَا كَانَ لَهُمْ» الْخ؛ دُونَ أَنْ يُقَالَ: وَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ كَمَا قِيلَ أَوْلًا لِلدَّلَالَةِ عَلَى ظَهْرِ بَطْلَانِ دَعْوَاهُمْ وَ لِيَاةِ أَوْلِيائِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَ أَنْ ذَلِكَ كَانَ بَاطِلًا مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ.

وَ قَوْلُهُ: وَ مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ صَالِحٍ لِتَعْلِيلِ صَدْرِ الْآيَةِ وَ هُوَ كَالنَّتِيجَةِ لِجَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْكَلَامِ فِي حَالِ الظَّالِمِينَ فِي عِقَابِهِمْ، وَ نَوْعِ انْعِطَافِ إِلَى مَا سَبَقَ مِنْ حَدِيثِ تَشْرِيعِ الشَّرِيعَةِ وَ السَّبِيلِ بِالْوَحْيِ.

فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى السَّعَادَةِ إِلَّا سَبِيلَ اللَّهِ الَّذِي شَرَعَهُ لِعِبَادَتِهِ مِنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ وَ الرِّسَالَةِ فَمَنْ أَضَلَّهُ عَنْ سَبِيلِهِ لِكُفْرِهِ وَ تَكْذِيبِهِ بِسَبِيلِهِ فَلَا سَبِيلَ لَهُ يَهْتَدِي بِهِ إِلَى سَعَادَةِ الْعَقْبِيِّ وَ التَّخَلُّصِ مِنَ الْعَذَابِ وَ الْهَلَاكِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: إِسْتَجِيبُوا لِرَبُّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ دَعْوَهُ وَ إِذْكَارَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ الْمَذْكَورِ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ عَلَى مَا يَعْطِيهِ السِّيَاقُ، وَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: إِنَّ الْمَرَادَ بِالْيَوْمِ يَوْمَ الْمَوْتِ غَيْرَ وَجْهِهِ.

و فى قوله: «لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ» (لَا) لطفى الجنس و «مَرَدَّ» اسمه و «لَهُ» خبره و «مِنَ اللَّهِ» حال من «مَرَدَّ»، و المعنى: يوم لا رد له من قبل الله أى إنه مقضى محتوم لا يردّه الله البتة فهو فى معنى ما تكرر فى كلامه تعالى من وصف يوم القيامة بأنه لا ريب فيه.

و قوله: مَا لَكُمْ مِنْ مَلْحٍ يَوْمَئِذٍ و مَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ الملجأ الملاذ الذى يلتجأ اليه و النكير- كما قيل- مصدر بمعنى الإنكار، و المعنى: ما لكم من ملاذ تلتجئون اليه من الله و ما لكم من إنكار لما صدر منكم لظهور الأمر من كل جهه.

قوله تعالى: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ عدول من خطابهم الى خطاب النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم لإعلام أن ما حمّله من الأمر إنما هو التبليغ لا أزيد من ذلك فقد أرسل مبلغا لدين الله إن عليه إلا البلاغ و لم يرسل حفيظا عليهم مسئولا عن إيمانهم و طاعتهم حتى يمنعهم عن الإعراض و يتعب نفسه لإقبالهم عليه.

قوله تعالى: وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ بالرحمه كناية عن الاشتغال بالنعمة و نسيان المنعم، و المراد بالسئته المصيبه التى تسوء الإنسان إذا أصابته، و قوله: «فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ» من وضع الظاهر موضع الضمير، و النكته فيه تسجيل الذمّ و اللوم عليه بذكره باسمه.

و فى الآيه استشعار بإعراضهم و توبيخهم بعنوان الإنسان المشتغل بالدنيا فإنه بطبعه حليف الغفله إن ذكر بنعمه يؤتاها صرفه الفرح بها عن ذكر الله، و إن ذكر بسئته تصيبه بما قدّمت يدها شغله الكفران عن ذكر ربه فهو فى غفله عن ذكر ربه فى نعمه كانت أو فى نقمه فكاد أن لا تنجح فيه دعوه و لا تنفع فيه موعظه.

قوله تعالى: لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ، للآيتين نوع اتصال بما تقدم من حديث الرزق لما أن الأولاد المذكورين فيهما من قبيل الرزق.

وقيل: إنهما متصلتان بالآية السابقة حيث ذكر فيها إذاقه الرحمه وإصابه السيئه وأن الإنسان يفرح بالرحمه و يكفر في السيئه فذكر تعالى في هاتين الآيتين أن ملك السماوات والأرض لله سبحانه يخلق ما يشاء فليس لمن يذوق رحمته أن يفرح بها و يشتغل به و لا لمن أصابته السيئه أن يكفر و يعترض بل له الخلق و الأمر فعلى المرحوم أن يشكر و على المصاب أن يرجع إليه.

و يبعده أنه تعالى لم ينسب السيئه في الآية السابقة الى نفسه بل الى تقديم أيديهم فلا يناسبه نسبه القسامين جميعا في هذه الآية الى مشيئته و دعوتهم الى التسليم لها.

و كيف كان فقوله: «لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ» فيه قصر الملك و السلطنه فيه تعالى على جميع العالم و أن الخلق منوط بمشيئته من غير أن يكون هناك أمر يوجب عليه المشيه أو يضطره على الخلق.

و قوله: يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ الْإِنَاثَ جمع أنثى و الذكور و الذكران جمعا ذكر، و ظاهر التقابل أن المراد هبه الإناث فقط لمن يشاء و هبه الذكور فقط لمن يشاء و لذلك كررت المشيه، قيل: وجه تعريف الذكور أنهم المطلوبون لهم المعهودون في أذهانهم و خاصه العرب.

و قوله: أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَ إِنَاثًا أى يجمع بينهم حال كونهم ذكرانا و إناثا معا فالتزويج فى اللغة الجمع، و قوله: «وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا» أى لا- يلد و لا- يولد له، و لما كان هذا أيضا قسما برأسه قيده بالمشيه كالقسمين الأولين، و أما قسم الجمع بين الذكران و الإناث فإنه بالحقيقه جمع بين القسمين الأولين فاكتفى بما ذكر من المشيه فيهما.

و قوله: إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ تعليل لما تقدم أى إنه عليم لا يزيد ما يزيد لجهل قدير لا

[سوره الشورى (٤٢): الآيات ٥١ الى ٥٣]

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ (٥١) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣)

بيان:

قوله تعالى: «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ الخ»؛ قد تقدم البحث عن معنى كلامه تعالى في الجزء الثاني من الكتاب، وإطلاق الكلام على كلامه تعالى والتكليم على فعله الخاص سواء كان إطلاقاً حقيقياً أو مجازياً واقع في كلامه تعالى قال: «يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَىٰ النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي (الأعراف/١٤٤)، و قَالَ: «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (النساء/١٦٤)، و من مصاديق كلامه ما يتلقاه الأنبياء عليهم السلام منه تعالى بالوحي.

و على هذا لا موجب لعد الاستثناء في قوله: «إِلَّا وَحِيًّا» منقطعاً بل الوحي والقسمان

ص: ٥٨٨

(١-١). الشورى ٢٧-٥٠: بحث روائي حول قوله تعالى: «لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ»؛ مصائب اولياء الله؛ الشورى.

المذكوران بعده من تكليمه تعالى للبشر سواء كان إطلاق التكليم عليها إطلاقاً حقيقياً أو مجازياً فكل واحد من الوحي و ما كان من وراء حجاب و ما كان يرسل رسول نوع من تكليمه للبشر.

فقوله: وَحِيًّا -و الوحي الإشاره السريعه على ما ذكره الراغب-مفعول مطلق نوعي و كذا المعطوفان عليه في معنى المصدر النوعي،و المعنى: ما كان لبشر أن يكلمه الله نوعاً من أنواع التكليم إلا- هذه الأنواع الثلاثه أن يوحى وحياً أو يكون من وراء حجاب أو أن يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء.

ثم إن ظاهر التريديد في الآيه بأو هو التقسيم على مغايره بين الأقسام و قد قيد القسمان الأخيران بقيد كالحجاب،و الرسول الذي يوحى الى النبي و لم يقيد القسم الأول بشيء فظاهر المقابله يفيد أن المراد به التكليم الخفى من دون أن يتوسط واسطه بينه تعالى و بين النبي أصلاً، و أما القسمان الآخران ففيهما قيد زائد و هو الحجاب أو الرسول الموحى و كل منهما واسطه غير أن الفارق أن الواسطه الذي هو الرسول يوحى الى النبي نفسه و الحجاب واسطه ليس بموح و إنما الوحي من ورائه.

فتحصّل أن القسم الثالث «أَوْ يُرْسَلَ رَسُولًا -فَيُوحَى بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ» وحي بتوسط الرسول الذي هو ملك الوحي فيوحى ذلك الملك بإذن الله ما يشاء الله سبحانه قال تعالى:

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ (الشعراء ١٩٤/)،و قال: قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيْلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ (البقره ٩٧/)،و الموحى مع ذلك هو الله سبحانه كما قال: بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ (يوسف ٣/).

و أن القسم الثاني «أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» وحي مع واسطه هو الحجاب غير أن الواسطه لا- يوحى كما في القسم الثالث و إنما يتدئ الوحي مما وراءه لمكان من،و ليس وراء بمعنى خلف و إنما هو الخارج عن الشيء المحيط به،قال تعالى: وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (البروج/)

(٢٠)، وهذا كتكليم موسى عليه السلام فى الطور، قال تعالى: فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ (القصص ٣٠)، و من هذا الباب ما أوحى الى الأنبياء فى مناماتهم.

و أن القسم الأول تكليم إلهى للنبي من غير واسطه بينه و بين ربه من رسول أو أى حجاب مفروض.

و لما كان للوحى فى جميع هذه الأقسام نسبه اليه تعالى على اختلافها صحَّ إسناد مطلق الوحى اليه بأى قسم من الأقسام تحقق و بهذه العناية أسند جميع الوحى اليه فى كلامه كما قال:

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَلِمًا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ (النساء ١٦٣). و قال: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ (النحل ٤٣).

و قوله: إِنَّهُ عَلَّمْنَاهُ حِكْمًا تَعْلِيلًا لِمُضْمُونِ الْآيَةِ فَهُوَ تَعَالَى لَعَلَّوَهُ عَنِ الْخَلْقِ وَ النِّزَامِ الْحَاكِمِ فِيهِمْ يَجَلُّ أَنْ يَكْلِمَهُمْ كَمَا يَكْلِمُ بَعْضَهُمْ بَعْضًا، و لعلوه و حكمته يكلمهم بما اختار من الوحى و ذلك أن هدايه كل نوع الى سعاده من شأنه تعالى كما قال: الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْفَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (طه ٥٠)، و قال: وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ (النحل ٩)، و سعاده الإنسان الذى يسلك سبيل سعاده بالشعور و العلم فى إعلام سعاده و الدلاله الى سننه الحياه التى تنتهى إليها و لا يكفى فى ذلك العقل الذى من شأنه الإخطاء و الإصابه فاختر سبحانه لذلك طريق الوحى الذى لا يخطئ البتة، و قد فضلنا القول فى هذه الحجه فى موارد من هذا الكتاب.

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ الْخ؛ ظاهر السياق كون «كَذَلِكَ» إشاره الى ما ذكر فى الآيه السابقه من الوحى بأقسامه الثلاث، و يؤيده الروايات الكثيره الداله على أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ كما كان يوحى اليه بتوسط جبريل و هو القسم الثالث كان يوحى اليه فى المنام و هو من القسم الثانى

و يوحى اليه من دون توسط واسطه و هو القسم الأول.

و المراد بإيحاء الروح-على ما قيل-إيحاء القرآن و أيد بقوله: «وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا» الخ، و من هنا قيل: إن المراد بالروح القرآن.

لكن يبقى عليه أولاً: أنه لا ريب أن الكلام مسوق لبيان أن ما عندك من المعارف و الشرائع التى تتلبس بها و تدعو الناس إليها ليس مما أدركته بنفسك و أبديته بعلمك بل أمر من عندنا منزل اليك بوحينا، و على هذا فلو كان المراد بالروح الموحى القرآن كان من الواجب الاقتصار على الكتاب فى قوله: «مَا كُنْتَ تَدْرِي مِمَّا الْكِتَابُ وَ لَا الْإِيمَانُ» لأن المراد بالكتاب القرآن فيكون الإيمان زائدا مستغنى عنه.

و ثانياً: أن القرآن و إن أمكن أن يسمى روحاً باعتبار إحيائه القلوب بهداه كما قال تعالى:

إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (الأنفال ٢٤)، و قال: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ (الأنعام ١٢٢)، لكن لا وجه لتقيده حينئذ بقوله: «مِنْ أَمْرِنَا» و الظاهر من كلامه تعالى أن الروح من أمره خلق من العالم العلوى يصاحب الملائكة فى نزولهم، قال تعالى: تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (القدر ٤)، و قال: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلَائِكَةُ صِيْفًا (النبا ٣٨)، و قال: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي (الإسراء ٨٥)، و قال: وَ أَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ (البقره ٨٧)، و قد سمي جبريل الروح الأمين و روح القدس حيث قال: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (الشعراء ١٩٣)، و قال: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ (النحل ١٠٢).

و يمكن أن يجاب عن الأول بأن مقتضى المقام و إن كان هو الاقتصار على ذكر الكتاب فقط لكن لما كان إيمانه صلى الله عليه و آله و سلم بتفاصيل ما فى الكتاب من المعارف و الشرائع من لوازم نزول الكتاب غير المنفكه عنه و آثاره الحسنه صح أن يذكر مع الكتاب فالمعنى: و كذلك أوحينا اليك كتاباً ما كنت تدري ما الكتاب و لا ما تجده فى نفسك من أثره الحسن الجميل و هو

و عن الثانى أن المعهود من كلامه فى معنى الروح و إن كان ذلك لكن حمل الروح فى الآيه على ذلك المعنى و إرادته الروح الأمرى أو جبريل منه يوجب أخذ «أَوْحَيْنَا» بمعنى أرسلنا إذ لا يقال: أوحينا الروح الأمرى أو الملك فلا مفر من كون الإيحاء بمعنى الإرسال و هو كما ترى فأخذ الروح بمعنى القرآن أهون من أخذ الإيحاء بمعنى الإرسال و الجوابان لا يخلوان عن شىء.

و قيل: المراد بالروح جبريل فإن الله سماه فى كتابه روحا قال: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ (الشعراء ١٩٤/) و قال: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ .

و قيل: المراد بالروح الروح الأمرى الذى ينزل مع ملائكة الوحي على الأنبياء كما قال تعالى: يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا (النحل ٢/)، فالمراد بإيحاؤه إليه إنزاله عليه.

و يمكن أن يوجه التعبير عن الإنزال بالإيحاء بأن أمره تعالى على ما يعرّفه فى قوله: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ (يس ٨٢/)، هو كلمته، و الروح من أمره كما قال: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي (الإسراء ٨٥/)، فهو كلمته، و هو يصدق ذلك قوله فى عيسى بن مريم عليه السلام: إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ (النساء ١٧١/)، و إنزال الكلمه تكليم فلا ضير فى التعبير عن إنزال الروح بإيحاؤه، و الأنبياء مؤيدون بالروح فى أعمالهم كما أنهم يوحى اليهم الشرائع به قال تعالى: وَ أَيْدِنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَ قد تقدمت الإشارة إليه فى تفسير قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِتْيَاءَ الزَّكَاةِ (الأنبياء ٧٣/).

و يمكن رفع إشكال كون الإيحاء بمعنى الانزال و الارسال بالقول بكون قوله: «رُوحاً» منصوبا بنزع الخافض و رجوع ضمير «جَعَلْنَاهُ» الى القرآن المعلوم من السياق أو الكتاب

و المعنى و كذلك أوحينا اليك القرآن بروح منا ما كنت تدري ما الكتاب و ما الايمان و لكن جعلنا القرآن أو الكتاب نورا، الخ؛ هذا و ما أذكر أحدا من المفسرين قال به.

و قوله: مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ قَدْ تَقَدَّمَ أَنْ الْآيَةَ مَسْوُوقَةً لِبَيَانِ أَنْ مَا عِنْدَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ لَا مِنْ قَلْبِهِ نَفْسَهُ وَ إِنَّمَا أُوتِيَ مَا أُوتِيَ مِنْ ذَلِكَ بِالْوَحْيِ بَعْدَ النَّبُوَّةِ فَالمراد بعدم داريته بالكتاب عدم علمه بما فيه من تفاصيل المعارف الاعتقادية و الشرائع العلمية فإن ذلك هو الذي أوتى العلم به بعد النبوه و الوحي، و بعدم داريته بالايمان عدم تلبسه بالالتزام التفصيلي بالعقائد الحقه و الأعمال الصالحه و قد سمي العمل إيمانا في قوله: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ (البقره ١٤٣).

فالمعنى: ما كان عندك قبل وحي الروح الكتاب بما فيه من المعارف و الشرائع و لا كنت متلبسا بما أنت متلبس به بعد الوحي من الالتزام الاعتقادي و العملي بمضامينه و هذا لا ينافي كونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مؤمنا بالله موحدا قبل البعثة صالحا في عمله فإن الذي تنفيه الآيه هو العلم بتفاصيل ما في الكتاب و الالتزام بها اعتقادا و عملا و نفى العلم و الالتزام التفصيلين لا يلزم نفى العلم و الالتزام الاجماليين بالايمان بالله و الخضوع للحق.

و بذلك يندفع ما استدل بعضهم بالآيه على أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان غير متلبس بالايمان قبل بعثته.

و يندفع أيضا ما عن بعضهم أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لم يزل كاملا في نفسه علما و عملا و هو ينافي ظاهر الآيه أنه ما كان يدري ما الكتاب و لا الايمان.

و وجه الاندفاع من الضروري وجود فرق في حاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قبل النبوه و بعدها و الآيه تشير الى هذا الفرق، و ان ما حصل له بعد النبوه لا صنع له فيه و إنما هو من الله من طريق الوحي.

و قوله: وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ضَمِيرٌ «جَعَلْنَاهُ» للروح و المراد بقوله: «مَنْ نَشَاءُ» على تقدير ان يراد بالروح القرآن هو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و من آمن به فإنهم جميعا مهتدون بالقرآن.

و على تقدير أن يراد به الروح الأمرى فالمراد بمن نشأ جميع الأنبياء و من آمن بهم من أممهم فإنه يهدى بالوحي الذى نزل به، الأنبياء و المؤمنين من أممهم و يسدد الأنبياء خاصه و يهديهم الى الأعمال الصالحه و يشير عليهم بها.

و على هذا تكون الآيه فى مقام تصديق النبى صلى الله عليه و آله و سلم تصدقه فى دعواه أن كتابه من عند الله بوحي منه، و تصدقه فى دعواه أنه مؤمن بما يدعو اليه فيكون فى معنى قوله تعالى: إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (يس ٥).

و قوله: «وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» إشاره الى أن الذى يهدى اليه صراط مستقيم و أن الذى يهديه من الناس هو الذى يهديه الله سبحانه، فهدايتته صلى الله عليه و آله و سلم هدايه الله.

قوله تعالى: صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ الخ؛ بيان للصراط المستقيم الذى يهدى اليه النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و توصيفه تعالى بقوله: «الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ» للدلاله على الحجه على استقامه صراطه فإنه تعالى لما ملك كل شىء ملك الغايه التى تسير إليها الأشياء و السعاده التى تتوجه إليها، فكانت الغايه و السعاده هى التى عينها، و كان الطريق إليها و السبيل الذى عليهم أن يسلكوه لنيل سعادتهم هو الذى شرعه و بينه، و ليس يملك أحد شىئا حتى ينصب له غايه و نهايه أو يشرع له إليها سبيلا، فالسعاده التى يدعو سبحانه إليها حق السعاده و الطريق الذى يدعو اليه حق الطريق و مستقيم الصراط.

و قوله: «أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ» تنبيه على لازم ملكه لما فى السماوات و ما فى الأرض فإن لازمه رجوع امورهم اليه و لازمه كون السبيل الذى يسلكونه- و هو من جملة امورهم- راجعا اليه فالصراط المستقيم هو صراطه فالمضارع أعنى قوله: «تَصِيرُ» للاستمرار.

و فيه إشعار بلمّ الوحي و التكليم الإلهي، إذ لما كان مصير الأشياء اليه تعالى كان لكل نوع

اليه تعالى سبيل يسلكه و كان عليه تعالى أن يهديه اليه و يسوقه الى غايته كما قال: وَ عَلَى اللَّهِ قَضِيْدُ السَّبِيْلِ (النحل ٩)، و هو تكليم كل نوع بما يناسب ذاته و هو فى الإنسان التكليم المسمى بالوحي و الإرسال (١).

ص: ٥٩٥

١ - ١) ٥٣-٥١: بحث روائى فى: نزول الوحي و تلقى رسول الله الوحي و تغيير حالته عند نزول الوحي؛ الروح الذى اوحى الله لرسوله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِذَا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ
لَدَيْنَا لَعَلِّحٌ حَكِيمٌ (٤) أَفَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَافِحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِمْ
مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَ مَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢)
لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ
رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤)

السوره موضوعه للإينذار كما تشهد به فاتحتها و خاتمتها و المقاصد المتخلله بينهما إلا ما فى قوله: «إِلَّا الْمُتَّقِينَ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» الى تمام ست آيات استطراديه.

تذكر أن السنّه الإلهيه إنزال الذكر و إرسال الأنبياء و الرسل و لا يصده عن ذلك إسراف الناس فى قولهم و فعلهم بل يرسل الأنبياء و الرسل و يهلك المستهزئين بهم و المكذبين لهم ثم يسوقهم الى نار خالده.

و قد ذكرت إرسال الأنبياء بالإجمال أولاً ثم سَمَى منهم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام، و ذكرت من إسراف الكفار أشياء و من عمدتها قولهم بأن لله سبحانه ولدا و أن الملائكه بنات الله ففيها عنايه خاصه بنفى الولد عنه تعالى فكثرت ذلك و ردّته و أوعدهم بالعذاب، و فيها حقائق متفرقه اخرى.

و السوره مكيه بشهاده مضامين آياتها الإقوله: «وَسئَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا»

الآيه؛ و لم يثبت كما سيأتى إن شاء الله.

قوله تعالى: وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ظاهره أنه قسم و جوابه قوله: «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا» الى آخر الآيتين، و كون القرآن مبينا هو إبانته و إظهاره طريق الهدى كما قال تعالى:

وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ (النحل ٨٩)، أو كونه ظاهرا فى نفسه لا- يرتاب فيه كما قال: ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ (البقره ٢).

قوله تعالى: إِذْ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ الضمير للكتاب، و «قُرْآنًا عَرَبِيًّا» أى مقروا باللغه العربيه و «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» غايه الجعل و غرضه.

و جعل رجاء تعقله غايه للجعل المذكور يشهد بأن له مرحله من الكينونه و الوجود لا ينالها عقول الناس، و من شأن العقل أن ينال كل أمر فكرى و إن بلغ من اللطافه و الدقه ما بلغ فمفاد الآيه أن الكتاب بحسب موطنه الذى له فى نفسه أمر وراء الفكر أجنبى عن العقول البشرىه و إنما جعله الله قرآنا عربيا و ألبسه هذا اللباس رجاء أن يستأنس به عقول الناس فيعقلوه، و الرجاء فى كلامه تعالى قائم بالمقام أو المخاطب دون المتكلم كما تقدم غير مره.

قوله تعالى: وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَمَدِينًا لَعَلِّي حَكِيمٌ تأكيد و تبين لما تدلّ عليه الآيه السابقه أن الكتاب فى موطنه الأصلي وراء تعقل العقول.

و الضمير للكتاب، و المراد بام الكتاب اللوح المحفوظ كما قال تعالى: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (البروج ٢٢)، و تسميته بام الكتاب لكونه أصل الكتب السماويه يستنسخ منه غيره، و التقييد بام الكتاب و «لَدِينًا» للتوضيح لا للاحتراز، و المعنى: أنه حال كونه فى أم الكتاب لدينا-حالا لازمه-لعلى حكيم، و سيجىء فى أواخر سوره الجاثيه كلام فى أم الكتاب إن شاء الله.

و المراد بكونه عليا على ما يعطيه مفاد الآيه السابقه أنه رفيع القدر و المنزله من أن تناله العقول، و بكونه حكيما أنه هناك محكم غير مفصل و لا مجزى الى سور و آيات و جمل و كلمات

كما هو كذلك بعد جعله قرآنا عربيا كما استفدناه من قوله تعالى: **كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** (هود: ١).

و هذا النعتان أعنى كونه عليا حكيما هما الموجبان لكونه وراء العقول البشرية فإن العقل فى فكرته لا ينال إلا ما كان من قبيل المفاهيم و الألفاظ أولا و كان مؤلفا من مقدمات تصديقيه يترتب بعضها على بعض كما فى الآيات و الجمل القرآنيه، و أما إذا كان الأمر وراء المفاهيم و الألفاظ و كان غير متجزّ الى أجزاء و فصول فلا طريق للعقل الى نيله.

فمحصل معنى الآيتين: أن الكتاب عندنا فى اللوح المحفوظ ذو مقام رفيع و إحكام لا تناله العقول لدينك الوصفين و إنما أنزلناه بجعله مقروا عربيا رجاء أن يعقله الناس.

قوله تعالى: **أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَافِحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ** الاستفهام للإنكار، و الفاء للتفريع على ما تقدم، و ضرب الذكر عنهم صرفه عنهم. قال فى المجمع: و أصل ضربت عنه الذكر أن الراكب إذا ركب دابه فأراد أن يصرفه عن جهه ضربه بعصا أو سوط ليعدل به الى جهه اخرى ثم وضع الضرب موضع الصرف و العدل. انتهى.

و الصفح بمعنى الإعراض فصفحا مفعول له، و احتمال أن يكون بمعنى الجانب «أَنْ كُنْتُمْ» محذوف الجار و التقدير لأن كنتم و هو متعلق بقوله: «أَفَنَضْرِبُ» .

و المعنى: أ فنصرف عنكم الذكر - و هو الكتاب الذى جعلناه قرآنا لتعقلوه - للإعراض عنكم لكونكم مسرفين أو أ فنصرفه عنكم الى جانب لكونكم مسرفين أى إنا لا نصرفه عنكم لذلك.

قوله تعالى: **وَ كَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** «كُمْ» للتكثير، و الأولون هم الامم الدارجه و «مَا يَأْتِيهِمْ» الخ؛ حال و العامل فيها «أَرْسَلْنَا» .

و الآيتان و ما يتلوها فى مقام التعليل لعدم صرف الذكر عنهم بيان أن كونكم قوما

مُسرفين لا يَمنعنا من إجراء سنّه الهدايه من طريق الوحي فإننا كثيرا ما أرسلنا من نبي في الامم الماضين و الحال أنه ما يأتيهم من نبي إلا استهزءوا به و انجزّ الأمر الى ان أهلكتنا من اولئك من هو أشد بطشا منكم.

فكما كانت عاقبه إسرافهم و استهزائهم الهلاك دون الصرف فكذلك عاقبه اسرافكم ففي الآيات الثلاث كما ترى وعد للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ وعيد لقومه.

قوله تعالى: فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَ مَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ قَالَ الرَّابِعُ:

البطش تناول الشىء بصوله. انتهى و في الآيه التفات في قوله: «مِنْهُمْ» من الخطاب الى الغيبه، و كأن الوجه فيه العدول عن خطابهم الى خطاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لعدم اعتبارهم بهذه القصص و العبر و ليكون تمهيدا لقوله بعد: «وَ مَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ» و يؤيده قوله بعد: «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ» خطابا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ. و معنى قوله: «وَ مَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ» و مضى في السور النازله قبل هذه السوره من القرآن و صف الامم الأولين و أنه كيف حاق بهم ما كانوا به يستهزءون.

قوله تعالى: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ فِي الْآيَةِ وَ ما يتلوها الى تمام ست آيات احتجاج على ربوبيته تعالى و توحده فيها مع إشاره ما الى المعاد و تبكيت لهم على اسرافهم مأخوذ من اعترافهم بأنه تعالى هو خالق الكل ثم الأخذ بجهات من الخلق هي بعينها تدبير لامور العباد كجعل الأرض لهم مهذا و جعله فيها سبلا و انزال الأمطار فينتج أنه تعالى وحده مالك مدبر لامورهم فهو الرب لا رب غيره.

و بذلك تبين أن الآيه تقدمه و توطئه لما تتضمنه الآيات التاليه من الحججه و قد تقدم في هذا الكتاب مرارا أن الوثنيه لا تنكر رجوع الصنع و الایجاد اليه تعالى وحده و انما تدعى رجوع أمر التدبير الى غيره.

قوله تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ

تَهْتَدُونَ أَي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بَحِيثَ تَرْبُونَ فِيهَا كَمَا يَرْبِي الْأَطْفَالَ فِي الْمَهْدِ، وَجَعَلَ لِكُلِّ فِي الْأَرْضِ سَبِيلاً وَطَرِيقاً تَسْلُكُونَهَا وَتَهْتَدُونَ بِهَا إِلَى مَقَاصِدِكُمْ.

قوله تعالى: وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ قِيدَ تَنْزِيلِ الْمَاءِ بِقَدَرٍ لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ عَنِ ارْتِدَائِهِ وَتَدْبِيرِهِ لَا كَيْفَ اتَّفَقَ وَالِإِنْشَاءُ الْإِحْيَاءُ، وَالْمَيْتُ مَخْفَفُ الْمَيْتِ بِالتَّشْدِيدِ، وَتَوْصِيفُ الْبَلْدَةِ بِهِ بِإِعْتِبَارِ أَنَّهَا مَكَانٌ لِأَنَّ الْبَلْدَةَ أَيْضًا أَمَّا تَتَّصِفُ بِالمَوْتِ وَالْحَيَاةِ بِإِعْتِبَارِ أَنَّهَا مَكَانٌ، وَالِإِتِّفَاتُ عَنِ الْغَيْبِ إِلَى التَّكَلُّمِ مَعَ الْغَيْرِ فِي «فَأَنْشَرْنَا» لِإِظْهَارِ الْعِنَايَةِ.

وَلَمَّا اسْتَدَلَّ بِتَنْزِيلِ الْمَاءِ بِقَدَرٍ وَإِحْيَاءِ الْبَلْدَةِ الْمَيْتَةِ عَلَى خَلْقِهِ وَتَدْبِيرِهِ اسْتَنْتَجَ مِنْهُ أَمْرًا آخَرَ لَا يَتِمُّ التَّوْحِيدُ إِلَّا بِهِ وَهُوَ الْمَعَادُ الَّذِي هُوَ رَجُوعُ الْكُلِّ إِلَيْهِ تَعَالَى فَقَالَ: «كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ» أَي كَمَا أَحْيَا الْبَلْدَةَ الْمَيْتَةَ كَذَلِكَ تَبْعَثُونَ مِنْ قُبُورِكُمْ أَحْيَاءً.

قوله تعالى: وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ قِيلَ: الْمُرَادُ بِالْأَزْوَاجِ أَصْنَافُ الْمَوْجُودَاتِ مِنْ ذَكَرٍ وَإُنْثَى وَأَبْيَضٍ وَأَسْوَدٍ وَغَيْرِهَا، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالزَّوْجِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ كَالْفَوْقِ وَالتَّحْتَ وَالْيَمِينِ وَالْيَسَارِ وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى زَوْجٌ.

وَقَوْلُهُ: وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ أَي تَرْكَبُونَهُ، وَالرُّكُوبُ إِذَا نَسَبَ إِلَى الْحَيْوَانِ كَالْفَرَسِ وَالْإِبِلِ تَعَدَى بِنَفْسِهِ فَيُقَالُ: رَكَبْتُ الْفَرَسَ وَإِذَا نَسَبَ إِلَى مِثْلِ الْفُلُكِ وَالسَّفِينَةِ تَعَدَى بِفِيٍّ فَيُقَالُ: رَكَبَ فِيهِ قَالَ تَعَالَى: فَإِذَا رَكَبُوا فِي الْفُلُكِ ففِي قَوْلِهِ: «مَا تَرْكَبُونَ» أَي تَرْكَبُونَهُ تَغْلِيْبَ لِجَانِبِ الْأَنْعَامِ.

قوله تعالى: لَتَسْتَثْوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا -إِلَى قَوْلِهِ- لَمُنْقَلِبُونَ الْإِسْتِثْوَاءَ عَلَى الظُّهُورِ الْإِسْتِقْرَارَ عَلَيْهَا، وَالضَّمِيرُ فِي «ظُهُورِهِ» رَاجِعٌ إِلَى لَفْظِ الْمَوْصُولِ فِي «مَا تَرْكَبُونَ» وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: «إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ»

للموصول أيضا فكما يقال: استويت على ظهر الدابة يقال: استويت على الدابة.

و المراد بذكر نعمه الرب سبحانه بعد الاستواء على ظهر الفلك و الأنعام ذكر النعم التي ينتفع بها الإنسان بتسخيره تعالى له هذه المراكب كالانتقال من مكان الى مكان و حمل الأثقال قال تعالى: وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلُكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ (إبراهيم ٣٢)، و قال: وَ الْأَنْعَامَ خَلَقَهَا - الى أن قال- وَ تَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا يَشِقُّ الْأَنْفُسَ (النحل / ٧)، أو المراد ذكر مطلق نعمه تعالى بالانتقال من ذكر هذه النعم اليه.

و قوله: وَ تَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَ مَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ أى مطيقين و الإقران الإطاقه.

و ظاهر ذكر النعمه عند استعمالها و الانتفاع بها شكر منعمها و لازم ذلك أن يكون ذكر النعمه غير قول «سُبْحَانَ الَّذِي» الخ؛ فإن هذا القول تسييح و تنزيه له عما لا يليق بساحه كبريائه و هو الشريك في الربوبيه و الالوهيه، و ذكر النعمه شكر- كما تقدم- و الشكر غير التنزيه.

و يؤيد هذا ما ورد عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و أئمه أهل البيت عليهم السلام في ما يقال عند الاستواء على المركوب فإن الروايات على اختلافها تتضمن التحميد وراء التسييح يقول: «سُبْحَانَ الَّذِي» الخ.

و روى في الكشاف عن الحسن بن علي عليهما السلام أنه رأى رجلا يركب دابه فقال: سبحان الذي سَخَّرَ لَنَا هَذَا فقال: أ بهذا أمرتم؟ فقال: و بم أمرنا؟ قال: أن تذكروا نعمه ربكم.

و قوله: وَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ أى صائرون شهاده بالمعاد.

[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ١٥ الى ٢٥]

وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥) أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَ أَصْفَاكُمْ بِالْبَيْنِينَ (١٦) وَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوْ مِمَّنْ يَنْشَأُونَ فِي الْحَلْبِيِّهِ وَ هُوَ فِي الْخِصْمِ غَيْرٌ مُّبِينٌ (١٨) وَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلْفَهُمْ سَوَّكْتَبَ شَهَادَتُهُمْ وَ يُسْتَلُونَ (١٩) وَ قَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّهِ وَ إِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَ كَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَوْمِهِ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّهِ وَ إِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ (٢٥)

بيان:

قوله تعالى: وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ المراد

ص: ٦٠٣

بالجزء الولد فإن الولاده إنما هي الاشتقاق فالولد جزء من والده منفصل منه متصور بصورته.

و إنما عبّر عن الولد بالجزء للإشارة الى استحاله دعواهم، فإن جزئيه شيء من شيء كيفما تصورت لا تتم الا بتركب فى ذلك الشيء و الله سبحانه واحد من جميع الجهات.

و قد بان بما تقدم أن «مَنْ عِبَادِهِ» بيان لقوله: «جُزْءٌ» و لا ضير فى تقدّم هذا النوع من البيان على المبين و لا فى جمعيه البيان و أفراد المبين.

قوله تعالى: أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفًا كُمْ بِالْبَنِينَ أَى أَخْلَصَكُمْ لِلْبَنِينَ فَلَكُمْ بَنُونَ و ليس له إلا البنات و أنتم ترون أن البنت أحسن من الابن فتثبتون له أحسن الصنفين و تخصون أنفسكم بأشرفهما، و هذا مع كونه قولاً محالاً فى نفسه إزراء و إهانه ظاهره و كفران.

و تقييد اتخاذ البنات بكونه مما يخلق لكونهم قائلين بكون الملائكة-على ربوبيتهم و الوهيتهم-مخلوقين لله، و الالتفات فى الآيه الى خطابهم لتأكيد الإلزام و تثبيت التوبيخ، و التنكير و التعريف فى «بَنَاتٍ» و «بِالْبَنِينَ» للتحقير و التفضيم.

قوله تعالى: وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ المثل هو المثل و الشبه المجانس للشيء و ضرب الشيء مثلاً أخذه مجانسا للشيء «بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا» الانثى، و الكظم المملوء كربا و غيظا.

و المعنى: و حالهم أنه إذا بشر أحدهم بالانثى الذى جعلها شبيهاً مجانسا للرحمن صار وجهه مسودا من الغم و هو مملوء كربا و غيظا لعدم رضاهم بذلك و عدّه عارا لهم لكنهم يرضونه له.

و الالتفات فى الآيه الى الغيبه لحكاية شنيع سيرتهم و قبيح طريقتهم للغير حتى يتعجب منه.

قوله تعالى: أَوْ مَنْ يُنشَأُ فى الْحَلِيهِ وَهُوَ فى الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ أَى أَوْ

جعلوا لله سبحانه من ينشأ في الحليه أى يتربى في الزينه و هو فى المخاصمه و المحاجه غير مبين لحجته لا- يقدر على تقرير دعواه.

و إنما ذكر هذين النعتين لأن المرأه بالطبع أقوى عاطفه و شنقه و أضعف تعقلا بالقياس الى الرجل و هو بالعكس و من أوضح مظاهر قوه عواطفها تعلقها الشديد بالحليه و الزينه و ضعفها فى تقرير الحجه المبني على قوه التعقل.

قوله تعالى: وَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا الخ؛ هذا معنى قولهم: إن الملائكه بنات الله و قد كان يقول به طوائف من عرب الجاهليه و اما غيرهم من الوثنيه فربما عدوا فى آلهتهم إلهه هى ام إله أو بنت إله لكن لم يقولوا بكون جميع الملائكه إناثا كما هو ظاهر المحكى فى الآيه الكريمه.

و إنما وصف الملائكه بقوله: «الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ» ردا لقولهم بانوثتهم لأن الإناث لا- يطلق عليهن العباد، و لا- يلزم منه اتصافهم بالذكوره الذى يتصف به الحيوان فإن الذكوره و الانوثه اللتين فى الحيوان من لوازم وجوده المادى المجهز للتناسل و توليد المثل، و الملائكه فى معزل من ذلك.

و قوله: أَسْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَيُكْتَبُ سَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ ردا لدعواهم الانوثه فى الملائكه بأن الطريق الى العلم بذلك الحس و هم لم يروهم حتى يعلموا بها فلم يكونوا حاضرين عند خلقهم حتى يشاهدوا منهم ذلك.

فقوله: أَسْهَدُوا خَلْقَهُمْ الخ؛ استفهام إنكارى و وعيد على قولهم بغير علم أى لم يشهدوا خلقهم و سكتب فى صحائف أعمالهم هذه الشهاده عليهم و يسألون عنه يوم القيامه.

قوله تعالى: وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا- يَخْرُصُونَ حججه عقلية داحضه محكيه عنهم يمكن أن تقرر تاره لإثبات صحه عباده الشركاء بأن يقال: لو شاء الله أن لا نعبد الشركاء ما عبدناهم ضروره لاستحاله تخلف

مراده تعالى عن إرادته لكننا نعبدهم فهو لم يشأ ذلك و عدم مشيئته عدم عبادتهم إذن في عبادتهم فلا منع من قبله تعالى عن عبادته الشركاء و الملائكة منهم، و هذا المعنى هو المنساق الى الذهن من قوله في سورة الأنعام: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ (الأنعام ١٤٨/)، على ما يعطيه السياق ما قبله و ما بعده.

و تقرّر تاره لإبطال النبوه القائله أن الله يوجب عليكم كذا و كذا و يحرم عليكم كذا كذا بأن يقال لو شاء الله أن لا نعبد الشركاء و لا نحلّ و لا نحرم شيئاً لم نعبد الشركاء و لم نضع من عندنا حكماً لاستحاله تخلف مراده تعالى عن إرادته لكننا نعبدهم و نحلّ و نحرم أشياء فلم يشأ الله سبحانه منا شيئاً، فقول إن الله يأمركم بكذا و ينهاكم عن كذا و بالجمله إنه شاء كذا باطل.

و هذا المعنى هو الظاهر المستفاد من قوله تعالى في سورة النحل: وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ (النحل / ٣٥)، بالنظر الى السياق.

و قولهم في محكي الآيه المبحوث عنها: «لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ» على ما يفيدته سياق الآيات السابقه و اللاحقه مسوق للاحتجاج على المعنى الأول و هو تصحيح عبادتهم للملائكة فيكون في معنى آيه سورة الأنعام و أخص منها.

و قوله: «مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ» أى هو منهم قول مبنى على الجهل فإنه مغالطه خلطوا فيها بين الإراده التكوينية و الإراده التشريعيه و أخذ الاولى مكان الثانية، فمقتضى الحجه أن لا إرادته تكوينيه منه تعالى متعلقه بعدم عبادتهم الملائكة و انتفاء تعلق هذا النوع من الإراده بعدم عبادتهم لهم لا يستلزم انتفاء تعلق الإراده التشريعيه به.

فهو سبحانه لما لم يشأ أن لا يعبدوا الشركاء بالإرادته التكوينية كانوا مختارين غير مضطرين على فعل أو ترك فأراد منهم بالإرادته التشريعيه أن يوحّدوه و لا يعبدوا الشركاء، و الإراده التشريعيه لا يستحيل تخلف المراد عنها لكونها اعتباريه غير حقيقيه، و إنما تستعمل

فى الشرائع والقوانين و التكاليف المولويه، و الحقيقه التى تبتنى عليها هى اشمال الفعل على مصلحه أو مفسده.

و قوله: إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ الخرص -على ما يظهر من الراغب- القول على الظن و التخمين، و فسر أيضا بالكذب.

قوله تعالى: أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ضمير «مَنْ قَبْلِهِ» للقرآن، و فى الآيه نفى أن يكون لهم حجه من طريق النقل كما أن فى الآيه السابقه نفى حجتهم من طريق العقل، و محصل الآيتين أن لا حجه لهم على عباده الملائكه لا من طريق العقل و لا من طريق النقل فلم يأذن الله فيها.

قوله تعالى: يَلْ قَالُوا إنا وَجَدنا آباءنا على أُمَّه و إنا على آثارهم مهتدون الامه الطريقه التى تؤم و تقصد، و المراد بها الدين، و الإضراب عما تحصل من الآيتين، و المعنى: لا دليل لهم على حقيه عبادتهم بل قالوا: إنا وجدنا آباءنا على دين و إنا على آثارهم مهتدون أى إنهم متشبثون بتقليد آباءهم فحسب.

قوله تعالى: وَ كَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إنا وَجَدنا الخ؛ أى إن التشبث بذيل التقليد ليس مما يختص بهؤلاء فقد كان ذلك دأب أسلافهم من الامم المشركين و ما أرسلنا من قبلك فى قريه من نذير و هو النبى إلا تشبث متعموها بذيل التقليد و قالوا: إنا وجدنا أسلافنا على دين و إنا على آثارهم مقتدون لن نتركها و لن نخالفهم.

و نسبه القول الى مترفيهم للاشاره الى أن الإتراف و التنعم هو الذى يدعوهم الى التقليد و يصرفهم عن النظر فى الحق.

قوله تعالى: قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءُكُمْ الْخ؛ القائل هو النذير، و الخطاب للمترفين و يشمل غيرهم بالتبعيه، و العطف فى «أَوْ لَوْ جِئْتُمْ» على

محذوف يدل عليه كلامهم، والتقدير إنكم على آثارهم مقتدون و لو جئتم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم؟ والمحصل: هل أنتم لازمون لدينهم حتى لو كان ما جئتم به من الدين أهدى منه؟ و وعد النذير ما جاءهم به أهدى من دينهم مع كون دينهم باطلا لا هدى فيه من باب مجاراه الخصم.

و قوله: قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ جواب منهم لقول النذير «أَوْ لَوْ جِئْتُمْ» الخ؛ وهو تحكم من غير دليل.

قوله تعالى: فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ أى تفرّع على ذلك الإرسال و الرد بالتقليد و التحكم أنا أهلكتناهم بتكذيبهم فانظر كيف كان عاقبه اولئك السابقين من أهل القرى، و فيه تهديد لقوم النبي صلى الله عليه و آله و سلم.

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٢٦ الى ٤٥]

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأبيهِ وَ قَوْمِهِ إِنِّى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَنَّتْ هَؤُلَاءِ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَ لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَ قَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَ لَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سِقْفًا مِّنْ فَضِّهِ وَ مَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَ لِيُوتِيَهُمُ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ (٣٤) وَ زُخْرَفًا وَ إِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) وَ مَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَ إِنَّهُمْ لَيُصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّمَ أَوْ تَهْدِي الْعُمَىٰ وَ مَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٠) فَأَمَّا نَذَبْنِ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَأِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) وَ سَأَلْنَا مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَ جَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ الْبَرَاءَ مَصْدَرٌ مِنْ بَرِيءٍ يَبْرَأُ فَهُوَ بَرِيءٌ فَمَعْنَى «إِنِّي بَرَاءٌ»: إِنِّي ذُو بَرَاءٍ أَوْ بَرِيءٌ عَلَى سَبِيلِ الْمَبَالِغَةِ مِثْلَ زَيْدٍ عَدْلٍ.

و في الآية إشارة الى تبرى إبراهيم عليه السلام مما كان يعبده أبوه و قومه من الأصنام و الكواكب بعد ما حاجهم فيها فاستندوا فيها الى سيره آبائهم على ما ذكر في سور الأنعام و الأنبياء و الشعراء و غيرها.

و المعنى: و اذكر لهم إذ تبرأ إبراهيم عن آلهه أبيه و قومه إذ كانوا يعبدونها تقليدا لآبائهم من غير حجة و قام بالنظر وحده.

قوله تعالى: إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ أَي إِلَّا الَّذِي أَوْجَدَنِي وَ هُوَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ، وَ فِي تَوْصِيْفِهِ تَعَالَى بِالْفَطْرِ إِشَارَةٌ إِلَى الْحِجَةِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَ أَلُوْهِتِهِ فَإِنَّ الْفَطْرَ وَ الْإِيْجَادَ لَا يَنْفَكُ عَنْ تَسْدِيرِ أَمْرِ الْمَوْجُودِ الْمَفْطُورِ فَالَّذِي فَطَرَ الْكُلَّ هُوَ الَّذِي يَدَبِّرُ أَمْرَهُمْ فَهُوَ الْحَقِيقُ أَنْ يَعْبُدَ.

و قوله: فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ أَي إِلَى الْحَقِّ الَّذِي أَطْلَبُهُ، وَ قِيلَ: أَي إِلَى طَرِيقِ الْجَنَّةِ، وَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ إِشَارَةٌ إِلَى خَاصَةِ أُخْرَى رُبُوبِيَّةٍ وَ هِيَ الْهَدَايَةُ إِلَى السَّبِيلِ الْحَقِّ يَجِبُ أَنْ يَسْلُكَهُ الْإِنْسَانُ فَإِنَّ السُّوقَ إِلَى الْكَمَالِ مِنْ تَمَامِ التَّدْبِيرِ فَعَلَى الرَّبِّ الْمُدَبِّرِ لِأَمْرِ مَرْبُوبِهِ أَنْ يَهْدِيَهُ إِلَى كَمَالِهِ وَ سَعَادَتِهِ، قَالَ تَعَالَى: رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (طه ٥٠)، وَ قَالَ:

وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ (النحل ٩)، فَالرجوع الى الله بتوحيد العبادة يستتبع الهداية كما قال تعالى: وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا (العنكبوت ٦٩).

و الاستثناء في قوله: «إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي» منقطع لأن الوثنيين لا يعبدون الله كما مرّ مرارا،

فقول بعضهم: إنه متصل، و أنهم كانوا يقولون: الله ربنا مع عبادتهم الأوثان، كما ترى.

قوله تعالى: وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ الظاهر أن ضمير الفاعل المستتر في «جَعَلَهَا» لله سبحانه، و الضمير البارز- على ما قيل- لكلمة البراءة التي تكلم بها إبراهيم عليه السّلام و معناها معنى كلمة التوحيد فإن مفاد «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» نفى الآلهة غير الله لا- نفى الآلهة و إثبات الإله تعالى (1) و هو ظاهر فلا حاجة الى ما تكلف به بعضهم أن الضمير لكلمة التوحيد المعلوم مما تكلم به إبراهيم عليه السّلام.

و المراد بعقبه ذريته و ولده، و قوله: «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» أي يرجعون من عباده آله غير الله الى عبادته تعالى أي يرجع بعضهم- و هم العابدون لغير الله بدعوه بعضهم و هم العابدون لله- الى عبادته تعالى، و بهذا يظهر أن المراد ببقاء الكلمة في عقبه عدم خلوهم عن الموحّد ما داموا، و لعل هذا عن استجابته دعائه عليه السّلام إذ يقول وَ اجْتَنِبْنِي وَ يَتَّبِعْنِي أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (إبراهيم ٣٥).

و يظهر من الآية أن ذرية إبراهيم عليه السّلام لا تخلو من هذه الكلمة الى يوم القيامة.

قوله تعالى: بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُّبِينٌ إضراب عما يفهم من الآية السابقة، و المعنى: أن رجوعهم عن الشرك الى التوحيد كان هو الغاية المرجوّه منهم لكنهم لم يرجعوا بل متّعت هؤلاء من قومك و آباءهم فتمتعوا بنعمي «حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُّبِينٌ» .

و المراد بالحق الذي جاءهم هو القرآن، و بالرسول المبين محمّد صلى الله عليه و آله و سلّم.

قوله تعالى: وَ لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ هذا طعنهم في الحق الذي جاءهم و هو القرآن و يستلزم الطعن في الرسول. كما أن قولهم الآتى:

ص: ٦١١

١- ١). و ذلك أن «الله» فيها مرفوع على البدليه لا منصوب على الاستثناء.

«لَوْ لَا نَزَّلَ» الخ؛ كذلك.

قوله تعالى: وَقَالُوا لَوْ لَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ المراد بالقريتين مكة و الطائف، و مرادهم بالعظمه-على ما يفيدته السياق-ما هو من حيث المال و الجاه اللذين هما ملاك الشرافه و علو المنزله عند أبناء الدنيا، و المراد بقوله: «رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ» رجل من إحدى القريتين حذف المضاف إيجازا.

و مرادهم أن رساله منزله شريفه إلهيه لا- ينبغي أن يتلبس به إلا رجل شريف في نفسه عظيم مطاع في قومه، و النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فقير فاقده لهذه الخصله، فلو كان القرآن الذي جاء به و حيا نازلا من الله فلولا نزل على رجل عظيم من مكة أو الطائف كثير المال رفيع المنزله.

قوله تعالى: أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الخ؛ المراد بالرحمه-على ما يعطيه السياق- النبوه.

و قال الراغب: العيش الحياه المختصه بالحيوان، و هو أخص من الحياه لأن الحياه تقال في الحيوان و في الباري تعالى و في الملك، و يشتق منه المعيشه لما يتعيش به. انتهى. و قال:

التسخير سياقه الى الغرض المختص قهرا- الى أن قال:- و السخرى هو الذي يقهر فيتسخر بإرادته. انتهى.

و الآيه و الآيتان بعدها في مقام الجواب عن قولهم: «لَوْ لَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٍ» الخ؛ و محصلها أن قولهم هذا تحكم ظاهر ينبغي أن يتعجب منه فإنهم يحكمون فيما لا يملكون. هذه معيشتهم في الحياه الدنيا يعيشون بها و يرتزقون و هي رحمه منا لا قدر لها و لا منزله عندنا و ليست إلا متاعا زائلا نحن نقسمها بينهم و هي خارجه عن مقدرتهم و مشيتهم فكيف يقسمون النبوه التي هي الرحمه الكبرى و هي مفتاح سعادته البشر الدائمه و الفلاح الخالد فيعطونها لمن شاءوا و يمنعونها ممن شاءوا.

فقوله: أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ الاستفهام للانكار، و الالتفات الى الغيبه في

قوله: «رَحْمَهُ رَبِّكَ» و لم يقل:رحمتنا،للدلاله على اختصاص النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم بعنايه الربوبيه فى النبوه.

و المعنى:أنهم لا يملكون النبوه التى هى رحمه لله خاصة به حتى يمنعوك منها و يعطوها لمن هووا.

و قوله: نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بيان لوجه الإنكار فى الجملة السابقه بأنهم عاجزون عن قسمه ما هو دون النبوه بمراحل و لا منزله له و هو معيشتهم فى الحياه الدنيا فنحن قسمناها بينهم فكيف يقسمون ما هو أرفع منزله منها بما لا يقدر قدره و هو النبوه التى هى رحمه ربك الخاصه به.

و الدليل على أن الأرزاق و المعاش ليست بيد الإنسان اختلاف أفراده بالغنى و الفقر و العافيه و الصحه و فى الأولاد و سائر ما يعدّ من الرزق،و كلّ يريد أن يقتنى منها ما لا مزيد عليه،و لا يكاد يتيسّر لأحد منهم جميع ما يتمناه و يرتضيه فلو كان ذلك بيد الإنسان لم يوجد معدم فقير فى شىء منها بل لم يختلف اثنان فيها فاختلفهم فيها أوضح دليل على أن الرزق مقسوم بمشيئه من الله دون الإنسان.

على أن الإراده و العمل من الإنسان بعض الأسباب الناقصه لحصول المطلوب الذى هو الرزق و وراءهما أسباب كونه لا تحصى خارجه عن مقدره الإنسان لا يحصل المطلوب إلا بحصولها جميعا و اجتماعها عليه و ليست إلا بيد الله الذى اليه تنتهى الأسباب.

هذا كله فى المال و أما الجاه فهو أيضا مقسوم من عند الله فإنه يتوقف على صفات خاصه بها ترتفع درجات الإنسان فى المجتمع فيتمكن من تسخير من هو دونه كالفظنه و الدهاء و الشجاعه و علو الهمة و إحكام العزيمه و كثره المال و العشيره و شىء من ذلك لا يتم إلا بصنع من الله سبحانه،و ذلك قوله: «وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا» .

فيتين بمجموع القولين أعنى قوله: «نَحْنُ قَسَمْنَا» الخ؛ وقوله: «وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ» الخ؛ أن القاسم للمعيشه و الجاه بين الناس هو الله سبحانه لا غير، وقوله: «وَرَحِمْتُ رَبُّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ» أى النبوه خير من المال فكيف يملكون قسمها و هم لا يملكون قسم المال فيما بينهم.

و من الممكن أن يكون قوله: «وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ» عطف تفسير على قوله:

«نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ» الخ؛ يبين قسم المعيشه بينهم بيان علل انقسامها فى المجتمع الإنسانى، بيان ذلك أن كثره حوائج الإنسان فى حياته الدنيا بحيث لا يقدر على رفع جميعها فى عيش انفرادى أحوجته الى الاجتماع مع غيره من الأفراد على طريق الاستخدام و الاستدراار أولا و على طريق التعاون و التعاضد ثانيا كما مرّ فى مباحث النبوه من الجزء الثانى من الكتاب.

فآل الأمر الى المعاوضه العامه المفيده لنوع من الاختصاص بأن يعطى كل مما عنده من حوائج الحياه ما يفضل من حاجته و يأخذ به من الغير ما يعادله مما يحتاج اليه فيعطى مثلا ما يفضل من حاجته من الماء الذى عنده و قد حصّله و اختصّ به و يأخذ من غيره ما يزيد على قوته من الغذاء، و لازم ذلك أن يسعى كل فرد بما يستعد له و يحسنه من السعى فيقتنى مما يحتاج اليه ما يختص به، و لازم ذلك أن يحتاج غيره اليه فيما عنده من متاع الحياه فيتسخر له فيفيده ما يحتاج اليه كالتباز يحتاج الى ما عند السقاء من الماء و بالعكس فيتعاونان بالمعاوضه و كالمخدوم يتسخر للخادم لخدمته و الخادم يتسخر للمخدوم لماله و هكذا فكل بعض من المجتمع مسخر لآخرين بما عنده و الآخرون متسخرون له بلا واسطه أو بواسطه أو وسائط لما أن كلا يرتفع على غيره بما يختص به مما عنده بدرجات مختلفه باختلاف تعلق الهمم و القصود به.

و على ما تقدم فالمراد بالمعيشه كل ما يعاش به أعم من المال و الجاه أو خصوص المال

و غيره تبع له كما يؤيده قوله ذيلًا: «وَ رَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ» فإن المراد به المال و غيره من لوازم الحياه مقصود بالتبع.

قوله تعالى: وَ لَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً -الى قوله- وَ مَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ الآيه و ما يتلوهها لبيان أن متاع الدنيا من مال و زينه لا قدر لها عند الله سبحانه و لا منزله.

قالوا: المراد بكون الناس أمه واحده كونهم مجتمعين على سنّه واحده هي الكفر بالله لو رأوا أن زينه الدنيا بحذافيرها عند الكافر بالله و المؤمن سفر الكف منها مطلقا، و المعارج الدرجات و المصاعد.

و المعنى: و لو لا- أن يجتمع الناس على الكفر لو رأوا تنعم الكافرين و حرمان المؤمنين لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضه و درجات عليها يظهرون لغيرهم.

و يمكن أن يكون المراد بكون الناس أمه واحده كونهم جميعا على نسبه واحده تجاه الأسباب العامله فى حظوظ العيش من غير فرق بين المؤمن و الكافر، فمن سعى للرزق و وافقته الأسباب و العوامل الموصله الاخرى نال منه مؤمنا كان أو كافرا، و من لم يجتمع له حرم ذلك و قتر عليه الرزق مؤمنا أو كافرا.

و المعنى: لو لا ما أردنا أن يتساوى الناس تجاه الأسباب الموصله الى زخارف الدنيا و لا يختلفوا فيها بالإيمان و الكفر لجعلنا لمن يكفر، الخ.

قوله تعالى: وَ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ أَتُوبًا وَ سِرْرًا عَلَيْهَا يُتَّكُونَ وَ زُخْرَفًا تَنْكِيرَ «أَبْوَابًا» وَ «سُرْرًا» للتفخيم، و الزخرف الذهب أو مطلق الزينه، قال فى المجمع: الزخرف كمال حسن الشىء و منه قيل للذهب، و يقال: زخرفه زخرفه إذا حسّنه و زينه، و منه قيل للنقوش و التصاوير: زخرف، و فى الحديث إنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لم يدخل الكعبه حتى أمر بالزخرف فنحى.

انتهى. و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: وَإِنْ كَلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ «إِنْ» للنفي و «لَمَّا» بمعنى إلا أى ليس كل ما ذكر من مزايا المعيشه إلا متاع الحياه الدنيا الزائله الفانيه التى لا تدوم.

و قوله: وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ المراد بالآخره بقرينه المقام الحياه الآخره السعيده كأن الحياه الآخره الشقيه لا تعد حياه.

و المعنى: أن الحياه الآخره السعيده بحكم من الله تعالى و قضاء منه مختصه بالمتقين، و هذا التخصيص و القصر يؤيد ما قدمناه من معنى كون الناس أمه واحده فى الدنيا بعض التأييد.

قوله تعالى: وَمَنْ يَعْمُرْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ يُقَالُ: عَشَى يَعْشَى عَشَا مِنْ بَابِ عِلْمٍ يَعْلَمُ إِذَا كَانَ بِبَصَرِهِ آفَهُ لَا يَبْصُرُ مَطْلَقًا أَوْ بِاللَّيْلِ فَقَطْ، وَعَشَا يَعْمُرُ عَشَا وَعَشَا مِنْ بَابِ نَصْرٍ يَنْصُرُ إِذَا تَعَامَى وَتَعَشَى بِلَا آفِهِ، وَالتَّقْيِيزُ التَّقْدِيرُ وَ الْإِتْيَانُ بِشَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، يُقَالُ: قَيَّضَهُ لَهُ إِذَا جَاءَ بِهِ إِلَيْهِ.

لما انتهى الكلام الى ذكر المتقين و أن الآخره لهم عند الله قرنه بعاقبه أمر المعرضين عن الحق المتعامين عن ذكر الرحمن مشيرا الى أمرهم من أوله و هو أن تعاميهم عن ذكر الله يورثهم ملازمه قرناء الشيطان فيلازمونهم مضلين لهم حتى يردوا عذاب الآخره معهم.

فقوله: وَمَنْ يَعْمُرْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا أَى مِنْ تَعَامَى عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ وَ نَظَرَ إِلَيْهِ نَظَرَ الْأَعْمَى جِئْنَا إِلَيْهِ بِشَيْطَانٍ، وَ قَدْ عَبَّرَ تَعَالَى عَنْهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بِالْإِسْرَافِ فَقَالَ: أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزُّهُمْ أَزْأً (مريم ٨٣)، و إضافه الذكر الى الرحمن للاشاره الى أنه رحمه.

و قوله: فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ أَى مصاحب لا يفارقه.

قوله تعالى: وَإِنَّهُمْ لَيَصْبُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ مُهْتَدُونَ ضَمِيرٌ «إِنَّهُمْ» للشياطين، و ضمائر الجمع الباقيه للعاشين عن الذكر، و اعتبار الجمع نظرا الى

المعنى فى «وَمَنْ يَعْتُشْ» الخ؛ و الصّدّ الصّرف، و المراد بالسبيل ما يدعو اليه الذكر من سبيل الله الذى هو دين التوحيد.

و المعنى: و إن الشياطين ليصرفون العاشين عن الذكر و يحسب العاشون أنهم-أى العاشين أنفسهم-مهتدون الى الحق.

قوله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا جَاءْنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿حَتَّىٰ﴾ غايه لاستمرار الفعل الذى يدل عليه قوله فى الآيه السابقه:

«لَيُصُدُّوهُمْ» و قوله: «يَحْسُبُونَ» أى لا يزال القرناء يصدونهم و لا يزالون يحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا الواحد منهم.

و المراد بالمجىء اليه تعالى البعث، و ضمير «جَاءْنَا» و «قَالَ» راجع الى الموصول باعتبار لفظه، و المراد بالمشرقين المشرق و المغرب غلب فيه جانب المشرق.

و المعنى: و إنهم يستمرون على صدهم عن السبيل و يستمر العاشون عن الذكر على حساب أنهم مهتدون فى انصدادهم حتى إذا حضر الواحد منهم عندنا و معه قرينه و كشف له عن ضلاله و ما يستتبعه من العذاب الأليم، قال مخاطبا لقرينه متاذيا من صحابته: يا ليت بينى و بينك بعد المشرق و المغرب فبئس القرين أنت.

و يستفاد من السياق أنهم معذبون بصحابه القرناء وراء عذابهم بالنار، و لذا يتمنون التباعد عنهم و يخصونه بالذكر و ينسون سائر العذاب.

قوله تعالى: وَ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ الظاهر أنه معطوف على ما قبله من وصف حالهم، و المراد باليوم يوم القيامة، و قوله: «أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ» فاعل «لَنْ يَنْفَعَكُمْ» و المراد بضمير جمع المخاطب العاشون عن الذكر و قرناؤهم، و «إِذْ ظَلَمْتُمْ» واقع موقع التعليل.

و المراد-و الله أعلم-أنكم إذا أساء بعضكم الى بعض فى الدنيا فأوقعه فى مصيبه ربما

تسليتم بعض التسلى لو ابتلى هو نفسه بمثل ما ابتلاكم به فينفعكم ذلك تسليا و تشفيا لكن لا- ينفعكم يوم القيامة اشتراك قرنائكم معكم فى العذاب فإن اشتراكهم معكم فى العذاب و كونهم معكم فى النار هو بعينه عذاب لكم.

قوله تعالى: **أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْىَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** لما ذكر تقييضه القرناء لهم و تقليبهم إدراكهم بحيث يرون الضلال هدى و لا يقدر على معرفه الحق فزع عليه أن تبه صلى الله عليه و آله و سلم أن هؤلاء صم عمى لا يقدر هو على إسماعهم كلمه الحق و هدايتهم الى سبيل الرشده فلا يتجشم و لا يتكلف فى دعوتهم و لا يحزن لإعراضهم، و الاستفهام للانكار، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: **فَأَمَّا نَذَهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ** المراد بالإذهاب به توفيه صلى الله عليه و آله و سلم قبل الانتقام منهم، و قيل: المراد إذهابه بإخراجه من بينهم، و قوله: **«فَأِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ»** أى لا- محاله، و المراد بإراءته ما وعدهم الانتقام منهم قبل توفيه صلى الله عليه و آله و سلم أو حال كونه بينهم، و قوله: **«فَأِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ»** أى اقتدارنا يفوق عليهم.

و قوله فى الصدر: **«فَأَمَّا نَذَهَبَنَّ بِكَ»** أصله إن نذهب بك زيدت عليه ما و النون للتأكيد، و محصل الآية إنا منتقمون منهم بعد توفيك أو قبلها لا محاله.

قوله تعالى: **فَأَسِئْتَمَسُكَ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنِّيكَ عَلِيٍّ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** الظاهر أنه تفريع لجميع ما تقدم من أن إنزال الذكر من طريق الوحي و النبوه من سننه تعالى و إن كتابه النازل عليه حق و هو رسول مبين لا يستجيب دعوته إلا المتقون و لا يعرض عنها إلا قرناء الشياطين، و لا مطمع فى إيمانهم و سينتقم الله منهم.

فأكد عليه الأمر بعد ذلك كله أن يجدد فى التمسك بالكتاب الذى أوحى اليه لأنه على صراط مستقيم.

قوله تعالى: «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ الظاهر أن المراد بالذكر ذكر الله، و بهذا المعنى تكرر مرارا في السوره، و اللام في «لَكَ وَ لِقَوْمِكَ» للاختصاص بمعنى توجه ما فيه من التكليف اليهم، و يؤيده بعض التأييد قوله: «وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ» أى عنه يوم القيامة.

و عن أكثر المفسرين أن المراد بالذكر الشرف الذى يذكر به، و المعنى: و إنه لشرف عظيم لك و لقومك من العرب تذكرون به بين الامم.

قوله تعالى: «وَ سِئْلٌ مِّنْ أَرْسِلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أ جَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ قيل: المراد بالسؤال منهم السؤال من أممهم و علماء دينهم كقوله تعالى: فَسِئْلُ الَّذِينَ يقرؤون الكتابِ مِنْ قَبْلِكَ (يونس ٩٤)، و فائده هذا المجاز أن المسئول عنه السؤال منهم عين ما جاءت به رسلهم لا ما يجيبونه من تلقاء أنفسهم (١).

[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٤٦ الى ٥٦]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَ مَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَ أَخَذْنَا هُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَ قَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠) وَ نَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلَآ تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لَآ يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْ لَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوَرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَسِّرِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلْفًا وَ مَثَلًا لِلْآخِرِينَ (٥٦)

ص: ٦١٩

١- ١). الزخرف ٢٦-٤٥: بحث روائى فى: الكلمه الباقية فى عقب ابراهيم عليه السلام؛ قوله تعالى: «وَ قَالُوا لَوْ لَآ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتِينَ عَظِيمٍ»؛ و قوله تعالى: «نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»؛ امه واحده.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ اللام في «لَقَدْ» للقسم، و الباء في قوله: «بِآيَاتِنَا» للمصاحبه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ المراد بمجيئهم بالآيات إظهار المعجزات للدلاله على الرساله، و المراد بالضحك ضحك الاستهزاء استخفافا بالآيات.

قوله تعالى: وَ مَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا الخ؛ الاخت المثل، و قوله: «هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا» كناية عن كون كل واحده منها بالغه في الدلاله على حقيه الرساله، و جمله «وَ مَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ» الخ؛ حال من ضمير «مِنْهَا»، و المعنى: فلما أتاهم

بالمعجزات إذا هم منها يضحكون و الحال أن كلا منها تامه كامله فى إعجازها و دلالتها من غير نقص و لا قصور.

وقوله: **وَ أَخَذْنَا هُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** أى رجاء أن يرجعوا عن استكبارهم الى قبول رسالته، و المراد بالعذاب الذى أخذوا به آيات الرجز التى نزلت عليهم من السنين و نقص من الثمرات و الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع و الدم آيات مفصلات كما فى سورة الأعراف.

وقوله: **وَ قَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ** **إِنَّا لَمُهْتَدُونَ** ما فى «**بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ**» مصدرية أى بعهدك و المراد به عهده أن يكشف عنهم العذاب لو آمنوا كما قيل أو أن يستجيب دعاءه إذا دعا كما احتمله بعضهم.

و قولهم: يا أيها الساحر خطاب استهزاء استكبارا منهم كما قالوا: ادع ربك و لم يقولوا: ادع ربنا أو ادع الله استكبارا، و المراد أنهم طلبوا منه الدعاء لكشف العذاب عنهم و وعدوه الاهتداء.

و قيل: معنى الساحر فى عرفهم العالم و كان الساحر عندهم عظيما يعظمونه و لم يكن صفه ذم. و ليس بذاك بل كانوا ساخرين على استكبارهم كما يشهد به قولهم: ادع لنا ربك.

وقوله تعالى: **فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ** النكث نقض العهد و خلف الوعد، و وعدهم هو قولهم: «**إِنَّا لَمُهْتَدُونَ**» .

وقوله تعالى: **وَ نَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَ فَلَآ تُبْصِرُونَ** أى ناداهم و هو بينهم، و فصل «قال» لكونه فى موضع جواب السؤال كأنه قيل: فما ذا قال؟ فقيل: قال كذا.

وقوله: **وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي** أى من تحت قصرى أو من بستانى الذى فيه قصرى المرتفع العالى البناء، و الجملة أعنى قوله: «**وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ**» الخ؛ حاله أو

«وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ» معطوف على «مُلْكُ مِصْرَ» و قوله: «تَجْرِي مِنْ تَحْتِي» حال من الأنهار، و الأنهار أنهار النيل.

و قوله: «أَفَلَا تُبْصِرُونَ» فى معنى تكرير الاستفهام فى قوله: «أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ» الخ.

قوله تعالى: «أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لَا يَكَادُ يُبَيِّنُ الْمُهِنَ الْحَقِيرَ الضَّعِيفَ مِنَ الْمَهَانَةِ بِمَعْنَى الْحَقَارَةِ، وَ يَرِيدُ بِالْمُهِنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمَا بِهِ مِنَ الْفَقْرِ وَ رِثَاةِ الْحَالِ.

و قوله: «وَ لَا يَكَادُ يُبَيِّنُ» أى يفصح عن مراده و لعله كان يصف موسى عليه السَّلَامُ به باعتبار ما كان عليه قبل رساله لكن الله رفع عنه ذلك لقوله: «قَالَ قَدْ أُوتِيَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى» (طه ٣٦) بعد قوله عليه السَّلَامُ: «وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِيَّانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي» (طه ٢٨).

و قوله فى صدر الآيه: «أَمْ أَنَا خَيْرٌ» الخ؛ أم فيه إما منقطعه لتقرير كلامه السابق و المعنى:

بل أنا خير من موسى لأنه كذا و كذا، و إما متصله، و أحد طرفى التردد محذوف مع همزه الاستفهام، و التقدير: أ هذا خير أم أنا خير، الخ؛ و فى المجمع قال سيبويه و الخليل: عطف أنا بأم على «أَفَلَا تُبْصِرُونَ» لأن معنى «أَنَا خَيْرٌ» معنى أم تبصرون فكأنه قال: أ فلا تبصرون أم تبصرون لأنهم إذا قالوا له: أنت خير منه فقد صاروا بصراء عنده انتهى. أى إن موضع «أَمْ أَنَا خَيْرٌ» موضع أم تبصرون من وضع المسبب موضع السبب أو بالعكس.

و كيف كان فالإشارة الى موسى بهذا من دون أن يذكر باسمه للتحقير و توصيفه بقوله:

«الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لَا يَكَادُ يُبَيِّنُ» للتحقير و للدلالة على عدم خيريته.

قوله تعالى: «فَلَوْ لَا أَلْقَى عَلَيْهِ أَسْوَرَةً مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ الْأَسْوَرَةَ جَمْعُ سَوَارٍ بِالْكَسْرِ، وَ قَالَ الرَّاعِبُ: هُوَ مَعْرَبٌ دَسْتَوَارُهُ قَالُوا: كَانَ مِنْ دَابَّهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا سَوَدُوا رِجَالًا - سَوْرَهُ بِسَوَارٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ طَوْقُهُ بِطَوْقٍ مِنْ ذَهَبٍ فَالْمَعْنَى لَوْ كَانَ رَسُولًا وَ سَادَ النَّاسَ بِذَلِكَ لَأَلْقَى إِلَيْهِ أَسْوَرَةً مِنْ ذَهَبٍ.

و قوله: أَوْ لَجَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ الظاهر أن الاقتران بمعنى التقارن كالاتِّبَاق و الاستواء بمعنى التسابق و التساوى، و المراد إتيان الملائكة معه متقارنين لتصديق رسالته، و هذه الكلمة مما تكررت على لسان مكذبي الرسل كقولهم: لَوْ لَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (الفرقان ٧).

قوله تعالى: فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ أى استخفَّ عقول قومه و أحلامهم، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ الْإِسَافُ الْإِغْضَابُ أى فلما أغضبونا بفسوقهم انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين، و الغضب منه تعالى إرادته العقوبه.

قوله تعالى: فَجَعَلْنَاهُمْ سِلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ السلف المتقدم و الظاهر أن المراد بكونهم سلفا للآخرين تقدمهم عليهم فى دخول النار، و المثل الكلام السائر الذى يتمثل به و يعتبر به، و الظاهر أن كونهم مثلا لهم كونهم مما يعتبر به الآخرون لو اعتبروا و اتعظوا.

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٥٧ الى ٦٥]

وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ (٥٧) وَ قَالُوا أَا إِلَهِنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَ جَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَ إِنَّهُ لَعَلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرَنَّ بِهَا وَ اتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَ لَا يَصِدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢) وَ لَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لَأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (٦٣) إِنْ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْيَوْمِ (٦٥)

قوله تعالى: **وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ** -الى قوله- **خَصِمُونَ الْآيَةَ**؛ الى تمام أربع آيات أو ست آيات حول جدال القوم فيما ضرب من مثل ابن مريم، والذي يتحصل بالتدبر فيها نظرا الى كون السوره مكيه و مع قطع النظر عن الروايات هو أن المراد بقوله: **«وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا»** هو ما أنزله الله من وصفه في أول سوره مريم فإنها السوره المكيه الوحيدة التي وردت فيها قصه عيسى بن مريم عليه السلام تفصيلا، و السوره تقص قصص عده من النبيين بما أن الله أنعم عليهم كما تختتم قصصهم بقوله: **«أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ (مريم ٥٨)»**، وقد وقع في هذه الآيات قوله: **«إِنَّ هُوَ إِلَّا عِبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ»** و هو من الشواهد على كون قوله: **«وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا»** إشاره الى ما فى سوره مريم.

و المراد بقوله: **«إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ بِكسر الصاد أى يضجون و يضحكون ذم لقريش فى مقابلتهم المثل الحق بالتهكم و السخرية، و قرئ «يصدون» بضم الصاد أى يعرضون و هو**

أنسب للجمله التاليه.

وقوله: وَقَالُوا آلِهَتَنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ الاستفهام للانكار أى آلهتنا خير من ابن مريم كأنهم لما سمعوا اسمه بما يصفه القرآن به من النعمه والكرامه أعرضوا عنه بما يصفه به القرآن و أخذوه بما له من الصفه عند النصارى أنه إله فردّوا على النّبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم بأن آلهتنا خير منه وهذا من أسخف الجدال كأنهم يشيرون بذلك الى أن الذى فى القرآن من وصفه لا يعنى به و ما عند النصارى لا ينفع فإن آلهتهم خير منه.

وقوله: مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا أَي ما وجّهوا هذا الكلام «آلهتنا خيرٌ أَمْ هُوَ» اليك إلا جدلا يريدون به إبطال المثل المذكور و إن كان حقا «بل هم قوم خصمون» أى ثابتون على خصومتهم مصرّون عليها.

وقوله: إِنَّ هُوَ إِلَّا عِبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ رد لما استفاد من قولهم: «آلهتنا خيرٌ أَمْ هُوَ» أنه إله النصارى كما سيجىء (١).

قوله تعالى: إِنَّ هُوَ إِلَّا عِبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَ جَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ الذى يستدعيه السياق أن يكون الضمير لابن مريم، والمراد بكونه مثلا-على ما قيل- كونه آيه عجيبه إلهيه يسير ذكره كالأمثال السائره.

و المعنى: ليس ابن مريم إلا عبدا متظاهرا بالعبوديه أنعمنا عليه بالنبوه و تأييده بروح القدس و إجراء المعجزات الباهره على يديه و غير ذلك و جعلناه آيه عجيبه خارقه نصف به الحق لبني إسرائيل.

و هذا المعنى كما ترى ردّ لقولهم: «آلهتنا خيرٌ أَمْ هُوَ» الظاهر فى تفضيلهم آلهتهم فى ألوهيتها على المسيح عليهم السّلام فى ألوهيته و محصّله أن المسيح لم يكن إلها حتى ينظر فى منزلته فى

ص: ٦٢٥

(١- ١). الزخرف ٥٧-٦٥: بحث حول قوله تعالى: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ».

ألوهيه وإنما كان عبداً أنعم الله عليه بما أنعم، وأما آلهتهم فنظر القرآن فيهم ظاهر.

قوله تعالى: **وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ الظاهر أن الآية متصله بما قبلها مسروده لرفع استبعاد أن يتلبس البشر من الكمال ما يقصه القرآن عن عيسى عليهم السلام فيخلق الطير و يحيى الموتى و يكلم الناس في المهدي إلى غير ذلك، فيكون كالملائكة المتوسطين في الإحياء و الإماتة و الرزق و سائر أنواع من الكمال عند الوثنيه مع ذلك عبداً غير معبود و مألوها غير إله فإن هذا النوع من الكمال عند الوثنيه مختص بالملائكة و هو ملاك الوهيتهم و معبوديتهم و بالجمله هم يحلون تلبس البشر بهذا النوع من الكمال الذي يخصونه بالملائكة.**

فاجيب فإن لله أن يزكى الإنسان و يطهره من دناس المعاصي بحيث يصير باطنه باطن الملائكة فظاهرة ظاهر البشر و باطنه باطن الملك يعيش في الأرض يخلف مثله و يخلفه مثله و يظهر منه ما يظهر من الملائكة (١).

و على هذا فمن في قوله: «مِنْكُمْ» للتبويض، و قوله: «يَخْلُقُونَ» أى يخلف بعضهم بعضاً.

و فى المجمع أن «من» فى قوله: «مِنْكُمْ» تفيد معنى البدليه كما فى قوله:

فليت لنا من ماء زمزم شربه

مبرده باتت على الطهيان (٢)

و قوله: «يَخْلُقُونَ» أى يخلفون بنى آدم و يكونون خلفاء لهم، و المعنى: و لو نشاء أهلكناكم و جعلنا بدلکم ملائكة يسكنون الأرض و يعمرونها و يعبدون الله.

و فيه أنه لا يلائم النظم تلك الملاءمه.

قوله تعالى: **وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلشَّاعِرِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ**

ص: ٦٢٦

١- ١. و ليس هذا من الانقلاب المحال فى شىء بل نوع من التكامل الوجودى بالخروج من حد منه أدنى إلى حد منه أعلى كما بين فى محله.

٢- ٢. الطهيان قله الجبل، و معنى البيت: ليت لنا بدلا من ماء زمزم شربه من الماء مبرده بقيت ليله على قله الجبل.

مُسْتَقِيمٌ ضَمِيرٌ «إِنَّهُ» لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ الْمَرَادُ بِالْعَلْمِ مَا يَعْلَمُ بِهِ، وَ الْمَعْنَى: وَ إِنْ عِيسَى يَعْلَمُ بِهِ السَّاعَةَ فِي خَلْقِهِ مِنْ غَيْرِ أَبِي وَ إِحْيَائِهِ الْمَوْتَى فَيَعْلَمُ بِهِ أَنَّ السَّاعَةَ مُمْكِنَةٌ فَلَا تَشْكُو فِي السَّاعَةِ وَ لَا تَرْتَابُوا فِيهَا الْبَتَّةَ.

وَ قِيلَ: الْمَرَادُ بِكَوْنِهِ عِلْمًا لِلْسَّاعَةِ كَوْنَهُ مِنْ أَشْرَاطِهَا يَنْزِلُ عَلَى الْأَرْضِ فَيَعْلَمُ بِهِ قَرَبَ السَّاعَةِ.

وَ قِيلَ: الضَّمِيرُ لِلْقُرْآنِ وَ كَوْنَهُ عِلْمًا لِلْسَّاعَةِ كَوْنَهُ آخِرَ الْكُتُبِ الْمُنزَلَةِ مِنَ السَّمَاءِ.

وَ فِي الْوَجْهِينِ جَمِيعًا خَفَاءَ التَّفْرِيعِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ: «فَلَا تَمْتَرَنَّ بِهَا» .

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَ لَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَا قَدْ جِئْتُمْ بِالْحِكْمَةِ الْخِ؛ الْمَرَادُ بِالْبَيِّنَاتِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ، وَ بِالْحِكْمَةِ الْمَعَارِفَ الْإِلَهِيَّةَ مِنَ الْعُقَائِدِ الْحَقَّةِ وَ الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ.

وَ قَوْلُهُ: «وَ لِأَيُّبَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ» أَيْ فِي حِكْمِهِ مِنَ الْحَوَادِثِ وَ الْأَفْعَالِ، وَ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَ إِنْ كَانَ أَعْمٌ مِنَ الْإِعْتِقَادَاتِ الَّتِي يَخْتَلِفُ فِي كَوْنِهَا حَقُّهُ أَوْ بَاطِلُهُ وَ الْحَوَادِثِ وَ الْأَفْعَالِ الَّتِي يَخْتَلِفُ فِي مَشْرُوعِ حِكْمِهَا لَكِنْ الْمُنَاسِبُ لِسَبْقِ قَوْلِهِ: «قَدْ جِئْتُمْ بِالْحِكْمَةِ» أَنْ يَخْتَصَّ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ بِالْحَوَادِثِ وَ الْأَفْعَالِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ.

وَ قِيلَ: الْمَرَادُ بِقَوْلِهِ: «بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ» كُلِّ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ. وَ هُوَ كَمَا تَرَى.

وَ قِيلَ: الْمَرَادُ لِابْنِ لَكُمْ أُمُورَ دِينِكُمْ دُونَ أُمُورِ دُنْيَاكُمْ وَ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ مِنْ لَفْظِ الْآيَةِ وَ لَا مِنَ الْمَقَامِ.

وَ قَوْلُهُ: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَنْسَبُوا نَسَبَ التَّقْوَى إِلَى اللَّهِ وَ الطَّاعَةَ إِلَى نَفْسِهِ لِيَسْجَلَ أَنَّهُ لَا يَدْعَى إِلَّا الرَّسَالَهَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ دَعَاؤُهُ مِنْهُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّهُ وَ رَبُّهُمْ جَمِيعًا وَ إِتْمَامٌ لِلْحُجَّةِ عَلَى مَنْ يَقُولُ بِالْوَهْيَةِ.

قوله تعالى: فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنَ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ ضمير «مِنْ بَيْنِهِمْ» لمن بعث اليهم عيسى عليه السلام و المعنى:فاختلف الأحزاب المتشعبة من بين أمته فى أمر عيسى من كافر به قال فيه،و من مؤمن به غال فيه،و من مقتصد لزم الاعتدال.

و قوله: «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ» تهديد و وعيد للقالى منهم و الغالى.

[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٦٦ الى ٧٨]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦) الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بآيَاتِنَا وَ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَفَائِحٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوَابٍ وَ فِيهَا مَا تَشْتَهُهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلذُّ الْأَعْيُنُ وَ أَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْتَلِسُونَ (٧٥) وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَ نَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَ لَكِنْ أَكْثَرْتُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨)

قوله تعالى: هَيْلٌ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ النظر الانتظار، و البغته الفجأه، و المراد بعدم شعورهم بها غفلتهم عنها لاشتغالهم بامور الدنيا كما قال تعالى: مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (يس ٤٩)، فلا يتكرر المعنى فى قوله: «بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» .

و المعنى: ما ينتظر هؤلاء الكفار بكفرهم و تكذيبهم لآيات الله إلا أن تأتيهم الساعه مباغته لهم و هم غافلون عنها مشغولون بامور دنياهم أى إن حالهم حال من هدده الهلاك فلم يتوسل بشىء من أسباب النجاه و قعد ينتظر الهلاك فى الكلام كناية عن عدم اعتنائهم بالإيمان بالحق ليتخلصوا به عن أليم العذاب.

قوله تعالى: الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ الأخلاء جمع خليل و هو الصديق حيث يرفع خله صديقه و حاجته، و الظاهر أن المراد بالأخلاء المطلق الشامل للمخاله و التحاب فى الله كما فى مخالاه المتقين أهل الآخره و المخاله فى غيره كما فى مخالاه أهل الدنيا فاستثناء المتقين متصل.

و الوجه فى عداوه الأخلاء غير المتقين أن من لوازم المحاله إعانه أحد الخليلين الآيه فى مهام اموره فإذا كانت لغير وجه الله كان فيها الإعانه على الشقوه الدائمه و العذاب الخالد كما قال تعالى حاكيا عن الظالمين يوم القيامة: يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذُّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي (الفرقان ٢٩)، و أما الأخلاء من المتقين فإن مخالتهم تتأكد و تنفعهم يومئذ.

و فى الخبر النبوى: إذا كان يوم القيامة انقطعت الأرحام و قلت الأنساب و ذهبت الاخوه

إِلَّا الْآخُوهُ فِي اللَّهِ وَ ذَلِكَ قَوْلُهُ: «الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ» (١).

قوله تعالى: يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ من خطابه تعالى لهم يوم القيامة كما يشهد به قوله بعد: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ» الخ؛ و في الخطاب تأمين لهم من كل مكروه محتمل أو مقطوع به فإن مورد الخوف المكروه المحتمل و مورد الحزن المكروه المقطوع به فإذا ارتفعا ارتفعا.

قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا مُسْلِمِينَ الموصول بدل من المنادى المضاف في «يَا عِبَادِ» أو صفه له، و الآيات كل ما يدل عليه تعالى من نبي و كتاب و أى آية أخرى داله، و المراد بالإسلام التسليم لإرادة الله و أمره.

قوله تعالى: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ظاهر الأمر بدخول الجنة أن المراد بالأزواج هي النساء المؤمنات في الدنيا دون الحور العين لأنهن في الجنة غير خارجات منها.

و الجبور على ما قيل -السرور الذى يظهر أثره و حباره في الوجه و الحبره الزينه و حسن الهيئه، و المعنى: ادخلوا الجنة أنتم و أزواجكم المؤمنات و الحال أنكم تسرون سرورا يظهر أثره في وجوهكم أو تزينون بأحسن زينه.

قوله تعالى: يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَفَائِحٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوَابٍ الْخ؛ الصحف جمع صحفه و هي القصعه أو أصغر منها، و الأكواب جمع كوب و هو كوز لا عروه له، و في ذكر الصحف و الأكواب إشارة الى تنعمهم بالطعام و الشراب.

و قوله: وَ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلذُّ الْأَعْيُنُ الظاهر أن المراد بما تشتهيه الأنفس ما تتعلق به الشهوه الطبيعيه من مذوق و مشموم و مسموع و ملموس مما يتشارك فيه

ص: ٦٣٠

الإنسان و عامه الحيوان، والمراد بما تلذه الأعين الجمال و الزينه و ذلك مما الالتذاذ به كالمختص بالإنسان كما فى المناظر البهجه و الوجه الحسن و اللباس الفاخر، و لذا غيّر التعبير فعبر عما يتعلق بالأنفس بالاشتهااء و فيما يتعلق بالأعين باللذاه و فى هذين القسمين تنحصر اللذاذ النفسانيه عندنا.

و يمكن أن تدرج اللذاذ الروحيه العقليه فيما تلذه الأعين فإن الالتذاذ الروحي يعد من رؤيه القلب.

قال فى المجمع: و قد جمع الله سبحانه فى قوله: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلذُّ الْأَعْيُنُ﴾ ما لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يصفوا ما فى الجنه من أنواع النعيم لم يزيدوا على ما انتظمتها هاتان الصفتان. انتهى.

و قوله: وَ أَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ إخبار و وعد و تبشير بالخلود و لهم فى العلم به من اللذاه الروحيه ما لا يقاس بغيره و لا يقدر بقدر.

قوله تعالى: وَ تَلْعَكَ الْجِنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ قيل: المعنى أعطيتموها بأعمالكم، و قيل أورثتموها من الكفار و كانوا داخلها لو آمنوا و عملوا صالحا، و قد تقدم الكلام فى المعنيين فى تفسير قوله تعالى: أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (المؤمنون/ ١٠).

قوله تعالى: لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ أضاف الفاكهه الى ما مرت الإشاره اليه من الطعام و الشراب لإحصاء النعمه، و «من» فى «مِنْهَا تَأْكُلُونَ» للتبعيض و لا يخلو من إشاره الى أنها لا تنفد بالأكل.

قوله تعالى: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ المراد بالمجرمين المتلبسون بالإجرام فيكون أعم من الكفار و يؤيده إيرادها فى مقابله المتقين و هو أخص من المؤمنين.

والتفتير التخفيف و التقليل، و الإبلاس اليأس و بأسهم من الرحمه أو من الخروج من النار.

قوله تعالى: وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ و ذلك أنه تعالى جازاهم بأعمالهم لكنهم ظلموا أنفسهم حيث أوردوها بأعمالهم مورد الشقوه و الهلكه.

قوله تعالى: وَ زَادُوا بِمَا مَلَكَكَ لِيَقْضِيَ عَلَيْكَ رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْمَوْلُوتَ لِنَارِكُمْ لَأُولَئِكَ مِصْرُومٌ و ذلك هو الملك الخازن للنار على ما وردت به الأخبار من طرق العامه و الخاصه.

و خطابهم مالكا بما يسألونه من الله سبحانه لكونهم محجوبين عنه كما قال تعالى: كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (المطففين ١٥)، و قال: قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (المؤمنون ١٠٨).

فالمعنى: أنهم يسألون مالكا أن يسأل الله أن يقضى عليهم.

و المراد بالقضاء عليهم إمامتهم، و يريدون بالموت الانعدام و البطلان لينجوا بذلك عما هم فيه من الشقوه و أليم العذاب، و هذا من ظهور ملكاتهم الدنيويه فإنهم كانوا يرون في الدنيا أن الموت انعدام و فوت لا انتقال من دار الى دار فيسألون الموت بالمعنى الذى ارتكز فى نفوسهم و إلا فهم قد ماتوا و شاهدوا ما فى حقيقته.

و قوله: «قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْمَوْلُوتَ لِنَارِكُمْ» أى فيما أتم فيه من الحياه الشقيه و العذاب الأليم، و القائل هو مالكا جوابا عن مسألتهم.

قوله تعالى: لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ظاهره أنه من تمام كلام مالكا يقوله عن لسان الملائكه و هو منهم، و قيل: من كلامه تعالى و يبعده أنهم محجوبون يومئذ عن ربهم لا يكلمهم الله تعالى.

و الخطاب لأهل النار بما أنهم بشر، فالمعنى: لقد جئناكم معشر البشر بالحق و لكن أكثركم و هم المجرمون كارهون للحق.

و قيل: المراد بالحق مطلق الحق أى حق كان فهم يكرهونه و ينفرون منه و أما الحق المعهود الذى هو التوحيد أو القرآن فكلهم كارهون له مشتمزون منه.

و المراد بكرهاتهم للحق الكراهه بحسب الطبع الثانى المكتسب بالمعاصى و الذنوب لا بحسب الطبع الأول الذى هو الفطره التى فطر الناس عليها إذ لو كرهوه بحسبها لم يكلفوا بقبوله، قال تعالى: لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ (الروم ٢٠/٣٠)، و قال: وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا (الشمس ٨/٨).

و يظهر من الآيه أن الملاك فى السعاده و الشقاء قبول الحق و ردّه.

[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٧٩ الى ٨٩]

أَمْ أَمْرًا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَ رُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ
وَلَدٌ فَآنَا أَوْلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرُهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا
يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ (٨٣) وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَ بَلَّغْنَاكَ الَّذِي لَمْ يَلْمُكَ
السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَ لَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ
بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَ لئن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَ قِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (٨٨)
فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)

بيان:

قوله تعالى: أَمْ أُبْرِمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ [□] الابرام خلاف النقض و هو الاحكام، و أم منقطعه.

و المعنى: على ما يفيدته سياق الآيه و الآيه التاليه، بل أحكموا أمرا من الكيد بك يا محمد فإننا محكمون الكيد بهم فالآيه فى معنى قوله تعالى: أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ (الطور ٤٢).

قوله تعالى: أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوَاهُمْ ^{□□} بَلَىٰ وَ رُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ [□] السر ما يستسرونه فى قلوبهم و النجوى ما يناجيه بعضهم بعضا بحيث لا يسمعه غيرهما، و لما كان السر حديث النفس عبر عن العلم بالسر و النجوى جميعا بالسمع.

و قوله: بَلَىٰ وَ رُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ [□] أى بلى نحن نسمع سرهم و نجواهم و رسلنا الموكلون على حفظ أعمالهم عليهم يكتبون ذلك.

قوله تعالى: قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ [□] وَلَعْدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ [□] إبطال لالوهيه الولد بإبطال أصل وجوده من جهه علمه بأنه ليس، و التعبير بإن الشرطيه دون لو الداله على الامتناع -و كان مقتضى المقام أن يقال: لو كان للرحمن ولد، لاستنزاهم عن رتبه المكابره الى مرحله الانتصاف.

ص: ٦٣٤

و المعنى: قل لهم إن كان للرحمن ولد كما يقولون: فأنا أول من يعبده أداءً لحقّ بنوّته و مسانخته لوالده، لكنى أعلم أنه ليس و لذلك لا أعبده لا لبغض و نحوه.

قوله تعالى: **سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** تسبيح له سبحانه عما ينسبون اليه، و الظاهر أن «رَبِّ الْعَرْشِ» عطف بيان لرب السماوات و الأرض لأن المراد بالسماوات و الأرض مجموع العالم المشهود و هو عرش ملكه تعالى الذى استوى عليه و حكم فيه و دبر أمره.

و لا- يخلو من إشاره الى حجه على الوحدانيه إذ لما كان الخلق مختصا به تعالى حتى باعتراف الخصم و هو من شئون عرش ملكه، و التدبير من الخلق و الایجاد فإنه إيجاد النظام الجارى بين المخلوقات فالتدبير أيضا من شئون عرشه فربوبيته للعرش ربوبيه لجميع السماوات و الأرض.

قوله تعالى: **فَسَدْرُهُمْ يَخْضَوْنَ وَيَلْعَبُونَ حَتَّى يَلْقَاوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ** و عيد إجمالى لهم بأمر النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بالاعراض عنهم حتى يلاقوا ما يحذّرهم منه من عذاب يوم القيامة.

و المعنى: فاتركهم يخوضوا فى أباطيلهم و يلعبوا فى دنياهم و يشتغلوا بذلك حتى يلاقوا يومهم الذى يوعده و هو يوم القيامة كما ذكر فى الآيات السابقه «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ» الخ.

قوله تعالى: **وَ هُوَ الَّذِى فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ** أى هو الذى هو فى السماء إله مستحق للمعبوديه و هو فى الأرض إله أى هو المستحق لمعبوديه أهل السماوات و الأرض وحده، و يفيد تكرار «إِلَهٌ» كما قيل التأكيد و الدلالة على أن كونه تعالى إلهما فى السماء و الأرض بمعنى تعلق ألوهيته بهما لا بمعنى استقراره فيهما أو فى أحدهما.

و فى الآيه مقابله لما يثبتهُ الوثنيه لكل من السماء و الأرض إلهها أو آلهه، و فى تذييل الآيه بقوله: «وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ» الدال على الحصر إشاره الى وحدانيته فى الربوبيه التى لازمها الحكمه و العلم.

قوله تعالى: وَ تَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ثناء عليه تعالى بالتبارك و هو مصدريته للخير الكثير.

و كل من الصفات الثلاث المذكوره حجه على توحيده فى الربوبيه أما ملكه للجميع فظاهر فإن الربوبيه لمن يدبر الأمر و التدبير للملك، و أما اختصاص علم الساعه به فلأن الساعه هى المنزل الأقصى اليه يسير الكل و كيف يصح أن يرب الأشياء من لا علم به بمنتهى مسيرها فهو تعالى رب الأشياء لا من يدعونه، و أما رجوع الناس اليه فإن الرجوع للحساب و الجزاء و هو آخر التدبير فمن اليه الرجوع فإليه التدبير و من اليه التدبير له الربوبيه.

قوله تعالى: وَ لَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ السياق العموم فالمراد بالذين يدعون، أى يعبدونهم من دونه، كل معبود غيره تعالى من الملائكه و الجن و البشر و غيرهم.

و المراد «بِالْحَقِّ» الحق الذى هو التوحيد، و الشهاده به الاعتراف به، و المراد بقوله: «وَهُمْ يَعْلَمُونَ» حيث أطلق العلم علمهم بحقيقه حال من شفَعوا له و حقيقه عمله كما قال: لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَ قَالَ صَوَابًا (النبا ٣٨)، و إذا كان هذا حال الشفَعاء لا يملكونها إلا بعد الشهاده بالحق فما هم بشافعين إلا لأهل التوحيد كما قال: «وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى».

و الآيه مصرّحه بوجود الشفاعه.

قوله تعالى: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ أى الى متى يصرفون عن الحق الذى هو التوحيد الى الباطل الذى هو الشرك، و ذلك أنهم معترفون

أن لا خالق إلا الله و التدبير الذى هو ملاك الربوبية غير منفك عن الخلق كما اتضح مرارا فالرب المعبود هو الذى بيده الخلق و هو الله سبحانه.

قوله تعالى: وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ضمير «قيله» للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بلا إشكال، و القيل مصدر كالتقول و القول، و «قيله» معطوف على ما قيل على الساعة فى قوله: «وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ»، و المعنى: و عنده علم قوله: «يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ».

قوله تعالى: فَاصْبِرْ لَهُمْ وَ قُلْ سَيَسْلَمُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ أمر بالإعراض عنهم و إقناظ من إيمانهم، و قوله: «قُلْ سَيَسْلَمُ» أى وادعهم موادعه ترك من غير هم لك فيهم، و فى قوله: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» تهديد و وعيد.

ص: ٦٣٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٧) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (٨)

يتلخص غرض السوره في إنذار المرتابين في الكتاب بعذاب الدنيا و عذاب الآخرة و قد

سيق بيان ذلك بأنه كتاب مبين نازل من عند الله على من أرسله الى الناس لإنذارهم و قد نزل رحمه منه تعالى لعباده خير نزول في ليله القدر التي فيها يفرق كل أمر حكيم.

غير أن الناس و هم الكفار ارتابوا فيه لاعبين في هوساتهم و سيغشاهم أليم عذاب الدنيا ثم يرجعون الى ربهم فينتقم منهم بعد فصل القضاء بعذاب خالد.

ثم يذكر لهم تنظيرا لأول الوعيدين قصه إرسال موسى عليه السلام الى قوم فرعون لإنجاء بنى إسرائيل و تكذيبهم له و إغراقهم نكالا منه.

ثم يذكر إنكارهم لثاني الوعيدين و هو الرجوع الى الله في يوم الفصل فيقيم الحجه على أنه آت لا محاله ثم يذكر طرفا من أخباره و ما سيجرى فيه على المجرمين و يصيبهم من ألوان عذابه، و ما سيثاب به المتقون من حياه طيبه و مقام كريم.

و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها.

قوله تعالى: **حَمَّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ** الواو للقسم و المراد بالكتاب المبين القرآن.

قوله تعالى: **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ مُبَارَكَةٍ إِذْ كُنَّا مُنذِرِينَ** المراد بالليله المباركه التي نزل فيها القرآن ليله القدر على ما يدل قوله تعالى: **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ الْقَدْرِ** (القدر ١)، و كونها مباركه ظرفيتها للخير الكثير الذي ينسط على الخلق من الرحمه الواسعه، و قد قال تعالى: **وَمَا أَذْرَاكَ مَا لَيْلُهُ الْقَدْرِ لَيْلُهُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ** (القدر ٣).

و ظاهر اللفظ أنها إحدى الليالي التي تدور على الأرض و ظاهر قوله: **فِيهَا يُفْرَقُ الدال** على الاستمرار أنها تتكرر و ظاهر قوله تعالى: **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ** (البقره ١٨٥)، أنها تتكرر بتكرر شهر رمضان فهي تتكرر بتكرر السنين القمرية و تقع في كل سنه قمرية مره واحده في شهر رمضان، و أما أنها أى ليله هي؟ فلا- إشعار في كلامه تعالى بذلك، و أما الروايات فستوافيك في البحث الروائي التالي.

و المراد بنزول الكتاب في ليله مباركه على ما هو ظاهر قوله: «إِنَّمَا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ مُبَارَكَةٍ» وقوله: إِذَا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ الْقَدْرِ (القدر ١)، وقوله: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ (البقره ١٨٥)، أن النازل هو القرآن كله.

و لا يدفع ذلك قوله: وَ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا (الإسراء ١٠٦)، وقوله: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَ رَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (الفرقان ٣٢)، الظاهرين في نزوله تدريجا، و يؤيد ذلك آيات أخر كقوله: فَإِذَا أَنْزَلْتُمْ سُورَةَ مُحْكَمَةٍ (سوره محمد ٢٠)، وقوله: وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةَ نَظَرُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ (التوبه ١٢٧) و غير ذلك و يؤيد ذلك أيضا ما لا يحصى من الأخبار المتضمنه لأسباب النزول.

و ذلك أنه يمكن أن يحمل على نزول القرآن مرتين مره مجموعا و جمله في ليله واحده من ليالى شهر رمضان، و مره تدريجا و نجوما في مده ثلاث و عشرين سنه و هى مده دعوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ.

لكن الذى لا- ينبغى الارتياب فيه أن هذا القرآن المؤلف من السور و الآيات بما فيه من السياقات المختلفه المنطبقه على موارد النزول المختلفه الشخصيه لا- يقبل النزول دفعه فإن الآيات النازله فى وقائع شخصيه و حوادث جزئيه مرتبطه بأزمته و أمكنه و أشخاص و أحوال خاصه لا- تصدق إلا مع تحقق موارد المتفرقه زمانا و مكانا و غير ذلك بحيث لو اجتمعت زمانا و مكانا و غير ذلك انقلبت عن تلك الموارد و صارت غيرها فلا يمكن احتمال نزول القرآن و هو على هيئته و حاله بعينها مره جمله، و مره نجوما.

فلو قيل بنزوله مرتين كان من الواجب أن يفرق بين المرتين بالإجمال و التفصيل فيكون نازلا مره إجمالا و مره تفصيلا و نعى بهذا الإجمال و التفصيل ما يشير اليه قوله تعالى: كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (هود ١)، وقوله: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ (الزخرف ٤/٤)، و قد مرّ الكلام في معنى الإحكام و التفصيل في تفسير سورتي هود و الزخرف.

□ □ و قوله: «إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ» واقع موقع التعليل، و هو يدل على استمرار الإنذار منه تعالى قبل هذا الإنذار، فيدل على أن نزول القرآن من عنده تعالى ليس ببدع، فإنما هو إنذار و الإنذار سنّه جاريه له تعالى لم تزل تجرى في السابقين من طريق الوحي الى الأنبياء و الرسل و بعثهم للإنذار الناس.

قوله تعالى: فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ضَمِيرٌ «فِيهَا» ليليه و الفرق فصل الشىء من الشىء بحيث يتمايزان و يقابله الإحكام فالأمر الحكيم ما لا- يتميز بعض أجزاءه من بعض و لا- يتعين خصوصياته و أحواله كما يشير الى ذلك قوله تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (الحجر ٢١/٢١).

فلا- امور بحسب القضاء الإلهي مرحلتان: مرحله الإجمال و الإبهام و مرحله التفصيل، و ليله القدر- على ما يدل عليه قوله: «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ»- ليله يخرج فيها الامور من مرحله الإحكام الى مرحله الفرق و التفصيل، و قد نزل فيها القرآن و هو أمر من الامور المحكمه فرق في ليله القدر.

و لعل الله سبحانه أطلع نبيه على جزئيات الحوادث التي ستقع في زمان دعوته و ما يقارن منها نزول كل آيه أو آيات أو سوره من كتابه فيستدعي نزولها و أطلعه على ما ينزل منها فيكون القرآن نازلا عليه دفعه و جملة قبل نزوله تدريجا و مفرقا.

و مآل هذا الوجه اطلاع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ على القرآن في مرحله نزوله الى القضاء التفصيلي قبل نزوله على الأرض و استقراره في مرحله العين، و على هذا الوجه لا حاجة الى تفريق المرتين بالإجمال و التفصيل كما تقدم في الوجه الأول.

□ □ □ قوله تعالى: أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ المراد بالأمر الشأن و هو حال من

الأمر السابق و المعنى فيها يفرق كل أمر حال كونه أمرا من عندنا و مبتدأ من لدنا، و يمكن أن يكون المراد به ما يقابل النهى و المعنى: يفرق فيها كل أمر بأمر منا، و هو على أى حال متعلق بقوله: «يُفَرِّقُ» .

و يمكن أن يكون متعلقا بقوله: «أَنْزَلْنَاهُ» أى حال كون الكتاب أمرا أو بأمر من عندنا، و قوله: «إِنَّا كُنَّا مُرْسَلِينَ» لا يخلو من تأييد لذلك، و يكون تعليلا له و المعنى: إنا أنزلناه أمرا من عندنا لأن سنتنا الجارية إرسال الأنبياء و الرسل.

قوله تعالى: رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أى إنزاله رحمه من ربك أو أنزلناه لأجل إفاضه الرحمه على الناس أو لاقتضاء رحمه ربك إنزاله فقوله: «رَحْمَةً» حال على المعنى الاول و مفعول له على الثانى و الثالث.

و فى قوله: مِنْ رَبِّكَ التفات من التكلم مع الغير الى الغيبه و وجهه إظهار العناية بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لأنه هو الذى انزل عليه القران و هو المنذر المرسل الى الناس.

و قوله: رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ لما كانت الوثنيه يرون أن لكل صنّف من الخلق إلها أو أكثر و ربما اتخذ قوم منهم إلها غير ما يتخذه غيرهم عقب قوله: «مِنْ رَبِّكَ» بقوله: «رَبِّ السَّمَاوَاتِ» الخ؛ لئلا يتوهم متوهم منهم أن ربوبيته للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ ليست بالاختصاص كالتى بينهم بل هو تعالى ربه و رب السماوات و الأرض و ما بينهما، و لذلك عقبه أيضا فى الآيه التاليه بقوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» .

و قوله: إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ هذا الاشتراط كما ذكره الزمخشري من قبيل قولنا هذا إنعام زيد الذى تسامع الناس بكرمه و اشتهروا سخاءه إن بلغك حديثه و حدثت بقصته فالمعنى هو الذى يعرفه الموقنون بأنه رب السماوات و الأرض و ما بينهما إن كنتم منهم عرفتموه بأنه رب كل شىء.

قوله تعالى: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ لما

كان مدلول الآيه السابقه انحصار الربوبيه و هى الملك و التدبير فيه تعالى و الالوهيه و هى المعبوديه بالحق من لوازم الربوبيه عقبه بكلمه التوحيد النافيه لكل إله دونه تعالى.

و قوله: يُحْيِي وَ يُمِيتُ من أخص الصفات به تعالى و هما من شئون التدبير، و فى ذكرهما نوع تمهيد لما سيأتى من إنذارهم بالمعاد.

و قوله: رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ فيه كمال التصريح بأنه ربهم و رب آبائهم فليعبدوه و لا يتعللوا باتباع آبائهم فى عباده الأصنام، و لتكميل التصريح سقت الجملة بالخطاب فقول «رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمْ» .

و هما أعنى قوله: «يُحْيِي وَ يُمِيتُ» و قوله: «رَبُّكُمْ» خبران لمبتدأ محذوف و التقدير هو يحيى و يميت، الخ (١).

[سوره الدخان (٤٤): الآيات ١٩ الى ٣٣]

بَيْلٌ هُمْ فِي شَكِّ يَلْعَبُونَ (٩) فَازْتَقَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَعْسَى النَّاسُ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦) وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدَّوْا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَ أَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٩) وَ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاغْتَرِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَ لَاءِ قَوْمٍ مُّجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرَبْنَا بِعَبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ (٢٣) وَ أَتْرَكْنَا الْبَحْرَ رَهِيوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَابٍ وَ عِيُونٍ (٢٥) وَ زُرُوعٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَ نَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَكَاهِنِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَ أَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَ الْأَرْضُ وَ مَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) وَ لَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَ لَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَ آتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ (٣٣)

ص: ٦٤٣

قوله تعالى: بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ضمير الجمع لقوم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، والإضراب عن محذوف يدل عليه السياق السابق أى إنهم لا- يوقنون و لا- يؤمنون بما ذكر من رساله الرسول و صفه الكتاب الذى أنزل عليه بل هم فى شك و ارتياب فيه يلعبون بالاشتغال بديانهم، و ذكر الزمخشري أن الإضراب عن قوله: «إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ» .

قوله تعالى: فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ الارتقاب الانتصار و هذا وعيد بالعذاب و هو إتيان السماء بدخان مبين يغشى الناس .

و قوله: يَغْشَى النَّاسَ أى يشملهم و يحيط بهم، و المراد بالناس أهل مكة على القول الأول، و عامه الناس على القول الثانى .

قوله تعالى: هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ حكاية قول الناس عند نزول عذاب الدخان أى يقول الناس يوم تأتى السماء بدخان مبين: هذا عذاب أليم و يسألون الله كشفه بالاعتراف بربوبيته و إظهار الإيمان بالدعوه الحقه فيقولون:

ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون.

قوله تعالى: أئى لَهُم الذِّكْرَى وَ قَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ أى من أين لهم أن يتذكروا و يدعوا بالحق و الحال أنه قد جاءهم رسول مبين ظاهر فى رسالته لا يقبل الارتياب و هو محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و فى الآيه ردّ صدقهم فى وعدهم .

قوله تعالى: ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قَالُوا مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ التولى الإعراض، و ضمير «عنه» للرسول و «مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ» خبران لمبتدأ محذوف هو ضمير راجع الى الرسول و المعنى:

ثم أعرضوا عن الرسول و قالوا هو معلم مجنون فرموه أولاً بأنه معلم يعلمه غيره فيسند ما تعلمه الى الله سبحانه، قال تعالى: وَ لَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ (النحل /

(١٠٣)، و ثانيا بأنه مجنون مختل العقل.

قوله تعالى: **إِذَا كَاشَفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا** **إِنَّكُمْ عَائِدُونَ** أى إنا كاشفون للعذاب زمانا انكم عائدون الى ما كنتم فيه من الكفر و التكذيب هذا بناء على القول الأول و الآية تأكيد لرد صدقهم فيما و عدوه من الإيمان.

و أما على القول الثانى فالأقرب أن المعنى: إنكم عائدون الى العذاب يوم القيامة.

قوله تعالى: **يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى** **إِنَّا مُنْتَقِمُونَ** البطش - على ما ذكره الراغب - تناول الشىء بصوله، و هذا اليوم بناء على القول الأول المذكور يوم بدر و بناء على القول الثانى يوم القيامة، و ربما أيد توصيف البطشه بالكبرى هذا القول الثانى فإن بطش يوم القيامة و عذابه أكبر البطش و العذاب، قال تعالى: **فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ** (الغاشية / ٢٤)، كما أن أجره أكبر الأجر قال تعالى: **وَلَأَجْرُ الْآخِرِ أَكْبَرُ** (النحل / ٤١).

قوله تعالى: **وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ** **وَ جَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ** الفتنه الامتحان و الابتلاء للحصول على حقيقه الشىء، و قوله: «و **جَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ**» السخ؛ تفسير للامتحان، و الرسول الكريم موسى عليه السلام، و الكريم هو المتصف بالخصال الحميده قال الراغب:

الكرم إذا وصف الله تعالى به فهو اسم لإحسانه و إنعامه المتظاهر نحو قوله: «**فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**» و إذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق و الأفعال المحموده التى تظهر منه، و لا يقال:

هو كريم حتى يظهر ذلك منه، قال: و كل شىء شرف فى بابه فإنه يوصف بالكرم قال تعالى:

أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ

وَ زُرُوعٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ

وَ قُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا انتهى.

قوله تعالى: **أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ** **إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** تفسير لمجىء الرسول فإن معنى مجىء الرسول تبليغ الرساله و كان من رساله موسى عليه السلام الى فرعون و قومه أن يرسلوا معهم بنى إسرائيل و لا يعذبوهم، و المراد بعباد الله بنو إسرائيل و عبر عنهم بذلك

استرحاما و تلويحا الى أنهم فى استكبارهم و تعديهم عليهم إنما يستكبرون على الله لأنهم عباد الله.

و فى قوله: إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ حيث وصف نفسه بالأمانه دفع لاحتمال أن يخونهم فى دعوى الرساله و إنجاء بنى إسرائيل من سيطرتهم فيخرج معهم عليهم فيخرجهم من ارضهم كما حكى تعالى عن فرعون إذ قال للملاي حوله: إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ (الشعراء ٢٥).

قوله تعالى: وَ أَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ أى لا تتجبروا على الله بتكذيب رسالتي و الإعراض عما أمركم الله فإن تكذيب الرسول فى رسالته استعلاء و تجبر على من أرسله و الدليل على أن المراد ذلك تلعيل النهى بقوله: «إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ» أى حجه بارزه من الآيات المعجزه أو حجه المعجزه و حجه البرهان.

قيل: و من حسن التعبير الجمع بين التأديه و الأمين و كذا بين العلو و السلطان.

قوله تعالى: وَ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَوَجُّمُونِ أَى التجات اليه تعالى من رجمكم إياى فلا تقدرتون على ذلك، و الظاهر أنه إشاره الى ما آمنه ربه قبل المجيء الى القوم كما فى قوله تعالى: قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَقْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَ أَرَى (طه ٤٦).

قوله تعالى: وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَمَا عَتَرْتُمُنِي لِي وَ لَمْ تَأْمِنُوا لِي فَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ أى إن لم تؤمنوا لى فكونوا بمعزل منى لا- لى و لا على و لا تتعرضوا لى بخير أو شر، و قيل: المراد تنحوا عنى و انقطعوا، و هو بعيد.

قوله تعالى: فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَ لَاقِيَهُمْ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ أى دعاه بأن هؤلاء قوم مجرمون و قد ذكر من دعائه السبب الداعى له الى الدعاء و هو إجرامهم الى حد يستحقون معه الهلاك و يعلم ما سأله مما أجاب به ربه تعالى إذ قال: «فَأَسْرِبِجَادِي» الخ؛ و هو الإهلاك.

قوله تعالى: فَاسْرِبِجَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ الإسراء: السير بالليل فيكون

قوله: «لَيْلًا» تأكيداً له و تصرّيحاً به، و المراد بعبادى بنو إسرائيل، و قوله: «إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ» أى يتبعكم فرعون و جنوده، و هو استئناف يخبر عما سيقع عقب الإسراء.

و فى الكلام إيجاز بالحذف و التقدير فقال له: أسر بعبادى ليلاً إنكم متبعون يتبعكم فرعون و جنوده.

قوله تعالى: وَ أَتْرَكِ الْبَحْرَ رَهْوَاً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ قال فى المفردات: و اترك البحر رهوا أى ساكناً، و قيل: سعه من الطريق و هو الصحيح. انتهى. و قوله: «إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ» تعليل لقوله: «وَ أَتْرَكِ الْبَحْرَ رَهْوَاً» .

و فى الكلام إيجاز بالحذف اختصاراً و التقدير: أسر بعبادى ليلاً يتبعكم فرعون و جنوده حتى إذا بلغت البحر فاضربه بعصاك لينفتح طريق لجوازكم فجاوزوه و اتركه ساكناً أو مفتوحاً على حاله فيدخلونه طمعا فى إدراككم فهم جند مغرقون.

قوله تعالى: كَمْ تَرَكَوا مِنْ جَنَازٍ وَ عَيْونٍ وَ زُرُوعٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ وَ نَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ «كَمْ» للتكثير أى كثيراً ما تركوا، و قوله: «مِنْ جَنَازٍ» الخ؛ بيان لما تركوا، و المقام الكريم المساكن الحسنه الزاهيه، و النعمه بفتح النون التنعم و بناؤها بناء المره كالضربه و بكسر النون قسم من التنعم و بناؤها بناء النوع كالجلسه و فسروا النعمه هاهنا بما يتنعم به و هو أنسب للترك، و فاكهين من الفاكهه بمعنى حديث الانس و لعل المراد به هاهنا التمتع كما يتمتع بالفواكه و هى أنواع الثمار.

و قوله: كَذَلِكَ قيل: معناه الأمر كذلك، و قيل: المعنى نفعل فعلاً كذلك لمن نريد إهلاكه، و قيل: الإشارة الى الإخراج المفهوم من الكلام السابق، و المعنى: مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها.

و يمكن أن يكون حالاً من مفعول «تَرَكَوا» المحذوف و المعنى: كثيراً ما تركوا أشياء كذلك أى على حالها و الله أعلم.

قوله تعالى: وَ أَوْزَنَّا لَهَا قَوْماً آخِرِينَ الضمير لمفعول «تَرَكَوا» المحذوف المبين بقوله: «مِنْ جَنَاتٍ» الخ؛ والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ بكاء السماء والأرض على شيء فائت كناية تخيلية عن تأثرهما عن فوته وفقده فعدم بكائهما عليهم بعد إهلاكهم كناية عن هوان أمرهم على الله وعدم تأثير هلاكهم في شيء من أجزاء الكون.

وقوله: «وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ» كناية عن سرعه جريان القضاء الإلهي والقهر الربوبي في حقهم وعدم مصادفته لمانع يمنعه أو يحتاج الى علاج في رفعه حتى يتأخر به.

قوله تعالى: وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ وَهُوَ مَا يُصِيبُهُمْ وَهُمْ فِي إِسَارِهِ فرعون من ذبح الأبناء واستحياء النساء وغير ذلك.

قوله تعالى: مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ «مِنْ فِرْعَوْنَ» بدل من قوله: «مِنَ الْعَذَابِ» إما بحذف مضاف والتقدير من عذاب فرعون، أو من غير حذف يجعل فرعون عين العذاب دعوى للمبالغة، وقوله: «إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» أى متكبرا من أهل الإسراف والتعدى عن الحد.

قوله تعالى: وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ أى اخترناهم على علم منا باستحقاقهم الاختيار على ما يفيد السياق.

و المراد بالعالمين جميع العالمين من الامم إن كان المراد بالاختيار الاختيار من بعض الوجوه ككثره الأنبياء فإنهم يمتازون من سائر الامم بكثره الأنبياء المبعوثين منهم و يمتازون بأن مرّ عليهم دهر طويل من التيه وهم يتظللون بالغمام و يأكلون المن و السلوى الى غير ذلك.

و عالمو أهل زمانهم إن كان المراد بالاختيار مطلقه فإنهم لم يختاروا على الامه الاسلاميه

التي خاطبهم الله تعالى بمثل قوله: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ (آل عمران ١١٠)، وقوله: هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ (الحج ٧٨).

قوله تعالى: وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ البلاء الاختبار والامتحان أى و أعطينا بنى إسرائيل من الآيات المعجزات ما فيه امتحان ظاهر و لقد أوتوا من الآيات المعجزات ما لم يعهد فى غيرهم من الامم و ابتلوا بذلك ابتلاء مبينا.

قيل: و فى قوله: «فِيهِ» إشارة الى أن هناك امورا اخرى ككونه معجزه.

و فى تذييل القصة بهذه الآيات الأربع أعنى قوله: «وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ -الى قوله- بَلَاءُ مُبِينٌ» نوع تطيب لنفس النبى صلى الله عليه و آله و سلم و إيماء الى أن الله تعالى سينجيه و المؤمنين به من فراعنه مكه و يختارهم و يمكنهم فى الأرض فينظر كيف يعملون.

[سورة الدخان (٤٤): الآيات ٣٤ الى ٥٩]

إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٦) أَمْ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ بُعِثُوا وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكَدَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ (٤٣) طَعَامٌ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَعَلَى الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتْقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمَنِينَ (٥٥) لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضلاً مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (٥٩)

قوله تعالى: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ رجوع الى أول الكلام من قوله: «يَلْهُم فِي شَكِّ يَلْعَبُونَ» والإشارة بهؤلاء الى قريش و من يلحق بهم من العرب الوثنيين المنكرين للمعاد، وقولهم: «إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَىٰ» يريدون به نفى الحياه بعد الموت الملازم لنفى المعاد بدليل قولهم بعده: «وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ» أى بمبعوثين، قال فى الكشاف: يقال: أنشر الله الموتى و نشرهم اذا بعثهم. انتهى.

فقولهم: إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَى الضمير فيه للعاقبه و النهايه أى ليست عاقبه امرنا و نهايه وجودنا و حياتنا إلا موتتنا الاولى فنعدم بها و لا حياه بعدها أبدا.

و وجه تقييد الموته فى الآيه بالاولى، بأنه ليس بقيد احترازى إذ لا ملازمه بين الأول و الآخر أو بين الأول و الثانى فمن الجائز أن يكون هناك شىء أول و لا ثانى له و لا فى قبالة آخر، كذا قيل.

قوله تعالى: فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ تتمه كلام القوم و خطاب منهم للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين به حيث كانوا يذكرون لهم البعث و الإحياء فاحتجوا لردّ الإحياء بعد الموت بقولهم: «فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ» أى فليحى آباؤنا الماضون بدعائكم أو بأى وسيله اتخذتموها حتى نعلم صدقكم فى دعواكم أن الأموات سيحيون و أن الموت ليس بانعدام.

قوله: أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكَ أَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ تهديد للقوم بالإهلاك كما أهلك قوم تبع و الذين من قبلهم من الامم.

و تبع هذا ملك من ملوك الحمير باليمن و اسمه على ما ذكروا أسعد أبو كرب و قيل: سعد أبو كرب و سيأتى فى البحث الروائى نبذه من قصته و فى الكلام نوع تلويح الى سلامه تبع نفسه

من الإهلاك.

قوله تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ضمير التثنيه فى قوله: «وَمَا بَيْنَهُمَا» لجنسى السماوات والأرض ولذا لم يجمع، و الباء فى قوله: «بِالْحَقِّ» للملابسه أى ما خلقناهما إلا متلبسين بالحق، و جَوَز بعضهم كونها للسببيه أى ما خلقناهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق الذى هو الإيمان و الطاعه و البعث و الجزاء، و لا يخفى بعده.

و مضمون الآيتين حجه برهانيه على ثبوت المعاد و تقريرها أنه لو لم يكن وراء هذا العالم عالم ثابت باق بل كان الله لا يزال يوجد أشياء ثم يعدمها ثم يوجد أشياء آخر ثم يعدمها و يحيى هذا ثم يميتة و يحيى آخر و هكذا كان لاعبا فى فعله عابثا به و اللعب عليه تعالى محال ففعله حق له غرض صحيح فهناك عالم آخر باق دائمى ينتقل اليه الأشياء و ما فى هذا العالم الدنيوى الفانى البائد مقدمه للانتقال الى ذلك العالم و هو الحياه الآخره.

و قد فصلنا القول فى هذا البرهان فى تفسير الآيه ١٦ من سوره الأنبياء، و الآيه ٢٧ من سوره ص فليراجع.

و قوله: وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ تقرير لهم بالجهل.

قوله تعالى: إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ بيان لصفه اليوم الذى يشته البرهان السابق و هو يوم القيامه الذى فيه يقوم الناس لرب العالمين.

و سماه الله يوم الفصل لأنه يفصل فيه بين الحق و الباطل و بين المحق و المبطل و المتقين و المجرمين أو لأنه يوم القضاء الفصل منه تعالى.

و قوله: مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ أى موعد الناس أجمعين أو موعد من تقدم ذكره من قوم تبع و قوم فرعون و من تقدمهم و قريش و غيرهم.

قوله تعالى: يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ بيان

ص: ٦٥٣

ليوم الفصل، و المولى هو صاحب الذى له أن يتصرف فى أمور صاحبه و يطلق على من يتولى الأمر و على من يتولى أمره و المولى الأول فى الآيه هو الأول و الثانى هو الثانى.

و الآيه تنفى أولا- إغناء مولى عن مولاه يومئذ، و تخبر ثانيا أنهم لا ينصرون و الفرق بين المعنيين أن الإغناء يكون فيما استقل المعنى فى عمله و لا يكون لمن يغنى عنه صنع فى ذلك، و نصره إنما تكون فيما كان للمنصور بعض أسباب الظفر ناقصه و يتم له ذلك بنصره الناصر.

و الوجه فى انتفاء الإغناء و النصر يومئذ أن الأسباب المؤثره فى نشأه الحياه الدنيا تسقط يوم القيامه، قال تعالى: وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (البقره ١٦٦)، و قال: فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ (يونس ٢٨).

قوله تعالى: إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ استثناء من ضمير «لَا هُمْ يُنصِرُونَ» و الآيه من أدله الشفاعة يومئذ و قد تقدم تفصيل القول فى الشفاعة فى الجزء الأول من الكتاب.

هذا على تقدير رجوع ضمير «لَا هُمْ يُنصِرُونَ» الى الناس جميعا على ما هو الظاهر. و أما لو رجع الى الكفار كما قيل فالاستثناء منقطع و المعنى: لكن من رحمه الله و هم المتقون فإنهم فى غنى عن مولى يغنى عنهم و ناصر ينصرهم.

و أما ما جوزه بعضهم من كونه استثناء متصلا من «مولى» فقد ظهر فساده مما قدمناه فإن الإغناء إنما هو فيما لم يكن عند الإنسان شىء من أسباب النجاه و من كان على هذه الصفه لم يغن عنه مغن و لا استثناء و الشفاعة نصره تحتاج الى بعض أسباب النجاه و هو الدين المرضى و قد تقدم فى بحث الشفاعة، نعم يمكن أن يوجه بما سيجىء فى روايه الشحام.

و قوله: إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ أى الغالب الذى لا يغلبه شىء حتى يمنعه من تعذيب من يريد عذابه، و مفيض الخير على من يريد أن يرحمه و يفيض الخير عليه و مناسبه الاسمين الكريمين لمضامين الآيات ظاهره.

قوله تعالى: إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامٌ الْأَثِيمِ تقدم الكلام في شجره الزقوم في تفسير سورة الصافات، والأثيم من استقر فيه الإثم إما بالمدامه على معصيه أو بالإكثار من المعاصي والآيه الى تمام ثمان آيات بيان حال أهل النار.

قوله تعالى: كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ المهمل هو المذاب من النحاس والرصاص وغيرهما، والغلي والغليان معروف، والحميم الماء الحار الشديد الحرارة، وقوله: «كَالْمُهْلِ» خبر ثان لقوله: «إِنَّ» كما أن قوله: «طَعَامٌ الْأَثِيمِ» خبر أول، وقوله: «يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ» خبر ثالث، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ الاعتلاء الزعزعه و الدفع بعنف و سواء الجحيم وسطه، والخطاب للملائكة الموكلين على النار أى نقول للملائكة خذوا الأثيم و ادفعوه بعنف الى وسط النار لتحيط به قال تعالى: وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (التوبه ٤٩).

قوله تعالى: ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ كأن المراد بالعذاب ما يعذب به، وإضافته الى الحميم بيانيه و المعنى: ثم صبوا فوق رأسه من الحميم الذى يعذب به.

قوله تعالى: ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ خطاب يخاطب به الأثيم و هو يقاسى العذاب بعد العذاب، و توصيفه بالعزه و الكرامه على ما هو عليه من الذله و اللأمة استهزاء به تشديدا لعذابه و قد كان يرى فى الدنيا لنفسه عزه و كرامه لا تفارقانه كما يظهر مما حكى الله سبحانه من قوله: وَمَا أَظُنُّ الشَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى (حم السجده ٥٠).

قوله تعالى: إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ الامتراء الشك و الارتياب، والآيه تتمه قولهم له: «ذُوقْ» الخ؛ و فيها تأكيد و إعلام لهم بخطئهم و زلتهم فى الدنيا حيث ارتابوا فيما يشاهدونه اليوم من العذاب مشاهده عيان، و لذا عبّر عن تحمل العذاب بالذوق لما أنه يعبر

عن إدراك ألم المولمات و لذه الملمذات إدراكا تاما بالذوق.

و يمكن أن تكون الآيه استثناءفا من كلام الله سبحانه يخاطب به الكفار بعد ذكر حالهم فى يوم القيامة، و ربما أئده قوله: «كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ» بخطاب الجمع و الخطاب فى الآيات السابقه بالإفراد.

قوله تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ المقام محل القيام بمعنى الثبوت و الركوز و لذا فسر أيضا بموضع الإقامه، و الأمين صفه من الأمن بمعنى عدم إصابه المكروه، و المعنى: إن المتقين-يوم القيامة-ثابتون فى محل ذى أمن من إصابه المكروه مطلقا.

و بذلك يظهر أن نسبه الأمن الى المقام بتوصيف المقام بالأمين من المجاز فى النسبه.

قوله تعالى: فِي جَنّاتٍ وَ عُيُونٍ بيان لقوله: «فِي مَقَامٍ أَمِينٍ» و جعل العيون ظرفا لهم باعتبار المجاوره و وجودها فى الجنات التى هى ظرف، و جمع الجنات باعتبار اختلاف أنواعها أو باعتبار أن لكل منهم وحده جنه أو أكثر.

قوله تعالى: يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ السندس الرقيق من الحرير و الإستبرق الغليظ منه و هما معرّبان من الفارسيه.

و قوله: مُتَقَابِلِينَ أى يقابل بعضهم بعضا للاستيناس إذ لا شرّ و لا مكروه عندهم لكونهم فى مقام أمين.

قوله تعالى: كَذَلِكَ وَ زَوْجُهُمْ بِحُورٍ عِينٍ أى الأمر كذلك أى كما وصفناه و المراد بتزويجهم بالحور جعلهم قرناء لهم من الزوج بمعنى القرين و هو اصل التزويج فى اللغه، و الحور جمع حوراء بمعنى شديده سواد العين و بياضها أو ذات المقله السوداء كالظباء، و العين جمع عيناء بمعنى عظيمه العينين، و ظاهر كلامه تعالى أن الحور العين غير نساء الدنيا الداخله فى الجنه.

قوله تعالى: يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ أى آمينين من ضررها.

قوله تعالى: لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ أَيِ إِنَّهُمْ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ أَحْيَاءٌ بِحَيَاةِ أَبَدِيهِ لَا يَعْتَرِيهَا مَوْتٌ.

و قوله: وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ الوقايه حفظ الشيء مما يؤذيه و يضره، فالمعنى: و حفظهم من عذاب الجحيم، و ذكر وقايتهم من عذاب الجحيم مع نفى الموت عنهم تتميم لقسمه المكاره أى إنهم مصونون من الانتقال من دار الى دار و من نشأه الجنه الى نشأه غيرها و هو الموت و مصونون من الانتقال من حال سعيده الى حال شقيه و هى عذاب الجحيم.

قوله تعالى: فَضَلًّا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ حال مما تقدم ذكره من الكرامه و النعمه، و يمكن أن يكون مفعولا مطلقا أو مفعولا-له، و على أى حال هو تفضل منه تعالى من غير استحقاق من العباد استحقاقا يوجب عليه تعالى و يلزمه على الإثابه فإنه تعالى مالك غير مملوك لا يتحكم عليه شىء، و إنما هو وعده لعباده ثم أخبر أنه لا يخلف وعده، و قد تقدم تفصيل القول فى هذا المعنى فى الأبحاث السابقه.

و قوله: «ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» الفوز هو الظفر بالمراد و كونه فوزا عظيما لكونه آخر ما يسعد به الإنسان.

قوله تعالى: فَإِنَّمَا يَسْرُنَا بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ تفريع على جميع ما تقدم من أول السوره الى هنا و فذلكه للجميع، و التيسير التسهيل، و الضمير للكتاب و المراد بلسان النبى صلى الله عليه و آله و سلم العربيه.

و المعنى: فإنما سهلنا القرآن- أى فهم مقاصده- بالعربيه لعلهم- أى لعل قومك- يتذكرون فتكون الآيه قريبه المعنى من قوله: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (الزخرف ٣).

و قيل: المراد من تيسير الكتاب بلسان النبى صلى الله عليه و آله و سلم إجراؤه على لسانه و هو أمى لا يقرأ و لا

يكتب ليكون آيه لصدق نبوته، و هو بعيد من سياق الفذلكه.

قوله تعالى: فَأَرْتَبْنَا لَهُمْ مِزْقَاتٍ مِّمَّا كَانَتْ تَرْتَبُونَ كَأَنَّهُ مَتَفَرِّعٌ عَلَى مَا يُتَفَرِّعُ عَلَى الْآيَةِ السَّابِقَةِ، و محصّل المعنى أنا يسرناه بالعربيه رجاء أن يتذكروا فلم يتذكروا بل هم فى شك يلعبون و ينتظرون العذاب الذى لا مرّ له من المكذبين فانتظر العذاب إنهم منتظرون له.

فإطلاق المرتقيين على القوم من باب التهكم، و من سخيّف القول قول من يقول إن فى الآيه أمرا بالمتاركة و هى منسوخه بآيه السيف.

ص: ٦٥٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّهِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاجْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَىِّ حَيْثُ بَعِدَ اللَّهُ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيُلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ (١١) اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)

غرض السوره دعوه عامه على الإنذار تفتتح بآيات الوجدانيه ثم تذكر تشريع الشريعه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم و تشير الى لزوم اتباعها له و لغيره بما أن أمامهم يوما يحاسبون فيه على أعمالهم الصالحه من الإيمان و اتباع الشريعه و اجتراحهم السيئات بالإعراض عن الدين، ثم تذكر ما سيجرى على الفريقين فى ذلك اليوم و هو يوم القيامه.

و فى خلال مقاصدها إنذار و وعيد شديد للمستكبرين المعرضين عن آيات الله و الذين اتخذوا إلههم هواهم و أضلهم الله على علم.

و من طرائف مطالبها بيان معنى كتابه الأعمال و استنساخها.

و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها و استثنى بعضهم قوله تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا الْآيَةُ، و لا شاهد له.

قوله تعالى: حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ الظاهر أن «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ» من إضافه الصفه الى الموصوف و المصدر بمعنى المفعول، و «مِنَ اللَّهِ» متعلق بتنزيل، و المجموع خبر لمبتدأ محذوف.

و المعنى: هذا كتاب منزل من الله العزيز الحكيم، و قد تقدم الكلام فى مفردات الآيه فيما تقدم.

قوله تعالى: إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ آيه الشىء علامته التى تدلّ عليه و تشير اليه، و المراد بكون السماوات و الأرض فيها آيات كونها بنفسها آيات له فليس وراء السماوات و الأرض و سائر ما خلق الله أمر مظروف لها هو آيه دالّه عليه تعالى.

و من الدليل على ما ذكرنا اختلاف التعبير فيها فى كلامه تعالى فتاره يذكر أن فى الشىء آيه له و أخرى يعدّه بنفسه آيه كقوله تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ لَآيَاتٍ (آل عمران ١٩٠/)، و قوله: وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ (الروم ٢٢/)، و نظائرهما كثيره، و يستفاد من اختلاف التعبير الذى فيها أن معنى كون الشىء فيه آيه هو كونه بنفسه آيه كما يستفاد من اختلاف التعبير فى مثل قوله: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ لَآيَاتٍ، و قوله: إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَآيَاتٍ الْآيَةُ؛ أن المراد من خلق السماوات و الأرض نفسها لا غير.

و العنايه فى أخذ الشىء ظرفا للآيه مع كونه بنفسه آيه اعتبار جهات وجوده و أن لوجوده جهه أو جهات كل واحده منها آيه من الآيات و لو أخذت نفس الشىء لم يستقم إلا- أخذها آيه واحده كما فى قوله تعالى: وَ فِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (الذاريات ٢٠/)، و لو أخذت الآيه

نفس الأرض لم يستقم إلا أن يقال: والأرض آية للموقنين و ضاع المراد و هو أن في وجود الأرض جهات كل واحده منها آية وحدها.

فمعنى قوله: إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْخَبْرَ؛ أن لوجود السماوات و الأرض جهات داله على أن الله تعالى هو خالقها المدبر لها وحده لا شريك له فإنها بحاجتها الذاتيه الى من يوجد لها و عظمه خلقتها و بداعه تركيبها و اتصال وجود بعضها ببعض و ارتباطه على كثرتها الهائله و اندراج أنظمتها الجزئيه الخاصه بكل واحد تحت نظام عام يجمعها و يحكم فيها تدل على أن لها خالقا هو وحده ربها المدبر أمرها فلو لا أن هناك من يوجد لها لم توجد من رأس، و لو لا أن مدبرها واحد لتناقضت النظمات و تدافعت و اختلف التدبير.

قوله تعالى: وَ فِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ البث التفريق و الإثارة و بثه تعالى للدواب خلقها و تفريقها و نشرها على الأرض كما قال في خلق الإنسان: ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (الروم ٢٠).

و معنى الآية: و فيكم من حيث وجودكم المخلوق و فيما يفرقه من دابه من حيث خلقها آيات لقوم يسلكون سبيل اليقين.

و خلق الإنسان على كونه موجودا أرضيا له ارتباط بالماده نوع آخر من الخلق يغير خلق السماوات و الأرض لأنه مركب من بدن أرضي مؤلف من مواد كونه عنصريه تفسد بالموت بالتفرق و التلاشى و أمر آخر وراء ذلك علوى غير مادي لا يفسد بالموت بل يتوفى و يحفظ عند الله، و هو الذى يسميه القرآن بالروح قال تعالى: وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي (الحجر / ٢٩)، و قال بعد ذكر خلق الإنسان من نطفه ثم من علقه ثم مضغه ثم تتميم خلق بدنه: ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ (المؤمنون ١٤)، و قال: قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (الم السجده ١١).

فالناظر فى خلق الإنسان ناظر فى آيه ملكوته وراء الآيات الماديه و كذا الناظر فى خلق

الدواب و لها نفوس ذوات حياه و شعور و إن كانت دون الإنسان فى حياتها و شعورها كما أنها دونه فى تجهيزاتها البدنيه ففى الجمع آيات لأهل اليقين يعرفون بها الله سبحانه بأنه واحد لا شريك له فى ربوبيته و ألوهيته.

قوله تعالى: **وَ اٰخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ** الى آخر الآيه هذا القبيل من الآيات آيات ما بين السماء و الأرض.

و قوله: **«وَ اٰخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ»** يريد به اختلافهما فى الطول و القصر اختلافا منظما باختلاف الفصول الأربعة بحسب بقاع الأرض المختلفه و يتكرر بتكرر السنين يدير سبحانه بذلك أقوات أهل الأرض و يرببهم بذلك تربيته صالحه قال تعالى: **وَ قَدَّرَ فِيهَا اَقْوَاتَهَا فِي اَرْبَعَةِ اَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ** (حم السجده ١٠/).

و قوله: **«وَ اَنْزَلَ اللّٰهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَاَحْيَا بِهِ الْاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** المراد بالرزق الذى ينزله الله من السماء هو المطر تسميه للسبب باسم المسبب مجازا أو لأن المطر أيضا من الرزق فإن مياه الأرض من المطر، و المراد بالسماء جهه العلو أو السحاب مجازا، و إحياء الأرض به بعد موتها هو إحياء ما فيها من النبات بالأخذ فى الرشد و النمو، و لا يخلو التعرض للإحياء بعد الموت من تلويح الى المعاد.

و قوله: **وَ تَصْيِيرِ الرِّيحِ** أى تحويلها و إرسالها من جانب الى جانب، لتصريفها فوائد عامه كثيره من أعمها سوق السحب الى أقطار الأرض و تلقيح النباتات و دفع العفونات و الروائح الممتنه.

و قوله: **«آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»** أى يميزن بين الحق و الباطل و الحسن و القبيح بالعقل الذى أودعه الله سبحانه فيهم.

قوله تعالى: **تِلْكَ آيَاتُ اللّٰهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعَدَ اللّٰهُ وَ آيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ** الإيمان بأمر هو العلم به مع الالتزام به عملا فلو لم يلتزم لم يكن إيمانا و إن

كان هناك علم، قال تعالى: وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ (النمل ١٤)، و قال:

وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ (الجاثية ٢٣).

و الآيات هي العلامات الداله قآيات الله الكونيه هي الامور الكونيه الداله بوجودها الخارجى على كونه تعالى واحدا فى الخلق متصفا بصفات الكمال منزها عن كل نقص و حاجه، و الإيمان بهذه الآيات هو الإيمان بدلالاتها عليه تعالى و لازمه الإيمان به تعالى كما تدلّ هي عليه.

و الآيات القرآنيه آيات له تعالى بما تدلّ على الآيات الكونيه الداله عليه سبحانه أو على معارف اعتقاديه أو أحكام عمليه أو أخلاق يرتضيها الله سبحانه و يأمر بها فإن مضامينها داله عليه و من عنده، و الإيمان بهذه الآيات أيضا إيمان بدلالاتها و يلزمه الإيمان بمدلولها.

و الآيات المعجزه أيضا إما آيات كونيه و دلالتها دلالة الآيات الكونيه و إما غير كونيه كالقرآن فى إعجاز و مرجع دلالتها الى دلالة الآيات الكونيه.

و قوله: تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ الإِشَارَةُ إِلَى الآيات القرآنيه المتلوّه عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، و يمكن أن تكون إشاره الى الآيات الكونيه المذكوره فى الآيات الثلاث السابقه بعنايه الاتحاد بين الدالّ و المدلول.

و قوله: فَبَأَىٰ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ قيل: هو من قبيل قولك:

أعجبني زيد و كرمه، و إنما أعجبك كرمه و المعنى بحسب النظر الدقيق أعجبني كرم زيد و زيد من حيث كرمه، فمعنى الآية فبأى حديث بعد آيات الله يعنى الآيات القرآنيه يؤمنون؟ يعنى إذا لم يؤمنوا بهذا الحديث فبأى حديث بعده يؤمنون؟

قوله تعالى: وَ يُلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ الويل و الهلاك، و الأفاك مبالغه من الإفك و هو الكذب، و الأثيم من الإثم بمعنى المعصيه و المعنى: ليكن الهلاك على كل كذاب ذى معصيه.

قوله تعالى: يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ

يَسْتَمِعُهَا الخ؛ صفه لكل أفاك أثيم، و«ثُمَّ» للتراخي الرتبي و تفيد معنى الاستبعاد، و الإصرار على الفعل ملازمته و عدم الانفكاك عنه.

و المعنى: يسمع آيات الله- و هي آيات القرآن- تقرأ عليه ثم يلازم الكفر و الحال أنه مستكبر لا يتواضع للحق كأن لم يسمع تلك الآيات فبشره بعذاب أليم.

قوله تعالى: وَ إِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا الخ؛ ظاهر السياق أن ضمير «اتَّخَذَهَا» للآيات، و جعل الهزاء متعلقا بالآيات دون ما علم منها يفيد كمال جهله، و المعنى: و إذا علم ذلك الأفاك الأثيم المصّر المستكبر بعض آياتنا استهزأ بآياتنا جميعا.

و قوله: أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ أى مذل مخز، و توصيف العذاب بالاهانته مقابله لاستكبارهم و استهزائهم، و الاشارة باولئك الى كل أفاك، و قيل فى الآية بوجوه آخر أعرضنا عنها لعدم الجدوى فيها.

قوله تعالى: مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَ لَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ الخ؛ لما كانوا مشتغلين بالدنيا معرضين عن الحق غير ملتفتين الى تبعات أعمالهم جعلت جهنم وراءهم مع أنها قدامهم و هم سائرون نحوها متوجهون إليها.

و قيل: وراءهم بمعنى قدامهم قال فى المجمع: وراء اسم يقع على القدام و الخلف فما توارى عنك فهو وراءك خلفك كان أو أمامك. انتهى. و فى قوله: «مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ» قضاء حتم.

و قوله: وَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا المراد بما كسبوا ما حصلوه فى الدنيا من مال و نحوه، و تنكير «شَيْئًا» للتحقير أى و لا يغنى عنهم يوم الحساب ما كسبوه من مال و جاه و أنصار فى الدنيا شيئا يسيرا حقيرا.

و قوله: «وَ لَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ» «مَا» مصدرية و المراد بالأولياء أرباب الأصنام الذين اتخذوهم أربابا آلهة و زعموا أنهم لهم شفعاء أو الأصنام.

و قوله: وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ تأكيد لو عيدهم و قد أوعدهم الله سبحانه أولا بقوله:

«وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ» الخ؛ و ثانيا بقوله: «فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» و ثالثا بقوله: «أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ» و رابعا بقوله: «مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ» الخ؛ و خامسا بقوله: «وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»، و وصف عذابهم فى خلالها بأنه أليم مهين عظيم.

قوله تعالى: هَذَا هُدًى وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ الإشاره بقوله: «هَذَا هُدًى» الى القرآن و وصفه بالهدى للمبالغه نحو زيد عدل و الرجز - كما قيل - أشد العذاب و أصله الاضطراب.

و الآيه فى مقام الردّ لما رموا به القرآن و عدّوه مهانا بالهزاء و السخرية و خلاصه و عيد من كفر بآياته.

قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرَىَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ الخ؛ لما ذكر سبحانه حال الأفّاكين من الاستكبار عن الإيمان بالآيات إذا تليت عليهم و الاستهزاء بما علموا منها و أوعدهم أبلغ الإيعاد بأشد العذاب رجع اليهم بخطاب الجميع ممّن يؤمن و يكفر، و ذكر بعض آيات ربوبيته التى فيها من عظيم عليهم و ليس فى وسعهم إنكارها فذكر أولا تسخير البحر لهم ثم ما فى السماوات و الأرض جميعا فيها آيات لا يكفر بها إلا من انسلخ عن الفطره الإنسانيه و نسى التفكير الذى هو من أجلى خواص الإنسان.

فقوله: الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ اللام فى «لَكُمْ» للغايه أى سخر لأجلكم البحر بأن خلقه على نحو يحمل الفلك و يقبل أن تجرى فيه فينتفع به الإنسان، و يمكن أن تكون للتعديه فيكون الانسان يسخر البحر بإذن الله.

و قوله: لَتَجْرَىَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ غايه لتخسير البحر، و جريان الفلك فيه بأمره، هو إيجاد الجريان بكلمه كن فأثار الأشياء كنفس الأشياء منسوبه اليه تعالى و قوله:

«وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» أى و لتطلبوا بركوبه عطيته تعالى و هو رزقه.

و قوله: وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أى رجاء أن تشكروه تعالى قبل هذه النعمة التي هي تسخير البحر.

قوله تعالى: وَ سَيَخْرُ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ الخ؛ هذا من الترقى بعطف العام على الخاص، و الكلام فى «لَكُمْ» كالكلام فى مثله فى الآيه السابقه، و قوله: «جَمِيعاً» تأكيد لما فى السماوات و الأرض أو حال منه.

و قوله: «سَيَخْرُ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» معنى تسخيرها للانسان أن أجزاء العالم المشهود تجرى على نظام واحد يحكم فيها و يربط بعضها ببعض و يربط الجميع بالإنسان فينتفع فى حياته من علويها و سفليها و لا يزال المجتمع البشرى يتوسع فى الانتفاع بها و الاستفاده من توسيطها و التوسل بشتاتها فى الحصول على مزايا الحياه فالكل مسخر له.

و قوله: «مِنْهُ» من للابتداء، و الضمير لله تعالى و هو حال مما فى السماوات و الأرض، و المعنى: سخر لكم ما فى السماوات و الأرض جميعاً حال كونه مبتدأً منه حاصلًا من عنده فذوات الأشياء تبتدئ منه بإيجاده لها من غير مثال سابق و كذلك خواصها و آثارها بخلقه و من خواصها و آثارها ارتباط بعضها ببعض و هو النظام الجارى فيها المرتبط بالإنسان قال تعالى: اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (الروم ١١)، و قال: إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ (البروج ١٣).

و قد ذكروا لقوله: «مِنْهُ» معانى أخر لا يخلو شىء منها عن التكلف تركنا التعرّض لها.

و قوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وجه تعلقها بالتفكر ظاهر.

[سوره الجاثيه (٤٥): الآيات ١٤ الى ١٩]

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) وَ لَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النَّبُوَّةَ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ (١٦) وَ آتَيْنَاهُمْ بَيْنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرْبَعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبَعُهَا وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩)

قوله تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يُرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ الْخَيْرُ؛ أمر منه تعالى لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْمُرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَغْفِرُوا لِلْكَفَّارِ فِيصِيرَ تَقْدِيرِ الْآيَةِ: قُلْ لَهُمْ: اغْفِرُوا يَغْفِرُوا فَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ (إبراهيم ٣١).

وَالْآيَةُ مَكِّيَّةٌ وَقَعَهُ فِي سِيَاقِ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ الْوَاصِفَةِ لِحَالِ الْمُسْتَكْبِرِينَ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ الْمَهْدَدَةِ لَهُمْ بِأَشَدِّ الْعَذَابِ وَكَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانُوا إِذَا رَأَوْا هَؤُلَاءِ الْمُسْتَهْزِئِينَ يَبَالِغُونَ فِي طَعْنِهِمْ وَإِهَانَتِهِمْ لِلنَّبِيِّ وَاسْتَهْزَاءِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ لَمْ يَتِمَّالِكُوا أَنْفُسَهُمْ دُونَ أَنْ يَدَافِعُوا عَنِ كِتَابِ اللَّهِ وَ مِنْ أَرْسَلَهُ بِهِ وَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَفْضِ مَا هُمْ فِيهِ وَ الْإِيمَانَ مَعَ كَوْنِهِمْ

ممن

حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ، فَأَمَرَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ عَنْهُمْ وَعَدَمِ التَّعَرُّضِ لِحَالِهِمْ فَإِنَّ وَبَالَ أَعْمَالِهِمْ سَيَلْحَقُ بِهِمْ وَجَزَاءُ مَا كَسَبُوهُ سَيُنَالُهُمْ.

وَعَلَى هَذَا فَالْمُرَادُ بِالْمَغْفِرَةِ فِي قَوْلِهِ: «قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا» الصَّفْحُ وَالْإِعْرَاضُ عَنْهُمْ بِتَرْكِ مَخَاصِمَتِهِمْ وَمَجَادَلَتِهِمْ، وَالْمُرَادُ بِالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ هُمُ الَّذِينَ ذَكَرُوا فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ فَإِنَّهُمْ لَا يَتَوَقَّعُونَ لِلَّهِ أَيَّامًا لَا حُكْمَ فِيهَا وَلَا مَلِكًا إِلَّا لَهُ تَعَالَى كِيَوْمِ الْمَوْتِ وَالْبَرْزَخِ وَيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيَوْمِ عَذَابِ الْاسْتِئْصَالِ.

وَقَوْلِهِ: لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ تَعْلِيلٌ لِلأَمْرِ بِالْمَغْفِرَةِ أَوْ لِلأَمْرِ بِالْمَغْفِرَةِ وَمَحْصَلُهُ لِيَصْفَحُوا عَنْهُمْ وَلَا يَتَعَرَّضُوا لَهُمْ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَتَكُونُ الْآيَةُ نَظِيرَهُ قَوْلِهِ: وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلُكُمْ قَلِيلًا إِنَّ لِمَدِينَتِنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (المزمل ١٢/١)، وَقَوْلِهِ: ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضَةٍ يَلْعَبُونَ (الأنعام ٩١/٩)، وَقَوْلِهِ: فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ (المعارج ٤٢/٤)، وَقَوْلِهِ: فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (الزخرف ٨٩/٨).

وَمَعْنَى الْآيَةِ: مَرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَعْفُوا وَيَصْفَحُوا عَنْ أَوْلِيائِكَ الْمُسْتَكْبِرِينَ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ الَّذِينَ لَا يَتَوَقَّعُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَيَوْمَ الْجَزَاءِ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِهِ أَيْ لِيَصْفَحُوا عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُنْكَرِينَ لِأَيَّامِ اللَّهِ حَتَّى يَجْزِيَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِهِ.

وَفِي قَوْلِهِ: «لِيَجْزِيَ قَوْمًا» وَضَعُ الظَّاهِرُ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ، وَكَانَ مَقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَقَالَ:

لِيَجْزِيَهُمْ، وَالنَّكْتَةُ فِيهِ مَعَ كَوْنِ «قَوْمًا» نَكْرَةً غَيْرَ مَوْصُوفَةٍ تَحْقِيرِ أَمْرِهِمْ وَعَدَمِ الْعِنَايَةِ بِشَأْنِهِمْ كَأَنَّهُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ لَا يَعْرِفُ شَخْصَهُمْ وَلَا يَهْتَمُّ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلِيَّ رُبُّكُمْ تَرْجِعُونَ فِي مَوْضِعِ التَّعْلِيلِ لِقَوْلِهِ: «لِيَجْزِيَ قَوْمًا» السَّخِّ؛ وَ لِذَا لَمْ يَعْطَفَ وَ لَيْسَ مِنْ

و محصل المعنى: ليجزئهم الله بما كسبوا فإن الأعمال لا تذهب سدى و بلا أثر بل من عمل صالحا انتفع به و من أساء العمل تضرر به ثم الى ربكم ترجعون فيجزئكم حسب أعمالكم إن خيرا فخييرا و إن شرا فشرا.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النَّبُوَّةَ الخ؛** لما بين أن للأعمال آثارا حسنه أو سيئه تلحق صاحبها أراد التنبيه على تشريع شريعته للنبي صلى الله عليه وآله و سلم إذ كان على الله سبحانه أن يهدى عباده الى ما فيه خيرهم و سعادتهم كما قال تعالى: **وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَ مِنْهَا جَائِزٌ (النحل ٩).**

فنبه على ذلك بقوله الآتى: **«ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيْعِهِ مِنَ الْأُمْرِ»** الخ؛ و قدّم على ذلك الإشارة الى ما آتى بنى إسرائيل من الكتاب و الحكم و النبوه و رزقهم من الطيبات و تفضيلهم و إيتائهم البيئات ليؤذن به أن الإفاضه الإلهيه بالشريعته و النبوه و الكتاب ليست بدع لم يسبق اليه بل لها نظير فى بنى إسرائيل و هم بمرآهم و مسمعهم.

فقوله: **وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النَّبُوَّةَ** المراد بالكتاب التوراه المشتمله على شريعته موسى عليه السلام و أما الانجيل فلا يتضمن الشريعته و شريعته التوراه، و أما زبور داود فهى أدعيه و أذكار، و يمكن أن يراد بالكتاب جنسه الشامل للتوراه و الانجيل و الزبور كما قيل لكن يبعده أن الكتاب لم يطلق فى القرآن إلا على ما يشتمل على الشريعته.

و المراد بالحكم بقرينه ذكره مع الكتاب ما يحكم و يقضى به الكتاب من وظائف الناس كما يذكره قوله تعالى: **وَ أَنْزَلْ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيْمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ (البقره/ ٢١٣)**، و قال فى التوراه: **يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَ الرَّبَّائِيُّونَ وَ الْأَعْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ (المائده/ ٤٤)**، فالحكم من لوازم الكتاب كما أن النبوه من

و المراد بالنبوه معلوم و قد بعث الله من بنى إسرائيل جمعا كثيرا من الأنبياء كما فى الأخبار و قص فى كتابه جماعه من رسلهم.

و قوله: وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَى طيبات الرزق و من ذلك المن و السلوى.

و قوله: وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ إِنْ كَانَ المراد جميع العالمين فقد فضلوا من بعض الجهات ككثرة الأنبياء المبعوثين و المعجزات الكثيره الظاهره من أنبيائهم، و إِنْ كَانَ المراد عالمى زمانهم فقد فضلوا من جميع الجهات.

قوله تعالى: وَ آتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ المراد بالبينات الآيات البينات التى تزيل كل شك و ريب و تمحوه عن الحق و يشهد بذلك تفریع قوله: «فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ» .

و المراد بالأمر قيل: هو أمر الدين، و «مِنْ» بمعنى فى و المعنى: و أعطيناهم دلائل بينه فى أمر الدين و يندرج فيه معجزات موسى عليه السلام.

و قيل: المراد به أمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم و المعنى: آتيناهم آيات من أمر النبى و علامات مبينه لصدقه كظهوره فى مكة و مهاجرته منها الى يثرب و نصره أهله و غير ذلك مما كان مذكورا فى كتبهم.

و قوله: فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْثًا بَيْنَهُمْ يشير الى أن ما ظهر بينهم من الاختلاف فى الدين و اختلاط الباطل بالحق لم يكن عن شبهه أو جهل و إنما أوجدها علماؤهم بغيا و كان البغى دائرا بينهم.

و قوله: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إشاره الى أن اختلافهم الذى لا يخلو من اختلاط الباطل بالحق لا يذهب سدى و سيؤثر أثره و يقضى الله بينهم يوم القيامة فيجزون على حسب ما يستدعيه أعمالهم.

قوله تعالى: ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ الْخَطَابَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ يشاركه فيه أمته، و الشريعة طريق ورود الماء و الأمر أمر الدين، و المعنى: بعد ما آتينا بنى إسرائيل ما آتينا جعلناك على طريقه خاصة من أمر الدين الالهى و هى الشريعة الاسلاميه التى خص الله بها النبى صلى الله عليه و آله و سلم و أمته.

و قوله: فَاتَّبِعْهَا الخ؛ أمر للنبي صلى الله عليه و آله و سلم باتباع ما يوحى اليه من الدين و أن لا يتبع أهواء الجاهلين المخالفه للدين الالهى.

و يظهر من الآيه أولا: أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم مكلف بالدين كسائر الامه.

و ثانيا: أن كل حكم عملى لم يستند الى الوحي الالهى و لم ينته اليه فهو هوى من أهواء الجاهلين غير منتسب الى العلم.

قوله تعالى: إِنَّهُمْ لَن يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا الخ؛ تعليل للنهى عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، و الاغناء من شىء رفع الحاجه اليه، و المحضيل: أن لك الى الله سبحانه حوائج ضروريه لا يرفعها إلا هو و الذريعه الى ذلك اتباع دينه لا غير فلا يغنى عنك هؤلاء الذين اتبعت أهواءهم شيئا إليها الحاجه أو لا يغنى شيئا من الاغناء.

و قوله: وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ الذى يعطيه السياق أنه تعليل آخر للنهى عن اتباع أهواء الجاهلين، و أن المراد بالظالمين المتبعون لأهوائهم المبتدعه و بالمتقين المتبعون لدين الله.

و المعنى: أن الله ولى الذين يتبعون دينه لأنهم متقون و الله وليهم، و الذين يتبعون أهواء الجهله ليس هو تعالى وليا لهم بل بعضهم أولياء بعض لأنهم ظالمون و الظالمون بعضهم أولياء بعض فاتبع دين الله يكن لك وليا و لا تتبع أهواءهم حتى يكونوا أولياء لك لا يغنون عنك من الله شيئا.

و تسميه المتبعين لغير دين الله بالظالمين هو الموافق لما يستفاد من قوله: أَنْ لَّغْنَهُ اللَّهُ عَلَىٰ

الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (الأعراف / ٤٥).

[سوره الجاثيه (٤٥): الآيات ٢٠ الى ٣٧]

هَذَا بَصَائِرٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّصَّالِحِينَ (٢٠) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَخْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَمْ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصِيرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُونَ (٢٤) وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّوتُوا بِآيَاتِنَا أَنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُجْمِعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِنُدِ يَخْسِرُ الْمُضِلُّونَ (٢٧) وَ تَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِذَا كُنَّا نَسِيحًا نَسِيحًا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نُنظَّرُ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمَسْتَتِفِينَ (٣٢) وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نُنَسِّئُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكَم بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَعَزَّيْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)

قوله تعالى: هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ الإشارة بهذا إلى الأمر المذكور الذى هو الشريعة أو إلى القرآن بما يشمل على الشريعة، والبصائر جمع بصيره و هى الإدراك المصيب للواقع، والمراد بها ما يبصر به، وإنما كانت الشريعة بصائر لأنها تتضمن أحكاما وقوانين كل منها يهدى إلى واجب العمل فى سبيل السعادة.

و المعنى: هذه الشريعة المشرّعة أو القرآن المشتمل عليها وظائف عملية يتبصّر بكل منها الناس و يهتدون إلى السبيل الحق و هو سبيل الله و سبيل السعادة، فقوله بعد ذكر تشريع الشريعة: «هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ» كقوله بعد ذكر آيات الوجدانية فى أول السورة: «هَذَا هُدًى وَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا» الخ.

و قوله: وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ أى دلالة واضحة و إفاضه خير لهم، و المراد قوم يوقنون الذين يوقنون بآيات الله الدالة على أصول المعارف فإن المعهود فى القرآن تعلق الإيقان بالأصول الاعتقادية.

و تخصيص الهدى و الرحمة بقوم يوقنون مع التصريح بكونه بصائر الناس لا يخلو من تأييد لكون المراد بالهدى الوصول إلى المطلوب دون مجرد التبصر، و بالرحمة الرحمة الخاصة بمن اتقى و آن برسوله بعد الإيمان بالله، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَ يَعْفِرْ لَكُمْ (الحديد ٢٨)، و قال:

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ - إلى أن قال - وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (البقره ٤)، و للرحمة درجات كثيره تختلف سعه و ضيقا ثم للرحمة الخاصه بأهل الإيمان أيضا مراتب مختلفه باختلاف مراتب الإيمان فلكل مرتبه من مراتبه ما يناسبها منها.

و أما الرحمة بمعنى مطلق الخير الفائض منه تعالى فإن القرآن مما يشتمل على الشريعة رحمه

للناس كافة كما أن الرسول المبعوث به رحمه لهم جميعا، قال تعالى: ﴿مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء ١٠٧)، وقد أوردنا بعض الكلام في هذا المعنى في بعض المباحث السابقة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ الخ؛ قال في المجمع: الاجتراح الاكتساب، يقال: جرح و اجترح و كسب و اكتسب و أصله من الجراح لأن لذلك تأثيرا كتأثير الجراح. قال: و السيئه الفعله القبيحه التي يسوء صاحبها باستحقاق الدّم عليها.
انتهى.

و الجعل بمعنى التصيير، و قوله: ﴿كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في محل المفعول الثاني للجعل، و التقدير كائنين كالذين آمنوا، الخ.

و جزم الزمخشري في الكشاف على كون الكاف في «كَالَّذِينَ» اسما بمعنى المثل هو مفعول ثان لقوله: «نَجْعَلَهُمْ»، و قوله: «سَوَاءً» بدلا منه.

و قوله: ﴿سَوَاءً﴾ بالنصب على القراءه الدائره و هو مصدر بمعنى اسم الفاعل أى مستويا أو تساويا، و قوله: «مَحْيَاهُمْ» مصدر ميمي و فاعل «سَوَاءً» ضميره راجع إلى مجموع المجترحين و المؤمنين، و «مَمَاتُهُمْ» معطوف على «مَحْيَاهُمْ» و حاله كحال.

و الآيه مسوقه سوق الإنكار و «أَمْ» منقطعه، و المعنى: بل أحسب و ظنّ الذين يكتسبون السيئات أن نصيرهم مثل الذين آمنوا و عملوا الصالحات مستويا محياهم و مماتهم أى تكون حياه هؤلاء كحياه أولئك و موتهم كموتهم فيكون الإيمان و التشريع بالدين لغوا لا أثر له في حياه و لا موت و يستوى وجوده و عدمه.

و قوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ردّ لحسابانهم المذكور و حكمهم بالمماثله بين مجترحي السيئات و الذين آمنوا و عملوا الصالحات و مساءه الحكم كناية عن بطلانه.

فالفريقان لا يتساويان في الحياه و لا في الممات.

قوله تعالى: وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ الظاهر أن المراد بالسموات و الأرض مجموع العالم المشهود و الباء في «بِالْحَقِّ» للملابسه فكون خلق العالم بالحق كونه حقا لا باطلا و لعبا و هو أن يكون لهذا العالم الكائن الفاسد غايه ثابتة باقيه وراءه.

و قوله: وَ لِيُجْزَى الخ؛ عطف على «بِالْحَقِّ» و الباء في قوله: «بِمَا كَسَبَتْ» للتعديه أو للمقابله أى لتجزى مقابل ما كسبت إن كان طاعه فالثواب و إن كان معصيه فالعقاب، و قوله:

«وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ» حال من كل نفس أى و لتجزى كل نفس بما كسبت بالعدل.

فيقول معنى الآيه الى مثل قولنا و خلق الله السموات و الأرض بالحق و بالعدل فكون الخلق بالحق يقتضى أن يكون وراء هذا العالم عالم آخر يخلد فيه الموجودات و كون الخلق بالعدل يقتضى أن تجزى كل نفس ما تستحقه بكسبها فالمحسن يجزى جزاء حسنا و المسيء يجزى جزاء سيئا و إذ ليس ذلك في هذه الشأه ففى نشأه أخرى.

و بهذا البيان يظهر إن الآيه تتضمن حجتين على المعاد إحداهما ما أشير اليه بقوله:

«وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ» و يسلك من طريق الحق، و الثانيه ما أشير اليه بقوله:

«وَ لِيُجْزَى الخ؛» و يسلك من طريق العدل.

فتقول الحجتان الى ما يشتمل عليه قوله: وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا ذَلِكَ ظُنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (ص ٢٨).

و الآيه بما فيها من الحججه تبطل حسابانهم أن المسيء كالمحسن في الممات فإن حديث المجازاه بالثواب و العقاب على الطاعه و المعصيه يوم القيامه ينفي تساوى المطيع و العاصى في الممات، و لازم ذلك إبطال حسابانهم أن المسيء كالمحسن في الحياه فإن ثبوت المجازاه يومئذ يقتضى

وجوب الطاعة في الدنيا و المحسن على بصيره من الأمر في حياته يأتي بواجب العمل و يتزود من يومه لغده بخلاف المسيء العائش في عمى و ضلال فليسا بمتساويين.

قوله تعالى: أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ ظاهراً السياق أن قوله: «أَفَرَأَيْتَ» مسوق للتعجب أى ألا تعجب ممن حاله هذا الحال؟

و المراد بقوله: «اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ» حيث قدم «إِلَهَهُ» على «هَوَاهُ» أنه يعلم أن له إلهاً يجب أن يعبده-و هو الله سبحانه-لكنه يبدله من هواه و يجعل هواه مكانه فيعبده فهو كافر بالله سبحانه على علم منه، و لذلك عقبه بقوله: «وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ» أى إنه ضال عن السبيل و هو يعلم.

و معنى اتخاذ الإله العبادة و المراد بها الإطاعة فإن الله سبحانه عدّ الطاعة عباده كما فى قوله:

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي (يس ٦١)، و قوله: اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُحَبَاءَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ (التوبة ٣١)، و قوله: وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ (آل عمران ٦٤).

و الاعتبار يوافقه إذ ليست العبادة إلا إظهار الخضوع و تمثيل أن العابد عبد لا يريد و لا يفعل إلا ما أَرَادَهُ و رضيه معبوده فمن أطاع شيئاً فقد اتخذته إلهاً و عبده فمن أطاع هواه فقد اتخذ إلهاً هواه و لا طاعة إلا لله أو من أمر بطاعته.

فقوله: أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أى أ لا- تعجب ممن يعبد هواه بإطاعته و اتباعه و هو يعلم أن له إلهاً غيره يجب أن يعبده و يطيعه لكنه يجعل معبوده و مطاعه هو هواه.

و قوله: وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ أى هو ضال بإضلال منه تعالى يضلّه به مجازاه لاتباعه الهوى حال كون إضلاله مستقراً على علم هذا الضال، و لا- ضير فى اجتماع الضلال مع العلم بالسبيل و معرفته كما فى قوله تعالى: وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ (النمل ١٤)، و ذلك أن العلم لا يلزم الهدى و لا الضلال يلزم الجهل بل الذى يلزم الهدى هو العلم مع

التزام العالم بمقتضى علمه فيتعبه الاهتداء و أما إذا لم يلتزم العالم بمقتضى علمه لا تباع منه للهوى فلا موجب لاهتدائه بل هو الضلال و إن كان معه علم.

و قوله: وَ خَتَمَ عَلَيَّ سَمْعِي وَ قَلْبِي وَ جَعَلَ عَلَيَّ بَصَرِي غِشَاوَةً كَالْعُطْفِ التفسيرى لقوله: «وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَيَّ عِلْمًا» و الختم على السمع و القلب هو أن لا يسمع الحق و لا يعقله، و جعل الغشاوه على البصر هو أن لا يبصر الحق من آيات الله و محصل الجميع: أن لا يترتب على السمع و القلب و البصر أثرها و هو الالتزام بمقتضى ما ناله من الحق إذا أدركه لاستكبار من نفسه و اتباع للهوى، و قد عرفت أن الضلال عن السبيل لا ينافى العلم به إذا لم يكن هناك التزام بمقتضاه.

و قوله: فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ الضمير لمن اتخذ إلهه هواه و التفرغ على ما تحصل من حاله أى إذا كان حاله هذا الحال و قد أضله الله على علم، الخ؛ فمن يهديه من بعد الله سبحانه فلا هادى دونه قال تعالى: قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى (البقره ١٢٠) و قال: وَ مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (المؤمن ٣٣).

و قوله: «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» أى أفلا تتفكرون فى حاله فتذكروا أن هؤلاء لا سبيل لهم الى الهدى مع اتباع الهوى فتعظوا.

قوله تعالى: وَ قَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا وَ مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ الى آخر الآيه، قال الراغب: الدهر فى الأصل اسم لمدته العالم من مبدأ وجوده الى انقضائه، و على ذلك قوله تعالى: هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَعْبُرْ بِهِ عَنْ كُلِّ مَدَّةٍ كَثِيرَةٍ، و هو خلاف الزمان فإن الزمان يقع على المدته القليله و الكثيره. انتهى.

و الآيه على ما يعطيه السياق-سياق الاحتجاج على الوثنيين المثبتين للصابغ المنكرين للمعاد-حكاية قول المشركين فى إنكار المعاد لا كلام الدهريين الناسبين للحوادث وجودا و عدما الى الدهر المنكرين للمبدأ و المعاد جميعا إذا لم يسبق لهم ذكر فى الآيات السابقه.

فقولهم: **مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا** الضمير للحياه أى لا حياه لنا إلا حياتنا الدنيا لا حياه وراءها فلا وجود لما يدعيه الدين الإلهى من البعث و الحياه الآخره، وهذا هو القرينه المؤيده لأن يكون المراد بقوله: «نَمُوتُ وَ نَحْيَا» يموت بعضنا و يحيا بعضنا الآخر فيستمر بذلك بقاء النسل الإنسانى بموت الأسلاف و حياه الأخلاف و يؤيد ذلك بعض التأيد قوله بعده:

«وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ» المشعر بالاستمرار.

فالمعنى: و قال المشركون: ليست الحياه إلا حياتنا الدنيا التى نعيش بها فى الدنيا فلا يزال يموت بعضنا و هم الأسلاف و يحيى آخرون و هم الأخلاف و ما يهلكنا إلا الزمان-الذى بمروره يبلى كل جديد و يفسد كل كائن و يميت كل حى-فليس الموت انتقالا من دار الى دار منتهيا الى البعث و الرجوع الى الله.

و قوله: **وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ** أى إن قولهم ذلك المشعر بإنكار المعاد قول بغير علم و إنما هو ظن يظنونه و ذلك أنهم لا دليل لهم يدل على نفى المعاد مع ما هناك من الأدله على ثبوته.

قوله تعالى: **وَ إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** تأكيد لكون قولهم بنفى المعاد و حصر الحياه فى الحياه الدنيا قولاً بغير علم.

و المراد بالآيات البينات الآيات المشتمله على الحجج المثبته للمعاد و كونها بينات و صوح دلالتها على ثبوته بلا شك، و تسميه قولهم: «اتَّبُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» مع كونه اقتراحاً جزافياً بعد قيام الحجه إنما هو من باب التهكم فإنه من قبيل طلب الدليل على المطلوب بعد قيام الدليل عليه فكأنه قيل: ما كانت حججهم إلا اللاحجه.

و المعنى: و إذا تلى على هؤلاء المنكرين للمعاد آياتنا المشتمله على الحجج المثبته للمعاد و الحال أنها واضحات الدلاله على ثبوته ما قبلوها إلا بجزاف من القول و هو طلب الدليل

على إمكانه بإحياء آباؤهم الماضين.

قوله تعالى: قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ -الى قوله- وَ الْمَأْرُضِ مَا ذَكَرَ مِنْ اقْتِرَاحِهِمْ الْحِجَةَ عَلَى مَطْلُوبِ قَامَتِ عَلَيْهِ الْحِجَةُ وَ إِنْ كَانَ اقْتِرَاحًا جَزَافِيَا لَا يَسْتَدْعِي شَيْئًا مِنَ الْجَوَابِ لَكِنَّهُ سَبْحَانَهُ أَمْرَ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَنْ يَجْبِيَهُمْ بِإِثْبَاتِ إِمْكَانِهِ الَّذِي كَانُوا يَسْتَعْبُدُونَهُ.

و محصله: أن الذي يحييكم لأول مره ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة الذي لا ريب فيه هو الله سبحانه و لله ملك السماوات و الأرض يحكم فيها ما يشاء و يتصرف فيها كيفما يريد فله أن يحكم برجوع الناس اليه و يتصرف فيكم بجمعكم الى يوم القيامة و القضاء بينكم ثم الجزاء، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْخَسِرُ الْمُبْطِلُونَ قَالَ الرَّابِعُ:

الخسر و الخسران انتقاص رأس المال و ينسب ذلك الى الإنسان فيقال: خسر فلان، و الى الفعل فيقال: خسرت تجارتك، قال تعالى: تَلْمِكَ إِذَا كَرَّهَ خَاسِرَةٌ وَ يَسْتَعْمَلُ ذَلِكَ فِي الْمَقْتِنِيَّاتِ الْخَارِجِيَّةِ كَالْمَالِ وَ الْجَاهِ فِي الدُّنْيَا وَ هُوَ الْأَكْثَرُ، وَ فِي الْمَقْتِنِيَّاتِ النَّفْسِيَّةِ كَالصِّحَّةِ وَ السَّلَامَةِ وَ الْعَقْلِ وَ الْإِيمَانِ وَ الثَّوَابِ وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى الْخُسْرَانَ الْمُبِينِ.

قال: و كل خسران ذكره الله تعالى في القرآن فهو على هذا المعنى الأخير دون الخسران المتعلق بالمقتنيات المالية و التجارات البشرية.

و قال: و الإبطال يقال في إفساد الشيء و إزالته سواء كان ذلك الشيء حقا أو باطلا قال تعالى: «لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْبَاطِلَ» و قد يقال فيمن يقول شيئا لا حقيقته له نحو: وَ لَيْسَ جِثَّتُهُمْ بِمَا يَبْهَمُ لِيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ، و قوله تعالى: خَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ أَي الَّذِينَ يَبْطِلُونَ الْحَقَّ. انتهى.

و الأشبه أن يكون المراد بقيام الساعة فعليه ما يقع فيها من البعث و الجمع و الحساب

و الجزء و ظهوره، و بذلك صح جعل الساعه مظلوا لليوم و هما واحداً، و الأشبه أن يكون قوله: «يَوْمَئِذٍ» تأكيداً لقوله: «يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ» .

و المعنى: و يوم تقوم الساعه و هى يوم الرجوع الى الله يومئذ يخسر المبطلون الذين أبطلوا الحق و عدلوا عنه.

قوله تعالى: وَ تَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٍ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الخ؛ الجثو البروك على الركبتين كما أن الجذو البروك على أطراف الأصابع.

و الخطاب عام لكل من يصح منه الرؤيه و إن كان متوجها الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم و المراد بالدعوه الى الكتاب الدعوه الى الحساب على ما ينطق به الكتاب بإحصائه الأعمال بشهادته قوله بعده:

«الْيَوْمَ تُجْرَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» .

و المعنى: و ترى أنت و غيرك من الرائين كل امه من الامم جالسه على الجثو جلسه الخاضع الخائف كل امه منهم تدعى الى كتابها الخاص بها و هى صحيفه الأعمال و قيل لهم: اليوم تجزون ما كنتم تعملون.

و يستفاد من ظاهر الآيه أن لكل امه كتابا خاصا بهم كما أن لكل إنسان كتابا خاصا به قال تعالى: وَ كُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (الإسراء ١٣).

قوله تعالى: هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِذَا كُنَّا نُفُوسًا نَشِيئُ نَسِخًا مَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ قال فى الصحاح: و نسخت الكتاب و انتسخته و استنسخته كله بمعنى، و النسخه اسم المنتسخ منه. انتهى، و قال الراغب: النسخ إزالة الشىء بشىء يتعقبه كنسخ الشمس الظل راسخ الظل الشمس و الشيب الشباب- الى أن قال- و نسخ الكتاب نقل صورته المجرده الى كتاب آخر و ذلك لا يقتضى إزالة الصورة الاولى بل يقتضى إثبات مثلها فى ماده اخرى كاتخاذ نقش الخاتم فى شموع كثيره، و الاستنساخ التقدم بنسخ الشىء و الترشح للنسخ.

انتهى.

و مقتضى ما نقل أن المفعول الذى يتعدى اليه الفعل فى قولنا: استنسخت الكتاب هو الأصل المنقول منه، و لازم ذلك أن تكون الأعمال فى قوله: «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» كتابا و أصلا و إن شئت فقل: فى أصل و كتاب يستنسخ و ينقل منه و لو اريد به ضبط الأعمال الخارجيه القائمه بالإنسان بالكتابه لقليل: إنا كنا نكتب ما كنتم تعملون إذ لا نكته تستدعى فرض هذه الأعمال كتابا و أصلا يستنسخ، و لا دليل على كون «يستنسخ» بمعنى يستكتب كما ذكره بعضهم.

و لازم ذلك أن يكون المراد بما تعملون هو أعمالهم الخارجيه بما أنها فى اللوح المحفوظ فيكون استنساخ الأعمال استنساخ ما يرتبط بأعمالهم من اللوح المحفوظ و تكون صحيفه الأعمال و جزء من اللوح المحفوظ، و يكون معنى كتابه الملائكه للأعمال تطبيقهم ما عندهم من نسخه اللوح على الأعمال.

و هذا هو المعنى الذى وردت به الروايه من طرق الشيعة عن الصادق عليه السلام و من طرق أهل السنه عن ابن عباس، و سيوافيك فى البحث الروائى التالى.

و على هذا فقوله: «هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ» من كلامه تعالى لا من كلام الملائكه، و هو من خطابه تعالى لأهل الجمع يوم القيامه يحكيه لنا فيكون فى معنى «و يقال لهم هذا كتابنا» الخ.

و الإشاره بهذا-على ما يعطيه السياق-الى صحيفه الأعمال و هى بعينها إشاره الى اللوح المحفوظ على ما تقدم و إضافه الكتاب اليه تعالى نظرا الى أنه صحيفه الأعمال من جهه أنه مكتوب بأمره تعالى و نظرا الى أنه اللوح المحفوظ من جهه التشرىف و قوله: «يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ» أى يشهد على ما عملتم و يدل عليه دلالة واضحه ملابسا للحق.

و قوله: «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» لعل لكون الكتاب ينطق عليهم

بالحق أى إن كتابنا هذا دالٌّ على عملكم بالحق من غير أن يتخلف عنه لأنه اللوح المحفوظ المحيط بأعمالكم بجميع جهاتها الواقعيه.

و لو لا- أن الكتاب يريهم أعمالهم بنحو لا يداخله شك و لا يحتمل منهم التكذيب لكذبوه، قال تعالى: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا (آل عمران ٣٠).

قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ تفصيل حال الناس يومئذ بحسب اختلافهم بالسعادة و الشقاء و الثواب و العقاب، و السعداء المثابون هم الذين آمنوا و عملوا الصالحات، و الأشقياء المعاقبون هم الذين كفروا من المستكبرين المجرمين.

و المراد بالرحمة الإفاضه الإلهيه تسعد من استقر فيها و منها الجنة، و الفوز المبين الفلاح الظاهر، و الباقي واضح.

قوله تعالى: وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَ فَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ المراد بالذين كفروا المتلبسون بالكفر عن تكذيب و جحود بشهادته قوله: «أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ» الخ.

و الفاء فى «أَفَلَمْ تَكُنْ» للتفريع فتدلّ على مقدّر متفرع عليه هو جواب لما، و التقدير:

فيقال لهم: أ لم تكن آياتى تتلى عليكم، و المراد بالآيات الحجج الإلهيه الملقاه اليهم عن وحي و دعوه، و المجرم هو المتلبس بالإجرام و هو الذنب.

و المعنى: و أما الذين كفروا جاحدين للحق مع ظهوره فيقال لهم توبيخا و تقريحا: أ لم تكن حججى تقرأ و تبين لكم فى الدنيا فاستكبرتم عن قبولها و كنتم قوما مذنبين.

قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ السَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ الخ؛ المراد بالوعد الموعود و هو ما وعده الله بلسان رسله من البعث

و الجزاء فيكون قوله: «و السَّاعَةُ لَّا رَيْبَ فِيهَا» من عطف التفسير، و يمكن أن يراد بالوعد المعنى المصدرى.

و قولهم: مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ معناه أنه غير مفهوم لهم و الحال أنهم أهل فهم و درايه فهو كناية عن كونه أمرا غير معقول و لو كان معقولا لدروه.

و قوله: إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيَقِينَ أى ليست مما نقطع به و نجزم بل نظن ظنا لا يسعنا أن نعتمد عليه، ففى قولهم: «مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ» الخ؛ غب ما تليت عليهم من الآيات البينه أفحش المكابره مع الحق.

قوله تعالى: وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ إضافة السيئات الى ما عملوا بيانيه أو بمعنى من، و المراد بما عملوا جنس ما عملوا أى ظهر لهم أعمالهم السيئه أو السيئات من أعمالهم فالآيه فى معنى قوله: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَ مَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ (آل عمران ٣٠).

فالآيه من الآيات الداله على تمثل الأعمال، و قيل: إن فى الكلام حذفاً و التقدير: و بدأ لهم جزاء سيئات ما عملوا.

قوله: وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ أى و حلّ بهم العذاب الذى كانوا يسخرون منه فى الدنيا إذا أنذروا به بلسان الأنبياء و الرسل.

قوله تعالى: وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَأُكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَ مَاؤَاكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ النسيان كناية عن الإعراض و الترك فنسيانهم تعالى لهم يوم القيامة إعراضه عنهم و تركه لهم فى شدائده و أهواله، و نسيانهم لقاء يومهم ذاك فى الدنيا إعراضهم عن تذكّره و تركهم التأهب للقائه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِمَا نَكُنتُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَ غَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا الخ؛ الإشاره بقوله: «ذَلِكَ» الى ما ذكر من عقابهم من ظهور السيئات و حلول

العذاب و الهزء السخرية التى يستهزئ بها و الباء للسببية.

و المعنى: ذلكم العذاب الذى يحل بكم بسبب أنكم اتخذتم آيات الله سخرية تستهزءون بها و بسبب أنكم غرتكم الحياه الدنيا فأخذتم إليها و تعلقتم بها.

و قوله: فَأَلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ صرف الخطاب عنهم الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و يتضمن الكلام خلاصه القول فيما يصيبهم من العذاب يومئذ و هو الخلود فى النار و عدم قبول العذر منهم.

و الاستعتاب طلب العتبي و الاعتذار، و نفى الاستعتاب كناية عن عدم قبول العذر.

قوله تعالى: فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ تحميد له تعالى بالتفريع على ما تقدم فى السوره من كونه خالق السماوات و الأرض و ما بينهما و المدبر لأمر الجميع و من بديع تدبيره خلق الجميع بالحق المستتبع ليوم الرجوع اليه و الجزاء بالأعمال و هو المستدعى لجعل الشرائع التى تسوق الى السعاده و الثواب و يتعقبه الجمع ليوم الجمع ثم الجزاء و استقرار الجميع على الرحمه و العدل بإعطاء كل شىء ما يستحقه فلم يدبر إلا تدبيراً جميلاً و لا يفعل إلا فعلاً محموداً فله الحمد كله.

و قد كرر «رَبِّ» فقال: رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ ثم أبدل منهما قوله: «رَبِّ الْعَالَمِينَ» لىأتى بالتصريح بشمول الربوبيه للجميع فلو جىء برب العالمين و اكتفى به أمكن أن يتوهم أنه رب المجموع لكن للسماوات خاصه رب آخر و للأرض وحدها رب آخر كما ربما قال بمثله الوثنيه، و كذا لو اكتفى بالسماوات و الأرض لم يكن صريحاً فى ربوبيته لغيرهما، و كذا لو اكتفى بإحدهما.

قوله تعالى: وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ الكبرياء على ما عن الراغب: الترفع عن الانقياد، و عن ابن الأثير: العظمه و الملك و فى المجمع السلطان القاهر و العظمه القاهره و العظمه و الرفعه.

و هي على أى حال أبلغ معنى من الكبر و تستعمل فى العظمه غير الحسيه و مرجعه الى كمال وجوده و لا تناهى كماله.

و قوله: وَ لَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَى له الكبرياء فى كل مكان فلا يتعالى عليه شىء فيهما و لا يستصغره شىء و تقديم الخبر فى «لَهُ الْكِبْرِيَاءُ» يفيد الحصر كما فى قوله: «فَلِلَّهِ الْحَمْدُ» .

و قوله: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أَى الغالب غير المغلوب فيما يريد من خلق و تدبير فى الدنيا و الآخره و البانى خلقه و تدبيره على الحكمه و الإتقان (١).

ص: ٦٨٧

١- (١). الجاثيه ٢٠-٣٧: بحث روائى فى: من اتخذ الهه هواه؛ الدهر؛ اللوح و القلم؛ استنساخ اعمال الانسان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتِرَاءٌ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَارٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِنُذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشِّرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنْ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفَامُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤)

غرض السوره إنذار المشركين الرادّين للدعوه الى الإيمان بالله ورسوله بالمعاد بما فيه من

أليم العذاب لمنكره المعرضه عنه، ولذلك تفتتح الكلام بإثبات المعاد: «مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ» ثم يعود إليه عوده بعد عوده كقوله: «وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ»، وقوله: «وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ»، وقوله: «وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ»، وقوله في مختتم السوره: «كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغِ الْآيَةِ».

و فيها احتجاج على الوجدانيه و النبوه، و إشاره الى هلاك قوم هود و هلاك القرى التى حول مكه و إنذارهم بذلك، و إنباء عن حضور نفر من الجن عند النبى صلى الله عليه و آله و سلم و استماعهم القرآن و إيمانهم به و رجوعهم الى قومهم منذرين لهم.

و السوره مكيه كلها إلا- آيتين اختلف فيهما سنشير اليهما فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله، قوله تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ» الخ؛ وقوله: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْآيَةُ».

قوله تعالى: «حَمِ تَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» تقدم تفسيره.

قوله تعالى: «مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى» الخ؛ المراد بالسماوات و الأرض و ما بينهما مجموع العالم المشهود علويه و سفليه، و الباء فى «بِالْحَقِّ» للملابسه، و المراد بالأجل المسمى ما ينتهى اليه أمد وجود الشئ، و المراد به فى الآيه الأجل المسمى لوجود مجموع العالم و هو يوم القيامة الذى تطوى (1) فيه السماء كطى السجل للكتب و تبدل الأرض (2) غير الأرض و السماوات و برزوا لله الواحد القهار.

ص: ٤٩٠

١-١. اشاره الى الآيه ١٠٤ من سوره الأنبياء.

٢-٢. اشاره الى الآيه ٤٨ من سوره ابراهيم.

و المعنى: ما خلقنا العالم المشهود بجميع أجزائه العلويه و السفليه إلا- ملابساً للحق له غايه ثابتة و ملابساً لأجل معين لا يتعداه وجوده و إذا كان له أجل معين يفنى عند حلوله و كانت مع ذلك له غايه ثابتة فبعد هذا العالم عالم آخر هو عالم البقاء و هو المعاد الموعود، و قد تكرر الكلام فيما تقدم فى معنى كون الخلق بالحق.

و قوله: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أَنْذَرُوا مُعْرِضُونَ المراد بالذين كفروا هم المشركون بدليل الآيه التاليه لكن ظاهر السياق أن المراد بكفرهم كفرهم بالمعاد، و «ما» فى «عَمَّا» مصدرية أو موصوله و الثانى هو الأوفق للسياق و المعنى: و المشركون الذين كفروا بالمعاد عما أنذروا به- و هو يوم القيامه بما فيه من أليم العذاب لمن أشرك بالله- معرضون منصرفون.

قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ «أَرَأَيْتُمْ» بمعنى أخبرونى و المراد بما تدعون من دون الله الأصنام التى كانوا يدعونها و يعبدونها و إرجاع ضمائر اولى العقل إليها بعد لكونهم ينسبون اليه أفعال اولى العقل و حججه الآيه و ما بعدها مع ذلك تجرى فى كل إله معبود من دون الله.

و قوله: أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَرُونِي بِمَعْنَى أَخْبِرُونِي و «مَا» اسم استفهام و «ذَا» بعده زائده و المجموع مفعول «خَلَقُوا» و من الأرض متعلق به.

و قوله: أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَى شركه فى خلق السماوات فإن خلق شىء من السماوات و الأرض هو المسئول عنه.

توضيح ذلك أنهم و إن لم ينسبوا إليها إلا- تدبير الكون و خصوا الخلق به سبحانه كما قال تعالى: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (الزمر ٣٨)، و قال: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (الزخرف ٨٧)، لكن لما كان الخلق لا ينفك عن التدبير أوجب ذلك أن يكون لمن له سهم من التدبير سهم فى الخلق و لذلك أمر تعالى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن

يسألهم عما لأربابهم الذين يدعون من دون الله من النصيب في خلق الأرض أو في خلق السماوات فلا معنى للتدبير في الكون من غير خلق.

وقوله: **إِثْنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا** أَوْ **أَثَارِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** الإشارة بهذا الى القرآن، والمراد بكتاب من قبل القرآن كتاب سماوى كالتوراه نازل من عند الله يذكر شركه آلهتهم في خلق السماوات أو الأرض.

و الاثارة على ما ذكره الراغب مصدر بمعنى النقل و الروايه قال: و أثرت العلم رويته أثره أثرا و أثاره و أثره و أصله تتبعت أثره انتهى. و عليه فالاثارة فى الآيه مصدر بمعنى المفعول أى شىء منقول من علم يثبت أن لآلهتهم شركه فى شىء من السماوات و الأرض، و فسرّه غالب المفسرين بمعنى البقيه و هو قريب مما تقدم.

و المعنى: اثتوني للدلاله على شركهم لله فى خلق شىء من الأرض أو فى خلق السماوات بكتاب سماوى من قبل القرآن يذكر ذلك أو بشىء منقول من علم أو بقيه من علم اورثتموها يثبت ذلك إن كنتم صادقين فى دعواكم أنهم شركاء لله سبحانه.

قوله تعالى: **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَّا يَشْتَجِبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** الخ؛ الاستفهام إنكارى، و تحديد عدم استجابتهم الدعوه بيوم القيمه لما أن يوم القيامه أجل مسمى للدنيا و الدعوه مقصوره فى الدنيا و لا دنيا بعد قيام الساعه.

وقوله: **وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ** صفه اخرى من صفات آلهتهم مضافه الى صفه عدم استجابتهم و ليس تعليلا لعدم الاستجابه فإن عدم استجابتهم معلول كونهم لا

يوم القيامة فيعادونهم و يكفرون بعبادتهم.

و فى الآيه دلالة على سرايه الحياه و الشعور فى الأشياء حتى الجمادات فإن الأصنام من الجماد و قد نسب إليها الغفله و الغفله من شئون ذوى الشعور لا تطلق إلا على ما من شأن موصوفه أن يشعر.

قوله تعالى: وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَ كَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ الحشر إخراج الشيء من مقره بإزعاج، والمراد بعث الناس من قبورهم و سوقهم الى المحشر يوم القيامة فيومئذ يعاديهم آلهتهم و يكفرون بشرك عبادهم بالتبزي منهم كما قال تعالى:

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ (فاطر ١٤)، و قال حكاية عنهم: تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (القصص ٦٣)، و قال: فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ (يونس ٢٩).

و فى سياق الآيتين تلويح الى أن هذه الجمادات التى لا تظهر لنا فى هذه النشأة أن لها حياه لعدم ظهور آثارها سيظهر فى النشأة الآخرة أن لها حياه و تظهر آثارها و قد تقدم بعض الكلام فى هذا المعنى فى ذيل قوله تعالى: قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (الم السجده / ٢١).

قوله تعالى: وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنبَغُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ الآية و التى بعدها مسوقتان للتوبيخ، و المراد بالآيات البينات آيات القرآن تتلى عليهم، ثم بدلها من الحق الذى جاءهم حيث قال: «لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ» - و كان مقتضى الظاهر أن يقال: «لها» للدلالة على أنها حق جاءهم لا مسوغ لرميها بأنها سحر مبين و هم يعلمون أنها حق مبين فهم متحكمون مكابرون للحق الصريح.

قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا الخ؛ «أم» منقطعه أى بل يقولون افترى القرآن على الله فى دعواه أنه كلامه.

و قوله: قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أَى إِنْ افتريت القرآن لأجلكم آخذنى بالعذاب أو عاجلنى بالعذاب على الافتراء و لستم تقدرُونَ على دفع عذابه عنى فكيف أفتريه عليه لأجلكم، و المحصل أنى على يقين من أمر الله و أعلم أنه يأخذ المفترى عليه أو يعاجل فى عقوبته و أنكم لا تقدرُونَ على دفع ما يريده فكيف أفترى عليه فأعرض نفسى على عذابه المقطوع لأجلكم؟ أَى لست بمفتر عليه.

و قوله: هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ الْإِفَاضَةُ فِي الْحَدِيثِ الْخَوْضُ فِيهِ و «ما» موصوله يرجع اليه ضمير «فيه» أو مصدرية و مرجع الضمير هو القرآن، و المعنى: الله سبحانه أعلم بالذى تخوضون فيه من التكذيب برمى القرآن بالسحر و الافتراء على الله أو المعنى: هو أعلم بخوضكم فى القرآن.

و قوله: كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ احتجاج ثان على نفى الافتراء و أول الاحتجاجين قوله: «إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً» و قد تقدم بيانه آنفاً، و معنى الجملة: أن شهادة الله سبحانه فى كلامه بأنه كلامه و ليس افتراء منى يكفى فى نفى كونى مفترىا به عليه، و قد صدق سبحانه هذه الدعوى بقوله: لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ (النساء ١٦٦)، و ما فى معناه من الآيات، و أما أنه كلامه فيكفى فى ثبوته آيات التحدى.

و قوله: وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ تذييل الآيه بالاسمين الكريمين للاحتجاج على نفى ما يتضمنه تحكّمهم الباطل من نفى رساله كأنه قيل: إِنْ قَوْلُكُمْ «افْتِرَاءٌ» يتضمن دعويين:

دعوى عدم كون هذا القرآن من كلام الله و دعوى بطلان رساله- و الوثنيون ينفونها مطلقاً- أما الدعوى الاولى فيدفعه أولاً: أنه إِنْ افتريته فلا تملكون، الخ؛ و ثانياً: أن الله يكفينى شهيدا على كونه كلامه لا كلامى.

و أما الدعوى الثانية فيدفعها أن الله سبحانه غفور رحيم، و من الواجب فى حكمته أن

يعامل خلقه بالمغفرة و الرحمة و لا تشملان إلا التائبين الراجعين اليه الصالحين لذلك و ذلك بأن يهديهم الى صراط يقربهم منه سلوكه فتشملهم مغفرته و رحمته بحط السيئات و الاستقرار في دار السعادة الخالده، و كونه واجبا في حكمته لأن فيهم صلاحيه هذا الكمال و هو الجواد الكريم، قال تعالى: **وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (الإسراء ٢٠/)**، و قال: **وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ (النحل ٩/)**، و السبيل الى هذه الهدايه هي الدعوه من طريق الرساله فمن الواجب في الحكمة أن يرسل الى الناس رسولا يدعوهم الى سبيله الموصله الى مغفرته و رحمته.

قوله تعالى: **قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ**؛ الخ؛ البدع ما كان غير مسبوق بالمثل من حيث صفاته أو من حيث أقواله و أفعاله و لذا فسّره بعضهم بأن المعنى: ما كنت أول رسول أرسل اليكم لا رسول قبلي، و قيل: المعنى: ما كنت مبدعا في أقوالى و أفعالى لم يسبقنى إليها أحد من الرسل.

و المعنى الأول لا يلائم السياق و لا قوله المتقدم: **«وَهُوَ الْعَفْوَورُ الرَّحِيمُ»** بالمعنى الذى تقدم توجيهه فتانى المعنيين هو الأنسب، و عليه فالمعنى: لست أخالف الرسل السابقين فى صورته أو سيره و فى قول أو فعل بل أنا بشر مثلهم فى آثار البشرىه ما فيهم و سيبلهم فى الحياه سبيلى.

و بهذه الجملة يجاب عن مثل ما حكاه الله من قولهم: **«مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْسُحُ فِي الْأَسْوَاقِ لَوْ لَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا (الفرقان ٨/)**.

و قوله: **وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ** نفى لعلم الغيب عن نفسه فهو نظير قوله: **وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ (الأعراف ١٨٨/)**، و الفرق بين الآيتين أن قوله: **«وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ»** الخ؛ نفى للعلم بمطلق الغيب و استشهاد له

بمسّ السوء و عدم الاستكثار من الخير، و قوله: «وَمَا أَذْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ» نفى للعلم بغيب خاص و هو ما يفعل به و بهم من الحوادث التي يواجهونها جميعا، و ذلك أنهم كانوا يزعمون أن المتلبس بالنبوه لو كان هناك نبي يجب أن يكون عالما في نفسه بالغيوب ذا قدره مطلقه غيبه كما يظهر من اقتراحاتهم المحكيه في القرآن فامر صلى الله عليه و آله و سلم أن يعترف- مصرّحا به- أنه لا يدري ما يفعل به و لا بهم فينفى عن نفسه العلم بالغيب، و أن ما يجرى عليه و عليهم من الحوادث خارج عن إرادته و اختياره و ليس له في شيء منها صنع بل يفعله به و بهم غيره و هو الله سبحانه.

فقوله: «وَمَا أَذْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ» كما ينفى عنه العلم بالغيب ينفى عنه القدره على شيء مما يصيبه و يصيبهم مما هو تحت أستار الغيب.

و نفى الآيه العلم بالغيب عنه صلى الله عليه و آله و سلم لا ينافى علمه بالغيب من طريق الوحي كما يصرّح تعالى به في مواضع من كلامه كقوله: ذَلِكَ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ (آل عمران / ٤٤)، (يوسف / ١٠٢)، و قوله: تِلْكَ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ (هود / ٤٩)، و قوله:

عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ (الجن / ٢٧)، و من هذا الباب قول المسيح عليه السلام: وَأُتْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمِمَّا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ (آل عمران / ٤٩)، و قول يوسف عليه السلام لصاحبي السجن: لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا (يوسف / ٣٧).

وجه عدم المنافاه أن الآيات النافيه للعلم بالغيب عنه و عن سائر الأنبياء عليهم السلام إنما تنفيه عن طبيعتهم البشريه بمعنى أن تكون لهم طبيعه بشريه أو طبيعه هي أعلى من طبيعه البشر من خصائصها العلم بالغيب بحيث يستعمله في جلب كل نفع و دفع كل شر كما نستعمل ما يحصل لنا من طريق الأسباب و هذا لا ينافى انكشاف الغيب لهم بتعليم إلهي من طريق الوحي كما أن إتيانهم بالمعجزات فيما أتوا بها ليس عن قدره نفسه فيهم يملكونها لأنفسهم بل

يَاذَنُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَ أَمْرًا، قَالَ تَعَالَى: قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (الإسراء/ ٩٣)، جواباً عما اقترحوا عليه من الآيات، و قَالَ: قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (العنكبوت ٥٠/)، و قَالَ: وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ (المؤمن ٧٨/).

و يشهد بذلك قوله بعده متصلاً به: «إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ» فَإِنْ اتَّصَلَهُ بِمَا قَبْلَهُ يَعطَى أَنَّهُ فِي مَوْضِعِ الْإِضْرَابِ، وَ الْمَعْنَى: إِنِّي مَا أَدْرِي شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْحَوَادِثِ بِالْغَيْبِ مِنْ قَبْلِ نَفْسِي وَ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ.

و قوله: وَ مَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ تَأْكِيدٌ لِجَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ فِي الْآيَةِ مِنْ قَوْلِهِ: «مَا كُنْتُ بِدَعَا» الخ؛ وَ «وَمَا أَدْرِي» الخ؛ وَ قَوْلِهِ: «إِنْ أَتَّبِعُ» الخ (١).

قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيَّ مِثْلَهُ فَأَمَّنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ الخ، ضَمَائِرُ «كَانَ» وَ «بِهِ» وَ «مِثْلَهُ» عَلَيَّ مَا يَعطِيهِ السِّيَاقُ لِلْقُرْآنِ، وَ قَوْلِهِ: «وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ» الخ؛ مَعْطُوفٌ عَلَيَّ الشَّرْطِ وَ يَشَارِكُهُ فِي الْجُزْءِ، وَ الْمُرَادُ بِمِثْلِ الْقُرْآنِ مِثْلُهُ مِنْ حَيْثُ مَضْمُونُهُ فِي الْمَعَارِفِ الْإِلَهِيَّةِ وَ هُوَ كِتَابُ التَّوْرَةِ الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي نَزَلَتْ عَلَيَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ قَوْلِهِ: «فَأَمَّنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ» أَي فَا مَنِ الشَّاهِدِ الْإِسْرَائِيلِيِّ الْمَذْكُورِ بَعْدَ شَهَادَتِهِ.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ تَعْلِيلٌ لِلْجُزْءِ الْمَحْذُوفِ دَالٌ عَلَيْهِ، وَ الظَّاهِرُ أَنَّهُ أَلَسْتُمْ ضَالِّينَ لَا مَا قِيلَ: إِنَّهُ أَلَسْتُمْ ظَلَمْتُمْ لِأَنَّ التَّعْلِيلَ بَعْدَ هِدَايَةِ اللَّهِ الظَّالِمِينَ إِنَّمَا يَلِئِمُ ضَلَالَهُمْ لَا ظَلَمَهُمْ وَ إِنْ كَانُوا مُتَصَفِّينَ بِالْوَصْفَيْنِ جَمِيعًا.

و المعنى: قُلْ لِلْمُشْرِكِينَ: أَخْبِرُونِي إِنْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ الْحَالُ أَنْكُمْ كَفَرْتُمْ بِهِ

ص: ٦٩٧

و شهد شاهد من بنى إسرائيل على مثل ما فى القرآن من المعارف فأمن هو و استكبرتم أنتم أ لستم فى ضلال؟ فإن الله لا يهدى القوم الظالمين.

و الذى شهد على مثله فأمن على ما فى بعض الأخبار هو عبد الله بن سلام من علماء اليهود، و الآيه على هذا مدنيه لا مكيه لأنه ممن آمن بالمدينه، و قول بعضهم: من الجائر أن يكون التعبير بالماضى فى قوله: «و شهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فأمن» لتحقق الوقوع و القصة واقعه فى المستقبل سخيّف لأنه لا يلائم كون الآيه فى سياق الاحتجاج فالمشركون ما كانوا ليسلموا للنبي صلى الله عليه و آله و سلم صدقه فيما يخبرهم به من الامور المستقبليه.

قوله تعالى: «و قال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه الى آخر الآيه قيل: اللام فى قوله: «للذين آمنوا» للتعليل أى لأجل إيمانهم و يثول الى معنى فى، و ضمير «كان» و «إليه» للقرآن من جهة الإيمان به.

و المعنى: و قال الذين كفروا فى الذين آمنوا- أى لأجل إيمانهم- لو كان الإيمان بالقرآن خيراً ما سبقونا- أى المؤمنون- اليه.

و قوله: «و إذ لم يهتدوا به فسئ يقولون هذا إفك قديم ضمير «به» للقرآن و كذا الإشاره بهذا اليه و الإفك الافتراء أى و إذ لم يهتدوا بالقرآن لاستكبارهم عن الإيمان به فسئقولون أى الذين كفروا هذا أى القرآن إفك و افتراء قديم، و قولهم: هذا إفك قديم كقولهم:

أساطير الأولين.

قوله تعالى: «و من قبله كتاب موسى إماماً و رحمته و هذا كتاب مصدق لساناً عربياً الخ؛ الظاهر أن قوله: «و من قبله» الخ؛ جملة حاليه و المعنى: فسئقولون هذا إفك قديم و الحال أن كتاب موسى حال كونه إماماً و رحمه قبله أى قبل القرآن و هذا القرآن كتاب مصدق له حال كونه لساناً عربياً ليكون منذراً للذين ظلموا و هو بشرى للمحسنين فكيف يكون إفكاً؟

و كون التوراه إماما و رحمه هو كونها بحيث يقتدى بها بنو إسرائيل و يتبعونها فى أعمالهم و رحمه للذين آمنوا بها و اتبعوها فى إصلاح نفوسهم.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ رَبَّنَا اللَّهُ إِقْرَارُهُمْ وَ شَهَادَتُهُمْ بِانْحِصَارِ الرَّبُوبِيَّةِ فِي اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ تَوْحِيدِهِ فِيهَا، وَ بِاسْتِقَامَتِهِمْ ثَبَاتِهِمْ عَلَى مَا شَهِدُوا بِهِ مِنْ غَيْرِ زَيْغٍ وَ انْحِرَافٍ وَ التَّرَامُهُمْ بِلِوَاظِمِهِ الْعَمَلِيَّةِ.

و قوله: فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ أَى لَيْسَ قِبَالِهِمْ مَكْرُوهٌ مُحْتَمَلٌ يَخَافُونَهُ مِنْ عِقَابٍ مُحْتَمَلٍ، وَ لَا مَكْرُوهٌ مُحَقَّقٌ يَحْزَنُونَ بِهِ مِنْ عِقَابٍ أَوْ هَوْلٍ، فَالْخَوْفُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ مَكْرُوهٍ مُحْتَمَلٍ الْوَقُوعِ، وَ الْحُزْنُ مِنْ مَكْرُوهٍ مُحَقَّقٍ الْوَقُوعِ، وَ الْفَاءُ فِي قَوْلِهِ: «فَلَا خَوْفٌ» الْخ؛ لِتَوْهَمٍ مَعْنَى الشَّرْطِ فَإِنَّ الْكَلَامَ فِي مَعْنَى مَنْ قَالَ رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامَ فَلَا خَوْفَ، الْخ.

قوله تعالى: أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ الْمُرَادُ بِصَحَابِهِ الْجَنَّةِ مَلَازِمَتُهَا، وَ قَوْلُهُ: «خَالِدِينَ فِيهَا» حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ لِمَعْنَى الصَّحَابَةِ.

و المعنى: أولئك الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ملازمون للجنة حال كونهم خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون فى الدنيا من الطاعات و القربات (١).

[سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ١٥ الى ٢٠]

وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَ وَضَعَتْهُ كُرْهًا وَ حَمَلُهُ وَ فِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلَىٰ وَالِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَ أَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ نَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) وَ الَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفِّ لَكُمْمَا أَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَ قَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَ هُمَا يَسْتَتَغِيثَانِ اللَّهُ وَ إِلَيْكَ آمِنٌ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَ لِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُنَا فِي سَمَوَاتِنَا وَ الْأَرْضِ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٢٠)

ص: ٦٩٩

قوله تعالى: وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا إِلَى آخِرِ آيَةٍ، الوصية على ما ذكره الراغب هو التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترنا بوعظ و التوصية تفعيل من الوصية قال تعالى: وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ (البقره ١٣٢/)، فمفعوله الثانى الذى يتعدى اليه بالباء من قبيل الأفعال، فالمراد بالتوصية بالوالدين التوصية بعمل يتعلق بهما و هو الإحسان اليهما.

و على هذا فتقدير الكلام: و وصينا الإنسان بوالديه أن يحسن اليهما إحسانا.

و فى إعراب «إِحْسَانًا» أقوال أخر كقول بعضهم: إنه مفعول مطلق على تضمين «وَصَيْنَا» معنى أحسننا، و التقدير: وصينا الإنسان محسنين اليهما إحسانا، و قول بعضهم: إنه صفة لمصدر محذوف بتقدير مضاف أى إيضاء ذا إحسان، و قول بعضهم: هو مفعول له، و التقدير: وصيناه بهما لإحساننا اليهما، الى غير ذلك مما قيل.

و كيف كان فبرّ الوالدين و الإحسان اليهما من الأحكام العامه المشرعه فى جميع الشرائع كما تقدم فى تفسير قوله تعالى: قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (الأنعام ١٥١/)، و لذلك قال: «وَ وَصَيْنَا الْإِنْسَانَ» فعممه لكل إنسان.

ثم عقبه سبحانه بالإشاره الى ما قاسته أمه فى حمله و وضعه و فصاله إشعارا بملاك الحكم و تهيجا لعواطفه و إثارة لغريزه رحمته و رأفته فقال: «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَ وَضَعَتْهُ كُرْهًا وَ حَمَلُهُ وَ فَصَلَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا» أى حملته أمه حملا ذاكره أى مشقه و ذلك لما فى حمله من الثقل، و وضعته و ضعا ذاكره و ذلك ما عنده من ألم الطلق.

و أما قوله: وَ حَمَلُهُ وَ فَصَلَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا فقد اخذ فيه أقل مداه الحمل و هو ستة أشهر، و الحولان الباقيان الى تمام ثلاثين شهرا مداه الرضاع، قال تعالى: وَ الْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ (البقره ٢٣٣/)، و قال: وَ فَصَلَهُ فِي عَامَيْنِ (لقمان / ١٤).

و الفصل التفريق بين الصبى و بين الرضاع، و جعل العامين ظرفا للفصال بعنايه أنه فى آخر الرضاع و لا يتحقق إلا بانقضاء عامين.

و قوله: حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سِنِيهِ بُلُوغَ الْأَشَدِّ بُلُوغَ زَمَانٍ مِنَ الْعُمُرِ تَشْتَدُّ فِيهِ قُوَى الْإِنْسَانِ، و قد مرّ نقل اختلافهم فى معنى بُلُوغَ الْأَشَدِّ فى تفسير قوله: وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا (يوسف ٢٢/)، و بُلُوغَ الْأَرْبَعِينَ ملازم عاداه لكمال العقل.

وقوله: قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ الإيزاع الإلهام، وهذا الإلهام ليس بإلهام علم يعلم به الإنسان ما جهلته نفسه بحسب الطبع كما في قوله: وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا (الشمس ٨/٨)، بل هو إلهام عملي بمعنى البعث و الدعوه الباطنيه الى فعل الخير و شكر النعمه و بالجمله العمل الصالح.

و قد أطلق النعمه التي سأل إلهام الشكر عليها فتعمّ النعم الظاهريه كالحياه و الرزق و الشعور و الإراده، و الباطنيه كالإيمان بالله و الإسلام و الخشوع له و التوكل عليه و التفويض اليه ففي قوله: «رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَيْكَ» الخ؛ سؤال أن يلهمه الثناء عليه بإظهار نعمته قولاً و فعلاً: أما قولاً فظاهر، و أما فعلاً فباستعمال هذه النعم استعمالاً يظهر به أنها لله سبحانه أنعم بها عليه و ليست له من قبل نفسه و لازمه ظهور العبوديه و المملوكيه من هذا الإنسان في قوله و فعله جميعاً.

و تفسير النعمه بقوله: «الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ» يفيد شكره من قبل نفسه على ما اختص به من النعمه و من قبل والديه فيما أنعم به عليهما فهو لسان ذاكر لهما بعدهما.

و قوله: وَ أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ عطف على قوله: «أَنْ أَشْكُرَ» الخ؛ سؤال متمم لسؤال الشكر على النعم فإن الشكر يحلّى ظاهر الأعمال، و الصلاحيه التي يرتضيها الله تعالى تحلّى باطنها و تخلّصها له تعالى.

و قوله: وَ أَصِيلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي الإصلاح في الذريه إيجاد الصلاح فيهم و هو من الله سبحانه توفيقهم للعمل الصالح و ينجز الى إصلاح نفوسهم، و تقييد الإصلاح بقوله: «لي» للدلاله على أن يكون إصلاحهم بنحو ينتفع هو به أي أن يكون ذريته له في برّه و إحسانه كما كان هو لوالديه.

و محضّل الدعاء سؤال أن يلهمه الله شكر نعمته و صالح العمل و أن يكون بارًا محسنًا بوالديه

و يكون ذريته له كما كان هو لوالديه، وقد تقدّم (١) غير مَرّه أن شكر نعمه تعالى بحقيقه معناه هو كون العبد خالصاً لله فيثول معنى الدعاء الى سؤال خلوص النفس و صلاح العمل.

و قوله: إني تُبْتُ إِلَيْكَ وَ إني مِنَ الْمُسْلِمِينَ أى الذين يسلمون الأمر لك فلا تريد شيئاً إلا أرادوه بل لا يريدون إلا ما أردت.

و الجملة فى مقام التعليل لما يتضمّنه الدعاء من المطالب، و يتبين بالآيه حيث ذكر الدعاء و لم يرده بل أئده بما وعد فى قوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ» الخ؛ أن التوبه و الإسلام لله سبحانه إذا اجتمعا فى العبد استعقب ذلك إلهامه تعالى بما يصير به العبد من المخلصين - بفتح اللام - ذاتا و المخلصين - بكسر اللام - عملاً أما إخلاص الذات فقد تقدمت الإشارة إليه آنفاً، و أما إخلاص العمل فلاذن العمل لا يكون صالحاً لقبوله تعالى مرفوعاً إليه إلا إذا كان خالصاً لوجهه الكريم، قال تعالى: أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ (الزمر ٣).

قوله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ تَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ الخ؛ التقبل أبلغ من القبول، و المراد بأحسن ما عملوا طاعاتهم من الواجبات و المندوبات فإنها هى المقبولة المتقبلة و أما المباحات فإنها و إن كانت ذات حسن لكنها ليست بمتقبلة، كذا ذكر فى مجمع البيان و هو تفسير حسن و يؤيده مقابله تقبل أحسن ما عملوا بالتجاوز عن السيئات فكأنه قيل: إن أعمالهم طاعات من الواجبات و المندوبات و هى أحسن أعمالهم فنتقبلها و سيئات فنتجاوز عنها و ما ليس بطاعه و لا حسنه فلا شأن له من قبول و غيره.

و قوله: فى أَصْحَابِ الْجَنَّةِ متعلق بقوله: «تَتَجَاوَزُ» أى نتجاوز عن سيئاتهم فى جملة من نتجاوز عن سيئاتهم من أصحاب الجنة، فهو حال من ضمير «عَنْهُمْ» .

ص: ٧٠٣

وقوله: وَعِدَ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعِدُونَ أى يعدهم الله بهذا الكلام وعد الصدق الذى كانوا يوعدونه الى هذا الحين بلسان الأنبياء و الرسل، أو المراد أنه ينجز لهم بهذا التقبل و التجاوز يوم القيامة وعد الصدق الذى كانوا يوعدونه فى الدنيا.

قوله تعالى: وَ الَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ أَفِّ لَكُمْمَا أَ تَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِى لما ذكر الإنسان الذى تاب الى الله و أسلم له و سأله الخلوص و الإخلاص و برّ والديه و إصلاح أولاده له قابله بهذا الإنسان الذى يكفر بالله و رسوله و المعاد و يعقّ والديه إذا دعوا الى الإيمان و أنذراه بالمعاد.

فقوله: وَ الَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ أَفِّ لَكُمْمَا الظاهر أنه مبتدأ فى معنى الجمع و خبره قوله بعد: «أُولَئِكَ الَّذِينَ» الخ، و «أَفِّ» كلمه تبرم يقصد بها إظهار التسخط و التوجع و «أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ» الاستفهام للتوبيخ، و المعنى: أتعداننى أن أخرج من قبرى فاحيا و أحضر للحساب أى أتعداننى المعاد «وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِى» أى و الحال أنه هلكت امم الماضون العائشون من قبلى و لم يحيى منهم أحد و لا بعث.

و هذا على زعمهم حجه على نفى المعاد و تقريره أنه لو كان هناك إحياء و بعث لا حياى بعض من هلك الى هذا الحين و هم فوق حد الإحصاء عددا فى أزمنه طويله لا- أمد لها و لا خبر عنهم و لا أثر و لم يتنبهوا أن القرون السالفه لو عادوا كما يقولون كان ذلك بعثا لهم و إحياء فى الدنيا و الذى وعده الله سبحانه هو البعث للحياه الآخره و القيام لنشأه اخرى غير الدنيا.

وقوله: وَ هُمَا يَسْتَبَغِيثَانِ اللَّهُ وَيَلِكْ آمِنْ إِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقُّ الاستغاثه طلب الغوث من الله أى و الحال أن والديه يطلبان من الله أن يغيثهما و يعينهما على إقامه الحججه و استمالته الى الإيمان و يقولان له: ويلك آمن بالله و بما جاء به رسوله و منه وعده تعالى بالمعاد إن وعد الله بالمعاد من طريق رسله حق.

و منه يظهر أن مرادهما بقولهما: «آمِنْ» هو الأمر بالإيمان بالله و رسوله فيما جاء به من عند

اللَّهِ، وَقَوْلُهُمَا: «إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» المراد به المعاد، وتعليل الأمر بالإيمان به لغرض الانذار والتخويف.

وقوله: فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ الإِشَارَةُ بِهَذَا إِلَى الْوَعْدِ الَّذِي ذَكَرَاهُ وَأَنْذَرَاهُ بِهِ أَوْ مَجْمُوعَ مَا كَانَا يَدْعَوَانِهِ إِلَيْهِ وَ الْمَعْنَى: يَقُولُ هَذَا الْإِنْسَانُ لِوَالِدَيْهِ لَيْسَ هَذَا الْوَعْدُ الَّذِي تَنْذَرَانِي بِهِ أَوْ لَيْسَ هَذَا الَّذِي تَدْعَوَانِي إِلَيْهِ إِلَّا خِرَافَاتُ الْأَوَّلِينَ وَ هُمُ الْإِمَامُ الْأَوَّلِيُّ الْهَمَجِيُّ.

قوله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ الْخَبَرُ؛ تقدم بعض الكلام فيه في تفسير الآيه ٢٥ من سورة حم السجده.

قوله تعالى: وَ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ أَي لِكُلِّ مِنَ الْمَذْكُورِينَ وَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْبَرَّةُ وَ الْكَافِرُونَ الْفَجْرَةُ مَنَازِلُ وَ مَرَاتِبُ مُخْتَلِفَةٌ صَعُودًا وَ حُدُورًا فَلِلَّجَنَةِ دَرَجَاتٌ وَ لِلنَّارِ دَرَكَاتٌ.

و يعود هذا الاختلاف الى اختلافهم في أنفسهم و إن كان ظهوره في أعمالهم و لذلك قال:

«لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا» فالدرجات لهم و منشأها أعمالهم.

وقوله: وَ لِيُؤْفِقِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ اللَّامُ لِلْغَايَةِ وَ الْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى غَايَةِ أَوْ غَايَاتٍ أُخْرَى مَحذُوفَةٌ لَمْ يَتَّعَلَقْ بِذِكْرِهَا غَرَضٌ، وَ إِنَّمَا جَعَلَتْ غَايَةَ لِقَوْلِهِ: «هُمْ دَرَجَاتٌ» لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى وَ جَعَلْنَا لَهُمْ دَرَجَاتٍ، وَ الْمَعْنَى: جَعَلْنَا لَهُمْ دَرَجَاتٍ لِكُذِّابٍ وَ كُذِّابٍ وَ لِيُؤْفِقِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ.

و معنى توفيتهم أعمالهم إعطاؤهم نفس أعمالهم فالآيه من الآيات الداله على تجسم الأعمال، و قيل: الكلام على تقدير مضاف و التقدير و ليوفيتهم اجور أعمالهم.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ الْخَبَرُ؛ عرض الماء على الدابه و للدابه وضعه بمرأى منها بحيث إن شاءت شربته، و عرض المتاع على البيع وضعه موضعا لا

مانع من وقوع البيع عليه.

و قوله: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ قيل: المراد بعرضهم على النار تعذيبهم فيها من قولهم: عرض فلان على السيف إذا قتل و هو مجاز شائع.

و فيه أن قوله في آخر السوره: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَ رَبِّنَا قَال فَذُوقُوا الْعَذَابَ لَا يلائمه تلك الملاءمه حيث فرع ذوق العذاب على العرض فهو غيره.

و قوله: أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا عَلَى تَقْدِيرِ الْقَوْلِ أَى يَقَال لَهُمْ: «أَذْهَبْتُمْ» الخ؛ و الطيبات الامور التى تلائم النفس و توافق الطبع و يستلذ بها الإنسان، و اذهاب الطيبات اِنفادها بالاستيفاء لها، و المراد بالاستمتاع بها استعمالها و الانتفاع بها لنفسها لا للآخره و التهيؤ لها.

و المعنى: يقال لهم حين عرضهم على النار: أنفذتم الطيبات التى تلتذون بها فى حياتكم الدنيا و استمتعتم بتلك الطيبات فلم يبق لكم شىء تلتذون به فى الآخره.

و قوله: فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ تَفْرِيعَ عَلَى إِذْهَابِهِمُ الطيبات، و عذاب الهون العذاب الذى فيه الهوان و الخزى.

و المعنى: فاليوم تجزون العذاب الذى فيه الهوان و الخزى قبال استكباركم فى الدنيا عن الحق و قبال فسقكم و تولىكم عن الطاعات، و هما ذنبان أحدهما متعلق بالاعتقاد و هو الاستكبار عن الحق و الثانى متعلق بالعمل و هو الفسق (1).

ص: ٧٠٦

وَ أَذْكَرَ أَحَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنِ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ أَزَاءَكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلًا أُوذِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمְطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا إِشْرَتْ عَجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تَدْمَرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَانَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَانَكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَلَمَّا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَيَّرْنَا آيَاتٍ لِّعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْ لَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكِ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)

قوله تعالى: وَ اذْكُرْ اَخَا عَادٍ اِذْ اَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْاَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ النخ؛ أخو القوم هو المنسوب اليهم من جهة الأب، والمراد بأخي عاد هود النبي عليه السلام، والأحفاف مسكن قوم عاد و المتيقن أنه في جنوب جزيره العرب و لا أثر اليوم باقيا منهم، و اختلفوا أين هو؟ فقيل: واد بين عمان و مهرة، و قيل رمال بين عمان الى حضر موت، و قيل: رمال مشرفه على البحر بالشجر من أرض اليمن و قيل غير ذلك.

و قوله: وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ النذر جمع نذير و المراد به الرسول على ما يفيد السياق، و أما تعميم بعضهم النذر للرسول و نوابهم من العلماء ففي غير محله.

و فسروا «مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ» بالذين كانوا قبله و «مِنْ خَلْفِهِ» بالذين جاءوا بعده و يمكن العكس بأن يكون المراد بالنذر بين يديه من كانوا في زمانه، و من خلفه من كان قبله، و الأولى على الأول أن يكون المراد بخلو النذر من بين يديه و من خلفه أن يكون كناية عن مجيئه اليهم و إنذاره لهم على فتره من الرسل.

و قوله: اَلَا تَعْبُدُوا اِلَّا اللّٰهَ تفسيرا للإنذار و فيه إشاره الى أن أساس دينه الذي يرجع اليه تفاصيله هو التوحيد.

و قوله: اِنِّي اَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ تعليل لدعوتهم الى التوحيد، و الظاهر أن المراد باليوم العظيم يوم عذاب الاستئصال لا يوم القيامة يدل على ذلك ما سيأتى من قولهم: «فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا» و قوله: «بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ» و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: قَالُوا اَجِئْتَنَا لِنَاْفِكُنَا عَنْ آلِهَتِنَا النخ؛ جواب القوم له قبال إنذاره، و قوله: «لِنَاْفِكُنَا عَنْ آلِهَتِنَا» بتضمين الإفك و هو الكذب و الفريه معنى الصرف و المعنى: قالوا

أَجئنا لتصرفنا عن آلهتنا إفاكا و افتراء.

و قوله: فَأَتْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ أمر تعجيزى منهم له زعما منهم أنه عليه السلام كاذب فى دعواته آفك فى إنذاره.

قوله تعالى: قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ الخ؛ جواب هود عن قولهم ردا عليهم، فقوله: «إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ» قصر العلم بنزول فيه تعالى لأنه من الغيب الذى لا يعلم حقيقته إلا الله جل شأنه، و هو كناية عن أنه عليه السلام لا علم له بأنه ما هو؟ و لا- كيف هو؟ و لا- متى هو؟ و لذلك عقبه بقوله: «وَ أُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ» أى إن الذى حمّلته و أرسلت به اليكم هو الذى أبلغكموه و لا علم لى بالعذاب الذى أمرت بإنذاركم به ما هو؟ و كيف هو؟ و متى هو؟ و لا قدره لى عليه.

و قوله: وَ لَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ إضراب عما يدل عليه الكلام من نفيه العلم عن نفسه، و المعنى: لا علم لى بما تستعجلون به من العذاب و لكنى أراكم قوما تجهلون فلا تميزون ما ينفعكم مما يضركم و خيركم من شركم حين تردون دعوه الله و تكذبون بآياته و تستهزون بما يوعدكم به من العذاب.

قوله تعالى: فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا الخ، صفة نزول العذاب اليهم بادئ ظهوره عليهم.

و العارض هو السحاب يعرض فى الافق ثم يطبق السماء و هو صفة العذاب الذى يرجع اليه ضمير «رَأَوْهُ» المعلوم من السياق، و قوله: «مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ» صفة اخرى له، و الأودية جمع الوادى، و قوله: «قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا» أى استبشروا ظنا منهم أنه سحاب عارض ممطر لهم فقالوا: هذا الذى نشاهده سحاب عارض ممطر إيانا.

و قوله: بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رد لقولهم: «هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا» بالإضراب عنه الى بيان الحقيقة فىبين أولا على طريق التهكم أنه العذاب

الذى استعجلتم به حين قلم «فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» و زاد فى البيان ثانيا بقوله:

«رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ» .

و الكلام من كلامه تعالى و قيل: هو كلام لهود النبى عليه السلام.

قوله تعالى: تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ التدمير الإهلاك، و تعلقه بكل شىء و إن كان يفيد عموم التدمير لكن السياق يخصه بنحو الإنسان و الدواب و الأموال، فالمعنى: إن تلك الريح ريح تهلك كل ما مرّت عليه من إنسان و دواب و أموال.

و قوله: فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ بيان لنتيجه نزول العذاب، و قوله:

«كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ» إعطاء ضابط كلى فى مجازاه المجرمين بتشبيه الكلى بالفرد الممثل به و التشبيه فى الشده أى إن سنتنا فى جزاء المجرمين على هذا النحو الذى قصصناه من الشده فهو كقوله تعالى: وَ كَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَ هِيَ ظَالِمَةٌ إِنْ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (هود ١٠٢).

قوله تعالى: وَ لَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيهَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ الْخ؛ موعظه لكفار مكه مستنتجه من القصة.

و التمكين إقرار الشىء و إثباته فى المكان، و هو كناية عن إعطاء القدره و الاستطاعه فى التصرف و «ما» فى «فِيهَا» موصوله أو موصوفه و «إِنْ» نافية، و المعنى: و لقد جعلنا قوم هود فى الذى-أو فى شىء-ما مكناكم معشر كفار مكه و من يتلوكم فيه من بسطه الأجسام و قوه الأبدان و البطش الشديد و القدره القوميه.

و قوله: وَ جَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَ أَبْصَارًا وَ أَفْئِدَةً أى جهّزناهم بما يدركون به ما ينفعهم و ما يضرهم و هو السمع و الأبصار و ما يميزون به ما ينفعهم مما يضرهم فيحتالون لجلب النفع و لدفع الضر بما قدروا كما أن لكم ذلك.

وقوله: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَيِّئُهُمْ وَلَا أَبْصَلَٰرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ مَا فِي «فَمَا أَغْنَىٰ» نافية لا استفهامية، و«إِذْ» ظرف متعلق بالنفي الذى فى قوله: «فَمَا أَغْنَىٰ» .

و محصل المعنى: أنهم كانوا من التمكن على ما ليس لكم ذلك و كان لهم من أدوات الإدراك و التمييز ما يحتال به الإنسان لدفع المكاره و الانتقاء من الحوادث المهلكه المبيده لكن لم يغن عنهم و لم ينفعهم هذه المشاعر و الأفئده شيئاً عند ما جحدوا آيات الله فما الذى يؤمنكم من عذاب الله و أنتم جاحدون لآيات الله.

و قوله: ﴿وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ عطف على قوله: «فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ» الخ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيَةِ تَذَكْرَةً لِئَذَارِهِ مُتَفَرِّعَةً عَلَى الْعِظَةِ الَّتِي فِي قَوْلِهِ: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ» الخ؛ فهى معطوفه عليه على ما يفيد السيق لا على قوله:

﴿وَ اذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ .

و قوله: ﴿وَصَيَّرْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أَى و صَيَّرْنَا الْآيَاتِ المختلفه من معجزه أيدنا بها الأنبياء و وحى أنزلناه عليهم و نعم رزقناهموها ليتذكروا بها و نقم ابتليانهم بها ليتوبوا و ينصرفوا عن ظلمهم لعلهم يرجعون من عباده غير الله سبحانه الى عبادته.

و الضمير فى «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» راجع الى القرى و المراد بها أهل القرى.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْ لَا نَصَّرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ الخ؛ ظاهر السيق أن آلهه مفعول ثان لاتخذوا و مفعوله الأول هو الضمير الراجع الى الموصول و «قُرْبَانًا» بمعنى ما يتقرب به، و الكلام مسوق للتهكم، و المعنى: فلولا نصرهم الذين اتخذوهم آلهه حال كونهم متقربا بهم الى الله كما كانوا يقولون «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ» .

وقوله: بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ أَى ضَلَّ الْآلَهُه عن أهل القرى و انقطعت رابطة الالوهيه و العبوديه التى كانوا يزعمونها و يرجعون بذلك أن ينصروهم عند الشدائد و المكاره فالضلال عنهم كناية عن بطلان مزعتهم.

وقوله: وَ ذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَ مَا كَانُوا يَفْسُرُونَ مبتدأ و خبر و الإشاره الى ضلال آلهتهم، و المراد بالإفك أثر الإفك أو بتقدير مضاف، و «ما» مصدرية، و المعنى: و ذلك الضلال أثر إفكهم و افترائهم.

و يمكن أن يكون الكلام على صورته من غير تقدير مضاف أو تجوّز و الإشاره الى إهلا-كهم بعد تصريح الآيات و ضلال آلهتهم عند ذلك، و محصل المعنى: أن هذا الذى ذكرناه من عاقبه أمرهم هو حقيقه زعمهم أن الآلهه يشفعون لهم و يقربونهم من الله زعمهم الذى أفكوه و افتروه، و الكلام مسوق للتهكم.

[سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ٢٩ الى ٣٥]

وَ إِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجْزِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٣١) وَ مِمَّنْ لَا يُجِبُ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢) أَوْ لَعَمْرُؤُا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَمْ يَعْزِبْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَ رَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)

قوله تعالى: وَإِذْ صِرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ إِلَى آخِرِ آيَةِ الصَّرْفِ رَدُّ الشَّيْءِ مِنْ حَالِهِ إِلَى حَالِهِ أَوْ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَالنَّفَرُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الرَّاعِبُ -عَدَهُ مِنَ الرِّجَالِ يُمْكِنُهُمُ النَّفَرُ وَهُوَ اسْمٌ جَمْعٌ يُطْلَقُ عَلَى مَا فَوْقَ الثَّلَاثَةِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالإِنْسَانِ وَعَلَى الْجِنِّ كَمَا فِي الْآيَةِ «يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ» صَفَهُ نَفَرًا، وَالْمَعْنَى: وَإِذْ ذَكَرْنَا إِذْ وَجَّهْنَا إِلَيْكَ عَدَهُ مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ.

و قوله: فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ضَمِيرٌ «حَضَرُوهُ» لِلْقُرْآنِ بِمَا يَلْمَحُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَعْنَى الْحَدِيثِيَّةِ وَالْإِنْصَاتُ السُّكُوتُ لِلِاسْتِمَاعِ أَيْ فَلَمَّا حَضَرُوا قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ وَتَلَاوَتَهُ قَالُوا أَيْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: اسْكُتُوا حَتَّى نَسْتَمِعَ حَقَّ الْإِسْتِمَاعِ.

و قوله: فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ضَمِيرٌ «قُضِيَ» لِلْقُرْآنِ بِاعْتِبَارِ قِرَاءَتِهِ وَتَلَاوَتِهِ، وَالتَّوْلِيَةُ الْإِنْصِرَافُ وَ «مُنْذِرِينَ» حَالٌ مِنَ ضَمِيرِ الْجَمْعِ فِي «وَلَّوْا» أَيْ فَلَمَّا أُنْتَهَى الْقِرَاءَةُ وَفَرَّغَ مِنْهَا انْصَرَفُوا إِلَى قَوْمِهِمْ حَالٌ كَوْنَهُمْ مُنْذِرِينَ مَخُوفِينَ لَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

قوله تعالى: **قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَجِئُونَ كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصِيدًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ** الخ؛ حكاية دعوتهم قومهم و إنذارهم لهم، و المراد بالكتاب النازل بعد موسى القرآن، و فى الكلام إشعار بل دلاله على كونهم مؤمنين بموسى عليه السلام و كتابه، و المراد بتصديق القرآن لما بين يديه تصديقه التوراه أو جميع الكتب السماويه السابقه.

و قوله: **يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ** أى يهدى من اتبعه الى صراط الحق و الى طريق مستقيم لا يضل سالكوه عن الحق فى الاعتقاد و العمل.

قوله تعالى: **يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ** يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجْزِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ المراد بداعى الله هو النبى صلى الله عليه و آله و سلم قال تعالى: **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ** (يوسف ١٠٨/١)، و قيل: المراد به ما سمعوه من القرآن و هو بعيد.

و الظاهر أن «مِنْ» فى **يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ** للتبويض، و المراد مغفره بعض الذنوب و هى التى اكتسبها قبل الإيمان، قال تعالى: **إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ** (الأنفال / ٣٨).

قوله تعالى: **وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ** الخ؛ أى و من لم يؤمن بداعى الله فليس بمعجز لله فى الأرض بردّ دعوته و ليس له من دون الله أولياء ينصرونه و يمدّونه فى ذلك، و المحصل: أن من لم يجب داعى الله فى دعوته فإنما ظلم نفسه و ليس له أن يعجز الله بذلك لا- مستقلا و لا بنصره من الأولياء فليس له أولياء من دون الله، و لذلك أتمّ الكلام بقوله: **«أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ»**.

قوله تعالى: **أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَمْ يَعْى بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ** الخ؛ الآيه و ما بعدها الى آخر السوره متصله بما تقدم من قوله تعالى:

وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ الخ؛ و فيها تتميم القول فيما به الإنذار فى هذه

السوره و هو المعاد و الرجوع الى الله تعالى كما أشرنا اليه فى البيان المتقدم.

و المراد بالرؤيه العلم عن بصيره، و العى العجز و التعب، و الأول أفصح على ما قيل، و الباء فى «بِقَادِرٍ» زائده لوقوعها موقعا فيه شائبه حيز النفى كأنه قيل: أليس الله بقادر.

و المعنى: أو لم يعلموا أن الله الذى خلق السماوات و الأرض و لم يعجز عن خلقهن أو لم يتعب بخلقهن قادر على إحياء الموتى - و هو تعالى مبدأ وجود كل شىء و حياته - بلى هو قادر لأنه على كل شىء قدير، و قد أوضحنا هذه الحجه فيما تقدم غير مره.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، تأييد للحجه المذكوره فى الآيه السابقه بالإخبار عما سيجرى على منكرى المعاد يوم القيامه، و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، تفرير على حقيقه المعاد على ما دلّت عليه الحجه العقلية و أخبر به الله سبحانه و نفى الريب عنه.

و المعنى: فاصبر على جحود هؤلاء الكفار و عدم إيمانهم بذاك اليوم كما صبر اولو العزم من الرسل و لا تستعجل لهم بالعذاب فإنهم سيلاقون اليوم بما فيه من العذاب و ليس اليوم عنهم ببعيد و إن استبعدوه.

و قوله: كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا - سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ تبيين لقرب اليوم منهم و من حياتهم الدنيا بالإخبار عن حالهم حينما يشاهدون ذلك اليوم فإنهم إذا رأوا ما يوعدون من اليوم و ما هتئى لهم فيه من العذاب كان حالهم حال من لم يلبث فى الأرض إلا ساعه من نهار.

و قوله: بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ أى هذا القرآن بما فيه من البيان تبليغ من الله من طريق النبوه فهل يهلك بهذا الذى بلغه الله من الإهلاك إلا القوم الفاسقون

وقد أمر الله سبحانه فى هذه الآيه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يصبر كما صبر اولو العزم من الرسل و فيه تلويح الى أنه صلى الله عليه وآله وسلم منهم فليصبر كصبرهم، ومعنى العزم هاهنا إما الصبر كما قال بعضهم لقوله تعالى: **وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ** إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (الشورى ٤٣/)، وإما العزم على الوفاء بالميثاق المأخوذ من الأنبياء كما يلوح اليه قوله: **وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسَى وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** (طه ١١٥/)، وإما العزم بمعنى العزيمة و هى الحكم و الشريعة.

و على المعنى الثالث و هو الحق الذى تذكره روايات أئمه أهل البيت عليهم السلام هم خمسة: نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمد صلى الله عليه وآله وسلم و عليهم لقوله تعالى: **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى** (الشورى ١٣/)، وقد مر لقريب معنى الآية (١).

ص: ٧١٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ
آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ أَضَلَّحَ بِالْهَمِّ (٢) ذَلِكِ بَانَ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَ أَنَّ
الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) فَبِأِذَا لَقَيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا
أَخْتَضْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَانَ فِإِذَا مَنَّا بَغِيدٍ وَ إِذَا فِإِذَا حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكِ وَ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأَنْتَصِرَ مِنْهُمْ وَ لَكِنْ لِيُنْزِلَ
بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَ يُصْلِحُ بِالْهَمِّ (٥) وَ يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ (٦)

تصف السوره الذين كفروا بما يخصهم من الأوصاف الخبيثه و الأعمال السيئه و تصف الذين آمنوا بصفاتهم و أعمالهم الحسنه ثم تذكر ما يعقب صفات هؤلاء من النعمه و الكرامه و صفات اولئك من النقمه و الهوان و على الجملة فيها المقايسه بين الفريقين فى صفاتهم و أعمالهم فى الدنيا و ما يترتب عليها فى الاخرى، و فيها بعض ما يتعلق بالقتال من الأحكام.

و هى سوره مدنيه على ما يشهد به سياق آياتها.

قوله تعالى: الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ فسر الصد بالإعراض عن سبيل الله و هو الإسلام كما عن بعضهم، و فسر بالمنع و هو منعهم الناس أن يؤمنوا بما كان النبى صلى الله عليه و آله و سلم يدعوهم اليه من دين التوحيد كما عن بعض آخر.

و ثانى التفسيرين أوفق لسياق الآيات التاليه و خاصه ما يأمر المؤمنين بقتلهم و أسرهم و غيرهم.

فالمراد بالذين كفروا كفار مكه و من تبعهم فى كفرهم و قد كانوا يمنعون الناس عن الإيمان بالنبى صلى الله عليه و آله و سلم و يفتنونهم، و صدوهم أيضا عن المسجد الحرام.

و قوله: أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ أى جعل أعمالهم ضاله لا تهتدى الى مقاصدها التى قصدت بها و هى بالجملة إبطال الحق و إحياء الباطل فالجملة فى معنى ما تكرر منه تعالى من قوله:

وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (البقره ٢٦٤)، و قد وعد سبحانه بإحياء الحق و إبطال الباطل كما فى قوله: لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (الأنفال ٨).

فالمراد من ضلال أعمالهم بطلانها و فسادها دون الوصول الى الغايه، و عد ذلك ضلالا من الاستعمار بالكنايه.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ الْخَيْرُ؛ ظاهر إطلاق صدر الآية أن المراد بالذين آمنوا، الخ؛ مطلق من آمن وعمل صالحا فيكون قوله: «وَأَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ الْخَيْرُ» تقييدا احترازيا لا تأكيدا وذكرا لما تعلق به العناية في الإيمان.

وقوله: وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ جملة معترضه والضمير راجع الى ما نزل.

وقوله: كَفَرَتْ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ قال في المجمع: البال الحال والشأن والبال القلب أيضا يقال: خطر ببالي كذا، والبال لا يجمع لأنه أبهم أخواته من الحال والشأن.

انتهى.

وقد قوبل إضلال الأعمال في الآية السابقة بتكفير السيئات وإصلاح البال في هذه الآية فمعنى ذلك هداية إيمانهم وعملهم الصالح الى غايه السعاده، وإنما يتم ذلك بتكفير السيئات المانعه من الوصول الى السعاده، ولذلك ضم تكفير السيئات الى إصلاح البال.

والمعنى: ضرب الله الستر على سيئاتهم بالعفو والمغفرة، وأصلح حالهم في الدنيا والآخرة أما الدنيا فلأن الدين الحق هو الدين الذي يوافق ما تقتضيه الفطره الإنسانيه التي فطر الله الناس عليها، والفطره لا تقتضى إلا ما فيه سعادتها وكمالها ففي الإيمان بما أنزل الله من دين الفطره والعمل به صلاح حال المؤمنين في مجتمعهم الدنيوى، وأما في الآخرة فلأنها عاقبه الحياه الدنيا وإذا كانت فاتحتها سعيده كانت خاتمتها كذلك قال تعالى: وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (طه ١٣٢).

قوله تعالى: ذَلِكُمْ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ الْخَيْرُ؛ تعليل لما في الآيتين السابقتين من إضلال أعمال الكفار وإصلاح حال المؤمنين مع تكفير سيئاتهم.

و في تقييد الحق بقوله: «مِنْ رَبِّهِمْ» إشاره الى أن المنتسب اليه تعالى هو الحق ولا نسبه

للباطل اليه و لذلك تولى سبحانه إصلاح بان المؤمنين لما ينتسب اليه طريق الحق الذى اتبعوه، و أما الكفار بأعمالهم فلا شأن له تعالى فيهم و أما انتساب ضلالهم اليه فى قوله: «أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ» فمعنى إضلال أعمالهم عدم هدايته لها الى غايات صالحه سعيده.

و فى الآيه إشاره الى أن الملاك كل الملاك فى سعادته الإنسان و شقائه اتباع الحق و اتباع الباطل و السبب فى ذلك انتساب الحق اليه تعالى دون الباطل.

و قوله: كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ أَي يَبَيِّنُ لَهُمْ أَوْصَافَهُمْ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، و فى الإتيان باسم الإشاره الموضوعه للبعيد تفخيم لأمر ما ضربه من المثل.

قوله تعالى: فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ إِلَى آخِرِ آيَةٍ، تفريع على ما تقدم فى الآيات الثلاث من وصف الفريقين كأنه قيل: إذا كان المؤمنون أهل الحق و الله ينعم عليهم بما ينعم و الكفار أهل الباطل و الله يضل أعمالهم فعلى المؤمنين إذا لقوا الكفار أن يقتلوهم و يأسروهم ليحيا الحق الذى عليه المؤمنون و تطهر الأرض من الباطل الذى عليه الكفار.

فقوله: فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ المراد باللقاء اللقاء فى القتال و ضرب الرقاب مفعول مطلق قائم مقام فعله العامل فيه، و التقدير: فاضربوا الرقاب- أى رقابهم- ضربا و ضرب الرقبه كناية عن القتل بالسيف، لأن أيسر القتل و أسرع ضرب الرقبه به.

و قوله: حَتَّى إِذَا أَثخنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوُثَاقَ فى المجمع: الإثخان إكثار القتل و غلبه العدو و قهرهم و منه أثخنه المرض اشتد عليه و أثخنه الجراح. انتهى. و فى المفردات:

و ثق به أثق ثقه سكنت اليه و اعتمدت عليه، و أوثقته شددته، و الوثاق- بفتح الواو- و الوثاق- بكسر الواو- اسمان لما يوثق به الشئ. انتهى. و «حَتَّى» غايه لضرب الرقاب، و المعنى: فاقتلوهم حتى إذا أكثرتم القتل فيهم فأسروهم بشد الوثاق و إحكامه فالمراد بشد

الوثاق الأسر فالآيه فى ترتب الأسر فيها على الاثخان فى معنى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ ۚ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ (الأنفال ٦٧).

وقوله: ﴿فَأَمَّا مَنَّا بَعِيدٌ وَإِمَّا فِتْدَاءٌ أَى فأسروهم و يتفرع عليه أنكم إما تمنون عليهم منا بعد الأسر فتطلقونهم أو تسترقونهم و إما تفدونهم فداء بالمال أو بمن لكم عندهم من الأسارى.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَصْعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا أَوْزَارُهَا أوزار الحرب أُنقلها و هى الأسلحة التى يحملها المحاربون و المراد به وضع المقاتلين و أهل الحرب أسلحتهم كناية عن انقضاء القتال.

وقوله: ﴿ذَلِكَ أَى الأمر ذلك أَى إن حكم الله هو ما ذكر فى الآيه.

وقوله: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنْتَصِرَ مِنْهُمْ الضمير للكفار أَى و لو شاء الله الانتقام منهم لانتقم منهم بإهلاكهم و تعذيبهم من غير أن يأمرهم بقتالهم.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَ كُمْ بِبَعْضٍ استدراك من مشيه الانتصار أَى و لكن لم ينتصر منهم بل أمرهم بقتالهم ليمتحن بعضهم ببعض فيمتحن المؤمنين بالكفار يأمرهم بقتالهم ليظهر المطيعون من العاصين و يمتحن الكفار بالمؤمنين فيتميز أهل الشقاء منهم ممن يوفق للتوبه من الباطل و الرجوع الى الحق.

وقد ظهر بذلك أن قوله: ﴿لِيَبْلُوَا بَعْضَ كُمْ بِبَعْضٍ﴾ تعليق للحكم المذكوره فى الآيه و الخطاب فى «بَعْضَ كُمْ» لمجموع المؤمنين و الكفار و وجه الخطاب الى المؤمنين.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ الكلام مسوق سوق الشرط و الحكم عام أَى و من قتل فى سبيل الله و هو الجهاد و القتال مع أعداء الدين فلن يبطل أعمالهم الصالحه التى أتوا بها فى سبيل الله.

قوله تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحْ بَالَهُمْ الضمير للذين قتلوا فى سبيل الله فالآيه و ما يتلوها لبيان حالهم بعد الشهاده أَى سيهديهم الله الى منازل السعاده و الكرامه و يصلح حالهم

بالمغفرة و العفو عن سيئاتهم فيصلحون لدخول الجنة.

و إذا انضمت هذه الآية الى قوله تعالى: **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ** (آل عمران ١٦٩)، ظهر أن المراد بإصلاح بهم إحيائهم حياه يصلحون بها للحضور عند ربهم بانكشاف الغطاء.

و قال فى المجمع: و الوجه فى تكرير قوله: **«بِأَلَهُمْ»** أن المراد بالأول أنه أصلح بهم فى الدين و الدنيا، و بالثانى أنه يصلح حالهم فى نعيم العقبى فالأول سبب النعيم و الثانى نفس النعيم.

انتهى. و الفرق بين ما ذكره من المعنى و ما قدمناه أن قوله تعالى: **«وَيُصْلِحْ بِأَلَهُمْ»** على ما ذكرنا كالعطف التفسيرى لقوله: **«سَيَهْدِيهِمْ»** دون ما ذكره، و قوله الآتى: **«وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ»** على ما ذكره كالعطف التفسيرى لقوله: **«وَيُصْلِحْ بِأَلَهُمْ»** دون ما ذكرناه.

قوله تعالى: **وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَها لَهُمْ** غايه هدايته لهم، و قوله: **«عَرَفَها لَهُمْ»** حال من إدخاله إياهم الجنة أى سيدخلهم الجنة و الحال أنه عرفها لهم إما بالبيان الدينوى من طريق الوحي و النبوه و إما بالبشرى عند القبض أو فى القبر أو فى القيامة أو فى جميع هذه المواقف هذا ما يفيدته السياق من المعنى.

[سوره محمد (٤٧): الآيات ٧ الى ١٥]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَ يَبْطِئْ أَقْدامَكُمْ (٧) **وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ** (٨) **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا** **أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمالَهُمْ** (٩) **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لِلْكَافِرِينَ أَمْثالُهُمْ** (١٠) **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَيُولَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ** (١١) **إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِها الْأَنْهَارُ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَ النَّارُ مَثْوًى لَهُمْ** (١٢) **وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَناهُمْ فَلَا ناصِرَ لَهُمْ** (١٣) **أَفَمَنْ كانَ عَلَيَّ بَيِّنَةً مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ** (١٤) **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَ أَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَ أَنْهارٌ مِنْ حَمْرٍ لَدَّهُ لِلشَّارِبِينَ وَ أَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَ لَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا ماءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمعاءَهُمْ** (١٥)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصِرُوا اللَّهَ فَيُنصِرْكُمْ وَتُيَسِّبَ أَقْدَامَكُمْ تحضيض لهم على الجهاد و وعد لهم بالنصر إن نصروا الله تعالى فالمراد بنصرهم لله أن يجاهدوا في سبيل الله على أن يقاتلوا لوجه الله تأييدا لدينه و إعلاء لكلمه الحق لا ليستعملوا في الأرض أو ليصيبوا غنيمه أو ليظهروا نجده و شجاعه.

و المراد بنصر الله لهم توفيقه الأسباب المقتضيه لظهورهم و غلبتهم على عدوهم كإلقاء

ص: ٧٢٣

الربع فى قلوب الكفار وإداره الدوائر للمؤمنين عليهم و ربط جأش المؤمنين و تشجيعهم، و على هذا فعطف تثبيت الأقدام على النصر من عطف الخاص على العام و تخصيص تثبيت الأقدام، و هو كناية عن التشجيع و تقويه القلوب، لكونه من أظهر أفراد النصر.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ذكر ما يفعل بالكفار عقيب ذكر ما يفعل بالمؤمنين الناصرين لله لقياس حالهم من حالهم.

و التعس هو سقوط الإنسان على وجهه و بقاؤه عليه و يقابله الانتعاش و هو القيام عن السقوط على الوجه فقوله: «فَتَعَسَا لَهُمْ» أى تعسوا تعسا و هو ما يتلوه دعاء عليهم نظير قوله:

قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْى يُؤَفِّكُونَ (التوبه ٣٠)، قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (عبس ١٧)، و يمكن أن يكون إخبارا عن تعسهم و بطلان أثر مساعيهم على نحو الكناية فإن الإنسان أعجز ما يكون إذا كان ساقطا على وجهه.

قوله تعالى: ذَلِكِ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ المراد بما أنزل الله هو القرآن و الشرائع و الأحكام التى أنزلها الله تعالى على نبيه صلى الله عليه و آله و سلم و أمر بإطاعتها و الانقياد لها فكرهوها و استكبروا عن اتباعها.

و الآيه تعليل مضمون الآيه السابقه، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهُمْ التدمير الإهلاكي، يقال: دمره الله أى أهلكه، و يقال: دمر الله عليه أى أهلك ما يخصه من نفس و أهل و دار و عقار قد مر عليه أبلغ من دمره كما قيل، و ضمير «أَمْثَالُهُمْ» للعاقبه أو للعقوبه المدلول عليها بسابق الكلام.

و المراد بالكافرين الكافرون بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و المعنى: و للكافرين بك يا محمد أمثال تلك العاقبه أو العقوبه و إنما اوعدوا بأمثال العاقبه أو العقوبه و لا يحلّ بهم إلا مثل واحد لأنهم فى معرض عقوبات كثيره دنيويه و اخرويّه و إن كان لا يحلّ بهم إلا بعضها، و يمكن أن يراد

بالكافرين مطلق الكافرين، و الجملة من باب ضرب القاعدة.

قوله تعالى: ذَلِكْ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ لِهُمُ الْإِشَارَةُ بِذَلِكَ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ نَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ وَ مَقْتِ الْكَافِرِينَ وَ سُوءِ عَاقِبَتِهِمْ، وَ لَا يَصْغَى إِلَى مَا قِيلَ: إِنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى ثُبُوتِ عَاقِبَةِ أَوْ عَقُوبَةِ الْأُمَّمِ السَّالِفَةِ لَهُؤُلَاءِ، وَ كَذَا مَا قِيلَ: إِنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى نَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْآيَةَ مُتَعَرِّضَةً لِحَالِ الطَّائِفَتَيْنِ: الْمُؤْمِنِينَ وَ الْكَافِرِ جَمِيعًا.

و المولى كأنه مصدر ميمي أريد به المعنى الوصفى فهو بمعنى الولي و لذلك يطلق على سيد العبد و مالكة لأن له ولايته التصرف في أمور عبده، و يطلق على الناصر لأنه يلي التصرف في أمر منصوره بالتقوية و التأييد و الله سبحانه مولى لأنه المالك الذي يلي أمور خلقه في صراطه التكوين و يدبرها كيف يشاء، قال تعالى مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا شَفِيعٍ (الم السجده ٤)، و قال وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ (يونس ٣٠)، و هو تعالى مولى لأنه يلي تدبير أمور عباده في صراط السعادة فيهديهم إلى سعادتهم و الجنة و يوفقهم للصالحات و ينصرهم على أعدائهم، و المولوية بهذا المعنى الثاني تختص بالمؤمنين، لأنهم هم الداخلون في حظيره العبودية المتبعون لما يريده منهم ربهم دون الكفار.

و للمؤمنين مولى و ولي هو الله سبحانه كما قال «ذَلِكْ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا»، و قال اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا (البقرة ٢٥٧)، و أما الكفار فقد اتخذوا الأصنام أو أرباب الأصنام أولياء فهم أولياؤهم على ما زعموا كما قال بالبناء على مزعمتهم بنوع من التهكم: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ (البقرة ٢٥٧)، و نفى ولايتهم بالبناء على حقيقة الأمر فقال:

«وَ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ» ثم نفى ولايتهم مطلقا تكوينا و تشريعا مطلقا فقال: أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ (الشورى ٩)، و قال: إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ (النجم ٢٣).

فمعنى الآية: أن نصره تعالى للمؤمنين و تثبيتته أقدامهم و خذلانه الكفار و إضلاله أعمالهم

و عقوبته لهم إنما ذلك بسبب أنه تعالى مولى المؤمنين و وليهم، و أن الكفار لا مولى لهم فينصرهم و يهدى أعمالهم و ينجيهم من عقوبته.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ مقايسه بين الفريقين و بيان أثر ولايه الله للمؤمنين و عدم ولايته للكفار من حيث العقابه و الآخره و هى أن المؤمنين يدخلون الجنة و الكفار يقيمون فى النار.

و قد أشير فى الكلام الى منشأ ما ذكر من الأثر حيث وصف كلا من الفريقين بما يناسب مآل حاله فأشار الى صفه المؤمنين بقوله: «الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» و الى صفه الكفار بقوله: «يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ» فأفاد الوصفان بما بينهما من المقابله أن المؤمنين راشدون فى حياتهم الدنيا مصيبون للحق حيث آمنوا بالله و عملوا الأعمال الصالحه فسلكوا سبيل الرشد و قاموا بوظيفه الإنسانيه، و أما الكفار فلا عناية لهم بإصابه الحق و لا تعلق لقلوبهم بوظائف الإنسانيه، و إنما همهم بطنهم و فرجهم يتمتعون فى حياتهم الدنيا القصيره و يأكلون كما تأكل الأنعام لا منيه لهم إلا ذلك و لا غايه لهم وراءه.

فهؤلاء أى المؤمنون تحت ولايه الله حيث يسلكون مسلكا يريده منهم ربهم و يهديهم اليه و لذلك يدخلهم فى الآخره جنات تجرى من تحتها الأنهار، و أولئك أى الكفار ما لهم من ولى و إنما وكلوا الى أنفسهم و لذلك كان مثوالمهم و مقامهم النار.

و إنما نسب دخول المؤمنين الجنات الى الله نفسه دون إقامه الكفار فى النار قضاء لحق الولايه المذكوره فله تعالى عناية خاصه بأوليائه، و أما المنسلخون من ولايته فلا يبالى فى أى واد هلكوا.

قوله تعالى: وَكَأَيُّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلُكِنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ إِلَّا الْقَرْيَةُ بِدليل قوله بعد: «أَهْلُكِنَاهُمْ» الخ؛

و القرية التي أخرجته صلى الله عليه وآله وسلم هي مكة.

و في الآية تقويه لقلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم و آله و سلم و تهديد لأهل مكة و تحقير لأمرهم أن الله أهلك قري كثيره كل منها أشد قوه من قريتهم و لا ناصر لهم ينصرهم.

قوله تعالى: **أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنَ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** السياق الجارى على قياس حال المؤمنين بحال الكفار يدل على أن المراد بمن كان على بينه من ربه هم المؤمنون فالمراد بكونهم على بينه من ربهم كونهم على دلاله بينه من ربهم توجب اليقين على ما اعتقدوا عليه و هي الحجة البرهانية فهم إنما يتبعون الحجة القاطعه على ما هو الحرى بالإنسان الذى من شأنه أن يستعمل العقل و يتبع الحق.

و أما الذين كفروا فقد شغفهم أعمالهم السيئه التي زينها لهم الشيطان و تعلقت بها أهواؤهم و عملوا السيئات، فكم بين الفريقين من فرق.

قوله تعالى: **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ** الى آخر الآية؛ يفرق بين الفريقين بيان مآل أمرهما و هو فى الحقيقة توضيح ما مر فى قوله: **«إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا»** الخ؛ من الفرق بينهما فهذه الآية فى الحقيقة تفصيل تلك الآية.

فقوله: **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ** المثل بمعنى الصفه- كما قيل- أى صفه الجنة التي وعد الله المتقين أن يدخلهم فيها، و ربما حمل المثل على معناه المعروف و استفيد منه أن الجنة أرفع و أعلى من أن يحيط بها الوصف و يحدها اللفظ و إنما تقرب الى الأذهان نوع تقريب بأمثال مضروبه كما يلوح اليه قوله تعالى: **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ** (السجده ١٧).

و قد بدل قوله فى الآية السابقة: **«الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»** فى هذه الآية من قوله:

«الْمُتَّقُونَ» تبديل اللازم من الملزوم فإن تقوى الله يستلزم الإيمان به و عمل الصالحات من الأعمال.

و قوله: فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ أَي غير متغير بطول المقام، وقوله:

«وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ» كما في ألبان الدنيا، وقوله: «وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ» أى لذيقه للشاربين، واللذة إما صفة مشبهة مؤنثة وصف للخمر، وإما مصدر وصفت به الخمر مبالغه، وإما بتقدير مضاف أى ذات لذة، وقوله: «وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى» أى خالص من الشمع والرغوة والقذى وسائر ما فى عسل الدنيا من الأذى والعيوب، وقوله: «وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ» جمع للتعميم.

و قوله: وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ يَمْحَى بِهَا عَنْهُمْ كُلَّ ذَنْبٍ وَسَيِّئَةٍ فَلَا تَتَكَدَّرُ عَيْشَتُهُمْ بِمَكْدَرٍ وَلَا يَتَنَغَّصُ بِمَنْغَصٍ، وفى التعبير عنه تعالى بربهم إشاره الى غشيان الرحمة و شمول الحنان و الرأفة الإلهية.

و قوله: كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ قِيَاسٌ مَحذُوفٌ أَحَدُ طَرَفَيْهِ أَي أَمِنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ الَّتِي هَذَا مِثْلُهَا كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَ شَرَابِهِمُ الْمَاءُ الشَّدِيدُ الْحَرَارَةِ الَّذِي يَقْطَعُ أَمْعَاءَهُمْ وَ مَا فِي جَوْفِهِمْ مِنَ الْأَحْشَاءِ إِذَا سَقَوْهُ، وَإِنَّمَا يَسْقُوهُ وَ هُمْ مَكْرَهُونَ كَمَا فِي قَوْلِهِ: «وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ»، وَقِيلَ: قَوْلُهُ: «كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ» الْخ؛ بَيَانٌ لِقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ: «كَمَنْ زَيْنٌ» الْخ؛ وَ هُوَ كَمَا تَرَى.

[سوره محمد (٤٧): الآيات ١٦ الى ٣٢]

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَ اتَّاهَمُ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَمَا عَلِمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ اسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مُتَوَكِّمًا (١٩) وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صِدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمَلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَ كَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَ لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَ لَتَعَرَّفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ وَ نَبْلُوَنَّكُمْ (٣١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَ سَيَحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ (٣٢)

بيان:

قوله تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا الخ؛ آنفا اسم فاعل منصوب على الظرفية أو لكونه مفعولاً- فيه، ومعناه الساعه التي قبيل ساعتك، وقيل: معناه هذه الساعه وهو على أى حال مأخوذ من الأنف بمعنى الجارحه.

وقوله: وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ الضمير للذين كفروا، والمراد باستماعهم الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إصغائهم الى ما يتلوه من القرآن و ما يبين لهم من اصول المعارف و شرائع الدين.

وقوله: حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ الضمير للموصول و جمع الضمير باعتبار المعنى كما أن إفراده فى «يَسْتَمِعُ» باعتبار اللفظ.

وقوله: قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا المراد بالذين أُوتوا العلم العلماء

ص: ٧٣٠

بالله من الصحابه، و الضمير فى «مَا ذَا قَالَ» للنبي صلى الله عليه و آله و سلم.

و الاستفهام فى قولهم: «مَا ذَا قَالَ آتِئاً» قيل: للاستعلام حقيقه لأن استغراقهم فى الكبر و الغرور و اتباع الأهواء ما كان يدعهم أن يفقهوا القول الحق كما قال تعالى ﴿لَمَّا لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (النساء ٧٨)، و قيل: للاستهزاء، و قيل: للتحقير كأن القول لكونه مشحوناً بالأباطيل لا يرجع الى معنى محصّل، و لكل من المعانى الثلاثه وجه.

و قوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ» تعريف لهم، و قوله: «وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ» تعريف بعد تعريف فهو كعطف التفسير، و يتحصل منه أن اتباع الأهواء أماره الطبع على القلب فالقلب غير المطبوع عليه الباقى على طهاره الفطره الأصلية لا يتوقف فى فهم المعارف الدينيه و الحقائق الإلهيه.

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَ اتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ» المقابله الظاهره بين الآيه و بين الآيه السابقه يعطى أن المراد بالاهتداء ما يقابل الضلال الملازم للطبع على القلب و هو التسليم لما تهدى اليه الفطره السليمه و اتباع الحق، و زياده هداهم من الله سبحانه رفعه تعالى درجه إيمانهم، و قد تقدم أن الهدى و الإيمان ذو مراتب مختلفه، و المراد بالتقوى ما يقابل اتباع الأهواء و هو الورع عن محارم الله و التجنب عن ارتكاب المعاصى.

قوله تعالى: «فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا» الخ؛ النظر هو الانتظار، و الأشرط جمع شرط بمعنى العلامه، و الأصل فى معناه الشرط بمعنى ما يتوقف عليه وجود الشىء لأن تحققة علامه تحقق الشىء فأشراط الساعه علاماتها الداله عليها.

و سياق الآيه سياق التهكم كأنهم واقفون موقفا عليهم إما أن يتبعوا الحق فتسعد بذلك عاقبتهم، و إما أن ينتظروا الساعه حتى إذا أيقنوا بوقوعها و أشرفوا عليها تذكروا و آمنوا و اتبعوا الحق أما اتباع الحق اليوم فلم يخضعوا له بحجه أو بموعظه أو عبره، و أما انتظارهم

مجىء الساعة ليتذكروا عنده فلا ينفعهم شيئاً فإنها تجيء بغته ولا تمهلهم شيئاً حتى يستعدوا لها بالذكري وإذا وقعت لم ينفعهم الذكري لأن اليوم يوم جزاء لا- يوم عمل قال تعالى يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذُّكْرَى يَقُولُ يَا كَيْفَ أَتَى (الفجر/٢٤).

مضافاً إلى أن أشراتها وعلاماتها قد جاءت وتحققت، ولعل المراد بأشراتها خلق الإنسان وانقسام نوعه إلى صلحاء ومفسدين ومتقين وفجار المستدعى للحكم الفصل بينهم ونزول الموت عليهم فإن ذلك كله من شرائط وقوع الواقعة وإتيان الساعة، وقيل: المراد بأشراط الساعة ظهور النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو خاتم الأنبياء وانشقاق القمر ونزول القرآن وهو آخر الكتب السماوية.

هذا ما يعطيه التدبر في الآيه من المعنى وهي - كما ترى - حجه برهانيه في عين مسوقه سوق التهكم.

و عليه فقوله: «بَغْتَهُ» حال من الإتيان جىء به لبيان الواقع ولتفرغ عليه قوله الآتى:

«فَأَنى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ» وليس قيماً للانتظار حتى يفيد أنهم إنما ينتظرون إتيانها بغته، ولدفع هذا التوهم قيل «إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَهُ» ولم يقل: إلا أن تأتيهم الساعة بغته.

وقوله: فَأَنى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ أى خبر مقدم و «ذِكْرَاهُمْ» مبتدأ مؤخر و «إِذَا جَاءَتْهُمْ» معترضه بينهما، والمعنى: فكيف يكون لهم أن يتذكروا إذا جاءتهم؟ أى كيف ينتفعون بالذكري في يوم لا ينفع العمل الذى يعمل فيه وإنما هو يوم الجزاء.

قوله تعالى: فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ الْخ؛ قيل: هو متفرغ على جميع ما تقدم فى السوره من سعاده المؤمنين و شقاوه الكفار كأنه قيل: إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعاده هؤلاء و شقاوه أولئك فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحديته الله سبحانه فمعنى الأمر بالعلم على هذا هو الأمر بالثبات على العلم.

و يمكن أن يكون تفرّيعاً على ما بينه في الآيتين السابقتين أعنى قوله: «وَ مِنْهُم مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ - إلى قوله - وَ آتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ» من أنه تعالى يطبع على قلوب المشركين و يتركهم و ذنوبهم و يعكس الأمر في الذين اهتدوا إلى توحيده و الإيمان به فكأنه قيل: إذا كان الأمر على ذلك فاستمسك بعلمك بوحدانيه الإله و اطلب مغفره ذنبك و مغفره امتك من المؤمنين بك و المؤمنات حتى لا تكون ممن يطبع الله على قلبه و يحرمه التقوى بتركه و ذنوبه، و يؤيد هذا الوجه قوله في ذيل الآية: «وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مُتَوَاكُم» .

فقوله: فَاعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ معناه على ما يؤيده السياق فاستمسك بعلمك أنه لا إله إلا الله، و قوله: «وَ اسْتَغْفِرُ لَذَنْبِكَ» تقدم الكلام في معنى الذنب المنسوب إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و سيأتي أيضاً في تفسير أول سورة الفتح إن شاء الله تعالى.

و قوله: وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ أَمْرٌ بَطَلَبِ الْمَغْفِرَةِ لِلأَمَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ حَاشَا أَنْ يَأْمُرَ تَعَالَى بِالِاسْتِغْفَارِ وَ لَا يُوَجِّهَهُ بِالْمَغْفِرَةِ أَوْ بِالِدَعَاءِ وَ لَا يَقَابِلَهُ بِالِاسْتِجَابَةِ.

و قوله: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مُتَوَاكُم تعليل لما في صدر الآية «فَاعْلَمَ أَنَّهُ» السخ، و الظاهر أن المتقلب مصدر ميمي بمعنى الانتقال من حال إلى حال، و كذلك المثوى بمعنى الاستقرار و السكون، و المراد أنه تعالى يعلم كل أحوالكم من متغير و ثابت و حركة و سكون فاثبتوا على توحيده و اطلبوا مغفرته، و احذروا أن يطبع على قلوبكم و يترككم و أهواءكم.

قوله تعالى: وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، لَوْلَا تَحْضِيضُهُ أَى هَلَّا أَنْزَلْتَ سُورَةَ يظهرون بها الرغبة في نزول سورة جديدة تأتيتهم بتكاليف جديدة يمتثلونها، و المراد بالسورة المحكمه المبينه التي لا تشابه فيها، و المراد بذكر القتال الأمر به.

و المراد بالذين في قلوبهم مرض، الضعفاء الإيمان من المؤمنين دون المنافقين فإن الآية

صريحه فى أن الذين أظهروا الرغبة فى نزولها هم الذين آمنوا، ولا يعمّ الذين آمنوا للمنافقين إلا على طريق المساهله غير اللائقه بكلام الله تعالى فالآيه كقوله تعالى فى فريق من المؤمنين:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ الدَّاسِ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً (النساء ٧٧).

والمغشى عليه من الموت هو المحتضر، يقال: غشيه غشاوه إذا ستره وغطاه و غشى على فلان-بالبناء-للمفعول-إذا نابه ما غشى فهمه، ونظر المغشى عليه من الموت إشخاصه ببصره اليك من غير أن يطرف.

وقوله: فَأُولَىٰ لَهُمْ لعله خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: أولى لهم ذلك أى حرى بهم أن ينظروا كذلك أى أن يحتضروا فيموتوا، وعن الأصمعى أن قولهم: «أولى لك» كلمه تهديد معناه وليك و قارنك ما تكره، والآيه نظيره قوله تعالى: أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ (القيامة ٣٥).

و معنى الآيه: ويقول الذين آمنوا هلا- أنزلت سوره فإذا أنزلت سوره محكمه لا- تشابه فيها و امروا فيها بالقتال و الجهاد رأيت ضعفاء الإيمان منهم ينظرون اليك من شده الخشيه نظر المحتضر فأولى لهم ذلك.

قوله تعالى: طَاعَهُ وَ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ عزم الأمر أى جد و تنجز.

وقوله: «طَاعَهُ وَ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ» كأنه خبر لمبتدأ محذوف و التقدير أمرنا- أو أمرهم و شأنهم- أى إيمانهم بنا طاعه و ائقونا عليها و قول معروف غير منكر قالوا لنا و هو إظهار السمع و الطاعه كما يحكيه تعالى عنهم بقوله: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ -الى أن قال- وَ قَالُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا (البقره ٢٨٥).

و على هذا يتصل قوله بعده: «فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ» بما قبله

اتصالاً- بينا،و المعنى: أن الأمر هو ما واثقوا الله عليه من قولهم:سمعنا و أطعنا فلو أنهم حين عزم الأمر صدقوا الله فيما قالوا و أطاعوه فيما يأمر به و منه أمر القتال لكان خيرا لهم.

و يحتمل أن يكون قوله: «طَاعَهُ» الخ؛خبرا لضمير عائد الى القتال المذكور و التقدير القتال المذكور فى السوره طاعه منهم و قول معروف فلو أنهم حين عزم الأمر صدقوا الله فى إيمانهم و أطاعوه به لكان خيرا لهم.أما كونه طاعه منهم فظاهر،و أما كونه قولاً معروفاً فلأن إيجاب القتال و الأمر بالدفاع عن المجتمع الصالح لإبطال كيد أعدائه قول معروف يعرفه العقل و العقلاء.

قوله تعالى: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ الْخَطَابُ لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ الْمُتَثَابِلِينَ فِي أَمْرِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،و قد التفت اليهم بالخطاب لزياده التوبيخ و التقرير،و الاستفهام للتقرير،و التولى الإعراض و المراد به الإعراض عن كتاب الله و العمل بما فيه و العود الى الشرك و رفض الدين.

و المعنى:فهل يتوقع منكم إن أعرضتم عن كتاب الله و العمل بما فيه و منه الجهاد فى سبيل الله أن تفسدوا فى الأرض و تقطعوا أرحامكم بسفك الدماء و نهب الأموال و هتك الأعراض تكالبا على جيفه الدنيا أى إن توليتم كان المتوقع منكم ذلك.

قوله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ الْإِشَارَةُ إِلَى الْمَفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ الْمُقْطَعِينَ لِلْأَرْحَامِ وَ قَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِأَنَّهُ لَعَنَهُمْ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَذْهَبَ بِسَمْعِهِمْ فَلَا يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ الْحَقَّ وَ أَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ فَلَا يَرُونَ الرَّأْيَ الْحَقَّ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَ لَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ.

قوله تعالى: أَلَا فَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا الْإِسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِيخِ وَ ضَمِيرُ الْجَمْعِ رَاجِعٌ إِلَى الْمَذْكُورِينَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ،و تنكير «قُلُوبٍ» كما قيل للدلاله على أن المراد قلوب هؤلاء و أمثالهم.

قال في مجمع البيان: وفي هذا دلالة على بطلان قول من قال: لا يجوز تفسير شيء من ظاهر القرآن إلا بخبر وسمع. انتهى.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمُ الْارْتِدَادَ عَلَىٰ الْأَدْبَارِ الرَّجُوعَ إِلَى الْارْتِدَابِ بَعْدَ الْاسْتِقْبَالِ وَهُوَ اسْتِعَارُهُ أُرِيدَ بِهَا التَّرِكَ بَعْدَ الْأَخْذِ، وَالتَّسْوِيلُ تَزْيِينُ مَا تَحْرُضُ النَّفْسَ عَلَيْهِ وَتَصْوِيرُ الْقَبِيحِ لَهَا فِي صُورِهِ الْحَسَنِ، وَالْمَرَادُ بِالْإِمْلَاءِ الْإِمْدَادُ أَوْ تَطْوِيلُ الْأَمَالِ.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ الْإِشَارَةَ بِذَلِكَ إِلَى تَسْوِيلِ الشَّيْطَانِ وَإِمْلَائِهِ وَبِالْجُمْلَةِ تَسْلَطَهُ عَلَيْهِمْ، وَالْمَرَادُ «لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ» هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ:

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَالْأَصْلُ أَعْمَالُهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرَهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ (الآية ٩ من السورة).

وقوله: سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ مَقُولٌ قَوْلُهُمْ وَوَعْدٌ مِنْهُمْ لِلْكَفَّارِ بِالطَّاعَةِ وَهُوَ كَمَا يُلُوحُ مِنْ تَقْيِيدِ الطَّاعَةِ بِبَعْضِ الْأَمْرِ عَلَى نَحْوِ الْإِجْمَالِ كَلَامٍ مِنْ لَا يَقْدَرُ عَلَى التَّظَاهِرِ بِطَّاعَةٍ مِنْ يَرِيدُ طَاعَتَهُ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ لِكَوْنِهِ عَلَى خَطَرٍ مِنَ التَّظَاهِرِ بِالطَّاعَةِ الْمَطْلُوقَةِ فَيَسَّرَ إِلَى مَنْ يَعِدُهُ أَنَّهُ سَيُطِيعُهُ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَفِيمَا تيسَّرَ لَهُ ذَلِكَ ثُمَّ يَكْتُمُ ذَلِكَ وَيَقْعُدُ مَتْرَبِصًا لِلدَّوَائِرِ.

وَيَسْتَفَادُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا قَوْمًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ أَسْرَوْا إِلَى الْكُفَّارِ مَا حَكَاهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَوَعَدَهُمُ الطَّاعَةَ لَهُمْ مَهْمَا تيسَّرَ لَهُمْ ذَلِكَ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ».

قوله تعالى: فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ مَتَفَرِّعٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ، وَالْمَعْنَى: هَذَا حَالُهُمُ الْيَوْمَ يَرْتَدُّونَ بَعْدَ تَبْيِينِ الْهُدَى لَهُمْ فَيَفْعَلُونَ مَا يَشَاءُونَ

فكيف حالهم إذا توفتهم الملائكة و هم يضربون وجوههم و أدبارهم.

قوله تعالى: ذَلِكْ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَ كَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ الظاهر أن المراد بما أسخط الله أهواء النفس و تسويات الشيطان المستتبعه للمعاصي و الذنوب الموبقه كما قال تعالى «وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ»، و قال «الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمَلَى لَهُمْ» .

و السخط و الرضا من صفاته تعالى الفعلية و المراد بهما العقاب و الثواب.

و الإشارة في قوله: «ذَلِكْ» الى ما ذكر في الآيه السابقه من عذاب الملائكة لهم عند توفيتهم أى سبب عقابهم أن أعمالهم حابطه لاتباعهم ما أسخط الله و كراحتهم رضوانه، و إذا لا عمل لهم صالحا يشقون بالعذاب.

قوله تعالى: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ قال الراغب: الضغن-بكسر الضاد-و الضغن-بضمها- الحقد الشديد و جمعه أضغان انتهى. و المراد بالذين في قلوبهم مرض الضعفاء الإيمان و لعلمهم الذين آمنوا أولا على ضعف في إيمانهم ثم مالوا الى النفاق و ارتدوا بعد الإيمان، فالتدبر الدقيق في تاريخ صدر الإسلام يوضح أن قوما ممن آمن بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم كانوا على هذه الصفة كما أن قوما منهم آخرين كانوا منافقين من أول يوم آمنوا الى آخر عمرهم، و على هذا فعدهم من المؤمنين فيما تقدم بملاحظه بادئ أمرهم.

و المعنى: بل ظن هؤلاء المنافقون الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله و لن يظهر أحقادهم للدين و أهله.

قوله تعالى: وَ لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ السيماء العلامة، و المعنى: و لو نشاء لأريناك اولئك المرضي القلوب فلعرفتهم بعلامتهم التي أعلمناهم بها.

وقوله: لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا لِأَنَّ كَيْدَ الْإِنْسَانِ وَمَكْرَهُ لَا يَرْجِعُ إِلَّا إِلَى نَفْسِهِ وَلَا يَضُرُّ إِلَّا إِيَّاهُ، وقوله: «وَسَيُحِطُّ أَعْمَالَهُمْ» أى مساعيهم لهدم أساس الدين و ما عملوه لإطفاء نور الله، وقيل: المراد إحباط أعمالهم و إبطالها فلا يثابون فى الآخرة على شىء من أعمالهم، و المعنى الأول أنسب للسياق لأن فيه تحريض المؤمنين و تشجيعهم على قتال المشركين و تطيب نفوسهم أنهم هم الغالبون كما تفيدہ الآيات التالية (١).

[سوره محمد (٤٧): الآيات ٣٣ الى ٣٨]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَ أَنْتُمْ الْأَعْلُونَ وَ اللَّهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَتْرُكَنَّ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ إِن تُوْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْتَلْكُمْ فِي حَيْضِكُمْ فَاصْبِرْنَ وَ يُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَ مَنْ يَبْخُلُ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنِ نَفْسِهِ وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَ إِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)

ص: ٧٣٩

١- ١). محمد صلى الله عليه و آله و سلم ١٦-٣٢: بحث روائى حول الساعة و اشراطها؛ الاستغفار؛ حب على عليه السلام.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ الْآيَةَ و إن كانت في نفسها مستقلة في مدلولها مطلقه في معناها حتى استدلل الفقهاء بقوله فيها: «وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ» على حرمه إبطال الصلاة بعد الشروع فيها لكنها من حيث وقوعها في سياق الآيات السابقة المتعرضه لأمر القتال، وكذا الآيات اللاحقه الجاربه على السياق و خاصه ما في ظاهر قوله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» الخ؛ من التعليل و ما في قوله: «فَلَا تَهْتُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ» الخ؛ من التفریح، و بالجمله الآيه بالنظر الى سياقها تدل على إيجاب طاعه الله سبحانه فيما أنزل من الكتاب و شرع من الحكم و إيجاب طاعه الرسول فيما بلغ عن الله سبحانه، و فيما يصدر من الأمر من حيث ولايته على المؤمنين في المجتمع الديني، و على تحذير المؤمنين من إبطال أعمالهم بفعل ما يوجب حبط أعمالهم كما ابتلى به اولئك الضعفاء الإيمان المائلون الى النفاق الذين انجز أمر بعضهم أن ارتدوا بعد ما تبين لهم الهدى.

فالمراد بحسب المورد من طاعه الله طاعته فيما شرع و أنزل من حكم القتال، و من طاعه الرسول طاعته فيما بلغ منه و فيما أمر به منه و من مقدماته بما له من الولاية فيه و بإبطال الأعمال التخلف عن حكم القتال كما تخلف المنافقون و أهل الردة.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَا تَوَّأ وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ظاهر السياق أنه تعليل لمضمون الآيه السابقه فيفيد أنكم لو لم تطيعوا الله و رسوله و أبطلتم أعمالكم باتباع ما أسخط الله و كراهه رضوانه أذاكم ذلك الى اللحوق بأهل الكفر و الصد و لا مغفره لهم بعد موتهم كذلك أبدا.

و المراد بالصد عن سبيل الله الإعراض عن الإيمان أو منع الناس أن يؤمنوا.

قوله تعالى: «فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَ أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَ اللَّهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَتَرَكَمُ أَعْمَالَكُمُ تَفْرِيعَ عَلَى مَا تَقْدِمُ، و قوله: «فَلَا تَهِنُوا» من الوهن بمعنى الضعف و الفتور، و قوله: «وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ» معطوف على «تَهِنُوا» واقع فى حيز النهى أى و لا- تدعوا الى السلم، و السلم- بفتح السين-الصلح، و قوله: «وَ أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ» جملة حاله أى لا تفعلوا ذلك و الحال أنكم الغالبون، و المراد بالعلو الغلبة و هى استعاره مشهوره.

□ و قوله: وَ اللَّهُ مَعَكُمْ معطوف على «وَ أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ» يبين سبب علوهم و يعلله فالمراد بمعنيته تعالى لهم معيته النصر دون المعية القيوية التى يشير إليها قوله تعالى: وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ (الحديد ٤).

□ و قوله: وَ لَنْ يَتَرَكَمُ أَعْمَالَكُمُ قال فى المجمع: يقال: وتره يتره و ترا إذا نقصه و منه الحديث (١) فكأنه وتر أهله و ماله، و أصله القطع و منه التره القطع بالقتل و منه الوتر المنقطع بانفراده عن غيره. انتهى.

فالمعنى: لن ينقصكم أعمالكم أى يوفى أجرها تاما كاملا، و قيل: المعنى: لن يضيع أعمالكم، و قيل: لن يظلمكم، و المعانى متقاربة.

و معنى الآية: إذا كانت سبيل عدم طاعه الله و رسوله و إبطال أعمالكم هذه السبيل و كان مؤديا الى الحرمان من مغفره الله أبدا فلا تضعفوا و لا تفتروا فى أمر القتال و لا تدعوا المشركين الى الصلح و ترك القتال و الحال أنكم أنتم الغالبون و الله ناصركم عليهم و لن ينقصكم شيئا من اجوركم بل يوفيكموها تامه كامله.

□ و فى الآية وعد المؤمنين بالغلبة و الظفر إن أطاعوا الله و رسوله فهى كقوله: □ وَ لَا تَهِنُوا وَ لَا

ص: ٧٤١

(١-١). و هو ما عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله و ماله» عن الجوامع.

تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (آل عمران ١٣٩).

قوله تعالى: إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَ لَهُوَ وَ إِنْ تُوْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لَا يَسْئَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ أَمْوَالَكُمْ تَرْتَبِلُونَ فِي الْآخِرَةِ وَ تَزِيدُ لَهُمْ عَنِ الدُّنْيَا بَيَانَ حَقِيقَتِهَا وَ هِيَ أَنهَآ لَعِبٌّ وَ لَهُوَ - وَ قَدْ مَرَّ مَعَنَا كَوْنُهَا لَعِبًا وَ لَهُوَ - .

وَ قَوْلُهُ: وَ إِنْ تُوْمِنُوا الْخ؛ أَي إِنْ تُوْمِنُوا وَ تَتَّقُوا بِطَاعَتِهِ وَ طَاعَةِ رَسُوْلِهِ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ بِإِزَاءِ مَا أَعْطَاكُمْ وَ ظَاهِرُ السِّيَاقِ أَنَّ الْمَرَادَ بِالْأَمْوَالِ جَمِيعَ أَمْوَالِهِمْ وَ يُؤَيِّدُهُ أَيْضًا الْآيَةُ التَّالِيَةُ .

قوله تعالى: إِنْ يَسْأَلُكُمْ فِيهَا فَيَخْفُكُمْ تَبَخَّلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْعَانَكُمْ الإِحْفَاءُ الإِجْهَادُ وَ تَحْمِيلُ الْمَشَقَّةِ، وَ الْمَرَادُ بِالْبَخْلِ - كَمَا قِيلَ - الْكِفِّ عَنِ الْإِعْطَاءِ، وَ الْأَضْعَانُ الْأَحْقَادُ .

وَ الْمَعْنَى: إِنْ يَسْأَلُكُمْ جَمِيعَ أَمْوَالِكُمْ فَيَجْهَدُكُمْ بِطَلْبِ كُلِّهَا كَفَفْتُمْ عَنِ الْإِعْطَاءِ لِحُبِّكُمْ لَهَا وَ يَخْرُجُ أَحْقَادَ قُلُوبِكُمْ فَضَلَلْتُمْ .

قوله تعالى: هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ بِمَنْزِلَةِ الْإِسْتِشْهَادِ فِي بَيَانِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّهُ إِنْ يَسْأَلُ الْجَمِيعَ فَيَحْفُكُمْ تَبَخَّلُوا وَ يَشْهَدُ بِذَلِكَ أَنْكُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَ هُوَ بَعْضُ أَمْوَالِكُمْ - فَبَعْضُكُمْ يَبْخُلُ فَيُظْهِرُ بِهِ أَنَّهُ لَوْ سَأَلَ الْجَمِيعَ جَمِيعَكُمْ بَخَلْتُمْ .

وَ قَوْلُهُ: وَ مَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّهُ يَبْخُلُ عَنِ نَفْسِهِ أَي يَمْنَعُ الْخَيْرَ عَنِ نَفْسِهِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَسْأَلُ مَا لَهُمْ لِيَنْتَفِعَ بِهِ وَ هُوَ لِيَنْتَفِعَ بِهِ الْمُنْفِقُونَ فِيمَا فِيهِ خَيْرٌ دُنْيَاهُمْ وَ آخِرَتِهِمْ فَامْتَنَاعُهُمْ عَنِ إِتْفَاقِهِ امْتِنَاعٌ مِنْهُمْ عَنِ خَيْرِ أَنْفُسِهِمْ، وَ إِلَيْهِ يُشِيرُ قَوْلُهُ بَعْدَهُ: «وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ» وَ الْقَصْرَانُ لِلْقَلْبِ أَي اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ دُونَكُمْ وَ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ دُونَ اللَّهِ .

وَ قَوْلُهُ: وَ إِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ قِيلَ:

عطف على قوله: «وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا» والمعنى: إن تؤمنوا و تتقوا يؤتكم أجوركم و إن تولوا و تعرضوا يستبدل قوما غيركم بأن يوفقهم للإيمان دونكم ثم لا يكونوا أمثالكم بل يؤمنون و يتقون و ينفقون في سبيل الله.

ص: ٧٤٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ; إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَ يُنصِرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا (٣) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ يُكْفَرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَ يُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيمًا حَكِيمًا (٧)

مضامين آيات السوره بفصولها المختلفه ظاهره الانطباق على قصه صلح الحديبيه الواقعه فى السنه السادسه من الهجره و ما وقع حولها من الوقائع كقصه تخلف الأعراب و صدّ المشركين، و بيعه الشجره على ما تقصّيه الآثار و سيجىء شرط منها فى البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى.

فغرض السوره بيان ما امتنّ الله تعالى على رسوله صلّى الله عليه و آله و سلّم بما رزقه من الفتح المبين فى هذه السفره، و على المؤمنين ممن معه، و مدحهم البالغ، و الوعد الجميل للذين آمنوا منهم و عملوا الصالحات، و السوره مدنيه.

قوله تعالى: **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** كلام واقع موقع الامتنان، و تأكيد الجمله بـ **يَا** و نسبه الفتح الى نون العظمه و توصيفه بالمبين كل ذلك للاعتناء بشأن الفتح الذى يمتنّ به.

و المراد بهذا الفتح على ما تؤيده قرائن الكلام هو ما رزق الله نبيه صلّى الله عليه و آله و سلّم من الفتح فى صلح الحديبيه.

و ذلك أن ما سيأتى فى آيات السوره من الامتنان على النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و المؤمنين، و مدحهم و الرضا عن بيعتهم و وعدهم الجميل فى الدنيا بمغانم عاجله و آجله و فى الآخره بالجنه و ذمّ المخلفين من الأعراب إذ استنفرهم رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم فلم يخرجوا معه، و ذمّ المشركين فى صدّهم النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و من معه، و ذمّ المنافقين، و تصديقه تعالى رؤيا نبيه صلّى الله عليه و آله و سلّم، و قوله: **«فَعَلِمَ مَا لَمَّ تَعَلَّمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا»** -و كاد يكون صريحاً- كل ذلك معان مرتبطه

بخروجه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى مَكَّةَ لِلْحِجِّ وَانْتِهَاءِ ذَلِكَ إِلَى صَلْحِ الْحَدِيثِ.

وَأَمَّا كَوْنُ هَذَا الصَّلْحِ فَتَحَا مَبِينَا رِزْقَهُ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَظَاهِرٌ بِالتَّدْبِيرِ فِي لِحْنِ آيَاتِ السُّورَةِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ فَقَدْ كَانَ خُرُوجَ النَّبِيِّ وَالْمُؤْمِنِينَ إِلَى هَذِهِ الْبَغْيَةِ خُرُوجًا عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ لَا يَرْجَى مَعَهُ رِجْوَعُهُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ عَادَةً كَمَا يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: **بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَيَّ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا** وَالْمُشْرِكُونَ مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ وَمَنْ يَتَّبِعُهُمْ عَلَى مَا لَهُمْ مِنَ الشُّوْكَهِ وَالْقُوَّةِ وَالْعِدَاوَةِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَتَوَسَّطْ بَيْنَهُمْ مِنْذُ سَنِينَ إِلَّا السِّيفُ وَ لَمْ يَجْمَعْهُمْ جَامِعٌ غَيْرُ مَعْرَكَةِ الْقِتَالِ كَغَزْوَةِ بَدْرٍ وَأَحَدٍ وَالْأَحْزَابِ، وَلَمْ يَخْرُجْ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَّا شَرَذَمَةٌ قَلِيلُونَ - أَلْفٌ وَ أَرْبَعُمِائَةٌ - لَا قَدْرَ لَهُمْ عِنْدَ جَمُوعِ الْمُشْرِكِينَ وَ هُمْ فِي عَقْرِ دَارِهِمْ.

وَلَكِنَّ اللهُ سَبَّحَانَهُ قَلَّبَ الْأَمْرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَفَرَضُوا بِمَا لَمْ يَكُنْ مَطْمَوعًا فِيهِ مَتَوَقَّعًا مِنْهُمْ فَسَأَلُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَصَالِحَهُمْ عَلَى تَرْكِ الْقِتَالِ عَشْرَ سَنِينَ، وَعَلَى تَأْمِينِ كُلِّ مِنَ الْقَبِيلِينَ أَتْبَاعَ الْآخَرِ وَمَنْ لَحِقَ بِهِ، وَعَلَى أَنْ يَرْجِعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ عَامَهُ هَذَا ثُمَّ يَقْدُمُ إِلَى مَكَّةَ الْعَامَ الْقَابِلَ فَيَخْلُؤُا لَهُ الْمَسْجِدَ وَالْكَعْبَةَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ.

وَهَذَا مِنْ أَوْضَاحِ الْفَتْحِ رِزْقَهُ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ مِنْ أَمْسِّ الْأَسْبَابِ بِفَتْحِ مَكَّةَ سَنَةَ ثَمَانٍ مِنَ الْهَجْرَةِ فَقَدْ آمَنَ جَمْعٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي السَّنَتَيْنِ بَيْنَ الصَّلْحِ وَفَتْحِ مَكَّةَ، وَفَتْحٌ فِي أَوَائِلِ سَنَةِ سَبْعٍ خَيْرٌ وَمَا وَالَاهُ وَقَوَى بِهِ الْمُسْلِمُونَ وَ اتَّسَعَ الْإِسْلَامُ اتِّسَاعًا بَيْنًا وَ كَثُرَ جَمْعُهُمْ وَ انْتَشَرَ صَيْتُهُمْ وَ أَشْغَلُوا بِلَادًا كَثِيرَةً، وَ خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِفَتْحِ مَكَّةَ فِي عَشْرِ آلَافٍ أَوْ فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، وَقَدْ كَانَ خَرَجَ إِلَى حَدِيثِهِ فِي أَلْفٍ وَ أَرْبَعُمِائَةٍ عَلَى مَا تَفَصَّلَهُ الْآثَارُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: **لِيُغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا** اللَّامُ فِي قَوْلِهِ: «لِيُغْفِرَ» لِلتَّعْلِيلِ عَلَى مَا هُوَ ظَاهِرُ اللَّفْظِ فَظَاهِرُهُ أَنَّ الْغُرُضَ مِنْ هَذَا الْفَتْحِ الْمُبِينُ هُوَ مَغْفِرَةُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ لَا رَابِطَةَ بَيْنَ الْفَتْحِ وَ بَيْنَ مَغْفِرَةِ الذَّنْبِ وَ لَا مَعْنَى مَعْقُولًا لِتَعْلِيلِهِ

و قول بعضهم فرارا عن الإشكال: إن اللام المكسوره فى «لِيُغْفِرَ» لام القسم و الأصل ليغفرنّ حذف نون التوكيد و بقى ما قبلها مفتوحا للدلاله على المحذوف غلط لا شاهد عليه من الاستعمال.

و كذا قول بعض آخر فرارا عن الإشكال «إن العله هو مجموع المغفره و ما عطف عليه من إتمام النعمه و الهدايه و النصر العزيز من حيث المجموع فلا- ينافى عدم كون البعض أى مغفره الذنب فى نفسه عله للفتح» كلام سخيّف لا- يغنى طائلا- فإن مغفره الذنب لا- هى عله أو جزء عله للفتح و لا- مرتبطه نوع ارتباط بما عطف عليها حتى يوجه دخولها فى ضمن عله فلا مصحح لذكرها وحدها و لا مع العلل و فى ضمنها.

و بالجملة هذا الإشكال نعم الشاهد على أن ليس المراد بالذنب فى الآيه هو الذنب المعروف و هو مخالفه التكليف المولوى، و لا المراد بالمغفره معناها المعروف و هو ترك العقاب على المخالفه المذكوره فالذنب فى اللغه على ما يستفاد من موارد استعماله هو العمل الذى له تبعه سيئه كيفما كان، و المغفره هى الستر على الشىء، و أما المعنيان المذكوران المتبادران من لفظى الذنب و المغفره الى أذهاننا اليوم أعنى مخالفه الأمر المولوى المستتبع للعقاب و ترك العقاب عليها فإنما لزمهما بحسب عرف المتشرعين.

و قيام النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم بالدعوه و نهضته على الكفر و الوثنيه فيما تقدم على الهجره و إدامته ذلك و ما وقع له من الحروب و المغازى مع الكفار و المشركين فيما تأخر عن الهجره كان عملا منه صلّى الله عليه و آله و سلّم ذا تبعه سيئه عند الكفار و المشركين و ما كانوا ليغفروا له ذلك ما كانت لهم شوكة و مقدره، و ما كانوا لينسوا زهوق ملتهم و انهدام سنتهم و طريقتهم، و لا ثارات من قتل من صناديدهم دون أن يشفوا غليل صدورهم بالانتقام منه و إمحاء اسمه و إعفاء رسمه غير أن الله سبحانه رزقه صلّى الله عليه و آله و سلّم هذا الفتح و هو فتح مكه أو فتح الحديبيه المنتهى الى فتح مكه فذهب

بشوكتهم و أحمدهم فستر بذلك عليه ما كان لهم عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ الذَّنْبِ وَآمَنَهُ مِنْهُمْ.

فالمراد بالذنب-والله أعلم-التبعية السيئه التي لدعوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عند الكفار و المشركين و هو ذنب لهم عليه كما في قول موسى لربه وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (الشعراء / ١٤)، و ما تقدم من ذنبه هو ما كان منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بمكة قبل الهجرة، و ما تأخر من ذنبه هو ما كان منه بعد الهجرة، و مغفرته تعالى لذنبه هي ستره عليه بإبطال تبعته بإذهاب شوكتهم و هدم بنيتهم، و يؤيد ذلك ما يتلوه من قوله: «وَ يُؤْتِيَنَا نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ -إلى أن قال- وَ يُنْصِرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا» .

و في قوله: لِيُغْفِرَ لِمَكَ اللَّهُ الْحَبْرُ؛ بعد قوله: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ» التفات من التكلم الى الغيبه و لعل الوجه فيه أن محصل السوره امتنانه تعالى على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و المؤمنين بما رزق من الفتح و إنزال السكينه و النصر و سائر ما وعدهم فيها فناسب أن يكون السياق الجارى فى السوره سياق الغيبه و يذكر تعالى فيها فاسمه و ينسب اليه النصر بما يعبده نبيه و المؤمنون وحده قبال ما لا يعبده المشركون و إنما يعبدون آلهه من دونه طمعا فى نصرهم و لا ينصرونهم.

و أما سياق التكلم مع الغير المشعر بالعظمه فى الآيه الاولى فلمناسبتة ذكر الفتح فيها و يجرى الكلام فى قوله تعالى الآتى: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا» الآيه.

و قوله: «وَ يُؤْتِيَنَا نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ» قيل: أى يتمها عليك فى الدنيا بإظهارك على عدوك و إعلاء أمرك و تمكين دينك، و فى الآخره برفع درجتك، و قيل: أى يتمها عليك بفتح خير و مكة و الطائف.

و قوله: وَ يَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا قيل: أى و يثبتك على صراط يؤدى بسالكه الى الجنه، و قيل: أى و يهديك الى مستقيم الصراط فى تبليغ الأحكام و إجراء الحدود.

و قوله: وَ يُنْصِرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا قيل: النصر العزيز هو ما يمتنع به من كل

جبار عنيد و عات مرید، و قد فعل بنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ إِذْ جَعَلَ دِينَهُ أَعَزَّ الْأَدْيَانِ وَ سُلْطَانَهُ أَعْظَمَ السُّلْطَانِ، وَ قِيلَ: الْمَرَادُ بِالنَّصْرِ الْعَزِيزِ مَا هُوَ نَادِرُ الْوُجُودِ قَلِيلُ النَّظِيرِ أَوْ عَدِيمُهُ وَ نَصْرُهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ كَذَلِكَ كَمَا يَظْهَرُ بِقِيَاسِ حَالِهِ فِي أَوَّلِ بَعْثَتِهِ إِلَى حَالِهِ فِي آخِرِ أَيَّامِ دَعْوَتِهِ.

وَ التَّدْبِيرُ فِي سِيَاقِ الْآيَتَيْنِ بِالْبِنَاءِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ» يَعْطَى أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ بِقَوْلِهِ: «وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ» هُوَ تَمْهِيدُهُ تَعَالَى لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ لِتَمَامِ الْكَلِمَةِ وَ تَصْفِيَتِهِ الْجَوْ لِنَصْرِهِ نَصْرًا عَزِيزًا بَعْدَ رَفْعِ الْمَوَانِعِ بِمُغْفَرِهِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَ مَا تَأَخَّرَ.

وَ قَوْلُهُ: «وَ يَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا» هُدَايَتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ بَعْدَ تَصْفِيَتِهِ الْجَوْ لَهُ إِلَى الطَّرِيقِ الْمَوْصِلِ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي سَلَكَهُ بَعْدَ الرَّجُوعِ مِنَ الْحَدِيثِيِّهِ مِنْ فَتْحِ خَيْبَرَ وَ بَسْطِ سُلْطَةِ الدِّينِ فِي أَقْطَارِ الْجَزِيرَةِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى فَتْحِ مَكَّةِ وَ الطَّائِفِ.

وَ قَوْلُهُ: «وَ يُنْصِرُكَ اللَّهُ نَصِيرًا عَزِيزًا» نَصْرُهُ لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ ذَاكَ النَّصْرَ الظَّاهِرَ الْبَاهِرَ الَّتِي قَلِمَا يَوْجَدُ-أَوْ لَا يَوْجَدُ- لَهُ نَظِيرٌ إِذْ فَتَحَ لَهُ مَكَّةَ وَ الطَّائِفَ وَ انبَسَطَ الْإِسْلَامُ فِي أَرْضِ الْجَزِيرَةِ وَ انْقَلَعَ الشَّرْكَ وَ ذَلَّ الْيَهُودَ وَ خَضَعَ لَهُ نَصَارَى الْجَزِيرَةِ وَ الْمَجُوسَ الْقَاطِنُونَ بِهَا، وَ أَكْمَلَ تَعَالَى لِلنَّاسِ دِينَهُمْ وَ أَتَمَّ عَلَيْهِمْ نِعْمَتَهُ وَ رَضِيَ لَهُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ» الظَّاهِرُ أَنَّ الْمَرَادَ بِالسَّكِينَةِ سَكُونُ النَّفْسِ وَ ثَبَاتُهَا وَ اطْمَئِنَانُهَا إِلَى مَا آمَنَتْ بِهِ، وَ لَذَا عُلِّلَ انْزَالُهَا فِيهَا بِقَوْلِهِ: «لِيُزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ» وَ قَدْ تَقَدَّمَ الْبَحْثُ عَنِ السَّكِينَةِ فِي ذَيْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «أَنْ يَأْتِيَكُمْ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ» (البقرة ٢٤٨/٢٤٨) فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ الْكِتَابِ وَ ذَكَرْنَا هُنَا أَنَّهَا تَنْطَبِقُ عَلَى رُوحِ الْإِيمَانِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَ أَيْدُهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ» (المجادله ٢٢/٢٢).

وَ الْمَرَادُ بِانْزَالِ السَّكِينَةِ فِي قُلُوبِهِمْ إِيجَادُهَا فِيهَا بَعْدَ عَدَمِهَا فَكثِيرًا مَا يَعْبُرُ فِي الْقُرْآنِ عَنِ

الخلق و الإيجاد بالإنزال كقوله: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ (الزمر ٦/٦)، وقوله:

وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ (الحديد ٢٥/٢٥)، وقوله: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر ٢١/٢١). وإنما عبّر عن الخلق و الإيجاد بالإنزال للإشارة الى علو مبدئه.

و المراد بزياده الإيمان اشتداده فإن الإيمان بشيء هو العلم به مع الالتزام بحيث يترتب عليه آثاره العمليه، و من المعلوم أن كلا من العلم و الالتزام المذكورين مما يشتد و يضعف فالإيمان الذى هو العلم المتلبس بالالتزام يشتد و يضعف.

فمعنى الآية: الله الذى أوجد الثبات و الاطمئنان الذى هو لازم مرتبه من مراتب الروح فى قلوب المؤمنين ليشتد به الإيمان الذى كان لهم قبل نزول السكينه فيصير أكمل مما كان قبله (١).

وقوله: وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الْجند هو الجمع الغليظ من الناس إذا جمعهم غرض يعملون لأجله و لذا أطلق على العسكر المجتمعين على إجراء ما يأمر به أميرهم، و السياق يشهد أن المراد بجنود السماوات و الأرض الأسباب الموجوده فى العالم مما يرى و لا يرى من الخلق فهى وسائط متخلله بينه تعالى و بين ما يريد من شيء تطيعه و لا تعصاه.

و إيراد الجملة أعنى قوله: «وَ لِلَّهِ جُنُودٌ» الخ؛ بعد قوله: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ» الخ؛ للدلاله على أن له جميع الأسباب و العلل التى فى الوجود فله أن يبلغ الى ما يشاء بما يشاء و لا يغلبه شيء فى ذلك، و قد نسبت الى زياده إيمان المؤمنين بانزال السكينه فى قلوبهم.

وقوله: «وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا» أى منيعا جانبه لا يغلبه شيء متقنا فى فعله لا يفعل إلا ما تقتضيه حكمته و الجملة بيان تعليلى لقوله: «وَ لِلَّهِ جُنُودٌ» الخ؛ كما أنه بيان تعليلى لقوله: «هُوَ

ص: ٧٥٠

الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ ۖ الْخ؛ كَأَنَّهُ قِيلَ: أَنْزَلَ السَّكِينَةَ لِكُذِّبِ الْكُذِّابِ وَ لِهَذَا لَأَنَّ لَهُ جَمِيعَ الْجُنُودِ وَ الْأَسْبَابِ لِأَنَّهُ الْعَزِيزُ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَ الْحَكِيمُ عَلَى الْإِطْلَاقِ.

قوله تعالى: لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، تعليل آخر لقوله: «أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ» على المعنى كما أن قوله: «لِيَزِدُوا إِيمَانًا» تعليل له بحسب اللفظ كأنه قيل: خص المؤمنين بإنزال السكينة و حرم على غيرهم ذلك ليزداد إيمان هؤلاء مع إيمانهم و حقيقته ذلك أن يدخل هؤلاء الجنة و يعذب أولئك فيكون قوله: «لِيُدْخِلَ» بدلا أو عطف بيان من قوله: «لِيَزِدُوا» الخ.

و في متعلق لام «لِيُدْخِلَ» الخ؛ أقوال آخر كالقول بتعلقها بقوله: «فَتَخَنَّا» أو قوله:

«لِيَزِدُوا» أو بجميع ما تقدم الى غير ذلك مما لا جدوى لإيراده.

و ضم المؤمنات الى المؤمنين في الآية لدفع توهم اختصاص الجنة و تكفير السيئات بالذكر لوقوع الآية في سياق الكلام في الجهاد، و الجهاد و الفتح واقعان على أيديهم فصرح باسم المؤمنات لدفع التوهم كما قيل.

و ضمير «خَالِدِينَ» و «يُكْفَرُ عَنْهُمْ سُبْحَاتِهِمْ» للمؤمنين و المؤمنات جميعا على التغليب.

و قوله: «وَ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا» بيان لكون ذلك سعادة حقيقته لا ريب فيها لكونه عند الله كذلك و هو يقول الحق.

قوله تعالى: وَ يُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ معطوف على قوله: «لِيُدْخِلَ» بالمعنى الذي تقدم، و تقديم المنافقين و المنافقات على المشركين و المشركات في الآية لكونهم أضرب على المسلمين من أهل الشرك و لأن عذاب أهل النفاق أشد، قال تعالى: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ.

و قوله: «الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوَاءِ» السوء بالفتح فالسكون مصدر بمعنى القبح و السوء

بالضم اسم مصدر، و ظن السوء هو ظنهم أن الله لا ينصر رسوله و قيل: المراد بظن السوء ما يعم ذلك و سائر ظنونهم السيئه من الشرك و الكفر.

و قوله: عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ دعاء عليهم أو قضاء عليهم أى ليستضرروا بدائره السوء التى تدور لتصيب من تصيب من الهلاك و العذاب.

و قوله: وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ معطوف على قوله:

«عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ» الخ؛ و قوله: «وَ سَاءَتْ مَصِيرًا» بيان مساءه مصيرهم، كما أن قوله: «وَ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا» بيان لحسن مصير أهل الإيمان.

قوله تعالى: وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ تقدم معناه، و الظاهر أنه بيان تعليلي للآيتين أعنى قوله: «لِيُدْخَلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ إِلَى قَوْلِهِ- وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ» على حدو ما كان مثله فيما تقدم بيانا تعليليا لقوله: «أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ» (١).

[سوره الفتح (٤٨): الآيات ٨ الى ١٠]

إِذَا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَ مَبَشِّرًا وَ نَذِيرًا (٨) لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّزُوهُ وَ تُوقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ آخِرًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠)

ص: ٧٥٢

(١-١). الفتح ٧-١: بحث روائى فى: صلح الحديبيه؛ عصمه الانبياء؛ نزول السكينه فى قلوب المؤمنين، معنى ذنب رسول الله.

قوله تعالى: **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا** المراد بشهادته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شهادته على الأعمال من إيمان و كفر وعمل صالح أو طالح، وقد تكرر في كلامه تعالى ذكر شهادته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وتقدم استيفاء الكلام في معنى هذه الشهادة، وهي شهادته حمل في الدنيا، وأداء في الآخرة.

و كونه مبشرا تبشيره لمن آمن و اتقى بالقرب من الله و جزيل ثوابه، و كونه نذيرا إنذاره و تخويله لمن كفر و تولى بأليم عذابه.

قوله تعالى: **لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** القراءه المشهوره بتاء الخطاب في الأفعال الأربعة، و قرء ابن كثير و ابو عمرو بياء الغيبه في الجميع و قراءتها أرجح بالنظر الى السياق.

و كيف كان فاللام في «لِتُؤْمِنُوا» للتعليل أى أرسلناك كذا و كذا لتؤمنوا بالله و رسوله.

و التعزير-على ما قيل-النصر و التوقير التعظيم كما قال تعالى **لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً** (نوح ١٣)، و الظاهر أن الضمائر في «تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ» جميعا لله تعالى و المعنى: إنا أرسلناك كذا و كذا ليؤمنوا بالله و رسوله و ينصروه تعالى بأيديهم و ألسنتهم و يعظموه و يسبحوه-و هو الصلاة-بكره و أصيلاً أى غداه و عشيا.

و قيل: الضميران في «تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ» للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و ضمير «تُسَبِّحُوهُ» لله تعالى و يوهنه لزوم اختلاف الضمائر المتسقة.

قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** الى آخر الآيه. البيعه نوع من الميثاق ببذل الطاعة قال في المفردات: و بايع السلطان إذا تضمن بذل الطاعة له بما رضخ له انتهى، و الكلمه مأخوذه من البيع بمعناه المعروف فقد كان من دأبهم

أنهم إذا أرادوا إنجاز البيع أعطى البائع يده للمشتري فكأنهم كانوا يمثلون بذلك نقل الملك التصرفات التي يتحقق معظمها باليد الى المشتري بالتصفيق، وبذلك سمي التصفيق عند بذل الطاعه ببيعه و مبايعه، و حقيقه معناه إعطاء المبايع يده للسلطان مثلاً ليعمل به ما يشاء.

فقوله: إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ تَنْزِيل بِيَعْتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ منزله ببيعته تعالى بدعوى أنها هي فما يواجهونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ به من بذل الطاعه لا يواجهون به إلا الله سبحانه لأن طاعته طاعه الله ثم قرره زياده تقرير و تأكيد بقوله: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» حيث جعل يده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ يد الله كما جعل رمية صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ رمى نفسه في قوله: وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى (الأنفال ١٧).

و في نسبه ما له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ من الشأن الى نفسه تعالى آيات كثيره كقوله تعالى: مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ (النساء ٨٠)، و قوله: فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (الأنعام ٣٣)، و قوله: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ (آل عمران ١٢٨).

و قوله: فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ النكث نقض العهد و البيعه، و الجملة تفريع على قوله: «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ» و المعنى: فإذا كان بيعتك ببيعه الله فالناكث الناقض لها ناقض لبيعه الله و لا يتضرر بذلك إلا نفسه كما لا ينتفع بالإيفاء إلا نفسه لأن الله غنى عن العالمين.

و قوله: وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِئْتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا وعد جميل على حفظ العهد و الإيفاء به.

و الآيه لا تخلو من إيماء الى أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ كان عند البيعه يضع يده على أيديهم فكانت يده على أيديهم لا بالعكس.

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) يَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنَّ السَّوِّءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٤) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِنَا أَخُذُوهَا ذُرُونَنَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسَدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرٌ يَدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمِ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَيْسَ عَلَى الْمَاعِمِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧)

قوله تعالى: سَيَقُولُ لِمَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَ أَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرُوا لَنَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: الْمُخَلَّفُ هُوَ الْمَتْرُوكُ فِي الْمَكَانِ خَلْفَ الْخَارِجِينَ مِنَ الْبَلَدِ، وَ هُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْخَلْفِ وَ ضِدُّهُ الْمَقْدَمُ. انْتَهَى. وَ الْأَعْرَابُ -عَلَى مَا قَالُوا- الْجَمَاعَةُ مِنَ عَرَبِ الْبَادِيَةِ وَ لَا يُطْلَقُ عَلَى عَرَبِ الْحَاضِرَةِ، وَ هُوَ اسْمٌ جَمْعٌ لَا مُفْرَدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ.

وَ قَوْلُهُ: سَيَقُولُ لِمَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ إِخْبَارٌ عَمَّا سَيَأْتِي مِنْ قَوْلِهِمْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، وَ فِي اللَّفْظِ دَلَالَةٌ مَا عَلَى نَزُولِ الْآيَاتِ فِي رَجُوعِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مِنَ الْحَدِيثِيِّهِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَ لَمَّا يَرُدُّهَا.

وَ قَوْلُهُ: شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَ أَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرُوا لَنَا أَيُّ كَانَ الشَّاعِلُ الْمَانِعَ لَنَا عَنْ صَحَابَتِكَ وَ الْخُرُوجِ مَعَكَ هُوَ أَمْوَالُنَا وَ أَهْلُونَا حَيْثُ لَمْ يَكُنْ هُنَا مِنْ يَقُومُ بِأَمْرِنَا فَخَفْنَا ضَيْعَتَهَا فَلَزِمْنَاهَا فَاسْتَغْفِرُ لَنَا اللَّهُ تَعَالَى يَغْفِرُ لَنَا تَخَلُّفَنَا عَنْكَ، وَ فِي سَوْأَلِ الْاسْتِغْفَارِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَرُونَ التَّخَلُّفَ ذَنْبًا فَتَعَلَّقَهُمْ بِأَنَّهُ شَغَلَتْهُمْ الْأَمْوَالُ وَ الْأَهْلُونَ لَيْسَ اعْتِذَارًا لِلتَّبَرُّيِّ عَنِ الذَّنْبِ بَلْ ذَكَرُوا لِلسَّبَبِ الْمَوْجِعِ فِي الذَّنْبِ.

وَ قَوْلُهُ: يَقُولُونَ بِاللَّسِيَّتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ تَكْذِيبٌ لَهُمْ فِي جَمِيعِ مَا أَخْبَرُوا بِهِ وَ سَأَلُوهُ فَلَا أَنْ الشَّاعِلُ لَهُمْ هُوَ شُغْلُ الْأَمْوَالِ وَ الْأَهْلِينَ، وَ لَا أَنَّهُمْ يَهْتَمُونَ بِاسْتِغْفَارِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، وَ إِنَّمَا سَأَلُوهُ لِيَكُونَ ذَلِكَ جَنَةً يَصْرَفُونَ بِهَا الْعِتَابَ وَ التَّوْبِيخَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ.

وَ قَوْلُهُ: قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا جَوَابٌ حَلِيٌّ عَمَّا اعْتَذَرُوا بِهِ مِنْ شُغْلِ الْأَمْوَالِ وَ الْأَهْلِينَ مُحْضِيَةً أَنْ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ وَ هُوَ الْمَالِكُ الْمُدَبِّرُ لِكُلِّ شَيْءٍ لَا رَبَّ سِوَاهُ فَلَا ضَرَّ وَ لَا نَفْعَ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ وَ مَشِيَّتِهِ فَلَا يَمْلِكُ

أحد منه تعالى شيئاً حتى يقهره على ترك الضر أو فعل الخير إن أراد الضر أو على ترك الخير إن أراد ما لا يريد هذا القاهر من الخير، وإذا كان كذلك فانصرفكم عن الخروج مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم نصره للدين و اشتغالكم بما اعتلتم به من حفظ الأموال والأهلين لا يغنى من الله شيئاً لا يدفع الضر إن أراد الله بكم ضراً ولا يعين على جلب الخير ولا يعجله إن أراد بكم خيراً.

فقوله: قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ الْخَبْرَ؛ جواب عن تعللهم بالشغل على تقدير تسليم صدقهم فيه، ملخصه أن تعلقكم في دفع الضر و جلب الخير بظاهر الأسباب و منها تدبيركم و القعود بذلك عن مشروع ديني لا يغنيكم شيئاً في ضر أو نفع بل الأمر تابع لما أراد الله سبحانه فالآية في معنى قوله تعالى: «قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا» .

و التمسك بالأسباب و عدم إلغائها و إن كان مشروعاً مأموراً به لكنه فيما لا يعارض ما هو أهل منها كالدفاع عن الحق و إن كان فيه بعض المكاره المحتملة اللهم إلا إذا تعقّب خطراً قطعياً لا أثر معه للدفاع و السعي.

و قوله: بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا تعريض لهم فيه إشارة الى كذبهم في قولهم: «شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَ أَهْلُونَا» .

قوله تعالى: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَ زُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ الْخَبْرَ؛ بيان لما يشير اليه قوله: «بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» من كذبهم في اعتذارهم، و المعنى: ما تخلفتم عن الخروج بسبب اشتغالكم بالأموال و الأهلين بل ظننتم أن الرسول و المؤمنين لن يرجعوا الى أهلهم أبداً و أن الخارجين سيقتلون بأيدي قريش بما لهم من الجموع و البأس الشديد و الشوكه و القدره و لذلك تخلفتم.

و قوله: وَ زُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ أى زين الشيطان ذلك الظن في قلوبكم فأخذتم بما يقتضيه ذلك الظن المزين و هو أن تتخلفوا و لا تخرجوا حذراً من أن تهلكوا و تبيدوا.

وقوله: وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا البور-على ما قيل-مصدر بمعنى الفساد أو الهلاك أريد به معنى الفاعل أى كنتم قوما فاسدين أو هالكين.

قيل: المراد بظن السوء ظنهم أن لن ينقلب الرسول و المؤمنون الى أهلهم أبدا و لا يبعد أن يكون المراد به ظنهم أن الله لا ينصر رسوله و لا يظهر دينه كما مرّ فى قوله فى الآيه السادسه من السوره: «الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ» بل هو أظهر.

قوله تعالى: وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا الجمع فى هذه الآيات بين الإيمان بالله و رسوله للدلاله على أن الكفر بالرسول بعدم طاعته كفر بالله، و فى الآيه لحن تهديد.

و قوله: فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا كان مقتضى الظاهر أن يقال: أعتدنا لهم فوضع الظاهر موضع الضمير للاشاره الى عله الحكم بتعليقه على المشتق، و المعنى: أعتدنا و هتأنا لهم لكفرهم سعيرا أى نارا مسعره مشتعله، و تنكير سعيرا للتهويل.

قوله تعالى: وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا معنى الآيه ظاهر و فيها تأييد لما تقدم، و فى تذييل الملك المطلق بالاسمين: الغفور الرحيم إشاره الى سبق الرحمة الغضب و حتّ على الاستغفار و الاسترحام.

قوله تعالى: سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمٍ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ الى آخر الآيه إخبار عن أن المؤمنين سيغزون غزوه فيرزقون الفتح و يصيبون مغانم و يسألهم المخلفون أن يتركوهم يتبعونهم طمعا فى الغنيمه، و تلك غزوه خيبر اجتاز النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم و المؤمنون اليه ففتحوه و أخذوا الغنائم و خصها الله تعالى بمن كان مع النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم فى سفره الحديبيه لم يشرك معهم غيرهم.

و المعنى: أنكم ستنتقلون الى غزوه فيها مغانم تأخذونها فيقول هؤلاء المخلفون: اتركونا

نتبعكم.

وقوله: يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قِيلَ: المراد به وعده تعالى أهل الحديبيه أن يخصهم بغنائم خبير بعد فتحه كما سيجيء من قوله: وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه الآيه، ويشير اليه في هذه الآيه بقوله: «إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمٍ لِتَأْخُذُوهَا» .

وقوله: قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ أمر منه تعالى للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يمنعهم عن اتباعهم استنادا الى قوله تعالى من قبل أن يسألوهم الاتباع.

وقوله: فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا أى سيقول المخلفون بعد ما منعوا عما سألوه من الاتباع «بَلْ تَحْسُدُونَنَا» وقوله: «بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا - قَلِيلًا» جواب عن قولهم: «بَلْ تَحْسُدُونَنَا» لم يوجه الخطاب اليهم أنفسهم لأن المدعى أنهم لا يفقهون الحديث و لذلك وجه الخطاب بالجواب الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وقال «بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا» .

و ذلك أن قولهم: بَلْ تَحْسُدُونَنَا إضراب عن قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لهم بأمر الله «لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ» فمعنى قولهم: إن منعنا من الاتباع ليس عن أمر من قبل الله بل إنما تمنعنا أنت و من معك من المؤمنين أهل الحديبيه أن نشارككم فى الغنائم و تريدون أن تختص بكم.

و هذا كلام لا يواجه به مؤمن له عقل و تمييز رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ المعصوم الذى لا يرد و لا يصدر فى شأن إلا بأمر من الله اللهم إلا أن يكون من بساطه العقل و بلاده الفهم فهذا القول الذى واجهوا به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و هم مدعون للإيمان و الإسلام أدل دليل على ضعف عقولهم و قلة فقههم.

و من هنا يظهر أن المراد بعدم فقههم إلا - قليلا - بساطه عقولهم و ضعف فقههم للقول لا - أنهم يفقهون بعض القول و لا يفقهون بعضه و هو الكثير و لا أن بعضهم يفقه القول و جلهم لا يفقهونه كما فسر به بعضهم.

قوله تعالى: قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْدَعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بِأَسِّ شَدِيدٍ تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ الخ؛ اختلفوا في هذا القوم من هم؟ فقيل: المراد به هوازن، وقيل: ثقيف، وقيل: هوازن و ثقيف، وقيل: هم الروم غزاه مؤته و تبوك، وقيل: هم أهل الردة قاتلهم أبو بكر بعد الرحله، وقيل: هم الفارس، وقيل: أعراب الفارس و أكرادهم.

و ظاهر قوله: سِتْدَعُونَ أنهم بعض الأقسام الذين قاتلهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بعد فتح خيبر من هوازن و ثقيف و الروم في مؤته، وقوله تعالى سابقا: «قُلْ لَنْ تَبْعُونَا» ناظر الى نفى اتباعهم في غزوه خيبر على ما يفيدده السياق.

وقوله: تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ استئناف يدل على التنويع أى إما تقاتلون أو يسلمون أى أنهم مشركون لا تقبل منهم جزية كما تقبل من أهل الكتاب بل إما أن يقاتلوا أو يسلموا.

و لا يصح أخذ «تَقَاتِلُونَهُمْ» صفة لقوم لأنهم يدعون الى قتال القوم لا الى قتال قوم يقاتلونهم، وكذا لا يصح أخذ حالا من نائب فاعل «سِتْدَعُونَ» لأنهم يدعون الى قتال القوم لا أنهم يدعون اليهم حال قتالهم، وكذا قيل.

ثم تم سبحانه الكلام بالوعد و الوعيد على الطاعة و المعصية فقال «فَإِنْ تُطِيعُوا» أى بالخروج اليهم «يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا» أى بالمعصية و عدم الخروج «كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ» و لم تخرجوا فى سفره الحديبيه «يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» أى فى الدنيا كما هو ظاهر المقام أو فى الدنيا و الآخرة معا.

قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ رفع للحكم بوجوب الجهاد عن ذوى العاهه الذين يشق عليهم الجهاد برفع لازمه و هو الحرج.

ثم تم الآيه أيضا بإعادة نظير ذيل الآيه السابقه فقال «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ

جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَعدُّهُ عَذَاباً أَلِيماً .

[سوره الفتح (٤٨): الآيات ١٨ الى ٢٨]

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَ لَتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠) وَ أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَ لَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّهَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّهَ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ الْهَيْدَى مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَ لَوْلَا رِجَالُ الْمُؤْمِنُونَ وَ نِسَاءُ الْمُؤْمِنَاتِ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصَةً يَبَيِّنُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةً بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَيِّئَاتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَ أَهْلِهَا وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مَقْصِرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨)

قوله تعالى: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ الرضا هيئه تطراً على النفس من تلقى ما يلائمها و تقبله من غير دفع، و يقابله السخط، و إذا نسب الى الله سبحانه كان المراد بالإثابه و الجزاء الحسن دون الهيئه الطارئه و الصفه العارضه الحادثه لاستحاله ذلك عليه تعالى: فرضاه سبحانه من صفات الفعل لا من صفات الذات.

و الرضا- كما قيل- يستعمل متعديا الى المفعول بنفسه و متعديا بعن و متعديا بالباء فإذا عدى بنفسه جاز دخوله على الذات نحو: رضيت زيدا، و على المعنى نحو: رضيت أماره زيد، قال تعالى: وَ رَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا (المائدة ٣)، و إذا عدى بعن دخل على الذات

كقوله: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ (البيئه ٨) وإذا عدى بالباء دخل على المعنى كقوله تعالى: «أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ» .

و لما كان الرضا المنسوب اليه تعالى صفة فعل له بمعنى الإثابة و الجزاء، و الجزاء إنما يكون بإزاء العمل دون الذات ففيما نسب من رضاه تعالى الى الذات و عدى بعن كما فى الآيه «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ» نوع عنايه استدعى عد الرضا و هو متعلق بالعمل متعلقا بالذات و هو أخذ بيعتهم التى هى متعلقه الرضا ظرفا للرضى فلم يسع إلا أن يكون الرضا متعلقا بهم أنفسهم.

فقوله: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ إخبار عن إثابته تعالى لهم بإزاء بيعتهم له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ تحت الشجره.

وقد كانت البيعه يوم الحديبيه تحت شجره سمره بها بايعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ من معه من المؤمنين و قد ظهر به أن الظرف فى قوله: «إِذْ يُبَايِعُونَكَ» متعلق بقوله: «لَقَدْ رَضِيَ» و اللام للقسم.

قوله تعالى: فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا تفریع على قوله: «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ» الخ؛ و المراد بما فى قلوبهم حسن النيه و صدقها فى مبايعتهم فإن العمل إنما يكون مرضيا عند الله لا بصورته و هيئته بل بصدق النيه و إخلاصها.

و المراد القريب فتح خبير على ما يفيدہ السياق و كذا المراد بمغانم كثيره يأخذونها، غنائم خبير.

و قوله: وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا أى غالبا فيما أراد متقنا لفعله غير مجازف فيه.

قوله تعالى: وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ الْخ؛ المراد بهذه المغانم الكثيره المغانم التى سيأخذها المؤمنون بعد الرجوع من الحديبيه أعم من مغانم خبير و غيرها فتكون الإشارة بقوله: «فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ» الى المغانم المذكوره فى الآيه السابقه

و هي مغنم خيبر نزلت منزله الحاضره لاقتراب وقوعها.

هذا على تقدير نزول الآيه مع الآيات السابقه، و أما على ما قيل: إن الآيه نزلت بعد فتح خيبر فأمر الإشاره فى قوله: «فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ» ظاهر لكن المعروف نزول السوره بتمامها فى مرجع النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من الحديبيه بينها و بين المدينه.

و قوله: وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ قِيلَ: المراد بالناس قبيلتا أسد و غطفان هموا بعد مسير النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الى خيبر أن يغيروا على أموال المسلمين و عيالهم بالمدينه فقذف الله فى قلوبهم الرعب و كف أيديهم.

و قوله: وَ لَتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ عطف على مقدر أى وعدهم الله بهذه الإثابه إثابه الفتح و الغنائم الكثيره المعجله و المؤجله لمصالح كذا و كذا و لتكون آيه للمؤمنين أى علامه و أماره تدلهم على أنهم على الحق و أن ربهم صادق فى وعده و نبيهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ صادق فى إنباؤه.

و قد اشتملت السوره على عدّه من أنباء الغيب فيها هدى للمتقين كقوله: «سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا الْخَيْبُ» و قوله: «سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ» الخ؛ و قوله: قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَيُدْعُونَ الْخَيْبُ؛ و ما فى هذه الآيات من وعد الفتح و المغنم، و قوله بعد:

«وَ أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا» الخ؛ و قوله بعد: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا» الخ.

و قوله: وَ يَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا عطف على «لَتَكُونَ» أى و ليهدىكم صراطا مستقيما و هو الطريق الموصل الى إعلاء كلمه الحق و بسط الدين، و قيل: هو الثقه بالله و التوكل عليه فى كل ما تأتون و تذكرون، و ما ذكرناه أوفق للسياق.

قوله تعالى: وَ أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا بِكُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا أى و غنائم أخرى لم تقدرها عليها قد أحاط الله بها إحاطه قدره و كان الله على كل شىء قديرا.

ف قوله: وَ أُخْرَى مُبْتَدَأُ وَ «لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا» صَفْتَهُ وَ قَوْلُهُ: «قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا» خَبْرُهُ الثَّانِي وَ خَبْرُهُ الْأَوَّلُ مَحْذُوفٌ، وَ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ: وَ ثَمَّ غَنَائِمٌ أُخْرَى قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا.

وَ الْمُرَادُ بِالْأُخْرَى فِي الْآيَةِ-عَلَى مَا قِيلَ-غَنَائِمٌ هَوَازِنٌ، وَ قِيلَ: الْمُرَادُ غَنَائِمُ فَارَسٍ وَ الرُّومِ، وَ قِيلَ: الْمُرَادُ فَتْحُ مَكَّةَ وَ الْمَوْصُوفُ مَحْذُوفٌ، وَ التَّقْدِيرُ: وَ قَرِيْبُهُ أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا أَى عَلَى فَتْحِهَا، وَ أَوَّلُ الْوَجْهِ أَقْرَبُهَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ لَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَّلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا خَبْرٌ آخِرٌ يَنْبِئُهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ ضَعْفُ الْكُفَّارِ عَنِ الْقِتَالِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ لَيْسَ لَهُمْ وَّلِيٌّ يَتَوَلَّى أَمْرَهُمْ وَ لَا نَصِيرٌ يَنْصُرُهُمْ، وَ يَتَخَلَّصُ فِي أَنْفُسِهِمْ لَا يَقْوُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ عَلَى قِتَالِكُمْ وَ لَا نَصِيرٌ لَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ يَنْصُرُهُمْ، وَ هَذَا فِي نَفْسِهِ بَشَرِيٌّ لِلْمُؤْمِنِينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: سُنَّهَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّهِ اللَّهِ تَبْدِيلًا «سُنَّهَ اللَّهِ» مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِفِعْلِ مَقْدَرٍ أَى سَنَ سَنَهُ اللَّهِ أَى هَذِهِ سَنَهُ قَدِيمَهُ لَهُ سَبْحَانَهُ أَنْ يَظْهَرَ أَنْبِيَاءُهُ وَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ إِذَا صَدَقُوا فِي إِيمَانِهِمْ وَ أَخْلَصُوا نِيَّاتِهِمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ لَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا كَمَا قَالَ تَعَالَى: كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبِنَ أَنَا وَ رُسُلِي (المجادله ٢١). وَ لَمْ يَصِبِ الْمُسْلِمُونَ فِي شَيْءٍ مِنْ غَزَوَاتِهِمْ إِلَّا بِمَا خَالَفُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ بَعْضَ الْمَخَالَفَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ السَّخُّ؛ الظاهر أن المراد بكف أيدي كل من الطائفتين عن الأخرى ما وقع من الصلح بين الفئتين بالحديبية و هي بطن مكة لقربها منها و اتصالها بها حتى قيل إن بعض أراضيها من الحرم و ذلك أن كلا من الفئتين كانت أعدى عدو للأخرى و قد اهتمت قريش بجمع الجموع من أنفسهم و من الأحابيش، و بايع المؤمنون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عَلَى أَنْ يَقَاتِلُوا، وَ عَزَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عَلَى أَنْ يَنَاجِزَ الْقَوْمَ، وَ قَدْ أَظْفَرَ اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى الْكُفَّارِ حَيْثُ دَخَلُوا أَرْضَهُمْ وَ رَكَزُوا أَقْدَامَهُمْ فِي عَقْرِ دَارِهِمْ فَلَمْ يَكُنْ لِيَتَوَهَّمُوا بَيْنَهُمْ إِلَّا الْقِتَالَ لَكِنَ اللَّهُ

سبحانه كفّ أيدي الكفار عن المؤمنين و أيدي المؤمنين عن الكفار بعد إظفار المؤمنين عليهم و كان الله بما يعملون بصيرا.

قوله تعالى: هُم الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَهْدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ الْعُكُوفِ عَلَىٰ أَمْرٍ هُوَ الْإِقَامَةُ عَلَيْهِ، وَ الْمَعُكُوفِ - كما في المجمع - الممنوع من الذهاب الى جهة بالإقامه في مكانه، و منه الاعتكاف و هو الإقامه في المسجد للعباده.

و المعنى: المشركون مشركوا مكة هم الذين كفروا و منعوكم عن المسجد الحرام و منعوا الهدى - الذي سقتموه - حال كونه محبوبا من أن يبلغ محله أى الموضع الذي ينحر أو يذبح فيه و هو مكة التي ينحر أو يذبح فيها هدى العمره كما أن هدى الحج ينحر أو يذبح فى منى، و قد كان النبى صلى الله عليه و آله و سلم و من معه من المؤمنين محرمين للعمره ساقوا هديا لذلك.

قوله تعالى: وَ لَوْلَا - رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَ نِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُنَّ أَنْ تَطَّوَّهُنَّ فَتَصَيَّبِكُمْ مِنْهُنَّ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ الْوَطْءِ الدُّوسِ، وَ الْمَعْرَةُ الْمَكْرُوهُ، وَ قَوْلُهُ:

«أَنْ تَطَّوَّهُنَّ» بدل اشتمال من مدخول لولا، و جواب لولا محذوف، و التقدير: ما كفّ أيديكم عنهم.

و المعنى: و لولا - أن تدوسوا رجالا - مؤمنين و نساء مؤمنات بمكة و أنتم جاهلون بهم لا تعلمون فتصيبكم من قتلهم و إهلاكهم مكروه لما كفّ الله أيديكم عنهم.

و قوله: لِيُدْخَلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ اللَّامُ متعلق بمحذوف، و التقدير:

و لكن كفّ أيديكم عنهم ليدخل في رحمته اولئك المؤمنين و المؤمنات غير المتميزين بسلامتهم من القتل و إياكم بحفظكم من إصابه المعرّه.

و قيل: المعنى: ليدخل في رحمته من أسلم من الكفار بعد الصلح.

و قوله: لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا التزيل التفرق

و ضمير «تَزَيَّلُوا لَجَمِيعٍ» من تقدم ذكره من المؤمنين و الكفار من أهل مكة أى لو تفرقوا بأن يمتاز المؤمنون من الكفار لعذبنا الذين كفروا من أهل مكة عذابا أليما لكن لم نعذبهم لحرمة من اختلط بهم من المؤمنين.

قوله تعالى: «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ إِلَى آخِرِ آيَةٍ قَالَ الرَّاعِبُ: و عبر عن القوه الغضبيه إذا ثارت و كثرت بالحميه فيقال: حميت على فلان أى غضبت عليه قال تعالى: «حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ» و عن ذلك استعير قولهم: حميت المكان حمى انتهى.

و الظرف فى قوله: «إِذْ جَعَلَ» متعلق بقوله سابقا: «وَصَدُّوكُمْ» و قيل: متعلق بقوله:

«لَعَيَّذْنَا» و قيل «متعلق باذكر المقدر، و الجعل بمعنى الإلقاء و «الَّذِينَ كَفَرُوا» فاعله و الحميه مفعوله و «حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ» بيان للحميه و الجاهليه وصف موضوع فى موضع الموصوف و التقدير المله الجاهليه.

و لو كان «جَعَلَ» بمعنى صيّر كان مفعوله الثانى مقدرا و التقدير إذ جعل الذين كفروا الحميه راسخه فى قلوبهم و وضع الظاهر موضع الضمير فى قوله: «جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا» للدلاله على سبب الحكم.

و معنى الآية: هم الذين كفروا و صدوكم إذ ألقوا فى قلوبهم الحميه حميه المله الجاهليه.

و قوله: فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ تفریع على قوله:

«جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا» و يفيد نوعا من المقابله كأنه قيل: جعلوا فى قلوبهم الحميه فقابله الله سبحانه بإنزال السكينه على رسوله و على المؤمنين فطمأنت قلوبهم و لم يستخفهم الطيش و أظهروا السكينه و الوقار من غير أن يستفزهم الجهاله.

و قوله: «وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى» أى جعلها معهم لا تنفك عنهم، و هى على ما اختاره جمهور المفسرين كلمه التوحيد و قيل: المراد الثبات على العهد و الوفاء به و قيل: المراد

بها السكنيه و قيل: قولهم: بلى فى عالم الذر، و هو اسخف الأقوال.

و لا- يبعد أن يراد بها روح الإيمان التى تأمر بالتقوى كما قال تعالى: **أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ** (المجادله ٢٢)، و قد أطلق الله الكلمه على الروح فى قوله: **وَ كَلِمَتَهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَ رُوحٍ مِنْهُ** (النساء ١٧١).

و قوله: **وَ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَ أَهْلُهَا** أما كونهم أحق بها فلتمام استعدادهم لتلقى هذه العطيه الإلهيه بما عملوا من الصالحات فهم أحق بها من غيرهم، و أما كونهم أهلها فلأنهم مختصون بها لا توجد فى غيرهم و أهل الشئ خاصته.

و قيل: المراد و كانوا أحق بالسكنيه و أهلها، و قيل: إن فى الكلام تقديمًا و تأخيرًا و الأصل و كانوا أهلها و أحق بها و هو كما ترى.

و قوله: **وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** تذييل لقوله: **«وَ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَ أَهْلُهَا»** أو لجميع ما تقدم، و المعنى على الوجهين ظاهر.

قوله تعالى: **لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ** **إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤْسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ** الخ؛ قيل: إن صدق و كذب مخفيين يتعديان الى مفعولين يقال: صدقت زيدا الحديث و كذبت الحديث، و الى المفعول الثانى بفى يقال: صدقته فى الحديث و كذبت فيه، و مثقلين يتعديان الى مفعول واحد يقال: صدقته فى حديثه و كذبت فى حديثه.

و اللام فى **«لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ»** للقسم، و قوله: **«لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ»** جواب القسم.

و قوله: **بِالْحَقِّ** حال من الرؤيا و الباء فيه للملابسه، و التعليق بالمشيه فى قوله: **«إِنْ شَاءَ اللَّهُ»** لتعليم العباد و المعنى: أقسم لقد صدق الله رسوله فى الرؤيا التى أراه لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله حال كونكم آمنين من شر المشركين مقصرين لا تخافون المشركين.

و قوله: **فَعَلِمَ** مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا **﴿ذَلِكَ﴾** إشارة الى ما تقدم من دخولهم المسجد الحرام آمنين، والمراد بقوله: «مِنْ دُونِ ذَلِكَ» أقرب من ذلك والمعنى: فعلم تعالى من المصلحة فى دخولكم المسجد الحرام آمنين ما جهلتموه و لم تعلموه، و لذلك جعل قبل دخولكم كذلك فتحا قريبا ليتيسر لكم الدخول كذلك.

و من هنا يظهر أن المراد بالفتح القريب فى هذه الآية فتح الحديدية فهو الذى سوى للمؤمنين الطريق لدخول المسجد الحرام آمنين و يسير لهم ذلك و لو لا- ذلك لم يمكن لهم الدخول فيه إلا- بالقتال و سفك الدماء و لا عمره مع ذلك لكن صلح الحديدية و ما اشترط من شرط أمكنهم من دخول المسجد معتمرين فى العام القابل.

و سياق الآية يعطى أن المراد بها إزالة الريب عن بعض من كان مع النبى صلى الله عليه و آله و سلم فإن المؤمنين كانوا يزعمون من رؤيا رآها النبى صلى الله عليه و آله و سلم من دخولهم المسجد آمنين محلّقين رءوسهم و مقصرين، أنهم سيدخلونه كذلك فى عامهم ذلك فلما خرجوا قاصدين مكة معتمرين فاعترضهم المشركون بالحديبية و صدّوهم عن المسجد الحرام ارتاب بعضهم فى الرؤيا فأزال الله ريبهم بما فى الآية.

و محصله: أن الرؤيا حقه أراها الله نبيه صلى الله عليه و آله و سلم و قد صدق تعالى فى ذلك، و ستدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رءوسكم و مقصرين لا تخافون، لكنه تعالى أخره و قدّم عليه هذا الفتح و هو صلح الحديبية ليتيسر لكم دخوله لعلمه تعالى بأنه لا يمكن لكم دخوله آمنين محلّقين رءوسكم و مقصرين لا تخافون إلا بهذا الطريق.

قوله تعالى: **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ الْخَيْرُ**؛ تقدم تفسيره فى سورة التوبة الآية ٣٣، و قوله: **﴿وَ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾** أى شاهدا على صدق نبوته و الوعد أن دينه سيظهر على الدين كله أو على أن رؤياه صادقه،

فالجمله تذييل ناظر الى نفس الآيه أو الآيه السابقه (١).

[سوره الفتح (٤٨): آيه ٢٩]

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سِجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سَيِّمَاهُمْ فِي
وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزَعٍ أُخْرِجَ شَطَاطُهُ فَمَا زَرَءَ فَاَسِدٌ تَغْلُظُ فَاَسِدٌ تَوَى عَلَى سِوْقِهِ
يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)

بيان:

قوله تعالى: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ الى آخر الآيه؛ الظاهر أنه مبتدأ و خبر فهو كلام تام، وقيل «مُحَمَّدٌ» خبر مبتدأ محذوف و هو ضمير
عائد الى الرسول في الآيه السابقه و التقدير: هو محمد، و «رَسُولُ اللَّهِ» عطف بيان أو صفيه أو بدل، وقيل «مُحَمَّدٌ» مبتدأ و «رَسُولُ
اللَّهِ» عطف بيان أو صفيه أو بدل و «الَّذِينَ مَعَهُ» معطوف على المبتدأ و «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ» الخ؛ خبر المبتدأ.

وقوله: وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ مبتدأ و خبر، فالكلام مسوق لتوصيف الذين معه و الشده و الرحمه
المذكورتان من نعوتهم.

و تعقيب قوله: «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ» بقوله: «رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» لدفع ما يمكن أن يتوهم أن

ص: ٧٧٠

كونهم أشداء على الكفار يستوجب بعض الشده فيما بينهم فدفع ذلك بقوله: «رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» و أفادت الجملتان أن صفتهم مع الكفار الشده و مع المؤمنين فيما بينهم الرحمه.

و قوله: «تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجْدًا الرَّكْعُ وَ السَّجْدُ جَمْعًا رَاكِعٌ وَ سَاجِدٌ، وَ الْمَرَادُ بِكَوْنِهِمْ رُكْعًا سَجْدًا إِقَامَتَهُمْ لِلصَّلَاةِ، وَ «تَرَاهُمْ» يَفِيدُ الْإِسْتِمْرَارَ، وَ الْمَحْصُلُ: أَنَّهُمْ مُسْتَمِرُونَ عَلَى الصَّلَاةِ، وَ الْجُمْلَةُ خَبْرٌ بَعْدَ خَبْرٍ لِلَّذِينَ مَعَهُ.

و قوله: «يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانًا الْإِبْتِغَاءَ الطَّلَبِ، وَ الْفَضْلُ الْعَطِيَّةُ وَ هُوَ الثَّوَابُ، وَ الرِّضْوَانُ أَبْلَغُ مِنَ الرِّضَا.

و الجملة إن كانت مسوقه لبيان غايتهم من الركوع و السجود كان الأنسب أن تكون حالا من ضمير المفعول في «تَرَاهُمْ» و إن كانت مسوقه لبيان غايتهم من الحياه مطلقا كما هو الظاهر كانت خبرا بعد خبر للذين معه.

و قوله: «سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ السِّيْمَا الْعَلَامَةُ وَ «سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ» مُبْتَدَأٌ وَ خَبْرٌ وَ «مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ الْمُسْتَكْنَى فِي الْخَبْرِ أَوْ بَيَانٌ لِلسِّيْمَا أَيْ إِنْ سَجَدْتُمْ لِلَّهِ تَذَلُّلاً وَ تَخْشَعاً أَثَرٌ فِي وَجُوهِهِمْ أَثَرٌ وَ هُوَ سِيْمَا الْخُشُوعِ لِلَّهِ يَعْرِفُهُمْ بِهِ مِنْ رَأْيِهِمْ، وَ يَقْرَبُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى مَا عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ السَّهْرُ فِي الصَّلَاةِ (١).

و قيل: المراد أثر التراب في جباههم لأنهم كانوا إنما يسجدون على التراب لا على الأثواب.

و قيل: المراد سيماهم يوم القيامة فيكون موضع سجودهم يومئذ مشرقا مستنيرا.

و قوله: «ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ الْمَثَلُ هُوَ الصِّفَةُ أَيْ الَّذِي وَصَفْنَاهُمْ بِهِ مِنْ أَنَّهُمْ أَشْدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ، الْخ؛ وَصَفَهُمُ الَّذِي وَصَفْنَاهُمْ بِهِ فِي

ص: ٧٧١

(١- ١). رواه الصدوق في الفقيه و المفيد في روضه الواعظين مرسلا عن عبد الله بن سنان عنه عليه السلام.

فقوله: وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ مَعْطُوفٍ عَلَى قَوْلِهِ: «مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ» وقيل: إن قوله: «وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ» الخ؛ استئناف منقطع عما قبله، و هو مبتدأ خبره قوله: «كَزَّرَعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ» الخ؛ فيكون وصفهم في التوراه هو أنهم أشداء على الكفار، الى قوله: «مِنْ أَثَرِ الشُّجُودِ»، و وصفهم في الإنجيل هو أنهم كزرع أخرج شطأه، الخ.

و قوله: كَزَّرَعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَأَزْرَهُ فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ شِطَاءَ النَّبَاتِ أَفْرَاخَهُ الَّتِي تَتَوْلَدُ مِنْهُ وَ تَنْبِتُ حَوْلَهُ، وَ الْإِيزَارَ الْإِعَانَةَ، وَ الِاسْتِعْلَازَ الْأَخْذَ فِي الْغُلْظَةِ، وَ السُّوقَ جَمْعَ سَاقٍ، وَ الزُّرَّاعَ جَمْعَ زَارِعٍ.

و المعنى: هم كزرع أخرج أفراخه فأعانها فقويت و غلظت و قام على سوقه يعجب الزراعين بجوده رشده.

و فيه إشارة الى أخذ المؤمنين في الزيادة و العده و القوه يوما فيوما و لذلك عقبه بقوله:

«لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ» .

و قوله: وَ عَيَّدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْرًا عَظِيمًا ضَمِيرٌ «مِنْهُمْ» لِلَّذِينَ مَعَهُ، وَ «مِنْ» لِلتَّبَعِيضِ عَلَى مَا هُوَ الظاهر المتبادر من مثل هذا النظم و يفيد الكلام اشتراط المغفرة و الأجر العظيم بالإيمان حدودا و بقاء و عمل الصالحات فلو كان منهم من لم يؤمن أصلا كالمنافقين الذين لم يعرفوا بالنفاق كما يشير اليه قوله تعالى: وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ (التوبة ١٠١/١)، أو آمن أولا ثم أشرك و كفر كما في قوله: إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ - إِلَىٰ أَنْ قَالَ - وَ لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ (سوره محمد ٣٠/١).

أو آمن و لم يعمل الصالحات كما يستفاد من آيات الإفك (١) و آيه التبين في نأ الفاسق و أمثال ذلك لم يشملهُ وعد المغفره و الأجر العظيم.

ص: ٧٧٣

١ - ١). فمن أهل الإفك من هو صحابي بدرى و قد قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» (النور ٢٣/١)، و من نزل فيه «إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا» (الحجرات ٦/١)، و هو الوليد بن عقبه صحابي و قد سماه الله فاسقا و قد قال تعالى: «فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» (التوبه ٩٦).

الجزء السادس

اشاره

ص: ١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ (١) يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا
تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ
الَّذِينَ يَتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
(٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُكُمْ عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَإِعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ
رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ وَزَيْنُهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَ
الْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضَلَّأَ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨) وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاضْتَلَّتَا فَاضْتَلَّتَا بَيْنَهُمَا
فَأِنْ بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاضْتَلَّتَا بَيْنَهُمَا بِالْعُدْلِ وَأَقْبِطُوا إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)

تتضمن السوره مسائل من شرائع الدين بها تتم الحياه السعيده للفرد و يستقرّ النظام الصالح الطيب فى المجتمع منها ما هو أدب جميل للعبد مع الله سبحانه و مع رسوله كما فى الآيات الخمس فى مفتتح السوره، و منها ما يتعلق بالإنسان مع أمثاله من حيث وقوعهم فى المجتمع الحيوى، و منها ما يتعلق بتفاضل الأفراد و هو من أهم ما ينتظم به الاجتماع المدنى و يهدى الإنسان الى الحياه السعيده و العيش الطيب الهنىء و يتميز به دين الحق من غيره من السنن الاجتماعيه القانونيه و غيرها و تختتم السوره بالإشاره الى حقيقه الإيمان و الإسلام و امتنانه

تعالى بما يفيضه من نور الإيمان.

و السوره مدنيه بشهاده مضامين آياتها سوى ما قيل فى قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى» الآية؛ وسيجىء.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» بين يدي الشيء أمامه و هو استعمال شائع مجازى أو استعارى و إضافته الى الله و رسوله معا لا الى الرسول دليل على أنه أمر مشترك بينه تعالى و بين رسوله و هو مقام الحكم الذى يختص بالله سبحانه و برسوله بإذنه كما قال تعالى: «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ (يوسف ٤٠)»، و قال: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ (النساء ٦٤)».

و من الشاهد على ذلك تصدير النهى بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» و تذييله بقوله: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» الظاهر فى أن المراد بما بين يدي الله و رسوله هو المقام الذى يربط المؤمنين المتقين بالله و رسوله و هو مقام الحكم الذى يأخذون منه أحكامهم الاعتقادييه و العمليه.

و الظاهر أن تفسير «لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» بالنهى عن التقديم بين يدي رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقط فى هذه الوجوه الثلاثه الأخيره مبنى على حملهم ذكر الله تعالى مع رسوله فى الآية على نوع من التشريف كقوله: أعجبنى زيد و كرمه فيكون ذكره تعالى للإشارة الى أن السبقه على النبي صلى الله عليه و آله و سلم على أى حال فى معنى السبقه على الله سبحانه.

و لعل التأمل فيما قدّمناه من الوجه يكفيك فى المنع عن المصير الى شىء من هذه الوجوه.

و قوله: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» أمر بالتقوى فى موقف الاتباع و العبوديه و لا ظرف للانسان إلا ظرف العبوديه و لذلك أطلق التقوى.

و فى قوله: «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» تعليل للنهى و التقوى فيه أى اتقوه بالانتهاى عن هذا النهى فلا تقدموا قولاً بلسانكم و لا فى سركم لأن الله سميع يسمع أقوالكم عليم يعلم

ظاهرکم و باطنکم و علانيتکم و سرکم.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ الخ؛ و ذلك بأن تكون أصواتهم عند مخاطبته و تكليمه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أرفع من صوته و أجهر لأن في ذلك كما قيل أحد شيئين: إما نوع استخفاف به و هو الكفر، و إما إساءة الأدب بالنسبة الى مقامه و هو خلاف التعظيم و التوقير المأمور به.

و قوله: ﴿لَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ فَإِن مِّنَ التَّعْظِيمِ عند التخاطب أن يكون صوت المتكلم أخفض من صوت مخاطبه فمطلق الجهر بالخطاب فاقد لمعنى التعظيم فخطاب العظماء بالجهر فيه كخطاب عامه الناس لا يخلو من إساءة الأدب و الوقاحه.

و قوله: ﴿أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ أَي لثلا- تحبط أو كراهه أن تحبط أعمالكم، و هو متعلق بالنهيين جميعا أى إنما نهيناكم عن رفع الصوت فوق صوته و الجهر له بالقول كجهر بعضكم لبعض لثلا تبطل أعمالكم بذلك من حيث لا تشعرون فإن فيهما الحبط، و قد تقدم القول فى الحبط فى الجزء الثانى من الكتاب.

و جوّز بعضهم كون «أَنْ تَحْبِطَ» الخ؛ تعليلا- للمنهى عنه و هو الرفع و الجهر، و المعنى: فعلكم ذلك لأجل الحبوط منهى عنه، و الفرق بين تعليله للنهى و تعليله للمنهى عنه أن الفعل المنهى عنه معلّل على الأول و الفعل المعلّل منهى عنه على الثانى، و فيه تكلف ظاهر.

و ظاهر الآيه أن رفع الصوت فوق صوت النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و الجهر له بالقول معصيتان موجبتان للحبط فيكون من المعاصى غير الكفر ما يوجب الحبط (١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ

ص: ١٠

إِمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى الخ؛ غَضَّ الصَّوْتِ خِلاَفَ رَفْعِهِ، وَ مَعْنَى الْاِمْتِحَانِ الْاِبْتَلَاءُ وَ الْاِخْتِبَارُ وَ اِنَّمَا يَكُونُ لِتَحْصِيلِ الْعِلْمِ بِحَالِ الشَّيْءِ الْمَجْهُولِ قَبْلَ ذَلِكَ، وَ اِذْ يَسْتَحِيلُ ذَلِكَ فِي حَقِّهِ تَعَالَى فَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا التَّمْرِينُ وَ التَّعْوِيدُ - كَمَا قِيلَ - أَوْ حَمْلُ الْمُحَنَةِ وَ الْمَشَقَّةِ عَلَيَّ الْقَلْبِ لِيَعْتَادَ بِالتَّقْوَى.

وَ الْآيَةُ مَسْوُوقَةٌ لِلْوَعْدِ الْجَمِيلِ عَلَيَّ غَضَّ الصَّوْتِ عِنْدَ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بَعْدَ تَوْصِيْفِهِمْ بِأَنَّ قُلُوبَهُمْ مَمْتَحَنَةٌ لِلتَّقْوَى وَ الَّذِي اِمْتَحَنَهُمْ لِذَلِكَ هُوَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ، وَ فِيهِ تَأْكِيدٌ وَ تَقْوِيَةٌ لِمُضْمونِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ وَ تَشْوِيقٌ لِلانْتِهَاءِ بِمَا فِيهَا مِنَ النِّهْيِ.

وَ فِي التَّعْبِيرِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِرَسولِ اللَّهِ بَعْدَ التَّعْبِيرِ عَنْهُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ بِالنَّبِيِّ اِشَارَةٌ إِلَى مَلَائِكَةِ الْحَكْمِ فَإِنَّ الرَّسولَ بِمَا هُوَ رَسولٌ لَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ فَمَا لَهُ فَلِمَرْسَلِهِ، وَ تَعْظِيمُهُ وَ تَوْقِيرُهُ تَعْظِيمٌ لِمَرْسَلِهِ وَ تَوْقِيرٌ لَهُ فَغَضَّ الصَّوْتِ عِنْدَ رَسولِ اللَّهِ تَعْظِيمٌ وَ تَكْبِيرٌ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ، وَ الْمُدَاوِمَةُ وَ الْاِسْتِمْرَارُ عَلَيَّ ذَلِكَ - كَمَا يَسْتَفَادُ مِنْ قَوْلِهِ: «يَعْضُونَ» الْمَفِيدُ لِلْاِسْتِمْرَارِ - كَاشَفٌ عَنِ تَخَلُّقِهِمْ بِالتَّقْوَى وَ اِمْتِحَانِهِ تَعَالَى قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى.

وَ قَوْلُهُ: لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ وَعْدٌ جَمِيلٌ لَهُمْ بِإِزَاءِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ تَقْوَى اللَّهِ، وَ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَّرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ سِياقُ الْآيَةِ يُؤَدِّي أَنَّهُ وَاقِعٌ وَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا مِنَ الْجَفَاهِ ينادونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مِنْ وَّرَاءِ حِجْرَاتِ بَيْتِهِ مِنْ غَيْرِ رِعايَةٍ لِمَقْتَضَى الْأَدْبِ وَ وَاجِبِ التَّعْظِيمِ وَ التَّوْقِيرِ فَذَمَّهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ حَيْثُ وَصَفَ أَكْثَرَهُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يَعْقِلُونَ كَالْبَهَائِمِ مِنَ الْحَيوانِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَيْ وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا عَنْ نِدَائِكَ فَلَمْ ينادوك حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَ رِعايَةُ التَّعْظِيمِ وَ التَّوْقِيرِ لِمَقَامِ الرِّسَالَةِ، وَ كَانَ ذَلِكَ مُقْرَبًا لَهُمْ إِلَى مَغْفِرَتِهِ

اللّٰه ورحمته لأنه غفور رحيم.

فقوله: وَاللّٰهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ كالناظر الى ما ذكر من الصبر و يمكن أن يكون ناظرا الى كون أكثرهم لا يعقلون و المعنى: أن ما صدر عنهم من الجهالة و سوء الأدب معفو عنه لأنه لم يكن عن تعقل و فهم منهم بل عن قصور في ذلك و اللّٰه غفور رحيم.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا؛ الفاسق - كما قيل - الخارج عن الطاعة الى المعصية، و النبأ الخبر العظيم الشأن، و التبين و الاستبان و الإبانة - على ما في الصحاح - بمعنى واحد و هي تتعدى و لا تتعدى فإذا تعدت كانت بمعنى الإيضاح و الإظهار يقال: تبينت الأمر و استتبته و أبنته أى أوضحتها و أظهرته، و إذا لزمتم كانت بمعنى الاتضاح و الظهور يقال: أبان الأمر و استبان و تبين أى اتضح و ظهر.

و معنى الآية: يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بخبر ذى شأن فتبينوا خبره بالبحث و الفحص للوقوف على حقيقته حذر أن تصيبوا قوما بجهالة فتصيروا نادمين على ما فعلتم بهم.

و قد أمضى اللّٰه سبحانه في هذه الآية أصل العمل بالخبر و هو من الاصول العقلانيه التى يبتنى عليه أساس الحياه الاجتماعيه الإنسانيه، و أمر بالتبين فى خبر الفاسق و هو فى معنى النهى عن العمل بخبره، و حقيقته الكشف عن عدم اعتبار حجيته و هذا أيضا كالإمضاء لما بنى عليه العقلاء من عدم حجيه الخبر الذى لا يوثق بمن بخبر به و عدم ترتيب الأثر على خبره.

قوله تعالى: وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ؛ الخ؛ العنت الإثم و الهلاك، و الطوع و الطاعة الانقياد لكن أكثر ما يقال الطاعة فى الائتمار لما أمر و الارتسام لما رسم على ما ذكره الراغب لكن ربما يعكس الأمر فىسمى جرى المتبوع على ما يريد التابيع و يهواه طاعه من المتبوع للتابع و منه قوله تعالى فى الآية: «لَوْ يُطِيعُكُمْ» حيث سمي عمل الرسول على ما يراه و يهواه المؤمنون طاعه منه لهم.

و الآيه على ما يفيد السيق من تتمه الكلام فى الآيه السابقه تعمم ما فيها من الحكم و تؤكد ما فيها من التعليل فمضمون الآيه السابقه الحكم بوجوب التبين فى خبر الفاسق و تعليله بوجوب التحرز عن بناء العمل على الجهاله، و مضمون هذه الآيه تنبيه المؤمنين على أن الله سبحانه أورد لهم شرع الرشد و لذلك حَبَّب اليهم الإيمان و زَيَّنَه فى قلوبهم و كَرَّه اليهم الكفر و الفسوق و العصيان فعليهم أن لا يغفلوا عن أن فيهم رسول الله و هو مؤيد من عند الله و على يئنه من ربه لا يسلك إلا سبيل الرشد دون الغى فعليهم أن يطيعوا الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فيما يأمرهم به و يريدوا ما أَرَادَه و يختاروا ما اختاره، و لا يصروا على أن يطيعهم فى آرائهم و أهوائهم فإنه لو يطيعهم فى كثير من الأمر جهدوا و هلكوا.

فقوله: وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ عطف على قوله فى الآيه السابقه:

«فَتَبَيَّنُوا» و تقديم الخبر للدلاله على الحصر، و الإشاره الى ما هو لازمه فإن اختصاصهم بكون رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فيهم لازمه أن يتعلقوا بالرشد و يتجنبوا الغى و يرجعوا الامور اليه و يطيعوه و يتبعوا أثره و لا- يتعلقوا بما تستدعيه منهم أهواؤهم.

فالمعنى: و لا- تنسوا أن فيكم رسول الله، و هو كناية عن أنه يجب عليهم أن يرجعوا الامور و يسيروا فيما يواجهونه من الحوادث على ما يراه و يأمر به من غير أن يتبعوا أهواء أنفسهم.

و قوله: لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ أَى جهدتم و هلكتم، و الجملة كالجواب لسؤال مقدر كأن سائلا يسأل فيقول: لما ذا نرجع اليه و لا يرجع الينا و لا يوافقنا؟ فأجيب بأنه «لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ» .

و قوله: وَ لَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ استدراك عما يدل عليه الجملة السابقه «لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ» من أنهم مشرفون بالطبع على الهلاك و الغى فاستدرك أن الله سبحانه أصلح ذلك بما أنعم عليهم من تحبيب الإيمان و تكرية الكفر و الفسوق و العصيان.

و المراد بتحبيب الإيمان اليهم جعله محبوبا عندهم و بتزيينه فى قلوبهم تحليته بجمال يجذب قلوبهم الى نفسه فيتعلقون به و يعرضون عما يلهيهم عنه.

و قوله: وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيَانَ عطف على «حَبَّبَ» و تكرية الكفر و ما يتبعه اليهم جعلها مكروهه عندهم تتنفر عنها نفوسهم، و الفرق بين الفسوق و العصيان-على ما قيل- أن الفسوق هو الخروج عن الطاعة الى المعصية، و العصيان نفس المعصية و إن شئت فقل: جميع المعاصى، و قيل: المراد بالفسوق الكذب بقريته الآيه السابقه و العصيان سائر المعاصى.

و قوله: أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ بيان أن حب الإيمان و الانجذاب اليه و كراهه الكفر و الفسوق و العصيان هو سبب الرشد الذى يطلبه الإنسان بفطرته و يتنفر عن الغى الذى يقابله فعلى المؤمنين أن يلزموا الإيمان و يتجنبوا الكفر و الفسوق و العصيان حتى يرشدوا و يتبعوا الرسول و لا يتبعوا أهواءهم.

و لما كان حب الإيمان و الانجذاب اليه و كراهه الكفر و نحوه صفه بعض من كان الرسول فيهم دون الجميع كما يصرح به الآيه السابقه، و قد وصف بذلك جماعتهم تحفظا على وحدتهم و تشويقا لمن لم يتصف بذلك منهم غير السياق و التفت عن خطابهم الى خطاب النبي صلى الله عليه و آله و سلم فقال: «أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ» و الإشارة الى من اتصف بحب الإيمان و كراهه الكفر و الفسوق و العصيان، ليكون مدحا للمتصفين بذلك و تشويقا لغيرهم.

و اعلم أن فى قوله: «وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ» إشعارا بأن قوما من المؤمنين كانوا مصرين على قبول نبي الفاسق الذى تشير اليه الآيه السابقه، و هو الوليد بن عقبه أرسله النبي صلى الله عليه و آله و سلم الى بنى المصطلق لأخذ زكواتهم فجاء اليهم فلما رأهم هابهم و رجع الى المدينة و أخبر النبي صلى الله عليه و آله و سلم أنهم ارتدوا فعزم النبي صلى الله عليه و آله و سلم على قتالهم فنزلت الآيه فانصرف و فى القوم بعض من يصر على أن يغزوهم. و سيجىء القصه فى

قوله تعالى: فَضَلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [٢٦] لما تقدم من فعله تعالى بالمؤمنين من تحبيب الإيمان و تزيينه و تكريه الكفر و الفسوق و العصيان أى إن ذلك منه تعالى مجرد عطيه و نعمه لا- الى بدل يصل اليه منهم لكن ليس فعلا- جزافا فإنه تعالى عليهم بمورد عطيته و نعمته حكيم لا- يفعل ما يفعل جزافا كما قال: وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (الفتح ٢٦).

قوله تعالى: وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصْتَلُوا فَأَضِيْلِحُوا بَيْنَهُمَا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ الْاِقْتِتَالِ وَالتَّقَاتِلِ بِمعنى واحد كالاستباق و التسابق، و رجوع ضمير الجمع فى «اقتتلوا» الى الطائفتين باعتبار المعنى فإن كلا من الطائفتين جماعه و مجموعهما جماعه كما أن رجوع ضمير التثنيه اليهما باعتبار المعنى.

و نقل عن بعضهم فى وجه التفرقه بين الضميرين: أنهم أولا فى حال القتال مختلطون فلذا جمع أولا ضميرهم، و فى حال الصلح متميزون متفارقون فلذا ثنى الضمير.

و قوله: فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَىٰ الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ الْبَغَىٰ الظلم و التعدى بغير حق، و الفىء الرجوع، و المراد بأمر الله ما أمر به الله، و المعنى: فإن تعدت إحدى الطائفتين على الاخرى بغير حق فقاتلوا الطائفة المتعديه حتى ترجع الى ما أمر به الله و تنقاد لحكمه.

و قوله: فَإِنْ فَاءَتْ فَأَضِيْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ أى فإن رجعت الطائفة المتعديه الى أمر الله فأصلحوا بينهما لكن لا إصلاحا بوضع السلاح و ترك القتال فحسب بل إصلاحا متلبسا بالعدل بإجراء أحكام الله فيما تعدت به المتعديه من دم أو عرض أو مال أو أى حق آخر ضيعته.

و قوله: وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسَطِينَ الْاِقْسَاطُ إعطاء كل ما يستحقه من

القسط و السهم و هو العدل فعطف قوله: «وَ أَقْسَطُوا» على قوله: «فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ» من عطف المطلق على المقيد للتأكيد، و قوله: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسَطِينَ» تعليل يفيد تأكيداً على تأكيد كأنه قيل: أصلحوا بينهما بالعدل و اعدلوا دائماً و فى جميع الامور لأن الله يحب العادلين لعدالتهم.

قوله تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ» استئناف مؤكد لما تقدم من الإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين، و قصر النسبه بين المؤمنين فى نسبه الاخوه مقدمه ممهده لتعليل ما فى قوله: «فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ» من حكم الصلح يفيد أن الطائفتين المتقاتلتين لوجود الاخوه بينهما يجب أن يستقر بينهما الصلح، و المصلحون لكونهم إخوه للمتقاتلتين يجب أن يسعوا فى إصلاح ما بينهما.

و قوله: «فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ» و لم يقل: فأصلحوا بين الأخوين من أوجز الكلام و أطفه حيث يفيد أن المتقاتلتين بينهما اخوة فمن الواجب أن يستقر بينهما الصلح و سائر المؤمنين إخوان للمتقاتلتين فيجب عليهم أن يسعوا فى الإصلاح بينهما. و قوله: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» موعظه للمتقاتلتين و المصلحين جميعاً (١).

[سورة الحجرات (٤٩): الآيات ١١ الى ١٨]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) قَالَتِ الْمَغْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَزُوا جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِمَدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)

ص: ١٦

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ الخ؛ السخرية الاستهزاء وهو ذكر ما يستحقق ويستهان به الإنسان بقول أو إشاره أو فعل تقليدا بحيث يضحك منه بالطبع، والقوم الجماعة وهو فى الأصل الرجال دون النساء لقيامهم بالأمور المهمه دونهن، وهذا المعنى هو المراد بالقوم فى الآية بما قبل بالنساء.

وقوله: عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ و«عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ» حكمه النهى.

والمستفاد من السياق أن الملا-ك رجاء كون المسخور منه خيرا عند الله من الساخر سواء كان الساخر رجلا أو امرأه و كذا المسخور منه فتخصيص النهى فى اللفظ بسخرية القوم من القوم و سخرية النساء من النساء لمكان الغلبه عاده.

وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ اللزم-على ما قيل-التنبيه على المعاييب، وتعليق اللزم بقوله: «أَنفُسَكُمْ» للإشاره الى أنهم مجتمع واحد بعضهم من بعض فلمز الواحد منهم غيره فى الحقيقه لمز نفسه فليجتنب من أن يلمز غيره كما يكره أن يلمزه غيره، ففى قوله:

«أَنفُسَكُمْ» إشاره الى حكمه النهى.

وقوله: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ النبز بالتحريك هو اللقب، ويختص-على ما قيل-بما يدل على ذم فالتنابز بالألقاب ذكر بعضهم بعضا بلقب السوء مما يكرهه كالفاسق و السفيه و نحو ذلك.

و المراد بالاسم فى «بِئْسَ الْأِسْمُ الْفُسُوقُ» الذكر كما يقال: شاع اسم فلان بالسخاء و الجود، و على هذا فالمعنى: بئس الذكر ذكر الناس-بعد إيمانهم-بالفسوق فإن الحرى

بالمؤمن بما هو مؤمن أن يذكر بالخير و لا يطعن فيه بما يسوؤه نحو يا من أبوه كان كذا و يا من أمه كانت كذا.

و يمكن أن يكون المراد بالاسم السمه و العلامه و المعنى: بثت السمه أن يوسم الإنسان بعد الإيمان بالفسوق بأن يذكر بسمه السوء كأن يقال لمن اقترف معصيه ثم تاب: يا صاحب المعصيه الفلانيه، أو المعنى: بثس الاسم أن يسم الإنسان نفسه بالفسوق بذكر الناس بما يسوؤهم من الألقاب، و على أى معنى كان ففي الجملة إشاره الى حكمه النهى.

و قوله: «وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» أى و من لم يتب عن هذه المعاصى التى يقتربها بعد ورود النهى فلم يندم عليها و لم يرجع الى الله سبحانه بتركها فاولئك ظالمون حقا فإنهم لا يرون بها بأسا و قد عدها الله معاصى و نهى عنها.

و فى الجملة أعنى قوله: «وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ» الخ؛ إشعار بأن هناك من كان يقترب هذه المعاصى من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ إِلَى آخِرِ آيَةِ الْمَرَادِ بِالظَّنِّ الْمَأْمُورِ بِالاجْتِنَابِ عَنْهُ ظَنُّ السُّوءِ فَإِنَّ ظَنَّ الْخَيْرِ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ كَمَا يَسْتَفَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا (النور/١٢).

و المراد بالاجتناب عن الظن الاجتناب عن ترتيب الأثر عليه كأن يظن بأخيه المؤمن سوء فيرميه به و يذكره لغيره و يرتب عليه سائر آثاره، و أما نفس الظن بما هو نوع من الإدراك النفسانى فهو أمر يفاجئ النفس لا عن اختيار فلا يتعلق به النهى اللهم إلا إذا كان بعض مقدماته اختياريا.

و على هذا فكون بعض الظن إثما من حيث كون ما يترتب عليه من الأثر إثما كإهانته المظنون به و قذفه و غير ذلك من الآثار السيئه المحرمه، و المراد بكثير من الظن - و قد جىء به نكره

ليدل على كثرته في نفسه لا- بالقياس الى سائر أفراد الظن-هو بعض الظن الذى هو إثم فهو كثير في نفسه و بعض من مطلق الظن، و لو أريد بكثير من الظن أعم من ذلك كأن يراد ما يعلم أن فيه إثمًا و ما لا يعلم منه ذلك كان الأمر بالاجتناب عنه أمرا احتياطيا توقيا من الوقوع فى الإثم.

□ وقوله: وَلَا تَجَسَّسُوا التَّجَسُّسَ بِالْجِيمِ تَبِعَ مَا اسْتَرَّ مِنْ أُمُورِ النَّاسِ لِلإِطْلَاقِ عَلَيْهَا، وَ مِثْلُهُ التَّحَسُّسُ بِالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ إِلَّا أَنْ التَّجَسُّسَ بِالْجِيمِ يَسْتَعْمَلُ فِي الشَّرِّ وَ التَّحَسُّسَ بِالْحَاءِ يَسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ، وَ لَذَا قِيلَ: مَعْنَى الْآيَةِ لَا تَتَّبِعُوا عِيُوبَ الْمُسْلِمِينَ لِتَهْتَكُوا الْأُمُورَ الَّتِي سَتَرَهَا أَهْلِهَا.

□ وقوله: وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ الْغَيْبِ عَلَى مَا فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ ذَكَرَ الْعَيْبَ بظهر الغيب على وجه يمنع الحكمه منه، و قد فسرت بتفاسير مختلفه حسب الاختلاف في مصاديقها سعه و ضيقا فى الفقه، و يثول الى أن يذكر من الإنسان فى ظهر الغيب ما يسوؤه لو ذكر به و لذا لم يعدوا من الغيبه ذكر المتجاهر بالفسق بما تجاهر به.

و الغيبه تفسد أجزاء المجتمع واحدا بعد واحد فتسقطها عن صلاحية التأثير الصالح المرجو من الاجتماع و هو أن يخالط كل صاحبه و يمازجه فى أمن و سلامه بأن يعرفه إنسانا عدلا سويا يأنس به و لا يكرهه و لا يستقدره، و أما إذا عرفه بما يكرهه و يعيبه به انقطع عنه بمقدار ذلك و ضعفت رابطة الاجتماع فهى كالآل- كله التى تأكل جثمان من ابتلى بها عضوا بعد عضو حتى تنتهى الى بطلان الحياه.

و الإنسان إنما يعقد المجتمع ليعيش فيه بهويه اجتماعيه أعنى بمنزله اجتماعيه صالحه لأن يخالطه و يمازج فيفيد و يستفاد منه، و غيبته بذكر عيبه لغيره تسقطه عن هذه المنزله و تبطل منه هذه الهويه، و فيه تنقيص واحد من عدد المجتمع الصالح و لا يزال ينتقص بشيوع الغيبه

حتى يأتي على آخره فيتبدل الصلاح فسادا و يذهب الانس و الأمن و الاعتماد و ينقلب الدواء داء.

فهى فى الحقيقه إبطال هويه اجتماعيه على حين غفله من صاحبها و من حيث لا- يشعر به، و لو علم بذلك على ما فيه من المخاطره لتحرّز منه و توقى انتهاك ستره و هو الستر ألقاه الله سبحانه على عيوب الإنسان و نواقصه ليتّم به ما أراده من طريق الفطره من تألّف أفراد الإنسان و تجمّعهم و تعاونهم و تعاضدهم، و أين الإنسان و النزاهه من كل عيب.

و الى هذه الحقيقه أشار تعالى فيما ذكره من التمثيل بقوله: «أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ» و قد أتى بالاستفهام الإنكارى و نسب الحب المنفى الى أحدهم و لم يقل:

بعضكم و نحو ذلك ليكون النفى أوضح استيعابا و شمولاً و لذا أكّده بقوله بعد: «فَكَرِهْتُمُوهُ» فنسب الكراهه الى الجميع و لم يقل: فكرهه.

و بالجمله محصّله أن اغتياب المؤمن بمنزله أن يأكل الإنسان لحم أخيه حال كونه ميتاً، و إنما كان لحم أخيه لأنه من أفراد المجتمع الإسلامى المؤلّف من المؤمنين و إنما المؤمنون إخوه، و إنما كان ميتاً لأنه لغيبته غافل لا يشعر بما يقال فيه.

و فى قوله: فَكَرِهْتُمُوهُ و لم يقل: فتكرهونه إشعار بأن الكراهه أمر ثابت محقق منكم فى أن تأكلوا إنساناً هو أخوكم و هو ميت فكما أن هذا مكروه لكم فليكن مكروها لكم اغتياب أخيكم المؤمن بظهر الغيب فإنه فى معنى أكل أحدكم أخاه ميتاً.

و اعلم أن ما فى قوله: «أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ» الخ؛ من التعليل جار فى التجسس أيضا كالغيبه، و إنما الفرق أن الغيبه هو إظهار عيب الغير للغير أو التوصل الى الظهور عليه من طريق نقل الغير، و التجسس هو التوصل الى العلم بعيب الغير من طريق تتبع آثاره و لذلك لم يبعد أن يكون الجمله أعنى قوله: «أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا» الخ؛ تعليلاً لكل من الجملتين أعنى «وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا» .

و اعلم أن في الكلام إشعاراً أو دلالة على اقتصار الحرمه في غيبه المسلمين، و من القرينه عليه قوله في التعليل: «لَحَمَ أَخِيهِ» فالأخوه إنما هي بين المؤمنين.

و قوله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ظاهره أنه عطف على قوله: «اجْتَبِئُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ» إن كان المراد بالتقوى هو التجنب عن هذه الذنوب التي كانوا يقتربونها بالتوبه الى الله سبحانه فالمراد بقوله: «إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ» أن الله كثير القبول للتوبه رحيم بعباده التائبين اليه اللاتئين به.

و إن كان هو التجنب عنها و التورع فيها و إن لم يكونوا يقتربونها فالمراد بقوله: «إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ» أن الله كثير الرجوع الى عباده المتقين بالهدايه و التوفيق و الحفظ عن الوقوع في مهالك الشقوه رحيم بهم».

و ذلك أن التوبه من الله توبتان: توبه قبل توبه العبد بالرجوع اليه بالتوفيق للتوبه كما قال تعالى: ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا (التوبه ١١٨)، و توبه بعد توبه العبد بالرجوع اليه بالمغفره و قبول التوبه كما في قوله: فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ اصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ (المائد ٣٩).

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ الخ؛ الشعوب جمع شعب بالكسر فالسكون و هو على ما في المجمع الحى العظيم من الناس كربيعه و مضر، و القبائل جمع قبيله و هي دون الشعب كتميم من مضر.

و قوله: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ استئناف مبين لما فيه الكرامه عند الله سبحانه، و ذلك أنه نبههم في صدر الآيه على أن الناس بما هم ناس يساوى بعضهم بعضاً لا اختلاف بينهم و لا فضل لأحدهم على غيره، و أن الاختلاف المترائي في الخلقه من حيث الشعوب و القبائل إنما هو للتوصل به الى تعارفهم ليقوم به الاجتماع المنعقد بينهم إذ لا يتم

اختلف ولا تعاون و تعاضد من غير تعرف فهذا هو غرض الخلقه من الاختلاف المجعول لا أن تتفاخروا بالأنساب و تتفاضلوا بأمثال البياض و السواد فيستعبد بذلك بعضهم بعضا و يستخدم إنسان إنسانا و يستعلى قوم على قوم فينجر الى ظهور الفساد فى البر و البحر و هلاك الحرث و النسل فينقلب الدواء داء.

ثم تبه سبحانه فى ذيل الآيه بهذه الجملة أعنى قوله: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» على ما فيه الكرامه عنده، و هى حقيقه الكرامه.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ فيه تأكيد لمضمون الآيه و تلويح الى أن الذى اختاره الله كرامه للناس كرامه حقيقه اختارها الله بعلمه و خبرته بخلاف ما اختاره الناس كرامه و شرفا لأنفسهم فإنها وهميه باطله فإنها جميعا من زينه الحياه الدنيا قال تعالى: وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (العنكبوت / ٦٤).

و فى الآيه دلالة على أن من الواجب على الناس أن يتبعوا فى غايات الحياه أمر ربهم و يختاروا ما يختاره و يهدى اليه و قد اختار لهم التقوى كما أن من الواجب عليهم أن يختاروا من سنن الحياه ما يختاره لهم من الدين.

قوله تعالى: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمُ الخ؛ الآيه و ما يليها الى آخر السوره متعرضه لحال الأعراب فى دعواهم الإيمان و منهم على النبى صلى الله عليه و آله و سلم بآيمانهم، و سياق نقل قولهم و أمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن يجيبهم بقوله: «لَمْ تُؤْمِنُوا» يدل على أن المراد بالأعراب بعض الأعراب البادين دون جميعهم، و يؤيده قوله: وَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ (التوبه / ٩٩).

و قوله: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا أَى قالوا لك آمنا و ادعوا الإيمان

قل لم تؤمنوا و كذبهم في دعواهم، و قوله: «وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا» استدراك مما يدل عليه سابق الكلام، و التقدير: فلا تقولوا آمنا و لكن قولوا: أسلمنا.

و قوله: «وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ لِنَفِي دُخُولِ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِهِمْ مَعَ انْتِظَارِ دُخُولِهِ، و لذلك لم يكن تكرارا لنفي الإيمان المدلول عليه بقوله: «لَمْ تُؤْمِنُوا» .

و قد نفى في الآيه الإيمان عنهم و أوضحه بأنه لم يدخل في قلوبهم بعد و أثبت لهم الإسلام، و يظهر به الفرق بين الإيمان و الإسلام بأن الإيمان معنى قائم بالقلب من قبيل الاعتقاد، و الإسلام أمر قائم باللسان و الجوارح فإنه الاستسلام و الخضوع لسانا بالشهادة على التوحيد و النبوه و عملا- بالمتابعه العمليه ظاهرا سواء قارن الاعتقاد بحقيقته ما شهد عليه و عمل به أو لم يقارن، و بظاهر الشهادتين تحقن الدماء و عليه تجرى المناكح و المواريث.

و قوله: «وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا» الليت النقص يقال: لا-ته يليتة ليتا إذا نقصه، و المراد بالإطاعه الإخلاص فيها بموافقه الباطن للظاهر من غير نفاق، و طاعه الله استجابه ما دعا اليه من اعتقاد و عمل، و طاعه رسوله تصديقه و اتباعه فيما يأمر به فيما له الولاية عليه من امور الامه، و المراد بالأعمال جزاؤها المراد بنقص الأعمال نقص جزائها.

و المعنى: و إن تطيعوا الله فيما يأمركم به من اتباع دينه اعتقادا، و تطيعوا الرسول فيما يأمركم به لا- ينقص من اجور أعمالكم شيئا، و قوله: «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» تعليل لعدم نقصه تعالى أعمالهم إن أطاعوه و رسوله.

قوله تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَزُواْ أَوْ وَاٰلِهِمْ وَاٰلِهِمْ وَاٰلِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» تعريف تفصيلي للمؤمنين بعد ما عرفوا إجمالا بأنهم الذين دخل الإيمان في قلوبهم كما هو لازم قوله:

«لَمْ تُؤْمِنُوا»

«وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ» .

فقوله: **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**، الخ؛ فتفيد تعريفهم بما ذكر من الأوصاف تعريفًا جامعًا مانعًا فمن أتصف بها مؤمن حقا كما أن من فقد شيئا منها ليس بمؤمن حقا.

و الإيمان بالله و رسوله عقد القلب على توحيدہ تعالی و حقیہ ما أرسل به رسوله و على صحه الرساله و اتباع الرسول فيما يأمر به.

و قوله: **ثُمَّ لَمْ يَزِدْ أَبُؤُا** أى لم يشكوا فى حقیہ ما آمنوا به و كان إيمانهم ثابتا مستقرا لا يزلزله شك، و التعبير بثم دون الواو- كما قيل - للدلاله على انتفاء عروض الريب حيننا بعد حين كأنه طرئ جديد دائما فيفيد ثبوت الإيمان على استحكامه الأولى و لو قيل: و لم يرتابوا كان من الجائز أن يصدق مع الإيمان أولا مقارنا لعدم الارتياب مع السكوت عما بعد.

و قوله: **وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** المجاهده بذل الجهد و الطاقه و سبيل الله دينه، و المراد بالمجاهده بالأموال و الأنفس العمل بما تسعه الاستطاعه و تبلغه الطاقه فى التكاليف الماليه كالزكاه و غير ذلك من الإنفاقات الواجبه، و التكاليف البدنيه كالصلاه و الصوم و الحج و غير ذلك.

و المعنى: و يجدون بإتيان التكاليف الماليه و البدنيه حال كونهم أو حال كون عملهم فى دين الله و سبيله.

و قوله: **أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** تصديق فى إيمانهم إذا كانوا على الصفات المذكوره.

قوله تعالى: **قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** توبيخ للأعراب حيث قالوا: آمنا و لزمه دعوى الصدق فى قولهم و الإصرار على ذلك، و قيل: لما نزلت الآيه السابقه حلفت الأعراب أنهم مؤمنون صادقون فى قولهم: آمنا، فنزل **«قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ»** الآيه، و معنى الآيه

قوله تعالى: يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَى
 يمتنون عليك بأن أسلموا وقد أخطئوا فى منهم هذا من وجهين أحدهما أن حقيقه النعمه التى فيها المن هو الإيمان الذى هو
 مفتاح سعاده الدنيا و الآخره دون الإسلام الذى له فوائد صوريه من حقن الدماء و جواز المناكح و المواريث، و ثانيهما أن ليس
 للنبي صلى الله عليه و آله و سلم من أمر الدين إلا أنه رسول مأمور بالتبليغ فلا من عليه لأحد ممن أسلم.

فلو كان هناك من كان لهم على الله سبحانه لأن الدين دينه لكن لا من لأحد على الله لأن المنتفع بالدين فى الدنيا و الآخره
 هم المؤمنون دون الله الغنى على الإطلاق فالمن لله عليهم أن هداهم له.

و قد بدّل ثانيا الإسلام من الإيمان للإشارة الى أن المن إنما هو بالإيمان دون الإسلام الذى إنما ينفعهم فى الظاهر فقط.

فقد تضمن قوله: «قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ» الخ؛ الإشارة الى خطاهم من الجهتين جميعا:

إحداهما: خطاهم من جهة توجيه المن الى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و هو رسول ليس له من الأمر شىء، و اليه الإشارة
 بقوله: «لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ» .

و ثانيهما: أن المن- لو كان هناك من- إنما هو بالإيمان دون الاسلام، و اليه الإشارة بتبديل الإسلام من الإيمان.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ختم للسوره و تأكيد يعلل و يؤكد به جميع ما تقدم فى
 السوره من النواهي و الأوامر و ما بين فيها من الحقائق و ما أخبر فيها عن إيمان قوم و عدم إيمان آخرين فالآيه تعلق

بمضمونها جميع ذلك.

و المراد بغيب السماوات و الأرض ما فيها من الغيب أو الأعم مما فيهما و من الخارج منهما (١).

ص: ٢٧

(١ - ١). الحجرات ١١-١٨: بحث روائى فى: النهى عن الغيبه، و النبز باللقاب؛ التقوى؛ الايمان و الاسلام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ; ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢)
أَ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ
فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥) أَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا
رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبَصَّرْتَهُمْ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَنِيدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَ
حَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ
(١٤)

السوره تذكر الدعوه و تشير الى ما فيها من الإنذار بالمعاد و جحد المشركين به و استعجابهم ذلك بأن الموت يستعقب بطلان الشخصيه الإنسانيه بصيرورته ترابا لا يبقى معه أثر مما كان عليه فكيف يرجع ثانيا الى ما كان عليه قبل الموت فتدفع ما أظهره من الاستعجاب و الاستبعاد بأن العلم الإلهي محيط بهم و عنده الكتاب الحفيظ الذي لا يعزب عنه شيء مما دق و جل من أحوال خلقه ثم توعدهم بإصابه مثل ما أصاب الامم الماضيه الهالكه.

و تنبه ثانيا على علمه و قدرته تعالى بالإشاره الى ما جرى من تدبيره تعالى في خلق السماوات و ما زينها به من الكواكب و النجوم و غير ذلك، و في خلق الأرض من حيث مدّها و إلقاء الرواسي عليها و إنبات الأزواج النباتيه فيها ثم بإنزال الماء و تهيئه أرزاق العباد و إحياء الأرض به.

ثم بيان حال الإنسان من أول ما خلق و أنه تحت المراقبه الشديده الدقيقه حتى ما يلفظ به من لفظ و حتى ما يخطر بباله و توسوس به نفسه ما دام حيا ثم إذا أدركه الموت ثم إذا بعث لفصل

القضاء ثم إذا فرغ من حسابه فادخل النار إن كان من المكذبين أو الجنة المزيفه إن كان من المتقين.

و بالجمله مصب الكلام فى السوره هو المعاد، و من غرر الآيات فيها قوله: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَ كَفِّبَصْرِكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ، و قوله: يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ و قوله: لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ .

و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها إلا ما قيل فى قوله: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ الْآيَه أو الآيتين، و لا شاهد عليه من اللفظ. و ما أوردناه من الآيات فيه إجمال الإشاره الى المعاد و استبعادهم له، و إجمال الجواب و التهديد أولا ثم الإشاره الى تفصيل الجواب و التهديد ثانيا.

قوله تعالى: ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، قال فى المجمع:المجد فى كلامهم الشرف الواسع يقال:مجد الرجل و مجد-بضم العين و فتحها-مجدا إذا عظم و كرم، و أصله من قولهم:مجدت الإبل مجودا إذا عظمت بطونها من كثره أكلها من كلاء الربيع.انتهى.

و قوله: وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ قسم و جوابه محذوف يدل عليه الجمل التاليه و التقدير و القرآن المجيد إن البعث حق أو إنك لمن المنذرين أو الانذار حق، و قيل:جواب القسم مذكور و هو قوله: «يَلْ عَجِبُوا» الخ؛ و قيل:هو قوله: «قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ» الخ؛ و قيل:قوله: مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ الْخ؛ و قيل:قوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ الْخ؛ و قيل:قوله: مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدِي الْخ؛ و هذه أقوال سخيغه لا يصار إليها.

قوله تعالى: بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ إضراب عن مضمون جواب القسم المحذوف فكأنه قيل:إننا أرسلناك نذيرا فلم يؤمنوا بك بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم، أو قيل إن البعث الذى أنذرتهم به حق و لم يؤمنوا به بل عجبوا منه و استبعدوه.

و ضمير «منهم» في قوله: «بَلْ عَجِبُوا أَنْ لَاجَأَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ» راجع اليهم بما هم بشر أى من جنسهم و ذلك أن الوثنيين ينكرون نبوه البشر كما تقدمت الاشاره اليه مرارا أو راجع اليهم بما هم عرب و المعنى: بل عجبوا أن جاءهم منذر من قومهم و بلسانهم يبين لهم الحق أو في بيان فيكون أبلغ في تقريرهم.

و قوله: فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ وصفهم بالكفر و لم يقل: و قال المشركون و نحو ذلك للدلاله على سترهم للحق لما جاءهم، و الاشاره في قولهم: «هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ»، الى البعث و الرجوع الى الله كما يفسره قوله بعد: «أَ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا» الخ.

قوله تعالى: أَ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ الرجوع بمعنى و المراد بالبعد البعد عن العقل.

و جواب إذا في قولهم: «أَ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا» محذوف يدل عليه قولهم: «ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ» و التقدير أ إذا متنا و كنا ترابا نبعث و نرجع؟ و الاستفهام للتعجب، و إنما حذف للاشاره الى أنه عجيب بحيث لا ينبغي أن يذكر، إذ لا يقبله عقل ذى عقل و الآيه في مساق قوله: وَقَالُوا أَ إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (الم السجده ١٠).

و المعنى: إنهم يتعجبون و يقولون: أ إذا متنا و كنا ترابا- و بطلت ذواتنا بطلانا لا أثر معه منها-نبعث و نرجع؟ ثم كأنه قائلا يقول لهم: مم تعجبون؟ فقالوا: ذلك رجوع بعيد يستبعده العقل و لا يسلمه.

قوله تعالى: فَدَعَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ رد منه تعالى لاستبعادهم البعث و الرجوع مستنديين في ذلك الى أنهم ستلاشى أبدانهم بالموت فتصير ترابا متشابه الأجزاء لا تمايز لجزء منها من جزء و الجواب أننا نعلم بما تأكله الأرض من أبدانهم و تنقصه منها فلا يفوت علمنا جزء من أجزائهم حتى يتعسر علينا إرجاعه أو يتعذر بالجهل.

أو أنا نعلم من يموت منهم فيدفن في الأرض فتنقصه الأرض من جمعهم، و«من» على أول الوجهين تبعيضية و على الثاني تبينيه.

وقوله: وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ أى حافظ لكل شىء و لآثاره و أحواله، أو كتاب ضابط للحوادث محفوظ عن التغيير و التحريف، و هو اللوح المحفوظ الذى فيه كل ما كان و ما يكون و ما هو كائن الى يوم القيامة.

و محصل جواب الآيه أنهم زعموا أن موتهم و صيرورتهم ترابا متلاشى الذرات غير متمايز الأجزاء يصيرهم مجهولى الأجزاء عندنا فيمتنع علينا جمعها و إرجاعها لكنه زعم باطل فإننا نعلم بمن مات منهم و ما يتبدل الى الأرض من أجزاء أبدانهم و كيف يتبدل و الى أين يصير؟ و عندنا كتاب حفيظ فيه كل شىء و هو اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: يَلِ لَّكَ ذُّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيحٍ المريج الاختلاط و الالتباس، و فى الآيه إضراب عما تلوح اليه الآيه السابقه فإن اللائح منها أنهم إنما تعجبوا من أمر البعث و الرجوع و استبعدوه لجهلهم بأن الله سبحانه عليم لا يعزب عنه شىء من أحوال خلقه و آثارهم و أن جميع ذلك مستطر فى اللوح المحفوظ عند الله بحث لا يشد عنه شاذ.

فاضرب فى هذه الآيه أن ذلك ليس من جهلهم و إن تجاهلوا بل كذبوا بالحق لما جاءهم فاستبان لهم أنه حق فهم جاحدون للحق معاندون له و ليسوا بجاهلين به قاصرين عن إدراكه فهم فى أمر مريج مختلط غير منتظم يدركون الحق و يكذبون به مع أن لازم العلم بشىء تصديقه و الإيمان به.

وقيل: المراد بكونهم فى أمر مريج أنهم متحيرون بعد إنكار الحق لا يدرون ما يقولون فتاره يقولون: افتراء على الله، و تاره: سحر، و تاره: شعر، و تاره: كهانه و تاره: زجر.

و لذلك عقب الكلام بذكر آيات علمه و قدرته توييخا لهم ثم بالإشارة الى تكذيب الامم

الماضيهِ الهالكه الذى ساقهم الى عذاب الاستئصال، تهديدا لهم.

قوله تعالى: أَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ الْفُرُوجِ جمع فرجه: الشقوق و الفتوق، و تقييد السماء بكونها فوقهم للدلالة على أنها برأى منهم لا- تغيب عن أنظارهم، و المراد بتزيينها خلق النجوم اللامعه فيها بما لها من الجمال البديع، فبناء هذا الخلق البديع بما لها من الجمال الرائع من غير شقوق و فتوق أصدق شاهد على قدرته القاهره و علمه المحيط بما خلق.

قوله تعالى: وَ الْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ مَد الْأَرْضَ بسطها لتلائم عيشه الإنسان، و الرواسى جمع الراسيه بمعنى الثابته صفه محذوفه فالموصوف و هو الجبال، و المراد جعل الجبال الثابته على ظهرها، و البهيج من البهجه، قال فى المجمع: البهجه الحسن الذى له روعه عند الرؤيه كالزهرة و الأشجار النضرة و الرياض الخضرة. انتهى. و قيل: المراد بالبهيح الذى من رآه بهج و سرّ به فهو بمعنى المبهوج به.

و المراد بإنبات كل زوج بهيج إنبات كل صنف حسن المنظر من النبات.

فخلق الأرض و ما جرى فيها من التدبير الإلهى العجيب أحسن دليل يدلّ العقل على كمال قدره و العلم.

قوله تعالى: تَبَصَّرَهُ وَ ذَكَرَى لِكُلِّ عَيْدٍ مُنِيْبٍ مَفْعُول له أى فعلنا ما فعلنا من بناء السماء و مد الأرض و عجائب التدبير التى أجريناها فيهما ليكون تبصره يتبصر بها و ذكرى يتذكر بها كل عبد راجع الى الله سبحانه.

قوله تعالى: وَ نَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ السَّمَاءِ جهه العلو و الماء المبارك المطر، و وصف بالمباركه لكثره خيراته العائده الى الأرض و أهلها، و حب الحصيد المحصود من الحب و هو من إضافه الموصوف الى الصفه،

قوله تعالى: وَ النَّخْلَ بِاسْتِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ جَمْعُ بَاسِقَةٍ وَ هِيَ الطَّوِيلَةُ الْعَالِيَةُ، وَ الطَّلْعُ أَوَّلُ مَا يُطْلَعُ مِنْ ثَمَرِ النَّخِيلِ، وَ النَضِيدُ بِمَعْنَى الْمَنْضُودِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَ الْمَعْنَى ظَاهِرٌ.

قوله تعالى: رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَ أَخْيِينَا بِهِ بَلَدَهُ مِثْنًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ الرِّزْقُ مَا يَمُدُّ بِهِ الْبَقَاءُ، وَ «رِزْقًا لِلْعِبَادِ» مَفْعُولٌ لَهُ أَيْ أَنْبَتْنَا هَذِهِ الْجَنَاتِ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ وَ النَّخْلَ بِاسْتِقَاتٍ بِمَا لَهَا مِنَ الطَّلْعِ النَضِيدِ لِيَكُونَ رِزْقًا لِلْعِبَادِ فَمِنْ خَلْقِ هَذِهِ النَّبَاتَاتِ لِيُرِزَّقَ بِهِ الْعِبَادُ بِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّدْبِيرِ الْوَسِيعِ الَّذِي يَدْهَشُ اللَّبَّ وَ يَحْزِرُ الْعَقْلَ هُوَ ذُو عِلْمٍ لَا يَتَنَاهَى وَ قَدْرُهُ لَا تَعْبَى لَا يَشْقُ عَلَيْهِ إِحْيَاءُ الْإِنْسَانِ بَعْدَ مَوْتِهِ وَ إِنْ تَلَاشَتْ ذَرَاتُ جِسْمِهِ وَ ضَلَّتْ فِي الْأَرْضِ أَجْزَاءَ بَدَنِهِ.

و قوله: وَ أَخْيِينَا بِهِ بَلَدَهُ مِثْنًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ بَرَهَانٌ آخَرٌ عَلَى الْبَعْثِ غَيْرُ مَا تَقَدَّمَ اسْتَنْتَجَ مِنْ طَيِّبِ الْكَلَامِ فَإِنَّ الْبَيَانَ السَّابِقَ فِي رَدِّ اسْتِبْعَادِهِمْ لِلْبَعْثِ مُسْتَنْدِينَ إِلَى صَيُورَتِهِمْ تَرَابًا غَيْرَ مَتَمَازِيزِ الْأَجْزَاءِ كَانَ بَرَهَانًا مِنْ مَسْلَكِ إِثْبَاتِ عِلْمِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ وَ قُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَ هَذَا الْبَرَهَانُ الَّذِي يَتَضَمَّنُهُ قَوْلُهُ: «وَ أَخْيِينَا بِهِ بَلَدَهُ مِثْنًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ» مِنْ مَسْلَكِ إِثْبَاتِ إِمْكَانِ الشَّيْءِ بِوُقُوعِ مِثْلِهِ فَلَيْسَ الْخُرُوجُ مِنَ الْقُبُورِ بِالْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَّا- مِثْلَ خُرُوجِ النَّبَاتِ الْمَيِّتِ مِنَ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ وَقُوفِ قَوَاهِ عَنِ النَّمَاءِ وَ النُّشُوءِ.

و قد قررنا هذا البرهان في ذيل الآيات المستدله بإحياء الأرض بعد موتها على البعث غير مره فيما تقدم من أجزاء الكتاب.

قوله تعالى: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ -إلى قوله- كُلُّ كَذَّابٍ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعَمِيدٍ، تهديد و إنذار لهم بما كذبوا بالحق لما جاءهم و تبين لهم عنادا كما أشرنا إليه قبل.

و قد تقدم ذكر أصحاب الرس في تفسير سورة الفرقان، و ذكر أصحاب الأيكة و هو قوم شعيب في سورة الحجر و الشعراء و ص، و ذكر قوم تبع في سورة الدخان.

و في قوله: «كَلَّ كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ وَعَيْدٍ» إشاره الى أن هناك وعيدا بالهلاك ينجز عند تكذيب الرسل قال تعالى: فَسَيَرَوُا فِي الْأَرْضِ فَاَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (النحل ٣٦).

[سوره ق (٥٠): الآيات ١٥ الى ٣٨]

أَفَعِينَا بِالْخُلُقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَ نَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَ جَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَ نَفِخْ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ (٢٠) وَ جَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَ شَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَ قَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتِيدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَعَيْتَهُ وَ لَكِنْ كَانُ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَ قَدْ قَدِمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَ مَا أَنَا بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَبِ لِي امْتَلَأِي وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠) وَ أَرْزَلْنَا الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَ جَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ مَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨)

بيان:

قوله تعالى: **أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ** العيِّ عجز يلحق من تولى الأمر والكلام كذا، قال الراغب: يقال: أعيانى كذا و عييت بكذا أى عجزت عنه و الخلق الأول خلق هذه النشأه الطبيعیه بنظامها الجارى و منها الإنسان فى حياته الدنيا فلا وجه لقصر الخلق الأول فى خلق السماء و الأرض فقط كما مال اليه الرازى فى

ص: ٣٦

التفسير الكبير و لا لقصره فى خلق الإنسان كما مال اليه بعضهم و ذلك لأن الخلق الجديد يشمل السماء و الأرض و الإنسان جميعا كما قال تعالى: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّمَاوَاتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (إبراهيم ٤٨). و الخلق الجديد خلق النشأه الثانيه و هى النشأه الآخره، و الاستفهام للإنكار.

و المعنى: أعجزنا عن الخلق الأول حتى نعجز عن الخلق الجديد؟ أى لم نعجز عن الخلق الأول و هو إبدائه فلا نعجز عن الخلق الجديد و هو إعادته.

و قوله: بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ اللبس هو الالتباس، و المراد بالخلق الجديد تبديل نشأتهم الدنيا من نشأه اخرى ذات نظام آخر وراء النظام الطبيعى الحاكم فى الدنيا فإن فى النشأه الاخرى و هى الخلق الجديد بقاء من غير فناء و حياه من غير موت ثم إن كان الإنسان من أهل السعاده فله نعمه من غير نقمه و إن كان من أهل الشقاء ففى نقمه لا نعمه معها، و النشأه الاولى و هى الخلق الأول و النظام الحاكم فيها على خلاف ذلك.

و المعنى: إذا كنا خلقنا العالم بسمائه و أرضه و ما فيهما و دبّرناه أحسن تدبير لأول مره بقدرتنا و علمنا و لم نعجز عن ذلك علما و قدره فنحن غير عاجزين عن تجديد خلقه و هو تبديله خلقا جديدا فلا ريب فى قدرتنا و لا التباس بل هم فى التباس لا سبيل لهم مع ذلك الى الإيمان بخلق جديد.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَ نَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ قال الراغب: الوسوسه الخطره الرديئه و أصله من الوسواس و هو صوت الحلى و الهمس الخفى. انتهى.

و المراد بخلق الإنسان وجوده المتدرج المتحول خلقا بعد خلق لا أول تكوينه إنسانا و إن عبّر عنه بالماضى إذ قال: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ» إذ الإنسان -و كذا كل مخلوق له حظ من البقاء- كما يحتاج الى عطيه ربه فى أول وجوده كذلك يحتاج اليه فى بقائه.

و لما ذكر من النكته عطف قوله: «وَ نَعْلَمُ مَا تُوسِسُ بِهِ نَفْسُهُ» و هو فعل مضارع مسوق للدلاله على الاستمرار على قوله: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ» و هو فعل ماض لكنه مستمر المعنى، و كذا قوله: «وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» مفيد للثبوت و الدوام و الاستمرار باستمرار وجود الإنسان.

و للآيه اتصال بما تقدم من الاحتجاج على علمه و قدرته تعالى فى الخلق الأول بقوله:

«أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ» و اتصال أيضا بقوله تعالى فى الآيه السابقه: «بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ» فهى فى سياق يذكر قدرته على الإنسان بخلقه، و علمه به بلا واسطه و بواسطه الملائكه الحفظه الكتبه.

فقوله: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ -و اللام للقسم- دالّ على القدره عليه بإثبات الخلق.

و قوله: «وَ نَعْلَمُ مَا تُوسِسُ بِهِ نَفْسُهُ» فى ذكر أخفى أصناف العلم و هو العلم بالخطور النفسانى الخفى إشاره الى استيعاب العلم له كأنه قيل: و نعلم ظاهره و باطنه حتى ما توسوس به نفسه و ما توسوس به الشبهه فى أمر المعاد: كيف يبعث الإنسان و قد صار بعد الموت ترابا متلاشى الأجزاء غير متميز بعضها من بعض.

و قد بان أن «م» فى «مَا تُوسِسُ بِهِ» موصوله و ضمير «بِهِ» عائد اليه و الباء للآله أو للسببيه، و نسب الوسوسه الى النفس دون الشيطان و إن كانت منسوبه اليه أيضا لأن الكلام فى إحاطه العلم بالإنسان حتى بما فى زوايا نفسه من هاجس و وسوسه.

و قوله: «وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» عرق متفرق فى البدن فيه مجارى الدم، و قيل: هو العرق الذى فى الحلق، و كيف كان فتسميته حبلًا لتشبيهه به، و إضافه حبل الوريد بيانیه.

و المعنى: نحن أقرب الى الإنسان من حبل وريده المخالط لأعضائه المستقر فى داخل بدنه

فكيف لا نعلم به و بما فى نفسه؟

و هذا تقرب للمقصود بجملة ساذجه يسهل تلقيها لعامه الأفهام و إلا فأمر قربه تعالى اليه أعظم من ذلك و أعظم فهو سبحانه الذى جعلها نفسا و رتب عليها آثارها فهو الواسطه بينها و بين نفسها و بينها و بين آثارها و أفعالها فهو أقرب الى الإنسان من كل أمر مفروض حتى فى نفسه، و لكون هذا المعنى دقيقا يشق تصوره على أكثر الأفهام عدل سبحانه الى بيانه بنحو قوله: «و نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» و قريب منه بوجه قوله: «أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ» .

قوله تعالى: إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ التلقى الأخذ و التلقن، و المراد بالمتلقيان على ما يفيد السباق الملكان الموكلان على الإنسان اللذان يتلقيان عمله فيحفظانه بالكتاب.

و قوله: عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ تقديره عن اليمين قعيد و عن الشمال قعيد، و المراد باليمين و الشمال يمين الإنسان و شماله، و القعيد القاعد.

و الظرف فى قوله: «إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِيَانِ» الظاهر أنه متعلق بمحذوف و التقدير اذكر إذ يتلقى المتلقيان، و المراد به الإشارة الى علمه تعالى بأعمال الإنسان من طريق كتاب الأعمال من الملائكة و راء علمه تعالى بذاته من غير توسط الوسائط.

و قوله: عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ تمثيل لموقعهما من الإنسان، و اليمين و الشمال جانبا الخير و الشر ينتسب اليهما الحسنه و السيئه.

قوله تعالى: مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ اللفظ الرمى سمي به التكلم بنوع من التشبيه، و الرقيب المحافظ، و العتيد المعد المهيا للزوم الأمر.

و الآيه تذكر مراقبه الكتبه للإنسان فيما يتكلم به من كلام، و هى بعد قوله: «إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِيَانِ» الخ؛ من ذكر الخاص بعد العام لمزيد العناية به.

قوله تعالى: وَجَاءَتْ سَيِّكْرُهُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ الْحَيْدُ الْعَدُولُ وَ الْمِيلُ عَلَى سَبِيلِ الْهَرَبِ، وَ الْمَرَادُ بِسَكْرِهِ الْمَوْتُ مَا يَعْرِضُ الْإِنْسَانَ حَالَ النَّزْعِ إِذْ يَشْتَغَلُ بِنَفْسِهِ وَ يَنْقَطِعُ عَنِ النَّاسِ كَالسَّكَرَانِ الَّذِي لَا يَدْرِي مَا يَقُولُ وَ لَا مَا يَقَالُ لَهُ.

وَ فِي تَقْيِيدِ مَجِيءِ سَكْرِهِ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمَوْتَ دَاخِلٌ فِي الْقَضَاءِ الْإِلَهِيِّ مَرَادٌ فِي نَفْسِهِ فِي نِظَامِ الْكُونِ كَمَا يَسْتَفَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبَلُّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِنَّا تُرْجِعُوْنَ (الأنبياء ٣٥)، وَ قَدْ مَرَّ تَفْسِيرُهُ فَالْمَوْتُ - وَ هُوَ الْإِنْتِقَالُ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ إِلَى دَارٍ بَعْدَهَا - حَقٌّ كَمَا أَنَّ الْبَعْثَ حَقٌّ وَ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَ النَّارَ حَقٌّ، وَ فِي مَعْنَى كَوْنِ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ أَقْوَالٌ أُخْرَى لَا جَدْوَى فِي نَقْلِهَا وَ التَّعَرُّضِ لَهَا.

وَ فِي قَوْلِهِ: ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَكْرَهُ الْمَوْتَ بِالطَّبَعِ وَ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ زَيَّنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ التَّعَلُّقَ بِزَخَارِفِهَا لِلإِنْسَانِ ابْتِلَاءً وَ امْتِحَانًا، قَالَ تَعَالَى:

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ إِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (الكهف ٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ نُفِّخُ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ هَذِهِ نَقْلُهُ ثَانِيَةً إِلَى عَالَمِ الْخُلُودِ بِنَفْخِ الصُّورِ بَعْدَ النَّقْلِ الْأَوَّلِيِّ، وَ الْمَرَادُ بِنَفْخِ الصُّورِ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ الْمَقِيْمَةُ لِلسَّاعَةِ أَوْ مَجْمُوعُ النَّفْخَتَيْنِ بِإِرَادَةِ مَطْلُوقِ النَّفْخِ.

وَ الْمَرَادُ بِيَوْمِ الْوَعِيدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي يَنْجِزُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ وَعِيدَهُ عَلَى الْمَجْرِمِينَ مِنْ عِبَادِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَ شَهِيدٌ السِّيَاقَةُ حِثُّ الْمَاشِيَةِ عَلَى الْمَسِيرِ مِنْ خَلْفِهَا بِعَكْسِ الْقِيَادَةِ فَهِيَ جَلْبُهَا مِنْ أَمَامِهَا.

فَقَوْلُهُ: وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ أَيَّ جَاءَتْ إِلَى اللَّهِ وَ حَضَرَتْ عِنْدَهُ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: إِلَيَّ رُبُّكُمْ يَوْمَ تَأْتِي السَّائِقُ (القيامة ٣٠).

وَ الْمَعْنَى: وَ حَضَرَتْ عِنْدَهُ تَعَالَى كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ يَسُوقُهَا وَ شَهِيدٌ يَشْهَدُ بِأَعْمَالِهَا وَ لَمْ

يصرّح تعالى بكونهما من الملائكة أو بكونهما هما الكاتبين أو من غير الملائكة، غير أن السابق الى الذهن من سياق الآيات أنهما من الملائكة، وسيجيء الروايات في ذلك.

و كذا لا تصرّح بكون الشهاده منحصره فى هذا الشاهد المذكور فى الآيه بل الآيات الوارده فى شهاده يوم القيامه تقضى بعدم الانحصار، وكذا الآيات التاليه الذاكره لاختصاص الإنسان و قرينه داله على أن مع الإنسان يومئذ غير السائق و الشهيد.

قوله تعالى: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ وَقَوْلِهِ فِي سِيَاق آيَاتِ الْقِيَامَةِ وَاحْتِفَافِهَا بِهَا يَقْضَى بِكَوْنِهَا مِنْ خُطَابَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالمَخَاطَبُ بِهَا هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَالَّذِي خُوطِبَ بِهَا هُوَ الْإِنْسَانُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ:

«وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ»، وَ عَلَيْهِ فَالْخُطَابُ عَامٌ مُتَوَجِّهٌ إِلَى كُلِّ إِنْسَانٍ إِلَّا أَنْ التَّوْبِيخَ وَ التَّقْرِيعَ اللَّائِحَ مِنْ سِيَاقِ الْآيَةِ رُبَّمَا اسْتَدْعَى اخْتِصَاصَ الْخُطَابِ بِمَنْكُرِ الْمَعَادِ، أَضْفَ إِلَى ذَلِكَ، كَوْنُ الْآيَاتِ مَسْوَغَةً لِرَدِّ مَنْكُرِ الْمَعَادِ فِي قَوْلِهِمْ: «أَ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجَعٌ بَعِيدٌ».

وَ الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «هَذَا» إِلَى مَا يَشَاهِدُهُ يَوْمَئِذٍ وَ يَعَايِنُهُ مِنْ تَقْطُوعِ الْأَسْبَابِ وَ بَوَارِ الْأَشْيَاءِ وَ رُجُوعِ الْكُلِّ إِلَى اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، وَ قَدْ كَانَ تَعَلُّقُ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا بِالسَّبَبِ الظَّاهِرِيِّ وَ رُكُونُهُ إِلَيْهَا أَغْفَلَهُ عَنْ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُ حِجَابَ الْغَفْلَةِ فَبَدَتْ لَهُ حَقِيقَةُ الْأَمْرِ فَشَاهَدَ ذَلِكَ مَشَاهِدَهُ عَيَانًا لَا عِلْمًا وَلَا فِكْرِيًّا.

وَ لِذَا خُوطِبَ بِقَوْلِهِ: «لَقَدْ كُنْتَ فِي الدُّنْيَا فِي غَفْلَةٍ» أَحَاطَتْ بِكَ «مِنْ هَذَا» الَّذِي تَشَاهَدُهُ وَ تَعَايِنُهُ وَ إِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا نَصَبَ عَيْنِكَ لَا يَغِيبُ لَكِنْ تَعَلُّقَكَ بِذِيلِ الْأَسْبَابِ أَذْهَلَكَ وَ أَغْفَلَكَ عَنْهُ «فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ» الْيَوْمَ «فَبَصِيرَتُكَ» وَ هُوَ الْبَصِيرَةُ وَ عَيْنُ الْقَلْبِ «الْيَوْمَ» وَ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ «حَدِيدٌ» أَيْ نَافِذٌ يَبْصُرُ مَا لَمْ يَكُنْ يَبْصُرُهُ فِي الدُّنْيَا.

قوله تعالى: وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ لَا يَخْلُو السِّيَاقُ مِنْ ظُهُورِ فِي أَنْ الْمَرَادُ بِهَذَا الْقَرِينِ الْمَلِكِ الْمُوَكَّلِ بِهِ فَإِنْ كَانَ هُوَ السَّائِقُ كَانَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ» هَذَا

الانسان الذى هو عندى حاضر، و ان كان هو الشهيد كان المعنى هذا-و هو يشير الى أعماله التى حمل الشهاده عليها-ما عندى من أعماله حاضر مهياً.

وقيل:المراد بالقرين الشيطان الذى يصاحبه و يغويه،و معنى كلامه على هذا الإنسان هو الذى توليت أمره و ملكته حاضر مهياً لدخول جهنم.

قوله تعالى: **الْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مِّنَاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مِّرِبٍ الْكِفَارِ اسْمٌ مَّبَالِغُهُ مِنَ الْكُفْرِ، وَ الْعَنِيدُ الْمَعَانِدُ لِلْحَقِّ الْمُسْتَمِرُّ عَلَى عِنَادِهِ، وَ الْمُعْتَدِي الْمَتَجَاوِزُ عَنِ الْحُدِّ الْمَتَخَطِي لِلْحَقِّ، وَ الْمِرِبُ الشَّاكُّ أَوْ الْمَشْكُوكُ فِي أَمْرِ الْبَعْثِ.**

و بين هذه الصفات المعدوده شبه الاستلزام فإن كثره الكفر برّد الإنسان كل حق يواجهه تنتج العناد مع الحق و الإصرار عليه،و الإصرار على العناد يوجب المنع عن أكثر الخيرات إذ لا خير إلا فى الحق و من ناحيته،و هو يستلزم الخروج عن حد الحق الى الباطل و تجاوز الإنسان عن حد العبوديه الى الاستكبار و الطغيان و يستلزم تشكيك الناس فى ما يرومونه من دين الحق.

و الخطاب فى الآيه منه تعالى،و ظاهر سياق الآيات أن المخاطب به هما الملكان الموكلان السائق و الشهيد،و احتمال بعضهم أن يكون الخطاب الى ملكين من ملائكة النار و خزنتها.

قوله تعالى: **الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ الْعَدُولِ فِي ذِكْرِ صِفَةِ الشَّرْكِ عَنِ الْإِيجَازِ إِلَى الْإِطْنَابِ حَيْثُ لَمْ يَقُلْ: مُشْرِكٌ وَ قَالَ: «الَّذِي جَعَلَ» الْخ؛ لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ أَكْثَرُ الْمَعَاصِي وَ أَمَّ الْجَرَائِمِ الَّتِي أَتَى بِهَا وَ الصِّفَاتِ الرَّذِيئَةِ الَّتِي عَدَّتْ لَهُ مِنَ الْكُفْرِ وَ الْعِنَادِ وَ مَنَعَ الْخَيْرِ وَ الْإِعْتِدَاءِ وَ الْإِرَابَةِ.**

و قوله: **فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ** تأكيد لما تقدم من الأمر بقوله: **«الْقِيَا» الْخ؛** و يلوّح الى تشديد الأمر من جهه الشرك،و لذا عقبه بقوله: **«فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ» .**

قوله تعالى: **قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتَهُ وَ لَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ الْمُرَادُ**

بهذا القرين قرينه من الشياطين بلا شك، وقد تكرر في كلامه تعالى ذكر القرين من الشيطان وهو الذى يلازم الإنسان ويوحى إليه ما يوحى من الغوايه والضلال، قال تعالى: وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصِيدُونَ لَهَا السَّبِيلَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَسَّ الْقَرِينَ (الزخرف / ٣٨).

فقوله: «قَالَ قَرِينُهُ» أى شيطانه الذى يصاحبه ويغويه «رَبِّدًا» اضااف الرب الى نفسه و الإنسان الذى هو قرينه لأنهما فى مقام الاختصاص «مَا أَطْعَمْتَهُ» أى ما أجبرته على الطغيان «وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ» أى متهيئا مستعدا لقبول ما ألقىته اليه تلقاه باختياره فما أنا بمسئول عن ذنبه فى طغيانه.

وقد تقدم فى سورة الصافات تفصيل اختصاص الظالمين و أزواجهم فى قوله: أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْوَاجَهُمْ (الصافات ٢٢)، الى آخر الآيات.

قوله تعالى: قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ القائل هو الله سبحانه يخاطبهم و كأنه خطاب واحد لعامة المشركين الطاغين و قرنائهم ينحلّ الى خطابات جزئية لكل إنسان و قرينه بمثل قولنا: لا تختصما لدى، الخ.

وقوله: وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ حال من فاعل «لَا تَخْتَصِمُوا» و «بِالْوَعِيدِ» مفعول «قَدَّمْتُ» و الباء للوصله.

و المعنى: لا تختصموا لدىّ فلا نفع لكم فيه بعد ما أبلغتكم وعيدى لمن أشرك و ظلم، و الوعيد الذى قدّمه اليهم مثل قوله تعالى لإبليس: اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (الإسراء ٦٣)، وقوله: فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (ص ٨٥). أو قوله: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (السجده / ١٣).

قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾ وَ ﴿مَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ الذى يعطيه السياق أن تكون الآية استثناءً بمنزلة الجواب عن سؤال مقدر كأن قائلًا يقول: هب إنك قد قدمت فهلاً؟ غيرته و عفوت؟ فاجيب بقوله: ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾ و المراد بالقول مطلق القضاء المحتوم الذى قضى به الله، و قد قضى لمن مات على الكفر بدخول جهنم و ينطبق بحسب المورد على الوعيد الذى أوعد به الله لإبليس و من تبعه.

فقد بان أن الجملة مستأنفة، و المراد بتبديل القول تغيير القضاء المحتوم، و «لَدَيَّ» متعلق بالتبديل، هذا ما يعطيه السياق، و قد ذكر بعضهم فى هذه الجملة و إعراب مفرداتها و معنى تبديل القول و جوها و احتمالات كثيره بعيده عن الفهم لا تزيد فى الكلام إلا تعقيدا فأغمضنا عن إيرادها.

و قوله: وَ ﴿مَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ متمم لمعنى الجملة السابقه أى لا يبديل قولى فأنتم معذبون لا محاله و لست أظلم عبیدی فى عذابهم على طبق ما قدمت اليهم بالوعيد لأنهم مستحقون لذلك بعد إتمام الحججه.

و من وجه آخر: لا- ظلم فى مجازاتهم بالعذاب فإنهم إنما يجوزون بأعمالهم التى قدموها فى أعمالهم ردت اليهم كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ إِنَّمَا تُجْرُونَ ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التحریم ٧).

و ما فى قوله: وَ ﴿مَا أَنَا بِظَلَّامٍ﴾ من نفى الظلم الكثير لا يستوجب جواز الظلم اليسير فإنه تعالى لو ظلم فى شىء من الجزاء كان ظلما كثيرا لكثرة أمثاله فإن الخطاب لكل إنسان مشرك ظالم مع قرينه، و هم كثيرون فهو سبحانه لو ظلم فى شىء من الجزاء لكان ظلما.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ خطاب منه تعالى لجهنم و جواب منها، و قد اختلف فى حقيقه هذا التكليم و التكلم فقليل: الخطاب و الجواب بلسان الحال و يردده أنه لو كان بلسان الحال لم يختص به تعالى بل كان لكل من

يشاهدها على تلك الحال أن يسألها عن امتلائها فتجيبه بقولها: هل من مزيد؟ فليس لتخصيص الخطاب به تعالى نكته ظاهره.

وقوله: هَلِ امْتَلَأَتْ استفهام تقريرى، وكذا قوله حكاية عنها: «هَلْ مِنْ مَزِيدٍ» و لعل إيراد هذا السؤال و الجواب للإشارة الى أن قهره و عذابه لا يقصر عن الإحاطه بالمجرمين و إيفاء ما يستحقونه من الجزاء قال تعالى: وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (التوبه ٤٩).

و استشكل بأنه مناف لصريح قوله تعالى: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ» الآية و أجيب بأن الامتلاء قد يراد به أنه لا يخلو شىء من طبقاتها من السكنه كما يقال: البلد ممتلى بأهله. على أنه يمكن أن يكون هذا القول منها قبل دخول جميع أهل النار فيها.

و قيل: الاستفهام فى قوله: «هَلِ امْتَلَأَتْ» للإنكار و المعنى: لا مزيد أى لا مكان فى مزيد على من ألقى فى من المجرمين فقد امتلأت فيكون إشاره الى ما قضى به فى قوله: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» (السجده ١٣)، و قوله: «هَلِ امْتَلَأَتْ» فى معنى أن يقال: «لَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ»، و قوله: «هَلْ مِنْ مَزِيدٍ» تقرير و تصديق له.

و ربما أيد هذا الوجه قوله تعالى قبل: «مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ» على تقدير أن يراد بالقول قوله تعالى: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

قوله تعالى: وَ أُرْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ شروع فى وصف حال المتقين يوم القيامة، و الإزلاف التقريب، و «غَيْرَ بَعِيدٍ» على ما قيل صفة لظرف محذوف و التقدير فى مكان غير بعيد.

و المعنى: و قربت الجنة يومئذ للمتقين حال كونها فى مكان غير بعيد أى هى بين أيديهم لا تكلف لهم فى دخولها.

قوله تعالى: هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ الإشاره الى ما تقدم من

الثواب الموعود، والأواب من الأوب بمعنى الرجوع، والمراد كثره الرجوع الى الله بالتوبه و الطاعه، و الحفيظ هو الذى يدوم على حفظ ما عهد الله اليه من أن يترك فيضيع، و قوله:

«لِكُلِّ أَوَابٍ حَفِيزٌ» خبر بعد خبر لهذا أو حال.

قوله تعالى: مَنْ حَيَّيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَ جَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ بَيَانٌ لِكُلِّ أَوَابٍ وَ الخشيه بالغيب الخوف من عذاب الله حال كونه غائبا غير مرئى له، و الإنابه هو الرجوع، و المجرى الى ربه بقلب منيب أن يتم عمره بالإنابه فيأتى ربه بقلب متلبس بالإنابه.

قوله تعالى: أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ خطاب للمتقين أى يقال لهم:

ادخلوا بسلام أى بسلامه و أمن من كل مكروه و سوء، أو بسلام من الله و ملائكته عليكم، و قوله: «ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ» بشرى يبشرون بها.

قوله تعالى: لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ يمكن أن يكون «فِيهَا» متعلقا بيشاءون أو بمحذوف هو حال من الموصول، و التقدير: حال كون ما يشاءون فيها أو من الضمير المحذوف الراجع الى الموصول، و التقدير: ما يشاءونه حال كونه فيها، و الأول أوفق لسعه كرامتهم عند الله سبحانه.

و المحصل: أن أهل الجنة و هم فى الجنة يملكون كل ما تعلقت به مشيتهم و إرادتهم كائنا ما كان من غير تقييد و استثناء فلهم كل ما أمكن أن يتعلق به الإراده و المشيئه لو تعلقت.

و قوله: وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ أى و لهم عندنا ما يزيد على ذلك-على ما يفيد السياق-و إذ كان لهم كل ما أمكن أن تتعلق به مشيتهم مما يتعلق به علمهم من المطالب و المقاصد فالمزيد على ذلك أمر أعظم مما تتعلق به مشيتهم لكونه فوق ما يتعلق به علمهم من الكمال.

و قيل: المراد بالمزيد الزيادة على ما يشاءون من جنس ما يشتهون فاذا شاءوا رزقا أعطوا منه أكثر مما شاءوا و أفضل و أعجب كما ورد عن بعضهم أنه تمرّ بهم السحابه فتقول: ما ذا تريدون فامطره عليكم فلا يريدون شيئا إلا أمطرته عليهم.

و فيه أنه تقييد لإطلاق الكلام من غير مقيد فإن ظاهر قوله: «لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا» أنهم يملكون كل ما يمكنهم أن يشاءوا ولا تملكهم ما شاءوه بالفعل فالمزيد وراء ما يمكن أن تتعلق به مشيتهم.

وقيل: المراد أنه يضاعف لهم الحسنه بعشر أمثالها و فيه ما فى سابقه.

قوله تعالى: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ التَّنْقِيبِ السَّيْرِ، المَحِيصِ المَحِيدِ و المنجاء.

و فى الآيه تذييل الاحتجاج بخلق الإنسان و العلم به و بيان سيره الى الله بالتخويف و الإنذار نظير ما جرى عليه الكلام فى صدر السوره من الاحتجاج على المعاد و تذييله بالتخويف و الإنذار فى قوله: «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَ ثَمُودُ» الخ.

و المعنى: و كثيرا ما أهلكتنا قبل هؤلاء المشركين من قرن هم أى أهل ذلك القرن أشد بطشا منهم أى من هؤلاء المشركين فساروا ببطشهم فى البلاد ففتحوها و تحكّموا عليها هل من محيد و منجى من إهلاك الله و عذابه؟

قوله تعالى: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ الْقَلْبُ مَا يَعْقِلُ بِهِ الْإِنْسَانُ فَيُمِيزُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ وَ الْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ وَ النَّافِعَ مِنَ الضَّارِّ، فإذا لم يعقل و لم يميز فوجوده بمنزله عدمه إذ ما لا أثر له فوجوده و عدمه سواء، و إلقاء السمع هو الاستماع كأن السمع شىء يلقى الى المسموع فينال و يدركه و الشهيد الحاضر المشاهد.

و المعنى: إن فيما أخبرنا به من الحقائق و أشرنا اليه من قصص الامم الهالكه لذكرى يتذكر بها من كان يتعقل فيدرك الحق و يختار ما فيه خيره و نفعه أو استمع الى حق القول و لم يشتغل عنه بغيره و الحال أنه شاهد حاضر يعى ما يسمعه.

و التريديد بين من كان له قلب و من استمع شهيدا لمكان أن المؤمن بالحق أحد رجلين إما

رجل ذو عقل يمكنه أن يتناول الحق فيتفكر فيه و يرى ما هو الحق فيذعن به، و إما رجل لا يقوى على التفكير حتى يميز الحق و الخير و النافع فعليه أن يستمع القول فيتبعه، و أما من لا قلب له يعقل به و لا يسمع شهيدا على ما يقال له و يلقي اليه من الرساله و الإنذار فجاهل متعنت لا قلب له و لا سمع، قال تعالى: وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (الملك ١٠/).

قوله تعالى: وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ اللَّغُوبِ التَّعَبِ وَالنَّصَبِ، و المعنى ظاهر (١).

[سوره ق (٥٠): الآيات ٣٩ الى ٤٥]

فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ (٤٢) إِذَا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِنَّا الْمُصِيرُونَ (٤٣) يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)

ص: ٤٨

١ - ١. ق. ٣٨-١٥: بحث روائي حول خلق العالم و آدم؛ اصحاب اليمين و اصحاب الشمال، اهل الجنة و اهل النار؛ الملائكة الموكلون للانسان؛ جهنم؛ نعم الجنة.

قوله تعالى: فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ تَفْرِيعَ عَلَىٰ جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِنْكَارِ الْمُشْرِكِينَ لِلْبَعثِ، و من تفصيل القول فى البعث و الحججه عليه، و من وعيد المنكرين له المكذبين للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و تهديدهم بمثل ما جرى على المكذبين من الامم الماضيه.

و قوله: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْخ؛ أمر بتنزيهه تعالى عما يقولون مصاحبا للحمد و محصله إثبات جميل الفعل له و نفي كل نقص و شين عنه تعالى، و التسبيح قبل طلوع الشمس يقبل الانطباق على صلاه الصبح، و التسبيح قبل الغروب يقبل الانطباق على صلاه العصر أو عليها و على صلاه الظهر.

قوله تعالى: وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبَارَ السُّجُودِ أَى و من الليل فسبحه فيه، و يقبل الانطباق على صلاتى المغرب و العشاء.

و قوله: «وَ أَدْبَارَ السُّجُودِ» الأدبار جمع دبر و هو ما ينتهى اليه الشىء و بعده، و كأن المراد بأدبار السجود بعد الصلوات فإن السجود آخر الركعه من الصلاه فينطبق على التعقيب بعد الصلوات، و قيل: المراد به النوافل بعد الفرائض، و قيل: المراد به الركعتان أو الركعات بعد المغرب و قيل: ركعه الوتر فى آخر الليل.

قوله تعالى: وَ اسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ فَسِرُّوا لِاسْتِمَاعِ بِمَعَانٍ مُخْتَلَفَةٍ وَ الْأَقْرَبُ أَنْ يَكُونَ مُضْمَنًا مَعْنَى الْإِنْتِظَارِ وَ «يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ» مفعوله و المعنى: و انتظر يوما ينادى فيه المنادى ملقيا سمعك لاستماع ندائه، و المراد بنداء المنادى نفخ صاحب الصور فى الصور على ما تفيداه الآيه التاليه.

و كون النداء من مكان قريب لإحاطته بهم فيقع فى سمعهم على نسبه سواء لا تختلف

بالقرب و البعد فإنما هو نداء البعث و كلمه الحياه.

قوله تعالى: يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ بيان ليوم ينادى المنادى، و كون الصيحه بالحق لأنها مقضيه قضاء محتوما كما مر فى قوله: «وَ جَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ» الآية.

و قوله: ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ أى يوم الخروج من القبور كما قال تعالى: يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَّاعًا (المعارج ٤٣).

قوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ إِلَيْنَا الْمَصِيرُ المراد بالإحياء إفاضه الحياه على الأجساد الميتة فى الدنيا، و بالإماتة الإماتة فى الدنيا و هى النقل الى عالم القبر، و بقوله: «وَ إِلَيْنَا الْمَصِيرُ» الإحياء بالبعث فى الآخرة على ما يفيدہ السياق.

قوله تعالى: يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَّاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ أصل «تَشَقَّقُ» تتشقق أى تتصدع عنهم فيخرجون منها مسارعين الى الداعى.

و قوله: ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ أى ما ذكرنا من خروجهم من القبور المنشقه عنهم سراعاً جمع لهم علينا يسير.

قوله تعالى: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَ عِيدِ فى مقام التعليل لقوله: «فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ» الآية، و الجبار المتسلط الذى يجبر الناس على ما يريد.

و المعنى: فاصبر على ما يقولون و سبِّح بحمد ربك و انتظر البعث فنحن أعلم بما يقولون سنجزئهم بما عملوا و لست أنت بمتسلط جبار عليهم حتى تجبرهم على ما تدعوهم اليه من الإيمان بالله و اليوم الآخر و إذا كانت حالهم هذه الحال فذكر بالقرآن من يخاف و عيذى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَ الذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا (۱) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (۲) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (۳) فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا (۴) إِنَّمَا
تُوْعَدُونَ لَصَادِقٍ (۵) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (۶) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوكِ (۷) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (۸) يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (۹) قَتَلَ
الْحَرَاصُونَ (۱۰) الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرِهِ سَاهُونَ (۱۱) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الدِّينِ (۱۲) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (۱۳) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا
الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (۱۴) إِنَّ الْمَتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (۱۵) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (۱۶)
كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (۱۷) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (۱۸) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (۱۹)

كانت الدعوه النبويه تدعو الوثنيه الى توحيد الربوبيه و أن الله تعالى هو ربهم و رب كل شىء،و كانت الدعوه من طريق الإنذار و التبشير و خاصه بالإنذار و كان الإنذار بعذاب الله فى الدنيا للمكذبين عذاب الاستئصال،و فى الآخره بالعذاب الخالد يوم القيامه و هو العمده فى نجاح الدعوه إذ لو لا الحساب و الجزاء يوم القيامه كان الإيمان بالوحدانيه و النبوه لغى لا أثر له.

و المشركون باتخاذهم آلهه دون الله سبحانه شديدو الإنكار لاصول التوحيد و النبوه و المعاد،و كانوا يتعنتون بإنكار المعاد و الإصرار على نفيه و الاستهزاء به من أى طريق ممكن لما يرون أن فى بطلانه بطلان الأصلين الآخرين.

و السوره تذكر المعاد و إنكارهم له فتبدأ به و تختتم عليه لكن لا من حيث نفسه كما جرى عليه الكلام فى مواضع من كلامه بل من حيث إنه يوم الجزاء و أن الله الذى وعدهم به هو ربهم

و هو الذى وعدهم به و وعده صدق لا ريب فيه.

و لذلك لما انساق الكلام الى الاحتجاج عليه احتجت بأدله التوحيد من آيات الأرض و السماء و الأنفس و ما عاقب الله به الامم الماضين إثر دعوتهم الى التوحيد و تكذيبهم لرسله، و ليس إلا ليثبت بها التوحيد فيثبت به يوم الجزاء الذى وعده الله و الله لا يخلف الميعاد و أخبرت به الدعوه النبويه فيندفع بذلك إنكارهم للجزاء و قد توسلوا بذلك الى إبطال دين التوحيد و رساله الرسول لصيروره الايمان به لغوا لا أثر له كما تقدمت الإشارة اليه.

و السوره مكيه لشهاده سياق آياتها عليه و لم يختلف فى ذلك أحد، و من غرر آياتها قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ .

و الفصل الذى أوردناه من الآيات مفتوح الكلام يذكر فيه أن الجزاء الذى وعده صدق و إنكارهم له و تعنتهم بذلك تخرص ثم يصف يوم الجزاء و حال المتقين و المنكرين فيه.

قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا الذَّارِيَاتِ جَمْعُ الذَّارِيَةِ مِنْ قَوْلِهِمْ: ذَرَّتِ الرِّيحُ التُّرَابَ تَذَرُوهُ ذُرُوءًا إِذَا أَطَارَتْهُ وَ الْوَقْرُ بِالْكَسْرِ فَالسُّكُونُ ثَقُلَ الْحَمْلُ فِي الظَّهْرِ أَوْ فِي الْبَطْنِ.

و فى الآيات إقسام بعد إقسام يفيد التأكيد بعد التأكيد للمقسم عليه و هو الجزاء على الأعمال فقوله: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا﴾ إقسام بالرياح المثيره للترب، و قوله: ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ بالفاء المفيدة للتأخير و الترتيب معطوف على الذاريات و إقسام بالسحب الحامله لثقل الماء، و قوله: ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ عطف عليه و إقسام بالسفن الجاريه فى البحار يسر و سهوله.

و قوله: ﴿فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا عَطْفٌ عَلَى مَا سَبَقَهُ وَ إِقْسَامٌ بِالْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِأَمْرِهِ فَيُقْسِمُونَهُ بِاخْتِلَافِ مَقَامَاتِهِمْ فَإِنْ أَمَرَ ذِي الْعَرْشِ بِالْخَلْقِ وَ التَّدْبِيرِ وَاحِدًا فَإِذَا حَمَلَهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَعْمَالِهِمْ انشعب الأمر و تقسم بتقسيمهم ثم إذا حملة طائفه هي

دون الطائفة الاولى تقسم ثانيا بتقسمهم و هكذا حتى ينتهى الى الملائكة المباشرين للحوادث الكونيه الجزئيه فينقسم بانقسامهم و يتكثر بتكثرها.

و الآيات الأربع- كما ترى- تشير الى عامه التدبير حيث ذكرت انموذجا مما يدبر به الأمر فى البر و هو الذاريات ذروا، و انموذجا مما يدبر به الأمر فى البحر و هو الجاريات يسرا و انموذجا مما يدبر به الأمر فى الجو و هو الحاملات وقرا، و تمم الجميع بالملائكة الذين هم وسائط التدبير و هم المقسمات أمرا.

فالآيات فى معنى أن يقال: أقسم بعامه الأسباب التى يتمم بها أمر التدبير فى العالم إن كذا كذا، و قد ورد من طرق الخاصه و العامه عن على عليه أفضل السلام تفسير الآيات الأربع بما تقدم.

و عن الفخر الرازى فى التفسير الكبير أن الأقرب حمل الآيات الأربع جميعا على الرياح فإنها كما تذر و التراب ذروا تحمل السحب الثقال و تجرى فى الجو بيسر و تقسم السحب على الأقطار من الأرض.

و الحق أن ما استقر به بعيد، و ما تقدم من المعنى أبلغ مما ذكره.

قوله تعالى: **إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ** «ما» موصوله، و الضمير العائد إليها محذوف أى الذين توعدونه، أو مصدرية، و «تُوعَدُونَ» من الوعد كما يؤيده قوله: **«وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ»** الشامل لمطلق الجزاء، و قيل: من الایعاد كما يؤيده قوله:

فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (ق ٤٥).

وعد الوعد صادقا من المجاز فى النسبه كما فى قوله: **فِي عَيْشِهِ رَاضِيَةٌ** (الحاقه ٢١) أو الصادق بمعنى ذو صدق كما قيل بمثله فى قوله: **فِي عَيْشِهِ رَاضِيَةٌ** و الدين الجزاء.

و كيف كان فقوله: **«إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ»** جواب القسم، و قوله: **«وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ»** معطوف عليه بمنزله التفسير، و المعنى أقسم بكذا و كذا أن الذى توعدونه- و هو الذى يعدهم

القرآن أو النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بما أنزل إليه-من يوم البعث و أن الله سيجزيهم فيه بأعمالهم إن خيرا فخيروا و إن شرا فشرالصادق،و إن الجزاء لواقع.

قوله تعالى: وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ الْحَبْكُ بمعنى الحسن و الزينه،و بمعنى الخلق المستوى،و يأتي جمعا لحبيكه أو حباك بمعنى الطريقه كالطرائق التي تظهر على الماء إذا تثنى و تكسر من مرور الرياح عليه.

و المعنى على الأول: أقسم بالسماء ذات الحسن و الزينه نظير قوله تعالى: إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزَيْنِهِ الْكُوكَبِ (الصافات ٦)،و على الثاني: أقسم بالسماء ذات الخلق المستوى نظير قوله: وَ السَّمَاءِ بَنِينَهَا بِأَيْدٍ (الآيه ٤٧ من السوره)و على الثالث أقسم بالسماء ذات الطرائق نظير قوله: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ (المؤمنون ١٧).

و لعل المعنى الثالث أظهر لمناسبته لجواب القسم الذى هو اختلاف الناس و تشتت طرائقهم كما أن الاقسام السابقه «وَ الدَّارِياتِ ذَرُوءًا» الخ؛ كانت مشتركه فى معنى الجرى و السير مناسبه لجوابها «إِنَّمَا تُوعَدُونَ» الخ؛ المتضمن لمعنى الرجوع الى الله و السير اليه.

قوله تعالى: إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أُوْفِكَ الْقَوْلِ الْمُخْتَلِفِ مَا يَتَنَاقَضُ و يدفع بعضه بعضا و حيث إن الكلام فى إثبات صدق القرآن أو الدعوه أو النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فيما وعدهم من أمر البعث و الجزاء فالمراد بالقول المختلف-على الأقرب-قولهم المختلف فى أمر القرآن لغرض إنكار ما يثبتته فتاره يقولون: إنه سحر و الجائى به ساحر،و تاره يقولون: زجر و الجائى به مجنون،و تاره يقولون: القاء شياطين الجن و الجائى به كاهن،و تاره يقولون: شعر و الجائى به شاعر،و تاره إنه افتراء،و تاره يقولون إنما يعلمه بشر،و تاره يقولون: أساطير الأولين اكتتبها.

و قوله: يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أُوْفِكَ الْإِفْكَ الصَّرف،و ضمير «عَنْهُ» الى الكتاب من حيث اشتماله على وعد البعث و الجزاء،و المعنى: يصرف عن القرآن من صرف،و قيل:

الضمير للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالمعنى: يصرف عن الإيمان به من صرف، وقد عرفت أن المعنى السابق أوفق للسياق و إن كان مآل المعنيين واحداً.

و حكى عن بعضهم أن ضمير «عَنْهُ» لما توعدون أو للدين أقسم تعالى أولاً بالذاريات و غيرها على أن البعث و الجزاء حق ثم أقسم بالسماء على أنهم فى قول مختلف فى وقوعه فمنهم شاك و منهم جاحد ثم قال تعالى: يُؤفك عن الإقرار بأمر البعث و الجزاء من هو مأفوك. و هذا الوجه قريب من الوجه السابق.

و عن بعضهم: أن الضمير لقوله مختلف و«عن» للتعليل كما فى قوله تعالى: وَ مَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ (هود ٥٣)، فىكون الجملة صفة لقول و المعنى: إنكم لفى قول مختلف يؤفك بسببه من أفك، و هو وجه حسن.

قوله تعالى: قَاتِلِ الْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرِهِمْ سَاهُونَ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ أَصْلُ الْخَرَّاصُونَ الْقَوْلُ بِالظَّنِّ وَ التَّخْمِينِ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ، و لكون القول بغير علم فى خطر من الكذب يسمى الكذاب خَرَّاصاً، و الأشبه أن يكون المراد بالخراصين فى الآيه القوالين من غير علم و دليل و هم الخائضون فى أمر البعث و الجزاء المنكرون له بغير علم.

و فى قوله: قَاتِلِ الْخَرَّاصِيُونَ دَعَاءٌ عَلَيْهِم بِالْقَتْلِ وَ هُوَ كُنَايَةٌ عَنْ نَوْعٍ مِنَ الطَّرْدِ وَ الْحَرْمَانِ مِنَ الْفَلَاحِ وَ إِلَيْهِ يَثُولُ قَوْلٌ مِنْ فِسْرِهِ بِاللَّعْنِ.

و قوله: الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرِهِمْ سَاهُونَ الغمره- كما ذكر الراغب- معظم الماء الساتر لمقرها، و جعل مثلاً للجهاله التى تغمر صاحبها، و المراد بالسهو- كما قيل- مطلق الغفله.

و معنى الآيه و هى تصف الخراصين: الذين هم فى جهاله أحاطت بهم غافلون عن حقيقه ما أخبروا به.

و قوله: يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ضمير الجمع للخراصين قول قالوه على طريق

الاستعجال استهزاء كقولهم: مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (يس ٤٨).

و السؤال بآيان-الموضوعه للسؤال عن زمان مدخولها-عن يوم الدين و هو ظاهر فى الزمان إنما هو بعنايه أن يوم الدين لكونه موعودا ملحق بالزمانيات فيسأل عنه كما يسأل عن الزمانيات بآيان و متى كما يقال: متى يوم العيد لكونه ذا شأن ملحقا لذلك بالزمانيات كذا قيل.

و يمكن أن يكون من التوسع فى معنى الظرفيه بأن يعدّ أوصاف الظرف الخاصه به ظرفا توسعا فيكون السؤال عن زمان الزمان سؤالا عن أنه بعد أى زمان أو قبل أى زمان؟ كما يقال: متى يوم العيد؟ فيجواب بأنه بعد عشره أيام مثلا أو قبل يوم كذا، و هو توسع جار فى العرف غير مختصّ بكلام العرب، و فى القرآن منه شىء كثير.

قوله تعالى: يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ضمير الجمع الخراصين، و الفتن فى الأصل إدخال الذهب النار ليظهر جودته ثم استعمل فى مطلق الإحراق و التعذيب، و الظرف متعلق بفعل محذوف أو مبتدأ، و الآيه جواب من سؤالهم عدل فيه عن بيان وقت يوم الدين الى بيان صفته و الإشاره الى حالهم فيه لما أن وقته من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله قال تعالى:

لَا يُجَلِّئُهَا لَوَفَّتْهَا إِلَّا هُوَ .

و تقدير الآيه و معناها: يقع يوم الدين أو هو واقع يوم هم أى الخراصون فى النار يعذبون أو يحرقون.

قوله تعالى: ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ حكاية خطاب منه تعالى أو من الملائكة بأمره للخراصين و هم يفتنون على النار يومئذ.

و المعنى: يقال لهم ذوقوا العذاب الذى يخصصكم. هذا العذاب هو الذى كنتم تستعجلون به إذ تقولون استعجالا و استهزاء: آيان يوم الدين.

قوله تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ بيان لحال المتقين يوم الدين بعد

وصف حال أولئك الخراصين.

و تنكير جنات و عيون للإشارة الى عظم قدرها كأنها بحيث لا يقدر الواصفون على وصفها، و قد ألحقت العيون بالجنات فى ظرفيتها توسعا.

قوله تعالى: **مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبِيلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ** أى قابلين ما أعطاهم ربهم الرءوف بهم راضين عنه و بما أعطاهم كما يفيدہ خصوص التعبير بالأخذ و الإيتاء و نسبة الإيتاء الى ربهم.

و قوله: **إِنَّهُمْ كَانُوا قَبِيلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ** تعليل لما تقدمه أى إن حالهم تلك الحال لأنهم كانوا قبل ذلك أى فى الدنيا ذوى إحسان فى أعمالهم أى ذوى أعمال حسنة.

قوله تعالى: **كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ** الآيات تفسیر لإحسانهم، و الهجوع النوم فى الليل و قيل: النوم القليل.

و يمكن أن تكون: ما زائده و «يَهْجَعُونَ» خبر كانوا، و «قَلِيلًا» ظرفا متعلقا به أى فى زمان قليل أو صفه لمفعول مطلق محذوف أى هجوعا قليلا و «مِنَ اللَّيْلِ» متعلقا بقليلًا و المعنى:

كانوا ينامون فى زمان قليل من الليل أو ينامون الليل نوما قليلا.

و أن تكون موصوله و الضمير العائد إليها محذوفًا و «قَلِيلًا» خبر كانوا و الموصول فاعله و المعنى: كانوا قليلا من الليل الذى يهجعون فيه.

و أن تكون مصدرية و المصدر المسبوك منها و من مدخولها فاعلا لقوله: «قَلِيلًا» و هو خبر «كَانُوا» .

و على أى حال فالقليل من الليل إما مأخوذ بالقياس الى مجموع زمان كل ليله فيفيد أنهم يهجعون كل ليله زمانا قليلا منها و يصلون أكثرها، و إما مأخوذ بالقياس الى مجموع الليالى فيفيد أنهم يهجعون فى قليل من الليالى و يقومون للصلاه فى أكثرها أى لا يفوتهم صلاه الليل إلا فى قليل من الليالى.

قوله تعالى: وَ بِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ أَي يسألون الله المغفرة لذنوبهم، وقيل:

المراد بالاستغفار الصلاة و هو كما ترى.

قوله تعالى: وَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ الْآيَاتَانِ السَّابِقَتَانِ تَبَيَّنَ خَاصَهُ سِيرَتُهُمْ فِي جَنْبِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ هِيَ قِيَامُ اللَّيْلِ وَ الْإِسْتِغْفَارُ بِالْأَسْحَارِ وَ هَذِهِ الْآيَةُ تَبَيَّنَ خَاصَهُ سِيرَتُهُمْ فِي جَنْبِ النَّاسِ وَ هِيَ إِتْيَاءُ السَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ.

وَ تَخْصِيصُ حَقِّ السَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ بِأَنَّهُ فِي أَمْوَالِهِمْ-مَعَ أَنَّهُ لَوْ ثَبِتَ فَإِنَّمَا يَثْبِتُ فِي كُلِّ مَالٍ- دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُمْ يَرُونَ بِصِفَاءِ فِطْرَتِهِمْ أَنَّ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقًّا لَهُمْ فَيَعْمَلُونَ بِمَا يَعْمَلُونَ نَشْرًا لِلرَّحْمَةِ وَ إِثَارًا لِلْحَسَنَةِ.

وَ السَّائِلُ هُوَ الَّذِي يَسْأَلُ الْعَطِيَّةَ بِإِظْهَارِ الْفَاقَةِ وَ الْمَحْرُومُ هُوَ الَّذِي حَرَّمَ الرِّزْقَ فَلَمْ يَنْجِحْ سَعِيَهُ فِي طَلْبِهِ وَ لَا يَسْأَلُ تَعْفُفًا.

[سورة الذاريات (٥١): الآيات ٢٠ الى ٥١]

وَ فِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَ مَا تُوَعَّدُونَ (٢٢) قَوَّ رَبِّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَلَّ فِيهِ الْبُرْهَانُ الْكُفْرِيُّ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَ بَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرِّهِ فَصَكَتْ وَ جَهَّهَا وَ قَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ طِينٍ (٣٣) مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَ تَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) وَ فِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَ قَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخْرَجْنَا هَارُونَ وَ هَارُونَ وَ جُنُودَهُ فَتَرَدُّنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَ فِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّمِيمِ (٤٢) وَ فِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذْنَا مِنْهُمُ الصَّاعِقَةَ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَبَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَ مَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥) وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦) وَ السَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِأَنْدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَ الْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَ لَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١)

قوله تعالى: وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ الاستنتاج الآتي في آخر هذه الآيات في قوله: «فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ - إلى أن قال - وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ» الآية، يشهد على أن سوق هذه الآيات و الدلائل لإثبات وحدانيته تعالى في الربوبية لا لإثبات أصل وجوده أو انتهاء الخلق إليه و نحو ذلك.

و في الآية إشارة الى ما تتضمنه الأرض من عجائب الآيات الداله على وحده التدبير القائمه بوحدانيه مدبره من بر و بحر و جبال و تلال و عيون و أنهار و معادن و منافعها المتصله بعضها ببعض الملائمه بعضها لبعض ينتفع بها ما عليها من النبات و الحيوان في نظام واحد مستمر من غير اتفاق و صدفة،لائح عليها آثار القدره و العلم و الحكمة دالّ على أن خلقها و تدبير أمرها ينتهى الى خالق مدبر قادر عليم حكيم.

فأى جانب قصد من جوانبها و آيه وجهه و ليت من جهات التدبير العالم الجارى فيها كانت آيه بيّنه و برهانا ساطعا على وحدانيه ربها لا شريك له ينجلي فيه الحق لأهل اليقين ففيها آيات للموقنين.

قوله تعالى: وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ معطوف على قوله: «فِي الْأَرْضِ» أى

و فى أنفكم آيات ظاهره لمن أبصر إليها و ركز النظر فيها أ فلا تبصرون.

و الآيات التى فى النفوس منها ما هى فى تركب الأبدان من أعضائها و أعضاء أعضائها حتى ينتهى الى البسائط و ما لها من عجائب الأفعال و الآثار المتحدده فى عين تكثرها المدبره جميعا لمدبر واحد، و ما يعرضها من مختلف الأحوال كالجنييه و الطفوليه و الرهاق و الشباب و الشيب.

و منها ما هى من حيث تعلق النفوس أعنى الأرواح بها كالحواس من البصر و السمع و الذوق و الشمّ و اللمس التى هى الطرق الأوليه لأطلاع النفوس على الخارج لتمييز بذلك الخير من الشر و النافع من الضار لتسعى الى ما فيه كما لها و تهرب مما لا يلائمها، و فى كل منها نظام و سيع جار فيه منفصل بذاته عن غيره كالبصر لا خبر عنده عما يعمله السمع بنظامه الجارى فيه و هكذا، و الجميع مع هذا الانفصال و التقطع مؤتلفه تعمل تحت تدبير مدبر واحد هو النفس المدبره و الله من ورائهم محيط.

و من هذا القبيل سائر القوى المنبعثه عن النفوس فى الأبدان كالقوه الغضبيه و القوه الشهويه و ما لها من اللواحق و الفروع فإنها على ما للواحد منها بالنسبه الى غيره من الينونه و انفصال النظام الجارى فيه عن غيره واقعه تحت تدبير مدبر واحد تتعاقد جميع شعبها و تأتلف لخدمته.

و نظام التدبير الذى لكل من هذه المدبرات إنما وجد له حينما وجد و أول ما ظهر من غير فصل فليس مما عملت فيه خيرته و أوجده هو لنفسه عن فكر و رويه أو بغيره فنظام تدبيره كمنفسه من صانع صنعه و ألزمه نظامه بتدبيره.

و منها الآيات الروحانيه الواقعه فى عالم النفوس الظاهره لمن رجع إليها و راقب الله سبحانه فيها من آيات الله التى لا يسعها وصف الواصفين و يفتح بها باب اليقين و تدرج المتطلع عليها فى زمرة الموقنين فيرى ملكوت السماوات و الأرض كما قال تعالى: **وَ كَذَلِكَ نُرى إِبراهيمَ**

مَلَكَاتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (الأنعام ٧٥).

قوله تعالى: وَ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَ مَا تُوعَدُونَ قيل: المراد بالسمااء جهه العلو فإن كل ما علاك و أظلك فهو سماء لغه، و المراد بالرزق المطر الذى ينزله الله على الأرض فيخرج به أنواع ما يقتاتونه و يلبسونه و ينتفعون به و قد قال تعالى: وَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (البقره ٥)، فسمى المطر رزقا فالمراد بالرزق سببه أو بتقدير مضاف أى سبب رزقكم.

و يمكن أن يكون المراد به عالم الغيب فإن الأشياء و منها الأرزاق تنزل من عند الله سبحانه و قد صرح بذلك فى أشياء كقوله تعالى: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ثُمَّ سَقَّ بِهِ الْأَشْيَاءَ الرُّزْقَ (الزمر ٦)، و قوله: وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ (الحديد ٢٥)، و قوله على نحو العموم: وَ إِنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خِزْيَانَةٌ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر ٢١)، و المراد بالرزق كل ما ينتفع به الإنسان فى بقائه من مأكلا و مشربا و ملبسا و مسكنا و منكحا و ولدا و علم و قوه و غير ذلك.

و قوله: وَ مَا تُوعَدُونَ عطف على «رِزْقُكُمْ» الظاهر أن المراد به الجنة لقوله:

تعالى: عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (النجم ١٥)، و قوله بعضهم: إن المراد به الجنة و النار أو الثواب و العقاب لا- يلائمه قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ (الأعراف ٤٠).

نعم تكرر فى القرآن نسبة نزول العذاب الدنيوى الى السماء كقوله: فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ (البقره ٥٩)، و غير ذلك.

قوله تعالى: فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ النطق التكلم و ضمير «إِنَّهُ» راجع الى ما ذكر من كون الرزق و ما توعدون فى السماء و الحق هو الثابت المحتوم فى القضاء الإلهى دون أن يكون أمرا تبعا أو اتفاقيا.

و المعنى: أقسم برب السماء و الأرض إن ما ذكرناه من كون رزقكم و ما توعدونه من الجنة - و هو أيضا من الرزق فقد تكرر في القرآن تسميه الجنة رزقا كقوله: لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (الأنفال ٧٤)، و غير ذلك - في السماء لثابت مقضى مثل نطقكم و تكلمكم الذى هو حق لا ترتابون فيه (١).

قوله تعالى: هَيْلٌ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إشاره الى قصه دخول الملائكه المكرمين على إبراهيم عليه السلام و تبشيرهم له و لزوجه ثم إهلاكهم قوم لوط، و فيها آيه على وحدانيه الربوبيه كما تقدمت الإشاره اليه.

و فى قوله: هَيْلٌ أَتَاكَ حَدِيثُ تَفْخِيمٍ لِأَمْرِ الْقَصَةِ وَ «الْمُكْرَمِينَ» - و هم الملائكه الداخلون على إبراهيم - صفه «ضَيْفٍ» و إفراده لكونه فى الأصل مصدرا لا يثنى و لا يجمع.

قوله تعالى: إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا قَوْمٌ مُنْكَرُونَ الظرف متعلق بقوله فى الآيه السابقه: «حَدِيثٌ» و «سَلَامًا» مقول القول و العامل فيه محذوف أى قالوا: نسلّم عليك سلاما.

و قوله: قَالَ سَلَامًا قَوْلٌ وَ مَقُولٌ وَ «سَلَامًا» مبتدأ محذوف الخبر و التقدير سلام عليكم، و فى إتيانه بالجواب جمله اسميه داله على الثبوت تحيه منه عليه السلام بما هو أحسن من تحيتهم بقولهم: سلاما فإنه جمله فعليه داله على الحدوث.

و قوله: قَوْمٌ مُنْكَرُونَ الظاهر أنه حكاية قول إبراهيم فى نفسه، و معناه أنه لما رآهم استنكرهم و حدّث نفسه أن هؤلاء قوم منكرون، و لا - ينافى ذلك ما وقع فى قوله تعالى: فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ يُدْرِيهِمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ (هود ٧٠) حيث ذكر نكره بعد تقريب العجل الحنيذ اليهم فإن ما فى هذه السوره حديث نفسه به و ما فى سوره هود ظهوره فى وجهه بحيث يشاهد

ص: ٦٤

منه ذلك.

و هذا المعنى أوجه من قول جمع من المفسرين: إنه حكاية قوله عليه السلام لهم و التقدير أنتم قوم منكرون.

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَأَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ الرِّوَاغَ الذَّهَابَ عَلَى سَبِيلِ الْاِحْتِيَالِ عَلَى مَا قَالَه الرَّاغِبُ وَ قَالَ غَيْرُه: هُوَ الذَّهَابُ إِلَى الشَّيْءِ فِي خَفِيهِ، وَ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ يَرْجِعُ إِلَى الثَّانِي.

و المراد بالعجل السمين المشوى منه بدليل قوله: «فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ» أو الفاء فصيحه و التقدير فجاء بعجل سمين فذبحه و شواه و قرّبه اليهم.

قوله تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ عَرْضَ الْأَكْلِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ وَ هُوَ يَحْسِبُهُمْ بَشَرًا.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ الخ؛ الفاء فصيحه و التقدير فلم يمدوا اليه أيديهم فلما رأى ذلك نكرهم و أوجس منهم خيفه، و الايجاس الإحساس فى الضمير و الخيفه بناء نوع من الخوف أى أضمر منهم فى نفسه نوعا من الخوف.

و قوله: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ جِئَ بِالْفَصْلِ لَا بِالْعَطْفِ لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى جَوَابِ سُؤَالِ مُقَدَّرٍ كَأَنَّهُ قِيلَ: فَمَاذَا كَانَ بَعْدَ ائِجَاسِ الْخِيفَةِ فَقِيلَ: قَالُوا: لَا تَخَفْ وَ بَشَّرُوهُ بِغَلَامٍ عَلِيمٍ فَبَدَّلُوا خَوْفَهُ أَمْنَهُ وَ سُرُورًا وَ الْمُرَادُ بِغَلَامٍ عَلِيمٍ إِسْمَاعِيلُ أَوْ إِسْحَاقُ وَ قَدْ تَقَدَّمَ الْخِلَافُ فِيهِ.

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَيْرِهِ فَصَيَّرَتْ وَ جَهَّاهَا وَ قَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ فِي الْمَجْمَعِ الصَّرُّ شِدَّةُ الصِّيَاحِ وَ هُوَ مِنْ صَرِيرِ الْبَابِ وَ يُقَالُ لِلْجَمَاعَةِ صَرٌّ أَيْضًا. قَالَ:

و الصك الضرب باعتماد شديد انتهين.

و المعنى فأقبلت امرأه إبراهيم عليه السلام- لما سمعت البشارة- فى ضجه و صياح فلطمت وجهها و قالت: أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟ أو المعنى هل عجوز عقيم تلد غلاما؟.

ص: ٦٥

قوله تعالى: قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ الإِشَارَةُ بِكَذَلِكَ إِلَى مَا بَشَرُوا بِهَا بِمَا لَهَا وَ لزوجها من حاضر الوضع هي عجوز عقيم و بعلمها شيخ مسه الكبر فربها حكيم لا يريد إلا بحكمه، عليم لا يخفى عليه وجه الأمر.

قوله تعالى: قَالَتْ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ - إلى قوله - لِلْمُشْرِكِينَ الْأَمْرَ الْخَطِيرَ الْهَامَ، وَ الْحِجَارَةَ مِنَ الطِّينِ الطِّينِ الْمُتَحَجِّرِ، وَ التَّسْوِيمَ تَعْلِيمَ الشَّيْءِ بِمَعْنَى جَعَلَهُ ذَا عِلْمِهِ مِنَ السُّومِ بِمَعْنَى الْعِلْمِ.

و المعنى: «قَالَ» إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ «فَمَا خَطْبُكُمْ» وَ الشَّأْنَ الْخَطِيرَ الَّذِي لَكُمْ «أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ» مِنَ الْمَلَائِكَةِ «قَالُوا» أَي الْمَلَائِكَةُ لِإِبْرَاهِيمَ «إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ» وَ هُمْ قَوْمُ لُوطٍ «لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ» طِينًا مُتَحَجِّرًا سَمَاهُ اللَّهُ سَجِيلًا «مُسْوَمَةً» مَعْلَمَةً «عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُشْرِكِينَ» تَخْتَصُّ بِهِمْ لِإِهْلَاكِهِمْ، وَ الظَّاهِرُ أَنَّ اللَّامَ فِي الْمُسْرِفِينَ لِلْعَهْدِ.

قوله تعالى: فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - إلى قوله - أَلْعَذَابَ الْأَلِيمَ الْفَاءُ فَصِيحَةٌ وَ قَدْ أُوجِزَ بِحَذْفِ مَا فِي الْقِصَّةِ مِنْ ذَهَابِ الْمَلَائِكَةِ إِلَى لُوطٍ وَ وَرُودِهِمْ عَلَيْهِ وَ هُمُ الْقَوْمُ بِهِمْ حَتَّى إِذَا أُخْرِجُوا آلُ لُوطٍ مِنَ الْقَرْيَةِ، وَ قَدْ فَصَلَتِ الْقِصَّةُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كَلَامِهِ تَعَالَى.

فقوله: فَأَخْرَجْنَا الخ؛ بَيَانُ إِهْلَاكِهِمْ بِمَقْدَمَتِهِ، وَ ضَمِيرُ «فِيهَا» لِلْقَرْيَةِ الْمَفْهُومَةِ مِنَ السِّيَاقِ، وَ «بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» بَيْتُ لُوطٍ، وَ قَوْلُهُ: «وَ تَرَكْنَا فِيهَا آيَةً» إِشَارَةٌ إِلَى إِهْلَاكِهِمْ وَ جَعَلَ أَرْضَهُمْ عَالِيهَا سَافِلَهَا، وَ الْمُرَادُ بِالْتَّرِكِ الْإِبْقَاءَ كُنَايَةً وَ قَدْ بَيَّنَّتْ هَذِهِ الْخُصُوصِيَّاتُ فِي سَائِرِ كَلَامِهِ تَعَالَى.

و المعنى: فَلَمَّا ذَهَبُوا إِلَى لُوطٍ وَ كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا كَانَ «فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا» فِي الْقَرْيَةِ «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» فَمَا وَحَدَّثْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ وَاحِدٍ «مِنَ الْمُسْلِمِينَ» وَ هُمُ آلُ لُوطٍ «وَ تَرَكْنَا فِيهَا» فِي أَرْضِهِمْ بِقَلْبِهَا وَ إِهْلَاكِهِمْ «آيَةً» دَالَةً عَلَى رَبُوبِيَّتِنَا وَ بَطْلَانِ الشَّرْكَاءِ «لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ»

الْأَلِيمَ» من الناس.

قوله تعالى: وَ فِي مُوسَى إِذِ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ عطف على قوله: «وَ تَرَكْنَا فِيهَا آيَةً» و التقدير و فى موسى آيه، و المراد بسُلطان مبین الحجج الباهره التى كانت معه من الآيات المعجزه.

قوله تعالى: فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَ قَالَ لِسَاحِرٍ أَوْ مَجْنُونٍ التولى الإعراض و الباء فى قوله: «بِرُكْنِهِ» للمصاحبه، و المراد بركنه جنوده كما تؤيده الآيه التاليه، و المعنى: أعرض مع جنوده، و قيل: الباء للتعديه، و المعنى: جعل ركنه متولين معرضين.

و قوله: «وَ قَالَ لِسَاحِرٍ أَوْ مَجْنُونٍ» أى قال تاره هو مجنون كقوله: إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (الشعراء ٢٧)، و قال اخرى: هو ساحر كقوله: إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (الشعراء ٣٤).

قوله تعالى: فَأَخَذْنَاهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَ هُوَ مُلِيمٌ النبذ طرح الشىء من غير أن يعتد به، و اليم البحر، و المليم الآتى بما يلام عليه من ألام بمعنى أتى بما يلام عليه كأغرب إذا أتى بأمر غريب.

و المعنى: فأخذناه و جنوده و هم ركنه و طرحناهم فى البحر و الحال أنه أتى من الكفر و الجحود و الطغيان بما يلام عليه، و إنما خص فرعون بالملامه مع أن الجميع يشاركونه فيها لأنه إمامهم الذى قادهم الى الهلاك، قال تعالى: يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ (هود / ٩٨).

و فى الكلام من الإيماء الى عظمه القدره و هول الأخذ و هوان أمر فرعون و جنوده ما لا يخفى.

قوله تعالى: وَ فِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ عطف على ما تقدمه أى و فى عاد أيضا آيه إذ أرسلنا عليهم أى أطلقنا عليهم الريح العقيم.

و الريح العقيم هي الريح التي عقت و امتنعت من أن يأتي بفائده مطلوبه من فوائده الرياح كتنشئه سحب أو تلقيح شجر أو تذييه طعام أو نفع حيوان أو تصفيه هواء كما قيل و إنما أثرها الإهلاك كما تشير اليه الآيه التاليه.

قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّمِيمِ﴾ (ما تَذَرُ) أى ما تترك، و الرميم الشئ الهالك البالى كالعظم البالى السحيق، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَ فِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ -الى قوله- مُنْتَصِرِينَ عطف على ما تقدمه أى و فى ثمود أيضا آيه إذ قيل لهم: تمتعوا حتى حين، و القائل نبيهم صالح عليه السلام إذ قال لهم: تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكُمْ وَعَيدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ (هود ٦٥) قال لهم ذلك لما عقروا الناقه فأمهلهم ثلاثه أيام ليرجعوا فيها عن كفرهم و عتوهم لكن لم ينفعهم ذلك و حق عليهم كلمه العذاب.

و قوله: فَعَيَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَآخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ العتو-على ما ذكره الراغب- النبؤ عن الطاعه فينطبق على التمرد، و المراد بهذا العتو العتو عن الأمر و الرجوع الى الله أيام المهله فلا يستشكل بأن عتوهم عن أمر الله كان مقدا على تمتعهم- كما يظهر من تفصيل القصة- و الآيه تدل على العكس.

و قوله: فَآخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ هذا لا- ينافى ما فى موضع آخر من ذكر الصيحه بدل الصاعقه كقوله: وَ آخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ (هود ٦٧) لجواز تحققهما معا فى عذابهم.

و قوله: فَمَا اسْتِطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَ مَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ لا يبعد أن يكون «اسْتِطَاعُوا» مضمنا معنى تمكنوا، و «مِنْ قِيَامٍ» مفعوله أى ما تمكنوا من قيام من مجلسهم ليفروا من عذاب الله و هو كناية عن أنهم لم يمهلوا حتى بمقدار أن يقوموا من مجلسهم.

و قوله: وَ مَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ عطف على «فَمَا اسْتِطَاعُوا» أى ما كانوا منتصرين

بنصره غيرهم ليدفعوا بها العذاب عن أنفسهم، و محصل الجملتين أنهم لم يقدرُوا على دفع العذاب عن أنفسهم لا بأنفسهم ولا بناصر ينصرهم.

قوله تعالى: وَ قَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ عطف على القصص السابقه، و «قَوْمَ نُوحٍ» منصوب بفعل محذوف و التقدير و أهلكتنا قوم نوح من قبل عاد و ثمود إنهم كانوا فاسقين عن أمر الله.

فهناك أمر و نهى كلف الناس بهما من قبل الله سبحانه و هو ربهما و رب كل شيء دعاهم الى الدين الحق بلسان رسله فما جاء به الأنبياء عليهم السلام حق من عند الله و مما جاءوا به الوعد بالبعث و الجزاء.

قوله تعالى: وَ السَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ رجوع الى السياق السابق فى قوله: «وَ فِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ» الخ؛ و الأيدى القدره و النعمه، و على كل من المعنيين يتعين لقوله: «وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ» ما يناسبه من المعنى.

فالمعنى على الأول: و السماء بنيناها بقدره لا يوصف قدرها و إنا لذو واسعته فى القدره لا يعجزها شيء، و على الثانى: و السماء بنيناها مقارنا بناؤها لنعمه لا تقدر بقدر و إنا لذو واسعته و غنى لا تنفذ خزائنا بالإعطاء و الرزق نرزق من السماء من نشاء فنوسع الرزق كيف نشاء.

و من المحتمل أن يكون «لَمُوسِعُونَ» من أوسع فى النفقه أى كثرها فيكون المراد توسعه خلق السماء كما تميل اليه الأبحاث الرياضيه اليوم.

قوله تعالى: وَ الْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ الفرش البسط و كذا المهد أى و الأرض بسطناها و سطحنها لتستقروا عليها و تسكنوها فنعم الباسطون نحن، و هذا الفرش و البسط لا ينافى كرويه الأرض.

قوله تعالى: وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ الزوجان المتقابلان. يتم أحدهما بالآخر: فاعل و منفعل كالذكر و الانثى، و قيل: المراد مطلق المتقابلات

كالذكر والانثى والسماء والأرض والليل والنهار والبر والبحر والإنس والجن وقيل: الذكر والانثى.

وقوله: لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أى تتذكرون أن خالقها منزه عن الزوج والشريك واحد موحد.

وقوله: فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ فى الآيتين تفریع على ما تقدم من الحجج على وحدانيته فى الربوبية والالوهية، وفيها قصص عدة من الامم الماضين كفروا بالله ورسله فانتهى بهم ذلك الى عذاب الاستئصال.

فالمراد بالفرار الى الله الانقطاع اليه من الكفر والعقاب الذى يستتبعه، بالإيمان به تعالى وحده واتخاذها معبودا لا شريك له.

وقوله: وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ كالتفسير لقوله: «فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ» أى المراد بالإيمان به الإيمان به وحده لا شريك له فى الالوهية والمعبودية.

وقد كرر قوله: «إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ» لتأكيد الإنذار، والآيتان محكيتان عن لسان النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

[سورة الذاريات (٥١): الآيات ٥٢ الى ٦٠]

كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَمْ تَوَّصَّوْا بِهِ بَيْنَهُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ (٥٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)

قوله تعالى: كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَى الأمر كذلك، فقوله: «كَذَلِكَ» كالتلخيص لما تقدم من إنكارهم و اختلافهم فى القول.

و قوله: مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ الخ؛ بيان للمشبه.

قوله تعالى: أَلَمْ نَوَاصِرْ بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ التواصى إيضاء القوم بعضهم بعضا بأمر، و ضمير «بِهِ» للقول، و الاستفهام للتعجيب، و المعنى: هل وصّى بعض هذه الامم بعضا-هل السابق وصّى اللاحق؟-على هذا القول؟ لا بل هم قوم طاغون يدعوهم الى هذا القول طغيانهم.

قوله تعالى: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ تَفْرِيعَ عَلَى طَغْيَانِهِمْ و استكبارهم و إصرارهم على العناد و اللجاج، فالمعنى: فإذا كان كذلك و لم يجيبوك إلا بمثل قولهم ساحر أو مجنون و لم يزدكم دعوتك إلا عنادا فأعرض عنهم و لا تجادلهم على الحق فما أنت بملوم فقد أريت المحججه و أتمت الحججه.

قوله تعالى: وَ ذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ تَفْرِيعٌ عَلَى الْأَمْرِ بِالتَّوَلَّى عَنْهُمْ فَهُوَ أَمْرٌ بِالتَّذْكِيرِ بَعْدَ النِّهْيِ عَنِ الْجِدَالِ مَعَهُمْ، وَ الْمَعْنَى: وَ اسْتَمَرَّ عَلَى التَّذْكِيرِ وَ الْعِظَةِ فَذَكَرَ كَمَا كُنْتَ تَذَكَّرُ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ بِخِلَافِ الْاِحْتِجَاجِ وَ الْجِدَالِ مَعَ اَوْلِيَاكَ الطَّاعِينَ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئًا وَ لَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا وَ كُفْرًا.

قوله تعالى: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ فِيهِ التَّفَاتُ مِنْ سِيَاقِ التَّكْلِمْ بِالْغَيْرِ إِلَى التَّكْلِمْ وَحَدَهُ لِأَنَّ الْأَفْعَالَ الْمَذْكُورَةَ سَابِقًا الْمَنْسُوبَةَ إِلَيْهِ تَعَالَى كَالْخَلْقِ وَ إِرْسَالِ الرِّسَالِ وَ إِنْزَالِ الْعَذَابِ كُلِّ ذَلِكَ مِمَّا يَقْبَلُ تَوْسِيطَ الْوَسَائِطِ كَالْمَلَائِكَةِ وَ سَائِرِ الْأَسْبَابِ بِخِلَافِ الْغَرَضِ مِنَ الْخَلْقِ وَ الْإِبْرَاجِ فَإِنَّهُ أَمْرٌ يَخْتَصُّ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ لَا يَشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ.

و قوله: إِلَّا لِيَعْبُدُونِ اسْتِثْنَاءٌ مِنَ النِّفْيِ لَا- رَيْبٌ فِي ظُهُورِهِ فِي أَنَّ لِلْخَلْقِ غَرَضًا وَ أَنَّ الْغَرَضَ الْعِبَادَةَ بِمَعْنَى كَوْنِهِمْ عَابِدِينَ لِلَّهِ لَا كَوْنَهُ مَعْبُودًا فَقَدْ قَالَ: لِيَعْبُدُونَ وَ لَمْ يَقُلْ: لَا عِبْدَ أَوْ لِأَكُونَ مَعْبُودًا لَهُمْ.

عَلَى أَنَّ الْغَرَضَ كَيْفَمَا كَانَ أَمْرٌ يَسْتَكْمِلُ بِهِ صَاحِبَ الْغَرَضِ وَ يَرْتَفِعُ بِهِ حَاجَتُهُ وَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا- نَقْصَ فِيهِ وَ لَا- حَاجَةَ لَهُ حَتَّى يَسْتَكْمِلَ بِهِ وَ يَرْتَفِعُ بِهِ حَاجَتُهُ، وَ مِنْ جِهَةِ الْاِخْرَى الْفِعْلُ الَّذِي لَا يَنْتَهِي إِلَى غَرَضٍ لِفَاعِلِهِ لَعُو سَفْهَى وَ يَسْتَنْتِجُ مِنْهُ أَنَّ لَهُ سُبْحَانَهُ فِي فِعْلِهِ غَرَضًا هُوَ ذَاتَهُ لَا- غَرَضَ خَارِجَ مِنْهُ، وَ أَنَّ لِفِعْلِهِ غَرَضًا يَعُودُ إِلَى نَفْسِ الْفِعْلِ (١) وَ هُوَ كِمَالٌ لِلْفِعْلِ لَا لِفَاعِلِهِ، فَالْعِبَادَةُ غَرَضٌ لَخَلْقِهِ الْإِنْسَانَ وَ كِمَالٌ عَائِدٌ إِلَيْهِ هِيَ وَ مَا يَتَّبِعُهَا مِنَ الْآثَارِ كَالرَّحْمَةِ وَ الْمَغْفِرَةِ وَ غَيْرِ ذَلِكَ، وَ لَوْ كَانَ لِلْعِبَادَةِ غَرَضٌ كَالْمَعْرِفَةِ الْحَاصِلَةِ بِهَا وَ الْخُلُوصِ لِلَّهِ كَانَ هُوَ الْغَرَضُ الْأَقْصَى وَ الْعِبَادَةُ غَرَضًا مَتَوَسِّطًا.

ص: ٧٢

١- ١). فَاللَّهُ تَعَالَى خَلَقَ الْإِنْسَانَ لِيَشْبِهَهُ وَ الثَّوَابَ عَائِدًا إِلَى الْإِنْسَانِ وَ هُوَ الْمُنْتَفِعُ بِهِ وَ اللَّهُ غَنِيٌّ عَنْهُ، وَ أَمَّا غَرَضُهُ تَعَالَى فَهُوَ ذَاتَهُ الْمَتَعَالِيَّةُ وَ إِنَّمَا خَلَقَهُ لِأَنَّهُ اللَّهُ عَزَّ اسْمُهُ مِنْهُ.

فالحق أن اللام فى «الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ» للجنس دون الاستغراق، و المراد بالعباده ذلك غرضا نفسها دون الصلوح و الاستعداد، و لو كان المراد هو الصلوح و الاستعداد للعباده لكان أدنى ذلك غرضا أدنى مطلوباً لأجل غرض أعلى هو العباده كما أن نفس العباده بمعنى ما يأتى به العبد من الأعمال بالجوارح من قيام و ركوع و سجود و نحوها غرض مطلوب لأجل غرض آخر هو المثول بين يدى رب العالمين بذله العبوديه و فقر المملوكيه المحضه قبال العزه المطلقه و الغنى المحض كما ربما استفيد من قوله تعالى: قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ (الفرقان ٧٧)، حيث بدل العباده دعاء.

فحقيقه العباده نصب العبد نفسه فى مقام الذله و العبوديه و توجيه وجهه الى مقام ربه، و هذا هو مراد من فسّر العباده بالمعرفه يعنى المعرفه الحاصله بالعباده.

فحقيقه العباده هى الغرض الأقصى من الخلقه و هى أن ينقطع العبد عن نفسه و عن كل شىء و يذكر ربه.

هذا ما يعطيه التدبر فى قوله تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» و لعل تقديم الجن على الإنس لسبق خلقهم على خلق الإنس قال تعالى: وَ الْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (الحجر ٢٧)، و العباده هى غرض الفعل أى كمال عائد اليه لا الى الفاعل على ما تقدم.

و يظهر من القصر فى الآيه بالنفى و الاستثناء أن لا-عنايه لله بمن لا-يعبده كما يفيدته أيضا قوله: «قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ». .

قوله تعالى: مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا إِلَّا أَنْ يُطْعَمُوا إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَيُؤْتِيهِمْ مِنْ رِزْقِهِ حَيْثُ يَشَاءُ وَ يَسْقِيهِمْ (الشعراء ٧٩)، و قال:

الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ (قريش ٤)، فيكون ذكر الإطعام بعد الرزق من قبيل ذكر الخاص بعد العام لتعلق عنايه خاصه به و هى أن التغذى أوسع حوائج الإنسان و غيره

و أخسها لكونه مسبقا بالجوع و ملحوقا بالدفع.

و قيل: المراد بالرزق رزق العباد و المعنى: ما أريد منهم أن يرزقوا عبادى الذين أرزقهم و ما أريد أن يعموني نفسى.

و قيل: المراد بالإطعام تقديم الطعام اليه كما يقدم العبد الطعام الى سيده و الخادم الى مخدومه فيكون المراد بالرزق تحصيل أصل الرزق و بالإطعام تقديم ما حصلوه و المعنى: ما أريد منهم رزقا يحصلونه لى فأرتزق به و ما أريد منهم أن يقدموا إلى ما أرتزق و أطعمه.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ تعليل لقوله: «مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ» الخ؛ و الالتفات فى الآية من التكلم وحده الى الغيبة لإنهاء التعليل الى اسم الجلاله الذى منه يتددى كل شىء و اليه يرجع كأنه قال: ما أريد منهم رزقا لأنى أنا الرزاق لأنى أنا الله تبارك اسمه.

و التعبير بالرزاق -اسم مبالغه- و كان الظاهر أن يقال: إن الله هو الرزاق للإشاره الى أنه تعالى إذا كان رازقا وحده كان رازقا لكثره من يرزقه فالآيه نظير قوله: «وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ» .

و ذو القوه من أسمائه تعالى بمعنى القوى لكنه أبلغ من القوى، و المتين أيضا من أسمائه تعالى بمعنى القوى.

و التعبير بالأسماء الثلاثه للدلاله على انحصار الرزق فيه تعالى و أنه لا- يأخذه ضعف فى إيصال الرزق الى المرتزقين على كثرتهم.

قوله تعالى: فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ الذنوب النصيب، و الاستعجال طلب العجله و الحث عليها، و الآيه متفرعه على قوله: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» بلازم معناه.

و المعنى: فإذا كان هؤلاء الظالمون لا يعبدون الله و لا عنايه له بهم و لا سعادته من قبله

تشملهم فإن لهم نصيباً من العذاب مثل نصيب أصحابهم من الأمم الماضية الهالكه فلا يطلبوا منى أن أعجل لهم العذاب ولا يقولوا متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، وأيان يوم الدين.

وفي الآيه التفات من الغيبه الى التكلم وحده و هو فى الحقيقه رجوع من سياق الغيبه الذى فى قوله: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ» الخ؛ الى التكلم وحده الذى فى قوله: «وَمَا خَلَقْتُ» الخ؛ لتفرع الكلام عليه.

قوله تعالى: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ تفریع على قوله:

«فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا» الخ؛ و تنبيه على أن هذا الذنوب محقق لهم يوم القيامة و إن أمكن أن يجعل لهم بعضه، و هو يوم ليس لهم فيه إلا الويل و الهلاك و هو يومهم الموعود.

و فى تبديل قوله فى الآيه السابقه للذين ظلموا من قوله فى هذه الآيه: «لِلَّذِينَ كَفَرُوا» تنبيه على أن المراد بالظلم ظلم الكفر (1).

ص: ٧٥

١- (١). الذاريات ٥٢-٦٠: بحث روائى فى العباده و ما يترتب عليها.

سوره الطور مكيه وهى تسع و أربعون آيه

اشاره

[سوره الطور (٥٢): الآيات ١ الى ١٠]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(١) وَ الطُّورِ (٢) وَ كِتَابٍ مَسْطُورٍ (٣) وَ الرُّسُلِ (٤) وَ السَّجْدِ
(٥) وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَ تَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠)

ص: ٧٦

غرض السوره إنذار أهل التكذيب و العناد من الكفار بالعذاب الذى أعدّ لهم يوم القيامة فتبدأ بالإنباء عن وقوع العذاب الذى أنذروا به و تحققه يوم القيامة بأقسام مؤكده و أيمان مغلظه، و أنه غير تاركهم يومئذ حتى يقع بهم و لا مناص.

ثم تذكر نبذه من صفه هذا العذاب و الويل الذى يعمهم و لا يفارقهم ثم تقابل ذلك بشمه من نعيم أهل النعيم يومئذ و هم المتقون الذين كانوا فى الدنيا مشفقين فى أهلهم يدعون الله مؤمنين به موحدين له.

ثم تأخذ فى توبيخ المكذبين على ما كانوا يرمون النبى صلى الله عليه و آله و سلم و ما أنزل عليه من القرآن و ما أتى به من الدين الحق.

و تختم الكلام بتكرار التهديد و الوعيد و أمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم بتسبيح ربه. و السوره مكيه كما يشهد بذلك سياق آياتها.

قوله تعالى: وَ الطُّورِ قِيلَ: الطُّورِ مطلق الجبل و قد غلب استعماله فى الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام، و الأنسب أن يكون المراد فى الآيه جبل موسى عليه السلام أقسم الله تعالى به لما قدسه و بارك فيه كما أقسم به فى قوله: وَ طُورِ سَيْنِينَ (التين ٢/١٢)، و قال: وَ نَادَيْتَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ (مريم ٥٢/١٥٢)، و قال فى خطابه لموسى عليه السلام: فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (طه ١٢/١٢)، و قال: نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ (القصص ٣٠/٣٠).

و قيل: المراد مطلق الجبل أقسم الله تعالى به لما أودع فيه من أنواع نعمه قال تعالى:

وَ جَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيًّ مِنْ فَوْقِهَا وَ بَارَكَ فِيهَا (حم السجده ١٠/١٠).

قوله تعالى: وَ كِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ قيل: الرق مطلق ما يكتب فيه و قيل: هو

الورق، وقيل: الورق المأخوذ من الجلد، والنشر هو البسط، والتفريق.

و المراد بهذا الكتاب قيل: هو اللوح المحفوظ الذى كتب الله فيه ما كان و ما يكون و ما هو كائن تقرأه ملائكة السماء، و قيل: المراد به صحائف الأعمال تقرأه حفظة الأعمال من الملائكة، و قيل: هو القرآن كتبه الله فى اللوح المحفوظ، و قيل: هو التوراه و كانت تكتب فى الرق و تنشر للقراءه.

و الأنسب بالنظر الى الآيه السابقه هو القول الأخير.

قوله تعالى: **وَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ** قيل: المراد به الكعبه المشرفه فإنها أول بيت وضع للناس و لم يزل معمورا منذ وضع الى يومنا هذا قال تعالى: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِنَاكَ مُبَارَكًا وَ هُدًى لِّلْعَالَمِينَ** (آل عمران ٩٦).

و فى الروايات المأثوره أن البيت المعمور بيت فى السماء بحذاء الكعبه تزوره الملائكه.

و تنكير «**كِتَابٍ**» للإيماء الى استغنائه عن التعريف فهو تنكير يفيد التعريف و يستلزمه.

قوله تعالى: **وَ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ** هو السماء.

قوله تعالى: **وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ** قال الراغب: السجر تهيج النار، و فى المجمع:

المسجور المملوء يقال: سجرت التنور أى ملأتها نارا، و قد فسرت الآيه بكل من المعنين و يؤيد المعنى الأول قوله: **وَ إِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ** (التكوير ١٦)، أى سعرت و قد ورد فى الحديث أن البحار تسعّر نارا يوم القيامة، و قيل: المراد أنها تغيض مياهها بتسجير النار فيها.

قوله تعالى: **إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ** جواب القسم السابق و المراد بالعذاب المخبر بوقوعه عذاب يوم القيامة الذى أوعد الله به الكفار المكذبين كما تشير اليه الآيه التاليه، و فى قوله: «**مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ**» دلالة على أنه من القضاء المحتوم الذى لا محيص عن وقوعه قال تعالى: **وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ** (الحج ٧).

و في قوله: عَذَابُ رَبِّكَ بنسبه العذاب الى الرب المضاف الى ضمير الخطاب دون أن يقال: عذاب الله تأييد للنبي صلى الله عليه وآله وسلم على مكذبي دعوته و تطيب لنفسه أن ربه لا- يخزيه يومئذ كما قال: يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (التحریم ۸).

قوله تعالى: يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا وَ تَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ظرف لقوله: «إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ» .

و المور-على ما فى المجمع-تردد الشىء بالذهاب و المعجىء كما يتردد الدخان ثم يضمحل، و يقرب منه قول الراغب: إنه الجريان السريع.

و على أى حال فيه إشاره الى انطواء العالم السماوى كما يذكره تعالى فى مواضع من كلامه كقوله: إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ وَ إِذَا الْكُوْكُبُ انْتَثَرَتْ (الانفطار ۲)، و قوله: يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِلِّ لِّلْكَتُبِ (الأنبياء ۱۰۴)، و قوله: وَ السَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ (الزمر ۶۷).

كما أن قوله: وَ تَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا إشاره الى زلزه الساعه فى الأرض التى يذكرها تعالى فى مواضع من كلامه كقوله: إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا وَ بُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُتَّبَثًا (الواقعه ۶)، و قوله: وَ سِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (النبا ۲۰).

[سوره الطور (۵۲): الآيات ۱۱ الى ۲۸]

فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۱۱) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (۱۲) يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً (۱۳) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (۱۴) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (۱۵) اضْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۶) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَعِيمٍ (۱۷) فَآكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَ وَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (۱۸) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۹) مُتَّكِنِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَ زَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (۲۰) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ مَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (۲۱) وَ أَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (۲۲) يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَ لَا تَأْتِيهِمْ (۲۳) وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وُعُودًا لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْلُوهُ مَكْنُونٌ (۲۴) وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (۲۵) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (۲۶) فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَ وَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (۲۷) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (۲۸)

بيان:

قوله تعالى: فَوَيْلٌ لِلْمُكذِّبِينَ تفریع علی ما دلت علیہ الآیات السابقه من

ص: ٨٠

تحقق وقوع العذاب يوم القيامة أى إذا كان الأمر كما ذكر و لم يكن محيىص عن وقوع العذاب فويل لمن يقع عليه و هم المكذبون لا محاله فالجملة تدل على كون المعذبين هم المكذبين بالاستلزام و على تعلق الويل بهم بالمطابقه.

أو التقدير إذا كان العذاب واقعا لا محاله و لا محاله لا يقع إلا على المكذبين لأنهم الكافرون بالله المكذبون ليوم القيامة فويل يومئذ لهم، فالدال على تعلق العذاب بالمكذبين هو قوله:

«عَذَابَ رَبِّكَ» لأن عذاب الله إنما يقع على من دعاه فلم يجبه و كذب دعوته.

قوله تعالى: الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ الخوض هو الدخول فى باطل القول قال الراغب: الخوض هو الشروع فى الماء و المرور فيه، و يستعار فى الامور و أكثر ما ورد فى القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه انتهى، و تنوين التنكير فى «خَوْضٍ» يدل على صفه محذوفه أى فى خوض عجيب.

و لما كان الاشتغال بباطل القول لا يفيد نتيجة حقه إلا نتيجة خياليه يزينها الوهم للخائض سماه لعبا و اللعب من الأفعال ما ليس له إلا الأثر الخيالى -.

و المعنى: الذين هم مستمرون فى خوض عجيب يلعبون بالمجادله فى آيات الله و إنكارها و الاستهزاء بها.

قوله تعالى: يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا الدَّعِىِّ هُوَ الدَّفْعُ الشَّدِيدُ، و الظاهر أن «يَوْمَ» بيان لقوله: «يَوْمَئِذٍ» .

قوله تعالى: هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ أى يقال لهم: هذه النار التى كنتم بها تكذبون، و المراد بالتكذيب بالنار التكذيب بما أخبر به الأنبياء عليهم السّلام بوحي من الله من وجود هذه النار و أنه سيعذب بها المجرمون و محصل المعنى: هذه مصداق ما أخبر به الأنبياء فكذبتم به.

قوله تعالى: أَفَسِحَّرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ تفرّيع على قوله: «هَذِهِ النَّارُ الَّتِي

كُنتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ» و الاستفهام للإنكار تفرّيعاً لهم أى إذا كانت هذه هى تلك النار التى كنتم تكذبون بها فليس هذا سحراً كما كنتم ترمون إخبار الأنبياء بها أنه سحر و ليس هذا أمراً موهوماً خرافياً كما كنتم تتفوهون به بل أمر مبصر معاين لكم فالآيه فى معنى قوله تعالى:

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ (الأحقاف ٣٤).

و بما مر من المعنى يظهر أن «أَمْ» فى قوله: «أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ» متصله و قيل: منقطعه و لا يخلو من بعد.

قوله تعالى: إِضِلُّوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، الصلى بالفتح فالسكون مقاساه حراره النار فمعنى اصلوها قاسوا حراره نار جهنم.

و قوله: فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا تفرّيع على الأمر بالمقاساه، والترديد بين الأمر و النهى كناية عن مساواه الفعل و الترك و لذا أتبعه بقوله: «سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ» أى هذه المقاساه لازمه لكم لا تفارقكم سواء صبرتم أو لم تصبروا فلا الصبر يرفع عنكم العذاب أو يخففه و لا الجزع و ترك الصبر ينفع لكم شيئاً.

و قوله: سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ خبر مبتدأ محذوف أى هما سواء و أفراد «سَوَاءٌ» لكونه مصدرًا فى الأصل.

و قوله: إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ فى مقام التعليل لما ذكر من ملازمه العذاب و مساواه الصبر و الجزع.

و المعنى: إنما يلازمكم هذا الجزاء السيئ و لا يفارقكم لأنكم تجزون بأعمالكم التى كنتم تعملونها و لا تسلب نسبه العمل عن عامله فالعذاب يلازمكم أو إنما تجزون بتبعات ما كنتم تعملون و جزائه.

قوله تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ الْجَنَّةِ الْبَسْتَانِ تَجْنِبُهُ الْأَشْجَارُ

و تستره، و النعيم النعمه الكثيره أى إن المتصفين بتقوى الله يومئذ فى جنات يسكنون فيها و نعمه كثيره تحيط بهم.

قوله تعالى: فَأَكْهَيْنَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَ وَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ الفاكهه مطلق الثمره، و قيل: هى الثمره غير العنب و الرمان، و يقال: تفكّه و فكه إذا تعاطى الفكاهه، و تفكّه و فكه إذا تناول الفاكهه، و قد فسّرت الآيه بكل من المعنيين فقيل: المعنى:

يتحدثون بما آتاهم ربهم من النعيم، و قيل: المعنى: يتناولون الفواكه و الثمار التى آتاهم ربهم، و قيل: المعنى: يتلذذون بإحسان ربهم و مرجعه الى المعنى الأول، و قيل: معناه فاكهين معجبين بما آتاهم ربهم، و لعل مرجعه الى المعنى الثانى.

و تكرار «رَبُّهُمْ» فى قوله: «وَ وَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ» لإفاده مزيد العنايه بهم.

قوله تعالى: كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى يقال لهم: كلوا و اشربوا أكلا و شربا هنيئا أو طعاما و شرابا هنيئا، فهنيئا وصف قائم مقام مفعول مطلق أو مفعول به.

و قوله: بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ متعلق بقوله: «كُلُوا وَ اشْرَبُوا» أو بقوله: «هَنِيئًا» .

قوله تعالى: مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصِيفُوفَةٍ وَ زَوَاجِدًا لَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ الاتكاء الاعتماد على الوساده و نحوها، و السرر جمع سرير، و مصفوفه من الصف أى مصطفه موصوله بعضها ببعض، و المتكئين على الوسائد و النمارق قاعدين على سرر مصطفه.

و قوله: وَ زَوَاجِدًا لَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ المراد بالتزويج القرن أى قرنائهم بهنّ دون النكاح بالعقد، و الدليل عليه تعدّيه بالباء فإن التزويج بمعنى النكاح بالعقد متعدّد بنفسها، قال تعالى: زَوَّجْنَا كُهَا (الأحزاب ٣٧)، كذا قيل.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ مَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ الخ؛ قيل: الفرق بين الاتباع و اللحق مع اعتبار التقدم

و التأخر فيهما جميعا أنه يعتبر في الاتباع اشتراك بين التابع و المتبوع في مورد الاتباع بخلاف اللحق فاللاحق لا- يشارك الملحق في ما لحق به فيه.

ولات و آلات بمعنى نقص فمعنى ما ألتناهم ما نقصناهم شيئا من عملهم بالإلحاق.

و ظاهر الآيه أنها في مقام الامتنان فهو سبحانه يمتنّ على الذين آمنوا أنه سيلحق بهم ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان فتقرّ بذلك أعينهم، وهذا هو القرينه على أن التنوين في «بِإِيمَانٍ» للتكثير دون التعظيم.

و المعنى: اتبعوهم بنوع من الإيمان و إن قصر عن درجه إيمان آبائهم إذ لا- امتنان لو كان إيمانهم أكمل من إيمان آبائهم أو مساويا له.

و إطلاق الاتباع في الإيمان منصرف الى اتباع من يصح منه في نفسه الإيمان ببلوغه حدا يكلف به فالمراد بالذرية الأولاد الكبار المكلفون بالإيمان فالآيه لا تشمل الأولاد الصغار الذين ماتوا قبل البلوغ، و لا ينافى ذلك كون صغار أولاد المؤمنين محكومين بالإيمان شرعا.

اللهم إلّا- أن يستفاد العموم من تكثير الإيمان و يكون المعنى: و اتبعتم ذريتهم بإيمان ما سواء كان إيماننا في نفسه أو إيماننا بحسب حكم الشرع.

و كذا الامتنان قرينه على أن الضمير في قوله: «وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ» للذين آمنوا كالضميرين في قوله: «وَأَتَّبَعْتُهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» إذ قوله: «وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ» مسوق حينئذ لدفع توهم ورود النقص في الثواب على تقرير الإلحاق و هو ينافى الامتنان و من المعلوم أن الذى ينافى الامتنان هو النقص في ثواب الآباء الملحق بهم دون الذرية.

فتحصّل أن قوله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا» الخ؛ استئناف يمتنّ تعالى فيه على الذين آمنوا بأنه سيلحق بهم أولادهم الذين اتبعوهم بنوع من الإيمان و إن كان قاصرا على درجه إيمانهم لتقرّ به أعينهم، و لا ينقص مع ذلك من ثواب عمل الآباء بالإلحاق شيء بل يؤتيهم مثل ما آتاهم أو بنحو لا تراحم فيه على ما هو أعلم به.

و فى معنى الآيه أقوال آخر لا- تخلو من سخافه كقول بعضهم إن قوله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا» معطوف على «بِحُورٍ عِينٍ» و المعنى: و زوجاتهم بحور عين و بالذين آمنوا يتمتعون من الحور العين بالنكاح و بالذين آمنوا بالرفاقه و الصحبه، و قول بعضهم: إن المراد بالذريه صغار الأولاد فقط، و قول بعضهم: إن الضميرين فى «وَمَا أَكْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ» للذريه و المعنى: و ما نقصنا الذريه من عملهم شيئاً بسبب إلحاقهم بأبائهم بل نوفيهم أعمالهم من خير أو شر ثم نلحقهم بأبائهم.

و قوله: كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ تعليل لقوله: «وَمَا أَكْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ» على ما يفيداه السياق، و الرهن و الرهين و المرهون ما يوضع وثيقه للدين على ما ذكره الراغب قال: و لما كان الرهن يتصوّر منه حبسه استعير ذلك لحبس أى شىء كان. انتهى.

و لعل هذا المعنى الاستعارى هو المراد فى الآيه و المرء رهن مقبوض و محفوظ عند الله سبحانه بما كسبه من خير أو شر حتى يوفيه جزاء ما عمله من ثواب أو عقاب فلو نقص شيئاً من عمله و لم يوفه ذلك لم يكن رهين ما كسب بل رهين بعض ما عمل و امتلك بعضه الآخر غيره كذريته الملتحقين به.

و أما قوله تعالى: كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِيْنِ (المدثر ٣٩)، فالمراد كونها رهينه العذاب يوم القيامة كما يشهد به سياق ما بعده من قوله: فِي جَنّٰتٍ يَنْسَآءُونَ عَنِ الْمُجْرِمِيْنَ (المدثر ٤١).

قوله تعالى: وَ أَمْرٌ ذُنُوبُهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ بيان لبعض تتماتهم و تمتعاتهم فى الجنه المذكوره إجمالاً فى قوله السابق: «كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئًا» الخ.

و الإمداد الإتيان بالشىء وقتاً بعد وقت و يستعمل فى الخير كما أن المد يستعمل فى الشر قال تعالى: وَ نُؤْتِيهِم مِّنَ الْعَذَابِ مَدًّا (مريم ٧٩).

و المعنى: انا نرزقهم بالفاكهه و ما يشتهونه من اللحم رزقا بعد رزق و وقتاً بعد وقت من

غير انقطاع.

قوله تعالى: يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْتِيُمُ التَّنَازَعِ فِي الكَأْسِ تَعَاطِيهَا وَاجْتِمَاعِ عَلَى تَنَاوُلِهَا، وَالكَأْسِ القَدْحِ وَ لَا يَطْلُقُ الكَأْسُ إِلَّا فِيمَا كَانَ فِيهَا الشَّرَابُ.

و المراد باللغو لغو القول الذى يصدر من شاربي الخمر فى الدنيا، و التأثيم جعل الشخص ذا إثم و هو أيضا من آثار الخمر فى الدنيا، و نفى اللغو و التأثيم هو القرينه على أن المراد بالكأس التى يتنازعون فيها كأس الخمر.

قوله تعالى: وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ المراد به طوافهم عليهم للخدمه قال بعضهم: قيل «غِلْمَانٌ لَهُمْ» بالتنكير و لم يقل: غلمانهم لثلاثتهم أن المراد بهم غلمانهم الذين كانوا يخدمونهم فى الدنيا فهم كالحور من مخلوقات الجنة كأنهم لؤلؤ مكنون مخزون فى الحسن و الصباحه و الصفا.

قوله تعالى: وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ أَى يَسْأَلُ كُلُّ مِنْهُمْ غَيْرَهُ عَنْ حَالِهِ فِي الدُّنْيَا وَ مَا الَّذِى سَاقَهُ إِلَى الْجَنَّةِ وَ النِّعَمِ؟

قوله تعالى: قَالُوا إِذَا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ قال الراغب: و الإشفاق عناية مختلطة بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه و يخاف ما يلحقه قال تعالى: «وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ» فإذا عدى بمن فمعنى الخوف فيه أظهر، و إذا عدى بنى فمعنى العنايه فيه أظهر قال تعالى: «إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ»، انتهى.

فالمعنى: إنا كنا فى الدنيا ذوى إشفاق فى أهلنا نعتنى بسعادتهم و نجاتهم من مهلكه الضلال فنعاشرهم بجميل المعاشره و نسير فيهم ببث النصيحه و الدعوه الى الحق.

قوله تعالى: فَمَنْ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ وَ قَدْ آذَى السُّمُومِ الْمَنِّ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الرَّائِبُ الْإِنْعَامَ بِالنِّعْمَةِ الثَّقِيلَةَ وَ يَكُونُ بِالْفِعْلِ وَ هُوَ حَسَنٌ، وَ بِالْقَوْلِ وَ هُوَ قَبِيحٌ مِنْ غَيْرِهِ تَعَالَى، قَالَ تَعَالَى: يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللّٰهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ

ص: ٨٦

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (الحجرات ١٧).

وَمَنْ تَعَالَى عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ إِسْعَادَهُ إِيَاهُمْ لِدُخُولِهَا بِالرَّحْمَةِ وَتَمَامَهُ بِوَقَايَتِهِمْ عَذَابَ السَّمُومِ وَالسَّمُومِ - عَلَى مَا ذَكَرَهُ الطَّبْرَسِيُّ - الْحَرُّ الَّذِي يَدْخُلُ فِي مَسَامِّ الْبَدَنِ يَتَأَلَّمُ بِهِ وَ مِنْهُ رِيحُ السَّمُومِ.

قوله تعالى: إِنْ كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ تعليل لقوله: «فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا» الخ؛ كما أن قوله: «إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ» تعليل له.

و تفيد هذه الآية مع الآتين قبلها أن هؤلاء كانوا في الدنيا يدعون الله بتوحيده للعبادة و التسليم لأمره و كانوا مشفقين في أهلهم يقربونهم من الحق و يجنبونهم الباطل فكان ذلك سببا لمن الله عليهم بالجنة و وقايتهم من عذاب السموم، وإنما كان ذلك سببا لذلك لأنه تعالى بر رحيم فيحسن لمن دعاه و يرحمه.

فآيات الثلاث في معنى قوله: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (العصر ٣).

و البر من أسماء الله تعالى الحسن، و هو من البر بمعنى الإحسان، و فسره بعضهم باللطيف (١).

[سوره الطور (٥٢): الآيات ٢٩ الى ٤٤]

فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَ لَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَبِّبِ الْمُؤْمِنِينَ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهِذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُصَيِّرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَيْمٌ يَسْتَمْعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَ لَكُمْ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) وَ إِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (٤٤)

ص: ٨٧

بيان:

قوله تعالى: فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ تفرّيع على ما مرّ من الأخبار المؤكّد بوقوع العذاب الإلهي يوم القيامة، و أنه سيغشى المكذّبين و المتقون في وقايه منه متلذذون بنعيم الجنة.

فالآيه في معنى أن يقال: إذا كان هذا حقاً فذكر فإنما تذكر و تنذر بالحق و ليست كما يرمونك كاهناً أو مجنوناً.

و تقييد النفي بقوله: «بِنِعْمَةِ رَبِّكَ» يفيد معنى الامتنان على النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم خاصه و ليس هذا الامتنان الخاص من جهه مجرد انتفاء الكهانه و الجنون فأكثر الناس على هذه الصفة بل من

ص: ٨٨

وجبهه تلبسه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالنَّعْمَةِ الْخَاصَّةِ بِهِ الْمَانِعِ مِنْ عَرُوضِ هَذِهِ الصِّفَاتِ عَلَيْهِ مِنْ كِهَانِهِ أَوْ جُنُونٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ أَمْ مَنْقُطَعَةٌ، وَالتَّرَبُّصُ الْإِنْتِظَارُ، وَفِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ: التَّرَبُّصُ الْإِنْتِظَارُ بِالشَّيْءِ مِنْ انْقِلَابِ حَالٍ لَهُ إِلَى خِلَافِهَا وَ الْمُنُونِ الْمَنِيَّةُ وَ الْمَوْتِ، وَ الرَّيْبُ الْقَلْقُ وَ الْاضْطْرَابُ. فَرَيْبُ الْمُنُونِ قَلْقُ الْمَوْتِ.

وَ مَحْصَلُ الْمَعْنَى: بَلْ يَقُولُونَ هُوَ أَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شَاعِرٌ نَنْتَظِرُ بِهِ الْمَوْتَ حَتَّى يَمُوتَ وَ يَخْمَدَ ذَكَرَهُ وَ يَنْسَى رَسْمَهُ فَتَسْتَرِيحُ مِنْهُ.

قوله تعالى: قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ أَمْرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِالتَّرَبُّصِ كَمَا رَضُوا لِأَنْفُسِهِمْ ذَلِكَ، وَ هُوَ أَمْرٌ تَهْدِيدِيٌّ أَنْ تَرَبَّصُوا كَمَا تَرُونَ لِأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ فَإِنْ هُنَاكَ أَمْرٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يَنْتَظِرَ وَقُوعَهُ، وَ أَنَا أَنْتَظِرُهُ مِثْلَكُمْ لَكِنَّهُ عَلَيْكُمْ لَا لَكُمْ وَ هُوَ هَلَاكُكُمْ وَ وَقُوعُ الْعَذَابِ عَلَيْكُمْ.

قوله تعالى: أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا الْأَحْلَامِ جَمْعُ حَلْمٍ وَ هُوَ الْعَقْلُ، وَ أَمْ مَنْقُطَعَةٌ وَ الْكَلَامُ بِتَقْدِيرِ الْاسْتِفْهَامِ وَ الْإِشَارَةِ بِهَذَا إِلَى مَا يَقُولُونَهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ يَتَرَبَّصُونَ بِهِ.

وَ الْمَعْنَى: بَلْ أَتَأْمُرُهُمْ عَقُولَهُمْ أَنْ يَقُولُوا هَذَا الَّذِي يَقُولُونَهُ وَ يَتَرَبَّصُوا بِهِ الْمَوْتَ؟ فَأَى عَقْلٍ يَدْفَعُ الْحَقَّ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَبَاطِيلِ؟

قوله تعالى: أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ أَى أَنْ عَقُولَهُمْ لَمْ تَأْمُرَهُمْ بِهَذَا بَلْ هُمْ طَاغُونَ حَمَلَهُمْ عَلَى هَذَا طُغْيَانِهِمْ.

قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ تَقَوْلَهُ يَلِيلًا لَا يُؤْمِنُونَ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: التَّقُولُ تَكْلُفُ الْقَوْلِ وَ لَا- يُقَالُ ذَلِكَ إِلَّا فِي الْكُذْبِ، وَ الْمَعْنَى بَلْ يَقُولُونَ: افْتَعَلَ الْقُرْآنُ وَ نَسَبَهُ إِلَى اللَّهِ كُذْبًا وَ افْتِرَاءً. لَا بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ فَيَرْمُونَهُ بِهَذِهِ الْفَرِيهَةِ.

قوله تعالى: فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ جَوَابٌ عَنْ قَوْلِهِمْ:

«تَقَوْلُهُ» بأنه لو كان كلاما للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان كلاما بشريا مماثلا لسائر الكلام و يماثله سائر الكلام فكان يمكنهم أن يأتوا بحديث مثله فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين فى دعواهم التقول بل هو كلام إلهى لائحه عليه دلائل الإعجاز يعجز البشر عن إتيان مثله، وقد تقدم الكلام فى وجوه إعجاز القرآن فى تفسير سورة البقره الآيه ٢٣ تفصيلا.

ويمكن أن تؤخذ الآيه ردا لجميع ما تقدم من قولهم المحكى أنه كاهن أو مجنون أو شاعر أو متقول لأن عجز البشر عن الإتيان بمثله يأبى إلا أن يكون كلام الله سبحانه لكن الأظهر ما تقدم.

قوله تعالى: أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ إتيان «شَيْءٍ» منكرًا بتقدير صفه تناسب المقام و التقدير من غير شىء خلق منه غيرهم من البشر.

و المعنى: بل أخلق هؤلاء المكذبون من غير شىء خلق منه غيرهم من البشر فصلاح لإرسال الرسول و الدعوه الى الحق و التلبس بعبوديته تعالى فهؤلاء لا يتعلق بهم تكليف و لا يتوجه اليهم أمر و لا نهى و لا تستتبع أعمالهم ثوابا و لا عقابا لكونهم مخلوقين من غير ما خلق منه غيرهم.

و قوله: أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أى لأنفسهم فليسوا مخلوقين لله سبحانه حتى يربهم و يدبر أمرهم بالأمر و النهى.

قوله تعالى: أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ أى أم أخلقوا العالم حتى يكونوا أربابا آلهه و يجلوا من أن يستعبدوا و يكلفوا بتكليف العبوديه بل هم قوم لا يوقنون.

قوله تعالى: أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُضَيِّطُونَ أى بل أ عندهم خزائن ربك حتى يرزقوا النبوه من شاءوا و يمسكوها عن شاءوا فيمنعوك النبوه و الرساله.

و قوله: أَمْ هُمُ الْمُضَيِّطُونَ السيطره-و ربما يقلب سينها صادا-الغلبه و القهر

و المعنى: بل أهم الغالبون القاهرون على الله سبحانه حتى يسلبوا عنك ما رزقك الله من النبوه و الرساله.

قوله تعالى: أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ السلم المرقاه ذات الدرج التى يتوسل بالصعود فيه الى الأمكنه العاليه، و الاستماع مضمن معنى الصعود، و السلطان الحججه و البرهان.

و المعنى: بل أ عندهم سلم يصعدون فيه الى السماء فيستمعون بالصعود فيه الوحي فيأخذون ما يوحى اليهم و يردّون غيره؟ فليأت مستمعهم أى المدعى للاستماع منهم بحججه ظاهره.

قوله تعالى: أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَ لَكُمْ الْبُنُونَ قِيلَ: فيه تسفيه لعقولهم حيث نسبوا اليه تعالى ما أنفوا منه.

قوله تعالى: أَمْ تَشْتَكُلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ قَالَ الراغب: الغرم -بالضم فالسكون- ما ينوب الإنسان فى ماله من ضرر لغير جنايه منه أو خيانته انتهى و الإثقال تحميل الثقل و هو كناية عن المشقه.

و المعنى: بل أ تسألهم أجرا على تبليغ رسالتك فهم يتخرجون عن تحمل الغرم الذى ينوبهم بتأديه الأجر؟

قوله تعالى: أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ذكر بعضهم أن المراد بالغيب اللوح المحفوظ المكتوب فيه الغيوب و المعنى: بل أ عندهم اللوح المحفوظ يكتبون منه و يخبرون به الناس فما أخبروا به عنك من الغيب الذى لا ريب فيه.

و قيل: المراد بالغيب علم الغيب، و بالكتابه الإثبات و المعنى: بل أ عندهم علم الغيب فهم يثبتون ما علموه شرعا للناس عليهم أن يطيعوهم فيما أثبتوا، و قيل: يكتبون بمعنى يحكمون.

قوله تعالى: أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ الكيد ضرب من الاحتيال على ما ذكره الراغب، و في المجمع: الكيد هو المكر، و قيل: هو فعل ما يوجب الغيظ في خفيه. انتهى.

ظاهر السياق أن المراد بكيدهم هو مكرهم بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بما رموه به من الكهانه و الجنون و الشعر و التقول ليعرض عنه الناس و يتعدوا عنه فتبطل بذلك دعوته و ينطفئ نوره، و هذا كيد منهم و مكر بأنفسهم حيث يحرمون لها السعاده الخالده و الركوب على صراط الحق بذلك بل كيد من الله بقطع التوفيق عنهم و الطبع على قلوبهم.

و قلى: المراد بالكيد الذى يريدونه هو ما كان منهم فى حقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فى دار الندوه و المراد بالذين كفروا المذكورون من المكذبين و هم أصحاب دار الندوه، و قد قلب الله كيدهم الى أنفسهم فقتلهم يوم بدر، و الكلام على هذا من الإخبار بالغيب لنزول السوره قبل ذلك بكثير، و هو بعيد من السياق.

قوله تعالى: أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ فَإِنِمْ إِذَا كَانَ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ كَانَ هُوَ الْخَالِقُ لَهُمْ وَ الْمَدِيرُ لَأَمْرِهِمْ فَاسْتَغْنَوْا بِذَلِكَ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ اسْتَجَابَهُ دَعْوَهُ رَسُولَهُ وَ نَصَرَهُمْ إِلَهُهُمْ وَ دَفَعَ عَنْهُمْ عَذَابَ اللَّهِ الَّذِى أَوْعَدَ بِهِ الْمَكْذِبِينَ وَ أَنْذَرَهُمْ بِهِ رَسُولَهُ.

و قوله: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ» تنزيه له تعالى أن يكون له شريك كما يدعون، و ما فى قوله: «عَمَّا يُشْرِكُونَ» مصدرية أى سبحانه عن شركهم.

قوله تعالى: وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ الكسف بالكسر فالسكون القطعه، و الماركوم المتراكم الواقع بعضه على بعض.

و المعنى: أن كفرهم و إصرارهم على تكذيب الدعوه الحقه بلغ الى حيث لو رأوا قطعه من السماء ساقطا عليهم لقالوا سحاب متراكم ليست من آيه العذاب فى شىء فهو كقوله:

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا (الحجر / ١٥).

[سوره الطور (٥٢): الآيات ٤٥ الى ٤٩]

فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَإِصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)

بيان:

قوله تعالى: فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ «فَذَرَهُمْ» أمر بمعنى اتركهم و هو فعل لم يستعمل من تصريفاته إلا المستقبل و الأمر، و «يُصْعَقُونَ» من الإصعاق بمعنى الإماته و قيل: من الصعق بمعنى الإماته.

لما أنذر سبحانه المكذبين لدعوته بعذاب واقع لا ريب فيه ثم رد جميع ما تعلق به أو يفرض أن يتعلل به أولئك المكذبون، و ذكر أنهم في الإصرار على الباطل بحيث لو عاينوا أوضح آية للحق أولوه و ردوه، أمر نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن يتركهم و شأنهم، و هو تهديد كئيب بشمول العذاب لهم و حالهم هذه الحال.

و المراد باليوم الذي فيه يصعقون يوم نفخ الصور الذي يصعق فيه من في السماوات

و الأرض و هو من أشراط الساعة قال تعالى: وَ نَفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ (الزمر ٦٨).

و يؤيد هذا المعنى قوله فى الآيه التاليه: «يَوْمَ لَا يُعْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَ لَا هُمْ يُنصِرُونَ» فإن انتفاء إغناء الكيد و النصر من خواص يوم القيامة الذى يسقط فيه عامه الأسباب و الأمر يومئذ لله.

قوله تعالى: وَ إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ لا يبعد أن يكون المراد به عذاب القبر، و قوله: «وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» مشعر بأن فيهم من يعلم ذلك لكنه يصرّ على كفره و تكذيبه عنادا و قيل: المراد به يوم بدر لكن ذيل الآيه لا يلائمه تلك الملاءمه.

قوله تعالى: وَ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا عطف على قوله: «فَعَذَرَهُمْ» و ظاهر السياق أن المراد بالحكم حكمه تعالى فى المكذبين بالإمهال و الإملاء و الطبع على قلوبهم، و فى النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يدعو الى الحق بما فيه من الأذى فى جنب الله فالمراد بقوله: «فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا» أنك بمرأى منا نراك بحيث لا يخفى علينا شىء من حالك و لا تغفل عنك ففى تعليل الصبر بهذه الجملة تأكيد للأمر بالصبر و تشديد للخطاب.

و قيل: المراد بقوله: «فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا» أنك فى حفظنا و حراستنا فالعين مجاز عن الحفظ، و لعل المعنى المتقدم أنسب للسياق.

قوله تعالى: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَ مِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ إِذْ بَارَ النُّجُومِ البات فى «بِحَمْدِ» للمصاحبه أى سبح ربك و نزهه حال كونه مقارنا لحمده.

و المراد بقوله: «حِينَ تَقُومُ» قيل هو القيام من النوم، و قيل: هو القيام من القائله، فهو صلاه الظهر، و قيل: هو القيام من المجلس، و قيل: هو كل قيام، و قيل: هو القيام الى الفريضة و قيل: هو القيام الى كل صلاه، و قيل: هو الركعتان قبل فريضة الصبح سبعة أقوال كما ذكره

و قوله: وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحُهُ أَى من الليل فسبح ربك فيه، و المراد به صلاة الليل، و قيل: المراد صلاتا المغرب و العشاء الآخرة.

و قوله: وَإِدْبَارَ النُّجُومِ قيل: المراد به وقت إدبار النجوم و هو اختفاؤها بسوء الصبح، و هو الركعتان قبل فريضة الصبح، و قيل: المراد فريضة الصبح، و قيل: المراد تسيحه تعالى صباحا و مساء من غير غفله عن ذكره.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَإِذَا النُّجُومُ إِذَا هَيَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتَمَارُونَهُ عَلَيَّ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِنْدَ سِدْرِهِ الْمُنْتَهَىٰ (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصِيرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)

غرض السوره تذكير الاصول الثلاثه: وحدانيته تعالى فى ربوبيته و المعاد و النبوه فتبدأ بالنبوه فتصدق الوحي الى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و تصفه ثم تتعرض للوحدانيه فتنفى الأوثان و الشركاء أبلغ النفى ثم تصف انتهاء الخلق و التدبير اليه تعالى من إحياء و إماته و إضحاك و إبكاء و إغناء و إقناء و إهلاك و تعذيب و دعوه و إنذار، و تختم الكلام بالإشاره الى المعاد و الأمر بالسجده و العباده.

و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها و لا يصغى الى قول بعضهم بكون بعض آياتها أو كلها مدنيه، و قد قيل: إنها أول سوره أعلن النبي صلى الله عليه و آله و سلم بقراءتها فقراها على المؤمنين و المشركين جميعاً، و من غرر الآيات فيها قوله تعالى: وَ أَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى و قوله: وَ أَنْ لَيْسَ لِلنَّاسِ إِلَّا مَا سَعَى .

و ما أوردناه من الآيات هى الفصل الأول من فصول السور الثلاثه و هى الآيات اللاتى تصدق الوحي الى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و تصفه، لكن هناك روايات مستفيضه عن أئمه أهل البيت عليهم السلام

ناصه على أن المراد بالآيات ليس بيان صفه كل وحى بل بيان وحى المشافهه الذى أوحاه الله سبحانه الى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم ليله المعراج فالآيات متضمنه لقصه المعراج و ظاهر الآيات لا يخلو من تأييد لهذه الروايات و هو المستفاد أيضا من أقوال بعض الصحابه كابن عباس و أنس و أبى سعيد الخدرى و غيرهم على ما روى عنهم و على ذلك جرى كلام المفسرين و إن اشتد الخلاف بينهم فى تفسير مفرداتها و جملها.

قوله

تعالى: **وَ النَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ** ظاهر الآيه أن المراد بالنجم هو مطلق الجرم السماوى المضىء و قد أقسم الله فى كتابه بكثير من خلقه و منها عده من الأجرام السماويه كالشمس و القمر و سائر السيارات، و على هذا فالمراد بهوىّ النجم سقوطه للغروب.

قوله تعالى: **مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ** و **مَا غَوَىٰ الضَّلَالِ** الخروج و الانحراف عن الصراط المستقيم، و الغى خلاف الرشد الذى هو إصابه الواقع، قال الراغب: الغى جهل من اعتقاد فاسد، و ذلك أن الجهل قد يكون من كون الإنسان غير معتقد اعتقادا لا صالحا و لا فاسدا، و قد يكون من اعتقاد شىء فاسد، و هذا النحو الثانى يقال له غىّ، قال تعالى: **«مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ** و **مَا غَوَىٰ»**. انتهى. و المراد بالصاحب هو النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

و المعنى: ما خرج صاحبكم عن الطريق الموصل الى الغايه المطلوبه و لا أخطأ فى اعتقاده و رأيه فيها، و يرجع المعنى الى أنه لم يخطئ لا فى الغايه المطلوبه التى هى السعاده الإنسانيه و هو عبوديته تعالى، و لا فى طريقها التى تنتهى إليها.

قوله تعالى: **وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ** **إِنْ هُوَ إِلَّا - وَحْيٌ يُوحى** المراد بالهوى هوى النفس و رأيها، و النطق و إن كان مطلقا ورد عليه النفى و كان مقتضاه نفى الهوى عن مطلق نطقه صلى الله عليه و آله و سلم لكنه لما كان خطابا للمشركين و هم يرمونه فى دعوته و ما يتلو عليهم من القرآن بأنه كاذب متقول مفتر على الله سبحانه كان المراد بقريته المقام أنه صلى الله عليه و آله و سلم ما ينطق فيما يدعوكم الى الله أو فيما يتلوه عليكم من القرآن عن هوى نفسه و رأيه بل ليس ذلك إلا وحيا يوحى اليه

ص: ٩٨

قوله تعالى: عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى [□] ضمير «عَلَّمَهُ» للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَوْ لِلْقُرْآنِ بِمَا هُوَ وَحْيٌ أَوْ لِمَطْلَقِ الْوَحْيِ وَ الْمَفْعُولِ الْآخِرِ لَعَلَّمَهُ مَحذُوفٌ عَلَى أَى حَالٍ وَ التَّقْدِيرُ عِلْمُ النَّبِيِّ الْوَحْيِ أَوْ عِلْمُ الْقُرْآنِ أَوْ الْوَحْيِ إِيَّاهُ.

و المراد بشديد القوى-على ما قالوا-جبريل و قد وصفه الله بالقوه فى قوله: ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (التكوير ٢٠)، و قيل: المراد به هو الله سبحانه.

قوله تعالى: ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى [□] المره بكسر الميم الشده، و حصافه العقل و الرأى، و بناء نوع من المرور و قد فسرت المره فى الآيه بكل من المعانى الثلاثه مع القول بأن المراد بذى مره جبريل، و المعنى: هو أى جبريل ذو شده فى جنب الله أو هو ذو حصافه فى عقله و رأيه، أو هو ذو نوع من المرور بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و هو فى الهواء.

و قيل: المراد بذو مره النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فهو ذو شده فى جنب الله أو ذو حصافه فى عقله و رأيه أو ذو نوع من المرور عرج فيه الى السماوات.

و قوله: فَاسْتَوَى [□] بمعنى استقام أو استولى و ضمير الفاعل راجع الى جبريل و المعنى:

فاستقام جبريل على صورته الأصلية التى خلق عليها على ما روى أن جبريل كان ينزل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فى صور مختلفه، و إنما ظهر له فى صورته الأصلية مرتين أو المعنى: فاستولى جبريل يقوته على ما جعل له من الأمر.

و إن كان الضمير للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فالمعنى فاستقام و استقر.

قوله تعالى: وَ هُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى [□] الافق الناحيه قيل: المراد بالافق الأعلى ناحيه الشرق من السماء لأن أفق المشرق فوق المغرب فى صعيد الأرض لا فى الهواء و هو كما ترى و الظاهر أن المراد به أفق أعلى من السماء من غير اعتبار كونه أفقا شرقيا.

و ضمير هو فى الآيه راجع الى جبريل أو الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و الجملة حال من ضمير

قوله تعالى: ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى الدنوُّ القرب، والتدلى التعلق بالشىء و يكنى به عن شدة القرب، وقيل: الامتداد الى جهة السفلى مأخوذ من الدلو.

و المعنى: على تقدير رجوع الضميرين لجبريل: ثم قرب جبريل فتعلق بالنبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم ليخرج به الى السماوات، و قيل: ثم تدلى جبريل من الافق الأعلى فدنى من النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم ليخرج به.

و المعنى: على تقدير رجوع الضميرين الى النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم: ثم قرب النبى من الله سبحانه و زاد فى القرب.

قوله تعالى: فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى قال فى المجمع: القاب و القيب و القاد و القيد عباره عن مقدار الشىء انتهى. و القوس معروفه و هى آله رمى، و يقال قوس على الذراع فى لغه أهل الحجاز على ما قيل.

و المعنى: فكان البعد قدر قوسين أو قدر ذراعين أو أقرب من ذلك.

قوله تعالى: فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ضمير أوحى فى الموضعين لجبريل على تقدير رجوع الضمائر السابقه الى جبريل، و المعنى: فأوحى جبريل الى عبد الله و هو النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم ما أوحى، قيل: و لا ضمير فى رجوع الضمير اليه تعالى من عدم سبق الذكر لكونه فى غايه الوضوح. أو الضمائر الثلاث لله و المعنى: فأوحى الله بتوسط جبريل الى عبده ما أوحى أو الضمير الأول لجبريل و الثانى و الثالث لله و المعنى فأوحى جبريل ما أوحى الله اليه الى عبد الله.

و الضمائر الثلاث كلها لله على تقدير رجوع الضمائر السابقه الى النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم و المعنى: فأوحى الله الى عبده ما أوحى، و هذا المعنى أقرب الى الذهن من المعنى السابق الذى لا يرتضيه الذوق السليم و إن كان صحيحا.

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ الكذب خلاف الصدق يقال: كذب فلان في حديثه، ويقال: كذبه الحديث بالتعدي الى مفعولين أى حدثه كذبا، والكذب كما يطلق عى القول و الحديث الذى يلفظه اللسان كذلك يطلق على خطأ القوه المدركه يقال: كذبتة عينه أى أخطأته فى رؤيتها.

و نفى الكذب عن الفؤاد إنما هو بهذا المعنى سواء أخذ الكذب لازما و التقدير ما كذب الفؤاد فيما رأى أو متعديا الى مفعولين، و التقدير ما كذب الفؤاد-فؤاد النبى-النبى ما رآه أى إن رؤيه فؤاده فيما رآه رؤيه صادقه.

و على هذا فالمراد بالفؤاد فؤاد النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم، و ضمير الفاعل فى «﴿مَا رَأَى﴾» راجع الى الفؤاد و الرؤيه رؤيته.

و لا بدع فى نسبة الرؤيه و هى مشاهده العيان الى الفؤاد فإن للإنسان نوعا من الإدراك الشهودى وراء الإدراك بإحدى الحواس الظاهره و التخيل و التفكير بالقوى الباطنه كما أننا نشاهد من أنفسنا أننا نرى و ليست هذه المشاهده العيانيه إبصارا بالبصر و لا معلوما بفكر، و كذا نرى من أنفسنا أننا نسمع و نشم و نذوق و نلمس و نشاهد أننا نتخيل و نتفكر و ليست هذه الرؤيه ببصر أو بشىء من الحواس الظاهره أو الباطنه فإننا كما نشاهد مدركات كل واحده من هذه القوى بنفس تلك القوه كذلك نشاهد إدراك كل منا لمدركها و ليس هذه المشاهده بنفس تلك القوه بل بأنفسنا المعبر عنها بالفؤاد.

و ليس فى الآيه ما يدل على أن متعلق الرؤيه هو الله سبحانه و أنه لمرئى له صَلَّى الله عليه و آله و سلم بل المرئى هو الافق الأعلى و الدنو و التدلى و أنه أوحى اليه فهذه هى المذكوره فى الآيات السابقه و هى آيات له تعالى، و يؤيد ذلك ما ذكره تعالى فى النزله الاخرى من قوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَ مَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ .

على أنها لو دلت على تعلق الرؤيه به تعالى لم يكن به بأس فإنها رؤيه القلب و رؤيه القلب

غير رؤيه البصر الحسيه التى تتعلق بالأجسام و يستحيل تعلقها به تعالى و قد قدمنا كلاما فى رؤيه القلب فى تفسير سوره الأعراف الآيه ١٤٣.

قوله تعالى: أَفَتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ٱلْإِسْتِفْهَامَ لِلتَّوْبِيخِ و الخطاب للمشركين و الضمير للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و المماراه الإصرار على المجادله، و المعنى: أفتصرّون فى جدالكم على النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يذعن بخلاف ما يدّعيه و يخبركم به و هو يشاهد ذلك عيانا.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ رَأَاهُ نَزَّلَهُ أُخْرَىٰ ٱلنَّزْلَةَ بِنَاءِ مَرَّةٍ مِنَ النُّزُولِ فمعناه نزول واحد، و تدل الآيه على أن هذه قصه رؤيه فى نزول آخر و الآيات السابقه تقصّ نزولا آخر غيره.

و قد قالوا: إن ضمير الفاعل المستكن فى قوله: «رَأَاهُ» للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و ضمير المفعول لجبريل، و على هذا فالنزله نزول جبريل عليه صلى الله عليه و آله و سلم ليعرج به الى السماوات، و قوله: «عِنْدَ سِدْرِهِ الْمُتْنَهَىٰ» ظرف للرؤيه لا للنزله، و المراد برؤيته رؤيته و هو فى صورته الأصلية.

و المعنى: أنه نزل عليه صلى الله عليه و آله و سلم نزله اخرى و عرج به الى السماوات و تراءى له صلى الله عليه و آله و سلم عند سدره المنتهى و هو فى صورته الأصلية.

و قد ظهر مما تقدم صحه إرجاع ضمير المفعول اليه تعالى و المراد بالرؤيه رؤيه القلب و المراد بنزله اخرى نزله النبي صلى الله عليه و آله و سلم عند سدره المنتهى فى عروجه الى السماوات فالمفاد أنه صلى الله عليه و آله و سلم نزل نزله اخرى أثناء معراجة عند سدره المنتهى فرآه بقلبه كما رآه فى النزله الاولى.

قوله تعالى: عِنْدَ سِدْرِهِ الْمُتْنَهَىٰ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى السِّدْرَ شَجْرٌ مَعْرُوفٌ وَ التاء للوحده، و المنتهى - كأنه - اسم مكان و لعل المراد به منتهى السماوات بدليل كون الجنة عندها و الجنة فى السماء، قال تعالى: وَ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَ مَا تُوعَدُونَ (الذاريات ٢٢). /

و لا يوجد فى كلامه تعالى ما يفسر هذه الشجره، و كأن البناء على الإبهام كما يؤيده قوله

بعد: «إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى» وقد فسّر في الروايات أيضا بأنها شجره فوق السماء السابعة إليها تنتهي أعمال بني آدم و ستمر ببعض هذه الروايات.

و قوله: عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى أَي الجنة التي يأوى اليه المؤمنون و هي جنة الآخرة فإن جنة البرزخ جنة معجّله محدوده بالبعث، قال تعالى: فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (السجده ١٩)، و قوله: فَأِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى -الى أن قال- فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (النازعات ٤١) و هي في السماء على ما يدل عليه قوله تعالى: وَ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (الذاريات ٢٢)، و قيل: المراد بها جنة البرزخ.

و قوله: إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى غشيان الشيء الإحاطه به، و «مَا» موصوله، و المعنى: إذ يحيط بالسدره ما يحيط بها، و قد أبهم تعالى هذا الذي يغشى السدره و لم يبين ما هو كما تقدمت الإشارة اليه.

قوله تعالى: مَا زَاغَ الْبَصِيرُ وَمَا طَغَى الزيف الميل عن الاستقامه، و الطغيان تجاوز الحد في العمل، و زيف البصر إدراكه المبصر على غير ما هو عليه، و طغيانه إدراكه ما لا حقيقه له، و المراد بالبصر بصر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ.

و المعنى: أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لم يبصر ما أبصره على غير صفته الحقيقيه و لا أبصر ما لا حقيقه له بل أبصر غير خاطئ في إبصاره.

و المراد بالإبصار رؤيته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بقلبه لا بجارحه العين فإن المراد بهذا الإبصار ما يعنيه بقوله: «وَلَقَدْ رَأَوْهُ نَزْلَةً أُخْرَى» المشير الى مماثله هذه الرؤيه لرؤيه النزله الاولى التي يشير إليها بقوله: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتِمَارُونَهُ عَلَيَّ مَا يَرَى» فافهم و لا تغفل.

قوله تعالى: لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى «مِنْ» للتبويض، و المعنى: أقسم لقد شاهد بعض الآيات الكبرى لربه، و بذلك تم مشاهده ربه بقلبه فإن مشاهدته تعالى بالقلب إنما هي بمشاهده آياته بما هي آياته فإن الآيه بما هي آيه لا تحكى إلا إذا الآيه و لا تحكى

عن نفسه شيئاً وإلا لم تكن من تلك الجهة آية.

و أما مشاهدته ذاته المتعالية من غير توسط آية و تخلل حجاب فمن المستحيل ذلك قال تعالى: **وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا** (طه ١١٠/).

بحث روائى:

فى تفسير القمى فى قوله تعالى: **«وَ النَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ»** قال: النجم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم **«إِذَا هَوَىٰ»** لما أسرى به إلى السماء و هو فى الهوى.

أقول: و روى تسميته صلى الله عليه وآله وسلم بالنجم بإسناده عن أبيه عن الحسين بن خالد عن الرضا عليه السلام، و هو من البطن.

و فى الكافى عن القمى عن أبيه عن ابن أبى عمير عن محمد بن مسلم قال: قلت لأبى جعفر عليه السلام: قول الله عزّ و جل: **«وَ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ»** **«وَ النَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ»** و ما أشبه ذلك؟ قال:

إن لله عزّ و جل أن يقسم من خلقه بما شاء، و ليس لخلقه أن يقسموا إلا به.

أقول: و فى الفقيه عن على بن مهزيار عن أبى جعفر الثانى مثله.

و فى المجمع و روت العامه عن جعفر الصادق أنه قال: إن محمدا صلى الله عليه وآله و سلم نزل من السماء السابعه ليله المعراج و لما نزلت السوره أخبر بذلك عتبه بن أبى لهب فجاء إلى النبى صلى الله عليه وآله و سلم و طلق ابنته و تفل فى وجهه و قال: كفرت بالنجم و رب النجم، فدعا صلى الله عليه وآله و سلم عليه و قال: اللهم سلط عليه كلبا من كلابك.

فخرج عتبه إلى الشام فنزل فى بعض الطريق و ألقى الله عليه الرعب فقال لأصحابه أنيمونى بينكم ليلا ففعلوا فجاء أسد فافترسه من بين الناس.

أقول: ثم أورد الطبرسى شعر حسان فى ذلك، و روى فى الدر المنثور القصة بطرق مختلفه.

و فى الكافى بإسناده إلى هشام و حماد و غيره قالوا: سمعنا أبا عبد الله عليه السلام يقول: حديثى

حديث أبي و حديث أبي حديث جدى و حديث جدى حديث الحسين و حديث الحسين حديث الحسن و حديث الحسن حديث أمير المؤمنين و حديث أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و حديث رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قول الله عزّ و جل.

و فى تفسير القمى بإسناده إلى ابن سنان فى حديث: قال أبو عبد الله عليه السّلام: و ذلك أنه يعنى النبى صلى الله عليه و آله و سلم أقرب الخلق إلى الله تعالى و كان بالمكان الذى قال له جبرئيل لما أسرى به إلى السماء: تقدم يا محمد فقد وطئت موطئا لم يطأه ملك مقرب و لا نبى مرسل، و لو لا أن روحه و نفسه كان من ذلك المكان لما قدر أن يبلغه، و كان من الله عزّ و جل كما قال الله عزّ و جل:

﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ أى بل أدنى.

و فى الاحتجاج عن على بن الحسين عليه السّلام فى حديث طويل: أنا ابن من علا فاستعلى فجاز سدره المنتهى فكان من ربه قاب قوسين أو أدنى.

أقول: و قد ورد هذا المعنى فى كثير من روايات أئمة أهل البيت عليهم السّلام.

و فى الدر المنثور أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال: لما أسرى بالنبى صلى الله عليه و آله و سلم اقترب من ربه فكان قاب قوسين أو أدنى. قال: أ لم تر إلى القوس ما أقربها من الوتر؟

و فيه أخرج ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى» قال: هو محمد صلى الله عليه و آله و سلم دنا فتدلى إلى ربه عزّ و جل.

و فى المجمع و روى مرفوعا عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فى قوله: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى» قال: قدر ذراعين أو أدنى من ذراعين.

و فى تفسير القمى فى قوله تعالى: «فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ» قال: و حى مشافهه.

و فى التوحيد بإسناده إلى محمد بن الفضيل قال: سألت أبا الحسن عليه السّلام هل رأى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ربه عزّ و جل؟ فقال: نعم بقلبه رآه، أما سمعت الله عزّ و جل يقول: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ

مَا رَأَى؟» لم يره بالبصر و لكن رآه بالفؤاد.

و فى الدر المنثور أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى عن بعض أصحاب النبى ﷺ
الله عليه و آله و سلم قال: قالوا: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: لم أره بعينى و رأيتُه بفؤادى مرتين ثم تلا «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى» .

أقول: و روى هذا المعنى النسائى عن أبى ذر-على ما فى الدر المنثور- و لفظه رأى رسول الله ﷺ الله عليه و آله و سلم ربه
بقلبه و لم يره ببصره.

و عن صحيح مسلم و الترمذى و ابن مردويه عن أبى ذر قال: سألت رسول الله ﷺ الله عليه و آله و سلم: هل رأيت
ربك؟ فقال: نورانى أراه.

أقول: «نورانى» منسوب إلى النور على خلاف القياس كجسمانى فى النسبه إلى جسم، و قرئ «نور إنى أراه» بتنوين الراء و كسر
الهمزة و تشديد النون ثم ياء المتكلم، و الظاهر أنه تصحيف و إن أيد بروايه اخرى عن مسلم فى صحيحه و ابن مردويه عن أبى
ذر أنه سأل رسول الله ﷺ الله عليه و آله و سلم: هل رأيت ربك؟ فقال: رأيت نورا.

و كيف كان فالمراد بالرؤية رؤيه القلب فلا الرؤيه رؤيه حسيه و لا النور نور حسى.

و فى الكافى بإسناده عن صفوان بن يحيى قال: سألتنى أبو قره المحدث أن ادخله إلى أبى الحسن الرضا عليه السلام فاستأذنته فى
ذلك فأذن لى فدخل عليه فسأل عن الحلال و الحرام و الأحكام. إلى قوله: قال أبو قره: فإنه يقول: «وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزَلَهُ أُخْرَى» فقال أبو
الحسن عليه السلام:

إن بعد هذه الآية ما يدل على ما رأى حيث قال: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى» يقول: ما كذب فؤاد محمد ما رأت عيناه ثم أخبر بما
رأى فقال: «لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى» و آيات الله غير الله.

أقول: الظاهر أن كلامه عليه السلام مسوق لإلزام أبى قره حيث كان يريد إثبات رؤيته تعالى بالعين الحسيه فألزمه بأن الرؤيه إنما
تعلقت بالآيات و آيات الله غير الله و لا ينافى ذلك كون

رؤيه الآيات بما هي آياته رؤيته و إن كانت آياته غيره، وهذه الرؤيه إنما كانت بالقلب كما مرّت عدة من الروايات في هذا المعنى.

و في تفسير القمى حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن هشام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال النبي صَلَّى الله عليه وآله و سلم: انتهيت إلى صدره المنتهى و إذا الورقه منها تظّل امه من الامم فكنت من ربي كقاب قوسين أو أدنى.

و في الدر المنثور أخرج أحمد و ابن جرير عن أنس قال: قال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله و سلم: انتهيت إلى الصدره فإذا نبقتها مثل الجراد، و إذا ورقها مثل آذان الفيله فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تحوّلت ياقوتا و زمردا و نحو ذلك.

و في تفسير القمى بإسناده إلى اسماعيل الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل: فلما انتهى به إلى صدره المنتهى تخلف عنه جبرئيل فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله و سلم: في هذا الموضع تخذلني؟ فقال: تقدّم أمامك فو الله لقد بلغت مبلغا لم يبلغه أحد من خلق الله قبلك فرأيت من نور ربي و حال بيني و بينه السبحه.

قلت: و ما السبحه جعلت فداك؟ فأومى بوجهه إلى الأرض و أومأ بيده إلى السماء و هو يقول: جلال ربي جلال ربي ثلاث مرات.

أقول: السبحه الجلال كما فسّر في الروايه، و السبحه ما يدل على تنزهه تعالى من خلقه و مرجعه إلى المعنى الأول، و محصل ذيل الروايه أنه صَلَّى الله عليه وآله و سلم رأى ربه برؤيه آياته.

و فيه في قوله تعالى: «وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزَّلَهُ أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرِهِ الْمُنْتَهَىٰ» قال: في السماء السابعه.

و فيه في قوله تعالى: «إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ» قال: لما رفع الحجاب بينه و بين رسول الله صَلَّى الله عليه وآله و سلم غشى نور الصدره.

أقول: و في المعاني السابقه روايات اخرى و قد تقدم في أول تفسير سوره الإسراء روايات جامعها لقصه معراجة صَلَّى الله عليه وآله و سلم.

و قد نقلنا هناك فى ذيل الروايات الاختلاف فى كيفية معراجه صلى الله عليه و آله و سلم أنه كان فى المنام أو فى اليقظه و على الثانى بجسمه و روحه معا أو بروحه فحسب، و نقلنا عن صاحب المناقب أن الإماميه ترى أن إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان بالروح و الجسم معا على ما تدل عليه آيه الإسرائ، و أما من المسجد الأقصى إلى السماوات فقد قال قوم بكونه بالروح و الجسم معا أيضا و وافقهم كثير من الشيعة و مال بعضهم إلى كونه بالروح و مال اليه بعض المتأخرين.

و لا- ضير فى القول به لو أُيدته القرائن الحاقه بالآيات و الروايات غير أن من الواجب حينئذ أن يحمل قوله تعالى: «عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى» على جنه البرزخ ليحمل كونها عندها على نحو من التعلق كما ورد أن القبر إما روضه من رياض الجنه أو حفره من حفر النار، أو توجه الآيه بما لا ينافى كون العروج فى السماوات روحيا.

و أما كون الإسرائ فى المنام فقد تقدم فى تفسير آيه الإسرائ أنه مما لا ينبغى أن يلتفت اليه.

و أما تطبيق الإسرائ إلى السماوات على تسييره صلى الله عليه و آله و سلم ليلا فى الكواكب الاخرى غير الأرض من منظومتنا الشمسيه أو فى منظومات اخرى غير منظومتنا أو فى مجرات اخرى غير مجرتنا فمما لا يلائمه الأخبار الوارده فى تفصيل القصة البتة بل و لا محصل مضامين الآيات المتقدمه.

[سوره النجم (٥٣): الآيات ١٩ الى ٣٢]

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّامِتَ وَالْعُرْوَى (١٩) وَمَذَاهَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيئُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ مَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣) أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِللْمَآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَنْ بَعِدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَرْضَى (٢٦) إِنْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْمَآخِرَةِ لَيَسبُؤُنَ الْمُؤْمِنِينَ سَبْعِينَ اللَّيْلَةَ كُلَّهَا وَ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى (٣٠) وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُا بِمَا عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَبُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَبُونَ كِبَايِرَ النَّاسِ وَ الْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ انْتَقَى (٣٢)

قوله تعالى: **أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَ مَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ** لما سجل في الآيات السابقة صدق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ أَنَّهُ وَحَى يُوْحَى إِلَيْهِ وَ تَرْتَب عَلَيْهِ حَقِيهِ النَّبُوهُ الْمَبْنِيهِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَ نَفَى الشَّرْكَاءَ، فَرَّعَ عَلَيْهِ الْكَلَامَ فِي الْأَوْثَانِ: اللَّاتُ وَ الْعُزَّىٰ وَ مَنَاةُ وَ هِيَ عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ تَمَاثِيلُ الْمَلَائِكَةِ بِدَعْوَى أَنَّهُمْ إِنَاثٌ أَوْ بَعْضُهَا لِلْمَلَائِكَةِ وَ بَعْضُهَا لِلنَّاسِ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ وَ نَفَى رُبُوبِيَّتَهَا وَ أَلُوْهِيَّتَهَا وَ اسْتِقْلَالَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ أَرْبَابُ الْأَصْنَامِ فِي الشِّفَاعَةِ وَ أَنْوَيْتَهُمْ وَ أَشَارَ إِلَى حَقَائِقِ أُخْرَى تَنْتَجِ الْمَعَادِ وَ جَزَاءِ الْأَعْمَالِ.

وَ اللَّاتُ وَ الْعُزَّىٰ وَ مَنَاةُ أَصْنَامٌ ثَلَاثٌ كَانَتْ مَعْبُودَةً لِعَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَ قَدْ اخْتَلَفُوا فِي وَصْفِ صُورِهَا، وَ فِي مَوْضِعِهَا الَّذِي كَانَتْ مَنْصُوبَةً عَلَيْهِ، وَ فِي مَنْ يَعْبُدُهَا مِنَ الْعَرَبِ، وَ فِي الْأَسْبَابِ الَّتِي أُوجِبَتْ عِبَادَتُهُمْ لَهَا، وَ هِيَ أَقْوَالٌ مُتَدَاْفِعَةٌ لَا سَبِيلَ إِلَى الْاعْتِمَادِ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا، وَ الْمُتَيَقِّنُ مِنْهَا مَا أوردناه.

وَ الْمَعْنَى: إِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حَقِيهِ الدَّعْوَى وَ صَدَقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي دَعْوَى الْوَحْيِ وَ الرِّسَالَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فَأَخْبَرُونِي عَنِ اللَّاتِ وَ الْعُزَّىٰ وَ مَنَاةِ الَّتِي هِيَ ثَالِثَةُ الصَّنَمِينَ وَ غَيْرَهُمَا - وَ هِيَ الَّتِي تَدْعُونَ أَنَّهَا أَصْنَامُ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ بَنَاتُ اللَّهِ عَلَى زَعْمِكُمْ -.

قوله تعالى: **أَلَكُمْ الذِّكْرُ وَ لَهُ الْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ** استفهام إنكارى مشوب بالاستهزاء، و قسمه ضيزى أى جائره غير عادله.

وَ الْمَعْنَى: إِذَا كَانَ كَذَلِكَ وَ كَانَتْ أَرْبَابَ هَذِهِ الْأَصْنَامِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بَنَاتُ اللَّهِ، وَ أَنْتُمْ لَا تَرْضُونَ

لأنفسكم إلا الذكر من الأولاد فهل لكم الذكر و لله سبحانه الاثنى من الأولاد؟ تلك القسمة إذا قسمه جائره غير عادله-استهزاء-

قوله تعالى: **إِن هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ الْخِضْمِيرِ «هِيَ»** للالت و العزى و مناه أو لها بما هى أصنام، و ضمير «سَمَّيْتُمُوهَا» للأسماء و تسميه الأسماء جعلها أسماء، و المراد بالسلطان البرهان.

و المعنى: ليست هذه الأصنام الآلهة إلا أسماء جعلتموها أسماء لها أنتم و آباؤكم ليست لهذه الأسماء وراءها مصاديق و مسميات ما أنزل الله معها برهانا يستدل به على ربوبيتها و ألوهيتها.

و محصل الآية الرد على المشركين بعدم الدليل على ألوهية آلهتهم.

و قوله: **إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ مَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ «مَا»** موصوله و الضمير العائد إليها محذوف أى الذى تهواه النفس، و قيل: مصدرية و التقدير هو النفس و الهوى الميل الشهوانى للنفس و الجملة مسوقة لدمهم فى اتباع الباطل و تأكيد لما تقدم من أنه لا برهان لهم على ذلك.

و يؤكد قوله: **«وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى»** و الجملة حالیه.

و المعنى: إن يتبع هؤلاء المشركون فى أمر آلهتهم إلا الظن و ما يميل اليه أنفسهم شهوه يتبعون ذلك و الحال أنه قد جاءهم من الله و هو ربهم الهدى و هى الدعوه الحقه أو القرآن الذى يهديهم الى الحق.

و الالتفات فى الآية من الخطاب الى الغيبه للإشعار بأنهم أحط فهما من أن يخاطبوا بهذا الكلام على أنهم غير مستعدين لأن يخاطبوا بكلام برهانى و هم أتباع الظن و الهوى.

قوله تعالى: **أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى «أَمْ»** منقطعه و الاستفهام إنكارى، و الكلام مسوق لنفى أن يملك الإنسان ما يتمناه بمجرد أنه يتمناه أى ليس يملك الإنسان ما يتمناه بمجرد

أنه يتمناه حتى يملك المشركون ما يتمنونه بهوى أنفسهم من شفاعه الملائكه الذين هم أرباب أصنامهم و بنات لله بزعمهم أو يملكو الوهيه آلهتهم بمجرد التمنى.

و فى الكلام تلويح الى أنهم ليس لهم للدلاله على صحه الوهيه آلهتهم أو شفاعتهم إلا التمنى، و لا يملك شىء بالتمنى.

قوله تعالى: **فَلِلَّهِ الْمَآخِرَةُ وَالْأُولَى** تفريعه على سابقه من تفريع العله للمعلول للدلاله على التعلق و الارتباط ففیه تعليل للجمله السابقه، و المعنى: ليس يملك الإنسان ما تمناه بمجرد التمنى لأن الآخره و الاولى لله سبحانه و لا شريك له فى ملكه.

قوله تعالى: **وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى** الفرق بين الإذن و الرضا أن الإذن إعلام ارتفاع المانع من قبل الآذن، و الرضا ملاءمه نفس الراضى للشىء و عدم امتناعها فربما تحقق الإذن بشىء مع عدم الرضا و لا يتحقق رضا إلا مع الإذن بالفعل أو بالقوه.

و الآيه مسوقه لنفى أن يملك الملائكه من أنفسهم الشفاعه مستغنين فى ذلك عن الله سبحانه كما يروم اليه عبده الأصنام فإن الأمر مطلقا الى الله تعالى فإنما يشفع من يشفع منهم بعد إذنه تعالى له فى الشفاعه و رضاه بها.

و على هذا فالمراد بقوله: **«لِمَنْ يَشَاءُ»** الملائكه، و معنى الآيه: و كثير من الملائكه فى السماوات لا تؤثر شفاعتهم أثرا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء منهم أى من الملائكه و يرضى بشفاعته.

وقيل: المراد بمن يشاء و يرضى الإنسان، و المعنى: إلا من بعد أن يأذن الله فى شفاعه من يشاء أن يشفع له من الإنسان و يرضى، و كيف يأذن و يرضى بشفاعه من كفر به و عبد غيره.

و الآيه تثبت الشفاعه للملائكه فى الجمله، و تقييد شفاعتهم بالإذن و الرضا من الله سبحانه.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ رد لقولهم بانوثيه الملائكه بعد رد قولهم بشفاعتهم.

و المراد بتسميتهم الملائكه تسميه الانثى قولهم: إن الملائكه بنات الله فالمراد بالانثى الجنس أعم من الواحد و الكثير.

و قيل: إن الملائكه فى معنى استغراق المفرد فىكون التقدير لیسْمُونَ كل واحد من الملائكه تسميه الانثى أى يسمونه بنتا فالكلام على وزن «كسانا الأمير حلّه» أى كسا كل واحد منا حله.

قال بعضهم: فى تعليق التسميه بعدم الإيمان بالآخره إشعار بأنها فى الشناعه و الفظاعه و استتباع العقوبه فى الآخره بحيث لا يجترئ عليها إلا من لا يؤمن بها رأسا. انتهى.

قوله تعالى: وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ الظَّنُّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا العلم هو التصديق المانع من النقيض، و الظن هو التصديق الراجع و يسمى المرجوع وهما، و قولهم بانوثيه الملائكه كما لم يكن معلوما لهم كذلك لم يكن مظنونا إذ لا سبيل الى ترجيح القول به على خلافه لكنه لما كان عن هوى أنفسهم أثبتة الهوى فى أنفسهم و زينته لهم فلم يلتفتوا الى خلافه، و كلما لاح لهم لائح خلافه أعرضوا عنه و تعلقوا بما يهمنه، و بهذه العنايه سمى ظنا و هو فى الحقيقه تصوّر فقط.

و بهذا يظهر استقامه قول من قال: إن الظن فى هذه الآيه و فى قوله السابق: «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ مَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ» بمعنى التوهم دون الاعتقاد الراجع و أيد بما يظهر من كلام الراجب:

إن الظن و بما يطلق على التوهم.

و قوله: إِنْ الظَّنُّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا الحق ما هو عليه الشىء و ظاهر أنه لا يدرك إلا بالعلم الذى هو الاعتقاد المانع من النقيض لا غير و أما غير العلم مما فيه احتمال الخلاف فلا يتعين فيه المدرك على ما هو عليه فى الواقع فلا مجوز لأن يعتمد عليه فى الحقائق

قال تعالى: وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ (الإسراء ٣٦).

و أما العمل بالظن فى الأحكام العمليه فإنما هو لقيام دليل عليه يقيد به إطلاق الآيه، و تبقى الامور الاعتقاديه تحت إطلاق الآيه.

قال بعضهم: وضع الظاهر موضع المضمرة فى قوله: «إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي» ليجرى الكلام مجرى المثل.

قوله تعالى: فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا تفرج على اتباعهم الظن و هوى الأنفس، فقوله: «فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ» الخ؛ أمر بالإعراض عنهم و إنما لم يقل: فأعرض عنهم، و وضع قوله: «مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا» الخ؛ موضع الضمير للدلاله على عله الأمر بالإعراض كأنه قيل: إن هؤلاء يتركون العلم و يتبعون الظن و ما تهوى الانفس و إنما فعلوا ذلك لأنهم تولوا عن الذكر و أرادوا الحياه الدنيا فلا هم لهم إلا الدنيا فهى مبلغهم من العلم، و إذا كان كذلك فأعرض عنهم لأنهم فى ضلال.

و المراد بالذكر إما القرآن الذى يهدى متبعيه الى الحق الصريح و يرشدهم الى سعاده الدار الآخره التى وراء الدنيا بالحجج القاطعه و البراهين الساطعه التى لا تبقى معها و صمه شك.

و إما ذكر الله بالمعنى المقابل للغفله فإن ذكره تعالى بما يليق بذاته المتعالیه من الأسماء و الصفات يهدى الى سائر الحقائق العلميه فى المبدأ و المعاد هدايه علميه لا ريب معها.

قوله تعالى: ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى الإشارة بذلك الى أمر الدنيا و هو معلوم من الآيه السابقه و كونه مبلغ علمهم من قبيل الاستعاره كأن العلم يسير الى المعلوم و ينتهى اليه و علمهم انتهى فى مسيره الى الدنيا و بلغها و وقف عندها و لم يتجاوزها، و لازم ذلك أن تكون الدنيا متعلق إرادتهم و طلبهم، و موطن همهم، و غايه آمالهم لا يطمنون الى غيرها و لا يقبلون إلا عليها.

و قوله: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ الْخ؛ تأكيد لمضمون الجملة السابقه و شهاده منه تعالى عليه.

قوله تعالى: وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى يمكن أن يكون صدر الآيه حالاً- من فاعل «أَعْلَمُ» فى الآيه السابقه و الواو للحال، و المعنى: إن ربك هو أعلم بالفريقين الضالين و المهتدين و الحال أنه يملك ما فى السماوات و ما فى الأرض فكيف يمكن أن لا يعلم بهم و هو مالكمهم؟

و على هذا فالظاهر تعلق قوله: «لِيَجْزِيَ» الخ؛ بقوله السابق: «فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى» الخ؛ و المعنى: أعرض عنهم و كل أمرهم الى الله ليجزئهم كذا و كذا و يجزيك و يجزى المحسنين كذا و كذا.

و يمكن أن يكون قوله: «وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ» الخ؛ كلاماً مستأنفاً للدلاله على أن الأمر بالإعراض عنهم لا لإهمالهم و تركهم سدى بل الله سبحانه يجزى كلاً- بعمله إن سيئاً و إن حسناً، و وضع اسم الجلاله و هو ظاهر موضع الضمير للدلاله على كمال العظمه.

و قوله: لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ إشاره الى ملكه تعالى للكل و معناه قيام الأشياء به تعالى لكونه خالقهم الموجد لهم فالملك ناشئ من الخلق و هو مع ذلك منشأ للتدبير فالجمله داله على الخلق و التدبير كأنه قيل: و لله الخلق و التدبير.

و بهذا المعنى يتعلق قوله: «لِيَجْزِيَ» الخ؛ و اللام للغايه، و المعنى: له الخلق و التدبير و غايه ذلك و الغرض منه أن يجزى الذين أساءوا، الخ؛ و المراد بالجزاء ما يخبر عنه الكتاب من شئون يوم القيامة، و المراد بالإساءه و الإحسان المعصيه و الطاعه، و المراد بما عملوا جزء ما عملوا أو نفس ما عملوا، و بالحسنى المثوبه الحسنى.

و المعنى: ليجزى الله الذين عصوا بمعصيتهم أو بجزاء معصيتهم و يجزى الذين أطاعوا

بالمثوبه الحسنی، و قد أوردوا فی الآیه احتمالات اخرى و ما قدمناه هو أظهرها.

قوله تعالى: الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ الخ؛ الإثم هو الذنب و أصله - كما ذكره الراغب - الفعل المبطئ عن الثواب و الخير، و كبائر الإثم المعاصي الكبيره و هو على ما فی الروايه (١) ما أوعد الله عليه النار، و قد تقدم البحث عنها فی تفسير قوله تعالى: إِنَّ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ الْآيَه (النساء ٣١).

و الفواحش الذنوب الشنيعه الفظيحه، و قد عدّ تعالى فی كلامه الزنا و اللواط من الفواحش و لا يبعد أن يستظهر من الآيه اتحادها مع الكبائر.

و أما اللمم فقد اختلفوا فی معناه فقيل: هو الصغيره من المعاصي، و عليه فالاستثناء منقطع، و قيل: هو أن يلمّ بالمعصيه و يقصدها و لا يفعل و الاستثناء أيضا منقطع، و قيل: هو المعصيه حيناً بعد حين من غير عاده أى المعصيه على سبيل الاتفاق فيكون أعم من الصغيره و الكبيره و ينطبق مضمون الآيه على معنى قوله تعالى في وصف المتقين المحسنين: وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (آل عمران ١٣٥).

و قد فسر فی روايات أئمه أهل البيت عليهم السلام بثالث المعاني (٢).

و الآيه تفسر ما فی الآيه السابقه من قوله: «الَّذِينَ أَحْسَنُوا» فهم الذين يجتنبون كبائر الإثم و الفواحش و من الجائر أن يقع منهم لمم.

ص: ١١٦

١- ١). رواها في ثواب الاعمال عن عباد بن كثير النواه عن أبي جعفر عليه السلام.

٢- ٢). ففي اصول الكافي عن ابن عمار عن الصادق عليه السلام: اللمم الرجل يلم بالذنب فيستغفر الله منه، و فيه بإسناده عن محمد بن مسلم عن الصادق عليه السلام قال: هو الذنب يلم به الرجل فيمكث ما شاء الله ثم يلم به بعد، و فيه بإسناده عن ابن عمار عن الصادق عليه السلام قال: اللمام العبد الذي يلم بالذنب بعد الذنب ليس من سليقته أى من طبعه.

و فى قوله: إِنَّ رَبَّكَ ۖوَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۖتَطْمِئِعُهُمْ فِى التَّوْبَةِ رَجَاءَ الْمَغْفِرَةِ.

و قوله: هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ قَالَ الرَّاعِبُ:النَّشْءُ وَ النَّشْأَةُ إِحْدَاثُ الشَّيْءِ وَ تَرْبِيَتُهُ.انتهى.فإنشأؤهم من الأرض ما جرى عليهم فى بدء خلقهم طورا بعد طور من أخذهم من المواد العنصريه الى أن يتكونوا فى صوره المنى و يردوا الأرحام.

و قوله: وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ الْأَجْنَةُ جَمْعُ جَنِينٍ،وَ الْكَلَامُ مَعْطُوفٌ عَلَى «إِذْ» السَّابِقِ أَى وَ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَجْنَةً فِى أَرْحَامِ أُمَّهَاتِكُمْ يَعْلَمُ مَا حَقِيقَتِكُمْ وَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَالِ وَ مَا فِى سَرَكَمُ وَ إِلَى مَا يُولُؤُكُمْ.

و قوله: فَلَا تَزُكُّوا أَنْفُسَكُمْ تَفْرِيعٌ عَلَى الْعِلْمِ أَى إِذَا كَانَ اللَّهُ أَعْلَمَ مِنْ أَوْلِ أَمْرِ فَلَا تَزُكُّوا أَنْفُسَكُمْ بِنَسْبَتِهَا إِلَى الطَّهَارَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى.

[سوره النجم (٥٣): الآيات ٣٣ الى ٦٢]

أَفَرَأَيْتَ الَّذِى تَوَلَّى (٣٣) وَ أَعْطَى قَلِيلًا وَ أَكْذَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَهْتَدِى (٣٥) أَمْ لَمْ يُبْنَأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَ إِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَى (٣٧) أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَ أَنْ لَيْسَ لِلنَّاسِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَ أَنْ سَعْيُهُ سِوْفَ يَرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١) وَ أَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (٤٢) وَ أَنَّ هُوَ أَضْحَكَكَ وَ أَبْكَى (٤٣) وَ أَنَّ هُوَ أَمَاتَ وَ أَحْيَا (٤٤) وَ أَنَّ هُوَ خَلَقَ الرُّوحَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) وَ أَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْأُخْرَى (٤٧) وَ أَنَّ هُوَ أَغْنَى وَ أَقْنَى (٤٨) وَ أَنَّ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى (٤٩) وَ أَنَّ هُوَ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠) وَ تَمُودَ فَمَا أَبْقَى (٥١) وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغَى (٥٢) وَ الْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا عَشَى (٥٤) فَبَيَّأَ آلَاءِ رَبِّكَ تَمَارَى (٥٥) هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى (٥٦) أَرْزَقْتِ الْآزِفَةَ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَ تَضْحَكُونَ وَ لَا تَتَذَكَّرُونَ (٦٠) وَ أَنْتُمْ سَامِتُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَ اعْبُدُوا (٦٢)

قوله تعالى: أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى وَ أَعْطَى قَلِيلًا ۖ وَ أَكْثَدَى ۚ التولى هو الإعراض و المراد به بقريته الآيه التاليه الإعراض عن الإنفاق في سبيل الله، و الإعطاء الإنفاق و الإكداء قطع العطاء، و التفريع الذى فى قوله: «أَفَرَأَيْتَ» مبنى على ما قدمناه من تفرع مضمون هذه الآيه على ما قبلها.

و المعنى: فأخبرنى عمن أعرض عن الإنفاق و أعطى قليلا من المال و أمسك بعد ذلك أشد الإمساك.

قوله تعالى: أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهَوْ يَرَى ۚ الضمائر لمن تولى و الاستفهام للإنكار و المعنى: أيعلم الغيب فيرتب عليه أن يعلم أن صاحبه يتحمل عنه ذنوبه و يعذب مكانه يوم القيامة لو استحق العذاب كذا فسروا.

و الظاهر أن المراد نفى علمه بما غاب عنه من مستقبل حاله فى الدنيا و المعنى: أيعلم الغيب فهو يعلم أنه لو أنفق و دام على الإنفاق نفذ ماله و ابتلى بالفقر و أما تحمل الذنوب و العذاب فالمتعرض له قوله الآتى: أَلَا تَرَى ۖ وَ زَرَّةً ۖ وَ زَرَّةً ۖ وَ زَرَّةً ۖ أُخْرَى ۖ .

قوله تعالى: أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ۖ وَ إِبْرَاهِيمَ ۖ الَّذِي وَفَى ۖ صُحُفِ مُوسَى التوراه، و صحف إبراهيم ما نزل عليه من الكتاب و الجمع للإشارة الى كثرته بكثره أجزاءه.

و التوفيه تأديه الحق بتمامه و كماله، و توفيته عليه السّلام تأديته ما عليه من الحق فى العبوديه أتم التأديه و أبلغها قال تعالى: وَ إِذِ ابْتَلَى ۖ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ (البقره ١٢٤/).

و ما نقله الله سبحانه فى الآيات التاليه من صحف إبراهيم و موسى عليهما السّلام و إن لم يذكر فى

القرآن بعنوان أنه من صحفهما قبل هذه الآيات لكنه مذكور بعنوان الحكم و المواعظ و القصص و العبر فمعنى الآيتين: أم لم ينبأ بهذه الامور و هى فى صحف إبراهيم و موسى.

قوله تعالى: **أَلَا تَرَىٰ وَاِزْرَهُ** **وَزُرَّ أُخْرَىٰ** **الوزر الثقل و كثر استعماله فى الإثم، و الوزره النفس التى من شأنها أن تحمل الإثم، و الآيه** بيان ما فى صحف إبراهيم و موسى عليهما السلام، و كذا سائر الآيات المصدرة بأن و أنّ الى تمام سبع عشره آيه.

و المعنى: ما فى صحفهما هو أنه لا- تحمل نفس إثم نفس أخرى أى لا تتأثم نفس بما لنفس أخرى من الإثم فلا تؤاخذ نفس بإثم نفس أخرى.

قوله تعالى: **وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ** قال الراغب: السعى المشى السريع و هو دون العدو، و يستعمل للجد فى الأمر خيرا كان أو شرا قال تعالى: **«وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا»**. انتهى و استعماله فى الجد فى الفعل استعمال استعارى.

و معنى الام فى قوله: **«لِلْإِنْسَانِ»** الملك الحقيقى الذى يقوم بصاحبه قياما باقيا ببقائه يلازمه و لا يفارقه بالطبع و هو الذى يكتسبه الانسان بصالح العمل أو طالحه من خير أو شر، و أما ما يراه الإنسان مملوكا لنفسه و هو فى ظرف الاجتماع من مال و بنين و جاه و غير ذلك من زخارف الحياه الدنيا و زينتها فكل ذلك من الملك الاعتبارى الوهمى الذى صاحب الإنسان ما دام فى دار الغرور و يودعه عند ما أراد الانتقال الى دار الخلود و عالم الآخره.

فالمعنى: و أنه لا- يملك الإنسان ملكا يعود اليه أثره من خير أو شر أو نفع أو ضرر حقيقه إلا ما جدّ فيه من عمل فله ما قام بفعله بنفسه و أما ما قام به غيره من عمل فلا يلحق بالإنسان أثره خيرا أو شرا.

قوله تعالى: **وَ أَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ** المراد بالسعى ما سعى فيه من العمل و بالرؤيه المشاهده، و ظرف المشاهده يوم القيامه بدليل تعقيبه بالجزاء فالآيه قريبه المعنى من قوله تعالى: **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا** **وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ**

(آل عمران ٣٠)، و قوله: يَوْمَئِذٍ يَصِـدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الزلزال ٨).

و إتيان قوله: «سَوْفَ يُرَى» مبني للمفعول لا يخلو من إشعار بأن هناك من يشاهد العمل غير عامله.

قوله تعالى: ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى الْوَفَاءَ بِمَعْنَى التَّمَامِ لِأَنَّ الشَّيْءَ التَّامَّ يَفِي بِجَمِيعِ مَا يَطْلُبُ مِنْ صِفَاتِهِ، وَالْجَزَاءُ الْأَوْفَى الْجَزَاءُ الْأَتَمُّ.

و ضمير «يُجْزَاهُ» للسعي الذي هو العمل و المعنى: ثم يجزى الانسان عمله أى بعمله أتمّ الجزاء.

قوله تعالى: وَ أَنَّ إِلِيَّ رُبِّكَ الْمُنتَهَى مصدر ميمي بمعنى الانتهاء و قد أطلق إطلاقاً فيفيد مطلق الانتهاء، فما في الوجود من شيء موجود إلا- و ينتهي في وجوده و آثار وجوده الى الله سبحانه بلا- واسطه أو مع الواسطه، و لا فيه أمر من التدبير و النظام الجارى جزئياً أو كلياً إلا و ينتهي اليه سبحانه إذ ليس التدبير الجارى بين الأشياء إلا الروابط الجارية بينها القائمة بها و يوجد الأشياء هو الموجد لروابطها المجرى لها بينها فالمنتهى المطلق لكل شيء هو الله سبحانه.

قال تعالى: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ (الزمر ٦٣)، و قال: أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ (الأعراف ٥٤).

و الآيه تثبت الربوبية المطلقة لله سبحانه بإنهاء كل تدبير و كل التدبير اليه و تشمل انتهاء الأشياء اليه من حيث البدء و هو الفطر، و انتهاءها اليه من حيث العود و الرجوع و هو الحشر.

قوله تعالى: وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكٌ وَ أَبْكِي الْآيَةِ وَ مَا يَتْلُوها الى تمام اثنتى عشره آيه بيان لموارد من انتهاء الخلق و التدبير الى الله سبحانه.

و السياق فى جميع هذه الآيات سياق الحصر، و تفيد انحصار الربوبية فيه تعالى و انتفاء

الشريك، ولا ينافى ما فى هذه الموارد من الحصر توسط أسباب آخر طبيعیه أو غير طبيعیه فيها كتوسط السرور و الحزن و أعضاء الضحك و البكاء من الانسان فى تحقق الضحك و البكاء، وكذا توسط الأسباب المناسبه الطبيعیه و غير الطبيعیه فى الإحياء و الإماتة و خلق الزوجين و الغنى و القنى و إهلاك الامم الهالكه و ذلك أنها لما كانت مسخره لأمر الله غير مستقله فى نفسها و لا منقطعه عما فوقها كانت وجوداتها و آثار وجوداتها و ما يترتب عليها لله وحده لا يشاركه فى ذلك أحد.

فمعنى قوله: «وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَ أَبَكَى» أنه تعالى هو أوجد الضحك فى الضاحك و أوجد البكاء فى الباكي لا غيره تعالى.

و لا منافاه بين انتهاء الضحك و البكاء فى وجودهما الى الله سبحانه و بين انتسابهما الى الانسان و تلبسه بهما لأن نسبة الفعل الى الانسان بقيامه به و نسبة الفعل اليه تعالى بالايجاد و كم بينهما من فرق.

و لا أن تعلق الاراده الالهيه بضحك الانسان مثلا يوجب بطلان إرادته الانسان للضحك و سقوطها عن التأثير لأن الاراده الالهيه لم تتعلق بمطلق الضحك كيفما كان و إنما تعلق بالضحك الارادى الاختيارى من حيث انه صادر عن اراده الانسان و اختياره فأرادته الانسان سبب لضحكه فى طول اراده الله سبحانه لا فى عرضها حتى تتزاحما و لا تجتمعا معا فنضطر الى القول بأن أفعال الانسان الاختياريه مخلوقه لله و لا- صنع للإنسان فيها كما يقوله الجبرى أو أنها مخلوقه للإنسان و لا صنع لله سبحانه فيها كما يقوله المعتزلى.

قوله تعالى: وَ أَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَ أَحْيَا الكلام فى انتساب الموت و الحياه الى أسباب آخر طبيعیه و غير طبيعیه كالملائكه كالكلام فى انتساب الضحك و البكاء الى غيره تعالى مع انحصار الإيجاد فيه تعالى، وكذا الكلام فى الامور المذكوره فى الآيات التاليه.

قوله تعالى: وَ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى

النطفه ماء الرجل و المرأه الذى يخلق منه الولد، و أمنى الرجل أى صبّ المنى، و قيل: معناه التقدير، و قوله: «الدَّكْرَ وَ الْأُنْثَى» بيان للزوجين.

قيل: لم يذكر الضمير فى الآيه على طرز ما تقدم- أنه هو- لأنه لا يتصور نسبه خلق الزوجين الى غيره تعالى.

قوله تعالى: وَ أَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْأُخْرَىٰ النَّشَأَ الْأُخْرَىٰ الخلقه الاخرى الثانيه و هى الدار الآخره التى فيها جزاء، و كون ذلك عليه تعالى قضاؤه قضاء حتم و قد وعد به و وصف نفسه بأنه لا يخلف الميعاد.

قوله تعالى: وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَ أَقْنَىٰ أى أعطى الغنى و أعطى القنيه، و القنيه ما يدوم من الأموال و يبقى ببقاء نفسه كالدار و البستان و الحيوان، و على هذا فذكر «أَقْنَىٰ» بعد «أَغْنَىٰ» من التعرض للخاص بعد العام لنفاسته و شرفه.

و قيل: الإغناء التمويل و الإقناء الإرضاء بذلك، و قال بعضهم: معنى الآيه أنه هو أغنى و أفقر.

قوله تعالى: وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَىٰ كأن المراد بالشعري اليمانيه و هى كوكبه مضيئه من الثوابت شرقى صوره الجبار فى السماء.

قيل: كانت الخزاعه و حمير تبعد هذه الكوكبه، و ممن كان يعبده أبو كبشه أحد أجداد النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من جهه أمه، و كان المشركون يسمونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ابن أبى كبشه لمخالفته إياهم فى الدين كما خالف أبو كبشه قومه فى عباده الشعري.

قوله تعالى: وَ أَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ و هم قوم هود النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و وصفوا بالاولى لأن هناك عادا ثانيه هم بعد عاد الاولى.

قوله تعالى: وَ تَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ و هم قوم صالح النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أهلك الله الكفار منهم عن آخرهم، و هو المراد من قوله: «فَمَا أَبْقَىٰ» و إلا فهو سبحانه نَجَّى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ كما

قال: وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ (فصلت ١٨).

قوله تعالى: وَ قَوْمٌ نُّوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغَى عَظْفَ كَسَابِقِهِ عَلَى قَوْلِهِ: «عَادًا» وَ الإصرار بالتأكيد على كونهم أظلم و أطغى، أى من القومين عاد و ثمود على ما يعطيه السياق لأنهم لم يجيبوا دعوه نوح عليه السلام و لم يتعظوا بموعظته فيما يقرب من ألف سنه و لم يؤمن منهم معه إلا أقل قليل.

قوله تعالى: وَ الْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى قِيلَ: إن المؤتفكه قرى قوم لوط اتتفكت بأهلها أى انقلبت و الائتفاك الانقلاب، و الإهواء الإسقاط.

و المعنى: و أسقط القرى المؤتفكه الى الأرض بقلبها و خسفها فشملمها و أحاط بها من العذاب ما شملها و أحاط بها.

و احتمال أن يكون المراد بالمؤتفكه ما هو أعم من قرى قوم لوط و هى كل قريه نزل عليها العذاب فباد أهلها فبقيت خربه دائره معالمها حاويه على عروشها.

قوله تعالى: فَبَأَى آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى الآلاء جمع الى بمعنى النعمه، و التمارى التشكك، و الجمله متفرعه على ما تقدم ذكره مما ينسب اليه تعالى من الأفعال.

و المعنى: إذا كان الله سبحانه هو الذى نظم هذا النظام البديع من صنع و تدبير بالإضحاك و الإبكاء و الإماتة و الإحياء و الخلق و الإهلاك الى آخر ما قيل، فبأى نعم ربك تتشكك و فى أيها تريب؟

وعد مثل الإبكاء و الاماتة و إهلاك الامم الطاغية نعماً لله سبحانه لما فيها من الدخل فى تكوين النظام الأتم الذى يجرى فى العالم و تنساق به الامور فى مرحله استكمال الخلق و رجوع الكل الى الله سبحانه.

و الخطاب فى الآيه للذى تولى و أعطى قليلا و أكدى أو للنبي صلى الله عليه و آله و سلم من باب إياك أعنى و اسمعى يا جاره، و الاستفهام للانكار.

قوله تعالى: هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ قِيل:النذير يأتي مصدرا بمعنى الإنذار ووصفا بمعنى المنذر و يجمع على النذر بضمتين على كلا المعنيين و الإشارة بهذا الى القرآن أو النبي صلى الله عليه و آله و سلم.

قوله تعالى: أَرْزَقْتِ الْآزِفَةَ أَي قربت القيامة و الأزفه من أسماء القيامة قال تعالى:

وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ (المؤمن ١٨).

قوله تعالى: لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ أَي نفس كاشفه و المراد بالكشف إزالة ما فيها من الشدائد و الأهوال،و المعنى:ليس نفس تقدر على إزالة ما فيها من الشدائد و الأهوال إلا أن يكشفها الله سبحانه.

قوله تعالى: أَمْ مِنْ هَذَا الْخَبِيثِ تَعْجَبُونَ وَ تَضْحَكُونَ وَ لَا تَبْكُونَ وَ أَنْتُمْ سَامِدُونَ الإشاره بهذا الحديث الى ما تقدم من البيان،و السمود اللهو،و الآيه متفرعه على ما تقدم من البيان،و الاستفهام للتوبيخ.

و المعنى:إذا كان الله هو ربكم الذى ينتهى اليه كل أمر و عليه النشأه الاخرى و كانت القيامة قريبه و ليس لها من دون الله كاشفه كان عليكم أن تبكوا لما فرطتم فى جنب الله، و تعرضتم للشقاء الدائم أ فمن هذا البيان الذى يدعوكم الى النجاه تعجبون إنكارا و تضحكون استهزاء و لا تبكون؟

قوله تعالى: فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَ اعْبُدُوا تفریع آخر على ما تقدم من البيان و المعنى:

إذا كان كذلك فعليكم أن تسجدوا لله و تعبدوه ليكشف عنكم ما ليس له من دونه كاشفه (١).

ص: ١٢٥

١- ١). النجم ٣٣-٦٢: بحث روائى حول قوله تعالى: «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى»؛ ما يتبع الرجل بعد موته من الاجر؛ النهى عن التفكير فى ذات الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَ اِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٢) وَ كَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا اَهْوَاءَهُمْ وَ كُلُّ اَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ (٣) وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْاَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْاَنْذُرُ (٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ اِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ (٦) خَشَعًا اَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْاَجْدَاثِ كَاَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ اِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨)

سوره ممحضه فى الإنذار و التخييف إلا آيتين من آخرها تبشران المتقين بالجنه و الحضور عند ربهم.

تبدأ السوره بالإشاره الى آيه شق القمر التى أتى بها رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عن اقتراح من قومه، و تذكر رميهم له بالسحر و تكذيبهم به و اتباعهم الأهواء مع ما جاءهم أنباء زاجره من أنباء يوم القيامة و أنباء الامم الماضين الهالكين ثم يعيد تعالى عليهم نبذه من تلك الأنباء إعاده ساخط معاتب فيذكر سيئ حالهم يوم القيامة عند خروجهم من الأجداث و حضورهم للحساب.

ثم تشير الى قصص قوم نوح و عاد و ثمود و قوم لوط و آل فرعون و ما نزل بهم من أليم العذاب إثر تكذيبهم بالندر و ليس قوم النبى صلى الله عليه و آله و سلم بأعز عند الله منهم و ما هم بمعجزين، و تختتم السوره ببشرى للمتقين.

و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها، و لا يعبأ بما قيل: إنها نزلت ببدر، و كذا بما قيل: إن بعض آياتها مدنيه، و من غرر آياتها ما فى آخرها من آيات القدر.

قوله تعالى: **إِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ** وَ **انْشَقَّ الْقَمَرُ** الاقتراب زياده فى القرب فقوله:

«**اِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ**» أى قربت جدا، و الساعه هى الظرف الذى تقوم فيه القيامة.

و قوله: «وَ **انْشَقَّ الْقَمَرُ**» أى انفصل بعضه عن بعض فصار فرقتين شقتين تشير الآيه الى آيه شق القمر التى أجراها الله تعالى على يد النبى صلى الله عليه و آله و سلم بمكه قبل الهجره إثر سؤال المشركين من أهل مكه، و قد استفاضت الروايات على ذلك، و اتفق أهل الحديث و المفسرون على قبولها كما قيل. و لم يخالف فيه منهم إلا الحسن و عطاء و البلخى حيث قالوا: معنى قوله: «**انْشَقَّ الْقَمَرُ**» سينشق القمر عند قيام الساعه و إنما عبر بلفظ الماضى لتحقق الوقوع.

و هو مزيف مدفوع بدلاله الآيه التاليه «وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ» فإن سياقها أوضح شاهد على أن قوله: «آيَةً» مطلق شامل لانشقاق القمر فعند وقوعه إعراضهم وقولهم: سحر مستمر و من المعلوم أن يوم القيامة يوم يظهر فيه الحقائق و يلجئون فيه الى المعرفه، و لا معنى حينئذ لقولهم فى آيه ظاهره: إنها سحر مستمر فليس إلا أنها آيه قد وقعت للدلاله على الحق و الصدق و تأتي لهم أن يرموها عنادا بأنها سحر.

و مثله فى السقوط ما قيل: إن الآيه إشاره الى ما ذهب اليه الرياضيون أخيرا أن القمر قطعه من الأرض كما أن الأرض جزء منفصل من الشمس فقوله: «وَ أَنْشَقَّ الْقَمَرَ» اشاره الى حقيقه علميه لم ينكشف يوم النزول بعد.

و ذلك أن هذه النظرية على تقدير صحتها لا يلائمها قوله: «وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ» إذ لم ينقل عن أحد أنه قال للقمر: هو سحر مستمر.

على أن انفصال القمر عن الأرض اشتقاق و الذى فى الآيه الكريمه انشقاق، و لا يطلق الانشقاق إلا على تقطع الشىء فى نفسه قطعتين دون انفصاله من شىء بعد ما كان جزء منه.

و مثله فى السقوط ما قيل: إن معنى انشقاق القمر انكشاف الظلمه عند طلوعه و كذا ما قيل: إن انشقاق القمر كناية عن ظهور الأمر و وضوح الحق.

و الآيه لا تخلو من إشعار بأن انشقاق القمر من لوازم اقتراب الساعه.

قوله تعالى: «وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ» الاستمرار من الشىء مرور منه بعد مرور مره بعد مره، و لذا يطلق على الدوام و الاطراد فقولهم: سحر مستمر أى سحر بعد سحر مداوما.

و قوله: «آيَةً» نكره فى سياق الشرط فتفيد العموم، و المعنى و كل آيه يشاهدونها يقولون فيها إنها سحر بعد سحر، و فسر بعضهم المستمر بالمحكم الموثق، و بعضهم بالذاهب الزائل، و بعضهم بالمستبشع المنفور، و هى معان بعيده.

قوله تعالى: وَ كَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ مُتَعَلِقُ التَّكْذِيبِ بِقَرِينِهِ ذِيلُ الْآيَةِ هُوَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ مَا أَتَى بِهِ مِنَ الْآيَاتِ أَى وَ كَذَّبُوا بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ مَا أَتَى بِهِ مِنَ الْآيَاتِ وَ الْحَالُ أَنَّ كُلَّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ سَيَسْتَقِرُّ فِي مُسْتَقَرِّهِ فَيَعْلَمُ أَنَّهُ حَقٌّ أَوْ بَاطِلٌ وَ صَدَقَ أَوْ كَذَبَ فَيَسْتَعْلَمُونَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ صَادِقٌ أَوْ كَاذِبٌ، عَلَى الْحَقِّ أَوْ لَا فَقَوْلُهُ: «وَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ» فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: وَ لَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (ص ٨٨).

قوله تعالى: وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ مُزْدَجَرٌ مُصَدَّرٌ مِيمِيٌّ وَ هُوَ الْإِتْعَازُ، وَ قَوْلُهُ: «مِنَ الْأَنْبَاءِ» بَيَانٌ لِمَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ، وَ الْمُرَادُ بِالْأَنْبَاءِ أَخْبَارُ الْأُمَمِ الدَّارِجَةِ الْهَالِكَةِ أَوْ أَخْبَارُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ قَدْ احْتَمَلَ كُلُّ مِنْهُمَا، وَ الظَّاهِرُ مِنْ تَعْقِيبِ الْآيَةِ بِأَنْبَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ بِأَنْبَاءِ عَدُوِّهَا مِنَ الْأُمَمِ الْهَالِكَةِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَنْبَاءِ الَّتِي فِيهَا مُزْدَجَرٌ جَمِيعٌ ذَلِكَ.

قوله تعالى: حِكْمُهُ بِالْعَلَّةِ فَمَا تُغْنِي النَّذْرُ الْحِكْمَةَ كَلِمَةُ الْحَقِّ الَّتِي يَنْتَفِعُ بِهَا، وَ الْبَلُوغُ وَ صَوْلُ الشَّيْءِ إِلَى مَا تَنْتَهَى إِلَيْهِ الْمَسَافَةُ وَ يَكْفِي بِهِ عَنِ تَمَامِ الشَّيْءِ وَ كَمَالِهِ فَالْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ هِيَ الْحِكْمَةُ التَّامَةُ الْكَامِلَةُ الَّتِي لَا نَقْصَ فِيهَا مِنْ حَيْثُ نَفْسُهَا وَ مِنْ حَيْثُ أَثَرُهَا. وَ قَوْلُهُ: «فَمَا تُغْنِي النَّذْرُ» الْفَاءُ فِيهِ فَصِيحَةٌ تَفْصِيحٌ عَنِ جَمَلِهِ مَقْدَرُهُ تَتَرْتَبُ عَلَيْهَا الْكَلَامُ، وَ النَّذْرُ جَمْعٌ نَذِيرٌ بِمَعْنَى الْمُنْذَرِ أَوْ بِمَعْنَى الْإِنْذَارِ وَ الْكُلُّ صَحِيحٌ وَ إِنْ كَانَ الْأَوَّلُ أَقْرَبَ إِلَى الْفَهْمِ.

وَ الْمَعْنَى: هَذَا الْقُرْآنُ أَوْ الَّذِي يَدْعُونَ إِلَيْهِ حِكْمُهُ بِالْعَلَّةِ كَذَّبُوا بِهَا وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ فَمَا تُغْنِي الْمُنْذَرُونَ أَوْ الْإِنْذَارَاتُ؟

قوله تعالى: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكْرًا تَوَلَّى الْإِعْرَاضَ وَ الْفَاءُ فِي «فَتَوَلَّ» لِتَفْرِيعِ الْأَمْرِ بِالتَّوَلَّى عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ وَصْفِ حَالِهِمْ أَى إِذَا كَانُوا مَكْذِبِينَ بِكَ مُتَّبِعِينَ أَهْوَاءَهُمْ لَا يَغْنَى فِيهِمُ النَّذْرُ وَ لَا تُؤَثِّرُ فِيهِمُ الزَّوَاجِرُ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ وَ لَا تَلْحَ عَلَيْهِمْ بِالْدَعْوَةِ.

وَ قَوْلُهُ: يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكْرًا قَالَ الرَّابِعُ: الْإِنْكَارُ ضِدُّ الْعِرْفَانِ يُقَالُ:

أنكرت كذا ونكرت، وأصله أن يرد على القلب ما لا يتصوره، وذلك ضرب من الجهل قال تعالى: «فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ». قال: والنكر الدهاء والأمر الصعب الذي لا يعرف. انتهى.

وقد تم الكلام في قوله: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ» بيان حالهم تجاه الحكمه البالغه التي ألقى اليهم والزواج التي ذكروا بها على سبيل الإنذار، ثم أعاد سبحانه نبذه من تلك الزواج التي هي أبناء من حالهم يوم القيامة و من عاقبه حال الامم المكذبين من الماضين في لحن العتاب و التوبيخ الشديد الذي تهز قلوبهم للانتباه و تقطع منابت أذارهم في الإعراض.

فقوله: **يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ الخ؛** كلام مفصول عما قبله لذكر الزواج التي أشير إليها سابقا في مقام الجواب عن سؤال مقدر كأنه لما قال: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ» سئل فقيل: فإلى م يثول أمرهم؟ فقيل: «يَوْمَ يَدْعُ الخ؛ أي هذه حال آخرتهم و تلك عاقبه دنيا أشياهم و أمثالهم من قوم نوح و عاد و ثمود و غيرهم، و ليسوا خيرا منهم.

و على هذا فالظرف في «يَوْمَ يَدْعُ» متعلق بما سيأتي من قوله: «يَخْرُجُونَ» و المعنى:

يخرجون من الأحداث يوم يدعو الداعي الى شيء نكر، الخ؛ و إما متعلق بمحذوف، و التقدير اذكر يوم يدعو الداعي، و المحصل اذكر ذاك اليوم و حالهم فيه، و الآية في معنى قوله: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ (الزخرف ١٦٦)، و قوله: فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ (يونس ١٠٢).

و لم يسم سبحانه هذا الداعي من هو؟ و قد نسب الدعوه في موضع من كلامه الى نفسه فقال: يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ (الإسراء ٥٢).

و إنما أورد من أبناء القيامة نبأ دعوتهم لخروج من الأحداث و الحضور لفصل القضاء و خروجهم منها خشعا أبصارهم مهطعين الى الداعي ليحاذى به دعوتهم في الدنيا الى الإيمان بالآيات و إعراضهم و قولهم: سحر مستمر.

و معنى الآية: اذكر يوم يدعو الداعي الى امر صعب عليهم و هو القضاء و الجزاء.

قوله تعالى: حُسْعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُتَشِيرٌ الخشع جمع خاشع و الخشوع نوع من الذله و نسب الى الأبصار لأن ظهوره فيها أتم.

و الأجداث جمع جدث و هو القبر، و الجراد حيوان معروف، و تشبيههم فى الخروج من القبور بالجراد المنتشر من حيث أن الجراد فى انتشاره يدخل البعض منه فى البعض و يختلط البعض ببعض فى جهات مختلفه فكذلك هؤلاء فى خروجهم من القبور، قال تعالى:

يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُوفُضُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ (المعارج/ ٤٤).

قوله تعالى: مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسَىٰ أَى حال كونهم مسرعين الى الداعي مطيعين مستجيبين دعوته يقول الكافرون: هذا يوم عسر أى صعب شديد (١/٢).

[سوره القمر (٥٤): الآيات ٩ الى ٤٢]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَ قَالَوا مَجْنُونٌ وَ أُزْدَجِر (٩) فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِر (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوابَ السَّماءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَ فَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَ حَمَلْنَا عَلَىٰ ذَاتِ الْأُوحِ وَ دُسِيرٍ (١٣) تَجْرى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَ لَقَدْ تَرَكْنَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابى وَ نُذِر (١٦) وَ لَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (١٧) كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابى وَ نُذِر (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصِرًا فى يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابى وَ نُذِر (٢١) وَ لَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٢٢) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا إِنَّا بُشْرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفى ضَلالٍ وَسُعْرٍ (٢٤) أَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ عَدَاءَ مِنَ الْكُذَّابِ الْأَشْرِ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَتَنَّا لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَ اضْطَبِر (٢٧) وَ تَبَّاهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قَشِيمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرِبٍ مُحْتَضِرٌ (٢٨) فَذَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابى وَ نُذِر (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَهُ وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَ لَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٣٢) كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزى مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتْنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَ لَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابى وَ نُذِر (٣٧) وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابى وَ نُذِر (٣٩) وَ لَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٤٠) وَ لَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاَهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢)

ص: ١٣١

١- ١). القمر ١-٨: بحث روائى حول اقتراب القيامه و انشقاق القمر.

٢- ٢). القمر ١-٨: كلام فيه اجمال القول فى شق القمر.

قوله تعالى: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ التَّكْذِيبُ الْأُولُ مَنْزِلَ مَنْزِلِهِ الْإِلَازِمُ أَي فَعَلَتِ التَّكْذِيبَ، وَ قَوْلُهُ: «فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا» الْخ؛ تَفْسِيرُهُ كَمَا فِي قَوْلِهِ: وَ نَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ الْخ؛ (هُود ٤٥).

و قيل: المراد بالتكذيب الأول التكذيب المطلق و هو تكذيبهم بالرسول، و بالثاني التكذيب بنوح خاصة كقوله في سورة الشعراء: كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (الشعراء ١٠٥)، و المعنى: كذبت قوم نوح المرسلين فترتب عليه تكذيبهم لنوح، و هو وجه حسن.

وقيل: المراد بتفريع التكذيب على التكذيب الإشارة الى كونه تكذيبا إثر تكذيب بطول زمان دعوته فكلما انقضى قرن منهم مكذب جاء بعدهم قرن آخر مكذب، وهو معنى بعيد.

و مثله قول بعضهم: إن المراد بالتكذيب الأول قصده و بالثاني فعله.

و قوله: فَكَذَّبُوا عِبَادَنَا فِي التَّعْبِيرِ عَنْ نوح عَلَيْهِ السَّلَام بقوله: «عِبَادَنَا» في مثل المقام تجليل لمقامه و تعظيم لأمره و إشارة الى أن تكذيبهم له يرجع اليه تعالى لأنه عبد لا يملك شيئا و ما له فهو لله.

و قوله: وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ المراد بالازدجار زجر الجن له إثر الجنون، و المعنى: و لم يقتصروا على مجرد التكذيب بل نسبوه الى الجنون فقالوا: هو مجنون و ازدجر الجن فلا يتكلم إلا عن زجر و ليس كلامه من الوحي السماوى فى شىء.

قوله تعالى: فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرَ الانتصار الانتقام، و قوله: «أَنِّي مَغْلُوبٌ» أى بالقهر و التحكم دون الحججه، و هذا الدعاء تلخيص لتفصيل دعائه، و تفصيل دعائه مذکور فى سورة نوح و تفصيل حججه فى سورة هود و غيرها.

قوله تعالى: فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ قال فى المجمع: الهمر صب الدمع و الماء بشده، و الانهمار الانصباب، انتهى. و فتح أبواب السماء و هى الجو بماء منصب استعاره تمثليه عن شدة انصباب الماء و جريان المطر متواليا كأنه مدخر وراء باب مسدود يمنع عن انصبابه ففتح الباب فانصب أشد ما يكون.

قوله تعالى: وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ قال فى المجمع: التفجير تشقيق الأرض عن الماء، و العيون جمع عين الماء و هو ما يفور من الأرض مستديرا كاستداره عين الحيوان. انتهى.

و المعنى: جعلنا الأرض عيونا منفجرة عن الماء تجرى جريانا متوافقا متتابعاً.

و قوله: فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ أى فالتقى الماء ان ماء السماء و ماء

الأرض مستقرا على أمر قدره الله تعالى أى حسب ما قدر من غير نقيصه و لا زياده و لا عجل و لا مهل.

فالماء اسم جنس أريد به ماء السماء و ماء الأرض و لذلك لم يثن، و المراد بأمر قدر الصفة التى قدرها الله لهذا الطوفان.

قوله تعالى: وَ حَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوَّاحِ وَ دُشَيْرٍ الْمَرَادِ بِذَاتِ الْأَوَّاحِ وَ الدسر السفينه، و الألواح جمع لوح و هو الخشب الذى يركب بعضها على بعض فى السفينه، و الدسر جمع دسار و دسر و هو المسمار الذى تشد بها الألواح فى السفينه، و قيل فيه معان أخر لا تلائم الآيه تلك الملاءمه.

قوله تعالى: تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ أَي تَجْرِي السّفينه على الماء المحيط بالأرض بأنواع من مراقبتنا و حفظنا و حراستنا، و قيل: المراد تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا و من و كلناه بها من الملائكه.

و قوله: جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ أَي جريان السفينه كذلك و فيه نجاه من فيها من الهلاك ليكون جزاء لمن كان كفر به و هو نوح عليه السلام كفر به و بدعوته قومه، فالآيه فى معنى قوله:

وَ نَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ - الى أن قال - إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (الصفات / ٨٠).

قوله تعالى: وَ لَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ضَمِير «تَرَكَهَا» للسّفينه على ما يفيدته السياق و اللام للقسم، و المعنى: أقسم لقد أبقينا تلك السفينه التى نجينا بها نوحا و الذين معه، و جعلناها آيه يعتبر بها من اعتبر فهل من متذكر يتذكر بها وحدانيته تعالى و أن دعوه أنبيائه حق، و أن أخذه أليم شديدا؟ و لازم هذا المعنى بقاء السفينه الى حين نزول هذه الآيات علامه داله على واقعه الطوفان مذكوره لها، و قد قال بعضهم فى تفسير الآيه على ما

نقل: أبقي الله سفينه نوح على الجودي حتى أدركها أوائل هذه الامه (1)، انتهى. وقد أوردنا في تفسير سوره هود في آخر الأبحاث حول قصه نوح خبر أنهم عشروا في بعض قلال جبل آراراط و هو الجودي قطعات أخشاب من سفينه متلاشيه وقعت هناك، فراجع.

و قيل: ضمير «تَرَكَهَا» لما مر من القصه بما أنها فعله.

قوله تعالى: فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نُذُرِ النَّذْرِ جَمْعُ نَذِيرٍ بِمَعْنَى الْإِنذَارِ، وَقِيلَ:

مصدر بمعنى الإنذار. والظاهر أن «كَانَ» ناقصه و اسمها «عَذَابِي» و خبرها «فَكَيْفَ»، و يمكن أن تكون تامه فاعلها قوله: «عَذَابِي» و قوله: «فَكَيْفَ» حالا منه.

و كيف كان فالاستفهام للتحويل يسجل به شدة العذاب و صدق الإنذار.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدِّكِرٍ التيسير التسهيل و تيسير القرآن للذكر هو إلقاءه على نحو سهل فهم مقاصده للعامة و الخاصى و الأفهام البسيطة و المتعمقه كل على مقدار فهمه.

و يمكن أن يراد به تنزيل حقائقه العاليه و مقاصده المرتفعه عن أفق الأفهام العاديه الى مرحله التكليم العربى تناله عامه الأفهام كما استفاد من قوله تعالى: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ (الزخرف ٤).

و المراد بالذكر ذكره تعالى بأسمائه أو صفاته أو أفعاله، قال فى المفردات: الذكر تارة يقال و يراد به هينه للنفس بها يمكن للانسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفه و هو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتبارا بإحرازه، و الذكر يقال اعتبارا باستحضاره و تارة يقال لحضور الشىء القلب أو القول، و لذلك قيل: الذكر ذكران: ذكر بالقلب و ذكر باللسان و كل واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان و ذكر لا عن نسيان بل عن إدامه الحفظ، و كل قول يقال له ذكر.

ص: ١٣٦

١-١). رواه فى الدر المنثور عن عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن قتاده.

انتهى.

و معنى الآية: و أقسم لقد سهّلنا القرآن لأن يتذكر به، فيذكر الله تعالى و شئونه، فهل من متذكر يتذكر به فيؤمن بالله و يدين بما يدعو اليه من الدين الحق؟

فالآيه دعوه عامه الى التذكر بالقرآن بعد تسجيل صدق الإنذار و شدة العذاب الذى أنذر به.

قوله تعالى: كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نُذُرِ شُرُوعِ فِي قِصَّةِ أُخْرَى مِنَ الْقِصَصِ الَّتِي فِيهَا الِازْدِجَارُ وَ لَمْ يَعْطِفْ عَلَيَّ مَا قَبْلَهَا- و مثلها القصص الآتية- لأن كل واحد من هذه القصص مستقلة كافيته فى الزجر و الردع و العظة لو اتعظوا بها.

و قوله: فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نُذُرِ مَسْجُودٍ لِتُوجِيَهُ قُلُوبُ السَّامِعِينَ إِلَى مَا يَلْقَى الْيَهُمَ مِنْ كَيْفِيَةِ الْعَذَابِ الْهَائِلِ بِقَوْلِهِ: «إِنَّا أَرْسَلْنَا» الخ؛ و ليس مسوقاً للتحويل و تسجيل شدة العذاب و صدق الإنذار كسابقه و إلاً لتكرر قوله بعد: «فَكَيْفَ كَانَ» الخ؛ كذا قيل و هو وجه حسن.

قوله تعالى: إِذَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصِرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ بَيَانَ لِمَا اسْتَفْهَمَ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: «فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نُذُرِي» وَ الصَرْصِرُ- على ما فى المجمع- الريح الشديدة الهبوب، و النحس بالفتح فالسكون مصدر كالنحوسة بمعنى الشؤم، و «مُسْتَمِرٌّ» صفة لنحس، و معنى إرسال الريح فى يوم نحس مستمر إرسالها فى يوم متلبس بالنحوسة و الشأمة بالنسبة اليهم المستمرة عليهم لا يرجى فيه خير لهم و لا نجاه.

و المراد باليوم قطعه من الزمان لا اليوم الذى يساوى سبع الاسبوع لقوله تعالى فى موضع آخر من كلامه: فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصِرًا فِي أَيَّامٍ نَحِيسَاتٍ (حم السجده ١٦)، و فى موضع آخر: سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا (الحاقه ٧).

و فسر بعضهم النحس بالبرد.

قوله تعالى: تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ فَاعِلٌ «تَنْزِعُ» ضمير راجع الى الريح أى تنزع الريح الناس من الأرض، و أعجاز النخل أسافله، و المنقعر المقلوع من أصله، و المعنى ظاهر، و فى الآيه إشعار ببسطه القوم أجساما.

قوله تعالى: «فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي -الى قوله- مُدَكِّرٍ» تقدم تفسير الآيتين (١).

قوله تعالى: كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ النذر إما مصدر كما قيل و المعنى: كذبت ثمود بإنذار نبيهم صالح عليه السلام، و إما جمع نذير بمعنى المنذر، و المعنى: كذبت ثمود بالأنبياء لأن تكذيبهم بالواحد منهم تكذيب منهم بالجميع لأن رسالتهم واحده لا اختلاف فيها فيكون فى معنى قوله: كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (الشعراء ١٤١)، و إما جمع نذير بمعنى الإنذار و مرجعه الى أحد المعنيين السابقين.

قوله تعالى: فَقَالُوا أَ بَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفَى ضَلَالٍ وَ سَعُرٍ تَفْرِيعٍ عَلَى التَّكْذِيبِ وَ السَّعْرُ جَمْعُ سَعِيرٍ بِمَعْنَى النَّارِ الْمَشْتَعَلَةِ، وَ احْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى الْجُنُونِ وَ هُوَ أَنْسَبُ لِلسِّيَاقِ، وَ الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَاحِدِ الْوَاحِدِ الْعَدْدِي، وَ الْمَعْنَى: كَذَّبُوا بِهِ فَقَالُوا: أَ بَشَرًا مِنْ نَوْعِنَا وَ هُوَ شَخْصٌ وَاحِدٌ لَا عَدَّهُ لَهُ وَ لَا جَمُوعٌ مَعَهُ نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا مَسْتَقْرُونَ فِي ضَلَالٍ عَجِيبٍ وَ جُنُونٍ.

فيكون هذا القول توجيهها منهم لعدم اتباعهم لصالح لفقده العده و القوه و هم قد اعتادوا على اتباع من عنده ذلك كالمملوك و العظماء و قد كان لصالح عليه السلام يدعوهم الى طاعه نفسه و رفض طاعه عظمائهم كما يحكيه الله سبحانه عنه بقوله: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ لَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ (الشعراء ١٥١).

ص: ١٣٨

١- ١). القمر ٩-٤٢: كلام فى سعادته الايام و نحوستها و الطيره و الفأل فى فصول (فى سعادته الايام و نحوستها، فى سعادته الكواكب و نحوستها، فى التفاؤل و التطير).

و لو أخذ الواحد واحدا نوعيا كان المعنى: أبشرا هو واحد منا أى هو مثلنا و من نوعنا نتبعه؟ و كانت الآيه التاليه مفسره لها.

قوله تعالى: أَلْقَى الدُّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشْتَرٌ الاستفهام كسابقه للإنكار و المعنى: أ أنزل الوحي عليه و اختص به من بيننا و لا فضل له علينا؟ لا يكون ذلك أبدا، و التعبير بالإلقاء دون الإنزال و نحوه للإشعار بالعجله كما قيل.

و من المحتمل أن يكون المراد نفى أن يختص بإلقاء الذكر من بينهم و هو بشر مثلهم فلو كان الوحي حقا و جاز أن ينزل على البشر لنزل على البشر كلهم فما باله اختص بما من شأنه أن يرزقه الجميع؟ فتكون الآيه فى معنى قولهم له كما فى سوره الشعراء: مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا (الشعراء ١٥٤).

و قوله: بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشْتَرٌ أى شديد البطر متكبر يريد أن يتعظم علينا بهذا الطريق.

قوله تعالى: سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مَنْ الكَذَّابِ الْأَشْتَرِ حكاية قوله سبحانه لصالح عليه السلام كالأيتين بعدها.

و المراد بالغد العاقبه من قولهم: إن مع اليوم غدا، يشير سبحانه به الى ما سينزل عليهم من العذاب فيعلمون عند ذلك علم عيان من هو الكذاب الأشر صالح أو هم؟

قوله تعالى: إِذَا مُرِّسُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَأَرْتَقِبْهُمْ وَاصِطَبِرْ فى مقام التعليل لما أخبر من أنهم سينزل عليهم العذاب و المفاد أنهم سينزل عليهم العذاب لأننا فاعلون كذا و كذا، و الفتنه الامتحان و الابتلاء، و المعنى: إنا مرسلون-على طريق الإعجاز-الناقه التى يسألونها امتحانا لهم فانتظرهم و اصبر على أذاهم.

قوله تعالى: وَ بَيَّنَّهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُخْتَصِرٌ ضَمِيرُ الْجَمْعِ الْأَوَّلِ لِلْقَوْمِ وَ الثَّانِي لِلْقَوْمِ وَ النَّاقَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّغْلِيْبِ، وَ الْقِسْمَهُ بِمَعْنَى الْمَقْسُومِ، وَ الشَّرْبَ

النصيب من شرب الماء، والمعنى: و خبرهم بعد إرسال الناقة أن الماء مقسوم بين القوم و بين الناقة كل نصيب من الشرب يحضر عنده صاحبه فيحضر القوم عند شربهم و الناقة عند شربها قال تعالى: **قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ آلِهِمْ شَرِبُوا مِنْهَا شَرِبُوا وَ لَكُمْ شَرِبُوا يَوْمَ مَعْلُومٍ** (الشعراء ١٥٥).

قوله تعالى: **فَذَاوُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ** المراد بصاحبهم عاقر الناقة، و التعاطى التناول و المعنى: فنادى القوم عاقر الناقة لعقرها فتناول عقرها فعقرها و قتلها.

قوله تعالى: **فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَ نَذْرِي إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ** المحتظر صاحب الحظيره و هى كالحائط يعمل ليجعل فيه الماشيه، و هشيم المحتظر الشجر اليابس و نحوه يجمعه صاحب الحظيره لماشيته، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: **وَ لَقَدْ يَسْرْنَا الخ**؛ تقدم تفسيره.

قوله تعالى: **كَذَّبَتْ قَوْمٌ لُوطٍ بِالنُّذْرِ** تقدم تفسيره فى نظيره.

قوله تعالى: **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحْرِ** الحاصب الريح التى تأتى بالحجاره و الحصباء، و المراد بها الريح التى أرسلت فرمتهم بسجيل منضود.

و قال فى مجمع البيان: سحر إذا كان نكره يراد به سحر من الأسحار يقال: رأيت زيدا سحرا من الأسحار فإذا أردت سحر يومك قلت: أتيت به سحر - بالفتح - و أتيت به سحر - من غير تنوين - انتهى، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: **نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ «نِعْمَةٌ»** مفعول له من «نَجَّيْنَاهُمْ» أى نجيناهم ليكون نعمه من عندنا نخصهم بها لأنهم كانوا شاكرين لنا و جزاء الشكر لنا النجاه.

قوله تعالى: **وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتْنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ** ضمير الفاعل فى

«أَنْذَرَهُمْ» للوط عليه السّلام، و البطشه الأخذه الشديده بالعذاب، و التمارى الإصرار على الجدل و إلقاء الشك، و النذر الإنذار، و المعنى: أقسم لقد خوفهم لوط أخذنا الشديد فجادلوا فى إنذاره و تخويله.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ رَأَوْهُ عَنِ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَ نُذِرِ مَرَاوِدَهُ عَنْ ضَيْفِهِ طَلَبَهُمْ مِنْهُ أَنْ يَسْلَمَ إِلَيْهِمْ أَضْيَافَهُ وَ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَ طَمَسَ أَعْيُنَهُمْ مَحَوَّهَا، وَ قَوْلُهُ: «فَذُوقُوا عَذَابِي وَ نُذِرِ» التَّفَاتُ إِلَى خُطَابِهِمْ تَشْدِيدًا وَ تَقْرِيعًا، وَ النَّذْرُ مَصْدَرٌ أُرِيدَ بِهِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْإِنذَارُ وَ هُوَ الْعَذَابُ، وَ الْمَعْنَى ظَاهِرٌ.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ قَالَ فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ: وَ قَوْلُهُ:

«بُكْرَةً» ظَرَفَ زَمَانَ فَإِذَا كَانَ مَعْرَفَهُ أَنَّ تَرِيدَ بَكْرَهُ يَوْمَكَ تَقُولُ: أَتَيْتَهُ بِكْرَهُ وَ غَدَوَهُ لَمْ تَصْرَفْهُمَا بِكْرَهُ هُنَا- وَ قَدْ نَوَّنَ-نَكَرَهُ، وَ الْمُرَادُ بِاسْتِقْرَارِ الْعَذَابِ حُلُولُهُ بِهِمْ وَ عَدَمُ تَخْلُفِهِ عَنْهُمْ.

قوله تعالى: «فَذُوقُوا عَذَابِي»- إلى قوله- مِنْ مَدَّكَ تَقْدِيمٌ تَفْسِيرُهُ.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذْرُ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاَهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ الْمُرَادُ بِالنَّذْرِ الْإِنذَارُ، وَ قَوْلُهُ: «كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا» مَفْصُولٌ مِنْ غَيْرِ عَطْفٍ لِكَوْنِهِ جَوَابًا لِسُؤَالِ مُقَدَّرٍ كَأَنَّهُ لَمَّا قِيلَ: «وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذْرُ» قِيلَ: فَمَا فَعَلُوا؟ فَاجِيبُ بِقَوْلِهِ: «كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا»، وَ فَرَعَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «فَأَخَذْنَاَهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ».

[سوره القمر (٥٤): الآيات ٤٣ الى ٥٥]

أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَ السَّاعَةُ أَذْهَبَةٌ وَ أَمْرٌ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَ سُعْرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَ مَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلِمَةً بَالْبَصْرِ (٥٠) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاءَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَدَّكِرٍ (٥١) وَ كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَ كُلُّ صَيْغِيرٍ وَ كَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَهْرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥)

قوله تعالى: أَ كُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ الظاهر أنه خطاب لقوم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ مُسْلِمٍ وَ كَافِرٍ عَلَى مَا تَشْعُرُ بِهِ الْإِضَافَةُ فِي «كُفَّارُكُمْ» وَ الْخَيْرِيَّةُ هِيَ الْخَيْرِيَّةُ فِي زِينَةِ الدُّنْيَا وَ زَخَارِفِ حَيَاتِهَا كَالْمَالِ وَ الْبَنِينَ أَوْ مِنْ جِهَةِ الْأَخْلَاقِ الْعَامَةِ فِي مَجْتَمَعِهِمْ كَالسُّخَاءِ وَ الشُّجَاعِ وَ الشَّفَقَةِ عَلَى الضَّعْفَاءِ، وَ الْإِشَارَةُ بِأَوْلِيئِكُمْ إِلَى الْأَقْوَامِ الْمَذْكُورَةِ أَنْبَاءُهُمْ: قَوْمُ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودٍ وَ قَوْمِ لُوطٍ وَ آلِ فِرْعَوْنَ، وَ الْإِسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ.

و المعنى: ليس الذين كفروا منكم خيرا من اولئكم الامم المهلكين المعذيين حتى يشملهم العذاب دونكم.

و يمكن أن يكون خطاب «أ كُفَّارُكُمْ» لخصوص الكفار بعنايه أنهم قوم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ فِيهِمْ

كفار و هم هم.

وقوله: **أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ** ظاهره أيضا عموم الخطاب، و الزبر جمع زبور و هو الكتاب، و قد ذكروا أن المراد بالزبر الكتب السماويه المنزله على الأنبياء، و المعنى: بل أ لكم براءه فى الكتب السماويه التى نزلت من عند الله أنكم فى أمن من العذاب و المؤاخذه و إن كفرتم و أجرتم و اقترتم ما شئتم من الذنوب.

قوله تعالى: **أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ** و المراد به وحده مجتمعهم من حيث الإراده و العمل، و الانتصار الانتقام أو التناصر كما فى خطابات يوم القيامة **مَا لَكُمْ لَا تَنصِرُونَ** (الصفات ٢٥)، و المعنى: بل أ يقولون أى الكفار نحن قوم مجتمعون متحدون ننتقم ممن أرادنا بسوء أو ينصر بعضنا بعضا فلا نهزم.

قوله تعالى: **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** اللام فى «الجمْع» للعهد الذكري و فى «الدُّبُرَ» للجنس، و تولى الدبر الإدبار، و المعنى: سيهزم الجمع الذى يتبجحون به و يولون الأدبار و يفرون.

و فى الآيه إخبار عن مغلوبيه و انهزام لجمعهم، و دلالة على أن هذه المغلوبيه انهزام منهم فى حرب سيقدمون عليها، و قد وقع ذلك فى غزاه بدر، و هذا من ملاحم القرآن الكريم.

قوله تعالى: **يَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَ السَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرٌ** اسم تفضيل من الدهاء و هو عظم البليه المنكره التى ليس الى التخلص منها سبيل، و «أمرٌ» اسم تفضيل من المراره ضد الحلاوه، و فى الآيه إضراب عن إبعادهم بالانهزام و العذاب الدنيوى الى إبعادهم بما سيجرى عليهم فى الساعه و قد أشير الى نبئها فى أول الأنباء الزاجره، و الكلام يفيد الترقى.

و المعنى: و ليس الانهزام و العذاب الدنيوى تمام عقوبتهم بل الساعه التى أشرنا الى نبئها هى موعدهم و الساعه أدهى من كل داهيه و أمرٌ من كل مرّ.

قوله تعالى: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ جمع سعير و هي النار المسعرة و في الآية تعليل لما قبلها من قوله: وَالسَّاعَةُ أَذْهَىٰ وَ أَمْرٌ، والمعنى: إنما كانت الساعه أدهى و أمر لهم لأنهم مجرمون و المجرمون في ضلال عن موطن السعاده و هو الجنة و نيران مسعره.

قوله تعالى: يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ السحب جر الإنسان على وجهه، و «يَوْمَ» ظرف لقوله: «فِي ضَلَالٍ وَ سُعْرٍ»، و «سَقَرَ» من أسماء جهنم و مسها هو إصابتها لهم بحرّها و عذابها.

و المعنى: كونهم في ضلال و سعير في يوم يجزون في النار على وجوههم يقال لهم: ذوقوا ما تصيبكم جهنم بحرّها و عذابها.

قوله تعالى: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ «كُلَّ شَيْءٍ» منصوب بفعل مقدر يدل عليه «خَلَقْنَاهُ» و التقدير خلقنا كل شيء خلقناه، و «بِقَدَرٍ» متعلق بقوله: «خَلَقْنَاهُ» و الباء للمصاحبه، و المعنى: إنا خلقنا كل شيء مصاحبا لقدر.

و قدر الشيء هو المقدار الذي لا يتعداه و الحد و الهندسه التي لا يتجاوزها في شيء من جانبي الزيادة و النقصه، قال تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (الحجر ٢١)، فلكل شيء حد محدود في خلقه لا يتعداه و صراط ممدود في وجوده يسلكه و لا يتخطاه.

و الآية في مقام التعليل لما في الآيتين السابقتين من عذاب المجرمين يوم القيامة كأنه قيل:

لما إذا جوزى المجرمون بالضلال و السعير يوم القيامة و أذيقوا مس سقر؟ فاجيب بقوله: «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ» و محصله أن لكل شيء قدرا و من القدر في الإنسان أن الله سبحانه خلقه نوعا متكاثرا الأفراد بالتناسل اجتماعيا في حياته الدنيا يتزود من حياته الدنيا دائره حياته الآخرة الباقيه، و قد أن يرسل اليهم رسولا يدعوهم الى سعاده الدنيا و الآخرة فمن استجاب

الدعوه فاز بالسعاده و دخل الجنة و جاور ربه، و من ردّها و أجرم فهو فى ضلال و سعر.

قوله تعالى: وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: اللَّحْمُ النَّظَرُ بِالْعَجَلِ وَ هُوَ خَطْفُ الْبَصْرِ. انتهى.

و المراد بالأمر ما يقابل النهى لكنه الأمر التكويني بإرادته وجود الشيء، قال تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس ٨٢) فهو كلمه كن و لعله لكونه كلمه اعتبر الخبر مؤنثا ف قيل «إِلَّا وَاحِدَةٌ» .

و الذى يفيد السياق أن المراد بكون الأمر واحده أنه لا يحتاج فى مضيّه و تحقق متعلقه الى تعدد و تكرار بل أمر واحد بإلقاء كلمه كن يتحقق به المتعلق المراد كلمح بالبصر من غير تأنّ و مهل حتى يحتاج الى الأمر ثانيا و ثالثا.

و تشبيه الأمر من حيث تحقق متعلقه بلمح بالبصر لا لإفاده أن زمان تأثيره قصير كزمان تحقق اللحم بالبصر بل لإفاده أنه لا يحتاج فى تأثيره الى مضيّ زمان و لو كان قصيرا فإن التشبيه باللحم بالبصر فى الكلام يكتفى به عن ذلك، فأمره تعالى و هو إيجاد و إرادته وجوده لا- يحتاج فى تحقق الى زمان و لا مكان و لا حركه كيف لا؟ و نفس الزمان و المكان و الحركه إنما تحققت بأمره تعالى.

و الآيه و إن كانت بحسب مؤدّاهما فى نفسها تعطى حقيقه عامه فى خلق الأشياء و أن وجودها من حيث إنه فعل الله سبحانه كلمح بالبصر و إن كان من حيث إنه وجود لشيء كذا تدريجيا حاصلًا شيئًا فشيئًا.

إلا أنها بحسب وقوعها فى سياق إبعاد الكفار بعذاب يوم القيامة ناظره الى إتيان الساعه و أن أمرا واحدا منه تعالى يكتفى فى قيام الساعه و تجديد الخلق بالبعث و النشور فتكون متممه لما أقيم من الحججه بقوله: «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ» .

فيكون مفاد الآيه الاولى أن عذابهم بالنار على وفق الحكمة و لا محيص عنه بحسب الإراده

الإلهيه لأنه من القدر، ومفاد هذه الآية أن تحقق الساعه التي يعذبون فيها بمضى هذه الإراده و تحقق متعلقها لا مئونه فيه عليه سبحانه لأنه يكفى فيه أمر واحد منه تعالى كلمح بالبصر.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا أَشْيَاءَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرِ الْأَشْيَاعِ** جمع شيعه و المراد - كما قيل - الأشباه و الأمثال فى الكفر و تكذيب الأنبياء من الامم الماضيه.

و المراد بالآيه و الآيتين بعدها تأكيد الحججه السابقه التى أقيمت على شمول العذاب لهم لا محاله.

و محصل المعنى: أن ليس ما أنذرناكم به من عذاب الدنيا و عذاب الساعه مجرد خبر أخبرناكم به و لا قول ألقيناه اليكم فهذه أشياعكم من الامم الماضيه شرع فيهم بذلك فقد أهلكناهم و هو عذابهم فى الدنيا و سيلقون عذاب الآخره فإن أعمالهم مكتوبه مضبوطه فى كتب محفوظه عندنا سنحاسبهم بها و نجازيهم بما عملوا.

قوله تعالى: **وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ مُسْتَطَرُّ الزُّبُرِ** كتب الأعمال و تفسيره باللوح المحفوظ سخيف، و المراد بالصغير و الكبير صغير الأعمال و كبيرها على ما يفيد السياق.

قوله تعالى: **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَهَرٍ** أى فى جنات عظيمه الشأن بالغه الوصف و نهر كذلك، قيل: المراد بالنهر الجنس، و قيل: النهر بمعنى السعه.

قوله تعالى: **فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ** المقعد المجلس، و المليك صيغه مبالغه للملك على ما قيل، و ليس من إشباع كسر لام الملك، و المقتدر القادر العظيم القدره و هو الله سبحانه.

و المراد بالصدق صدق المتقين فى إيمانهم و عملهم أضيف اليه المقعد لملابسه ما و يمكن أن يراد به كون مقامهم و ما لهم فيه صدقا لا يشوبه كذب فلهم حضور لا غيبه معه، و قرب لا بعد

معها، و نعمه لا نغمه معها، و سرور لا غمّ معه، و بقاء لا فناء معه.

و يمكن أن يراد به صدق هذا الخبر من حيث إنه تبشير و وعد جميل للمتقين، و على هذا ففيه نوع مقابله بين وصف عاقبه المتقين و المجرمين حيث أوعد المجرمون بالعذاب و الضلال و قرر ذلك بأنه من القدر و لن يتخلف، و وعد المتقون بالثواب و الحضور عند ربهم المليك المقتدر و قرر ذلك بأنه صدق لا كذب فيه (١)(٢).

ص: ١٤٧

١-١. القمر ٤٣-٥٥: بحث روائى حول القدر؛ القدرية؛ الذين أحبوا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم.

٢-٢. القمر ٤٣-٥٥: كلام فى القدر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَ
النَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا
الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّحْلُ ذَاتُ الْأَكْتَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ (١٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ (١٦)
رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ
كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ (٢٥) كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَبَاقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ (٢٨) يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ (٣٠)

تتضمن السوره الإشاره الى خلقه تعالى العالم بأجزائه من سماء و أرض و برّ و بحر و إنس و جن و نظم أجزاءه نظماً ينتفع به الثقلاءن الإنس و الجن فى حياتهما و ينقسم بذلك العالم الى نشأتين:نشأه دنيا ستفنى بفناء أهلها،و نشأه أخرى باقيه تتميز فيها السعاده من الشقاء و النعمه من النقمه.

و بذلك يظهر أن دار الوجود من دنياها و آخرتها ذات نظام واحد مؤتلف الأجزاء مرتبط الأبعاض قويم الأركان يصلح بعضه ببعض و يتم شطر منه بشطر.

فما فيه من عين و أثر،من نعمه تعالى و آلائه،و لذا يستفهمهم مره بعد مره استفهما مشوباً بعتاب بقوله: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» فقد كررت الآية فى السوره إحدى و ثلاثين مره.

و لذلك افتتحت السوره بذكره تعالى بصفه رحمته العامه الشامله للمؤمن و الكافر و الدنيا و الآخره و اختتمت بالثناء عليه بقوله: «تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» .

و السوره يحتمل كونها مكيه أو مدنيه و إن كان سياقها بالسياق المكي أشبه و هى السوره الوحيدة فى القرآن التحت بعد البسملة باسم من أسماء الله عز اسمه،و فى المجمع عن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم قال:لكل شىء عروس و عروس القرآن سوره الرحمن جلّ ذكره،و رواه فى الدر المنثور عن البيهقى عن على عليه السلام عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

قوله تعالى: أَلرَّحْمٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ الرحمن كما تقدم فى تفسير سوره الفاتحه صيغه مبالغه تدل على كثره رحمه ببذل النعم و لذلك ناسب أن يعم ما يناله المؤمن و الكافر من نعم الدنيا و ما يناله المؤمن من نعم الآخره،و لعمومه ناسب أن يصدر به الكلام لاشتمال الكلام فى السوره على أنواع النعم الدنيويه و الاخرويه التى ينتظم بها عالم الثقليين الإنس و الجن.

ذكروا أن الرحمن من الأسماء الخاصة به تعالى لا يسمى به غيره بخلاف مثل الرحيم والراحم.

وقوله: «عَلَّمَ الْقُرْآنَ» شروع في عد النعم الإلهيه، و لما كان القرآن أعظم النعم قدرا و شأننا و أرفعها مكانا-لأنه كلام الله الذى يخط صراطه المستقيم و يتضمن بيان نهج السعاده التى هى غايه ما يأمله آمل و نهايه ما يسأله سائل-قدم ذكر تعليمه على سائر النعم حتى على خلق الإنس و الجن اللذين نزل القرآن لأجل تعليمهما.

و حذف مفعول «عَلَّمَ» الأول و هو الإنسان أو الإنس و الجن و التقدير علم الإنسان القرآن أو علم الإنس و الجن القرآن، و هذا الاحتمال الثانى إن لم يتعرضوا له لكنه أقرب الاحتمالين لأن السوره تخاطب فى تضاعيف آياتها الجن كالإنس و لو لا شمول التعليم فى قوله:

«عَلَّمَ الْقُرْآنَ» لهم لم يتم ذلك.

قوله تعالى: خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ذكر خلق الإنسان و سيدكر خصوصيه خلقه بقوله: «خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ»، و الإنسان من أعجب مخلوقات الله تعالى أو هو أعجبها يظهر ذلك بقياس وجوده الى وجود غيره من المخلوقات و التأمل فيما خط له من طريق الكمال فى ظاهره و باطنه و دنياه و آخرته، قال تعالى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (التين ١٦).

وقوله: عَلَّمَهُ الْبَيَانَ البيان الكشف عن الشئ و المراد به الكلام الكاشف عما فى الضمير، و هو من أعجب النعم و تعليمه للإنسان من عظيم العناية الإلهيه المتعلقة به فليس الكلام مجرد إيجاد صوت ما باستخدام الرثه و قصبته و الحلقوم و لا ما يحصل من التنوع فى الصوت الخارج من الحلقوم باعتماده على مخارج الحروف المختلفه فى الفم.

بل يجعل الإنسان بإلهام باطنى من الله سبحانه الواحد من هذه الأصوات المعتمده على

مخرج من مخارج الفم المسمى حرفاً أو المركب من عدة من الحروف علامه مشيره الى مفهوم من المفاهيم يمثل به ما يغيب عن حس السامع و إدراكه فيقدر به على إحضار أى وضع من أوضاع العالم المشهود و إن جل ما جل أو دق ما دق من موجود أو معدوم ماض أو مستقبل، ثم على إحضار أى وضع من أوضاع المعانى غير المحسوسه التى ينالها الإنسان بفكره و لا سبيل للحس إليها يحضرها جميعا لسامعه و يمثلها لحسه كأنه يشخصها له بأعيانها.

و لا- يتم للإنسان اجتماعه المدنى و لا تقدم فى حياته هذا التقدم الباهر إلا بتنبهه لوضع الكلام و فتحه بذلك باب التفهيم و التفهم، و لو لا ذلك لكان هو و الحيوان العجم سواء فى جمود الحياه و ركودها.

و من أقوى الدليل على أن اهتداء الإنسان الى البيان بإلهام إلهى له أصل فى التكوين اختلاف اللغات باختلاف الامم و الطوائف فى الخصائص الروحيه و الأخلاق النفسانيه و بحسب اختلاف المناطق الطبيعيه التى يعيشون فيها، قال تعالى: **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالاختلافُ اَلْسِنَتِكُمْ وَ اَلْوَانِكُمْ** (الروم ٢٢).

و ليس المراد بقوله: «عَلَّمَهُ الْبَيَانَ» أن الله سبحانه وضع اللغات ثم علمها الإنسان بالوحى الى نبي من الأنبياء أو بالإلهام فإن الإنسان بوقوعه فى ظرف الاجتماع مندفع بالطبع الى اعتبار التفهيم و التفهم بالإشارات و الأصوات و هو التكلم و النطق لا يتم له الاجتماع المدنى دون ذلك.

على أن فعله تعالى هو التكوين و الإيجاد و الرابطه بين اللفظ و معناه اللغوى وضعيه اعتباريه لا حقيقيه خارجيه بل الله سبحانه خلق الإنسان و فطره فطره تؤديه الى الاجتماع المدنى ثم الى وضع اللغه بجعل اللفظ علامه للمعنى بحيث إذا ألقى اللفظ الى سامعه فكأنما يلقى اليه المعنى ثم الى وضع الخط بجعل الأشكال المخصوصه علائم للألفاظ فالخط مكمل لغرض الكلام، و هو يمثل الكلام كما أن الكلام يمثل المعنى.

و بالجمله البيان من أعظم النعم والآلاء الربانيه التى تحفظ لنوع الإنسان موقفه الإنسانى و تهديه الى كل خير.

هذا ما هو الظاهر المتبادر من الآيتين، و لهم فى معناهما أقوال: فقيل: الإنسان هو آدم عليه السلام و البيان الأسماء التى علمه الله إياها.

قوله تعالى: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ الحسبان مصدر بمعنى الحساب، و الشمس مبتدأ و القمر معطوف عليه، و بحسبان خبره، و الجمله خبر بعد خبر لقوله:

«الرَّحْمَنُ» و التقدير الشمس و القمر يجريان بحساب منه على ما قدر لهما من نوع الجرى.

قوله تعالى: وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ قالوا: المراد بالنجم ما ينجم من النبات و يطلع من الأرض و لا ساق له، و الشجر ما له ساق من النبات، و هو معنى حسن يؤيده الجمع و القرن بين النجم و الشجر و إن كان ربما أوهم سبق ذكر الشمس و القمر كون المراد بالنجم هو الكواكب.

و سجود النجم و الشجر انقيادهما للأمر الإلهى بالنشوء و النمو على حسب ما قدر لهما كما قيل، و أدق منه أنهما يضربان فى التراب باصولهما و أعراقهما لجذب ما يحتاجان اليه من المواد العنصريه التى يغتذيان بها و هذا السقوط على الأرض إظهارا للحاجه الى المبدأ الذى يقضى حاجتهما- و هو فى الحقيقه الله الذى يريهما كذلك- سجود منهما له تعالى.

قوله تعالى: وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ المراد بالسماء إن كان جهه العلو فرفعها خلقها مرفوعه لا رفعها بعد خلقها و إن كان ما فى جهه العلو من الأجرام فرفعها تقدير محالها بحيث تكون مرفوعه بالنسبه الى الأرض بالفتق بعد الرثق كما قال تعالى: أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا (الأنبياء ٣٠)، و الرفع على أى حال رفع حسى.

و إن كان المراد ما يشمل منازل الملائكه الكرام و مصادر الأمر الإلهى و الوحي فالرفع

معنوى أو ما يشمل الحسى و المعنوى.

و قوله: «وَوَضَعَ الْمِيزَانَ» المراد بالميزان كل ما يوزن أى يقدر به الشىء أعم من أن يكون عقيدته أو قولاً أو فعلاً و من مصاديقه الميزان الذى يوزن به الأثقال، قال تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ (الحديد/ ٢٥).

فظاهره مطلق ما يميز به الحق من الباطل و الصدق من الكذب و العدل من الظلم و الفضيله من الرذيله على ما هو شأن الرسول أن يأتى به من عند ربه.

و قيل: المراد بالميزان العدل أى وضع الله العدل بينكم لتسوّوا به بين الأشياء بإعطاء كل ذى حق حقه.

و قيل: المراد الميزان الذى يوزن به الأثقال و المعنى الأول أوسع و أشمل.

قوله تعالى: «أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ الظاهر أن المراد بالميزان الميزان المعروف و هو ميزان الأثقال، فقوله: «أَلَّا تَطْغَوْا» الخ؛ على تقدير أن يراد بالميزان فى الآيه السابقه أيضا ميزان الأثقال، و هو بيان وضع الميزان، و المعنى أن معنى وضعنا الميزان بينكم هو أن اعدلوا فى وزن الأثقال و لا تطغوا فيه.

و على تقدير أن يراد به مطلق التقدير الحق أو العدل هو استخراج حكم جزئى من حكم كلى، و المعنى أن لازم ما وضعناه من التقدير الحق أو العدل بينكم هو أن تزنوا الأثقال بالقسط و لا تطغوا فيه.

و على أى حال الظاهر أن «أن» فى قوله: «أَلَّا تَطْغَوْا» تفسيريه، و «أَلَّا تَطْغَوْا» نهى عن الطغيان فى الميزان و «أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ» أمر معطوف عليه، و القسط العدل و «لَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ» نهى آخر مبين لقوله: «أَلَّا تَطْغَوْا» الخ؛ و مؤكده. و الاخسار فى الميزان التطفيف به بزياده أو نقيصه بحيث يخسر البائع أو المشتري.

و أما جعل «أن» ناصبه و «أَلَّا تَطْغَوْا» نفيًا، و التقدير: لئلا تطغوا، فيحتاج الى تكلف توجيه في عطف الإنشاء على الإخبار في قوله: «وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ» الخ.

قوله تعالى: «وَ الْمَأْرُضَ وَ ضَعْفَهَا لِلْأَنْفَامِ الْأَنْفَامِ النَّاسِ، وَ قِيلَ: الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ، وَ قِيلَ: كُلُّ مَا يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ، وَ فِي التَّعْبِيرِ فِي الْأَرْضِ بِالْوَضْعِ قِبَالَ التَّعْبِيرِ فِي السَّمَاءِ بِالرَّفْعِ لَطْفٌ ظَاهِرٌ.

قوله تعالى: «فِيهَا فَآكِهَةٌ وَ النَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ الْمَرَادُ بِالْفَاكِهَةِ الثَّمَرَةُ غَيْرَ التَّمْرِ، وَ الْأَكْمَامُ جَمْعُ كَمٍ بِضَمِّ الْكَافِ وَ كَسْرِهَا وَ عَاءُ التَّمْرِ وَ هُوَ الطَّلَعُ، وَ أَمَّا كَمِ الْقَمِيصِ فَهُوَ مَضْمُومُ الْكَافِ لَا غَيْرَ كَمَا قِيلَ.

قوله تعالى: «وَ الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَ الرِّيحَانُ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «فَاكِهَةٌ» أَيْ وَ فِيهَا الْحَبُّ وَ الرِّيحَانُ، وَ الْحَبُّ مَا يَقْتَاتُ بِهِ كَالْحِنْطَةِ وَ الشَّعِيرِ وَ الْأَرْزِ، وَ الْعَصْفُ مَا هُوَ كَالْغُلَافِ لِلْحَبِّ وَ هُوَ قَشْرُهُ، وَ فَسَّرَ بَوْرُقَ الزَّرْعِ مَطْلَقًا وَ بَوْرُقَ الزَّرْعِ الْيَابِسِ، وَ الرِّيحَانُ النَّبَاتُ الطَّيِّبُ الرَّائِحَةُ.

قوله تعالى: «فَبَأَى آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ الْآلَاءُ جَمْعُ إِلَى بِمَعْنَى النِّعْمَةِ.

و الخطاب في الآيه لعامه الثقلين: الجن و الإنس و يدل على ذلك توجيه الخطاب اليهما صريحا فيما سيأتي من قوله: «سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ» و قوله: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ» الخ؛ و قوله: «يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ» الخ؛ فلا يصغى الى قول من قال: إن الخطاب في الآيه للذكر و الانثى من بنى آدم، و لا الى قول من قال: إنه من خطاب الواحد بخطاب الاثنين و يفيد تكرار الخطاب نحو يا شرطى اضربا عنقه أى اضرب عنقه اضرب عنقه.

و توجيه الخطاب الى عالمي الجن و الإنس هو المصحح لعد ما سنذكره من شدائد يوم القيامة و عقوبات المجرمين من أهل النار من آلائه و نعمه تعالى، فإن سوق المسيئين و أهل الشقوه في نظام الكون الى ما تقتضيه شقوتهم و مجازاتهم بتبعات أعمالهم من لوازم صلاح

النظام العام الجارى فى الكل الحاكم على الجميع فذلك نعمه بالقياس الى الكل و إن كان نقمه بالنسبه الى طائفه خاصه منهم و هم المجرمون و هذا نظير ما نجده فى السنن و القوانين الجاريه فى المجتمعات فإن التشديد على أهل البغى و الفساد مما يتوقف عليه حياه المجتمع و بقاءه و ليس يتنعم به أهل الصلاح خاصه كما أن إثابه أهل الصلاح بالثناء الجميل و الأجر الحسن كذلك.

فما فى النار من عذاب و عقاب لأهلها و ما فى الجنة من كرامه و ثواب آلاء و نعم على معشر الجن و الإنس كما أن الشمس و القمر و السماء المرفوعه و الأرض الموضوعه و النجم و الشجر و غيرها آلاء و نعم على أهل الدنيا.

قوله تعالى: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ الصلصال الطين اليابس الذى يتردد منه الصوت إذا وطئ، و الفخار الخزف.

و المراد بالإنسان نوعه و المراد بخلقه من صلصال كالفخار انتهاء خلقه اليه، و قيل: المراد بالإنسان آدم عليه السلام.

قوله تعالى: وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ المارج هو اللهب الخالص من النار، و قيل: اللهب المختلط بسواد، و الكلام فى الجان كالكلام فى الإنسان فالمراد به نوع الجن، و عدّهم مخلوقين من النار باعتبار انتهاء خلقتهم إليها، و قيل: المراد بالجان أبو الجن.

قوله تعالى: رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ المراد بالمشرقين مشرق الصيف و مشرق الشتاء، و بذلك تحصل الفصول الأربعة و تنتظم الأرزاق، و قيل: المراد بالمشرقين مشرق الشمس و القمر و بالمغربين مغرباهما.

قوله تعالى: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ المريج الخلط و المريج الإرسال، يقال: مريج أى خلطه و مريج أى أرسله و المعنى الأول أظهر، و الظاهر أن المراد بالبحرين العذب الفرات و الملح الاجاج، قال تعالى: وَ مَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ

فَرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أَلْجَاجٌ وَ مِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا (فاطر ١٢).

و أمثل ما قيل فى الآيتين أن المراد بالبحرين جنس البحر المالح الذى يغمر قريبا من ثلاثه أرباع الكره الأرضيه من البحار المحيطه و غير المحيطه، و البحر العذب المدخر فى مخازن الأرض التى تنفجر الأرض عنها فتجرى العيون و الأنهار الكبيره فتصب فى البحر المالح، و لا يزالان يلتقيان، و بينهما حاجز و هو نفس المخازن الأرضيه و المجارى يحجز البحر المالح أن يبغي على البحر العذب فيغشيه و يبدله بحرا مالحا و تبطل بذلك الحياه، و يحجز البحر العذب أن يزيد فى الانصباب على البحر المالح فيبدله ماء عذبا فتبطل بذلك مصلحه ملوحته من تطهير الهواء و غيره.

و لا يزال البحر المالح يمدّ البحر العذب بالأمطار التى تأخذها منه السحب فتمطر على الأرض و تدخرها المخازن الأرضيه و البحر العذب يمدّ البحر المالح بالانصباب عليه.

فمعنى الآيتين -و الله أعلم- خلط البحرين العذب الفرات و الملح الاجاج حال كونهما مستمرين فى تلاقيهما بينهما حاجز لا يطغيان بأن يغمر أحدهما الآخر فيذهب بصفته من العذوبه و الملوحة فيختل نظام الحياه و البقاء.

قوله تعالى: يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجَانُ أى من البحرين العذب و المالح جميعا و ذلك من فوائدهما التى ينتفع بها الإنسان، و قد تقدم فيه الكلام فى تفسير قوله تعالى:

وَ مَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ الْآيَه؛ (فاطر ١٢).

قوله تعالى: وَ لَهُ الْجَوَارِ الْمُنشآتُ فى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ الجوارى جمع جاريه و هى السفينه، و المنشآت اسم مفعول من الإنشاء و هو إحداث الشىء و تربيته، و الأعلام جمع علم بفتحيتين و هو الجبل.

و عدّ الجوارى مملوكه له تعالى مع كونها من صنع الإنسان لأن الأسباب العامله فى إنشائها

من خشب و حديد و سائر أجزائها التي تتركب منها و الإنسان الذي يركبها و شعوره و فكره و إرادته كل ذلك مخلوق له و مملوك فما ينتجه عملها من ملكه.

فهو تعالى المنعم بها للإنسان ألهمه طريق صنعها و المنافع المترتبة عليها و سبيل الانتفاع بمنافعها الجمه.

قوله تعالى: **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَ يَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَ الْإِكْرَامِ** ضمير «عَلَيْهَا» للأرض أى كل ذى شعور و عقل على الأرض سيفنى و فيه تسجيل الزوال و الدثور على الثقلين.

و إنما أتى باللفظ الدال على أولى العقل- كل من عليها- لم يقل: كل من عليها كذلك لأن الكلام مسرود فى السوره لتعداد نعمه و آلائه تعالى للثقلين فى نشأتهم الدنيا و الآخرة.

و ظهور قوله: **فَانٍ** فى الاستقبال كما يستفاد أيضا من السياق يعطى أن قوله: «**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**» يشير الى انقطاع أمد النشأه الدنيا و ارتفاع حكمها بفناء من عليها و هم الثقلان و طلوع النشأه الاخرى عليهم، و كلاهما أعنى فناء من عليها و طلوع نشأه الجزاء عليهم من النعم و الآلاء لأن الحياه الدنيا حياه مقدميه لغرض الآخرة و الانتقال من المقدمه الى الغرض و الغايه نعمه.

و بذلك يندفع قول من قال: أى نعمه فى الفناء حتى يجعل من النعم و يعد من الآلاء.

و محصل الجواب أن حقيقه هذا الفناء الرجوع الى الله بالانتقال من الدنيا كما تفسره آيات كثيره فى كلامه تعالى و ليس هو الفناء المطلق.

و قوله: **وَ يَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ** وجه الشىء ما يستقبل به غيره و يقصده به غيره، و هو فيه سبحانه صفاته الكريمه التي تتوسط بينه و بين خلقه فتنزل بها عليهم البركات من خلق و تدبير كالعلم و القدره و السمع و البصر و الرحمه و المغفره و الرزق و قد تقدم فى تفسير سوره الأعراف كلام مبسوط فى كون أسمائه و صفاته تعالى و سائط بينه و بين خلقه.

وقوله: ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ فِي الْجَلالِ شَيْءٌ مِنْ مَعْنَى الِاعْتِلَاءِ وَ التَّرْفَعِ الْمَعْنَوِي عَلَى الْغَيْرِ فَيُنَاسِبُ مِنَ الصِّفَاتِ مَا فِيهِ شَائِبُهُ الدَّفْعِ وَالْمَنْعِ كَالْعُلُوِّ وَالتَّعَالَى وَ الْعِظْمَةِ وَ الْكِبْرِيَاءِ وَ التَّكْبِيرِ وَ الْإِحَاطَةَ وَ الْعِزَّةَ وَ الْغَلْبَةَ.

و يَبْقَى لِلْإِكْرَامِ مِنَ الْمَعْنَى مَا فِيهِ نَعْتُ الْبِهَاءِ وَ الْحَسَنِ الَّذِي يَجْذِبُ الْغَيْرَ وَ يُوَلِّهُهُ كَالْعِلْمِ وَ الْقُدْرَةِ وَ الْحَيَاةِ وَ الرَّحْمَةِ وَ الْجُودِ وَ الْجَمَالِ وَ الْحَسَنِ وَ نَحْوَهَا وَ تَسْمَى صِفَاتُ الْجَمَالِ كَمَا تَسْمَى الْقِسْمُ الْأَوَّلُ صِفَاتُ الْجَلالِ وَ تَسْمَى الْأَسْمَاءُ أَيْضًا عَلَى حَسَبِ مَا فِيهَا مِنْ صِفَاتِ الْجَمَالِ أَوْ الْجَلالِ بِأَسْمَاءِ الْجَمَالِ أَوْ الْجَلالِ.

فَذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرَامِ اسْمٌ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحَسَنِي جَامِعٌ بِمَفْهُومِهِ بَيْنَ أَسْمَاءِ الْجَمَالِ وَ أَسْمَاءِ الْجَلالِ جَمِيعًا.

وَ الْمَسْمَى بِهِ بِالْحَقِيقَةِ هُوَ الذَّاتُ الْمَقْدَسَةُ كَمَا فِي قَوْلِهِ فِي آخِرِ السُّورَةِ: «بَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ» لَكِنْ أُجْرِيَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ - وَ يَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ - عَلَى الْوَجْهِ، وَ هُوَ إِمَّا لِكُونِهِ وَصْفًا مَقْطُوعًا عَنِ الْوَصْفِيَةِ لِلْمَدْحِ، وَ التَّقْدِيرِ هُوَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرَامِ، وَ إِمَّا لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَجْهِ كَمَا تَقْدَمُ هُوَ صِفَتُهُ الْكَرِيمَةُ وَ اسْمُهُ الْمَقْدَسُ وَ إِجْرَاءُ الْاسْمِ عَلَى الْاسْمِ مَا لَهُ إِلَى إِجْرَاءِ الْاسْمِ عَلَى الذَّاتِ.

وَ مَعْنَى الْآيَةِ عَلَى تَقْدِيرِ أَنْ يَرَادَ بِالْوَجْهِ مَا يَسْتَقْبَلُ بِهِ الشَّيْءُ غَيْرُهُ وَ هُوَ الْاسْمُ - وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ بَقَاءَ الْاسْمِ (1) فَرَعٌ بَقَاءُ الْمَسْمَى - وَ يَبْقَى رَبُّكَ عِزَّ اسْمِهِ بِمَا لَهُ مِنَ الْجَلالِ وَ الْإِكْرَامِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُوَثِّرَ فَنَاقُؤُهُمْ فِيهِ أَثْرًا أَوْ يَغْيِّرَ مِنْهُ شَيْئًا.

وَ عَلَى تَقْدِيرِ أَنْ يَرَادَ بِالْوَجْهِ مَا يَقْصِدُهُ بِهِ غَيْرُهُ وَ مَصْدَاقَهُ كُلِّ مَا يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ تَعَالَى فَيَكُونُ مَقْصُودًا بِنَحْوِ اللَّمْتُوجِهِ إِلَيْهِ كَأَنْبِيَاءِهِ وَ أَوْلِيَاءِهِ وَ دِينِهِ وَ ثَوَابِهِ وَ قَرْبِهِ وَ سَائِرِ مَا هُوَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ

ص: ١٥٩

(١ - ١). المراد بالاسم ما يحكى عنه الاسم اللفظي دون اللفظ الحاكي.

فالمعنى: و يبقى بعد فناء أهل الدنيا ما هو عنده تعالى و هو من صقعه و ناحيته كأنواع الجزاء و الثواب و القرب منه، قال تعالى: مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ (النحل ٩٦).

و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ (القصص ٨٨) من الكلام بعض ما لا يخلو من نفع فى المقام.

قوله تعالى: يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ سؤال حجاجه فهم فى حاجه من جميع جهاتهم اليه تعالى متعلقو الوجودات به متمسكون بذيل غناه وجوده، قال تعالى: أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ (فاطر ١٥)، و قال فى هذا المعنى من السؤال: وَ أَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ (إبراهيم ٣٤).

و قوله: «كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» تنكير «شَأْنٍ» للدلاله على التفرق و الاختلاف فالمعنى:

كل يوم هو تعالى فى شأن غير ما فى سابقه و لا حقه من الشأن فلا يتكرر فعل من أفعاله مرتين و لا يماثل شأن من شئونه شأنًا آخر من جميع الجهات و إنما يفعل على غير مثال سابق و هو الإبداع، قال تعالى: بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (البقره ١١٧).

و معنى ظرفيه اليوم إحاطته تعالى فى مقام الفعل على الأشياء فهو سبحانه فى كل زمان و ليس فى زمان و فى كل مكان و ليس فى مكان و مع كل شىء و لا يدانى شيئاً (١).

[سوره الرحمن (٥٥): الآيات ٣١ الى ٧٨]

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شُوَاطِئَ مِنْ نَارٍ وَ نُحَاسًا فَلَا تَنْتَصِرُونَ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسَيِّئِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنُّوَاصِي وَ الْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَ بَيْنَ حَمِيمٍ آن (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) وَ لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِنَّ عِثَانٍ تَجْرِيانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِنَّ مِمَّا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رَوْحَانٍ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَ الْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَ مِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَمَمَتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِنَّ عِثَانٍ نَضَاحَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِنَّ فَاكِهَةٌ وَ نَخْلٌ وَ رُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْغِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَ عَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) لَبَّارِكُ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَ الْإِكْرَامِ (٧٨)

١-١) الرحمن ١-٣٠: بحث روائي في: المشرقين و المغربين؛ البحرين يلتقيان؛ وجه الله.

بيان:

قوله تعالى: سَيَنْفَرُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ [□] يقال: فرغ فلان لأمر كذا إذا كان مشغلا قبلا بأمور ثم تركها وقصر الاشتغال بذاك الأمر اهتماما به.

فمعنى «سَيَنْفَرُ لَكُمْ» سنطوى بساط النشأه الاولى و نشتغل بكم، و تبين الآيات التاليه أن المراد بالاشتغال بهم بعثهم و حسابهم و مجازاتهم بأعمالهم خيرا أو شرا فالفراغ لهم استعاره بالكنايه عن تبدل النشأه.

و لا ينافى الفراغ لهم كونه تعالى لا يشغله شأن عن شأن فإن الفراغ المذكور ناظر الى تبدل النشأه و كونه لا يشغله شأن عن شأن ناظر الى إطلاق القدره وسعتها كما لا ينافى كونه تعالى كل يوم هو فى شأن الناظر الى اختلاف الشئون كونه تعالى لا يشغله شأن عن شأن و الثقلان الجن و الإنس، و إرجاع ضمير الجمع فى «لَكُمْ» و «إِنْ اسْتَطَعْتُمْ» و غيرهما اليهما لكونهما جمعا ذا أفراد.

ص: ١٦٣

قوله تعالى: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْمِي تَطَعْتُمْ أَنْ تَتَّقُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْقُذُوا السَّخَّاءَ الْخَطَابِ-على ما يفيد
السياق-من خطابات يوم القيامة و هو خطاب تعجيزى.

و المراد بالاستطاعه قدره،و بالنفوذ من الأقطار الفرار،و الأقطار جمع قطر و هو الناحيه.

و المعنى:يا معشر الجن و الإنس-و قدّم الجن لأنهم على الحركات السريعه أقدر-إن قدرتم أن تفروا بالنفوذ من نواحي
السموات و الأرض و الخروج من ملك الله التخلص من مؤاخذته ففروا و انفذوا.

و قوله: لَا تَتَّقُوا إِلَّا السُّلْطَانَ أَى لَا تَقْدَرُونَ عَلَى النِّفْوَذِ إِلَّا بِنُوعٍ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى ذَلِكَ و ليس لكم و السلطان قدره
الوجوديه،و السلطان البرهان أو مطلق الحجه، و السلطان الملك.

قوله تعالى: يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِنْ نَارٍ وَ نُحَاسٍ فَلَا تَنْتَصِرُونَ الشَّوَاظِ-على ما ذكره الراغب-اللهب الذى لا دخان فيه،و يقرب
منه ما فى المجمع أنه اللهب الأخضر المنقطع من النار،و النحاس الدخان و قال الراغب:هو اللهب بلا دخان و المعنى ظاهر.

و قوله: فَلَا تَنْتَصِرُونَ أَى لَا تَتَنَصَّرُونَ بِأَنْ يَنْصُرَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا لِرَفْعِ الْبَلَاءِ وَ التَّخْلِصِ عَنِ الْعَنَاءِ لِسُقُوطِ تَأْثِيرِ الْأَسْبَابِ وَ لَا عَاصِمِ
اليوم من الله.

قوله تعالى: فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ أَى كَانَتْ حَمَاءَ كَالدِّهَانِ وَ هُوَ الْأَدِيمُ الْأَحْمَرُ.

قوله تعالى: فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ الْآيَةِ وَ مَا يَتْلُوها مِنَ الْآيَاتِ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ تَصِفُ الْحِسَابَ وَ الْجَزَاءَ تَصِفُ
حال المجرمين و الخائفين مقام ربهم و ما

ينتهي إليه.

ثم الآية تصف سرعه الحساب و قد قال تعالى: **وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** (النور ٣٩/).

و المراد بيومئذ يوم القيامة، و السؤال المنفى هو النحو المألوف من السؤال، و لا ينافى نفي السؤال في هذه الآية إثباته في قوله: **وَ قَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ** (الصفات ٢٤/)، و قوله:

فَو رَبِّكَ لَنَسِيئَلَهُمْ أَجْمَعِينَ (الحجر ٩٢/)، لأن اليوم ذو مواقف مختلفه يسأل في بعضها، و يختم على الأفواه في بعضها و تكلم الأعضاء، و يعرف بالسيما في بعضها.

قوله تعالى: **يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَ الْأَقْدَامِ** في مقام الجواب عن سؤال مقدر كأنه قيل: فإذا لم يسألوا عن ذنبهم فما يصنع بهم؟ فاجيب بأنه يعرف المجرمون بسيماهم، الخ؛ و لذا فصلت الجملة و لم يعطف، و المراد بسيماهم علامتهم البارزه في وجوههم.

و قوله: **فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَ الْأَقْدَامِ** الكلام متفرع على المعرفه المذكوره، و النواصي جمع ناصيه و هى شعر مقدم الرأس، و الأقدام جمع قدم، و قوله: **بِالنَّوَاصِي** نائب فاعل يؤخذ.

و المعنى: -لا- يسأل أحد عن ذنبه- يعرف المجرمون بعلامتهم الظاهره في وجوههم فيؤخذ بالنواصي و الأقدام من المجرمين فيلقون في النار.

قوله تعالى: **هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذَّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ** -الى قوله- **آنِ مَقُولِ قَوْلِ مَقْدَرِ أَى يَقَالِ يَوْمئذِ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذَّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ**، و قال الطبرسى: و يمكن أنه لما أخبر الله سبحانه أنهم يؤخذون بالنواصي و الأقدام قال للنبي صلى الله عليه و آله و سلم: هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون من قومك فسيردونها فليهن عليك أمرهم. انتهى.

و الحميم الماء الحار، و الآنى الذى انتهت حرارته و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: **وَ لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ شُرُوعِ فِي وَصْفِ حَالِ السَّعْدَاءِ مِنْ**

الخائفين مقام ربهم، و المقام مصدر ميمى بمعنى القيام مضاف الى فاعله، و المراد قيامه تعالى عليه بعمله و هو إحاطته تعالى و علمه بما عمله و حفظه له و جزاؤه عليه قال تعالى: **أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ** (الرعد ٣٣).

و يمكن أن يكون المقام اسم مكان و الإضافة لامية و المراد به مقامه و موقفه تعالى من عبده و هو أنه تعالى ربه الذى يدبر أمره و من تدبير أمره أنه دعاه بلسان رسله الى الإيمان و العمل الصالح و قضى أن يجازيه على ما عمل خيرا أو شرا هذا و هو محيط به و هو معه سميع بما يقول بصير بما يعمل لطيف خبير.

و الخوف من الله تعالى ربما كان خوفا من عقابه تعالى على الكفر به و معصيته، و لازمه أن يكون عباده من يعبده خوفا بهذا المعنى يراد بها التخلص من العقاب لا- لوجه الله محضا و هو عباده العبيد يعبدون مواليهم خوفا من السياسه كما أن عباده من يعبده طمعا فى الثواب غايتها الفوز بما تشتهي النفس دون وجهه الكريم و هى عباده التجار كما فى الروايات و قد تقدم شطر منها.

و الخوف المذكور فى الآيه- و لمن خاف مقام ربه- ظاهره غير هذا الخوف فإن هذا خوف من العقاب و هو غير الخوف من قيامه تعالى على عبده بما عمل أو الخوف من مقامه تعالى من عبده فهو تأثر خاص ممن ليس له إلا الصغار و الحقاره تجاه ساحه العظمه و الكبرياء، و ظهور أثر المذله و الهوان و الاندكاك قبال العزه و الجبروت المطلقين.

و عبادته تعالى خوفا منه بهذا المعنى من الخوف خضوع له تعالى لأنه الله ذو الجلال و الإكرام لا لخوف من عقابه و لا طمعا فى ثوابه بل فيه إخلاص العمل لوجهه الكريم، و هذا المعنى من الخوف هو الذى وصف الله به المكرمين من ملائكته و هم معصومون آمنون من عقاب المخالفه و تبعه المعصيه قال تعالى: **يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ** (النحل ٥٠).

فتبين مما تقدم أن الذين أشار اليهم بقوله: «**وَلِمَنْ خَافَ**» أهل الإخلاص الخاضعون

لجلاله تعالى العابدون له لأنه الله عز اسمه لا خوفا من عقابه ولا طمعا في ثوابه، ولا يبعد أن يكونوا هم الذين سمو سابقين في قوله: وَ كُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً - إلى أن قال - وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (الواقعه ١١).

وقوله: جَنَّاتٍ قِيلَ: إحداهما منزله و محل زياره أحبابه له و الاخرى منزل أزواجه و خدمه، وقيل: بستانان بستان داخل قصره و بستان خارجه، وقيل: منزلان ينتقل من أحدهما إلى الآخر ليكمل به التذاذه، وقيل: جنه لعقيدته و جنه لعمله، وقيل: جنه لفعل الطاعات و جنه لترك المعاصي، وقيل: جنه جسمانيه و جنه روحانيه و هذه الأقوال - كما ترى - لا دليل على شيء منها.

وقيل: جنه يثاب بها و جنه يتفضل بها عليه، و يمكن أن يستشعر ذلك من قوله تعالى:

لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (ق ٣٥)، على ما مر في تفسيره.

قوله تعالى: ذَوَاتَا أَفْتَانٍ ذواتا تشبيه ذات، و «أَفْتَانٍ» إما جمع فنّ بمعنى النوع و المعنى: ذواتا أنواع من الثمار و نحوها، و إما جمع فنن بمعنى الغصن الرطب اللين و المعنى: ذواتا أغصان لينة أشجارهما.

قوله تعالى: فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ و قد أبهمت العينان و فيه دلالة على فخامه أمرهما.

قوله تعالى: فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ أَي صنفان قيل: صنف معروف لهم شاهدوه في الدنيا و صنف غير معروف لم يروه في الدنيا، وقيل: غير ذلك، و لا دلالة في الكلام على شيء من ذلك.

قوله تعالى: مُتَّكِنِينَ عَلَى فُرْشٍ بَطَانَتُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ الخ؛ الفرش جمع فراش، و البطائن جمع بطانه و هي داخل الشيء و جوفه مقابل الظهائر جمع ظهره، و الاستبرق الغليظ قال في المجمع: ذكر البطانه و لم يذكر الظهاره لأن البطانه تدل على

أن لها ظهاره و البطانه دون الظهاره فدلّ على أن الظهاره فوق الإستبرق، انتهى.

و قوله: وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانَ الْجَنَا الثمر المجتنى و «دان» اسم فاعل من الدنوّ بمعنى القرب أى ما يجتنى من ثمار الجنتين قريب.

قوله تعالى: فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ ضمير «فِيهِنَّ» للفرش و جَوَزَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْجَنَانِ فَإِنَّهَا جَنَانٌ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ مِنْهَا جَنَّتَانِ، و الطرف جفن العين، و المراد بقصور الطرف اكتفاؤهن بأزواجهن فلا يردن غيرهم.

و قوله: لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لَا جَانٌّ الطمئ الافضاض و النكاح بالتدميه، و المعنى: لم يمسسهن بالنكاح إانس و لا جان قبل أزواجهن.

قوله تعالى: كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَ الْمَرْجَانُ أَى فِي صَفَاءِ اللَّوْنِ وَ الْبَهَاءِ وَ التَّلَافُؤِ.

قوله تعالى: هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ استفهام إنكارى فى مقام التعليل لما ذكر من إحسانه تعالى عليهم بالجنتين و ما فيهما من أنواع النعم و الآلاء فيفيد أنه تعالى يحسن اليهم هذا الإحسان جزاء لإحسانهم بالخوف من مقام ربهم.

و تفيد الآيه أن ما أوتوه من الجنة و نعيمها جزاء لأعمالهم و أما ما يستفاد من بعض الآيات أنهم يعطون فضلا وراء جزاء أعمالهم فلا تعرض فى هذه الآيات لذلك إلا أن يقال: الإحسان إنما يتم إذا كان يربو على ما أحسن به المحسن اليه فإطلاق الإحسان فى قوله: «إِلَّا الْإِحْسَانُ» يفيد الزيادة.

قوله تعالى: وَ مِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ضمير التثنيه للجنتين الموصوفتين فى الآيات السابقه و معنى «مِنْ دُونِهِمَا» أى أنزل درجه و أحط فضلا و شرفا منهما و إن كانتا شبيهتين بالجنتين السابقتين فى نعمهما و آلائهما، و قد تقدم أن الجنتين السابقتين لأهل الإخلاص الخائفين مقام ربهم فهاتان الجنتان لمن دونهم من المؤمنين العابدين لله سبحانه خوفا من النار أو طمعا فى الجنة و هم أصحاب اليمين.

قوله تعالى: مُدَّهَامَاتَانِ الْاَدْهِمَامِ مِنَ الدَّهْمَةِ اشْتِدَادُ الْخَضْرَى بِحَيْثُ تُضْرَبُ إِلَى السَّوَادِ وَ هُوَ ابْتِهَاجُ الشَّجَرَةِ.

قوله تعالى: فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ أَيْ فَوَارَتَانِ تَخْرُجَانِ مِنْ مَنبَعِهِمَا بِالذَّفْعِ.

قوله تعالى: فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَ نَخْلٌ وَ رُْمَانٌ الْمَرَادُ بِالْفَاكِهَةِ وَ الرَّمَانِ شَجَرَتُهُمَا بِقَرِينِهِ النَّخْلِ.

قوله تعالى: فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ ضَمِيرٌ «فِيهِنَّ» لِلجَنَانِ بِاعْتِبَارِ أَنَّهَا جَنَّتَانِ مِنْ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ، وَقِيلَ: مَرْجِعُ الضَّمِيرِ الْجَنَاتِ الْأَرْبَعِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَاتِ، وَقِيلَ: الضَّمِيرُ لِلْفَاكِهَةِ وَ النَّخْلِ وَ الرَّمَانِ.

وَ أَكْثَرُ مَا يَسْتَعْمَلُ الْخَيْرَ فِي الْمَعْنَى كَمَا أَنَّ أَكْثَرَ اسْتِعْمَالِ الْحَسَنِ فِي الصُّورِ، وَ عَلَى هَذَا فَمَعْنَى خَيْرَاتِ حَسَانٍ أَنَّهُنَّ حَسَانٌ فِي أَخْلَاقِهِنَّ حَسَانٌ فِي وَجُوهِهِنَّ.

قوله تعالى: حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ الْخِيَامُ جَمْعُ خَيْمَةٍ وَ هِيَ الْفَسْطَاطُ، وَ كَوْنُهُنَّ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ أَنَّهُنَّ مَصُونَاتٌ غَيْرُ مَبْتَدَلَاتٍ لَا نَصِيبَ لغيرِ أَزْوَاجِهِنَّ فِيهِنَّ.

قوله تعالى: لَمْ يَطْمِئُنَّنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لَا جَانٌّ تَقَدَّمَ مَعْنَاهُ.

قوله تعالى: مُتَّكِنِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَ عَبْقَرِيٍّ حَسَانٍ فِي الصَّحَاحِ:

الرَّفْرَفُ ثِيَابُ خُضْرٍ تَتَّخِذُ مِنْهَا الْمَجَالِسُ. انْتَهَى. وَقِيلَ: هِيَ الْوَسَائِدُ، وَقِيلَ: غيرِ ذَلِكَ، وَ الْخُضْرُ جَمْعُ أَخْضَرَ صَفْهُ لِرَّفْرَفٍ، وَ الْعَبْقَرِيُّ قِيلَ: الزَّرَابِيُّ، وَقِيلَ: الطَّنَافِسُ، وَقِيلَ: الثِّيَابُ الْمَوْشَاهُ، وَقِيلَ: الدِّيَابِجُ.

قوله تعالى: تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَ الْإِكْرَامِ ثَنَاءٌ جَمِيلٌ لَهُ تَعَالَى بِمَا امْتَلَأَتْ النُّشْأَتَانِ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةَ بِنِعْمَةٍ وَ آلَائِهِ وَ بَرَكَاتِهِ النَّازِلَةِ مِنْ عِنْدِهِ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ، وَ بِذَلِكَ يَظْهَرُ أَنَّ الْمَرَادَ بِاسْمِهِ الْمُبَارَكِ هُوَ الرَّحْمَنُ الْمَفْتَحُ بِهِ السُّورَةُ، وَ التَّبَارُكُ كَثْرَةُ الْخَيْرَاتِ وَ الْبَرَكَاتِ الصَّادِرَةِ.

فقوله: تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ تبارك الله المسمى بالرحمن بما أفاض هذه الآلاء.

وقوله: ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ إشاره الى تسميه بأسمائه الحسنی و اتصافه بما يدل عليه من المعانى الوصفیه و نعوت الجلال و الجمال، و لصفات الفاعل ظهور فى أفعاله و أثر فيها يرتبط به الفعل بفاعله فهو تعالى خلق الخلق و نظم النظام لأنه بديع خالق مبدئ فأتقن الفعل لأنه عليم حكيم و جازى أهل الطاعه بالخير لأنه ودود شكور غفور رحيم و أهل الفسق بالشر لأنه منتقم شديد العقاب.

فتوصيف الرب-الذى أثنى على سعه رحمته-بذی الجلال و الإكرام للإشاره الى أن لأسمائه الحسنی و صفاته العلیا دخلا فى نزول البركات و الخيرات من عنده، و أن نعمه و آلاءه علیها طابع أسمائه الحسنی و صفاته العلیا تبارك و تعالى (١).

ص: ١٧٠

١-١). الرحمن ٣١-٧٨: بحث روائى فى: من خاف مقام ربه؛ الحور العين؛ جزاء الاحسان؛ الخيرات الحسان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (٤) وَ
بُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُبَدَّدًا (٦) وَ كُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَ أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ
مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ (٩) وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠)

تصف السوره القيامه الكبرى التى فيها بعث الناس و حسابهم و جزاؤهم فتذكر أولا شيئا من أهوالها مما يقرب من الإنسان و الأرض التى يسكنها فتذكر تقلبيها للأوضاع و الأحوال بالخفض و الرفع و ارتجاج الأرض و انبثاث الجبال و تقسم الناس الى ثلاثة أزواج إجمالاً ثم تذكر ما ينتهى اليه حال كل من الأزواج السابقين و أصحاب اليمين و أصحاب الشمال.

ثم تحتج على أصحاب الشمال المنكرين لربوبيته و للبعث المكذبين بالقرآن الداعى الى التوحيد و الإيمان بالبعث. ثم تختم الكلام بذكر الاحتضار بنزول الموت و انقسام الناس الى ثلاثة أزواج.

و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها.

قوله تعالى: **إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ** وقوع الحادثه هو حدوثها، و الواقعه صفه توصف بها كل حادثه، و المراد بها هاهنا واقعہ القيامه و قد أطلقت إطلاقاً كإنها لا تحتاج الى موصوف مقدر و لذا قيل: إنها من أسماء القيامه فى القرآن كالحاقه و القارعه و الغاشيه.

و الجمله **«إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ»** مضمينه معنى الشرط و لم يذكر جزاء الشرط إعظاماً له و تفخيماً لأمره و هو على أى حال أمر مفهوم مما ستصفه السوره من حال الناس يوم القيامه، و التقدير نحو من قولنا: فاز المؤمنون و خسر الكافرون.

قوله تعالى: **لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كاذِبَةٌ** قال فى المجمع: الكاذبه مصدر كالعافيه و العاقبه.

انتهى. و عليه فالمعنى: ليس فى وقوعها كذب، و قيل: كاذبه صفه محذوفه الموصوف و التقدير: ليس لوقعتها قضيه كاذبه.

قوله تعالى: **خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ** خبران مبتدؤهما الضمير الراجع الى الواقعه، و الخفض خلاف الرفع و كونها خافضه رافعه كناية عن تقلبيها نظام الدنيا المشهود فتظهر السرائر و هى

محجوبه اليوم و تحجب و تستر آثار الأسباب و روابطها و هى ظاهره اليوم و تدلّ الأعزّه من أهل الكفر و الفسق و تعزّ المتقين.

قوله تعالى: إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا رَجَّ الرِّجَّ تحريك الشىء تحريكا شديدا إشاره الى زلزاله الساعه التى يعظمها الله سبحانه فى قوله: إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (الحج / ١)، و قد عظمها فى هذه الآيه حيث عبّر عنها برجّ الأرض ثم أكد شدتها بتكثير قوله: «رَجًّا» أى رجلا يوصف شدته. و الجملة بدل أو بيان لقوله: «إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ» .

قوله تعالى: وَ بُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُتَّبَثًا عطف على «رُجَّتِ» و البسّ الفتّ و هو عود الجسم بدق و نحوه أجزاء صغارا متلاشيه كالدقيق، و قيل: البس هو التسيير فهو فى معنى قوله: وَ سُيِّرَتِ الْجِبَالُ (النبأ ٢٠).

و قوله: فَكَانَتْ هَبَاءً مُتَّبَثًا الهباء قيل: هو الغبار و قيل: هو الذرّه من الغبار الظاهر فى شعاع الشمس الداخلى من كوّه، و الانبثاث التفرق، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَ كُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً الزوج بمعنى الصنف و الخطاب لعامه البشر.

قوله تعالى: فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ متفرع على ما قبلها تفرع البيان على الميّن، فهذه الآيه و الآيتان بعدها بيان للأزواج الثلاثة.

و الميمنه من اليمن مقابل الشؤم، فأصحاب الميمنه أصحاب السعاده و اليمن مقابل أصحاب المشأمه أصحاب الشقاء و الشؤم، و ما قيل: إن المراد بالميمنه اليمين، أى ناحيه اليمين لأنهم يؤتون كتابهم بيمينهم و غيرهم يؤتونه بشمالهم يرده مقابله أصحاب الميمنه بأصحاب المشأمه، و لو كان كما قيل لقل أصحاب الشمال و هو ظاهر.

و ما فى قوله: مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ استفهاميه و مبتدأ خبره «أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» ، و المجموع خبر لقوله: «أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» و فى الاستفهام إعظام لأمرهم و تفخيم لشأنهم.

قوله تعالى: وَ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ المشأمه مصدر

كالشؤم مقابل اليمين، و الميمنه و المشأمه السعاده و الشقاء.

قوله تعالى: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ الَّذِي يَصْلَحُ أَنْ يَفْسِرَ بِهِ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُ قَوْلَهُ تَعَالَى: فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْتِي اللَّهُ بِأَذْنِ اللَّهِ (فاطر ٣٢/)، وقوله: وَ لِكُلِّ وَجْهٍ هُوَ مُوَلِّيُّهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ (البقره ١٤٨/)، وقوله: أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ هُمْ لَهَا سَابِقُونَ (المؤمنون ٦١/).

فالمراد بالسابقين-الأول-في الآيه السابقون بالخيرات من الأعمال، و إذا سبقوا بالخيرات سبقوا الى المغفره و الرحمه التي بإزائها كما قال تعالى: لَسَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ (الحديد ٢١/)، فالسابقون بالخيرات هم السابقون بالرحمه و هو قوله: «وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ».

وقيل: المراد بالسابقون الثاني هو الأول على حد قوله:

أنا أبو النجم و شعري شعري

و قوله: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مبتدأ و خبر، وقيل: الأول مبتدأ و الثاني تأكيد، و الخبر قوله: «أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ».

و لهم في تفسير السابقين أقوال آخر فقيل: هم المسارعون الى كل ما دعا الله اليه، وقيل:

هم الذين سبقوا الى الإيمان و الطاعه من غير توان، وقيل: هم الأنبياء عليهم السلام لأنهم مقدمو أهل الأديان، وقيل: هم مؤمن آل فرعون و حبيب النجار المذكور في سوره يس و على عليه السلام السابق الى الإيمان بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم و هو أفضلهم (١).

[سوره الواقعة (٥٦): الآيات ١١ الى ٥٦]

أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى (١٣) وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَ أَبَارِيقٍ وَ كَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ (١٨) لَا يَصِيدُونَ عَنْهَا وَ لَا يَنْزِفُونَ (١٩) وَ فَاكِهَةٍ مِّمَّا يَخْتِضُونَ (٢٠) وَ لَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَ حُورٍ عِينٍ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جِزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَ لَا تَأْتِيماً (٢٥) إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) وَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَ طَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَ مَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَ فَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَ لَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَ فُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) غُرْبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى (٣٩) وَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠) وَ أَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ (٤١) فِي سَجُومٍ وَ حَمِيمٍ (٤٢) وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لَا يَبَارِدُ وَ لَا يَكْرِيمُ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَ كَانُوا يُصْعِقُونَ عَلَى الْجَنَّةِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَ كَانُوا يَقُولُونَ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا وَ عِظَامًا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوْلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوْلَى (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمَكْذِبُونَ (٥١) لَمَّا كَلُمْتُمْ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ (٥٢) فَمَّا لَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ (٥٥) هَذَا نُزِّلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦)

١-١). الواقعة ١-١٠: بحث روائي في: القيامة، السابقون إلى الجنّة.

قوله تعالى: **أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ** فِي **جَنَّاتِ النَّعِيمِ** الإِشَارَةُ بِأَوْلِيائِكَ إِلَى السَّابِقِينَ، وَ «**أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ**» مَبْتَدَأٌ وَ خَبْرٌ، وَ الْجُمْلَةُ اسْتِثْنَائِيَّةٌ، وَ قِيلَ: خَبْرٌ لِقَوْلِهِ: «**وَ السَّابِقُونَ**»، وَ قِيلَ: مَبْتَدَأٌ خَبْرُهُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَ أَوَّلُ الْوَجْهِ الثَّلَاثَةُ أَوْجُهُ بِالنَّظَرِ إِلَى سِيَاقِ تَقْسِيمِ النَّاسِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَزْوَاجٍ أَوْلَا ثُمَّ تَفْصِيلُ مَا يَنْتَهَى إِلَيْهِ أَمْرٌ كُلِّ مِنْهُمْ.

وَ الْقُرْبُ وَ الْبَعْدُ مَعْنِيَانِ مُتَضَائِفَانِ تَتَصَفَّ بِهُمَا الْأَجْسَامُ بِحَسَبِ النِّسْبَةِ الْمَكَانِيَّةِ ثُمَّ تَوْسِعُ فِيهِمَا فَاعْتَبَرُوا فِي غَيْرِ الْمَكَانِ مِنَ الزَّمَانِ وَ نَحْوِهِ، يُقَالُ: الْغَدُ قَرِيبٌ مِنَ الْيَوْمِ وَ الْأَرْبَعَةُ أَقْرَبُ إِلَى الثَّلَاثَةِ مِنَ الْخَمْسَةِ، وَ الْخَضِرَةُ أَقْرَبُ إِلَى السَّوَادِ مِنَ الْبَيَاضِ ثُمَّ تَوْسِعُ فِيهِمَا فَاعْتَبَرَا فِي غَيْرِ الْأَجْسَامِ وَ الْجِسْمَانِيَّاتِ مِنَ الْحَقَائِقِ.

وَ قَدْ اعْتَبَرَ الْقُرْبُ وَ صِفَا لَهُ تَعَالَى بِمَا لَهُ مِنَ الْإِحْاطَةِ بِكُلِّ شَيْءٍ، قَالَ تَعَالَى: **وَ إِذَا سَأَلْتَهُ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ** (البقرة ١٨٦)، وَ قَالَ: **وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ** (الواقعة ٨٥)، وَ قَالَ: **وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** (ق ١٦). وَ هَذَا الْمَعْنَى أَعْنَى كَوْنِهِ تَعَالَى

أقرب الى الشيء من نفس أعجب ما يتصور من معنى القرب، وقد أشرنا الى تصويره في تفسير الآيه.

و اعتبر القرب أيضا وصفا للعباد في مرحله العبوديه و لما كان أمرا اكتسابيا يستعمل فيه لفظ التقرب فالعبد يتقرب بصالح العمل الى الله سبحانه و هو وقوعه في معرض شمول الرحمه الإلهيه بزوال أسباب الشقاء و الحرمان، و الله سبحانه يقرب العبد بمعنى إنزاله منزله يختص بنيل ما لا يناله من دونه من إكرامه تعالى و مغفرته و رحمته، قال تعالى: **كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ** (المطففين ٢١)، و قال: **و مِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ** (المطففين ٢٨).

فالمقربون هم النمط الأعلى من أهل السعاده كما يشير اليه قوله: **«و السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ»** و لا يتم ذلك إلا بكمال العبوديه كما قال: **لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَ لَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** (النساء ١٧٢)، و لا تكمل العبوديه إلا بأن يكون العبد تبعا محضا في إرادته و عمله لمولاه لا يريد و لا يعمل إلا ما يريد و هذا هو الدخول تحت ولايه الله فهؤلاء هم أولياء الله.

و قوله: **فِي جَدَاتِ النَّعِيمِ** أى كل واحد منهم في جنه النعيم فالكل في جنات النعيم، و يمكن أن يراد به أن كلا منهم في جنات النعيم لكن يبعده قوله في آخر السوره: **«فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَ رَيْحَانٌ وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ»**.

و قد تقدم غير مره أن النعيم هى الولايه و أن جنه النعيم هى جنه الولايه و هو المناسب لما تقدم آنفا أن المقربين هم أهل ولايه الله.

قوله تعالى: **ثُمَّ مِنَ الْبَاقِينَ وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ** - على ما قيل - الجماعه الكثيره، و المراد بالأولين الامم الماضون للأنبياء السابقين، و بالآخرين هذه الامه على ما هو المعهود من كلامه تعالى في كل موضع ذكر فيه الأولين و الآخرين معا و منها ما

سيأتى من قوله: «أَنَا لَمَبْعُوثُونَ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ» فمعنى الآيتين: هم أى المقربون جماعه كثيره من الامم الماضين و قيل من هذه الامه.

قوله تعالى: عَلِيٌّ سِرٌّ مَوْضُوعٌ مُتَّكِنٌ عَلَيْهَا مُتَّقَابِلِينَ الْوَضْنَ النَّسَجِ وَقِيلَ: نَسَجَ الدَّرْعَ وَإِطْلَاقَهُ عَلَىٰ نَسَجِ السَّرْرِ اسْتِعَارَهُ يَرَادُ بِهَا إِحْكَامُ نَسَجِهَا.

و قوله: مُتَّكِنٌ عَلَيْهَا حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ الْعَائِدِ إِلَىٰ الْمُقْرَبِينَ وَالضَّمِيرِ لِلسَّرْرِ، وَقَوْلُهُ: «مُتَّقَابِلِينَ» حَالٌ آخِرٌ مِنْهُ أَوْ مِنْ ضَمِيرِ «مُتَّكِنِينَ» وَتَقَابُلُهُمْ كُنَايَةٌ عَنْ بُلُوغِ انْسِهَامِهِمْ وَحَسَنِ عَشْرَتِهِمْ وَصَفَاءِ بَاطِنِهِمْ فَلَا يَنْظُرُونَ فِي قِفَاءِ صَاحِبِهِمْ وَلَا يَعْيبُونَهُ وَلَا يَغْتَابُونَهُ.

و المعنى: هم أى المقربون مستقرون على سرر منسوجه حال كونهم متكئين عليها حال كونهم متقابلين.

قوله تعالى: يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ الْوِلْدَانَ جَمْعٌ وَلَدٌ وَهُوَ الْغَلَامُ، وَطَوَافُهُمْ عَلَيْهِمْ كُنَايَةٌ عَنْ خِدْمَتِهِمْ لَهُمْ، وَالْمُخَلَّدُونَ مِنَ الْخُلُودِ بِمَعْنَى الدَّوَامِ أَيْ بَاقُونَ أَبَدًا عَلَىٰ هَيْئَتِهِمْ مِنْ حَدَاثَةِ السِّنِّ، وَقِيلَ مِنَ الْخُلْدِ بَفَتْحَتَيْنِ وَهُوَ الْقِرْطُ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُمْ مَقْرُطُونَ بِالْخُلْدِ.

قوله تعالى: بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ الْأَكْوَابُ جَمْعُ كُوبٍ وَهُوَ الْإِنَاءُ الَّذِي لَا عُرْوَهُ لَهُ وَلَا خِرْطُومَ، وَالْأَبَارِيقُ جَمْعُ إِبْرِيقٍ وَهُوَ الْإِنَاءُ الَّذِي لَهُ خِرْطُومٌ، وَقِيلَ:

عُرْوَهُ وَخِرْطُومُ مَعَا، وَالْكَأْسُ مَعْرُوفٌ، وَقِيلَ: أُفْرِدَ الْكَأْسَ لِأَنَّهَا لَا تَسْمَىٰ كَأْسًا إِلَّا إِذَا كَانَتْ مَمْتَلئَةً، وَالْمُرَادُ بِالْمَعِينِ الْخَمْرُ الْمَعِينُ وَهُوَ الظَّاهِرُ لِلْبَصْرِ الْجَارِي.

قوله تعالى: لَا يُصَيِّدُوعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ أَيْ لَا يَأْخُذُهُمْ صَدَاعٌ لِأَجْلِ خَمَارٍ يَحْصُلُ مِنَ الْخَمْرِ كَمَا فِي خَمْرِ الدُّنْيَا وَلَا يَزُولُ عَقْلُهُمْ بِالسُّكْرِ الْحَاصِلِ مِنْهَا.

قوله تعالى: وَفَاكِهِهٖ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ الْفَاكِهِهٗ وَالتَّيْرُ

معطوفان على قوله: «بِأَكْوَابٍ»، و المعنى: يطوف عليهم الولدان بفاكهه مما يختارون و بلحم طير مما يشتهون.

قوله تعالى: وَ حُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ مبتدأ محذوف الخبر على ما يفيدته السياق و التقدير و لهم حور عين أو و فيها حور عين و الحور العين نساء الجنة و قد تقدم معنى الحور العين فى تفسير سوره الدخان.

و قوله: كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ أى اللؤلؤ المصون المخزون فى الصدف لم تمسه الأيدى فهو منته فى صفائه.

قوله تعالى: جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قيد لجميع ما تقدم و هو مفعول له، و المعنى:

فعلنا بهم ما فعلنا ليكون جزاء لهم قبال ما كانوا يستمرون عليه من العمل الصالح.

قوله تعالى: لَا يَسْتَمِعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيَمًا اللغو من القول ما لا فائده فيه و لا أثر يترتب عليه، و التأثيم النسبه الى الإثم أى لا يخاطب أحدهم صاحبه بما لا فائده فيه و لا ينسبه الى الإثم إذ لا إثم هناك، و فسر بعضهم التأثيم بالكذب.

قوله تعالى: إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا استثناء منقطع من اللغو و التأثيم، و القيل مصدر كالقول، و «سَلَامًا» بيان لقوله: «قِيلًا» X و تكراره يفيد تكرر الوقوع، و المعنى: إلا قولاً هو السلام بعد السلام.

قيل: و يمكن أن يكون «سَلَامًا» مصدرا بمعنى الوصف و صفه لقليلاً، و المعنى: إلا قولاً هو سالم.

قوله تعالى: وَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ شروع فى تفصيل ما انتهى اليه حال أصحاب اليمينه و فى تبديله من أصحاب اليمين يعلم أن أصحاب اليمين و أصحاب اليمينه واحد و هم الذين يؤتون كتابهم بيمينهم. و الجملة استفهاميه مسوقه لتفخيم أمرهم و التعجيب من حالهم و هى خبر لقوله: «وَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ» .

قوله تعالى: فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ السدر شجره النبق، والمخضود ما قطع شوكة فلا شوكة له.

قوله تعالى: وَ طَلْحٍ مَّنْضُودٍ الطلح شجر الموز، وقيل: ليس بالموز بل شجر له ظل بارد رطب، وقيل: شجره ام غيلان لها أنوار طيبه الرائحة، ونضد الأشياء جعل بعضها على بعض، والمعنى: وفي شجر موز منضود الثمر بعضه على بعض من أسفله الى أعلاه.

قوله تعالى: وَ ظِلٌّ مَّمْدُودٌ وَمَاءٌ مَّسْكُوبٌ قيل: الممدود من الظل هو الدائم الذي لا تنسخه شمس فهو باق لا يزول، والماء المسكوب هو المصبوب الجارى من غير انقطاع.

قوله تعالى: وَ فَكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ أَي لَا مَقْطُوعَةٍ فِي بَعْضِ الْأَزْمَانِ كَانْقِطَاعِ الْفَوَاكِهِ فِي شِتَاءٍ وَ نَحْوِهِ فِي الدُّنْيَا، وَ لَا مَمْنُوعَةٍ التناول لمانع من قبل أنفسهم كسامه أو شبع أو من خارج كبعد المكان أو شوكة تمنع القطف أو غير ذلك.

قوله تعالى: وَ فُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ الْفُرْشُ جَمْعُ فُرْشٍ وَ هُوَ الْبَسَاطَةُ، وَ الْمَرْفُوعَةُ الْعَالِيَةُ، وَ قِيلَ: الْمُرَادُ بِالْفُرْشِ الْمَرْفُوعَةِ النَّسَاءُ الْمَرْتَفَعَاتُ قَدَرًا فِي عَقُولِهِنَّ وَ جَمَالِهِنَّ وَ كَمَالِهِنَّ وَ الْمَرْأَةُ تَسْمَى فُرَاشًا، وَ يَنَاسِبُ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ بَعْدَ: «إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً» الْخ.

قوله تعالى: إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا أَي إِنَّا أَوْجَدْنَاهُنَّ وَ أَحَدَثْنَاهُنَّ وَ رَبَّيْنَاهُنَّ إِحْدَاثًا وَ تَرْبِيَةً خَاصَةً، وَ فِيهِ تَلْوِيحٌ إِلَى أَنَّهُنَّ لَا يَخْتَلِفُ حَالُهُنَّ بِالشَّبَابِ وَ الشَّيْبِ وَ صَبَاحِهِ الْمَنْظَرِ وَ خِلَافِهَا، وَ قَوْلُهُ: «فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا» أَي خَلَقْنَاهُنَّ عَذَارَى كَلِمًا أَتَاهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ وَ جَدُوهُنَّ أَبْكَارًا.

و قوله: عُرُبًا أَتْرَابًا الْعَرَبُ جَمْعُ عَرُوبٍ وَ هِيَ الْمُتَحَنِّنَةُ إِلَى زَوْجِهَا أَوْ الْغَنَجَةُ أَوْ الْعَاشِقَةُ لِزَوْجِهَا، وَ الْأَتْرَابُ جَمْعُ تَرَبٍ بِالْكَسْرِ فَالْمَعْنَى بِمَعْنَى الْمُثَلِّ أَي إِنَّهُنَّ أَمْثَالُ أَوْ أَمْثَالُ فِي السِّنِّ لِأَزْوَاجِهِنَّ.

قوله تعالى: لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ثُلَّةٌ مِنَ الْأُولَىٰ وَ ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ يتضح معناه بما تقدم، ويستفاد من الآيات أن أصحاب اليمين فى الآخريين جمع كثير كالأولين لكن السابقين المقربين فى الآخريين أقل جمعا منه فى الأولين.

قوله تعالى: وَأَصْحَابُ الشُّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشُّمَالِ مبتدأ و خبر، و الاستفهام للتعجيب و التهويل، و قد بدّل أصحاب المشأمة من أصحاب الشمال إشاره الى أنهم الذين يؤتون كتابهم بشمالهم كما مرّ نظيره فى أصحاب اليمين.

قوله تعالى: فى سَيِّئُومٍ وَ حَمِيمٍ وَ ظِلٌّ مِنْ يَحْمُومٍ لَا يُبَارِدُ وَلَا كَرِيمٍ السّموم على ما فى الكشاف- حر نار ينفذ فى المسام، و الحميم الماء الشديد الحرارة، و التنوين فيهما لتعظيم الأمر، و يحموم الدخان الأسود، و قوله: «لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ» الظاهر أنهما صفتان للظل لا ليحموم، و ذلك أن الظل هو الذى يتوقع منه أن يتبرّد بالاستظلال به و يستراح فيه دون الدخان.

قوله تعالى: إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ تعليل لاستقرار أصحاب الشمال فى العذاب، و الإشارة بذلك الى ما ذكر من عذابهم يوم القيامة، و إتراف النعمة الإنسان إبطارها و إطغاؤها له، و ذلك إشغالها نفسه بحيث يغفل عما وراءها فكون الإنسان مترفا تعلقه بما عنده من نعم الدنيا و ما يطلبه منها سواء كانت كثيرة أو قليلة.

قوله تعالى: وَ كَانُوا يُصَيَّرُونَ عَلَى الْحِنْتِ الْعَظِيمِ فى المجمع: الحنث نقض العهد المؤكّد بالحلف، و الإصرار أن يقيم عليه فلا يقلع عنه. انتهى. و لعل المستفاد من السياق أن إصرارهم على الحنث العظيم هو استكبارهم عن عبوديه ربهم التى عاهدوا الله عليها بحسب فطرتهم و أخذ منهم الميثاق عليها فى عالم الذرّ فيطيعون غير ربهم و هو الشرك المطلق.

و قيل: الحنث الذنب العظيم فتوصيفه بالعظيم مبالغه و الحنث العظيم الشرك بالله، و قيل:

الحنث العظيم جنس المعاصى الكبيره، وقيل: هو القسم على إنكار البعث المشار اليه بقوله تعالى: **وَ أَقْسِمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ** (النحل ٣٨)، و لفظ الآيه مطلق.

قوله تعالى: **وَ كَانُوا يَقُولُونَ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا وَ عِظَامًا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ** قول منهم مبنى على الاستبعاد و لذا أكدوا استبعاد بعث أنفسهم بعث آباءهم لأن الاستبعاد فى موردهم أكد، و التقدير أو آباؤنا الأولون مبعوثون.

قوله تعالى: **قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ** أمر منه تعالى لنبىه صلى الله عليه و آله و سلم أن يجيب عن استبعادهم البعث بتقريره ثم إخبارهم عما يعيشون به يوم البعث من طعام و شراب و هما الزقوم و الحميم.

و محصل القول أن الأولين و الآخرين-من غير فرق بينهم لا كما فرّقوا فجعلوا بعث أنفسهم مستبعدا و بعث آباءهم الأولين أشد استبعادا و أكد-لمجموعون محشورين الى ميقات يوم معلوم.

و الميقات ما وقت به الشىء و هو وقته المعين، و المراد بيوم معلوم يوم القيامة المعلوم عند الله فإضافه الميقات الى يوم معلوم بيانيه.

قوله تعالى: **ثُمَّ إِنَّكُمْ أَهْيَا الضَّالُّونَ الْمُكذِّبُونَ لَأَكَلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ** من تمام كلام النبى صلى الله عليه و آله و سلم يخبرهم عما ينتهى اليه حالهم يوم القيامة و يعيشون به من طعام و شراب.

و فى خطابهم بالضالين المكذبين إشاره الى ملاك شقائهم و خسرانهم يوم البعث و هو ضلالهم عن طريق الحق و استقرار ذلك فى نفوسهم باستمرارهم عن تكذيبهم و إصرارهم على الحنث، و لو كانوا ضالين فحسب من غير تكذيب لكان من المرجو أن ينجوا و لا يهلكوا.

و «مِنْ» فى قوله: «مِنْ شَجَرٍ لِلابْتِدَاءِ، و فى قوله: «مِنْ زَقُومٍ» بيانيه و يحتمل أن يكون «مِنْ زَقُومٍ» بدلا من «مِنْ شَجَرٍ»، و ضمير «مِنْهُمَا» للشجر أو الثمر و كل منهما يؤنث و يذكر و لذا جىء هاهنا بضمير التأنيث و فى الآية التالىة فى قوله: «فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ» بضمير التذكير، و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ كلمه «على» للاستعلاء و تفيد فى المورد كون الشرب عقيب الأكل من غير ريث، و الهيم جمع هيماء الإبل التى أصابها الهيام بضم الهاء و هو داء شبه الاستسقاء يصيب الإبل فتشرب الماء حتى تموت أو تسقم سقما شديدا، و قيل: الهيم الرمال التى لا تروى بالماء.

و المعنى: فشاربون عقيب ما أكلتم من الزقوم من الماء الشديد الحرارة فشاربون كشرب الإبل الهيم أو كشرب الرمال الهيم و هذا آخر ما أمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن يقوله لهم.

قوله تعالى: هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ أى يوم الجزاء و النزل ما يقدم للضيف النازل من طعام و شراب إكراما له، و المعنى: هذا الذى ذكر من طعامهم و شرابهم هو نزل الضالين المكذبين فى تسميه ما أعد لهم بالنزل نوع تهكم، و الآية من كلامه تعالى خطابا للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و لو كان من كلام النبى صلى الله عليه و آله و سلم خطابا لهم لقليل: هذا نزلكم (١).

[سوره الواقعة (٥٦): الآيات ٥٧ الى ٩٦]

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَمْ فَزَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَمْ أَنْتُمْ خَلَقْتُمُوهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَ مَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَ يُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَ لَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمْ فَزَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَمْ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُعْرِمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَمْ فَزَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ (٦٨) أَمْ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَمْ فَزَأَيْتُمُ الدَّارَ الَّتِى تُورُونَ (٧١) أَمْ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَ مَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤) فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَ فَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (٨٣) وَ أَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَزُورِحْ وَ رِيحَانٌ وَ جَنَّةٍ نَعِيمٍ (٨٩) وَ أَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَ أَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَ تَصْلِيَةٌ جَاجِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)

ص: ١٨٤

قوله تعالى: نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ السياق سياق الكلام فى البعث و الجزاء و قد أنكروه و كذبوا به، فقوله: «فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ» تحضيض على تصديق حديث المعاد و ترك التكذيب به، و قد علله بقوله: «نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ» كما يستفاد من التفریع الذى فى قوله: «فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ» .

و إيجاب خلقه تعالى لهم و جوب تصديقه فيما يخبر به من المعاد من وجهين: أحدهما: أنه تعالى خلقهم أول مره فهو قادر على إعادته خلقهم ثانيا كما قال: قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (يس ٧٩).

و ثانيهما: أنه تعالى لما كان هو خالقهم و هو المدبر لأمرهم المقدر لهم خصوصيات خلقهم و أمرهم فهو أعلم بما يفعل بهم و سيجرى عليهم فإذا أنبأهم بأنه سيبعثهم بعد موتهم و يجزيهم بما عملوا إن خيرا و إن شرا لم يكن بد من تصديقه فلا عذر لمن كذب بما أخبر به كتابه من البعث و الجزاء، قال تعالى: أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (الملك ١٤)، و قال:

كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (الأنبياء ١٠٤)، و قال: وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (النساء ١٢٢).

فمحصل الآيه: نحن خلقناكم و نعلم ما فعلنا و ما سنفعل بكم فنخبركم أننا سنبعثكم و نجزيكم بما عملتم فهلا تصدقون بما نخبركم به فيما أنزلناه من الكتاب.

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّا جَعَلْنَا نَارَ الْقُدُوسِ نُورًا وَ جَعَلْنَا مِثْقَالَ عَرْسِ الْأُولَىٰ مِثْقَالَ الْأَنْثَىٰ وَ جَعَلْنَا الْجِبَالَ مِثْقَالَ الْحَبِّ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ عَلِيمٌ (الأنبياء ١٠٤)، و قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّا جَعَلْنَا نَارَ الْقُدُوسِ نُورًا وَ جَعَلْنَا مِثْقَالَ عَرْسِ الْأُولَىٰ مِثْقَالَ الْأَنْثَىٰ وَ جَعَلْنَا الْجِبَالَ مِثْقَالَ الْحَبِّ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ عَلِيمٌ (الأنبياء ١٠٤)، و قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّا جَعَلْنَا نَارَ الْقُدُوسِ نُورًا وَ جَعَلْنَا مِثْقَالَ عَرْسِ الْأُولَىٰ مِثْقَالَ الْأَنْثَىٰ وَ جَعَلْنَا الْجِبَالَ مِثْقَالَ الْحَبِّ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ عَلِيمٌ (الأنبياء ١٠٤).

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّا جَعَلْنَا نَارَ الْقُدُوسِ نُورًا وَ جَعَلْنَا مِثْقَالَ عَرْسِ الْأُولَىٰ مِثْقَالَ الْأَنْثَىٰ وَ جَعَلْنَا الْجِبَالَ مِثْقَالَ الْحَبِّ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ عَلِيمٌ (الأنبياء ١٠٤).

قوله تعالى: نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَ مَا نَحْنُ بِمَسْمُومِينَ تدير أمر الخلق بجميع شئونه و خصوصياته من لوازم الخلق بمعنى إفاضه الوجود فوجود الإنسان المحدود بأول كينونته الى آخر لحظه من حياته الدنيا بجميع خصوصياته التي تتحول عليه بتقدير من خالقه عزّ و جل. فموته أيضا كحياته بتقدير منه، و ليس يعتريه الموت لنقص من قدره خالقه أن يخلقه بحيث لا يعتريه الموت أو من جهة أسباب و عوامل تؤثر فيه بالموت فتبطل الحياه التي أفاضها عليه خالقه تعالى فإن لازم ذلك أن تكون قدرته تعالى محدوده ناقصه و أن يعجزه بعض الأسباب و تغلب إرادته إرادته و هو محال كيف؟ و القدره مطلقه و الإراده غير مغلوبه.

قوله تعالى: عَلِيٌّ أَنْ يُبَدَّلَ أَمْثَالِكُمْ وَ نُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ «عَلِيٌّ» متعلقه بقوله: «قَدَرْنَا» و جمله الجار و المجرور في موضع الحال أي نحن قدرنا بينكم الموت حال كونه على أساس تبديل الأمثال و الإنشاء فيما لا تعلمون.

و الأمثال جمع مثل بالكسر فالسكون و مثل الشيء ما يتحد معه في نوعه كالفرد من الإنسان بالنسبه الى فرد آخر، و المراد بقوله: «أَنْ يُبَدَّلَ أَمْثَالِكُمْ» أن نبدل أمثالكم من البشر منكم أو نبدل أمثالكم مكانكم، و المعنى على أي حال تبديل جماعه من أخرى و جعل الأخلاف مكان الأسلاف.

و قوله: وَ نُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ «مَا» موصوله و المراد به الخلق و جمله معطوفه على «يُبَدَّلَ» و التقدير و على أن ننشئكم و نوجدكم في خلق آخر لا تعلمونه و هو الوجود الاخرى غير الوجود الدنيوى الفانى.

و محصل معنى الآيتين أن الموت بينكم إنما هو بتقدير منا لا لنقص في قدرتنا بأن لا يتيسر لنا إدامه حياتكم و لا لغلبه الأسباب المهلكه المبيده و قهرها و تعجزها لنا في حفظ حياتكم و إنما قدرناه بينكم على أساس تبديل الأمثال و إذهاب قوم و الإتيان بآخرين و إنشاء خلق

لكم يناسب الحياه الآخره وراء الخلق الدنيوى الدائر فالموت انتقال من دار الى دار و تبدل خلق الى خلق آخر و ليس بانعدام و فناء.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ** المراد بالنشأه الاولى نشأه الدنيا، و العلم بها بخصوصياتها يستلزم الإذعان بنشأه اخرى خالده فيها الجزاء، فإن من المعلوم من النظام الكونى أن لا لغو و لا باطل فى الوجود فلهذا النشأه الفانيه غايه باقيه، و أيضا من ضروريات هذا النظام هدايه كل شىء الى سعاده نوعه و هدايه الإنسان تحتاج الى بعث الرسل و تشريع الشرائع و توجيه الأمر و النهى، و الجزاء على خير الأعمال و شرّها و ليس فى الدنيا فهو فى دار اخرى و هى النشأه الآخره (١).

على أنهم شاهدوا النشأه الاولى و عرفوها و علموا أن الذى أوجدها عن كتم العدم هو الله سبحانه و إذ قدر عليها أولا فهو على إيجاد مثلها ثانيا قادر، قال تعالى: **قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ** (يس ٧٩)، و هذا برهان على الإمكان يرتفع به استبعادهم للبعث. و بالجملة يحصل لهم بالعلم بالنشأه الاولى علم بمبادئ البرهان على إمكان البعث فيرتفع به استبعاد البحث فلا استبعاد مع الإمكان.

و هذا- كما ترى- و برهان على إمكان حشر الأجساد، محصله أن البدن المحشور مثل البدن الدنيوى و إذ جاز صنع البدن الدنيوى و إحياءه فليجز صنع البدن الاخرى و إحياءه لأنه مثله و حكم الأمثال فيما يجوز و فيما لا يجوز واحد.

قوله تعالى: **أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ** -الى قوله- **مَحْرُومُونَ** بعد ما ذكرهم بكيفيه خلق أنفسهم و تقدير الموت بينهم تمهيدا للبعث و الجزاء و كل ذلك من لوازم ربوبيته عدل لهم امورا ثلاثه من أهم ما يعيشون به فى الدنيا و هى الزرع الذى يقتاتون به و الماء الذى يشربونه

ص: ١٨٩

و النار التي يصطلون بها و يتوسلون بها الى جمل من مآربهم، و تثبت بذلك ربوبيته لهم فليست الربوبية إلا التدبير عن ملك.

فقال: أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ الحِثَّ العمل في الأرض و إلقاء البذر عليها «أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ» أي تبتونه و تنموه حتى يبلغ الغايه، و ضمير «تَزْرَعُونَهُ» للبذر أو الحِثَّ المعلوم من المقام «أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ» المنبتون المنمون حتى يكمل زرعاً «لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا» أي هشيماً متكسراً متفتتاً «فَطَلْتُمْ» أي فظلمتم و صرتم «تَفَكَّهُونَ» أي تتعجبون مما أصيب به زرعكم و تتحدثون بما جرى قائلين «إِنَّا لَمُعْرِمُونَ» موقعون في الغرامه و الخساره ذهب مالنا و ضاع وقتنا و خاب سعينا «بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ» ممنوعون من الرزق و الخير.

و لا منافاه بين نفى الزرع عنهم و نسبته اليه تعالى و بين توسط عوامل و أسباب طبيعيه في نبات الزرع و نموّه فإن الكلام عائد في تأثير هذه الأسباب و صنعها، و ليس نحو تأثيرها باقتضاء من ذاتها منقطعاً عنه تعالى بل بجعله و وضعه و موهبته، و كذا الكلام في أسباب هذه الأسباب، و ينتهي الأمر الى الله سبحانه و أن الى ربك المنتهى.

قوله تعالى: أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ -الى قوله- فَلَوْلَا -تَشْكُرُونَ المزن السحاب، و قوله: «فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ» تحضيض على الشكر، و شكره تعالى جميل ذكره تعالى على نعمه و هو إظهار عبوديته قولاً و عملاً. و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: أَفَرَأَيْتُمُ الدَّارَ الَّتِي تُورُونَ -الى قوله- وَ مَتَاعاً لِلْمُقِيمِينَ قال في المجمع: الإيراء إظهار النار بالقدح، يقال: أوري يوري، قال: و يقال: قدح فأورى إذا أظهر فإذا لم يور يقال: قدح فأكبي، و قال: و المقوى النازل بالقواء من الأرض ليس بها أحد، و أقوت الدار خلت من أهلها. انتهى. و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ خطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم. لما ذكر سبحانه شواهد ربوبيته لهم و أنه الذي يخلقهم و يدبر أمرهم و من تدبيره أنه سيعتثهم و يجزيهم بأعمالهم

و هم مكذبون بذلك أعرض عن خطابهم و التفت الى خطاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ إشعاراً بأنهم لا يفقهون القول فأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أن ينزّهه تعالى عن إشراكهم به و إنكارهم البعث و الجزاء.

فقوله: فَسَيَبِّحُ بِاسْمِ الْخَفَاءِ لَتَفْرِيعِ التَّسْبِيحِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْبَيَانِ، وَ الْبَاءُ لِلِاسْتِعَانَةِ أَوْ الْمَلَابَسَةِ، وَ الْمَعْنَى: فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَسَبِّحْ مُسْتَعِينًا بِذِكْرِ اسْمِ رَبِّكَ، أَوْ الْمُرَادُ بِالْاسْمِ الذِّكْرُ لِأَنَّ إِطْلَاقَ اسْمِ الشَّيْءِ ذَكَرَ لَهُ كَمَا قِيلَ أَوْ الْبَاءُ لِلتَّعْدِيَةِ لِأَنَّ تَنْزِيهَ اسْمِ الشَّيْءِ تَنْزِيهَ لَهُ، وَ الْمَعْنَى: نَزَّهَ اسْمَ رَبِّكَ مِنْ أَنْ تَذَكَرَ لَهُ شَرِيكًا أَوْ تَنْفَى عَنْهُ الْبَعْثُ وَ الْجَزَاءُ، وَ الْعَظِيمُ صِفَةُ الرَّبِّ أَوْ الْاسْمِ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ «فَلَا أُقْسِمُ» قسم و قيل: لا زائده و اقسام هو القسم، و قيل: لا نافية و اقسام هو القسم.

و «بِمَوَاقِعِ» جمع موقع و هو المحل، و المعنى: اقسام بمحالّ النجوم من السماء، و قيل: مواقع جمع موقع مصدر ميمي بمعنى السقوط يشير به الى سقوط الكواكب يوم القيامة أو وقوع الشهب على الشياطين، أو مساقط الكواكب في مغاربها، و أول الوجوه هو السابق الى الذهن.

قوله تعالى: وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ تعظيم لهذا القسم و تأكيد على تأكيد.

قوله تعالى: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ - الى قوله - رَبِّ الْعَالَمِينَ لما كان إنكارهم حديث وحدانيته تعالى في ربوبيته و ألوهيته و كذا إنكارهم للبعث و الجزاء إنما أبدوه بإنكار القرآن النازل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ الذى فيه نبأ التوحيد و البعث كان إنكارهم منشعباً الى إنكار أصل التوحيد و البعث أصلاً، و الى إنكار ذلك بما أن القرآن يبيّنهم به، فأورد تعالى أولاً بيانا لإثبات أصل الوحدانية و البعث بذكر شواهد من آياته تثبت ذلك و هو قوله: «نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ» - الى قوله - وَ مَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ، و ثانياً بيانا يؤكد فيه كون القرآن الكريم كلامه المحفوظ عنده النازل منه و وصفه بأحسن أو صافه.

فقوله: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ جوابٌ للقسم السابق، الضمير للقرآن المعلوم من السياق السابق و يستفاد من توصيفه بالكريم من غير تقييد في مقام المدح أنه كريم على الله عزيز عنده و كريم محمود الصفات و كريم بذال نفع للناس لما فيه من اصول المعارف التي فيها سعادته الدنيا و الآخرة.

و قوله: فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ وصف ثان للقرآن أى محفوظ مصون عن التغيير و التبديل، و هو اللوح المحفوظ كما قال تعالى: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (البروج / ٢٢).

و قوله: لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ صفه الكتاب المكنون و يمكن أن يكون وصفا ثالثا للقرآن و مآل الوجهين على تقدير كون لا نافية واحد.

و المعنى: لا يمس الكتاب المكنون الذى فيه القرآن إلا المطهرون أو لا يمس القرآن الذى فى الكتاب إلا المطهرون.

و الكلام على أى حال مسوق لتعظيم أمر القرآن و تجليله فمسه هو العلم به و هو فى الكتاب المكنون كما يشير اليه قوله: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ (الزخرف / ٤).

و المطهرون-اسم مفعول من التطهير-هم الذين طهر الله تعالى نفوسهم من أرجاس المعاصى و قذارات الذنوب أو مما هو أعظم من ذلك و أدق و هو تطهير قلوبهم من التعلق بغيره تعالى، و هذا المعنى من التطهير هو المناسب للمس الذى هو العلم دون الطهاره من الخبيث أو الحدث كما هو ظاهر.

فالمطهرون هم الذين أكرمهم الله تعالى بتطهير نفوسهم كالملائكة الكرام و الذين طهرهم الله من البشر، قال تعالى: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (الأ-حزاب / ٣٣)، و لا- وجه لتخصيص المطهرين بالملائكة كما عن جلّ المفسرين

لكونه تقييدا من غير مقيد.

و ربما جعل «لا» في «لَا يَمَسُّهُ» ناهيه، والمراد بالمس على هذا مس كتابه القرآن، وبالطهاره الطهاره من الحدث أو الحدث و الخبث جميعا- و قرئ «الْمُطَهَّرُونَ» بتشديد الطاء و الهاء و كسر الهاء أى المتطهرون- و مدلول الآية تحريم مس كتابه القرآن على غير طهاره.

و يمكن حمل الآية على هذا المعنى على تقدير كون «لا» نافية بأن تكون الجملة إخبارا أريد به الإنشاء و هو أبلغ من الإنشاء.

و قوله: تَنْزِيلٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ وصف آخر للقرآن، و المصدر بمعنى اسم المفعول أى منزل من عند الله اليكم تفتهمونه و تعقلونه بعد ما كان فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون.

و التعبير عنه تعالى برب العالمين للإشارة الى أن ربوبيته تعالى منبسطه على جميع العالمين و هم من جملتهم فهو تعالى ربهم و إذا كان ربهم كان عليهم أن يؤمنوا بكتابه و يصغوا لكلامه و يصدقوه من غير تكذيب.

قوله تعالى: أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ الإشارة بهذا الحديث الى القرآن، و الإدھان به التهاون به و أصله التليين بالدهن استعير للتهاون، و الاستفهام للتوبيخ يوبخهم تعالى على عدھم أمر القرآن هينا لا يعتنى به.

قوله تعالى: وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ قيل: المراد بالرزق حظهم من الخير، و المعنى: و تجعلون حظكم من الخير الذى لكم أن تنالوه بالقرآن أنكم تكذبون به أى تضعونه موضعه، و قيل: المراد بالرزق القرآن رزقهم الله إياه، و المعنى: تأخذون التكذيب مكان هذا الرزق الذى رزقتموه، و قيل: الكلام بحذف مضاف و التقدير: و تجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون أى وضعتم التكذيب موضع الشكر.

قوله تعالى: فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ -الى قوله- صَادِقِينَ رجوع الى أول

الكلام بالتفريع على تكذيبهم بأنكم إن كنتم صادقين في نفيكم للبعث مصيبن في تكذيبهم لهذا القرآن الذى ينبئكم بالبعث رددتم نفس المحتضر التى بلغت الحلقوم إذ لو لم يكن الموت بتقدير من الله كان من الامور الاتفاقيه التى ربما أمكن الاحتيال لدفعها،فإذ لم تقدرُوا على رجوعها و إعادته الحياه معها فاعلموا أن الموت حتى مقدر من الله لسوق النفوس الى البعث و الجزاء.

فقوله: فَلَوْ لَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ تَفْرِيعَ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ بِالْقُرْآنِ وَ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ الْبَعْثِ وَ الْجَزَاءِ، وَ لَوْلَا لِلتَّحْضِيضِ تَعْجِيزًا وَ تَبْكِيتًا لَهُمْ، وَ ضَمِيرَ «بَلَغَتِ» لِلنَّفْسِ، وَ بُلُوغِ النَّفْسِ الْحَلْقُومَ كِنَايَةً عَنِ الْإِشْرَافِ التَّامِ لِلْمَوْتِ.

و قوله: وَ أَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ أَي تَنْظُرُونَ إِلَى الْمَحْتَضِرِ أَي هُوَ بِمَنْظَرٍ مِنْكُمْ.

و قوله: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ أَي وَ الْحَالُ أَنَا أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ لِإِحْاطَتِنَا بِهِ وَ جُودًا وَ رَسَلْنَا الْقَابِضُونَ لِرُوحِهِ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لَكِنْ لَا تَبْصِرُونَ وَ لَا رَسَلْنَا.

قال تعالى: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا (الزمر ٢٦)، وَ قَالَ: قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (السجده ١١)، وَ قَالَ: حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا (الأنعام ٦١).

و قوله: فَلَوْلَا- إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَكَرَّرَ «فَلَوْلَا» لِتَأْكِيدِ «فَلَوْلَا» السَّابِقِ، وَ «مَدِينِينَ» أَي مُجْزِينَ مِنْ دَانَ يَدِينُ بِمَعْنَى جَزَى يَجْزَى، وَ الْمَعْنَى: إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مُجْزِينَ ثَوَابًا وَ عِقَابًا بِالْبَعْثِ.

و قوله: تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَي إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي دَعْوَاكُمْ أَنْ لَا- بَعْثَ وَ لَا- جَزَاءَ، وَ قَوْلُهُ: «تَرْجِعُونَهَا» مَدْخُولٌ لَوْلَا التَّحْضِيضِ بِحَسَبِ التَّقْدِيرِ وَ تَرْتِيبِ الْآيَاتِ بِحَسَبِ التَّقْدِيرِ فَلَوْلَا تَرْجِعُونَهَا إِذَا بَلَغَتِ الْحَلْقُومَ إِنْ كُنْتُمْ مَدِينِينَ.

قوله تعالى: فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ رجوع الى بيان حال الأزواج الثلاثة المذكوره فى أول السوره عند الموت و بعده و ضمير «كَانَ» للمتوفى المعلوم من السياق، و المراد بالمقربين السابقون المقربون المذكورون سابقا، و الروح الراحه، و الريحان الرزق، و قيل: هو الريحان المشموم من ريحان الجنه يوتى به اليه فيشمه و يتوفى.

و المعنى: فأما إن كان المتوفى من المقربين فله-أو فجزاؤه-راحه من كل همّ و غمّ و ألم و رزق من رزق الجنه و جنة نعيم.

قوله تعالى: وَ أَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ يمكن أن يكون اللام للاختصاص الملكى و معنى «فَسَلَامٌ لَكَ» أنك تختص بالسلام من أصحاب اليمين الذين هم قرناؤك و رققاؤك فلا ترى منهم إلا خيرا و سلاما.

قوله تعالى: وَ أَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ تَصْلِيَةٌ لِيَهُ جَحِيمٍ تصلية النار الإدخال فيها، و قيل: مقاساه حرّها و عذابها.

و المعنى: و أما إن كان من أهل التكذيب و الضلال فلهم نزل من ماء شديد الحرارة، و مقاساه حر نار جحيم.

و قد وصفهم الله بالمكذبين الضالين فقدم التكذيب على الضلال لأن ما يلقونه من العذاب تبعه تكذيبهم و عنادهم للحق و لو كان ضلالا بلا تكذيب و عناد كانوا مستضعفين غير نازلين هذه المنزله، و أما قوله سابقا: «ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكْذِبُونَ» فإذا كان المقام هناك مقام الرد لقولهم: «أَ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا وَ عِظَامًا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ» الخ؛ كان الأنسب توصيفهم أولا بالضلال ثم بالتكذيب.

قوله تعالى: إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ الحق هو العلم من حيث إن الخارج الواقع يطابقه، و اليقين هو العلم الذى لا لبس فيه و لا ريب فإضافه الحق الى اليقين نحو من الإضافة

البيانيه جيء بها للتأكيد.

و المعنى: أن هذا الذى ذكرناه من حال أزواج الناس الثلاثة هو الحق الذى لا تردّد فيه و العلم الذى لا شك يعتريه.

قوله تعالى: فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ تقدم تفسيره، و هو تفرّيع على ما تقدمه من صفه القرآن و بيان حال الأزواج الثلاثة بعد الموت و فى الحشر.

و المعنى: فإذا كان القرآن على هذه الصفات و صادقاً فيما يتبىء به من حال الناس بعد الموت فنزّه ربك العظيم مستعينا أو ملابسا باسمه و انف ما يراه و يدّعيه هؤلاء المكذبون الضالون (١).

ص: ١٩٦

١ - ١). الواقعه ٥٧-٩٦: بحث روائى حول قوله تعالى: «أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ»؛ نزول القرآن؛ الكتاب المكنون؛ نعيم الجّه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجِ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ
فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي
النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦)

غرض السوره حثّ المؤمنين و ترغيبهم في الإنفاق في سبيل الله كما يشعر به تأكيد الأمر به مره بعد مره في خلال آياتها آمنوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ الْآيَةَ؛ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا الْآيَةَ؛ إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَ الْمُصَدَّقَاتِ وَ أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَ قد صمّت إنفاقهم ذلك إقراضا منه لله عز اسمه فالله سبحانه خير مطلوب و هو لا يخلف الميعاد و قد وعدهم إن أقرضوه أن يضاعفه لهم و أن يؤتيهم أجرا كريما كثيرا.

و قد أشار الى أن هذا الإنفاق من التقوى و الإيمان بالرسول و أنه يستتبع مغفره الذنوب و إتيان كفلين من الرحمة و لزوم النور بل و اللحوق بالصدّيقين و الشهداء عند الله سبحانه.

و في خلال آياتها معارف راجعه الى المبدأ و المعاد، و دعوه الى التقوى و إخلاص الإيمان و الزهد و موعظه.

و السوره مدنيه بشهاده سياق آياتها و قد ادعى بعضهم إجماع المفسرين على ذلك.

و لقد افتتحت السوره بتسيحه و تنزيهه تعالى بعده من أسمائه الحسنی لما في غرض السوره و هو الحثّ على الإنفاق من شائبه توهم الحاجه و النقص في ناحيته و نظيرتها في ذلك جميع السور المفتحة بالتسيح و هي سور الحشر و الصف و الجمعه و التغابن المصدّره بسبح أو يسبح.

قوله تعالى: سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ التسيح التنزيه و هو نفى ما يستدعى نقصا أو حاجه مما لا يليق بساحه كماله تعالى، و «ما» موصوله و المراد بها ما يعمّ العقلاء مما في السماوات و الأرض كالملائكه و الثقلين و غير العقلاء كالجمادات و الدليل عليه ما ذكر بعد من صفاته المتعلقة بالعقلاء كالأحياء و العلم بذات الصدور.

فالمعنى: نزه الله سبحانه ما فى السماوات و الأرض من شىء و هو جميع العالم.

و المراد بتسييحها حقيقه معنى التسييح دون المعنى المجازى الذى هو دلالة وجود كل موجود فى السماوات و الأرض على أن له موجدا منزها من كل نقص متصفا بكل كمال، و دون عموم المجاز و هو دلالة كل موجود على تنزهه تعالى إما بلسان القول كالعقلاء و إما بلسان الحال كغير العقلاء من الموجودات و ذلك لقوله تعالى: **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** (الإسراء/٤٤)، حيث استدرك أنهم لا يفقهون تسييحهم و لو كان المراد بتسييحهم دلالة على وجودهم على وجوده و هى قيام الحججه على الناس بوجودهم أو كان المراد تسييحهم و تحميدهم بلسان الحال و ذلك مما يفقه الناس لم يكن للاستدراك معنى.

فتسييح ما فى السماوات و الأرض تسييح و نطق بالتنزيه بحقيقه معنى الكلمه و إن كنا لا نفقهه، قال تعالى: **قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ** (حم السجده/٢١).

و قوله: **وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** أى المنيع جانبه يغلب و لا يغلب، المتقن فعله لا يعرض على فعله ما يفسده عليه و لا يتعلق به اعتراض معترض.

قوله تعالى: **لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** الكلام موضوع على الحصر فهو المليك فى السماوات و الأرض يحكم ما يشاء لأنه الموجد لكل شىء فما فى السماوات و الأرض يقوم به وجوده و آثار وجوده فلا حكم إلا له فلا ملك و لا سلطنه إلا له.

و قوله: **يُحْيِي وَ يُمِيتُ** إشاره الى اسميه المحيى و المميت، و إطلاق «يُحْيِي وَ يُمِيتُ» يفيد شمولهما لكل إحياء و إماته كإيجاده الملائكه أحياء من غير سبق موت، و إحيائه الجنين فى بطن أمه و إحيائه الموتى فى البعث و إيجاده الجماد ميتا من غير سبق حياه و إماته الإنسان فى الدنيا و إماته ثانيا فى البرزخ على ما يشير اليه قوله: **رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ**

(المؤمن ١١/١)، و في «يُحْيِي وَ يُمِيتُ» دلالة على الاستمرار.

و قوله: وَ هُوَ عَلِيُّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فيه إشارة الى صفه قدرته و أنها مطلقة غير مقيدة بشيء دون شيء، و في تذييل الآيه بالقدره على كل شيء مناسبه مع ما تقدمها من الإحياء و الإماتة لما ربما يتوهمه المتوهم أن لا قدره على إحياء الموتى و لا عين منهم و لا أثر.

قوله تعالى: هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْبَاطِنُ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ لما كان تعالى قديرا على كل شيء مفروض كان محيطا بقدرته على كل شيء من كل جهه فكل ما فرض أولا فهو قبله فهو الأول دون الشيء المفروض أولا، و كل ما فرض آخرا فهو بعده لإحاطه قدرته به من كل جهه فهو الآخر دون الشيء المفروض آخرا، و كل شيء فرض ظاهرا فهو أظهر منه لإحاطه قدرته به من فوقه فهو الظاهر دون المفروض ظاهرا، و كل شيء فرض أنه باطن فهو تعالى أبطن منه لإحاطته به من ورائه فهو الباطن دون المفروض باطنا فهو تعالى الأول و الآخر و الظاهر و الباطن على الإطلاق و ما في غيره تعالى من هذه الصفات فهي إضافيه نسبيه.

و ليست أوليته تعالى و لا- آخريته و لا- ظهوره و لا- بطونه زمانيه و لا- مكانيه بمعنى مظهريته فهما و إلا لم يتقدمهما و لا تنزه عنهما سبحانه بل هو محيط بالأشياء على أى نحو فرضت و كيفما تصوّرت.

فبان مما تقدم أن هذه الأسماء الأربعة الأول و الآخر و الظاهر و الباطن من فروع اسمه المحيط و هو فرع إطلاق القدره فقدرته محيطه بكل شيء و يمكن تفريع الأسماء الأربعة على إحاطه وجوده بكل شيء فإنه تعالى ثابت قبل ثبوت كل شيء و ثابت بعد فناء كل شيء و أقرب من كل شيء ظاهر و أبطن من الأوهام و العقول من كل شيء خفى باطن.

و كذا للأسماء الأربعة نوع تفرع على علمه تعالى و يناسبه تذييل الآيه بقوله: «وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» .

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ تَقْدِمُ تَفْسِيرَهُ.

قوله تعالى: ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا تَقْدِمُ تَفْصِيلَ الْقَوْلِ فِي مَعْنَى الْعَرْشِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ آيَةِ: ٥٤.

و تقدم أن الاستواء على العرش كناية على الأخذ في تدبير الملك و لذا عقبه بالعلم بجزئيات الأحوال لأن العلم من لوازم التدبير.

و قوله: يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا الْوَلُوجُ- كما قال الراجب-الدخول في مضيق، والعروج ذهاب في صعود، والمعنى: يعلم ما يدخل و ينفذ في الأرض كماء المطر و البذور و غيرهما و ما يخرج من الأرض كأنواع النبات و الحيوان و الماء و ما ينزل من السماء كالأمطار و الأشعه و الملائكه و ما يعرج فيها و يصعد كالأبخرة و الملائكه و أعمال العباد.

قوله تعالى: وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ لِإِحَاطَتِهِ بِكُمْ فَلَا تَغْيِبُونَ عَنْهُ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَ فِي أَيِّ زَمَانٍ عَشْتُمْ وَ فِي أَيِّ حَالٍ فَضِئْتُمْ فَذَكَرَ عَمُومَ الْأَمْكَانَةِ «أَيْنَ مَا كُنْتُمْ» لِأَنَّ الْأَعْرَافَ فِي مَفَارِقِهِ شَيْءٌ شَيْئًا وَ غَيْبَتِهِ عَنْهُ أَنْ يَتَوَسَّلَ إِلَى ذَلِكَ بِتَغْيِيرِ الْمَكَانِ وَ إِلَّا فَانْسَبَتْهُ تَعَالَى إِلَى الْأَمْكَانَةِ وَ الْأَزْمَنَةِ وَ الْأَحْوَالِ سِوَاءِ.

و قيل: المعنى مجاز مرسل عن الإحاطة العلميه.

قوله تعالى: وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ كَالْفَرْعِ الْمُرْتَبِّ عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنْ كَوْنِهِ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا وَ كَوْنَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا فَإِنْ لَازِمَ حُضُورِهِ عَنْدهُمْ مِنْ دُونِ مَفَارِقِهِ مَا وَاحْتِجَابَ وَ هُوَ عَلِيمٌ أَنْ يَكُونَ بِصِيرًا بِأَعْمَالِهِمْ يَبْصُرُ ظَاهِرَ عَمَلِهِمْ، وَ مَا فِي بَاطِنِهِمْ مِنْ تَيْهٍ وَ قِصْدٍ.

قوله تعالى: لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ كَرَّرَ

قوله: «لَهُ مُلْكُ» الخ؛ لا ابتداء رجوع الأشياء اليه على عموم الملك فصرح به ليفيد الابتداء، قال تعالى: يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (المؤمن ١٦).

و قوله: وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ الامور جمع محلى باللام يفيد العموم كقوله:

أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (الشورى ٥٣)، فما من شىء إلا و يرجع الى الله، ولا راد اليه تعالى إلا هو لاختصاص الملك به فله الأمر و له الحكم.

و فى الآيه وضع الظاهر موضع الضمير فى «إِلَى اللَّهِ» و كذا فى الآيه السابقه «وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» و لعل الوجه فى ذلك أن تفرع الجملتان قلوبهم كما يقول المثل السائر لما سيجىء من ذكر يوم القيامة و جزيل أجر المنفقين فى سبيل الله فيه.

قوله تعالى: يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إيلاج الليل فى النهار فى الليل اختلاف الليل و النهار فى الطول و القصر باختلاف فصول السنه فى كل من البقاع الشماليه و الجنوبيه بعكس الاخرى، و قد تقدم فى كلامه تعالى غير مره.

و المراد بذات الصدور الأفكار المضمرة و التيات المكنونه التى تصاحب الصدور و تلازمها لما أنها تنسب الى القلوب و القلوب فى الصدور، و الجملة أعنى قوله: «وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» بيان لإحاطه علمه بما فى الصدور بعد بيان إحاطه بصره بظواهر أعمالهم بقوله:

«وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»

(١)

[سورة الحديد (٥٧): الآيات ٧ الى ١٥]

آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ أَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَ مَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَ قَدْ أَخَذَ مِنْهَا بَعْضَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ إِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرؤُفٌ رَحِيمٌ (٩) وَ مَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا يَسْئَلُوكَ مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قَاتَلَ أُولِيكُمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَ قَاتَلُوا وَ كَلَّا وَ عِدَّ اللَّهُ الْحُسَيْنِ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَنِ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسِينًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَ لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بَاطِنُهُمْ بِشْرَانِهِمْ أَلْيَوْمَ جُنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْظَرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يَتَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَ لَكِنَّا كُنَّا نَفْسَكُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ ارْتَبْتُمْ وَ عَرَّثْنَاكُمْ الْأَلْمَائِيَّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَ عَرَّكْنَا بِاللَّهِ الْغَرُورَ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَ لَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أُوَكِّمُ النَّارَ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَ

١-١). الحديد ١-٦: بحث روائي في المسبحات؛ التوحيد؛ صفات الله.

قوله تعالى: آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ الْخَيْرِ الْمُسْتَفَادِ مِنْ سِيَاقِ الْآيَاتِ أَنَّ الْخِطَابَ فِي الْآيَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَا- لِلْكَفَّارِ وَلَا- لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكَفَّارِ جَمِيعًا كَمَا قِيلَ، وَأَمْرُ الَّذِينَ تَلَبَّسُوا بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ بِالْإِيمَانِ مَعْنَاهُ الْأَمْرُ بِتَحْقِيقِ الْإِيمَانِ بِتَرْتِيبِ آثَارِهِ عَلَيْهِ إِذْ لَوْ كَانَتْ صِفَةٌ مِنْ الصِّفَاتِ كَالسَّخَاءِ وَالْعَفْهِ وَالشَّجَاعَةِ ثَابِتَةً فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ حَقَّ ثبوتِهَا لَمْ يَتَخَلَفْ عَنْهَا أَثَرُهَا الْخَاصُّ وَمِنْ آثَارِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ الطَّاعَةُ فِيمَا أَمَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِهِ.

وقوله: وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ اسْتِخْلَافَ الْإِنْسَانِ جَعَلَهُ خَلِيفَةً، وَالْمُرَادُ بِهِ إِمَّا خِلَافَتَهُمْ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ يَخْلُفُونَهُ فِي الْأَرْضِ كَمَا يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ: إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (البقرة ٣٠)، وَالتَّعْبِيرُ عَمَّا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْمَالِ بِهَذَا التَّعْبِيرِ لِبَيَانِ الْوَاقِعِ وَتَرْغِيبِهِمْ فِي الْإِنْفَاقِ فَإِنَّهُمْ إِذَا أُيْقِنُوا أَنَّ الْمَالَ لِلَّهِ وَهُمْ مُسْتَخْلِفُونَ عَلَيْهِ وَكَلَاءٌ مِنْ نَاحِيَّتِهِ يَتَصَرَّفُونَ فِيهِ كَمَا أُذِنَ لَهُمْ سَهْلًا عَلَيْهِمْ إِنْفَاقَهُ وَ لَمْ تَتَحَرَّجْ نَفُوسُهُمْ مِنْ ذَلِكَ.

وَإِمَّا خِلَافَتَهُمْ عَمَّنْ سَبَقَهُمْ مِنَ الْأَجْيَالِ كَمَا يَخْلُفُ كُلُّ جِيلٍ سَابِقَهُ، وَفِي التَّعْبِيرِ بِهِ أَيْضًا تَرْغِيبٌ فِي الْإِنْفَاقِ فَإِنَّهُمْ إِذَا تَذَكَّرُوا أَنَّ هَذَا الْمَالَ كَانَ لِغَيْرِهِمْ فَلَمْ يَدُمِ عَلَيْهِمْ عِلْمُوا أَنَّهُ كَذَلِكَ لَا يَدُومُ لَهُمْ وَسَيَتَرَكُونَهُ لِغَيْرِهِمْ وَهَانَ عَلَيْهِمْ إِنْفَاقَهُ وَ سَخَتْ بِذَلِكَ نَفُوسُهُمْ.

وقوله: فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ وَعَدَّ لِلْأَجْرِ عَلَى الْإِنْفَاقِ تَأْكِيدًا لِلتَّرغِيبِ، وَالْمُرَادُ بِالْإِيمَانِ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ الخ؛ المراد بالإيمان بالإيمان بحيث يترتب عليه آثاره و منها الإنفاق في سبيل الله - وإن شئت فقل: المراد ترتيب آثار ما عندهم من الإيمان عليه.

وقوله: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ عبر الرب بالرب و أضافه اليه تلويحا الى عله توجه الدعوه و الأمر كأنه قيل: يدعوكم لتؤمنوا بالله لأنه ربحكم يجب عليكم أن تؤمنوا به.

وقوله: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ تأكيد للتوبيخ المفهوم من أول الآية، و ضمير «أَخَذَ» لله سبحانه أو للرسول و على أى حال المراد بالميثاق المأخوذ هو الذى تدل عليه شهادتهم على وحدانيه الله و رساله رسوله يوم آمنوا به صلى الله عليه و آله و سلم من أنهم على السمع و الطاعة.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَيْنَا آيَاتِهِ﴾ آيات بيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ الخ؛ المراد بالآيات البيِّنات آيات القرآن الكريم المبينه لهم ما عليهم من فرائض الدين، و فاعل «لِيُخْرِجَكُمْ» الضمير العائد الى الله أو الى رسوله صلى الله عليه و آله و سلم و مرجع الثانى أيضا هو الأول فالميثاق ميثاقه و قد أخذه بواسطه رسوله أو بغير واسطته كما أن الإيمان به و برسوله إيمان به و لذلك قال فى صدر الآية: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فذكر نفسه و لم يذكر رسوله إشاره الى أن الإيمان برسوله إيمان به.

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ فى تذييل الآية برأفته تعالى و رحمته إشاره الى أن الإيمان الذى يدعوهم اليه رسوله خير لهم و أصلح و هم الذين يتنفعون به دون الله و رسوله، ففيه تأكيد ترغيبهم على الإيمان و الإنفاق.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ﴾ الميراث و التراث المال الذى ينتقل من الميت الى من بقى بعده من وراثته،

و إضافة الميراث الى السماوات و الأرض بيانیه فالسماوات و الأرض هي الميراث بما فيهما من الأشياء التي خلق منهما مما يمتلكه ذووا الشعور من سكتتهما فالسماوات و الأرض شامله لما فيهما مما خلق منهما و يتصرف فيها ذووا الشعور كالإنسان مثلا بتخصيص ما يتصرفون فيه لأنفسهم و هو الملك الاعتباري الذي هداهم الله سبحانه الى اعتباره فيما بينهم لينتظم بذلك جهات حياتهم الدنيا.

غير أنهم لا يتقون و لا يبقى لهم بل يذهبهم الموت المقدر بينهم فينتقل ما في أيديهم الى من بعدهم و هكذا حتى يفنى الجميع و لا يبقى إلا هو سبحانه.

فالأرض مثلا- و ما فيها و عليها من مال ميراث من جهه أن كل جيل من سكانها يرثها ممن قبله فكانت ميراثا دائما دائرا بينهم خلفا عن سلف، و ميراث من جهه أنهم سيفنون جميعا و لا يبقى لها إلا الله الذي استخلفهم عليها.

و لله سبحانه ميراث السماوات و الأرض بكلا المعنيين، أما الأول: فلأنه الذي يملكهم المال و هو المالك لما ملكهم، قال تعالى: **لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ** (لقمان ٢٦)، و قال:

و لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ (النور ٤٢)، و قال: **وَ آتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ** (النور ٣٣).

و أما الثاني: فظاهر آيات القيامة كقوله تعالى: **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ** (الرحمن ٢٦)، و غيره، و الذي يسبق الى الذهن أن المراد بكونهما ميراثا هو المعنى الثاني.

و كيف كان ففي الآيه توبيخ شديد لهم على عدم إنفاقهم في سبيل الله من المال الذي لا يرثه بالحقيقه إلا هو تعالى و لا يبقى لهم و لا لغيرهم، و الإظهار في موضع الإضمار في قوله: «و لله» لتشديد التوبيخ.

قوله تعالى: **لَا يَشْتَرُونَ مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قَاتَلَ أَوْلِيكَ أَكْثَرَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَ قَاتَلُوا الْحَاقَّةَ**؛ الاستواء بمعنى التساوي، و قسيم

قوله: «مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ» محذوف إيجازاً لدلاله قوله: «أَوْلَيْكَ أَعْظَمُ دَرَجَةٍ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا» عليه.

و المراد بالفتح- كما قيل- فتح مكة أو فتح الحديبيه و عطف القتال على الإنفاق لا- يخلو من إشعار بل دلالة على أن المراد بالإنفاق فى سبيل الله المندوف اليه فى الآيات هو الإنفاق فى الجهاد.

و كأن الآيه مسوقه لبيان أن الإنفاق فى سبيل الله كلما عجل إليها كان أحبّ عند الله و أعظم درجه و منزله و إلا فظاهر أن هذه الآيات نزلت بعد الفتح و القتال الذى بادروا اليه قبل الفتح و بعض المقاتل التى بعده.

و قوله: «وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسَيْنِيَّ» أى وعد الله المثوبه الحسنى كل من أنفق و قاتل قبل الفتح أو أنفق و قاتل بعده و إن كانت الطائفة الاولى أعظم درجه من الثانية، و فيه تطيب لقلوب المتأخرين إنفاقاً و قتالاً أن لهم نيلاً من رحمته و ليسوا بمحرومين مطلقاً فلا موجب لأن يأسوا منها و إن تأخروا.

و قوله: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» تذييل متعلق بجميع ما تقدم فففيه تشديد للتوبيخ و تقرير و تثبيت لقوله: «لَا يَشِيئُ مِنْكُمْ» الخ؛ و لقوله: «وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسَيْنِيَّ» و يمكن أن يتعلق بالجملة الأخيره لكن تعلقه بجميع أعم و أشمل.

قوله تعالى: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ» وَ لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ قال الراغب: و سمي ما يدفع الى الإنسان من المال بشرط رد بدله قرضاً. انتهى، و قال فى المجمع: و أصله القطع فهو قطعه عن مالكه بإذنه على ضمان رد مثله. قال: و المضاعفه الزيادة على المقدار مثله أو أمثاله. انتهى، و قال الراغب: الأجر و الأجره ما يعود من ثواب العمل دنيوياً كان أو أخروياً قال: و لا يقال إلا فى النفع دون الضر بخلاف الجزاء فإنه يقال فى النفع و الضر. انتهى ملخصاً.

و فى الآيه حثٌ بلىغ على ما نذب اليه من الإنفاق فى سبيل الله حيث استفهم عن الذى ينفق منهم فى سبيل الله و مثل إنفاقه بأنه قرض يقرضه الله سبحانه و عليه أن يردده ثم قطع أنه لا يرد مثله اليه بل يضاعفه و لم يكتف بذلك بل أضاف اليه أجرا كريما فى الآخره و الأجر الكريم هو المرضى فى نوعه و الأجر الأخرى كذلك لأنه غايه ما يتصور من النعمه عند غايه ما يتصور من الحاجه.

قوله تعالى: يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بَأْيَمَانِهِمْ الخ؛ اليوم ظرف لقوله: «لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ» و المراد به يوم القيامه، و الخطاب فى «تَرَى» للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أو لكل سامع يصح خطابه، و الظاهر أن الباء فى «بَأْيَمَانِهِمْ» بمعنى فى.

و المعنى: لمن أقرض الله قرضا حسنا أجر كريم يوم ترى أنت يا رسول الله- أو كل من يصح منه الرؤيه- المؤمنين بالله و رسوله و المؤمنات يسعى نورهم أمامهم و فى أيمنهم و اليمين هو الجبهه التى منها سعادتهم.

و الآيه مطلقه تشمل مؤمنى جميع الامم و لا تختص بهذه الامه، و التعبير عن إشراق النور بالسعى يشعر بأنهم ساعون الى درجات الجنه التى أعدها الله سبحانه لهم و تستنير لهم جهات السعاده و مقامات القرب واحده بعد واحده حتى يتم لهم نورهم كما قال تعالى: «فَمَسِيْقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا (الزمر ٧٣)»، و قال: يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (مريم ٨٥)، و قال: يَوْمَ لَا يُخْزَى اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بَأْيَمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا (التحریم ٨).

و قوله: «بُشْرَاكُمْ الْيَوْمَ جَذَاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا» حكاية ما يقال للمؤمنين و المؤمنات يوم القيامه، و القائل الملائكه بأمر من الله و التقدير يقال لهم: «بُشْرَاكُمْ» الخ؛ و المراد بالبشرى ما يبشر به و هو الجنه و الباقي ظاهر.

و قوله: ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ كلام الله سبحانه و الإشاره الى ما ذكر من سعى

النور و البشرى أو من تمام قول الملائكة و الإشارة الى الجنات و الخلود فيها.

قوله تعالى: **يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ** الى آخر الآية؛ النظر إذا تعدى بنفسه أفاد معنى الانتظار و الإمهال، و إذا عدى بالى نحو نظر اليه كان بمعنى إلقاء البصر نحو الشيء و إذا عدى بفى كان بمعنى التأمل، و الاقتباس أخذ قبس من النار.

و السياق يفيد أنهم اليوم فى ظلمه أحاطت بهم سرادقها و قد ألجئوا الى المسير نحو دارهم التى يخلدون فيها غير أن المؤمنين و المؤمنات يسرون بنورهم الذى يسعى بين أيديهم و بأيمانهم فيبصرون الطريق و يهتدون الى مقاماتهم، و أما المنافقون و المنافقات فهم مغشيون بالظلمه لا يهتدون سبيلا و هم مع المؤمنين كما كانوا فى الدنيا معهم و معدودين منهم فيسبق المؤمنون و المؤمنات الى الجنة و يتأخر عنهم المنافقون و المنافقات فى ظلمه تغشاهم فيسألون المؤمنين و المؤمنات أن ينتظروهم حتى يلحقوا بهم و يأخذوا قبسا من نورهم ليستضيئوا به فى طريقهم.

و قوله: **قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا** القائل به إما الملائكة أو قوم من كمل المؤمنين كأصحاب الأعراف.

و كيف كان فهو من الله و بإذنه، و الخطاب بقوله: **«ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا»** قيل: إنه خطاب مبنى على التهكم و الاستهزاء كما كانوا يستهزئون فى الدنيا بالمؤمنين، و الأظهر على هذا أن يكون المراد بالوراء الدنيا، و محصل المعنى: ارجعوا الى الدنيا التى تركتموها وراء ظهوركم و عملتم فيها ما عملتم على النفاق، و التمسوا من تلك الأعمال نورا فإنما النور نور الأعمال أو الإيمان و لا إيمان لكم و لا عمل.

و يمكن أن يجعل هذا وجها على حياله من غير معنى الاستهزاء بأن يكون قوله: **«ارْجِعُوا»** أمرا بالرجوع الى الدنيا و اكتساب النور بالإيمان و العمل الصالح و ليسوا براجعين و لا

يستطيعون فيكون الأمر بالرجوع كالأمر بالسجود المذكور في قوله تعالى: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنَّا سِتْرًا لَّهُمْ وَيُذْعَرُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ وَقَدْ كَانُوا يُذْعَرُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (القلم ٤٣).

وقيل: المراد ارجعوا الى المكان الذى قسم فيه النور و التمسوا من هناك فيرجعون فلا يجدون شيئا فينصرفون اليهم وقد ضرب بينهم بسور، وهذا خدعه منه تعالى يخدعهم بها كما كانوا فى الدنيا يخادعون كما قال: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ (النساء / ١٤٢).

قوله تعالى: فَضَرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ سور المدينه حائطها الحاجز بينها و بين الخارج منها، و الضمير فى «فَضَرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ» راجع الى المؤمنين و المنافقين جميعا أى ضرب بين المؤمنين و بين المنافقين بسور حاجز يحجز إحدى الطائفتين عن الاخرى.

قيل: السور هو الأعراف و هو غير بعيد و قد تقدمت إشاره اليه فى تفسير قوله تعالى:

و بَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ (الأعراف ٤٦)، وقيل: السور غير الأعراف.

وقوله: لَهُ بَابٌ أى للسور باب و هذا يشبه حال المنافقين فى الدنيا فقد كانوا فيها بين المؤمنين لهم اتصال بهم و ارتباط و هم مع ذلك محبوبون عنهم بحجاب. على أنهم يرون أهل الجنة و يزيد بذلك حسرتهم و ندامتهم.

وقوله: بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ «بَاطِنُهُ» مبتدأ و جملة «فِيهِ الرَّحْمَةُ» مبتدأ و خبر و هى خبر «بَاطِنُهُ» و كذا «ظَاهِرُهُ» مبتدأ و جملة «مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ» مبتدأ و خبر هى خبره، و ضميرا «فِيهِ وَ مِن قِبَلِهِ» للباطن و الظاهر.

و يظهر من كون باطن السوره فيه رحمة و ظاهره من قبله العذاب أن السور محيط بالمؤمنين و هم فى داخله و المنافقون فى الخارج منه.

و فى اشتمال داخله الذى يلى المؤمنين على الرحمه و ظاهره الذى يلى المنافقين على العذاب مناسبه لحال الإيمان فى الدنيا فإنه نعمه لأهل الإخلاص من المؤمنين يبتهجون بها و يلتذون و عذاب لأهل النفاق يتخرجون من التلبس به و يتألمون منه.

قوله تعالى: **يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ** استئناف فى معنى جواب السؤال كأنه قيل: فما ذا يفعل المنافقون و المنافقات بعد ضرب السوره و مشاهده العذاب من ظاهره؟ فقيل: ينادونهم، الخ.

و المعنى: ينادى المنافقون و المنافقات المؤمنين و المؤمنات بقولهم: «أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ» يريدون به كونهم فى الدنيا مع المؤمنين و المؤمنات فى ظاهر الدين.

و قوله: **قَالُوا بَلَىٰ** الى آخر الآيه جواب المؤمنين و المؤمنات لهم و المعنى «قَالُوا» أى قال المؤمنون و المؤمنات جواباً لهم: «بَلَىٰ» كتم فى الدنيا معنا «وَلِكِنَّكُمْ فَتَنُنَّكُمْ» أى محنتهم و أهلكتهم «أَنْفُسِيَكُمْ وَ تَرَبَّصِيْتُمْ» الدوائر بالدين و أهله «وَأَرْبَبْتُمْ» و شككتهم فى دينكم «وَعَزَّزْتُكُمُ الْأَمَانِيَّ» و منها أمنيتهم أن الدين سيطفأ نوره و يتركه أهله «حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ» و هو الموت «وَعَزَّزْتُكُمْ بِاللَّهِ الْعَزَّوْرُ» بفتح الغين و هو الشيطان.

و الآيه- كما ترى- تفيد أن المنافقين و المنافقات يستنصرون المؤمنين و المؤمنات على ما هم فيه من الظلمه متوسلين بأنهم كانوا معهم فى الدنيا ثم تفيد أن المؤمنين و المؤمنات يجيبون بأنهم كانوا معهم لكن قلوبهم كانت لا توافق ظاهر حالهم حيث يفتنون أنفسهم و يتربصون و يرتابون و تغرهم الأمانى و يغرهم بالله الغرور، و هذه الصفات الخبيثه آفات القلوب فكانت القلوب غير سليمه و لا ينفع يوم القيامة إلا القلب السليم قال تعالى: **يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** (الشعراء ٨٩).

قوله تعالى: **فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا** تتمه كلام المؤمنين و المؤمنات يخاطبون به المنافقين و المنافقات و يضيفون اليهم الكفار و هم المعلنون

لكفرهم أنهم رهناء أعمالهم كما قال تعالى: كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَهُ (المدثر ٣٨)، لا يؤخذ منهم فديه يخلصون بها أنفسهم و الفديه أحد الأمرين الذين بهما التخلص من الرهانه و الآخر ناصر ينصر فينجى و قد نفوه بقولهم: «مَأْوَاكُمُ النَّارُ» الخ.

فقوله: مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَ بِنَسِ الْمَصِيرِ يَنْفَى أَي نَاصِرٍ يَنْصُرُهُمْ وَ يَنْجِيهِمْ مِنَ النَّارِ غَيْرِ النَّارِ عَلَى مَا يَفِيدُهُ قَوْلُهُ: «هِيَ مَوْلَاكُمْ» مِنَ الْحَصْرِ، وَ الْمَوْلَى هُوَ النَّاصِرُ وَ الْجَمْلَةُ مَسْوُوقَةٌ لِلتَّهْكَامِ.

و يمكن أن يكون المولى بمعنى من يلي الأمر فإنهم كانوا يدعون لحوائجهم من المأكل و المشرب و الملبس و المنكح و المسكن غير الله سبحانه و حقيقته النار فالיום مولاهم النار و هى التى تعد لهم ذلك فما كلهم من الزقوم و مشربهم من الحميم و ملبسهم من ثياب قطعت من النار و قرناؤهم الشياطين و مأواهم النار على ما أخبر الله سبحانه به فى آيات كثيره من كلامه.

[سورة الحديد (٥٧): الآيات ١٦ الى ٢٤]

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (١٦) اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحِي الْمَآرِضَ بَعِيدَ مَوْتِهِمْ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَ الْمُصَدِّقَاتِ وَ أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَ لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَ الشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْحَجِيمِ (١٩) اَعْلَمُوا أَنَّ مَا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَ لَهُوَ وَ زِينَةٌ وَ تَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ اَعْجَبَ الْكُفَّارَ لِبَاتِهِ ثُمَّ يَهِيحُ فَنَرَاهُ مُضِفْرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانٌ وَ مَا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ اَعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَ لَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤)

بيان:

قوله تعالى: أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ

ص: ٢١٣

الْحَقُّ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ يُقَالُ: أَنَى يَأْنَى أَنَى وَأَنْاءَ أَيْ جَاءَ وَقْتَهُ، وَخُشُوعَ الْقَلْبِ تَأَثَّرَهُ قِبَالَ الْعِظْمَةِ وَالْكَبِيرِيَاءِ، وَالْمُرَادُ بِذِكْرِ اللَّهِ مَا يَذْكُرُ بِهِ اللَّهُ، وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ هُوَ الْقُرْآنُ النَّازِلُ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى وَ «مِنَ الْحَقِّ» بَيَانٌ لِمَا نَزَلَ وَمِنْ شَأْنِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَعْقِبَ خُشُوعًا كَمَا أَنَّ مِنْ شَأْنِ الْحَقِّ النَّازِلِ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى أَنْ يَعْقِبَ خُشُوعًا مِمَّنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ جَمِيعًا الْقُرْآنَ، وَعَلَى هَذَا فَذِكْرُ الْقُرْآنِ بِوَصْفِيهِ لِكُونَ كُلِّ مِنَ الْوَصْفَيْنِ مُسْتَدْعِيًا لَخُشُوعِ الْمُؤْمِنِ فَالْقُرْآنُ لِكُونِهِ ذِكْرُ اللَّهِ يَسْتَدْعِي الْخُشُوعَ كَمَا أَنَّهُ لِكُونِهِ حَقًّا نَازِلًا مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى يَسْتَدْعِي الْخُشُوعَ.

وَفِي الْآيَةِ عِتَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا عَرِضَ لِقُلُوبِهِمْ مِنَ الْقَسْوَةِ وَعَدَمِ خُشُوعِهَا لِذِكْرِ اللَّهِ وَالْحَقِّ النَّازِلِ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى وَتَشْبِيهُ لِحَالِهِمْ بِحَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ نَزَلَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابُ وَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ.

وَقَوْلُهُ: «وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ عَطَفَ عَلَى قَوْلِهِ: «تَخَشَعُ» الْخُ؛ وَالْمَعْنَى: أَلَمْ يَأْنِ لَهُمْ أَنْ تَخْشَعُ قُلُوبُهُمْ وَأَنْ لَا يَكُونُوا، الْخُ، وَالْأَمَدُ الزَّمَانُ، قَالَ الرَّاعِبُ: الْفَرْقُ بَيْنَ الزَّمَانِ وَالْأَمَدِ أَنَّ الْأَمَدَ يُقَالُ بِاعْتِبَارِ الْغَايَةِ وَالزَّمَانَ عَامٌ فِي الْمَبْدَأِ وَالْغَايَةِ وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْمَدَى وَالْأَمَدَ يَتَقَارَبَانِ.

انتهى.

وَقَدْ أَشَارَ سَبْحَانَهُ بِهَذَا الْكَلَامِ إِلَى صَيْرُورِهِ قُلُوبَهُمْ كَقُلُوبِ أَهْلِ الْكِتَابِ الْقَاسِيَةِ وَالْقَلْبَ الْقَاسِيَّ حَيْثُ يَفْقَدُ الْخُشُوعَ وَالتَّأَثَّرَ عَنِ الْحَقِّ رُبَّمَا خَرَجَ عَنِ زِيِّ الْعِبُودِيَةِ فَلَمْ يَتَأَثَّرْ عَنِ الْمُنَاهِي وَاقْتَرَفَ الْإِثْمَ وَالْفُسُوقَ، وَلِذَا أَرْدَفَ قَوْلَهُ: «فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ» بِقَوْلِهِ: «وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ».

قَوْلُهُ تَعَالَى: «إِغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ فِي تَعْقِيبِ عِتَابِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى قَسْوَةِ قُلُوبِهِمْ بِهَذَا التَّمَثِيلِ تَقْوِيَهُ لِرَجَائِهِمْ وَتَرْغِيبِ لَهُمْ فِي

و يمكن أن يكون من تمام العتاب السابق و يكون تنبيها على أن الله لا يخلى هذا الدين على ما هو عليه من الحال بل كلما قست قلوب و حرموا الخشوع لأمر الله جاء بقلوب حيّه خاشعه له يعبد بها كما يريد.

فتكون الآيه فى معنى قوله: ﴿ هَآ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَ مَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ وَ اللّهُ الْغَنِىُّ وَ أَنتُمْ الْفُقَرَاءُ وَ إِن تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ (سوره محمد ٣٨).

و لذلك ذيل الآيه بقوله: «قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» .

قوله تعالى: إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَ الْمُصَّدِّقَاتِ وَ أَقْرَضُوا اللّهُ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعَفُ لَهُمْ وَ لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ تكرار لحديث المضاعفه و الأجر الكريم للترغيب فى الإنفاق فى سبيل الله و قد أضيف الى الذين أقرضوا الله قرضا حسنا المصدقون و المصدقات.

و المصدقون و المصدقات-بتشديد الصاد و الدال-المصدقون و المتصدقات، و قوله:

﴿ وَ أَقْرَضُوا اللّهُ ﴾ عطف على مدخول الام فى «الْمُصَّدِّقِينَ»، و المعنى: أن الذين تصدّقوا و الذين أقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ما أعطوه و لهم أجر كريم.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَ رُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصّٰدِقُونَ وَ الشّٰهَدَاءُ عِنْدَ رَبّهِمْ الخ؛ لم يقل «آمَنُوا بِاللّهِ وَ رُسُلِهِ» كما قال فى أول السوره: «آمَنُوا بِاللّهِ وَ رُسُلِهِ وَ أَنفَقُوا» و قال فى آخرها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهُ وَ آمِنُوا بِرُسُلِهِ ﴾ لأنه تعالى لما ذكر أهل الكتاب فى الآيه السابقه بقوله: «وَ لَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ» عدل عن السياق السابق الى سياق عام يشمل المسلمين و أهل الكتاب جميعا كما قال بعد: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ» و أما الآيتان المذكورتان فى أول السوره و آخرها فالخطاب فيهما لمؤمنى هذه الامه خاصه و لذا جىء فيهما بالرسول مفردا.

و المراد بالإيمان بالله و رسله محض الإيمان الذى لا يفارق بطبعه الطاعة و الابتاع كما مرّت الإشارة اليه فى قوله: «آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ» الآية؛ و المراد بقوله: «أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَ الشُّهَدَاءُ» إلحاقهم بالصدّيقين و الشهداء بقريته قوله: «عِنْدَ رَبِّهِمْ» قوله: «لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ» فهم ملحقون بالطائفتين يعامل معهم معاملة الصدّيقين و الشهداء فيعطون مثل أجرهم و نورهم.

و الظاهر أن المراد بالصدّيقين و الشهداء هم المذكورون فى قوله: وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصَّادِقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسَنَ أَوْلِيَئِكَ رَفِيقًا (النساء ٦٩)، و قد تقدم فى تفسير الآية أن المراد بالصدّيقين هم الذين سرى الصدق فى قولهم و فعلهم فيفعلون ما يقولون و يقولون ما يفعلون، و الشهداء هم شهداء الأعمال يوم القيامة دون الشهداء بمعنى المقتولين فى سبيل الله.

فهؤلاء الذين آمنوا بالله و رسله ملحقون بالصدّيقين و الشهداء منزّلون منزلتهم عند الله أى بحكم منه لهم أجرهم و نورهم.

و قوله: لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ وَ نُورُهُمْ ضمير «لَهُمْ» للذين آمنوا، و ضمير «أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ» للصدّيقين و الشهداء أى للذين آمنوا أجر من نوع أجر الصدّيقين و الشهداء و نور من نوع نورهم، و هذا معنى قول من قال: إن المعنى: لهم أجر كأجرهم و نور كنورهم.

و ربما قيل: إن قوله: «وَ الشُّهَدَاءُ» ليس عطفا على قوله: «الصَّادِقُونَ» بل استئناف و «الشُّهَدَاءُ» مبتدأ خبره «عِنْدَ رَبِّهِمْ» و خبره الآخر «لَهُمْ أَجْرُهُمْ» فقد قيل: و الذين آمنوا بالله و رسله أولئك هم الصدّيقون، و قد تم الكلام ثم استأنف و قيل «وَ الشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ» كما قيل بَلْ أَلْحِيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ (آل عمران ١٦٩)، و المراد بالشهداء المقتولون فى سبيل الله، ثم تمم الكلام بقوله: «لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ» .

و قوله: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ أى لا

يفارقونها و هم فيها دائمين.

و قد تعرض سبحانه فى الآيه لشأن الملحقين بالصدّيقين و الشهداء و هم خيار الناس و الناجون قطعاً، و الكفار المكذّبين لآياته و هم شرار الناس و الهالكون قطعاً و بقى فريق بين الفريقين و هم المؤمنون المقترفون للمعاصى و الذنوب على طبقاتهم فى التمرد على الله و رسوله، و هذا دأب القرآن فى كثير من موارد التعرض لشأن الناس يوم القيامة.

و ذلك ليكون بعثاً لقريحتى الخوف و الرجاء فى ذلك الفريق المتخلل بين الخيار و الشرار فيميلوا الى السعاده و يختاروا النجاه على الهلاك.

و لذلك أعقب الآيه بدم الحياه الدنيا التى تعلق بها هؤلاء الممتنعون من الإنفاق فى سبيل الله ثم بدعوتهم الى المسابقه الى المغفره و الجنه ثم بالإشاره الى أن ما يصيبهم من المصيبه فى أموالهم و أنفسهم مكتوبه فى كتاب سابق و قضاء متقدم فليس ينبغى لهم أن يخافوا الفقر فى الإنفاق فى سبيل الله، فيبخلوا و يمسكوا أو يخافوا الموت فى الجهاد فى سبيل الله فيتخلفوا و يقعدوا.

قوله تعالى: **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهُوَ وَ زِينَةٌ وَ تَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ** الخ؛ اللعب عمل منظوم لغرض خيالى كلعب الأطفال، و اللهو ما يشغل الإنسان عما يهيمه، و الزينه بناء نوع و ربما يراد به ما يتزين به و هى ضم شىء مرغوب فيه الى شىء آخر ليرغب فيه بما اكتسب به من الجمال، و التفاخر المباهاه بالأنساب و الأحساب، و التكاثر فى الأموال و الأولاد.

و الحياه الدنيا عرض زائل و سراب باطل لا يخلو من هذه الخصال الخمس المذكوره:

اللعب و اللهو و الزينه و التفاخر و التكاثر و هى التى يتعلق بها هوى النفس الإنسانيه ببعضها أو بجمعها و هى أمور وهميه و أعراض زائله لا تبقى للإنسان و ليست و لا واحده منها تجلب للإنسان كمالاً نفسياً و لا خيراً حقيقياً.

وقوله: كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ لَبَّأْتَهُ ثُمَّ يَهِيحُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا مثل لزينه الحياه الدنيا التي يتعلق بها الانسان غرورا ثم لا يلبث دون أن يسلبها.

و الغيث المطر و الكفار جمع كافر بمعنى الحارث، و يهيج من الهيجان و هو الحركه، و الحطام الهشيم المتكسر من يابس النبات. و المعنى: أن مثل الحياه الدنيا فى بهجتها المعجبه ثم الزوال كمثل مطر أعجب الحرات نباته الحاصل بسببه ثم يتحرك الى غايه ما يمكنه من النمو فتراه مصفر اللون ثم يكون هشيمًا متكسرا -متلاشيا تذرؤه الرياح-.

وقوله: وَ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانٌ سَبَقَ الْمَغْفِرَةَ عَلَى الرِّضْوَانِ لِتَطْهِيرِ الْمَحَلِّ لِيَحِلَّ بِهِ الرِّضْوَانُ، وَ توصيف المغفره بكونه من الله دون العذاب لا- يخلو من إيماء الى أن المطلوب بالقصد الأول هو المغفره و أما العذاب فليس بمطلوب فى نفسه و إنما يتسبب اليه الإنسان بخروجه عن زى العبوديه كما قيل.

وقوله: وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ أَى مَتَاعُ التَّمَتُّعِ مِنْهُ هُوَ الْغُرُورُ بِهِ، وَ هَذَا لِلْمَتَعَلِقِ الْمَغْرُورِ بِهَا.

و الكلام أعنى قوله: «وَ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانٌ» إشاره الى وجهى الحياه الآخره ليأخذ السامع حذره فيختار المغفره و الرضوان على العذاب، ثم فى قوله:

«وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ» تنبيه و إيقاظ لثلاث تغرّه الحياه الدنيا بخاصه غروره.

قوله تعالى: سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ الْخ؛ المسابقه هى المغالبه فى السبق للوصول الى غرض بأن يريد كل من المسابقين جعل حركته أسرع من حركه صاحبه ففى معنى المسابقه ما يزيد على معنى المسارعه فإن المسارعه الجدد فى تسريع الحركه و المسابقه الجدد فى تسريعها بحيث تزيد فى السرعه على حركه صاحبه.

و على هذا فقوله: «سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ» الخ؛ يتضمن من التكليف ما هو أزيد مما يتضمنه قوله: «سَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ» (آل عمران ١٣٣).

و تقديم المغفرة على الجنة في الآيه لأن الحياه في الجنة حياه طاهره في عالم الطهاره فيتوقف التلبس بها على زوال قذارات الذنوب و أوساخها.

و المراد بالعرض السعه دون العرض المقابل للطول و هو معنى شائع، و الكلام كأنه مسوق للدلاله على انتهائها في السعه.

و قوله: «أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ» قد عرفت في ذيل قوله: «آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ» و قوله: «وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ» أن المراد بالإيمان بالله و رسله هو مرتبه عاليه من الإيمان تلازم ترتب آثاره عليه من الأعمال الصالحه و اجتناب الفسوق و الإثم.

و قوله: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» و قد شاء أن يؤتیه الذين آمنوا بالله و رسله، و قد تقدم بيان أن ما يؤتیه الله من الأجر لعباده المؤمنين فضل منه تعالى من غير أن يستحقوه عليه.

و قوله: «وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» إشاره الى عظمه فضله، و أن ما يثيبهم به من المغفرة و الجنة من عظيم فضله.

قوله تعالى: «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا» الخ؛ المصيبه الواقعه التي تصيب الشىء مأخوذه من إصابه السهم الغرض و هى بحسب المفهوم أعم من الخير و الشر لكن غلب استعمالها في الشر فالمصيبه هى النائبه، و المصيبه التي تصيب في الأرض كالجدب و عاهه الثمار و الزلزله المخربه و نحوها، و التي تصيب في الأنفس كالمرض و الجرح و الكسر و القتل و الموت، و البرء و البروء الخلق من العدم، و ضمير «نَبْرَأَهَا» للمصيبه، و قيل: للأنفس، و قيل: للأرض، و قيل:

للجميع من الأرض و الأنفس و المصيبة، و يؤيد الأول أن المقام مقام بيان ما فى الدنيا من المصائب الموجهة لنقص الأموال و الأنفس التى تدعوهم الى الإمساك عن الانفاق و التخلف عن الجهاد.

و المراد بالكتاب اللوح المكتوب فيه ما كان و ما يكون و ما هو كائن الى يوم القيامة كما تدل عليه الآيات و الروايات و إنما اقتصر على ذكر ما يصيب فى الأرض و فى أنفسهم من المصائب لكون الكلام فيها.

قيل: إنما قيّد المصيبة بما فى الأرض و فى الأنفس لأن مطلق المصائب غير مكتوبه فى اللوح لأن اللوح متناه و الحوادث غير متناهيه و لا يكون المتناهي ظرفاً لغير المتناهي.

و الكلام مبنى على أن المراد باللوح لوح فلزى أو نحوه منصوب فى ناحيه من نواحي الجو مكتوب فيه الحوادث بلغه من لغاتنا بخط يشبه خطوطنا، و قد مر كلام فى معنى اللوح و القلم و سيجىء له تتمه.

و قيل: المراد بالكتاب علمه تعالى و هو خلاف الظاهر إلا أن يراد به أن الكتاب المكتوب فيه الحوادث من مراتب علمه الفعلى.

و ختم الآية بقوله: «إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» للدلاله على أن تقدير الحوادث قبل وقوعها و القضاء عليها بقضاء لا يتغير لا صعوبه فيه عليه تعالى.

قوله تعالى: لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ الخ؛ تعليل راجع الى الآية السابقه و هو تعليل للإخبار عن كتابه الحوادث قبل وقوعها لا لنفس الكتابه، و الأسى الحزن، و المراد بما فات و ما آتى النعمه الفائتة و النعمه المؤتاه.

و المعنى: أخبرناكم بكتابه الحوادث قبل حدوثها و تحققها لئلا تحزنوا بما فاتكم من النعم و لا تفرحوا بما أعطاكم الله منها لأن الانسان إذا أيقن أن الذى أصابه مقدر كائن لا محاله لم يكن ليخطئه و أن ما أوتيه من النعم وديعه عنده الى أجل مسمى لم يعظم حزنه إذا فاته و لا

فرحه إذا أوتيته.

قيل: إن اختلاف الاسناد في قوله «مَا فَاتَكُمْ» و «بِمَا آتَاكُمْ» حيث أسند الفوت الى نفس الأشياء و الايتاء الى الله سبحانه لأن الفوات و العدم ذاتي للأشياء فلو خليت و نفسها لم تبق بخلاف حصولها و بقائها فإنه لا بد من استنادهما الى الله تعالى.

و قوله: وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ كُفْلَ مُخْتَالٍ فَخُورٍ المختال من أخذته الخيلاء و هى التكبر عن تخيل فضيله تراءت له من نفسه-على ما ذكره الراغب-و الفخور الكثير الفخر و المباهاه و الاختيال و الفخر ناشئان عن توهم الانسان أن يملك ما أوتيته من النعم باستحقاق من نفسه، و هو مخالف لما هو الحق من استناد ذلك الى تقدير من الله لا لاستقلال من نفس الانسان فهما من الرذائل و الله لا يحبها.

قوله تعالى: الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَصِفَ لِكُلِّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ يفيد تعليل عدم حبه تعالى. و الوجه فى بخلهم الاحتفاظ للمال الذى يعتمد عليه اختيالهم و فخرهم و الوجه فى أمرهم الناس بالبخل أنهم يحبونه لأنفسهم فيحبونه لغيرهم، و لأن شيوع السخاء و الجود بين الناس و إقبالهم على الإنفاق فى سبيل الله يوجب أن يعرفوا بالبخل المذموم.

و قوله: وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ أى و من يعرض عن الإنفاق و لم يتعظ بعظه الله و لا اطمأن قلبه بما بينه من صفات الدنيا و نعت الجنة و تقدير الامور فإن الله هو الغنى فلا حاجه له الى إنفاقهم، و المحمود فى أفعاله.

و الآيات الثلاث أعنى قوله: «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ لِي مِنْ مُصِيبَةٍ» الى قوله- الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» كما ترى حث على الإنفاق و ردع عن البخل و الإمساك بتزهيدهم عن الأسى بما فاتهم و الفرح بما آتاهم لأن الامور مقدره مقضيته مكتوبه فى كتاب معينه قبل أن يبرأها الله سبحانه (١).

ص: ٢٢١

(١- ١). الحديد ١٦-٢٤: بحث روائى حول نزول سورة الحديد؛ الشهاده فى سبيل الله؛ الزهد.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آدَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَاتٍ يُدْعَوْنَ مِنْهَا كِتَابًا عَلَيْهِمْ إِلَّا اتِّعَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨) لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَفْسِدُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنَ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)

قوله تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيُقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ الخ؛ استئناف يتبين به معنى تشريع الدين بإرسال الرسل وإنزال الكتاب والميزان وأن الغرض من ذلك قيام الناس بالقسط وامتثالهم بذلك وإنزال الحديد لتمييز من ينصر الله بالغيب ويتبين أن أمر الرساله لم يزل مستمرا بين الناس ولم يزلوا يهتدى من كل أمه بعضهم وكثير منهم فاسقون.

فقوله: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ أى بالآيات البينات التى يتبين بها أنهم مرسلون من جانب الله سبحانه من المعجزات الباهره و البشارات الواضحه و الحجج القاطعه.

وقوله: وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وهو الوحي الذى يصلح أن يكتب فيصير كتابا، المشتمل على معارف الدين من اعتقاد و عمل و هو خمسه: كتاب نوح و كتاب إبراهيم و التوراه و الإنجيل و القرآن.

وقوله: وَالْمِيزَانَ لِيُقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ فسَيُرَو الميزان بنى الكفتين الذى يوزن به الأثقال، وأخذوا قوله: «لِيُقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» غاية متعلقه بإنزال الميزان والمعنى: و أنزلنا الميزان ليقوم الناس بالعدل فى معاملاتهم فلا يخسروا باختلال الأوزان و النسب بين الأشياء فقوام حياه الإنسان بالاجتماع، و قوام الاجتماع بالمعاملات الدائره بينهم و المبادلات فى الأمتعه و السلع، و قوام المعاملات فى ذوات الأوزان بحفظ النسب بينها و هو شأن الميزان.

و لا يبعد-و الله أعلم- أن يراد بالميزان الدين فإن الدين هو الذى يوزن به عقائد أشخاص الإنسان و أعمالهم، و هو الذى به قوام حياه الناس السعيده مجتمعين و منفردين،

و هذا المعنى أكثر ملائمة للسياق المتعرض لحال الناس من حيث خشوعهم و قسوة قلوبهم و جدهم و مساهلتهم فى أمر الدين. و قيل: المراد بالميزان هنا العدل و قيل: العقل.

و قوله: وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ الظاهر أنه كقوله تعالى: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ (الزمر ٦)، و قد تقدم فى تفسير الآيه أن تسميه الخلق فى الأرض إنزالاً إنما هو باعتبار أنه تعالى يسمى ظهور الأشياء فى الكون بعد ما لم يكن إنزالاً لها من خزائنه التى عنده و من الغيب الى الشهاده قال تعالى: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر ٢١).

و قوله: فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنَافِعٌ لِلنَّاسِ الْبَاسِ هو الشده فى التأثير و يغلب استعماله فى الشده فى الدفاع و القتال، و لا تزال الحروب و المقاتلات و أنواع الدفاع ذات حاجه شديده الى الحديد و أقسام الأسلحة المعموله منه منذ تنبه البشر له و استخراجه.

و أما ما فيه من المنافع للناس فلا يحتاج الى البيان فله دخل فى جميع شعب الحياه و ما يرتبط بها من الصنائع.

و قوله: وَ لِيُعَلِّمَ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ غايه معطوفه على محذوف و التقدير و أنزلنا الحديد لكذا و ليعلم الله من ينصره، الخ، و المراد بنصره و رسله الجهاد فى سبيله دفاعاً عن مجتمع الدين و بسطاً لكلمه الحق، و كون النصر بالغيب كونه فى حال غيبته منهم أو غيبتهم منه، و المراد بعلمه بمن ينصره و رسله تميزهم ممن لا ينصر.

و ختم الآيه بقوله: «إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ» و كأن وجهه الإشاره الى أن أمره تعالى لهم بالجهاد إنما هو لتمييز الممثل منهم من غيره لا لحاجه منه تعالى الى ناصر ينصره إنه تعالى قوى لا سبيل للضعف اليه عزيز لا سبيل للذله اليه.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَ إِبْرَاهِيمَ وَ جَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ الْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ شروع فى الإشاره الى أن الاهتداء

و الفسق جاريان فى الامم الماضيه حتى اليوم فلم تصلح أمه من الامم بعامه أفرادها بل لم يزل كثير منهم فاسقين.

و ضمير «فَمِنْهُمْ» و «مِنْهُمْ» للذريه و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فى المجمع: التقفيه جعل الشىء فى إثر شىء على الاستمرار فيه، و لهذا قيل لمقاطع الشعر قواف إذ كانت تتبع البيت على أثره مستمره فى غيره على منهاجه. انتهى.

و ضمير «عَلَىٰ آثَارِهِمْ» لنوح و إبراهيم و السابقين من ذريتهما، و الدليل على أنه لا نبى بعد نوح إلا من ذريته لأن النسل بعده له. على أن عيسى من ذريه إبراهيم قال تعالى فى نوح:

وَ جَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (الصافات ٧٧)، و قال: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُليْمَانَ -الى أن قال- وَ عِيسَى (الأنعام ٨٥)، فالمراد بقوله: «ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا» الخ؛ التقفيه باللاحقين من ذريتهما على آثارهما و السابقين من ذريتهما.

و فى قوله: عَلَىٰ آثَارِهِمْ إشارة الى أن الطريق المسلوک واحد يتبع فيه بعضهم أثر بعض.

و قوله: وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَ جَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً الرَّأْفَةَ وَ الرَّحْمَةَ على ما قالوا- مترادفان، و نقل عن بعضهم أن الرأفة يقال فى درء الشر و الرحمة فى جلب الخير.

و الظاهر أن المراد بجعل الرأفة و الرحمة فى قلوب الذين اتبعوه توفيقهم للرأفة و الرحمة فيما بينهم فكانوا يعيشون على المعاضده و المسالمة كما وصف الله سبحانه الذين مع النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بالرحمة إذ قال: رُحْمَاءٌ يَبْتَئِمُّهُمْ (الفتح ٢٩)، و قيل: المراد بجعل الرأفة و الرحمة فى قلوبهم الأمر بهما و الترغيب فيهما و وعد الثواب عليهما.

و قوله: وَ رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمُ الرَّهْبَانِيَّةُ مِنَ الرِّهْبَةِ وَ هِيَ الْخَشْيَةُ، وَ يَطْلُقُ عَرَفَا عَلَى انْقِطَاعِ الْإِنْسَانِ مِنَ النَّاسِ لِعِبَادَةِ اللَّهِ خَشْيَةً مِنْهُ، وَ الْإِبْتِدَاعُ إِتْيَانُ مَا لَمْ يَسْبِقْ إِلَيْهِ فِي دِينٍ أَوْ سُنَّةٍ أَوْ صِنْعَةٍ، وَ قَوْلُهُ: «مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ» فِي مَعْنَى الْجَوَابِ عَنْ سُؤْلِ مُقَدِّرٍ كَأَنَّهُ قِيلَ: مَا مَعْنَى ابْتِدَاعِهِمْ لَهَا؟ فَقِيلَ: مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ.

و المعنى: أنهم ابتدعوا من عند أنفسهم رهبانية من غير أن نشرعه نحن لهم.

و قوله: إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا اسْتِثْنَاءً مُنْقَطِعٌ مَعْنَاهُ مَا فَرَضْنَاهَا عَلَيْهِمْ لَكِنِّهِمْ وَضَعُوهَا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ابْتِغَاءَ لِرِضْوَانِ اللَّهِ وَ طَلَبًا لِمَرْضَاتِهِ فَمَا حَافِظُوا عَلَيْهَا حَقَّ مَحَافِظَتِهَا بِتَعْدِيهِمْ حُدُودَهَا.

و فيه إشارة إلى أنها كانت مرضية عنده تعالى و إن لم يشرعها بل كانوا هم المبتدعين لها.

و قوله: فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ إشارته إلى أنهم كالسابقين من أمم الرسل منهم مؤمنون مأجورون على إيمانهم و كثير منهم فاسقون، و الغلبة للفسق.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ الْخ؛ أمر الذين آمنوا بالتقوى و الإيمان بالرسول مع أن الذين استجابوا للدعوة فآمنوا بالله آمنوا برسوله أيضا دليل على أن المراد بالإيمان بالرسول الاتباع التام و الطاعة الكاملة لرسوله فيما يأمر به و ينهى عنه سواء كان ما يأمر به أو ينهى عنه حكما من الأحكام الشرعية أو صادرا عنه بماله من ولايه أمور الآله كما قال تعالى: فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (النساء / ٦٥).

فهذا إيمان بعد إيمان و مرتبه فوق مرتبه الإيمان الذي ربما يتخلف عنه أثره فلا يترتب عليه لضعفه، و بهذا يناسب قوله: «يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ» و الكفل الحظ و النصيب فله ثواب

على ثواب كما أنه إيمان على إيمان.

وقيل: المراد بإتيان كفلين من الرحمة إيتاؤهم أجرين كمؤمنى أهل الكتاب كأنه قيل:

يؤتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الأجرين لأنكم مثلهم فى الايمان بالرسل المتقدمين و بخاتمهم عليهم السلام لا تفرقون بين أحد من رسله.

وقوله: وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ قيل: يعنى يوم القيامة و هو النور الذى أشير اليه بقوله: «يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ»

و فيه أن تقييد من غير دليل بل لهم نورهم فى الدنيا و هو المدلول عليه بقوله تعالى: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَتَلَّهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا (الأنعام ١٢٢)، و نورهم فى الآخرة و هو المدلول عليه بقوله: يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ (الآيه ١٢ من السوره) و غيره.

ثم كمل تعالى وعده بإيتائهم كفلين من رحمته و جعل نور يمشون به بالمغفره فقال: «وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» .

قوله تعالى: لِيَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ظاهر السياق أن فى الآيه التفاتا من خطاب المؤمنين الى خطاب النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و المراد بالعلم مطلق الاعتقاد كالزعم، و «أن» مخففه من الثقيله، و ضمير «يَقْدِرُونَ» للمؤمنين، و فى الكلام تعليل لمضمون الآيه السابقه.

و المعنى: إنما أمرناهم بالإيمان بعد الايمان و وعدناهم كفلين من الرحمة و جعل النور و المغفره لثلا يعتقد أهل الكتاب أن المؤمنين لا يقدرُونَ على شىء من فضل الله بخلاف المؤمنين من أهل الكتاب حيث يؤتون أجرهم مرتين أن آمنوا.

وقوله: وَ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ معطوف على «لِيَلَّا يَعْلَمَ»، و المعنى: إنما وعدنا بما وعدنا لأن كذا كذا و لأن الفضل بيد الله و الله

ذو الفضل العظیم.

و فی الآیه أقوال و احتمالات آخر لا جدوی فی إیرادها و البحث عنها (1).

ص: ۲۲۸

۱- ۱). الحدید ۲۵-۲۹: بحث روائی فی: المیزان؛ الرهبانیة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَ تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ
وَ زُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَمْ تَوْعُظُونَ
بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصَةَ يَوْمِ شَهْرَيْنِ مُتَابَعِينَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ
لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَلْحَصَاةَ اللَّهِ وَ نَسُوهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ
كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦)

تعرض السوره لمعان متنوعه من حكم و أدب و صفه فشطرها منها فى حكم الظهار و النجوى و أدب الجلوس فى المجالس و شطرها يصف حال الذين يحادون الله و رسوله، و الذين يوادون أعداء الدين و يصف الذين يتحززون من موادتهم من المؤمنين و يعدهم وعدا جميلا فى الدنيا و الآخرة.

و السوره مدنيه بشهاده سياق آياتها.

قوله تعالى: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَ تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا الخ؛ قال فى المجمع: الاشتكاء إظهار ما بالإنسان من مكروه، و الشكايه إظهار ما يصنعه به غيره من المكروه. قال: و التحاور التراجع و هى المحاوره يقال:

حاوره محاوره أى راجعه الكلام و تحاورا. انتهى.

الآيات الأربع أو الست نزلت فى الظهار و كان من أقسام الطلاق عند العرب الجاهلى كان الرجل يقول لامرأته: أنت منى كظهر أمى فتنفصل عنه و تحرم عليه مؤبده و قد ظاهر بعض الأنصار من امرأته ثم ندم عليه فجاءت امرأته الى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم تسائله فيه لعلها تجد طريقا الى رجوعه إليها و تجادله صلى الله عليه و آله و سلم فى ذلك و تشتكى الى الله فنزلت الآيات.

و المراد بالسمع فى قوله: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ» استجابته الدعوه و قضاء الحاجه من باب الكنايه

و هو شائع، و الدليل عليه قوله: «تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَ تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ» الظاهر في أنها كانت تتوخى طريقا الى أن لا تنفصل عن زوجها، و أما قوله: «وَ اللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا» فالسمع فيه بمعناه المعروف.

و المعنى: قد استجاب الله للمرأة التي تجادلک في زوجها- و قد ظاهر منها- و تشتكى غمها و ما حلّ بها من سوء الحال الى الله و الله يسمع تراجعكما في الكلام إن الله سميع للأصوات بصير بالمبصرات.

قوله تعالى: «الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَنْ هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ نَحْيُ لِحُكْمِ الظَّهَارِ الْمَعْرُوفِ عِنْدَهُمْ وَ إِنْ غَاءَ لَتَأْتِيهِ بِالطَّلَاقِ وَ التَّحْرِيمِ الْأَبْدِيِّ بِنَفْيِ أُمُومَةِ الزَّوْجِ لِلزَّوْجِ بِالظَّهَارِ فَإِنْ سَنَهُ الْجَاهِلِيَّةُ كَانَتْ تَلْحَقُ الزَّوْجَ بِالْأَمِّ بِسَبَبِ الظَّهَارِ فَتَحْرِمُ عَلَى زَوْجِهَا حَرَمَ الْأُمِّ عَلَى وَلَدِهَا حَرَمَهُ مُؤَبَّدَةً.

فقوله: «مَنْ هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ أَى بِحَسَبِ اعْتِبَارِ الشَّرْعِ بِأَنْ يَلْحَقْنَ شَرْعًا بِهِنَّ بِسَبَبِ الظَّهَارِ فَيَحْرِمْنَ عَلَيْهِمْ أَبْدَانًا ثُمَّ أَكَدَهُ بِقَوْلِهِ: «إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ» أَى لَيْسَ أُمَّهَاتُ أَزْوَاجِهِنَّ إِلَّا النِّسَاءُ اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ.

ثم أكد ذلك ثانيا بقوله: «وَ إِنْهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَ زُورًا» بما فيه من سياق التأكيد أَى و إن هؤلاء الأزواج المظاهرين ليقولون بالظهار منكرًا من القول ينكره الشرع حيث لم يعتبره و لم يسنه، و كذبا باعتبار أنه لا يوافق الشرع كما لا يطابق الخارج الواقع في الكون فأفادت الآية أن الظهار لا يفيد طلاقا و هذا لا ينافي وجوب الكفاره عليه لو أراد المواقعه بعد الظهار فالزوجه على حالها و إن حرمت المواقعه قبل الكفاره.

و قوله: «وَ إِنْ اللَّهُ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ لَا يَخْلُو مِنْ دَلَالِهِ عَلَى كَوْنِهِ ذَنْبًا مَغْفُورًا لَكِنْ ذَكَرَ الْكُفَّارَةَ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ مَعَ تَذْيِيلِهَا بِقَوْلِهِ: «وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ» ربما دل على أن المغفرة مشروطة بالكفاره.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا الْخ؛ الكلام فى معنى الشرط و لذلك دخلت الفاء فى الخبر لأنه فى معنى الجزاء و المحصل: أن الذين ظاهروا منهن ثم أرادوا العود لما قالوا فعليهم تحرير رقبه.

و فى قوله: «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا» دلالة على أن الحكم فى الآية لمن ظاهر ثم أراد الرجوع الى ما كان عليه قبل الظهار و هو قرينه على أن المراد بقوله: «يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا» إرادته العود الى نقض ما أبرموه بالظهار.

و المعنى: و الذين يظاهرون من نسائهم ثم يريدون أن يعودوا الى ما تكلموا به من كلمة الظهار فينقضوها بالمواقعه فعليهم تحرير رقبه من قبل أن يتماسا.

و قيل: المراد بعودهم لما قالوا ندمهم على الظهار، و فيه أن الندم عليه يصلح أن يكون محصل المعنى لا أن يكون معنى الكلمة «يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا» .

ثم ذيل الآية بقوله: «ذَلِكُمْ تُوَعَّظُونَ بِهِ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» إيذانا بأن ما أمر به من الكفاره توصيه منه بها عن خبره بعلمهم ذاك، فالكفاره هى التى ترتفع بها ما لحقهم من تبعه العمل.

قوله تعالى: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا الى آخر الآية؛ خصله ثانیه من الكفاره مترتبه على الخصله الاولى لمن لا- يتمكن منها و هى صيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا، و قيد ثانيا بقوله: «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا» لدفع توهم اختصاص القيد بالخصله الاولى.

و قوله: فَمَنْ لَمْ يَسِدْ يَطْعَ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً بيان للخصله الثالثه فمن لم يطق صيام شهرين متتابعين فعليه إطعام ستين مسكينا و تفصيل الكلام فى ذلك كله فى الفقه.

و قوله: ذَلِكُمْ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ أَى ما جعلناه من الحكم و افترضناه من الكفاره فأبقينا علقه الزوجيه و وضعنا الكفاره لمن أراد أن يرجع الى المواقعه جزاء بما أتى

بسنة من سنن الجاهليه كل ذلك لتؤمنوا بالله و رسوله و ترفضوا أباطيل السنن.

و قوله: «و تَلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ» حد الشيء ما ينتهي اليه و لا يتعداه و أصله المنع، و المراد أن ما افترضناه من الخصال أو ما نضعها من الأحكام حدود الله فلا تتعدوها بالمخالفة و للكافرين بما حكمنا به في الظهار أو بما شرعناه من الأحكام بالمخالفة و المحاده عذاب أليم.

و الظاهر أن المراد بالكفر رد الحكم و الأخذ بالظهار بما أنه سنة مؤثره مقبوله، و يؤيده قوله: «ذَلِكَ لِيُثَبِّتُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ» أى تدعونوا بأن حكم الله حق و أن رسوله صادق أمين فى تبليغه، و قد أكده بقوله: «و تَلْكَ حُدُودُ اللَّهِ» الخ؛ و يمكن أن يكون المراد بالكفر الكفر فى مقام العمل و هو العصيان.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ كُتِبُوا لَهُمْ مِمَّا كُتِبَ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» الخ؛ المجادّه الممانعه و المخالفه، و الكبت الإذلال و الإخزاء.

و الآيه و التى تتلوها و إن أمكن أن تكونا استثناءً يبين أمر محاده الله و رسوله من حيث تبعتها و أثرها لكن ظاهر السياق أن تكونا مسوقتين لتعليل ذيل الآيه السابقه الذى معناه النهى عن محاده الله و رسوله، و المعنى: إنما أمرناكم بالإيمان بالله و رسوله و نهيناكم عن تعدى حدود الله و الكفر بها لأن الذين يحادون الله و رسوله بالمخالفة أذلوا و أخزوا كما أذلّ و أخزى الذين من قبلهم.

ثم أكده بقوله: «وَ قَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ» أى لا ريب فى كونها منا و فى أن رسولنا صادق أمين فى تبليغها، و للكافرين بها الرادين لها عذاب مهين مخز.

قوله تعالى: «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا» ظرف لقوله:

«وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أى لهم أليم العذاب فى يوم يبعثهم الله و هو يوم الحساب و الجزاء فيخبرهم بحقيقه جميع ما عملوا فى الدنيا.

و قوله: أَحْصَاهُ اللَّهُ وَ نَسُوهُ الإحصاء الإحاطه بعدد الشيء من غير أن يفوت منه شيء، قال الراغب: الإحصاء التحصيل بالعدد يقال: أحصيت كذا، وذلك من لفظ الحصا، واستعمال ذلك فيه من حيث إنهم كانوا يعتمدونه في العد كاعتمادنا فيه على الأصابع. انتهى.

و قوله: وَ اللَّهُ عَلِيٌّ كُلُّ شَيْءٍ شَهِيدٌ لتعليل لقوله: «أَحْصَاهُ اللَّهُ» و قد مرّ تفسير شهاده الله على كل شيء في آخر سورة حم السجده (١).

[سورة المجادلة (٥٨): الآيات ٧ الى ١٣]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُمْ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسِيهِمْ وَلَا أَذْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُكَ حَيُّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسِبْتُمْ أَن نَّحْمِلَهُمْ جَهَنَّمَ يَضِلُّونَهَا فَيُبْئِسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارٍّ لَهُمْ شَيْئًا إِلَّا يَإِذِنَ اللَّهُ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَاجَيْتُمْ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرٌ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) أَسْأَلْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣)

ص: ٢٣٤

(١-١). المجادلة ١-٦: بحث روائي حول قوله تعالى: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا» طلاق الظهار.

وقوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْأَسْتَفْهَامُ إنكارى، والمراد بالرؤية العلم اليقيني على سبيل الاستعارة، والجمله تقدمه يعلل بها ما يتلوها من كونه تعالى مع أهل النجوى مشاركا لهم فى نجواهم.

قوله تعالى: مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ النجوى مصدر بمعنى التناجى و هو المساره، و ضمائر الأفراد لله سبحانه، والمراد بقوله: «رَابِعُهُمْ» و «سَادِسُهُمْ» جاعل الثلاثة أربعة و جاعل الخمسه ستة

بمشاركته لهم في العلم بما يتناجون فيه و معيته لهم في الاطلاع على ما يسارون فيه كما يشهد به ما احتف بالكلام من قوله في أول الآيه: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ» الخ؛ وفي آخرها من قوله: «إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» .

وقوله: «وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ أَيُّ وَلَا أَقَلُّ مِمَّا ذَكَرَ مِنَ الْعَدَدِ وَلَا أَكْثَرُ مِمَّا ذَكَرَ، وَبِهَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ يَشْمَلُ الْكَلَامُ عَدَدَ أَهْلِ النَّجْوَىٰ أَيًّا مَا كَانَ أَمَا الْأَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ فَالْأَدْنَىٰ مِنَ الثَّلَاثَةِ الْإِثْنَانِ وَالْأَدْنَىٰ مِنَ الْخَمْسَةِ الْأَرْبَعَةُ، وَأَمَا الْأَكْثَرُ فَالْأَكْثَرُ مِنَ خَمْسَةِ السِّتَةِ فَمَا فَوْقَهَا.

و من لطف سياق الآيه ترتب ما أشير اليه من مراتب العدد: و الثلاثة و الأربعة و الخمسه و الستة من غير تكرار فلم يقل: من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم و لا أربعة إلا هو خامسهم و هكذا.

وقوله: «إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا» المراد به المعية من حيث العلم بما يتناجون به و المشاركة لهم فيه.

و بذلك يظهر أن المراد بكونه تعالى رابع الثلاثة المتناجين و سادس الخمسه المتناجين معيته لهم في العلم و مشاركته لهم في الاطلاع على ما يسارون لا مماثلته لهم في تميم العدد فإن كلا منهم شخص واحد جسماني يكون بانضمامه الى مثله عدد الاثنتين و الى مثليه الثلاثة و الله سبحانه منزّه عن الجسميه برىء من الماديه.

و ذلك أن مقتضى السياق أن المستثنى من قوله: «مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ» الخ؛ معنى واحد و هو أن الله لا يخفى عليه نجوى فقوله: «إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ» «إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ» في معنى قوله: «إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ» و هو المعية العلميه أى أنه يشاركهم في العلم و يقارنهم فيه أو المعية الوجوديه بمعنى أنه كلما فرض قوم يتناجون فالله سبحانه هناك سميع عليم.

و في قوله: «أَيْنَ مَا كَانُوا» تعميم من حيث المكان إذ لما كانت معيته تعالى لهم من حيث

العلم لا- بالاعتقان الجسماني لم يتفاوت الحال و لم يختلف باختلاف الأمكنه بالقرب و البعد فالله سبحانه لا يخلو منه مكان و ليس في مكان.

و بما تقدم يظهر أيضا أن- ما تفيدته الآيه من معيته تعالى لأصحاب النجوى و كونه رابع الثلاثه منهم و سادسهم الخمسه منهم لا ينافى ما تقدم تفصيلا في ذيل قوله تعالى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثِهِ (المائدة ٧٣)، من أن وحدته تعالى ليست وحده عدديه بل وحده أحديه يستحيل معها فرض غير معه يكون ثانيا له فالمراد بكونه معهم و رابعا للثلاثه منهم و سادسا للخمسه منهم أنه عالم بما يتناجون به و ظاهر مكشوف له ما يخفونه من غيرهم لا أن له وجودا محدودا يقبل العد يمكن أن يفرض له ثان و ثالث و هكذا.

و قوله: ثُمَّ يُبَيِّنُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَي يخبّرهم بحقيقه ما عملوا من عمل و منه نجواهم و مسارتهم.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ تعليل لقوله: «ثُمَّ يُبَيِّنُهُمْ» الخ؛ و تأكيد لما تقدم من علمه بما في السماوات و ما في الأرض، و كونه مع أصحاب النجوى.

و الآيه تصلح أن تكون توطئه و تمهيدا لمضمون الآيات التاليه و لا يخلو ذيلها من لحن شديد يرتبط بما في الآيات التاليه من الذم و التهديد.

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يُعْوِدُونَ لَهَا لَئِن نُهُوا عَنْهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ سياق الآيات يدل على أن قوما من المنافقين و الذين في قلوبهم مرض من المؤمنين كانوا قد أشاعوا بينهم النجوى محاده للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين يتناجون بينهم بالإثم و العدوان و معصيه الرسول و ليؤذوا بذلك المؤمنين و يحزنون و كانوا يصرون على ذلك من غير أن ينتهوا بنهى فنزلت الآيات.

فقوله: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يُعْوِدُونَ لَهَا لَئِن نُهُوا عَنْهُ ذم و توبيخ غيابي لهم، و قد خاطب النبي صلى الله عليه و آله و سلم و لم يخاطبهم أنفسهم مبالغه في تحقير أمرهم

و إبعادا لهم عن شرف المخاطبه.

و المعنى: أ لم تنظر الى الذين نهوا عن التناجى بينهم بما يغتم المؤمنين و يحزنهم ثم يعودون الى التناجى الذى نهوا عنه عوده بعد عوده، و فى التعبير بقوله: «يَعُودُونَ» دلالة على الاستمرار، و فى العدول عن ضمير النجوى الى الموصول و الصلة حيث قيل «يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ» و لم يقل «يعودون إليها» دلالة على سبب الذم و التوبيخ و مساءه العود لأنها أمر منهى عنه.

و قوله: «و يَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ الْمَقَابِلَةَ بَيْنَ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ: الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ تَفِيدُ أَنْ الْمُرَادُ بِالْإِثْمِ هُوَ الْعَمَلُ الَّذِي لَهُ أَثَرٌ سَيِّئٌ لَا يَتَعَدَى نَفْسَ عَامِلِهِ كَشُرْبِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ تَرْكِ الصَّلَاةِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ مِنَ الْمَعَاصِي بِحَقُوقِ اللَّهِ، وَ الْعُدْوَانُ هُوَ الْعَمَلُ الَّذِي فِيهِ تَجَاوَزَ إِلَى الْغَيْرِ مِمَّا يَتَضَرَّرُ بِهِ النَّاسُ وَ يَتَأَذُونَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ مِنَ الْمَعَاصِي بِحَقُوقِ النَّاسِ، وَ الْقِسْمَانِ أَعْنَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ جَمِيعًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ مَخَالَفَتُهُ فِي الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ جَائِزَةٌ فِي نَفْسِهَا لَا أَمْرٌ وَ لَا نَهْيٌ مِنَ اللَّهِ فِيهَا لَكِنِ الرَّسُولُ أَمَرَ بِهَا أَوْ نَهَى عَنْهَا لِمَصْلَحَةِ الْأُمَّةِ بِمَالِهِ وَ لَوْلَا أَمْرُهُمْ وَ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَا نَهَاهُمْ عَنِ النَّجْوَى وَ إِنْ لَمْ يَشْتَمَلْ عَلَى مَعْصِيَةِ».

كان ما تقدم من قوله: «الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ» ذمًا و توبيخًا لهم على نفس نجواهم بما أنها منهى عنها مع الغض عن كونها بمعصية أو غيرها: و هذا الفصل أعنى قوله: «و يَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ» ذمًا و توبيخًا لهم بما يشتمل عليه تناجيتهم من المعصية بأنواعها و هؤلاء القوم هم المنافقون و مرضى القلوب كانوا يكثرون من النجوى بينهم ليغتم بها المؤمنون و يحزنوا و يتأذوا.

و قيل: المنافقون و اليهود كان يناجى بعضهم بعضًا ليحزنوا المؤمنين و يلقوا بينهم الوحشه و الفرع و يوهنوا عزمهم لكن فى شمول قوله: «الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ»

و قوله: وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ فَإِنِ اللَّهُ فَعَلَهُ يُدْخِلْهُ فِي الَّذِينَ هَلَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ يَقُولُونَ لِإِخْوَتِهِمْ الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَدْعُونَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ يَدْعُونَ إِلَهًا أُخْرَىٰ مِمَّا دَعَوْا بِهِمْ مِن قَبْلُ فَكُفِّرُوا بَعَدُ الَّذِي كَفَرُوا بِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْتُمُونَ
كانوا يحيونه بغيره. قالوا: هؤلاء هم اليهود كانوا إذا أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم قالوا: السام عليك- والسام هو الموت- وهم يوهمون أنهم يقولون:

السلام عليك، ولا يخلو من شيء فإن الضمير في «جاءوك» و «حيوك» للموصول في قوله:

«الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ» وقد عرفت أن في شموله لليهود خفاء.

و قوله: وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ مَعْطُوفٌ عَلَى «حَيَّوْكَ» أو حال و ظاهره أن ذلك منهم من حديث النفس مضمين ذلك في قلوبهم، وهو تحضيض بداعي الطعن و التهكم فيكون من المنافقين إنكارا لرسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم على طريق الكناية و المعنى: أنهم يحيونك بما لم يحييك به الله و هم يحدثون أنفسهم بدلالة قولهم ذلك- و لولا يعذبهم الله به- على أنك لست برسول من الله و لو كنت رسوله لعذبهم بقولهم.

و قد ردَّ الله عليهم احتجاجهم بقولهم: «لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ» بقوله: «حَسْبُ لَهُمْ جَهَنَّمُ يَصِيلُونَهَا فَسَيْسَ الْمَصِيرُ» أي إنهم مخطئون في نفيهم العذاب فهم معذبون بما أعدَّ لهم من العذاب و هو جهنم التي يدخلونها و يقاسون حرَّها و كفى بها عذابا لهم.

و كأن المنافقين و من يلحق بهم لما لم ينتهوا بهذه المناهى و التشديدات نزل قوله تعالى:

لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا، مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِلُوا تَفْتِيلًا الْآيَاتِ، (الأحزاب / ٦١).

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجُوا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ مَعْصِيَةِ يَدَيْ الرَّسُولِ الْخ؛ لا يخلو سياق الآيات من دلالة على أن الآيه نزلت في رفع الخطر و قد خوطب فيها المؤمنون فاجيز لهم النجوى و اشترط عليهم أن لا يكون تناجيا بالإثم

و العدو و معصيه الرسول و أن يكون تناجيا بالبر و التقوى و البر و هو التوسع في فعل الخير يقابل العدو، و التقوى مقابل الإثم ثم أكد الكلام بالأمر بمطلق التقوى بإنذارهم بالحشر بقوله: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» .

قوله تعالى: إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ الخ؛ المراد بالنجوى-على ما يفيد السيق- هو النجوى الدائر في تلك الأيام بين المنافقين و مرضى القلوب و هي من الشيطان فإنه الذي يزينها في قلوبهم ليتوسل بها الى حزنهم و يشوش قلوبهم ليوهمهم أنها في نائبه حلت بهم و بليتة أصابتهم.

ثم طيب الله سبحانه قلوب المؤمنين بتذكيرهم أن الأمر الى الله سبحانه و أن الشيطان أو التناجى لا يضرهم شيئا إلا بإذن الله فليتوكلوا عليه و لا يخافوا ضره و قد نص سبحانه في قوله: وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ (الطلاق/٣) أنه يكفي من توكل عليه، و استنهضهم على التوكيل بأنه من لوازم إيمان المؤمن فإن يكونوا مؤمنين فليتوكلوا عليه فهو يكفيهم. و هذا معنى قوله: «وَ لَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» .

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ الخ؛ التفسيح الاتساع و كذا الفسح، و المجالس جمع مجلس اسم مكان، و الاتساع في المجلس أن يتسع الجالس ليسع المكان غيره و فسح الله له أن يوسع له في الجنبه.

و الآيه تتضمن أدبا من آداب المعاشرة، و يستفاد من سياقها أنهم كانوا يحضرون مجلس النبي صلى الله عليه و آله و سلم فيجلسون ركاما لا يدع لغيرهم من الواردين مكانا يجلس فيه فادّبوا بقوله: «إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا» الخ؛ و الحكم عام و إن كان مورد النزول مجلس النبي صلى الله عليه و آله و سلم.

و المعنى: يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم توسعوا في المجالس ليسع المكان معكم غيركم

فتوسّعوا وسّع الله لكم فى الجنة.

وقوله: وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فانشُرُوا يتضمن أدبا آخر، وانشور- كما قيل - الارتفاع عن الشىء بالذهاب عنه، وانشور عن المجلس أن يقوم الإنسان عن مجلسه ليجلس فيه غيره إعظاما له و تواضعا لفضله.

و المعنى: و إذا قيل لكم قوموا ليجلس مكانكم من هو أفضل منكم فى علم أو تقوى فقوموا.

وقوله: يَزِفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ لَا- ريب فى أن لازم رفعه تعالى درجه عبد من عباده مزيد قربه منه تعالى، و هذا قرينه عقليه على أن المراد بهؤلاء الذين أوتوا العلم العلماء من المؤمنين فتدل الآيه على انقسام المؤمنين الى طائفتين: مؤمن و مؤمن عالم، و المؤمن العالم أفضل و قد قال تعالى: هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (الزمر ٩).

و فى الآيه من تعظيم أمر العلماء و رفع قدرهم ما لا يخفى. و أكد الحكم بتذييل الآيه بقوله:

«وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» .

وقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ الخ؛ أى إذا أردتم أن تناجوا الرسول فتصدقوا قبلها.

وقوله: ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ تلييل للتشريع نظير قوله: وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ (البقره ١٨٤)، و لا- شك أن المراد بكونها خيرا لهم و أطهر أنها خير لنفوسهم و أطهر لقلوبهم و لعل الوجه فى ذلك أن الأغنياء منهم كانوا يكثر من مناجاه النبى صلى الله عليه و آله و سلم يظهرون بذلك نوعا من التقرب اليه و الاختصاص به و كان الفقراء منهم يحزنون بذلك و ينكسر قلوبهم فامروا أن يتصدقوا بين يدي نجواهم على فقرائهم بما فيها من ارتباط النفوس و إثارة الرحمه و الشفقه و الموده وصله القلوب بزوال الغيظ و الحنق.

و فى قوله: ذَلِكُ التَّفَاتِ إِلَى خُطَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ بَيْنَ خُطَابَيْنِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ فِيهِ تَجْلِيلٌ لَطِيفٌ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ حَيْثُ إِنْ حَكَمَ الصَّدَقَةَ مُرْتَبِطًا بِنَجْوَاهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ وَ الِاتِّفَاتِ إِلَيْهِ فِيمَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ مِنَ الْكَلَامِ مُزِيدٌ عَنَّا بِهِ.

و قوله: فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَى فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا شَيْئًا تَتَّصِدِقُونَ بِهِ فَلَا يَجِبُ عَلَيْكُمْ تَقْدِيمُهَا وَ قَدْ رَخَّصَ اللَّهُ لَكُمْ فِى نَجْوَاهُ وَ عَفَى عَنْكُمْ إِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ فَقَوْلُهُ:

«فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» مِنْ وَضْعِ السَّبَبِ مَوْضِعِ الْمَسَبِّبِ.

وَ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى رَفْعِ الْوَجُوبِ عَلَى الْمَعْدَمِينَ كَمَا أَنَّهُ قَرِينُهُ عَلَى إِرَادَةِ الْوَجُوبِ فِى قَوْلِهِ:

«فَقَدَّمُوا» الْخ؛ وَ وَجُوبُهُ عَلَى الْمَوْسِرِينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: أَمْ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتِ الْخ؛ الْآيَةَ نَاسَخَهُ لِحُكْمِ الصَّدَقَةِ الْمَذْكُورِ فِى الْآيَةِ السَّابِقَةِ، وَ فِيهِ عِتَابٌ شَدِيدٌ لِصَحَابِهِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ وَ الْمُؤْمِنِينَ حَيْثُ إِنَّهُمْ تَرَكُوا مَنَاجَاتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ خَوْفًا مِنْ بَذْلِ الْمَالِ بِالصَّدَقَةِ فَلَمْ يَنَاجِهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا عَلَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ نَاجَاهُ عَشْرَ نَجَوَاتٍ كُلَّمَا نَاجَاهُ قَدَمَ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاهُ صَدَقَهُ ثُمَّ نَزَلَتِ الْآيَةُ وَ نَسَخَتِ الْحُكْمَ.

وَ الْإِشْفَاقُ الْخَشْيَةُ، وَ قَوْلُهُ: «أَنْ تُقَدَّمُوا» الْخ؛ مَفْعُولُهُ وَ الْمَعْنَى: أَمْ خَشِيتُمْ التَّصَدَّقَ وَ بَذَلَ الْمَالَ لِلنَّجْوَى، وَ احْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَفْعُولُ مَحْذُوفًا وَ التَّقْدِيرُ أَمْ خَشِيتُمْ الْفَقْرَ لِأَجْلِ بَذْلِ الْمَالِ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: جَمَعَ الصَّدَقَاتُ لِمَا أَنَّ الْخَوْفَ لَمْ يَكُنْ فِى الْحَقِيقَةِ مِنْ تَقْدِيمِ صَدَقَتِهِ وَاحِدَةً لِأَنَّهُ لَيْسَ مِثْلُهُ الْفَقْرَ بَلْ مِنْ اسْتِمْرَارِ الْأَمْرِ وَ تَقْدِيمِ صَدَقَاتِهِ.

وَ قَوْلُهُ: فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ الْخ؛ أَى فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا مَا كَلَفْتُمْ بِهِ وَ رَجَعَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ الْعَفْوُ وَ الْمَغْفَرَةُ فَأَثْبَتُوا عَلَىٰ امْتِثَالِ سَائِرِ التَّكَالِيفِ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَ إِيتَاءِ الزَّكَاةِ.

فِى قَوْلِهِ: وَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ دَلَالَةٌ عَلَىٰ كَوْنِ ذَلِكَ مِنْهُمْ ذُنُوبًا وَ مَعْصِيَةً غَيْرَ أَنَّهُ

تعالى غفر لهم ذلك.

و في كون قوله: فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ الخ؛ متفرعا على قوله: «فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا» الخ؛ دلالة على نسخ حكم الصدقة قبل النجوى.

و في قوله: وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ تعميم لحكم الطاعة لسائر التكاليف بإيجاب الطاعة المطلقة، و في قوله: «وَ اللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» نوع تشديد يتأكد به حكم وجوب طاعة الله و رسوله (١).

[سورة المجادلة (٥٨): الآيات ١٤ الى ٢٢]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِمَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) إِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رَسُولِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَ أَزَادَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)

ص: ٢٤٣

١- (١). المجادلة ٧-١٣: بحث روائي في: تحية أهل الجاهلية؛ فضل العالم؛ النجوى.

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَخِ الْقَوْمِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ هُمُ الْيَهُودُ، قال تعالى: مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ (المائدة ٦٠).

وقوله: مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ضَمِير «هُمْ» لِلْمُنَافِقِينَ وَضَمِير «مِنْهُمْ» لِلْيَهُودِ، وَ الْمَعْنَى: أَنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ لَتَذِيبُهُمْ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ لَيْسُوا مِنْكُمْ وَلَا مِنْ يَهُودِ، قال تعالى: مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ (النساء ١٤٣).

و هذه صفتهم بحسب ظاهر حالهم و أما بحسب الحقيقة فهم ملحقون بمن تولوهم، قال تعالى: وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَبِإِنَّهُ مِنْهُمْ (المائدة ٥١)، فلا منافاه بين قوله: «مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ» وقوله: «فَبِإِنَّهُ مِنْهُمْ» .

وقوله: وَ يَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ أَي يَحْلِفُونَ لَكُمْ عَلَى الْكُذْبِ

أنهم منكم مؤمنون أمثالكم و هم يعلمون أنهم كاذبون في حلفهم.

قوله تعالى: أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ الإِعداد التهيئه، وقوله: «إِنَّهُمْ سَاءَ» الخ؛ تعليل للإعداد، و فى قوله: «كَانُوا يَعْمَلُونَ» دلاله على أنهم كانوا مستمرين فى عملهم مداومين عليه.

و المعنى: هتأ الله لهم عذابا شديدا لاستمرارهم على عملهم السيئ.

قوله تعالى: اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ الأيمان جمع يمين و هو الحلف، و الجنه الستره التى يتقى بها الشر كالترس، و المهين اسم فاعل من الإهانه بمعنى الإذلال و الإخزاء.

و المعنى: اتخذوا أيمانهم ستره يدفعون بها عن نفوسهم التهمه و الظنه كلما ظهر منهم أمر يريب المؤمنين فصرفوا أنفسهم و غيرهم عن سبيل الله و هو الإسلام فلهم- لأجل ذلك- عذاب مذلّ مخز.

قوله تعالى: لَنْ نُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ أى إن الذى دعاهم الى ما هم عليه متاع الحياه الدنيا الذى هو الأموال و الأولاد لكنهم فى حاجه الى التخلص من عذاب خالد لا يقضيها لهم إلا الله سبحانه فهم فى فقر اليه لا يغنيهم عنه أموالهم و لا أولادهم شيئا فليؤمنوا به و ليعبدوه.

قوله تعالى: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلْحَقْنَا بِأُولَئِكَ آيَاتِنَا إِنَّهُمْ لَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ، و قوله: «فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ» أى يحلفون لله يوم البعث كما يحلفون لكم فى الدنيا.

و قد قدمنا فى تفسير قوله تعالى: ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَ اللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (الأنعام ٢٣) أن حلفهم على الكذب يوم القيامة مع ظهور حقائق الامور يومئذ

من ظهور ملكاتهم هناك لرسوخها في نفوسهم في الدنيا فقد اعتادوا فيها على إظهار الباطل على الحق بالأيمان الكاذبه و كما يعيشون يموتون و كما يموتون يعيشون.

و من هذا القبيل سؤالهم الرد الى الدنيا يومئذ، و الخروج من النار و خصامهم في النار و غير ذلك مما يقصه القرآن الكريم، و هم يشاهدون مشاهد عيان أن لا سبيل الى شيء من ذلك و اليوم يوم جزاء لا يوم عمل.

و أما قوله: **وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَيْ** مستقرون على شيء يصلح أن يستقر عليه و يتمكن فيه فيمكنهم الستر على الحق و المنع عن ظهور كذبهم بمثل الإنكار و الحلف الكاذب.

فيمكن أن يكون قيذا لقوله: **«كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ»** فيكون إشاره الى وصفهم في الدنيا و أنهم يحسبون أن حلفهم لكم ينفعهم و يرضيكم، و يكون قوله: **«أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ»** قضاء منه تعالى في حقهم بأنهم كاذبون فلا يصغى الى ما يهدون به و لا يعتنى بما يحلفون به.

و يمكن أن يكون قيذا لقوله: **«فَيَخْلِفُونَ لَهُ»** فيكون من قبيل ظهور الملكات يومئذ كما تقدم في معنى حلفهم آنفا، و يكون قوله: **«أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ»** حكما منه تعالى بكذبهم يوم القيامة أو مطلقا.

قوله تعالى: **إِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ أَنْ فَاَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ** الاستحواذ الاستيلاء و الغلبه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْلَىٰ تَعْلِيلٌ لِكُونِهِمْ هُمُ الْخَاسِرِينَ أَيْ** إنما كانوا خاسرين لأنهم يحادون الله و رسوله بالمخالفة و المعانده و المحادون لله و رسوله في جملة الأذلين من خلق الله تعالى.

قيل: إنما كانوا في الأذلين لأن ذله أحد المتخاصمين على مقدار عزه الآخر و إذ كانت العزه

لله جميعا فلا يبقى لمن حادّه إلا الذله محضا.

قوله تعالى: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ الكتابه هي القضاء منه تعالى.

و ظاهر إطلاق الغلبه شمولها للغلبه من حيث الحججه و من حيث التأيد الغيبي و من حيث طبيعه الإيمان بالله و رسوله.

أما من حيث الحججه فإن الإنسان مفطور على صلاحه إدراك الحق و الخضوع له فلو بين له الحق من السبيل التي يألفها لم يلبث دون أن يعقله و إذا عقله اعترفت له فطرته و خضعت له طويته و إن لم يخضع له عملا اتباعا لهوى أو أى مانع يمنعه عن ذلك.

و أما الغلبه من حيث التأيد الغيبي و القضاء للحق على الباطل فيكفي فيها أنواع العذاب التي أنزلها الله تعالى على مكذبي الامم الماضين كقوم نوح و هود و صالح و لوط و شعيب و على آل فرعون و غيرهم ممن يشير تعالى اليهم بقوله: ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّهٖ رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَ جَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (المؤمنون / ٤٤)، و على ذلك جرت السنه الإلهيه و قد أجمل ذكرها في قوله: وَ لِكُلِّ أُمَّهٖ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (يونس / ٤٧).

و أما الغلبه من حيث طبيعه الإيمان بالله و رسوله فإن إيمان المؤمن يدعوه الى الدفاع و الذبّ عن الحق و المقاومه تجاه الباطل مطلقا و هو يرى أنه إن قتل فاز و إن قتل فاز فثباته على الدفاع غير مقيّد بقيد و لا محدود بحدّ و هذا بخلاف من يدافع لا عن الحق بما هو حق بل عن شىء من المقاصد الدنيويه فإنه إنما يدافع لأجل نفسه فلو شاهد نفسه مشرفه على هلكه أو راكمه مخاطره تولى منهزما فهو إنما يدافع على شرط و الى حدّ و هو سلامه النفس و عدم الإشراف على الهلكه و من الضروري أن العزيمه المطلقه تغلب العزيمه المقيده بقيد المحدوده بحدّ و من الشاهد عليه غزوات رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بما أدت اليه من الفتح و الظفر فى عين أنها كانت سجالا

لكن لم تنته إلا الى تقدّم المسلمين و غلبتهم.

و لم تقف الفتوحات الإسلاميه و لا تفرّقت جموع المسلمين أيادي سبأ إلا بفساد نياتهم و تبديل سيره التقوى و الإخلاص لله و بسط الدين الحق من بسط السلطه و توسعه المملكه ذلك بأنّ الله لم يكُ مُغَيِّرًا نِعْمَهُ أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (١) و قد اشترط الله عليهم حين أكمل دينهم و أمنهم من عدوهم أن يخشوه إذ قال: «الْيَوْمَ يَنْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ» .

و يكفى فى تسجيل هذه الغلبه قوله تعالى فيما يخاطب المؤمنين: وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (آل عمران ١٣٩).

قوله تعالى: لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ الْخِيفَةُ وَ جدان قوم على هذه الصفه كناية عن أن الإيمان الصادق بالله و اليوم الآخر لا يجامع مواده أهل المحاده و المعانده من الكفار و لو قارن أى سبب من أسباب الموده كالابوه و البنوه و الاخوه و سائر أقسام القرابه فيبين الإيمان و مواده أهل المحاده تضاداً لا يجتمعان لذلك.

و قد بان أن قوله: «وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ» الخ؛ إشاره الى أسباب الموده مطلقاً و قد خصّت موده النسب بالذكر لكونه أقوى أسباب الموده من حيث ثباته و عدم تغيره.

و قوله: «أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ» الإشاره الى القوم بما ذكر لهم من الصفه، و الكتابه الإثبات بحيث لا يتغير و لا يزول و الضمير لله و فيه نص على أنهم مؤمنون حقاً.

و قوله: وَ أَيْدُهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ التأييد التقويه، و ضمير الفاعل فى «أَيْدُهُمْ» لله تعالى و كذا ضمير «مِنْهُ» و «من» ابتدائية، و المعنى: و قواهم الله بروح من عنده تعالى، و قيل:

ص: ٢٤٨

الضمير للإيمان، والمعنى: و قواهم الله بروح من جنس الإيمان يحيى بها قلوبهم، ولا بأس به.

ثم الروح-على ما يتبادر من معناها-هى مبدأ الحياه التى تترشح منها القدره و الشعور فإبقاء قوله: «وَ أَيْدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ» على ظاهره يفيد أن للمؤمنين وراء الروح البشريه التى يشترك فيها المؤمن و الكافر روحا اخرى تفيض عليهم حياه اخرى و تصاحبها قدره و شعور جديدان، و الى ذلك يشير قوله تعالى: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا (الأنعام ١٢٢)، و قوله: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً (النحل ٩٧).

و ما فى الآيه من طيب الحياه يلزم طيب أثرها و هو القدره و الشعور المتفرع عليهما الأعمال الصالحه، و هما المعبر عنهما فى آيه الأنعام المذكوره آنفا بالنور و نظيرها قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ (الحديد ٢٨).

و هذه حياه خاصه كريمه لها آثار خاصه ملازمه لسعاده الإنسان الأبدية وراء الحياه المشتركه بين المؤمن و الكافر التى لها آثار مشتركه فلها مبدأ خاص و هو روح الإيمان التى تذكرها الآيه وراء الروح المشتركه بين المؤمن و الكافر.

و على هذا فلا موجب لما ذكروا أن المراد بالروح نور القلب و هو نور العلم الذى يحصل به الطمأنينه و أن تسميته روحا مجاز مرسل لأنه سبب للحياه الطيبه الأبدية أو من الاستعاره لأنه فى ملازمته وجوه العلم الفاضل على القلب-و العلم حياه القلب كما أن الجهل موته- يشبه الروح المفيض للحياه. انتهى.

و قوله: وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ جَمِيلًا وَ وَصَفَ لِحَيَاتِهِمُ الْآخِرَةَ الطيبه.

و قوله: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ استئناف يعلل قوله: «وَ يُدْخِلُهُمْ

جَنَاتٍ» الخ؛ ورضا الله سبحانه عنهم رحمة لهم لإخلاصهم الإيمان له و رضاهم عنه و ابتهاجهم بما رزقهم من الحياه الطيبه و الجنه.

وقوله: **أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** تشریف لهؤلاء المخلصين فى إيمانهم بأنهم حزبه تعالى كما أن أولئك المنافقين الموالين لأعداء الله حزب الشيطان و هؤلاء مفلحون كما أن أولئك خاسرون.

و فى قوله: **«أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ»** وضع الظاهر موضع الضمير ليجرى الكلام مجرى المثل السائر (1).

ص: ٢٥٠

١-١). المجادله ١٤-٢٢: بحث روائى حول غلبه الله و رسله؛ الحب فى الله و البغض فى الله؛ روح الايمان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَا نَعْتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (٢) وَلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَابُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لَا رِكَابٍ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يُسَيِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِيذِي الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسْكِينِ وَ إِبْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَ أَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانًا وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَ الْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَ لَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَ يُوَثِّرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَ مَنْ يُوقِ شَحْمَةَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَ لِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَ لَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ (١٠)

قوله تعالى: سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ افتتاح مطابق لما في مختتم السوره من قوله: «يَسْبُحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» .

و إنما افتتح بالتنزيه لما وقع في السوره من الإشاره الى خيانه اليهود و نقضهم العهد ثم وعد المنافقين لهم بالنصر غدرا كمثل الذين كانوا من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم، و بالنظر الى ما أذاقهم الله من وبال كيدهم، و كون ذلك على ما يقتضيه الحكمة و المصلحه ذيل الآيه بقوله:

«وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» .

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ تأييد لما ذكر في الآيه السابقه من تنزيهه تعالى و عزته و حكمته، و المراد بإخراج الذين كفروا من أهل الكتاب إجلاء بني النضير حي من أحياء اليهود كانوا يسكنون خارج المدينه و كان بينهم و بين النبي صلى الله عليه و آله و سلم عهد أن لا يكونوا له و لا عليه ثم نقضوا العهد فأجلاهم النبي صلى الله عليه و آله و سلم و ستأتى قصتهم في البحث الروائي التالي إن شاء الله.

و الحشر إخراج الجماعه بإزعاج، و «لِأَوَّلِ الْحَشْرِ» من إضافه الصفه الى الموصوف، و اللام بمعنى في كقوله: أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ (الإسراء ٧٨).

و المعنى: الله الذي أخرج بني النضير من اليهود من ديارهم في أول إخراجهم من جزيره العرب.

ثم أشار تعالى الى أهميه إخراجهم بقوله: «مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا» لما كنتم تشاهدون فيهم من القوه و الشده و المنعه «و ظَنُّوا أَنَّهُمْ مَاعِتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ» فلن يغلبهم الله و هم متحصنون فيها و عدّ حصونهم بحسب ظنهم مانعه من الله لا من المسلمين لما أن إخراجهم منها

منسوب في الآيه السابقه اليه تعالى و كذا إلقاء الرعب في قلوبهم في ذيل الآيه، و في الكلام دلالة على أنه كانت لهم حصون متعددة.

ثم ذكر فساد ظنهم و خبطهم في مزعتهم بقوله: «فَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا» و المراد به نفوذ إرادته تعالى فيهم لا- من طريق احتسابه و هو طريق الحصون و الأبواب بل من طريق باطنهم و هو طريق القلوب «وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ» و الرعب الخوف الذي يملأ القلب «يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ» لثلاث تقع في أيدي المؤمنين بعد خروجهم و هذه من قوه سلطانه تعالى عليهم حيث أجرى ما أراه بأيدى أنفسهم «وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ» حيث أمرهم بذلك و وفقهم لامتنال أمره و إنفاذ إرادته «فَاعْتَبِرُوا» و خذوا بالعظه «يَا أُولِي الْأَبْصَارِ» بما تشاهدون من صنع الله العزيز الحكيم بهم قبال مشاقتهم له و رسوله.

و قيل: كانوا يخربون البيوت ليهربوا و يخربها المؤمنون ليصلوا.

و قيل: المراد بتخريب البيوت اختلاف نظام حياتهم فقد خربوا بيوتهم بأيديهم حيث نقضوا الموادعه، و بأيدي المؤمنين حيث بعثوهم على قتالهم.

و فيه أن ظاهر قوله: يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ الخ؛ أنه بيان لقوله: «فَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا» الخ؛ من حيث أثره فهو متأخر عن نقض الموادعه.

قوله تعالى: «وَلَوْ لَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبْتَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ الْجَلَاءِ» عليهم قضاؤه في حقهم، و المراد بعذابهم في الدنيا عذاب الاستئصال أو القتل و السبى.

و المعنى: و لو لا أن قضى الله عليهم الخروج من ديارهم و ترك وطنهم لعذبهم في الدنيا بعذاب الاستئصال أو القتل و السبى كما فعل بنى قريظه و لهم في الآخرة عذاب النار.

قوله تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ الْمَخَافَةِ بِالْعِنَادِ، وَ الْإِشَارَةَ بِذَلِكَ إِلَى مَا ذَكَرَ مِنْ إِخْرَاجِهِمْ

و استحقاقهم العذاب لو لم يكتب عليهم الجلاء، و في تخصيص مشاقتهم بالله في قوله: «وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ» بعد تعميمه لله و رسوله في قوله: «شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ» تلويح الى أن مشاقه الرسول مشاقه الله و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنِهِ أَوْ تَرَكْتُمْوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ» ذكر الراغب أن اللينه النخلة الناعمة من دون اختصاص منه بنوع منها دون نوع، ورووا أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أمر بقطع نخيلهم فلما قطع بعضها نادوه: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض فما بال النخيل تقطع فنزلت الآية فاجيب عن قولهم بأن ما قطعوا من نخله أو تركوها قائمه على أصولها فبإذن الله و لله في حكمه هذا غايات حقه و حكم بالغه منها إجزاء الفاسقين و هم بنو النضير.

فقوله: «وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ» اللام فيه للتعليل و هو معطوف على محذوف و التقدير:

القطع و الترك بإذن الله ليفعل كذا و كذا و ليخزي الفاسقين فهو كقوله: «وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ» (الأنعام ٧٥).

قوله تعالى: «وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لَا رِكَابٍ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَسْلُطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ الْخَبْرُ الْإِفَادَةُ الْإِرْجَاعُ مِنَ الْفَيْءِ بِمَعْنَى الرَّجُوعِ، وَ ضَمِيرُ «مِنْهُمْ» لِبَنِي النَّضِيرِ وَ الْمُرَادُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ.

و إيجاف الدابة تسييرها بإزعاج و إسراع و الخيل الفرس، و الركاب الإبل و «مِنْ خَيْلٍ وَ لَا رِكَابٍ» مفعول «فَمَا أَوْجَفْتُمْ» و «مِنْ» زائده للاستغراق.

و المعنى: و الذي أرجعه الله الى رسوله من أموال بني النضير- خصه به و ملكه وحده إياه- فلم تسيروا عليه فرسا و لا- إبلا بالركوب حتى يكون لكم فيه حق بل مشيتم الى حصونهم مشاه لقربها من المدينة، و لكن الله يسلط رسله على من يشاء و الله على كل شيء قدير و قد سلط النبي صلى الله عليه و آله و سلم على بني النضير فله فيئهم يفعل فيه ما يشاء.

قوله تعالى: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَاللِّرَّسُولِ وَ لِإِذَى الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ الْخ؛ ظاهره أنه بيان لموارد مصرف الفىء المذكور فى الآيه السابقه مع تعميم الفىء لفىء أهل القرى أعم من بنى النضير و غيرهم.

□
و قوله: ﴿ فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ أَى مِنْهُ مَا يَخْتَصُّ بِاللَّهِ وَ الْمَرَادُ بِهِ صَرْفُهُ وَ إِتْفَاقُهُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ عَلَىٰ مَا يَرَاهُ الرَّسُولُ وَ مِنْهُ مَا يَأْخُذُهُ الرَّسُولُ لِنَفْسِهِ وَ لَا يَصْغَىٰ إِلَىٰ قَوْلٍ مِنْ قَالٍ: إِنْ ذَكَرَهُ تَعَالَىٰ مَعَ أَصْحَابِ السَّهَامِ لِمَجْرَدِ التَّبَرُّكِ.

و قوله: ﴿ وَ لِذَى الْقُرْبَىٰ الْخ؛ المراد بذى القربى قرابه النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و لا معنى لحمله على قرابه عامه المؤمنين و هو ظاهر، و المراد باليتامى الفقراء منهم كما يشعر به السياق و إنما أفرد و قدم على «المساكين» مع شموله له اعتناء بأمر اليتامى.

و قد ورد عن أئمه أهل البيت عليهم السلام أن المراد بذى القربى أهل البيت و اليتامى و المساكين و ابن السبيل منهم.

□
و قوله: ﴿ كَىٰ لَا يَكُونَ دَوْلَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ أَى أَنَّمَا حَكَمْنَا فِى الْفِىءِ بِمَا حَكَمْنَا كَيْلَا يَكُونَ دَوْلَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَ الدَوْلَةُ مَا يَتَدَاوَلُ بَيْنَ النَّاسِ وَ يَدُورُ يَدَا بِيَدٍ.

□
و قوله: ﴿ مَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا أَى مَا أَعْطَاكُمْ الرَّسُولُ مِنَ الْفِىءِ فَخُذُوهُ كَمَا أَعْطَىٰ مِنْهُ الْمُهَاجِرِينَ وَ نَفَرًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ وَ مَنَعَكُمْ فَانْتَهُوا وَ لَا تَطْلُبُوا، وَ فِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّهُمْ سَأَلُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَنْ يَقْسِمَ الْفِىءَ بَيْنَهُمْ جَمِيعًا فَأَرْجَعَهُ إِلَىٰ نَبِيِّهِ وَ جَعَلَ مَوَارِدَ مَصْرَفَهُ مَا ذَكَرَهُ فِى الْآيَةِ وَ جَعَلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَنْ يَنْفَقَهُ فِيهَا عَلَىٰ مَا يَرَىٰ.

و الآيه مع الغض عن السياق عامه تشمل كل ما آتاه النبى صلى الله عليه و آله و سلم من حكم فأمر به أو نهى عنه.

□
□
□
و قوله: ﴿ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ تحذير لهم عن مخالفه النبى صلى الله عليه و آله و سلم

تأكيداً لقوله: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ» الخ.

قوله تعالى: لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً الخ؛ قيل: إن قوله: «لِلْفُقَرَاءِ» بدل من قوله:

«لِذِي الْقُرْبَى» و ما بعده و ذكر «اللَّهُ» لمجرد التبرك فيكون الفىء مختصاً بالرسول و الفقراء من المهاجرين، و قد وردت الرواية أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قَسَمَ فِىءَ بَنِي النُّضَيْرِ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ لَمْ يُعْطِ مِنْهُ الْأَنْصَارَ شَيْئاً إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ فُقَرَائِهِمْ أَوْ ثَلَاثَةٍ.

و الأنسب لما تقدم نقله عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن يكون قوله: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ» الخ؛ بيان مصداق لصرف سبيل الله الذى أشير إليه بقوله: «فَلِلَّهِ» لا بأن يكون الفقراء المهاجرون أحد السهماء فى الفىء بل بأن يكون صرفه فيهم و إعطاؤهم إياه صرفاً له فى سبيل الله.

و محصل المعنى على هذا: أن الله سبحانه أفاء الفىء و أرجعه الى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فله أن يتصرف فيه كيف يشاء ثم دلل على موارد صرفه و هى سبيل الله و الرسول و ذو القربى و يتامهم و مساكينهم و ابن السبيل منهم ثم أشار الى مصداق الصرف فى السبيل أو بعض مصاديقه و هم الفقراء المهاجرون، الخ؛ ينفق منه الرسول لهم على ما يرى.

و على هذا ينبغي أن يحمل ما ورد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قَسَمَ فِىءَ بَنِي النُّضَيْرِ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ لَمْ يُعْطِ الْأَنْصَارَ شَيْئاً إِلَّا ثَلَاثَةً مِنْ فُقَرَائِهِمْ: أبا دجانة سماك بن خرشة و سهل بن حنيف و الحارث بن الصمه فقد صرف فيهم بما أنه صرف فى سبيل الله لا بما أنهم سهماء فى الفىء.

و كيف كان فقوله: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ» المراد بهم من هاجر من المسلمين من مكة الى المدينة قبل الفتح و هم الذين أخرجهم كفار مكة بالاضطرار الى الخروج فتركوا ديارهم و أموالهم و هاجروا الى مدينة الرسول.

و قوله: يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَاناً الفضل الرزق أى يطلبون من الله رزقا فى الدنيا و رضواناً فى الآخرة.

وقوله: وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أَى ينصرونه و رسوله بأموالهم و أنفسهم، و قوله: «أَوْلَيْكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» تصديق لصدقهم فى أمرهم و هم على هذه الصفات.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَ الْإِيمَانَ مِنَ الَّذِينَ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ الخ؛ قيل: إنه استئناف مسوق لمدح الأنصار لتطيب بذلك قلوبهم إذ لم يشركوا فى الفىء، «وَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا» -و المراد بهم الأنصار- مبتدأ خبره «يُحِبُّونَ» الخ؛ و المراد بتبوى الدار و هو تعميرها بناء مجتمع دينى يأوى اليه المؤمنون على طريق الكنايه، و الإيمان معطوف على «الدَّارَ» و تبوى الإيمان و تعميره رفع نواقصه من حيث العمل بحيث يستطاع العمل بما يدعو اليه من الطاعات و القربات من غير حرج و منع كما كان بمكة.

و احتمال أن يعطف «الْإِيمَانَ» على تبوءوا و قد حذف الفعل العامل فيه، و التقدير: و آثروا الإيمان.

وقيل: إن قوله: «وَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا» الخ؛ معطوف على قوله: «الْمُهَاجِرِينَ» و على هذا يشارك الأنصار المهاجرين فى الفىء، و الإشكال عليه بأن المروى أن النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلّم قسمه بين المهاجرين و لم يعط الأنصار منه شيئاً إلا- ثلاثة من فقرائهم مدفوع بأن الروايه من شواهد العطف دون الاستئناف إذ لو لم يجز إعطاؤه للأنصار لم يجز لا- للثلاثة و لا للواحد فأعطاء بعضهم منه دليل على مشاركتهم لهم غير أن الأمر لما كان راجعاً الى النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلّم كان له أن يصرفه كيف يشاء فرجح أن يقسمه بينهم على تلك الوتيره.

و الأنسب لما تقدم من كون «لِلْفُقَرَاءِ» الخ؛ بياناً لمصاديق سهم السبيل هو عطف «وَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا» الخ؛ و كذا قوله الآتى: «وَ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» على قوله: «الْمُهَاجِرِينَ» الخ؛ دون الاستئناف.

بل ما ورد من إعطائه صَلَّى الله عليه و آله و سلّم للثلاثة يؤيد هذا الوجه بعينه إذ لو كان السهم فيه الفقراء المهاجرين فحسب لم يعط الأنصار و لا لثلاثة منهم، و لو كان للفقراء من الأنصار كالمهاجرين

فيه سهم - و ظاهر الآيه أن جمعا منهم كانوا فقراء بهم خصاصه و التاريخ يؤيده - لأعطى غير الثلاثة من فقراء الأنصار ما أعطى فقراء المهاجرين و استوعبهم.

فقوله: وَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَ الْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ضَمِيرٌ «مِنْ قَبْلِهِمْ» للمهاجرين و المراد من قبل مجيئهم و هجرتهم الى المدينة.

و قوله: يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ أَى يحبون من هاجر اليهم لأجل هجرتهم من دار الكفر الى دار الإيمان و مجتمع المسلمين.

و قوله: وَ لَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ضَمِيرًا «يَجِدُونَ» و «صُدُورِهِمْ» للأنصار، و ضمير «أُوتُوا» للمهاجرين، و المراد بالحاجه ما يحتاج اليه و «من» تبعيضية و قيل: بيانيه و المعنى: لا يخطر ببالهم شىء مما أعطيه المهاجرون فلا يضيق نفوسهم من تقسيم الفىء بين المهاجرين دونهم و لا يحسدون.

و قيل: المراد بالحاجه ما يؤدى اليه الحاجه و هو الغيظ.

و قوله: وَ يُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ إِثَارَ الشَّىءِ اخْتِيَارَهُ و تقديمه على غيره، و الخصاصه الفقر و الحاجه، قال الراغب: خصاص البيت فرجه و عبر عن الفقر الذى لم يسد بالخصاصه كما عبر عنه بالخله انتهى.

و المعنى: و يقدمون المهاجرين على أنفسهم و لو كان بهم فقر و حاجه، و هذه الخصيصه أغزر و أبلغ فى مدحهم من الخصيصه السابقه فالكلام فى معنى الإضراب كأنه قيل: إنهم لا - يطمحون النظر فيما بأيدي المهاجرين بل يقدمونهم على أنفسهم فيما بأيديهم أنفسهم فى عين الفقر و الحاجه.

و قوله: وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ قال الراغب: الشح بخل مع حرص فيما كان عادة انتهى. و «يُوقَ» فعل مضارع مجهول من الوقايه بمعنى الحفظ، و المعنى: و من يحفظ - أى يحفظه الله - من ضيق نفسه من بذل ما بيده من المال أو من وقوع مال

فى يد غيره فاولئك هم المفلحون.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ اسْتَنْفِمْ أَوْ عَطْفِمْ نَظِيرِمْ مَا تَقْدَمُ فِى قَوْلِهِ: «وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَ الْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ» و على الاستئناف فالموصول مبتدأ خبره قوله: «يَقُولُونَ رَبَّنَا» الخ.

و المراد بمجيئهم بعد المهاجرين و الأنصار إيمانهم بعد انقطاع الهجره بالفتح و قيل: المراد أنهم خلفوهم.

و قولهم: رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَ لِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ دعاء لأنفسهم و السابقين من المؤمنين بالمغفرة، و فى تعبيرهم عنهم بإخواننا إشاره الى أنهم يعدونهم من أنفسهم كما قال الله تعالى: بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ (النساء ٢٥)، فهم يحبونهم كما يحبون أنفسهم و يحبون لهم ما يحبون لأنفسهم.

و لذلك عقبوه بقولهم: «وَ لَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ» فسألوا أن لا يجعل الله فى قلوبهم غلا للذين آمنوا و الغل العداوه.

و فى قوله: لِلَّذِينَ آمَنُوا تعميم لعامة المؤمنين منهم و ممن سبقهم و تلويح الى أنه لا بغيه لهم إلا الإيمان (١).

[سوره الحشر (٥٩): الآيات ١١ الى ١٧]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لَا نُطِيعُ فِىكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَ إِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولُنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِى النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧)

ص: ٢٦٠

١- ١). الحشر ١-١٠: بحث روائى حول طوائف من اليهود كان بينهم و بين رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عهد و مده فنقضوا عهدهم؛ الفىء و الانفال؛ ذى القربى؛ الإيما و الاسلام و الكفر.

بيان:

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْإِخْوَانُ كَالْإِخْوَةِ جمع أخ و الأخوة الاشتراك في الانتساب الى أب و يتوسع فيه يستعمل في المشتركين في اعتقاد أو صداقه و نحو ذلك، و يكثر استعمال الإخوة في المشتركين في النسبه الى أب و استعمال الإخوان في المشتركين في اعتقاد و نحوه على ما قيل.

و الاستفهام في الآية للتعجيب، و المراد بالذين نافقوا عبد الله بن أبي و أصحابه، و المراد

ص: ٢٤١

بإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب بنو النضير على ما يؤيده السياق فإن مفاد الآيات أنهم كانوا قوما من أهل الكتاب دار أمرهم بين الخروج و القتال بعد قوم آخر كذلك و ليس إلا بنى النضير بعد بنى قينقاع.

وقوله: لئن أخرجتكم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبداً وإن قوتلتن لننصرنكم مقول قول المنافقين، و اللام فى «لئن أخرجتن» للقسم أى نقسم لئن أخرجكم المسلمون من دياركم لنخرجن من ديارنا معكم ملازمين لكم و لا نطيع فيكم أى فى شأنكم أحدا يشير علينا بمفارقتكم أبداً، و إن قاتلكم المسلمون لننصرنكم عليهم.

وقوله: و الله يشهد إنهم لكاذبون تكذيب لوعده المنافقين، و تصريح بأنهم لا يفون بوعدهم.

قوله تعالى: لئن أخرجوا لا يخرجون معهم و لئن قوتلوا لا ينصرونهم تكذيب تفصيلى لوعدهم بعد تكذبه الإجمالى بقوله: «و الله يشهد إنهم لكاذبون» و قد كرر فيه لام القسم، و المعنى: أقسم لئن أخرج بنو النضير لا يخرج معهم المنافقون، و أقسم لئن قوتلوا لا ينصرونهم.

قوله تعالى: و لئن نصرؤهم ليؤلن الأذبار ثم لا ينصرون إشارة الى أن نصرهم على تقدير وقوعه منهم - و لن يقع أبداً - لا يدوم و لا ينفعهم بل يولون الأذبار فرارا ثم لا ينصرون بل يهلكون من غير أن ينصرهم أحد.

قوله تعالى: لئن أنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله الخ؛ ضمائر الجمع للمنافقين، و رهبة الخشية، و الآية فى مقام التعليل لقوله: «و لئن نصرؤهم ليؤلن الأذبار» أى ذلك لأنهم يرهبونكم أشد من رهبتهم لله فلا يقاومونكم لو قاتلتهم و لا يثبتون لكم.

و علل ذلك بقوله: «ذلك بأنهم قوم لا يفقهون» و الإشارة بذلك الى كون رهبتهم للمؤمنين أشد من رهبتهم لله أى رهبتهم لكم كذلك لأنهم قوم لا يفهمون حق الفهم و لو فقهوا حقيقه

الأمر بان لهم أن الأمر الى الله تعالى و ليس لغيره من الأمر شىء سواء فى ذلك المسلمون و غيرهم، و لا يقوى غيره تعالى على عمر خير أو شر أو نافع أو ضار إلا بحول منه تعالى و قوه فلا ينبغي أن يرهب إلا هو عزّ و جل.

قوله تعالى: لا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرىٍ مُحَصَّنَةٍ أو من وراءِ جُدُرٍ بيان لأثر رهبتهم و جنبهم جميعاً و المعنى: لا يقاتلكم بنو النضير و المنافقون جميعاً بأن يبرزوا بل فى قرىٍ حصينه محكمه أو من وراءِ جدر من غير بروز.

و قوله: بِأَسْئِرِهِمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ أى هم فيما بينهم شديدو البطش غير أنهم إذا برزوا لحربكم و شاهدوكم يجبنون بما ألقى الله فى قلوبهم من الرعب.

و قوله: تَحَسَّبُ بِهِمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى أى تظن أنهم مجتمعون فى ألفه و اتحاد و الحال أن قلوبهم متفرقه غير متحده و ذلك أقوى عامل فى الخزى و الخذلان. ذلك بأنهم قوم لا يعقلون و لو عقلوا لاتحدوا و وحدوا الكلمه.

قوله تعالى: كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذُوقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ الوبال العاقبه السيئه و قوله: «قَرِيباً» قائم مقام الظروف منصوب على الظرفيه أى فى زمان قريب.

و قوله: كَمَثَلِ الْخَبْرِ مَبْتَدَأٌ محذوف و التقدير «مثلهم كمثل» الخ؛ و المعنى: مثلهم أى مثل بنى النضير من اليهود فى نقضهم العهد و وعد المنافقين لهم بالنصر كذبا ثم الجلاء مثل الذين من قبلهم فى زمان قريب و هم بنو قينقاع رهط آخر من يهود المدينه نقضوا العهد بعد غزوه بدر فأجلاهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم الى أذرعات و قد كان وعدهم المنافقون أن يكلموا النبى صلى الله عليه و آله و سلم فيهم و يمنعوهم من إجلائهم فغدروا بهم فذاق بنو قينقاع وبال أمرهم و لهم فى الآخره عذاب أليم و قيل: المراد بالذين من قبلهم كفار مكه يوم بدر و ما تقدم أنسب للسياق.

و المثل على أى حال مثل لبنى النضير لا للمنافقين على ما يعطيه السياق.

قوله تعالى: كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ الخ؛ ظاهر السياق أنه مثل للمنافقين فى غرورهم بنى النضير بوعد النصر ثم خذلانهم عند الحاجة.

و ظاهر السياق يفيد أن المراد بالشيطان و الإنسان الجنس و الإشاره الى غرور الشيطان للإنسان بدعوته الى الكفر بتزيين أمتعته الحياه له و تسويل الإعراض عن الحق بمواعيد الكاذبه و الأمانى السرابيه حتى إذا طلعت له طلائع الآخره و عين أن ما اغتر به من أمانى الحياه الدنيا لم يكن إلا سرايا يغره و خيالاً يلعب به تيراً منه الشيطان و لم يف بما وعده و قال:

إني برىء منك إني أخاف الله رب العالمين.

و بالجملة مثل المنافقين فى دعوتهم بنى النضير الى مخالفه النبى صلى الله عليه و آله و سلم و وعدهم النصر ثم الغدر بهم و خلف الوعد كمثل هذا الشيطان فى دعوه الإنسان الى الكفر بمواعيده الكاذبه ثم تبريه منه بعد الكفر عند الحاجة.

و قيل: المراد بالتمثيل الإشاره الى قصه برصيصة العابد الذى زين له الشيطان الفجور ففجر بامرأه ثم كفر و سيأتى القصة فى البحث الروائى التالى إن شاء الله.

و قيل: المثل السابق المذكور فى قوله: «كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً» مثل كفار مكه يوم بدر- كما تقدم- و المراد بالإنسان فى هذا المثل أبو جهل و بقول الشيطان له أكفر ما قصه الله تعالى بقوله فى القصة: وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ كَصَّ عَلَى عَقْبِيهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (الأنفال ٤٨).

و على هذا الوجه فقول الشيطان «إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ» قول جدى لأنه كان يخاف تعذيب الملائكه النازلين لنصره المؤمنين ببدر و أما على الوجهين الأولين فهو نوع من

قوله تعالى: فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي الدَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ۗ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ الظاهر أن ضمائر التشبيه للشيطان و الإنسان المذكورين في المثل ففي الآيه بيان عاقبه الشيطان في غروره الإنسان و إضلاله و الإنسان في اغتراره به و ضلاله، وإشاره الى أن ذلك عاقبه المنافقين في وعدهم لبنى النضير و غدرهم بهم و عاقبه بنى النضير في اغترارهم بوعدهم الكاذب و إصرارهم على المشاقه و المخالفه، و معنى الآيه ظاهر.

[سوره الحشر (٥٩): الآيات ١٨ الى ٢٤]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَيْرِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَهُ خَاشِعًا مَتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتُنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ أمر للمؤمنين بتقوى الله و بأمر آخر و هو النظر في الأعمال التي قدموها ليوم الحساب أ هي صالحه فليرج بها ثواب الله أو طالحه فليخش عقاب الله عليها و يتدارك بالتوبه و الإنابه و هو محاسبه النفس.

أما التقوى و قد فسّر في الحديث بالورع عن محارم الله فحيث تتعلق بالواجبات و المحرمات جميعا كانت هي الاجتناب عن ترك الواجبات و فعل المحرمات.

و أما النظر فيما قدمت النفس لغد فهو أمر آخر وراء التقوى نسبته الى التقوى كنسبه النظر الإصلاحى ثانيا من عامل في عمله أو صانع فيما صنعه لتكميله و رفع نواقصه التي غفل عنها أو أخطأ فيها حين العمل و الصنع.

فعلى المؤمنين جميعا أن يتقوا الله فيما وجّه اليهم من التكاليف فيطيعوه و لا- يعصوه ثم ينظروا فيما قدموه من الأعمال التي يعيشون بها في غد بعد ما حوسبوا بها أصالح فيرجى ثوابه أم طالح فيخاف عقابه فيتوبوا الى الله و يستغفروه.

و هذا تكليف عام يشمل كل مؤمن لحاجه الجميع الى إصلاح العمل و عدم كفايه نظر بعضهم عن نظر الآخرين غير أن القائم به من أهل الإيمان في نهايه القله بحيث يكاد يلحق بالعدم و الى ذلك يلوح لفظ الآية «و لْتُنْظُرْ نَفْسٌ» .

فقوله: وَ لْتُنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ خطاب عام لجميع المؤمنين لكن لما كان المشتغل بهذا النظر من بين أهل الإيمان بل من بين أهل التقوى منهم في غايه القله بل يكاد يلحق بالعدم لاشتغالهم بأعراض الدنيا و استغراق أوقاتهم في تدبير المعيشه و إصلاح امور

الحياء ألقى الخطاب في صورته الغيبية وعلقه بنفس ما منكره فقال: «وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ» وفي هذا النوع من الخطاب مع كون التكليف عاما بحسب الطبع عتاب و تقرير للمؤمنين مع التلويح الى قلبه من يصلح لامتناله منهم.

وقوله: «مَا قَدَّمْتُ لِعَدِّ اسْتِفْهَامٍ مِنْ مَاهِيَةِ الْعَمَلِ الَّذِي قَدَّمْتُ لَعَدِّ وَ بَيَانٍ لِلنَّظَرِ، وَ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ «مَا» مُوَصُولَةً وَ هِيَ وَصَلَتْهَا مُتَعَلِّقًا بِالنَّظَرِ.

و المراد بغد يوم القيامة و هو يوم حساب الأعمال و إنما عَبر عنه بغد للإشارة الى قربه منهم كقرب الغد من أمسه، قال تعالى: **إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَ يَرَاهُ قَرِيبًا (المعارج ٧).**

و المعنى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله بطاعته في جميع ما يأمركم به و ينهاكم عنه، و لتنظر نفس منكم فيما عملته من عمل و لتر ما الذي قدمته من عملها ليوم الحساب أ هو عمل صالح أو طالح و هل عملها الصالح مقبول أو مردود.

و قوله: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» أمر بالتقوى ثانيا و «إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ» الخ؛ تعليل له و تعليل هذه التقوى بكونه تعالى خبيرا بالأعمال يعطى أن المراد بهذه التقوى الأمور بها ثانيا هي التقوى في مقام المحاسبه و النظر فيها من حيث إصلاحها و إخلاصها لله سبحانه و حفظها عما يفسدها، و أما قوله في صدر الآية: «اتَّقُوا اللَّهَ» فالمراد به التقوى في أصل إتيان الأعمال بقصرها في الطاعات و تجنّب المعاصي.

و من هنا تبين أن المراد بالتقوى في الموضوعين مختلف فالأولى هي التقوى في أصل إتيان الأعمال، و الثانية هي التقوى في الأعمال المأتمية من حيث إصلاحها و إخلاصها.

و ظهر أيضا أن قول بعضهم: إن الأولى للتوبه عما مضى من الذنوب و الثانية لالتقاء المعاصي في المستقبل غير سديد و مثله ما قيل: إن الأولى في أداء الواجبات و الثانية في ترك المحرمات، و مثله ما قيل: إن الأمر الثاني لتأكيد الأمر الأول فحسب.

قوله تعالى: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ الْخ؛ النسيان

زوال صورته المعلوم عن النفس بعد حصولها فيها مع زوال مبدئه و يتوسع فيه مطلق على مطلق الإعراض عن الشيء بعدم ترتيب الأثر عليه قال تعالى: **وَ قِيلَ الْيَوْمَ نُنَسِّأُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَ مَاؤَاكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** (الجماعه ١٣٤).

و الآيه بحسب لب معناها كالتأكيد لمضمون الآيه السابقه كأنه قيل: قدموا ليوم الحساب و الجزاء عملا صالحا تحيى به أنفسكم و لا تنسوه. ثم لما كان سبب نسيان النفس نسيان الله تعالى إذ بنسيانه تعالى تنسى أسماؤه الحسنى و صفاته العليا التى ترتبط بها صفات الإنسان الذاتيه من الذله و الفقر و الحاجه فيتوهم الإنسان نفسه مستقله فى الوجود و يخيل اليه أن له لنفسه حياه و قدره و علما و سائر ما يترأى له من الكمال، و نظراؤه فى الاستقلال سائر الأسباب الكونيه الظاهريه تؤثر فيه و تتأثر عنه.

و عند ذلك يعتمد على نفسه و كان عليه أن يعتمد على ربه و يرجو و يخاف الأسباب الظاهريه و كان عليه أن يرجو و يخاف ربه، يطمئن الى غير ربه و كان عليه أن يطمئن الى ربه.

و بالجملة ينسى ربه و الرجوع اليه و يعرض عنه بالإقبال الى غيره، و يتفرع عليه أن ينسى نفسه فإن الذى يخيل اليه من نفسه أنه موجود مستقل الوجود يملك ما ظهر فيه من كمالات الوجود و اليه تدبير أمره مستمدا مما حوله من الأسباب الكونيه و ليس هذا هو الإنسان بل الإنسان موجود متعلق الوجود جهل كله عجز كله ذله كله فقر كله و هكذا، و ما له من الكمال كالوجود و العلم و القدره و العزه و الغنى و هكذا فلربه و الى ربه انتهاؤه و نظراؤه فى ذلك سائر الأسباب الكونيه.

و الحاصل لما كان سبب نسيان النفس نسيان الله تعالى حول النهى عن نسيان النفس فى الآيه الى النهى عن نسيانه تعالى لأن انقطاع المسبب بانقطاع سببه أبلغ و أكد، و لم يقنع بمجرد النهى الكلى عن نسيانه بأن يقال: ولا تنسوا الله فينسيكم أنفسكم بل جرى بمثل إعطاء الحكم بالمثال ليكون أبلغ فى التأثير و أقرب الى القبول فناهم أن يكونوا كالذين نسوا الله

مشيرا به الى من تقدم ذكرهم من يهود بنى النضير و بنى قينقاع و من حاله حالهم فى مشاقه الله و رسوله.

فقال: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ» ثم فرع عليه قوله: «فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ» تفریع المسبب على سببه ثم عقبه بقوله: «أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» فدل على أنهم فاسقون حقا خارجون عن زى العبودية.

و الآيه و إن كانت تنهى عن نسيانه تعالى المتفرع عليه نسيان النفس لكنها بورودها فى سياق الآيه السابقه تأمر بذكر الله و مراقبته.

فقد بان من جميع ما تقدم فى الآيتين أن الآيه الاولى تأمر بمحاسبه النفس و الثانيه تأمر بالذكر و المراقبه.

قوله تعالى: لا يَشِيءُ أَصْحَابُ النَّارِ وَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ قال الراغب: الفوز الظفر بالخير مع حصول السلامه، انتهى. و السياق يشهد بأن المراد بأصحاب النار هم الناسون لله و بأصحاب الجنه هم الذاكرون لله المراقبون.

و الآيه حجه تامه على وجوب اللحوق بالذاكرين لله المراقبين له دون الناسين، تقريرها أن هناك قبيلين لا- ثالث لهما و هما الذاكرون لله و الناسون له لا- بد للإنسان أن يلحق بأحدهما و ليسا بمساويين حتى يتساوى اللحوقان و لا يبالى الانسان بأيهما لحق؟ بل هناك راجح و مرجوح يجب اختيار الراجح على المرجوح و الرجحان لقبيل الذاكرين لأنهم الفائزون لا غير فالترجيح لجانبيهم فمن الواجب لكل نفس أن يختار اللحوق بقبيل الذاكرين.

قوله تعالى: لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَهُ خَاشِعًا مَّتَّصِدًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ الْخ؛ فى المجمع: التصدع التفرق بعد التلاؤم و مثله التفتط انتهى.

و الكلام مسوق سوق المثل مبنى على التخيل و الدليل عليه قوله فى ذيل الآيه: «و تَلِكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ» الْخ.

و المراد تعظيم أمر القرآن بما يشتمل عليه من حقائق المعارف و أصول الشرائع و العبر و المواعظ و الوعد و الوعيد و هو كلام الله العظيم، و المعنى: لو كان الجبل مما يجوز أن ينزل عليه القرآن فأنزلناه عليه لرأيته-مع ما فيه من الغلظه و القسوه و كبر الجسم و قوه المقاومه قبال النوازل-متأثرا متفرقا من خشيه الله فإذا كان هذا حال الجبل بما هو عليه فالإنسان أحق بأن يخشع لله إذا تلاه أو تلى عليه، و ما أعجب حال أهل المشاقه و العناد لا تلين قلوبهم له و لا يخشعون و لا يخشون.

□
و الالتفات من التكلم مع الغير الى الغيبه فى قوله: «مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ» للدلاله على عله الحكم فإنما يخشع و يتصدع الجبل بنزول القرآن لأنه كلام الله عز اسمه.

□
و قوله: وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَّاسٍ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ من وضع الحكم الكلى موضع الجزئى للدلاله على أن الحكم ليس ببدع فى مورده بل جار سار فى موارد اخرى كثيره.

□
فقوله: لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَخَسِبَ النَّاسُ أَن يَأْتِيَهُم بَأْتٍ مِّمَّنْ يَأْتِيهِمْ لَيُخَافُ مِنْهُ وَيُؤْتِنُ بِهِمْ وَمَا يَكْفُرُونَ إِلَّا بِالْحَقِّ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ لعلهم يرجعون من المعارف رجاء أن يتفكر فيه الناس فيتلقوا القرآن بما يليق به من التلقى و يتحققوا بما فيه من الحق الصريح و يهتدوا الى ما يهدى اليه من طريق العبوديه التى لا طريق الى كمالهم و سعادتهم وراءها، و من ذلك ما ذكر فى الآيات السابقه من المراقبه و المحاسبه.

□ □ □
قوله تعالى: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هذه الآيه و الآيتان بعدها و إن كانت مسوقه لتعداد قبيل من أسمائه تعالى الحسنى و الإشاره الى تسميته تعالى بكل اسم أحسن و تنزهه بشهاده ما فى السماوات و الأرض لكنها بانضمامها الى ما مرّ من الأمر بالذكر تفيد أن على الذاكرين أن يذكروه بأسمائه الحسنى فيعرفوا أنفسهم بما يقابلها من أسماء النقص، فافهم ذلك.

و بانضمامها الى الآيه السابقه و ما فيها من قوله: «مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ» تفيد تعليل خشوع الجبل و تصدّعه من خشيه الله كأنه قيل: و كيف لا و هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب و الشهاده، الى آخر الآيات.

و قوله: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يفيد الموصول و الصلّه معنى اسم من أسمائه و هو وحدانيته تعالى فى ألوهيته و معبوديته، و قد تقدم بعض ما يتعلق بالتهليل فى تفسير قوله تعالى: وَ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ (البقره ١٦٣).

و قوله: عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ الشهاده هى المشهود الحاضر عند المدرك و الغيب خلافها و هما معنيان إضافيان فمن الجائز أن يكون شىء شهاده بالنسبه الى شىء و غيبا بالنسبه الى آخر و يدور الأمر مدار نوع من الإحاطه بالشىء حسا أو خيالا أو عقلا أو وجودا و هو الشهاده و عدمها و هو الغيب، و كل ما فرض من غيب أو شهاده فهو من حيث هو محاط له تعالى معلوم فهو تعالى عالم الغيب و الشهاده و غيره لا علم له بالغيب لمحدوديه وجوده و عدم إحاطته إلا ما علمه تعالى كما قال: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ (الجن ٢٧)، و أما هو تعالى فغيب على الإطلاق لا سبيل الى الإحاطه به لشىء أصلا كما قال: «يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا» .

و قوله: هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ قد تقدم الكلام فى معنى الاسمين فى تفسير سوره الفاتحه.

قوله تعالى: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ السَّخِيءُ الْمَلِكُ هو المالك لتدبير أمر الناس و الحكم فيهم، و القدوس مبالغه فى القدس و هو النزاهه و الطهاره، و السلام من يلاقيك بالسلامه و العافيه من غير شرّ و ضرّ، و المؤمن الذى يعطى الأمن، و المهيمن الفائق المسيطر على الشىء.

و العزيز الغالب الذى لا يغلبه شىء أو من عنده ما عند غيره من غير عكس، و الجبال مبالغه من جبر الكسر أو الذى تنفذ إرادته و يجبر على ما يشاء، و المتكبر الذى تلبس بالكبرياء و ظهر بها.

و قوله: **سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ثناء عليه تعالى كما فى قوله: **وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ** (البقره ١١٦).

قوله تعالى: **هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ** الى آخر الآيه؛ الخالق هو الموجد للأشياء عن تقدير، و البارئ المنشئ للأشياء ممتازا بعضها من بعض، و المصور المعطى لها صوراً يمتاز بها بعضها من بعض، و الأسماء الثلاثة تتضمن معنى الإيجاد باعتبارات مختلفه و بينها ترتب فالتصوير فرع البرء و البرء فرع الخلق و هو ظاهر.

و إنما صدر الآيتين السابقتين بقوله: **«الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»** فوصف به «اللَّهُ» و عقبه بالأسماء بخلاف هذه الآيه إذ قال: **«هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ»** الخ.

لأن الأسماء الكريمة المذكوره فى الآيتين السابقتين و هى أحد عشر اسماً من لوازم الربوبية و مالكيه التدبير التى تتفرع عليها الالهيه و المعبوديه بالحق و هى على نحو الأصاله و الاستقلال لله سبحانه وحده لا شريك له فى ذلك فاتصافه تعالى وحده بها يستوجب اختصاص الالهيه و استحقاق المعبوديه به تعالى.

فالأسماء الكريمة بمنزله التعليل لاختصاص الالهيه به تعالى كأنه قيل لا- إله إلا- هو لأنه عالم الغيب و الشهاده هو الرحمن الرحيم، و لذا أيضاً ذيل هذه الأسماء بقوله ثناء عليه:

«سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ» ردا على القول بالشركاء كما يقوله المشركون.

و أما قوله: **هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ** فالمذكور فيه من الأسماء يفيد معنى الخلق و الإيجاد و اختصاص ذلك به تعالى لا يستوجب اختصاص الالهيه به كما يدل عليه أن الوثنيين قائلون باختصاص الخلق و الإيجاد به تعالى و هم مع ذلك يدعون من دونه

أربابا و آلهم و يثبتون له شركاء.

و أما وقوع اسم الجلاله فى صدر الآيات الثلاث جميعا فهو علم للذات المستجمع لجميع صفات الكمال يرتبط به و يجرى عليه جميع الأسماء و فى التكرار مزيد تأكيد و تثبيت للمطلوب.

و قوله: **لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** إشاره الى بقيه الأسماء الحسنى عن آخرها لكون الأسماء جمعا محلى باللام و هو يفيد العموم.

و قوله: **يُسَبِّحُ لَهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** أى جميع ما فى العالم من المخلوقات حتى نفس السماوات و الأرض و قد تقدم توضيح معنى الجمله مرارا.

ثم ختم الآيات بقوله: **«وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»** أى الغالب غير المغلوب الذى فعله متقن لا مجازفه فيه فلا يعجزه فيما شرعه و دعا اليه معصيه العاصين و لا مشاقه المعاندين و لا يضيع عنده طاعه المطيعين و أجر المحسنين.

و العناية الى ختم الكلام بالاسمين و الإشاره بذلك الى كون القرآن النازل من عنده كلام عزيز حكيم هو الذى دعا الى تكرار اسمه العزيز و ذكره مع الحكيم مع تقدم ذكره بين الأسماء.

و قد وصف القرآن أيضا بالعزه و الحكمه كما قال: **«وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ»** (حم السجده / ٤١)، و قال: **وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ** (يس ٢/٢) [\(١\)](#).

ص: ٢٧٣

١ - ١). الحشر ١٨-٢٤: بحث روائى فى: الغيب و الشهاده؛ صفات الله؛ محاسبه النفس؛ ذكر الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَتَّقُوكُمْ يُكَفِّرُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَنْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَالسِّيئَةَ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَخَدَّهٖ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَعْفِفَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦) عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُفَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِمُوا طَوْأَ إِلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُقْسِمِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَ ظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)

تذكر السوره موالاه المؤمنين لأعداء الله من الكفار و موادّتهم و تشدّد النهى عن ذلك

تفتتح به و تختتم و فيها شيء من أحكام النساء المهاجرات و بيعه المؤمنات، و كونها مدنيه ظاهره.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ الْخ؛ سياق الآيات يدل على أن بعض المؤمنين من المهاجرين كانوا يسرون المواده الى المشركين بمكة ليحموا بذلك من بقى من أرحامهم و أولادهم بمكة بعد خروجهم أنفسهم منها بالمهاجره الى المدينة فنزلت الآيات و نهاهم الله عن ذلك، و يتأيد بهذا ما ورد أن الآيات نزلت فى حاطب بن أبى بلتعه أسر كتابا الى المشركين بمكة يخبرهم فيه بعزم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم على الخروج إليها لفتحها، فعل ذلك ليكون يدا له عليهم يقى بها من كان بمكة من أرحامه و أولاده فأخبر الله بذلك نبيه صلى الله عليه و آله و سلم و نزلت، و ستوافيك قصته فى البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى.

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ الْعَدُوِّ مَعْرُوفٍ وَيُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالكَثِيرِ وَالْمُرَادُ فِي الْآيَةِ هُوَ الْكَثِيرُ بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ: «أَوْلِيَاءَ» وَ «إِلَيْهِمْ» وَ غَيْرِ ذَلِكَ، وَ هُمُ الْمُشْرِكُونَ بِمَكَّةَ، وَ كُونَهُمْ عَدُوَّهُ مِنْ جِهَةِ اتِّخَاذِهِمْ لَهُ شُرَكَاءَ يَعْبُدُونَهُمْ وَ لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَ يَرُدُّونَ دَعْوَتَهُ وَ يَكْذِبُونَ رَسُولَهُ، وَ كُونَهُمْ أَعْدَاءَ لِلْمُؤْمِنِينَ لِإِيمَانِهِمْ بِاللَّهِ وَ تَفْدِيَتِهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَ أَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِهِ فَمَنْ يَعَادِي اللَّهَ يَعَادِيهِمْ.

و ذكر عداوتهم للمؤمنين مع كفايه ذكر عداوتهم لله فى سوق النهى لتأكيد التحذير و المنع كأنه قيل: من كان عدوا لله فهو عدو لكم فلا تتخذوه وليا.

و قوله: تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ مفعول «تُلْقُونَ» و الباء زائده كما فى قوله:

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقره ١٩٥)، و المراد بإلقاء المودّه إظهارها أو إيصالها، و الجملة صفة أو حال من فاعل «لَا تَتَّخِذُوا».

و قوله: وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ هُوَ الدِّينَ الْحَقُّ الَّذِي يَصِفُهُ كِتَابُ اللَّهِ

و يدعو اليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و الجملة حالیه.

و قوله: يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ الجملة حالیه و المراد بإخراج الرسول و إخراجهم اضطرارهم الرسول و المؤمنين الى الخروج من مكة و المهاجرة الى المدينة، و «أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ» بتقدير اللام متعلق بيخرجون، و المعنى:

يجبرون الرسول و إياكم على المهاجرة من مكة لإيمانكم بالله ربكم.

و توصيف الله بقوله: «رَبُّكُمْ» للإشارة الى أنه يؤاخذونهم على أمر حق مفروض ليس بجرم فإن إيمان الإنسان بربه مفروض عليه و ليس من الجرم فى شىء.

و قوله: إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي متعلق بقوله: «لَا تَتَّخِذُوا» و جزاء الشرط محذوف يدل عليه المتعلق، و «جِهَادًا» مصدر مفعول له، و «ابْتِغَاءًا» بمعنى الطلب و «مَرْضَاتِي» مصدر كالرضى، و المعنى: لا تتخذوا عدوى و عدوكم أولياء إن كنتم هاجرتم للمجاهدة فى سبيلى و لطلب رضى.

و تقييد النهى عن ولائهم و اشتراطه بخروجهم للجهاد و ابتغائهم مرضاته من باب اشتراط الحكم بأمر محقق الوقوع تأكيدا له و إيذانا بالملازمة بين الشرط و الحكم مقول الوالد لولده: إن كنت ولدى فلا تفعل كذا.

و قوله: تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ أَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ أُسْرَتِ إِلَيْهِ حَدِيثًا أَى أَفْضَيْتِ إِلَيْهِ فِى خَفِيهِ فَمَعْنَى «تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ» تطلعونهم على ما تسرون من مودتهم-على ما قاله الراغب-و الإعلان خلاف الإخفاء، و «أَنَا أَعْلَمُ» الخ؛ حال من فاعل «تُسِرُّونَ» و «أَعْلَمُ» اسم تفضيل، و احتمال بعضهم أن يكون فعل المتكلم وحده من المضارع متعديا بالباء لأن العلم ربما يتعدى بها.

و جملة «تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ» الخ؛ استئناف بيانيه كأنه قيل بعد استماع النهى السابق: ما ذا فعلنا فاجيب: تطلعونهم سرا على مودتكم لهم و أنا أعلم بما أخفيتم و ما أظهرتم أى أنا أعلم بقولكم

و فعلكم علما يستوى بالنسبه اليه إخفاؤكم و إظهاركم.

و منه يعلم أن قوله: «بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ» معا يفيدان معنى واحدا و هو استواء الإخفاء و الإعلان عنده تعالى لإحاطته بما ظهر و ما باطن فلا يرد أن ذكر «بِمَا أَخْفَيْتُمْ» يعنى عن ذكر «مَا أَعْلَنْتُمْ» لأن العالم بما خفى عالم بما ظهر بطريق أولى.

و قوله: «وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ» الإشاره بذلك الى أسرار الموده اليهم و هو الموالاه، و «سَوَاءَ السَّبِيلِ» من إضافه الصفه الى الموصوف أى السبيل السوى و الطريق المستقيم و هو مفعول «ضَلَّ» أو منصوب بنزع الخافض و التقدير فقد ضل عن سواء السبيل، و السبيل سبيل الله تعالى.

قوله تعالى: «إِنْ يَتَّقُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً» الخ؛ قال الراغب: الثقف-بالفتح فالسكون-الحذق فى إدراك الشىء و فعله. قال: و يقال: ثقفت كذا إذا أدركته ببصرك لحذق فى النظر ثم يتجاوز به فيستعمل فى الإدراك و إن لم يكن معه ثقافه. انتهى. و فسره غيره بالظفر و لعله بمعونه مناسبه المقام، و المعنيان متقاربان.

و الآيه مسوقه لبيان أنه لا ينفعهم الإسرار بالموده للمشركين فى جلب محبتهم و رفع عداوتهم شيئا و أن المشركين على الرغم من إلقاء الموده اليهم إن يدركوهم و يظفروا بهم يكونوا لهم أعداء من دون أن يتغير ما فى قلوبهم من العداوه.

و قوله: «وَيَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَ أَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ» بمنزله عطف التفسير لقوله: «يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً» و بسط الأيدى بالسوء كناية عن القتل و السبى و سائر أنحاء التعذيب و بسط الألسن بالسوء كناية عن السب و الشتم.

و الظاهر أن قوله: «وَ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ» عطف على الجزاء و الماضى بمعنى المستقبل كما يقتضيه الشرط و الجزاء، و المعنى: أنهم يبسطون اليكم الأيدى و الألسن بالسوء و يودون بذلك لو تكفرون كما كانوا يفتنون المؤمنين بمكته و يعذبونهم يودون بذلك أن يرتدوا عن

دينهم. والله أعلم.

قوله تعالى: لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ دفع لما ربما يمكن أن يتوهم عذرا لإلقاء الموده اليهم أن فى ذلك صيانه لأرحامهم و أولادهم الذين تركوهم بمكه بين المشركين من أذاهم.

و الجواب أن أمامكم يوما تجازون فيه على معصيتكم و طالح عملكم و منه موالاه الكفار و لا- ينفعكم اليوم أرحامكم و لا أولادكم الذين قدمتم صيانتهم من أذى الكفار على صيانه أنفسكم من عذاب الله بترك موالاه الكفار.

و قوله: يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ أَي يفصل الله يوم القيامة بينكم بتقطع الأسباب الدنيويه كما قال تعالى: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ (المؤمنون ١٠١/)، و ذلك أن القرابه و هى انتهاء إنسانين أو أكثر الى رحم واحده إنما تؤثر آثارها من الرحمه و الموده و الالفه و المعاونه و المعاضده و العصبية و الخدمه و غير ذلك من الآثار فى ظرف الحياه الاجتماعيه التى تسوق الإنسان اليه حاجته إليها بالطبع بحسب الآراء و العقائد الاعتباريه التى أوجدها فيه فهمه الاجتماعى، و لا خبر عن هذه الآراء فى الخارج عن طرف الحياه الاجتماعيه.

و إذا برزت الحقائق و ارتفع الحجاب و انكشف الغطاء يوم القيامة ضلت عن الإنسان هذه الآراء و المزاعم و انقطعت روابط الاستقلال بين الأسباب و مسبباتها كما قال تعالى: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (الأنعام ٩٤/)، و قال: وَ رَأُوا الْعَذَابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (البقره ١٦٦/).

فيومئذ تتقطع رابطة الأنساب و لا- ينتفع ذو قرابه من قرابته شيئا فلا- ينبغى للإنسان أن يخون الله و رسوله بموالاه أعداء الدين لأجل أرحامه و أولاده فليسوا يغنونه عن الله يومئذ.

و قوله: وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ متمم لقوله: «لَنْ تَنْفَعَكُمْ» كالمؤكد له و المعنى:

لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة في رفع تبعه هذه الخيانه و أمثالها و الله بما تعملون بصير لا يخفى عليه ما هي هذه الخيانه فيؤاخذكم عليها لا محاله.

قوله تعالى: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ و الخطاب للمؤمنين، و الاسوه الاتباع و الاقتداء، و في قوله: «وَالَّذِينَ مَعَهُ» بظاهره دلالة على أنه كان معه من آمن به غير زوجته و لوط.

و قوله: إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَي إِنَّا بريئون منكم و من أصنامكم بيان لما فيه الاسطوره و الاقتداء.

و قوله: كَفَرْنَا بِكُمْ وَ بَدَا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ الْعِدَاوَةُ وَ الْبَغْضَاءُ أَيِدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحِيدَهُ ببيان لمعنى البراءه بأثرها و هو الكفر بهم و عداوتهم ما داموا مشركين حتى يوحداوا الله سبحانه.

و المراد بالكفر بهم الكفر بشركهم بدليل قوله: «حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحِيدَهُ»، و الكفر بشركهم مخالفتهم فيه عملا كما أن العداوه بينونه و مخالفه قلبا.

فقد فسروا براءتهم منهم بامور ثلاثه: مخالفتهم لشركهم عملا، و العداوه و البغضاء بينهم قلبا، و استمرار ذلك ما داموا على شركهم إلا أن يؤمنوا بالله وحده.

و قوله: إِذَا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَ مَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، استثناء مما تدل عليه الجمل المتقدمه أن إبراهيم و الذين معه تبرءوا من قومهم المشركين قولا مطلقا. و قطعوا أى رابطه تربطهم بالقوم و تصل بينهم إلا ما قال إبراهيم لأبيه: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ» الخ.

و لم يكن قوله: لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ توليا منه بل وعدا وعده إياه رجاء أن يتوب عن الشرك و يؤمن بالله وحده كما يدل عليه قوله تعالى: وَ مَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدِهِ وَعَدَاهَا إِنِّي أَتَّبِعُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ (التوبه ١١٤)، حيث يفيد أنه عليه السلام

إنما وعده لأنه لم يتبين له بعد أنه عدو لله راسخ في عداوته ثابت في شره فكان يرجو أن يرجع عن شره ويطمع في أن يتوب و يؤمن فلما تبين له رسوخ عداوته و يئس من إيمانه تبرأ منه.

على أن قوله تعالى في قصه محاجته أباه في سورة مريم: قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَرْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ (مريم ٤٨)، يتضمن وعده أباه بالاستغفار وإخباره بالاعتزال ولو كان وعده الاستغفار توليا منه لأبيه لكان من الحرى أن يقول: وأعتزل القوم، لا أن يقول: وأعتزلكم فيدخل أباه فيمن يعتزلهم وليس الاعتزال إلا التبري.

فالاستثناء استثناء متصل من أنهم لم يكلموا قومهم إلا بالتبري والمحصل من المعنى: أنهم إنما ألقوا إليهم القول بالتبري إلا قول إبراهيم لأبيه: لأستغفرن لك فلم يكن تبريا ولا توليا بل وعدا وعده أباه رجاء أن يؤمن بالله.

و هاهنا شيء وهو أن مؤدى آية التوبة «فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ» أن تبريه الجازم إنما كان بعد الوعد و بعد تبين عداوته لله، وقوله تعالى في الآية التي نحن فيها: «إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ» إخبار عن تبريهم الجازم القاطع فيكون ما وقع في الاستثناء من قول إبراهيم لأبيه وعدا واقعا قبل تبريه الجازم و من غير جنس المستثنى منه فيكون الاستثناء منقطعا لا متصلا.

و على تقدير كون الاستثناء منقطعا يجوز أن يكون الاستثناء من قوله: «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ» بما أنه مقيد بقوله: «إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ»، و المعنى: قد كان لكم اقتداء حسن بتبري إبراهيم و الذين معه من قومهم إلا أن إبراهيم قال لأبيه كذا و كذا وعدا.

و أما على تقدير كون الاستثناء متصلا فالوجه ما تقدم، و أما كون المستثنى منه هو قوله:

«قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ»، و المعنى: لكم في إبراهيم أسوه في جميع خصاله إلا في

قوله لأبيه: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ» فلا أسوه فيه.

ففيه أن قوله: «لَكُمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ» الخ؛ غير مسوق لإيجاب التأسي بإبراهيم عليه السلام في جميع خصاله حتى يكون الوعد بالاستغفار أو نفس الاستغفار—وذلك من خصاله—مستثنى منها بل إنما سيق لإيجاب التأسي به في تبريه من قومه المشركين، و الوعد بالاستغفار رجاء للتوبه و الإيمان ليس من التبرى و إن كان ليس توليا أيضا.

و قوله: «وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ» تتمه قول إبراهيم عليه السلام، و هو بيان لحقيقه الأمر من أن سؤاله المغفره و طلبها من الله ليس من نوع الطلب الذى يملك فيه الطالب من المطلوب منه ما يطلبه، و إنما هو سؤال يدعو اليه فقر العبوديه و ذلتها قبال غنى الربوبيه و عزتها فله تعالى أن يقبل بوجهه الكريم فيستجيب و يرحم، و له أن يعرض و يمسك الرحمه فإنه لا يملك أحد منه تعالى شيئا و هو المالك لكل شىء، قال تعالى: «قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» (المائدة ١٧).

و بالجملة قوله: «وَمَا أَمْلِكُ الخ؛ نوع اعتراف بالعجز استدراكا لما يستشعر من قوله:

«لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ» من شائبه إثبات القدره لنفسه نظير قول شعيب عليه السلام «وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ» استدراكا لما يشعر به قوله لقومه: «إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ» (هود ٨٨)، من إثبات القوه و الاستطاعه لنفسه بالأصاله و الاستقلال.

و قوله: «رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» الخ؛ من تمام القول المنقول عن إبراهيم و الذين معه المندوب الى التأسي بهم فيه، و هو دعاء منهم لربهم و ابتهاج اليه إثر ما تبرءوا من قومهم ذاك التبرى العنيف ليحفظهم من تبعاته و يغفر لهم فلا يخيبهم فى إيمانهم.

و قد افتتحوا دعاءهم بتقديمه يذكرون فيها حالهم فيما هم فيه من التبرى من أعداء الله فقالوا: «رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا» يعنون به أننا كنا فى موقف من الحياه تتمكن فيه أنفسنا

و ندبر فيه امورنا أما أنفسنا فأنبنا و رجعنا بها اليك و هو الإنابه، و أما امورنا التي كان علينا تدبيرها فتركناها لك و جعلنا مشيتك مكان مشيتنا فأنت و كيلنا فيها تدبيرها بما تشاء و كيف تشاء و هو التوكل.

ثم قالوا: «وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» يعنون به أن مصير كل شيء من فعل أو فاعل فعل اليك فقد جرينا في توكلنا عليك و إنابتنا اليك مجرى ما عليه حقيقه الأمر من مصير كل شيء اليك حيث هاجرنا بأنفسنا اليك و تركنا تدبير امورنا لك.

و قوله: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ اغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا متن دعائهم يسألونه تعالى أن يعيدهم من تبعه تبريهم من الكفار و يغفر لهم.

و الفتنه ما يمتحن به، و المراد بجعلهم فتنه للذين كفروا تسليط الكفار عليهم ليمتحنهم فيخرجوا ما في وسعهم من الفساد فيؤذوهم بأنواع الأذى أن آمنوا بالله و رفضوا آلهتهم و تبرءوا منهم و مما يعبدون.

و قد كثر روا نداءه تعالى-ربنا- في دعائهم مره بعد مره لإثاره الرحمه الإلهيه.

و قوله: إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أى غالب غير مغلوب متقن لأفعاله لا يعجز أن يستجيب دعاءهم فيحفظهم من كيد أعدائه و يعلم بأى طريق يحفظ.

قوله تعالى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ الخ؛ تكرار حديث الاسوه لتأكيد الإيجاب و لبيان أن هذه الاسوه لمن كان يرجو الله و اليوم الآخر، و أيضا أنهم كما يتأسى بهم فى تبريهم من الكفار كذلك يتأسى بهم فى دعائهم و ابتهاهم.

و الظاهر أن المراد برجائه تعالى رجاء ثوابه بالإيمان به و برجاء اليوم الآخر رجاء ما وعد الله و أعد للمؤمنين من الثواب، و هو كناية عن الإيمان.

و قوله: وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ استغناء منه تعالى عن

امثالهم لأمره بتبريهم من الكفار و أنهم هم المنتفعون بذلك و الله سبحانه غنى فى ذاته عنهم و عن طاعتهم حميد فيما يأمرهم و ينهاهم إذ ليس فى ذلك إلا صلاح حالهم و سعادته حياتهم.

قوله تعالى: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَ اللَّهُ قَدِيرٌ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ضَمِير «مِنْهُمْ» للكفار الذين أمروا بمعاداتهم و هم كفار مكة، و المراد بجعل المودة بين المؤمنين و بينهم جعلها بتوفيقهم للاسلام كما وقع ذلك لما فتح الله لهم مكة، و ليس المراد به نسخ حكم المعاداة و التبرى.

و المعنى: مرجو من الله أن يجعل بينكم معشر المؤمنين و بين الذين عاديتهم من الكفار و هم كفار مكة موده بتوفيقهم للاسلام فتقلب المعاداة موده و الله قدير و الله غفور لذنوب عباده رحيم بهم إذا تابوا و أسلموا فعلى المؤمنين أن يرجوا من الله أن يبدل معاداتهم موده بقدرته و مغفرته و رحمته.

قوله تعالى: لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ الْخ؛ فى هذه الآيه و التى تتلوها توضيح للنهى الوارد فى أول السوره، و المراد بالذين لم يقاتلوا المؤمنين فى الدين و لم يخرجوهم غير أهل مكة ممن لم يقاتلوهم و لم يخرجوهم من ديارهم من المشركين من أهل المعاهده، و البر و الإحسان، و الإقساط المعامله بالعدل، و «أَنْ تَبَرُّوهُمْ» بدل من «الَّذِينَ» الْخ؛ و قوله: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» تعليل لقوله: «لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ» الْخ.

و المعنى: لا ينهاكم الله بقوله: «لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ» عن أن تحسنوا و تعاملوا بالعدل الذين لم يقاتلوكم فى الدين و لم يخرجوكم من دياركم لأن ذلك منكم إقساط و الله يحب المقسطين.

قيل: إن الآيه منسوخه بقوله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ (التوبه ٥/٥)، و فيه أن

الآية التي نحن فيها لا تشمل بإطلاقها إلا أهل الذمه و أهل المعاهده و أما أهل الحرب فلا، و آيه التوبه إنما تشمل أهل الحرب من المشركين دون أهل المعاهده فكيف تنسخ ما لا يزاحمها فى الدلاله.

قوله تعالى: **إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ** الخ؛ المراد بالذين قاتلوكم، الخ؛ مشركوا مكه، و المظاهره على الإخراج المعاونه و المعاضده عليه، و قوله: **«أَنْ تَوَلَّوهُمْ»** بدل من **«الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ»** الخ.

و قوله: **وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيَكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** قصر أفراد أى المتولون لمشركى مكه و من ظاهرهم على المسلمين هم الظالمون المتمردون عن النهى دون مطلق المتولين للكفار أو تأكيد للنهى عن توليهم (١).

[سوره الممتحنه (٦٠): الآيات ١٠ الى ١٣]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مِنْ أَجْرَاتٍ فَمَا تَحْنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَسْفَلُ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمُ أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَلَّيْتُمْ فَمَا تَوَالَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبِيغِينَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَلْيَبِغْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُؤُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَسُؤُا الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣)

ص: ٢٨٥

١- ١). الممتحنه ١-٩: بحث روائى حول قوله تعالى: **«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ»**؛ قوله تعالى: **«اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ»**؛ الحب فى الله و البغض فى الله.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ الْآيَةَ؛ سياق الآية يعطى أنها نزلت بعد صلح الحديبية، و كان فى العهد المكتوب بين النبى صلى الله عليه وآله وسلم وبين أهل مكة أنه إن لحق من أهل مكة رجل بالمسلمين ردّوه اليهم وإن لحق من المسلمين رجل بأهل مكة لم يردّوه اليهم ثم إن بعض نساء المشركين أسلمت وهاجرت الى المدينة فجاء زوجها يستردّها فسأل النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن يردّها اليه فأجابه النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن الذى شرطوه فى العهد ردّ الرجال دون النساء و لم يردّها اليهم و أعطاه ما أنفق عليها من المهر و هو الذى تدل عليه الآية مع ما يناسب ذلك من أحكامهن.

فقوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ سَمَّاهُنَّ

مؤمنات قبل امتحانهم و العلم بإيمانهم لتظاهروا بذلك.

و قوله: فَأَمَّا جُنُوهُنَّ أَي اختبروا إيمانهم بما يظهر به ذلك من شهادته و حلف يفيد العلم و الوثوق، و فى قوله: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ» إشاره الى أنه يجزى فى ذلك العلم العادى و الوثوق دون اليقين بحقيقه الإيمان الذى هو تعالى أعلم به علما لا يتخلف عنه معلومه.

و قوله: فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ذكروهم بوصف الإيمان للاشاره الى أنه السبب للحكم و انقطاع علقه الزوجيه بين المؤمنه و الكافر.

و قوله: لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ مجموع الجملتين كناية عن انقطاع علقه الزوجيه، و ليس من توجيه الحرمة اليهن و اليهم فى شىء.

و قوله: وَآتَوْهُمْ مَا أَنْفَقُوا أَي أعطوا الزوج الكافر ما أنفق عليها من المهر.

و قوله: وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ رفع المانع من نكاح المؤمنات المهاجرات إذا أوتين أجورهن و الأجر المهر.

و قوله: وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُفَّارِ العصم جمع عصمه و هى النكاح الدائم يعصم المرأة و يحصنها، و إمساك العصمه إبقاء الرجل -بعد ما أسلم- زوجته الكافره على زوجيتها فعليه بعد ما أسلم أن يخلى عن سبيل زوجته الكافره سواء كانت مشرکه أو كتابيه.

و قد تقدم فى تفسير قوله: وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَنَّ (البقره ٢٢١/)، و قوله:

و الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ (المائده ٥/)، أن لا نسخ بين الآيتين و بين الآيه التى نحن فيها.

و قوله: وَ سَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَ لَيْسَ لَكُمْ مَا أَنْفَقُوا ضمير الجمع فى «و سَأَلُوا» للمؤمنين و فى «لَيْسَ لَكُمْ» للكفار أى إن لحقت امرأه منكم بالكفار فاسألوهما ما أنفقتم لها من مهر و لهم أن يسألوا مهر من لحقت بكم من نسائكم.

ثم تمم الآيه بالإشاره الى ما تضمنته الآيه حكم الله الذى شرع لهم فقال: «ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ

يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

قوله تعالى: وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا الخ؛ قال الراغب: الفوت بعد الشيء عن الإنسان بحيث يتعذر إدراكه، قال تعالى: (وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ) .

انتهى. وفسر المعاقبه و العقاب بمعنى الوصول و الانتهاء الى عقبى الشيء، و المراد عاقبتهم من الكفار أى أصبتم منهم غنيمه و هى عقبى الغزو، و قيل: عاقب بمعنى عَقَّب، و قيل: عاقب مأخوذ من العقبه بمعنى النوبه.

و الأقرب أن يكون المراد بالشيء المهر و «مِنْ» فى «مِنْ أَزْوَاجِكُمْ» لابتداء الغايه و «إِلَى الْكُفَّارِ» متعلق بقوله: «فَاتَكُمْ» و المراد بالذين ذهب أزواجهم، بعض المؤمنين و اليهم يعود ضمير «أَنْفَقُوا» .

و المعنى: و إن ذهب و انفلت منكم الى الكفار مهر من أزواجكم بلحوقهن بهم و عدم ردهم ما أنفقتهم من المهر اليكم فأصبتم منهم بالغزو غنيمه فأعطوا المؤمنين الذين ذهب أزواجهم اليهم مما أصبتم من الغنيمه مثل ما أنفقوا من المهر.

و فسرت الآيه بوجوه اخرى بعيده عن الفهم أغمضنا عنها.

و قوله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ أمر بالتقوى، و توصيفه تعالى بالموصول و الصله لتعليل الحكم فإن مقتضى الإيمان بالله تقواه.

و قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ الخ؛ تتضمن الآيه حكم يبيع النساء المؤمنات للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و قد شرطت عليهن فى «عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ» الخ؛ أمورا منها ما هو مشترك بين الصنفين: الرجال و النساء كالتحرز من الشرك و من معصيه الرسول فى معروف و منا ما هو أمس بهن من حيث أن تدبير المنزل بحسب الطبع اليهن و هن السبيل الى حفظ عفه البيت و الحصول على الأنسال و طهاره مواليدهم، و هى التجنب من

السرقه و الزنا و قتل الأولاد و إلحاق غير أولاد أزواجهن بهم، و إن كانت هذه الامور بوجه من المشتركات.

فقوله: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّكَ شَرْطُ جَوَابِهِ قَوْلُهُ:

﴿فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ﴾.

و قوله: عَلَيَّ أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا أَى مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ وَالْأَرْبَابِ، وَ هَذَا شَرْطٌ لَا غِنَى عَنْهُ لِإِنْسَانٍ فِي حَالٍ.

و قوله: وَلَا يَشِيرِقَنَّ أَى لَا مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ وَ خَاصَهُ مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ كَمَا يَفِيدُهُ السِّيَاقُ، وَ قَوْلُهُ: «وَلَا يَزْنِينَ» أَى بِاتِّخَاذِ الْأَخْدَانِ وَ غَيْرِ ذَلِكَ وَ قَوْلُهُ: «وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ» بِالْوَادِ وَ غَيْرِهِ وَ إِسْقَاطِ الْأَجْنَةِ.

و قوله: وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَ ذَلِكَ بِأَنْ يَحْمِلْنَ مِنَ الزَّوْنِ ثُمَّ يَضَعْنَهُ وَ يَنْسِبْنَهُ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ فَالْحَاقِهِنَّ الْوَلَدَ كَذَلِكَ بِأَزْوَاجِهِنَّ وَ نَسَبَهُ إِلَيْهِنَّ كَذَبًا بِهْتَانٍ يَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَّ لِأَنَّ الْوَلَدَ إِذَا وَضَعَتْهُ أُمُّهُ سَقَطَ بَيْنَ يَدَيْهَا وَ رِجْلَيْهَا، وَ لَا يَغْنَى عَنْ هَذَا الشَّرْطِ شَرْطُ الْاجْتِنَابِ عَنِ الزَّوْنِ لِأَنَّهُمَا مُتَغَايِرَانِ وَ كُلٌّ مُسْتَقِلٌّ بِالنَّهْيِ وَ التَّحْرِيمِ.

و قوله: وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ نَسَبِ الْمَعْصِيَةِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ دُونَ اللَّهِ مَعَ أَنَّهَا تَنْتَهَى إِلَيْهِ تَعَالَى لِأَنَّ الْمُرَادَ أَنْ لَا يَتَخَلَّفَنَّ بِالْمَعْصِيَةِ عَنِ السُّنَنِ الَّتِي يَسْتَنْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ يَنْفِذُهَا فِي الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ فَيَكُونُ مَا سُنَّهُ هُوَ الْمَعْرُوفُ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ وَ فِي الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ.

وَ مِنْ هُنَا يَظْهَرُ أَنَّ الْمَعْصِيَةَ فِي الْمَعْرُوفِ أَعْمٌ مِنْ تَرْكِ الْمَعْرُوفِ كَتَرْكِ الصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ وَ فِعْلِ الْمُنْكَرِ كَتَبْرِجِّهِنَّ تَبْرِجِ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى.

وَ فِي قَوْلِهِ: إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ بَيَانٌ لِمَقْتَضَى الْمَغْفَرَةِ وَ تَقْوِيهِ لِلرَّجَاءِ.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الخ؛ المراد بهم اليهود المغضوب عليهم وقد تكرر في كلامه تعالى فيهم ﴿وَبَاؤُ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ (البقره ١٦١)، ويشهد بذلك ذيل الآية فإن الظاهر أن المراد بالقوم غير الكفار.

وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الخ؛ المراد بالكفار الكافرون بالله المنكرون للبعث، وقيل: المراد مشركوا مكة واللام للعهد، و«مِنَ» في «مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ» لا ابتداء الغايه.

والجمله بيان لشقائهم الخالد و هلاكهم المؤبد ليحذر المؤمنون من موالاتهم و موادتهم و الاختلاط بهم و المعنى: قد يئس اليهود من ثواب الآخرة كما يئس منكرو البعث من الموتى المدفونين في القبور.

وقيل: المراد بالكفار الذين يدفنون الموتى و يوارونهم في الأرض -من الكفر بمعنى الستر-.

وقيل: المراد بهم كفار الموتى و «مِنَ» بيانيه و المعنى: يسألكم عن ثواب الآخرة كما يسأل الكفار المدفونون في القبور منه لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ (البقره ١٦١) (١).

ص: ٢٩٠

١ - ١). الممتحنه ١٠-١٣: بحث روائى فى: المؤمنات المهاجرات من دار الكفر الى دار الاسلام؛ كيفيه بيعه النساء مع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صِيْفًا كَانَتْهُمْ يُبَيِّنُ
مَرْصُوصٌ (٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ مَا قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ مُبَشِّرًا
بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُوَ
يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ
الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩)

السوره ترغّب المؤمنين و تحرّضهم على أن يجاهدوا فى سبيل الله و يقاتلوا أعداء دينه، و تتبئهم أن هذا الدين نور ساطع لله سبحانه يريد الكفار من أهل الكتاب أن يطفئوه بأفواههم و الله متمّه و لو كره الكافرون، و مظهره على الدين كله و لو كره المشركون.

و أن هذا النبى الذى آمنوا به رسول من الله أرسله بالهدى و دين الحق، و بشر به عيسى بن مريم عليهما السلام بنى إسرائيل. فعلى المؤمنين أن يشدّوا العزم على طاعته و امتثال ما يأمرهم به من الجهاد و نصره الله فى دينه حتى يسعدهم الله فى آخرتهم و ينصرهم و يفتح لهم فى دنياهم و يؤيدهم على أعدائهم. و عليهم أن لا يقولوا ما لا يفعلون و لا ينكصوا فيما يعدون فإن ذلك يستوجب مقتا من الله تعالى و إيذاء الرسول و فيه خطر أن يزيغ الله قلوبهم كما فعل بقوم موسى عليه السلام لما آذوه و هم يعلمون أنه رسول الله اليهم و الله لا يهدى القوم الظالمين.

و السوره مدنيه بشهاده سياق آياتها.

قوله تعالى: سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ تقدم تفسيره، و افتتاح الكلام بالتسيح لما فيها من توبيخ المؤمنين بقولهم ما لا يفعلون و إنذارهم بمقت الله و إزاعته قلوب الفاسقين.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ «لِمَ» مخفف لما، و «مَا» استفهاميه، و اللام للتعليل، و الكلام مسوق للتوبيخ ففيه توبيخ المؤمنين على قولهم ما لا يفعلون و لا يصغى الى قول بعض المفسرين: أن المراد بالذين آمنوا هم المنافقون و التوبيخ لهم دون المؤمنين لجلاله قدرهم.

و ذلك لوفور الآيات المتضمنه لتوبيخهم و معاتبتهم و خاصه فى الآيات النازله فى الغزوات و ما يلحق بها كاحد و الأحزاب و حنين و صلح و الحديدية و تبوك و الإنفاق فى سبيل الله و غير ذلك، و الصالحون من هؤلاء المؤمنين إنما صلحوا نفسا و جلّوا قدرا بالثريه الإلهيه التى تتضمنها أمثال هذه التوبيخات و العتابات المتوجهه اليهم تدريجا و لم يتصفوا بذلك من عند أنفسهم.

و مورد التوبيخ و إن كان بحسب ظاهر لفظ الآيه مطلق تخلف الفعل عن القول و خلف الوعد و نقض العهد و هو كذلك لكونه من آثار مخالفه الظاهر للباطن و هو النفاق لكن سياق الآيات و فيها قوله: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صِفًا و ما سأتى من قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُجَارُهُ الْخ؛ و غير ذلك يفيد أن متعلق التوبيخ كان هو تخلف بعضهم عما وعده من الثبات فى القتال و عدم الانهزام و الفرار أو ثقلمهم أو تخلفهم عن الخروج أو عدم الإنفاق فى تجهز أنفسهم أو تجهيز غيرهم.

قوله تعالى: كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ المقت البغض الشديد، و الآيه فى مقام التعليل لمضمون الآيه السابقه فهو تعالى يبغض من الإنسان أن يقول

ما لا- يفعله لأنه من النفاق، و أن يقول الإنسان ما لا يفعله غير أن لا يفعل ما يقوله فالأول من النفاق و الثاني من ضعف الإرادة و رهن العزم و هو رذيله منافيه لسعاده النفس الإنسانيه فإن الله بنى سعاده النفس الإنسانيه على فعل الخير و اكتساب الحسنه من طريق الاختيار و مفتاحه العزم و الإراده، و لا- تأثير إلا للراسخ من العزم و الإراده، و تخلف الفعل عن القول معلول و هن العزم و ضعف الإراده و لا يرجي للانسان مع ذلك خير و لا سعاده.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صِيًّا كَأَنَّهُمْ بُيُوتٌ مَّرصُوصَةٌ جَعَلَ الْأَشْيَاءَ عَلَى خَطِّ مَسْتَوٍ كَالنَّاسِ وَالْأَشْجَارِ. كذا قاله الراغب، و هو مصدر بمعنى اسم الفاعل و لذا لم يجمع، و هو حال من ضمير الفاعل في «يُقَاتِلُونَ»، و المعنى: «يقاتلون في سبيله حال كونهم صافين».

و البنيان هو البناء، و المرصوص من الرصاص، و المراد به ما أحكم من البناء بالرصاص فيقاوم ما يصادمه من أسباب الانهدام.

و الآيه تعلق بخصوص المورد- و هو أن يعدوا الثبات في القتال ثم ينهزموا- بالالتزام كما أن الآيه السابقه تعلق التوييخ على مطلق أن يقولوا ما لا يفعلون، و ذلك أن الله سبحانه إذا أحبّ الذين يقاتلون فيلزمون مكانهم و لا يزولون كان لازمه أن يبغض الذين يعدون أن يثبتوا ثم ينهزمون إذا حضروا معركة القتال.

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَأْتُونََنِي وَ قَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ الخ؛ في الآيه إشاره الى إيذاء بنى اسرائيل رسولهم موسى عليه السلام و لجاجهم حتى آل الى إزاعه الله قلوبهم. و في ذلك نهى التزامي للمؤمنين عن أن يؤذوا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فيقول أمرهم الى ما آل اليه أمر قوم موسى من إزاعه القلوب و قد قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (الأحزاب / ٥٧).

وَالْآيَةَ بِمَا فِيهَا مِنَ النِّهْيِ الْإِلْتِرَامِي فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (الأحزاب / ٧٠).

و سياق الآيتين و ذكر تبرئه موسى عليه السلام يدل على أن المراد بإيذائه بما برّاه الله منه ليس معصيتهم لأوامره و خروجهم عن طاعته إذ لا معنى حينئذ لتبرئته بل هو أنهم وقعوا فيه عليه السلام و قالوا فيه ما فيه عار و شين فتأذى ببرّاه الله مما قالوا و نسبوا إليه، و قوله في الآية التالية:

«اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا» يؤيد هذا الذي ذكرناه.

و يؤيد ذلك إشارته تعالى الى بعض مصاديق إيذاء النبي صلى الله عليه و آله و سلم بقول أو فعل في قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاءً وَ لَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ -الى أن قال- وَ إِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ -الى أن قال- وَ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَ لَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (الأحزاب / ٥٣).

فتحصّل أن في قوله: «وَ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ» الخ؛ تلويحا الى النهي عن إيذاء النبي صلى الله عليه و آله و سلم بقول أو فعل على علم بذلك كما أن في ذيل الآية تخويفا و إنذارا أنه فسق ربما أدى الى إزاعته تعالى قلب من تلبس به.

و قوله: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ الزيف الميل عن الاستقامه و لآزمه الانحراف عن الحق الى الباطل.

و إزاعته تعالى إمساك رحمته و قطع هدايته عنهم كما يفيدته التعليل بقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» حيث علل الإزاعه بعدم الهدايه، و هي إزاعه على سبيل المجازاه و تثبيت للزيف الذي تلبسوا به أولا- بسبب فسقهم المستدعى للمجازاه كما قال تعالى: يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا

وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦)، و ليس يازاغه بدئيه و إضلال ابتدائي لا يليق بساحه قدسه تعالى.

و أما قوله: «إن الكلام يخرج بذلك عن الفائدة» فيدفعه أن الذي ينسب من الزيف الى العبد و يحصل معه الكفر تحقق ما له بالفسق و الذي ينسب اليه تعالى تثبيت الزيف في قلب العبد و الطبع عليه به فزيف العبد عن الإيمان بسبب فسقه و حصول الكفر بذلك لا يغني عن تثبيت الله الزيف و الكفر في قلبه على سبيل المجازاه.

قوله تعالى: «وَ إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ تُقَدِّمُ فِي صَدْرِ الْكَلَامِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ وَ الَّتِي قَبْلَهَا وَ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ بَعْدَهَا مَسْوُوقَةٌ لِتَسْجِيلِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ رَسُولٌ مَعْلُومٌ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ أُرْسِلَهُ اللَّهُ بِالْهَدَى وَ دِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الدِّينِ نَوْرٌ سَاطِعٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَرِيدُ الْمَشْرُوكُونَ لِيُطْفِئُوهُ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ اللَّهُ مَتَمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمَشْرُوكُونَ.

فعلى المؤمنين أن لا يؤذوه صلى الله عليه و آله و سلم و هم يعلمون أنه رسول الله اليهم، و أن ينصروه و يجاهدوا في سبيل ربهم لإحياء دينه و نشر كلمته.

و من ذلك يعلم أن قوله: «وَ إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ» الخ؛ كالتوطئه لما سيدكر من كون النبي صلى الله عليه و آله و سلم رسولا مبشرا به من قبل أرسله الله بالهدى و دين الحق و دينه نوره تعالى يهتدى به الناس.

و الذي حكاه تعالى عن عيسى بن مريم عليهما السلام أعنى قوله: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ» ملخص دعوته و قد آذن بأصل دعوته بقوله: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ» فأشار الى أنه لا شأن له إلا أنه حامل رساله من الله اليهم، ثم بين متن ما أرسل اليهم لأجل تبليغه في رسالته بقوله: «مُصَدِّقًا

لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ» الخ.

فقوله: مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ بيان أن دعوته لا- تغاير دين التوراه و لا- تناقض شريعتها بل تصدقها و لم تنسخ من أحكامها إلا- يسيرا و النسخ بيان انتهاء أمد الحكم و ليس بإبطال، و لذا جمع عليه السَّلام بين تصديق التوراه و نسخ بعض أحكامها فيما حكاها الله تعالى من قوله: وَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَ لِأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ (آل عمران ٥٠)؛ و لم يبين لهم إلا بعض ما يختلفون فيه كما في قوله المحكى: قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ (الزخرف ٦٣).

و قوله: وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ إشاره الى الشطر الثاني من رسالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و قد أشار الى الشطر الأول بقوله: «مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ» .

و من المعلوم أن البشرى هي الخبر الذي يسر المبشر و يفرحه و لا يكون إلا بشيء من الخير يوافيه و يعود اليه، و الخير المترقب من بعثه النبي و دعوته هو انفتاح باب من الرحمة الإلهية على الناس فيه سعادته دنياهم و عقباهم من عقيدته حقه أو عمل صالح أو كليهما، و البشرى بالنبي بعد النبي و بالدعوة الجديدة بعد حلول دعوته سابقه و استقرارها و الدعوه الإلهية واحده لا تبطل بمرور الدهور و تقضى الأزمنة و اختلاف الأيام و الليالي-إنما تتصور إذا كانت الدعوه الجديدة أرقى فيما تشتمل عليه من العقائد الحقه و الشرائع المعدله لأعمال المجتمع و أشمل لسعادته الإنسان في دنياه و عقباها.

و بهذا البيان يظهر أن معنى قوله عليه السَّلام: «وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي» الخ؛ يفيد كون ما أتى به النبي أحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أرقى و أكمل مما تضمنته التوراه و بعث به عيسى عليه السَّلام و هو عليه السَّلام متوسط رابط بين الدعوتين.

و يعود معنى كلامه «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا» الخ؛ الى أنى رسول من الله اليكم أدعو الى شريعه التوراه و منهاجها-و لا حل لكم بعض الذي حرم عليكم- و هي شريعه سيكملها

اللّه بعث نبي يأتي من بعدى اسمه أحمد.

و هو كذلك فإمعان التأمل فى المعارف الإلهيه التى يدعو إليها الإسلام يعطى أنها أدق مما فى غيره من الشرائع السماويه السابقه و خاصه ما يندب اليه من التوحيد الذى هو أصل الاصول الذى يبنى عليه كل حكم و يعود اليه كل من المعارف الحقيقه و قد تقدم شطر من الكلام فيه فى المباحث السابقه من الكتاب.

و كذا الشرائع و القوانين العمليه التى لم تدع شيئاً مما دق و جل من أعمال الإنسان الفرديه و الاجتماعيه إلا عدلته و حدت حدوده و قررتة على أساس التوحيد و وجهته الى غرض السعاده.

و الى ذلك الإشاره بقوله تعالى: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْمَأْمُورَ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَا أُولَئِكَ إِنَّكُمْ عِنْدَ اللَّهِ لَمَعْرُوفُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّلُوكَ الْبَغِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا بِالْحَقِّ وَالْأَعْلَانِ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى اللَّهِ يَتَوَكَّلُونَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (الأعراف/١٥٧)، و آيات أخرى يصف القرآن.

و الآيه أعنى قوله: «و مَبَشَّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي» و إن كانت مصرحه بالبشاره لكنها لا تدل على كونها مذكوره فى كتابه عليه السلام غير أن آيه الأعراف المنقوله آنفا «يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ» و كذا قوله فى صفه النبي صلى الله عليه و آله و سلم: ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ الْآيَهُ (الفتح/٢٩)، يدلان على ذلك.

و قوله: إِسْمُهُ أَحْمَدُ دلالة السياق على تعبير عيسى عليه السلام عنه صلى الله عليه و آله و سلم بأحمد و على كونه اسما له يعرف به عند الناس كما كان يسمى بمحمد ظاهره لا ستره عليها.

و يدل عليه قول حسان:

صَلَّى إِلَهًا وَ مِنْ يَحْفَ بَعْرَشَه

و الطيبون على المبارك أحمد

و من أشعار أبى طالب قوله:

ص: ٢٩٨

و قالوا لأحمد أنت امرؤ

خلف اللسان ضعيف السبب

ألا إن أحمد قد جاءهم

بحق و لم يأتهم بالكذب

و قوله مخاطبا للعباس و حمزه و جعفر و على يوصيهم بنصر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ:

كونوا فدى لكم أمى و ما ولدت

فى نصر أحمد دون الناس أتراسا

و من شعره فىه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و قد سماه باسمه الآخر محمد:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمدا

نبيا كموسى خط فى أول الكتب

و يستفاد من البيت أنهم عثروا على وجود البشارة به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ فى الكتب السماوية التى كانت عند أهل الكتاب يومئذ ذاك.

و يؤيده أيضا إيمان جماعه من أهل الكتاب من اليهود و النصارى و فيهم قوم من علمائهم كعبد الله بن سلام و غيره و قد كانوا يسمعون هذه الآيات القرآنية التى تذكر البشارة به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و ذكره فى التوراه و الإنجيل فتلقوه بالقبول و لم يكذبوه و لا أظهروا فيه شيئا من الشك و التردد.

و أما خلو الأناجيل الدائرة اليوم عن بشاره عيسى بما فيها من الصراحة فالقرآن-و هو آيه معجزه باقيه-فى غنى عن تصديقها،و قد تقدم البحث عن سندها و اعتبارها فى الجزء الثالث من الكتاب.

و قوله: فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ضَمِيرٌ «جاء» لأحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، و ضمير «هُم» لبنى إسرائيل أو لهم و لغيرهم،و المراد بالبينات البشارة و معجزه القرآن و سائر آيات النبوه.

و المعنى: فلما جاء أحمد المبشر به بنى إسرائيل أو أتاهم و غيرهم بالآيات البينه التى منها بشاره عيسى عليه السلام قالوا هذا سحر مبين،و قرئ هذا ساحر مبين.

و قيل: ضمير «جاء» لعيسى عليه السلام،و السياق لا يلائمه.

قوله تعالى: «مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ الْخ؛ الاستفهام للإنكار وهو رد لقولهم: «هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ» فإن معناه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس برسول وأن ما بلغه من دين الله ليس منه تعالى.

و المراد بالإسلام الدين الذى يدعو اليه رسول الله بما أنه تسليم لله فيما يريد و يأمر به من اعتقاد و عمل، ولا ريب أن مقتضى ربوبيته و ألوهيته تعالى تسليم عباده له تسليمًا مطلقًا فلا ريب أن الدين الذى هو الإسلام لله دينه الحق الذى يجب أن يدان به فدعوى أنه باطل ليس من الله افتراء على الله.

و من هنا يظهر أن قوله: «وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ» يتضمن الحججه على كون قولهم: «هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ» افتراء على الله.

و الافتراء ظلم لا يرتاب العقل فى كونه ظلما و ينهى عنه الشرع و يعظم الظلم بعظمه من وقع عليه فإذا كان هو الله سبحانه كان أعظم الظلم فلا أظلم ممن افترى على الله الكذب.

و المعنى: ولا أظلم ممن افترى على الله الكذب-بئى نسبه دين الله اليه-و الحال أنه يدعى الى دين الإسلام الذى لا يتضمن إلا التسليم لله فيما أراد و لا ريب أنه من الله، و الله لا يهدى القوم الظالمين.

قوله تعالى: يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ الْخ؛ إطفاء النور بإبطاله و إذهاب شروقه، و إطفاء النور بالأفواه إنما هو بالنفخ بها.

و قد وقعت الآية فى سورة التوبه و فيها «يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ» قال الراغب: قال تعالى: «يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ» «يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ» و الفرق بين الموضعين أن فى قوله: «يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا» يقصدون إطفاء نور الله، و فى قوله: «لِيُطْفِئُوا» يقصدون أمرا يتوصلون به الى إطفاء نور الله. انتهى. و محصله أن متعلق الإراده فى قوله:

«يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ» نفس الإطفاء، و فى قوله: «يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ» السبب

الموصل الى الإطفاء و هو النفخ بالأفواه و الإطفاء غرض و غايه.

و الآيه و ما يتلوها كالشارح لمعنى ما تقدم فى الآيه السابقه من ظلمهم برمى الدعوه بالسحر و عدم هدايته تعالى لهم بما أنهم ظالمون،و المحصل أنهم يريدون إطفاء نور الله بنفخه أفواههم لكن الله لا يهديهم الى مقصدهم بل يتم نوره و يظهر دينه على الدين كله.

فقوله: يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ أَي بالنفخ بالأفواه كما يطفأ الشمعه بالنفخه كناية عن أنهم زعموا أن نور الله و هو دينه نور ضعيف كنور الشمعه يطفأ بأدنى نفخه فرموه بالسحر و انقطاع نسبه الى الله.

و قد أخطئوا في مزعتهم فهو نور الله الذى لا يطفأ و قد شاء أن يتمه و لو كره الكافرون و الله بالغ أمره،و هو قوله: «وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» .

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ الإضافة فى «دِينِ الْحَقِّ» بيانيه كما قيل:و الظاهر أنها فى الأصل إضافة لاميه بعنايه لطيفه هى أن لكل من الحق و الباطل دينا يقتضيه و يختص به،و قد ارتضى الله تعالى الدين الذى للحق-و هو الحق تعالى-فأرسل رسوله.

و إظهار شىء على غيره نصرته و تغلبه عليه،و المراد بالدين كله كل سبيل مسلوكة غير سبيل الله الذى هو الإسلام و الآيه فى مقام تعليل قوله فى الآيه السابقه: «وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ» ، و المعنى:و الله متم نوره لأنه هو الذى أرسل رسوله بنوره الذى هو الهدى و دين الحق ليجعله غالبا على جميع الأديان و لو كره المشركون من أهل الأوثان.

و يستفاد من الآيتين أن دين الحق نور الله فى الأرض كما يستفاد ذلك من قوله: مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبُحٌ بَاحٍ الآيه(النور٣٥)،و قد تقدم فى تفسير الآيه (١).

ص: ٣٠١

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَعْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصِيرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّا مَنْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ الاستفهام للعرض و هو في معنى الأمر.

و التجارة-على ما ذكره الراغب-التصرف في رأس المال طلبا للربح، ولا يوجد في كلام العرب تاء بعده جيم إلا هذه اللفظه.

فقد أخذ الإيمان و الجهاد في الآيه تجاره رأس مالها النفس و ربحها النجاه من عذاب أليم، و الآيه في معنى قوله: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِيَأْخُذَ اللَّهُ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِّنْهُم مَّا كَانُوا فِيهَا يَسْتَوُونَ

ص: ٣٠٢

سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ - إلى أن قال - فَاسْتَبَشِرُوا بِنِعْمِكُمُ الَّذِي بِاِيْتُمِّمْ بِهِ (التوبة / ١١١).

وقد فخم تعالى أمر هذه التجاره حيث قال: «عَلَى تِجَارِهِ» أى تجاره جليله القدر عظيمه الشأن، و جعل الربح الحاصل منها النجاه من عذاب أليم لا يقدر قدره.

و مصداق هذه النجاه الموعوده المغفره و الجنه، و لذا بدل ثانيا النجاه من العذاب من قوله:

«يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ» الخ؛ و أما النصر و الفتح الموعودان فهما خارجان عن النجاه الموعوده، و لذا فصلهما عن المغفره و الجنه فقال: «وَ أُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ» فلا تغفل.

قوله تعالى: تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ الخ؛ استئناف بيانى يفسر التجاره المعروضه عليهم كأنه قيل: ما هذه التجاره؟ فقيل «تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجَاهِدُونَ» الخ؛ و قد أخذ الإيْمَانُ بالرسول مع الإيْمَانُ بِاللَّهِ للدلاله على وجوب طاعته فيما أمر به و إلا فالإيْمَانُ لا يعد إيْمَانًا بِاللَّهِ إلا مع الإيْمَانُ برسالة الرسول قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ - إلى أن قال - أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا (النساء ١٥١).

و قوله: ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أى ما ذكر من الإيْمَانُ و الجهاد خير لكم إن كنتم من أهل العلم و أما الجهله فلا يعتد بأعمالهم.

و قيل: المراد تعلمون خيره ذلك إن كنتم من أهل العلم و الفقه.

قوله تعالى: يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ الخ؛ جواب للشرط المقدر المفهوم من الآيه السابقه أى إن تُوْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ، الخ.

و قد أطلقت الذنوب المتعلقة بها المغفره فالمغفور جميع الذنوب و الاعتبار يساعده إذ هذه

المغفرة مقدمه الدخول في جنه الخلد و لا معنى لدخولها مع بقاء بعض الذنوب على حاله، و لعله للإشارة الى هذه النكته عقبها بقوله: «وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ» أى جنات ثبات و استقرار فكونها محل ثبات و موضع قرار يلوح أن المغفرة تتعلق بجميع الذنوب.

مضافا الى ما فيه من مقابله النفس المبذوله و هى متاع قليل معجل بجنات عدن التى هى خالده فتطيب بذلك نفس المؤمن و تقوى إرادته لبذل النفس و توضيحها و اختيار البقاء على الفناء.

ثم زاد فى تأكيد ذلك بقوله: «ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» .

قوله تعالى: «وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ» عطف على قوله: «يَغْفِرُ لَكُمْ» الخ؛ و «أُخْرَى» وصف قائم مقام الموصوف و هو خبر لمبتدأ محذوف، و قوله: «نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ» بيان لآخرى، و التقدير و لكم نعمه أو خصله اخرى تحبونها و هى نصر من الله و فتح قريب عاجل.

و قوله: «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» معطوف على الأمر المفهوم من سابق الكلام كأنه قيل «قل يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم» الخ؛ و بشر المؤمنين.

و تحاذى هذه البشرى ما فى قوله: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ» -الى أن قال- «فَاسْتَبَشِّرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ (التوبة ١١١)»، و به يظهر أن الذى أمر أن يبشروا به مجموع ما يؤتيهم الله من الأجر فى الآخرة و الدنيا لا خصوص النصر و الفتح.

هذا كله ما يعطيه السياق فى معنى الآيه و إعراف أجزائها، و قد ذكر فيها أمور اخرى لا يساعد عليها السياق تلك المساعدة أغمضنا عن ذكرها، و احتمال أن يكون قوله: «وَبَشِّرِ» الخ؛ استثناءفا.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ الْخ؛ أى اتسموا بهذه السمه و دوموا و اثبتوا عليها فالآيه فى معنى الترقى بالنسبه الى قوله السابق: «هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» و مآل المعنى: اتجروا بأنفسكم و أموالكم فانصروا الله بالإيمان و الجهاد فى سبيله و دوموا و اثبتوا على نصره.

و المراد بنصرتهم لله أن ينصروا نبيه فى سلوك السبيل الذى يسلكه الى الله على بصيره كما قال: قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي (يوسف ١٠٨).

و قوله: فَأَمَنَّا طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ كَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ إشاره الى ما جرى عليه و انتهى اليه أمر استنصار عيسى و تلبيه الحواريين حيث تفرق الناس الى طائفه مؤمنه و اخرى كافره فأيد الله المؤمنين على عدوهم و هم الكفار فأصبحوا ظاهرين بعد ما كانوا مستخفين مضطهدين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا - مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَيُّدًا بِمَا فَصَدَمْتُمْ أَيُّدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنْ الْمَيُوتَ الَّذِي تَقْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيَسْئَلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨)

غرض السوره هو الحث البالغ على الاهتمام بأمر صلاح الجمعه و القيام بواجب أمرها فهى من شعائر الله المعظمه التى فى تعظيمها و الاهتمام بأمرها صلاح أخراهم و دنياهم، و قد سلك تعالى الى بيان أمره بافتتاح الكلام بتسبيحه و الثناء عليه بما منّ على قوم أميين برسول منهم أمى يتلو عليهم آياته و يزكّيهم بصالحات الأعمال و الزاكيات من الأخلاق و يعلمهم الكتاب و الحكمة فيحملهم كتاب الله و معارف دينه أحسن التحميل هم و من يلحق بهم أو يخلفهم من بعدهم من المؤمنين فليحملوا ذلك أحسن الحمل، و ليحذروا أن يكونوا كاليهود حملوا التوراه ثم لم يحملوا معارفها و أحكامها فكانوا مثل الحمار يحمل أسفارا.

ثم تخلص الى الأمر بترك البيع و السعى الى ذكر الله إذا نودى للصلاه من يوم الجمعه، و قرّعهم على ترك النبي صلى الله عليه و آله و سلّم قائما يخطب و الانفضاض و الانسلال الى التجاره و اللهوه، و ذلك آيه عدم تحملهم ما حملوا من معارف كتاب الله و أحكامه، و السوره مدنيه.

قوله تعالى: **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** التسبيح تنزيه الشىء و نسبه الى الطهاره و النزاهه من العيوب و النقائص، و التعبير بالمضارع للدلاله على الاستمرار، و الملك هو الاختصاص بالحكم فى نظام المجتمع، و القدوس مبالغه فى القدس و هو النزاهه و الطهاره، و العزيز هو الذى لا يغلبه

غالب، والحكيم هو المتقن فعله فلا يفعل عن جهل أو جزاف.

و في الآيه توطئه و تمهيد برهاني لما يتضمنه قوله: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ» الخ؛ من بعثه الرسول لتكميل الناس و إسعادهم و هدايتهم بعد إذ كانوا في ضلال مبين.

و ذلك أنه تعالى يسبحه و ينزهه الموجودات السماويه و الأرضيه بما عندهم من النقص الذي هو متممه و الحاجه التي هو قاضيها فما من نقيصه أو حاجه إلا و هو المرجو في تمامها و قضائها فهو المسبّح المنزّه عن كل نقص و حاجه فله أن يحكم في نظام التكوين بين خلقه بما شاء، و في نظام التشريع في عبادته بما أراد، كيف لا؟ و هو ملك له أن يحكم في أهل مملكته و عليهم أن يطيعوه.

و إذا حكم و شرّع بينهم دينا لم يكن ذلك منه لحاجه الي تعبيدهم و نقص فيه يتممه بعبادتهم لأنه قدّوس منزّه عن كل نقص و حاجه.

ثم إذا حكم و شرّع و بلغه إياهم عن غنى منه و دعاهم اليه بوساطه رسله فلم يستجيبوا دعوته و تمردوا عن طاعته لم يكن ذلك تعجيزا منهم له تعالى لأنه العزيز لا يغلبه فيما يريده غالب.

ثم إن الذي حكم به و شرعه من الدين بما أنه الملك القدوس العزيز ليس يذهب لغى لا أثر له لأنه حكيم على الإطلاق لا يفعل ما يفعل إلا لمصلحه و لا يريد منهم ما يريد إلا لنفع يعود اليهم و خير ينالونه فيستقيم به حالهم في دنياهم و آخراهم.

و بالجمله فتشريعه الدين و إنزاله الكتاب ببعث رسول يبلغهم ذلك بتلاوه آياته، و يزيكهم و يعلمهم من منه تعالى و فضل كما قال: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ» الخ.

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ الخ؛ الاميون جمع أمى و هو الذي لا يقرأ و لا يكتب، و المراد بهم - كما قيل - العرب لقله من كان منهم يقرأ و يكتب و قد كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ منهم أى من جنسهم و هو غير كونه مرسلا اليهم فقد كان منهم و كان

و احتمال أن يكون المراد بالاميين غير أهل الكتاب كما قال اليهود-على ما حكى الله عنهم:- لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ (آل عمران/٧٥).

و فيه أنه لا- يناسب قوله فى ذيل الآيه: «يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ» الخ؛ فإنه صَلَّى الله عليه و آله و سلم لم يخص غير العرب و غير أهل الكتاب بشيء من الدعوه لم يلقه اليهم.

و احتمال أن يكون المراد بالاميين أهل مكه لكونهم يسمونها أم القرى.

و فيه أنه لا يناسب كون السوره مدنيه لإيهامه كون ضمير «يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمْ» راجعا الى المهاجرين و من أسلم من أهل مكه بعد الفتح و أخلافهم و هو بعيد من مذاق القرآن.

و لا منافاه بين كونه صَلَّى الله عليه و آله و سلم من الاميين مبعوثا فيهم و بين كونه مبعوثا اليهم و الى غيرهم و هو ظاهر، و تلاوته عليهم آياته و تزكيته و تعليمه لهم الكتاب و الحكمة لنزوله بلغتهم و هو أول مراحل دعوته و لذا لما استقرت الدعوه بعض الاستقرار أخذ صَلَّى الله عليه و آله و سلم يدعو اليهود و النصارى و المجوس و كاتب العظماء و الملوك.

و كذا دعوه إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام على ما حكى الله تعالى رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ - الى أن قال- رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ (البقره ١٢٩)، تشمل جميع آل إسماعيل من عرب مضر أعم من أهل مكه و غيرهم، و لا ينافى كونه صَلَّى الله عليه و آله و سلم مبعوثا اليهم و الى غيرهم.

و قوله: يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ أى آيات كتابه مع كونه أميا. صفه للرسول.

و قوله: وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ التزكيه تفعيل من الزكاه بمعنى النمو الصالح الذى يلازم الخير و البركه فتزكيته لهم تنميته لهم نماء صالحا بتعويدهم الأخلاق الفاضله و الأعمال الصالحه فيكملون بذلك فى إنسانيتهم فيستقيم حالهم فى دنياهم و آخرتهم يعيشون سعداء و يموتون سعداء.

و تعليم الكتاب بيان ألفاظ آياته و تفسير ما أشكل من ذلك، و يقابله تعليم الحكمة و هى المعارف الحقيقيه التى يتضمنها القرآن، و التعبير عن القرآن تاره بالآيات و تاره بالكتاب للدلاله على أنه بكل من هذه العناوين نعمه يمتن بها- كما قيل -.

و قد قدم التزكيه هاهنا على تعليم الكتاب و الحكمة بخلاف ما فى دعوه إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لأن هذه الآيه تصف تربيته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لمؤمنى أمته، و التزكيه مقدمه فى مقام التربيه على تعليم العلوم الحقه و المعارف الحقيقيه و أما ما فى دعوه إبراهيم عليه السَّلام فإنها دعاء و سؤال أن يتحقق فى ذريته هذه الزكاه و العلم بالكتاب و الحكمة، و العلوم و المعارف أقدم مرتبه و أرفع درجه فى مرحله التحقق و الاتصاف من الزكاه الراجعه الى الأعمال و الأخلاق.

و قوله: **وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** «إِنَّ» مخففه من الثقيله و المراد أنهم كانوا من قبل بعثه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ فى ضلال مبين، و الآيه تحميد بعد تسييح و مسوقه للامتنان كما سيأتى.

قوله تعالى: **وَ آخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** عطف على الاميين و ضمير «مِنْهُمْ» راجع اليهم و «من» للتبعيض و المعنى: بعث فى الاميين و فى آخرين منهم لم يلحقوا بهم بعد و هو العزيز الذى لا- يغلب فى إرادته الحكيم الذى لا- يلغو و لا يجازف فى فعله.

قوله تعالى: **ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** الإشاره بذلك الى بعث الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ- و قد فخم أمره بالإشاره البعيده- فهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ المخصوص بالفضل، و المعنى: ذلك البعث و كونه يتلو آيات الله و يزكى الناس و يعلمهم الكتاب و الحكمة من فضل الله و عطائه يعطيه من تعلقته به مشيئته و قد شاء أن يعطيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و الله ذو الفضل العظيم كذا قال المفسرون.

و من الممكن أن تكون الإشاره بذلك الى البعث بما له من النسبه الى أطرافه من المرسل

و المرسل اليهم، و المعنى: ذلك البعث من فضل الله يؤتیه من يشاء و قد شاء أن يخص بهذا الفضل محمدا صلى الله عليه و آله و سلم فاختره رسولا، و أمته فاخترهم لذلك فجعله منهم و أرسله اليهم.

و الآيه و الآيتان قبلها أعنى قوله: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ -الى قوله- الْعَظِيمِ» مسوقه سوق الامتنان.

قوله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا الخ؛ قال الراغب: السفر-بالفتح فالسكون-كشف الغطاء و يختص ذلك بالأعيان نحو سفر العمامه عن الرأس و الخمار عن الوجه-الى أن قال-و السفر-بالكسر فالسكون-الكتاب الذى يسفر عن الحقائق قال تعالى: «كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا» انتهى.

و المراد بتحميل التوراه تعليمها، و المراد بحملها العمل بها على ما يؤيده السياق و يشهد به ما فى ذيل الآيه من قوله: «بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ»، و المراد بالذين حملوا التوراه ثم لم يحملوها اليهود الذين أنزل الله التوراه على رسولهم موسى عليه السلام فعلمهم ما فيها من المعارف و الشرائع فتركوها و لم يعملوا بها فحملوها و لم يحملوها فضرب الله لهم مثل الحمار يحمل أسفارا و هو لا يعرف ما فيها من المعارف و الحقائق فلا يبقى له من حملها إلا التعب بتحمل ثقلها.

قوله تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ احتجاج على اليهود يظهر به كذبهم فى دعواهم أنهم أولياء الله و أحبائه، و قد حكى الله تعالى ما يدل على ذلك عنهم بقوله: وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْدَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ (المائدہ ١٨)، و قوله: قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْمَآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ (البقره ٩٤)، و قوله: وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا (البقره ١١١).

و محصل المعنى: قل لليهود مخاطبا لهم يا أيها الذين تهودوا إن كنتم اعتقدتم أنكم أولياء لله

من دون الناس إن كنتم صادقين في دعواكم فتمنوا الموت لأن الولي يحب لقاء وليه و من أيقن أنه ولي لله وجبت له الجنة و لا حاجب بينه و بينها إلا الموت أحب الموت و تمنى أن يحلَّ به فيدخل دار الكرامه و يتخلص من هذه الحياه الدنيه التي ما فيها إلا الهم و الغم و المحنه و المصيبه.

قوله تعالى: **وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** أخبر تعالى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أنهم لا يتمنونه أبدا بعد ما أمره أن يعرض عليهم تمنى الموت.

و قد علل عدم تمنيه الموت بما قدمت أيديهم و هو كناية عن الظلم و الفسوق، فمعنى الآية:

و لا- يتمنون الموت أبدا بسبب ما قدمته أيديهم من الظلم فكانوا ظالمين و الله عليم بالظالمين يعلم أنهم لا يحبون لقاء لأنهم أعداؤه لا ولايه بينه و بينهم و لا محبه.

و الآيتان في معنى قوله تعالى: **قُلْ إِنَّ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** (البقره ٩٥/).

قوله تعالى: **قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** الفاء في قوله: «فإنه ملأقيكم» في معنى جواب الشرط، و فيه و عييد لهم بأن الموت الذي يكرهونه كراهه أن يؤاخذوا بوبال أعمالهم فإنه سيلاقيههم لا- محاله ثم يردون الى ربهم الذي خرجوا من زى العبوديه بمظالمهم و عادوه بأعمالهم و هو عالم بحقيقه أعمالهم ظاهرها و باطنها فإنه عالم الغيب و الشهاده فينبئهم بحقيقه أعمالهم و تبعاتها السيئه و هى أنواع العذاب (١)(٢).

ص: ٣١٢

(١-١). الجمعه ١-٨: بحث روائى قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ»، و قوله تعالى: «وَ آخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ»؛ أهل فارس؛ أولياء الله.

(٢-٢). الجمعه ١-٨: كلام في معنى تعليم الحكمه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ الخ؛ المراد بالنداء للصلاة من يوم الجمعة الأذان كما في قوله:

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا (المائدة ٥٨).

و الجمعة بضمين أو بالضم فالسكون أحد أيام الاسبوع و كان يسمى أولاً- يوم العروبه ثم غلب عليه اسم الجمعة، و المراد بالصلاة من يوم الجمعة صلاة الجمعة المشرعه يومها، و السعى هو المشى بالإسراع، و المراد بذكر الله الصلاة كما في قوله: وَ لَذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ (العنكبوت ٤٥)، على ما قيل و قيل: المراد به الخطبه قبل الصلاة و قوله: «وَ ذَرُوا الْبَيْعَ» أمر بتركه، و المراد به على ما يفيد السياق النهى عن الاشتغال بكل عمل يشغل عن صلاة الجمعة سواء كان بيعاً أو غيره و إنما علق النهى بالبيع لكونه من أظهر مصاديق ما يشغل عن الصلاة.

و المعنى: يا أيها الذين آمنوا إذا أذن لصلاه الجمعة يومها فجدوا في المشى الى الصلاه و اتركوا البيع و كل ما يشغلكم عنها.

و قوله: [□]ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ حَتْ و تحريض لهم لما أمر به من الصلاه و ترك البيع.

قوله تعالى: [□]فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ الْخَيْرِ؛ المراد بقضاء الصلاه إقامه صلاه الجمعة، و الانتشار في الأرض التفرق فيها، و ابتغاء فضل الله طلب الرزق نظرا الى مقابله ترك البيع في الآيه السابقه لكن تقدم أن المراد ترك كل ما يشغل عن صلاه الجمعة، و على هذا فابتغاء فضل الله طلب مطلق عطيته في التفرق لطلب رزقه بالبيع و الشرى، و طلب ثوابه بعياده مريض و السعى في حاجه مسلم و زياره أخ في الله، و حضور مجلس علم و نحو ذلك.

و قوله: [□]فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ أمر واقع بعد الحظر فيفيد الجواز و الإباحه دون الوجوب و كذا قوله: «وَ ابْتَغُوا ، وَ اذْكُرُوا» .

و قوله: [□]وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ المراد بالذكر أعم من الذكر اللفظي فيشمل ذكره تعالى قلبا بالتوجه اليه باطنا، و الفلاح النجاه من كل شقاء، و هو في المورد بالنظر الى ما تقدم من حديث التزكيه و التعليم و ما في الآيه التاليه من التوبيخ و العتاب الشديد، الزكاه و العلم و ذلك أن كثره الذكر يفيد رسوخ المعنى المذكور في النفس و انتقاشه في الذهن فتقطع به منابت الغفله و يورث التقوى الدينى الذى هو مظنه الفلاح قال تعالى:

[□]وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (آل عمران ٢٠٠).

قوله تعالى: [□]وَ إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَ تَرَكُوكَ قَائِمًا الْخَيْرِ؛ الانفضاض -على ما ذكره الراغب- استعاره عن الانفضاض بمعنى انكسار الشىء و تفرق بعضه من بعض.

وقد اتفقت روايات الشيعة و أهل السنه على أنه ورد المدينة غير معها تجاره و ذلك يوم الجمعة و النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ قائم يخطب فضربوا بالطبل و الدف لإعلام الناس فانفض أهل المسجد اليهم و تركوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ قائما يخطب فنزلت الآية. فالمراد باللغو استعمال المعازف و آلات الطرب ليجتمع الناس للتجاره، و ضمير «إِلَيْهَا» راجع الى التجاره لأنها كانت المقصوده فى نفسها و اللغو مقصود لأجلها، و قيل: الضمير لأحدهما كأنه قيل: انفضوا اليه و انفضوا إليها و ذلك أن كلا منهما سبب لانفضاض الناس اليه و تجمعهم عليه، و لذا ردد بينهما و قال: «تِجَارَةٌ أَوْ لَهْوٌ» و لم يقل: تجاره و لهوا و الضمير يصلح للرجوع الى كل منهما لأن اللغو فى الأصل مصدر يجوز فيه الوجهان التذكير و التأنيث.

و لذا أيضا عد «مَا عِنْدَ اللَّهِ» خيرا من كل منهما بحياله فقال: «مِنَ اللَّهِ وَ مِنَ التِّجَارَةِ» و لم يقل: من اللغو و التجاره.

و قوله: قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَ مِنَ التِّجَارَةِ وَ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ أمر للنبي أن ينبههم على خطئهم فيما فعلوا- و ما أفضعه- و المراد بما عند الله الثواب الذى يستعبه سماع الخطبه و الموعظه.

و المعنى قل لهم: ما عند الله من الثواب خير من اللغو و من التجاره لأن ثوابه تعالى خير حقيقى دائم غير منقطع، و ما فى اللغو و التجاره من الخير أمر خيالى زائل باطل و ربا استتبع سخطه تعالى كما فى اللغو.

و خير الرازقين من أسمائه تعالى الحسنى كالرزاق و قد تقدم الكلام فى معنى الرزق فيما تقدم (1).

ص: ٣١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ
عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمِعَ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهِمْ خُشِبَتْ مُسَدِّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ
صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعِيدُ فَاحْذَرُهُمْ فَاتَلَّهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤفَكُونَ (٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ
يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦)
هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفُضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧)
يَقُولُونَ لَنْ يَرْجِعَنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨)

تصف السوره المنافقين و تسمهم بشده العداوه و تأمر النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يحذرهم و تعظ المؤمنين أن يتحرزوا من خصائص النفاق فلا يقعوا فى مهلكته و لا يجزهم الى النار، و السوره مدنيه.

قوله تعالى: إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ الْمُنَافِق اسم فاعل من النفاق و هو فى عرف القرآن إظهار الإيمان و إبطان الكفر.

و الكذب خلاف الصدق و هو عدم مطابقه الخبر للخارج فهو وصف الخبر كالصدق و ربما اعتبرت مطابقه الخبر و لا مطابقته بالنسبه الى اعتقاد المخبر فيكون مطابقته لاعتقاد المخبر صدقا منه و عدم مطابقته له كذبا فيقال: فلان كاذب إذا لم يطابق خبره الخارج و فلان كاذب إذا أخبر بما يخالف اعتقاده و يسمى النوع الأول صدقا و كذبا خبريين، و الثانى

فقوله: إِذَا جَاءَكَ الْمُتَأَفِّقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ حكاية لإظهارهم الإيمان بالشهادة على الرساله فإن فى الشهاده على الرساله إيمانا بما جاء به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و يتضمّن الإيمان بوحدانيته تعالى و بالمعاد، و هو الإيمان الكامل.

و قوله: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ تثبت منه تعالى لرسالته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و إنما أوردته مع أن وحى القرآن و مخاطبته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان كافيا فى تثبت رسالته، ليكون قرينه مصرحه بأنهم كاذبون من حيث عدم اعتقادهم بما يقولون و إن كان قولهم فى نفسه صادقا فهم كاذبون فى قولهم كذبا مخبريا لا خبريا فقوله: «وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَأَفِّقِينَ لَكَاذِبُونَ» أريد به الكذب المخبرى لا الخبرى.

قوله تعالى: اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ الخ؛ الأيمان جمع يمين بمعنى القسم، و الجنه الترس و المراد بها ما يتقى به من باب الاستعاره، و الصد يجىء بمعنى الإعراض و عليه فالمراد إعراضهم أنفسهم عن سبيل الله و هو الدين و بمعنى الصرف و عليه فالمراد صرفهم العامه من الناس عن الدين و هم فى وقايه من أيمانهم الكاذبه.

و المعنى: اتخذوا أيمانهم الكاذبه التى يحلفون وقايه لأنفسهم فأعرضوا عن سبيل الله و دينه - أو صرفوا العامه من الناس عن دين الله بما يستطيعونه من الصرف بتقليب الامور و إفساد و العزائم.

و قوله: «إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» تقييح لأعمالهم التى استمروا عليها منذ نافقوا الى حين نزول السوره.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ الظاهر أن الإشاره بذلك الى سوء ما عملوا كما قيل، و قيل: الإشاره الى جميع ما تقدم من كذبهم و استجنانهم بالأيمان الفاجر و صدهم عن سبيل الله و مساءه أعمالهم.

و المراد بإيمانهم- على ما قيل- إيمانهم بألسنتهم ظاهرا بشهادته أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسوله ثم كفرهم بخلو باطنهم عن الإيمان كما قال تعالى فيهم: وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُسِيئُونَ (البقره ١٤).

ولا- يبعد أن يكون فيهم من آمن حقيقه ثم ارتد و كتم ارتداده فلحق بالمنافقين يتربص بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم و بالمؤمنين الدوائر كما يظهر من بعض آيات سورة التوبه كقوله: فَأَعْتَبْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ (التوبه ٧٧)، و قد عبر تعالى عن من لم يدخل الإيمان في قلبه منهم بمثل قوله: وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ (التوبه ٧٤).

فالظاهر أن المراد بقوله: «آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا» إظهارهم للشهادتين أعم من أن يكون عن ظهر القلب أو بظاهر من القول ثم كفرهم بإتيان أعمال تستصحب الكفر كالاستهزاء بالدين و ردّ بعض الأحكام.

و قوله: فَطَبَعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهَمْ لَا يَفْقَهُونَ تفریع عدم الفقه على طبع القلوب دليل على أن الطبع ختم على القلب يستتبع عدم قبوله لورود كلمه الحق فيه فهو آيس من الإيمان محروم من الحق.

و الطبع على القلب جعله بحيث لا يقبل الحق و لا يتبعه فلا محاله يتبع الهوى كما قال تعالى:

طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (سوره محمد ١٦)، فلا يفقه و لا يسمع و لا يعلم كما قال تعالى: وَ طَبَعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهَمْ لَا يَفْقَهُونَ (التوبه ٨٧)، و قال: وَ نَطَّبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهَمْ لَا- يَسْمَعُونَ (الأعراف ١٠٠)، و قال: وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهَمْ لَا- يَعْلَمُونَ (التوبه ٩٣)، و الطبع على أى حال لا- يكون منه تعالى إلا- مجازاه لأنه إضلال و الذى ينسب اليه تعالى من الإضلال إنما هو الإضلال على سبيل المجازاه دون الإضلال الابتدائى و قد مرّ مرارا.

قوله تعالى: وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ

الخ؛ الظاهر أن الخطاب في «رَأَيْتَهُمْ» و«تَسْمَعُ» خطاب عام يشمل كل من رأهم وسمع كلامهم لكونهم في أزياء حسنة و بلاغه من الكلام، وليس خطابا خاصا بالنبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، والمراد أنهم على صباحه من المنظر و تناسب من الأعضاء إذا رأهم الرائي أعجبه أجسامهم، و فصاحه و بلاغه من القول إذا سمع السامع كلامهم مال الى الإصغاء الى قولهم لحلاوه ظاهره و حسن نظمه.

وقوله: كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مِّنْ دَمٍ لَهُمْ بَاطِنٌ كَخَشْبِ بَاطِنِهِمْ، و التسنيد نصب الشيء معتمدا على شيء آخر كحائط و نحوه.

و الجملة مسوقة لذمهم و هي متممة لسابقتها، و المراد أن لهم أجساما حسنة معجبه و قولا- رائعا ذا حلاوه لكنهم كالخشب المسند أشباح بلا أرواح لا خير فيها و لا فائده تعترها لكونهم لا يفقهون.

وقوله: يَخْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ذَمٌّ آخِرٌ لَهُمْ أَيْ إِنَّهُمْ لِإِبْطَانِهِمُ الْكُفْرَ وَ كِتْمَانِهِمْ ذَلِكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَعِيشُونَ عَلَى خَوْفٍ وَ وَجَلٍ وَ وَحْشَةٍ يَخَافُونَ ظُهُورَ أَمْرِهِمْ وَ إِطْلَاعَ النَّاسِ عَلَى بَاطِنِهِمْ وَ يَظُنُّونَ أَنَّ كُلَّ صَيْحَةٍ سَمِعُوهَا فَهِيَ كَائِنَةٌ عَلَيْهِمْ وَ أَنَّهَا الْمَقْصُودُونَ بِهَا.

وقوله: هُمُ الْعُدُوُّ فَآخِذْهُمْ أَي هُمُ كَامِلُونَ فِي الْعِدَاوَةِ بِالْعُغْرِ فِيهَا فَإِنَّ أَعْدَى أَعْدَائِكَ مِنْ يَعَادِيكَ وَ أَنْتَ تَحْسِبُهُ صَدِيقَكَ.

وقوله: قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ دَعَاءٌ عَلَيْهِمُ بِالْقَتْلِ وَ هُوَ أَشَدُّ شِدَائِدِ الدُّنْيَا وَ كَأَنَّ اسْتِعْمَالَ الْمُقَاتَلَةِ دُونَ الْقَتْلِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الشَّدَةِ.

وقوله: أَنَّى يُؤْفَكُونَ مَسْئَلَةٌ لِلتَّعْجِبِ أَي كَيْفَ يَصْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ؟ وَ قِيلَ: هُوَ تَوْبِيخٌ وَ تَقْرِيعٌ وَ لَيْسَ بِاسْتِفْهَامٍ.

وقوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُؤُسَهُمْ الخ؛ التلويه تفعيل من لوى يلوى ليا بمعنى مال.

و المعنى: و إذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله- و ذلك عند ما ظهر منهم بعض خياناتهم و فسوقهم-أمالوا رءوسهم إعراضا و استكبارا و رآهم الرائي يعرضون عن القائل و هم مستكبرون عن إجابته قوله.

قوله تعالى: سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ الخ؛ أى يتساوى الاستغفار و عدمه فى حقهم و تساوى الشئ و عدمه كناية عن أنه لا يفيد الفائدة المطلوبة منه، فالمعنى: لا يفيدهم استغفارك و لا ينفعهم.

و قوله: لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ دفع دخل كأن سائلا يسأل: لما ذا يتساوى الاستغفار لهم و عدمه؟ فاجيب: لن يغفر الله لهم.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ تعليل لقوله: «لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ»، و المعنى: لن يغفر الله لهم لأن مغفرته لهم هدايه لهم الى السعادة و الجنة و هم فاسقون خارجون عن زى العبوديه لإبطانهم الكفر و الطبع على قلوبهم و الله لا يهدى القوم الفاسقين.

قوله تعالى: هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفُضُوا الخ؛ الانفصاض التفرق، و المعنى: المنافقون هم الذين يقولون: لا- تنفقوا أموالكم على المؤمنين الفقراء الذين لازموا رسول الله و اجتمعوا عنده لنصرتة و إنفاذ أمره و إجراء مقاصده حتى يتفرقوا عنه فلا يتحكم علينا.

و قوله: وَ لِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ جواب عن قولهم: لا- تنفقوا، الخ؛ أى إن الدين دين الله و لا- حاجه له الى إنفاقهم فله خزائن السماوات و الأرض ينفق منها و يرزق من يشاء كيف يشاء فلو شاء لأغنى الفقراء من المؤمنين لكنه تعالى يختار ما هو الأصلح فيمتحنهم بالفقر و يتعبدهم بالصبر ليوجرهم أجرا كريما و يهديهم صراطا مستقيما و المنافقون فى جهل من ذلك.

و هذا معنى قوله: «وَ لَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ» أى لا يفقهون وجه الحكمة فى ذلك و احتمال

أن يكون المعنى أن المنافقين لا يفقهون أن خزائن العالم بيد الله و هو الرازق لا رازق غيره فلو شاء لأغناهم لكنهم يحسبون أن الغنى و الفقر بيد الأسباب فلو لم ينفقوا على اولئك الفقراء من المؤمنين لم يجدوا رازقا يرزقهم.

قوله تعالى: يَقُولُونَ لِنِئِن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ القائل هو عبد الله بن أبي بن سلول، وكذا قائل الجملة السابقه: لا تنفقوا، الخ؛ وإنما عبر بصيغه الجمع تشريكا لأصحابه الراضين بقوله معه.

و مراده بالأعز نفسه و بالأذل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و يريد بهذا القول تهديد النبي صلى الله عليه و آله و سلم بإخراجه من المدينة بعد مراجعه إليها و قد ردّ الله عليه و على من يشاركه في نفاقه بقوله:

«وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ» فقصر العزه في نفسه و رسوله و المؤمنين فلا يبقى لغيرهم إلا الذله و نفى عن المنافقين العلم فلم يبق لهم إلا الذله و الجهاله (١)(٢).

[سورة المنافقون (٦٣): الآيات ٩ الى ١١]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَ أَنْفَقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١)

ص: ٣٢٢

١-١). المنافقون ٨-١: بحث روائى حول: المنافقين؛ عبد الله بن أبي؛ نزول سورة المنافقون.

٢-٢). المنافقون ٨-١: كلام حول النفاق فى صدر الاسلام.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ الْخ؛ لإلهاء الإشتغال، والمراد بإلهاء الأموال والأولاد عن ذكر الله إشغالها القلب بالتعلق بها بحيث يوجب الإعراض عن التوجه الى الله بما أنها زينة الحياه الدنيا، قال تعالى: أَلَمْ أَلْهَ الْأَنْبِيَاءَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (الكهف ٤٦)، و الإشتغال بها يوجب خلوّ القلب عن ذكر الله ونسيانه تعالى فلا يبقى له إلا القول من غير عمل و تصديق قلبى و نسيان العبد لربه يستعقب نسيانه تعالى له، قال تعالى: نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ (التوبه ٦٧)، و هو الخسران المبين، قال تعالى فى صفه المنافقين: أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَهَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ (البقره ١٦).

و اليه الإشاره بما فى ذيل الآيه من قوله: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» .

و الأصل هو نهى المؤمنين عن التلهى بالأموال والأولاد و تبديله من نهى الأموال والأولاد عن إلهائهم للتلويح الى أن من طبعها الإلهاء فلا ينبغى لهم أن يتعلقوا بها فتلهيهم عن ذكر الله سبحانه فهو نهى كنائى أكد من التصريح.

قوله تعالى: وَ أَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ الْخ؛ أمر بالإنفاق فى البر أعم من الإنفاق الواجب كالزكاه و الكفارات أو المندوب، و تقييده بقوله:

«مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ» للإشعار بأن أمره هذا ليس سؤالاً لما يملكونه دونه، وإنما هو شىء هو معطيه لهم و رزق هو رازقه و ملك هو ملكهم إياه من غير أن يخرج عن ملكه يأمرهم بإنفاق شىء منه فيما يريد فله المنه عليهم فى كل حال.

و قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ أَى فينقطع أمد استطاعته من

التصرف فى ماله بالإنفاق فى سبيل الله.

وقوله: فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ عطف على قوله: «أَنْ يَأْتِيَ» الخ؛ و تقييد الأجل بالقرب للاشعار بأنه قانع بقليل من التمديد-و هو مقدار ما يسع الإنفاق من العمر-ليسهل إجابته، ولأن الأجل أيًا ما كان فهو قريب، و من كلامه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: كل ما هو آت قريب.

وقوله: فَأَصَّدَقَ وَ أَكُنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ نصب «فَأَصَّدَقَ» لكونه فى جوانب التمنى، و جزم «أَكُنَّ» لكونه فى معنى جزاء الشرط، و التقدير إن أتصدق أكن من الصالحين.

قوله تعالى: وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا إِيَّاسَ لَهُمْ من استجابته دعاء من يسأل تأخير الأجل بعد حلوله و الموت بعد نزوله و ظهور آيات الآخرة، و قد تكرر فى كلامه تعالى أن الأجل المسمى من مصاديق القضاء المحتوم كقوله: إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَفْتِمُونَ (يونس ٤٩).

وقوله: وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ حال من ضمير «أَخِيذْكُمْ» أو عطف على أول الكلام و يفيد فائده التعليل، و المعنى: لا تتلهوا و أنفقوا فإن الله عليم بأعمالكم يجازيكم بها.

[سوره التغابن (٦٤): الآيات ١ الى ١٠]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَ مُؤْمِنٌ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسِنَ
 صُورَكُمْ وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ مَا تُسَبِّحُونَ وَ مَا تَعْلَمُونَ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ
 يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذُوقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ
 يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا وَ اسْتَعْنَى اللَّهُ وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) زَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَ رَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا
 عَمِلْتُمْ وَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَمَا مَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النَّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ
 ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدًا
 ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَ بُئْسَ الْمَصِيرُ (١٠)

مانع ولا خوف من لومه لائم.

و السوره مدنيه بشهاده سياق آياتها.

قوله تعالى: **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحَمْدُ وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** تقدم الكلام فى معنى التسبيح و الملك و الحمد و القدره، و أن المراد بما فى السماوات و الأرض يشمل نفس السماوات و الأرض و من فيها و ما فيها. و قوله: «**لَهُ الْمُلْكُ**» مطلق يفيد إطلاق الملك و عدم محدوديته بحد و لا تقيده بقيد أو شرط فلا حكم نافذا إلا حكمه، و لا حكم له إلا نافذا على ما أراد.

و كذا قوله: «**وَ لَهُ الْحَمْدُ**» مطلق يفيد رجوع كل حمد من كل حامد-و الحمد هو الثناء على الجميل الاختيارى-إليه تعالى لأن الخلق و الأمر إليه فلا ذات و لا صفه و لا فعل جميلا محمودا إلا منه و إليه.

و كذا قوله: «**وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**» بما يدل عليه من عموم متعلق القدره غير محدود و لا مقيده بقيد أو شرط.

و إذ كانت الآيات-كما تقدمت الإشارة إليه-مسوقه لإثبات المعاد كانت الآيه كالمقدمه الاولى لإثباته، و تفيد أن الله منزّه عن كل نقص و شين فى ذاته و صفاته و أفعاله يملك الحكم على كل شىء و التصرف فيه كيفما شاء و أراد،-و لا يتصرف إلا جميلا-و قدرته تسع كل شىء، فله أن يتصرف فى خلقه بالإعاده كما تصرف فيهم بالإيذاء-الإحداث و الإبقاء-فله أن يبعثهم إن تعلقت به إرادته و لا تتعلق إلا بحكمه.

قوله تعالى: **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** الفاء فى «**فَمِنْكُمْ**» تدل على مجرد ترتب الكفر و الايمان على الخلق فلا دلالة فى التفريع على كون الكفر و الايمان مخلوقين لله تعالى أو غير مخلوقين، و إنما المراد انشعابهم

فرقتين: بعضهم كافر و بعضهم مؤمن، و قدم ذكر الكافر لكثرة الكفار و غلبتهم.

و«من» فى قوله: «فَمِنْكُمْ وَ مِنْكُمْ» للتبعيض أى فبعضكم كافر و بعضكم مؤمن.

و قد نبه بقوله: «وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» على أن انقسامهم قسمين و تفرقهم فرقتين حق كما ذكر، و هم متميزون عنده لأن الملاك فى ذلك أعمالهم ظاهرها و باطنها و الله بما يعملون بصير لا تخفى عليه و لا تشبهه.

و تتضمن الآيه مقدمه اخرى لاثبات المعاد و تنجزه و هى أن الناس مخلوقون له تعالى متميزون عنده بالكفر و الايمان و صالح العمل و طالحه.

قوله تعالى: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ المراد بالحق خلاف الباطل و هو خلقها من غير غايه ثابتة و غرض ثابت كما قال: لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَا لَتَّخِذْنَا مِنْ لَدُنَّا (الأنبياء ١٧)، و قال: وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (الدخان ٣٩).

و قوله: وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ المراد بالتصوير إعطاء الصورة و صوره الشئء قوامه و نحو وجوده كما قال: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (التين ٤)، و حسن الصورة تناسب تجهيزاتها بعضها لبعض و المجموع لغايه وجودها، و ليس هو الحسن بمعنى صباحه المنظر و ملاحظته بل الحسن العام السارى فى الأشياء كما قال تعالى: الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (الم السجده ٧).

قوله تعالى: يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ مَا تُسْرَتُونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ دفع شبهه لمنكرى المعاد مبنيه على الاستبعاد و هى أنه كيف يمكن إعادة الموجودات و هى فانيه بئده و حوادث العالم لا تحصى و الأعمال و الصفات لا تعد، منها ظاهره عليه و منها باطنه سرية و منها مشهوده و منها مغيبه، فاجيب

بأن الله يعلم ما فى السماوات و الأرض و يعلم ما تسرون و ما تعلنون.

و قوله: «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» قيل: إنه اعتراض تذيلى مقرر لشمول علمه تعالى بما يسرون و ما يعلنون و المعنى: أنه تعالى محيط علما بالمضرات المستكنه فى صدور الناس مما لا يفارقها أصلا فكيف يخفى عليه شىء مما تسرونه و ما تعلنونه.

و فى قوله: وَ اللَّهُ عَلِيمٌ الخ؛ وضع الظاهر موضع الضمير و الأصل «وَ هُوَ عَلِيمٌ» الخ؛ و النكته فيه الإشارة الى عله الحكم، و ليكون ضابطا يجرى مجرى المثل.

قوله تعالى: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ و بال الأمر تبعته السيئه و المراد بأمرهم كفرهم و ما تفرع عليه من فسوقهم.

لما كان مقتضى أسمائه الحسنى و صفاته العليا المعدوده فى الآيات السابقه و جوب معاد الناس و مصيرهم الى ربهم للحساب و الجزاء فمن الواجب إعلامهم بما يجب عليهم أن يأتوا به أو يجتنبوا عنه و هو الشرع، و الطريق الى ذلك الرساله فمن الواجب إرسال رسول على أساس الإنذار و التبشير بعقاب الآخره و ثوابها و سخطه تعالى و رضاه.

فقوله: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ الخاطب للمشركين و فيه إشارة الى قصص الامم السالفه الهالكه كقوم نوح و عاد و ثمود و غيرهم، ممن أهلكتهم الله بذنوبهم، و قوله: «فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ» إشارة الى ما نزل عليهم من عذاب الاستئصال و قوله: «وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» إشارة الى عذابهم الاخرى.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا الخ؛ بيان لسبب ما ذكر من تعذيبهم بعذاب الاستئصال و عذاب الآخره، و لذلك جىء بالفصل دون العطف كأنه جواب لسؤال مقدر كأن سائلا يسأل فيقول: لم أصابهم ما أصابهم من العذاب؟ فقيل «ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ» الخ؛ و الإشارة بذلك الى ما ذكر من العذاب.

و فى التعبير عن إتيان الرسل و دعوتهم بقوله: «كَانَتْ تَأْتِيهِمْ» الدال على الاستمرار، و عن

كفرهم و قولهم بقوله: «فَقَالُوا فَكْفَرُوا وَ تَوَلَّوْا» الدال بالمقابله على المره دلالة على أنهم قالوا ما قالوا كلمه واحده قاطعه لا معدل عنها و ثبتوا عليها و هو العناد و اللجاج فتكون الآية في معنى قوله تعالى: تَلَمَّكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَبْنَائِهَا وَ لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (الأعراف ١٠١/١)، و قوله:

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ (أى بعد نوح) رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (يونس ٧٤).

و قوله: فَقَالُوا أَ بَشَرٌ يَهْدُونَنَا يطلق البشر على الواحد و الجمع و المراد به الثانى بدليل قوله: «يَهْدُونَنَا» و التنكير للتحقير، و الاستفهام للانكار أى قالوا على سبيل الإنكار:

أ آحاد من الشر لا فضل لهم علينا يهدوننا؟

و هذا القول منهم مبنى على الاستكبار، على أن أكثر هؤلاء الامم الهالكة كانوا وثنيين و هم منكرون للنبوه و هو أساس تكذيبهم لدعوه الأنبياء، و لذلك فرع تعالى على قولهم: «أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا» قوله: «فَكْفَرُوا وَ تَوَلَّوْا» أى بنوا عليه كفرهم و إعراضهم.

و قوله: وَ اسْتَعْنَى اللَّهُ الاستغناء طلب الغنى و هو من الله سبحانه- و هو غنى بالذات- إظهار الغنى و ذلك أنهم كانوا يرون أن لهم من العلم و القوه و الاستطاعة ما يدفع عن جمعهم الفناء و يضمن لهم البقاء كأنه لا غنى للوجود عنهم كما حكى الله سبحانه عن قائلهم قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (الكهف ٣٥/١)، و قال: وَ لَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً (حم السجده ٥٠/١).

و قوله: وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ فى محل التعليل لمضمون الآية، و المعنى: و الله غنى فى ذاته محمود فيما فعل، فما فعل بهم من إذاقتهم و بال أمرهم و تعذيبهم بعذاب أليم على كفرهم و توليهم من غناه و عدله لأنه مقتضى عملهم المردود اليهم.

قوله تعالى: زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَ رَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ

لَتَتَّبِعَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ذكر ركن آخر من أركان كفر الوثنيين و هو إنكارهم الدين السماوى بإنكار المعاد إذ لا يبقى مع انتفاء المعاد أثر للدين المبنى على الأمر و النهى و الحساب و الجزاء و يصلح تعليلاً لإنكار الرساله إذ لا معنى حينئذ للتبليغ و الوعيد.

و المراد بالذين كفروا عامه الوثنيين و منهم من عاصر النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ منهم كأهل مكه و ما والاها، و قيل: المراد أهل مكه خاصه.

و قوله: قُلْ بَلَىٰ وَ رَبِّي لَتُبْعَثَنَّ ثُمَّ لَتَنبُوَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ أمر النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أن يجيب عن زعمهم أن لن يبعثوا، بإثبات ما نفوه بما فى الكلام من أصناف التأكيد بالقسم و اللام و النون.

و «ثُمَّ» فى «ثُمَّ لَتَنبُوَنَّ» للتراخى بحسب رتبه الكلام، و فى الجملة إشاره الى غايه البعث و هو الحساب و قوله: «وَ ذَلِكْ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» أى ما ذكر من البعث و الإنباء بالأعمال يسير عليه تعالى غير عسير، و فيه رد لإحالتهم أمر البعث على الله سبحانه استبعاداً، و قد عبر عنه فى موضع آخر من كلامه بمثل قوله: وَ هُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ (الروم/٢٧).

و الدليل عليه ما عده فى صدر الآيات من أسمائه تعالى و صفاته من الخلق و الملك و العلم و أنه مسبح محمود، و يجمع الجميع أنه الله المستجمع لجميع صفات الكمال.

و يظهر من هنا أن التصريح باسم الجلاله فى الجملة أعنى قوله: «وَ ذَلِكْ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» للإيماء الى التعليل، و المفاد أن ذلك يسير عليه تعالى لأنه الله، و الكلام حجه برهانيه لا دعوى مجردة.

و ذكروا أن الآيه ثلثه الآيات التى أمر الله نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أن يقسم بربه على وقوع المعاد و هى ثلاث: إحداها قوله: وَ يَسْتَتَبُّونَكَ أَ حَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي (يونس/٥٣)، و الثانيه قوله: وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَ رَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ (سبأ/٣)، و الثالثه

الآيه التي نحن فيها.

قوله تعالى: فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ تفريع على مضمون الآيه السابقه أى إذا كنتم مبعوثين لا- محاله منبئين بما علمتم وجب عليكم أن تؤمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزله على رسوله وهو القرآن الذى يهدى بنوره الساطع الى مستقيم الصراط، و يبين شرائع الدين.

و فى قوله: وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا التفات من الغيبه الى التكلم مع الغير و لعل النكته فيه تتميم الحججه بالسلوك من طريق الشهاده و هى أقطع للعدر فكم فرق بين قولنا: والنور الذى أنزل وهو إخبار، وقوله: «وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا» ففيه شهاده منه تعالى على أن القرآن كتاب سماوى نازل من عنده تعالى، والشهاده أكد من الإخبار المجرد.

لا يقال: ما ذا ينفع ذلك وهم ينكرون كون القرآن كلامه تعالى النازل من عنده و لو صدقوا ذلك كفاهم ما مر من الحججه على المعاد و أغنى عن التمسك بذيل الالتفات المذكور.

لأنه يقال: كفى فى إبطال إنكارهم كونه كلام الله ما فى القرآن من آيات التحدى المثبتة لكونه كلام الله، والشهاده على أى حال أكد و أقوى من الإخبار و إن كان مدللاً.

وقوله: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» تذكره بعلمه تعالى بدقائق أعمالهم ليتأكد به الأمر فى قوله: «فَأَمِنُوا» والمعنى: آمنوا وجدوا فى إيمانكم فإنه عليم بدقائق أعمالكم لا يغفل عن شىء منها وهو مجازيكم بها لا محاله.

قوله تعالى: يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ الخ؛ «يَوْمَ» ظرف لقوله السابق: «لَتَبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبُّنَّ» الخ؛ والمراد بيوم الجمع يوم القيامه الذى يجمع فيه الناس لفصل القضاء بينهم قال تعالى: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (الكهف ٩٩)، وقد تكرر فى القرآن الكريم حديث الجمع ليوم القيامه، ويفسره أمثال قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (الجاثيه ١٧)، وقوله: فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (البقره ١١٣)، و قوله: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (السجده ٢٥)، فالآيات تشير الى أن جمعهم للقضاء بينهم.

و قوله: ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ قال الراغب: الغبن أن تبخس صاحبك في معاملة بينك وبينه بضرب من الإخفاء. قال: و يوم التغابن يوم القيامة لظهور الغبن في المعاملة المشار إليها بقوله: وَ مِنَ الدَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ و بقوله: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْآيَةَ، و بقوله: الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ آيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا فَعَلِمُوا أَنَّهُمْ غَنَبُوا فِيمَا تَرَكَوا مِنَ الْمَبَايِعَةِ وَ فِيمَا تَعَاطَوْهُ مِنْ ذَلِكَ جَمِيعًا.

و سئل بعضهم عن يوم التغابن فقال: تبدو الأشياء لهم بخلاف مقاديرهم في الدنيا. انتهى موضع الحاجة.

و ما ذكره أولاً مبنى على تفسير التغابن بسريان المغبونية بين الكفار بأخذهم لمعامله خاسره و تركهم معاملة رابحه، و هو معنى حسن غير أنه لا يلائم معنى باب التفاعل الظاهر في فعل البعض في البعض.

و ما نقله عن بعضهم وجه ثان لا يخلو من دقة، و يؤيده مثل قوله تعالى: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ (الم السجده ١٧)، و قوله: لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ (ق ٣٥)، و قوله: وَ بَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (الزمر ٤٧).

و مقتضى هذا الوجه عموم التغابن لجميع أهل الجمع من مؤمن و كافر أما المؤمن فلما أنه لم يعمل لآخرته أكثر مما عمل، و أما الكافر فلأنه لم يعمل أصلاً، و الوجه المشترك بينهما أنهما لم يقدرًا اليوم حق قدره.

و يرد على هذا الوجه ما يرد على سابقه.

و هناك وجه ثالث و هو أن يعتبر التغابن بين أهل الضلال متبوعيهم و تابعيهم فالمتبوعون و هم المستكبرون يغبنون تابعيهم و هم الضعفاء حيث يأمرونهم بأخذ الدنيا و ترك الآخرة

فيصلون، و التابعون يغنون المتبوعين حيث يعينونهم في استكبارهم باتباعهم فيصلون، فكل من الفريقين غابن لغيره و مغبون من غيره.

و هناك وجه رابع وردت به الروايه و هو أن لكل عبد منزلا في الجنة لو أطاع الله لدخله، و منزلا في النار لو عصى الله لدخله يوم القيامة يعطى منازل أهل النار في الجنة لأهل الجنة، و يعطى منازل أهل الجنة في النار لأهل النار فيكون أهل الجنة و هم المؤمنون غابنين لأهل النار و هم الكفار و الكفار هم المغبونون.

و قال بعض المفسرين بعد إيراد هذا الوجه: و قد فسّر التغابن قوله ذيلًا: «و مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ -الى قوله- وَ بئس المصيرُ» انتهى. و ليس بظاهر ذاك الظهور.

و قوله: وَ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلُ صَالِحًا -الى قوله- وَ بئس المصيرُ تقدم تفسيره مرارا.

[سورة التغابن (٦٤): الآيات ١١ الى ١٨]

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ مَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَ أَوْلَادِكُمْ عِدْوًا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَ إِنْ تَعَفَوْا وَ تَصَدَّقُوا فَحُوا وَ تَعَفَرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَ أَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَ اسْمَعُوا وَ أَطِيعُوا وَ أَنْفِقُوا خَيْرًا لِنَفْسِكُمْ وَ مَنْ يوقْ شِحْحَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)

قوله تعالى: مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ المصيبة صفة شاع استعمالها فى الحوادث السوء التى تصحب الضر، والإذن الإعلام بالرخصه و عدم المانع و يلزم علم الآذان بما أذن فيه، و ليس هو العلم كما قيل.

فظهر بما تقدم أولا- أنه إذنه تعالى فى عمل سبب من الأسباب هو التخليه بينه و بين مسببيه برفع الموانع التى تتخلل بينه و بين مسببيه فلا تدعه يفعل فيه ما يقتضيه بسببته كالنار تقتضى إحراق القطن مثلا لو لا الفصل بينهما و الرطوبه فرفع الفصل بينهما و الرطوبه من القطن مع العلم بذلك إذن فى عمل النار فى القطن بما تقتضيه ذاتها أعنى الإحراق.

و قد كان استعمال الإذن فى العرف العام مختصا بما إذا كان المأذون له من العقلاء لمكان أخذ معنى الإعلام فى مفهومه فيقال: أذنت لفلان أن يفعل كذا و لا يقال: أذنت للنار أن تحرق، و لا أذنت للفرس أن يعدو، لكن القرآن الكريم يستعمله فيما يعم العقلاء و غيرهم بالتحليل كقوله:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ (النساء ٦٤)، و قوله: وَ الْبَاطِلُ يُخْرَجُ لِبَاطِلِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ (الأعراف ٥٨)، و لا يبعد أن يكون هذا التعميم مبنيًا على ما يفيدته القرآن

من سريان العلم و الإدراك فى الموجودات كما قدمناه فى تفسير قوله: **قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (حم السجده ٢١)**.

و كيف كان فلا يتم عمل من عامل و لا تأثير من مؤثر إلا بإذن من الله سبحانه فما كان من الأسباب غير تام له موانع لو تحققت منعت من تأثيره فإذنه تعالى له فى أن يؤثر رفعه الموانع، و ما كان منها تاما لا مانع له يمنعه فإذنه له عدم جعله له شيئا من الموانع فتأثيره يصاحب الإذن من غير انفكاك.

و ثانيا: أن المصائب و هى الحوادث التى تصيب الانسان فتؤثر فيه آثارا سيئه مكروهه إنما تقع بإذن من الله سبحانه كما أن الحسنات كذلك لاستيعاب إذنه تعالى صدور كل أثر من كل مؤثر.

و ثالثا: أن هذا الإذن تكوينى غير الاذن التشريعى الذى هو رفع الحظر عن الفعل فإصابه المصيبة تصاحب إذنا من الله فى وقوعها و إن كانت من الظلم الممنوع فإن كون الظلم ممنوعا غير مآذون فيه إنما هو من جهة التشريع دون التكوين.

و لذا كانت بعض المصائب غير جائزه الصبر عليها و لا مآذونا فى تحملها و يجب على الإنسان أن يقاومها ما استطاع كالمظالم المتعلقة بالأعراض و النفوس.

و من هنا يظهر أن المصائب التى ندب الى الصبر عندها هى التى لم يؤمر المصاب عندها بالذبح و الامتناع عن تحملها كالمصائب العامه الكونيه من موت و مرض مما لا شأن لاختيار الإنسان فيها، و أما ما للاختيار فيها دخل كالمظالم المتعلقة نوع تعلق بالاختيار من المظالم المتوجه الى الأعراض فللإنسان أن يتوقاها ما استطاع.

و قوله: **وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ** كان ظاهر سياق قوله: **«مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ»** يفيد أن لله سبحانه فى الحوادث التى تسوء الإنسان علما و مشيئه فليست تصيبه مصيبه إلا بعد علمه تعالى و مشيئه فليس لسبب من الأسباب الكونيه أن يستقل بنفسه

فيما يؤثره فإنما هو نظام الخلقه لا رب يملكه إلا خالقه فلا تحدث حادثه و لا تقع واقعه إلا بعلم منه و مشيه فلم يكن ليخطئه ما أصابه و لم يكن ليصيبه ما أخطأه.

و هذه هي الحقيقه التي بينها بلسان آخر في قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد ٢٢).

فالله سبحانه رب العالمين و لازم ربوبيته العامه أنه وحده يملك كل شيء لا مالك بالحقيقه سواه، و النظام الجارى في الوجود مجموع من أنحاء تصرفاته في خلقه فلا يتحرك متحرك و لا يسكن ساكن إلا عن إذن منه، و لا يفعل فاعل و لا يقبل قابل إلا عن علم سابق منه و مشيه لا يخطئ علمه و مشيته و لا يرد قضاؤه.

فالاذعان بكونه تعالى هو الله يستعقب اهتداء النفس الى هذه الحقائق و اطمئنان القلب و سكونه و عدم اضطرابه و قلقه من جهه تعلقه بالأسباب الظاهريه و إسناده المصائب و النوائب المره إليها دون الله سبحانه.

و هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾.

و قوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تأكيد للاستثناء المتقدم، و يمكن أن يكون إشاره الى ما يفيد قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ (الحديد ٢٢).

قوله تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ظاهر تكرر «أطيعوا» دون أن يقال: أطيعوا الله و الرسول اختلاف المراد بالإطاعه، فالمراد بإطاعه الله تعالى الانقياد له فيما شرّعه لهم من شرائع الدين و المراد بإطاعه الرسول الانقياد له و امتثال ما يأمر به بحسب ولايته للامه على ما جعلها الله له.

و قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ التولى الإعراض، و البلاغ التبليغ، و المعنى: فإن أعرضتم عن إطاعه الله فيما شرّع من الدين أو عن إطاعه

الرسول فيما أمركم به بما أنه وليّ أمركم، فلم يكرهكم رسولنا عن الطاعة فإنه لم يؤمر بذلك، وإنما أمر بالتبليغ وقد بلغ.

قوله تعالى: **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** في مقام التعليل لوجوب إطاعة الله على ما تقدم أن طاعة الرسول من طاعة الله، توضيح ذلك أن الطاعة بمعنى الانقياد، والالتزام للأمر والانتهاج للنهي من شئون العبودية حيث لا أثر لمملك المولى رقبه عبده إلا مالكيته لإرادته وعمله فلا يريد إلا ما يريد المولى أن يريده ولا يعمل إلا ما يريد المولى أن يعمل فإطاعته نحو من العبودية كما يشير إليه قوله: **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ** (يس ٦٠)، يعاتبهم بعبادة الشيطان وإنما أطاعوه.

فطاعة المطيع بالنسبة إلى المطاع عبادة له، وإذ لا معبود إلا الله فلا طاعة إلا لله عز اسمه أو من أمر بطاعته فالمعنى: **أطيعوا الله سبحانه إذ لا طاعة إلا لمعبود ولا معبود بالحق إلا الله فيجب عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به بطاعته غيره وعبادته كالشيطان وهوى النفس وهذا معنى كون الجملة في مقام التعليل.**

وقوله: **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** تأكيد لمعنى الجملة السابقة أعنى قوله:

«اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» .

توضيحه: أن التوكيل إقامة الإنسان غيره مقام نفسه في إداره أموره و لازم ذلك قيام إرادته مقام إرادته موكله و فعله مقام فعله فينطبق بوجه على الإطاعة فإن المطيع يجعل إرادته وعمله تبعاً لإرادته المطاع فتقوم إرادته المطاع مقام إرادته و يعود عمله متعلقاً لإرادته المطاع صادراً منها اعتباراً فترجع الإطاعة توكيلاً بوجه كما أن التوكيل إطاعة بوجه.

فإطاعة العبد لربه اتباع إرادته لإرادته ربه والإتيان بالفعل على هذا النمط و بعبارة أخرى إثارة إرادته و ما يتعلق بها من العمل على إرادته نفسه و ما يتعلق بها من العمل.

فطاعته تعالى فيما شرع لعباده و ما يتعلق بها نوع تعلق من التوكل عليه، و طاعته واجبه لمن عرفه و آمن به فعلى الله فليتوكل المؤمنون و إياه فليطيعوا، و أما من لم يعرفه و لم يؤمن به فلا تتحقق منه طاعه.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ «الْمُؤْمِنُونَ» فى «مِنْ» للتبعيض، و سياق الخطاب بلفظ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» و تعليق العداوه بهم يفيد التعليل أى أنهم يعادونهم بما أنهم مؤمنون، و العداوه من جهه الإيمان لا تتحقق إلا باهتمامهم أن يصرفوهم عن أصل الإيمان أو عن الأعمال الصالحه كالإنفاق فى سبيل الله و الهجره من دار الكفر أو أن يحملوهم على الكفر أو المعاصى الموبقه كالبلخ عن الإنفاق فى سبيل الله شفقه على الأولاد و الأزواج و الغصب و اكتساب المال من غير طريق حله.

فالله سبحانه يعد بعض الأولاد و الأزواج عدوا للمؤمنين فى إيمانهم حيث يحملونهم على ترك الايمان بالله أو ترك بعض الأعمال الصالحه أو اقرار بعض الكبائر الموبقه و ربما أطاعوهم فى بعض ذلك شفقه عليهم و حبا لهم فأمرهم الله بالحدز منهم.

و قوله: ﴿وَإِنْ تَعَفُّوا وَ تَصَفَّحُوا وَ تَغْفَرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال الراغب:

العفو القصد لتناول الشيء يقال: عفاه و اعتفاه أى قصده متناولا ما عنده-الى أن قال- و عفوت عنه قصدت إزاله ذنبه صارفا عنه، و قال: الصفح ترك التريب و هو أبلغ من العفو، و لذلك قال تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ﴾ و قد يعفو الانسان و لا يصفح، و قال: الغفر إلباس ما يصونه عن الدنس، و منه قيل: اغفر ثوبك فى الوعاء و اصبغ ثوبك فإنه اغفر للوسخ، و الغفران و المغفره من الله هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب قال: ﴿عُفِّرْكَ رَبَّنَا وَ مَغْفِرَهُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ مَنْ يَغْفِرِ الدُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ انتهى.

ففى قوله: ﴿فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا وَ اغْفَرُوا﴾ ندب الى كمال الاغماض عن الأولاد و الأزواج.

إذا ظهر منهم شيء من آثار المعاداة المذكوره-مع الحذر من أن يفتتن بهم-.

و في قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» إن كان المراد خصوص مغفرته و رحمته للمخاطبين أن يعفوا و يصفحوا و يغفروا كان وعدا جميلا لهم تجاه عملهم الصالح كما في قوله تعالى: وَ لِيُعْفُوا وَ لِيُصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ (النور ٢٢).

و إن أريد مغفرته و رحمته العامتان من غير تقييد بمورد الخطاب أفاد أن المغفره و الرحمه من صفات الله سبحانه فإن عفوا و صفحوا و غفروا فقد اتصفوا بصفات الله و تخلقوا بأخلاقه.

قوله تعالى: إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ الفتنه ما يتلى و يمتحن به، و كون الأموال و البنين فتنه إنما هو لكونهما زينه الحياه تنجذب اليهما النفس انجذابا فتفتن و تلهو بهما عما يههما من أمر آخرته و طاعه ربه، قال تعالى: أَلَمْ أَلْهَ الْبَنُونَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (الكهف ٤٦).

و الجمله كنايه عن النهي عن التلهي بهما و التفريط في جنب الله باللي اليهما و يؤكد قوله:

«وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ» .

قوله تعالى: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتِطَعْتُمْ الخ؛ أى مبلغ استطاعتكم-على ما يفيد السياق فإن السياق سياق الدعوه و الندب الى السمع و الطاعه و الإنفاق و المجاهده فى الله- و الجمله تفريع على قوله: «إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ» الخ؛ فالمعنى: اتقوه مبلغ استطاعتكم و لا تدعوا من الاتقاء شيئا تسعه طاقتكم و جهدكم فتجرى الآيه مجرى قوله: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ (آل عمران ١٠٢)، و ليست الآيه ناظره الى النفى التكليف بالاتقاء فيما وراء الاستطاعه و فوق الطاقه كما في قوله: وَ لَا تُحْمَلُوا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ (البقره ٢٨٦).

و قوله: وَ اسْمَعُوا وَ أَطِيعُوا وَ أَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ توضيح و تأكيد لقوله:

«فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتِطَعْتُمْ» و السمع الاستجابه و القبول و هو فى مقام الالتزام القلبي، و الطاعه الانقياد و هو فى مقام العمل، و الإنفاق المراد به بذل المال فى سبيل الله.

و خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ مَنْصُوبٌ بِمَحذُوفٍ -عَلَى مَا فِي الْكِشَافِ- وَ التَّقْدِيرُ آمَنُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ، وَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ «أَنْفُقُوا» مُضْمِنًا مَعْنَى قَدَّمُوا أَوْ مَا يَقْرَبُ مِنْهُ بِقَرِينَةِ الْمَقَامِ، وَ فِي قَوْلِهِ: «لِأَنْفُسِكُمْ» دُونَ أَنْ يُقَالَ: خَيْرًا لَكُمْ زِيَادَةً تَطْيِيبٌ لِنَفْسِهِمْ أَيْ إِنْ الْإِنْفَاقَ خَيْرٌ لَكُمْ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ إِلَّا أَنْفُسُكُمْ لِمَا فِيهِ مِنْ بَسْطِ أَيْدِيكُمْ وَسِعَهُ قَدْرَتُكُمْ عَلَى رَفْعِ حَوَائِجِ مَجْتَمِعِكُمْ.

و قَوْلِهِ: وَ مَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ تَقْدِيمُ تَفْسِيرِهِ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَشْرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ الْمُرَادُ بِإِقْرَاضِ اللَّهِ الْإِنْفَاقَ فِي سَبِيلِهِ سَمَاءَ اللَّهِ إِقْرَاضًا لِلَّهِ وَ سَمَى الْمَالَ الْمُنْفَقَ قَرْضًا حَسَنًا حَتَّى وَ تَرْغِيبًا لَهُمْ فِيهِ.

و قَوْلِهِ: يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ إِشَارَةٌ إِلَى حَسَنِ جَزَائِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

و الشُّكُورُ وَ الْحَلِيمُ وَ عَالَمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةُ وَ الْعَزِيزُ وَ الْحَكِيمُ خَمْسَةٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنَى تَقْدِيمُ شَرْحِهَا، وَ وَجْهٌ مُنَاسِبٌ لَهَا لِمَا أَمَرَ بِهِ فِي الْآيَةِ مِنَ السَّمْعِ وَ الطَّاعَةِ وَ الْإِنْفَاقِ ظَاهِرٌ (١).

ص: ٣٤١

١-١). التَّغَابُنُ ١١-١٨: بَحْثُ رَوَائِي فِي كَوْنِ الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ فَتْنَةً؛ تَقْوَى اللَّهِ حَقَّ تَقَاتِهِ؛ شُحُّ النَّفْسِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) فإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) وَاللَّائِي يَمَسُّنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضُنَّ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُشِيرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) أَسِيكُونَهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلًا فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَاتَّمَرُوا بِبَنَاتِكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَسَّرَ لَكُمْ فَمَا سَتَرْتُمْ فَمَا سَتَرْتُمْ لَهُ أُخْرَى (٦) لِئَنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فليَنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧)

تتضمن السوره بيان كليات من أحكام الطلاق تعقبه عظه و إنذار و تبشير، و السوره مدنيه بشهاده سياقها.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَخْصُوا الْعِدَّةَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ بدئ الخطاب بنداء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّهُ الرَّسُولُ إِلَى الْأُمَّةِ وَ إِمَامُهُمْ فَيُصَلِّحُ لِحُطْبَاهُ أَنْ يَشْمَلَهُ وَ أَتْبَاعَهُ مِنْ أُمَّتِهِ وَ هَذَا شَائِعٌ فِي الْأَسْتِعْمَالِ يَخْصُ مَقْدَمَ الْقَوْمِ وَ سَيَدَهُمْ بِالنِّدَاءِ وَ يَخَاطَبُ بِمَا يَعْمَهُ وَ قَوْمَهُ فَلَا مُوجِبَ لِقَوْلِ بَعْضِهِمْ: إِنْ التَّقْدِيرُ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ

لا تمتك: إذا طلقتم النساء، الخ.

و قوله: إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقْتُمُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ أَي إِذَا أُرِدْتُمْ أَنْ تَطْلُقُوا النِّسَاءَ وَأَشْرَفْتُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ لَا مَعْنَى لِتَحَقُّقِ الطَّلَاقِ بَعْدَ وَقُوعِ الطَّلَاقِ فَهُوَ كَقَوْلِهِ: إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا الْيَدَ (المائدة/٦).

و العدة قعود المرأة عن الزوج حتى تنقضى المدة المرتبه شرعاً، و المراد بتطليقهن لعدتهن تطليقهن لزمان عدتهن بحيث يأخذ زمان العدة من يوم تحقق التطليقه و ذلك بأن تكون التطليقه فى طهر لا مواقعه فيه حتى تنقضى أقرأؤها.

و قوله: وَ أَحْصُوا الْعِدَّةَ أَي عَدُوا الْأَقْرَاءَ الَّتِي تَعْتَدُ بِهَا، وَ هُوَ الْإِحْتِفَازُ عَلَيْهَا لِأَنَّ لِلْمَرْأَةِ فِيهَا حَقَّ النِّفْقَةِ وَ السَّكْنَى عَلَى زَوْجِهَا وَ لِلزَّوْجِ فِيهَا حَقُّ الرَّجُوعِ.

و قوله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ظَاهِرُ السِّيَاقِ كَوْنِ «لَا تُخْرِجُوهُنَّ» الْخ؛ بَدَلًا مِنْ «اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ» وَ يَفِيدُ ذَلِكَ تَأْكِيدَ النَّهْيِ فِي «لَا تُخْرِجُوهُنَّ» وَ الْمُرَادُ بِيُوتِهِنَّ الْبُيُوتَ الَّتِي كُنَّ يَسْكُنُهُ قَبْلَ الطَّلَاقِ أُضِيفَتْ إِلَيْهِنَّ بِعِنَايَةِ السَّكْنَى.

و قوله: وَ لَا يَخْرُجْنَ نَهَى عَنْ خُرُوجِهِنَّ أَنْفُسَهُنَّ كَمَا كَانَ سَابِقَهُ نَهْيًا عَنْ إِخْرَاجِهِنَّ.

و قوله: إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ أَي ظَاهِرَةٍ كَالزَّوْنِ وَ الْبَدَاءِ وَ إِيْذَاءِ أَهْلِهَا كَمَا فِي الرَّوَايَاتِ الْمَأْثُورَةِ عَنْ أُمَّهُ أَهْلَ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

و قوله: وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ أَي الْأَحْكَامَ الْمَذْكُورَةَ لِلطَّلَاقِ حُدُودَ اللَّهِ حَدَّ بِهَا أَعْمَالَكُمْ وَ مَنْ يَتَعَدُّ وَ يَتَجَاوِزُ حُدُودَ اللَّهِ بِأَنْ لَمْ يَرَاعَهَا وَ خَالَفَهَا فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ أَي عَصَى رَبَّهُ.

و قوله: لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا أَي أَمْرًا يَقْضِي بِتَغْيِيرِ الْحَالِ وَ تَبَدُّلِ رَأْيِ الزَّوْجِ فِي طَلَاقِهَا بِأَنْ يَمِيلُ إِلَّا الْإِلْتِيَامَ وَ يَظْهَرُ فِي قَلْبِهِ مَحَبَّةُ حُبِّ الرَّجُوعِ إِلَى

سابق الحال.

قوله تعالى: فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ -الى قوله- وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ المراد من بلوغهن أجلهن اقترابهن من آخر زمان العده و إشرافهن عليه، و المراد بإمساكنهن الرجوع على سبيل الاستعاره، و بمفارقتهن تركهن ليخرجن من العده و بين.

و المراد بكون الإمساك بمعروف حسن الصحبه و رعايه ما جعل الله لهن من الحقوق، و بكون فراقهن بمعروف أيضا لسترام الحقوق الشرعيه فالتقدير بمعروف من الشرع.

و قوله: وَ أَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ أَى أَشْهَدُوا عَلَى الطلاق رجلين منكم صاحبى عدل، و قد مر توضيح معنى العدل فى تفسير سورة البقره.

و قوله: وَ أَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ تقدم توضيحه فى تفسير سورة البقره.

و قوله: ذَلِكَم يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَى ما مر من الأمر بتقوى الله و إقامة الشهاده لله و النهى عن تعدى حدود الله أو مجموع ما مر من الأحكام و البعث الى التقوى و الإخلاص فى الشهاده و الزجر عن تعدى حدود الله يوعظ به المؤمنون ليركنوا الى الحق و ينقلعوا عن الباطل، و فيه إيهام أن الإعراض عن هذه الأحكام أو تغييرها خروجاً من الإيمان.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ -الى قوله- قَدراً أَى «وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ» و يتورع عن محارمه و لم يتعد حدوده و احترم لشرائعه فعمل بها «يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً» من مضائق مشكلات الحياه فإن شريعته فطريه يهدى بها الله الإنسان الى ما تستدعيه فطرته و تقضى به حاجته و تضمن سعاده فى الدنيا و الآخره «وَ يَرْزُقْهُ» من الزوج و المال و كل ما يفتقر اليه فى طيب عيشه و زكاه حياته «مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» و لا يتوقع فلا يخف المؤمن أنه إن اتقى الله و احترم حدوده حرم طيب الحياه

ص: ٣٤٥

و ابتلى بضعك المعيشه فإن الرزق مضمون و الله على ما ضمنه قادر.

□
وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ بِاعْتِرَالِهِ عَنْ نَفْسِهِ فِيمَا تَهَوَّاهُ وَ تَأْمُرُ بِهِ وَ إِيْثَارِهِ إِرَادَةَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ عَلَى إِرَادَةِ نَفْسِهِ وَ الْعَمَلِ الَّذِي يَرِيدُهُ اللَّهُ عَلَى الْعَمَلِ الَّذِي تَهَوَّاهُ وَ تَرِيدُهُ نَفْسَهُ وَ بَعْبَارِهِ أُخْرَى تَدِينُ بِدِينِ اللَّهِ وَ عَمَلٌ بِأَحْكَامِهِ «فَهُوَ حَسْبِي» أَي كَافِيهِ فِيمَا يَرِيدُهُ مِنْ طَيِّبِ الْعَيْشِ وَ يَتَمَنَاهُ مِنَ السَّعَادَةِ بِفَطْرَتِهِ لَا بِوَاهِمَتِهِ الْكَاذِبَةِ.

و ذلك أنه تعالى هو السبب الأعلى الذي تنتهى إليه الأسباب فإذا أراد شيئاً فعله و بلغ ما أراد من غير أن تتغير إرادته فهو القائل □
مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَمَدَى (ق ٢٩)، أو يحول بينه و بين ما أراد من مانع فهو القائل وَ اللَّهُ يُحْكُمُ لَكُمْ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ (الرعد ٤١)، أما الأسباب الأخر التي يتشبث بها الإنسان في رفع حوائجه فإنما تملك من السبب ما ملكها الله سبحانه و هو المالك لما ملكها و القادر على ما عليه أقدرها و لها من الفعل مقدار ما أذن الله فيه.

□
فَاللَّهُ كَافٍ لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ لَا غَيْرَهُ «إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ» يَبْلُغُ حَيْثُ أَرَادَ، وَ هُوَ الْقَائِلُ «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» □
«قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا» فَمَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا لَهُ قَدْرٌ مُقَدَّرٌ وَ حُدٌّ مُحَدَّدٌ وَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لَا يَحْدَهُ حَدٌّ وَ لَا يَحِيطُ بِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ الْمَحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ.

هذا هو معنى الآيه بالنظر الى وقوعها فى سياق آيات الطلاق و انطباقها على المورد.

□
و أما بالنظر الى إطلاقها فى نفسها مع الغض عن السياق الذى وقعت فيه فقوله: «وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» مفاده أن من اتقى الله بحقيقه معنى تقواه و لا- يتم ذلك إلا- بمعرفته تعالى بأسمائه و صفاته ثم تورعه و اتقاؤه بالاجتناب عن المحرمات و تحرز ترك الواجبات خالصا لوجهه الكريم، و لازمه أن لا يريد إلا ما يريد الله من فعل أو ترك، و لازمه أن يستهلك إرادته فى إرادته الله فلا يصدر عنه فعل إلا عن إرادته من الله.

و لانزم ذلك أن يرى نفسه و ما يترتب عليها من سمه أو فعل ملكا طلقا لله سبحانه يتصرف فيها بما يشاء و هو ولايه الله يتولى أمر عبده فلا يبقى له من الملك بحقيقه معناه شيء إلا ما ملكه

اللّٰهُ سبحانه و هو المالك لما ملكه و الملك لله عز اسمه.

و عند ذلك ينجيه الله من مضيق الوهم و سجن الشرك بالتعلق بالأسباب الظاهريه «يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا وَ يَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» أما الرزق المادى فإنه كان يرى ذلك من عطايا سعيه و الأسباب الظاهريه التى كان يطمئن إليها و ما كان يعلم من الأسباب إلا قليلا من كثير كقبس من نار يضىء للانسان فى الليله الظلماء موضع قدمه و هو غافل عما وراءه، لكن الله سبحانه محيط بالأسباب و هو الناظم لها ينظمها كيف يشاء و يأذن فى تأثير ما لا علم له به من خباياها.

و أما الرزق المعنوى الذى هو حقيقه الرزق الذى يعيش به النفس الإنسانيه و تبقى فهو مما لم يكن يحتسبه و لا يحتسب طريق وروده عليه.

و بالجملة هو سبحانه يتولى أمره و يخرج من مهبط الهلاك و يرزقه من حيث لا يحتسب، و لا يفقد من كماله و النعم التى كان يرجو نيلها بسعيه شيئا لأنه توكل على الله و فوض الى ربه ما كان لنفسه «وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» دون سائر الأسباب الظاهريه التى تخطئ تاره و تصيب أخرى «إِنَّ اللَّهَ بِأَلْعِ أَمْرِهِ» لأن الامور محدوده محاطه له تعالى و «قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا» فهو غير خارج عن قدره الذى قدره به.

و هذا نصيب الصالحين من الأولياء من هذه الآيه.

و أما من هو دونهم من المؤمنين المتوسطين من أهل التقوى النازله درجاتهم من حيث المعرفه و العمل فلهم من ولايه الله ما يلائم حالهم فى إخلاص الإيمان و العمل الصالح و قد قال تعالى و أطلق: وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (آل عمران ٦٨)، و قال و أطلق: وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (الباقية ١٩).

و تدبيرهم بدين الحق و هى سنه الحياه و ورودهم و صدورهم فى الامور عن إرادته تعالى هو تقوى الله و التوكل عليه بوضع إرادته تعالى موضع إرادته أنفسهم فينالون من سعاده الحياه

بحسبه و يجعل الله له مخرجا و يرزقهم من حيث لا يحتسبون، و حسبهم ربهم فهو بالغ أمره و قد جعل لكل شىء قدرا.

و عليهم من حرمان السعاده قدر ما دب من الشرك فى إيمانهم و عملهم و قد قال تعالى:

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (يوسف ١٠٦)، و قال و أطلق: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ (النساء ٤٨).

و قال: وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحاً (طه ٨٢)، أى لمن تاب من الشرك و قال و أطلق: وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (المزمل ٢٠).

فلا يرقى المؤمن الى درجه من درجات ولايه الله إلا بالتوبه من خفى الشرك الذى دونها.

قوله تعالى: وَ اللَّائِي يَسْنَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ الْمَرَادُ بِالْأَرْتِيَابِ الشُّكُ فِي يَأْسِهِنَّ مِنَ الْمَحِيضِ أ هُوَ لِكَبْرِ أُمِّ لِعَارِضٍ، فَالْمَعْنَى:

و اللائى يسنن من المحيض من نسائكم و شككنم فى أمر يأسهن أ هو لبلوغ سنهن سن اليأس أم لعارض فعدهن ثلاثه أشهر.

و قوله: وَ اللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ عَطْفَ عَلَى قَوْلِهِ: «وَ اللَّائِي يَسْنَنَ» الخ؛ و المعنى:

و اللائى لم يحضن و هو فى سن من تحيض فعدهن ثلاثه أشهر.

و قوله: وَ أُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ أَى مِنْتَهَى زَمَانِ عِدَّتِهِنَّ وَضَعِ الْحَمْلِ.

و قوله: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُشِيراً أَى يسهل عليه ما يستقبله من الشدائد و المشاق، و قيل: المراد أنه يسهل عليه امور الدنيا و الآخره إما بفرج عاجل أو عوض آجل.

قوله تعالى: ذَلِكُمْ أَمْرٌ اللَّهُ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ أَى مَا بَيْنَهُ فِي الْآيَاتِ الْمَتَقَدِّمَهُ حَكَمَ اللَّهُ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ، و فى قوله: «وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ سُبُلًا مَخْرَجًا» دلاله على أن اتباع

الأوامر من التقوى كاجتناب المحرمات و لعله باعتبار أن امتثال الأمر يلازم اجتناب تركه.

و تكفير السيئات سترها بالمغفرة، و المراد بالسيئات المعاصى الصغيره فيبقى للتقوى كبائر المعاصى، و يكون مجموع قوله: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا» فى معنى قوله: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (النساء ٣١)، و من الآيتين يظهر أن المراد بالمحارم فى قوله صلى الله عليه و آله و سلم فى تعريف التقوى: أنها الورع عن محارم الله المعاصى الكبيره.

و يظهر أيضا أن مخالفه ما أنزله الله من الأمر فى الطلاق و العده من الكبائر إذ التقوى المذكوره فى الآيه تشمل ما ذكر من أمر الطلاق و العده لا محاله فهو غير السيئات المكفره و إلا اختل معنى الآيه.

قوله تعالى: أَسِيْكُونُهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ الى آخر الآيه؛ قال فى المفردات: و قوله تعالى: «مِنْ وَجْدِكُمْ» أى تمكّنكم و قدر غناكم، و يعبر عن الغنى بالوجدان و الجده، و قد حكى فيه الوجد و الوجد و الوجد- بالحركات الثلاث فى الواو- انتهى.

و ضمير «هن» للمطلقات على ما يؤيده السياق، و المعنى: أسكنوا المطلقات من حيث سكنتم من المساكن على قدر تمكّنكم و غناكم على الموسر قدره و على المعسر قدره.

و قوله: وَ لَا تُضَارَّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ أى لا توجهوا اليهن ضررا يشق عليهن تحمله من حيث السكنى و الكسوه و النفقه لتوردوا الضيق و الحرج عليهن.

و قوله: وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ معناه ظاهر.

و قوله: فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فلهن عليكم أجر الرضاعه و هو من نفقه الولد التى على الوالد.

وقوله: وَ أْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ الائتمار بشيء تشاور القوم فيه بحيث يأمر بعضهم فيه بعضاً، وهو خطاب للرجل والمرأه أى تشاوروا فى أمر الولد و توافقوا فى معروف من العاده بحيث لا يتضرر الرجل بزياده الأجر الذى ينفقه و لا المرأه بنقيصته و لا الولد بنقص مده الرضاع الى غير ذلك.

وقوله: وَإِنْ تَعَايَرْتُمْ فَسَرِّحُوا لَهُ الْآخَرَ أَي و إن أراد كل منكم من الآخر ما فيه عسر و اختلفتم فسترضع الولد امرأه أخرى أجنبيه غير والدته أى فليسترضع الوالد غير والده الصبى.

قوله تعالى: لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ الْإِنْفَاقُ مِنْ سَعَةٍ هُوَ التوسع فى الإنفاق و هو أمر لأهل السعه بأن يوسعوا على نساءهم المطلقات المرضعات أولادهم.

وقوله: وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فلينفق مما آتاه الله قدر الرزق ضيقه، و الإيتاء الإعطاء، و المعنى: و من ضاق عليه رزقه و كان فقيراً لا يتمكن من التوسع فى الإنفاق فلينفق على قدر ما أعطاه الله من المال أى فلينفق على قدر تمكنه.

وقوله: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَاهَا أَي لا يكلف الله نفساً إلا بقدر ما أعطاها من القدره فالجمله تنفى الحرج من التكاليف الإلهى و منها إنفاق المطلقه.

وقوله: سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا فيه بشرى و تسليه (١).

[سوره الطلاق (٦٥): الآيات ٨ الى ١٢]

وَ كَآيِنٌ مِنْ قَزِيهِ عَتَتْ عَنْ رَبِّهَا وَ رُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَ عَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَ كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسِيرًا (٩) أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ مَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدَاً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)

ص: ٣٥٠

(١- ١). الطلاق ٧-١: بحث روائى فى الطلاق و العده؛ الشكر؛ الدعاء و الاستجابه؛ التوكل على الله.

قوله تعالى: وَكَأَيُّنْ مِنْ قَوِيهِ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاَهَا عَذَابًا نُكْرًا قَالَ الراغب: العتو النبوء عن الطاعه انتهى.

فهو قريب المعنى من الاستكبار، وقال: النكر الدهاء و الأمر الصعب الذى لا يعرف انتهى.

و المراد بالنكر فى الآيه المعنى الثانى: و فى المجمع النكر المنكر الفظيع الذى لم ير مثله انتهى.

و المراد بالقريه أهلها على سبيل التجوز كقوله: وَ شَيْئَلِ الْقَرْيَةِ (يوسف ٨٢)، و فى قوله: «عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَ رُسُلِهِ» إشاره الى أنهم كفروا بالله سبحانه بالشرك و كفروا كفرا آخر برسله بتكذيبهم فى دعوتهم. علم أنهم كفروا بالله تعالى فى ترك شرائعه المشرعه و كفروا برسله فيما أمروا به بولايتهم لهم كما مر نظيره فى قوله: وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبُلَاغُ الْمُبِينُ (التغابن ١٢).

و شده الحساب المناقشه فيه و الاستقصاء لتوفيه الأجر كما هو عليه، و المراد به حساب الدنيا غير حساب الآخرة و الدليل على كونه حساب الدنيا قوله تعالى: **وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (الشورى ٣٠)**، و قوله: **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ لَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (الأعراف ٩٦)**.

فما يصيب الإنسان من مصيبه- و هى المصيبه فى نظر الدين- هو حاصل محاسبه أعماله و الله يعفو عن كثير منها بالمسامحه و المساهله فى المحاسبه غير أنه تعالى يحاسب العاتين المستكبرين عن أمره و رسله حسابا شديدا بالمناقشه و الاستقصاء و التريب فيعذبهم عذابا نكرا.

و المعنى: و كم من أهل قريه عتوا و استكبروا عن أمر ربهم و رسله فلم يطيعوا الله و رسله فحاسبنا حسابا شديدا ناقشنا فيه و استقصيناها، و عذبناهم عذابا صعبا غير معهود و هو عذاب الاستئصال فى الدنيا.

قوله تعالى: **فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَ كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا** المراد بأمرها عتوها و استكبارها، و المعنى: فأصابتهم عقوبه عتوهم و كان عاقبه عتوهم خسارا كأنهم اشتروا العتو بالطاعه فانتهى الى أن خسروا.

قوله تعالى: **أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا** هذا جزاؤهم فى الاخرى كما كان ما فى قوله: **«فَحَاسِبِينَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَ عَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا»** جزاءهم فى الدنيا.

و الفضل فى قوله: **«أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ»** الخ؛ لكونه فى مقام دفع الدخل كأنه لما قيل **«وَ كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا»**، قيل: ما المراد بخسرهم؟ فقيل **«أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا»**.

قوله تعالى: **فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ**

ذِكْرًا استنتاج مما تقدم خوطب به المؤمنون ليأخذوا حذرهم و يقوا أنفسهم أن يعتوا عن أمر ربهم و يطغوا عن طاعته فيبتلوا بوبال عتوهم و خسران عاقبتهم كما ابتليت بذلك القرى الهالكه.

و قد وصف المؤمنين باولى الألباب فقال: «فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا» استمدادا من عقولهم على ما يريد من التقوى فإنهم لما سمعوا أن قوما عتوا عن أمر ربهم فحوسبوا حسابا شديدا و عذبوا عذابا نكرا و كان عاقبه أمرهم خسرا ثم سمعوا أن ذلك تكرر مره بعد مره و أباد قوما بعد قوم، قضت عقولهم بأن العتو و الاستكبار عن أمر الله تعرض لشديد حساب الله و منكر عذابه فتنبهم و تبعثهم الى التقوى و قد أنزل الله اليهم ذكرا يذكرهم به ما لهم و ما عليهم و يهديهم الى الحق و الى طريق مستقيم.

قوله تعالى: رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ الخ؛ عطف بيان أو بدل من «ذِكْرًا» فالمراد بالذكر الذى أنزله هو الرسول سمي به لأنه وسيله التذكرة بالله و آياته و سبيل الدعوة الى دين الحق، و المراد بالرسول محمّد صلى الله عليه و آله و سلم على ما يؤيده ظاهر قوله: «يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ» الخ.

و على هذا فالمراد بإنزال الرسول بعثه من عالم الغيب و إظهاره لهم رسولا من عنده بعد ما لم يكونوا يحتسبون كما فى قوله: وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ (الحديد ٢٥).

و قد ادعى ظهور الإنزال فى كونه من السماء بعضهم كصاحب الكشاف الى أن فسر «رَسُولًا» بجبريل و يكون حينئذ معنى تلاوته الآيات عليهم تلاوته على النبى صلى الله عليه و آله و سلم بما أنه متبوع لقومه و وسيله الإبلاغ لهم لكن ظاهر قوله: «يَتْلُوا عَلَيْكُمْ» الخ؛ خلاف ذلك.

و يحتمل أن يكون «رَسُولًا» منصوبا بفعل محذوف و التقدير أرسل رسولا يتلو عليكم آيات الله، و يكون المراد بالذكر المنزل اليهم القرآن أو ما بين فيه من الأحكام و المعارف.

و قوله: لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

تقدم تفسيره فى نظائره.

و قوله: وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدٌ جَمِيلٌ وَ تَبَشِيرٌ.

و قوله: فَقد أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا وَصَفَ لِإِحْسَانِهِ تَعَالَى إِلَهُهُمَ فِيمَا رَزَقَهُمْ بِهِ مِنَ الرِّزْقِ وَ الْمَرادُ بِالرِّزْقِ مَا رَزَقَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي الدُّنْيَا وَ الْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ، وَ قِيلَ الْمَرادُ بِهِ الْجَنَّةِ.

قوله تعالى: اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ الْخَبْرُ؛ بيان يتأكد به ما تقدم فى الآيات من حديث ربوبيته تعالى و بعثه الرسول و إنزاله الذكر ليطيعوه فيه و أن فى تمرده و مخالفته الحساب الشديد و العذاب الأليم و فى طاعته الجنة الخالده كل ذلك لأنه قدير عليم.

فقوله: اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ تَقَدَّمَ بَعْضُ الْكَلَامِ فِيهِ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ حَمِ السَّجْدَةِ.

و قوله: وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ظَاهِرُهُ الْمِثْلِيَّةُ فِي الْعَدَدِ، وَ عَلَيْهِ فَالْمَعْنَى: وَ خَلَقَ مِنَ الْأَرْضِ سَبْعًا كَمَا خَلَقَ مِنَ السَّمَاءِ سَبْعًا فَهَلِ الْأَرْضُونَ السَّبْعُ سَبْعَ كَرَاتٍ مِنْ نَوْعِ الْأَرْضِ الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا وَ الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا إِحْدَاهَا؟ أَوِ الْأَرْضُ الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا سَبْعَ طَبَقَاتٍ مُحِيطَةٌ بِبَعْضِهَا وَ الطَّبَقَةُ الْعُلْيَا بِسِطْطِهَا الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ؟ أَوِ الْمَرادُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ الَّتِي قَسَمُوا إِلَيْهَا الْمَعْمُورَ مِنْ سَطْحِ الْكَرَةِ؟ وَ جَوَّهُ ذَهَبَ إِلَى كُلِّ مِنْهَا جَمْعٌ وَ رَبَّمَا لَاحَ بِالرَّجُوعِ إِلَى مَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ حَمِ السَّجْدَةِ مُحْتَمَلٌ آخَرَ غَيْرِهَا.

و ربما قيل: إن المراد بقوله: «وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ» أنه خلق من الأرض شيئاً هو مثل السماوات السبع و هو الإنسان المركب من المادة الأرضية و الروح السماوية التى فيها نماذج سماوية ملكوتيه.

و قوله: يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ الظاهر أن المراد للسموات و الأرض جميعا و الأمر هو الأمر الإلهي الذي فسره بقوله: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ (يس ٨٣)، و هو كلمه الإيجاد، و تنزله هو أخذه بالنزول من مصدر الأمر الى سماء بعد سماء حتى ينتهي الى العالم الأرضي فيتكوّن ما قصد بالأمر من عين أو أثر أو رزق أو موت أو حياه أو عزه أو ذله أو غير ذلك قال تعالى: وَ أَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا (حم السجده ١٢)، و قال: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يُعْرِجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (الم السجده ٥٠).

و قوله: أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا من الغايات المترتبة على خلقه السماوات السبع و من الأرض مثلهن و تنزيله الأمر بينهن، و فى ذلك انتساب الخلق و الأمر اليه و اختصاصهما به فإن المتفكر فى ذلك لا يرتاب فى قدرته على كل شىء و علمه بكل شىء فليتق مخالفه أمره أولو الألباب من المؤمنين فإن سنه هذا القدير العليم تجرى على إثابه المطيعين لأوامره، و مجازاه العاتين المستكبرين و كذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى و هى ظالمه إن أخذه أليم شديد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ
 فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّهُ أَيَّمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسْرَرْنَا إِلَيْكَ بَعْضَ أَزْوَاجِهِ حَيْدِيثًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ بِهِ وَ
 أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ تَبَانِي الْعَلِيمُ الْخَيْرُ ﴿٣﴾ إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ
 صَغَتْ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ
 طَلَّقَكَ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا
 أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَا
 أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ
 يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ
 أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَارْحَمْنَا وَإِنَّا نَكْفُرُ لَكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَصِيدٌ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ وَ
 الْعُظْمَاءَ عَلَيْهِمْ وَأَوَاہِمُ جَهَنَّمَ وَبئسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾

تبدأ السوره بالإشاره الى ما جرى بين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وبين بعض أزواجه من قصه التحريم فيعاتب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بتحريمه ما أحلَّ اللهُ لَهُ ابتغاء لمرضاه بعض أزواجه و مرجعه الى عتاب تلك البعض و الانتصار له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كما يدل عليه سياق الآيات.

ثم تخاطب المؤمنين أن يقوا أنفسهم من عذاب الله النار التي وقودها الناس و الحجاره و ليسوا يجزون إلا بأعمالهم و لا مخلص منها إلا للنبي و الذين آمنوا معه ثم تخاطب النبي بجهاد

و تختتم السوره بضربه تعالى مثلا من النساء للكفار و مثلا منهن للمؤمنين.

و ظهور السياق فى كون السوره مدنيه لا ريب فيه.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ لَمَّا كُنْتَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ خطاب مشوب بعتاب لتحريره صلى الله عليه و آله و سلم لنفسه بعض ما أحل الله له، و لم يصرح تعالى به و لم يبين أنه ما هو؟ و ما ذا كان؟ غير أن قوله: «تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ» يومى أنه كان عملا- من الأعمال المحلله التى يقترفها النبى صلى الله عليه و آله و سلم لا ترتضيه أزواجه فضيقن عليه و آذينه حتى أرضاهن بالحلف على أن يتركه و لا يأتى به بعد.

فقوله: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ علق الخطاب و النداء بوصف النبى دون الرسول لاختصاصه به فى نفسه دون غيره حتى يلائم وصف الرساله.

و قوله: لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ المراد بالتحريم التسبب الى الحرمة بالحلف على ما تدل عليه الآيه التالیه فإن ظاهر قوله: «قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ» الخ؛ أنه صلى الله عليه و آله و سلم حلف على ذلك و من شأن اليمين أن يوجب عروض الوجوب إن كان الحلف على الفعل و الحرمة و إن كان الحلف على الترك، و إذ كان صلى الله عليه و آله و سلم حلف على ترك ما أحل الله له فقد حرم ما أحل الله له بالحلف.

و ليس المراد بالتحريم تشريعه صلى الله عليه و آله و سلم على نفسه الحرمة فيما شرع الله له فيه الحليه فليس له ذلك.

و قوله: تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ أى تطلب بالتحريم رضاهن بدل من «تَحَرَّمَ» الخ؛ أو حال من فاعله، و الجملة قرينه على أن العتاب بالحقيقه متوجه اليهن، و يؤيده قوله خطابا لهما: «إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا» الخ؛ مع قوله فيه: «وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» .

قوله تعالى: قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ

الْحَكِيمُ قال الراغب: كل موضع ورد فرض الله عليه ففي الإيجاب الذى أدخله الله فيه، وما ورد من فرض الله له فهو فى أن لا يحظره على نفسه نحو «مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ» وقوله: «قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّهُ أَيْمَانُكُمْ». انتهى. و التحله أصلها تحلله على وزن تذكره و تكرمه مصدر كالتحليل، قال الراغب: وقوله عز و جل: «قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّهُ أَيْمَانُكُمْ» اى بين ما تحل به عقده أيمانكم من الكفاره.

فالمعنى: قد قدر الله لكم - كانه قدره نصيبا لهم حيث لم يمنعهم عن حل عقده اليمين - تحليل أيمانكم بالكفاره و الله وليكم الذى يتولى تدبير أموركم بالتشريع و الهدايه و هو العليم الحكيم.

و فى الآيه دلالة على أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم كان قد حلف على الترك، و أمر به بتحلله يمينه.

قوله تعالى: «وَ إِذْ أَسْرَى النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَ أظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضِ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ السَّرَّ هُوَ الْحَدِيثُ الَّذِي تَكْتُمُهُ فِي نَفْسِكَ وَ تَخْفِيهِ، وَ الْإِسْرَارُ إِفْصَاؤُكَ الْحَدِيثَ إِلَىٰ غَيْرِكَ مَعَ إِبْصَائِكَ بِإِخْفَائِهِ، وَ ضَمِيرُ «نَبَأَتْ» لِبَعْضِ أَزْوَاجِهِ، وَ ضَمِيرُ «بِهِ» لِلْحَدِيثِ الَّذِي أَسْرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ إِلَيْهَا، وَ ضَمِيرُ «أَظْهَرَهُ» لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، وَ ضَمِيرُ «عَلَيْهِ» لِإِنْبَائِهَا بِهِ غَيْرَهَا وَ إِفْشَائِهَا السَّرَّ، وَ ضَمِيرُ «عَرَفَ وَ أَعْرَضَ» لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، وَ ضَمِيرُ «بَعْضَهُ» لِلْحَدِيثِ، وَ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «هَذَا» لِإِنْبَائِهَا غَيْرَهُ وَ إِفْشَائِهَا السَّرَّ.

و محصل المعنى: و إذ أفضى النبى الى بعض أزواجه - و هى حفصه بنت عمر بن الخطاب - حديثا و أوصاها بكتمانه فلما أخبرت به غيرها و أفشت السر خلافا لما أوصاها به، و أعلم الله النبى صلى الله عليه و آله و سلم أنها نبأت به غيرها و أفشت السر عرّف و أعلم بعضه و أعرض عن بعض آخر، فلما خبرها النبى صلى الله عليه و آله و سلم بالحديث قالت للنبى صلى الله عليه و آله و سلم: من أنبأك و أخبرك أنى نبأت به غيرى و أفشيت السر؟ قال النبى صلى الله عليه و آله و سلم: نبأنى و خبرنى العليم الخبير و هو الله العليم بالسر و العلانيه

قوله تعالى: **إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ أَى** **إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ تَحَقَّقَ مِنْكُمْ مَا يَسْتَوْجِبُ عَلَيْكُمَا التَّوْبَةَ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ، الْخ.**

وقد اتفق النقل على أنهما عائشه و حفصه زوجا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

و الصغو الميل و المراد به الميل الى الباطل و الخروج عن الاستقامة و قد كان ما كان منهما من إيدائه و التظاهر عليه صلى الله عليه وآله وسلم من الكبائر و قد قال تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (الأحزاب ٥٧)**، و قال: **وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (التوبة ٦١)**.

و التعبير بقلوبكما و إرادته معنى التشبيه من الجمع كثير النظير فى الاستعمال.

و قوله: **وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ الْخ؛** التظاهر التعاون، و أصل «وَإِنْ تَظَاهَرَا» و إن تظاهرا، و ضمير الفصل فى قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ» للدلالة على أن لله سبحانه عناية خاصه به صلى الله عليه وآله وسلم ينصره و يتولى أمره من غير واسطه من خلقه، و المولى الولى الذى يتولى أمره و ينصره على من يريد به سوء.

و «جِبْرِيلُ» عطف على لفظ الجلاله، و «صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ» عطف جبريل، و المراد بصالح المؤمنين على ما قيل الصلحاء من المؤمنين فصالح المؤمنين واحد أريد به الجمع كقولك: لا يفعل هذا الصالح من الناس تريد به الجنس كقولك لا يفعل من صلح منه و مثله قولك: كنت فى السامر و الحاضر.

و فيه قياس المضاف الى الجمع الى مدخول اللام فظاهر صالح المؤمنين غير ظاهر «الصالح من المؤمنين».

ووردت الرواية من طرق أهل السنة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن المراد بصالح المؤمنين على عليه أفضل السلام، و ستوافيك إن شاء الله.

و في المراد منه أقوال أخر أغمضنا عنها لعدم دليل عليها.

و قوله: «وَ الْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ» إفراد الخبر للدلالة على أنهم متفقون في نصره متحدون صفا واحدا، و في جعلهم بعد ذلك أى بعد ولاية الله و جبريل و صالح المؤمنين تعظيم و تفخيم.

و لحن الآيات في إظهار النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على من يؤذيه و يريده بسوء و تشديد العتاب على من يتظاهر عليه عجيب، و قد خوطب فيها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أولا و عوتب على تحريمه ما أحل الله له و أشير عليه بتحلله يمينه و هو إظهار و تأييد و انتصار له و إن كان في صورة العتاب.

ثم التفت من خطابه الى خطاب المؤمنين في قوله: «وَ إِذْ أَسْرَى النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَرْوَاحِهِ» يشير الى القصة و قد أبهما إبهاما و قد كان أيد النبي و أظهره قبل الإشارة الى القصة و إفشائها مختوما عليها، و فيه مزيد إظهاره.

ثم التفت من خطاب المؤمنين الى خطابهما و قرر أن قلوبهما قد صغت بما فعلتا و لم يأمرهما أن تتوبا من ذنبهما بل بين لهما أنهما واقعتان بين أمرين إما أن تتوبا و إما أن تظاهرا على من الله هو مولاه و جبريل و صالح المؤمنين و الملائكة بعد ذلك أجمع ثم أظهر الرجاء إن طلقهن أن يرزقه الله نساء خيرا منهن. ثم أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يجاهد الكفار و المنافقين و يغلظ عليهم.

و انتهى الكلام الى ضربه تعالى مثلين مثلا للذين كفروا و مثلا للذين آمنوا.

و قد أدار تعالى الكلام في السورة بعد التعرض لحالهما بقوله: «إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَ إِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ» الخ؛ بين التعرض لحال المؤمنين و التعرض لحال الكفار فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ الخ؛ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدُوا الخ؛ و قال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا الخ؛ و يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الخ؛ و قال: ضَرَبَ اللَّهُ

مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا، وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا .

قوله تعالى: عَسَىٰ رَبُّهُ إِنِ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ إِلَىٰ آخِرِ آيَةٍ؛ استغناء إلهي فأنهن وإن كن مشرفات بشرف زوجه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لكن الكرامه عند الله بالتقوى كما قال تعالى: فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (الأحزاب ٢٩)، انظر الى مكان «مِنْكُنَّ» و قال: يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرًا مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (الأحزاب ٣١).

و لذا ساق الاستغناء بترجى إبداله إن طلقهن أزواجا خيرا منهن، و علق الخبر بما ذكر لأزواجه الجديده من صفات الكرامه و هى أن يكن مسلمات مؤمنات قانتات ثابتات عابدات سائحات-أى صائمات-ثيبات و أبكارا.

فمن تزوج بها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و كانت متصفه بمجموع هذه الصفات كانت خيرا منهن و ليس إلا- لأجل اختصاص منها بالقنوت و التوبه أو القنوت فقط مع مشاركتها لهن فى باقى الصفات، و القنوت هو لزوم الطاعه مع الخضوع.

و يتأيد هذا المعنى بما فى مثل مريم الآتى فى آخر السوره من ذكر القنوت وَ كَانَتْ مِنَ الْقَائِمِينَ فَالقنوت هو الذى يفقدنه و هو لزومهن طاعه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ التى فيها طاعه الله و اتقاؤهن أن يعصين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و يؤذينه.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ النَّخ؛ «قوا» أمر من الوقايه بمعنى حفظ الشىء مما يؤذيه و يضره، و الوقود بفتح الواو اسم لما توقد به النار من حطب و نحوه. و المراد بالنار نار جهنم و كون الناس المعديين فيها وقودا لها معناه اشتعال الناس فيها بأنفسهم كما فى قوله تعالى: ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (المؤمن ٧٢). فيناسب تجسم الأعمال كما هو ظاهر الآيه التاليه يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا النَّخ؛

و فسرت الحجاره بالأصنام.

و قوله: عَلَيْهِمْ مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ أَي وَكَلَّ عَلَيْهَا لِإِجْرَاءِ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ عَلَى أَهْلِهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ.

و الغلاظ جمع غليظ ضد الرقيق و الأنسب للمقام كون المراد بالغلظه خشونه العمل كما فى قوله الآتى: جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ (الآيه ٩ من السوره)، و الشداد جمع شديد بمعنى القوى فى عزمه و فعله.

و قوله: لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ كالمفسر لقوله:

«غِلَاظٌ شِدَادٌ» أَي هم ملتزمون بما أمرهم الله من أنواع العذاب لا يعصونه بالمخالفه و الرد و يفعلون ما يؤمرون به على ما أمروا به من غير أن يفوت منهم فائت أو ينقص منه شىء لضعف فيهم أو فتور فهم غلاظ شداد.

و الآيه الكريمه بعد الآيات السابقه كالتعميم بعد التخصيص فإنه تعالى لما أَدَّب نساء النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ ببيان ما لا يذائهم النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ من الأثر السيئ عمم الخطاب فخطاب المؤمنين عامه أن يؤدّبوا أنفسهم و أهليهم و يقوهم من النار التى وقودها نفس الداخلين فيها أى أن أعمالهم السيئه تلزمهم و تعود ناراً تعذبهم و لا مخلص لهم منها و لا مناص عنها.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ تَجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ خطاب عام للكفار بعد ما جوزوا بالنار فإنهم يعتذرون عن كفرهم و معاصيهم فيخاطبون أن لا- تعتذروا اليوم- و هو يوم الجزاء-إنما تجزون نفس ما كنتم تعملون أى إن العذاب الذى تعذبون بها هو عملكم السيئ الذى عملتموه و قد برز لكم اليوم حقيقته و إذ عملتموه فقد لزمكم أنكم عملتموه و الواقع لا يتغير و ما حقّ عليكم من كلمه العذاب لا يعود باطلا فهذا ظاهر الخطاب.

و قيل: المعنى: لا تعتذروا- اليوم- بعد دخول النار فإن الاعتذار توبه و التوبه غير مقبوله

بعد دخول النار إنما تجزون ما لزم في مقابل عملكم من الجزاء في الحكمة.

و في اتباع الآيات السابقة بما في هذه الآيه من خطاب القهر تهديد ضمنى و إشعار بأن معصيه الله و رسوله ربما أدى الى الكفر.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ النصح تحرى فعل أو قول فيه صلاح صاحبه، و يأتي بمعنى الإخلاص نحو نصحت له الود أى أخلصته-على ما ذكره الراغب-فالتوبه النصوح ما يصرف صاحبه عن العود الى المعصيه أو ما يخلص العبد للرجوع عن الذنب فلا يرجع الى ما تاب منه.

لما أمر المؤمنين بوقايه أنفسهم و أهليهم من النار أمرهم جميعا ثانيا بالتوبه و فرع عليه رجاء أن يستر الله سيئاتهم و يدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار.

و قوله: يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قال الراغب: يقال:

خزى الرجل يخزى من باب علم يعلم إذا لحقه انكسار إما من نفسه و إما من غيره فالذى يلحقه من نفسه و هو الحياء المفرط مصدره الخزياه، و الذى يلحقه من غيره و يعد ضربا من الاستخفاف مصدره الخزى و الإخزاء من الخزياه و الخزى جميعا قال: و على نحو ما قلنا فى خزى ذل و هان فإن ذلك متى كان من الإنسان نفسه يقال له الهون-بفتح الهاء-و الذل و يكون محمودا، و متى كان من غيره يقال له: الهون-بضم الهاء-و الهوان و الذل و يكون مذموما.

انتهى ملخصا.

فقوله: يَوْمَ ظَرَفَ لِمَا تَقَدَّمَهُ، و المعنى: توبوا الى الله عسى أن يكفر عنكم سيئاتكم و يدخلكم الجنة فى يوم لا يخزى و لا يكسر الله النبى صلى الله عليه و آله و سلم بجعلهم محرومين من الكرامه و خلفه ما وعدهم من الوعد الجميل.

و فى قوله: أَلَنَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ اعتبار المعيه فى الإيمان فى الدنيا و لازمه

ملازمتهم النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم و طاعتهم له من غير مخالفه و مشاقه.

و من المحتمل أن يكون قوله: «الَّذِينَ آمَنُوا» مبتدأ خبره «مَعَهُ» و قوله: «نُورُهُمْ يَشِعُّ» الخ؛ خبرا ثانيا، و قوله: «يَقُولُونَ» الخ؛ خبرا ثالثا فيفيد أنهم لا يفارقون النبي و لا يفارقهم يوم القيامة، و هذا وجه جيد لازمه كون عدم الخزي خاصا بالنبي صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم و سعى النور و سؤال إتمامه خاصا بالذين معه من المؤمنين و تؤيده آيه الحديد الآتية. و من الممكن أن يكون «مَعَهُ» متعلقا بقوله: «آمَنُوا» و قوله: «نُورُهُمْ يَشِعُّ» الخ؛ خبرا أولا و ثانيا للموصول.

و قوله: نُورُهُمْ يَشِعُّ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ تقدم الكلام فى معناه فى قوله تعالى: يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ يَشِعُّ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ (الحديد ١٢/١)، و لا يبعد أن يكون ما بين أيديهم من النور نور الإيمان و ما بأيمانهم نور العمل.

و قوله: يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمَمْنَا نُورَنَا وَ اغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يفيد السياق أن المغفرة المسئولة سبب لتمام النور أو هو ملازم لتمام النور فيفيد أن فى نورهم نقصا و النور نور الإيمان و العمل فلهم نقائص بحسب درجات الإيمان أو آثار السيئات التى خلت محلها فى صحائفهم من العبودية فى العمل فيسألون ربهم أن يتم لهم نورهم و يغفر لهم، و اليه الإشارة بقوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَ الشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ (الحديد ١٩/١).

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَا وَأَمَّهُمْ جَهَنَّمُ وَ بُسُّ الْمَصِيرِ المراد بالجهاد بذل الجهد فى إصلاح الأمر من جهتهم و دفع شرهم فى الكفار ببيان الحق و تبليغه فإن آمنوا و إلا فالحرب و فى المنافقين باستمالتهم و تأليف قلوبهم حتى تطمئن قلوبهم الى الإيمان و إلا فلم يقاتل النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم منافقا قط (١).

ص: ٣٦٥

١ - ١). التحريم ١-٩: بحث روائى حول قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ»؛ فضائل على عليه السلام؛ التوبة النصوح؛ حال المؤمنين يوم القيامة.

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغَيِّبَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَ مَرْيَمَ إِذْ نَبَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَوَجَّهْنَا فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوْحِنَا وَ صَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَ كُتِبَ عَلَيْهَا وَ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ (١٢)

بيان:

تتضمن الآيات الكريمة مثلين يمثل بهما الله سبحانه حال الكفار و المؤمنين في أن شقاء الكفار و هلاكهم إنما كان بخيانتهم لله و رسوله و كفرهم و لم ينفعهم اتصال بسبب الى الأنبياء المكرمين، و أن سعادة المؤمنين و فلاحهم إنما كان بإخلاصهم الإيمان بالله و رسوله و القنوت و حسن الطاعة و لم يضربهم اتصال بأعداء الله بسبب فإنما ملاك الكرامه عند الله التقوى.

يمثل الحال أولاً: بحال امرأتين كانتا زوجين لنبين كريمين عدّهما الله سبحانه عبدين صالحين -و يا له من كرامه- فخانتاهما فامرتا بدخول النار مع الداخلين فلم ينفعهما زوجيتهما للنبين الكريمين شيئاً فهلكتا في ضمن الهالكين من غير أدنى تمييز و كرامه.

و ثانياً: بحال امرأتين إحداهما امرأة فرعون الذي كانت منزلته في الكفر بالله أن نادى في

الناس فقال: أنا ربكم الأعلى، فأمنت بالله و أخلصت الإيمان فأنجاها الله و أدخلها الجنة و لم يضرها زوجها مثل فرعون شيئا، و ثانيتهما مريم ابنة عمران الصديقه القانته أكرمها الله بكرامته و نفخ فيها من روحه.

و فى التمثيل تعريض ظاهر شديد لزوجى النبى صلى الله عليه و آله و سلم حيث خانتاه فى إفشاء سرّه و تظاهرتا عليه و آذتاه بذلك، و خاصه من حيث التعبير بلفظ الكفر و الخيانه و ذكر الأمر بدخول النار.

قوله تعالى: **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا السُّخْرَى**، قال الراغب: الخيانه و النفاق واحد إلاّ أن الخيانه تقال اعتبارا بالعهد و الأمانه، و النفاق يقال اعتبارا بالدين ثم يتداخلان فالخيانه مخالفه الحق بنقض العهد فى السر و نقيض الخيانه الأمانه، يقال: خنت فلانا و خنت أمانه فلان. انتهى.

و قوله: **لِلَّذِينَ كَفَرُوا** إن كان متعلقا بالمثل كان المعنى: ضرب الله مثلا يمثل به حال الذين كفروا أنهم لا ينفعهم الاتصال بالعباد الصالحين، و إن كان متعلقا بضرب كان المعنى:

ضرب الله الامراتين و ما انتهت اليه حالهما مثلا للذين كفروا ليعتبروا به و يعلموا أنهم لا ينفعهم الاتصال بالصالحين من عباده و أنهم بخيانتهم النبى صلى الله عليه و آله و سلم من أهل النار لا محاله.

و قوله: **امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ** مفعول «ضَرَبَ»، و المراد بكونهما تحتها زوجيتهما لهما.

و قوله: **فَلَمْ يُعْطِيَا مِنْهُمَا** مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ضمير الشئيه الاولى للعبدين، و الثانيه للامراتين، و المراد أنه لم ينفع المرأتين زوجيتهما للعبدين الصالحين.

و قوله: **وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ** أى مع الداخلين فيها من قوميهما كما يلوح من قوله فى امرأه نوح: **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَ فَارَّ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ**

اثنین و أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ (هود ٤٠/)، و قوله فى امرأه لوط: فَأَسِيرَ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ (هود ٨١/)، أو المعنى مع الداخلين فيها من الكفار.

و فى التعبير بقيل بالبناء للمفعول، و إطلاق الداخلين إشاره الى هوان أمرهما و عدم كرامه لهما أصلاً فلم يبال بهما أين هلكتا.

قوله تعالى: وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ الخ؛ الكلام فى قوله: «لِلَّذِينَ آمَنُوا» كالكلام فى قوله:

«لِلَّذِينَ كَفَرُوا» .

و قوله: «إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ» لخص سبحانه جميع ما كانت تبتغيه فى حياتها و ترومه فى مسير عبوديتها فى مسأله سألت ربها و ذلك أن الإيمان إذا كمل تواطأ الظاهر و الباطن و توافق القلب و اللسان فلا يقول الإنسان إلا ما يفعل و لا يفعل إلا ما يقول فيكون ما يرجوه أو يتمناه أو يسأله بلسانه هو الذى يريده كذلك بعمله.

فقوله: امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ اسمها على ما فى الروايه آسيه، و قوله: «إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ» الجمع بين كون البيت المبنى لها عند الله و فى الجنة لكون الجنة دار القرب من الله و جوار رب العالمين كما قال تعالى: بَلْ أَحْلِيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ (آل عمران / ١٦٩).

على أن الحضور عنده تعالى و القرب منه كرامه معنويه و الاستقرار فى الجنة كرامه صوريه، و سؤال الجمع بينهما سؤال الجمع بين الكرامتين.

و قوله: وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ تَبَرُّ مِنْهَا و سؤال أن ينجيها الله من شخص فرعون و من عمله الذى تدعو ضروره المصاحبه و المعاشره الى الشركه فيه و التلبس به، و قيل: المراد بالعمل الجماع.

وقوله: وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ و هم قوم فرعون و هو تبرّ آخر و سؤال أن ينجيها الله من المجتمع العام كما أن الجملة السابقة كانت سؤال أن ينجيها من المجتمع الخاص.

قوله تعالى: وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا الخ؛ عطف على امرأه فرعون و التقدير و ضرب الله مثلا للذين آمنوا مريم، الخ.

ضربها الله مثلا- باسمها و أثنى عليها و لم يذكر في كلامه تعالى امرأه باسمها غيرها ذكر اسمها في القرآن في بضع و ثلاثين موضعا في نيف و عشرين سورة.

و قوله: أَحْصَيْنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ثناء عليها على عفتها، و قد تكرر في القرآن ذكر ذلك و لعل ذلك بإزاء ما افتعله اليهود من البهتان عليها كما قال تعالى:

وَ قَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (النساء ١٥٦)، و في سورة الأنبياء في مثل القصة وَ الَّتِي أَحْصَيْنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا (الأنبياء ٩١).

و قوله: وَ صَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا أى بما تكلم به الله سبحانه من الوحي الى أنبيائه كما قيل، و قيل: المراد بها وعده تعالى و وعيده و أمره و نهيه، و فيه أنه يستلزم كون ذكر الكتب مستدركا.

و قوله: وَ كُتِبَ وَ هِيَ الْمَشْتَمَلَةُ عَلَى شَرَائِعِ اللَّهِ الْمَنْزَلَةِ مِنَ السَّمَاءِ كالتوراه و الإنجيل كما هو مصطلح القرآن و لعل المراد من تصديقها كلمات ربها و كتبه كونها صديقه كما فى قوله تعالى: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ (المائدة / ٧٥).

و قوله: وَ كَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ أى من القوم المطيعين لله الخاضعين له الدائمين عليه غلب فيه المذكر على المؤنث.

و يؤيد هذا المعنى كون القنوت بهذا المعنى واقعا فيما حكى الله من نداء الملائكة لها: يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَ اسْجُدِي وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (آل عمران ٤٣)، و قيل: يجوز أن يراد

بالقانتين رهطها و عشيرتها الذين كانت مريم منهم و كانوا أهل بيت صلاح و طاعه، و هو بعيد لما تقدم.

على أن المناسب لكون المثل تعريضا لزوجى النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن يراد بالقانتين مطلق أهل الطاعه و الخضوع لله تعالى (1).

ص : ٣٧٠

١ - ١). التحريم ١٠-١٢: بحث روائى فى امرأه فرعون و جعلها الله مثلا للذين آمنوا؛ ايمان امرأه فرعون بموسى؛ كيفيه قتلها على يد فرعون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ
أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ
تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِنًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا
رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا
شَهيقًا وَهِيَ تَفُورٌ (٧) تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا
وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا
بِذُنُوبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَاسْأَلُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)

غرض السوره بيان عموم ربوبيته تعالى للعالمين تجاه قول الوثنيه إن لكل شطر من العالم ربا من الملائكه و غيرهم و إنه تعالى رب الأرباب فقط.

و لذا يعد سبحانه كثيرا من نعمه فى الخلق و التدبير-و هو فى معنى الاحتجاج على ربوبيته-و يفتتح الكلام بتباركه و هو كثره صدور البركات عنه،و يكرر توصيفه بالرحمن و هو مبالغه فى الرحمه التى هى العطيه قبال الاستدعاء فقرا و فيها إنذار ينتهى الى ذكر الحشر و البعث.

و تتلخص مضامين آياتها فى الدعوه الى توحيد الربوبيه و القول بالمعاد.

و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها.

قوله تعالى: **بَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تَبَارَكَ**

الشيء كثره صدور الخيرات و البركات عنه.

و قوله: الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ يشمل باطلاقه كل ملك، و جعل الملك في يده استعاره بالكنايه عن كمال تسلطه عليه و كونه متصرفا فيه كيف يشاء كما يتصرف ذو اليد فيما بيده و يقبله كيف يشاء فهو تعالى يملك بنفسه كل شيء من جميع جهاته، و يملك ما يملكه كل شيء.

فتوصيفه تعالى بالذي بيده الملك أوسع من توصيفه بالمليك في قوله: عِنْدَ مَلِيكَ مُقْتَدِرٍ (القمر، ٥٥)، و أصرح و أكد من توصيفه في قوله: لَهُ الْمُلْكُ (التغابن ١).

و قوله: وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إشاره الى كون قدرته غير محدوده بحد و لا منتهيه الى نهايه و هو لازم إطلاق الملك بحسب السياق، و إن كان إطلاق الملك و هو من صفات الفعل من لوازم إطلاق القدره و هي من صفات الذات.

و في الآيه مع ذلك إيماء الى الحجه على إمكان ما سيأتي من أمر المعاد.

قوله تعالى: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ الحياه كون الشيء بحيث يشعر و يريد، و الموت عدم ذلك لكن الموت على ما يظهر من تعليم القرآن انتقال من نشأه من نشأت الحياه الى نشأه اخرى كما تقدم استفاده ذلك من قوله تعالى: نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ - الى قوله - فِي مَآلِكِنَا لَا تَعْلَمُونَ (الواقعه ٦١)، فلا مانع من تعلق الخلق بالموت كالحياه.

على أنه لو أخذ عدميا كما عند العرف فهو عدم ملكه الحياه و له حظ من الوجود يصحح تعلق الخلق به كالعَمَى من البصر و الظلمه من النور.

و قوله: «لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» غايه خلقه تعالى الموت و الحياه، و البلاء الامتحان و المراد أن خلقكم هذا النوع من الخلق و هو أنكم تحيون ثم تموتون خلق مقدمي امتحاني يمتاز به منكم من هو أحسن عملا من غيره و من المعلوم أن الامتحان و التمييز لا يكون إلا لأمر ما يستقبلكم بعد ذلك و هو جزاء كل بحسب عمله.

و فى الكلام مع ذلك إشاره الى أن المقصود بالذات من الخلقه هو إيصال الخير من الجزاء حيث ذكر حسن العمل و امتياز من جاء بأحسنه فالمحسنون عملا هم المقصودون بالخلقه و غيرهم مقصودون لأجلهم.

و قد ذيل الكلام بقوله: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ» فهو العزيز لأن الملك و القدره المطلقين له وحده فلا يغلبه غالب و ما أقدر أحدا على مخالفته إلا بلاء و امتحانا و سينتقم منهم و هو الغفور لأنه يعفو عن كثير من سيئاتهم فى الدنيا و سيغفر كثيرا منها فى الآخره كما وعد.

و فى التذييل بالاسمين مع ذلك تخويف و تطميع على ما يدعو الى ذلك سياق الدعوه.

قوله تعالى: الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا نَخٍ؛ أى مطابقه بعضها فوق بعض أو بعضها يشبه البعض-على ما احتمل-و قد مرّ فى تفسير حم السجده بعض ما يمكننا من القول فيها.

و قوله: مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ قال الراغب: الفوت بعد الشىء عن الإنسان بحيث يتعذر إدراكه، قال تعالى: «وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ». قال: و التفاوت الاختلاف فى الأوصاف كأنه يفوت وصف أحدهما الآخر أو وصف كل واحد منهما الآخر، قال تعالى: «مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ» أى ليس فيها ما يخرج عن مقتضى الحكمة. انتهى.

فالمراد بنفى التفاوت اتصال التدبير و ارتباط الأشياء بعضها ببعض من حيث الغايات و المنافع المترتبه على تفاعل بعضها فى بعض، فاصطكاك الأسباب المختلفه فى الخلقه و تنازعها كشاجر كفتى الميزان و تصارعهما بالثقل و الخفه و الارتفاع و الانخفاض فإنهما فى عين أنهما تختلفان تتفقان فى إعانه من بيده الميزان فيما يريد من تشخيص وزن السلعه الموزونه.

فقد رتب الله أجزاء الخلقه بحيث تؤدى الى مقاصدها من غير أن يفوت بعضها غرض

بعض أو يفوت من بعضها الوصف اللازم فيه لحصول الغايه المطلوبه.

و الخطاب فى «مَا تَرَى» خطاب عام لكل من يمكنه الرؤيه و فى إضافه الخلق الى الرحمن إشاره الى أن الغايه منه هى الرحمه العامه، و تنكير «تَفَاوُتٍ» و هو فى سياق النفى و إدخال «مِنْ» عليه لإفاده العموم.

و قوله: فَارْجِعِ الْبَصِيرَ هَيْلُ تَرَى مِنْ فُطُورِ الْفُطُورِ الاختلال و الوهى، و المراد بإرجاع البصر النظر ثانيا و هو كناية عن المدأقه فى النظر و الإمعان فيه.

قوله تعالى: ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصِيرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصِيرُ خَاسِئًا وَ هُوَ خَسِيرٌ الخاسى من خساً البصر إذا انقبض عن مهانه كما قال الراغب، و قال أيضا:

الخاسر المعيا لانكشاف قواه، و يقال للمعيا: حاسر و محسور: أما الحاسر فتصور أنه بنفسه قد حسر قوته، و أما المحسور فتصور أن التعب قد حسره، و قوله عزّ و جل: «يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصِيرُ خَاسِئًا وَ هُوَ خَسِيرٌ» يصح أن يكون بمعنى حاسر و أن يكون بمعنى محسور. انتهى.

و قوله: كَرَّتَيْنِ الكَرّه الرجعه و المراد بالثنيه التكرير و التكرير، و المعنى: ثم ارجع البصر رجعه بعد رجعه أى رجعات كثيره ينقلب اليك البصر منقبضه مهينه و الحال أنه كليل معيا لم يجد فطورا.

فقد أشير فى الآيتين الى أن النظام الجارى فى الكون نظام واحد متصل الأجزاء مرتبط الأبعاض.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ الى آخر الآيه؛ المصابيح جمع مصباح و هو السراج سمى الكواكب مصابيح لإنارتها و إضاءتها و قد تقدم كلام فى ذلك فى تفسير سوره حم السجده.

و قوله: وَ جَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ أى و جعلنا الكواكب التى زينا بها السماء رجوما يرمم بها من استرق السمع من الشياطين كما قال تعالى: إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ

فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (الحجر ١٨)، وقال: إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (الصفات ١٠).

قيل: إن الجملة دليل أن المراد بالكواكب المزينة بها السماء مجموع الكواكب الأصلية و الشهب السماوية فإن الكواكب الأصلية لا تزول عن مستقرها و الكواكب و النجم يطلقان على الشهب كما يطلقان على الأجرام الأصلية.

وقيل: تنفصل من الكواكب شهب تكون رجوما للشياطين أما الكواكب أنفسها فليست تزول إلا أن يريد الله إفناءها.

و هذا الوجه أوفق للأنظار العلميه الحاضره، و قد تقدم بعض الكلام فى معنى رمى الشياطين بالشهب.

و قوله: وَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ أى و هيأنا للشياطين و هم أشرار الجن عذاب النار المسعره المشتعله.

قوله تعالى: وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَ بُئْسَ الْمَصِيرُ لما أورد بعض آيات ربوبيته تعالى عقبها بالوعيد على من كفر بربوبيته على ما هو شأن هذه السوره من تداخل الحجج و الوعيد و الإنذار.

و المراد بالذين كفروا بربوبيته أعم من الوثنيين النافين لربوبيته لغير أربابهم القائلين بأنه تعالى رب الأرباب فقط، و النافين لها مطلقا و المثبتين لربوبيته مع التفريق بينه و بين رسله كاليهود و النصرارى حيث آمنوا ببعض رسله و كفروا ببعض.

و الآيه مع ذلك متصله بقوله: «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ» لما فيها من الإشاره الى البعث و الجزاء متصله بما قبلها كالتعميم بعد التخصيص.

قوله تعالى: إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَ هِيَ تَفُورٌ تَكَادُ تَمَيِّزُ مَنْ

الْغَيْظِ قَالَ الرَّاعِبُ: الشهيق طول الزفير و هو رد النفس و الزفير مده انتهى، و الفوران كما فى المجمع ارتفاع الغليان، و التميز: التقطع و التفرق، و الغيظ: شده الغضب، و المعنى: إذا طرح الكفار فى جهنم سمعوا لها شهيقاً- أى تجذبهم الى داخلها كما يجذب الهواء بالشهيق الى داخل الصدر- و هى تغلى بهم فترفعهم و تخفضهم تكاد تتلاشى من شده الغضب.

قوله تعالى: **كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ** الفوج - كما قاله الراغب- الجماعة الماره المسرعه، و فى قوله: **«كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ»** إشاره الى أن الكفار يلقون فى النار جماعه جماعه كما يشير اليه قوله: **وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا** (الزمر ٧١)، و إنما يلقون كذلك بلحوق التابعين لمتبوعهم فى الضلال كما قال تعالى:

وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ (الأنفال ٣٧)، و قد تقدم بعض توضيحه فى ذيل الآيه من سوره الأنفال.

و الخزنه جمع خازن و هو الحافظ على الشىء المدخر و المراد بهم الملائكه الموكلون على النار المدبرون لأنواع عذابها قال تعالى: **عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ** (التحریم ١٦)، و قال: **وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ** -الى أن قال- **عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ** **وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً** (المدثر ٣١).

و المعنى: كلما طرح فى جهنم جماعه من جماعات الكفار المسوقين إليها سألهم الملائكه الموكلون على النار الحافظون لها- توبيخاً- ألم يأتكم نذير؟ و هو النبى المنذر.

قوله تعالى: **قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا** الى آخر الآيه؛ حكايه جوابهم لسؤال الخزنه، و فيه تصديق أنهم قد جاءهم نذير فنسبوه الى الكذب و اعتراف.

و قوله: **مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ بَيِّنٍ لِّتَكْذِيبِهِمْ**، و كذا قوله: **«إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ»** و قيل: قوله: **«إِنَّ أَنْتُمْ»** الخ؛ كلام الملائكه يخاطبون به الكفار بعد جوابهم عن سؤالهم بما أجابوا، و هو بعيد من السياق، و كذا احتمال كونه من كلام الرسل الذين كذبوهم تحكيه

الملائكة لا أولئك الكفار.

قوله تعالى: وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ يطلق السمع و يراد به إدراك الصوت و القول بالجارحه و ربما يراد به ما هو الغايه منه عند العقلاء و هو الالتزام بمقتضاه من الفعل و الترك، و يطلق العقل على تمييز الخير من الشر و النافع من الضار، و ربما يراد به ما هو الغايه منه و هو الالتزام بمقتضاه من طلب الخير و النافع و اجتناب الشر و الضر، قال تعالى: لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ (الأعراف ١٧٩).

و أكثر ما ينتفع بالسمع عامه الناس لقصورهم عن تعقل دقائق الامور و إدراك حقيقتها و الاهتداء الى مصالحها و مفاسدها و إنما ينتفع بالعقل الخاصه.

فقوله: لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ أريد بالسمع استجابة دعوه الرسل و الالتزام بمقتضى قولهم و هم النصحاء الامناء، و بالعقل الالتزام بمقتضى ما يدعون اليه من الحق بتعقله و الاهتداء العقلى الى أن حق و من الواجب أن يخضع الإنسان للحق.

و إنما قدم السمع على العقل لأن استعماله من شأن عامه الناس و هم الأكثرون و العقل شأن الخاصه و هم آحاد قليلون.

و المعنى: لو كنا فى الدنيا نطيع الرسل فى نصائحهم و مواعظهم أو عقلنا حجه الحق ما كنا اليوم فى أصحاب السعير و هم مصاحبو النار المخلدون فيها.

و قيل: إنما جمع بين السمع و العقل لأن مدار التكليف على أدله السمع و العقل.

قوله تعالى: فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ كانوا إنما قالوا: «لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ» نداهه على ما فرطوا فى جنب الله و فوّتوا على أنفسهم من الخير فاعترفوا بأن ما أتوا به كان تبعته دخول النار و كان عليهم أن لا يأتوا به، و هذا هو الذنب فقد اعترفوا بذنبهم.

ص: ٣٧٨

و إنما أفرد الذنب بناء على إرادته معنى المصدر منه و هو فى الأصل مصدر.

و قوله: فَشَحَقًا لِأَضْحَابِ السَّعِيرِ السَّحَقُ تَفْتِيتُ الشَّيْءِ كما ذكره الراغب و هو دعاء عليهم.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ لما ذكر حال الكفار و ما يجازون به على كفرهم قابله بحال المؤمنين بالغيب لتمام التقسيم و ذكر من وصفهم الخشيه لأن المقام مقام الإنذار و الوعيد.

و عدّ خشيتهم خشيه بالغيب لكون ما آمنوا به محجوبا عنهم تحت حجب الغيب.

قوله تعالى: وَ أَسْرُؤًا قَوْلِكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ رفع شبهه يمكن أن تختلج فى قلوبهم مبنيه على الاستبعاد و ذلك أنه تعالى ساق الكلام فى بيان ربوبيته لكل شىء المستتبعه للبعث و الجزاء و ذكر ملكه و قدرته المطلقين و خلقه و تدبيره و لم يذكر علمه المحيط بهم و بأحوالهم و أعمالهم و هو مما لا يتم البعث و الجزاء بدونه.

و كان من الممكن أن يتوهموا أن الأعمال على كثرتها الخارجه عن الإحصاء لا يتأتى ضبطها و خاصه ما تكنه الصدور منها فإن الإنسان يقيس الأشياء بنفسه و يزنها بزنه نفسه و هو غير قادر على إحصاء جزئيات الأعمال التى هى حركات مختلفه متقضيه و خاصه أعمال القلوب المستكنه فى زواياها.

فدفعه بأن إظهار القول و إخفائه سواء بالنسبه اليه تعالى فإنه عليم بذات الصدور، و السياق يشهد أن المراد استواء خفايا الأعمال و جلاياها بالنسبه اليه، و إنما ذكر إسرار القول و جهره من حيث ظهور معنى الخفاء و الظهور فيه بالجهر و الإسرار.

قوله تعالى: أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ استفهام إنكارى مأخوذ حجه على علمه تعالى بأعمال الخلق ظاهرها و باطنها و سرها و جهرها و ذلك أن أعمال الخلق -و من جملتها أعمال الإنسان الاختياريه- و إن نسبت الى فواعلها لكن الله

سبحانه هو الذى يريدها و يوجد لها من طريق اختيار الإنسان و اقتضاء سائر الأسباب فهو الخالق لأعيان الأشياء و المقدر لها آثارها كيفما كانت و الرابط بينها و بين آثارها الموصل لها الى آثارها، قال تعالى: **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** (الزمر ٦٢)، و قال: **الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَ الَّذِي قَدَّرَ فَنَهَدِيَ** (الأعلى ٣)، فهو سبحانه محيط بعين من خلقه و أثره و من أثره أعماله الظاهره و الباطنه و ما أسرّه و ما جهر به و كيف يحيط به و لا يعلمه.

و فى الآيه إشارة الى أن أحوال الأشياء و أعمالها غير خارجه عن خلقها لأنه تعالى استدل بعلمه بمن خلق على علمه بخصوصيات أحواله و أعماله و لو لا كون الأحوال و الأعمال غير خارجه عن وجود موضوعاتها لم يتم الاستدلال.

على أن الأحوال و الأعمال من مقتضيات موضوعاتها و الذى ينتسب اليه وجود الشيء ينتسب اليه آثار وجوده.

و قوله: **وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** أى النافذ فى بواطن الأشياء المطلع على جزئيات وجودها و آثارها، و الجملة حاله تعلل ما قبلها و الاسمان الكريمان من الأسماء الحسنى ذُلت بهما الآيه لتأكيد مضمونها.

[سورة الملك (٦٧): الآيات ١٥ الى ٢٢]

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَ كُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) أَمْنتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمنتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَيَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَ لَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَ يَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمْنَ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمْنَ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ (٢١) أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢)

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ الذلول من المراكب ما يسهل ركوبه من غير أن يضطرب و يجمع و المناكب جمع منكب و هو مجتمع ما بين العضد و الكتف و استعير لسطح الأرض، قال الراغب: و استعارته للأرض كاستعاره الظهر لها في قوله: «مَا تَرَكَ عَلَيَّ ظَهْرَهَا مِنْ دَابَّةٍ» و تسميه الأرض ذلولاً و جعل ظهورها مناكب لها يستقر عليها و يمشى فيها باعتبار انقيادها لأنواع التصرفات الإنسانية من غير امتناع، و قد وجّه كونها ذلولاً ذا مناكب بوجوه مختلفه تؤل جميعها الى ما ذكرنا.

و الأمر في قوله: «وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ» للإباحه و النشور و النشر إحياء الميت بعد موته و أصله

من نشر الصحيفة و الثوب إذا بسطهما بعد طيهما.

و المعنى: هو الذى جعل الأرض مطاوعه منقادته لكم يمكنكم أن تستقروا على ظهورها و تمشوا فيها تأكلون من رزقه الذى قدره لكم بأنواع الطلب و التصرف فيها.

و قوله: وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ أى و يرجع اليه نشر الأموات بإخراجهم من الأرض و إحيائهم للحساب و الجزاء، و اختصاص رجوع النشر به كناية عن اختصاص الحكم بالنشور به و الإحياء يوم القيامة فهو ربكم المدبر لأمر حياتكم الدنيا بالإقرار على الأرض و الهدايه الى مآرب الحياه، و له الحكم بالنشور للحساب و الجزاء.

و فى عدّ الأرض فلو لا و البشر على مناكبها تلويح ظاهر الى ما أدت اليه الأبحاث العلميه أخيرا من كون الأرض كره سيّاره.

قوله تعالى: أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ إندار و تخويف بعد إقامه الحججه و توبيخ على مساهلتهم فى أمر الربوبيه و إهمالهم أمر الشكر على نعم ربهم بالخضوع لربوبيته و رفض ما اختلقوه من الأنداد.

و المراد بمن فى السماء الملائكه المقيمون فيها الموكلون على حوادث الكون و إرجاع ضمير الأفراد الى «مَنْ» باعتبار لفظه و خسف الأرض بقوم كذا شقها و تغييبهم فى بطنها و المور على ما فى المجمع التردد فى الذهاب و المجرى مثل الموج.

و المعنى: أَمْ أَمِنْتُمْ فى كفركم بربوبيته تعالى الملائكه المقيمين فى السماء الموكلين بامور العالم أن يشقوا الأرض و يغيّبواكم فيها بأمر الله فإذا الأرض تضطرب ذهابا و مجيئا بزلزالها.

قوله تعالى: أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ الحاصب الريح التى تأتى بالحصاه و الحجاره، و المعنى: أَمْ أَمِنْتُمْ من فى السماء أن يرسل عليكم ريحا ذات حصاه و حجاره كما أرسلها على قوم لوط قال تعالى: إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ (القمر ٣٤).

و قوله: فَسَيَتَعَلَّمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ النذير مصدر بمعنى الإنذار و الجملة متفرعه على ما يفهم من سابق الكلام من كفرهم بربوبيته تعالى و أمنهم من عذابه و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ المراد بالنكير العقوبه و تغيير النعمه أو الإنكار، و الآيه كالشاهد يستشهد به على صدق ما فى قوله:

«فَسَتَعَلَّمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ» من الوعيد و التهديد.

و المعنى: و لقد كذب الذين من قبلهم من الامم الهالكه رسلى و جحدوا بربوبيتى فكيف كان عقوبتى و تغييرى النعمه عليهم أو كيف كان إنكارى ذلك عليهم حيث أهلكتهم و استأصلتهم.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ المراد بكون الطير فوقهم طيرانه فى الهواء، و صفيف الطير بسطه جناحه حال الطيران و قبضه قبض جناحه حاله، و الجمع فى «صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ» لكون المراد بالطير استغراق الجنس.

و قوله: مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ كالجواب لسؤال مقدر كأن سائلا يسأل فيقول: ما هو المراد بالافات نظرهم الى صفيف الطير و قبضه فوقهم؟ فاجيب بقوله: «مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ».

و قرار الطير حال الطيران فى الهواء من غير سقوط و إن كان مستندا الى أسباب طبيعیه كقرار الإنسان على بسيط الأرض و السمك فى الماء و سائر الامور الطبيعیه المستنده الى علل طبيعیه تنتهى اليه تعالى لكن لما كان بعض الحوادث غير ظاهر السبب للإنسان فى بادى النظر سهل له إذا نظر اليه أن ينتقل الى أن الله سبحانه هو السبب الأعلى الذى ينتهى اليه حدوثه و وجوده، و لذا نبههم الله سبحانه فى كلامه بإرجاع نظرهم إليها و دلالتهم على وحدانيته فى الربوبية.

وقد ورد في كلامه تعالى شيء كثير من هذا القبيل كإمسك السماوات بغير عمد وإمسك الأرض وحفظ السفن على الماء واختلاف الأثمار والألوان والألسنة وغيرها مما كان سببه الطبيعي القريب خفياً في الجملة يسهل للذهن الساذج الانتقال إلى استناده إليه تعالى ثم إذا تنبه لوجود أسبابه القريبه بنوع من المجاهده الفكرية وجد الحاجه بعينها في أسبابه حتى تنتهي إليه تعالى وأن إلى ربك المنتهى.

قوله تعالى: «أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ تَوَيْخٍ وَتَفْرِيعٍ لَهُمْ فِي اتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ لِيَنْصُرُوهُمْ وَلِذَا تَنَفَّتْ عَنِ الْغَيْبِ إِلَى الْخَطَابِ فَخَاطَبَهُمْ لِيَشْتَدَّ عَلَيْهِمُ التَّفْرِيعُ.

وقوله: «أَمَّنْ هَذَا الَّذِي» الخ؛ معناه بل من الذي يشار إليه فيقال: هذا جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن أرادكم بسوء أو عذاب؟ فليس دون الله من ينصركم عليه، وفيه إشارة إلى خطئهم في اتخاذ بعض خلق الله آلهة لينصروهم في النوائب وهم مملوكون لله لا يملكون لأنفسهم نفعاً وضرراً ولا لغيرهم.

وإذ لم يكن لهم جواب أجاب تعالى بقوله: «إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ» أي أحاط بهم الغرور وغشيتهم فخيّل اليهم ما يدعون من ألوهية آلهتهم.

قوله تعالى: «أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ» أي بل من الذي يشار إليه بأن هذا هو الذي يرزقكم إن أمسك الله رزقه فينوب مقامه فيرزقكم؟ ثم أجاب سبحانه بقوله: «بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ» أي إن الحق قد تبين لهم لكنهم لا يخضعون للحق بتصديقه ثم اتباعه بل تمادوا في ابتعادهم من الحق ونفورهم منه، ولجوا في ذلك.

قوله تعالى: «أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ إِكْبَابِ الشَّيْءِ عَلَى وَجْهِهِ إِسْقَاظُهُ عَلَيْهِ، وَ قَالَ فِي الْكَشَافِ: مَعْنَى

أكبّ دخل في الكب و صار ذا كب.

استفهام إنكارى عن استواء الحالين تعريضا لهم بعد ضرب حجاب الغيبه عليهم و تحريمهم من تشريف الحضور و الخطاب بعد استقرار اللجاج فيهم، و المراد أنهم بلجاجهم فى عتو عجيب و نفور من الحق كمن يسلك سبيلا و هو مكب على وجه لا يرى ما فى الطريق من ارتفاع و انخفاض و مزالق و معاثر فليس هذا السائر كمن يمشى سويا على صراط مستقيم فىرى موضع قدمه و ما يواجهه من الطريق على استقامه، و ما يقصده من الغايه و هؤلاء الكفار سائرون سبيل الحياه و هم يعاندون الحق على علم به فيغمضون عن معرفه ما عليهم أن يعرفوه و العمل بما عليهم أن يعملوا به و لا يخضعون للحق حتى يكونوا على بصيره من الأمر و يسلكوا سبيل الحياه و هم مستون على صراط مستقيم فإمّنوا الهلاك.

و قد ظهر أن ما فى الآيه مثل عام يمثل حال الكافر الجاهل اللجوج المتمادى على جهله و المؤمن المستبصر الباحث عن الحق.

[سوره الملك (٦٧): الآيات ٢٣ الى ٣٠]

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتْ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ قِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكِنِي اللَّهُ وَ مَيَّنَ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنِي فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَيَتَّعَلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠)

قوله تعالى: قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ الإنشاء إحداث الشيء ابتداء و تربيته.

ما في ذيل الآيه من لحن العتاب في قوله: «قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ» و قد تكرر نظيره في غير موضع من كلامه كما في سوره المؤمنون (١) و الم السجده (٢) يدل على أن إنشاءه تعالى الإنسان و تجهيزه بجهاز الحس و الفكر من أعظم نعمه تعالى التي لا يقدر قدرها.

و ليس المراد بإنشائه مجرد خلقه كيفما كان بل خلقه و إحداثه من دون سابقه في مادته كما أشار اليه في قوله يصف خلقه طوراً بعد طور: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً - الى أن قال- ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ (المؤمنون ١٤)، فصيوره المضغه إنساناً سمياً بصيراً متفكراً بتركيب النفس الإنسانية عليها خلق آخر لا- يسانخ أنواع الخلقه الماديه الوارده على ماده الإنسان من أخذها من الأرض ثم جعلها نطفه ثم علقه ثم مضغه فإنما هي أطوار ماديه متعاقبه بخلاف صيرورتها إنساناً ذا شعور فلا سابقه لها تماثلها أو تشابهها فهو الإنشاء.

ص: ٣٨٤

١-١. الآيه ٧٨.

٢-٢. الآيه ٩.

و مثله قوله: وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (الروم ٢٠) (انظر الى موضع إذا الفجائية).

فقوله: هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ إشاره الى خلق الإنسان.

و قوله: وَ جَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ إشاره الى تجهيزه بجهاز الحس و الفكر، و الجعل إنشائي كجعل نفس الإنسان كما يشير اليه قوله: وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (المؤمنون ٧٨).

و قوله: قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ أى تشكرون قليلا على هذه النعمه-أو النعم- العظمى فما زائده و قليلا مفعول مطلق تقديره تشكرون شكرا قليلا، و قيل: ما مصدرية و المعنى: قليلا شكركم.

قوله تعالى: قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ الذرة الخلق و المراد بذريعتهم فى الأرض خلقهم متعلقين بالأرض فلا يتم لهم كمالهم إلا بأعمال متعلقه بالماده الأرضيه بما زينها الله تعالى بما تنجذب اليه النفس الإنسانيه فى حياتها المعجله ليمتاز به الصالح من الطالح قال تعالى: إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لئنبؤهم أنهم أحسن عملا و إنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا (الكهف ٨).

و قوله: وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ إشاره الى البعث و الجزاء و وعد جازم.

قوله تعالى: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ المراد بهذا الوعد الحشر الموعود، و هو استعجال منهم استهزاء.

قوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ جواب عن قولهم:

«مَتَى هَذَا الْوَعْدُ» الخ؛ و محصله أن العلم به عند الله لا يعلم به إلا هو كما قال: لَا يُجَلِّئُهَا لَوْفَتِهَا إِلَّا هُوَ (الأعراف ١٨٧)، و ليس لى إلا أنى نذير مبين أمرت أن أخبركم أنكم اليه تحشرون و أما أنه متى هو فليس لى بذلك علم.

هذا على ما يفيد وقوع الآية في سياق الجواب عن السؤال عن وقت الحشر، وعلى هذا تكون اللام في العلم للعهد، والمراد العلم بوقت الحشر، وأما لو كانت للجنس على ما تفيده جملة «إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ» في نفسها فالمعنى: إنما حقيقه العلم عند الله ولا يحاط بشيء منه إلا بإذنه كما قال: «وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ» (البقره ٢٥٥/٢)، ولم يشأن أن أعلم من ذلك إلا أنه سيقع و أنذركم به و أما أنه متى يقع فلا علم لى به.

قوله تعالى: فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا الخ؛ الزلفه القرب و المراد به القريب أو هو من باب زيد عدل، و ضمير «رَأَوْهُ» للوعد و قيل للعذاب و المعنى:

فلما رأوا الوعد المذكور قريبا قد أشرف عليهم ساء ذلك وجوه الذين كفروا به فظهر في سيماهم أثر الخيبة و الخسران.

و قوله: وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ قيل تدعون و تدعون بمعنى واحد كتدخرون و تدخرون و المعنى: و قيل لهم: هذا هو الوعد الذى كنتم تسألونه و تستعجلون به بقولكم: متى هذا الوعد، و ظاهر السياق أن القائل هم الملائكة بأمر من الله، و قيل القائل من الكفار يقوله بعضهم لبعض.

قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَ مَن مَعِيَ أَوْ رَحِمْنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ «إِنْ» شرطيه شرطها قوله: «أَهْلَكْنِي اللَّهُ» و جزاؤها قوله:

«فَمَنْ يُجِيرُ» الخ؛ و المعنى: قل لهم أخبروني إن أهلكنى الله و من معى من المؤمنين أو رحمنا فلم يهلكنا فمن الذى يجير و يعيد الكافرين - و هم أنتم كفرتم بالله فاستحققتهم أليم العذاب - من عذاب أليم يهددهم تهديدا قاطعا أى إن هلاكى و من معى و بقاؤنا برحمه ربي لا ينفعكم شيئا فى العذاب الذى سيصيبيكم قطعا بكفركم بالله.

قيل: إن كفار مكة كانوا يدعون على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و على المؤمنين بالهلاك فأمر صلى الله عليه و آله و سلم و على المؤمنين بالهلاك فأمر صلى الله عليه و آله و سلم أن يقول لهم إن أهلكنا الله تعالى أو أبقانا فأمرنا الى الله

و نرجو الخير من رحمته و أما أنتم فما تصنعون؟ من يجيركم من أليم العذاب على كفركم بالله؟

قوله تعالى: قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَيَتَعَلَّمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ الضمير للذى يدعو الى توحيدهِ و هم يدعونهِ عليه، و المعنى: قل الذى أدعوكم الى توحيدهِ و تدعونهُ على و على من معى هو الرحمن الذى عمت نعمته كل شىء آمنأ به و على توكلنا من غير أن نميل و نعتمد على شىء دونه فستعلمون أيها الكفار من هو فى ضلال مبين؟ نحن أم أنتم؟

قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ الغور ذهاب الماء و نضوبه فى الأرض و المراد به الغائر، و المعين الظاهر الجارى من الماء، و المعنى: أخبرونى إن صار ماؤكم غائرا ناضبا فى الأرض فمن يأتىكم بماء ظاهر جار.

و هناك روايات تطبّق الآيات على ولايه على عليه السّلام و محادّته، و هى من الجرى و ليست بمفسّره.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَ الْقَلَمِ وَ مَا يَسْطُرُونَ (۱) مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ (۲) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (۳)
وَ إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (۴) فَسَتُبَصِّرُ وَ يُبَصِّرُونَ (۵) بِأَيُّكُمْ الْمَفْتُونُ (۶) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ (۷) فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (۸) وَدُوا لَوْ تَدَّهِنُ فَيُدْهِنُونَ (۹) وَ لَا تَطِعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (۱۰) هَمَّازٍ مَشَاءٍ بَنِيمٍ (۱۱) مَنَاعٍ
لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (۱۲) عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (۱۳) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَ بَنِينَ (۱۴) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۱۵) سَنَسِمُهُ
عَلَى الْخُرُطُومِ (۱۶) إِذَا بَلَّوْنَا هَمًّا كَمَا بَلَّوْنَا أَضْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (۱۷) وَ لَا يَسْتَشْتُونَ (۱۸) فَطَافَ عَلَيْهَا
طَائِفٌ مِّنْ رَبِّكَ وَ هُمْ نَائِمُونَ (۱۹) فَأَصْرَبَتْ كَالْصَّرِيمِ (۲۰) فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ (۲۱) أَنْ أَعْدُوا عَلَيَّ حَرْثَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
(۲۲) فَانطَلَقُوا وَ هُمْ يَتَخَفَتُونَ (۲۳) أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسِيكِينَ (۲۴) وَ عَدُوا عَلَيَّ حَزْدٍ قَادِرِينَ (۲۵) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا
لَصَالُونَ (۲۶) يَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (۲۷) قَالَ أَوْسَيْطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ (۲۸) قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (۲۹)
فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَيَّ بَعْضٌ يَتَلَاوَمُونَ (۳۰) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (۳۱) عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبَّنَا رَاغِبُونَ (۳۲)
كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (۳۳)

السورة تعزى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إثر ما رماه المشركون بالجنوب و تطيب نفسه بالوعد الجميل و الشكر على خلقه العظيم و تنهاه نهيا بالغاً عن طاعتهم و مدهنتهم، و تأمره أمراً أكيداً بالصبر لحكم ربه.

و سياق آياتها على الجملة سياق مكى، و نقل عن ابن عباس و قتاده أن صدرها الى قوله:

سنسمه على الخرطوم-سته عشره آيه-مكى، و ما بعده الى قوله: لو كانوا يعلمون-سبع عشره آيه-مدنى، و ما بعده الى قوله: يكتبون-خمس عشره آيه-مكى، و ما بعده الى آخر السورة-أربع آيات-مدنى.

و لا يخلو من وجه بالنسبه الى الآيات السبع عشره «إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ -الى قوله- لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» فإنها أشبه بالمدنيه منها بالمكيه.

قوله تعالى: ن تقدم الكلام فى الحروف المقطعه التى فى أوائل السور فى تفسير سورة الشورى.

قوله تعالى: وَ الْقَلَمِ وَ مَا يَسْطُرُونَ القلم معروف، و السطر بالفتح فالسكون و ربما يستعمل بفتحتين-كما فى المفردات-الصف من الكتابه، و من الشجر المغروس و من القوم الوقوف و سطر فلان كذا كتب سطر سطرًا.

أقسم سبحانه بالقلم و ما يسطرون به و ظاهر السياق أن المراد بذلك مطلق القلم و مطلق ما يسطرون به و هو المكتوب فإن القلم و ما يسطر به من الكتابه من أعظم النعم الإلهيه التي اهتدى إليها الإنسان يتلو الكلام فى ضبط الحوادث الغائبه عن الأنظار و المعانى المستكنه فى الضمائر، و به يتيسر للإنسان أن يستحضر كل ما ضرب مرور الزمان أو بعد المكان دونه حجاباً.

و قد امتنَّ اللهُ سبحانه على الإنسان بهدايته اليهما و تعليمهما له فقال فى الكلام: خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (الرحمن ٤/)، و قال فى القلم: عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (العلق ٥/).

فإقسامه تعالى بالقلم و ما يسطرون إقسام بالنعمه، و قد أقسم تعالى فى كلامه بكثير من خلقه بما أنه رحمه و نعمه كالسما و الأرض و الشمس و القمر و الليل و النهار الى غير ذلك حتى التين و الزيتون.

قوله تعالى: ﴿مَّا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ مقسم عليه و الخطاب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، و الباء فى «بِنِعْمَةِ» للسببيه أو المصاحبه أى ما أنت بمجنون بسبب النعمه-أو مع النعمه-التي أنعمها عليك ربك.

و السياق يؤيد أن المراد بهذه النعمه النبوه فإن دليل النبوه يدفع عن النبي كل اختلال عقلى حتى تستقيم الهدايه الإلهيه اللازمه فى نظام الحياه الإنسانيه، و الآيه ترد ما رموه به من الجنون كما يحكى عنهم فى آخر السوره «وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ» .

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ الممنون من المن بمعنى القطع يقال: منه السير منا إذا قطعه و أضعفه لا من المنه بمعنى تثقيل النعمه قولاً.

و المراد بالأجر أجر الرساله عند الله سبحانه، و فيه تطيب لنفس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و أن له على تحمل رساله الله أجراً غير مقطوع و ليس يذهب سدى.

قوله تعالى: وَ إِنَّكَ لَعَلِّي خُلِقَ عَظِيمٍ الخلق هو الملكة النفسانية التي تصدر عنها الأفعال بسهولة و ينقسم الى الفضيله و هى الممدوحه كالعفه و الشجاعه، و الرذيله و هى المذمومه كالشره و الجبن لكنه إذا أطلق فهم منه الخلق الحسن.

قال الراغب: و الخلق -بفتح الخاء- و الخلق -بضم الخاء- فى الأصل واحد كالشرب و الشرب و الصرم و الصرم لكن خصّ الخلق -بالفتح- بالهيات و الأشكال و الصور المدركه بالبصر، و خص الخلق -بالضم- بالقوى و السجايا المدركه بالبصيره قال تعالى: «وَ إِنَّكَ لَعَلِّي خُلِقَ عَظِيمٍ» انتهى.

و الآيه و إن كانت فى نفسها تمدح حسن خلقه صلى الله عليه و آله و سلم و تعظمه غير أنها بالنظر الى خصوص السياق ناظره الى أخلاقه الجميله الاجتماعيه المتعلقة بالمعاشره كالثبات على الحق و الصبر على أذى الناس و جفاء أجلافهم و العفو و الإغماض و سعه البذل و الرفق و المداراه و التواضع و غير ذلك، و قد أوردنا فى آخر الجزء السادس من الكتاب ما روى فى جوامع أخلاقه صلى الله عليه و آله و سلم.

قوله تعالى: فَسْتَبْصِرْ وَ يُبْصِرْ وَ لَكَ عَظِيمُ الأجر من ربك فسيظهر أمر دعوتك و ينكشف على الأبصار و البصائر من المفتون بالجنون أنت أو المكذبون الرامون لك بالجنون.

و قيل: المراد ظهور عاقبه أمر الدعوه له و لهم فى الدنيا أو فى الآخرة؟ الآيه تقبل الحمل على كل منها. و لكل قائل، و لا مانع من الجمع فإن الله تعالى أظهر نبيه عليهم و دينه على دينهم، و رفع ذكره صلى الله عليه و آله و سلم و محا أثرهم فى الدنيا و سيدوقون وبال أمرهم غدا و يعلمون (1) أن الله

ص: ٣٩٤

هو الحق المبين يوم هم (١) على النار يفتنون ذوقوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون.

و قوله: بِأَيُّكُمْ الْمَفْتُونُ الباء زائده للصله، و المفتون اسم مفعول من الفتنه بمعنى الابتلاء يريد به المبتلى بالجنون و فقدان العقل، و المعنى: فستبصر و يبصرون أيكم المفتون المبتلى بالجنون؟ أنت أم هم؟

و قيل: المفتون مصدر على زنه مفعول كمعقول و ميسور و معسور فى قولهم: ليس له معقول، و خذ ميسوره، و دع معسوره، و الباء فى «بأيكم» بمعنى فى و المعنى: فستبصر و يبصرون فى أى الفريقين الفتنه.

قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ لما أفيد بما تقدم من القول أن هناك ضلالا و اهتداء، و أشير الى أن الرامين للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بالجنون هم المفتونون الضالون و سيظهر أمرهم و أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم مهتد و كان ذلك بيان من الله سبحانه أكد ذلك بأن الله أعلم بمن ضلّ عن سبيله و هو أعلم بالمهتدين لأن سبيله و هو أعلم بمن هو فى سبيله و من ليس فيه و اليه أمر الهدايه.

قوله تعالى: فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ تفریع على المحصل من معنى الآيات السابقه و فى المكذبين معنى العهد و المراد بالطاعه مطلق الموافقه عملا أو قولاً، و المعنى: فإذا كان هؤلاء المكذبون لك مفتونين ضالين فلا تطعهم.

قوله تعالى: وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ الإدهان من الدهن يراد به التلین أى ودّ و أحبّ هؤلاء المكذبون أن تلینهم بالاقتراب منهم فى دينك فيلینوك بالاقتراب منك فى دينهم، و محصله أنهم ودّوا أن تصالحهم و يصالحوك على أن يتسامح كل منكم بعض المسامحه فى دين الآخر كما قيل: إنهم عرضوا عليه أن يكفّ عن ذكر آلهتهم فيكفّوا عنه و عن ربه.

ص: ٣٩٥

و بما تقدم ظهر أن متعلق مودتهم مجموع «لَوْ تُدْهِنُ قَيْدَهُنَّ» و أن الفاء في «قَيْدَهُنَّ» للتفريع لا للسببيه.

قوله تعالى: وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ -الى قوله- زَيْنَمِ الحَلَّافِ كثير الحلف، و لازم كثره الحلف و الإقسام في كل يسير و خطير و حق و باطل أن لا- يحترم الحالف شيئا مما يقسم به، و إذا كان حلفه بالله فهو لا يستشعر عظمه الله عز اسمه و كفى به رذيله.

و المهين من المهانه بمعنى الحقاره و المراد به حقاره الرأى، و قيل: هو المكثار في الشر، و قيل: هو الكذاب.

و الهَمَّاز مبالغه من الهمز و المراد به العيَاب و الطَّعَان، و قيل: الطَّعَان بالعين و الإشاره و قيل: كثير الاغتياب.

و المشاء بنميم النميم: السعايه و الإفساد، و المشاء به هو نقال الحديث من قوم الى قوم على وجه الإفساد بينهم. و المنَاع للخير كثير المنع لفعل الخير أو للخير الذى ينال أهله.

و المعتدى من الاعتداء و هو المجاوزه للحدّ ظلما.

و الأثيم هو الذى كثر إثمه حتى استقر فيه من غير زوال و الإثم هو العمل السيئ الذى يبطل الخير.

و العتَل بضمّتين هو الفظ الغليظ الطبع، و فسّر بالفاحش السيئ الخلق، و بالجافى الشديد الخصومه بالباطل، و بالأكول المنوع للغير، و بالذى يعتلّ الناس و يجزّهم الى حبس أو عذاب.

و الزنيم هو الذى لا أصل له، و قيل: هو الدعى الملحق بقوم و ليس منهم، و قيل: هو المعروف باللؤم، و قيل: هو الذى له علامه فى الشر يعرف بها و إذا ذكر الشر سبق هو الى الذهن، و المعانى متقاربه.

فهذه صفات تسع رذيله وصف الله بها بعض أعداء الدين ممن كان يدعو النبي صلى الله عليه وآله وسلم الى الطاعة و المداينه، و هي جماع الرذائل.

و قوله: **عُتِلُّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ** معناه أنه بعد ما ذكر من مثالبه و رذائله عتل زنيم قيل: و فيه دلالة على أن هاتين الرذيلتين أشد معايبه. و الظاهر أن فيه إشارة الى أن له خبائث من الصفات لا ينبغي معها أن يطاع في أمر الحق و لو أغمض عن تلك الصفات فإنه فظ خشن الطبع لا أصل له لا ينبغي أن يعبأ بمثله في مجتمع بشرى فليطرد و لا يطع في قول و لا يتبع في فعل.

قوله تعالى: **أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَ بَيْنَ الظَّاهِرِ أَنَّهُ بِتَقْدِيرِ لَامِ التَّعْلِيلِ وَ هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِفِعْلِ مُحْصَلٍ مِنْ مَجْمُوعِ الصِّفَاتِ الرَّذِيلَةِ الْمَذْكُورَةِ** أى هو يفعل كذا و كذا لأن كان ذا مال و بين فبطر بذلك و كفر بنعمه الله و تلبس بكل رذيله خبيثه بدل أن يشكر الله على نعمته و يصلح نفسه، فالآية في إفاده الذم و التهكم تجرى مجرى قوله: **«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ»**.

قوله تعالى: **إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** الأساطير جمع اسطوره و هي القصة الخرافية، و الآية تجرى مجرى التعليل لقوله السابق: **«لَا تُطْع»**.

قوله تعالى: **سَنَسِئُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ الوَسْمِ وَ السَّمِ وَ وَضَعَ الْعِلَامَةَ، وَ الْخُرْطُومُ الْأَنْفُ، وَ قِيلَ: إِنْ فِي إِطْلَاقِ الْخُرْطُومِ عَلَى أَنْفِهِ وَ إِنَّمَا يُطَلَّقُ فِي الْفِيلِ وَ الْخَنْزِيرِ تَهْكَمًا، وَ فِي الْآيَةِ وَعِيدٌ عَلَى عِدَاوَتِهِ الشَّدِيدَةِ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ مَا نَزَّلَهُ عَلَى رَسُولِهِ.**

و الظاهر أن الوسم على الأنف أريد به نهايه إذلاله بذله ظاهره يعرفه بها كل من رآه فإن الأنف مما يظهر فيه العزه و الذله كما يقال: شمش فلان بأنفه و حمى فلان أنفه و أرغمت أنفه و جدع أنفه.

و الظاهر أن الوسم على الخرطوم مما سيقع يوم القيامة لا في الدنيا و إن تكلف بعضهم في

توجيه حمله على فضاحته فى الدنيا.

قوله تعالى: إِذَا بَلَؤْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ -الى قوله- كَالصَّرِيمِ البلاء الاختبار و إصابه المصيبة،و الصرم قطع الثمار من الأشجار،و الاستثناء عزل البعض من حكم الكل و أيضا الاستثناء قول إن شاء الله عند القطع بقول و ذلك أن الأصل فيه الاستثناء فالأصل فى قولك:أخرج غدا إن شاء الله هو أخرج غدا إلا أن يشاء الله أن لا أخرج، و الطائف العذاب الذى يأتى بالليل،و الصريم الشجر المقطوع ثمره،و قيل:الليل الأسود، و قيل:الرمل المقطوع من سائر الرمل و هو لا ينبت شيئا و لا يفيد فائده.

فَطَافَ عَلَيْهَا عَلَى الْجَنَّةِ «طَائِفٌ» أى بلاء يطوف عليها و يحيط بها ليلا «مِنْ» ناحيه «رَبِّكَ ، فَأَصَيْبَحَتْ» و صارت الجنة «كَالصَّرِيمِ» و هو الشجر المقطوع ثمره أو المعنى:

فصارت الجنة كالليل الأسود لما اسودّت بإحراق النار التى أرسلها الله إليها أو المعنى:فصارت الجنة كالمقطوعه من الرمل لا نبات بها و لا فائده.

قوله تعالى: فَتَنَادُوا مُضِيِّبِحِينَ -الى قوله- قَادِرِينَ التنادى نداء بعض القوم بعضا،و الإصباح المدخول فى الإصباح،و صارمين من الصرم بمعنى قطع الثمار من الشجره، و المراد به فى الآيه القاصدون لقطع الثمار،و الحرث الزرع و الشجر،و الخفت الإخفاء و الكتمان، و الحرد المنع و قادرين من القدر بمعنى التقدير.

و المعنى «فَتَنَادُوا» أى فنادى بعض القوم بعضا «مُضِيِّبِحِينَ» أى و الحال أنهم داخلون فى الصباح «أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ» تفسير للتنادى أى بكروا مقبلين على جنتكم-فاغدوا أمر بمعنى بكروا مضمن معنى أقبلوا و لذا عدى بعلى و لو كان غير مضمن عدى يالى كما فى الكشاف- «إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ» أى قاصدين عازمين على الصرم و القطع.

فَانْطَلَقُوا وَ ذَهَبُوا إِلَى جَنَّتِهِمْ وَ هُمْ يَتَخَفَتُونَ أى و الحال أنهم يأتمرون فيما بينهم بطريق المخافته و المكاتمه «أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا» أى الجنة «الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ» أى أخفوا

ورودكم الجنة للصرم من المساكين حتى لا يدخلوا عليكم فيحملكم ذلك على عزل نصيب من الثمر المصروم لهم «وَ غَدَوْا» و بكروا الى الجنة «عَلَى حَزْدٍ» أى على منع للمساكين «قَادِرِينَ» مقدرين فى أنفسهم أنهم سيصرمونها و لا- يساهمون المساكين بشىء منها.

قوله تعالى: فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أى فلما رأوا الجنة و شاهدوها و قد أصبحت كالصرم بطواف طائف من عند الله قالوا: إنا لضالون عن الصواب فى غدونا إليها بقصد الصرم و منع المساكين.

و قيل: المراد إنا لضالون طريق جنتنا و ما هى بها.

و قوله: بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ إضراب عن سابقه أى ليس مجرد الضلال عن الصواب بل حرماننا الزرع.

قوله تعالى: قَالَ أَوْسَيْطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا- تَسْبِيحُونَ- الى قوله- رَاغِبُونَ أى «قَالَ أَوْسَيْطُهُمْ» أى أعدلهم طريقا و ذلك أنه ذكرهم بالحق و إن تبعهم فى العمل و قيل:

المراد أوسطهم سنا و ليس بشىء «أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ» و قد كان قال لهم ذلك و إنما لم يذكر قبل فى القصة إيجازا بالتعويل على ذكره هاهنا.

«لَوْ لَا- تَسْبِيحُونَ» المراد بتسبيحهم له تعالى تنزيههم له من الشركاء حيث اعتمدوا على أنفسهم و على سائر الأسباب الظاهرية فأقسموا ليصر منها مصبحين و لم يستثنوا لله مشيه فعزله تعالى عن السببيه و التأثير و نسبوا التأثير الى أنفسهم و سائر الأسباب الظاهرية، و هو إثبات للشريك، و لو قالوا: لنصر منها مصبحين إلا أن يشاء الله كان معنى ذلك نفى الشركاء و أنهم إن لم يصرموا كان لمشيه من الله و إن صرموا كان ذلك بإذن من الله فله الأمر وحده لا شريك له.

و قيل: المراد بتسبيحهم لله ذكر الله تعالى و توبتهم اليه حيث نوا أن يصرموها و يحرموا المساكين منها، و له وجه على تقدير أن يراد بالاستثناء عزل نصيب من الثمار للمساكين.

قوله تعالى: قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ تسييح منهم لله سبحانه إثر توبيخ أوسطهم لهم، أى ننزه الله تنزيها من الشركاء الذين أثبتناهم فيما حلفنا عليه فهو ربنا الذى يدير بمشيئته أمورنا لأننا كنا ظالمين فى إثباتنا الشركاء فهو تسييح و اعتراف بظلمهم على أنفسهم فى إثبات الشركاء.

و على القول الآخر توبه و اعتراف بظلمهم على أنفسهم و على المساكين.

قوله تعالى: فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ أَي يُلوم بعضهم بعضا على ما ارتكبه من الظلم.

قوله تعالى: قَالُوا يَا وَيْلَنَا -الى قوله- رَاغِبُونَ الطغيان تجاوز الحد و ضمير «منها» للجنه باعتبار ثمارها و المعنى: قالوا يا ويلنا إنا كنا متجاوزين حد العبوديه إذ أثبتنا شركاء لربنا و لم نوحده، و نرجوا من ربنا أن يبدلنا خيرا من هذه الجنه التى طاف عليها طائف منه لأننا راغبون اليه معرضون عن غيره.

قوله تعالى: كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَهُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ العذاب مبتدأ مؤخر، و كذلك خبر مقدم أى إنما يكون العذاب على ما وصفناه فى قصه أصحاب الجنه و هو أن الإنسان يمتحن بالمال و البنين فيطغى مغترا بذلك فيستغنى بنفسه و ينسى ربه و يشرك بالأسباب الظاهريه و بنفسه و يجترئ على المعصيه و هو غافل عما يحيط به من وبال عمله و يهيا له من العذاب كذلك حتى إذا فاجأه العذاب و برز له بأهول وجوهه و أمرها اتبه من نومه الغفله و تذكر ما جاءه من النصح قبلا و ندم على ما فرط بالطغيان و الظلم و سأل الله أن يعيد عليه النعمه فيشكر كما انتهى اليه أمر أصحاب الجنه، فى ذلك إعطاء الضابط بالمثل.

و قوله: وَالْعَذَابُ الْآخِرَهُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ لأنه ناش عن قهر إلهى لا يقوم له شىء لا رجاء للتخلص منه و لو بالموت و الفناء كما فى شدائد الدنيا، محيط بالإنسان

من جميع أقطار وجوده لا كعذاب الدنيا دائم لا انتهاء لأمده كما فى الابتلاءات الدنيويه (١).

[سوره القلم (٤٨): الآيات ٣٤ الى ٥٢]

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَاتٍ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَظِيمًا بِالْغَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْفَيْئَامِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَأَلَهُمْ آبُيَهُمْ بِعَدْلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْأُخْتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢)

ص: ٤٠١

١- ١). القلم ١-٣٣: بحث روائى فى تفسير الحروف المقطعه؛ خلق رسول الله العظيم؛ الذين لا يدخلون الجنة؛ امه محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ بِشْرَى و بيان لحال المتقين فى الآخرة قبال ما بين من حال المكذبين فيها.

و فى قوله: عِنْدَ رَبِّهِمْ دون أن يقال: عند الله إشاره الى رابطة التدبير و الرحمه بينهم و بينه سبحانه و أن لهم ذلك قبال قصرهم الربوبيه فيه تعالى و إخلاصهم العبوديه له.

و إضافه الجنات الى النعيم و هو النعمه للإشاره الى أن ما فيها من شىء نعمه لا تشوبها نقمه و لئذ لا يخالطها ألم، و سيجىء إن شاء الله فى تفسير قوله تعالى: ثُمَّ لَتَسْتَلْنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (التكاثر ٨)، أن المراد بالنعيم الولايه.

قوله تعالى: أَ فَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ تحتمل الآيه فى بادئ النظر أن

تكون مسوقه حجه على المعاد كقوله تعالى: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (ص ٢٨/)، وقد تقدم تفسيره.

و أن تكون ردا على قول من قال منهم للمؤمنين: لو كان هناك بعث و إعادته لكننا منعمين كما فى الدنيا وقد حكى سبحانه ذلك عن قائلهم وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ (حم السجده ٥٠/).

ظاهر سياق الآيات التالیه التي ترد عليهم الحكم بالتساوى هم الاحتمال الثانى، و هو الذى رووه أن المشركين لما سمعوا حديث البعث و المعاد قالوا: إن صح ما يقوله محمّد و الذين آمنوا معه لم تكن حالنا إلا أفضل من حالهم كما فى الدنيا و لا أقل من أن تتساوى حالنا و حالهم.

غير أنه يرد عليه أن الآيه لو سيقّت لرد قولهم، سنساويهم فى الآخرة أو نزيد عليهم كما فى الدنيا، كان مقتضى التطابق بين الرد و المردود أن يقال: أ فنجعل المجرمين كالمسلمين و قد عكس.

فقوله: **لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** مسوق للتعجب من حكمهم بكون المجرمين يوم القيامة كالمسلمين، و هو إشاره الى تأبى العقل عن تجويز التساوى، و محصله نفى حكم العقل بذلك إذ معناه: أى شىء حصل لكم من اختلال الفكر و فساد الرأى حتى حكمتم بذلك؟

قوله تعالى: **أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ** إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخَيَّرُونَ إشاره الى انتفاء الحجة على حكمهم بالتساوى من جهة السمع كما أن الآيه السابقه كانت إشاره الى انتفائها من جهة العقل.

و المراد بالكتاب الكتاب السماوى النازل من عند الله و هو حجه، و درس الكتاب قراءته، و التخيير الاختيار، و قوله: **«إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخَيَّرُونَ»** فى مقام المفعول لتدرسون و الاستفهام إنكارى.

و المعنى: بل ألكم كتاب سماوى تقرأون فيه إن لكم فى الآخرة-أو مطلقا-لما تختارونه فاخترتم السعادة و الجنة.

قوله تعالى: أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِاللَّغَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لِمَا تَحْكُمُونَ إشاره الى انتفاء أن يملكوا الحكم بعهد و يمين شفاهى لهم على الله سبحانه.

و الأيمان جمع يمين و هو القسم، و البلوغ هو الانتهاء فى الكمال فالأيمان البالغه هى المؤكده نهايه التوكيد، و قوله: «إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» على هذا ظرف مستقر متعلق بمقدر و التقدير: أم لكم علينا أيمان كائنه الى يوم القيامة مؤكده نهايه التوكيد، الخ.

و يمكن أن يكون «إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» متعلقا ببالغه و المراد ببلوغ الأيمان انطباقها على امتداد الزمان حتى ينتهى الى يوم القيامة.

و قوله: إِنَّ لَكُمْ لِمَا تَحْكُمُونَ جواب القسم و هو المعاهد عليه، و الاستفهام للانكار.

و المعنى: بل ألكم علينا عهدو أقسمنا فيها إقساماً مؤكدا الى يوم القيامة إنا سلمنا لكم أن لكم لما تحكمون به.

قوله تعالى: سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِاللَّغَةِ إعراض عن خطابهم و التفات الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم بتوجيه الخطاب لسقوطهم عن درجه استحقاق الخطاب و لذلك أورد بقيه السؤالات و هى مسائل أربع فى سياق الغيبه أولها قوله: «سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِاللَّغَةِ» و الزعيم القائم بالأمر المتصدى له، و الاستفهام إنكارى.

و المعنى: سل المشركين أئهم قائم بأمر التسويه الذى يدعونه أى إذا ثبت أن الله لا يسوى بين الفريقين لعدم دليل يدل عليه فهل الذى يقوم بهذا الأمر و يتصداه هو منهم؟ فأئهم هو؟ و من الواضح بطلانه لا يتفوه به إلا مصاب فى عقله.

قوله تعالى: أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فُلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ رَدَّ لَهُمْ

على تقدير أن يكون حكمهم بالتساوى مبني على دعواهم أن لهم آلهه يشاركون الله سبحانه في الربوبية سيشفعون لهم عند الله فيجعلهم كالمسلمين والاستفهام إنكارى يفيد نفى الشركاء.

وقوله: «فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ» الخ؛ كناية عن انتفاء الشركاء يفيد تأكيد ما فى قوله: «أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءٌ» من النفى.

قوله تعالى: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ -الى قوله- وَهُمْ سَالِمُونَ يوم ظرف متعلق بمحذوف كاذكر ونحوه، والكشف عن الساق تمثيل فى اشتداد الأمر اشتدادا بالغاً لما أنهم كانوا يشتمرون عن سوقهم إذا اشتد الأمر للعمل أو للفرار قال فى الكشف: فمعنى «يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ» فى معنى يوم يشتد الأمر ويتفاقم، ولا كشف ثم ولا ساق كما تقول للأقطع الشحيح: يده مغلوله ولا يد ثم ولا غل وإنما هو مثل فى البخل انتهى.

والآيه وما بعدها الى تمام خمس آيات اعتراض وقع فى البين بمناسبه ذكر شركائهم الذين يزعمون أنهم سيسعدونهم لو كان هناك بعث وحساب فذكر سبحانه أن لا شركاء لله ولا شفاعة وإما يحرز الإنسان سعاده الآخره بالسجود أى الخضوع لله سبحانه بتوحيد الربوبية فى الدنيا حتى يحمل معه صفه الخضوع فيسعد بها يوم القيامة.

وهؤلاء المكذبون المجرمون لم يسجدوا لله فى الدنيا فلا يستطيعون السجود فى الآخره فلا يسعدون ولا تتساوى حالهم وحال المسلمين فيها البته بل الله سبحانه يعاملهم فى الدنيا لاستكبارهم عن سجوده معامله الاستدراج والإملاء حتى يتم لهم شقاؤهم فيردوا العذاب الأليم فى الآخره.

فقوله: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ معناه اذكر يوم يشتد عليهم الأمر ويدعون الى السجود لله خضوعاً فلا يستطيعون لاستقرار

ملكه الاستكبار فى سرائرهم و اليوم تبلى السرائر (١).

و قوله: **خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ** حالان من نائب فاعل يدعون أى حال كون أبصارهم خاشعه و حال كونهم يغشاهم الذله بقهر، و نسبة الخشوع الى الأبصار لظهور أثره فيها.

و قوله: **وَ قَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَ هُمْ سَالِمُونَ** المراد بالسلامه سلامتهم من الآفات و العاهات التى لحقت نفوسهم بسبب الاستكبار عن الحق فسلبتها التمكّن من إجابته الحق أو المراد مطلق استطاعتهم منه فى الدنيا.

و المعنى: و قد كانوا فى الدنيا يدعون الى السجود لله و هم سالمون متمكنون منه أقوى تمكّن فلا يجيئون اليه.

قوله تعالى: **فَذَرْنِي وَ مَنْ يَكْذِبُ** بهذا الحديث المراد بهذا الحديث القرآن الكريم و قوله: **«فَذَرْنِي وَ مَنْ يَكْذِبُ»** الخ؛ كناية عن أنه يكفيهم وحده و هو غير تاركهم و فيه نوع تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و تهديد للمشركين.

قوله تعالى: **سَنَسِيحَتُ دَرَجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ** استئناف فيه بيان كيفية أخذه تعالى لهم و تعذيبه إياهم المفهوم من قوله: **«فَذَرْنِي»** الخ.

و الاستدراج هو استنزالهم درجة فدرجة حتى يتم لهم الشقاء فيقعوا فى ورطه الهلاك و ذلك بأن يؤتيهم الله نعمه بعد نعمه و كلما أوتوا نعمه اشتغلوا بها و فرطوا فى شكرها و زادوا نسياناً له و ابتعدوا عن ذكره.

فالاستدراج إيتاؤهم النعمة بعد النعمة الموجب لتزولهم درجة بعد درجة و اقترابهم من ورطه الهلاك، و كونه من حيث لا يعلمون إنما هو لكونه من طريق النعمة التى يحسبونها خيراً

ص: ٤٠٦

و سعادته لا شر فيها ولا شقاء.

قوله تعالى: «وَأْمَلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ» الإملاء الإمهال، والكيد ضرب من الاحتيال، والمتين القوى.

و المعنى: و أمهلهم حتى يتوسعوا في نعمنا بالمعاصي كما يشاءون إن كيدي قوى.

و النكته في الالتفات الذي في «سَنَسِي تَدْرِيْهُمْ» عن التكلم وحده الى التكلم مع الغير الداله على العظمه و أن هناك موكلين على هذه النعم التي تصب عليهم صبا، و الالتفات في قوله:

«وَأْمَلَى لَهُمْ» عن التكلم مع الغير الى التكلم وحده لأن الإملاء تأخير في الأجل و لم ينسب أمر الأجل في القرآن الى غير الله سبحانه قال تعالى: ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ (الأنعام ٢/).

قوله تعالى: «أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ» المغرم الغرامه، و الإثقال تحميل الثقل، و الجملة معطوفه على قوله: «أَمْ لَّهُمْ شُرَكَاءٌ» الخ.

و المعنى: أم تسأل هؤلاء المجرمين-الذين يحكمون بتساوى المجرمين و المسلمين يوم القيامة-أجرا على دعوتك فهم من غرامه تحملها عليهم مثقلون فيواجهونك بمثل هذا القول تخلصا من الغرامه دون أن يكون ذلك منهم قولا جديا.

قوله تعالى: «أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ» ظاهر السياق أن يكون المراد بالغيب غيب الأشياء الذي منه تنزل الامور بقدر محدود فتستقر في منصبه الظهور، و المراد بالكتابة على هذا هو التقدير و القضاء، و المراد بكون الغيب عندهم تسلطهم عليه و ملكهم له.

فالمعنى: أم بيدهم أمر القدر و القضاء فهم يقضون كما شاءوا فيقضون لأنفسهم أن يساوا المسلمين يوم القيامة.

قوله تعالى: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُكِنُّ كَصَاحِبِ الْهَوْتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ

مَكْظُومٌ صاحب الحوت يونس النبي عليه السَّلام و المكظوم من كظم الغيظ إذا تجرعه و لذا فسر بالمختنق بالغم حيث لا يجد لغيظه شفاء، و نهيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن أن يكون كيونس عليه السَّلام و هو في زمن النداء مملوء بالغم نهى عن السبب المؤدى الى نظير هذا الابتلاء و هو ضيق الصدر و الاستعجال بالعذاب.

و المعنى: فاصبر لقاء ربك أن يستدرجهم و يملئ لهم و لا تستعجل لهم العذاب لكفرهم و لا تكن كيونس فتكون مثله و هو مملوء غما أو غيضا ينادى الله بالتسبيح و الاعتراف بالظلم أى فاصبر و احذر أن تبتلى بما يشبه ابتلاءه، و نداؤه قوله فى بطن الحوت: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» كما فى سورة الأنبياء.

قوله تعالى: لَوْ لَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فى مقام التعليل للنهى السابق «لَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوتِ» و التدارك الإدراك و اللحوق، و فسرت النعمة بقبول التوبه، و النبذ الطرح، و العراء الأرض غير المستوره بسقف أو نبات، و الذم مقابل المدح.

و المعنى: لو لا أن أدركته و لحقت به نعمة من ربه و هو أن الله قبل توبته لطح بالأرض العراء و هو مذموم بما فعل.

لا- يقال: إن الآيه تنافى قوله تعالى: فَلَوْ لَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبَثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (الصافات ١٤٤)، فإن مدلوله أن مقتضى عمله أن يلبث فى بطنه الى يوم القيامة و مقتضى هذه الآيه أن مقتضاه أن يطرح فى الأرض العراء مذموما و هما تبعتان متنافيتان لا تجتمعان.

فإنه يقال: الآيتان تحكيان عن مقتضيين مختلفين لكل منهما أثر على حده فأيه الصافات تذكر أنه عليه السَّلام كان مداوما للتسبيح مستمرا عليه طول حياته قبل ابتلائه- و هو قوله: كان من المسبحين- و لو لا ذلك للبث فى بطنه الى يوم القيامة، و الآيه التى نحن فيها تدل على أن النعمة

و هو قبول توبته فى بطن الحوت شملته فلم ينبذ بالعراء مذموما.

فمجموع الآيتين يدل على أن ذهابه مغاضبا كان يقتضى أن يلبث فى بطنه الى يوم القيامه فممنع عن دوام تسيبته قبل التقامه و بعده، وقدّر أن ينبذ بالعراء و كان مقتضى عمله أن ينبذ مذموما فممنع من ذلك تدارك نعمه ربه له فنبذ غير مذموم بل اجتباها الله و جعله من الصالحين فلا منافاه بين الآيتين.

و قد تكرر فى مباحثنا السابقه أن حقيقه النعمه الولايه و على ذلك يتعين لقوله: «لَوْ لَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ» معنى آخر.

قوله تعالى: فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ تقدم توضيح معنى الاجتباء و الصلاح فى مباحثنا المتقدمه.

قوله تعالى: وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ إِنْ مَخَفَهُ مِنَ الثَّقِيلِ، و الزلق هو الزلل، و الإزلاق الإزلال و هو الصرع كناية عن القتل و الإهلاك.

و المعنى: أنه قارب الذين كفروا أن يصرعوك بأبصارهم لما سمعوا الذكر.

و المراد بإزلاقه بالأبصار و صرعه بها-على ما عليه عامه المفسرين-الإصابه بالأعين، و هو نوع من التأثير النفسانى لا دليل على نفيه عقلا و ربما شوهد من الموارد ما يقبل الانطباق عليه، و قد وردت فى الروايات فلا موجب لإنكاره.

و قيل: المعنى أنهم ينظرون اليك إذا سمعوا منك الذكر الذى هو القرآن نظرا مليئا بالعداوه و البغضاء يكادون يقتلونك بحديد نظرهم.

قوله تعالى: وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ رَمِيَهُمْ لَهُ بِالْجَنُونِ عِنْدَ مَا سَمِعُوا الذِّكْرَ دَلِيلٌ عَلَى أَنْ مَرَادُهُمْ بِهِ رَمَى الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ مِنْ إلقاء الشياطين، و لذا ردّ قولهم بأن القرآن ليس إلا ذكرا للعالمين.

وقد ردّ قولهم: «إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ» في أول السوره بقوله: «لَمَّا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ» و به ينطبق خاتمه السوره على فاتحتها (1).

ص: ٤١٠

١-١). القلم ٣٤-٥٢: بحث روائي حول قوله تعالى: «يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ»؛ استدراج المكذبين؛ العين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَا الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ
فَأَهْلَكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصِرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَازِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا
صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا
رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكَرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢)

السوره تذكر الحاقه و هي القيامه و قد سمّتها أيضا بالقارعه و الواقعه.

و قد ساقّت الكلام فيها في فصول ثلاثه: فصل تذكر فيه إجمالاً الامم الذين كذبوا بها فأخذهم الله أخذه رابيه، و فصل تصف فيه الحاقه و انقسام الناس فيها الى أصحاب اليمين و أصحاب الشمال و اختلاف حالهم بالسعاده و الشقاء، و فصل تؤكد فيه صدق القرآن في إنبائه بها و أنه حق اليقين، و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها.

قوله تعالى: «الْحَاقَّةُ مَيَّا الْحَاقَّةُ وَ مَيَّا أَدْرَاكُ مَيَّا الْحَاقَّةُ» المراد بالحاقه القيامه الكبرى سميت بها لثبوتها ثبوتاً لا مردّ له و لا ريب فيه، من حقّ الشىء بمعنى ثبت و تقرّر تقرّراً واقعياً.

و «مَيَّا» في «مَيَّا الْحَاقَّةُ» استفهاميه تفيد تفخيم أمرها و لذلك بعينه وضع الظاهر موضع الضمير و لم يقل: ما هي، و الجملة الاستفهاميه خبر الحاقه.

فقوله: «الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ» مسوق لتفخيم أمر القيامه يفيد تفخيم أمرها و إعظام حقيقتها إفاده بعد إفاده.

و قوله: وَ مَيَّا أَدْرَاكُ مَيَّا الْحَاقَّةُ خطاب بنفى العلم بحقيقه اليوم و هذا التعبير كناية عن كمال أهميه الشىء و بلوغه الغايه في الفخامه و لعل هذا هو المراد مما نقل عن ابن عباس: أن ما في القرآن من قوله تعالى: «مَا أَدْرَاكُ» فقد أدراه و ما فيه من قوله: «مَا يُدْرِيكَ» فقد طوى عنه، يعنى أن «مَا أَدْرَاكُ» كناية و «مَا يُدْرِيكَ» تصريح.

قوله تعالى: كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عَادٌ بِالْقَارِعَةِ المراد بالقارعه القيامه و سميت بها

لأنها تفرع و تدكّ السماوات و الأرض بتبديلها و الجبال بتسييرها و الشمس بتكويرها و القمر بخسفها و الكواكب بنثرها و الأشياء كلها بقهرها على ما نطقت به الآيات، و كان مقتضى الظاهر أن يقال: كذبت ثمود و عاد بها فوضع القارعه موضع الضمير لتأكيد تفخيم أمرها.

و هذه الآيه و ما يتلوها الى تمام تسع آيات و إن كانت مسوقه للإشاره الى إجمال قصص قوم نوح و عاد و ثمود و فرعون و من قبله و المؤتفكات و إهلاكهم لكنها فى الحقيقه بيان للحاقه ببعض أوصافها و هو أن الله أهلك أمما كثيره بالتكذيب بها فهى فى الحقيقه جواب للسؤال بما الاستفهاميه كما أن قوله: «فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ» الخ؛ جواب آخر.

و محصل المعنى: هى القارعه التى كذبت بها ثمود و عاد و فرعون و من قبله و المؤتفكات و قوم نوح فأخذهم الله أخذه راييه و أهلكتهم بعذاب الاستئصال.

قوله تعالى: فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ بِانّ تذكيرهم بالقارعه، و المراد بالطاغيه الصيحه أو الرجفه أو الصاعقه على اختلاف ظاهر تعبير القرآن فى سبب هلاكهم فى قصتهم قال تعالى: وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ (هود ٦٧)، و قال أيضا: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ (الأعراف ٨٧)، و قال: أَيضاً فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ (حم السجده ١٧).

قوله تعالى: وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصِرٍ عَاتِيَةٍ الصرصر الريح الباردة الشديده الهبوب، و عاتيه من العتوّ بمعنى الطغيان و الابتعاد من الطاعه و الملاءمه.

قوله تعالى: سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صِرَعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ تسخيرها عليهم، و الحسوم جمع حاسم كشهود جمع شاهد من الحسم بمعنى تكرار الكى مرات متتاليه، و هى صفة لسبع أى سبع ليال و ثمانيه أيام متتاليه متتابعه و صرعى جمع صريع و أعجاز عجز بالفتح فالضم آخر الشىء، و خاويه الخاليه الجوف الملقاه و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيهِ أَي من نفس باقيه، و الجملة كناية عن استيعاب الهلاك لهم جميعا، وقيل: الباقيه مصدر بمعنى البقاء وقد أريد به البقيه و ما قدمناه من المعنى أقرب.

قوله تعالى: وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ المراد بفرعون فرعون موسى، و بمن قبله الامم المتقدمه عليه زمانا من المكذبين، و بالمؤتفكات قرى قوم لوط و الجماعه القاطنه بها، و «بِالْخَاطِئَةِ» مصدر بمعنى الخطاء و المراد بالمجىء بالخطئه إخطاء طريق العبوديه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: فَعَصَا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَهُ رَبِّيَّهُ ضَمِير «فَعَصَا» لفرعون و من قبله و المؤتفكات، و المراد بالرسول جنسه، و الرايه الزائده من ربا يربو ربوه إذا زاد، و المراد بالأخذه الرايه العقوبه الشديده و قيل: العقوبه الزائده على سائر العقوبات و قيل: الخارقه للعادة.

قوله تعالى: إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ إشاره الى طوفان نوح و الجاريه السفينه، و عد المخاطبين محمولين فى سفينه نوح و المحمول فى الحقيقه أسلافهم لكون الجميع نوعا واحدا ينسب حال البعض منه الى الكل و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُنْذُنٌ وَأَعْيَةٌ تَعْلِيلٌ لِحَمْلِهِمْ فى السفينه فضمير «لِنَجْعَلَهَا» للحمل باعتبار أنه فعله أى فعلنا بكم تلك الفعله لنجعلها لكم أمرا تتذكرون به و عبره تعتبرون بها و موعظه تتعظون بها.

و قوله: وَتَعِيَهَا أُنْذُنٌ وَأَعْيَةٌ جعل الشىء فى الوعاء، و المراد بوعى الاذن لها تقريرها فى النفس و حفظها فيها لترتب عليها فائدتها و هى التذكر و الاتعاظ.

و فى الآيه بجملتها إشاره الى الهدايه الربويه بكلا قسميها أعنى الهدايه بمعنى إراءه الطريق

[سوره الحاقه (٦٩): الآيات ١٣ الى ٣٧]

فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْحَهُ وَاحِدَهُ (١٣) وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَ انشَقَّتِ
السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَ الْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى
مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَابِي (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حَسَابِيَهُ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشِهِ رَاضِيَهُ
(٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ
فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهُ (٢٥) وَ لَمْ أَذِرْ مَا حِسَابِيَهُ (٢٦) يَا لَيْتَنِي كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهُ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي
سُلْطَانِيَهُ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
الْعَظِيمِ (٣٣) وَ لَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَشْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَ لَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا
الْخَاطِئُونَ (٣٧)

ص: ٤١٥

بيان:

قوله تعالى: **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْحَهُ** **وَإِحْدَهُ** قد تقدم أن النفخ في الصور كناية عن البعث و الإحضار لفصل القضاء، و في توصيف النفخه بالواحده إشاره الى مضى الأمر و نفوذ القدره فلا و هن فيه حتى يحتاج الى تكرار النفخه، و الذى يسبق الى الفهم من سياق الآيات أنها النفخه الثانيه التى تحيى الموتى.

قوله تعالى: **وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ** **وَ الْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً** **وَاحِدَةً** الدك أشد الدق و هو كسر الشىء و تبديله الى أجزاء صغار، و حمل الأرض و الجبال إحاطه القدره بها، و توصيف الدكه بالواحده للإشاره الى سرعه نفتتهما بحيث لا يفتقر الى دكه ثانيه.

قوله تعالى: **فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ** أى قامت القيامة.

ص: ٤١٦

قوله تعالى: وَ انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ انشقاق الشيء انفصال شطر منه من شطر آخر، و واهيه من الوهى بمعنى الضعف، و قيل: من الوهى بمعنى شق الأديم و الثوب و نحوهما.

و يمكن أن تكون الآية أعنى قوله: «وَ انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ وَ الْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا» فى معنى قوله: وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَ نِزْلَ الْمَلَائِكَةِ نَزِيلًا (الفرقان / ٢٥).

قوله تعالى: وَ الْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ قال الراغب: رجا البئر و السماء و غيرها جانبا و الجمع أرجاء قال تعالى:

«وَ الْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا» انتهى، و الملك - كما قيل - يطلق على الواحد و الجمع و المراد به فى الآية الجمع.

و قوله: وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ضمير «فَوْقَهُمْ» على ظاهر ما يقتضيه السياق للملائكة، و قيل: الضمير للخلائق.

و ظاهر كلامه أن للعرش اليوم حمله من الملائكة قال تعالى: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا (المؤمن ٧)، و قد وردت الروايات أنهم أربعة، و ظاهر الآية أعنى قوله: «وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ» أن الحمله يوم القيامة ثمانية و هل هم من الملائكة أو من غيرهم؟ الآية ساكتة عن ذلك و إن كان لا يخلو السياق من إشعار ما بأنهم من الملائكة.

و من الممكن - كما تقدمت الإشارة إليه - أن يكون الغرض من ذكر انشقاق السماء و كون الملائكة على أرجائها و كون حمله العرش يومئذ ثمانية بيان ظهور الملائكة و السماء و العرش للإنسان يومئذ، قال تعالى: وَ تَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ (الزمر ٧٥).

قوله تعالى: **يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةُ الظَّاهِرِ** أن المراد به العرض على الله كما قال تعالى: **وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صِيًّا** (الكهف ٤٨)، والعرض إراءه البائع سلعته للمشتري ببسطها بين يديه، فالعرض يومئذ على الله وهو يوم القضاء إبراز ما عند الإنسان من اعتقاد وعمل إبرازا لا يخفى معه عقيدة خافية ولا فعله خافية وذلك بتبدل الغيب شهادته والسر علنا قال: **يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ** (الطارق ٩)، وقال: **يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ** (المؤمن ١٦).

فالمعنى: يومئذ يظهر أنكم في معرض على علم الله و يظهر كل فعله خافية من أفعالكم.

قوله تعالى: **فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَبُا كِتَابِيَةَ** قال في المجمع: هاءوم أمر للجماعه بمنزله هاكم، تقول للواحد: هاء يا رجل، وللثنتين: هاءوما يا رجلا، وللجماعه: هاءوم يا رجال، وللمرأه: هاء يا امرأه بكسر الهمزة و ليس بعدها ياء، وللمرأتين: هاءوما، وللنساء: هاءون. هذه لغه أهل الحجاز.

و تميم و قيس يقولون: هاء يا رجل مثل قول أهل الحجاز، وللثنتين: هاء، وللجماعه:

هاءوا، وللمرأه: هائي، وللنساء: هاءون.

و بعض العرب يجعل مكان الهمزة كافا فيقول: هاك هاكم هاك هاكم هاكل، ومعناه:

خذ و تناول، و يؤمر بها و لا ينهى. انتهى.

و الآية و ما بعدها الى قوله: **«الْخَاطِئُونَ»** بيان تفصيلي لاختلاف حال الناس يومئذ من حيث السعاده و الشقاء، و قد تقدم في تفسير قوله تعالى: **فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ** (الإسراء ٧١) كلام في معنى إعطاء الكتاب باليمين، و الظاهر أن قوله: **«هَٰؤُلَاءِ أَقْرَبُا كِتَابِيَةَ»** خطاب للملائكة، و الهاء في **«كِتَابِيَةَ»** و كذا في أواخر الآيات التاليه للوقف و تسمى هاء الاستراحة.

و المعنى: فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول للملائكة: خذوا و اقرءوا كتابيه أى إنها كتاب

يقضى بسعادتي.

قوله تعالى: إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهٗ الظن بمعنى اليقين، والآيه تعليل لما يتحصل من الآيه السابقه و محصل التعليل إنما كان كتابي كتاب اليمين و قاضيا بسعادتي لأنني أيقنت في الدنيا أني سالاتي حسابي فأمنت بربي و أصلحت عملي.

قوله تعالى: فَهَوَ فِي عَيْشِهِ رَاضِيَهٗ أى يعيش عيشه يرضاها فنسبه الرضا الى العيشه من المجاز العقلي.

قوله تعالى: فِي جَنِّهِ عَالِيَهٗ -الى قوله- أَلْخَالِيَهٗ أى هو فى جنه عاليه قدرا فيها ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر.

و قوله: قُطُوفُهَا دَانِيَهٗ القُطُوف جمع قطف بالكسر فالسكون و هو ما يجتنى من الثمر و المعنى: أثمارها قريبه منه يتناوله كيف يشاء.

و قوله: كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَهٗ أى يقال لهم:

كلوا و اشربوا من جميع ما يؤكل فيها و ما يشرب حال كونه هنيئا لكم بما قدمتم من الإيمان و العمل الصالح فى الدنيا التى تقضت أيامها.

قوله تعالى: وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِجْمَالِهٖ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهٗ وَ لَمْ أُدْرِكْ مَا حِسَابِيَهٗ وَ هُوَ لَمْ يَمَسَّ هَمَّ الطَّائِفَهٗ الثَّانِيَهٗ وَ هَمَّ الْأَشْقِيَاءِ الْمَجْرَمُونَ يُؤْتُونَ صَحِيفَهٗ أَعْمَالِهِمْ بِشِمَالِهِمْ وَ قَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِي مَعْنَاهُ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ، وَ هُوَ لَمْ يَمَسَّ هَمَّ الطَّائِفَهٗ الثَّانِيَهٗ وَ هَمَّ الْأَشْقِيَاءِ الْمَجْرَمُونَ يُؤْتُونَ كِتَابَهُمْ وَ يَدْرُونَ مَا حِسَابُهُمْ يَتَمَنُونَ ذَلِكَ لِمَا يَشَاهِدُونَ مِنْ أَلِيمِ الْعَذَابِ الْمَعْدُ لَهُمْ.

قوله تعالى: يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَهٗ ذَكَرُوا أَنَّ ضَمِيرَ «لَيْتَهَا» لِلْمَوْتِ الْأُولَى الَّتِي ذَاقَهَا الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا.

و المعنى: يا ليت الموته الاولى التى ذقتها كانت قاضيه على تقضى بعدمى فكنت انعدمت و لم أبعث حيا فأقع فى ورطه العذاب الخالد و أشاهد ما أشاهد.

قوله تعالى: ﴿أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ هَلَمَّكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ﴾ كلمتا تحسر يقولهما حيث يرى خيبه سعيه في الدنيا فإنه كان يحسب أن مفتاح سعادته في الحياه هو المال و السلطان يدفعان عنه كل مكروه و يسלטانه على كل ما يحب و يرضى فبذل كل جهده في تحصيلهما و أعرض عن ربه و عن كل حق يدعى اليه و كذب داعيه فلما شاهد تقطع الأسباب و أنه في يوم لا ينفع فيه مال و لا بنون ذكر عدم نفع ماله و بطلان سلطانه تحسرا و توجعا و ما ذا ينفع التحسر؟

قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ - إلى قوله - ﴿فَاسْلُكُوهُ حَكَايَهُ﴾ أمره تعالى الملائكة بأخذه و إدخاله النار، و التقدير يقال للملائكة خذوه الخ، و «فَغُلُّوهُ» أمر من الغل بالفتح و هو الشد بالغل الذي يجمع بين اليد و الرجل و العنق.

و قوله: ﴿ثُمَّ الْجَحِيمِ صَلُّوهُ﴾ أى أدخلوه النار العظيمه و ألزموه إياها.

و قوله: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ السلسله القيد، و الذرع الطول، و الذراع بعد ما بين المرفق و رأس الأصابع و هو واحد الطول و سلوكه فيه جعله فيه، و المحصل ثم اجعلوه في قيد طوله سبعون ذراعا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسَكِينِ﴾ الحَضُّ التحريض و الترغيب، و الآيتان في مقام التعليل للأمر بالأخذ و الإدخال في النار أى إن الأخذ ثم التصليه في الجحيم و السلوك في السلسله لأجل أنه كان لا يؤمن بالله العظيم و لا يحرض على طعام المسكين أى يساهل فى أمر المساكين و لا يبالي بما يقاسونه.

قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾ - الى قوله - ﴿الْخَاطُونَ﴾ الحميم الصديق و الآيه تفريع على قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ﴾ الخ؛ و المحصل: أنه لما كان لا يؤمن بالله العظيم فليس له اليوم هاهنا صديق ينفعه أى شفيح يشفع له إذ لا مغفره لكافر فلا شفاعه.

وقوله: **وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلِينَ** الغسلين الغساله و كأن المراد به ما يسيل من أبدان أهل النار من قيح و نحوه و الآية عطف على قوله في الآية السابقه: «**حَمِيمٌ**» و متفرع على قوله: «**وَلَا يَحُضُّ**» الخ؛ و المحصل: أنه لما كان لا يحرض على طعام المسكين فليس له اليوم هاهنا طعام إلا من غسلين أهل النار.

و قوله: **لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ** وصف لغسلين و الخاطئون المتلبسون بالخطيئه و الإثم (١).

[سوره الحاقه (٦٩): الآيات ٣٨ الى ٥٢]

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢)

ص: ٤٢١

١- ١). الحاقه ١٣-٣٧: بحث روائى فى: حمله العرش يوم القيامة؛ من اوتى كتابه يمينه؛ عذاب أهل جهنم.

بيان:

قوله تعالى: **فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَ مَا لَا تُبْصِرُونَ** ظاهر الآيه أنه إقسام بما هو مشهود لهم و ما لا يشاهدون أى الغيب و الشهاده فهو إقسام بمجموع الخلقه و لا يشمل ذاته المتعالیه فإن من البعيد من أدب القرآن أن يجمع الخالق و الخلق فى وصف واحد و يعظمه تعالى و ما صنع تعظيما مشتركا فى عرض واحد.

و فى الإقسام نوع تعظيم و تجليل للمقسم به و خلقه تعالى بما أنه خلقه جليل جميل لأنه تعالى جميل لا يصدر منه إلا الجميل و قد استحسنت تعالى فعل نفسه و أثنى على نفسه بخلقها فى قوله: **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ** (الم السجده ٧)، و قوله: **فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** (المؤمنون ١٤). فليس للموجودات منه تعالى إلا الحسن و ما دون ذلك من مساءه فمن أنفسها و بقياس بعضها الى بعض.

و فى اختيار ما يبصرون و ما لا يبصرون للإقسام به على حقيقته القرآن ما لا يخفى من المناسبه فإن النظام الواحد المتشابهك أجزاءه الجارى فى مجموع العالم يقضى بتوحيده تعالى و مصير الكل اليه و ما يترتب عليه من بعث الرسل و إنزال الكتب و القرآن خير كتاب سماوى يهدى الى الحق فى جميع ذلك و الى طريق مستقيم.

قوله تعالى: **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ** الضمير للقرآن، و المستفاد من السياق أن

ص: ٤٢٢

المراد برسول كريم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ تصديق لرسالته قبال ما كانوا يقولون إنه شاعر أو كاهن.

ولا- ضير في نسبه القرآن الى قوله فإنه إنما ينسب اليه بما أنه رسول و الرسول بما أنه رسول لا يأتي إلا بقول مرسله، وقد بين ذلك فضل بيان بقوله بعد: «تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» .

قوله تعالى: «وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ نَفَى أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنَ نِظْمًا أَلْفَهُ شَاعِرٌ وَ لَمْ يَقُلِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شعرا و لم يكن شاعرا.

و قوله: «قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ» توبيخ لمجتمعهم حيث إن الأكثرين منهم لم يؤمنوا و ما آمن به إلا قليل منهم.

قوله تعالى: «وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ نَفَى أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنَ كِهَانَهُ وَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَاهِنًا يَأْخُذُ الْقُرْآنَ مِنَ الْجِنِّ وَ هُمْ يَلْقَوْنَهُ إِلَيْهِ.

و قوله: «قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ» توبيخ أيضا لمجتمعهم.

قوله تعالى: «تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» أى منزل من رب العالمين و ليس من صنع الرسول نسبه الى الله كما تقدمت الإشارة اليه.

قوله تعالى: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ» كما يقبض على المجرم فيؤخذ بيده أو المراد قطعنا منه يده اليمنى أو المراد لانقمنا منه بالقوه كما ذكره الراغب-عرق يسقى الكبد و إذا انقطع مات صاحبه، وقيل: هو رباط القلب.

و المعنى «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا» هذا الرسول الكريم الذى حملناه رسالتنا و أرسلناه اليكم بقرآن نزلناه عليه و اختلق «بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ» و نسبه اليها «لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ» كما يقبض على المجرم فيؤخذ بيده أو المراد قطعنا منه يده اليمنى أو المراد لانقمنا منه بالقوه كما فى روايه القمى «ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ» و قتلناه لتقوله علينا «فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزِينَ» تحجبونه عنا

و تنجونه من عقوبتنا و إهلاكنا.

و هذا تهديد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ عَلَى تَقْدِيرِ أَنْ يَفْتَرِيَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَ يَنْسِبَ إِلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَقُلْهُ وَ هُوَ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِهِ أَكْرَمُهُ بِنَبْوَتِهِ وَ اخْتَارَهُ لِرِسَالَتِهِ.

فَالآيَاتُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: لَوْ لَا أَنْ تُجْتَنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذَا لَادَفْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَ ضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (الإسراء ٧٥)، وَ كَذَا قَوْلُهُ فِي الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ ذِكْرِ نِعْمَةِ الْعِظَمَى عَلَيْهِمْ: وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (الأنعام / ٨٨).

فَلَا يَرِدُ أَنْ مَقْتَضَى الْآيَاتِ أَنْ كُلِّ مَنْ ادَّعَى النَّبُوَّةَ وَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ أَهْلَكَهُ اللَّهُ وَ عَاقِبَهُ فِي الدُّنْيَا أَشَدَّ الْعِقَابِ وَ هُوَ مَنْقُوضٌ بِبَعْضِ مَدَّعَى النَّبُوَّةِ مِنَ الْكُذَّابِينَ.

وَ ذَلِكَ أَنَّ التَّهْدِيدَ فِي الْآيَةِ مُتَوَجِّهٌ إِلَى الرَّسُولِ الصَّادِقِ فِي رِسَالَتِهِ لَوْ تَقُولُ عَلَى اللَّهِ وَ نَسِبَ إِلَيْهِ بَعْضُ مَا لَيْسَ مِنْهُ لَا مَطْلَقَ مَدَّعَى النَّبُوَّةِ الْمَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ فِي دَعْوَاهِ النَّبُوَّةَ وَ إِخْبَارِهِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ إِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ يَذْكُرُهُمْ كِرَامَهُ تَقْوَاهُمْ وَ مَعَارِفَ الْمَبْدَأِ وَ الْمَعَادِ بِحَقَائِقِهَا، وَ يَعْرِفُهُمْ دَرَجَاتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَ مَقَامَاتِهِمْ فِي الْآخِرَةِ وَ الْجَنَّةِ وَ مَا هَذَا شَأْنُهُ لَا يَكُونُ تَقْوَلًا وَ افْتِرَاءً فَالآيَةُ مَسْوُوقَةٌ حُجَّةً عَلَى كَوْنِ الْقُرْآنِ مَنْزَهِهَا عَنِ التَّقْوَلِ وَ الْفَرِيهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ وَ إِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ سَتُظْهِرُ لَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ قَدْ تَقَدَّمَ كَلَامٌ فِي نَظِيرَتِي الْآيَتَيْنِ فِي آخِرِ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ، وَ السُّورَتَانِ مُتَّحِدَتَانِ فِي الْغَرَضِ وَ هُوَ وَصْفُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ مُتَّحِدَتَانِ فِي سِيَاقِ خَاتِمَتِهِمَا وَ هِيَ الْإِقْسَامُ عَلَى حَقِيقَةِ الْقُرْآنِ الْمُنْبِئِ عَنِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَ قَدْ خَتَمَتِ السُّورَتَانِ بِكَوْنِ الْقُرْآنِ وَ مَا أَنْبَأَ بِهِ عَنِ وَقُوعِ الْوَاقِعَةِ حَقَّ الْيَقِينِ ثُمَّ الْأَمْرُ بِتَسْبِيحِ

اسم الرب العظيم المتّزه عن خلق العالم باطلا- لا- معاد فيه و عن أن يبطل المعارف الحقه التي يعطيها القرآن في أمر المبدأ و المعاد.

ص: ٤٢٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ; سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ (٢) مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَ يَرَاهُ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَ لَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ كَوَيْفَ يَبْتَدِي مِنَ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بَنِيهِ (١١) وَ صَاحِبَتِهِ وَ أُخِيهِ (١٢) وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْفَى (١٥) نَزَاعَهُ لِلشَّوَى (١٦) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّى (١٧) وَ جَمَعَ فَأَوْعَى (١٨)

الذى يعطيه سياق السوره أنها تصف يوم القيامة بما أعد فيه من أليم العذاب للكافرين.

تبتدىء السوره فتذكر سؤال سائل سأل عذابا من الله للكافرين فتشير الى أنه واقع ليس له دافع قريب غير بعيد كما يحسبونه ثم تصف اليوم الذى يقع فيه و العذاب الذى أعد لهم فيه و تستثنى المؤمنين الذين قاموا بوظائف الاعتقاد الحق و العمل الصالح.

و هذا السياق يشبه سياق السور المكيه غير أن المنقول عن بعضهم أن قوله: وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ مَدَنِيٌّ وَالْإِسْتِثْنَاءُ وَ هِيَ أَرْبَعُ عَشْرَةَ آيَةً قَوْلُهُ: «إِلَّا- الْمُصَيِّلِينَ-» الى قوله- فِي جَدَّاتٍ مُّكْرَمُونَ» مَدَنِيَّةٌ لِمَا فِي سِيَاقِهَا مِنَ الْإِتِّحَادِ وَ اسْتِزْجَارِ الْبَعْضِ لِلْبَعْضِ.

و مدتيه هذه الآيه تحت الاستثناء تستدعي ما استثنت منه و هو على الأقل ثلاث آيات قوله: «إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا -الى قوله- مُنُوعًا» .

على أن قوله: «فَمَا لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَك مُهْطِعِينَ» متفرع على ما قبله تفرعاً ظاهراً و هو ما بعده الى آخر السوره ذو سياق واحد فتكون هذه الآيات أيضا مدتيه.

و من جهه اخرى مضامين هذا الفصل من الآيات تناسب حال المنافقين الحاقين حول النبي صلى الله عليه و آله و سلم عن اليمين و عن الشمال عزيزين و هم الرادون لبعض ما أنزل الله من الحكم و خاصه قوله: «أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ» الخ؛ و قوله: «عَلَى أَنْ تُبَدَّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ» الخ؛ على ما سيجيء، و موطن ظهور هذا النفاق المدينه لا مكه، و لا ضير في التعبير عن هؤلاء بالذنين كفروا فنظير ذلك موجود في سوره التوبه و غيرها.

على أنهم رويوا أن السوره نزلت في قول القائل: اللَّهُمَّ إِنَّ كَمَا هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ابْتِنَا بِعَذَابِ أَلِيمٍ (الأنفال ٣٢) و قد تقدم في تفسير الآيه أن سياقها و التي بعدها سياق مدني لا مكّي. لكن المروي عن الصادق عليه السلام أن المراد بالحق المعلوم في الآيه حق يسميه صاحب المال في ماله غير الزكاه المفروضه.

و لا- عبره بما نسب الى اتفاق المفسرين أن السوره مكيه على أن الخلاف ظاهر و كذا ما نسب الى ابن عباس أنها نزلت بعد سوره الحاقه.

قوله تعالى: سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ السَّوَالِ بِمَعْنَى الطَّلَبِ وَالدَّعَاءِ، وَلِذَا عَدَى بِالْبَاءِ كَمَا فِي قَوْلِهِ: يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (الدخان ٥٥) و قيل: الفعل مضمن معنى الاهتمام و الاعتناء و لِذَا عَدَى بِالْبَاءِ، وَ قِيلَ: الْبَاءُ زَائِدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ، وَ مَالَ الْوَجْوهِ وَاحِدٌ وَ هُوَ طَلَبُ الْعَذَابِ مِنَ اللَّهِ كَفَرُوا وَ عَتَوْا.

و المعنى سأل سائل من الكفار عذابا للكافرين من الله سيصيبهم و يقع عليهم لا محاله و لا دافع له أى إنه واقع عليهم أو لم يسأل ففيه جواب تحقيري و إجابته لمسئوله تهكما.

قوله تعالى: لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ لِلْكَافِرِينَ متعلق بعذاب و صفه له، وكذا قوله: «لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ» وقد مرت الإشارة الى معنى الآية.

قوله تعالى: مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ الجار و المجرور متعلق بقوله: «دَافِعٌ» أى ليس له دافع من جانب الله و من المعلوم أنه لو اندفع لم يندفع إلا من جانب الله سبحانه، و من المحتمل أن يتعلق بقوله: «بِعَذَابٍ».

و المعارج جمع معرج و فسروه بالصاعد و هى الدرجات و هى مقامات الملكوت التى يعرج إليها الملائكة عند رجوعهم الى الله سبحانه على ما يفسره قوله بعد: «تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ» الخ؛ فله سبحانه معارج الملكوت و مقاماتها المترتبة علوا و شرفا التى تعرج فيها الملائكة و الروح بحسب قربهم من الله و ليست بمقامات وهمية اعتبارية.

قوله تعالى: تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ المراد بهذا اليوم يوم القيامة على ما يفيدته سياق الآيات التالية.

و المراد بكون مقدار هذا اليوم خمسين ألف سنة على ما ذكروا أنه بحيث لو وقع فى الدنيا و انطبق على الزمان الجارى فيها كان مقداره من الزمان خمسين ألف سنة من سنى الدنيا.

و المراد بعروج الملائكة و الروح اليه يومئذ رجوعهم اليه تعالى عند رجوع الكل اليه فإن يوم القيامة يوم بروز سقوط الوسائط و تقطع الأسباب و ارتفاع الروابط بينها و بين مسبباتها و الملائكة و وسائط موكله على امور العالم و حوادث الكون فإذا تقطعت الأسباب عن مسبباتها و زيل الله بينهم و رجع الكل الى الله عز اسمه رجعوا اليه و عرجوا معارجهم فحفوا من حول عرش ربهم و وصفوا قال تعالى: وَ تَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ (الزمر ٧٥)، و قال: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلَائِكَةُ صَفًّا (النبا ٣٨).

و الظاهر أن المراد بالروح الذى هو من أمره تعالى كما قال: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي (الإسراء ٨٥) و هو غير الملائكة كما هو ظاهر قوله تعالى: يُنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ

قوله تعالى: فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا لما كان سؤال السائل للعذاب عن تعنت و استكبار و هو مما يشق تحمله أمر نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بالصبر و وصفه بالجميل -و الجميل من الصبر ما ليس فيه شائبه الجزع و الشكوى، و علله بأن اليوم بما فيه من العذاب قريب.

قوله تعالى: إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَ يَرَاهُ قَرِيبًا ضَمِيرًا «يَرَوْنَهُ» وَ «يَرَاهُ» للعذاب أو ليوم القيامة بما فيه من العذاب الواقع و يؤيد الأول قوله فيما بعد: «يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ» الخ.

و المراد بالرؤية الاعتقاد بنوع من العناية المجازيه و رؤيتهم ذلك بعيدا ظنهم أنه بعيد من الإمكان فإن سؤال العذاب من الله سبحانه استكبارا عن دينه وردا لحكمه لا- يجامع الإيمان بالمعاد و إن تفوه به السائل، و رؤيته تعالى ذلك قريبا علمه بتحقيقه و كل ما هو آت قريب.

و فى الآيتين تعليل أمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بالصبر الجميل فإن تحمل الأذى و الصبر على المكاره يهون على الإنسان إذا استيقن أن الفرج قريب و تذكر ذلك فالكلام فى معنى قولنا فاصبر على تعنتهم و استكبارهم فى سؤالهم العذاب صبورا جميلا لا يشوبه جزع و شكوى فإننا نعلم أن العذاب قريب على خلاف ما يستبعدونه، و علمنا لا يتخلف عن الواقع بل هو نفس الواقع.

قوله تعالى: يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ المهل المذاب من المعدنيات كالنحاس و الذهب و غيرهما، و قيل: دردى الزيت، و قيل: عكر القطران (١).

و الظرف متعلق بقوله: «وَاقِعٍ» على ما يفيدته السياق.

قوله تعالى: وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ مطلق الصوف، و لعل المراد المنفوش منه كما فى قوله تعالى: وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمُنْفُوشِ (القارعه ٥).

وقيل: هو الصوف الأحمر، وقيل: المصبوغ ألواناً لأن الجبال ذات ألوان مختلفه فمنها جدد بيض و حمر و غرايب سود (١).

قوله تعالى: **وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا** الحميم القريب الذى تهتم بأمره و تشفق عليه.

إشاره الى شده اليوم فالإنسان يومئذ تشغله نفسه عن غيره حتى أن الحميم لا يسأل حميمه عن حاله لاشتغاله بنفسه.

قوله تعالى: **يُبْصِرُونَهُمْ** الضميران للأحماء المعلوم من السياق و التبصير الإراءه و الإيضاح أى يرى و يوضح الأحماء للأحماء فلا يسألونهم عن حالهم اشتغالا بأنفسهم.

و الجمله مستأنفه فى معنى الجواب عن سؤال مقدر كأنه لما قيل: لا- يسأل حميم حميماً سئل فقيل: هل يرى الأحماء يومئذ أحماءهم؟ فأجيب: يبصرونهم و يمكن أن يكون «يُبْصِرُونَهُمْ» صفة «حَمِيمًا» .

قوله تعالى: **يَوْمَئِذٍ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَ صَاحِبَتِهِ وَ أُخِيهِ وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ** قال فى المجمع:

الموده مشتركه بين التمنى و بين المحبه يقال: وددت الشىء أى تمنيته و وددته أى أحببته أود فيهما جميعاً. انتهى، و يمكن أن يكون استعماله بمعنى التمنى من باب التضمنين.

و قال: و الافتداء افتداء الضرر عن الشىء ببدل منه انتهى، و قال: الفصيله الجماعه المنقطعه عن جمله القبيله برجوعها الى ابوه خاصه عن ابوه عامه. انتهى، و ذكر بعضهم أن الفصيله عشيرته الأقربين الذين فصل عنهم كالأباء الأدينين.

و سياق هذه الآيات سياق الإضراب و الترقى بالنسبه الى قوله: **وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا**

ص: ٤٣١

يفيد أن المجرم يبلغ به شدة العذاب الى أن يتمنى أن يفدى من العذاب بأحب أقاربه و أكرمهم عليه بنيه و صاحبه و أخيه و فصيلته و جميع من فى الأرض ثم ينجيه الافتداء فيود ذلك فضلا عن عدم سؤاله عن حال حميمه.

و المعنى «يودُّ» و يتمنى «المُجرِّمُ» و هو المتلبس بالإجرام أعم من الكافر «لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ» و هذا هو الذى يتمناه، و الجملة قائمه مقام مفعول يود. «بَيْنِهِ» الذين هم أحب الناس عنده «وَ صَاحِبَتِهِ» التى كانت سكنا له و كان يحبها و ربما قدمها على أبويه «وَ أَخِيهِ» الذى كان شقيقه و ناصره «وَ فَصِيلَتِهِ» من عشيرته الأقربين «الَّتِي تُؤْوِيهِ» و تضمه إليها «وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» من اولى العقل «ثُمَّ يُنْجِيهِ» هذا الافتداء.

قوله تعالى: كَلَّا إِنَّهَا لَلظَىٰ لَظَىٰ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّىٰ وَ جَمَعَ فَأَوْعَىٰ كَلا للردع، و ضمير «إِنَّهَا» لجهنم أو للنار و سميت لظى لكونها تتلظى و تشتعل، و النزاعه اسم مبالغه من النزاع بمعنى الاقتلاع، و الشوى الأطراف كاليد و الرجل يقال: رماه فأشواه أى أصاب شواه كذا قال الراغب، و إبعاء المال إمساكه فى وعاء.

فقوله: كَلَّا رَدَع لَتَمْنِيهِ النجاء من العذاب بالافتداء و قد علل الردع بقوله: «إِنَّهَا لَلظَىٰ» الخ؛ و محصله أن جهنم نار مشتعله محرقه للأطراف شأنها أنها تطلب المجرمين لتعذيبهم فلا تصرف عنهم بافتداء كائنا ما كان.

فقوله: إِنَّهَا لَلظَىٰ أى نار صفتها الاشتعال لا تنزل عن شأنها و لا تخمد، و قوله:

«نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ» أى صفتها إحراق الأطراف و اقتلاعها لا يبطل ما لها من الأثر فيمن تعذبه.

و قوله: تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّىٰ وَ جَمَعَ فَأَوْعَىٰ أى تطلب من أدبر عن الدعوه الإلهيه الى الإيمان بالله و أعرض عن عبادته تعالى و جمع المال فأمسكه فى وعائه و لم ينفق منه للسائل و المحروم.

و هذا المعنى هو المناسب لسياق الاستثناء الآتى و ذكر الصلاه و الإنفاق فيه.

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ
دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيْنَ الَّذِينَ
عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ
أَيَّمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥)

بيان:

قوله تعالى: **إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا**.

وَ إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا الهلوع صفة مشتقه من الهلع بفتحين و هو شدة الحرص، و ذكروا أيضا أن الهلوع تفسره الآيتان بعده فهو الجزوع عند الشر و المنوع عند الخير و هو تفسير سديد و السياق يناسبه.

قوله تعالى: **إِلَّا الْمُصِِّلِينَ** استثناء من الانسان الموصوف بالهلع، و فى تقديم الصلاة على سائر الأعمال الصالحة المعدوده فى الآيات التالية دلالة على شرفها و أنها خير الأعمال.

على أن لها الأثر البارز فى دفع رذيله الهلع المذموم و قد قال تعالى: **إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ (العنكبوت ٤٥).**

قوله تعالى: **الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ** فى إضافه الصلاة الى الضمير دلالة على أنهم مداومون على ما يأتون به من الصلاة كائنه ما كانت لا أنهم دائما فى الصلاة، و فيه إشارة الى أن العمل إنما يكمل أثره بالمداومه.

قوله تعالى: **وَ الَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ** فسره بعضهم بالزكاه المفروضه، و فى الحديث عن الصادق عليه السلام أن الحق المعلوم ليس من الزكاه و إنما هو مقدار معلوم ينفقونه للفقراء، و السائل هو الفقير الذى يسأل، و المحروم الفقير الذى يتعفف و لا يسأل و السياق لا يخلو من تأييده فان للزكاه موارد مسماه فى قوله: **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسْكِينِ وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقَابِ وَ الْعَارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ (التوبه ٦٠)** و ليست مختصه بالسائل و المحروم على ما هو ظاهر الآية.

قوله تعالى: **وَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ** الذى يفيدته سياق عد الأعمال الصالحة أن المراد بتصديقهم يوم الدين التصديق العملى دون التصديق الاعتقادى و ذلك بأن

تكون سيرتهم في الحياه سيره من يرى ان ما يأتى به من عمل سيحاسب عليه فيجازى به إن خيرا فخييرا و إن شرا فشرا.

و فى التعبير بقوله: «يُصَيِّدُ قَوْلَ» دلالة على الاستمرار فهو المراقبه الدائمه بذكره تعالى عند كل عمل يواجهونه فيأتون بما يريدوه و يتركون ما يكرهه.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ أى خائفون، و الكلام فى إشفاقهم من عذاب ربهم نظير الكلام فى تصديقهم بيوم الدين فهو الإشفاق العملى الظاهر من حالهم.

و لازم إشفاقهم من عذاب ربهم مع لزومهم الأعمال الصالحه و مجاهدتهم فى الله أن لا يثقوا بما يأتون به من الأعمال الصالحه و لا يأمنوا عذاب الله فإن الأمن لا يجامع الخوف.

و الملاك فى الإشفاق من العذاب أن العذاب على المخالفه فلا منجى منه إلا بالطاعه من النفس و لا ثقه بالنفس إذ لا قدره لها فى ذاتها إلا ما أقدرها الله عليه و الله سبحانه مالك غير مملوك، قال تعالى: قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً (المائده ١٧).

على أن الله سبحانه و إن وعد أهل الطاعه النجاه و ذكر أنه لا يخلف الميعاد لكن الوعد لا يقيد إطلاق قدرته فهو مع ذلك قادر على ما يريد و مشيئته نافذه فلا أمن بمعنى انتفاء للقدره على ما يخالف الوعد فالخوف على حاله و لذلك نرى أنه تعالى يقول فى ملائكته يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ فيصفهم بالخوف و هو يصرح بعصمتهم، و يقول فى أنبيائه وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ (الأحزاب ٣٩)، و يصف المؤمنين فى هذه الآيه بالإشفاق و هو يعدهم فى آخر الآيات بقول جازم فيقول «أُولَئِكَ فِي جَنَاتٍ مُكْرَمُونَ».

قوله تعالى: إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ تعليل لإشفاقهم من عذاب ربهم فيتبين به أنهم مصيبون فى إشفاقهم من العذاب و قد تقدم وجهه.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ هُمْ لِقُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ -الى قوله- هُمْ الْعَادُونَ تقدم

تفسير الآيات الثلاث في أول سورة المؤمنون.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ المتبادر من الأمانات أنواع الأمانه التي يؤتمنون عليها من المال و سائر ما يوصى به من نفس أو عرض و رعايتهم لها أن يحفظوها و لا يخونوها قيل: و لكثرة أنواعها جيء بلفظ الجمع بخلاف العهد.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ الشهاده معروفه، و القيام بالشهاده عدم الاستنكاف عن تحملها و أداء ما تحمل منها كما تحمل من غير كتمان و لا تغيير، و الآيات في هذا المعنى كثيره.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ المراد بالمحافظه على الصلاه رعايه صفات كمالها على ما ندب اليه الشرع.

قيل: و المحافظه على الصلاه غير الدوام عليها فإن الدوام متعلق بنفس الصلاه و المحافظه بكيفيتها فلا تكرر في ذكر المحافظه عليها بعد ذكر الدوام عليها.

قوله تعالى: أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ الإشاره الى المصلين في قوله: «إِلَّا الْمُصَلِّينَ» و تنكير جنات للتفخيم، و «فِي جَنَّاتٍ» خبر و «مُكْرَمُونَ» خبر بعد خبر أو ظرف لقوله: «مُكْرَمُونَ» (١).

[سوره المعارج (٧٠): الآيات ٣٦ الى ٤٤]

فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكُمْ مَهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عَزِيزِينَ (٣٧) أَيْطَمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا- إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلَا- أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَيَّ أَنْ تُبَدَّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرَهُمْ يَحُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ صُبِّ يُوفُضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُفُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤)

ص: ٤٣٦

قوله تعالى: **فَمَا لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ عَزِينَ** قال في المجمع: قال الزجاج: المهطع المقبل يبصره على الشيء لا يزايله و ذلك من نظر العدو، وقال أبو عبيده: الاهطاع الاسراع، و عزين جماعات فى تفرقه، واحدتهم عزه.

انتهى، و قبل الشيء بالكسر فالفتح الجبهه التى تليه و الفاء فى «فَمَا» فصيحته.

و المعنى: إذا كان الانسان بكفره و استكباره على الحق مصيره الى النار إلا من استثنى من المؤمنين فما للذين كفروا عندك مقبلين لا يرفعون عنك أبصارهم و هم جماعات متفرقه عن يمينك و شمالك أ يطمعون أن يدخلوا الجنة فيعجزوا الله و يسبقوه فيما قضى به أن لا يدخل الجنة إلا الصالحاء من المؤمنين.

قوله تعالى: **أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ** الاستفهام للانكار أى- ما هو الذى يحملهم على أن يحتفوا بك و يهطعوا عليك؟- هل يحملهم على ذلك

طمع كل منهم أن يدخل جنة نعيم و هو كافر فلا مطمع للكافر في دخول الجنة.

و نسب الطمع الى كل امرئ منهم و لم ينسب الى جماعتهم بأن يقال: أطمعون أن يدخلوا، الخ؛ كما نسب الإهطاع الى جماعتهم فقيل: مهطعين لأن النافع من الطمع في السعادة و الفلاح هو الطمع القائم بنفس الفرد الباعث له الى الإيمان و العمل الصالح دون القائم بالجماعة بما أنها جماعة فطمع المجموع من حيث أنه مجموع لا يكفى في سعادة كل واحد واحد.

و في قوله: أَنْ يُدْخَلَ مَجْهُولًا- من باب الإفعال إشاره الى أن دخولهم في الجنة ليس منوطا باختيارهم و مشيئتهم بل لو كان فانما هو الى الله سبحانه فهو الذى يدخلهم الجنة إن شاء و لن يدخل بما قدر أن لا يدخلها كافر.

قوله تعالى: كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ردع لهم عن الطمع في دخول الجنة مع كفرهم.

و قوله: إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ المراد بما يعلمون النطفه فإن الإنسان مخلوق منها. و الكلام مرتبط بما بعده و المجموع تعليل للردع، و محصل التعليل أنا خلقناهم من النطفه - و هم يعلمون به - فلنا أن نذهب بهم و نخلق مكانهم قوما آخرين يكونون خيرا منهم مؤمنين غير رادين لشيء من دين الله، و لسنا بمسبوقين حتى يعجزنا هؤلاء الكفار و يسبقونا فندخلهم الجنة و ينتقض به ما قدرنا أن لا يدخل الجنة كافر.

قوله تعالى: فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِذْ نَلَقْنَا دُرُودَنَا عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَ مَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ المراد بالمشارك و المغارب مشارق الشمس و مغاربها فإن لها في كل يوم من أيام السنه الشمسيه مشرقا و مغربا لا يعود اليهما الى مثل اليوم من السنه القابله، و من المحتمل أن يكون المراد بها مشارق جميع النجوم و مغاربها.

و في الآيه على قصرها وجوه من الالتفات ففي قوله: «فَلَا أُقْسِمُ» التفات من التكلم مع الغير في «إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ» الى التكلم وحده، و الوجه فيه تأكيد القسم بإسناده الى الله تعالى

و فى قوله: بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ التفتات من التكلم وحده الى الغيبه، و الوجه فيه الإشاره الى صفه من صفاته تعالى هى المبدأ فى خلق الناس جيلا بعد جيل و هى ربوبيته للمشارك و المغرب فإن الشروق بعد الشروق و الغروب بعد الغروب الملازم لمرور الزمان دخلا تاما فى تكوّن الإنسان جيلا بعد جيل و سائر الحوادث الأرضيه المقارنه له.

و فى قوله: «إِذَا لِقَادِرُونَ» التفتات من الغيبه الى التكلم مع الغير، و الوجه فيه الإشاره الى العظمه المناسبه لذكر القدره، و فى ذكر ربوبيته للمشارك و المغرب إشاره الى تعليل القدره فإن الذى ينتهى اليه تدبير الحوادث فى تكونها لا يعجزه شىء من الحوادث التى هى أفعاله عن شىء منها و لا يمنعه شىء من خلقه من أن يبدله خيرا منه و إلا شاركه المانع فى أمر التدبير و الله سبحانه و واحد لا شريك له فى ربوبيته فافهم ذلك.

و قوله: «إِنَّا لِقَادِرُونَ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ» متعلق بقوله:

«لِقَادِرُونَ» و المفعول الأول لنبدل ضمير محذوف راجع اليهم و إنما حذف للإشاره الى هوان أمرهم و عدم الاهتمام بهم، و «خَيْرًا» مفعوله الثانى و هو صفه أقيمت مقام موصوفها، و التقدير إنا لقادرون على أن نبدلهم قوما خيرا منهم، و خيريتهم منهم أن يؤمنوا بالله و لا يكفروا به و يتبعوا الحق و لا يردوه.

و قوله: «وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ» المراد بالسبق الغلبه على سبيل الاستعاره، و كونه تعالى مسبوقا هو أن يمنعه خلقهم أن يذهب بهم و يأتى بدلهم بقوم خير منهم.

قوله تعالى: فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ أمر للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يتركهم و ما هم فيه، و لا يلح عليهم بحجاج و لا يتعب نفسه فيهم بعضه، و قد سمي ما هم عليه بالخوض و اللعب دلالة على أنهم لا ينتفعون به انتفاعا

حقيقيا على ما لهم فيه من الإمعان و الإصرار كاللعب الذى لا نفع فيه وراء الخيال فليتركوا حتى يلاقوا اليوم الذى يوعدون و هو يوم القيامة.

و فى إضافه اليوم اليهم إشاره الى نوع اختصاص له بهم و هو الاختصاص بعذابهم.

قوله تعالى: **يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ** بيان ليومهم الذى يوعدون و هو يوم القيامة.

و الأجداث جمع جدث و هو القبر، و سراعاً جمع سريع، و النصب ما ينصب علامه فى الطريق يقصده السائرون للاهتداء به، و قيل: هو الصنم المنصوب للعباده و هو بعيد من كلامه تعالى، و الإيفاض الإسراع و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: **خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ** الخشوع تأثر خاص فى القلب عن مشاهدته العظمه و الكبرياء، و يناظره الخضوع فى الجوارح، و نسبه الخشوع الى الأبصار لظهور آثاره فيها، و الرهق غشيان الشىء بقهر.

و قوله: **«ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ»** الإشاره الى ما مر من أوصافه من الخروج من الأجداث سراعاً و خشوع الأبصار و رهق الذله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي كُنتُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَاطِيعُونَ (٣) يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَذِّبْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا بِبَنَاتِهِمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْتَبَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ لِبَنَاتٍ (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَنْزِلُنَّ آلِهَتِكُمْ وَلَا تَنْزِلُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤)

تشير السورة الى رساله نوح عليه السلام الى قومه و إجمال دعوته و عدم استجابتهم له ثم شكواه الى ربه منهم و دعائه عليهم و استغفاره لنفسه و لوالديه و لمن دخل بيته مؤمنا و للمؤمنين و المؤمنات ثم حلول العذاب بهم و إهلاكهم بالإغراق و السورة مكيه بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: إِذْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ «أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ» الخ؛ تفسير لرسالته أى أوحينا اليه أن أنذر، الخ.

و فى الكلام دلالة على أن قومه كانوا عرضه للعذاب بشركهم و معاصيهم كما يدل عليه ما حكى من قوله عليه السلام فى الآية التالية: «اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ» و ذلك أن الإنذار تخويف و التخويف إنما يكون من خطر محتمل لا دافع له لو لا التحذر، و قد أفاد قوله: «مَنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أنه متوجه اليهم غير تاركهم لو لا تحذرهم منه.

قوله تعالى: قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُوا أَمْرًا يُبَيِّنُ لَكُمْ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ و تفصيلا بقوله: «أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ» الخ.

و فى إضافته اليوم الى نفسه إظهار إشفاق و رحمه أى إنكم قوما يجمعكم و إياى مجتمعنا القومى تسوؤنى ما أساءكم فلست أريد إلا ما فيه خيركم و سعادتكم إني لكم نذير، الخ.

و فى قوله: أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ دعوةهم الى توحيدته تعالى فى عبادته فإن القوم كانوا وثنيين يعبدون الأصنام، و الوثنية لا تجوز عبادة الله سبحانه لا وحده و لا مع غيره، و إنما يعبدون أرباب الأصنام بعباده الأصنام ليكونوا شفعاء لهم عند الله، و لو جوزوا عبادته تعالى

لعبدوه وحده فدعوتهم الى عباده الله دعوه لهم الى توحيدهم في العباده.

و فى قوله: وَ اتَّقَوْهُ دَعْوَتُهُمْ اِلَى اجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ مِنْ كِبَائِرِ الْاِثْمِ وَ صَغَائِرِهِ وَ هِيَ الشَّرْكَ فَمَا دُونَهُ، وَ فَعَلَ الْاَعْمَالَ الصَّالِحَةَ الَّتِي فِي تَرْكِهَا مَعْصِيَهُ.

و فى قوله: وَ اطِيعُوْنَ دَعْوَةَ لَهُمْ اِلَى طَاعَةِ نَفْسِهِ الْمُسْتَلْزَمِ لِتَصْدِيقِ رِسَالَتِهِ وَ اخْذِ مَعَالِمِ دِينِهِمْ مِمَّا يَعْبُدُ بِهِ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَ يَسْتَنُّ بِهِ فِي الْحَيَاةِ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَفِي قَوْلِهِ: «اعْبُدُوا اللّٰهَ وَ اتَّقَوْهُ وَ اطِيعُوْنَ» نَدْبٌ اِلَى اَصُوْلِ الدِّينِ الثَّلَاثَةِ: التَّوْحِيدِ الْمَشَارِ اِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: «اعْبُدُوا اللّٰهَ» وَ الْمَعَادِ الَّذِى هُوَ اَسَاسُ التَّقْوَى (1) وَ التَّصْدِيقِ بِالنَّبِيِّ الْمَشَارِ اِلَيْهِ بِالدَّعْوَةِ اِلَى الطَّاعَةِ الْمَطْلُوقَةِ.

قوله تعالى: يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ مَجْزُومٌ فِي جَوَابِ الْاَمْرِ وَ كَلِمَةُ «مِنْ» لِلتَّبْعِيضِ عَلَى مَا هُوَ الْمَتَبَادِرُ مِنَ السِّيَاقِ، وَ الْمَعْنَى اِنْ تَعْبُدُوهُ وَ تَتَّقُوهُ وَ تَطِيعُونِي يَغْفِرْ لَكُمْ بَعْضَ ذُنُوبِكُمْ وَ هِيَ الذُّنُوبُ الَّتِي قَبْلَ الْاِيْمَانِ: الشَّرْكَ فَمَا دُونَهُ، وَ اَمَّا الذُّنُوبُ الَّتِي لَمْ تَقْتَرَفْ بَعْدَ مَا سَيَسْتَقْبَلُ فَلَا- مَعْنَى لِمَغْفَرَتِهَا قَبْلَ تَحَقُّقِهَا، وَ لَا- مَعْنَى اَيْضًا لِلْوَعْدِ بِمَغْفَرَتِهَا اِنْ تَحَقَّقَتْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ اَوْ كَلِمًا تَحَقَّقَتْ لِاسْتِلْزَامِ ذَلِكَ اِلْغَاءَ التَّكَالِيفِ الدِّينِيَةِ بِاِلْغَاءِ الْمَجَازَاهِ عَلَى مَخَالَفَتِهَا.

قوله تعالى: وَيُؤَخِّرْكُمْ اِلَى اَجَلٍ مُّسَمًّى اِنَّ اَجَلَ اللّٰهِ اِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ تعليق تأخيرهم الى أجل مسمى على عباده الله و التقوى و طاعه الرسول يدل على أن هناك أجلين أجل مسمى يؤخرهم الله اليه إن أجابوا الدعوه، و أجل غيره يعجل اليهم لو بقوا على الكفر، و أن الأجل المسمى اقصى الأجلين و ابعدهما.

ففى الآيه و عدهم بالتأخير الى الأجل المسمى إن آمنوا و فى قوله: «اِنَّ اَجَلَ اللّٰهِ اِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ» تعليل للتأخير الى الأجل المسمى إن آمنوا فالمراد بأجل الله إذا جاء مطلق الأجل المقضى المتحتم أعم من الأجل المسمى و غير المسمى فلا راد لقضائه تعالى و لا

ص: ٤٤٤

(١- ١). اذ لو لا المعاد بما فيه من الحساب و الجزاء لم يكن للتقوى الدينى وجه، منه.

و المعنى: أن اعبدوا الله و اتقوه و أطيعوني يؤخرهم الله الى أجل مسمى هو أقصى الأجلين فإنكم إن لم تفعلوا ذلك جاءكم الأجل غير المسمى بكفركم و لم تؤخروا فإن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، ففي الكلام مضافا الى وعد التأخير الى الأجل المسمى إن آمنوا، تهديد بعذاب معجل إن لم يؤمنوا.

و قوله: لَمَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ متعلق بأول الكلام أى لو كنتم تعلمون أن لله أجلين و أن أجله إذا جاء لا- يؤخر استجبتم دعوتى و عبدتم الله و اتقيتموه و أعطيتموني هذا فمفعول «تَعْلَمُونَ» محذوف يدل عليه سابق الكلام.

و قيل: إن «تَعْلَمُونَ» منزل منزله الفعل اللازم، و جواب لو متعلق بأول الكلام، و المعنى:

لو كنت من أهل العلم لاستجبتم دعوتى و آمنتم، أو متعلق بآخر الكلام، و المعنى: لو كنتم من أهل العلم لعلمتم أن أجل الله إذا جاء لا يؤخر.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا الْقَائِلُ هُوَ نوح عليه السلام و الذى دعا اليه هو عباده الله و تقواه و طاعه رسوله، و الدعاء ليلا و نهارا كناية عن دوامه من غير فتور و لا توان.

و قوله: فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا أى من إجابته دعوتى فالمراد بالفرار التمرد و التابى عن القبول استعاره، و إسناد زياده الفرار الى دعائه لما فيه من شائبه السببيه لأن الخير إذا وقع فى محل غير صالح قاومه المحل بما فيه من الفساد فأفسده فانقلب شرا، و قد قال تعالى فى صفة القرآن: وَ نُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (الإسراء ٨٢).

قوله تعالى: وَ إِنِّي كَلَّمْتُهم لَتَغْفِرَ لَهُم جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَ اسْتَعْشَوْا بِبَابِهِمْ الخ؛ ذكر مغفرته تعالى غايه لدعوته و الأصل «دعوتهم ليؤمنوا فتغفر

لهم» لأن الغرض الإشاره الى أنه كان ناصحا لهم فى دعوته و لم يرد إلا ما فيه خير دنياهم و عقباهم.

و قوله: جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ كَنَاهٍ عَنْ اسْتِكْفَاهُمْ عَنِ الاسْتِمَاعِ الى دعوته، و قوله: «وَ اسْتَعْشَوْا لِيبَاهُمْ» أى غطوا بها رءوسهم و وجوههم لئلا يرونى و لا يسمعوا كلامى و هو كناية عن التنفر و عدم الاستماع الى قوله.

و قوله: وَ أَصْرُوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً أى و أَلحوا على الامتناع من الاستماع و استكبروا عن قبول دعوتى استكبارا عجيبا.

قوله تعالى: ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً «ثُمَّ» للتراخى بحسب رتبه الكلام و الجهال النداء بأعلى الصوت.

قوله تعالى: ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً الإعلان و الإسرار متقابلان و هما الإظهار و الإخفاء، و ظاهر السياق أن مرجع ضمير لهم فى الموضوعين واحد فالمعنى دعوتهم سرا و علانيه فتاره علانيه و تاره سرا سالكا فى دعوتى كل مذهب ممكن و سائرا فى كل مسير مرجو.

قوله تعالى: فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً -الى قوله- أَنَّهُاراً عَلَّلَ أَمْرَهُم بِالاسْتِغْفَارِ بقوله: «إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً» دلالة على أنه تعالى كثير المغفرة و هى مضافا الى كثرتها منه سنه مستمره له تعالى.

و قوله: يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً مجزوم فى جواب الأمر، و المراد بالسما السحاب، و المdrار كثير الدور بالأمطار.

و قوله: وَ يُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَيْنَ الإمداد إلحاق المدد و هو ما يتقوى به المدد على حاجته، و الأموال و البنون أقرب الأعضاء الابتدائية التى يستعين بها المجتمع الانسانى على حوائجه الحيويه.

و قوله: وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَاراً هـمَا من قسم الأموال غير أنهما لكونهما من أبسط ضروريات المعاش خصا بالذكر.

قوله تعالى: مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً استفهام إنكارى و الوقار- كما فى المجمع- بمعنى العظمه اسم من التوقير بمعنى التعظيم، و الرجاء مقابل الخوف و هو الظن بما فيه مسره، و المراد به فى الآيه مطلق الاعتقاد على ما قيل، و قيل: المراد به الخوف للملازمه بينهما.

و المعنى: أى سبب حصل لكم حال كونكم لا تعتقدون أو لا تخافون لله عظمه توجب أن تعبدوه.

و الآيه أعنى قوله: (مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً) و ما يتلوها الى تمام سبع آيات مسوقه لإثبات وقاره تعالى فى الربوبيه و حجه قاطعه فى نفى ما لفقوه لوجوب عباده غيره من الملائكه و غيرهم لاستناد تدبير العالم اليهم، و يتبين به إمكان التوجه العبادى اليه تعالى.

و محصل الحجه: ما الذى دعاكم الى نفى ربوبيته تعالى المستتبع للالوهيه و المعبوديه و اليأس عن وقاره؟ و أنتم تعلمون أنه تعالى خلقكم و خلق العالم الذى تعيشون فيه طورا من الخلق لا- ينفك عن هذا النظام الجارى فيه، و ليس تدبير الكون و من فيه من الإنسان إلا- التطورات المخلوقه فى أجزائه و النظام الجارى فيه فكونه تعالى خالقا هو كونه مالكا مدبرا فهو الرب لا رب سواه فيجب أن يتخذ إليها معبودا.

و يتبين به صحه التوجه اليه تعالى بالعباده فإننا نعرفه بصفاته الكريمه من الخلق الرزق و الرحمه و سائر صفاته الفعلية فلنا أن نتوجه اليه بما نعرفه من صفاته (1).

ص: ٤٤٧

١- ١). و إنما أخذنا بما نعرفه من صفاته الفعلية لأن من المنسوب إليهم أنكروا صفاته الذاتية و يفسرونها بسلب النقائص فمعنى كونه حيا قديرا عليما عندهم أنه ليس بميت و لا عاجز و لا جاهل على أن الآيات أيضا تصفه بالصفات الفعلية، منه.

قوله تعالى: وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا حال من فاعل «لَا تَرْجُونَ» و الأطوار جمع طور و هو حد الشيء و حاله التي هو عليها.

و محصل المعنى-لا ترجون لله وقارا في ربوبيه-و الحال أنه أنشأكم طورا بعد طور يستعقب طورا آخر فأنشأ الواحد منكم ترابا ثم نطفه ثم علقه ثم مضغه ثم جنينا ثم طفلا- ثم شابا ثم شيخا و أنشأ جمعكم مختلفه الأفراد في الذكوره و الانوثه و الالوان و الهيئات و القوه و الضعف الى غير ذلك، و هل هذا إلا التدبير فهو مدبر أمركم فهو ربكم.

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مطابقه السماوات السبع بعضها لبعض كون بعضها فوق بعض أو تطابقهن و تماثلهن على الاحتمالين المتقدمين في تفسير أوائل سوره الملك.

و المراد بالرؤيه العلم، و توصيف السماوات السبع-و الكلام مسوق سوق الحجه-يدل على أنهم كانوا يرون كونها سبعا و يسلمون ذلك فاحتج عليهم بالمسلم عندهم.

و كيف كان فوقوق حديث السماوات السبع في كلام نوح دليل على كونه مأثورا من الأنبياء عليهم السلام من أقدم العهود.

قوله تعالى: وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا الآيات-كما يشهد به سياقها-مسوقه لبيان وقوع التدبير الإلهي على الانسان بما يفيض عليه من النعم حتى تثبت ربوبيته فتجب عبادته.

و على هذا فكون الشمس سراجا هو كونها مضيئه لعالمنا و لولاها لانغمرنا في ظلمه ظلماء، و كون القمر نورا هو كونه منورا لأرضنا بنور مكتسب من الشمس فليس منورا بنفسه حتى يعد سراجا.

و أما أخذ السماوات ظرفا للقمر في قوله: «وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا» فالمراد به كما قيل كونه في حيزهن و إن كان في واحده منها كما تقول: إن في هذه الدور لبثا و إن كانت في واحده منها

لأن ما كان فى إحداهن كان فىهن و كما تقول: أتيت بنى تميم و انما أتيت بعضهم.

قوله تعالى: وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ لَبَاتًا أَى أَنْبَتَكُمْ إنبات و ذلك أن الانسان تنتهى خلقته الى عناصر أرضيه تركبت تركبا خاصا به يغتذى و ينمو و يولد المثل، و هذه حقيقه النبات، فالكلام مسوق سوق الحقيقه من غير تشبيه و استعاره.

قوله تعالى: ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا لإِعَادِهِ فِيهَا بالإماتة و الإقبار، و الإخراج للجزاء يوم القيامه فالآيه و التى قبلها قريبتا المعنى من قوله تعالى: فِيهَا تَحْيَوْنَ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ (الأعراف ٢٥).

و فى قوله: وَيُخْرِجُكُمْ دون أن يقول: ثم يخرجكم إيماء الى أن الاعاده و الإخراج كالصنع الواحد و الاعاده مقدمه للإخراج، و الانسان فى حالتى الاعاده و الإخراج فى دار الحق كما أنه فى الدنيا فى دار الغرور.

قوله تعالى: وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بَسَاطًا أَى كالبساط يسهل لكم التقلب من جانب الى جانب، و الانتقال من قطر الى قطر.

قوله تعالى: لَتَسِيلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا السبل جمع سبيل بمعنى الطريق و الفجاج جمع فج بمعنى الطريق الواسعه، و قيل: الطريق الواقع بين الجبلين.

قوله تعالى: قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَ وَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا رجوع منه عليه السلام الى شكواه من قومه الى ربه بعد ما ذكر تفصيل دعوته لهم و ما ألقاه من القول اليهم من قوله: «ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا» الى آخر الآيات.

و شكواه السابق له قوله: «فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا» بعد ما أخبر بإجمال دعوته بقوله:

«رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهَارًا» .

و فى الآيه دلالة على أن العظماء المترفين من قومه عليه السلام كانوا يصدون الناس عنه و يحرضونهم على مخالفته و إيذائه.

و معنى قوله: لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَ وَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا خَسَارًا - وقد عد المال و الولد فى سابق كلامه من النعم- أن المال و الولد اللذين هما من نعمك و كان يجب عليهم شكرهما لم يزيدهما إلا كفرا و أورثهم ذلك خسرانا من رحمتك.

قوله تعالى: وَ مَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا الكبار اسم مبالغه من الكبر.

قوله تعالى: وَ قَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَ لَا تَذَرُنَّ وِدًّا وَ لَا سُوءَاعًا وَ لَا يَعْوَتُ وَ يَعْوَقُ وَ نَشِيرًا توصيه منهم بالتمسك بالهتهم و عدم ترك عبادتها.

و ود و سواع و يعوث و يعوق و نسر خمس من آلهتهم لهم اهتمام تام بعبادتهم و لذا خصوها بالذكر مع الوصيه بمطلق الآلهه، و لعل تصدير ود و ذكر سواع و يعوث بلا المؤكده للنفي لكونها أعظم أمرا عندهم من يعوق و نسر و الله أعلم.

قوله تعالى: وَ قَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَ لَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ضمير «أضلوا» للرؤساء المتبوعين و يتأيد به أنهم هم المحدث عنهم فى قوله: «وَ مَكَرُوا» «وَ قَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ» و قيل:الضمير للأصنام فهم المضلون، و لا يخلو من بعد.

و قوله: وَ لَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا دعاء من نوح على الظالمين بالضلال و المراد به الضلال مجازاه دون الضلال الابتدائى فهو دعاء منه أن يجازيهم الله بكفرهم و فسقهم مضافا الى ما سيحكى عنه من دعائه عليهم بالهلاك (١).

[سوره نوح (٧١): الآيات ٢٥ الى ٢٨]

مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (٢٥) وَ قَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ نَبَذَهُمْ فِي سَبِيلِ الْأَعْيُنِ وَ لَا يَلِدُوا إِلَّا فِجَارًا كَفَّارًا (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِعَائِلَتِي وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ لَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨)

ص: ٤٥٠

(١- ١). نوح ١-٢٤: بحث روائى فى: الاستغفار و نتائجه؛ السماوات السبع؛ الاصنام و الاوثان التى كانت فى قوم نوح عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَاراً الْخَالِدِينَ﴾ «من» لا ابتداء الغايه تفيد بحسب المورد التعليل و«ما» زائده لتأكيد أمرا الخطايا و تفخيمه، و الخطيئات المعاصي و الذنوب، و تنكير النار للتفخيم.

و المعنى: من أجل معاصيهم و ذنوبهم أغرقوا بالطوفان فادخلوا-أدخلهم الله-نارا لا يقدر عذابها بقدر، و من لطيف نظم الآيه الجمع بين الإغراق بالماء و إدخال النار.

و المراد بالنار نار البرزخ التي يعذب بها المجرمون بين الموت و البعث دون نار الآخرة، و الآيه من أدله البرزخ إذ ليس المراد أنهم أغرقوا و سيدخلون النار يوم القيامة، و لا يعاب بما قيل: ان من الجائر أن يراد بها نار الآخرة.

و قوله: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً أَى يَنْصُرُونَهُمْ فِي صَرْفِ الْهَلَاكِ وَ الْعَذَابِ عَنْهُمْ﴾. تعريض لأصنامهم و آلهتهم.

قوله تعالى: ﴿وَ قَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ الديار نازل الدار، و الآيه تتمه دعائه عليه السّلام عليهم، و كان قوله: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾ الخ؛ معترضا واقعا بين فقرتى الدعاء للاشاره الى أنهم اهلكوا لما عد نوح من خطيئاتهم و لتكون كالتمهيد لسؤاله الهلاك فيبين أن اغراقهم كان استجابا لدعائه، و أن العذاب استوعبهم عن

آخرهم.

قوله تعالى: إِنَّكَ إِن تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عَنَّا ذَكَرَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِرًا كَفَّارًا تَعْلِيلَ لِسْوَإِ اهْلَاكِهِمْ عَن آخِرِهِمْ مَفَادِهِ أَن لَّا فَائِدَهُ فِي بَقَائِهِمْ لَّا لِمَن دُونِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَانْهَمَ يَضِلُّونَهُمْ، وَلَا فِيمَن يَلِدُونَهُ مِنَ الْأَوْلَادِ فَإِنَّهُمْ لَا يَلِدُونَ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا—وَالْفَجُورَ الْفَسِقَ الشَّنِيعَ وَالْكَفَّارَ الْمُبَالِغَ فِي الْكُفْرِ.

و قد استفاد عليه السلام ما ذكره من صفتهم من الوحي الإلهي على ما تقدم في تفسير قصه نوح من سورة هود.

قوله تعالى: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِوَالِدَيَّ وَ لِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ الْخ؛ المراد بمن دخل بيته مؤمنا المؤمنون به من قومه، و بالمؤمنين و المؤمنات عامتهم الى يوم القيامة.

و قوله: وَ لَّا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا التَّبَارُ الْهَلَاكُ، و الظاهر أن المراد بالتبار ما يوجب عذاب الآخرة و هو الضلال و هلاك الدنيا بالغرق، و قد تقدمت جميعا في دعائه، و هذا الدعاء آخر ما نقل من كلامه عليه السلام في القرآن الكريم.

ص: ٤٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَ أَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَ أَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَ أَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَ أَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَا مُلَأْتَ حَرَاسًا شَدِيدًا وَ شُهَبًا (٨) وَ أَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا (٩) وَ أَنَا لَا نَدْرِي أَسْرُّ أُرِيدَ يَمِّنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ وَ مِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا (١١) وَ أَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَ لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَ أَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَ مِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَ أَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَ أَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦) لِنُفِثَهُمْ فِيهِ وَ مَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧)

تشير السوره الى قصه نفر من الجن استمعوا القرآن فأمنوا به و أقرأوا باصول معارفه، و تتخلص منها الى تسجيل نبوه النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم، و الإشاره الى وحدانيته تعالى في ربوبيته و الى المعاد، و السوره مكيه بشهاده سياقها.

قوله تعالى: قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ أَمْرٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ أَنْ يَقْصُ الْقِصَّةَ لِقَوْمِهِ، وَ الْمَوْحَى هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَ مَفْعُول «اسْتَمَعَ» الْقُرْآنَ حَذْفٌ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ، وَ النَّفَرُ الْجَمَاعَةُ مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَى

تسعه على المشهور، وقيل: بل الى أربعين.

و العجب بفتحيتين ما يدعو الى التعجب منه لخروجه عن العاده الجاربه فى مثله، و إنما وصفوا القرآن بالعجب لأنه كلام خارق للعادة فى لفظه و معناه أتى به رجل امى ما كان يقرأ و لا يكتب.

و الرشد إصابه الواقع و هو خلاف الغى، و هدايه القرآن الى الرشد دعوته الى عقائد و أعمال تتضمن للمتلبس بها سعاده الواقعيه.

و المعنى: يا أيها الرسول قل للناس: اوحى-أى أوحى الله-الى أنه استمع القرآن جماعه من الجن فقالوا-لقومهم لما رجعوا اليهم- إنا سمعنا كلاما مقروا خارقا للعادة يهدى الى معارف من عقائد و أعمال فى التلبس بها إصابه الواقع و الظفر بحقيقه السعاده (1).

قوله تعالى: فَأَمَّا نَبِيٌّ بِرَبِّنا أَخِي إِخْبَارٌ عَنِ إِيمَانِهِم بِالْقُرْآنِ وَ تَصْدِيقِهِمْ بِأَنَّهُ حَقٌّ، وَ قَوْلُهُ: «وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَدًا» تأكيد لمعنى إيمانهم به أن إيمانهم بالقرآن إيمان بالله الذى أنزله فهو ربهم، و أن إيمانهم به تعالى إيمان توحيد لا يشركون به أحدا أبدا.

قوله تعالى: وَ أَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَ لا وَلَدًا فَسِرَّ الْجَدَّ بِالْعِظْمَةِ وَ فَسَّرَ بِالْحِظِّ، وَ الْآيَةُ فِي مَعْنَى التَّأْكِيدِ لِقَوْلِهِمْ: «وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَدًا» .

و القراءه المشهوره «أَنَّهُ» بالفتح، و قرء بالكسر فى هذه الآيه و فيما بعدها من الآيات-اثنا عشر موردا-الى قوله: «وَ أَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا» بالفتح و هو الأرجح لظهور سياق الآيات فى أنها مقوله قول الجن.

و أما قراءه الفتح فوجهها لا يخلو من خفاء، و قد وجهها بعضهم بأن الجملة «وَ أَنَّهُ» الخ؛

ص: ٤٥٥

(١-١). الجن ١-١٧: كلام فى الجن.

معطوفه على الضمير المجرور في قوله: «فَأَمَّا بِهِ» و التقدير و آمنة بأنه تعالى جد ربنا، الخ؛ فهو إخبار منهم بالإيمان بنفى صاحبه و الولد منه تعالى على ما يقول به الوثنيون.

و هذا إنما يستقيم على قول الكوفيين من النحاه بجواز العطف على الضمير المتصل المجرور، و أما على قول البصريين منهم من عدم جوازه فقد وجهه بعضهم كما عن الفراء و الزجاج و الزمخشري بأنها معطوفه على محل الجار و المجرور و هو النصب فإن قوله: «فَأَمَّا بِهِ» في معنى صدقناه، و التقدير و صدقناه أنه تعالى جد ربنا، الخ، و لا يخفى ما فيه من التكلف.

و وجهه بعضهم بتقدير حرف الجر في الجملة المعطوفه و ذلك مطرد في أن و أن، و التقدير آمنة به و بأنه تعالى جد ربنا، الخ.

و يرد على الجميع أعم من العطف على الضمير المجرور أو على محله أو بتقدير حرف الجر أن المعنى إنما يستقيم حينئذ في قوله: «وَ أَنَّهُ نَعَىٰ إِلَىٰ حَيْدٍ رَبَّنَا» الخ؛ و قوله: «وَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَيَفِيهَنَا» الخ؛ و أما بقيه الآيات المصدره بأن كقوله: «وَ أَنَا ظَنَّنَا أَنْ لَنْ نَقُولَ» الخ؛ و قوله: «وَ أَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ» الخ؛ و قوله: «وَ أَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ» فلا يصح قطعاً فلا معنى لأن يقال: آمنة أو صدقنا أنا ظننا أن لن تقول الانس و الجن على الله شططا، أو يقال: آمنة أو صدقنا أنه كان رجال من الإنس يعوذون، الخ؛ أو يقال: آمنة أو صدقنا أنا لمسنا السماء، الخ.

و لا يندفع الإشكال إلا بالمصير الى ما ذكره بعضهم أنه إذا وجه الفتح في الآيتين الأوليين بتقدير الإيمان أو التصديق فليوجه في كل من الآيات الباقية بما يناسبها من التقدير.

و وجه بعضهم الفتح بأن قوله: «وَ أَنَّهُ نَعَىٰ إِلَىٰ» الخ؛ و سائر الآيات المصدره بأن معطوفه على قوله: «أَنَّهُ اسْتَمَعَ» الخ.

و لا يخفى فساده فان محصله أن الآيات في مقام الإخبار عما اوحى الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من أقوالهم و قد أخبر عن قولهم: إنا سمعنا قرآنا عجبا فآمنة به بعنوان أنه إخبار عن قولهم ثم

حكى سائر أقوالهم بألفاظها فالمعنى اوحى إلیّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا: إنا سمعنا كذا و كذا و اوحى الى أنه تعالى جد ربنا، الخ؛ و اوحى الى أنه كان يقول سفيها الى آخر الآيات.

فیرد علیه أن ما وقع فی صدر الآيات من لفظه «أَنَّهُ» و «أَنَّهُمْ» و «أَنَا» إن لم يكن جزء من لفظهم المحكى كان زائدا مخللا بالكلام، و إن كان جزء من كلامهم المحكى بلفظه لم يكن المحكى من مجموع أن و ما بعدها كلاما تاما و احتاج الى تقدير ما يتم به كلاما حتى تصح الحكاياه، و لم ينفع في ذلك عطفه على قوله: «أَنَّهُ اسْتَمَعَ» شيئا فلا تغفل.

قوله تعالى: وَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا السفه-على ما ذكره الراغب-خفه النفس لنقصان العقل، و الشطط القول البعيد من الحق.

و الآيه أيضا في معنى التأكيد لقولهم: «لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا» و مرادهم بسفيهم من سبقهم من مشركى الجن، و قيل: المراد إبليس و هو من الجن، و هو بعيد من سياق قوله: «كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا» الخ.

قوله تعالى: وَ أَنَا ظَنُّنَا أَنَّ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا اعتراف منهم بأنهم ظنوا أن الإنس و الجن صادقون فيما يقولون و لا- يكذبون على الله فلما وجدوهم مشركين و سمعوهم ينسبون اليه تعالى الصاحبه و الولد أذعنوا و قلدوهم فيما يقولون فأشركوا مثلهم حتى سمعوا القرآن فانكشف لهم الحق؛ و فيه تكذيب منهم للمشركين من الإنس و الجن.

قوله تعالى: وَ أَنَّهُ كَانَ رِجَالًا مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالِ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا قال الراغب: العوذ اللتجاء الى الغير، و قال: رهقه الأمر غشيه بقهر انتهى. و فسر الرهق بالإثم، و بالطغيان، و بالخوف، و بالشر، و بالذله و الضعف، و هى تفاسير بلازم المعنى.

و المراد بعوذ الإنس بالجن-على ما قيل: أن الرجل من العرب كان إذا نزل الوادى فى سفره

ليلا قال: أعوذ بعزير هذا الوادى من شر سفهاء قومه، و نقل عن مقاتل أن أول من تعوذ بالجن قوم من اليمن ثم بنو حنيفه ثم فشا فى العرب.

و لا يبعد أن يكون المراد بالعوذ بالجن الاستعانه بهم فى المقاصد من طريق الكهان، و اليه يرجع ما نقل عن بعضهم أن المعنى كان رجال من الإنس يعوذون برجال من أجل الجن و من معرفتهم و أذاهم.

و الضميران فى قوله: «فَزَادُوهُمْ» أولهما لرجال من الإنس و ثانيهما لرجال من الجن و المعنى فزاد رجال الإنس رجال الجن رهقا بالتجائهم اليهم فاستكبر رجال الجن و طغوا و أثموا، و يجوز العكس بأن يكون الضمير الأول لرجال الجن و الثانى لرجال الإنس، و المعنى فزاد رجال الجن رجال الإنس رهقا أى إثما و طغيانا أو ذله و خوفا.

قوله تعالى: «وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ضَمِيرٌ «أَنَّهُمْ» لرجال من الإنس، و الخطاب فى «ظَنَنْتُمْ» لقومهم من الجن، و المراد بالبعث بعث الرسول بالرسالة فالمشركون ينكرون ذلك، و قيل: المراد به الإحياء بعد الموت، و سياق الآيات التالىة يؤيد الأول.

قوله تعالى: «وَ أَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مَلْتًا حَرَسًا شَدِيدًا وَ شُهُبًا لَمَسَ السَّمَاءَ الْاِقْتِرَابَ مِنْهَا بِالصُّعُودِ إِلَيْهَا، وَ الْحَرَسَ - عَلَى مَا قِيلَ - اسْمٌ جَمْعٌ لِحَارِسٍ وَ لَذَا وَصْفٌ بِالْمَفْرَدِ وَ الْمُرَادُ بِالْحَرَسِ الشَّدِيدِ الْحِفَاظَ الْأَقْوِيَاءَ فِى دَفْعِ مَنْ يَرِيدُ الْاِسْتِرَاقَ مِنْهَا وَ لَذَا شَفَعَ بِالشَّهْبِ وَ هِىَ سِلَاحُهُمْ.

قوله تعالى: «وَ أَنَا كُنَّا نَقْعِدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا يَفِيدُ انْضِمَامَ صَدْرِ الْآيَةِ إِلَى الْآيَةِ السَّابِقَةِ أَنَّ مَلَأَ السَّمَاءَ بِالْحَرَسِ الشَّدِيدِ وَ الشَّهْبِ مِمَّا حَدَثَ أَحْيَرًا وَ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ يَقْعُدُونَ مِنَ السَّمَاءِ مَقَاعِدَ لِاسْتِمَاعِ كَلَامِ الْمَلَائِكَةِ وَ يَفِيدُ ذِيلَ الْآيَةِ بِالتَّفْرِيعِ عَلَى جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ أَنَّ مَنْ يَسْمَعُ الْآنَ مِنْهَا بِالْقَعُودِ مِنْهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ

يجد له شهابا من صفته أنه راصد له يرميه به الحرس.

فيحصل من مجموع الآيتين الإخبار بأنهم عثروا على حادثه سماويه جديده مقارنة لنزول القرآن وبعثه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهي منع الجن من تلقي أخبار السماء باستراق السمع.

قوله تعالى: **وَ أَنَا لَا نَدْرِي أَ شَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا** الرشد بفتح السين و الرشد بالضم فالسكون خلاف الغى و تنكير «رَشَدًا» لإفاده النوع أى نوعا من الرشد.

هذا منهم إظهار للجهد و التحير فيما شاهدوه من أمر الرجم و منع شياطين الجن من الاطلاع على أخبار السماء غير أنهم تنبهوا على أن ذلك لأمر ما يرجع الى أهل الأرض إما خير أو شر و إذا كان خيرا فهو نوع هدى لهم و سعادته و لذا بدلوا الخير و هو المقابل للشر من الرشد، و يؤيده قولهم: **«أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ»** المشعر بالرحمه و العناية.

و قد صرحوا بالفاعل لإرادته الرشد و حذفوه فى جانب الشر أدبا و لا يراد شر من جانبه تعالى إلا لمن استحقه.

قوله تعالى: **وَ أَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا** الصلاح مقابل الطلاح، و المراد بدون ذلك ما يقرب منه رتبة- على ما قيل-، و الظاهر أن دون بمعنى غير، و يؤيده قوله: **«كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا»** الدال على التفرق و التشتت و الطرائق جمع طريقه و هى الطريق المطروقه المسلوكة، و القدد القطع جمع قده بمعنى قطعه من القد بمعنى القطع و صفت الطرائق بالقدد لأن كل واحده منها مقطوعه عن غيرها تنتهى بسالكها الى غايه غير ما ينتهى به اليه غيرها، و الى هذا المعنى يرجع تفسير القدد بالطرائق المتفرقه المتشثته.

و الظاهر أن المراد بقوله: **«الصَّالِحُونَ»** الصالحون بحسب الطبع الأولى فى المعاشره و المعامله دون الصالحين بحسب الايمان، و لو كان المراد صلاح الايمان لكان الأنسب أن يذكر بعد ما سيجىء من حديث إيمانهم لما سمعوا الهدى.

و ذكر بعضهم أن قوله: «طَرَائِقَ قَدَدًا» منصوب على الظرفية أى فى طرائق قدد و هى المذاهب المتفرقة المتشتمته، و قال آخرون إنه على تقدير مضاف أى ذوى طرائق، و لا يبعد أن يكون من الاستعاره بتشبيهم أنفسهم فى الاختلاف و التباين بالطرق المقطوع بعضها من بعض الموصله الى غايات متشتمته.

و المعنى: و أنا منا الصالحون طبعاً و منا غير ذلك كنا فى مذاهب مختلفه أو ذوى مذاهب مختلفه أو كالطرق المقطوعه بعضها عن بعض.

قوله تعالى: **وَ أَنَا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَ لَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا** الظن هو العلم اليقيني، و الأنسب أن يكون المراد بقوله: «لَن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ» إعجازه تعالى بالغلبه عليه فيما يشاء فيها و ذلك بالإفساد فى الارض و إخلال النظام الذى يجرى فيها فإن إفسادهم لو أفسدوا من القدر، و المراد بقوله: «وَ لَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا» إعجازه تعالى بالهرب منه إذا طلبهم حتى يفوتوه فلا يقدر على الظفر بهم.

قوله تعالى: **وَ أَنَا لَمَّا سَجَعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَ لَا رَهَقًا** المراد بالهدى القرآن باعتبار ما يتضمنه من الهدى، و البخس النقص على سبيل الظلم، و الرهق غشيان المكروه.

و الفاء فى قوله: «فَمَنْ يُؤْمِنُ» للتفريع و هو من تفريع العله على المعلول لإفاده الحجه فى إيمانهم بالقرآن من دون ريث و لا مهل.

و محصل المعنى: أنا لما سمعنا القرآن الذى هو الهدى بادرنا الى الإيمان به من دون مكث لأن من آمن به فقد آمن بربه و من يؤمن بربه فلا يخاف نقصانا فى خير أو غشيانا من مكروه حتى يكف عن المبادره و الاستعجال و يتروى فى الإقدام عليه لئلا يقع فى بخس أو رهق.

قوله تعالى: **وَ أَنَا مِمَّا الْمُسْلِمُونَ وَ مِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا** المراد بالاسلام تسليم الأمر لله تعالى فالمسلمون المسلمون له الأمر المطيعون له فيما

يريده و يأمر به، والقاسطون هم المائلون الى الباطل قال في المجمع: القاسط هو العادل عن الحق و المقسط العادل الى الحق، انتهى.

و المعنى: أنا معشر الجن منقسمون الى من يسلم لأمر الله مطيعين له، و الى من يعدل عن التسليم لأمر الله و هو الحق.

و قوله: **فَمَنْ أَسْلِمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا** تحرى الشىء توخيه و قصده، و المعنى فالذين أسلموا فاولئك قصدوا إصابه الواقع و الظفر بالحق.

قوله تعالى: **وَ أَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا** فيعذبون بتسعرهم و اشتعالهم بأنفسهم كالقاسطين من الانس قال تعالى: **فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ** (البقره ٢٤).

و قد عد كثير منهم قوله: **«فَمَنْ أَسْلِمَ فَأُولَئِكَ»** الى قوله **«لِجَهَنَّمَ حَطَبًا»** تتمه لكلام الجن يخاطبون به قومهم و قيل: إنه من كلامه تعالى يخاطب به النبي صلى الله عليه و آله و سلم.

قوله تعالى: **وَ أَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا** لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ **«أَنْ»** مخففه من الثقيله، و المراد بالطريقه طريقه الاسلام، و الاستقامه عليها لزومها و الثبات على ما تقتضيه من الايمان بالله و آياته.

و الماء الغدق الكثير منه، و لا يبعد أن يستفاد من السياق أن قوله: **«لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا»** مثل اريد به التوسع في الرزق، و يؤيده قوله بعده: **«لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ»**.

و المعنى: و أنه لو استقاموا أى الجن و الانس على طريقه الاسلام لله لرزقناهم رزقا كثيرا لنمتحنهم فى رزقهم فالآيه فى معنى قوله: **وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ** (الأعراف ٩٦).

و الآيه من كلامه تعالى معطوف على قوله فى أول السوره: **«أَنَّهُ اسْتَمَعَ»** الخ.

قوله تعالى: **وَ مَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا** العذاب الصعد

هو الذى يتصعد على المعذب و يغلبه، و قيل: هو العذاب الشاق.

و الإعراض عن ذكر الله لازم عدم الاستقامه على الطريقه و هو الأصل فى سلوك العذاب، و لذا وضع موضعه ليدل على السبب الأصيلى فى دخول النار.

و هو الوجه أيضا فى الالتفات عن التكلم مع الغير الى الغيبه فى قوله: «ذَكَرِ رَبِّهِ» و كان مقتضى الظاهر أن يقال: ذكرنا و ذلك أن صفه الربوبيه هى المبدأ الأصيلى لتعذيب المعرضين عن ذكره تعالى فوضعت موضع ضمير المتكلم مع الغير ليدل على المبدأ الأصيلى كما وضع الإعراض عن الذكر موضع عدم الاستقامه ليدل على السبب.

قيل: و قوله: «يَسْلُكُهُ» مضمن معنى يدخله و لذا عدى الى المفعول الثانى، و المعنى ظاهر (١).

[سوره الجن (٧٢): الآيات ١٨ الى ٢٨]

وَ أَنْ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَ أَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَ لَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لَأَ رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَ رِسَالًا تَهٍ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَبِإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَ أَقْلُ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنْ إِزْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَ أَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨)

ص: ٤٦٢

قوله تعالى: وَ أَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا معطوف على قوله:

«أَنَّهُ اسْتَمَعَ» الخ؛ و جملة «أَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ» في موضع التعليل لقوله: «فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا» و التقدير لا تدعوا مع الله أحدا غيره لأن المساجد له.

و المراد بالدعاء العبادة و قد سماها الله دعاء كما في قوله: وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (المؤمن ٦٠).

و عن الامام الجواد عليه السلام أن المراد بالمساجد الأعضاء السبعة التي يسجد عليها في الصلاة و هي الجبهة و الكفان و الركبتان و أصابع الرجلين، و ستوافيك روايته في البحث الروائي التالي إن شاء الله، و نقل ذلك أيضا عن سعيد بن جبير و الفراء و الزجاج.

و الأنسب على هذا أن يكون المراد بكون مواضع السجود من الانسان لله اختصاصها به اختصاصا تشريعيًا، و المراد بالدعاء السجده لكونها أظهر مصاديق العبادة أو الصلاة بما أنها تتضمن السجود لله سبحانه.

و المعنى: و أوحى إلى أن أعضاء السجود يختص بالله تعالى فاسجدوا له بها- أو اعبدوه

بها-و لا تجسدوا-أو لا تعبدوا-أحدا غيره.

قوله تعالى: **وَ أَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا لَلْبَدِ بِالْكَسْرِ فَالْفَتْحُ جَمْعُ لِبَدِهِ بِالضَّمِّ فَالْمَجْتَمِعُ** المتراكمه، والمراد بعبد الله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ كما تدل عليه الآيه التاليه، والتعبير بعبد الله كالتمهيد لقوله فى الآيه التاليه: **«قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي»** .

و الأنسب لسياق الآيات التاليه أن يكون مرجع ضميرى الجمع فى قوله: **«كَادُوا يَكُونُونَ»** المشركين و قد كانوا يزدحمون عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ إذا صلى و قرء القرآن يستهزون و يرفعون أصواتهم فوق صوته على ما نقل.

و المعنى: و أنه لما قام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ يعبد الله بالصلاه كاد المشركون يكونون بازدحامهم لبدا مجتمعين متراكمين.

قوله تعالى: **قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَ لَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا** أمر منه تعالى للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أن يبين لهم وجه عبادته بيانا يزيل عنهم الحيره حيث رأوا منه ما لم يكونوا رأوه من أحد غيره، و يتعجبون حاملين له على نوع من المكيد و المكر بأصنامهم أو خدعه بهم لأغراض آخر دنيويه.

و محصل البيان: أنى لست أريد بما آتى به من العمل شيئاً من المقاصد التى تحسبونها و ترموننى بها و إنما أدعو ربي وحده غير مشرك به أحدا و عباده الانسان لمن عرفه ربا لنفسه مما لا ينبغى أن يلام أو يتعجب منه.

قوله تعالى: **قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لَا رَشَدًا** الذى يفيد سيق الآيات الكريمه أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ يبين فيها بأمر من ربه موقع نفسه و بالنسبه الى ربه و بالنسبه الى الناس.

أما موقعه بالنسبه الى ربه فهو أنه يدعوه و لا يشرك به أحدا و هو قوله: **«قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَ لَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا»** .

و أما موقعه بالنسبه اليهم فهو أنه بشر مثلهم لا يملك لهم ضرا و لا رشدا حتى يضرهم بما

يريد أن يرشدهم من الخير الى ما يريد بما عنده من القدره، و أنه مأمور من الله بدعوتهم أمرا ليس له إلا أن يمثله فلا مجير يجيره منه ولا- ملجأ يلتجئ اليه لو خالف و عصى كما ليس لهم إلا أن يطيعوا الله و رسوله و من يعص الله و رسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا، و سيعلمون إذا رأوا ما يوعدون.

و لازم هذا السياق أن يكون المراد بملك الضر القدره على إيقاع الضر بهم فيوقعه بهم إذا أراد، و المراد بملك الرشد القدره على إيصال النفع اليهم بإصابه الواقع أى أنى لا ادعى أنى أقدر أن أضركم أو أنفعكم، و قيل: المراد بالضر الغنى المقابل للرشد تعبيرا باسم المسبب عن السبب.

قوله تعالى: قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ الْإِجَارَهُ إِعْطَاءَ الْجَوَارِ وَحُكْمَهُ حَمَايَهُ الْمَجِيرَ لِلجَارِ وَ مَنْعَهُ مِمَّنْ يَقْصِدُهُ بِسُوءٍ، وَ الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُلْتَحَدَ اسْمُ مَكَانٍ وَ هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي يَعْجَلُ وَ يَنْحَرِفُ إِلَيْهِ لِلتَّحْرُزِ مِنَ الشَّرِّ، وَ قِيلَ: الْمُدْخَلُ وَ يَتَعَلَّقُ بِهِ قَوْلُهُ: «مِنْ دُونِهِ» وَ هُوَ كَالْقَيْدِ التَّوْضِيحِيِّ وَ الضَّمِيرُ لِلَّهِ وَ الْبَلَاغُ التَّبْلِيغُ.

و قوله: إِلَّا بَلَاغًا اسْتِثْنَاءً مِنْ قَوْلِهِ: «مُلْتَحَدًا» وَ قَوْلِهِ: «مِنَ اللَّهِ» مُتَعَلِّقٌ بِمُقَدَّرِ أَى كَائِنًا مِنَ اللَّهِ وَ لَيْسَ مُتَعَلِّقًا بِقَوْلِهِ: «بَلَاغًا» لِأَنَّهُ يَتَعَدَّى بَعْنَ لَا- بِمَنْ وَ لِذَا قَالَ بَعْضُ مَنْ جَعَلَهُ مُتَعَلِّقًا بِبَلَاغًا: إِنْ «مِنْ» بِمَعْنَى عَنِ، وَ الْمَعْنَى عَلَى أَى حَالٍ إِلَّا- تَبْلِيغُ مَا هُوَ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَ الصِّفَاتِ.

و قوله: وَرِسَالَاتِهِ قِيلَ: مَعْطُوفٌ عَلَى «بَلَاغًا» وَ التَّقْدِيرُ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَ إِلَّا رِسَالَاتِهِ وَ قِيلَ: مَعْطُوفٌ عَلَى لَفْظِ الْجَلَالَةِ وَ مِنْ بِمَعْنَى عَنِ، وَ الْمَعْنَى إِلَّا بَلَاغًا عَنِ اللَّهِ وَ عَنِ رِسَالَاتِهِ.

وَ فِيمَا اسْتِثْنَى مِنْهُ بَلَاغًا قَوْلَ آخَرَ وَ هُوَ أَنَّهُ مَفْعُولٌ «لَا أَمْلِكُ» وَ الْمَعْنَى لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لَا

رشدًا إلا تبليغًا من الله ورسالاته، وبعده الفصل بين المستثنى والمستثنى منه بقوله: «لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ» الخ؛ وهو كلام مستأنف.

ومعنى الآيتين على ما قدمنا: قل لن يجيرني من الله أحد فيمنعني منه و لن أجد من دونه مكانا ألتجئ إليه إلا تبليغا كائنا منه و رسالاته أى إلا أن أمتثل ما أمرنى به من التبليغ منه تعالى ببيان أسمائه و صفاته و إلا رسالاته فى شرائع الدين.

قوله تعالى: «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا» إفراد ضمير «لَهُ» باعتبار لفظ «مِنْ» كما أن جمع «خَالِدِينَ» باعتبار معناها.

و عطف الرسول على الله فى قوله: «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» لكون معصيته معصيه لله تعالى إذ ليس له إلا رساله ربه فالرد عليه فيما أتى به رد على الله سبحانه و طاعته فيما يأمر به طاعه لله قال تعالى: «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ (النساء ٨٠)».

و المراد بالمعصيه- كما يشهد به سياق الآيات السابقه-معصيه ما أمر به من التوحيد أو التوحيد و ما يتفرع عليه من اصول الدين و فروعه فلا يشمل التهديد و الوعيد بخلود النار إلا الكافرين بأصل الدعوه دون مطلق أهل المعصيه المتخلفين عن فروع الدين فالاحتجاج بالآيه على تخليد مطلق العصاه فى النار فى غير محله.

و الظاهر أن قوله: «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ» الى آخر الآيه؛ من كلام الله سبحانه لا من تتمه كلام النبي صلى الله عليه و آله و سلم.

قوله تعالى: «حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَ أَقَلُّ عَدَدًا لِقَوْلِهِ: «حَتَّىٰ» دلالة على معنى مدخولها غايه له و مدخولها يدل على أنهم كانوا يستضعفون النبي صلى الله عليه و آله و سلم بعد ناصريه-و هم المؤمنون-ضعفاء و استقلال عدده بعد عددهم قليلا فالكلام يدل على معنى محذوف هو غايته كقولنا: لا يزالون يستضعفون ناصريك و يستقلون عددهم حتى إذا رأوا ما يوعدون، الخ.

و المراد بما يوعدون نار جهنم لأنها هي الموعودة في الآيه، والآيه من كلامه تعالى يخاطب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و لو كانت من كلامه و هي مصدره بقوله تعالى: «قُلْ» لكان من حق الكلام أن يقال: حتى إذا رأيتم ما توعدون فستعلمون، الخ.

قوله تعالى: قُلْ إِنْ أَدْرَى أَقْرَبٌ مَا تُوعِدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمِدًا أَمَدًا الْغَايَةَ الَّتِي يَنْتَهِي إِلَيْهَا، وَ الْآيَةَ بِمَنْزِلِهِ دَفَعَ دَخَلَ تَقْتَضِيهِ حَالَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَمَّا سَمِعُوا الْوَعِيدَ قَالُوا: مَتَى يَكُونُ ذَلِكَ فَقِيلَ لَهُ «قُلْ إِنْ أَدْرَى أَقْرَبٌ» الخ.

قوله تعالى: «عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِذْ يَظْهَرُ الشَّيْءُ عَلَى الشَّيْءِ إِعَانَتَهُ وَ تَسْلِيطَهُ عَلَيْهِ، وَ «عَالِمِ الْغَيْبِ» خَيْرٌ لِمَبْتَدِئِ مُحَمَّدٍ وَالتَّقْدِيرُ هُوَ عَالِمِ الْغَيْبِ، وَ مَفَادُ الْكَلِمَةِ بِإِعَانَتِهِ مِنَ السِّيَاقِ اخْتِصَاصُ عِلْمِ الْغَيْبِ بِهِ تَعَالَى مَعَ اسْتِعَابِ عِلْمِهِ كُلِّ غَيْبٍ، وَ لَذَا أُضِيفَ الْغَيْبُ إِلَى نَفْسِهِ ثَانِيًا فَقَالَ: «عَلَىٰ غَيْبِهِ» بِوَضْعِ الظَّاهِرِ مَوْضِعِ الْمُضْمَرِ لِيفِيدِ الْاِخْتِصَاصَ وَ لَوْ قَالَ: «فَلَا يُظْهِرُ عَلَيْهِ» لَمْ يَفِدْ ذَلِكَ.

و المعنى هو عالم كل غيب علما يختص به فلا يطلع على الغيب و هو مختص به أحدا من الناس فالمفاد سلب كلي و إن أصر بعضهم على كونه سلبا جزئيا محصل معناه لا يظهر على كل غيبه أحدا و يؤيد ما قلنا ظاهر ما سيأتي من الآيات.

قوله تعالى: «إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ اسْتِثْنَاءً مِنْ قَوْلِهِ: «أَحَدًا» وَ «مِنْ رَسُولٍ» بَيَانٌ لِقَوْلِهِ: «مَنْ ارْتَضَىٰ» فَيَفِيدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُظْهِرُ رِسَالَهُ عَلَى مَا شَاءَ مِنَ الْغَيْبِ الْمُخْتَصِّ بِهِ فَالْآيَةُ إِذَا انضَمَّتْ إِلَى الْآيَاتِ الَّتِي تَخَصُّ عِلْمَ الْغَيْبِ بِهِ تَعَالَى كَقَوْلِهِ: وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْزِمُهَا إِلَّا هُوَ (الأنعام ٥٩)، وَ قَوْلِهِ: وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ (النحل ٧٧)، وَ قَوْلِهِ: قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ (النمل ٦٥) أفاد ذلك معنى الأصاله و التبعية فهو تعالى يعلم الغيب لذاته و غيره يعلمه بتعليم من الله.

فهذه الآيات نظيره الآيات المتعرضه للتوفى كقوله: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ (الزمر ٤٢)

البدال على الحصر، و قوله: قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (الم السجده ١١/)، و قوله: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا (الأنعام ٦١/) فالتوفى منسوب اليه تعالى على نحو الأصله و الى الملائكه على نحو التبعيه لكونهم أسبابا متوسطه مسخره له تعالى.

قوله تعالى: فَهَاتِهِ يَسْئَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَضِيداً - الى قوله - عِيداً ضَمِير «فَهَاتِهِ» لله تعالى، و ضميرا «يَدَيْهِ» و «خَلْفِهِ» للرسول، و الراصد المراقب للأمر الحارس له، و الرصد الراصد يطلق على الواحد و الجماعه و هو فى الأصل مصدر، و المراد بما بين يدي الرسول ما بينه و بين الناس المرسل اليهم، و بما خلفه ما بينه و بين مصدر الوحي الذى هو الله سبحانه و قد اعتبر فى هذا التصوير ما يوهمه معنى الرساله من امتداد متوهم يأخذ من المرسل - اسم فاعل - و ينتهى الى المرسل اليه يقطع الرسول حتى ينتهى الى المرسل اليه فيؤدى رسالته، و الآيه تصف طريق بلوغ الغيب الى الرسول و هو الرسالات التى توحى اليه كما يشير الى ذلك قوله: «لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ».

و المعنى: فإن الله يسلك ما بين الرسول و من ارسل اليه و ما بين الرسول و مصدر الوحي مراقبين حارسين من الملائكه - و من المعلوم أن سلوك الرصد من بين يديه و من خلفه لحفظ الوحي من كل تخليط و تغيير بالزياده و النقصان يقع فيه من ناحيه الشياطين بلا واسطه أو معها.

و قوله: لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ ضَمِير «لِيَعْلَمَ» لله سبحانه، و ضميرا «قَدْ أَبْلَغُوا» و «رَبِّهِمْ» لقوله: «مَنْ» باعتبار المعنى أو لرسول باعتبار الجنس، و المراد بعلمه تعالى بإبلاغهم رسالت ربهم العلم الفعلى و هو تحقق الإبلاغ فى الخارج على حد قوله: فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لِيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (العنكبوت ٣/) و هو كثير الورد فى كلامه تعالى.

و الجملة تعليل لسلوك الرصد بين يدي الرسول و من خلفه،و المعنى ليتحقق إبلاغ رسالات ربهم أى لتبلغ الناس رسالاته تعالى على ما هي عليه من غير تغير و تبدل.

و من المحتمل أن يرجع ضميرا «بَيْنَ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ» الى «غَيْبِهِ» فيكون الرصد الحرس مسلوكين بين يدي الغيب النازل و من خلفه الى أن يبلغ الرسول،و يضعفه أنه لا يلائم قوله:

«لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ» بالمعنى الذى تقدم لعدم استلزام بلوغ الغيب للرسول سليما من تعرض الشياطين حصول العلم بإبلاغه الى الناس.

و الى هذا المعنى يرجع قول بعضهم إن الضميرين يرجعان الى جبريل حامل الوحي و يضعفه مضافا الى ما مر عدم سبق ذكره.

و قوله: «وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ» ضمير الجمع للرسول بناء على ما تقدم من المعنى و الظاهر أن الجملة متممه لمعنى الحراسه المذكوره سابقا فقوله: «مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ» يشير الى رصد ما بين الرسول و المرسل اليهم،و قوله: «وَ مِنْ خَلْفِهِ» الى حفظ ما بينه و مصدر الوحي، و قوله: «وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ» يشير الى ظرف نفس الرسول و الإحاطه إحاطه علميه فالوحي فى أمن من تطرق التغيير فيما بين مصدر الوحي و الرسول و فى نفس الرسول و فيما بين الرسول و المرسل اليهم.

و يمكن أن يكون المراد بما لديهم جميع ما له تعلق ما بالرسول أعم من مسير الوحي أو أنفسهم كما أن قوله: «وَ أَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا» مسوق لإفاده عموم العلم بالأشياء غير أنه العلم بعددها و تميز بعضها من بعض (١).

ص: ٤٦٩

١- ١). الجن ١٨-٢٨: بحث فى اختصاصه تعالى بعلم الغيب؛علم الانبياء و الأئمة و الملائكة؛مصونه الوحي من حين صدوره من مصدره الى الرسول و حين اخذ الرسول اياه و تلقيه و مصونه فى حفظه و فى تبليغه الى الناس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ
الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا
﴿٧﴾ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَ
أهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَ
عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْدًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾
السَّمَاءُ مُنْقَطِرَةٌ بِهِ ﴿١٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

السوره تأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بقيام الليل و الصلاة فيه ليستعد بذلك لتلقى ثقل ما سيلقى عليه من القول الثقيل و القرآن الموحى اليه، و تأمره أن يصبر على ما يقولون فيه إنه شاعر أو كاهن أو مجنون الى غير ذلك و يهجرهم هجرا جميلا، و فيها عيد و إنذار للكفار و تعميم الحكم لسائر المؤمنين، و فى آخرها تخفيف ما للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و المؤمنين.

و السوره مكيه من عتائق السوق النازله فى أول البعثة حتى قيل: انها ثانيه السور النازله على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أو ثالثها.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ بتشديد الزاى و الميم و أصله المتمزمل اسم فاعل من التزمّل بمعنى التلطف بالثوب لنوم و نحوه، و ظاهره أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان قد تزمّل بثوب للنوم فنزل عليه الوحي و خوطب بالمزمل.

و ليس فى الخطاب به تهجىن و لا تحسفن كما توهمه بعضهم، نعم فمكن أن فستفاد من سفاق الآفاة أنه صلى الله علفه و آله و سلم كان قد قبل فى دعوته بالهزة و السخرفة و الإفذاء فاعتم فى الله فترمى بثوب لفنام دفعا للهم فخطب بالمزمل و أمر بقاء اللفل و الصلاه ففه و الصبر على ما فقولون على حد قوله تعالى: وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ (البقرة ١٥٣/) فأففد بذلك علىه أن فقاوم الكرب العظام و النوائب المره بالصلاه و الصبر لا بالترمى و النوم.

و قفل: المراد فا أفاها المترمى بعباء النبوه أى المآحمل لأآقالها، و لا شاهد علىه من جهة اللفظ.

قوله تعالى: قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نَضِيفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا المراد بقاء اللفل القفام ففه الى الصلاه فاللفل مفعول به توسعا كما فى قولهم: دخلآ الءار، و قفل: معمول «قم» مقدر و «اللفل» منصوب على الظرففه و التقففر قم الى الصلاه فى اللفل، و قوله: «إِلَّا قَلِيلًا» استثناء من اللفل.

و قوله: نَضِيفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ظاهر السفاق أنه بءل من «اللفل إِلَّا قَلِيلًا» المآعلق به تكلف القفام، و ضمفرا «مِنْهُ» و «عَلَيْهِ» لل نصف، و ضمفر «نَضِيفَهُ» للفل، و المعنى قم نصف اللفل أَوْ انقص من النصف قفلا- أَوْ أوزء على النصف قفلا، و الترففء بفن الآلاآه للآخفر فقء آفر بفن قفام النصف و قفام أقل من النصف بقلفل و قفام أكثر منه بقلفل.

و قوله: وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا- ترتفل القرآن تلاوته بآبفن حرففه على آوالفها، و الجملة معطوفه على قوله: «قُمْ اللَّيْلَ» أى قم اللفل و اقرأ القرآن بترتفل.

و الظاهر أن المراد بترتفل القرآن ترتفله فى الصلاه أَوْ المراد به الصلاه نفسها و قد عبر سبحانه عن الصلاه بنظفر هذا التعبفر فى قوله: أَقِمِ الصَّلَاةَ لِئَلَّا تَكُونَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (الإسراء ٨٧/)، و قفل: المراد إفااب قراءه

قوله تعالى: **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا** الثقل كيفية جسمانية من خاصته أنه تشق حمل الجسم الثقيل و نقله من مكان الى مكان وربما يستعار للمعاني إذا شق على النفس تحملها أو لم تطقها فربما أضيف الى القول من جهة معناه فعد ثقيلا لتضمنه معنى يشق على النفس إدراكه أو لا- تطيق فهمه أو تتخرج من تلقيه كدقائق الأنظار العلمية إذا القيت على الافهام العامه، أو لتضمنه حقائق يصعب التحقق بها او تكاليف يشق الاتيان بها و المداومه عليها.

و القرآن قول إلهي ثقيل بكلام- المعنيين: أما من حيث تلقى معناه فإنه كلام إلهي مأخوذ من ساحه العظمه و الكبرياء لا تتلقاه إلا نفس طاهره من كل دنس منقطع عن كل سبب إلا الله سبحانه، و كتبنا عزيز له ظهر و بطن و تنزيل و تأويل تبياننا لكل شيء، و قد كان ثقله مشهودا من حال النبي صلى الله عليه و آله و سلم بما كان يأخذ من البرحاء و شبه الإغماء على ما وردت به الأخبار المستفيضة.

و أما من حيث التحقق بحقيقه التوحيد و ما يتبعها من الحقائق الاعتقادية فكفى في الاشاره الى ثقله قوله تعالى: **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** (الحشر ٢١)، و قوله تعالى: **وَ لَوْ أَن فُزَانًا سِيرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتَىٰ** (الرعد ٣١).

و أما من حيث القيام بما يشتمل عليه من أمر الدعوه و اقامه مراسم الدين الحنيف، و اظهاره على الدين كله فيشهد به ما لقي صلى الله عليه و آله و سلم من المصائب و المحن في سبيل الله و الأذى في جنب الله على ما يشهد به الآيات القرآنيه الحاكيه لما لقيه النبي صلى الله عليه و آله و سلم من المشركين و الكفار و المنافقين و الذين في قلوبهم مرض من أنواع الإيذاء و الهزاء و الجفاء.

فقوله: **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا** المراد بالقول الثقيل القرآن العظيم على ما

يسبق الى الذهن من سياق هذه الآيات النازله فى أول البعثه، و به فسرہ المفسرون.

و الآيه فى مقام التعليل للحكم المدلول عليه بقوله: «قَمِ اللَّيْلُ» الخ؛ فتنفيذ بمقتضى السياق - و الخطاب خاص بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم - أن أمره بقيام الليل و التوجه فيه اليه تعالى بصلاه الليل تهيئه له و اعداد لكرامه القرب و شرف الحضور و القاء قول ثقيل فقيام الليل هي السبيل المؤديه الى هذا الموقف الكريم و قد عد سبحانه صلاه الليل سبيلا اليه فى قوله الآتى: «إِنَّ هَذِهِ تَذَكْرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَيَّ رَبِّهِ سَبِيلًا» .

و قد زاد سبحانه وعدا على ما فى هذه الآيه فى قوله: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا» (الإسراء/٧٩) و قد تقدم معنى المقام المحمود فى تفسير الآيه.

و إذا كان من ثقل القرآن ثقله من حيث التحقق بحقائقه و من حيث استجابته فيما يندب اليه من الشرائع و الأحكام فهو ثقيل على الامه كما هو ثقيل عليه صلى الله عليه و آله و سلم و معنى الآيه انا سنوحى اليك قولاً يثقل عليك و على امتك أما ثقله عليه صلى الله عليه و آله و سلم فلما فى التحقق بحقائقه من الصعوبه و لما فيه من محنه الرساله و ما يتبعها من الأذى فى جنب الله و ترك الراحة و الدعه و مجاهدته النفس و الانقطاع الى الله مضافا الى ما فى تلقيه من مصدر الوحي من الجهد، و أما ثقله على امته فلأنهم يشاركونه صلى الله عليه و آله و سلم فى لزوم التحقق بحقائقه و اتباع أوامره و نواهيه و رعايه حدوده كل طائفه منهم على قدر طاقته.

قوله تعالى: «إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَ أَقْوَمُ قِيلاً إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا» الآيه الاولى فى مقام التعليل لاختيار الليل وقتاً لهذه الصلاه، و الآيه الثانيه فى مقام التعليل لترك النهار و الاعراض عنه كما أن الآيه السابقه أعنى قوله: «إِنَّا سَيُنْقِضُ عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا» فى مقام التعليل لتشريع أصل هذه الصلاه.

فقوله: «إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَ أَقْوَمُ قِيلاً» الناشئه اما مصدر كالعاقبه و العافيه

بمعنى النشأه وهى الحدوث و التكون، و اما اسم فاعل من النشأه مضاف الى موصوفه و كيف كان فالمراد بها الليل و اطلاق الحادثه على الليل كاطلاقها على سائر أجزاء الخلقه و ربما قيل:

انها الصلاه فى الليل و وطئ الأرض و وضع القدم عليها، و كونها أشد وطأ كناية عن كونها أثبت قدما لصفاء النفس و عدم تكدرها بالشواغل النهاريه و قيل: الوطاء مواطاه القلب اللسان و أيد بقراءه «أَشَدُّ وَطْأً» و المراد بكونها أقوم قيلا كونها أثبت قولاً و أصوب لحضور القلب و هدو الأصوات.

و المعنى ان حادثه الليل أو الصلاه فى الليل هى أثبت قدما-أو أشد فى مواطاه القلب اللسان و أثبت قولاً و أصوب لما أن الله جعل الليل سكنا يستتبع انقطاع الإنسان عن شواغل المعيشه الى نفسه و فراغ باله.

و قوله: «إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا» السبح المشى السريع فى الماء و السبح الطويل فى النهار كناية عن الغور فى مهمات المعاش و أنواع التقلب فى قضاء حوائج الحياه.

و المعنى إن لك فى النهار مشاغل كثيره تشتغل بها مستوعبه لا تدع لك فراغا تشتغل فيه بالتوجه التام الى ربك و الانقطاع اليه بذكره فعليك بالليل و الصلاه فيه.

قوله تعالى: «وَ اذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَ تَبْتَئِلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا» الظاهر أنه يصف صلاه الليل فهو كالعطف التفسيري على قوله: «وَ رَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا» و على هذا فالمراد بذكر اسم الرب تعالى الذكر اللفظى بمواطاه من القلب و كذا المراد بالتبتل التبتل مع اللفظ.

و قيل: الآيه تعميم بعد التخصيص و المراد بالذكر دوام ذكره تعالى ليلا و نهارا على أى وجه كان من تسييح و تحميد و صلاه و قراءه قرآن و غير ذلك، و إنما فسر الذكر بالدوام لأنه صلى الله عليه و آله و سلم لم ينسه تعالى حتى يؤمر بذكره، و المراد الدوام العرفى دون الحقيقى لعدم إمكانه.

انتهى.

و فيه أنه إن أراد بالذكر الذكر اللفظى فعدم نسيانه صلى الله عليه و آله و سلم ربه تعالى لا ينافى أمره بالذكر

اللفظي، وإن أراد ما يعم الذكر القلبي فهو ممنوع و لو سلم ففيه أولاً أن عدم نسيانه صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم ربه الى حين الخطاب لا ينافي أمره بذكره بعده و ثانياً أن عدّه الدوام الحقيقي غير ممكن و حمل الدوام على العرفي و هم ناش عن عدم تحصيل المعنى على ما هو عليه فالله جل ذكره مذكور للإنسان لا يغيب عنه و لا لحظه سواء تنبه عليه الإنسان أو غفل عنه. و من الممكن أن يعرفه الله نفسه بحيث لا يغفل عنه و لا في حال قال تعالى: فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (حم السجده ٣٨) و قال: يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (الأنبياء ٢٠) و قد تقدم في تفسير الآيتين و آخر سورة الأعراف أن ذلك لا يختص بالملائكة.

و بالجمله قوله: وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ أمر بذكر اسم من أسمائه أو لفظ الجلاله خاصه و قيل: المراد به البسملة.

و في قوله: رَبِّكَ التفات عن التكلم مع الغير في قوله: «إِنَّا سَنُلْقِي» الى الغيبه و لعل الوجه فيه إيقاظ ذله العبوديه التي هي الرابطه بين العبد و ربه، بذكر صفه الربوبيه.

و قوله: وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا فسر التبتل بالانقطاع أى و انقطع الى الله، و من المروى عن أئمه أهل البيت عليهم السلام أن التبتل رفع اليد الى الله و التضرع اليه، و هذا المعنى أنسب بناء على حمل الذكر على الذكر اللفظي كما تقدم.

و «تَبْتِيلًا» مفعول مطلق ظاهراً و كان مقتضى الظاهر أن يقال: و تبتل اليه تبتلاً فالعدول الى التبتيل قيل: لتضمين تبتل معنى بتل، و المعنى و قطع نفسك من غيره اليه تقطيعاً أو احمل نفسك على رفع اليد اليه و التضرع حملاً، و قيل: لمراعاة الفواصل.

قوله تعالى: رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا. وصف مقطوع عن الوصفيه و التقدير هو رب المشرق و المغرب، و رب المشرق و المغرب في معنى رب العالم كله فان المشرق و المغرب جهتان نسبيتان شمالان جهات العالم المشهود كلها، و إنما اختص بالذكر لمناسبه ما تقدم من ذكر الليل و النهار المرتبطين بالشروق و الغروب.

و إنما لم يقتصر فى الاشارة الى ربوبيته تعالى بقوله السابق: «رَبِّكَ» للإيذان بأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مأمور باتخاذ ربه لأنه ربه و رب العالم كله لأنه ربه وحده كما ربما كان الرجل من الوثنيين يتخذ صنما لنفسه فحسب غير ما اتخذه غيره من الأصنام و لو كان اتخذه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ له تعالى ربا من هذا القبيل أو احتمال ذلك لم تصح دعوته الى التوحيد.

و ليكون قوله: ربك رب المشرق و المغرب- و هو فى معنى رب العالم كله- توطئه و تمهيدا لقوله بعده: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» يعلل به توحيد الالهيه فان الالهيه و هى المعبوديه من فروع الربوبيه التى هى الملك و التدبير كما تقدم مرارا فهو تعالى الإله وحده لا إله إلا هو لأنه الرب وحده لا رب إلا هو.

و قوله: فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا- أى فى جميع امورك، و توكيل الوكيل هو إقامه الانسان غير مقام نفسه بحيث تقوم إرادته مقام إرادته و عمله مقام عمله فاتخذه تعالى وكيلا أن يرى الانسان الأمر كله له و اليه تعالى أما فى الامور الخارجيه و الحوادث الكونيه فإن لا يرى لنفسه و لا- لشيء من الأسباب الظاهريه استقلالاً فى التأثير فلا مؤثر فى الوجود بحقيقه معنى التأثير إلا الله فلا يتعلق بتأثير سبب من الأسباب برضى أو سخط أو سرور أو أسف و غير ذلك بل يتوسل الى مقاصده و مآربه بما عرفه الله من الأسباب من غير أن يطمئن الى استقلالها فى التأثير و يرجع الظفر بالمطلوب الى الله ليختار له ما يرضيه.

و أما الامور التى لها تعلق بالعمل من العبادات و المعاملات فإن يجعل ارادته تابعه لإرادته ربه التشريعيه فيعمل على حسب ما يريد الله تعالى منه فيما شرع من الشريعه.

قوله تعالى: وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا- معطوف هو و ما بعده على مدخول الفاء فى قوله: «فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا» فالمعنى اتخذه وكيلا- و لازم اتخذه وكيلا أن تصبر على ما يقولون مما فيه إيذاءك و الاستهزاء بك و رميك بما ليس فيك كقولهم: افترى على الله، كاهن شاعر، مجنون، أساطير الأولين و غير ذلك مما يقصه القرآن.

و أن تهجرهم هجرا جميلا، و المراد بالهجر الجميل على ما يعطيه السياق أن يعاملهم بحسن الخلق و الدعوه الى الحق بالمناصحه، و لا يواجه قولهم بما فى وسعه من المقابله بالمثل، و الآيه لا تدافع آيه القتال فلا وجه لقول من قال: إنها منسوخه بآيه القتال.

قوله تعالى: وَ ذَرْنِي وَ الْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَ مَهْلُهم قَلِيلًا. تهديد للكفار يقال: دعنى و فلانا و ذرنى و فلانا أى لا تحل بينى و بينه حتى أنتقم منه.

و المراد بالمكذبين اولى النعمه الكفار المذكورون فى الآيه السابقه او رؤساؤهم المتبوعون، و الجمع بين توصيفهم بالمكذبين و توصيفهم باولى النعمه للإشاره الى عله ما يهددهم به من العذاب فإن تكذيبهم بالدعوه الإلهيه و هم متعمون بنعمه ربهم كفران منهم بالنعمه و جزاء الكفران سلب النعمه و تبديلها من النقمه.

و المراد بالقليل الذى يمهلونه الزمان القليل الذى يمشون فى الأرض حتى يرجعوا الى ربهم فيحاسبهم و يجازيهم قال تعالى: إِنَّهم يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَ يَرَاهُ قَرِيباً (المعارج ٧)، و قال:

مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِنَسِ الْمِهَادِ (آل عمران ١٩٧).

و الآيه بظاهرها عامه، و قيل: وعيد لهم بوقعه بدر و ليس بظاهر، و فى الآيه التفات عن الغيبه فى «رَبِّكَ» الى التكلم وحده فى «ذَرْنِي» و لعل الوجه فيه تشديد التهديد بنسبه الأمر اليه سبحانه نفسه ثم التفت فى قوله: «إِنَّ لَدَيْنَا» الى التكلم مع الغير للدلاله على العظمه.

قوله تعالى: إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَ جَحِيمًا تعليل لقوله: «ذَرْنِي» الخ؛ و الأنكال القيود، قال الراغب يقال: نكل عن الشىء ضعف و عجز، و نكلته قيده و النكل -بالكسر فالسكون- قيد الدابه و حديده اللجام لكونهما مانعين، و الجمع الأنكال انتهى، و قال: الجحيمه شده تأجج النار و منه الجحيم، انتهى.

قوله تعالى: وَ طَعَاماً ذَا غُصْبٍ وَ عَذَاباً أَلِيمًا قال فى المجمع: الغصه تردد اللقمه فى الحلق و لا يسيغها أكلها يقال: غصّ بريقه يغص غصصا، و فى قلبه غصه من كذا و هى كاللدغه

التي لا يسوغ معها الطعام و الشراب، انتهى.

و الآيتان تذكران نعم الآخرة التي بدلت منها الدنيا جزاء لكفرانهم بنعم الله.

قوله تعالى: **يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيماً مَّهِيلاً** - ظرف للعذاب الموعود في الآيتين السابقتين، قال الراغب: الرجف الاضطراب الشديد يقال:

رجفت الارض و البحر انتهى. و فى المجمع: الكثيب الرمل المجتمع الكثير، و هلت أهيله هيلا- فهو مهيل إذا حرك أسفله فسال أعلاه انتهى، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: **إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً** إنذار للمكذبين اولى النعمة من قومه صلى الله عليه و آله و سلم بعد ما أوعد مطلق المكذبين اولى النعمة بما أعد لهم من العذاب يوم القيامة بقياس حالهم الى حال فرعون المستكبر على الله و رسوله المستدل لرسول الله و من آمن معه من قومه ثم قرع أسماعهم بما انتهى اليه أمر فرعون من أخذ الله له أخذا وبيلا فليتعضوا و ليأخذوا حذرهم.

فقوله: **إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ** إشارة الى تصديق رساله النبي صلى الله عليه و آله و سلم من قبله تعالى و شهادته على أعمالهم بتحملها فى الدنيا و تأديتها يوم القيامة، و قد تقدم البحث عن معنى شهاده الأعمال فى الآيات المشتمله عليها مرارا، و فى الاشارة الى شهادته صلى الله عليه و آله و سلم نوع زجر لهم عن عصيانه و مخالفته و تكذيبه.

و قوله: **«كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً»** هو موسى بن عمران عليه السلام.

قوله تعالى: **فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْداً وَبِيلاً** أى شديدا ثقيلاً.

إشارة الى عاقبه أمر فرعون فى عصيانه موسى عليه السلام، و فى التعبير عن موسى بالرسول إشارة الى أن السبب الموجب لأخذ فرعون مخالفته أمر رسالته لا- نفس موسى بما أنه موسى، و إذا كان السبب هو مخالفه الرساله فليحذروا مخالفه رساله محمد صلى الله عليه و آله و سلم.

كما أن وضع الظاهر موضع الضمير فى قوله: **«فَعَصَى فِرْعَوْنُ»** للإيماء الى أن ما كان له من

العزه و العلو فى الارض و التبجح بكثره العدد و سعه المملكه و نفوذ المشيه لم يغن عنه شيئا و لم يدفع عنه عذاب الله فما الظن بهؤلاء المكذبين؟ و هم كما قال الله: جُنُدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْرُومٌ مِنَ الْأَخْرَابِ (ص ١١).

قوله تعالى: فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا نسبة الالتقاء الى اليوم من المجاز العقلى و المراد اتقاء العذاب الموعود فيه، و عليه فيوما مفعول به لتتقون، و قيل: مفعول «تَتَّقُونَ» محذوف و «يَوْمًا» ظرف له و التقدير فكيف تتقون العذاب الكائن فى يوم، و قيل: المفعول محذوف و «يَوْمًا» ظرف للالتقاء و قيل غير ذلك.

و قوله: «يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا» الشيب جمع أشيب مقابل الشاب، و جعل الولدان شيبا كناية عن شده اليوم لا عن طوله.

قوله تعالى: السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا إشاره بعد إشاره الى شده اليوم، و الانفطار الانشقاق و تذكير الصفه لكون السماء جائز الوجهين يذکر و يؤنث، و ضمير «به» لليوم، و الباء بمعنى فى أو للسببيه، و المعنى السماء منشقه فى ذلك اليوم أو بسبب ذلك اليوم أى بسبب شدته.

و قوله: «كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا» استئناف لتسجيل ما تقدم من الوعيد و أنه حتم مقضى و نسبة الوعد الى ضميره تعالى لعله للإشعار بأن لا يصلح لهذا الوعد إلا الله تعالى فيكفى فيه الضمير من غير حاجه الى ذكره باسمه.

قوله تعالى: إِنْ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَٰهًا سِوَا اللَّهِ مَا تَتَّخِذُ الْبَشَرُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَذْكَرَةٌ الموعظه التى يذکر بها ما يعمل عليه.

و قوله: فَمَنْ شَاءَ مَفْعُول «شَاءَ» محذوف و المعروف فى مثل هذا المورد أن يقدر المفعول من جنس الجواب و السياق يلائمه، و التقدير فمن شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا اتخذ،

الخ، وقيل: المقدر الاعتاض، والمراد باتخاذ السبيل اليه اتخاذ السبيل الى التقرب منه، والسبيل هو الإيمان والطاعة هذا ما ذكره المفسرون.

ومن الممكن أن تكون هذه اشارة الى ما تقدم في صدر السوره من الآيات الناديه الى قيام الليل و التهجد فيه، والآيه مسوقه لتوسعه الخطاب و تعميمه لغير النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من المؤمنين بعد ما كان خطاب صدر الصوره مختصا به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، والدليل على هذا التعميم قوله: «فَمَنْ شَاءَ» الخ.

و يؤيد ما ذكرنا وقوع هذه الآيه «إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ» الخ؛ بعينها في سوره الدهر بعد ما أشير الى صلاه الليل بقوله تعالى: «وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا» و يستنتج من ذلك أن صلاه الليل سبيل خاصه تهدي العبد الى ربه (١).

[سوره المزمل (٧٣): آيه ٢٠]

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَوْ أَنْ تَخِصُّوه فِتْنًا يَكُفِّرُ بَعْدَكُمْ فَافْرُؤْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَافْرُؤْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠)

ص: ٤٨١

١-١). المزمل ١-١٩: بحث روائي في نزول سوره المزمل؛ قيام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالليل و طائفه من اصحابه؛ حاله رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حين تلقى الوحي.

قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ الخطاب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ فِي التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ: «رَبَّكَ» تَلْوِيحٌ إِلَى شَمُولِ الرَّحْمَةِ وَالْعِنَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَ كَذَا فِي قَوْلِهِ: «يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ» الْخ؛ مِضَافًا إِلَى مَا فِيهِ مِنْ لَائِحَةِ الشُّكْرِ قَالَ تَعَالَى: وَ كَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (الدَّهْرُ ٢٢/).

وَ قَوْلِهِ: تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ «أَدْنَىٰ» اسْمٌ تَفْضِيلٌ مِنَ الدُّنُو بِمَعْنَى الْقُرْبِ، وَ قَدْ جَرَى الْعَرَفُ عَلَى اسْتِعْمَالِ أَدْنَىٰ فِيمَا يَقْرَبُ مِنَ الشَّيْءِ وَ هُوَ أَقْلُ فَيُقَالُ:

إِنْ عَدْتَهُمْ أَدْنَىٰ مِنْ عَشْرِهِ إِذَا كَانُوا تِسْعَةً مِثْلًا دُونَ مَا لَوْ كَانُوا أَحَدًا عَشْرًا فَمَعْنَى قَوْلِهِ: «أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ» أَقْرَبُ مِنْ ثَلَاثِيهِ وَ أَقْلُ بِقَلِيلٍ.

وَ الْوَاوُ الْعَاطِفَةُ فِي قَوْلِهِ: «وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ» لِمَطْلُقِ الْجَمْعِ وَ الْمُرَادُ أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَ فِي بَعْضِهَا نِصْفَهُ وَ فِي بَعْضِهَا ثَلَاثَهُ.

وَ قَوْلِهِ: وَ طَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ الْمُرَادُ الْمَعْنَى فِي الْإِيمَانِ وَ «مِنْ» لِلتَّبْعِيضِ فَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ بَعْضَهُمْ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ كَمَا كَانَ يَقُومُهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. وَ قِيلَ «مِنْ» بَيَانِيَّةً، وَ هُوَ كَمَا تَرَى.

وَ قَوْلِهِ: وَ اللَّهُ يُعَدُّ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ فِي مَقَامِ التَّعْلِيلِ لِقَوْلِهِ: «إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ» وَ الْمَعْنَى وَ كَيْفَ لَا يَعْلَمُ وَ هُوَ اللَّهُ الَّذِي إِلَيْهِ الْخَلْقُ وَ التَّقْدِيرُ فَفِي تَعْيِينِ قَدْرِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ تَعْيِينٌ ثَلَاثُهُمَا وَ نِصْفُهُمَا وَ ثَلَاثُهُمَا، وَ نِسْبَةُ تَقْدِيرِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ إِلَى اسْمِ الْجَلَالَةِ دُونَ اسْمِ الرَّبِّ وَ غَيْرِهِ لِأَنَّ التَّقْدِيرَ مِنْ شُؤْنِ الْخَلْقِ وَ الْخَلْقُ إِلَى اللَّهِ الَّذِي إِلَيْهِ يَنْتَهِي كُلُّ شَيْءٍ.

وَ قَوْلِهِ: عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ الْإِحْصَاءُ تَحْصِيلُ مَقْدَارِ الشَّيْءِ وَ عَدْدُهُ وَ الْإِحْطَاةُ بِهِ، وَ ضَمِيرُ «لَنْ تُحْصُوهُ» لِلتَّقْدِيرِ أَوْ لِلْقِيَامِ

مقدار ثلث الليل أو نصفه أو أدنى من ثلثيه، وإحصاء ذلك من اختلاف الليالي طولا وقصرا في أيام السنه مما لا يتيسر لعامة المكلفين و يشتد عسرا لمن نام أول الليل و أراد القيام بأحد المقادير الثلاثة دون أن يحتاط بقيام جميع الليل أو ما فى حكمه.

فالمراد بقوله: «عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ» علمه تعالى بعدم تيسر إحصاء المقدار الذى أمروا بقيامه من الليل لعامة المكلفين.

و المراد بقوله: «فَتَابَ عَلَيْكُمْ» توبته تعالى و رجوعه اليهم بمعنى انعطاف الرحمه الإلهيه عليهم بالتخفيف فله سبحانه توبه على عباده ببسط رحمته عليهم و أثرها توفيقهم للتوبه أو لمطلق الطاعه أو رفع بعض التكاليف أو التخفيف قال تعالى: ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا (التوبه ١١٨).

كما أن له توبه عليهم بمعنى الرجوع إليهم بعد توبتهم و أثرها مغفره ذنوبهم، و قد تقدمت الإشارة اليه.

و المراد بقوله: «فَأَقْرُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ» التخفيف فى قيام الليل من حيث المقدار لعامة المكلفين تفريعا على علمه تعالى أنهم لن يحصوه.

و لازم ذلك التوسعه فى التكليف بقيام الليل من حيث المقدار حتى يسع لعامة المكلفين الشاق عليهم إحصاؤه دون النسخ بمعنى كون قيام الثلث أو النصف أو الأدنى من الثلثين لمن استطاع ذلك بدعه محرمه و ذلك أن الإحصاء المذكور إنما لا يتيسر لمجموع المكلفين لا لجميعهم و لو امتنع لجميعهم و لم يتيسر لأحدهم لم يشرع من أصله و لا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

على أنه تعالى يصدق لنبيه صلى الله عليه و آله و سلم و طائفه من الذين معه قيام الثلث و النصف و الأدنى من الثلثين و ينسب عدم التمكّن من الإحصاء الى الجميع و هم لا- محاله هم القائمون و غيرهم فالحكم إنما كان شاقا على المجموع من حيث المجموع دون كل واحد فوسع فى التكليف بقوله:

«فَاقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ» و سهل الأمر بالتخفيف ليكون لعامة المكلفين فيه نصيب مع بقاء الاصل المشتمل عليه صدر السوره على حاله لمن تمكن من الاحصاء و اراده، و الحكم استحبابى لسائر المؤمنين و إن كان ظاهر ما للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ من الخطاب الوجوب كما تقدمت الإشارة اليه.

و قوله: عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرَضِيٌّ وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ آخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إشاره الى مصلحه اخرى مقتضيه للتخفيف فى أمر القيام ثلث الليل أو نصفه أو أدنى من ثلثيه، وراء كونه شاقا على عامه المكلفين بالصفه المذكوره أولا فإن الإحصاء المذكور للمريض و المسافر و المقاتل مع ما هم عليه من الحال شاق عسير جدا.

و المراد بالضرب فى الأرض للابتغاء من فضل الله طلب الرزق بالمسافره من أرض الى أرض للتجاره.

و قوله: فَاقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا تَكَرَّرَ لِلتَّخْفِيفِ تَأْكِيدًا، وَ ضَمِيرُ «مِنْهُ» لِلْقُرْآنِ، وَ الْمُرَادُ الْإِيتَانِ بِالصَّلَاةِ عَلَى مَا يَنَاسِبُ سَعَةِ الْوَقْتِ الَّذِي قَامُوا فِيهِ.

و المراد بالصلاه المأمور بإقامتها الفريضة فإن كانت الآيه مدنيه فالفرائض الخمس اليوميه و إن كانت مكيه فبحسب ما كانت مفروضه من الصلاه، و المراد بالزكاه زكاه المفروضه، و المراد بإقراضه تعالى غير الزكاه من الإنفاقات الماليه فى سبيل الله.

و عطف الأمر بإقامه الصلاه و إيتاء الزكاه و الإقراض للتلويح الى أن التكليف الدينيه على حالها فى وجوب الاهتمام بها و الاعتناء بأمرها، فلا يتوهم متوهم سريان التخفيف و المسامحه فى جميع التكليف فالآيه نظيره قوله فى آيه النجوى: فَاذْكُم تَفَعَّلُوا وَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ (المجادله ١٣).

وقوله: وَمَا تَقَدَّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا «مِنْ خَيْرٍ» بيان للموصول، والمراد بالخير مطلق الطاعة أعم من الواجبه و المندوبه، و «هُوَ» ضمير فصل أو تأكيد للضمير في «تَجِدُوهُ» .

و المعنى: و الطاعة التي تقدمونها لأنفسكم-أى لتعيشوا بها في الآخرة-تجدونها عند الله- أى في يوم اللقاء-خيرا من كل ما تعملون أو تتركون و أعظم أجرا.

وقوله: وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ختم الكلام بالأمر بالاستغفار، و فى قوله: «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» إشعار بوعد المغفره و الرحمه، و لا- يبعد أن يكون المراد بالاستغفار الإتيان بمطلق الطاعات لأنها وسائل يتوسل بها الى مغفره الله فالإتيان بها استغفار (١).

ص: ٤٨٥

١ - ١). المزمّل ٢٠: بحث روائى فى قيام النبى صلى الله عليه و آله و سلم بالليل و طائفه من اصحابه؛قراءه ما تيسر من القرآن،القرض الحسن لله تعالى.

سوره المدثر مكيه و هي ست و خمسون آيه

اشاره

[سوره المدثر (٧٤): الآيات ١ الى ٧]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَ رَبِّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَ يَبَّابِكْ فَطَهِّرْ (٤) وَ الرُّجْزَ فَاهْبِجْ (٥) وَ لَا تَمُنَّنِ تَشْتَكِرْ (٦) وَ لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧)

بيان:

تتضمن السوره أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بالإنذار في سياق يلوح منه كونه من أوامر أوائل البعثه ثم الإشاره الى عظم شأن القرآن الكريم و جلاله قدره، و الوعيد الشديد على من يواجهه

ص: ٤٨٦

بالإنكار و الرمی بالسحر، و ذم المعرضین عن دعوته.

و السوره مكیه من العتائق النازله فی أوائل البعثه و ظهور الدعوه حتی قيل: إنها أول سوره نزلت من القرآن و إن كان يكذبه نفس آيات السوره الصريحه فی سبق قراءته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ القرآن على القوم و تكذيبهم به و إعراضهم عنهم و رميهم له بأنه سحر يؤثر.

و لذا مال بعضهم الى أن النازل أولاً هي الآيات السبع الواقعه في أول السوره و لازمه كون السوره غير نازله دفعه و هو و إن كان غير بعيد بالنظر الى متن الآيات السبع لكن يدفعه سياق أول سوره العلق الظاهر في كونه أول ما نزل من القرآن.

و احتمال بعضهم أن تكون السوره أول ما نزل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ عند الأمر بإعلان الدعوه بعد إخفائها مده في أول البعثه فهي في معنى قوله: فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (الحجر ٩٤/١)، و بذلك جمع بين ما ورد من أنها أول ما نزل، و ما ورد أنها نزلت بعد سوره العلق، و ما ورد أن سورتي المزمّل و المدثر نزلتا معاً، و هذا القول لا يتعدى طور الاحتمال.

و كيف كان فالمتيقن أن السوره من أوائل ما نزل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ من السور القرآنيه، و الآيات السبع التي نقلناها تتضمن الأمر بالإنذار و سائر الخصائل التي تلزمه مما وصاه الله به.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ المدثر بتشديد الدال و الثاء أصله المتدثر اسم فاعل من التدثر بمعنى التغطية بالثياب عند النوم.

و المعنى: يا أيها المتغطي بالثياب للنوم خطاب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و قد كان على هذه الحال فخطب بوصف مأخوذ من حاله تأنيسا و ملاطفه نظير قوله: «يَا أَيُّهَا الْمُرْمَلُ» .

قوله تعالى: قُمْ فَأَنْذِرْ الظاهر أن المراد به الأمر بالإنذار من غير نظر الى من ينذر فالمعنى افعّل الإنذار، و ذكر بعضهم أن مفعول الفعل محذوف، و التقدير أنذر عشيرتك

الأقربين لمناسبته لابتداء الدعوه كما ورد فى سورة الشعراء.

و ذكر آخرون أن المفعول المحذوف عام و هو جميع الناس لقوله: **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ** (سبأ ٢٨).

و لم يذكر التبشير مع الإنذار مع أنهما كالمتلازمين فى تمام الدعوه لأن السوره مما نزل فى ابتداء الدعوه و الإنذار هو الغالب إذ ذاك.

قوله تعالى: **وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ** أى انسب ربك الى الكبرياء و العظمه اعتقادا و عملا قولا و فعلا و هو تنزيهه تعالى من أن يعادله أو يفوقه شىء فلا شىء يشاركه أو يغلبه أو يمانعه، و لا نقص يعرضه، و لا وصف يحده.

و لذا ورد عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام أن معنى التكبير: الله أكبر من أن يوصف، فهو تعالى أكبر من كل وصف نصفه به حتى من هذا الوصف، و هذا هو المناسب للتوحيد الإسلامى الذى يفوق ما نجده من معنى التوحيد فى سائر الشرائع السماويه.

و هذا الذى ذكرناه هو الفرق بين كلمتى التكبير و التسبيح-الله أكبر و سبحان الله- فسبحان الله تنزيه له تعالى عن كل وصف عدمى مبنى على النقص كالموت و العجز و الجهل و غير ذلك، و الله أكبر تنزيه مطلق له تعالى عن كل وصف نصفه به أعم من أن يكون عدميا أو وجوديا حتى من نفس هذا الوصف لما أن كل مفهوم محدود فى نفسه لا يتعدى الى غيره من المفاهيم و هو تعالى لا يحيط به حد، فافهم ذلك.

و قيل: المراد الأمر بالتكبير فى الصلاه.

قوله تعالى: **وَيَايَكَ فَطَهَّرْ** قيل: كناية عن إصلاح العمل؛ و لا يخلو من وجه فإن العمل بمنزله الثياب للنفس بما لها من الاعتقاد فالظاهر عنوان الباطن، و كثيرا ما يكتفى فى كلامهم عن صلاح العمل بطهاره الثياب.

و قيل: كناية عن تزكيه النفس و تنزيهها عن الذنوب و المعاصى.

وقيل: المراد تقصير الثياب لأنه أبعد من النجاسه و لو طالت و انجرت على الأرض لم يؤمن أن تتنجس.

وقيل: المراد تطهير الأرواح من الكفر و المعاصى لقوله تعالى: هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ (البقره ١٨٧).

وقيل: الكلام على ظاهره و المراد تطهير الثياب من النجاسات للصلاه و الأقرب على هذا أن يجعل قوله: «وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ» إشاره الى تكبير الصلاه و تكون الآيتان مسوقتين لتشريع أصل الصلاه مقارنة للأمر بالدعوه.

و لا يرد عليه ما قيل: إن نزول هذه الآيات كان حيث لا صلاه أصلا و ذلك أن تشريع الفرائض الخمس اليوميه على ما هى عليها اليوم و إن كان فى ليله المعراج و هى جميعا عشر ركعات ثم زيد عليها سبع ركعات إلا أن أصل الصلاه كان فمنذ أوائل البعثه كما يشهد به ذكرها فى هذه السوره و سورتي العلق و المزمل، و يدل عليه الروايات.

وقيل: المراد بتطهير الثياب التخلص بالأخلاق الحميده و الملكات الفاضله.

و فى معنى تطهير الثياب أقوال أخر أغمضنا عن نقلها لإمكان إرجاعها الى بعض ما تقدم من الوجوه، و أرجح الوجوه المتقدمه أولها و خامسها.

قوله تعالى: وَ الرَّجْزَ فَاهْجُرْ قيل: الرجز بضم الراء و كسرهما العذاب، و المراد بهجره هجر سببه و هو الإثم و المعصيه، و المعنى اهجر الإثم و المعصيه.

وقيل: الرجز اسم لكل قبيح مستقذر من الأفعال و الأخلاق فالأمر بهجره أمر بترك كل ما يكرهه الله و لا يرتضيه مطلقا، أو أمر بترك خصوص الأخلاق الرذيله الذميمة على تقدير أن يكون المراد بتطهير الثياب ترك الذنوب و المعاصى.

وقيل: الرجز هو الصنم فهو أمر بترك عباده الأصنام.

قوله تعالى: وَ لَا تَمُنُّنَّ تَشْتَكِرُّ الذى يعطيه سياق الآيات و يناسب المقام أن

يكون المراد باليمن تكدير الصنيعه بذكرها للمنعم عليه كما في قوله تعالى: لَا تُبْطِلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى (البقره ٢٦٤)، و قوله: يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا (الحجرات / ١٧) والمراد بالاستكثار رؤيه الشئء و حسابانه كثيرا لا طلب الكثره.

و المعنى: لا تمن امتثالك لهذه الأوامر و قيامك بالانذار و تكبيرك ربك و تطهيرك ثيابك و هجرك الرجز حال كونك ترى ذلك كثيرا و تعجبه-فانما أنت عبد لا- تملك من نفسك شيئا إلا ما ملكك الله و أقدرك عليه و هو المالك لما ملكك و القادر على ما عليه أقدرك فله الأمر و عليك الامتثال-.

قوله تعالى: وَ لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ أى لوجه ربك، و الصبر مطلق يشمل الصبر عند المصيبه و الصبر على الطاعه و الصبر عن المعصيه، و المعنى و لوجه ربك فاصبر عند ما يصيبك من المصيبه و الأذى فى قيامك بالإنذار و امتثالك هذه الأوامر و اصبر على طاعه الله و اصبر عن معصيته، و هذا معنى جامع لمتفرقات ما ذكره فى تفسير الآيه كقول بعضهم: إنه أمر بنفس الفعل من غير نظر الى متعلقه، و قول بعضهم: إنه الصبر على أذى المشركين، و قول بعضهم:

إنه الصبر على أداء الفرائض، الى غير ذلك (١).

[سوره المدثر (٧٤): الآيات ٨ الى ٣١]

فَإِذَا نَقَرُ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَيْنَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قَاتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَبَّأَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَى (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِحَهُ لَسِقَرٍ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَسْفُرُ (٢٧) لَا تُبْقَى وَلَا نَذْرٌ (٢٨) لَوْ أَرَادَ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ يَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَزِيدَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ (٣١)

ص : ٤٩٠

قوله تعالى: **فَإِذَا نُقِرَ فِي الذَّقُورِ النِّقْرُ الْقِرْعُ وَ النَّاقُورِ مَا يَقْرَعُ فِيهِ لِلتَّصْوِيتِ، وَ النِّقْرُ فِي النَّاقُورِ كَالنَّفْخِ فِي الصُّورِ كُنَايَهٗ عَنِ بَعْثِ الْمَوْتِ وَ إِحْضَارِهِمْ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ الْجَمْلَةُ شَرْطِيَّةٌ جَزَاؤُهَا قَوْلُهُ: «فَذَلِكَ» الْخ.**

قوله تعالى: **فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ** الاشارة بقوله: «فَذَلِكَ» الى زمان نقر الناقور و لا يبعد أن يكون المراد بيومئذ يوم إذ يرجعون الى الله للحساب و الجزاء أو يوم إذ يرجع الخلائق الى الله فيكون ظرفاً ليوم نقر الناقور فمن الجائز أن تعتبر قطعه من الزمان ظرفاً لبعض أجزائه كالسنه تجعل ظرفاً للشهر و الشهر يجعل ظرفاً لليوم لنوع من العناية أو يعتبر زمان متعددًا مختلفًا باختلاف صفاته أو الحوادث الواقعة فيه ثم يجعل باعتبار بعض صفاته ظرفاً لنفسه باعتبار صفة اخرى.

و المعنى فرمان نقر الناقور الواقع في يوم رجوع الخلائق الى الله زمان عسير على الكافرين أو زمان نقر الناقور زمان عسير على الكافرين في يوم الرجوع-بناء على كون قوله:

«يَوْمَئِذٍ قِيدًا لِقَوْلِهِ: «فَذَلِكَ» أَوْ لِقَوْلِهِ: «يَوْمٌ» -.

و قال في الكشف: فان قلت: بم انتصب اذا و كيف صح أن يقع يومئذ ظرفاً ليوم عسير؟

قلت: انتصب اذا بما دل عليه الجزاء لأن المعنى اذا نقر فى الناقر عسر الأمر على الكافرين، و الذى أجاز وقوع يومئذ ظرفاً ليوم عسير أن المعنى فذلك وقت النقر ووقوع يوم عسير لأن يوم القيامة يأتى و يقع حين ينقر فى الناقر. انتهى.

و قال: و يجوز أن يكون يومئذ مبنياً مرفوع المحل بدلاً من ذلك، و يوم عسير خبر كأنه قيل: فيوم النقر يوم عسير. انتهى.

و قوله: غَيْرُ يَسِيرٍ وصف آخر ليوم مؤكد لعسره و يفيد أنه عسير من كل وجه لا من وجه دون وجه.

قوله تعالى: ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً كَلِمَةً تَهْدِيدٌ وَ قَدْ اسْتَفَاضَ النُّقْلُ أَنَّ الْآيَةَ وَ مَا يَتْلُوهَا إِلَى تَمَامِ عَشْرِينَ آيَةً نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ، وَ سَتَأْتِي قِصَّتَهُ فِي الْبَحْثِ الرَّوَائِيِّ الْآتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

و قوله: وَحِيداً حال من فاعل «خَلَقْتُ» و محصل المعنى: دعنى و من خلقتك حال كونى وحيداً لا يشاركنى فى خلقه أحد ثم دبرت أمره أحسن التدبير، و لا تحل بينى و بينه فأنا أكفيه.

و من المحتمل أن يكون حالاً من مفعول «ذَرْنِي». و قيل حال من مفعول خلقت المحذوف و هو ضمير عائد الى الموصول، و محصل المعنى دعنى و من خلقتك حال كونه وحيداً لا مال له و لا بنون، و احتمال أيضاً أن يكون «وَحِيداً» منصوباً بتقدير «أذم» و أحسن الوجوه أولها.

قوله تعالى: وَ جَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً أَى مَبْسُوطاً كَثِيراً أَوْ مَمْدُوداً بِمَدَدِ النَّعْمَاءِ.

قوله تعالى: وَ بَيَّنَّ شُهُوداً أَى حُضُوراً يَشَاهِدُهُمْ وَ يَتَأَيَّدُ بِهِمْ، وَ هُوَ عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «مَالاً» .

قوله تعالى: وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً التمهيد التهيئة و يتجاوز به عن بسطه المال و الجاه و انتظام الامور.

قوله تعالى: ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا أَي ثم يطمع أن أزيد فيما جعلت له من المال و البنين و مهدت له من التمهيد.

و قوله: كَلَّا رَدَعْ لَهُ، و قوله: «إِنَّهُ كَانَ» الخ؛ تعليل المردع، و العنيد المعاند المباهى بما عنده، قيل، ما زال الوليد بعد نزول هذه الآيه فى نقصان من ماله و ولده حتى هلك.

قوله تعالى: سَأُرْهِقُهُ صَيْعُودًا الْإِرْهَاقَ الْغَشِيَانَ بِالْعَنْفِ، و الصعود عقبه الجبل التى يشق مصعدها شبه ما سيناله من سوء الجزاء و مر العذاب بغشيانه عقبه و عره صعبه الصعود.

قوله تعالى: إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ التفكير معروف و التقدير عن تفكير نظم معان و أوصاف فى الذهن بالتقديم و التأخير و الوضع و الرفع لاستنتاج غرض مطلوب، و قد كان الرجل يهوى أن يقول فى أمر القرآن شيئاً يبطل به دعوته و يرضى به قومه المعاندين ففكر فيه أ يقول: شعر أو كهانه أو هذره جنون أو اسطوره فقدّر أن يقول: سحر من كلام البشر لأنه يفرق بين المرء و أهله و ولده و مواليه.

و قوله: فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ دعا عليه على ما يعطيه السياق نظير قوله: قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (التوبه ٣٠).

و قوله: ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ تكرر للدعاء تأكيداً.

قوله تعالى: ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسِيَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ تمثيل لحاله بعد التفكير و التقدير و هو من أطف التمثيل و أبلغه.

فقوله: ثُمَّ نَظَرَ أَي ثم نظر بعد التفكير و التقدير نظره من يريد أن يقضى فى أمر سئل أن ينظر فيه-على ما يعطيه سياق التمثيل-.

و قوله: ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ العبوس تقطيب الوجه، قال فى المجمع: و عبس يعبس

عبوسا إذا قبض وجهه و العبوس و التكليح و التقطيب نظائر و ضدها الطلاقه و البشاشه، و قال: و البسور بدء التكره في الوجه انتهى، فالمعنى ثم قبض وجهه و أبدا التكره في وجهه بعد ما نظر.

و قوله: ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ الإِدْبَارُ عَنْ شَيْءٍ الإِعْرَاضُ عَنْهُ، و الاستكبار الامتناع كبرا و عتوا، و الأمران أعنى الإِدْبَارُ و الاستكبار من الأحوال الروحيه، و إنما رتبا في التميل على النظر و العبوس و البسور و هي أحوال صوريه محسوسه لظهورهما بقوله: «إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ» الخ؛ و لذا عطف قوله: «فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ» بالفاء دون «ثُمَّ» .

و قوله: فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ أى أظهر إِدْبَارَهُ و استكباره بقوله مفرعا عليه: «إِنَّ هَذَا -أى القرآن- إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ» أى يروى و يتعلم من السحره.

و قوله: إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ أى ليس بكلام الله كما يدعيه محمد صلى الله عليه و آله و سلم.

قيل: إن هذه الآيه كالتأكيد للآيه السابقه و إن اختلفتا معنى لأن المقصود منهما نفى كونه قرآنا من كلام الله، و باعتبار الاتحاد في المقصود لم تعطف الجملة على الجملة.

قوله تعالى: سَأُضِلِّيهِ سَقَرًا وَ مَا أَذْرَاكَ مَا سَقَرٌ لَا يُبْقَى وَ لَا تَذَرُ لَوْ أَحَ لِّلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ أى سادخله سقر و سقر من أسماء جهنم فى القرآن أو دركه من دركاتها، و جملة «سَأُضِلِّيهِ سَقَرًا» بيان أو بدل من قوله: «سَأُزْهِقُهُ صَعُودًا» .

و قوله: وَ مَا أَذْرَاكَ مَا سَقَرٌ تَفْخِيمٌ لَأَمْرِهَا وَ تَهْوِيلٌ.

و قوله: لَا يُبْقَى وَ لَا تَذَرُ قَضِيهِ إطلاق النقى أن يكون المراد أنها لا تبقى شيئا ممن نالته إلا أحرقتة، و لا تدع أحدا ممن ألقى فيها إلا نالته بخلاف نار الدنيا التى ربما تركت بعض ما ألقى فيها و لم تحرقه، و إذا نالت إنسانا مثلا نالت جسمه و صفاته الجسميه و لم تنل شيئا من روحه و صفاته الروحيه، و أما سقر فلا تدع أحدا ممن ألقى فيها إلا نالته قال تعالى: تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّى (المعارج ١٧/)، و إذا نالته لم تبق منه شيئا من روح أو جسم إلا أحرقتة قال

تعالى: نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْنَدِ (الهمزة ٧).

و يمكن أن يراد أنها لا تبقئهم أحياء و لا تتركهم يموتون فيكون فى معنى قوله تعالى: الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَ لَا يُحْيَى (الأعلى ١٣).

و قيل: المعنى لا تبقى شيئاً يلقى فيها إلا أهلكته، و إذا هلك لم تدره هالكا حتى يعاد فيعذب ثانياً.

و قيل: المراد أنها لا تبقى لهم لحماً و لا تذر عظماً، و قيل غير ذلك.

قوله تعالى: لَوْأَحَهُ لِبَشَرِ اللّوآحه من التلويح بمعنى تغيير اللون الى السواد و قيل:

الى الحمرة، و البشر جمع بشره بمعنى ظاهر الجلد.

قوله تعالى: عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ يتولون أمر عذاب المجرمين و قد أبهم و لم يصرح أنهم من الملائكة أو غيرهم غير أن المستفاد من آيات القيامة- و تصرح به الآية التالية- أنهم من الملائكة.

و قد استظهر بعضهم أن مميز قوله: «تِسْعَةَ عَشَرَ» ملكاً ثم قال: أ لا ترى العرب و هم الفصحاء كيف فهموا منه ذلك فقد روى عن ابن عباس أنها لما نزلت «عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ» قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم أسمع ابن أبى كبشه يخبركم أن خزنة النار تسعه عشر و انتم الدهم أ يعجز كل عشره منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال أبو الأسد ابن اسيد بن كلده الجمحى و كان شديد البطش: انا أكفيكم سبعة عشر فاكفونى انتم اثنين انتهى، و انت ترى ان لا دليل فى كلامه على ما يدعيه. على انه سمي الواحد من الخزنة رجلاً و لا يطلق الرجل على الملك البته و لا سيما عند المشركين الذين قال تعالى فيهم: وَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِآثًا (الزخرف ١٩).

قوله تعالى: وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً الى آخر الآية؛ سياق الآية يشهد على انهم تكلموا فيما ذكر فى الآية من عدد خزان النار فنزلت هذه الآية، و يتأيد بذلك

ما ورد من سبب النزول و سيوافيك في البحث الروائي التالي.

فقوله: «وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً» المراد بأصحاب النار خزنتها الموكلون عليها المتولون لتعذيب المجرمين فيها كما يفيد قوله: «عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ» ويشهد بذلك قوله بعد: «وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً» الخ.

و محصل المعنى: انا جعلناهم ملائكة يقدرون على ما امروا به كما قال: عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (التحریم ٦) فليسوا من البشر حتى يرجو المجرمون أن يقاوموهم و يطيقوهم.

و قوله: «وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْفِتْنَةُ الْمَحْنَةُ وَالْإِخْتِبَارُ».

ذكروا أن المراد بالجعل الجعل بحسب الإخبار دون الجعل بحسب التكوين فالمعنى و ما أخبرنا عن عدتهم أنها تسعة عشر إلا ليكون فتنه للذين كفروا، و يؤيده ذيل الكلام: «لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» الخ.

و قوله: «لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ الْاسْتِيقَانُ وَجِدَانُ الْيَقِينِ فِي النَّفْسِ أَيْ لِيُوقِنَ أَهْلُ الْكِتَابِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ النَّازِلَ عَلَيْكَ حَقٌّ حَيْثُ يَجِدُونَ مَا أَخْبَرْنَا بِهِ مِنْ عَدَةِ أَصْحَابِ النَّارِ مُوَافِقًا لِمَا ذَكَرَ فِيمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْكِتَابِ».

و قوله: «وَ يَزِدَادُ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا أَيْ بِسَبَبِ مَا يَجِدُونَ مِنْ تَصْدِيقِ أَهْلِ الْكِتَابِ ذَلِكَ».

و قوله: «وَ لِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا الْلامُ فِي «لِيَقُولَ» لِلْعَاقِبَةِ بِخِلَافِ الْلامِ فِي «لِيَسْتَيَقِنَ» فَلِلتعليل بالغايه، و الفرق أن قولهم: «مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا» تحقير و تهكم و هو كفر لا يعد غايه لفعله سبحانه إلا بالعرض بخلاف الاستيقان الذي هو من الايمان، و لعل اختلاف المعنيين هو الموجب لاعاده اللام في قوله: «وَ لِيَقُولَ» .

و قد فسروا «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» بالشك و الجحود بالمنافقين و فسروا الكافرين بالمتظاهرين بالكفر من المشركين و غيرهم.

و قولهم: «مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا» أرادوا به التحقير و التهكم يشيرون بهذا الى قوله تعالى:

«عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ» و المثل الوصف، و المعنى ما الذى يعنيه من وصف الخزنه بأنهم تسعه عشر؟ فهذه العده القليله كيف تقوى على تعذيب أكثر الثقلين من الجن و الانس (١)؟

و قوله: كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ الإِشَارَه بِذَلِكَ الى مضمون قوله: «وَ مَا جَعَلْنَا عَدَتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً» الخ.

و قوله: «وَ مَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ» علق تعالى العلم المنفى بالجنود- و هى الجموع الغليظه التى خلقهم و سائط لإجراء أوامره- لا بخصوص عدتهم فأفاد بإطلاقه أن العلم بحقيقتهم و خصوصيات خلقتهم و عدتهم و ما يعملونه من عمل و دقائق الحكمة فى جميع ذلك يختص به تعالى يشاركه فيه أحد، فليس لأحد أن يستقل عدتهم او يستكثر او يطعن فى شىء مما يرجع الى صفاتهم و هو جاهل بها.

و قوله: «وَ مَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ» الضمير راجع الى ما تقدم من قوله: «عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ» و تأنيته لتأنيث الخبر، و المعنى ان البشر لا سبيل لهم الى العلم بجنود ربك و إنما اخبرنا عن خزنه النار ان عدتهم تسعه عشر ليكون ذكرا لهم يتعظون بها.

و فى الآيه دلالة على أن الخطابات القرآنيه لعامه البشر (٢).

[سوره المدثر (٧٤): الآيات ٣٢ الى ٤٨]

كَلَّا- وَ الْقَمَرِ (٣٢) وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَ الصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَآخِذَى الْكُبْرِ (٣٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمَسْكِينِ (٤٤) وَ كُنَّا نَحُوسُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَ كُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨)

ص: ٤٩٨

١- ١). المدثر ٨-٣١: ذنابه لما تقدم من الكلام فى النفاق.

٢- ٢). المدثر ٨-٣١: بحث روائى حول مناظره الوليد بن المغيرة مع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فى القرآن؛ تغيير حاله الوليد؛ قول الوليد فى القرآن.

بيان:

قوله تعالى: كَلَّا رَدَعٌ وَإِنكَارٌ لِّمَا تَقْدِمُ قَالَ فِي الْكَشَافِ: انْكَارٌ بَعْدَ أَنْ جَعَلَهَا ذِكْرًا أَنْ

ص: ٤٩٩

يكون لهم ذكرى لانهم لا يتذكرون، أو ردع لمن ينكر أن يكون إحدى الكبر نذيراً. انتهى.

فعلى الأول إنكار لما تقدم وعلى الثاني ردع لما سيأتي، وهناك وجه آخر سيوافيك.

قوله تعالى: وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ قسم بعد قسم، وإدبار الليل مقابل إقباله، وإسفار الصبح انجلاؤه و انكشافه.

قوله تعالى: إِنَّهَا لَأِخْدَى الْكُبْرِ ذكروا ان الضمير لسقر، والكبر جمع كبرى، والمراد بكون سقر إحدى الكبر إنها إحدى الدواهي الكبر لا يعادلها غيرها من الدواهي كما يقال: هو أحد الرجال أى لا نظير له بينهم، والجمله جواب للقسم.

و المعنى اقسام بكذا وكذا إن سقر لإحدى الدواهي الكبر-أكبرها انذارا للبشر.

ولا يبعد أن يكون «كلاً» ردعا لقوله فى القرآن: «إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ» و يكون ضمير «إِنَّهَا» للقرآن بما أنه آيات او من باب مطابقه اسم إن لخبرها.

و المعنى: ليس كما قال اقسام بكذا وكذا إن القرآن-آياته-لإحدى الآيات الإلهيه الكبرى انذارا للبشر.

وقيل: الجمله «إِنَّهَا لَأِخْدَى الْكُبْرِ» تعليل للردع، والقسم معترض للتأكيد لا جواب له أو جوابه مقدر يدل عليه كلا.

قوله تعالى: نَذِيرًا لِلْبَشَرِ مصدر بمعنى الإنذار منصوب للتمييز، وقيل: حال مما يفهم من سياق قوله: «إِنَّهَا لَأِخْدَى الْكُبْرِ» أى كبرت وعصمت حال كونها إنذارا أى منذره.

قوله تعالى: لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ تعميم للإنذار و «لِمَنْ شَاءَ» بدل من البشر، و «أَنْ يَتَّقَدَّمَ» الخ؛ مفعول «شَاءَ» والمراد بالتقدم و التأخر: الاتباع للحق و مصداقه الايمان و الطاعه، و عدم الاتباع و مصداقه الكفر و المعصيه.

و المعنى: نذيراً لمن اتبع منكم الحق و لمن لم يتبع أى لجميعكم من غير استثناء.

وقيل «أَنْ يَتَّقَدَّمَ» فى موضع الرفع على الابتداء و «لِمَنْ شَاءَ» خبره كقولك لمن توضعاً أن

يصلى، و المعنى مطلق لمن شاء التقدم أو التأخر أن يتقدم أو يتأخر، و هو كقوله: «فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ» و المراد بالتقدم و التأخر سبق الى الخير و التخلف عنه انتهى.

قوله تعالى: «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ» الباء بمعنى مع أو للسببيه أو للمقابله و «رَهِينَةٌ» بمعنى الرهن على ما ذكره الزمخشري قال فى الكشاف: رهينه ليست بتأنيث رهين فى قوله: «كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ» لتأنيث النفس لأنه لو قصدت لقييل: رهين لأن فعلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر و المؤنث، و إنما هى اسم بمعنى الرهن كالثيمه بمعنى الشتم كأنه قيل: كل نفس بما كسبت رهن. انتهى.

و كأن العنايه فى عد كل نفس رهينه أن لله عليها حق العبوديه بالإيمان و العمل الصالح فهى رهينه محفوظه محبوسه عند الله حتى توفى دينه و تؤدى حقه تعالى فإن آمنت و صلحت فكت و أطلقت، و إن كفرت و أجمت و ماتت على ذلك كانت رهينه محبوسه دائما، و هذا غير كونها رهين عملها ملازمه اكتسبت من خير و شر كما تقدم فى قوله تعالى: «كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ» (الطور ٢١).

و الآيه فى مقام بيان وجه التعميم المستفاد من قوله: «نَذِيرًا لِلْبَشَرِ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ» فإن كون النفس الإنسانيه رهينه بما كسبت يوجب على كل نفس أن تتقى النار التى ستحبس فيها إن أجمت و لم تتبع الحق.

قوله تعالى: «إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ» هم الذين يؤتون كتابهم بأيمانهم يوم الحساب و هم أصحاب العقائد الحقه و الأعمال الصالحه من متوسطى المؤمنين، و قد تكرر ذكرهم و تسميتهم بأصحاب اليمين فى مواضع من كلامه تعالى، و على هذا فالاستثناء متصل.

و المتحصل من مجموع المستثنى منه و المستثنى انقسام النفوس ذوات الكسب الى نفوس رهينه بما كسبت و هى نفوس المجرمين، و نفوس مفكوكه من الرهن مطلقه و هى نفوس أصحاب اليمين، و أما السابقون المقربون و هم الذين ذكرهم الله فى مواضع من كلامه و عدّهم

ثالثه الطائفتين و غيرهما كما فى قوله تعالى: وَ كُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً -الى أن قال- وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (الواقعه ١١/)،فهؤلاء قد استقروا فى مستقر العبوديه لا يملكون نفسا و لا عمل نفس فنفسهم لله و كذلك أعمالهم فلا يحضرون و لا يحاسبون قال تعالى:

فَأِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عَبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (الصافات ١٢٨/)،فهم خارجون عن المقسم رأسا.

قوله تعالى: فِي جَنَاتٍ يَنْسَاءُلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ «فِي جَنَاتٍ» خبر لمبتدأ محذوف و تنوين جنات للتعظيم،و التقدير هم فى جنات لا يدرك وصفها،و يمكن أن يكون حالا من أصحاب اليمين.

و قوله: يَنْسَاءُلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ أى يتساءل جمعهم عن جمع المجرمين.

و قوله: مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ أى ما أدخلكم فى سقر بيان لتساؤلهم من بيان الجملة بالجملة،أو بتقدير القول أى قائلين ما سلككم فى سقر.

قوله تعالى: قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ضمير الجمع للمجرمين،و المراد بالصلاه التوجه العبادى الخاص الى الله سبحانه فلا يضره اختلاف الصلاه كما و كيفا باختلاف الشرائع السماويه الحقه.

قوله تعالى: وَ لَمْ نَكُ نَطْعَمُ الْمَسْكِينِ المراد بإطعام المسكين الإنفاق على فقراء المجتمع بما يقوم به صلبهم و يرتفع به حاجتهم،و إطعام المسكين إشاره الى حق الناس عملا كما أن الصلاه إشاره الى حق الله كذلك.

قوله تعالى: وَ كُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ المراد بالخوض الاشتغال بالباطل قولاً أو فعلاً و الغور فيه.

قوله تعالى: وَ كَذَّابًا يُكَذِّبُ يَوْمَ الدِّينِ و هو يوم الجزاء فهذه خصال أربع من طبع المجرم أن يبتلى بها كلا أو بعضا،و لما كان المجيب عن التساؤل جمع المجرمين صحت نسبه الجميع

الى الجميع و إن كان بعضهم مبتلى ببعضها دون بعض.

قوله تعالى: **حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ** قيد للتكذيب، و فسروا اليقين بالموت لكونه مما لا شك فيه فالمعنى و كنا فى الدنيا نكذب بيوم الجزاء حتى أتانا الموت فانقطعت به الحياه الدنيا أى كنا نكذب به ما دامت الحياه.

و قيل: المراد به اليقين الحاصل بحقيه يوم الجزاء بمشاهده آيات الآخره و معاينه الحياه البرزخيه حين الموت و بعده، و هو معنى حسن.

قوله تعالى: **فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ** تقدم فى بحث الشفاعة أن فى الآيه دلالة على أن هناك شافعين يشفعون فيشفعون لكن لا تنفع هؤلاء شفاعتهم لأنهم محرومون من نيلها.

و قد أوردنا جملة من أخبار الشفاعة فى الجزء الأول من الكتاب.

[سوره المدثر (٧٤): الآيات ٤٩ الى ٥٦]

فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرِهِ مُعْرَضِينَ (٤٩) كَانَهُمْ حُمَمٌ مِّسِيَّتْنَفِرَهُ (٥٠) فَوَتْ مِنْ قَسِيْرِهِ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صِيْحْفًا مُنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا- بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرَهُ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَعْفَرَةِ (٥٦)

قوله تعالى: ﴿لَمَّا لَهَّيْمَ عَنِ التَّذْكَرِهِ مُعْرِضِينَ تَفْرِيعَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ التَّذْكَرِ وَالْمَوْعِظَةِ وَالِاسْتِفْهَامِ لِلتَّعْجِيبِ، وَ«لَهُمْ» مُتَعَلِّقٌ بِمُحذَوفٍ وَالتَّقْدِيرُ فَمَا كَانَ لَهُمْ:

وَ«مُعْرِضِينَ» حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ «لَهُمْ» وَ«عَنِ التَّذْكَرِهِ» مُتَعَلِّقٌ بِمُعْرِضِينَ.

والمعنى: فإذا كان كذلك فأى شىء كان عرض-للمشركين الذين يكذبون بتذكرة القرآن حال كونهم معرضين عنها أى كان من الواجب عليهم أن يصدقوا و يؤمنوا لكنهم أعرضوا عنها و هو من العجب.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ تَشْبِيهِ لَهُمْ مِنْ حَيْثُ حَالُهُمْ فِي الْإِعْرَاضِ عَنِ التَّذْكَرِ، وَالْحَمْرُ جَمْعُ حَمَارٍ، وَالْمُرَادُ الْحَمْرُ الْوَحْشِيَّةُ وَالِاسْتِنْفَارُ بِمَعْنَى النِّفْرَةِ وَالْقَسْوَرَةُ الْأَسَدُ وَالصَّائِدُ، وَقَدْ فَسَّرَ بِكُلِّ مِنَ الْمَعْنِيَيْنِ.

والمعنى: معرضين عن التذكرة كأنهم حمور وحشيه نفرت من أسد أو من الصائد.

قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صَيْحِفًا مُنَشَّرَةً الْمُرَادُ بِالصَّحْفِ الْمُنَشَّرِ الْكِتَابُ السَّمَاوِيُّ الْمَشْتَمَلُ عَلَى الدَّعْوَةِ الْحَقَّةِ.

و فى الكلام إضراب عما ذكر من إعراضهم، والمعنى ليس إعراضهم عن التذكرة لمجرد النفرة بل يريد كل امرئ منهم أن ينزل عليه كتاب من عند الله مشتمل على ما تشتمل عليه دعوه القرآن.

و هذه النسبة اليهم كناية عن استكبارهم على الله سبحانه أنهم إنما يقبلون دعوته و لا يردونها لو دعا كل واحد منهم بإنزال كتاب سماوى اليه مستقلا و أما الدعوه من طريق الرساله فليسوا يستجيبونها و إن كانت حقه مؤيده بالآيات اليينه.

فالأية فى معنى ما حكاها الله سبحانه من قولهم: لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ

اللَّهِ (الأنعام ١٢٤/)، و في معنى قول الامم لرسولهم «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا» على ما قررنا من حجتهم على نفي رساله الرسل.

قوله تعالى: كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ رَدَع لَهِمْ بِمَا يَرِيدُونَهُ مِنْ نَزُولِ كِتَابِ سَمَاوِي عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فَإِنْ دَعَا رِسَالَهُ مُؤَيَّدَةً بِآيَاتٍ بَيْنَهُ وَحُجُجٍ قَاطِعَةٍ لَا تَدَعُ رِيْبًا لِمَرْتَابٍ فَالْحُجَّةُ تَامَةٌ قَائِمَةٌ عَلَى الرَّسُولِ وَغَيْرِهِ عَلَى حَدِّ سِوَاءٍ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى أَنْ يُؤْتَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ الْمَدْعُوِينَ صَحْفًا مَنَشْرَةً.

على أن رساله تحتاج من طهاره الذات و صلاحيه النفس إلى ما يفقده نفوس سائر الناس كما هو مدلول جوابه تعالى في سوره الأنعام عن قولهم: لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ بِقَوْلِهِ: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .

و قوله: «بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ» إضراب عن قوله: «يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ» الخ؛ والمراد أن اقتراحهم نزول كتاب على كل امرئ منهم قول ظاهري منهم يريدون به صرف الدعوه عن أنفسهم، و السبب الحقيقي لكفرهم و تكذيبهم بالدعوه أنهم لا يخافون الآخرة، و لو خافوها لآمنوا و لم يقترحوا آية بعد قيام الحجج بظهور الآيات البينات.

قوله تعالى: كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ رَدَع ثَانٍ لِاقْتِرَاحِهِمْ نَزُولِ كِتَابِ سَمَاوِي لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ، و المعنى لا ننزل كتابا كذلك إن القرآن تذكره و موعظه نعظهم به لا نريد به أزيد من ذلك، و أثر ذلك ما أعد للمطيع و العاصي عندنا من الجزاء.

قوله تعالى: فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ أَى فَمَنْ شَاءَ اتَعَزَّ بِهِ فَإِنَّمَا هِيَ دَعْوَةٌ فِي ظَرْفِ الْاِخْتِيَارِ مِنْ غَيْرِ إِكْرَاهٍ.

قوله تعالى: وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ دَفْعٌ لِمَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَوَهَّمُوهُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: «فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ» أَنْ الْأَمْرَ إِلَيْهِمْ وَ أَنَّهُمْ مُسْتَقْلُونَ فِي إِرَادَتِهِمْ وَ مَا يَتَرْتَبُ عَلَيْهَا مِنْ أَفْعَالِهِمْ فَإِنْ لَمْ يَشَاءُوا الذِّكْرَ وَ لَمْ يَذْكُرُوا غَلْبُوهُ تَعَالَى

فيما أراد و أعجزوه فيما شاء من ذكرهم.

و المحصل من الدفع أن حكم القدر جاء في أفعالهم كغيرها من الحوادث، و تذكرهم إن تذكروا و إن كان فعلا اختياريا صادرا عنهم باختيارهم من غير إكراه فالمشيه الإلهيه متعلقه به بما هو اختياري بمعنى أن الله تعالى يريد باراده تكوينيه أن يفعل الانسان الفعل الفلاني بإرادته و اختياره فالفعل اختياري ممكن بالنسبه الى الانسان و هو بعينه متعلق الاراده الإلهيه ضروري التحقيق بالنسبه إليها و لولاها لم يتحقق.

و قوله: هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ أَي أَهْلٌ لِأَنَّ يَتَّقَىٰ مِنْهُ لِأَنَّ لَهُ الْوَلَايَةَ الْمَطْلُوقَةَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، و بيده سعادته الإنسان و شقاوته، و أهل لأن يغفر لمن اتقاه لأنه غفور رحيم.

ص: ٥٠٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَا أُفْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (۱) وَلَا أُفْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (۲) أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ (۳)
بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نَسُوِيَ بَنَانَهُ (۴) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (۵) يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (۶) فَإِذَا بَرَقَ الْبَصِيرُ (۷) وَخَسَفَ
الْقَمَرُ (۸) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (۹) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ (۱۰) كَلَّا لَا وَزَرَ (۱۱) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (۱۲) يُنَبِّئُوا
الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَ أَخَّرَ (۱۳) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (۱۴) وَ لَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (۱۵)

يطوف بيان السوره حول القيامه الكبرى فتنبئ بوقوع يوم القيامه اولاً- ثم تصفه ببعض أشراطه تاره، و بإجمال ما يجرى على الإنسان اخرى، و ينبئ أن المساق اليه يبدأ من يوم الموت، و تختتم بالاحتجاج على القدره على الإعاده بالقدره على الابتداء. و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها.

قوله تعالى: لا- أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ إقسام بيوم القيامه سواء قبل بكون «لا أَقْسِمُ» كلمه قسم أو بكون لا زائده أو نافية على اختلاف الأقوال.

قوله تعالى: وَ لا- أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللّوَّامَةِ إقسام ثان على ما يقتضيه السياق و مشاكله اللفظ فلا يعبأ بما قيل: أنه نفى الإقسام و ليس بقسم، و المراد اقسام بيوم القيامه و لا أقسم بالنفس اللوامة.

و المراد بالنفس اللوامة نفس المؤمن التي تلومه في الدنيا على المعصيه و التثاقل في الطاعه و تنفعه يوم القيامه.

و قيل: المراد به النفس الانسانيه أعم من المؤمنه الصالحه و الكافره الفاجره فإنها تلوم الانسان يوم القيامه أما الكافره فانها تلومه على كفره و فجوره، و أما المؤمنه فانها تلومه على

قله الطاعه و عدم الاستكثار من الخير.

وقيل: المراد نفس الكافر الذى تلومه يوم القيامة على ما قدمت من كفر و معصيه قال تعالى: وَ أَسِرُّوا النَّذَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ (يونس ٥٤).

و لكل من الأقوال وجه.

و جواب القسم محذوف يدل عليه الآيات التالية، و التقدير ليعثن، و إنما حذف للدلاله على تفخيم اليوم و عظمه أمره قال تعالى: ثَقَلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً (الأعراف ١٨٧)، و قال: إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (طه/ ١٥)، و قال: عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ (النبأ ١).

قوله تعالى: أَيْ يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ الْحَسْبَانَ الظن، و جمع العظام كناية عن الاحياء بعد الموت، و الاستفهام للتوبيخ، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَدَانَهُ أَيْ بلى نجمعها و «قَادِرِينَ» حال من فاعل مدخول بلى المقدر، و البنان أطراف الأصابع و قيل: الأصابع و تسويه البنان تصويرها على ما هى عليها من الصور، و المعنى بلى نجمعها و الحال أنا قادرون على أن نصور بنانه على صورها التى هى عليها خلقنا الأول.

و تخصيص البنان بالذكر-لعله-للاشاره الى عجب خلقها بما لها من الصور و خصوصيات التركيب و العدد تترتب عليها فوائد جمه لا تكاد تحصي من أنواع القبض و البسط و الأخذ و الرد و سائر الحركات اللطيفه و الأعمال الدقيقه و الصنائع الظريفه التى يمتاز بها الانسان من سائر الحيوان مضافا الى ما عليها من الهيئات و الخطوط التى لا يزال ينكشف للانسان منها سر بعد سر.

قوله تعالى: بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ قَالَ الرَّاعِبُ: الفجر شق الشىء شقا واسعا. قال: و الفجور شق ستر الديانه يقال: فجر فجورا فهو فاجر و جمعه فجار و فجره.

انتهى، و«أَمَامَهُ» ظرف مكان استعير لمستقبل الزمان، والمراد من فجوره أمامه فجوره مدى عمره و ما دام حيا، و ضمير «أَمَامَهُ» للانسان.

و قوله: لِيُفْجِرَ أَمَامَهُ تعليل ساد مسد معلله و هو التكذيب بالبعث و الاحياء بعد الموت، و «بَلْ» إضراب عن حسابانه عدم البعث و الاحياء بعد الموت.

و المعنى: أنه لا- يحسب أن لن نجمع عظامه بل يريد أن يكذب بالبعث ليفجر مدى عمره إذ لا موجب للإيمان و التقوى لو لم يكن هناك بعث للحساب و الجزاء.

هذا ما يعطيه السياق فى معنى الآيه، و لهم وجه ذكرها فى معنى الآيه بعيدة لا تلائم السياق أغمضنا عن ذكرها.

و ذكر الانسان فى الآيه وضع الظاهر موضع الضمير و النكته فيه زياده التوبيخ و المبالغه فى التفرير، و قد كرر ذلك فى الآيه و ما يتلوها من الآيات أربع مرات.

قوله تعالى: يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الظاهر أنه بيان لقوله: «يَلُ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجِرَ أَمَامَهُ» فيفيد التعليل و أن السائل فى مقام التكذيب و السؤال سؤال تكذيب إذ من الواجب على من دعى الى الإيمان و التقوى؛ و أنذر بهذا النبأ العظيم مع دلالة الآيات البينه و قيام الحجج القاطعه أن يتخذ حذره و يتجهز بالإيمان و التقوى و يتهيأ للقاء اليوم قريبا كان أو بعيدا فكل ما هو آت قريب لا أن يسأل متى تقوم الساعة؟ و أيان يوم القيامة؟ فليس إلا سؤال مكذب مستهزئ.

قوله تعالى: فَإِذَا بَرَقَ الْبَصِيرُ وَ خَسَفَ الْقَمَرُ وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ ذكر جملة من أشرط الساعة، و بريق البصر تحيره فى إبطاره و دهشته، و خسوف القمر زوال نوره.

قوله تعالى: يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيَّنَ الْمَفْرُ أَي أين موضع الفرار، و قوله:

«أَيَّنَ الْمَفْرُ» مع ظهور السلطنه الإلهيه له و علمه بأن لا مفر و لا فرار يومئذ من باب ظهور

ملكاته يومئذ فقد كان في الدنيا يسأل عن المفر إذا وقع في شدة أو هددته مهلكه و ذلك كإنكارهم الشرك يومئذ و حلفهم كذبا قال تعالى: ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتِنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (الانعام ٢٣)، و قال: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ (المجادله ١٨).

قوله تعالى: كَلَّا- لا- وَزَرَ ردع عن طلبهم المفر، و الوزر الملجأ من جبل أو حصن أو غيرهما، و هو من كلامه تعالى لا من تمام كلام الإنسان.

قوله تعالى: إِلَيَّ رُبُّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ الْخَطَابُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، و تقديم «إِلَيَّ رُبُّكَ» و هو متعلق بقوله: «الْمُسْتَقَرُّ» يفيد الحصر فلا مستقر الى غيره فلا وزر و لا ملجأ يلتجأ اليه فيمنع عنه.

و ذلك أن الإنسان سائر اليه عالى كما قال: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَيَّ رَبِّكَ كَادِحًا فَمَلَأْتَهُ (الانشقاق ٦) و قال: إِنَّ إِلَيَّ رُبُّكَ الرَّجْعِي (العلق ٨) و قال: وَ أَنْ إِلَيَّ رُبُّكَ الْمُتَّبِعِي (النجم ٤٢) فهو ملاقي ربه راجع و منته اليه لا حاجب يحجبه عنه و لا مانع يمنعه منه و اما الحجاب الذى يشير اليه قوله: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (المطففين ١٥) فسياق الآيتين يعطى ان المراد به حجاب الحرمان من الكرامه لا حجاب الجهل او الغيبه.

و يمكن ان يكون المراد بكون مستقره اليه رجوع امر ما يستقر فيه من سعادته او شقاوه و جنه او نار الى مشيئته تعالى فمن شاء جعله فى الجنه و هم المتقون و من شاء جعله فى النار و هم المجرمون قال تعالى: يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ (المائد ٤٠).

و يمكن ان يراد به ان استقرارهم يومئذ الى حكمه تعالى فهو النافذ فيهم لا غير قال تعالى:

كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (القصص ٨٨).

قوله تعالى: يُبَيِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَ أَخَّرَ المراد بما قدم و أخر ما عمله

من حسنه أو سيئه في أول عمره و آخره او ما قدمه على موته من حسنه او سيئه و ما آخر من سنه حسنه سنها او سنه سيئه فيثاب بالحسنات و يعاقب على السيئات.

قوله تعالى: **يَلِ الْإِنْسَانَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِصِيرَةٍ وَ لَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ** إضراب عن قوله: «يَتَّبِعُوا الْإِنْسَانَ» الخ؛ والبصيره رؤيه القلب و الإدراك الباطني و إطلاقها على الانسان من باب زيد عدل او التقدير الانسان ذو بصيره على نفسه.

وقيل: المراد بالبصيره الحجه كما في قوله تعالى: **مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ بِصَائِرِ** (الإسراء ١٠٢/) و الانسان نفسه حجه على نفسه يومئذ حيث يسأل عن سمعه و بصره و فؤاده و يشهد عليه سمعه و بصره و جلده و يتكلم يده و رجلاه، قال تعالى: **إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصِيرَ وَ الْفؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا** (الإسراء ٣٦/)، و قال: **شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَيِّمُهُمْ وَ أَبْصَارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ** (حم السجده ٢٠/)، و قال: **وَ تَكَلَّمْنَا أَيَّدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ** (يس ٦٥/).

و قوله: **وَ لَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ** المعاذير جمع معذره و هي ذكر موانع تقطع عن الفعل المطلوب، و المعنى هو ذو بصيره على نفسه و لو جادل عن نفسه و اعتذر بالمعاذير لصرف العذاب عنها.

[سوره القيامه (٧٥): الآيات ١٦ الى ٤٠]

لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وَ جُودَهُ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَازِرَةٌ (٢٣) وَ جُودَهُ يَوْمَئِذٍ بِاسِرَةٍ (٢٤) تَنْظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَ قِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَ اتَّفَقَتِ السَّاقُ وَ السَّاقِ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَقَ وَ لَا صَلَّىٰ (٣١) وَ لَكِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٥) أَيْ يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نَظْفَهَ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَتَهُ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠)

قوله تعالى: لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُحْجِلَ بِهِ - الى قوله - ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا لِيَأَنَّه الَّذِي يعطيه سياق الآيات الأربع بما يحفها من الآيات المتقدمة و المتأخره الواصفه ليوم القيامه أنها معترضه متضمن أدبا إلهيا كلف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أن يتأدب به حينما يتلقى ما يوحى اليه من القرآن الكريم فلا يبادر الى قراءه ما لم يقرأ بعد و لا يحرك به لسانه و ينصب حتى يتم الوحي.

فالأيات الأربع فى معنى قوله تعالى: وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ (طه ١١٤).

فالكلام فى هذه الآيات يجرى مجرى قول المتكلم منا أثناء حديثه لمخاطبه إذا بادر الى تميم بعض كلام المتكلم باللفظه و اللفظتين قبل أن يلفظ بها المتكلم و ذلك يشغله عن التجرد للانصات فيقطع المتكلم حديثه و يعترض و يقول لا تعجل بكلامى و أنصت لتفقه ما أقول لك ثم يمضى فى حديثه.

فقوله: لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُحْجِلَ بِهِ الخطاب فيه للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، و الضمير ان للقرآن الذى يوحى اليه أو للوحي، و المعنى لا تحرك بالوحي لسانك لتأخذه عاجلا فتسبقنا الى قراءه ما لم نقرأ بعد فهو كما مر فى معنى قوله: وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ (طه ١١٤).

و قوله: إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ القرآن هاهنا مصدر كالفرقان و الرجحان، و الضميران للوحي، و المعنى لا تعجل به إذ علينا أن نجمع ما نوحيه اليك بضم بعض أجزائه الى بعض و قراءته عليك فلا يفوتنا شىء منه حتى يحتاج الى أن تسبقنا الى قراءه ما لم نوحه

بعد.

و قوله: فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ أَي فإذا اتممنا قراءته عليك و حيا فاتبع قراءتنا له و اقرأ بعد تمامها.

و قيل: المراد باتباع قرآنه اتباعه ذهنا بالانصات و التوجه التام اليه و هو معنى لا بأس به.

و قوله: ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ أَي علينا ايضاحه عليك بعد ما كان علينا جمعه و قرآنه فثم للتأخير الرتبي لأن البيان مترتب على الجمع و القراءه رتبه.

و قيل: المعنى ثم إن علينا بيانه للناس بلسانك نحفظه في ذهنك عن التغير و الزوال حتى تقرأه على الناس.

و عن بعضهم أن الآيات الأربع متصله بما تقدم من حديث يوم القيامة، و خطاب «لَا تُحَرِّكْ» للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، و ضمير «بِهِ» ليوم القيامة، و المعنى لا- تتفوه بالسؤال عن وقت القيامة أصلا و لو كنت غير مكذب و لا- مستهزئ «لِتَعْجَلَ بِهِ» أَي بالعلم به «إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ» أَي من الواجب فى الحكمة أن نجمع من نجمعه فيه و نوحى شرح وصفه اليك فى القرآن «فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ» أَي إذا قرأنا ما يتعلق به فاتبع ذلك بالعمل بما يقتضيه من الاستعداد له «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ» أَي إظهار ذلك بالنفخ فى الصور انتهى ملخصا و هو كما ترى.

و قد تقدم فى تفسير قوله: «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ» أن هذا النهى عن العجل بالقرآن يؤيد ما ورد فى الروايات أن للقرآن نزولا على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ دفعه غير نزوله تدريجا.

قوله تعالى: كَلَّا- يَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَ تَذَرُونَ الْمَأْخِرَةَ خطاب للناس و ليس من تعميم الخطاب السابق فى شىء لأن خطاب «لَا تُحَرِّكْ» اعتراضى غير مرتبط بشىء من طرفيه.

و قوله: «كَلَّا» ردع عن قوله السابق: «يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ» و قوله: «بَلْ»

تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ» -أى الحياه العاجله و هى الحياه الدنيا- «و تَذَرُونَ الْآخِرَةَ» أى تتركون الحياه الآخره، و ما فى الكلام من الإضراب إضراب عن حسابان عدم الإحياء بعد الموت نظير الإضراب فى قوله: «بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ» .

قوله تعالى: «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ» وصف ليوم القيامة بانقسام الوجوه فيه الى قسمين: ناضره و باسره، و نضره الوجه و اللون و الشجر و نحوها و نضارتها حسنها و بهجتها.

و المعنى: نظرا الى ما يقابله من قوله: «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ» الخ؛ وجوه يوم إذ تقوم القيامة حسنه متهلله ظاهره المسره و البشاشه قال تعالى: تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (المطففين ٢٤/٢٤)، و قال: «وَلَقَاهُمْ نَضْرَةٌ وَسُرُورًا» (الدهر ١١/١١).

و قوله: «إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ» خبر بعد خبر لوجوه، و «إِلَىٰ رَبِّهَا» متعلق بناظره قدم عليها لإفاده الحصر أو الأهميه.

و المراد بالنظر اليه تعالى ليس هو النظر الحسى المتعلق بالعين الجسمانيه الماديه التى قامت البراهين القاطعه على استحاله فى حقه تعالى بل المراد النظر القلبى و رؤيه القلب بحقيقه الإيمان على ما يسوق اليه البرهان و يدل عليه الأخبار المأثوره عن أهل العصمه عليهم السلام و قد أوردنا شطرا منها فى ذيل تفسير قوله تعالى: «قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ» (الأعراف / ١٤٣)، و قوله تعالى: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ» (النجم ١١/١١).

فهؤلاء قلوبهم متوجهه الى ربهم لا يشغلهم عنه سبحانه شاغل من الأسباب لتقطع الأسباب يومئذ، و لا يقفون موقفا من مواقف اليوم و لا- يقطعون مرحله من مراحلها إلا و الرحمه الإلهيه شامله لهم وَ هُمْ مِنْ فَرْعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (النمل ٨٩/٨٩) و لا يشهدون مشهدا من مشاهد الجنه و لا- يتنعمون بشىء من نعيمها إلا و هم يشاهدون ربهم به لأنهم لا ينظرون الى شىء و لا يرون شيئا إلا من حيث إنه آيه لله سبحانه و النظر الى الآيه من حيث إنها آيه

و رؤيتها نظر الى ذى الآيه و رؤيه له.

قوله تعالى: وَوَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ بِسِرهٍ تَنْظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهِنَّ فَاقْرَهُ فسر البسور بشده العبوس و الظن بالعلم و «فاقْرَهُ» صغه محذوفه الموصوف أى فعله فاقره، و الفاقره من فقره اذا أصاب فقار ظهره، و قيل: من فقرت البعير اذا وسمت أنفه بالنار.

و المعنى: و وجوه يومئذ شديد العبوس تعلم أنه يفعل بها فعله تقصم ظهورها أو تسم انوفها بالنار، و احتمال أن يكون تظن خطابا للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بما أنه سامع و الظن بمعناه المعروف.

قوله تعالى: كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ رَدَعٌ عَنْ حَبْهَمِ الْعَاجِلِ و إيثارها على الآخره كأنه قيل: ارتدعوا عن ذلك فليس يدوم عليكم و سينزل عليكم الموت فتساقون الى ربكم و فاعل «بَلَغَتِ» محذوف يدل عليه السياق كما فى قوله تعالى: فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (الواقعه ٨٣/) و التقدير اذا بلغت النفس التراقى.

و التراقى العظام المكتنفه للنحر عن يمين و شمال جمع ترقوه، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ اسم فاعل من الرقى أى قال من حضره من اهله و اصدقائه من يرقيه و يشفيه؟ كلمه يأس، و قيل: المعنى قال بعض الملائكه لبعض: من يرقى بروحه من الملائكه أم ملائكه الرحمه أم ملائكه العذاب؟

قوله تعالى: وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ أى و علم الإنسان المحتضر من مشاهده هذه الأحوال انه مفارقتة للعاجله التى كان يحبها و يؤثرها على الآخره.

قوله تعالى: وَالتَّفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ظاهره ان المراد به التفاف ساق المحتضر بساقه ببطلان الحياه الساريه فى اطراف البدن عند بلوغ الروح التراقى.

قوله تعالى: إِلَيَّ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ مصدر ميمى بمعنى السوق، و المراد بكون السوق يومئذ اليه تعالى انه الرجوع اليه، و عبر بالمساق للإشاره الى ان لا- خيره للإنسان فى هذا المسير و لا مناص له عنه فهو مسوق مسير من يوم موته و هو قوله: «إِلَيَّ رَبِّكَ

يَوْمَئِذٍ الْمَسْأَلُ» حتى يرد على ربه يوم القيامة و هو قوله: «إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ» و لو كان تقديم «إِلَىٰ رَبِّكَ» لإفاده الحصر افاد انحصار الغايه فى الرجوع اليه تعالى.

قوله تعالى: فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ وَلَا لَكِنُ كَذَّبَ وَ تَوَلَّىٰ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى الضمائر راجعه الى الإنسان المذكور فى قوله: «أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ» الخ؛ والمراد بالتصديق المنفى تصديق الدعوه الحقه التى يتضمنها القرآن الكريم، و بالتصليه المنفيه التوجه العبادى اليه تعالى بالصلاه التى هى عمود الدين.

و التمطى-على ما فى المجمع-تمدد البدن من الكسل و أصله ان يلوى مطاه اى ظهره، و المراد بتمطيه فى ذهابه التبخر و الاختيال استعاره.

و المعنى: فلم يصدق هذا الانسان الدعوه فيما فيها من الاعتقاد و لم يصل لربه اى لم يتبعها فيما فيها من الفروع و ركنها الصلاه و لكن كذب بها و تولى عنها ثم ذهب الى أهله يتبخر و يختال مستكبرا.

قوله تعالى: أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ لا ريب أنه كلمه تهديد كررت لتأكيد التهديد، و لا يبعد-و الله أعلم-أن يكون قوله: «أَوْلَىٰ لَكَ» خبرا لمبتدأ محذوف هو ضمير عائد الى ما ذكر من حال هذا الانسان و هو أنه لم يصدق و لم يصل و لكن كذب و تولى ثم ذهب الى أهله متبخرًا مختالًا، و إثبات ما هو فيه من الحال له كناية عن إثبات ما هو لازمه من التبعه و العقاب.

فيكون الكلام و هى كلمه ملقاه من الله تعالى الى هذا الانسان كلمه طبع طبع الله بها على قلبه حرم بها الإيمان و التقوى و كتب عليه أنه من أصحاب النار، و الآيتان تشبهان بوجه قوله تعالى: فَإِذَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (سوره محمد ٢٠/).

و المعنى: ما أنت عليه من الحال أولى و أرجح لك فأولى ثم أولى لك فأولى لتذوق وبال

أمرك و يأخذك ما أعد لك من العذاب.

قوله تعالى: «أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى مَخْتَمٌ فِيهِ رَجُوعٌ إِلَى مَا فِي مَفْتَحِ السُّورَةِ مِنْ قَوْلِهِ: «أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَهُ عِظَامَهُ» .

و الاستفهام للتوبيخ، و السدى المهمل، و المعنى أ يظن الانسان ان يترك مهملا لا يعتنى به فلا يبعث بإحيائه بعد الموت و لازمه ان لا يكلف و لا يجزى.

قوله تعالى: «أَلَمْ يَكُ نُطْفَةٌ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنِيٌّ» اسم كان ضمير راجع الى الإنسان، و إماء المنى صبه في الرحم.

قوله تعالى: «ثُمَّ كَانَ عَلاَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى أَى ثُمَّ كَانَ الْإِنْسَانُ- أَوِ الْمَنَى- قَطْعَهُ مِنْ دَمٍ مَنَعْقَدٍ فَقَدَرَهُ فَصَوَّرَهُ بِالْتَعْدِيلِ وَ التَّكْمِيلِ.

قوله تعالى: فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثَى أَى فجعل من الإنسان الصنفين: الذكر و الانثى.

قوله تعالى: «أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى» احتجاج على البعث الذى ينكرونه استبعادا له بعموم القدره و ثبوتها على الخلق الابتدائى و الإعادة لا تزيد على الابتداء مثونه بل هى أهون، و قد تقدم الكلام فى تقريب هذه الحجة فى تفسير الآيات المتعرضه لها مرارا (1).

ص: ٥١٩

١ - ١). القيامة ١٦-٤٠: بحث روائى حول قوله تعالى: «لَا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ» اصحاب الجنة و اصحاب الناس؛ صفات الله تعالى؛ معنى النظر الى الله يوم القيامة؛ قبض الروح؛ حقيقه الموت.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٍ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّيذُورًا (١) إِذَا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَيَّاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالْأَنْدَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُنْعَمُكُمْ لُجُوجِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِذَا نَخَّافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبَّوسًا قَمَطِرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْئِثِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَمْطُفُهَا تَذَلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ فَوَارِيرًا (١٥) فَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلَكًا كَبِيرًا (٢٠) عَلَيْهِمْ يَابُوسٌ سِينْدُسٌ حُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوعٌ أَسَاوِرٌ مِنْ فِضَّةٍ وَسَيْحَانٌ رُبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (٢٢)

بيان:

اشاره

قوله تعالى: هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً

ص: ٥٢١

مَذْكُوراً الاستفهام للتقرير فيفيد ثبوت معنى الجملة و تحققة أى قد أتى على الانسان،الخ؛ و لعل هذا مراد من قال من قدماء المفسرين: إن «هَلْ» فى الآيه بمعنى قد، لا على أن ذلك أحد معانى «هَلْ» كما ذكره بعضهم.

و المراد بالإنسان الجنس. و أما قول بعضهم: إن المراد به آدم عليه السّلام فلا- يلائمه قوله فى الآيه التاليه: «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ» .

و الحين قطعه من الزمان محدوده قصيره كانت أو طويله، و الدهر الزمان الممتد من دون تحديد ببدايه أو نهايه.

و قوله: شَيْئاً مَذْكُوراً أى شيئاً يذكر باسمه فى المذكورات أى كان يذكر مثلاً الأرض و السماء و البر و البحر و غير ذلك و لا يذكر الإنسان لأنه لم يوجد بعد حتى وجد فقيل:

الإنسان فكونه مذكورا كناية عن كونه موجودا بالفعل فالنفي فى قوله: «لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً» متوجه الى كونه شيئاً مذكورا لا الى أصل كونه شيئاً فقد كان شيئاً و لم يكن شيئاً مذكورا و يؤيده قوله: «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ» الخ؛ فقد كان موجوداً بمادته و لم يتكون بعد إنساناً بالفعل و الآيه و ما يتلوها من الآيات واقعه فى سياق الاحتجاج بيبين بها أن الإنسان حادث يحتاج فى وجوده الى صانع يصنعه و خالق يخلقه، و قد خلقه ربه و جهزه التدبير الربوبى بأدوات الشعور من السمع و البصر يهتدى بها الى السبيل الحق الذى من الواجب أن يسلكه مدى حياته فان كفر فمصيره الى عذاب أليم و ان شكر فالى نعيم مقيم.

و المعنى هل أتى-قد أتى-على الإنسان قطعه محدوده من هذا الزمان الممتد-غير المحدود و الحال أنه لم يكن موجوداً بالفعل مذكورا فى عداد المذكورات.

قوله تعالى: «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً» النطفه فى الأصل بمعنى الماء القليل غلب استعماله فى ماء الذكور من الحيوان الذى يتكون منه مثله، و أمشاج جمع مشيج او المشج بفتحيتين او بفتح فكسر بمعنى المختلط الممتزج،

و وصفت بها النطفه باعتبار اجزائها المختلفه او اختلاط ماء الذكور و الإناث.

و الابتلاء نقل الشىء من حال الى حال و من طور الى طور كابتلاء الذهب فى البوتقه، و ابتلاؤه تعالى الإنسان فى خلقه من النطفه هو ما ذكره فى مواضع من كلامه انه يخلق النطفه فيجعلها علقه و العلقه مضغه الى آخر الأطوار التى تتعاقبها حتى ينشئه خلقا آخر.

و قوله: فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا سياق الآيات و خاصه قوله: «إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ» الخ؛ يفيد أن ذكر جعله سميعا بصيرا للتوسل به فى التدبير الربوبى الى غايته و هى أن يرى آيات الله الداله على المبدأ و المعاد و يسمع كلمه الحق التى تأتية من جانب ربه بإرسال الرسل و إنزال الكتب فيدعوه البصر و السمع الى سلوك سبيل الحق و السير فى مسير الحياه بالإيمان و العمل الصالح فإن لزم السبيل الذى هدى اليه أداه الى نعيم الأبد و إلا فإلى عذاب مخلد.

و ذكر الإنسان فى الآيه من وضع الظاهر موضع الضمير و النكته فيه تسجيل أنه تعالى هو خالقه و مدبر أمره.

و المعنى: إنا خلقنا الإنسان من نطفه هى أجزاء مختلطه ممتزجه و الحال أننا ننقله من حال الى حال و من طور الى طور فجعلناه سميعا بصيرا لسمع ما يأتية من الدعوه الإلهيه، و يبصر الآيات الإلهيه الداله على وحدانيته تعالى و النبوه و المعاد.

قوله تعالى: إِذْ نَادَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا الهدايه بمعنى إراءه الطريق دون الإيصال الى المطلوب و المراد بالسبيل السبيل بحقيقه معنى الكلمه و هو المؤدى الى الغايه المطلوبه و هو سبيل الحق.

و الشكر استعمال النعمه بإظهار كونها من منعمها و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى:

وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (آل عمران ١٤٤) أن حقيقه كون العبد شاكرا لله كونه مخلصا لربه، و الكفران استعمالها مع ستر كونها من المنعم.

وقوله: **إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** حالان من ضمير «هَدَيْتَاهُ» لا من «السَّبِيلَ» كما قاله بعضهم، و«إِمَّا» يفيد التقسيم و التوزيع أى إنا هديناه السبيل حال كونه منقسماً الى الشاكر و الكفور أى إنه مهدي سواء كان كذا أو كذلك.

و التعبير بقوله: **«إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا»** هو الدليل أولاً: على أن المراد بالسبيل السنه و الطريقه التى يجب على الإنسان أن يسلكها فى حياته الدنيا لتوصله الى سعادته فى الدنيا و الآخرة و تسوقه الى كرامه القرب و الزلفى من ربه و محصله الدين الحق و هو عند الله الإسلام (١).

قوله تعالى: **إِذَا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَيِّئَاتٍ لَّيْسَ لَهُمْ صَوْلَةٌ وَلَا هُمْ يُعْرَضُونَ** و سبباً للاعتاد التهيئه، و سلاسل جمع سلسله و هى القيد الذى يقاد به المجرم، و أغلام جمع غل بالضم قيل هى القيد الذى يجمع اليدين على العنق، و قال الراغب: فالغل مختص بما يقيد به فيجعل الأعضاء وسطه. انتهى. و السعير النار المشتعله، و المعنى ظاهر.

و الآيه تشير الى تبعه الانسان الكفور المذكور فى قوله: **«إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا»** و قدم بيان تبعته على بيان جزاء الانسان الشاكر لاختصار الكلام فيه.

قوله تعالى: **إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا** الكأس إناء الشراب إذا كان فيه شراب، و المزاج ما يمزج به كالحزام لما يحزم به، و الكافور معروف يضرب به المثل فى البروده و طيب الرائحه، و قيل: هو اسم عين فى الجنة.

و الأبرار جمع بر بفتح الباء صفه مشبهه من البر و هو الاحسان و يتحصل معناه فى أن يحسن الانسان فى عمله من غير أن يريد به نفعاً يرجع اليه من جزاء او شكور فهو يريد الخير لأنه خير لا لأن فيه نفعاً يرجع الى نفسه و إن كرهت نفسه ذلك فيصبر على مر مخالفه نفسه فيما

ص: ٥٢٤

يريده و يعمل لأنه خير في نفسه كالوفاء بالندى أو لأن فيه خيرا لغيره كاطعام الطعام للمستحقين من عباد الله.

و إذ لا خير في عمل و لا صلاح إلا بالايان بالله و رسوله و اليوم الآخر كما قال تعالى:

أُولَئِكَ لَمْ يُوْمِنُوا فَأَخْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ (الأحزاب ١٩) الى غير ذلك من الآيات.

فالأبرار مؤمنون بالله و رسوله و اليوم الآخر، و إذ كان إيمانهم إيمان رشد و بصيره فهم يرون أنفسهم عبيدا مملوكين لربهم، له خلقهم و أمرهم، لا يملكون لأنفسهم نفعاً و لا ضراً عليهم أن لا يريدوا إلا ما أرادهم ربهم و لا يفعلوا إلا ما يرتضيه فقدموا إرادته على إرادته أنفسهم و عملوا له فصبروا على مخالفته أنفسهم فيما تهواه و تحبه و كلفه الطاعة، و عملوا ما عملوه لوجه الله، فأخلصوا العبودية في مرحلة العمل لله سبحانه.

و هذه الصفات هي التي عرف سبحانه الأبرار بها كما يستفاد من قوله: «يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ» و قوله: «إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ» و قوله: «وَ جَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا» و هي المستفاده من قوله في صفتهم: لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ الخ (البقره ١٧٧) و قد مر بعض الكلام في معنى البر في تفسير الآيه و سيأتي بعضه في قوله:

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (المطففين ١٨).

و الآيه أعنى قوله: «إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ» الخ؛ بما يتبادر من معناها من حيث مقابلتها لقوله: «إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ» الخ؛ المبين لحال الكافرين في الآخرة، تبين حال الأبرار في الآخرة في الجنة، و انهم يشربون من شراب ممزوج بالكافور باردا طيب الرائحة.

قوله تعالى: عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا «عَيْنًا» منصوب بنزع الخافض و التقدير من عين أو بالاختصاص و التقدير أخص عيناً، و الشرب-على ما قيل-يتعدى بنفسه و بالباء فشرب بها و شربها واحد، و التعبير عنهم بعباد الله للاشارة الى تحليهم بحليه العبودية و قيامهم بلوازمها على ما يفيدته سياق المدح.

و تفجير العين شق الأرض لإجرائها، و ينبغي ان يحمل تفجيرهم العين على ارادتهم جريانها لأن نعم الجنة لا تحتاج في تحققها و التمتع بها الى ازيد من مشيه اهلها قال تعالى: لَّهُمْ مَا يَشَاؤُنَ فِيهَا (ق ٣٥).

و الآيتان- كما تقدمت الإشارة اليه- تصفان نعم الأبرار بشارب الجنة في الآخرة، و بذلك فسرت الآيتان.

و لا يبعد ان تكون الآيتان مسوقتين على مسلك تجسم الأعمال تصفان حقيقه عملهم الصالح من الإيفاء بالنذر و اطعام الطعام لوجه الله، و ان اعمالهم المذكوره بحسب باطنها شرب من كأس مزاجها كافور من عين لا يزالون يفجرونها بأعمالهم الصالحه و سنظهر لهم بحقيقتها في جنة الخلد و إن كانت في الدنيا في صوره الأعمال فتكون الآيتان في مجرى أمثال قوله تعالى:

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (يس ٨).

و يؤيد ذلك ظاهر قوله: «يَشْرَبُونَ» و «يَشْرَبُ بِهَا» و لم يقل: سيشربون و سيشرب بها، و وقوع قوله: يشربون و يوفون و يخافون و يطعمون متعاقبه في سياق واحد، و ذكر التفجير في قوله: «يَفْجَرُونَهَا تَفْجِيرًا» الظاهر في استخراج العين و إجرائها بالتوسل بالأسباب.

و لهم في مفردات الآيتين و إعرابها أقاويل كثيره مختلفه مذكوره في المطولات فليراجعها من أراد الوقوف عليها.

قوله تعالى: يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا المستطير اسم فاعل من استطار إذا فشا و انتشر في الأقطار غايه الانتشار و هو أبلغ من طار كما قيل:

يقال: استطار الحريق و استطار الفجر إذا اتسعا غايته، و المراد باستطاره شر اليوم و هو يوم القيامة بلوغ شدائده و أهواله و ما فيه من العذاب غايته.

و المراد بالإيفاء بالنذر ما هو ظاهره المعروف من معناه، و قول القائل: إن المراد به ما عقدوا عليه قلوبهم من العمل بالواجبات أو ما عقدوا عليه القلوب من اتباع الشارع في جميع ما

شرعه خلاف ظاهر اللفظ من غير دليل يدل عليه.

قوله تعالى: وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مَشَكِيئًا وَبِئْسَ إِسْمِيرًا ﴿٩٢﴾ «عَلَىٰ حُبِّهِ» للطعام على ما هو الظاهر، والمراد بحبه توقان النفس اليه لشده الحاجه، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ (آل عمران ٩٢).

و المراد بالمسكين و اليتيم معلوم، و المراد بالأسير ما هو الظاهر منه و هو المأخوذ من أهل دار الحرب.

قوله تعالى: إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا وَجَه الشىء هو ما يستقبل به غيره، و وجهه تعالى صفاته الفعلية الكريمة التي يفيض بها الخير على خلقه من الخلق و التدبير و الرزق و بالجمله الرحمة العامه التي بها قيام كل شىء، و معنى كون العمل لوجه الله على هذا كون الغايه فى العمل هى الاستفاضه من رحمه الله و طلب مرضاته بالاعتصار على ذلك و الإعراض عما عند غيره من الجزاء المطلوب، و لذا ذيلوا قولهم:

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ بقولهم: «لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا» .

و وراء ذلك صفاته الذاتيه الكريمة التي هى المبدأ لصفاته الفعلية و لما يترتب عليها من الخير فى العالم، و مرجع كون العمل لوجه الله على هذا هو الإتيان بالعمل حبا لله لأن الجميل على الإطلاق، و إن شئت فقل: عبادته تعالى لأنه اهل للعباده.

و ابتغاء وجه الله يجعله غايه داعيه فى الأعمال مذكور فى مواضع من كلامه تعالى كقوله:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الكهف ٢٨)، و قوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ (البقره ٢٧٢)، و فى هذا المعنى قوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (البينه ٥)، و قوله: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (المؤمن ٦٥)، و قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ (الزمر ٣).

و قوله: «لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا» الجزاء مقابله العمل بما يعادله إن خيرا فخييرا

و إن شرافسرا؁ و يعم الفعل و القول لكن المراد به فى الآيه بقرينه مقابلته الشكور مقابله إطعامهم عملا لا لسانا.

و الشكر و الشكور ذكر النعمة و إظهارها قلبا أو لسانا أو عملا؁ و المراد به فى الآيه و قد قوبل بالجزاء الثناء الجميل لسانا.

و الآيه أعنى قوله: «إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ» الخ؛ خطاب منهم لمن أطعموه من المسكين و اليتيم و الأسير إما بلسان المقال فهى حكاية قولهم أو بتقدير القول و كيف كان فقد أرادوا به تطيب قلوبهم أن يأمنوا المن و الأذى؁ و إما بلسان الحال و هو ثناء من الله عليهم لما يعلم من الإخلاص فى قلوبهم.

قوله تعالى: إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا عد اليوم و هو يوم القيامة عبوسا من الاستعاره؁ و المراد بعبوسه ظهوره على المجرمين بكمال شدته؁ و القمطيرير الصعب الشديد على ما قيل.

و الآيه فى مقام التعليل لقولهم المحكى: «إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ» الخ؛ ينبهون بقولهم هذا أن قصرهم العمل فى ابتغاء وجه الله تعالى إخلاصا للعبودية لمخافتهم ذاك اليوم الشديد؁ و لم يكتفوا بنسبه المخافه الى اليوم حتى نسبه نحوا من النسبه الى ربهم فقالوا: «نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا» الخ؛ لأنهم لما لم يريدوا إلا وجه ربهم فهم لا يخافون غيره كما لا يرجون غيره و إنما يخافون و يرجون ربهم فلا يخافون يوم القيامة إلا لأنه من ربهم يحاسب فيه عباده على أعمالهم فيجزئهم بها.

و أما قوله قبلا: «و يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا» حيث نسب خوفهم الى اليوم فإن الواصف فيه هو الله سبحانه و قد نسب اليوم بشدائده الى نفسه قبلا حيث قال: «إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا» الخ.

و بالجمله ما ذكروه من الخوف مخافه فى مقام العمل لما يحاسب العبد على عمله فالعبودية

لازمه للإنسان لا تفارقه و إن بلغ ما بلغ قال تعالى: **إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ** (الغاشية ٢٦).

قوله تعالى: **فَوْقَهُمْ اللَّهُ شَرُّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا** الوقايه الحفظ و المنع من الأذى و لقي الشىء بكذا يليه أى استقبله به و النضرة البهجه و حسن اللون و السرور مقابل المساءه و الحزن.

و المعنى: فحفظهم الله و منع عنهم شر ذلك اليوم و استقبلهم بالنضرة و السرور، فهم ناضره الوجوه مسرورون يومئذ كما قال: **وَجُودٌ يُؤْمِنُ نَاصِرَةٌ** (القيامة ٢٢).

قوله تعالى: **وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِيرًا** المراد بالصبر صبرهم عند المصيبة و على الطاعة و عن المعصية فإنهم ابتغوا فى الدنيا وجه ربهم و قدموا إرادته على إرادتهم فصبروا على ما قضى به فيهم و أرادته من المحن و مصائب الدنيا فى حقهم، و صبروا على امتثال ما أمرهم به و صبروا على ترك ما نهاهم عنه و إن كان مخالفا لأهواء أنفسهم فبدل الله ما لقوه من المشقه و الكلفه نعمه و راحه.

قوله تعالى: **مُتَكِينٍ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَ لَا زَمْهَرِيرًا** الأرائك جمع أريكه و هو ما يتكى عليه، و الزمهير البرد الشديد، و المعنى حالكونهم متكئين فى الجنة على الأرائك لا يرون فيها شمساً حتى يتأذوا بحرّها و لا زمهريراً حتى يتأذوا ببرده.

قوله تعالى: **وَ دَائِبَةٍ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهُمْ وَ ذُلَّتْ قُطُوفُهُمْ** تَدْلِيلًا الظلال جمع ظل، و دنو الظلال عليهم قريباً منهم بحيث تنبسط عليهم فكأن الدنو مضمن معنى الانبساط و قطوف جمع قطف بالكسر فالسكون و هو الثمره المقطوفه المجتناه، و تدليل القطوف لهم جعلها مسخره لهم يقطفونها كيف شاءوا من غير مانع أو كلفه.

قوله تعالى: **وَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَاتِهِ مِنْ فَضِّهِ وَ أَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا** الآنيه

جمع إناء كأكسيه جمع كساء و هو الوعاء، و أكواب جمع كوب و هو إناء الشراب الذى لا عروه له و لا خرطوم و المراد طوف الولدان المخلدن عليهم بالآنيه و أكواب الشراب كما سيأتى فى قوله: «وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ» الآيه.

قوله تعالى: قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا بدل من قوارير فى الآيه السابقه، و كون القوارير من فضه مبنى على التشبيه البليغ أى إنها فى صفاء الفضه و إن لم تكن منها حقيقه، كذا قيل. و احتمال أن يكون بحذف مضاف و التقدير من صفاء الفضه.

و ضمير الفاعل فى «قَدَّرُوهَا» للأبرار و المراد بتقديرهم الآنيه و الأكواب كونها على ما شاءوا من القدر ترويههم بحيث لا تزيد و لا تنقص كما قال تعالى: لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا (ق / ٣٥) و قد قال تعالى قبل: «يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا» .

و يحتمل رجوع الضمير الى الطائفين المفهوم من قوله: «يُطَافُ عَلَيْهِمْ» و المراد بتقديرهم الآنيه و الأكواب إتيانهم بها على قدر ما أرادوا محتويه على ما اشتهاوا قدر ما اشتهاوا.

قوله تعالى: وَ يُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا قيل: إنهم كانوا يستطيعون الزنجبيل فى الشراب فوعد الأبرار بذلك و زنجبيل الجنة أطيب و ألد.

قوله تعالى: عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلسِيلاً أى من عين أو التقدير أعنى أو أخص عيناً. قال الراغب: و قوله: «سَلسِيلاً» أى سهلاً لذىذا سلساً حديد الجريه.

قوله تعالى: وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا أى ولدان دائمون على ما هم عليه من الطراوه و البهاء و صباحه المنظر، و قيل: أى مقرطون بخلده و هى ضرب من القرط.

و المراد بحسبانهم لؤلؤاً منظورا أنهم فى صفاء ألوانهم و إشراق وجوههم و انعكاس أشعه بعضهم على بعض و انبثاتهم فى مجالسهم كاللؤلؤ المنثور.

قوله تعالى: وَ إِذَا رَأَيْتَ نَّمَ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَ مُلْكًا كَبِيرًا «نَّمَ» ظرف مكان

ممحض فى الظرفيه، و لذا قيل: إن معنى «رَأَيْتَ» الأول: رميت ببصرك، و المعنى و إذا رميت ببصرك ثم يعنى الجنه رأيت نعيما لا يوصف و ملكا كبيرا لا يقدر قدره.

و قيل «ثُمَّ» صله محذوفه الموصول و التقدير و إذا رأيت ما ثم من النعيم و الملك، و هو كقوله: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ (الأنعام ٩٤) و الكوفيون من النحاء يجوزون حذف الموصول و إبقاء الصله و إن منعه البصريون منهم.

قوله تعالى: **عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضِرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ** الخ؛ الظاهر أن «عَالِيَهُمْ» حال من الأبرار الراجعه اليه الضمائر و «ثِيَابٌ» فاعله، و السندس - كما قيل - ما رق نسجه من الحرير، و الخضر صفه ثياب و الإستبرق ما غلظ نسجه من ثياب الحرير، و هو معرب كالسندس.

و قوله: **وَ حُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ** التحليه التزيين، و أساور جمع سوار و هو معروف، و قال الراغب: هو معرب دستواره.

و قوله: **وَ سَيَقَاهُمْ رَبُّهُمْ** شَرَابًا طَهُورًا أى بالغى فى التطهير لا - تدع قذاره إلا أزالها و من القذاره قذاره الغفله عن الله سبحانه و الاحتجاب عن التوجه اليه فهم غير محجوبين عن ربهم و لذا كان لهم أن يحمدوا ربهم كما قال: **وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** (يونس ١٠) و قد تقدم فى تفسير سوره الحمد أن الحمد وصف لا - يصلح له إلا المخلصون من عباد الله تعالى لقوله: **سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ** (الصفات ١٦٠).

و قد أسقط تعالى فى قوله: «**وَ سَيَقَاهُمْ رَبُّهُمْ**» الوسائط كلها و نسب سقيهم الى نفسه، و هذا أفضل ما ذكره الله تعالى من النعيم الموهوب لهم فى الجنه، و لعله من المزيد المذكور فى قوله:

لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ (ق ٣٥).

قوله تعالى: **إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَ كَانَ سَعْيِكُمْ مَشْكُورًا** حكاية ما يخاطبون به من عنده تعالى عند توفيته أجرهم أو بحذف القول و التقدير و يقال لهم: إن هذا

كان لكم جزاء، الخ.

□ و قوله: وَ كَانَ سَعْيِكُمْ مَشْكُورًا إنشاءً شكر لمساعيهم المرضيه و أعمالهم المقبوله، و يا لها من كلمه طيبه تطيب بها نفوسهم.

و اعلم أنه تعالى لم يذكر فيما ذكر من نعيم الجنه فى هذه الآيات نساء الجنه من الحور العين و هى من أهم ما يذكره عنده و وصف نعم الجنه فى سائر كلامه و يمكن أن يستظهر منه أنه كانت بين هؤلاء الأبرار الذين نزلت فيهم الآيات من هى من النساء. و قال فى روح المعانى: و من اللطائف على القول بنزول السوره فيهم يعنى فى أهل البيت أنه سبحانه لم يذكر فيها الحور العين و إنما صرح عزّ و جل بولدان مخلدين رعايه لحرمة البتول و قره عين الرسول، انتهى.

بحث روائى:

فى إتقان السيوطى عن البيهقى فى دلائل النبوه باسناده عن بكرمه و الحسن بن أبى الحسن قالاً: أنزل الله من القرآن بمكه اقرأ باسم ربك و ن و المزمّل-الى أن قالوا- ما نزل بالمدينه و يل للمطففين، و البقره، و آل عمران، و الأنفال، و الأحزاب، و المائده، و الممتحنه، و النساء، و إذا زلزلت، و الحديد، و محمد، و الرعد، و الرحمن، و هل أتى على الإنسان.

الحديث.

و فيه عن ابن الضريس فى فضائل القرآن باسناده عن عثمان بن عطاء الخراسانى عن أبيه عن ابن عباس قال: كان إذا نزلت فاتحه سوره بمكه كتبت بمكه ثم يزيد الله فيها ما شاء.

و كان أول ما انزل من القرآن اقرأ باسم ربك، ثم ن، ثم يا أيها المزمّل-الى أن قال- ثم انزل بالمدينه سوره البقره ثم الأنفال ثم آل عمران ثم الأحزاب ثم الممتحنه ثم النساء ثم إذا زلزلت ثم الحديد ثم القتال ثم الرعد ثم الرحمن ثم الإنسان. الحديث.

ص: ٥٣٢

وفيه عن البيهقي في الدلائل بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال: إن أول ما أنزل الله على نبيه من القرآن اقرأ باسم ربك، وذكر مثل حديث عكرمه و الحسين وفيه ذكر ثلاث من السور المكية التي سقطت من روايتهما وهي الفاتحة و الاعراف و كهيعص.

و في الدر المنثور أخرج ابن الضريس و ابن مردويه و البيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الإنسان بالمدينة.

و فيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله تعالى: وَ يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ الْآيَةَ؛ قال: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب و فاطمه بنت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

أقول: الآية تشارك سائر آيات صدر السورة مما تقدم عليها أو تأخر عنها في سياق واحد متصل فنزلها فيهما عليهما السَّلام لا ينفك نزولها جميعا بالمدينة.

و في الكشاف: و عن ابن عباس أن الحسن و الحسين مرضا فعادهما رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ في ناس معه فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت علي ولدك (ولديك ظ) فنذر علي و فاطمه و فضه جاريه لهما إن برء مما بهما أن يصوموا ثلاثه أيام فشفيا و ما معهم شيء.

فاستقرض علي من شمعون الخيبري اليهودي ثلاث أصوع من شعير فطحنت فاطمه صاعا و اختبزت خمسه أقراص علي عددهم فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل و قال: السلام عليكم أهل بيت محمد مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة فأثروه و باتوا لم يذوقوا إلا الماء و أصبحوا صياما.

فلما أمسوا و وضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فأثروه، و وقف عليهم أسير في الثالثه ففعلوا مثل ذلك.

فلما أصبحوا أخذ علي بيد الحسن و الحسين و أقبلوا الى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فلما أبصرهم و هم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال: ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم فانطلق معهم فرأى

فاطمه فى محرابها قد التصق ظهرها (١) بطنها و غارت عينها فساء ذلك فتزل جبريل و قال:

خذها يا محمد هناك الله فى أهل بيتك فافرقه السوره.

أقول: الروايه مرويه بغير واحد من الطرق عن عطاء عن ابن عباس و نقلها البحرانى فى غايه المرام عن أبى المؤيد الموفق بن احمد فى كتاب فضائل أمير المؤمنين باسناده عن مجاهد عن ابن عباس، و عنه باسناد آخر عن الضحاك عن ابن عباس و عن الحموينى فى كتاب فرائد السمطين باسناده عن مجاهد عن ابن عباس، و عن الثعلبى باسناده عن أبى صالح عن ابن عباس، و رواه فى المجمع عن الواحدى فى تفسيره.

و فى المجمع باسناده عن الحاكم باسناده عن سعيد بن المسيب عن على بن ابى طالب أنه قال: سألت النبى عن ثواب القرآن فأخبرنى بثواب سوره سوره على نحو ما نزلت من السماء.

فأول ما نزل عليه بمكه فاتحه الكتاب ثم اقرأ باسم ربك، ثم ن-الى ان قال-و أول ما نزل بالمدينه سوره البقره ثم الأنفال ثم آل عمران ثم الأحزاب ثم الممتحنه ثم النساء ثم إذا زلزلت ثم الحديد ثم سوره محمد ثم الرعد ثم سوره الرحمن ثم هل أتى. الحديث.

وفيه عن أبى حمزه الشمالى فى تفسيره قال: حدثنى الحسن بن الحسن أبو عبد الله بن الحسن أنها مدنيه نزلت فى على و فاطمه السوره كلها.

و فى تفسير القمى عن أبيه عن عبد الله بن ميمون عن أبى عبد الله عليه السلام قال: كان عند فاطمه عليها السلام شعير فجعلوه عصيده (٢) فلما أنضجوها و وضعوها بين أيديهم جاء مسكين فقال:

مسكين رحمكم الله فقام على عليه السلام أعطاه ثلثا فلم يلبث أن جاء يتيم فقال: اليتيم رحمكم الله فقام على عليه السلام فأعطاه الثلث ثم جاء أسير فقال: الأسير رحمكم الله فأعطاه على عليه السلام الثلث و ما

ص: ٥٣٤

١-١). بطنها بظهرها ظ.

٢-٢). العصيده: شعير يلت بالسمن و يطبخ.

ذاقوها فأنزل الله سبحانه الآيات فيهم و هي جاريه في كل مؤمن فعل ذلك لله عز و جل.

أقول:القصه كما ترى ملخصه في الروايه و روى ذلك البحرانى في غايه المرام عن المفيد في الاختصاص مسندا و عن ابن بابويه في الامالى باسناده عن مجاهد عن ابن عباس،و باسناده عن سلمه بن خالد عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام،و عن محمد بن العباس ابن ماهيار في تفسيره باسناده عن أبي كثير الزبيرى عن عبد الله بن عباس،و في المناقب أنه مروى عن الأصبع بن نباته.

و في الاحتجاج عن على عليه السلام في حديث يقول فيه للقوم بعد موت عمر بن الخطاب:

نشدتكم بالله هل فيكم أحد نزل فيه و في ولده «إِنَّ الْمَأْتِرَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا» الى آخر السوره غيرى؟قالوا:لا.

و في كتاب الخصال في احتجاج على على أبي بكر قال:أنشدك بالله أنا صاحب الآيه يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا أم أنت؟قال:بل أنت.

و في الدر المنثور أخرج الطبرانى و ابن مردويه و ابن عساكر عن ابن عمر قال:جاء رجل من الحبشه الى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم:سل و استفهم فقال:يا رسول الله فضلتم علينا بالألوان و الصور و النبوه أفرأيت إن آمنت بما آمنت به و عملت بمثل ما عملت به أنى لكائن معك في الجنه؟قال:نعم و الذى نفسى بيده إنه ليرى بياض الأسود فى الجنه من مسيره ألف عام.ثم قال:من قال:لا إله إلا الله كان له عهد عند الله و من قال:سبحان الله و بحمده كتبت له مائه الف حسنه و اربعة و عشرون الف حسنه و نزلت عليه السوره هل أتى على الانسان حين من الدهر الى قوله:ملكا كبيرا.

فقال الحبشى:و إن عيني لترى ما ترى عيناك فى الجنه؟قال:نعم فاشتكى حتى فاضت نفسه.قال عمر:فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يدلّيه فى حفرتة بيده.

و فيه أخرج أحمد فى الزهد عن محمد بن مطرف قال:حدثنى الثقة أن رجلا أسود كان

يسأل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ التَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: مَهْ أَكْثَرَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَ: مَهْ يَا عُمَرُ وَانزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هَيْلٌ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى ذِكْرِ الْجَنَّةِ زَفَرَ الْأَسْوَدُ زَفْرَهُ خَرَجَتْ نَفْسُهُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: مَاتَ شَوْقًا إِلَى الْجَنَّةِ.

وَفِيهِ أَخْرَجَ ابْنُ وَهْبٍ عَنْ ابْنِ زَيْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ هَذِهِ السُّورَةَ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِنَ الدَّهْرِ وَقَدْ انزَلَتْ عَلَيْهِ وَعِنْدَهُ رَجُلٌ أَسْوَدٌ فَلَمَّا بَلَغَ صِفَةَ الْجَنَّةِ زَفَرَ زَفْرَهُ فَخَرَجَتْ نَفْسُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أَخْرَجَ نَفْسَ صَاحِبِكُمْ الشَّوْقَ إِلَى الْجَنَّةِ.

أَقُولُ: وَهَذِهِ الرِّوَايَاتُ الثَّلَاثُ عَلَى تَقْدِيرِ صِحَّتِهَا لَا تَدُلُّ عَلَى أَزِيدٍ مِنْ كَوْنِ نَزُولِ السُّورَةِ مَقَارِنًا لِقِصَّةِ الرَّجُلِ وَ أَمَا كَوْنُهَا سَبَبًا لِلنَّزُولِ فَلَا، وَهَذَا الْمَعْنَى فِي الرِّوَايَةِ الْأَخِيرَةِ أَظْهَرَ وَبِالْجَمَلِ لَا تَنَافَى الرِّوَايَاتُ الثَّلَاثُ نَزُولِ السُّورَةِ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

عَلَى أَنَّ رِوَايَةَ ابْنِ عُمَرَ لِقِصَّةِ الظَّاهِرَةِ فِي حُضُورِهِ الْقِصَّةِ وَقَدْ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُوَ ابْنُ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً مِنْ شَوَاهِدِ وَقُوعِ الْقِصَّةِ بِالْمَدِينَةِ.

وَ فِي الدَّرِّ الْمَشْتُورِ أَيْضًا أَخْرَجَ النَّحَّاسُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَزَلَتْ سُورَةُ الْإِنْسَانِ بِمَكَّةِ.

أَقُولُ: هُوَ تَلْخِيصٌ حَدِيثٍ طَوِيلٍ أوردَهُ النَّحَّاسُ فِي كِتَابِ النَّاسِخِ وَ الْمُنَسُوخِ، وَقَدْ نَقَلَهُ فِي الْإِتْقَانِ وَهُوَ مُعَارِضٌ لِمَا تَقَدَّمَ نَقَلَهُ مُسْتَفِيضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ نَزُولِ السُّورَةِ بِالْمَدِينَةِ وَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

عَلَى أَنَّ سِيَاقَ آيَاتِهَا وَ خَاصَّهُ قَوْلُهُ: «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ» وَ «وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ» الْخ؛ سِيَاقُ قِصَّةِ وَاقِعِهِ وَ ذِكْرُ الْأَسِيرِ فِيمَنْ أُطْعِمُوهُمْ نَعْمَ الشَّاهِدِ عَلَى نَزُولِ الْآيَاتِ بِالْمَدِينَةِ إِذْ لَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ أُسِيرٌ بِمَكَّةِ كَمَا تَقَدَّمَتْ الْإِشَارَةُ إِلَى ذَلِكَ.

قَالَ بَعْضُهُمْ مَا مَلْخَصَهُ: أَنَّ الرِّوَايَاتِ مُخْتَلَفَةٌ فِي مَكِّيَّةِ هَذِهِ السُّورَةِ وَ مَدِينِيَّتِهَا وَ الْأَرْجَحُ أَنَّهَا مَكِّيَّةٌ بَلِ الظَّاهِرُ مِنْ سِيَاقِهَا أَنَّهَا مِنْ عَتَائِقِ السُّورِ الْقُرْآنِيَّةِ النَّازِلَةِ بِمَكَّةِ فِي أَوَائِلِ الْبَعْثَةِ يُؤَيِّدُ

ذلك ما ورد فيها من صور النعم الحسيه المفصله الطويله و صور العذاب الغليظ كما يؤيده ما ورد فيها من أمر النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم بالصبر لحكم ربه و أن لا يطيع منهم آثما او كفورا و يثبت على ما نزل عليه من الحق و لا يداهن المشركين من الأوامر التي كانت تنزل بمكه عند اشتداد الأذى على الدعوه و أصحابها بمكه كما فى السوره القلم و المزل و المدثر فلا عبره باحتمال مدنيه السوره.

و هو فاسد اما ما ذكره من اشتمال السوره على صور النعم الحسيه المفصله الطويله و صور العذاب الغليظ فليس ذلك مما يختص بالسور المكيه حتى يقضى بها على كون السوره مكيه فهذه سوره الرحمن و سوره الحج مدنيتان على ما تقدمت فى الروايات المشتمله على ترتيب نزول السور القرآنيه و قد اشتملتا من صور النعم الحسيه المفصله الطويله و صور العذاب الغليظ على ما يربو و يزيد على هذه السوره بكثير.

و اما ما ذكره من اشتمال السوره على امر النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم بالصبر و ان لا يطيع منهم آثما او كفورا و لا يداهنهم و يثبت على ما نزل عليه من الحق ففيه ان هذه الأوامر واقعه فى الفصل الثانى من آيات السوره و هو قوله: **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا** الى آخر السوره؛ و من المحتمل جدا ان يكون هذا الفصل من الآيات- و هو ذو سياق تام مستقل-نازلا بمكه، و يؤيده ما فى كثير من الروايات المتقدمه ان الذى نزل فى اهل البيت بالمدينه هو الفصل الأول من الآيات، و على هذا اول السوره مدنى و آخرها مكى.

و لو سلم نزولها دفعه واحده فأمره صَلَّى اللهُ عليه وآله و سلم بالصبر لا اختصاص له بالسور المكيه فقد ورد فى قوله: **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاهِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** (الكهف ٢٨) و الآيه-على ما روى-مدنيه و الآيه-كما ترى-متحده المعنى مع قوله: **«فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ»** الخ؛ و هى فى سائق شبيهه جدا بسياق هذه الآيات فراجع و تأمل.

ثم الذى كان يلقاه النبى صلى الله عليه وآله وسلم من اذى المنافقين و الذين فى قلوبهم مرض و الجفاه من ضعفاء الايمان لم يكون بأهون من اذى المشركين بمكه يشهد بذلك اخبار سيرته.

ولا- دليل ايضا على انحصار الإثم و الكفور فى مشركى مكة فهناك غيرهم من الكفار و قد اثبت القرآن الإثم لجمع من المسلمين فى موارد كقوله: لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ (النور ١١)، و قوله: وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَزِمْ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (النساء ١١٢).

و فى المجمع و روى العياشى باسناده عن عبد الله بن بكير عن زراره قال: سألت ابا جعفر عليه السلام عن قوله: «لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا» قال: كان شيئا و لم يكن مذكورا.

أقول: و روى فيه ايضا عن عبد الأعلى مولى آل سام عن ابي عبد الله عليه السلام مثله.

و فيه ايضا عن العياشى باسناده عن سعيد الحذاء عن ابي جعفر عليه السلام قال: كان مذكورا فى العلم و لم يكن مذكورا فى الخلق.

أقول: يعنى انه كان له ثبوت فى علم الله ثم خلق بالفعل فصار مذكورا فيمن خلق.

و فى الكافى باسناده عن مالك الجهنى عن ابي عبد الله عليه السلام فى الآية قال: كان مقدرًا غير مذكور.

أقول: هو فى معنى الحديث السابق.

و فى تفسير القمى فى الآية قال: لم يكن فى العلم و لا فى الذكر، و فى حديث آخر: كان فى العلم و لم يكن فى الذكر.

أقول: معنى الحديث الأول انه لم يكن فى علم الناس و لا فيمن يذكرونه فيما بينهم، و معنى الثانى انه كان فى علم الله و لم يكن مذكورا عند الناس.

و فى تفسير القمى ايضا فى روايه ابي الجارود عن ابي جعفر عليه السلام فى قوله تعالى: «أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ» قال: ماء الرجل و المرأه اختلطا جميعا.

و في الكافي باسناده عن حمران بن اعين قال: سألت ابا عبد الله عليه السلام عن قوله عزّ و جل:

إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا قَالَ: إِمَّا أَخَذَ فَهُوَ شَاكِرٌ وَإِمَّا تَارَكَ فَهُوَ كَافِرٌ.

أقول: و رواه القمي في تفسيره باسناده عن ابن ابي عمير عن ابي جعفر عليه السلام مثله. و في التوحيد باسناده الى حمزه بن الطيار عن ابي عبد الله عليه السلام ما يقرب منه و لفظه: عرفناه إما آخذًا و إما تاركًا.

و في الدر المنثور اخرج احمد و ابن المنذر عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم:

كل مولود يولد على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه فإذا عبر عنه لسانه إما شاكرا و إما كفورا و الله تعالى اعلم.

و في أمالي الصدوق باسناده عن الصادق عن أبيه عليهما السلام في حديث، عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا قَالَ: هِيَ عَيْنٌ فِي دَارِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يَفْجُرُ إِلَى دُورِ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْمُؤْمِنِينَ «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ» يَعْنِي عَلِيًّا وَ فَاطِمَةَ وَ الْحَسْنَ وَ الْحُسَيْنَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَ جَارِيَتِهِمْ «وَ يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا» يَقُولُ عَابَسَا كُلُّوْحَا «وَ يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ» يَقُولُ: عَلَى شَهْوَتِهِمْ لِلطَّعَامِ وَ إِثَارِهِمْ لَهُ «مَسْكِينًا» مِنْ مَسَاكِينِ الْمُسْلِمِينَ «وَ يَتِيمًا» مِنْ يَتَامَى الْمُسْلِمِينَ «وَ أَسِيرًا» مِنْ أَسَارَى الْمُشْرِكِينَ.

و يقولون إذا اطعموهم إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لُوجِهَ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَ لَا شُكْرًا قَالَ:

و الله ما قالوا هذا لهم و لكنهم أضمره في أنفسهم فأخبر الله باضمارهم يقولون: لا نريد جزاء تكافئونا به و لا شكورا تثنون علينا به، و لكننا انما أطعمناكم لوجه الله و طلب ثوابه.

و في الدر المنثور اخرج سعيد بن منصور و ابن ابي شيبة و ابن المنذر و ابن مردويه عن الحسن قال: كان الاسارى مشركين يوم نزلت هذه الآية وَ يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَ يَتِيمًا وَ أَسِيرًا.

أقول: مدلول الرواية نزول الآية بالمدينة، و نظيرها ما رواه فيه عن عبد بن حميد عن

قتاده، و ما رواه عن ابن المنذر عن ابن جريح، و ما رواه عن عبد الرزاق و ابن المنذر عن ابن عباس.

و فيه أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فِي قَوْلِهِ: يَوْمًا عَبَّوسًا قَمَطِرِيرًا قَالَ: يَقْبِضُ مَا بَيْنَ الْأَبْصَارِ.

و فِي رَوْضِهِ الْكَافِي بِإِسْنَادِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقِ الْمَدَنِيِّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صِفَةِ الْجَنَّةِ قَالَ: وَ الثَّمَارُ دَانِيَةٌ مِنْهُمْ وَ هُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَ جَلَّ: وَ دَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَ ذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا مِنْ قَرْبِهَا مِنْهُمْ يَتَنَاوَلُ الْمُؤْمِنُ مِنَ النَّوْعِ الَّذِي يَشْتَهِيهِ مِنَ الثَّمَارِ بِفِيهِ وَ هُوَ مَتَكِّيٌّ وَ إِنْ الْأَنْوَاعُ مِنَ الْفَاكِهَةِ لِيَقْلُنَ لَوْلَى اللَّهِ: يَا وَلِيَّ اللَّهِ كَلِمَتِي قَبْلَ أَنْ تَأْكُلَ هَذِهِ قَبْلِي.

و فِي تَفْسِيرِ الْقَمِيِّ فِي قَوْلِهِ: «وَالِدَانٌ مُخَلَّدُونَ» قَالَ: مَسْرُونٌ.

و فِي الْمَعَانِي بِإِسْنَادِهِ عَنْ عَبَّاسِ بْنِ يَزِيدٍ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ كُنْتُ عِنْدَهُ ذَاتَ يَوْمٍ:

أَخْبَرَنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ: وَ إِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَ مُلْكًا كَبِيرًا مَا هَذَا الْمَلِكُ الَّذِي كَبِرَ اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ حَتَّى سَمَاهُ كَبِيرًا؟ قَالَ: إِذَا أَدْخَلَ اللَّهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ أَرْسَلَ رَسُولًا- إِلَى وَ لِيٍّ مِنْ أَوْلِيَائِهِ فَيَجِدُ الْحِجْبَةَ عَلَى بَابِهِ فَتَقُولُ لَهُ: قِفْ حَتَّى نَسْتَأْذِنَ لَكَ، فَمَا يَصِلُ إِلَيْهِ رَسُولُ رَبِّهِ إِلَّا بِإِذْنِ فَهُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَ جَلَّ: وَ إِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَ مُلْكًا كَبِيرًا.

و فِي الْمَجْمَعِ «وَ إِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَ مُلْكًا كَبِيرًا» لَا يَزُولُ وَ لَا يَفْنَى عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

و فِيهِ «عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ» وَ رَوَى عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَعْنَاهُ: تَعْلُوهُمْ الثِّيَابُ فَيَلْبَسُونَهَا (١).

[سورة الإنسان (٧٦): الآيات ٢٣ إلى ٣١]

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَ اذْكُرْ إِسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَ أُصِيلًا (٢٥) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَ يَذُرُّونَ وِرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَ شَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَ إِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَ مَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)

ص: ٥٤٠

قوله تعالى: [□]إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا تصدير الكلام بيان و تكرار ضمير المتكلم مع الغير و الاتيان بالمفعول المطلق كل ذلك للتأكيد، و لتسجيل أن الذى نزل من القرآن نجوما متفرقه هو من الله سبحانه لم يداخله نفث شيطانى و لا هو نفسانى.

قوله تعالى: [□]فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا تفریع على ما هو لازم مضمون الآیه السابقه فإن لازم كون الله سبحانه هو الذى نزل القرآن عليه أن يكون ما فى القرآن من الحكم حكم ربه يجب أن يطاع فالمعنى إذا كان تنزيله منا فما فيه من الحكم حكم ربك فيجب عليك أن تصبر له فاصبر لحكم ربك.

و قوله: [□]وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ورود التردد فى سياق النهى يفيد عموم

الحكم فالنهي عن طاعتها سواء اجتماعا أو افتراقا، والظاهر أن المراد بالإثم المتلبس بالمعصية وبالکفور المبالغ في الكفر فتشمل الآيه الكفار والفساق جميعا.

و سبق النهي عن طاعه الإثم و الكفور بالأمر بالصبر لحكم ربه يفيد كون النهي مفسرا للأمر فمفاد النهي أن لا تطع منهم آثما إذا دعاك الى إثمه و لا- كفورا إذا دعاك الى كفره لأن إثم الآثم منهم و كفر الكافر مخالفان لحكم ربك و أما تعليق الحكم بالوصف المشعر بالعليه فإنما يفيد عليه الإثم و الكفر للنهي عن الطاعه مطلقا لا عليتهما للنهي إذا دعا الآثم الى خصوص إثمه و الكافر الى خصوص كفره.

قوله تعالى: وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَ اَصِيلاً اى داوم على ذكر ربك و هو الصلاه فى كل بكره و أصيل و هما الغدو و العشى.

قوله تعالى: وَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً «مِنْ» للتبويض و المراد بالسجود له الصلاه، و يقبل ما فى الآيتين من ذكر اسمه بكره و أصيلا و السجود له بعض الليل الانطباق على صلاه الصبح و العصر و المغرب و العشاء و هذا يؤيد نزول الآيات بمكه قبل فرض الفرائض الخمس بقوله فى آيه الإسراء: اَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ اِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ (الإسراء ٧٨).

فالآيتان كقوله تعالى: وَ اَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَ زُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ (هود ١١٤)، و قوله: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِهَا وَ مِنْ اَنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَ اطْرَافِ النَّهَارِ (طه ١٣٠).

نعم قيل: على ان الأصيل يطلق على ما بعد الزوال فيشمل قوله: «وَ اَصِيلاً» و قى صلاتى الظهر و العصر جميعا، و لا يخلو من وجه.

و قوله: وَ سَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً اى فى ليل طويل و وصف الليل بالطويل توضيحي لا احترازي، و المراد بالتسبيح صلاه الليل، و احتمال أن يكون طويلا صفة لمفعول مطلق

محذوف، و التقدير سبحانه فى الليل تسبيحا طويلا.

قوله تعالى: إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا تعليل لما تقدم من الأمر و النهى و الإشارة بهؤلاء الى جمع الإثم و الكفور المدلول عليه بوقوع النكره فى سياق النهى، و المراد بالعاجله الحياه الدنيا، و عدّ اليوم ثقيلًا من الاستعاره، و المراد بثقله شدته كأنه محمول ثقيل يشق حمله، و اليوم يوم القيامة.

و كون اليوم وراءهم تقررره أمامهم لأن وراء تفييد معنى الإحاطه، أو جعلهم إياه خلفهم و وراء ظهورهم بناء على إفاده «يَذُرُونَ» معنى الإعراض.

و المعنى: فاصبر لحكم ربك و أقم الصلاه و لا تطع الآثمين و الكفار منهم لأن هؤلاء الآثمين و الكفار يحبون الحياه الدنيا فلا يعملون إلا لها و يتركون أمامهم يوما شديدا أو يعرضون فيجعلون خلفهم يوما شديدا سيلقونه.

قوله تعالى: نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَ شَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَ إِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا الشد خلاف الفك، و الأسر فى الأصل الشد و الربط و يطلق على ما يشد و يربط به فمعنى شددنا أسرهم أحكمنا ربط مفاصلهم بالرباطات و الأعصاب و العضلات أو الأسر بمعنى المأسور و المعنى أحكمنا ربط أعضائهم المختلفه المشدوده بعضها ببعض حتى صار الواحد منهم بذلك إنسانا واحدا.

و قوله: وَ إِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا أى إذا شئنا بدلناهم أمثالهم فذهبنا بهم و جئنا بأمثالهم مكانهم و هو إماتة قرن و إحياء آخرين، و قيل المراد به تبديل نشأتهم الدنيا من نشأه القيامة و هو بعيد من السياق.

و الآيه فى معنى دفع الدخل كأن متوهما يتوهم أنهم بحبهم للدنيا و إعراضهم عن الآخره يعجزونه تعالى و يفسدون عليه إرادته منهم أن يؤمنوا و يطيعوا فاجيب بأنهم مخلوقون لله خلقهم و شد أسرهم و إذا شاء أذهبهم و جاء بآخرين فكيف يعجزونه و خلقهم و أمرهم

قوله تعالى: إِنَّ هَذِهِ تَذَكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَيَّ رَبِّهِ سَبِيلًا تقدم تفسيره في سورة المزمل و الإشارة بهذه الى ما ذكر في السوره.

قوله تعالى: وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا الاستثناء من النفي يفيد أن مشيه العبد متوقفه في وجودها على مشيته تعالى فلمشيته تعالى تأثير في فعل العبد من طريق تعلقها بمشيه العبد، و ليست متعلقه بفعل العبد مستقلا و بلا واسطه حتى تستلزم بطلان تأثير إرادته العبد و كون الفعل جبريا و لا- أن العبد مستقل في إرادته يفعل ما يشاؤه شاء الله أو لم يشأ، فالفعل اختياري لاستناده الى اختيار العبد، و أما اختيار العبد فليس مستندا الى اختيار آخر، و قد تكرر توضيح هذا البحث في مواضع مما تقدم.

و الآيه مسوقه لدفع توهم أنهم مستقلون في مشيتهم منقطعون من مشيه ربهم، و لعل تسجيل هذا التنبيه عليهم هو الوجه في الالتفات الى الخطاب في قوله: «وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» كما أن الوجه في الالتفات من التكلم بالغير الى الغيبه في قوله: «يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ» هو الإشارة الى عله الحكم فإن مسمى الاسم الجليل يتبدئ منه كل شيء و ينتهى اليه كل شيء فلا تكون مشيه إلا بمشيته و لا تؤثر مشيه إلا بإذنه.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا توطئه لبيان مضمون الآيه التاليه.

قوله تعالى: يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا مفعول «يَشَاءُ» محذوف يدل عليه الكلام، و التقدير يدخل في رحمته من يشاء دخوله في رحمته، و لا- يشاء إلا- دخول من آمن و اتقى، و أما غيرهم و هم أهل الإثم و الكفر فيبين حالهم بقوله: «وَ الظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» .

و الآيه تبين سنته تعالى الجاربه في عبادته من حيث السعاده و الشقاء، و قد علل ذلك بما في

ذيل الآيه السابقه من قوله: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا» فأفاد به أن سنته تعالى ليست سنه جزافيه مبنيه على الجهاله بل هو يعامل
كلا من الطائفتين بما هو أهل له و سينبئهم حقيقه ما كانوا يعملون.

ص: ٥٤٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِمَاتِ عَصِيْمًا (٢) وَالنَّاشِئَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا (٤)
فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَوَاقِعَ (٧) فإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ
نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقْبِيتْ (١١) إِنَّمَا يَوْمَ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَضِيلِ (١٣) وَمِمَّا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَضِيلِ (١٤) وَيَوْمَ يُؤْمِنُ
لِلْمُكذِبِينَ (١٥)

تذكر السوره يوم الفصل و هو يوم القيامة و تؤكد الإخبار بوقوعه و تشفعه بالوعيد الشديد للمكذبين به و الإنذار و التبشير لغيرهم و يربو فيها جانب الوعيد على غيره فقد كرر فيها قوله: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ» عشر مرات.

و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها.

قوله تعالى: وَ الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا الْآيَه و ما يتلوها الى تمام آيات إقسام منه تعالى بامور يعبر عنها بالمرسلات فالعاصفات و الناشرات فالفارقات فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا، و الاوليان أعنى المرسلات عرفا و العاصفات عصفا لا تخلوان لو خلتا و نفسيهما مع الغض عن السياق من ظهور ما فى الرياح المتعاقبه الشديده الهبوب لكن الأخيره أعنى الملقيات ذكرا عذرا أو نذرا كالصريحه فى الملائكه النازلين على الرسل الحاملين لوحى الرساله الملقين له اليهم إتماما للحجه أو إنذارا و بقيه الصفات لا تأبى الحمل على ما يناسب هذا المعنى.

و حمل جميع الصفات الخمس على إرادته الرياح كما هو ظاهر المرسلات و العاصفات-على ما عرفت-يحتاج الى تكلف شديد فى توجيه الصفات الثلاث الباقيه و خاصه فى الصفه الأخيره.

و كذا حمل المرسلات و العاصفات على إرادته الرياح و حمل الثلاث الباقيات أو الأخيرتين أو الأخيره فحسب على ملائكه الوحي إذ لا- تناسب ظاهرا بين الرياح و بين ملائكه الوحي حتى يقارن بينها في الأقسام و ينظم الجميع في سلك واحد، و ما وجهه من مختلف التوجيهات معان بعيده عن الذهن لا ينتقل إليها في مفتتح الكلام من غير تنبيه سابق.

فالوجه هو الغض عن هذه الأفاويل و هي كثيره جدا لا تكاد تنضب، و حمل المذكورات على إرادته ملائكه الوحي كنظيرتها في مفتتح سورة الصافات وَ الصَّافَّاتِ صَيِّفًا فَمَالِزَاتٍ لِجِبَابِ زَجْرًا فَالْتَلِيَاتِ ذِكْرًا و في معناها قوله تعالى: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيُعَلِّمَ أَنْ قَدْ أبلغوا رسالاتِ رَبِّهِمْ (الجن ٢٨).

فقوله: وَ الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا إقسام منه تعالى بها و العرف بالضم فالسكون الشعر النابت على عنق الفرس و يشبه به الامور إذا تتابعت يقال: جاءوا كعرف الفرس، و يستعار فيقال: جاء القطا عرفا أى متتابعه و جاءوا اليه عرفا واحدا أى متتابعين، و العرف أيضا المعروف من الأمر و النهى و «عُرْفًا» حال بالمعنى الأول مفعول له بالمعنى الثانى، و الارسال خلاف الإمساك، و تأنيث المرسلات باعتبار الجماعات أو باعتبار الروح التي تنزل بها الملائكه قال تعالى: يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (النحل ٢) و قال: يُلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (المؤمن ١٥).

و المعنى أقسم بالجماعات المرسلات من ملائكه الوحي.

و قيل: المراد بالمرسلات عرفا الرياح المتتابعه المرسله و قد تقدمت الإشارة الى ضعفه، و مثله فى الضعف القول بأن المراد بها الأنبياء عليهم السلام فلا يلائمه ما يتلوها.

قوله تعالى: فَالْعَاصِفَاتِ عَصِيفًا عطف على المرسلات و المراد بالعصف سرعه السير استعاره من عصف الرياح أى سرعه هبوبها إشارة الى سرعه سيرها الى ما ارسلت

اليه، والمعنى أقسم بالملائكة الذين يرسلون متتابعين فيسرعون في سيرهم كالرياح العاصفه.

قوله تعالى: وَ النَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۚ إِقْسَامًا ۚ أُخْرَىٰ، ونشر الصحيفة و الكتاب و التوب و نحوها: بسطه، و المراد بالنشر نشر صحف الوحي كما يشير اليه قوله تعالى: كَلَّا- إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۚ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۚ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۚ كِرَامٍ بَرَرَةٍ (عبس ١٦) والمعنى و أقسم بالملائكة الناشرين للصحف المكتوبه عليها الوحي للنبي ليتلقاه.

و قيل: المراد بها الرياح ينشرها الله تعالى بين يدي رحمته و قيل: الرياح الناشره للسحاب، و قيل: الملائكة الناشرين لصحائف الأعمال، و قيل: الملائكة نشروا أجنحتهم حين النزول و قيل: غير ذلك.

قوله تعالى: فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۚ الْمَرَادُ بِهِ الْفَرْقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَ الْبَاطِلِ وَ بَيْنَ الْحَلَالِ وَ الْحَرَامِ، و الفرق المذكور صفه متفرعه على النشر المذكور.

قوله تعالى: فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۚ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۚ الْمَرَادُ بِالذِّكْرِ الْقُرْآنَ يَقْرَأُ بِهِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَوْ مَطْلُقَ الْوَحْيِ النَّازِلِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمَقْرُوءِ عَلَيْهِمْ.

و الصفات الثلاثه أعنى النشر و الفرق و إلقاء الذكر مترتبه فإن الفرق بين الحق و الباطل و الحلال و الحرام يتحقق بنشر الصحف و إلقاء الذكر فبالنشر يشرع الفرق في التحقيق و بالتلاوه يتم تحققه فالنشر يترتب عليه مرتبه من وجود الفرق و يترتب عليها تمام وجوده بالإلقاء.

و قوله: عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۚ هما من المفعول له و «أَوْ» للتنويع قيل: هما مصدران بمعنى الإعذار و الإنذار، و الإعذار الإتيان بما يصير به معذورا و المعنى أنهم يلقون الذكر لتكون عذرا لعباده المؤمنين بالذكر و تخويفا لغيرهم.

وقيل: ليكون عذرا يعتذر به الله الى عباده في العقاب أنه لم يكن إلا- على وجه الحكمة، و يثول الى إتمام الحجه، فمحصل المعنى عليه أنهم يلقون الذكر ليكون إتماما للحججه على المكذبين و تخويفا لغيرهم، وهو معنى حسن.

قوله تعالى: **إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعَ** جواب القسم، و ما موصوله و الخطاب لعامه البشر، و المراد بما توعدون يوم القيامة بما فيه العقاب و الثواب و الواقع أبلغ من الكائن لما فيه من شائبه الاستقرار، و المعنى أن الذى وعدكم الله به من البعث و العقاب و الثواب سيتحقق لا محاله (1).

قوله تعالى: **فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ** -الى قوله- **أُفَّتْ** بيان لليوم الموعود الذى اخبر بوقوعه فى قوله: **إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعَ** و جواب إذا محذوف يدل عليه قوله: **«لَأَيُّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ** -الى قوله- **لِلْمُكذِّبِينَ»** .

و قد عرف سبحانه اليوم الموعود بذكر حوادث واقعه تلازم انقراض العالم الانسانى و انقطاع النظام الدنيوى كانطماس النجوم و انشقاق الأرض و اندكاك الجبال و تحول النظام الى نظام آخر يغايره، و قد تكرر ذلك فى كثير من السور القرآنيه و خاصه السور القصار كسوره النبأ و النازعات و التكوير و الانفطار و الانشقاق و الفجر و الزلزال و القارعه، و غيرها، و قد عدت الامور المذكوره فيها فى الأخبار من أشرط الساعه.

و من المعلوم بالضروره من بيانات الكتاب و السنه أن نظام الحياه فى جميع شئونها فى الآخره غير نظامها فى الدنيا فالدار الآخره دار أبدية فيها محض السعاده لساكنيها لهم فيها ما يشاءون أو محض الشقاء و ليس لهم فيها إلا ما يكرهون و الدار الدنيا دار فناء و زوال لا يحكم فيها إلا الأسباب و العوامل الخارجيه الظاهريه مخلوط فيها الموت بالحياه، و فقدان

ص : ٥٥٠

(١-١). المرسلات ١-١٥: كلام فى اقسامه تعالى فى القرآن.

بالوجدان، والشقاء بالسعادة، والتعب بالراحة، والمساءه بالسرور، والآخره دار جزاء و لا- عمل و الدنيا دار عمل و لا جزاء، و بالجمله النشأه غير النشأه.

فتعريفه تعالى نشأه البعث و الجزاء بأشراطها التي فيها انطواء بساط الدنيا بخراب بنیان أرضها و انتساف جبالها و انشقاق سمائها و انطماس نجومها الى غير ذلك من قبيل تحديد نشأه بسقوط النظام الحاكم فى نشأه أخرى قال تعالى: **وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَأَ الْأُولَى** **فَلَوْ لَا تَذَكَّرُونَ** (الواقعه ٦٢).

فقوله: **فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ** أى محى أثرها من النور و غيره، و الطمس إزاله الأثر بالمحو قال تعالى: **وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ** (التكوير ٢).

و قوله: **وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ** أى انشقت، و الفرج و الفرجه الشق بين الشيتين قال تعالى: **إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ** (الانشقاق ١).

و قوله: **وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّفَتْ** أى قلعت و ازيلت من قولهم: نسفت الريح الشىء أى اقتلعته و أزالته قال تعالى: **وَ يَسِيرُ لُؤْلُوكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلُوبُهَا رُجِي نَسْفًا** (طه ١٠٥).

و قوله: **وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِتَتْ** أى عين لها الوقت الذى تحضر فيه للشهاده على الامم أو بلغت الوقت الذى تنتظره لأداء شهادتها على الامم من التأقيت بمعنى التوقيت، قال تعالى:

فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (الأعراف ٦)، و قال: **يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ** (المائد ١٠٩).

قوله تعالى: **لَأَيُّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ** -الى قوله- **لِلْمُكذِّبِينَ** الأجل المده المضروبه للشىء، و التأجيل جعل الأجل للشىء، و يستعمل فى لازمه و هو التأخير كقولهم: دين مؤجل أى له مده بخلاف الحال و هذا المعنى هو الأنسب للآيه، و الضمير فى «**أُجِّلَتْ**» للامور المذكوره قبلا من طمس النجوم و فرج السماء و نسف الجبال و تأقيت الرسل، و المعنى لأى يوم اخرت يوم هذه الامور.

و احتمال أن يكون «أَجَلْتُ» بمعنى ضرب الأجل للشىء و أن يكون الضمير المقدر فيه راجعا الى الرسل، أو الى ما يشعر به الكلام من الامور المتعلقة بالرسل مما أخبروه به من أحوال الآخرة و أهوالها و تعذيب الكافرين و تنعيم المؤمنين فيها، و لا يخلو كل ذلك من خفاء.

و قد سيقت الآيه و التى بعدها أعنى قوله: «لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلْتُ لِيَوْمِ الْفُضْلِ» فى صورته الاستفهام و جوابه للتعظيم و التهويل و التعجيب و أصل المعنى أخرت هذه الامور ليوم الفصل.

و هذا النوع من الجمل الاستفهاميه فى معنى تقدير القول، و المعنى إن من عظمه هذا اليوم و هولاه و كونه عجباً أنه يسأل فيقال: لأى يوم أخرت هذه الامور العظيمة الهائلة العجيبه فيجاب: ليوم الفصل.

و قوله: لِيَوْمِ الْفُضْلِ هو يوم الجزاء الذى فيه فصل القضاء قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (الحج ١٧).
و قوله: وَمَا أَذْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفُضْلِ تعظيم لليوم و تفخيم لأمره.

و قوله: وَيَلُؤُا يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الْوَيْلَ الْهَلَاكِ، و المراد بالمكذبين المكذبون بيوم الفصل الذى فيه ما يوعدون فإن الآيات مسوقه لبيان وقوعه و قد أقسم على أنه واقع.

و فى الآيه دعاء على المكذبين، و قد استغنى به عن ذكر جواب إذا فى قوله: «فَإِذَا التُّجُومُ طُمِسَتْ» الخ؛ و التقدير فإذا كان كذا و كذا وقع ما توعدون من العذاب على التكذيب أو التقدير فإذا كان كذا و كذا كان يوم الفصل و هلك المكذبون به.

[سورة المرسلات (٧٧): الآيات ١٦ الى ٥٠]

أَلَمْ نُهْلِكْ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُنَبِّئُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيَلُؤُا يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيَلُؤُا يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَ أَمْواتًا (٢٦) وَ جَعَلْنَا فِيهَا رِوَادٍ وَ شَجَرًا وَ أَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً قُرَاتًا (٢٧) وَيَلُؤُا يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انْطَلِقُوا إِلَى ظُلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَ لَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَاصِرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صَفْرٌ (٣٣) وَيَلُؤُا يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَ لَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيَلُؤُا يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَذَا يَوْمُ الْفُضْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا (٣٩) وَيَلُؤُا يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَ عُيُونٍ (٤١) وَ قَوَائِمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيَلُؤُا يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلًا - إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦) وَيَلُؤُا يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيَلُؤُا يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبَأَى حَديثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)

بيان:

قوله تعالى: أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ثُمَّ نُنَبِّئُهُمُ الْآخِرِينَ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ الاستفهام للإنكار، والمراد بالأولين أمثال قوم نوح و عاد و ثمود من الأمم القديمة عهداً، و بالآخرين الملحقون بهم من الأمم الغابرة، و الاتباع جعل الشيء إثر الشيء.

و قوله: ثُمَّ نُنَبِّئُهُمْ برفع نتبع على الاستيناف و ليس بمعطوف على «نُهْلِكُ» و إلا

ص: ٥٥٤

و المعنى قد أهلكنا المكذبين من الامم الأولين ثم إنا نهلك الامم الآخرين على إثرهم.

وقوله: كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ فى موضع التعليل لما تقدمه و لذا أورد بالفصل من غير عطف كأن قائلا- قال: لما اهلكوا؟ فقليل: كذلك نفعل بالمجرمين. و الآيات- كما ترى- إنذار و إرجاع للبيان الى الأصل المضروب فى السوره أعنى قوله: «وَيُؤَيِّلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ» و هى بعينها حجه على توحيد الربوبية فإن إهلاك المجرمين من الانسان تصرف فى العالم الانسانى و تدبير، و إذا ليس المهلك إلا الله- و قد اعترف به المشركون فهو الرب لا رب سواه و لا إله غيره.

على أنها تدل على وجود يوم الفصل لأن إهلاك قوم لإجرامهم لا يتم إلا بعد توجه تكليف اليهم يعصونه و لا معنى للتكليف إلا مع مجازاه المطيع بالثواب و العاصى بالعقاب فهناك يوم يفصل فيه القضاء فيثاب فيه المطيع و يعاقب فيه العاصى و ليس هو الثواب و العقاب الدينويين لأنهما لا يستوعبان فى هذه الدار فهناك يوم يجازى فيه كل بما عمل، و هو يوم الفصل ذلك يوم مجموع له الناس.

قوله تعالى: أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ -الى قوله- فَنَعَمَ الْقَادِرُونَ الاستفهام للإنكار، و الماء المهين الحقير قليل الغناء و المراد به النطفه، و المراد بالقرار المكين الرحم و بقوله: «قَدَرٍ مَّعْلُومٍ» مده الحمل.

وقوله: فَقَدَرْنَا من القدر بمعنى التقدير، و الفاء لتفريع القدر على الخلق أى خلقناكم فقدرنا ما سيجرى عليكم من الحوادث و ما يستقبلكم من الأوصاف و الأحوال من طول العمر و قصره و هيئه و جمال و صحه و مرض و رزق الى غير ذلك.

و المعنى: قد خلقناكم من ماء حقير هو النطفه فجعلنا ذلك الماء فى قرار مكين هى الرحم الى مده معلومه هى مده الحمل فقدرنا جميع ما يتعلق بوجودكم من الحوادث و الصفات

و الأحوال فنعم المقدرون نحن.

و يجرى فى كون مضمون هذه الآيات حجه على توحيد الربوبية نظير البيان السابق فى الآيات المتقدمه، و كذا فى كونه حجه على تحقق يوم الفصل فإن الربوبية تستوجب خضوع المربوبين لساحتها و هو الدين المتضمن للتكليف، و لا يتم التكليف إلا بجعل جزاء على الطاعه و العصيان، و اليوم الذى يجازى فيه بالأعمال هو يوم الفصل.

قوله تعالى: أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءَ وَ أَمْواتًا -الى قوله- فَرَأَتَا الْكُفَّاتِ وَ الْكُفَّاتِ بِمَعْنَى الضَّمِّ وَ الْجَمْعِ أَى أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا بِجَمْعِ الْعِبَادِ أَحْيَاءَ وَ أَمْواتًا، وَ قِيلَ: الْكُفَّاتِ جَمْعُ كَفَتَ بِمَعْنَى الْوَعَاءِ، وَ الْمَعْنَى أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ أَوْعِيَهُ تَجْمَعُ الْأَحْيَاءَ وَ الْأَمْواتِ.

و قوله: وَ جَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيَ شَامِخَاتِ الرِّوَاسِي الثابتات من الجبال، و الشامخات العاليات، و كأن فى ذكر الرواسى توطئه لقوله: «وَ أَشَقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا» لأن الأنهار و العيون الطبيعیه تنفجر من الجبال فتجرى على السهول، و الفرات الماء العذب.

و يجرى فى حجه الآيات نظير البيان السابق فى الآيات المتقدمه.

قوله تعالى: انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ حكاية لما يقال لهم يوم الفصل و القائل هو الله سبحانه بقريته قوله فى آخر الآيات: «فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا» و المراد بما كانوا به يكذبون: جهنم، و الانطلاق الانتقال من مكان الى مكان من غير مكث، و المعنى يقال لهم: انتقلوا من المحشر من غير مكث الى النار التى كنتم تكذبون به.

قوله تعالى: انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ذكروا أن المراد بهذا الظل ظل دخان نار جهنم قال تعالى: وَ ظِلٌّ مِنْ يَحْمُومٍ (الواقعه ٤٣).

و ذكروا أن فى ذكر انشعابه الى ثلاث شعب إشارة الى عظم الدخان فان الدخان العظيم يتفرق تفرق الذوائب.

قوله تعالى: لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ الظل الظليل هو المانع من الحر و الأذى بستره على المستظل فكون الظل غير ظليل كونه لا يمنع ذلك، و اللهب ما يعلو على النار من أحمر و أصفر و أخضر.

قوله تعالى: إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّرٍ كَالْقَصْرِ ضمير «إِنَّهَا» للنار المعلومه من السياق، و الشرر ما يتطاير من النار، و القصر معروف، و الجماله جمع جمل و هو البعير. و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ الإشاره الى يوم الفصل، و المراد بالإذن الإذن فى النطق أو فى الاعتذار.

و قوله: فَيَعْتَذِرُونَ معطوف على «يُؤْذَنُ» منتظم معه فى سلك النفى، و المعنى هذا اليوم يوم لا- ينطقون فيه أى أهل المحشر من الناس. لا- يؤذن لهم فى النطق أو فى الاعتذار فلا- يعتذرون، و لا ينافى نفى النطق هاهنا اثباته فى آيات أخر لأن اليوم ذو مواقف كثيره مختلفه يسألون فى بعضها فينطقون و يختم على أفواههم فى آخر فلا ينطقون.

و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ (هود ١٠٥) فليراجع.

قوله تعالى: هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا سُمى يوم الفصل لما أن الله تعالى يفصل و يميز فيه بين أهل الحق و أهل الباطل بالقضاء بينهم قال تعالى: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصَلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (السجده ٢٥)، و قال: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (يونس ٩٣).

و الخطاب فى قوله: «جَمَعْنَاكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ» لمكذّبي هذه الامه بما أنهم من الآخرون و لذا قولوا بالأولين قال تعالى: ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ (هود ١٠٣) و قال: وَ حَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (الكهف ٦٧).

و قوله: فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا أَي ان كانت لكم حيله تحتالون بي في دفع عذابي عن أنفسكم فاحتالوا، وهذا خطاب تعجيزي منبئ عن انسلاب القوه و القدره عنهم يومئذ بالكليه بظهور أن لا قوه الا لله عز اسمه قال تعالى: وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوْا الْعَذَابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (البقره ١٦٦).

و الآيه أعنى قوله: «فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا» أوسع مدلولاً من قوله: يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتِطَعْتُمْ أَنْ تَتَفَادُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَتَفَادُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (الرحمن ٣٣) لا اختصاصه بنفى القدره على الفرار بخلاف الآيه التي نحن فيها.

و في قوله: فَكِيدُوا التفتات من التكلم مع الغير الى التكلم وحده و النكته فيه أن متعلق هذا الأمر التعجيزي إنما هو الكيد لمن له القوه و القدره فحسب و هو الله وحده و لو قيل:

فكيدونا فات الإشعار بالتوحد.

قوله تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَ عُيُونٍ وَ فَوَاكِهٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ - الى قوله - الْمُحْسِنِينَ الظلال و العيون ظلال الجنه و عيونها التي يتنعمون بالاستظلال بها و شربها، و الفواكه جمع فاكهه و هي الثمره.

و قوله: كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مفاده الإذن و الإباحه، و كأن الأكل و الشرب كناية عن مطلق التنعم بنعم الجنه و التصرف فيها و إن لم يكن بالأكل و الشرب، و هو شائع كما يطلق أكل المال على مطلق التصرف فيه.

و قوله: إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ تسجيل لسعادتهم.

قوله تعالى: كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ الخطاب من قبيل قولهم: افعل ما شئت فانه لا ينفعك، و هذا النوع من الأمر إياس للمخاطب أن ينتفع بما يأتي به من الفعل للحصول على ما يريد، و منه قوله: فَأَفْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَفْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

(طه ٧٢)، و قوله: **إِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** (حم السجده ٦٠).

فقوله: **كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا** أى تمتعوا قليلا او زمانا قليلا إياس لهم من أن ينتفعوا بمثل الأكل و التمتع فى دفع العذاب عن أنفسهم قليلا كالأكل و لىتمتعوا قليلا فليس يدفع عنهم شيئا.

و إنما ذكر الأكل و التمتع لأن منكرى المعاد لا يرون من السعاده إلا سعاده الحياه الدنيا و لا يرون لها من السعاده إلا الفوز بالأكل و التمتع كالحىوان العجم قال تعالى: **وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَ الذَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ** (سوره محمد ١٢).

و قوله: **إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ** تعليل لما يستفاد من الجملة السابقه المشتمله على الأمر أى لا- ينفعكم الأكل و التمتع قليلا لأنكم مجرمون بتكذيبكم بيوم الفصل و جزاء المكذبين به النار لا محاله.

قوله تعالى: **وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَزْكَعُونَ** المراد بالركوع الصلاه كما قيل و لعل ذلك باعتبار اشتغالها على الركوع.

و قيل: المراد بالركوع المأمور به الخشوع و الخضوع و التواضع له تعالى باستجابته دعوته و قبول كلامه و اتباع دينه، و عبادته.

و وجه اتصال الآيه بما قبلها أن الكلام كان مسوقا لتهديد المكذبين بيوم الفصل و بيان تبعه تكذيبهم به و تمم ذلك فى هذه الآيه بأنهم لا يعبدون الله إذا دعوا الى عبادته كما ينكرون ذلك اليوم فلا معنى للعباده مع نفي الجزاء، و ليكون كالتوطئه لقوله الآتى: **فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ** .

و نسب الى الزمخشري أن الآيه متصله بقوله فى الآيه السابقه: **لِلْمُكذِّبِينَ** كأنه قيل:

ويل يومئذ للذين كذبوا و الذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون.

و فى الآيه التفات من الخطاب الى الغيبه فى قوله: **وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ** الخ؛ وجهه الإعراض عن

مخاطبتهم بعد تركهم و أنفسهم يفعلون ما يشاءون بقوله: «كُلُوا وَ تَمَتُّعُوا» .

قوله تعالى: فَإِنَّ حَدِيثَ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ أَي إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِالْقُرْآنِ وَ هُوَ آيَهُ مَعْجِزَهُ إِلَهِيهِ، وَ قَدْ بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ حُدَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَ أَنَّ أَمَامَهُمْ يَوْمَ الْفَصْلِ بِأَوْضَحِ الْبَيَانِ وَ سَاطِعِ الْبُرْهَانِ فَبَأَى كَلَامَ بَعْدِ الْقُرْآنِ يُؤْمِنُونَ.

وَ هَذَا إِثْبَاتٌ مِنْ إِيمَانِهِمْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ كَالْتَنْبِيهِ عَلَى أَنْ رَفَعَ الْيَدَ عَنْ دَعْوَتِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِإِلْقَاءِ قَوْلِهِ: «كُلُوا وَ تَمَتُّعُوا» إِلَيْهِمْ فِي مَحَلِّهِ فَلَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ وَ لَا فَائِدَةَ فِي دَعْوَتِهِمْ غَيْرَ أَنْ فِيهَا إِتْمَامًا لِلْحُجَّةِ.

ص: ٥٦٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(١) عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا
سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ
لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً
تَجَاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)

قوله تعالى: «عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ» أصله عمّا و ما استفهاميه تحذف الألف منها أطرادا إذا دخل عليها حرف الجر نحو لم و مم و على م و الى م، و التساؤل سؤال القوم بعضهم بعضا عن أمر أو سؤال بعضهم بعد بعض عن أمر و إن كان المسئول غيرهم، فهم كان يسأل بعضهم بعضا عن أمر أو كان بعضهم بعد بعض يسأل النبي صلى الله عليه و آله و سلم عن أمر و حيث كان سياق السوره سياق جواب يغلب فيه الإنذار و الوعيد تأيد به أن المتسائلين هم كفار مكه من المشركين النافين للنبوه و المعاد دون المؤمنين و دون الكفار و المؤمنين جميعا.

فالتساؤل من المشركين و الإخبار عنه فى صورته الاستفهام للإشعار بهوانه و حقارته لظهور الجواب عنه ظهورا ما كان ينبغى معه أن يتساءلوا عنه.

قوله تعالى: «عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ» جواب عن الاستفهام السابق أى يتساءلون عن النبأ العظيم، و لا يخفى ما فى توصيف النبأ المتسائل عنه بالعظيم من تعظيمه و تفخيم أمره.

و المراد بالنبأ العظيم نبأ البعث و القيامة الذى يهتم به القرآن العظيم فى سوره المكيه و لا سيما فى العتائق النازله فى أوائل البعثه كل الاهتمام.

و يؤيد ذلك سياق آيات السوره بما فيه من الاقتصار على ذكر صفه يوم الفصل و ما تقدم عليها من الحججه على أنه حق واقع.

و قوله: الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ إنما اختلفوا في نحو إنكاره و هم متفقون في نفيه فمنهم من كان يرى استحالته فينكره كما هو ظاهر قولهم على ما حكاه الله: هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُبْتَئِكُمُ إِذَا مَرَّكُمْ كُلٌّ مِّمَّزَقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (سبأ/٧)، و منهم من كان يستعبده فينكره و هو قولهم: أَيْعِدُكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُرَابًا وَ عِظَامًا أَنْتُمْ مُحْرَجُونَ هِيَئَاتِ هِيَئَاتِ لِمَا تُوَعَّدُونَ (المؤمنون/٣٦)، و منهم من كان يشك فيه فينكره قال تعالى: بَلِ إِذْ أَرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلٌ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا (النمل/٦٦)، و منهم من كان يوقن به لكنه لا يؤمن عنادا فينكره كما كان لا يؤمن بالتوحيد و النبوه و سائر فروع الدين بعد تمام الحججه عنادا قال تعالى: بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ (الملك/٢١).

و المحصل من سياق الآيات الثلاث و ما يتلوها أنهم لما سمعوا ما ينذرهم به القرآن من أمر البعث و الجزاء يوم الفصل نقل عليهم ذلك فغدوا يسأل بعضهم بعضا عن شأن هذا النيا العجيب الذي لم يكن مما قرع أسماعهم حتى اليوم، و ربما راجعوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و المؤمنين و سألوهم عن صفه اليوم و أنه متى هذا الوعد إن كنتم صادقين و ربما كانوا يراجعون في بعض ما قرع سمعهم من حقائق القرآن و احتوته دعوته الجديده أهل الكتاب و خاصه اليهود و يستمدونهم في فهمه.

و قد أشار تعالى في هذه السوره الى قصه تساؤلهم في صوره السؤال و الجواب فقال: «عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ» و هو سؤال عما يتساءلون عنه. ثم قال: «عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ» و هو جواب السؤال عما يتساءلون عنه. ثم قال: «كَأَلَّا سَيَعْلَمُونَ» الخ؛ و هو جواب عن تساؤلهم.

قوله تعالى: كَأَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَأَلَّا سَيَعْلَمُونَ ردع عن تساؤلهم عنه بانين ذلك

و لا يؤمن به مع العلم به عنادا آخرون، فالיום ضرورى الوقوع و الجزء لا ريب فيه.

و كيف كان فقوله: «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا» الاستفهام للإنكار، و المهاد الوطاء و القرار الذى يتصرف فيه، و يطلق على البساط الذى يجلس عليه و المعنى قد جعلنا الأرض قرارا لكم تستقرون عليها و تتصرفون فيها.

قوله تعالى: وَ الْجِبَالَ أَوْتَادًا الْأوتاد جمع وتد و هو المسمار إلا أنه أغلظ منه كما فى المجمع، و لعل عدّ الجبال أوتادا مبنى على أن عمده جبال الأرض من عمل البركانات بشق الأرض فتخرج منه مواد أرضيه مذابه تنتصب على فم الشقه متراكمه كهيئه الوتد المنصوب على الأرض تسكن به فوره البركان الذى تحته فيرتفع به ما فى الأرض من الاضطراب و الميدان.

و عن بعضهم: أن المراد بجعل الجبال أوتادا انتظام معاش أهل الأرض بما أودع فيها من المنافع و لولاها لمادت الأرض بهم أى لما تهيأت لانتفاعهم. و فيه أنه صرف اللفظ عن ظاهره من غير ضروره موجه.

قوله تعالى: وَ خَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا أَي زوجا زوجا من ذكر و أنثى لتجرى بينكم سنّه التناسل فيدوم بقاء النوع الى ما شاء الله.

قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُباتًا السبات الراحة و الدعه فإن فى المنام سكوتا و راحه للقوى الحيوانيه البدنيه مما اعترها فى اليقظه من التعب و الكلال بواسطه تصرفات النفس فيها.

و قيل: السبات بمعنى القطع و فى النوم قطع التصرفات النفسانيه فى البدن، و هو قريب من سابقه.

و قيل: المراد بالسبات الموت، و قد عد سبحانه النوم من الموت حيث قال: وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ (الأنعام ٦٠) و هو بعيد، و أما الآيه فإنه تعالى عدّ النوم توفيا و لم يعده موتا

بل القرآن يصرح بخلافه قال تعالى: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا (الزمر ٤٢).

قوله تعالى: وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا أَى ساترا يستر الأشياء بما فيه من الظلمه الساتره للمبصرات كما يستر اللباس البدن و هذا سبب إلهى يدعو الى ترك الثقل و الحرکه و الميل الى السكن و الدعه و الرجوع الى الأهل و المنزل.

و عن بعضهم: أن المراد بكون الليل لباسا كونه كاللباس للنهار يسهل إخراجه منه و هو كما ترى.

قوله تعالى: وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا العيش هو الحياه-على ما ذكره الراغب-غير أن العيش يختص بحياه الحيوان فلا يقال: عيشه تعالى و عيش الملائكه و يقال حياهه تعالى و حياه الملائكه، و المعاش مصدر ميمى و اسم زمان و اسم مكان، و هو فى الآيه بأحد المعنيين الأخيرين، و المعنى و جعلنا النهار زمانا لحياتكم أو موضعا لحياتكم تبتغون فيه من فضل ربكم، و قيل: المراد به المعنى المصدرى بحذف مضاف، و التقدير و جعلنا النهار طلب معاش أى مبتغى معاش.

قوله تعالى: وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا أَى سبع سماوات شديده فى بنائها.

قوله تعالى: وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا الوهاج شديد النور و الحراره و المراد بالسراج الوهاج: الشمس.

قوله تعالى: وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَبَّاجًا المعصرات السحب الماطره و قيل: الرياح التى تعصر السحب لتمطر و الثجاج الكثير الصب للماء، و الأولى على هذا المعنى أن تكون «مِنْ» بمعنى الباء.

قوله تعالى: لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ لَبًا أَى حبا و نباتا يقتات بهما الإنسان و سائر الحيوان.

قوله تعالى: وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا معطوف على قوله: «حَبًّا» و جنات ألفاف أى ملتفه أشجارها بعضها ببعض.

قيل: إن الألفاف جمع لا واحد له من لفظه.

[سوره النبأ (٧٨): الآيات ١٧ الى ٤٠]

إِنَّ يَوْمَ الْقَضَاءِ كَمَا نَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَ سُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاعِينَ مَأْبًا (٢٢) لَا يَبِثْنَ فِيهَا أَخْقَابًا (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا (٢٥) جَزَاءً وَفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَخْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا (٣٥) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صِيْفًا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءً (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (٤٠)

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ كَانَ مِيقَاتًا قال في المجمع: الميقات منتهى المقدار المضروب لحدوث أمر من الامور و هو من الوقت كما أن الميعاد من الوعد و المقدار من القدر، انتهى.

شروع في وصف ما تضمنه النبأ العظيم الذي أخبر بوقوعه و هددهم به في قوله: «كَلَّا سَيَعْلَمُونَ» ثم أقام الحجة عليه بقوله: «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا» الخ؛ وقد سماه يوم الفصل و نبه به على أنه يوم يفصل فيه القضاء بين الناس فينال كل طائفه ما يستحقه بعمله فهو ميقات

ص: ٥٦٨

و حد مضروب لفصل القضاء بينهم و التعبير بلفظ «كَانَ» للدلالة على ثبوته و تعينه فى العلم الإلهى على ما ينطق به الحجة السابقة الذكر، و لذا أكد الجملة بأن.

و المعنى: إن يوم فصل القضاء الذى نبؤه نبأ عظيم كان فى علم الله يوم خلق السماوات و الأرض و حكم فيها النظام الجارى حدا مضروباً ينتهى إليه هذا العالم فإنه تعالى كان يعلم أن هذه النشأة التى أنشأها لا تتم إلا بالانتهاى الى يوم يفصل فيه القضاء بينهم.

قوله تعالى: **يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا** قد تقدم الكلام فى معنى نفخ الصور كراراً، و الأفواج جمع فوج و هى الجماعة المارة المسرعة على ما ذكره الراغب.

و فى قوله: **فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا** جرى على اخطاب السابق الملتفت اليه قضاء لحق الوعيد الذى يتضمنه قوله: **«كَلَّا سَيَعْلَمُونَ»** و كأن الآيه ناظره الى قوله تعالى: **يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ** (الإسراء ٧١).

قوله تعالى: **وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا** فاتصل به عالم الإنسان بعالم الملائكة.

و قيل: التقدير فكانت ذات أبواب، و قيل: صار فيها طرق و لم يكن كذلك من قبل، و لا يخلو الوجهان من تحكم فليتدبر.

قوله تعالى: **وَسَيَّرَتِ الْجِبَالَ فَكَانَتْ سَرَابًا** هو الموهوم من الماء اللامع فى المفاوز و يطلق على كل ما يتوهم ذا حقيقته و لا حقيقه له على طريق الاستعارة.

و لعل المراد بالسراب فى الآيه هو المعنى الثانى.

بيان ذلك: أن تسيير الجبال و دكها ينتهى بالطبع الى تفرق أجزائها و زوال شكلها كما وقع فى مواضع من كلامه تعالى عند وصف زلزه الساعة و آثارها إذ قال: **وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا** (الطور ١٠) و قال: **وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً** (الحاقة ١٤)، و قال:

وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً (المزمل ١٤)، و قال: **وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمُنْفُوشِ**

(القارعه ٥/٥)، و قال: وَ بُسِّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (الواقعه ٥/٥)، و قال: وَ إِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (المرسلات ١٠/١٠).

فتسيير الجبال و دكها ينتهي بها الى بسها و نسفها و صيرورتها كتيبا مهيلا- و كالعهن المنفوش كما ذكره الله تعالى و أما صيرورتها سرايا بمعنى ما يتوهم ماء لامعا فلا نسبه بين التسيير و بين السراب بهذا المعنى.

نعم ينتهي تسييرها الى انعدامها و بطلان كينونها و حقيقتها بمعنى كونها جبلا فالجبال الراسيات التي كانت ترى حقائق ذوات كينونه قويه لا- تحركه العواصف تتبدل بالتسيير سرايا باطلا- لا حقيقه له، و نظيره من كلامه تعالى قوله فى اقوام اهلكهم و قطع دابرهم:

فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ (سبا ١٩/١٩)، و قوله: فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَ جَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ (المؤمنون ٤٤/٤٤)، و قوله فى الأصنام: إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ (النجم ٢٣/٢٣).

فآليه بوجه كقوله تعالى: وَ تَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ (النمل ٨٨/٨٨)- بناء على كونه ناظرا الى صفه زلزله الساعه-.

قوله تعالى: إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا قال فى المفردات: الرصد الاستعداد للترقب- الى أن قال- و المرصد موضع الرصد قال تعالى: «وَ أَقْعِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ» و المرصد نحوه لكن يقال للمكان الذى اختص بالرصد قال تعالى: «إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا» تنبيها على أن عليها مجاز الناس، و على هذا قوله تعالى: «وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا» .

انتهى.

قوله تعالى: لِلطَّاغِينَ مَأبًا الطاغون المتلبسون بالطغيان و هو الخروج عن الحد، و المآب اسم مكان من الأوب بمعنى الرجوع، و العناية فى عدها مآبا للطاغين أنهم هيئوها مأوى لأنفسهم و هم فى الدنيا ثم إذا انقطعوا عن الدنيا آبوا و رجعوا إليها.

ص: ٥٧٠

قوله تعالى: لَا يَبِينَنَّ فِيهَا أَحْقَابًا الْأَحْقَابُ الْأَزْمَنَةُ الْكَثِيرَةُ وَالدَّهْوَرُ الطَّوِيلَةُ مِنْ غَيْرِ تَحْدِيدٍ.

و هو جمع اختلفوا فى واحده فقيل: واحده حقب بالضم فالسكون أو بضمين، وقد وقع فى قوله تعالى: أَوْ أَمْضَى حُقْبًا (الكهف ١٦٠)، وقيل: حقب بالفتح فالسكون و واحد الحقب حقبه بالكسر فالسكون قال الراغب: و الحق أن الحقبه مده من الزمان مبهمه. انتهى.

و حد بعضهم الحقب بثمانين سنه أو ببضع و ثمانين سنه و زاد آخرون أن السنه منها ثلاثمائه و ستون يوما كل يوم يعدل ألف سنه، و عن بعضهم أن الحقب أربعون سنه و عن آخرين أنه سبعون ألف سنه الى غير ذلك و لا دليل من الكتاب يدل على شىء من هذه التحديدات و لم يثبت من اللغه شىء منها.

و ظاهر الآيه أن المراد بالطاغين المعاندون من الكفار و يؤيده قوله ذيلًا: «إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا» .

و قد فسروا «أَحْقَابًا» فى الآيه بالحقب بعد الحقب فالمعنى حالكون الطاغين لابئين فى جهنم حقبًا بعد حقب بلا تحديد و لا نهايه فلا تنفى الآيه ما نص عليه القرآن من خلود الكفار فى النار.

قوله: لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَ لَا شَرَابًا ظاهر المقابله بين البرد و الشراب أن المراد بالبرد مطلق ما يتبرد به غير الشراب كالظل الذى يستراح اليه بالاستغلال فالمراد بالذوق مطلق النيل و المس.

قوله تعالى: إِلَّا حَمِيمًا وَ غَسَاقًا الْحَمِيمُ الْمَاءُ الْحَارُّ شَدِيدُ الْحَرِّ، وَ الْغَسَاقُ صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ.

قوله تعالى: جَزَاءً وَفَاقًا -الى قوله- كِتَابًا الْمَصْدَرُ بِمَعْنَى اسْمِ الْفَاعِلِ وَ الْمَعْنَى يَجْزُونَ جِزَاءً مُوَافِقًا لِمَا عَمَلُوا أَوْ بِتَقْدِيرِ مُضَافِ أَى جِزَاءً ذَا وَفَاقٍ أَوْ إِطْلَاقِ الْوَفَاقِ عَلَى الْجِزَاءِ

للمبالغه كزيد عدل.

وقوله: إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا أَي تكذبا عجبيا يصرون عليه، تعليل يوضح موافقه جزائهم لعملهم، وذلك أنهم لم يرجوا الحساب يوم الفصل فأيسوا من الحياه الآخره و كذبوا بالآيات الداله فأنكروا التوحيد و النبوه و تعدوا فى أعمالهم طور العبوديه فنسوا الله تعالى فَنَسِيَهُمْ و حرم عليهم سعادته الدار الآخره فلم يبق لهم إلا الشقاء و لا يجدون فيها إلا ما يكرهون، و لا يواجهون إلا ما يتعذبون به و هو قوله:

﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ .

و فى الآيه أعنى قوله: «جَزَاءٌ وَفَاقًا» دلالة على المطابقه التامه بين الجزاء و العمل فالإنسان لا يريد بعمله إلا الجزاء الذى يازائه و التلبس بالجزاء تلبس بالعمل بالحقيقه قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ تَعْمَلُونَ (التحریم ۷).

وقوله: وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا أَي كل شىء و منه الأعمال ضبطناه و بيناه فى كتاب جليل القدر فالآيه فى معنى قوله تعالى: وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (يس / ۱۲).

أو المراد و كل شىء حفظناه حال كونه مكتوبا أى فى اللوح المحفوظ أو فى صحائف الأعمال، و جوز أن يكون الإحصاء بمعنى الكتابه أو الكتابه بمعنى الإحصاء فإن الإحصاء و الكتابه يتشاركان فى معنى الضبط و المعنى كل شىء أحصيناه إحصاء أو كل شىء كتبناه كتابا.

و الآيه على أى حال متمم للتعليل السابق، و المعنى الجزاء موافق لأعمالهم لأنهم كانوا على حال كذا و كذا و قد حفظناها عليهم فجزيناها بها جزاء وفاقا.

وقوله تعالى: فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا تفریع على ما تقدم من تفصيل عذابهم مسوق لإيئاسهم من أن يرجوا نجاه من الشقوه و راحه ينالونها.

و الالتفات الى خطابهم بقوله: «فَذُوقُوا» تقدير لحضورهم ليخاطبوا بالتوبيخ و التقرير بلا واسطه.

و المراد بقوله: «فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا» أن ما تذوقونه بعد عذاب ذقتموه عذاب آخر فهو عذاب بعد عذاب و عذاب على عذاب فلا تزالون يضاعف عذاب جديد الى عذابكم القديم فاقنطوا من أن تنالوا شيئاً مما تطلبون و تحبون.

و الآيه لا تخلو من ظهور فى كون المراد بقوله: «لَا يَشِينُ فِيهَا أَحْقَابًا» الخلود دون الانقطاع.

ق

و له تعالى: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا - الى قوله- كَذَابًا الْفُوزَ الظفر بالخير مع حضور السلامه-على ما قاله الراغب-فيه معنى النجاه و التخلص من الشر و الحصول على الخير، و المفاز مصدر ميمى أو اسم مكان من الفوز و الآيه تحتل الوجهين جميعا.

و قوله: حِدَائِقَ وَ أَغْنَابًا الحدائق جمع حديقه و هى البستان المحووط، و الأغناب جمع عنب و هو ثمر شجره الكرم و ربما يطلق على نفس الشجره.

و قوله: وَ كَوَاعِبَ جمع كاعب و هى الفتاه التى تكعب ثديها و استدار مع ارتفاع يسير، و الترائب جمع ترب و هى المماثله لغيرها من اللذات.

و قوله: وَ كَأْسًا دِهَاقًا أى ممتلئه شرابا مصدر بمعنى اسم الفاعل.

و قوله: لَا يَشِيْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَ لَا كِذَابًا أى لا يسمعون فى الجنه لغوا من القول لا يترتب عليه أثر مطلوب و لا تكذيبا من بعضهم لبعضهم فيما قال فقولهم حق له أثره المطلوب و صدق مطابق للواقع.

قوله تعالى: جَزَاءٌ مِنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا أى فعل بالمتقين ما فعل حالكونه جزاء من ربك عطيه محسوبه فقوله: «جَزَاءٌ» حال و كذا «عَطَاءٌ» و «حِسَابًا» بمعنى اسم المفعول صفة لعطاء، و يحتمل أن يكون عطاء تمييزا أو مفعولا مطلقا.

قيل: إضافة الجزاء الى الرب مضافا الى ضميره صلى الله عليه و آله و سلم تشریف له، و لم يصف جزاء

الطاغين اليه تعالى تنزها منه تعالى فليس يغشاهم شر إلا من عند أنفسهم قال تعالى: ذَلِكُمْ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ (الأنفال ٥١).

و وقوع لفظ الحساب فى ذيل جزاء الطاغين و المتقين معا لتبيين ما يلوح اليه يوم الفصل الواقع فى أول الكلام.

قوله تعالى: رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ بيان لقوله:

«رَبِّكَ» أريد به أن ربوبيته تعالى عامه لكل شىء و أن الرب الذى يتخذه النبى صلى الله عليه و آله و سلم ربا و يدعو اليه رب كل شىء لا- كما كان يقول المشركون: إن لكل طائفه من الموجودات ربا و الله سبحانه رب الأرباب أو كما كان يقول بعضهم: إنه رب السماء.

و فى توصيف الرب بالرحمن-صيغه مبالغه من الرحمة-إشاره الى سعه رحمته و أنها سمه ربوبيه لا يحرم منها شىء إلا أن يمتنع منها شىء بنفسه لقصوره و سوء اختياره فمن شقوه هؤلاء الطاغين أنهم حرّموها على أنفسهم بالخروج عن طور العبوديه.

قوله تعالى: لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا وَقَدْ صدر الآيه فى سياق قوله:

«رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ» -و شأن الربوبيه هو التدبير و شأن الرحمانيه بسط الرحمة-دليل على أن المراد بخطابه تعالى تكليمه فى بعض ما فعل من الفعل بنحو السؤال عن السبب الداعى الى الفعل كأن يقال: لم فعلت هذا؟ و لم لم تفعل كذا؟ كما يسأل الفاعل منا عن فعله فتكون الجملة «لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا» فى معنى قوله تعالى: لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ (الأنبياء ٢٣) و قد تقدم الكلام فى معنى الآيه.

لكن وقوع قوله: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا» بعد قوله: «لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا» الظاهر فى اختصاص عدم الملك بيوم الفصل مضافا الى وقوعه فى سياق تفصيل جزاء الطاغين و المتقين منه تعالى يوم الفصل يعطى أن يكون المراد به أنهم لا يملكون أن يخاطبوه فيما يقضى

و يفعل بهم باعتراض عليه أو شفاعه فيهم لكن الملائكه-و هم ممن لا يملكون منه خطابا- منزهون عن وصمه الاعتراض عليه تعالى وقد قال فيهم: **طِبَّادُ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** (الأنبياء ٢٧/) وكذلك الروح الذى هو (١) كلمته و قوله، و قوله (٢) حق، و هو تعالى (٣) الحق المبين و الحق لا يعارض الحق و لا يناقضه.

و من هنا يظهر أن المراد بالخطاب الذى لا يملكونه هو الشفاعه و ما يجرى مجراها من وسائل التخلص من الشر كالعذل و البيع و الخله و الدعاء و السؤال قال تعالى: **مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ** (البقره ٢٥٤)، و قال: **وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ** (البقره ١٢٣/)، و قال: **يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ** (هود ١٠٥/).

و بالجمله قوله: «**لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا**» ضمير الفاعل فى «**لَا يَمْلِكُونَ**» لجميع المجموعين ليوم الفصل من الملائكه و الروح و الإنس و الجن كما هو المناسب للسياق الحاكى عن ظهور العظمه و الكبرياء دون خصوص الملائكه و الروح لعدم سبق الذكر و دون خصوص الطاغين كما قيل لكثرة الفصل، و المراد بالخطاب الشفاعه و ما يجرى مجراها كما تقدم.

و قوله: **يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلَائِكَةُ صَفًّا** ظرف لقوله: «**لَا يَمْلِكُونَ**» و قيل:

لقوله: «**لَا يَتَكَلَّمُونَ**» و هو بعيد مع صلاحيه ظرفيته لما سبقه.

و المراد بالروح المخلوق الأمري الذى يشير اليه قوله تعالى: **قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي** (الإسراء ٨٥/).

و قوله: **لَا يَتَكَلَّمُونَ** بيان لقوله: «**لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا**» و ضمير الفاعل لأهل الجمع من الروح و الملائكه و الإنس و الجن على ما يفيد السياق.

ص: ٥٧٥

١- ١). النحل: ٤٠.

٢- ٢). الانعام: ٧٣.

٣- ٣). النور: ٢٥.

وقيل: الضمير للروح و الملائكة، وقيل: للناس و وقع «لَا يَمْلِكُونَ» بما مرّ من معناه و «لَا يَتَكَلَّمُونَ» فى سياق واحد لا يلائم شيئا من القولين.

و قوله: «إِلَّا مَنْ أَدَانَ لَهُ الرَّحْمَنُ بَدَلًا مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ فِي «لَا يَتَكَلَّمُونَ» أُرِيدَ بِهِ بَيَانُ مَنْ لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ بِإِذْنِ اللَّهِ فَالْجُمْلَةُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ (هود ١٠٥) عَلَى ظَاهِرِ إِطْلَاقِهِ.

و قوله: «وَقَالَ صَوَابًا أَى قَالَ قَوْلًا- صَوَابًا لَا يَشُوبُهُ خَطَأٌ وَ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَدَاخِلُهُ بَاطِلٌ، وَ الْجُمْلَةُ فِي الْحَقِيقَةِ قَيْدٌ لِلْإِذْنِ كَأَنَّهُ قِيلَ: «إِلَّا- مَنْ أَدَانَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَ لَا يَأْذَنُ إِلَّا لِمَنْ قَالَ صَوَابًا فَالْآيَةُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» (الزخرف ١٨٦) (١).

قوله تعالى: ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ إشاره الى يوم الفصل المذكور فى السوره الموصوف بما مر من الأوصاف و هو فى الحقيقه خاتمه الكلام المنعطفه الى فاتحه السوره و ما بعده أعنى قوله: «فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءً» الخ؛ فضل تفریع على البيان السابق.

و الإشاره اليه بالإشاره البعيده للدلاله على فخامه أمره و المراد بكونه حقا ثبوته حتما مقضيا لا يتخلف عن الوقوع.

قوله تعالى: «فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءً أَى مرجعا الى ربه ينال به ثواب المتقين و ينجو به من عذاب الطاغين، و الجملة كما أشرنا اليه تفریع على ما تقدم من الأخبار بيوم الفصل و الاحتجاج عليه و وصفه، و المعنى إذا كان كذلك فمن شاء الرجوع الى ربه فليرجع.

قوله تعالى: «إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا» الخ؛ المراد به عذاب الآخرة، و كونه قريبا

ص: ٥٧٦

لكونه حقاً لا ريب فى إتيانه و كل ما هو آت قريب.

على أن الأعمال التى سيجزى بها الانسان هى معه أقرب ما يكون منه.

و قوله: **يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ** أى ينتظر المرء جزاء أعماله التى قدمتها يده بالاكْتِسَاب، وقيل: المعنى ينظر المرء الى ما قدمت يده من الأعمال لحضورها عنده قال تعالى: **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ (آل عمران / ٣٠).**

و قوله: **وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا** أى يتمنى من شدة اليوم أن لو كان تراباً فاقدا للشعور و الاراده فلم يعمل و لم يجز.

ص: ٥٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 وَالنَّازِعَاتِ غَرْاقًا (١) وَ النَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَ السَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤)
 فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) فُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَيْنَا
 لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ
 بِالسَّاهِرَةِ (١٤) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) إِذْ هَبَّ إِيَّاهُ فَوَعَىٰ لَهُ أَنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَلْ
 لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزكى (١٨) وَ أَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخشى (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَ عَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢)
 فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْأَخْرَجِ وَ الْأُولَىٰ (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخشى (٢٦) أَأَنْتُمْ
 أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَ أَعْطَشَ لَيْلَهَا وَ أَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠)
 أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَ مَرْعَاهَا (٣١) وَ الْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَ لِأَنْعَامِكُمْ (٣٣) فَبِإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ
 الْأَنْسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ (٣٧) وَ آتَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩)
 وَ أَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَ نَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١)

فى السوره إخبار مؤكد بوقوع البعث و القيامة، و احتجاج عليه من طريق التدبير الربوبى المنتج أن الناس سينقسمون يومئذ طائفتين أصحاب الجنة و أصحاب الجحيم و تختتم السوره بالإشاره الى سؤالهم النبى صلى الله عليه و آله و سلم عن وقت قيام الساعه و الجواب عنه.

و السوره مكّيه بشهاده سياق آياتها.

قوله تعالى: وَ النَّازِعَاتِ غَرْقًا وَ النَّاشِطَاتِ نَشْطًا وَ السَّابِحَاتِ سَبْحًا فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا اختلف المفسرون فى تفسير هذه الآيات الخمس اختلافا عجيبا مع اتفاقهم على أنها إقسام، و قول أكثرهم بأن جواب القسم محذوف، و التقدير

أقسم بكذا و كذا لتبعثن.

فقوله: **وَ النَّازِعَاتِ غَرَقًا** قيل: المراد بها ملائكة الموت تنزع الأرواح من الأجساد، و «غَرَقًا» مصدر مؤكد بحذف الزوائد أى إغراقا و تشديدا فى النزاع.

و قيل: المراد بها الملائكة الذين ينزعون أرواح الكفار من أجسادهم بشده، و قيل: هو الموت ينزع الأرواح من الأبدان نزعا بالغا.

و قيل: المراد بها النجوم تنزع من أفق لتغيب فى افق أى تطلع من مطالعها لتغرب فى مغاربها، و قيل: المراد بها القسى تنزع بالسهم أى تمتد بجذب وترها إغراقا فى المد فالإقسام بقسى المجاهدين فى سبيل الله أو بالمجاهدين أنفسهم، و قيل: المراد بها الوحش تنزع الى الكلاء.

و قوله: **وَ النَّاشِطَاتِ نَشْطًا** النشط الجذب و الخروج و الإخراج برفق و سهوله و حل العقده، قيل: المراد بها الملائكة الذين يخرجون الأرواح من الأجساد، و قيل المراد بها خصوص الملائكة يخرجون أرواح المؤمنين من أجسادهم برفق و سهوله، كما أن المراد بالنازعات غرقا الملائكة الذين ينزعون أرواح الكفار من أجسادهم.

و قيل: هم الملائكة الذين ينشطون أرواح الكفار من أجسادهم، و قيل: المراد بها أرواح المؤمنين أنفسهم، و قيل: هى النجوم تنشط و تذهب من افق الى افق، و قيل: هى السهام تنشط من قسيها فى الغزوات، و قيل: هو الموت ينشط و يخرج الأرواح من الأجساد، و قيل:

هى الوحش تنشط من قطر الى قطر.

و قوله: **وَ السَّابِحَاتِ سَبْحًا** قيل: المراد بها الملائكة تقبض الأرواح فتسرع بروح المؤمن الى الجنة و بروح الكافر الى النار، و السبح الإسراع فى الحركة كما يقال: الفرس سابع إذا أسرع فى جريه، و قيل: المراد بها الملائكة يقبضون أرواح المؤمنين يسألونها من الأبدان سلا رفيقا ثم يدعونها حتى يستريح كالسباح بالشىء فى الماء يرمى، و قيل: هى الملائكة

ينزلون من السماء مسرعين، وقيل: هي النجوم تسبح في فلکها كما قال تعالى: وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

وقيل: هي خيل الغزاه تسبح في عدوها و تسرع، وقيل: هي المنايا تسبح في نفوس الحيوان، وقيل: هي السفن تسبح في المياه، وقيل: السحاب، وقيل: دواب البحر.

وقوله: فَالْمُتَدَبِّرَاتِ سَبَقًا قِيلَ المراد بها مطلق الملائكة لأنها سبقت ابن آدم بالخير و الإيمان و العمل الصالح، وقيل ملائكة الموت تسبق بروح المؤمن الى الجنة و بروح الكافر الى النار، وقيل الملائكة القابضون لروح المؤمن تسبق بها الى الجنة، وقيل، ملائكة الوحي تسبق الشياطين بالوحي الى الأنبياء، وقيل أرواح المؤمنين تسبق الى الملائكة التي يقبضونها شوقا الى لقاء الله سبحانه، وقيل هي النجوم تسبق بعضها بعضا في السير، وقيل هي خيل الغزاه تسبق بعضها بعضا في الحرب، وقيل هي المنايا تسبق الآمال.

وقوله: فَالْمُتَدَبِّرَاتِ أَمْراً قِيلَ: المراد بها مطلق الملائكة المدبرين للأمور، كذا فسر الأكثرون حتى ادعى بعضهم اتفاق المفسرين عليه، وقيل المراد بها الملائكة الأربعة المدبرون لامور الدنيا: جبرائيل و ميكائيل و عزرائيل و إسرافيل، فجبرائيل يدبر أمر الرياح و الجنود و الوحي، و ميكائيل يدبر أمر القطر و النبات، و عزرائيل موكل بقبض الأرواح، و إسرافيل ينتزل بالأمر عليهم و هو صاحب الصور، وقيل: إنها الأفلاك يقع فيها أمر الله فيجرى بها القضاء في الدنيا.

و هناك قول بأن الإقسام في الآيات بمضاف محذوف و التقدير و رب النازعات نزعا، الخ.

و أنت خبير بأن سياق الآيات الخمس سياق واحد متصل متشابه الأجزاء لا يلائم كثيرا من هذه الأقوال القاضيه باختلاف المعانى المقسم بها ككون المراد بالنازعات الملائكة القابضين لأرواح الكفار، و بالناشطات الوحش، و بالسابحات السفن، و بالسابقات المنايا

مضافا الى أن كثيرا منها لا دليل عليها من جهة السياق إلا مجرد صلاحية اللفظ بحسب اللغة للاستعمال فيه أعم من الحقيقة و المجاز.

على أن كثيرا منها لا تناسب سياق آيات السورة التي تذكر يوم البعث و تحتج على وقوعه على ما تقدم في سورة المرسلات من حديث المناسبه بين ما في كلامه تعالى من الإقسام و جوابه.

و الذى يمكن أن يقال-و الله أعلم-أن ما فى هذه الآيات من الأوصاف المقسم بها يقبل الانطباق على صفات الملائكة فى امثالها للأوامر الصادره عليهم من ساحه العزه المتعلقه بتدبير امور هذا العالم المشهود ثم قيامهم بالتدبير بإذن الله.

و الآيات شديده الشبه سياقاً بآيات مفتتح سورة الصافات «و الصافات صفاً فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكراً» و آيات مفتتح سورة المرسلات «و المرسلات عرفاً فالعاصيات عصفراً و الناشطات نشراً فالفارقات فرقا فالملقيات ذكراً» و هى تصف الملائكة فى امثالهم لأمر الله غير أنها تصف ملائكة الوحي، و الآيات فى مفتتح هذه السورة تصف مطلق الملائكة فى تدبيرهم أمر العالم بإذن الله.

ثم إن أظهر الصفات المذكوره فى هذه الآيات الخمس فى الانطباق على الملائكة قوله:

«فالمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا» و قد أطلق التدبير و لم يقيد بشيء دون شيء فالمراد به التدبير العالمى بإطلاقه، و قوله: «أمرًا» تمييز أو مفعول به للمدبرات و مطلق التدبير شأن مطلق الملائكة فالمراد بالمدبرات مطلق الملائكة.

و إذ كان قوله: «فالمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا» مفتتحا بفاء التفریع الدال على تفرع صفه التدبير على صفه السبق، و كذا قوله: «فالسَّابِقَاتِ سَبْقًا» مقرونا بفاء التفریع الداله على تفرع السبق على السبح دل ذلك على مجانسه المعانى المراده بالآيات الثلاث «و السَّابِقَاتِ سَبْحًا»
فالسَّابِقَاتِ

سَبَقًا فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا» فمدلولها أنهم يدبرون الأمر بعد ما سبقوا اليه و يسبقون اليه بعد ما سبحوا أى أسرعوا اليه عند النزول فالمراد بالسابحات و السابقات هم المدبرات من الملائكة باعتبار نزولهم الى ما أمروا بتدبيره.

فالأيات الثلاث فى معنى قوله تعالى: لَمَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِّن خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِّن أَمْرِ اللَّهِ (الرعد ١١) على ما تقدم من توضيح معناه فالملائكة ينزلون على الأشياء و قد تجمعت عليها الأسباب و تنازعت فيها وجودا و عدما و بقاء و زوالا و فى مختلف أحوالها فما قضاء الله فيها من الأمر و أبرم قضاءه أسرع اليه الملك المأمور به-بما عين له من المقام-و سبق غيره و تمم السبب الذى يقتضيه فكان ما أراه الله، فافهم ذلك.

و إذا كان المراد بالآيات الثلاث الإشارة الى إسراع الملائكة فى النزول على ما أمروا به من أمر و سبقهم اليه و تدبيره تعين حمل قوله: «وَ النَّازِعَاتِ غَزَقًا وَ النَّاشِطَاتِ نَشْطًا» على انتزاعهم و خروجهم من موقف الخطاب الى ما أمروا به فنزعهم غرقا شروعهم فى النزول نحو المطلوب بشده و جد، و نشطهم خروجهم من موقفهم نحوه كما أن سبحهم إسراعهم اليه بعد الخروج و يتعقب ذلك سبقهم اليه و تدبير الأمر بإذن الله.

فالأيات الخمس إقسام بما يتلبس به الملائكة من الصفات عند ما يؤمرون بتدبير أمر من امور هذا العالم المشهود من حين يأخذون فى النزول اليه الى تمام التدبير.

و فيها إشاره الى نظام التدبير الملكوتى عند حدوث الحوادث كما أن الآيات التالیه أعنى قوله: «هَلْ أَتَاكَ» الخ؛ إشاره الى التدبير الربوبى الظاهر فى هذا العالم.

و فى التدبير الملكوتى حجه على البعث و الجزاء كما أن فى التدبير الدنيوى المشهود حجه عليه على ما سيوافيك إن شاء الله بيانه.

هذا ما يعطيه التدبر فى سياق الآيات الكريمة و يؤيده بعض التأييد ما سيأتى من الأخبار

فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله (١).

قوله تعالى: **يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتَّبَعَهَا الرَّادِفَةُ فَسِيرَتِ الرَّاجِفَةُ بِالصَّيْحَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي فِيهَا تَرَدُّدٌ وَاضْطِرَابٌ وَالرَّادِفَةُ بِالْمَتَأَخَّرِ** التابعه، و عليه تنطبق الآيتان على نفختى الصور التى يدل عليهما قوله تعالى: **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ يُنظَرُونَ** (الزمر ٦٨).

و الأنسب بالسياق على أى حال كون قوله: «يَوْمَ تَرْجُفُ» الخ؛ ظرفاً لجواب القسم المحذوف للدلالة على فخامته و بلوغه الغايه فى الشده و هو لتبعثن، و قيل: إن «يَوْمَ» منصوب على معنى قلوب يومئذ واجفه يوم ترجف الراجفه، و لا يخلو من بعد.

قوله تعالى: **قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ تَنْكِرُ «قُلُوبٌ» لِلتَّنْوِيعِ وَ هُوَ مَبْتَدَأُ خَبْرِهِ «وَاجِفَةٌ» وَ الْوَجِيفُ الْاضْطِرَابُ، وَ «يَوْمَئِذٍ»** ظرف متعلق بواجفه و الجملة استئناف مبين لصفه اليوم.

و قوله: **أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ** ضمير «أَبْصَارُهَا» للقلوب و نسبة الأبصار و إضافتها الى القلوب لمكان أن المراد بالقلوب فى أمثال هذه المواضع التى تضاف إليها الصفات الإدراكية كالعلم و الخوف و الرجاء و ما يشبهها هى النفوس، و قد تقدمت الإشارة إليها.

و نسبة الخشوع الى الأبصار و هو من أحوال القلب إنما هى لظهور أثره الدال عليه فى الأبصار أقوى من سائر الأعضاء.

قوله تعالى: **يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ** إخبار و حكاية لقولهم فى الدنيا استبعاداً منهم لوقوع البعث و الجزاء و إشاره الى أن هؤلاء الذين لقلوبهم و جيف و لأبصارهم خشوع يوم القيامة هم الذين ينكرون البعث و هم فى الدنيا و يقولون كذا و كذا.

ص: ٥٨٥

و الحافره-على ما قيل-أول الشيء و مبتداه،و الاستفهام للإنكار استبعاداً،و المعنى يقول هؤلاء:أنا لمردودون بعد الموت الى حالتنا الاولى و هى الحياه.

قوله تعالى: أ إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً تَكَرَّرَ لِّلْإِسْتِفْهَامِ لِتَأْكِيدِ الْإِسْتِبْعَادِ فَلَوْ كَانَتْ الْحَيَاةُ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَبْعَدَةً فَهِيَ مَعَ فَرَضِ نَخْرِ الْعِظَامِ وَ تَفْتَتِ الْأَجْزَاءِ أَشَدَّ اسْتِبْعَادًا،و النخر بفتح الحين البلى و التفتت يقال:نخر العظم ينخر نخرا فهو ناخر و نخر.

قوله تعالى: قَالُوا تَلْعَكْ إِذَا كَرَّهْتَ خَاسِرَةً الْإِشَارَةَ بِتَلْعِكَ إِلَى مَعْنَى الرَّجْعَةِ الْمَفْهُومِ مِنْ قَوْلِهِ: «أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ» وَ الْكِرْهُ الرَّجْعَةُ وَ الْعُطْفَةُ،وَ عَدَّ الْكِرْهُ خَاسِرَةً إِمَّا مَجَازًا وَ الْخَاسِرَ بِالْحَقِيقَةِ صَاحِبِهَا،أَو الْخَاسِرَةَ بِمَعْنَى ذَاتِ خُسْرَانٍ،وَ الْمَعْنَى قَالُوا:تَلْعَكْ الرَّجْعَةَ -وَ هِيَ الرَّجْعَةُ إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ-رَجْعَةَ مُتَلَبِّسَةً بِالْخُسْرَانِ.

و هذا قول منهم أوردوه استهزاء-على أن يكون قولهم: «أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ» الخ؛مما قالوه فى الدنيا-و لذا غير السياق و قال: «قَالُوا تَلْعَكْ إِذَا» الخ؛بعد قوله: «يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ» الخ؛و أما على تقدير أن يكون مما سيقولونه عند البعث فهو قول منهم على سبيل التشؤم و التحسر.

قوله تعالى: فَأَيْنَمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ضمير «هِيَ» للكزه و قيل:للرادفه و المراد بها النفخة الثانية؛و الزجر طرد بصوت و صياح عبّر عن النفخة الثانية بالزجر لما فيها من نقلهم من نشأه الموت الى نشأه الحياه و من بطن الأرض الى ظهرها، و «فَإِذَا» فجائيه،و الساهره الأرض المستويه أو الارض الخاليه من النبات.

و الآيات فى محل الجواب عما يدل عليه قولهم: «أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ» الخ؛من استبعاد البعث و استصعابه و المعنى لا يصعب علينا إحيائهم بعد الموت و كرتهم فإنما كرتهم-أو الرادفه التى هى النفخة الثانية-زجره واحده فإذا هم أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتا فى بطنها.

فالأيتان فى معنى قوله تعالى: وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ (النحل / ٧٧).

قوله تعالى: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ الْآيَةِ إِلَىٰ تَمَامِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ آيَةً إِشَارَةً إِلَىٰ إِجْمَالِ قِصَّةِ مُوسَىٰ وَرِسَالَتِهِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَرَدَّهُ دَعْوَتِهِ إِلَىٰ أَنْ أَخَذَهُ اللَّهُ نِكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ.

و فيها عظه و إنذار للمشركين المنكرين للبعث و قد توسلوا به الى رد الدعوه الدينيه إذ لا معنى لتشريع الدين لو لا المعاد، و فيها مع ذلك تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم من تكذيب قومه، و تهديد لهم كما يؤيده توجيه الخطاب فى قوله: «هَلْ أَتَاكَ»

و فى القصة مع ذلك كله حجه على وقوع البعث و الجزاء فإن هلاك فرعون و جنوده تلك الهلكه الهائله دليل على حقيقته رساله موسى من جانب الله الى الناس و لا تتم رسالته من جانبه تعالى إلا بروبيته منه تعالى للناس على خلاف ما يزعمه المشركون أن لا روبيه له تعالى بالنسبه الى الناس و أن هناك أربابا دونه و أنه سبحانه رب الأرباب لا غير.

ففى قوله: «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ» استفهام بداعى ترغيب السامع فى استماع الحديث ليتسلى به هو و يكون للمنكرين إنذارا بما فيه من ذكر العذاب و إتماما للحجه كما تقدم.

و لا- ينافى هذا النوع من الاستفهام تقدم علم السامع بالحديث لأن الغرض توجيه نظر السامع الى الحديث دون السؤال و الاستعلام حقيقه فمن الممكن أن تكون الآيات أول ما يقصه الله من قصه موسى أو تكون مسبوقة بذكر قصته كما فى سوره المزمّل إجمالا- و هى أقدم نزولا من سوره النازعات- و فى سوره الأعراف و طه و غيرهما تفصيلا.

قوله تعالى: إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِاللَّوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ظَرْفٌ لِلْحَدِيثِ وَ هُوَ أَوَّلُ مَا أَوْحَىٰ اللَّهُ إِلَيْهِ فَقَلَدَهُ الرَّسَالَةَ، وَ طُوًى اسْمٌ لِلْوَادِ الْمُقَدَّسِ.

قوله تعالى: اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ تفسیر للنداء، و قيل: الكلام على تقدير القول أى قائلا اذهب، الخ؛ أو بتقدير أن المفسره أى أن اذهب، الخ؛ و فى الوجهين أن

التقدير مستغنى عنه، و قوله: «إِنَّهُ طَغَى» تعليل للأمر.

قوله تعالى: فَقُلْ هَلْ لَكُمْ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَزَكَّى مَتَّعٌ «إِلَى» محذوف و التقدير هل لك ميل الى أن تزكَّى أو ما فى معناه، و المراد بالتزكَّى التطهّر من قذاره الطغيان.

قوله تعالى: وَ أَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى عطف على قوله: «تَزَكَّى»، و المراد بهدايته إياه الى ربه- كما قيل- تعريفه له و إرشاده الى معرفته تعالى و ترتب عليه الخشية منه الرادعه عن الطغيان و تعدّى طور العبوديه قال تعالى: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (فاطر ٢٨).

و المراد بالتزكَّى إن كان هو التطهر عن الطغيان بالتوبه و الرجوع الى الله تعالى كانت الخشية مترتبه عليه و المراد بها الخشية الملازمه للإيمان الداعيه الى الطاعة و الرادعه عن المعصيه، و إن كان هو التطهر بالطاعة و تجنب المعصيه كان قوله: «وَ أَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى» مفسراً لما قبله و العطف عطف تفسير.

قوله تعالى: فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى الفاء فصيحه و فى الكلام حذف و تقدير و الأصل فأتاه و دعاه فأراه، الخ.

و المراد بالآيه الكبرى على ما يظهر من تفصيل القصة آيه العصا، و قيل: المراد به مجموع معجزاته التى أراها فرعون و ملأه و هو بعيد.

قوله تعالى: فَكَذَّبَ وَ عَصَى أى كذّب موسى فجحده رسالته و سمّاه ساحرا و عصاه فيما أمره به أو عصى الله.

قوله تعالى: ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْرِعِي الإِدْبَارَ التولّى و السعى هو الجد و الاجتهاد أى ثم تولى فرعون يجد و يجتهد فى ابطال أمر موسى و معارضته.

قوله تعالى: فَحَشَرَ فَنَادَى الْحَشَرَ جَمَعَ النَّاسَ يَازَعَاجَ و المراد به جمعه الناس من أهل مملكته كما يدل عليه تفرّيع قوله: «فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى» عليه فإنه كان يدعى

الربوبية لأهل مملكته جميعا لا لطائفه خاصة منهم.

وقيل: المراد بالحشر جمع السحره لقوله تعالى: فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (الشعراء ٥٣/)، وقوله: فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (طه ٦٠/). وفيه أنه لا دليل على كون المراد بالحشر في هذه الآية هو عين المراد بالحشر و الجمع في تينك الآيتين.

قوله تعالى: فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى دعوى الربوبية و ظاهره أنه يدعى أنه أعلى في الربوبية من سائر الأرباب التي كان يقول بها قومه الوثنيون فيفضل نفسه على سائر آلهتهم.

و لعل مراده بهذا التفضيل مع كونه و ثنيا يبعد الآلهه كما يدل عليه قوله تعالى حكاية عن ملائته يخاطبونه: أَ تَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يُدْرِكَ آلِهَتَكَ (الأعراف / ١٢٧) أنه أقرب الآلهه منهم تجرى بيده أرزاقهم و تصلح بأمره شئون حياتهم و يحفظ بمشيتته شرفهم و سؤددهم، و سائر الآلهه ليسوا على هذه الصفة.

قوله تعالى: فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولَىٰ الْأَخَذَ كناية عن التعذيب، و النكال التعذيب الذي يردع من رآه أو سمعه عن تعاطي مثله، و عذاب الآخرة نكال حيث إن من شأنه أن يردع من سمعه عن تعاطي ما يؤدي اليه من المعصية كما أن عذاب الاستئصال في الدنيا نكال.

و المعنى: فأخذ الله فرعون أى عذبه و نكله نكال الآخرة و الاولى و أما عذاب الدنيا فأغرقه و إغراق جنوده، و أما عذاب الآخرة فعذابه بعد الموت، فالمراد بالأولى و الآخرة الدنيا و الآخرة.

قوله تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى الإِشَارَةَ إِلَى حَدِيثِ مُوسَى، و الظاهر أن مفعول «يَخْشَى» منسى معرض عنه، و المعنى إن في هذا الحديث - حديث موسى - لعبرة لمن كان له خشية و كان من غريزته أن يخشى الشقاء و العذاب و الانسان من غريزته ذلك

ففيه عبره لمن كان انسانا مستقيما الفطره.

قوله تعالى: أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خُلُقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا - الى قوله- وَ لَأَنْعَامِكُمْ خَطَابٌ تُوْبِيخِي لِّلْمُشْرِكِينَ الْمُنْكَرِينَ لِّلْبَعْثِ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِهِ عَلَى سَبِيلِ الْعِتَابِ وَيَتَضَمَّنُ الْجَوَابُ عَنْ اسْتِبْعَادِهِمُ الْبَعْثَ بِقَوْلِهِمْ: «أَأِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَاْفِرَةِ إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخْرَةً» بِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْكُمْ خُلُقًا فَهُوَ عَلَى خَلْقِكُمْ وَإِنْشَائِكُمُ النَّشْأَةَ الْآخِرَى لِقَدِيرٍ.

و يتضمن أيضا الإشاره الى الحجه على وقوع البعث حيث يذكر التدبير العام العالمى و ارتباطه بالعالم الإنسانى و لازمه ربوبيته تعالى، و لازم الربوبيه صحه النبوه و جعل التكليف، و لازم ذلك الجزء الذى موطنه البعث و الحشر، و لذا فرع عليه حديث البعث بقوله: «فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى» الخ.

فقوله: أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خُلُقًا أَمْ السَّمَاءُ اسْتَفْهَامٌ تُوْبِيخِي بِدَاعَى رَفْعِ اسْتِبْعَادِهِمُ الْبَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَ الْإِشَارَةُ إِلَى تَفْصِيلِ خُلُقِ السَّمَاءِ بِقَوْلِهِ: «بَنَاهَا» الخ؛ دَلِيلٌ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ تَقْرِيرُ كَوْنِ السَّمَاءِ أَشَدَّ خُلُقًا.

و قوله: بَنَاهَا اسْتِثْنَاءٌ وَ بَيَانٌ تَفْصِيلِي لَخُلُقِ السَّمَاءِ.

و قوله: رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا أَى رَفَعَ سَقْفَهَا وَ مَا ارْتَفَعَ مِنْهَا، وَ تَسْوِيتُهَا تَرْتِيبُ أَجْزَائِهَا وَ تَرْكِيْبُهَا بِوَضْعِ كُلِّ جِزْءٍ فِي مَوْضِعِهِ الَّذِي تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ كَمَا فِي قَوْلِهِ: فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي (الحجر ٢٩).

و قوله: وَ أَغْطَشَ لَيْلَهَا وَ أَخْرَجَ ضُجَاهَا أَى أَظْلَمَ لَيْلَهَا وَ أَبْرَزَ نَهَارَهَا، وَ الْأَصْلُ فِي مَعْنَى الضَّحَى انْبِسَاطُ الشَّمْسِ وَ امْتِدَادُ النَّهَارِ أَرِيدُ بِهِ مَطْلَقُ النَّهَارِ بِقَرِينِهِ الْمَقَابِلَةَ وَ نَسَبَهُ اللَّيْلَ وَ الضَّحَى إِلَى السَّمَاءِ لِأَنَّ السَّبَبَ الْأَصْلِيَّ لَهَا سَمَاوِيٌّ وَ هُوَ ظُهُورُ الْأَجْرَامِ الْمَظْلَمَةِ بِشُرُوقِ الْأَنْوَارِ السَّمَاوِيَّةِ كَنُورِ الشَّمْسِ وَ غَيْرِهِ وَ خَفَاؤُهَا بِالِاسْتِتَارِ وَ لَا يَخْتَصُّ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ بِالْأَرْضِ الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا بَلْ يِعْمَانُ سَائِرُ الْأَجْرَامِ الْمَظْلَمَةِ الْمُسْتَتِيرَةِ.

وقوله: وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَي بسطها ومدّها بعد ما بنى السماء و رفع سمكها و سوّاها و أغطش ليلها و أخرج ضحاها.

وقوله: أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا قيل: المرعى يطلق على الرعى بالكسر فالسكون و هو الكلاً كما يجيء مصدرا ميميا، و اسم زمان و مكان، و المراد باخراج مائها منها تفجير العيون و إجراء الأنهار عليها، و إخراج المرعى إنبات النبات عليها مما يتغذى به الحيوان و الإنسان فالظاهر أن المراد بالمرعى مطلق النبات الذى يتغذى به الحيوان و الانسان كما يشعر به قوله: «مَتَاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعَامِكُمْ» لا ما يختص بالحيوان كما هو الغالب فى استعماله.

وقوله: وَ الْجِبَالَ أَرْسَاهَا أَي أثبتها على الارض لثلا تميد بكم و ادّخر فيها المياه و المعادن كما ينبى عنه سائر كلامه تعالى.

وقوله: مَتَاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعَامِكُمْ أَي خلق ما ذكر من السماء و الأرض و دبر ما دبر من أمرها ليكون متاعا لكم و لأنعامكم التى سخرها لكم تتمتعون به فى حياتكم فهذا الخلق و التدبير الذى فيه تمتيعكم يوجب عليكم معرفه ربكم و خوف مقامه و شكر نعمته فهناك يوم تجزون فيه بما عملتم فى ذلك إن خيرا فخييرا و إن شرا فشرا كما أن هذا الخلق و التدبير أشد من خلقكم فليس لكم أن تستبعدوا خلقكم ثانيا و تستصعبوه عليه تعالى.

قوله تعالى: فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ فِي الْمَجْمَعِ وَ الطامه العاليه الغالبه يقال:

هذا أطم من هذا أى أعلى منه، و طمّ الطائر الشجره أى علاها و تسمى الداهيه التى لا يستطاع دفعها طامه. انتهى، فالمراد بالطامه الكبرى القيامه لأنها داهيه تعلقو و تغلب كل داهيه هائله، و هذا معنى اتصافها بالكبرى و قد اطلقت إطلاقا.

و تصدير الجمله بفاء التفريع للإشاره الى أن مضمونها أعنى مجيء القيامه من لوازم خلق السماء و الارض و جعل التدبير الجارى فيهما المترتبه على ذلك كما تقدمت الإشاره اليه.

قوله تعالى: يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ظرف لمجىء الطامه الكبرى، والسعى هو العمل بجهد.

قوله تعالى: وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى التبريز لإظهار و مفعول «يرى» منسى معرض عنه و المراد بمن يرى من له بصر يرى به، والمعنى و اظهرت الجحيم بكشف الغطاء عنها لكل ذى بصر فيشاهدونها مشاهده عيان.

فالأيه فى معنى قوله تعالى: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصُرَكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق ٢٢) غير أن آيه ق أوسع معنى.

و الآيه ظاهره فى أن الجحيم مخلوقه قبل يوم القيامة و إنما تظهر يومئذ ظهورا بكشف الغطاء عنها.

قوله تعالى: فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَ أَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى تفصيل حال الناس يومئذ فى انقسامهم قسمين اقيم مقام الإجمال الذى هو جواب إذا المحذوف استغناء بالتفصيل عن الاجمال، و التقدير فإذا جاءت الطامه الكبرى انقسم الناس قسمين فأما من طغى، الخ.

و قد قسم تعالى الناس فى الآيات الثلاث الى أهل الجحيم و أهل الجنة - و قدم صفه أهل الجحيم لأن وجه الكلام الى المشركين - و عرّف أهل الجحيم بما وصفهم به فى قوله: «مَنْ طَغَى وَ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» و قابل تعريفهم بتعريف أهل الجنة بقوله: «مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ» و سبيل ما وصف به الطائفتين على أى حال سبيل بيان الضابط.

و إذ كانت الطائفتان متقابلتين بحسب حالهما كان ما بين لكل منهما من الوصف مقابلا - لوصف الآخر فوصف أهل الجنة بالخوف من مقام ربهم - و الخوف تأثر الضعيف المقهور من القوى القاهر و خشوعه و خضوعه له - يقتضى كون طغيان أهل الجحيم - و الطغيان التعدى

عن الحد-هو عدم تأثرهم من قام ربهم بالاستكبار و خروجهم عن زى العبوديه فلا يخشعون و لا يخضعون و لا يجرون على ما اراده منهم و لا يختارون ما اختاره لهم من السعاده الخالده بل ما تهواه أنفسهم من زينه الحياه الدنيا.

وقوله: وَ أَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ الخ؛المقام اسم مكان يراد به المكان الذى يقوم فيه جسم من الأجسام و هو الأصل فى معناه ككونه اسم زمان و مصدرا ميميا لكن ربما يعتبر ما عليه الشىء من الصفات و الأحوال محلا و مستقرا للشىء بنوع من العناية فيطلق عليه المقام كالمنزله كما فى قوله تعالى فى الشهاده: فَأَخْرَجْنَا مِنْ مَقَامَهُمَا (المائدہ١٠٧) و قول نوح عليه السلام لقومه على ما حكاه الله إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَ تَذَكَّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ (يونس ٧١)،و قول الملائكه على ما حكاه الله وَ مَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (الصافات /١٦٤).

فمقامه تعالى المنسوب اليه بما أنه رب هو صفه ربوبيته بما تستلزمه أو تتوقف عليه من صفاته الكريمة كالعلم و القدره المطلقه و القهر و الغلبه و الرحمه و الغضب و ما يناسبها قال إيذانا به: وَ لَا تَطْعُوا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَ مَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ وَ إِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (طه ٨٢)،و قال: نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (الحجر ٥٠).

فمقامه تعالى الذى يخوف منه عباده مرحله ربوبيته التى هى المبدأ لرحمته و مغفرته لمن آمن و اتقى و لأليم عذابه و شديد عقابه لمن كذب و عصى.

[سوره النازعات (٧٩): الآيات ٤٢ الى ٤٦]

يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيْمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥) كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)

تعرض لسؤالهم عن وقت قيام الساعة و رد له بأن علمه ليس لأحد إلا الله فقد خصه بنفسه.

قوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا الظاهر أن التعبير يسألونك لإفاده الاستمرار فقد كان المشركون بعد ما سمعوا حديث القيامة يراجعون النبي صلى الله عليه وآله وسلم و يسألونه أن يعين لهم وقتها مصرين على ذلك و قد تكرر في القرآن الكريم الإشارة الى ذلك.

و المرسى مصدر ميمي بمعنى الإثبات و الإقرار و قوله: «أَيَّانَ مُرْسَاهَا» بيان للسؤال و المعنى يسألك هؤلاء المنكرون للساعة المستهزون به عن الساعة متى إثباتها و إقرارها؟ أى متى تقوم القيامة.

قوله تعالى: فِيْمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا استفهام إنكارى و «فِيمَ أَنْتَ» مبتدأ و خبر، و «مِنْ» لابتداء الغايه، و الذكرى كثره الذكر و هو أبلغ من الذكر على ذكره الراغب.

و المعنى فى أى شىء أنت من كثره ذكر الساعة أى ما ذا يحصل لك من العلم بوقتها من ناحيه كثره ذكرها و بسبب ذلك أى لست تعلمها بكثره ذكرها.

أو الذكرى بمعنى حضور حقيقه معنى الشىء فى القلب، و المعنى -على الاستفهام الإنكارى- لست فى شىء من العلم بحقيقتها و ما هى عليه حتى تحيط بوقتها و هو أنسب من المعنى السابق.

قوله تعالى: إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا فى مقام التعليل لقوله: «فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا»

و المعنى لست تعلم وقتها لأن انتهاءها الى ربك فلا يعلم حقيقتها و صفاتها و منها تعين الوقت إلا ربك فليس لهم أن يسألوا عن وقتها و ليس فى وسعك أن تجيب عنها.

و ليس من البعيد-و الله أعلم-أن تكون الآيه فى مقام التعليل بمعنى آخر و هو أن الساعه تقوم بفاء الأشياء و سقوط الأسباب و ظهور أن لا ملك إلا لله الواحد القهار فلا ينتسب اليوم إلا اليه تعالى من غير أن يتوسط بالحقيقه بينه تعالى و بين اليوم أى سبب مفروض و منه الزمان فليس يقبل اليوم توقيتا بحسب الحقيقه.

و لذا لم يرد فى كلامه تعالى من التحديد إلا تحديد اليوم بانقراض نشأه الدنيا كقوله:

وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَّحَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ (الزمر ١٦٨) و ما فى معناه من الآيات الداله على خراب الدنيا بتبدل الأرض و السماء و انتشار الكواكب و غير ذلك.

و إلا تحديده بنوع من التمثيل و التشبيه كقوله تعالى: «كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا»، و قوله: «كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوْعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ (الأحقاف ٣٥)»، و قوله: «و يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبَثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ» ثم ذكر حق القول فى ذلك فقال: «وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبُعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبُعْثِ (الروم ٥٦)».

و يلوح الى ما مر ما فى مواضع من كلامه أن الساعه لا تأتى إلا بغته، قال تعالى: «ثُقُلْتَ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْتَلُونَكُمْ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَلَيْهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (الأعراف ١٨٧)» الى غير ذلك من الآيات.

و هذا وجه عميق يحتاج فى تمامه الى تدبر واف ليرتفع به ما يترأى من مخالفته لظواهر عده من آيات القيامه و عليك بالتدبر فى قوله تعالى: «لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَ كَفَبَصِيرَتِكُمْ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق ٢٢)» و ما فى معناه من الآيات و الله المستعان.

قوله تعالى: «إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا أَى إِنَّمَا كَلَفْنَاكَ بِإِنذَارٍ مِنْ يَخْشَى

الساعة دون الإخبار بوقت قيام الساعة حتى تجيبهم عن وقتها إذا سألوكم عنه فالقصر فى الآيه قصر أفراد بقصر شأنه صلى الله عليه وآله وسلم فى الإنذار و تنفى عنه العلم بالوقت و تعيينه لمن يسأل عنه.

و المراد بالخشيه على ما يناسب المقام الخوف منها إذا ذكر بها أى شأنه الخشيه لا فعليتها قبل الإنذار.

قوله تعالى: كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا بيان لقرب الساعة بحسب التمثيل و التشبيه بأن قرب الساعة من حياتهم الدنيا بحيث مثلهم حين يرونها مثلهم لو لبثوا بعد حياتهم فى الأرض عشيه أو ضحى تلك العشيه أى وقتا نسبته الى نهار واحد نسبه العشيه الى ما قبلها منه أو نسبه الضحى الى ما قبله منه.

و قد ظهر بما تقدم أن المراد باللبث لبث ما بين الحياه الدنيا و البعث أى لبثهم فى القبور لأن الحساب يقع على مجموع الحياه الدنيا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى
(٤) أَمَّا مَنْ اسْتِغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسِيْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ
تَلْهَى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ
(١٦)

وردت الروايات من طرق أهل السنه أن الآيات نزلت في قصه ابن ام مكتوم الأعمى دخل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وعنده قوم من صناديد قريش يناجيهم في أمر الإسلام فعبس النبي عنه فعاتبه الله تعالى بهذه الآيات و في بعض الأخبار من طرق الشيعة إشاره الى ذلك.

و في بعض روايات الشيعة أن العابس المتولى رجل من بنى أمية كان عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فدخل عليه ابن ام مكتوم فعبس الرجل و قبض وجهه فنزلت الآيات: و سيوافيك تفصيل البحث عن ذلك في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

و كيف كان الأمر فغرض السوره عتاب من يقدم الأغنياء و المترفين على الضعفاء و المساكين من المؤمنين فيرفع أهل الدنيا و يضع أهل الآخرة ثم ينجر الكلام الى الإشاره الى هوان أمر الإنسان في خلقه و تناهيه في الحاجه الى تدبير أمره و كفره مع ذلك بنعم ربه و تدبيره العظيم لأمره و تتخلص الى ذكر بعثه و جزائه إنذاراً، و السوره مكيه بلا كلام.

□
قوله تعالى: عَبَسَ وَ تَوَلَّى أَي بسر و قبض وجهه و أعرض.

قوله تعالى: أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى □ تعليل لما ذكر من العبوس بتقدير لام التعليل.

□
قوله تعالى: وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذُّكْرَى □ حال من فاعل

«عَبَسَ وَ تَوَلَّى» و المراد بالتركي التطهر بعمل صالح بعد التذكر الذي هو الاتعاظ و الانتباه للاعتقاد الحق، و نفع الذكرى هو دعوتها الى التركي بالإيمان و العمل الصالح.

و محصل المعنى: بسر و أعرض عن الأعمى لما جاءه و الحال أنه ليس يدري لعل الأعمى الذي جاءه يتطهر بصالح العمل بعد الإيمان بسبب مجيئه و تعلمه و قد تذكر قبل أو يتذكر بسبب مجيئه و اتعاظه بما يتعلم فتنفعه الذكرى فيتطهر.

و فى الآيات الأربع عتاب شديد و يزيد شدة بإتيان الآيتين الاوليين فى سياق الغيبة لما فيه من الإعراض عن المشافهه و الدلاله على تشديد الإنكار و إتيان الآيتين الأخيرتين فى سياق الخطاب لما فيه من تشديد التوبيخ و إلزام الحجه بسبب مواجهه بعد الإعراض و التقرير من غير واسطه.

و فى التعبير عن الجائى بالأعمى مزيد توبيخ لما أن المحتاج الساعى فى حاجته إذا كان أعمى فاقدا للبصر و كانت حاجته فى دينه دعتة الى السعى فيها خشيه الله كان من الحرى أن يرحم و يخص بمزيد الإقبال و التعطف لا أن ينقبض و يعرض عنه.

و قيل-بناء على كون المراد بالمعاتب هو النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ-: أن فى التعبير عنه أولا بضمير الغيبه إجلالا له لإيهام أن من صدر عنه العبوس و التولى غيره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لأنه لا يصدر مثله عن مثله، و ثانيا بضمير الخطاب إجلالا له أيضا لما فيه من الإيناس بعد الإيحاش و الإقبال بعد الإعراض.

و فيه أنه لا يلائمه الخطاب فى قوله بعد: «أَمَا مِنْ اسْتَعْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى» الخ؛ و العتاب و التوبيخ فيه أشد مما فى قوله: «عَبَسَ وَ تَوَلَّى» الخ؛ و لا إيناس فيه قطعا.

قوله تعالى: «أَمَا مِنْ اسْتَعْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَ مَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى الْغَنَى وَ اسْتِغْنَاءُ وَ التَّغْنَى وَ التَّغْنَى بِمَعْنَى عَلَى مَا ذَكَرَهُ الرَّاعِبُ فَالمراد بمن استغنى من تلبس بالغنى و لازمه التقدم و الرئاسه و العظمه فى أعين الناس و الاستكبار عن اتباع الحق قال تعالى: إِنَّ

الْإِنْسَانَ لِيَطْغَىٰ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ (العلق ٧) والتصدى التعرض للشىء بالإقبال عليه و الاهتمام بأمره.

و فى الآيه الى تمام ست آيات إشاره الى تفصيل القول فى ملاك ما ذكر من العبوس و التولى فعوتب عليه و محصله أنك تعتنى و تقبل على من استغنى و استكبر عن اتباع الحق و ما عليك أن لا يزكى و تلهى و تعرض عن يجهد فى التزكى و هو يخشى.

و قوله: وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزْكِي قِيل: «مَا» نافية و المعنى و ليس عليك بأس أن لا يتزكى حتى يبعثك الحرص على إسلامه الى الاعراض و التلهى عن أسلم و الإقبال عليه.

و قيل: «مَا» للاستفهام الإنكارى و المعنى و أى شىء يلزمك إن لم يتطهر من الكفر و الفجور فإنما أنت رسول ليس عليك إلا البلاغ.

و قيل: المعنى و لا تبالى بعدم تطهره من دنس الكفر و الفجور و هذا المعنى أنسب لسياق العتاب ثم الذى قبله ثم الذى قبله.

قوله تعالى: وَمَا مِنْ جَاءِكَ يَسْعَىٰ وَهُوَ يَخْشَىٰ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَىٰ السعى الإسراع فى المشى فمعنى قوله: «وَمَا مِنْ جَاءِكَ يَسْعَىٰ» بحسب ما يفيد المقام: و أما من جاءك مسرعا ليتذكر و يتزكى بما يتعلم من معارف الدين.

و قوله: وَهُوَ يَخْشَىٰ أى يخشى الله و الخشيه آيه التذكر بالقرآن قال تعالى: مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ إِلَّا تَذَكْرًا لِمَنْ يَخْشَىٰ (طه ٣)، و قال: سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ (الأعلى ١٠).

و قوله: فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَىٰ أى تلهى و تتشاغل بغيره و تقديم ضمير «أنت» فى قوله: «فَأَنْتَ لَهُ تَصِيدُ» و قوله: «فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَىٰ» و كذا الضميرين «لَهُ» و «عَنْهُ» فى الآيتين لتسجيل العتاب و تثبيته.

قوله تعالى: كَلَّا إِنَّهَا تَذَكَّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ «كَلَّا» ردع عما عوتب عليه من

العبوس و التولى و التصدى لمن استغنى و التلهى عنم يخشى.

و الضمير فى «إِنَّهَا تَذَكَّرُهُ» للآيات القرآنيه أو للقرآن و تأنيث الضمير لتأنيث الخبر و المعنى إن الآيات القرآنيه أو القرآن تذكره أى موعظه يتعظ بها من اعظ أو مذكر يذكر حق الاعتقاد و العمل.

و قوله: فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ جملة معترضه و الضمير للقرآن أو ما يذكر به القرآن من المعارف، و المعنى فمن شاء ذكر القرآن أو ذكر ما يذكر به القرآن و هو الانتقال الى ما تهدى اليه الفطره مما تحفظه فى لوحها من حق الاعتقاد و العمل.

و فى التعبير بهذا التعبير «فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ» تلويح الى أن لا- إكراه فى الدعوه الى التذكر فلا- نفع فيها يعود الى الداعى و إنما المنتفع بها المتذكر فليختر ما يختاره.

قوله تعالى: فى صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ قال فى المجمع: الصحف جمع صحيفه، و العرب تسمى كل مكتوب فيه صحيفه كما تسميه كتابا رقا كان أو غيره انتهى.

و «فى صُحُفٍ» خبر بعد خبر لأن و ظاهره أنه مكتوب فى صحف متعدده بأيدي ملائكه الوحي، و هذا يضعف القول بأن المراد بالصحف اللوح المحفوظ و لم يرد فى كلامه تعالى إطلاق الصحف و لا- الكتب و لا- الألواح بصيغه الجمع على اللوح المحفوظ، و نظيره فى الضعف القول بأن المراد بالصحف كتب الأنبياء الماضين لعدم ملاءمته لظهور قوله: «بِأَيْدِي سَفَرَةٍ» الخ؛ فى أنه صفة لصفح.

و قوله: مُّكْرَمَةٍ أى معظمه، و قوله: «مَّرْفُوعَةٍ» أى قدرا عند الله، و قوله: «مُطَهَّرَةٍ» أى من قذاره الباطل و لغو القول و الشك و التناقض قال تعالى: لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ (حم السجده ٤٢/)، و قال: إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ وَ مَا هُوَ بِالْهَزْلِ (الطارق/ ١٤) و قال: ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ (البقره ٢/)، و قال: وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (النساء ٨٢/).

قوله تعالى: بِأَيْدِي سَفَرِهِ كِرَامٌ بَرَزَهُ صَفَهُ بَعْدَ صَفِهِ لَصَحْفٍ، وَ السَّفَرَهُ هُمُ السَّفَرَاءُ جَمْعُ سَفِيرٍ بِمَعْنَى الرَّسُولِ وَ «كِرَامٌ» صَفَهُ لَهُمْ بِاعْتِبَارِ ذَوَاتِهِمْ وَ «بَرَزَهُ» صَفَهُ لَهُمْ بِاعْتِبَارِ عَمَلِهِمْ وَ هُوَ الْإِحْسَانُ فِي الْفِعْلِ.

وَ مَعْنَى الْآيَاتِ أَنَّ الْقُرْآنَ تَذَكَّرَهُ مَكْتُوبُهُ فِي صَحْفٍ مُتَعَدِّدَةٍ مَعْظَمُهُ مَرْفُوعَةٌ قَدْرًا مَطْهَرًا مِنْ كُلِّ دَنَسٍ وَ قَذَارَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَاءٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ كِرَامٍ عَلَى رَبِّهِمْ بَطْهَارُهُ ذَوَاتِهِمْ بِرَبِّهِ عِنْدَهُ تَعَالَى بِحَسَنِ أَعْمَالِهِمْ.

وَ يَظْهَرُ مِنَ الْآيَاتِ أَنَّ لِلْوَحْيِ مَلَائِكَةً يَتَصَدَّقُونَ لِحَمْلِ الصَّحْفِ وَ إِحْيَاءُ مَا فِيهَا مِنَ الْقُرْآنِ فَهَمُ أَعْوَانُ جَبْرِيلَ وَ تَحْتَ أَمْرِهِ وَ نَسْبِهِ إِلْقَاءُ الْوَحْيِ إِلَيْهِمْ لَا - تَنَافَى نَسْبَتَهُ إِلَى جَبْرِيلَ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ (الشعراء ١٩٤/) وَ قَدْ قَالَ تَعَالَى فِي صِفَتِهِ: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ (التكوير ٢١/) فَهُوَ مَطَاعٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مِنْ يَصْدُرُ عَنْ أَمْرِهِ وَ يَأْتِي بِمَا يَرِيدُهُ وَ الْإِحْيَاءُ الَّذِي هُوَ فِعْلٌ أَعْوَانُهُ فَعَلَهُ كَمَا أَنَّ فَعْلَهُ وَ فَعَلَهُمْ جَمِيعًا فَعَلَ اللَّهُ وَ ذَلِكَ نَظِيرُ كَوْنِ التَّوْفِي الَّذِي هُوَ فِعْلٌ أَعْوَانُ مَلِكِ الْمَوْتِ فَعَلَهُ، وَ فَعَلَهُ وَ فَعَلَهُمْ جَمِيعًا فَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى، وَ قَدْ تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى هَذَا الْبَحْثِ مَرَارًا (١).

[سورة عبس (٨٠): الآيات ١٧ إلى ٤٢]

قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَ عِنْبًا وَ قَضْبًا (٢٨) وَ زَيْتُونًا وَ نَخْلًا (٢٩) وَ حَدَاقٍ غُلْبًا (٣٠) وَ فَاكِهَةً وَ أَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَ لِأَعْمَالِكُمْ (٣٢) فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ (٣٥) وَ صَاحَتِهِ وَ بَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وَ جُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)

ص: ٦٠٢

١- ١). عبس ١-١٦: بحث روائي حول نزول سورة عبس؛ ليست الآيات ظاهره الدلالة على ان المراد بالذبي عبس و تولى هو النبي صلى الله عليه و آله و سلم، خلق رسول الله العظيم.

بيان:

قوله تعالى: قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ دعاء على الإنسان لما أن في طبعه التوغل في اتباع الهوى و نسيان ربوبيه ربه و الاستكبار عن اتباع أوامره.

و قوله: مَا أَكْفَرَهُ تعجيب من مبالغه في الكفر و ستر الحق الصريح و هو يرى أنه مدبر بتدبير الله لا يملك شيئاً من تدبير أمره غيره تعالى.

فالمراد بالكفر مطلق ستر الحق و ينطبق على إنكار الربوبيه و ترك العباده و يؤيده ما في ذيل الآيه من الاشاره الى جهات من التدبير الربوبى المتناسبه مع الكفر بمعنى ستر الحق و ترك العباده، و قد فسر بعضهم الكفر بترك الشكر و كفران النعمه و هو و إن كان معنى صحيحاً في نفسه لكن الأنسب بالنظر الى السياق هو المعنى المتقدم.

قال في الكشاف: «قُتِلَ الْإِنْسَانُ» دعاء عليه و هى من أشنع دعواتهم لأن القتل قصارى شدائد الدنيا و فظائعها و «مَا أَكْفَرَهُ» تعجب من إفراطه في كفران نعمه الله و لا ترى اسلوباً أغلظ منه، و لا- أخشن مسا، و لا أدل على سخط، و لا أبعد شوطاً في المذمه مع تقارب طرفيه، و لا أجمع للأئمه على قصر متنه، انتهى.

قوله تعالى: مِنْ أَىِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ معناه على ما يعطيه المقام من أى شىء خلق الله الإنسان حتى يحق له أن يطغى و يستكبر عن الإيمان و الطاعه، و حذف فاعل قوله: «خَلَقَهُ» و ما بعده من الأفعال للإشعار بظهوره فمن المعلوم بالفطره- و قد اعترف به المشركون- أن لا خالق إلا الله تعالى.

ص: ٦٠٤

والاستفهام بداعى تأكيد ما فى قوله: «لَمَّا أَكْفَرَهُ» من العجب-و العجب إنما هو فى الحوادث التى لا يظهر لها سبب-فأفيد أولاً: أن من العجب إفراط الإنسان فى كفره ثم سئل ثانياً: هل فى خلقته إذ خلقه الله ما يوجب له الإفراط فى الكفر فاجيب بنفيه و أن لا حجة له يحتج بها و لا عذر يعتذر به فإنه مخلوق من ماء مهين لا يملك شيئاً من خلقته و لا من تدبير أمره فى حياته و مماته و نشره، و بالجملة الاستفهام توطئه للجواب الذى فى قوله: «مِنْ نُطْفِهِ خَلَقَهُ» الخ.

قوله تعالى: مِنْ نُطْفِهِ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ تَكْوِينًا لِلتَّحْقِيرِ «نُطْفِهِ» للتحقير أى من نطفه مهينه حقيره خلقه فلا يحق له و أصله هذا الأصل أن يطغى بكفره و يستكبر عن الطاعة.

و قوله: فَقَدَرَهُ أى أعطاه القدر فى ذاته و صفاته و أفعاله فليس له أن يتعدى الطور الذى قدر له و يتجاوز الحد الذى عين له فقد أحاط به التدبير الربوبى من كل جانب ليس له أن يستقل بنيل ما لم يقدر له.

قوله تعالى: ثُمَّ السَّبِيلَ يَسِّرُهُ ظاهر السياق المقصود به نفى العذر من الإنسان فى كفره و استكباره أن المراد بالسبيل-و قد أطلق- السبيل الى طاعه الله و امتثال أوامره و إن شئت فقل: السبيل الى الخير و السعادة.

فتكون الآيه فى معنى دفع الدخلى فإنه إذا قيل «مِنْ نُطْفِهِ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ» أمكن أن يتوهم السامع أن الخلق و التقدير إذا كانا محيطين بالإنسان من كل جهه كانت أفعال الانسان لذاته و صفاته مقدره مكتوبه و متعلقه لمشيه الربوبيه التى لا تتخلف فتكون أفعال الانسان ضروريه الثبوت واجبه التحقق و الإنسان مجبراً عليها فاقداً للاختيار فلا صنع للإنسان فى كفره إذا كفر و لا فى فسقه إذا فسق و لم يقض ما أمره الله به و إنما ذلك بتقديره تعالى و إرادته فلا ذم و لا لائمه على الإنسان و لا دعوه دينيه تتعلق به لأن ذلك كله فرع للاختيار و لا اختيار.

فدفع الشبهه بقوله: «ثُمَّ السَّبِيلَ يَسِّرُهُ» و محصله أن الخلق و التقدير لا يناهزان كون

الانسان مختاراً فيما أمر به من الإيمان و الطاعة له طريق الى السعاده التى خلق لها فكل ميسر لما خلق له و ذلك أن التقدير واقع على الأفعال الانسانيه من طريق اختياره، و الإراده الربوبيه متعلقه بأن يفعل الانسان بإرادته و اختياره كذا و كذا فالفعل صادر عن الانسان باختياره و هو بما أنه اختيارى متعلق للتقدير.

فالانسان مختار فى فعله مسئول عنه و إن كان متعلقاً للقدر، و قد تقدم البحث عن هذا المعنى كرارا فى ذيل الآيات المناسبه له فى هذا الكتاب.

قوله تعالى: **ثُمَّ أَمَّا تَهُ فَأَقْبَرَهُ** الإمامه إيقاع الموت على الانسان، و المراد بالإقبار دفنه فى القبر و إخفاؤه فى بطن الأرض و هذا بالبناء على الغالب الذى جرى عليه ديدن الناس و بهذه المناسبه نسب اليه تعالى لأنه تعالى هو الذى هداهم الى ذلك و ألهمهم إياه فللفعل نسبه اليه كما له نسبه الى الناس.

قوله تعالى: **ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ** فى المجمع: الإنشاز الإحياء للتصرف بعد الموت كنشر الثوب بعد الطى. انتهى، فالمراد به البعث إذا شاء الله، و فيه إشاره الى كونه بغته لا يعلمه غيره تعالى.

قوله تعالى: **كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ** الذى يعطيه السياق أن «كَلَّا» ردع عن معنى سؤال يستدعيه السياق و يلوح اليه قوله: **لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ** كأنه لما أشير الى أن الإنسان مخلوق مدبر له تعالى من أول وجوده الى آخره من خلق و تقدير و تيسير للسبيل و إمامته و إقبار و إنشاز و كل ذلك نعمه منه تعالى سئل فقيل: فما ذا صنع الإنسان و الحال هذه الحال و هل خضع للربوبيه أو هل شكر النعمه فاجيب و قيل: كلا، ثم أوضح فقيل: لما يقض ما أمره الله به بل كفر و عصى.

قوله تعالى: **فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ** متفرع على ما تقدم تفرع التفصيل على الإجمال ففيه توجيه نظر الإنسان الى طعامه الذى يقات به و يستمد منه لبقائه و هو واحد مما

لا يحصى مما هياه التدبير الربوبى لرفع حوائجه فى الحياه حتى يتأمله فيشاهد سعه التدبير الربوبى التى تدهش لبه و تحير عقله، و تعلق العنايه الإلهيه-على دقتها و إحاطتها-بصلاح حاله و استقامه أمره.

و المراد بالإنسان-كما قيل-غير الإنسان المتقدم المذكور فى قوله: «قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ» فإن المراد به خصوص الإنسان المبالغ فى الكفر بخلاف الإنسان المذكور فى هذه الآيه المأمور بالنظر فإنه عام شامل لكل إنسان، و لذلك أظهر و لم يضم.

قوله تعالى: «أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا»-الى قوله- «وَلِنَعْلَمَ كُفْرَ الْقَرَاءِ الدَّائِرَةَ» «أَنَا» بفتح الهمزة و هو بيان تفصيلى لتدبيره تعالى طعام الإنسان نعم هو مرحله ابتدائيه من التفصيل و أما القول المستوفى لبيان خصوصيات النظام الذى هيا له هذه الامور و النظام الواسع الجارى فى كل من هذه الامور و الروابط الكونيه التى بين كل واحد منها و بين الإنسان فمما لا يسعه نطاق البيان عاده.

و بالجملة قوله: «أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا» الصب اراقه الماء من العلو، و المراد بصب الماء إنزال الأمطار على الأرض لإنبات النبات، و لا يبعد أن يشمل إجراء العيون و الأنهار فإن ما فى بطن الأرض من ذخائر الماء إنما يتكون من الأمطار.

و قوله: «ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ظَاهِرًا» شق الأرض بالنبات الخارج منها و لذا عطف على صب الماء بثم و عطف عليه إنبات الحب بالفاء.

و قوله: «فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ضَمِيرًا فِيهَا» للأرض، و المراد بالحب جنس الحب الذى يقات به الإنسان كالحنطة و الشعير و نحوهما و كذا فى العنب و القضب و غيرهما.

و قوله: «وَ عِنْبًا وَ قَضْبًا» العنب معروف، و يطلق على شجر الكرم و لعله المراد فى الآيه و نظيره الزيتون.

و القضب هو الغض الرطب من البقول الذى يأكله الإنسان يقضب أى يقطع مره بعد

أخرى، وقيل: هو ما يقطع من النبات فتعلف به الدواب.

و قوله: وَ زَيْتُونًا وَ نَخْلًا معروفان.

و قوله: وَ حِدَائِقَ غُلْبًا الحدائق جمع حديقة و هى على ما فسر البستان المحوط و الغلب جمع غلباء يقال: شجره غلباء أى عظيمه غليظه فالحدائق الغلب البساتين المشتمله على أشجار عظام غلاظ.

و قوله: وَ فَاكِهَةً وَ أَبًّا قيل: الفاكهه مطلق الثمار، و قيل: ما عدا العنب و الزمان. قيل:

ان ذكر ما يدخل فى الفاكهه أولا كالزيتون و النخل للاعتناء بشأنه و الأب الكلاء و المرعى.

و قوله: مَتَاعًا لَكُمْ وَ لِأَنْعَامِكُمْ مفعول له أى أنبتنا ما أنبتنا مما تطعمونه ليكون تمتيعا لكم و للأنعام التى خصصتموها بأنفسكم.

و الالتفات عن الغيبه الى الخطاب فى الآيه لتأكيد الامتنان بالتدبير أو بإنعام النعمه.

قوله تعالى: فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ إشارة الى ما ينتهى اليه ما ذكر من التدبير العام الربوبى للانسان بما أن فيه أمرا ربوبيا إلهيا بالعبودية يقضيه الانسان أو لا يقضيه و هو يوم القيامة الذى يوفى فيه الانسان جزاء أعماله.

و الصاخه: الصيحة الشديده التى تصم الأسماع من شدتها، و المراد بها نفخه الصور.

قوله تعالى: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ وَ صَاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ إشارة الى شدة اليوم فالذين عدوا من أقرباء الانسان و أخصائه هم الذين كان يأوى اليهم و يأنس بهم و يتخذهم أعضاءا و أنصارا يلوذ بهم فى الدنيا لكنه يفر منهم يوم القيامة لما أن الشده أحاطت به بحيث لا تدعه يشغل بغيره و يعنى بما سواه كائننا من كان فالبلبله اذا عظمت و اشتدت و أطلت على الانسان جذبته الى نفسها و صرفته عن كل شىء.

و الدليل على هذا المعنى قوله بعد: «لِكُلِّ امْرِيٍّ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ» أى يكفيه من أن يشغل بغيره.

قوله تعالى: **وَجُودٌ يُؤْمِنُ مَسِيرَةٌ صَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ** بيان لانقسام الناس يومئذ الى قسمين: أهل السعادة و أهل الشقاء، وإشاره الى أنهم يعرفون بسيماهم فى وجوههم و إسفار الوجه إشراقه و إضاءته فرحا و سرورا و استبشاره تهلله بمشاهده ما فيه البشرى.

قوله تعالى: **وَجُودٌ يُؤْمِنُ عَلَيْهَا غَبْرَةٌ** هى الغبار و الكدوره و هى سيماء الهم و الغم.

قوله تعالى: **تَرْهُقُهَا قَتْرَةٌ** أى يعلوها و يغشاها سواد و ظلمه، و قد بين حال الطائفتين فى الآيات الأربع بيان حال وجوههما لأن الوجه مرآه القلب فى سروره و مساءته.

قوله تعالى: **أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجْرَةُ** أى الجامعون بين الكفر اعتقادا و الفجور و هو المعصيه الشنيعه عملا أو الكافرون بنعمه الله الفاجرون، و هذا تعريف للطائفه الثانيه و هم أهل الشقاء و لم يأت بمثله فى الطائفه الاولى و هم أهل السعادة لأن الكلام مسوق للانذار و الاعتناء بشأن أهل الشقاء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (۱) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (۲) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (۳) وَإِذَا الْعِشَارُ
عُطِّلَتْ (۴) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُيِّرَتْ (۵) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (۶) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (۷) وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُيِّمَتْ (۸) بِأَيِّ ذَنْبٍ
قُتِلَتْ (۹) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (۱۰) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (۱۱) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (۱۲) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (۱۳) عَلِمْتَ نَفْسٌ
مَا أُخْضِرَتْ (۱۴)

تذكر السوره يوم القيامه بذكر بعض أشراطها و ما يقع فيه أو تصفه بأنه يوم ينكشف فيه للإنسان ما عمله من عمل ثم تصف القرآن بأنه مما ألقاه الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ رسول سماوى و هو ملك الوحي و ليس بإلقاء شيطانى و لا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ مجنون يمسه الشيطان.

و يشبه أن تكون السوره من السور العتائق النازله فى أوائل البعثه كما يشهد به ما فيها من تنزيهه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ مما رموه به من الجنون و قد اتهموه به فى أوائل الدعوه و قد اشتملت على تنزيهه منه سوره «ن» و هى من العتائق.

و السوره مكيه بلا كلام.

قوله تعالى: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ التكوير اللف على طريق الإبداره كلف العمامه على الرأس، و لعل المراد بتكوير الشمس انظام جرمها على نحو الإحاطه استعاره.

قوله تعالى: وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ انكدار الطائر من الهواء انقضاضه نحو الأرض، و عليه فالمراد سقوط النجوم كما يفيدده قوله: وَ إِذَا الْكُوكَبَاتُ انْتَثَرَتْ (الانفطار / ٢) و يمكن أن يكون من الانكدار بمعنى التغير و قبول الكدوره فيكون المراد به ذهاب ضوئها.

قوله تعالى: وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ بما يصيبها من زلزلت الساعه من التسيير فتدك و تكون هباء منبثا و تصير سرايا على ما ذكره سبحانه فى مواضع من كلامه.

قوله تعالى: وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ قيل: «الْعِشَارُ جمع عشراء كالنفاس جمع نفساء و هى الناقه الحامل التى أتت عليها عشره أشهر فتسمى عشراء حتى تضع حملها و ربما سميت

عشراء بعد الوضع أيضا و هي من أنفس المال عند العرب.

و تعطيل العشار تركها مهمله لا- راعى لها و لا- حافظ يحفظها و كأن فى الجملة إشاره على نحو الكنايه الى أن نفائس الأموال التى يتنافس فيها الإنسان تبقى اليوم و لا صاحب لها يملكها و يتصرف فيها لأنهم مشغولون بأنفسهم عن كل شىء كما قال: لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (عبس ٣٧).

قوله تعالى: وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ الْوُحُوشُ جمع وحش و هو من الحيوان ما لا يتأنس بالإنسان كالسباع و غيرها.

و ظاهر الآيه من حيث وقوعها فى سياق الآيات الواصفه ليوم القيامة أن الوحوش محشوره كالإنسان، و يؤيده قوله تعالى: وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (الأنعام ٣٨).

و أما تفصيل حالها بعد الحشر و ما يؤول اليه أمرها فلم يرد فى كلامه تعالى و لا فيما يعتمد عليه من الاخبار ما يكشف عن ذلك نعم ربما استفيد من قوله فى آيه الأنعام: «أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ»، و قوله: «مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ» بعض ما يتضح به الحال فى الجملة لا- يخفى على الناقد المتدبر، و ربما قيل: إن حشر الوحوش من أشراط الساعة لا- مما يقع يوم القيامة و المراد به خروجها من غاباتها و أكنانها.

قوله تعالى: وَ إِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ فَسِيرِ التَّسْجِيرِ بإضرام النار و فسر بالملا و المعنى على الأول و إذا البحار أضرمت نارا، و على الثانى و إذا البحار ملئت.

قوله تعالى: وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ أَمَا نفوس السعداء فبنساء الجنة قال تعالى:

لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ (النساء ٥٧)، و قال: وَ زُوِّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (الدخان ٥٤) و أما نفوس الأشقياء فبقراء الشياطين قال تعالى: أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْوَاجَهُمْ وَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (الصافات ٢٢)، و قال: وَ مَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا

فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (الزخرف ٣٦).

قوله تعالى: وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ الْمَوْؤُدَةُ البنت التي تدفن حيه و كانت العرب تئد البنات خوفا من لحقوق العار بهم من أجلهن كما يشير اليه قوله تعالى:

وَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْمَأْنُونِ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُّمَسِكُهُ عَلِيٌّ هُونِ أُمِّ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ (النحل ٥٩).

و المسئول بالحقيقه عن قتل الموءوده أبوها الوائد لها لينتصف منه و ينتقم لكن عد المسئول في الآيه هي الموءوده نفسها فسئلت عن سبب قتلها لنوع من التعريض و التوبيخ لقاتلها و توطئه لأن تسأل الله الانتصاف لها من قاتلها حتى يسأل عن قتلها فيؤخذ لها منه، فالكلام نظير قوله تعالى في عيسى عليه السلام: وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمَّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ (المائدة ١١٦).

قوله تعالى: وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ أَيُّ لِلْحِسَابِ، و الصحف كتب الأعمال.

قوله تعالى: وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ فِي الْمَجْمَعِ الْكَشِطُ الْقَلْعُ عَنْ شِدَّةِ التَّرَاقِ فَيَنْطَبِقُ عَلَى طَيْهَا كَمَا فِي قَوْلِهِ: وَ السَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ (الزمر ٦٧)، و قوله: وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَ نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (الفرقان ٢٥) و غير ذلك من الآيات المفصحة عن هذا المعنى.

قوله تعالى: وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ التَّسْعِيرُ تَهْيِيجُ النَّارِ حَتَّى تَتَأَجَّجَ.

قوله تعالى: وَإِذَا الْجَنَّةُ أُرْلِفَتْ الْإِرْلَافُ التَّقْرِيبُ وَ الْمَرَادُ تَقْرِيبُهَا مِنْ أَهْلِهَا لِلدَّخُولِ.

قوله تعالى: عَلِمْتُ نَفْسٌ مَا أَحْضَرْتُ جَوَابَ إِذَا، وَ الْمَرَادُ بِالنَّفْسِ الْجِنْسُ وَ الْمَرَادُ بِمَا أَحْضَرْتُ عَمَلُهَا الَّذِي عَمَلْتَهُ يُقَالُ: أَحْضَرْتُ الشَّيْءَ أَيُّ وَجَدْتَهُ حَاضِرًا كَمَا يُقَالُ:

أَحْمَدْتَهُ أَيُّ وَجَدْتَهُ مَحْمُودًا.

فَالآيَةِ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: يَوْمَ تَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ (آل عمران ٣٠) (١).

[سوره التكوير (٨١): الآيات ١٥ الى ٢٩]

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنُوسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمِمَّا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَ لَقَدْ رَأَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمِمَّا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمِمَّا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذَهَبُونَ (٢٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمِمَّا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)

ص: ٦١٤

١- ١). التكوير ١-١٤: بحث روائي حول قوله تعالى: «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ» .

تنزيه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم من الجنون-وقد اتهموه به-ولما يأتي به-من القرآن-من مداخله الشيطان، وأنه كلامه تعالى يلقيه إليه ملك الوحي الذي لا يخون في رسالته، وأنه ذكر للعالمين هاد بإذن الله لمن اهتدى منهم.

قوله تعالى: **فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ** الخنس جمع خانس كطلب جمع طالب، والخنوس الانقباض والتأخر والاستتار، والجواري جمع جاريه، والجري السير السريع مستعار من جرى الماء، والكنس جمع كانس والخنوس دخول الوحش كالظبي والطيور كناسه أي بيته الذي اتخذته لنفسه واستقراره فيه.

و تعقب قوله: **فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ** الخ؛ بقوله: **«وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَيْتَ عَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ»** يؤيد كون المراد بالخنس الجوار الكنس الكواكب كلها أو بعضها لكن صفات حركه بعضها أشد مناسبة وأوضح انطباقا على ما ذكر من الصفات المقسم بها: الخنوس والجري والخنوس وهي السيارات الخمس المتحيرة: زحل والمشتري والمريخ والزهره وعطارد فإن لها في حركاتها على ما تشاهد استقامه ورجعه وإقامه فهي تسير وتجرى حركه متشابهه زمانا وهي الاستقامه وتنقبض وتتأخر وتخس زمانا وهي الرجعه وتقف عن الحركه استقامه ورجعه زمانا كأنها الوحش تنكس في كناسها وهي الإقامه.

قوله تعالى: **«وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَيْتَ عَسَ عَطْفَ عَلَى الْخُنُوسِ، وَ«إِذَا عَسَيْتَ عَسَ»** قيد لليل، والعسعه تطلق على إقبال الليل وعلى إدباره قال الراغب: **«وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَيْتَ عَسَ»** أي أقبل وأدبر وذلك في مبدأ الليل ومنتهاه فالعسعه والعساس رقه الظلام وذلك في طرفي الليل.

انتهى والأنسب لاتصال الجملة بقوله: **«وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ»** أن يراد بها إدبار الليل.

قوله تعالى: **«وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ عَطْفَ عَلَى الْخُنُوسِ، وَ«إِذَا تَنَفَّسَ»** قيد للصبح،

وعدّ الصّيح متنفساً بسبب انبساط ضوئه على الافق و دفعه الظلمه التي غشيتة نوع من الاستعاره بتشبيهه الصّيح و قد طلع بعد غشيان الظلام للآفاق بمن أحاطت به متاعب أعمال شاقه ثم وجد خلاء من الزمان فاستراح فيه و تنفس فعد إضاءته للآفاق تنفساً منه كذا يستفاد من بعضهم.

قوله تعالى: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ جَوَابَ الْقَسْمِ، وَضَمِير «إِنَّهُ» لِلْقُرْآنِ أَوْ لِمَا تَقْدُمُ مِنْ آيَاتِ السُّورَةِ بِمَا أَنهَآ قُرْآنٌ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: «لَقَوْلُ رَسُولٍ» الخ؛ وَالمَرَادُ بِالرَّسُولِ جَبْرِيلَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجَبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ (البقره ٩٧/).

و في إضافه القول اليه بما أنه رسول دلالة على أن القول لله سبحانه، و نسبتة الى جبريل نسبة الرساله الى الرسول و قد وصفه الله بصفات ست مدحه بها.

فقوله: رَسُولٍ يَدُلُّ عَلَى رِسَالَتِهِ وَ إِقَائِهِ وَحَى الْقُرْآنِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، وَ قَوْلِهِ:

«كَرِيمٍ» أَيْ ذِي كِرَامَةٍ وَ عِزَّةٍ عِنْدَ اللَّهِ بِإِعْزَازِهِ، وَ قَوْلِهِ: «ذِي قُوَّةٍ» أَيْ ذِي قُدْرَةٍ وَ شِدَّةٍ بِالْغَيْهِ، وَ قَوْلِهِ: «عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ» أَيْ صَاحِبِ مَكَانَةٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ الْمَكَانَةَ الْقُرْبَ وَ الْمَنْزِلَةَ، وَ قَوْلِهِ:

«مُطَاعٍ ثُمَّ» أَيْ مُطَاعٍ عِنْدَ اللَّهِ فَهِنَاكَ مَلَائِكُهُ يَأْمُرُهُمْ فَيَطِيعُونَهُ، وَ مِنْ هُنَا يَظْهَرُ أَنَّ لَهُ أَعْوَانَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَأْمُرُهُمْ فَيَأْتِمِرُونَ بِأَمْرِهِ، وَ قَوْلِهِ: «أَمِينٍ» أَيْ لَا يَخُونُ فِيمَا أَمَرَ بِهِ يَبْلُغُ مَا حَمَلَهُ مِنَ الْوَحْيِ وَ الرِّسَالَةِ مِنْ غَيْرِ أَيْ تَصَرَّفَ فِيهِ.

قوله تعالى: وَ مَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ عطف على قوله: «إِنَّهُ لَقَوْلُ» الخ؛ وَرَدَ لِرَمِيهِمْ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بِالْجَنُونِ.

و في التعبير عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بقوله: «صَاحِبُكُمْ» تكذيب لهم في رميهم له بالجنون و تنزيه لساحته - كما قيل - ففيه إيماء الى أنه صاحبكم لبث بينكم معاشرًا لكم طول عمره و أنتم أعرف به قد وجدتموه على كمال من العقل و رزانه من الرأى و صدق من القول و من هذه صفته

لا يرمى بالجنون.

و توصيف جبريل بما مر من صفات المدح دون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لا دلالة فيه على أفضليته من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لأن الكلام مسوق لبيان أن القرآن كلام الله سبحانه منزل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من عنده سبحانه من طريق الوحي لا من أوهام الجنون بالقاء من شيطان و الذي يفيد في هذا الغرض بيان سلامه طريق الإنزال و تجليل المنزل-اسم فاعل-بذكر أوصافه الكريمه و المبالغه في تنزيهه عن الخطأ و الخيانه، و أما المنزل عليه فلا- يتعلق به غرض إلا بمقدار الإشاره الى دفع ما يرتاب فيه من صفته و قد افيد بنفى الجنون الذي رموه به و التعبير عنه بقوله: «صَاحِبُكُمْ» كما تقدم توضيحه، كذا قيل.

و في مطاوى كلامه تعالى من نعوت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الكريمه ما لا يرتاب معه في أفضليته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على جميع الملائكه، و قد أسجد الله الملائكه كلهم أجمعين للإنسان الذي هو خليفته في الأرض.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ رَأَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ضمير الفاعل في «رآه» للصاحب و ضمير المفعول للرسول الكريم و هو جبريل.

و الافق المبين الناحيه الظاهره، و الظاهر أنه الذي أشار اليه بقوله: وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (النجم ٧).

و المعنى و اقسام لقد رأى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جبريل حال كون جبريل كائنا في الافق المبين و هو الافق الأعلى من سائر الآفاق بما يناسب عالم الملائكه.

و فيه أن لا- دليل من اللفظ يدل عليه و خاصه في تعلق لرؤيه بصورته الأصليه و رؤيته في أى مثال تمثل به رؤيته، و كأنه مأخوذ مما ورد في بعض الروايات أنه رآه في أول البعثه و هو بين السماء و الأرض جالس على كرسى، و هو محمول على التمثل.

قوله تعالى: وَ مَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ الضمير للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و المراد بالغيب

الوحي النازل عليه، والذين صفة مشبهه من الضن بمعنى البخل يعنى أنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يبخل بشيء مما يوحى إليه فلا يكتمه ولا يحسبه ولا يغيره بتبديل بعضه أو كله شيئاً آخر بل يعلم الناس كما علمه الله ويبلغهم ما أمر بتبليغه.

قوله تعالى: وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ نفى لاستناد القرآن الى إلقاء شيطان بما هو أعم من طريق الجنون فإن الشيطان بمعنى الشرير والشيطان الرجيم كما اطلق في كلامه تعالى على إبليس وذريته كذلك اطلق على أشرار الجن قال تعالى: قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (ص ٧٧)، وقال: وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (الحجر ١٧).

فالمعنى أن القرآن ليس بتسويل من إبليس وجنوده ولا بإلقاء من أشرار الجن كما يلقونه على المجانين.

قوله تعالى: فَأَيِّنَ تَذَهُبُونَ أوضح سبحانه في الآيات السبع المتقدمة ما هو الحق في أمر القرآن دافعا عنه ارتيابهم فيه بما يرمون به الجائى به من الجنون وغيره على إيجاز متون الآيات فبين أولا أنه كلام الله و اتكاء هذه الحقيقة على آيات التحدى، وثانيا أن نزوله برسالة ملك سماوى جليل القدر عظيم المنزله وهو أمين الوحي جبريل لا حاجز بينه وبين الله ولا بينه وبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولا صارف من نفسه أو غيره يصرفه عن أخذه ولا حفظه ولا تبليغه، وثالثا أن الذى انزل عليه وهو يتلوه لكم وهو صاحبكم الذى لا يخفى عليكم حاله ليس بمجنون كما يبهتونه به وقد رأى الملك الحامل للوحي وأخذ عنه وليس بكاتم لما يوحى إليه ولا بمغدير، ورابعا أنه ليس بتسويل من إبليس وجنوده ولا بإلقاء من بعض أشرار الجن.

و نتيجة هذا البيان أن القرآن كتاب هدى يهتدى به من أراد الاستقامة على الحق وهو قوله: «إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ» الخ.

فقوله: «فَأَيِّنَ تَذَهُبُونَ» توطئه و تمهيد لذكر نتيجة البيان السابق، وهو استضلال لهم فيما يرونه فى أمر القرآن الكريم أنه من طوارى الجنون أو من تسويلات الشيطان الباطله.

فالاستفهام فى الآيه توييخى و المعنى إذا كان الأمر على هذا فأين تذهبون و تتركون الحق وراءكم؟

قوله تعالى: **إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** أى تذكره لجماعات الناس كائنين من كانوا يمكنهم بها أن يتبصروا للحق، و قد تقدم بعض الكلام فى نظيره الآيه.

قوله تعالى: **لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ** بدل من قوله: **«لِلْعَالَمِينَ»** مسوق لبيان أن فعليه الانتفاع بهذا الذكر مشروط بأن يشاءوا الاستقامه على الحق و هو التلبس بالثبات على العبوديه و الطاعه.

قوله تعالى: **وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** تقدم الكلام فى معناه فى نظائر الآيه.

و الآيه بحسب ما يفيدته السياق فى معنى دفع الدخل فإن من الممكن أن يتوهموا من قوله:

«لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ» أن لهم الاستقلال فى مشيه الاستقامه ان شاءوا استقاموا و ان لم يشاءوا لم يستقيموا، فلهه اليهم حاجه فى الاستقامه التى يريدونها منهم.

فدفع ذلك بأن مشيتهم متوقفه على مشيه الله سبحانه فلا يشاءون الاستقامه الا أن يشاء الله أن يشاؤها، فأفعال الإنسان الإراديه مراده لله تعالى من طريق ارادته و هو أن يريد الله أن يفعل الإنسان فعلا كذا و كذا عن ارادته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ; وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ الْمَائِدَاتِ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصِيلُونَهَا يَوْمَ الذِّينِ (١٥) وَمِمَّا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمِمَّا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الذِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الذِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)

بيان:

تحدّ السوره يوم القيامة ببعض أشراطه الملازمه له المتصله به و تصفه بما يقع فيه و هو ذكر الانسان ما قدم و ما أخر من أعماله الحسنه و السيئه-على أنها محفوظه عليه بواسطه حفظه الملائكه الموكلين عليه-و جزاؤه بعمله إن كان برا فبنعيم و إن كان فاجرا مكذبا بيوم الدين فبجحيم يصلها مخلدا فيها.

ثم يستأنف وصف اليوم بأنه يوم لا يملكك نفس لنفس شيئا و الأمر يومئذ لله، و هي من غرر الآيات، و السوره مكيه بلا كلام.

قوله تعالى: إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ الْفَطْرَ الشَّقِ وَالْانْفِطَارَ الْانْشِقَاقَ وَالْآيَةَ كَقَوْلِهِ:

وَ انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (الحاقه ١٦).

قوله تعالى: وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ أَى تفرقت بتركها مواضعها التى ركزت فيها شبهت الكواكب بالآلى منظومه قطع سلكها فانتثرت و تفرقت.

ص: ٦٢١

قوله تعالى: وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: التفجير خرق بعض مواضع الماء الى بعض التكثير، ومنه الفجور لانخراق صاحبه بالخروج الى كثير من الذنوب، ومنه الفجر لانفجاره بالضياء، انتهى. و اليه يرجع تفسيرهم لتفجير البحار بفتح بعضها في بعض حتى يزول الحائل و يختلط العذب منها و المالح و يعود بحرا واحدا، وهذا المعنى يناسب تفسير قوله:

وَ إِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (التكوير ٦) بامتلاء البحار.

قوله تعالى: وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: بعثرت الحوض و بحثرته إذا جعلت أسفله أعلاه، و البعثره و البحثره إثارة الشيء بقلب باطنه الى ظاهره، انتهى. فالمعنى و إذا قلب تراب القبور و أثير باطنها الى ظاهرها لإخراج الموتى و بعثهم للجزاء.

قوله تعالى: عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ المراد بالعلم علمها التفصيلي بأعمالها التي عملتها في الدنيا، و هذا غير ما يحصل لها من العلم بنشر كتاب أعمالها لظاهر قوله تعالى: بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَ لَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (القيامة ١٥) و قوله: يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ (النازعات ٣٥)، و قوله: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَ مَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ (آل عمران ٣٠).

و المراد بالنفس جنسها فتفيد الشمول، و المراد بما قدمت و ما أخرت هو ما قدمته مما عملته في حياتها، و بما أخرت ما سنته من سنّه حسنه أو سيئه فعملت بها بعد موتها فتكتب صحيفه عملها قال تعالى: وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ (يس ١٢).

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ - الى قوله - رَكَّبَكَ عِتَابَ وَ تَوَيْخَ لِلْإِنْسَانِ، و المراد بهذا الإنسان المكذب ليوم الدين - على ما يفيد السباق المشتمل على قوله: «بل تكذبون بيوم الدين» و في تكذيب يوم الدين كفر و إنكار لتشريع الدين و في إنكاره إنكار لرَبِّيهِ الرب تعالى، و إنما وجه الخطاب اليه بما أنه إنسان ليكون حجه أو كالحجه لثبوت الخصال التي يذكرها من نعمه عليه المختصة من حيث المجموع بالإنسان.

وقد علّق الغرور بصفتي ربوبيته و كرمه تعالى ليكون ذلك حجه في توجه العتاب و التوبيخ فإن تمرد المربوب و توغله في معصيه ربه الذى يدبر أمره و يغشيه نعمه ظاهره و باطنه كفران لا ترتاب الفطره السليمه فى قبحه و لا فى استحقاق العقاب عليه و خاصه إذا كان الرب المنعم كريما لا يريد فى نعمه و عطاياه نفعا ينتفع به و لا عضوا يقابله به المنعم عليه، و يسامح فى إحسانه و يصفح عما يأتى به المربوب من الخطيئه و الإثم بجهاله فإن الكفران حينئذ أقبح و أقبح و توجه الدم و اللائمه أشد و أوضح.

فقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ استفهام توبيخى يوبخ الإنسان بكفران خاص لا عذر له يعتذر به عنه و هو كفران نعمه رب كريم.

و ليس للانسان أن يجيب فيقول: أى رب غرنى كرمك فقد قضى اللّٰمه سبحانه فيما قضى و بلغه بلسان أنبيائه لئن شكركم لأزيدنكم و لئن كفرتم إن عذابى لشديد (إبراهيم ٧)، و قال: فَأَمَّا مَن ظَعِنَ وَ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (النازعات ٣٩)، الى غير ذلك من الآيات الناصه فى أن لا مخلص للمعاندین من العذاب و أن الكرم لا يشملهم يوم القيامة قال: وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ (الأعراف ١٥٦).

و لو كفى الانسان العاصى قوله: «غرنى كرمك» لصرّف العذاب عن الكافر المعاند كما يصرّفه عن المؤمن العاصى، و لا عذر بعد البيان.

و قوله: الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ بيان لربوبيته المتلبسه بالكرم فإن من تدبيره خلق الانسان بجمع أجزاء وجوده ثم تسويته بوضع كل عضو فيما يناسبه من الموضع على ما يقتضيه الحكمة ثم عدله بعدل بعض أعضائه و قواه ببعض يجعل التوازن و التعادل بينها فما يضعف عنه عضو يقوى عليه عضو فيتم به فعله كما أن الأكل مثلا بالالتقام و هو للفم، و يضعف الفم عن قطع اللقمه و نهشها و طحنها فيتم ذلك بمختلف الأسنان، و يحتاج ذلك الى نقل اللقمه من جانب من الفم الى آخر و قلبها من حال الى حال فجعل ذلك للسان ثم الفم

يحتاج في فعل الأكل الى وضع الغذاء فيه فتوصل الى ذلك باليد و تتم عملها بالكف و عملها بالأصابع على اختلاف منافعها و عملها بالأنامل، و تحتاج اليد في الأخذ و الوضع الى الانتقال المكاني نحو الغذاء و عدل ذلك بالرجل.

و على هذا القياس في أعمال سائر الجوارح و القوى و هى الوف و الوف لا- يحصيها العد، و الكل من تدبيره تعالى و هو المفيض لها من غير أن يريد بذلك انتفاعا لنفسه و من غير أن يمنعه من إفاضتها ما يقابله به الانسان من نسيان الشكر و كفران النعمه فهو تعالى ربه الكريم.

و قوله: في أى صُورِهِ مَا شَاءَ رَبِّكَ بيان لقوله: «فَعَدَلَك» و لذا لم يعطف على ما تقدمه و الصوره ما ينتقش به الأعيان و يتميز به الشئ من غيره و «مَا» زائده للتأكيد.

و المعنى: في أى صوره شاء أن يركبك- و لا- يشاء إلا- ما تقتضيه الحكمة- ركبك من ذكر و أنثى و أبيض و أسود و طويل و قصير و وسيم و دميم و قوى و ضعيف الى غير ذلك و كذا الأعضاء المشتركه بين أفراد الإنسان المميزه لها من غيرها كاليدين و الرجلين و العينين و الرأس و البدن و استواء القامه و نحوها فكل ذلك من عدل بعض الأجزاء ببعض فى التركيب قال تعالى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (التين ٤) و الجميع ينتهى الى تدبير الرب الكريم لا صنع للانسان فى شئ من ذلك.

قوله تعالى: كَلَّا- يَلُ تُكَذَّبُونَ بِالذِّينِ «كَلَّا» ردع عن اغترار الانسان بكرم الله و جعل ذلك ذريعه الى الكفر و المعصيه أى لا تغتروا فلا ينفعكم الاغترار.

و قوله: يَلُ تُكَذَّبُونَ بِالذِّينِ أى بالجزاء. إضراب عمّا يفهم من قوله: «مَا عَزَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ» من غرور الانسان بربه الكريم على اعتراف منه و لو بالقوه بالجزاء لقضاء الفطره السليمه به.

فإذ عاتب الإنسان و وبخه على غروره بربه الكريم و اجترائه على الكفران و المعصيه من غير أن يخاف الجزاء أضرب عنه مخاطبا للانسان و كل من يشاركه فى كفره و معصيته فقال: بل

أنت و من حاله حالك تكذبون بيوم الدين و الجزاء فتجحدونه ملحين عليه.

قوله تعالى: وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ إشاره الى أن أعمال الانسان حاضره محفوظه يوم القيامة من طريق آخر غير حضورها للانسان العامل لها من طريق الذكر و ذلك حفظها بكتابه كتاب الاعمال من الملائكه الموكلين بالانسان فيحاسب عليها كما قال تعالى: وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (الإسراء/١٤).

فقوله: وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ أى إن عليكم من قبلنا حافظين يحفظون أعمالكم بالكتابه كما يفيدہ السياق.

و قوله: كِرَامًا كَاتِبِينَ أى اولى كرامه و عزه عند الله تعالى و قد تكرر فى القرآن الكريم وصف الملائكه بالكرامه و لا يبعد أن يكون المراد به بإعانه من السياق كونهم بحسب الخلقه مصونين عن الإثم و المعصيه مفطورين على العصمه، و يؤيده قوله: بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (الأنبياء/٢٦) حيث دل على أنهم لا يريدون إلا ما أَرَادَهُ اللهُ و لا يفعلون إلا ما أمرهم به، و كذا قوله: كِرَامٌ بَرَرَةٌ (عبس/١٦).

و المراد بالكتابه فى قوله: «كَاتِبِينَ» كتابه الأعمال بقريته قوله: «يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ» و قد تقدم فى تفسير قوله: إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (الجاثية/٢٩) كلام فى معنى كتابه الأعمال فليراجعه من شاء.

و قوله: يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ نفى لخطئهم فى تشخيص الخير و الشر و تمييز الحسنه و السيئه كما أن الآيه السابقه متضمنه لتزويهم عن الإثم و المعصيه فهم محيطون بالأفعال على ما هى عليه من الصفه و حافظون لها على ما هى عليه.

و لا تعيين فى هذه الآيات لعدده هؤلاء الملائكه الموكلين على كتابه أعمال الانسان نعم

المستفاد من قوله تعالى: إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ (ق١٧/١) أن على كل إنسان منهم اثنين عن يمينه و شماله، وقد ورد في الروايات المأثوره أن الذى على اليمين كاتب الحسنات و الذى على الشمال كاتب السيئات.

و ورد أيضا فى تفسير قوله: إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (الإسراء٧٨) أخبار مستفيضه من طرق الفريقين داله على أن كتبه الأعمال بالنهار يصعدون بعد غروب الشمس و ينزل آخرون فيكتبون أعمال الليل حتى إذا طلع الفجر صعدوا و نزل ملائكه النهار و هكذا.

و فى الآيه أعنى قوله: «يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ» دلالة على أن الكتبه عالمون بالنيات إذ لا- طريق الى العلم بخصوصيات الافعال و عناوينها و كونها خيرا أو شرا أو حسنه أو سيئه إلا العلم بالنيات فعلمهم بالأفعال لا يتم إلا عن العلم بالنيات.

قوله تعالى: إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ استئناف مبين لنتيجة حفظ الاعمال بكتابه الكتبه و ظهورها يوم القيامة. و الأبرار هم المحسنون عملا، و الفجار هم المنخرقون بالذنوب و الظاهر أن المراد بهم المتهتكون من الكفار إذ لا خلود لمؤمن فى النار، و فى تنكير «نَعِيمٍ» و «جَحِيمٍ» إشعار بالتفخيم و التهويل - كما قيل -.

قوله تعالى: يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ الضمير للجحيم أى يلزمون يعنى الفجار الجحيم يوم الجزاء و لا يفارقونها.

قوله تعالى: وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ عطف تفسيري على قوله: «يَصْلَوْنَهَا» الخ؛ يؤكد معنى ملازمتهم للجحيم و خلودهم فى النار، و المراد بغيبتهم عنها خروجهم منها فالآيه فى معنى قوله: وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (البقره١٦٧).

قوله تعالى: وَمَا أَذْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ تهويل و تفخيم لأمر يوم الدين، و المعنى لا تحيط علما بحقيقه يوم الدين و هذا التعبير كناية عن فخامه أمر الشئ و علوه من أن يناله

وصف الواصف، و فى إظهار اليوم-و المحل محل الضمير- تأكيد لأمر التفخيم.

قوله تعالى: ثُمَّ مَا أَذْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ فى تكرار الجملة تأكيد للتفخيم.

قوله تعالى: يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ الظرف منصوب بتقدير اذكر و نحوه، و فى الآية بيان إجمالى لحقيقته يوم الدين بعد ما فى قوله: «وَمَا أَذْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ» من الحث على معرفته.

و ذلك أن رابطة التأثير و التأثير بين الأسباب الظاهرية و مسبباتها منقطعه زائله يومئذ كما يستفاد من أمثال قوله تعالى: وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (البقره ١٦٦)، و قوله: وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (البقره ١٦٥) فلا تملكك نفس لنفس شيئاً فلا تقدر على دفع شر عنها و لا جلب خير لها، و لا ينافى ذلك آيات الشفاعة لأنها بإذن الله فهو المالك لها لا غير.

و قوله: وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ أى هو المالك للأمر ليس لغيره من الأمر شىء.

و المراد بالأمر كما قيل واحد الأوامر لقوله تعالى: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (المؤمن ١٦) و شأن الملك المطاع، الأمر بالمعنى المقابل للنهى، و الأمر بمعنى الشأن لا يلائم المقام تلك الملاءمه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَبُرُوءِ الْمُتُفَفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْفُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكْذَبُ بِهِ إِلَّا كُلٌّ مُعْتَدِئِينَ (١٢) إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْفُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١)

تفتتح السوره بوعيد أهل التطيف فى الكيل و الوزن و تنذرهم بأنهم مبعوثون للجزاء فى يوم عظيم و هو يوم القيامه ثم تتخلص لتفصيل ما يجرى يومئذ على الفجار و الأبرار.

و الأنسب بالنظر الى السياق أن يكون أول السوره المشتمل على وعيد المطففين نازلا بالمدينه و أما ما يتلوه من الآيات الى آخر السوره فيقبل الانطباق على السياقات المكيه و المدينه.

قوله تعالى: وَيُلِّ لِلْمُطَفِّينَ دعاء على المطففين و التطيف نقص المكيال و الميزان، و قد نهى الله تعالى عنه و سماه إفسادا فى الأرض كما فيما حكاه من قول شعيب و يَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (هود/

٨٤)، وقد تقدم الكلام فى تفسير الآيه فى معنى كونه إفسادا فى الأرض.

قوله تعالى: الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ الاكتيال من الناس الأخذ منهم بالكيل، وتعديته بعلی لإفاده معنى الضرر، و الكيل إعطاؤهم بالمكيال يقال: كاله طعامه و وزنه و كال له طعامه و وزن له و الأول لغه أهل الحجاز و عليه التنزيل و الثانى لغه غيرهم كما فى المجمع، و الاستيفاء أخذ الحق تاما كاملا، و الإخسار الإيقاع فى الخساره.

و المعنى: الذين إذا أخذوا من الناس بالكيل يأخذون حقهم تاما كاملا، و إذا أعطوا الناس بالكيل أو الوزن ينقصون فيوقعونهم فى الخسران.

قوله تعالى: أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ الاستفهام للإنكار و التعجيب، و الظن بمعناه المعروف و الإشاره الى المطففين باولئك الموضوعه للإشاره البعيده للدلاله على بعدهم من رحمه الله، و اليوم العظيم يوم القيامة الذى يجازون فيه بعملهم.

و الاكتفاء بظن البعث و حسابانه-مع أن من الواجب الاعتقاد العلمى بالمعاد-لأن مجرد حسابان الخطر و الضرر فى عمل يوجب التجنب عنه و التحرز عن اقترافه و إن لم يكن هناك علم فالظن بالبعث ليوم عظيم يؤاخذ الله فيه الناس بما كسبوا من شأنه أن يردعهم عن اقتراف هذا الذنب العظيم الذى يستتبع العذاب الاليم.

و قيل: الظن فى الآيه بمعنى العلم.

قوله تعالى: يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ المراد به قيامهم من قبورهم -كنايه عن تلبسهم بالحياه بعد الممات- لحكمه تعالى و قضائه بينهم.

قوله تعالى: كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ وَمَا أَذْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَرْقُومٌ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ردع-كما قيل- عما كانوا عليه من التطفيف و الغفله عن البعث و الحساب.

وقوله: إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِّينِ الخ؛ الذى يعطيه التدبر فى سياق الآيات الأربع بقياس بعضها الى بعض و قياس المجموع الى مجموع قوله: «كَلَّا- إِنَّ كِتَابَ الْمُبْرَارِ لَفِي عَلِيِّنَّ» الى تمام أربع آيات أن المراد بسجّين ما يقابل عليين و معناه علو على علو مضاعف ففيه شىء من معنى السفلى و الانحباس فيه كما يشير اليه قوله: ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (التين / ٥) فالأقرب أن يكون مبالغه من السجن بمعنى الحبس كسكير و شرب من السكر و الشرب فمعناه الذى يحبس من دخله على التخليد كما قيل.

و الكتاب بمعنى المكتوب من الكتابه بمعنى القضاء المحتوم و المراد بكتاب الفجار ما قدره الله لهم من الجزاء و أثبتة بقضائه المحتوم.

فمحصل الآيه أن الذى أثبتة الله من جزائهم أو عده لهم لفي سجّين الذى هو سجن يحبس من دخله حبسا طويلا أو خالدا.

وقوله: وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَجِّينٌ مَسُوقٌ لِلتَّهْوِيلِ.

وقوله: كِتَابٌ مَرْقُومٌ خبر لمبتدأ محذوف هو ضمير راجع الى سجّين و الجملة بيان لسجّين و «كِتَابٌ» أيضا بمعنى المكتوب من الكتابه بمعنى القضاء و الإثبات، و «مَرْقُومٌ» من الرقم، قال الراغب: الرقم الخط الغليظ، و قيل: هو تعجيم الكتاب، و قوله تعالى: «كِتَابٌ مَرْقُومٌ» حمل على الوجهين. انتهى، و المعنى الثانى أنسب للمقام فيكون إشاره الى كون ما كتب لهم متبيننا لا- إبهام فيه أى إن القضاء حتم لا يتخلف.

و المحصل أن سجّين مقضى عليهم مثبت لهم متبين متميز لا إبهام فيه.

ولا- ضمير فى لزوم كون الكتاب ظرفا للكتاب على هذا المعنى لأن ذلك من ظرفيه الكل للجزء و هى مما لا ضمير فيه فيكون سجّين كتابا جامعا فيه ما قضى على الفجار و غيرهم من مستحقى العذاب.

وقوله: وَيَلُوكُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ نَعَى و دعاء على الفجار و فيه تفسيرهم

بالمكذبين، و«يَوْمَئِذٍ» ظرف لقوله: «إِنَّ كَذَّبَ الْفُجَّارِ لَفِي سَجِّينٍ» بحسب المعنى أى ليهلك الفجار- وهم المكذبون- يومئذ تحقق ما كتب الله لهم وقضى عليهم من الجزاء و حل بهم ما أعد لهم من العذاب.

هذا ما يفيد التدرج فى هذه الآيات الأربع، و هى ذات سياق واحد متصل متلائم الأجزاء.

قوله تعالى: الَّذِينَ يُكذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ تفسير للمكذبين و ظاهر الآية -و يؤيده الآيات التالية- أن المراد بالتكذيب هو التكذيب القولى الصريح فيختص الدم بالكفار و لا يشمل الفسقه من أهل الإيمان فلا يشمل مطلق المطففين بل الكفار منهم.

اللهم إلا أن يراد بالتكذيب ما يعم التكذيب العملى كما ربما أيده قوله السابق: «أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ» فيشمل الفجار من المؤمنين كالكفار.

قوله تعالى: وَمَا يُكذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ المعتدى اسم فاعل من الاعتداء بمعنى التجاوز و المراد به المتجاوز عن حدود العبودية، و الأثيم كثير الآثام بحيث تراكم بعضها على بعض بانهماكه فى الأهواء.

و من المعلوم أن المانع الوحيد الذى يردع عن المعصية هو الإيمان بالبعث و الجزاء، و المنهمك فى الأهواء المتعلق قلبه بالاعتداء و الإثم تأبى نفسه التسليم لما يردع عنها و التزهد عن المعاصى و ينتهى الى تكذيب البعث و الجزاء قال تعالى: ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا السُّوَاىَ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤْنَ (الروم ١٠).

قوله تعالى: إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالُوا سَمِيطِرُ الْمَآوِلِينَ المراد بالآيات آيات القرآن بقرينه «تُتْلَىٰ» و الاساطير ما سطروه و كتبه و المراد بها أباطيل الامم الماضين و المعنى إذا تتلى عليه آيات القرآن مما يحذرهم المعصية و ينذرهم بالبعث و الجزاء قال: هى أباطيل.

قوله تعالى: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ردى عما قاله

المكذبون: «أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» قال الراغب: الرين صدأ يعلو الشيء الجليل (١)، قال تعالى:

«بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ» أى صار ذلك كصدأ على جلاء قلوبهم فعمى عليهم معرفه الخير من الشر، انتهى. فكون ما كانوا يكسبون و هو الذنوب رينا على قلوبهم هو حيلولة الذنوب بينهم و بين أن يدركوا الحق على ما هو عليه.

قوله تعالى: «كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ» ردع عن كسب الذنوب الحائله بين القلب و إدراك الحق، والمراد بكونهم محجوبين عن ربهم يوم القيامة حرمانهم من كرامه القرب و المنزله و لعله مراد من قال: إن المراد كونهم محجوبين عن رحمه ربهم.

و أما ارتفاع الحجاب بمعنى سقوط الأسباب المتوسطه بينه تعالى و بين خلقه و المعرفه التامه به تعالى فهو حاصل لكل أحد قال تعالى: «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (المؤمن ١٦)» وقال: «وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (النور ٢٥)».

قوله تعالى: «ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ» أى داخلون فيها ملازمون لها أو مقاسون حرها على ما فسره بعضهم و «ثُمَّ» فى الآيه و ما بعدها للتراخي بحسب رتبه الكلام.

قوله تعالى: «ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ» هو توبيخ و تقريع و القائل خزنه النار أو أهل الجنه.

قوله تعالى: «كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَ مَا أَذْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ» ردع فى معنى الردع الذى فى قوله: «كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ» و عليون- كما تقدم- علو على علو مضاعف، و ينطبق على الدرجات العاليه و منازل القرب من الله تعالى كما أن السجين بخلافه.

و الكلام فى معنى الآيات الثلاث نظير الكلام فى الآيات الثلاث المتقدمه التى تحاذيها من

ص: ٦٣٣

١- ١). الجلى ظ.

قوله: «إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِينٍ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ كِتَابٌ مَرْقُومٌ» .

فالمعنى أن الذي كتب للأبرار وقضى جزاء لبرهم لفي عليين و ما أدراك ما عليون هو أمر مكتوب و مقضى قضاء حتما لازما متبين لا إبهام فيه.

و للقوم أقاويل في هذه الآيات نظير ما لهم في الآيات السابقة من الأقوال غير أن من أقوالهم في عليين أنه السماء السابعة تحت العرش فيه أرواح المؤمنين، و قيل سدره المنتهى التي إليها تنتهى الأعمال، و قيل: لوح من زبرجده تحت العرش معلق مكتوبه فيه أعمالهم، و قيل:

هي مراتب عاليه محفوفه بالجلاله، و الكلام فيها كالكلام فيما تقدم من أقوالهم.

قوله تعالى: يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ الأنسب لما تقدم من معنى الآيات السابقة أن يكون «يَشْهَدُهُ» من الشهود بمعنى المعايينه و المقربون قوم من أهل الجنة هم أعلى درجة من عامه الأبرار على ما سيأتى استفادته من قوله: «عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ» فالمراد معاينتهم له بإراءه الله إياه لهم و قد قال الله تعالى في مثله من أمر الجحيم: كَلَّا- لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (التكاثر ٦) و منه يظهر أن المقربين هم أهل اليقين (١).

[سوره المطففين (٨٣): الآيات ٢٢ الى ٣٦]

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يُنظَرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَحْتُومٍ (٢٥) حِتَامُهُ مِسْكٌ وَ فِي ذَلِكَ فَلَيْتِنَافِسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَ مِرَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَ إِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ (٣٠) وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَ إِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ (٣٢) وَ مَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يُنظَرُونَ (٣٥) هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)

ص: ٦٣٤

(١-١). المطففين ١-٢١: بحث روائى فى خلقه الائمة و الشيعة؛ العليين؛ السجين؛ تاثير الذنوب على القلب.

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ النعيم النعمة الكثيره و فى تنكيه دلالة على فخامه قدره، و المعنى إن الابرار لفي نعمه كثيره لا يحيط بها الوصف.

قوله تعالى: عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ الْأرائك جمع أريكه و الأريكه السرير فى الجملة و هى البيت المزين للعروس و إطلاق قوله: «يَنْظُرُونَ» من غير تقييد يؤيد أن يكون المراد نظرهم الى مناظر الجنة البهجه و ما فيها من النعيم المقيم، و قيل: المراد به النظر الى ما يجزى به الكفار و ليس بذاك.

قوله تعالى: تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ النضرة البهجه و الرونق، و الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم باعتبار أن له أن ينظر فيعرف فالحكم عام و المعنى كل من نظر الى وجوههم يعرف فيها بهجه النعيم الذى هم فيه.

ص: ٦٣٥

قوله تعالى: يُسَيِّقُونَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ الرحيق الخالص من الغش، و يناسبه وصفه بأنه مختوم فإنه إنما يختم على الشيء النفيس الخالص ليسلم من الغش و الخلط و إدخال ما يفسده فيه.

قوله تعالى: خِتَامُهُ مِسْكٌ وَ فِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ قيل الختام بمعنى ما يختم به أى إن الذى يختم به مسك بدلا من الطين و نحوه الذى يختم به فى الدنيا، و قيل:

أى آخر طعمه الذى يجده شاربه رائحه المسك.

و قوله: وَ فِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ التغالب على الشيء و يفيد بحسب المقام معنى التسابق قال تعالى: سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ (الحديد / ٢١).

و قال: فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ (المائدة ٤٨)، فيه ترغيب الى ما وصف من الرحيق المختوم.

قوله تعالى: وَ مِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ المزاج ما يمزج به، و التسنيم على ما تفسره الآيه التاليه عين فى الجنه سماه الله تسنيم و فى لفظه معنى الرفع و الملء يقال: سنمه أى رفعه و منه سنام الإبل، و يقال: سنم الإناء أى ملأه.

قوله تعالى: عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ يقال: شربه و شرب به بمعنى و «عَيْنًا» منصوب على المدح أو الاختصاص و «يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ» وصف لها و المجموع تفسير للتسليم.

و مفاد الآيه أن المقربين يشربون التسنيم صرفا كما أن مفاد قوله: «وَ مِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ» أنه يمزج بها ما فى كأس الأبرار من الرحيق المختوم، و يدل ذلك أولا على أن التسنيم أفضل من الرحيق المختوم الذى يزيد لذه بمزجها، و ثانيا أن المقربين أعلى درجه من الأبرار الذين يصفهم الآيات.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ يعطى السياق أن المراد بالذين آمنوا هم الأبرار الموصوفون فى الآيات و إنما عبر عنهم بالذين آمنوا لأن سبب ضحك الكفار منهم و استهزائهم بهم إنما إيمانهم كما أن التعبير عن الكفار بالذين اجرموا للدلالة على أنهم بذلك من المجرمين.

قوله تعالى: وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ عطف على قوله: «يَضْحَكُونَ» أى كانوا إذا مروا بالذين آمنوا يغمز بعضهم بعضا و يشيرون بأعينهم استهزاء بهم.

قوله تعالى: وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ الفكه بالفتح فالكسر المرح البطر، و المعنى و كانوا إذا انقلبوا و صاروا الى أهلهم عن ضحكهم و تغامزهم انقلبوا ملتذين فرحين بما فعلوا أو هو من الفكاهه بمعنى حديث ذوى الانس و المعنى انقلبوا و هم يحدثون بما فعلوا تفكها.

قوله تعالى: وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ عَلَىٰ سَبِيلِ الشَّهَادَةِ عَلَيْهِم بِالضَّلَالِ أَوْ الْقَضَاءِ عَلَيْهِم وَ الثَّانِي أَقْرَبُ.

قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ أَى و ما ارسل هؤلاء الذين أجرموا حافظين على المؤمنين يقضون فى حقهم بما شاءوا أو يشهدون عليهم بما هووا، و هذا تهكم بالمستهزئين.

قوله تعالى: فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ المراد باليوم يوم الجزاء، و التعبير عن الذين أجرموا بالكفار رجوع الى حقيقه صفتهم. قيل: تقديم الجارّ و المجرور على الفعل أعنى «مِنَ الْكُفَّارِ» على «يَضْحَكُونَ» لإفاده قصر القلب، و المعنى فالיום الذين آمنوا يضحكون من الكفار لا الكفار منهم كما كانوا يفعلون فى الدنيا.

قوله تعالى: عَلَىٰ الْأَرْأْسِكِ يَنْظُرُونَ هَيْلٌ تُنُوبُ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ الثواب فى الأصل مطلق الجزاء و إن غلب استعماله فى الخير، و قوله: «عَلَىٰ الْأَرْأْسِكِ» خبر بعد

خبر للذين آمنوا و «يَنْظُرُونَ» خبر آخر، و قوله: «هَلْ تُؤْتَبُ» الخ؛ متعلق بقوله: «يَنْظُرُونَ» قائم مقام المفعول.

و المعنى: الذين آمنوا على سرر فى الحجال ينظرون الى جزاء الكفار بأفعالهم التى كانوا يفعلونها فى الدنيا من انواع الإجرام و منها ضحكهم من المؤمنين و تغامزهم إذا مروا بهم و انقلبهم الى أهلهم فكهين و قولهم: إن هؤلاء لضالون.

ص: ٦٣٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (۱) وَ أذنتُ لِربِّها ۖ وَ حُفَّتْ (۲) وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (۳) وَ أَلْقَتْ مِمَّا فِيها وَ تَخَلَّتْ (۴) وَ أذنتُ لِربِّها ۖ وَ حُفَّتْ (۵) يَا أَيُّها الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (۶) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (۷) فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا (۸) وَ يَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (۹) وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (۱۰) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا (۱۱) وَ يَصِلِي سَعِيرًا (۱۲) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (۱۳) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَجُورَ (۱۴) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (۱۵) فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (۱۶) وَ اللَّيْلِ وَ مَا وَسَقَ (۱۷) وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (۱۸) لَتَنْزِيلِنَّا مِنْ رَبِّكَ نَبَأًا عَنْ طَبَقِ (۱۹) فَلَمَّا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (۲۰) وَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (۲۱) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ (۲۲) وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (۲۳) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (۲۴) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (۲۵)

بيان:

قوله تعالى: إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ شرط جزاؤه محذوف يدل عليه قوله: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ» و التقدير: لاقى الإنسان ربه فحاسبه و جازاه على ما عمل.

ص: ٦٤٠

و انشقاق السماء و هو تصدعه و انفراجه من أشراط الساعة كمد الأرض و سائر ما ذكر في مواضع من كلامه تعالى من تكوير الشمس و اجتماع الشمس و القمر و انتشار الكواكب و نحوها.

قوله تعالى: وَ أَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَ حُقَّتْ الْإِذْنُ الْاسْتِمَاعِ وَ مِنْهُ الْإِذْنُ لِحَارِحَةِ السَّمْعِ وَ هُوَ مَجَازٌ عَنِ الْإِنْقِيَادِ وَ الطَّاعَةِ، وَ «حُقَّتْ» أَيْ جَعَلَتْ حَقِيقَةً وَ جَدِيرَةً بِأَنْ تَسْمَعَ، وَ الْمَعْنَى أَطَاعَتْ وَ انْقَادَتْ لِرَبِّهَا وَ كَانَتْ حَقِيقَةً وَ جَدِيرَةً بِأَنْ تَسْتَمَعَ وَ تَطِيعَ.

قوله تعالى: وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ اتساع الأرض، وَ قَدْ قَالَ تَعَالَى: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ (إبراهيم ٤٨).

قوله تعالى: وَ أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَ تَخَلَّتْ أَيْ أَلْقَتْ الْأَرْضُ مَا فِي جَوْفِهَا مِنَ الْمَوْتَى وَ بَالِغَتْ فِي الْخَلْوِ مِمَّا فِيهَا مِنْهُمْ.

قوله تعالى: وَ أَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَ حُقَّتْ ضَمَائِرُ التَّائِيثِ لِلْأَرْضِ كَمَا أَنَّهَا فِي نَظِيرَتِهَا الْمَتَقَدِّمَةِ لِلسَّمَاءِ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى الْآيَةِ.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ قَالَ الرَّاعِبُ: الْكَدْحُ السَّعْيُ وَ الْعِنَاءُ. انْتَهَى. فِيهِ مَعْنَى السَّيْرِ، وَ قِيلَ: الْكَدْحُ جَهْدُ النَّفْسِ فِي الْعَمَلِ حَتَّى يُوَثِّرَ فِيهَا انْتَهَى. وَ عَلَى هَذَا فَهُوَ مُضْمَنٌ مَعْنَى السَّيْرِ بِدَلِيلِ تَعْدِيهِ بِأَلْيِ فِي الْكَدْحِ مَعْنَى السَّيْرِ عَلَى أَيْ حَالٍ.

وَ قَوْلُهُ: فَمُلَاقِيهِ عَطْفٌ عَلَى «كَادِحٌ» وَ قَدْ بَيَّنَّ بِهِ أَنَّ غَايَةَ هَذَا السَّيْرِ وَ السَّعْيِ وَ الْعِنَاءِ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِمَا أَنَّ لَهُ الرَّبُوبِيَّةَ أَيْ إِنْ الْإِنْسَانَ بِمَا أَنَّهُ عَبْدٌ مَرْبُوبٌ وَ مَمْلُوكٌ مُدَبَّرٌ سَاعَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِمَا أَنَّهُ رَبُّهُ وَ مَالِكُهُ الْمُدَبَّرُ لِأَمْرِهِ فَإِنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ إِرَادَةَ وَ لَا عَمَلًا فَعَلِيَّهُ أَنْ يَرِيدَ وَ لَا يَعْمَلَ إِلَّا مَا أَرَادَهُ رَبُّهُ وَ مَوْلَاهُ وَ أَمْرُهُ بِهِ فَهُوَ مُسْتَوَلٌّ عَنِ إِرَادَتِهِ وَ عَمَلِهِ.

قوله تعالى: فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ تَفْصِيلٌ مَّرْتَبٌ عَلَى مَا يَلُوحُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ:

«إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ» أن هناك رجوعاً و سؤالاً عن الاعمال و حساباً، و المراد بالكتاب صحيفه الأعمال بقريته ذكر الحساب، و قد تقدم الكلام فى معنى إعطاء الكتاب باليمين فى سورتي الإسراء و الحاقه.

قوله تعالى: فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا الحساب اليسير ما سهل فيه و خلا عن المناقشه.

قوله تعالى: وَيَتَقَلَّبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا المراد بالأهل من أعده الله له فى الجنة من الحور و الغلمان و غيرهم و هذا هو الذى يفيد السياق.

قوله تعالى: وَ أَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ الظرف منصوب بنزع الخافض و التقدير من وراء ظهره، و لعلهم إنما يؤتون كتبهم من وراء ظهورهم لرد وجوههم على أذبارهم كما قال تعالى: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا (النساء ٤٧).

و لا منافاه بين إيتاء كتبهم من وراء ظهورهم و بين إيتائهم بشمالهم كما وقع فى قوله تعالى:

وَ أَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ (الحاقه ٢٧)، و سيأتى فى البحث الروائى التالى ما ورد فى الروايات من معنى إيتاء الكتاب من وراء ظهورهم.

قوله تعالى: فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ثُبُورًا كالثوب الهلاك و دعاؤهم الثبور قولهم:

وا ثبورا.

قوله تعالى: وَ يَصْلَىٰ سَعِيرًا أى يدخل ناراً مؤججه لا يوصف عذابها، أو يقاسى حرها.

قوله تعالى: إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا يسره ما يناله من متاع الدنيا و تنجذب نفسه الى زينتها و ينسيه ذلك أمر الآخرة و قد ذم تعالى فرح الإنسان بما يناله من خير الدنيا و سماه فرحاً بغير حق قال تعالى بعد ذكر النار و عذابها: ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ

ص: ٦٤٢

بَغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (المؤمن ٧٥).

قوله تعالى: إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ أَي لَنْ يَرْجِعَ وَ الْمَرَادُ الرَّجُوعُ إِلَى رَبِّهِ لِلْحِسَابِ وَ الْجَزَاءِ، وَ لَا سَبَبَ يُوجِبُهُ عَلَيْهِمْ إِلَّا التَّوَعُّلُ فِي الذُّنُوبِ وَ الْآثَامِ الصَّارِفَةِ عَنِ الْآخِرَةِ الدَّاعِيَةِ إِلَى اسْتِبْعَادِ الْبَعْثِ.

قوله تعالى: بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا رَدُّ لظنه أَي لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ظَنَّهُ بَلْ يَحُورُ وَ يَرْجِعُ، وَ قَوْلُهُ: «إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا» تَعْلِيلٌ لِلرَّدِّ الْمَذْكُورِ فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ كَانَ رَبُّهُ الْمَالِكُ لَهُ الْمُدْبِرُ لِأَمْرِهِ وَ كَانَ يَحِيطُ بِهِ عِلْمًا وَ يَرَىٰ مَا كَانَ مِنْ أَعْمَالِهِ وَ قَدْ كَلَفَهُ بِمَا كَلَفَ وَ لِأَعْمَالِهِ جَزَاءٌ خَيْرًا أَوْ شَرًّا فَلَا بُدَّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ وَ يَجْزَىٰ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ بِعَمَلِهِ (١).

قوله تعالى: فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ الْحَمْرَةِ ثُمَّ الصَّفْرَةِ ثُمَّ الْبَيَاضِ الَّتِي تَحْدُثُ بِالْمَغْرَبِ أَوَّلَ اللَّيْلِ.

قوله تعالى: وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ وَ مَا تَفْرُقُ وَ انْتَشَرَ فِي النَّهَارِ مِنَ الْإِنْسَانِ وَ الْحَيَوَانِ فَإِنَّهَا تَتَفَرَّقُ وَ تَنْتَشِرُ بِالطَّبَعِ فِي النَّهَارِ وَ تَرْجِعُ إِلَى مَا وَاهَا فِي اللَّيْلِ فَتَسْكُنُ.

وَ فسر بعضهم «وَسَقَ» بِمَعْنَى طَرَدَ أَي طَرَدَ الْكَوَاكِبَ مِنَ الْخِفَاءِ إِلَى الظُّهُورِ.

قوله تعالى: وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ أَي اجْتَمَعَ وَ انْضَمَّ بَعْضُ نُورِهِ إِلَى بَعْضٍ فَاكْتَمَلَ نُورُهُ وَ تَبَدَّرَ.

قوله تعالى: لَمَّا كَبَبْنَا طَبَقًا عَنْ طَبَقِ جَوَابِ الْقَسَمِ وَ الْخَطَابِ لِلنَّاسِ وَ الطَّبَقُ هُوَ الشَّيْءُ أَوْ الْحَالُ الَّذِي يَطَابِقُ آخِرَ سَوَاءٍ كَانَ أَحَدُهُمَا فَوْقَ الْآخَرِ أَمْ لَا- وَ الْمَرَادُ بِهِ كَيْفَ كَانَ الْمَرْحَلَةُ بَعْدَ الْمَرْحَلَةِ يَقْطَعُهَا الْإِنْسَانُ فِي كَدْحِهِ إِلَى رَبِّهِ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ الْمَوْتِ ثُمَّ الْحَيَاةِ الْبَرْزَخِيَّةِ ثُمَّ الْإِنْتِقَالَ إِلَى الْآخِرَةِ ثُمَّ الْحَيَاةِ الْآخِرَةَ ثُمَّ الْحِسَابِ وَ الْجَزَاءِ.

ص: ٦٤٣

و فى هذا الإقسام- كما ترى- تأكيد لما فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ الآية؛ و ما بعده من نبأ البعث و توطئه و تمهيد لما فى قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ من التعجيب و التوبيخ و ما فى قوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ﴾ الخ؛ من الإنذار و التبشير.

و فى الآية إشاره الى أن المراحل التى قطعها الإنسان فى مسيره الى ربه مترتبه متطابقه.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْتَجِدُونَ الاستفهام للتعجيب و التوبيخ و لذا ناسب الالتفات الذى فيه من الخطاب الى الغيبه كأنه لما رأى أنهم لا يتذكرون بتذكيره و لا يتعظون بعظته أعرض عنهم الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم فخطبه بقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الخ.

قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ يكذبون» يفيد الاستمرار، و التعبير عنهم بالذين كفروا للدلاله على عله التكذيب، و الايعاء كما قيل جعل الشىء فى وعاء.

و المعنى: أنهم لم يتركوا الإيمان لقصور فى البيان أو لانقطاع من البرهان لكنهم اتبعوا أسلافهم و رؤساءهم فرسخوا فى الكفر و استمروا على التكذيب و الله يعلم بما جمعوا فى صدورهم و أضمروا فى قلوبهم من الكفر و الشرك.

قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ التعبير عن الأخبار بالعذاب بالتبشير مبنى على التهكم، و الجملة متفرعه على التكذيب.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ استثناء منقطع من ضمير «فَبَشِّرْهُمْ» و المراد بكون أجرهم غير ممنون خلوه من قول يثقل على المأجور.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(١) وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَ شَاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ (٣) قَتَلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ
(٤) الْأَذَارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَ هُمْ عَلَيْهَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَ مَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ
الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ
يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ
الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ (١٣) وَ هُوَ الْعَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَالٌ
لَمَّا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ خَبْرٌ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنُ وَ ثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَ اللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ
(٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢)

سوره إنذار و تبشير فيها وعيد شديد للذين يفتنون المؤمنين و المؤمنات لإيمانهم بالله كما كان المشركون من أهل مكة يفعلون ذلك بالذين آمنوا بالنبى صلى الله عليه و آله و سلم فيعذبونهم ليرجعوا الى شركهم السابق فمنهم من كان يصبر و لا يرجع بلغ الأمر ما بلغ، و منهم من رجع و ارتد و هم ضعفاء الإيمان كما يشير الى ذلك قوله تعالى: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي

اللَّهُ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ (العنكبوت ١٠)، وقوله: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْزِيذُ اللَّهُ عَلَىٰ حَرْفٍ فَبِإِنْ أَخَابَهُ خَيْرٌ طَمَئِنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ (الحج ١١).

و قد قدم سبحانه على ذلك الاشارة الى قصه اصحاب الاخدود، وفيه تحريض المؤمنين على الصبر فى جنب الله تعالى، و أتبعها بالإشارة الى حديث الجنود فرعون و ثمود و فيه تطيب لنفس النبى صلى الله عليه و آله و سلم بوعده النصر و تهديد للمشركين.

و السورة مكيه بشهاده سياق آياتها.

قوله تعالى: وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ البروج جمع برج و هو الأمر الظاهر و يغلب استعماله فى القصر العالى لظهوره على الناظرين و يسمى البناء المعمول على سور البلد الدفاع برجا و هو المراد فى الآيه لقوله تعالى: وَ لَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَ زِينًا لِلنَّازِرِينَ وَ حَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (الحجر ١٧)، فالمراد بالبروج مواضع الكواكب من السماء.

قوله تعالى: وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ عطف على السماء و إقسام باليوم الموعود و هو يوم القيامة الذى وعد الله القضاء فيه بين عباده.

قوله تعالى: وَ شَاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ معطوفان على السماء و الجميع قسم بعد قسم على ما ازيد بيانه فى السورة و هو- كما تقدمت الإشارة اليه- الوعيد الشديد لمن يفتن المؤمنين و المؤمنات لإيمانهم و الوعد الجميل لمن آمن و عمل صالحا.

فكأنه قيل: اقسام بالسماء ذات البروج التى يدفع الله بها عنها الشياطين إن الله يدفع عن إيمان المؤمنين كيد الشياطين و أوليائهم من الكافرين، و اقسام باليوم الموعود الذى يجزى فيه الناس بأعمالهم، و اقسام بشاهد يشهد و يعاين أعمال أولئك الكفار و ما يفعلونه بالمؤمنين لإيمانهم بالله و اقسام بمشهود سيشهده الكل و يعاينونه إن الذين فتنوا المؤمنين و المؤمنات، الى آخر الآيتين.

و من هنا يظهر أن الشهاده فى «شَاهِدٍ» و «مَشْهُودٍ» بمعنى واحد و هو المعاينه بالحضور، على أنها لو كانت بمعنى تأديه الشهاده لكان حق التعبير «و مشهود عليه» لأنها بهذا المعنى إنما تتعدى بعلی.

و على هذا يقبل «شَاهِدٍ» الانطباق على النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لشهادته أعمال امته ثم يشهد عليها يوم القيامة، و يقبل «مَشْهُودٍ» الانطباق على تعذيب الكفار لهؤلاء المؤمنين و ما فعلوا بهم من الفتنه و إن شئت فقل: على جزائه و إن شئت فقل: على ما يقع يوم القيامة من العقاب و الثواب لهؤلاء الظالمين و المظلومين، و تنكير «مَشْهُودٍ» و «و شَاهِدٍ» على أى حال للتفخيم.

قوله تعالى: قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ إشارة الى قصه الاخدود لتكون توطئه و تمهيدا لما سيجىء من قوله: «إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا» الخ؛ و ليس جوابا للقسم البتة.

و الاخدود الشق العظيم فى الأرض، و أصحاب الاخدود هم الجابره الذين خدوا اخدودا و أضرموها فيها النار و أمروا المؤمنين بدخولها فأحرقوهم عن آخرهم نقما منهم لإيمانهم.

فقوله: قُتِلَ الخ؛ دعاء عليهم و المراد بالقتل اللعن و الطرد.

و قيل: المراد بأصحاب الاخدود المؤمنون و المؤمنات الذين احرقوا فيه، و قوله: «قُتِلَ» إخبار عن قتلهم بالإحراق و ليس من الدعاء فى شىء. و يضعفه ظهور رجوع الضمائر فى قوله:

«إِذْ هُمْ عَلَيْهَا» و «هُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ» و «مَا نَقَمُوا» الى أصحاب الاخدود، و المراد بها و خاصه بالثانى و الثالث الجابره الناقمون دون المؤمنين المعذبين.

قوله تعالى: النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ بدل من الاخدود، و الوقود ما يشعل به النار من حطب و غيره، و فى توصيف النار بذات الوقود إشارة الى عظمه أمر هذه النار و شده اشتعالها و أجيحها.

قوله تعالى: إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ أى فى حال اولئك الجابره قاعدون فى أطراف

النار المشرفه عليها.

قوله تعالى: وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ أَى حضور ينظرون و يشاهدون إحراقهم و احتراقهم.

قوله تعالى: وَ مَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ النَّقْم بفتحتين الكراهه الشديده أى ما كرهوا من اولئك المؤمنين إلا إيمانهم بالله فأحرقوهم لأجل إيمانهم.

قوله تعالى: الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أوصاف جاريه على اسم الجلاله تشير الى الحجه على أن اولئك المؤمنين كانوا على الحق فى ايمانهم مظلومين فيما فعل بهم لا يخفى حالهم على الله و سيجزيهم خير الجزاء، و على أن اولئك الجباره كانوا على الباطل مجترين على الله ظالمين فيما فعلوا و سيدوقون وبال أمرهم.

و ذلك أنه تعالى هو الله العزيز الحميد أى الغالب غير المغلوب على الاطلاق و الجميل فى فعله على الاطلاق فله وحده كل الجلال و الجمال فمن الواجب أن يخضع له و أن لا- يتعرض لجانبه، و إذ كان له ملك السماوات و الأرض فهو المليك على الإطلاق له الأمر و له الحكم فهو رب العالمين فمن الواجب أن يتخذ إلها معبودا و لا يشرك به أحد فالؤمنون به على الحق و الكافرون فى ضلال.

ثم إن الله- هو الموجد لكل شىء- على كل شىء شهيد لا يخفى عليه شىء من خلقه و لا عمل من أعمال خلقه و لا يحتجب عنه إحسان و لا إساءه مسيء فسيجزي كلا بما عمل.

و بالجملة إذا كان تعالى هو الله المتصف بهذه الصفات الكريمة كان على هؤلاء المؤمنين أن يؤمنوا به و لم يكن لاولئك الجباره أن يتعرضوا لحالهم و لا أن يمسوهم بسوء.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ الْحَرِيقِ الفتنة المحنه و التعذيب، و الذين فتحوا، الخ؛ عام

ص: ٦٤٩

يشمل أصحاب الاخدود و مشرکی قريش الذين كانوا يفتنون من آمن بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ من المؤمنين و المؤمنات بأنواع من العذاب ليرجعوا عن دينهم.

قال في المجمع: يسأل فيقال: كيف فصل بين عذاب جهنم و عذاب الحريق و هما واحد؟ اجيب عن ذلك بأن المراد لهم أنواع العذاب في جهنم سوى الإحراق مثل الزقوم و الغسلين و المقامع و لهم مع ذلك الإحراق بالنار انتهى.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ وَعَدَّ جَمِيلٌ لِلْمُؤْمِنِينَ يَطِيبُ بِهِ نَفْسَهُمْ كَمَا أَنَّ مَا قَبْلَهُ وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِلْكَافِرِ الْفَاتِنِينَ الْمُعْذِبِينَ.

قوله تعالى: إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ الْآيَةُ إِلَى تَمَامِ سَبْعِ آيَاتٍ تَحْقِيقٌ وَ تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْوَعِيدِ وَ الْوَعْدِ، وَ الْبَطْشُ - كَمَا ذَكَرَهُ الرَّاعِبُ - تَنَاوَلُ الشَّيْءَ بِصَوْلِهِ.

و في إضافة البطش الى الرب و إضافة الرب الى الكاف تطيب لِنَفْسِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ بِالتَّأْيِيدِ وَ النَّصْرِ، وَ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الْجَبَابِرَةَ أَمَّتْهُ نَصِيبًا مِنَ الْوَعِيدِ الْمُتَقَدِّمِ.

قوله تعالى: إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ الْمَقَابِلَةَ بَيْنَ الْمَبْدِئِ وَ الْمَعِيدِ يَعْنِي أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِبْدَاءِ الْبَدْءَ، وَ الْإِفْتِتَاحَ بِالشَّيْءِ، قَالَُوا: وَ لَمْ يَسْمَعْ مِنَ الْعَرَبِ الْإِبْدَاءَ لَكِنِ الْقِرَاءَةَ ذَلِكَ وَ فِي بَعْضِ الْقِرَاءَاتِ الشَّاذَّةِ يَبْدَأُ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَ الدَّالِ.

و على أى حال فالآية تعليل لشده بطشه تعالى و ذلك أنه تعالى مبدئ يوجد ما يريده من شىء ايجادا ابتداءيا من غير أن يستمد على ذلك من شىء غير نفسه، و هو تعالى يعيد كل ما كان الى ما كان و كل حال فاتته الى ما كانت عليه قبل الفوت فهو تعالى لا يمتنع عليه ما أراد و لا يفوته فائت زائل و إذا كان كذلك فهو القادر على أن يحمل على العبد المتعدى حده، من العذاب ما هو فوق حده و وراء طاقته و يحفظه على ما هو عليه ليدوق العذاب قال تعالى:

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا (فاطر)

و هو القادر على أن يعيد ما أفسده العذاب الى حالته الاولى ليدوق المجرم بذلك العذاب من غير انقطاع قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلِّئَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (النساء ٥٦).

قوله تعالى: وَ هُوَ الْعَفُورُ الْوَدُودُ أى كثير المغفرة و الموده ناظر الى وعد المؤمنين كما أن قوله: «إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ» الخ؛ ناظر الى وعيد الكافرين.

قوله تعالى: ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ العرش عرش الملك، و ذو العرش كناية عن الملك أى هو ملك له أن يتصرف فى مملكته كيفما تصرف و يحكم بما شاء و المجيد صفة من المجد و هو العظمة المعنوية و هى كمال الذات و الصفات، و قوله: «فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ» أى لا- يصرفه عما أراد صارف لا من داخل لضجر و كسل و ملل و تغيير إرادته و غيرها و لا من خارج لمانع يحول بينه و بين ما أراد.

فله تعالى أن يوعد الدين فتنوا المؤمنين و المؤمنات بالنار و يعد الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالجنة لأنه ذو العرش المجيد و لن يخلف وعده لأنه فعال لما يريد.

قوله تعالى: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ تقرير لما تقدم من شدة بطشه تعالى و كونه ملكا مجيدا فعلا لما يريد، و فيه تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و تطيب لنفسه الشريفه بالاشارة الى حديثهم، و معنى الآيتين ظاهر.

قوله تعالى: بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ لا يبعد أن يستفاد من السياق كون المراد بالذين كفروا هم قوم النبي صلى الله عليه و آله و سلم.

و فى الآيه اضراب عما تقدم من الموعظه و الحجة من حيث الأثر، و المعنى لا ينبغي أن يرجى منهم الإيمان بهذه الآيات البينات فإن الذين كفروا مصرون على تكذيبهم لا ينتفعون بموعظه أو حجه.

و من هنا ظهر أن المراد بكون الذين كفروا في تكذيب أى بظرفيه التكذيب لهم اصرارهم عليه.

قوله تعالى: **وَ اللّٰهُ مِنْ وَّرَائِهِمْ مُّحِيطٌ** وراء الشىء الجهات الخارجه منه المحيطه به. إشاره الى أنهم غير معجزين لله سبحانه فهو محيط بهم قادر عليهم من كل جهه، وفيه أيضا تطيب لنفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

و عن بعضهم أن فى قوله: **«مِنْ وَّرَائِهِمْ»** تلويحا الى الى أنهم اتخذوا الله وراءهم ظهريا، وهو بمنى على أخذ وراء بمعنى خلف.

قوله تعالى: **بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ** إضراب عن اصرارهم على تكذيب القرآن، والمعنى ليس الأمر كما يدعون بل القرآن كتاب مقروء عظيم فى معناه غزير فى معارفه فى لوح محفوظ عن الكذب و الباطل مصون من مسّ الشياطين (1).

ص: ٦٥٢

١-١). البروج ١-٢٢: بحث روائى حول: السماء ذات البروج؛ اليوم الموعود؛ الشاهد و المشهود؛ اصحاب الاخدود.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(١) وَ مَا أَذْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنَّ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا
حَافِظٌ (٤) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ
تُبَلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لَا نَاصِرٍ (١٠) وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الرُّجْعِ (١١) وَ الْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَضْلٌ (١٣) وَ مَا
هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَ أَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُوَيْدًا (١٧)

فى السوره إنذار بالمعاد و تستدل عليه بإطلاق القدره و تؤكد القول فى ذلك، و فيها إشاره الى حقيقه اليوم، و تختتم بوعيد الكفار.

و السوره ذات سياق مكى.

قوله تعالى: وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ الطَّرْقُ فى الأصل-على ما قيل-هو الضرب بشده يسمع له صوت و منه المطرقه و الطريق لأن السابله تطرقها بأقدامها ثم شاع استعماله فى سلوك الطريق ثم اختص بالإتيان ليلا لأن الآتى بالليل فى الغالب يجد الأبواب مغلقه فيطرقها و يدقها ثم شاع الطارق فى كل ما يظهر ليلا، و المراد بالطارق فى الآيه النجم الذى يطلع بالليل.

و الثقب فى الأصل بمعنى الخرق ثم صار بمعنى الثبر المضىء لأنه يثقب الظلام بنوره و يأتي بمعنى العلو و الارتفاع و منه ثقب الطائر أى ارتفاع و علا كأنه يثقب الجو بطيرانه.

فقوله: وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ إقسام بالسماء و بالنجم الطالع ليلا، و قوله: «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ» تفخيم لشأن المقسم به و هو الطارق، و قوله: «النَّجْمُ الثَّاقِبُ» بيان للطارق

و الجملة فى معنى جواب استفهام مقدر كأنه لما قيل: و ما أدراك ما الطارق؟ سئل فقيل: فما هو الطارق؟ فاجيب، و قيل: النجم الثاقب.

قوله تعالى: **إِنْ كُنْ نَفْسٌ لَّمَّا عَلَيْنَا** **حَافِظٌ** جواب للقسم و لما بمعنى إلا و المعنى ما من نفس إلا عليها حافظ، و المراد من قيام الحافظ على حفظها كتابه أعمالها الحسنه و السيئه على ما صدرت منها ليحاسب عليها يوم القيامة و يجرى بها فالحافظ هو الملك و المحفوظ العمل كما قال تعالى: **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كَرَامًا** **كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ** **مَا تَفْعَلُونَ** (الانفطار ١٢).

و لا- يبعد أن يكون المراد من حفظ النفس حفظ ذاتها و أعمالها، و المراد بالحافظ جنسه فتفيد أن النفوس محفوظه لا تبطل بالموت و لا تفسد حتى إذا أحيأ الله الأبدان أرجع النفوس إليها فكان الإنسان هو الإنسان الدنيوى بعينه و شخصه ثم يجرى به بما يقتضيه أعماله المحفوظه عليه من خير أو شر.

قوله تعالى: **فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ** أى ما هو مبدأ خلقه؟ و ما هو الذى صيره الله إنسانا.

و الجملة متفرعه على الآيه السابقه و ما تدل عليه بفحواها بحسب السياق و محصل المعنى و إذ كانت كل نفس محفوظه بذاتها و عملها من غير أن تفنى أو ينسى عملها فليدعن الإنسان أن سيرجع الى ربه و يجرى بما عمل و لا يستبعد ذلك و لينظر لتحصيل هذا الإذعان الى مبدأ خلقه و يتذكر أنه خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب و الترائب.

فالذى بدء خلقه من ماء هذه صفته يقدر على رجعه و إحيائه بعد الموت.

و فى الإتيان بقوله: «**خُلِقَ**» مبني للمفعول و ترك ذكر الفاعل و هو الله سبحانه إيماء الى ظهور أمره، و نظيره قوله: «**خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ**» الخ.

قوله تعالى: **خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ** الدفق تصبب الماء و سيلانه بدفع و سرعه الماء الدافق هو المنى و الجملة جواب عن استفهام مقدر يهدى اليه قوله: «**مِمَّ خُلِقَ**» .

قوله تعالى: يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ الصلب الظهر، والترائب جمع تربيه هي عظم الصدر.

وقد اختلفت كلماتهم فى الآيه و ما قبلها اختلافا عجبيا، و الظاهر أن المراد بقوله: «بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ» البعض المحصور من البدن بين جدارى عظام الظهر و عظام الصدر (١).

قوله تعالى: إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ الرجوع الإعادة، و ضمير «إِنَّهُ» له تعالى و اكتفى بالإضمار مع أن المقام مقام الإظهار لظهوره نظير قوله: «خُلِقَ» مبنيا للمفعول.

و المعنى أن الذى خلق الإنسان من ماء صفته تلك الصفه، على إعادته و احيائه بعد الموت -و إعادته مثل بدئه- لقادر لأن قدره على الشىء قدره على مثله إذ حكم الأمثال فيما يجوز و فيما لا يجوز واحد.

قوله تعالى: يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ظرف للرجع، و السريره ما أسره الإنسان و أخفاه فى نفسه، و البلاء الاختبار و التعرف و التصفح.

فالمعنى يوم يختبر ما أخفاه الإنسان و أسره من العقائد و آثار الأعمال خيرا و شرها فيميز خيرا من شرها و يجزى الإنسان به فالآيه فى معنى قوله تعالى: إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ (البقره ٢٨٤).

قوله تعالى: فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لَا نَاصِرٍ أى لا قدره له فى نفسه يمتنع بها من عذاب الله و لا ناصر له يدفع عنه ذلك أى لا قدره هناك يدفع عنه الشر لا من نفسه و لا من غيره.

قوله تعالى: وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَ الْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ إقسام بعد إقسام لتأكيد أمر القيامة و الرجوع الى الله.

و المراد بكون السماء ذات رجح ما يظهر للحس من سيرها بطلوع الكواكب بعد غروبها

ص: ٦٥٦

١-١). و قد أورد المراغى فى تفسيره فى ذيل الآيه عن بعض الاطباء توجيهها دقيقا علميا لهذه الآيه من اراده فليراجع.

و غروبها بعد طلوعها، و قيل: رجعها إمطارها، و المراد بكون الأرض ذات صدع تصدعها و انشقاقها بالنبات، و مناسبة القسمين لما أقسم عليه من الرجوع بعد الموت و الخروج من القبور ظاهره.

قوله تعالى: إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ وَ مَا هُوَ بِالْهَزْلِ الْفَصْلُ إِبَانَةٌ أَحَدِ الشَّيْئَيْنِ مِنَ الْآخِرِ حَتَّى يَكُونَ بَيْنَهُمَا فَرْجٌ، و التعبير بالفصل - و المراد الفاصل - للمبالغة كزيد عدل و الهزل خلاف الجد.

و الآيتان جواب القسم، و ضمير «إِنَّهُ» للقرآن و المعنى أقسم بكذا و كذا إن القرآن لقول فاصل بين الحق و الباطل و ليس هو كلاماً لا جد فيه فما يحقه حق لا ريب فيه و ما يبطله باطل لا ريب فيه فما أخبركم به من البعث و الرجوع حق لا ريب فيه.

قوله تعالى: إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا أَى الْكُفَّارِ يَحْتَالُونَ بِكُفْرِهِمْ وَ انْكَارِهِمْ الْمَعَادَ احْتِيَالًا - يريدون به إطفاء نور الله و إبطال دعوتك، و أحتال عليهم بعين أعمالهم بالاستدراج و الإملاء و الإضلال بالطبع على قلوبهم و جعل الغشاوه على سمعهم و أبصارهم احتيالا أسوقهم به الى عذاب يوم القيامة.

قوله تعالى: فَمَهَّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا التمهيل و الإمهال بمعنى واحد غير ان باب التفعيل يفيد التدريج و الإفعال يفيد الدفعه، و الرويد القليل.

و المعنى: إذا كان منهم كيد و منى كيد عليهم بعين ما يكيدون به و الله غالب على أمره، فانتظر بهم و لا تعاجلهم انتظر بهم قليلا فسيأتيهم ما اوعدهم به فكل ما هو آت قريب.

و فى التعبير أولا يمهل الظاهر فى التدريج و ثانيا مع التقييد برويدا بأمهل الظاهر فى الدفعه لطف ظاهر (1).

ص: ٦٥٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ
الْمُرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ عِثَاءً آخُوًى (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨)
فَذِكْرٌ إِنْ نَفَعَتِ الذُّكْرَى (٩) سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَبَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَ
لَا يَحْيَى (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧) إِنَّ
هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى (١٩)

أمر بتوحيده تعالى على ما يليق بساحته المقدسه و تنزيه ذاته المتعاليه من أن يذكر مع اسمه اسم غيره أو يسند الى غيره ما يجب أن يسند اليه كالخلق و التدبير و الرزق و وعد له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بتأييده بالعلم و الحفظ و تمكينه من الطريقه التي هي أسهل و أيسر للتبليغ و أنسب للدعوه.

□
و سياق الآيات في صدر السوره سياق مكى و أما ذيلها أعنى قوله: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى» الخ؛ فقد ورد من طرق أئمه أهل البيت عليهم السَّلام و كذا من طريق أهل السنه أن المراد به زكاه الفطره و صلاه العيد و من المعلوم أن الصوم و ما يتبعه من زكاه الفطره و صلاه العيد إنما شرعت بالمدينه بعد الهجره فتكون آيات الذيل نازله بالمدينه.

فالسوره صدرها مكى و ذيلها مدنى، و لا ينافى ذلك ما جاء في الآثار أن السوره مكيه فإنه لا يأبى الحمل على صدر السوره.

قوله تعالى: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى أمر بتنزيه اسمه تعالى و تقديسه، و إذ علق التنزيه على الاسم- و ظاهر اللفظ الدال على المسمى- و الاسم إنما يقع فى القول فتنزيهه أن لا يذكر معه ما هو تعالى منزه عنه كذكر الآلهه و الشركاء و الشفعاء و نسبه الربوبيه اليهم و كذكر بعض ما يختص به تعالى كالخلق و الإيجاد و الرزق و الإحياء و الإماتة و نحوها و نسبه الى غيره تعالى أو كذكر بعض ما لا يليق بساحه قدسه تعالى من الأفعال كالعجز و الجهل و الظلم و الغفله و ما يشبهها من صفات النقص و الشين و نسبه اليه تعالى.

و بالجمله تنزيه اسمه تعالى أن يجرّد القول عن ذكر ما لا- يناسب ذكره ذكر اسمه تعالى و هو تنزيهه تعالى فى مرحله القول الموافق لتنزيهه فى مرحله الفعل.

و هو يلازم التوحيد الكامل بنفى الشرك الجلى كما فى قوله: وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَخِدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (الزمر ٤٥/)، و قوله: وَإِذَا ذُكِرَتِ رَبُّكَ فِي الْقُرْآنِ وَخِـدَهُ وَلَوْأَعْلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (الإسراء ٤٦/).

و فى إضافه الاسم الى الرب و الرب الى ضمير الخطاب تأييد لما قدمناه فإن المعنى سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الذى اتخذته ربا و أنت تدعو الى أنه الرب الإله فلا- يقعن فى كلامك مع ذكر اسمه بالربوبيه ذكر من غيره بحيث ينافى تسميه بالربوبيه على ما عزّف نفسه لك.

و قوله: «الْأَعْلَى» و هو الذى يعلو كل عال و يقهر كل شىء صفة «رَبِّكَ» دون الاسم و يعلل بمعناه الحكم أى سبّح اسمه لأنه أعلى.

قوله تعالى: الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى خَلَقَ الشىء جمع أجزائه، و تسويته جعلها متساويه بحيث يوضع كل فى موضعه الذى يليق به و يعطى حقه كوضع كل عضو من أعضاء الانسان فيما يناسبه من الموضع.

و الخلق و التسويه و إن كانا مطلقين لكنهما إنما يشملان ما فيه تركيب أو شائبه تركيب من المخلوقات.

و الآيه الى تمام أربع آيات تصف التدبير الإلهي و هي برهان على ربوبيته تعالى المطلقة.

قوله تعالى: وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهْدَىٰ أَي جعل الأشياء التي خلقها على مقادير مخصوصه و حدود معينه في ذواتها و صفاتها و أفعالها لا تتعداها و جهّزها بما يناسب ما قدر لها فهداها الى ما قدر فكل يسلك نحو ما قدر له بهدايه ربانيه تكوينيه كالطفل يهتدى الى ثدى أمه و الفرخ الى زق أمه و أبيه، و الذكر الى الانثى و ذى النفع الى نفعه و على هذا القياس.

قال تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (الحجر ٢١)، و قال: ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (عبس ٢٠)، و قال: لِكُلِّ وَجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيُّهَا (البقره ١٤٨).

قوله تعالى: وَ الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى الْمَرْعَى ما ترعاه الدواب فالله تعالى هو الذى أخرجها أى أنبتها.

قوله تعالى: فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى الغناء ما يقذفه السيل على جانب الوادى من الحشيش و النبات، و المراد هنا- كما قيل -اليابس من النبات، و الأحوى الأسود.

و إخراج المرعى لتغذى الحيوان ثم جعله غشاء أحوى من مصاديق التدبير الربوبى و دلائله كما أن الخلق و التسويه و التقدير و الهدايه كذلك.

قوله تعالى: سَيُنْفِرُكَ فَلَا تَنْسَىٰ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ قال فى المفردات: و القراءه ضم الحروف و الكلمات بعضها الى بعض فى الترتيل، و ليس يقال ذلك لكل جمع لا يقال: قرأت القوم إذا جمعهم، و يدل على ذلك أنه لا يقال للحرف الواحد إذا تفوه به قراءه، انتهى، و قال فى المجمع: و الإقراء أخذ القراءه على القارئ بالاستماع لتقويم الزلل، و القارى التالى. انتهى.

و ليس إقراؤه تعالى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم القرآن مثل إقراء بعضنا بعضا باستماع المقرئ لما يقرؤه القارى و اصلاح ما لا يحسنه أو يغلط فيه فلم يعهد من النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن يقرأ شيئا من القرآن فلا

يحسنه أو يغلط فيه عن نسيان للوحي ثم يقرأ فيصلح بل المراد تمكينه من قراءة القرآن كما أنزل من غير أن يغيره بزياده أو نقص او تحريف بسبب النسيان.

فقوله: **سَيُنْفِرُكَ فَلَا تَنْسَى** وعد منه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يمكنه من العلم بالقرآن و حفظه على ما أنزل بحيث يرتفع عنه النسيان فيقرؤه كما أنزل و هو الملاك في تبليغ الوحي كما اوحى اليه.

وقوله: **إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ** استثناء مفيد لبقاء قدره الإلهيه على اطلاقها و أن هذه العطيه و هى الإقراء بحيث لا تنسى لا ينقطع عنه سبحانه بالإعطاء بحيث لا يقدر بعد على انسائك بل هو باق على اطلاق قدرته له أن يشاء انشاء ك متى شاء و إن كان لا يشاء ذلك فهو نظير الاستثناء الذى فى قوله: **وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوزٍ** (هود ١٠٨) و قد تقدم توضيحه.

و ليس المراد بالاستثناء اخراج بعض افراد النسيان من عموم النفي و المعنى سنقرئك فلا تنسى شيئا الا ما شاء الله ان تنساه و ذلك ان كل انسان على هذه الحال يحفظ اشياء و ينسى اشياء فلا معنى لاختصاصه بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بلحن الامتنان مع كونه مشتركاً بنيه و بين غيره فالوجه ما قدمناه.

قوله تعالى: **وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى** اليسرى- مؤنث أيسر- هو وصف قائم مقام موصوفه المحذوف أى الطريقه اليسرى و التيسير التسهيل أى و نجعلك بحيث تتخذ دائما أسهل الطرق للدعوه و التبليغ قولاً و فعلاً فتهدى قوما و تتم الحججه على آخرين و تصبر على أذاهم.

و كان مقتضى الظاهر أن يقال: و نيسر لك اليسرى كما قال: **وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي** (طه / ٢٦) و انما عدل عن ذلك الى قوله: **«وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى»** لأن الكلام فى تجهيزه تعالى نفس النبي الشريفه و جعله إياها صالحه لتأديه الرساله و نشر الدعوه. على ما فى نيسر اليسرى من

فالمراد جعله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ صافياً الفطره حقيقاً على اختيار الطريقه اليسرى التي هي طريقه الفطره فالآيه في معنى حكايه عن موسى حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ (الأعراف ١٠٥).

قوله تعالى: فَذَكَرْهُ إِنْ نَفَعْتَ الذُّكْرَىٰ نَفْرِيحٌ عَلَىٰ مَا تَقَدَّمُ مِنْ أَمْرِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بتنزيه اسم ربه و وعده إقراء الوحي بحيث لا ينسى و تيسيره لليسرى و هي الشرائط الضروريه التي يتوقف عليها نجاح الدعوه الدينيه.

و المعنى إذ تم لك الأمر بامثال ما أمرناك به و إقراءك فلا تنسى و تيسيرك لليسرى فذكر إن نفعت الذكرى.

و قد اشترط في الأمر بالتذكرة أن تكون نافعه و هو شرط على حقيقته فإنها إذا لم تنفع كانت لغوا و هو تعالى يجلب عن أن يأمر باللغو فالتذكرة لمن يخشى لأول مره تفيد ميلا من نفسه الى الحق و هو نفعها و كذا التذكرة بعد التذكرة كما قال: «سَيِّدٌ كَرُّ مَنْ يَخْشَى» و التذكرة للأشقى الذى لا خشيه فى قلبه لأول مره تفيد تمام الحجه عليه و هو نفعها و يلزمها تجنبه و توليه عن الحق كما قال: «وَ يَتَجَبَّبُهَا الْأَشْقَى» و التذكرة بعد التذكرة له لا تنفع شيئا و لذا امر بالإعراض عن ذلك قال تعالى: فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (النجم / ٢٩).

قوله تعالى: سَيِّدٌ كَرُّ مَنْ يَخْشَىٰ أى سيتذكر و يتعظ بالقرآن من فى قلبه شىء من خشيه الله و خوف عقابه.

قوله تعالى: وَ يَتَجَبَّبُهَا الْأَشْقَى الضمير للذكرى و المراد بالأشقى بقرينه المقابله من ليس فى قلبه شىء من خشيه الله تعالى، و تجنب الشىء التباعده عنه، و المعنى و سيتباعده عن الذكرى من لا يخشى الله.

قوله تعالى: الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكَبْرَى الظاهر أن المراد بالنار الكبرى نار جهنم و هي نار كبرى بالقياس الى نار الدنيا، وقيل: المراد بها أسفل دركات جهنم و هي أشدها عذابا.

قوله تعالى: ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ثُمَّ لِلتَّرَاخِي بحسب رتبه الكلام، و المراد من نفى الموت و الحياه عنه معا نفى النجاه نفيا مؤبدا فإن النجاه بمعنى انقطاع العذاب بأحد أمرين إما بالموت حتى ينقطع عنه العذاب بانقطاع وجوده و اما يتبدل صفه الحياه من الشقاء الى السعاده و من العذاب الى الراحة فالمراد بالحياه فى الآيه الحياه الطيبه على حد قولهم فى الحرض: لا حى فيرجى و لا ميت فينسى.

قوله تعالى: فَقد أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى التزكى هو التطهر و المراد به التطهر من ألوات التعلقات الدنيويه الصارفه عن الآخره بدليل قوله بعد: «بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» الخ؛ و الرجوع الى الله بالتوجه اليه تطهر من الإخلاق الى الأرض، و الإنفاق فى سبيل الله تطهر من لوث التعلق المالى حتى أن وضوء الصلاه تمثيل للتطهر عما كسبته الوجوه و الأيدي و الأقدام.

و قوله: وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى الظاهر أن المراد بالذكر الذكر اللفظى، و بالصلاه التوجه الخاص المشروع فى الإسلام.

و الآيتان بحسب ظاهر مدلولهما على العموم لكن ورد فى المأثور عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام أنهما نزلتا فى زكاه الفطر و صلاه العيد و كذا من طريق أهل السنه.

قوله تعالى: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا اضراب بالخطاب لعامه الناس على ما يدعو اليه طبعهم البشرى من التعلق التام بالدنيا و الاشتغال بتعميرها، و الإيثار الاختيار، و قيل: الخطاب للكفار، و الكلام على أى حال مسوق للعتاب و الالتفات لتأكيده.

قوله تعالى: وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى عد الآخره أبقى بالنسبه الى الدنيا مع أنها باقيه

أبديه فى نفسها لأن المقام مقام الترجيح بين الدنيا والآخرة و يكفى فى الترجيح مجرد كون الآخرة خيرا و أبقى بالنسبه الى الدنيا و ان قطع النظر عن كونها باقيه أبديه.

ق

وله تعالى: إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَىٰ الْإِشَارَه بهذا الى ما بين فى قوله: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ» الى تمام أربع آيات، وقيل: هذا اشاره الى مضمون قوله: «وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ» .

قيل: و فى ابهام الصحف و وصفها بالتقدم أولا ثم بيانها و تفسيرها بصحف ابراهيم و موسى ثانيا ما لا يخفى من تفخيم شأنها و تعظم أمرها (1).

ص: ٦٦٥

١-١). الأعلى ١-٢٦: بحث روائى فى ذكر الركوع و السجود؛ صلاه العيد؛ زكاه الفطره، عدد الانبياء و المرسلين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَاشِيَةِ (١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصَلِّي نَارًا حَامِيَةً (٤)
تُسْقَى مِنْ عَيْنِ آيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسْعِيهَا رَاضِيَةٌ
(٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَعْيَةٍ (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَ أَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَ تَمَارِقُ
مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَ زُرَابٌ مَبْشُوثَةٌ (١٦) أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَ إِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَ إِلَى الْجِبَالِ
كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ
(٢٣) فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦)

بيان:

سوره انذار و تبشير تصف الغاشيه و هى يوم القيامه الذى يحيط بالناس تصفه بحال الناس فيه من حيث انقسامهم فريقين: السعداء و الأشقياء و استقرارهم فيما اعد لهم من الجنه و النار

ص: ٦٦٧

و تنتهى الى امره صَلَّى الله عليه و آله و سلم ان يذكر الناس بفنون من التدبير الربوبى فى العالم الداله على ربوبيته تعالى لهم و رجوعهم اليه لحساب اعمالهم.

و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها.

قوله تعالى: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَاشِيَةِ اسْتَفْهَامٌ بداعى التفتيح و الإعظام، و المراد بالغايشيه يوم القيامة سُميت بذلك لأنها تغشى الناس و تحيط بهم كما قال: وَ حَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (الكهف ٤٧/)، أو لأنها تغشى الناس بأهوالها بغته كما قيل، أو لأنها تغشى وجوه الكفار بالعذاب.

قوله تعالى: وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ أى مذلله بالغم و العذاب يغشاها، و الخشوع إنما هو لأرباب الوجوه و إنما نسب الى الوجوه لأن الخشوع و المذله يظهر فيها.

قوله تعالى: عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ النَّصَبُ التعب و «عَامِلَةٌ» خبر بعد خبر لوجوه، و كذا قوله: «نَاصِبَةٌ» و «تَضِيلٌ» و «تُسْقَى» و «لَيْسَ لَهُمْ» ، و المراد من عملها و نصبها بقرينه مقابلهما فى صفة أهل الجنة الآتية بقوله: «لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ» عملها فى الدنيا و نصبها فى الآخرة فإن الإنسان إنما يعمل ما يعمل فى الدنيا ليسعد به و يظفر بالمطلوب لكن عملهم خبط باطل لا ينفعهم شيئاً كما قال تعالى: وَ قَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا (الفرقان / ٢٣) فلا- يعود اليهم من عملهم إلا- النصب و التعب بخلاف أهل الجنة فإنهم لسعيهم الذى سعه فى الدنيا راضون لما ساقهم الى الجنة و الراحة.

قوله تعالى: تَضَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً أى تلزم نارا فى نهايه الحراره.

قوله تعالى: تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ أى حاره بالغه فى حرارتها.

قوله تعالى: لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ قيل: الضريح نوع من الشوك يقال له: الشبرق و أهل الحجاز يسمونه الضريح إذا يبس و هو أخصب طعام و أبشعه لا ترعاه دابه، و لعل تسميه ما فى النار به لمجرد المشابهه شكلا

و خاصه.

قوله تعالى: «وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ» من النعمه فيكون كناية عن البهجه و السرور الظاهر على البشره كما قال: «تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (المطففين ٢٤)»، أو من النعمه أى متنعمه. قيل: و لم يعطف على قوله: «وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ» إشاره الى كمال بينونه بين حالى الفريقين.

قوله تعالى: «لِيَسْخِبَ عَلَيْهَا رِاضِيَةٌ» اللام للتقويه، و المراد بالسعى سعيها فى الدنيا بالعمل الصالح، و المعنى رضيت سعيها و هو عملها الصالح حيث جوزيت به جزاء حسنا.

قوله تعالى: «فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ» -الى قوله- «وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ» المراد بعلوها ارتفاع درجاتها و شرفها و جلالتها و غزراه عيشها فإن فيها حياه لا موت معها، و لذه لا ألم يشوبها و سرورا لا غم و لا حزن يداخله لهم فيها فوق ما يشاءون.

و قوله: «لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَعْيُنٍ» أى لا تسمع تلك الوجوه فى الجنه كلمه ساقطه لا فائده فيها.

و قوله: «فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ» المراد بالعين جنسها فقد عد تعالى فيها عيونا فى كلامه كالسلسيل و الشراب الطهور و غيرهما.

و قوله: «فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ» السرر جمع سرير و فى ارتفاعها جلاله القاعد عليها، «وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ» الأكواب جمع كوب و هو الإبريق لا خرطوم له و لا عروه يتخذ فيه الشراب «وَأَنْمَارِقٌ مَصْفُوفَةٌ» النمارق جمع نمرقه و هى الوساده و كونها مصفوفه وضعها فى المجلس بحيث يتصل بعضها ببعض على هيئه المجالس الفاخره فى الدنيا «وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ» الزرابى جمع زريبه مثلثه الزاى و هى البساط الفاخر و بثها بسطها للقعود عليها.

قوله تعالى: «أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ» بعد ما فرغ من وصف الغاشيه و بيان حال الفريقين، المؤمنين و الكفار عقبه بإشاره إجماليه الى التدبير الربوبى الذى

يفصح عن ربوبيته تعالى المقتضيه لوجوب عبادته و لازم ذلك حساب الأعمال و جزاء المؤمن بإيمانه و الكافر بكفره و الظرف الذى فيه ذلك هو الغاشيه.

و قد دعاهم أولا- أن ينظروا الى الإبل كيف خلقت؟ و كيف صور الله سبحانه أرضا عادمه للحياه فاقده للشعور بهذه الصوره العجيبه فى أعضائها و قواها و أفاعيلها فسخرها لهم ينتفعون من ركوبها و حملها و لحمها و ضرعها و جلدها و وبرها حتى بولها و بعرتها فهل هذا كله توافق اتفاقي غير مطلوب بحiale؟

و تخصيص الإبل بالذكر من جهه أن السوره مكيه و أول من تتلى عليهم الأعراب و اتخاذ الآبال من أركان عيشتهم.

قوله تعالى: **وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ** و **زَيَّنَتْ** بالشمس و القمر و سائر النجوم الزواهر بما فيها من المنافع لأهل الأرض و قد جعل دونها الهواء الذى يضطر اليه الحيوان فى تنفسه.

قوله تعالى: **وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ** و هى أوتاد الأرض المانعه من مورها و مخازن الماء التى تتفجر منها العيون و الأنهار و محافظ للمعادن.

قوله تعالى: **وَإِلَى الْمَأْرُصِ كَيْفَ سُوِّجَتْ** أى بسطت و سويت فصلحت لكنى الإنسان و سهل فيها النقل و الانتقال و أغلب التصرفات الصناعيه التى للإنسان.

فهذه تدبيرات كليه مستنده اليه تعالى بلا ريب فيه فهو رب السماء و الأرض ما بينهما فهو رب العالم الإنسانى يجب عليهم أن يتخذوه ربا و يوحده و يعبدوه و أمامهم الغاشيه و هو يوم الحساب و الجزاء.

قوله تعالى: **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ** تفریع على ما تقدم و المعنى إذا كان الله سبحانه هو ربهم لا رب سواه و أمامهم يوم الحساب و الجزاء لمن آمن منهم أو كفر فذكرهم بذلك.

وقوله: **إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ** بيان أن وظيفته-و هو رسول-التذكرة رجاء أن يستجيبوا و يؤمنوا من غير إكراه و إجاء.

قوله تعالى: **لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ** المصيطر-و أصله المسيطر-المتسلط، و الجملة بيان و تفسير لقوله: **إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ**.

قوله تعالى: **إِلَّا مَنْ تَوَلَّى** وَ كَفَرَ استثناء من المفعول المحذوف لقوله السابق:

«فَذَكَّرٌ» و التقدير فذكر الناس إلا من تولى منهم عن التذكرة و كفر إذ تذكرته لغو لا فائده فيها، و معلوم أن التولى و الكفر إنما يكون بعد التذكرة فالمنفى بالاستثناء هو التذكرة بعد التذكرة كأنه قيل: ذكركم و آدم التذكرة إلا لمن ذكرته فتولى عنها و كفر، فليس عليك إدامه تذكرته بل أعرض عنه فيعذبه الله العذاب الأكبر.

فقوله: **فَذَكَّرٌ** -الى قوله- **إِلَّا مَنْ تَوَلَّى** وَ كَفَرَ **فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ** فى معنى قوله: **فَذَكَّرٌ** **إِنْ نَفَعَتِ الذُّكْرَى** -الى أن قال- وَ **يَتَجَبَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى** (الأعلى ١٢) و قد تقدم بيانه.

و قيل: الاستثناء من ضمير «عَلَيْهِمْ» فى قوله: «لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ» و المعنى لست عليهم بمتسلط إلا- على من تولى منهم عن التذكرة و أقام على الكفر فسيسلطك الله عليه و يأمرك بالجهاد فتقاتله فتقتله.

و قيل: الاستثناء منقطع و المعنى لست عليهم بمتسلط لكن من تولى و كفر منهم يعذبه الله العذاب الأكبر، و ما قدمناه من الوجه أرجح و أقرب.

قوله تعالى: **فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ** هو عذاب جهنم فالآيه كما تقدم محاذيه لقوله فى سورة الأعلى: **الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى**.

قوله تعالى: **إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابُهُمُ** الإياب الرجوع و «إِلَيْنَا» خبر إن و إنما قدم للتأكيد و لرعايه الفواصل دون الحصر إذ لا قائل برجوع الناس الى غير الله سبحانه و الآيه فى مقام

التعليل للتعذيب المذكور فى الآيه السابقه.

قوله تعالى: ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمُ الْكَلَامِ فِيهِ كَالْكَلَامِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ.

ص: ٦٧٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) وَ لِيَالِ عَشْرِ (٢) وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ (٣) وَ اللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَ ثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفِسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ (١٤) فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَ أَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَ لَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَ تَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَ تَجْبُونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَ جَاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صِهْمًا صِهْمًا (٢٢) وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَ أَنَّى لَهُ الذُّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا (٢٥) وَ لَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدًا (٢٦) يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) إِرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَ ادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)

فى السوره ذم التعلق بالدنيا المتعقب للطغيان والكفران و إبعاد أهله بأشد عذاب الله فى الدنيا والآخرة فتيين أن الانسان لقصور نظره و سوء فكره يرى أن ما آتاه الله من نعمه من كرامته على الله و أن ما يتلبس به من الفقر و العدم من هوانه فيطغى و يفسد فى الأرض إذا وجد و يكفر إذا فقد و قد اشتبه عليه الأمر فما يصيبه من القدره و الثروه و من الفقر و ضيق المعاش امتحان و ابتلاء إلهى ليظهر به ما ذا يقدم من دنياه لآخره.

فليس الأمر على ما يتوهمه الإنسان و يقوله بل الأمر كما سيتذكره إذا وقع الحساب و حضر العذاب أن ما أصابه من فقر أو غنى أو قوه أو ضعف كان امتحانا إلهيا و كان يمكنه أن يقدم من يومه لغده فلم يفعل و آثر العقاب على الثواب فليس ينال الحياه السعيده فى الآخرة إلا النفس المطمئنه الى ربها المسلمه لأمره التى لا تنزل بعواصف الابتلاءات و لا يطغيه الوجدان و لا يكفره الفقدان.

و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها.

قوله تعالى: وَ الْفَجْرِ وَ لَيَالٍ عَشْرٍ وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ وَ اللَّيْلِ إِذَا يَسِيرٌ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حَجْرِ الْفَجْرِ الصَّبْحِ وَ الشَّفْعِ الزَّوْجِ، قال الراغب: الشفع ضم الشىء الى مثله و يقال للمشفوع شفع. انتهى. و سرى الليل مضيه و إدباره، و الحجر العقل فقوله:

«وَ الْفَجْرِ» إقسام بالصبح و كذا الحال فيما عطف عليه من ليال و الشفع و الوتر و الليل.

و لعل ظاهر قوله: «وَ الْفَجْرِ» أن المراد به مطلق الفجر و لا يبعد أيضا أن يراد به فجر يوم النحر و هو عاشر ذى الحجه.

وقوله: وَ لَيَالٍ عَشْرٍ لَعَلَّ الْمُرَادَ بِهَا اللَّيَالِي الْعَشْرَ مِنْ أَوَّلِ ذِي الْحِجَّةِ إِلَى عَاشِرِهَا وَ التَّنْكِيرُ لِلتَّفْخِيمِ.

وقيل: المراد بها الليالي العشر من آخر شهر رمضان، وقيل: الليالي العشر من أول المحرم، وقيل: المراد عبادة ليال عشر على تقدير أن يراد بالفجر صلاه الفجر.

وقوله: وَ الشَّفْعِ وَ الوَتْرِ يَقْبَلُ الانطِبَاقَ عَلَى يَوْمِ التَّرْوِيهِ وَ يَوْمِ عَرَفَةَ وَ هُوَ الْأَنْسَبُ عَلَى تَقْدِيرِ أَنْ يَرَادَ بِالْفَجْرِ وَ لَيَالٍ عَشْرَ فَجْرِ ذِي الْحِجَّةِ وَ الْعَشْرَ الْأَوَّلَ مِنْ لَيَالِيهَا.

وقوله: وَ اللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ أَي يَمْضَى فَهُوَ كَقَوْلِهِ: وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (المدثر ٣٣) وَ ظَاهِرُهُ أَنَّ اللَّامَ لِلجِنْسِ فَالْمُرَادُ بِهِ مَطْلَقَ آخِرِ اللَّيْلِ، وَ قِيلَ: الْمُرَادُ بِهِ لَيْلَةُ الْمَزْدَلِفَةِ وَ هِيَ لَيْلَةُ النَّحْرِ الَّتِي يَسْرَى فِيهَا الْحَاجُّ مِنْ عَرَفَاتٍ إِلَى الْمَزْدَلِفَةِ فَيَجْتَمِعُ فِيهَا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ثُمَّ يَغْدُو مِنْهَا إِلَى مَنَى وَ هُوَ كَمَا تَرَى وَ خَاصَّةً عَلَى الْقَوْلِ بِكَوْنِ الْمُرَادِ بِلَيَالٍ عَشْرَ هُوَ اللَّيَالِي الْعَشْرَ الْأَوَّلَ مِنْهَا.

وقوله: هَيْلٌ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِمَدَى حِجْرِ الْإِشَارَةِ بِذَلِكَ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْقَسَمِ، وَ الْإِسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ، وَ الْمَعْنَى أَنَّ فِي ذَلِكَ الَّذِي قَدَّمَ نَاهٍ قَسَمًا كَافِيًا لِمَنْ لَهُ عَقْلٌ يَفْقَهُ بِهِ الْقَوْلَ وَ يَمَيِّزُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَ إِذَا أَقْسَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِأَمْرٍ - وَ لَا يَقْسَمُ إِلَّا بِمَا لَهُ شَرَفٌ وَ مَنَزَلَةٌ - كَانَ مِنَ الْقَوْلِ الْحَقِّ الْمَوْكَدِ الَّذِي لَا رَيْبَ فِي صِدْقِهِ.

و جواب الأقسام المذكوره محذوف يدل عليه ما سيذكر من عذاب أهل الطغيان و الكفران في الدنيا و الآخرة و ثواب النفوس المطمئنه، و أن إنعامه تعالى على من أنعم عليه و إمساكه عنه فيمن أمسك إنما هو ابتلاء و امتحان.

و حذف الجواب و الإشاره اليه على طريق التكنيه أوقع و أكد في باب الإنذار و التبشير.

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ هُم عَادُ الْأُولَى قَوْمٌ هُودٌ تَكَرَّرَتْ

قصتهم فى القرآن الكرىم و أشىر الى أنهم كانوا بالأحقاف، و قد قدمنا ما يتحصل من قصصهم فى القرآن الكرىم فى تفسىر سورة هود.

قوله تعالى: **إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ الْعَمَادِ** و جمعه عمد ما يعتمد عليه الأبنیه، و ظاهر الآيتين أن إرم كانت مدينه لهم معموره عديمه النظير ذات قصور عاليه و عمد ممدده، و قد انقطعت أخبار القوم عهدهم و انمحت آثارهم، فلا سبيل الى الحصول على تفصیل حالهم تطمئن إليها النفس إلا- ما قصه القرآن الكرىم من إجمال قصتهم أنهم كانوا بعد قوم نوح قاطنين بالأحقاف و كانوا ذوى بسطه فى الخلق أولى قوه و بطش شديد، و كان لهم تقدم ورقى فى المدينه و الحضاره لم بلاد عامره و أراض خصبه ذات جنات و نخيل و زروع و مقام كرىم و قد تقدمت القصه.

قوله تعالى: **وَ ثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ الْجُوبِ** القطع أى قطعوا صخر الجبال بنحتها بيوتا فهو فى معنى قوله: **وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا** (الشعراء ١٤٩).

قوله تعالى: **وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ** هو فرعون موسى، و سمي ذا الأوتاد-على ما فى بعض الروايات-لأنه كان إذا أراد أن يعذب رجلا بسطه على الأرض و وتد يديه و رجله بأربعة أوتاد فى الأرض و ربما بسطه على خشب و فعل به ذلك، و يؤيده ما حكاه الله من قوله يهدد السحره إذ آمنوا بموسى: **وَ لَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ** (طه ٧١) فإنهم كانوا يوتدون يدي المصلوب و رجله على خشبه الصليب.

قوله تعالى: **الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ** صفه للمذكورين من عاد و ثمود و فرعون، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: **فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَيْطَ عَذَابٍ** صب الماء معروف و صب سوط العذاب كناية عن التعذيب المتتابع المتواتر الشديد، و تنكير عذاب للتفخيم.

و المعنى فأنزل ربك على كل من هؤلاء الطاغين المكثرين للفساد إثر طغيانهم و اكثارهم

الفساد عذابا شديدا متتابعاً متواليًا لا يوصف.

قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ المرصاد المكان الذى يرصد منه ويرقب و كونه تعالى على المرصاد استعاره تمثليه شبه فيها حفظه تعالى لأعمال عباده بمن يقعد على المرصاد يرقب من يراد رقبه فيأخذه حين يمر به و هو لا يشعر فالله سبحانه رقيب يرقب أعمال عباده حتى إذا طغوا و أكثروا الفساد أخذهم بأشد العذاب.

و فى الآيه تعليل ما تقدم من حديث تعذيب الطغاه المكثرين للفساد من الماضين و فى قوله: «رَبَّكَ» باضافه الرب الى ضمير الخطاب تلويح الى أن سنه العذاب جاريه فى أمته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على ما جرت عليه فى الامم الماضين.

قوله تعالى: فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ متفرع على ما قبله، فيه تفصيل حال الإنسان إذا أوتى من نعم الدنيا أو حرم كأنه قيل: إن الإنسان تحت رقوب إلهي يرصده ربه هل يصلح أو يفسد؟ و يبتليه و يمتحنه فيما آتاه من نعمه أو حرمه هذا هو الأمر فى نفسه و أما الإنسان فإنه إذا أنعم الله عليه بنعمه حسب أن ذلك اكرام الهى له أن يفعل بها ما يشاء فيطغى و يكثر الفساد، و إذا أمسك و قدر عليه رزقه حسب أنه اهانه الهيه فيكفر و يجزع.

فقوله: «فَأَمَّا الْإِنْسَانُ» المراد به النوع بحسب الطبع الأولى فاللام للجنس دون الاستغراق.

و قوله: إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ أى امتحنه و اختبره، و العامل فى الظرف محذوف تقديره كائنا اذا، الخ؛ و قيل: العامل فيه «فَيَقُولُ» .

و قوله: فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ تفسير للابتلاء، و المراد بالإكرام و التنعيم الصوريان و ان شئت فقل: الإكرام و التنعيم حدوثا لإبقاء أى أنه تعالى أكرمه و آتاه النعمه ليشكره و يعبده لكنه جعلها نقمه على نفسه تستتبع العذاب.

وقوله: **فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ** أى جعلنى على كرامه منه بالنعمة التى آتانيها و ان شئت فقل: القدره و الجده الموهوبتان اكرام و تنعيم حدوثا و بقاء فلى أن افعل ما أشاء.

و الجملة أعنى قوله: **«فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ»** حكاية ما يراه الإنسان بحسب الطبع، و قول الإنسان: **«رَبِّي أَكْرَمَنِ»** الظاهر فى نسبه التدبير الى الله سبحانه- و لا- يقول به الوثنيه و المنكرون للصانع- مبنى على اعترافه بحسب الفطره به تعالى و إن استنكف عنه لسانا، و أيضا لرعايه المقابله مع قوله: **«إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ»**.

قوله تعالى: **وَ أَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ** أى و أما إذا ما امتحنه و اختبره فضيق عليه رزقه فيقول ربي أذلنى و استخف بي.

قوله تعالى: **كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَ لَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ** ردع لقولهم: إن الكرامه هى فى الغنى و التمتع، و فى الفقر و الفقران هوان و مذله، و المعنى ليس كما تقولون و إنما يتأوه تعالى النعمة و امساكه عنه كل ذلك ابتلاء و امتحان يختبر به حال الإنسان من حيث عبوديته.

و فى قوله: **بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ** الخ؛ إضراب يؤكده الردع بذكر بعض التمتع الذى لا يجامع الكرامه البته كعدم إكرامهم اليتيم بأكل تراثه و منعه منه و عدم التحريض على إطعام المسكين حبا للمال فالفطره الإنسانية لا يرتاب فى أن لا كرامه فى غنى هذا شأنه.

و فى الإضراب مضافا الى أصل الردع تقريع و لتشديد هذا التقريع وقع الالتفات من الغيبه الى الخطاب.

فقوله: **بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ** عدم إكرامه حرمانه من تراث أبيه- كما كانوا يحرمون صغار الأولاد من الإرث- و تركه صفر الكف بلغ به الجهد ما بلغ كما يؤيده الآيه التاليه **«وَ تَأْكُلُونَ التُّرَاثَ»** الخ.

و قوله: **وَ لَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ** أصله و لا تتحاضون، و هو

تحريض بعضهم بعضا على التصدق على المساكين المعدمين، و منشؤه حب المال كما فى الآيه الآتية «وَتُحِبُّونَ الْمَالَ» الخ.

قوله تعالى: «وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمَّا لَلَّمْ أَكَلِ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ وَ أَكَلَهُ مَا يَجِدُهُ مِنْ دُونِ أَنْ يَمِيزَ الطَّيِّبَ مِنَ الْخَبِيثِ»، والآيه تفسير لعدم إكرامهم اليتيم كما تقدم.

قوله تعالى: «وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا الْجَمُّ الْكَثِيرُ الْعَظِيمُ»، والآيه تفسر عدم تحاضهم على طعام المسكين كما تقدم.

قوله تعالى: «كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا الدَّكُّ هُوَ الدَّقُّ الشَّدِيدُ»، والمراد بالظرف حضور يوم القيامة.

ردع ثان عما يقول الإنسان فى حالى الغنى و الفقر، وقوله: «إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ» الخ؛ فى مقام التعليل للردع، و محصل المعنى ليس كما يقوله الإنسان فإنه سيتذكر إذا قامت القيامة أن الحياه الدنيا و ما فيها من الغنى و لا فقر و أضرابهما لم تكن مقصوده بالذات بل كانت ابتلاء و امتحانا من الله تعالى يميز به السعيد من الشقى و يهيب الإنسان فيها ما يعيش به فى الآخره و قد التبس عليه الأمر فحسبها كرامه مقصوده بالذات فاشتغل بها و لم يقدم لحياته الآخره شيئا فيتمنى عند ذلك و يقول: يا ليتنى قدمت لحياتى و لن يصرف التمنى عنه شيئا من العذاب.

قوله تعالى: «وَجَاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صِهًّا صِهًّا نَسَبَهُ الْمَجِيءُ إِلَيْهِ تَعَالَى مِنَ الْمُشَابَهَةِ الَّذِي يَحْكُمُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» (الشورى ١١) و ما ورد فى آيات القيامة من خواص اليوم كتقطع الأسباب و ارتفاع الحجب عنهم و ظهور أن الله هو الحق المبين.

و الى ذلك يرجع ما ورد فى الروايات أن المراد بمجيئه تعالى مجيء أمره قال تعالى:

«وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (الانفطار ١٩)، و يؤيد هذا الوجه بعض التأييد قوله تعالى: هَيْلٌ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْعَمَامِ وَ الْمَلَائِكَةُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ (البقره ٢١٠) إذا

انضم الى قوله: هَيْلٌ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ (النحل ٣٣) و عليه فهناك مضاف محذوف و التقدير جاء أمر ربك أو نسبه المجيء اليه تعالى من المجاز العقلي.

و الكلام فى نسبه المجيء الى الملائكه و كونهم صفا صفا كما مر.

قوله تعالى: وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ الى آخر الآيه؛ لا يبعد أن يكون المراد بالمجىء بجهنم إبرازها لهم كما فى قوله تعالى: وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (النازعات ٣٦) و قوله:

وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (الشعراء ٩١)، و قوله: لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمْ فَبَصَرُكُمْ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق ٢٢).

و قوله: يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ أى يتذكر أجلي التذكر أن ما كان يؤتاه فى الحياه الدنيا من خير أو شر كان من ابتلاء الله و امتحانه و أنه قصر فى أمره، هذا ما يفيداه السياق.

و قوله: «وَ أَنَّى لَهُ الذُّكْرَى» أى و من أين له الذكرى كناية عن عدم انتفاعه بها فإن الذكرى إنما تنفع فيما أمكنه أن يتدارك ما فرط فيه بتوبه و عمل صالح و اليوم يوم الجزاء لا يوم الرجوع و العمل.

قوله تعالى: يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي أى لحياتى هذه و هى الحياه الآخره أو المراد الحياه الحقيقيه و هى الحياه الآخره على ما نبه تعالى عليه بقوله: وَ مَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوَ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (العنكبوت ٦٤).

و المراد بالتقديم للحياه تقديم العمل الصالح للحياه الآخره و ما فى الآيه تمن يتمناه الإنسان عند ما يتذكر يوم القيامة و يشاهد أنه لا ينفعه.

قوله تعالى: فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَ لَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ضَمِيرًا «عَذَابُهُ وَ وَثَاقُهُ» لله تعالى و المعنى فيومئذ لا يعذب عذاب الله أحد من الخلق و لا يوثق وثاق الله أحد من الخلق أى إن عذابه و وثاقه تعالى يومئذ فوق عذاب الخلق و وثاقهم، تشديد فى

و قرء «لَا يُعَذِّبُ» بفتح الذال و «وَلَا يُوثِقُ» بفتح التاء بالبناء للمفعول و ضميرا «عَذَابُهُ وَثَاقَهُ» على هذا للإنسان و المعنى لا يعذب أحد يومئذ مثل عذاب الانسان و لا يوثق أحد يومئذ مثل وثاقه.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ الِذِى يعطيه سياق المقابلة بين هذه النفس بما ذكر لها من الأوصاف و عين لها من حسن المنقلب و بين الإنسان المذكور قبل بما ذكر له من وصف التعلق بالدنيا و الطغيان و الفساد و الكفران، و ما أوعد من سوء المصير هو أن النفس المطمئنة هي التي تسكن الى ربها و ترضى بما رضى به فترى نفسها عبدا لا يملك لنفسه شيئا من خير أو شر أو نفع أو ضرر و يرى الدنيا دار مجاز و ما يستقبله فيها من غنى أو فقر أو أى نفع و ضرر ابتلاء و امتحانا إلهيا فلا يدعوه تواتر النعم عليه الى الطغيان و إكثار الفساد و العلو و الاستكبار، و لا يوقعه الفقر و الفقران فى الكفر و ترك الشكر بل هو فى مستقر من العبودية لا ينحرف عن مستقيم صراطه بإفراط أو تفريط.

قوله تعالى: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً﴾ خطاب ظرفه جميع يوم القيامة من لدن إحياؤها الى استقرارها فى الجنة بل من حين نزول الموت الى دخول جنة الخلد و ليس خطابا واقعا بعد الحساب كما ذكره بعضهم.

و توصيفها بالراضية لأن اطمئنانها الى ربها يستلزم رضاها بما قدر و قضى تكويننا أو حكم به تشريعا فلا تسخطها سانحه و لا تزيغها معصية، و إذا رضى العبد من ربه رضى الرب منه إذ لا يسخطه تعالى إلا خروج العبد من زى العبودية فإذا لزم طريق العبودية استوجب ذلك رضى ربه و لذا عقب قوله: «رَاضِيَةً» بقوله: «مَرْضِيَةً» .

قوله تعالى: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ تفريع على قوله: «ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ» و فيه دلالة على أن صاحب النفس المطمئنة فى زمره عباد الله حائز مقام العبودية.

و ذلك أنه لما اطمأن الى ربه انقطع عن دعوى الاستقلال و رضى بما هو الحق من ربه فرأى ذاته و صفاته و أفعاله ملكا طلقا لربه فلم يرد فيما قدر و قضى و لا فيما أمر و نهى إلا ما أراد ربه، و هذا ظهور العبوديه التامه فى العبد ففى قوله: «فَادْخُلِي فِي عِبَادِي» تقرير لمقام عبوديتها.

و فى قوله: «وَ ادْخُلِي جَنَّتِي» تعيين لمستقرها، و فى إضافه الجنه الى ضمير التكلم تشریف خاص، و لا- يوجد فى كلامه تعالى إضافه الجنه الى نفسه تعالى و تقدس الى فى هذه الآيه (1).

ص: ٦٨٣

١ - ١). الفجر ١-٣٠: بحث روائى فى: الشفع و الوتر، تسميه فرعون ذا الاوتاد يوم القيامة؛ قبض روح المؤمن و تمثل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و امير المؤمنين و فاطمه و الحسن و الحسين و الائمة من ذريتهم عليهم السلام له.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَا أُفْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَالسَّيِّدِ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي
كَبَدٍ (٤) أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (٦) أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَ
لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي
مَسْعَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧)
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ (٢٠)

تذكر السوره أن خلقه الانسان مبنيه على التعب و المشقه فلا تجد شأنا من شئون الحياه إلا مقرونا بمراره الكد و التعب من حين يلج في جثمانه الروح الى أن يموت فلا- راحه له عاربه من التعب و المشقه و لا سعادته له خالصه من الشقاء و المشأمه إلا فى الدار الآخره عند الله.

فليتحمل ثقل التكاليف الإلهيه بالصبر على الطاعه و عن المعصيه و ليجد فى نشر الرحمه على المبتلين بنوائب الدهر كاليتم و الفقر و المرض و اضرابها حتى يكون من أصحاب الميمنه و إلا فأخرته كاولاه و هو من أصحاب المشأمه عليهم نار مؤصده.

و سياق آيات السوره، يشبه السياق المكى فيؤيد به كون السوره مكيه و قد ادعى بعضهم عليه الاجماع، و قيل: السوره مدنيه و السياق لا يساعد عليه، و قيل: مدنيه إلا أربع آيات من

أولها و سيأتي في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ذكروا أن المراد بهذا البلد مكة و تؤيده مكيه سياق السوره و قوله: «وَالِدٍ وَمَا وَلَدٍ» خاصه بناء على كون المراد بوالد هو ابراهيم عليه السلام على ما سيجيء.

قوله تعالى: وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ حال من هذا البلد، و وضع الظاهر موضع الضمير في قوله: «بِهَذَا الْبَلَدِ» للدلاله على عظم شأنه و الاعتناء بأمره و هو البلد الحرام، و الحل مصدر كالحلول بمعنى الإقامه و الاستقرار في مكان و المصدر بمعنى الفاعل.

و المعنى أقسم بهذا البلد و الحال أنك حال به مقيم فيه و في ذلك تنبيه على تشرف مكة بحلولة صلى الله عليه و آله و سلم فيها و كونه مولده و مقامه.

قوله تعالى: «وَالِدٍ وَمَا وَلَدٍ» و لَمَدَ لزوم نوع من التناسب و الارتباط بين القسم و المقسم عليه يستدعي أن يكون المراد بوالد و ما ولد من بينه و بين البلد المقسم به نسبه ظاهره و ينطبق على ابراهيم و ولده إسماعيل عليهما السلام و هما السببان الأصليان لبناء بلده مكة و البانيان للبيت الحرام قال تعالى: «وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْمَاعِيلُ (البقره ١٢٧)» و ابراهيم عليه السلام هو الذى سأل الله أن يجعل مكة بلدا آمنا قال تعالى: «وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا (إبراهيم ٣٥)». و تنكير «وَالِدٍ» للتعظيم و التفخيم، و التعبير بقوله:

«وَمَا وَلَدٍ» دون أن يقال: و من ولد، للدلاله على التعجب من أمره مدحا كما في قوله: «وَاللَّهُ أَغْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ (آل عمران ٣٦)».

و المعنى و اقسام بوالد عظيم الشأن هو ابراهيم و ما ولد من ولد عجيب أمره مبارك اثره و هو إسماعيل ابنه و هما البانيان لهذا البلد فمفاد الآيات الثلاث الإقسام بمكة المشرفه و بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم الذى هو حل فيها و بابراهيم و إسماعيل اللذين بناها.

قوله تعالى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ الكبد الكد و التعب، و الجملة جواب

القسم فاشتمال الكبد على خلق الإنسان و إحاطه الكدّ و التعب به فى جميع شئون حياته مما لا يخفى على ذى لب فليس يقصد نعمه من نعم الدنيا إلا- خالصه فى طيبتها محضه فى هنائها و لا- ينال شيئاً منها إلا- مشوبه بما ينغص العيش مقرونه بمقاساه و مكابده مضافا الى ما يصيبه من نوائب الدهر و يفاجئه من طوارق الحدثان.

قوله تعالى: أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَفْعَدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ بِمَنْزَلِهِ التَّيْجِ لِحُجَّةِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ تَقْرِيرُهَا أَنَّ الْإِنْسَانَ لَمَّا كَانَتْ خَلَقَتَهُ مَبْنِيَةً عَلَى كِبَدٍ مَظْرُوفَةٍ لَهُ لَا يَنَالُ قَطُّ شَيْئًا مِمَّا يَرِيدُ إِلَّا دُونَ مَا يَرِيدُ أَوْ غَيْرَ مَا يَرِيدُ فَهُوَ مُحَاطٌ فِي خَلْقِهِ مَغْلُوبٌ فِي إِرَادَتِهِ مَقْهُورٌ فِيمَا قَدَرَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ وَ الَّذِى يَغْلِبُهُ فِي إِرَادَتِهِ وَ يَقْهَرُهُ عَلَى التَّلْبَسِ بِمَا قَدَرَ لَهُ وَ هُوَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ فَلَهُ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِيهِ بِمَا شَاءَ وَ يَأْخُذَهُ إِذَا أَرَادَ.

فليس للإنسان أن يحسب أن لن يقدر عليه أحد فيدعوه ذلك الى أن يعلو على الله و يستكبر عن عبادته أو يعطيه فى بعض ما أمر به كالإنفاق فى سبيله فيستكثره و يمتن به على الله أو يمكر به تعالى بعد ما عمله رياء و سمعه عملا- لوجه الكريم فيقول: أهلكت مالا لبدأ.

قوله تعالى: يُقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا اللبّد الكثير، سياق الآية و ما يتلوها من الآيات الى آخر السوره مشعر بأنه كان هناك بعض من أظهر الإسلام أو مال اليه فقد أنفق بعض ماله و امتن به مستكثرا له بقوله: «أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا» فنزلت الآيات و رد الله عليه بأن الفوز بميمنه الحياه لا- يتم إلا- باقتحام عقبه الإنفاق فى سبيل الله و الدخول فى زمرة الذين آمنوا و تواصلوا بالصبر و المرحمه، و يتأيد به ما سيأتى فى البحث الروائى إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ يُنْكِرُ لَمَّا هُوَ لَازِمٌ قَوْلُ الْإِنْسَانِ «أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا» على طريق التكنيه و محصل المعنى أن لازم إخبار الإنسان بإهلاكه مالا لبدأ أنه يحسب أنا فى غفله و جهل بما أنفق و قد أخطأ فى ذلك فالله سبحانه بصير بما أنفق لكن هذا المقدار لا يكفى فى الفوز بميمنه الحياه بل لا بد له من أن يتحمل ما هو أزيد من ذلك من مشاق

العبودية فيفتحهم العقبة و يكون مع المؤمنين في جميع ما هم فيه.

قوله تعالى: أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَ لِسَانًا وَ شَفَتَيْنِ وَ هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ النجد الطريق المرتفع، و المراد بالنجدين طريق الخير و طريق الشر و سميا النجدين لما في سلوك كل منهما من الجهد و الكدح، و فسرا بثدي الام و هو بعيد.

و قوله: أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ أى جهزناه في بدنه بما يبصر به فيحصل له العلم بالمرئيات على سعه نطاقها، و قوله: «وَ لِسَانًا وَ شَفَتَيْنِ» أى أ و لم نجعل له لسانا و شفيتين يستعين بها على التكلم و الدلالة على ما في ضميره من العلم و يهتدى بذلك غيره على العلم بالامور الغائبة عن البصر.

و قوله: وَ هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ أى علمناه طريق الخير و طريق الشر بالهام منا فهو يعرف الخير و يميزه من الشر فالآيه في معنى قوله تعالى: وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا (الشمس ٨).

قوله تعالى: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ الاقتحام الدخول بسرعه و ضغط و شده، و العقبة الطريق الصعب الوعر الذى فيه صعود من الجبل، و اقتحام العقبة إشاره الى الإنفاق الذى يشق على منفقته كما سيصرح به.

قوله تعالى: وَ مَا أَذْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ تفخيم لشأنها كما مر في نظائره.

قوله تعالى: فَكُ رَقَبَةٍ أى عتقها و تحريرها أو التقدير هى أى العقبة فك رقبه فالمراد بالعقبه نفس الفك الذى هو العمل و اقتحامه الإتيان به، و الإتيان بالعمل نفس العمل.

و ما ذكر في بيان العقبة من فك الرقبه و الإطعام في يوم ذى مسغبه من مصاديق نشر الرحمه خص بالذكر لمكان الأهميه، و قدم فك الرقبه و ابتدئ به لكمال عنايه الدين بفك الرقاب.

قوله تعالى: أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ المسغبه المجاعه، و المقربه القرابه بالنسب، و المتربه من التراب و معناها الالتصاق

بالتراب من شدة الفقر، والمعنى أو إطعام في يوم المجاعة يتيما من ذى القربى أو مسكينا شديد الفقر.

قوله تعالى: **ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ الْمَرْحَمَةَ** مصدر ميمي من الرحمة، والتواصى بالصبر وصيه بعضهم بعضا بالصبر على طاعة الله والتواصى بالمرحمة وصيه بعضهم بعضا بالرحمة على ذوى الفقر والفاقة والمسكنه.

او الجملة أعنى قوله: **«ثُمَّ كَانَ»** الخ؛ معطوفه على قول **«أَفْتَحَمَ»** والتقدير فلا اقتحم العقبه و لا كان من الذين آمنوا، الخ؛ وقيل فيها غير ذلك مما لا جدوى فيه.

قوله تعالى: **أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ** بمعنى اليمن مقابل الشؤم، والإشارة بأولئك الى ما يدل عليه السياق السابق أى الذين اقتحموا العقبه و كانوا من الذين آمنوا و تواصوا بالصبر و المرحمة أصحاب اليمين لا- يرون مما قدموه من الإيمان و عملهم الصالح إلا أمرا مباركا جميلا مرضيا.

قوله تعالى: **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ** الآيات الآفقيه و الانفسيه آيات و أدله عليه تعالى تدل على توحيده فى الربوبيه و الالهويه و سائر ما يتفرع عليه و ردها كفر بها و الكفر بها كفر بالله و كذا القرآن الكريم و آياته، و كذا ما نزل و بلغ طريق الرساله.

و الظاهر أن المراد بالآيات مطلقها، و المشأمه خلاف الميمنه.

قوله تعالى: **عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ** أى مطبقه (١).

ص: ٦٨٩

١- ١). البلد ١-٢٠: بحث روائى فى حرمه مكه و الكعبه؛ النجدين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ; وَ الشَّمْسِ وَ ضُحَاهَا (١) وَ الْقَمَرِ إِذَا تَلَاها (٢) وَ النَّهَارِ إِذَا جَلَاها (٣) وَ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَ
السَّمَاءِ وَ مَا بَنَاهَا (٥) وَ الْأَرْضِ وَ مَا طَرَاهَا (٦) وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَ قَدْ
خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ
فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَ لَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)

تذكر السوره أن فلاح الانسان-و هو يعرف التقوى و الفجور بتعريف إلهى و إلهام باطنى- أن يزكى نفسه و ينميها إنماء صالحا بتحليتها بالتقوى و تطهيرها من الفجور، و الخيبه و الحرمان من السعاده لمن يدسّيها، و يستشهد لذلك بما جرى على ثمود من عذاب الاستئصال لما كذبوا رسولهم صالحا و عقروا الناقه، و فى ذلك تعريض لأهل مكه، و السوره مكيه بشهاده من سياقها.

قوله تعالى: وَ الشَّمْسِ وَ ضُحَاهَا فى المفردات: الضحى انبساط الشمس و امتداد النهار و سُمى الوقت به انتهى. و الضمير للشمس، و فى الآيه إقسام بالشمس و انبساط ضوئها على الأرض.

قوله تعالى: وَ الْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا عَطْفٌ عَلَى الشَّمْسِ و الضمير لها و إقسام بالقمر حال كونه تاليا للشمس، و المراد بتلوه لها إن كان كسبه النور منها فالحال حال دائمه و إن كان طلوعه بعد غروبها فالإقسام به من حال كونه هلالا الى حال تبدّره.

قوله تعالى: وَ النَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا التجليه الإظهار و الإبراز، و ضمير التأنيث للأرض، و المعنى و أقسم بالنهار إذا أظهر الأرض للأبصار.

وقيل: ضمير الفاعل في «جَلَّاهَا» للنهار و ضمير المفعول للشمس، و المراد الإقسام بحال إظهار النهار للشمس فإنها تنجلي و تظهر إذا انبسط النهار، و فيه أنه لا يلائم ما تقدمه فان الشمس هي المظهره للنهار دون العكس.

قوله تعالى: وَ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا أَي يَغْطِي الْأَرْضَ، فالضمير للأرض كما في «جَلَّاهَا» .

و التعبير عن غشيان الليل الأرض بالمضارع بخلاف تجليه النار لها حيث قيل «وَ النَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا وَ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا» للدلالة على الحال ليكون فيه إيحاء الى غشيان الفجور الارض في الزمن الحاضر الذي هو أوائل ظهور الدعوه الاسلاميه لما تقدم أن بين هذه الاقسام و بين المقسم بها نوع اتصال و ارتباط، هذا مضافا الى رعايه الفواصل.

قوله تعالى: وَ السَّمَاءِ وَ مَا بَنَاهَا وَ الْأَرْضِ وَ مَا طَحَّاهَا طحو الأرض و دحوها بسطها، و «مَا» في «وَ مَا بَنَاهَا» و «مَا طَحَّاهَا» موصوله، و الذي بناها و طحاها هو الله تعالى و التعبير عنه تعالى بما دون من لإيثار الإبهام المفيد للتفخيم و التعجيب فالمعنى و أقسم بالسماء و الشيء القوى العجيب الذي بناها و أقسم بالأرض و الشيء القوى العجيب الذي بسطها.

قوله تعالى: وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا أَي و أقسم بنفس و الشيء ذى القدره و العلم و الحكمة الذى سواها و رتب خلقتها و نظم أعضائها و عدل بين قواها.

و تنكير «نَفْسٍ» قيل: للتنكير، و قيل: للتفخيم و لا يبعد أن يكون التنكير للإشارة الى أن لها وصفا و أن لها نبأ.

و المراد بالنفس النفس الانسانيه مطلقا و قيل: المراد بها نفس آدم عليه السَّلام و لا يلائمه السياق و خاصه قوله: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَ قَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا» إلا بالاستخدام على أنه لا موجب للتخصيص.

قوله تعالى: فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا الفجور-على ما ذكره الراغب-شق ستر الديانته فاللهي عن فعل أو عن ترك حجاب مضروب دونه حائل بين الانسان و بينه و اقرار المنهى عنه شق للستر و خرق للحجاب.

و التقوى-على ما ذكره الراغب-جعل النفس في وقايه مما يخاف،و المراد بها بقريته المقابله في الآيه بينها و بين الفجور التجنب عن الفجور و التحرز عن المنافي و قد فسرت في الروايه بأنها الورع عن محارم الله.

و الإلهام الإلقاء في الروع و هو إفاضته تعالى الصور العلميه من تصور أو تصديق على النفس.

و تعليق الإلهام على عنواني فجور النفس و تقواها للدلاله على أن المراد تعريفه تعالى للانسان صفه فعله من تقوى أو فجور وراء تعريفه متن الفعل بعنوانه الأولى المشترك بين التقوى و الفجور كأكل المال مثلا المشترك بين أكل مال اليتيم الذي هو فجور و بين أكل مال نفسه الذي هو من التقوى،و المباشره المشتركه بين الزنا و هو فجور و النكاح و هو من التقوى و بالجمله المراد أنه تعالى عرّف الانسان كون ما يأتي به من فعل فجورا أو تقوى و ميز له ما هو تقوى مما هو فجور.

و تفريع الإلهام على التسويه في قوله: «وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا» الخ؛ للاشاره الى أن إلهام الفجور و التقوى و هو العقل العملي من تكميل تسويه النفس فهو من نعوت خلقتها كما قال تعالى: فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ (الروم ٣٠).

و اضافه الفجور و التقوى الى ضمير النفس للاشاره الى أن المراد بالفجور و التقوى الملهمين الفجور و التقوى المختصين بهذه النفس المذكوره و هي النفس الانسانيه و نفوس الجن على ما يظهر من الكتاب العزيز من كونهم مكلفين بالإيمان و العمل الصالح.

قوله تعالى: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا الفلاح هو الظفر بالمطلوب وإدراك البغية، والخيه خلافه، والزكاه نمو النبات نموا صالحا ذا بركه و التزكية إنماؤه كذلك، والتدسى -و هو من الدس بقلب إحدى السينين ياء- إدخال الشيء فى الشيء بضرب من الإخفاء، والمراد بها بقرينه مقابله التزكية: الانماء على غير ما يقتضيه طبعها و ركبت عليه نفسها.

و الآية أعنى قوله: «قَدْ أَفْلَحَ» الخ؛ جواب القسم، وقوله: «وَقَدْ خَابَ» الخ؛ معطوف عليه.

و التعبير بالتزكية و التدسى عن إصلاح النفس و افسادها مبتن على ما يدل عليه قوله:

«فَالَهُمْهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا» على أن من كمال النفس الانسانيه أنها ملهمه مميزه -بحسب فطرتها- للفجور من التقوى أى أن الدين و هو الاسلام لله فيما يريده فطرى للنفس فتحليه النفس بالتقوى تزكيه و انماء صالح و تزويد لها بما يمددها فى بقائها قال تعالى: وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَ اتَّقُونِ يَا أُولَى الْأَلْبَابِ (البقره ١٩٧/١) و أمرها فى الفجور على خلاف التقوى.

قوله تعالى: كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا الطغوى مصدر كالطغيان، و الباء للسببيه.

و الآية و ما يتلوها الى آخر السوره استشهاد و تقرير لما تقدم من قوله: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا» الخ.

قوله تعالى: إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ظرف لقوله: «كَذَّبَتْ» أو لقوله: «بِطَغْوَاهَا» و المراد بأشقى ثمود هو الذى عقر الناقه و اسمه على ما فى الروايات قدار بن سالف و قد كان انبعثه ببعث القوم كما تدل عليه الآيات التاليه بما فيها من ضمائر الجمع.

قوله تعالى: فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا المراد برسول الله صالح عليه السلام نبي ثمود، وقوله: «نَاقَةَ اللَّهِ» منصوب على التحذير، وقوله: «وَسُقْيَاهَا» معطوف

عليه.

و المعنى فقال لهم صالح برسالة من الله: احذروا ناقة الله و سقياها و لا تتعرضوا لها بقتلها أو منعها عن نوبتها فى شرب الماء، و قد فصل الله القصة فى سورة هود و غيرها.

قوله تعالى: فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمِدَمَ عَلَيْهِم رَّبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا العقر إصابه أصل الشىء و يطلق على نحر البعير و القتل، و الدمدمه على الشىء الاطباق عليه يقال:

دمدم عليه القبر أى أطبقه عليه و المراد شمولهم بعذاب يقطع دابرهم و يمحو أثرهم بسبب ذنبهم.

و قوله: فَسَوَّاهَا الظاهر أن الضمير لثمود باعتبار أنهم قبيله أى فسواها بالأرض أو هو تسويه الأرض بمعنى تسطيحها و اعفاء ما فيها من ارتفاع و انخفاض.

قوله تعالى: وَ لَا يَخَافُ عُقْبَاهَا الضمير للدمدمه أو التسويه، و الواو للاستئناف أو الحال.

و المعنى: و لا يخاف ربهم عاقبه الدمدمه عليهم و تسويتهم كما يخاف الملوك و الأقوياء عاقبه عقاب أعدائهم و تبعته، لأن عواقب الامور هى ما يريد و على وفق ما يأذن فيه فالآيه قريبه المعنى من قوله تعالى: لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ (الأنبياء ٢٣) (١).

ص: ٦٩٥

١-١). الشمس ١-١٦: بحث روائى فى النفس و ما سواها، القضاء و القدر، معنى انتساب التزكيه و التخييب؛ الى الله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(١) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٣) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٤) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٥) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٦) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٧) فَسَنِيَّ لَهُ لِيَسْرَى (٨) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٩) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (١٠) فَسَنِيَّ لَهُ لَلْعُسْرَى (١١) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١٢) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٣) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (١٤) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٥) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٦) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٧) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٨) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٩) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (٢٠) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢١) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢٢)

غرض السوره الانذار و تسلك اليه بالإشاره الى اختلاف مساعى الناس و أن منهم من أنفق و اتقى و صدق بالحسنى فسيمكنه الله من حياه خالده سعيده و منهم من بخل و استغنى و كذب بالحسنى فسيسلك الله به الى شقاء العاقبه، و فى السوره اهتمام و عنايه خاصه بأمر الإنفاق المالى.

و السوره تحتل المكيه و المدنيه بحسب سياقها.

قوله تعالى: وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۚ إِقْسَامٌ بِاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ النَّهَارَ عَلَىٰ حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى:

يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ (الأعراف ٥٤)، و يحتمل أن يكون المراد غشيانه الأرض أو الشمس.

قوله تعالى: وَ النَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى عَظْفِ اللَّيْلِ، والتجلى ظهور الشيء بعد خفائه، والتعبير عن صفه الليل بالمضارع و عن صفه النهار بالماضى حيث قيل «يَعْشَى» و «تَجَلَّى» تقدم فيه وجه فى تفسير أول السوره السابقه.

قوله تعالى: وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى عَظْفِ عَلَى اللَّيْلِ كسابقه، و «مَا» موصوله و المراد به الله سبحانه و إنما عبّر بما دون من، إيثارا للإبهام المشعر بالتعظيم و التفخيم و المعنى و أقسم بالشيء العجيب الذى أوجد الذكر و الانثى المختلفين على كونهما من نوع واحد.

قوله تعالى: إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَى السعى هو المشى السريع، و المراد به العمل من حيث يهتم به، و هو فى معنى الجمع، و شتى جمع شتيت بمعنى المتفرق كمرضى جمع مريض.

و الجمله جواب القسم و المعنى أقسم بهذه المتفرقات خلقا و أثرا إن مساعيكم لمتفرقات فى نفسها و آثارها فمنها إعطاء و تقوى و تصديق و لها أثر خاص بها، و منها بخل و استغناء و تكذيب و لها أثر خاص بها.

قوله تعالى: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَ اتَّقَى وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى تفصيل تفرق مساعيتهم و اختلاف آثارها.

و المراد بالإعطاء إنفاق المال لوجه الله بقرينه مقابلته للبخل الظاهر فى الإمساك عن إنفاق المال و قوله بعد: «وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى» .

و قوله: وَ اتَّقَى كالمفسر للإعطاء يفيد أن المراد هو الإعطاء على سبيل التقوى الدينيه.

و قوله: وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنَى صفه قائمه مقام الموصوف و الظاهر أن التقدير بالعهده الحسنى و هى ما وعد الله من الثواب على الانفاق لوجهه الكريم و هو تصديق البعث و الايمان به و لآزمه الايمان بوحدانته تعالى فى الربوبيه و الالوهيه، و كذا الايمان بالرساله فإنها

طريق بلوغ وعده تعالى للشواب.

و محصل الآيتين أن يكون مؤمنا بالله و رسوله و اليوم الآخر و ينفق المال لوجه الله و ابتغاء ثوابه الذى وعده بلسان رسوله.

و قوله: فَسَيُسِّرُهُ لِلْعُسْرَى التيسير التهيئة و الإعداد و اليسرى الخصله التى فيها يسر من غير عسر، و توصيفها باليسر بنوع من التجوز فالمراد من تيسيره لليسرى توفيقه للأعمال الصالحة بتسهيلها عليه من غير تعسير أو جعله مستعدا للحياه السعيده عند ربه و دخول الجنة بسبب الأعمال الصالحه التى يأتى بها، و الوجه الثانى أقرب و أوضح انطباقا على ما هو المعهود من مواعد القرآن.

قوله تعالى: وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنَى وَ كَذَّبَ بِالْحُسَيْنِ فَسَيُسِّرُهُ لِلْعُسْرَى وَ مَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى الْبَخْلَ مِقَابِلَ الْإِعْطَاءِ، و الاستغناء طلب الغنى و الثروه بالإسك و الجمع، و المراد بالتكذيب بالحسنى الكفر بالعهده الحسنى و ثواب الله الذى بلغه الأنبياء و الرسل و يرجع الى انكار البعث.

و المراد بتيسيره للعسرى خذلانه بعدم توفيقه للأعمال الصالحه، بتثقلها عليه و عدم شرح صدره للإيمان أو اعداده للعذاب.

و قوله: وَ مَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى التردى هو السقوط من مكان عال و يطلق على الهلاك فالمراد سقوطه فى حفرة القبر أو فى جهنم أو هلاكه.

و «مَا» استفهاميه أو نافية أى أى شىء يغنيه ماله اذا مات و هلك أو ليس يغنى عنه ماله إذا مات و هلك.

قوله تعالى: إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى وَ إِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَ الْأُولَى تَعْلِيلَ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ حَدِيثِ تَيْسِيرِهِ لِلْيُسْرَى وَ لِلْعُسْرَى أَوْ الْإِخْبَارِ بِهِ بِأَوْجُزِ بَيَانٍ، محصله أنا إنما نفعل هذا التيسير أو نبين هذا البيان لأنه من الهدى و الهدى علينا لا يزاحمنا فى ذلك شىء و لا يمنعنا

فقوله: إِنَّ عَلَيْنَا لِلْهُدَىٰ يُفِيدُ أَنْ هَدَى النَّاسَ مِمَّا قَضَىٰ سَبْحَانَهُ بِهِ وَأَوْجِبَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِمَقْتَضَى الْحِكْمَةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ خَلَقَهُمْ لِيَعْبُدُوهُ كَمَا قَالَ: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (الذاريات ٥٦) فجعل عبادته غايه لخلقهم وجعلها صراطا مستقيما اليه كما قال:

إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (آل عمران ٥١)، وقال: وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ (الشورى ٥٣) وقضى على نفسه أن يبين لهم سبيله ويهديهم اليه بمعنى إراءه الطريق سواء سلكوها أم تركوها كما قال: وَعَلَى اللَّهِ قَضِيْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِزٌ (النحل ٩)، وقال: وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (الأحزاب ٤) وقال: إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (الإنسان ٣) ولا ينافى ذلك قيام غيره تعالى بأمر هذا المعنى من الهدى بإذنه كالأنبياء كما قال تعالى: وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (الشورى ٥٢)، وقال: قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي (يوسف ١٠٨).

وقوله: وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ أَى عَالَمِ الْبَدءِ وَ عَالَمِ الْعُودِ فَكُلٌ مَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ شَيْءٌ فَهُوَ مَمْلُوكٌ لَهُ تَعَالَى بِحَقِيْقِهِ الْمَلِكُ الَّذِي هُوَ قِيَامٌ وَجُودُهُ بَرَبُهُ الْقَيُّومُ وَيَتَفَرَّغُ عَلَيْهِ الْمَلِكُ الْاِعْتِبَارِي الَّذِي مِنْ آثَارِهِ جَوَازُ التَّصَرُّفَاتِ.

فهو تعالى يملك كل شىء من كل جهه فلا يملك شىء منه شيئا فلا معارض يعارضه ولا مانع يمنعُه ولا شىء يغلبه كما قال: وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ (الرعد ٤١) وقال: وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ (يوسف ٢١)، وقال: وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (إبراهيم ٢٧).

قوله تعالى: فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلْتَظِي لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى تَفْرِيعٌ عَلَىٰ مَا تَقَدَّمَ أَى إِذَا كَانَ الْهُدَىٰ عَلَيْنَا فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارَ جَهَنَّمَ وَبِذَلِكَ يُوْجِهُ مَا فِي قَوْلِهِ: «فَأَنْذَرْتُكُمْ» مِنَ الْاِلْتِفَاتِ عَنِ التَّكَلُّمِ مَعَ الْغَيْرِ إِلَى التَّكَلُّمِ وَحْدَهُ أَى إِذَا كَانَ الْهُدَى

مقضيته محتومه فالمنذر بالأصالة هو الله و إن كان بلسان رسوله.

و تلظى النار تلهبها و توهجها، و المراد بالنار التي تتلظى جهنم كما قال تعالى: [□] كَلَّا إِنَّهَا لَلظَى (المعارج/١٥).

و المراد بالأشقى مطلق الكافر الذي يكفر بالتكذيب و التولى فإنه أشقى من سائر من شقى في دنياه فمن ابتلى في بدنه شقى و من أصيب في ماله أو ولده مثلا شقى و من خسر في أمر آخرته شقى و الشقى في أمر آخرته أشقى من غيره لكون شقوته أبعده مطمع في التخلص منها بخلاف الشقوه في شأن من شئون الدنيا فإنها مقطوعه لا محاله مرجوه الزوال عاجلا.

فالمراد بالأشقى هو الكافر المكذب بالدعوه الحقه المعرض عنها على ما يدل عليه توصيفه بقوله: «الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى» و يؤيده إطلاق الإنذار، و أما الأشقى بمعنى أشقى الناس كلهم فمما لا يساعد عليه السياق البتة.

و المراد بصلى النار اتباعها و لزومها فيفيد معنى الخلود و هو مما قضى الله به في حق الكافر، قال تعالى: [□] وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقره / ٣٩).

قوله تعالى: [□] وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى [□] وَ مَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى [□] التَّجْنِيبُ التبعيد، و ضمير «سَيُجَنَّبُهَا» للنار، و المعنى سيبعد عن النار الأتقى.

و المراد بالأتقى من هو أتقى من غيره ممن يتقى المخاطر فهناك من يتقى ضيعه النفوس كالموت و القتل و من يتقى فساد الأموال و من يتقى العدم و الفقر فيمسك عن بذل المال و هكذا و منهم من يتقى الله فيبذل المال، و أتقى هؤلاء الطوائف من يتقى الله فيبذل المال لوجهه و إن شئت فقل يتقى خسران الآخرة فيتركى بالإعطاء.

فالمفضّل عليه للأتقى هو من يتقى بإعطاء المال و إن اتقى سائر المخاطر الدينويه أو اتقى الله

فآلآيه عامه بحسب مدلولها غير خاصه و يدل عليه توصيف الـتقى بقوله: «الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ» الخ؛ و هو وصف عام و كذا ما يتلوه، و لا ينافى ذلك كون الآيات أو جميع السوره نازله لسبب خاص كما ورد فى أسباب النزول.

و أما إطلاق المفضل عليه بحيث يشمل جميع الناس من طالح أو صالح و لازمه انحصار المفضل فى واحد مطلقاً أو واحد فى كل عصر، و يكون المعنى و سيجنبها من هو أتقى الناس كلهم و كذا المعنى فى نظيره: لا- يصلها إلا أشقى الناس كلهم فلا يساعد عليه سياق آيات صدر السوره، و كذا الإنذار العام الذى فى قوله: «فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى» فلا معنى لأن يقال:

أنذرتكم جميعاً ناراً لا يخلد فيها إلا واحد منكم جميعاً و لا ينجو منها إلا واحد منكم جميعاً.

و قوله: «الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى» صفة للأتقى أى الذى يعطى و ينفق ماله يطلب بذلك أن ينمو نماء صالحاً.

و قوله: «وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى» تقرير لمضمون الآيه السابقه أى ليس لأحد عنده من نعمه تجزى تلك النعمه بما يؤتیه من المال و تكافأ و إنما يؤتیه لوجه الله و يؤيد هذا المعنى تعقيبه بقوله: «إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى» .

فالتقدير من نعمه تجزى به، و إنما حذف الظرف رعايه للفواصل، و يندفع بذلك ما قيل لا إن بناء «تُجْزَى» للمفعول لأن القصد ليس لفاعل معين.

قوله تعالى: «إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى» استثناء منقطع و المعنى و لكنه يؤتى ماله طلباً لوجه ربه الأعلى و قد تقدم كلام فى معنى وجه الله و فى معنى الاسم الأعلى.

قوله تعالى: «وَلَسَوْفَ يَرْضَى» أى و لسوف يرضى هذا الأتقى بما يؤتیه ربه الأعلى من الأجر الجزيل و الجزاء الحسن الجميل.

و فى ذكر صفتى الرب الأعلى إشعار بأن ما يؤتاه من الجزاء أنعم الجزاء و أعلاه و هو

المناسب لربوبيته تعالى وعلوه، و من هنا يظهر وجه الالتفات في الآية السابقه في قوله:

«وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى» من سياق التكلم وحده الى الغيبه بالإشاره الى الوصفين: ربه الأعلى (١).

ص: ٧٠٣

١-١). الليل ١-٢١: بحث روائي في قوله تعالى: «وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ»، أقسام الله تعالى، وصف على عليه السلام، الهدايه و الاضلال.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(۱) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (۲) وَمَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (۳) وَ لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ
الْأُولَىٰ (۴) وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (۵) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (۶) وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (۷) وَ وَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ
(۸) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (۹) وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (۱۰) وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (۱۱)

قيل: انقطع الوحي عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أيما حتى قالوا: إن ربه ودَّعه فنزلت السورة فطُيب اللهُ بِهَا نَفْسَهُ، وَالسُّورَةُ تَحْتَمِلُ الْمَكِّيَّةَ وَالْمَدِينِيَّةَ.

قوله تعالى: وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ -إقسام، والضحي -على ما فى المفردات- انبساط الشمس و امتداد النهار و سمي الوقت به، و سجو الليل سكونه و هو غشيان ظلمته.

قوله تعالى: ۞ وَدَّعَكَ رَبُّكَ ۞ وَمَا قَلَىٰ التوديع الترك، و القلى بكسر القاف البغض أو شدته، و الآية جواب القسم، و مناسبه نور النهار و ظلمه الليل لنزول الوحي و انقطاعه ظاهره.

قوله تعالى: ۞ وَاللَّخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۞ فى معنى الترقى بالنسبه الى ما تفيدته الآية السابقه من كونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على ما هو عليه من موقف الكرامه و العناية الإلهيه كأنه قيل:

أنت على ما كنت عليه من الفضل و الرحمه ما دمت حيا فى الدنيا و حياتك الآخره خير لك من حياتك الدنيا.

قوله تعالى: ۞ وَكَسُوفٌ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۞ تقرير و تثبيت لقوله: «وَاللَّخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۞» و قد اشتمل الوعد على عطاء مطلق يتبعه رضى مطلق.

و قيل: الآية ناظره الى الحياتين جميعا دون الحياه الآخره فقط.

قوله تعالى: أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۞ الآية و ما يتلوها من الآيتين إشارة الى بعض نعمه تعالى العظام عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقد مات أبوه و هو فى بطن أمه ثم ماتت أمه و هو ابن سنتين ثم مات جدّه الكفيل له و هو ابن ثمان سنين فكفله عمه و رباه.

و قيل: المراد باليتيم الوحيد الذى لا نظير له فى الناس كما يقال: در يتيم، و المعنى أ لم يجدك

وحيدا بين الناس فأوى الناس اليك و جمعهم حولك.

قوله تعالى: وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى المراد بالضلال عدم الهدايه و المراد بكونه صَلَّى الله عليه و آله و سلم ضالا حاله فى نفسه مع قطع النظر عن هدايته تعالى فلا هدى له صَلَّى الله عليه و آله و سلم و لا لأحد من الخلق إلا بالله سبحانه فقد كانت نفسه فى نفسها ضاله و إن كانت الهدايه الإلهيه ملازمه لها منذ وجدت فالآيه فى معنى قوله تعالى: مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَ لَا الْإِيمَانُ (الشورى / ٥٢)، و من هذا الباب قول موسى على ما حكى الله عنه فَعَلَّمْتَهَا إِذَا وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (الشعراء / ٢٠) أى لم أهدت بهدى الرساله بعد.

قوله تعالى: وَ وَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى العائل الفقير الذى لا مال له و قد كان صَلَّى الله عليه و آله و سلم فقيرا لا مال له فأغناه الله بعد ما تزوج بخديجه بنت خويلد عليها السلام فوهبت له مالها و كان لها مال كثير، و قيل المراد بالإغناء استجابته دعوته.

قوله تعالى: فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ قَالَ الراغب: القهر الغلبه و التذليل معا و يستعمل فى كل واحد منهما، انتهى.

قوله تعالى: وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ النهر هو الزجر و الرد بغلظه.

قوله تعالى: وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ التحديث بالنعمة ذكرها قولاً و إظهارها فعلاً و ذلك شكرها، و هذه الأوامر عامه للناس و ان كانت موجهه الى النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم (١).

ص: ٧٠٦

(١-١). الضحى ١-١١: بحث روائى فى نعمه تعالى لرسوله صَلَّى الله عليه و آله و سلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا
لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)

أمر بالنصب في الله و الرغبة اليه توصل اليه بتقديمه الامتان و السوره تحتمل المكيه

و فى بعض الروايات عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام أن الضحى و أ لم نشرح سوره واحده، و يروى ذلك أيضا عن طاوس و عمر بن عبد العزيز قال الرازى فى التفسير الكبير بعد نقله عنهما: و الذى دعاها الى ذلك هو أن قوله تعالى: «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ» كالعطف على قوله: «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا» و ليس كذلك لأن الأول كان نزوله حال اغتمام الرسول صلّى الله عليه و آله و سلّم من إيذاء الكفار فكانت حال محنه و ضيق صدره، و الثانى يقتضى أن يكون حال النزول منشرح الصدر طيب القلب فأنى يجتمعان انتهى.

و فيه أن المراد بشرح صدره صلّى الله عليه و آله و سلّم فى الآيه جعله بحيث يسع ما يلقى اليه من الحقائق و لا يضيق بما ينزل عليه من المعارف و ما يصيبه من أذى الناس فى تبليغها كما سيجىء لا طيب القلب و السرور كما فسره.

قوله تعالى: «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صِدْرَكَ» قال الراغب: أصل الشرح بسط اللحم و نحوه يقال: شرحت اللحم و شرحته و منه شرح الصدر أى بسطته بنور إلهى و سكينه من جهه الله و روح منه قال تعالى: «رَبِّ اشْرَحْ لِي صِدْرِي» «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صِدْرَكَ» «فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ» انتهى.

و ترتب الآيات الثلاث الاول فى مضامينها ثم تعليلها بقوله: «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» الظاهر فى الانطباق على حاله صلّى الله عليه و آله و سلّم فى أوائل دعوته و أواسطها و أواخرها ثم تكرار التعليل ثم تفریع آيتى آخر السوره كل ذلك يشهد على كون المراد بشرح صدره صلّى الله عليه و آله و سلّم بسطه بحيث يسع ما يلقى اليه من الوحي و يؤمر بتبليغه و ما يصيبه من المكاره و الأذى فى الله، و بعبارة اخرى جعل نفسه المقدسه مستعده تامه الاستعداد لقبول ما يفاض عليها من جانب الله تعالى.

قوله تعالى: «وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ الوزر الحمل الثقيل،

و إنقاض الظهر كسره بحيث يسمع له صوت كما يسمع من السرير و نحوه عند استقرار شىء ثقيل عليه، و المراد به ظهور ثقل الوزر عليه ظهوراً بالغاً.

و وضع الوزر إذهب ما يحس من ثقله و جملة «و وَضَعْنَا عَنْكَ وَزْرَكَ» معطوفه على قوله:

«أَلَمْ نَشْرَحْ» الخ؛ لما أن معناه قد شرحنا لك صدرك.

و المراد بوضع وزره صَلَّى الله عليه و آله و سَلَّمَ على ما يفيد السياق -و قد أشرنا اليه- إنفاذ دعوته و إمضاء مجاهدته فى الله بتوفيق الأسباب فإن الرسالة و الدعوه و ما يتفرع على ذلك هى الثقل الذى حمله إثر شرح صدره.

قوله تعالى: «وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ» رفع الذكر إعلاؤه عن مستوى ذكر غيره من الناس و قد فعل سبحانه به ذلك، و من رفع ذكره أن قرن الله اسمه صَلَّى الله عليه و آله و سَلَّمَ باسمه فاسمه قرين اسم ربه فى الشهادات اللتين هما أساس دين الله، و على كل مسلم أن يذكره مع ربه كل يوم فى الصلوات الخمس المفروضة، و من اللطف و قوع الرفع بعد الوضع فى الآيتين.

قوله تعالى: «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» لا يبعد أن يكون تعليلاً لما تقدم من وضع الوزر و رفع الذكر فما حمله الله من الرسالة و أمر به من الدعوه -و ذلك أثقل ما يمكن لبشر أن يحمله- كان قد اشتد عليه الأمر بذلك، و كذا تكذيب قومه دعوته و استخفافهم به و إصرارهم على امحاء ذكره كان قد اشتد عليه فوضع الله وزره الذى حمله بتوفيق الناس لإجابه دعوته و رفع ذكره الذى كانوا يريدون إمحاءه و كان ذلك جرياً على سنته تعالى فى الكون من الإتيان باليسر بعد العسر فعلى رفع الشده عنه صَلَّى الله عليه و آله و سَلَّمَ بما أشار اليه من سنته، و على هذا فاللام فى «الْعُسْرِ» للجنس دون الاستغراق و لعل السنه سنه تحوّل الحوادث و تقلب الأحوال و عدم دوامها.

قوله تعالى: «إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» تكرار للتأكيد و التثبيت و قيل: استئناف و ذكروا أن فى الآيتين دلالة على أن مع العسر واحد يسران بناء على أن المعرفة إذا أعيدت ثانياً فى الكلام كان المراد بها عين الاولى بخلاف النكره كما أنه لو قيل: إذا اكتسبت الدرهم أو درهما

فأنفق الدرهم كان المراد بالثاني هو الأول بخلاف ما لو قيل: إذا اكتسبت درهما فأنفق درهما و ليست القاعده بمطرده.

و التنوين فى «يُسْرًا» للتنويع لا للتفخيم كما ذكره بعضهم، و المعيه معيه التوالى دون المعيه بمعنى التحقق فى زمان واحد.

قوله تعالى: **فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ** خطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم متفرع على ما بين قبل من تحميلة الرساله و الدعوه و منه تعالى عليه بما من من شرح الصدر و وضع الوزر و رفع الذكر و كل ذلك من اليسر بعد العسر.

و عليه فالمعنى إذا كان العسر يأتى بعده اليسر و الأمر فيه الى الله لا غير فإذا فرغت مما فرض عليك فاتعب نفسك فى الله- بعبادته و دعائه- و ارغب فيه ليمن عليك بما لهذا التعب من الراحة و لهذا العسر من اليسر.

سوره التين مكيه و هي ثمان آيات

اشاره

[سوره التين (٩٥): الآيات ١ الى ٨]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨)

بيان:

تذكر السوره البعث و الجزاء و تسلك اليه من طريق خلق الإنسان في أحسن تقويم ثم

ص: ٧١١

اختلافهم بالبقاء على الفطره الاولى و خروجهم منها بالانحطاط الى أسفل سافلين و وجوب التمييز بين الطائفتين جزاء باقتضاء الحكمة.

و السوره مكيه و تحتمل المدنيه و يؤيد نزولها بمكه قوله: «وَ هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ» و ليس بصريح فيه لاحتمال نزولها بعد الهجره و هو صلى الله عليه و آله و سلم بمكه.

قوله تعالى: وَ التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ وَ طُورِ سِينِينَ وَ هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ قيل: المراد بالتين و الزيتون الفاكهتان المعروفتان أقسم الله بهما لما فيهما من الفوائد الجمه و الخواص النافعه، و قيل المراد بهما شجرتا التين و الزيتون، و قيل: المراد بالتين الجبل الذى عليه دمشق و بالزيتون الجبل الذى عليه بيت المقدس، و لعل اطلاق اسم الفاكهتين على الجبلين لكونهما منبئتهما و لعل الإقسام بهما لكونهما مبعثى جم غفير من الأنبياء و قيل غير ذلك.

و المراد بطول سينين الجبل الذى كلم الله تعالى فيه موسى بن عمران عليه السلام، و يسمى أيضا طور سيناء.

و المراد بهذا البلد الأمين مكه المشرفه لأن الأمن خاصه مشرعه للحرم و هى فيه قال تعالى: أَو لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا (العنكبوت ٦٧) و فى دعاء ابراهيم عليه السلام على ما حكى الله عنه رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا (البقره ١٢٦)، و فى دعائه ثانيا رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا (إبراهيم ٣٥).

و فى الإشاره بهذا الى البلد تثبت التشريف عليه بالتشخيص و توصيفه بالأمين إما لكونه فعيلًا بمعنى الفاعل و يفيد معنى النسبه و المعنى ذى الأمن كاللابن و التامر و إما لكونه فعيلًا بمعنى المفعول و المراد البلد الذى يؤمن الناس فيه أى لا يخاف فيه من غوائلهم ففى نسبه الأمن الى البلد نوع تجوّز.

قوله تعالى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ جواب للقسم و المراد بكون خلقه فى أحسن تقويم اشتمال التقويم عليه فى جميع شئونه و جهات وجوده، و التقويم

جعل الشيء ذا قوام وقوام الشيء ما يقوم به ويثبت فالإنسان والمراد به الجنس ذو أحسن قوام بحسب الخلقه.

و معنى كونه ذا أحسن قوام بحسب الخلقه على ما يستفاد من قوله بعد: «ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ» الخ؛ صلوحه بحسب الخلقه للعروج الى الرفيع الأعلى و الفوز بحياه خالده عند ربه سعيده لا- شقوه معها، و ذلك بما جهزه الله به من العلم النافع و مكنه منه من العمل الصالح قال تعالى: وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا (الشمس ٨) فإذا آمن بما علم و زاول صالح العمل رفعه الله اليه كما قال: إِلَيْهِ يَصِيرُ عَدُوُّ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ يَرْفَعُهُ (فاطر ١٠)، و قال: وَ لَكِنَّ يَذَّالِقُ الْتَّقْوَى مِنْكُمْ (الحج ٣٧).

و قال: يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (المجادله ١١) و قال: فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (طه ٧٥) الى غير ذلك من الآيات الداله على ارتفاع مقام الإنسان و ارتقائه بالإيمان و العمل الصالح عطاء من الله غير مجذوذ، و قد سمّاه تعالى أجرا كما يشير اليه قوله الآتي: «فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» .

قوله تعالى: ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ظاهر الرد أن يكون بمعناه المعروف فأسفل منصوب بنزع الخافض، و المراد بأسفل سافلين مقام منحط هو أسفل من سفلى من أهل الشقوه و الخسران و المعنى ثم رددنا الإنسان الى أسفل من سفلى من أهل العذاب.

و احتمال أن يكون الرد بمعنى الجعل أى جعلناه أسفل سافلين، و أن يكون بمعنى التغيير و المعنى ثم غيرناه حال كونه أسفل جمع سافلين، و المراد بالسفاله على أى حال الشقاء و العذاب.

قوله تعالى: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ أى غير مقطوع استثناء متصل من جنس الإنسان، و تفریع قوله: «فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» عليه يؤيد كون المراد من رده الى أسفل سافلين رده الى الشقاء و العذاب.

قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ الخطاب للإنسان باعتبار الجنس، وقيل للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والمراد غيره، و«ما» استفهامية توبيخية، و«بالدين» متعلق بيكذبك، و«الدين الجزاء» والمعنى -على ما قيل- ما الذى يجعلك مكذبا بالجزاء يوم القيامة بعد ما جعلنا الإنسان طائفتين طائفه مردوده الى أسفل سافلين و طائفه مأجوره اجرا غير ممنون.

□ وقوله: أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ الاستفهام للتقرير و كونه تعالى أحكم الحاكمين هو كونه فوق كل حاكم فى إتقان الحكم و حقيقته و نفوذه من غير اضطراب و وهن و بطلان فهو تعالى يحكم فى خلقه و تدبيره بما من الواجب فى الحكمه أن يحكم به الناس من حيث الإتقان و الحسن و النفوذ و إذا كان الله تعالى أحكم الحاكمين و الناس طائفتان مختلفتان اعتقادا و عملا فمن الواجب فى الحكمه أن يميز بينهم بالجزاء فى حياتهم الباقية و هو البعث.

فالتفريع فى قوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ من قبيل تفريع النتيجة على الحجة و قوله:

□ «أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ» تتميم للحجة المشار إليها بما يتوقف عليه تمامها.

و المحصل أنه إذا كان الناس خلقوا فى أحسن تقويم ثم اختلفوا فطائفه خرجت عن تقويمها الأحسن و ردت الى أسفل سافلين و طائفه بقيت فى تقويمها الأحسن و على فطرتها الاولى و الله المدبر لأمرهم أحكم الحاكمين، و من الواجب فى الحكمه أن تختلف الطائفتان جزاء، فهناك يوم تجزى فيه كل طائفه بما عملت و لا مسوغ للتكذيب به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بِأَفْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَن لِيْقَطْعِي (٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْجَلِي (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعِي (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسِفَعَنَّٰ بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)

أمر للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بتلقى القرآن بالوحي منه تعالى و هي أول سورة نزلت من القرآن، و سياق آياتها لا يأبى نزولها دفعه واحده كما سنشير اليه، و هي مكيه قطعاً.

قوله تعالى: **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ** قال الراغب: و القراءه ضم الحروف و الكلمات بعضها الى بعض في الترتيل، و ليس يقال ذلك لكل جمع لا يقال: قرأت القوم إذا جمعتهم، و يدل على ذلك أنه لا يقال: للحرف الواحد إذا تفوه به: قراءه انتهى.

و على أى حال، يقال: قرأت الكتاب إذا جمعت ما فيه من الحروف و الكلمات بضم بعضها الى بعض فى الذهن و إن لم تتلفظ بها، و يقال: قرأته إذا جمعت الحروف و الكلمات بضم بعضها الى بعض فى التلفظ، و يقال قرأته عليه إذا جمعت بين حروفه و كلماته فى سمعه و يطلق عليها بهذا المعنى التلاوه أيضاً قال تعالى: **رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً** (البينه ٢).

و ظاهر إطلاق قوله: «أقرأ» المعنى الأول و المراد به الأمر بتلقى ما يوحى إليه ملك الوحي من القرآن فالجمله أمر بقراءة الكتاب و هى من الكتاب كقول القائل فى مفتتح كتابه لمن أرسله إليه: اقرأ كتابى هذا و اعمل به فقوله هذا أمر بقراءة الكتاب و هو من الكتاب.

و هذا السياق يؤيد أولاً ما ورد أن الآيات أول ما نزل من القرآن على النبي صلى الله عليه و آله و سلم.

و ثانياً أن التقدير اقرأ القرآن أو ما فى معناه، و ليس المراد مطلق القراءة باستعمال «أقرأ» استعمال الفعل اللازم بالإعراض عن المفعول، و لا المراد القراءة على الناس بحذف المتعلق و إن كان ذلك من أغراض النزول كما قال: وَ قُرْآنًا فَرَقْنَا لَهُ لِيَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (الإسراء ١٠٦)، و لا أن قوله: «بِاسْمِ رَبِّكَ» مفعول «أقرأ» و الباء زائده و التقدير اقرأ اسم ربك أى بسمل.

و قوله: بِاسْمِ رَبِّكَ متعلق بمقدّر نحو مفتتحا و مبتدأ أو باقراً و الباء للملابسه و لا ينافى ذلك كون البسملة المبتدأه بها السوره جزء من السوره فهى من كلام الله افتتح سبحانه بها و أمر أن يقرأ مبتدأ بها كما أمر أن يقرأ قوله: «أقرأ باسم» الخ؛ فففيه تعليم بالعمل نظير الأمر بالاستثناء فى قوله: وَ لَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ (الكهف / ٢٤) فافهم ذلك.

و فى قوله: رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ إشاره الى قصر الربوبيه فى الله عز اسمه و هو توحيد الربوبيه المقتضيه لقصر العباده فيه فإن المشركين كانوا يقولون: إن الله سبحانه ليس له إلا الخلق و الإيجاد و أما الربوبيه و هى الملك و التدبير فلمقرَّبى خلقه من الملائكه و الجن و الإنس فدفعه الله بقوله: «رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ» الناص على أن الربوبيه و الخلق له وحده.

و قوله: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ المراد جنس الإنسان المتناسل و العلق الدم المنجمد و المراد به ما يستحيل إليه النطفه فى الرحم.

ففى الآيه إشاره الى التدبير الإلهى الوارد على الإنسان من حين كان علقه الى حين يصير

إنسانا تاما كاملا له من أعاجيب الصفاف و الأفعال ما تتحير فيه العقول فلم يتم الإنسان إنسانا و لم يكمل إلا بتدبير متعاقب منه تعالى و هو بعينه خلق بعد خلق فهو تعالى رب مدبر لأمر الإنسان بعين أنه خالق له فليس للإنسان إلا أن يتخذه وحده ربا ففى الكلام احتجاج على توحيد الربوبية.

قوله تعالى: **اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** أمر بالقراءة ثانيا تأكيد للأمر الأول على ما هو ظاهر سياق الإطلاق.

و قوله: **وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ** أى الذى يفوق عطاؤه عطاء ما سواه فهو تعالى يعطى لا عن استحقاق و ما من نعمه إلا و ينتهى إيتاؤها اليه تعالى.

و قوله: **الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ** الباء للسببية أى علّم القراءة أو الكتابة و القراءة بواسطة القلم و الجملة حاله او استثنافيه، و الكلام مسوق لتقوية نفس النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و إزاله القلق و الاضطراب عنها حيث أمر بالقراءة و هو امى لا يكتب و لا يقرأ كأنه قيل: اقرأ كتاب ربك الذى يوحى اليك و لا تخف و الحال أن ربك الأكرم الذى علّم الإنسان القراءة بواسطة القلم الذى يخط به فهو قادر على أن يعلمك قراءه كتابه و أنت امى و قد أمرك بالقراءة و لو لم يقدرك عليها لم يأمرك بها.

ثم عمم سبحانه النعمه فذكر تعليمه للإنسان ما لم يعلم فقال: **«عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»** و فيه مزيد تقويه لقلب النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و تطيب لنفسه.

و المراد بالإنسان الجنس كما هو ظاهر السياق و قيل: المراد به آدم عليه السلام.

قوله تعالى: **كَلَّا- إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ** أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْجَلِي رَدْعَ عَمَّا يَسْتَفَادُ مِنَ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ أَنَّهُ تَعَالَى أَنْعَمَ عَلَى الْإِنْسَانَ بَعْظَائِهِ نَعْمَ مِثْلَ التَّعْلِيمِ بِالْقَلَمِ وَ سَائِرَ مَا عَلَّمَ وَ التَّعْلِيمَ مِنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ فَعَلَى الْإِنْسَانَ أَنْ يَشْكُرَهُ عَلَى ذَلِكَ لَكِنَّهُ يَكْفُرُ بِنِعْمَتِهِ تَعَالَى وَ يَطْغَى.

وقوله: إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ، وهو إخبار بما فى طبع الإنسان ذلك كقوله: إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ (إبراهيم ٣٤).

وقوله: أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْجَلِيَّ مِنْ الرَّأْيِ دُونَ الرَّؤْيَةِ الْبَصْرِيَّةِ، وفاعل «رَأَاهُ» ومفعوله الإنسان. وجملة «أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْجَلِيَّ» فى مقام التعليل أى ليطغى لأنه يعتقد نفسه مستغنيا عن ربه المنعم عليه فيكفر به، وذلك أنه يشتغل بنفسه والأسباب الظاهرية التى يتوصل بها الى مقاصده فيغفل عن ربه من غير أن يرى حاجه منه اليه تبعثه الى ذكره و شكره على نعمه فينساه و يطغى.

قوله تعالى: إِنَّ إِلَهِي رَبِّيكَ الرَّجْعِيُّ الرَّجْعِيُّ هو الرجوع و الظاهر من سياق الوعيد الآتى أنه وعيد و تهديد بالموت و البعث، و الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، وقيل: الخطاب للإنسان بطريق الالتفات للتشديد، و الأول أظهر.

قوله تعالى: أَرَأَيْتَ الَّذِي يُنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَىٰ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّىٰ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ بمنزله ذكر بعض المصاديق للإنسان الطاغى و هو كالتوطئه لوعيده بتصريح العقاب و النهى عن طاعته و الأمر بعبادته تعالى، و المراد بالعبد الذى كان يصلى هو النبي صلى الله عليه و آله و سلم على ما يستفاد من آخر الآيات حيث ينهاه صلى الله عليه و آله و سلم عن طاعه ذلك الناهى و يأمره بالسجود و الاقتراب.

و سياق الآيات-على تقدير كون السوره أول ما نزل من القرآن و نزولها دفعه واحده- يدل على صلاحه النبي صلى الله عليه و آله و سلم قبل نزول القرآن و فيه دلالة على نبوته قبل رسالته بالقرآن.

وقوله: أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ المراد به العلم على طريق الاستلزام فإن لازم الاعتقاد بأن الله خالق كل شىء هو الاعتقاد بأن له علما بكل شىء و إن غفل عنه و قد كان الناهى وثنيا مشركا و الوثنية معترفون بأن الله هو خالق كل شىء و ينزهونه عن صفات النقص فيرون أنه تعالى لا يجهل شيئا و لا يعجز عن شىء و هكذا.

قوله تعالى: كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَه لَنْسِفَعَا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَهُ كَاذِبِهِ خَاطِئِهِ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: وَ السَّفْعُ الْجَذْبُ الشَّدِيدُ يُقَالُ: سَفَعْتُ بِالشَّيْءِ إِذَا قَبِضْتَ عَلَيْهِ وَ جَذَبْتَهُ جَذْبًا شَدِيدًا.

انتهى، و في توصيف الناصيه بالكذب و الخطأ و هما وصفا صاحب الناصيه مجاز.

و في الكلام ردع و تهديد شديد، و المعنى ليس الأمر كما يقول و يريد أو ليس له ذلك.

أقسم لئن لم يكف عن نهيه و لم ينصرف لناخذنّ بناصيته أخذ الذليل المهان و نجذبته الى العذاب تلك الناصيه التي صاحبها كاذب فيما يقول خاطئ فيما يفعل، و قيل: المعنى لنسمنّ ناصيته بالنار و نسودنها.

قوله تعالى: فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَدَّ زُبَانِيَةَ النَّادِي الْمَجْلِسِ وَ كَأَنَّ الْمَرَادَ بِهِ أَهْلَ الْمَجْلِسِ أَيْ الْجَمْعَ الَّذِينَ يَجْتَمِعُ بِهِمْ، وَ قِيلَ: الْجَلِيسُ، وَ الزَّبَانِيَةُ الْمَلَأَتْكَ الْمَوْكَلُونَ بِالنَّارِ، وَ قِيلَ: الزَّبَانِيَةُ فِي كَلَامِهِمُ الشَّرْطُ، وَ الْأَمْرُ تَعْجِيزِي أُشِيرُ بِهِ إِلَى شِدَّةِ الْأَخْذِ وَ الْمَعْنَى فَلْيَدْعُ هَذَا النَّاهِي جَمْعَهُ لِيَنْجُوهُ مِنْ سَدِّ زُبَانِيَةِ الْغَلَاظِ الشَّدَادِ الَّذِينَ لَا يَنْفَعُ مَعَهُمْ نَصْرُ نَاصِرٍ.

قوله تعالى: كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَ اسْتَجِدْ وَ اقْتَرِبْ تَكَرَّرَ الرَّدْعُ لِلتَّكْيِيدِ، وَ قَوْلُهُ: «لَا تُطَعُّهُ» أَيْ لَا تَطَعُهُ فِي النَّهْيِ عَنِ الصَّلَاةِ وَ هِيَ الْقَرِينَةُ عَلَى أَنَّ الْمَرَادَ بِالسُّجُودِ الصَّلَاةَ، وَ لَعَلَّ الصَّلَاةَ الَّتِي كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يَأْتِي بِهَا يَوْمَئِذٍ كَانَتْ تَسِيحُهُ تَعَالَى وَ السُّجُودَ لَهُ وَ قِيلَ: الْمَرَادُ بِهِ السُّجُودَ لِقِرَاءَةِ هَذِهِ السُّورَةِ الَّتِي هِيَ إِحْدَى الْعَزَائِمِ الْأَرْبَعِ فِي الْقُرْآنِ.

و الاقتراب التقرب الى الله، و قيل: الاقتراب من ثواب الله تعالى (١).

ص: ٧٢٠

١ - ١). العلق ١-١٩: بحث روائي في: نزول الوحي الى رسول الله؛ بعثه رسول الله الكريم الذي ينهى رسول الله اذا صلى؛ سورة العزائم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ; إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَذْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣)
تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطَلَعِ الْفَجْرِ (٥)

تذكر السوره إنزال القرآن في ليله القدر و تعظم الليله بتفضيلها على ألف شهر و تنزل الملائكه و الروح فيها، و السوره تحتل المكيه و المدينه و لا يخلو بعض (١) ما روى في سبب نزولها عن أئمه أهل البيت عليهم السلام و غيرهم من تأييد لكونها مدينه.

١- ١). و هو ما دل على أن السوره نزلت بعد رؤيا النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن بنى اميه يصعدون منبره فاغتم فسلاه الله بها.

قوله تعالى: **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ** ضمير «أَنْزَلْنَاهُ» للقرآن و ظاهره جملة الكتاب العزيز لا بعض آياته و يؤيده التعبير بالإنزال الظاهر في اعتبار الدفعه دون التنزيل الظاهر في التدريج.

و في معنى الآية قوله تعالى: **وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ** (الدخان ٣) و ظاهره الإقسام بجملة الكتاب المبين ثم الإخبار عن إنزال ما اقسام به جملة.

فمدلول الآيات أن للقرآن نزولا- جمليا على النبي صلى الله عليه و آله و سلم غير نزوله التدريجي الذي تم في مده ثلاث و عشرين سنة كما يشير اليه قوله: **وَ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَ نَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا** (الإسراء ١٠٦)، و قوله: **وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَ رَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا** (الفرقان ٣٢).

فمحصل الآيات- كما ترى- أنها ليله بعينها من شهر رمضان من كل سنة فيها إحكام الامور بحسب التقدير، و لا ينافي ذلك وقوع التغير فيها بحسب التحقق في ظرف السنة فإن التغير في كيفية تحقق المقدر أمر و التغير في التقدير أمر آخر كما أن إمكان التغير في الحوادث الكونية بحسب المشيه الإلهيه لا ينافي تعيينها في اللوح المحفوظ قال تعالى: **وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** (الرعد ٣٩).

على ان لاستحكام الامور بحسب تحققها مراتب من حيث حضور أسبابها و شرائطها تامه و ناقصه و من المحتمل أن تقع في ليله القدر بعض مراتب الإحكام و يتأخر تمام الإحكام الى وقت آخر لكن الروايات كما ستأتى لا تلائم هذا الوجه.

قوله تعالى: **وَ مَا أَذْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ كُنَايَه** عن جلاله قدر الليله و عظم منزلتها و يؤكد ذلك إظهار الاسم مره بعد مره حيث قيل **«وَ مَا أَذْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ»** و لم يقل:

و ما أدراك ما هي هي خير.

قوله تعالى: **لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ** بيان إجمالي لما اشير اليه بقوله: **«وَ مَا**

أَذْرَاكَ لِمَا لَيْلَهُ الْقَدْرُ» من فخامه أمر الليله.

و المراد بكونها خيرا من الف شهر خيريتها منها من حيث فضيله العباده على ما فسره المفسرون و هو المناسب لغرض القرآن و عنايته بتقريب الناس الى الله فإحيائها بالعباده خير من عباده الف شهر، و يمكن أن يستفاد ذلك من المباركه المذكوره فى سورة الدخان فى قوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ مُبَارَكَةٍ» و هناك معنى آخر سيأتى فى البحث الروائى التالى إن شاء الله.

قوله تعالى: تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ تنزل أصله تنزل، و الظاهر من الروح هو الروح من الأمر قال تعالى: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي (الإسراء ٨٥) و الإذن فى الشىء الرخصه فيه و هو إعلام عدم المانع منه.

و «مِنْ» فى قوله: «مِنْ كُلِّ أَمْرٍ» قيل: بمعنى الباء و قيل: لابتداء الغايه و تفيد السببيه أى بسبب كل أمر إلهى، و قيل: للتعليل بالغايه أى لأجل تدبير كل امر من الامور و الحق ان المراد بالأمر إن كان هو الأمر الإلهى المفسر بقوله: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ» (يس ٨٢) فمن لابتداء و تفيد السببيه و المعنى تنزل الملائكه و الروح فى ليله القدر بإذن ربهم مبتدأ تنزلهم و صادرا من كل أمر إلهى.

و إن كان هو الأمر من الامور الكونيه و الحوادث الواقعه فمن بمعنى اللام التعليليه و المعنى تنزل الملائكه و الروح فى الليله بإذن ربهم لأجل تدبير كل امر من الامور الكونيه.

قوله تعالى: سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ قال فى المفردات: السلام و السلامه التعرى من الآفات الظاهره و الباطنه انتهى فيكون قوله: «سَلَامٌ هِيَ» إشاره الى العنايه الإلهيه بشمول الرحمه لعباده المقبلين اليه و سد باب نقمه جديده تختص بالليله و يلزمه بالطبع و هن كيد الشياطين كما اشير اليه فى بعض الروايات.

و الآيتان أعنى قوله: «تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ» الى آخر السوره فى معنى التفسير لقوله: «لَيْلَهُ

الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ»

[\(١\)](#)

ص: ٧٢٤

١-١). القدر ١-٥: بحث روائي حول ليله القدر؛ نزول القرآن؛ الملائكة و الروح.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنْ
اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ (٣) وَ مِمَّا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعِيدٍ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ (٤) وَ مِمَّا أُمِرُوا إِلَّا
لِيُعْبَدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَ ذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ
الْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧)
جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)

تسجّل السوره رساله محمد صلى الله عليه وآله وسلم لعامة أهل الكتاب و المشركين و بعبارة اخرى للملئين و غيرهم و هم عامه البشر فتفيد عموم الرساله و أنها مما كانت تقتضيه السنه الإلهيه-سنه الهدايه-التي تشير إليها أمثال قوله تعالى: **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** (الإنسان ٣)، و قوله: **وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ** (فاطر ٢٤)، و تحتج على عموم دعوته صلى الله عليه وآله وسلم بأنها لا تتضمن إلا ما يصلح المجتمع الانساني من الاعتقاد و العمل على ما سيتضح إن شاء الله.

و السوره تحتمل المكيه و المدنيه و إن كان سياقها بالمدينه أشبه.

قوله تعالى: **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ظَاهِرَ الْآيَاتِ**-وهي في سياق يشير الى قيام الحججه على الذين كفروا بالدعوه الإسلاميه من أهل الكتاب و المشركين و على الذين اتوا الكتاب حينما بدا فيهم الاختلاف-أن المراد هو الإشاره الى ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من مصاديق الحججه البينه القائمه على الناس التي تقتضى قيامها السنه الإلهيه الجاريه في عباده فقد كانت توجب مجيء البينه اليهم كما أوجبه من قبل ما تفرقوا في دينهم.

و على هذا فالمراد بالذين كفروا في الآيه هم الكافرون بالدعوه النبويه الإسلاميه من أهل الكتاب و المشركين، و «مِنْ» في قوله: **«مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»** للتبعيض لا للتبيين، و قوله:

«وَ الْمُشْرِكِينَ» عطف على **«أَهْلِ الْكِتَابِ»** و المراد بهم غير اهل الكتاب من عبده الأصنام و غيرهم.

وقوله: مُنْفَكِينَ مِنَ الْانْفِكَائِ وَهُوَ الْانْفِصَالُ عَنْ شِدَّةِ اتِّصَالٍ، وَالْمُرَادُ بِهِ -عَلَى مَا يَسْتَفَادُ مِنْ قَوْلِهِ: «حَيَّتِي تَأْتِيهِمُ الْعَمِيْنَةُ» - انْفِكَائِهِمْ عَمَّا تَقْتَضِي سُنَّةَ الْهَدَايَةِ وَالْبَيَانَ أَنَّ السُّنَّةَ الْإِلَهِيَّةَ كَانَتْ قَدْ أَخَذَتْهُمْ وَ لَمْ تَكُنْ تَتْرَكُهُمْ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ وَ لَمَّا أَتَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ تَرَكْتَهُمْ وَ شَأْنَهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ» (التوبة/ ١١٥).

وقوله: حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ عَلَى ظَاهِرِهِ مِنَ الْاسْتِقْبَالِ وَالْبَيِّنَةُ هِيَ الْحُجَّةُ الظَّاهِرَةُ وَالْمَعْنَى لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرِسَالَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَوْ بَدْعُوته أَوْ بِالْقُرْآنِ لِيَنْفِكُوا حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ وَ الْبَيِّنَةُ هِيَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

و للقوم اختلاف عجيب فى تفسير الآيه و معانى مفرداتها حتى قال بعضهم -على ما نقل :-

إن الآيه من أصعب الآيات القرآنيه نظما و تفسيرا. انتهى، و الذى أوردناه من المعنى هو الذى يلائمه سياقها من غير تناقض بين الآيات و تدافع بين الجمل و المفردات، و من أراد الاطلاع على تفصيل ما قيل و يقال فعليه أن يراجع المطولات.

قوله تعالى: رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ بَيِّنَةٌ لِلْبَيِّنَةِ وَ الْمُرَادُ بِهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قَطْعًا عَلَى مَا يَعْطِيهِ السِّيَاقُ.

و الصحف جمع صحيفه و هى ما يكتب فيها، و المراد بها أجزاء القرآن النازل و قد تكرر فى كلامه تعالى إطلاق الصحف على أجزاء الكتب السماويه و منها القرآن الكريم قال تعالى: فِي صُحُفٍ مُكْرَمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي كِرَامٍ بَرَرَةٍ (عبس/ ١٦).

و المراد بكون الصحف مطهره تقدسها من قذاره الباطل بمس الشياطين، و قد تكرر منه تعالى أنه حق مصون من مداخله الشياطين و قال: لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (الواقعه/ ٧٩).

و قوله: فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ الْكُتُبِ جَمْعُ كِتَابٍ وَ مَعْنَاهُ الْمَكْتُوبُ وَ يُطْلَقُ عَلَى اللَّوْحِ

و القرطاس و نحوهما المنقوشه فيها الألفاظ و على نفس الألفاظ التى تحكى عنها النقوش، و ربما يطلق على المعانى بما أنها محكيه بالألفاظ، و يطلق أيضا على الحكم و القضاء يقال كتب عليه كذا أى قضى أن يفعل كذا قال تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ (البقره ١٨٣) و قال: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ (البقره ٢١٦).

و الظاهر أن المراد بالكتب التى فى الصحف الأحكام و القضايا الإلهيه المتعلقه بالاعتقاد و العمل، و من الدليل عليه توصيفها بالقيمه فإنها من القيام بالشىء بمعنى حفظه و مراعاة مصلحته و ضمان سعادته قال تعالى: أَمَرَ الْأَنْعَابُ دُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ (يوسف / ٤٠)، و معلوم أن الصحف السماويه إنما تقوم بأمر المجتمع الإنسانى و تحفظ مصلحته بما فيها من الأحكام و القضايا المتعلقه بالاعتقاد و العمل.

فمعنى الآيتين: الحججه البينه التى أتتهم رسول من الله يقرأ صحائف سماويه مطهره من دنس الباطل فى تلك الصحائف أحكام و قضايا قائمه بأمر المجتمع الإنسانى حافظه لمصالحه.

قوله تعالى: وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْمَعِينَةُ كَانَتِ الْآيَةُ الْاُولَى «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» الخ؛ تشير الى كفرهم بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم و كتابه المتضمن للدعوه الحقه و هذه الآيه تشير الى اختلافهم السابق على الدعوه الإسلاميه و قد أشير الى ذلك فى مواضع من القرآن الكريم كما قال تعالى: وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ (آل عمران ١٩) الى غير ذلك من الآيات.

و معنى البينه لهم هو البيان النبوى الذى تبين لهم فى كتابهم أو أوضحه لهم أنبياءهم قال تعالى: وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِتُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ (الزخرف ٦٥).

قوله تعالى: **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيُعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ الْحَخِ**؛ ضمير «أُمِرُوا» للذين كفروا من أهل الكتاب و المشركين أى لم يتضمن رساله الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ الكتب القيمه التى فى صحف الوحي إلا- امرهم بعباده الله تعالى بقيد الإخلاص فى الدين فلا يشركوا به شيئاً.

وقوله: **حُنَفَاءَ** حال من ضمير الجمع و هو جمع حنيف من الحنف و هو الميل عن جانبي الإفراط و التفريط الى حاق وسط الاعتدال و قد سمي الله تعالى الإسلام ديناً حنيفاً لأنه يأمر فى جميع الامور بلزوم الاعتدال و التحرز عن الإفراط و التفريط.

وقوله: **وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ** من قبيل ذكر الخاص بعد العامّ أو الجزء بعد الكل اهتماماً بأمره فالصلاه و الزكاه على أركان الإسلام و هما التوجه العبودى الخاص الى الله و إنفاق المال فى الله.

وقوله: **وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ** أى دين الكتب القيمه على ما فسروا، والمراد بالكتب القيمه إن كان جميع الكتب السماويه أعنى كتاب نوح و من دونه من الأنبياء عليهم السّلام فالمعنى إن هذا الذى امروا به و دعوا اليه فى الدعوه المحمديه هو الدين الذى كلفوا به فى كتبهم القيمه و ليس بأمر بدع فدين الله واحد و عليهم أن يدينوا به لأنه القيم.

و إن كان المراد به ما كان يتلوه النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من الكتب القيمه التى فى الصحف المطهره فالمعنى أنهم لم يؤمروا فى الدعوه الإسلاميه إلا- بأحكام و قضايا هى القيمه الحافظه لمصالح المجتمع الإنسانى فلا يسعهم إلا أن يؤمنوا بها و يتدينوا.

فالآيه على أى حال تشير الى كون دين التوحيد الذى يتضمنه القرآن الكريم المصدق لما بين يديه من الكتاب و المهيمن **(١) عليه فيما يأمر المجتمع البشرى قائماً بأمرهم حافظاً لمصالح**

ص: ٧٢٩

حياتهم كما بيّنه بأوفى البيان قوله تعالى: فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ (الروم ٣٠).

وبهذه الآية يكمل بيان عموم رساله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وشمول الدعوه الإسلاميه لعامه البشر فقوله: «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ» الخ؛ يشير الى أنه كان من الواجب في سنه الهدايه الإلهيه أن تتم الحججه على من كفر بالدعوه من أهل الكتاب و المشركين، و هؤلاء و إن كانوا بعض أهل الكتاب و المشركين لكن من الضروري أن لا فرق بين البعض و البعض في تعلق الدعوه فتعلقها بالبعض لا ينفك عن تعلقها بالكل.

و قوله: رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ الخ؛ يشير الى أن تلك السبيله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و قوله: «وَمَا تَفَرَّقَ» الخ؛ يشير الى أن تفرقهم و كفرهم السابق بالحق أيضا كان بعد مجيء السبيله.

و قوله: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا اللَّهَ» الخ؛ يفيد أن الذي دعوا اليه و امروا به دين قيم حافظ لمصالح المجتمع البشرى فعليهم جميعا أن يؤمنوا به و لا يكفروا.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ لما فرغ من الإشاره الى كفرهم بالسبيله التي كانت توجهها سنه الهدايه الإلهيه و ما كانت تدعو اليه من الدين القيم أخذ في الإنذار و التبشير بوعيد الكفار و وعد المؤمنين، و البريه الخلق، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ فيه قصر الخيره في المؤمنين الصالحين كما أن في الآية السابقيه قصر الشريه في الكفار.

قوله تعالى: جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ - الى قوله - لِمَنْ حَشِيَ رَبَّهُ العدن الاستقرار و الثبات فجئات عدن جئات خلود و دوام و توصيفها بقوله: «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا» تأكيد بما يدل على الاسم.

و قوله: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الرضى منه تعالى صفه فعل و مصداقه الثواب الذي

أعطاهموه جزاء لإيمانهم و عملهم الصالح.

وقوله: ذَلِكْ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ علامه مضروبه لسعاده الدار الآخره وقد قال تعالى: إِنَّمَّا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (فاطر ٢٨) فالعلم بالله يستتبع الخشيه منه، و الخشيه منه تستتبع الإيمان به بمعنى الالتزام القلبي بربوبيته و الوهيته ثم العمل الصالح.

و اعلم أن لهم فى تفسير مفردات هذه الآيات اختلافا شديدا و أقوالا كثيرة لا جدوى فى التعرض لها من أراد الوقوف عليها فليراجع المطولات.

ص: ٧٣١

سوره الزلزال مدنيه و هي ثمان آيات

اشاره

[سوره الزلزاله (٩٩): الآيات ١ الى ٨]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)

بيان:

ذكر للقيامه و صدور الناس للجزاء و إشاره الى بعض أشراتها و هي زلزاله الأرض

ص: ٧٣٢

و تحديثها أخبارها. و السوره تحتل المكيه و المدنيه.

قوله تعالى: إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا الزلزال مصدر كالزلزله، و إضافته الى ضمير الأرض تفيد الاختصاص، و المعنى إذا زلزلت الأرض زلزلتها الخاصه بها فتفيد التعظيم و التفخيم أى إنها منتهيه فى الشده و الهول.

قوله تعالى: وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا الأثقال جمع ثقل بفتحين بمعنى المتاع أو خصوص متاع المسافر أو جمع ثقل بالكسر فالسكون بمعنى الحمل، و على أى حال المراد بأثقالها التى تخرجها، الموتى على ما قيل أو الكنوز و المعادن التى فى بطنها أو الجميع و لكل قائل و أول الوجوه أقربها ثم الثالث لتكون الآيه إشارة الى خروجهم للحساب، و قوله: «يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ» إشاره الى انصرفهم الى الجزاء.

قوله تعالى: وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا أى يقول مدهوشا متعجبا من تلك الزلزه الشديده الهائله: ما للأرض تترزل هذا الزلزال، و قيل: المراد بالإنسان الكافر غير المؤمن بالبعث، و قيل غير ذلك كما سيجىء.

قوله تعالى: يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا فتشهد على أعمال بنى آدم كما تشهد بها أعضاؤهم و كتاب الأعمال من الملائكه و شهداء الأعمال من البشر و غيرهم.

و قوله: «بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا» اللام بمعنى الى لأن الايحاء يتعدى بالى و المعنى تحدث أخبارها بسبب أن ربك أوحى إليها أن تحدث فهى شاعره بما يقع فيها من الأعمال خيرها و شرها متحملة لها يؤذن لها يوم القيامه بالوحى أن تحدث أخبارها و تشهد بما تحملت، و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (الإسراء / ٤٤)، و قوله: قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (حم السجده ٢١)، أن المستفاد من كلامه سبحانه أن الحياه و الشعور ساريان فى الأشياء و إن كنا فى غفله من ذلك.

و قد اشدت الخلاف بينهم فى معنى تحديث الارض بالوحى أ هو بإعطاء الحياه و الشعور للأرض الميتة حتى تخبر بما وقع فيها أو بخلق صوت عندها وعد ذلك تكلمها منها أو دلالتها بلسان الحال بما وقع فيها من الأعمال، و لا محل لهذا الاختلاف بعد ما سمعت و لا أن الحججه تتم على أحد بهذا النوع من الشهاده.

قوله تعالى: **يَوْمَئِذٍ يَصِيدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمُ الصَّدُورُ انصِرافِ الإِبِلِ عَنِ الْمَاءِ بَعْدَ وِرْوَدِهِ، وَأَشْتَاتٍ كَشْتَى جَمْعُ شَتَيْتَ بِمَعْنَى الْمَتَفَرِّقِ، وَ الْآيَةُ جَوَابٌ بَعْدَ جَوَابٍ لِإِذَا.**

و المراد بصدور الناس متفرقين يومئذ انصرافهم عن الموقف الى منازلهم فى الجنه و النار و أهل السعاده و الفلاح منهم متميزون من أهل الشقاء و الهلاك، و إراءتهم أعمالهم إراءتهم جزاء أعمالهم بالحلول فيه أو مشاهدتهم نفس أعمالهم بناء على تجسيم الأعمال.

قوله تعالى: **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ الْمَثَالَ مَا يوزن به الأثقال، و الذره ما يرى فى شعاع الشمس من الهباء، و تقال لصغار النمل.**

تفريع على ما تقدم من إراءتهم أعمالهم، فيه تأكيد البيان فى أنه لا يستثنى من الاراءه عمل خيرا أو شرا كبيرا أو صغيرا حتى مثقال الذره من خير أو شر، و بيان حال كل من عمل الخير و الشر فى جمله مستقله لغرض إعطاء الضابط و ضرب القاعده.

و لا منافاه بين ما تدل عليه الآياتان من العموم و بين الآيات الداله على حبط الأعمال، و الداله على انتقال أعمال الخير و الشر من نفس الى نفس كحسنات القاتل الى المقتول و سيئات المقتول الى القاتل، و الداله على تبديل السيئات حسنات فى بعض التائبين الى غير ذلك مما تقدمت الاشاره اليه فى بحث الأعمال فى الجزء الثانى من الكتاب و كذا فى تفسير قوله:

لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ الْآيَةُ (الأنفال ٣٧).

و ذلك لأن الآيات المذكوره حاكمه على هاتين الآيتين فإن من حبط عمله الخير محكوم بأنه لم يعمل خيرا فلا عمل له خيرا حتى يراه و على هذا القياس فى غيره فافهم.

ص: ٧٣٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ
جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكِ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩)
وَ حُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (١١)

تذكر السوره كفران الإنسان لنعم ربه و حبه الشديد للخير عن علم منه به و هو حجه عليه و سيحاسب على ذلك.

و السوره مدنيه بشهاده ما فى صدرها من الإقسام بمثل قوله: «وَ الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا» الخ؛ الظاهر فى فى خيل الغزاه المجاهدين على ما سيجىء، و إنما شرع الجهاد بعد الهجره و يؤيد ذلك ما ورد من طرق الشيعة عن أئمه أهل البيت عليهم السلام أن السوره نزلت فى على عليه السلام و سريره فى غزوه ذات السلاسل، و يؤيده أيضا بعض الروايات من طرق أهل السنه على ما سنشير اليه فى البحث الروائى التالى إن شاء الله.

قوله تعالى: وَ الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا العاديات من العدو و هو الجرى بسرعه و الضبح صوت أنفاس الخيل عند عدوها و هو المعهود المعروف من الخيل و إن ادعى أنه يعرض لكثير من الحيوان غيرها، و المعنى أقسم بالخيل اللاتى يعدون يضبحن ضبحا.

قوله تعالى: فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا الإيراء إخراج النار و القدح الضرب و الصكك المعروف يقال: قدح فأورى إذا أخرج النار بالقدح، و المراد بها الخيل تخرج النار بحوافرها إذا عدت على الحجاره و الأرض المحصبه.

قوله تعالى: فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا الإغاره و الغاره الهجوم على العدو بغته بالخيل و هى صفه أصحاب الخيل و نسبتها الى الخيل مجاز، و المعنى فاقسم بالخيل الهاجمات على العدو بغته فى وقت الصبح.

قوله تعالى: فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا أثرن من الإثاره بمعنى تهيج الغبار و نحوه، و النقع الغبار، و المعنى فهيجن بالعدو و الإغاره غبارا.

قوله تعالى: فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا وسط و توسط بمعنى، و ضمير «به» للصبح و الباء

بمعنى فى او الضمير للنقع و الباء للملابسه.

و المعنى فصرن فى وقت الصبح فى وسط جمع و المراد به كتيبه العدو أو المعنى فتوسطن جمعا ملابسین للنقع.

فالمتمعين حملها على خيل الغزاه و سياق الآيات و خاصه قوله: «فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا» «فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا» يعطى أنها غزاه بعينها أقسم الله فيها بخيل المجاهدين العاديات و الفاء فى الآيات الأربع تدل على ترتب كل منها على ما قبلها.

قوله تعالى: إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ الكنود الكفور، و الآية كقوله: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (الحج ١٦٦)، و هو إخبار عما فى طبع الإنسان من اتباع الهوى و الانكباب على عرض الدنيا و الانقطاع به عن شكر ربه على ما أنعم عليه.

و فيه تعريض للقوم المغار عليهم، و كأن المراد بكفرانهم كفرانهم بنعمه الإسلام التى أنعم الله بها عليهم و هى أعظم نعمه أو توها فيها طيب حياتهم الدنيا و سعاده حياتهم الأبدية الاخرى.

قوله تعالى: وَ إِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكْ لَشَهِيدٌ ظاهر اتساق الضمائر أن يكون ضمير «وَ إِنَّهُ» للإنسان فيكون المراد بكونه شهيدا على كفران نفسه بكفران نفسه علمه المذموم و تحمله له.

فالمعنى و إن الانسان على كفرانه بربه شاهد متحمل فالآيه فى معنى قوله: بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (القيامة ١٤).

قوله تعالى: وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ قيل: اللام فى «لِحُبِّ الْخَيْرِ» للتعليل و الخير المال، و المعنى و إن الإنسان لأجل حب المال لشديد أى بخيل شحيح، و قيل: المراد أن الانسان لشديد الحب للمال و يدعوه ذلك الى الامتناع من إعطاء حق الله، و الإنفاق فى الله. كذا فسروا.

و لا يبعد أن يكون المراد بالخير مطلقه و يكون المراد أن حب الخير فطرى للإنسان ثم إنه

يرى عرض الدنيا وزينتها خيرا فتنجذب اليه نفسه و ينسيه ذلك ربه أن يشكره.

قوله تعالى: أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ -الى قوله- لَخَبِيرِ الْبَعَثِ كَالْبَحْثِ الْبَعْثِ وَ النُّشْرِ، وَ تَحْصِيلِ مَا فِي الصُّدُورِ تَمِيِزِ مَا فِي بَاطِنِ النُّفُوسِ مِنْ صِفَةِ الْإِيمَانِ وَ الْكُفْرِ وَ رَسْمِ الْحَسَنَةِ وَ السَّيِّئَةِ قَالَ تَعَالَى: يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (الطَّارِقُ ٩/٩)، وَ قِيلَ: هُوَ إِظْهَارُ مَا أَخْفَتْهُ الصُّدُورُ لِتَجَازِي عَلَى السَّرِّ كَمَا تَجَازَى عَلَى الْعَلَانِيَةِ.

وَ قَوْلُهُ: أَفَلَا يَعْلَمُ الْإِسْتِفْهَامُ فِيهِ لِلانْكَارِ، وَ مَفْعُولُ يَعْلَمُ جَمَلُهُ قَائِمُهُ مَقَامُ الْمَفْعُولِينَ يَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَقَامُ. ثُمَّ اسْتَوْنَفَ فَقِيلَ: إِذَا بَعَثَ مَا فِي الْقُبُورِ، الْخ؛ تَأْكِيدٌ لِلانْكَارِ، وَ الْمُرَادُ بِمَا فِي الْقُبُورِ الْأَبْدَانُ.

وَ الْمَعْنَى -وَ اللَّهُ أَعْلَمُ- أَفَلَا يَعْلَمُ الْإِنْسَانُ أَنَّ لِكُنُودِهِ وَ كُفْرَانِهِ رَبَّهُ تَبِعَهُ سَتْلِحَقَهُ وَ يَجَازَى بِهَا، إِذَا خَرَجَ مَا فِي الْقُبُورِ مِنَ الْأَبْدَانِ وَ حَصَلَ وَ مِيزَ مَا فِي سَرَائِرِ النُّفُوسِ مِنَ الْإِيمَانِ وَ الْكُفْرِ وَ الطَّاعَةِ وَ الْمَعْصِيَةِ إِنْ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٍ فَيَجَازِيهِمْ بِمَا فِيهَا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَا الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ
(٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعُفُوسِ (٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشِهِ رَاغِبٍ (٧) وَمَا مِنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ
هَآوِيَةٌ (٩) وَمَا أَذْرَاكَ مَا هِيَ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)

إنذار و تبشير بالقيامة يغلب فيه جانب الانذار،و السوره مكيه.

قوله تعالى: الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ مَبْتَدَأٌ وَخَبْرٌ،و القارعه من القرع و هو الضرب باعتماد شديد،و هى من أسماء القيامة فى القرآن. قيل: سميت بها لأنها تفرع القلوب بالفزع و تفرع أعداء الله بالعذاب.

و السؤال عن حقيقه القارعه فى قوله: «مَا الْقَارِعَةُ» مع كونها معلومه إشاره الى تعظيم أمرها و تفخيمه و أنها لا تكتنه علما،و قد اكد هذا التعظيم و التفخيم بقوله بعد: «وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ» .

قوله تعالى: يَوْمَ يَكُونُ الدَّاسُ كَالْفُرَّاشِ الْمَبْثُوثِ ظرف متعلق بفعل مقدر نحو اذكر و تفرع و تأتى،و الفراش على ما نقل عن الفراء الجراد الذى ينفرش و يركب بعضه بعضا و هو غوغاء الجراد. قيل: شبه الناس عند البعث بالفراش لأن الفراش إذا ثار لم يتجه الى جهه واحده كسائر الطير و كذلك الناس إذا خرجوا من قبورهم أحاط بهم الفزع فتوجهوا جهات شتى أو توجهوا الى منازلهم المختلفه سعاده و شقاء.و المبتوث من البث و هو التفريق.

قوله تعالى: وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ العهن الصوف ذو ألوان مختلفه، و المنفوش من النفس و هو نشر الصوف بندق و نحوه فالعهن المنفوش الصوف المنتشر ذو ألوان مختلفه إشاره الى تلاشى الجبال على اختلاف ألوانها بزلزله الساعه.

قوله تعالى: فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشِهِ رَاغِبًا إشاره الى وزن الأعمال و أن الأعمال منها ما هو ثقيل فى الميزان و هو ما له قدر و منزله عند الله و هو الإيمان و أنواع الطاعات،و منها ما ليس كذلك و هو الكفر و أنواع المعاصى و يختلف القسمان أثرا فيستتبع الثقيل السعاده و يستتبع الخفيف الشقاء،و قد تقدم البحث عن معنى الميزان فى تفسير

و قوله: فِي عَيْشِهِ رَاضِيَهُ الْعَيْشَهُ بِكسر العين كالجلسه بناء نوع، و توصيفها براضيهِ-و الراضى صاحبها-من المجاز العقلى أو المعنى فى عيشه ذات رضى.

قوله تعالى: وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ الظاهر أن المراد بهاويه جهنم و تسميتها بهاويه لهوى من القى فيها أى سقوطه الى أسفل سافلين قال تعالى: ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا (التين ١٦).

فتوصيف النار بالهاويه مجاز عقلى كتوصيف العيشه بالراضيه و عدّ هاويه اما للداخل فيها لكونها مأواها مرجعه الذى يرجع إليه كما يرجع الولد الى أمه.

قوله تعالى: وَ مَا أَذْرَاكَ مَا هَيْهَ ضَمِير هى لهاويه، و الهاء فى «هَيْهَ» للوقف و الجملة تفسير تفيد تعظيم أمر النار و تفخيمه.

قوله تعالى: نَارٌ حَامِيَةٌ أى حاره شديده الحراره و هو جواب الاستفهام فى «مَا هَيْهَ» و تفسير لهاويه.

سوره التكاثر مكيه و هي ثمان آيات

اشاره

[سوره التكاثر (١٠٢): الآيات ١ الى ٨]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤)
كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)

بيان:

توبيخ شديد للناس على تلهيهم بالتكاثر في الأموال و الأولاد و الأعضاء و غفلتهم عما

ص: ٧٤٣

وراءه من تبعه الخسران و العذاب، و تهديد بأنهم سوف يعلمون و يرون ذلك و يسألون عن هذه النعم التي اوتوها ليشكروا فتلهاوا بها و بدّلوا نعمه الله كفرا.

و السوره بما لها من السياق تحتمل المكيه و المدينه، و سيأتي ما ورد في سبب نزولها في البحث الروائي إن شاء الله.

قوله تعالى: **أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ** قال في المفردات: اللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه و يهمه. قال، و يقال: ألهاه كذا أى شغله عما هو أهم إليه، قال تعالى: **«أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ»**، انتهى.

و قال: و المكاثره و التكاثر التبارى في كثره المال و العز، انتهى. و قال: المقبره- بكسر الميم- و المقبره- بفتحها- موضع القبور و جمعها مقابر، قال تعالى: **«حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ»** كناية عن الموت؛ انتهى.

فالمعنى على ما يعطيه السياق شغلكم التكاثر في متاع الدنيا و زينتها و التسابق في تكثير العده و العدد عما يهتمكم و هو ذكر الله حتى لقيتم الموت فعمتكم الغفله مدى حياتكم.

قوله تعالى: **كَلَّا- سَوْفَ تَعْلَمُونَ** ردع عن اشتغالهم بما لا- يهتمهم عما يعينهم و تخطئه لهم، و قوله: **«سَوْفَ تَعْلَمُونَ»** تهديد معناه على ما يفيد المقام سوف تعلمون تبعه تلهيكم هذا و تعرفونها إذا انقطعتم عن الحياه الدنيا.

قوله تعالى: **ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ** تأكيد للردع و التهديد السابقين، و قيل: المراد بالأول علمهم بها عند الموت و بالثاني علمهم بها عند البعث.

قوله تعالى: **كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ** ردع بعد ردع تأكيد و اليقين العلم الذي لا يداخله شك و ريب.

و قوله: **لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ** جواب لو محذوف و التقدير لو تعلمون الأمر علم

اليقين لشغلكم ما تعلمون عن التباهى و التفاخر بالكثرة، و قوله: «لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ» استئناف فى الكلام، و اللام للقسم، و المعنى اقسام لترون الجحيم التى جزاء هذا التلهى كذا فسروا.

قالوا: و لا يجوز أن يكون قوله: «لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ» جواب لو الامتناعيه لأن الرؤيه محقق الوقوع و جوابها لا يكون كذلك.

و هذا مبنى على أن يكون المراد رؤيه الجحيم يوم القيامة كما قال: وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (النازعات ٣٦) و هو غير مسلم بل الظاهر أن المراد رؤيتها قبل يوم القيامة رؤيه البصيره و هى رؤيه القلب التى هى من آثار اليقين على ما يشير اليه، قوله تعالى: وَ كَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (الأنعام ٧٥)، و قد تقدم الكلام فيها، و هذه الرؤيه القلبيه قبل يوم القيامة غير محققه لهؤلاء المتلهين بل ممتنع فى حقهم لامتناع اليقين عليهم.

قوله تعالى: ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ المراد بعين اليقين نفسه، و المعنى لترونها محض اليقين، و هذه بمشاهدتها يوم القيامة، و من الدليل عليه قوله بعد ذلك: «ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ» فالمراد بالرؤيه الاولى رؤيتها قبل يوم القيامة و بالثانيه رؤيتها يوم القيامة.

قوله تعالى: ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ظاهر السياق أن هذا الخطاب و كذلك الخطابات المتقدمه فى السوره للناس بما أن فيهم من اشتغل بنعمه ربه عن ربه فأنساه التكاثر فيها عن ذكر الله، و ما فى السوره من التوبيخ و التهديد متوجه الى عامه الناس ظاهرا واقع على طائفه خاصه منهم حقيقه و هم الذين ألهاهم التكاثر.

و كذا ظاهر السياق أن المراد بالنعيم مطلقه و هو كل ما يصدق عليه أنه نعمه فالإنسان مسؤل عن كل نعمه أنعم الله بها عليه.

و ذلك أن النعمه - و هى الأمر الذى يلائم المنعم عليه و يتضمن له نوعا من الخير و النفع -

إنما تكون بالنسبه الى المنعم عليه إذا استعملها بحيث يسعد بها فينتفع و أما لو استعملها على خلاف ذلك كانت نغمه بالنسبه إليه و إن كانت نعمه بالنظر الى نفسها (١).

ص: ٧٤٤

١-١). التكاثر ١-٨: بحث روائى فى السؤال عن النعيم يوم القيامة؛ ما النعيم الذى يسأل عنه.

سوره العصر مكيه و هي ثلاث آيات

اشاره

[سوره العصر (١٠٣): الآيات ١ الى ٣]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ (٣)

بيان:

تلخص السوره جميع المعارف القرآنيه و تجمع شتات مقاصد القرآن في أوجز بيان، و هي تحتل المكيه و المدنيه لكنها أشبه بالمكيه.

قوله تعالى: وَالْعَصْرِ إقسام بالعصر و الأنسب لما تتضمنه الآيتان التاليتان من شمول الخسران للعالم الإنسانى إلا لمن اتبع الحق و صبر عليه و هم المؤمنون الصالحون عملاء، أن يكون المراد بالعصر عصر النبى صلى الله عليه و آله و سلم و هو عصر طلوع الإسلام على المجتمع البشرى و ظهور

ص: ٧٤٧

الحق على الباطل.

وقيل: المراد به وقت العصر وهو الطرف الأخير من النهار لما فيه من الدلالة على التدبير الربوبي بإدبار النهار وإقبال الليل وذهاب سلطان الشمس، وقيل: المراد به صلاة العصر وهي الصلاة الوسطى التي هي أفضل الفرائض اليومية، وقيل: الليل والنهار يطلق عليهما العصران، وقيل: الدهر لما فيه من عجائب الحوادث الدالة على قدره الربوبيه وغير ذلك.

وقد ورد في بعض الروايات أنه عصر ظهور المهدي عليه السلام لما فيه من تمام ظهور الحق على الباطل.

قوله تعالى: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ المراد بالإنسان جنسه، والخسر والخسران والخسار والخساره نقص رأس المال قال الراغب: وينسب ذلك الى الانسان فيقال: خسر فلان و الى الفعل فيقال: خسرت تجارته، انتهى. والتكثير في «خُسْرٍ» للتعظيم و يحتمل التنويع أى فى نوع من الخسر غير الخسارات الماليه و الجاهيه قال تعالى: الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (الزمر ١٥).

قوله تعالى: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ استثناء من جنس الانسان الواقع فى الخسر، والمستثنون هم الأفراد المتلبسون بالإيمان والأعمال الصالحه فهم آمنون من الخسر.

وذلك أن كتاب الله يبين أن للإنسان حياه خالده مؤبده لا تنقطع بالموت و إنما الموت انتقال من دار الى دار كما تقدم فى تفسير قوله تعالى: عَلِيٌّ أَنْ يُدَلَّ أَمْثَالَكُمْ وَ نُشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (الواقعه ٦١/)، و يبين أن شطرا من هذه الحياه و هى الحياه الدنيا حياه امتحانيه تتعين بها صفه الشطر الأخير الذى هو الحياه الآخره المؤبده من سعاده و شقاء قال تعالى:

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (الرعد ٢٦/)، و قال: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً (الأنبياء ٣٥/).

و يبين أن مقدميه هذه الحياه لتلك الحياه إنما هي بمظاهرها من الاعتقاد و العمل فالاعتقاد الحق و العمل الصالح ملاك السعاده الاخرويه و الكفر و الفسوق ملاك الشقاء فيها قال تعالى:

وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (النجم / ٤١)، و قال: مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَهُ يَمْهَدُونَ (الروم / ٤٤)، و قال: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا (حم السجده / ٤٦)، و قد سَمَى اللَّهُ تعالى ما سيلقاه الإنسان في الآخرة جزاء و أجرا في آيات كثيرة.

و يتبين بذلك كله أن الحياه رأس مال للإنسان يكسب به ما يعيش به في حياته الآخرة فإن اتبع الحق في العقد و العمل فقد ربحت تجارته و بورك في مكسبه و أمن الشر في مستقبله، و إن اتبع الباطل و أعرض عن الإيمان و العمل الصالح فقد خسرت تجارته و حرم الخير في عقباه و هو قوله تعالى: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» .

و المراد بالإيمان الإيمان بالله و من الايمان بالله الإيمان بجميع رسله و الإيمان باليوم الآخر فقد نصّ تعالى فيمن لم يؤمن ببعض رسله (١) أو باليوم الآخر أنه غير مؤمن بالله.

و ظاهر قوله: «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» التلبس بجميع الأعمال الصالحة فلا- يشمل الاستثناء الفساق بترك بعض الصالحات من المؤمنين و لا يزمه أن يكون الخسر أعم من الخسر في جميع جهات حياته كما في الكافر المعاند للحق المخلد في العذاب، و الخسر في بعض جهات حياته كالمؤمن الفاسق الذي لا يخلد في النار و ينقطع عنه العذاب بشفاعه و نحوها.

قوله تعالى: وَ تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ التواصى بالحق هو أن يوصى بعضهم بعضا بالحق أى باتباعه و الدوام عليه فليس دين الحق إلا- اتباع الحق اعتقادا و عملا و التواصى بالحق أوسع من الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر لشموله الاعتقادات و مطلق

ص: ٧٤٩

الترغيب و الحث على العمل الصالح.

ثم التواصى بالحق من العمل الصالح فذكره بعد العمل الصالح من قبيل ذكر الخاص بعد العام اهتماما بأمره كما أن التواصى بالصبر من التواصى بالحق و ذكره بعده من ذكر الخاص بعد العام اهتماما بأمره، و يؤكد تكرار ذكر التواصى حيث قال: «وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» و لم يقل:

و تواصوا بالحق و الصبر.

و على الجملة ذكر تواصيههم بالحق و بالصبر بعد ذكر تلبسهم بالإيمان و العمل الصالح للاشارة الى حياه قلوبهم و انشراح صدورهم للإسلام لله فلهم اهتمام خاص و اعتناء تام بظهور سلطان الحق و انبساطه على الناس حتى يتبع و يدوم اتباعه قال تعالى: أَمْ مَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (الزمر ٢٢).

و قد أطلق الصبر فالمراد به أعم من الصبر على طاعة الله، و الصبر عن معصيته، و الصبر عند النوائب التي تصيبه بقضاء من الله و قدر.

ص : ٧٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لِكُلِّ هَمَزَةٍ لُكُلٌ وَ لِكُلِّ هَمَزَةٍ لُكُلٌ
الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُبَدِّلَنَّهُ
فِي الْخُطْمِ (٤) وَأَذْرَاكَ مِا الْخُطْمُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفَاتِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ
مُمَدَّدَةٍ (٩)

وعيد شديد للمغرمين بجمع المال المستعدين به على الناس المستكبرين عليهم فيزرون بهم و يعيونهم بما ليس بعيب، و السوره مكيه.

قوله تعالى: وَيُلْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: الهمزه الكثير الطعن على غيره بغير حق العائب له بما ليس بعيب، و أصل الهمز الكسر قال: و اللمز العيب أيضا و الهمزه و اللمزه بمعنى، و قد قيل: بينهما فرق فإن الهمزه الذي يعيبك بظهر الغيب، و اللمزه الذي يعيبك في وجهك. عن الليث.

و قيل: الهمزه الذي يؤذى جلسه بسوء لفظه، و اللمزه الذي يكسر عينه على جلسه و يشير برأسه و يومي بعينه. قال: و فعله بناء المبالغه في صفة من يكثر منه الفعل و يصير عادة له تقول: رجل نكحه كثير النكاح و ضحكه كثير الضحك و كذا همزه و لمزه انتهى.

فالمعنى ويل لكل عياب مغتاب، و فسّر بمعان آخر على حسب اختلافهم في تفسير الهمزه و اللمزه.

قوله تعالى: الَّذِي جَمَعَ مَالًا - وَ عَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ بَيَان لَهْمَزِهِ لَمْزِهِ وَ تَنْكِيرِ «مَالًا» لِلتَّحْقِيرِ فَإِنَّ الْمَالَ وَ إِنْ كَثُرَ مَا كَثَرَ لَا يَغْنَى عَنْ صَاحِبِهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنْ لَهُ مِنْهُ مَا يَصْرِفُهُ فِي حَوَائِجِ نَفْسِهِ الطَّبِيعِيَّةِ مِنْ أَكْلِهِ تَشْبَعُهُ وَ شَرْبِهِ مَاءَ تَرْوِيهِ وَ نَحْوِ ذَلِكَ وَ «عَدَّدَهُ» مِنْ الْعَدِّ بِمَعْنَى الْإِحْصَاءِ أَيْ إِنَّهُ لِحَبِّهِ الْمَالَ وَ شَغَفَهُ بِجَمْعِهِ يَجْمَعُ الْمَالَ وَ يَعْدُهُ عَدًّا بَعْدَ عَدِّ التَّنَادَا بِتَكَثُّرِهِ. وَ قِيلَ: الْمَعْنَى جَعَلَهُ عَدَّهُ وَ ذَخَرَ لِنَوَائِبِ الدَّهْرِ.

و قوله: يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ أَيْ يَخْلُدُهُ فِي الدُّنْيَا وَ يَدْفَعُ عَنْهُ الْمَوْتَ وَ الْفَنَاءَ فَالْمَاضِي أُرِيدَ بِهِ الْمُسْتَقْبَلُ بِقَرِينِهِ قَوْلُهُ: «يَحْسَبُ» .

فهذا الإنسان لإخلاقه إلى الأرض و انغماره في طول الأمل لا يقنع من المال بما يرتفع به

حوائج حياته القصيره و ضروريات أيامه المعدوده بل كلما زاد مالا زاد حرصا الى ما لا نهايه له فظاهر حاله أنه يرى أن المال يخلده، و لجه الغريزي للبقاء يهتم بجمعه و تعديده، و دعاه ما جمعه و عدده من المال و ما شاهده من الاستغناء الى الطغيان و الاستعلاء على غيره من الناس كما قال تعالى: إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَن لِّيْطَغِي أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى (العلق ٧)، و يورثه هذا الاستكبار و التعدى الهمز و اللمز.

و من هنا يظهر أن قوله: «يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ» بمنزله التعليل لقوله: «الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ»، و قوله: «الَّذِي جَمَعَ» الخ؛ بمنزله التعليل لقوله: «وَيُلْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ» .

قوله تعالى: كَلَّا لِيُنذِرَ فِي الْحُطَمَةِ رَدْعَ عَنْ حَسْبَانِهِ الْخُلُودَ بِالْمَالِ، و اللام في «لِيُنذِرَ» للقسم، و النبذ القذف و الطرح، و الحطمه مبالغه من الحطم و هو الكسر و جاء بمعنى الأكل، و هي من أسماء جهنم على ما يفسرها قوله الآتي: «نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ» .

و المعنى ليس مخلدا بالمال كما يحسب أقسم ليموتن و يقذفن في الحطمه.

قوله تعالى: وَ مَا أَذْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ تَفْخِيمٌ وَ تَهْوِيلٌ .

قوله تعالى: نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ إِبْقَادِ النَّارِ إِشْعَالِهَا وَ الْإِطْلَاعِ وَ الْطُلُوعِ عَلَى الشَّيْءِ الْإِشْرَافِ وَ الظُّهُورِ، و الأفئده جمع فؤاد و هو القلب، و المراد به في القرآن مبدأ الشعور و الفكر من الانسان و هو النفس الإنسانية.

و كأن المراد من اطلاعها على الأفئده أنها تحرق باطن الانسان كما تحرق ظاهره بخلاف النار الدنيويه التي إنما تحرق الظاهر فقط قال تعالى: وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ (البقره / ٢٤).

قوله تعالى: إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ أَى مطبقه لا مخرج لهم منها و لا منجى.

قوله تعالى: فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ الْعَمَدُ بفتحين جمع عمود و التمديد مبالغه في المد قيل: هي أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار، و قيل: عمد ممدده يوثقون فيها مثل

المقاطر و هي خشب أو جذوع كبار فيها خروق توضع فيها أرجل المحبوسين من اللصوص و غيرهم، و قيل غير ذلك.

ص: ٧٥٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ؛ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ (٢) وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَزِمِيهِمْ بِحِجَارِهِ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥)

فيها اشاره الى قصه أصحاب الفيل إذ قصدوا مکه لتخريب الكعبه المعظمه فأهلكهم الله بإرسال طير أبابيل ترميهم بحجاره من سجّيل فجعلهم كعصف مأكول، و هي من آيات الله الجليه التي لا ستره عليها، و قد أرخوا بها و ذكرها الجاهليون في أشعارهم، و السوره مكيه.

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ المراد بالرؤيه العلم

الظاهر ظهور الحس، والاستفهام إنكارى، والمعنى أ لم تعلم كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، وقد كانت الواقعة عام ولد فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: «أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ المراد بكيدهم سوء قصدهم بمكده و إرادتهم تخريب البيت الحرام، والتضليل و الإضلال واحد، وجعل كيدهم فى تضليل جعل سعيهم ضاللا لا يهتدى الى الغايه المقصوده منه فقد ساروا لتخريب الكعبه و انتهى بهم الى هلاك أنفسهم.

قوله تعالى: «وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ الْأَبَابِيلَ - كما قيل - جماعات فى تفرقه زمره زمره، والمعنى و أرسل الله على أصحاب الفيل جماعات متفرقه من الطير و الآيه التى تتلوها عطف تفسير على قوله: «أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ» .

قوله تعالى: تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ أى ترمى أبابيل الطير أصحاب الفيل بحجاره من سجّيل، و قد تقدم معنى السجّيل فى تفسير قصص قوم لوط.

قوله تعالى: فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ العصف ورق الزرع و العصف المأكول ورق الزرع الذى أكل حبه أو قشر الحب الذى أكل لبه و المراد أنهم عادوا بعد وقوع السجّيل عليهم أجسادا بلا أرواح أو أن الحجر بحرارته أحرق أجوافهم.

سوره قريش مكيه وهى أربع آيات

اشاره

[سوره قريش (١٠٦): الآيات ١ الى ٤]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي
أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)

بيان:

تتضمن السوره امتنانا على قريش بإيلافهم الرحلتين و تعقبه بدعوتهم الى التوحيد و عباده رب البيت، و السوره مكّيه.

و لمضمون السوره نوع تعلق بمضمون سوره الفيل و لذا ذهب قوم من أهل السنه الى كون الفيل و لإيلاف سوره واحده كما قيل
بمثله فى الضحى و أ لم نشرح لما بينهما من الارتباط كما نسب ذلك الى المشهور بين الشيعة و الحق أن شيئا مما استندوا إليه لا
يفيد ذلك.

ص: ٧٥٧

أما القائلون بذلك من أهل السنه فإنهم استندوا فيه الى ما روى أن أبي بن كعب لم يفصل بينهما في مصحفه بالبسملة، و بما روى عن عمرو بن ميمون الأزدي قال: صليت المغرب خلف عمر بن الخطاب فقرأ في الركعه الاولى و التين و في الثانيه أ لم تر و لإيلاف قريش من غير أن يفصل بالبسملة.

و أجيب عن الروايه الاولى بمعارضتها بما روى أنه أثبت البسملة بينهما في مصحفه، و عن الثانيه بأن من المحتمل على تقدير صحتها أن يكون الراوى لم يسمع قراءتها أو يكون قرأها سرا. على أنها معارض بما روى عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم إن الله فضل قريشا بسبع خصال و فيها «و نزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم: لإيلاف قريش». الحديث على أن الفصل متواتر.

و أما القائلون بذلك من الشيعة فاستندوا فيه الى ما فى المجمع عن أبي العباس عن أحدهما عليهما السلام قال: أ لم تر كيف فعل ربك و لإيلاف قريش سورة واحده، و ما فى التهذيب باسناده عن العلاء عن زيد الشحام قال: صلى بنا أبو عبد الله عليه السلام الفجر فقرأ الضحى و أ لم نشرح فى ركعه، و ما فى المجمع عن العياشى عن المفضل بن صالح عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

سمعتة يقول: لا تجمع بين سورتين فى ركعه واحده إلا الضحى و أ لم نشرح و أ لم تر كيف و لإيلاف قريش، و رواه المحقق فى المعبر نقلا من كتاب الجامع لأحمد بن محمد بن أبي نصر عن المفضل مثله.

أما روايه أبي العباس فضعيف لما فيها من الرفع.

و أما روايه الشحام فقد رويت عنه بطريقتين آخرين: أحدهما ما فى التهذيب باسناده عن ابن مسكان عن زيد الشحام قال: صلى بنا أبو عبد الله عليه السلام فقرأ بنا بالضحى و أ لم نشرح، و ثانيهما عنه عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابنا عن زيد الشحام قال: صلى بنا أبو عبد الله عليه السلام فقرأ فى الاولى الضحى و فى الثانيه أ لم نشرح لك صدرك.

و هذه أعنى صحيحه ابن أبي عمير صريحه فى قراءه السورتين فى ركعتين و لا يبقى معها لروايه العلاء ظهور فى الجمع بينهما، و أما روايه ابن مسكان فلا ظهور لها فى الجمع و لا صراحه، و أما حمل ابن أبي عمير على النافله فيدفعه قوله فيها: «صلى بنا» فإنه صريح فى الجماعه و لا جماعه فى نفل.

و أما روايه المفضل فهى أدل على كونهما سورتين منها على كونهما سوره واحده حيث قيل:

لا تجمع بين سورتين ثم استثنى من السورتين الضحى و أ لم نشرح و كذا الفيل و لإيلاف.

فالحق أن الروايه إن دلت فإنما تدل على جواز القران بين سورتى الضحى و أ لم نشرح و سورتى الفيل و لإيلاف فى ركعه واحده من الفرائض و هو ممنوع فى غيرها، و يؤيده روايه الراوندى فى الخرائج عن داود الرقى عن أبى عبد الله عليه السلام فى حديث قال: فلما طلع الفجر قام فأذن و أقام و أقامنى عن يمينه و قرء فى أول ركعه الحمد و الضحى و فى الثانيه بالحمد و قل هو الله أحد ثم قنت ثم سلم ثم جلس.

قوله تعالى: [□]لِإِيْلَافٍ قُرَيْشٍ [□]إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ [□]وَ الصَّيْفِ [□]الإلف بكسر الهمزه اجتماع مع التثام كما قاله الراغب و منه الالفه، و قال فى الصحاح: و فلان قد ألف هذا الموضوع بالكسر يألفه إلفا و ألفه إياه غيره، و يقال أيضا: آلفت الموضوع أولفه إيلافا، انتهى.

و قريش عشيره النبى صلى الله عليه و آله و سلم و هم ولد النضر بن كنانه المسمى قريشا، و الرحله حال السير على الراحله و هى الناقه القويه على السير كما فى المجمع، و المراد بالرحله خروج قريش من مكه للتجاره و ذلك أن الحرم واد جديب لا زرع فيه و لا ضرع فكانت قريش تعيش فيه بالتجاره، و كانت لهم فى كل سنه رحلتان للتجاره رحله فى الشتاء الى اليمن و رحله بالصيف الى الشام، و كانوا يعيشون بذلك و كان الناس يحترمونها لمكان البيت الحرام فلا يتعرضون لهم بقطع طريقهم أو الإغاره على بلدهم الآمن.

و قوله: [□]لِإِيْلَافٍ قُرَيْشٍ [□]اللام فيه للتعليل، و فاعل الإيلاف هو الله سبحانه

و قريش مفعوله الاول و مفعوله الثانى محذوف يدل عليه ما بعده، و قوله: «إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَ الصَّيْفِ» بدل من إيلاف قريش، و فاعل إيلافهم هو الله و مفعوله الأول ضمير الجمع و مفعوله الثانى رحله، الخ؛ و التقدير لإيلاف الله قريشا رحله الشتاء و الصيف.

قوله تعالى: فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الْفَاءِ فِي «فَلْيَعْبُدُوا» لَتَوْهَمٍ مَعْنَى الشَّرْطِ أَيْ شَيْءٍ كَانَ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ لِإِيْلَافِهِ أَيَّامَ الرَّحْلَتَيْنِ أَوْ لَتَوْهَمِ التَّفْصِيلِ أَيْ مَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، الخ؛ فهو كقوله تعالى: وَ لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (المدثر / ٧).
و محصل معنى الآيات الثلاث ليعبد قريش رب هذا البيت لأجل إيلافه إياهم رحله الشتاء و الصيف و هم عائشون بذلك فى أمن.

هذا بالنظر الى كون السوره منفصله عما قبلها ذات سياق مستقل فى نفسها، و أما على تقدير كونها جزء من سوره الفيل متممه لها فذكروا أن اللام فى «إِيْلَافِ» تعليليه متعلقه بمقدر يدل عليه المقام و المعنى فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمه منا على قريش مضافه الى نعمتنا عليهم فى رحله الشتاء و الصيف فكأنه قال: نعمه الى نعمه و لذا قيل: إن اللام مؤديه معنى الى و هو قول الفراء.

قوله تعالى: الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ إِشَارَهُ إِلَى مَا فِي إِيْلَافِهِمُ الرَّحْلَتَيْنِ مِنْ مَنِّهِ الْوَاضِحِ وَ نِعْمَتِهِ الظَّاهِرَةِ عَلَيْهِمْ وَ هُوَ الْإِطْعَامُ وَ الْأَمْنُ فَيَعِيشُونَ فِي أَرْضٍ لَا خَصْبَ فِيهَا وَ لَا أَمْنَ لِغَيْرِهِمْ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ يَدْبِرُ أَمْرَهُمْ أَحْسَنَ التَّدْبِيرِ وَ هُوَ رَبُّ الْبَيْتِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(١) فَذَلِكِ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ
(٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)

وعيد لمن كان من المنتحلين بالدين متخلقا بأخلاق المنافقين كالسهو عن الصلاه و الرياء في الأعمال و منع الماعون مما لا يلائم التصديق بالجزاء.

و السوره تحمل المكيه و المدينه، و قيل: نصفها مكي و نصفها مدني.

قوله تعالى: أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ الرَّؤْيِيهِ تحتل الرؤيه البصريه و تحتل أن تكون بمعنى المعرفه، و الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بما أنه سامع فيتوجه الى كل سامع، و المراد بالدين الجزاء يوم الجزاء فالمكذب بالدين منكر المعاد و قيل: المراد به الدين بمعنى المله.

قوله تعالى: فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ الدَّعِ هُوَ الرَّدُّ بَعْنَفٍ وَ جَفَاءً، وَ الْفَاءُ فِي «فَذَلِكَ» لِتَوْهَمٍ مَعْنَى الشَّرْطِ وَ التَّقْدِيرِ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالْجِزَاءِ فَعَرَفْتَهُ بِصِفَاتِهِ اللَّازِمَهُ لِتَكْذِيبِهِ فَإِنْ لَمْ تَعْرِفْهُ فَذَلِكَ الَّذِي يَرُدُّ الْيَتِيمَ بَعْنَفٍ وَ يَجْفُوهُ وَ لَا يَخَافُ عَاقِبَةَ عَمَلِهِ السَّيِّئِ وَ لَوْ لَمْ يَكْذِبْ بِهِ لَخَافَهَا وَ لَوْ خَافَهَا لَرَحِمَهُ.

قوله تعالى: وَ لَا يَخُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ الْحِضَّ التَّرْغِيبَ، وَ الْكَلَامُ عَلَى تَقْدِيرِ مُضَافٍ أَيْ لَا يَرْغَبُ النَّاسُ عَلَى إِطْعَامِ طَعَامِ الْمَسْكِينِ قِيلَ: إِنْ التَّعْبِيرُ بِالطَّعَامِ دُونَ الْإِطْعَامِ لِلشَّعَارِ بِأَنَّ الْمَسْكِينِ كَأَنَّهُ مَالِكٌ لِمَا يُعْطَى لَهُ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ (الذاريات ١٩) و قيل: الطعام في الآيه بمعنى الاطعام.

و التعبير بالحض دون الاطعام لأن الحض أعم من الحض العملي الذي يتحقق بالاطعام.

قوله تعالى: فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ أَيْ غَافِلُونَ لَا يَهْتَمُونَ بِهَا وَ لَا يَبَالُونَ أَنْ تَفُوتَهُمْ بِالْكَلِيهِ أَوْ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ أَوْ تَتَأَخَّرَ عَنْ وَقْتِ فَضِيلَتِهَا وَ هَكَذَا.

و في الآيه تطبيق من يكذب بالدين على هؤلاء المصلين لمكان فاء التفرع و دلالة على أنهم لا يخلون من نفاق لأنهم يكذبون بالدين عملا و هم يتظاهرون بالايمان.

قوله تعالى: الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ أَيْ يَأْتُونَ بِالْعِبَادَاتِ لِمُرَاةِ النَّاسِ فَهَمْ يَعْمَلُونَ لِلنَّاسِ لَا لِلَّهِ تَعَالَى.

قوله تعالى: وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ الماعون كل ما يعين الغير فى رفع حاجه من حوائج الحياه كالقرض تقرضه و المعروف تصنعه و متاع البيت تعيره، و الى هذا يرجع متفرقات ما فسر به فى كلماتهم.

ص: ٧٦٣

سوره الكوثر مكيه و هي ثلاث آيات

اشاره

[سوره الكوثر (١٠٨): الآيات ١ الى ٣]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ الْكُوثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)

بيان:

امتنان على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِإِعْطَائِهِ الْكُوثَرَ وَتَطْيِيبِ لِنَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ بِأَنْ شَانِئَهُ هُوَ الْأَبْتَرُ، وَهِيَ أَقْصَرُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ وَ قَدْ اِخْتَلَفَتْ الرِّوَايَاتُ فِي كَوْنِ السُّورَةِ مَكِّيَةً أَوْ مَدِينِيَّةً، وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا مَكِّيَّةٌ، وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهَا نَزَلَتْ مَرَّتَيْنِ جَمْعًا بَيْنَ الرِّوَايَاتِ.

قوله تعالى: **إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ الْكُوثَرَ** قال في المجمع الكوثر فوعل و هو الشيء الذي من شأنه الكثره، و الكوثر الخير الكثير، انتهى.

و قد اختلفت أقوالهم في تفسير الكوثر اختلافا عجيبا فقول: هو الخير الكثير، و قيل: نهر

فى الجنة، وقيل: حوض النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى الجنة أو فى المحشر، وقيل: أولاده، وقيل: أصحابه وأشياعه صلى الله عليه وآله وسلم إلى يوم القيامة، وقيل: علماء أمته صلى الله عليه وآله وسلم، وقيل: القرآن وفضائله كثيرة، وقيل: النبوه، وقيل: تيسير القرآن وتخفيف الشرائع، وقيل: الإسلام، وقيل: التوحيد، وقيل: العلم والحكمة، وقيل: فضائله صلى الله عليه وآله وسلم، وقيل: المقام المحمود، وقيل: هو نور قلبه صلى الله عليه وآله وسلم، إلى غير ذلك مما قيل؛ وقد نقل عن بعضهم أنه أنهى الأقوال إلى ستة وعشرين.

وقد استند فى القولين الأولين إلى بعض الروايات، وباقى الأقوال لا تخلو من تحكم وكيفما كان فقوله فى آخر السوره: «إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ» - وظاهر الأبتَر هو المنقطع نسله و ظاهر الجملة انها من قبيل قصر القلب - ان كثره ذريته صلى الله عليه وآله وسلم هى المراده وحدها بالكوثر الذى اعطيه النبى صلى الله عليه وآله وسلم او المراد بها الخير الكثير وكثره الذريه مراده فى ضمن الخير الكثير ولو لا ذلك لكان تحقيق الكلام بقوله: «إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ» خاليا عن الفائدة.

وقد استفاضت الروايات أن السوره إنما نزلت فىمن عابه صلى الله عليه وآله وسلم بالبتر بعد ما مات ابنه القاسم وعبد الله، وبذلك يندفع ما قيل: ان مراد الشانئ بقوله: «الْأَبْتَرُ» المنقطع عن قومه أو المنقطع عن الخير فردّ الله عليه بأن هو المنقطع من كل خير.

و لما فى قوله: «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ» من الامتنان عليه صلى الله عليه وآله وسلم جىء بلفظ المتكلم مع الغير الدال على العظمة، ولما فيه من تطيب نفسه الشريفه أكدت الجملة بأن وعبر بلفظ الإعطاء الظاهر فى التمليك.

والجملة لا تخلو من دلالة على أن ولد فاطمه عليهما السلام ذريته صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا فى نفسه من ملاحم القرآن الكريم فقد كثر الله تعالى نسله بعده كثره لا يعادلهم فيها أى نسل آخر مع ما نزل عليهم من النوائب وأفنى جموعهم من المقاتل الذريعه.

قوله تعالى: فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ظاهر السياق فى تفريع الأمر بالصلاه والنحر على الامتنان فى قوله: «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوْثَرَ» انه من شكر النعمه والمعنى إذا مننا عليك بإعطاء

الكوثر فاشكر لهذه النعمه بالصلاه و النحر.

و المراد بالنحر عى ما رواه الفريقان عن النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلّم و عن على عليه السّلام و روته الشيعة عن الصادق عليه السّلام و غيره من الأئمه هو رفع اليدين فى تكبير الصلاه الى النحر.

و قيل:معنى الآيه صل لربك صلاه العيد و انحر البدن،و قيل:يعنى صل لربك و استوق قائما عند رفع رأسك من الركوع،و قيل غير ذلك.

قوله تعالى: إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ الشانئ هو المبغض و الأبتَر من لا عقب له و هذا الشانئ هو العاصى بن وائل.

ص: ٧٦٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا
عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِي دِينِ (٦)

فيها أمره صلى الله عليه وآله وسلم أن يظهر للكفار براءته من دينهم و يخبرهم بامتناعهم من دينه فلا دينه يتعداه إليهم و لا دينهم يتعداهم إليه فلا يعبد ما يعبدون أبدا و لا يعبدون ما يعبد أبدا فليأسوا من أى نوع من المداهنه و المساهله.

و اختلفوا فى كون السوره مكيه أو مدنيه، و الظاهر من سياقها أنها مكيه.

قوله تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ الظاهر أن هؤلاء قوم معهودون لا كل كافر و يدل على ذلك أمره صَلَّى الله عليه و آله و سلم أن يخاطبهم ببراءته من دينهم و امتناعهم من دينه.

قوله تعالى: لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ الآية الى آخر السوره مقول القول، و المراد بما تعبدون الأصنام التى كانوا يعبدونها، و مفعول تَعْبُدُونَ ضمير راجع الى الموصول محذوف لدلاله الكلام عليه و لرعايه الفواصل، و كذا مفاعيل الأفعال التالیه «أَعْبُدُ» و «عَبَدْتُمْ» و «أَعْبُدُ» .

و قوله: لَا أَعْبُدُ نَفِي استقبالى فَإِنَّ «لَا» لنفى الاستقبال كما أن «مَا» لنفى الحال، و المعنى لا أعبد أبدا ما تعبدونه اليوم من الأصنام.

قوله تعالى: وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ نَفِي استقبالى أيضا لعبادتهم ما يعبده صَلَّى الله عليه و آله و سلم و هو اخبار عن امتناعهم عن الدخول فى دين التوحيد فى مستقبل الأمر.

و بانضمام الأمر الذى فى مفتتح الكلام تفيد الآيتان أن الله سبحانه أمرنى بالدوام على عبادته و أن أخبركم أنكم لا تعبدونه أبدا فلا يقع بينى و بينكم اشتراك فى الدين أبدا.

فالأيه فى معنى قوله تعالى: لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (يس ٧)، و قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (البقره ٦).

و كان من حق الكلام أن يقال: و لا أنتم عابدون من أعبد. لكن قيل: ما أعبد ليطابق ما فى قوله: «لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ» .

قوله تعالى: وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ تكرار لمضمون الجملتين السابقتين لزياده التأكيد، كقوله: كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ

تَعْلَمُونَ (التكاثر ٤) وقوله: فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (المدثر ٢٠) (١).

قوله تعالى: لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِىَ دِينِ تَأْكِيدٌ بِحَسَبِ الْمَعْنَى لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ نَفْيِ الْإِشْتِرَاكِ، وَاللَّامُ لِلِاخْتِصَاصِ أَى دِينِكُمْ وَ هُوَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ يَخْتَصُّ بِكُمْ وَ لَا يَتَعَدَّكُمْ إِلَى وَ دِينِى يَخْتَصُّ بى وَ لَا يَتَعَدَّنِى إِلَيْكُمْ وَ لَا مَحَلَّ لِتَوْهَمِ دَلَالَةِ الْآيَةِ عَلَى إِبَاحِهِ أَخْذِ كُلِّ بِمَا يَرْضِيهِ مِنَ الدِّينِ وَ لَا أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لَا يَتَعَرَّضُ لِدِينِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَالِدَعْوَةُ الْحَقُّهُ الَّتِى يَتَضَمَّنُهَا الْقُرْآنُ تَدْفَعُ ذَلِكَ أَسَاسًا.

ص: ٧٦٩

١- ١). الكافرون ١-٦: بحث روائى فى نزول سورة الكافرون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)

وعد له صلى الله عليه وآله وسلم بالنصر و الفتح و أنه سيرى الناس يدخلون فى الإسلام فوجا بعد فوج و أمره بالتسبيح حينئذ و التحميد و الاستغفار، و السوره مدنيه نزلت بعد صلح الحديبيه و قبل فتح مكه على ما سنستظهر.

قوله تعالى: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ظهور «إِذَا» المصدره بها الآيه فى الاستقبال يستدعى أن يكون مضمون الآيه إخبارا بتحقيق أمر لم يتحقق بعد، و إذا كان المخبر به هو النصر و الفتح و ذلك تقر به عين النبى صلى الله عليه وآله فهو وعد جميل و بشرى له صلى الله عليه وآله وسلم و يكون من

و ليس المراد بالنصر و الفتح جنسهما حتى يصدقا على جميع المواقف التى أيد الله فيها نبيه صلى الله عليه و آله و سلم على أعدائه و أظهر دينه على دينهم كما فى حروبه و مغازيه و إيمان الأنصار و أهل اليمن كما قبل إذ لا يلائمه قوله بعد: «و رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا» .

و ليس المراد بذلك أيضا صلح الحديبيه الذى سمّاه الله تعالى فتحا إذ قال: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (الفتح ١) لعدم انطباق الآية الثانية بمضمونها عليه.

و أوضح ما يقبل الانطباق عليه النصر و الفتح المذكوران فى الآية هو فتح مكه الذى هو أم فتوحاته صلى الله عليه و آله و سلم فى زمن حياته و النصر الباهر الذى انهدم به بنيان الشرك فى جزيره العرب.

و يؤيده وعد النصر الذى فى الآيات النازله فى الحديبيه إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَ يُنصِرَكَ اللَّهُ نَصِيرًا (الفتح ١٣) فإن من القريب جدا أن يكون ما فى الآيات وعدا بنصر عزيز يرتبط بفتح الحديبيه و هو نصره تعالى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم على قريش حتى فتح مكه بعد مضى سنتين من فتح الحديبيه.

و هذا الذى ذكر أقرب من حمل الآية على إجابته أهل اليمن الدعوه الحقه و دخولهم فى الإسلام من غير قتال، فالأقرب الى الاعتبار كون المراد بالنصر و الفتح نصره تعالى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم على قريش و فتح مكه، و أن تكون السوره نازله بعد صلح الحديبيه و نزول سوره الفتح و قبل فتح مكه.

قوله تعالى: وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا قال الراغب:

الفوج الجماعه الماره المسرعه، و جمعه أفواج. انتهى. فمعنى دخول الناس فى دين الله أفواجا دخولهم فيه جماعه بعد جماعه، و المراد بدين الله الإسلام قال تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (آل عمران ١٩).

قوله تعالى: فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا لما كان هذا النصر و الفتح إذلالاً منه تعالى للشرك و إعزازاً للتوحيد و بعبارة أخرى إبطالاً للباطل و إحقاقاً للحق ناسب من الجبهه الاولى تنزيهه تعالى و تسيححه، و ناسب من الجبهه الثانيه-التي هي نعمه- الثناء عليه تعالى و حمده فلذلك أمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بقوله: «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» .

و هاهنا وجه آخر يوجه به الأمر بالتسبيح و التحميد و الاستغفار جميعاً و هو أن للرب تعالى على عبده أن يذكره بصفات كماله و يذكر نفسه بما له من النقص و الحاجة و لما كان في هذا الفتح فراغه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من جل ما كان عليه من السعي في إبطاله الباطل و قطع دابر الفساد أمر أن يذكره عند ذلك بجلاله و هو التسبيح و جماله و هو التحميد و أن يذكره بنقص نفسه و حاجته الى ربه و هو طلب المغفره و معناه فيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -و هو مغفور- سؤال إدامه المغفره فإن الحاجة الى المغفره بقاء كالحاجة إليها حدوداً فافهم ذلك، و بذلك يتم شكره لربه تعالى و قد تقدم (1) كلام في معنى مغفره الذنب في الأبحاث السابقه (2).

و قوله: إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا تعليل للأمر بالاستغفار لا يخلو من تشويق و تأكيد.

ص: ٧٧٢

١-١. في آخر الجزء السادس من الكتاب.

٢-٢. النصر ١-٣: بحث روائي في نزول سورة النصر؛ أول سورة نزلت و آخرها؛ قصه فتح مكه.

سوره نبت مكيه و هي خمس آيات

اشاره

[سوره المسد (١١١): الآيات ١ الى ٥]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَ
إِمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)

بيان:

وعيد شديد لأبي لهب بهلاك نفسه و عمله و بنار جهنم و لامرأته، و السوره مكيه.

قوله تعالى: تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ التَّبُّ و التَّبَابُ هو الخسران و الهلاك على ما ذكره الجوهري، و دوام الخسران على ما ذكره الراغب، و قيل: الخيبة، و قيل: الخلو من كل خير، و المعانى - كما قيل - متقاربه فيد الإنسان هي عضوه الذي يتوصل به الى تحصيل

ص: ٧٧٣

مقاصده و ينسب اليه جل أعماله، و تباب يديه خسرانها فيما تكتسبانه من عمل و إن شئت فقل: بطلان أعماله التي يعملها بهما من حيث عدم انتهائها الى غرض مطلوب و عدم انتفاعه بشيء منها و تباب نفسه خسرانها في نفسها بحرمانها من سعادته دائمة و هو هلاكها المؤبد.

فقوله: **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ** أى أبو لهب، دعاء عليه بهلاك نفسه و بطلان ما كان يأتيه من الأعمال لإطفاء نور النبوة أو قضاء منه تعالى بذلك.

و أبو لهب هذا هو أبو لهب بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه و آله و سلم كان شديد المعاداة للنبي صلى الله عليه و آله و سلم مصرافاً في تكذيبه مبالغاً في إيذائه بما يستطيعه من قول و فعل و هو الذى قال للنبي صلى الله عليه و آله و سلم: تبا لك لما دعاهم الى الإسلام لأول مره فنزلت السوره و رد الله التباب عليه.

و ذكر بعضهم أن أبا لهب اسمه و إن كان في صورته الكنيه، و قيل: اسمه عبد العزى و قيل:

عبد مناف و أحسن ما قيل في ذكره في الآية بكينته لا باسمه أن في ذلك تهكما به لأن أبا لهب يشعر بالنسبه الى لهب النار كما يقال: أبو الخير و أبو الفضل و أبو الشر في النسبه الى الخير و الفضل و الشر فلما قيل: «**سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ**» فهم منه أن قوله: «**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ**» فى معنى قولنا: تبت يدا جهنمى يلازم لهبها.

و قيل: لم يذكر باسمه و هو عبد العزى لأن عزى اسم صنم فكره أن يعد بحسب اللفظ عبداً لغير الله و هو عبد الله و إن كان الاسم إنما يقصد به المسمى.

قوله تعالى: **مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَ مَا كَسَبَ** ما الاولى نافية و ما الثانية موصوله و معنى «**مَا كَسَبَ**» الذى كسبه بأعماله و هو أثر أعماله أو مصدرية و المعنى كسبه بيديه و هو عمله، و المعنى ما أغنى عنه عمله.

و معنى الآية على أى حال لم يدفع عنه ماله و لا عمله-أو أثر عمله-تباب نفسه و يديه الذى كتب عليه أو دعى عليه.

قوله تعالى: **سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ** أى سيدخل ناراً ذات لهب و هى نار جهنم

الخالده، و فى تنكير لهب تفخيم له و تهويل.

قوله تعالى: وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ عطف على ضمير الفاعل المستكن فى «سَيِّئِلِي» و التقدير: و ستصلى امرأته، الخ؛ و «حَمَّالَةَ الْحَطَبِ» بالنصب وصف مقطوع عن الوصفيه للذم أى أذم حماله الحطب، و قيل: حال من «امْرَأَتُهُ» و هو معنى لطيف على ما سيأتى.

قوله تعالى: فى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ المسد حبل مفتول من الليف، و الجملة حال ثانيه من امرأته.

و الظاهر أن المراد بالآيتين أنها ستمثل فى النار التى تصلاها يوم القيامة فى هيئتها التى كانت تتلبس بها فى الدنيا و هى أنها كانت تحمل اغصان الشوك و غيرها تطرحها بالليل فى طريق رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم تؤذيه بذلك فتعذب بالنار و هى تحمل الحطب و فى جيدها حبل من مسد.

قال فى مجمع البيان: و إذا قيل: هل كان يلزم أبا لهب الإيمان بعد هذه السوره و هل كان يقدر على الايمان و لو آمن لكان فيه تكذيب خبر الله سبحانه بأنه سيصلى نارا ذات لهب.

فالجواب أن الايمان يلزمه لأن تكليف الايمان ثابت عليه و إنما توعدده الله بشرط أن لا يؤمن انتهى موضع الحاجه.

أقول: مبنى الاشكال على الغفله من أن تعلق القضاء الحتمى منه تعالى بفعل الانسان الاختيارى لا يستوجب بطلان الاختيار و اضطرار الانسان على الفعل فان الإراده الإلهيه - و كذا فعله تعالى - إنما يتعلق بفعله الاختيارى على ما هو عليه أى أن يفعل الإنسان باختياره كذا و كذا فلو لم يقع الفعل اختياريا تخلف مراده تعالى عن إرادته و هو محال و إذا كان الفعل المتعلق للقضاء الموجب اختياريا كان تركه أيضا اختياريا و إن كان لا يقع فافهم و قد تقدم هذا البحث فى غير موضع من المباحث السابقه.

فقد ظهر بذلك أن أبا لهب كان في اختياره أن يؤمن و ينجو بذلك عن النار التي كان من المقضى المحتوم أن يدخلها بكفره.

و من هذا الباب الآيات النازله في كفار قريش أنهم لا يؤمنون كقوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (البقره ١٦)، و قوله: لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (يس ٧)، و من هذا الباب أيضا آيات الطبع الى القلوب (١).

ص: ٧٧٦

١-١). تب ١-٥: بحث روائى حول قوله تعالى: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» ايذاء ابى لهب رسول الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)

السوره تصفه تعالى بأحديه الذات و رجوع ما سواه اليه فى جميع حوائجه الوجوديه من دون أن يشاركه شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله، و هو التوحيد القرآنى الذى يختص به القرآن الكريم و بينى عليه جميع المعارف الاسلاميه. و قد تكاثرت الأخبار فى فضل السوره حتى ورد من طرق الفريقين انها تعدل ثلث القرآن كما سيجىء إن شاء الله.

و السوره تحتمل المكيه و المدنيه، و الظاهر من بعض ما ورد في سبب نزولها أنها مكيه.

□
قوله تعالى: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ هُوَ ضَمِير الشَّانِ وَ الْقَصْهَ يَفِيدُ الْاهْتِمَامَ بِمُضْمُونِ الْجُمْلَةِ التَّالِيَةِ لَهُ، وَ الْحَلْقُ أَنْ لَفْظَ الْجَلَالَةِ عِلْمَ بِالْغَلْبَةِ لَهُ تَعَالَى بِالْعَرَبِيَّةِ كَمَا أَنَّ لَهُ فِي غَيْرِهَا مِنَ اللُّغَاتِ اسْمًا خَاصًا بِهِ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ بَعْضُ الْكَلَامِ فِيهِ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ.

وَ أَحَدٌ وَصِفٌ مَأْخُوذٌ مِنَ الْوَحْدَةِ كَالْوَاحِدِ غَيْرِ أَنَّ الْأَحَدَ إِنَّمَا يُطْلَقُ عَلَى مَا لَا يَقْبَلُ الْكَثْرَةَ لَا خَارِجًا وَ لَا ذَهْنًا وَ لِذَلِكَ لَا يَقْبَلُ الْعَدَّ وَ لَا- يَدْخُلُ فِي الْعَدَدِ بِخِلَافِ الْوَاحِدِ فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ لَهُ ثَانِيًا وَ ثَالِثًا إِذَا خَارِجًا وَ إِذَا ذَهْنًا بِتَوْهَمٍ أَوْ بِفَرْضِ الْعَقْلِ فَيَصِيرُ بِانْتِزَاعِهِ كَثِيرًا، وَ أَمَّا الْأَحَدُ فَكُلُّ مَا فَرَضَ لَهُ ثَانِيًا كَانَ هُوَ هُوَ لَمْ يَزِدْ عَلَيْهِ شَيْءٌ.

وَ اعْتَبَرُ ذَلِكَ فِي قَوْلِكَ: مَا جَاءَنِي مِنَ الْقَوْمِ أَحَدٌ فَإِنَّكَ تَنْفِي بِهِ مَجِيءَ اثْنَيْنِ مِنْهُمْ وَ أَكْثَرَ كَمَا تَنْفِي مَجِيءَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِخِلَافِ مَا لَوْ قُلْتَ: مَا جَاءَنِي وَاحِدٌ مِنْهُمْ فَإِنَّكَ إِنَّمَا تَنْفِي بِهِ مَجِيءَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِالْعَدَدِ وَ لَا يَنَافِيهِ مَجِيءُ اثْنَيْنِ مِنْهُمْ أَوْ أَكْثَرَ، وَ لِإِفَادَتِهِ هَذَا الْمَعْنَى لَا يَسْتَعْمَلُ فِي الْإِيجَابِ مُطْلَقًا إِلَّا فِيهِ تَعَالَى وَ مِنْ لَطِيفِ الْبَيَانِ فِي هَذَا الْبَابِ قَوْلُ عَلِيِّ عَلَيْهِ أَفْضَلُ السَّلَامِ فِي بَعْضِ خُطْبِهِ فِي تَوْحِيدِهِ تَعَالَى: كُلُّ مَسْمُومٍ بِالْوَحْدَةِ غَيْرِهِ قَلِيلٌ، وَ قَدْ أوردنا طرفًا مِنْ كَلَامِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي التَّوْحِيدِ فِي ذَيْلِ الْبَحْثِ عَنِ تَوْحِيدِ الْقُرْآنِ فِي الْجِزَاءِ السَّادِسِ مِنَ الْكِتَابِ.

□
قوله تعالى: اللَّهُ الصَّمَدُ الْأَصْلُ فِي مَعْنَى الصَّمَدِ الْقَصْدُ أَوْ الْقَصْدُ مَعَ الْاعْتِمَادِ يُقَالُ:

صَمَدٌ يَصْمَدُهُ صَمَدًا مِنْ بَابِ نَصَرَ أَيْ قَصَدَهُ أَوْ قَصَدَهُ مَعْتَمِدًا عَلَيْهِ، وَ قَدْ فَسَّرُوا الصَّمَدَ - هُوَ صِفَةٌ - بِمَعَانِي مُتَعَدِّدَةٍ مَرَجَعَ أَكْثَرُهَا إِلَى أَنَّهُ السَّيِّدُ الْمَصْمُودُ إِلَيْهِ أَيْ الْمَقْصُودُ فِي الْحَوَائِجِ، وَ إِذَا أُطْلِقَ فِي الْآيَةِ وَ لَمْ يَقْبَلْ بِقَيْدٍ فَهُوَ الْمَقْصُودُ فِي الْحَوَائِجِ عَلَى الْإِطْلَاقِ.

وَ إِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمَوْجِدُ لِكُلِّ ذِي وَجُودٍ مِمَّا سِوَاهِ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَيَقْصِدُهُ كُلُّ مَا صَدَقَ عَلَيْهِ أَنَّهُ شَيْءٌ غَيْرُهُ، فِي ذَاتِهِ وَ صِفَاتِهِ وَ آثَارِهِ قَالَ تَعَالَى: أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ (الأعراف / ٥٤) وَ قَالَ وَ أُطْلِقُ: وَ أَنَّ إِلِيَّ رُبَّكَ الْمُتْنَهِي (النجم / ٤٢) فَهُوَ الصَّمَدُ فِي كُلِّ حَاجَةٍ فِي

الوجود لا يقصد شيئاً إلا وهو الذى ينتهى اليه قصده و ينجح به طلبته و يقضى به حاجته.

و من هنا يظهر وجه دخول اللام فى الصمد و انه لإفاده الحصر فهو تعالى وحده الصمد على الإطلاق، و هذا بخلاف احد فى قوله: «اللَّهُ أَحَدٌ» فإن احدا بما يفيد من معنى الوحده الخاصه لا يطلق فى الإثبات على غيره تعالى فلا حاجه فيه الى عهد او حصر.

□
و اما إظهار اسم الجلاله ثانيا حيث قيل «اللَّهُ الصَّمَدُ» و لم يقل: هو الصمد، و لم يقل: الله احد صمد فالظاهر ان ذلك للإشارة الى كون كل من الجمليتين وحدها كافيه فى تعريفه تعالى حيث إن المقام مقام تعريفه تعالى بصفه تختص به فقيل: الله احد الله الصمد إشاره الى ان المعرفه به حاصله سواء قيل كذا او قيل كذا.

□
و الآيتان مع ذلك تصفانه تعالى بصفه الذات و صفه الفعل جميعا فقوله: «اللَّهُ أَحَدٌ» يصفه بالأحديه التى هى عين الذات، و قوله: «اللَّهُ الصَّمَدُ» يصفه بانتهاء كل شىء اليه و هو من صفات الفعل.

و قيل: الصمد بمعنى للصمت الذى ليس بأجوف فلا يأكل و لا يشرب و لا ينام و لا يلد و لا يولد و على هذا يكون قوله: «لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُؤَلَدْ» تفسيرا للصمد.

قوله تعالى: لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُؤَلَدْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ الآيتان الكريمتان تنفيان عنه تعالى أن يلد شيئا بتجزيه فى نفسه فيفصل عنه شىء سنخه بأى معنى أريد من الانفصال و الاشتقاق كما يقول به النصارى فى المسيح عليه السلام انه ابن الله و كما يقول الوثنيه فى بعض آلهتهم أنهم أبناء الله سبحانه.

و تنفيان عنه أن يكون متولدا من شىء آخر و مشتقا منه بأى معنى اريد من الاشتقاق كما يقول الوثنيه فى آلهتهم من هو إله أبو إله و من هو إلهه ام إله و من هو إله ابن إله.

و تنفيان أن يكون له كفؤ يعدله في ذاته أو في فعله (1) و هو الإيجاد و التدبير و لم يقل أحد من المليين و غيرهم بالكفاء الذاتى بأن يقول بتعدد واجب الوجود عز اسمه، و أما الكفؤ في فعله و هو التدبير فقد قيل به كآلهه الوثنيه من البشر كفرعون و نمرود من المدعين للالوهيه و ملاك الكفاءه عندهم استقلال من يرون الوهيته في تدبير ما فوض اليه تدبيره كما أنه تعالى مستقل في تدبيره من يدبره و هم الأرباب و الآلهه و هو رب الأرباب و إله الآلهه.

و في معنى كفاءه هذا النوع من الإله ما يفرض من استقلال الفعل في شيء من الممكنات فإنه كفاءه مرجعها استغناؤه عنه تعالى و هو محتاج من كل جهه و الآيه تنفيها.

و هذه الصفات الثلاث المنفيه و إن امكن تفريع نفيها على صفه احديته تعالى بوجه لكن الأسبق الى الذهن تفرعها على صفه صمديته.

اما كونه لم يلد فإن الولاده التي هي نوع من التجزى و التبعض بأى معنى فسّرت لا تخلو من تركيب فيمن يلد، و حاجه المركب الى اجزائه ضروريه و الله سبحانه صمد ينتهى اليه كل محتاج في حاجته و لا حاجه له، و اما كونه لم يولد فان تولد شيء من شيء لا يتم إلا- مع حاجه من المتولد الى ما ولد منه في وجوده و هو سبحانه صمد لا حاجه له، و اما انه لا كفؤ له فلأن الكفؤ سواء فرض كفوا له في ذاته او في فعله لا تتحقق كفاءته إلا مع استقلاله و استغناؤه عنه تعالى فيما فيه الكفاءه و الله سبحانه صمد على الإطلاق يحتاج اليه كل من سواه من كل جهه مفروضه.

فقد تبين ان ما في الآيتين من النفي متفرع على صمديته تعالى و مآل ما ذكر من صمديته تعالى و ما يتفرع عليه الى إثبات توحده تعالى في ذاته و صفاته و افعاله بمعنى انه واحد لا يناظره شيء و لا يشبهه فذاته تعالى بذاته و لذاته من غير استناد الى غيره و احتياج الى من

ص : ٧٨٠

(١- ١). لم نذكر الصفه لانها اما صفه الذات فهي عين الذات و اما صفه الفعل منتزعه عن الفعل، منه.

سواء و كذا صفاته و افعاله، و ذوات من سواء و صفاتهم و افعالهم بإفاضه منه على ما يليق بساحه كبريائه و عظمته فمحصل السوره وصفه تعالى بأنه حد واحد (١).

ص: ٧٨١

١-١). الاخلاص ١-٤: بحث روائى حول نزول سوره الاخلاص؛ فضل سوره الاخلاص؛ الاسم الاعظم؛ الصمد؛ سؤال اهل البصره من الحسين بن على عليهما السلام فى معنى الصمد و جوابه عليه السلام معنى لم يلد و لم يولد.

سوره الفلق مكيه و هي خمس آيات

اشاره

[سوره الفلق (١١٣): الآيات ١ الى ٥]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ
فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)

بيان:

أمر للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَعُوذَ بِاللَّهِ مِنْ كُلِّ شَرٍّ وَمِنْ بَعْضِهِ خَاصَهُ وَالسُّورَةُ مَدْنِيَّةٌ عَلَى مَا يَظْهَرُ مِمَّا وَرَدَ فِي سَبَبِ نَزُولِهَا.

قوله تعالى: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ العوذ هو الاعتصام و التحرز من الشر بالالتجاء الى من يدفعه، و الفلق بالفتح فالسكون الشق و الفرق، و الفلق بفتحيتين صفة مشبهه

ص: ٧٨٢

بمعنى المفعول كالمقصص بمعنى المقصوص، والغالب إطلاقه على الصبح لأنه المشقوق من الظلام، و عليه فالمعنى أعوذ برب الصبح الذى يفلقه و يشقه و مناسبه هذا التعبير للعوذ من الشر الذى يستر الخير و يحجب دونه ظاهر.

و قيل: المراد بالفلق كل ما يفظر و يفلق عنه بالخلق و الإيجاد فإن فى الخلق و الإيجاد شقا للعدم و إخراجا للموجود الى الوجود فيكون مساويا للمخلوق، و قيل هو جب فى جهنم و يؤيده بعض الروايات.

قوله تعالى: **مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ** أى من شر من يحمل شرا من الإنس و الجن و الحيوانات و سائر ما له شر من الخلق فان اشتمال مطلق ما خلق على الشر لا يستلزم الاستغراق.

قوله تعالى: **وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ** فى الصباح: الغسق أول ظلمه الليل، غسق الليل يغسق إذا أظلم و الغاسق الليل إذا غاب الشفق. انتهى، و الوقوب الدخول فالمعنى و من شر الليل إذا دخل بظلمته. و نسبة الشر الى الليل إنما هى لكونه بظلمته يعين الشرير فى شره لستره عليه فيقع فيه الشر أكثر مما يقع منه بالنهار، و الإنسان فيه أضعف منه فى النهار تجاه هاجم الشر، و قيل: المراد بالغاسق كل هاجم يهجم بشره كائنا ما كان.

و ذكر شر الليل اذا دخل بعد ذكر شر ما خلق من ذكر الخاص بعد العام لزياده الاهتمام و قد اهتم فى السوره بثلاثه من أنواع الشر خاصه هى شر الليل اذا دخل و شر سحر السحره و شر الحاسد إذا حسد لغلبه الغفله فيهن.

قوله تعالى: **وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ** أى النساء الساحرات اللاتى يسحرن بالعقد على المسحور و ينفثن فى العقد. و خصت النساء بالذكر لأن السحر كان فيهن و منهن أكثر من الرجال، و فى الآيه تصديق لتأثير السحر فى الجملة، و نظيرها قوله تعالى: فى قصه هارون و ماروت **فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ** **وَمَا هُمْ بِبَصِيرِينَ بِهِ مِنْ**

أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (البقره ١٠٢/١) ونظيره ما فى قصه سحره فرعون.

وقيل: المراد بالنفاثات فى العقد النساء اللاتى يملن آراء أزواجهن الى ما يرينه و يردنه فالعقد هو الرأى و النفث فى العقد كناية عن حله، و هو بعيد.

قوله تعالى: وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ أَي إذا تلبس بالحسد و عمل بما فى نفسه من الحسد بترتيب الأثر عليه.

وقيل: الآيه تشمل العائن فعين العائن نوع حسد نفسانى يتحقق منه اذا عاين ما يستكثره و يتعجب منه (١).

ص: ٧٨٤

١- ١). الفلق ١-٤: بحث روائى فى نزول المعوذتين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي
يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّهِ وَالنَّاسِ (٦)

أمر للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَعُوذَ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ وَ السُّورَةُ مَدْنِيَّةٌ كَسَابِقَتِهَا عَلَيَّ مَا يَسْتَفَادُ مِمَّا وَرَدَ فِي سَبَبِ نَزُولِهَا بَلِ الْمُسْتَفَادُ مِنَ الرِّوَايَاتِ أَنَّ السُّورَتَيْنِ نَزَلَتَا مَعًا.

قوله تعالى: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ طَبَعِ الْإِنْسَانِ

إذا أقبل عليه شر يحذره و يخافه على نفسه و أحس من نفسه الضعف أن يلتجئ بمن يقوى على دفعه و يكفيه وقوعه و الذى يراه صالحا للعوذ و الاعتصام به أحد ثلاثه إما رب يلى أمره و يدبره و يريه يرجع إليه فى حوائجه عامه، و مما يحتاج إليه فى بقائه دفع ما يهدده من الشر، و هذا سبب تام فى نفسه، و إما ذوقه و سلطان بالغه قدرته نافذ حكمه يجيره إذا استجاره فيدفع عنه الشر بسلطته كملك من الملوك، و هذا أيضا سبب تام مستقل فى نفسه.

و هناك سبب ثالث و هو الإله المعبود فإن لازم معبوديه الإله و خاصه إذا كان واحدا لا شريك له إخلاص العبد نفسه له فلا يدعو إلا إياه و لا يرجع فى شىء من حوائجه إلا إليه فلا يريد إلا ما أراه و لا يعمل إلا ما يشاؤه.

و الله سبحانه رب الناس و ملك الناس و إله الناس كما جمع الصفات الثلاث لنفسه فى قوله:

ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانْتَظِرُوا (الزمر ١٦) و أشار تعالى الى سببيه ربوبيته و ألوهيته بقوله: رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (المزمل ٩)، و الى سببيه ملكه بقوله: لَهُ الْمُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (الحديد ٥) فإن عاذ الإنسان من شر يهدده الى رب فالله سبحانه هو الرب لا رب سواه و إن أراد بعوذه ملكا فالله سبحانه هو الملك الحق له الملك و له الحكم (١) و إن أراد لذلك إلهها فهو الإله لا إله غيره.

فقوله تعالى: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ الخ؛ أمر لنبىه صلى الله عليه و آله و سلم أن يعوذ به لأنه من الناس و هو تعالى رب الناس ملك الناس إله الناس.

و مما تقدم ظهر أولا وجه تخصيص الصفات الثلاث: الرب و الملك و الإله من بين سائر صفاته الكريمه بالذكر و كذا وجه ما بينها من الترتيب فذكر الرب أولا لأنه أقرب من الإنسان

ص: ٧٨٦

(١-١). التباين: ١.

و أخص ولايه ثم الملك لأنه أبعد منالا و أعم ولايه يقصده من لا ولى له يخصّه و يكفيه ثم الإله لأنه ولى يقصده الإنسان عن إخلاصه لا عن طبعه المادى.

و ثانيا وجه عدم وصل قوله: «مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ» بالعطف و ذلك للإشارة الى كون كل من الصفات سببا مستقلا فى دفع الشر فهو تعالى سبب مستقل لكونه ربا لكونه ملكا لكونه إلها فله السببيه بأى معنى أريد السبب و قد مر نظير الوجه فى قوله: «اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ» .

و بذلك يظهر أيضا وجه تكرار لفظ الناس من غير أن يقال: ربهم و إلههم فقد أشير به الى أن كلا من الصفات الثلاث يمكن أن يتعلق بها العوذ وحدها من غير ذكر الاخرين لاستقلالها و لله الأسماء الحسنى جميعا، و للقوم فى توجيه اختصاص هذه الصفات و سائر ما مر من الخصوصيات وجوه لا تغنى شيئا.

قوله تعالى: مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ قال فى المجمع: الوسواس حديث النفس بما هو كالصوت الخفى انتهى فهو مصدر كالوسوسة كما ذكره و ذكروا أنه سماعى و القياس فيه كسر الواو كسائر المصادر من الرباعى المجرد و كيف كان فالظاهر كما استظهر أن المراد به المعنى الوصفى مبالغه، و عن بعضهم أنه صفة لا مصدر.

و الخَنَّاس صيغه مبالغه من الخنوس بمعنى الاختفاء بعد الظهور قيل: سُمى الشيطان خناسا لأنه يوسوس للإنسان فاذا ذكر الله تعالى رجع و تأخر ثم إذا غفل عاد الى وسوسته.

قوله تعالى: الَّذِي يُوسِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ صفة للوسواس الخناس، و المراد بالصدر هي النفوس لأن متعلق الوسوسة هو مبدأ الإدراك من الإنسان و هو نفسه و إنما أخذت الصدر مكانا للوسواس لما أن الإدراك ينسب بحسب شيوع الاستعمال الى القلب و القلب فى الصدر كما قال تعالى: وَ لَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (الحج / ٤٦).

قوله تعالى: مِنَ الْجِنَّهِ وَالنَّاسِ بيان للوسواس الخناس و فيه اشاره الى أن من الناس من هو ملحق بالشياطين و في زمريهم كما قال تعالى: شَّيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ (الأنعام ١١٢).

تم الكتاب و الحمد لله و اتفق الفراغ من تأليفه في ليله القدر المباركه الثالثه و العشرين من ليالى شهر رمضان من شهر سنه اثنتين و تسعين و ثلاث مائه بعد الألف من الهجره و الحمد لله على الدوام، و الصلاه على سيدنا محمد و آله و السلام.

ص: ٧٨٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آواده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩